(

الكتاب : مجلة التاريخ العربي

... ... الدكتور عبد الله العوينة

... ... كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط

مقدمة:

يعتبر الوطن العربي من أقدم المجالات التي اشتغل فيها الإنسان بالزراعة والرعي المنظم للماشية. بل قد قامت على النشاط الفلاحي حضارات راقية، مثل حضارة النيل، أو أرض ما بين الرافدين، أو الحضارات الجبلية في الشام والمغرب العربي.

وقد أدى التوسع الفلاحي ودقة التقنيات التي رافقته، إلى تحولات في المشهد والبيئة، من أشهرها تحول الصحاري إلى

واحات، وتحول السفوح الوعرة إلى جنان متدرجة. كما أن الرعي المتنقل في الصحراء وهوامشها مثل تكيفا عجيبا

مع البيئة الجافة، حيث سمح بالحفاظ على الثروات النباتية واستمرار تجددها.

كما أن التوسع الزراعي الذي كان ملازما لفترات الرقي الحضاري والازدهار السكاني، تلازم مع تمديد وتطير أساليب ري الأراضي الجافة، وتصريف الماء عن الأراضي المغمورة أوقات الفيض. وهكذا اقترن التطور الحضاري بتطوير تقنيات التمكن من الماء، وقاية واستعمالات، من بينها تقنيات الحفاظ على الماء من السيل أو التبخر، رجاء في الرفع من استفادة

(2/1)

النباتات منه. وفي تفادي السيل المباشر حد من خطورة الجريان في الرفع من استفادة النباتات منه. وفي تفادي السيل المباشر حد من خطورة الجريان التي يتسبب في انجراف الأتربة كما يتسبب في ضياع التجهيزات والمشيدات.

في الوقت الحاضر، صار للتوسع الفلاحي مدلول آخر، صار مبنيا على مفهوم الحاجة إلى المزيد من الإنتاج، جريا وراء ضمان الغذاء، من أجل الحصول على اكتفاء غذائي نسبي.

ذلك أن الوطن العربي يشمل رقعة زراعية لا تتعدى 9.4

٪ من مساحته الإجمالية، الشيء الذي يجد المساحة بالنسبة للفرد الواحد في 0.6 هكتار. وهو

(3/1)

مقدار هزيل جدا، ناتج عن جفاف أغلب أراضي الوطن العربي ووعورة الباقي منها. لهذا السبب فإن العجز الغذائي مهم. ويخص مواد استراتيجية مثل الحبوب واللحوم والزيوت والسكر. فالأمة العربية تستورد أكثر من نصف احتياجاتها من الحبوب وخمس احتياجاتها من اللحوم. وللحد من هذا العجز، عملت كثير من الدول العربية على سن برامج استثمار زراعية طموحة، جعلت البعض منها يتمكن من دخول صف المصدرين لبعض المواد الزراعية، مثل شمال إفريقيا بالنسبة للخضر والفواكه وبعض المزروعات الصناعية.

(4/1)

وتنبني هذه البرامج الزراعية أساسا على تكثيف الفلاحة للرفع من المحصول، إما عن طريق تحسين التقنيات أو عن طريق تمديد قنوات الري.

لكن لوحظ كذلك بأن التوسع الزراعي على حساب الأراضي السهوبية المستعملة كمراعي، اعتبر أحد سبل الرفع من الإنتاج. فتحولت كثير من أراضي الرعي المتنقل إلى مزارع دائمة، بعضها يحمل مزروعات بعلية خفيفة، والبعض الآخر زراعات مسقية بعد النجاح في اكتشاف واستخراج مياه باطنية. هذا التوسع الذي يحمل في طياته أهدافا تنموية لا تناقش، قد تكون له عواقب بيئية خطيرة إذا لم تراع المنظومات

(5/1)

البيئية المعقدة، وتم الاستعمال بشكل جائر.

والأراضي الجافة هي مجالات حيث تركز الأمطار في وقت محدود، يجعل النباتات تتكيف مع هذا التركز، وتنمو بأسرع ما يمكن لتفادي حصول خصاص يكون مآله ذبولها وهلاكها. فهي تنمو في أقل من ثلث السنة، أي في أقل من 120 يوما. بل تنزل مدة الإنبات إلى ما دون ذلك في الصحاري القاحلة جدا. وهذا ما يجعل التربة الزراعية عارية مدة طويلة تتعرض خلالها إلى مختلف آليات الاقتلاع والإزالة.

(6/1)

وضمان النماء المستديم للزراعة في هذه المجالات يتوقف على صيانة التربة الجيدة القابلة لخزن الماء وقت الشح، وعلى تطبيق تقنيات زراعية تستهلك أقل ما يمكن من الماء مع ضمان إنتاجية مرتفعة، أو تقنيات رعي تحافظ على جودة المراعي وتنوع منتوجها النباتي.

والهدف من هذا المقال التنبيه إلى مخاطر سن سياسية تنموية غير وقائية للموارد الطبيعية.

ا – واقع الفلاحة في الوطن العربي: ضيق الرقعة وصعوبة التوسع:

يتمتع العالم العربي بموقع متميز يمنح له فرصة التنوع المناخي والتكامل بين بيئات مختلفة، الشيء الذي ينتج عنه تنوع

الإنتاج واختلاف فصول المحصول.

لكن جل الأراضي تشكو من الجفاف. وتندمج المجالات الجافة في الوطن العربي أساسا ضمن النطاق الحار وهوامشه المتوسطية شمالا، أو المدارية جنوبا، وهي

تتلقى أقل من 100 **أو** 150 **مم سنويا، وتضاف إليها**

المجالات نصف الجافة الهامشية والتي تستقبل أقل من

500–600 **مم.**

جدول 1 **: نسبة الأراضي الجافة في الوطن العربي**

القطر

أراضي جافة

أراضي شبه جافة

الجزائر

92

3 ٪

مصر

100

–

ليبيا

98

1

موريتانيا

94

5

المغرب

54

10

الصومال

93

7

السودان

55

11

تونس

66

16

البحرين

100

-

العراق

73

9

فلسطين

(8/1)

53

11

الأردن

85

7

لبنان

0

2

الكويت

100

–

عمان

100

–

قطر

100

-

السعودية

97

2

سوريا

49

34

الإمارات

100

-

اليمن

56

25

المصدر: الكتاب المرجع في جغرافية الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

ويشتمل الوطن العربي على ما مقداره 1393 **مليون من الهكتارات وتتميز هذه الأراضي بغلبة المجالات القاحلة وغير المنتجة داخلها إذ تغطي حوالي** 67٪ **من المساحة الإجمالية، مكونة من صحاري أو قمم جبلية وعرة. ولا**

تمثل الأراضي الزراعية (52 مليون هكتار) سوى 4٪ من المساحة الشمولية، الشيء الذي ينذر

(9/1)

بمحدودية الإنتاج. أما المراعي الدائمة فهي أوفر حظا وتغطي 311 مليون هكتار (22٪ من المساحة). ومن الواجب أن نضيف إليها حوالي 80 مليون من الهكتارات تغطيها الغابات ومراعي أخرى غير دائمة (6٪ من المساحة).

الجدول 2 : مساحة ونسبة الأراضي حسب نوعيتها بآلاف الهكتارات في الوطن العربي.

المساحة العامة

أراضي منتجة

مراعي دائمة

أراضي زراعية

نسبة ٪

مساحتها

نسبة ٪

مساحتها

نسبة ٪

مساحتها

البحرين

68

10

7

6

4

الكويت

1782

8

142

2

26

قطر

1100

5

55

5

49

السعودية

214969

41

87277

40

84912

1

1200

الإمارات

8360

3

225

(10/1)

2

200

الجزائر

238174

18

42871

13

3096

3

7500

العراق

43832
26
11396
9
4032
12
5400

ليبيا

17594
9
16011
8
13372
1
2100

عمان

21246
5
1062
5
998
0

مصر

100145

3
2603

2
2500

الأردن

8921
13
1159
8
722
5
414

لبنان

1040
38
395
1
9
29
301

المغرب

71000
55

38700
30
21000
13
9200

سوريا

18518
79
14573
45
8351
30
5630

تونس

16361
53
8736
20
3190
29
4680

اليمن

52797
39

20749
30
16050

جيبوتي

2320
9
206
9
199

موريتانيا

102552
53
54147
38
39072
0
199

الصومال

63766
62
39407
46
29332
1

933

السودان

(11/1)

250581
49
1217823
24
59137
5
12480

الوطن العربي

1393486
33
461511
22
311625
4
52584

المصدر: منظمة الأغذية والزراعة، المكتب الإقليمي، القاهرة، 1994

لكن هذا التوزيع يختلف حسب الأقطار، وذلك تبعا لموقفها. ففي البلدان الصحراوية كدول الخليج العربي، تتسم الأراضي المنتجة بمحدوديتها، عدا في المملكة العربية السعودية، حيث تغطي المراعي 40٪ من المساحة الإجمالية. وترتفع نسبة الأراضي المنتجة في الشرق الأدنى لتصل إلى أقصاها (79٪) في سوريا التي تغطي بها الأراضي المنتجة (30 مليون هكتار من المراعي في الجزائر،

(12/1)

---

21 مليون في المغرب، أكثر من 21 مليون من الهكتارات المستعملة في الزراعة في دول شمال غرب إفريقيا الثلاث). لكن شساعة القسط الصحراوي من هذه البلدان، يجعل نسبة الأراضي المنتجة لا تتعدى 18٪ في الجزائر. وينفرد السودان، أوسع قطر عربي، باحتوائه على أراضي منتجة شديدة التنوع. فهو يضم 12.5 مليون هكتارا من الأراضي الزراعية، أي أكثر من خمس الأراضي الزراعية العربية. ويضم إلى جانبها مراعي صحراوية، ومراعي عشبية مدارية، وغابة مدارية في أقصى جنوبه. وهذا

يجعل من هذا البلد، القطر الذي يحتوي على الإمكانات الطبيعية

(13/1)

لتنمية الزراعة الأكثر امتدادا وتطورا. والمقارنة مع مصر تبين شساعة الفرق على مستوى الإتاحات، حيث لا يضم هذا البلد الأخير سوى 2.5 مليون من الأراضي الزراعية، بينما تغيب الأنواع الأخرى من الأراضي المنتجة، ورغم ذلك، وبسبب ارتفاع الإنتاجية، استطاعت مصر أن ترقى إلى درجة عالية على مستوى المردود الزراعي.

وهذا يدل على أن امتداد المساحات المنتجة ليس وحده الكفيل بضمان الإنتاج المرتفع. فالكثافة الزراعية عامل أساس لتحديد هذا الإنتاج. ولا شك أن عامل ماء السقي في الدول العربية التي تشكو غالبا من الجفاف، له

(14/1)

مفعول كبير، حيث يسمح بمردود عال من جهة ومن تعدد المحصول في نفس الأرض مرتين أو ثلاثا في السنة الواحدة (كما هو الحال في دلتا النيل).

وتمثل نسبة الأراضي المسقية من مجموع الأراضي الزراعية 100٪ في مصر. وانخفاض هذه النسبة إلى ما دون ذلك بكثير في دول الخليج لا يعني أن بعض الأراضي تستعمل بعلية، بل يدل على أن قسطا هاما من أراضي هذه الأقطار يبقى مستريحا، وذلك لارتفاع تكلفة الري، خاصة في المجالات حيث تستعمل تقنية تحلية مياه البحر لهذا الغرض. وهكذا لا تستعمل من الأراضي الصالحة للزراعة سوى 50٪ في البحرين،

(15/1)

25٪ في الكويت والإمارات، و36٪ في السعودية. أما في الشرق الأدنى والمغرب العربي، فإن الأراضي البعلية تمثل المساحات الغالبة، في مجالات تتلقى تساقطات كافية للحصول على مردود زراعي سنوي. لكن في هذه البلدان كثيرا ما تم تمديد الأرض الزراعية البعلية على حساب المراعي والغابات، الشيء الذي ينذر بحدوث آليات تدهور للتربة.

لكل هذا تعتبر الموارد الزراعية والرعوية في الوطن

العربي محدودة بسبب شح التهاطلات وندرة المياه القابلة للاستعمال من أجل السقي. ويبقى قطاع الرعي، يشغل جل المساحات. وهذا ينم عن إمكانية إنتاج

(16/1)

حيواني لا بأس بها، تثبتها أعداد الماشية التالية (22 مليون من الأبقار، و33 مليون من الغنم والماعز في السودان، إضافة إلى 29 مليون من الجمال، 6 مليون من الأبقار في الصومال، 21 مليون من الغنم والماعز في المغرب، 11 مليون من الغنم في السعودية...). لكن إنتاجية هذا القطيع من الحيوانات تبقى محدودة ومعتمدة أساسا على الغذاء الذي توفره المراعي السهوبية والصحراوية.

والمعروف أن الوحدات العلفية التي تنتجها هذه المراعي الجافة قليلة وقابلة للتراجع في سنوات الجفاف، بينما تخضر المراعي نسبيا في السنوات الممطرة.

(17/1)

إلا أن ارتفاع عدد رؤوس الماشية يتسبب في تدهور هذه المراعي وتناقص مردودها.

كما أن الاحتياطي من الأراضي القابلة للزراعة محدود جدا. فقد ارتفعت الرقعة الزراعية في المغرب الأقصى من 7.9 مليون هكتار خلال السبعينات إلى 9.2 مليون في التسعينات. وقد تم غالبا على حساب السهوب والمراعي الجماعية. إلا أن إمكانيات تمديد الأرض الزراعية إلى ما فوق ذلك يعتبر صعبا، لأن هذا التمديد لن يتم إلا على أراضي شديدة الهشاشة والحساسية. وبالتالي سوف تكون له عواقب بيئية وخيمة.

(18/1)

والاحتياطي الوحيد من الأراضي الذي يمكن اعتباره مهما هو ذاك الذي يحتويه القطر السوداني حيث لا يستغل حاليا سوى خمس الأراضي القابلة للزراعة. إلا أن عدم الاستقرار لم يسمح أبدا بإقامة مشاريع زراعية تذكر، بل عرفت البلاد أزمات إنتاجية شديدة كان من جرائها خصاص قومي عام، بل مجاعات إقليمية خطيرة.

والمقارنة بين الساكنة والموارد الفلاحية يثبت أكثر محدودية الإمكانات المتوفرة

... ... الجدول 3 : السكان والأرض الزراعية

القطر

السكان بالملايين سنة 1996

سكان الأرياف ٪

الأراضي الزراعية هكتار / نسمة

البحرين

(19/1)

0,7

الكويت

2,8

4

قطر

0,5

السعودية

20

23

0,1

إمارات

2

الجزائر

32

48

0,31

العراق

25

29

0,3

ليبيا

6

30

0,5

عمان

2

89

0,03

مصر

65

43

0 0.05**(في توسع)**

الأردن

6

32

0,1

لبنان

3,5

16

0,1

المغرب

30

48

0,35

سوريا

17,5

50

0,47

تونس

9

46

0,50

اليمن

14

71

جيبوتي

0,5

موريتانيا

2,5

53

0,1

الصومال

9,5

64

0,13

السودان

33

87

0,51

المصدر: منظمة الأغذية والزراعة، المكتب الإقليمي، القاهرة، 1994.

ذلك أن النمو الديموغرافي خلال العقود الأخيرة جعل نصيب المساحة الزراعية لكل فرد يتضاءل بشكل سريع. هذا

(20/1)

النصيب يصل إلى أقصاه في السودان بمقدار نصف هكتار للفرد الواحد، ويتراوح في دول المغرب العربي بين 0.31 و0.5 **وينزل إلى** 0.1 **هكتار في الدول الصحراوية مثل السعودية أو موريتانيا أو الدول الجبلية مثل لبنان. وينزل إلى ما دون ذلك في مصر، البلد الذي يعتمد فيه التوسع الزراعي على تمديد الري، وهو ما يتم فعلا بسبب إقامة مشاريع ضخمة للسقي في الصحراء وسيناء.**

هذا النمو السريع في الساكنة (مثلا مرور عدد سكان مصر من 54 **مليون نسمة سنة** 1985 **إلى** 65 **مليون اليوم) يخلق وضع عدم توازن بين الحاجة إلى الغذاء وإنتاجه. كما أن**

(21/1)

النمو الحضري يتزايد بوثيرة سريعة بسبب الهجرة القروية ويستنزف اليد العاملة للأرياف، الشيء الذي يؤدي إلى انخفاض الإنتاج نحو بعض البقاع المفروغة، كما هو الحال في السودان والصومال.

أما الاعتماد على الموارد الزراعية في الإنتاج القومي العام فهو جد مختلف حسب الأقطار. ففي بلدان الخليج العربي حيث الدخل القومي مرتفع (فوق 6000 دولار للفرد في السنة) لا تساهم الزراعة إلا بأقل من 5٪ من قيمة الناتج الإجمالي والوضع صحيح كذلك بالنسبة لليبيا. أما في البلدان المتوسطة الدخل القومي، مثل مصر، والجزائر، والعراق

(22/1)

والمغرب، حيث يتراوح نصيب الفرد ما بين 500 و6000 دولار، فإن الاعتماد على الإنتاج الزراعي يكون مهما عادة (ما بين 10 و27٪). وهو يساوي 12٪ في الجزائر، 18٪ في العراق، 19٪ في المغرب، 21٪ في مصر و27 ٪ في سوريا. وفي البلدان ضعيفة الدخل القومي (أقل من 500 دولار للفرد) ترتفع حصة الفلاحة من الناتج القومي الإجمالي (37٪ في موريتانيا والسودان، 65٪ في الصومال).

وهذا ينبئ بحدوث كوارث بيئية هامة في الدول التي تعتمد كثيرا على الفلاحة للرفع من إنتاجها القومي. ذلك أنه، بحثا عن الحفاظ على مدخول الفلاحة مرتفعا،

(23/1)

وجريا وراء الرفع من الإنتاج، تضطر هذه المجتمعات إلى التكثيف من الاقتلاع والاستغلال، وهذا لا يمكن أن يتم – في هذه البلدان التي لا تتمتع بالتقدم التكنولوجي الكافي – إلا على حساب الموارد الطبيعية وبالتالي على الرأسمال الذي تمثله.

كما تشير نسبة مساهمة الفلاحة في الاقتصاد القومي إلى مدى تأثر هذا الاقتصاد بكل ما يطرأ على المنتوج الفلاحي من تغيرات مؤقتة من جراء كوارث طبيعية، كالجفاف أو الفيضانات، ومن تغيرات على المدى الطويل، تتمثل في عدة جوانب:

(24/1)

– تناقص المحصول الزراعي ببعض المواقع الهشة بسبب التصحر أو تدهور الأتربة،

– اللزوم إلى التخلي عن بعض الأراضي بسبب تمليحها من جراء سقي غير متقن،

– نفاذ الموارد المائية لبعض الفرشات الباطنية بسبب الضخ المفرط الذي طبق عليها.

في كل هذه الحالات، تدهور الأتربة أو المياه ينذر بتضاؤل المنتوج المحلي وقد تكون له عواقب فيما بعد على المنتوج القومي إذا ما اتسعت رقعة التدهور.

ولقد انهارت النظم التقليدية القائمة على الزراعة المقلالة (زراعة بأساليب عتيقة في إطار مشارات مجهزة وبمردود ضعيف) أو على الرعي المتنقل،

(25/1)

بعد أن انخفضت إنتاجية التربة وتلاشى الغطاء النباتي الموفر للكلأ. وقد اقترن ذلك بالمنافسة التي مثلتها الزراعة العصرية المحلية من جهة واستيراد المواد الغذائية من الخارج من جهة ثانية.

وهكذا صارت الفلاحة تتسم بالازدواجية بين قطاعين أولهما متأزم اقتصاديا واجتماعيا، والثاني يستخدم تكنولوجيا متطورة ورؤوس أموال عالية. إلا أن كليهما قد يكون له تأثير سالب على البيئة الطبيعية.

– القطاع التقليدي المقلال، في جبال وسهوب الوطن

العربي، قائم على أسس التكامل بين زراعة محدودة المردود، ورعي تكميلي يدر على صاحبه

(26/1)

مداخيل مؤقتة أساسية تسمح له بمواجهة المتطلبات العاجلة، واقتطاع للخشب من الغابة للتدفئة وإيقاد النار. فهو يتم على حساب الموارد الطبيعية أساسا بحثا عن المزيد من المردود للرفع من مستوى العيش.

– والقطاع العصري في السهول المسقية قائم على أساس التفاعل مع سوق الاستهلاك الوطنية والأجنبية ويبحث على الرفع من المدخول عن طريق التصدير.

وللاستجابة لهذا الهدف فإن الإنتاج مطالب بالتكثيف عن طريق استعمال المزيد من ماء الري والمزيد من المخصبات والمبيدات الحيوية. وهذا ما يفسر النزعة نحو تلوث مياه الفرشات الباطنية

(27/1)

بموارد النيترات خصوصا وبعدد من المركبات الكيماوية السامة، ونحو تمليح أراضي المجالات المسقية.

وإغلاق الفجوة بين القطاعين يقتضي تصحيح التعامل مع الطبيعة في كلتا الحالتين. فبالنسبة للقطاع الأول، الإصلاح الاجتماعي عن طريق الرفع من الاهتمام بالمجالات العطوبة والهامشية، وذلك بتجهيزها على مستويات وسائل النقل والمواصلات، والتجهيز المدرسي والصحي، كفيل بأن يرد لها الاعتبار ويسمح لسكانها بإقامة زراعات ثمينة (فواكه – خضروات) بمردود جيد، وبقيمة خاصة اعتبارا لجودة بعض المواقع على المستوى الإيكولوجي، أو

(28/1)

اعتمادا على تفادي استعمال المواد الكيماوية التي صارت معتادة في الإنتاجات العصرية.

أما بالنسبة للقطاع العصري فإن الحل يكمن في محاولة تحقيق توازن دائم. وقار بين الرغبة في الرفع من الإنتاجية والموارد التي يقوم عليها المحصول. وهذا يقتضي تهيئة على المستوى المجالي والمؤسساتي أي على مستوى السياسة الفلاحية والتجارية.

II – إشكالية تدهور الأراضي والتصحر:

تشهد العديد من الأراضي في الوطن العربي توسعا

زراعيا غير محافظ على الثروات يسمح بانطلاق مسلسل للتدهور قد يصل إلى بلوغ درجة التصحر. وهذا يدعونا إلى

(29/1)

التذكير بخواص البيئة الجافة وما تتسم به من هشاشة.

1.2 – الأراضي الجافة، خواصها:

تتلقى الأراضي الصحراوية العربية أقل من 100 مم من الأمطار سنويا، وتضاف إليها المجالات نصف الجافة الهامشية والتي تستقبل أقل من 300–400 مم. عنف التشميس وارتفاع الحرارة مسؤولان عن قوة التبخر وبالتالي ضعف حضور المياه السطحية. فالتشميس السنوي يتعدى 3250 ساعة في وسط الصحراء ولا ينزل دون 3000 ساعة سنوية إلا في الهوامش المتوسطية. هذا الصفاء الجوي يسمح بتسجيل حرارات جد عالية قد تصل إلى 50 درجة تحت المخبأ، لتصل حتى 78° فوق

(30/1)

الرمال أو الصخور العارية. وحرارات الليل تبقى عالية في المجالات المدارية، بينما تنخفض في الهوامش الشمالية

حيث تسجل حرارات دنيا تحت الصفر، وتتعد أيام الصقيع. أما قلة الأمطار فهي راجعة لديمومة الضغط الجوي المرتفع وندوة وصول اضطرابات جوية من أصل قطبي أو مداري. وتغطي الصحراء الإفريقية – العربية مساحة 12 مليون كلم 2 وتمتد على مسافة 7500 كلم بين المحيط الأطلنتي والخليج العربي (أبراهامس وآخرون، 1990). وهي صحراء دائمة الجفاف قد تنزل أمطارها إلى ما دون 10 مم سنويا في بعض أجزاء الصحراء المصرية.

(31/1)

أما المظاهر الصحراوية فهي موروثة عن فترات مطيرة، كانت فيها المجاري أوفر وأعم، خلال الهلوسيين، والرباعي والثلاثي الأعلى ويتضح ذلك من خلال توفر أودية وخوانق في المناطق الجبلية والهضبية، وحقول من الجلاميد والحصى تكون الرق الصحراوي الغريني عند سافلة الأودية الكبرى. وكلها أشكال غير نشيطة حاليا، بها عتبات مملوءة بتراكمات رملية.

ذلك أن آليات النقل الريحي وترسيب الرمال معممة في مجالات ممتدة. فهناك التراكمات الواسعة (عروق)

والسطوح المنحوتة من طرف الرمال. أما عروق الجنوب (موريتانيا – السودان) فهي تتميز

(32/1)

باستقرارها النسبي، الشيء الذي تدل عليه ظاهرة التحام الرمال، وتعرضها للتفسخ والاحمرار، تحت ظروف أرطب من الحالية. وقد عرفت هذه العروق المثبتة في سنوات الجفاف، تراجعا للغطاء النباتي أدى إلى إعادة تحريك رمالها.

وفي الهامش الشمالي من الحزام الجاف العربي، توجد صحاري أصل جفافها راجع لموقعها وراء حاجز تضاريسي. تلك حالة عدد من المنخفضات الداخلية في شمال إفريقيا، مثل السهول العليا المغربية الجزائرية، وسهول الشام والعراق، وهي مجالات توجد عند عروض متوسطية، تتميز حرارتها بالاعتدال وبنزول رياح جافة إليها على

(33/1)

إثر مرور اضطرابات تصيب المرتفعات التي تحدها.

2.2 – تدهور الأراضي الهامشية والتصحر:

تصيب الأراضي غير الصحراوية آليات تدهور جد متنوعة، يدخل ضمنها تراجع المراعي، وتأثر الأراضي الزراعية وخاصة المسقية منها. وهذه العوامل مجتمعة تهدد ساكنة مهمة بتضاؤل المردودية والمدخول، كما تهدد المنظومات الحيوية بالتقهقر، والإفقار.

والتصحر هو النهاية القصوى لهذا التدهور، عندما يضطر الإنسان إلى مغادرة تلك المجالات القاحلة، بعد نضوب كل إمكانات الحياة بها. وهكذا يصبح التصحر نتاجا لاستعمال مفرط، دهور الموارد وقضى عليها.

(34/1)

والإنسان هو المسؤول أصلا، لكنه يصبح بعد ذلك ضحية.

في سنة 1977 اقترح مؤتمر الأمم المتحدة التعريف التالي للتصحر واعتبر أنه

تضاؤل تهدم الإمكانات البيولوجية للأرض بشكل يؤدي إلى بروز مظاهر صحراوية، في وقت كانت فيه الحاجة إلى مزيد من الموارد والإنتاج لإشباع الحاجيات المتزايدة للسكان (منظمة الفاو، روما). أما تعريف 1992 فهو كالتالي: "التصحر عبارة عن تدهور الأراضي في المنظومات البيئية الجافة، نصف الجافة وشبه الرطبة،

تحت تأثير عوامل متعددة تضم إلى جانب الأنشطة البشرية التغيرات المناخية (مؤتمر الأمم

(35/1)

المتحدة حول البيئة والتنمية). وهذا التعريف الثاني نتاج اصطدامات فكرية وسياسية بين دول الجنوب والشمال ويضم في طياته اتهاما للمعطيات المناخية الكونية ونوعا من تبرئة الإنسان. كما يضم هذا التعريف ظاهرة استحالة الرجعة في إطار الظروف الاقتصادية والتنمية الحالية. ذلك أن التصحر يؤدي إلى المجاعة في المناطق الفقيرة (السودان – الصومال) بينما تأثيره الاقتصادي محدود في البلدان الغنية، وله مفعول بيئي واجتماعي في البلدان المتوسطة.

(36/1)

وامتداد المجالات المتصحرة لا يتم بالإلزام عند الهوامش المباشرة للصحراء، بل على شكل جيوب بعيدة في بعض الحالات. ذلك أن التدهور يصيب بعض النقاط الهشة من سطح الأرض، حيث تتخذ الآليات الطبيعية سرعة وعنفا

خاصين بسبب الظروف المحلية للمجال. هذه الجيوب قد تتصل فيما بينها بعد ذلك مؤدية إلى تعميم ظاهرة التصحر في الهوامش الأصلية للصحراء.

ومن بين مؤشرات التدهور هذا: تراجع الغطاء النباتي تحت وطأة الاستغلال إلى حين انطلاق عوامل انجراف مائية تقتلع التربة، أو عوامل ريحية تقتلع من تلك التربة عناصرها الدقيقة

(37/1)

الخصبة. من هذه المؤشرات كذلك تمليح الأراضي تحت وطأة نمط سقي غير رشيد لم يرافقه تصريف دائم للمياه في مجالات أصلا غنية. كما أن نزول مستوى الفرشة المائية الباطنية وتجفيف القطاع الترابي، يعتبر مؤشرا هاما لانطلاق مسلسل التصحر. وتوالي السنوات الجافة (مثلا الثمانينات في السودان – كردفان رهين بإبراز ميكنزمات التصحر).

لقد اعتبر الرعي من الأسباب الأساسية لتوسع ظاهرة التصحر باعتبار أن المراعي موجودة بحاشية الصحراء وتضم أراضي جد هشة. لكن الأبحاث الحديثة أظهرت عكس ذلك بمعنى أن التصحر يصيب أساسا الأراضي التي

(38/1)

بحثت وتستعمل للزراعة.

3.2 – التصحر في العالم، محاولة تقويم:

حسب معطيات برنامج الأمم المتحدة للبيئة، مجموع الأراضي المتصحرة لبغ 950 مليون هكتار في نهاية الثمانينات، بينما توجد 4500 مليون هكتار أخرى مهددة بالتصحر. وإذا اعتبرنا المجالات الجافة وحدها، فإن 61٪ من 3.3 مليار هكتار من الأراضي المنتجة قد بلغت حد التصحر. ويضاف إليها الأراضي التي هي في طور التدهور والتي تضاءلت إنتاجيتها.

أما عن عدد السكان الذين تصيبهم آفة التصحر، فهم يقدرون بحوالي سدس ساكنة الأرض (حوالي 900 مليون من السكان). وحسب برنامج

(39/1)

الأمم المتحدة للبيئة لقد مرت تكلفة إصلاح الأراضي المتدهورة من 26 إلى 42 مليار دولار في السنة ما بين 1980 و1991. أما الخسارات السنوية الناجمة عن تدهور

الأراضي في المجالات الجافة فهي تقدر بستة وعشرين مليار دولار وهو ما يمثله تراجع الإنتاجية الفلاحية.

4.2 – **الجفاف والتصحر في الوطن العربي:**

لقد عرفت الصحراء العربية – الإفريقية وهوامشها عدة مراحل جفاف خطيرة منذ بداية القرن، كانت أخطرها الفترة ما بين 1985 و1988.

(40/1)

– بالنسبة لعدد من البلدان يجب اعتبار –لتفسير هذه الظاهرة – ظرف الأزمنة الاقتصادية والأسباب السياسية مثل عدم الاستقرار (حالة السودان والصومال).

– بالنسبة للرعي، تدهور المراعي يجب اعتبار تزايد أعداد الماشية وعدم تطبيق مبدأ التناوب عند استعمال المراعي، وبالنسبة لتضاؤل الموارد المائية في الفرشات الباطنية يجب اعتبار تكاثر الآبار وتزايد الضخ.

– في حالات كثيرة سياسات فلاحية غير متكيفة، مثلا التشجيعات المعطاة للزراعات غير الغذائية (القطن – الفول السوداني). وهي زراعات وحيدة تنهك التربة ولا تساهم في تغذية

(41/1)

السكان والماشية.

– تمليح الأراضي من بين الأسباب للتصحر مثال ذلك ما أصاب أراض واسعة من سهول العراق، فكثافة القنوات وآثار المباني المهدمة في سهول الفرات ودجلة، تدل على زراعة كانت نامية في منطقة صحراوية حاليا. وقد تأكد بأن تمليح الأرض وترسب الغرين هما سبب الأزمة التي أصابت الحضارات القديمة. وتوجد ظاهرة التمليح كأصل لتدهور الأراضي موصوفة في عدة نصوص تاريخية. والقنوات المبنية بانحدار ضعيف جدا هي الأصل في التدهور. لأنها كانت تمتلئ بسرعة بالأوحال. وتتطلب المزيد من اليد العاملة ومن مجهود الإصلاح. أما

(42/1)

السقي المفرط بدون ضمان التصريف فقد تسبب في تراكم الأملاح في التربة وبالتالي تحولها إلى أرض عقيمة.

– استمرار النمو الديموغرافي المفرط بشكل يتعدى الإمكانات الإنتاجية للغذاء. والنمو الديموغرافي

يتسبب في الضغط المتزايد على الأرض (حرث أراضي غير صالحة، هامشية)، تضاؤل كثافة الغطاء النباتي، تراجع المدة المخصصة لاستراحة الأراضي، وبالتالي تناقص خصوبة الأراضي ومدى مقاومتها لمكنزمات التدهور والإزالة. العوينة 3

(43/1)

ودراسة الصور الجوية توضح أن المجالات نصف الجافة هي الأكثر تضررا بآليات التصحر. لأن هذه المناطق الصاحة نسبيا هي التي تتركز بها الماشية ويجتمع بها الرعاة والمزارعون الفارون من المناطق الأكثر جفافا. فهي إذن قابلة لأن تتحول من أراضي منتجة في إطار رعي متنقل إلى أراضي قاحلة تماما بعد زرعها بعلية وتعقيم أتربتها ونضوب مياهها واقتلاع كل غطائها النباتي.

5.2 – العلاقة بين التصحر ، مستوى النمو والمجاعة:

المجاعة في بعض الدول العربية – الإفريقية (الصومال – السودان) نتائج سلسلة من التطورات السالبة والتي

(44/1)

انطلقت بجفاف نهاية الستينات في الساحل الإفريقي. وقد تأثر القرن الإفريقي خاصة خلال الثمانينات. هذه المجاعات ليست نتاج تناقص المطر وحده. فالمزدوج جفاف – مجاعة لا يتم إلا في حالة تهيئة غير متزنة للمجال وعدم انتظام الإطار الاقتصادي والسياسي. والتصحر يصيب خاصة البلدان الفقيرة حيث الإمكانات المالية والتقنية محدودة وحيث الاختيارات السياسية لا تضع التنمية في المقام الأول. ولذا فالخطوات اللازم إتباعها هي قبل كل شيء سياسية واقتصادية واجتماعية.

خاتمة :

(45/1)

لقد توالت على بلدان الوطن العربي عدة تجارب (الفاو، 1992) تسعى إلى تنمية الأراضي الجافة، تنمية زراعية ورعوية، تهدف إلى سن أنظمة ريفية مستديمة، في مجالات تتسم بالهشاشة من جهة وبارتفاع الساكنة من جهة ثانية. ومن أهم هذه التجارب، تلك البرامج التي أعدتها منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة والتي كان الهدف منها في نفس الوقت، البحث عن توازن بين

الضغط السكاني وإنتاج الغذاء وإيقاف مسلسل تدهور التربة والغطاء النباتي.

(46/1)

وهذا الهدف ينبني على سن أنماط لاستعمال الأراضي، تتوخى الرفع من المردود المحلي لكل نوع من الأراضي والإنتاج الشمولي للبلد، بشكل مستديم أي غير مهدد لاستمرار الإنتاجية وبدون آثار سلبية على جودة وتوازن الأوساط البيئية. وهذا يقتضي تدخلا شموليا يراعي كل المعطيات في تعقيدها وتداخلها:

– فهو أولا تدخل تقني متكيف مع الظروف البيئية الجافة ومع هشاشة الأراضي، بحيث لا يستوردها كما هي، تقنيات صالحة في المجالات الرطبة، ويطبقها بدون تكييفها مع الأوضاع المحلية.

(47/1)

– وهو تدخل يراعي الواقع البشري والاجتماعي ولا يتعارض مع استراتيجيات المجتمعات البشرية المختلفة داخل الأرياف العربية، بل يدخل هذه الاستراتيجيات

ضمن رؤيا شمولية مستقبلية.

– وهو يهيء الجوانب المؤسساتية والقانونية الكفيلة بتسهيل التطورات الإيجابية ويزيل المعوقات التنظيمية من أجل ضمان نجاح التهيئة والإعداد.

– وهو أخيرا يشرك المجتمع المحلي في الاختيارات وكذا في تطبيقها ضمانا لرضى السكان عن أساليب التهيئة وتشجيعا لهم على تنفيذها، بل توسيعها وإنجاحها.

ويمكن القول، إن هذه البرامج تجعل الإنسان العربي في

(48/1)

مقدمة أهدافها، وتؤكد على ضرورة سن تنمية شمولية اقتصادية واجتماعية وثقافية.

مراجع:

– أبراهام أ.د. وبارسونز أ.ج.، جيومرفلوجية البيئة الصحراوية، شامبان وهول، لندن، 1994، 674 صفحة.

– منظمة الفاو، روما، تحسين إنتاجية الأراضي الجافة، نايروبي كينيا، 1987.

– منظمة الفاو، روما، المفاتيح الاستراتيجية للتنمية المستديمة في الأراضي الجافة، 60 صفحة، 1992.

– مؤتمر الأمم المتحدة حول البيئة والتنمية، ريو دي جانيرو، البرازيل، 1992.

(49/1)

أبحاث تادِيوش لفيتسكي في فجر العلاقات التجارية بين ضفتي الصحراء الكبرى

... ... الأستاذة فريدة بنعزوز

... ... كلية الآداب ـ تطوان

... يطيب عادة لعموم المهتمين بعلاقات المغرب ببلاد السودان الغربي والأوسط خلال القرون الوسطى، تناولها ضمن تاريخ المرابطين والسعديين، فلا نكاد نعثر على أبحاث تعنى بالتاريخ المبكر لهذه العلاقات. ولا يعود السبب في ذلك إلى ندرة المصادر أو إلى شُحها في الإخبار عن هذا الموضوع فقط، بقدر ما يرجع إلى تعود هؤلاء الاهتمام بتاريخ قيام الدول المغربية الكبرى وأمرائها

(50/1)

وحروبها. لذلك، فإن أبحاث تاديوش لفيتْسْكي (Tadeusz Lewicki) التي انصبت في مجملها على التنقيب في فجر العلاقات المعنية، والحفر فيها، لا يمكن إلا أن تستوقف الباحث الذي تُهمه بدوره مثل هذه العلاقات. ففي بحر النصف الثاني من هذا القرن، عمل لفيتْسْكي على إعادة تشكيل هذه العلاقات وتأسيس معناها من خلال عنايته بالتاريخ العام لإباضية بلاد المغرب. لماذا اهتم لفيتسكي بمجمل هذا التاريخ، ولماذا ركز فيه على علاقات الإباضية ببلاد السودان المعنية؟ ثم كيف أنجز اهتمامه هذا وبماذا توسل في ذلك، وما هي مختلف النتائج

(51/1)

التي خلص إليها في هذا المضمار؟

... 1 .يرجع اهتما لفيتْسْكي بالإباضية إلى دوافع ذاتية وموضوعية شتى ومتداخلة. منها ما صرح به في آخر إحدى مقالاته المتأخرة حول ضرورة دراسة كيفية انتشار الإسلام بالسودان الغربي والأوسط، من خلال التجارة العابرة للصحراء الكبرى (1)

---

(1) ... » Ces textes sont d’importance aussi bien

quant au pkénimène de l'implantation de l'islam en Soudan occidental et central que-ceci semble devoir nous intéresser plus encore-pour approfondir notre connaissance de l'hisoire même du commerce transsaharien au haut Moyen Age ». (Tadeusz Lewicki, « Traits d'histoire du commerce transsaharien. Marchands et missionnaires inadites en Soudan occidental et central au cours des VIIIe-XIIe siècles », Etnografia Polska, VIII, Wroclaw-Warszawa-Krakow, 1964, 311).

(52/1)

، ومنها ما بثه في مجموع أبحاثه حول رغبته في متابعة عمل سلفيه: سموغرزيفسكي (Smogorzeski**) الذي اختطفه الموت من الدراسات الإباضية (**1**)، وج. شاخت (** J. Shacht**) الذي عني قبله بأثر المعمار الديني الإباضي في بلاد**

(1**) ... وذلك في سنة** 1931**. وقد خلف لجامعة لوو ثم لجامعة كراكوفيا مجموعة من مخطوطات الإباضية في السير والتاريخ والفلسفة وغير ذلك (** Tadeusz Lewicki, « Les Historiens, Biographes et Traditionnistes Ibadites-Wahbites de l'Afrique

du nord du VIIIe au XVIe siècle », Folia Orientalia, pp. 3–4.

(53/1)

السودان الغربي (1). ولا تنفصل دراسة لفيتسْكي للإباضية كذلك عن جملة هموم عناية استشراق عصره المزدوجة بموضوعة الشرق. فلقد بحث من جهة، في مقالة له حول تسمية شيوخ جبل نفوسة وقراهم، عن الذات

---

(1) ... حيث ذهب إلى أن الصومعة المدرجة، والمحراب المستطيل الموجودان بالسودان الغربي يشبهان مثيليهما بتونس بوالميزاب (الإباضيين). (J. Schacht, « Sur la diffusion des formes d'architectures religieuses musulmanes à travers le Sahara », Travaux de l'Institut de Recherches Sahariennes, T. 11, 1954, pp. 11–27.

(54/1)

الغربية المتمثلة في آثارها الرومانية والنصرانية في هذا الجبل(1)

---

(1) ... T. Lewicki, Etudes ibadites nord-africaines. Partie 1. Tasmiya chuyukh Djabal Nafusa wa-qurahum. Liste anonyme des cheikhs ibadites et des localités du Djabal Nafusa contenue dans le « Siyar al-macha'ikh » (VIe-XLLe siècle). Textes arabes avec introduction, commentaires et index, Varsovie, Académie des Sciences polonaise, 1955, Comité orintaliste.

... وتجدر الإشارة في هذا المضمار كذلك إلى أنه قد عني بتقفي آثار لغة رومانية منسبة في شمال إفريقيا في مقالة أخرى له في هذا الموضوع. (T. Lewiki, « Une langue romane oubliée de l'Afrique du Nord. Observations d'un arabisant », Rocznik Orientalistyczny, T. XVII, pp. 415–448.

(55/1)

. ومن جهة ثانية، فلقد بحث كذلك عن أجزاء من تاريخ أوروبا الشرقية .التي ينتمي إليها .في بعض مصادر الرحالة والجغرافيين العرب من مثل البكري والحميري والإدريسي (1)

_____

T. Lewicki, La Pologne et les pays voisins ... (1)
dans le « Livre de Roger » de al -Idrissi,
, Krakov, 1géographe arabe du XIIe siècle, T.
; T. Lewicki, « Le Kitab « ar Rawd al Mi'tar 1945
» d'Ibn abbdeal-Mun'im al Himyarî (Xve s.)
comme source de renseignements sur l'Europe
orintale centrale et septentrionale », Académie
des Sciences de l'URSS, Problèmes
(en russe); 1960, Moscou, 3d'Orientalisme, N°
« Brâgha et Michqa d'après une source arabe
, pp. 1960, 2/1inédites », Folia Orientalia, Vol.
.362–322

(56/1)

.

... 2 .يعد لفيتُسكي من الرواد المعاصرين الذين اهتموا بتراث الإباضية، فلقد خصه بأبحاث عديدة (1)

---

(1) ... ومنها بالإضافة إلى ما سبق ذكره: – T. Lewicki,
« Une chronique ibadite « Kitab as Siyar »
d'Aboul-Abbas Ahmad Assammâhî », Revue
; «La 1, Cahier 1934des Etudes Islamiques,
répartition géographique des groupement
ibâdites dans l'Afrique du nord au Moyen Age

», Rocznik Orientalistyszny, T. XXI, Varsovie,
; « Les subdivisions de l'Ibadiyya », Studia 1957
; « Un document ibâdite 1858islamica, Fasc. IX,
inédit sur l'émigration des Nafûsa du Djabal
dans Sâhil tunisien aux VIIIe-IXe siècles », Folia
; « Les ibâdites en 1959Orientalia, Cracovie,
Tunisie au Moyen Age », Academia polacca di
Scienze e Lettre, Biblioteca di roma, confernze,
; « Quelques 1959, Rome, 6Fascicolo, p.
extraits indédits relatifs aux voyages des
commerçants et des missionnaires ibadites
nord-africains au pays du Soudan occidental et
central au Moyen Ages », Folia Orientalia,
; « L'Etat nord-africain de 27–1, pp. 2, T. 1960
Tâhert et ses relations avec le Soudan
occidental à la fin du VIIe et au Ixe siècle »,
, volume II, 8cahier d'Etudes Africaines, p.
.1962

(57/1)

. ولقد عني في جلها بافتراض أساسي، مفاده أن الاقتصاد الإباضي قد ارتكز . فيما ارتكز عليه . على التجارة العابرة للصحراء الكبرى مع بلاد السودان الغربي والأوسط ولتحقيق هذا الافتراض والدفاع عنه، توسل

لفيتْسْكي بيبليوغرافية عصره في الموضوع. ورجع إلى كثير من المقالات والكتب التاريخية والأركيولوجية والجغرافية التي تناولت المغرب أو السودان أو علاقاتهما المختلفة(1)

---

(1) ... بالإضافة إلى ما ذكر سالفاً: عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، (كما ترجمه 1990Houdas, Paris,**)؛** E. W. Bovill, The Golden trade of the Moors, 1958London, ; R. Mauny; « Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen Age, d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie », Mémoires de l'Institut Français d'Afrique Noire, N. 61, Dakar, 1961 ; J. Boulnois, H. Boubou, L'empire de Gao, Histoire coutumes et magie des Songhai, Paris, 1954 ; J. Béraud-Villard, L'empire de Gao, Paris, 1943.

(58/1)

. كما رجع إلى كثير من مصادر الإباضية المخطوطة منها والمطبوعة من مثل كتا ب "طبقات المشايخ" للدرجيني، و"سير المشايخ" لمجهول إباضي، وكتاب "سير الأئمة وأخبارهم" لأبي زكرياء الورجلاني، وكتاب "السير" لأبي الربيع الوسياني، وكتاب "السير" لأبي العباس

الشماخي (1)

---

(1) ... ولقد اطلع لفيتسكي على جميع هذه المصادر الإباضية مخطوطة في مجموع كان قد أعده سموغوروفسكي (Smogorzewski). ولقد انتقل جزء من هذا المجموع إلى جامعة كراكوفيا (Krakow)، من بعد ما كان محفوظاً بجامعة لوو (Lwow). ومن المعلوم أن بعضها محفوظ كذلك بدار الكتب المصرية، كما أن بعضها قد طبع. (أبو العباس أحمد الدرجيني، طبقات الإباضية، مخطوطة بدار الكتب، رقم 2561 خ؛ أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الورجلاني، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق وتعليق العربي إسماعيل، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1979. ولقد استخدم ليفتسكي الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب. [E. Masqueray, Chronique d'Abou Zakaria, Alger, 1878.**]؛ أبو الربيع عبد السلام الوسياني، سير أبي الربيع الوسياني، مخطوطة بدار الكتب، رقم 9113م. ويذكر إسماعيل العربي في مقدمة تحقيقه لسير أبي زكرياء، بأنه قد حقق "سير" أبي الربيع؛ غير أني لم أستطع الوقوف على هذا التحقيق، بالرغم من قرب المسافة الفاصلة أو الواصلة بين المغرب والجزائر!!!؛ أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي، سير أبي العباس الشماخي،**

طبعة حجرية، القاهرة، 1031. **ولقد حقق حسن محمد، الجزء الخاص بتراجم علماء المغرب إلى نهاية القرن** 5 **هـ/** 11 **م من هذا الكتاب، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس،** 1995.

(59/1)

. كما رجع إلى مصادر أخرى من مثل "أخبار الأئمة الرستميين" لابن الصغير (1)**، وإلى طائفة من كتب الإخباريين والرحالة الجغرافيين العرب من مثل: "تاريخ اليعقوبي"**(2)**، و"صورة الأرض" لابن حوقل**(3)**، و"المغرب في ذكر**

---

(1) ... « Chronique d'Ibn Saghir sur les imâs rostemides de Tâhert par A. de C. Motylinski », Actes du XIVe Congrès International des Orientalistes, Paris, 1908(Texte et Traduction)).

(2) ... Ed. Houtsma. M. Th; Leyde, 1883.

(3) ... Ed. J. H. Kramers., Opus géograaphicum, 1938, Leyde, 1T.

(60/1)

بلاد إفريقيا والمغرب" للبكري(1)، و"مروج الذهب" للمسعودي(2). و"تحفة النظار" لابن بطوطة(3). ولقد تعامل لفيتْسْكي مع هذه المصادر والمراجع بمنهجية فيلولوجية دقيقة، فأبان عن قدرة

(1) ... Traduite par Marc Cuckin de Slane, Description de l'Afrique reptentrionale par et Bekri.

(2) ... Maçoudi, Les prairies d'or. Texte et traduction par C. Barbier de Meynard, T. IV, Paris, 1885.

(3) ... C. Défrémery, R. Sanguinetti, Voyage d'ibn Batoutah, Texte arabe accompagné d'une traduction, Paris, 1853.

(61/1)

فائقة على التوليف بينها ومقارنة بعضها ببعض ونقدها بالتثبت من رواياتها وضبطها، وتحقيق ما تذكره من أعلام ومواقع وأحداث؛ مما أعانه على تقديم صورة دقيقة لمختلف علاقات المغرب بالسودان، وخاصة

العلاقات التجارية منها التي جمعت بين أطراف هذه البلاد عبر الصحراء الكبرى، وما ترتب عليها من تبادل للتأثيرات والتأثّرات الثقافية المختلفة. فما هي يا ترى أهم ملامح هذه العلاقات، وكيف تمكن بواسطة النقد المذكور من تأسيسها؟

(62/1)

... 3 .انطلق لفيتْسْكي للحديث عن هذه العلاقات من مسلمة ذهب فيها إلى أن المصادر القديمة والشواهد الأثرية تثبت بما لا يقبل الشك أن الصحراء الكبرى كانت دائماً محل اختراق تجاري وثقافي، وذلك منذ العهود القرطاجية والرومانية القديمة بالمغرب. ولقد لعبت القبائل البربرية المغربية التي حافظت باستمرار على استقلالها عن سلطهذه الحقب دور الوسيط التجاري النشط بين بلاد السودان والمحطات التجارية للساحل الجنوبي للمتوسط فمن هذه المحطات كانت تسير القوافل محملة إلى بلاد السودان بالثياب والمنسوجات والملح وببضائع

(63/1)

أخرى من جنوب أوروبا وغرب آسيا، وإليها كانت تعود بالذهب والعبيد وبمنتوجات أخرى من بلاد السودان (1). ولم ينقطع البربر المغاربة عن متابعة هذا النشاط التجاري بعد دخولهم في الإسلام، بل على العكس من ذلك؛ فلقد حافظوا عليه وطوروه. ولقد عزا لفيتسكي ذلك إلى تمكن هؤلاء من تأسيس دولتين خارجتين بالمغرب: الدولة الصفرية بسجلماسة، والدولة الإباضية بتاهرت

(1) ... ولقد استثمر لإثبات ذلك أدبيات جغرافية وتاريخية وأركيلوجية متعددة. (Lewicki, « Traits d'histoire de commerce transsaharien », op. cit., pp. 293–294.

(64/1)

---

(1). كما عزاه إلى ما جبل عليه هؤلاء البربر من حسن تجاري فائق (2)

(1) ... المرجع نفسه، ص. 294 ـ 295. وعن تاريخ قيام هاتين الدولتين وسقوطهما وموروثهما، يراجع محمود عبد الرازق إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب حتى

منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985.

(2) **... »** Les marchands berbères-ibadites étaient, en effet, connus autrefois pour leur esprit d'entreprise, et ce fut à eux [...] que revient le principal mérite de l'organisation d'un commerce d'échenges avec le Soudan occidental et central, au Xe siècles »; Lewicki, « Traits d'histoire du commerce transsaharien », op. cit., p. 296.

(65/1)

.

... والواقع أنه كان لتأسيس هاتين الدولتين أثر بالغ في تطور العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي والأوسط فذلك هو ما اهتمت بإبرازه والاستدلال عليه جل أبحاث لفيتسكي، وما ستؤكده كذلك أطروحة محمود إسماعيل حول "الخوارج في بلاد المغرب" (1). **غير أن مروره مر الكرام على علاقة هذه التجارة بالشرق الإسلامي، وعدم تأطيرها ضمن النهضة الاقتصادية العامة التي دشنها الإسلام في العالم ورعاها، يطرح أكثر من سؤال عن نظرة الرجل الاختزالية لعلاقة هذا الدين**

بمحيطه. ثم إن دفاعه عن

---

(1) ... سبق ذكرها بالهامش 16.

(66/1)

كون نمو هذه التجارة يرجع إلى خاصيات بربرية، ينم عن نظرة عرقية غير علمية للموضوع، ويجعل من الثقافة منتوجاً عرقياً وليس العكس (1). فمما لاشك فيه أن هذه التجارة قد ارتبطت بضرورات تاريخية وجغرافية واضحة، وليس بضرورات عرقية مزعومة في حد ذاتها. ينضاف إلى كل هذا

---

(1) ... ولا غرو في ذلك، فمفاهيم العرق والثقافة لم تكن قد اتخذت بعد شكلها العلمي المعاصر عن هذين المفهومين (يراجع: Claude Lévi-Strauss, Race et Histoire, Paris, 1977; Anthropologie structurale, Paris, 1958; Le regard éloigné, Paris, 1983).

(67/1)

ما ذهب إليه لفيتسكي لتفسير إقبال البربر على المذهب الخارجي، بما تضمنه هذا المذهب من عقائد ديموقراطية واتجاهات يسارية (1)؛ يخرق منهجيته التاريخية الفيلولوجية، وروحها الوضعية الصارمة، لسبب بسيط لا يحتاج لأي توضيح، بقدر ما هو بيِّن

---

(1) **...** « Les berbères nord-africains [...] firent leurs les doctrines démocratiques de la sécte khâridjite [...] les sufrites [...] représentant, au Maghreb, les tendances de gauche ». (Lewicki, « Traits d'histoire du commerce transsaharien», op. cit., p. 294).

(68/1)

بنفسه (1).

... ولقد استوقفت لفيتسكي مسألة علاقة التجارية الإباضية بالتبشسير بالإسلام في بلاد السودان ونشره بين ساكنتها. والحق أنه قد اجتهد في إيفائها حقها بالنظر إلى ما توافر بين يديه من الشواهد الضرورية للقيام بذلك فلقد عمل في استنطاق هذه النصوص لإبراز العلاقة المعنية وتبئيرها. وفي هذا الصدد، تناول كتاب "السر" للشماخي، و"طبقات المشايخ" للدرجيني،

و"مسالك" البكري، للنظر في ما ذهب صاحب أول هذه المصادر

---

(1) ... ويقصد بذلك دعاوى التفرقة بين البربر والعرب التي دأب المستشرقون على الترويج لها.

(69/1)

اعتماداً على ثانيهما؛ من كون إسلام أحد ملوك السودان قد تم على يد التاجر الإباضي يحيى بن خلف النفوسي، وأنه هو المعني برواية البكري التي تعرضت لإسلام ملك غانا الذي سمي بين قومه بالمسلماني (1)

---

(1) ... في رواية الشماخي: "وسافر أبو يحيى إلى بلاد السودان. فألقى ملكهم ناحل الجسم، ضعيف القوى. قال له: ما بك؟ قال: خوف الموت! قال أبو القاسم: فأخبرته من الله وصفاته ـ سبحانه ـ والجنة والنار والحساب، وما أعد الله للمطيع والعاصي. فكذبني، وقال: لو صح عندك ما تقول، لما بلغت إلينا تطلب الدنيا. فما زلت أذكِّرُه نعم الله وآلائه حتى أسيلم، وحسن إسلامه". (أبو العباس أحمد بن سعيد الشماخي، كتاب السير، تحقيق محمد حسن محمد، ص. ذ.، ص. 263). في رواية البكري: "وكان عنده

ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة فشكا إليه الملك دهمهم من ذلك، فقال له: أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام [...]: فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته [...] وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته وأهل مملكته مسلمون فوسموا ملوكهم من ذلك بالمسلماني". (أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، وهو جزء من كتاب "المسالك والممالك"، ص. 187؛ Texte Arabe, publié sous les auspices de M. Le Maréchal Comte Randon Gouverneur Général de l'Algérie, Alger, s. d**).**

(70/1)

. ولقد أسفر نقده لهذه النصوص وموازنته بينها عن رد دعوى الشماخي، وعم الاحتفاظ بدلالة روايتها(1**). وإذ نسجل للفيتسكي هذا الحس النقدي الفيلولوجي، فإنه لا يسعنا إلا أن نأخذ عليه في هذا المضمار ما سكت عنه حول دور أخلاق التجارة الإسلامية في إثارة انتباه السودانيين إلى الإسلام.**

---

(1) ... [....] c'est l'Ibadisme qui fut la forme primitive de l'Islam ouest-soudanais »,

(Lewicki, « Traits d’histoire du commerce transsaharien », op. cit., pp. 297- 298).

(71/1)

... وفي هذا الصدد، فإن كثيراً من المستشرقين يردون انتشار الإسلام بالسودان إلى سلطة تجار المسلمين الرمزية المتحفية في معاملاتهم التجارية مع الأهالي(1). ويبدو أن لفيتسكي لم يستطع أن يخرق هذا التقليد الذي نهجه سلفه ويتقيد به خلفه من المستشرقين. فهو الذي يعرف ابن حوقل جيداً، قد غض الطرف عما يرويه هذا الأخير عن "حسن كمال في

---

(1) ... تراجع، على سبيل المثال، مادة "الإسلام في إفريقيا السوداء" من "قاموس الأديان" الذي أشرف على إعداده الراهب الفرنسي بول بوبارد (Dictionnaire des Religions, P. U. F. 1984**).**

(72/1)

الأخلاق والأفعال [...] وتقدم في أفعال الخير كثير" لتجار الخوارج بأودغست، وأمانتهم التجارية منقطعة

النظير(1). وهو الذي وقف على منع الإمام الرستمي عبد الوهاب ابنه أفلح من مرافقة قوافله التجارية إلى السودان، بمخطوط الويسياني ومخطوط الدرجيني، فقد التزم السكوت عن سبب هذا المنع الذي يعود في الواقع إلى عدم تفوق أفلح في الامتحان الفقهي الذي امتحنه به أبوه الإمام في مسألة التجارة والربا(2)

---

(1) أبو القاسم ابن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، ليدن، بريل، 1938، ص. 99.

(2) ... أورد لوسياني رواية ذكر فيها أن أفلح بن عبد الوهاب اراد مرافقة قوافل والده إلى بلاد كوكو، فأخذه الإمام عبد الوهاب يختبره في الفقه وخاصة في مسألة الربى، فأجاب عن كافة الأسئلة فيما عدا سؤال واحد. فأمره أبوه بعدم السفر حتى تزداد خبرته بأمور التجارة (مخطوطة "سير أبي الربيع"، س. ذ، ورقة 25، نقلاً عن م. ع. إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، س. ذ، ص. 282).

(73/1)

. بل أكثر من ذلك، فلقد تعمد بتر النص عند استشهاده به لكي يطمس مسوغ هذا المنع(1).

... ونلاحظ كذلك في مقالة له عن رحلات التجار والمبشرين

الإباضيين إلى بلاد السودان، بأنه قد أهمل تماماً ما جاء في مخطوط

---

(1) ... أورد ليفتسكي النص العربي على هذا الشكل، ونترجمه كذلك إلى الفرنسية: "وذكر... أنه أراد السفر إلى بلاد جوجوا، فلما برز رحله، خرج إليه الإمام عبد الوهاب والده... قال له ارجع... فرجع" (Lewicki, « L'Etat nord-africain de Tâhert et ses relations avec le Soudan occidental... », op. cit., p. 523.

(74/1)

"سير المشايخ" الذي استشهد به عن ورع أحد هؤلاء التجار والتزامه بمقتضيات الزكات الإسلامية، بحيث أنه لم يعلق ولو بكلمة واحدة على هذا الأمر الذي نرى أن دوره كان كبراً في استحسان السودانيين للمسلمين ولأخلاقهم، وتبعاً لذلك للإسلام نفسه(1)

---

(1) ... ونقصد بذلك حكاية تملى الوسياني التي اقتطفها من مجموع لوو (Lwow) سابق الذكر: "[...] إن رجلاً من بني ويسين يقال له تملى وكان مقلاً في أول أمره وهو من أهل القصور... فجعل يسافر إلى تادمكت

فبلغ بها مالاً كثيراً... فجعل يبعث من تادمكت كل سنة ستة عشر كيس كل كيس فيه خمسمائة دينار وكانت من جلود بقر مكتوب على كل واحد منها هذا مال الله". (Lewicki, « Quelques extraits inédits... », op. cit., p. 18).

(75/1)

.

... لماذا رغب أفلح بن عبد الوهاب في مرافقة قوافل أبيه التجارية إلى غاو؟ ذهب لفيتسكي إلى أن مرجع هذا الأمر لا يمكن أن يفسر بمجرد فضول لزيارة بلاد بعيدة، بقدر ما يجب رده إلى أسباب جيواقتصادية وجيوسياسية محددة. وبالفعل، وكما أبرز ذلك لفيتسكي نفسه، فإن مملكة غانا كانت في تلك الحقبة (بداية القرن التاسع الميلادي) قوية جداً وكانت تمد سلطانها على مناطق عديدة من السودان، مما كان يؤهلها للسيطرة على الجزء الجنوبي للطريقين التجاريين الذين يربطان بين عاصمتها غاو وأودغست في اتجاه سجلماسة وتاهرت والقيروان،

(76/1)

وبينها وبين تادمكة نحو غداميس وطرابلس. ويمكن أن نرجح بدورنا هذا التفسير، خاصة إذا علمنا أنه في ما بعد هذه الحقبة المذكورة (أواخر القرن الرابع الهجري)، ستعمل مملكة غانا على تهديد عاصمة بربر صنهاجة أودغست لضبط تحكمها في الطريق المذكور، مما سيدفع بالمرابطين إلى توحيد صفوفهم(1) لمواجهة هذا التهديد. وبالفعل، فلقد تمكن المرابطون من السيطرة على أودغست، وانتزاعها من ملك غانة كما هو معروف سنة 469 هـ(2)

(1) ... وذلك ضمن حلف أوغست سجلماسة.

(2) ... البكري، س. ذ. ص. 168؛ ويراجع كذلك كتاب عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، 430 ـ 515 هـ/ 1038 ـ 1121 م، دار الغرب الإسلامي، 1988، صص. 108 ـ 116.

. ولن يكتفي المربطون بذلك، فلقد أملت عليهم ضرورات جيوسياسية كذلك(1)، التقليص من أهمية هذه المدينة،

ونقل دورها التجاري والتعديني (تعدين النحاس) نحو الشمال، أي إلى عاصمتهم الجديدة: مراكش(2)

---

(1) ... وهي الضرورات المتعلقة، في تاريخ المرابطين، بتدبيرهم لمشكلاتهم المرتبطة بمحاصرة النصرانية بالأندلس شمالاً، وبمواجهة الوثنية بالسودان جنوباً.

(2) ... ذلك هو ما دافع عنه موسى العجلاوي لتفسير تأسيس مدينة مراكش، مستثمراً في ذلك بالإضافة إلى النصوص الكتابية التقليدية في هذا المجال؛ وبصفة خاصة، نتائج الأبحاث الأركيلوجية الفرنسية عن أودغست: (Tigdoust I, Recherches sur Aoudaghost: fouille d’un cartier artisanal.)، بالإضافة إلى مجموعة من رسائل الدكتوراه حول الموقع نفسه؛ موسى العجلاوي، "من أودغست إلى مراكش: قراءة في تاريخ المرابطين من خلال وثائق أركيولوجية"، أشغال ندوة مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1988، صص. 94 ـ 115.

... وتقتضي الإشارة في هذا المضمار إلى أنه بالرغم من وجاهة هذا التفسير المادي الذي يقدمه هذا المؤرخ لفهم انطلاق الظاهرة المرابطية، فإنه لا يمكن أن يعد التفسير الوحيد لهذا الأمر، كما لا يمكن أن يشفع

لتقليص الباحث من دور البعد الديني والتنقيص من أهميته في هذا المضمار.

(78/1)

.

... فمما لاشك فيه أن أفلح عبد الوهاب عندما أراد مرافقة قوافل أبيه التجارية إلى غاو، كان يرغب في زيارة بلاد السونغاي لعقد الاتفاقيات معها يقصد المحافظة على مصالح رعيته التجارية، وضمان استمرارية وظيفة المسالك الرابطة بين غاو وتاهرت. ذلك هو ما سيبادر إليه بعدما بايعه الإباضيون إماماً خلفاً لوالده (823 م)، بإرساله لمحمد بن عرفة سفيراً إلى هذه البلاد. وبالفعل، فلقد قضى بن عرفة هذا وهو من كبار الشخصيات الإباضية مدة غير قصيرة بغاو(1)

---

(1) ... Lewicki, « Traits d'histoire de commerce 303–302», op. cit., pp.

... ولقد ذكر هذه السفارة ابن الصغير في أخباره عن الأئمة الرستميين: "وكان بالبلد رجل يعرف بمحمد بن عرفة وكان وسيماً جميلاً جواداً سمحاً، وكان قد وفد على ملك السودان بهدية من قبل أفلح بن عبد الوهاب" (ابن

الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق ناصر محمد وإبراهيم بحار، دار الغرب الإسلامي، 1986، ص. 71).

(79/1)

.

... ولقد اجتهد لفيتْسْكي في تحديد المسالك المذكورة بالرجوع إلى الجغرافيين والرحالة العرب القدماء. ولقد تتبع في هذا المضار جميع ما جاء عند البكري وابن حوقل واليعقوبي والإدريسي وغيرهم، في وصفهم للمسالك الرابطة بين شمال الصحراء الكبرى وجنوبها، وأهم محطاتها التجارية والتاريخية الكبرى، لينتهي إلى رسم طريقين اثنين ربطا بين تاهرت وبلاد السودان. أولهما خط كان ينطلق من تاهرت نحو الغرب ليربطها جنوباً بغاو عبر سجلماسة وأودغست وغانا؛ وثانيهما ينطلق من تاهرت ليربطها كذلك بغاو عبر ورجلة فتادمكت مخترقاً

(80/1)

الهجار (1). ولقد رجعنا بدورنا إلى هذه المصادر، فوجدناها تسمح بإمكان رسم هذه الخريطة. فاليعقوبي تحدث عن خط يربط بين تاهرت وغانة عبر محطتين تجاريتين مهمتين: سجلماسة وأودغست (2). والبكري وابن حوقل ذكرا أودغست بوصفها محطة بين سجلماسة وغانة (3)

---

(1) ... انظر الخريطة المرفقة.

(2) ... كتاب البلدان، طبعة ليدن، 1892، صص. 359 ـ 360. (Ed. Goeje. M. J, Leyd).

(3) ... "ومن سجلماسة إلى أودغست شهران [...] ومن أودغست إلى غانة بضعة عشر يوماً" (صورة الأرض، س. ذ، ص. 93).

... « فأما الطريق من أودغست إلى بلد سجلماسة [...] الطريق من وادي درعة إلى الصحراء إلى بلاد السودان [...] من بني ينتسر إلى قرية تسمى مدوكن لصنهاجة أيضاً، ومنها إلى مدينة غانة أربعة أيام [غزا عبد الله بن ياسين أودغست وهو بلد قايم العمارة [...] وهو كان منزل ملك السودان المسمى بغانة قبل أن تدخل العرب غانة" (المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، س. ذ، ص. 159، 163، 164، 168).

(81/1)

. وذهب البكري كذلك إلى أن المسافة الفاصلة بين ورجلة وتادمكت تقدر بخمسين يوماً، وبين تادمكة وغاو بعشرة أيام (1). ولقد قدم ابن حوقل ـ الذي جاب بنفسه في منتصف القرن العاشر جانبي الصحراء الكبرى ـ تفسيراً ممكناً لسر بياض بشرة بني تانماك ملوك تادمكة بالرغم من أن أصلهم من السودان، "لقربهم من الشمال وبعدهم عن أرض كوكو" (2)

---

(1) ... "فإن أردت من تادمكة إلى القيروان، فإنك تسير في الصحراء خمسين يوماً إلى ورجلان [...] وبين تادمكة ومدينة كوكوا تسع مراحل" (نفسه، صص. 182 ـ 183).

(2) ... صورة الأرض، س. ذ، ص. 105.

(82/1)

.

... وبالإضافة إلى مختلف هذه المعطيات، فلقد ساق لفيتسكي لتعزيز افتراضه وجود خط تاهرت غاو عبر ورجلة فتادمكة، بشواهد اقتطفها من مخطوط السيرة

وأخبار الأئمة لأبي زكرياء يحيى بن أبي بكر الورجلاني تتعلق بانتقال أبي صالح اليدجراني من تادمكة إلى ورجلة في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، ومن مخطوط سير المشايخ لإباضي مجهول تتعلق باستقرار تملى الويسياني أحد التجار الإباضيين بتادمكت، من حيث كان يرسل زكاته إلى فقراء ورجلة، بلده الأصلي. ويتحدث المصدر نفسه كذلك عن انتقال الشيخ أبي نوع الصغير إلى تادمكة

(83/1)

على فرسه العتيق (1).

---

(1) ... "وذكر أبو الربيع سليمان بن موسى بن عمرو أيضاً أن أبا صالح ساق جمالاً له من القبلة ليبيعهم في وارجلان "، "فتزوجت رجلاً نفوسيا قنطراريا قال فسافر زوجها غانة ثم جاء من سفره"، "فجعل يسافر إلى تادمكت فبلغ بها مالاً كثيراً... فجعل يبعث من تادمكت كل سنة ستة عشر كيساً"، "ثم خرج إلى غيارة فوجدهم عراة، فلزم بيته حتى مات فيها". (Lewicki, « Quelques extraits inédits... », op. cit., p. 11, 4 . 18, 20**).**

(84/1)

... يتضح من كل ما سبق أن لفيتْسْكي قد وفق في جميع اجتهاداته لرسم ملامح الطريقين المذكورين وأهم محطاتهما التجارية والسياسية. ولقد حاول تحديد طريق تجاري ثالث يربط هذه المرة شمال إفريقيا، وبالضبط طرابلس، بكانم من بلاد السودان الأوسط على حوض بحيرة تشاد. وبالنسبة إليه، وبالنظر إلى أن هذا الخط معروف ومشهور منذ القدم، فإنه لم يقدم إلا بعض الأدلة على دعواه. ولعل أهم ما قدمه في هذا المضمار هو إتقان أبي عبيدة حاكم جبل نفوسة باسم رستميي تاهرت إلى جانب العربية والبربرية للغة أهل كانم: "الكانينبو" (1)

---

(1) ... Abû Obaida, [...] parlait en plus du berbère et de l'arabe la langue kanimite, doit probalement, le kanembou », (Ibid, p. 310 : Cf. également. Lewicki; Etudes ibâdites nord-afraicaines, Ière partie, Varsovie, 1955, p. 92, 93, 96).

(85/1)

.

... ولم يهتم لفيتْسْكي بفجر العلاقات التي جمعت بين مملكة الإباضية شمال الصحراء الكبرى وبلاد السودان جنوبها فقط، بل عني كذلك في مقالته "ملامح من تاريخ التجارة العبارة للصحراء" (1) بتسليط بعض الأضواء على استمرارية هذه العلاقات حتى بعد زوال الحكم الإباضي عن الشمال المذكور. ولقد استثمر في هذا المضمار مجموعة من الشواهد والأدلة التي جمعها مما توافر لديه من نصوص الإباضيين أنفسهم وغيرهم من الرحالة والجغرافيين العرب، بالإضافة

(1) ... Lewicki, « Traits d'histoire de commerce ... 304–311», op. cit., pp.

إلى مختلف الأبحاث الغربية التي عنيت بالطرق التجارية ومحطاتها على ضفتي الصحراء الكبرى. وبالفعل، فلقد رحل كثير من الإباضيين بمذهبهم إلى بلاد السودان، من بعد ما فشلوا في مواجهة الغزو الشيعي الذي عصف

بمملكتهم (1). وبالرغم من أن بعضهم

---

(1) ... تراجع الإباضية وغيرهم من خوارج المغرب إلى بلاد السودان أمام الغزو الفاطمي. وفي ذلك يراجع: تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، القسم الخاص من كتاب "عيون الأخبار"، للداعي إدريس عماد الدين، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، 1985، ص. 162، 404، 407، 448، 466.

(87/1)

قد اضطر إلى اتخاذ هذه البلاد موطناً له، فإن ذلك لم يمنعه من الحفاظ على علاقات مختلفة مع إخوانه بالشمال، بل دفعه إلى التشبث بها وتعذيتها باستمرار (1).

خاتمة

---

(1) ... ويمكن أن نقدم في هذا الصدد، مثالاً على ذلك، إرسال عبد الوهاب بن غانم الأنصاري لرسالة في علم الكلام من غانة، إلى أبي عمار عبد الكافي التانوتي بورجلة، المتضمنة في الجزء الأول من كتاب أبي يعقوب

بن إبراهيم الورجلاني، الدليل لأهل العقول لباغي السبل بنور الدليل، المطبعة البارونية، القاهرة، 1306.

(88/1)

... وجماع القول إن العلاقات التجارية والدينية التي جمعت بين مسلمي شمال إفريقيا وبلاد السودان جنوب الصحراء الكبرى، تعود إلى فترة مبكرة من تاريخ الإسلام بهذه القارة. ولقد كان من جملة من أرسى دعائمها الإباضيون الذين ساعدهم تحملهم لمسؤولية تدبير شؤون الحكم بالشمال المذكور على تجهيز القوافل التجارية، وعلى نشرهم للإسلام ولمذهبهم شمالاً وجنوباً عبر ضفتي هذه الصحراء. ذلك هو ما دافع عنه لفيتْسْكي في جملة أبحاثه، وهو الذي ما فتئت تؤكده جملة من الأبحاث المعاصرة التي تتوسل بأساليب أخرى ومناهج متعددة

(89/1)

الاختصاصات لكتابة تاريخ هذا الجزء من إفريقيا.

والواقع أن لفيتْسْكي إذ يحتل في هذا الصدد مكانة

الرائد، فإنه قد توفق إلى حد بعيد بتوسله بمنهجية الفيلولوجيا المقارنة في المساهمة في هذا التاريخ، على الرغم من نزعاته الاستشراقية التي وقفنا عندها، والتي تتميز في الواقع عن نزعات زملائه الفرنسيين الذين اهتموا كذلك بالإباضية مثل موتلانسكي وماسكراي (1)

---

(1) ... **المشوبة بالدعاوي العنصرية السافرة.** (A. de C. Mitylinski, « L'Aqida des Abadhites », Recueil de Mémoires et de textes publiés en l'honneur du XIV congrès des orientalistes, Alger, 1905 ; E. Masqueray, Chronique d'Abou Zakaria, Alger, 1878.

(90/1)

.

المصادر والمراجع العربية

ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، 1986.

ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي، كتاب صورة الأرض.

(Bibliotheca Geographorum Arabicorum. Primum Edidit: M. G. De Goeje. Lugduni

.(1939Balvorum; Apud, E. J. Brille,

إدريس، عماد الدين، تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.

(91/1)

إسماعيل عبد الرزاق، محمود، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1985.

... البكري، أبو عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب (وهو جزء من كتاب "المسالك والممالك").

Texte arabe, publié sous les auspices de M. le) Maréchal comte Randon. Gouverneur Général .(.de l'Algérie, Alger. s. d

الدرجيني، أبو العباس أحمد، طبقات الإباضية، مخطوطة بدار الكتب، رقم 2561 **ح.**

السعدي، عبد الرحمن، تاريخ السودان (كما ترجمه .(1990Houdas, Paris,

(92/1)

الشماخي، أبو العباس أحمد بن سعيد، سير أبي العباس الشماخي، طبعة حجرية، القاهرة، 1031.

الشماخي، أبو العباس أحمد بن سعيد، كتاب السير، تحقيق ودراسة، حسن محمد، الجزء الخاص بتراجم علماء المغرب إلى نهاية القرن 5 هـ/ 11 م من هذا الكتاب، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1995.

العجلاوي، موسى، "من أودغست إلى مراكش: قراءة في تاريخ المرابطين من خلال وثائق اركيولوجية"، أشغال ندوة مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1988، صص. 94 ـ 115.

(93/1)

الورجلاني، أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق وتعليق العربي إسماعيل، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1979.

الوسياني، أبو الربيع عبد السلام، سير أبي الربيع الوسياني، مخطوطة بدار الكتب، رقم 9113 ح.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، كتاب البلدان، طبعة M. J. Goeje، ليدن، 1892.

دندش، عصمت عبد اللطيف، دور المرابطين في نشر

الإسلام في غرب إفريقيا، 430 ـ 515 **هـ/** 1038 ـ 1121 **م**، **دار الغرب الإسلامي**، 1988، **ص**. 108 ـ 116.

المصادر والمراجع الأجنبية أو المترجمة

(94/1)

Al Bakri, Abou-Obeid, Description de ... l'Afrique septentrional. Texte arabe publié par De Slane, Alger, 1913.

Al-Ya'qûbî, Ta'rih, Ed. Houtsma. M. Th, ... Leyde, 1883.

Béraud-Villard. J., L'empire de Gao, Paris, ... 1943.

Boulnois. J., H. Boubou, L'empire de Gao, ... Histoire coutumes et magie des Songhai, Paris, 1954؛

Bobill. E. W, The Golden trade of the Moors, ... London, 1958.

Défrémery. C, Sanguinetti. R, Voyage d'ibn ... Batoutah, Texte arabe accompagné d'une traduction, Paris, 1853.

(95/1)

.Dictionnaire des Religions ...

Ibn Haukal, J. H, Opus géographicul, Ed. ...

.1938. Leyde, 1Kramers. T.

Lévi-Strauss, Claude, Anthropologie ...

.1973structurale, Paris, II,

1983Le regard éloigné, Paris, ,_ _ ...

.1977Race et Histoire, Paris, ,_ _ ...

Lewicki. Tadeusz, « Brâgha et Michqa d'après ...

une source arabe inédites », Folie Orientalia,

362–322, pp. 1960, 2/1Vol.

. 1Etudes ibadites nord-africaines. Partie ,_ _ ...

Tasmiya chuyukh Djabal Nafusa wa-qurahum.

Liste anonyme des cheikhs

(96/1)

---

ibadites et des localités du Djabal Nafusa

contenue dans le « Siyar al-macha'ikh » (VIe-

XLLe siècle). Textes arabes avec introduction,

, 1955commentaires et index, Varsovie,

Académie des Sciences polonaise, Comité

.orintaliste

L'Etat nord-africain de Tâhert et ses » ,_ _ …
relations avec le Soudan occidental à la fin du
VIIe et au Ixe siècle », cahier d'Etudes
.1962, volume II, 8Africaines, p.

(97/1)

La Pologne et les pays voisins dans le « ,_ _ …
Livre de Roger » de al -Idrissi, géographe arabe
.1945, Krakov, 1du XIIe siècle, T.

La répartition géographique des » ,_ _ …
groupement ibâdites dans l'Afrique du nourd
au Moyen Age », Rocznik Orientalistyszny, T.
:1957XXI, Varsovie,

Les Historiens, Biographes et » ,_ _ …
Traditionnistes Ibadites-Wahbites de l'Afrique
du nord du VIIIe au XVIe siècle », Folia
.4–3Orientalia, pp.

(98/1)

Les ibâdites en Tunisie au Moyen Age » ,_ _ …
», Academia polacca di Scienze e Lettre,
, 6Bibioteca di roma, confernze, Fascicolo, p.
.1959Rome,

Le Kitab « ar- Rawd al Mi'tar » d'Ibn » ,_ _ …
al Himyarî (Xve s.) comme abbde al-Mun'im
source de renseignements sur l'Europe
orintale centrale et septentrionale », Académie
des Sciences de l'URSS, Problèmes
.('en russe 1960, Moscou, 3d'Orientalisme, N°

Les subdivisions de l'Ibadiyya », Studia » ,_ _ …
.1858islamica, Fasc. IX,

(99/1)

Quelques extraits indédits relatifs aux » ,_ _ …
voyages des commerçants et des missionnaires
ibadites nord-africains au pays du Soudan
occidental et central au Moyen Ages », Folia
.27–1, pp. 2, T. 1960Orientalia,

Traits d'histoire du commerce » ,_ _ …
transsaharien. Marchands et missionnaires
inadites en Soudan occidental et central au
cours des VIIIe-XIIe siècles », Etnografia Polska,
..311, 1964VIII, Wroclaw-Warszawa-Krakow,

(100/1)

Une chronique ibadite « Kitab as -Siyar » » ,_ _
d'Aboul-Abbas Ahmad Assammâhî », Revue
.1, Cahier 1934des Etudes Islamiques,

Un document ibâdite inédit sur » ,_ _ ...
l'émigration des Nafûsa du Djabal dans Sâhil
tunisien aux VIIIe-IXe siècles », Folia Orientalia,
.1959Cracovie,

Une langue romane oubliée de » ,_ _ ...
l'Afrique du Nord. Observations d'un arabisant
–415», Rocznik Orientalistyczny, T. XVII, pp.
.448

(101/1)

Maçoudi, Les prairies d'or. Texte et ...
traduction par C. Barbier de Meynard, T. IV,
.1885Paris,

Masqueray. E., Chronique d'Abou Zakaria, ...
.1878Alger,

Mauny. R.; « Tableau géographique de ...

l'Ouest africain au Moyen Age, d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie », Mémoires de l'Institut Français d'Afrique .1961, Dakar, 61Noire, N.

A. Motylinski, de C., « L'Aqida des Abadhites ... », Recueil de Mémoires et de textes publiés en l'honneur du XIV Congrès des

---

.1905Orientalistes, Alger,

Chronique d'Ibn Saghir sur les imâms » ,_ _ ... rostemides de Tâhert », Actes du XIVe Congrès , 1908International des Orientalistes, Paris, .((Texte et Traduvction

Schacht. J., « Sur la diffusion des formes ... d'architectures religieuses musulmanes à travers le Sahara », Travaux de l'Institut de –11, pp. 1954, 11Recherches Sahariennes, T. .27

Tigdoust I, Recherches sur Aoudaghost, ... Publications de l'Institut Mauritanien de .1970Recherches Scientifiques,

---

... _ _ ,Recherches sur Aoudaghost, fouille d'un quartier artisanal, Publications de l'Institut Mauritanien de Recherches Scientifiques, 1979.

(104/1)

أبعاد التواصل الحضاري بين المغرب والبلدان الإفريقية من خلال رسالة "معراج الصعود" لأحمد بابا التمبكتي

... ... الدكتور عبد الخالق أحمدون

... ... طنجة

تمهيد

... إن التواصل بين المغرب وبلاد السودان(1)

---

(1) المقصود ببلاد السودان المنطقة الفسيحة التي تمتد من المحيط الأطلسي في الغرب حتى سودان وادجي النيل في الشرق، والتي تقع بين المناطق الصحراوية أو شبه الصحراوية في الشمال، وبين مناطق الغابات الاستوائية في الجنوب. وقد استعمل الجغرافيون هذا المصطلح للدلالة على هذه المناطق. (راجع: زكي عبد الرحمن، تاريخ

الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية، ص. 7؛ وانظر كذلك: الفشتالي، مناهل الصفا، صص. 117 ـ 118).

(105/1)

ممتد جذوره في عمق التاريخ لتصل بدايته إلى ظهور الإسلام بهذه المناطق وتغلغله في كيان المجتمعات الإفريقية. وقد أدَّى المغرب دوراً حضارياً بارزاً في هذا المجال.

... وهذا التواصل ينبغي أن تتجدد أواصره باستمرار، وتتوطد عراه في كل وقت، وتتماسك حلقاته وتتقوى دائماً، خاصة في الظروف الراهنة التي تمر بها الأمة الإسلامية وهي تواجه أقوى التحديات، وأصعب الأزمات التي تهدد كيانها بالانقسام والتفرقة والتمزق. ولن تستطيع مواجهة هذه التحديات إلا بتقوية الروابط بين أقطارها، وبناء دعائم الوحدة والتماسك بينها. ومن

(106/1)

بين هذه الأقطار البلدان الإفريقية التي هي جزء من كيانها وجسدها وبنائها.

... ولعل من بين الأسباب العلمية التي دفعتني إلى اختيار هذه الرسالة، التي سماها مؤلفها أحمد بابا التمبكتي، العالم الشهير، "معراج الصعود إلى نيل حكم مجلوب السود"، أو "الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان" :

... .إن هذه الرسالة وثيقة تراثيَّة مهمة تعكس مدى التواصل والترابط القائم بين الأقطار الإفريقية منذ مرحلة تاريخية متقدمة، وتؤكد رسوخ العلاقات بين هذه الأقطار.

(107/1)

... .إن مؤلف هذه الرسالة علم من أعلام هذا التواصل، ورمز من رموزه التاريخية، حيث لا يذكر تاريخ المغرب العلمي دون الوقوف عند شخصيته الفذة، بل إن المغاربة يعدونه منهم(1).

... .إن هذه الوثيقة جاء ذكرها عرضاً في بعض المصادر المغربية والدراسات والأبحاث التاريخية(2)

---

(1) يقول ليفي بروفنصال: »أحمد بابا سوداني الأصل، معتز بالانتساب لبلاده، لا ينبغي بها بديلاً. إلا أن المغاربة يعدونه من علماء المغرب الأقصى، نظراً لمتانة

الوشائج التي تربطه بهذه البلاد». (مؤرخو الشرفاء)، ص. 176.

(2) ... أشار الأستاذ محمد الغربي إلى هذه الوثيقة بعنوان آخر وهو "الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان"، واعتبرها من الكتب التي ألفها أحمد بابا، وهي في الحقيقة رسالة أو تقييد على الأصح. (انظر كتابه: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص. 542، **هامش** 2؛ **وراجع: عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الاسكيين، طبعة الجزائر،** 1971، **ص.** 156؛ **وإبراهيم حركات، «تجارة الرق بإفريقيا»، مجلة دار الحديث الحسنية، ع** 5، **صص.** 327 ـ 345).

(108/1)

.

... ـ إن الرسالة كانت من بين مصادر التأليف في موضوعها عند البعض، منهم: المؤرخ أحمد بن خالد الناصري في "الاستقصا"، حيث ينقل منها فقرات طويلة(1)، **والشيخ محمد بن إبراهيم الغاني، الذي اعتمد عليها في تأليف رسالته "تنبيه أهل الطغيان"**(2).

... ـ إن هذه الوثيقة حظيت باهتمام كبير لدى زعماء الإصلاح في إفريقيا في مطلع القرن التاسع عشر

الميلادي، بحيث استند إليها الشيخ عثمان بن فودي، زعيم حركة الجهاد في شمال نيجيريا وخليفته محمد بللو في تبرير

---

(1) الاستقصا، ج 5، ص. 103 و132.

(2) تنبيه أهل الطغيان، ص. 8.

(109/1)

الجهاد ضد الكفار من قبائل الهوسا(1).

... .ما ذكره الأستاذ محمد بنشريفة في معرض تنويهه بشخصية أحمد بابا التنبكتي ورسالة "معراج الصعود"، إذ قال:

... إن أحمد بابا يظل أقرب إلى الفقهاء منه إلى المؤرخين. غير أن الفرق بينه وبين كثير من فقهاء زمنه أنه كان واعياً بقيمة التاريخ، عارفاً بمكانته؛ وقد كان التاريخ عنده سلاحاً لا يقل عن سلاح الفقه. ومن يقرأ "معراج الصعود" و"جلب النعمة" يرى كيف كان أحمد يستعمل

---

(1) الشيخ عثمان بن فودي، بيان وجوب الهجرة، تحقيق فتحي حسن المصري، الخرطوم، 1977، ص. 13، 15، 97.

(110/1)

هذا السلام من أجل دفاعه عن الحرية ودعوته إلى الإصلاح (1).

... .تأكيد الباحثين على قيمة هذه الوثيقة التاريخية ومضمونها الاجتماعي وما تضمنه من آراء فقهية سديدة، والتنبيه إلى ضرورة تحقيقها تحقيقاً علمياً، ودراستها على »نسق فقهيّ تطوّريّ«(2).

التعريف بالرسالة

---

(1) **محمد بنشريفة، »إفادة أحمد بابا التمبكتي من الخزانة المغربية«، ضمن أعمال الندوة حول أحمد بابا، إيسيسكو، ص.** 91.

(2) **يوسف فضل حسن، »الفقيه أحمد بابا التمبكتي ودوره في كتابة التاريخ الأفريقي«، ضمن أعمال الندوة السابقة، صص.** 38 ـ 39.

(111/1)

... تصنف هذه الرسالة ضمن مصادر النوازل أو المسائل أو الأجوبة، وهي مصادر تعكس في جانبٍ الواقعَ الحياتي الحي الذي تتداخل فيه عوامل مختلفة دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية، وتكشف في جانب آخر عن الحكم الشرعي للقضايا أو النوازل التي تتصل بحياة الناس في أوضاعهم المختلفة.

... ومن هاتين الناحيتين اكتسبت الرسالة قيمتها العلمية والاجتماعية بما تضمنته من الإجابة عن مسألة عمت بها البلوى في الأقطار الأفريقية وانتشرت في كثير من نواحيها، وهي وضع الرقيق الذي يجلبه التجار من البلدان الإفريقية ليباع في سوق

(112/1)

النخاسة ووجه تملكه من الناحية الشرعية. وهي مسألة عظم خطرها، وعم الابتلاء بها في كل بلد حتى قال عنها أحمد بابا: »هي مصيبة عظيمة عمت بها البلوى في هذا الزمان في البلدان«(1).

... جاء نص هذه الرسالة جواباً عن سؤال وجهه أحد العلماء من مدينة توات(2)

_____

(1) معراج الصعود، مصدر سابق، ص. 8.

(2) ظلت مدينة توات تحت الحكم المغربي منذ عهد المرابطين إلى زمن قريب، وكان للشرفاء الوزانيين علاقة وطيدة بها. وقد أصدرت المطبعة الملكية بالرباط عام 1962 نص التقييد المتعلق بما اشتملت عليه من القصور ووثائق أخرى. (راجع الموسوعة المغربية للأعلام، معلمة الصحراء، ص. 72؛ ومحمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب، ج 2، صص. 630 ـ 631).

(113/1)

، وهو الفقيه سعيد بن إبراهيم الجزائري المعروف بقدورة(1)

---

(1) هو أبو عثمان سعيد بن إبراهيم المعروف بقدورة. فقيه مشارك في بعض العلوم. أصله من تونس ونشأ بالجزائر. حلاه صاحب "الصفوة" بالعالم المتفنن الزاهد الورع الموصوف بالصلاح، وله الفتوى بالجزائر فأحسن فيها. أخذ عن سعيد المقري. له: حواش على "الصغرى"، وعلى خطبة اللقاني، و"شرح على السلم للأخضري"، وأخذ عنه الفقيه محمد بن إبراهيم الهشتوكي غيره. توفي سنة 1066 هـ (انظر ترجمه في: صفوة من انتشر

للأفراني، رقم 151؛ القادري، نشر المثاني، ج 2، ص. 82؛ اليواقيت الثمينة، ج 1، ص. 162؛ وهدية العارفين، ج 1، ص. 393؛ وشجرة النور الزكية، ص. 309؛ والحجوي، الفكر السامي، ج 2، ص. 279؛ والحفناوي، تعريف الخلف، ص. 66؛ وعادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص. 75).

(114/1)

إلى الفقيه أحمد بابا التمبكتي في سنة 1021 هـ أو قبلها بقليل. وقد تأخر الجواب عنه حتى سنة 1024 هـ، حسبما استفدناه من تاريخ الفراغ من كتابة الرسالة، لأسباب سكت عنها المجيب. ومما ذكره الفقيه أحمد بابا نفسه في صدر جوابه قوله: »قدم إلي سؤال منذ ثلاثة أعوام أو أكثر من بلاد توات، صانها الله من ضروب الآفات... وقد كنت نويت الكتب عليه حينئذ، ثم منعني منه ما وقع وعاق عنه عائق القدرة حتى صار في جانب النسيان... «(1)، ثم ختمه بذكر تاريخ الفراغ منه وهو: »الاثنين عاشر

---

(1) معراج الصعود، مصدر سابق، صص. 3 ـ 4.

(115/1)

المحرم الحرام فاتح الرابع والعشرين وألف« (1).

... ونظراً لأهمية هذه الرسالة وقيمتها، تعددت نسخها وتفرقت في الخزانات العامة والخاصة بالمغرب. وقد تيسر ـ بحمد الله تعالى وقوته ـ الوقوف على العديد من هذه النسخ نذكرها على الترتيب الآتي:

(1) المصدر نفسه، ص. 15. ورد في النسخة رقم: 10444 التصريح بالسنة التي ألف فيها هذه الرسالة، وأقدر أن تكون زيادة من الناسخ. جاء فيها: ثم ورد الآن في أواخر هذه السنة، وهي سنة 1023، استدعاء الجواب عنه.

(116/1)

(1 ـ نسخة خاصة بخزانة الأستاذ البحاثة المقتدر الدكتور عبد الله المرابط الترغي. وهي النسخة التي أحيل على صفحاتها بالهامش. تقع في 17 صفحة من الحجم الصغير، في كل صفحة 21 سطراً ما عدا الصفحة الأخيرة. كتبت بخط مغربي مقروء بيد الناسخ سعيد بن عبد الله الهوزالي. غير أن الرطوبة أتت على بعض جملها وكلماتها، كما سقطت منها فقرة كاملة من الصفحة

الأخيرة. وميزة هذه النسخة أنها تضمنت نص السؤال الذي وجهه السائل إلى الفقيه أحمد بابا.

(نسخ بخزانة العلامة المرحوم عبد الله كَنون بطنجة مسجلة على الترتيب التالي:

(117/1)

نسخة رقم: 10321 **ضمن مجموع، تقع في** 10 **صفحات، خطها مغربي دقيق.**

نسخة رقم: 10444 **مستقلة، تقع في** 12 **صفحة، خطها مغربي دقيق ومقروء.**

نسخة رقم: 10490 **مستقلة، تقع في** 8 **ورقات، خطها مغربي مقروء.**

... وفي كل هذه النسخ لم يذكر اسم الناسخ وتاريخ النسخ.

(نسخ بالخزانة العامة بالرباط، وهي:

النسخة الكتانية تحت رقم 1080 **ك ضمن مجموع، تقع في** 17 **صفحة، من ص.** 390 **إلى** 407**. وهي نسخة جيدة، كتبت بخط مغربي جميل. وقد اعتمدتها في تكميل النقص وتصحيح الأخطاء الواردة في بعض النسخ.**

(118/1)

نسخة تحت رقم 3552 **د ضمن مجموع، تقع في** 13 **صفحة، من ص.** 101 **إلى** 113**، خطها مغربي مقروء.**

نسخة تحت رقم: 1762 **د ضمن مجموع، تقع في سبع صفحات من** 1 **ب إلى** 7 **أ، خطها مغربي مقروء.**

نسخة كتانية أخرى تحت رقم: 1174 **ك، في** 14 **صفحة.**

نسخة تحت رقم: 100 **ج ضمن مجموع، عدد صفحاتها** 11**، من** 1 **إلى** 11**. خطها مغربي مقروء.**

نسخة مصورة على المكروفلم تحت رقم: 2135**. لم نعرف مصدرها.**

نسخة مصورة على المكروفلم تحت رقم: 2994**، مصورة عن الأصل الموجود بالخزانة الحسنية تحت رقم:** 7248**.**

التعريف بصاحب الرسالة

(119/1)

... لا نريد أن ندخل في تفصيل الكلام عن حياة هذه الشخصية الفذة، وحسبنا أن نقف عند السمات العلمية البارزة في حياته(1**). فقد أطبقت شهرته الآفاق، ونال**

من أقلام المؤرخين والمفكرين والباحثين والفقهاء ما ناله من مدح وتنويه وتعظيم وثناء. ويكفي الذِّكر أنه لما أفرج عنه بمراكش وانصرف إلى التدريس، تقاطر عليه طلاب العلم من كل حدب وصوب للإقراء عليه والأخذ عنه، فذاع صيته

---

(1) انظر في تفاصيل حياته الأطروحة التي قدمها الأستاذ محمود زبير بفرنسا بعنوان: Ahmed Baba ... de Tombouctou (1556–1627, Paris, 1977).

(120/1)

واشتهر بين الناس. وقد ذكر البرتلي في "فتح الشكور" فقرات طويلة على لسانه تدل على ذلك، جاء فيها:

... ولما خرجنا من المحنة، طلبوا مني الإقراء. فجلست بجامع الشرفاء بمراكش، أقرئ "مختصر خليل" قراءة بحث وتحقيق ونقل وتوجيه... وازدحم علي الخلق وأعيان طلبتها ولازموني، بل قرأ علي قضاتها... وأفتيت فيها لفظاً وكتباً، بحيث لا توجه الفتوى فيها غالباً إلا إليّ... واشتهر اسمي في البلاد من سوس الأقصى إلى بجاية الجزائر وغيرها(1)

---

(1) فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، صص. 34 ـ 35؛ وانظر: نشر المثاني، ج 1، ص. 273؛ المراكشي، الإعلام، ج 2، ص. 305؛ مؤرخو الشرفاء، ص. 178.

(121/1)

.

... وقال عنه المؤرخ عبد الرحمن السعدي وهو يتحدث عن علماء تمبكتو:

... وفيهم الفقيه العالم العلامة فريد دهره ووحيد عصره، البارع في كل فن من فنون العلم أبو العباس أحمد بابا... فجد واجتهد في بداية أمره بخدمة العلم حتى برع على جميع معاصرين وفاق عليهم جدّاً، ولا يناظره في العلم إلا أشياخه، وشهدوا له بالعلم. وفي المغرب اشتهر أمره وانتشر ذكره، وسلم له علماء الأمصار في الفتوى، وكانت وقافاً عند الحق... (1).

---

(1) عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، ص. 35.

(122/1)

... ولد أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر محمد آقيت الصنهاجي: المسوفي، الماسني، التكروري، السودانيّ، التمبكتي في 21 ذي الحجة عام 963 هـ الموافق 26 أكتوبر 1556 م بقرية أروان الواقعة على بعد نحو عشرة أيام من تمبكتو على طريق القوافل التي يربطها بتوات.

... وقد غلبت نسة التمبكتي عليه، وكانت أكثر النسب استعمالاً. وفي ذلك إشارة إلى موطنه الأساسي الذي نشأ فيه وترعرع وأخذ من معين علمائه حتى استوى وعلا كعبه.

(123/1)

... أسست تمبكتو على عهد المرابطين، وصارت في القرن السادس عشر مدينة تجارية كبرى ومركز إشعاع علمي مزدهر، وبلغت شأواً عظيماً، وحظيت بسمعة كبيرة في العالم الإسلامي مثل ما حظيت به فاس والقاهرة والقيروان. وأصبحت قبلة لأهل العلم من الطلبة والعلماء، يتوافدون عليها من مراكش والجهات الأخرى. ويذكر المؤرخ السعدي أن تمبكتو »ما أتتها العمارة إلا من

المغرب«(1).

---

(1) ... ن. أ. ص. 21؛ **وانظر بتفصيل:** F. Durbois, Tomboctou la mystérieuse, Paris, 1899

(124/1)

... وفي بيئة تمبكتو العلمية نهل العلوم وأصناف المعارف الإسلامية من تفسير وحديث وفقه، يساعده في ذلك ما كانت عليه أسرته آل أقيت من نفوذ وجاه وعلم ومركز وظيفي.

... ويعتبر الشيخ محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري الشهير بـ »بَغْيُع« أبرز شيوخه وأكثرهم فضلاً عليه، ولم ينتفع بأحد مثل انتفاعه به وبكتبه. لازمه أكثر من عشر سنوات، قرأ فيها عليه نحواً من خمسة وعشرين كتاباً(1).

---

(1) **نيل الابتهاج، ص.** 602، **ترجمة رقم:** 7036.

(125/1)

... وقد تحصلت للشيخ أحمد بابا معرفة علمية واسعة، بما أخذه من العلماء وبما استفاده من المكتبات الغنية التي تزدان بها دور العلماء من أسرة محمد آقيت(1)، أهلته ليتصدر حلقات التدريس ويصبح فقيهاً مالكياً بارعاً.

---

(1) ذكر تلميذه أحمد البوسعيدي في "بذل المناصحة" أنه سمعه يقول:» أنا أقل عشيرتي كتباً، وقد نهب لي ست عشرة مائة مجلد«. (الاستقصا، مصدر سابق، ج 5، ص. 130). ويظهر من بعض الإشارات الواردة في "نيل الابتهاج"أن جزءاً كبيراً من هذه الكتب أرجع إليه؛ وراجع المراكشي، الإعلام، ج 2، صص. 302 ـ 307.

(126/1)

... وشاءت الأقدار الإلهية أن يغادر أحمد بابا بلدته تمبكتو متوجهاً إلى المغرب في عهد المنصور السعدي على الوجه الذي أراده الله في الأزل وقضاه كما يحدثنا هو بذلك(1)

---

(1) تذكر المصادر أن ممثل السعديين الباشا محمود زرقون قبض عليه وجماعة من آل آقيت ونفوا إلى مراكش

مصفدين في الحديد ومعهم حريمهم، وانتهت ذخائرهم وكتبهم. وكان ذلك في 25 جمادى الثانية 1002 هـ/ 18 مارس 1594 م. فظل أحمد بابا في اعتقال تحفظي حتى أطلق سراحه هو ومن معه في 21 رمضان 1004 هـ/ 19 مايو 1596 م. (انظر: الصفوة، مصدر سابق، صص. 52 ـ 53، رقم: 43؛ والاستقصا، المصدر نفسه، ج 5، ص. 130؛ خلال جزولة، ج 3، صص. 80 ـ 81؛ النزهة، ص. 97؛ المراكشي، الإعلام، مصدر سابق؛ وللتوسع في معرفة أسباب الحملة التي قام بها المنصور السعدي إلى السودان ومراحلها يرجع إلى بحثين مهمين لِدُولاَفُوسْ (Delafosse (M. نشرا بمجلة "هسبريس" : « La conquête du Soudan», Hespéris, 1923, p. 488؛ « Les relations du Maroc avec le Soudan », Hespéris, 1924, p. 153.

(127/1)

. فظل في مراكش ـ عاصمة السعديين ـ مدة أربعة عشر عاماً إلى أن رجع إلى بلدته هام 1014 هـ/ 1605 م(1)

---

(1) يرجع الفضل في إطلاق سراح الفقيه أحمد بابا إلى ابن المنصور زيدان. فبعد وفاة والده، أذن له في الرجوع إلى

بلاده عام 1014 هـ ويذكر المهدي الفاسي أن السلطان زيدان ندم على ذلك، لشدة تعلق أهل مراكش به، فأرسل في عودته، ولكنه أبى. وكان متشوقاً إلى رؤية بلده وسكب العبرات عند ذكرها. وقال في ذلك شعراً على طريقة الفقهاء ،منه:

...

أيا قاصداً كاغوا عرج نحو بلدتي

سلاماً عطيراً من غريب وشائق

وزمزم لهم باسمي وبلغ أحبتي

إلى وطن الأحباب رهطي وجيرتي

... (انظر: النزهة، مصدر سابق، ص. 98؛ والاستقصا، مصدر سابق، ص. 131).

(128/1)

.

... ومهما قيل في شأن اعتقاله الجبري بمراكش ومعاناته من ذلك، فإن الأمر الذي تجدر الإشارة إليه والتنويه به هو أن وجود الفقيه أحمد بابا في مراكش كان خيراً ونعمة وبركة على أهلها وعلى المغرب قاطبة،

بل على نفسه أيضاً. فقد استفاد طلبة العلم وشيوخهم من دروسه التي كان يلقيها بجامع الشرفاء، وانتفع به عامة الناس في الحضرة المراكشية، وجلس إليه العلماء للمذاكرة والتحصيل؛ نذكر منهم: القاضي أبا القاسم بن أبي النعيم الغساني، وأبا العباس أحمد بك القاضي، وأبا العباس أحمد المقري، والتهامي بن محمد رحمون العلمي

(129/1)

الذي أثنى عليه في كتابه "شذور الذهب في خير نسب" وغيرهم(1). واستفاد هو كذلك من إقامته بمراكش، فانعكس ذلك على إنتاجه الفكري بصورة إيجابية، وانتشرت سمعته، وطار ذكره، وبعد صيته، واستطاع أن يؤلف في فترة قصيرة أزيد من نصف كتبه، يأتي في مقدمتها كتابه "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" الذي يعد من نفائس الكتب التي ترجمت للمالكية وسيرهم وأعمالهم. ومن ثم كانت

---

(1) اطلعت على نسخة مصورة من هذا الكتاب بخزانة الزميل الأستاذ الدكتور عبد الله المرابط الترغي.

وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم: 884/ د.

(130/1)

هذه الفترة من أخصب مراحل حياته الثقافية(1).

... ويتحدث القادري عن ذلك، فيقول:

... نفع الله به هذا القطر المغربي، وحمل عنه علم عزيز، واستفيد بما عنده من التحقيق والتحرير، وقد اشتهر فيه اشتهار أهله، وتحققت فيه مكانة قدره وفضله مع ما أكرمه الله من مضاعفة الأجور وعلو الدرجات بمشاق الأمور، بسبب ما لحقه من الامتحان، الذي هو لأمثاله عنوان غاية الكرامة والرضوان(2).

---

(1) انظر: محمد بنشريفة، الإفادة...، مصدر سابق، ص. 80، نقلاً عن أطروحة محمود زبير.

(2) نشر المثاني، مصدر سابق، ج 1، صص. 274 ـ 275.

(131/1)

... ولست بحاجة إلى الحديث عن الإنتاج الفكري المغربي لأحمد بابا، فقد أفاض الباحثون في ذلك، وإنما يجدر

التنبيه في هذا الصدد إلى أن المنوه به كان حاضراً بفكره ووعيه وثقافته الفقهية المالكية الأصيلة في البيئة المغربية، مشاركاً في البحث عن الحلول لما يكتنف هذه البيئة من قضايا ونوازل. والقصد من هذا الإشارة إلى جوابين مهمين مما يتصل بهذا الموضوع، وهما:

... 1 ـ رسالة في حكم العشب الذي راج استعماله في ذلك العصر، المعروف بـ »طابا« أو التبغ، سماها "اللمع في حكم شرب طَبَغْ". ويذكر الأفراني أن هذه العشبة

(132/1)

الخبيثة دخلت إلى المغرب أوائل القرن 11 هـ، جاء بها الذين أتوا بالفيلة للمنصور السعدي من بلاد السودان، يزعمون أن فيها منافع. فشاعت عنهم في درعة ومراكش، وعمت البلوى بها جميع بقاع المغرب. وقد تصدى العلماء للفتوى فيها، فتعارضت أقوالهم، فمن قائل بالتحريم، ومن قائل بالتحليل، ومتوقف(1)

---

(1) نزهة الحادي، مصدر سابق، ص. 162؛ الاستقصا، مصدر سابق، ج 5، ص. 126؛ النوازل الصغرى، ج 1، ص. 347؛ محمد حجي، الحركة الفكرية، ج 1، ص. 24، حيث يعتمد على

البوسعيدي في "بذل المناصحة" لتحديد تاريخ هذا الحدث وهو 1005 ـ 1006 هـ/ 1597 ـ 1598 م، خلاف ما ذكرته المصادر المذكورة.

(133/1)

.

... وكان الشيخ الفقيه أحمد بابا من الذين أفتوا بجواز القليل منها. قال في "شرح المختصر" :

... فرع: ابن عسكر في "العمدة" : »والنباتات كلها مباحة إلاَّ ما فيه ضرر أو يغطي العقل«. قلت: »وبهذا تعلم جواز شرب دخان الورق المسمى طبغ. وقد ظهر شربه في أول هذا القرن الحادي عشر بعد الألف، وبه أفتيت في بلاد المغرب، مراكش ودرعة، اعتماداً على كلام ابن عسكر وغيره، وألفت فيها كراسة سميتها "اللمغ في حكم شرب طبغ"«(1)

---

(1) النوازل الصغرى، المصدر السابق، ج 1، ص. 342 و348؛ والنوازل الكبرى، المصدر السابق، ج 1، ص. 100 وما بعدها. والرسالة مذكورة في كتاب "الإصليت الخريت" لابن أبي محلي، 136 ظ ـ 145 ظ؛ وانظر: الحركة الفكرية،

مرجع سابق، ج 1، صص. 248 ـ 254، حيث نقل فقرات منها، مبيناً أسباب كتابتها.

(134/1)

.

... وقد انتشرت هذه الرسالة بين الناس، وتداولها العلماء في ذلك الوقت، بل أصبحت من مصادر التأليف في الموضوع عند المتأخرين، وهم الأكثر ممن منع وشدد في تحريمها.

... قال الشيخ الرهوني، بعد نقل كلام أحمد بابا السابق:

... وما أفتى به وذكره هنا قد نقل عنه نحوه تلميذه الحافظ المحصل أبو العباس المقري لما سأله عن القاضي الأعدل سيدي إبراهيم الجلالي، ونصه: »وقد سألت عنها شيخنا الإمام المؤلف الحافظ العلامة سيدي أحمد بابا السوداني، فأجابني بجواز القليل منها قائلاً: "إن الأشياخ بذلك أفتوا، وعين لي من

(135/1)

جملتهم شيخه الإمام سيدي محمد بغيع، وهذا الرجل يزعم علماء السودان أنه المبعوث على رأس المائة العاشرة لتجديد الدين في نظرتهم"«(1).

... ونقل المكناسي في "شرح ابن عاشر" عن شيخه الرهوني قال: »لا وجه للمنع إن طهرت، لا كالمجلوبة من الروم. نعم! ينبغي لمتعاطيها تقليد القائل بإباحتها، ومنهم المحقق بابا«(2)

---

(1) النوازل الصغرى، مصدر سابق، ج 1، صص. 342 ـ 343؛ وانظر نص فتوى الفقيه إبراهيم بن عبد الرحمن الجلالي الزياتي في "نوازل العلمي"، ج 3، صص. 208 ـ 210.

(2) النوازل الصغرى، المصدر السابق، ج 1، ص. 351. ومن العلماء الذين أفتوا في هذه المسألة نذكر قاضي درعة أحمد بن محمد البوسعيدي، ومحمد السوسي (1023 هـ)، ألف فيها "كشف الغسق"، وأبو القاسم بن أبي النعيم الغساني، وأحمد المقري، ومحمد العربي الفاسي وله "سهم الإصابة في حكم طابة"، =

= وتلميذ أحمد بابا أحمد بن علي البوسعيدي خصص فصلاً في "بذل المناصحة". انظر في هؤلاء: الحركة الفكرية، مصدر سابق، ج 1، ص. 248 ـ 265؛ وعبد الرحمن التمانارتي في "الفوائد الجمة"؛ وعبد القادر الفاسي في

" أجوبته الكبرى"، ص. 25؛ ومحمد ميارة في "زبدة الأوطاب"؛ وبدر الدين الحمومي، ومحمد المرنيسي، وأحمد الرهوني، ومصطفى الرماصي، وعبد المجيد بن علي الزبادي المنالي في رحلته "بلوغ القصد والمرام" (الخزانة العامة بالرباط، د 1808)، ومحمد بن الحسن بن عرضون الشفشاوني.

... وقد ورد من السلطان الحسن الأول استفتاء لعلماء فاس في 23 محرم عام 1304 هـ/ 1886 م في حكم هذه العشبة، فأجاب عنه الشيخ جعفر بن إدريس الكتاني (ت 1323 هـ)، وقعها معه مشايخ فاس: القاضي حميد بن محمد بناني (ت 1327 هـ) وأحمد بن أحمد بناني (كلا)، والطيب بن أبي بكر بن كيران (ت 1314 هـ)، وعبد الله بن إدريس البدراوي، وعبد الهادي بن أحمد الصقلي (ت 1311 هـ)، وأحمد بن محمد بن الخياط الزكاري (ت 1343 هـ)، وعبد الملك الضرير العلوي، وأحمد بن محمد بن حمدون بن الحاج السلمي (ت 1316 هـ).

... وكتب فيها المؤرخ أحمد بن خالد الناصري جواباً أثبته في الاستقصا، ج 5، صص. 125 ـ 129؛ وألف الشيخ المهدي الوزاني تويلفاً في المسألة ساقه كله في "نوازله الصغرى"، ج 1، ص. 342 ـ 356؛ وقد نقل فيه أجوبة الفقهاء المذكورين أعلاه. كما أثبت أجوبة المذكورين ثانياً في المصدر نفسه ، ج 1، صص. 401 ـ 405 أول نوازل

الجهاد؛ وانظر النوازل الكبرى، مصدر سابق، ج 8، ص. 100 وما بعدها.

(136/1)

.

... 2 ـ جوابه عن سؤال طرح من قبل شخصية دينية مرموقة، لها وزنها على المستوى المركزي والإقليمي، وأثرها على الأحداث التاريخية والسياسية في عهد المنصور السعدي وبعده، ونقصد به الشيخ أبا زكريا يحيى بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي(1)

_____

(1) ولد بتافلالت. قال عنه المختار السوسي: «العلامة الجليل: الرئيس المتبوع، فرع كل آل سوس في عصره. اشتهر بتحصيل العلم ونشره في زاوية تافلالت«. وقد استنصر السلطان السعدي زيدان ضد حركة ابن محلي. (نزهة الحادي، مصدر سابق، ص. 208 وما بعدها؛ الاستقصا، مصدر سابق، ج 6، ص. 60؛ المراكشي، الإعلام، مصدر سابق، ج 10، ص. 222 وما بعدها؛ المعسول، مصدر سابق، ج 19، ص. 48 وما بعدها).

(137/1)

. ويتعلق الأمر بالأعراف التي كانت سائدة في المناطق البعيدة عن السلطان بالجنوب المغربي وما نصت عليه من وضع إنْفلاس، وهم الشيوخ أو الضُّمَّان الذين كانوا يطبقون بعض القوانين المسطرة في »ألواح«هم على من ارتكب ما يخالفها بأخذ غرامة مالية على جنايته، أو هدم داره، أو ذبح بقرته يأكلونها، ردعاً له ولأضرابه، وإن المتهم عندهم يعطي خمسين يميناً. وما يأخذونه من الغرامات المالية يسمونه: »الإنصاف«، يأخذونه من المتهم حسب نوع الجناية ومقدارها. وهذه القوانين كلها مخالفة للشرع، لجأوا إليها للحفاظ على الأمن

(138/1)

ومصالح البلاد. وقد استدعى السؤال البحث عن الحكم الشرعي لهذه القوانين.

... وقد خاطب الشيخ أبو زكريا بالسؤال فقهاء الحضرة المراكشية في ذلك الوقت. وكان من بين الفقهاء الذين أجابوا عن السؤال الشيخ أحمد بابا التمبكتي(1). ومما جاء في الجواب:

(1) أجاب عن السؤال خمسة من فقهاء الوقت وهم: أحمد بابا التمبكتي، عبد الواحد بن أحمد الركَراكَي، ومحمد بن عمر الهشتوكي، وعيسى بن عبد الرحمن السكتاني، وإبراهيم بن يونس.

(139/1)

... أما قولكم: يجتمعون عن آخرهم« إلى قولكم: »الشيوخ والضمان... «، فاعلم أن الموضع الذي لا سلطان فيه أو لا يلحقه حكم السلطان، إن اجتمع جماعة المسلمين فيه على إقامة أحكام الشرع على الوجه المشروع، فإن حكمهم يقوم مقام السلطان والقاضي، ويجب عليهم السعي في الدخول تحت حكم السلطان، إذ لا يجوز البقاء فوضى للأحاديث الكثيرة... (1)

_____

(1) اطلعت على نص السؤال وأجوبته في مصادر النوازل والأجوبة الفقهية التالية:

1 ـ نسخة مستقلة بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم: 5813 بخط الناسخ عبد الله بن سعيد الهوزالي، فرغ منها سنة 1233 هـ، وعنونت باسم "أجوبة .. في شأن القوانين العرفية" لأحمد بابا التمبكتي.

2 ـ ضمن "الأجوبة الفقهية" لأبي مهدي عيسى

السكتاني، مخطوط بالخزانة الحسنية رقم: 6337 من 26/ أ إلى 32/ أ ـ ب.

3 ـ ضمن "نوازل" ابن عبد السميح، أو "فتاوي علماء جزولة" لأبي العباس أحمد بن يعزي بن عبد السميح التغاتيني (ت 1080 هـ)، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم: ق 725، صص. 239 ـ 246.

4 ـ ضمن كتاب: المنهل العذب السلسبيل، شرح نظم أبي زيد الجشتيمي، لمحمد بن أبي بكر الشابي الأزاريفي، مطبعة النجاح، الدارالبيضاء، 1400 هـ/ 1980 م؛ ج 2، صص. 251 ـ 257.

... وتوجد هذه الأجوبة ضمن مجموع بالخزانة الناصرية بتمكروت تحت رقم: 1644، بعنوان: "أجوبة في مسائل النفاليس" لعبد الواحد الركَراكَي.

... وأشير إلى أن الأستاذ صدقي علي أزايكو قام بتحقق هذه الأجوبة والتعليق عليها معتمداً على ثلاث نسخ: الأولى والثانية المشار إليهما أعلاه، ونسخة أخرى عثر عليها في إيمينتانوت. وقد نشرها ضمن أبحاث اللقاء العلمي حول موضوع »التاريخ وأدب النوازل« الذي نظمته الجمعية المغربية للبحث التاريخي بتعاون مع شعبة التاريخ بكلية الآداب بالرباط تكريماً للأستاذ المرحوم محمد زنيبر يومي 16 ـ 17 دجنبر 1989 (انظر: التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب بالرباط،

صص. 135 ـ 185؛ وراجع في هذا الموضوع كذلك: أطروحة الأستاذ الحسن العبادي، فقه النوازل بسوس، ج 2، صص. 459 ـ 467).

(140/1)

.

... يظهر من هذا كيف كان الفقيه أحمد بابا متفاعلاً مع البيئة المغربية وظروفها السياسية وأحوالها الاجتماعية، مندمجاً فيها بوعيه وثاقب فكره، مشاركاً بثقافته وعلمه، لا يختلف في ذلك على فقهاء وقته بالمغرب الذين كانت تربطهم به وشائج المحبة والتقدير والإجلال. وقد ظل كذلك إلى أن أذنت ساعة الرحيل بالفراق، فعاد إلى تمبوكتو(1)

---

(1) ومن طريف ما يذكره الأفراني أنه لما خرج من مراكش يقصد بلده، شيَّعه أعيان الطلبة فأخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرأ قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ} على ما جرت به العادة من قراءتها عند وداع المسافر وطلب رجوعه سالماً. فنزع أبو العباس يده بسرعة وقال: »لا ردني الله إلى هذا

المعاد ولا رجعني لهذه البلاد«. وسلم عليهم وذهب.

(نزهة الحادي، مصدر سابق، ص. 98؛ والاستقصا، مصدر سابق، ج 5، ص. 131).

(141/1)

واستقر بها منصرفاً إلى التدريس والتأليف حتى توفاه الله في ضحوة الخميس، شعبان 1036 هـ/ 22 أبريل 1627 م.

موضوع الرسالة

... سبقت الإشارة إلى أن الرسالة جاءت جواباً على سؤال وجهه الشيخ قدورة من مدينة توات إلى فقهاء السودان، ومنهم أحمد بابا على الخصوص. ويتعلق بقضية العبيد المجلوبين من البلاد السودانية التي تقرر إسلام أهلها كبلاد برنو وعفنو وكانو وجاغو وكاشنه وغيرها من البلدان التي استفاض إسلامهم هل من وجه شرعي يسوغ لملكهم والتصرف فيهم بالبيع والشراء.

(142/1)

... إن هذه المسألة تدخل عموماً في موضوع الرق وتجارة الرقيق في إفريقيا، وهو موضوع من »أشد الموضوعات حساسية وأكثرها مدعاة لاختلاف الرأي في التاريخ الأفريقي«(1). ولا أريد أن أدخل في مناقشة هذا الموضوع، فقد كتب فيها الباحثون الأجانب والعرب بإسهاب؛ كما لا أريد أن تحظى هذه القضية بالاهتمام في هذه المداخلة العلمية المتواضعة، لأنها محكومة بظروفها التاريخية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وإنما الذي أودّ أن أشير إليه بعجالة هو

---

(1) جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، ص. 193.

(143/1)

أن ما روجته المصادر الأجنبية وثقافتها التوسعية الحاقدة التي تجعل من الرق موضوعاً ملتصقاً بالإسلام ومرتبطاً بتشريعه، وأن تجارة الرق وتملكهم من أوضاع العرب الخاصة بهم دون سواهم، لا يقوم على أساس موضوعي في العلم والتاريخ، بل إن هذه المصادر تتجاهل طبيعة النصوص التشريعية في الإسلام ومقاصدها السامية، بل تجهل أو تتجاهل المسالك التي وضعها

الإسلام للقضاء على ظاهرة الرق، وتسعى في أن تحدث شرخاً في العلاقات العربية الإفريقية، وذلك بالتركيز على أن الصلات الطويلة بين العرب والأفارقة لم تكن متماثلة، بمعنى أن

(144/1)

العرب اخترقوا القارة الإفريقية لاستعباد سكانها وفرض دينهم وثقافتهم على أهلها(1).

... إن نظرة سريعة إلى تاريخ الأمم والدول تبين لنا أن الرق كان وضعاً اجتماعياً قائماً منذ القدم، وأن تجارة الرقيق والنخاسة كانت من أهم موارد الثروة وجزءاً من النظام الاقتصادي، وعنصراً من عناصر الإنتاج. ولما ظهر الإسلام، كان الرق متركزاً في البلاد العربية، فلم يكن من الحكمة القضاء عليه مرة واحدة، لأسباب تمليها ضرورات الحياة الاجتماعية والظروف الاقتصادية، ولكنه تعامل معه بالتدريج، فهيأ له من المنافذ

---

(1) المرجع نفسه.

(145/1)

التشريعية والمسالك القانونية التي ضيقت من روافده وألغت موارده شيئاً فشيئاً، وفتح للأرقاء أبواب الحرية، ووسع من أسباب العتق ما يكفي للقضاء عليه، ومنها: الإقرار بلفظ العتق صراحة من السيد، أو أن يجري على لسانه ما يفيد التدبير، وهو الوصية بتحرير العبد بعد موته، والتسري بالجواري دون عقد طريقاً لحريتهن، ومكاتبة السيد عبده على مال والإجابة إلى ذلك إذا طلبها العبد، وعتق الرقبة في حالة الاعتداء، أو القتل الخطإ، أو الحنث في اليمين، أو الإفطار في رمضان متعمداً، طريقاً من طرق التكفير عن الذنب. وحبب الإسلام

(146/1)

إلى الناس تحرير الرقيق ورغب فيه وجعله أكبر قربة يتقرب بها العبد إلى ربه. قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم- : »من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار«. بل إنه خصص سهماً من مال الزكاة لشراء العبيد وتحريرهم ومساعدة من يحتاج منهم إلى المساعدة في سبيل تحريره. فقال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ والمَسَاكِينِ والعَامِلِين عَلَيْهَا والمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ..} (1)

_____

(1) انظر بتفصيل في هذا الموضوع رسالة الدكتور علي عبد الواحد وافي بالفرنسية: Contribution à une théorie sociologique de l'esclavage, Paris, 1931؛ وكتابه: الحرية في الإسلام، دار المعارف، مصر، 1968.

(147/1)

[التوبة: 60]. وبعد هذا، فإنه من الخطإ الفادح والجريمة النكراء الادعاء بأن الإسلام كان سبباً في تغذية تجارة الرقيق في القارة الأفريقية(1).

... وتذكر المصادر أن جلب الرقيق إلى المغرب كان يجري ضمن العمل التجاريّ العاديّ، وأن هذه التجارة لم تتأثر بالتوسع الكبير في صيد رجال القبائل وإرسالهم عبر البحار كما كان يفعله النخاسون

---

(1) راجع الفصل الخامس من كتاب الدكتور جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، في «مسألة الرق وتجارة الرقيق في إفريقيا»، صص. 191 ـ 213؛ وبحث إبراهيم حركات، مصدر سابق، صص. 325 ـ 353.

(148/1)

الأوروبيون(1). وقد رافقت هذه التجارة المحدودة هجرة جماعية اختيارية لبعض الزنوج الذين توجهوا إلى واحات سوس وقراها طلباً للعلم. ولم تدخل هذه الجماعات في نطاق الاسترقاق الذي كان يواجه كثيراً من النقد من طرف العلماء في العهد السعدي(2)

---

(1) المرجع نفسه، ص. 205 وما بعدها.

(2) يذكر المختار السوسي قرية أكرض بسوس كان سكانها كلهم سود تبدو على المسنين منهم آثار الخير. فهم ذوو دين وملازمة للصف في المساجد. (خلال جزولة، ج 3، ص. 15). ويتحدث في "المعسول" عن تجار العبيد التي زاولها بعض الفقهاء، كان من نتائجها ازدياد الوشائج الدموية بين الشمال والجنوب.

(المعسول، مصدر سابق، ج 6، صص 16 ـ 162؛ ج 18، صص. 160 ـ 165).

(149/1)

.

... ولم يخرج الاسترقاق الذي عرفه السودان الغربي عن

نطاق التجارة العادية والمحدودة، وكان العبيد يعاملون معاملة حسنة بالمغرب، ويعتبرون خداماً للسلطان وتحت حمايته. فلم يكن يسمح باستعمال العنف في معاملتهم، وغالباً ما كانوا يتحررون بموجب أحد الأوجه التي كان يقرها الشرع الإسلامي(1).

... لقد شغلت ظاهرة الاسترقاق بال الفقهاء، وأخذت حيزاً من اهتمامهم وتفكيرهم، خاصة في العهد السعدي الذي عرف قدوم عدد كبير من السود. وقد

---

(1) ... راجع: محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص. 606 وما بعدها.

(150/1)

أصبحوا يشكلون إحدى فرق الجيش في العهد الإسماعيلي، وينالون أحسن المراكز السياسية والعسكرية (1). ولم يسعفنا البحث في تعرُّف الفتاوى الفقهية المتعلقة بهذا الموضوع في العهد السعدي، إذا استثنينا فتوى الشيخ عبد القادر الفاسي (ت 1091 ت) التي أوردها العلمي في نوازله، ونصها:

... سئل ـ رحمه الله ونفعنا به ـ عن إنسان أسود غصب وبيع على أنه عبد، وهو في بلد تقام فيه الجمعة ...

فأجاب: »إن هذا الإنسان لا يطلق عليه أنه مملوك، إذ تملكه بالغصب والظلم لا يخرجه عن حكم الحرية ولا يصير رقيقاً، بل غايته

(1) المرجع نفسه.

أنه مظلوم مقهور في حكم المملوك، وذلك غير معتبر شرعاً إذ هو في نفس الأمر حرّ، ولا سبيل لتمليك الحر المسلم، والمعدوم شرعاً كالمعدوم حسّاً... «(1).

كما لا يمكن المجازفة بالقول إن رسالة أحمد بابا هي الوحيدة التي اهتمت بهذا الموضوع في العصر السعدي، وذلك في غياب المعلومات المتعلقة بالرسائل والأجوبة الفقهية التي دونت في ذلك العصر. غير أنه قد يكون من المؤكد أن رسالة أحمد بابا هي الأولى من نوعها التي تطرقت إلى حكم العبيد المجلوبين من السودان.

(1) نوازل العلمي، ج 2، ص. 126.

... وفي العهد العلوي، وخاصة في عهد المولى إسماعيل، برزت على مسرح الأحداث السياسية مسألة »الحراطين« والبحث عن العبيد في القبائل وتمليكهم وإدماجهم ضمن جيش واحد عرف باسم »جيش البخاري«(1)

---

(1) للمزيد من الاطلاع على هذه القضية، انظر: عزيز عبد الله مطران، »علماء فاس والمولى إسماعيل ومشكلة الحراطين«، ترجمه عن الإنجليزية عبد الله بن الأمين ومحمد المهناوي، مجلة أبحاث، عدد 26، ربيع 1991، صص. 71 ـ 83؛ و محمد المهناوي، »الترقي الاجتماعي للحراطين نموذجاً«، التنظيم العسكري وعلاقته بالمجتمع في العصر الإسماعيلي، منشورات مركز البحوث والدراسات العلوية، الريصاني، 1991؛ عبد الله الترغي، حركة الأدب في المغرب، ج 1، صص. 32 ـ 41.

(153/1)

. وقد تصدى العلماء لهذه المسألة بالاستنكار والرفض، وواجهوا من أجل ذلك الشدائد والصعاب، خاصة الشيخ محمد العربي بن أحمد بردلة (ت 1133 هـ) الذي ألف في ذلك رسالة سماها: "إفشاء القواعد المذهبية، والأقوال المرضية في إبطال النحلة العليلشية التي أشاعها الملحد

في الأقطار المغربية"(1)

---

(1) توجد من هذه الرسالة نسخ متعددة بالخزانات المغربية. ويرجع تاريخها إلى متم ربيع الأول 1120 هـ/ 1708 م. وقد وقعها معه بالعطف كل من: محمد بن أحمد بن الحاج، ومحمد بن أحمد ميارة الحفيد، وعبد السلام بن حمدون جسوس. وقد أوردها كاملة أبو العباس أحمد بن الحاج في كتابه "الدر المنتخب المستحسن"، ج 7، صص. 189 ـ 205، مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم: 12184؛ وكذلك العلمي في "نوازل" ه، ج 3، صص. 277 ـ 285؛ وانظر في ظروف جمع الحراطين وأسبابه ودواوينه؛ "الدر المنتخب"، ج 6، صص. 108 ـ 116؛ ج 7، صص. 184 ـ 188.

(154/1)

، وعبد السلام بن حمدون جسوس (1). ومما جاء في جواب الفقيه بردلة:

... ... تعين على كل من له ملابسة بالعلم إنهاء هذا الخطب النازل الوقتي الذي هو المجاهدة باستعباد الأحرار واسترقاقهم بدون وجه شرعي، وتقرير هيأته الواقعة، وكشف الوجه الذي يتخيل عليه وما يرتكب في ذلك من

المحظورات الموبقات... وهؤلاء المطالبون بالاسترقاق الآن حيث كانت حريتهم معلومة، فإقرارهم بالرق ولو كان عن طوع وجواز، مع انتفاء ما ذكر من التهمة، فهو

---

(1) انظر قصته مع السلطان مولى إسماعيل في الدر المنتخب، مصدر سابق، ج 7، صص. 205 ـ 215.

(155/1)

لغو، لا يسلمون شرعاً للرق بهذا الإقرار، ولا ندعهم وإياها، ولا يلزمون به، لأن حريتهم حق من حقوق الله تعالى، فليس لهم إرقاق نفسهم... فلينظر ما أفضت إليه هذه البدعة التي لم تقع فيغير هذا القطر المغربي من سائر الأقطار، ولم يبتل بها أهل عصر مما سلف من الأعصار... فقد ضاقت نفس العامة والخاصة بها ذرعاً، وما استطاعوا لها نظراً ولا سمعاً، لجمعها بين المصيبة في الدين والدنيا... (1).

---

(1) نوازل العلمي، ج 3، صص. 282 ـ 289؛ والدر المنتخب، ج 7، صص. 198 ـ 204.

(156/1)

... وقد تصاعد استنكار هذه الظاهرة إلى السلطة الحاكمة. فقرَّر السلطان الحسن الأول في رسالته القرنية التي أذاعها عام 1300 هـ/ 1883 م »أن من المنكر الذي لا يسع التغافل عنه والتساهل في أمره: هذا الخطب النازل الوقتي الذي هو المجاهرة باستعباد الأحرار، واسترقاقهم بدون وجه شرعي «(1).

... وهناك رسالة في الموضوع كتبها الفقيه جعفر بن إدريس الكتاني (ت 1323 هـ)، وفيها يقرر أن الأمة التي يصح

(1) انظر: ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس، ج 2، ص. 229. ويلاحظ أنها العبارات نفسها التي جاءت في جواب القاضي بردلة.

تملكها شرعاً هي المسبية من بلاد الكفر(1).

... وقيد أحمد بن خالد الناصري فصلاً ختم به حديثه عن نكبة أحمد بابا التمبكتي، ذهب فيه إلى استنكار هذه الظاهرة الشنيعة وحسم مادة فسادها. ومما جاء فيه:

... قد تبين لك بما قصصناه عليك من أخبار السودان ما كان عليه أهل تلك البلاد من الأخذ بالإسلام من لدن قديم، وأنهم من أحسن الأمم إسلاماً، وأقومهم ديناً، وأكثرهم

---

(1) أشار إلى هذه الرسالة ضمن تآليفه التي سردها في آخر فهرسته: وهي من الرسائل المفقودة. راجع: محمد المنوني، المصادر العربية، ج 2، ص. 142، رقم 1063.

(158/1)

للعلم وأهله تحصيلاً ومحبة. وهذا الأمر شائع في جل ممالكهم الموالية للمغرب كما علمت...

... إذ أهل السودان قوم مسلمون. فلهم ما لنا وعليهم ما علينا... فنسأله سبحانه أن يوفق من ولاه أمر العباد، لحسم مادة هذا الفساد؛ فإن سبب الاسترقاق الشرعي الذي كان على عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – والسلف الصالح مفقود اليوم، وهو السبي الناشئ عن الجهاد المقصود به إعلاء كلمة الله تعالى، وسوق الناس إلى دينه الذي اصطفاه لعباده. هذا هو ديننا الذي شرعه لنا نبينا – صلى الله عليه وسلم –، وخلافه خلاف الدين، وغيره غير

(159/1)

المشروع. والتوفيق إنما هو بيد الله...(1).

... وألف في الموضوع كذلك أحد علماء غانة رسالة سماها "تنبيه أهل الطغيان على حرية السودان"(2)، وصاحبها هو: محمد بن إبراهيم الجارمي الغاني

---

(1) الاستقصا، مصدر سابق، ج 5، ص. 131 ـ 134.

(2) وقفت على الرسالة مخطوطة بخزانة العلامة المرحوم عبد الله كَنون رقم: 10443. وقد طبعت بالمطبعة الأهلية بالرباط عام 1946 في 28 صفحة. أما النص المخطوط، فيقع في 22 صفحة من الحجم الصغير كتب بخط مغربي مقروء ولم يذكر تاريخ النسخ. وكان الفراغ من تأليفها أواسط شعبان عام 1353 هـ

(160/1)

---

(1).

... قال في مقدمتها:

... إني لما رأيت تحامل كثير من الناس على السودان وتجاسرهم عليهم من غير موجب وما يدعون من رقيتهم وعدم إسلامهم، حملتني الغيرة على أن أنبه على ذلك في رسالة، ليكون على بال من له أدنى اهتمام بدينه...

وقد اعتمد الجارمي في تأليف هذه الرسالة على ما ذكره الناصري في تقييده المشار إليه سابقاً. ويبدو أنه لم يكن يعرف رسالة أحمد بابا إلا من خلال "الاستقصا". كما استند إلى أقوال بعض العلماء المغاربة الذين جالسهم وكانت تربطه بهم صداقة ومودة. ويدل عليه ما جاء

---

(1) لم نتمكن من تعرُّفه.

(161/1)

في هذه الفقرة. قال:

... فهل استرقاقهم إلا ظلم وخروج عن سنن الهدى.

ويؤيد ما ذكرناه قول بعض من لاقيناه بالدار البيضاء، وهو الشيخ الفاضل القاضي أبو عبد الله سيدي محمد بن المفضل الحريزي... أجاب في المسألة: أن لا عبد اليوم ولا أمة، وما يقع من ذلك في أيدي الناس مخالف للشرع(1).

أبعاد التواصل الحضاري من خلال الرسالة

... تتضمن رسالة أحمد بابا التمبكتي، بغض النظر عن الفكرة الأساسية التي قامت عليها، إشارات تاريخية وتنبيهات موضوعية، يستخلص منها الباحث مدى التواصل والرباط

---

(1) تنبيه أهل الطغيان، ص. 5.

(162/1)

القائم بين المغرب وبلاد السودان منذ عهد قديم بأبعاده المختلفة: الدينية والمذهبية والثقافية.

وسأحاول أن أحدد مظاهر هذه الأبعاد انطلاقاً من الفقرات التي وقفت عليها في الرسالة.

... 1 ـ البعد الديني: يبدو واضحاً من خلال الفقرات التي أتى بها الفقيه أحمد بابا أن أهل السودان مسلمون لا يجوز تملكهم بحال، أسلموا قديماً منذ القرن الخامس الهجري. ويؤكد ذلك الدور الذي قام بها الملثمون المرابطون في نشر الإسلام وإخضاع أهل إفريقيا له.

وذكر من بين هذه البلدان المسلمة: كانو وكشنة وبرنو ومالي وسنغي والفلان (1)

---

(1) حول إسلام هذه البلدان، راجع: حسن أحمد حمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ص. 220، 226، 233، 247.

(163/1)

.

... إن موضوع انتشار الإسلام في البلدان الإفريقية ينبغي أن يحتل مكاناً رئيساً في التاريخ الأفريقي وتاريخ الشعوب الإسلامية في العصر الحديث لأسباب عديدة من بينها ارتباط العالم العربي بالقارة الأفريقية في عصور مختلفة من التاريخ وامتزاج الحضارة العربية الإسلامية بالحضارات المتعددة للشعوب الإفريقية، وسرعة الاندماج بين شعوبهما وتاريخهما الحافل، مما جعل العالم العربيّ والإفريقيّ أقرب إلى التضامن والتوحد والتداخل الحضاريّ تحت راية الإسلام. ومع ذلك، فإن إبراز طبيعة العلاقات العربية الإفريقية لا تزال

(164/1)

تكتنفها صعوبات، في مقدمتها فقدان الكثير من المصادر والسجلات العربية، وغلبة المصادر الأجنبية التي كان قصدها التشويه المتعمَّد لتاريخ العرب والإسلام في أفريقيا (1). يقول الدكتور جمال قاسم:

... وليس من شك في أن تاريخ العرب في إفريقيا يعد من الصفحات المجيدة في التاريخ الأفريقي، نرجو أن تتاح الظروف للدارسين العرب

---

(1) الأصول التاريخية...، مصدر سابق، ص. 11 وما بعدها؛ وراجع الأصل الأول من الكتاب حول "إفريقيا في المصنفات العربية"، ص. 23، 57؛ وفاي منصور علي، اسكيا الحاج محمد وإحياء دولة سنغاي، ص. 52.

(165/1)

لاقتفاء آثاره قبل أن تضيع المدونات العربية أو يقتصر الدارسون على المصادر الأوروبية وحدها؛ فإن معظم هذه المصادر كتبت بالنظرة الأوروبية، وكان صعباً عليها أن ترى حسنة من حسنات العرب(1).

... وتردد المصادر الأوروبية أن من العوامل المهمّة التي جعلت البلدان الأفريقية تبدي الحماس الكبير للإسلام

كان العامل التجاري الذي شكل مورداً هامّاً في النشاط الاقتصادي لهذه البلدان. ويظهر أن الاعتبارات الاقتصادية والعلاقات التجارية مهما كثرت لا تكفي؛ فهناك عامل أساسي، وهو العقيدة الإسلامية

(1) المرجع نفسه، ص. 57.

وسماحتها وما تضمنته من الفضائل والقيم لم تكن في دين من الأديان المعروفة، ناهيك عن الديانة الإفريقية الضاربة في الوثنية. فقد وجدت بلاد السودان ضالتها المنشودة في نور الإسلام الساطع. وبذلك تحققت نظرية علماء مقارنة الأديان التي تقرر أن الدين الأعلى ينسكب في قلوب من لا دين لهم، أو من يعتمدون في تدينهم على الأوهام والخرافات، كالسيل الذي ينحدر من أعلى إلى أسفل(1).

(1) انظر: أحمد شلبي، مقارنة الأديان: الإسلام، ج 3، صص. 192 ـ 207.

... وقد تأثرت أقاليم غرب إفريقيا المجاورة للمغرب بموجتين إسلاميتين: تتجلى أولاهما في تسرب الإسلام وانتشاره فيها انتشاراً بطيئاً استغرق حوالي سبعة قرون ابتداء من القرن الخامس الهجري (11 م)، وجاءت الموجة الثانية في أعقاب حركات الجهاد التي اضطلع بها الفلان في القرن الثالث عشر الهجري (19 م).

... أما الموجة لأولى، فقد كانت طلائعها من قبائل الملثمين (الطوارق)(1)

(1) ينحدر الطوارق من قبيلة مسوفة التي هي أحد أقسام صنهاجة. وقد رحلوا من اليمن عن طريق المغرب، وتفرقوا في الصحراء ما بين السودان وجبال الأطلس. راجع: بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص. 593 وما بعدها.

(168/1)

الذين اضطلعوا بنشر الإسلام في غرب إفريقيا عن طريق التسرب السلمي. وعلى الرغم من أن حركة المرابطين بزعامة قبيلة جدالة كانت قصيرة العمر، فإنهم نجحوا في إزالة أكبر عقبة كانت تحول دون تقدم الإسلام

جنوباً. فاضمحلت على أيديهم مملكة غانة الوثنية، ثم اعتنق ملوكها الإسلام وأخلصوا له، وعملوا على نشره بوسائلهم. وتحولت غالبية شعب غانة إلى الإسلام، واستطاع دعاة المرابطين أن ينشروا الإسلام على ضفاف السنغال، وفي الأقاليم الواقعة بين السنغال والنيجر. وتم في عهد المرابطين تأسيس مدينة »تنبكت« وامتداد الإسلام إلى

(169/1)

مدينة »جنى«. وقد غدت هاتان المدينتان السودانيتان أعظم مركزين للثقافة الإسلامية وسوقين هامين للتجارة السودانية على ضفاف النيجر. وفي هذه المرحلة كذلك ظلت الموجة الإسلامية الأولى قوية، بيد أن موجهيها لم يصبحوا من البربر، بل من أهل البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام، ونالوا نصيباً من الثقافة الإسلامية، سواء كانوا من السودانيين الخلص أو من السودانيين الذي اختلطت دماؤهم بدماء البربر، وأفادوا من خبراتهم في ميادين السياسة والحرب، فأسسوا سلطنات إسلامية واسعة مثل: مالي، وسنغي، وبرنو، والكانم، وإمارات

(170/1)

الهوسا في شمال نيجيريا، حيث قامت سبع إمارات هي: دورا وكانو وزاريا وغوبر (جوبير) وكتسنا وبيرام ورانو.

... ولقد كان معظم إمارات الهوسا على الوثنية حتى القرن الثامن الهجري (14 م)، حين وفدت إليها تيارات إسلامية من الغرب على أيدي فقهاء مالي، ومن الشمال على أيدي فقهاء المغرب. أما التيار الثالث، فمصدره بلاد برنو ومصر. وثَمَّة تيار إسلامي رابع وفد إليها مع تجار جنى وتنبكت المترددين على إمارتي كانو وكتسنا أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر للهجرة (15 ـ 16 م)، وذلك إبان انتعاش تجارة إمارات الهوسا،

(171/1)

واستقرار أولئك التجار في هذه البلاد، والقيام على تدريس الدين الإسلامي ونشر مذهب مالك وساعد على ازدياد قوَّة التيار الإسلامي في القرن العاشر الهجري (16 م) خضوع إمارات الهوسا لسلطنة سنغي الإسلامية(1).

... ولكن على الرغم مما بذل من جهود لنشر الإسلام في

بلاد الهوسا، فإن الإسلام لم يغلب على هذه البلاد، وظلت بها جاليات وثنية حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجري (19 م)، ولم يلبث بعض أمراء الهوسا أن تحولت حماستهم للإسلام والثقافة

---

(1) للمزيد من التفصيل، راجع: الإسلام والثقافة العربية ...، صص. 202 ـ 242.

(172/1)

الإسلامية إلى فتور تام، ولم يعد يسمع شيء عن نشاط إسلامي خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر (17، 18 م) حتى قيام الفلان بثوراتهم الإصلاحية في القرن الثالث الهجري (19 م). وهنا تبدأ الموجة الإسلامية الثانية التي بلغت من القوة، في خلال قرن واحد، حدّاً يفوق ما بلغته الموجة الإسلامية الأولى في خدمة الإسلام والثقافة الإسلامية في غرب أفريقيا مدعمة بأفكار السلفية ومبادئها التي وجدت طريقها إلى بلاد الحوحة من خلال الدعوة التي اضطلع بها أحد زعماء الفلان الذين أخذت أفواجهم منذ القرن السابع الهجري (13 م) تفد

(173/1)

من مواطنهم الأصلية بإقليم فوتاتورو بالسنغال إلى شمال نيجيريا، وهو الشيخ عثمان بن محمد بن فودي (دان فوديو) (1) الذي خالط أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب من السلفيين حين رحل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وتشرب مبادئ الدعوة السلفية وتحمس لها، فأيقظت في نفسه رغبة ملحة في إصلاح أحوال المجتمع في بلاده، ومحاربة البدع والخرافات الوثنية التي تفشت فيها. ويصور ابن

(1) دان فوديو: أي ابن الفقيه. ومن الألقاب التي عرف بها: نورالزمان، ومجدد الإسلام، والشيخ. (آدم عبد الله الألوري، الإسلام في نيجيريا، ص. 35).

(174/1)

محمد بلو ذلك، فيقول:

... وقد وجد في هذه البلاد (بلاد الهوسا) من أنواع الكفر والفسوق والعصيان أموراً فظيعة وأهوالاً شنيعة، طبقت هذه البلاد وملأتها، حتى لا يكاد يوجد في هذه البلاد من

صح إيمانه وتعبد إلا النادر القليل، ولا يوجد في غالبهم من يعرف التوحيد ويحسن الوضوء والصلاة والزكاة والصيام وسائر العبادات... (1).

... وقد استطاع الشيخ عثمان بن فودي وولده محمد بلو القضاء على مظاهر الشرك والوثنية وزرع مبادئ الإسلام

---

(1) محمد بلو، إنفاق الميسور، ص. 58 وما بعدها؛ وقارن الإسلام في نيجريا، صص. 35 ـ 36.

(175/1)

الحنيف في النفوس بالدعوة والنصح والتعليم أولاً، ثم بالجهاد ضد الأمراء الوثنيين ثانياً. وتمكن من التأثير في كثير من أتباعه المخلصين، فنجحت دعوته نجاحاً كبيراً، وخضعت إمارات الهوسا جميعها لنفوذه، وشملت حركته الإصلاحية بلاد برنو (السودان الأوسط)، واستولى على كثير من أقاليمها(1)

---

(1) للمزيد من التفصيل، راجع كتاب عبد الله الألوري: الإسلام في نيجريا، مرجع سابق. وقد أورد فيه نص الوثيقة الجهادية التي أذاعها الشيخ عثمان في جماعة

المسلمين ببلاد السودان المعروفة بـ "وثيقة أهل السودان ومن شاء الله من الإخوان"، صص. 46 ـ 52.

(176/1)

.

... ونشير إلى أن السلطان المغربي مولاي سليمان العلوي (ت 1238 هـ/ 1822 م)، الذي كان متشبّعاً بأفكار السلفية ومتحمساً لمبادئها الإصلاحية، قد بعث برسالتين إلى السودان الغربي ينوه فيهما بالدور الجهادي والإصلاحي الذي قام به الشيخ عثمان بن فودي لنصرة الإسلام والقضاء على البدع:

... الأولى: تحمل تاريخ أواسط جمادى الثانية 1225 هـ، كتب بها إلى السلطان محمد الباقري، سلطان آمر وأمير الطوائف الإسلامية بالسودان الغربي، جواباً على رسالته.

(177/1)

... الثانية: بتاريخ 18 جمادى الثانية 1225 هـ، بعث بها إلى الشيخ عثمان نفسه. ومما جاء فيها:

... إلى السيد الذي فشا في الأقطار السودانية عدله،

واشتهرت في الآفاق المغربية ديانته وفضله، العلامة النبيه، العديم الشبيه في زمانه، ذي النورين ـ العلم والعمل ـ اللذين هما منتهى الأمر، السيد عثمان بن محمد بن عثمان بن صالح الفلاني نفع الله بعلومه القاصي والداني. سلام منا عليه ما اشتد شوقنا إليه، ورحمة من الله تغشاه حتى لا يخشى إلا الله، والله أحق أن تخشاه. وبعد؛ فلقد علمنا من الثناء عليك والتعريف بأحوالك

(178/1)

وأفعالك ما أوجب محبتنا وتسليمنا إليك.. فالله تعالى يجازيكم عن الأمم خيراً ويقيكم ضيراً، ويديم دولتكم محفوفة محفوظة، وبعين العناية ملحوظة... ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر. ولله عاقبة الأمور (1)

---

(1) يوجد نص الرسالتين في "إنفاق الميسور" لمحمد بلو، ص. 178 ـ 181. وراجع بحث الدكتور شوقي عطاء الله الجمل، «عثمان بن فوديو وسياسة الجهاد الإسلامي التي اتبعها... »، مجلة البحث العلمي، العدد 26، ص. 41 ـ 64، سنة 1976 م. وللتوسع في هذا الموضوع، راجع رسالة

الباحث صالح أكنوي، المذهب المالكي في نيجيريا، تقدم بها لنيل د.د.ع من دار الحديث الحسنية، تحت إشراف د. عبد السلام الأدغيري؛ والدراسة التي عقدتها الباحثة بهيجة الشاذلي مدخلاً لتحقيق كتاب "إنفاق الميسور"، دراسة جامعية لنيل د.د.ع بكلية الآداب بالرباط، 1990 م مع البحث الذي نشرته مجلة المناهل، عدد 56، بعنوان: »من أعلام الثقافة الإسلامية بإفريقيا. محمد بلو نموذجاً«، صص. 387 ـ 411.

(179/1)

.

... وقد كان تأثير الإسلام قويّاً في بلدان السودان الغربي، والبلدان الإفريقية عموماً. وكان من نتائجه تمتين أواصر الأخوة الدينية بين هذه البلدان من جهة، وبين الدول العربية من جهة أخرى. كما ساهمت تعاليم الإسلام التي دعا إليها العلماء والفقهاء والمصلحون في تنمية روح الجهاد لدى أبناء هذه الأقطار الإفريقية لمقاومة المستعمر وتنفيذ مخططاته الاستعمارية، إضافة إلى ما عرفته الثقافة الإسلامية من إغناء وإثراء

عن طريق الروافد العلمية والأدبية والإفريقية، والإنتاجات الفكرية التي خلفها كبار العلماء والفقهاء

(180/1)

في السودان الغربي، ومن بينهم أحمد بابا التمبكتي. ... 2 ـ البعد المذهبي: من المعلوم أن الفقه المالكي دخل البلدان الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى عن طريق علماء مغاربة تركوا أكبر الأثر في الثقافة الدينية لهذه البلدان، حتى أصبح علماء هذه المنطقة أكثر تشبثاً بالفقه المالكي وتحمساً له وتعمقاً في دراسته. ويدل عليه ما تركه أحمد بابا التمبكتي من إنتاج غزير في هذا المضمار. ولعل اهتمامه بتراجم المالكية وتتبع أخبارهم وأحوالهم وإنتاجاتهم، وعنايته بـ "مختصر الشيخ خليل" وتتبع شروحه والتعليق عليها خير ما

(181/1)

نتمثَّلُهُ في هذا البعد المذهبي، بل إن الكتب التي كانت متداولة في المدارس كتب مالكية صرفة: كتب عياض،

وسحنون، وشروح ابن القاسم، وخليل، و"مدونة" مالك، وكتب المغيلي والونشريسي، و"موطأ" مالك، و"تحفة" ابن عاصم. كل ذلك يبين مدى التأثير الذي تركه المغاربة في تطبيع الثقافة في غرب إفريقيا بطابع الفقه المالكي.

... ويتجلى هذا البعد المذهبي في الرسالة من خلال الفتاوي التي بنى عليها أحمد بابا رأيه في مسألة «جلب الرقيق»، وكلها فتاوى صدرت عن فقهاء مالكيين مشهورين من أمثال: أبي الأصبغ عيسى بن سهل صاحب

(182/1)

"الإعلام بنوازل الأحكام" وابن لبابة وسحنون، ومحمد بن الوليد، ويحيى بن عبد العزيز، وابن زرب، وابن إسحاق إبراهيم بن هلال السجلماسي صاحب "النوازل". وتردد فيها النقل عن "المدونة" للإمام مالك مباشرة. وليس ذلك غريباً، فقد تشرب ينابيع هذه الثقافة الفقهية ونهل من معينها على يد فقهاء مغاربة وسودانيين كبار يأتي على رأسهم شيخه محمد بن محمود التنبكتي المعروف ببغيع: لازمه أكثر من عشر سنين، فقرأ عليه بلفظه "مختصر خليل فرعيّ ابن

الحاجب" قراءة بحث وتحقيق وتحرير؛ أما "خليل"، فمرات عديدة، وحضر عليه "التوضيح"،

(183/1)

وختم عليه "الموطأ"، ودرس كثيراً "المنتقى" و"المدونة بشرح المحلي"، و"تحفة الحكام" لابن عاصم. وكلها مدونات فقهية مالكية صرفة(1).

... ولشدة ولعه بالفقه المالكي وتعلقه بأصوله وأمهاته، نجده يواخذ المغاربة على شدة تعلقهم بـ"المختصر" وقلة عنايتهم بابن الحاجب و"المدونة"، بل قصاراهم "الرسالة" و"المختصر". واعتبر ذلك من علامة دروس الفقه وذهابه. ومع ذلك، نجده يصرف عنايته كذلك إلى "المختصر" ويضع شرحاً عليه، »جمع فيه لباب كلام من وقف عليه من شراحه، وهم أزيد من عشرة، مع

---

(1) نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص. 602.

(184/1)

الاختصار والاعتناء بتقرير ألفاظه منطوقاً ومفهوماً وتنزيله على النقول.. «(1).

... 3 ـ البعد الثقافي. ويرتبط هذا البعد بما قبله، إذ لعب الفقه المالكي دوراً أساسياً في تشكيل الثقافة الإسلامية في هذه البلدان وصبغها بصبغته المذهبية، وتوجيهها بأصوله النظرية.

---

(1) المصدر نفسه، ص. 171. وللمزيد من التفصيل في هذا الموضوع، راجع رسالة الباحث صالح أكنوي المشار إليها سابقاً، خاصة الباب الثاني والثالث منها، خصصهما للحديث عن انتشار المذهب المالكي في نيجريا وأثره في الحركة العلمية.

(185/1)

... ويبدو هذا البعد من خلال رسالة أحمد بابا التمبكتي في ناحيتين:

... الناحية الأولى: الصلات العلمية التي كانت قائمة بين علماء المغرب وعلماء السودان الغربي، عن طريق تبادل الأفكار والكتب والاستفسار عن حكم ما يظهر من الوقائع والنوازل والقضايا بين الجانبين، منها هذه القضية التي عمت بها البلوى وانتشر فسادها في ذلك الوقت فاستدعى الأمر الإجابة عنها. وكان السؤال آتياً من الشمال موجّهاً إلى أهل الجنوب من بلاد السودان، وقد

خاطبهم السائل بخطاب يدل على التقدير والاحترام والمكانة التي للعلماء بهذه المنطقة

(186/1)

والصدى العلمي الذي كانوا يحظون به. وقد حرره بقوله: »إلى الفقهاء الجلّة الأعيان، ومصابيح السودان، ممن له في المسألة التبصرة والبيان...«.

... الناحية الثانية: ما تضمنته الرسالة من إشارة إلى علمين من أعلام تنبكت، وهما: الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت، قال عنه: »سيدنا الفقيه البركة القدوة«؛ والفقيه مخلوف بن علي بن صالح البلبالي، قال عنه: »الفقيه الحافظ الشيخ«. وقد كان للثقافة العربية والبيئة العلمية بمراكش أثر كبير في التكوين العلمي والتحصيل الدراسي للفقيهين: فالأول كان من قضاة تنبكت العلماء،

(187/1)

اشتهر علمه وصلاحه، وذاع صيته في الآفاق، وكان يقرئ "المدونة" و"الرسالة" و"السلالجية"، وعنه اشتهر قراءة

خليل هناك، فقيد فيه شرحاً كبيراً في سفرين، وعنه أخذ والد أحمد بابا، توفي سنة 955 هـ(1). والثاني: أخذ العلم بولاتن، ثم سافر إلى المغرب حيث لقي ابن غازي وغيره، فأخذ عنه وانتشر علمه واشتهر بقوة حافظته. دخل تنبكت ودرس بها، وحنّ إلى المغرب فشد الرحال إلى مراكش. (ت 1533 هـ) (2).

---

(1) نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص. 607، رقم 746.

(2) المصدر نفسه، ص. 608، رقم 747.

(188/1)

... ونستخلص منه أن التفاعل الثقافي بين المغرب وبلاد السودان كان قويّاً وعميقاً، يشهد له انتقال علماء من المغرب وغيره من الأقطار العربية إلى المدارس والجوامع التي قامت بهذه البلاد، وانتقال الدارسين منها إلى معاهد العلم المغربية. وكان من نتائج هذا التفاعل ظهور علماء كبار تركوا بصماتهم على الحياة الثقافية في كل من البلدين، ومنهم: الشيخ أحمد بابا صاحب الرسالة.

... وفي إطار هذا التفاعل يتحدث البعض عن ثقافة

سودانية ذات طابع مغربي بحت نتيجة لوضع طبيعي جعل من المغرب البوابة الرئيسة التي دخل منها

(189/1)

الإسلام وتغلغل في ربوع الأقطار الأفريقية المجاورة له منذ القرن الخامس الهجري، وما تبعه من ثقافة ذات جذور مغربية، حتى إن المدارس في هذه الأقطار تكاد تكون مدارس مغربية صرفة، كأننا في فاس أو مراكش، ونماذج التآليف نماذج مغربية الصورة(1). يقول الدكتور حسن أحمد محمود: »كانت الثقافة في غرب إفريقية مغربية في أرض سودانية« (2).

---

(1) الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، مصدر سابق، ص. 244.

(2) المرجع نفسه، ص. 245.

(190/1)

... ويشبّه البعض دور المغرب الحضاري في هذه البلدان في كثير من مظاهره بدور مصر في السودان الشرقي وشرق إفريقية. فعبر مسالكه ومراكزه الثقافية

والتجارية بسجلماسة وتوات وتلمسان وتندوف ووادان وشنقيط وولاته، عبرت جموع التجار المغاربة والعلماء والصلحاء ورجال السياسة إلى الممالك الزنجية داعين إلى الإسلام... ومن تنبكت وكاو وجنى ومالي انتقل إلى مراكش وفاس عدد من العلماء والطلبة لتعميق معارفهم والاتصال بإخوانهم في الأقاليم الشمالية(1)

---

(1) محمد الظريف، »التواصل الثقافي بين المغرب والسودان«، ضمن ندوة أحمد بابا، ص. 59.

(191/1)

.

... ولم تكن الثقافة في غرب أفريقيا أقل غزارة وعمقاً من الثقافة في بلاد المغرب، ولم يكن العلماء والفقهاء الذين تعرضت لهم كتب التراجم أقل في مستواهم العلمي من إخوانهم المغاربة. فالتفاعل والتواصل والتلاحم بين الأقطار الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى كان عميقاً وقويّاً ظهرت فيه عناصر التأثير والتأثر من الجانبين على مستوى الكتب والبرامج وطرق التدريس والقضايا التي كانت تثار في المجالس العلمية. وكان الإسلام يطعم هذا التفاعل والتواصل

بعناصر حضارية في التفكير والسلوك والعمل من أجل القضاء على

(192/1)

رواسب الوثنية وإدماج الحضارة الأفريقية في إطار الحضارة الإسلامية الكبرى بعد أن عدلتها وهذبتها وقومتها لتصبح عنصراً فاعلاً في هذه الحضارة.
... وليس غريباً أن ينعكس ذلك على الأدب الإفريقي الحديث، وفي أعمال المهتمين بقضايا التراث والباحثين عن الأصالة والإبداع. ولعل هذا يؤكد موقف كتاب الرواية الأفريقية من الإسلام، إذ أنهم لا يعتبرونه ديناً دخيلاً على القارة الأفريقية، بل إن الإسلام يبرز في عدد من الروايات الأفريقية. وقد اختلط بالديانات والتقاليد الأفريقية القديمة اختلاطاً طبعه بطابع مميز دون أن يخل

(193/1)

بمبادئه الأساسية. وتشير الأبحاث التي أنجزت في الساحل الإفريقي الشرقي وبعض بلدان غرب إفريقية

مثل غانا وساحل العاج وغامبيا والسنغال وغيرها إلى أهمية الثقافة الإسلامية العربية وأثرها في الإنتاج الأدبي. ليس هذا فحسب، بل تعداها هذا الأثر عبر المحيط الأطلسي ليترك بصماته واضحة على الأدب الزنجي الأمريكي، كما يظهر بجلاء في الفصول الأولى من كتاب "الجذور" (Roots) لأليكس هيلي (Alex Haley) ـ طبع في بريطانيا 1977. وهكذا نجد من بين كتاب الرواية الأفريقيين والمفكرين السود من الأمريكيين من يعتبر الإسلام عنصراً

(194/1)

أساسياً في الثقافة التقليدية للوطن المفقود ـ أفريقية السوداء ـ التي يحاولون استردادها من خلال البحث عن الأصالة الثقافية والروحية.

... ونختم بالقول إن الحركة الثقافية والحضارية في بلاد السودان لم تكن في الواقع مجرد تجديد لتراث ثقافي وحضاريّ بائد، وإنما كانت انفراجاً لثقافة إسلامية راسخة في هذه البلاد منذ القرن الخامس الهجري (11 م)(1).

المصادر والمراجع

الآبي، شرح الآبي على صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت.

---

(1) فاي منصور علي، اسكيا الحاج محمد وإحياء دولة السنغاي الإسلامية، ص. 196.

(195/1)

أحمد بابا التمبكتي، بحوث الندوة التي عقدتها الإيسيسكو بمناسبة مرور أربعة قرون ونصف على ولادته . 1991 م، منشورات المنظمة الإسلامية الإيسيسكو، 1414 هـ/ 1993 م.

أكنوي، صالح، المذهب المالكي في نيجيريا، رسالة دبلوم بدار الحديث الحسنية.

الألوري، آدم عبد الله، الإسلام في نيجريا، طبعة القاهرة، 1951 م.

الأفراني، محمد الصغير، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، طبعة حجرية.

...، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، مكتبة الطالب، ط 2، الرباط

(196/1)

أبو الأصبغ عيسى بن سهل، الإعلام بنوازل الأحكام، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، 1728 د.

بنعبد الله، عبد العزيز، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية ـ معلمة الصحراء ـ ملحق 1، وزارة الأوقاف، 1396 هـ/ 1976 م.

بروفنصال، ليفي، مؤرخو الشرفاء، تعريب عبد القادر الخلادي، منشورات دار المغرب، 1397 هـ/ 1977 م.

البرتلي، محمد بن عبد الله، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق الكتاني ومحمد حجي، بيروت، 1981 م.

(197/1)

الجارمي الغاني، محمد بن إبراهيم، تنبيه أهل الطغيان على حرية السودان، مخطوط بمكتبة عبد الله كنون، رقم: 10443.

جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية، دار الفكر العربي، 1416 هـ/ 1996 م.

جماعة من الفقهاء، أجوبة في شأن القوانين العرفية،

مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم: 5813.

وافي، علي عبد عبد الواحد، الحرية في الإسلام، دار المعارف، مصر، 1968.

الوزاني، محمد المهدي، النوازل الصغرى (المنح السامية)، طبعة الأوقاف، 1412 هـ/ 1992 م.

(198/1)

...، النوازل الجديدة الكبرى، طبعة الأوقاف، 1996 و1997 م.

حجي، محمد، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، دار المغرب، 1396 هـ/ 1976 م.

حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، دار الفكر العربي، 1986 م.

الحفناوي، أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، مؤسسة الرسالة، 1402 هـ/ 1982 م.

الطبراني، أبو القاسم، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

الطبري، أبو جعفر، تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1403 هـ/ 1983 م.

(199/1)

مجلة أبحاث، عدد 26، ربيع 1991 م.

مجلة البحث العلمي، السنة 3، العدد 26، يوليوز ـ دسمبر، 1970 م.

مجلة دار الحديث الحسنية، العدد الخامس، 1406 هـ/ 1985 م.

مجلة كلية الآداب بالرباط، العدد 15، 1989 ـ 1990 م.

مدونة الإمام مالك، طبعة السعادة، مصر.

محمد بلو بن عثمان بن فودي، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، دار الشعب، القاهرة، 1964 م. وتحقيق بهيجة الشاذلي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1996 م.

محمد بن مخلوف، شجرة النور الزكية، دار الفكر.

(200/1)

المنوني، محمد، المصادر العربية لتاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1410 هـ/ 1982 م.

المرابط الترغي، عبد الله، حركة الأدب في المغرب على عهد المولى إسماعيل، أطروحة جامعية بكلية الآداب بتطوان، 1991 ـ 1992 م.

المراكشي، العباس بن إبراهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، المطبعة الملكية، 1974 م.

الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، البيضاء، 1955 م.

نويهض، عادل، معجم أعلام الجزائر، المكتب التجاري، بيروت، 1971 م.

(201/1)

السوسي، محمد المختار، المعسول، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1370 هـ/ 1960 م.

...، خلال جزولة، المطبعة المهدية، تطوان.

السيوطي، جلال الدين، أزهار العروش في أخبار الجيوش، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، 1054 ك

السلمي، أبو العباس أحمد بن محمد بن الحاج، الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر مولانا الحسن، مخطوطة مصورة عن النسخة الموجودة بالخزانة الحسنية رقم: 12184.

السعدي، عبد الرحمن، تاريخ السودان، نشر هوداس، باريس، 1898 م.

(202/1)

التاريخ وأدب النوازل ـ دراسات مهداة لمحمد زنبير، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1995 م.

العبادي، الحسن، فقه النوازل بسوس ـ قضايا وأعلام، أطروحة الدكتوراه، دار الحديث الحسنية، 1994 م.

عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقيا الغربية، طبعة 1961 م.

العلمي، عيسى بن علي، النوازل، طبعة وزارة الأوقاف، 1406 هـ/ 1986 م.

العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، المكتبة السلفية.

عثمان بن فودي، بيان وجوب الهجرة على العباد، وبيان وجوب نصب الإمام وإقامة الجهاد، ترجمة وتحقيق فتحي حسن

(203/1)

مصري (رسالة دكتوراه)، الخرطوم، 1977 م.

ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح. كولان وبروفنصال، دار الثقافة، بيروت، 1983 م.

فاي منصور علي، أسكيا الحاج محمد وإحياء دولة السنغاي الإسلامية (989/ 835 هـ)، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية الليبية، ط 1، 1997 م.

الفشتالي، عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، طبعة الأوقاف.

القادري، محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، دار المغرب، 1397

(204/1)

هـ/ 1977 م.

القرافي، أبو العباس أحمد، الفروق، عالم الكتب، بيروت.

الأزاريفي، محمد الشابي، المنهل العذب السلسبيل، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1400 هـ/ 1980 م.

شلبي، أحمد، مقارنة الأديان، ج 3، ط 6، القاهرة، 1979.

التمبكتي، أحمد بابا، معراج الصعود، نسخة مخطوطة خاصة والنسخ المذكورة في البحث.

..، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989 م.

ابن خلدون، تاريخ العلامة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، 1983 م.

(205/1)

الغربي، محمد، بداية الحكم المغربي في السودان

الغربي، مؤسسة الخليج، الكويت، 1982 م.

(206/1)

أبو الحسن الماوردي: المشرع القانوني والمفكر

السياسي ... ...

الدكتور سعيدبنسعيد العلوي

كلية الآداب –الرباط

تجتمع في الكتابة السياسية لأبي الحسن الماوردي

صورة الفقيه ومنهجه في المعالجة والتحليل، وصورة

المفكر الأشعري وطريقته في النظر والاستدلال .

فالماوردي إذن يقدم لنا النموذج الكامل لما يمكن أن

ننعته، بحق، الخطاب السياسي الفقهي كما أنه يصور

لنا ، في الوقت ذاته ، ما بلغه النظر السياسي في الإسلام

عامة وما انتهت إليه النظرية الأشعرية من تطور خاصة .

ولكن إذا كانت شخصية "الفقيه " موضوع إجماع

(207/1)

وموافقة، من طرف دارسي الماوردي وقارئيه، فإن صورة المفكر " الأشعري" هي مثار جدال واعتراض. فهذا صاحب " تاريخ بغداد "، وهو من تلاميذ الماوردي المباشرين بل وربما أقدم من ترجم له يصفه بأنه " كان من وجوه الفقهاء الشافعيين وله تصانيف عدة في أصول الفقه وفروعه ، وفي غير ذلك "(1) . وهؤلاء فقهاء المالكية في المغرب والأندلس، وهم أكثر ما يكونون ابتعادا عن الشافعية والأخذ بها، قد درجوا ، خلال قرون عديدة ، متصلة، على اعتباره أحد

(1) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، الجزء الثاني، مكتبة الخانجي، 1931، القاهرة.

كبار الفقهاء بإطلاق وساروا على اعتبار " الأحكام السلطانية " عمدة في القضايا التي تتعلق بأحكام الأرض وقوانينها وكذا بأحكام الحسبة وما يتعلق بها. ولكن صاحب " طبقات الشافعية "، إذ يفرد للماوردي ترجمة مستفيضة ويذكر ما يفيد أنه كان إماما في

المذهب الشافعي في عصره يجد في بعض أقوال الفقهية وآرائه حرجا يتعذر عنه، فهو يدعو إلى تبديد " التهمة" التي ألحقها البعض به فيكتب " ثم هو ليس معتزليا مطلقا فإنه لا يوافقهم في جميع أصولهم مثل خلق القرآن، كما دل عليه تفسيره في قوله عز وجل { ما يأتيهم من ذكر من ربهم

(209/1)

محدث } وغير ذلك، ويوافقهم في القدر، وهي البلية التي غلبت على البصريين وعيبوا بها قديما "(1) . ومغزى هذا الاعتذار، وكما هوبين،هو القيام بنوع من تبرئة الذمة والدفاع عن شرعية الصدارة للفقيه الشافعي في الدائرة الفقهية السنية – وهذا مالا يستقيم مع ظهور علامات انتساب ما إلى مذهب الاعتزال. والحق أن الرجل كان أبعد ما يكون عن الاعتزال في آرائه التشريعية، على نحو ما سنرى ذلك، بل إنه كان أشعري

---

(1) تاج الدين السبكي،طبقات الشافعية، الجزء الثاني، صص . 303، 313،المطبعة الحسنية المصرية، الطبعة الأولى (د .ت).

(210/1)

الفكر والعقيدة – وهذه مسألة لها أهميتها القصوى بالنسبة لفهم فكر الماوردي السياسي بقدر ما لها قيمتها بالنسبة لإدراك معنى النظر السياسي السني وتطوره في الإسلام. ولكن، قبل أن نبسط القول في هذه القضية بعض البسط، لابد لنا من وقفة قصيرة نوضح فيها ما نراه من صلة بين الفقه والسياسة في الإسلام وأخرى عندما نعده خصائص عامة للنظر السياسي الأشعري، وما نرى فيه مفاتيح تمكننا من ولوج فكر الماوردي وعلمه الفسيح في السياسة والأخلاق.

1- الفقه والسياسة

(211/1)

لأبي حامد الغزالي تمييز شهير بين فن الفقه ونظر الفقيه من جهة أولى، وفن السلوك أو المعاملة وعمل المرشد الروحي من جهة ثانية – ومسائل الدين ، ما تعلق منها بالعبادات والعادات على السواء، تكون موضعا للنظرين ومدعاة لموقف كل من الفقيه والمرشد. فالصلاة مثلا سلوك تعبدي وتعبير عن الصلة التي تقوم بين

المؤمن وخالقه فهي تستدعي ، لذلك كله، ما تستدعيه هذه المناجاة من خشوع وذل، وتتطلب ما تتطلبه من حضور قلب وصدق باطن . ولكن الصلاة، مع ذلك، مجموعة حركات وأعمال تضبطها جملة من القواعد والأحكام الدقيقة التي تكون في

(212/1)

مراعاتها صحتها وفي الإخلال بها فسادها ولا مدخل في ذلك كله لقب أو باطن . ذلك مجال فن الفقه ونظر الفقيه. والفقيه يفتي بالصحة في صلاة المصلى متى أتى هذا الأخير" بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط وإن كان غافلا في جميع صلاته من أولها إلى آخرها مشغولا بالتفكير في حساب معاملاته في السوق إلا عند التكبير" . وبالتالي فإن نظر الفقيه ، هو في الأحوال التعبدية كلها، " مرتبط بالدنيا التي بها صلاح طريق الآخرة (...) لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة" (1)

---

(1) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، الجزء الأول،ص. 18،المعرفة للطباعة والنشر ببيروت .

(213/1)

فهو، في هذا الحال، يمثل النقيض الموضوعي للمذهب الروحي. الفقيه، بطبيعة فنه، أوثق ما يكون صلة بعالم الدنيا ونظره يتعلق بسلوك الناس وما ينشأ بينهم من نزاع، بحكم ما يحركهم من غرائز وأهواء، وما يقوم بينهم من خصومات، بسبب ما يدفع إليه التنافس والاختلاف في المصالح. وبالجملة فإن الفقيه، عند الغزالي، هو " العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات" مثلما كان "حاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة"(1) . ولو شئنا أن نجد لهذه الصلة التي تقوم بين الفقه

(1) المرجع السابق،ص. 17

(214/1)

والسياسة معنى آخر يعبر عنها، في سياق الفكر السياسي في الإسلام، لقلنا عن تلك الصلة إنها فن التدبير : تدبير شؤون الخلق، وتدبير أمور الرئاسة والسلطة. ذلك ما نجده في كتابات ابن المقفع وابن قتيبة والثعالبي وغيرهم ممن نظروا في الآداب

والنصائح السلطانية . ولكن إذا كانت هذه النصوص الشهيرة تشير، هي وغيرها مما لم نذكره، إلى أطور قد مر بها مصطلح " التدبير" فإن توضيح المعنى عند الفقيه يفيدنا فيه أن نقف، وقفة إيجاز واختصار، عند المعنى الذي يفيده " التدبير " عند فلاسفة الإسلام.

(215/1)

لا يحسن " تدبير الأمة" عند أبي نصر الفارابي إلا متى حسن تدبير أمور " الرئاسة" : فالرئاسة الفاضلة شرط في الاجتماع الفاضل وفي الأمة الفاضلة. ولذلك فإن الوصول إلى "المدينة الفاضلة " ، أي ذلك الاجتماع البشري الأمثل الذي تعم فيه العدالة وتتحقق السعادة وتهيمن الحكمة والفضيلة، لايحصل إلا لمن أدرك نظام العالم وحسن تدبيره من جهة أولى، ووقع على الكيفية التي قدربها " مدبر العالم" على الحصول على الوحدة وإن بدت الكثرة، وعلى التوافق والانسجام وإن بدا النفور والاختلاف. ذلك أن الاجتماع البشري لا يكون فاضلا حقا

(216/1)

إلا إذا كان على غرار نظام العالم وحسنه، وأن الرئيس لايكون فاضلا حقا إلا متى أمكنه أن يتأسى بعمل "مدبر العالم". والنتيجة المنطقية لهذا النحو من النظر إلى الأمور هي، كما يعلم قراء الفاربي، لزوم الاقتران بين الفلسفة والسياسة أو بين الفلسفة والرئاسة: " يلزم أن يكون الرئيس الأول للمدينة الفاضلة قد عرف الفلسفة النظرية على التمام لأنه لا يمكن أن يقف على شيء مما في العالم من تدبير الله تعالى حتى يتأسى به إلا من هناك"(1)

---

(1) أبو نصر الفرابي، كتاب الملة ، ص. 66،تحقيق محين مهدي، دار المشرق، 1968، بيروت .

(217/1)

الفلسفة شرط ضروري وكافي لاقتدار " مدبر الأمة (وهو الرئيس الفاضل) على اكتناء سر عمل " مدبر العالم" (وهو الله) من جهة أولى، ولاستطاعة إقامة تناظر بين " تدبير العالم" (وهو الكون في تعدده واختلاف موجوداته وكثرتها) و" تدبير الأمة" (علامة الاجتماع البشري والحاصل عنه) . وهكذا فإن التدبير لا يكون مجرد اقتران بين الفلسفة والسياسة بل هو تداخل وتفاعل ،

وحضور قوي حاسم ومهيمن للفلسفة في السياسة.

نعتقد أن معنى التدبير في الفقه وعند الفقيه يصبح أكثر وضوحا وجلاء بالمقارنة مع المعنى الذي يتخذه في الفلسفة

(218/1)

السياسية وعند الفيلسوف في الإسلام.ولعل الفرق يكون أكثر ما يكون جلاء في المقارنة بين من كان يريد أن يأتسي بالإله ويجري في الأمة ما يجريه في العالم، وبين من كان منشغلا بالمناحي العملية التطبيقية لأحكام الشريعة ومقتضياتها. فحيث كان نظر الفيلسوف يتعلق بالتأمل والتفكير كان نظر الفقيه ينصب على التشريع والتقنين والعمل ، وحيث كان الفيلسوف ، في " المدينة الفاضلة "، لا يرى مكانا في الرئاسة لغيره بل ولا يفهم كيف تفصل الفلسفة عن الرئاسة، "كان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم(1)

---

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين،سبقت الإشارة إليه، ص. 17.

(219/1)

2-الفكر السياسي الأشعري

يشير ظهور المذهب الأشعري في القرن الهجري الرابع ، وتطوره في القرن الهجري الموالي على الخصوص، إلى حصول جملة من التحولات السياسية والاجتماعية والفكرية في بلاد المشرق العربي وهي التحولات التي كانت الأشعرية تعبيرا عنها. وإذا كان الإسهاب في الحديث عن هذه التحولات مما لا يحتمله المقام فإن الإشارة الخفيفة إلى ذلك، على النحو الضروري لفهم الأشعرية، مما يستعيد حسن الفهم مع ذلك ولعل ما نريد قوله في هذه الإشارة هو أن الأشعرية لا يمكن تحديدها في معارضتها بالأقوال الاعتزالية وأنه لا

(220/1)

يكفي في تفسير نشأتها أن نرجع إلى رواية أبي الحسن الأشعري الشهيرة في انفصاله عن مذهب الجبائي، الزعيم المعتزلي، وسعيه لتأسيس قول جديد في الذات والصفات، والإرادة والأفعال البشرية وما إلى ذلك ذلك أنه مهما يكن من شأن التعارض الموجود بين الأشعرية

والاعتزال، ومهما يكن من الاختلاف بينهما في القضايا الكلامية المحورية، أحيانا كثيرة، فإن الاختلاف الحقيقي والعميق أو التناقض الرئيسي، كما يقال في اللغة السياسية اليوم، هو ذلك الذي يقوم بين الأشعرية وبين الشيعة الباطنية . وهذا ما أدركه الغزالي وعبر عنه في

(221/1)

جملة من كتبه الشهيرة مثل "فضائح الباطنية"، و "القسطاس المستقيم"، "فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة "، فضلا عن" الاقتصاد في الاعتقاد" و" مقدمات تهافت الفلاسفة". وذلك ما بينه أبو منصور البغدادي في " الفرق بين الفرق ". فإذا كان القول يصدق بأن الأشياء تتوضح بأضدادها، فإن ذلك يصدق في حق الأشعرية ، متى عارضناها بالأقاويل الباطنية. ولكن هذا التناقض والتصارع الذي قام بين الفريقين (ولا يزال قائما حتى اليوم) إنما هو تعبير عن تاريخ طويل وحافل من الصراع بين أهل السنة وخصومهم من جهة أولى وبين الخلافة

(222/1)

العباسية وخصومها من جهة ثانية. فالخلفاء العباسيون، ابتداء من المأمون، وانتهاء إلى القادر بالله عمدوا، تحت ضغط الأحداث السياسية، إلى اتخاذ عدد من المواقف السياسية والإعلان عن عدد من العقائد (أو "السياسات الدينية" كما يدعوها أحد المؤرخين المختصين في التاريخ العباسي)– وقد اختلفت تلك المواقف، في زمان قوة الخلافة العباسية، بين تبني الاعتزال مذهبا رسميا للدولة(وتلك هي السياسة التي سار عليها كل من المأمون، والواثق ، والمعتصم)، ثم الأخذ بالمذهب المناقض له حقيقة، وهو المذهب الحنبلي (وذلك ما قام به

(223/1)

المتوكل بالفعل، فوصف المؤرخون عمله بأنه " انقلاب سني"). وأخيرا عمدت الخلافة العباسية، وقد انتعشت بل وابتعثت بعثا جديدا في أيام القادر، إلى اعتناق العقيدة التي أعلنها أبو الحسن الأشعري وعمل على تطويرها، بعد ذلك، ثلة من الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة الذين تم على يدهم تطوير المذهب الأشعري في شتى مناحية الكلامية، والأصولية، والأخلاقية،

والسياسية –(والماوردي في عدادهم بطبيعة الحال) .
ظلت الأشعرية، وكما هو طبيعي وضروري في المذاهب السنية جميعا، تأخذ عن الحنبلية والحنابلة بشرط غير يسير، وظل زعماء

(224/1)

الحنابلة يعتبرون ما أقره الإمام أحمد في العقائد أساسا في الاعتقاد وعمادا للرأي المختار في القضايا الكلامية، ولكن الأشعرية استطاعت أن تتمثل وتستوعب من "علوم الأوائل" شيئا غير يسير، وأن تقتبس، في مجال الأخلاق والسياسة، ما اغتنت به مما انتهى إلى الثقافة العربية الإسلامية من آداب الفرس، وحكمة الهند، ومنطق اليونان. وبالتالي فقد كانت الأشعرية تعبر عن ثلاثة حقائق. أولاها هي ما انتهى إليه التطور الداخلي للمذهب السني وقد اغتنى وتطور بفعل الصراعات السياسية مع الشيعة الباطنية. فالأشعرية هي التعبير الأمثل

(225/1)

عن أهل السنة ابتداء من القرن الهجري الرابع، وذلك بفضل ما اقتدرت على احتوائه من أقوالهم في العقيدة والسلوك وثانيهما ، وهي صادرة عن الأولى ونتيجة لها ، هي أن الأشعرية كمذهب فكري كان له قول واضح في الكلام ، وآخر في أصول الفقه، وثالث في الأخلاق، ورابع في السياسة، وخامس في التصوف... وهكذا ، إنما هي تعبير عن الثقافة العربية الإسلامية في المنظور السني . وثالث هذه الحقائق ، هي أن الأشعرية أمكنها أن تقدم للخلافة العباسية الصيغة الإديولوجية المناسبة لها، والشكل التعبيري الملائم لطبيعة تطور الدولة في

(226/1)

الإسلام وما انتهى إليه البحث عن الصيغة الملائمة في السلطة والحكم . ومن مجمل هذه الحقائق نخلص إلى أن الصلة بين الأشعري والسياسة تمتد لأكثر من سبب وتقوم لأكثر من علة وطريق، وإذ تبين هذا علينا الآن أن نتوقف ، برهة أخرى، فنجمل القول في مبادئ النظر السياسي الأشعري وكلياته.

والمبادئ العامة للفكر السياسي عند الأشاعرة تتقرر في أصول الدين فهو "العلم الكلي من العلوم الدينية" وهو "المتكلف بإقبات العلوم الدينية كلها" كما يقول

زعيم الأشاعرة أبو حامد الغزالي في مقدمة "المستصفى" ووجه الصلة بين الدين والفكر.

(227/1)

السياسي هو ما تعكسه الصلة بين الفقه والسياسة على نحو ما أشرنا إليه أعلاه، وهو ما يعبر عنه عموم الأشاعرة في قولهم عن الإمامة العظمى (أو الخلافة) إنها خلافة النبوة في أمور الدين والدنيا معا. وأولى الكليات أو المبادئ العامة التي يقررها علم الكلام الأشعري هي أن معرفة الله إذا كانت تحصل، حقيقة، بالفعل إلا أنها لا تجب إلا بالشرع. فمعرفة الله لا تحصل إلا عن طريق النظر والاستدلال ولذلك فإن تلك المعرفة تفيد القطع وتنفي كل احتمال وظن ، والأشاعرة يوافقون كلا من المعتولة والحنابلة في القول، بأن " النظر

(228/1)

المؤدي إلى معرفو الله هو أول ما أوجبه الله على العاقل ". ولكن الوجوب الشرعي وما يتبعه من عمل وواجبات لا يكون إلا مع ورود الشرائع وعلى النحو الواضح الذي يقره

القرآن الكريم { وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا } (الإسراء: 15) . ولذلك فإن القول بالحسن والقبح العقليين قول لا يتوافق مع العقيدة الأشعرية . والتأويل السياسي لهذا المبدأ الكلي عند الأشاعرة هو أن الإمامة ، وإن كان العقل يقر بوجوبها، إلا أن مدرك وجوبها الحقيقي هو الشرع " قد وردت الشريعة بأحكام لا يتولاها إلا إمام أو حاكم من قبله كإقامة الحدود

(229/1)

على الأحرار..." وحقيقة الإمامة أنها " شريعة من الشرائع يعلم جواز ورد التعبد بها بالعقل ويعلم وجوبها بالسمع" (1) وثاني الكليات التي تتقرر في أصول الدين هي اعتبار ان ما يصله إلينا من خبر متواتر يفيد فيها المعرفة القطعية التي لا سبيل إلى التشكك فيها. إذ بالخبر المتواتر يتقرر المنقول وتثبت أحكام الشريعة. وعن طريق الخبر المتواتر والقول بسلطته العملية المطلقة يتقرر، في أصول الفقه وجوب القول بالإجماع والعمل بموجب أحكامه في

---

(1) عبد القاهر البغدادي، أصول الدين، ص. 272، دار الكتب العلمية، 1981،بيروت.

(230/1)

المرتبة الثالثة مباشرة، بعد الكتابة والسنة – وأما التأويل العملي للقول بأن الخبر المتواتر يفيد العلم القطعي ويوجب العمل به بالتالي فهو ما نجدع لاحقا من أن القوانين السياسية "والأحكام السلطانية " تقوم كلها في الرجوع إلى سلطة الإجماع.

فالأشعرية تحكم سلطة الخبر المتواتر وتقول، تبعا لذلك، بقوة الإجماع وحجيته حين تذهب إلى القول بأن نصبة الإمام تكون بالاختيار الذي يحصل عن طريق الإجماع . وكل الحجج التي تسعى بها إلى إبطال آراء الشيعة (الباطنية خصوصا) في القول بالعهد أو الوصية، عهد الإمام إلى شخص آخر من

(231/1)

بعده(وبالتالي إبطال القول بالاختيار) ، وكذا آراؤها في القول بعصمة الإمام، هي في الواقع حجج يؤسسها، من الناحية المنطقية، ما يفيده العمل بموجب مبدأ الإجماع.

والأشعرية عندما تعرض لآرائها في باقي العناصر التي تتكون منها نظرية الإمامة (جواز إمامة المفضول مع

وجود الأفضل، منع قيام أكثر من إمام واحد في الوقت الواحد، القول بصحة خلافة الخلفاء بعد النبي حسب الترتيب الذي وردوا فيه) فهي تقوم في الواقع بقراءة لتاريخ الإسلام قراءة يحكمها مبدأ الاجماع وسلطته من جهة أولى كما أنها تمارس، في المستوى النظري

(232/1)

الكلي، مستوى " العلوم أن الأعلى في الرتبة" أو علم أصول الدين. ولذلك فإنه لأمر طبيعي أن يجد الدارس اليوم أن كبار من عرضوا للمسألة السياسية في المذهب الأشعري، بل في المذاهب السنية إجمالا، كانوا من كبار المتكلمين (الأشعري، الباقلاني، البغدادي).

نعم، كان من ذكرنا من كبار المتكلمين حقا ولكن هذا الأمر كانت له نتيجته الحتمية وهي أن معالجة المسألة لم تمكن من مجاوزة دائرة الكلام والجدل، تقرير المبادئ والكليات العامة التي تلزم الفكرة السياسية، على نحو ما نبهنا عليه في الفقرة السابقة. اعتبار مبحث الإمامة

(233/1)

قسما من أقسام علوم الدين، على نحو ما فعله أبو منصور البغدادي إذ اعتبرها أصلا من أصول الدين، وعلى نحو ما صنعه أبو بكر الباقلاني حيث جعل من القول في الإمامة خاتمة لكتابه الشهير " التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة"

وأخيرا فإن القول في الإمامة ، عن طريق إبطال أقوال الباطنية وإظهار فساد حججها، هو السبيل لا إلى الإعلان عن المعتقد السياسي الأشعري بل إنه الإبانة عن العقيدة الأشعرية برمتها من حيث هي تتحدد في صور الضد والخصم المطلق على نحو ما سيحسن الغزالي الإبانة عنه زمانا

(234/1)

بعد ذلك. ولهذه الأسباب كلها فإن التفكير السياسي الأشعري لم يتمكن من مجاوزة دائرة الكلام وما يستلزمه من جدل وخصومة من جهة أولى، وما يقف به عند حدود المطلقات والكليات من جهة ثانية وبالتالي فقد ظل يدور حول نفسه ولم يقدر على تحقيق قفزة نوعية أو الخطو خطوة إيجابية إلى الأمام. ولكي يخلص من إسار الخصومة والجدل كان لابد له من أن يخوض مغامرة التشريع والتقنين. كان لابد للنظر السياسي المجرد أن

يلتقي مع عمل الفقه والتشريع، وكان لابد للمفكر السياسي أن يزاوج ، في الشخص الواحد، بين الفقيه الشرع والمفكر.

(235/1)

وهذه المرحلة الدقيقة من تاريخ الفكر الأشعري السياسي، لابل من تاريخ النظر السياسي في الإسلام هي التي يعبر عنها فقيهنا الشافعي : أبو الحسن الماوردي . ولكن هذا القول لا يفيد، بالضرورة ، انتساب صاحب" الأحكامالسلطانية" إلى المذهب الأشعري ولذلك فإنه لابد لنا من وقفة أخرى نفحص فيها بحسب ما التزمنا، ما يكشف أشعرية الفقيه الشافعي وكل ذلك في الواقع مزيد من التأهب والاستيعداد لمعرفة الرجل وقراءة فكره.

نقرأ في كتاب " أدب الدنيا والدين"، على وجه الخصوص، أقوال وشهادات عدة تفيد كلها صدور الفقيه الشافعي عن

(236/1)

المبادئ الكلية للمذهب الأشعري. منها، أولا قوله في العقل إنه " هو المدرك للأشياء على ماهي عليه من حقائقب المعنى "، وهو ما تقول به الأشعرية جميعا وما يدعم رأيها في أن العلم هو انكشاف المعلوم بحسب ما هو عليه. وكذا قوله، من بين أقوال عديدة في الواقع، بأن " العقل هو العلم بالمدركات الضرورية". وقد لا تكون لنا حاجة إلى الوقوف عند تمييزه في العقل بين " العقل الغريزي"، واعتباره هو العقل الحقيقي والأساسي، و "العقل المكتسب"، واعتباره نتيجة للأول وثمرة له لمزيد من تبين ذلك في حين أننا نورد له قولة نعتبرها

(237/1)

حاسمة، حيث يوضح مغزى العلاقات بين المعقول والمنقول أو العقل والشرع: "فالعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع، والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل، لأن الشرع لا يرد بما يمنع منه القل، والعقل لا يتبع فيما يمنع منه الشرع،(1) ولربما كان هذا القول من أفضل ما يعبر عن الموقف الأشعري في الصلة بين العقل والنقل . ولو شئنا أن نتوسع في المسألة لعرضنا لرأيه في النبوة ولدللنا على مطابقةه لرأي الأشعرية ومخالفته

(1) أبو الحسن الماوردي، أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا، دار الكتب العلمية، 1978، بيروت، ص.21.

(238/1)

البنية لقول المعتزلة، ولكننا نكتفي بإحالة القارئ إلى كتابه "أعلام النبوة" وشروحه، على وجه الخصوص، للوجوه التي يثبت بها إعجاز القرآن. ثم إننا نذكر له رأيا آخر يبعده عن دائرة الاعتزال والأخذ بما يعد من مبادئه الكبرى وهو إفتاؤه، عند التشريع لولاته القضاء، بمنع هذه الولاية عن من لم يقل بخبر الآحاد . والحق أن أقوى الأدلة على أشعرية الماوردي أولا، ثم على إسهامه الخصب في تطور النظرية الأشعرية والدفع بها نحو ما حقق لها وفيها نقلة نوعية كبرى ثانيا، هو ما ينهى إليه من اقتناع كامل بذلك حين التعرف على

(239/1)

الماوردي معلم السلطان، ثم الماوردي الفقيه المشرع.

3- الماوردي معلم السلطان

قول الغزالي إن " الفقيه هو العالم بقانون السياسة" يسلمه، ضرورة إلى الاستنتاج بأن " الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم باستقامتهم في الدنيا"، لما كان الماوردي قد سبق إلى تقنينه في مؤلفاته التي تدور على قواعد السياسة والعمران وآداب الرئاسة ونذكر ثلاثة منها هي: "نصيحة الملوك"، " تسهيل النظر وتعجيل الظفر" وقد تم تحقيقهما ونشرهما في السنوات الأخيرة فقط)، وأخيرا كتاب " أدب الدنيا والدين" (وقد ظفر

(240/1)

بنشرة محققة منذ الشطر الأخير من الخمسينات). وأول ما يستلفت نظر القارئ هو أن أبا الحسن لا يعتبر ما يكتبه في هذا الباب من كتب النصائح والآداب التي يكون الغرض منها خدمة مصالح الدنيا، أو مجرد هذه الخدمة فحسب. وإنما النصيحة للملوك واجب ديني لأن صلاح العالم، وصلاح الأمة دينها ودنياها، يكون في صلاح الملوك فهو يكتب : "أردنا أن نجعل كتابنا هذا كتابا دينيا، نريهم فيه مصالح معادهم ومعاشهم ونظام ممالكهم وأحوالهم، بكتاب الله رب العالمين، وسنن

الرسول، صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين، والملوك الأولين،

(241/1)

ونحذرهم سوء المصرع ولؤم الميتة وقبح الأحدوثة واستحقاق العقوبة عاجلا وآجلا(1) . والكتاب المقصود بهذا القول هو كتاب " نصيحة الملوك". وأنت عندما تتفحص فهرست الكتاب فإنك تجد فيه بابا يعرض فيه صاحبه للأسباب التي يكون من جهتها الفساد في الملك والممالك، وتجد آخر يتعلق بسياسة الخاصة من الأهل والوالد والخدم والجند، وآخر ينصب على توضيح قوانين سياسة العالمة وتدبير المملكة، وغيره يتعلق بتدبير

---

(1) أبو الحسن الماوردي، نصيحة الملوك،ص .197 ، تحقيق مهد جاسم الحديصي، دار الشؤون الصقافية العامة، 1986،بغداد.

(242/1)

الأموال، وغيره بتدبير الأعداء، فضلا عن فصول في الحديث عن سياسة النفس ورياضها. فإذا تأملت ما

تقرؤه في تلك الفصول، أو في بعضها، فإنك لتجد ذكرا للفرس، ولليونان، وحديثا عن " عهد أردشير" وكتاب" كليلة ودمنة"، وبالتالي فأنت تجد التماسا للحكمة والنوعضة في تواريخ الأمم والشعوب المختلفة، من ملة الإسلام حينا، ومن خارج تلك الملة أحيانا كثيرة.

وبالتالي فإنك تجد ذكرا واستعادة لما يمكن أن تقرأه في " مرايا الأمراء" وكتب النصيحة دون أن يعدها أصحابها كتبا في الدين، ومصنفات في غير ما وضعت لهمن أهداف للسلطان

(243/1)

المسلم أن ينتفع بها كما لغيره من ملوك وحكام أهل الملل المختلفة أن يستفيدا منه، فعلى أي نحو يكون الكتاب هذا كتابا دينيا؟

لا يكفي ، في الإجابة عن هذا السؤال، أن يقول المرء إن الداعي إلى ذلك هو ما يدعو إليه الدين نفسه من وجوب إسداء النصح للملك أو الحاكم فقد لا تعدو النصيحة الدينية التذكر بأوامر الشريعة ونواحيها والتنمية على الأحداث النبوية التي تحث على العدل والإشارة إلى مواطن الأحاديث الأخرى التي تعلن ما يحق للسلطان العادل

أن يطمح فيه من حسن ثواب. بل إن النصيحة، على النحو الذي هي فيه أن يأتي لدرس

(244/1)

البشرية السابقة والأمم الخالية والإفادة من تجاربها، ليس من الشرط فيها أن تأتي على لسان الفقيه أو البصير بأمور الدين، إذ لاربما أجادها المؤرخون والفلاسفة والأدباء على وجه لا يقدر عليه الفقهاء، بل هذه أحاديث الفقهاء في النصيحة تفيض بروايات التاريخ والشعر والحكم. وإذن فلابد من التماس الجواب الملائم في أسباب أخرى قد تكون أقل ظهورا. فلننظر في الأمر عن قرب ولننقب ونفحص فيما يمكن أن يكون ثاويا وراء آداب السلوك والنصائح، ومتخفيا وراء الموعظ والعبر.

(245/1)

يقوم الفقيه بقراءة للتاريخ يستعرض فيها " تجارب الأمم" وينصت إلى أخبار الحكماء والزهاد والملوك الكبار، ولكنه يقرأبعين الفقيه بطبيعة الأمر وينصت بأذن تعودت أن تتصيد من الأخبار والحكايات ما كان ذا فائدة

عملية ومباشرة عنده، كما أن قراءة الفقيه تحركها ضوابط الفقه وقوانينه، وتوجهها الغائية التي يرومها فنه. وإن تكن الغائية في الفقه هي، على حد تعبير الغزالي، " معرفة طرق السياسة والحراسة" فإن الآلية التي توجه عمل الفقيه هي ما اعتاد سمعه أن يلتقطه وما ألفت عينه أن تلحظه ، وهي العمل بموجب مبدأ "القياس" :

(246/1)

قياس الأشباه والنظائر، قياس ما كان مجهولا على ما كان مألوفا معروفا، والقياس هنا يعمل، بطبيعة الحال، في مجال معلوم هو عالم السياسة والأمور المصلحية.

والماوردي يعبر عن معنى" القياس" وممارسته في هذا المجال أفضل تعبير إذ يقول : " علم الدين أصله وطريقه الاستدلال بالشاهد على الغائب، وبالمتفق علسيه على المختلف فيه، وجهه استخراج الرأي هو ما كان علم السياسة على الحقيقة"(1) . القياس هو " استخراج الرأي"، هو ما كان نتيجة نظر وتدبر فهو الثمرة التي يجنيها الناظر وله أن يعمل بها.

---

(1) المرجع السابق، ص.110.

(247/1)

وللنظر منهج معلوم وقواعدمحددة يضبطها المبدأ الكلي العام مبدأ" الاستدلال بالمشاهد على الغائب" : والمستدل عليه، هنا، هو ما كان يعتبر واقعة جديدة أو " نازلة" في لغة الفقهاء مما لم يرد فيه نص صريح من كتاب أو سنة أو يقم عليه إجماع، والمستدل به، هنا بطبيعة الحال، هو ما كان يعتبر قديما مألوفا " جرت العادة" (والعادة مفهوم أصولي أشعري) عليه فكان " متفقا عليه" أو " مجمعا عليه" . والشاهد (أو عالم الشهادة، أو " العالم المعلوم" ، أو الواقع " المتفق عليه"، أو التي أجرى الله العادة بها – فهذه المسميات تفيد

(248/1)

كلها المعنى الواحد)، في مجال النصيحة والبحث عن الموعظة والعبرة، هو ما يمكن أن ندعوه بـ" التاريخ الوعظي" أي التاريخ والبحث البشري وقد أصبح مجالا للنظر وموضوعا للعبرة. هو إذن ما قام به الملوك الكبار، الذين كان لحكمهم شأن ولدولتهم تمكين وقوة ، فهم إذن أفضل القدوة وأحسن المثل. والغائب(أو " النازلة"، أو

المختلف فيه...) هو ما يعاينه الأمير والحاكم من جديد مستمر في شؤون الرياسة وتدبير أمور الخلق. وحيث كان "استخراج الرأي" على هذا النحو هو مما يطيقه الفقيه وحده، متى أمكنه أن يفحص "تجارب الأمم" ويطلع على

(249/1)

حدوث الدول وزوالها ، فإن ما نصير إليه مع الماوردي هو القول بأن " نصيحة الملوك " كتاب ديني (من حيث هو ممارسة للفقه في إرشاد عملي إلى مكامن " المصلحة " ومواطنها، ولكنه إرشاد لا يملكه إلا من أخذ بناصية القياس وملك زمام أمره كاملا.

إذا كنا، بهذه الإشارات إلى " القياس " واستخراج الرأي و بهذا الشرح المقتضب لمبدأ " الاستدلال بالمشاهد على الغائب" قد تبينا بعض التبين مغزى القراءة التي يقوم بها الفقيه الشافعي ولما قلنا عنه أعلاه إنه " التاريخ الوعظي" فإن علينا، أن نتبين نتيجة تلك القراءة. وإذا شئنا

(250/1)

فلنقل في تعبير أخر: الآن وقد وفهمنا " كيف القراءة" فإنه يلزمنا أن نقطف " الثمرة" التي نخرج بها من تلك القراءة .

ينتهي الماوردي من قراءته للتاريخ الوعظي إلى استخلاص مايرىأنه "قواعد الملك" . وهذه القواعد هي على وجهين أو إنها تنشطر إلى شقين متلازمين: شق أول يتعلق بقيام الملك وتأسيسه، وشق ثان يرجه إلى أمور تدبيره أو سياسته: " إن قواعد الملك مستقرة على أمرين: تأسيس وسياسة. فأما تأسيس الملك فيكون في تثبيت أوائله ومبادئه، وإرساء قواعده ومبانيه" . وإذا كان الإرشاد العملي إلى سبل السياسة الحميدة التي

(251/1)

بها يكون استقرار الملك واتصاله هي ما يطلبه السلطان من الفقيه، وكانت معرفة "قواعد الملك" هي ما ينتجه الفقه من نصائح، فإن معرفة الأسباب التي كان بها الملك ملكا وبها قام في أول أمره له ما تلزم معرفته وذلك ما يفرد له الماوردي فصلا مستقلا في كتابه " في أخلاق الملك وسياسة الملك" . نقرأ له : "فأما تأسيس الملك فيكون في تثبيت أوائله ومبادئه وإرساء قواعده

ومبانيه وتنقسم ثلاثة أقسام: تأسيس دين، وتأسيس قوة، وتأسيس مال وثروة(1)

---

(1) أبو الحسن الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفرفي أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق محيي الدين هلال السرحان، دار النهضة العربية، 1981 ،بيروت، ص. 153.

(252/1)

. فأما تأسيس المال والثروة " فهو أن يكثر المال في قومه فيحدث لهم بعلو الهمة طمعا في الملك وقل أن يكون هذا الأمر إلا فيمن له بالسلطة اختلاط وبأعوان الملك امتزاج فيبعث مطامع الراغبين فيه على طاعته وتسليم الأمر إلى زعامته" . وأما تأسيس الملك على القوة " فهو أن يحل نظام الملك إما بالإهمال والعجز وإما بالظلم والجور، فينتدب لطلب الملك أولو القوة ويتوثب عليه ذوو القدوة، إما طمعا في الملك حين يضعف وإما دفعا للظلم حين استمر". ولكلا التأسيسين، كما يذكر، عيوب ومساوئ وكلاهما أدى إلى دوال الدولة وزوال

(253/1)

الملك، لأن كلا منهما يحمل في ثناياه وأحشائه ما ستكون به السياسة التي سيسار عليه لاحقا .

فلتأسيس القوة طبيعته ومنطقه ولعله، في تصور الماوردي، يعادل ما وصفه الفاربي قبله بأنه " اجتماع التغلب" ولقب المدينة التي يكون فيها بمدينة " التغلب" ولكنه يذكر ، في شرح معنى هذا التأسيس، أنه ذلك الذي يقوم على قوة الجيش وهيمنة الجند والأمر فيه يخرج من يد الملك كلية وإن بدا غير ذلك : فإن هم عدلوا مع الرعية فإنما تكون حقيقة حكم الملك أن ملكه "ملك تفويض وطاعة"، وإن جاروا وعسفوا فإنما هي " دولة تغلب يبيدها الظلم

(254/1)

ويزيرها البغي" . ولتأيس المال والثروة طبيعته التي لا يملك أن يحيد عنها ومنطقه الذي لا يقدر عن الزوال عنه أو الخروج عن ضوابطه ومقتضياته – وقد يكون هذا التأسيس، متى رجعنا إلى تنصيفات الفاربي المعروفة، هو ما يقول عنه أبو نصر إنه " اجتماع أهل النذالة " وعن المدينة التي يكون فيها أنها " مدينة النذالة " –

والفساد عند الماوردي أسرع ما يكون لحوقا بهذا التأسيس وأشد ما يكون فتكا به.

ولكن الأمر آخر مع القسم الأول من الأقسام الثلاثة المذكورة. ذلك أن تأسيس الدين هو " أثبتها قاعدة وأدومها مدة وأخلصها طاعة"

(255/1)

ولا يتسرب إليه الخور أو يدب فيه الضعف إلا متى كان الملك، في هذا التأسيس، مستهينا بالدين مهينا لأهله، أو كان " قد أحدث بدعة في الدين شنعه"، أو كان قد خرج عن الدين كلية . والحق أن الماوردي قد انشغل بأمر هذا التأسيس القائم على الدين انشغالا شديدا فبسط القول فيه في " نصيحة الملوك" لا بل كتب فيه كلاما نعتبره من أجمل وأهم ما خطه يراعه في موضوع النظر السياسي. وهو الباب الثالث المعنون هكذا " الأسباب التي من جهتها يعرض الاختلال والفساد في الممالك وفي أحوال الملوك".وأول ما يطالعنا في هذا الباب، بعد ذكر

(256/1)

حديث نبوي يؤيد به قوله " إن أحوال الأمم متقاربة"، هو إيراده لهذه الملاحظة التي يخرج به من قراءته للتاريخ البشري " الوعظيّ : "وكان مما جرت عليه أمور العالم، واستمرت عليه عادات الأمم أنه لم تكن مملكة إلا كان أسسها ديانة من الديانات وأصلها ملة من المال عليها بنيت شرائطها وفروضها، وجرت أحكامها وحدودها "(1) . أستأذن القارئ الكريم في استطراد قصير أنبه فيه على اشعرية الماوردي، حيث تحمل لنا قولته هذه دليلا جديدا آخر على ذلك: هي ذكره ل" العادة"

(1) الماوردي ، نصيحة الملوك... سبق الإشارة إليه، ص.11.

وجريانها واستمرارها . فالأشاعرة، إذ يتحدثون عن استمرار العادة وجريانها ويتكلمون عن " إجراء العادة " على النحو الذي يقرره الله، فهم في الواقع يدلون على عنوان مذهبهم ويشيرون إلى أخص ما يميزهم عن المعتزلة والفلاسفة معا . فأما عنوان مذهبهم فهو مبدأ" التجويز" : فليس كل ما لا يقدر على البرهنة على وجوده مستحيلا في ذاته أو ممتنع وجوده وإنما هو جائز وذلك

الجواز هو ما يفسر إمكان الرؤية، رؤية الله بالأبصار يوم القيامة ، كما أنه يحل عددا من الإشكالات الأخرى التي تتعلق بالحرية والمسؤولية في عالمنا الأرضي.

(258/1)

وأما تميزهم عن المعتزلة، وعن الفلاسفة خاصة، فهو نفيهم القول بالسببية (أي وجود العلاقة المباشرة بين أمر ندعوه سببا وآخر مسببا)، وشرحهم لتلك العلاقة بأنها مجرد " اقتران " أو " تساوق وأنه "عادة" أجراها الله. ولكن " العادة" هذه لا تكون، في تعابيرنا اليوم، شيئا آخر غير " القانون" : فكما أننا نحصل على القانون المفسر من إدراك العلاقات الثابتة في الظواهر المطردة، فكذلك نحن نتبين ما أجراه الله من العادة من استقراء الأحداث والظواهر . وإذن فالماوردي عندما يقول إن " مما جرت عليه أمور العالم" ، ويكتب،

(259/1)

مضيفا، وأستمرت عليه عادات الأمم" . فهو يقول بممارسة طبيعية لمقتضيات المذهب الأشعري، ويعلن،

بالتالي، عن تشبعه بالمبدأ الأشعري الكلي والعمل بموجب آلياته وموجهاته.

إذا كانت العادة قد جرت بأن الدين أساس الممالك الكبرى، أي أن " تأسيس الدين" أكثرها شبوعا وأشدها رسوخا وقوة، فإن في الأمر ما يدعو إلى التأمل حقا واستخراج العبرة فعلا. فأول شيء هو حدوث " النوازل" التي تقضي إعمال العقل الفقهي بغية إيجاد الحلول الناجعة والوصول إلى الأجوبة الصحيحة والدقيقة على الأسئلة المقلقة والأوضاع المحرجة: " لابد في الدين

(260/1)

من وقوع الحوادث التي يحتاج إلى النظر فيها والنوازل التي لا يستغني العلماء عن استخراجها"، وثاني شيء هو أن مما جرت عله العادة كذلك هو أنه " لا يخلو دين من الأديان ولا ملة من الملل من منافقين فيها ومعادين لها". ثم إن هؤلاء يظهرون ويكثرون في عصور ملوك ضعفاء، وهم كذلك لأنهم " خالدن من علوم الدنيا، معرضون عن أصول الشريعة" . وعند ذلك تنشأ ساسلة طويلة متصلة من الوقائع السلبية وتتلاحق الأحداث التي تؤدي كلها إلى سقوط الدولة وزوال الملك. ولكن المتأمل

لأسبابالقوة في الممالك التي يكون أولها ومنشئها " تأسيس

(261/1)

الدين"، يجد أن مكمن القوة القيقي وفعلها السحري يكمنان في مراقبة الدين وأصله. ذلك ما كان من أمر الخلفاء الراشدين إذ " كانوا لا يرون الخلافة إلا لإحياء الدين"، وذلك ما كان من أمر عمر بن عبد العزيز ويزيد ابن الوليد وإن كانا" من بني مروان، الذين عاثوا في الأرض وغيروا السنن وأظهروا البدع". وذلك ما كان من خلفاء بني العباس، والماوردي إذ يستعرض أسملاء البعض منهم فهو يلحقها دائما بنعت يفيد الحفاظ على الدين، فأبو العباس والسفاح " ظاهر الزهد" ، والمنصور " شديد الاعتقاد في الدين "، والرشيد " شديد التعصب

(262/1)

للإسلام والديانة" والمأمون " وهو لو باهت به هذه الأمة سائر الأمم في ملوكها لكان ذلك أهلا ولوجد لها عليهم به فضلا علما وعقلا(...) وتعصبا للتوحيد". وكذلم كان الشأن

في المعتصم والوثائق، وكذلك كان حال ملوك سامان والأمراء الظاهرية من ولاة خراسان . وبالتالي فإن مفتاح النجاح وسر التقدم والقوة في الممالك والأمم يملكه كل من أدرك، مع الحكماء والعظماء، أن " الدين والملك أخوان توأمان " وآمن بأن الدين " أس الملك"، كما أدرك أن " الملك حارس الدين".

(263/1)

ما الشأن بعد ذلك في الشق الثاني من " قواعد الملك " عند الماوردي؟ ما القول في التدبير أو السياسة؟ يقول في " تسهيل النظر وتعجيل الظفر" : " وأما سياسة الملك بعد تأسيسه واستقراره فتشتمل على أربع قواعد هي : عمارة البلدان، وحراسة الرعية، وتدبير الجند، وتقدير الأموال" . ثم إنه يفصل بعض التفصيل في كل واحدة من هذه القواعد ويمدد ما يتفرع عنها من أنواع وأقسام بيد أن هذا التعداد لا يفي بغرض الإحاطة يفكر الماوردي في الموضوع. فهو لا يغني عن قراءة "نصيحة الملوك" في جانب، ولا يعفي من كان يروم معرفة جوانب هامة

(264/1)

أخرى من فكر أبي الحسن من قراءة "أدب الدين والدين"، مثلما لم يكن في فحص هذين الكتابين الأخيرين ما يجعل قراءة " تسهيل النظر" غير ذات جدوى وإنما نظر المفكر السياسي مبثوث في هذه الكتب الثلاث . وهو ينشغل في مرة من المرات الثلاث بما لم ينشغل به ، كلا وتفصيلا، في الكتابين الآخرين. فهو في " تسهيل النظر" منشغل بالملك كشخص وبالملك كرئاسة، وهذا الانشغال يجعله، في القسم الأول من الكتاب، يبسط القول في الفضائل ويتسع فيها، ثم إنه يدير الباب الثاني (في سياسة الملك) على الكلام في قواعد الملك، (على نحو ما رأينا

(265/1)

بعضه) . ثم إنه في " نصيحة الملوك" يرتب الكلام، مفصلا وفي السياسات العديدة : سياسة النفس، و سياسة الخاصة، وسياسة العامة أو تدبير المملكة، وسياسة الأموال ثم سياسة الأموال (أو تدبيرها) فسياسة الأعداء (أو تدبيرهم) فضلا عما عرضنا لغيره بالذكر أو الإشارة سلفا.

إن لم نكن نملك، في حدود هذه المقالة، أن نستقصي فكرة فقيهنا الشافعي ومفكرنا الأشعري في كافة انتدادتها في الوؤلفات الثلاث فإنه لا مندوحة لنا من التريث برهة عند النحو الذي يشرح بها قواعد السياسة تلك حين حديثه عن " أدب الدنيا"، في الكتاب الذي كان

(266/1)

هذا الأدب أحد شطريه، إذ يقول:

أعلم أن ما به تصلح الدنيا، حتى تصير أحوالها منتظمة وأمورها ملتئمة،ستة أشياء في قواعدها وإن تفرعت وهي: دين متبع، وسلطان قاهر، وعدل شامل، وأمن عام، وخصب دائم، وأمل فسيح"(1)

لنلاحظ أننا بإزاء بناء هرمي هو هذه السلسلة المتصلة من الأسباب والنتائج، فمتى كان الدين متبعا (على نحو ما أحسن شرحه في " نصيحة الملوك" –وكما رأينا سابقا) كانت الحصيلة الأخيرة والنتيجة العملية هي " الأمل الفسيح" ، الذي يعني حصول الاطمئنان

---

(1) الماوردي، أدب الدنيا والدين ... سبقت الإشارة إليه،ص .135.

(267/1)

والانصراف إلى االبناء والتشييد والتوفر على ما يكفي من الإيجاب، والإرادة، والتصميم (والماوردي صاحب هذه الحدود الثلاث). بين أساس البناء القوي (الدين المتبع) ، ووقمته (الأمل الفسيح) . تقوم تلك الشروط الخمس التي يسلم بعضها إلى بعض بشكل تنازلي من جهة أولى، وفي صورة استلزام منطقي من جهة ثانية (السلطان القاهر، العدل، الأمن، الخطب) . فإذا أخدنا أول هذه الشروط، ورأسها بالتالي، وهو السلطان القاهر نجد أبا الحسن يقول عنه إنه " تتألف برهنته الأهواء المختلفة، وتجتمع بهيبته القلوب المتفرقة، وتنكف بسطوته

(268/1)

الأيدي المتعالبة، وتنقمع من خوفه النفوس المتعادية"(1) . ومتى دققنا النظر في شلأن هذه الأسباب فإننا نجدها ترتد ، بكيفية وبأخرى، إلى ما يفيد الاجتماع والائتلاف في الرأي الواحد وهو ما يعني حصول أمر خطير ما فتئ الماوردي يردده في كتابته السياسية ةكلها ويراه شرطا أساسيا وعنصرا محوريا في قيام

الدولة واستمرارها – وذلك هو وحدة الرأي أو المذهب . فلا رأي لملك سمح بـيبـتعداد المذاهب المختلفة من حوله، إذ لا نـتيجة لتفرق الكلمة سوى " اختلاف السيوف "، ولا مندوحة للملك عن

(1) الماوردي أدب الدين والدنيا...،ص. 136.

(269/1)

الزوال، حين هذا الاختلف، ولا مناجاة للملكة من الدمار والفساد عند حلول تلك الحال.

على أن ما سلف لا يشكل، وإن اجتمع، سوى أحد شرطين لصلاح الدنيا واستقامة السياسة: " وأعلم أن صلاح الدنيا معتبر من وجهين: أولها ما ينتظم به أمور جملتها، والثاني ما يصلح به حال كل واحد من أهلها"(1) . وما يصلح به كل واحد هو، متى نظر إليه من حيث إن الإنسان لا يكون إلا بغيره اجتماع ثلاثة أشياء لابد منها وهي " نفس مطيعة إلى رشدها منتهية عن غيها، وألفة جامعة تنعطفالقلوب عليها ويندفع المكروه بها.

(1) المرجع السابق، ص. 134.

(270/1)

ومادة كافية تسكن نفس الإنسان إليها ويستقيم أوده بها"(1) . وصلاح كل واحد، متى اعتبرنا أن " الإنسان دنيا نفسه" ، هو العمل على تحلي النفس بالفضائل وتعويدها أو ما درج المفكرون الإسلاميون على القول فيه إنه " تهذيب الأخلاق" . والماوردي يصدر في هذه المسألة عما يصدر عنه كل أولئك المفكرين (بما فيهم الفلاسفة بطبيعة الحال) فهو يستهل حديثه في " أخلاق الملك" بالقول بأن " الأخلاق غرائز كامنة تظهر بالاختيار وتقهر بالاضطرار"(2) . ثم

(1) المرجع السابق، ص . 148.

(2) المارودي، تسهيل النظر...سبقت الإشارة إليه، ص.

إنه يعرض بعد ذلك للفضائل، على نحو ما ذكره أرسطو وفصل فيه، فيبسط القول فيها واحد فواحدة (وهذا هو الشأن في " تسهيل النظر") ويجمل ويوجز ويحمل كبير همة أن يكسبا ثوبا إسلاميا وصيغة عربية مألوفة (وهذا هو الشأن في " أدب الدنيا والدين") . فيكون من ثم

قوله الغزير في " المروءة" " كل كتابنا هذا من شروطها وما اتصل بحقوقها" (والإشارة إلى الكتاب الأخير) .

الحق أن الإحاطة بصورة " الماوردي المفكر الأخلاقي"، في كامل جوانبها وكافة أبعادها، لأمر كثير الأهمية : بالنظر أولا لما كان، في الثقافة العربية الإسلامية

(272/1)

وفي العصر الوسيط المتشبع بالتراث اليوناني جملة، من صلة وطيدة بين الأخلاق والسياسة – وبالنظر ثانيا لما يكتسبه قول الماوردي في الفضائل، وفي " المروءة" (1) على وجه الخصوص من قيمة فائقة الأهمية في نظره السياسي – ولكننا نرى في هذه الإشارات والتنبيهات، ماكان فيه غنى عن التوسع والإطالة . ويبدو

---

(1) من أجل فهم معنى(المروءة) ومكانتها في الفكر الأخلاقي العربي الإسلامي، انظر : سعيد بنسعيد العلوي، الخطاب الأشعري / مساهمة في دراسة العقل العربي الإسلامي، دار المنتخب العربي، 1992 ،بيروت(الصفحة 241وما بعدها) .

(273/1)

أننا قد استكملنا العدة واستجمعنا العناصر راللازمة من أجل الوقوف عند الصورة الشهيرة والمألوفة لأبي الحسن الماوردي: صورة الفقيه المشرع.

4– الماوردي الفقيه المشرع

يقول الأستاذ المرحوم هنري لاوست، في دراسة قيمة له في " فكر الماوردي وعمله السياسيين" " إننا وإن كنا نجعل التاريخ الذي كتب فيه أبو الحسن" الأحكام السلطانية" إلا أننا نستطيع الجزم بأن هذا المؤلف، من حيث إحكام بنائه ودقة تعابيره، هو ثمرة تجربة وحنكة لا يبلغهما صاحبهما إلا في مرحلة من العمر جد متقدمة "(1)

(1) henri laourt, La pensée et l’action politiques d’ AL- Mawardi Librairie Geuthner, paris,p 1968, 57.

(274/1)

. والحق أن هذا المؤلف، الذي اقترن باسم الماوردي أكثر من غيره من مؤلفاته الأخرى، هو كما ذكر "لاوست" فلولا أنه كان عصارة تفكير عميق، وحصيلة نظر طويل في

السياسة والأخلاق، وثمرة فكر ثاقب في الفقه (أصولا وفروعا معا) لما أمكنه أن يكون على الصورة التي هو عليها الآن، ولما أمكنه أن يكون النموذج الأمثل للخطاب السياسي الفقهي. وبديهي أنه ليس لنا أن نعرض لمضامين أبوابه العشرين، في الإمامة، والوزارة (بنوعيها : التفويض والتنفيذ) : وفي الإمارة، بأنواعها المختلفة (البلاد، الجهاد، الجيش، ...)، وفي الولاية،

(275/1)

بأشكالها (القضاء، المظالم، النقابة، ...)، وفي الأرض وأحكامها (الخراج، الإقطاع، الأحياء، ...)، ثم في أحكام الجرائم، وأمور الحسبة... ففضلا عما يستدعيه ذلك كله من تطويل يعني ولوج أبواب الفقه والدخول في دروب الخلافة بين المذاهب والأئمة، وفضلا عما يسلم إليهمن تطويل يبلغ خروج الحدود عن القصد فإنه يبعدنا عن غرض استخلاص مظاهر المفكر السياسي إذ " يسجننا " في محيط الفقه ويغلنا بمنطقه وآلياته. وإذن فلا سبيل لنا آخر سوى سبوك الإختيار والأنتقاء :اختيار الأمثلة والشواهد، وانتقاء الأدلة والصور التي تمكننا

(276/1)

من المكوث في حال اليقضة والحذر . فأما اليقضة فهي الانتباه إلى الكيفية التي يعمل بها الفقيه المشرع عقله الفقهي، وانتباه الأشعري، في الوقائع التاريخية فيصير منها إلى " قواعد سياسية " وأحكام " سلطانية "، وأما الحذر، فهو مما يخشى منه من وقوع في مخالب هذا المعجم التقني في أحكام الحكومة، وقوانين الأرض، وواجبات الإدارة (إدارة شؤون المدينة الإسلامية) وحقوق الأمة والجماعة. وإذن فلابد، في " الأحكام السلطانية" من قراءة تنظر في الأحكام والتشريعات بغية الوقوع على الفكرة السياسية الموجهة، والخلفية العقائدية.

(1/277)

المذهبية الحاكمة والمرشدة معا. وهذه المحاولة العسيرة هي ما ندعو القارئ الكريم إلى الخوض فيه في الفقرات اللاحقة.

تحكم الرؤية الأشعرية عمل الفقيه المشرع في كتاب " الأحكام السلطانية " على نحو يتوضح به هذا الأمر منذ الفقرات الأولى من الكتاب، بل ابتداء من مستهل الحديث

في " الإمام"، الباب الأول من الكتاب. فإذا تقرر أن عقد الإمامة واجب الإجماع، إلا ما كان من شذوذ " الأصم" من المعتزلة، فإن مدرك الوجوب يكون هو الشرع إذ الإمام " يقوم بأمور شرعية قد كان مجوزا في العقل أو لا يرد التعبد بها فلم يكن العقل

(278/1)

موجبا لها" والقول بتقدم المنقول، (أي ما قضت به الشريه) على المعقول (أي ما تقرر عند الحكماء في العقل) قول أشعري شأنه في ذلك شأن القول بمبدأ " التجويز" كما أسلفنا الإشارة إلى ذلك ثم إنه يثبت بعد ذلك أنه يكون في الإمامة فريقان أو طرفان اثنان يعنيهما أمرها، على نحو متغاير. الطرف الأول هم " اهل الاختيار" أو " أهل العقد الحل"، أي أولئك الذين يكونون لهم، بل يلزمهم، أن يختاروا للأنة إماما. والفريق الثاني هم " أهل الإمامة" الذين يكون الإمام، بالضرورة، أحدهم فهو يقدم ويختار لذلك ، وفي كلا الطرفين لابد

(279/1)

من اجتماع شروط معلومة . والحق أن هذا التقنين الفقهي لا يفهم على وجهه الكامل إلا نتى استحضر القارئما أسلفنا الإشارة إليه من الاختلاف الجوهري بين الشيعة الباطنية والسنة الأشاعرة في مسألة نصبة الإمام، وما نتج عنه من قول بالعهد والوصية عند الأولين، وذهاب إلى الأخد بالاختيار والإجماع، عند الآخرين. وفي هذه المسألة المبدئية الأولى لا ينحط الماوردي، في الجدل أبدا بل إنه يصدر عن موقف فكري، ضمني، قوانه أن ما ينتهي إليه عموم المتكلفين الأشاعرة عن قول في الإمامة هو عنده بمثابة المقدمات التي تلزم عنها نتائج

(280/1)

جديدة هي تلك التي يملك الفقيه أن يصوفها في صور الأحكام أو القوانين. وإلى هذين الموقفين الأشعريين، المتضمنين في كلام الماوردي الفقيه المشرع، يلزم أن نذكر موقفا أشعريا ثالثا وأخيرا من بين المواقف الأشعرية الضمنية التي يمكن استخلاصها والتدليل عليها. ذلك هو صدور الماوردي عن قراءة أشعرية لتاريخ الإسلام، وللمسار الذي سلكه حكم الخلفاء المتقدمين وترتيبهم على النحو الجي ظهروا به . وخلاصة هذه الرؤية هي أن ذلك الحكم والترتيب معا إنما هما تعبير عما

انعقد الإجماع عليه فهو سلسلة متصلة الحلقات ،وكل حلقة إنما

(281/1)

يكفلها من الشرعية حظ عظيم. وإذن فإن كل ما فعله السابقون من خلفاء بني أمية وبني العباس (على السواء) يصلح اعتماده مصدرا في التشريع ومادة في القياس، ومرجعا في المماثلة فهو، بالتالي، شاهد يصح الاستدلال به على غائب هو الحاضر الذي يشرع له .

يشرع الفقيه المجتهد في إعمال العقل الفقهي في " نوازل" السياسة ومقتضيات التدبير والسلطان وقد تشبع إذن بمستلزمات العقيدة الأشعرية، وتشرب مقتضياتها في الحكم والسياسة كاملة . وعمل المجتهد هو، كما هو معلوم، إعمال للرأي والنظر وممارسة للقياس وآلياته. وليس القياس، عند

(282/1)

الفقيه رالشافعي سوى تجريب وتطبيق لمبدأ " الِاستدلال بالشاهد على الغائب".

يختلف الأئمة على وجه المثال، في عدد من تنعقد بهم الإمامة فيلجأ الماوردي إلى البحث عن " مقيس عليه" فيجده في التاريخ، تاريخ الخلفاء المتقدمين، من جهة أولى ويجده في عقد شرعي هو عقد النكاح، من جهة ثانية. والمشرع، في الجهة الأولى، مخير بين القياس على ما حصل في بيعة أبي بكر، وهذه " انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها ثم تابعهم الناس فيها". أو اعتبار ما ارتآه عمر من مجلس الشورى السداسي مقيسا عليه، فيكون ستة هو العدد المعتبر في عدد من

(283/1)

تنعقد بهم الإمامة. كما أن له أن يقيس على ما فعله العباس عم النبي عليه السلام، إذ قال لعلي " أمدد يدك أبايعك" . وللمشرع، في الجهة الثانية، أن يعتبر أن العدد الازم في انعقاد الإمامة هو ثلاثة قياسات على عقد النكاح (شاهدان وولي) – وذلك ما قالت به طائفة من " علماء الكوفة".

وعلى ممارسة القياس نجد أدلة أخرى في نفس القول في الإمامة، فبعد أن يعلن الفقيه أنه " لا يجوز أن يكون للأمة إمامان في وقت واحد" وأن بيعة أحدهما لابد ساقطة

إن عقد لهما معا، ويتساءل الفقيه : أي البيعتين يكون على شروط الصحة من

(284/1)

الناحية الشرعية ؟ والجواب يكون، مرة أخرى، قياسا على ما يتم في عقد النكاح " والصحيح في ذلك وما عليه الفقهاء المحققون أن الإمامة لأسبقهما بيعة وعقدا كالوليين في نكاح المرأة إذا زوجها باثنين كان النكاح لأسبقهما عقدا " . ويتساءل الفقيه عما يحدث في الحالة التي ينتهي فيها " أهل العقد والحل" إلى الإجماع على اختيار شخص بعينه إماما للأمة ولكن هذا الشخص لا يجيب لرأي القوم المجمعين وجوابه أن إجماع "أهل الاختيار" لا يلزم من كان موضوعا للاختيار، والمقيس عليه في هذه الحال هو ما يحدث في فقه المعاملات بالجملة،

(285/1)

من حيث أحد شروط صحة العقود : " وإن امتنع من الإمامة ولم يجد إليها لم يحبس عليها لأنها عقد مراضاة واختيار

لا يدخله إكراه ول إجبار وعدل عنه إلى من سواه من مستحقيها ". ودليل وجوب مراعاة ما به تكون صحة العقود . يرد كذلك في الشروط اللازمة في وزارة التفويض : " فصحة التقليد فيها معتبرة بلفظ الخلفية المستوزية لأنها ولاية تفتقر إلى عقد والعقود لا تصح إلا بالقول الصريح".

وكما يقيس الفقيه على ما يحصل في فقه المعاملات من جهة أولى، وعلى ما " جرت عليه العادة" في التاريخ الإسلامي من جهة ثانية، فإنه يقيس على

(286/1)

ما أخبر الشارع عنه أنه كان في تاريخ الأنبياء المتقدمين. وقد نكتفي في ذلك بإيراد مثالين اثنين، يتعلق أولهما بالإمامة ويرجع ثانيهما إلى الوزارة، فالإمام يخرج عن الإمامة إما لجرح في عدالته وما لنقص في بدنه. وأحد أحوال النقص في البدن هي " تمتمة اللسان وثقل السمع مع إدراك الصوت إذا كان عاليا"، والحكم فيهما أنه لا يخرج عن الإمامة " وقيل لا يمنع [من عقد الإمامة له] لأن نبي الله موسى عليه السلام لم تمنعه عقدة لسانه عن النبوة فأولى أن لا يمنع عن الإمامة".

ومن أحوال النقص في البدن أيضا فقد الأنثيين أو

(287/1)

قطع الذكر، فقد كان نبي الله تعالى، يحيي بن زكريا، كذلك حسب ما ورد في " شرح المفسرين" لقوله في القرآن الكريم { وسيدا وحصورا ونبياً من الصالحين } (آل عمران : 39) . والقياس عند الماوردي يكون على هذا جواز الوزارة في النبوة { واجعل لي من أهلي هرون أخي أشدد به أزري أشركه في أمري } (طه: 31) " كان في الإمامة أجوز".

إن هذه القدرة على التنويع في طرق القياس ومجالات تطبيقه، مع التقيد بقوانين إجرائه وشروط صحته، هي ما يكسب عمل المجتهد قيمه فقهية كبيرة وما يضفي على الأحكام التشريعية قوة تستحيل بها إلى "

(288/1)

سلطة رابعة" بعد سلطات الكتاب والسنة والإجماع . وبموجب امتلاك هذه السلطة الرابعة يكون للمجتهد المشرع في الفقه السياسي أو يسلك في القياس طريقا آخر يكون المقيس عليه فيه هو " التاريخ الوعضي"، أي تاريخ الشعوب والملل المتقدم . فكما صح كونه، عند

الفقيه، مادة للاعتبار والاتعاظ فإنه يصح اتخاذه
مقياسا في التشريع، في الأحوال التي لا يسعف فيها
التاريخ الإسلامي " المشرع " بشيء، ذلك ما فعله السلف
الصالح نفسه : فالخليفة عمر بن الخطاب لم يتردد في
الاقتباس عن الفرس والأخذ منهم في وضع " الدين "،
وبالتالي فإن "

(289/1)

أحكام الديوان "، في الإسلام، لم تتقرر في حقيقتها إلا
باعتبار ما سلكه الفرس، في هذا الصدد، " مقيسا عليه "
متى تثبت المشرع المجتهد من مراعاة أحكام الشريعة
واطمأن إلى توفر شروط الصحة في ذلك
وأبو الحسن الماوردي استحق من كبار الفقهاء اللاحقين
عليه لقب " العمدة " حينا ولقب " المجتهد " أحيانا
عديدة لتوفره على تلك البراعة الكبيرة في إعمال
القياس وفي إجادة " الاستدلال بالشاهد على الغائب ".
ولكن إن كان الماوردي فقيها مجتهدا في فقه المعاملات
وكان كتابه الأشهر " الأحكام السلطانية " يستدعي "
قراءة الفقيه " الذي

(290/1)

يعرف مواطن الاجتهاد في الكتاب ويدرك دلالتها ومداها فإن مما يطيقهالكتاب أيضا، ويحمله الرجل كذلك هو القيام بقراءة مؤرخ الفكر السياسي المنشغل برصد الآليات الفكريةوالأسباب السياسية التي تحكم اجهاد الفقيه في " الأحكام السلطانية" . ذلك ما نأمل أن نكون قد وقفنا، في الصفحات السابقة، إلى تهييء القارئ إلى الانتباه إليه في شرحنا لوجه ارتباط الفقه بالسياسة من جانب أول، ولموجهات الفكر الأشعري ودواعي نشأته من جانب ثان، وأخيرا لمغزى بلوغ النظر السياسي الأشعري طور التشريع الفقهي عند الماوردي . وبالجملة فإننا

(291/1)

نخرج من قراءة الماوردي، على جهة النظر التأريخي الفكري، من ملاحظات ثلاث محورية يبدو أنها، من وجهة نظر مؤرخ الفكر هذه، هي ما كان يحكم عمل المشرع السياسي (الفقيه الشافعي والمفكر الأشعري معا(1) .

العمل التبريري للماوردي:

---

(1) انظر :

-سعيد بنسعيدالعلوي، دولة الخلافة/دراسة في التفكير السياسي عند الماوردي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،1980.

-سعيد بنسعيد العلوي ، الخطاب الأشعري... سبقت الإشارة إليه.

(292/1)

1- الملاحظة الأولى أن أبا الحسن كان يحرص على الوحدة السياسبية، وحدة الدولة، بكل وجه وطريق. فالإمامة لا تكون إلا واحدة في الزمان الواحد، والإمام لا يكون واحدا بالتالي ، وإمامة من عداه ساقطة شرعا. وتلك الوحدة تنسحب على المؤسسات التشريعية الكبرى (وهذا هو الشأن في وزارة التفويض : فهي واحدة بالضرورة)، وهي تسري على كل مظاهر الحياة الدينية والاجتماعية كما هو الشأن في الصلاة الجامعة: " لا يجوز أن يقام في المساجد السلطانية جماعتان في الصلاة واحدة" - بل وإن الماوردي ليحرص على تحقق تلك الوحدة حتى في

(293/1)

المظاهر والرموز التي تعبر عنها : " ولبس السواد مختص بالأئمة في الصلوات التي تقام فيها دعوة السلطان اتباعا لشعاره الآن، وتكره مخالفته فيه وإن لم يرد به شرع تحرزا من مباينته"(1)). ولكن الماوردي، الفقيه الممارس لشؤون الحياة العملية والمفكر السياسي الراجح الرأي، كان يرى. ويعلم أن " الوحدة" لم تكن كذلك إلا في علياء النظر والتأمل، فأما في حقيقة الواقع فقد كانت فرقة وتعددا، تزاحم بها سلطة الخليفة بل

(1) أبو الحسن المارودي، الأحكام السلطانية، نشر بدر الدين النعساني،الطبعة الأولى،1909،القاهرة،ص. 246 .

(294/1)

وتطرد وتقصي في أحوال عديدة. وما يعلمنا تاريخ الفكر السياسي أن المفكر يلتجأ إليه فيفلح أن يخطئ في القيام به فهو التبرير: تبرير الواقع وتفسيره على نحو يحفظ للفكرة الحد الضروري من الاتساق والانسجام، وتفريع النظرية إلى نقتضيات وأحوال تنفيذ " الوحدة " من شر " التعدد " ولهيبه.

2- الملاحظة الثانية إذن هي أن التشريع السياسي، في عمل الفقيه الماوردي، يخضع لضرورة التبرير ويعمل بما

يمليه منطقه وضرورته معا. فما تقتضيه أحكام الإمامة، على النحو الذي تكون السلطة فيه واحدة ووحيدة، هو أن الولايات أو النيابات عن

(295/1)

الخليفة تكون أربعة أقسام: فإما ولاية عامة في أعمال عامة، كما هو الشأن في الوزراء. وإما ولاية عامة في أمور خاصة، وذلك شأن أمراء الأقاليم والبلدان . أو ولاية عامة خاصة في أعمال عامة " وهم كقاضي القضاة ونقيب الجيوش...". والقسم الرابع والأخير هو الولاية الخاصة في الأعمال الخاصة " كقاضي بلد أو إقليم أو مستوفى خراجه...". ولكن الواقع الفعلي هو أن الولاة كانوا يستبدون بالأمر حينا ، بل وإن الاستبداد ليصل درجة الاستقلال بالسلطة والحكم أو أنه يبلغ مرتبة من القوة يصبح فيها الوالي هو الحاكم الفعلي الحقيقي

(296/1)

الذي لم يتحرج، في أوقات من تاريخ الإسلام، من الحجر على الخليفة والتضييق عليه. وإذن فإن الولاية كانت " ولاية

قوة واستيلاء" لا تنعقد عن اختيار الخليفة ورضاه فهي تتمايز، جملة وتفصيلا، عن الشكل الآخر الذي يشبه أحد الشكلين، الأول أو الثاني، من الوليات المذكورةأعلاه.. وبالتالي فقد وجب أن يشرع لها من الأحكام ما يحفظ على الخلافة ماء الوجه، وأن يضفي عليها من أشكال التبرير ما يحيل التعدد والتشتت في الدولة إلى الحدة والاجتماع. والماوردي يبلغ في أحكام " ولاية الاستيلاء" مبلغا عظيما من التشريع التبريري وأول

(297/1)

ما يقوله، في أحكام هذه الإمارة، هوأن الأمر فيها "وإن خرجعن عرف التقليد المطلق في شروطه وأحكامه ففيه من حفظ القوانين الشرعية وحراسة الأحكام الدينية ما لا يجوز أن يترك مختلا مدخولا ولا فاسدا معلولا فجاز فيه، مع الاستيلاء والاضطرار، ما امتنع في تقليد الاستكفاء والاختيار لوقوع الفرق بين شروط المكنة والعجز" (1) – فالتبرير يجد في المبدأالأصولي الذي يقضي بأن الضرورات تبيح المحظورات يجد متنفسا ومجالا للتشريع لأحكام هذه " الولاية" الغريبة من وقوعها فعلا.

---

(1) المارودي، الأحكام السلطابية...،ص . 33 .

(298/1)

والتشريع، في هذا المجال، يقتضي النظر إلى المستولى من حيث استيفاؤه أو عدم استيفائه لشروط تراعى بها قوانين الشرع وتحفظ حرمته. فأما إن كملت في المسنولى " شروط الاختيار" فإن تقليده يكون " حتما استدعاء لطاعنه ودفعا لمشاقته ومخالفته وصار، بالإذن له ، نافذ التصرف فب حقوق الملة وأحكام الأمة (...) وجاز له أن يستوزر وزير تفويض ووزير تنفيذ". وأما إن لم تكمل تلك الشروط في المستولى فإنه يجوز " الخلافة إظهار تقليده استدعاء لطاعته وحسما لمخالفته ومعاندته" وبالجملة فإنه، بالنظر إلى ما تقتضيه المصلحة العامة وما

(299/1)

يستوجبه الإقرار الضمني بالمبدأ الأصولي الآخر الذي يقضي بأن درأ المفاسد مقدم على جلب المنافع، أمام " التبربر" باب فسيح لا ينسد أبدا.

3– والملاحظة الثالثة هي، في الواقع، استخلاص طبيعي مما تفيده الملاحظتان السابقتان جملة وما تفيده

الأخيرة ومنهما خاصة وهي المتعلقة بما يمليه على الماوردي (الشافعي والأشعري معا) فهمه الشخص لمعنى " المصلحة " وإدراكه لمكامن وجودها . ولعلي أرصد هذا الفهم في مثالين أكتفي بهما وآخذ أولهما من الباب الأول (في عقد الإمامة) وثانيهما من الباب العشرين (في أحكام الحسبة) .

(300/1)

فعندما يعرض الفقيه الشافعي للأحوال التي يتكافأ فيها شخصان اثنان في شروط الإمامة فإن ما يتعين اعتباره في الخلاف حاسما هو " ما يوجبه حكم الوقت" : ولا شأن لنا إلى التنبيه إلى ما يمكن أن يقود إليه الاجهاد في الوجوب وفي حكم الوقت معا ولربما غدت الإشارة، في ضوء ما سلف من تنبيهات، كافية بذاتها ومغنية عن التوضيح والتفصيل. وعندما يشرع الفقيه لأحكام الحسبة فإنه ينتهي إلى الحديث عن اجتهاد المحتسب فيما كان قد تقرر عن طريق العرف لا الشرع " والفرق بين الاجتهادين أن الاجتهاد الشرعي ما روعي فيه أصل ثبت حكمه

(301/1)

بالشرع، والاجتهاد العرفي ما روعي فيه أصل ثبت حكمه بالمعرفة". ولا نظن أننا في حاجة إلى التذكير بأن كل أصل ينتج عنه فرع بل وفروع، ولا نحسب أننا في حاجة إلى عود على بدء نذكر فيه بالعلاقة الوطيدة التي تقوم بين الاجتهاد والقياس من جهة وما يقوم بين الاجتهاد وتوخي المصلحة من جهة أخرى.

وبعد، فنحن في عمل أبي الحسن الماوردي التشريعي في مجال السياسة (أو فقه المعاملات في معناهما الواسع) أمام مقدرة هائلة على إعمال الفقهي في حل إشكالات الواقع المعقد والسيء معا، ولعل أفضل ترجمان لتلك المقدرة هو ما رأيناه، في

(302/1)

الفقرة السابقة فقط، من تمكن من إدراك معنى المصلحة وقدرة على تطويع المفهوم على نحو يتقاطع فيه الأصل الأول الذي يثبت بالشرع، مع الأصل الثاني الذي يتقرر بالعرف . ونحن في عمل الماوردي، الناظر في أحوال الأمم والباحث في قواعد الملك وطبائع السياسة، أمام المفكر السني وقد أمكنه أن يستوعب حظا من " علوم الأوائل"

وجانبا غير يسير من " كتب الحكمة" وآداب الإنسانية التي تقع خارج دائرة الاعتقاد الإسلامي. وبالجملة، فنحن مع أبي الحسن الماوردي نقف عند لحظة من أشد لحظات النظر السياسي خصوبة في الإسلام، ونقف عند صورة

(303/1)

بهية مشرقة من صور الحظارة الإسلامية في بعدها الذكي الخلاق وفي جانبها الأكثر انفتاحا على رحاب الفكر البشري الشمولي.

(304/1)

أثر ابن رشد في الفكر السياسي الغربي

الدكتور عبد السلام بن مَيْسَ
كلية الآداب ـ الرباط

... نُنَبّه أولاً إلى صعوبة تناول الفكر السياسي الرشدي، نظراً لأسباب كثيرة أهمها:
... 1 ـ لم يُخَلِّف لنا ابن رشد شرحاً لـ"كتاب السياسة"

لأرسطو كما فعل لباقي مؤلفات هذا الفيلسوف. وبهذا تضيع مِنّا فرصةٌ للتعرف إلى أفكار ابن رشد السياسية بشكل مفصل؛

... 2 ـ لما شرح ابن رشد "جمهورية" أفلاطون، فعل ذلك بأعين أرسطية؛ وبالتالي يصعب التمييز بين ما يعتقده ابن رشد من جهة وما يجعل ابن رشد أفلاطون وأرسطو يعتقدانه من جهة

(305/1)

ثانية وما يعتقدانه فعلاً من جهة ثالثة؛

... 3 ـ ما نعرفه عن شرح ابن رشد لـ"جمهورية" أفلاطون هو ما نقلته لنا الترجمات العِبْرية واللاتينيةِ(1)

---

(1) ظهرت أول ترجمة لاتينية لتلخيص "الجمهورية" لابن رشد سنة 1489، على يد إيلي الكريتي (Elie de Créte) ولفائدة بيكو الميرندوني (Pico della Mirandola). ولكنها ضاعت. تلتها بعد ذلك ترجمة لاتينية أخرى ظهرت سنة 1539 م، على يدي يَعْقُوب مَنْتِينُوس (Jacques Mantinus) وتم تقديم هذه الترجمة هدية إلى البابا بولس الثالث. وهي مدرجة بين شروح ابن رشد على أعمال أرسطو التي طُبعت في

البندقية سنة 1550 م. أما الترجمة العِبْرية، فقد ظهرت سنة 1321 م على يد شموئل بن يَهُودَا المُرْسلي. وحُققت ونشرت هذه الأخيرة مع ترجمة انجليزية من طرف المستشرق الإنجليزي روزنطال سنة 1956. وظهرت ترجمة عَرَبية للنسخة الأنجليزية سنة 1998 على يد الباحثَيْن حسن مجيد العُبيدي و فاطمة كاظم الذهبي (دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان). ولكن هذه الترجمة العربية رديئة جداً. وظهرت سنة 1998 أيضاً أول ترجمة عَرَبية للنّص العِبْري أنجزها الأستاذ أحمد شحلان، أستاذ اللغة العِبْرية بجامعة محمد الخامس بالرباط، تحت عنوان: الضروري في السياسة، ضمن سلسلة التراث الفلسفي العَربي، مؤلفات ابن رشد 4 مع مدخل ومقدمة تحليلية لمحمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان. وهذه ترجمة يُعَوَّل عليها.

(306/1)

؛ أما النص العربي الأصلي، فقد ضاع. وهذا أمر يُعَقّد مهمة من يرغب في التعرف إلى الفكر الرشدي السياسي بدقّة: ... 4 ـ الخلط الذي حصل لابن رشد أو لمترجمه العِبْرِي عندما اعتبر "جمهورية" أفلاطون الجزء الثاني من كتاب

"الأخلاق النِّيقُوماقية" باعتبار الفلسفة العملية تنقسم إلى قسمين: الأخلاق والسياسة(1).

... 5 ـ عندما شرح ابن رشد "جمهورية" أفلاطون، فنحن لا نعرف هل اعتمد على نص "الجمهورية" كما ترجمه حُنَين بن إسحاق أو على "جوامع"

---

(1) انظر تعليق أحمد شحلان على "الضروري في السياسة"، ص ص. 221 ـ 222.

(307/1)

جالينوس للكتاب نفسه الذي كان هو أيضاً مترجماً إلى اللغة العربية على يد مترجم "الجمهورية" نفسه؛

... 6 ـ غموض مفهوم المدينة عند ابن رشد، على الأقل من خلال شرحه لـ"جمهورية" أفلاطون؛

... 7 ـ تعدد مصادر الفكر السياسي الرشدي وتنوعها. فبالإضافة إلى شرح "جمهورية" أفلاطون، هناك:

... أ ـ شرح كتاب "الخطابة" لأرسطو؛

... ب ـ شرح "الأخلاق النيقوماقية"؛

... جـ ـ الشريعة الإسلامية؛

د ـ كتب ابن رشد التي ينتقد فيها المتكلمين (مثل كتاب "فصل المقال" وكتاب "التهافت" وغيرهما).

(308/1)

... وبالإضافة إلى هذه الصعوبات التي تطرحها المصادر، هناك صعوبات أخرى تطرحها المراجع والتي تتلخص في ندرة النصوص المتعلقة بالجانب السياسي من فكر ابن رشد بالمقارنة مع ما كُتب حول الجوانب الأخرى مثل الجانب الميتافيزيقي والجانب الفقهي والجانب العلمي وغيرها. والواقع أن مؤرخي الفلسفة لم يُولوا الجانب السياسي الرشديَّ الاهتمامَ الذي يستحقه بالمقارنة مع الاهتمام الذي حظِي به مثلا ابن سينا والغزالي والفارابي وإخوان الصفا والماوردي وابن خلدون وغيرهم. كما أهمل أغلب الباحثين، وربما كان هذا نتيجة لذاك، أثر

(309/1)

ابن رشد السياسي في الفكر المسيحي الغربي من خلال ما عُرف بالرشدانية اللاتينية. ولهذا سيكون موضوع بحثنا هذا هو المساهمة في إبراز مدَى ونوع التأثير الذي مارسه الفكر الرشدي، فلسفياً كان أو سياسياً، على الغرب المسيحي بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر الميلاديين.

...

الفكر السياسي الرشدي

... يبدأ ابن رشد شرحه لـ"جمهورية" أفلاطون بالإقرار بأن الإنسان حيوان مجتمعي وأن النظام والتربية ضروريان لضمان السير السليم للمجتمع(1). لهذا فنحن بحاجة إلى وضع قوانين لتنظيم المدينة ـ الدولة.

---

(1) المرجع نفسه، ص. 74.

(310/1)

وهذا بالضبط ما فعله أرسطو قبله عندما اعتبر العلم قسمين: نظري وعملي. فالنظري هو الفيزياء والميتافيزيقا، والعملي هو الأخلاق والسياسة. وعن السؤال: من يستحق الحكم والسهر على السير المنظم للمدينة؟ يجيب ابن رشد بكل بساطة: هم الفلاسفة أو الأئمة، على أساس أن تتوافر فيهم مجموعة من الشروط(1) نوجز أهمها في ما يلي:

ـ أن يكون لدى الفيلسوف، أو الإمام، استعداد طبيعي لدراسة العلوم النظرية؛

ـ أن يحب الصواب ويكره الخطأ؛

.أن يكون شجاعاً؛

.أن يكون خطيباً بارعاً؛

---

(1) المرجع نفسه، ص ص. 102 ـ 105 و 135 ـ 141.

(311/1)

.ألاَّ يحب المال،...

... يأخذ ابن رشد بنظام الشورى على طريقة الخلفاء الراشدين، ولكنه يحذّر من تحول حكم شوري ديموقراطي إلى نظام طغياني كما حصل مع معاوية في الحضارة الإسلامية.

... لننبه هنا إلى أن ابن رشد لم يُلَخِّص كل "جمهورية" أفلاطون. فلقد أسقط الكتاب العاشر لكونه، في اعتقاده، غير مفيد لعلم السياسة. وهو كتاب خصصه أفلاطون للشعر. كما أسقط أيضاً الكتاب الأول، لأنه ـ في اعتقاده ـ لا يحتوي إلا على تَعَقُّلاَت جدلية. وابن رشد يكره الجدل، لأنه لا يرقى إلى مستوى البرهان. وهذا ما يجعله يختلف كذلك عن

(312/1)

أرسطو. فالجدل عند هذا الأخير هو منطق السياسة، وهو وسيلة للتربية المدنية. أما ابن رشد، فيلح عن إبعاد الجمهور (أو عامة الناس) عن السياسة وعن كل علم متصل بها. ويعتبر أن المناسب لهم هو العلوم الدينية البسيطة. وبما أنه ينبغي إبعاد الجمهور عن السياسة، فإن التربية السياسية مسألة لا تعني ابن رشد.

ويعترف أبو الوليد، تماماً كأفلاطون وأرسطو، بأن نظام الديموقراطية (أو الشورى) ليس أمثل الأنظمة السياسية، ولكنه أقل الأنظمة الفاسدة فساداً. وهو نظام يضعه أرسطو بين الملكية والطغيانية:

فالملكية عنده هي أحسن أنظمة

(313/1)

الحكم(1)، ولكن كثيراً ما يحصل فيها أن يحكّم الملك عواطفه بدل القوانين. أما الطغيانية، فيرفضونها جميعاً. ويميل ابن رشد، تماماً كأفلاطون، إلى حكم النخبة، أي الفلاسفة. ولكنه يختلف عنه في ما يتعلق بتربية الناس. فابن رشد يدعو إلى التعامل مع عامة الناس بالأساليب الدينية دون محاولة ردهم إلى فلاسفة؛

أما أفلاطون، فيدعو الفلاسفة إلى تربية المواطنين، لأن الفلاسفة

---

(1) انظر: أرسطو، في السياسة، الفصل الثاني عشر: «تعريف أفضل الأحكام السياسية تعريفاً موجزاً»، ص. 175 وما بعدها من ترجمة الأب أوغسطينس (1980).

(314/1)

أَدْرَى بما هو خير من عامة الناس(1). ولكن ابن رشد يتفق مع أرسطو في إبعاد عامة الناس (أو ما يسميه أرسطو بالغوغاء) عن السياسة. ويتفق مع أفلاطون في إبعاد الفلاسفة المُفسدين، أي السفسطائية. والفلاسفة المفسدون ـ في نظر ابن رشد ـ هم المتكلمون. فهؤلاء يُضَلِّلُون عامة الناس، باعتبارهم يعتمدون منهج الجدل الذي لا يرقى إلى الحقائق البرهانية. فابن رشد يعتبر المتكلمين خطراً

---

(1) انظر المقدمة التحليلية التي أدرجها محمد عابد الجابري في ترجمة أحمد شحلان لكتاب: الضروري في السياسة المذكور أعلاه، ص ص. 59 ـ 60.

(315/1)

حقيقياً على صفاء الإسلام وعلى أمن الدولة. ويطلب من السلطات الحاكمة أن تمنع هؤلاء المتكلمين من توصيل معارفهم إلى عامة الناس.

... يتضح مما تقدم أن ابن رشد لا يكتفي بشرح الفلاسفة اليونان، بل يتخذ من حين لآخر مبادرات تميزه عنهم. والواقع أن الإشكالية السياسية التي يَسْتَحْضرها ابن رشد في ذهنه والتي يعيشها في الواقع تختلف عن التي انطلق منها أرسطو وأفلاطون. فبالرغم من كون ابن رشد يأخذ برأي أفلاطون في اعتبار المدينة محكومة من طرف الفلاسفة(1)

(1) ابن رشد، الضروري في السياسة، ترجمة أحمد شحلان، ص ص. 135 ـ 137.

(316/1)

، فإن هؤلاء الفلاسفة عند ابن رشد غير ملحدين. فهم جميعاً يؤمنون بالله وبنبوة محمد وبإعجازية القرآن. أضف إلى ذلك أن ابن رشد يفترض أن الشريعة الإسلامية تتضمن تعاليم تتجاوز نواميس أفلاطون، لأن هذه الأخيرة

مجرد تعاليم وضعية.

... من كل هذا يمكن أن نستنتج أن ابن رشد لم يقلد لا أفلاطون ولا أرسطو في مجال السياسة، بل وظّف أقوالهما في هذا الميدان لتتناسب مع الشريعة الإسلامية وصاغ من كل ذلك موقفاً شخصياً يختلف عن موقفي أستاذيه اليونانيين. ولكنه، بالرغم من ذلك، لم يتمكن من بناء نظرية في السياسة متميزة.

...

(317/1)

الأسس الفلسفية للرشدانية اللاتينية

... الرشدانية اللاتينية هي نزعة فلسفية انتشرت بالغرب اللاتيني في الفترة المحصورة بين ق 13 و 17م، وانطلقت من الاعتبار القائل بأن فلسفة ابن رشد تُمثل أحسن الشروح الفلسفية لأرسطو ويمثلان مجتمعين الحقيقة بعينها. لقد انتشر بين الرشدانيين اللاتين قولهم: Aristotelis doctrina est summa veritas.

نُنَبِّه هنا إلى أننا نتبنّى مصطلح »الرشدانية« للإحالة على نزعة فلسفية، وذلك لتمييزها عن »الرشدية« باعتبار هذه الأخيرة مجرد صفة أو نعت وليس اسماً لمذهب أو نزعة. ظهرت هذه النزعة

(318/1)

عند اليهود وعند المسيحيين، ولم تظهر عند المسلمين. مَثَّلها عند اليهود إسحاق البلاق (Isaac Albalaq: ق 13 م) وليفي بن غرسون (Levi Ben Garson: ق 13 ـ 14 م) وموسى النربوني (Moïse de Narbone: ق 13 ـ 14 م) وغيرهم. أما عند المسيحيين، فللرشدانية تاريخ طويل بدأ مع نشأة الجامعة الفرنسية بباريز خلال القرن 13 م ومع ترجمات أعمال ابن رشد التي قام بها ميكائيل سكوت بين 1225 م و 1235 م. وقد وصلت هذه الترجمات إلى باريز بُعَيْد 1230 م. وهناك تشكلت النواة الأولى للرشدانية بين 1250 و 1270 م. وفي هذه الفترة بَدَأَ

(319/1)

أساتذة الجامعة الفرنسية يُحيلون على الترجمات اللاتينية لأعمال ابن رشد التي كانت عبارة عن شروح وتلاخيص لأعمال أرسطو. لكن سُرْعَان ما تنبه علماء اللاهوت (مثل أَلْبِرْت الأكبر وطوما الأكويني وبونا فنتورا وغيرهم) إلى الخطورة التي تشكلها هذه

الفلسفة على العقيدة المسيحية. ولهذا عمد البابا وممثلوه إلى منع مجموعة من الأطروحات نُسبت عن حق أو عن باطل إلى ابن رشد وأرسطو. ومن أهم هذه الأطروحات ما يلي:

... .وحدة العقل الهيولاني بالنسبة للكائنات البشرية؛

... .نفي خلود الروح واليوم الآخر؛

(320/1)

... .قِدَمُ العالم المادي؛

... .نفي العناية الإلهية.

... هذه هي أهم الأسس الفلسفية للرشدانية اللا تينية، أُضِيفَ إليها فيما بعد مُكَوِّن آخر أساسي يتمثل في ازدواجية الحقيقة التي نسبت إليه، بالرغم من كون ابن رشد لم يَقُل بها. وبما أن انعكاسات هذه الأطروحة على المجال السياسي القروسطوي أساسية، فلابد من أن نتوقف عندها قليلاً.

... يمكن صياغة أطروحة ازدواجية الحقيقة كما يلي:

»من الممكن أن نحصل على نتيجتين متناقضتين

وصادقتين في الوقت نفسه: الأولى عقلية، والثانية دينية».

(321/1)

... أيهما أسمى عند ابن رشد؟ هذه مسألة لا تزال قيد المناقشة ولا يمكن البتُّ فيها بشكل نهائي. صحيح أن ابن رشد يعترف بالحقيقة العقلية ويمجدها، ولكنه صحيح أيضاً أن فيلسوفنا يعترف بالحقيقة الدينية.

... من المحتمل جداً أن يكون ابن رشد قد وضع الحقيقة الفلسفية في قمة المعرفة البشرية. وهذا ما فعله القديس طوما الأكويني أيضاً. غير أن هذا الأخير يعترف صراحة أن الإيمان أكثر يقيناً من العقل. أما ابن رشد، فيترك الحكم معلقاً.

(322/1)

... من الناحية الجغرافية، انتشرت الرشدانية أولاً في باريس خلال ق 13 م. ومن أبرز ممثليها آنئذ سيجي البرابنتي (Siger de Brabant) وبوويتيوس الداسي (Boèce de Dacie). ألف هذا الأخير كتاباً تحت عنوان

"الخير الأسمى" (De Summa bona) فيه يمكن التعرف إلى رشدانيته: فالعقل عنده هو الذي يضمن السعادة، لأن معرفة الحقيقة العقلية هي مصدر السعادة. والكتاب كله عبارة عن إشادة بالممارسة العقلية المحض(1).

---

(1) حوال اللذة العقلية عند ابن رشد، انظر المرجع السابق، ص ص. 204 ـ 206.

(323/1)

... انتقلت الرشدانية إلى جامعة بادوفا بإيطاليا، وهناك مثلها الكاتب والشاعر المعروف دانتي (Dante) ومارسيليو البادوني (Marsile de Padoue) ويوحنا الينـدوني (Jean de Jandun) وتَاديو البارمي (Toddeo da Parma) وغيرهم. ثم في القرن 15 م بإيطاليا نفسها ظهر رُشدانيون آخرون مثل: Nichola Vimias وبولس البندقي (Paul de Venise) وأغوتينو نيفو (Agotino Nifo) ثم بعدهم، في ق 16 م، ظهر Lacopo Zabarella، وهو فيزيائي و Marcontoni Zimara وغيرهم.

(324/1)

... يتبين من كل هذا أن الرشدانية غزت المراكز الثقافية القروسطوية بأوروبا وساهمت في فشل الثقافة السكولائية التي دشنها القديس أوغسطينوس ودافع عنها القديس طوما الأكويني والقديس ألبرت الأكبر وغيرهما. ويتبين من هذا أيضاً أن الرشدانية أثرت في كل الأذواق. لهذا لا ينبغي أن ننتظر نشأة رشدانية واحدة مضبوطة المعالم وملتزمة بكل أفكار ابن رشد. بل إن الرشدانية اللاتينية هي تاريخ أفكار ليست لابن رشد وحده. وقد يكون هذا هو السبب الذي جعل بعض الباحثين الغربيين (مثل Steenberghen و Jeaneau و Renan) يرفضون تسمية

(325/1)

»الرشدانية اللا تينية«. بل من بين هؤلاء (رينان مثلاً) من يرفض حتى التسمية »فلسفة إسلامية«(1). يؤكد Steenberghen أنه لم توجد قط مدرسة رشدانية لاتينية خلال القرن 13 م. وليس هناك تلامذة لابن رشد في الغرب المسيحي تَبَنَّوا كل مذهبه. بل إن سيجي البرابنتي (Siger de Brabant)، الذي يُعتبر من

---

(1) **انظر مثلاً:** Van Steenberghen, " L'Averroïsme latin au XIIIè siècle," in: Multiple Averroès, 1978, pp. 283–286; E. Renan, Averroès et l'Averroïsme, 1952, Nouvelle édition de Maisonneuve et la Rose, Paris, 1997.

(1/326)

كبار رواد الرشدانية المسيحية، لم يُحل على ابن رشد إلا مرتين، وذلك في كتابه (De anima intellectiva1). **ولم يقدم سيجي البرابنتي نفسه على أنه رُشْدَانِيّ قط، ولم يُفهم قط من معاصريه أنه رشداني. وهكذا يستنتج** Steenberghen **في مقال له تحت عنوان «الرشدانية اللاتينية في ق** 13 **م» (بالفرنسية) أنه لا توجد مدرسة رشدانية ولا يوجد رشدانيون تَبَنَّوا فلسفة ابن رشد في مجموعها. لهذا، في اعتقاد** Steenberghen**، لا يمكن الحديث عن رشدانية**

---

(1) Siger de Brabant, De anima Intellectiva, éd. B. Bazan, Louvain, Paris, 1972.

(1/327)

لاتينية ولا عن أثر ابن رشد في اللاتين!

... يبدو أن في موقف هذا الباحث شيئاً من التعسف.

فكيف يفسر قولَ يوحنا اليندوني مثلاً بأن هذا الأخير يرغب لا في أن يكون تلميذاً لابن رشد وأرسطو فقط، بل أن يكون قرداً (Singe) لهما. فابن رشد بالنسبة ليوحنا، وعلى حد قوله: Perfectissimus et gloriosissimus Philosophicae veritatis amicus et defensor. **ولقد تبنى الموقف نفسه كثير من الرشدانيين الإيطاليين حتى القرن** 17 **م. والواقع أن الذي أُخِذَ عن ابن رشد ليس هو كل فلسفته، وإنما فقط روحها التي تتمثل في صبغتها**

(328/1)

العقلانية. وهذا وحده يكفي للحديث عن رشدانية فلسفية وعن انعكاساتها في الميدان السياسي.

...

الانعكاسات السياسية للرشدانية اللاتينية

... بعد نُضْج النظريات الفلسفية التي تبناها الرشدانيون الفلاسفة، وخاصة حول العقل والمادة

والخلق، أدت تلك النظريات إلى ظهور تطبيقات لها في ميدان السياسة. ومع الأسف الشديد، لم يتم الاهتمام حتى الآن بالجانب السياسي للرشدانية اللاتينية، باستثناء بعض الإشارات العابرة من حين لآخر في الكتب التي تؤرخ للفلسفة القروسطوية. ومن الموسف كذلك أن كبار بعض المتخصصين في الرشدانية، مثل

(329/1)

رينان، أهملوا تمام الإهمال الجانب السياسي لهذه النزعة. وبالرغم من ذلك، فقد كان للرشدانية اللاتينية، أثناء القرنين 14 و 15 الميلاديين، صبغة ثورية لأنها قَلَبَتْ كل مفاهيم الكنيسة.

... تَمَيَّز الوضع السياسي القروسطوي بأوروبا بميزة خاصة تمثلت في الصراع القائم بين البابا بما هو سلطة دينية والإمبراطور أو الملك بما هو سلطة دنيوية. وقبل ظهور الرشدانية السياسية كانت التيوقراطية تشغل كل الساحة السياسية.

... يمكن إرجاع الأسس الفلسفية للتيوقراطية المسيحية إلى ما سُمِّي بالأُوغوسطينانية (Augustinisme)

(330/1)

نسبة إلى القديس المغاربي أوغسطينوس (ق 14 م). ألف هذا الأخير كتاباً تحت عنوان "المدينة الإلهية" (De civitate Dei)، يدافع فيه عن تيبوقراطية بابوية تتمثل في سمو سلطة البابا على المستويين الديني والدنيوي على سلطة الملك أو الإمبراطور(1). ويُعتبر البعد الروحي في هذه المدينة

---

(1) St. Augustin, De civitate Dei (la cité de Dieu), Vol. 33–37, 1959–1960. Notes: G. Barby, Trad. G. Combès, de Corpus christianorum, Series latina, éd. bilingue dans la Bibliothèque "augustinienne", Int. et Notes: G. Barby, Trad. G. Combès, en cours depuis 1936.

(331/1)

أساسَ كل شيء. أما البعد الدنيوي فيها، فليس له إلا دور ثانوي. ومن الممكن أن توجد الدولة إلى جانب الكنيسة، ولكن لابد للأولى من أن تبقى في خدمة الثانية وأن تكون السلطة التي يتمتع بها الإمبراطور

مِنْحَةً من الكنيسة وأن مصدر كل سلطة على الإطلاق هو الله.

... بالإضافة إلى المدينة الإلهية الأوغسطينية، كانت هناك مدينة المؤمنين التي تصورها روجر بيكون في كتابه Opus Tertium، **حيث النص الديني هو القانون الأسمى**(1). **والعلوم بهذه المدينة**

---

(1) Roger Bacon, Opus Tertium, J. S. Brewer, London, Longman, 1859.

(332/1)

متراتبة تتلقى الدنيا منها مبادئها من العليا، وأعلاها هو الوحي؛ أما الفلسفة، فلا تصلح إلا لاستخلاص الحكمة من النصوص المقدسة. ويكون سكان هذه المدينة مُتَّحدين تحت سلطة البابا. ويتصور بيكون العالم كله بأنه ممثِّلٌ لهذه المدينة ومحتَضِنٌ لمجتمع وحيد تَتَّحِدُ فيه كل الأمم تحت ظل البابا. ففي هذه المدينة .يقول بيكون . «سوف يدخل اليونان تحت طاعة الكنيسة وسوف يعتنق أغلب الرومان المسيحية. أما العرب والمسلمون، فسوف يُدَمَّرون» (Op. Tert. XXXIV). **في هذه المدينة تَتَرَكَّز السلطة بيد رجال الدين المثقفين،**

(333/1)

أي علماء اللاهوت. وهذا نموذج من نماذج الحكم التيوقراطي الذي تخضع فيه كل مكونات المجتمع لسلطة البابا ويكون فيه النص المقدس هو الدستور. وهذا مناف تماماً لما تصوره ابن رشد، باعتبار أن هذا الأخير يرفض تدخل المتكلمين ورجال الدين في السياسة. وقد استغل أعداء التيوقراطية المسيحيون هذا الفصل بين الفكر الفلسفي والفكر الديني ليترجموه إلى فصل بين الكنيسة والدولة أو بين الفكر العقلاني واللاهوت.

... كانت هناك محاولات لتكييف الرشدانية مع العقيدة المسيحية ومع النزعة الأوغسطِينَانية ومع النزعة الأوكمانية، وكان

(334/1)

من المفروض أن تتحول الرشدانية إلى أوكمانية، ولكن هذا لم يحصل. وبالرغم من مضايقة الرشدانية للأوغسطينانية، فإن هذه الأخيرة واصلت تطورها على يد طوما الأكويني ويوحنا سكوت (Jean Scot) الذي مزج

أرسطو بأوغسطينوس لخدمة المسيحية. وازدهرت الأوغسطينانية على الخصوص بفرنسا خلال القرن 17 م، حيث أدّت دوراً أساسياً في تطوير النزعة الديكارتية في صيغتها المالبرانشية. واستمر انتعاش هذا المذهب حتى خلال ق 18 م.

... المشكل الأساسي الذي طُرح بأوروبا خلال القرون الوسطى يتمثل في معرفة موطن الحقيقة: هل هو النص المقدس أو

(335/1)

العقل أو هما معاً. وهنا أدّت أطروحة ازدواجية الحقيقة المنسوبة لابن رشد دورها السياسي. فأعداء الكنيسة لا يعترفون إلا بالحقيقة العقلية، أو يعترفون بهما معاً ولكن يُرَجّحون الحقيقة العقلية. وهذا هو موقف يُوحَنَّا الينـدولي الذي اكتسبت الرشدانية معه صبغة سياسية محضاً. فهو يعترف بخلود الحركة والعالم وينكر الحياة الأُخروية ويعادل بين نتائج العقل والتجربة والنتائج الفلسفية التي توصل إليها ابن رشد ولا يُخفي دفاعه عن هذا الأخير وعداءه للقديس طوما الأكويني. يبدو، من خلال انطباعات يوحنا الينـدولي حول ابن

(336/1)

رشد، أن الذي أعجب الأوروبيين في أبي الوليد هو عقلانيته ومنهجه في البحث والتفكير الذي يعتمد على التناول العقلي والبرهان.

... وفي زمن يوحنا نفسه (أي في ق 14 م) ظهر مارسيليو البادوفي المعروف بميوله للرشدانية وباستغلاله لأفكار ابن رشد في المجال السياسي، وخاصة أطروحة الفصل بين العقل والإيمان الذي أصبح فصلاً بين الروحي والدنيوي، بين الكنيسة والدولة. وهكذا يمكن اعتبار كتاب (1324Defensor Pacis) لمارسيليو مثالاً حياً لتطبيق الرشدانية في ميدان السياسة. في هذا الكتاب يميز المؤلف بين شكلين من الحياة:

(337/1)

الحياة الدنيوية التي يتولى أَمْرَهَا الملوك حسب التعاليم الفلسفية، والحياة الأُخروية التي يتولّى أمرها رجال الدين وعلى رأسهم البابا، بناء على التعاليم الواردة في النصوص المقدسة. وهنا يتبين أن مارسيليو لا ينكر دور الدين في المجتمع تماماً كما هو حال ابن رشد. لكنه

بالرغم من قوله بالحياة الأخروية، فهو يعترف أنها غير قابلة للبرهنة. فهو يقبلها فقط، نظراً للدور الاجتماعي الذي يؤديه الإيمان بها في صفوف عامة الناس: فهي تدفع المواطنين إلى التزام الهدوء واحترام الأخلاق. ومن هنا يتضح أن اعتراف مارسيليو

(338/1)

برجال الدين لا يعني أن لديهم الحق في التدخل في السلطة. بل إن دورهم هو مجرد دور استشاري. لقد دافع مارسيليو عن فصل الدين عن الدولة وناضل من أجل عَزْل الكنيسة عن الشؤون العامة للناس؛ لأن المدينة قادرة على إدارة نفسها بنفسها بناء على المجهودات العقلية التي يبذلها الفلاسفة. وانطلاقاً من هذه الفترة، أصبح الفصل بين الكنيسة والدولة أمراً واقعاً.

... قام أليغييري دانتي (Alighieri Dante) هو أيضاً بالتحويل نفسه: تحويل الأفكار الرشدية من الفلسفة إلى السياسة. ففي كتاب له تحت عنوان De Monarchia وَظَّف الكاتب

(339/1)

أفكار ابن رشد لتحقيق مَلَكِيَّة كَوْنية. وفي كتابه Divina comedia يتبين أن دانتي تأثر كثيراً بأرسطو وبشارِحه ابن رشد. وفيه أيضاً يدعو إلى فصل الدين عن الدولة. وفي الكتابين معاً يحلل دانتي مشكلتين أساسيتين: ضرورة وجود إمبراطور واحد لتحقيق السعادة الدنيوية، ثم ضرورة استقلال السلطة الدينية عن السلطة الدنيوية. ويصرح دانتي أن احترام حقوق الإنسان هو نفسه احترام للإرادة الإلهية. ولا ينبغي للإمبراطور أن يستمد سلطته من البابا. وينتهي دانتي إلى القول بأن الفلسفة هي الوسيلة الوحيدة إلى تحقيق السعادة

(340/1)

الدنيوية. أما اللاهوت، فهو وسيلة لتحقيق السعادة الأخروية. وهنا يختلف دانتي عن باقي الرشدانيين في كونه يعترف باليوم الآخِر. غير أنه، في كتابه De Monarchia، يُدخل البابا إلى جهنم ويدخل الرشداني سيجي البرابنتي إلى الجنة.

... لا داعي للاستمرار في إحصاء الرشدانيين واحداً واحداً. يكفي القول بأن الموقف نفسه تبناه كثير من الفلاسفة المسيحيين ذكرنا أهمهم. ويمكن أن نضيف

إلى هؤلاء أسماء أخرى مثل الفيلسوف والطبيب البادوفي Pietro d'Abano **والفيلسوف الفلكي البارمي** Taddeo de Parme **صاحب كتاب** Questiones de anima

(341/1)

والمنطقي Angelo d'Arezzo **وغيرهم.**

... بالإضافة إلى هؤلاء الرشدانيين الإيطاليين الذين تَبَنَّوا موقفاً جُحُودِيّاً متطرفاً للنيل من الكنيسة، ظهرت بابريطانيا »الأُوكمانية السياسية« التي سعت بدورها إلى فصل السلطة الدينية عن الفلسفة على الطريقة الرشدانية. وهذا لا يعني أن كَيوم الأوكامي (ق 14 **م) لا يعترف بسلطة دينية، بل على العكس من ذلك فالله عنده هو الذي خلق الطبيعة وقوانينها، ولكنه لا يتدخل في سيرها كما لا ينبغي أن يتدخل في سير المجتمعات المدنية. وانطلاقاً من الافتراض الفلسفي الذي ورثه كَيوم**

(342/1)

الأوكامي عن ابن رشد والذي لا يعترف بوجود الكليات، يؤكد كَيوم أن الموجود الحق، على المستوى السياسي، هو الأشخاص. وليس هناك جسم اجتماعي، بل هناك تجمع (Congrecatio) لوحدات متمايزة. وبناء على هذا المنظور، فإن السلطة السياسية مرتبطة باتفاق الناس. وكل المؤسسات السياسية قائمة على القابلية للتغيّر. يقوم كَيوم الأوكامي ضد الكنيسة ويعتبر الإمبراطور هو السلطة الوحيدة المعقولة. فالله لم يكلف السلطة الدينية بتطبيق القوانين الوضعية. ويُعْتَبَرُ كَيوم هذا من كبار الذين دافعوا عن الفِكْر العلماني في القرون

(343/1)

الوسطى، لأنه كان ضد التيوقراطية البابوية.

...

الامتدادات الحديثة للرشدانية السياسية

... منذ ظهور الرشدانية في الغرب المسيحي، أخذ الموقف المؤيد للسلطة المدنيّة يزداد انتصاراً على الموقف المؤيد للدين. ولقد تحقق هذا بشكل أوضح مع ظهور مدونة حقوق الإنسان، خاصة في بندها الثالث الذي يقول: »مبدأ كل سيادة (أو سلطة) يكمن فقط في الأمة (أو

الوطن). ولا يمكن لأي إنسان أن يمارس سلطة تخرج عن اختصاصه». أضف إلى ذلك أن مدونة حقوق الإنسان سعت إلى إبدال إشكالية العلاقة بين الديني والدنيوي بإشكالية الدين المدني. وفي

(344/1)

هذا الإطار كان روسو يحاول الدفاع بحماس عن فكرة التسامح الديني وحرية التدين. ولقد نجحت الولايات المتحدة في فصل الدين عن الدولة وفي حرية التدين منذ 1791 م، بينما لم تستطع فرنسا أن تخلُق جواً ملائماً لحرية التدين، لهذا اخترعت فكرة اللائكية.

... يمكن إذن اعتبار حركة حقوق الإنسان والنزعة اللائكية في العصر الحديث وكذلك حركة الأنوار امتداداً للرشدانية السياسية القروسطوية.

... من الملاحظ أيضاً أن العالم الإسلامي لم يستفد لا من العقلانية الرشدية ولا من امتداداتها السياسية، سواء في القرون الوسطى أو في

(345/1)

العصر الحديث. لقد توافرت في العالم الإسلامي القروسطوي كثير من العوامل الثقافية التي كان بإمكانها أن تغير من توجه الصراع على السلطة ليميل نحو استقلال الدنيوي عن الديني: لقد كان هناك فلاسفة مسلمون ابتداعيون، بل وأحياناً مُلحدون. لقد عبر إخوان الصفا عن ميلهم الواضح إلى أرسطو وأفلاطون أكثر من ميلهم إلى التقليد النبوي، واعتقدوا أنه ليس هناك ديانة وحيدة تملك الحقيقة. أما الفارابي، فقد مجد العقل واعتبره كافياً لضمان سعادة الإنسان. وصارع ابن رشد المتكلمين والفقهاء طيلة حياته. بل حتى الشعراء، مثل

(346/1)

المتنبي وأبي العلاء المعري، دافعوا عن العقلانية بوسائلهم الخاصة. ولكن بالرغم من ذلك، كانت الغَلَبة لسلطة الفقهاء. وهذا عكس ما حصل في العالم المسيحي القروسطوي.

المصادر المراجع

بالعربية

أرسطو، في السياسة، نقله من الأصل اليوناني إلى العربية وقدّم له وعلق عليه: الآب أوغسطينس برباره البولسي، الطبعة الثانية، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، 1980.

ابن رشد، الضروري في السياسة، مختصر كتاب السياسة لأفلاطون، نقله عن العِبْرية أحمد شحلان، وقدّم له محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،

(347/1)

1998. **انظر هذا المقال، هامش** 1.

أمليل، علي، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.

الخضيري، زينب، أثر فلسفة ابن رشد في العصور الوسطى، بيروت، لبنان.

بالأجنبية

ARNALDEZ R., Averroès, un rationaliste en Islam, Le Nadir, 1998.

BACON ROGER, Opus Tertium, J. S. Brewer, London, Longman, 1859.

BADAWI A, Histoire de la Philosophie en Islam, Vol. II: Les philosophes purs, Paris, Librairie philosophique, J. Vrin, 1972.

(348/1)

BOECE DE DACIE, De summo bono (Le bien suprême), N. J. Green Pederson, (CPhD vi/2), 1976.

CARLYLE R. - W, A History of Medieval Theory in the West, 1903–1928.

DANTE ALIGHIERI, Divine comédie, éd. Bilingue, trad., introd. et notes J. Risset, Paris, Flammarion, 1985.

– – , Œuvres complètes, trad. et comm. A. Pézard, 5ème éd. coll. "La Pléiade", 1983.

– – , Monarchia, éd. P. G. Ricci, Milan, 1965.

DE LAGARDE G., La naissance de l'esprit laïque au déclin du Moyen Age, I, Bilan du XIIIè siècle, éd.

(349/1)

Béatrice, Saint-Paul-Trois-Chateaux; II, Marsile
.1934de Padoue, Ibid.,

La naissance de l'esprit laïque, III: Le ,– –
.defensor pacis, Louvain, Paris, Nauwelaerts

DE LIBERA A, Averroès, L'intelligence et la
.pensée, Paris, GF. Flammarion

.1991Penser au Moyen Age, Paris, Seuil, ,– –

FAROUKI NAYLA, La foi et la raison, Histoire
.1996d'un malentendu, Flammarion,

GILSON E., «Boèce de Dacie et la double
vérité», in: Archives d'Histoire doctrinale et
., pp1955, 22littéraire du Moyen Age, vol.

(350/1)

.99–81

), La philosophie au Moyen 1922GILSON E. (
(en deux 1952è éd. Payot, 2Age, Paris, Vrin,
.1976volumes) rééditée en

), La philosophie 1963JEAUNEAU E. (
, coll. Que 1967è éd. 2médiévale, Paris, PUF,
.؟sais-je

LEGOFF J., les intellectuels au Moyen Age,
1985Paris, Seuil,

), Defensor Pacis 1933MARSILE DE PADOUE (
(Le défenseur de la paix), éd. R. Scholz,
.1968Hanovre, Trad. fr. J. Quillet, Paris, Vrin,

(351/1)

), Philosophie arabe dans 1947QUADRI G. (
l'Europe médiévale des origines à Averroès,
.Paris, Payot

QUILLET J., La philosophie politique de Marsile
.1970de Padoue, Paris, Vrin,

.1958RENUCCI P., Dante, Paris, Hatier-Boivin,

L'Aventure de l'humanisme européen au , – –
,Moyen Age

.1953Paris, Les Belles Lettres,

ROSENTHAL E. I. J., Averroes' Commentary on
Plato's Republic, Cambridge: At the University
.Press

SIGER DE BRABANT, De anima intellectiva, éd.
.1972B. Bazan, Louvain/ Paris,

(352/1)

ST. AUGUSTIN, De Civitate Dei (La cité de
de Corpus christianorum, 37–33Dieu), Vol.
Bibliothèque " Series latina, éd. bilingue dans la
, Introd. 1936en cours depuis ,"augustinienne
–1959et Notes: B. Bardy, Trad. G. Combès,
.1960

VAN STEENBERGHEN F., Maître Siger de
Brabant, Louvain/ Paris , (Philosophes
1977médiévaux, XXI),
:in ,"L'Averroïsme atin au XIIIè siècle" , – –
Multiple Averroès, Actes du coll. intern.
è anniversaire de 850organisé a l'occasion du
23–20la naissance d'Averroès, Paris,

(353/1)

.286–283, pp. 1978, Paris, 1976sept.,

(354/1)

أثر الاستعمار في تشويه تاريخ الأمة العربية والإسلامية

... ... الدكتور محمد محمود السروجي

... أستاذ التاريخ الحديث المعاصر كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

... الحركة الاستعمارية ليست حديثة العهد، بل هي قديمة قدم التاريخ المكتوب، وإن كانت لم تعرف بهذا الاسم إلا في العصر الحديث. فالاستعمار يعني استيلاء دولة على ممتلكات دولة وتقاليدها وتاريخها ما استطاعت والاستبداد، ومحاولة تغيير ثقافة الدولة المغلوبة وتقليدها وتاريخها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا. وقد أثرت تلك الحركة تأثيرا قويا في السياسة الدولية في

(355/1)

هذا العصر.

... ولفهم وسائل وأساليب الاستعمار في تزييف وتشويه تاريخ الأمم والشعوب التي نكبت به بصفة عامة والدول الإسلامية بصفة خاصة، لا بد لنا من الإلمام بأقوال دهاقنة الاستعمار من رجال السياسة والفكر في أوربا، ممن كانت لأقوالهم وأفعالهم أكبر الأثر في دفع حركة الاستعمار وفي تطورها وتوجيهها الوجهة التي يريدونها. فمن هذه الأقوال ندرك زيف ادعاءاتهم منذ

بدايات ومقدمات الحركة الاستعمارية. ومن المنطقي أن تؤدي المقدمات الزائفة إلى نتائج زائفة. فليس من العسير على هؤلاء أن يشوهوا تاريخ الشعوب التي حكموها

(356/1)

ليبرروا وجودهم رغم أنف تلك الشعوب.

... هذه كلمة سقتها في بداية بحثي نبراسا يهدينا في دروبه وفي منعطفاته,

... أما عن الأساليب والدوافع التي تذرعت بها الدول الكبرى لتبرير استعمارها – غير الأسباب الحقيقية التي تهدف إلى التملك والتسلط والسيطرة على مقدرات الشعوب سياسيا واقتصاديا وثقافيا، واستنزاف مواردها لخدمة ولرفاهية شعوب تلك الدول الكبرى – فهي

متعددة، فمنها من اعتبرها مسألة كرامة أو هيبة (Prestige) مثل بنجامين دزريلي (Benjamin Disreali) (1)

---

(1) درزيلي ، بنجامين (1804–1881)، سياسي بريطاني، تولى رئاسة الوزارة البريطانية مرتين عام

1868 و (1874– 1880) وعرف بسياسته الاستعمارية.

وأهم أعماله شراء أسهم مصر في قناة السويس سنة 1875.

(357/1)

وزير خارجية بريطانيا ورئيس وزرائها في خطابه الذي ألقاه في (Crystal Palace) في عام 1289هـ/ 1872 م وكأن هيبة الدولة وكرامتها لن تصبح حقيقة واقعة إلا باستبعاد غيرها من الشعوب.

... ولم يكن دزيلي وحده – وقتئذ– يفتخر بعظمة الإمبراطورية البريطانية وإنجازات بريطانيا الاستعمارية ، بل شاركه في ذلك كثيرون من رجال السياسة والفكر أمثال شارلز دلكه (Charles Dilke) (1)

---

(1) دلكة، شبالز (1843–1991)، من رجال السياسة والفكر الإنجليز، وممن أيد السياسة الاستعمارية ومجد الإمبراطورية البريطانية في كتابه Greater Britain)) الذي نشر في عام 1868.

(358/1)

، **جيمي فرود** ( )(1James Froude) **وجون سيلي** (John) (2Seeley) ،**وتوماس كارليل** (((3Thomas Caryle) ، **وشارلز كنجلسي** ( ) (4Charles Kingsley)

---

(1) **فرود، جيمس** (1818– 1894)، **وهو مؤرخ وكاتب ، وممن أشادوا بالإمبراطورية البريطانية في كتابه الأقيانوسية** (Oceana) **الذي صدر في عام** 1886.

(2) **سيلي، جون** (1843–1895) ، **أيد حركة الاستعمار ومجدها في كتابه** (Exapansion Of England) **ونشر في عام** 1883.

(3) **كارليل، توماس** (1795–1881)، **وهو كاتب ومؤرخ وفيلسوف إنجليزي.**

(4) **كنجلي ، شارلز** (1819– 1975) ، **وهو رائي وقس إنجليزي،بارك الحركة الاستعمارية، وحاول التوفيق في كتاباته بين العلم الحديث والعقيدة النصرانية.**

(359/1)

،**وجون رسكن** ( ) (1John Ruskin) ، **وألفريد تنيسون** ( ) (2Alfred Tennyson) ، **ولورد سولسبري** (Lord

) (3Salibryry) ،وجول

---

(1) رسكن، جون (1819 – 1900) ،وهو كاتب فنب إنجليزي، وإلى جانب تأييده للحركة الاستعمارية، اهتم بدراسة المجتمع الصناعي الجديد وبيان مساوئه.

(2) تنيون، الفريد (1809– 1892)، وهو شاعر إنجليزي ويعد من أكبر شعراء العصر الفيكتوري.

(3) لورد سولسبري (1830 – 1903) من كبار رجال الدولة في بريطانيا وهو من حزب المحافظين وقد تولى رياسة الوزارة.

(360/1)

فيري) ((1Jules Ferry) ،وسيسيل رودس (Cecil) (2Rodes) وهوراشيو كتشنر (Herbert Kitchener) (3)

---

(1) فيري، جول (1832–1892) ، وهو سياسي فرنسي كبير، تولى رئاسة الوزارة الفرنسية في اعوام (1880– 1881) و (1883– 1885) وعرف بسياسته الاستعمارية.

(2) سيسيل، رودس (1853–1902) ، وهو أحد رواد

الاستعمار البريطاني ومن أنشط رجال المال والسياسة الإنجيز، قضى شطرا كبيرا من حياته في جنوب إفريقيا الجنوبية،وشجعته الحكومة الإنجليزية على إنشاء مستعمرة روديسيا (زبمبابوي حاليا) سنة 1890.

(3) كتنشر،هوارشيو هربرت (1850– 1916**)، مارشال بريطاني،وأصبح وزيرا للحربية البريطانية عام (** 1914– 1916**).**

(361/1)

،وغيرهم.

... ومن الادعاءات الزائفة لتبرير الاستعمار ادعاؤهم بأن للرجل الأبيض رسالة عليه أن يؤديها للشعوب المختلفة، وتشدق بهذا القول الكثيرون من رجال السياسة والفكر، ويعبر عن هذا الرأي الكاتب وياث (Wayath**) في كتابه «** Ethics Of Empire **» فيقول : " إن واجبا محددا قد عينه القدر لنا – وليس لغيرنا – وهو أن نحمل مشعل النور والحضارة إلى داخل الأماكن المظلمة في العالم، وأن نلمس عقول أبناء آسيا وإفريقيا بالقيم الأخلاقية النابعة من أوربا " (1) وهذا القول**

---

(1) Langer, W, L., Diplomacy Of Imprialisme, P .93.

(362/1)

فيه تجن على تلك الشعوب، فالقيم الأخلاقية لم تنشأ في أوربا وحدها، وإنما نزلت بها عن طريق القهر والبطش.

... ويرد على هذا الادعاء أحد كبار المؤرخين الفرنسيين المعاصرين وهو الأستاذ بيير رنوفن (Pierre Renouvan**) بأن هذا القول "هو دائما مجرد شكل بسيط لتغطية المصالح أو الأطماع"** (1) .

... كذلك روج بعض الكتاب والمفكرين الاجتماعيين لحركة الاستعمار بالمناداة بنظرية "الصراع من أجل البقاء" (Struggle For

---

(1) **رونوفن، بيير، تاريخ العلاقات الدولية (** 1815–1914**)، تعريب دكتور جلال يحيى، الإسكندرية،** 1986**،ص**.516.

(363/1)

(Existence ،وعبر عن هذا الاتجاه رويارد كبلنج

() (1Ruyard Kipling) في عام 1308/ 1890 م؛ كما دعا

هؤلاء إلى نظرية أخرى وجدت صداها

في الأوساط الاستعمارية وقتذاك، ألا وهي نظرية "البقاء

للأصلح" (Suevival Of the Fittest) ، وقد عبر عنها

كبلنج بقوله " بأن الاستعمار هو صورة من صور الكفاح

من أجل الحياة، حيث ينتصر الشعب الأكثر استعدادا

---

(1) كبلنج،رويارد (1865– 1936)ن من مؤيدي حركة

الاستعمار وألف في هذا الموضوع كتابين هما :

(Departmental Ditties) في عام 1886، و (Take Up

the Xhite Man burden) في عام 1899.

(364/1)

من الناحية الجسمانية والفكرية " (1) .

... وفي هذا المعنى أيضا يذكر الكاتب كارب بيرسون

() (2Karl Vbreason) "أن التاريخ يطلعني على طريقة

واحدة لا يوجد غيرها، أدت إلى قيام حالة حضارية هي

الصراع بين الأجناس، والبقاء للعنصر أو الجنس الأصلح

في الجسم والعقل...إن طريق التقدم تغطية أشلاء الأمم

التي تبيد ..إن الشعوب التي بادت، هي في حقيقتها

---

(1) رونوفن، المرجع السابق / ص.515.

(2) محمد محمود السروجي، تاريخ أوربا الدبلوماسي – من السبعينات للقرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى ، الإسكندرية 1966، ص.115–117.

(365/1)

الواضحة للعيان الدرج الذي رقاه الجنس البشري صاعدا نحو الحياة الفكرية الراقية والحياة الوطنية الراسخة التي نحياها اليوم".

... وكأن البشرية في عرف هؤلاء الكتاب لن تتقدم إلا على أشلاء الشعوب الضعيفة التي كانت ضحية الاستعمار والمستعمرين.

... كذلك حمل بعض المفكرين لواء نظرية " التطور الاجتماعي" التي أدت إلى ظهور فكرة تقسيم العالم إلى مجموعات كبيرة، فينقسم إلى ثلاثة أو أربعة شعوب كبرى صالحة للبقاء، وعلى الشعوب الضعيفة أن تموت أو تفنى أمام الدول القوية أو أن تخضع لها.

(366/1)

... بل لقد بلغ الإسفاف والزيف في تبرير الاستعمار أنه – نسب – حاشا لله – إلى المشيئة الإلهية فيقول روزبري ( ) (Rosebery 1264–1349هـ 1847– 1929م) وهو من كبار حزب الأحرار في بريطانيا، "وأعتقد أن الإنجليز بطارقة العالم، وأنهم امبرياليون (مستعمرون) – لا لأنهم أرادوا ذلك– ولكن لقانون عالمي إلهي يوجههم إلى أداء ذلك الواجب" (1) .

... والحقيقة التي لا مراء فيها أن الطمع في ثروات الشعوب الضعيفة ، والاستئثار بها لرفاهية شعوب الدول المتعدية كانت المحرك الأساسي لحركة الاستعمار .

---

(1) المرجع نفسه ، ص.118.

(367/1)

ويعبر عن هذا الرأي بصراحة تامة السير أوستن تشمبرلن () (Sir Joseph Austen Chamberlin1) فيقول : " هل هناك من يعتقد وهو في كامل وعيه أ ن السكان المكتظين في هذه الجزيرة (يقصد بريطانيا) يستطيعون أن يعيشوا ليوم واحد لو انقطعت عنا

المناطق العظيمة التابعة لنا ، التي تتجه إلينا طلبا للحماية والمساعدة ، والتي تشكل الأسواق الطبيعية لتجارتنا " (2) .

---

(1) **تشمبرلين ، جوزيف أوستين** (1836 – 1914) ، **سياسي بريطاني ، شغل منصب وزير خارجية بريطانيا من** (1924 – 1929) .

(2) 20 **أنظر** Colonial Speeches & Foreigin

(368/1)

... ورغم الصراحة التي يتصف بها هذا القول من مسؤول بريطاني كبير ، إلا أن الزيف واضح في قوله أن تلك البلاد قد التجأت إليهم طلبا للمساعدة والحماية ،فالحقيقة أن كل البلاد التي خضعت للاستعمار قد وقعت بصورة أو بأخرى في قبضته ، نتيجة الغزو المسلح تارة أو التهديد والإجبار تارة أخرى ، ولم برغبتها الحرة على أي حال .

... بعد هذا العرض الموجز لما أوردناه من آراء وأفكار ، جاءت على ألسنة كبار رجال السياسة والفكر ، يتضح لنا أن الاستعمار قام أساسا على زيف في القول والعمل ، وأن القائمين على أمره لم يتورعوا عن

(369/1)

تزييف أسبابه ، فهم بالتالي لن يتورعوا عن تشويه وتزييف تاريخ الأمة الإسلامية التي خضعت لحكمهم ، كي يتمشى مع أهدافهم ومصالحهم . والأمثلة على ذلك كثيرة . ولكنني سأتناول بعضها على سبيل المثال – لا الحصر – إذ أن المقام لا يسمح بغير ذلك أولا – موفق المؤرخين الأوربيين من الدولة العثمانية

... مما لاشك فيه أن تاريخ الدولة العثمانية قد تعرضت للكثير من الدرس والتشويه عبر تاريخها الطويل ، ويرجع ذلك منذ تأسيس الدولة إلى عاملين رئيسيين : الأول أن العثمانيين المسلمين قد حلوا محل الدولة التي عمرت أكثر من ألف

(370/1)

عام وكانت دول أوربا

تطمع في أن تحل محلها ، إذا كان لابد لها من الزوال ، لاسيما روسيا التي كانت تدين بالديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكس ، وهو مذهب الدولة البيزنطية نفسه

.

... والعامل الثاني أن الدولة العثمانية هددت دول أوربا فترة طويلة ووصلت جيوشها إلى أبواب مدينة فيينا ، وبعد أن أخضعت لحكمها دول شرق أوربا المسيحية ، ودخلت جموع من شعوبها في الإسلام . كما أنها وقفت ضد أطماع البرتغاليين في الجزيرة العربية ، وأغلقت البحر الأحمر في وجه السفن المسيحية حماية للأراضي المقدسة في الحجاز من الاعتداء ،

(371/1)

وظهرت جزر البحر المتوسط من فرسان القديس يوحنا الذين دأبوا على مهاجمة سفن المسلمين ونهبها ، وحمت دول شمال إفريقيا من الهجمات الصليبية من قبل الإسبان والبرتغاليين ، فحفظت له إسلامه وعروبته ، ورفعت لواء الإسلام في وجه دول أوربا المسيحية ستة قرون ، ولذا أخذت الحروب التي نشأت بينها وبين الدول الأوربية طابعا دينيا صليبيا (1) فكان لابد والحالة هذه أن ينعكس شعور الكره والتعصب على معظم الكتاب الأوربيين

---

(1) عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جدا ، القاهرة ، 1984 ، ص . 15 .

(372/1)

كراهية للدولة وللإسلام ،لاسيما و أنهم ربطوا بين الدولة العثمانية والإسلام ، فأي انتصار للعثمانيين هو انتصار للإسلام وهزيمة للمسيحية (1) .

... وقد وجدت الشعوب التي خضعت لأول مرة في تاريخها لحاكم مسلم أن تتخلص من الحكم عندما ظهرت بوادر الضعف على الدولة العثمانية ، فبدأت الحركات القومية في الظهور بتحريض وتشجيع من الدول الأوربية تحقيقا لمطامعها في الدولة (2) وخصوصا روسيا التي كانت تعمل

---

(1) المصدر نفسه ، ص. 15 .

(2) محمد محمود السروجي ، مصر والمسألة الشرقية من القرن التاسع عشر ، القاهرة 1966 ، ص . 5 .

(373/1)

على نشر مبادئ حركة الجامعة الصقلبية (السلافية) الكبرى ، وشعوب البلقان الخاضعة للحكم العثماني من الصقالبة أيضا ، فكانت روسيا تمالئهم بإطلاق اسم

"الأخوة الصغار " (1) عليهم .

... بل ادعت لنفسها الحق في حمايتهم كصقالبة صغار من عدوان الدولة العثمانية . وفي حقيقة الأمر فإن تلك الشعوب قد تمتعت بامتيازات كثيرة وبنوع من الحكم الذاتي لم تنله الشعوب الإسلامية .

---

(1) Summer , B . H . Survey of Russian History , London , 1945 , P 20 .

(374/1)

... وقد تركز تشويه تاريخ الدولة العثمانية بشكل واضح في فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني(1293 – 1327 هـ/ 1876 – 1909 م) الذي تولى الحكم في أحرج فترة من تاريخ الدولة ، إذ كانت الدولة قد بلغت شأوا بعيدا من الضعف، واكبته ذروة الأطماع الاستعمارية والصهيونية في ممتلكاتها . ففي مستهل عهده شنت روسيا على الدولة الرب الروسية التركية (1294 – 1295 هـ/ 1877 – 1878 م) وفرضت عليها معاهدة برلين(1295 هـ/1878) التي قطعت أجزاء واسعة من

ممتلكات الدولة في أوربا ، والتي ترتب عليها احتلال فرنسا لتونس عام 1298

(375/1)

هـ/ 1881 **م) واحتلال بريطانيا لمصر عام** 1299 **هـ/** 1882 **م ،ثم احتلال فرنسا لمراكش عام** 1330 **هـ/** 1912 **م)**(1) **... وكان من أسباب مهاجمة الكتاب الأوربيين للدولة العثمانية في ذلك الوقت تبنى السلطان عبد الحميد حركة (الجامعة الإسلامية) التي كانت ترمي إلى توحيد صفوف المسلمين حول السلطان العثماني للدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد أطماع الدولة الأوربية الكبرى .وحركة الجامعة الإسلامية في حقيقتها رد فعل للحركتين العدوانيتين اللتين عاصرتاها – وإن اختلفت عنهما في**

---

(1) **السروجي ، مصر والمسألة الشرقية ، صص .** 303 –310 .

(376/1)

الأسلوب وفي الهدف والغاية .

... فإذا كانت الحركة الأولى وهي حركة الجامعة الجرمانية حركة عنصرية هدفها تكوين وحدة سياسية من العناصر الجرمانية للوقوف ضد أطماع حركة الجامعة الصقلية تحت زعامة روسيا في شرق أوربا من جانب وضد أطماع فرنسا من جانب آخر ، فإن حركة الجامعة الصقلية حركة عنصرية كذلك هدفها إثارة صقالبة شرق أوربا ووسطها تحت ستار تخليصهم من السيطرة العثمانية من جهة ومن النفوذ الألماني المتمثل في حركة الجامعة الجرمانية من جانب

(377/1)

آخر (1) .

... ومن ثم ، فالحركتان الجرمانية والصقلبيية عدوانيتا ن، بينما حركة الجامعة الإسلامية حركة دفاعية هدفها وحدة المسلمين والدفاع عن كيانهم تحت زعامة الدولة العثمانية من أطماع الدول الأوربية ، وما كان ذلك يرضي الدول بحال من الأحوال .

... ومن الموضوعات التي حاول معظم المؤرخين الأوربيين تشويه تاريخ الدولة العثمانية بها ، إسهامها في عزل البلدان العربية عن العالم الخارجي ، مما كان له أكبر

الأثر في

---

(1) **محمد مصطفى صفوت ،الاحتلال الإنجليزي لمصر وموقف الدول الكبرى إزاءه ، القاهرة ،** 1952 **.صص.** 17 .18

(378/1)

تأخرها . ولكن الدارس لتاريخ الولايات العربية دراسة متأنية يرى أن هذا القول يفتقر إلى الصحة ، فالدولة العثمانية عقدت معاهدات تجارية مع معظم الدول الأوربية ، وكانت تلك المعاهدات تسري على جميع أجزاء الدولة بما فيها الولايات العربية .كذلك نجد أن معاهدات الامتيازات الأجنبية قد أعطت للدول الأوربية صاحبة الامتيازات حرية التعامل مع تلك الولايات في مجالات كثيرة مما يدحض ما ذهب إليه المؤرخون من فكرة العزل (1) .

---

(1) The Ottoman Empire and its Successors 1801 -1927, London , 1927

(379/1)

... وكان لكتابات وليم ملنر ’ (1William Milne)r)

وغيره ممن عاصروا السلطان عبد الحميد الأثر الكبير في

تشويه تاريخ الدولة العثمانية في تلك الفترة .

وكذلك عاصر السلطان عبد الحميد نشأة الحركة

الصهيونية ومؤازرة الدول الكبرى لها، ومحاولاتها

المستميتة بالسماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين ،

بالإغراء المادي تارة والتهديد تارة أخرى ، ووقوف

السلطان من ذلك كله موقفا صلبا لا يلين محافظا على

عروبة فلسطين ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، مما دفع

دعاة الصهيونية وكتابها إلى

---

(1) الشناوي ، المرجع السابق ، صص . 690 – 829 .

(380/1)

مهاجمته وتشويه صورته أمام العالم الخارجي .

ثانيا – الحملة الفرنسية على الجزائر 1245 هـ/ 1830 م .

... تمثل الحملة الفرنسية على الجزائر عام 1245 هـ/

1830 م مثلا آخر من أمثلة تشويه تاريخ الشعوب

الإسلامية ، إذ اتخذت فرنسا من حادثة المنشة (

المروحة) سببا جوهريا لمهاجمة الجزائر دفاعا عن شرفها

وكرامتها التي أهدرت(1) ولم يكن هذا هو السبب

الحقيقي للغزو ،فالتفكير في احتلال الجزائر سابق على هذه الحادثة بسنوات

---

(1) كوليت وفرانسيس جانسون ، الجزائر الثائرة ، ترجمة محمد علوي الشريق و آخرين ، دار الهلال ، 1957 .

(381/1)

أرجعها عباس فرحات (1) إلى عام 1231 هـ/ 1815 م وفيها هزم نابليون بونابارت وفقدت فرنسا أجزاء واسعة من إمبراطوريتها ، تنازلت عنها لبريطانيا ، ومن ثم رأت فرنسا أن تستعيض عنها بدول المغرب العربي ولتكن البداية بالجزائر كنقطة انطلاق نحو الاستيلاء على المغرب

---

(1) مجاهد جزائري من رجال الحركة الوطنية في الجزائر ، و أول من تولى رئاسة الحكومة الجزائرية المؤقتة التي أقيمت بالقاهرة عام 1958 ، وورد هذا القول في كتابه ، حرب الجزائر وثورتها (ليل الاستعمار) ، ترجمة أبو بكر رحال ، مطبعة فضالة ، المغرب ، ص . 9 .

(382/1)

بأكمله (1) .

... والحقيقة أن قوة الجزائر البحرية قد ازدادت زيادة كبيرة في البحر المتوسط (2) وتمكنت بهذه القوة البحرية أ ن تحفظ التوازن في القوى في الحوض الغربي للبحر المتوسط و أن تحمي السفن الإسلامية فيه ، وذلك خلال القرون الثلاثة السابقة على الاحتلال الفرنسي لها . وكانت العلاقات بينها وبين

(1) صلاح العقاد ، المغرب العربي (الجزائر ، تونس ، المغرب الأقصى) دراسة في تاريخه الحديث وأحواله المعاصرة، ط 2 ، القاهرة ، 1966 ، ص . 86 .

(2) Lacoste , y , L'Algérie , passé et présent , Paris , P180 .

فرنسا في مد وجزر ، فأحيانا يسودها السلام بناء على اتفاقات ، و أحيانا أخرى تهاجم كل منهما سفن الأخرى في البحر المتوسط ، وكان الكتاب الفرنسيون يطلقون على إغارات السفن الجزائرية بأنها أعمال قرصنة (1)

ولكنهم يطلقون على ما يقومون به ضد السفن الجزائرية بأنه دفاع عن النفس .

---

(1) Julien , ch -A , Histoire de l'Afrique du Nord , Tunisie - Algérie - Maroc : de la Conquete 1830Arabe à 1966eme éd) Paris , 2(286, pp . 287.

(384/1)

... وعلى أية حال كانت فرنسا حريصة على استمرار علاقتها مع الجزائر ، فكلما تعكر صفو تلك العلاقات حاولت إعادتها إلى صفائها مرة أخرى ، حرصا منها على سلامة سفنها ، وتحقيقا لمصالحها الاقتصادية ، وحفاظا على امتيازاتها التجارية ضد منافسة الدول الأجنبية (1) واتصفت عملية الغزو الفرنسي للجزائر 1245 هـ/ 1830 م بالتعصب الديني من قبل فرنسا ، فيذكر الملك شارل العاشر – الذي حدث الغزو في عهده – بأنه لم

---

(1) De grammont , H. D Histoire d' alger sous la domination turque , 1515- 1830 , Paris , 1887 , p248 .

(385/1)

يراع في هذه العملية سوى كراهية فرنسا للجزائر .(1)

... لم تكن الكراهية وحدها هي الدافع للغزو ، فالمشكلات الداخلية التي تعانيها فرنسا وقتذاك كانت لها نصيب كبير في حكومة فرنسا إلى التفكير في القيام بمغامرة خارجية لتوجيه السخط الداخلي ، الذي قد يطيح بها ، إلى هذه المغامرة ، أولا وهي غزو الجزائر(2) . بل إن من جاءوا بعد شارل العاشر من الملوك ساروا في نفس

---

(1) عباس فرحات ، المصدر السابق ، ص . 10 .

(2) Ageron , ch . Robert , Histoire de l' Algérie contemporaine (1830- 1976 , P.U.F., 1982) pp 5 & 6.

(386/1)

الاتجاه ، وأكدوا عدم تخليهم عن الجزائر ، لأن في ذلك إغضابا للمسيحيين في كل مكان وهم الذين فرحوا بهذا الغزو وباركوه (1) . وإن تمسك فرنسا بالجزائر يعتبر تضحية منها في سبيل نشر الحضارة بين القبائل

الجزائرية ، وحتى لا يقعوا في براثن استعمار آخر كالاستعمار التركي .(2)

---

(1) سليمان الهادف قريري ، القوى الوطنية في الجزائر ومقدمات الثورة التحررية (1945 – 1954) رسالة ماجستير بجامعة الإسكندرية ، غير منشورة ، ص . 18 .

(2) كوليت وفرانسيس جانسون ، المصدر السابق ، ص. 9 .

(387/1)

... وفي هذا القول رجوع إلى ما سبق أن ذكرته في مقدمة البحث ألا وهو التذرع برسالة الرجل الأبيض وحرصه على نشر الحضارة والثقافة بين القبائل الجزائرية . ولكن الحقيقة تثبت عكس ما زعموه . فلو نظرنا إلى التعليم في الجزائر عند مجيء الفرنسيين إليها نجد أن عدد المدارس الابتدائية وحدها في مدينة الجزائر عام 1245 هـ / 1830 م بلغ مائة مدرسة(1) ، لم يبق منها في عام 1262 / 1846 – أي بعد الاحتلال الفرنسي بست عشرة سنة – سوى أربعة عشرة مدرسة(2)

---

(1) **المصدر السابق** ، De Grammont , p . 229.

(2) **المصدر السابق** ، Lacoste , y . p . 130

(388/1)

. ضربنا هذا المثل بمدينة واحدة في الجزائر دون أن نذكر ما حدث في سائر المدن لأن هذا ليس موضوع دراستنا .

... وعلى أية حال فإن نصف المؤسسات التعليمية قد اختفى من ولاية الجزائر في الفترة فيما بين عامي 1245 – 1265 **هـ/** 1830 – 1850 **م** (1) **.وهذا يؤكد زيف ما ادعاه معظم الكتاب الفرنسيين من عدم وجود تعليم في الجزائر في العهد العثماني، وأن فرنسا هي التي عملت على نشره بعد احتلالها للبلاد .**

ثالثا – مصر في ظل الاحتلال البريطاني (1299 – 1332 **هـ/** 1882 – 1914 **م) .**

---

(1) **المصدر السابق ، ص .** 131

(389/1)

... ادعت بريطانيا على لسان ممثلها في مصر إيفلن بيرنغ (اللورد كرومر) بعد الاحتلال عام 1299 هـ/ 1882 م بأن مهمتها في مصر هي العمل على تحسين حال الفلاح ورفع الظلم عن كاهله ، وأظهر صداقته للفلاحين وأطلق عليهم " أصحاب الجلابيب الزرقاء " وحاول التخفيف عليهم من بعض الضرائب .

... وكان الهدف من انتهاج تلك السياسة إزاء الفلاحين ، وهم يمثلون أغلبية شعب مصر ، ما قاموا به من دور بارز في مساندة الثورة العرابية نتيجة لسوء أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ، وكثرة الضرائب ، وفرض السخرة ، واستبداد الحكام ، وطلبا

(390/1)

في تحسين أحوالهم . وفي عهد الخديوي إسماعيل (1279 – 1296 هـ/1863 – 1879 م) سرى في البلاد نوع من اليقظة والوعي ، وذلك لانتشار الصحف والمجلات ، ولتعاليم جمال الدين الأفغاني ، ونشاط تلاميذه ، وكان للفلاح نصيب منها ، ووجد الفلاحون في عرابي الأمل الذي يرتجى (1) ، لاسيما وأن أوضاعهم الاقتصادية الحادة التي مرت بالبلاد .(2)

_____

(1) لطيفة محمد سالم ، القوى الاجتماعية في الثورة العرابية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1981 ، ص . 297 .

(2) محمد محمود السروجي ، الجيش المصري في القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، 1967 ، صص .537 –556 .

(391/1)

.

... وكان لخطورة الدور الذي قام به الفلاحون في الثورة أن عزمت سلطات الاحتلال على تصفية قوتهم والعمل على إضعافهم . بل إن ما قاموا به قد أفزع كبار ملاك الأرض. ولذا وجدوا من مصلحتهم التعاون مع سلطات الاحتلال حفاظا على مصالحهم. ومن تم رأت بريطانيا ان تعتمد على طبقة كبار ملاك الأراضي الزراعية في تثبيت دعائم وجودها في مصر، وأن تربط مصلحتهم بمصلحتها. وبدأت تلك السلطات بتصفية كاملة للثورة في الريف المصري، فاعتقلت من الفلاحين ما يربو على 29.000 نسمة (1) .

---

(1) المصدر السابق، ص.588.

(392/1)

... كما قامت السلطات بفصل حوالي 250 من صغار ضباط الجيش من أبناء الفلاحين، وجرودهم من رتبهم جزاء عصيانهم – وبدأت تخيم على البلاد فترة من الظلام في أعقاب فشل الثروة، ونفي وسجن وتشريد القائمين بها.

... ونظرا لتعارض مصالح هذه الطبقة مع مصالح السواد الأعظم من الفلاحين فقد آثرت سلطات الاحتلال الوقوف إلى جانب كبار ملاك الأرض في أحيان كثيرة مضحية بجمهرة الفلاحين. وهنا ظهر التناقض واضحا بين أقوال هؤلاء المحتلين وتصرفاتهم الفعلية، فأدرك الفلاحون خداع المحتلين.

(393/1)

... ولما كانت مصر دولة مدينة للعديد من الدول والمؤسسات المالية الأجنبية أصبحت بريطانيا بحكم إدارتها للبلاد مسؤولة أمامها عن سداد الديون وأقساطها. ولذا بدأت تعمل على زيادة مساحة الأرض الزراعية، وأن تتبع سياسة التخصص الاقتصادي بالاعتماد على الزراعة ولا سيما زراعة القطن (1) اللازم

لمصانعها، أي أنها سخرت اقتصاد مصر لخدمة الاقتصاد الإنجليزي.

---

(1) **محمود إبراهيم الشواربي، حركة الفلاحين في مصر ما بين ثورتي** 1882–1919، **رسالة ما جستير غير منشورة ، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية عام** 1978،**ص**.169.

(394/1)

... ومن ثم بدأت بإصلاح القناطر الخيرية سنة 1304**هـ/** 1886**م وأنشأت قناطر أسيوط عام** 1321**هـ/** 1902**م وخزان أسوان في العام نفسه، وقناطر زفتى في العام التالي، فزادت بذلك مساحة الأراضي الزراعية في مصر من** 4.758.000 **فدان عام** 1299**هـ/** 1882**م إلى** 5.4000.000 **فدان**

في عام 1323**هـ/** 1905**م** (1) **. وكان المستفيد الأول من هذه المشروعات بريطانيا أولا، ثم طبقة كبار ملاك الأراضي الزراعية، وحملة سندات الدين المصري** (2)

---

(1) hrouchley, The Economie 152–153 Developement Of Modern Egypt, PP

(2) رؤوف عباس، النظام الاجتماعي في مصر في ظل الملكيات الزراعية الكبيرة 1837–1914، الطبعة الأولى، دار الفكر الحديث ، القاهرة، 1973، ص.113.

(395/1)

. بينما لم يستفد صغار الفلاحين شيئًا يذكر، وذلك لكثرة الضرائب، وقلة إنتاجية الأرض واستبداد وظلم كبار ملاك الأراضي لهم.

... حدث كل ذلك في الوقت نفسه الذي أخذ المعتمد البريطاني في مصر يتشدق بصداقته للفلاحين أصحاب الجلاليب الزرقاء، وبأوضاعهم التي تحسنت كثيرا في ظل الإدارة الإنجليزية. وإذا كانت سلطات الاحتلال قد خفضت بعض الضرائب في مستهل حكمها وألغت البعض الآخر، فقد أثبتت الدراسات التي أجريت حول هذا الموضوع، بأن ما تم بشأن الإلغاء إنما يرجع إلى أن نفقات جبايتها تبتلع معظم العائد منها (1)

---

(1) رؤوف عباس، مذكرات محمد فريد، القسم الأول، ص.67.

(396/1)

.

... ومع ذلك ظلت الضرائب المفروضة ثقيلة، وبلغت جملة الحجوزات الإدارية التي وقعت عليهم في الفترة من 1310–1321هـ/ 1893–1903م 323.259 حجزا، ونفذ البيع بالمزاد في 2.640 حالة، بلغت مساحة الأرض المباعة فيها 53.880 فدانا (1) ، وتوالت بعد ذلك الحجوزات التي تقدر بعشرات الآلاف في السنوات التالية. وترتب على ذلك ضياع الكثير من الملكيات الصغيرة سدادا للديون، وانتقلت ملكية تلك الأراضي إلى الأعيان ومشايخ القرى وبعض اليونانيون

(1) جرجس حنين، الأطيان والضرائب في القطر المصري، القاهرة 1322هـ/ 1904،ص.627.

(397/1)

والسوريون (1) .

... وفي عام 1301هـ/ 1884 م يوجه اللورد كرومر ضربة أخرى إلى صغار الفلاحين وذلك بإلغاء مجانية التعليم، فحرم بذلك أبناء الفقراء منهم والذين يمثلون السواد

الأعظم من الشعب المصري من تلقي العلم، بحجة أن من يرغب في العلم فعليه إثبات ذلك بدفع نفقاته ... (2) وأدى انتشار الجهل بين الفلاحين إلى سوء أوضاعهم الاجتماعية والمادية والصحية. ولم تكن سلطات الاحتلال تعبأ بما يصيب

---

(1) Bear, G.A. History Of Landowmership In Modern In Egypt London, 1962, P.36.

(2) Cromer, Earl, Modern Egypt, 1908, P.532.

(1/398)

الفلاحين من أمراض، لأن سياستها الصحية كانت وقائية فحسب وليست علاجية (1).

... أما عن حادثة دنشواي (2) 1324هـ/ 13 يونيه 1906م) التي أسقطت القناع عن وجه كرومر، وأظهرت زيف ادعاءاته بالعطف على الفلاحين والعمل على إصلاح أوضاعهم، فالحادثة تمثل غضبة الفلاحين من قوات الاحتلال التي كانت دائمة التوغل في أرجاء الريف المصري فيما بين القاهرة

---

(1) Colvin, Sir Aucland, The Making Of Modern

.313, P.1938Eegypt,

(2) دنشواي : قرية صغيرة تابعة لمركز منوف، اشتهرت بكثرة أبراج الحمام الذي يربى فيها من قبل الفلاحين.

(399/1)

والإسكندرية، لإرهاب الفلاحين والقضاء على روح التدمر والغضب من تلك القوات (1) ومن سياسة المحتل الزراعية التي أثرت كبار ملاك الأراضي، فزادت دخولهم، واتسعت ملكياتهم، بينما كادت تنقرض الملكيات الصغيرة، فزادت دخولهم، واتسعت ملكياتهم، بينما كادت تنقرض الملكيات الصغيرة، فضلا عن كثرة عدد المعدمين. فجذور الحادثة ترجع إلى السنوات السابقة عليها، وما عاناه الفلاحون من سلطات الاحتلال.

---

(1) محمد جمال الدين المسدى، دنشواي، مطبوعات مركز وثائق مصر المعاصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1947،صص.7–8

(400/1)

... وخلاصة الحادثة أن بعض الضباط الإنجليز وهم في طريقهم من القاهرة إلى الإسكندرية قد توقفوا عند بلدة منوف، وأبدى بعض الضباط ورغبتهم لمأمور المراكز في الصيد في قرية دنشواين فوافق على طلبهم وأعد لهم المركبات اللازمة لذلك؛ هناك توغل أحد الضباط داخل القرية، وصوب طلقاته على أحد أجران القمح، فصاح به أحد الفلاحين بأن يكف عن إطلاق النار وإلا احترق الجرن، فلم يأبه لتحذيره وواصل طلقاته فقتل امرأة وأشعل النار في أحد الأجران، فتجمع أهل القرية للإمساك به، فهب زملاؤه لنجدته، وجرى ضابطان آخران في اتجاه

(401/1)

معسكرهما للالتجاء به، وكان الحر شديدا فسقط ميتا من ضربة الشمس (1) .

... وما إن علمت سلطات الاحتلال بالحادث حتى طاش صوابها، وعزمت على الانتقام من الفلاحين وأن تنزل بهم أشد أنواع العقاب، فقبضت على 250 فردا وحاصرت القرية بقوات كبيرة العدد، وقدم المتهمون للمحاكمة أمام المحكمة المخصوصة، وأقيمت المشانق في القرية قبل أن ينتهي التحقيق، مما يدل على النية المبيتة لضرب الحركة الوطنية في هؤلاء المتهمين.

---

(1) المصدر نفسه، ص.75.

(402/1)

... واستغل الزعيم مصطفى كامل هذه الحادثة لمهاجمة السياسة البريطانية في مصر وفي أوربا بكل شدة وعنف منددا بعدالة الإنجليز في دنشواي (1). وصدر الحكم بإعدام أربعة فلاحين شنقا ونفذ الحكم داخل القرية، وحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين، وبالأشغال الشاقة لمدة 15 عاما على واحد، وبالأشغال الشاقة لسبع سنوات على ستة، وبالحبس والشغل مدة سنة والجلد خمسين جلدة على أربعة، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة أفراد.

---

(1) محمد محمود السروجي ، ثورة 32 يوليو 1952، جذورها وأصولها التاريخية ،ص.113.

(403/1)

... حدث هذا رغم أن تقرير الطبيب الشرعي الإنجليزي قد أثبت أن الوفاة كانت بسبب ضربة الشمس، وليست

نتيجة عدوان وقع عليه.

... لا ريب أن الحادثة قد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك زيف ما تغنى به كرومر طوال فترة وجوده في مصر، من صداقته للفلاحين، وعطفه عليهم والعمل على إصلاح أحوالهم ومعاملته بالعدل.

... فما دونه كرومر في كتابه Modern Egypt عن سياسة بريطانيا في مصر به تشويه لتاريخ تلك الفترة وقلب للحقائق. ومما يؤسف له أن الكثيرين من المؤرخين الأجانب والعرب قد نقلوا عنه، بصفته مصدرا هاما من مصادر تاريخ تلك

(404/1)

الفترة.

... ولذا كان على بريطانيا، بعد أن تعرت سياسة كرومر أمام المصريين، أن تسحبه من مصر، وأن تستبدله بغيره عنه في الأسلوب ولكن لا يختلف عنه في الغاية.

... ويمكننا القول أن هذه الحادثة أدت إلى نشاط الحركة الوطنية، وإلى سيادة روح التذمر والبغض لدى كل المصريين، ولا سيما الفلاحين (1)

... ولذا لم يكن من قبيل الصدفة أن تقوم ثورة 1337 هـ/ 1919 على أكتاف الفلاحين في مرحلتها الأولى، وكانت

عنيفة ومدمرة.

---

(1) **عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار النهضة العربية، بيروت،** 1975،**ص**.377.

(405/1)

... ونظرا لأن سلطات الاحتلال كانت تخشى من انتقام الفلاحين بعد تلك الحادثة إذا ما أتيحت لهم الفرصة المناسبة، فقد لجأت في سنتي 1334 – 1335 **هـ/** 1915 – 1916**م إلى نزع ما بأيديهم من أسلحة بلغت ما لا يقل عن مائة قطعة مختلفة الأنواع والأحجام** (1) **فقل ما بأيديهم من أسلحة، ترتب على ذلك كثرة ما سقط من ضحايا خلال ثورة** 1337 **هـ/** 1919 **م.**

---

(1) Memorarandum by Sir R.Graham On the Unrest Egypt 120N° 184/ 407F.O. **هـ** 1 **سروجي.**

(406/1)

... من الأمثلة السابقة سيتضح لنا أن الدول الاستعمارية كثيرا ما لجأت إلى تزييف الحقائق التاريخية وتشويهها ، كي تتفق مع أهدافها ومع سياستها الاستعمارية التي رسمتها لحكم الشعوب المقهورة، والتي تهدف في المقام الأول تحقيق مصالحها أولا وقبل كل شيء. وأن منطق القوة الغاشمة قد دفعها إلى العبث بكل شيء، بمقدسات تلك الشعوب وبقيمها، وعاداتها وتقاليدها، وتاريخها، ومثلها الأعلى في ذلك "الغاية تبرر الوسيلة " والله ولي التوفيق.

(407/1)

أرشيف نيودلهي: المصدر الأساسي لدراسة تاريخ الخليج العربي

... ... الدكتور مصطفى عبد القادر النجار

بغداد

... يعد الأرشيف الوطني الهندي أكبر مستودع للوثائق في قارة آسيا على الإطلاق، حيث إنه يضم عدداً ضخماً من وثائق شركة الهند الشرقية وحكومة الهند البريطانية. ويرجع تاريخ تلك الوثائق إلى عام 1748 م.

... والأرشيف الوطني الهندي لا يمكن أن يستغني عنه طلاب البحث في مختلف حقول المعرفة، وموجوداته لا تقتصر على الوثائق الهندية المحلية، بل تتعداها لتشمل وثائق معظم الدول الآسيوية التي تعاملت

(408/1)

معها بريطانيا بشكل أو بآخر، بما فيها وثائق العراق وبقية أقطار الخليج العربي والجزيرة العربية التي هي موضع اهتمامنا في هذا البحث خاصة.

... تلك السجلات تمثل مخزناً غير محدود لملايين الوثائق التي تغطي استراتيجية المنطقة بجوانبها المختلفة العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وحتى النفسية، وذلك للفترة الحديثة.

... تأسست دائرة الأرشيف الوطني الهندي عام 1891 م. وكانت تعرف باسم »قسم السجلات الإمبراطوري« (The Imperial Reccord Department) بعد أن برزت الحاجة الملحّة له، وذلك بعد أن تكدست الوثائق

(409/1)

والسجلات في الدوائر المختلفة وأصبح أمر إتلافها شائعاً (1).

... وعليه، شكلت في كلكتا لجنة خاصة للإشراف على فرز الوثائق والسجلات للعمل على حفظ ما هو مفيد منها. وعين المستر فورست (M. Forrest) أول مسؤول عن الدائرة المذكورة، حيث بدأ عملية تصنيفها وتنظيمها وجمعها في مكتبة مركزية موحدة، وذلك وفقاً للأسس التالية:

سجلات الشؤون الداخلية من عام 1752 م إلى عام 1879 م.

---

(1) راجع عن تفاصيل ذلك:

Handbook to Records of the Government of India in the Imperial Record Department.

(410/1)

سجلات اللجان الصحية من عام 1845 م إلى عام 1859 م.

سجلات اللجان العسكرية من عام 1777 م إلى عام 1858 م.

سجلات الأشغال العامة من عام 1850 م إلى عام 1871 م.

سجلات الشؤون الخارجية من عام 1764 م إلى عام 1829

م.

سجلات الشؤون العسكرية من عام 1786 م إلى عام 1893 م.

... وقد قام الأرشيف بعدئذ بإصدار سلسلة من المنشورات المطبوعة للوثائق المتوافرة فيه غطت الفترات التاريخية المختلفة. وضع بعضها باللغة الإنجليزية وبعضها الآخر باللغة الفارسية.

(411/1)

... والذي يهمنا من وثائق هذا الأرشيف بشكل أساسي هو ذلك الجزء الخاص بقسم الشؤون السياسية والخارجية (Foreign and Political Department) طالما كان هذا القسم مسؤولاً بشكل خاص عن إدارة الشؤون الخارجية والعلاقات الخارجية لشبه القارة الهندية. لذا فإن الوثائق الخاصة بالعراق والخليج العربي والجزيرة العربية نجدها في هذا القسم (1).

---

(1) كانت الوثائق تحفظ في دائرة موحدة لغاية عام 1756 م، حيث أسست دائرة العلاقات الخارجية (Foreign

Department). ومنذ ذلك التاريخ، صارت تحفظ الوثائق الخارجية بشكل منفصل.

(412/1)

... إن وثائق قسم الشؤون السياسية والخارجية كانت قليلة في بداية الأمر، ثم أخذت في الازدياد والتضخم تبعاً لازدياد العلاقات الخارجية للسلطات البريطانية في الهند.

... ونجد فهارس لوثائق القسم السياسي والخارجي تكاد تغطي جميع الفترات التاريخية منذ بداية تأسيس القسم حتى بداية القرن العشرين (1).

---

(1) K. D. Bhargave, Guide to the Reccords in the National Archives of India, Part I (Introductory), New Delhi, 1959, pp. 1–3.

(413/1)

... هذه الفهارس نجدها قليلة نسبة للسنوات الأولى من تأسيس هذا القسم، ثم أخذت في الازدياد في السنوات التالية. فمثلاً لا نجد للفترة من 1756 م ـ 1783 م إلا

مجلدين من الفهارس (1).

... ثم أصبح هناك فهرس واحد لكل بضع سنوات، ثم صار فهرساً واحداً لكل سنة. وفي المراحل الأخيرة أصبح هناك عدة فهارس للسنة الواحدة.

... وتربو هذه الفهارس على مئة فهرس، جميعها غير منشور عدا فهرس واحد. أما الفهارس التي تلي هذين الجزءين المطبوعين، فنجدها بوضعها القديم بخط اليد،

---

(1) هما بعنوان: Index to Land Revenue Reccord.

(414/1)

وقراءتها متعبة للغاية، وهي مفهرسة حسب الحروف الأبجدية (1).

... وفهارس الفترات التالية للقرن التاسع عشر أفضل للقارئ. فهي مطبوعة، والأسماء فيها واضحة، وهناك يجد الباحث أسماء كالبحرين والبصرة وبوشهر وغيرها. ثبت رقم المجلد الذي وردت فيه هذه المعلومات والمناسبة التي ذكر فيها أمام كل اسم من هذه الأسماء(2)

---

(1) معظم الورق الذي كتبت عليه تلك الفهارس ممزق ومتآكل الجوانب. وقد قام الأرشيف بلصق تلك الأوراق

بالشمع الشفاف وتم حفظها بطريقة جيدة.

(2) ليست وثائق الخليج العربي والجزيرة العربية مصنفة تصنيفاً منفرداً متميزاً، وإنما يمكن للباحث أن يعثر عليها تحت اسم المدن والموانئ التي تخص تلك المناطق. فهو يرجع في الفهرس إلى حرف B ليعثر على مادته تحت أسماء: بصرة، بغداد، بوشهر، بندر عباس، بحرين، وهكذا.

(415/1)

.

... وفيما يتعلق بالخليج العربي والجزيرة العربية التي هي موضع اهتمامنا الخاص، نلاحظ أن السجلات الأولى لقسم العلاقات الخارجية لم تول تلك المناطق اهتماماً كبيراً، وذلك لأن حكومة بومباي كانت تمارس سلطة كاملة في إدارة الشؤون الخارجية، وكان ارتباطها مباشرة بلندن دون أن تكون لها صلة بالمديريتين الأخريين (كلكتا ومدراس). وحتى بعد أن شرَّع البرلمان البريطاني عام 1773 م قانون التنظيم الذي خول كلكتا وحاكمها حق الإشراف على كل من بومباي ومدراس، فإن بومباي استمرت في ممارسة الانفراد بمعالجة الشؤون الخارجية

(416/1)

للبلدان الواقعة إلى غرب شبه القارة الهندية، ومنها العراق والخليج العربي وشبه الجزيرة العربية(1).

... ولهذا السبب يجد الباحث أن المادة المتوافرة في أرشيف كلكتا والموجودة في الأرشيف الوطني الهندي عن الخليج العربي والجزيرة العربية قليلة جداً.

... وقد حدث شيء غيّر هذه الصورة في القرن التاسع عشر، وهو أن حكومة الهند في كلكتا بدأت تمارس سلطة أكبر ونفوذاً أوسع على الشؤون الخارجية الهندية وأخذت تنتزع شيئاً فشيئاً الصلاحيات التي كانت تتمتع بها حكومة بومباي(2).

---

(1) K. D. Bhargava.

(2) Ibid.

(417/1)

... ولم تعد لحكومة بومباي أهمية تذكر في إدارة الشؤون الخارجية في أواخر القرن التاسع عشر، وانحصرت إدارة تلك الشؤون بحكومة الهند في كلكتا، ومن ثم

في دلهي بعد انتقال العاصمة الهندية إليها عام 1911 م(1).

... كما أن دائرة السجل الكبرى أصبحت تابعة لوزارة التربية الهندية بعد أن ظلت تابعة لوزارة الداخلية منذ تأسيسها حتى ذلك التاريخ.

---

(1) نقلت حكومة الهند البريطانية العاصمة إلى دلهي حيث أصبحت مقراً لنائب الملك ودوائره الأساسية.

(418/1)

... وبعد انتقال العاصمة، صار من الضروري أن تنقل السجلات الرسمية والوثائق إلى المقر الجديد. وقد تم فعلاً تخصيص مبنى مستقل لها شيد عام 1926م. واكتمل نقل المحفوظات له نهائياً عام 1937 م.

... وصار الأرشيف الوطني الهندي بعد هذا التاريخ مستعداً لقبول خدمات الباحثين على الوجه الأكمل.

... في ديسمبر عام 1939 م قررت الحكومة الهندية أن تفتح الباب بحدود معينة لطلاب البحث والدارسين، للإفادة من المعلومات والاقتباس من الوثائق. وفي عام 1942 م فهرست موجودات الأرشيف من الوثائق والسجلات في 39 مجلداً(1)

---

(1) K. D. Bhargava, op. cit.

(419/1)

. وقد خففت بعض القيود على الباحثين بعد عام 1946، وأفسح المجال لهم للاطلاع على كافة السجلات لغاية عام 1901 م.

... وظل الأرشيف الوطني الهندي يطالب الوزارات المختلفة بضرورة توسيع خدماته وأن يكشف المزيد من الوثائق للباحثين لتشمل سنوات ما بعد عام 1901 م.

... وقد حدث تطور ملحوظ على الأرشيف في أغسطس 1947 جعل موجوداته تتضاعف بشكل غير محدود، نتيجة لهجرة مختلف الوكالات السياسية والتجارية لمقار أعمالها مخلفة وراءها سجلاتها ووثائقها كافة للأرشيف الوطني. وهي بلا شك ثروة علمية غنية لا تقدر بثمن لطلاب البحث

(420/1)

العلمي يمكن إخضاعها للدراسة والاستنتاج والتحليل وكشف الحقائق والتوصل إلى نتائج في غاية الأهمية وفي

مختلف حقول المعرفة.

... وقد واجه الأرشيف الوطني صعوبة كبيرة في استيعاب هذا القدر الضخم من السجلات والوثائق، حيث إنها كانت من الكثرة بحيث تجعل الأرشيف عاجزاً عن استيعابها دفعة واحدة، ولا سيَّما أن معظم تلك السجلات والوثائق لم يكن منظماً وفق ترتيب موحد.

... وبينما كان الأرشيف الوطني الهندي مشغولاً بمواجهة ذلك السيل العارم من المحفوظات إذا وزارة الخارجية الهندية تفاجئه عام 1949 م بقرار نقل حوالي

(421/1)

مليون محفظة من محافظها كانت من قبل محفوظة في سملا ـ إليه(1).

... وهكذا حصلت زيادة مفاجئة في حجم السجلات والوثائق في الأرشيف وصار مجموع ما يحتوي عليه قرابة 5,113,000 محفظة و 103,000 مجلد، وهو في نمو مستمر.

... ومما يجدر ذكره أن الحديث عن الأرشيف سيبقى ناقصاً غير متكامل دون الإشارة إلى المكتب الإقليمي (Regional Office) الذي شكل بهوبال (BHOPAL) عام 1954 م.

(1) وذلك بعد أن حصلت الهند على استقلالها. فقد ارتأت وزارة الخارجية الهندية إلغاء محفوظاتها الوثائقية من سملا وتحويلها للأرشيف الهندي في دلهي.

(422/1)

وكان هذا المكتب قد أسسته الحكومة المحلية في بداية الأمر، ثم تقدمت به تلك الحكومة إلى الحكومة الهندية التي أوفدت بعثة خاصة لاستلام موجوداته وتنظيمها(1).

... وقد صار الأرشيف الوطني الهندي محط أنظار جميع دارسي شؤون آسيا، بما فيها العراق وأقطار الخليج العربي والجزيرة العربية.

... ويضم الأرشيف الآن تراثاً آسيوياً أكثر منه تراثاً هندياً. وهو في كل هذا يتميز عن دور السجلات البريطانية بقدر ضخم من المراسلات المحلية والوثائق الأصلية التي لا يمكن العثور عليها في مكان

(1) K. D. Bhargava, op. cit., p. 8.

(423/1)

آخر.

... ومن هذا المنطلق حاولنا أن نعرض لبعض موجودات الـ India Office في لندن، استكمالاً للفائدة وليتابع الباحث المختص سجلات ووثائق الأرشيف بغية هدايته إلى مادة بحثه(1)

---

(1) لأخذ فكرة عامة عن وثائق الأرشيف الهندي في دلهي ومقارنتها بوثائق وزارة الهند في لندن، يمكن الرجوع إلى المادة الوثائقية التي أعدها Jean C. Lancogster المنشورة في مجلتي:

1 – The British Association, Vol. IX, n° 43, April 1970, pp. 130–141.

2 – British Society for Middle Eastern Studies Bulletin, Vol. 3, n° 1, 1976, pp. 29–35.

حيث يعطي تفاصيل تلك الوثائق وأصنافها ومجلداتها وفتراتها التاريخية والصور المتوافرة في لندن من الأرشيف الهنديّ.

.

... وثمة ملاحظة أخرى لابد من ذكرها عند المقارنة بين الأرشيفين الهندي والبريطاني، وتهم كل باحث ينوي الرجوع إليهما وهي أن مستوى الخدمات يختلف في الهند عما هو عليه في بريطانيا من حيث التسهيلات وتهيئة مستلزمات البحث. هذا، إضافة إلى أن طريقة الحفظ وفهرسة الوثائق والسجلات ليست بالمستوى المطلوب في الأرشيف الهندي على العكس من الأرشيف البريطاني حيث يعد أرشيفاً متطوراً على مستوى عالمي، ويكفي أن نذكر أن عملية الاستعارة في الأرشيف الهندي تتطلب انتظاراً يتراوح بين ثلاث وأربع ساعات. وللباحث الحق في استعارة

(425/1)

عشرة مجلدات فقط في اليوم الواحد، على حين أنه لا توجد مثل تلك الصعوبات في الأرشيف البريطاني، والأمل معقود على مثقفي الهند لأن يولوا هذا التراث العالمي العظيم أهمية خاصة، وأن يتوجهوا لإدخال أحدث الطرق والوسائل لحفظ هذا المخزون العالمي الضخم من أجل

النهوض بالأرشيف الهندي إلى مصاف دور الوثائق والسجلات المتقدمة في العالم.

... ونتوجه بالدعوة إلى حكومات أقطار الخليج العربي لأن تسرع في تصوير الوثائق الخاصة بأقطارها قبل أن تنالها عاديات الزمن.

...

(426/1)

أصالة التراث الثقافي العربي وجدوى إحيائه في بناء ثقافة عربية جديدة

... الدكتور عزة حسن

... ... دمشق

... الثقافة العربية ثقافة عريقة غنية. تشمل في غناها جميع جوانب الحياة الفكرية التي تتمتع بها الإنسانية. ونعني بقولنا هذا أنها ثقافة عالمية، تطاول سائر الثقافات العالمية المعروفة في القديم.

... وتمتد جذور هذه الثقافة بعيداً في أغوار الزمن إلى أيام الجاهلية، حين بدأ التاريخ يسجل شيئاً فشيئاً أولى

معطيات هذه الثقافة في الشعر العربي الجاهلي. وهذا ما عبّر عنه محمد بن سلام الجمحي في كتاب

(427/1)

"طبقات فحول الشعراء" بقوله عن العرب: »وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم، ومنتهى حُكمهم«. وكلمة ديوان في هذا القول بمعنى »كتاب«. وقوله ديوان علمهم معناه: »كتاب علمهم«. وكلمة الحُكْم بمعنى »الحكمة«. وهي المعرفة بمعناها الواسع. وقوله منتهى حكمهم معناه: »منتهى معرفتهم وثقافتهم«. والحق أن الشعر الجاهلي يعدّ من أروع ما أبدعته القريحة العربية على مدى العصور.

... وفي الإسلام بدأت الحضارة العربية الإسلامية العظمى تتكون شيئاً فشيئاً. ولما أطل القرن الثاني من الهجرة على المجتمع العربي الإسلامي، كانت

(428/1)

الثقافة العربية قد نمت وتوسعت، وقطعت مراحل النشأة الأولى. وأخذت تسير في مرحلة الخصب والازدهار.

فقامت حينئذ المراكز الثقافية في الأمصار العربية الإسلامية، مثل المدينة في الحجاز، والبصرة والكوفة في العراق، ودمشق في الشام، ومثل الفسطاط في مصر. وقد تعدّدت فنون الثقافة في هذه المراكز، وتميز بعضها عن بعض. وكثر فيها العلماء، ونشطوا في تأليف الكتب في فنون الثقافة المختلفة.

... ذكر أبو بكر السيوطي في كتابه "تاريخ الخلفاء"، نقلاً عن العلامة الذهبي قوله: »في سنة 143 شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين

(429/1)

الحديث والفقه والتفسير.... وكثر تدوين العلم وتبويبه. ودوّنت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس«(1).

... وفي هذا القرن ظهر طائفة من العلماء الكبار الذين ألفوا الكتب. وكان لهم شأن كبير في إرساء أصول الثقافة في عصرهم، وتأثير عميق في عقول أجيال العلماء الذين أتوا بعدهم في القرون التالية. ونكتفي بذكر ثلاثة من هؤلاء العلماء الأعلام. وهم أبو عمرو بن العلاء شيخ اللغة والأدب في عصره. وأبو بشر عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه الذي وضع كتاباً في النحو،

يعتبر أكبر كتاب في

---

(1) تاريخ الخلفاء، ص. 101.

(430/1)

النحو العربي إلى اليوم. والخليل بن أحمد الفراهيدي الذي وضع أول معجم لغوي في اللغة العربية، سمّاه "كتاب العين" بسبب ابتدائه بالألفاظ التي أولها حرف العين.

... وفي القرن الثالث من الهجرة بلغت الثقافة العربية أوج الازدهار، وأخذت تعطي ثماراً طيبة في فنون الثقافة المختلفة. ويعتبر هذا القرن بدء العصر الذهبي لهذه الثقافة. ويكفي للدلالة على ذلك أن نذكر أن هذا القرن هو العصر الذي نبغ فيه أبو عثمان الجاحظ أديب العربية الأكبر. وعاشت الثقافة العربية بعد هذا القرن حياة زاهية زاهرة، وأنارت طريق الإنسانية إلى

(431/1)

حياة أفضل وأجمل خلال قرون عديدة من الزمن.

* ... * ... *

... وقد قامت خلال هذا الزمن الطويل مراكز كبرى للثقافة

العربية، تدارس فيها العلماء وطلاب العلم هذه الثقافة. ووضعوا الكتب في جميع فنونها. وارتفعت هذه المراكز مثل منائر النور تنير العالم، في قرطبة الأندلس، وفاس المغرب، والقيروان في تونس، والقاهرة في مصر، وحلب ودمشق في الشام، وبغداد في العراق، وشيراز في فارس، ونيسابور في خراسان، وبخارى في ما وراء النهر، وغيرها من البلدان.

(432/1)

... ونشأ في هذه المراكز الثقافية، خلال أجيال متعاقبة، علماء كثيرون تدارسوا فيها شتى فنون الثقافة، وألفوا فيها آلاف الكتب. حتى نشأ من مجموع هذه الكتب تراث ثقافي عربي غني ثري، يعدّ ثروة ثمينة من تراث الإنسانية.

... إن نظرة سريعة يلقيها الإنسان على كتاب "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" للعالم التركي حاجي خليفة، أو على كتاب "تاريخ الأدب العربي" للمستشرق الألماني كارل بروكلمان، وكتاب "تاريخ التراث العربي" للباحث التركي فؤاد سزكين كافية لإدراك عظمة هذا التراث وغناه وسعته، وشموله لجميع الفنون

(433/1)

والعلوم.

... لقد عدت عوادي الزمن على قسم من هذا التراث الثمين، فأفنته وغيبته إلى الأبد. ولكن قسماً كبيراً منه قد نجا من يد الفناء، وظل حياً باقياً إلى اليوم. وهو الآن محفوظ مصون في خزائن الكتب والمتاحف في الأقطار العربية، وفي البلاد الإسلامية، وفي غيرها من بلاد العالم.

... ونتساءل: كيف استطاع هذا التراث أن ينتشر في أنحاء العالم؟

... والجواب نجده في سببين كبيرين اثنين:

... 1 ـ الغنى الذي يمتاز به هذا التراث. وقد بيّنا مداه وشموله.

(434/1)

... 2 ـ قوة ارتباطه بدين الإسلام. فقد كانت الثقافة العربية تتبع الإسلام أينما حل واستقر. فما دخل بلداً في الشرق أو في الغرب إلا زحفت وراءه هذه الثقافة، ودخلت هذا البلد، وطبعت أنماط الحياة والفكر فيه

بطابعها الخاص، ومدّت عليه جناحين وارفين من الرحمة والنعمة والرفاه الثقافي. وحقّاً كان هذا الارتباط الوثيق أمراً فذّاً عجيباً. فقد فتح الأبواب أمام الثقافة العربية، ووسع لها الطريق حتى امتدت ووصلت إلى بلاد لم يصلها العرب.

(435/1)

... ونذكر مثالاً على ذلك بلاد الهند التي فتح العرب جزءاً منها، وهو إقليم السند، في أيام الدولة الأموية. ثم فتح السلطان محمود الغزنوي كل القسم الشمالي منها، ونشر فيه الإسلام، في القرن الرابع من الهجرة. فدخلت الثقافة هذه البلاد، وانتشرت فيها شيئاً فشيئاً. ثم أقبل الترك والمغول المسلمون، وتوسعوا في حكم بلاد الهند قروناً طوالاً. فتغلغلت الثقافة العربية في أيامهم إلى شتى أنحاء هذه البلاد، واستقرت فيها إلى اليوم.

(436/1)

... وتوجد مكتبات حافلة بمخطوطات التراث العربي في المدن المشهورة في الهند وباكستان، مثل لاهور

ورامبور ولُكْناو، وحيدر آباد الدَّكَن في الجنوب. وفي هذه المدينة الأخيرة مؤسسة علمية عريقة، هي الجامعة العثمانية التي تُعْنى بالتراث العربي عناية خاصة. وقد نشرت عدداً من نفائسه، نذكر منها "كتاب المعاني الكبير" لابن قتيبة من علماء القرن الثالث، وهو كتاب فخم في معاني الشعر. وكتاب "المحبَّر" وكتاب "المنمّق" لابن حبيب من علماء القرن الثالث. و"الحماسة البصرية" لأبي الحسن علي بن أبي الفرج البصري من علماء

(437/1)

القرن السابع. وهي مختارات منتقاة من شعر العرب القديم.

... ونذكر مثالاً ثانياً بلاد روسيا النائية. فقد سار التاتار المسلمون منذ قرون من أواسط آسيا، ودخلوا بلاد الروس، وأقاموا فيها دولة على ضفاف نهر الفولغا. فتبعتهم الثقافة العربية إلى موطنهم الجديد. ثم قضى الروس على هذه الدولة بعد صراع وحروب دامية. ولكن الثقافة العربية استمرت في الحياة بين السكان المسلمين إلى اليوم، ولا سيما مدينة قازان المشهورة. وقد رأيت أناساً منهم يتكلمون العربية ويكتبونها،

ويعتبرونها لغة العلم والثقافة عندهم. ورأيت نسخة من

(438/1)

ديوان طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي مطبوعة في مدينة قازان سنة 1909.

... ونذكر مثالاً آخر بلاد البلقان. فقد فتح العثمانيون هذه البلاد ونشروا الإسلام في أرجائها. وسرعان ما زحفت الثقافة العربية وراءهم. ثم ارتد العثمانيون عن بلاد البلقان. ولكن التراث العربي بقي حياً هناك بين المسلمين. ففي مدينة قَوَلا في شمالي اليونان، وفي مدن البوسنة، ولا سيما العاصمة سراييفو مكتبات عامرة بآثار التراث العربي من المخطوطات. ويوجد عدد كبير من هذه المخطوطات في مكتبة صوفيا عاصمة بلغاريا، وفي غيرها من مدن البلقان.

(439/1)

... وهكذا انتشر التراث العربي في شتى بلدان العالم الإسلامي الذي أظلته الثقافة العربية، وربطت أجزاءه

بـربـاط واحد، من المحيط الأطلسي في الغرب إلى حدود الصين في الشرق، ومن أعماق روسيا والبلقان في الشمال إلى أقاصي الهند وإفريقية في الجنوب. وتجمعت مخطوطات هذا التراث مثل عقود الجوهر في خزائن المكتبات. ولا تكاد مدينة كبيرة في العالم العربي والإسلامي تخلو من مكتبة تضم في جنباتها آلافاً من مخطوطات التراث العربي. ونذكر من هذه المدن أمهات المكتبات إستانبول وبروسه وقونيه ومغنيسيه وجوروم وآماسيه وأدِرْنه في

(440/1)

تركيا، والقاهرة والإسكندرية في مصر، ودمشق وحلب والقدس في بلاد الشام، وبغداد والموصل في العراق، والمدينة المنورة في الحجاز، وصنعاء في اليمن، ومدينة تونس والجزائر، وفاس والرباط ومراكش وتطوان في المغرب، وطهران ومشهد في إيران، وطاشقند في تركستان، ولاهور ورامبور ولُكْناو وحيدرآباد في الهند وباكستان.

* ... * ... *

... ولم تقف الثقافة العربية عند حدود العالم الإسلامي،

بل اجتازت هذه الحدود إلى داخل بلدان أوربا في القرون الوسطى، عن طريق الأندلس وجزيرة صقلية في أثناء الحكم العربي فيهما، وعن طريق المشرق

(441/1)

العربي في أثناء الحروب الصليبية. وكانت أوربا متخلفة عنا في الحضارة، وكنا نحن أهل العلم والعمران والحضارة في ذلك الزمان. فاستفاد أهل أوربا من نتائج ثقافتنا، ولا سيما في العلوم كالطب والرياضيات والكيمياء وغيرها. وترجموا عدداً من كتب التراث العربي إلى اللغة اللاتينية. كما أنهم دارسوا هذه العلوم في أصولها العربية في مدارسهم. وهذا كما نصنع نحن اليوم، فنستفيد من معطيات الحضارة الأوربية الحديثة.

والأيام دول بين الأمم كما نعلم من مسيرة التاريخ. قال الله تعالى في كتابه العزيز: {وتلك الأيام نداولها بين

(442/1)

الناس} (سورة آل عمران، الآية 140).

... وقد ازداد اهتمام الأوربيين بالثقافة العربية في

العصور الحديثة. فأنشأوا المدارس الخاصة، والكليات والمعاهد في الجامعات، لدراسة اللغة العربية وسائر فنون الثقافة العربية كالأدب والتاريخ والفلسفة والجغرافية والعلوم الطبيعية وعلوم الدين وغيرها. وسعوا في سبيل ذلك للحصول على مخطوطات التراث العربي، وجمعوها في مكتبات هذه الكليات والمعاهد للرجوع إليها والإفادة منها في الدراسة والبحث. واتبعوا لذلك طرقاً مختلفة. فانتقلت إلى أوربا هذه المخطوطات في حقائب الدبلوماسيين،

(443/1)

وفي صناديق التجار الجشعين، وتحت آباط الرهبان المبشرين، وفي بريد العلماء الباحثين، وفي جِعاب الجنود الغزاة الطامعين، وغيرها من الطرق والوسائل الغريبة، حتى حفلت متاحفهم، وامتلأت خزائن المكتبات عندهم بمخطوطات التراث العربي من جميع الفنون. ... واليوم لا نكاد نرى في أوربا عاصمة أو جامعة أو مركزاً ثقافياً ذا شأن خالياً من مكتبة تضم في جنباتها جناحاً خاصاً بمخطوطات التراث العربي. وأشهر هذه العواصم مدينة الفاتيكان في روما، وميلانو في إيطاليا

وفيها مكتبة الأمبروزيانا، وبرلين وميونيخ وهيدلبرغ وغوطا في

(1/444)

ألمانيا، وباريس وفيها المكتبة الوطنية، ولندن وفيها المتحف البريطاني، وكيمبرج وأوكسفورد في بريطانيا، وليدن في هولندا، والإسكوريال في إسبانيا، وبترسبورغ في روسيا، ودوبلين في إيرلندا وفيها مكتبة شستربيتي الخاصة الشهيرة.

* ... * ... *

... وفي العصر الحديث ركبت مخطوطات التراث العربي جناح الريح، وامتطت متن البحر إلى الولايات المتحدة في أمريكا التي ليست لها حضارة خاصة عريقة، ولا مظاهر ثقافية موروثة. وهي تسعى لاستكمال هذه النواقص في حياتها الفكرية. وقد أخذت تهتم بشؤون العالم العربي والعالم الإسلامي من

(1/445)

ورائه. وشرعت تعمل لمعرفة الثقافة العربية. وأفضل طريق لذلك هو دراسة التراث العربي نفسه. فبعثت أمريكا البعوث، وافتتحت المعاهد والكليات في الجامعات لتحقيق هذه الغاية، وأنشأت فيها المكتبات، واستجلبت لها مخطوطات التراث العربي. فاستقر معظمها في مكتبة جامعة برنستون التي يربو ما فيها على عشرة آلاف مخطوط كما أن عدداً منها قد تجمع في مكتبة جامعة يَيْلْ وغيرها.

* ... * ... *

... وأعظم موئل لمخطوطات التراث العربي هي مدينة إستانبول العظمى، بل هي جنة هذا التراث وحماه الأمين. ولايناز عها في هذه الصفة أو

(446/1)

يضاهيها فيها مكان آخر في العالم أجمع. وفي مكتباتها المشهورة أكثر من مائتي ألف مخطوط من التراث العربي. والمكتبة السليمانية فيها تضم وحدها ما يناهز ثمانين ألف مخطوط، فيها ما يقارب خمسين ومئة ألف عنوان كتاب، كما صرّح لنا بذلك صديقنا الأستاذ العالم الدكتور نَوْذات قايا، المدير العام لهذه المكتبة

الكبيرة الشهيرة. ولا تمتاز إستانبول في كثرة العدد وحسب. بل هي تمتاز عن غيرها في القيمة العلمية للمخطوطات، وكيفيتها الأثرية أيضاً، إذ تضم مكتباتها أحسن مخطوطات التراث العربي وأجودها وأصحّها.

(447/1)

... والسبب في امتياز استانبول واحتفاظها بهذا العدد الوفير من المخطوطات القيّمة كونها عاصمة الدولة العثمانية، أي كونها آخر مقر للخلافة الإسلامية. وكانت اللغة العربية تدرّس في مدارسها إلى جانب التركية والفارسية. وهي اللغات الثلاث الأمهات التي كتب بها تاريخ الإسلام، وصيغت فيها آثار الحضارة الإسلامية. فعمد سلاطين هذه الدولة ورجالها وعلماؤها إلى إنشاء المكتبات، وحشدوا فيها مخطوطات التراث العربي والإسلامي في كل أصناف الفنون والعلوم لفائدة العلماء وطلبة العلم، حتى بلغ عدد هذه المكتبات سبعاً وثلاثين،

(448/1)

بين كبيرة وصغيرة، موزعة في أطراف إستانبول القديمة.

* ... * ... *

... لقد ألف العلماء كتباً، ووضعوا فهارس علمية، للكشف والتعريف بالمخطوطات المحفوظة في مكتبات التراث العربي في كل مكان بالعالم. وأعظم كتاب في هذا الميدان هو "تاريخ الأدب العربي" للمستشرق الألماني كارل بروكلمان. وهو موسوعة ضخمة في التعريف بالتراث العربي، والدلالة على أماكن وجوده، وبيان المطبوع والمخطوط منه. فصار هذا الكتاب مرجعاً أساسياً لكل من يبحث في تاريخ الأدب العربي، وكل من يحقق وينشر كتاباً من التراث العربي. وقد حذا حذوه

(449/1)

العالم التركي الدكتور فؤاد سزكين. فوضع كتاباً باللغة الألمانية، سماه "تاريخ التراث العربي". وقد فاق هذا الكتاب كتاب المستشرق بروكلمان، وزاد عليه أشياء كثيرة في التعريف بآثار التراث العربي وبيان قيمتها والدلالة على أماكن وجودها في أرجاء العالم. فصار مرجعاً أساسيّاً آخر، لا يستغني عنه المحققون والباحثون

وكل العاملين في ميدان التراث العربي.

... ومن أشهر الفهارس الموضوعة في التعريف بمخطوطات هذا التراث سلسلة "فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية" بدمشق، وسلسلة "فهارس الخزانة الحسنية" في القصر الملكي

(450/1)

العامر بالرباط، وسلسلة "فهرس المخطوطات العربية" المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط

* ... * ... *

... ويجدر بنا أن نتحدث عن مسألة إحياء التراث الثقافي العربي ونشره التي يطول فيها الكلام، ولا يكاد ينتهي. ولهذا نعمد إلى الإيجاز، ونكتفي برسم الخطوط الأساسية العامة في هذه المسألة في وضوح وبيان.

... إننا لا ندري المقدار الذي نشر إلى اليوم من التراث العربي، لأننا لا ندري مقدار هذا التراث بكامله على وجه دقيق صحيح. وفي إمكاننا مع ذلك أن نقول بأن كثيراً من أصول هذا التراث وأمهات مصادره قد نشرت. فعرفها

(451/1)

العلماء والباحثون وجمهور المثقفين، وأفادوا منها في أبحاثهم ودراساتهم وأعمالهم العلمية. وهذه الأصول والمصادر المعروفة كافية لإدراك غنى الثقافة العربية، وإثبات قيمتها، وبيان جدواها وفائدتها.

... وقد بقي قسم كبير من التراث العربي مخطوطاً غير منشور، يجهله جمهور الناس، ولا يعرفه إلا قلة من العلماء ذوي الاختصاص والخبرة فيه. ولا يقل هذا القسم الباقي في القيمة عن القسم المنشور، وفي جدواه وفائدته لإرساء قاعدة مكينة لبناء ثقافة عربية جديدة قويمة.

* ... * ... *

(452/1)

... بدأت قصة نشر كتاب التراث العربي منذ أكثر من ثلاثة قرون في الغرب، حين كنا نحن في تخلف وسبات عميق. ذلك بأن الأوربيين حين توافرت لهم أسباب النهضة الحديثة أخذوا ينظرون إلى الشرق والإسلام، وصاروا يهتمون بشؤون ممالكهما وشعوبهما، ومنها الأقطار العربية. وكانت هناك دوافع عديدة وراء نظرة

أوربا الجديدة، واتجاهها هذه الوجهة الخاصة. ولا يتسع المجال لبيان هذه الدوافع وتفصيلها، ولكن يمكن القول بأنها كانت دينية وسياسية واقتصادية، نشأت بعد نهضة أوربا وزيادة اتصال الشرق والمسلمين بالغرب واتساع حجم التجارة

(453/1)

بين الطرفين.

... كانت هذه الدوافع سبباً في قيام حركة الاستشراق، أي دراسة حضارة الشرق، والمراد العرب والمسلمون، ومعرفة لغاتهم وثقافاتهم. وقد بدأت هذه الحركة بتأسيس مدارس لتدريس اللغة العربية واللغات الشرقية في معظم العواصم الأوربية، ثم تأسيس المعاهد والكليات في الجامعات، وتشكيل الجمعيات والمجامع العلمية لدراسة التراث العربي، ومعرفة شؤون الإسلام والشرق عامة. وقد أنشأوا إلى جانب هذه المؤسسات العلمية مكتبات ملأوها بالكتب اللازمة لدراساتهم، وشحنوها بمخطوطات التراث العربي التي استجلبوها من بلادنا كما

(454/1)

بينا آنفاً. وقد بلغت حركة ا لاستشراق أوج الازدهار في القرن التاسع عشر الذي يعد العصر الذهبي لتقدمها ونتائجها العلمية.

... وفي هذه المدارس والمعاهد والكليات نشأت أجيال من المستشرقين الذين درسوا ثقافتنا، ونشروا عدداً كبيراً من أمهات كتب تراثنا. وكانت غايتهم من نشر هذه الكتب هي دراسة الثقافة العربية في مصادرها الأصلية. وقد اتبعوا طرقاً ومناهج علمية دقيقة في الدرس والبحث وتحقيق المخطوطات ونشرها. وساعدتهم حكوماتهم التي احتضنتهم، وأغدقت عليهم الأموال، ونصبتهم أساتذة في الجامعات، ومنحتهم ألقاب الشرف،

(455/1)

وأنفقت على أعمالهم ومطبوعاتهم، وأوفدت كثيرين منهم إلى الأقطار العربية وسائر بلاد الشرق للاطلاع والدراسة. وكان لهم دأب وصبر وجلد على العمل والبحث. فتمكنوا من إتقان لغتنا وفهم ثقافتنا في اللغة والأدب والتاريخ والدين والعلوم وسائر الفنون، وتمكنوا بعد جهود شاقة متصلة بين أجيال

المستشرقين من كشف ثقافتنا وبيان قيمتها وعظمتها، وتعريفنا بها وتعريف العالم أجمع بغناها ومحتواها الإنساني.

... وكل هذا الإنجاز الثقافي فضل لهؤلاء القوم، نعرفه ونقر لهم به من غير حرج أو شعور بالغضاضة. والحقيقة تذكر ولا تنكر.

(456/1)

وما أكثر المستشرقين الذين أفنوا أعمارهم، وأذهبوا أبصارهم في تحقيق كتاب واحد من تراثنا ونشره، أو دراسة فن من فنون ثقافتنا. ولهؤلاء القوم فضل علينا من وجه آخر. فهم الذين مهدوا لنا الطريق لدراسة ثقافتنا وبعث تراثها. ثم فتحوا عيوننا عليها، وأخذوا بيدنا، ودلونا على السير على هدى وبصيرة من أمرنا في هذا العمل العلمي الجليل. وقلما نذكر كتاباً من أصول التراث العربي إلا كان لهؤلاء القوم قدمة فيه، إما بتحقيقه ونشره، أو الحديث عن مخطوطة له وبيان قيمتها العلمية، أو إنشاء دراسة فيه. وقلما نذكر فناً من فنون

(457/1)

ثقافتنا أو موضوعاً من موضوعاته إلا رأينا أحد الرواد من المستشرقين قد سبق إليه وطرقه، أو كتب فيه، أودلّ عليه ودار حوله. والموسوعة الإسلامية خير دليل على ما نقول.

* ... * ... *

... ويؤدي بنا سياق الكلام إلى هذا السؤال الكبير الخطير: ماذا صنعنا نحن في سبيل إحياء تراثنا الثقافي؟

... من الحق أن نقول في الإجابة: إننا اشتغلنا في إحياء تراثنا، وما قصّرنا ولا وَنَيْنَا. ولئن سبقنا المستشرقون إلى الاهتمام به وإحياء جملة من كتبه، فلا يضيرنا ذلك، لأن سبقهم لنا كان لتقدّم الغرب في الحضارة وتخلفنا عنهم.

(458/1)

ويحسن بنا ان نصف بإيجاز حركة بعث التراث العربي في بلادنا.

... بدأ العرب وأهل الشرق ينهضون شيئاً فشيئاً من

سبات التخلف. وشرعوا يأخذون عن أوربا بعض نتائج حضارتها الحديثة، ومنها فن الطباعة. وقد أسست أولى مطبعة عربية في إستانبول سنة 1728. وطبع فيها عدد من كتب اللغة والأدب والتاريخ في العربية والتركية والفارسية.

... وفي أواسط القرن التاسع عشر أسس أحمد فارس الشدياق اللبناني الأصل مطبعة "الجوائب" المشهورة في إستانبول. وطبع فيها عشرات من كتب التراث العربي عن المخطوطات المحفوظة في مكتبات إستانبول، نذكر

(459/1)

منها "كتاب الصناعتين" لأبي هلال العسكري. ولا تبلغ مطبوعات هذه المطبعة مبلغ منشورات المستشرقين في التحقيق والتصحيح وتنظيم الفهارس العلمية. ولكنها تمتاز مع ذلك بأنها طبعت اعتماداً على مخطوطات جيدة صحيحة، اختارها أحمد فارس الشدياق من مكتبات إستانبول الفنية بالمخطوطات الجيدة من التراث العربي.

... وفي عهد محمد علي باشا في مصر أسست دار الطباعة الأميرية في القاهرة سنة 1821. وهي أكبر مطبعة في الشرق، وتعرف بين العلماء بمطبعة بُولاق، لأنها كانت

في محلة اسمها بولاق في ضواحي القاهرة. وكانت مطبعة حكومية،

(460/1)

أنشأتها الدولة لطبع الأشياء الخاصة بمصالحها في أول الأمر. ثم أخذوا يطبعون فيها الكتب العلمية، وكتب التراث العربي. فطبع فيها خلال مائة عام من تأسيسها عشرات من كتب تراثنا، ولا سيما الكتب الكبيرة ذات الأجزاء الكثيرة التي لا يقدم على طبعها الأفراد والمؤسسات الصغيرة مثل معجم "لسان العرب" لابن منظور الإفريقي، وهو أعظم معجم لغوي في العربية. وقد طبع في 20 جزءاً؛ ومثل كتاب "المخصّص" لابن سِيدَه الأندلسي، وهو أوسع معجم في المعاني والصفات ألّف في العربية. وقد طبع في 17 جزءاً؛ ومثل كتاب "صحيح البخاري" الذي

(461/1)

طبع على نفقة السلطان عبد الحميد الثاني العثماني في هذه المطبعة سنة 1313 من الهجرة في أربعة مجلدات

ضخمة نفيسة.

وقد طبعت هذه الكتب اعتماداً على مخطوطات صحيحة جيدة. ولكن القائمين على طبعها لم يتبعوا طريقة المستشرقين العلمية. فجاء معظمها من غير تحقيق علمي، وخرجت خِلواً من الفهارس العلمية التي تعين العلماء والباحثين في الرجوع إلى الكتب، وتيسر الإفادة منها في البحث والدراسة.

... وفي بيروت أسست المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين سنة 1848، وطبع فيها عدد من كتب التراث العربي في اللغة والأدب، نذكر

(462/1)

منها كتاب "الألفاظ" لابن السِّكِّيت، وديوان شعر الأخطل غوث بن غياث التغلبي النصراني، و"الحماسة" لأبي عُبادة البحتري. وقد طبع فيها بعض الكتب التي حققها المستشرقون، مثل كتاب "شرح المفضليات" لأبي محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري الذي حققه المستشرق لَيَال الإنجليزي.

* ... * ... *

... وبعد الحرب العالمية الأولى نَمَت النهضة العربية الحديثة واتسعت، وظهر أثرها في مجال الثقافة كما في سائر المجالات. فكثر تأسيس المطابع وأنشئت دور النشر في القاهرة ودمشق وبيروت وفاس وغيرها من العواصم العربية، وأخذت

(463/1)

تخرج للناس كتاباً تِلْوَ كتاب من التراث العربي.

... وأشهر هذه المطابع والدور مطبعة دار الكتب المصرية، وأطولها باعاً في إحياء آثار تراثنا. وهي تضاهي مطبعة بولاق القديمة في مكانتها وفي قيمة ما طبعته من الكتب. ومنها كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الإصفهاني، وهو أكبر كتاب في الشعر والشعراء في الثقافة العربية؛ وكتاب "عيون الأخبار" لابن قتيبة؛ و"صبح الأعشى في صناعة الإنشا" للقَلْقَشَنْدِي؛ و"نهاية الأرب في فنون الأدب" للنُّوَيْري، وهما موسوعتان في الثقافة العامة؛ ومنها كتاب "الأمالي" لأبي علي القالي، وهو

(464/1)

سفر فخم في اللغة والشعر والأدب. وعشرات غيرها من الأسفار. وتمتاز مطبوعات دار الكتب المصرية بأنها محقّقة مصححة، ومزودة بالفهارس العلمية المفيدة. وهي لذلك أقرب ما تكون إلى مطبوعات المستشرقين من كتب التراث العربي.

... قويت النهضة العربية، وعظم شأنها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وابتداء النصف الثاني من القرن العشرين. وأسست الجامعات ومعاهد الدراسات العالية في معظم الأقطار العربية. فزاد عدد المثقفين في المجتمع العربي، وازداد تبعاً لذلك الاهتمام بتراث العرب الثقافي، والعمل لإحيائه. ونشأت طوائف من

(465/1)

العلماء العرب ذوي الخبرة والمعرفة في ميدان التراث القديم.

... وفي هذه الفترة قلّ عمل المستشرقين في نشر التراث العربي، لأنهم كانوا قد طبعوا من أصول هذا التراث ما يمكنهم من دراسة الثقافة العربية. ولم تعد بهم حاجة إلى نشر ما بقي منه، لأنه ليس من تراثهم، ولا يعنيهم أمر إحيائه. يضاف إلى هذا السبب اكتفاء

المستشرقين بما ينشره العلماء العرب الذين أخذوا الزمام، وبادروا إلى إتمام ما بدأ به المستشرقون قبلهم.

(466/1)

... وعمدت بعض الدول العربية لإنشاء مؤسسات علمية تشرف على إحياء التراث العربي. فأنشأت وزارة الثقافة في دمشق مديرية إحياء التراث القديم التي تصدر سلسلة التراث القديم. وشرعت وزارة الثقافة في القاهرة في إصدار سلسلة باسم "تراثنا". ودرجت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الرباط على طبع آثار التراث التي أبدعها علماء المغرب. ومن أجود ما طبعته في الآونة الأخيرة كتاب "ترويح القلوب" لسلطان المغرب العالم الأديب أبي عبد الله محمد بن عبد الله العلوي، بتحقيق الدكتورة إلهام السوسي العبد اللّوي. وتساعد وزارة

(467/1)

الثقافة في بغداد العلماء المحققين على طبع ما يحققونه من تراثنا. ووزارة الإرشاد والأنباء في

الكويت تصدر سلسلة باسم التراث العربي. وقد صدرت من هذه الوزارات عشرات من الأسفار، محققة أوثق التحقيق، مصححة أحسن التصحيح. وهناك جهات أخرى في البلاد العربية، أمثال هذه الوزارات، تعنى بإحياء تراثنا، يضيق المجال عن ذكرها وتعداد أعمالها.

... ويرفد مسعى هذه الوزارات نشاط مجامع اللغة العربية في دمشق والقاهرة وبغداد في سبيل بعث تراثنا، وذلك بطبع ما يحققه العلماء من أسفاره. ونشيد هنا بذكر مجمع اللغة العربية بدمشق،

(468/1)

وهو المجمع العلمي العربي سابقاً. هذا المجمع العريق هو أقدم المؤسسات العلمية العربية وأنشطها على الإطلاق، في ميدان إحياء التراث العربي، حتى صار له اختصاص عُرِف به في العالم أجمع، وله فيه ماضٍ حافل بالأمجاد، وسلسلة طويلة ثمينة من المطبوعات، يطول أمر تعدادها. وما زال هذا المجمع العريق يسير قدماً في عمله العلمي الجليل في صبر وصمت، وفي إحسان وإتقان معاً. ومن مشروعاته الكبرى طبع "تاريخ مدينة دمشق" الكبير لابن عساكر. وهو موسوعة فخمة في اللغة والأدب والشعر والتاريخ وغيرها من فنون الثقافة العربية. وقد

(469/1)

صدرت عنه تسعة وأربعون (49) مجلداً إلى اليوم.

* ... * ... *

... وقد برز إلى ميدان إحياء التراث العربي عدد من دور النشر الخاصة في القاهرة ودمشق وبيروت وبغداد وغيرها من العواصم العربية. وراحت تتسابق في إصدار بعض الأسفار القيمة منه. نذكر منها دار المعارف في القاهرة، وهي تصدر سلسلة من أسفار تراثنا، أطلقت عليها اسم »ذخائر العرب«. والحقيقة أنها ذخائر ثمينة، وجواهر فريدة، تغذي الفكر، وتعجب النظر بطباعتها الأنيقة. ومن عيون تراثنا الذي أصدرته هذه الدار كتاب "تاريخ الرسل والملوك"، المصدر الأقدم والأقوم

(470/1)

لتاريخ العرب والإسلام القديم. وقد صدر في عشرة مجلدات ضخام.

... ومن هذه الدور الخاصة العاملة في نشر تراثنا »دار إحياء الكتاب العربي« في القاهرة لعيسى البابي

الحلبي، وهي مكتبة مصطفى البابي الحلبي المشهورة سابقاً. ومن أمهات الكتب التي أصدرتها كتاب "الحيوان" وكتاب "البيان والتبيين"، وكلاهما لأبي عثمان الجاحظ ومنها دار الفكر في دمشق وبيروت. ودار الشرق العربي في حلب وبيروت. ومكتبة المثنى في بغداد.

... ويطيب لنا أن نعلن أن الكتب التي طبعت في المؤسسات العلمية العربية ودور النشر الخاصة كانت كلها بتحقيق

(471/1)

العلماء من العرب أنفسهم أصحاب التراث. ووفّرت للعلماء الباحثين مصادر أصيلة لبحوث ودراسات حديثة كشفت جوانب الثقافة العربية الغنية، وبيّنت أثرها في بناء صرح الثقافة الإنسانية، وتوفير السعادة والسلام للناس أجمعين.

* ... * ... *

... ونكمل حديثنا بالكلام على مستقبل التراث العربي، وحقيقة جدواه في بناء ثقافة عربية جديدة. وقد بيّنا آنفاً غير بعيد أنه ما زال قسم كبير من التراث العربي

مخطوطاً غير معروف. وهو ذخيرة لا تقل في القيمة عن القسم المنشور المعروف. وينبغي لها أن تكشف وتنشر وتعرف.

(472/1)

... وفي أعناق العلماء والمثقفين من جيلنا حق لتاريخهم ولثقافتهم وللتراث الإنساني عامة، لا يوفونه إلا إذا أخرجوا، منشوراً محققاً، خير ما بقي في خزائن الكتب العربية، في كل بلاد العالم، من مخطوطات صنفها أجدادنا في أبواب المعرفة كلها. وهي لا تزال قابعة في زوايا المكتبات، مهجورة منسية كالأيتام، تنتظر أهلها وأصحابها. ولو قيّض لها أن تخرج من عزلتها، ويطلع الناس على أمرها، لزادت تاريخنا نوراً وضاء يجلو ملامحه، وزودت ثقافتنا الحاضرة بما يجعلها تقوم على أسس آصَل وأثبت، وقواعد مكينة لبناء ثقافة عربية جديدة

(473/1)

قويمة، كما قلنا آنفاً غير بعيد، ولأفادت على التراث الإنساني فضلاً كثيراً وخيراً عميماً.

... وبناء على كل ما سبق نقول بأنه أمام العلماء والمثقفين من العرب مهمة شاقة في هذا الميدان، ذات شقين. الأول تقويم ما طبع طبعاً تجارياً من التراث العربي، وإعادة طبعه محققاً مصححاً. ونذكر مثالاً على ذلك كتاب "الفهرست" لابن النديم، و"المقدمة" لابن خلدون. وقد طبعا عدة طبعات ناقصة مبتورة، ويشيع فيها الغلط والتصحيف. وقد اشتغل بكتاب "الفهرست" صديقنا العلامة محمد بن تاويت الطنجي، رحمه الله، اعتماداً على مخطوطة أصيلة

(474/1)

في مكتبة شستر بيتي في دوبلين عاصمة إيرلندا. وعني هذا العالم أيضاً بتحقيق "المقدمة" لابن خلدون بعد أن اطلع على مخطوطاتها الموزعة في العالم، واختار منها النسخ الجياد، واعتمدها في التحقيق. ولكن الأجل المحتوم وافاه قبل إنجاز أعماله العلمية.

... والشق الثاني من المهمة هو العمل بعزم وتصميم لإحياء ما تبقى من تراثنا، وهو كثير موزع في أنحاء العالم. ونذكر مثالاً هنا كتاب "عيون التواريخ" لابن شاكر الكتبي، وهو بحر واسع في تاريخ العرب والإسلام.

(475/1)

... والمهمة شاقة حقاً. والطريق إلى إنجازها صعبة المسالك طويلة. على أن العزيمة مع الدأب والجلد كفيلة جميعاً باجتياز كل المصاعب.

(476/1)

أصداء معركة وادي المخازن في الشعر المغربي

الدكتور عبد الحق المريني

الرباط

تاريخ المغرب سلسلة من الملاحم الحربية والمعارك الضارية خاضها أهله ليحافظوا على وحدة بلادهم، وليقفوا سدا منيعا أمام التسربات الأجنبية عبر شواطئه، وليحملوا الرسالة الإسلامية التي حمل لوائها إدريس الفاتح ولينشروا ذيول هذه الرسالة في الأندلس شمالا وفي الأقاليم الصحراية إلى وادي السينغال جنوبا.

ولم تكن حركة النضال والجهاد هذه تقودها الدولة فحسب وتخوض غمارها القوات النظامية، بل كثيرا ما أخذ المجاهدون على عاتقهم هذه المهمة

(477/1)

الشاقة والعسيرة والنبيلة في نفس الوقت وأذكوا في نفوس المغاربة الشعور الديني والوطني ليجاهدوا في سبيل الله وليدافعوا على عزة الإسلام وكرامة بلادهم حتى لا تكون فتنة والدين كله لله.

ذلك أن المغاربة – كما عرفوا عبر تاريخهم المجيد – لا يركنون للاستسلام واليأس، وإنما دأبهم أن يصبروا ويستلهموا من ذخيرة إيمانهم القوي روافد من القوة والبأس الشديد لمجابهة ومطاردة الانكسارات.

ففكرة الجهاد والمقاومة وهي فكرة سادت تاريخ المغاربة وسايرت عصورهم ودولهم، فلم تنقطع أبدا حركة الجهاد والمقاومة داخل المغرب وخارجه :

(478/1)

في الأندلس وفي إفريقيا وفي "السودان" نضال مستمر من أجل الاستقلال والدفاع عن الإسلام وإغاثة المستجيرين من الجيران الذين عجزوا عن رد العدوان وحماية الأهل والبلد.

فجذبت فكرة الجهاد المجاهدين المغاربة ودفعتهم إلى

استرخاص أرواحهم في سبيلها غير جزعين من بأس أعدائهم مؤمنين بأن كل شيء قد قدر تقديرا.
وكان هدفهم من جهادهم ليس لدوافع عدوانية وإنما هو إحساس غريزي لإعلاء كلمة الله – وكلمة الله هي نصرة الحق وإقرار العدالة وإحلال السلام – ولنشر دينه القويم وحماية دعوته ولقتال أعداء الإسلام في سبيل الله، وحبا في

(479/1)

الاستشهاد حتى يلقوا ربهم شهداء وينعموا بما وعدوا به من جنان تحت ظلال السيوف وآخرة هي خير وأبقى.
ولما كان الجهاد في سبيل الله يحقق بوسيلة النفس أو المال أو السلاح أو حتى باللسان فقد جاهد أدباء المغرب بلسانهم وقلمهم دفاعا عن المغرب وحريته وعزته ودينه وإسقاطا لأعدائه والمتعدين عليه.
وكانت "حركتهم" الأدبية قوة دافعة يغذيها الإيمان العميق والإحساس بضرورة الانطلاق برسالة النضال والجهاد إلى المغاربة كافة.

(480/1)

فواكب الأدب المغربي وخاصة الشعر العربي "مسيرة" المغرب "الجهادية" وعبر على أن المغرب كان مسرحا لسلسلة من النضالات المتواصلة التاريخية، وخلد في طي دواوينه ملاحم رائعة لبطولات الجيوش المغربية وبلائها في ميادين الجهاد والاستشهاد داخل البلاد وخارجها، وارتبط شعر الجهاد والمقاومة ارتباطا وثيقا بحياة المجاهدين في الدفاع عن حوزة البلاد والذود عن حماها ومحاربة أعداء المسلمين وحماية راية الإسلام في العدوتين : المغرب والأندلس.

(481/1)

فكان شعر الجهاد والمقاومة جزءا صميما من حياة المغاربة ونضالهم وصوتا مدويا لجهادهم،ولسانا معبرا عن إراداهم وسلاحا منافحا عن شرفهم. وكانت كل قصيدة مربوطة بحادث يمت إلى تاريخه النضالي من قريب او بعيد.

وبذلك كان شعر الجهاد والمقاومة غزيرا ووفيرا، قويا ورفيعا، واقعيا وحيا – لا خياليا ولا صوريا – ملأ بطون دواوين الشعراء وأراجيز الناظمين ومصنفات الكتاب ورسائلهم وكتب المؤرخين وأسفار الأدباء منهم،وأصبح وثيقة تاريخية تؤرخ لمراحل حية من تاريخ المغرب

الجهادي والنضالي وتخلد ما لم يستطع النثر أن يخلده أناشيد

(482/1)

للبطولة والعزة والمجد.

وإذا قطعنا مراحل الجهاد والمقاومة من الفتح الإسلامي إلى نهاية الوجود المغربي بالأندلس نجد أن العدوان الخارجي على المغرب – لا سيما الإسباني منه والبرتغالي، جاء كرد فعل انتقامي للوجود السابق في الأندلس بصفة خاصة وللوجود الإسلامي بصفة عامة. وكان العدوان موجها مباشرة بالدرجة الأولى للمغرب لأنه كان أكبر مدافع عن الأندلس وأعظم مجاهد في سبيل الله لأجل إبقاء إسلام الأندلس راسخا على أرضها وبين أهليها.

(483/1)

وهكذا استغل البرتغاليون ضعف الدولة المغربية وفوضى الحكم التي ضربت أطنابها في خضم الصراع الحاد بين الوطاسيين ووزراء بني مرين، فقاموا بالهجوم على

السواحل المغربية الأطلسية. وفي هذه الظروف الحرجة للجهاد في شفشاون واستطاع أهل الرباط من المجاهدين ان يصدوا منه بقيادة بني راشد، التوسع البرتغالي الذي كان يهدف إلى الوصول إلى فاس مقر دار الملك وكعبة العلم والفكر. وقد تعززت الحركة الجهادية بفلول الأندلسيين النازحين إلى العدوة المغربية (1018 هـ/ 1609م). وقام الإسبان بنفس الهجوم على السواحل " الأبيض

(484/1)

المتوسط" حسب الاتفاق المبرم بين البرتغال والإسبان، لتحديد مناطق الغزو المسيحي بإفريقيا سنة 894هـ/ 1494م. وكان لغزو السواحل المغربية من لدن البرتغال والإسبان ، وعجز الدولة الوطاسية عن تحريرها ومقاومة الغزاة المعتدين عليها – لضعف أمرها وتناحر أمرائها – رد فعل قوي في نفوس المغاربة الذين انتفضوا للجهاد في معارك عنيفة. وقد قاد فورته علماء وصلحاء ومتصوفة وشرفاء متطوعون في سبيل الله – كأشراف بني راشد في جبل العلم بالشمال المغربي والأشراف الجزوليين بجنوبه في سوس – ولما كان الشرفاء السعديون يحتلون في نفوس

(485/1)

هؤلاء المجاهدين مكانة مرموقة – لشرف نسبهم – لجأوا إلى إقناعهم بقبول الملك عليهم لتنظيم مقاومة حربية جديدة ضد النصارى الذين احتلوا معظم الموانئ المغربية، ولتأسيس دولة سعدية محكمة وقوية تتبنى شؤون الدولة المغربية منها والحربية.

وقال الإمام عبد الله الهبطي الذي عاشر العهد السعدي منذ أوله في هذا المعنى :

فرحم الله أميرا قد سلك نهج الهدى وما سواه ترك

فإن رأى أمرا يضر بالمسلمين ... ... سده ولم يكن في الغافلين

وما أحوج الورى لدى شر الزمان ... ... إلى إمام قائم بالقرآن

(486/1)

وفي هذا "الخضم العارم" انبرى الأشراف السعديون – من قلب الجنوب المغربي لوصل حاضرة مراكش بحاضرة فاس – ولقيادة ثورة مسلحة وحركة جهادية منظمة ضد البرتغاليين.

وقد اعتمد السعديون على الجنوب المغربي وعلى رجاله

وشعرائه وأدبائه، ولم يبق أي اتصال بالأندلس ورجالها، واقتصر المغرب السعدي على الدفاع عن الوطن وحمايته ومحاربة المتحالفين مع أعدائه ومقاومة الغيرين على سواحله. وأصيب الأدب السعدي بشيء من الخمول والركود لاضطرار أهله من علماء وفقهاء وكتاب وخطباء وشعراء إلى المشاركة في حركات الجهاد ورفع بنودها.

(487/1)

ولما تولى أبو عبد الله محمد المتوكل ملك المغرب دخل إلى طنجة وتقرب من البرتغاليين ، وفر عند "الطاغية" سبستيان" البرتغالي واستنجد به ضد عمه أبي مروان عبد الملك المعتصم. فاشترط عليه الملك البرتغالي أن يكون للبرتغاليين سائر السواحل المغربية وللملك السعدي ما ورائها. فلما علم المغاربة بهذا الاتفاق بايعوا عمه عبد الملك المعتصم بفاس، ونقض العلماء بيعتهم له، فوجه رسالة إلى علماء المغرب وشرفائه يعبيهم على ذلك فأجابه كافة أهل المغرب من شرفاء وعلماء وصلحاء وأجناد ورؤساء برسالة مطولة " دافعة لجيش أباطيله

(488/1)

وفاضحة لركيك تأويله". فأمر الملك الجديد أخاه محمد أن يخرج من فاس بالجيوش، ولما نزل "سبستيان" البرتغالي بوادي المخازن قرب قصر كتامة وقطع الوادي أمر عبد الملك بتهديم القنطرة ونادى : " ان اقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله" . وزحف إليه في جنود وخيل الله المسومة يوم 30 جمادى الأولى سنة 968هـ/ 4 غشت 1578م. "ولم يكن عندهم أحلى من الاستشهاد". فالتفت الفئتان،وتوفي عبد الملك المعتصم في الصدمة الأولى. وكتم أخوه أحمد وفاته، واستمر القتال على أشده حتى ولى المشركون الأدبار، وهب ريح النصر، ودارت على

(1/489)

البرتغاليين وحلفائهم من الجنود الإسبان والبرتغاليين دائرة البوار وتقهقروا إلى الوادي وغرقوا فيه، وكان من بين الغرقى محمد المتوكل " المسلوخ" (لأن المنصور أمر بسلخ جلده وحشوه بعد موته).

فتوفي في هذه المعركة ملوك ثلاثة : الشهيد عبد الملك وابن أخيه "المسلوخ" والملك "سبستيان" البرتغالي.

ومما جاء في درة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك لأحمد بن القاضي التي تشتمل على وصف وقعة وادي المخازن شعرا :

وابن أخيه بالنصارى معتصما ... ... وصار يستنجدهم لمن سما

(490/1)

أجابه اللعين بسبستيان ... ... بجيشه ومعه الأوثان

فقيض الله له منصورا ... ... ملكا شجاعا أسدا هصورا

فخلص الإسلام من يد اللعين ... ... بصبره على لقاء المشركين

ما منهم إلا قتيل وأسير ... ... في ساعة من الزمان ذا شهير

مات بها سبستيان اللعين ... ... فما له على الردى معين ...

ثم محمد الذي أتى به ... ... مات غريقا يومه فانتبه

وبعد أن أذن الله بالنصر على الغزاة بويع أبو العباس أحمد المنصور ملكا على المغرب وبعث إلى سائر ممالك الإسلام المجاورين للمغرب وإلى الخليفة العثماني يخبرهم

(491/1)

بأن "الله أنعم عليه بإطهار الدين وإهلاك عبدة الصليب".فكانت هذه المعركة بمثابة وقعة حاسمة في تاريخ الصراع بين الاسلام والمسيحية – حتى شبهت بغزوة بدر الكبرى – أنزلت ضربة قاضية بالقوة البرتغالية، ووضعت حدا لوجودها بالمغرب، وجعلت دول الأتراك والإسبان والبرتغال أنفسهم تعدل عن سياستها التوسعية بالمغرب.

فكانت بذلك معركة غرة في جبين تاريخ الجهاد والمقاومة بالمغرب، وخلفت للمغرب ذكرا خالدا في العالمين.

وقد سجل أصداء هذه المعركة الخالدة كثير من الشعراء، إلا أننا لن نطلع إلا على نزر قليل منها، وعلى "صبابة

(492/1)

لا تروي غليلا". وربما توجد آثار شعرية أخرى مدفونة في "بطون الدفاتر وخبايا الخزائن" كما قال المرحوم الاستاذ الجليل العلامة عبد الله كنون.

ومن الشعراء الذين عاصروا الواقعة وأثرت شاعريتهم وكانت مصدر وحي لهم:

الشيخ داوود بن عبد المنعم الدغدوغي الذي عاش في أواخر القرن العاشر. وقد وصف المعركة وصفا دقيقا – لا يكتبه إلا شاهد عيان – وصور شهامة الجندي المغربي وبسالته في جحيم المعركة تصويرا رائعا، وهو يستشهد بقلب ثابت الانتصار، وكيف أظهر الله المغاربة على أعدائهم حتى خلص لهم وجه المغرب وأعادوا الأمور إلى

(493/1)

نصابها في بأس وشجاعة مطلعها

جنى النصر ما بين الظبا والكنائن ... ... على سابقات المذكيات الصوافن

ومن لم يخض بحر الحروب فلا يرى ... لحوزته دون العدا خير صائن

وقد وقف الأستاذ عبد الله كنون رحمه الله على هذه القصيدة مخطوطة عن المرحوم محمد المختار السوسي.

فبعدما وصف شاعرنا هجوم الجيش البرتغالي على المغرب وسواحله تعرض إلى مقاومة من جند الله مفتخرا بكتابئبه التي "تضرب الهامات ويهوي فيها الفرسان بأسلحتهم على الخصوم كالبزاة الكواسر" :

تجمع جند الله من كل جهة ... ... وقد غض من مدينة كل دائن

(494/1)

ونلوهم الأجناد والناس كلهم ... ... تضل بهم أبصار كل معاين

ثم عاد الشاعر يصف المعركة وانهزام سبستيان فيها وصفا دقيقا وعميقا " تضمن صورا وملامح تدخل في صلب الحقائق التاريخية" – كما قال الأستاذ الدكتور عباس الجراري – قد تكون مدونات التاريخ أغفلت ذكرها والإشارة إليها.

فشبت لظى الهيجاء ليس وقودها ... سوى أنفس الشجعان وسطر الميادين

إذا أرعدت تلك المدافع أبرقت ... ... صقيلات بيض الهند فوق اليمائن

فلولا البروق الخاطفات من الظبا ... لما أبصرت عين خلال المداخن

(495/1)

قد انقضت الفرسان منا عليهم انقضا ... ض صقور الجو فوق الوراشن

وسبستيان كفتنة مياهه ... ... هزيما وماء النهر أفظع كافن

وحين قضى البتار في الكفر ما قضى ... وأشلاؤه نتن بغير مدافن

رأيت ألوفا من الرؤوس تجمعت ... ويا ليتها أيضا جدار المآذن

بغوا فجنوا جني البغاة فأصبحوا ... سماد الفيافي لأسماد الفدادن

إلى أن حقق الله النصر للمومنين على ذوي الكفر :

هنالك نصر المومنين مؤزرا ... ... على كل ذي كفر تهجم ضاعن

وكان يوم مثل يوم بدر وحنين :

فذلك يوم مثل بدر وصنوه ... ... حنين بأيدي المومنين الميامن

(496/1)

لقد ذاق فيه "البردقيو" من الردى ... جزاء مناحيس خزايا ملاعن

وقيل : الحمد لله :

فنحمد رب العرش إذا كان ديننا ... ... لأهل الوغى والبأس خير المعادن

مواطن كانت للجهاد مشاهدا ... ... بهن مياه العز غير أواسن

مقارنا فيها بين أولئك المغاربة الذين صنعوا على عرش المغرب يوم النصر قام شاعره أبو فارس عبد العزيز الفشتالي – الذي بارى لسان الدين بن الخطيب في قصيدته التي مدح بها أبا سالم المريني :

أطاع لساني في مديحك إحساني ... ... ولقد لهجت نفسي بفتح تلمسان

(497/1)

فأنشد نونيته العصماء – ليلة عيد المولد النبوي الشريف في تهنئة المنصور بهذا النصر واصفا بلاءه جنوده في هذه المعركة التاريخية التي لم يواكبها الشاعر في وقتها، ومطلعها :

هم سلبوني الصبر والصبر من شأني ... وهم حرموا من لذة الغمض أجفاني

وبعد أن يشيد بحنكة كتائبه العسكرية في المعركة وبالانتصار الوطني الضخم :

وإن أطلعت غيم القتام جيوشه ... وأرزم في مركومه رعد

نيران

صببن على أرض العداة صواعقا ... أسلن عليهم بحر خسف ورجفان

كتائب لو يعلون رضوى لصدعت ... صفاه الجياد الجرد تعدو بعقبان

(498/1)

عديد الحصى من كل أروع معلم ... وكل كمي بالرديني طعان

من اللائي جرعن من العدا غصص الردى ... و غفرن في وجه الثرا وجه بستيان

وفتحت أقطار البلاد فأصبحت ... تؤدي الخراج الجزل أملاك السودان

يخاطب ممدوحه المنصور مباركا له الفتح ويمنيه ما بين السودان وبغداد:

أيا ناظر الإسلام شم بارق النا ... ... وبارك لروض في ذرا المجد فينان

قضى الله في علياك أن تملك الدنا ... ... وتفتحها ما بين سوس وسودان

وأنك تطوي الأرض غير مدافع ... ... فمن أرض سودان إلى أرض بغدان

(499/1)

فكم هنأت أرض العراق بك العلا ... ... ووافت بك البشرى لأطراف عمان

فلو شارفت شرق البلاد سيوفكم ... ... أتاك استلابا تاج كسرى وخاقان

فلا زالت للدنيا تحوط جهاتها ... ... وللدين تحميه بملك سليمان

فما المجد إلا ما رفعت سماكه ... ... على عمد السمر الطوال ومرّان

ويقول أبو عبد الله محمد بن علي الهوزالي من قصيدة في مدح "السلطان المشهور والأسد الهصور" أبي العباس أحمد المنصور، مسجلا فيها هول وشدة معركة وادي المخازن التي قضى فيها على الشرك والكفر :

حروب طوت البغاة وملهم ... ... ومات لها ذكر البسوس وداحس

(500/1)

لعمرك لا أنساه يوما شهدته ... ... وقد سفرت بين الكماة المداعس

وحسبك في وادي المخازن وقعة ... ... بها الشرك حتى آخر الدهر تاعس

بيمن أبي العباس صالت سيوفنا ... ... على الشرك حتى ليس للشرك حارس

فدانوا له حتى توقع بطشه ... ... وذلت لنا منه الأنوف الغطارس

فجهز ما تحوي ذخائر ملكه ... ... يذوذ بها عن نفسه ويداعس

فلا زال سيف الحد في كف أحمد ... ... يذوذ بها عن دينه ويداعس

وظل صدى هذه المعركة يرن في العصر السعدي وخصوصا في عهد المنصور الذي كان مزدحما بالفتوحات.فكلما هنأ الشعراء المنصور بالفتوح أو بحلول

(501/1)

عيد المولد النبوي كانوا يشيرون إلى معركة وادي المخازن التي غذت " معلمة ومنار". وكانت تلك الإشارة من الشعراء السعديين ضرورية في هذا الظرف بالذات. وذلك لتعويد المغاربة على الاستمرارية في الجهاد وتحريضهم على تحدي الوجود البرتغالي في الثغور المغربية،وإذكاء روح المقاومة في نفوسهم الأبية:

فلأبي عبد الله محمد علي القشتالي مولدية في هذا الصدد ذكر فيها بجهاد المنصور بوقعة وادي المخازن ودفاعه عن الإسلام ضد أعدائه من حملة الصليب وعباده يقول فيها :

وجردت في ذات الإله صوارما ... ... تصول بها والعاجزون نيام

(502/1)

ضربت بها التثليث للحتف ضربة ... ... فلم يبق بعد للصليب قيام

وأمطرت وابلا "بالمخازن" قطره ... بموت الأعادي بندق وسهام ...

فكم لك من سيول مراكب ... ... طلعت بها كالبدر فيه تمام

وحولك عقبان الكماة تساقطت ... ... لبطشتها يوم الأعادي وهام

ولام وميض المرهفات كأنه ... وميض نجوم والدياجي قتام

فأبرزت فتحا دوخ الأرض صيته ... وزين أشتات المعالي نظام

ويقول من قصيدة أخرى وقد شبه المنصور بالصقر وهو ينقض ظافرا في وقعة وادي المخازن :

وحسبك من وادي المخازن إذ طمت ... بحار المردى والخيل فيها جمام

(503/1)

فكان بها كالصقر ينقض ظافرا ... ... تساعد منه مخلب وجناح

له حالتا سيف وسيب كأنما ... ... تجمع في يمناه سم وراح

هذا وكلما حلت ذكرى هذه المعركة إلا وأثارت مشاعر شعرائنا المحدثين فأنشدوا مما يدل على أن معركة وادي المخازن لم تكن حدثا عابرا بل بقيت حافزا على إثارة الشعور الوطني سياسيا وأدبيا :

فللمرحوم علال الفاسي قصيدة بعنوان " ذكرى موقعة وادي المخازن أو غزوة الملوك الثلاثة" يقول في مطلعها :

بفضلكم أبطال "وادي المخازن" ... ... يردد فينا اليوم صوت المآذن

(504/1)

ولولا جهاد منكم بعزيمة ... ... وتضحية كبرى بيوم "السواكن"

وما جئتموه من ثبات وحكمة ... ... وما بان فيكم من عظيم التضامن

لأضحت بلادي طعمة لعدوها ... ... كأندلس أخت الأسى والتغابن

إلى أن يقول في وصف هذه المعركة الخالدة :

من "القرويين" انتضى كل ذائد ... عن الدين قوام على الحق ضائن

فما وهنوا لما رأوه و لا انثنوا ... عن الصدع بالرأي السديد للاحن

وهب سبستيان في نشوة الرضا ... يرى النصر مضمونا بأقدس ضامن

وهاجم من ثغر العرائش زاحفا ... ... إلى القصر مجتازا بوادي المخازن

(505/1)

وقد بث في كل الجهات عيونه ... ... ونظم في الأحياء شتى المكامن

ففرت جموع المسلمين كأنها ... ... غثاء تردي في مسالك عاين

ولكن شهما من بني الجد لم ... يثبتهم حتى ارعوا للمساكن

وجاء "أمير المومنين" بجيشه ... كأنهم أسد شداد البرائن

وهبت جموع الشعب حول إمامها ... يقودهم في البذل شيخ الضغائن

وكان ضراب لم يسجل مثيله ... ... بما اشتد فيه من ثجيج المطاعن

وأبلى بها المنصور خير بلائه ... ودبرها بالحزم تدبير فاطن

فلله منه حين ضاع منوه ... ... أدار الرحى في حكمة وتوازن

(506/1)

وهبت رياح النصر في جانب الهدى ... وأردت سباستيان بين المطاحن

فلله من يوم الثلاثة أنه ... ... بداية عهد للبنا والتصاون

فلله من وادي المخازن أنه ... ... قد امتلأت منه جميع الخزائن

وبعد يخاطب الشاعر أعداء من ملة واحدة :

فلسنا نمل الحرب حتى تعافنا ... ... ولسنا نخاف البأس

من أي كائن

لئن كنتم أرقى وأعظم عدة ... ... فإيماننا أقوى وخير مداين

فلا تحسبوا الصحراء تبقى إليكم ... ... ولو سنتموها بالسلاح المطاعن

فإن الصحاري أرضنا وديارنا ... ... وأبناؤها إخواننا في المواطن

(507/1)

ورغبتهم من رغبة الشعب كله ... ... فلا تنكروا حقا بدا للمعاين

وقد أخلصوا للعرش في كل حالة ... ... ولم يخرجوا عن واجبات المواطن

ويقول الشاعر عبد الواحد أخريف من قصيدته "الملحمة الخالدة" :

الحق جل جلالا زور ولا هدر ... ... وادي المخازن ذكرى حفها الظفر

وادي المخازن يا أنشوذة عبقت ... ... بعطرها صحف التاريخ والسير

فخر الملاحم في دنيا الجهاد فلا ... ... تدنو إلى شأوها ملاحم أخر

تبقى مدى الدهر شمسا لا تغيب ولا ... ... يخفى نصاعتها غيم ولا مطر

(508/1)

لولاك ما كانت الأمجاد كاملة ... ... وان تعددت الأشكال والصور

وينشد الشاعر مصطفى الطريق متغنيا ببطولة وشجاعة أبناء المغرب الأباة في معركتهم الكبرى ضد الغزاة اللئام بكل شمم وإباء :

فما يوم توانوا عن نداء ... ... ينادي للفدى ضد اللئام

مغاربة أباة ليس فيهم ... ... سوى ليث ومقتدر همام

ما خاضوا المعارك او تصدوا ... ... لها إلا وكانوا خير حامي

معارهم لنا ذكرى انتصار ... ... وفيها للعدا ذكرى انهزام

ومعركة المخازن خير ذكرى ... ... وفي إحيائها كل التسامي

إلى أن يقول في ختامها :

(509/1)

فلا نرضى بذل أو هوان ... ... ورد الذل في رفع الحسام

فهذي أرضنا الصحراء عادت ... ... بفضل مسيرة الشعب الهمام

ويقول الشاعر المرحوم قدور الورطاسي في قريضه مع ذكرى وادي المخازن يعاتب البرتغاليين على هجومهم السافل على حرمة المغرب وعزته وأمجاده :

أليس غريبا أن يشط جوارنا ... ... من البرتغال إذا تنادوا ليغضبوا

يسقون للحمام جيشا عرمرما ... ... غرورا ب "الممسوخ" به الملك يلعب

ألم يذكروا بالله سالف مجدنا ... ... وما لنا من قوى إذا الخصم "أشعب"

(510/1)

ألم يعلموا أنا نرى العيش عزة ... ... وإلا فإن الموت أولى وأعذب

ويقول الشاعر محمد الغربي هائما في وادي المخازن وذكرى جهاده واستبساله وبطولة رجاله :

أهيم فيك وأجني منك أشعاري ... ... كأمس يا سيد الوديان يا جاري

يظن أنك من عهد الزواحف لم ... ... تهدر ماؤك لا يجري

بتيار

وأنت أنت كعهد الناس مندفع ... ... إلى الأمام بسرفيك

مدرار

إن الأولى هزموا فيه العدو بما ... ... أتوا من الصبر في

شهره الحار

فاثخنوهم جراحا لا بأسلحة ... ... فتاكة بل بحصباء وأحجار

(511/1)

ثم يخاطب شباب الحمى من المغاربة شارحا لهم مغزى

ذكرى المخازن :

ذكرى جهاد وتحذير وتوعية ... ... وقصة تبتدي من يوم

ذي قار

حتى يكون لنا مجد تحس به ... ... أسفار تاريخ لا تاريخ

أسفار

ويلقب الشاعر عبد الواحد السلمي وادي المخازن بالوادي

المقدس الوادي المتحدي بكل شمم وإباء لكل معتد

وظالم للمطمئنين الآمنين على ضفافه :

فاض من منبع الجبل ... ... يتمشى على مهل

وجرى سلسا وسـ... ... ... ال رفيقا بلا عجل

ثابت الخطو راسخا ... ... يتحدى كل الدول

(512/1)

تتلاشى غزاته ... ... وهو في الصدر لم يزل

إلى أن يقول بعد وصف لغزوة المخازن محذرا من سوء المصير كل غازي أثيم :

قل لمن رام غزونا ... ... هاهنا الموت فارتحل

إن ترم قهر جيشنا ... ... تجد الرمس والأجل

فاعتزل إن أرضنا ... ... خبرتنا كل الدول

إن توهمت قهرنا ... ... أو تشككت فلتسل

ويناجي الشاعر أحمد السفياني شهداء وادي المخازن من قصيدة منشدا :

قوم إذا رفعت في الحرب رايتهم ... ... استشهدوا في سبيل المجد راضينا

(513/1)

هذي قبورهم إن زرتها نطقت ... ... بل تلك أرواحهم منها تنادينا

أرواحهم من سما عليائها نزلت ... ... قد رفرفت وهوت شوقا تهنينا

وقد يستعطف وادي المخازن ليذكرنا بصور الشهامة

والبطولة والأمجاد التي عاشها الوادي في وقعته الكبرى :

وادي المخازن ذكرنا بموقعة ... ... وادي المخازن قم واخطب بها فينا

وادي المخازن لنا صورا ... ... فوق الرؤوس وذكرنا بماضينا

وادي المخازن بما بلغت ... ... من المجد رايتنا نلقاك صاغينا

إن الحقيقة في التاريخ يعلمها ... ... كل الورى فاقترب وناجينا

(514/1)

ويعتبر الشاعر المرحوم محمد الخمار أن معركة وادي المخازن هي أنشوذة النصر والظفر على لسان الدهر وأبطالها الصناديد هم معجزة العصور والأزمان قائلا :

وصرت على شفة الدهر أنشو ... ... دة المجد والنصر والظفر

فما كان يومك إلا كبدر ... ... وإلا كطحين أو خبير

وما كان أبطال يومك إلا ... ... صناديد مفخرة الأعصر

أعادوا لنا المجد صرحا أقام... ... ـــــوه بالسيف والدم والعتير

ويتساءل متعجبا الشاعر حسن الطربيق عن وادي المخازن : أي واد واد المجد وإباء الضيم ودماء الفداء ؟ ؟

(515/1)

أي واد يسرى ندى الحواشي ... ... بين جبينيه في ثرى آبائي

أي مجد على التعاقب يزجيـ ... ... ـه ويلقيه مثل الضوء ضوء السماء

فخفقت كل راية ولواء ... ... بدماء موصولة بدماء

إلى أن يقول في ختام قصيدته بعد أن وصف هذه الملحمة الخالدة :

هكذا هكذا الرجال من المغر ... ... بـ في كل وقعة ولقاء

إلى غير ذلك من القصائد التي أشار إليها أستاذنا الدكتور عباس الجراري في كتابه "معركة وادي المخازن في الادب المغربي" وغيرها من القصائد المنشورة في بعض الدواوين الشعرية – كقصيدة عبد الكريم الطبال في ديوانه الأشياء

(516/1)

المتكسرة – والملاحم الشعرية مثل " وادي المخازن" للشاعر محمد طريبق و "المعركة الكبرى" للشاعر علي الصقلي.

ولا يعزب عن البال أن الأستاذ عبد المجيد بنجلون كتب قصيدة نثرية عن هذه المعركة الخالدة بلغة شعرية رائعة تحت عنوان " معركة الوادي".

وهكذا ظهر من خلال هذه الصفحات أن الأمة المغربية أمة محاربة مجاهدة، لا تستكين على ضيم، أسال أعداؤها دماءها وأسالت دماءهم على جنبات الوادي دفاعا عن الحمى. وكانت هذه الحرب انتصارا للحق على الباطل وللهدى على الضلال، ومن أجل تحرير الإنسان المغربي والأرض المغربية. فمعركة

(517/1)

وادي المخازن رغم ضراوتها ومرارتها لم يكن للأمة المغربية خيار آخر غيرها فكانت هي الوسيلة الوحيدة لوضع الحق في نصابه. وإذا قدر لجنود المغرب أن يخوضوا غمارها، ويقتحموا دوربها، فلأنهم أجبروا على ركوبها، بعد أن وجدوا أنفسهم يتعرضون للتحديات، وهذا ما دفعهم ليظلوا متوثبين يقظين متحفزين، محتفظين بسلاحهم كي يدفعوا به عن أرضهم وملتهم ضد نوازع

الشر و يحموا بيوتهم ودولتهم من الأخطار التي تتهددها من الداخل والخارج.

(518/1)

فهذه الصور الرائعة من البطولة والشهامة والنجدة والإباء التي ظهرت من خلال معركة وادي المخازن، ألهمت شعراءنا القدماء والمحدثين فخاضوا معارك الجهاد والنزال من خلال أشعارهم، يرسمون صورا خالدة للشهامة المغربية، ولأساليب التصدي والهجوم في حومات معركة وادي المخان، ويسجلون الخوالد والخوارق، ويشيدون بالفتوح والانتصار ويهيبون بالمجاهدين للدفاع دوما عن الأرض والذود عن الحمى، وإعلاء كلمة الله، ويثبتون في نفوسهم الإحساس بقوة العدالة والحق، والاستهانة بالباطل – أينما حلوا وارتحلوا – والتصديق العميق لما وعد

(519/1)

الله به المجاهدين الأبرار والجنود الأفذاذ من الجزاء الأوفى وحسن المآب.

(520/1)

أوجه من الحضور الأندلسي بمدينة تونس التأثيرات الثقافية والفنية والمعمارية

الدكتور محمد الباجي بن مامي
المعهد الوطني للتراث – تونس

انطلاقا من الفترة الحفصية (1)

---

(1) باني أسس هذه العائلة هو أبو زكرياء يحيى بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص عمر الهنتاني، وكان هذا الأخير – أحد الرفاق الأوائل للمهدي بن تومرت، وتولى الحكم أبو زكرياء عام 625 هـ/ 1227م وهي السنة التي تعتبرها المصادر بداية الدولة الحفصية، وتواصلت هذه الدولة حتى سنة 981هـ/1574م التي انتصر خلالها العثمانيون نهائيا على الإسبان واستقروا بتونس.

(521/1)

عرفت مدينة تونس تأثيرات فنية وثقافية ومعمارية وحضارية مختلفة، أهمها على الإطلاق التأثيرات الأندلسية التي ما زال بعضها متواجدا إلى يومنا هذا. إلا أن هذه التأثيرات كانت مزدوجة، فهي أندلسية ومغربية على حد سواء لأنه من الصعب في غالب الأحيان الفصل بين التأثيرات الفنية الأندلسية من جهة، والمغربية من جهة أخرى، ذلك نظرا لتشابه هذين الفنين خلال تلك الفترة، إذ أدت العلاقة الوثيقة التي قامت بين المغرب والأندلس إلى انتشار الفن الأندلسي بالمغرب والعكس بالعكس(1)

---

(1) **حول هذا الموضوع انظر خاصة: عبد الهادي التازي، جامع القرويين، دار الكتاب اللبناني، بيروت،** 1962 – 1973. **وكذلك راجع:**

- Henri Terrasse, « Le rôle du Maghreb dans l'évolution de l'art hispano-mauresque », Revue Al Andalus, XXIII, Fasc. 1958, 1.
- George Marçais, Manuel d'art musulman, Paris, 1927.
- George Marçais,L'architecture musulmane d'Occident,, Paris, 1952.
- Lucien Golvin, « Essai sur l'architecture religieuse musulmane », Paris, 1970.

(522/1)

.

ويبدو أن هذه التأثيرات دخلت إفريقية مع قدوم الموحدين – ابتداء من النصف الثاني للقرن السادس للهجرة – أي عند قدوم عبد المؤمن بن علي سنة الأخماس (555هـ/1160م) – إلا أنها أصبحت أكثر وضوحا عند استيلاء أبي زكرياء الأول على الحكم سنة (625هـ/1227م – 647هـ/1249م). فقبل قدومه إلى إفريقية كان مؤسس الدولة الحفصية واليا على غربي الأندلس مما أدى إلى ارتباط العديد من الأندلسيين – وخصوصا منهم الإشبيليين – بأبي زكرياء. ويفيدنا العلامة عبد الرحمان ابن خلدون حول علاقة هؤلاء بأبي زكرياء، فيذكر بأنه: "كانت لأهل

(523/1)

إشبيلية خصوصا من بين الأندلس، صلة بالأمير زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص وبنيه، منذ ولايته غربي الأندلس"(1) .

ونتيجة لهذه العلاقة الوطيدة، أتى الأندلسيون في كرات متتالية إلى مدينة تونس بداية من النصف الأول للقرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، ويبدو أن الدفعات الأولى لهؤلاء المهاجرين قدمت ابتداء من سقوط بلنسية في أيدي الإسبان سنة 636هـ/1238م أو ربما قبل ذلك ببضع سنوات.

---

(1) انظر عبد الرحمان بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر بيروت، 1959، ج 6، ص. 683

(524/1)

ومن بين من استوطن مدينة تونس آنذاك نذكر على سبيل المثال: أبا عبد الله ابن الابار(1)

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي الأندلسي، الفقيه والمحدث النحوي الكاتب التاريخي الشاعر، ولد سنة 595هـ/1199م ببلنسية، قتله المستنصر الحفصي في سنة 658هـ/1259م بتونس، له تآليف عديدة، انظر: ابن خلدون، العبر ج 6، ص.604–605؛ الزركشي، تاريخ

الدولتين، ص.28؛ ابن قنفد، الفارسية، ص.116؛ الغبريني عنوان الدراية، ص.257؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، ص. 286 وص. 372؛ الزركلي، الأعلام، ج 7، ص. 11؛ كحالة معجم المؤلفين ج 10، ص. 204.

(525/1)

. ثم قدم عدد هام آخر عند سقوط إشبيلية أيضا في أيدي المسيحيين سنة 649هـ/1248م، وقد شجعهم ما وجدوه من الترحاب والمراعاة على الاتجاه إلى مدينة تونس، إذ بقي أبو زكرياء ثم خلفاؤه في الحكم، مرتبطين بالتقاليد الأندلسية. إلا أن عددهم تضاءل في القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر الميلادي، لكن الأمور لم تبق على هذا النسق، إذ تجدد قدومهم في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، وازداد خاصة بعد سقوط غرناطة.

(526/1)

ويرى أغلب المؤرخين أن جل هؤلاء المهاجرين كانوا من الأثرياء والعلماء(1) بينما تذهب أقلية أخرى إلى أن هؤلاء

المهاجرين كانوا من جميع طبقات المجتمع الأندلسي(2) ، إلا أنه لدينا نص لابن سعيد – يرجع إلى سنة 721هـ/1321م – وهذا المؤلف الذي تولى مناصب سياسية مرموقة، كان

---

(1) بالنسبة لهؤلاء المهاجرين، يمكن مراجعة خاصة المقري، أزهار الرياض، ج2، ص.811؛ ابن خلدون العبر، ج6؛ ابن قنفد الفارسية، ص. 116.

(2) من بين هؤلاء المؤرخين: الدكتور محمد الطالبي، راجع مقاله "الهجرة الأندلسية" مجلة الأصالة، سنة 1975، عدد 26.

(527/1)

أحد المهاجرين الأندلسيين، وما أتى به يؤيد ما ذهب إليه القسم الثاني من المؤرخين، إذ يذكر المصنف أن أبا زكرياء بنى معالم دينية وقصورا ضخمة، وأنه اهتم بالحدائق وزرع أشجار العنب على طريقة الأندلسيين وأن كل المهندسين هم أصيلي الأندلس، وكذلك الأمر بالنسبة لأصحاب الصنائع من بنائين ونجارين ودهانين الذين ساهموا في بناء هذه المعالم، وكذلك المشرفين على البساتين والحدائق إلخ ...

ويعلمنا نفس المؤلف أن المعالم التي بنيت آنذاك – أي في بداية القرن 8هـ / 14 م – قد قام بتصميمها أندلسيون أو نقلوا تخطيطها عن

(528/1)

معالم أخرى توجد في بلادهم.

كما أن المتمعن في الجزء السادس "للعبر" لابن خلدون يلاحظ فيه أنه رغم عدم الإشارة إلى وجود بعض الحرفيين وأرباب الصنائع وغيرهم من العامة للمهاجرين الأندلسيين، فإن إشارة هذا المصنف في العديد من المناسبات إلى تواجد جالية من شرقي الأندلس من غربيه بمدينة تونس وخاصة ذكره لوجود كتيبة من الجند متكونة من الأندلسيين ساهمت في الحروب الصليبية التي واجه خلالها المستنصر الحفصي ملك الإفرنجة لويس التاسع سنة 668هـ / 1270م(1)

---

(1) يفيدنا ابن خلدون بأنه: "ملئت سواحل رادس بالمرابطة بجند الأندلس والمطوعة زهاء أربعة آلاف فارس"، انظر: العبر الجزء السادس، ص. 668.

(529/1)

يدفعنا إلى ترجيح الرأي الثاني وإلى التأكيد على أنه كان يوجد خلال الهجرات الأولى إضافة إلى جماعة العلماء والأثرياء الذين ذكرت المصادر العديد من أسمائهم(1) من المهاجرين المنتمين إلى أهل الصنائع والحرف وغيرهم، ممن غضت عنهم المصادر الطرف ولم تذكر البتة. مع كل هذه المعطيات يجب إضافة ما تمدنا به بعض شواهد القبور من معلومات(2)

---

(1) راجع خاصة: الجزء السادس، وابن رشيد الفهري السنن الأبين؛ والعبدري الحيحي، والقلصادي، رحلة القلصادي وغيرها...

(2) توجد العديد من هاته المشاهد بمتحف سيدي قاسم الجليزي وبمتحف سيدي بوخريصان من مدينة تونس. أما أغلبها فهو موجود بمخازن المعهد الوطني للتراث بقصبة مدينة تونس.

(530/1)

وهي التي ترجع إلى القرون السابعة والثامنة والتاسعة هجرية، والتي تفيدنا بمهن البعض من هؤلاء الأندلسيين الذين استوطنوا مدينة تونس. فقد تم العثور على أسماء بعض التجار والحرفيين وغيرهم.

لكن أهم دفعة وصلت إلى تونس، تمثلت في عدد كبير من المورسكيين – وهم مسلمو الأندلس الذين هربوا بدينهم من الاضطهاد المسيحي – ويبدو أن هؤلاء لم يجدوا نفس القبول بالجزائر وبدرجة أقل بالمغرب، إذ نهبهم الأعراب ولم يبق حتى ما يسدون به رمقهم(1) ولذلك، وبعد توقف بأحد هذين

(1) هذا ما يؤكده ابن أبي دينار، المؤنس، ص. 204.

البلدين، توجه الكثير منهم في رحلة ثانية إلى البلاد التونسية(1)

(1) يذكر أنتونيو دمنقار اورتيث، أن "الاستقبال الذي قوبلوا به (أي المورسكيين بالمغرب) لم يكن على أحسن ما يرام لأنهم يعتبرون مسلمين غير صادقين

مثلما كان الشأن في إسبانيا، حيث كانوا يعتبرونهم مسيحيين مزيفين" (انظر المقال "الأطوار التي مرت ثلاثمائة ألف موريسكي طردوا من إسبانيا" في بحوث عن الأندلسيين في تونس، 1983، ص.99. ثم يذكر نفس المؤلف أما في الجزائر فقد تعرض المريسكيون إلى السرقة والنهب وحتى القتل في بعض الأحيان من طرف البدو والأعراب نفس المقال، ص. 100.

(532/1)

كما قدم عدد هام من أعضاء هذه الهجرة عن طريق فرنسا مرورا بمرسيليا حيث سلبت أموال جلهم. وهو ما تفيدنا به بعض وثائق الأرشيف الفرنسي (بمرسيليا).

ويعلمنا صاحب "المؤنس" (ابن أبي دينار) أنه "في سنة 1017هـ/1608م و1018هـ/1609م جاءت الأندلس من بلاد النصارى – نفاهم صاحب إسبانيا – وكانوا خلقا كثيرا فأوسع لهم عثمان داي في البلاد(1) وفرق ضعفاءهم على

---

(1) أخذ هذا الداي الحكم سنة 1007هـ/1599م وتوفي سنة 1019هـ/1610م، وهو يعد أول الدايات العثمانيين

الذي كانت له أهمية بالبلاد (انظر خوجة: ذيل بشائر الإيمان، ص. 92)

(533/1)

الناس وأذن لهم أن يعمروا حيث شاؤوا... واستوطنوا في عدة أماكن"(1) .

إلا أنه من المحتمل أن يوسف داي(2) لعب دورا هاما في مجال

---

(1) ابن أبي دينار: المؤنس، ص. 404

(2) تولى هذا الداي الحكم سنة 1919هـ/1610م، وقد طالت مدته، إذ بلغ حوالي 28 سنة في تسيير البلاد، ومما ساعده على إعطاء نفس جديد للحياة الاقتصادية، قدوم هذه النخبة من الأندلسيين. ويذكر ابن أبي دينار أن في أيام يوسف داي "تحضرت البلاد وكثرت عمارتها... وساعدته الأيام بالغنائم في البحر والهناء في البر المؤنس، ص. 205، وتوفي هذا الداي سنة 1047هـ/1637م.

(534/1)

استيطانهم قبل أخذه السلطة، وذلك في مدة حكم عثمان داي(1) . وإن كان العديد من هؤلاء المهاجرين وزعوا على قرى ومدن بالشمال التونسي، فقد أبقى الأثرياء منهم وأهل الحرف – مثل المختصين في صنع الشاشية –(2)

---

(1) هذا ما استخلصه الدكتور عبد العزيز الدولاتلي من نقيشة بجامع العالية ترجع إلى سنة 1016هـ/1607م، انظر:

A. Daoulatli, Inscription à la mosquée andalouse d'Alia Madrid 1973, pp.285 et suiv.

(2) فيما يخص هذه الصناعة التي ساهمت في تدعيم الاقتصاد التونسي أثناء الفترة المعاصرة انظر:

- Fleury, « l'industrie tunisienne des sasiyas », Revue de Commerce et de l'Industrie, Paris, 1895.
- S. Ferchiou, « Technique et Société: la Fabrication de la chachia en Tunisie », Paris, 1973.

في مدينة تونس، كما بقي أيضا التجار والعلماء والمدرسين (ويذهب البعض إلى أن عددهم أثناء هذه الهجرة الأخيرة بلغ ثمانين ألف نسمة)(1) .

وكانت لكل هؤلاء خاصيتهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم ولباسهم وتصرفاتهم... فحملوا معهم ثقافتهم وأنواع فنونهم، وطرق بنائهم الخ... وقد كانت إذن اختصاصات هؤلاء المهاجرين مختلفة، فمنهم أصحاب الحرف من بنائين ونجارين وحدادين... ومنهم المثقفون

(1) انظر أنطنيو دو منقاز اورتيث: "الأطوار التي مرت بثلاثمائة ألف موريسكي طردوا من إسبانيا" في بحوث عن الأندلسيين في تونس، 1983، ص. 100.

(536/1)

والعلماء، ومنهم المهندسون والأطباء... لذا كان تأثيرهم في المجتمع مختلف الوجوه.

تواجد إذن الكثير من العلماء والمثقفين الذين أثروا في الحياة الثقافية، سواء كان ذلك أثناء الفترة لقدومهم، أو خلال الفترة الثانية – أي أثناء حكم عثمان داي –

وهكذا مثلت الثقافة الأندلسية نخبة من العلماء البارزين، فعرفت المدينة بفضل هؤلاء ومن سواهم من الأفارقة في القرنين السابع والثامن الهجريين والنصف الأول من القرن التاسع هجري، نهضة علمية جعلت منها أحد أهم المراكز العلمية والثقافية والتعليمية بالمغرب الإسلامي، ومن

(537/1)

الجزائر أن الأندلسيين مثلوا نواة هذه النهضة. ومما لا شك فيه أن التطور الديموغرافي الداخلي الذي عرفته مدينة تونس خلال القرن السابع الهجري، وكذلك الوفود القادمة من المغرب الأقصى والجزائر وغيرهم، زادت في أعداد طلاب العلم. وقد قابلت هذه الظاهرة، مجيء مشايخ أندلسيين كانت لهم الإمكانية علميا أن يكونوا إطارات للتعليم، وقد كان عدد هؤلاء الشيوخ القادمين خلال هذه الفترة مرتفعا، وعثرنا على أسماء العديد منهم(1)

---

(1) من المؤكد أن هؤلاء العلماء تعاونوا مع السلطة الحاكمة، إذ يبدو أن أبا زكرياء الأول ثم ابنه المستنصر وخلفائهما في الحكم حاولوا استعمالهم

لتدعيم المذهب الموحدي بين العامة، فنتيجة لإرادة هؤلاء السلاطين كان بين المدرسين الأوائل بالمدارس التونسية بعض الأندلسيين، خاصة المنتمين للمذهب الظاهري الذين أيدوا المذهب الموحدي، وقاوموا المذهب المالكي المنتشر في ربوع إفريقية ويكفي بأن نذكر مثال:

1) الحافظ أحمد بن سيد الناس اليعمري، وقد درس بالمدرسة التوفيقية، المولود سنة (597هـ/1200م المتوفي في 659هـ/1261م) راجع ابن خلدون: العبر، ج 6، ص. 683؛ والزركشي: تاريخ الدولتين، ص. 38؛ الغبريني: عنوان الدراية، صص. 246–250؛ ومخلوف شجرة النور الزكية، ص. 194 عدد 657. وكذلك: Encyclopédie de l'Islam; T.2, pp. 3, 890–892.

2) أبو العباس أحمد بن محمد القرشي الغرناطي، وهو أول مدرس بالمدرسة المعرضية، وتصفه المصادر بالمحدث والحافظ والمؤرخ... قدم إلى تونس حوالي سنة 680هـ/1281م، ألف كتاب المشرق في علماء المغرب والمشرق... وتوفي في 692هـ/1293م، راجع الغبريني، ص. 301؛ الزركشي، ص. 51؛ مخلوف، ص. 199 عدد 692 وكذلك: Brunschvig, Les Médersas, pp. 274–275.

الذين درسوا بمدارس مدينة تونس وبالجامع الأعظم وفي العديد من الأماكن الأخرى(1) . ويمكن هنا أن نسرد أسماء العشرات، أو قل المئات من أسماء هؤلاء الذين أتت بهم المصادر، لكن أهمهم على الإطلاق، من الذين أثروا في الحياة الفكرية والثقافية: المؤرخ العلامة عبد الرحمن بن خلدون، أحد أحفاد المهاجرين الأوائل(2)

---

(1) انظر محمد الباجي بن مامي، مداري مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني، تونس، 1981، الجزءان الأول والثاني.

(2) كما نذكر أيضا: القاضي أبا العباس أحمد بن محمد الغماز الأنصاري الخزرجي البلنسي المتوفى سنة 693هـ/1293م، وكذلك: نور الدين أبو الحسن علي بن موسى بن محمد ابن عبد الملك بن سعيد الغرناطي (610هـ/1213م – 685هـ/1286م) وابن حبيش المرسي، كما يمكن ذكر بعض أفراد عائلة ابن خلدون. كما ورد أيضا على الحاضرة العديد من العلماء الآخرين خلال هذه الفترة، من بينهم ابن الآبار والنحوي ابن العصفور وابن أبي عميرة...

.

كما نرى من خلال ما يفيدنا به عبد الباسط بن خليل أهمية هؤلاء العلماء الأندلسيين المستقرين بتونس، وقد بهره محمد الخير المالقي بعلمه وأدبه (الذي ورد على تونس سنة 846هـ/1459م)وكذلك نفس الشيء بالنسبة للشاعر الأندلسي ابن رزين الخزرجي الأنصاري (1) وغيرهم كثير(2)

---

(1) انظر: Brunschvig, « Deux Récit », p. 73.

(2) وقد وردت أسماء العديد منهم في كتاب ابن خلدون العبر ومؤلف الزركشي تاريخ الدولتين وتصنيف ابن الشماع: الأدلة. ويمكن الاعتماد أيضا على الرحلات وخاصة رحلة ابن رشيد الفهري: السنن الأبين الذي ذكر فيها أسماء الكثير من العلماء الأندلسيين الذين تعرف عليهم المؤلف عند مروره بمدينة تونس، وأخذ عن البعض منهم، ومن خلال هذه الرحلة نستفيد أن عدد هؤلاء يفوق بكثير عدد الأفارقة آنذاك

.

وقد تخرج عليهم عدد هام من العلماء الأفارقة الذين بثوا بدورهم أسس الثقافة والعديد من المصنفات الأندلسية بالبلاد التونسية، ولو حاولنا الإطلاع على المصنفات التي كانت تدرس بأماكن التعليم بمدينة تونس خلال الفترة الحفصية وما بعدها، للاحظنا أن العديد منها، مؤلفات أندلسية، وأنها لم تكن تدرس قبل وفود الأندلسيين، والتي أدخلها معهم بعض هؤلاء المهاجرين.

ومما يجب التأكيد عليه أيضا، طريقة التدريس التي أدخلها معهم العلماء الأندلسيون، والتي أكد عليها ابن خلدون في مقدمته.

(541/1)

كما نجد خلال الفترة العثمانية بعض أسماء علماء أندلسيين أو من أبناء أندلسيين، وهو دليل على قدوم نخبة من المثقفين خلال هجرة 1017هـ/1018م – 1609م(1) ومثلما اهتم الحفصيون ثم العثمانيون

بتشييد المدارس لبث العلم. قام العنصر المهاجر الآخر – أي الأندلسيون – بنفس العمل. فلقد أنجزت منشآت ثقافية لتمكين الأندلسيين القاطنين

(1) ويمكن أن نذكر مثلا: أحمد الشريف الأندلسي، وإبراهيم المرقصطي وساسي نوينة الأندلسي ومحمد الحجيج الأندلسي – أول من جلس للتدريس بالمدرسة الأندلسية – ومحمد الأندلسي بالوزير السراج وغيرهم.

(542/1)

خارج مدينة تونس من الالتحاق بمدرسة مخصصة لهم. أما الساكنون من بينهم في مدينة تونس فقد كان بإمكانهم الالتحاق بجامع الزيتونة، لذلك أسست المدرسة الأندلسية وخصصت لأبناء إخوانهم المهاجرين الذين لا يستطيعون الحصول على مسكن. وكان ذلك سنة 1034هـ/1625م(1)

(1) تسمى المدرسة الأندلسية أيضا بمدرسة العجمي وتعرف أيضا بمدرسة الفتح، أسسها الشريف أبو الحسن على النوى شهر ابن السراج وموقعها بنهج الركام. أما أول مدرس بها فهو الشيخ شعبان الأندلسي (انظر محمد

الباجي بن مامي: مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد التركي، تونس، 1981 ص. 363)

(543/1)

ويبدو أن يوسف داي شجعهم على بناء هذه المدرسة، ولم يكتف هؤلاء المهاجرون بتشييد هذه المدرسة، فمن بين مآثرهم الأخرى بناؤهم في أوائل القرن 11هـ/17م جامع سبحان الله(1) وربما نتج اختيار الأندلسيين على مكان المدرسة والجامع لقربه من موقع سكناهم، فقد استقر العديد منهم بباب قرطاجنة، وكذلك بنهج ترنجة الذي لا يبعد إلا مسافة صغيرة جدا عن موقعي المدرسة والجامع. لكن حكام البلاد – وخاصة السلاطين الأوائل – لم يكتفوا باستعمال الأندلسيين في ميدان الدراسة، بل استعملوا البعض

---

(1) انظر السراج، الحلل، ج2، قسم 1، ص.157.

(544/1)

منهم – كما لاحظنا بعد – للحد من التأثير الموحدي. ولذلك اهتم الكثير من الأندلسيين القادمين في

الفترات الأولى بالسياسة، وبلغوا مناصب سياسية عالية، لكن إثر محاولة الكثير منهم التدخل في شؤون الدولة، ونتيجة لتعودهم التناحر على المناصب، فقد كان مآل البعض منهم القتل(1) .

---

(1) كابن الآبار وابن عصفور وابن العباس بن أحمد بن أبي بكر بن سيد الناس اليعمري وكذلك أبي عبد الله بن أبي الحسن، وابن أبي سعيد العود الرطب وسعيد بن أبي الحسين... إلخ.

(545/1)

وقد أفادنا ابن خلدون بأسماء الكثير ممن قتلوا من بين العلماء ووجهاء الأندلسيين إثر السعايات والوشايات اليومية التي كان يعرفها البلاط الحفصي(1) .

كان تأثير الأندلسيين إذن هاما جدا، ونتيجة لمحاولتهم الاستيلاء على المناصب السياسية التي كان مستحوذا عليها العنصر الموحدي فقد حاول أن يوقع بهم البعض من هؤلاء، فثاروا على المستنصر الحفصي سنة 648هـ/1250م لكن هزموا، وأدى هذا بالطبع إلى تقوية صف الأندلسيين.

---

(1) ابن خلدون، العبر، ج6، ص. 655.

(546/1)

ومما نلاحظه أيضا وجود بعض الأطباء من بين الأندلسيين المهاجرين إلى تونس، وقد لعبوا دورا هاما في تكوين نخبة من الأطباء بالبلاد، إذ أن أغلبهم الذين باشروا مهنتهم بتونس خلال الفترة الحفصية من أصيلي الأندلس أو صقلية. وتوصلنا من خلال المعلومات والأسماء التي وردت في المصادر إلى أن هذا العلم يتوارث أبا عن جد، وقد عثرنا على بعض شواهد القبور (أو مشاهد) تحتوي على أسماء أطباء أندلسيين عاشوا بتونس من بينهم "الحكيم أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ الحكيم أبي الظفر غالب بن الحكيم عبد الله بن محمد غالب الفي المالقي

(547/1)

المتوفي سنة 654هـ/1256م" وكذلك "الطبيب الماهر أبو زيد عبد الرحمان بن الشيخ الطبيب الماهر أبو عثمان سعيد الأنصاري الأندلسي، توفي سنة

872هـ/1467م"(1) .

كما تفيدنا بعض المصادر أنه ورد على تونس بعض الأطباء الأندلسيين الآخرين: فهذا أبو يعقوب يوسف بن محمد بن اندراس (المتوفى سنة 729هـ/1329م(2) قد درس الطب بمنزله، واخذ العلم عن أبيه، أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الأموي المعروف بابن

---

(1) توجد هذه الشواهد بمتحف سيدي قاسم الجليزي، أين تم عرضها خلال سنة 1994.

(2) راجع ابن فرحون، الديباج المذهب، ص. 360.

(548/1)

اندراس المتوفى سنة (674هـ/1275م)(1) وهو أصيل مرسية. فأكثر الأطباء الذين باشروا مهنتهم بتونس هم إذن أصيلو الأندلس(2)

---

(1) راجع الغبريني، عنوان الدراية، ص.101؛ والسراج، الحلل السندسية، ج 1، ص. 589؛ والزركلي، الأعلام، ص. 218.

(2) من بين هؤلاء محمد بن أبي العباس بن عيشون، وهو

نفسه ابن الطبيب، وأحمد الخولاني، وأحمد بن محمد الأنصاري (راجع ابن حجر، الدرر الكامنة، ج1، ص. 219، عدد 562 وص.306، عدد 780) وطبيب آخر من قرطبة مشهور باسم العشاب (نفس المصدر، ج4، ص. 160 عدد 420) وحكيم آخر من قرمونة عالج الخليفة أبا العباس أحمد، اسمه أبو الحجاج يوسف الأندلسي (ابن قنفد، الفارسية، ص.178).

(549/1)

وقد كونوا بدورهم العديد من الأطباء الأفارقة، الذين وردت أسماؤهم عرضا في المصنفات(1) .

التأثيرات الفنية والمعمارية

لم يقتصر إذن قدوم الأندلسيين على المثقفين والعلماء، بل وصلها أيضا – كما لاحظنا بعد – الكثير من المهندسين والعمال المختصين، فابن سعيد يفيدنا أن أبا زكرياء الأول مؤسس الدولة الحفصية بنى معالم دينية وقصورا هامة(2)

---

(1) خاصة القاضي ابن عبد السلام، والشيخ ابن عرفة والقاضي محمد الزنديوي، والطيب الفقيه المدرس عمر القلشاني، وابن عقاب وابن عبد الله محمد الدهان...

(2) أسس خاصة الجامع الموحدي بالقصبة الذي بدأ في بنائه سنة 629هـ/1231م وانتهى سنة 633/1235م، ثم بنى أولى مدارس المغرب الإسلامي: المدرسة الشماعية وذلك حوالي سنة 639هـ/1241م وجامع ومدرسة الهواء اللتين أسستهما زوجته الأميرة عطف قبل سنة 659هـ/1261م.

(550/1)

وأنه اهتم بالحدائق، وزرع أشجار العنب على طريقة الأندلسيين، وأن كل المهندسين هم من أصيلي الأندلس، وكذلك نفس الشيء بالنسبة لأصحاب الصنائع من بنائين ونجارين ودهانين، والمشرفين على البساتين والحدائق إلخ... ويعلمنا نفس المؤلف أن المعالم التي بنيت آنذاك قد قام بتخطيطها أندلسيون، أو نقلوا تخطيطها على معالم أخرى توجد في بلادهم. وتواصل الاعتماد على المهندسين والعملة المختصين القادمين من الأندلس، فنحن نعلم مثلا أن المهندس ابن غالب الذي أشرف على بناء جامع يوسف داي ومدرسته سنة 1021هـ/1612م هو أندلسي

(551/1)

الأصل وقد قام بأعمال ترميم هامة بجامع الزيتونة(1) . كما يذكر المنتصر بن أبي لحية المرابطي، أن العمال المختصين في البناء الذين بنوا زاوية سيدي حذيفة بأمر الوالي الصالح أبي الغيث القشاش كانوا من الأندلسيين(2) . ونتيجة لتواجد هذه اليد المختصة، وهؤلاء المهندسين الذين أتوا معهم بطرقهم في البناء، وبنوعية فنونهم، ظهرت تأثيرات أندلسية من الناحية

(1) تثبت نقيشة بصحن الجنائز (الرواق الشرقي) من الجامع الأعظم نسبة هذا المهندس إلى الأندلس.

(2) المرابطي، نور الأرماش، مخطوط بدار الكتب الوطنية رقم 16408 ورقة 85أ.

(552/1)

الفنية والمعمارية خاصة – تواصل بها العمل منذ القرن السابع الهجري/ الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي إلى يومنا هذا، إذ وجد تمازج بين الفنين المعماريين: الإفريقي والأندلسي. وتمثل التأثير الأندلسي في عدة عناصر فنية، خصوصا منها النقوش الجصية التي أخذت

أبعادا كبيرة انطلاقا من فترة بناء الجامع الموحدي بالقصبة (633هـ/1235م)، وتواصلت زخرفة جل المعالم بهذه النقوش الجصية والمتمثلة خاصة في الأشكال الهندسية والنباتية، كما أن من بين الصناعات الأخرى الهامة التي أدخلها الأندلسيون صناعة الزليج – وهو ما يطلق

(553/1)

عليه في المشرق القشاني –(1) .

كما أثر الأندلسيون أيضا في العمل على الخشب – مثل السقوف والأبواب إلخ... وبلغ التأثير أهمية لا يستهان بها، حتى أنه أثناء القرن الثاني عاشر للهجرة الموافق للقرن الثامن عشر ميلادي والقرن

---

(1) نذكر في هذا المجال مثال قاسم الجليزي الذي توفي سنة 902هـ/1496م. ومن المعروف أنه قدم إلى مدينة تونس من فاس بعد مروره بالأندلس، وقد اختص في صنع القاشاني. وبالنسبة لزاويته المتأثرة بالفن والهندسة المعمارية الأندلسية (انظر: عبد العزيز الدولاتلي، تونس في العهد الحفصي، ص. 206 – 213.

(554/1)

الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي، عند ظهور التأثير التركي والإيطالي، لم يستغن الفنانون والصناع التونسيون عن العناصر الفنية الأندلسية التي تعودوا على استغلالها منذ عدة قرون. وهنا من واجبنا التأكيد على أنه لا يمكن أن نتصور أهمية التأثيرات التي تمثلها مدينة تونس في الطابع الخارجي والداخلي لأحيائها القديمة، إذا استثنينا منها مختلف الإضافات الزخرفية التي أحدثها الفنانون الأندلسيون.

(555/1)

وقد ظهرت بصمات هؤلاء الفنانين بصفة جلية، خاصة على بنايات المدينة – من معالم دينية أو مدنية – في تلك الحقبة، أي من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، إلى القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، وحتى بعد ذلك(1) .

ونتيجة للسمعة الكبيرة التي كان يتمتع بها القادمون الجدد في الميدان الثقافي والفني والمعماري،

فإن نجاحهم تحقق من دون شك بسرعة في أوساط تونس العاصمة، أسوة بالسلاطين الحفصيين ثم

---

(1) من ذلك جامع القصبة – وزاوية سيدي قاسم الجليزي ودار عثمان والمدرسة الأندلسية وغيرها من المعالم...

(556/1)

الدايات المراديين(1) فالبايات الحسينيين(2) الذين لجؤوا إلى خدماتهم لزخرفة قصورهم أو معالمهم الدينية التي أنشؤوها، سواء كان ذلك داخل المدينة أو خارجها(3)

---

(1) المنسوبين إلى مراد باي الأول الذي تولى منصب الباشا سنة 1041هـ/1631م وتواصل حكم هذه العائلة حتى سنة 1112هـ/1700م.

(2) باني أسس الدولة الحسينية هو حسين بن علي تركي، تولى منصب الباي سنة 1117هـ/1704م، أصله من جزيرة كريت، وتواصل حكم العائلة حتى تاريخ استقلال البلاد سنة 1957.

(3) نتبين في قصر البايات بالقصبة، والذي ما زال قائم الذات إلى حد الآن (وهو قصر الحكومة الحالي) العديد من

العناصر ذات التأثير الأندلسي، (خاصة منها الصحن وبعض أقسام الممرات والغرف. وقبل ذلك نتبين هذه التأثيرات في قصر عثمان داي الذي شيد حوالي سنة 1608م.

(557/1)

. ومحاكاة هذا المنوال، فرض نفسه بطبيعة الحال على أهل البلاط والطبقات العليا من أهل المدينة، مثلما كان الشأن بعد ذلك بالولوع بالأسلوب الزخرفي التركي، كما نلاحظه خاصة بجامع محمد

باي المرادي (1) وتربة البايات (2) ... إلخ، وكذلك التزويق الإيطالي

---

(1) وهو الجامع المعروف باسم سيدي محرز والمتأثر بالمعمار التركي (خاصة بجامع السليمانية وجامع الأحمدية وغيرهما). بدأ بناؤه سنة 1104هـ/1692م وتم خلال سنة 1109هـ/1697م بعد وفاة المؤسس.

(2) أسسها علي باي الثاني ابن حسين علي وذلك خلال النصف الثاني للقرن 12هـ/18م.

(558/1)

الذي نتبينه في العديد من القصور التي أسست خلال النصف الثاني للقرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، وبعد ذلك (في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي)(1) . أو حتى ببعض المعالم الدينية كجامع صاحب الطابع.

ومن المؤكد أن غض الطرف عن الدور الذي اضطلع به في الماضي، الحرفيون والفنانون الأندلسيون والمتعاملون معهم، يغير بطريقة جذرية طابع مختلف أنهج وأزقة المدينة، الذي حوفظ على قسم

---

(1) خاصة بقصور دار حسين ودار الأصرم ودار بن عبد الله وغيرها كثير المشيدة خلال أواخر القرن 18م وبداية القرن 19م.

(559/1)

كبير منه إلى الآن – ويكفي أن نذكر هنا بنهج الأندلس الذي بقي محافظا على طابعه منذ القرن

11هـ/17م. وحتى في صورة المحافظة – في أساس المساكن – على المداخل الكلاسيكية بإطارها الحجري ذي الأسكفة المستوية الموروث عن المنازل الإفريقية الرومانية العتيقة، وكذلك حواجزها المشبكة المتواضعة، المصنوعة من الخشب أو الحديد، والواقعة في أعلى قسم من البنايات، فإنه تبرز مع ذلك صرامة كبيرة وراء هذا التبسيط الخارجي(1)

---

(1) وهو ما نلاحظه خاصة في الدور الموجودة بأنهج عديدة من المدينة العتيقة، كنهج تربة الباي ونهج سيدي ابن عروس ونهج الباشا إلخ... هامش 1 باجي.

(560/1)

.

وبالفعل، فإن إحدى المفاتن الرئيسية للمدينة التي تجلب النظر، هي طرافة وأناقة وثراء أبوابها ذات المصراعين، والمكسوة بطريقة محكمة بالمسامير من طرف حرفيين أندلسيين، وإذا كانت لا تبرز على أبواب المباني الدينية (كالمساجد والمدارس والزوايا والترب...) والمساكن العادية، إلا مسامير كبيرة الحجم، صفت أفقيا وعموديا، فإن الوضع يختلف بالنسبة

للأبواب الخارجية للقصور والمنازل الهامة التي تحمل تقاسيم مستقيمة، مكونة من تشابك خطوط من المسامير الكبيرة، مزدانة بنماذج هندسية وأخرى مستوحاة من الزهور أنجزت بواسطة

(561/1)

مسامير أقل حجما، وتمثل بصفة عامة، الأشكال التالية: قوسا مركزيا، وصفا أفقيا من الأقواس الصغيرة التي تذكر بشكل المحاريب ودوائر ونجوم، وشجرة السرو وكذلك زخارف زهرية في الزوايا، وأشكال مثلثة، وأخرى ذات شكل صليبي(1) ...

ومما يلاحظ أنه يبرز على مر القرون تطور في العناصر المستعملة، لعل إعادة استعمال أقدمها ببساطتها البدائية لا يستجيب إلى

---

(1) أتى الموريسكيون بهذا الشكل معهم، وكانوا يعتبرونه شكلا زخرفيا لا غير، وقد قلده الفنانون المسلمون واستعملوه في تزيين العديد من الأبواب حتى داخل بعض المباني الدينية.

(562/1)

الاهتمام بالجانب الزخرفي، بل يدل على وفاء السكان لبعض هذه الأشكال التي وردت مع القادمين الأوائل.
وبعد ذلك أصبحت التركيبات الجديدة الأكثر تحررا والأشمل تبحث أكثر على الزخرف والتزويق وبعضها يغطي كامل الأبواب الكبيرة المعقودة في واجهات القصور، ومقرات إقامة الوجهاء، وقد أصبحت الموضة المنتشرة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.
ويبدو أن الدهن المتكرر للأبواب، ساهم عبر العصور في إبراز التسمير، ومن المؤكد أن الألوان الأكثر استعمالا على الخشب الحامل للنماذج المسمارية، هي خاصة الأصفر والأخضر الداكن

(563/1)

وأخيرا الأحمر، عوض اليوم اللون الأزرق، هذه الألوان خاصة بعد أن أصبح هذا اللون الأزرق مستعملا في بلدة سيدي بوسعيد انطلاقا من بداية هذا القرن، وتأثر سكان مدينة تونس به.
وانتشرت أيضا النوافذ المرتفعة (التي أصبحت أكثر انتشارا في العهد الحسيني) فصنع الحرفيون نوافذ

أنيقة بارزة تمكن النسوة من الإطلاع عما يحصل بالخارج – من دون أن يشاهدها المار – وهي نوافذ مستقيمة أو دائرية، وكانت مدعمة في أول الأمر بمشربية من الخشب المدهون – والذي ندعوه بتونس قنارية – وحمل تجميل النوعين من الشبابيك بزخارف حلزونية بديعة

(564/1)

الشكل ذات طابع أندلسي.

وإلى اليوم، نلاحظ مدى تعلق متساكني مدينة تونس بهذه العناصر المختلفة الأندلسية الأصل، ومن المؤكد أن استعمال الأبواب المسمرة والشبابيك ذات الحديد المطروق تبدو متماشية مع مهمة الحماية والزينة في المنازل الجديدة المقامة بالخصوص في بلدة سيدي بوسعيد وبضواحي المنزه وقرطاج والمرسى إلخ...

ونعلم أنه بعد المدخل الرئيسي الذي يفتح على الشارع، يمكن الممر المنعرج (الدريبة أو السقيفة) بمفرده من بلوغ وسط المسكن، كان ذلك في مختلف أحياء المدينة أو في ربضيها الشمالي والجنوبي، وهو ما يسمح من

(565/1)

تفادي إطلاع المارة على ما يوجد داخل الدار، وكذلك يمنع وصول الضجيج إلى الداخل. ويعتبر السكان كل من الدريبة أو السقيفة وسيلة للحماية ومكانا للاستقبال. وفي حين لا يحمي المنزل المتواضع (بدون طابق علوي) إلا البابان المتواجهان في مدخله (باب يفتح على الشارع وباب يفتح علىالصحن) فإنه لا يمكن بلوغ داخل القصر أو المنزل الضخم بدون العبور بممر طويل ملتو (أو مكسور)(1) مقسم إلى عدة سقائف عن طريق أبواب ضخمة.

(1) بصفة عامة نجد هذا الممر الطويل المنكسر في كل القصور التي يبلغ عددها حاليا بمدينة تونس حوالي المائة.

(566/1)

أما الأبواب ذات المصراعين، فهي مسمرة ومطلية بالدهن مثل باب المدخل، ولا يختلف عنها إلا آخر الأبواب (باب القمجة).

ويمكن للسقيفة الأولى (أو الدريبة) أو السقائف

الموالية أن تحول بشكل يجعلها صالحة لاستقبال الزوار مثل المزارعين والحرفيين أو التجار (وذلك حسب اختصاص صاحب الدار) لأن الحديث حول الأعمال يبقى بعيدا عن الشارع، وعن الحياة العائلية أيضا.
والاعتناء بزخارف هذه المداخل يعطي غالبا فكرة صحيحة عن ترف البيوت للذين لا يرونها، ويقتصرون على زيارة مداخلها. وهي تتركب من مقاعد حجرية أو رخامية (دكانة)

(567/1)

مسندة إلى الجدران الجانبية التي ترتكز عليها في بعض الأحيان عميدات مجمعة بواسطة عقود. وليس هناك من شك، أن الأمر كان سيقتصر على هذا الإطار الصارم والبسيط الذي لا يثريه إلا الاستعمال التقليدي للحجر المنحوت، لولا تدخل المهاجرين الأندلسيين. وبالفعل، فإن الزخرفة الجديدة المتعددة الألوان التي أدخلوها في الدريبة والسقيفة، تضيف الكثير من البهجة على الطابع العام، مقترنة بنجاح، مع العناصر العادية من الحجر المنحوت والجدران المطلية بالجير. وهكذا بدأت تظهر كسوات الخزف التي تبرز في أعلاها النقوش الجصية

الدقيقة والتي نجدها في العقود والجبهات والأفاريز(1) .
أما السقف والعوارض الخشبية البارزة فهي تظهر نماذج هندسية مزهرة ذات اللون الذهبي على قاعدة حمراء أو خضراء، وهذه النماذج كانت تزين بها سقوف من نفس الأسلوب داخل قصور غرناطة ومنازل الأندلس بصفة عامة من ناحية، وبقصور ومباني المغرب الأقصى من ناحية أخرى.

---

(1) يمكن ذكر العديد من القصور والدور الضخمة التي تمتاز بهذا النمط، نذكر من بينها خاصة دار الحداد ودار بن عبد الله، ودار المرابط، ودار رمضان داي، ودار عثمان، ودار حسين وغيرها كثير.

وهكذا، فإنه منذ المدخل، يعطي النمط الزخرفي المتبع في هذه الأماكن فكرة واضحة عن الأسلوب الذي يسيطر على مجمل المبنى.
وقد بقي الصحن الداخلي، لمدة زمنية طويلة، أمينا للنمط

الخاص الذي تميز به تحت حكم السلاطين الحفصيين، ولم يطرأ عليه ظاهريا أي تحوير قبل اعتلاء البايات الحسينيين الحكم، وحتى في حالة غياب الرواق أو الطابق العلوي، فإن انتظام الجدران الفاتحة اللون، والمرتفعة في أغلب الأحيان تتخللها – من حسن الحظ – مشكاة مرتفعة مسطحة الأرضية، وهي متداولة مع الأبواب المحورية للغرف ذات الأسكفة المستقيمة –

(570/1)

وهي قل أن تكون معقودة(1) تعلوها شمسية (أو قمرية). وأضيفت إليها في فترة متأخرة نوافذ منخفضة(2) ويبقى الحجر المنحوت (أو الكذان) هنا أيضا، المادة المفضلة لصنع العقود المعمية المتآلفة مع أطر الأبواب. أما الوحدة الهندسية للصحن، فإنها تتم باستعمال أرضية من البلاط المربع أو المستطيل الشكل المصنوع من الرخام أو الكذان(3)

---

(1) مثلما نجد مثلا بدار عثمان.

(2) نجدها في العديد من القصور كدار حسين ودار بن عبد الله ودار الرصاع وبعض المعالم الدينية والمدارس.

(3) نجد هذا النمط في كل القصور الضخمة التي ذكرنا

البعض منها، خاصة الدور الأول التي وصلتنا كدار الحداد ودار بوزيان ودار الحدري ثم تواصل العمل بنفس النمط في المنازل التي أسست خلال القرنين 18 و19م.

(571/1)

.

وباستثناء الخزف الملون الذي يمكن أن يعلو غلق العقد أو اللوحات الحائطية، فإن تطبيق الفن الأندلسي المورسكي يظهر من خلال صنع النوافذ المتوأمة في الطابق العلوي(1) وعن طريق الزخرف المكون لجبهات العقود وكذلك النقوش الجصية.

وقد لاقت الغرف المطلة على الصحن من جهتها، عناية خاصة من طرف الفنانين الأندلسيين، وهذا الأمر ينطبق على المساكن الهامة المستوحاة في أغلبها من البذخ الموجود في قصور السلاطين كالدايات والبايات. لذا فإننا لا نستغرب من وجود هذا

---

(1) نجد هذا النمط من النوافذ: بدار بوزيان ودار الرصاع...

(572/1)

التقليد حتى داخل المساكن الأقل اتساعا التي هي على ملك تاجر ثري أو عالم ديني أو مثقف... والذين يعملون على الأقل على توفير بيت جميل يستقبلون فيه ضيوفا بارزين. وفي هذا الصدد نذكر الغرف التي يكون لها شكل حرف T اللاتينية (أي "بالقبو والمقاصر"، الأول المركزي، والاثنان الآخران جانبيان) وبعد أن كانت مربعات الخزف والفسيفساء المتعددة الألوان مستعملة في الأرضيات، أصبح الزليج يكسو جدران "القبو" الذي يعتبر مكان الاجتماع والاستقبال (أي الصالون الحالي)، ويقع دائما في مواجهة الباب المؤدي إلى الصحن.

(573/1)

وفي مستوى أعلى، فإنه حصل إثراء هذا الزليج بإفريز منحوت بنقوش جصية متكونة عادة من آيات قرآنية أو عبارات دعائية ك"العزة لله"... أو "الملك لله" أو "العافية الباقية"... تعلوها هي الأخرى نقوش جصية متكونة من عقود بسيطة، تكون مثرية بزهور، تختلط معها رسوم هندسية، خاصة منها أطباق النجوم المتشابكة.

وبالإضافة إلى هذا الإطار الداخلي نجد في أعلى قسم، السقف من الخشب المطلي بماء الذهب، والمدهون طبقا للنمط السالف الذكر بالنسبة لمداخل القصور والمساكن الضخمة.

(574/1)

وما يمكن تأكيده، أنه رغم وصول عدة تأثيرات، التي سيطرت على القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد، فإننا نلاحظ تعلقا خاصا بالتأثيرات الأندلسية سواء كان ذلك على المستوى الرسمي – البايات الحسينيين – أو على مستوى سكان المدينة بصفة عامة. لذلك سنشاهد في العديد من القصور إدخال عناصر تعودنا على وجودها بصفة عامة. في القرن السابع عشر للميلاد، خاصة بقصر الباي بالقصبة الذي أضيف في عهد حمودة باشا الحسيني أو بقصر البايات بباردو، من خلال العديد من الإضافات التي أجريت في عهد محمود باي، ثم الصادق باي، وذلك قبل

(575/1)

دخول الحماية الفرنسية سنة 1881.

بالطبع ذكرنا بإيجاز بعض عناصر التواجد الأندلسي المورسكي بمدينة تونس، إلا أن هذا التواجد، تمثل في عدة نقاط أخرى مثل بعض الصناعات والفلاحة، والمأكولات والعادات والتقاليد التي أدخلوها معهم.

ومن الممكن جدا أن تعلق السكان بما ورد من الأندلس كان ناتجا عن اختلاف الحضور الأندلسي عن غيره، وخاصة عن الحضور الموحدي ثم العثماني الذي كان متصلا باستيلاء الأتراك العثمانيين على البلاد، فأول القادمين كانوا من الجنود، وكان الغرض من وراء إحياء العلم، هو محاولة العثمانيين التأثير

(576/1)

في البلاد من الناحية المذهبية ونشر المذهب الحنفي.

لكن يمكن أن نختم بالتأكيد على أنه رغم أهمية التأثير الأندلسي، فإن الفنان التونسي حافظ على الطابع المحلي، مما أدى إلى إعطاء المزيج من الفن الأندلسي والفن المحلي صبغة "شخصية" لفن البلاد، فقد

استطاعت تونس هضم التأثيرات الأندلسية(1)

---

(1) فهو إذن تلقيح للتأثيرات الأندلسية بما ورثته إفريقية عن العهود القديمة: انظر:

– G. Marçais, « Manuel d'art musulman » T. II, p. 844et « L'architecture musulmane », p. 101.

– Brunschvig, « Les Hafsides » T.II, p. 414.

(1/577)

وأعطتها صبغة محلية فأثرت بها الطراز المعماري للبلاد العربية.

المصادر والمراجع المستعملة في هذا البحث

ا – المصادر المخطوطة:

1) **الترجمان (أبو عبد الله)، تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، ... مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس رقم** 12034.

2) **السراج (أبو عبد الله محمد)، الحلل السندسية في الأخبار ... التونسية، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس رقم** 10699.

3) **السنوسي (أبو عبد الله محمد)، مسامرات الظريف**

بحسن ... التعريف، تاريخ فقهاء الدولة الحسينية بتونس، مخطوط بالمكتبة ... الوطنية بتونس رقم 18674.

(578/1)

---

4) المرابط ابن أ[ي لحية (المنتصر)، نور الأرماش في مناقب سيدي ... أبي الغيث القشاش، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس رقم 16408.

II – المصادر المطبوعة:

1) ابن أبي دينار (أبو عبد الله)، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ... تحقيق وتعليق محمد هشام، تونس، 1967.

2) ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس ... وعهد الأمان، تونس، 1963–1966.

3) ابن حجر العسقلاني (أحمد)، الدرر الكامنة في أعيان المائة ... الثامنة، حيدر آباد 1348هـ

(579/1)

---

4) ابن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ... أيام العرب والعجم والبربر، بيروت، 1959 – المقدمة والجزء ... السادس.

5) ابن رشد الفهري، السنن الأبين، تحقيق وتقديم محمد الحبيب بن ... الخوجة، تونس، 1977.

6) ابن الشماع (أحمد)، الأدلة البينة النورانية عن مفاخر الدولة ... الحفصية، تحقيق عثمان الكعاك، تونس، 1936.

7) ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، القاهرة، 1329هـ

8) ابن قنفد، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد ... التركي، تونس،

(580/1)

1968

9) خليفة (حاجي)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، إسطنبول، 1941–1943.

10) خوجة (حسين)، ذيل بشائر الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم الطاهر ... المعموري، تونس، 1975.

12) **السراج (أبو عبد الله محمد)، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد ... الحبيب الهيلة، تونس،** 1970–1973.

13) **العبدري الحيحي (أبو عبد الله محمد)، رحلة العبدري، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، ...** 1968.

14) **الغبريني (أحمد)، عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، ... تحقيق رابح بونار، الجزائر،**

(581/1)

1970.

15) **القلصادي (أبو الحسن علي)، رحلة القلصادي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، ... تونس،** 1978.

16) **المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، القاهرة،** 1939.

المراجع العربية

1) **ابن مامي (محمد الباجي). – مدارس مدينة تونس من العهد ... الحفصي إلى العهد الحسيني، تونس،** 1981.

2) **التازي (عبد الهادي). – جامع القرويين، دار الكتاب**

اللبناني، ... بيروت، 1972–1973.

3) **الزركلي (خير الدين). – الأعلام، قاموس تراجم، دمشق،** 1954– ... 1959.

4) **الطالبي (محمد). – الهجرة الأندلسية، مجلة الأصالة، عدد** 26، ... **تونس،** 1975.

(582/1)

---

5) **كحالة (عمر رضا). – معجم المؤلفين،** 1975–1961.

6) **مخلوف (محمد). – شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، المطبعة ... السلفية ومكتبتها،** 1349هـ

7) **بحوث عن الأندلسيين في تونس، جمعها سليمان مصطفى زبيس، ... تونس** 1983.

المراجع الأجنبية

...

...

... **(1** Brunschvig (R): « Deux récits de voyages inédits en Afrique du Nord au ... Xvéme siécle, Abdelbasit B. Halil et Adorne », Paris, 1936.

... **(2** Brunschvig (R): « La Berbérie Orientale

sous les Hafsides, des origine à la fin ... du
,Xvème », Paris

(583/1)

.1947–1940

Brunschvig (R) «Quelques remarques (3 ...
historiques sur les Medersas de Tunisie », ...
.1931, 6Revue Tunisienne N°

Broockelmann (K.), « Geschichter der (4 ...
- ... 1937Arabischen Litterature », Leiden,
.1949

Fleury, « L'industrie Tunisienne des Sasiyas (5 ...
», Revue du Commerce et de ... l'Industrie,
.1895Paris,

Ferchiou, S., « Technique et Société; La (6 ...
fabrication de la chachia en ... Tunisie », Paris,
.1973

(584/1)

Daoulaltli (Abdelaziz), « Inscription à la (7 ...
mosquée andalouse d'al Alia », in Etudes ... sur

.les origines andalouses en Tunisie

Golvin (L.), « Essai sur l'architecture (8 ...

.1970religieuse musulmane », Paris,

Marçais (G.), « l'architecture musulmane (9 ...

.1952d'Occident », Paris,

Marçais (G.), « Manuel d'art musulman », (10 ...

.1927Paris,

Revault (J.), « Palais et demeures de (11 ...

et 1967Tunisie », T.I (XVIe-XVIIe s.), Paris, ...

.1971T.II (XVIIe-XIXe s.), Paris,

(585/1)

Terrasse (M.), « Le rôle du Maghreb dans (12 ...

l'évolution de l'art hispano- ... mauresque »,

.1, fasc. 1957Al-Andalous, XVIII,

(586/1)

أوضاع المسلمين تحت الإدارة الصليبية من خلال رحلة ابن جبير (النصوص .التوظيف .الواقع التاريخ)

... الأستاذ عبد المجيد بهيني

... ... كلية الآداب .بني ملال

... يجد الباحث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لبلاد الشام في فترة الحروب الصليبية صعوبة كبيرة تتمثل في قلة المصادر وندرة المعلومات حول أوضاع المجتمع بصفة عامة، وأحوال المسلمين الخاضعين للنفوذ الإفرنجي بصفة خاصة. وتعتبر "رسالة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك" لابن جبير(1)

---

(1) ... هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، الشاطبي البلنسي. ولد في بلنسة سنة 539 هـ وكانت وفاته بالإسكندرية، حيث أقام هنالك محدثاً، في سنة 614 هـ

(587/1)

واحداً من أهم المصادر التي ألقت الضوء على بعض الصور عن علاقات المسلمين بالإفرنجية تحت الحكم الصليبي في الربع الأخير من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. هذا الكتاب هو أشبه بمذكرات يومية سجل فيها ابن جبير ملاحظاته ومشاهداته أثناء رحلته التي

بدأها في شوال سنة 578 هـ، وانتهى منها بعودته إلى الأندلس في 22 من المحرم سنة 581 هـ وهذه الملاحظات تعد مادة ثمينة تعين الباحث على تلمس الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الشرق الأدنى بصفة عامة، وأحوال المسلمين بمناطق نفوذ الصليبيين ببلاد الشام بصفة

(588/1)

خاصة. وقد ترجم الكتاب إلى لغات عديدة، واعتمده العديد من الباحثين. إلا أن توظيفهم لبعض نصوص الرحلة كثيراً ما كانت تتحكم فيه أغراض إيديولوجية وسياسية تستجيب لرغباتهم كل حسب اتجاهه ومرماه. وسنحاول الوقوف على ذلك في هذا العرض الذي نهدف منه أيضاً إلى توضيح بعض ما جاء في الرحلة من نصوص حول أوضاع المسلمين تحت حكم الإفرنجة، مع التركيز على الأحوال النفسية.

... فما مضامين نصوص ابن جبير؟ وكيف صور هذه العلاقات؟ وكيف وظفها الباحثون؟ وإلى أي حد انسجم هذا التوظيف مع الواقع التاريخي؟

(589/1)

---

1 .مضامين نصوص ابن جبير (الصورة)

... ليس القصد من هذا العنصر رصد وتتبع كل ما جاء في كتاب الرحلة من معلومات حول أحوال المجتمع الإسلامي بالمناطق المشرقية التي زارها وسجّل انطباعاته حولها، بقدر ما يتعلق الأمر بالوقوف عند بعض النصوص التي تحدث فيها عن أشياء لفتت انتباهه ونالت إعجابه وارتبطت على الخصوص بالوضع القانوني وبحالة الترفيه .كما يقول ابن جبير .التي كان عليها المسلمون الذين أرغمتهم ظروف عديدة على العيش تحت نير الحكم الصليبي. وأكاد أجزم بأن شهرة هذا الكتاب وسعة انتشاره منذ منتصف القرن

(590/1)

الماضي تعود بالأساس إلى هذه النصوص:

... .النص الأول: يقول ابن جبير في فقرة اختار لها العنوان الآتي: "الحرب واتفاق النصارى والمسلمين".

... ومن أعجب ما يحدث به أن نيرات الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان ويقع

المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم. شاهدنا في هذا الوقت، الذي هو شهر جمادى الأولى، من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك(1)

---

(1) ... يقع هذا الحصن جنوبي فلسطين، بينه وبين القدس مسيرة يوم، وكان هذا الحصن من نصيب الأمير الصليبي Renaud de Chatillon المعروف في المصادر العربية باسم "أرناط" (انظر أبو شامة، الروضتين في اخبار الدولتين، دار الجيل، بيروت، دن تاريخ، ج 2، ص. 75).

(591/1)

، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر، وبينه وبين القدس مسيرة يوم أو اشف قليلاً(...)(1).

... واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع. واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض (...). هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة

الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا ولا التجار؛ فالأمن لا

---

(1) ... ابن جبير، الرحلة، طبعة دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1981، ص. 234.

(592/1)

يفارقهم في جميع الأحوال سلماً أو حرباً. وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوي الحديث عنه(1).

... .النص الثاني: ويظهر أنه يكمل ما جاء في النص السابق، لأن ابن جبير يتحدث فيه عن الموضوع نفسه الذي هو خروج صلاح الدين الأيوبي لمنازلة صاحب حصن الكرم المتقدم الذكر. يقول النص: »ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين«. وبعد استعراضه لأطوار هذه المواجهة التي أسفرت عن انتصار المسلمين، استطرد قائلاً: »وخرجنا نحن

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 235.

(593/1)

من دمشق وأوائل المسلمين قد طرقوا بالغنائم كل بما احتواه وحصلت يده عليه. وكان مبلغ السبي آلافاً لم نتحقق إحصاءها (...) وخرجنا نحو إلى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين، وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة «!(1).

... ـ النص الثالث: يصف ابن جبير، في طريقه من دمشق إلى عكة، القرى والضياع ما بين تبنين (جنوب لبنان)، هي للصليبيين، وعكة قائلاً:

... ورحلنا من تبنين ـ دمرها الله ـ سحر يوم الاثنين، وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة، سكانها كلها مسلمون، وهم مع

(1) ... المصدر نفسه، صص. 245 ـ 246.

الإفرنج على حالة ترفيه، نعوذ بالله من الفتنة. وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير

ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً. ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رساتيقهم كلها للمسلمين، وهي القرى والضياع، وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل الرساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق. وهذه من الفجائع الطائرة على

(595/1)

المسلمين: أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج، ويأنس بعدله. فإلى الله المشتكى من هذه الحال، وحسبنا تعزية وتسلية ما جاء في الكتاب العزيز: {إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء}(1) (2).

... ولا غرابة في القول بأنه ما من دراسة اعتمدت على هذا الكتاب، خاصة الدراسات التي اهتمت بالعلاقات الإسلامية الإفرنجية، وبالأحوال الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الشام تحت النفوذ الصليبي، إلا

---

(1) ... سورة الأعراف، الآية 155.

(2) ... الرحلةن صص. 247 ـ 248.

(596/1)

واستشهدت إن لم نقل بكل النصوص السالفة الذكر، فعلى الأقل ببعض الفقرات منها. فكيف جاء إذن توظيف هذه النصوص؟

2 ـ نصوص ابن جبير في أعمال الباحثين

... نظراً للقيمة الوثائقية النفيسة لكتاب الرحلة، فقد استرعى اهتمام المؤرخين والباحثين منذ وقت مبكر (منتصف القرن التاسع عشر) (1). ولم يقتصر الأمر على طبعه وترجمة

---

(1) ... حيث تمت ترجمة القسم المختص منه بصقلية إلى الفرنسية وطبع في عام 1846 م، ثم طبع لأول مرة في ليدن عام 1852 م، بإضافة مقدمة غليه وضعها المستشرق رايت. ثم أعيد طبعه عام 1907 م مع ترجمة لمؤلفه.

(597/1)

فصول هامة منه إلى لغات أخرى، بل اعتُمد عليه في كثير من الدراسات نذكر من بينها دراسة لزكي النقاش(1) ركز في قسم كبير منها على النصوص المذكورة، ولا سيما عند كلامه عن المجتمع في المملكة اللاتينية وملحقاتها. وفي هذا الإطار نجده يكتفي بإعادة إيراد ما جاء عند ابن جبير من وصف لأحوال الفلاحين المسلمين بتبنين دون الوقوف عند النص، وتعميق النظر فيه، واعتبار الظروف

(1) ... زكي القاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني، 1365 هـ/ 1946 م.

(598/1)

والأسباب التي تفسر موقف الإدارة الصليبية هذا من فلاحي هذه المنطقة في تلك الفترة بالذات(1)، أي دون اعتبار الزمان والمكان، مما طبع تحليله بنوع من التعميم(2)

(1) ... يقول معلقاً على النص: »وكذلك كان أولئك

الفلاحون من المسلمين على حالة من "الترفيه" مع الإفرنج، مما يدل على مبلغ ما توصل إليه القوم مع الزمن من "اعتدال في السياسة"« (المرجع السابق، ص. 171).

(2) ... يقول: »... بل سمعنا البعض ممن زاروا البلاد في ذلك العهد (زمن الحروب الصليبية)، كابن جبير، مثلاً، الرحالة الأندلسي المسلم يحمد ما كان فيه سكان البلاد، عامة وأبناء ملته خاصة، من دَعة وأمن ورخاء في ظل الإدارة الجديدة« (المرجع السابق، ص. 140).

(599/1)

.

... ويرى السيد عبد العزيز سالم، متحدثاً عن القيمة الوثائقية لكتاب االرحلة، أن أروع ما ذكره ابن جبير هو تصويره للتعايش السلمي بين الصليبيين والوطنيين في مملكة بيت المقدس الصليبية، على الرغم من حالة الحرب القائمة بين المسلمين والإفرنجية(1). ويذهب حسان حلاق المذهب نفسه بخصوص النص المتعلق بتبنين، فيرى فيه تجسيداً للعلاقات الطبية المشتركة بين المسلمين والإفرنجة(2)

---

(1) ... التاريخ والمؤرخون العرب، دار النهضة العربية،

بيروت، 1981، صص. 221 ـ 222.

(2) ... حسان حلاق، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1409 هـ/ 1989 م، ص. 396.

(600/1)

، وأن العلاقات التجارية ظلت قائمة بصورة ناجحة بالرغم من العداء بين المسلمين والصليبيين حيث كانت القوافل تتنقَّل بين أراضي الطرفين في سهولة(1).

... أما نقولا زيادة، فبعد أن استشهد بأحد نصوص ابن جبير المتقدمة الذكر، خلص إلى أن «الحرب أو الحروف بعد أيام القتال العنيف الأول لم تكن تمنع الاتصال وتبادل التجارة»(2). وتبقى الدراسة الوحيدة

---

(1) ... المرجع السابق، صص. 411 ـ 412.

(2) ... نقولا زيادة، "تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر السلجوقي"، مجلة الاجتهاد، العددان 34 و35، شتاء وربيع 1997 م، ص. 51.

(601/1)

التي تفادت التعميم واعتبرت الزمان والمكان أثناء تحليلها، في نظرنا، هي تلك التي يقول فيها صاحبها: »ومن المؤكد أن أحول الفلاحين المسلمين تحت الحكم الصليبي كانت متردية بشكل عام، مع بعض الاستثناءات النادرة. من ذلك ما يذكره ابن جبير عن فلاحي تبنين، وعن أفضلية وضعهم بالمقارنة مع فلاحي المناطق الإسلامية المجاورة «(1).

---

(1) ... حاتم الطحاوي، "الصليبيون في بلاد الشام: صفحات من النشاط الاقتصادي"، مجلة الاجتهاد، العدد 33، خريف 1417 هـ/ 1996 و، ص. 123.

(602/1)

... أما الباحثون الغربيون الذين أرخوا للحروب الصليبية، فإن دراساتهم لم تستغن عن نصوص ابن جبير السابقة الذكر. فقد تميز تحليل إرنست باركر للنص المتعلق بأحوال الفلاحين المسلمين بتبنين بشيء من التعميم يوحي للقارئ أن ما ينطبق على فلاحي هذه المنطقة يهم جميع فلاحي مناطق نفوذ الفرنجة المسلمين. إذ يقول:

... على أنه ليس في استطاعتنا أن نتأكد إلى أي مدى

أنـزل أمراء الفرنـج الظلم والاستبـداد بـالمقطعين السوريين. وما ورد عن هذا الضرب من الظلم لم يلق شيئاً من التأييد. وإذا صح ما أورده الرحالة المسلم ابـن جبـير،

(603/1)

من دليل، فإن أولئك المسلمين الذين عاشوا بـضياع الفرنـج، لأحسن حظاً من الذين عاشوا في كنـف الأمراء الوطنـيين(1).

... وقد ذهب بـعضهم بـعيداً في تأويل هذا النـص إلى درجة جعلتهم يرون أن الفرنـجة تنـازلوا للفلاحين المحليين بـشكل أسهل عن ملكية الأرض. فهو تأويل، وإن بـولغ فيه، فإنـه لا يخرج عن نـطاق الآراء السابـقة. ونـفهم منـه كذلك أن مسألة التنـازل عن الأرض لصالح الفلاحين المسلمين همت كل

---

(1) ... أرنـست بـاركر، الحروب الصليبـية، نـقله إلى العربـية السيد البـاز العرينـي، دار النـهضة العربـية، بـيروت، الطبـعة الثانـية، ص. 71.

(604/1)

مناطق نفوذ الصليبيين، وليس تلك التي تشكل الإطار المكاني للنص فقط(1).

... على أن من الباحثين الذين تعاملوا مع نصوص ابن جبير بنوع من التبصر والتريث في التفسير كلود كاهن (Cahen) الذي أثار الانتباه إلى ضرورة مراجعة التفسير الشائع للفقرة الشهيرة التي يصف فيها الرحالة المسلم ابن جبير وضع الفلاحين المسلمين في الشرق اللاتيني، وذلك بمقارنتها بنصوص أخرى

(1) ... فيليب فارج ويوسف كرباج، المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة 1/ 1994، ص. 80.

للرحالة نفسه، مع تفسيره وتحليله في سياقه(1).

... نلاحظ إذن، مع بعض الاستثناءات النادرة، أن توظيف نصوص ابن جبير يطبعه التعميم بحيث أن أغلب الباحثين، السابق ذكرهم، لم يكلفوا أنفسهم مشقة

تعميق تحليل ما جاء فيها من معلومات، وذلك بوضعها في سياقها واحترام إطارها الزماني والمكاني، والبحث عن الأسباب الحقيقية المفسرة لتلك المعاملة مع الفلاحين المسلمين، بل وجدناهم يكتفون بإيراد ما جاء

---

(1) ... كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، 1995، ص. 216.

(606/1)

في الرحلة من نصوص. فكيف ينبغي قراءتها؟

3 ـ النصوص والواقع التاريخي؟

... سبقت الإشارة إلى أن ابن جبير يعتبر من رحال العصر الوسيط البارزين الذين صوروا أوضاع مسلمي الإمارات الصليبية ببلاد الشام. فهل يصح تعميم ما ذكره عن مناطق معينة في فترة محددة على مناطق أخرى في الفترة نفسها؟ بل هل يصح تعميم ما ذكره عن المنطقة نفسها في فترات أخرى خارجة عن إطار الرحلة الزماني؟

... أعتقد أن على أي باحث في مجال التاريخ عند

الاستشهاد بنص ما اعتبار المكان والزمان والالتزام بهما، فضلاً عن اعتبار السياق الذي كتب فيه

(607/1)

النص. وهي إجراءات معروفة في مناهج البحث التاريخي. لكن القناعات السياسية والإيديولوجية أحياناً تطغى على النظرة الموضوعية للأمور، وتعمل على توجيه البحث وجهة مخالفة لروح النصوص والتعامل معها وفق أهداف ومرامي محددة ومرسومة مسبقاً، دون اعتبار السياق والزمان والمكان. وفي فترة كتلك التي تغطيها أحداث الرحلة، خاصة ما تعلق منها ببلاد الشام التي شهدت حروباً مستمرة فيما بين المسلمين والصليبيين، كان من اللازم أيضاً أخذ موازين القوى بين الطرفين بعين الاعتبار، لأن اختلاف موازين القوى يؤثر بشكل كبير في المواقف

(608/1)

السياسية الداخلية والخارجية؛ ويبقى كل تعميم، خاصة في هذه الفترة التي عرفت فيها هذه المنطقة تطورات

سريعة ومتقلبة للأوضاع، خارجاً عن جادة الصواب وضرباً من العبث الممنهج الواعي. ثم إن الاعتماد على مصدر ذي نظرة أحادية ومغربي الأصل ويتحدث عن أحداث ويصور واقعاً مشرقياً يبقى غير كاف لإعطاء صورة حقيقية واضحة عن أحوال المسلمين في ظل السيطرة الإفرنجية، الأمر الذي يفسح المجال للتحليلات والتفسيرات المختلفة. ومن ثم وجب الاستناد إلى مصادر ذات أصول ومشارب متنوعة. وقبل هذا وذاك، كان ينبغي مقارنة ما جاء في نصوص

(609/1)

ابن جبير الآنفة الذكر بنصوص أخرى للمؤلف نفسه، لأنها تؤكد عدم إمكان تعميم معلومات وملاحظات تخص منطقة معينة على جهات ونواح أخرى في الفترة نفسها، فما بالك بفترات أخرى. ونتبين ذلك في نص عقد فيه مقارنة بين وضع المسلمين في صور وبين وضعهم في عكة قائلاً: »وأحوال المسلمين بها (صور) أهون وأسكن، وعكة أكبر وأطغى وأكفر«(1). ويظهر أن سبب هذا الاختلاف في الأوضاع يرجع إلى الشروط الخاصة التي لزم قبولها حتى تستسلم المدينة، والتي كانت لها إيجابيات خاصة.

---

(1) ... الرحلة، ص. 250.

(610/1)

... ركزت نصوص ابن جبير المذكورة على النقط التالية:

.حرية تنقل القوافل والتجار المسلمين بين دار الإسلام ودار الحرب دون اعتراض عليهم.

.تزامن خروج قوافل قوافل المسلمين إلى دار الحرب ودخول سبي الصليبيين إلى دار الإسلام.

.حالة الترفيه ورضى المسلمين بالعيش تحت الإدارة الإفرنجية (التعايش السلمي).

أ .حرية تنقل بين دار الإسلام ودار الحرب

... ذكر ابن جبير أن القوافل كانت تنتقل بين الأراضي الإسلامية والأراضي الخاضعة لنفوذ الإفرنجة في سهولة دون أن تعترضها صعوبات تذكر، وأن الأمن لم يفارق التجار والسفار

(611/1)

في رحلاتهم. فإذا كان الأمر كذلك، فإنه لا ينطبق إلا على المدة التي زار فيها المنطقة المعنية. إذ أن المصادر حافلة بالعديد من الحالات التي يستنتج منها عكس ذلك، منذ بدء الهجمة الصليبية على بلاد الشام (نهاية القرن 5 هـ/ 11 م) إلى الربع الأخير من القرن 6 هـ/ 12 م. من ذلك ما ذكره الذهبي صاحب كتاب "دول الإسلام" بخصوص استيلاء الفرنجة على قافلة كانت متوجهة من دمشق إلى مصر سنة 502 هـ/ 1108 ـ 1109 م (1)

---

(1) ... Med b. Ahmad al-Dahabi, Kitab Duwwal-l-Islam: les dynasties de l'Islam des années 447/1055–6 à 656/ 1258, Traduction annotée, introduction. lexique et index par Arlette Nègre, Damas, IFD, 1979, p. 75.

(612/1)

. وكذلك ما ذكره ابن القلانسي عن هجوم بودوان (Baudouin) صاحب القدس في حدود سنة 1113 م عند وادي عزيب (موضع قريب من بيت القدس) على قافلة انطلقت من بصرى بالأردن باتجاه مصر، وأخذه لخمسين ألف دينار، وأسر العديد من المسلمين (1).

... وكثيراً ما كان الفرنجة إبان القرن السادس الهجري ينكثون عهدهم وينقضون المعاهدات واتفاقيات الهدنة التي عقدت بينهم وبين المسلمين، مستغلين في ذلك ميزان القوة الذي كان

---

(1) ... **نص لابن القلانسي في:** J. Prawer, Histoire du Royaume matin de Jérusalem, Paris, 1969, T. I, p.291.

(1/613)

لصاحلهم، خاصة في أغلب فترات النصف الأول من القرن المذكور، أي إلى حدود ما اصطلح عليه بـ»الحرب الصليبية الثانية«. فكان ذلك أولاً في سنة 527 هـ عندما استضعف الفرنجة شمس الملوك صاحب دمشق (توفي 529 هـ) وطمعوا فيه حيث عزموا على نقض الهدنة التي بينهم، »فتعرضوا ـ يقول ابن الأثير ـ إلى أموال جماعة من تجار دمشق بمدينة بيروت وأخذوها، فشكا التجار إلى شمس الملوك، فراسل في إعادة ما أخذوه وكرر القول فيه. فلم يردوا شيئاً«(1)

---

(1) ... **ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق محمد**

يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1407 هـ/ 1987 م، الجزء التاسع، ص. 268.

(614/1)

. فكان ذلك سبب استيلائه على بانياس في السنة المذكورة. أما الحالة الثانية، فقد شهدتها أنطاكية سنة 532 هـ، حينما نقض الفرنجة الهدنة التي كانت فيما بينهم وبين عماد الدين زنكي (توفي 541 هـ) على حلب. فقبضوا في أنطاكية على خمسمائة رجل من تجار المسلمين وأهل حلب والسفار (1).

---

(1) ... ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، دمشق، 1954، الجزء II، ص. 264؛ محمد كرد علي، خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، 1403 هـ/ 1983 م، ج II، ص. 11.

(615/1)

مما يدل على أن الحروب بين الطرفين كانت تؤثر ـ لا محالة ـ في سلوك الفرنجة وتصرفاتهم إزاء مسلمي دار

الحرب الخاضعين لنفوذهم، ولا سيما حين كان ميزان القوة لصالحهم.

... ويخبرنا ابن أبي طي عن حصن بيت الأحزان الذي »كان على المسلمين منه ضرر عظيم (...) وكان هذا الحصن للداوية (1) وكانوا يقوون من فيه بالأموال والنفقات لقطع الطرقات على قوافل المسلمين«(2).

---

(1) ... هي منظمة دينية عسكرية أخذت على عاتقها حماية الحجاج المسيحيين والدفاع عنهم وعن الأرض المقدسة.

(2) ... نص لابن أبي طي في : الروضتين، ج II، ص. 8.

(616/1)

وأملاً في اتقاء خطره، ونظراً للأضرار البالغة التي لحقت التجار والقوافل والسفار المسلمين منه، فقد بذل صلاح الدين الأيوبي للفرنجة مائة ألف دينار مقابل هدمه. فلم يجيبوه إلى ما طلب(1). وكذلك شأن حصن الكرك الذي يقول عنه أبو شامة، متحدثاً عن وقائع سنة 580 هـ، ما يلي:

... ولما بلغ الفرنج ذلك (تجهز الجيوش الإسلامية بقيادة

صلاح الدين) خرجوا براجلهم وفارسهم إلى الذب عن الكرك وكان على المسلمين فيه ضرر عظيم، فإنه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع

(1) ... الروضتين، ج II، ص. 8.

(617/1)

العساكر الجمة. فاهتم السلطان بأمره لتكون الطريق سابلة ويسر الله ذلك وله الحمد والمنة(1).

... والملاحظ أن الأحداث التي يتناولها النص تزامنت مع وجود ابن جبير بالشام. وعليه، فإذا كان هذا الأخير يرى أن اختلاف القوافل بين مصر ودمشق لم يكن منقطعاً، وأن الأمن لا يفارق القوافل، فإننا نجد في نص أبي شامة عكس ذلك حيث يتعلق الأمر بالأمير الصليبي أرناط (Renaud de Chatillon) الذي قطع الطريق بين مصر ودمشق، ونهب قوافل المسلمين، واعترض سبيل الحجاج إلى مكة والمدينة، الأمر الذي

(1) ... المصدر نفسه، ص. 55.

(618/1)

أثار مغيظة صلاح الدين الأيوبي(1).

... لم يقتصر الأمر على التصدي للقوافل والحجاج، بل تعداه إلى حد منع تنقل الأفراد. من ذلك ما أورده ابن طولون عن هجرة الشيخ أحمد بن

---

(1) ... ابن العديم، المصدر السابق، ج III، ص. 34 و92.

حول شخصية أرناط وسياسة النهب والسلب التي اشتهر بها، هناك دراسة هي قيد الطبع شاركت بها في الندوة الدولية التي نظمتها اللجنة المغربية للتاريخ البحري بسلا أيام 30 و31 ماي و 1 و2 يونيو 1997 في موضوع: الجهاد البحري في التاريخ الإسلامي، عنوانها: "المغاربة والجهاد البحري ضد الصليبيين".

(619/1)

قدامة الحنبلي (مؤسس الصالحية بدمشق) وأهله من قرية جماعيل إلى دمشق في سنة 551 هـ، وذلك في ظروف طبعت بالكتمان والسرية التامة، خوفاً على أنفسهم من الكفار. يقول النص: »فاتفق أن أهل القرية علموا،

فأرادوا منعهم (من الهجرة). فلما لم يقدروا على منعهم، أعلموا بهم الكفار حتى يمنعوهم. فمضى عسكر نابلس فقعدوا لهم على الشُّرَيْعَة حتى يأخذوهم فأعماهم الله عنهم وكفاهم شرهم «(1). ويقول عن ظروف هذه الهجرة

(1) ... ابن طولون، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، 1368 هـ/ 1949 م، ص. 28.

(620/1)

والأخطار التي أحدقت بها ما يلي: »وبه إلى الحافظ ضياء الدين قال سمعت والدي قال رجعت إلى والدي حتى أجيء به فقال يا بني كم تتردد! فإني أخاف عليك من الكفار. فقلت ما كنت لأتركك، فجئت به إلى دمشق «(1).

... يتضح مما سبق أن نص ابن جبير يهم منطقة محددة هي تلك التي يتحدث عنها، في زمن محدد هو الذي صور فيه ما رأى إن كان تدوينه لما شاهد تدويناً آنياً(2)

(1) ... المصدر نفسه، ص. 31.

(2) ... هناك من يعتقد أن ابن جبير كتب أخبار الرحلة فيما يقرب من سنة 583 هـ، بعد أن شاع خبر فتح بيت

المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي. (السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص. 221).

(621/1)

؛ وأنه من غير الصحيح تعميم هذه الملاحظات على مناطق أخرى حتى في الفترة نفسها. كما لا يصح ذلك على المنطقة نفسها المتحدث عنها في فترات أخرى، حيث أوضحت النصوص أحياناً عدم انسجام معلومات الرحلة مع الواقع التاريخي.

ب ـ تزامن خروج قوافل المسلمين إلى دارالحرب ودخول سبي الصليبيين إلى دار الإسلام

... مما أثار استغراب ابن جبير وإعجابه أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الفرنجة، وسبيهم يدخل بلاد المسلمين بالرغم من الحرب التي كانت قائمة بين الطرفين. وتتضمن الرحلة حالة واحدة هي حالة هجوم صلاح الدين على حصن

(622/1)

الكرك ونهب الأراضي المجاورة له سنة 580 هـ (جمادى الآخرة)، ومداهمة مدينة نابلس حيث استولى عليها وسبى كل من فيها، وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها. هذا، في وقت كانت قافلة دمشق خارجة في اتجاه عكة وكان ضمنها ابن جبير. يقول في هذا الإطار: »وخرجنا نحن من دمشق وأوائل المسلمين قد طرقوا بالغنائم كل بما احتواه وحصلت يده عليه« (انظر أعلاه). فيظهر من الوهلة الأولى أن النص يقدم صورة متناقضة ومفارقة واضحة في علاقات المسلمين بالصليبيين يمكن بلورتها في التساؤل الآتي: كيف ينبغي تفسير ذلك التعارض

(623/1)

المتضمن في النص؟ أعتقد أن ما أشار إليه صاحب الرحلة لا ينبغي أن يكون مدعاة لإثارة الاستغراب إذا ما وضع وفسر في سياقه. ذلك بأن الأعراف السياسية والدبلوماسية حينئذ تريد أن الاتفاقية أو المعاهدة أو الهدنة المعقودة بين أمير مسلم وآخر إفرنجي لا يسري مفعولها إلا على اراض محدودة من مناطق نفوذ المتعاهدين، وليس على كل الأراضي التابعة لهما، فما بالك بالأراضي الإسلامية أو الإفرنجية التابعة لغيرهما.

ولكي نتبين ذلك بشكل ملموس، نورد التصريح الآتي الذي يقول فيه بغدوين (Baudouin)، صاحب بيت المقدس، الصليبي

(624/1)

متحدثاً عن اتفاقية هدنة عقدها مع إيلغازي بن أرتق صاحب ماردين وحلب في سنة 516 هـ: «مذ حَلَفنا له (إيلغازي) وحلف لنا ما نكثنا، وحفظنا بلده في غيبته ونحن شيوخ، وما أظنه يغدر، بل ربما قصد طرابلس أو قصدني في القدس، لأنني ما صالحته إلا على أنطاكية وأعمالها»(1). وهو تصريح على قدر كبير من الأهمية يساعد على فك لغز تلك المفارقة التي ينطوي عليها النص، ويحول إعجاب ابن جبير إلى مجرد إجراء عادي، بل يكشف عن مكونات الوعي الثقافي عنده. فقافلة ابن جبير خرجت من

---

(1) ... ابن العديم، المصدر السابق، ج II، ص. 204.

(625/1)

دمشق متوجهة نحو عكة، أي باتجاه الغرب؛ وهي مناطق تابعة لصاحب بيت المقدس، وكانت بينه وبين صلاح الدين هدنة؛ في حين أن المنطقة التي نازلها هذا الأخير وسبى أهلها تقع إلى الجنوب من دمشق، وهي تحت نفوذ صاحب حصن الكرك المذكور.

ج ـ حالة الترفيه ورضى المسلمين بالعيش تحت الإدارة الفرنجية (التعايش السلمي)

... تحدث ابن جبير في فقرته الشهيرة المتعلقة بتبنين عن حالة الترفيه التي كان عليها المسلمون مع الصليبيين. وتبنى ذلك مجموعة من الباحثين العرب والأجانب الذين زادوا على ما جاء في كتاب "الرحلة" بأن عمموا ذلك

(626/1)

زمانياً ومكانياً، في إطار توظيف ذي أبعاد سياسية وإيديولوجية، حيث كثيراً ما جرى الاستشهاد بها خارج سياقها في غمرة الغبطة التي صاحبت العصر الاستعماري على نحو يظهر حتى للمسلمين محاسن إدارة فرنسا الاستعمارية دون تدقيق في الأمر (1)؛ فعلق

_____

(1) ... ترجمت ونشرت فصول من كتاب الرحلة، ومن بينها النص المذكور المتعلق بتبنين، في نهاية القرن الماضي في مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية المشارقة (Recueil des Historiens Orientaux des Croisades).والملاحظ أن هذه الترجمة صادفت الحقبة الاستعمارية، أو بالأحرى تزامنت معها.

(627/1)

بعضهم على ذلك قائلاً: »فمن الشرق الصليبي إلى إفريقيا الشمالية الفرنسية سوف تكون إدارة قادمة من الخارج محل ثناء أكثر من مرة، حتى من جانب السكان الأصليين«(1)، ملمحاً بذلك إلى الفقرة التي يقول فيها ابن جبير: »... وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من اهل الرساتيق المسلمين وعمالهم، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق« (النص أعلاه).

---

(1) ... فيليب فارج ويوسف كرباج، المرجع السابق، ص. 81.

(628/1)

... ويبقى السؤال هو معرفة العوامل التي يمكن أن تساعد على فهم سياسة الإدارة الصليبية تجاه فلاحي الأراضي الواقعة بين تبنين وعكة وشرحها؛ وكذا معرفة مدى صحة تعميم ذلك على باقي المناطق الواقعة تحت النفوذ الإفرنجي.

... (فنحن نعلم من خلال النصوص، أن هذه المنطقة تضررت أكثر من غيرها بحركة الهجرة التي حدثت قبيل الهجمة الصليبية على بلاد الشام وإبانها. بل لقد استمرت هذه الهجرات ـ كما رأينا ـ إلى حدود الربع الأخير من القرن السادس الهجري. وقد أولى الأمراء الأفرنجة عناية كبيرة لمحاولة إعادة تعمير هذه

(629/1)

المناطق. ونذكر على سبيل المثال بغودين (Baudouin) ملك بيت المقدس الذي كان باله ـ حسب رواية وليام الصوري ـ منشغلاً كل الانشغال «بمشكلة قلة سكان المدينة المقدسة ـ حبيبة الله ـ، قلة تجعلها شبه خالية منهم؛ إذ لم يكن بها العدد الملائم للقيام بما تحتاجه المملكة»(1). وحسب الرواية نفسها، فإن

نواحي المدينة هي التي كانت أكثر من غيرها في مسيس الحاجة إلى من يعمرها ويقوم بالأعمال

---

(1) ... وليام الصوري، الحروب الصليبية (1094 ـ 1184)، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991، الجزء II، ص. 317.

(630/1)

الزراعية لضمان مواد الإعاشة (1). وفي سبيل الغاية نفسها، منح بغدوين (في سنة 1120 م) سكان القدس منحة جليلة القدر حيث رفع عن كاهل الأهالي الضرائب التي كانوا مطالبين بدفعها من قبل دون تمييز فيما بينهم. وقد شملت هذه المنحة الرتين والسُّريان والإغريق والأرمن والمسلمين أيضاً، »فصار لهم الحق في أن يحملوا إلى المدينة المقدسة القمح والشعير«(2). وكانت هناك محاولة قام بها عموري (Amaury 1162) ـ 1173) لجلب الفلاحين الأرمن؛ غير أن هذه المحاولة باءت

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 319.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 360.

(631/1)

بالفشل، لأن الأمير الأرميني لقيلقية طوروس الثاني (1145 ـ 1168 م) قد طلب لمواطنيه امتيازات تفوق امتيازات غيرهم من الفلاحين بالشرق اللاتيني، وهو ما رفضه صاحب بيت المقدس(1).

... فبناءً على المعطيات السابقة، يظهر أن الفلاح أصبح يتمتع بامتيازات مهمة في إطار الإقطاعة الإفرنجية، وهي امتيازات فرضتها الظروف التاريخية المرتبطة بما

(1) ... كلود كاهن، المرجع السابق، ص. 203. انظر كذلك المهندسة هوري عزازيان، الجاليات الأرمينية في البلاد العربية، جار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط 1، 1993، ص. 111.

نتج عن الحروب من هجرات وقلة في السكان، وما ترتب على ذلك من نتائج سلبية على اقتصاد مملكة بيت المقدس التي كان فلاحو المناطق التي تحدث عنها ابن جبير في النص تابعين لها. فلا ينبغي إذن أن يكون وضعهم ذاك مدعاة للإجاب.

... أما ما يتعلق بأفضلية هؤلاء الفلاحين على إخوانهم في دار الإسلام، فأصبحت واضحة كذلك بناء على ما سبق. فنظراً لظروف الحرب، كان على الفلاحين أن يساهموا . فضلاً عما كان عليهم أداؤه لبيت المال .في تجهيز الحملات الجهادية وتمويلها. هذه المساهمة تقع على كاهل مختلف الشرائح الاجتماعية من تجار

(633/1)

وملاك للأراضي وفلاحين... إلى غير ذلك وهي على شكل ضرائب ترد تحت أسماء مختلفة تفرضها الدولة. وهي ليست ثابتة ولا مستقرة ولا محدودة؛ منها ضرائب كانت تفرض تحت تبرير مواجهة الأخطار الخارجية أو الحالات الناجمة عن التهديدات العسكرية... ذكر سبط ابن الجوزي ما يشير إلى ذلك، حيث قررت على أهل الشام »قطيعة في كل سنة، على الغني عشرة دراهم، وعلى الوسط خمسة، وعلى الفقير درهم«(1)

---

(1) ... نص لسبط ابن الجوزي في: محمد سوادي عبد، الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر

الميلادي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1989، الطبعة الأولى، ص. 259.

(634/1)

. وتحدث ابن الأثير عمَّا يسمى بضريبة الجهاد وهي قطيعة كانت تقسط على الناس عندما تنفد الأموال المرسومة لتمويل الحملات الجهادية(1).

... وحتى في المناطق الإسلامية، فإن القسمة المفروضة على الفلاحين كانت تختلف من منطقة إلى أخرى.ويرجع هذا الاختلاف إلى طبيعة الأراضي المستغلة، وإلى طبيعة العلاقة التي تربط الفلاحين بأولياء الأمر. لكن ما يهمنا هو الاختلاف الناتج عن الظروف التاريخية المرتبطة بمواجهة الصليبيين. ونجد مثالاً على ذلك في كتاب "الكامل في التاريخ"

---

(1) ... ابن الأثير، المصدر السابق، ج 9، ص. 96.

(635/1)

الذي يتحدث ابن الأثير فيه عن سياسة عماد الدين زنكي (حكم ما بين 522 و541 هـ) وعن حسن تدبير

شؤون دولته. ومما جاء في هذا النص:

... بلغه أن جماعة من فلاحي مدينة الموصل رحلوا إلى بلاد ماردين. فأرسل إلى حسام الدين (تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق) يطلب منه أن يعيدهم. فرد الجواب التالي: إننا نحن نحسن إلى الفلاحين ونخفف عنهم، ونأخذ منهم القسمة من الغلال العشر. فلو فعلتم انتم مثل فعلنا، لم يفارقوكم. فقال الشهيد (زنكي) لرسوله: قل لصاحبك، إذا أخذت أنت من كل مائة [سهم؟] سهماً واحداً كان كثير لك، لأنك مشغول لذتك

(636/1)

في رأس ماردين. وأما أنا، فإذا أخذت الثلثين، كان قليلاً لما أنا بصدده من قصد الأعداء والجهاد. ولولاي، لطال عليك أن تشرب الماء آمناً في ماردين، ولكان الفرنج ملكوها... (1).

... ففي هذا السياق إذن ينبغي فهم المفاضلة التي تحدث عنها ابن جبير في النص المذكور. وليس معنى ذلك أنه كان مؤيداً لتلك المعاملة، إذ يقول: »وليست له (للمسلم) عند الله معذرة في

(1) ... ابن الأثير، الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ومكتبة المثنى، بغداد، 1382 هـ/ 1963 م، ص. 79.

(637/1)

حلول بلدة من بلاد الكفر إلا مجتازاً، وهو يجد مندوحة في بلاد المسلمين... «(1). فهل يصح إسقاط ما جاء في هذا النص على مناطق أخرى؟

... (تزخر المصادر بنصوص تدعونا للتفكير مليّاً في أحوال المسلمين النفسية في مناطق نفوذ الإدارة الصليبية، وفي الإحساس الذي كان يشعر به هؤلاء إزاء أسيادهم حتى العقدين الأخيرين من القرن السادس الهجري.

... فعلى الرغم من الرأي الذي يرجع سبب ذلك التعايش بين الطرفين إلى العامل القومي، أي فقدان المسلمين أهل الشام للعزة القومية (2)

---

(1) ... ابن جبير، المصدل السابق، ص. 252.

(2) ... يقول زكي النقاش: »كانوا (سكان بلاد الشام)

بمجموعهم قد فقدوا العزة القومية لكثرة ما تغير عليهم من حكام، وأصبح الأمر لديهم سيان أحكمهم هذا أم ذاك، على شرط أن ينعموا بالعدل فيطمئنوا إلى أموالهم وأرواحهم وممارسة دينهم وحقوقهم« (المرجع السابق، ص. 145).

(638/1)

، فإنه رأي بعيد كل البعد عن الواقع التاريخي؛ لأن المسلمين كانوا ـ كما هو واضح من خلال النصوص ـ يتحينون الفرص للقيام ضد الفرنجة. من ذلك ما أورده أسامة بن منقذ بخصوص أهل ضياع عكة المسلمين، الذين كانوا إذا وصل إليهم الأسير المسلم أخفوه وأوصلوه إلى بلاد الإسلام (1). كما يتحدث عن شاب مسلم بنابلس كان يحتال على حجاج الفرنجة، ويتعاون مع أمه على قتلهم (2). ويتضمن مؤلَّفه كذلك نصاً

---

(1) ... أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، تحرير فيليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص. 82.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 139.

(639/1)

طريفاً ومفيداً يساعد المهتم على فهم الوضع النفسي للمسلمين التابعين لمناطق نفوذ الصليبيين. يقول فيه:

... وقد كان في كنيسة حناك (حصن إلى الجنوب الغربي من معرة النعمان) طاقة في ارتفاع أربعين ذراعاً، فكان يأتيها نمر في الهاجرة يثب إليها ينام فيها إلى آخر النهار، ويثب منها ينزل ويمضي.

... ومقطع حناك ذلك الوقت فارس إفرنجي يقال له سيردام (Sir Adam) من شياطين الإفرنج. فأخبروه خبر النمر... فلبس درعه وركب حصانه وأخذ ترسه ورمحه وجاء إلى الكنيسة وهي خراب، إنما فيها حائط قائم فيه تلك الطاقة. فلما رآه

(640/1)

النمر، وثب من الطاقة عليه... فكسر ظهره وقتله ومضى. فكان فلاحو حناك يسمونه النمر المجاهد(1).

... وهي إشارة تجسد وضع هؤلاء الفلاحين النفسي واستياءهم من العيش تحت النفوذ الصليبي. كما تنطوي على معنى عميق يتجلى في أن الاستقرار الصليبي ببلاد الشام إنما هو استقرار مؤقت، وأن هناك أملاً ورغبة ملحة من هؤلاء الفلاحين في أن تعود أرضهم إلى حظيرة دار الإسلام. ويظهر ذلك من خلال الصفة التي خصوا بها النمر المذكور، لأنهم رأوا في هذا الحدث تعويضاً عن الضعف الذي لازم القوى

---

(1) ... المصدر نفسه، صص. 110 ـ 111.

(641/1)

الإسلامية، والذي حال دون القضاء على الوجود الصليبي بالمنطقة. فهو بديل معنوي شفى غليلهم في الأمير الإفرنجي.

... وقد ترجم هذا الوضع النفسي إلى هجرات من دار الحرب إلى دار الإسلام، ارتبطت في أغلبها بالأوضاع المتردية التي كان المسلمون يتخبطون فيها. وقد خلدت المصادر العديد من هذه الهجرات، ليس تلك التي عرفتها بلاد الشام في بداية الغزو الصليبي (الاتصال الأول) فقط،

ولكن تلك التي امتدت على مدى القرن السادس الهجري، أي إلى ما بعد فترة وجود ابن جبير هناك

(642/1)

... فهذا وليام الصوري يتحدث عن انتفاضة 1113 التي قام بها المسلمون بنابلس (وهي تحت النفوذ الصليبي) حال سماعهم باقتراب حملة شرف الدين مودود صاحب الموصل على مملكة بيت المقدس. كما يحدثنا عن الخدمات الجليلة التي أسداها هؤلاء للجيش الإسلامي قائلاً: ... ولقد هجرنا في تلك الأيام خدمنا وكذلك الشرقيون الساكنون في قرانا المسماة بالمستعمرات وانضموا إلى كتائب العدو وأرشدوهم إلى كيفية القضاء علينا، وكان ذلك امراً ميسوراً عليهم لمعرفتهم التامة بكل تفاصيل وضعنا، إذ ليس هناك وباء أشد فتكاً بالمرء وأشنع فعالية

(643/1)

من عدو داخل بيته (1).

وقد أكد ذلك كل من ابن القلانسي (2) وفوشي دي شارتر ()(3Foucher de Chartres).

... وبخصوص أسباب هذه الهجرات وظروفها، انفرد ابن طولون بذكر معلومات قيِّمة لم ترد في المصادر الأخرى، تلقي الضوء على أحوال الفلاحين المسلمين في حدود سنة 551 هـ، أي بعد مرور نصف قرن على الاتصال

---

(1) ... وليام الصوري، المصدر السابق، ج 1، ص. 302.

(2) ... نص لابن القلانسي أورده Prawer **في: المرجع السابق، ج 1، ص.** 293.

(3) ... فوشي دي شارتر (Foucher de Chartres) **في:** Prawer، **المرجع السابق، ج 1، ص.** 293.

(644/1)

الأول، واستقرار الصليبيين بمدن بلاد الشام الساحلية، إذ يقول متحدثاً بني قدامة المقادسة:

... وبه قال الحافظ ضياء الدين: وسمعت غير واحد من أصحابنا (بني قدامة) يقول إن المسلمين صاروا تحت أيدي الفرنج بأرض بيت المقدس ونواحيها يعملون لهم الأرض، وكانوا يؤذونهم ويحسبونهم ويأخذون منهم

شيئاً كالجزية. وكان أكثر الفرنج أهو (1) من ابن بارزان لعنه الله، وكانت تحت يده جماعيل (2)

---

(1) ... كلمة غامضة في النص الأصلي. ويظهر أنها تشير إلى اسم علم، أي اسم الأمير الصليبي الذي يتحدث عنه النص.

(2) ... قرية في جبل نابلس من أرض فلسطين.

(645/1)

قرية أصحابنا ومردا وياسوف وغير ذلك وكان إذا أخذ الكفار من كل رجل ممن تحت يده ديناراً، أخذ هو لعنه الله من كل واحد منهم أربعة دنانير. وكان يقطع أرجلهم ولم يكن في الكفار أعتى منه ولا أكثر تجبراً أخزاه اله. قال: وكان جدي الشيخ أحمد بن محمد رحمة الله عليه... لا يرضى بمقامه تحت أيدي الكفار (1).

وقد رأينا في نص سابق للمؤرخ نفسه كيف طبعت ظروف الهجرة بالكتمان والسرية (انظر أعلاه).

---

(1) ... ابن طولون، المصدر السابق، ص. 26 ـ 27.

(646/1)

... ومما ينهض دليلاً على عدم فقدان المسلمين للعزة القومية تحت الحكم الصليبي ورغبتهم الحثيثة في إجلاء هؤلاء عن أراضيهم نصٌّ للعماد الكاتب الأصفهاني أورده أبو شامة في "الروضتين" مفاده أن معظم أهل ضياع نابلس »كانوا مسلمين، وفي سلك الرعية مع الفرنج منتظمين وهم يحبون كل عام منهم فراراً«(1). وعندما أقدم صلاح الدين الأيوبي في سنة 583 هـ على حصار نابلس، أبلى هؤلاء بلاء حسناً في مهاجمة من كانوا قبل هنيهة أسيادهم، مقدمين بذلك المعونة للجيش الإسلامي (2)

(1) ... أبو شامة، الروضتين، ج II.ص. 88.

(2) ... المصدر نفسه.

(647/1)

. ولا ننسى أيضاً أنه حينما كان ابن جبير ببلاد الشام، قامت انتفاضات شعبية تلقائية ضد السيطرة الإفرنجية في الشمال(1)؛ وأنه بعد ذلك قام قاضي جبلة منصور بن شبل في سنة 584 هـ باستدعاء صلاح الدين ليسلم له

المدينة. يقول ابن الأثير في هذا الصدد: »فحملته الغيرة للدين على قصد السلطان«(2).

---

(1) ... Claude Cahen, « Indigènes et Croisés: queques mots à propos d'un médecin d'Amaury et de Saladin », Syria, XV, 1934, p. 357.

(2) ... **ابن الأثير، المصدر السابق، ج** 10، **ص.** 167؛ **أبو شامة، الروضتين، ج** II، **ص.** 127.

(648/1)

... ولم تكتف المصادر بذكر تذمر جماعات الفلاحين وهجرتهم إلى مناطق نفوذ الحكم الإسلامي هرباً من السيطرة الإفرنجية، بل تحدثت كذلك عن هجرات فردية من مختلف الشرائح الاجتماعية ومن ملل مختلفة. حيث نسجل، بعد أخذ صلاح الدين لحصن الكرك، وصول أحد الأطباء، وهو موفق الدين يعقوب بن صقلب النصراني(1) إلى دمشق حيث بدأ يمارس نشاطه، الأمر الذي يعني أن التذمر من الحكم الإفرنجي لم يلحق المسلمين فحسب، بل انتاب كذلك النصارى المحليين.

---

(1) ... ويظهر ذلك من خلال لباسه الأزرق على عادة الأطباء الفرنجة.

(649/1)

... ويتحدث سبط ابن الجوزي عن شيخ مسلم ولد بنواحي نابلس سنة 1134 م، وغادرها مع ابنه في عهد صلاح الدين إلى البلاد الإسلامية، وعن فقيه من المدينة نفسها ازداد في حدود سنة 1146 م وغادر مسقط رأسه إلى دار الإسلام

حيث ألف من ضمن ما ألف كتاباً في الجهاد(1). والأمثلة في هذا الباب كثيرة.

... ويمكن القول إن أسباب هجرة هؤلاء العلماء تكمن في عدم رضاهم بالعيش في دار الحرب، وفي عجزهم عن إظهار دينهم (حالة الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة) (2)

---

(1) ... Cahen, op. cit., pp. 356–357.

(2) ... «الذي كان يخطب يوم الجمعة ويخرج إليه الناس من القرايا يحضرون الجمعة... فقيل لابن بارزان ـ لعنه الله ـ إن هذا الرجل الفقيه يشغل الفلاحين عن العمل ويجتمعون عنده...، فتحدث في قتله...، فعزم الشيخ على

المضي إلى دمشق، فراح إليها» (وابن طولون، المصدر السابق، ص. 27).

(650/1)

، أو في عدم توافر مراكز علمية تناسبهم في البلاد الخاضعة للصليبيين؛ وإن طبيب ابن أبي أُصيبعة المذكور اضطرته ظروف البحث عن الرزق إلى أن يقدم خدماته الطبية لأي كان دون اعتبار المركز الاجتماعي أو الملة التي ينتمي إليها.

... ومن كل ما سبق نصل إلى النتيجة الآتية، وهي أنه إذا كانت أحوال المسلمين في حالة ترفيه كما يذهب إلى ذلك ابن جبير، ويتبعه في ذلك الباحثون المتقدم ذكرهم، فما الذي يفسر كل هذه الهجرات؟ فسواء كانت الأسباب مادية أو نفسية، فالنتيجة واحدة وهي عدم الرضى بالعيش تحت نير الحكم الصليبي. وابن

(651/1)

جبير نفسه يعبر في موضع آخر عن ذلك بقوله:

... وليست له (للمسلم) عند الله معذرة في حلول بلدة من بلاد الكفر منها إلا مجتازاً، وهو يجد مندوحة في بلاد المسلمين، لمشقات وأهوال يعانيها في بلادهم منها الذلة والمسكنة الذميمة، ومنها سماع ما يفجع الأفئدة من ذكر من قدس الله ذكره، وأعلى خطره، لا سيما من أراذلهم وأسافلهم؛ ومنها عدم الطهارة والتصرف بين الخنازير، وجميع المحرمات؛ فالحذر من دخول بلادهم، والله تعالى المسؤول حسن الإقالة والمغفرة من هذه الخطيئة التي زلت فيها القدم(1).

---

(1) ... الرحلة، ص. 252.

(652/1)

... خلاصة:

... نخلص في ختام هذه الدراسة إلى ما يلي:

... (إن الصورة التي قدمها ابن جبير عن بعض علاقات المسلمين بالإفرنجة تحت النفوذ الصليبي تعكس الخلفية الفكرية والثقافية للمؤلف؛ فهو العالم المحدث، وبالتالي فإن نظرته للأمور تختلف عن نظرة رجل السياسة الذي ما كانت مثل تلك المفارقات التي تضمنتها النصوص لتثير إعجابه واستغرابه. وهذا

الإعجاب ـ على ما يبدو ـ يأتي من أن ابن جبير لم يعهد مثل تلك الصور من العلاقات التي تحدث عنها في موطنه الأصلي (الأندلس)، ولا في المناطق والبلدان التي زارها أثناء رحلته

(1/653)

(حيث كان المسلمون في صقلية مثلاً يكتمون إسلامهم ("الرحلة"، صص. 267 ـ 268). وهذا يمكن أن يوحي للمتمعن بأن أوضاع المسلمين تحت النفوذ الإسباني النصراني كانت متردِّية.

... (إن تلك الخلفية الثقافية التي لم يكن يملك أن يطرحها جانباً حين سفره، والتي كانت تتحكم في انتقاء مواد كتابته واختيارها، هي سبب عدم انسجام بعض معلوماته مع الواقع التاريخي؛ وينبغي ألا ننسى أيضاً أن أقواله ما هي في الغالب إلا انعكاس لمذكرات ونقاشات تدوولت هنا وهناك في مناطق وفترات محددة (ومن أعجب ما يحدث به).

(1/654)

... (إن موقفه من أفضلية وضع فلاحي ضياع تبنين مقارنة بإخوانهم في دار الإسلام لا يعني البتة تأييده لسياسة الفرنجة تجاههم بقدر ما ينبغي أن يفهم انطلاقاً من موقفه السياسي والديني المعادي للهجمة الصليبية والمؤلد لفكرة الجهاد، وهو ما دفعه لتعيير غيره من المسلمين بالضعف والتقاعس («نعوذ بالله من الفتنة»؛ و «وهذه من الفجائع الطارئة على الإسلام» . النصوص).

... (إن «حالة الترفيه» التي تحدث عنها تشكل استثناء، حيث بينت الدراسة عدم إمكان إسقاطها على تبنين نفسها في فترات مغايرة، فما بالك بالمناطق الأخرى،

(655/1)

مما يجعل كل تعميم في هذا الشأن بعيداً كل البعد عن الحقيقة التاريخية.

(656/1)

إشكالية السلطة والمعرفة في الإسلام قراءة نقدية في كتاب "السلطة الثقافية والسلطة السياسية"(1)

... ...

... ... الدكتور عبد المجيد الصغيّر

كلية الآداب ـ الرباط

... ليس من المبالغة التأكيد أن الممارسة الفلسفية المغربية المعاصرة يجمعها همّ نقيّ "أصوليّ" المنزع، يتجلى في محاولاتها المستمرة، منذ أواخر السبعينيات، ممارسة عملية التحليل والمراجعة لما قد يُعتبر أصولاً تكوينية ومبادئ تأسيسية

---

(1) علي أومليل، السلطة الثقافية والسلطة السياسية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيةن ط 1، مايو 1996.

(657/1)

في الفكر الإسلامي والفلسفة الإسلامية. فالنقد الفلسفي المغربي المعاصر بهذا المعنى يطمح إلى أن يكون نقداً تأسيسياً "أصولياً" مغرماً لا بوصف مظاهر التجربة الفكرية الإسلامية العربية فحسب، بل إنه يضع في

المقام الأول ضرورة التنقيب عن "البنيات" التكوينية في تلك التجربة، خاصة في أهم نماذجها وإنتاجاتها الفكرية، فقهاً كانت تلك النماذج أم كلاماً أم فلسفة أم سياسة وأخلاقاً وتاريخاً.

... لقد وعى النقد الفلسفي بالمغرب، خاصة في السنوات العشرين الأخيرة، أن العالم في الإسلام، كما تقدمه لنا كتب التراث، كائن لا

(658/1)

تاريخ له ولا يحيل في الغالب إلى بيئته وأصوله الاجتماعية. وهي مفارقة تبدو غريبة في ضوء عناية المسلمين المعروفة منذ البداية بالرواية وضوابط الإسناد وبتاريخ المناقب والحوليات... إلا أن كل ذلك لم يُفد في الأغلب في إزاحة الغموض عن البدايات الأولى لتشكل المعارف والعلوم في الإسلام... وهو ما استوجب من ثلّة من الباحثين المغاربة المعانقين للنقد الفلسفي ضرورة الانفصال عن بعض الدراسات التراثية التقليدية، واقتحام تجربة الحداثة في سبيل الوقوف على البنيات التكوينية في أهم علوم الإسلام؛ وهي بنيات قد تمكّننا من

(659/1)

إعادة القراءة والتعرف ليس على مشكلة نشأة تلك العلوم فحسب ولكنها قد تفيدنا في الوقوف على السلوكات الفكرية والأخلاقية للمتعاطين لتلك العلوم وللمتصلين بهم...

... ولا أظن أن أعمال المؤلف علي أومليل تخرج عن هذا الهاجس الثابت في النقد الفلسفي المغربي، خاصة في كتابه الأخير الذي أبان فيه أكثر من أي عمل سابق له عن قدرة على سبر أصول فكرية أساسية في تاريخ الإسلام بعد أن وسّع هذه المرة من قاعدتها ونوّع من أجناسها. إلا أنه قد تعمد هذه المرة أن يلج باب إعادة قراءة تلك الأصول ممتطياً مفهومين يبدوان لأول وهلة

(660/1)

أنهما من خصوصيات فكرنا المعاصر ومن إفرازات منطقه الحديث؛ إنهما مفهوم "السلطة" ومفهوم "المثقف"؛ محاولاً بعد هذا "الجواز" المزدوج الصورة أن يمتحن مداه في اختراق جدار التراث الإسلامي وفي تحليل أكثر صوره تجذراً وتنوعاً...

... 1 ـ لاشك في أن المفهوم من مقدمة الكتاب ومن خاتمته أن القصد البعيد من ذلك التحليل ليس هو إعادة قراءة التراث بقدر ما يكمن القصد في تصور الشروط الملائمة لتفحّص تلك الإشكالية في مجتمعاتنا العربية المعاصرة وتذليل الصعاب أمام الممارسة الديمقراطية فيها. غير أن المؤلف لا يجد بداً مع

(661/1)

ذلك من الاعتراف بأن الإسلام بمفاهيمه وخصوصيات تصوراته "مولّد بطبيعته لنظام السلطة" والسياسية (ص. 10) و"يشتمل على أحكام تحكم نظام المجتمع والسياسة" (ص. 51).

... ربما كان هذا الاعتراف هو الذي فرض على المؤلِّف أن يستهل كتابه بأكثر الصور دلالة على خصوصية التجربة الفكرية والسياسة في الإسلام، وهي تلك المتمثلة في النموذجين اللذين طالما حاولا معانقة المشاكل السياسية بصدد ممارستها لنشاطهما الفكري، ألا وهما نموذجا المتكلم والفقيه اللذان يطفح إنتاجهما، خاصة إبان النشأة، وبادعاء امتلاك معرفة تمكنهما في وسط

(662/1)

إسلامي من امتلاك "نفوذ" بين الجمهور، من شأنه أن يمتعهما "بسلطة" معنوية طالما تسربلت برداء ثقافي المظهر، سياسي العمل والطموح...

... لقد فرضت طبيعة الكتاب أن يقتصر المؤلّف على النماذج الدالة على الإشكالية المطروحة دون الخوض في تفاصيلها الجزئية. لذا نراه يتخذ من جماعة "القراء"(1) نموذجاً تاريخياً وفكرياً يلتقي

(1) ... راجع حول دور "القرَّاء" في تاريخ الإسلام الفكري والسياسي، الدراسة المفصلة لرضوان السيد والتي يشير إليها في كتابه الأمة والجماعة والسلطة، بيروت، دار اقرأ، ط 1، 1984، ص. 11 هامش 14.

حوله كل المتكلمين والفقهاء الأصوليين، بما تميز به ذلك النموذج من تأسيس النظر إلى قيمة "النص" بصفته مرجعية عليا وحيدة المعنى ومعياراً وحيداً يقيد الواقع المتغير ويرجعه إليهما. وحيث أن هذا النص يوجد دائماً بصفته نصاً مقروءاً يفترض "قارئاً" له، فإن هذا القارئ

يصبح في ظروف مجتمعية معينة يملك امتياز القراءة والفهم و"الفتوى" التي لا تستهدف شيئاً غير شدّ الواقع إلى ذلك "الأصل" مع قدرة على "فقه" ثوابت مقاصده وأصول أحكامه.

(664/1)

... ذاك هو ما جعل المؤلف يعتبر "الخوارج" من الفرق الكلامية وبمواقفهم المعروفة من الاحتكام إلى النص وممارستهم المستمرة للسياسة، الممهدين الطبيعيين للفكر الفقهي الذي ارتبطت وظيفته هو الآخر باستنباط معاني النص وتطويع الواقع المتغير له؛ وذلك بالرغم من الاختلاف البادي بين الفقهاء وعموم المتكلمين، والخوارج منهم خاصة. لقد زاوج "القراء" بين الرغبة في امتلاك النص والسيف معاً، وبذلك عبّروا عن طموحهم في امتلاك سلطة جعلوا من "النص" قاعدتها ومن السيف حارسها... وبالرغم من نفور الفقهاء من "فتن" الخوارج، فإن

(665/1)

ارتباطهم هم أيضاً بالنص وبالفتوى القائمة عليه لم تمنعهم من الاعتقاد بحقهم في "الاحتساب" على السلطة السياسية القائمة. هذا الاحتساب الذي اتخذ المؤلف من الفقيه ابن حنبل ومن محنته نموذجاً آخر له، ومثالاً جديداً لالتقاء "العلمي" بالسياسي، عمل هذه المرة بشكل واضح على إدخال عنصر جديد في لغة "الاحتساب": إنه عنصر الجمهور أو "العامة" من الناس، الذين بفضلهم استطاع الفقيه أن يتكلم باسمهم ويهدد بهم رجل السلطة الذي كانت دولته تطمح في الهيمنة وإعادة بسط نفوذها على فقهائها وقضاتها الممثلين للـ"سلطة العلمية".

(666/1)

... وبالرغم من كون ابن حنبل من الرافضين للخروج عن الإمام الجائر، فإن إصراره على الاستقلال الذاتي عن السلطة السياسية لم يكن لينسجم مع منطق هذه الأخيرة التي لا تقبل بديلاً بغير الولاء المطلق والارتباط اللامشروط.. وهو الأمر الذي لم تكن "أصولية" ابن حنبل لتقبل به ولا بما طرأ على مجتمعه من تحولات مذهبية وسياسية؛ فقنع بخُويْصلة نفسه وعانق غربة الإسلام

حسب اعتقاده... غير أن هذه "الغربة" ذات الولاء لسلطة الكتاب المُجتمع عليه والمحدَّد لكل القيم...

(667/1)

... 2 ـ غير أن التحولات المجتمعية في الإسلام سوف تفرز بالمقابل "أصولية مضادة" تعمل السلطة السياسية نفسها على خلقها وتأطيرها لتواجه بها أصولية الفقهاء والمتكلمين. ومن ذا الذي يستطيع التعبير عن هذه الأصولية الأخرى ذات الولاء السلطوي غير أولئك الذين يصطنعهم رجل السلطة نفسه؛ وليس هناك أفضل من طبقة "الكتّاب" الموالين المنقطعي الجذور القبلية من يهرعون إلى الاضطلاع بهذه المهمة المستعجلة؛ فيسخِّروا ولاءهم الجديد لرجل السلطة كما يسخّروا التراث السياسي لدولهم الغابرة في سبيل تعزيز سلطات وليّ أمرهم ومصدر

(668/1)

نعمتهم، وهو الأمر الذي خلق في الإسلام "مرجعية جديدة" تتعارض في العمق مع منطق المرجعية الإسلامية

"الأصولية". إلا أن التاريخ يشهد أن هذه المرجعية الجديدة مع ذلك لم تلبث أن أضيفت عليها مشروعية حتى من طرف الفقيه نفسه! بحكم خوفه القديم من "الفتنة" وركونه إلى محض "النصيحة".

... يمكن القول إن المؤلف قد أحسن الاختيار حين جعل من ابن المقفع النموذج الأصلي ـ وقد أقول النموذج "الأصولي" ـ لطبقة هؤلاء الكتاب الذين استبدلوا الولاء "للكتاب" بالولاء لرجل السلطة المستبد. ولست أبالغ إذا قلتُ إن هذه الفقرة المخصصة

(669/1)

هنا لابن المقفع تُعتبر نموذجية ومحورية في فهم المنهجية التي سلكها المؤلف لتحليل كل النماذج الفكرية الأخرى للكشف عن كل ما هو مضمر وغير مفصح عنه في أعمال ابن المقفع؛ وكأن هذه الأعمال الأخيرة لا يجب أن تُقرأ إلا بالمقلوب! إذ هي تضمر عكس ما تعلن؛ تعلن الولاء للشريعة وهي تضمر الولاء للسلطان وتُفرده به؛ تعلن قداسة الأخلاق والقيم وهي تضمر مكيافيلِّية قاتمة؛ تشيد بالعدل والحرية وهي تكرّس مفاهيم الاستبداد المطلق؛ تعلي من شأن الاجتهاد والمشورة،

ولكنها تجعلهما حكراً على رجل السلطة دون غيره وتشرطهما

(670/1)

برغبته؛ تبشر بعقلانية سياسية ولكنها "عقلانية" طالما ضلّلت قرّاء ابن المقفع المعاصرين، لكونها عقلانية مزيفة لا تعدو أن تكون سلاحاً لتركيز السلطتين، العملية والسياسية، في شخص "المستبد"... ذلك هو "القلب" الذي مارسه المؤلف خاصة على مصطلحات نص "رسالة الصحابة"، هذا النص الذي سبق لنا منذ بضع سنوات أن مارسنا عليه التأويل نفسه وانتهينا إلى النتائج نفسها، خاصة عند مقارنتنا لها بنقيضها الفقهي الذي هو "رسالة الشافعي" في أصول الفقه(1)

---

(1) ... للوقوف على التطابق التام بين منهجيتنا التي كنا قد اقترحناها في تأويل وتحليل الفكر السياسي لابن المقفع، خاصة في نص "رسالة الصحابة"، وبين طريقة المؤلف في تناول الإشكال نفسه، يُرجى الرجوع إلى كتابنا الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية في الإسلام"، بيروت، دار المنتخب العربي، ط 1، 1994،

الفصل الأول، خاصة ص. 133، 147؛ **قارن كذلك ص.** 87 **.** 118.

(671/1)

...

... إن تنقيب المؤلف عن علامات "السياسيّ" في الثقافة الإسلامية جعله يبادر إلى توضيح حدود هذا "السياسي" الذي يؤصله ويؤسس له ابن المقفع، والذي يبقى دائماً بعيداً عن جوهر الخطاب السياسي كما صاغه مفكرو اليونان وفرضه نظامهم الأثيني، ولعل الهدف نفسه قد حمله على توسيع دائرة المقارنة وتنويع النماذج المخالفة بل والمعارضة لفكر ابن المقفع وللفكر الشعوبي المعروف، ابتداء من الجاحظ والشافعي وانتهاء بفلاسفة الإسلام؛ واستدعاء كل ذلك بمناسبة موضوع ربما كان أقرب الدروب الموصلة إلى معانقة السلطتين الفكرية

(672/1)

والسياسية، ألا وهو موضوع اللغة وفن القول؛ ليستنتج المؤلف مع كل من المتكلم المعتزلي (الجاحظ) والفقيه السني (الشافعي) أن مرجعيتهما حول موضوع القول و"البيان" تظل حسب نعت المؤلف مرجعية "دينية" تتماهى فيها الأصول اللغوية العربية مع المعاني الدينية الإسلامية، رافضَيْن بذلك كل دخيل لغوي أو فكري آخر، خاصة ما كان ذا أصول فلسفية...

... إلا أن المؤلف لا يجد بدّاً بهذا الصدد من أن يؤكد أن حتى فلاسفة الإسلام، من الفارابي إلى ابن رشد، ما كان بإمكانهم إدراك بنية الموضوع السياسي اليوناني الذي يزعمون الاتصال به

(673/1)

ما دامع معرفتهم هم أيضاً بموضوع الخطابة والشعر . وهما أقرب الوسائل الاجتماعية للدخول إلى الممارسة السياسية . لم تكن لتتجاوز السطح أو تنفذ إلى العمق بفعل جهلهم بالأصول الاجتماعية التي أفرزت موضوع الخطابة والشعر عند أرسطو (ص. 88، 119).

... وبالجملة، يمكن اعتبار التحول الذي طرأ على "مجالس العلم" في الإسلام، وهو التحول المتمثل في احتضان رجل السلطة لبعض تلك المجالس أو لأهمها، خصوصاً تلك التي

يرتادها "الكتّاب" والفلاسفة؛ إن طبيعة تلك المجالس تفوت في العمق كل حديث عن الممارسة السياسية وفقاً لمنطقها

(674/1)

المعهود منذ اليونان، ما دامت تلك المجالس تبثّ علماً، مهما يكن مضمونه المعرفي، فهو موجّه "للخاصة" وللنخبة ويغيِّب فيه الجمهور الذي يُعتبر الشرط الأساسي لكل تصور سياسي ممكن أن يكون واقعياً... ... ولعل هذا التهميش لدور الجمهور لا يبدو واضحاً كما يبدو في الكتب السياسية المنحولة والمترجمة من أصولها الهيلِّينيستيَّة، مما يجعل هذا الانتحال يلتقي مع منطق أدب الكتّاب الساسانيين، ويستهدف مثله تكريس الاستبداد المترسخ في دولة الخلافة، ويطمع أيضاً في منافسة باقي الكتاب من ذوي الأصول الفارسية خاصة.

(675/1)

... إلا أن ما يُستغرب له حقاً أن فقهاء الإسلام، حتى في المواطن التي لم يكونوا قد فقدوا فيها بعد منزلتهم الممتازة بين العامة، حيث حافظوا على استقلالهم النسبي تجاه السلطة السياسية؛ هؤلاء الفقهاء لم يتوانوا في الاستنجاد بأدب الكتّاب ذاك وفي استغلال مضمونه ـ مع تعديلات بسيطة ـ لأجل ممارسة تلك "النصيحة" التي اعتقدوا لزومها في حقهم تجاه رجل السلطة خاصة. وإذا كان ممكناً أن نتصور لجوء العديد من فقهاء المشرق والأندلس إلى تلك الكتابات "السلطانية" لهذا الغرض، إلا أن الغريب ـ كما يوضح المؤلف ذلك ـ أن يتبنى

(676/1)

المنطق السياسي نفسه لتلك الأدبيات السلطانية فقيه عاش في ظل الدولة المرابطية بالمغرب والتي اعتُبر فقهاؤها أعمدة الدولة وركائزها؛ إنه الفقيه أبو بكر المرادي (489 هـ) الذي يُعتبر كتابه "الإشارة في تدبير الإمارة" دليلاً على مدى الانتشار، بل الانتصار الذي حققه منطق السياسة الساسانية والهيلينيستيّة التي سرت كالهشيم بين قصور الخلفاء والأمراء، وعكسته كتابات كبار الفقهاء...

... تلك نماذج من "التفكير في المشكل السياسي" داخل التجربة الإسلامية، وهي في عُرف المؤلف قد ظلّت أبعد ما تكون عن إدراك جوهر الإشكال

(677/1)

السياسي؛ الأمر الذي حدا به إلى الركون إلى التقويم الخلدوني الشهير لكل هؤلاء الكتاب والفلاسفة، وللفقهاء خاصة، باعتبارهم لا يصلحون في أفضل الأحوال إلا لتزيين المجالس السلطانية (!) دون الخوض في شؤونها السياسية؛ وذلك ليس لافتقادهم العصبية الضرورية فحسب، ولكن لكونهم ـ منذ كانوا ـ لا يتعاملون إلا مع المفاهيم الكلية والمجردة »فلا تزال أفكارهم وأنظارهم كلها في الذهن ولا تصير إلى المطابقة« ومعرفة الواقع. وعليه، كان على ابن خلدون أن يستنتج أن "العلماء" ـ من بين البشر ـ أبعد عن السياسة ومذاهبها«(1)

---

(1) ... ابن خلدون، المقدمة، الفصل الثاني والأربعون. حول هذا الموقف الخلدوني، راجع كتابنا الفكر الأصولي وإشكالية السلطة العلمية، مرجع سابق، صص. 620 ـ 625.

(678/1)

!

... 3 ـ بالرغم من كون الفصل الثامن يعتبر من بين فصول الكتاب الأخرى أقدمها زمناً، فإنه من الممكن اعتباره مع ذلك نموذجاً تطبيقياً لما سبق أن حلله المؤلف من إشكالية سلطة الفقيه. وهو نموذج تطبيقي اعتباراً لقرب الموضوع من المؤلف نفسياً وزمنياً... ثم هو فصل متميز لكون موضوع الدراسة، وهو محمد المختار السوسي، يمثل فقيهاً من طراز خاص، جعل منه المؤلف مناسبة لا لإلحاقه بالنماذج الفقهية الأخرى، بل إنه بعكس ذلك يمثل نموذجاً لإبراز "خصوصية ثقافية" وجغرافية انطلق المؤلف لإبراز إشكاليتها من المعطيات النظرية

(679/1)

السابقة نفسها والمتمثلة في بنية الثقافة الإسلامية. غير أن "الخصوصية" التاريخية والسياسية للمنطقة ـ منطقة بلاد سوس بجنوب المغرب الأقصى ـ قد فرضت على المؤلف إبراز ما سماه بـ"منطق النُّدرة" باعتباره

المفتاح الذي يفسِّر به الرحلة العلمية لهذا الفقيه . الطّرقي، ويبرّر إشكاليته الأخيرة هذه وخصوصية "ذاكرته" المستعادة، وينتهي أيضاً إلى تفسير "غربته" المزدوجة، سواء في بيئته الضيقة المنعزلة أو حتى في أفق وطنه السياسي، خاصة وأننا نعلم أن محمد المختار السوسي هو "الوزير" الوحيد الذي لم تظهر عليه أمارات

(680/1)

الوزارة، حيث دخلها فقيهاً ـ صوفياً وبقي فيها كذلك.)))

... 4 ـ ربما كان من المؤمّل أن يضطلع الفكر الفلسفي في الإسلام بما عجزت عنه فئة الكتاب من ترسيخ للفكر السياسي وتوضيح لأسسه، وذلك بحكم ادّعاء الفلاسفة امتلاكهم ناصية الفلسفة وقدرتهم المباشرة على الاطلاع على "التجربة اليونانية" وتعلقهم بنماذجها الفلسفية و"شرحهم" لنصوصها المنطقية والسياسية خاصة... هذا هو المؤمِّل الذي بقي على المؤلف أن يبحث عنه في القسم الثاني من كتابه؛ غير أن أمله في العثور على ذلك قد خاب منذ الصفحات الأولى من هذا القسم!

(681/1)

... إن الصورة العامة التي يستخلصها قارئ هذا القسم الثاني تتمثل في أن التجربة الفلسفية في الإسلام كانت على العموم تجربة سلبية بامتياز، سواء على المستوى الفكري أو السياسي. لقد كان المؤمِّل أن تعمل عقلانية أولئك الفلاسفة ليس على أن تحط رحالها في أرض الإسلام فحسب، بل على أن تتجذّر وتترسّخ فيها أيضاً. إلا أن الظاهر أن فلاسفتنا، في رأي المؤلف، اكتفوا بالحصول على "جواز سفر" للدخول إلى أرض الإسلام؛ لكنهم بمجرد وصولهم إليها اختاروا الانزواء عن سكان تلك الأرض، ومجّدوا ـ بالمقابل ـ العزلة و"التوحّد"

(682/1)

وشرّعوا لتدبيرهما وترفعوا عن الجمهور(1)؛ بل وتوسلوا، عكس ذلك، بالطب تقرباً إلى رجل السلطة واحتماء به من خصومه من العامة... ومن ثم حضرت الفلسفة في الإسلام صناعة "جسدية" أكثر منها ممارسة عقلية فلسفية! وهو ما حمل المؤلف أن يؤكد على أن الفلسفة في الإسلام بطبيعتها «ليس لها امتداد

---

(1) ... انظر تفصيلنا لهذا الإشكال في كتابنا الفكر الأصولي، سابق الذكر، صص. 67 ـ 70. من المفيد هنا مقارنة التجربة الفلسفية في الإسلام بالتجربة الصوفية فيه، والموقف من الجمهور له ضلع كبير في إدراك الفارق بين التجربتين...

(683/1)

طبيعي في الواقع الإسلامي« (ص. 175)، بل إنها طالما سخرت من هذا الواقع متذرعة بحماية رجل السلطة لها، كما هو الحال مع الطبيب ـ الفيلسوف الرازي.

... ولنسجل أيضاً أن "نخبوية" هذه الفلسفة التي أبعدتها عن الجمهور قد زاد من حدتها معرفتُها السطحية بالتراث السياسي اليوناني، إذ لم يكن بإمكانها أن تشعر بدور الجمهور الأثيني في ميلاد سياسة أفلاطون وأرسطو وهي تتخذ مسبقاً ذلك الموقف النخبوي وتركب جناح الاستعلاء على جمهورها الإسلامي...

(684/1)

... هذا، وإذا كانت حياة الفارابي خاصة تُتَّخذُ عادة نموذجاً للتطابق الملاحظ بين فكر الفيلسوف النخبوي ونزوعه إلى الانزواء والعزلة التي اختارها نهجاً لحياته العملية، فإن الانشغال بالحياة اليومية والاجتماعية الذي بدا ممثلاً مع ابن سينا أو ابن باجَة لا يدل على شيء قدر ما يدل على مبلغ "الانفصام" الذي عرفته شخصية الفيلسوف بين حياته الاجتماعية المضطربة المتغيرة وعلمه الفلسفي الكلي والثابت. وعليه، وحسب تأكيد المؤلف، »فليست مدينة الفيلسوف من هذا العالم [المتغيّر]؛ فهناك قطيعة بينها وبين المجتمع السياسي

(685/1)

الإسلامي« (ص. 194). وتلك هي "طوبى" الفيلسوف الذي بقي في أحسن الأحوال جاهلاً بالمدينتين معاً: المدينة الإسلامية والمدينة اليونانية!

... 5 .هنا يوجد المؤلف ما قد يبدو له نموذجاً مخالفاً لتأويله الذي سبق بسطه وتحدياً لتقويمه للإنتاج الفلسفي في الإسلام. إنه نموذج ابن رشد، الفيلسوف . الفقيه وقاضي الجماعة، الذي ربما أخرجه وصفه الإضافي هذا، بصفته قاضياً للجماعة، من برج الفلاسفة ومن

نخبويتهم التي فوّتت عليهم فرصة إدراك التراث اليوناني والممارسة السياسية الفعلية... من هنا خصوصية حديث المؤلف الطويل عن

(686/1)

ابن رشد، ما دام هذا الأخير يبدو كأنه يخرج عن تلك القاعدة التي شملت ـ في رأي علي أومليل ـ كل فلاسفة الإسلام، قاعدة الانفصال بين الفكر والممارسة، بين النموذج الفلسفي اليوناني ـ الهيلّينيستي والنموذج الإسلامي الشرعي.

... غير أنه يبدو أن أبا الوليد الفيلسوف ـ القاضي، الذي استطاع أن يجمع بين هذين الوصفين المتناقضين، لم يكن بمقدوره الخروج عن تلك القاعدة، قاعدة الانفصال بين الفكر والممارسة الواقعية. ولا ينتظر المؤلف طويلاً لإثبات رؤيته هذه، فيبادر إلى تقرير أن ما رام فيلسوف قرطبة إلى الاضطلاع به من

(687/1)

جمع بين الفلسفة والقضاء أو توفيق بين الحكمة والشريعة كان مجرد "تمثيلية" حاول فيها صاحبها، على حد قول المؤلف، أن "يلعب دور الفقيه للوجاهة ولضمان السلامة" ليس غير! (ص. 203). وإذا كانت الثقافة الفقهية أو مهمة القضاء هكذا مجرد حادث عَرَضي ومحض "لعبة" وجواز سفر في حياة ابن رشد، طلباً للسلامة؛ فإن المؤلف يعمد، بعد هذا، إلى أخصّ مميزات ابن رشد، ألا وهي تفكيره الفلسفي. إلا أنه لا يجد بدّاً من أن يبدأ القول في هذا المجال بإبراز "المهنة" الأخرى التي اشتهر بها ابن رشد؛ فهو إن كان في باب الفقه يمارس مهنة

(688/1)

القضاء، فإنه في الفلسفة لا تتجاوز وظيفته مهمة "الشرح" : فهو الشّارح الأعظم كما وُصف دائماً! إلا أن هذا الشرح هو ما يتعمد المؤلف إبرازه كي يدرج ابن لرشد من خلاله ضمن الوصف العام الذي وصف به سائر فلاسفة الإسلام.

... ذلك بأن عملية "الشرح" تحيل بالضرورة إلى مفهوم "النص"، وتقصد بالأساس إلى الارتباط به وإلغاء كل مسافة زمنية تفصل عنه، واتخاذه "سلفاً" مقدساً ونموذجاً "تاماً" لا يقبل المسّ والتغيير بقدر ما يتطلب

"الشرح" والتبيين فقط؛ غير أن هذا الشرح حينما يتعلق أساساً بسياسة أرسطو، فإنه ـ علاوة على

(689/1)

اعتقاد ابن رشد الدائم أنه أمام نصوص تتسم بالتمامية والثبات ـ ما كان بإمكانه أن يفهم أبعادها السياسية؛ لكونه ـ شأنه في ذلك شأن فلاسفة الإسلام السابقين له ـ لا يتوانى في الخروج عن الشرط الأساسي في إدراك سياسة اليونان، وذلك حين رفضه إشراك "العامة" في العمل السياسي. وهذا ـ في رأي المؤلف ـ يمثل السر الوحيد الكامن في مهاجمة ابن رشد للكلام الأشعري وللغزالي خاصة؛ لأن ترويج الكلام "الجدلي" بين عامة الناس من شأنه أن يمكنهم من السلام (= الجدل) الذي يغريهم بالتساؤل عن المشكل السياسي ويدخلوا إليه من بابه

(690/1)

الواسع! وتلك هي "الفتنة" المرفوضة فقهاً وفلسفة أيضاً في رأي ابن رشد.

... بيد أن المؤلف لا يتأخر في استنطاق نصوص ابن رشد ليوضح هذه المرة أن هجوم هذا الأخير على الغزالي وسائر الأشاعرة لم يكن في حقيقته إلا غطاءً "إيديولوجياً" لهجومه الخفي على المهدي بن تومرت، مؤسس دولة الموحدين، باعتبار هذا الأخير وحده الذي نجم، من بين سائر الفقهاء والمتكلمين، في تنزيل الجدل الكلامي ونشره بين العوام وفي مزج الخطاب الجدلي بالممارسة السياسية. وتلك هي الطامة الكبرى التي تقضي على خصوصية التفكير الفلسفي ونخبوية

(691/1)

الفلاسفة... والغريب أن ابن رشد يردد السلوك القديم نفسه لفلاسفة المشرق وكتّابه فيستعدي رجل السلطة ويدعوه لملاحقة مخالفي الفلاسفة من المتكلمين الذين ينشرون الجدل بين العامة ويغرونهم بالخوض فيما لا يفهم قوانينها وحقائقها "البرهانية" إلا الفلاسفة... ومع ذلك، فلعل هذا التحريض من ابن رشد، وهذا الانشغال بالجدل في وسط المجتمع الإسلامي هو المظهر الوحيد الذي بدت فيه "أصالة ابن رشد"، سحب رأي المؤلف؛ لكنه في هذه الأصالة الخاصة به كان بالتأكيد

أبعد ما يكون عن إدراك سياسة أرسطو والإحاطة بشروطها الفعلية!! (ص.

(692/1)

.(221

)))

... 6 ـ وإذ يصل المؤلف إلى هذه المحطة الأخيرة التي قادته إلى ابن رشد يكون قد أتم تعامله مع أبرز النماذج الفكرية الإسلامية، منذ "الأصولية" النموذجية للفقهاء (= القرَّاء) إلى "الأصولية" النموذجية للفلاسفة (= ابن رشد). وعليه لم يبق إلا تفصيل القول في البديل الذي خفي على هؤلاء جميعاً بصفتهم ممارسين "للسلطة الثقافية"، وهو ما لم يكن بإمكانهم إدراكه أصلاً، لكونه، ببساطة، بديلاً أتى في مرحلة متأخرة تالية لهم وتحقق في نموذج ممتاز هو التجربة الأوروبية منذ عصر الأنوار، وخاصة منذ قيام الثورة

(693/1)

الفرنسية. هذا هو البديل الذي تكفل المؤلف بتفصيل القول فيه في الفصل الحادي عشر، ثم تابع انعكاساته في المجتمع العربي المعاصر في الفصل الأخير. ولهذا السبب لا يخطئ القارئ في إدراك تلك النقلة النوعية بين الفصول العشرة السابقة وهذا الفصل الحادي عشر؛ حيث ساد تلك الفصولَ مجهود تحليلي وروح نقدية تأويلية، مقابل أسلوب الوصف والتمهيد لـ"مرجعية" هي في رأي المؤلف صالحة للتأمل و"الاعتبار"؛ الأمر الذي يفسر كثرة وطول "النصوص" والاستشهادات التي يحفل بها هذا الفصل حول مفاهيم الدولة الحديثة، ومعنى العقل والطبيعة،

(1/694)

والعقد والمجتمع، والرأي العام والمثقف ودور الكاتب... وهي، مع غيرها، جملة مفاهيم جديدة تؤسس جوهر الخطاب السياسي، وكلها لا علاقة لها البتة بالمجتمعات التقليدية.

... إن ميلاد الفكر السياسي إذن، وميلاد المثقف أو الكاتب، إنما يلتمس، بعد التجربة اليونانية الفريدة، فيما تلا الثورة الفرنسية من تحولات فكرية واجتماعية وليس قبل ذلك وإذا كانت الحداثة الألمانية مثلاً قد

ميزت بين عنف إفرازات الثورة الفرنسية ومفاهيمها الأنوارية؛ وتقبّلت هذه الأخيرة مع رفضها للعنف المصاحب لها؛ فعل المؤلف يقصد الشيء نفسه حيث

(1/695)

يعمد إلى تحليل أدبيات "عصر الأنوار" حول مفهوم المثقف والمجتمع والسياسة... ويستند في ذلك بوجه أخص على ما جمعه وبوّبه المفكر الألماني المعاصر إرنيست كاسيرر في كتابه La Philosophie des Lumières، **ليستخلص أن سلطة المثقف إنما كانت مشروطة بتلك التحولات الاجتماعية التي حررته من التبعية للحكام وللأعيان، بعكس ما كان عليه الأمر في المجتمع الإسلامي. والمؤمل في رأي المؤلف أن شبه تلك التحولات في المجتمع العربي المعاصر من شأنها أيضاً أن تعمل على ظهور "سلطة المثقفين"، خاصة بعد أن تداولوا هم أيضاً قضايا**

(1/696)

"الالتزام" والحرية واستندوا إلى القواعد الاجتماعية، تماماً كما فعل ذلك جان بول سارتر أو غيره من مفكري أوربا.

... ذلك هو المدخل الممكن لكل ممارسة سياسية حقة؛ مدخل يكمن مفتاحه في "الفكر الديمقراطي" المؤمن بالتسامح وحق الاختلاف. فالديمقراطية إذن هي الحل الممكن، بل هي المطلب المستعجل. هذه هي خاتمة الكتاب، وهي قد وُجدت في الواقع في مقدمته التي عاب فيها المؤلف على المثقفين العرب تضييعهم الوقت في اللّهث وراء شعارات القومية والوحدة والاشتراكية وغفلوا عن أولى الأولويات ألا وهي الديمقراطية... تلك كانت

(697/1)

بداية هذا العمل وهي خاتمته أيضاً.

)))

... 7 ـ ملاحظات نقدية

... إن الطموح الكبير لهذا المؤلّف الذي نقدمه اليوم في تقويم أهم معالم الإنتاج الفكري في الإسلام والإحاطة بمكوناته يجعله من المتعذر في هذا التقديم استفتاءه حقه من المراجعة، وهو ما يفرض الاكتفاء اليوم ببعض

الملاحظات التي نراها ضرورية. وهي على كل حال ملاحظات تُحسب لهذا العمل، ما دام من شأن الحوار الذي يثيره أن يغني البحث العلمي ويقدمه خطوات إلى الأمام.

(1/698)

... هذا، ونظراً لتميز سنة 1998 بتخليد الذكرى الثامنة لوفاة ابن رشد الحفيد، فسنكتفي هنا بمراجعة طريقة تعامل المؤلف خاصة مع التراث الفلسفي الرشدي.

وبخصوص تعامله مع البعد السياسي في التراثين الكلامي والفقهي، فإن المراجعة النقدية لذلك مما قد لا يتسع له هذا المجال. ويمكن الرجوع إلى كتابنا المشار إليه في الهامش (2) للوقوف على رؤيتنا البديلة للإشكال المطروح.

... نستطيع إذن أن نجمل ملاحظاتنا فيما يلي:

... أ ـ فبالرغم مما يبدو من وحدة الإشكالية بين الفصول الثمانية الأولى والفصول التالية من الكتاب

(1/699)

المتعلقة بتحليل الخطاب الفلسفي في الإسلام، فإننا مع ذلك نلاحظ وجود فارق واضح بين القسمين؛ حيث نستطيع الوقوف في الفصول الأولى على مقدرة المؤلف على استنطاق التراث السياسي المباشر، سواء لدى الفقهاء أو الكتاب؛ إلا أننا نلاحظ أن علي أومليل، عند تحليله للخطاب الفلسفي في الإسلام، لا يسعفنا في الوقوف على "براهينه" المقْنعة على أحكامه الكبيرة التي يقوّم بها هذا الخطاب. والإشارة هنا أولاً إلى ذلك التفاوت الكبير في تقويمه للفيلسوف الطبيب الرازي، الذي يحظى لديه بالتبجيل والتمجيد وحده دون باقي الفلاسفة.

(700/1)

هذا، مع كون المؤلف سبق له أن أكد أن الرجل كان يحمل عقيدة وآراء "مانوية"، لم يتردد في وصفها بأنها آراء "جريئة". فبأي معنى هي كذلك؟ لقد كان الرازي في عمقه رجلاً مانوياً وغنوصياً واضحاً؛ وإذن، فقد كانت الغنوصية أو المانوية هي الجريئة(1)! ومن حقنا أن نُسائل المؤلف: كيف تتخذون من الرازي النموذج الأمثل للفلسفة "العقلانية" في الإسلام، دون الفارابي أو ابن رشد مثلاً؟ ثم إذا جاز اتخاذ الرازي نموذجاً للفكر

الفلسفي

---

(1) ... وهو الوصف نفسه الذي يحظى به في هذا الكتاب عبد الله بن المقفع، صص, 70 ـ 71.

(701/1)

وللعقلانية، فلتتخذوا من ابن مسرّة، الصوفي الأندلسي، نموذجاً لذلك، لكونه سار على نهج الرازي الفلسفي نفسه وتبنّى منظومته الغنوصية نفسها! وفي السياق نفسه لا تترددون في وصف مواقف الرازي بـ"الجرأة" لطعنه في بعض الثوابت الإسلامية، تلك الجرأة التي تؤكدون أنها زادت «بفضل مكانته الطبية لدى أعيان السلطة» (ص. 179) الذين شكلوا غطاء وحماية لآرائه الشاذة... لكن كيف نسمي موقف من يحتمي برجل السلطة جرّيئاً!؟ ربما تمثلت الجرأة في نكبة ابن رشد أو ابن حنبل وغيره من الفقهاء الذين اكتووا بنار رجل السلطة. وعليه، إذا

(702/1)

كنتم قد وصفتم آراء الرازي المانوية بكونها جريئة وغريبة عن الوسط الإسلامي (ص. 179)، فإنها بالفعل غريبة؛ إلا أنها أبعد ما تكون عن الجرأة ووراء صاحبها سيف يحميه!

... خلافاً لهذا التقويم الذي حظي به الرازي، فإن القارئ لهذا العمل لا يمكنه إلا أن يلاحظ تلك السلبية الحادة والتشاؤم الواضح في تقويم التجربة الفلسفية في الإسلام، سلبية شاملة سواء للإنتاج الفكري أو للممارسة العملية لكل من الفارابي وابن سينا وابن رشد. وكأني بالمؤلف في نقده للتراث الفلسفي في الإسلام ينهج استراتيجية شبيهة بتلك التي نهجها

(703/1)

قديماً ابن سبعين الصوفي حين حرص على أن يجعل من ابن رشد النموذج الأمثل لفلاسفة الإسلام والنموذج الأمثل أيضاً للـ"تقليد" لأرسطو! وذلك حتى يتم له نسف الممارسة الفلسفية من الأساس(1)... فكأن مؤلفنا المعاصر يقصد إلى الشيء نفسه بعد أن نبّه إلى تميز فيلسوف قرطبة عن غيره بقدرته على "التوفيق" بين نموذج الفيلسوف ونموذج القاضي في الإسلام، وادعائه من ثم الاقتراب من أرسطو ومن فلسفته النظرية

والعملية .

---

(1) ... قارن: عبد الحق ابن سبعين، بدّ العارف، بيروت، دار الأندلس، ط 1، 1978، ص. 143 [تحقيق جورج كتورة].

(704/1)

السياسية أيضاً.

... غير أن ابن رشد في الحقيقة يبغي مستحيلاً في عملية التوفيق تلك، كما أنه يدعي ما لا يستطيعه مطلقاً بقدرته على فهم سياسة المعلم الأول؛ ليس لأن هذه السياسة الأثينية القديمة ليست في مستوى عصر ابن رشد، بل لأن عصر ابن رشد هو الذي لم يكن في مستوى سياسة أرسطو، فلم يكن بالتالي بمقدور قاضي قرطبة فهم تلك السياسة! وبالتالي يتساءل المؤلف عن جدوى محاولات هذا "الشارح الأعظم" لنصوص أرسطو، مع أنه كان مع جمهوره مقيَّداً بنظام فكري وسياسي يحجب عنه الفكر السياسي اليوناني (ص. 220). نعم! إن ابن رشد

(705/1)

يحظى بعد كل هذا بإشادة من المؤلف اعتباراً لكون "أصالته" بصفته شارحاً لـ"سياسة" أرسطو تبدو في كونه »لم يكرر أستاذه أرسطو« (ص. 221) في فكره السياسي. إلا أن هذه الأصالة في آخر التحليل تساوي "جهلاً" بحقيقة النص المشروح وخروجاً عن روح تجربته الاجتماعية. وبهذا تصير سياسة أرسطو في هذه الرؤية وكأنها نموذج "سلفي" أخطأ الشارح الأعظم شرحه وإدراك أهدافه وأبعاده!

... لذا نستطيع من جملة تحليل المؤلف للفكر الراشدي ولشخصيته الواقعية أن نخرج بما يلي:

(706/1)

... بالرغم من كون المؤلف لم يستند على معطيات تاريخية عن حياة ابن رشد، فإنه لا يتردد في تقويم تحصيله الفكري بكونه لا يخلو من ميكيافيلّيَّة واضحة. إذ الولاء الرشدي هو ولاء للفلسفة فحسب وللأرسطية خاصة. أما ما عدا ذلك من جوانب علومه وكتاباته الأخرى وتحصيله المتنوع، فهو لا يعدو أن يكون "وسائل" لتحقيق مصالح آنية، بل ومصلحة كبرى تتحدَّد في ما

يسميه المؤلف بالوجاهة: »يطلبها [ابن رشد] لدى الخاصة بالطب، ولدى العامة بالفقه!« (ص. 203). وعليه، فالفكر الرشدي في مجال الفلسفة "تقليد" لسلف قديم هو أرسطو وتشويه

(707/1)

لسياسته؛ وهو في مجال الطب ثم الفقه مجرد طالب للقرب والتكيف والوجاهة، بل هو في مجال الفقه وفي منصب قاضي الجماعة مجرد لاعب "يلعب دور الفقيه" على الجمهور المسكين! (204). **إنها صورة مأساوية هذه التي يقدمها لنا المؤلف عن ابن رشد، والتي أحكم صياغتها ولا ينقصها غير شيء واحد وهو تبريرها التاريخي الواقعي، وهو ما لا نجده هنا مطلقاً..!**

... هذا، وإذا كان المؤلف قد عُرف عنه موقفه النقدي من ممارسة التأويل لدى ابن رشد خاصة، فإننا نستطيع أن نلاحظ مع ذلك تسرعه في استدعاء م مرجعياته الفكرية الخاصة "ليؤول" بها أهم

(708/1)

المواقف الرشدية المتعلقة بضرورة توافق أصْلَي الحكمة والشريعة؛ فإذا كان أساس دعوة الفيلسوف ـ القاضي أن المذاهب في دينك الأصلين "ليست تتباعد كل التباعد حتى يُكفِّر بعضها أو لا يكفّر"، فإن المؤلف ـ بخلاف ذلك ـ يصر على الإبقاء على هذا التباعد الذي يتعامى عنه ابن رشد في رأي المؤلف (205)، مما يعني أن تكفير بعض المذاهب للبعض أمر حتمي وضروري لا مجال فيه للتوفيق والتفاهم! وكأنه بالتالي لا مجال لتسامح حقيقي بين المذاهب أو بين الفلسفة والشريعة! لماذا؟ لستُ أدري!

(709/1)

... ولعل إصرار علي أومليل على تأويله المضاد هذا لمشروع ابن رشد هو الذي حمله على اعتبار فيلسوفنا الكبير في دعوته إلى "توافق" الحكمة والشريعة مجرد "لاعب" بورقة التسامح، أملاً فقط في أن يُروّج علمه الفلسفي (204)؛ إنه إذن مجرد لاعب، لكونه في قرارة نفسه لا يعتقد بـ"شرعية الاختلاف"؛ إنه إذن مجرد لاعب، لكونه في قراءة نفسه لا يعتقد بـ"شرعية الاختلاف"؛ بل يضمر الرغبة في هيمنة علمه الفلسفي على بقية العلوم الأخرى. فهو إذن في دعوته إلى التسامح مجرد لاعب أيضاً، لا معتقد في فضيلة التسامح(1)

---

(1) ... هذا اللعب لا يخلو منه في رأي المؤلف حتى جمهور المسلمين، فهم يتعاملون في شؤون هذا العالم، »بعملته الدنيوية، لكنهم على مستوى الإديولوجيا يتداولون لعبة الرمز الديني الأخروي...« (ص. 227).

(710/1)

---

(205). بل إن ابن رشد الذي عُرف بزهده في التزلف لذوي النفوذ لا يتأخر عن التزلف للسلطة السياسية والاستنجاد بها كي تقضي وتُجهز على خصمه الفكري المتمثل في عامة الأشاعرة وفي الغزالي خاصة وفي المهدي بن تومرت بكيفية أكثر تحديداً. وبغض النظر عن كون هذا "التحريض" الرشدي ضد ابن تومرت الذي رسخ الأساس السياسي للدولة التي كان يحتمي بها ابن رشد ويستظل بإديولوجيتها .أقول: بغض النظر عن كون هذه الأطروحة غير مبرّرة، فإن الذي يبقى هو كيف وصف المؤلف الطبيب الفيلسوف الرازي الذي جعل منه حاملاً لفكر مانوي واضح، كيف

(711/1)

وصف مواقفه "بالجرأة"، مع أنه كان محصناً و"محميّاً" برجل السلطة؛ في حين نراه يجعل منه ابن رشد مجرد "لاعب" بمبدإ التسامح وموفّق بين ما لا يقبل التوفيق، ولم يصف مواقفه كما وصف مواقف الرازي بالجرأة والقوة، مع أن فيلسوف قرطبة لم يواجه فقهاء العصر ومتكلميه الأشاعرة المسيطرين فحسب، بل واجه ـ حسب اعتقاد المؤلف ـ أساس الدولة الموحدية ومؤسسها ابن تومرت وفي أوج قوتها (208)؟ فكيف نَعت من تحتضنه السلطة (أي الرازي) بالجرأة، ونجعل من يجرؤ على نقد إيديولوجية السلطة وأساسها مجرد "لاعب" بالتسامح؟!

(712/1)

... من الواضح أن الصورة لا تخلو من نزعة موغلة في السلبية، خاصة وأننا أما تقديم للفلسفة الإسلامية لا يدل على شيء قدر ما يدل على فشلها الذاتي، وليس بسبب محيطها الإسلامي فحسب! بل ربما وحد خصوم الفلسفة في الإسلام ما يبررون به مواقفهم في كلام المؤلف عن بنية التفكير الفلسفي في الإسلام الذي يظل دوماً بعيداً عن النموذج اليوناني! أما إذا كان ابن رشد يتهم فلاسفة المشرق بالتحريفية، فإن فيلسوفنا الكبير يسقط هو أيضاً في عيب شبيه وهو كونه ظل

عاجزاً عن فهم فكر أرسطو وسياسته على وجه التحديد (206). وهذا تحريف

(713/1)

من نوع آخر!

... وكي نبقى في إطار الفكر المغربي ـ الأندلسي وفي ضوء التاريخ الفعلي لعلم الكلام، لا نشك في العلاقة الوطيدة بين هذا العلم والانشغال بالمشكل السياسي. غير أنني لست أظن أن هجوم ابن رشد على علم الكلام ينطوي بالتحديد على وعي بتلك العلاقة بين الكلام والسياسة، ويستهدف بالتالي إبعاد الجمهور عن الاشتغال بها (206)، وذلك بحكم أن علم الكلام بعد القرن الخامس خاصة صار مجرد ممارسة نظرية عقائدية لا علاقة ضرورية بينها وبين الممارسة السياسية... من هنا شعورنا بعدم الاقتناع تجاه أطروحة المؤلف القائمة

(714/1)

على تأويل موقف ابن رشد من علم الكلام باعتباره موقفاً ضد تسييس الجمهور وضد سياسة المهدي بن

تومرت بالتحديد، اعتباراً لكون هذا الأخير ناشر علم الكلام الأشعري في الغرب الإسلامي؛ ولذلك، فهو قد "أشرك" العامة في الاشتغال بالسياسة. وفي هذا يكمن الخطر الأكبر الذي يخشاه ابن رشد الذي دعا إلى "إبقاء الدين في المستوى الذي لا يصبح فيه سياسياً، مستوى العبادات والمعاملات الضرورية" على حد قول المؤلف (210).

... وهنا نضطر إلى أن نلاحظ حدود هذه الرؤية السياسية من جانب المؤلف، بالرغم من أهميتها في فهم الفصول الأولى

(715/1)

من كتابه. إذ لا يبدو واضحاً أن الهدف السياسي كان وارداً في المقام الأول في الصراع بين ابن رشد ومتكلمي الأشاعرة، علاوة على أن هذا الفصل المزعوم بين السياسة، سياسة الدولة، والدين أو الشريعة لم يكن يوماً من مكونات "قاضي الجماعة" إطلاقاً، ولا من مكونات مفكري الإسلام جملة. ويبدو أنه مجرد تأويل مستمد من فكر امأنوار بأوربا ليس غير!

... وبغض النظر عن هذا، فإن المؤكد أن بعض العناصر الجزئية الأخرى التي بنى عليها المؤلف دعواه في جعل

ابن تومرت الهدف الأساسي من النقد الرشدي ضد الغزالي ومتكلمة الأشاعرة، هذه

(716/1)

العناصر لا تستقيم مطلقاً مع المعطيات التاريخية والفكرية للمشكل المطروح؛ إذ يعتبر المؤلف أن هجوم ابن رشد على ممارسة "التأويل" لدى المتكلمين ليس يعني هجوماً على الأشاعرة ولا على الغزالي، بقدر ما يعني هجوماً على ابن تومرت الذي اصطنع التأويل تأثراً منه بالمعتزلة دون غيرهم (ص. 212، هامش 36). وهذا في الواقع فهم غير سليم لهذا المشكل المثار هنا، ما دام "التأويل قد مثّل دوماً قاسماً مشتركاً بين المعتزلة والأشاعرة؛ بل إن هجوم فقهاء الأندلس والمغرب في البداية على الأشاعرة كان بسبب اصطناعهم لمنهج التأويل

(717/1)

العقلي، إذ هم الذين أدخلوه إلى الغرب الإسلامي وليس المعتزلة؛ بل حتى الاختلافات بين المذهبين في هذا

المجال تعتبر شكلية وسطحية. ويكفي هنا الوقوف على كتاب ابن طملوس (620 هـ)، "المدخل لصناعة المنطق"(1)، لإدراك ردود الفعل القوية الفقهية والسياسة ضد التيار الأشعري الوافد، كما أن الرجوع إلى المصنفات الأشعرية المبكرة المعاصرة للمهدي ابن تومرت(2)

---

(1) ... انظر تحليلنا لقيمة هذا الكتاب في مجلة ألف، القاهرة، الجامعة الأمريكية، العدد 16، 1996ن صص. 77 ـ 88.

(2) ... من قبيل: الضرير المراكشي (520 هـ)، التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد؛ والسلالجي (541 هـ)، البرهانية.

(718/1)

توضيح مبلغ ممارستهم للتأويل ونقدهم للاتجاهات الظاهرية... كل هذا، علاوة على أن مفهوم التأويل ومستوياته لدى أبي حامد الغزالي خاصة قد شاع بين مفكري العصر ورجع إليه ابن رشد نفسه وأشاد بضوابطه في آخر كتابه "الكشف عن مناهج الأدلة".

... وعليه، فالأشعرية كانت حاضرة بقوة قبل ميلاد ابن

رشد وعلى عهد المهدي بن تومرت، وبالتالي ليس بالمقنع القول إن نقد ابن رشد للتأويل الكلامي وتخصيصه زمن ذلك بقوله: »في هذا الوقت« أن هذا »دليل« على نقده لابن تومرت دون غيره؛ ليس هذا الفهم بالمقنع، لكون الفكر الأشعري أيضاً

(719/1)

فكراً معاصراً بل مسيطراً، عكس سيطرته ذلك النقد العنيف الذي وجهه إليها الصوفي ابن سبعين في كتابه "بدّ العارف"... ويبقى القول في الأخير عدم صحة تأكيد المؤلف تفرد ابن تومرت، دون الأشاعرة، بجعله علم الكلام (علم التوحيد) »أول ما يجب تحصيله«، لأن »أول واجب على المكلف العلم بالله سبحانه« (ص. 213)، وذلك بسبب كون هذه الدعوى دعوى جميع الأشاعرة منذ الباقلاني حتى عصر ابن تومرت. بل إن تلك الدعوى هي التي أثارت مراراً حفيظة الحنابلة ـ وعلى رأسهم ابن تيمية ـ ضد الأشاعرة، مثلما أنها هي التي ندد بها ابن رشد في

(720/1)

"فصل المقال"(1). كل ذلك من شأنه أن يبين لنا أن الأحكام التي بنى عليها علي أومليل تلك "القطيعة" المطلقة بين فيلسوف قرطبة ومؤسس دولة الموحدين المغربية لا ترقى في ضوء المعطيات التاريخية إلى مستوى الإقناع.

... إن عناية مؤلف "السلطة الثقافية والسلطة السياسية" بتلك المعرفة السياسية الإسلامية لم يكن في واقع الأمر إلا تمهيداً للانتقال إلى صلب

---

(1) ... ابن رشد، فصل المقال، دار المعارف بمصر، 1972، ص. 63 ـ 64 [تحقيق ودراسة محمد عمارة]، حيث يندد ابن رشد بقول الأشاعرة إن "أول الواجبات النظر" في التوحيد...

(721/1)

المشكل السياسي القائم في المجتمع العربي المعاصر، إنه مشكل الديمقراطية وتحدياتها الراهنة. لهذا لا يحظى المتتبع لكل أعمال المؤلف في إدراك تلك الاستراتيجية الغالبة عليها والقائمة على إعادة تأمل ما ترسَّخ في "التجربة الأوروبية" من أفكار ومفاهيم ذات صلة وثيقة بتطور المجتمع، ثم العمل على مقابلتها

"بنقائضها" في "التجربة الإسلامية"؛ وذلك قصد استخلاص البون الشاسع و"القطيعة" الواضحة بين التجربتين(1)

---

(1) ... انظر تكرار الاستراتيجية نفسها في مؤلفات علي أومليل: الإصلاحية العربية والدولة الوطنية؛ التأويل والتجاوز؛ في شرعية الاختلاف.

(722/1)

، وربما ـ كما في هذا الكتاب ـ لأجل رفع العوائق التي تحول دون اللحاق بتلك التجربة الأولى؛ الأمر الذي يجعل من المقارنة بل "المفاضلة" بين التجربتين الأوربية والإسلامية هاجساً ظاهراً أو خفياً في كل تلك الأعمال؛ هاجس يعرب عن ذاته انطلاقاً من جملة مفاهيم أفرزها الفكر الأوروبي منذ "عصر الأنوار"، من قبيل مفهوم التاريخ والنقد التاريخي، ومفهوم الدولة، وكذا مفاهيم المجتمع والاختلاف والتسامح والمثقف والديمقراطية... وهي مفاهيم بمرجعيتها الأوربية ـ الأنوارية إنما تأتي في بداية تلك الأعمال محرّكاً وموجِّهاً

(723/1)

لإشكالياتها، ثم تأتي ـ كما في كتابنا هذا ـ في آخر المطاف لتشكل القمة المبتغاة والنموذج المحتذى...

... لعل هذه الاستراتيجية المتكررة في أعمال علي أومليل هي ما يجعل قارئ هذا الكتاب يشعر بنقلة نوعية في مستوى طبيعة التحليل بين فصوله العشرة الأولى والفصل الحادي عشر الذي يوقف فيه المؤلف نشاطه النقدي الذي عهدناه في الفصول السابقة ليفسح المجال لنشاط مغاير ينحصر في فعل الوصف والشرح والتمجيد لنموذج صالح للتأمل يتمثل في فكر الأنوار الأوربي. ولسنا مبالغين إذا قلنا إن الأسلوب الغالب على هذا الفصل ما قبل

(724/1)

الأخير، الفصل "النموذجي"، هو أسلوب الاقتباس للنصوص الطويلة التي تحضر هنا لا للمراجعة والتحليل، ولكن لمحض الاستشهاد بها والعمل على "شرحها"؛ مما يجعلنا نشعر وكأن المؤلف يعلن هو أيضاً، شأنه في هذا شأن الفقيه و"الكاتب"، وشأنه شأن ابن رشد، أن له أيضاً "سلفاً" يرجع إليه وأنه يقف منه موقف المستشهد وموقف

"الشارح"! إن ما يدعونا إلى ملاحظة هذا هو ذلك الغياب المطلق لكل مراجعة نقدية للتجربة الأوروبية ولمعنى الحداثة، مع أن هذا النقد وارد لدى الأوروبيين المعارضين أنفسهم...

(725/1)

... وبالمناسبة، وفي ضوء توجهات مجتمعاتنا العربية المعاصرة نحو الاختيار الديمقراطي، لستُ أدري هل هذا التوجه مشروط ضرورة بما "استشهد" به المؤلف ودعّم به مواقفه من كلام فولتير (Voltaire) الذي أكد في ضوء تجربته الأوروبية أن "القطيعة" لابد من أن تصير مطلقة »مع الأزمنة الماضية وكأنها لم تكن« (ص. 236، هامش 17)؛ أتساءل عن "ضرورة" هذه القطيعة، خاصة وأن المؤلف يبدو وكأنه يتبنى مقولة فولتير نفسها حين يؤكد في مقدمة كتابه أن الكاتب العربي المعاصر »ليس وراءه سند من تراث يتعزّز به« (ص. 25). إنه موقف خيار،

(726/1)

ولكن يبدو أنه لا شيء يدل على أنه موقف عام في ثقافتنا العربية اليوم... نعم! لا نشك في تأثير تلك الضغوط الواضحة للأحداث السياسية المتسارعة في سنواتنا الأخيرة على تكييف رؤية الكاتب ومعالجته لفصول مؤلّفه والتأدي بفصولها إلى طرح مشكلة الديمقراطية في العالم العربي. غير أن ما يستوقفنا مرة أخرى في تلك الرؤية هو تلك الثنائيات المتقابلة التي تسكن كل فصول الكتاب وتوجه مسارها، من قبيل رجال الدين ورجال الدنيا! والعلم الديني والعلم الدنيوي! حيث يصير الفقيه في الإسلام هو نفسه "الكاهن" (Le clerc) في المسيحية!

(727/1)

(ص. 228)، ويصير المتكلم هو بذاته "اللاهوتي الكنسي..." وغير ذلك من المفاهيم المتقابلة التي يتم إسقاطها هنا دون ضابط علمي واضح، وتؤخذ بكثير من التجاوز واللبس، وكأننا أمام نماذج وصور يصلح نقلها دون مراعاة لأي خصوصية مجتمعية.

... ومهما يكن، فإن المؤلف يعتبر البديل الديمقراطي رهيناً بانتماء ليس من حق من يُنعتون لديه "برجال الدين"، وبذلك يعمل على تكريس أزمة الديمقراطية ولا

يعمل على حلها! إذ كيف نروّج هكذا لمفاهيم و"تصنيفات" غير مستساغة حتى لدى جمهور العالم العربي؟ ولمَ لا نحسم في المسألة من أول وهلة

(728/1)

فنؤكد أمام الملأ، والتاريخ يسند موقفنا هذا، أن بعض الذين يظهرون على الساحة السياسية في حلة "رجل دين" ليسوا كذلك؛ لكون هذا المفهوم القائم على ادعاء امتلاك "سلطة دينية" هو ببساطة مرفوض داخل بنية الفكر الإسلامي منذ أول يوم تأسس فيه الإسلام...
وعليه، فهم رجال ونحن رجال! وبيننا وبينهم أولاً وقبل كل شيء الأسلوب الديمقراطي، فهو مفتاح التفاهم وهو شرط التعامل. ونعتقد أن هذا هو الذي يجعلنا نربح رهان الديمقراطية وليس الاستمرار وراء بعض الأحكام الجاهزة التي قد تُروج لأسباب غير علمية والتي قد تعمق المشكل

(729/1)

وتعود بنا إلى رذيلة الإقصاء بدلاً من فضيلة التسامح وشرعية الاختلاف!

... وهنا نسجل ملاحظة أخيرة نعتبرها أساسية ونابعة من اعترافنا بقيمة التراكم المعرفي داخل المغرب المعاصر في مجال التفكير والإنتاج الفلسفي بالتحديد؛ هذا التراكم الذي عمّر لحد الآن حوالي أربعين سنة كنا نأمل أن نجد له صدى في آخر أعمال علي أومليل. غير أن هذا العمل، وقد بنيت فصوله على مشروعية الاختلاف ومطلب الديمقراطية، يقف من الإنتاج الفلسفي المغربي، سواء المخالف له أو الموافق، موقف التجاهل الطلق والإقصاء الواضح لمواقف مفكريه التي

(730/1)

تتقاطع أو التي تتعارض مع تأويلاته المعروضة في هذا الكتاب. ولعل من علامات الإقصاء أن محاولة المؤلف التي لم نرها مقنعة في جعل ابن رشد خصماً فكرياً وسياسياً بكيفية مضمرة أو صريحة لابن تومرت ثم للدعوة الموحدية، قد سبقتها أو رافقتها محاولات مضادة شاعت منذ مدة، وهي محاولات ترمي إلى إثبات وشائج القربى بين ابن تومرت وابن رشد(1)

_____

(1) ... انظر على سبيل المثال الموقف المضاد عند محمد عابد الجابري في: تكوين العقل العربي، بيروت، دار الطليعة، ط 1، 1984، الفصل الثاني عشر؛ قارن أيضاً الفصول الأخيرة من كتابه الآخر، بنية العقل العربي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1986.

(731/1)

. فكان من المفروض في هذه القراءة المقترحة للمشكل نفسه، وقد أعيد طبعها في هذا الكتاب، أن يحدد صاحبها موقفه من حجج المخالفين، وأن يغني نهم القارئ لمزيد تفصيل بالتعرض البنّاء إلى تلك الأطروحات المخالفة، مما شأنه أن يجعلنا نتمتع بقيمة الاختلاف وندرك مغزى التراكم المعرفي في هذا الجناح من العالم العربي... إلا أن هذا لم يحصل، وكان الإقصاء أو التجاهل هو البديل الحاضر الذي ضيّع علينا فرصة الحوار. وما يقال في شأن القراءة المخالفة لابن رشد يقال في شأن فتنة وامتحان أحمد بن حنبل الذي وقف المؤلف عنده طويلاً

(732/1)

ونوع من مصادره القديمة والمعاصرة أيضاً، دون أن يعرِّج بالكل على قراءة "مخالفة" سبق أن طرحها محمد عابد الجابري(1)... لقد كنا نأمل ذلك وما زلنا نأمله من كل الطاقات الفكرية بالمغرب وبالعالم العربي أجمع؛ إذ هي طاقات تستحق أن يشار إليها وأن يعترف بـ"اجتهادها"، وهي ـ فيما أظن ـ ترحب بحق الاختلاف، هذا الحق الذي يعتبر المدخل الأسلم للفكر الديمقراطي الذي جاء هذا الكتاب

---

(1) ... محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، 1995.

(733/1)

تبشيراً به ودعوة لمعانقة تجربته وتنبيهاً لأولوية مطلبه.

...

(734/1)

إمارة العزفيين في سبتة (647–728هـ/1239–1327م)

د. نهلة شهاب أحمد
أستاذ مساعد –قسم التاريخ– كلية التربية جامعة الموصل – العراق

قيام الإمارة:

... شكلت حالة الضعف والوهن التي دبت في أوصال جسم دولة الوحدين وبوجه خاص بعد موقعة العقاب سنة 609هـ/1212م(1) دافعا قويا لتحول بعض مدن

(1) معركة وقعت بين الموحدين والمماليك النصرانية في إسبانيا جنوب الشارات (سيرامورينا). للمزيد عنها، ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، "الروض المعطار في خبر الأقطار"، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1975، بيروت، 1968، ج1، ص.446.

المغرب العربي ومنها سبتة عن طاعتها وتقديم ولائها لقوة جديدة تمثلت بالدولة الحفصية التي قامت في

إفريقية (تونس) سنة 625هـ/1227م، إذ تقدم أهالي سبتة وأرسل حاكمها المعروف بابن خلاص البلنسي سنة 643هـ/1245م، وفدا برئاسة ابنه في أسطول يحمل هدية إلى الأمير أبي زكريا يحيى الحفصي، ولكن الأسطول غرق بما فيه وكان رد الأمير الحفصي إرسال ابن أبي خالد البلنسي، وابن الشهيد الهنتاني، لحكم سبتة وذلك في سنة 644هـ/1246م(1)

_____

(1) أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري، "البيان المعرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب"، الناشر أميروسي هوسي مرانده مع مساهمة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني، تطوان، دار كريما د. س للطباعة، 1960، ج3، ص.379.

(736/1)

. ولكن ابن أبي خالد تمادى في ظلمه وطغيانه لأهل سبتة؛ وهذا ما أثار الحقد والضغينة بينه وبين قائد الأسطول أبي العباس أحمد الرنداحي(1). ولما توفي الأمير أبو زكريا الحفصي وبويع ابنه الملقب بالمستنصر وجد السبتيون الفرصة

_____

(1) أحمد الرنداحي. ويذكر باسم جحفون الرنداحي، تولى مهمة قيادة الأسطول منذ عهد عمر المرتضى الموحدي، واستمرت هذه الخطة بيد أسرة الرنداحي إلى نحو سنة 720هـ/1320م. (ينظر: محمد المنوني، "ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين"، الرباط، نشر كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، 1985، ص.79).

(737/1)

للتخلص من تبعيتهم للحفصيين بعد أن ضاقوا ذرعا من ظلم وجور ابن أبي خالد، وتغافل ابن الشهيد، فاجتمع القائد الرنداحي مع الفقيه أبي القاسم العزفي(1)

---

(1) هو أبو القاسم محمد بن القاضي المحدث أبي العباس أحمد بن محمد بن الحسين بن الفقيه الإمام علي بن محمد بن سليمان بن محمد الشهير بابن أبي عزفة اللخمي، ينتهي نسبهم إلى قابوس بن النعمان بن المنذر. (ينظر: شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى، "أزهار الرياض في أخبار عياض"، الرباط، إحياء التراث الإسلامي، 1978، م2، ص.274؛ لسان الدين بن الخطيب، "الإحاطة في أخبار غرناطة"، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط2، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1973، ج3، هامش 2، ص.11).

(738/1)

الذي ترجع إليه أصول الأسرة العزفية وحرضه على التخلص من ابن خالد وابن شهيد وجعل رئاسة سبتة بيده، ووعده بأخذ الأمر على عاتقه وتحقيق هذه المهمة بنفسه ووافقه أبو القاسم العزفي. وقام الرنداحي بوضع خطة تم بموجبها القبض على ابن أبي خالد وقتله وتعليقه على سور المدينة، ونفي ابن الشهيد إلى الأندلس(1). وأعلن أبو القاسم العزفي إمارته على سبتة واستقلاله بها

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص.400-401؛ عبد الرحمن بن خلدون، "العبر وديوان المبتدإ والخبر"، بيروت، منشورات الأعلمي للمطبوعات، 1971، ج7، ص.186.

(739/1)

وذلك في سنة 647هـ/1248م أيام الخليفة عمر المرتضى الموحدي (647-665هـ/1249-1266م)(1). ثم قام بضم طنجة حيث تقدم أهلها بطاعتهم إليه عندما رأوا ضعف

وتدهور سلطة الموحدين وظهور قوة المرينيين، فقام بإرسال قوة من الرجال والرماة على رأسهم

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص.400؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، صص.11، هامش 2؛ المقري، "أزهار الرياض"، ج2، ص.374؛ محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، "اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سمي الآثار"، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط2، الرباط، 1983، ص.30، هامش 50.

(740/1)

القائد أبو الفضل العباسي وكان من كبار أعيان سبتة وبصحبته يوسف ابن محمد بن الأمين. وبعد توطيد الوضع في طنجة، عاد القائد أبو الفضل إلى سبتة وترك ابن الأمين واليا عليها(1). وبعد مرور سنة، استبد ابن الأمين بطنجة وانشق عن العزفي ودعا للحفصيين أصحاب أفريقية (تونس) ثم للخليفة العباسي في بغداد وأخيرا لنفسه(2)

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص.415.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص.415؛ ابن خلدون، المصدر

السابق، ج7، ص.186؛ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، تحقيق جعفر الناصري، محمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكاتب، 1954، ج3، ص.34؛ وانظر إبراهيم حركات، "المغرب عبر التاريخ"، ط1، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1978، ج2، ص.21.

(741/1)

. ولكن سرعان ما عادت طنجة إلى طاعة العزفيين، وذلك في سنة 665هـ/1266م إذ بعد أن ملك بنو مرين المغرب العربي داخل طنجة ثلاثمائة فارس منهم واستوطنوا فيها وضيقوا على أهلها وأمنعوا في إيذائهم، فطلب ابن الأمين منهم أن يكفوا أذاهم عن الأهالي مقابل دفع مبلغ من المال لهم، ولكنهم أضمروا الغدر لابن الأمين وقتلوه فثار عليهم عامة طنجة وقتلوهم واجتمعوا حول ابن (ابن الأمين)، ولكنهم خافوا من عقاب وقصاص بني مرين لهم، فخاطبوا أبا القاسم العزفي وطلبوا نجدته، فأرسل إليهم قواته برا وبحرا وأعاد طنجة إلى ملكه، وعين

(742/1)

واليا عليها يعرف بابن حمدان يشاركه في حكمها وإدارتها الملأ من أشرافها(1).

... وضم أبو القاسم العزفي إلى إمارته مدينة أصيلا حيث دخلتها قواته البحرية سنة 663هـ/1264م، وقامت بهدم أسوارها وقصبتها لأنه خاف أن يسيطر عليها العدو ويتمنع فيها(2)

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص.415، ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، صص.186–187؛ الناصري، المصدر السابق، ج3، صص.34–35.

(2) علي بن أبي زرع الفاسي، "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس"، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972، ص.402؛ المقري المصدر السابق، ج2، ص.374.

.

تطورات الأوضاع الداخلية في سبتة:

... استمرت رئاسة مؤسس الإمارة أبي القاسم العزفي مدة ثلاثين سنة حتى وفاته سنة 677هـ/1278م(1). ثم خلفه في الحكم ابنه أبو حاتم أحمد بن محمد بن أحمد العزفي

الذي دام حكمه سنة واحدة حيث تنازل عن الإمارة لأخيه أبي طالب عبد الله بن محمد بن أحمد العزفي(2)

---

(1) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، ص.11، هامش 2.

(2) أحمد بن القاضي المكتدي، "جذوة الاقتباس في ذكر من حل بمدينة فاس"، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1974، ج2، ص.432؛ المقري، "أزهار الرياض"، ج2، ص.377؛ الأنصاري، المصدر السابق، ص.115، هامش 182.

(744/1)

الذي وصف بأنه كان من أهل الجلالة والصيانة، عظيم الهيئة والشأن، عالي الهمة وشديد البأس، معظما عند الملوك، بعيد النظر مطاع السلطان، حكم بلاده، وأدارها إدارة جيدة، ولكن حدث أن ثار عليه بعض أهله وأحاطوا بمركز حكمه، ولكنه لم يتخذ أي إجراء ضدهم سوى أنه خرج إليهم وتحدث معهم وأنكر عليهم فعلتهم، وسلمهم لقضاء الله سبحانه وتعالى، حيث قال لهم: "قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم- : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل"(1)

---

(1) ابن القاضي، المصدر السابق، ج2، ص.433؛ الأنصاري، المصدر السابق، ص.54، هامش 112.

(745/1)

.

... واستمر حكم أبي طالب لسبتة مدة سبع وعشرين سنة حتى خلع سنة 705هـ/1350م، وتوفي مخلوعا في فاس سنة 713هـ/1313م وجاء خلعه بخيانة وغدر من الأمير محمد بن الأحمر المعروف بالمخلوع(1) حيث وجه ابن عمه أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن الأحمر الذي داهم سبتة بأساطيله واحتلها وقبض على بني العزفي ونقلهم إلى الأندلس(2)

---

(1) هو محمد الثالث ثالث ملوك بني نصر (701–708هـ/1302–1309م). ينظر: ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص.228.

(2) المصدر نفسه، ج7، ص. 228؛ ابن القاضي، المصدر السابق، ج2، ص.433؛ المقري، "أزهار الرياض"، ج2، ص.377؛ الأنصار، المصدر السابق، ص.45، هامش 112؛ الناصري، المصدر السابق، ج3، ص.82؛ وانظر: يوسف شكري فرحان، "غرناطة في ظل بني الأحمر"، ط1،

بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 1982، ص.38.

(746/1)

.

... ولكن هذا الاحتلال لم يدم طويلا، بل سرعان ما عاد العزفيون إلى بلدهم بعد أن استرد السلطان أبو الربيع سليمان (708–710هـ/1308–1310م) سبتة وأخرج بني الأحمر منها فاستأذنه بنو العزف بالسماح لهم بالعودة إلى المغرب والقدوم عليه فأذن لهم واستقروا بفاس(1). ثم عادوا إلى حكم بلادهم في عهد السلطان أبي سعيد عثمان المريني (710–731هـ/1310–1330م) حيث تولى رئاسة الإمارة أبو عمر يحيى بن أبي طالب سنة 710هـ/1310م والذي كان على قدر كبير من الشجاعة، ولكن الظروف لم تكن

---

(1) الناصري، المصدر السابق، ج3، ص.113.

(747/1)

تساعد على استرجاع بني العزفي لمجدهم الأول، ولهذا نجد أن الأمير أبا عمر لا يمكث في الإمارة إلا سنة وستة أشهر ثم يخلع سنة 711هـ/1311م، ويعود ثانية إلى حكم إمارته سنة 714هـ/131م، ويستمر في الحكم حتى وفاته سنة 719هـ/1319م(1) وتولى الإمارة من بعده ابنه أبو القاسم محمد بن يحيى، وكان آخر أمراء البيت العزفي، فقد خلع بعد ستة أشهر من حكمه في سنة 720هـ/1320م وغادر إلى غرناطة ثم انتقل إلى

(1) المقري، "أزهار الرياض"، ج2، ص.377. سنتناول هذه الأحداث مفصلا عند الحديث عن العلاقة بين إمارة العزفيين وبني مرين.

فاس وعمل كاتبا لبني مرين، وزهد في تولي المناصب الكبرى في الحكم، فقد أراد السلطان أبو عنان فارس المريني (752–759هـ/1352–1358م) أن يستعمله على قسنطينة، لكنه اعتذر لبعد الشقة عن ولده وبلده، وبقي يعمل كاتبا بالحضرة المرينية حتى وفاته(1).

(1) ابن القاضي، ج1، ص.300؛ المقري، "أزهار الرياض"،

ج2، ص.378؛ الناصري، المصدر السابق، ج3، ص.115؛ محمد بن تاويت، الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ط1، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1983، ج2، صص.409–410.

(749/1)

... وتغلب على الإمارة من بعده ابن عمه محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم الذي كان يعمل قائدا للبحرية في سبتة مكان القائد يحيى الرنداحي الذي رحل إلى الأندلس. وقد اضطربت أحوال سبتة في عهده، واختلط الأمر على بني العزفي، فانتهز السلطان أبو سعيد المريني الفرصة وزحف بقواته إلى سبتة، وأسقط إمارة العزفيين وذلك في سنة 728هـ/1327م(1).

العلاقة بين إمارة العزفيين ودولة الموحدين في المغرب:

---

(1) الناصري، المصدر السابق، ج3، ص.115.

(750/1)

... اتسمت العلاقة بين إمارة العزفيين ودولة الموحدين في المغرب بكونها علاقة طيبة قائمة على أساس

التعاون والاحترام المتبادل بينهما. فقد تمتع الأمراء العزفيون بحكمة وكياسة. فعلى الرغم من الاستقلال شبه التام الذي كانوا يتمتعون به في إمارتهم، فإنهم كانوا على اتصال بمن بقي من البيت الموحدي معترفين بسلطانهم، فنرى مؤسس الإمارة أبا القاسم يخاطب الخليفة المرتضى في كل الأوقات، ويطلعه على أحوال إمارته. ففي بداية تأسيسه الإمارة أرسل بكتاب إليه يطلب منه إرسال مندوب من الموحدين للإشراف على حكم الإمارة فبادر

(751/1)

المرتضى بإرسال ابن الشرقي. ولكن بعد أشهر أخرجه أبو القاسم من سبتة وكتب إلى المرتضى يشرح له أسباب ذلك، لما بدر من ابن اشرقي من أفعال مشينة، فصدق المرتضى قول أبي القاسم(1).

... وفي سنة 655هـ/1255م غدر القطراني(2) بالموحدين وانحاز إلى المرينيين وساعد الأمير أبا يحيى بن

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص.414.

(2) أبو يحيى محمد القطراني، لقب بالقطراني لأن والده كان يشتغل في شبابه وشيخوخته بالقطران. وقد وصف

بأنه كان ذا نفس خبيثة وغدارة وذا أطماع سياسية.

للمزيد، ينظر: المصدر نفسه، ج3، صص.416–417.

(752/1)

عبد الحق المريني على دخول سجلماسة واحتلالها والقبض على واليها، مقابل تعيينه واليا عليها. وقد نفذ الأمير أبو يحيى وعده وعينه واليا وجعل معه شخصا من بني مرين مع جملة من الفرسان والرجال(1). ولكن بعد أن تعاظم أمره وكثر أتباعه وازدادت قوته، وجاءه خبر موت الأمير أبي يحيى المريني سنة 656هـ/1256م، ثار القطراني على الدولة المرينية واستبد بسجلماسة وفي الوقت نفسه، خاطب المرتضى الموحدي معتذرا له عما بدا منه من انحياز لبني مرين، ومتقدما له بطاعته

---

(1) المصدر نفسه، ج3، صص.416–417؛ الاستقصا، ج3، صص.18–19.

(753/1)

وولائه لدولة الموحدين بشرط استقلاله في سجلماسة فوافقه المرتضى، وأرسل له الفقيه أبا عمر بن حجاج

قاضيا، وجمعا كبيرا من جنده، وسيدا من الموحدين يسكن في سجلماسة من غير استبداد. وقد استقبل القطراني القاضي ابن حجاج والجند، وصرف السيد ومن كان معه من الموحدين. وكان قد اتفق المرتضى مع القاضي ابن حجاج وقائد الجند على قتل القطراني بالحيلة. وقد تمكن قائد الجند من قتله. وعندما هدأت أوضاع سجلماسة واستقرت، كتب المرتضى بخبر القضاء على القطراني إلى أبي القاسم العزفي(1)

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، صص.417–419.

(754/1)

.

... وفي سنة 658هـ/1258م بعث أبو القاسم العزفي برسالة إلى المرتضى، وأهالي السواحل، يحذرهم فيها من الاستعدادات البحرية لنصارى قشتالة وملكهم في وادي إشبيلية بهدف احتلال مدينة سلا. فمن صدق بتحذير العزفي خرج من المدينة، ومن تأخر ولم يصدق به قتل أو أسر، بعد أن تمكن نصارى قشتالة من مداهمة المدينة والاستيلاء عليها، واستباحتها، حيث قتلوا من وجدوا فيها من الرجال، وأسروا النساء والأطفال، وخربوا

المساجد والديار. وبعد أن وقع ما حذر منه العزفي، وجه الخليفة المرتضى كتابا إليه يشكره فيه على تحذيره من أمر

(755/1)

النصارى، ويسأله أن يكون متيقظا من غدرهم(1). وهذا بعض من فصول كتابه:

وإنا كتبناه إليكم – كتب الله لكم أحمد عاقبة وأجملها واكتف كلاءة وأكلأها وأن تعلموا أنا نعتد بولائكم الخالص، ونحفظ ما لكم ولسلفكم من السوابق والخصائص ونشكر نصائحكم التي ما زلتم إياها تبذلون وخدمتكم التي توالون وتصلون... والله يتولاكم بحفظه وصونه... وقد طرأ في مدينة سلا جبرها الله سبحانه واستنقذها ما قد اتصل بكم مما كنتم أبدا منه تحذرون وبه لعلمكم بزيادة العدو تنذرون... ووقع المحذور... وهو سبحانه

---

(1) المصدر نفسه، ج3، صص.423–424.

(756/1)

يكافئ سعيكم على ما عرفتهم وحذرتهم لأهل السواحل وخوفتهم من فجأة العدو المخاتل... وإنا لنشكر لكم ذلكم...(1).

... وأرسل المرتضى كتاب شكر إلى أبي القاسم العزفي تثمينا لما أبداه من جهد في تقديم النصيحة والحذر والتيقظ من الأعداء، عندما كشف سنة 658هـ/1258م، عن محاولة النصارى إخراج المسلمين من مدينة شريش(2).

... وأخذ الخليفة المرتضى برأي أبي القاسم العزفي بإقامة المولد النبوي والاحتفال به، وقبل هديته وهي عبارة عن كتابه الموسوم الدر المنظم في مولد

---

(1) المصدر نفسه، ص.425-426.

(2) المصدر نفسه، ص.430.

(757/1)

النبي المعظم(1).

العلاقة بين إمارة العزفيين ودولة المرينيين في المغرب:

... بعد أن تم للسلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني (656-685هـ/1256-1258م) إخضاع معظم

أجزاء المغرب العربي وأنهى دولة الموحدين، بقيت سبتة وطنجة وسجلماسة خارجة عن حكمه وسلطته، فقرر إخضاعهم قبل أن يبدأ بمهمة الجهاد في الأندلس حتى لا تمتد الثورة من هذه المعاقل إلى باقي المغرب. فبعد أن عاد من حصار تلمسان، توجه لحصار طنجة التي كانت تحت حكم العزفيين وحاصرهم مدة ثلاثة أشهر ثم ساعده على فتحها سهول

---

(1) المصدر نفسه، ج3، ص.430.

مسلكها ومساعدة بعض جنودها الذين رفعوا راية الاستسلام ونادوا بشعار بني مرين بسبب خلاف وقع بينهم. فاستغل الجند المريني الفرصة، وسارعوا إليهم وتمكنوا من اقتحام طنجة عنوة وإعطاء الأمان لأهلها وذلك في سنة 672هـ/1273م(1).

... ولما فرغ من أمر طنجة، أرسل ولده الأمير يوسف إلى سبتة فحاصرها، ولكنها صمدت ثم وقعت معاهدة صلح بين الأمير أبي العباس العزفي والسلطان أبي يوسف المريني بشرط أن يحتفظ الأول بحكم سبتة واستقلال بني العزفي فيها

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص.187؛ الناصري، المصدر السابق، ج3، ص.35.

لقاء خراج سنوي يؤديه إلى السلطان المريني(1).

... ثم وضع العزفيون يدهم بيد المرينيين في جهادهم ضد النصارى في الأندلس، مدفوعين بروح الغيرة الإسلامية لا بقصد التبعية للمرينيين(2). ولكن بعدما تعرضت إمارتهم إلى الاحتلال من قبل بني الأحمر واستردادها من قبل بني مرين(3)

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص.187؛ الناصري، المصدر السابق، ج3، ص.35.

(2) انظر محمد بن تاويت، "تاريخ سبتة"، ط1، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1982، ص.123.

(3) انظر تفاصيل احتلال سبتة، في مبحث العلاقة بين إمارة العزفيين ودولة بني الأحمر في غرناطة، صص.10-11.

، تحولت العلاقة من علاقة استقلال وتعاون إلى علاقة طاعة وتبعية حيث قام المرينيون بعدة محاولات من أجل استرداد سبتة من أيدي بني الأحمر: فقد قام السلطان أبو يعقوب يوسف (685–706هـ/1286–1306م) بإرسال جيش بقيادة ابنه الأمير أبي سالم، لكنه فشل(1)؛ ثم نهض السلطان أبو ثابت عامر (706–708هـ/1306–1308م) سنة 707هـ/1307م، قاصدا سبتة التي كان عليها عثمان بن أبي العلاء المعين من قبل بني الأحمر حيث قام في محرم سنة 708هـ/1308م بإرسال غارات على نواحي سبتة، ثم أمر باختطاط

(1) الناصري، المصدر السابق، ج3، ص.82.

(761/1)

وبناء مدينة تطاوين(1) من أجل اتخاذها قاعدة لجيشه المعد لمهاجمة سبتة... وفي الوقت نفسه أرسل كبير الفقهاء أبا يحيى بن أبي الصبر إلى ابن الأحمر يفاوضه في أمر التخلي عن سبتة، وبينما كان ينتظر الجواب مرض السلطان أبو ثابت وتوفي في طنجة في شهر صفر

708هـ/1308م، وتولى الحكم من بعده أخوه أبو الربيع الذي جهز جيشا كبيرا بقيادة تاشفين يعقوب الوطاسي،

---

(1) تطاوين: هي مدينة تطوان القديمة، بنيت سنة 685هـ/1286م أيام دولة يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، ثم بنى عليها أبو ثابت هذه المدينة. (انظر: المصدر نفسه، ج3، ص.96).

(762/1)

لاسترداد سبتة بعد أن ضاق أهلها ذرعا بحكم بني الأحمر، منتهزا فرصة غياب الوالي عثمان بن أبي العلاء وعبوره إلى الأندلس بقصد الجهاد. ولما أحس أهل سبتة بقدوم الجيش المريني، تنادوا بشعار بني مرين وثاروا على من كان بسبتة من حامية ابن الأحمر وأخرجوهم منها، وذلك في سنة 709هـ/1309م. وعندما وصل الخبر إلى ابن الأحمر (أبي الجيوش نصر بن محمد) خشي من بني مرين وأرسل وفدا إلى السلطان أبي الربيع يطلب منه الصلح ويسترضيه بالتنازل له عن الجزيرة الخضراء ورندة وحصونها. وقد وافق أبو الربيع على الصلح ووطد علاقته بابن

(763/1)

الأحمر بزواجه من أخته، وإرسال المدد والمساعدة له بتجهيز جيش وإرساله إلى الأندلس(1).

... أما بنو العزفي، فقد استأذنوا السلطان أبا الربيع في الرجوع إلى المغرب فأذن لهم واستقروا في فاس، وكان أبو زكريا يحيى، وأبو زيد عبد الرحمن ابنا أبي طالب عبد الله بن أبي القاسم... أحمد العزفي يرتادون مجالس العلم بمسجد القرويين في فاس، وهناك التقيا بالسلطان أبي سعيد أيام حكم أبيه من قبله، وتودد إليهما وربطتهما به علاقة صداقة قوية. ولما اعتلى كرسي الحكم، رعى لبني العزفي تلك الصداقة وعقد

---

(1) المصدر نفسه، ص.95-97

(764/1)

لأبي زكريا على سبتة وردهم إليها، فقدموها سنة 710هـ/1310م وأقاموا فيها دعوة السلطان أبي سعيد والتزموا طاعته(1).

... ولكن العزفيين أبعدوا عن إمارة سبتة سنة

713هـ/1313م، عندما فوض السلطان أبو سعيد جميع شؤون الدولة إلى ابنه الأمير أبي علي، فقام بتعيين ابن زكريا حيوة بن أبي العلاء القرشي على سبتة وعزل أبا زكريا يحيى العزفي، وأبعده إلى فاس وبصحبته والده أبو طالب وعمه أبو حاتم، واستقروا هناك ولكن بعد انتفاضة وتمرد

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص.239؛ الناصري، المصدر السابق، ج3، صص.87، 100–101.

(765/1)

الأمير أبي علي على أبيه في فاس، تركا كل من أبي زكريا يحيى بن أبي طالب العزفي وأخيه أبي زيد، فاس والتحقا بالسلطان أبي سعيد الذي قام بإعادة أبي زكريا ثانية إلى إمارة سبتة في سنة 714هـ/1314م(1) بعد أن أخذ والده محمد بن أبي زكريا رهينة عنده من أجل استمرار طاعة العزفيين لدولة بني مرين، ولكن أبا زكريا خلع طاعتهم في سنة 716هـ/1316م، وأعلن استقلاله بسبتة، فوجه السلطان أبو سعيد جيشا بقيادة الوزير إبراهيم بن عيسى البريناني فحاصر سبتة(2)

(1) المصدر نفسه، ص.113.

(2) ابن أبي زرع، المصدر السابق، صص.339–400.

(766/1)

.

... وتقدم إليه أبو زكريا يعلل له سبب خلعه طاعة المرينيين لحبس ولده عنه ومفارقته له، وأنه إذا ما عاد إليه فإنه يعود إلى طاعة المرينيين، فأعلم الوزير إبراهيم البريناني السلطان بذلك، فأرسل إليه بالولد ليسلمه إلى أبيه(1). وعاد أبو زكريا في السنة نفسها إلى طاعة السلطان أبي سعيد، الذي قدم إلى طنجة لاختبار طاعة أبي زكريا فبان له صدقه وأبقاه على إمارة سبتة. واشترط أبو زكريا على نفسه حمل الجباية والهدايا

(1) المصدر نفسه، ص.400؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص.246؛ الناصري، المصدر السابق، ج3، ص.114.

(767/1)

إلى السلطان في كل سنة، واستمر الحال على ذلك إلى أن توفي الأمير أبو زكريا سنة 720هـ/1320م(1).

... وتولى الحكم من بعده ابنه الأمير محمد بن أبي زكريا(2) الذي تغلب عليه ابن عمه محمد بن علي بن الفقيه أبي القاسم قائد البحرية في سبتة. وفي عهده اضطربت ظروف سبتة وأحوال بني العزفي، فاستغل السلطان الفرصة لضم سبتة وإنهاء حكم العزفيين وذلك سنة 728هـ/1327م(3)

---

(1) ابن الخطيب، الناصري، المصدر السابق، ج4، ص.241؛ الناصري، المصدر نفسه، ج3، ص.114.

(2) المصدر نفسه، صص.113–114.

(3) ابن القاضي، المصدر السابق، ج1، ص.300.

(768/1)

.

العلاقة بين إمارة العزفيين ودولة بني الأحمر في غرناطة:

... تعرضت سبتة في عهد العزفيين لخطر بني الأحمر، فقد كانت العلاقة بين الأمير أبي القاسم العزفي والأمير أبي عبد الله بن الأحمر علاقة فتنة وعداء. ففي

سنة 662هـ/1263م، وجه ابن الأحمر حملة بحرية بقيادة المدعو ظافر لمحاصرة سبتة والاستيلاء عليها، وتقدمت السفن البحرية ودخلت ميناء سبتة على شكل دفعات وأحكموا الحصار على سبتة وقطعوا الطرق الواصلة إليها فوجه أبو القاسم العزفي أمره إلى قائد البحرية أبي العباس الرنداحي بأخذ الاستعدادات وتعمير جميع سفن

(769/1)

سبتة لمواجهة العدو. والتحم الفريقان. وكان النصر للرنداحي حيث أسر وقتل عددا كبيرا منهم من ضمنهم القائد ظافر حيث ألقيت جثته في البحر، وطيف برأسه في سبتة، وقد سمي هذا العام في سبتة بعام ظافر(1).

... وعلى الرغم من علاقة العداء، لم يتوان العزفيون – بدافع الغيرة الإسلامية – عن تقديم يد العون والمساعدة لبني الأحمر في ظروف المحن والشدة. من ذلك مثلا ما حصل في أواخر أيام الأمير أبي القاسم العزفي، حيث أرسل محمد الفقيه بن الشيخ محمد بن يوسف بن الأحمر وفدا إلى

---

(1) الناصري، المصدر السابق، ج3، ص.113–115.

(770/1)

السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق يشرح له مخاطر النصارى التي تحيط بالبقية الباقية من الأندلس، فسارع السلطان يعقوب لنصرته في سنة 673هـ/1274م، وخرج من فاس إلى طنجة وطلب معونة أبي القاسم العزفي، فزوده بعشرين سفينة من الأسطول السبتي. وقد حقق الأندلسيون بهذا الأسطول النصر المؤزر(1).

... وفي سنة 678هـ/1229م، حوصرت الجزيرة الخضراء من قبل أساطيل ملك النصارى ألفونسو العاشر حاكم قشتالة، فأرسل ابن الأحمر يطلب النجدة من السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق الذي قام

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، ص.401.

(771/1)

بتوجيه نداء إلى جميع الثغور يطلب منهم تزويده بالسفن الحربية. فكان أمير سبتة أبو حاتم العزفي أول من لبى نداء السلطان وقام بتزويده بخمسة

وأربعين سفينة، كما استنفر جميع أهل سبتة وحثهم على الجهاد. فركبوا البحر بأجمعهم ولم يبق بسبتة إلا النساء والأطفال والشيوخ(1).

... وفي سنة 684هـ/1285م عبر الفقيه قاسم بن الأمير أبي القاسم العزفي على رأس خمسمائة رام من أهل سبتة إلى الأندلس برسم الجهاد إلى جانب السلطان المريني يعقوب،

---

(1) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص.313–314؛ ابن تاويت، "تاريخ سبتة، ص.120–121.

(772/1)

وقد قاموا بالإغارة على حصن من حصون القشتاليين، وسبوا ثمانين شخصا، وكرروا إغارتهم على حصون أخرى وغنموا وقتلوا عددا كبيرا منهم(1).

... وفي السنة نفسها بعث السلطان حفيده الأمير أبا علي منصور بن عبد الواحد على رأس مجموعة من المجاهدين، كان من بينهم مائة من رماة سبتة، إلى حصن من حصون النصارى كان بينه وبين المحلة نحو ثمانية أميال، كان أهله يقومون بقطع الطريق على من خرج من المحلة منفردا أو في قلة، فزحف المجاهدون نحو الحصن

وتمكنوا من اقتحامه عنوة، وقتلوا

---

(1) ابن أبي زرع، المصدر السابق، صص.330-331.

(773/1)

وأسروا عددا كبيرا من الرجال وغنموا ما كان فيه، ثم قاموا بهدمه ونسفه(1).

... ثم وصلت في السنة نفسها أخبار تقدم الأسطول النصراني وحصاره لمضيق جبل طارق حتى يمنع عبور السلطان يعقوب وهو في طريقه إلى المغرب، فعاد مسرعا إلى جزيرة طريف واستنجد بأسطول المغرب، وكانت سبتة أول من جهزته بالإمدادات إلى جانب طنجة ورباط

---

(1) المصدر نفسه، صص.345-347؛ الناصري، المصدر السابق، ج3، ص.59؛ وينظر أيضا مزاحم علاوي، "الدور السياسي والعسكري ليعقوب بن عبد الحق في بلاد الأندلس"، المؤرخون العرب، عدد 18، بغداد، 1989، ص.99.

(774/1)

الفتح وموانئ الريف، زيادة على إمدادات الجزيرة والمنكب وطريف. واستطاع هذا الأسطول الذي بلغ تعداده ستا وثلاثين سفينة رد أساطيل العدو، وانقلب على أعقابه؛ مما مكن السلطان من الرجوع إلى الجزيرة الخضراء ليستعرض أسطوله الذي قام بمناورات حربية أمامه(1).

... وفي سنة 703هـ/1304م، تواطأ ابن الأحمر محمد بن الفقيه المعروف بالمخلوع مع ملك قشتالة فرديناندو الرابع على مسلمي أهل المغرب، وأوعز إلى ابن عمه أبي سعيد فرج بن إسماعيل صاحب

---

(1) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص.348–349؛ الناصري، المصدر السابق، ج3، ص.60.

مالقة بمداهمة سبتة بالحيلة، فاحتلها بغتة وذلك سنة 705هـ/1305م وقبض على بني العزفي وحاشيتهم ونقلهم إلى مالقة ثم غرناطة، واستبد أبو سعيد بأمر سبتة وأطرافها وسد جميع ثغورها. واستمر حكم بني الأحمر لسبتة حتى سنة 709هـ/1309م(1) عندما استرجعت من قبل السلطان المريني أبي الربيع، وعودة

بـنـي العزفي إليها(2).

---

(1) ابـن أبـي زرع، المصدر السابـق، صص.357–358؛ الناصري، المصدر السابـق، ج3، ص.61–62؛ حركات، المرجع السابـق، ص.27.

(2) ابـن خلدون، المصدر السابـق، ج7، ص.228؛ الناصري، المصدر السابـق، ج3، ص.82.

(776/1)

الدور الحضاري لإمارة العزفيين:

... احتلت أسرة العزفيين مكانة علمية مرموقة لما كان لأفرادها من اهتمامات علمية متنوعة خاصة في المجال اللغوي والأدبي والديني. فقد ورثوا الفضل والعلم صغارهم عن كبارهم. لذا فقد تمتعت سبتة في عهدهم بنشاط علمي ملحوظ لحبهم ومراعاتهم للعلم والعلماء.

فقد كان والد مؤسس الإمارة أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد العزفي المولود سنة 557هـ/1161م، عالما وقاضيا ومحدثا. إذ قيل في حقه:

برز علما وعملا ودراية ورواية، وجمع خصالا من الفضل جمة، ولزم التدريس بجامع سبتة مدة عمره، ورحل الناس

(1/777)

إلى الأخذ عنه والاستفادة منه(1).

وقد نظم شعرا في نصرة أهل الحديث حيث قال:

أهل الحديث عصابة الحق ... ... فازوا بدعوة سيد الخلق

فوجوههم زهر منضرة ... ... لألاؤها كتألق البرق

ياليتني معهم فيدركني ... ... ما أدركوه بها من السبق(2)

... وكان أول من أحدث ودعا إلى الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في المغرب العربي. وقد ألف كتابا في هذا الموضوع بعنوان "الدر المنظم في مولد النبوي المعظم"، ولكنه توفي سنة 636هـ/1238م، قبل أن يكمله(3)

---

(1) انظر فيما سبق.

(2) الأنصاري، المصدر السابق، ص. 13، هامش 5.

(3) ابن تاويت، "الوافي بالأدب العربي"، ج 2، ص.401.

(1/778)

.

... وقام ابنه مؤسس الإمارة أبو القاسم العزفي بإكمال الكتاب وإخراجه بنسختين صغرى وكبرى. وهو يميز في هذه الأخيرة كلام والده فيترجم عليه بـ"قال المؤلف"، ثم يعنون زياداته بكلمة "قلت"(1). وتدريسه بنفسه، وإعطاء الإجازة فيه، وكان من الذين أجازهم الخطيب أبو علي بن الخطيب أبي فارس بن غالب الجمحي مع جماعة من أهل سبتة وأعيانها، حين قرأوه عليه بالجامع الأعظم في سبتة سنة 657هـ/1258م(2)

---

(1) المقري، "أزهار الرياض"، ج2، صص.39–243؛ عباس الجراري، "الأدب المغربي"، ط2، الرباط، مكتبة المعارف، 1979، ج1، ص.145.

(2) المنوني، المرجع السابق، صص.266–267.

(1/779)

.

... وكان أبو القاسم يقيم احتفالا كبيرا في يوم المولد النبوي الشريف حيث كانت تقرأ فيه القصائد التي تمتدح النبي – صلى الله عليه وسلم – وآل البيت، وتقام الولائم الكبيرة لإطعام أهالي سبتة أطيب الطعام، كما

كان يقوم بتوزيع الهدايا على الأطفال ليلة المولد من باب الإحسان(1).

... وقد أصبح الاحتفال بالمولد النبوي تقليدا سنويا ليس في سبتة فحسب، بل في أنحاء المغرب العربي، حيث كان الشعراء الشعبيون في دولة بني مرين يتبارون بينهم لإظهار

---

(1) المقري، "أزهار الرياض"، ج2، ص.376؛ ابن تاويت، "تاريخ سبتة"، ص.117.

(780/1)

براعتهم الشعرية في مناسبة ذكرى المولد النبوي. فقد كانوا يتجمهرون صباح يوم المولد في الميدان الرئيسويلقون أشعارهم واحدا تلو الآخر، والفائز منهم يحظى بلقب أمير الشعراء. كذلك كان السلطان المريني يقيم احتفالا بهذه المناسبة يستدعي له رجال العلم والأدب لإلقاء قصائدهم الشعرية، وكان يجزل العطاء للفائزين ولسائر الشعراء(1).

... وقام أبو القاسم العزفي بإهداء كتاب "الدر المنظم" إلى الخليفة الموحدي المرتضى (646–668هـ/1248–1269م) حيث كان أديبا وشاعرا ظريفا فردد

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، صص.401-402.

(781/1)

في شعره ما دعا إليه أبو العباس العزفي في سبتة من إقامة المولد النبوي والاحتفال به حيث قال:

وافى ربيع قد تعطر نفحه ... ... أزكى من المسك العتيق نسيما

بولادة المختار أحمد قد بدا ... ... يزهو به فخرا وحاز عظيما

بشرى بشهر فيه مولده الذي ... ... ملأ الزمان علاؤه تعظيما(1)

... وكان لأبي القاسم العزفي اهتمامات علمية مختلفة. فقد كان فقيها أصوليا نحويا، لغويا، محدثا، عارفا بالرواية وشاعرا مجيدا(2)

(1) الحسن بن محمد الوزان، "وصف أفريقيا"، ترجمة عبد الرحمن حميدة، الرياض، 1399هـ، ص.263.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج3، صص.452.

(782/1)

. وهذه أبيات من شعره في آل البيت المصطفى – صلى الله عليه وسلم –.

ذرية المصطفى إني أحبكم ... ... وحبكم واجب في الدين مفترض

فليس يبغضكم، لا كان باغضكم ... ... إلا امرؤ مارق في قلبه مرض

وحسبكم شرفا في الدهر أنكم ... ... خير البرية هذا ليس يعترض

ولست أطلب من حبي لكم ثمنا ... ... إلا الشفاعة فهي السؤل والغرض(1)

... وتتلمذ على يده العديد من الفقهاء والأدباء بينهم علي بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن أحمد الأنصاري الملقب

---

(1) المقري، "أزهار الرياض"، ج2، ص.377؛ الأنصاري، المصدر السابق، ص.30، هامش 50.

بابن قطرال(1).

... وقد امتدح أبو القاسم العزفي من قبل الفقيه والأديب إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله الأنصاري التلمساني، فقال:

أرأيت من رحلوا ورزقوا العيا ... ولا نزلوا على الطلول حسيسا

أحسبت سوف يعود نسف ترابها ... يوما بما يشفى لديك نسيسا

هل من مؤنس نارا بجانب طورها ... لانيها أم هل تحس حسيسا(2)

... وكان لابنه الأمير أبي حاتم العزفي اهتمامات فقهية، وكان شيخا ومعلما لمحمد بن أحمد بن إبراهيم بن محمد التلمساني

---

(1) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج4، صص.190–191.

(2) المصدر نفسه، ج1، صص.326–328.

(784/1)

الأنصاري(1). وقد امتدحته الأستاذة الأديبة الشاعرة سارة بنت أحمد بن عثمان الجلبية لاهتمامه وحبه للعلم والعلماء، إذ قدمت سبتة في أواخر القرن السابع

الهجري/الثالث عشر الميلادي. ومما خاطبت به أبا حاتم:

بشراك يا نفس نلت السؤل والأملا ... ... وعاد دهرك بعد الجور قد عدلا

ونلت ما كنت طول الدهر تأمله ... ... وعنك أضحى العناد والبؤس مرتحلا

وقد وصلت إلى بحر الندى علم الهدى ... ... أبي حاتم ابن السادة الفضلا

---

(1) **المصدر نفسه، ج** 3، **ص**.200–201.

(785/1)

هو الذي صدره للعلم منشرح ... ... وأودع الله فيه علم ما جهلا(1)

... أما أخوه الأمير أبو طالب بن أبي القاسم العزفي، فكان من أهل الجلالة والصيانة، حافظا للقرآن والحديث، عالما بالتاريخ، تتلمذ على يد الأستاذ أبي الحسين بن أبي ربيع(2).

... وكان ابنه الأمير يحيى بن أبي طالب العزفي يجمع في شخصه اهتمامات علمية كبيرة. فقد كان فقيها فاضلا، عارفا بالأصول والفقه والحديث،

---

(1) ابن القاضي، المصدر السابق، ج2، صص.522–525.

(2) ابن القاضي، المصدر السابق، ج2، صص.433؛ الأنصاري، المصدر السابق، ص.54، هامش 112..

(786/1)

واللغة والمنطق(1)، ومتتبعا طريقة أصحاب الحديث رواية وضبطا وتقييدا وتخريجا مع براعة في الخط، وكان شاعرا مجيدا ذا فكاهة. وقد تتلمذ على يد مشايخ في سبتة وخارجها قراءة وسماعا وإجازة. فممن أخذ منهم من أهل سبتة أبو إسحاق التلمساني، ومن الجزيرة الخضراء أبو جعفر بن الخميس(2).

... وسار ابنه الأمير أبو القاسم محمد بن يحيى... العزفي على سيرة والده حيث كان فقيها وشاعرا مكثرا، مليح الفكاهات وشاحا. وقد بز أهل زمانه في

---

(1) المقري، "أزهار الرياض"، ج2، صص.377–378.

(2) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج4، ص.341.

(787/1)

الموشحات؛ إذ روي عنه أنه أراق الدواة في محفل جليل فتداركه فعلته حيث قال:

ألا يا كرام الناس غضوا جفونكم ... ... فإني من الفعل القبيح مريب

هرقت دواة وهي كالكأس بينكم ... ... وللرضى من كأس الكرام نصيب(1)

... وقد درس الطب ودون فيه، ووصف أنه كان من أهل الظرف والبراعة والطبع المعين، والذكاء المتوقد(2).

---

(1) المقري، "أزهار الرياض"، ج2، صص.378؛ ابن تاويت، "الوافي بالأدب العربي"، ج2، ص.409.

(2) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، صص.11–12؛ ابن القاضي، المصدر السابق، ج1، ص.200..

... انتقل من سبتة إلى غرناطة بعد أن خلع عن حكمها سنة 720هـ/1220م، وهناك اشتهر أدبه، لكنه لم يطل المقام حيث عاد إلى المغرب واستقر في فاس وعمل في الخطط الفقهية وكتب عن ملوك بني مرين(1).

... ومن نظم شعره ما قاله في قاضي مدينة فاس محمد بن عبد الرزاق الجزدلي:

وليت بفاس أمور القضا ... ... فأحدثت فيها أمورا شنيعه

فتحت لنفسك باب الفتوح ... ... وغلقت للناس باب الشريعه

---

(1) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، صص.11-12؛ ابن القاضي، المصدر السابق، ج1، ص.200؛ المقري، "أزهار الرياض"، ج2، ص.278.

(789/1)

فبادر مولى الورى فاس ... ... بعزلك عنها قبيل الذريعه

... ومن شعره قصيدة على قافية لام الألف من سبعة وسبعين بيتا وضعها للأمير المريني أبي سالم ومطلعها:

إذا لم أطق نحو نجد وصولا ... ... بعثت الفؤاد النهار سؤولا

وكم حل قلبي رهينا بها ... ... غداة نوى الركب فيها النزولا(1)

... أما ابنه الأمير محمد بن محمد بن يحيى العزفي المكنى بأبي يحيى، فكان محبا لسماع الشعر ونظمه وكان صحبته بفاس في

---

(1) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، صص.12-14؛ ابن

القاضي، المصدر السابق، ج1، ص.300؛ المنوني، المرجع السابق، ص.273.

(790/1)

حضرة ملوك بني مرين. ومن شعره قصيدة تائية في بحر الكامل في أربعين بيتا رفعها لأبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني، بمدينة تلمسان حيث دخلها وفر حاكمها أمامه ومطلعها:

حن الشوق إلى ديار أحبته ... ... فسقى الثرى شوقا لذاك بدمعته

وامتازه وجدا هبوب نسيما ... ... لما سرى بيديه طيب تحيته(1)

... وكان الأمير عبد الرحمن بن أبي طالب بن أبي القاسم العزفي المكنى بأبي القاسم فقيها ومحدثا، روى عن أبي جعفر بن الزبير، والقاضي ابن عبد

---

(1) ابن القاضي، المصدر السابق، ج1، ص.307؛ المنوني، المرجع السابق، ص.274.

(791/1)

الملك، وابن خميس وغيرهم. وقد ألف كتابا بعنوان "الإشادة بذكر المشتهرين من المتأخرين بالإفادة"(1) لذي الوزارتين أبي عبد الله محمد بن الحكيم الغرناطي(2)

---

(1) ابن القاضي، المصدر السابق، ج2، ص.398؛ المقري، "أزهار الرياض"، ج2، ص.359؛ وانظر: ابن تاويت، "الوافي بالأدب العربي"، ج2، ص.402.

(2) أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد بن سعيد بن محمد بن فتوح بن محمد بن أيوب بن محمد اللخمي، من أهل رنده، عرف بابن الحكيم لأن جد والده كان علاما بالطب، وكان ابن الحكيم على قدر كبير من الفضيلة ومكارم الأخلاق، محبا للعلم والعلماء، حيث كان كاتبا بليغا، أديبا، شاعرا، خطاطا، خطيبا. انظر المقري، "أزهار الرياض"، ج2، صص.340-341.

(792/1)

. ولكن هذا الكتاب لم يصلنا وعد من الكتب المفقودة. ولو كان موجودا لقدم لنا ترجمة لجمهرة كبيرة من رجال القرن السابع، وأوائل القرن الثامن الهجري، مغاربة

وأندلسيين، إذ لا يعرف من كتابه هذا إلا بعض التراجم التي نقلت عنه(1).

... وممن ترجم له في كتابه هذا، الشاعر ابن الخبازة الخطابي الذي قدم له ترجمة تعد من أوفى التراجم(2). وقدم ترجمة لقاضي الموحدين أبي حفص الأغماتي؛ إذ أشاد بمكانته والثناء عليه، ووصفه بالعلم والفضل والعدل في

---

(1) المقري، "أزهار الرياض"، ج2، ص.378.

(2) المصدر نفسه، ج2، صص.378-379.

(793/1)

القضاء إلى جانب براعته في نظمه للشعر والنثر، وتطرق إلى يائيته الشهيرة التي ذكر فيها مدحه للنبي - صلى الله عليه وسلم -، وذكر شمائله الكريمة ومعجزاته الباهرة، بأبيات تربو على ثلاثين ومئة بيت، وذكر أيضا مرثيته الرائية لابن الوزيريين الجد في خمسة وأربعين بيتا وغير ذلك كثير(1). وترجم لأخيه أبي العباس أحمد العزفي فقال فيه: "هو أخي الذي بإخائه أزهى وأنتخي، وكبيري المعتمد بإجلالي وتوقيري. ولولا خوفي من أن يلزمني ما لزم مادح نفسه،

---

(1) المصدر نفسه، ص.379؛ ابن تاويت، "الوافي بالأدب العربي"، ج2، ص.402.

لأطنبت في وصف ما له من المحاسن التي فاق بها أبناء جنسه..." (1)، وأورد له أشعارا منها ما قاله من مدح الوزير ابن الحكيم:

ملكت رقي بالجمال فاجمل ... ... وحكمت في قلبي بجورك فاعدل

أنت الأمير على الملاح ومن يجر ... ... ه في حكمه إلا جفونك يعزل

إن قيل أنت البدر فالفضل الذي ... ... لك بالكمال ونقصه لم يجهل(2)

... كما أورد ابن القاضي أبيات شعر خاطب بها أبا العباس العزفي حاكم غرناطة عند تغريبهم من سبتة إليها حيث قال:

---

(1) ابن القاضي، المصدر السابق، ج2، ص.398.

(2) المقري، "أزهار الرياض"، ج2، ص.357.

لكم حمى في فؤاد غير مقروب ... ... فضائع في هواكم كل تأنيب

إن كان ما ساءني مما يسركم ... ... فعذبوا فقد استعذبت تعذيبي

... وأورد شعرا في حنينه إلى وطنه حيث قال:

لي في سبتة سكن ... ... حبه اضغلي سكن

فهو يزداد جده ... ... مع إبلائه الزمن

أصبح القلب عنده ... ... وبغرناطة البدن(1)

... وقد مدح العزفيون من حل بسبتة. ومنهم الشاعرة الأديبة سارة بنت أحمد بن عثمان، ومما خاطبت به الأمير أبا طالب عبد الله العزفي قولها:

---

(1) "جذوة الاقتباس"، ج2، ص.399.

مولاي بو طالب يا معدن الحكم ... ... وكعبة المجد والعلياء والكرم

ومن له شرف من تحته زحل ... ... أنوار سؤدده نار على

علم

بان الرشاد بكم في الخلق قاطبة ... ... ولم يكن قبلكم

إلا أخا عدم(1)

... ومن الشعراء الذين مدحوا العزفيين ابن خميس

التلمساني حيث قال:

بنو العزفيين الأولى من صدورهم ... ... وأيديهم تملأ

القراطيس والطرخ

رياسة أخيار وملك أفاضل ... ... كرام لهم في كل صالحة

رضخ

---

(1) المصدر نفسه، ج2، ص.525-527.

إذا ما بدا منا جفاء تعطفوا ... ... علينا وإن حلت بنا شدة

رخوا(1)

سقوط إمارة العزفيين:

... بعد وفاة الأمير أبي زكريا يحيى بن أبي طالب

العزفي سنة 719هـ/1319م، تولى الحكم ابنه الأمير أبو

القاسم محمد بن أبي زكريا العزفي، لكنه لم يدم طويلا

في حكمه إذ خلع سنة 720هـ/1220م، وانتقل إلى

غرناطة(2) وسيطر على الإمارة ابن عمه محمد بن علي بن

الفقيه أبي القاسم الذي خلف يحيى الرنداحي

---

(1) الأنصاري، المصدر السابق، ص.114.

(2) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج3، صص.11–12، هامش 2؛ ابن الخطيب، المصدر السابق، ج2، ص.378.

(798/1)

في قيادة الأساطيل لسبتة. وقد عمت الفوضى واضطربت أحوال سبتة في عهده، فانتهز السلطان المريني أبو سعيد الفرصة، وجهز جيشا قاده بنفسه وتوجه نحو سبتة، فتمكن من احتلالها، وذلك في سنة 728هـ/1327م. فبادر بنو العزفي وجموع أهالي سبتة بتقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان أبي سعيد الذي قام بتعيين كبار رجالاته وخواص مجلسه في إدارتها، إذ عين حاجبه عامر بن فتح مدين العثماني على جبايتها، والنظر في مبانيها وإخراج الأموال للنفقات فيها وكافأ الملأ من مشيختها بتقديم الهدايا والإقطاعات لهم، ثم عاد إلى عاصمته سنة

(799/1)

729هـ/1328م(1).

... وبذلك انتهى دور هذه الإمارة في سبتة التي استمرت ما يقارب قرنا من الزمن، تأرجح حكم العزفيين فيها بين القوة والضعف، مما أثر على طبيعة العلاقة بينهم وبين الدولة المرينية، تلك العلاقة التي تأرجحت هي أيضا بين علاقة استقلال وتعاون وعلاقة طاعة وتبعية.

... وجمع العزفيون بين العلم والسياسة في حكمهم إمارة سبتة، وبرز فيهم العديد من رجالات اللغة والأدب والفقه، مما انعكس إيجابا على مجمل النشاط العلمي ورعايتهم المتميزة للعلم والعلماء في هذه الإمارة.

---

(1) الناصري، المصدر السابق، ج3، ص.115.

(800/1)

---

(1)

وفي عهد ألفونسو السابع تولى أسقفية طليطلة الأسقف ريموند (526–547هـ/ 1131–1152م). فقام هذا الأسقف بدور كبير في ازدهار الترجمة نقل كثيرا من الآثار العربية إلى اللاتينية، وتولى بعنايته طائفة من المترجمين والكتاب عرفت في التاريخ بمدرسة المترجمين الطليطليين، وكان كثيرا ما يحفزهم على

العمل ويشجعهم على الترجمة ويبذل لهم على ذلك الصلات والعطايا الجزيلة. فتم عن طريق هؤلاء المترجمين ترجمة مقدار ضخم من التراث العلمي الإسلامي في الفلك والطب والكيمياء والطبيعة والمنطق والرياضيات والأدب وغيرها(2)

---

(2) سعد بن عبد الله البشري، "الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس"، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1414هـ/1993م، ص.540-541.

(801/1)

.

... وقد ساعدت هذه الجمعية على دفع عجلة الترجمة، وتركت أثرا واضحا للطب الإسلامي في أوربا اللاتينية، وبدأت تظهر جامعات أوربية تعنى بالطب الإسلامي مثل جامعة نابولي وباريس وبولونيا وغيرها. وفي هذه الجامعات لمعت أسماء الأطباء المسلمين الرازي وابن سينا والزهراوي، وأصبحت كتبهم مراجع أساسية لطلاب هذه الجامعات وأساتذتها. وصارت الأدوية والوصفات

الطبية وأدوات الجراحة الإسلامية متداولة في أروقة هذه الجامعات حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي.

(802/1)

... وفي القرن الثاني عشر الميلادي بلغت حركة الترجمة من العربية غايتها من النشاط، فترجم عدد كبير من الكتب الطبية المشهورة، أو أعيد ترجمة الكتب التي كان ترجمها قسطنطين الإفريقي ترجمة رديئة أو ناقصة. وكانت معظمها على يد أشهر المترجمين الأوربيين وأكثرهم نشاطا وهو جيرارد الكريموني (1114–1187م) **الإيطالي الذي جاء إلى طليطلة وانضم إلى مجموعة المترجمين الذين كانوا تحت رعاية رئيس أساقفتها ريموند. ومن هؤلاء المترجمين ماركوس الطليطلي، وغنديسلاوي، ويوحنا الإشبيلي؛ ومن الأجانب روبرت الرتيني، وأديلارد الباثي،**

(803/1)

وألبرت، ودانيال مورلي وهرمان الدلماشي، وكانت طليطلة قد سقطت في أيدي النصارى الإسبان في سنة

1085م، فنشطت فيها حركة الترجمة المنظمة. وعرفت هذه الحركة بمدرسة طليطلة. وجاء إليها بعض العلماء الإنجليز والطليان والألمان، ليتعلموا العربية وينهلوا من منهل الثقافة العربية فيها.

... فمما ترجم جيرارد الكريموني من كتب الطب، "القانون في الطب" لابن سينا، وكتاب "التصريف لمن عجز عن التأليف" (قسم الجراحة) للطبيب الجراح الأندلسي أبي القاسم الزهراوي، وكان كتابا تعليميا زهاء خمسة قرون في أوربا، وكتاب "التذكرة في طب

(804/1)

العيون وجراحتها" لعلي ابن عيسى الكحال الدمشقي، وعرف هذا المؤلف في أوربا اللاتينية باسم Haly، وترجم معه كتاب عمار الموصلي في طب العيون أيضا، وقد استخدما معا في جامعات أوربا حتى القرن الثامن عشر، وكتاب "المنصوري" للرازي، وقد ذاعت المقالة العاشرة منه عن الحميات ذيوعا كبيرا في أوربا، وطبعت عدة مرات(1). وقد بلغ ما ترجمه جيرارد زهاء مائة كتاب ويقال بأن بعضها من نتاج تلاميذه، وبعضها

---

(1) سيد رضوان علي، "العلوم والفنون عند العرب

ودورهم في الحضارة العالمية"، الرياض، دار المريخ 1407هـ/1987، صص.111-112.

(805/1)

بالاشتراك مع غيره خاصة غالب ()(1Gallipus)، وهو مستغرب وكان نزيها وذا كفاءة عالية في الترجمة وحسن الاختيار للكتب التي ترجمها. وكان موسوعيا في الترجمة حيث قام أيضا بترجمة كتب في الطب كالفلك والرياضيات والأدب.

... وظل حال الترجمة في طليطلة على هذا الوضع حتى القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي)، حيث ظهر الملك ألفونسو الحكيم (650-683هـ/1252-1284م) الذي قام بجهود جبارة في الترجمة والاقتباس عن العلوم والمعارف العربية إلى اللغتين اللاتينية

---

(1) سعد البشري، المرجع السابق، صص.542-543.

(806/1)

والقشتالية.

... وكان يعمل لديه عدد من العلماء المسلمين

والمسيحيين واليهود. وقد أنشأ ألفونسو الحكيم معهدا للدراسات اللاتينية العربية سنة 652هـ/1254م في إشبيلية؛ كما اتجه اهتمام ألفونسو الحكيم إلى تدوين واسع للأحداث العامة تحت نظره، وكان اعتماده في ذلك على مصادر التاريخ العربي ووثائقه، كما ركز جهده على ترجمة المصنفات والآثار العلمية في الفلك(1).

... وفي القرن الثالث عشر الميلادي ترجم فرج بن سالم أشهر الكتب الطبية العربية وأوسعها بعد "القانون" لابن سينا، وهو كتاب "الحاوي"

---

(1) المرجع نفسه، ص.543.

لأبي بكر الرازي، كما ترجم في هذا القرن كتاب "التيسير في المداواة والتدبير" لابن زهر الأندلسي الذي كان أحد أعلام الطب البارزين في الأندلس، وبالتحديد في العصر الموحدي الذي شهد نهضة طبية رائدة؛ وهو الطبيب أبو مروان عبد الملك بن زهر المتوفى سنة 557هـ والذي ترك لنا مؤلفات جليلة مشهورة كان من أبرزها هذا الكتاب الذي ركز فيه على فكرة أن التجربة خير وسيلة لاكتشاف الأمراض وعلاجها، مما قاده

إلى الخروج بآراء مبتكرة تقوم على الحقائق الثابتة.

وقد تنبه الأوربيون لأهمية هذا الكتاب منذ القرن الثالث عشر

(808/1)

الميلادي، حيث ترجم إلى العبرية أولا ثم إلى اللاتينية.

وصار هذا الكتاب أحد المصادر المهمة التي كانت تدرس في المراكز الطبية المشهورة في أوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادي(1)، وكان قد ترجمه جون الكابوني (John of Capoa). ومن أهم الكتب الطبية العربية التي ترجمت خارج إسبانيا كتاب "الكليات" لابن رشد الفيلسوف الطبيب الأندلسي المشهور، وقد ترجمه أحد المترجمين غير المشهورين،

---

(1) يوسف بن علي العريني، "الحياة العلمية في الأندلس في العصر الموحدي"، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1416هـ، صص.332–335.

(809/1)

بوناكوسا (Bonacosa) من بادوا (Padua) بإيطاليا سنة 1255م بعنوان (Colliget) وفصوله عن التنفس تمتاز بالنقد الأصيل لنظرية جالينوس(1).

... ولم يكد القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي يؤذن بالزوال حتى انتهى العصر الذهبي للترجمة من العربية إلى اللاتينية، وإن بقيت الترجمة حتى القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي قائمة. غير أن ما ترجم حتى نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي يعتبر بحق مفتاح النهضة الحضارية والازدهار العلمي والفكري

---

(1) سيد رضوان علي، المرجع السابق، ص.112–113.

(810/1)

لأوربا(1).

... وجدير بنا أن نتحدث هنا عن تلك المدرسة الطبية التي أدت دورا مهما في نقل ألوان التراث الطبي العربي الإسلامي إلى أوربا. وهذه المدرسة هي مدرسة مونبيليه بجنوب فرنسا. وقد ذاعت شهرتها في دراسة الطب منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وكان يعيش بهذه المدينة التي تنتسب إليها المدرسة

طوائف كبيرة من العرب واليهود بالإضافة إلى المسيحيين الذين يجيدون اللغة العربية. وفي ظل شيء من التسامح الديني، عاشت تلك الطوائف معا في خدمة العلم وترجمة كتب الطب

(1) سعد البشري، المرجع السابق، ص.543.

العربية وتدريسها. وكان لهذه المدرسة في أوائل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي روابط وصلات متينة مع مراكز الطب العربية في جنوب الأندلس، وهو ما يؤكد عظم المهمة التي تولتها هذه المدرسة في نشر المعارف الطبية العربية في أوربا(1).

... وقد قام بتأسيس هذه المدرسة الكاردينال كونراد سنة 1220م ونظمها على شبه مدارس الطب الإسلامية. واحتل الطب الإسلامي مركز الصدارة في برنامج التدريس فيها طيلة القرن الثالث عشر والرابع عشر، فكان الأساتذة يشرحون كتب ابن سينا والرازي وأبي القاسم

(1) المرجع السابق، ص.546.

الزهراوي. وكانت هذه المدرسة على اتصال دائم بالمدارس العربية في جنوب إسبانيا، الأمر الذي يؤكد التأثير الفاعل لمدرسة مونبليه على تطور الطب الأوربي على الطريقة العربية(1).

... ولعل أهم ما تميزت به هذه المدرسة الطبية الشهيرة ما ضمته من مخطوطات طبية عربية كثيرة في الوقت الذي لم يكن في مكتبة جامعة باريس سوى تسعة كتب طبية أهمها "الحاوي" للطبيب المشرقي الرازي.

---

(1) محمود الحاج قاسم محمد، "الطب عند العرب والمسلمين: تاريخ ومساهمات"، جدة، الدار السعودية، 1407هـ/1987، ص.383.

(813/1)

... وكان لما صنفه بعض أطباء الأندلس أثر عظيم في ازدهار الدراسات الطبية في أوربا. فمنهم الطبيب والصيدلي عبد الرحمن بن وافد (كان حيا سنة 460هـ/1067م) والذي عرف عند الأوربيين بابن ويفيت (Eben Guefith) وبأسماء أخرى مشابهة. وكان من أعظم

الأطباء والصيادلة الذين أثروا حقل الطب بدراساتهم العلمية القيمة. فكتابه الشهير عن الأدوية المفردة لقي إقبالا عظيما من أهل عصره ومن بعدهم من مسلمين وأوربيين في القرن السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر الميلادي، وترجم إلى اللاتينية والعبرية والقطلانية وأفادوا منه في

(814/1)

علم الصيدلة وتركيب الأدوية وصناعة العقاقير(1).

ثانيا: طريق جزيرة صقلية

... وهي الطريق الثاني لانتقال العلوم الإسلامية إلى أوربا حيث كانت تلك الجزيرة تنعم بالرقي والتقدم العلمي في ظل الحضارة الإسلامية، وكانت مركزا من مراكز الثقافة الإسلامية.

... وكانت قبلها صقلية تعيش حالة من التأخر والجهل إلى أن افتتحها المسلمون سنة 212هـ/877م على يد الأغالبة بقيادة القائد المسلم أسد بن الفرات، فوفدوا إليها بعقلياتهم وثقافاتهم ومذاهبهم وحملوا معهم إليها طائفة من الكتب

---

(1) سعيد البشري، المرجع السابق، ص.547.

(815/1)

العربية أو المنقولة إلى العربية متنوعة في ثقافاتها. ومن هنا بدأ التلاقح الفكري. فما هي إلا فترة قصيرة استراحت فيها بعض الراحة من الحروب والفتن حتى أنتجت إنتاجا متنوعا في الفقه والحديث واللغة والفلسفة والطبيعة والطب والهندسة والنجوم، وكان ذلك في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للهجرة. ... وقد استمر الحكم الإسلامي في صقلية إلى سنة 848هـ عندما سقطت في أيدي النورمان الذين ساروا على نهج المسلمين في التسامح وتنشيط الحركة العقلية في الجزيرة، فأبقوا المسلمين على عاداتهم ودينهم ولسانهم، واستعملوا

(816/1)

فريقا كبيرا منهم في حروبهم وحاشيتهم. فكان منهم القواد والعظماء والعلماء في الدولة الجديدة؛ وظلت اللغة العربية لغة رسمية في الجزيرة طوال حكم النورمان، بل لقد تعلم هؤلاء العربية؛ ومنهم من برز فيها ونظم الأشعار. وتخلق النورمان بأخلاق رعاياهم

وعاملوهم معاملة نادرة في التسامح الديني والسياسي، حتى اتهم البابا وات أمراء النورمان بالإسلام، وما زالوا حتى قضوا عليهم بهذه التهمة الكاذبة التي لا أساس لها من الصحة(1)

---

(1) محمد عبد الرحمن مرحبا، "الموجز في تاريخ العلوم عند العرب"، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1970، ص.238.

(817/1)

.

... وكان للموقع الجغرافي الفريد الذي تتمتع به جزيرة صقلية عظيم الأثر في قيامها في مهمة نقل التراث الإسلامي إلى أوربا، حيث كانت صقلية وعلى الأخص عاصمتها "بالرمو" أكثر مدنها ازدهارا وتألقا ونقلا للعلوم الإسلامية وخاصة إلى جنوب أوربا (إيطاليا وفرنسا).

... وفي بالرم (Palerme) التي اتخذها المسلمون عاصمة لهم في صقلية أنشأوا مدرسة للطب لم يعد مثلها في العالم اللاتيني آنذاك وعلى غرار هذه المدرسة، أنشئت مدارس للطب في بلاد إيطاليا(1).

---

(1) المرجع نفسه.

(818/1)

... في القرن الثاني عشر الميلادي أسس روجر في جزيرة صقلية أول كلية طب في أوربا قامت بتدريس طلاب الطب ومنحهم شهادات بعد التخرج تؤهلهم لممارسة مهنة الطب.

... وقد تركز أثر صقلية على أوربا في الترجمة والنقل من اللغة العربية إلى اللغات الأوربية باختلافها حيث تصدت طائفة من المترجمين في صقلية لنقل التراث الإسلامي إلى أوربا في مقدمة هؤلاء قسطنطين الإفريقي الذي كان رائدا من رواد نقل التراث في القرن الحادي عشر، وقسطنطين الإفريقي (1020–1087م) عربي الأصل ولد في قرطاجة بتونس وساح في البلاد العربية حيث أتقن

(819/1)

اللغة العربية بجانب معرفته اللغة اللاتينية واليونانية. وانتقل إلى إيطاليا حيث اتصل بجيزوفلو، أمير مدينة سالرنو، وبأخيه الطيب. ثم أمضى معظم

حياته في دير مونت كاسينو حيث قام بترجمة الكتب العربية وبالتأليف. عمل بعض الوقت في مدرسة سالرنو الطبية، فأثر فيها تأثيرا بالغا بترجمته عددا من الكتب الطبية اللاتينية، وإدخاله التعليم الطبي العربي فيها كما أنه كان يكتب أيضا في القانون الصحي الذي كان يحرره عدد من أساتذة مدرسة سالرنو. ويذهب البعض إلى أنه كان قد أسلم ولكنه كتم دينه خوفا من الاضطهاد الذي كان سائدا

(820/1)

ضد الإسلام والمدنية العربية خلال الحروب الصليبية. وظهرت أول طبعة من كتبه في بازل سنة 1537م في سبعة أجزاء. كما ترجم قسطنطين الإفريقي عددا من الكتب الطبية العربية التي كان قد أتى بها من الشمال الإفريقي والشرق العربي إلى الحكام النورمان الجدد في سالرنو. فتفرغ لترجمة هذه الكتب في دير بإيطاليا، ومنها "كتاب كامل الصناعة" لعلي بن العباس المجوسي طبيب عضد الدولة البويهي (كان حيا قبل سنة 384هـ/994م)(1)

---

(1) كتاب "الملكي"، أو "كامل الصناعة الطبية"، كتاب

جليل في الطب كان أساسا لتدريب الطب إلى أن ظهر "القانون" لابن سينا. وهو يفرق عن "القانون" في أن مؤلفه علي بن عباس "اعتمد فيه على مشاهداته العلمية في المستشفيات لا على مجرد الدراسة النظرية. لذا يقول العلماء إن "الملكي" في العمل أبلغ؛ و"القانون" في العلم أثبت. ويتميز هذا الكتاب بمقالتيه الأولى والثانية والمشتملتين على فصول رائعة في التشريح كانت مرجعا لعلم التشريح في سالرنو بإيطاليا مدة من الزمن" (الماحي، "مقدمة في تاريخ الطب العربي"، ص.83).

(821/1)

. وقد عرف هذا الكتاب في أوربا باسم "الكتاب الملكي". وقد قام قسطنطين بتدريس هذا الكتاب في ترجمته اللاتينية بالجامعة الطبية في سالرنو التي تخرج منها(1). كما ترجم كتاب "زاد المسافر" لابن الجزار القيرواني (ت395هـ/1004م) وعرف الكتاب باللاتينية "Liber Regius"(2).

---

(1) عبد الحليم منتصر، "تاريخ العلوم ودور العلماء في تقدمه"، القاهرة، دار المعارف، 1980، ص.230.

(2) توفيق الطويل، "الحضارة الإسلامية والحضارة

الأوربية. دراسة مقارنة"، القاهرة، مكتبة التراث الإسلامي، ص.157.

(822/1)

... وترجم أيضا كتب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي في البول والحميات وكتب الرازي وكتاب "طب العيون" لحنين بن إسحاق وغيرها، وقيل إنه ترجم ما يقرب من سبعين كتابا طبيا من العربية، نسب بعضها إلى أطباء يونانيين. كما أصبحت بعد ذلك من الكتب التي كانت تدرس في جامعة مونبليه المشهورة بدراساتها الطبية بالإضافة إلى كتب طبية عربية أخرى مهمة ترجمت في القرن التالي(1). وكان قسطنطين أول وسيط لنقل العلوم الإسلامية إلى أوربا عن هذا الطريق، وظل تأثير قسطنين يتزايد

---

(1) سيد رضوان علي، "العلوم والفنون عند العرب"، ص.111.

(823/1)

-بفعل تلامذته- وبتأثير مدرسة سالرنو بوجه أخص -

لأن تأثيرها سرعان ما امتد إلى أنحاء أوربا كلها(1).

... كما نبغ عدد من المترجمين في صقلية، منهم فرج بن سليم اليهودي المعروف عند الغرب باسم فراجوت أو فراريوس الذي ترجم كتاب "الحاوي" للرازي ترجمة رائعة انتهى منها سنة 1289م(2) وترجم أيضا "تقويم الأبدان" لابن جزلة

---

(1) توفيق الطويل، المرجع السابق، ص.157.

(2) ماكس مايرهوف، "العلوم والطب"، ضمن مجلد "تراث الإسلام"، إشراف، توماس أرنولد، تعريب وتعليق جرجيس فتح الله، ط3، بيروت، دار الطليعة، 1978، ص.499.

(824/1)

البغدادي. كما ترجم كتاب "الطب التجريبي" لجالينوس.

... وعن هذه الجهود جميعا نشأت مدرسة سالرنو في جنوب إيطاليا التي ركزت على دراسة الطب، وكانت مركز إشعاع لعلم الطب في جنوب إيطاليا حيث ازدهر الطب العربي على يد أساتذة من العرب وغيرهم في أواخر

القرن الحادي عشر. وبفضل عدد من المترجمين الأكفاء أمست هذه المدرسة معينا لا ينضب للثقافة والعلوم العربية ودعامة صلبة للنهضة العلمية الأوربية وبرزت مدرستها الطبية سنة 985**م.**

(825/1)

وألفت كتب طبية في سالرنو أظهرت أن أطباءها لم يمتصوا المعلومات الحديثة العربية فقط، بل تمكنوا من توسيعها. وأهم مؤلفات مدرسة سالرنو هو "الموجز السالرني" و"النظام الصحي السالرني" (Regimen Satiates Salenitonum**) الذي يبدو أنه ألف حوالي سنة** 1100**م، وهو قصيدة من** 352 **بيتا في الأصل. وأشهر شرح لها هو شرح أرنولد فلانوفا (** Arnold of Villanova) (1235–1312**م)، وهو طبيب وأديب من كاتلونيا أتقن العربية وترجم منها وألف باللاتينية. واشتهر من طلاب سالرنو مايكل سكوت [** Michael Scot] (1175–1236**م) الذي تضمنت إحدى وصفاته**

(826/1)

التخدير بالاستنشاق(1).

... من شواهد التأثير الفاعل للثقافة العربية في إيطاليا في تلك الحقبة إنشاء مدرسة لتعليم اللغة العربية في جنوا وإدخال كثير من الألفاظ والاصطلاحات العربية إلى اللغة الإيطالية. وكان تسامح الحكام المسلمين في صقلية كعادتهم في كل مكان حلوا فيه، عاملا مباشرا في ازدهار الثقافة والفنون والعلوم فيها، حيث شملت لغات العالم العلمية الثلاث في ذلك الزمان وهي اللاتينية واليونانية والعربية. وتم نقل المؤلفات من لغة إلى

---

(1) محمود الحاج قاسم محمد، "الطب عند العرب والمسلمين"، صص.385-388.

(827/1)

أخرى، وبذلك أصبحت صقلية خير نموذج لامتزاج الثقافات وصاحبة مدنية لاتينية يونانية عربية فريدة.

... وهكذا كانت صقلية تحت الحكم الإسلامي مسرحا لنقل الحضارة الإسلامية بعامة، وعلم الطب على الأخص إلى أوربا.

ثالثا: طريق الحروب الصليبية في الشرق

... بالقدر الذي بلغ فيه علم الطب عند المسلمين درجة عالية من التطور والرقي، وخاصة في بلاد الشام ومصر زمن

الحروب الصليبية، كان الصليبيون وقتها في مستوى متدن للغاية حتى أن الطب كان عبارة عن خرافات وشعوذة. وما رواه أسامة بن منقذ يظهر لنا مدى التدني الذي كان عليه طب

(828/1)

الصليبيين. فمن المعروف أن أسامة كان شاهد عيان اختلط بالصليبيين، ولذلك يعد حديثه عنهم حجة لها أهميتها. فقد روى أن جيلوم بوبور أخبره أثناء رحلة من عكا إلى طبرية برفقة معين الدين أنر عن فارس في أوربا مرض مرضا شديدا، فجيء إليه بقس كبير فوضع عليه يديه، وكان الحاضرون يتوقعون شفاءه فور قدوم القس. غير أن القس طلب شمعا ولينه، وعمله مثل عقد الإصبع ووضع كل واحدة في جانب أنفه فمات. وما كان من القس إلا أن التفت إليهم وقال سددت أنفه حتى يموت فيستريح(1)

---

(1) أبو المظفر أسامة بن مرشد الشيرازي (ت 584هـ-1188م)، "الاعتبار" حرره فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، 1930، صص.137-138.

(829/1)

.

... ومثل هذا الموقف الذي يحدث من جانب الصليبيين جعلهم يقدرون الطب عند أهل الشام ومصر، ويفضلون أطباء المسلمين على أطبائهم، على الرغم من معارضة رجال الكنيسة وعلى رأسهم برنار دي كليرفو الذي كان أحد معاصري أسامة بن منقذ وكان يؤمن بالمعجزات الشفائية، لذلك حرم على رهبانه الذين يداهمه المرض أن يتناولوا أي نوه من أنواع الأدوية، أو أن يتصلوا بالأطباء؛ لأنه يجدر بهم حسب رأيه أن يموتوا دون أن تعبث بهم العقاقير.

(830/1)

... ولم تكن هذه المعتقدات نابعة من برنار وأمثاله، بل كانت متأصلة في الزعي الديني عند النصارى آنذاك، الذين يعتبرون المرض نوعا من الجزاء والعقاب الإلهي لا يصح للإنسان أن يتسبب في علاجه والبرء منه(1).

... وعلى الرغم من هذا الاعتقاد، فقد كان تقدير الصليبيين لأطباء مصر والشام كبيرا. وخير مثل على هذا

ما حدث عندما أصيب بودوان بن عموري ملك بيت المقدس بالجذام. فقد استقدم عموري طبيبا من الديار المصرية هو داود بن

---

(1) عبد الله الربيعي، "أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي"، الرياض، 1415هـ/1994م، ص.118.

(831/1)

أبي المنى لمعالجة ابنه. وكان الأمراء الصليبيون يلجأون إلى أطباء المسلمين عندما يصاب أحد منهم بمرض، مما جعل وليم الصوري يقول بشيء من الأسى: "إن أمراءنا الشرقيين، تحت تأثير نسائهم، يزرون بالأدوية وبالوسائل الطبية اللاتينية ولا يؤمنون إلا بالأطباء اليهود والسامريين والسوريين والعرب"(1).

... وكان بعض الطلاب الأوربيين المحبين للمعرفة يفدون إلى الشام لدراسة الطب في مدرسة طرابلس. وكانوا يبدأون دراستهم بعد تعلمهم وإتقانهم اللغة العربية(2)

---

(1) عبد الله الربيعي، المرجع السابق، ص.122.

(2) عمر عبد السلام تدمري، "الحياة الثقافية في

طرابلس خلال العصور الوسطى"، بيروت، دار فلسطين، 1973، ص.69.

(832/1)

. وكان هؤلاء الطلاب يمارسون الطب بعد عودتهم بالمستوى الرفيع الذي وصلوا إليه. وقد طلب بعضهم من البابا إنوسنت الثالث أن يعمل على إقامة عدد من المشافي، فبادر في سنة 1204م بإنشاء مستشفى في روما سماه مستشفى الروح القدس. وأعقب هذا إنشاء عدد من المستشفيات على غراره في مختلف أنحاء أوربا. وقد وصل عدد هذه المستشفيات في القرن الثالث عشر الميلادي في ألمانيا وحدها إلى أكثر من مائة مستشفى. وفي فرنسا كثرت المستشفيات التي تعنى برعاية العجزة والفقراء. وفي عام 1260م أنشأ لويس التاسع في باريس ملجأ الثلاثمائة،

(833/1)

وكان في بداية الأمر مأوى للمكفوفين، ثم أصبح مستشفى للرمد، والآن يعتبر من أهم المراكز الطبية في

باريس. ومن المعروف أن الملك لويس كان قد قاد حملة إلى الشرق في عام 1249م. ولا شك أنه رأى في الشرق نماذج من المستشفيات، فعمد إلى إقامة مثيل لها في بلاده. أما في إنجلترا، فقد أنشئ مستشفى القديس بورثولميو في لندن في سنة 1123م، ويعتبر أقدم مستشفى في هذه البلاد. وفي عام 1215م أسس مستشفى القديس توماس في لندن(1).

---

(1) عبد الله الربيعي، "أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأدبي"، ص.123-124.

(834/1)

... وإضافة إلى الطلاب الذين كانوا يفدون إلى الشرق للدراسة، كان هناك أطباء يرافقون الحملات الحربية ويجدون في هذا فرصة للتزود من معارف الشرق، ولا سيما في مجال الطب من الناحيتين العلمية والعملية. وكان من هؤلاء جراح إيطالي يدعى هوج البولوني قدم إلى الشرق في عام 1218م ومكث ثلاث سنوات اطلع خلالها على طرق العلاج، واتصل بالأطباء ليكتسب الخبرة. وكم كانت دهشته عظيمة عندما رأى المستشفى العسكري المتنقل الذي يحمله أكثر من ثلاثين جملا. وأثناء حصار دمياط

تعرف هوج على الطريقة التي يضمد بها المصابون؛ فقد تعلم

(835/1)

كيف تلف الجروح بخرق نظيفة ساخنة مبلولة بالخمر ثم تترك مدة أسبوع حتى تندمل(1).

... وقد أبدى هوج إعجابه بصفة خاصة بطريقة التخدير التي كان يتبعها الأطباء المسلمون قبل إجراء العمليات. وكان الأطباء المصريون يستعملون نبات الخشخاش والشوكران لتخدير المرضى. ورأى عملية تجبير الكسور التي تتم بطرق علمية لا تستخدم فيها آلات التعليب التي كانت متبعة في أوربا. وعندما عاد هوج إلى أوربا في عام 1221م، اهتم بنشر هذه الطرق والأساليب. وقد ترك بعد وفاته مدرسة

---

(1) زيغريد هونكه، "شمس العرب تسطع على الغرب"، صص.300-301.

(836/1)

للجراحة في بولونيا، تولاها ابنه ثيودريك، الذي كان أبوه قد أوصاه بالاهتمام بتضميد الجروح على نحو ما تعلمه من العرب، واتباع طريقتهم في التخدير. وقد أثبت ثيودريك أنه خير خلف لأبيه؛ فلقد زاول مهنة الطب وألف كتابا في الجراحة ضمنه تعاليم أبيه الطبية، وبخاصة في هذا الحقل(1).

... وكانت الكنيسة قد حرمت ممارسة الجراحة بموجب مرسوم صدر في سنة 1163م. ولكن بعد أن أخذت الكتب الطبية المترجمة عن العربية تنتشر في أوربا وتأسست عدة مراكز

---

(1) عبد الله الربيعي، "أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي"، صص.124-126.

(837/1)

طبية على غرار مراكز الشرق، بدأ الاهتمام بالجراحة. وقد جاء في سجلات شارك دانجو، ملك صقلية، ذكر الكثير من المؤلفات اللاتينية المترجمة عن اللغة العربية. وقد رافق سَارْك أخاه لويس التاسع ملك فرنسا في حملته على مصر، وتسنى له الاتصال بالعلماء العرب، وقد عرف عنه أنه أسس مدرسة للترجمة(1).

... هذا، وقد تمت في الشرق ترجمة بعض الكتب العربية إلى اللاتينية. ومن أشهر هذه الترجمات ترجمة الكتاب الملكي "كامل الصناعة الطبية" الذي ألفه علي بن عباس المجوسي. وهذه الترجمة قام بها ستيفن

---

(1) المرجع نفسه، صص.125–126.

(838/1)

الأنطاكي ستيفانو دبيزا أثناء وجوده في أنطاكية في سنة 1127م وسماه "الكتاب الملكي"، وهو العنوان الذي عرف به الكتاب في أوربا وقد ترجم هذا الكتاب تحت اسم "Liber Pantegni". الواقع أن هذه الترجمة إعادة للترجمة التي قام بها قسطنطين الإفريقي في دير مونتي كاسينو في إيطاليا في القرن الحادي عشر الميلادي، وقد قوى الأثر العربي في هذه جامعة سالرنو بإيطاليا بالمعلومات الطبية التي كان الصليبيون العائدون من الشرق يحملونها معهم، فكانت إلى جانب الكتب العربية رافدا من روافد التعليم الطبي في هذه الجامعة. وظلت

(839/1)

المقالتان الأولى والثالثة مرجعا لطلاب هذه الجامعة في علم التشريح مدة قرن من الزمان(1).

... وممن برز في نقل الطب إلى أوربا عبر هذا الطريق أدلار باث الذي اشتهر بنشاطه العلمي بين 1115 و1142م، حيث عاش في الشرق لسنوات عديدة وألف كتبا عديدة فيها الكثير من الآراء العلمية العربية؛ كما قام بترجمة عدد آخر من الكتب العربية إلى اللاتينية.

وساهم المرضى والأطباء من المحاربين العائدين أيضا في نقل كثير من الوصفات الطبية العربية إلى الغرب، وكان المحيط الرئيس لهم لدى العودة مدينة

(1) المرجع نفسه، صص.126-127.

سالرنو حيث أفاد في دفع الحركة الطبية في مدرستها.

وعلى الرغم من كون تأثير الحروب الصليبية على الثقافة والطب لم يكن بحجم المعابر، فإن ذلك التأثير ظهر جليا في أوربا بعد القرن الثاني عشر بظهور المستشفيات والملاجئ التي أخذوها عن المشرق

الإسلامي(1). إذ أنه يمكن أن نجزم بأن من أبرز الآثر الملموسة للطب الإسلامي في أوربا عن هذا الطريق هو تلك المستشفيات التي أخذت تنتشر في العواصم الأوربية بداية من القرن الثالث عشر الميلادي حيث كان الشرق

---

(1) محمود الحاج قاسم محمد، "الطب عند العرب والمسلمين"، صص.390-391.

(841/1)

الإسلامي ميدانا لمشاهدة الأوربيين لتلك البيمارستانات المنتشرة عند المسلمين والتي بلغت حدا من الرقي والتقدم كالبيمارستان النوري والمنصوري بالقاهرة.

... ومن المعابر الثانوية:

... 1- الرحلات:

... كان من بين المعابر الثانوية للحضارة الإسلامية بعامة، وعلم الطب بخاصة، إلى أوربا تلك الرحلات التي قام بها الأوربيون إلى عدد من مناطق العالم الإسلامي وبلاده. وكان الغرض الأساسي من هذه الرحلات هو التجارة والسياحة وتلقي العلوم. فعلى سبيل المثال ماركو بولو

صاحب الرحلة السياحية المشهورة، وليوناردو دافنشي الذي

(842/1)

ولد في بيزا عام 1180م؛ وخلال عمله في التجارة في بجاية في الجزائر تعلم الحساب وزار طوروس وسبتة وتونس، وتردد على مكتبات الإسكندرية ودمشق، وناقش كبار العلماء في القاهرة، ودرس كل ما حوته مخطوطات كبار الرياضيين من الإغريق والهنود والعرب، فنبغ في ذلك؛ وبعد أن عاد إلى إيطاليا تنبه إليه القيصر فردريك الثاني وضمه إلى خلصائه من العلماء. فهناك ألف الكتب وعلم الغربيين الأرقام العربية والصفر العربي(1).

---

(1) محمود الحاج قاسم محمد، "الطب عند العرب والمسلمين"، صص.393.

(843/1)

الكتاب : مجلة التاريخ العربي

... وقد أدرك كثير من الأوربيين أهمية الطب عند المسلمين ومدى ما وصلوا إليه من تطور في هذا المجال، فشرعوا في الرحلة إلى عدد من بلدان العالم الإسلامي والإقامة بها سنوات طويلة تعلموا خلالها اللغة العربية ودرسوا ما احتاجوا إليه من علوم ومنها علم الطب. وكان ممن رحل لهذا الغرض الطبيب الأنطاكي أندرياس ألباكوس () (Andreas Alpaqus 1450–1523م) الذي قضى أكثر من ثلاثين سنة في سوريا حيث ذهب خصيصا لدراسة اللغة العربية وللاطلاع على النصوص والمخطوطات العربية في أصولها، ثم عاد إلى بادوا وعين أستاذا للطب في

(844/1)

جامعتها، فترجم عددا من الكتب العربية إلى اللاتينية مع شروح على بعضها. وقد نشر قسم منها بعد وفاته، منها ترجمة شرح ابن النفيس للقسم الخامس من

"قانون" ابن سينا طبع سنة 1527م، ونقح ترجمة جرارد الكريموني لـ"قانون" ابن سينا طبع سنة 1527م، وأعيد طبعه بعد ذلك مرات متعددة وبلغت طبعات "القانون" 36 طبعة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وطبعت ترجمته لكتاب "الأدوية" لابن البيطار سنة 1602م. "ولكن من المؤكد أنه لم تطبع كل الكتب التي ترجمها ألباكوس لغرض النشر"(1).

---

(1) المرجع نفسه، صص.392-393.

... وقد أصبحت نسخته من "شرح التشريح" لابن النفيس في مكتبة أسرة ناني (Nani) في البندقية. وقد اطلعت على فهرس المكتبة الذي أعده أستاذ اللغات الشرقية في جامعة بادوا سيموني أسماني (Simon Assemani)، ونشر سنة 1792م في بادوا. فإذا هو يحتوي على وصف النسخة التي كتبت سنة 734هـ/1333م، أي خمس وخمسين سنة بعد وفاة المؤلف ابن النفيس. وتقع في 306 صفحات. إن لوجود هذه النسخة أهمية كبرى في تاريخ اكتشاف الدورة الدموية(1).

... 2- البعثات العلمية:

(1) محمود الجليلي، "تأثير الطب الغربي في الطب الأوربي"، صص.200–201.

(1/846)

... كما أن من ضمن المعابر الثانوية للحضارة الإسلامية بعامة وعلم الطب بخاصة إلى أوربا، تلك البعثات العلمية التي يقوم بإرسالها بين الحين والآخر ملوك أوربا إلى الديار الإسلامية لدراسة علوم المسلمين ونقلها إلى اللغات الأوربية، ومنها علم الطب.

... ومن البعثات العلمية المبكرة التي أرسلت إلى العالم الإسلامي من أوربا تلك البعثات المتواصلة التي كانت تفد إلى الأندلس من الأقطار الأوربية كإيطاليا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا حتى بلغت سنة 312هـ في عهد الخليفة الناصر زهاء سبعمائة طالب وطالبة. وكان من بين تلك

(1/847)

البعثات بعثة علمية فرنسية برئاسة الأمير إليزابث ابنة خال الملك لويس السادس ملك فرنسا آنذاك(1).

... كما أن فيليب ملك بافاريا بعث إلى الخليفة الأموي هاشم الثالث (حوالي سنة 403هـ) برسالة يستأذنه فيها أن يرسل بعثة من الطلاب والطالبات للاطلاع على النهضة العلمية التي تعيشها الأندلس للاستفادة منها والاقتباس عن حضارة الأندلس الراقية. وكان على رأس هذه البعثة وزير الملك المدعو ويلمبين الذي سماه العرب "وليم الأمين"، وكانت هذه

---

(1) سعد البشري، "الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس"، صص.532-533.

البعثة تتألف من 215 طالبا وطالبة تم توزيعهم على حواضر العلم في الأندلس. وتذكر الروايات التاريخية أن ثمانية من أفراد هذه البعثة اعتنقوا الإسلام ومكثوا في الأندلس، ومن هؤلاء الثمانية ثلاث فتيات تزوجن بعدد من مشاهير رجال الأندلس(1).

... ويذكر التاريخ أن ملك إنجلترا جورج الثاني أرسل بعثة من بنات النبلاء والأشراف، وفي مقدمتهن الأميرة دوبانت ابنة أخيه، إلى الأندلس ووجه معهن خطابا إلى الخليفة الأموي يقول فيه: "أردنا لزبنائنا اقتباس

(1) خليل السامرائي وآخرون، "تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس"، ص.376.

حضارتكم لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر نور العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل"(1). كما يشير فؤاد سزكين إلى طريق آخر لنقل العلوم الإسلامية ومنها الطب إلى أوربا. ذلك هو الطريق الشفوي. إذ عمد عدد من الأوربيين منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وبخاصة الذين لا يفهمون العربية، إلى الترجمة الشفوية لإنتاج العلماء المسلمين حيث كانوا يستفيدون من مؤلفات المسلمين دون أن تكون قد ترجمت إلى اللغات الأوربية أو أنها كتب ترجمت ثم خفيت ترجماتها على الناس(2)

(1) سعد البشري، المرجع السابق، صص.533-534.

(2) "محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية"، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ألمانيا، 1404هـ/1984م، صص.128-129.

.

... هذا وقد تعددت مجالات التأثير في الطب الإسلامي على أوربا وشملت مختلف فروع الطب وجوانبه. إلا أنه يمكن الإشارة إلى عدد من الجوانب التي يمكن تلمس ذلك الأثر عن طريقها بصفة واضحة، ومنها:

... – الصيدلة:

... نشأت الصيدلة منذ زمن قديم وارتبطت ارتباطا وثيقا بعلم الطب، إذ كان الطبيب هو الذي يعد الدواء ويركبه للمرضى. ومع مرور الزمن وتشعب العقاقير وطرق تركيبها، ظهر التخصص في هذا العلم مع اتصاله الملح مع الطب. فالأسس والاحتياجات والمقادير يصنعها الطبيب، والصيدلي هو الذي يعمل على جمعها وتركيبها واختيار

(851/1)

الأجود من أنواعها.

... وقد برع المسلمون في تحضير وضع الضمادات والمساحيق والمراهم وتركيباتها، واكتشفوا أدوية جديدة منها: الكافور والصندل واللاوند والمسك والتمر

هندي والحنظل، كما اخترعوا الكحول والمستحلبات والخلاصات العطرية، وهم أول من ابتكر الشراب الحلو المستخرج من نبات الكرنب مع السكر. وما زال الغرب يطلقون عليه كلمة (Syrop) وهي مأخوذة من كلمة "شراب" التي تردد في المصادر العربية.

... ولذا، فإن من المسلم به لدى المختصين في تاريخ العلوم أن المسلمين هم أول من جعل الصيدلة علما مستقلا، وعملوا على

(852/1)

تقدمه تقدما ملحوظا. وبذا تقول زيغريد هونكه حول مكانة الصيدلاني عند المسلمين:

لقد نقل العرب حقل محضر الدواء عن حقل واصفه وأوجدوا مهنة الصيدلاني الذي ارتفع إلى مركز عال بفضل علومه ومسؤولياته الخاصة. وكانوا أول من افتتح الصيدليات العامة، وذلك في العام الثمانين من القرن الثامن في ظل حكم الخليفة المنصور؛ كما أنهم ألحقوا بكل بيمارستان صيدلية خاصة به(1).

... ونما تبعا لذلك علم العقاقير أو الأقراباذين (Materia Medica) عند المسلمين نموا كبيرا حيث أكثروا من التأليف

(1) "شمس العرب تسطع على الغرب"، ص.329.

في الأدوية المفردة من الأعشاب وغيرها، وفي الأدوية المركبة في صور مختلفة. وتضرب زيغريد هونكه مثالا من عمل ابن سينا في كتابه المشهور "القانون في الطب" الذي ذكر فيه ما ينوف على سبعمائة عقار أدخلت كلها في علم النبات وعلم الصيدلة للأوربيين. وظل الكثير منها بأسمائها العربية في اللغات العربية في اللغات الأجنبية كالعنبر والزعفران والكافور والمسك وعود الند والصندل والتمر هندي وغيرها(1).

(1) جلال مظهر، "أثر الحضارة العربية على أوربا"، ص.272.

... واشتهر عدد من صيادلة العرب شهرة واسعة ونالت أعمالهم استحسانا كبيرا في أوربا. ومن هؤلاء ماسويه المارديني (المتوفى سنة 406هـ/1015م) الذي عاش في

بغداد والقاهرة، وعرف في أوربا بماسويه الصغير أيضا، وله مؤلف ضخم في العقاقير في اثني عشر جزءا ترجم إلى اللاتينية وشاع واشتهر اشتهارا واسعا في أوربا اللاتينية، واستمر مدة قرون عديدة الكتاب المدرسي الأول في الصيدلة في أوربا(1).

---

(1) أحمد علي الملا، "أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية"، دمشق، دار الفكر، 1981، ص.144.

(855/1)

... وكان ممن برز في علم الصيدلة عند المسلمين الطبيب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكريم الملقب بابن وافد الطليطلي المتوفي سنة (467هـ/1074م). وكانت اهتماماته في الأدوية المفردة، وألف فيها كتابا ضاع أصله العربي، بينما هو موجود في ترجمته اللاتينية بعنوان Meineralibus Simplicibus. ويقدر تأثيره بأن طبع منه حوالي خمسين طبعة ملحقا بمؤلف ماسويه الصغير المذكور آنفا وانتشرت في مختلف أنحاء أوربا(1).

---

(1) جلال مظهر، "أثر الحضارة العربية على أوربا"، ص.272.

... ومن أشهر وأوسع الكتب في الموضوع كتاب "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" لابن البيطار (ت 698هـ/1298م). وقد ترجمت أجزاء من هذا الكتاب إلى اللاتينية وطبعت منذ 1598م في البندقية، ثم في باريس 1606م. والترجمة الكاملة ظهرت في ألمانيا، وطبعت في شتوتجارت في سنة 1842م(1).

... وكان تأثير علم الصيدلة عند المسلمين كبيرا جدا في أوربا. ويظهر ذلك من ترجمة المصادر العربية من الصيدلة إلى اللاتينية منذ عهد مبكر وطبعها وتداولها أو الاستفادة منها حتى أوائل القرن التاسع

---

(1) سيد رضوان علي، المرجع السابق، ص.67.

عشر. كما يظهر هذا الأثر من خلال اطلاع الأوربيين على أسماء وأوصاف عقاقير أسيوية وإفريقية لم يعرفها

اليونانيون من قبل(1).

... وقد امتد أثر علماء المسلمين على غيرهم من الأمم في علم الصيدلة أن أخذ العلماء في كل من أوربا وأمريكا، قبيل عهد قريب وبالتحديد سنة 1964م، بإعادة قراءة

---

(1) محمد زهير البابا، "مصادر الأدوية المفردة أو العقاقير في الطب العربي"، مجلد أبحاث المؤتمر السنوي الثاني للجمعية السورية لتاريخ العلوم المنعقدة بجامعة حلب في أبريل 1977م، معهد التراث العلمي العربي جامعة حلب 1979م، ص.198.

كتاب ابن داود "تذكرة أولي الألباب" في محاولة للكشف عن أدوية جديدة للأمراض(1).

... – الجراحة:

... أما عن الجراحة وفنونها، فقد تقدمت عند المسلمين تقدما كبيرا وقدموا فيها أروع الإنجازات واشتهر منهم عدد من أعلام الجراحة في التاريخ كان من أبرزهم رائد الجراحة في قرطبة أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المتوفى سنة 427هـ/1035م الذي ألف كتاب "التصريف لمن عجز عن التأليف"، وجعل للجراحة بابا خاصا

مهما من هذا

---

(1) أحمد علي الملا، "أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية"، ط2، دمشق، دار الفكر، 1981، ص.144.

الكتاب. وكان هذا الباب شرطا في ممارسة الجراحة. وقد نشر باللغة اللاتينية باسم Chirurgia. وقال عنه الدميلي إنه أعظم الجراحين العرب على وجه الخصوص(1).

... ويمتاز كتاب "التصريف" بكثرة الرسوم التوضيحية للآلات الجراحية التي كان يستخدمها في عمله. ولقد استمر هذا الكتاب مدة خمسة قرون عمدة في الأمور الجراحية في أوربا وترجم مرات عديدة إلى اللغة العبرية واللاتينية.

... وقد استمر تطور علم الجراحة عند المسلمين في القرون اللاحقة، مما حدا بالمؤرخ الإنجليزي كامبل إلى أن يصف

---

(1) "العلم عند العرب"، ص.353.

الجراحة في الأندلس بقوله:

فكانت الجراحة في إسبانيا المسلمة في القرن الثالث عشر تتمتع بسمعة أعظم من سمعتها في باريس ولندن وأدنبره. ذلك أن ممارسي مهنة الطب في سرقسطة كانوا يمنحون لقب طبيب جراح، بينما كان لقبهم في أوربا حلاق جراح. وظل هذا التقليد ساريا في إسبانيا حتى القرن السادس عشر(1).

... وقد أخذ الأوربيون معارفهم في الجراحة من علماء المسلمين. فكان باب الجراحة من كتاب "التصريف" للزهراوي مرجعا لكل من مارس الجراحة في أوربا آنذاك

---

(1) سيد رضوان علي، "العلوم والفنون عند العرب"، ص.63-64.

... وكان من أبرز العلماء المسلمين الذين كثرت تآليفهم في علم الطب وازداد أثرهم وذاع صيتهم في الغرب:

- الرازي (240-320هـ/854-932م)

... هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي من أشهر الأطباء الكبار وأنبغهم وأكثرهم تأليفا وابتكارا، طبقت شهرته الآفاق عبر العصور، وقد عرف في أوربا منذ

العصور الوسطى بـ Rhazes، وانتشرت مؤلفاته بها مترجمة إلى اللاتينية.

... ولد الرازي بالري في سنة 240هـ/854م، وتوفي في حدود سنة 320هـ/932م بعد عمر مديد أصيب بالعمى في آخره. وعلى ذلك، فإنه عاش في النصف الثاني من القرن الثاني والربع

(1/862)

الأول من القرن الثالث للهجرة، أي أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر للميلادي.

... والرازي غزير الإنتاج. كتب في موضوعات شتى من الفلسفة والكيمياء والطب وغيرها، وبلغ عددها 13 كتابا و24 رسالة أو بحثا، ونصفها في الطب. وأشهر وأوسع مؤلفاته في الطب كتاب "الحاوي". وهو موسوعة طبية حافلة، حوى جميع المعارف الطبية لدى اليونان والعرب والهند، كما ضمنه المؤلف تجاربه الشخصية من المداواة وهي مهمة، وآراءه المبتكرة في هذا المجال. وكان تأثيره كبيرا في تقدم الطب في الشرق والغرب فأصبح من الكتب المدرسية الذي كان

(1/863)

يرجع إليه الأطباء دائما. وقد طبع منه 23 جزءا حتى الآن.

... أما تأثيره في أوربا، فيذكر أنه ترجم إلى اللاتينية لأول مرة في سنة 1279م برعاية الملك شارل أنجو ملك صقلية. ترجمه الطبيب اليهودي فرج بن سالم، وعرف في اللاتينية باسم Continens، وانتشر في نسخ خطية كثيرة. ثم عندما اخترعت الطباعة، طبع لأول مرة في سنة 1468م، ثم أعيد طبعه مرارا وأصبح من الكتب المعتمدة في دراسة الطب في جامعات أوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادي. وهو من الكتب التسعة التي كانت تتكون منها مكتبة الكلية الطبية في باريس سنة 1395م.

(1/864)

وتكررت طباعته في أوربا بترجمته اللاتينية، وبقي القسم الخاص بالصيدلة المرجع المهم في التداوي زمنا طويلا(1).

... وكانت رسالة أبي بكر الرازي المشهورة في الجدري والحصبة أول بحث علمي متقن في الأمراض المعدية.

ويمكن تقدير شهرتها وتأثيرها بأنها طبعت أربعين

طبعة باللغة الإنجليزية بين سنتي 1498 و1866م.

وكانت هذه الترجمة الإنجليزية من ترجمة الكتاب باللاتينية التي تمت في عصر مبكر في القرن الحادي عشر الميلادي(2).

---

(1) سيد رضوان علي، المرجع السابق، ص.74.

(2) المرجع نفسه، ص.60.

... وقد اعترف به الغربيون عموما؛ كما أن علماء أمريكا وجامعاتها وضعوا له اعتبارا خاصا في جامعة برنستون الأمريكية بتخصيص ناحية فخمة من بنائها لمآثر الرازي، وأنشأوا دارا لتدريس العلوم العربية والبحث عن المخطوطات الطبية وإخراجها(1).

... ومن كتبه المشهورة المهمة ذات التأثير العظيم في معارف أوربا الطبية كتاب "المنصوري" الذي ألفه للأمير منصور بن إسحاق أمير سجستان وهو في عشرة أجزاء، وقد نقل هذا الكتاب إلى اللاتينية أيضا في القرن

---

(1) أحمد عمر الملا، "أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية"، ص.138.

(866/1)

الثاني عشر الميلادي وعرف باسم Liber Almansoris.

وطبع لأول مرة في ميلانو بين 480 و1489م. وظلت تدرس في جامعات أوربا بجانب كتب الرازي الأخرى حتى القرن السابع عشر للميلاد.

... وكان من تقدير أوربا وأمريكا لهذا العالم الطبيب العبقري الفذ أن علقت صورته في القاعة الكبرى بكلية الطب بجامعة باريس كما سميت قاعة من أفخم قاعات جامعة برنستون الأمريكية باسمه.

– علي بن العباس المجوسي (كان حيا قبل سنة 384هـ/994م)

... طبيب عضد الدولة البويهي وأحد تلامذة الطبيب الرازي. اشتهر في ممارسة الطب وتعليمه وألف كتاب "كامل

(867/1)

الصناعات الطبية"، وهو أول كتاب عربي كبير يترجم إلى اللاتينية ترجمه قسطنطين الإفريقي وعرف بالكتاب الملكي "Liber Regius"؛ وقيل فيه إنه:

... كتاب جليل وكناش نبيل اشتمل على علم الطب وعمله. وكانت أفضل أقسامه القسم الذي يبحث في علم الأغذية الصحية وعلم العقاقير الطبية. ومن الأمور المبتكرة فيه إشارته إلى وجود الحركة الدموية الشعرية، وبرهانه على أن الطفل في الولادة لا يخرج من نفسه، بل بفعل تقلصات عضلية داخل الرحم إلى غير ذلك من الإضافات الطبية المهمة(1)

---

(1) فيليب حتي وآخرون، "تاريخ العرب"، الجزء الثاني، ط4، بيروت، 1965، ص.685.

(868/1)

.

– ابن سينا (370–428هـ/980–1037م)

... أما الطبيب ابن سينا، فهو أشهر الأطباء في تاريخ الطب العربي على الإطلاق، وفاق في الشهرة والتأثير سلفه الرازي، وإن كان أقل منه ابتكارا عند البعض، وكان بجانب نبوغه في الطب فيلسوفا بارعا، بل هو عالم موسوعي درس جميع العلوم الفلسفية القديمة عند اليونان من الطبيعيات والرياضيات والفلك والمنطق والفلسفة حتى عرف بلقب "الشيخ الرئيس". ولا شك أنه

أحد كبار عباقرة العلوم في تاريخ الإسلام، بل على المستوى العالمي.

(869/1)

... واسمه الكامل أبو علي الحسين بن عبد الله، واشتهر بابن سينا. وقد ولد في إحدى قرى مدينة بخارى في سنة 370هـ/980م، وتوفي بهمذان في سنة 428هـ/1037م.

... وكان من أعظم وأشهر كتبه في موضوع بحثنا "القانون في الطب"، ويعرف بـ"القانون". وقد اشتهر اشتهارا كبيرا في الشرق والغرب على السواء. والذي دفع أحد العلماء الأمريكيين أن يقول: "إن كتاب "القانون" ظل الحجة والمرجع في الطب مدة أطول من أي مدة بلغها كتاب طبي آخر". وأصبح هذا الكتاب كتابا مدرسيا في المعاهد الطبية في الشرق وكذلك في كليات الطب وجامعات أوربا

(870/1)

بعد ترجمته إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي، وظل يدرس فيها حتى نهاية القرن السابع

عشر للميلاد(1).

... ويقدر مدى انتشار هذا الكتاب في العالم الغربي في العصور الوسطى أنه طبع خلال ست وعشرين سنة (1174–1500م). وقد طبع في بولاق بمصر في أواخر القرن التاسع عشر في ثلاثة مجلدات كبار. وهو كتاب ضخم شامل في جميع المعارف الطبية، ويفوق في دقة التنظيم والتنسيق كتاب "الحاوي" للرازي، وفيه ذكر ستين وسبعمائة دواء.

---

(1) سيد رضوان علي، "العلوم والفنون عند العرب"، ص.76.

... ومن الجدير بالذكر أن كتابه "القانون في الطب" لا يزال يدرس ويستعان به في كليات الطب العربي والهند والباكستان، كما يمارس هذا الطب الذي يسمى في تلك البلاد بالطب اليوناني على مدى واسع. وهذا العلاج أرخص وأقل ضررا من الطب الأوربي، وله أطباء مشهورين منتشرون في جميع أنحاء شبه القارة الهندية. وتزين صورة ابن سينا القاعة الكبرى بكلية الطب بجامعة باريس بجانب صورة الرازي الطبيب(1).

– الزهراوي:

---

(1) المرجع نفسه، ص.78.

... خلف بن عباس الزهراوي المتوفى سنة 427هـ/1035م، وهو أشهر أطباء الأندلس ورائد الجراحة في قرطبة. وقد اشتهر بتأليف كتابه المشهور "التصريف لمن عجز عن التأليف" والذي قال بالنثيا صاحب كتاب تاريخ الفكر الأندلسي:

... إنه أهم وأذيع كتاب في تاريخ الطب كله، وإن الزهراوي قد ارتفع به في أعين الناس إلى طبقة أبقراط وجالينوس، وإنه يحوي رسوم الآلات الجراحية. وهو أول مؤلف جعل الجراحة علما قائما بذاته مستقلا عن الطب وأقامها على أساس من العلم بالتشريح(1)

---

(1) أنخل جنثالث بالنثيا، "تاريخ الفكر الأندلسي"، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ص.466. وقد جعل وفاته سنة 403هـ/1013م.

.

... وقد نشر ضمن هذا الكتاب 200 شكل عن آلات الجراحة واستعمالاتها. وقد نقل جزءا من هذا المؤلف المترجم جيراد الكرموني، وصدرت منه طبعات مختلفة: واحدة في البندقية عام 1497م وأخرى في بلسل عام 1541م وثالثة في أكسفورد عام 1778م، وظل في مدرستي سالرنو ومونبلييه وغيرهما من مدارس الطب المتقدمة(1).

... ويذكر الدميلي أن الزهراوي أشهر أطباء الأندلس في ذلك العصر، بل من أعظم أطباء المسلمين أيضا... وربما كان الزهراوي أعظم الجراحين

---

(1) فيليب حتي وآخرون، "تاريخ العرب"، الجزء الثاني، ط4، بيروت، 1965، ص.685.

العرب على وجه الخصوص(1). ويذكر العالم الشهير هالو أن كتب أبي القاسم الزهراوي كانت المصدر العام الذي استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر، وترانا مدينين لأبي القاسم بكثير من الآلات

الجراحية التي تظهر صورها في كتبه.

- ابن زهر:

... أبو مروان عبد الملك بن زهر (ت 557هـ/1162م)، وهو أحد أعلام الطب البارزين في الأندلس، وبالتحديد في عصر الموحدين، وكان أحد أفراد أسرة ابن زهر التي تفرع منها ستة من الأطباء المرموقين. وقد اشتهر ابن زهر بمؤلفه الطبي كتاب

---

(1) "العلم عند العرب"، ص.353.

"التيسير في المداواة والتدبير" الذي جعل محور اكتشاف الأمراض هو التجربة، مما أوصله إلى آراء مبتكرة. وقد ترجم هذا الكتاب إلى العبرية، ثم إلى اللاتينية، وصار أحد المصادر المهمة التي كانت تدرس في المراكز الطبية المشهورة في أوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادي(1). وكان ابن زهر قد ألف هذا الكتاب استجابة لطلب صديقه ابن رشد الذي كان من أشد المعجبين به، وقد أثنى عليه كثيرا في "كلياته"، واعتبره أعظم طبيب عرفه العالم بعد

---

(1) يوسف العريني، "الحياة العلمية في الأندلس في العصر الموحدي"، صص.334–335.

(876/1)

جالينوس. وأقل ما يقال عنه أنه أعظم طبيب سريري في الإسلام بعد الرازي(1).

... ومع مرور الزمن، آتت تلك الجهود ثمارها؛ وظهر تأثير الأوربيين في المعرفة الطبية بالطب الإسلامي، وظهر جيل من مشاهير الأساتذة في الطب في عدد من العواصم الأوربية، وأظهر علم وظائف الأعضاء بعض النشاط والانتعاش، وصدرت كتب في علم التشريح بأقلام

---

(1) صالح رمضان محمود، "أهم المبدعين في مجالات الفكر والعلم التي أغنت بها الحضارة الإسلامية المسيرة الإنسانية"، مجلة "المؤرخ العربي"، العدد الثامن عشر، بغداد، 1401هـ/1981م، ص.29.

(877/1)

الأوربيين أنفسهم، وأصبحت أمراض النساء وعوارض الحمل والولادة موضوعا للدراسة العلمية بعدما كانت من

اختصاص القوابل والمولدات، وانتقلت أمراض العين من أيدي القداحين الجوالين إلى أيدي الأطباء المدركين لمهنتهم. وأسس في البلاد الأوربية أعدادا من الجامعات والمعاهد التي تعنى بتدريس الطب حيث يتأكد أنه من ضمن آثار انتقال العلوم الطبية عند المسلمين إلى أوربا أن نشأت المدارس الخاصة بتعليم الطب في كل من مونبيلييه ونابولي وبولونيا وبادوا وأورليانز وأكسفورد وبكريدج وغيرها، وهذه المدارس جميعها كانت تستخدم كتب

(878/1)

الطب الإسلامية بلغاتها العربية أو المترجمة إلى اللغة اللاتينية، وكانت الأساس في تقدم المعارف الطبية عند الأوربيين قرونا عديدة. وأصبحت مصادر الطب على اختلافها ميسورة باللغة اللاتينية، وازداد التقدم في ميداني الصحة والجراحة وإدارة المستشفيات أيضا. فاضطلع كي دي شولياك كبير جراحي مونبيلييه (ت 1368م) بعمليات الفتق، كما برز لانفراشي الميلاني الذي زاول الطب في فرنسا بطرق محسنة لربط الأوعية الدموية وخياطة الجروح إلى غير ذلك من الآثار الطبية(1).

(1) **ماكس مايرهوف، "تراث الإسلام"، صص.** 502–503.

(1/879)

... ويشار هنا إلى أن من مظاهر التأثر الأوربي بالطب الإسلامي وجود عدد كبير من الألفاظ والمصطلحات العلمية العربية في مجالي الطب والصيدلة تستخدم في اللغات الأوربية الحديثة برسمها أو ببعض التحوير الذي لا يخفي أصلها ومصدرها، ومن ذلك:

... الكلمات الطبية المستخدمة في اللغة الإنجليزية والتي اشتقت من العربية(1)**:**

الإكسير

Elixir

حكيم

Hakeem

حشيش

Hasheesh

معجون

Majoon

مرئً

Meri

موميا

Mummy

نـخاع

Nucha

صداع

---

(1) **جلال مظهر، "مآثر العرب على الحضارة الأوربية"، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية،** 1960، **ص**.413.

(880/1)

Soda

سبات

Subeth

سنبل

Sumbul

طباشير

Tabashee

... أما في مجال الصيدلة والنبات، فمنها:

كمون

Cumin

أبو المسك

Abelmosk

الحناء

Alcanna

الحنظل

Alhandal

البرقوق

Apricot

أرجان

Argan

الخرشوف

Artichoke

الباذنجان

Aubergine

بندق

Bonduc

كافور

Caphor

قهوة

Coffee

قطن

Cotton

كركم

Corcus

كبابة

Cubeb

كمون

... وأشير ختاما لهذا البحث إلى أن ترجمة الكتب الطبية العربية إلى اللغات الأوربية كانت أساسا للمعرفة الطبية عند الأوربيين، ثم هي سبب رئيس فيتطور الطب الأوربي حيث ترجم في أوربا من

العربية إلى اللاتينية أكثر من ثلاثمائة كتاب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. وهذا العدد كبير جدا بالنسبة لهذه الفترة. ومن هذا المنطلق بدأت الصحوة الأوربية بعد أن عرف الأوربيون الحضارة الإسلامية عن كثب، فعملوا على صنع حضارة خاصة بهم مستفيدين من الأفكار والنظريات التي انتهى إليها العلماء المسلمون، فواصلوا المسيرة العلمية حتى استطاعوا أن يشيدوا صرح الحضارة الحديثة(1).

---

(1) أحمد الملا، "أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية"، ص.143.

... ثم إنه يحسن بنا أن نشير هنا إلى أن اللغة العربية كانت هي لغة الطب ممارسة وتعليما في أروقة المستشفيات ومراكز الطب على اختلافها. وقد أغنت هذه اللغة كل الثقافات التي نقلت إليها ولم تعجز عن حمل هذه الرسالة الواسعة. ولا تزال لغتنا العريقة قادرة على الاستيعاب وقبول كل ما ينقل إليها من علوم ومعارف وأن تسير في مواكبة الرقي والتقدم الحضاري في هذا الزمان.

... وربما يأتي اليوم الذي يعود فيه المسلمون إلى أسباب تلك الحضارة المجيدة السابقة ويعملون على استعادة ماضيهم المشرف وتقوى معارفهم العلمية

(883/1)

واكتشافاتهم، فتعود الأمم تتطلع إلى نتاج المسلمين كما كانت سابقا وليس ذلك على الله ببعيد.

المصادر والمراجع

أحمد عبد الرحيم السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية،

الرياض، دار اللواء، 1401هـ/1981م.
أحمد علي الملا، "أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية"، ط2، دمشق، دار الفكر، 1981.
الدميلي، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى، دمشق، دار القلم، 1962م.

(1/884)

أنخل جنثالث بالنشيا، تاريخ الفكر الإسلامي، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ص.466، وقد جعل وفاته سنة 403هـ/1013م.
توفيق الطويل، "الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية. دراسة مقارنة، القاهرة، مكتبة التراث الإسلامي.
جلال مظهر، حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العلمي، القاهرة، مكتبة الخانجي.
جلال مظهر، الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث، القاهرة، مركز كتب الشرق الأوسط
جلال مظهر، مآثر العرب على الحضارة الأوربية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1960م.

(1/885)

جلال مظهر، مآثر العرب على الحضارة الأوربية، بيروت، دار الرائد، 1967م.

خليل السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، جامعة الموصل.

زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، تعريب فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت، المكتب التجاري، ط2، 1969م.

سعد بن عبد الله البشري، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1414هـ/1993م.

سيد رضوان علي، العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية، الرياض، دار المريخ، 1407هـ/1987م.

(1/886)

صالح رمضان محمود، "أهم المبدعين في مجالات الفكر والعلم التي أغنت بها الحضارة العربية الإسلامية المسيرة الإنسانية، مجلة المؤرخ العربي، العدد الثامن عشرة، بغداد، 1401هـ/1981م، ص.29.

الشيرزي أبو المظفر أسامة بن منقذ (ت 584هـ/1188م)،

الاعتبار، حرره فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، 1930م.
عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي، أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي، الرياض، 1415هـ/1994.
عبد الحليم منتصر، تاريخ العلوم ودور العلماء في تقدمه، القاهرة، دار المعارف، 1980، ص.230.

(887/1)

علي عبد الله الدفاع، لمحات من تاريخ الطب عند المسلمين الأوائل، الرياض، دار الرفاعي، 1983م.
علي عبد الله الدفاع، أعلام العرب والمسلمين في الطب، بيروت، دار الرسالة، 1983م.
عمر عبد السلام تدمري، الحياة الثقافية في طرابلس خلال العصور الوسطى، بيروت، دار فلسطين، 1973م.
الفاضل عبيد عمر، الطب الإسلامي عبر القرون، الرياض، دار الشواف –جدة، المطبوعات الحديثة، 1410هـ/1989م.
فؤاد سزكين، محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ألمانيا، 1404هـ/1984م.

(888/1)

فيليب حتي وآخرون، تاريخ العرب، الجزء الثاني، ط4، بيروت، 1965، ص.685.

ماكس مايرهوف، العلوم والطب، ضمن مجلد تراث الإسلام، إشراف توماس أرنولد، تعريب وتعليق جرجيس فتح الله، ط3، بيروت، دار الطليعة، 1978، ص.499.

محمد زهير البابا، "مصادر الأدوية المفردة أو العقاقير في الطب العربي"، مجلد أبحاث المؤتمر السنوي الثاني للجمعية السورية لتاريخ العلوم المنعقدة بجامعة حلب في أبريل 1977، معهد التراث العلمي العربي جامعة حلب 1979م.

محمد الصديقي، انتشار العرب وعلومهم في فرنسا، الهند، مطبعة أسرار كريمي، 1941م.

(1/889)

محمد عبد الرحمن مرحبا، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1970م.

محمود الجليلي، "تأثير الطب العربي في الطب الأوربي"، مقال بمجلة المجمع العلمي العراقي، ذو الحجة، 1401هـ، ج32.

محمود الحاج قاسم محمد، الطب عند العرب والمسلمين: تاريخ ومساهمات، جدة الدار السعودية، 1407هـ/1987م.

ولز، معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1950م.

(890/1)

يوسف بن علي العريني، الحياة العلمية في الأندلس في العصر الموحدي، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1416هـ

(1)

(891/1)

إمارة فضل بن علوي في ظفار بين الدعم العثماني والرفض العُماني البريطاني

(1291 ـ 1296 هـ/ 1874 ـ 1879 م)

... ... الدكتور سعيد بن عمر آل عمر

... ... جامعة الملك فيصل ـ المملكة العربية السعودية

... ولد فضل بن علوي بن محمد بن سهل سنة 1240 هـ/ 1824 م في مليبار بالهند وتعلم فيها(1)، وأصبح له شأن هناك فكان من علماء »الموبلا«، وهم سلالة التجار العرب المتحمسون لدينهم الإسلامي(2)

---

(1) خير الدين الزركلي، الأعلام، ط 5، دار العلم للملايين، بيروت، ج 5، 1980، ص. 150.

(2) ... فيلبس وندل، تاريخ عمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، ط 3، 1409 هـ/ 1989 م، ص. 92.

(892/1)

. ويتصل نسبه بآل البيت، فقد ذيل الزركلي(1) اسم ذلك الأمير بالحسيني المليباري المكي، وكانت منطقة حضرموت موطن آبائه وأجداده(2).

---

(1) الزركلي، المصدر السابق.

(2) عبد المنعم بن عبد الله البحر الرواس، مخطوط ضنية الأخبار في علماء ظفار، ص. 2، جزء من هذا المخطوط غير مرقم وقام الباحث بترقيمه، أهدي للباحث من أحد المهتمين بتاريخ ظفار؛ انظر كذلك: J. B. Kelly,

, 1880–1795Britain and the Persian Gulf

.773, p. 1968London,

(893/1)

... يعتبر فضل بن علوي عند مسلمي الماليبار بالهند من الأولياء الصالحين يرشدهم ويدافع عن حقوقهم، وكان له نشاط سياسي كبير بين المسلمين ضد الاستعمار البريطاني. وقد اعتبره البريطانيون من أهم المحرضين على الاضطرابات في الهند سنة 1269 **هـ/** 1852 **م**(1)**.**

وتعتقد السلطات البريطانية في الهند أنه أيضاً وراء مقتل المحقق البريطاني الذي كلف بمهمة التحقيق في تلك الاضطرابات(2)**. ولهذا السبب نفي من الهند وحظرت عليه العودة إليها تحت طائلة الاعتقال. وأثناء نفيه الإجباري من**

---

(1) ... Ibid.

(2) **فيلبس، تاريخ عمان، ص.** 93.

(894/1)

مسقط رأسه ماليبار، أقام في وطنه الأصلي حضرموت. لكن لم يطل به المقام هناك، حيث غادرها ليستقر في مكة المكرمة ومن ثم متنقلاً في أراضي الدولة العثمانية التي اكتسب في أرجائها شهرة لتقواه وصلاحه(1). وقد زار الآستانة في أيام السلطان العثماني عبد العزيز (1277 ـ 1293 هـ/ 1860 ـ 1876 م)(2). وخلال إقامة السيد فضل بن

---

(1) ج. ج لوريمر، دليل الخليج، ترجمة وطباعة الديوان الأميري بقطر، ج 2، 1975، ص. 900؛ كذلك عبد المنعم البحر الرواس، المصدر السابق، صص. 2 ـ 4.

(2) خير الدين الزركلي، المصدر السابق، ج 5، ص. 150.

علوي في مكة المكرمة توثقت صلته بأمرائها وعلمائها، مثل الشريف عبد الله بن محمد بن عون أمير مكة المكرمة والعلامة الشيخ أحمد زيني دحلان مفتي الديار المقدسة. وقد تلقى عدد من طلبة العلم في الحجاز العلم على يديه(1).

... وفي سنة 1270 هـ/ 1853 م، وأثناء إقامته في مكة المكرمة، صدر أمر من السلطات العثمانية يمنع السيد

فضل من مغادرة أراضيها، وذلك فيما يبدو نزولاً عند رغبة البريطانيين(2). إلا أن ذلك لم يثنه عن دوره

---

(1) عبد المنعم البحر الرواس، المصدر السابق، صص, 2 - 3.

(2) لوريمر، المصدر السابق، ص. 898.

الإصلاحي وتلمس مشاكل الأقاليم الإسلامية الأخرى من خلال وفود الحجيج. ففي سنة 1288 هـ/ 1871 م زار عددٌ من أهل ظفار وأعيانها مكة المكرمة بقصد الحج والتقوا بالسيد فضل بن علوي -وكان قد ذاع صيته واشتهر بالتقوى والصلاح- في وقت كانت فيه ظفار تعاني من الاضطرابات القبلية والمشاكل الاجتماعية والتخلف في شتى نواحي الحياة. ونظراً لشهرة ذلك الرجل ولكونه يرتبط بعلاقة وثيقة بمناطق جنوب الجزيرة العربية لتحدره من أصل حضرمي، فقد رأى أعيان ظفار -وفي مقدمتهم زعماء آل كثير- أن يعرضوا على السيد فضل حكم ظفار لما

فيه من عراقة الأصل والنجابة والعلم والصلاح. فلم يتردد فضل بن علوي في قبول العرض أملاً في تكوين دولة علوية في جنوب الجزيرة العربية تكون ظفار قاعدتها(1).

... وبعد التفاوض بين أعيان ظفار برئاسة أحد زعماء آل كثير والسيد فضل بن علوي، تم الاتفاق وتوقيع عقد البيعة على السمع والطاعة والحماية في 16 ذي الحجة سنة 1288 هـ/ 27 فبراير 1872 م في مكة المكرمة(2)

---

(1) عبد المنعم البحر الرواس، المصدر السابق، ص. 5.

(2) وثيقة عقد البيعة حصل الباحث على صورة منها من أحد المهتمين بتاريخ ظفار (محفوظة لدى الباحث)؛ وانظر صورة عنها في ملحق هذا البحث.

. ونتساءل هنا عن أسباب تأخر سفر ابن علوي لتسلم مقاليد الحكم بعد أن تمت مبايعته حاكماً على ظفار، حيث لم يتم سفره إلا بعد أكثر من سنتين ونصف على توقيع عقد البيعة.

... وللإجابة على هذا السؤال، نعتقد أن هذا يعود إلى

تحديد إقامته الجبرية من قبل العثمانيين في الأراضي المقدسة، وكان عليه أن ينتظر حتى يأذنوا له، وقد رغبهم في جنوب الجزيرة العربية وزين لهم حكمه لظفار باسمهم ليحد من النفوذ البريطاني فيها، في الوقت الذي اتفق فيه السيد ابن علوي فيما يبدو مع مبايعيه من ممثلي ظفار على تهيئة الأوضاع في الإقليم

لقدومه حتى تصل موافقة السلطات العثمانية. وفعلاً، غادر مكة إلى ظفار ليدخلها في رمضان سنة 1291 هـ/ أكتوبر 1874 م(1). وقد استفاد من مكانته الدينية في بناء تاريخ سياسي مجيد له ولأبنائه.

... فمنذ وصوله إلى ظفار، بدأ بإيجاد شبكة من العلاقات والترتيبات السياسية والقبلية. وسرعان ما أصبح سيد الموقف دون منازع، متخذاً من مدينة صلالة مقراً لحكمه وعاصمة لملكه. وقد أعد داراً له وجعل لمقره برجين للحراسة ومرافق عامة للعسكر والضيوف وحظيرة للخيل ونزلاً

---

(1) عبد المنعم البحر الرواس، المصدر السابق، ص. 6.

للسجناء(1)، وعين ابنه قاضياً يفصل في قضايا الأهالي. ويبدو أنه اعتمد في هذه المرحلة الأولى من نشاطه على اعتراف الحكومة العثمانية وتلمس عونها العسكري ودعمها المادي، حيث كان قدومه للمنطقة بناءً على دعوة الأهالي وبعد موافقتهم. ولم يكن هذا السياسي المحنك والمصلح الدِّينيّ يجهل الروابط التي بدأت تتوثق بشكل كبير بين إقليم ظفار وعمان منذ حملة السيد سعيد بن سلطان على ظفار سنة 1245 هـ/ 1829 م(2)

(1) المصدر نفسه، ص. 6 ـ 7.

(2) S. B. Miles, The Countries and Tribes of the Persian Gulf, London, 1960, p. 514.

، وما تبع ذلك من موالاة بعض رموز أهالي ظفار لسلطان عمان، بالرغم من أن السيد سعيد بن سلطان، سلطان عُمان في حينه، قد سحب قواته من ظفار لظروف سياسية داخلية، حيث واجه حركة حمود بن عزان بن قيس(1)،

وأصبح الإقليم كله دون قوة ضاربة يمكن أن تمنع أي طامع سياسي بالاستقلال به، لكن السيد

---

(1) مديحة أحمد درويش، سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دار الشروق، جدة، 1982، ص. 95؛ كذلك انظر: نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، مكتبة الاستقامة، دون تاريخ، ج 2، صص. 214 ـ 218.

(902/1)

ابن علوي الذي كان يدرك ذلك تماماً كان متقوياً في مواجهة الأزمات بمركزه الديني بين الأهالي وما أشاعه بين الناس من أنه يحكم باسم العثمانيين، وهذا ما زعمه بنفسه عندما كتب للسيد تركي بن سعيد سلطان عُمان رسالة وصف فيها نفسه بأنه «حاكم ظفار باسم الباب العالي». وقد جاءت رسالته تلك بنتائج عكسية وحركت عليه سلطان عُمان الذي كان يعتبر منطقة ظفار جزءاً من بلاده. فبادر بإبلاغ حكومة الهند البريطانية، وقامت هذه الحكومة بمساعدته برفع هذا الأمر إلى الحكومة البريطانية المركزية في لندن، موضحة وجهة نظرها من خطورة

وجود عدو للحكومة البريطانية في مثل هذا الموقع، ومن خطورة امتداد النفوذ العثماني بأي شكل من الأشكال إلى أي موقع على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية. لذلك أصدرت الحكومة البريطانية تعليماتها إلى سفيرها بالقسطنطينية بالاحتجاج لدى الحكومة التركية على أعمال فضل بن علوي والمطالبة بشجب تصرفاته. إلا أن ذلك السفير لم يتلق رداً على اتصاله الذي قام به في سنة 1294 هـ/ 1876 م. ولهذا أعاد السفير الكرة مرة أخرى في سنة 1294 هـ/ 1877 م(1).

---

(1) ج. ج. لوريمر، المصدر السابق، ص. 901.

... أما الأمير الظفاري فضل بن علوي، فقد نجح في مد نفوذ إمارته غرباً حتى شمل جزءاً من بلاد المهرة(1)، وكانت قبائل آل كثير تحمي ذلك الأمير وتحرسه وقد اتخذ منهم ومن الأشراف في المنطقة مستشارين له(2). وفي الوقت الذي ضمن فيه ولاء نحو 2000 مقاتل من آل كثير،

كان لديه أيضاً حوالي 3500 مقاتل من قبيلة القرا الموالية له أيضاً منذ توليه الحكم، مما يدل على سعة سلطانه في ظفار(3).

---

(1) المرجع نفسه.

(2) عبد المنعم البحر الرواس، المصدر نفسه، ص. 7.

(3) وندل فليبس، المرجع نفسه، ص. 93.

... وبما أن فضل بن علوي كان مصلحاً دينياً اكتسب من مكانته الدينية المكانة المرموقة في نفوس أبناء الإقليم والزعامة السياسية، فقد اتجه إلى بث روح الإسلام والتعاليم الدينية بين الظفاريين. ويبدو من خلال توجهاته وأعماله أنه كان متأثراً إلى حد كبير بالدعوة السلفية في نجد وبأفكار الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية، حيث أخذ ابن علوي يطبق الشريعة الإسلامية في كل نواحي الحياة. وهذا مبدأ واضح من مبادئ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية(1)

---

(1) عن مبادئ الدعوة السلفية في نجد، انظر: عبد الله

بن صالح العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية، ط 2، 1409 هـ/ 1989 م، ج 1، ص. 69.

(906/1)

.

... فقد أمر على سبيل المثال بتطبيق حد القتل في القاتل وبمنع التبرج والسفور للنساء وفرض الزكاة الشرعية كما حددها الكتاب والسّنة(1)، كما حارب السحر والشعوذة وقد سجن ذات مرة 80 رجلاً من رجال القبائل بتهمة السحر، وكان كحاكم قدوة لمحكوميه، اشتهر بينهم بالتقوى والورع(2). وقد انطلقت أفكاره الإصلاحية من خلال منبر المسجد الجامع بصلالة(3)، ولا سيما أن ابن علوي كان

---

(1) عبد المنعم البحر الرواس، المصدر السابق، ص. 8.

(2) وندل فليبس، المصدر السابق، ص. 93.

(3) عبد المنعم البحر الرواس، المصدر نفسه، ص. 9.

(907/1)

خطيباً مفوهاً وعالماً بأمور الشرع وأصول الفقه كما يتضح من خلال مؤلفاته العديدة(1).

... وقد أعطى فكره الإصلاحي بعداً سياسياً من خلال خبراته الواسعة في الهند ومن خلال رحلاته وتنقلاته بين البلدان الإسلامية. إلا أن ابن علوي لم يوفق في تحقيق أهدافه التي كان ينوي تحقيقها في ظفار، ربما بسبب حماسه الديني وتسرعه في نهجه

---

(1) من مؤلفاته: " إيضاح الأسرار العلوية ومنهاج السادة العلوية ـ ط" و" تحفة الأخبار عن ركوب العار ـ ط" و"عدة الأمراء العظام ـ ط"؛ (انظر خير الدين الزركلي، المصدر السابق، ج 5، ص. 150).

الإصلاحي. فقد اصطدمت جهوده وأعماله في ظفار بالتقاليد الموروثة والعادات السائدة في المنطقة، فنفر منه الناس عندما طلب منهم دفع زكاة أموالهم، وخاصة ملاك الماشية والفلاحين، وواجه عمال الزكاة صعوبات في جبايتها، خاصة من سكان الجبال حيث فقد أحد جباة الزكاة حياته أثناء أدائه لواجبه(1).

... وليس هناك من شك بأن السيد ابن علوي قد حاول أن

يجعل من مملكته الجديدة دولة نموذجية تدار على أسس حديثه، وكان يحصل رسوماً قدرها 5 ٪ على الواردات والصادرات فيما كانت

---

(1) عبد المنعم البحر الرواس، المصدر السابق، ص. 9.

(909/1)

حكومته تتكون من ستين رجلاً يعمل أكثرهم في جمع الضرائب(1). وكان السيد ابن علوي يأمل في زيادة صادرات بلاده، عن طريق استخراج السوائل من أشجار المطاط وأشجار اللبان التي كانت تنمو في البراري في الأرضي الداخلية من ظفار. ولاستصلاح تلك الثروة، بعث مبعوثاً إلى الهند لكي يستعين بذوي الخبرة في الهند لإحضارهم لمحاولة إنتاج المطاط واللبان في بلاده(2)، حيث كان ولا يزال اللبان بشكل خاص مصدراً مهماً لتجارة ظفار منذ أقدم العصور(3)

---

(1) فيلبس، المرجع السابق، ص. 93.

(2) المرجع نفسه.

(3) عبد المنعم البحر الرواس، المرجع السابق، ص. 10؛ كذلك انظر سعيد بن مسعود بن محمد المعشني، الأثار

التاريخية في ظفار، صص. 18 ـ 19، مطابع ظفار الوطنية، 1997.

(910/1)

. كما اتصل بشركة الملاحة الهندية البريطانية، طالباً منها أن تقوم إحدى سفنها بزيارة شهرية إلى صلالة عاصمة بلاده ظفار وعرض عليها ضمان شحن 200 طن من مختلف البضائع من صادرات بلاده بشكل شهري، لكن البريطانيين تجنبوا بعناية أي خطوة قد تمنح أي اعتراف بمركزه ونظامه السياسي في ظفار، إذ أن عمله في الهند لم يكن قد طواه النسيان(1).

... ومع ذلك، فإن تجارة ظفار قد وجدت قبولاً من اليمنيين والعمانيين على السواء، حيث كانت سفن عمانية وأخرى يمنية تمر بظفار لنقل تجارتها إلى الهند

---

(1) فيلبس، المصدر السابق، ص. 94.

(911/1)

وإلى سواحل أفريقيا الشرقية(1). ولكن ظروف السيد ابن علوي الاقتصادية والسياسية وحكمه في ظفار لم تكن في المستوى الذي كان يطمح إليه سواء على صعيد الإصلاح الديني أو السياسي. فمن ناحية، باءت محاولاته مع البريطانيين للحصول على شيء من الاعتراف بحكمه والتعاون الاقتصادي مع نظامه السياسي بالفشل. فعلى الرغم من أنه كان يدرك أن البريطانيين ينظرون إليه بعين غير ودية، فإن ذلك لم يمنعه من الدخول في مفاوضات مع المقيم البريطاني في عدن سنة 1294 هـ/ 1877 م، على

---

(1) عبد المنعم البحر الرواس، المصدر السابق، ص. 12.

أمل الحصول على نوع من الاعتراف بحكمه وبنظامه السياسي، لكن دون جدوى(1).

... ومن ناحية أخرى، أصيب إقليم ظفار بقحط شديد في صيف عام 1295 هـ/ 1878 م، حيث فقد السكان أكثر ماشيتهم وارتفعت أسعار الحبوب والمعيشة بشكل عام(2)، وأصبحت هناك بوادر عصيان وثورة حتى من قبل الذين والوا ذلك الأمير وأخلصوا له عند قدومه، مما حَدَا

بابن علوي إلى طلب المساعدة والإمدادات من مكة واليمن لكبح جماح الثورة عليه من قبل قبائل القرا بعد أن

---

(1) فليبس، المرجع السابق.

(2) J. B. Kelly, op, cit., p. 774؛ كذلك فيلس، المرجع نفسه.

(913/1)

تمكن بمساعدة بني كثير من اعتقال خمسين منهم، حيث زج بهم رهائن في السجن(1).

... لكن هذه الاعتقالات أفقدته ولاء إحدى أهم القبائل في المنطقة، في الوقت الذي هاجر فيه ثلاثمائة من أهل ظفار إلى مسقط للعمل في خدمة السلطان العماني، حيث لم يستطيعوا تحمل حياة البؤس والفقر في ظل الجفاف الذي ضرب المنطقة(2).

... لذلك أخذ حكمه في الاضطراب والتفكك بسبب الوضع الاقتصادي المتردي والخلافات بين القبائل، حيث عمت الثورة بين الناس

---

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه، صص. 93 ـ 94؛ كذلك: J. B. Kelly, op, cit., p. 774.

(914/1)

بقيادة قبائل القرا وبعض رموز ظفار القيادية وفي مقدمتهم الشيخ عوض بن عبد الله، وأرغموه على الفرار من البلاد في أول سنة 1296 هـ/ 1879 م. وعلى أثر طرد السيد فضل بن علوي من ظفار التي غادرها إلى المكلا في حضرموت ومنها إلى جدة، قام الشيخ عوض بن عبد الله بزيارة مسقط وأغرى سلطانها السيد تركي بن سعيد بأن يمد سلطانه لتشمل إقليم ظفار مرة أخرى(1).

---

(1) J. B. Kelly, op, cit., p. 775؛ كذلك: لوريمر، المرجع السابق، ص. 902.

(915/1)

... إلا أن أهل ظفار انقسموا إلى أحزاب ثلاثة: الأول يتزعمه عوض بن عبد الله ويودّ أن يعلن سلطان عمان سيطرته المباشرة على ظفار، والثاني يتزعمه عوده بن عزان ويودّ إعادة السيد فضل إلى كرسي إمارته في ظفار،

والفريق الثالث يرغب في الاستقلال. لكن السيد تركي حسم الأمر وأرسل حملة بحرية يقودها سليمان بن سويلم إلى ظفار سنة 1296 هـ/ 1879 م. فأعلن أهل مرباط على الفور خضوعهم لممثل السلطان، وكان أول ما قام به سليمان لاسترضاء الأهالي إعلانه تخفيض نسبة جباية العوائد الجمركية من 5 ٪ إلى 4 ٪ (1)

---

(1) ج. ج لوريمر، المرجع السابق، ص. 902.

(916/1)

.

... وتوثقت علاقة ظفار بعمان أكثر في هذه المرحلة من تاريخها بعد أن انشغلت السلطات العمانية في مسقط بمشاكلها الداخلية عنها، فترة من الزمن بسبب خلافاتها مع عزان بن قيس(1)

---

(1) المرجع نفسه، صص. 903 ـ 904؛ Saeed A. Al-Amer, The Rebellions of the People of Jalan Region against the Authority of the Musqat Government during the Nineteenth Century بحث منشور في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد 85، جامعة الكويت. وعزان بن قيس بن عزان بن

قيس بن أحمد بن سعيد البوسعيدي (1252 ـ 1287 هـ/ 1836 ـ 1871 م) بويع بالإمامة في مسقط بعد أن خلع السلطان سالم بن ثويني سنة 1285 هـ/ 1869 م، اتصف بالحزم والشجاعة، قاومه تركي بن سعيد بن سلطان فلجأ إلى حصن مطرح وأصيب بطلق ناري قتله أثناء الحصار، ومدة إمامته سنتان وأربعة أشهر ونصف الشهر. (انظر: دليل أعلام عمان، مكتبة لبنان، 1991، ص. 117).

(1/917)

. وتوثقت هذه العلاقة بشكل أكبر عندما اتخذت حكومة الهند البريطانية قراراً في نهاية سنة 1296 هـ/ 1879 م باعتبار إقليم ظفار ضمن مسؤولية الوكالة السياسية البريطانية في مسقط بدلاً من تبعيتها للوكالة البريطانية في عدن. وبذلك ألغي النظام القديم الذي كان يقضي بتحويل كل أمور إقليم ظفار إلى المقيمية البريطانية في عدن(1).

... لكن قسوة الوالي العماني سليمان بن سويلم كانت سبباً في ما حدث من خلاف خطير بين هذا الولي العماني المعين على ظفار وبين كبير أنصار السلطان في

---

(1) ج. ج لوريمر، المرجع السابق، ص. 903.

(918/1)

ظفار الشيخ عوض بن عبد الله. فقد كان سليمان يشك في أن عوض يعمل لمصلحته الشخصية ويسعى في تكوين نفوذ له في الإقليم معتمداً على قاعدته العريضة بين رجاله مع التشكيك في ولائه للسلطان. لذلك اختلق الوالي حجة يتذرع بها لإرسال الشيخ عوض إلى مسقط، لكن الشيخ انتقم في مسقط لنفسه، فشكا للسلطان فساد واليه في ظفار، لكنه لم يجن ثمار شكواه لسلطان عمان على الوجه المنشود. وبعد أن عاد ابن عبد الله إلى ظفار عبر الطريق الصحراوي، أفصح عن سخطه بإعلانه التمرد، ففاجأ قلعة صلالة واستولى عليها، ولم تكن القوة التي للسلطان

(919/1)

في ظفار آنذاك تتجاوز الثلاثين رجلاً. وحين وصلت أنباء التمرد إلى مسقط، غادرتها قوة عسكرية سنة 1298 هـ/ 1880 م قوامها 180 رجلٍ يقودهم خميس بن سليمان البوسعيدي وسليمان بن سويلم. وكانت تعليمات السيد تركي لقادته تقضي بالانسحاب من ظفار كلية

إذا تبينوا أن غالبية أهلها لا يرغبون في حكم السلطان؛ أما إذا كانت جماعة عوض بن عبد الله فقط هي التي تثير الاضطرابات، فعليهم توجيه ضربة قاصمة إليهم. وكان السيد تركي بن سعيد يراقب بحذر التقدم التركي في جبهتين: الأولى في اليمن، والأخرى في الأحساء، وخاصة بعدما امتد

(920/1)

النفوذ التركي من الأحساء إلى قطر(1).

... وفي الوقت الذي اختلف فيه الشيخ عوض مع السلطان العمانية وواليها في ظفار، اشتعلت ثورة ضده في الإقليم.

... فأثناء غيابه عن قلعته، قام جماعة من أعدائه يتزعمهم أحد أنصار فضل بن علوي بمهاجمتها والاستيلاء عليها بعد أن أوقعوا بأنصار الشيخ عوض بعض الخسائر وأعادوا الولي القديم مكانه برضى الأهالي(2). فكان هذا دليلاً على أن العصيان في

---

(1) مديحة أحمد درويش، سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، صص. 128 ـ 129.

(2) ج. ج لوريمر، المرجع السابق، ج 2، ص. 904.

ظفار كان مقتصراً على الشيخ عوض بن عبد الله الشنفري (شيخ قبيلة الشنافر) ورفاقه وأن هناك ولاء للسلطان من قبل بقية سكان المنطقة. وحين وصلت القوة العمانية إلى بلدة مرباط، هرب الشيخ عوض الشنفري أو »عوض الموت« ـ كما كان يكنى ـ إلى الجبال(1)

(1) عوض بن عبد الله بن مبارك الشنفري ويعرف ويلقب بين رفاقه في ظفار بـ»عوض الموت«، وهو أحد الذين وقفوا ضد السيد فضل بن علوي ونظامه السياسي على أمل أن ينصب على ظفار من قبل السلطان العماني (انظر: J. B. Kelly, op, cit., p. 775؛ كذلك انظر عبد المنعم البحر الرواس، المصدر السابق، ص. 21).

.

... وبدأت مفاوضات قادة الحملة مع الأعيان. وتلقى الشيخ عوض المتحصن في الجبال وعداً بتأمينه على حياته إذا

هو سلم نفسه في مسقط خلال فترة زمنية محددة؛ وعادت بعدها الحملة إلى مسقط، لكن معظم رجالها ظلوا في حامية ظفار للحفاظ على الأمن والاستقرار، فساد الهدوء في ظفار بعد ذلك وأصبحت العوائد تجبى كالمعتاد دون أي متاعب(1).

... ونتساءل هنا عن السبب الذي جعل عوض يثور على السلطان العماني ويقاوم الحاميات العمانية والوالي العماني في ظفار بعد أن كان هو الذي تبنى

---

(1) ج. ج لوريمر، دليل الخليج، ج 2، ص. 905.

دعوة السلطان العماني ليمد سلطانه مرة أخرى إلى ظفار.

... ولعل الإجابة تكمن في تضارب المصالح الشخصية. ففي حين كان عوض بن عبد الله يأمل ـ فيما يبدو ـ أن ينصَّب على ظفار بناءً على ما وعده به السلطان العماني تركي بن سعيد إذا هو وقف بحزم وقاد العصيان والصورة في ظفار ضد فضل بن علوي(1)، نجد السلطان تركي بن سعيد لم ينفذ ما وعد به هذا الزعيم القبلي، ربما لعدم ثقته في الشيخ عوض وربما لأن الشيخ عوض ذاته كان غير محبوب أو مقبول من كافة أهالي ظفار، وخاصة محبي

ومؤيدي السيد فضل

_____

(1) B. Kelly, op, cit., p. 775.

(1/924)

بن علوي الذي أدّى دوراً كبيراً في طرده من ظفار. لذلك نكث السلطان تركي بوعده وكلف موثوقه سليمان بن سويلم بدلاً منه.

... وفي مطلع سنة 1301 هـ/ 1883 م، حدث تمرد جديد في ظفار وحوصر واليها سليمان بن سويلم في قلعته.

فأرسلت له قوة مكونة من 70 رجلاً، لكن رفع الحصار قبل وصول هذه القوة ولم تمكث طويلاً في ظفار ورجعت إلى مسقط، على الرغم من تكرر التمرد في الإقليم في السنة نفسها. ويعود هذا فيما يبدو إلى عدم حنكة الوالي العماني في إدارة الإقليم وقلة خبرته في التعامل مع خلافات القبائل. وفي سنة 1303 هـ/ 1885 م،

(1/925)

انفجر تمرد آخر فجأة في ظفار أثناء غياب الولي سليمان بن سويلم، ووجد نائبه علي بن سليمان ومساعده

نفسيهما محاصرين في القلعة ومعهما حامية لا يزيد عدد أفرادها على 40 رجلاً. ولكن بعد وساطة عشيرة بني عمر، استطاع علي بن سليمان الانسحاب من القلعة والتراجع إلى مرباط دون أن يمسه أحد بسوء، ومنها أبحر إلى مسقط العاصمة لتدبر الأمر مع القيادة العمانية(1).

... كانت هذه الأحداث المحلية تجري في ظفار في الوقت الذي كان فيه السيد فضل بن علوي يحاول استعادة حكمه

---

(1) ج. ج لوريمر، المرجع السابق، ج 2، صص. 905 ـ 906.

هناك ولكن عندما فشل في محاولاته الذاتية، استعان بشريف مكة الذي نصح الباب العالي بتأييد السيد فضل ومساندته، لأن ضم إقليم ظفار إلى عمان في رأي شريف مكة سيؤدي إلى آثار جانبية سيئة في الجزيرة العربية. وما أن وصل ابن علوي إلى الاستانة حتى استحوذ على اهتمام السلطان العثماني عبد الحميد الثاني. وبالرغم من اعتراضات وزراء السلطان عبد الحميد ومستشاريه، فإنه قرر تدعيم السيد ابن علوي معنوياً في بادئ الأمر كي يستعيد ظفار، في خطوة كان

السلطان العثماني يريد منها فيما يبدو الحد من النفوذ البريطاني إذا ما ضمن

ولاء الزعامات المحلية في أطراف الجزيرة العربية، حيث أنعم السلطان على الأمير الظفاري فضل بلقب وزير(1).

... ومن هنا يمكن القول إن الدولة العثمانية قد دخلت وجهاً لوجه في صراع مع البريطانيين على السيطرة والنفوذ في ظفار، وقد رأت بريطانيا في احتضان العثمانيين للسيد فضل بن علوي وكذلك نشاطهم العسكري في اليمن والأحساء خطة هدفها الالتفاف حول جناحي الوجود البريطاني على امتداد السواحل الشرقية والجنوبية للجزيرة العربية ابتداء بالبحرين وانتهاء بعدن. ولهذا وقف البريطانيون بكل قواهم

---

(1) المرجع نفسه، ص. 907.

مع السلطان العماني(1).

... وكان السيد ابن علوي أثناء إقامته في

القسطنطينية قد كتب رسالة للسيد تركي بن سعيد في منتصف سنة 1301 هـ/ 1883 م تقريباً يشير فيها إلى أن هناك علاقة صداقة قد نشأت بينه وبين الحكومة البريطانية ونصحه بالتخلي عن ظفار. وتبعت رسالته تلك رسالة أخرى من شريف مكة ينصح فيها السيد تركي بالتخلي عن مطالبته بظفار من أجل السيد فضل بن علوي، لكن السلطان العماني الذي كان يعتمد على مساعدة البريطانيين وتأييدهم له رفض مشورة صاحب مكة وأكد في رده

---

(1) مديحة أحمد درويش، المرجع السابق، ص. 129.

الشريف أن إقليم ظفار كان لأسلافه من سلاطين عمان؛ أما السيد بن علوي، فليست له جذور وراثية في الإقليم(1).

... وفي سنة 1302 هـ/ 1884 م تلقت حكومة بومباي من خلال القنصل التركي العام هناك رسالة من السيد بن علوي شكا فيها من أعمال سلطان عمان في ظفار. ولكن حكومة بومباي لم تعر الأمر اهتماماً، في الوقت الذي لم ييأس فيه السيد ابن علوي من تكرار محاولاته. ففي

سنة 1304 هـ/ 1886 م ركز جهوده كلها على استعادة الإقليم، لكن التدخل البريطاني أفسد محاولاته. فحين عادت إحدى

---

(1) ج. ج لوريمر، المرجع السابق، ص. 907.

سفن الحجاج من الحجاز وكانت ترفع العلم البريطاني إلى عدن تبين أنه كان على ظهرها محمد بن السيد فضل ومعه 16 رجلاً من أنصاره إلى جانب حوالي مائة جندي من جنود شريف مكة، وكانوا جميعاً يحملون كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر. فصادرت السلطان البريطانية في عدن تلك الأسلحة بناء على قوانين حظر الأسلحة، ونزل محمد الذي كان هدفه بلاشك النزول في ظفار إلى البر(1). ... وبعد ذلك بقليل، تردد أن وكيلاً لمحمد بن فضل هذا قد استطاع أن ينقل إلى صلالة بظفار علماً تركياً

---

(1) ج. ج لوريمر، المرجع السابق، صص. 907 ـ 908.

ووثيقة ولاية من تركيا على الإقليم مع مبلغ من العملات النقدية التركية وبعض الأسلحة والذخائر وكانت جميعها مخبأة في بيت رجل من الكثيريين الذين عرفوا بولائهم للسيد فضل منذ البيعة الأولى له في مكة المكرمة، لكن لم يتبع ذلك أي نشاط ملموس وانتهت هذه الفترة من الصراع بإنذار موجه من الوالي التركي في البصرة للسيد تركي بن سعيد بشأن ظفار في منتصف سنة 1304 هـ/ 1886 م تقريباً(1).

... غير أن السلطان العماني أهمل ذلك الإنذار ولم يعره أي اهتمام، في الوقت الذي احتج فيه السيد فضل العلوي

---

(1) المرجع نفسه، ص. 908.

على ما حدث في عدن لكل من المقيم البريطاني هناك ولنائب الملكة في الهند أيضاً. إلا أن ذلك الاحتجاج لم يجن منه السيد فضل أي رد إيجابي، في وقت تضاءلت فيه سيطرة السلطان العماني خلال سنة 1886 م على ظفار باستثناء مرباط وبقي الوضع غير مستقر في الإقليم حتى نهاية ذلك العام عندما عين سلطان عمان محمد بن سليمان والياً على ظفار، وكانت معه حامية تضم 70

جنـدياً. ويبـدو أن الوالي الجديد نـجح في إعادة سيطرة السلطان على جميع أنـحاء ظفار. لكن هذا الوالي لم يبـق في الولاية لأكثر من سنـة واحدة، حيث قرر السيد تـركي إرسال

سليمان بـن سويلم مرة أخرى إلى ظفر، وفي تـلك الأثنـاء كان الظفاريون يحاصرون ممثل السلطان، وقد أعلنـوا عزمهم على مقاومة عودة سليمان بـن سويلم إليهم بـالقوة(1)، ويبـدو أن السيد تـركي قرر أن الأمور بـحاجة إلى مزيد من الحزم والقوة، خاصة وأنـه تـمكن من إنـهاء مشاكله الداخلية في مختلف أقاليم عمان وبـالذات إقليم جعلان الذي انـتهى عصيان قبـائله بـالولاء التام لحكومة السيد تـركي في مسقط(2).

---

(1) ج. ج لوريمر، المرجع السابـق، ص. 909.

(2) Saeed A. Al-Amer, op, cit.

... فبادر بإرسال ابنيه فيصل وفهد وعدد كبير من وجهاء عمان على رأس 200 محارب ومعهم مدفع كبير إلى ظفار. ونجحت الحملة في إعادة سليمان بن سويلم إلى الولاية؛ كما ألقي القبض على خمسة من الشيوخ المعارضين الذين كانوا على اتصال بالسيد فضل بن علوي، وحملوا على سفينة متوجهة إلى مسقط(1). وبعد هذه الأحداث مباشرة، توفي السلطان العماني تركي بن سعيد وخلفه ابنه فيصل سنة 1305 هـ/ 1888 م(2)، وانقضت السنوات السبع الأولى من حكم

---

(1) ج. ج لوريمر، المرجع السابق، ص. 909.

(2) مديحة أحمد درويش، المرجع السابق، ص. 132.

السلطان الجديد فيصل بن تركي والأوضاع هادئة في ظفار، لكنه أرسل في سنة 1309 هـ/ 1891 م قوة قوامها 100 جندي لتعزيز الحامية العمانية في الإقليم. وفي الوقت الذي لم يكن اليأس قد داخل السيد فضل في إمكان استعادة ظفار وكان ما يزال مقيماً في القسطنطينية، مُنِحَ أبناؤه الأربعة ألقاباً عثمانية، وهم سهل باشا وحسان باشا ومحمد بك وأحمد بك

وكانوا جميعهم يشغلون وظائف عامة في الحكومة التركية، فتدعم موقفه في الدوائر الرسمية العثمانية، فيما كانت التبرعات تصله من الهند لدعم موقفه السياسي والمالي، لكنها كانت في

تناقص دائم(1).

... وفي سنة 1312 هـ/ 1894 م، تقرب السيد فضل بن علوي من السفير البريطاني في القسطنطينية وطلب الإذن له بالعودة إلى ظفار مع أبنائه. وعرض في مقابل ذلك أن يكفل حرية التجارة بين ظفار وباقي المستعمرات البريطانية في الهند ووكالاتها التجارية والسياسية في سواحل الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية، وأن يلتزم بالقضاء على تجارة الرقيق ويساهم فيه، لكن مقترحاته لم تلق القبول لدى البريطانيين(2).

---

(1) ج. ج لوريمر، المرجع السابق، ص. 910.

(2) المرجع نفسه.

... وفي ربيع 1312 هـ/ سنة 1895 م، كان سهل باشا ابن السيد فضل يعيش في قصر القبة بالقاهرة ضيفاً على الخديوي عباس الثاني في مصر. وأثناء إقامته هناك، دخل في مفاوضات مع القنصل البريطاني العام في القاهرة مستهدفاً عون بريطانيا لاستعادة ظفار. غير أن محاولاته لم تنجح. وبعدها غادر القاهرة عائداً إلى القسطنطينية، فيما اتخذت السلطات البريطانية الحيطة لمراقبته في القاهرة وجدة وعدن، ونصحت السلطان العماني بتعزيز حامياته في ظفار وتزويدها بالرجال والسلاح، خاصة بعد أن أصبح السيد فضل بن علوي يحظى بعطف

(938/1)

العثمانيين(1)، وبعد أن أصبح لأبنائه نشاط سياسي وعسكري ملموس في اليمن وحضرموت. وقد تبين هذا النشاط للبريطانيين من خلال متابعتهم الدقيقة لنشاط فضل بن علوي ومؤيديه العثمانيين(2).

... وفي تلك الأثناء، بدأ تمرد خطير يعتبر أعنف تمرد على السلطان في ظفار بهجوم مفاجئ وقع سنة 1313 هـ/

1895 م وقتل في ذلك الهجوم نائب الوالي وأحد أبناء الوالي نفسه سليمان بن سويلم مع أحد عشر من رجال الحامية، وانسحبت بقية الحامية إلى مرباط والسبب المباشر لذلك

---

(1) المرجع السابق، ص. 911.

(2) فيلبس، المرجع السابق، ص. 96.

التمرد هو الزج بأحد رجال بني كثير في السجن. وكان الكثيريون المتحصنون في الجبال هم الذين تولوا زمام المبادرة في هذا التمرد، وسرعان ما انضم إليهم بعض الأهالي والتزم البعض الآخر بالحياد. ولم يوفق الوالي العماني في إدارة الأزمة وحلها(1)، وتباطأت بريطانيا في تقديم المساعدة للسلطان في إخماد عصيان ظفار بسبب ترحيب السلطان بافتتاح قنصلية فرنسية في مسقط واتصاله بالروس(2). ولهذا

---

(1) ج. ج. لوريمر، المرجع السابق، ص. 911؛ كذلك انظر: فيلبس، المرجع السابق، ص. 98.

(2) مديحة أحمد درويش، المرجع السابق، ص. 142.

اعتمد السلطان العماني على إمكاناته الذاتية، فأرسل السلطان فيصل نجدة عسكرية مكونة من 250 جندياً، لكن هذه الحملة لم تستطع أن تستعيد زمام الأمور بالرغم من وجود قاعدة لعملياتها في مرباط (1).

... ولعل السبب يعود لوجود أنصار لفضل بن علوي وللدولة العثمانية في الإقليم مستغلين سخط الأهالي من تصرفات الوالي العماني في ظفار، خاصة بعدما وردت تقارير تفيد أن هناك شيئاً من التأييد والحضور لأنصار ابن علوي(2). وقد استخدم المتمردون أعلاماً وصفت بأنها

(1) ج. ج لوريمر، امرجع السابق، ص. 912.

(2) المرجع نفسه.

تركية. ولهذا بادر الوكيل السياسي البريطاني في مسقط بعد تلك الأنباء بالتوجه مسرعاً إلى ظفار لبحث الموقف في أوائل منتصف عام 1314 هـ/ 1896 م، كما

فوضه سلطان عمان بالتحدث باسمه مع رجال القبائل، ووجد الوكيل السياسي علم السلطان مرفوعاً على قرية حافة الساحلية(1). إلا أن حامية السلطان هناك كانت محاصرة بالفعل، كذلك كان العلم العثماني يرفرف فوق صلالة، وإن لم يستطع أن يضع يده على دليل يثبت وجود مبعوثين عن ابن علوي في المدينة، والتقى الوكيل السياسي بزعماء التمرد، ومن

---

(1) قرية ساحلية بالقرب من صلالة.

أشهرهم سالم بن حمد المرهوني وعلي ابن كثيري، لكنهم رفضوا العروض التي عرضها عليهم الوكيل البريطاني باسم السلطان، مثل نسيان الماضي ونقل سليمان بن سويلم وتعيين حاكم بديل وتحديد العوائد حسب القوانين، وكذلك التعويض عما حصل من أضرار(1). ... عند ذلك وأمام هذا الرفض، رجع الوكيل السياسي البريطاني إلى مسقط ونوقشت مسألة تقديم العون للسلطان من قبل حكومة الهند البريطانية وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه في ظفار ، وصدرت التعليمات من قبل حكومة الهند البريطانية بضرورة

(1) ج. ج لوريمر، المرجع السابق، ص. 912.

تعزيز أعمال القوات العمانية في البر بنيران البحرية البريطانية عند الحاجة، وأبلغ السلطان بهذا العرض(1). ... وكان البريطانيون في سباق مع الزمن حتى لا يكون في ظفار أي نفوذ عثماني. وفي منتصف عام 1315 هـ/ مطلع عام 1897 م، طلب السلطان دعم السلطات البريطانية الذي عرضوه عليه. وكان هدف البريطانيين من ذلك العون أن لا يضطر السلطان فيصل إلى طلب المساعدة والعون من الفرنسيين(2) في ظل تزايد الوجود الفرنسي في عمان ودخولهم في منافسة شديدة

(1) المرجع نفسه، ص. 913.

(2) مديحة أحمد درويش، المرجع السابق، ص. 143.

مع الأنجليز، حيث منحت فرنسا أعلاماً فرنسية لسفن بعض العمانيين، خاصة سفن أهل صور التي أصبحت تحمل

الأعلام الفرنسية والتي أعطتها هذه الأعلام الحصانة ضد تفتيش السفن الأنجليزية لها(1).

... لذلك تحرك إلى ظفار المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي ومعه الوكيل السياسي في مسقط والسيد محمد الشقيق الأكبر للسلطان فيصل مع قوة مكونة من 70 فرداً على

---

(1) عبد القوي فهمي محمد، »مشكلة الأعلام الفرنسية في عمان«، إقليم الخليج على مر عصور التاريخ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 1417 هـ/ 1996 م، ص. 571.

ظهر سفينتين بريطانيتين. وعند وصول الحملة إلى سواحل ظفار، وجدوا العلم العثماني مرفوعاً بالفعل فوق ساريتين، والتقى الوكيل السياسي بشيوخ المتمردين على الساحل، وعرض عليهم نسيان الماضي مع عدم زيادة الضرائب. لكن الشيوخ أصروا على عدم رغبتهم في وجود وال عماني لديهم أو أن يكون اختيار الوالي برضاهم. وربما عاد السبب من وجهة نظرهم إلى تعسف هذا الوالي وسوء إدارته. وأثناء المفاوضات، أشاروا إلى أنهم تحت

الحماية العثمانية، مما يدل على أن من بينهم من يؤيد السيد ابن علوي والعثمانيين. وعند ذلك، كتب لهم المقيم

(946/1)

البريطاني السياسي في الخليج العربي يطلب إعلان استسلامهم خلال يومين بشروط تتضمن استجابة لبعض مطالبهم. وبعد تدبر الموقف فيما بينهم، وفي ظل عدم وجود الدعم السريع من العثمانيين أو من الذي يمثلهم في المنطقة في الوقت المناسب، بادروا إلى نزع العلم العثماني وتسليمه لإحدى السفن البريطانية. وانتهت تلك الأزمة بسلام، وغادر سليمان بن سويلم والي ظفار العماني إلى ولايته بعد أن سحب الشيوخ معارضتهم لعودته(1).

---

(1) ج. ج لوريمر، المرجع السابق، صص. 914 ـ 915.

(947/1)

... وفي حقيقة الأمر، لم يكن السيد ابن علوي هو المحرض على هذا التمرد، لكنه حاول استغلاله لمصلحته، وقد

يكون ساهم بطريقة أو بأخرى في استمرار العصيان من خلال أنصاره ومؤيديه، في الوقت الذي جدد فيه عرضه أن يعقد مع البريطانيين اتفاقية لحماية حقوقهم مقابل استقلال ظفار. وقد قدم هذا العرض للسفير البريطاني في إستانبول. ورداً على ذلك العرض، أبلغ السيد ابن علوي بأنه لا حق له في السير إلى ظفار، وأن السلطات البريطانية لن تعترف بأي مندوب عنه يرسله إلى هناك(1).

---

(1) المرجع نفسه، ص. 915.

... فكان هذا دعماً واضحاً للسلطان العماني ورفضاً قاطعاً لحكم السيد ابن علوي ونفوذه في ظفار. فقطع البريطانيون على العثمانيين، في الوقت نفسه، الطريق للوصول إلى هذه المواقع الاستراتيجية في جنوب الجزيرة العربية.

... وبعد وصول سليمان بن سويلم وتوليه إدارة الإقليم بوقت قصير، بدأت أحداث السخط والتمرد من جديد. وفي الوقت نفسه تقريباً، قام أهل قرية الحافة الساحلية بهجوم مباغت على أهل صلالة وقتلوا واحداً منهم في نزاع

بين الأهالي. وحين وصلت هذه الأنباء إلى السلطان، كتب يستدعي الوالي سليمان بن سويلم من ظفار

وأرسل بدلاً عنه الوالي الجديد سيف بن يعرب ليخلفه والياً عليها، وجيء بسالم بن حمد المرهوني، زعيم التمرد، إلى مسقط وألقي به في السجن لعلاقته بالتمرد في ظفار. ولقي ابن عمه عمرو بن عبد الله المصير نفسه، لكن تم إطلاق سراح السجينين بتدخل ودي من قبل الوكيل السياسي البريطاني في عمان، وذلك لقرب احتفال السلطان فيصل بن تركي بزواجه من شقيقة أحد أعيان عمان(1).

... وفي بداية 1317 هـ/ 1899 م، نشأت أزمة جديدة بإقليم ظفار عندما تكرر اعتراض البدو طريق إمداد إحدى الحاميات العمانية بقلعة

---

(1) المرجع نفسه، ص. 917.

داخل الإقليم. فأعد الوالي العماني كميناً لهؤلاء البدو، ونجحت خطته، وقتل تسعة منهم، فهب بدو الإقليم كله معلنين التمرد. لكن أهل الإقليم من الحاضرة قاموا بمعاونة الحكومة على أبناء البادية، وخمد التمرد من تلقاء نفسه(1)، حيث كان فيما يبدو نتيجة لقلة هيبة السلطات في ظفار بسبب الخلاف المستمر بين أعيان ظفار ووالي الإقليم سليمان بن سويلم بالذات(2)

---

(1) المرجع نفسه.

(2) توفي سليمان بن سويلم فيما بعد سنة 1325 هـ/ 1907 م بعد أن تجاوز الستين من عمره عندما كلفه السلطان العماني بإحضار بعض مشايخ الهناوية الذين تمردوا في المنطقة الجنوبية الشرقية من مسقط، حيث أطلقت عليه النار وهو يعبر ممرّاً ضيقاً في وادي سمايل (انظر: فيلبس، المرجع السابق، ص. 98).

. ولم تتوافر أية دلائل تشير إلى أن لابن علوي أو للعثمانيين أي دور في ذلك التمرد(1).

... وبوفاة السيد فضل بن علوي في سنة 1318 هـ/ 1900 م في العاصمة العثمانية القسطنطينية(2)، انتهت هذه

الأحداث التي كان يثيرها فضل أو مؤيدوه أملاً في استعادة عرشه في ظفار، وانتظم عقد هذا الإقليم بعد ذلك مع بقية الأقاليم العمانية في ظل حكم السلاطين العمانيين من آل سعيد.

المراجع

---

(1) ج. ج لوريمر، المرجع السابق، ص. 917.

(2) خير الدين الزركلي، المصدر السابق، ج 5، ص. 150.

(952/1)

جامعة السلطان قابوس، دليل أعلام عمان، مكتبة لبنان، 1991.

وندل، فيلبس، تاريخ عمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، ط 3، 1409 هـ/ 1989 م.

الزِّرِكْلِيّ، خير الدين، الأعلام، ط 5، دار العلم للملايين، بيروت، ج 5، 1980.

لوريمر، ج. ج، دليل الخليج، ترجمة وطباعة الديوان الأميري بقطر، ج 2، 1975.

مديحة أحمد درويش، سلطنة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، دار الشروق، جدة، 1982.

المعشني، سعيد بن مسعود بن محمد، الآثار التاريخية في ظفار، مطابع ظفار الوطنية، 1997.

(953/1)

السالمي، نور الدين عبد الله بن حمد، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، مكتبة الاستقامة، د. ت، ج 2.
العثيمين، عبد الله بن صالح، تاريخ المملكة العربية السعودية، ط 2، الرياض، ج 1، 1409 هـ/ 1989 م.

(الوثائق والمخطوطات

البحر الرواس، عبد المنعم بن عبد الله، ضنية الأخبار في علماء ظفار، (مخطوط)، جزء منه غير مرقم وقام الباحث بترقيمه. حصل عليه الباحث من أحد المهتمين بتاريخ ظفار.
وثيقة البيعة من قبل أعيان ظفار للسيد فضل بن علوي (صورة منها محفوظة لدى الباحث أهديت له من قبل أحد المهتمين بتاريخ ظفار).

(954/1)

(المقالات

عبد القوي فهمي محمد، »مشكلة الأعلام الفرنسية في عمان«، إقليم الخليج على مر عصور التاريخ، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 1417 هـ/ 1996 م.

Saeed A. Al-Amer, «The Rebellions of the People of Jalan Region against the Authority of the Musqat Government during the Nineteenth Century»,

بحث منشور في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد 85، جامعة الكويت، الكويت، ربيع 1997.

(المصادر الأجنبية

J. B. Kelly, Britain and the Persian Gulf 1795– 1968, London, 1880.

(1/955)

S. B. Miles, The Countries and Tribes of the Persian Gulf, London, 1960.

(1/956)

إنسية الإسلام

... أصدر صديقنا الأستاذ الكبير مارسيل بوازار Marcel **الأمين العام ل "جمعية الإسلام والغرب" التي كنت أحد مؤسسيها في (جنيف) أوائل الستينات كتابه " إنسية الإسلام" (** Humanisme de l'Islam **) حيث تحدث بإسهاب وإعجاب عن تطور مسار الحضارة الإسلامية في العالم. وكان الأستاذ الفاضل قد وجه إلى كتابه وهو في ملزمته لأخذ رأيي في الموضوع فألفيته حافلا بالوثائق الشيقة عن الفكر الإسلامي وتأثيره في العالم المتحضر، وقد تحدث في هذا النطاق عن العالم الثالث فندد بالحس اللاشعوري الذي يخامر الأوربيين إزاء**

(957/1)

هذا القسم من العالم مهابة واستهوانا. فالغرب يخشى هذا الجزء من الكرة الأرضية لأنه لم يدرك أحقية مطالبه ولأنه يجزع من انفلات موارده الثرية من بين يديه وهي موارده الأولية الضخمة وموارده الطاقية. وانصب تنديد الأستاذ المحترم على تشبث الغرب ثقافيا بوضعه الحالي ورضاه عن منجزاته المادية الغامرة واستناده إلى قوته العسكرية لفرض وجوده فلذلك يحدوه غروره إلى غض البصر عن الحقيقة وإلى منافرة الاستقامة الفكرية

الضرورية لإدراك مدى الحماس الإديولوجي الذي يغامر هذا الفريق الحي من الإنسانية، فقليل هم أولئك الكتاب

(1/958)

المعاصرون الذين يدعون إلى تفتح القانون الدولي الإسلامي لما انبثق عنه الفكر الحديث من تأثيرات إيجابية حول حقوق الإنسان.

... إن تجاهل حقائق الثقافات النابعة من التقاليد الإغريقية قد دفع الكثير من رجالات الفكر إلى استنتاجات مرتجلة تتلخص في أن احترام الشخصية الإنسانية نابع من الفكر الغربي في حين أن الموضوعية التاريخية بل العدالة البسيطة تقتضي التذكير بأن الحضارة التي احتضنت الثقافة في البحر الأبيض المتوسط طوال سبعة قرون من العصور الوسطى هي حضارة الإسلام. وقد أصبح معظم الكتاب اليوم يعترفون بهذه

(1/959)

الحقيقة وبذلك فإن أغلبية من يتحدث عن نشأة القانون الدولي في مداه الإنساني وكذلك الخلق الأممي لا يشيرون إلا لماما لمساهمة الفكر الإسلامي في بلورة هذا العطاء الغامر. أليس الإسلام – مع ذلك – هو الذي تبنى وترجم وشرح معطيات القدامى مع تطعيمها ببصمات عبقريته الخاصة قبل نقلها إلى الغرب المسيحي ؟ ألم يكن ابن رشد وابن سينا – من بين الكثيرين من أمثالهم – هما اللذان تبوءا المكانة العليا في تلقين بدائع الفكر

(960/1)

للأجيال الأوربية ؟ إن الفلسفة الإسلامية قد خلصت حتى العبريين من ثقل النظرية التلمودية وذلك عن طريق (موسى ابن ميمون) الفيلسوف اليهودي الذي عاش خلال القرن الثاني عشر الميلادي في أحضان البلاد الإسلامية والذي كان لفكره المقتبس من الثقافة الإسلامية أكبر الأثر في المشاعر الإسرائيلية والأوربية معا، كل ذلك يؤكد ببداهة أن الحضارة العربية الإسلامية قد ساهمت بوفرة محسوسة في ضمان احترام الشخصية الإنسانية وتركيز العلاقات المثلى بين الأمم والشعوب.

... (مقتطفات من كتاب :

(961/1)

... "الإسلام والخلق العالمي » L'Islam et la morale

« universelle

... ... للأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

(962/1)

ابن رزيق المؤرخ العماني

الدكتور محمد موسي عبد الله

المجمع الثقافي – أبو ظبي

يحتل المؤرخ حميد بن محمد بن رزيق مكانة مرموقة بين المؤرخين العمانيين في العصر الحديث. عاصر ابن رزيق أحداث عمان وتاريخها في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وتعتبر كتاباته المرجع الرئيسي عن تاريخ عمان في تلك الفترة. وكان ابن رزيق ذا معرفة واسعة بالتراث العماني الذي سبقه في ميادين الدين والتاريخ والآداب. لهذا كانت كتاباته موسوعة عن

التاريخ العماني العربي والإسلامي. وقد أنهى كتابته التاريخية عند وفاة السيد سعيد بن سلطان

(963/1)

عام 1856.

سيرته وثقافته :

ينسب ابن رزيق نفسه فيقول : "حميد بن محمد بن رزيق ابن بخيت الذي هو من أولاد سعيد بن غسان نسبا الإباضي مذهبا النخلي سكنا". ولد حوالي عام 1783 م سنة وفاة الإمام أحمد بن سعيد مؤسس دولة البوسعيد في عمان. نشأ في بحبوحة من العيش في مسقط إذ كان جده يعمل في قلم الحساب في الفرضة (الجمرك) أيام الإمام اليعربي سيف بن سلطان الثاني. وحينما انتخب السيد أحمد بن سعيد إماما لعمان عام 1749 (1162 هـ) أكرم جده رزيق بن بخيت بسبب مودة كانت بينهما ووفاء لموقف رزيق منه حينما أنقذه من بطش الإمام

(964/1)

سيف بن سلطان. ولهذا تركه مسئولا عن الفرضة. ولقد كان لهذه العلاقة الطيبة بين الإمام أحمد بن سعيد وأولاده وأحفاده وأسرة رزيق بن بخيت أثر في الصداقة بين مؤرخنا حميد بن رزيق وأفراد العائلة الحاكمة وخاصة السيد سالم بن سلطان وأولاده. وقد أعان هذا مؤرخنا ابن رزيق القرب من صانعي القرار ومن بيدهم الأمر والحكم. وأمده ذلك بالمعلومات الصحيحة الدقيقة(1).

---

(1) حميد بن محمد بن رزيق، الصحيفة القحطانية، رودس هاوس، اكسفورد، 1852، ص. 467.

(965/1)

وقد عاشت في ذاكرة مؤرخنا ابن رزيق قصص النكبات التي حاقت بكثير من أسر مدينة مسقط أيام وجود الفرس التي حكاها الجد رزيق لأبيه محمد والتي نقلها بدوره إلى الإبن حميد. إذ قاست أسرة المؤرخ ابن رزيق من عسف القوة الفارسية التي استدعاها الإمام سيف بن سلطان الثاني إلى عمان عام 1737. ولهذا لا ينسى ابن رزيق أبدا بطولة السيد أحمد بن سعيد في تحرير صحار وبركا ومسقط من هؤلاء الغزاة الفرس. وقد شب حريق

عام 1801 في بيت رزيق في مسقط وانتقل إلى مدينة نخل التي عاش فيها حتى وفاته. وهنا في نخل التقى باثنين من العلماء

كبار السن الذين عاصروا عهد الإمام أحمد بن سعيد. وأمدوه بالكثير من المعلومات الصحيحة وهما الشيخ معروف بن سالم الصايغي النخلي والشيخ ناصر بن حميد البداعي النخلي(1).

لم يكن هوى ابن رزيق مثل جده وأبيه في أمور الحساب والمال. بل كان محبا للعلم وحريصا على صحبة العلماء وأهل الأدب خاصة. وقد ترك له أبوه بعض المال. ووجد في أفراد أسرة البوسعيد وخاصة

---

(1) حميد بن محمد بن رزيق، الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين تحقيق محمد موسي عبد الله ومحمد عبد المنعم عامر وزارة الثقافة والتراث القومي مسقط 1977 ص. 372.

السيد سالم بن سلطان الذي يقاربه في العمر الصحبة الطبية. وانكب ابن رزيق على القراءة. ووجد في مكتبة أبيه ومكتبات السادة وأفاضل العلماء في عمان ثروة هائلة من كتب الأدب والدين والتاريخ، وكان لديه نسخة خاصة من نخطوطه المؤرخ العماني الذي سبقه بقرن من الزمان سرحان بن سعيد "كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة". وهي تبدأ من تاريخ عمان في العصر الجاهلي وحتى عام 1728. وقد كتب ابن زريق نسخته بخط يده. وهذه النسخة موجودة اليوم في تونس. ولقد وجد ابن رزيق في بداية حياته تشجيعا روحيا من السيد سالم بن سلطان وهو أخ

(1/968)

لسلطان مسقط وعمان في ذلك الوقت، وكذلك من العالم الكبير الذي انتهت إليه مقاليد رئاسة العلم في عمان الشيخ جاعد بن خميس الخليلي الخروصي(1).

في تلك الفترة المبكرة من حياة ابن رزيق أولى دواوينه الشعرية عام 1807 (1222 هـ) "سلوة الأنام في مدح الإمام الحميد أحمد بن سعيد". ولكن القدر لم يصف طويلا لمؤرخنا ابن رزيق إذ أصاب الشلل السيد سالم بن

سلطان حينما قارب سن الأربعين وتوفى عام 1820 (1236 هـ). كما فاجأ الموت

---

(1) John C. Wilikinson, The Imamate Tradition of Oman, Cambridge - London, 1987, 2, pp. 226.

أيضا بعد عام العالم الكبير أبو نهبان(1) . وانصرف ابن رزيق إلى قراءة كتب الأنساب والتاريخ العربي والإسلامي والتراث العماني.

كانت دواوين ابن رزيق الشعرية أولى ثمرات إنتاجه وتأليفه، ولهذا عرف بالشاعر. أما كتاباته التاريخية، رغم أنه بدأ تسجيلها منذ وقت مبكر، لم تظهر إلا في فترة متأخرة من حياته. وظهر له في عام 1826 (1242 هـ) ديوان "فصوص الجمان في مدح السيد محمد بن سالم" وفي العالم التالي 1827 (1243 هـ) انتهى من جمع ديوانه "سبائك اللجين". وهكذا ذاع اسم ابن رزيق في

---

(1) ابن رزيق، الفتح المبين، ص. 388.

الأوساط الأدبية في عمان.

ولا شك أن الاستقرار الذي عرفته عمان في عهد السادة البوسعيد، والانتعاش الاقتصادي الذي شهدته البلاد، وتشجيع السادة البوسعيد للعلماء والأدباء كل ذلك أحدث نهضة أدبية علمية كبيرة في عمان. وقد صور لنا ابن رزيق في مخطوطته الصحفية القحطانية مجالس الأدب في عهده يقول :

ومضت ذات يوم عام 1252 (1836 م) إلى مجلس من مجالس أهل الأدب في مسقط حرسها الله. فلما وافيته رحب بي أهله. وكان في المجلس شيخا أديبا كبيرا في السن. فقال له بعض أولئك الأدباء أيها الشيخ إن أديبا من أدباء أهل عمان ينظم

(971/1)

الشعر ويحب الأدباء الأخيار. فقال له : لعله ابن رزيق. فقال له أجل فأقبل علي باحتشام وابتسام وقال لي : أيها الأديب اسمعني شيئا من شعرك فقلت له أيها الشيخ تسمع بالمعيدي خيرا من أن تراه. فقال لا والله ما أنت بالذي يقال فيه هذا. فأنشدته أباتا نظمتها سابقا

في وصف حمامة مغردة على فنن. فقال يا نظير ابن هانئ زدني. فأنشدته في وصف سحابة غاربة. قال هل قلت شيئا في الرعد والبرق والمطر. قلت أجل. فأنشدته. قال لي : لا غرو هذا منكم يا أهل عمان(1) .

---

(1) ابن رزيق، الصحيفة القحطانية، ص. 468.

وحفظ لنا ابن رزيق نتاج مجموعة من أعلام الشعراء في عصره وسجل أشعارهم ومجموعة من الأدباء كاتبي المقالات. كما كتب المداولات الأدبية فيما بينهم. ومن هؤلاء الشيخ القاضي أبو الأحوال سالم بن حمد بن سالم الدرمكي الأزكي الذي أكرمه السيد حمد بن الإمام سعيد وولاه القضاء. ومن شعراء عصر ابن رزيق أيضا الذين ذكرهم في كتابه الفتح المبين شارحا الحياة الأدبية في ايامه وما كان يجري فيها من مطارحة الشعر الشاعر أبو محمد ناصر بن محمد الخروصي. ولا ينسى ابن رزيق أن يسجل بقلمه الجانب الديني لدى هؤلاء الشعراء والأدباء

حينما تختتم عادة هذه الجلسات بحلقة ذكر الله.

ولقد توطدت الصحبة بين ابن رزيق وبين الشيخ ناصر بن أبي نهبان الذي احتل مكانة أبيه في العم والتأليف. كما بدأ يشب وينضج مع الوقت السيد حمد بن سالم الذي توطدت أيضا عرى الصداقة والاحترام بينه وبين ابن رزيق. وإلى السيد حمد بن سالم أهدى ابن رزيق كتابه الضخم وموسوعته التي أكملها في عام 1852 (1269 هـ) الصحيفة القحطانية التي جمع بها ذخيرة العمر من قراءة وصحبة للعلماء. كما أنه بطلب من السيد حمد بن سالم ألف كتابه الأخير الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين

(1/974)

عام 1858 (1275 هـ) وأضاف إليه سيرة السيد سعيد بن سلطان بعد وفاته عام 1856 (1273 هـ).

تلك صورة سريعة من حياة وسيرة ابن رزيق وسعيه الدائب في تحصيل العلم وقرض الشعر وتسجيل التاريخ، وهي تعكس فكر العصر وثقافته ورجاله، ونحن لا نسمع كثيرا عن ابن رزيق خلال الستينات من القرن التاسع عشر بعد نشاطه الكبير في الكتابة أثناء الأربعينيات والخمسينيات التي اكتملت فيها معظم

كتبه وانتاجه خاصة في ميدان الكتابة التاريخية، وقد طال العمر بمؤرخنا وأديبنا ابن رزيق إذ ذكر أنه لا يزال على قيد الحياة في عام 1873 (1290 هـ)

وعمره وقتذاك يناهز التسعين عاما(1). ولم يدر بن رزيق أن نسخة من مخطوطة الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين المحفوظة في مكتبه القصر في مسقط قد أهداها السيد ثويني بن سعيد إلى القس الإنجليزي بادجر في عام 1860 (1277 هـ) وأن كتابه هذا سوف يترجم إلى الإنجليزية وينشر في لندن عام (1871) قبل وفاته. وبذلك خرج اسم المؤرخ خارج عمان إلى الغرب قبل ان يعرفه العامل العربي بقرن من الزمان. وقد كلفت وزارة التراث القومي والثقافية في عمان

---

(1) G.P. Badger, Imams and Syyids of Oman, Hakluyt Society, London, 1871.

الدكتور محمد موسي عبد الله بتحقيق هذه المخطوطة وتم نشرها في عام 1977.

وهكذا استطاع ابن رزيق بسعيه الحثيث في طلب العلم وموهبته في قول الشعر أن يسجل اسمه في عداد كبار المؤرخين العمانيين في العصر الحديث، كما اشتهر له شعره بالفحولة والنبوغ، وسجل اسمه أيضا بين فحول شعراء عمان، رحمه الله رحمة واسعة.

مؤلفات ابن رزيق :

تركلنا ابن رزيق عددا من المخطوطات في موضوعات عدة منها في علم الأنساب والتاريخ والأدب. وكان إنتاجه الأدبي في ميدان الشعر والمقامة والموضوعات النثرية باكورة أعماله.

(977/1)

إنتاجه الأدبي والديني :

بدأ قرضه للشعر في رثاء السيد سلطان بن أحمد في عام 1804.

وفي تمام عام 1807 جمع ما قاله من شعر في مدح الإمام أحمد بن سعيد في ديوانه "سلوة الأنام في مدح الإمام

الحميد بن سعيد".

وأخرج ابن رزيق باكورة إنتاجه الشعري في كتاب سماه "سبائك اللجين" حوالي عام 1827م (1243 هـ) بعد وفاة صديقه السيد سالم بن سلطان وهو موجود في المكتبة البريطانية بلندن.

يقول ابن رزيق في خطبة كتابه "سبائك اللجين" :

فلأجل ذلك قلت في خطبيتي عند تأليفي للكتاب سميته سبائك اللجين :

(1/978)

أمات بمحياه (يقصد السيد سالم بن سلطان) الطغيان وأحيا بصماته الأشجان.

وجمع ابن رزيق أواخر أيام حياته كتابه في الشعر والنثر في كتاب سماه : "جوهرة الأشعار وفريد الأفكار" وقد وصف هذا الكتاب في مقدمته بقوله :

كتاب كثير الأوراق محتو على ما ... راق أهل الذوق السليم(1)

وقد ضمن ابن رزيق في هذا الكتاب قصيدة رثاء في صديقه الشيخ ناصر بن أبي نهبان الذي قضى آخر أيام حياته في زنجبار وتوفى هنالك في عام 1845 يقول بأن رزيق في رثائه :

قيل لي سم ما صنف

---

(1) ابن رزيق، الفتح المبين، صص. 6 – 2.

الفقيه النبيه نجل أبي نهبان

الشيخ من الكتب ناصر ذو المعالي

يم الندى فصيح المقال

وهذا الديوان لا يزال مفقودا ولكنه ذكره في كتابه الفتح المبين وأثبت فيه بعض أشعار هذا الديوان.

ولابن رزيق أيضا كتاب سماه : "علم الكرامات المنسوب إلى نسق المقامات" ولحب ابن رزيق للعبادة ومعاني الزهد والتقوى كان له ميل للتصوف وتقدير كبير وحب أهله، وكان يؤمن بالكرامات.

وكان لابن رزيق أيضا دلوه في ميدان علوم الدين. إذ نقل في مخطوطته وموسوعته الصحيفة القحطانية كتاب "الترتيب في الصحيح من حديث رسول الله – صلى الله عليه

(980/1)

وسلم – " الذي جمعه أبو الشعثاء جابر بن زيد. وقد رتب الكتاب الذي نسخه ابن رزيق في الصحيفة القحطانية الشيخ الأوحد أبو يعقوب يوسف بن أبي ابراهيم بن منادى السدراني الأباضي.

وقد جاء في كتاب الترتيب من أربعة أجزاء الجزء الأول من واحد وستين بابا في الإيمان والصلاة والزكاة والصيام والمواريث والآداب الإسلامية. أما الجزء الثالث فهو عن الولاية والبراءة. وجاء الجزء الرابع مجموعة من الأحاديث الصحيحة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

مخطوطاته في التاريخ العماني :

(981/1)

منذ وقت مبكر من حياة ابن رزيق بدأ مشروعيه وكتابيه الضخمين :

الأول : الصحيفة العدنانية التي اكتملت لديه في عام 1842 (1258).

وقد بدأها شعرا في قصيدته القدسية النورانية في مناقب العدنانية التي قالها في

وقت مبكر، ولكنه ظل يكتب فيها حتى ظهرت في سفر ضخم سماه "الصحيفة العدنانية".

وقد استغرق إنجازها في مرحلتها الأخيرة أربع سنوات، وهي موجودة في

مكتبة المتحف البريطاني في لندن، وقد نسخها بخط يده. وتحتوي تسعة فصول عالج فيها أنساب العدنانية وسيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – والخلفاء الراشدين وتاريخ بين

(982/1)

أمية والعباسيين. وأولاد بعض الأعلام العدنانيين البارزين في مختلف المجالات الأدبية والسياسية والعسكرية(1).

الثاني : الصحيفة القحطانية التي اكتملت لديه في عام 1852 (1269) وقد كتب أغلبها بخط يده.

وقد أدخل ابن رزيق في هاتين الموسوعتين كثيرا من دراساته ومؤلفاته التي عرفت عنه فيما بعد بعناوين متميزة وأظهرها كتبا منفصلة بذاتها ف يالتاريخ العماني.

_____

(1) حميد بن محمد بن رزيق، المكتبة البريطانية لندن تحت رقم O.K 6569.

(983/1)

وقد أودع ابن رزيق في موسوعته الضخمة "الصحيفة القحطانية" كل قراءاته في علم الأنساب وكيف كان إسلام أهل عمان وتاريخ الحركة الأباضية ودراسة أعلام المذهب وخاصة أبي الشعثاء جابر بن زيد، وكذلك أسماء الصحابة والتابعين من الأزد ثم علماء الأزد العمانيين.

وقد سجل ابن رزيق في الصحيفة القحطانية الضخمة معلوماته عن قيام الإمامة في عمان وبيان واف عن أئمتها.

وقد سجل ابن رزيق في الباب السابع من موسوعته الصحيفة القحطانية عدد اثنين وأربعين قصيدة مطولة للشاعر راشد بن جمعة بن خميس الحبسي في مدح الإمام سلطان بن سيف.

(984/1)

كما سجل ابن رزيق في الصحيفة القحطانية كتابه المسمى السير الجلية المسماه سعد السعود البوسعيدية وهي سيرة الإمام أحمد بن سعيد وأولاده وقد انتهى بها إلى وفاة السيد سلطان ابن الإمام أحمد، وهذا معناه أنه بدأ كتابتها قبل عام 1820.

وكذلك كان إنشاؤه لقصيدته الكبرى "في ذكر أسماء أئمة عمان وما بهم من العدل والشأن" قالها شعرا في وقت مبكر. ثم أضاف إليها شروحه التاريخية واللغوية التي استغرقت وقتا طويلا كمخطوطة منفصلة في عام 1855 (1272).

(985/1)

وقد كان نظمه لهذه القصيدة المطولة كما حكة في مقدمة كتابه بطلب من بعض أصدقائه من العلماء:

سألني بعض الإخوان في الدين أن أنظم قصيدة في أسماء أئمة عمان الصالحين المنتوين عن الهجين المساغين عمان بالصنع المعين، فأجبته امتثالا لأمره وانخفاظا مني لإرتفاع قدره(1).

وهذه القصيدة من مائة وثمانية وأربعين بيتا فيها خمسة وعشرين إماما. أولهم الإمام الجلندة بن مسعود

وآخرهم الإمام سلطان بن مرشد اليعربي. وكانت المدة التي استغرقها حكم هؤلاء الأئمة ألف عام.

---

(1) ابن رزيق، الصحيفة القحطانية، ص. 419.

ويعتبر ابن رزيق أول شاعر ومؤرخ في عمان ينظم قصيدة بهذا الطول تحوي كل أئمة عمان شعرا. وقد نسج على هذا المنوال من جاء بعده، وقد سار الشاعر المعاصر عبد الله بن علي الخليلي في كتابه "عمان في سجل الدهر" على درب ابن رزيق في كتابه الشعاع الشائع باللمعان. وكما ذكرت ظهرت هذه المعلومات التاريخية المذكورة في هذا الكتاب عن الأئمة في موسوعته "الصحيفة القحطانية" وذكرها مرة أخرى حرفيا في كتابه "الفتح المبين".

ومن مؤلفات ابن رزيق في التاريخ دراسة في سيرة الإمام ناصر بن مرشد نقرأها في موسوعته الكبيرة الصحيفة

القحطانية. ويصور ابن رزيق الدافع الذي دعاه لهذا التأليف :

وقد وقعت على تواريخ عدة لأصحابنا اهل عمان في السبب الباعث لتقلد الإمامة لقطب أهل المذهب الاستقامة الممجد ناصر بن مرشد، فمنهم من اختصر ومنهم من اطال الكلام، وقد فات من أطال أو اختصر كثيرا من أبرز مناقبه الجلية وسيرته الصالحة المرضية.

فأشار علي بعض الإخوان في دين الله المنان أن أنظم سيرته في سلك الحقيقة لأهل ممتثلي الطريقة وسجعت سيرته الرضية وقشبت غضونها بأشعار جلية وسميتها كتاب "سراج المسترشد الهادي لمناقب سيرة الإمام الممجد ناصر بن مرشد

(988/1)

بن يعرب بن مالك اليعربي"(1).

وبعد وفاة السيد سعيد بن سلطان عام 1856 (1272 هـ) طلب السيد حمد

بن سالم من ابن رزيق أن يكمل دراسته للسيرة الجلية المسماة سعد السعود

البوسعيدية وهي سيرة الإمام أحمد بن سعيد وأولاده التي كان قد بدأ كتابتها في

العشرينات ووصل فيها إلى سيرة السيد سالم بن سلطان الذي مات عام (1820 هـ). وطلب السيد حمد بن سالم أن يكمل هذه السيرة الجلية بالكتابة عن عهد السيد سعيد بن سلطان لتكتمل قصة الإمام وأولاده وأحفاده.

---

(1) ابن رزيق، المصدر السابق، صص. 411–412.

وكانت فرصة ان يجمع ويكتب ابن رزيق سفره الجامع في تاريخ عمان الذي ظهر تحت عنوان "الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين". الذي أتمة عام 1858 (1275 هـ) وهذا السفر عبارة عن ثلاثة أبواب :

الباب الأول : عن الأزد أجداد وأصول البوسعيديين.

الباب الثاني : عن أئمة عمان.

الباب الثالث : الإمام أحمد بن سعيد وأولاده حتى سيرة سالم بن سلطان.

والحقيقة أن ابن رزيق قد جمع ولخص هذه الأبواب الثلاثة السابقة مما سبق وكتبه في هذه الموضوعات في

موسوعته الصحيفة القحطانية وكتابه الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عمان.

(990/1)

ثم أضاف رزيق كتابا جديدا لهذه الأبواب الثلاثة، اجتهد في إنجازه بعد وفاة السيد سعيد بن سلطان وقد سماه : "بدر التمام في سيرة السيد الهمام سعيد بن سلطان".

ويفسر ابن رزيق في مقدمة كتابه الفتح المبين فلسفته في كتابة التاريخ وأنه لم يسجل من قبل سيرة السيد سعيد بن سلطان لأنه كان لا يزال على قيد الحياة، وهو من قبل لم يكتب عن سيرة صديقه السيد سالم بن سلطان إلا بعد وفاته عام 1820، ويشرح لنا هذا أن ابن رزيق مؤرخ صادق، لم يكتب كتابه في التاريخ عن البوسعيد نفاقا ورياء لكنه كتب تاريخهم كجزء من تاريخ عمان

(991/1)

وعلى أنهم سادة أفاضل في وطنه العزيز.

ويعلم ابن رزيق أن كتابة الحقيقة الخالصة غير

ممكنة، إذ علمها عند الله ولكنه يعتذر بأن ما كتبه هو ما حفظه ووصف لما شاهده وحسبه الصدق والأمانة والدقة في كتابته، كل هذه المعاني سجلها ابن رزيق في مقدمة كتابه "الفتح المبين" إذ يقول :

لما كتبت سيرة الإمام أحمد بن سعيد وأتبعته بذكر مناقب أولاده أهل التفضيل

على الجملة والتفصيل تماسكت عن نظم سيرة الهمام سعيد بن سلطان اقتداء

بمذهب المؤرخين الأولين والآخرين إذ هم لا يؤرخون أهل المناقب العلية إلا بعد ارتحالهم لمنية.

(1/992)

ولما قضى بحكم القضاء تاقت نفسي لذكر ما كان له من الكوائن في زمانه. وأن أذكر بعض ما حفظته في سيرته الجزئية السنية إذ الكلية متعذرة للسر والعلانية. وإن من رفع السماء بغير عمد هو لا غيره لا يعزب عنه مثقال ذرة(1).

ابن رزيق بين المؤرخين العمانيين :

يعتبر ابن رزيق أحد ثلاثة علماء أوائل من أبناء عمان الذين بدأو تناول كتابة التاريخ العماني الشامل بعد

أن كانت كتابة التاريخ في عمان قبلهم لا تعدو سيرا متفرقة. وجاء ابن رزيق الثاني في الترتيب الزمني بين هؤلاء العلماء الثلاث.

---

(1) ابن رزيق، نفس المصدر، ص. 206.

وهم حسب معالجتهم لفترات التاريخ العماني :

1- سرحان بن سعيد مؤلف كتاب "كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة" وقد عالج التاريخ العماني من بدايته وحتى عام 1728 (1141). وكان له بذلك فضل السبق في كتابة هذا النوع من التاريخ الشامل. وكان بذلك المرجع الذي أخذ عنه ابن رزيق ثم الشيخ عبد الله السالمي من بعده.

2- حميد بن محمد بن رزيق مؤلف كتاب "الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين". وهو ينتهي بالتاريخ العماني في عام 1856 (1273) وله فضل تسجيل التاريخ العماني إبتداء من الفترة التي توقف عندها سرحان بن سعيد في عام

تسجيل التاريخ العماني إبتداء من الفترة التي توقف عندها سرحان بن سعيد في عام 1728. ويكمل لنا القصة حتى عام 1856.

3- وثالثهم عبد الله بن حميد السالمي في كتابه : "تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان" وهو يكمل قصة التاريخ العماني بين عام 1856 (1273 هـ) وحتى عام 1913 (1332).

وقد وجد كل من العالم سرحان بن سعيد والمؤرخ حميد بن رزيق حينما شرعا

يكتبان التاريخ العماني الشامل لول مرة أمام أيديهما ميراثا عمانيا غنيا ينهلان منه.

سواء كان هذا في كتب الأنساب مثل كتاب أبي المنذر سلمة بن مسلم العوتبي

(995/1)

الصحاري : "أنساب العرب" أو مجموعات من دواوني الشعر على مر العصور. ومن أهم مصادرهما في كتابة التاريخ العماني الشامل كتب السير العمانية التي سجلت لنا فترات هامة من تاريخ عمان. وتناقلت نسخ هذه السير

وكتابتها أجيال العلماء وذوي الفضل من أبناء عمان، وهذه السير عبارة عن روايات شخصية لبعض الأحداث السياسية وشرح للعقيدة الأباضية ومبدأ الولاء والبراءة عند الأباضيين حيال بعض المواقف. لقد اتفق هؤلاء العلماء على عدد من الموضوعات المتقاربة فجاء نهجهم أيضا متشابها. وهذه السمات البارزة هي :

(996/1)

1- بدء عرض التاريخ العماني بدراسة سكانية للقبائل، ما هي أصول العمانيين، من أين أتوا، وما هي لغتهم وما هي عقيدتهم. وهذا نهج حديث يتبعه المؤرخون المحدثون اليوم حينما يعالجون تاريخ بلد من البلدان. ولقد اتفق العلماء الثلاثة على لمس جانب الاعتزاز عند أبناء عمان، فهم يرجعون إلى هجرة الأزد إلى عمان وهجرة القبائل العدنانية إلى شمال عمان.

وقد يتشابه مؤرخنا العماني ابن رزيق مع المؤرخ الطبري وابن الأثير في تقديم كتابتهم للتاريخ العربي والإسلامي بذكر الأنساب والقبائل العربية، ولكن بينما يبدأ المؤرخ الطبري

(997/1)

وابن الأثير القصة بخلق الكون ثم ظهور آدم متأثران في ذلك بالثقافة الإسرائيلية التي أمد بها وهب بن منبه وغيره من المؤرخين الإسلاميين الأوائل، نجد أن ابن رزيق قد سلم من ذلك ودخل مباشرة إلى هجرة مالك بن فهم وقبيلته من الأزد إلى عمان.

2- لقد تعرض عمان وأبناؤها من معتنقي المذهب الأباضي إلى حملات عسكرية من قبل حكام بني أمية ومن الدولة العباسية. كما تعرض فكرهم ومذهبهم إلى هجوم شديد من دار الخلافة، فكان لا بد للمؤرخ العماني أن يعرض كيف أسلم أهل عمان وفضلهم في هذا الإسلام دون حرب أو قتال، وكذلك مشاركتهم

(998/1)

في الفتوحات الإسلامية ةتكاثرهم في البصرة، وكيف كان منهم في هذه المدينة الجديدة حملة العلم سواء في اللغة أو في الدين، كما كان منهم رجال في السياسة والحرب مثل آل المهلب بن أبي صفرة. ويشرح المؤرخ العماني الأحداث التي أدت إلى ظهور مذهب الاستقامة الأباضي ويناقش أفكار الأحزاب السياسية الإسلامية

المختلفة،

وتسنح هنا له الفرصة كي يشرح مبادئ مذهب الاستقامة الأباضي ويبين تميزه ومعالمه، ثم يتابع المؤرخ في منهجه هذا لتكلم عن السياسة.

(999/1)

وهذه السير كثيرة العدد قليلة الصفحات، وهي مع ذلك من أهم مصادرنا التاريخية عن تاريخ عمان الإسلامي المبكر.

ومن تلك السير السيرة القحطانية لأبي قحطان خالد بن قحطان، وسيرة شبيب بن عطية وسيرة المؤثر الصلت بن خميس الخروصي وسيرة أبي الحسن بن محمد البسيوي وكتاب سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكريا يحيى بن أبي بكر. وقد حقق ونشر هذه السير في الأيام الأخيرة وزارة الثقافة والتراث القومي في عمان.

وكما ارتبط المذهب الأباضي بالروح العمانية وتعلق أبناء عمان بالحرية وبمذهب الاستقامة الأباضي فإنه ليس بغريب أن نرى

(1000/1)

هؤلاء العلماء الثلاث حينما كتبوا التاريخ العماني الشامل قد سلكوا في معالجتهم لهذا التاريخ مسلكا واحدا وذلك بتناولهم لموضوعات وقضايا متشابهة فيما بينهم، وتميز بذلك نهج واضح متميز بدأه سرحان بن سعيد، وتابعه فيه ابن رزيق، وأخذه عنه عبد الله السالمي. وكان اتفاقهم في اختيار الموضوعات وأسلوب معالجتها وطريقة الحكم عليها هو ما يدعونا أن نسميه المدرسة العمانية في كتابة التاريخ.

3- أبدع ابن رزيق حينما أحسن التعبير عن الرؤية العمانية للتاريخ التي ترى أنه ليس مجرد وصف تطورات سياسية وسيرة حكم، لأنه بذلك

(1001/1)

يصبح سردا لمعارك حربية ولأسماء الحكام، بل إن التاريخ لدى العمانيين ولدى ابن رزيق هو سجل للمبادئ والأفكار، ومواقف الرجال من أجلها، فهو بذلك مواقف شجاعة لعلماء وبطولة حقيقية لرجال لإقامة الحكم العادل. والتاريخ سجل لشاعر صادق يدعو في قصيدته لمبدأ ويسجل بطولات رجاله. وصحيح ان قيمة بعض فترات التاريخ تأتي من إمام فاضل أو حاكم صالح. ولكن هنالك أيضا قيمة العالم الفقيه ورأية ومواقفه، وهو حري

بتسجيل اسمه وفكره وأسماء كتبه.

لهذا جاء كتابات ابن رزيق متأثرة بالنهج العماني أو مليئة بأسماء الشعراء العمانيين

(1002/1)

وأسماء العلماء الفضلاء وأفكارهم وفتاويهم جنبا إلى جنب مع الأئمة والولاة،

ويأخذ ابن رزيق بين الفترة والأخرى لنستريح من تعب أحداث السياسة ونغوص معه في مناقشة حرف جر أو تذوق بيت من الشعر أو الجلوس في حلقة عالم في قضية ميراث، أو مسألة فقهية، وهي أمور يحبها أبناء عمان ويعشقونها، ثم يعود بنا ابن رزيق ثانية إلى أحداث التاريخ، وقد جعل ذلك عرض التاريخ العماني ممتعا ليس فيه سأم السياسة، ودبت في الأحداث حياة يعيش فيها القارئ ويحسها ويلمس نبض الحيوية فيها.

(1003/1)

4- بسبب تدين العمانيين، وتأثرهم بمبدأ تدقيق الرواية مثلما فعل المسلمون الأوائل في جمع حديث رسول

الله – صلى الله عليه وسلم –، ومثلما فعل رجال المذهب الأولائل، وبسبب تدين العلماء الذين تعرضوا لكتابة السير العمانية، هنا حرص مؤرخنا ابن رزيق على التحقق من صدق الرواية التي سمعها. ولسوف نجد أثر ذلك في صدق روايات ابن رزيق، وسلوكه أسلوب التدقيق والترجيح والتحقيق والاعتماد على الكتب والوراة الثقاة والسعي وراء الخبر للتأكد منه، وأن ابن رزيق بعد قراءتنا لكتبه ولسيرته وعرفة رواته وجهده في تحقيق الأخبار

(1004/1)

يعتبر مؤرخ ثقة بلا شك في الفترة التي سجلها ونعتمد نحن جميعا عليه فيها وهي الفترة ما بين عام 1741 (1154) وحتى عام 1856 (1273 هـ) في تاريخ عمان الداخلي المحلي، وهذا جانب هام وأساسي في التاريخ العماني.

معالم الكتابة التاريخية عند ابن رزيق :

نلاحظ عند قراءتنا لدواوين ومخطوطات ابن رزيق في التاريخ الأمور التالية :

1– اعتزاز ابن رزيق بدينه الإسلامي وبمذهب أهل الاستقامة الأباضي لما يجد فيه من أصالة وأخذ من المنبع،

ولما فيه من رفق وسماحة وابتعاد عن الغلو. وابن رزيق يحب أهل الورع والتقوى وعرف عنه صحبته

(1005/1)

لعلماء الدين، وهو مواظب على صلواته في المسجد عف اللسان محب العلم.

2- كان داعيا من دعاة الوحدة الوطنية العمانية. فلقد هاله الاختلاف بين قبائل

النزار وقبائل قحطان أثناء قراءته للتاريخ العماني وما سببه ذلك الصراع من ويلات على

وحدة التراب العماني ... خاصة أنه قد عاصر الخلاف

الهناوي والغافري،

الذي نشب في أعقاب انهيار دولة اليعاربة. ونرى ابن رزيق ينصب نفسه داعية إلى الوحدة الوطنية العمانية، ويظهر ذلك جليا في مخطوطتيه (الصحيفة العدنانية والصحيفة القحطانية).

(1006/1)

3- لقد حرص على استلهام التراث داعيا إلى قراءته وإلى تذوق لغتنا العربية الجميلة، وهو يلفت أنظار أبناء عمان خاصة، وهم العاشقون للغتهم العربية إلى جوانب الإبداع والبلاغة في الشعر والارتقاء بمفرداتهم اللغوية وباختيار الكلمة لدى الشعراء والأدباء.

4- كان اعتزاز ابن رزيق بوطنه عمان كبيرا فقد عاش سنوات طويلة بين صفحات مجلدات وكتب التاريخ العربي والإسلامي العام كما قرأ التراث العماني المحلي وجالس كبار العلماء في عهده يستمع إليهم، كما صاحب شعراء العربية وأدباءها الماضيين في دواوينهم يحفظ ويستمتع بنظمهم

(1/1007)

وبإبداعهم وامتلأ قلبه بعظمة تاريخ وتراث أجداده في عمان.

مصادر ابن رزيق :

1- مصادر ابن رزيق قبل عام 1804.

2- مصادر ابن رزيق بين عام 1804 وعام 1856.

3- مصادر ابن رزيق حوالي عام 1783 وبدأ يقرض الشعر ويقرأ الكتب في شبابه ورثى السيد سلطان بن أحمد عام 1804 ولديه من اعمر حوالي العشرين عاما. جمع ابن

رزيق ما جرى من أحداث وأخبار بين عام 1728 وحتى عام 1804 من رواة ورجال عاصروا هذه الفترة مثل أبيه وجده وغيرهم أما بقية الفترة فقد جمع المعلومات من صانعي الأحداث ورجال السياسة والعلماء والأدباء ومن أفراد

(1/1008)

العائلة الحاكمة من البوسعيد الذين كان يختلط بهم ويزور مجالسهم مباشرة.

لم يأت ابن رزيق في هذه الفترة بجديد من الأخبار والتاريخ، ولكنه كان قارئا جيدا، أحسن القرأة الواسعة في كتب التراث العربي والإسلامين وقرأ السير العمانية، واستوعب الشعر العماني والشعر العربي، وميزته أنه عرض هذه الفترة عرضا شيقا مختصرا.

وقد كتب ابن رزيق في هذه الفترة عن أنساب قبائل الأزد والقبائل العدنانية في الجاهلية وقبل الإسلام وتواجد هذه القبائل في عمان ثم كتب طرفا من السيرة النبوية وأخبار الصحابة والتابعين وأحداث التاريخ

(1/1009)

الإسلامي المبكر أيام الخلفاء الراشدين، وتناول طرفا من أخبار الدولة العباسية وظهور القرامطة والسلاجقة كما تناول في عرضه الكثير من الشعر والدب العربي في الجاهلية والإسلام.

ولم ينس أبدا مؤرخنا المتمكن ابن رزيق وهو يعرض لهذه الفترة أن يذكر المصدر، فهو دائما يذكر الروايات عن ابن اسحق وابن هشام وابن سعد في السيرة النبوية وابن الكلبي والعوتبي في الأنساب، كما نقرأ إشاراته إلى الطبري وابن الأثير وابن خلكان والمدائني والواقدي والرازي والمسعودي والبخاري والنووي وابن مالك هذا عدا دواوين الشعر والمقامات

(1010/1)

وكتب الأدب للمبرد وابن دريد ودواوين الشعراء الفطاحل.

وإن الإنسان ليعجب هنا لأمرين :

* الأول سعة اطلاع ابن رزيق وقراءته لكل هذه المراجع الكثيرة والغنية.

* الثاني غنى عمان وحوزتها لهذه الكتب والذخائر في لاتراث العربي. هذا عدا ما لديها من تراثها الديني والأدبي والتاريخي الخاص بها الذي لم يعرفه العرب إلا

خلال العشرين عاما الأخيرة.

وحين يسرد التاريخ العماني والدعوة الأباضية والمذهب نحس درايته العميقة بكل التراث العماني وما أنجزه أبو الشعثاء جابر بن زيد ومسند الحبيب بن ربيع الفراهيدي وكتب السير

(1011/1)

العمانية مثل أبي المؤثر الصلت بن خميس وسيرة ابن قحطان خالد بن قحطان وسيرة منير ابن النير الجعلاني وسيرة محبوب بن الرحيل وغيرها من السير والجوابات الفقهية، وهو دائما حينما يذكر خبرا مصدره.

وحينما يصل بنا إلى دولة اليعاربة يتضح لنا أن ابن رزيق قد اعتمد على الكتب المؤثقة المعروفة في هذا العصر مثل كتاب ابن قيصر : "سيرة الإمام ناصر بن مرشد". كما اعتمد كثيرا على كتاب سرحان بن سعيد : "كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة". وقد عاصر سرحان بن سعيد هذه الفترة وهو حجة فيها.

(1012/1)

أما الفترة من عام 1804 وحتى عام 1856 فإن ابن رزيق قد عاصر هو نفسه هذه الفترة، وهو شاهد على أحداث عصره، ولكنه استقى معلومات كثيرة عن مؤسس دولة البوسعيد وأولاده من والده الذي أخذ الكثير من المعلومات عن أبيه رزيق بن بخيت. كما ذكر لنا ابن رزيق عددا من العلماء الذين اختلط بهم وجمع عنهم المعلومات، ومن هؤلاء العلماء معروف بن سالم الصايغي وخاطر بن حميد البداعي يقول ابن رزيق في سيرة محمد بن ناصر الغافري عام 1728 :

(1013/1)

وعن الشيخين معروف بن سالم الصايغي وخاطر بن حميد البداعي وهما من رجال ذلك الزمان وثقاته في الحديث أن محمد بن ناصر لما عزم على حرب صحار ...(1)

ويضيف هؤلاء العلماء الشيخ محسن العجمي القصاب حينما يتكلم عن حصار العجم لصحار وكيف تغلب عليهم السيد أحمد بن سعيد، وكيف تم انتخابه إماما على عمان. ومن الذين رووا له أيضا بعض الأحداث في عهد الإمام أحمد بن سعيد الشيخ خميس بن سالم الهاشمي، ولابد أن مؤرخنا قد سمع الكثير من الشيخ أبي نبهان جاعد بن خميس مما جرى في أيام الإمام سعيد بن

(1) ابن رزيق، الفتح المبين، 363.

(1014/1)

أحمد وابنه السيد حمد. وجمع ابن رزيق الكثير من أخبار السيد حمد بن سعيد من الشيخ القاضي سعيد بن أحمد بن سعيد اليحمدي.

لم يكن ابن رزيق فيما يحكيه ويرويه عن مشاهداته بالمؤرخ العادي – إذ هو عالم قرأ التاريخ العماني وعرف الفكر العماني والقبائل وأخبار الماضين في عمان، لذا فإنه حين يسأل ويجمع المعلومات فهو رجل ذو خبرة بالموضوع، يعرف عم يسأل،ويدرك كيف يقيم ما يقال، ويعطى لكل كلام ميزانه من الصدق، ودرجته من القيمة التاريخية.

كان ابن رزيق قريبا من المسئولين صانعي القرار السياسي وخاصة صديقه السيد

(1015/1)

سالم بن سلطان، كان صديقا لعدد كبير من العلماء والأدباء، فهو رجل يفهم مجتمعه

وما يجري فيه من تطورات وأحداث، وصادق ابن رزيق السيد سالم بن سلطان أخ
السلطان سعيد بن سلطان، وحضر مجلسه، ثم تبنى ابنه حمد بالرعاية بعد وفاته
عام 1820. وقد كان له في تلك الفترة مشاركة مع السيد سالم بن سلطان في
حملة بحرية ضد القواسم، كانت هنالك صداقة وإعجاب من ابن رزيق بالعالم الكبير جاعد بن خميس وابنه ناصر بن أبي نهبان.
ولم تكن القراءة والرواية عن العلماء والمشاهدة المباشرة هي كل مصادر ابن رزيق، بل إنه حرص على الرحلة إلى

(1016/1)

المواقع التاريخية بحثا عن المعلومات رغم وعورة الطرق آنذاك ومشقات السفر، وحينما حدثنا ابن رزيق عن فترة نفوذ القرامطة في عمان حكى لنا قصة البطل الشيخ جمال الدين عبد الله بن المقرب الذي طرد القرامطة من عمان وتعقبهم بالحسا، وقد ترك عبد الله بن المقرب قلعة بطيري في عمان، زارها ابن زريق وقدم لنا معلومات تاريخية وجغرافية مفيدة عن هذه الرحلة.

ولنصحبه في رحلته هذه إذ يقول :

وكان سبب زوال ملك القرامطة على يد عبد الله بن علي بن مقرب. وكان قيامه عليهم بأربعمائة رجل. وكانوا في عسكر جمة وجنود كثيرة. فلبث في

(1017/1)

محاربتهم سبع سنين حتى انتزع الدولة منهم.

ثم يتابع ابن رزيق :

قال المصنف وصد أن الشيخ جمال الدين عبد الله بن علي بن مقرب قد ارتفع عن الحسا بعد ما صنع وسكن بعد ما فارق الحسا بلدة طيوى، ومات بها بعد أن بنى حصنا بالحجر في الجبل المشرف على الماء الجم، وهو المسمى الشط الشرقي، إذ بطيوى شطان شرقي وشط غربي.

والشط الشرقي أغزر ماء من الشط الغربي. وقد مضيت إلى طيوى مرتين المرة الأولى سنة 257 (1841) والمرة الأخرى سنة 1267 (1850) فرأيت الحصن الذي قد بناه الشيخ جمال الدين بن عبد الله بن مقرب وهو حصن مبني

(1018/1)

بالحجارة فوق جبل شاهق في أول مدخل البلد، وتحت هذا الجبل الشط المذكور، وماؤه ينساب إلى البحر عذبا سائغا شرابه. وأروني أهلها النهر الذي أحدثه الشيخ جمال الدين المذكور وسماه النهر البدر، وبقي عليه الاسم إلى هذه الغاية. وأروني أهلها موضع قبره، وهو في جبل شاهق تستره أعشاب وأشجار. وأروني موضع الحصن على صخرة صماء عالية، وما بقيت من هذا الحصن إلا رسوم(1) .

وإلى جانب اتباع ابن رزيق كما رأينا المنهج العلمي في الرجوع إلى المصادر المتوبة الموثوق بها، والتأكد مما سمع

---

(1) ابن رزيق، المصدر السابق، صص. 354–355.

وشاهد في عصره، وأخذه المعلومات من رجال شهدوا الأحداث بأنفسهم جاء أسلوبه خير شاهد على أن الكتابة والصياغة التاريخية مسألة فن تختلف من مؤرخ إلى آخر.

وهب الله ابن رزيق خيالا خصبا وأسلوبا رفيعا، فهو شاعر أديب، ولقد استطاع ابن رزيق أن يقدم لنا بالكلمات

لوحات رائعة تعكس أخلاق العصر، وتشرح الجو النفسي والأخلاق والعادات التي عاش في إطارها الرجال الذين صنعوا تاريخ الفترة التي يتكلم، عنها، وقد استخدم ابن رزيق في ذلك عددا من الأساليب منها أسلوب الحوار ودقة الوصف وخاصة للمعارك

ابن رزيق والمؤرخ الغربي :

(1020/1)

كانت عمان طوال تاريخها الطويل ذات صلات وثيقة مع القوى السياسية الكبرى المحيطة بها، كان لها علاقات مع الفرس قبل ظهور افسلام وكان لها علاقات مع المدينة المنورة أيام الحلفاء الراشدين وكان لها أيضا علاقات مع دمشق ومع بغداد عاصمة دار الخلافة الإسلامية. وفي العصر الحديث وعلى إثر الرسالة التي أرسلها نابليون من القاهرة عام 1798 إلى السيد سلطان بن أحمد دخلت مسقط وعمان في دائرة اهتمام الإنجليز في الهند، وأصبح من المهم لدى الساسة البريطانيين في حكومة بومباي التعرف على أحوال عمان وتوثيق العلاقات السياسية

(1021/1)

والتجارية معها، وقد توطدت الصداقة بين حكومة بومباي البريطانية وعمان في عهد السيد سعيد بن سلطان (1806 – 1856). ونحن لا نجد صدى كبيرا لذلك في كتابات ابن رزيق، وكتابه بذلك مرجعا رئيسي في أحوال عمان الداخلية. ولا شك اننا في حاجة إلى الإطلاع على تفاصيل المعاهدات والعلاقات بين عمان والحكومة البريطانية في أرشيف حكومة الهند في لندن حتى تزداد معرفتنا بأحوال عمان في ذلك العصر من ناحية شؤونها الخارجية أيضا، خاصة وأن العلاقات ازدادت على مر الأيام، وسيصبح للإنكليز تعاون اوثق ومشاركة في الأحداث في عمان.

(1/1022)

ورغم أن الإدارة السياسية في حكومة بومباي الإنجليزية حاولت عمل عدد من الدراسات عن عمان، وصدر لها في عام 1856 كتاب مختارات من أرشيف حكومة بومباي وفيه عدد من المقالات عن عمان إلا أن هذه الدراسات عبارة عن معلومات محدودة عما يجري في

ساحل الباطنة بعمان، أما معرفتها بشؤون داخل عمان فهي مشوشة، وأخيرا أهدى السيد ثويني بن سعيد في مسقط مخطوطه "الفتح المبين" لابن رزيق للعالم الإنجليزي بادجر عام 1860 حينما كان عضوا في لجنة التحكيم وكان يعرف اللغة العربية، وهنا انفتح امام بادجر نافذة واسعة للتعرف على

(1023/1)

المعلومات الصحيحة عن عمان وقبائلها وعقيدتها وتاريخها الطويل ومعلومات وفيرة عن البوسعيد العائلة الحاكمة فيها، وترجم بادجر هذه المخطوطة إلى الإنجليزية ونشرت في لندن عام 1873.

وقال بادجر في مقدمة لهذه الترجمة :

إنه لمن المدهش، وليس لهذا الشيء الحسن للحكومة البريطانية في الهند، إنه رغم علاقاتنا السياسية والتجارية الوثيقة مع عمان خلال القرن الماضي فإن معلوماتنا عن عمان لا تعدو معرفة الساحل مثلما كان الحال تماما عن معرفتنا بمنطقة البحيرات في وسط أفرقيا وقتذاك وإن خريطة وليست هي الوحيدة لدينا وقد

رسمها من ملاحظاته الشخصية أثناء رحلته قام بها عام 1835 من صور إلى بلاد بني بو علي ثم من وادي البطحاء إلى سمد ونزوى وبعد ذلك عبر وادي سمايل إلى السيب(1).

وهكذا كانت ترجمة بادجر لمخطوطة الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين في عام 1873 تحت عنوان "الأئمة والسادة في عمان" فتحا جديدا لدى الغربيين لمعرفة تاريخ عمان المجهول والغامض عليهم، كما قدم ابن رزيق بيانا للحياة في أعماق داخل عمان. ونحن نجد أثر ذلك في الكتاب الذي ألفه بعد ذلك كولونيل مايلز تحت عنوان بلاد

---

(1) Badger, Op. cit., Introduction.

وقبائل الخليج. وفي الواقع أن هذا الكتاب ليس إلا دراسة لقبائل وتاريخ عمان كما قرأه مايلز في ترجمة بادجر لابن رزيق، فقد كان مايلز المعتمد السياسي

والقنصل الإنجليزي في مسقط بين عام 1872 وعام 1886، ونشر كتابة هذا عام 1919 على يد زوجته بعد وفاته.

(1026/1)

اتجاهات كتابة التاريخ الحديث في مصر خلال القرن التاسع عشر

الدكتور عبد المنعم إبراهيم الجميعي
وكيل كلية التربية فرع جامعة القاهرة بالفيوم-أمين عام الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

موضوعات البحث:

أهمية كتابات الجبرتي في تاريخ مصر الحديث.

دور رفاعة الطهطاوي وتلاميذه في حركة التنوير وفي تطوير الدراسات التاريخية.

علي مبارك ودراساته حول تاريخ مصر العمراني والاجتماعي والتعليمي.

معاصرو علي مبارك وكتاباتهم.

ميخائيل شاروبيم ومواكبة الأسلوب الحديث في الكتابة التاريخية.

(1027/1)

كتابات الأفغاني وأثرها في انبعاث الكتابة الوطنية.
كتابات رجالات الثورة العرابية لونا من ألوان الكتابة التاريخية.
ارتبطت حركة التأليف التاريخي في مصر قبيل ظهور المدرسة التاريخية الحديثة بالاهتمام بذكر سير العظماء وغرائب الحوادث. أما تاريخ الشعوب والأمم، فلم يحظ بمثل هذا الاهتمام ولم تسلط الأضواء على أحوال الناس وبخاصة الاجتماعية والاقتصادية. يضاف إلى هذا أن هؤلاء المؤرخين لم يسخروا طاقاتهم لخدمة مصالح وطنهم على أسس من الحق والحكم على الوقائع بطريقة موضوعية. واستمر الحال على هذا المنوال فترة حتى

(1028/1)

برزت النهضة التاريخية الحديثة، وأخذ المؤرخون في توجيه جهودهم إلى تاريخ حياة الشعوب وأحوالها.
وتبدأ حركة التأليف التاريخي لمصر الحديثة بعبد الرحمن الجبرتي الذي عاش عصر انتقال مصر من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، تلك الفترة التي اتسمت

باضطراب الشديد والتغير السريع، والتي شملت أواخر العصر العثماني الأول وعصر الحملة الفرنسية ونحو عشرين سنة من حكم محمد علي. وهذه الفترة من تاريخ مصر تعد الفاصل بين عصر الركود والهدم والتخريب، وعصر النهضة والإنشاء والتجديد.

(1/1029)

وكتابات الجبرتي في مؤلفيه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار"(1) و"مظهر التقديس بذهاب الفرنسيس"(2)

---

(1) طبع عدة طبعات بعد أن محجوبا لفترة ليست بالقليلة. وبعد أن أذن الخديوي توفيق بطبعه، طبع لأول مرة في عام 1297هـ/1879م بالمطبعة الأميرية ببولاق، ثم تكرر طبعه؛ فطبع بالمطبعة الشرفية في عام 1323هـ/1905م في أربعة أجزاء، وقامت وزارة التربية والتعليم بتحقيقه تحت إشراف الأستاذ محمد شفيق غربال في عام 1958م؛ كما ترجم إلى الفرنسية في تسعة أجزاء.

(2) يؤرخ هذا الكتاب للحملة الفرنسية على مصر. وكان الجبرتي قد أهداه إلى يوسف باشا القائد العثماني الذي دخل القاهرة في أعقاب خروج الفرنسيين منها. وقد

قامت وزارة التربية والتعليم بتحقيقه في عام 1961م. والجدير بالذكر أن الجبرتي قد أفاد في تاريخه من جهود بعض المعاصرين له أمثال إسماعيل الخشاب وحسن العطار كما أفاد أيضا من جهود من سبقه من المؤرخين.

(1030/1)

–أو "زوال دولة الفرنسيس" في بعض النسخ– تعد بمثابة الركائز الأساسية في كتابة تاريخ مصر الحديث، خاصة وأن صاحبها ذكر الحقائق التاريخية دون محاباة أو مجاملة لحاكم أو لغيره، وعالج مشاكل الحياة والمجتمع المصري معالجة البصير بالأمور وحكم عليها حكما مقبولا، مما جعل المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي يصفه بأنه مثل ثوكيديدس اليوناني الذي وقع عليه عبء كتابة تاريخ حقبة شاذة من حياة الحضارة التي ترعرع في ربوعها، وأن في وسع مصر أن تفاخر بالجبرتي وأن تباهي به سائر المتحدثين بالعربية(1)

---

(1) أرنولد توينبي، "عبد الرحمن الجبرتي وعصره"، ضمن كتاب "عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث"، ص.15.

(1031/1)

.

وجعل شفيق غربال يصفه بأنه أخذ من كل شيء بطرف، وله في كل دراسة مقام محمود(1).

وجعل عزت عبد الكريم يصف ما كتبه بأنه كان على مستوى عال من الدقة والتحري والإضافة خلال ذلك المنعطف الذي كانت تجتازه مصر(2).

---

(1) محمد شفيق غربال، "عبد الرحمن الجبرتي"، ضمن كتاب "عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث"، صص.9-11.

(2) من تقديم عزت عبد الكريم للدراسات والبحوث التي قدمت خلال ندوة الجبرتي التي أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية في أبريل 1974.

(1032/1)

وجعل محمد أنيس يقول عنه إن أهم ما يميزه هو دقة المؤرخ واستقصاؤه للحوادث، وموضوعيته. هذا، فضلا عن أنه كتب عن عصور ثلاثة هي مصر العثمانية والحملة الفرنسية وظهور محمد علي(1).

يضاف إلى ذلك أن البعض وصف ما كتبه بأنه أعظم

تواريخ مصر في القرنين الثاني عشر، والثالث عشر الهجريين(2)

---

(1) محمد أنيس، "الجبرتي ومكانته في مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني"، دراسة ضمن بحوث الندوة.

(2) راجع ما كتبه ماكدونالد (Macdonald) في ترجمته للجبرتي في "دائرة المعارف الإسلامية" مادة "جبرتي"، وما كتبه إدوارد وليم لين في كتابه "الأحوال والعادات في مصر الحديثة"

(The Manners, Customs of the Modern Egyptian, London, 1836)

وأنه تاريخ ممتاز للحوادث التي وقعت في مصر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، وأنه من أعدل وأضبط المؤلفات التاريخية التي تصف أحداث زمانها بصدق(1). ويمكن أن نرجع ذلك إلى ما يلي:

1- يعد ما كتبه الجبرتي وثيقة تاريخية هامة وفريدة في تاريخ مصر السياسي والاجتماعي، خاصة وأنه يحمل بين جنباته صورة مفصلة عن حياة المصريين الاجتماعية، ويتضمن التأثيرات الموضوعية للحملة

الفرنسية على مصر، كما

---

(1) أسد رستم، "المحفوظات الملكية المصرية"، المجلد الأول، 1810–1832م، تحت عنوان "ما لا يستغني عنه الباحث".

(1/1034)

يتضمن فترة هامة من حكم محمد علي بما لها وما عليها. فقد عاش الجبرتي عصر انتقال مصر من حال إلى حال، وصور ما تحمله أهلها من مشقات ودون ما رأى وما سمع وما أحس دون أن ينحاز لحاكم أو لسلطة. فعلى الرغم من تكوينه الديني، فقد كان رجل دين ودنيا أخذ من كل شيء بطرف، فأشاد بالمظاهر الإيجابية لسياسة الفرنسيين في مصر أحيانا، وندد بأعمالهم المنافية للشرع والدين في أحيان أخرى: فامتدح رفضهم للسخرة، وتشكيلهم الديوان، واهتمامهم بتنظيم القضاء وعنايتهم بالنظافة، ومنعهم دفن الموتى في المقابر القريبة من المساكن،

(1/1035)

وعدالتهم في الأحكام خاصة خلال محاكمتهم لسليمان الحلبي قاتل كليبر؛ حيث لم يبادروا بقتله، بل سألوه وحاكموه وناقشوه وناقشوا الشهود. كما أبدى إعجابه بنشاطهم العلمي ورغبتهم في البحث والمعرفة وتنظيمهم لقاعة المطالعة التي خصصوها للقراء(1)

---

(1) من المفيد الإشارة إلى أن ما كتبه الجبرتي في "مظهر التقديس" يختلف عما كتبه في "عجائب الآثار". ففي "مظهر التقديس" يخرج الجبرتي عن الموضوعية أحيانا، وينظر إلى الحوادث بعاطفته الدينية والوطنية، فيرى كل ما هو فرنسي كريه، ويكفي أن يكون الحكم غير إسلامي لينتقده، ولكنه في "عجائب الآثار" تخلى عن هاتين العاطفتين. للتفاصيل، أنظر د. محمد أنيس، "الجبرتي بين مظهر التقديس وعجائب الآثار"، مجلة كلية الآداب، المجلد الثامن عشر، ج1، مايو 1956، صص.59–70.

(1036/1)

وتطلعهم الزائد إلى العلوم. فعندما شاهد التجارب العلمية التي أجراها أمامه علماء الفرنسيين، قال: لهم تطلع زائد للعلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات

واجتهاد كبير في معرفة اللغة والمنطق ويدأبون في ذلك الليل والنهار، وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أي لغة كانت إلى لغتهم في أقرب وقت ... وعنده الآلات الفلكية الغربية المتقنة الصنعة وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن.

(1/1037)

... كما أعرب عن دهشته مما شاهده عندما زار المجمع العلمي الفرنسي بقوله: "ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا"(1).

... وتزداد قيمة ما كتبه الجبرتي من كونه عاصر معظم الأحداث التي كتبها وشارك في بعضها أحيانا، وتابع بعضها في أحيان أخرى. وساعده في ذلك اتصاله بالجهات الرسمية يومئذ، وتعيينه عضوا في الديوان العام الذي أنشأه الفرنسيون بالقاهرة للاستعانة به على ضبط النظام. فجاء ما كتبه سجلا

---

(1) الجبرتي، "عجائب الآثار"، ج3، القاهرة، المطبعة الأميرية، صص.26، 34-35.

(1038/1)

حافلا التزم فيه جادة الحيدة والإنصاف. وقد عبر عن ذلك في مقدمة كتابه بقوله: "لم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير، ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفساني أو غرض جسماني".

... وحول موضوعية الجبرتي وعدم انحيازه لإرضاء الحاكمين وتغلب الموضوعية على الذاتية في كتاباته نذكر:

على الرغم من دفاع الجبرتي عن العثمانيين في العديد من المواقف، فقد أعرب عن خيبة أمله في عودتهم إلى مصر عقب خروج الفرنسيين منها لشعورهم أن الحكم الفرنسي في بعض الأحيان كان خيرا من الحكم

(1039/1)

العثماني.

على الرغم من كراهية الجبرتي لمحمد علي لما رآه من ضروب العنف والاستبداد والقسوة التي وقعت في عهده، ووضعه لأدوات الإنتاج في يده، وقيامه بإلغاء الالتزام

الذي أضير منه شخصيا، فقد كانت كتاباته عنه في معظم الأحيان تتسم بالموضوعية. فأشاد بمحمد علي في بعض المواقف وانتقده في مواقف أخرى. وعن مواقف الإشادة بمحمد علي نذكر أنه أشاد بفضله في تعمير الإسكندرية ووصف ذلك العمل بأنه من محاسن الأفعال التي عجز السابقون عن القيام بها، كما أشاد به عندما قام بتشجيع أبناء مصر من النبهاء. فذكر أنه عندما ابتكر

(1040/1)

مصري يدعى حسين شلبي عجوة آلة لضرب الأرز وتبييضه تدور بطريقة سهلة توفر على الناس جهدهم وطاقاتهم وعمل لها مثالا من الصفيح وقدمه لمحمد علي مصنعا تستخدم فيه هذه الآلة التي اخترعها(1).

أما عن مواقف انتقاده لمحمد علي، فعلى الرغم من أنه كان يعلم جيدا أن ذلك سيسبب له المتاعب، وقد يعرض حياته وحياة أسرته للخطر، فإنه كان جريئا وأمينا في اتهامه له. فذكر "أن من طبعه الحسد والشره والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم"(2). كما

---

(1) الجبرتي، "عجائب الآثار"، ج4، ص.272.

(2) "عجائب الآثار"، ج3، صص.342–344.

تعرض لموقف محمد علي من دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية بالنقد، فأعرب عن تعاطفه مع رجالات الدعوة واقتناعه بآرائهم، وأبدى تبرمه من قيام محمد علي بإثقال كاهل المصريين بالضرائب لتدبير تكاليف الحملة، فقال: "وجعل على كل فدان ستة قروش وسبعة وثمانية، وذكر أنها مساعدة على حروب الحجاز"(1). كما ذكر أن جنود محمد علي كانوا يخطفون من الفلاحين "السمن والجبن والتبن والبيض وغير ذلك"(2)، بحجة سفرهم إلى الحجاز لدرجة أن قل اللحم والسمن

---

(1) المرجع نفسه، ج3، ص.313.

(2) المرجع نفسه، ج3، ص.369.

والجبن، خاصة بعد أن استولى محمد علي على مواشي الفلاحين وأغنامهم(1)

---

(1) المرجع نفسه، ج4، ص.90. وللتفاصيل، أنظر: د. عبد المنعم الجميعي، "دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب" في كتابات المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، عدد 1، الرياض.
... واللافت للنظر أنه على الرغم من أن الجبرتي كان قاهريا والريف كان على هامش حياته، فإنه كان على علم بحياة الفلاحين، خاصة وأنه كان يمتلك أرضا بقرية "أبيار" بالقرب من كفر الزيات. لتفاصيل ذلك، انظر دراسة للدكتور رءوف عباس تحت عنوان "تصوير الجبرتي للمجتمع الريفي"، ندوة "الجبرتي"، ص.413.

(1043/1)

.

وإلى جانب ذلك، فإنه يمكن القول إن الجبرتي كان وسطا في بعض الأحيان في حكمه على محمد علي. ومن ذلك قوله: "له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان. فلو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة، لكان أعجوبة

زمانه وفريد أوانه"(1).

وهكذا يتضح أن الجبرتي لم يتجن على محمد علي، بل كان منصفا في عرضه لأعماله؛ فذكر ما له وما عليه. وهذه هي إحدى شيم المؤرخ الحقيقي الذي لا يحابي ولا ينحاز لأحد مهما عظم نفوذه، ولا يغمط الحقيقة حقها

---

(1) "عجائب الآثار"، ج3، ص.528.

(1044/1)

مهما كانت العواقب. وربما لو عاش الجبرتي فترة أطول وشاهد الطور الأخير من حكم محمد علي، لتغير موقفه منه، خاصة وأن الجبرتي توقف في كتابته عند عام 1236هـ/1821م، أي في وقت لم تكن فيه جهود محمد علي العمرانية والحضارية قد اتضحت بعد.

... 3- يرجع الفضل للجبرتي في تدوين تاريخ مصر وحوادثها وتراجم رجالها في القرنين الثاني والثالث عشر الهجريين. ولولا ما كتبه، لافتقد المؤرخون العديد من حوادث تلك الحقبة. حقيقة، هناك كتاب "ذكر تملك الفرنساوية للديار المصرية" للمعلم نقولا بن يوسف الترك اللبناني(1)

---

(1) عمل في خدمة الأمير بشير الشهابي، وحضر إلى مصر قبل الحملة الفرنسية بزمن قصير، والكتاب طبع في باريس مع ترجمة فرنسية له.

، وهناك كتاب "تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين" للشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الأزهر خلال تلك الفترة(1) ولكن هذين المصدرين العربيين يشوبهما الكثير من عوامل النقص والقصور. فالأول مال نحو الجانب الفرنسي والجاليات الأجنبية في مصر. فمدح بونابرت ورثى كليبر. وما كتبه لا يرقى إلى

---

(1) كان رئيسا للديوان أيام الفرنسيين. وقد ترجم له الجبرتي في وفيات 1227هـ ومن المعروف أن الشيخ الشرقاوي تعاون مع الفرنسيين وانبهر بتفوقهم. لذلك كان اختياره رئيسا للديوان الأول اختيارا مقصودا من جانب بونابرت.

كتابات الجبرتي؛ والثاني كان أول من استقبل الأتراك العثمانيين بعد خروج الحملة وألف كتيبا بناء على طلبهم، ولكن ما كتبه ليس فيه عن الحملة الفرنسية سوى صفحات قليلة لا قيمة لها عند المؤرخ، اللهم إلا من جهة صدورها من رجل كان شيخا من شيوخ الأزهر.

... 4- كتب الجبرتي تاريخا بلا عاطفة، وكان رائده الصدق في ما كتبه. فهو يلم بالشوارد ويدون ويقيد، ولكنه لا يلون بشعور ولا يضفي بإحساسه(1). فعندما

---

(1) محمد الشرقاوي، "دراسات في تاريخ الجبرتي"، مصر في القرن الثامن عشر، ج1، القاهرة، الأنجلو المصرية، 1955، ص.29.

تحدث عن الثورات التي قام بها أهل القاهرة من الفرنسيين اتهم بعض زعمائها بأنهم من الأغرار الأفاقين كما سمى القائمين بالثورة أحيانا بالذعر وأحيانا بالحشرات، مما يؤكد طبيعته البعيدة عن العنف. وعندما تطرق إلى مساوئ الحكم الفرنسي، لم يفته الإشادة بعدالتهم خلال محاكمتهم سليمان الحلبي قاتل كليبر.

... 5- بساطة الجبرتي وعدم انسياقه إلى التفاخر بنفسه أو بأعماله. فعلى الرغم من اشتراكه في الديوان الذي ألفه مينو، لم يردد ذلك صراحة في كتابه؛ وعندما تعرض لذكر الديوان، لم يذكر اسمه صراحة وإنما قال "كاتبه".

(1/1048)

... 6- كتب الجبرتي مؤلفه بطريقة الحوليات واليوميات في إفاضة وتفاصيل ممتعة، وبشكل جعل تعيين الأماكن والمواقع ظاهرة واضحة في روايته. فلا يورد حدثا من حوادث الحرب أو الثورات أو المواكب والحفلات العامة، ولاسيما في القاهرة، إلا قرنه بتحديد الأماكن والمواقع من شوارع وميادين ودروب ومنازل بحيث نستطيع من خلال روايته أن نصور معالم القاهرة في عصره واضحة جلية.

... 7- إن كتابات الجبرتي أشبه بالتلال الأثرية، لا تكاد تحفر فيها حتى تجد تحفة أثرية نادرة. وكلما ازددت في الحفر عثرت على اللؤلؤ والجواهر. ومع ذلك،

(1/1049)

فإن هذا الحفر يحتاج إلى صبر ومثابرة وأناة حتى يمكن استخراج هذه النفائس من الأتربة العالقة بها(1).

... ومع كل ذلك، فمما يلاحظ على كتابات الجبرتي أنه كتب عن القاهرة أكثر مما كتب عن مصر كلها.

فالحوادث التي تعرض لها عن الوجهين القبلي والبحري كانت على هامش كتاباته. يضاف إلى ذلك أن من يقرأ الجبرتي يرهقه كثرة استعماله للعامية والتعبيرات الشعبية المصرية مثل كلمة "شطح"، أي ارتفع؛ وكلمة "قشلان" بمعنى مفلس؛ وكلمة "وثارت كرشه"، أي زحام؛ وكلمة "النفخة"،

---

(1) أحمد حافظ عوض، "فتح مصر الحديث"، صص. 435-436.

بمعنى الغرور. كما يرهقه كثرة الأغلاط وعدم الترتيب العلمي، وعدم تناسق الروايات والحوادث التي تعرض لها. وقد لا يعيب هذا الجبرتي بقدر ما يعبر عن طبيعة عصره ومعاييره. فقد تأثر الجبرتي بطابع عصره من ناحية انحطاط الأسلوب وشيوع العجمة في التراكيب والتردي في الكثير من الأخطاء النحوية واللغوية. لذلك فالذين لا يأخذون الأمور بظواهرها، والذين يتعمقون في

البحث عن حوادث تلك الأيام وأحوالها وظروفها لا يسعهم سوى الإعجاب بما كتبه الجبرتي كأثر تاريخي هام، ويوميات ذات قيمة كبيرة للمؤرخ(1)

---

(1) الجدير بالذكر أنه لا صحة لما يذاع حول أن هناك جزءا خامسا من كتاب "عجائب الآثار" لم يصرح بطبعه لما فيه من الطعن على محمد علي، لأنه توجد نسخة خطية من تاريخ الجبرتي في مكتبة وزارة الحربية الفرنسية بباريس. ولو كان فيها شيء لم ينشر في الطبعة العربية، لما خفي أمره على المستشرقين والباحثين الأوربيين. (انظر: عوض، المرجع السابق، ص.438).

(1051/1)

بز بها ما كتبه علماء زمانه أمثال عبد الله الشرقاوي وإسماعيل الخشاب ونقولا ترك وغيرهم، لدرجة أن مقارنته بهؤلاء شبهها البعض بمقارنة القمح بالقشور(1). وعلى أي حال، فإن موقف الجبرتي من محمد علي قد عرض حياته وحياة أسرته للخطر، وجلب عليه الضرر البليغ؛ ففقد ابنه خليل الذي قتله جنود محمد علي في شبرا بعد صلاة الفجر بأوامر من محمد بك الدفتردار صهر محمد علي ثم ربطوه برجل حمارة. ولما أصبح

(1) جاك كرابس، "التاريخ في مصر القرن التاسع عشر"، ترجمة عبد الوهاب بكر، القاهرة، الألف كتاب الثاني (118)، 1993، ص.82.

(1052/1)

الصباح عرفه الناس بما كان يحمله من دفاتر مكتوبة، وآلات لرصد النجوم والكواكب، وأخذ الناس في تناقل الخبر.

... ونتيجة لحزن الجبرتي على ابنه، فقد بصره، وترك الكتابة والتأليف، وظل في داره منزويا حتى مات. يضاف إلى ذلك أن منزله بالصنادقية ومكتبته الحافلة بذخائر المخطوطات قد أحرقا خشية أن يكون فيهما أوراق أو كتابات معادية لمحمد علي(1)

(1) يذكر البعض أن جزءا من تاريخ الجبرتي احترق، وكان يتضمن حوادث ما بعد سنة 1236هـ (انظر: الشرقاوي، المرجع السابق، ص.16).

... ومن المعلوم أن محمد علي أوعز إلى بعض الموالين له بنقد كتاب الجبرتي وتجريحه، فكتب الشيخ خليل

الرجبي كتابا بعنوان "تاريخ الوزير محمد علي باشا"، عرض فيه لمآثر محمد علي وأشاد بأعماله، ورد على ما جاء في كتابات الجبرتي بشأن محمد علي.

(1053/1)

. ونتيجة لذلك نفر المصريون من كتابة تاريخهم الحديث حتى لا يقعوا تحت طائلة اضطهاد أسرة محمد علي كما حدث للجبرتي، وكرهت أسرة محمد علي أيضا أن يشتغل المصريون بدراسة تاريخهم، وخاصة أنهم كانوا يريدون ألا يدون من تاريخهم سوى ما يروقهم، وأن يكتب المؤرخ التاريخ على الصورة التي ترضيهم ولا تغضبهم، من هنا ابتعد المصريون عن كتابة تاريخ بلادهم السياسي وأخذ بعضهم –خصوصا الذين درسوا في أوربا– في تنمية ميوله وثقافته عن طريق ترجمة بعض الكتب التي تغطي تاريخ العالم منذ أقدم العصور أو التي تتطرق إلى الأمور

(1054/1)

الثقافية والتربوية والأدبية كما فعل رفاعة الطهطاوي وتلاميذه(1). فقد ترجم رفاعة –الذي بدأ يفكر في مستقبل الدراسات التاريخية في مصر بعد عودته من فرنسا(2)

---

(1) للتفاصيل انظر: جمال الشيال، "تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي"، دار الفكر العربي، 1951، صص.151–154؛ وأيضا "التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر"، صص. 198–199.

(2) كان ثمرة تفكيره مشروعين علميين: الأول ترجمة بعض المؤلفات التاريخية إلى اللغة العربية حتى يضع بين يدي المصريين تاريخا متكاملا يغطي العصور التاريخية المختلفة، والثاني إنشاء مدرسة للتاريخ والجغرافيا. ويبدو أن هذه المدرسة لم تعش طويلا.

– عدة مؤلفات معروفة ومشهورة(1)؛ كما حاول قدر الإمكان عدم التعرض لواقع مصر المعاصر له وخاصة أسرة محمد علي. فتطرق للكتابة في تاريخ مصر القديم، وفي السيرة النبوية. فكتب في التاريخ القديم "أنوار

---

(1) من هذه المؤلفات: "نظم اللآلئ في السلوك فيمن حكم فرنسا من الملوك"، وهو تاريخ فرنسا ويشتمل على مقابلة زمنية بالتاريخ الإسلامي؛ "مطالع شموس السير في وقائع كرلوس الثاني عشر"، وهو تاريخ لشارل الثاني ملك السويد؛ "إتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات في أوربا"؛ "تاريخ بطرس الأكبر".

(1056/1)

وتوثيق بني إسماعيل"(1)، وفيه تعرض لعصور الفراعنة والرومان والبطالمة والبيزنطيين وختمه بالفتح العربي لمصر بطريقة جديدة نهج فيها منهجا علميا لم ينقص فيها من قدر أمجاد مصر القديمة أو يعلنها كما كان يفعل سابقوه، بل آمن بأمجاد هذا التاريخ، ورغب في أن تستعيد مصر أمجادها التي كانت عليها في عهد الفراعنة؛ وكتب عن سيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – كتابا بعنوان "نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز" تتبع فيه حياة الرسول منذ مولده إلى وفاته. كما قدم دراسة هامة عن المؤسسات السياسية

(1) طبع عام 1868م.

والإدارية والاجتماعية والمالية في الإسلام في محاولة منه للخوض في هذا الموضوع بطريقة علمية. ولرفاعة غير هذين الكتابين مؤلفات لها قيمتها التاريخية: فحول رحلته إلى باريس كتب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" أو "الديوان النفيس بإيوان باريس"(1)، وهو عنوان مسجع على نحو ما كان شائعا في ذلك الوقت، وفيه عرض لرحلته في فرنسا ولحركة الاستنارة الأوربية التي غرستها فيه هذه

(1) نشر لأول مرة في عام 1834م، ثم طبع بعد ذلك ثلاث طبعات، وترجم فيما بعد إلى التركية ولقي قبولا واسعا بين أوساط المثقفين في إستانبول.

الرحلة، فتحدث عن قيام الفرنسيين بخلع الملك شارل العاشر في عام 1830م وقيام ملكية يوليو الدستورية،

وتعرض للمبادئ الدستورية التي غرستها الثورة الفرنسية في نفوس الفرنسيين والتي نصت على مبدإ تكافؤ الفرص وما للمواطن الفرنسي من حقوق وما عليه من واجبات؛ كما نصت على حرية العقيدة والعبادة وعلى حرية الرأي في حدود القانون والصالح العام.

... ومع أن رفاعة حاول إدخال مبادئ الثورة الفرنسية في النهضة المصرية الحديثة وفي تاريخ الفكر السياسي المصري الحديث، فإنه كان متحفظا في ذلك إلى حد كبير. وعلى سبيل المثال،

(1059/1)

نذكر أنه حين أشار إلى مبدإ فصل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية لدى مونتسكيو، نجده يتعرض للفكرة الإسلامية التي ترى أن الشريعة فوق الجميع وأن على المحكومين طاعة الحاكم، وعلى الحاكم إرضاء المحكومين وإرساء العدالة بينهم وممارسة سلطاته بطريقة سليمة. فالحاكم لديه يتمتع بكامل السلطات بشرط احترام القانون(1)

_____

(1) الجدير بالذكر أن محمد علي قرأ هذا الكتاب بعد أن ترجم له إلى التركية، وطبع بعد ذلك عدة طبعات من

أشهرها الطبعة التي أشرفت وزارة الثقافة والإرشاد القومي على إخراجها وكلفت الدكتور مهدي علام وبعض الأساتذة بالتعليق عليها والتقديم لها، وكان ذلك في عام 1958م.

(1/1060)

.

... وحول ما يخص آداب عصره كتب "مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية"(1). وهو أول كتاب عربي ينزع إلى الناحية الوطنية(2)، فيذكر معنى الوطن ومصر ومزاياها ويتعرض لفكرة التسامح الديني والأخوة في الوطن، كما يتعرض للمنافع العامة فيخصص

---

(1) نشر لأول مرة في عام 1869م.

(2) نشر حسين المرصفي خلال هذه الفترة وبالتحديد في عام 1869م كتابه "الكلم الثمان" وفيه تعرض لدراسة الكلمات الجديدة التي وفدت على الفكر السياسي المصري مثل الوطن، والحرية، والأمة، والعدالة، والعلم، والسياسة، والحكومة، والتربية.

(1/1061)

لها أكثر أجزاء الكتاب. فيذكر الآمال التي يأملها في المنافع العامة في كلمات تحفل بمعاني التكريم والولاء لمصر وشعبها. فمصر في نظره أم الدنيا وروضتها، وأنها دون غيرها من الممالك أعظم تمدينا وتقدما، كما أن أهلها لديهم درجة عليا من الفنون والمنافع العمومية وهو ما تشهد به الآثار المصرية التي تعد من أكبر مصادر الفخر للمصريين بحكم احتوائها على المقومات الأساسية للحضارة من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

(1/1062)

... وفي خاتمة الكتاب يتطرق رفاعة إلى ما يجب على المصريين تجاه وطنهم بأسلوب جمع فيه بين ثقافته الإسلامية وثقافته الفرنسية.

... وحول ما يخص تربية الناشئة كتب رفاعة "المرشد الأمين في تهذيب البنات والبنين"، وهو كتاب أخلاق وتربية للمتعلمين والمتعلمات وقد صدر في عام 1872م.

... وإلى جانب ذلك، قام رفاعة بإصدار أول مجلة ثقافية علمية تصدر في مصر في الثلث الأخير من القرن التاسع

عشر بالاشتراك مع علي باشا مبارك، وهي مجلة "روضة المدارس المصرية" التي صدر العدد الأول منها في الخامس عشر من المحرم عام 1287هـ

(1/1063)

الموافق أبريل 1870م. وكانت روضة حقة تحفل بثمار جمهرة من الأقلام البارعة. وقد طرحت هذه المجلة عدة تساؤلات أهمها: على أي منهج يكون تحول مصر الحضاري؟ هل نعود إلى الماضي وننعم بالعيش في فردوسه المفقود، ونقطع كل صلتنا بالحاضر؟ أو نقفز قفزا إلى آفاق المستقبل ونقطع كل صلتنا بماضينا المجيد؟ وكان الجواب حاضرا تجسده شخصية رفاعة الطهطاوي الذي كان ثمرة ناضجة من ثمار امتزاج الماضي بالحاضر، وتكوين مركب جديد فيه أنضر ما في الماضي من صفحات وأعذب ما في الحاضر من منجزات(1)

---

(1) محمد عبد الغني وعبد العزيز الدسوقي، "روضة المدارس، نشأتها واتجاهاتها الأدبية والعلمية"، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1985، ص.13.

(1/1064)

.

... ومع أن رفاعة لم يتخل في كتاباته عن النظرة التقليدية لمفهوم التاريخ في بعض الأحيان ولم يستطع أن يهجر السجع في كثير من الأحيان، فإنه قد أضاف إليه لمحات جديدة جديرة بالالتفات والتسجيل منها تقسيمه للتاريخ إلى قديم وحديث وإلى عام وخاص كتاريخ جميع الأمم عامة أو تاريخ أمة واحدة كتاريخ المصريين مثلا، ومنها عاطفته الوطنية القومية وحبه الشديد لمصر الذي ملك عليه نفسه وجعله يشيد بمصر وفضلها على الحضارة العالمية؛ فهو يصفها بأم الدنيا والوطن، وأم أمم الدنيا التي "نازعت قدماء الأمم في الأقدمية، فسلموا

(1/1065)

لها أنهم دونها مرتبة في الأهمية وإن لم تسبقها أمة في ميدان التمدينية"، وأنها أيضا "رحيبة الدولة مهيبة الصولة"، كما جعله يعتمد الفصول الطوال في كتبه المتعددة للتغني بالوطن والوطنية وأهمية التضحية في سبيلها.

... ومع أن الطهطاوي كتب عن الوطنية، فإنه لم ينس

أنه مسلم قبل كل شيء. وأبرز الأدلة على ذلك ما ذكره في شعره الذي تغنى فيه بمصر وباريس معا حيث يقول: فكل منها عندي عروس ... ... ولكن مصر ليست بنت كفر(1)

---

(1) رفاعة الطهطاوي، "تخليص الإبريز في تخليص باريز"، تحقيق مهدي علام وآخرين، القاهرة، البابي الحلبي، 1958، ص.105.

... وعلى أي حال، فإنه يمكن القول إن التسجيل التاريخي أصبح بفضل جهود الطهطاوي ومدرسته تاريخا بالمعنى الحقيقي لكلمة التاريخ، وذلك نتيجة للمنهج العلمي الذي اتبعه، والدقة والموضوعية التي سار عليها؛ فقدم لنا بذلك رؤية حضارية للإطار العام الذي سارت عليه النهضة المصرية. كما فتح الأذهان لما يدور في العالم من أحداث، مما يجعلنا نعده رائدا من رواد حركة التنوير. كما نجعل مؤلفاته مصدرا رئيسا خلال كتابتنا للتاريخ. وقد سبقنا في هذا الرأي عبد الله النديم الذي طلب خلال فترة اختفائه عن أعين السلطة بعد انكسار

الثورة العرابية مجموعة من الكتب للاستفادة منها خلال وحدته كان من بينها مؤلفات الطهطاوي.

... وعلى الرغم من ذلك، فلم يهنأ رفاعة بما قدمه لبلاده من خدمات. فبعد أن تولى عباس الأول أريكة الحكم في مصر، أمر بنفيه إلى السودان نتيجة لوشاية نقلها البعض إليه. واختلفت الآراء في تعليلها؛ فمنها من قال إن كتاب "تخليص الإبريز" وما به من آراء ومبادئ لا يرغب فيها الحاكم المستبد كان السبب في نفيه(1). ومنها من يقول إن رفاعة لقي معارضة من بعض المشايخ المتعصبين الذين ربما عدوه

(1) الرافعي، "عصر محمد علي"، ص.489.

متطفلا على ميدانهم في دراسة الشريعة والفقه فكادوا له عند الباشا(1). وهناك رأي آخر يقول إن علي مبارك الذي عاد من أوربا مليئا بالأطماع الشخصية كان وراء نفي رفاعة إلى السودان(2).

... وعلى أي حال، فقد انكب بعض المعاصرين للطهطاوي على دراسة تاريخ مصر العمراني والاجتماعي والتعليمي

كما فعل علي مبارك(3)

---

(1) أحمد عزت عبد الكريم، "تاريخ التعليم في مصر – عصر عباس وسعيد"، القاهرة، 1945، ص.85.

(2) أحمد بدوي، "رفاعة الطهطاوي بك"، القاهرة، لجنة البيان العربي، 1950، ص.47.

(3) عن سيرة حياته، انظر: "الخطط التوفيقية"، ج 9، صص.37–61.

(1/1069)

في كتابه "الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة"(1)

---

(1) تشتمل "الخطط التوفيقية" على عشرين جزءا في خمسة مجلدات كبيرة. وقد أراد علي مبارك أن يكمل بها ما كتبه المقريزي في "خططه"، وهي عبارة عن موسوعة هامة تضم العديد من التراجم والأعلام، كما تتناول معلومات هامة عن القرى والمدن المصرية بما فيها من مؤسسات دينية وثقافية خلال القرن التاسع عشر. وقد سماها بـ"الخطط التوفيقية" نسبة إلى الخديو توفيق. وقد جاءت هذه الخطط في بعض الوجوه أتم وأوفى من

"خطط" المقريزي، خاصة وأن صاحبها تتبع تاريخ الخطط في ظلمات العصر العثماني، وحقق المعالم والمواقع الأثرية القديمة في ضوء الأطلال الدارسة والمنشآت المحدثة التي تفصلها من الماضي قرون طويلة.

(1070/1)

والذي يعد من أهم المصادر في دراسة تاريخ مصر الاجتماعي في القرن التاسع عشر. هذا، إلى جانب أن إنشاء مجلة "روضة المدارس" كانت من وحي علي مبارك وثمار تفكيره حين كان وزيرا للمعارف، وهو الذي عهد إلى رفاعة الطهطاوي بأن تكون تحت نظارته.

... ومن المعروف أن هذه المجلة اهتمت بالتاريخ وحرصت على نشر الجداول التاريخية للوقائع العالمية الشهيرة والحوادث الكبيرة، كما تطرقت في موضوعاتها إلى بيان سلاطين آل عثمان إلى عهد السلطان عبد المجيد خان.

(1071/1)

... يضاف إلى ذلك أن علي مبارك ألف كتبا عديدة في العلوم والهندسة والثقافة منها "تقريب الهندسة"(1) و"رواية علم الدين"(2) وكتاب "حقائق الأخبار في أوصاف

---

(1) طبع بمطبعة وادي النيل، في عام 1279هـ بهدف تعليم الضباط والعساكر أيام سعيد باشا طرق الحساب والهندسة والاستكشافات العسكرية.

(2) قصة في أربعة مجلدات قسمت إلى مسامرات بلغت 125 مسامرة، وتدور حول رجل أزهري تتلمذ عليه مستشرق إنجليزي تعلم منه العربية وعلمه الإنجليزية وسافر معه إلى إنجلترا. ومن خلال ذلك يرصد علي مبارك أهمية الاحتكاك الحضاري بين لشعوب . . .

(1/1072)

البحار"(1) وكتاب "تنوير الأفهام في تغذي الأجسام"(2) وكتاب "نخبة الفكر في تدبير نيل مصر"(3) وغيره. وإلى جانب ذلك، قام علي مبارك بترجمة كتاب "تاريخ

---

(1) طبع بمطبعة وادي النيل سنة 1287هـ ويبلغ عدد صفحاته 81 صفحة.

(2) طبع بمطبعة المدارس في عام 1289هـ

(3) وهذا الكتاب يرسم سياسة مستقبلية لمصر تعتمد أولا وقبل كل شيء على الزراعة المصرية وعلى ما يقوم عليها من تصنيع، ثم يقدم بعض النتائج المستخلصة من المقارنات. انظر: محمد أحمد خلف الله، "علي مبارك وآثاره"، القاهرة، الأنجلو المصرية، 1957، صص.208-214.

(1/1073)

العرب" لسديو.

... السؤال المطروح هل قام علي مبارك بتأليف كل هذه الكتب العديدة وحده أو ساعده في تأليفها آخرون، وما مصادره التي استعان بها خلال تأليفه لهذه الكتب؟

... حقيقة، إن علي مبارك كان شغوفا بالتاريخ، ولكن هذا لا يعني أنه قام بتأليف كل ما كتبه فيه، بل كان له معاونون خاصة من الذين عملوا تحت إدارته. وقد ألمح علي مبارك إلى ذلك، فذكر أن أعماله الرسمية الكثيرة جعلت من الصعب عليه أن يكمل مهمة التأليف وحده(1).

---

(1) انظر: "الخطط التوفيقية"، الجزء الأول، ص.2.

(1/1074)

... أما عن صادره فقد قرأ كثيرا من كتب الأوربيين والمستشرقين خاصة الفرنسيين منهم، نظرا لأنه كان يتقن الفرنسية. كما رجع إلى المصادر العربية القديمة. وقد أشار علي مبارك إلى ذلك بقوله إنه جمع "من كتب العجم والعرب ما يفضي بتأمله إلى العجب، مراجعا كتب العرب والإفرنج الذين ساحوا تلك الديار ورسومهم التي بينوا فيها حدود هذه الأقطار".

... واستمرت حركة الدراسات التاريخية في التقدم بفضل رجال مدرسة علي مبارك ومعاصريه، فعني محمد مختار باشا مأمور الخاصة الخديوية بالأبحاث والدراسات التاريخية. ومن أبرز مؤلفاته

(1/1075)

في هذا المجال "التوفيقات الإلهية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية" (من السنة الأولى للهجرة إلى سنة 1500هـ(1)). وكتب إسماعيل باشا سرهنك ناظر المدارس الحربية "حقائق الأخبار عن دول البحار"(2)

---

(1) طبع بمطبعة بولاق بالقاهرة، في عام 1311هـ

(2) طبع في ثلاثة أجزاء بمطبعة بولاق. ويعتبر البعض إسماعيل سرهنك من كتاب القرن العشرين، لأنه توفي في عام 1924؛ ولكننا آثرنا إلحاقه بمؤرخي القرن التاسع عشر، خاصة وأنه ألف الجزءين الأول والثاني من كتابه في أواخره وتم طبعهما في عام 1896 وعام 1898م.

... ومن المعروف أن سرهنك ولد في عام 1867م والتحق بالمدرسة البحرية بعد أن أتم دراسته الابتدائية، وتخرج ضابطا منها، وتولى قيادة كثير من سفن الأسطول المصري، وشارك في العديد من العمليات الحربية والبحرية.

(1/1076)

.

... ويرجع السبب في تأليف هذا الكتاب إلى رغبة صاحبه في إفادة أهل بلاده، خاصة وأن المؤلفات التاريخية العصرية في ذلك الوقت كانت قليلة، ولا سيما ما اختص منها بتاريخ الدول البحرية ذات الشأن، واشتمل هذا الكتاب على عرض لتاريخ الإنسان منذ الخليقة وتوقف عند عصر عباس الثاني، وتعرض فيه سرهنك لبعض

الدول البحرية القديمة والحديثة فتكلم عن موقعها الجغرافي وأرخ لثغورها الحربية والتجارية ثم تعرض لتأسيسها ومشاهير ملوكها وما عاصرهم من الأحداث.

(1/1077)

... ولعل أهم أجزاء هذا الكتاب هو الجزء الثاني الذي انفرد تاريخ مصر بالقسط الأكبر منه. وترجع أهميته إلى أنه مليء بالبيانات والإحصاءات والوثائق الهامة. هذا، إلى جانب تعرضه لتراجم عديدة لمشاهير البحرية والجيش المصري في القرن التاسع عشر. وقد ساعد سرهنك في تأليف هذا الكتاب ثقافته العسكرية ودراسته البحرية لعلوم الفلك والجغرافيا والرياضيات وفن الملاحة؛ هذا، إلى جانب استيعابه للعديد من اللغات، ومنها العربية والتركية والإنجليزية والفرنسية.

(1/1078)

... وقد أهدى المؤلف هذا الكتاب إلى الخديو عباس الثاني بقوله في مقدمته للكتاب: "وقد جعلته هدية إلى سدة مولانا محيي الآمال الوطنية، ومعيد النشأة المصرية

عزيز مصر وحامي حمى القطر خديوينا الأفخم وملاذنا الأعظم عباس حلمي الثاني"(1).

... وعلى أي حال، فقد سد سرهنك بعض الفجوات التاريخية فيما يتعلق بتاريخ القوى البحرية، كم استخدم وثائق تاريخية

---

(1) حقائق الأخبار، ص.3. والجدير بالذكر أن الجزء الثالث من هذا الكتاب طبع في عام 1923، أي بعد صدور كتاب علي مبارك "حقائق الأخبار في أوصاف البحار" بربع قرن تقريبا.

أصيلة مدركا أهميتها في كتابة دراسته. ومع ذلك، فإن ما كتبه يمكن ضمه إلى التاريخ الحولي التقليدي مثله مثل علي مبارك ومجموعته.

... فعلى الرغم من أن سرهنك حاول أن يكتب عن القوى البحرية، فإن ما كتبه شمل العديد من المعلومات في كل المجالات التي خطرت بباله أثناء كتابته(1).

... وإلحاقا لهذه المجموعة من كتاب التاريخ الحولي، كتب "فيليب جلاد"، مندوب قلم قضايا نظارة الحقانية، "قاموس الإدارة والقضا"(2)

(1) ناقش كرابس ذلك في كتابه سابق الذكر، صص.193-194.

(2) طبع الجزء الأول بمطبعة بني لاغوداكي بالإسكندرية، في عام 1899م.

في سبعة أجزاء؛ واشتمل على مجموعة هامة من القوانين واللوائح والفرمانات والمعاهدات الرسمية في القرن التاسع عشر رتبت وفقا للتسلسل الزمني مع بعض التعليقات. وهذا القاموس يعد مرجعا مفيدا لمؤرخ التاريخ الاقتصادي المصري في نهاية القرن التاسع عشر. وكتب يعقوب ارتين، وكيل نظارة المعارف العمومية، "القول التام في التعليم العام"(1) باللغة الفرنسية؛ وقام علي بهجت المترجم الأول بنظارة المعارف بترجمته إلى العربية. وفي هذا الكتاب عرض المؤلف لتطور التعليم في مصر، فأوضح أن عامة

(1) طبع بمطبعة بولاق في عام 1894م.

المصريين كانوا يهملون تربية أولادهم ويعارضونها في بداية الأمر، ثم ما لبثوا أن قدروا التربية حق قدرها بحيث أصبحت الطلبات ترد إلى نظارة المعارف من جميع أنحاء القطر تطالب بإنشاء مدارس لتربية أولادهم(1)، كما تعرض لتطور ميزانية نظارة المعارف والبرامج والخطط التي اتخذتها النظارة لتحديث التعليم.

... وإلى جانب ذلك كتب يعقوب أرتين "الأحكام المرعية في شأن الأراضي المصرية" باللغة الفرنسية أيضا، وقام سعيد عمون بترجمته(2)، خاصة وأن مؤلفه كان غارقا حتى

---

(1) القول التام، ص.6.

(2) نشر بالقاهرة عام 1306هـ

أذنيه في الثقافة الفرنسية إلى حد أنه لم يستطيع أن يكتب بلغة عربية سليمة.

... وأرتين كان يفضل في كتاباته أن تروي الجداول والإحصائيات والوثائق ما يريد أن يقوله، مما جعل البعض يعد ما كتبه دراسة مؤسسة على محتويات الأرشيف الحكومي.

... ومن هنا لا يمكن اعتبار جلاد أو أرتين مؤرخين. فقد كانا على الأصح مصنفين للعلوم الإحصائية دون إضافة أي جديد إليهما(1).

... واستمرت الكتابة التاريخية في طريقها تساير طريقة الحوليات، وإن كانت نغمة الاعتماد على المحسنات البديعية في الكتابة

---

(1) كرابس، مرجع سابق، صص.253–254.

قد خفت حدتها بشكل غير كبير. فكتب سليم النقاش(1) البيروتي "مصر للمصريين"، أرخ فيه لتاريخ مصر منذ محمد علي حتى حوادث الثورة العرابية في تسعة مجلدات: الثلاثة الأولى منها في تاريخ أسرة محمد علي حتى خروج إسماعيل من مصر(2)

---

(1) هاجر إلى مصر في عهد إسماعيل وعمل بالتمثيل والصحافة. ولما قامت الثورة العرابية، شايع عرابي فترة، ثم انقلب عليه وأصبح واحدا من أقوى المعارضين له، وظل على ذلك الحال حتى توفي في عام 1884م.

(2) هذه المجلدات الثلاثة أوقفت الحكومة طبعها، لأنها

وجدت في ترجمة محمد علي والخديوي إسماعيل ما يتحتم حذفه. (انظر: جرجي زيدان، "تاريخ آداب اللغة العربية"، ج4، القاهرة، مطبعة الهلال، 1914، ص.287).

(1/1084)

؛ والثلاثة الثانية من ولاية توفيق باشا إلى انقضاء حوادث الثورة العرابية؛ أما الثلاثة الأخيرة، فشملت محاكمات العرابيين وصور محاضرهم الرسمية.

... وقد أفاد النقاش تماما من المادة الوثائقية التي توفرت له رؤيتها. فبعد أن وافقت دار المحفوظات له على الاطلاع على الوثائق المحفوظة لديها تمكن من رصد الفرمانات العثمانية، والذكريات الخديوية، وتنظيمات الجيش، وأوراق عن الأوضاع المالية، وترتيبات تسوية الديون، وأوراق العرابيين، ومحاكمتهم بعد الهزيمة والعديد من الوثائق الدبلوماسية الأخرى.

(1/1085)

... وترجع أهمية ما كتبه سليم النقاش إلى أنه كان شاهد عيان للعديد من الأحداث. يضاف إلى ذلك أنه لم

يهمل الجوانب الاجتماعية والاقتصادية في كتاباته، فتعرض لبعثة اللورد دفرين (Dufferin)، وتجارة الرقيق، والقبائل البدوية، وقيام بعض المصريين بشراء أسلحة وملابس من الإنجليز مقابل بيع مشروبات روحية لهم، إلخ.

... ومع أننا لا يمكن أن نصف النقاش بالحياد تجاه العرابيين، خاصة وأنهم أحرقوا جريدته، كما أنه يصعب علينا أن ننتقد أسلوبه في الكتابة الذي لم يستطع التخلص فيه من السجع والزخارف اللفظية، فإن ما كتبه يظل

مفيدا للمؤرخ الذي يتعرض للثورة العرابية خاصة.

... وكتب ميخائيل شاروبيم(1) "الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث"(2). وفي هذا الكتاب تعرض المؤلف لتاريخ مصر من بداياته حتى تولية عباس الثاني أريكة الخديوية بشكل يجمع في أسلوبه بين طريقة السلف في الكتابة التاريخية ومحاولة مواكبة الأسلوب الحديث البعيد عن السجع والتكلف. وقد استخدم في

---

(1) قبطي مصري ولد في حي السقايين بالقاهرة في عام

1861م، وتقلب في مناصب عديدة.

(2) صدر في أربعة أجزاء بين عام 1898م وعام 1900م، ويتكون من 1738 صفحة من القطع الكبيرة.

(1/1087)

كتابته طريقة الحوليات، واستطاع أن يرصد بها قدرا كبيرا من الحوادث والمعلومات التاريخية بشكل أراد به أن يثبت وحدة تاريخ مصر واتصاله بشكل لا ينقطع. ... ومع أن أسلوب هذا الكتاب وطريقته ينتميان إلى كتابات مؤرخي العصور الوسطى من حيث أن صاحبه لم يهتم بذكر قوائم مراجعه أو المصادر التي استقى منها كتاباته، فإن رصده للوقائع لم يخل من التحليل والتعليق في بعض الأحيان؛ كما أن تخلصه من الأنماط الأسلوبية القديمة إلى حد كبير وابتعاده عن السجع وتقييمه للحوادث يجعله يفترق عن مؤرخي العصور الوسطى.

(1/1088)

... وعلى أي حال، فإنه كان للتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها مصر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والاحتكاك المباشر بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب وما أعقبه من تدخل أجنبي في شؤون مصر، ثم حضور جمال الدين الأفغاني، وظهور الصحف السياسية، وقيام الثورة العرابية وانكسارها والاحتلال الإنجليزي لمصر وانبعاث الحركة الوطنية على يد مصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم من رجالات مصر أكبر الأثر في ازدهار الحركة التاريخية، خاصة بعد أن بدأ المصريون يكتبون عما يجيش في صدورهم من موضوعات سياسية

(1/1089)

ووطنية، وعما يعانيه وطنهم من آلام وما يعتمل في نفوسهم من آمال بهدف حفز الهمم وإيقاظ العقول وتقوية الوعي الوطني لدى أفراد الشعب المصري.

... حقيقة، إن ما كتبه معظم أفراد هذه المدرسة لم يهدف إلى خدمة الدراسات التاريخية، أو إلى إقرار واقع تاريخي بقدر ما كان شغلا لأوقات فراغهم أو إبرازا لمواقف معينة. وقد أسهمت الصحافة في ذلك بجهد كبير، فساعدت على تكوين الرأي العام، وشجعت

المصريين على التحدث عن شؤون بلادهم بصراحة، كما دفعتهم إلى التعبير عن آمالهم وأهدافهم.

(1/1090)

... ومن المعروف أن الصحف المصرية في ذلك الوقت تجاذبتها تيارات مختلفة. فكان هناك التيار الوطني الثائر الذي تمثل في كتابات جمال الدين الأفغاني وتلاميذه والذي مثلته العديد من الصحف أمثال "مصر" و"التجارة" و"الطائف" و"الزمان" و"المفيد" و"أبو نظارة"، وهناك الصحف المناوئة للحركة الوطنية والتي تدافع عن الإنجليز، وتتغنى بمحامدهم، وتشيد بنعمة الاحتلال مثل "المقطم" و"المقتطف" و"الأهرام"، كما كان هناك الصحف الموالية للتيار العثماني الذي يستمد قوته من الأصول المتعددة التي تربط مصر بالدولة العثمانية ويتخذ من

(1/1091)

تيار الجامعة الإسلامة مظهرا له مدفوعا بالولاء الديني. وقد مثلت صحف مصطفى كامل هذا التيار أبلغ تمثيل.

وعلى الرغم من ذلك، وبالرغم من أن الصحافة قد لا يتسم أسلوبها في بعض الأحيان بالموضوعية، فإنها كانت عاملا من عوامل النهضة التاريخية الحديثة.

... يضاف إلى ذلك أن ما كتبه قادة الثورة العرابية ن مذكرات في أواخر القرن التاسع عشر كان مفيدا إلى حد كبير في تغذية الروح القومية لدى المصريين، وتفهم وقائع الأحداث، وإنعاش الحركة التاريخية بوجه عام. وأبرز الأمثلة على ذلك ما كتبه محمود فهمي المهندس وعبد الله

(1/1092)

النديم والشيخ محمد عبده وأحمد عرابي من مذكرات خلال فترة النفي أو الاختفاء. فكتب محمود فهمي المهندس(1) "البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر"(2)،

---

(1) توفي في السابع عشر من يونيو 1894م في منفاه بسيلان. ومما كتبه عنه طبيبه أنه كان نشيطا، ويهوى المكتبة ويقوم بترجمة كتب التاريخ من الإنجليزية إلى العربية. (انظر: لطيفة سالم، "عرابي ورفاقه في جنة آدم 1883–1901م"، القاهرة، الأنجلو

المصرية، 1986، ص.84).

(2) طبع هذا الكتاب في عام 1312هـ في مطبعة بولاق بالقاهرة، أي بعد وفاته بحوالي عام.

(1/1093)

ذلك الكتاب الذي ساير طريقة الحوليات والذي تطرق إلى تاريخ العالم منذ أقدم العصور وامتد إلى أواخر القرن التاسع عشر. وأهم ما في هذا الكتاب ما كتبه المؤلف عن الثورة العرابية ووجهة نظره فيها، وترجع أهمية ما كتبه إلى أنه كان أحد شهود العيان الذين شاركوا في هذه الثورة، وكان من رجالها البارزين. ومع ذلك، يتضح من كتاباته تحامله على عرابي حتى وصل به الأمر إلى التجني على الحقائق التاريخية. وقد يرجع ذلك إلى خصومة حدثت بينهما في المنفى(1).

---

(1) انظر: "البحر الزاخر"، ج1، صص.210–237.

(1/1094)

... وإلى جانب ذلك فمحمود فهمي مذكرات عن الثورة العرابية موجودة بدار الوثائق القومية بكورنيش

النيل بالقاهرة تحت عنوان "أوراق الحضرة الخديوية والثورة العرابية"، وهي مذكراته الخاصة حول ما شاهده أثناء ضرب الإسكندرية والأعمال التي قام بها، ومذكرة عن تسليم نفسه للإنجليز، ومذكرة للخديو يتنصل فيها من التبعات التي أخذت عليه، وتلغراف منه إلى عرابي يخبره فيه بالحالة الحربية وما وصلت إليه من سوء.

... وعلى الرغم من خروج محمود فهمي على الموضوعية في بعض الأحيان، فإن ما كتبه يعد من المصادر الهامة في دراسة

(1095/1)

تاريخ الثورة العرابية وأحداثها.

... وكتب عبد الله النديم مذكراته السياسية تحت عنوان "كان ويكون"(1) أثناء فترة اختفائه عن أعين الإنجليز والحكومة من سنة 1882 إلى سنة 1891م.

وتتضمن هذه المذكرات موضوعات دينية وأدبية وتاريخية وسياسية ومقاربات بين الأمم والأجناس الشرقية والغربية في أحوالهم وأطوارهم واختلاف طرقهم ومناهجهم، كما حكى النديم فيها عن أحواله في الفترة التي كان مختفيا فيها،

---

(1) قمنا بنشر هذا الكتاب مع عمل مقدمة تحليلية له بالهيئة المصرية العامة للكتاب عن طريق مركز تاريخ مصر المعاصر.

ومذكراته عن الثورة العرابية، ورسائله إلى عرابي.

وإلى جانب ذلك، فللنديم مؤلفات عديدة تعرض معظمها للضياع وما تبقى منها مثل كتاب "المسامير"(1) الذي كتبه في هجاء أبو الهدى الصيادي وما تم جمعه تحت عنوان "سلافة النديم" يثبت أن أفكار النديم السياسية والاجتماعية كانت سابقة لأفكار أبناء وطنه، وكانت جديدة عليهم لم يسمعوا عنها من قبل حيث نبه أفكارهم إلى موضوعات جديدة أيقظ بها الرأي العام المصري بعد فترة رقاد.

---

(1) قمنا بنشر هذا الكتاب مع عمل مقدمة تحليلية له عن طريق مركز تاريخ مصر المعاصر.

... وكتب الشيخ محمد عبده "تاريخ أسباب الثورة العرابية"(1) بين فيه أسباب هذه الثورة وحوادثها، وتوقف عند مظاهرة عابدين، وقد بدأ الشيخ محمد عبده كتابه بوصف أحوال مصر عندما نزل الخديو إسماعيل عن العرش، وظروف تولية الخديو توفيق، كما أوضح أن النهضة الوطنية التي ظهرت في مصر خلال هذه الفترة ترجع إلى جمال الدين الأفغاني وما له من أثر على ازدهار الصحافة العربية وترقية أفكارها.

---

(1) نشر محمد رشيد رضا هذا الكتاب ضمن كتابه "تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده"، ج 1، ص.159 وما بعدها.

(1098/1)

... وقد أوضح الشيخ محمد عبده أنه لم يكن راضيا عن حركة العسكريين في بداية الأمر، لأنه كان يرى ضرورة الاهتمام بتربية وتعليم الأمة. ويتوقف الكتاب –كما ذكرنا– عند حادثة عابدين وعزل رياض باشا وتولية شريف مكانه. ولم يتم الشيخ محمد عبده باقي أحداث الثورة، نظرا للخلاف الذي حدث بينه وبين الخديو عباس الثاني بسبب ما ذكره عن إسراف جده إسماعيل، وسوء

إدارته للبلاد، وعن نقده للخديو توفيق لعدم تمكنه من وقف التدهور الذي حاق بمصر.

(1/1099)

... ويعد هذا الكتاب من الكتب المهمة في دراسة أسباب الثورة العرابية وأحداثها، ووجهة نظر الشيخ محمد عبده في بعض رجالها. وتبرز أهميته أيضا في أن الشيخ محمد عبده عبر عن وجهة نظره كأحد تلاميذ الأفغاني الذين لم يحسبوا للعسكريين حسابا أثناء مناداتهم بالإصلاح، وفي أنه أحد شهود العيان الذين شاهدوا الأحداث وشاركوا في اتخاذ بعض القرارات الهامة التي اتخذها العرابيون للدفاع عن مصر.

... وكتب أحمد عرابي "كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية"(1)

---

(1) مخطوط تحت رقم 1542، علما بأنه يوجد بدار الكتب نسخة مصورة عن الأصل، المخطوط تحت رقم م 24955 وتم نشر أجزاء منها.

(1/1100)

. وهذه المذكرات تضيء للمؤرخين بعض النواحي، وتذلل لهم سبل البحث، وتزيح الريب والشكوك عن الثورة وزعيمها. وقد تعرض عرابي في هذه المذكرات لنشأته ونسبه والأحداث التي تعرضت لها مصر أيامه. وأبرز ما يمكن أن نستخلصه مما كتبه عرابي أنه استعمل لفظ "المصريين" و"الأمة المصرية" بمعناه الحديث، واعتبر غير المصريين أجانب سواء كانوا من الأتراك أو الأرمن أو غيرهم، وسواء كانوا من المسلمين أو النصارى؛ كما أنه في حديثه عن الحملة الحبشية اتهم أركان الحرب الأجانب العاملين في الجيش المصري بالخيانة، وبأنهم كانوا السبب

(1101/1)

في المآسي التي تعرض لها الآلاف من الجنود المصريين وانتهت بإبادتهم؛ يضاف إلى ذلك اتهامه للخديو إسماعيل بعد خروجه من مصر بأنه سرق من الخزانة ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات.

... وعن الأحكام التي صدرت على زعماء الثورة ذكر عرابي أنه حكم عليه بالإعدام ومعه ستة من زملائه، ولكن استبدل ذلك الحكم بالنفي المؤبد من مصر وملحقاتها، كما صدرت الأوامر بمصادرة أملاك العرابيين ونفيهم إلى

سيلان حتى أمر الخديو بالعفو عنهم في عام 1901م بعد غياب دام تسعة عشر عاما وأربعة أشهر.

(1/1102)

... والجدير بالذكر أن عرابي فرغ من مذكراته في السادس والعشرين من يوليو 1910م.

... وعلى الرغم من الأهمية الكبرى لهذه المذكرات من الناحية التاريخية، خاصة وأن قائد الثورة العرابية هو كاتبها، فإن كثيرا مما ورد بها من معلومات يحتاج من الباحثين إلى تمحيص وتدقيق.

... وجملة القول إن كتابات ومذكرات قادة الثورة العرابية كان لها أبرز الأثر في تفهم العديد من الأحداث وإيضاح الكثير من الحوادث التي لم يتطرق إليها الآخرون.

(1/1103)

... وهكذا يتضح أن ما كتبه زعماء الثورة العرابية في مؤلفاتهم أو مذكراتهم انحصر إلى حد كبير في تعليل أسباب قيامهم بالثورة وشرح وقائعها والتنصل من

تبعاتها وأسباب فشلها. ولعل السبب الذي دفعهم إلى هذه الكتابات هو شغل أوقات فراغهم سواء خلال فترة النفي أو الاختفاء. لذلك تأثروا جميعا بأحوالهم غير المرضية أثناء الكتابة، وانصب ذلك على خروج بعضهم على الموضوعية في بعض الأحيان.

... ومهما يكن من أمر، فإن ما كتبوه يعد لونا جديدا من ألوان الكتابة التاريخية عرفته مصر في أواخر القرن التاسع عشر، ولم تكن لها معرفة

(1/1104)

به من قبل(1).

... وعلى أي حال، فبعد فشل الثورة العرابية، لم تتوقف حركة النضال الفكري. فاشترك الأفغاني مع محمد عبده في إصدار جريدة "العروة الوثقى" في باريس لمهاجمة الاستعمار والدعوة إلى التضامن الإسلامي.

... ولم يتوقف الأمر على النواحي السياسية فحسب، بل ظهرت في مصر بعض الأفكار الاجتماعية المتأثرة بالتيار الليبرالي الأوربي. فدعا قاسم أمين إلى تحرير المرأة في كتابيه "تحرير المرأة"(2) و"المرأة الجديدة"(3)

---

(1) الشيال، "التاريخ والمؤرخون"، ص.174.

(2) نشر لأول مرة في عام 1899م.

(3) نشر لأول مرة في عام 1900م.

(1105/1)

وأرجع الاضمحلال الذي تعاني منه مصر إلى وضع المرأة المصرية وتخلفها ورأى أن العلاج الناجع لذلك هو التعليم.

... وفي نهاية هذا البحث، يمكن القول إن تطور حركة التأليف التاريخي في القرن التاسع عشر، ذلك القرن الذي أخذ فيه الشرق يصحو من ثباته، وينفض عن نفسه غبار الخمول والتخلف، كان له أثره الواضح في ازدهار الحركة التاريخية في مصر في القرن العشرين.

... حقيقة، إن هذه الحركة لم تقم على أكتاف مؤرخين متخصصين، وإنما قامت على أكتاف الهواة وعشاق التاريخ الذين قدموا دراسات رائدة، وإن كان معظمهم قد اهتم بالجمع

(1106/1)

والتنسيق والمنمقات البديعية أكثر من التدقيق والتحقيق، والذين برز منهم العديد من كتاب التاريخ الثقاة أمثال عبد الرحمن الجبرتي، ذلك الشيخ الأزهري الذي دون الحوادث والوقائع كما رآها بعينيه أو سمعها بأذنيه من معاصريه، والذي يعد ما كتبه امتدادا لنظام الحوليات؛ ورفاعة الطهطاوي الأزهري المتفرنج الذي تمثل كتاباته نقطة تحول بارزة في تاريخ الفكر السياسي المصري، وإن كانت معظم كتاباته لا تخلو من السجع الأجوف؛ وعلي مبارك الذي كان مصنفا وجامعا وكانت اهتماماته بالتاريخ واضحة، بالرغم من أنه كان مهندسا؛ ومحمد

(1/1107)

عبده الذي اشتهر بمحاولاته في التوفيق بين الدين والعلم الحديث؛ وعبد الله النديم الذي هاجم عيوب مجتمعه بأسلوب يمتزج فيه التبكيت مع التنكيت، وغيره.

... وحقيقة، إن هذه الكتابات في مجملها لم يلتزم فيها أصحابها بقواعد الكتابة الحديثة، خاصة وأنهم عبروا عما كتبوه بطريقة عصرهم ولم تكن الكتابة التاريخية وظيفة أساسية في حياتهم. ومع ذلك، يحمد

لهم ما كتبوه، ولا سيما أنهم أضاءوا الطريق لمؤرخي القرن العشرين الذين برزوا بدراساتهم الأكاديمية، خصوصا بعد افتتاح الجامعة المصرية.

(1108/1)

اتحاد المغرب العربي

... ... الدكتور عبد الكريم كريم

... كلية الآداب ـ الرباط

... عرف ابن خلدون بلاد المغرب بقوله: »إن المغرب كله على ساحل البحر الشامي، من جنوبه، فالأقرب إلى هنا برقة وإفريقية والمغرب الأوسط... والمغرب الأقصى«.

... وإذا كانت بلاد الشمال الإفريقي خلال القرون الأولى لإسلامها قد تجاذبتها تيارات مختلفة وعرفت من جهة أخرى قيام دول وإمارات في مناطق مختلفة منها، فإن هذه البلاد قد عاشت وحدة سياسية وتطوراً حضارياً متميزاً، خلال فترة ذهبية من تاريخها امتدت نحو الستين عاماً من القرن

(1109/1)

السادس للهجرة في عهد دولة الموحدين.

... تعاقب على حكم الدولة الموحدية خلال الفترة ما بين 540 و604 هـ أربعة خلفاء هم "عبد المومن بن علي وابنه يوسف وحفيده يعقوب وابن حفيده محمد" قاموا بمسيرات توحيدية انطلقت جميعها من المغرب الأقصى:

... فالخليفة عبد المومن بن علي:

... ... في عام 540 هـ فتح تلمسان ووهران

... ... وفي عام 544 هـ فتح مليانة وبجاية

... ... وفي عام 553 هـ فتح قابس والقيروان وسوسة وصفاقس والمهدية وطرابلس وبرقة ...

... والخليفة يوسف بن عبد المومن فتح في عام 575 هـ مدينة قفصة. ...

(1110/1)

... أما الخليفة يعقوب بن يوسف المقلب بالمنصور، فقد قام بثلاث مسيرات:

... عام 581 هـ لفتح بجاية.

... وعام 583 هـ لفتح قفصة وتونس والقيروان.

... وعام 285 هـ لفتح مدينة تونس.

... وآخر هذه المسيرات قام بها الخليفة محمد بن يعقوب في عام 598 هـ إلى الجزائر وفي عام 601 هـ إلى تونس

والمهدية.

... حققت هذه المسيرات:

أولاً: الوحدة السياسية لشعوب المغرب العربي:

... »فتح عبد المومن جميع بلاد إفريقية من برقة إلى تلمسان ولم يبق له منازع «(1). أما يوسف

---

(1) ابن أبي دينار، المونس في أخبارإفريقية وتونس، ص. 104.

بن عبد المومن، فقد »كان ملكه من قاصية إفريقية إلى سوس الأقصى «(1).

... ويعقوب بن يوسف »كانت أيامه زينة الدهر والأمن في جميع عمله حتى أن الظعينة تخرج من برقة إلى آخر المغرب ولا يتعرض أحد «(2).

... وعن صدى هذه الجهود الوحدوية، تجمع المصادر والوثائق على أن شعوب الشمال الإفريقي قد تجاوبت معها إلى حد بعيد: فعندما وصل الخليفة عبد المومن إلى تونس، »خاطبه أهل مدينة قابس بالتوحيد ... فبعث بعسكر ضخم... فلما وصلوا على ثمانية أميال من قابس، بادر أهلها مع قاضيهم

(1) المصدر نفسه، ص. 106.

(2) المصدر نفسه، ص. 107.

بالخروج إلى الموحدين وتلقيهم بالطاعة والتزام أمر الدين والجماعة «(1). كما أن »عرب إفريقية والزاب والقيروان... أجابوا إلى الطاعة على حكم الاستطاعة «(2).

... أما عن الأفراح التي أقيمت بعد تحقق وحدة المغرب المغربي، فقد أورد ابن صاحب الصلاة في "المن بالإمامة" وهو معاصر وصفاً لبعضها:

... ذكر ورود الكتابين العزيزين المبشرين بالفتوح الواحد منها مؤرخ بالثاني من ذي الحجة من عام أربعة وخمسين بظاهر المهدية يعلم فيه بكل سرور وجذل ومنال

(1) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 175.

(2) المصدر نفسه، ص. 417.

وإقبال وأمل، والكتاب الثاني الجامع لجميع أشتات الفتوح والأماني مبشراً بفتح مدينة المهدية يوم عاشوراء من عام خمسة وخمسين وخمسمائة.

ولما فتح الله تعالى المهدية ...، جلس أمير المؤمنين رضي الله عنه للموحدين أجمعين مجلس التهنئة والشكر لله تعالى على ذلك

... وبهذه المناسبة، أقيمت بالشمال الإفريقي احتفالات تم خلالها إطعام »الناس كافة ... والأجناد مدة ثلاثين يوماً ... وقرع الطبول مع الإطعام متصل والبشر مشتمل والشعراء ينشدون أشعارهم بالتهاني«(1).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 120.

(1114/1)

ثانياً: حرص الحكام الموحدين على تشجيع هجرة القبائل العربية من ليبيا وتونس إلى الجزائر والمغرب

... 1 ـ بدافع الجهاد ضد الصليبيين بالأندلس:

... فبعد أن فتح عبد المومن المهدية، خاطب العرب قائلاً:

... قد وجبت علينا نصرة الإسلام؛ فإن المشركين قد استفحل أمرهم بالأندلس واستولوا على كثير من البلاد التي كانت بأيدي المسلمين وما يقاتلهم أحد مثلكم، فبكم فتحت البلاد أول الإسلام وبكم يدفع العدو منها الآن، فأجابوا بالسمع والطاعة(1).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 144.

(1/1115)

... وفي عام 557 هـ، »استجلب عبد المومن الأجناد والمطوعة من سائر عمله يستنفرهم للجهاد فاجتمع له ما لم يجمع لغيره من بلاد إفريقية والمغرب والقبائل ... من العرب«(1). وقبل أن ينتقل عبد المومن إلى الأندلس، أرسل مبشراً بقدومه على رأس قوات عربية لرد هجومات الإسبان. وقد جاء في هذه الرسالة:

ويصحبنا من خالص العُرْب معشر أنابوا فما ردوا وتابوا فما ارتدُّوا(2)

2 ـ للاستيطان في مختلف الأقطار المغربية

---

(1) المونس، ص. 105.

(2) عبد الله كَنون، رسائل موحدية، ص. 27.

(1116/1)

... وبفضل ذلك، تغلغلت القبائل العربية في تونس وحواشي الأوراس وهضاب إقليم وهران وسهوله، وتسربت من ممر تازا إلى سهول المحيط الأطلسي... كما أن عرب المعقل الذين توغلوا في الصحراء تمكنوا مع الأيام من تعريب مناطق واسعة منها.

... وقد أكد ابن خلدون أن القبائل العربية في الجزائر قد انتشرت في مجموع البلاد، مما أدى إلى انتشار العربية وتبني عدد من القبائل المحلية للعربية.

... ولأخذ فكرة عن هذه الهجرة العربية، أورد ابن صاحب الصلاة:

(1117/1)

... وحين وصل إلى بلاد إفريقية، وجد أكثر بني عمه قد بادروا إلى طاعة هذا الأمر العظيم... فأسرع بنفسه وإخوته وجميع قبيله الأخص... ولحق بهم أولاً... بمدينة

بجاية ... وأقام ... إلى أن وصل ... أشياخ العرب بجمعهم وتحرك ... إلى الحضرة العلية مراكش ... ووصل أيضاً العمال والأمراء بإفريقية ... بهؤلاء العرب ... وكان عدد الخيل الواصلة من إفريقية أربعة آلف فرس (1).

... وفي مراكش كان المهاجرون العرب يجدون ترحاباً خاصاً:

---

(1) المونس، ص. 105.

(1118/1)

... وخرج أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ عشية يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع المؤرخ 566 هـ بعد صلاة الجمعة إلى البحيرة خارج حضرة مراكش، فأطعم العرب والناس الوافدين وغيرهم مدة خمسة عشر يوماً يدخل كل يوم في البحيرة أزيد من ثلاثة آلاف رجل (1).

ثالثاً: ضبط إدارة المغرب العربي وتنظيم اقتصادياته

... بفضل الأمن والاستقرار اللذين عرفتهما بلاد المغرب العربي، استطاع القادة الموحدون أن ينظموا البلاد تنظيماً إدارياً محكماً:

(1) المن بالإمامة، ص. 120.

... أمر عبد المومن بتكسير بلاد إفريقية من برقة إلى السوس الأقصى طولاً وعرضاً بالفراسخ والأميال وأسقط الثلث من التكسير في مقابلة الجبال والأنهار. وما بقي قبض عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع، وهو أول من أحدث ذلك بالمغرب (1).

وهكذا وزعت بلاد المغرب العربي إلى مناطق إدارية أهمها:

... 1 ـ تلمسان التي ولى عليها عبد المومن ... «ابنه السيد الأعلى أبا حفص»(2).

(1) المصدر نفسه، ص. 121.

(2) المونس، ص. 418.

... 2 ـ بجاية: »وكان ابنه السيد الأجل أبو محمد والياً عليها«(1).

... 3 ـ تونس: »وكان أبو محمد عبد الواحد ... صاحب تونس«(2).

... 4 ـ مراكش »فتح جميع بلاد إفريقية ... وفرق عماله وقضاته«(3). وهكذا »كثرت الأموال وأمنت الطرقات«(4).

... » ...وكان عدد الخيل الواصلة من إفريقية ... مائة وخمسين حملاً من المال الصامت ... ومن تلمسان ... خمسين حملاً من المال الصامت«(5).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 104.

(2) المونس، ص. 418.

(3) المصدر نفسه، ص. 104.

(4) المصدرنفسه، ص. 106.

(5) المصدر نفسه، ص. 419.

(1121/1)

... رابعاً: أصبح المغرب العربي قوة مهابة الجانب باعتبار أن القادة الموحدين قد سخروا جميع الإمكانات البشرية والمادية لتوحيد الصف الداخلي وتطوير القوات

المسلحة البرية والبحرية.

... أمر بإنشاء الأساطيل في جميع سواحل ممالكه، فأنشأ له منها أربعمائة قطعة: فمنها بحلق المعمورة مئة وعشرون قطعة ومنها بطنجة وسبتة وبادس ومراسي الريف مائة قطعة، ومنها ببلاد إفريقية ووهران ومرسى هنين مائة قطعة، ومنها ببلاد الأندلس ثمانون قطعة.

(1122/1)

... ونظر في استجلاب الخيل للجهاد والاستكثار من أنواع السلاح والعدد، وأمر بضرب السهام في جميع عمله، فكان يضرب له منها في كل يوم نحو عشرة قناطير، فجمع له من ذلك مالا يحصى كثرة (1).

و

... لما دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، خرج أمير المؤمنين عبد المومن من مراكش قاصداً الأندلس برسم الجهاد... فوصل إلى رباط الفتح وكتب إلى جميع بلاد المغرب والقبلة وإفريقية والسوس وغير ذلك يستنفرهم إلى الجهاد، فأجابه خلق كثير واجتمع له من عساكر الموحدين والمرتزقة من

---

(1) محمد بوجندار، الاغتباط بتراجم أعلام الرباط، ص. 397.

قبائل العرب والبربر أزيد من ثلاثمائة ألف فارس ومن جيوش المتطوعة ثمانون ألف فارس ومائة ألف راجل فضاقت بهم الأرض (1).

* * *

... بعد انتصار صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين عام 583 هـ/ 1187 م وفتح القدس الشريف، »خاطب ... يعقوب ... وأخبره بأنه هزم روم الشام واستأصل شأفتهم وفتح بيت المقدس ـ شرفها الله ـ وجميع تلك البلاد التي كانت بأيدي أعداء الله «(2).

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المؤلف المجهول، الاستبصار، ص. 104.

... وإذا كانت شعوب المغرب قد اهتزت فرحاً للبشرى، »وكان له في النفوس من الفرح والجذل ما لا خفاء فيه «(1)، فإن الآلة العسكرية الصليبية قد عاودت هجوماتها وجعلت بلاد الشام تعيش ظروفاً صعبةً خلال أربعة أعوام متوالية (585 ـ 588 هـ): »كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التي أخذها السلطان فأرسلوا إلى البحر يستنجدون... ووصل الفرنج في البحر عالم لا يحصى... وكانت المراكب في البحر كالجراد المنتشر ونزلوا على عكَّا ثامن رجب (عام 585 هـ)«(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 106.

(2) أحمد بن إبراهيم الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص. 160.

.

... التجأ صلاح الدين لمواجهة الأحداث إلى »استنفار الناس للجهاد «(1) و»كتب إلى المسلمين يستنجدهم«(2). ومن هؤلاء يعقوب المنصور الموحدي: »وكتب السلطان إلى يعقوب أمير المغرب يستنجده «(3).

... استقبل يعقوب المنصور بمدينة فاس في أوائل

شعبان عام 585 هـ سفير صلاح الدين، ومن فاس رحل إلى تونس التي دخلها أوائل ذي القعدة 585 هـ »

...ليكف... طاغية صقلية وليحصر جنام فلوله أن تطير ويعتقله في جزيرته «(4)

---

(1) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص. 214.

(2) شفاء القلوب، ص. 160.

(3) المصدر نفسه، ص. 169.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 6، ص. 526.

(1126/1)

الأمر الذي أجبر وليم الثاني، ملك صقلية، على الاستنجاد بأساطيل ريتشرد قلب الأسد الإنجليزي وفيليب أغست الفرنسي، التي رابطت بالجزيرة أواخر عام 586 هـ/ 1190 م وظلت بها إلى مطلع الصيف التالي(1).

... توالت رسائل صلاح الدين على يعقوب المنصور »فلم ندعه إلا لواجب عليه... فلا ترضى همته أن يعين الكفر الكفر ولا يعين الإسلام الإسلام وما اختص بالاستعانة إلا لأن العدو جاره والجار أقدر على الجار وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار «(2)

---

(1) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 3، ص. 79 وص. 95.

(2) ... أبو شامة المقدسي، كتاب الروضتين، ج 2، ص. 170.

(1127/1)

. حتى يتمكن المسلمون في الشرق والغرب من أن يمسكوا »طرفاً من حبل الجهاد... ونتجاذب أعداء الله من الجانبين«(1).

... استجاب يعقوب المنصور »وجهز لصلاح الدين مائة وثمانين أسطولاً ومنع الغزاة من ساحل الشام«(2). فهل حاولت القوات الصليبية المرابطة ببلاد الشام قطع الطرق على المساعدات العسكرية المغربية؟ »وعزم الفرنج على قصد مصر ثم عدلوا إلى القدس... وجاءهم خلق عظيم... وكان السلطان بالقدس«(3).

---

(1) ... صبح الأعشى، ج 6، ص. 526.

(2) ... الناصري، الاستقصا، ج 2، ص. 182

(3) شفاء القلوب، ص. 175.

(1128/1)

... ويؤكد خبر التفكير في التوجه من فلسطين ضد مصر المؤرخ الإخباري لحملة ريتشرد قلب الأسد: »وعقدوا مجلساً للنظر فيما يجب أن يفعلوه، فقرر هذا المجلس أن يتخلوا عن بيت المقدس ويزحفوا على القاهرة ... ثم تراجعوا وحاصروا القدس على بعد اثني عشر ميلاً من بيت المقدس «(1).

... واعتماداً على المصدر نفسه: »ثم تبدلت الحال في اليوم الثاني وجاءت الإمدادات إلى صلاح الدين واستولى الملل على رتشرد، وحبس عنه فرسان عكا وصور معونتهم فأرسل يطلب الصلح «(2)،

---

(1) ديورانت، قصة الحضارة، ج 15، ص. 43.

(2) المصدر نفسه، ص. 178.

وعقدت »هدنة في البر والبحر مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها سبتمبر (1192 م) الموافق حادي وعشرين شعبان «(1) لعام 588 هـ وفي أوائل رمضان 558 هـ/ سبتمبر 1192 م جلت القوات الصليبية عن بلاد الشام (2).

... كان للمواقف التي اتخذتها شعوب المغرب العربي كبير الأثر على مجرى الحروب الصليبية في المشرق العربي، ومن أبرزها: ...

1 ـ حصار الأساطيل المغاربية للسفن الصليبية في عرض البحر المتوسط وحوضه الغربي بوجه خاص.

---

(1) شفاء القلوب، ص. 175.

(2) المصدر نفسه، ص. 178.

(1130/1)

---

2 ـ مهاجمة مراكز التجمع الصليبي في شبه جزيرة إيبريا:

... أ ـ في البرتغال ضد سانشو هنريك عام 758 هـ

ب ـ في إسبانيا ضد ألفونسو الثامن والانتصار في معركة الأرك عام 591 هـ التي جاءت مكملة للانتصار قبل ثمانية أعوام في معركة حطين.

* * *

... واليوم، وفي إطار ما يشهده الوطن العربي من قيام اتحادات إقليمية (مجلس التعاون الخليجي نموذجاً)، ثم التوقيع في مدينة مراكش على المعاهدة التي أنشئ

بمقتضاها »اتحاد المغرب العربي« الذي يضم أقطار ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا:

(1131/1)

... إن صاحب الجلالة الحسن الثاني ملك المملكة المغربية، وفخامة السيد زين العابدين بن علي رئيس الجمهورية التونسية، وفخامة السيد الشاذلي بن جديد رئيس الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية، وقائد ثورة الفاتح من سبتمبر العظيم العقيد معمر القذافي، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، وفخامة العقيد معاوية ولد سيدي أحمد الطايع رئيس اللجنة العسكرية للخلاص الوطني رئيس الدولة للجمهورية الإسلامية الموريتانية.

(1132/1)

... إيماناً منهم بما يجمع شعوب المغرب العربي من أواصر متينة قوامها الاشتراك في التاريخ والدين واللغة،

... واستجابة لما لهذه الشعوب وقادتها من تطلع عميق

ثابت إلى إقامة اتحاد بينها يعزز ما يربطها من علاقات ويتيح لها السبل الملائمة لتسير تدريجياً نحو تحقيق اندماج أشمل فيما بينها،

... ووعياً منهم لما سيترتب على هذه الاندماج من آثار تتيح لاتحاد المغرب العربي أن يكتسب وزناً نوعياً يسمح له بالمساهمة الفعالة في التوازن العالمي وتثبيت العلاقات السلمية داخل المجتمع الدولي واستتاب الأمن والاستقرار في

(1133/1)

العالم،

... وإدراكاً منهم أن إقامة اتحاد المغرب العربي تتطلب تحقيق إنجازات ملموسة ووضع قواعد مشتركة تجسم التضامن الفعلي بين أقطاره وتؤمن تنميتها الاقتصادية والاجتماعية،

... وتعبيراً عن عزمهم الصادق عن العمل من أجل أن يكون اتحاد المغرب العربي سبيلاً لبناء الوحدة العربة الشاملة ومنطلقاً نحو اتحاد أوسع يشمل دولاً أخرى عربية وإفريقية.

... اتفقوا على ما يلي:

... المادة الأولى: ينشأ بمقتضى هذه المعاهدة اتحاد يسمى "اتحاد المغرب العربي".

... حرر بمدينة مراكش يوم الجمعة الأبرك 10 رجب 1409 هـ

(1134/1)

... الموافق 17 يبراير 1989.

(1135/1)

الأزمة في المغرب بعد وفاة السلطان مولاي إسماعيل العلوي ومحاولة تأسيس طبائع جديدة للمُلك

... ... الدكتور أحمد الوارث

... ... كلية الآداب ـ الجديدة

... استطاع السلطان مولاي إسماعيل، كما هو معروف، إعادة توحيد المغرب؛ كما نجح في بناء سلطان مطلق في

البلاد. وقد جاءت الوحدة الترابية، على حساب دويلات الزوايا، التي اقتسمت النفوذ الأكبر في البلاد، في أعقاب انهيار دولة الشرفاء السعديين، كما جاء بناء السلطان المطلق على أنقاض نفوذ الزعامات المحلية والجهوية، ولا سيما منها أرباب الربط والزوايا.

(1136/1)

ومعروف كذلك أن الآلة العسكرية كانت هي الوسيلة الرئيسة في تحقيق هذه النجاحات، إلى حد لم يعد في المغرب أي مؤسسة قادرة على مجادلة المخزن الإسماعيلي، بما فيها مؤسسة الزوايا، التي كانت زمنئذ من القوى السياسية العظمى في البلاد، إن لم تكن أعظمها على الإطلاق(1).

---

(1) سبق أن أدلى ميشو بلير برأي مهم في هذا الصدد مفاده: »خلو مملكة فاس مع نهاية القرن 18 م من أية زاوية قادرة على إثارة المشاكل للمخزن...«: E. Michaux-Bellaire, «Les Derqaoua: de Tanger », Revue du monde musulman, T. 39, juin 1920, p.100.

(1137/1)

... وكان لسطوة المخزن الإسماعيلي آثارها البعيدة المدى أيضاً، حيث تجاوزت عهد مولاي إسماعيل إلى ما بعده. ويمكن اختزال تلك الآثار في الملاحظتين التاليتين:

... .أما الملاحظة الأولى، فهي ظهور ما يشبه اقتناع أرباب الزوايا ومن ارتبط بهم، بعدم صلاحية الصلاح والصلحاء للحكم. وظهر اقتناعهم بذلك بوضوح في الأزمة التي اندلعت بعد وفاة المولى إسماعيل. وبيان ذلك أنه بالرغم من حدوث »... فوضى لم يعرف لها مثيل «(1)، في تاريخ المغرب، بعد وفاة مولاي

---

(1) محمد داود، تاريخ تطوان، تطوان، 1395 هـ، قسم 2، م 10، ص. 200.

(1138/1)

إسماعيل، لم يبد أي رجل من أرباب الزوايا طمعه في السلطة، لا وطنياً ولا جهوياً، وارتبطوا جميعاً في نشاطهم السياسي بأمراء البيت العلوي نفسه، مما يفسر إشارتنا إلى سطوة الجيش النظامي الإسماعيلي، في حربه مع الزوايا، ويؤكد أن هذه السطوة ظلت قائمة إلى ما بعد وفاة مولاي إسماعيل.

... أما الملاحظة الثانية، فهي مترتبة على الأولى ومكملة لها، وتتمثل في الموقف الجديد الذي تبناه أقطاب التيار الصوفي في خضم ذلك النزاع بين الأمراء العلويين. وتكمن هذه الجدة في مساندتهم جميعاً للأمراء الذين اختاروا التخلي عن

(1139/1)

السياسة الإسماعيلية في إدارة شؤون البلاد، أعني أنهم كانوا في مواقفهم من أنصار تيار الإصلاح الذي تزعمه بعض أمراء البيت العلوي، وبذلوا في سبيله الغالي والنفيس.

ا ـ السلطان مولاي عبد الملك ينشد الإصلاح السياسي

... يفهم من كتب التاريخ التي اهتمت بالأزمة المذكورة أن المولى عبد الملك بن إسماعيل لقي تعاطفاً كبيراً من قطاع عريض من المغاربة، وفي مقدمتهم شيوخ التصوف وأرباب الزوايا، مقارنة مع أخيه ومنافسه على العرش، مولاي أحمد. كما يفهم من المصادر نفسها أن مرد ذلك التعاطف إلى الاختيارات السياسية التي

(1140/1)

تبناها مولاي عبد الملك، لما اعتلى العرش. ولعل أهم ما تميزت به هذه الاختيارات أنه خالف، في بعض وجوهها، تدابير والده مولاي إسماعيل في سياسته الداخلية. وقد ظهر ذلك جلياً في وجهين أساسيّين:

... .أولهما تقليص رواتب الجند النظامي المكون من العبيد(1). ولعل هذا هو

---

(1) راجع: عبد الرحمن بن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية، الرباط، 1352 هـ، ج 5، صص. 306 ـ 307؛ أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، مطبعة دار الكتاب، البيضاء، ج 7، ص. 120.

السبب الذي جعل أبا القاسم الزياني، ومن تبعه، يصفونه بالبخل والشح(1)، على عكس أخيه أبي العباس أحمد الذهبي »... الذي أفضى به جوده إلى حد

---

(1) نقل ابن زيدان هذا الكلام عن الزياني، ثم علق عليه قائلاً: »والظاهر أن المترجم لم تكن يده مغلولة إلى عنقه

ولا مبسوطة كل البسط كأخيه أبي العباس أحمد الذهبي الذي أفضى به جوده إلى حد التبذير المذموم من اتصف به على لسان الشارع. وقد بلغ جيش عبيد البخاري ومن في حكمهم من الشره ما صير الاقتصاد المحمود في نظرهم شحاً وبخلاً«. (إتحاف أعلام...، مصدر سابق، ج 5، ص. 297).

(1142/1)

التبذير المذموم (...)، و(...) بلغ جيش عبيد البخاري، ومن في حكمهم (في عهده) منه الشره ما صير الاقتصاد المحمود في نظرهم شحاً وبخلاً«(1).

... ولم يكن تقليص رواتب عبيد البخاري سوى مقدمة في سياسة مولاي عبد الملك الرامية إلى التخلي، في نهاية الأمر، عن خدماتهم. وفي هذا الصدد كتب الناصري أن مولاي عبد الملك »... كان قد عزم على تطهير الحضرة، وبساط الدولة، من افتيات العبيد وتحكمهم على أعياصها«(2). وكتب ابن زيدان، من جهته، ما يفيد أن

---

(1) المصدر نفسه.

(2) أحمد الناصري، الاستقصا...، مصدر سابق، ج 7، ص. 120.

(1143/1)

المولى عبد الملك أراد أن يجردهم مما اغتصبوه، بل وأن ينشئ جيشاً جديداً بدلاً منهم. وقد جاء هذا الكلام في أعقاب حديث ابن زيدان عن وصول وفد فاسي بالبيعة إلى مكناس، فقال:

... ثم إنه وصل شرفاء الوفد الذي أتى له بالبيعة بألف دينار ذهباً، كما وصل الطلبة والأعيان مثل ذلك، وأعطى الراتب للرماة، فنال كل فرد منهم سبعة مثاقيل ذهباً، ثم أصدر أوامره برد المظالم، وشدد في اجتناب المحرمات، فكبر ذلك على العبيد، وأبوا أن يردوا ما اغتصبوه للناس من عقار ومال. ولما رأى (مولاي عبد الملك) منهم ذلك صرح لهم بأنهم أحرار

(1144/1)

فليذهبوا حيث شاءوا، وأنه لا حاجة له بخدمتهم، وأعلن النداء في جميع البلاد التي دخلت تحت طاعته بأن من أراد الدخول في الجندية فليأت إليه، فوفد عليه سرعان الناس (1).

وهذا عكس ما قام به مولاي أحمد الذي ما إن بويع حتى زاد (العبيد) في الراتب خمسين ألفاً(2). وكان، كما

يقول القادري: »مساعفاً لهم... وليس له من الملك إلا الاسم بلا مسمى، وهو تابع لأثرهم ورأيهم، لا يقطع أمراً إلا بما

---

(1) راجع: عبد الرحمن بن زيدان، إتحاف أعلام...، ج 5، ص. 306 ـ 307.

(2) أحمد الناصري، الاستقصا...، مصدر سابق، ج 7، ص. 120.

يأمرونه به... « (1).

... كما كان لمولاي عبد الملك موقف سلبي من جيش الأوداية أيضاً. ويظهر ذلك من خلال حديث القادري عن انتقال هذا السلطان إلى فاس بعد ثورة العبيد عليه في مكناس، حيث قال:

... ... لما دخل المحرم فاتح السنة (1141 هـ)، وكان السلطان مولانا عبد الملك بن مولانا إسماعيل الشريف الحسني دخل مدينة فاس بقصد أن ينصروه، ويقاتلوا من خرج عليه مع من يمكث على بيعته من القبائل، وطمع أن تجتمع عليه قبائل المغرب وسوس، فحاول أخذ المدينة البيضاء، (فاس الجديد المرينية)، ويستوطنها

(1) نشر، ج 3، ص. 317.

لأنها دار الخلافة، ويخرج منها الأوداية الخارجين عليه، لأنها ليست لهم، وإنما هم فيها إذاية فيها على أهل فاس الإدريسية، فقاتل الأوداية المتحصنين بها بعدما نهب ما هو عندهم خارج عنها من مواش ونحوها في عزائبهم، وأرسلوا صارختهم للعبيد، فجاؤوا مسرعين ومعهم السلطان مولانا أحمد الذهبي (1).

... أما الوجه الثاني من سياسة مولاي عبد الملك، فهو مكمل لموقفه السلبي من عسكر مولاي إسماعيل. وتجلى في تعاونه مع أعيان المؤسسات المدنية، وإشراكهم في تسيير الشأن العام، وفي مقدمتهم شيوخ

(1) المصدر نفسه، ج 3، ص. 316.

الزوايا. وقد باشر في تنفيذ هذه الاستراتيجية مبكراً، وبدأها بمراسلة أولئك الأعيان. نقول هذا الكلام وحجتنا عليه نصوص الأجوبة التي تلقاها السلطان المولى عبد الملك منهم. ومنها، على سبيل المثال، رسالتان جوابيتان بعث بهما اثنان من كبار أرباب الزوايا، زمنئذ: أولهما هو شيخ زاوية تمجروت، أبو عمران موسى بن محمد الكبير بن ناصر، الذي كان آخر من نكب في عهد المولى إسماعيل من أرباب الزوايا(1)

---

(1) نقصد الحملة التي ترأسها القائد عبد الرحمن مرجينة سنة 1129 هـ/ 1716 م »...على الزاوية الناصرية (في درعة) برسم إخلائها وإجلاء أهلها منها«. وكان شيخها زمنئذ هو موسى بن محمد الكبير، خليفة عمه أحمد الخليفة بن محمد بن ناصر. (راجع: امحمد الخليفتي، الدرة الجليلة في مناقب أحمد الخليفة، دراسة وتحقيق أحمد اعمالك، رسالة جامعية مرقونة، ص. 124).

(1148/1)

؛ وثانيهما هو كبير رجالات التصوف في الصحراء الشرقية، الشيخ محمد بن أبي زيان القندوسي. وقد عبر الشيخ الناصري في جوابه عن الاحترام والتقدير الذي

حظي به السلطان الجديد لدى الناصريين، ثم ضمّن الجواب مدحاً في جنابه، مما جاء فيه:

قم للهمام أمير المؤمنين أبي مروان
قم فابتدر للأمر وأنت طلعتها
أبشر لما كنت تأمل وتطلبه
لو أدركتك أئمة لنا سلفت
لكنْ حفيدُهمُ يقضي بحكمهمُ

ذي المجد والأمجاد والظفر
فالكون صار خديماً سيق بالقدر
من الهنا والمنى في الورد والصدر
لتوجوك بتاج العز والوقر

(1149/1)

فالكل منهم وما يغني عن القدر(1)

... أما الشيخ محمد بن أبي زيان القندوسي، فقد رأى في وصول المولى عبد الملك إلى العرش تصديقاً لنبوءته التي كان أشاع فيها بين الناس: »بأن مولانا عبد الملك يتولى الخلافة وراء أبيه... وأنه يدخل دار المملكة

من غير قتال ولا نزاع...«(2). ولاشك في أن تلك النبوءة

---

(1) م. الخليفتي، الدرة الجليلة...، مصدر سابق، صص. 127 ـ 128.

(2) م. مرزاق، الشيخ امحمد بن أبي زيان وزاويته بالقنادسة، رسالة جامعية في التاريخ، مرقونة، 1987 ـ 1988 م، خزانة كلية الآداب، الرباط، صص. 235 ـ 236.

(1150/1)

تعبير صادق عن أن هذا الأمير كان »... محباً للشيخ رضي الله عنه، والشيخ محباً له«، حسب تعبير أحد تلامذة الشيخ نفسه(1).

... ومن ثم، لما تحققت هذه "الأمنية"، باعتلاء مولاي عبد الملك العرش، لم يتردد الشيخ ابن أبي زيان في إجابة دعوة محبه، وحثه لأتباعه على بيعته، ثم رأى أن يكون جوابه على رسالة السلطان الجديد من جنس النصائح. ومن أهم ما أوصاه به: السخاء والعدل، وقال: بعد الحمدلة و»... السلام، ... يا ابن همام عليك بالسخاء فإنه يرد الشدة رخاء والحل

---

(1) المرجع نفسه، ص, 235 نقلاً عن مخطوط "فتح المنان".

ربطاً والقبض بسطاً... جنود البخيل مكسورة ومياه ساقيته محصورة، الدنانير المنقوشة تفتح الأبواب المغلوقة... يا ابن همام! قد جعلت في جنودك سوادين يمنعون من يشتكي إليه... فإننا من أهل الدربلة والعكاز، ليس من أهل السراويل والمهماز. والسلام« (1).

بل الظاهر أن الشيخ ابن أبي زيان كتب إلى مولاي عبد الملك أكثر من رسالة في هذا المضمار، مصداقاً لقول تلميذه اليعقوبي، صاحب كتاب "فتح المنان" :

---

(1) راجع نص الرسالة كاملة عند: م. مرزاق، الشيخ امحمد...، مرجع سابق، ص. 238. (ونقلها عن مخطوط خاص).

... وقد كنت زمن مجاورتي، الأيام السعيدة، لقراءة "البخاري"، إذا أراد كتاباً يكتب لمولانا عبد الملك أحضرني، ويأمرني بالكتابة، وأكتب له ويقول لي: يا أخي اكتب لمولانا عبد الملك، واستوص به خيراً للمسلمين والدفاع عنهم، والرأفة عليهم، واستوص

بالعلماء، وأهل نسبة الله تعالى، والذود عن المسلمين، والتجاوز عنهم(1).

---

(1) ... المرجع نفسه، ص. 235. ولسنا ندري إن كان بعث بتلك الرسائل بعد بيعة مولاي عبد الملك سلطاناً أم لما كان خليفة لوالده في درعة أو في سوس.

(1153/1)

... والحقيقة أن أكثر الناس كانوا على رأي الشيخ ابن أبي زيان وغيره من شيوخ الزوايا في تأييدهم لمولاي عبد الملك، بسبب ما عرفوه عنه من حسن السيرة، والسياسة، وكثرة عدله في الأحكام، وشدة تعصبه للدين وأهله(1)

---

(1) لقد ذكر القادري بأن الناس أحبوا مولاي عبد الملك «... لحزمه وضبطه، وحسن سيرته وسياسته وكثرة عدله في الأحكام، ومحبته للمهادنة بين الناس، وتأمين الطرق، وشجاعته، حسبما شاهدوا ذلك من قبل في حياة أبيه... وأكثرهم فرحاً أهل فاس الإدريسية لأنهم حركوا معه، فكان يحسن لهم، ويواسي ضعفاءهم ويصبرهم على ما ينالونه من الأذى من عمال أبيه، فكانوا يثنون عليه،

ويتشيعون له في حياة أبيه وطمعوا بولايته تهدينا للبلاد وتأميناً للعباد«. (نشر، ج 3، ص. 298).

... وظهر صدى ذلك في شهادات كثير من المؤرخين، مغاربة وأجانب. وهكذا كتب أبو محمد عبد السلام القادري في حقه بأنه: »إمام عادل شهم سخي ذو ثبات وأصالة في الرأي« (إتحاف أعلام...، ج 5، ص. 297). ووصفه بعض السفراء الأنجليز بقوله: »لهذا الإمام خلق مخالف تماماً لخلق مولاي أحمد الذهبي مقتنعاً زاهداً لا يشرب إلا الماء، وكان متديناً شديد التمسك بشريعة محمد – صلى الله عليه وسلم –، وكان من أكثر الجنود بسالة وشجاعة، ولكن من شدة تعصبه للدين أنه كان لا يثير معركة في يوم عيد، ولو كان ذلك ما فيه من الأخطار على المملكة كلها، ويقال إنه تحت ستار الصلاح والتقوى كان جباراً سفاكاً للدماء، وكان أشياعه يرون في ذلك تنفيذاً للعدل الإلاهي«. (إتحاف...، ج 5، ص. 297). أما الناصري، فقد كتب معلقاً على قيام العبيد بعزل مولاي عبد الملك ورد أخيه مولاي أحمد للملك: »لسخائه وبسط يده... «: كذبوا، فإن المولى أبا مروان رحمه الله كان أنسب حالاً بالخلافة من أخيه المولى أحمد لنجدته وحزمه« (الاستقصا، ج 7، ص. 121).

(1154/1)

.

... ولا غرو في ذلك، فإلى جانب الرسائل التي بعث بها إلى شيوخ الزوايا، وزع مولاي عبد الملك ظهائر كثيرة على العائلات المرابطية، وشيوخ الزوايا في شتى نواحي البلاد، بالرغم من فترة حكمه القصيرة، وكأنه قد قام بحملة منظمة في هذا السياق. وقد نص في تلك الظهائر على تقدير واحترام »أهل الله«، وتوقيرهم، وأمر بالإنعام عليهم، رغبة منه، ولاشك، في تمتين صلاته بهذه الفئة من الأعيان(1)

---

(1) مثل الظهير الذي خص به أولياء رجراجة (عبد الملك السعيدي، السيف المسلول فيمن أنكر على الرجراجيين صحبة الرسول، طبعة الصويرة، 1405 هـ، ص. 227 ـ 228) وأمغاريبي تمصلوحت (P. Pascon, Le Haouz de Marrakech, CURS, Rabat/ CNRS, Paris/ INAV, Rabat, 1983 T. 1, p. 274) وأولاد غيلان (عبد السلام غيلان، لمحات من تاريخ زاوية أولاد غيلان، مطبعة معمورة، القنيطرة، 1987 م، ص. 99) والشيخ عبد المجيد بن علي المنالي الزبادي (محمد اللبار، »قراءة في وثائق جديدة حول مكانة العلماء في الحياة اليومية: نماذج من عصر الدولة العلوية«، ضمن ندوة: الحركة العلمية في

عصر الدولة العلوية، منشورات كلية الآداب بوجدة، 1993، ص. 296؛ والشيخ أحمد بن الطاهر الخطاب ولي زاوية آل الخطاب بزرهون (إتحاف...، مرجع سابق، ج 5، ص. 309)، وأولاد أبي زيد بن القاضي (المصدر نفسه، ج 5، ص. 310) وغيرهم.

(1155/1)

.

... بل الظاهر أنه كان حريصاً على استغلال الفرص الممكنة للتعبير عن موقفه الإيجابي من شيوخ التصوف وأرباب الزوايا، كما فعل في رسالة بعث بها إلى أبي عبد الله محمد المعطي بن الصالح، شيخ الزاوية الشرقاوية في أبي الجعد، يعزيه في وفاة والده، حيث اغتنمها فرصة، وأشار إلى ما يكنه للشيخ الهالك من تقدير، كقوله:

لقد كان مصباحاً لأهل زمانه

وحامي دمار الدير من كل ما غمط(1)

_____

(1) أحمد بوكاري، الزاوية الشرقاوية/ زاوية أبي الجعد، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1989 م، ج 2، ص. 133.

(1156/1)

... وعلى كل حال، فقد دشن مولاي عبد الملك مرحلة جديدة، تبنى فيها اختيارات تقضي بوضع الأسس الكبرى لدولة »الحق والعدالة« في البلاد. وبينما حارب العسكر النظامي، ومن ناصره، هذا التوجه في سياسة القصر، لقي مساندة مطلقة من لدن »أهل الفضل«، والشرفاء(1)

---

(1) ندلي بهذا الحكم العام، استناداً إلى ما سبق من مواقف رجال التصوف. كما أن لنا عليه دليلاً آخر هو عبارة عن رسالة مؤرخة في ربيع الثاني 1140 هـ (26 نونبر - 5 دجنبر 1727 م) بعث بها الأمير مولاي عبد الملك لأعيان وأهل توات يخبرهم فيها أن شرفاء وصوفية البلاد وجميع المغاربة بايعوه، وأنه ألغى جميع المغارم سوى الزكاة والعشور. (A. G. P. Martin, Quatre siècles d'histoire marocaine, Ed. Felix, Paris, 1923, pp. 87–88).

(1157/1)

، و»العسكر الأحرار «(1)، ومن نحا نحوهم جميعاً.

... وقد تجلى هذا التباين بين أنصار سياسة الماضي، وأنصار الإصلاح، بوضوح لما حاول العبيد خلع مولاي عبد الملك فقد كان على رأس المدافعين عن هذا الأخير في مكناس »... من كان داخل ديوان العسكر من الأحرار الوافدين عليه «، بينما خانه بعض المقيمين داخل القصر، الأمر الذي عرضه وأنصاره للهزيمة، واضطر إلى مباركة مكناس في اتجاه فاس. وفي حضرة فاس هب سكان المدينة الإدريسية لاستقبال الأمير مولاي عبد الملك،

(1) عبد الرحمن بن زيدان، إتحاف...، مصدر سابق، ج 5، ص. 307.

لما هرع إليهم، بينما رفض الأوداية السماح له بالدخول إلى أحيائهم في فاس الجديد(1). ولما حاصره العبيد بفاس الإدريسية، كان شيوخ الزوايا وأتباعهم في مقدمة المدافعين عنه، حتى لقد قتل بعضهم مع من قتل من شيعته، ونعني هنا بالخصوص مقدم طائفة امحمد بن

أبي زيان القندوسي بفاس، الشيخ أبي الحسن علي القطبي(2)

---

(1) راجع تفاصيل هذه الأحداث في: المصدر نفسه، ج 5، ص. 307.

(2) فقد كان هذا الشيخ »... يخرج مع مولاي عبد الملك، لما كان محصوراً بفاس، للقتال، وكان ينادي بالصالحين، ويدعو الله عز وجل باللطف لعباده، فأصابته ثقيلة في صدره وتوفي« (راجع: م. مرزاق، الشيخ امحمد...، مرجع سابق، ص. 237. والنص منقول عن مخطوطة خاصة).

(1159/1)

، ونعني كذلك كبار مجاذيب فاس وبهاليلها (1)

---

(1) ممن قتل في هذا الحصار أيضاً الولي المجذوب المرابط أحمد التونسي (سلوة الأنفاس، ج 3، ص. 309) والوالي البهلول عبد المجيد التركي (المصدر نفسه، ج 3، صص, 305 ـ 309)؛ والولي المجذوب السالك العربي بن عيشون الشراط، وكان وزاني الطريق. وقد ذكر القادري أن هذا الأخير قتل خارج أسوار المدينة وأنه منع من الخروج »...أولاً خوفاً عليه، فقال إن لم تتركوني أخرج لتدخلن

على أولادكم العبيد، يشير إلى أنه المتصرف من الله في ردهم عن المدينة وأنه افتداهم برقبته « (م. القادري، نشر، ج 3، ص. 315؛ وراجع أيضاً: م. الكتاني، سلوة الأنفاس، ج 3، ص. 308). وفي الإطار نفسه يذكر أن العبيد جاءهم الأمر ليلة لاقتحام فاس، فبلغ الأمر إلى مولاي الطيب الوزاني بواسطة أحد رجال المخزن الموالين للمولى أحمد ويدعى صالح بن =

= صالح الأوديي، وكان من أصحاب أهل وزان، فسارع مولاي الطيب بإبلاغ الخبر لأهل فاس ليأخذوا حذرهم (م.القادري، نشر، ج 3، ص. 318؛ التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر...، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، مطبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1397 هـ، ص. 348).

(1160/1)

.

... ومن مشاهير أرباب الزوايا الذين نشطوا في الدفاع عن ملك مولاي عبد الملك الشيخ مولاي الطيب الوزاني، كبير دار الضمانة في وزان، منذ أن نمى إليه عزم العبيد على خلعه. ومما يذكر في هذا الصدد أن علماء فاس كتبوا في ذلك الشأن كتاباً للعبيد يعلمونهم بما في ذلك من المضرة بالمسلمين، وكلفوا مولاي الطيب الوزاني

بإقناعهم لصلاته بهم »... وتلمذ أكثرهم له، وانتساب رؤسائهم بخدمته «، فلم يبينوا له جلية الأمر. ثم أرسله الأمير مولاي عبد الملك نفسه »... إليهم فكلمهم عن الرجوع... ووعدهم الخير إن أقلعوا ونهاهم عن

الخروج عن السلطان... وخوفهم في ذلك من سخط الله، فما زادهم ذلك إلا نفوراً «(1). وقد أكد الناصري تحركات مولاي الطيب الوزاني، في هذا الاتجاه، ثم ختم حديثه بقوله:

... ولما تحقق المولى أبو مروان (عبد الملك) بما عزم عليه العبيد من خلعه، بعث إليهم الشيخ البركة مولاي الطيب

---

(1) م. بن الطيب القادري، نشر، ج 3، ص. 302؛ وراجع المصدر نفسه، ج 3، صص. 301 ـ 302؛ الناصري، الاستقصا، ج 7، ص. 121. ويفهم من الكلام السابق أن علماء فاس كان وراء عملية الاتصال بالشيخ الطيب الوزاني، مما يفيد تعاطفهم مع مولاي عبد الملك

بن محمد الوزاني، واعظاً ومذكراً، فأتاهم ووعظهم ووعدهم الخير إن أقلعوا، ونهاهم عن الخروج على السلطان، واتباع سبيل السلطان، وخوفهم في ذلك من سخط الله، فما زادهم إلا نفوراً (1).

... والظاهر أن تحركات شيوخ الزاوية الوزانية لم تقف عند هذا الحد، وإنما تعدته إلى المشاركة في العمليات العسكرية دفاعاً عن شرعية حكم مولاي عبد الملك، الأمر الذي عرضهم وعرض أتباعهم وزاويتهم للنكبة.

... وبيان ذلك أنه في خضم حصار العبيد والأوداية لمولاي عبد الملك بفاس، ورد:

---

(1) أحمد الناصري، الاستقصا، ج 7، ص. 121.

... خبر على العبيد باجتماع قبائل الغرب على دعوة مولاي عبد الملك ومحاربة العبيد، فجردوا لهم خيلاً سارت إليهم فالتقوا قرب وادي إيناون فاقتتلوا، فانهزمت قبائل الغرب (...) وشدد العبيد حينئذ في التضييق والحصار على فاس، وكثرة رمي الكور عليها بالأنفاض (...) فتجلد أهل فاس (...) وضبطوا العسة والحراسة (...)،

وأهل المسكنة لا يستطيعون دفعاً ولا منعاً سوى توجههم لله تعالى في اللطف والنجاة. ثم إن قبائل الغرب أعادت الجمع... .

(1164/1)

لكنه انهزمت ثانية أمام العبيد، وتفرقوا«(1).

... (...) ولم يتبع العبيد إلا سفيان لكثرة حقدهم عليهم، حتى أدركوا حلتهم بالزيتون المطروح، فأوقعوا بهم وقعة عظيمة من القتل والسبي والوثوب على النساء والأبكار بالوطء والفضيحة، ولم يكفوا السلاح لا عن الأطفال ولا عن الكلاب. فلجؤوا لحرم وزان ظناً منهم أن يتركوهم حيث استحرموا به ويمتنعون، فلم يستحرموه ولم ينفعهم شيئاً، واستأصلوا بقيتهم، ونهبوا ديارهم وديار الشرفاء

---

(1) محمد القادري، التقاط...، مصدر سابق، صص. 346 ـ 348؛ وراجع: نشر...، ج 3، صص. 317 ـ 318.

(1165/1)

أهل الحرم، ولم يجيروا من استجار بالروضات وغيرها.

وكانت هذه الوقعة بوزان على الناس من أعظم المصائب، وذلك في 25 صفر 1141 هـ(1).

... والمهم في الأمر أن العبيد والأوداية لم يكونوا راضين عن إصلاحات مولاي عبد الملك وأنصاره، فسارعوا إلى إجهاضها(2). وقد وجدوا في مكناس من يؤازرهم من أنصار التيار المحافظ في

---

(1) نشر، ج 3، ص. 318.

(2) ... وقد كتب ابن زيدان في هذا الصدد: »لما تحقق عبيد مشرع الرملة بذلك، خافوا سطوته لما يعلمونه من شهامته فأجمعوا أمرهم«، ونهضوا لحربه (إتحاف...، مصدر سابق، ج 5، ص. 307).

إدارة وقصر السلطان مولاي إسماعيل(1)

---

(1) ... وقد شخص ابن زيدان هذه المؤازرة، كالتالي: »لم يشعر المترجم حتى دهمه العبيد، وكانوا سبعين ألف مقاتل، فجمع أتباعه، ومن كان داخل ديوان العسكر من

الأحرار الوافدين عليه، وخرج لقتالهم بظاهر العاصمة المكناسية، وأمر بغلق جميع أبواب المدينة، ومع قلة جيشه إذ كان لم يبلغ عشرة آلاف مقاتل ووفور جيش العبيد فقد قاتلهم قتالاً لم يعهد له مثيل بالبلاد المغربية يقال إنه مات في هذه الواقعة ما يزيد على ثلاثين ألفاً، وكانت النصرة لمولاي عبد الملك على العبيد، ولكن ـ بكل أسى وأسف ـ أن بعض زوجات والده أمرت بفتح أبواب البلد فامتثل أمرها. ولما فتحت الأبواب، دخل العبيد القصبة المولوية وعمروها ولا علم للمترجم بذلك ولما اتصل به الخبر، فر إلى فاس«. (إتحاف، مصدر سابق، ج 5، ص. 307).

(1/1167)

، كما وجدوا من يعاضدهم من أنصار التيار نفسه في فاس الجديد ودار الخلافة به(1)، مما يعني أن التيار المحافظ كان ما يزال مالكاً لزمام الأمور، حتى إن كثيراً من الناس كانوا يرون في مساندة تيار الإصلاح مغامرة خطيرة. ويظهر ذلك في اضطرار متطوعة سوس إلى الانسحاب من الصراع(2)

---

(1) تمثل ذلك في إغلاق جيش الودايا الذين بفاس

الجديد أبواب البلد في وجه مولاي عبد الملك، ثم اختلاف أهل فاس الإدريسية في نصرته، لما توجه إليهم.

(إتحاف...، مصدر سابق، ج 5، ص. 307).

(2) لقد أشار القادري في خضم روايته لأحداث الصراع سنة 1141 هـ، إلى هذا المعنى، فقال: »أرسل الأوداية (من فاس) صارختهم للعبيد، فجاءوا مسرعين، ومعهم السلطان مولانا أحمد الذهبي ابن إسماعيل... وهم لا يشكون في دخولهم فاس، وعبثهم بأهلها، كما فعوا بمكناسة. ففر أهل سوس الذين جاءوا مع مولاي عبد الملك من سوس، إذ علموا أن لا طاقة لهم بالعبيد الذين جاءوا بمولاي أحمد، فأدرك العبيد البعض من أهل سوس على وادي سبو، فنهبوا لهم كثيراً من أموالهم وبعض العيال... «. (نشر، مصدر سابق، ج 3، ص. 316).

(1168/1)

، ثم اضطرار بعض علماء فاس وأهلها، بعد أن »انقطع من يقوم بدعوة مولانا عبد الملك« إلى التفاوض مع العبيد، أملاً في الحفاظ على حياة أميرهم مولاي عبد الملك(1)

---

(1) حدث، في خضم النزاع، اختلاف في وجهات نظر علماء فاس. فبعضهم رأى أنه لا يحل الخروج عن طاعة مولاي عبد

الملك، وفي مقدمتهم الشيخ محمد ميارة الصغير، والإمام أبو محمد عبد السلام بناني، والمحرر محمد بن زكري. بينما خالفهم أحمد بن مبارك اللمطي قائلاً بوجوب إخراجه بحجة عدم قدرتهم على مقاومة أخيه. وعلى هذا الرأي اجتمعت في الأخير كلمة أهل فاس (راجع سليمان الحوات، الروضة، مصدر سابق، صص. 231 ـ 232).هكذا يجب أن يفهم موقف الفقيه اللمطي ومن نحا نحوه وليس بكونه موالياً للمولى أحمد، كما اعتقد البعض. (التقاط...، مصدر سابق، ج 2، ص. 393؛ وراجع أيضاً: محمد القادري، نشر، مصدر سابق، ج 3، ص. 320؛ التقاط...، مصدر سابق، ص. 349).

(1169/1)

.

... ويؤكد هذا كله أن القوة العسكرية النظامية(1)

---

(1) ولا يعني هذا أن المولى أحمد لم يجد بين الصوفية من ينصره، لكن من نصره منهم كانت مصلحته في ذلك ذاتية. إذ المشهور أن المولى أحمد وجد بعد بيعة منافسه الملجأ في زاوية سعيد أحنصال من أيت عطا، وأنه ظل بها لاجئاً إلى أن أعاد العبيد بيعته يوم عيد

الأضحى سنة 1140 هـ؛ بل ذهب القادري إلى القول بأن يوسف بن سعيد أحنصال، شيخ الزاوية الحنصالية، زمنئذ، صحبه القدوم إلى مكناس، على رأس قوات هامة من بربر أيت عطا. (راجع: محمد القادري، نشر، مصدر سابق، ج 3، صص. 301 ـ 302، المؤلف نفسه، التقاط...، مصدر سابق، ص. 346؛ Magali Morsy, « Réflexions sur le discours historique à travers l'examen d'un document sur le Maroc au milieu du XVIII siècle », Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N° 20, 2ème semestre, 1975, p. 69).

... ... =

= ... ونقصد بالمصلحة الذاتية هنا تورط شيخ الزاوية الحنصالية مع أتباعه من قبائل البربر، الذين كانوا يبحثون، من خلال تأييدهم للمولى أحمد، عن الانتقال إلى السهول. وفي هذا الصدد، نشير إلى أن الناصري لمح إلى أمر هام، اعتبره من أسباب فشل حركته، وهو التفريق بين البربر والعبيد، وبين أهل فاس والبربر، وتأليب بعضهم على بعض.(الا ستقصا، مصدر سابق، ج 7، ص. 120). وهذا الأمر إن صح، فهو خطأ استراتيجي. إنما الأكيد أن صلة مولاي أحمد بالعبيد كانت أكثر وضوحاً، من صلة أخيه، وأن تقديم القبائل البربرية والعربية على العبيد عند مولاي عبد الملك كانت أكثر وضوحاً.

ظلت تمسك بزمام الأمور بقوة، إن لم نقل إن دورها في تغليب كفة السلطان مولاي أحمد زاد من تدعيم نفوذها على حساب الجهاز الإداري(1)، مما جعل الإدارة في عهده عسكرية أكثر مما كان عليه الحال زمن والده، وجعل التوازن الذي طالما حرص مولاي إسماعيل على تثبيته بين كفتي الجهاز البيروقراطي والجهاز العسكري، يميل لصالح هذا الأخير. وقد ظهر طغيان السلوك العسكري في الصورة

---

(1) يذكر أن المولى أحمد أهلك رجال الدولة القائمين بأمورها أيام والده، »وكان ذلك منتهى مراد العبيد... « (راجع: الاستقصا، مصدر سابق، ج 7، ص. 117).

العنيفة التي تخلص بها العبيد من مولاي عبد الملك، وكأنهم يقتلون فيه كل تفكير، وكل من يفكر في التغيير.

... ولهول الموقف وشدة الجبروت، لجأ أنصار مولاي عبد

الملك، من عامة الناس وأهل الدين المتين، إلى المتخيل، تخفيفاً منهم على أنفسهم من هول الصدمة، وضياع ناصر الحق. وهكذا، ليس غريباً إذا »... صرح بعض المتفقرة ممن له صيت وأتباع بأنه حي، وأنه يعود للإمارة(1)، ويملك المغرب ويملأه عدلاً«(2). وليس

---

(1) محمد القادري، التقاط الدرر...، مصدر سابق، ص. 350.

(2) محمد القادري، نشر...، مصدر سابق، ج 4، ص. 212.

(1172/1)

غريباً إذا »بقي كثير من الناس من يكذب بموته، وقوم يعتقدون حياته، وأنه سيجتمع عليه جيش ويظهر، وربما باع بعضهم متاعه إلى أجل ظهوره ويخلصه المشتري فيه أجلاً منصرماً«(1). وليس غريباً أيضاً أن يناصروا من حذا حذوه من الأمراء.

II ـ تجربة مولاي عبد الله الإصلاحية

... لما كان »المولى عبد الملك منحاشاً إلى أخيه المولى عبد الملك« (2)، لقي تعيينه ـ على إثر هلاك أخويه: مولاي أحمد ومولاي عبد الملك في أوائل شهر شعبان 1141

---

(1) المصدر نفسه، ج 3، ص. 321.

(2) أحمد الناصري، الاستقصا...، مصدر سابق، ج 7، ص. 125.

هـ/ 1728 م. الترحيب من لدن أنصار مولاي عبد الملك ولعلنا نجد في ديباجة نص البيعة التي رفعها إليه »أهل فاس« تفسيراً لذلك الترحيب، لأن أهم ما نصت عليه هو شهرة الأمير الجديد بنصرة الحق والعدل(1)

---

(1) ومما جاء في الديباجة: »الحمد لله الذي جعل العدل صلاحاً للملك والرعية والعباد، كما جعل الجور هلاكاً للحرث والماشية والبلاد، وسدد العادل بعنايته وأعد للجائز ما هو معلوم له يوم المعاد وجعل المقسطين على منابر من نور يوم القيامة كما جعل القاسطين في العذاب والحسرات والأنكاد، فأسعد الملوك يوم القيامة من سلك مع الرعية سبيل السداد وأصلح ما أظهره الجائر من الفساد، نحمده أن تفضل علينا بإمام عادل ونشكره أن حكم فينا من لا يصغي في الحق لقول عادل... « (راجع نص البيعة كاملاً عند: الناصري، الاستقصا...، مصدر سابق، ج 7، ص. 126 ـ 128).

.

... وقد جاءت هذه الديباجة شبيهة، من حيث مضمونها، بالرسائل التي بعث بها الشيخ محمد بن بوزيان القندوسي، إلى مولاي عبد الله(1)، علماً أن هذا الولي الصوفي كان من الأنصار الأقوياء لمولاي عبد الملك وإننا نملك من تلك الرسائل نموذجاً هاماً هو عبارة عن رسالة بعث بها لقائد فاس زمنئذ محمد بن علي بن يشي(2)

(1) محمد مرزاق، الشيخ امحمد...، مصدر سابق، ص. 244 ـ 245.

(2) وصف هذا القائد في الإتحاف بأنه: »كان حسن الأخلاق يوقر الأشراف والعلماء وأبناء الصالحين... إلا أنه كان فظاً غليظاً على التجار لا يقبل منهم عذراً«. (ابن زيدان، ج 4، ص. 403). وهذا القائد هو الذي جدد ضريح الشيخ المجذوب امباركاعبابو المتوفى عام 1025 هـ/ 1616 م. (سلوة الأنفاس...، مصدر سابق، ج 3، ص. 113).

جاء فيها:

... إنا لك من الناصحين. فاستوص خيراً بالخاصة والعامة من المسلمين، وسدد ما بينهم وبين السلطان نصره الله، واحفظ لواء العدل بين يديه، والتمس بالناس من المعاذير، واضرب التأويل في بساطه، فإن جنح للسلم فاجنح إليه؛ وإن مال إلى الانتقام، فابسط أكف الضراعة إلى الله أن يرد مأمنه برحمة ينشر لواءها بين أيديهم حتى يؤدي مراده برفق حسبما تقدم بواسطتكم؛ وإن صلحت نيتكم، فدعوة النبي السابقة تحيطكم وتصونكم وتنصركم وتقيكم، وينشر لواء العافية والستر. نسأل الله سبحانه أن يصلح حالك، ويسدد قولك وفعلك،

(1176/1)

ويجعل بينك وبين الفتنة المعروضة لمن يتعاطى تلك الخطط حجاباً مستوراً، ويمد عليه وعلى إخوانك وقبيلتك من رحمته لواء منشوراً في إيالة المظفر بالله السلطان مولاي عبد الله أعزه الله وأعز جنوده ونصره وأيده وأكبت عدوه وحسوده، وأدام خيراته على الأنام في ظل عدله وأنالهم من فضله ومدده وبذله بمنه. آمين...(1).

... ويذكر عن ابن أبي زيان هذا أنه أرسل ابنه من القنادسة إلى مكناس، فتلقاه السلطان مولاي عبد الله بالبشاشة والحبور.

---

(1) راجع نصها الكامل عند: الشيخ امحمد بن أبي زيان مرزاق، مصدر سابق، صص. 309 ـ 311.

(1177/1)

»... ولما أراد أن يشيعه، أعطاه حتى أرضاه من الحوائج والكتب، وأعطاه مائتي مثقال ذهباً، وبعث كتابه إلى الشيخ، وطلب عليه كل ما في خاطره، فدعا له الشيخ «(1).

... ومن ثم، فبالرغم مما اشتهر به مولاي عبد الله من شدة في إخماد الفتن، وإسرافه في قتل زعماء العبيد والأوداية(2)، »... كان أهل الجانب العظيم كالأشراف والمرابطين والعلماء في أقوى منعة وأعز رفعة، ولم يخرق على أحد في ذلك عادة «(3)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 244.

(2) أحمد الناصري، الاستقصا...، مصدر سابق، ج 7، ص. 132 ـ 136.

(3) محمد القادري، نشر...، مصدر سابق، ج 3، ص. 335؛ التقاط...، مصدر سابق، ص. 354.

طيلة مدة ولايته الأولى بين 1141 و 1147 هـ اكتساحهم سهول تادلا(1)

---

(1) هذا، والجدير بالإشارة في موضوع أيت عطا والحنصاليين أن مواجهتهم مع السلطان المولى عبد الله جاءت في أعقاب غزوته لأيت يمور في وادي العبيد لإرغامهم على التزام مواقعهم في الجبال، مما يعني أن الأمر يتعلق بقضية انزياح القبائل نحو السهول، أي أن الاصطدام مع الحنصاليين جاء في أعقاب قيادتهم لأتباعهم في زحفهم نحو سهول تادلا، وضغوطهم على القبائل الفاصلة بين مضاربهم وتلك البسائط وهذا أمر تؤكده المصادر، ولا سيما مصادر الطائفة الناصرية التي تأثرت زواياها الواقعة في دير تادلا من زحف العطاويين، بتغريمهم لها، كزاوية أيت خليفت وأيت وزود وويزغت. (الدرة الجليلة، مصدر سابق، ص. 268؛ مقدمة الدرة الجليلة، ص. 21). بل يخيل إلينا أن إيواء الحنصاليين ونصرتهم للمولى أحمد في حربه مع أخيه

المولى عبد الملك تدخل في هذا السياق أيضاً، وأن تحرك أيت عطا قد تم فعلاً لما كان الأمير المذكور لاجئاً بالزاوية الحنصالية، خصوصاً وأن تحرك أيت عطا يؤرخ لبدايته بعام 1699 م. (م. الخليفتي، الدرة الجليلة...، مصدر سابق، ص. 268؛ عبد الله حمودي، » الانقسامية والتراتب الاجتماعي والسلطة السياسية والقداسة...«، ضمن كتاب: الأنثربولوجيا والتاريخ، ترجمة عبد الواحد الفلق وعبد الأحد السبتي، توبقال، البيضاء، 1981 م، ص. 75 ـ 85). =

... ...

= ... غير أن بعض الباحثين دفعوا في تفسيرهم للتحالف الحنصالي العطاوي إلى أبعد من مجرد إيجاد منتجع في السهل والخروج من سهوب الأطلس التي ظلوا بها محاصرين طيلة العهد الإسماعيلي، فاعتبره بعضهم ثورة شعبية، ومغامرة سياسية (M. Morsy, La Zaouia d'Ahançal..., op.cit., pp. 14–15, 20–23)، وافترض بعضهم الآخر وجود هاجس السيطرة على الحكم (م. ظريف، مؤسسة السلطان...، مصدر سابق، ص. 94) وإحياء المشروع السياسي الدلائي في الأطلس (M. Morsy, op. cit., p. 32؛ G. Drague, Esquisse..., p. 210؛ عبد الله حمودي، الانقسامية...، مصدر سابق، ص. 80 ـ 82).

... لكن يبدو أن هذا الرأي فيه كثير من المجازفة لأسباب عدة، أولها عدم وجود وحدة في الجبهة البربرية. ويؤكد ذلك مشاركة أيت عتاب، وتحالف أيت إدراسن، مع السلطان المولى عبد الله كغيرها من القبائل التي تعرضت للضغط العطاوي في مواجهة الزاحفين نحو السهل (راجع مثلاً: م. الخليفتي، الدرة...، مصدر سابق، ص. 268؛ M. Morsy, La Zaouia..., op. cit., pp. 10–11؛ ع. حمودي، الانقسامية...، مصدر سابق، ص. 85)؛ كما أن الحضور المخزني كان لا يزال قائماً، ليس في فشتالة وحسب، بل من خلال الحزام البشري المرتبط بالقصبات الإسماعيلية والأرض التي انشروا فيها (أيت الربع)، الأمر الذي استنزف قوات الحنصاليين في الجبل قبل النزول إلى السهل. فالمخزن لم يكن سنة 1144 هـ/ 1731 م، قد فقد كل مقوماته، بل كان لا يزال للعبيد السطوة أمام السلاطين أنفسهم.

(1/1179)

، وهو أمر لم يوافق الشيخ أحنصال عليه الصلحاء أنفسهم(1). وفي الصدد نفسه، »حكي أن السلطان قال حين قتله: أردت أن لا أقتلك، يعني لأنه كان منتسباً للصلاح، لكن خفت أدع قتلك أن يقال إن جنونك غلبوني،

لأن أحنصال كان يخالطه الحدثان« (2). وقد علق القادري في نهاية حديثه عن أحداث السنة التي قتل فيها أحنصال وانتهائه من رواية حكاية إعدامه

---

(1) م. المعداني، الروض اليانع الفائح في مناقب الشيخ أبي عبد الله محمد المدعو الصالح، م. خ. ع، الرباط، رقم 1835 ك، ص. 149.

(2) محمد القادري، التقاط...، مصدر سابق، ص. 358.

(1180/1)

قائلاً: وفيها »تمهد الغرب للسلطان غاية«(1)

---

(1) المصدر نفسه. وتجدر الإشارة إلى أن بعض الباحثين ذهب إلى القول إن مولاي الطيب الوزاني وقف ضد بيعة المولى عبد الله في أول الأمر، وربط صلة وثيقة بثورة باشا طنجة. أحمد الريفي، ضد هذا السلطان. ومن أجل ذلك، جاء مولاي الطيب إلى طنجة. فكانت فرصة لتأسيس فرع بها لزاويته. (ع. الرحموني عجولو، الزاوية الدرقاوية بطنجة، رسالة جامعية في الدراسات الإسلامية، 1412 هـ، مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط، ص. 381)؛ إنما الأكيد أن الباشا أحمد الريفي نفسه، ووراءه أهل الريف

بشرقه وغربه، بايع المولى عبد الله في أول الأمر، وهو الذي أخضع المناطق الشمالية عام 1143 هـ/ 1731 م، وجعلها تحت طاعة هذا السلطان، ولم تحدث النفرة بينهما إلا عام 1144 هـ أو 1145 هـ/ 1732 م، عندما نكب السلطان وفداً من أصحاب الباشا المذكور. ومن ثم، سيعلن هذا الخير استقلاله بنفسه في بلاد غمارة وطنجة والقصر والفحص وبلاد الريف وما لها إلى حدود كرسيف. (راجع: الاستقصا...، مصدر سابق، ج 7، ص. 134؛ عبد الرحمن الطيبي، المجتمع في منطقة الريف، رسالة جامعية في التاريخ، مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط، صص. 98 ـ 100، 388).

(1/1181)

.

... ويفهم من أخبار أخرى أن مولاي عبد الله ظل ملتزماً باحترام الشرفاء والطلبة وشيوخ الزوايا، مقدماً إياهم على غيرهم، حتى صاروا يعرفون بشيعته. كما أنه ظل دائماً ميالاً إلى التقليل من هيمنة العبيد، إلى حد قال المؤرخون بأن ثورة العبيد على مولاي عبد الله في ربيع الثاني 1147 هـ ترجع إلى ما قام به من اغتيالات في صفوفهم وإرسالهم إلى المهالك(1). ويفيد هذا في القول

بأن مولاي عبد الله تابع سياسة أخيه مولاي عبد الملك في تفضيل قوى

---

(1) راجع عن هذه المعطيات: محمد القادري، نشر...، مصدر سابق، ج 3، ص. 370.

(1182/1)

»المجتمع المدني«، على العسكر في تسيير الشأن العام. ويفسر هذا الأمر المساندة التي كان يلقاها من طرف القبائل، كلما اضطر المخزن إلى إعادة بيعته، كما حصل في بيعته الثانية خلفاً لأخيه مولاي علي، والثالثة خلفاً لأخيه مولاي محمد بن عربية.

... وقد عبر محمد بن الطيب القادري عن ذلك في مناسبتين، الأولى بمناسبة حديثه عن بيعة مولاي عبد الله الثانية، في أعقاب إطاحة العبيد والأوداية بمولاي علي سنة 1148 هـ/ 1735 م، فقال بأن المغرب انقسم إلى فرقتين: »... فرقة فرحت غاية الفرح... «، لأن الأحكام لم تمض »... لمولاي

(1183/1)

علي دون أمر العبيد... وهذه الفرقة هي الشرفاء والمرابطون والطلبة والفقراء الضعفاء الذين لم تلزمهم وظيفة المغارم«(1). أما المناسبة الثانية التي عبر فيها القادري عن فرح المرابطين، وأمثالهم، بعودة مولاي عبد الله للحكم، فكانت بمناسبة حديثه عن الإطاحة بحكم مولاي محمد بن عربية(2).

---

(1) المصدر نفسه، ج 3، صص. 379 ـ 380. وراجع عن تعسف مولاي علي، والعبيد في أيامه، على الشرفاء، ورفضه شفاعة الأولياء، في المصدر نفسه، صص. 370 ـ 373.

(2) المصدر نفسه، ج 4، ص. 15.

... ويرتبط فرح فئات »المجتمع المدني« بما نالها من الأميرين المطاح بهما من نكبات، حتى قالوا عن مولاي علي بأنه أخرج مقدم الوزانيين، الشيخ عبد الرحمن بن الحسن اليازغي من قبره ودفنه خارج المدينة محتجاً بأن الدفن بين دور السكنى، والبناء على القبور بدعة، وكان دفن بحومة جناح الأمان قرب الزاوية الوزانية(1)، وقالوا بأنه أجلى الشيخ المعطي بن الصالح من زاويته في

أبي الجعد(2). ولذلك كان طبيعياً أن يقابله الصوفية

---

(1) المصدر نفسه، ص. 242.

(2) أ. بوكاري، الزاوية الشرقاوية...، مصدر سابق، ج 2، ص. 144.

بالكراهية، كما تشير إلى ذلك رواية طريفة كتبها الضعيف بمناسبة حديثه عن يوم خروج أهل فاس للقاء مولاي علي بعد بيعته سنة 1147 هـ، يقول فيها:

... ... فكان ذلك اليوم الولي الصالح سيدي بودفنا [أو بوفدنا] نفع الله به حاضراً فلما سمع أهل فاس يقولون: الله ينصر مولاي علي بن مولانا إسماعيل، جعل يبرح فيهم ويقول: الله ينصر اخناثا بنت بكار ويكررها، ثم يقول: الله ينصر عبد الله بن إسماعيل ويكررها... وأهل فاس تسمع والسلطان مولاي علي يسمع، ولا وجد أحد له سبيلا... (1).

---

(1) تاريخ الضعيف، ج 1، ص. 209.

... وكان الأمير مولاي محمد بن عربية أكثر قسوة من أخيه مولاي علي، على أنصار أخيهما مولاي عبد الله. نقول هذا الكلام ولنا عليه حجج، منها قول القادري بأنه أنزل بمرابطي فاس »... من الظلم والجور وضروب الإهانة التي لم تجر عليهم أصلاً، لا من إخوانه، ولا من أبيه... وكذلك غالب أشراف المغرب وفقهائهم وزواياهم«(1). وكتب الضعيف، من جهته، أن السلطان مولاي محمد بن

(1) نشر...، مصدر سابق، ج 4، ص. 15؛ راجع أيضاً: س. الحوات، الروضة...، مصدر سابق، ص. 671؛ ع. المراكشي، الإعلام...، مصدر سابق، ج 7، صص. 258 ـ 259.

عربية »قبض... على كثير من الناس، وفرض عليهم الأموال الثقيلة، ونهب ديارهم وأموالهم...، ونكب الشرفاء والعلماء والمرابطين والزوايا، وغيرهم من أهل النسبة، وألزمهم بإغرام الأموال« (1). ولما عدد الضعيف وزراء هذا السلطان، علق قائلاً: »... وهم الذين كانوا يهتكون الحرمات، ومسلطون على أهل الزوايا، فكان ذلك دأبهم أيام تلك المدة«(2)، على نحو ما فعل أخوه وعامله

على تافيلالت المولى سليمان، الذي كتب عنه صاحب النشر قائلاً: »وأخبر عنه من يثق

---

(1) تاريخ الضعيف، مصدر سابق، ج 1، ص. 216.

(2) المصدر نفسه، ص. 224.

(1188/1)

به من أهل تازا أنه كان قد كسر الحرمات على الزوايا من أهل الجانب الرباني، وأخذهم، ونهب أموالهم، وقتل ...، وكان أظلم من أخيه« مولاي محمد بن عربية(1). وكتب الناصري، من جهته، ما يشبه ذلك، وقال إن هذا السلطان »تسلط على أهل الزوايا، وكل من ذكر له أنه من أهل اليسار« (2). ثم علق قائلاً: »وبالجملة، فقد كانت أيام المولى محمد بن عربية هذا أيام نحس ووبال على المسلمين، وكذا أيام أخيه المولى علي«(3)

---

(1) محمد القادري، نشر...، مصدر سابق، ج 3، ص. 407.

(2) الاستقصا...، مرجع سابق، ج 7، ص. 145.

(3) المصدر نفسه.

(1189/1)

.

... ولا يعني الناصري بذلك تعدد الأحزاب والطوائف وتقاتل أنصارها(1)، وحسب، بل يشير إلى ما حل بالبلاد من يبس، ومجاعة، وطواعين مهلكة، بلغت حدتها في موسم 1149 هـ/ 1150 هـ(2)

---

(1) راجع عن تلك الأحزاب: محمد القادري، نشر...، مصدر سابق، ج 3، صص. 405 ـ 408؛ أحمد الناصري، الاستقصا...، مصدر سابق، ج 7، صص. 151 ـ 154.

(2) سبق للناصري أن لخصها في حديثه عن سنة 1149 هـ/ 1736 م، حيث يقول: »وفي هذه السنة... قويت الفتن وارتفعت الأسعار وانحبست الأمطار وقاسى الناس الشدائد من الغلاء وقل الإدام وانقطع اللحم وهلكت رقاب كثيرة، ولم يزل الأمر في شدة وفر الناس كل فرار«. (الاستقصا...، مصدر سابق، ج 7، ص. 140), ولما تكلم عن السنة الموالية (1150 هـ)، قال: »وفي هذه السنة هزم جيش الثائرين على مولاي عبد الله يعني العبيد هزيمة عظيمة بعد أن صدر منهم فساد كبير، وذلك على يد البربر، وارتفعت الأسعار جداً وجعل اللصوص يهجمون على الناس في دورهم ليلاً ويقتلونهم وهم يستغيثون فلا يغاثون وبلغ الخوف إلى أبواب الدور المتطرفة بفاس... وكثر الهدم في الدُّور لأخذ خشبها وكثر الخراب وخلت

الحارات، فتجد الدرب مشتملاً على عشرين داراً وأكثر وكلها خالية «. (المصدر نفسه، ج 7، ص. 146). ومعلوم أيضاً أن عام 1150 هـ يوافق ما يسمى في المصادر بعام »المجاعة الكبرى« (راجع مثلاً: العباس المراكشي، الإعلام...، مصدر سابق، ج 6، ص. 62). ولم تنفك الأوضاع تزداد تعقيداً، خصوصاً بعد أن حل الوباء بالبلاد سنة 1163 هـ/ 1749 م (المصدر نفسه، ص. 61).

(1190/1)

، ثم في عام 1163 هـ/ 1749 م(1).

... وكان أهم ما ميز هذه الفترة أيضاً تضرر قوة العسكر الإسماعيلي من كثرة المواجهات(2)، وحدوث الانشقاق في صفوفهم(3)

---

(1) العباس المراكشي، الإعلام...، مصدر سابق، ج 6، ص. 61.

(2) كما حدث عام 1150 هـ، استناداً إلى قول الناصري، في حديثه عن وقائع هذه السنة: »وفي هذه السنة هزم جيش الثائرين على مولاي عبد الله يعني العبيد هزيمة عظيمة بعد أن صدر منهم فساد كبير، وذلك على يد البربر «. (أحمد الناصري، الاستقصا...، مصدر سابق، ج 7،

ص. 146).

(3) راجع: محمد القادري، نشر...، مصدر سابق، ج 3، صص. 393 ـ 394.

، وكذا تضرر الزوايا وغيرها من المؤسسات التي ناصرت تيار الإصلاح(1)

---

(1) المصدر نفسه، ج 4، صص. 240 ـ 244 ـ 251 ـ 262؛ س. الحوات، الروضة...، مصدر سابق، ص. 511؛ الضعيف، تاريخ...، مصدر سابق، ج 1، صص. 246 ـ 254 ـ 284 ـ 285. ومما يذكر في هذا الصدد أن الباشا أحمد الريفي، في حربه لمولاي عبد الله عام 1156 هـ/ 1743 م، وفي طريقه إلى فاس، قضى حوالي شهر من الزمن بوزان محاصراً بالأمطار »... فكانت شرفاء وزان يدفعون له الطعام والعلف والشمع والغنم وغير ذلك.. وكان في يوم الصحو يركب لصيد الخنزير، وتأتيه اجبالة باللقاق والرماة والسلاق إلى أن عزم على النهوض من مصمودة، فارتحل، ونهض معه مولاي الطيب ذلك اليوم، ونزل الخميس [هوف] وفيه بات، وبات معه مولاي الطيب. وفي الغد لما أراد القيام أتوا له بفرسه ليركب عليه، فلما أراد أن

يركب قبض له الركاب مولانا الطيب إلى أن ركب«.

(تاريخ الضعيف، مصدر سابق، ج 1، ص. 253). فهل كان مولاي الطيب مخلصاً في موقفه، أم خشية جبروت الباشا الريفي؟

... نسجل في هذا الصدد أن هذا الشيخ رفض أن يشهد لأحمد بن علي الريفي بأنه شريف، عكس »العلماء من أهل تطوان والفقهاء ومن القصر والعرائش وطنجة وشفشاون... فاغتاظ من ذلك، وبعث لأهل الريف على أن يغيروا على عزبان الشرفاء (الوزانيين) وضيق بهم وبأصحابهم، وكان ينزع لهم الخيل كرهاً وتمادى عليهم وصار يقبض من أصحابهم الخراج«. (تاريخ الضعيف، مصدر سابق، ج 1، ص. 251).

(1192/1)

، ولا سيما في المناطق التي تمركز حولها الصراع العسكري، وخصوصاً في مكناس وفاس وما والاهما. كما وقعت بينهم وبين مولاي عبد الله، بسبب اختلاف المواقف، أحياناً، بعض الخلافات التي كان يستغلها خصوم هذا الأمير(1)

---

(1) مما نمثل به في هذا الصدد عن الحاجة إلى الأولياء في

هذه الفترة، الدور الذي قام به مولاي الطيب الوزاني. فقد كان هذا الأخير مناصراً للأخوين المولى عبد الملك ثم المولى عبد الله، على غرار أمثاله من شيوخ الزوايا. لكنه تحول إلى نصرة المولى المستضيء، وحليفه الباشا أحمد بن علي الريفي. ومرد هذا التحول إلى سيادة قوات الباشا الريفي في منطقة وزان. لكن لما انهزم الحليفان وظهرت قوات المولى عبد الله بقبيلة بني مزكلدة غير بعيد عن وزان، لم يتردد مولاي الطيب في اللحاق به لتقديم الاعتذار. (تاريخ الضعيف...، مصدر سابق، ج 1، ص. 253 ـ 254؛ تاريخ تطوان، مصدر سابق، م 2، قسم 2، ص. 218 ـ 221 ـ 231؛ G. Drague, Esquiss, op. cit., 230p.).

... والأكيد أن مولاي الطيب كان يعلم أن المولى عبد الله في أمس الحاجة لمساعدة الزوايا الوزانية. وصدقت فراسته، حيث سارع المولى عبد الله، بعد اعتذار شيخ زاوية وزان، وبعث »قائده الباشا بوسلهام الغرباوي الحمادي ومعه سبعة من الثيران وذبحها على سادات وزان وصار يعظمهم ويحترمهم«. (المصدر نفسه، ص. 224).

... كما وقفنا على مجموعة من الظهائر التي خص بها المولى عبد الله أرباب الزوايا في عصره، والتي تفيد التقدير والاحترام والإنعام، كما فعل مع الشيخ عبد الله

بن محمد بن إبراهيم التملي التاسكدلتي وإخوانه، أهل زاويته بتسكدلت في السوس بتاريخ 10 رجب 1150 هـ (نصه في المعسول، ج 6، ص. 164) وآل عبد الله بن سعيد السملالي التهالي، دفين وادي إيمور بالسوس أيضاً (المصدر نفسه، ج 1، صص. 112 ـ 113) والشيخ محمد بن أحمد التاكشوتي، نزيل تاكوش بأيت صواب في = = ... السوس كذلك، بتاريخ 1154 (المصدر نفسه، ج 8، ص. 75) وأولاد محمد بوسنة ببلاد أحمر (راجع نص الظهير، وهو مؤرخ بعام 1156 هـ، عند محمد ماكامان، مادة «بوسنة»، معلمة المغرب، مجلد 5، ص. 1723)، وآل أمغار في تامصلوحت وحوز مراكش بمقتضى ظهير يعفيهم من الكلف، ويبيح لهم ولأتباعهم التصرف في الزكوات والأعشار، وذلك بتاريخ 20 ذي الحجة 1161 هـ (لدينا نسخة منه)، مثلهم في ذلك مثل إخوانهم في زاوية حصن سايس بدكالة (راجع نص الظهير عند الكانوني، جواهر الكمال في تراجم الرجال، المطبعة العربية، البيضاء، 1356 هـ، ج 1، ص. 130)، وآل أبي محمد صالح بأسفي (لدينا نسخ من الظهائر التي خصهم بها بتاريخ 1146 و1149 و1157 و1168) وأولاد ابن ناجي بعبدة (نصه عند الكانوني، جواهر، ج 1، ص. 105) وأولاد ابن يفو بعبدة أيضاً (لدينا نسخة من ظهير مؤرخ في عام 1150 هـ) وأولاد عمرو القسطلي بمراكش (نصه عند: حسن جلاب،

»ظهائر علوية لرعاية الزاوية البوعمرية بمراكش«، دعوة الحق، العدد 278، شعبان 1410 هـ/ مارس 1990 م، ص. 242، وهو بتاريخ 18 ذي القعدة 1149) والحموميين بقبيلة بني زروال (البشير الفاسي، قبيلة بني زروال، مطبوعات إفريقيا الشمالية التقنية، الرباط، 1324 هـ، ص. 52).

(1193/1)

. لكن هواهم، وهوى أمثالهم من الشرفاء والطلبة وعامة الناس وأهل اليسار والجنود الأحرار، وغيرهم، ظل يميل إلى مولاي عبد الله، حتى إذا توفي هذا الأخير، تقدمت جنازته »... جميع طوائف متفقرة فاس، كل طائفة يتداولون أذكارهم المعتادة لهم في ذلك، إلى أن أوصلوه إلى قبره «(1). ويحظى ضريحه الواقع في فاس الجديد، إلى الآن، بقداسة كبيرة، إلى حد يعتبره البعض ولياً أكثر منه سلطاناً.

... ويتيح لنا هذا العرض تسجيل استنتاجين هامين:

---

(1) محمد القادر، نشر...، مصدر سابق، ج 4، ص. 123.

(1194/1)

... .الأول منهما مؤداه أن مبادرة الإصلاح جاءت من القصر، بل لقد أدى بعض الأمراء أنفسهم ثمناً في سبيل ذلك، وأن هذا الإصلاح لقي استجابة واسعة من لدن قطاع عريض من المغاربة، وكأنهم إنما كانوا ينتظرون الفرصة المواتية للتعبير عن آرائهم.

... .أما الاستنتاج الثاني، فمؤداه أن السلاطين الذين تزعموا تلك الحركة الإصلاحية، استندوا في عملهم على المؤسسات المدنية، وفي مقدمتها مؤسسة الزوايا، الأمر الذي جعل طبيعة الإصلاح تأخذ منحى مدنياً .دينياً، وجعل للمؤسسة الصوفية مكانة مرموقة في البلاد، من جديد.

(1195/1)

الأساطيل العربية الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط المعروف بالبحر الشامي والعربي

... ...

... ... الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله

... عضو أكاديمية المملكة المغربية والمجامع العربية والهندية

البحر الأبيض عرف أوائل القرن الخامس الميلادي عصر هدوء طوال مائة عام تحت إشراف الجرمان الذين دشنوا ألفية العصور الوسطى (عام 378 م) بإزاء البيزنطيين في الامبراطورية الشرقية والوندال غربي المتوسط غير أن خلفاء (جنسيريك أو جيسيريك) (Geiseric ou Genseric) المتوفى عام (477 م) وهو أول ملك وندالي

(1196/1)

في إفريقيا – انهزموا أمام ثورة البرابرة الأشاوش الذين انحدروا من الجبال فزحزحوا المغيرين إلى مدن ساحلية بجانب " أفريكا" الرومانية القديمة.
وكان البحر المتوسط منذ ذلك مركز التجارة العالمية احتكرته بيزنطة طوال القرن الخامس وقبله وكانت التوابل والحرائر هي مادة هذه التجارة مع إيران والهند والصين والدينار الذهبي هو عملة التبادل خاصة في القرنين الثاني والثالث غير أن الإمبراطورية الشرقية لم تهتم – رغم سيطرتها الاقتصادية – بقوتها البحرية نظرا لاعتمادها خاصة على طرقها وحصونها البرية يؤكد ذلك سهولة

(1197/1)

انقضاض الوندال أواخر القرن الخامس انطلاقا من الشمال الإفريقي على جزر البليار وسردينية وكورسيكا بل نهبهم لروما عام (455 م) واندحار حملتين بحريتين رومانيتين غير أن هزيمة الرومان الشرقيين حدتهم إلى التفكير في إنشاء قوة بحرية تبلورت عام (508 م) في أسطول عدته مائة سفينة مسلحة وخمسة آلاف بحار وكان هذا الأسطول قوة عارضة ما لبث نفس الأمبراطور وهو (أنسطاسيوس) أن جدد، عام (516 م) بقطع قارة عزرت بمواد متفجرة أشبه بما عرف بعد ذلك بالنار الإغريقية.

(1198/1)

واحتفظ البيزنطيون بأسطولهم الدائم الحركة عصر (جستنيان الأول) المتوفى عام (565 م) فكان له طوال القرن السابع قواد ودور صناعة في الإسكندرية والقسطنطينية وقرطاج وعكا وسرقوسة والبليار وحتى سبتة وكانت في طليعة القطع البحرية السفن الحربية السريعة الخفيفة المجذافية المعروفة بـ (Dromono) .

وظل الأسطول البيزنطي يجول ويصول في البحر الأبيض المتوسط دون منازع إلى الفتح الإسلامي حيث تعززت السيادة البحرية بمحاولات دعم اقتصادية استهدفت ولو جزئيا استئصال سيطرة فارس الاقتصادية بقطع أرباحها من تجارة التوابل

(1199/1)

والحرير وذلك باستجلاب دودة القز التي انتشرت بفضلها صناعة الحرائر وأقمشة الديباج علاوة على مختلف فنون العمارة وفي الفسيفساء في عديد من الجزر والموانئ والحواضر فكانت القسطنطينية خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين أعظم مدينة في الشرق بلغت حضارتها الأوج وسكانها المليون نسمة (1) وغزت تجارتها حواضر العالم تليها قوة مدينة الإسكندرية التي كانت أعظم مدن البحر الأبيض المتوسط وربما اخترقت مضيق جبل طارق

---

(1) كتاب جوستيان لديهل (Diehl) المؤرخ الفرنسي المتوفى عام 1944 والمتخصص في تاريخ بيزنطة، ص . 540.

(1200/1)

لتصدير القصدير إلى بريطانيا.

**** ... ...

وقد استهل العرب فتوحهم في البحر الأبيض المتوسط بفتح الإسكندرية عام (21 هـ/ 641 م) وبذلك بدأ عهد جديد في تاريخ البحر الأبيض المتوسط دفع الفاتح العربي عمرو بن العاص إلى التفكير في البحر كوسيلة للدفاع إذ ما كانت تبزغ سنة (25 هـ / 645 م) حتى استعادت بيزنطة في حملة بحرية عارمة مدينة (الإسكندرية) غير أن الجيش الإسلامي تمكن من إجلاء القوات الرومانية وهدم حصون الإسكندرية درءا لكل خطر في المستقبل وكانت هذه وسيلة عابرة مؤقتة حدت الأمير معاوية

(1201/1)

إلى تنظيم أول أسطول بحري قام بأول حملة عربية لغزو البحر المتوسط وقد اتجهت قطع هذا الأسطول – التي أوصلها مؤرخون عرب إلى 1.700 سفينة – عام (28 هـ / 648 م) إلى (جزيرة قبرص) كما أغارت على إفريقية التي ثار حاكمها(البطريق جويجوري) ضد

القسطنطينية نفسه أمبراطورا في حملتيم بدأت الأولى عام (27 هـ / 647 م) والثانية عام (34 هـ / 654 م) ولعل ذلك العدد من السفن مبالغة لأن البحرية العربية كانت في منطلق نشأتها ولم تكن تتوفر على بحارين نظرا للطابع البري للجزيرة العربية حيث اضطر الخليفة الأموي في دمشق عام (

(1202/1)

---

43 هـ / 663 م) إلى استقدام نوتية فرس لملء بعض ثغور الشام انضاف إليهم عام (49 هـ / 669 م) ملاحون عراقيون ومع ذلك بدأ الجانب العربي يتعزز بحريا حيث إن الوالي (عمرو بن العاص) ما لبث أن أعاد عام (50 هـ/ 670 م) بناء ما حطمه قبل من حصون وقلاع ساحلية في الإسكندرية كما تعزز اقتصاديا لأن (عبد الملك بن مروان) ضرب لأول مرة (الدينار العربي) ونقش عليه حروفا عربية مغفلا صورة القياصرة البيزنطيين مما أحنق جوستسنيان الثاني الذي توفى عام

(1203/1)

(711 م) وانتهت انتفاضته ضد دمشق بهزيمة منكرة على حدود آسيا الصغرى وأحرز الأمويون نصرا عظيما في الشمال الإفريقي عام (74 هـ/ 693 م) في حملة ضخمة قوامها أربعون ألف جندي بقيادة (حسان بن النعمان) ما لبث أن أخضعت عام (76 هـ / 695 م) (قرطاجة) التي تفلتت من أيديهم بعد تدخل (الكاهنة الجراوية) لتعود بعد ثلاث سنوات (79 هـ/ 698 م) وبموت الكاهنة عام (81 هـ/ 700 م) انقرض الحكم البيزنطي في إفريقيا. وقد تزايد اهتمام الخليفة عبد الملك بالأسطول البحري حيث أمر واليه على إفريقية (موسى بن نصير) ببناء

(1204/1)

قاعدة بحرية أي (دار صناعة) ساعده على إنشائها ألف قبطي من بناة السفن بمصر وكان الأسطول العربي قد استولى على جزيرة قوصرة قرب الشاطئ الإفريقي وعلى المضيق الفاصل بين الشاطئ وجزيرة صقيلية وقد تبلورت الاستراتيجية البحرية العربية آنذاك في إقامة دار الصناعة بالمكان الأمين الذي قامت فيه حاضرة (تونس) وذلك بحفر قناة وصلت هذا المكان بالخليج القريب وهجرت قرطاجة آنذاك وقد أنشأ موسى بن نصير في القاعدة الجديدة مائة سفينة حربية فتعزز الأسطول

الأموي عام (85 هـ / 704 م) بالقطع البحرية الجديدة وأصبح الشمال

(1205/1)

الإفريقي منطقة بحرية ثالثة عززت المركزين العربيين في مصر وسوريا وبذلك أمسى البحر الشامي الذي كان شبه محصورا في الشق الشرقي للبحر المتوسط بحرا عربيا امتد إلى الشق الغربي وقد برهنت السفن الجديدة على فعاليتها حيث أغارت منذ سنتها الأولى على كل من صقيلية وسردينية ثم قاد (موسى بن نصير) شخصيا عام (90 هـ/ 708 م) أسطوله نحو (جزر البليار) حيث أسر حاكم (ميورقة) ليظفر بعد سنتين بالاستيلاء على جزيرة (سردينية) وبذلك استطاع ابن نصير أن يدرأ خطر الأسطول البيزنطي عن الجزر الثلاث وانضم آنذاك إلى العرب(

(1206/1)

الكونت جوليان) حاكم سبتة الذي مكن طارقا بن زياد أحد قواد ابن نصير من سفنه الأربع لاجتياز المضيق إلى

سفح جبل الشاطئ الشمالي الذي حمل اسمه بعد ذلك وقد أمر ابن نصير قائده بخمسة آلاف مقاتل ولعله استطاع بناء قاعدة في الشاطئ الإفريقي تنطلق منها جيوشه الزاحفة نحو العدوة الشمالية وبذلك تمكن العرب من " الالتفاف" بين عامي (74هـ / 693 م و 99 هـ/ 717 م) حول الجناح الأيمن لقوة البيزنطيين البحرية واختراق مراكز الدفاع البيزنطي في شمال إفريقية "فصار الإسلام كالهلال على ما يقرب من ثلث شواطئ البحر (1)

---

(1) أرشيبها لدبويس، كتاب القوى البحرية والتجارة في حوض البحر الأبيض المتوسط، مكتبة النهضة المصرية، 1960 ،ص . 103.

المتوسط بين نهر الرون وبلاد أرمينية وهنا يجدر أن نقارن بين الأسطول البيزنطي والأسطول العربي ونظامي القوتين إلى أوائل القرن الثامن الميلادي فقد كان أسطول بيزنطة يتألف من مجموعة مركزية وأربعة أساطيل إقليمية ترابط ثلاثة منها شرقي المتوسط واثنان في غربه (1) والمركز الجامع هو القسطنطينية وكان للأسطول قائد أعلى للأمبرالية البحرية يخضع له

نائب أميرال وكان لكل منهما

---

(1) يربطان في صقلية مع أسطول ثالث محتمل في إفريقية إلى نهاية القرن السابع يشمل جزر البليار وسردينية سبتة والمواقع البيزنطية في إسبانيا.

(1/1208)

بحارته ودور صناعته وأحواض بنائه ومعداته البحرية نفقاتها عن الأقاليم التي ترابط بها.

أما البحرية الأموية فمن الصعب تحديد تنظيماتها بنفس الدقة إلا أن المفروض هو وجود ثلاثة أساطيل لكل واحد منها استقلال ذاتي ويرابط في إقليم خاص به (مصر أو سورية أو شمال إفريقية) بالإضافة إلى وحدة بحرية (في بحر القلزم أو البحر الأحمر) خاضعة للأسطول المصري وانعقد لواء كل أسطول لأمير من أمراء البحر وكان كل أسطول يواجه الأساطيل القريبة منه في آسيا الصغرى أو صقلية أو الأسطول المركزي في القسطنطينية وقد كان أمير البحرية

(1/1209)

المصرية هو القائد العام للأساطيل (1) الثلاثة التي اشتركت مجمتعة في الحصار الثاني للقسطنطينية إلا أن الأسطولين العربي والبرنطي امتاز كلاهما بالاستقلال الذاتي في الغرب أمام مراكز دور الصناعة في العصر الأموي فقد كانت في الفسطاط والقلزم القواعد الأولية لبناء الأسطول العربي منذ الإنطلاقة الأولى في عهد معاوية وكذلك في (عكا) التي أصبحت أعظم قاعدة في سوريا في حين أقام (عبد الله بن مروان) على غرار سلفه (معاوية) دار صناعة لأول أسطول عربي في إفريقية بعد عام (

---

(1) Bury, Bysantine naval Policy, P : 35.

(1210/1)

---

81 هـ/ 700 م) ومع ذلك فلم يكن للقوة البحرية العربية أثر في دعم الزحف الإسلامي في إسبانيا وجنوب فرنسا رغم تفوق هذه القوة على السفن الفرنجية ومما يدل على مدى سمة الدعوة والتمدين في الحركة الإسلامية في البحر المتوسط آنذاك أن العرب لم يستغلوا فتوحاتهم لاكتساح السوق التجارية في البحر المتوسط عدا التخلص من وطأة (ضريبة القموح) التي

كانت تدفعها مصر لقسطنطينية والتي أصبحت تكدس في الأسكندرية لتوجه بدلا من تموين بيزنطة إلى إمداد مكة والمدينة المنورة على أن الفاتح العربي بدأ يضع تشريعات بحرية جديدة مغايرة

(1211/1)

لما فرضه (جبستنيان) في القرن السابع خاصة بصدد الإيراد والتصدير و أصبح الشمال الإفريقي الثري خير مصدر للذهب وزيت الزيتون والحبوب والخيول والجمال ما بين (76 هـ/ 695 و 87 هـ / 705 م) بالإضافة إلى ما كان يصنع فيه آنذاك من طنافس فاخرة وهذا العهد الجديد الذي خلقه العرب في البحار أدى على الأقل إلى إيقاف التجارة التي كانت منبع ثراء بيزنطة لتصبح تجارة حرة لفائدة الجميع فانطلقت بيزنطة مجهدة نفسها في تخريب الأسسية الاقتصادية في المتوسط وتفكيك الوحدة التي رجع الفضل إليها قديما في ربط أجزاء البحر المتوسط

(1212/1)

بعضها ببعض ورغم ما يدعيه بعض المغرضين من مشوهي تاريخ الفتوح العربية فإن البيزنطيين هم الذين كرسوا كل قواهم الحربية المدمرة للانتصار بين (97 هـ / 715 م و 135 هـ / 752 م) على الأمويين ولو على حساب رخاء ورغد البحر المتوسط وقد تدهور الوضع في إفريقية الشمالية من جراء ذلك وخاصة بسبب السياسة العنصرية التي نهجها بعض الأمويين في تخميس البربر مما أدى إلى ثورة (ميسرة المضغرى) حول طنجة عام (122 هـ/ 739 م) وفي نفس السنة تخربت المدن الجنوبية بفرنسا نظرا لتوقف استغلال بيزنطة لتجارة سورية ومصر مما أدى إلى

(1213/1)

الكساد الاقتصادي الذي عرفته فرنسا الكارولنجية منذ عام (98 هـ / 716 م).

ويظهر أن بيزنطة احتفظت بقوة فعالة في مياه البحرين المتوسط والأسود إلى أوائل القرن الثامن الميلادي لأن القوة البحرية الأندلسية التي تركزت في إمارة سرقسطة كمركز لحماية حدود الأندلس ضد هجمات الكارولنجيين لم تستعمل إلى عام (182 هـ / 798 م) للإغارة على مرسيليا عام (798 م) وإيطاليا عام (162 هـ

/ 778 م) وناربون عام (177 هـ / 793 م) مما يدل على أن الأسطول الأموي في الأندلس وجه ضرباته لامبراطورية الفرنجة لا البيزنطيين الذين

(1214/1)

كانوا في عداء مسلح مع هؤلاء والحقيقة أن القوة النسبية التي ظهرت بها السفن البيزنطية ترجع أيضا إلى ضعف الأسطول السوري الذي لم يستطع إيقاف انفصال (عبد الرحمن الأول) الأموي عام (139 هـ/ 756 م)عن الخلافة العباسية التي لم تتمكن حملات أسطولها من الوصول إلى الشواطئ الأندلسية وقد مهد ذلك لانبثاق مملكة الأدارسة المستقلة بالمغرب الأقصى عام (172 هـ/ 788 م) ثم الأغلبية عام (184 هـ / 800 م) وظلت مصر وحدها خاضعة للعباسيين ورغم ما كان للبحرية العربية من قوة غربي المتوسط فإن العواصم الجديدة كفاس وتونس

(1215/1)

وقرطبة اتسمت ببعدها عن البحر أي عن خطر الأساطيل الفرنجية لأن بيزنطة بدأت تفقد قوتها البحرية منذ أوائل القرن الثامن الميلادي ولذلك استطاع الأسطول الأندلسي الإغارة منذ عام (182 هـ / 798 م) على (جزر البليار) وبعض مدن الساحل الشمالي إلى أن استفحلت مغامرات السفن العربية عام (199 هـ/ 814 م) بوصول ثوار ربض قرطبة (1)

---

(1) الأندلسيون الربضيون الذين ثاروا على الأمير الحكم فنفاهم ونزلوا بالإسكندرية ثم أقاموا في جزيرة كريت التي انتزعوها من البيزنطيين وجعلوا منها وكرا للقراصنة وانتقل بعضهم إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى.

الذين استطاعوا فرض سيطرتهم على الإسكندرية مدة اثني عشر عاما حتى طردهم العباسيون الذين تحركت نخوتهم منذ عام (191 هـ/ 806 م) – بعد عشرين سنة من خمود الأسطول السوري فأغار أسطولهم على (قبرص) ثم في العام التالي على (رودوس) مع فرض جزية سنوية أصبحت القسطيطينية تدفعها لبغداد ولعل تدخل

أسطول الأغالبة في إفريقية عام (190هـ/ 805م) هو الذي ساهم في هزيمة البيزنطيين برا وبحرا لا سيما بعد أن فرض الأغالبة اتفاقية لعشر سنوات مع بطريق صقلية جددت عام (198 هـ/ 813م) دون أن يحول ذلك بينهم وبين مهاجمة (

(1/1217)

سردينية) في السنة نفسها – رغم تعرض مائة سفينة عربية للغرق من جراء العواصف – ثم الإغارة على صقلية عام (209 هـ/ 820 م) واحتلال سردينية في السنة التالية وهذا التناسق الذي كان تلقائيا أحيانا – بين أساطيل المسلمين في سورية والأندلس والشمال الإفريقي والذي تحدى سلطان بيزنطة هو الذي حدا (شرلماني) الذي كان يعاني الأمرين من ظغط بيزنطة والأندلس معا – إلى إنشاء أسطول ضخم بلغ (ألف سفينة) بحرية في قاعدتين إحداهما على ساحل طرطوشة وبرشلونة (اللتين احتلهما شرلماني عام (197هـ/ 812م)) على طول الساحل الإيطالي

(1/1218)

مما ساعد الأسطول الجديد على الإنتصار قرب (جزيرة ميورقة) مما أتاح للبيزنطيين أن يتنفسوا الصعداء ولو لفترة قصيرة إلى أن قامت ثورة داخلية في صقيلية أطاحت بقوة القسطنطينية البحرية بين عامي (206 هـ/ 821 م) و (208 هـ/ 823 م) وقد انكشف ذلك عام (212 هـ/ 827م) عندما أغار الربضيون المسلمون النازحون عن الاسكندرية على جزيرة (كريت) ونزلوها دون مقاومة وظلوا مثارا للرعب للامبراطورية البيزنطية طوال قرن ونصف.

(1219/1)

وفي تلك الأثناء استطاع الأغالبة مهاجمة صقلية أحد مفاتح المتوسط وانتصروا على أسطولها البيزنطي بسفن انطلقت من (سوسة) بلغت ما بين السبعين والمائة سفينة مجهزة بعدة ألاف من الرجال وبذلك انفتح عهد جديد انهارت فيه قوة بيزنطة البحرية وازدادت السيادة الإسلامية على البحار بعد أن تعززت قوة الأغالبة تلقائيا بأسطول الأندلس وهي الدولة الوحيدة في غرب البحر المتوسط التي لم تخضع للسيطرة التجارية البيزنطية وقد ظل التجار البندقيون

يواصلون نشاطهم الاقتصادي بفضل مسالمتهم للمسلمين ومخالفاتهم السياسية البيزنطية التي

(1220/1)

حرت على البندقية ومثيلاتها مثل نابولي الاتجار مع الموانئ الإسلامية في شمال افريقيا ومصر وسورية على أن تجار الشمال الافريقي قاموا بما قام به آنذاك الإيطاليون بالنسبة لأوربا – بدور الوساطة بين سوريا ومصر من حيث ينقلون السلع المختلفة بحرا لتوزيعها على البلاد

الإسلامية في الغرب وبذلك انتقلت التجارة البحرية إلى أيدي المغاربة وساعد على ذلك تدهور البحرية

العباسية حتى في البحر الأحمر الذي كان ممرا لنقل توابل الشرق وقد انهارت هذه التجارة أوائل القرن الثامن الميلادي إذا استثنينا نشاط اليهود الذين كانوا

(1221/1)

يعبرون (برزخ السويس) إلى (بحر القلزم) وعدن ثم بلاد الصين لا سيما وأن القناة التي حفرها عمرو بن العاص بين النيل والبحر الأحمر كانت قد طمرتها الرمال ومن مظاهر ثراء المغرب آنذاك أن الدرهم الفضي ظل عملة الرواج السائدة في الشمال الإفريقي وخاصة في فاس حيث سكت عملة تحمل تاريخ (185 هـ/ 801 م) وتوجد قطعة منها في متحف كاركوف بروسيا.

هذا بينما ساد استخدام الدرهم الفضي الذي سكه الأمويون في أماكن أخرى وقد سقطت صقلية فعلا في قبضة الأغالبة عام (831 م) ثم جزيرة قوصرة عام (835 م) بفضل أسطول إفريقي اشتمل

(1/1222)

على حراقات وهي سفن تقذف بلهب النفط ضد النار الإغريقية التي كان يستخدمها البيزنطيون وهو سلاح عربي سري جديد مكنهم من المزيد من السيطرة على البحار وحيث بلغت هجماتهم حتى المراكز البيزنطية في كل من البحر الأيوبي (بين إيطاليا واليونان) والأدرياتي وقد احتل مسلمو كريت أو شمال إفريقية عام (224 هـ/ 838 م) – إقليم (بريديزي) رغم تدخل أسطول بندقي من ستين سفينة كما أقام مسلمون في

مدينة باري (Bari) (على الأدرياتيك) عام (228 هـ/ 841 م) دولة إسلامية تماثل دولة بالرم في صقلية استمر وجودها أكثر من ثلاثين

(1/1223)

عاما اعترفت بغداد لها بالاستقلال والسيادة ولم يتسطع حصار (لويس الطويل) لمدينة باري زحزحة المسلمين عنها عام (850 م / 236 هـ) وبذلك أصبح بحر الأدرياتيك عرضة لغارات الأساطيل العربية ولم ينج من هذه الهجمات البحرية حتى أسطول البندقية كما أنزل المسلمون (عام 232 هـ / 846 م) قوات على سواحل الأراضي البابوية إلى ضواحي روما ذاتها مما حرك القطسنطينية لإرسال أسطول إلى (سرقوسة) عدته (ثلاثمائة) سفينة فأحرز الاسطول الإسلامي نصرا عظيما في معركة بحرية فقد البيزنطيون فيها مائة سفينة وهي أخطر هزيمة مني بها

(1/1224)

الأسطول البيزنطي منذ عام (226 هـ / 840 م) وقد واصل الاسطول الإسلامي فتوحاته فاستولى على جزيرة مالطة عام (257 هـ / 870 م) وتعزز بذلك نفوذ الأغالبة على المضايق الواقعة بين صقلية وإفريقية ومع ذلك لم تندحر قوة بيزنطة البحرية بصورة تامة لانها جددت أسطولها عام (272 هـ / 885 م) ولم يمنع ذلك السفن الإسلامية من غزو قلورية عام (275 هـ/ 888 م) وإلحاق هزيمة شنعاء بالبيزنطيين وتحطيم سفنهم عام (282 هـ / 895 م) فانصاعوا لصلح فقدت القسطنطينية فيه سيادتها الموقوتة على مياه صقلية وغرب إيطاليا حيث أنزل

(1/1225)

الأغالبة بعد سبع سنوات الضربة القاضية في حملة بحرية عام (290 هـ / 902 م) وسقط مجموع الجزيرة الصقلية في قبضتهم غير أن الصراع بين الأقاليم الإسلامية كان يوقف انتفاضات الأسطول العربي ولو إلى حين فقد استولى الفاطميون على تونس عام (297 هـ / 909 م) وأصبحوا سادة (القيروان) وما لبث مسلمو صقلية أن هبوا ضدهم عام (301 هـ / 913 م) فحطوا فرقة بحرية إفريقية قرب (المهدية) واستمر الحرب سجالا إلى عام (

305 هـ / 917 م) حيث سيطر الفاطميون على الجزيرة بعد أن قضوا المدة السالفة في غارات هوجاء ضموا إثرها مصر

(1/1226)

إلى نفوذهم ولكن قوة بحرية مشتركة بين بيزنطة وإيطاليا (بزعامة نيقولا الصقلي وكذلك قوات من المراكز البابوية أغارت على مواقع المسلمين وحررت البلاد الإيطالية بعد نصف قرن من مضايقات السفن الإسلامية لها إلا أن محاولات هذا الأسطول الحديث فشلت أمام سفن أصغر جزيرة إسلامية في البحر المتوسط حيث أحرز مسلمو جزيرة كريت عام (225 هـ / 839 م) لإعادة الكرة من جديد فعجز حتى عن الإقلاع من موانئه طوال عشر سنوات إلى عام (239 هـ / 853 م) بفضل قوة تجهيزات (كريت) وحنتها البحرية وظلت القسطنطينية تستعد طوال ربع قرن

(1/1227)

إلى عام (266 هـ / 829 م) للإجهاز على هذه الجزيرة التي أفضت مضاجعها فتحطم هذه المرة جزء من الأسطول

الكريتي في خليج (كورنث) وهنا توقف الصراع ربع قرن آخر إلى عام (292 هـ / 904 م) حيث وجهت (كريت أقسى ضرباتها على ثاني حاضرة في الإمبراطورية البيزنطية هي (سالونيك) التي استسلمت تحت نيران قاذفات اللهب الكريتية واقتيد اثنان وعشرون ألف أسير من سكانها إلى مختلف الأقطار الإسلامية (1) دون أن يثني نخوة بيزنطة التي تحطم أسطولها مرة أخرى عام (298 هـ / 910 م) وظل

---

(1) أرشيباليد، القوى البحرية...، ص . 224.

التهديد الكريتي مصبا على بحر(إيجي) والأسطول البيزنطي إلى عام (311 هـ/ 923 م) وقد جرؤ قبل ذلك على مهاجمة أنطاكية سنتي
(213 هـ/ 828 م) و (227 هـ / 841 م) فهب العباسيون بأمر (المتعصم) لتعزيز أسطول كريت والشمال الإفريقي فبنوا عام (228 هـ / 842م) أسطولا من (أربعمائة قطعة) تحركت إلى بحر (إيجي) ولكن العواصف الهوجاء تلقفته قرب سواحل آسيا الصغرى فلم تبق منه سوى أربع سفن غير أن الغارات البيزنطية توالت إلى

عام (266 هـ/ 879 م) بالانتصار على أهل كريت ثم ما بين (267 هـ/880 م) و (886م) بهزيمة

(1/1229)

الأغالبة وأهل صقلية نظرا للصراعات الداخلية التي صرفت أهل طرسوس (بتركية) وسورية ومصر بسبب امتداد النفوذ الطولوني – عن أعدائهم البيزنطيين فكان لاستعادة العباسيين سلطتهم بمصر عام (292 هـ/ 904 م) أكبر الأثر في ظهور قوة بحرية إسلامية جديدة ظلت مع الأسف إلى عام (308 هـ/ 920 م) تواجه خطرا إسلاميا هذه المرة هو خطر الأسطول الفاطمي الذي انهزمت مع ذلك قطعه السبعون وبذلك تدعمت جزيرة (كريت) إلى أوائل القرن العاشر الميلادي بأسطول مسلمي طرطوس وسورية ومصر زاده فعالية ظهور عدو جديد لبيزنطة هو الروس أصحاب (

(1/1230)

كييف) وجنوبي روسيا وهم أسكندنافيون وسويديون قاموا منذ سنة (246 هـ/ 860 م) بغارة واسعة على

القسطنطينية استغلوا هزيمتها النكراء عام (245 هـ/859 م) قرب صقلية على يد أسطول الأغالبة وأغاروا ثانية عليها بعد نحو نصف قرن عام(295 هـ/ 907 م) وفي هذه الأثناء بقي الأسطول الأموي في الأندلس رابضا نظرا لعدائه للعباسيين ومجاملته للبيزنطيين غير أن التقاعس لم يصل إلى حد مساعدة الفرنجة ضد المسلمين لأن الإمبراطور (تيوفيل) طلب من عبد الرحمن الثاني (225 هـ/ 839 م) العون ضد مسلمي صقلية وإفريقية فلم يستجب لطلبه.

(1231/1)

... ... بنعيد 3.

والواقع أن الأسطول الأندلسي كان متجها إلى عدو آخر ناصب الإسلام العداء غربي أوربا فتركزت قطعه منذ أوائل القرن التاسع الميلادي على طول الساحل الشرقي بين طرطوشة وبلنسية وباقي السواحل الكارولنجية وبدأت غاراتها عام (224 هـ/ 838 م) على مرسيليا انطلاقا من جزر البليار واتخذت قواعد لها عند مصب الرون في جزيرة (كامرك) (Camargue) مما اضطر شارل الأصلع (Charles le Chauve) ملك فرنسا وإمبراطور

الغرب (840 م – 877 م) إلى الانصياع بتوقيع صلح مهين عام (250 هـ /

(1232/1)

---

864 م) فاستكانت هذه المنطقة لبعض الراحة من غارات الأسطول الأموي الذي واصل تجهيزاته بإقامة قواعد عام (275 هـ/ 888 م) على سواحل (بروفانس) وحوض الرون الأدنى وهي مناطق قاست المرائر من الغزو الإسلامي طوال (84) سنة مما أدى إلى انتشار النفوذ الإسلامي في جبال الألب والممرات بين فرنسا وإيطاليا إلى البحر المتوسط ومع ذلك فإن الأسطول الأموي ظل ضعيفا لعجزه عن الصمود في وجه غارات الشماليين عام (230 هـ/ 844 م) عندما هاجم أسطول القراصنة الاسكندنافيين لشبونة بثمانين سفينة تجاوزت في نهبها وسلبها مدينة

(1233/1)

اشبيلية الأندلسية إلى حاضرة نكور بالمغرب الأقصى غير أن هؤلاء الشماليين لم يجرؤوا على مراسي بني الأغلب القوية ولا حتى بعض الموانئ الأندلسية التي

كانت لها أساطيل بحرية بين دانية وطرطوشة ويظهر أن قرطبة الأموية لم تستطع إنشاء أسطول لها إلا في عهد الرحمن الثالث لأن القطع التي استهدفت بها الإغارة على جليقية المسيحية عام (266 هـ/ 879 م) غرقت بمجرد بلوغها مياه المحيط نظرا لرداءة تجهيزاتها وضعف ملاحيها. وكان المحيط الاطلنطيكي منذ ذاك مسرحا يخوض غماره البحارة العرب من طنجة إلى السنغال إلى القرن الثالث

(1/1234)

عشر الميلادي إثر العهد المريني (روبير مونطاني – "البربر والمخزن"، ص.22.).

وهكذا يمكن القول بأن البحر المتوسط كان أوائل القرن العاشر الميلادي موزعا بين مسلمي جزر البليار غربا وصقلية في الوسط وكريت شرقا قبل ظهور الأسطول الأموي المجدد وبالرغم عن انتعاش أسطول بيزنطة الذي بدد عام (941 م) قوة بحرية روسية تحركت لمهاجمة القسطنطينية بألف سفينة تحت قيادة إيكور (Igor) أمير كييف فإنه أخفق في حملته عام (305 هـ/ 917 م) انطلقوا يوالون غاراتهم على قلوبية وسارنو ونابولي التي لم ينجدها سوى الخنوع بدفع الجزية

(1/1235)

للعرب لا سيما بعد أن هاجمها الفاطميون عام (317 هـ/ 929 م) بأربع وأربعين سفينة وأرسلوا عام (324 هـ/ 935 م) أسطولهم ضد كورسيكا وجنوة حيث أحرقوا الكثير من السفن ثم حولوا نشاطهم إلى إيطاليا البيزنطية قبل عام (339 هـ/ 950 م) إذ أغاروا من جديد على قلورية فلم يعد السلام للمنطقة إلا بتجديد الجزية وأصبحت المراسي الإيطالية تتخلص من سيادة بيزنطة التي عجزت عن إنقاذها من ضغط الأسطول الإسلامي وكان الرستميون والأدارسة حلفاء للأمويين بالأندلس فاضطر الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث خوفا من مغبة نوايا جيرانه

(1/1236)

الفاطميين إلى تشييد أسطول ضخم استولى عام (319 هـ/ 931 م) على سبتة وأحرق عام (333 هـ / 944 م) معظم سفن الشمال في إشبيلية وبالفعل أغار الأسطول الفاطمي عام (343 هـ/ 954 م) انطلاقا من صقلية على الأندلس فهاجم (ألمرية) قاعدة الأسطول الأموي

الرئيسية فانتقم الأمويون بإرسال سبعين سفينة ضد الشواطئ الإفريقية وبالرغم عن جولات (جوهر الصقلي) أقدر قواد الفاطميين على الجزائر والمغرب الأقصى فإن قوة عبد الرحمن الثالث ظلت مسيطرة على جزر البليار والقواعد الأمامية على طول ساحل فرنسا الجنوبي مهددة قوة الفاطميين

(1237/1)

في صقلية وشمال إفريقية.

وكانت روح القرصنة سائدة آنذاك سواء عند المسلمين أو المسيحين وكانت أوكارهم في جزر المتوسط وموانئه مستقلة داخليا بتشجيع من السلطات الرسمية التي كانت تشاركهم التمتع بقسط من أسلاب القرصنة وهذا يمنع من وجود أساطيل نظامية لدى الأغالبة والفاطميين والأمويين الذين تساوقت تنظيماتهم فكان (أمير البحر) لدى الأمويين هو المشرف على مائتي سفينة في ألمرية وبجاية وأحد القادة الأربعة الكبار الذين تعتمد عليهم الخلافة كما كان قسيم الخليفة في السلطان هذا يحكم البر وذاك يسيطر على البحر وقد كان

(1238/1)

لكل سفينة قبطان مسؤول عن الأسلحة والمحاربين وكبير للبحارة أو رئيس إدارة الأشرعة والمجاذيف وللحملة البحرية قائد من الأمراء أو أصحاب المناصب العليا إذا لم يتول القيادة كبير أمراء البحر بنفسه ويظهر أن نظام الأسطول الإسلامي في الشرق كان شبيها بالنظام البحري غربا فكان كلاهما مجهزا بمركب نفطي مشابه للنار الإغريقية في شكل حراقات قاذفات للهب ترمي سفن الأعداء بمادة سريعة الاشتعال كما وقع عندما أحرق الفاطميون أسطول البحر التيراني عام (324 هـ/ 935 م).

(1239/1)

ويظهر أن سفن الإمبراطورية البيزنطية كانت أكثر ضخامة رغم اضطرارها إلى ملازمة الدفاع دون الهجوم إذ اتضح أن أساطيل بيزنطة كانت تدرب على تجنب ملاقاة العدو إلا في حالات الضرورة القصوى حيث كانت تعتبر سندا فقط للقوات البرية ومع ذلك ظلت القوة البرية لدى المسلمين موازية للقوة البحرية حيث ظلت الحدود بين الطرفين بالأندلس من عام (212 هـ/ 827 م) إلى عام

(349 هـ/ 960 م)(1) هي دون كبير تغيير إلا أن القوات البحرية الأموية تدخلت عندما حاول القشتاليون توسع حدودهم

---

(1) راجع كتاب الخطط الحربية Tactita ليوم 1989.

(1240/1)

صوب الجنوب وحتى بالنسبة لبيزنطية كان الخطر البري يأتي من جهة البلغار والقبائل الأسيوية الرحالة.

وفي هذا العام (960 م) كان الأسطول البيزنطي الذي هاجم جزيرة كريت يضم ألفي سفينة حربية (1360 للمؤن والإمداد) ومنها ما كان به (250) مجذافا في أربعة صفوف من المجاذيف ومنها سفن كانت صالحة لإنزال الجنود مع القدرة على الرسو بالشاطئ بفضل (زلاقات) تعبر من فوقها إلى البر وقد حدا هذا الخليفة العزيز الفاطمي إلى بناء أسطول حربي من ستمائة قطعة في مثل هذه الضخامة بدار صناعة جديدة بالمقس عام (995 م) وقد وصف

(1241/1)

لنا (ناصر خسرو) الرحالة الفارسي في القرن الخامس الهجري أو الحادي عشر الميلادي إحدى هذه السفن بأنها تبلغ (275) قدما طولا و (110) أقدام عرضا إلا أن مؤامرات بيزنطية خربت دار صناعة المقس عام (995 م) بواسطة عملاء من التجار اليونانيين الذين ألقي عليهم القبض آنذاك وأعدموا واستمر بناء الأسطول بعد ذلك إلا أن الظاهرة المزعجة في خصوص تطور الأسطول الإسلامي في البحر المتوسط – رغم توفره على العدة الكافية من الأخشاب والحديد لبناء السفن – هي انعدام وحدة بحرية شاملة تضم أشتات أساطيل الدول الإسلامية المحيطة

(1/1242)

بالبحر فكان للوسط أسطوله في صقلية وللغرب قوته في الأندلس ولشرقه أسطول أضخك في كريت وسورية ومصر توحدت قطعه في عهد الطولونيين والإخشيديين إلا أن الاصطدام بين هذه القواعد البحرية الثلاث لم يقع إلا أوائل القرن العاشر بظهور الفاطميين الذين وجهوا ضرباتهم للمصريين والأندلسيين معا من عام (302 هـ/ 914 م) إلى (339 هـ/ 950 م) فكان من مظاهرها وجود ثلاث خلافات إسلامية بقرطبة والمهدية وبغداد (1) ومع ذلك فإن سيادة الأسطول الإسلامي كان لها كبير الأثر

على إنعاش التجارة

---

(1) أرشيبالد، القوى البحرية، ص.252.

(1243/1)

الدولية بين شقي البحر المتوسط الشرقي والغربي بسبب امتداد الزراعة من خلال انتشار نباتات المناطق الحارة والبرتقال والأرز وتوت دود القز وقصب السكر ففرض الغرب الإسلامي سياسته الاقتصادية في المتوسط بتوسيع تداول الذهب مظهر رخائه وثرائه – في شكل الدينار الذي أصبح عام (950 م) نقدا دوليا بينما كان مقتصرا حوالي (148 هـ/ 800 م) على شمال إفريقية وسورية ومصر وقد سك عبد الرحمن الثالث منذ أوائل القرن العاشر الميلادي دينارا أندلسيا على قاعدة الذهب لا الفضة واستمر ذلك بالمغرب الأقصى وحتى في صحرائه الممتدة إلى

(1244/1)

حدود السنغال من عهد المرابطين (1) إلى القرن الماضي وقد أحدث هذا التطور تغييرات جذرية في اقتصاديات

المتوسط وازنت بين التصنيع والتنقيبات المنجمية والزراعة وهنا عنصر جديد كان له أثره في المساس بميزان القوى في المتوسط ففي الوقت الذي كان المسلمون يغيرون على إيطاليا حيث هاجموا مدينة بيزة عام (395 هـ/ 1004 م) انطلاقا من الشواطئ الإفريقية ومن الأندلس معا – مواصلين هجماتهم على طول الشواطئ

---

(1) حيث بلغ وزنه 3.960 غرام من الذهب ثم ارتفع أيام الموحدين إلى قيمته في صدر الإسلام وهي ما بين 4.729 و 4.25 غرام.

الإيطالية – ظهر النورمان لأول مرة فأحدق الخطر بصقلية الإسلامية وعاصمتها (بالرم) فاستنجدت ببني زيري حكام المهدية (1) الذين سارعوا إلى تقديم العون وكان (المعز بن باديس) قد بنى أسطولا فسارع حوالي (418 هـ/ 1027 م) إلى إرسال (أربعمائة سفينة) لنصرة أهل صقلية قضت على معظمها عواصف عاتية قرب جزيرة قوصرة وأنقذت صقلية أحداث مكنتها من مواصلة الصراع بجنوب شمال إفريقية حتى أصبحت شواطئ اليونان عام (424 هـ/

---

(1) كانت لهم دار صناعة بالمهدية مكنتهم من بناء مائتي سفينة فخمة للمرة الأولى منذ عام 407 هـ/ 1016 م.

(1/1246)

1032 م) هدف البحرية الإسلامية ولكن أسطولا بيزنطا استطاع عام (421 هـ/ 1035 م) أن يقضي على الأسطول الإسلامي في شواطئ ليسيا (Lycia) (من آسيا الصغرى) فجنحت صقلية للسلم بسبب خلافاتها الداخلية بين العرب والبربر واعترف أميرها بسيادة القسطنطينية التي اكتسحها مع ذلك عام

(430 هـ/ 1042 م) فتدهورت قوتهم البرية والبحرية وفقد الأسطول الفاطمي في نفس الوقت الكثير من مقوماته وكان النورمان من طوائف غرب أوربا التي شاركت في غزو صقلية عام

(1/1247)

(430 هـ/ 1038 م) كما شاركت عام (409 هـ/ 1018 م) مع القراصنة الفرنسيين في المحاربة بجانب أمير

برشلونة ضد (مجاهد بن يوسف العامري) فتبلور في ذلك كله الاتساع الأوربي الغربي جنوبا نحو البحر المتوسط وكان (العامري) هذا أحد ملوك الطوائف الذين ورثوا عرش الأمويين فأعد انطلاقا من حاضرته في (دانية) أسطولا قويا ضم به جزر البليار إلى أملاكه عام (405 هـ/ 1014 م) ثم هاجم عام (406 هـ/ 1015 م) سردينية على رأس مائة وعشرين سفينة وظل هذا الأسطول يهدد شواطئ المسيحيين حيث أغار على إقليم برشلونة عام (409 هـ/

(1/1248)

1018 م) وناربون عام (411 هـ/ 1020 م) وظل مرهوب الجانب إلى أن مات العامري عام (436 هـ/ 1044 م) وتساوق ظهور النورمان مع الانتعاش المفاجئ للقوة البحرية في كل من بيزة وجنوة وكامل ساحل إيطاليا الشمالي الغربي فطردتا العامريين من سردينية عام (407 هـ ٪ 1016 م) بل تجزأتا (426 هـ/ 1034 م) على مهاجمة (بونة) الجزائرية وقد استطاعت (بررفانس) في نطاق بحرية أوربا الغربية أن تطرد المسلمين من ربوعها ولم يستهل عام (435 هـ/ 1043 م) حتى أصبح

هؤلاء البحارة الإيطاليون أصحاب القوة المداهمة في مياه هذا البحر

(1249/1)

الذي ظهر في منتصف القرن الحادي عشر بمظهر جديد كان أقل مجاليه استيلاء بيزنطة على كريت وقبرص وشمال سوريا وانحصرت الطريق البحرية بين بلاد الغرب والشرق الإسلامي في سبل وعرة على طول الشاطئ الإفريقي بين سوسة والإسكندرية وذلك نظرا لانهيار كريت حامية شواطئ مصر وقبرص حامية السواحل السورية وهذا التقدم الذي طرأ على المجال الملاحي في القرن الحادي عشر الميلادي يرجع في الحقيقة إلى طروء تغييرات جذرية في مجتمعات أوربا الغربية في نفس الوقت الذي طرأ انحلال خطير على المسلمين شرقا وغربا خاصة بعدما تقاعست

(1250/1)

الأرستقراطية العربية عن الجهاد بالأندلس تاركة الحبل على الغارب لمرتزقة مسيحيين مغامرين فقد تبلور

هذا التطور الذي تدرج نحو نصف قرن إلى انتصار أساطيل غرب أوربا الإيطالية على قوتي المسلمين والبيزنطيين البحريتين وأصبح الأوربيون عام (494 هـ/ 1100 م) سادة كورسيكا وسردينية وصقلية وجنوب إيطاليا والأقاليم الساحلية في فلسطين وسورية بالإضافة إلى سيطرتهم على طرق التجارة البحرية بين الشرق والغرب.

وزاد الطين بلة اكتساح (بني هلال) و (نبي سليم) لمصر وليبيا وتونس عام (444 هـ/ 1052) فانهار (بنو زيري) وتبعهم

(1/1251)

(الحماديون) في قلعتهم (قلعة بني حماد) المهاجرون من أشتات الدولتين في منطقة التلال (منطقة القبائل الصغرى) وعقد صاحب المهدية معاهدة حلف وصداقة مع (روجير) عام (468 هـ/ 1075 م) كما نكب الشرق في سورية ومصر حيث ثارت عام (452 هـ/ 1060 م) جيوش العبيد والمرتزقة من موالي الفاطميين والغريب أن المرابطين تحركوا في نفس السنة وحاولوا توحيد الراية الإسلامية عام (479 هـ/ 1086 م) إلى بجاية وكانت قوة

(بيزة) قد هاجمت في العام التالي (480 هـ/ 1087 م) بالأربعمائة سفينة مدينة (المهدية) معقل الزيريين على ساحل

(1/1252)

تونس واستطاع ملك قشتالة أن يحتل طليطلة عام (478 هـ/ 1085 م) وأجبر المعتمد بن عباد أمير اشبيلية على الانصياع وأسهمت المدن الإيطالية في هذا الزحف الصليبي على الأندلس كما شاركت قوة النورمان التي انطلقت تدعم عدتها الحربية منذ أن استولى على زعامتها (روبرت جسكارد) عام (435 هـ/ 1043 م) فاعترف البابا بمركزه كأمير تابع للبابوية وظهر أخوه (ورجر) في جنوب إيطاليا حيث كان يشرف على كتائب نورماندية فاستطاع بست وخمسين سفينة احتلال مدينة (بلرم) عاصمة المسلمين بصقلية ثم استولى عام (480 هـ/ 1087 م) على (

(1/1253)

سرقوسة) وأكمل احتلال الجزيرة بعد ثلاثين سنة من الغزوات الموصولة أعقبها عام (483 هـ/ 1090 م) بالاستيلاء على مالطة رغم معارضة السفن البندقية له فتفاعل كل ذلك لخلق ما سمي بالحرب الصليبية الأولى حيث خرجت عام (490 هـ/ 1096 م) من غرب أوربا أشتات من البشر يقودها (بطرس الناسك) و (والتر المفلس) فوصلت إلى القسطنطينية كقوات إقطاعية تستهدف الغنائم في مسارها وكان أسطول جنوة والبندقية هو الذي أعان الجيوش الصليبية عام (464 هـ/ 1100 م) على الاستيلاء على (يافا) دون أن يستطيع أسطول الفاطميين الوصول إلى

(1/1254)

المياه السورية لصد الصليبيين الذين بادر الأسطول المرابطي إلى مطاردتهم شرقي البحر المتوسط إلى سواحل الشام (1) والواقع أن القطع البحرية التي أنشأها (يوسف بن تاشفين) قد خاضت غمار المتوسط في شقيه وانبرى الزعيم المرابطي قبل الحرب الصليبية الأولى لتحرير إمارات الطوائف فأحرز في معركة الزلاقة عام (479 هـ/ 1086 م) ضد (ألفونس السادس) ملك قشتالة (1065 – 1109 م) نصرا تردد صداه في الشرق والغرب

وذاع صيت القائد الظافر الذي لقب منذ ذلك بأمير المسلمين

---

(1) تحدث بذلك الفونسو السابع (راجع دوزي : تاريخ الإسلام).

(1/1255)

مع استمرار دعوته لدار الخلافة العباسية تركيزا للوحدة الكبرى وتكونت إمبراطورية واسعة ضمت الصحراء والمغارب الأربعة(ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى) والأندلس تحت الحكم المرابطي ثلاثة أرباع قرن إلى عام (537 هـ/ 1142م) وقد خلدت أغنية رولان(Roland) نشاط المرابطين في البحار.

وقد اقترن ظهور الموحدين بتزايد هجرة فلاسفة وعلماء الأندلس أمثال ابن رشد الفيلسوف (المتوفى عام 595 هـ/ 1199 م) الذي كان أول من تحدث عن القارة الجديدة في (بلاط الموحدين) بمراكش وعنه انطلقت فكرة وجود أرض يابسة وراء المحيط

(1/1256)

وقد اعترف (كريسطوف كولومب) نفسه (1) بأنه لم يشعر بهذا الوجود إلا بعد قراءة كتاب (الكليات) في الطب لابن رشد "في مخطوطته اللاتينية" على أن مجلة "نيوزويك" الأمريكية (2) قد أكدت أن العرب انطلقوا قبل عام 1100 م أي عام 494 هـ/ أي قبل (كريسطوف كلومب) بأربعة قرون من "أنفا" (أي الدار البيضاء الحالية) فرسوا في عدة مواضع على الساحل الأمريكي.

---

(1) أكد ذلك رونان في كتابه : Averroïs et l'Averroïsme, paris, 1923.

(2) في (عدد أبريل 1960).

(1257/1)

وقد حدثنا الشريف الإدريسي في نزهته عن (الفتية المغررين) الذين غامروا انطلاقا من "مرسى آسفي" في ثبج المحيط ووصلوا إلى بعض الجزر النائية كل ذلك انسياقا مع ما أشيع آنذاك خاصة بالأندلس من احتواء غرب " المحيط الأطلنطيكي" على جزر مكثفة تستحيل في نهاية المطاف إلى أرض يابسة شاسعة وقد كان للدراسات الميدانية التي قام بها ابن ماجد أسد البحر الهائج ربان ماهر من رأس الخيمة بالخليج العربي أثر

فعال في توجيه الرحلات البحرية التي قام بها أوربيون عبر المحيطات ومنهم ماجلان البرتغالي (Magellan) الذي حاول عام

(1/1258)

1519 م الوصول إلى أمريكا الجنوبية واكتشف المضيق الذي يحمل اسمه وهو البوغاز الفاصل بين جنوب أمريكا من أرض النار (Terre de feu) ووصل إلى المحيط الشرقي الذي سماه بالهادئ وقبله فاسكو دوكاما الذي اكتشف طريق الهند عام 1497.

والواقع أن الموحدين الذين انطلقوا من الأطلس الكبير بالمغرب الأقصى لتوحيد المغرب العربي هو الذين واصلوا حمل مشعل الإسلام في البحر المتوسط الذي ظل العرب وحدهم سادته (1) طوال أكثر من قرنين وقد لخص (ابن خلدون) هذه الظاهرة بقوله :

---

(1) جوستاف لوبون، حضارة العرب، الطبعة الفرنسية، ص.284.

(1/1259)

" (وكانت لهم في المائة الخامسة الكرة بهذا البحر (أي الرومي، أو العربي) وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام إلى أن انقطع ولم يعتنوا بشيء من أمره لهذا العهد بعد أن كان لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في أخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك وبقيت بإفريقية والمغرب فصارت مختصة بها وكان الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد موفور الأساطيل ثابت القوة لم يتحيله عدو و لا كانت لهم به كرة فكان قواد الأسطول به (لعهد لمتونة) بني ميمون (1)

---

(1) ذكر ابن خلدون في تاريخه (ج6، ص.161) أحمد بن ميمون قائد أسطول المرابطين عام 416هـ الذي غزا صقلية وكذلك محمد بن ميمون.

وكانت المنارات البحرية في عهد أبي الحسن المريني ممتدة بين أسفي ومدينة الجزائر (ابن مرزوق، "المسند" مجلة هسبريس، عام 1925 ،ص.61)

(1/1260)

رؤساء جزيرة قادس ومن أيديهم أخذها عبد المومن وانتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من بلاد العدوتين

جميعا، ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوت العدوتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلي...) إلى أن قال : (وانتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه...) وهنا أشار إلى أن صلاح الدين الأيوبي ملك مصر والشام لما تتابعت أساطيل النصارى ضد ثغور الشام لم تقاومهم أساطيل الإسكندرية فأوفد الأيوبي

(1/1261)

ليعقوب المنصور عبد الكريم ابن منقذ (من بيت بني منقذ ملوك شيرز الخ).

نعم استطاع عبد المومن بقطع بحرية بلغت الأربعمائة (1) تشكيل مليشية بحرية لمحاربة القراصنة المسلمين والمسيحين تعزيزا للنشاط التجاري في المتوسط وتخليص إفريقية من النورمانديين والضرب على أيدي الهلاليين والسليميين بعد أن بنى أعظم قاعدة استراتيجية في المتوسط هي قاعدة جبل طارق في (سنة الأخماس) (555 هـ/ 1160) وقد رابطت منها في مرسى المعمورة بحلق البحر على

---

(1) ابن أبي زرع (القرطاس، ج 2، ص.164 ؛ الاستقصا، ج 1، ص.158 و ج 2، ص.128).

وادي سبو قرب سلا وحدها مائة وعشرون قطعة وقد جعل أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن من هذا الأسطول أعظم أسطول في المتوسط (1) .

وقد ازدهرت حضارة جديدة في البحر المتوسط من الأندلس إلى ليبيا إلى الصحراء بزعامة يعقوب المنصور منذ ظفره على الصليبية المتكتلة في وقعة الأرك (591 هـ/ 1195 م) أي بعد (وقعة حطين) بثمانية أعوام وشعر البابا إينوسان الثالث (Innocent III) بالخطر الداهم فتكاثفت البابوية مع ملك قشتالة (ألفونس الثامن) (1158 – 1164 م) وأسقف طلطلية (

---

(1) اندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية،ص. 412.

رودريك جيمنيز) للهجوم من جديد على الإسلام المتوثب في (وقعة العقاب) (609 هـ/ 1212 م) التي كانت هزيمة

شنعاء ضعضعت مقومات الإمبراطورية الموحدية في الغرب في نفس الوقت الذي بدأ المسيحيون يندحرون في مصر خلال الحرب الصليبية الخامسة (616 هـ/ 1219 م) حيث طردوا نهائيا من الأماكن المقدسة بعد (معركة غزة) (642هـ/ 1244 م) واتجه المرينيون يلمون الشمل معيدين للبلاد وحدتها في حدودها الإفريقية مع الحفاظ على جانب من الأسطول مكنهم من الجواز مرارا إلى الأندلس لإنقاذ الدولة النصرية (دولة بني الأحمر) التي ضيق

(1/1264)

عليها الخناق (ألفونس العاشر).

وفي عام (684 هـ/ 1285 م) نزل السلطان يعقوب المنصور المريني في (الجزيرة الخضراء) بقصره من المدينة الجديدة التي بناها بإزائها فبرزت الأساطيل وكان عدد قطعها آنذاك ستا وثلاثين متكاملة في عدتها – وهو جالس بمشور قصره فلعبت بمرأى منه في البحر وتجاولت وتناطحت وتطاردت كفعلها مع العدو ساعة الحرب (1) .

وظلت سبتة منطلق الإنقاذ إذ عندما حدث الخلاف بين يعقوب المنصور المريني وابن الأحمر عام (678هـ/ 1279

م) تجمعت بمرفأ سبتة أساطيل منها خمس وأربعون قطعة

---

(1) الاستقصا،ج 2، ص.30.

لأبي حاتم العزفي واثنتا عشرة لابن الأحمر انطلقت من المنكب وألمرية ومالقة وخمس عشرة قدمت من بادس وسلا وأنفا التحمت مع أربعمائة قطعة للعدو فملكتها وأسرت قائدها (الملند) الذي نقل أسيرا إلى فاس (1) وكان أبو الحسن بن كماشة قائد البحر بسبتة عام (409 هـ/ 1309 م) أيام استيلاء بني الأحمر على المدينة وعندما عاد أبو الحسن المريني عام (750 هـ/ 1349 م) من تونس بعد مقام طال عاما ونصفا وبعد أن عقد لابنه أبي الفضل نزل أسطوله بمرسى بجاية بعد خمس ليال من إقلاعه من تونس ثم أبحر من جديد فتكسرت

---

(1) نفسه،ج2،ص.25.

أجفانه وقذف الموج بالسلطان على حجر قرب الساحل م بلاد (زواوة) حيث تداركه جفن من بقية الأساطيل وكانت الأساطيل (حسب " نفح الطيب") نحو (الستمائة) غرقت كلها وهلك من أعلام المغرب نحو أربعمائة عالم منهم (محمد بن سليمان السطي) شارح " الحوفي" و (محمد بن الصباغ المكناسي) وأبو العباس (الزواوي) وقد ذكر الآبي في شرح "مسلم" عند كلامه على أحاديث العين أن مصاب هذا الأسطول بنظرة عائن كان معروفا بتلك الديار (1) وكان ابن فرحون زيد هو قائد أسطول بجاية أيام الحفصيين وقد شارك (2)

---

(1) نفسه، ج2،ص.84

(2) نفسه، ج2،ص.66.

بست عشرة قطعة بحرية في (وقعة طريف) عام (740 هـ/ 1339 م).

والأسطول المريني قد ورد وصفه في رحلة أبي عنان المريني المسماة" فيض العباب"لإبراهيم بن عبد الله المعروف بابن الحاج مع ذكر أسماء بعض رؤسائه وشاراته وأعلامها وموسيقاهم، أما الأسطول السعدي فلم

يكن له دور كبير في الحروب ولكنه استفاد ماديا من هجمات القراصنة على شواطئ الأندلس وكان وجوده يشكل وسيلة ضغط على إسبانيا والبرتغال اللتين كانت تذكران ما قام به الأسطول في عهود المرابطين والموحدين والمرينيين وكان قد مر قرنان إثنان على انهيار الأسطول

(1/1268)

المريني في عهد أبي الحسن فكانت المحاولة الجديدة عام (956 هـ/ 1549 م) جديرة بإثارة الانتباه وكان لربابنة المغرب صيت كبير في الشرق العربي جعلت السلطان شعبان المملوكي يختار لرياسة الصناعة بالإسكندرية عام (769 هـ/ 1368 م) الرايس إبراهيم التازي وقد أصبح القراصنة يعيشون في البحار وفي مراسي المغرب فرابط منهم أتراك الجزائر في (العرائش) حيث امتدت أوكار قرصانية في موانئ أخرى كتطوان وبادس بل إن القرن الخامس عشر الميلادي أي التاسع الهجري شهد استيلاء البرتغاليين على معظم المراسي في مصبات الأنهار المغربية

(1/1269)

الأمر الذي حال دون قيام أسطول مغربي وقد بدأ ذلك باحتلال سبتة عام (818 هـ/ 1415 م) فلهذا حاول محمد الشيخ السعدي تكوين (أسطول بحري) بالإضافة إلى وحدات كانت في ملك رؤساء تطوان وبادس بالريف قرب غابات البلوط والأرز والصنوبر وورش آخر في سلا وقد بنيت أربعة مراكب في بادس وأربعة أخرى في سلا عام (956هـ/ 1549 م) بالإضافة إلى مركبين مجذافيين أو شراعيين وثلاثة مراكب مجذافية وطلب محمد الشيخ من أبي حسون الوطاسي أمير بادس التعاون معه على صنع (مائة مركب) و (مائة أخرى) مسطحة لنقل الجند ولكن أبا حسون لم يكن

(1270/1)

يثق بالسلطان السعدي ففر إلى مليلية في نفس السنة ولعل السعديين كانوا يستهدفون من أسطولهم تحرير الجيوب البرتغالية الثلاثة التي كانت تقاوم خلال الحصار نظرا لما يتوارد عليها من إمدادات من جهة البحر ولكن الحرب التي نشبت بين الأتراك والسعديين عام (959 هـ/ 1551 م) وتهديد الأتراك للمغرب حال دون

استمرار السعديين في تعزيز أسطولهم فاضطروا إلى مهادنة الإسبان والبرتغال.

ففي عهد (عبد الله الغالب بالله) كان الأسطول الحربي يتوفر على نحو ثلاثين مركبا بلغت الأربعين ضد بداية ثورة الأندلسيين في جبال غرناطة عام (

(1271/1)

---

976 هـ/ 1586 م) وقد تعزز الأسطول السعدي بالأجفان الجهادية التي يصفها الغربيون بالسفن القرصنية والتي كانت تهاجم السواحل الإسبانية انتقاما من الاسبان الذين طردوا الأندلسيين من آخر معقل لهم بغرناطة آخر القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري) ومهما يكن فإن الأسطول احتفظ بهذا العدد من القطع عام (985 هـ/ 1577 م) في عهد (المولى عبد المالك ولم يكن أسطول (دايات) الجزائر أكثر عددا ولكنه كان أجود نظرا لتقلص التقاليد البحرية بالمغرب خلال قرنين ومع ذلك فالمهم هو شعور الملوك السعديين بأن تعزيز وضعهم في

(1272/1)

إفريقيا والبحر المتوسط لا يمكن أن يتم بدون أسطول إذ بفضل هذا الأسطول اضطر البرتغاليون إلى الجلاء عام (957هـ/ 1550 م) عن مراكز قوية في الساحل المغربي مثلا أصيلا والقصر الصغير وهنا شعر المنصور السعدي بالخطر البرتغالي الذي كان يهدد المغرب من الجنوب انطلاقا من (نيجيريا) التي كان البرتغاليون يحتلونها فبادر باحتلال ما وراء تخوم المغرب الجنوبية إلى السودان للوقوف في وجه البرتغاليين لهذا لم يعد للأسطول وجود بالمغرب بعد ذلك رغم انتصاره في معركة وادي المخازن عدا أسطول القراصنة بعدوتي سلا والرباط في

(1/1273)

الفترة المتراوحة بين (1040 هـ/ 163 م) و (1050 هـ/ 1640م) حيث بلغت وحداته الحربية نحو ثلاثين امتد نشاطها القرصني إلى ايرلندا شمالا والجزر الخالدات جنوبا (1) .

ولم يكن لأحمد المنصور في مرسى العدوتين مراكب لمحاربة الاسبان (2) وقد أشار صاحب "تاريخ الدولة السعدية" إلى الأسطول السعدي في العرائش والعدوتين وحاول مولاي زيدان بعد معاهدة (1610 م/ 1019 هـ) بين

المغرب وهولندا تكوين أسطول وقد صنعت بالفعل قطع أولى من الأسطول هي ثلاث سفن وقيل خمس (3)

---

(1) هسبريس – تمودة ، م 3، 1972

(2) دوكاستر، ص1، م1،ص. 504

(3) درة الحجال، ج1، ص.313.

(1274/1)

كما وصل إلى أسفي أربعة مراكب (1) وقد هاجم الإسبان هذا الأسطول في مرسى العدوتين (2) وفي عام (1019 هـ/ 1610 م) توجه القائد أحمد بن عبد الله إلى (روتردام) بهولندا وطلب تزويد السلطان بعدة سفن حربية فوافق المجلس على ذلك وقرر إنشاء ثلاثة أو أربعة مراكب من حمولة مائتي طن مع تجهيزها بالملاحين والمدافع وعين لها قائد أعلى هو (Martin Van Rysbergen) مع إمكان تزويد المغرب بالربابين والسفن والعتاد وقد أمضيت في (20 دجنبر 1610

---

(1) دوساستر ، س.أ. هولندا ، م2، عام 1612؛ فرنسا م2؛ عام 1611.

(2) م2، فرنسا،ص.534.

م / 1019 هـ) معاهدة ضمنت عدم تصادم مراكب البلدين في البحر وعدم بيع أسلاب القراصنة ضد السفن الهولندية في أسواق المغرب، ويظهر أنه بعد أن طلب السلطان مولاي زيدان من فرقاطتين أي حراقتين (1) وقد وجهتا إلى المغرب بخفارة بارجة عام (1622 م) ولكنهما وصلتا إلى مياه إنجلترا وعادتا لعدم استطاعتهما مواجهه أمواج عرض المحيط أما بخصوص المراكب الأخرى في المتوسط فقد نقل محمد داود في تاريخ تطوان (2)

---

(1) دوكاستر، س.أ ، السعديون، ج3، ص.188 و 371.

(2) ج1، ص.392 ط تطوان 1379 . راجع : "حق تملك حطام السفن في العهد السعدي" في دوكاستر، السعديون، السلسلة الأولى،م1، ص.186.

عن "رحلة" محمد بن علي الرافعي إلى الحجاز أن المؤلف نزل بجزيرة (رودس) التركية في مركب الرئيس محمد عروج فوجد في الجزيرة ثلاثين سفينة منها واحدة فيها

خمس طبقات و 75 مدفعا من النحاس وأن تلك السفن صنعها السلطان (محمد خان) بالقسطنطينية.
وكانت الأساطيل القرصنية محط رعاية المولى الرشيد بمصب أبي رقراق لأنها كانت تشكل حاجزا دفاعيا ضد المغير الأوربي الذي بدأ يتعلل آنذاك بأبسط الأسباب للتدخل في المغرب وكان هذا الأسطول يقض مضاجع الغربيين الذين انبثوا على الساحل فالأنجليز في طنجة والبرتغاليون في البريجة (

(1277/1)

الجديدة) والإسبان في المعمورة (مهدية) وأصيلا والعرائش بينما كان الفرنسيون يمخرون بسفنهم الحربية على طول المراسي المغربية بين الريف ومصب الملوية عباب البحر الأبيض المتوسط حيث حصن المولى الرشيد مرسى الحسيمة (أو المزمة) وحجرة نكور وصارع الإنجليز الذين كانوا يعملون وراء الخضر غيلان.
و أول من وضع الأسس لبناء أسطول وطني قوي في العهد العلوي سيدي محمد بن عبد الله كان للمغرب في عهده (حسب الناصري) خمسون سفينة منها ثلاثون حراقة (أو فرقاطة) بقيادة ستين رئيسا أو ضابطا يشرفون على خمسة آلاف بحار وألفين من

الرماة إلا أن الرحالة هوست (Host) أوصل عدد هذه المراكب إلى انثي عشر فقط وقد انحدرت عام (1180 هـ/ 1766 م) إلى عشرة حسب شيني ( ) (1Chénier) ويظهر أن الأسطول

(1) مذكرة القنصلية الفرنسية العامة، الدار البيضاء عام 1943، ص.103.

وقد وجه محمد الثالث سفيره الضابط البحري الحاج التهامي الرايس عام (1177 هـ/ 1763 م) إلى السويد لشراء مواد بناء السفن والبارود كما وجه سفيره عبد الكريم ركون عامي 1167 هـ/ 1768 م إلى الأستانة لشراء قطع المدافع والبارود والعتاد وجلب خبراء ربانيين ورماة وإحياء دار الصناعة بسلا.

العلوي ارتفع بعد بضع سنوات أي (1185 هـ/ 1771 م) إلى عشرين قطعة وهكذا شرع السلطان سيدي محمد بن عبد الله منذ بداية عهده في صنع مراكب في (دار

الصناعة) بأبي رقراق جهز كل واحد منها ببطاريات يبلغ عدد مدافعها ما بين (26) و (36) على أن بعض المراكب مثل الحراقة التي كانت تحت إمرة الرايس الطرابلسي بلغ عدد مرافعها (خمسة وأربعين) وكانت بتطوان أيضا دور لصناعة السفن في العهد العلوي وقد وجه السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى كل من (السويد) و (إنجلترا) شبانا من مدينة الرباط للتدريب على بناء السفن

(1280/1)

والمراكب كما وجه ستمائة رجل من (آية عطا) بالصحراء وأربعمائة من تافلالت إلى طنجة للتمرن على المناورات البحرية (1) .

والواقع أن السلطان محمد بن عبد الله ركز مقومات الحضارة وواصل تحرير الثغور وكون أسطولا قوامه خمسون سفينة معظمها حراقات حربية تحتوي على ستين قائدا" وأربعين ألف" بحار ووطد العلاقة مع الدول الإسلامية والدول الأوربية على السواء وأمضى معاهدات مع الولايات المتحدة التي كان أول من اعترف بها ومع أمم بروتستانتية كالدول الأسكندنافية تحقيقا للتوازن مع الدول

(1) Caillé ، تاريخ الرباط، ص.132.

(1281/1)

اللاتينية الاستعمارية ومدافعة للبابوية الناقمة وكانت أوربا في غمرة من الاضطرابات زادها تأججا انبثاق الاستعمار الناشئ والتسابق نحو غزو الشرق الأقصى وتعزيز الصناعة الأوربية بمواده الأولية بينما كانت الإمبراطورية العثمانية تسير في طريق الأفول تحت ضربات الأحلاف الأوربية – وخاصة منها الحلف المقدس (Sainte - Alliance) عام (1815) – التي أدت إلى تجريد ملك المغرب (سليمان بن محمد بن عبد الله (1206 هـ/ 1238) – (1790 – 1820) من أسطوله بدعوى مساندته للقراصنة وحاول (نابليون) آنذاك الضغط على المغرب

(1282/1)

للانضمام إلى كتلة الحصار القاري (1) وشعر العرش المغربي بالدور الذي بدأت فرنسا تقوم به لاحتلال الشمال الإفريقي.

وفي نفس الفترة كانت بعثة من الخبراء الأتراك تقوم بتكوين رماة الجيش المغربي وفي (1204 هـ/ 1789 م) وأواخر أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله كانت البحرية المغربية تتكون من 6 إلى 8 فركاطات تحتوي على مائتي فجوة للمدافع بالإضافة إلى 14 أو 18 مدفعا وغليونة وهي مراكب شراعية صغيرة وفي أول عهد مولاي سليمان عام (1208 هـ/ 1793 م) بلغت عشر فراكيط وأربع قلعية شرعية

---

(1) Caillé، تاريخ الرباط، ص.132.

وأربعة عشر غليونة وتسعة عشر مركبا مدفعيا مجهزة بستة آلاف مدفعا مجهزة بستة آلاف بحار ممتاز وفي عام (1299 هـ/ 1620 م) ثلاث قلعيات وأربعين مدفعا وثلاثة عشر مدفعيا (1) وكانت البحرية الملكية تتوفر عام (1793 م / 1208 هـ) عند اعتلاء المولى سليمان على عشر حراقات (أو فرقاطات) و أربع قلعيات (أي سفن شراعية ذات قلوع) وأربعة عشر غليونا (مثل الذي كان الهولنديون يستعملونها للصيد) وتعسة عشرة من زوارق الإنقاذ المجهزة بالمدافع كل ذلك بتعزيز من

ستة آلاف بحار من

---

(1) كودارج، وصف وتاريخ المغرب، ج 1، ص.156.

الملاحين ذوي الشهرة والصيت (1) وقد اعترض الأسطول المغربي عام (1217 هـ/ 1803 م) الأسطول الأمريكي المحاصر لطرابلس ففك هذا الحصار ثم بدد الأسطول المغربي عمارة ثانية (2) وفي نفس هذه السنة عقد المولى سليمان الصلح مع الولايات المتحدة على يد الإنجليز لفك الأسارى مع رئيسهم إبراهيم لباريس وعلي بن عبد الرحمن الزناتي ("تاريخ الضعيف" ،ص.326) وكانت مدة اجتياز السفن لعرض البحر الفاصل بين فرنسا والمغرب يتطلب فترة طويلة فقد قطعت السفينة

---

(1) المصدر نفسه، ص.136.

(2) محمد بن علي الدكالي، جريدة المغرب، رقم346.

الفرنسية التي حملت سفير فرنسا لدى المولى إسماعيل سانت – أولون (S.Olon) في مايه (1963) ثمانية وعشرين يوما بين فرنسا وفرضة تطوان (1) وكانت السفن تدعى أحيانا باسم خاص مثل (غراب دار الصنعة) الذي تحدث عنه خالد البلوي في رحلته (" تاريخ المفرق") حيث ركب فيه من ألمرية إلى الحج عام (735 هـ/ 1334 م) فنقله من ألمرية إلى (هنين) (2)

---

(1) وثائق دوكاستر، ص.2؛ الفلاليون ، فرنسا م 4، ص.1963 – 1698 .

(2) مرسى هنين مركز في ساحل تلمسان توجد فيه بلدة (تاجرة) التي ينتمي إليها عبد المومن بن علي (معجم البلدان ، ج 8، ص.484) أنشأ جامعها أبو الحسن المريني.

(1286/1)

وقد تطور على نفس النسق الأسطول الرحماني (1243 هـ/ 1827 م) بين المد والجزر.

(1287/1)

الأسانيد القانونية المثبتة تبعية الجزر العربية الثلاث لدولة الإمارات العربية المتحدة

المستشار عبد الوهاب

قاضي بالمحكمة الاتحادية العليا – أبو ظبي

مقدمة

في الساعة الثنية والنصف من صباح يوم 1971/11/30 **اجتاحت القوات البحرية الإيرانية – قبل فقط من إعلان قيام دولة الإمارات العربية المتحدة وإنهاء معاهدات الحماية البريطانية لمشيخات ساحل عمان، الحدود البحرية المتحدة لإمارتي الشارقة ورأس الخيمة إثر هجوم غازية ثلاث جزر عربية في الخليج العربي هي : أبو موسى، طنب الكبرى وطنب الصغرى ومعلنة احتلالها**

(1288/1)

(استرجاعها إلى الوطن الأم بعد أن اقتطعها بريطانيا قبل ثمانين عاما كما جاء في الخطاب السياسي الإيراني)،

... وقد أثار الاحتلال الإيراني للجزر الثلاث ردود فعل عربية محلية وإقليمية على المستويين الرسمي والشعبي تمثلت في إصدار العديد من بيانات الشجب والاستنكار، واندلاع المظاهرات في معظم عواصم العال

العربي، فضلا عن تحرك دبلوماسي تمثل في تقديم شكوى إلى مجلس الأمن الدولي والجامعة العربية.

... ولحد الآن، ورغم مرور أكثر من ثلاثة وعشرين عاما على احتلالها، فلا زال ملف هذه المشكلة مفتوحا ودون حل، وقد أثبتت

(1289/1)

الأحداث أن مثل هذه المشاكل تكون دائما مصدر تهديد خطير للأمن والسلم الدوليين. فالادعاءات الإيرانية في شط العرب أدت إلى حرب ضروس بين العراق وإيران استمرت ثمانية أعوام)حرب الخليج الأولى) والادعاءات العراقية في الكويت أدت إلى اجتياح العراق للكويت واحتلالها وما ترتب على ذلك من نتائج وخيمة أبرزها اندلاع حرب دولية في الخليج العربي (حرب الخليج الثانية).

... ورغم أن الحكومة الإيرانية قدمت عدة تبريرات يستند بعضها على التمسك بفكرة الحق التاريخي، ويستند بعضها الآخر على مقولة الاعتداد بالمصالح ذات الطبيعة

(1290/1)

السياسية سعيا منها لإضفاء المشروعية على احتلالها، إلا أن تبريراتها ظلت عاجزة عن أن تقدم أساسا صالحا يمكن الارتكاز عليه لإضفاء المشروعية على احتلالها.

... وبالمقابل فإن دولة الإمارات تؤسس حقها في استرجاع جزرها المحتلة على أسانيد تاريخية وسياسية وجغرافية وقانونية تقطع جميعها بعروبة الجزر وتبعيتها الواقعية والقانونية لها. ولما كان تناول كافة هذه الأسانيد بالشرح والتحليل والتعقيب يقتضي من الباحث فيها معرفة تامة بأحداث التاريخ ووقائعه وخفايا السياسة ومجاهلها، ومعطيات الجغرافية وحقائقها، وفقه القانون

(1291/1)

وحكمه وهو ما لا ندعيه ومن ثم فإن الحديث في هذه الورقة سيقتصر على شرح موجز – بقدر المعلومات المتواضعة لمعد هذه الورقة – عن الأسانيد القانونية المثبتة تبعية الجزر الثلاث لدولة الإمارات العربية المتحدة لما هذه الأسانيد من أهمية علمية في النزاع

القائم بين إيران ودولة الإمارات العربية المتحدة حول الجزر الثلاث.

... بيد أنه وقبل الولوج في بيان الأسانيد القانونية، فإنه من المستحسن التعرض ولو بشيء من الإيجاز للموقع الجغرافي للجزر وأهميتها الاستراتيجية، وذلك بغية الوصول إلى فهم أفضل لطبيعة النزاع من

(1/1292)

جانبه الاستراتيجي.

ا– الموقع الجغرافي للجزر العربية الثلاث

1– جزيرة أبو موسى :

... وهي إحدى الجزر التابعة لإمارة الشارقة، (إمارة الشارقة إحدى الإمارات

الأعضاء في الاتحاد). تقع جزيرة أبو موسى على بعد (94) ميلا من مدخل الخليج

العربي (مضيق هرمز) قبالة ساحل إمارة الشارقة، وتبعد عن مدينة الشارقة على

الساحل الغربي للخليج العربي بحوالي (45) ميلا تقريبا و (50) ميلا تقريبا عن الساحل الشرقي للخليج.

... والجزيرة ذات شكل طولي تبلغ مساحتها حوالي (35)

كيلومترا مربعا. بتكون سطح الجزيرة من سهول منخفضة خالية

(1293/1)

من الأشجار عدا بعض المساحات القليلة التي تتواجد قرب آبار المياه العذبة. ويوجد على أرض الجزيرة مرتفع ذو صخور بركانية يزيد ارتفاعه عن (500) قدم.

... تمتاز الجزيرة باعتدال مناخها صيفا ودفئها شتاء حيث عليها الأمطار في فصل الشتاء فنبتت فيها الأعشاب الصالحة للرعي. تحتوي أراضي الجزيرة على معادن كثيرة أهمها البترول وأكسيد الحديد الأحمر وكبريتوز الحديد.

... كما تمتاز الجزيرة بعمق المياه المحيطة بها لتتيح فرصة جيدة لصيادي الأسماك من الاصطياد بها، حيث يبيعون ما يصطادونه، إما للسفن العابرة للجزيرة أو في

(1294/1)

أسواق الشارقة ودبي وأبو ظبي.

... يقطن الجزيرة حوالي ألف وسبعمائة نسمة جميعهم

من العرب الأصليين الذين ينتمون إلى القبائل العربية في الساحل الغربي، ويعمل معظمهم في مجال الصيد والنقل البحريين، وإلى جانب سكان الأصليين يسكن الجزيرة بعض أبناء الدول العربية الذين يعملون في مجال التدريس والصحة، وبعض الآسيويين الذين يؤدون أعمال خدمية، وفي السنوات الثلاث الأخيرة شجعت إيران موظفيها في الجزيرة على استقدام عائلاتهم للسكن والإقامة فيهما.

2- جزيرة طنب الكبرى :

(1295/1)

... وهي إحدى الجزر التابعة لإمارة راس الخيمة، وتقع هذه الجزيرة على مدخل مضيق هرمز إلى الشمال من جيرة أبو موسى وتبعد عنها حوالي (50) كيلومترا، وتبعد عن رأس الخيمة بمسافة (75) كيلومترا وعن الساحل الشرقي للخليج مسافة (50) كيلومترا، تبلغ مساحتها حوالي (20) كيلومترا مربعا.

... تمتاز الجزيرة بسطحها المنبسط، وتوفر المياه العذبة والمراعي فيها.

... وقبل احتلالها كان يسكنها حوالي سبعمائة شخص من

العرب الذين ينحدرون من قبائل تميم وحريز، وقد قامت إيران بتهجيرهم قسرا إلى رأس الخيمة.

(1/1296)

تتوفر الجزيرة على معدن النفط، وتوجد بعض الأجهزة الخدمية كالمدارس والعيادات ومركزا للشرطة وفنارا لإرشاد العابرة للخليج أقيم عليها عام 1912 بموافقة حاكم رأس الخيمة آنذاك سالم بن سلطان القاسمي.

3- جزيرة طنب الصغرى :

... وهي إحدى الجزر التابعة لإمارة رأس الخيمة أيضا، تقع هذه الجزيرة عند مضيق هرمز على بعد (10) كيلومترات غرب جزيرة الكبرى، تقدر مساحتها باثني عشر كيلو مترا مربعا.

... تبعد جزيرة طنب الصغرى عند الساحل الشرقي للخليج العربي حوالي (45) كيلومترا، وعن الساحل الغربي حوالي (81)كيلومترا. تتكون

(1/1297)

أراضيها من تلال صخرية داكنة اللون تقع في أطرافها الشمالية.

... والجزيرة مجدبة وغير مأهولة بالسكان نظرا لعدم توفر المياه العذبة فيها، يلجأ إليها الصيادون عند اشتداد الرياح وتشير التقارير الأولية لبعثات التنقيب عن النفط إلى وجود كميات كبيرة من هذا المعدن فيها.

II – الأهمية الاستراتيجية للجزر العربية الثلاث

... تستقي الجزر العربية الثلاث أهميتها الاستراتيجية من الأهمية الاستراتيجية للخليج ذاته. فعبر بوابة هذا الخليج (مضيق هرمز) يمر 86٪ من صادرات نفط الشرق الأوسط إلى العالم الصناعي، ومن دوله تستورد

(1298/1)

الولايات المتحدة الأمريكية ما يزيد على 60 ٪ من احتياجاتها البترولية. وتختزن دولة في باطن أراضيها أكبر مخزون نفطي في العالم.

... وعبر هذه البوابة تصل إلى دول الخليج أكثر من 45 ٪ من صادرات الدول الصناعية، فضلا عما يمثله موقع الخليج الجغرافي كمنطقة لطرق المواصلات البحرية بين آسيا وإفريقيا وأوروبا.

... ووسط هذه المعطيات تأتي الأهمية الإستراتيجية للجزر الثلاث. فبحكم موقعها الجغرافي في الخليج تتحكم هذه الجزر في الممرات الملاحية الدولية في الخليج

(1299/1)

العربي المحددة من طرف المنظمة البحرية الاستشارية بين الحكومات (الأمكو) فقد حددت هذه المنظمة الممرات الملاحية في الخليج العربي في ثلاث مناطق هي :

1- منطقة مضيق هرمز

2- منطقة جزر الطنب فارور

3- منطقة رأس تنورة

... تقع المنطقة الثانية في الجهة الجنوبية للخليج العربي باتجاه غرب مضيق هرمز، وتمتاز بكثرة وأهمها جزر طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى وصري وفارور، إضافة إلى عمق مياهها وكثافة حركة الملاحة فيها وازدحامها، ولذلك فقد رسمت (الأمكو) خطين لمرور السفن فيها يقع الخط الأول في الشرق ويتجه نحو الخليج

(1300/1)

العربي، بينما يقع الخط الثاني في الغرب ويتجه خارج الخليج العربي وقد أنشأت (الأمكو) ممرات ملاحية في الخطين المشار إليهما.

... وبسبب كثافة حركة الملاحة في المنطقة الواقعة بين مدخل مضيق هرمز وحتى جزيرة فارور، فإن الملاحة فيها تخضع للقواعد وضعتها منظمة (الأمكو)ن وبموجب هذه القواعد فهناك مسار للسفن الداخلة إلى الخليج ويحاذي هذه المسار الساحل الإيراني، ومسار آخر للسفن الخارجة من الخليج ويحاذي الساحل العربي، ويبعد هذا المسار الخارج من الخليج شمالا عن جزيرة طنب الكبرى وطنب الصغرى تشرفان على المسارين ،

(1301/1)

بينما يشرف الجزء الشمالي من جزيرة أبو موسى على الجهة الجنوبية للمسار البحري الخارج من الخليج، ولذا فإن معظم القوات الإيرانية التي تحتل الجزيرة اتخذت مواقعها في شمال الجزيرة وذلك لما يمثله هذا الجزء من أهمية استراتيجية كنقطة إشراف ومراقب على خطوط الملاحة الدولية في الخليج.

... فالجزر العربية الثلاث إذن في مواقعها هذا أشبه بالصمام الذي يتحكم في الشريان المائي والملاحي الذي

يمثله الخليج العربي المرتبط ببحر العرب والمحيط الهندي من جهة الشرق والبحر الأحمر من جهة الغرب.

(1302/1)

... وبحكم موقعها الجغرافي أيضا فإن الجزر العربية الثلاث صالحة للاستخدامات العسكرية، وهذا ما فعلته إيران مؤخرا في جزيرة أبو موسى حيث عززت قواتها العسكرية في الجزيرة وزادت أعداد العسكريين فيها من 120 إلى 500 عسكري ونصبت قواعد لصواريخ سيلك وروم وأنشأت مطار عسكريا.

... وفي إطار الأهمية الإستراتيجية للجزر، فإن الجزر الثلاث تتوفر على بعض المعادن والتروات الطبيعية كالبترول وأوكسيد الحديد الأحمر ومصائد الأسماك واللؤلؤ الطبيعي.

(1303/1)

III – الأسانيد القانونية المثبتة تبعية الجزر الثلاث لدولة الإمارات العربية المتحدة

... دون ما بحق عن الدوافع التي حدث بإيران على

المطالبة بالجزر العربية الثلاث، ومن ثم احتلالها بالقوة العسكرية في الثلاثين من نوفمبر عام 1971، فإن الذي لا خلاف عليها أن عروبة الجزر الثلاث وتبعيتها لقواسم عمان (الشارقة ورأس الخيمة) لم تكن محل إنكار أو اعتراض من جانب الحكومات الفارسية المتعاقبة .

... وأول مطالبة فارسية بملكيتها وتبعيتها لفارس جرت في عام 1887 م على أساس أنها من ملحقات إمارة لنجه التي أصبحت منذ هذا

(1304/1)

التاريخ جزءا من أراضي التاج الفارسي (1)

---

(1) لنجة : إمارة عربية ظهرت على الساحل الشرقي للخليج العربي ضمن إمارات عربية أخرى، وقد آل أمر الحكم فيها إلى أسرة القواسم منذ القرن السابع شعر وحتى سوقطها عام 1887م. عرف حكامها القواسم بـ "قواسم الساحل الشرقي" تمييزا لهم عن أبناء عمومتهم قواسم عمان "الشارقة ورأس الخيمة".

من أشهر حكام هذه الإمارة القاسمية الشيخ قضيب بن راشد بن مطر القاسمي وابنه الشيخ محند بن قضيب، والشيخ سعيد بن قضيب والشيخ خليفة بن سعيد

القاسمي وابنه الشيخ محند بن قضيب، والشيخ سعيد بن قضيب والشيخ خليفة بن سعيد القاسمي وابنه الشيبخ علي بن خليفة القاسمي والشيخ محمد خليفة القاسمي.

تولى حكم هذه الإمارة في الفترة (1874– 1886) أحد أعيان الأسرة القاسمية ويدعى يوسف بن محند الذي عين وصيا على الشيخ يوسف بن محمد الطي عين وصيا على الشيخ علي بن خليفة فخان الثقة التي أولتها له الأسرة القاسمية إذ قام باغتيال الشيخ علي قدرا وغيلة، وحكم الإمارة وفي عهده بدا التدخل الفارسي في الشؤون الداخلية للنجة، فكان ذلك بداية النهاية لهذه الإمارة، وهذا ما دعا الحكومة الفارسية إلى القول بان يوسف بن محمد مؤسس السيادة الفارسية عل لنجة وأحد رعاياها.

(1305/1)

،

ثم تبعتها مطالبات أخرى لاحقة خلاب الأعوام :

1904،1925، 1928، 1934،1951،1961،1964

اقترنت بأفعال تمثلت في إنزال العلم الفارسي بدلا منه، وتفتيشها بين الحين والآخر، واحتجازا مراكب

وسفن تابعة لأهالي الإمارات وإجراء المناورات البحرية داخل الجزر وفي مياهها الإقليمية ، وإرسال موظفين إيرانيين إليها لإجراء تعداد سكاني لها ، و إرسال طائرات إيرانية إليها لالتقاط صور لها ... الخ ، وانتهت هذه الأعمال باحتلالها عسكريا عام 1971(1)

---

(1) الواقع أن أطماع إيران في جزر الخليج العربي لها جذور ضاربة في أعماق التاريخ بيد أنها ظهرت بشكل واضح في عهد الدولة الصفوية وبالتحديد في زمن ناصر الدين شاه الصفوي الذي اتخذ سياسة توسعية نشيطة في الخليج العربي، ثم امتدت هذه السياسة التوسعية لتطال الجزر التي كانت تحت السيادة العربية، فاحتلت الجزر التي كانت تحت السيادة العربية، فاحتلت جزر الجسم وهنسجان وفارور و قيس و سري ...الخ، وكانت آخر ثلاث جزر عربية احتلتها إيران عام 1971 هي جزيرة أبو موسى طنب الكبرى وطنب الصغرى في عهد الأسرة البهلوية.

(1306/1)

.. وكانت هذه الانتهاكات تواجه باحتجاجات شديدة من جانب حاكمي الشارقة ورأس الخيمة .

... ومنذ احتلالها ودولة الإمارات العربية المتحدة تسعى جاهدة نحو استرجاعها بكافة الطرق والوسائل السلمية ، وهي في سعيها هذا تنطلق من ثوابت أربعة أساسية هي :

أولا : أن الجزر الثلاث عربية الموقع والتاريخ والثقافة .

ثانيا : إنها جزء لا يتجزأ من تراب دولة الإمارات العربية المتحدة .

ثالثا : إنها محتلة عسكريا من طرف إيران .

رابعا : إن على دولة الإمارات واجب استرجاعها بكافة الطرق والوسائل السلمية .

(1307/1)

... تؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة حقها في استرجاع جزرها على أسانيد تاريخية وسياسية ، وجغرافية وقانونية وتقدم الأسانيد القانونية على المحاور التالية :

1– أسانيد قانونية مبنية على القيمة الاستدلالية للوثائق .

2 – أسانيد قانونية مبنية على القوة الإلزامية لقواعد ومبادئ القانون الدولي

3 – أسانيد قانونية مبنية على الوقائع التاريخية .

4-أسانيد قانونية مبنية على الممارسة الفعلية لمظاهر السيادة الإقليمية .

أولا الأسانيد القانونية المبينة على القيمة الاستدلالية للوثائق

(1308/1)

تتوزع الوثائق إلى ثلاثة أقسام :

أ- الرسائل : وهي ثلاثة أنواع :

... 1 - رسائل متبادلة بين قواسم عمان (الشارقة ورأس الخيمة) وقواسم الساحل الشرقي للخليج (قواسم لنجه) ، وتتضمن هذه الرسائل اعترافات واضحة وصريحة من حكام لنجه بتبعية الجزر الثلاث لقواسم عمان . وتكمن القيمة القانونية لهذه الاعترافات في أنها مبرأة من شائبة الإكراه إذ أنها صدرت من أشخاص ينتمون إلى أسرة واحدة في إطار توزيع عائلي للممتلكات دون ما ضغط أو تدخل من جانب السلطات الفارسية أو البريطانية .

(1309/1)

... وفي هذا الصدد فإن إيران – في إطار تمسكها بفكرة الحق التاريخي كأساس لادعاءاتها بالجزر – تلوح برسائل حاكم لنجه السيد يوسف بن محمد التي بعثها إلى الحكومة الفارسية يقر فيها بتبعية الجزر الثلاث لفارس وبذهابه إليها لجباية الضرائب والرسوم من سكانها باعتبارهم من رعايا فارس ، بالإضافة إلى رسائل أخرى من حكام عرب آخرين – خلاف حاكم لنجه – يقرون فيها بتبعية الجزر الثلاث لقواسم لنجه والحقيقة إن رسائل يوسف بن محمد لا تقوى لأن تكون أساسا صالحا للادعاء لما يشوبها من تناقض ولما يعتريها من ضعف ووهن ، ولما

(1310/1)

أحاط بإصدارها من ظروف سياسية .

... أما رسائل بقية الحكام فإنها من الناحية القانونية لا تعدو أن تكون شهادات سماعية لا تصلح تكون دليلا للإثبات أو للاحتجاج .

... 2 – رسائل متبادلة بين الحكومة البريطانية باعتبارها الدولة الحامية والحكومة الفارسية .

... وهي عبارة عن كم وفير من الخطابات والتقارير والمذكرات المتبادلة بين الحكومة البريطانية ممثلة

في حكومة الهند والمقيم البريطاني في الخليج ،
ولحكومة الفارسية بخصوص النزاع على عائدية الجزر ،
وتتميز هذه الرسائل بصياغتها الدبلوماسية وبتناولها النزاع من

(1311/1)

جوانبه القانونية والسياسية والتاريخية ، وهي إن كانت تعبر عن وجهة نظر بريطانيا باعتبارها الدولة الحامية وصاحبة المصلحة في الخليج والحكومة الفارسية باعتبارها الجهة المدعية ، إلا أنها تلقي الضوء على أسس عائدية
الجزر لدولة الإمارات ، وضعف أساس الادعاء الفارسي ،
وتغطي هذه الرسائل الفترة بين أواسط القرن التاسع عشر وحتى نهاية ستينات هدا القرن .
... 3 – رسائل متبادلة بين حكام الشارقة ورأس الخيمة والسلطات البريطانية في الخليج .

(1312/1)

... ويشمل هذا النوع من الوثائق الرسائل والخطابات المتبادلة بين حكام الشارقة ورأس الخيمة والسلطات البريطانية عندما كانت السلطات الإيرانية تقدم على انتهاك سيادتهم على الجزر الثلاث، ومن أشهرها رسالة الشيخ صقر بن خالد القاسمي المؤرخة 16 / 10 / 1887 إلى المقيم السياسي البريطاني في الخليج احتجاجا على احتلال السلطات الفارسية لجزيرة صري التابعة للشارقة .

... كما تتضمن هذه الرسائل استئذان السلطات البريطانية من حكام الإمارتين في إنشاء بعض التجهيزات في الجزر ، أو الإذن بزيارتها ، أو بإجراء مناورات عسكرية

(1313/1)

فيها .

... وتأتي أهمية هذه الرسائل في أنها تكشف عن مظاهر الممارسة الفعلية للسيادة العربية على الجزر الثلاث منذ بزوغ فجر النزاع .

... ب – الخرائط: في مجال القيمة الاستدلالية للخرائط يفرق عادة بين أنواع ثلاثة من الخرائط، فهناك الخرائط الملحقة بمعاهدات الحدود و المنصوص عليها في صلب

المعاهدة على أنها جزء لا يتجزأ منها ، وبالتالي فهي ملزمة لأطراف المعاهدة إلزام نصوصها .

... وهناك الخرائط الملحقة بمعاهدات الحدود لكن غير منصوص عليها في صلب المعاهدة على اعتبارها جزءا لا يتجزأ منها . وتتمتع هذه الخرائط

(1314/1)

بقيمة قانونية وقة إلزامية أقل و أدنى من قيمة وإلزامية معاهدات الحدود ذاتها ، ولهذا ففي حالة حدوث تعارض بين معاهدات الحدود وهذا النوع من الخرائط فإن الفضلية والغلبة تكون لمعاهدة الحدود .

وأخيرا هناك الخرائط التي تصدرها الدول أو إحدى التوزيعات أو إحدى التوزيعات التابعة لها من حين لآخر لأغراض مختلفة . وما لم تكن الدولة مصدرة الخريطة قد قصدت من إصدارها اتحاد موفق معين في قضية أو نزاع ما فإن هذه الخرائط لا تتمتع بقيمة قانونية أو قوة إلزامية في حد ذاتها ، فهي غير ملزمة للدولة التي أصدرتها ومن باب

(1315/1)

أولى للدول الأخرى التي تعنيها المعلومات المبنية عليها . غير أن تواتر الدولة على إصدار مثل هذا النوع الخرائط قد يستشف منها (أحيانا) موفق الحكومة المصدرة تجاه مسألة حدودها ، لأن هذه الخرائط غالبا ما تمثل وقت إصدارها مفهوم تلك الدولة لحدود سيادتها خاصة إذا ما تأيدت هذه الخرائط بوقائع وأدلة أخرى .

... ومن المؤكد تاريخيا أن السلطات البريطانية لم تبرم معاهدة لترسيم الحدود البحرية بين إمارات الساحل المتصالح سابقا (دولة الإمارات العربية المتحدة حاليا) وبين إيران ، لكن بعض المؤسسات التابعة لسلطات

(1316/1)

الحماية أصدرت لأغراض ملاحية أو تجارية خرائط بينت عليها تبعة الجزر الثلاث ليست جزءا من إيران بل من أراضي دولة الإمارات .

... وحتى عام 1780 كانت خرائط دولية كثيرة تشير إلى عروبة الجزر بل إن الخرائط الصادرة بعد ذلك التاريخ وهي كثيرة أشارت بوضوح في العديد منها إلى تبعية الجزر الثلاث للإمارات . وأبرز مثال على ذلك خريطة أصدرتها شركة خرائط إيرانية عام 1955 أوضحت فيها

أن الجزر الثلاث ليست جزءا من إيران بل من أراضي دولة الإمارات .

(1317/1)

... وفي هذا الصدد تتمسك الحكومة الإيرانية بخريطة أصدرتها البحرية البريطانية في الطبعة الأولى من كتاب " مرشد الخليج " (الفارسي) الصادر عام 1875 ظهرت فيهما الجزر الثلاث بذات اللون الذي أعطته هذه الخريطة للأراضي الفارسية .

ورغم أن الطبعات اللاحقة لهذا الكتاب أظهرت الجزر الثلاث بذات اللون الذي ظهرت به أراضي دولة الإمارات ، ورغم اعتراف بريطانيا أن هذا الكتاب لا يعدو أن يكون دليلا للملاحة في الخليج لا لترسيم حدود دولية رغم أن السلوك اللاحق لبريطانيا ناقض ما ورد في الخريطة المذكورة، إلا أن الحكومة

(1318/1)

الإيرانية لا زالت تتمسك بها كأساس للمطالبة بتبعية الجزر الثلاث

لها .

... ج –مذكرة التفاهم : بعد سلسلة من التهديدات الإيرانية الواضحة والصريحة باحتلال الجزر الثلاث بالقوة ، وتحت ضغوط بريطانية وعربية ، وتحت ظل وطأة الظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت تمر بها إمارة الشارقة آنذاك أبرم حاكمها الشيخ خالد بن محمد القاسمي مذكرة تفاهم مؤقتة مع الحكومة الإيرانية سمحت بمقتضاها بتواجد قوات إيرانية على أجزاء من جزيرة أبو موسى ، وبتحليل بنود الذاكرة يتضح أنها ميزت بين الوجود العربي والإيراني على الجزيرة ، فهي

(1319/1)

تصف الوضع الإيراني بأنه وضع احتلال عسكري (The will occupy area) وأن القوات الإيرانية تضع يدها على أراضي محتلة .Are accupied by iranian troops

... أما وصف المذكرة للتواجد الإماراتي فهو وصف سلمي إذ تقول : (Shrjah will have jusridiction over the remaider of the Island) وتمكن القيمة الاستدلالية لهذه المذكرة أن بنودها – عند تفسيرها على ضوء الظروف التي تم توقيع المذكرة فيها ، وعلى ضوء مبدأ

حسن النية المفترض في تفسير الاتفاقات – تقطع بأن التواجد الإيراني على الجزيرة إنما هو عرض على أصل: فالأصل أن

(1320/1)

السيادة للإمارات والعرض أن الطارئ هو التواجد الإيراني على الجزء الشمالي من الجزيرة .

ثانيا : الأسانيد القانونية المبنية على القوة الإلزامية لقواعد ومبادئ القانون الدولي

... توفر قواعد القانون الدولي ومبادئه المتعلقة بأسس تسوية نزاعات الحدود وغطاءا قانونيا يسند حق دولة الإمارات العربية المتحدة في استرجاع جزرها المحتلة .

ولعل أهم هذه المبادئ :

... أ – مبدأ عدم الاعتداد بالأوضاع الإقليمية الناجمة عن استخدام القوة .

(1321/1)

... يجد هذا المبدأ جذوره في العديد من الاتفاقات الدولية التي حظرت استخدام القوة في العلاقات الدولية أو

التهديد بها .

... ومؤدى هذا المبدأ أن أي مكسب إقليمي يكون ناتجا عن استخدام القوة يعتبر باطلا وغير شرعي ، وبالتالي فلم يعد الفتح سببا مشروعا لاكتساب السيادة على الإقليم ، فالباطل لا يكسب حقا .

وبصدور ميثاق الأمم المتحدة ارتقى هذا المبدأ إلى مصاف القواعد القانونية الدولية الأخرى، إذ يترتب تلقائيا على المادة (2 / 4) من الميثاق عدم جواز الاعتراف بالتغييرات الإقليمية الناجمة عن استخدام القوة .

(1322/1)

... والثابت أن إيران بسطت سيادتها وسيطرتها على الجزر باستخدام القوة العسكرية ، ومن ثم فإن تواجدها على الجزر الثلاث إنما هو تواجد احتلالي غير مشروع .

ب – مبدأ تسوية المنازعات الدولية بالطرق السلمية .

... منذ أن بدأ المجتمع الدولي الاتجاه نحو نبذ القوة كوسيلة لتسوية المنازعات الدولية وهو يفتح السبل ويمهد الطرق أمام الدول لحل منازعاتها على نحو لا تضطر معه لاستخدام القوة ، ولا يتعرض معه الأمن والسلم الدوليين للخطر . فقد جاءت الاتفاقات الكبرى التي أبرمت منذ مؤتمرات لاهاي (1899 – 1907) لتبين طرق

(1323/1)

ووسائل التسوية السلمية لحل المنازعات الدولية في المادة (33 /1) من ميثاق الأمم المتحدة . وطبقا لهذه المادة فإن وسائل التسوية السلمية يمكن إلى نوعين :

... طرق ووسائل دبلوماسية كالمفاوضات والمساعي الحميدة والوساطة والتحقيق والتوفيق ، وطرق ووسائل قضائية كالتحكيم ومحكمة العدل الدولية .

... وفي النزاع الحاصل كان مسار دولة الإمارات مسارا سليما يتناسب مع قدراتها واحترامها للقانون الدولي ، فسعت أولا إلى طرق وسائل التسوية الدبلوماسية ، لكن التعنت الإيراني أفشل كل سعي دبلوماسي ثم جاءت دعوة دولة الإمارات

(1324/1)

العربية المتحدة إلى لسان رئيسها صاحب السمو الشيخ زايد سلطان آل نهيان بعرض النزاع على محكمة العدل الدولية ، وجاء الرفض الإيراني أيضا لهذا الحل لتخوفها من ضعف موقفها القانوني وصعوبة إثبات ملكيتها للجزر الثلاث .

... ليس أمام الإمارات إلا السعي نحو عرض الأمر على مجلس الأمن الدولي لفرض استصدار توصية برفع النزاع إلى محكمة العمل الدولية ، حيث أنه لا مجال لحل النزاع سلميا إلا عن هذا الطريق .

ج – مبدأ ثبات الحدود الدولية واستقرارها

(1325/1)

... يقصد بمبدأ ثبات الحدود واستقرار خطوط الحدود الدولية للدول وثباتها طبقا لسند الحصة الذي تستند عليه كل منها واعتبارها بالتالي خطوطا ثابتة لا يجوز تعديلها من جانب واحد. ... ومتى تم تعيين الحدود على أساس سند حق صحيح ومشروع فإنها أي الحدود تنتج آثارا قانونية ذات طبيعة دائمة وملزمة ليس فقط في مواجهة الأطراف المعنية مباشرة ، وإنما أيضا في مواجهة الكافة .

... ومن الثابت تاريخيا أن الجزر الثلاث كانت خاضعة لسيادة قواسم عمان قبل مجيء بريطانيا إلى المنطقة واستمر خضوعها لهم حتى انسحاب بريطانيا وإعلان

(1326/1)

قيام دولة الإمارات العربية المتحدة التي خلفت مشيخات إمارات الساحل المتصالح فيما أبرمت من اتفاقات وخصوصا اتفاقات الحدود.

... ولو سلمنا جدلا بزعم إيران من أن الجزر الثلاث كانت تابعة لها وأن بريطانيا أدخلتها ضمن حدود دولة الإمارات ، فإن احتلال إيران لها يعد إخلالا بمبدأ ثبات الحدود الدولية الموروثة عن الاستعمار.

... كما لا يجدي إيران نفعا ما تردده في أن التواجد العربي على الجزر الثلاث قبل مجيء الاستعمار البريطاني كان تواجدا إحتلاليا ، فإنه – وحتى لو سلمنا بهذا الزعم – بيد المقرر أن الاحتلال كان

(1327/1)

سببا مشروعا لاكتساب الأقاليم في ظل القانون الدولي التقليدي وبالتالي فإن هذا الاحتلال يكون سند الحق لدولة الإمارات .

ثالثا : الأسانيد القانونية المبنية على الوقائع التاريخية

... كثيرة هي الوقائع التاريخية التي تؤيد عروبة الجزر الثلاث ، وتؤكد تبعيتها لدولة الإمارات العربية المتحدة ، ومن الصعب استعراض كل تلك الوقائع أو حتى

إيراد جرد لها ، ولذلك فسوف يقتصر الكلام هنا عن الوقائع التاريخية التي كشفت عن رغبة إيران في شراء الجزر الثلاث أو استئجارها من أصحابها الحقيقيين .

(1328/1)

---

1 –خلال المفاوضات التي جرت بتاريخ 18 أبريل 1930 بين الحكومة الفارسية ممثلة في وزير البلاط الفارسي السيد تيمور تاش والحكومة البريطانية ممثلة في السيد آر . كلايف الوزير البريطاني المفوض في طهران طرحت الحكومة الفارسية عرضا لشراء طنب الكبرى من حاكم رأس الخيمة .

2 – في 2 / 10 / 1930 عرض وزير البلاط الفارسي مرة أخرى مسألة استئجار الجزر الثلاث بعقد طويل الأجل (50 سنة) . وتم تأييد هذا العرض بحضور وزير الخارجية الفارسي ، إذ قال وزير البلاط " ... إذ قام الشيخ – يعني حاكم رأس الخيمة – بتأجير الجزيرة

(1329/1)

لمدة خمسين سنة ، فإن الحكومة الفارسية ستدفع له إيجارا معادلا للإيجار الذي تدفع بريطانيا لإيران مقابل استئجار جزيرة هنجام .

3 – في أغسطس 1929 صرح وزير البلاط الفارسي أن إيران ستتخلى عن مطالبتها بجزيرة أبو موسى إذ قبلت الحكومة البريطانية الاعتراف بملكية إيران لجزر الطنب .

4 – أظهرت مناقشات وزير البلاط الفارسي مع المفوض البريطاني في طهران بتاريخ 27 / 8 / 1929 رغبة الحكومة الفارسية بضم الجزر إليها مقابل تعويض تدفعه إلى الحكام العرب التابعة لهم هذه الجزيرة .

(1330/1)

---

5 – في عام 1968 بعث شاه إيران محمد رضا بهلوي الجنرال نصيري أحد كبار ضباط استخباراته إلى حاكم رأس الخيمة سمو الشيخ صقر بن محمد القاسمي عارضا عليه استئجار أو شراء جزيرتي طنب الكبرى وطنب الصغرى .

... خلال الجولات الحكومية التي قام بها السيد وليم لوس المبعوث البريطاني إلى دول الخليج منذ بداية عام 1971 وحتى إعلان قيام دولة الإمارات العربية المتحدة ،

قدم المبعوث البريطاني مشروع تسوية – مقترح من إيران – لحكومة رأس الخيمة يتضمن تأجير جزيرتي طنب الكبرى وطنب الصغرى مقابل مبلغ مليون جنيه استرليني سنويا

(1331/1)

ولمدة تسع سنوات يدفع على أقساط، إضافة إلى 49٪ من عوائد البترول الذي يستخرج من طنب الكبرى .

... وتظهر القيمة القانونية لهذه الوقائع في أنها تمثل إقرارا ضمنيا من إيران بتبعية الجزر الثلاث لدولة الإمارات . ومن المعروف في فقه القانون أن الإقرار إما أن يكون صريحا أو ضمنيا ، ويستدل على الإقرار الضمني من أي سلوك أو تصرف يأتيه أحد الخصوم يسلم بمقتضاه بما يدعيه خصمه من حق أو ادعاء .

رابعا : الأسانيد القانونية المبنية على الممارسة الفعلية لمظاهر السيادة الإقليمية

(1332/1)

... تعني السيادة الإقليمية أو الاختصاصات التي تمارسها الدولة على وجه الشمول في الحيز المكاني أو الجغرافي الذي يمثل إقليمها .

... وثمة تلازم حتمي بين الملكية الإقليمية والسيادة الإقليمية ، إذ لا يمكن للسادة ذاتها أن تخول الدولة ممارسة حقوقها السيادية على الإقليم ما لم تكن ملكية الإقليم ثابتة لها ، وكنتيجة لهذه الملكية تباشر الدولة بنفسها ممارسة مظاهر سيادتها على الإقليم وعلى جميع الأشخاص المقيمين عليه والأملاك والأشياء المتواجدة فيه وعلى هذا النحو فإن السيادة والاستئثار في ممارستها ، وتشير وقائع

(1333/1)

التاريخ إلى أن إماراتي الشارقة ورأس الخيمة تولتا تنظيم كافة مظاهر الحياة الإنسانية في الجزر على وجه الشمول والاستئثار .

... وتجلت ممارسة مظاهر السيادة الإقليمية في النواحي السياسية والإدارية .

أ – الناحية السياسية :

– استيفاء الرسوم وفرض الضرائب ورسوم عبور السفن .

– التعاقد ومنح الامتيازات (امتياز الأكسيد الأحمر ،

الإذن بالتنقيب عن النفط).

– الإذن بزيارة الجزر وإقامة المنشآت عليها (إنشاء فنار في طنب الكبرى ، الإذن بزيارة الجزر لإجراء المسح الجيولوجي بحثا عن المعادن ... الخ)

(1334/1)

ب – الناحية الإدارية

– مرفق الأمن (تولي مسؤولية حماية الأمن والنظام والسكينة والتحري عن الجرائم ومتابعة مقترفيها ... الخ).

– مرفق التعليم (إنشاء المدارس والإشراف عليها ...)

– مرفق الصحة (توفير الرعاية الصحية لأبناء الجزر ...)

– مرفق القضاء (الفصل في النزاعات والخصومات وإثبات العقود والتصرفات القانونية وغيرها).

كلمة أخيرة :

... إن القضاء هو القادر على وزن هذه الأسانيد وإنزالها منزلتها الصحيحة وتقدير قوتها في الإثبات ، ومن هنا تأتي أهمية دعوة صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان

(1335/1)

بعرض النزاع على القضاء الدولي ممثل في محكمة العدل الدولية أو هيئة تحكيم دولية .

... فهل تدرك إيران أن حل النزاع سلما أجدى و أنفع لها من الإصرار على احتلال الجزر؟

... إن القبول بحكم القانون سيؤدي إلى توسيع دائرة العلاقات بين إيران ودولة الإمارات ويخفف من حدة المشاكل بينهما . فهل يعي إيران ذلك؟ .

(1336/1)

... ... الأعجمية الموركسية

... ... الدكتور الحسين بوزينب

... ... جامعة محمد الخامس كلية الآداب – الرباط

إن ما اصطلح على تسميته بالأدب الأعجمي الموركسي هو عبارة عن مجموعة مخطوطات عثر عليها صدفة في أكثر من مناسبة بعد إخفائها قديما في تجاويف جدران المنازل وبين السقوف وفي المغارات وكذا في مخابئ أخرى . إننا هنا أمام أدب هجين تمتزج فيه العربية والإسبانية في شتى المستويات بشكل لا أظن أنه عرف

قبل هذا بين اللغة العربية ولغات أخرى ، وتمخض هذا المزيج عن نتاج معبر

(1337/1)

أيما تعبير وممثل أيما تمثيل لكيان أصحابه ولهويتهم الثقافية . فمع هذا الأدب نجد أنفسنا أمام كتابات إسبانية اللغة وعربية الخط تتخللها مصطلحات عربية إسلامية وتراكيب إسبانية معربة ، والكل محفوف بغطاء صوتي مورسكي يصعب نعته بالعربي أو بالإسباني . فهذه اللغة المورسكية تعكس بوفاء كبير شخصية مجموعة إنسانية متميزة داخل الجزيرة الإيبيرية أو جزيرة الأندلس كما كان يسميها المورسكيون . فهذه المجموعة كانت تشعر بخصوصية تجاه مواطنيها المسيحيين في إسبانيا وكذا اتجاه أولئك الذين مثلوا بشكل من الأشكال عنصرا عضويا

(1338/1)

في وجودهم . و أقصد بالخصوص العنصر البربري العربي الإفريقي الشمالي . فمع الأوائل كانوا يتقاسمون الأرض

(1)

---

(1) **انظر ما قاله** Pedro de Valecia **الذي يورده** L. Cardaillac **في بحثه :**

« Vision simpmificatrice des groupes marginaux par le groupe dominant dans L'Espagne des XVIe et XVIIe siècles ", Les problémes de l'exclusion en Espagne (XVIe et XVIIe siècles) , Paris Publication de la sorbonne , P . 22.

" ففيما يرجع إلى البنية الطبيعية أي كل ما يخص الذكاء والطباع والهمة يجب اعتبار جميع هؤلاء المورسكيين إسبانيين كغيرهم من سكان إسبانيا"

(1/1339)

وكانت العقيدة الإسلامية وجزء من الثقافة يجمعهم بالآخرين .

وكان هؤلاء المورسكيون يعتبرون أنفسهم من نبت الأندلس وبالتالي أصحابها الشرعيين . غير أن زمام الأمور قد فلتتت من أيديهم ولم تعد لهم قوة لاسترجاع ما ضاع . ولكن مع ذلك فإن أملهم ما زال معقودا

لاسترداد مافقد . وفي هذا الصدد سنجد أن الدين الإسلامي بكل مكوناته من عقيدة وتقاليد و أعراف ... كان يمثل عنصرا حاسما لإذكاء الأمل في مستقبل كان يظهر لهم في صورة أفضل مما كان عليه حاضرهم . وكان الإسلام ، زيادة على ذلك ، يجسد عنصر الوحدة بين شتى الجماعات

(1340/1)

المورسكية .

... إن الثقافة المورسكية التي كانت ملزمة بالنظر إلى داخل بيتها لإرضاء حاجيات أبنائها ، كانت مجبرة في نفس الوقت بالنظر إلى الخارج لتواجه خطرا مزدوجا يتمثل من جهة في تهجمات الثقافة التي تتربص بها الفرص للقضاء عليها و أقصد هنا الثقافة الإسبانية المسيحية ، ومن جهة أخرى في الموقف غير المكترث لكثير من المورسكين بسبب إنهزام هممهم وبرودة عاطفتهم الدينية ، الشيء الذي كان يؤدي في كثير من الأحيان إلى مغادرة صفوف الإسلام .

(1341/1)

... فبالنظر إذا إلى هذا الدور المتشعب للثقافة الموريسكية ، حاولنا إيجازها إجماليا في جوانب ثلاثة هي : التثقيف أو التعليم والدفاع والترفيه .

... 1 – إن الجانب التثقيفي يتميز بسمات الحقبة التي قدر لهذه الثقافة أن تعيشها وسط وضع مطبوع بالممنوعات وبالترصد للقضاء عليها . إن الخطر كان موجها بالدرجة الأولى إلى العنصر الأكثر حيوية في المجتمع المورسكي أي العقيدة الإسلامية . لهذا نجد أن كتب القرآن والحديث وباقي الكتب المخصصة لتعليم الإسلام التي يحتفظ بها اليوم عدة خزانات إسبانية وغير إسبانية كانت تركز

(1342/1)

اهتمامها في الجوانب الأساسية التي كانت تتطلب الصيانة والإنقاذ . إنه لذا دلالة كبرى أن نجد كتابا قرآنيا كذلك الموجود في الخزانة الوطنية بمدريد تحت الرقم 5078 يحتوي فقط على بعض الآيات من سور(1)مختلفة تظهر لأول وهلة وكأنها جمعت بطريقة عشوائية خصوصا

وأن الكتاب خال من كل تقديم أو تعليق . ولكن تحليل

مضمون هذه الآيات يبين لنا أن جمعها قد خضع لاختيار دقيق تبعته بعد ذلك ترجمتها

---

(1) وهذه السور هي التي تحمل الأرقام الآتية : 2 ، 3 ، 9 ، 26 ، 28 ، 30 ، 33 ، 36 ، 59 ، 67 ، 78 ، 79 ، 81 ، 82 ، 83 ، 84 ، 89 .

(1343/1)

إلى الأعجمية بهدف تعليمي محض لغرس العقيدة الإسلامية ، آخذين بعين الإعتبار الوضعية التي كان يعيشها المورسكيون بسبب الملاحقة والاضطهاد من قبل محاكم التفتيش المسيحية . ومن أجل توضيح ماذكرناه سابقا نقدم فيما يلي بعض النماذج التي لا تحتاج إلى تعليق لتوضيح ما قلناه آنفا :

... إن هذا المخطوط الذي فقد بعض أوراقه الأولى يبتدئ بالآية 163 من سورة البقرة :

... { وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم } .

... وتتبعها الآيات 255 ، 256 ، 257 من نفس السورة :

(1344/1)

{ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات والأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم } .

... { لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم } .

... { الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب

(1345/1)

النار هم فيها خالدون } .

... ويقفز بعد ذلك إلى الآيات 284 ، 285 ، 286 .

... { لله ما في السموات وما في الأرض و إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير } .

... { آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمومنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا و إليك المصير

.{

... { لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ماكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته

(1346/1)

على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين } .

... فمما يمكن ملاحظته من خلال قراءة هذه الآيات أن مواضيعها هي تلك التي تكون الشغل الشاغل للمورسكين أي :

... – وحدانية الإله وبالتالي الرفض التام للإشراك الذي يمكن بالنسبة للمورسكيين في عقيدة الثالوث المسيحي المقدس (1)

---

(1) انظر : L . Cadaillac , Morisques et Chrétienes , Klincksieck , Paris , Ed , 1977 . P , 225 إن الإختلاف حول عقيدة الثالوث المقدس لمن المواضيع التقليدية في الجدال الإسلامي . ويكفي أن نذكر فيما يرجع إلى الجدال الإسبتني المغربي أن ابن حزم القرطبي سيخصص

في القرن التاسع إحدى مؤلفاته ضد المسيحيين لانتقاد الثالوث المقدس . وفي القرن الثالث عشر سنجد القرطبي يخصص فصلين من كتابه في الجدال لتفنيد هذا المعتقد . وإسبانيا المورسكية (...) لم تكن لتخرج عن هذا التقليد " .

(1347/1)

.

... – تسامح الإسلام الذي يقابله التشدد الذي عاملتهم به السلطات المسيحية وبالخصوص محاكم التفتيش الكاثوليكية .

... – التشبث بالإسلام وهو النور الذي يضيء به الإله المومنين الذين لا يزيغون عن الطريق السوي .

... – قيمة الإيمان في الإسلام .

... – الانتصار على الكفار (أي المسيحيين) .

وبقية المخطوط تسير في نفس الاتجاه مع المشاغل الرئيسية للمورسكين .

وفيما يرجع إلى كتب الحديث (1)

---

(1) إننا سنعتبر النص حديثا إذا كانت له صفة الحديث بسند إلى النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – أو كان

متوارثا كحديث ، ولا ندخل في اعتبارات الصحة والوضع والضعف وما إلى ذلك من المعايير الخاصة بعلم الحديث .

(1348/1)

فإنها تعكس نفس المشاغل التي وجدناها في كتب القرآن . وقد أبرز الأستاذ عبد الجليل التميمي(1) تشبث الموريسكيين بالهوية الإسلامية باستنادهم

---

(1) A . Temimi, " Attachement des morisques à leur religion et à leur identié à travers les habiths dans deux manuscrits morisques", in Religion , identité et sources documentaires sur les morisques andalous , 2éme tome , Tunis , publication de L'Institut supérieur de Documentation , 1984, PP . 155 -161.

(1349/1)

إلى الحديث النبوي . وقد اعتمد على مخطوطين من خزانة ميغايل أسين بمدريد (1)

---

(1) يتعلق الأمر بالمخطوطين 29 و 54 من الفهرس

المنشور سنة 1915 . فالمخطوط رقم 29 ألفه مورسكي من نهاية القرن السادس عشر وهو نسخة من مجموع أحاديث نبوية جمعها العالم المصري ابن عبد الله محمد بن سالم بن أبي جعفر القضائي المتوفى سنة 455 للهجرة / 1061 للميلاد مع ترجمتها إلى الأعجمية المورسكية . وأما صاحب المخطوط رقم 54 فأندلسي وهو العباس محمد الطجيبي الأندلسي المعروف بالإقليشي . وقد درس في بلنسية وعاش في دانية ثم في أقليش وبعدها في مصر حيث توفي سنة 550 هـ / 1155 م .

(1350/1)

لإظهار هذا التشبث . " فقراءة هذين المخطوطين ، يقول التميمي ، الذين يكملان بعضهما البعض (أحدهما مترجم إلى العجمية) لم يكن يعطي للمورسكيين المضطهدين حماية وسلاما فحسب ، بل كان بالنسبة إليهم كمشغل أمل يمكن أن يعيد إليهم الثقة من جديد ويوطد بينهم روابط الجماعة ويزودهم بالقوة من أجل التضحية والقتال " (1) . وفي مايلي بعض هذه الأحاديث (2)

---

(1) انظر : A. Temimi , " Attachement ... " . 157P .

(2) نظرا إلى المرجع الذي أخذنا منه هذه الأحاديث كتب

بالفرنسية ولم تتوفر على إمكانية الرجوع إلى المخطوط الأصلي ، فقد حاولنا أن نقدم هنا معنى الأحاديث وليس نصها العربي .

(1351/1)

: ... ... – " أفضل جهد المومن القتال باسم الله "

... – " من أخذ منه متاع فهو شهيد "

... – " من صلى في دين غير الإسلام فهو كاذب "

... – " العمائم تيجان العرب "

... – " من أحب العرب أحببته ومن أبغضهم أبغضته "

... – " المسلم لا يرث الكافر والكافر لا يرث المسلم . لا تنصلوا من آبائكم فلا يتنصل إلا الكافرون "

... – " من غادر الجماعة مات موت الكفار"

... – " الثقة بالمستقبل تزيل القلق والحزن "

... – " بدأ الدين غريبا وينتهي غريبا . طوبى للغرباء "

... – " إن الله إذا أراد خيرا لأمة ، ابتلاها " .

(1352/1)

... – ... إلخ .

... إن اختيار هذه النمادج لم يكن مجانيا كما لا حظنا من خلال قراءتها . والأمثلة من هذا القبيل موجودة بكثرة .

... ولدينا مخطوط آخر وهو الحامل للرقم 5267 في الخزانة الوطنية بمدريد ، يتضمن كثيرا من النصوص التي وجدناها في تنبيه الغافلين للسمرقندي وهو كتاب تداوله المورسكيون بكثرة وترجموه إلى عجميتهم . وقد وجدنا كذلك أحاديث أخرى وردت في البخاري ومسلم ومالك ...إلخ . و أحاديث لم نستطع العثور على أصولها العربية إلى حد الآن . ولكن رغم تعدد مصادر الكتاب فإن الغلبة تبقى للسمرقندي وقد لا حظنا

(1353/1)

فيما يرجع إلى النصوص الواردة في السمرقندي أنها لا تتبع نفس تسلسل مخطوطنا بل توجد مبعثرة عبره . فمثلا مخطوطنا يبتدئ بحديث يوجد في الصحفة 154 من نسخة " تنبيه الغافلين " (1) التي استعملناها والمتداولة اليوم في السوق . وبعد ذلك يأتي حديث آخر نجده في الصفحة 83 ثم آخر الصفحة 157 ويتبعه آخر في الصفحة 159 وبعدئذ نجد حديثا آخر في الصفحة 147 ثم آخر في الصفحة 8 ... إلخ وتتخلل هذه الأحاديث في

مخطوطنا أحاديث

---

(1) نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي ، تنبيهه الغافلين ، الدار البيضاء ، دار الكتاب (بدون تاريخ) .

(1354/1)

عثرنا عليها في البخاري ومسلم ... إلخ .

... إن هذه الطريقة التي سلكت في نسج هذا المخطوط والتي اعتمدت عدة مصادر لتذكرنا بكيفية تحضير الدروس لدى الأساتذة . لهذا أتساءل : ألم يكن لهذه المخطوطات الأعجمية المورسكية دور تعليمي كما لدروسنا في الوقت الحاضر ؟ إن هذه المنهجية الكامنة في صهر أقسام متعددة من مصادر مختلفة تطبع الأدب الأعجمي الموريسكي بااعتباره أدبا تقليديا ، وتجد مبررها هنا في الحاجة الماسة لتقديم تعليم خاص تمليه ظروف تاريخية خاصة كذلك .

(1355/1)

... 2 – والمظهر الثاني للأدب الأعجمي المورسكي في التقسيم المقترح سابقا يكمن في الدفاع عن الإسلام

أمام المسيحية . ويتمثل بالخصوص في تلك الكتابات التي تقدم لنا الجدال الديني بين المسلمين والمسيحيين حول حقيقة العقيدتين . وقد ألف الأستاذ لوي كارديياك من جامعة مونبلي بفرنسا كتابا (1) شيقا حول هذا الموضوع جمع فيه وعلق على العديد من النصوص التي كتبت في الجدال الديني

---

(1) Louis Cardaillac , Morisques et Chrétiens , un affrontement polémique (1492 -1640) , Paris , Librairie Klincksieck , 1977 , PP 543.

(1356/1)

الذي دشن قبل المورسكيين بكثير (1) . غير أن هؤلاء وجدوا فيه جهازا للدفاع عن هويتهم الثقافية .

... لقد كانت نصوص الجدال الديني موجهة في نفس الوقت للمسلمين وللمسيحيين . فرسالتهم بالنسبة للمسلمين كانت رسالة تلقينية وتثقيفية . بينما كانت تتوخى بالنسبة للمسيحيين البرهان على أفضلية الدين الإسلامي وتفوقه على المسيحية المتبعة من

---

(1) انظر الهامش (3) . وكذلك (Textes de

(littérature religieuse des moriscos tunisiens

ضمن المؤلف : Etudes sur les Moriscos andalous en

200, P. 1973tuunisie , Madrid , IHAC ,

(1357/1)

قبلهم .

... إن المخطوطات التي تطرقت إلى موضوع الجدال الديني مع المسيحيين قليلة جدا بالمقارنة مع تلك التي تجمع الحكايات والسير والقرآن والنصوص الفقهية وما إلى ذلك من المواضيع التي تطرق لها المورسكيون . ولكن في الحقيقة يمكن اعتبار الأدب الأعجمي الموريسكي في حد ذاته مجادلة ضد المسيحيين . إنها مجدلة تظهر في مضمون الكتابات وتمتد لتشمل كذلك هذه الكتابات . ففي مناسبة سالفة (1)

---

(1) انظر مقالنا " الدين واللغة من خلال الكتابات الأعجمية المورسكية " المقدم إلى المؤتمر العالمي الثاني للجنة العالمية للدراسات المورسكية ، تونس 1984 .

(1358/1)

تكلمنا عن كيفية تحكم الدين الإسلامي في لغة المورسكيين وخضوع مختلف المصطلحات الإسلامية إلى قصدية تحاشي المغالطة مع المقابلات المسيحية . لهذا نجد أن لفظة الإسبانية Dios ولا الصلاة بـ Oracion ولا الإمام بـ Sacerdote ... إلخ لأن الإسبانية في ذهنية المورسكين لغة المسيحية كما أن العربية لغة وحتى في اللباس ، فيقول أحدهم: " لا تستعمل عبارات وتقاليد المسيحيين ولا لباسهم ولا تتشبه بهم ولا بالمذنبين الأشرار والجهنميين . عليك بالحفاظ على أقوال وعقائد و أعراف وتقاليد ولباس ذلك النبي السعيد

(1359/1)

محمد – صلى الله عليه وسلم –وصحابته فمن أجل العناية الإلاهية العليا أعطى هذه النعمة العليا " (1) .

... إذا أردنا أن نصف الخطاب الموريسكي باستعمال المصطلحات السياسية الحديثة فسيمكننا أن نقول أن هذا الخطاب خطاب " ملتزم " و " مناضل " حيث نجد أن لكل كلمة دلالة الالتزام ولا تستعمل جملة إلا بقصدية معينة يمكن أن ننعتها اليوم بالسياسة .

---

(1) انظر : المخطوط الأعجمي للخزانة الوطنية بمدريد رقم 5301 الصفحات v3 و r4 .

... وبالإضافة إلى اللغة ، فإن شتى حركات وتصرفات النبي محمد – صلى الله عليه وسلم –تمثل بالنسبة للمسلمين رموزا يقتادون بها ويجعلونها في سلوكهم اليومي .

... هكذا نجد إذا مواضيع الجدال متعددة بين الموركسيين والمسيحيين . ويأتي في الدرجة الأول موضوع الثالوث المقدس وهي عقيدة لم تكن أبدا لتحظى بالقبول والفهم من لدن المورسكيين عندما كان يعرض عليهم الدين المسيحي (1) ، وهذا ليس بغريب أن يحدث مع أتباع ديانة لا تقبل بأي وجه من الوجوه إشراكا مع الإله

---

(1) انظر : L . Cardaillac ، المرجع السابق ، ص . 227 .

الواحد الأحد مهما كانت طبيعة هذا الإشراك، وتعد المشركين بأقسى العقاب. زيادة على هذه فالمورسكي لم يكن منطقه يستطيع أن يستوعب " وجود ثلاثة آلهة وهذه الآلهة الثلاثة تكون شيئا واحدا وهذا الشيء الواحد ثلاثة أشياء، فهذا يتناقض مع العقل والإدراك " كما يقول موريسكي التجأ إلى تونس بعد تهجيره من إسبانيا " (1). ...

... وهناك نقطة جدال ثانية بين المورسكيين والمسيحيين تكمن في هوية المسيح، وهو نبي يقدسه الطرفان. وبطبيعة الحال ففي هذا الموضوع نجد

---

(1) انظر: L. Cardaillac، المرجع السابق، ص. 227.

المورسكيين يتبنون ويدافعون على الوجهة الإسلامية (1) التي تعتبر المسيح ابن مريم (عيسى ابن مريم) نبي الله أي رسول. بينما نجد المسيحيين يعتبرونه ابن الله. والمورسكيون كانوا يرفضون فكرة تجسيد الإله في الإنسان بحيث كانوا يعتبرون هذا مناقضا تماما لطبيعة الإله ويرفضون كذلك مسألة صلب المسيح.

---

(1) انظر : L . Cardaillac ، المرجع السابق ، ص . 228 : "
لقد كان المورسكيون يعرفون النصوص القرآنية
معرفة جيدة غير أنهم كانوا يفسرونها تفسيرا
مغايرا تماما (لما هو معتاد) .

... ومن ناحية أخرى نجد الكنيسة موضع جدال عندما "
وجد فيها المورسكيون مؤسسة شرعوية متمسكة
بالشكليات ومن وضع الإنسان ، تحاول أن ترتكز على
الإنجيل ، بينما نجد أن تنظيمها ومبادئها الأساسية قد
خلقتها بنفسها . والكنيسة قد حورت الإنجيل حسب
مبتغاها كما غيرت ماكان متعرفا عليه " (1) .
... ونجد أحيانا أخرى أن الجدال بين المسلمين
والمسيحين لا يتخذ عقيدة ما كمنطلق و إنما يتموقع
في مجال شرح الألغاز وكشف الأشياء الباطنية بغرض
إبراز تفوق دين على آخر كما هو

---

(1) انظر : L . Cardaillac ، المرجع السابق ، ص .309 .

الحال في " حديث شرجيل ابن شرجون " (1) حيث نجد أن هذا الشخص وهو " مسيحي أتى من بلاد الشام لم يعرف اسمه أبدا وكان من أقوى المدافعين على الدنيا ، صاحبه خمسون من رؤساء الأديرة أو الرهبان " (2) . توجه إلى أبي بكر " بأسئلة معاكسة (قال) وجدتها في كتابات لوالدي ولجدي . فإن أنت أظهرتها أمامي كما هي عندنا سنعرف أن محمدا نبي ورسول و أن

---

(1) Ottmar Hegyi , Cinco leyendas y otros moriscos (Ms 4953 de la Bibl . Nac . Madrid) , Madrid , Editorial Gredos , 1981 , P . 73 .

(2) المرجع السابق ، ص . 73 – 74 .

(1365/1)

دين الإسلام دين الحق وغيره لا شيء " (1) .

... إن الأجوبة على تساؤلات هذا المسيحي سيقدمها علي بن أبي طالب وليس أبو بكر أي سيقدمها الشخص المقلد بالقدرات الخارقة للعادة بين الشيعة والذي كان بالتالي يستطيع اكتشاف الأسرار والخفايا . فبهذا نجد أن اسم أبي بكر وهو رجل يرمز إلى إجماع المسلمين السياسي قد ترك جانبا ، هكذا إذا نجد عليا يجيب على

كل الأسئلة المطروحة كـ: " ما هو قصدي لما خرجت من أرض الشام ؟ ولماذا أتيت هنا ؟ واشرح لي معنى " والضاريات ضروا "؟ وماذا يقول الديك

---

(1) المرجع السابق ، صص . 74 – 75 .

في قوقه والكلب في عوائه والحمار في نهيقه ...؟ "

زيادة على كشف اسم شرجيل ابن شرجون الذي لم يكن أحد يعرفه دون صاحبه .

...

3 – فيما يرجع إلى الجانب الترفيهي في الأدب الأعجمي فسنراه يتجلى بالخصوص في مجموعة من الروايات والقصص والحكايات المترجمة من العربية أو أحيانا من الإسبانية (1)

---

(1) أقوال مترجمة من الإسبانية لأن الحقيقة رغم تطابق اللغتين الإسبانية والأعجمية المورسكية ، سيبقى هناك فرق بينهما في جوانب كثيرة تجعل من الأعجمية المورسكية ، كما أشرنا إلى ذلك في حينه ، لغة لا هي

بالعربية الصرفة ولا بالإسبانية الخالصة ، بل مزيج منهما وإن كانت الكفة ستميل إلى الجانب الإسباني .

(1367/1)

. إن هذه الكتابات التي كانت تمثل متعة للمورسكين جسدت كذلك ملجأ ثقافيا كان ينقلهم إلى المحيط الثقافي العربي الإسلامي الذي كانوا يشعرون بارتباط قوي نحوه وكانت وسيلة تمرر عبرها التعاليم الدينية والأخلاقية الإسلامية .

... وكنموذج من الرواية الترفيهية الصرف يمكن أن نعتبر قصة حب باريس وبيانا (1) التي تحكي غرام ابنة خليفة فرنسا بيانا والفارس النبيل باريس . إننا هنا أمام قصة فروسية مليئة بالمبارزات والمغامرات تتوسطها عملية عاطفية نموذجية . إنها

---

(1) A . Galmés de Fuentes , Madrid , Ed , Gredos , 1970 .

(1368/1)

لحكاية كلاسيكية لحب ثابت ومطارد تتخللها ذكريات الحروب الصليبية المعتادة والسفر اللازم إلى الشرق .

... لقد اعتبرنا هذه الرواية رواية ترفيهية صرف لأن العناصر الإسلامية التي تعالج عادة في الأدب الأعجمي سنجدها تختفي هنا . فمع قصة حب باريس وبيانا نحن أمام رواية فرسانية غربية نموذجية حيث المبارزات والمغامرات والحب المطارد ... إلخ تكون ثوابت الرواية ، بينما نجد أن موضوع الإسلام الذي لا يظهر إلا نادرا لا يحتل إلا مكانا جانبيا وهو خال من المواصفات التي تطبعه في الأدب الأعجمي الموريسكي فالفرصة الوحيدة

(1369/1)

التي يرد فيها الكلام عن المسلمين بطريقة مباشرة في الرواية هي حين سيذهب باريس لإنقاذ الخليفة ويخدع حراس السجن الذين كانوا قد سمحوا له أن يتكلم مع الخليفة . فقد قال لهم :

... " – أيها السادة ، إنكم قد أدخلتم علي السرور كبيرا بعدما تركتموني أقابل هذا الرجل. غدا سأذهب في حال سبيلي و أريد أن أقضي ليلة مرحة معكم . فقد قدم لهم طعاما بكثرة وخمرا جيدا بوفرة ، وما أن غلب عليهم النوم حتى سقط الجميع في السكر . فبالنوم

(1370/1)

والسكر بدا الجميع وكأنهم موتى . وبعدئذ أخذ باريس مفاتيح السجن منهم ففتح الأبواب ..." ، (ص . 207) .

... فكما لاحظنا من خلال هذا النص فإن المورسكي الذي ترجمه لم يستعمل مقص رقابته مع هذه الفقرة التي تقدم صورة سلبية بعض الشيء عن المسلمين ، كما لم يستعمله مع فقرات أخرى تظهر بطريقة غير مباشرة كراهية الخليفة للإسلام ، عندما قال : مشيرا لباريس .

... " فإذا أخرجني من هذا السجن سأجعله سيدا على منطقة خلافتي بأكملها وذلك فقط لأموت في أرض المسيحيين " ، (ص . 206) .

(1371/1)

... ولكن مع ذلك فإننا سنراه أحيانا أخرى يتدخل لتلافي بعض العبارات المسيحية التي لم يكن المورسكي يستصيغها ، فهذه العبارات سنجدها في كل من الترجمتين الإسبانية والكطلانية وتغيب في الأعجمية :

الترجمة الإسبانية

الترجمة الكطلانية

الترجمة الأعجمية

قولوا له أن لا يكون لديه شك

فإنني مستعد للقسم على جسم المسيح (ص . 29)

يجب أن يخامره شك فإنني مسرور لأقسم على جسم

المسيح الطيب (ص . 29)

قولوا له أن لايكون لديه شك فإنني سأقسم (ص . 37)

(1372/1)

وأرجع الراهب هذا الجواب إلى باريس . ثم أمر بتقديس

جسم المسيح (ص . 29)

و أرجع الجواب إلى باريس ثم قدس الراهب جسم المسيح

الطيب (ص . 29)

ثم أرجع الراهب هذا الجواب لباريس (ص . 37)

وهناك أقسم الخليفة أنه سيقوم بإنجاز كل الأشياء

التي سيطلبها منه . وكبرهان على المودة تقبل ذلك

القربان المقدس

(ص . 29)

و أقسم الخليفة على جسم المسيح المقدس أنه سيقوم

بإنجاز كل الأشياء التي يريدها باريس.وكبرهان على

العهد والصداقة تقبل القربان

(ص .29)

وهناك أقسم الخليفة بأنه سيفعل كل ما سيأمره كبرهان على المودة (ص . 37)

إن هذه التساهلات والرقابات المحتشمة تنم على أن الأسبقية هنا قد منحت للترفيه قبل أي اعتبار آخر . والترفيه في هذه الحالة كان بالأدب المسيحي الذي لم يكن المورسكيون غرباء عنه.فمؤلف المخطوط (1) 2s الذي وصفه خيما اليبار أسين بعبارة " المعجب بلبا " (أي بالأديب والروائي والمسرحي والشاعر لبا ذا باغ) لنموذج معبر جدا عن النفوذية الثقافية بين الشطرين المسيحي

(1) مخطوط من مجموعة Gayangos محتفظ به في الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد .

والمورسكي . إن هذا المورسكي الذي يظهر معرفة واسعة بشعر لبا ذا باغ والذي كان يتذوق كذلك غنائية غرثلس ذا لباغ حيث كان معجبا به ، والذي

استطاع أن يبرز العمق الأخلاقي والنقدي في قسم من الرمنثار(1)

---

(1) romancero اسم يطلق على مجموعة من القصائد الغنائية القصصية الإسبانية التي ظهرت بعد حروب الإسبان وملوك الطوائف بالأندلس، و أشهر مجموعة منها تلك التي تتميز بالصبغة الملحمية وهي " رومنثيرو السيد " الذي لقبه أعداؤه العرب بالسيد لأنه قاد جيوش الإسبان إلى النصر ضدهم (يوسف محمد رضاء المعين ، قاموس عربي –إسباني ، زوق مصبح كسروان ، لبنان 1993) .

(1375/1)

الإسباني ربما كان يمثل نموذج المورسكي المثقف والمنفتح على الأدب الإسباني المسيحي الذي كان يعيش قرنه الذهبي ، والمتذوق للمسرح والفن الإسبانيين(1) .

... ولدينا من ناحية أخرى مجموعة من القصص الخرافية والحكايات التي ظهرت في الوسط الثقافي العربي مع بداية الإسلام ، استعملها المرسكيون كأدب ترفيهي بعد ترجمتها إلى الأعجمية.

---

(1) **انظر** M. . de Epalza y R . Petit , Etudes sur les Moriscos andalous en Tunisie , Madrid , IHAC , 1973 . PP , 213 -214.

(1/1376)

... إن هذا الصنف من القراءات الموريسكية المتوفرة لدينا بأعداد أكبر من الصنف السابق ، كانت لها مهمة مزدوجة . فمن جهة كانت تمتع المورسكيين ببطولات ومغامرات فضائية أو بقصة حب ممنوع أو قصة تعس يتأمل عبد سفر خيالي مشاهد الحب والسعادة ... إلخ . ومن جهة أخرى كانت عبارة عن أرضية لتقديم مجموعة من التعاليم الدينية والأخلاقية والتاريخية الإسلامية للمورسكيين وفرصة لاسترجاع أمجاد الإسلام الماضية وكذا قصص الأنبياء قبل الإسلام .

(1/1377)

... " كتاب المعارك " الذي حققه الأستاذ البرغلماس دا فوانتاس (1) **عددا من الروايات تدور حول المعارك التي كرست الانتصارات الإسلامية الأولى ومكنت هذه الديانة من إخضاع "الكفار " و إرساء قواعدها . إن هذه الروايات**

التي تتوفر على قاعدة تاريخية واقعية تقدم الأشياء بشكل خيالي ومبالغ فيه يجعل منها خرافات خارقة للعادة ليس لها من التاريخ سوى أسماء بعض أبطالها وتصميم مصغر للأحداث المروية . إن المبالغ المشار إليها سابقا تجد

---

(1) A . Galmés de Fuentes , EL libro de las batallas , Madrid , Ed . Gredos , 1975 .

(1/1378)

شرحها في السمو الذي خص به الشيعة شخصية علي بن أبي طالب ، البطل الذي ينفرد تقريبا بالدور الأول في هذه الروايات ، الزعيم غير المنازع لهذا المذهب المضطهد بشدة من قبل الأمويين ثم العباسيين .

... إن تداول هذه الروايات بين المورسكيين ، وهم مالكيي المذهب ، لا يمكن أن يبرر بتبعية مذهبية و إنما سيجد شرحه في إرث ثقافي إسلامي مشترك احتمى فيه المورسكيون من الاضطهاد الممارس عليهم من قبل محاكم التفتيش الكاثوليكية وفي عودة إلى زمن أمجاد الإسلام الذي لا يقهر .

(1/1379)

... ومن العناوين التي نصادفها في " كتاب المعارك " حيث يبرز علي بمؤهلاته الخارقة للعادة " معركة الأشيب بن حنقر " (1) التي يتدخل فيها علي بن أبي طالب ، كعادته ، عندما يحذق الخطر بالمسلمين أو يهزمهم أعداؤهم . ففي الحالة التي بين يدينا نجد أن المسلمين عندما اقتربوا من حسم المعركة لصالحهم ، يتدخل رجل مسن من زمرة الأشيب وينصح هذا الأخير بإرسال مبعوث إلى محمد ليدعوه إلى عراك مع صنمهم ويوعده بالدخول إلى الإسلام إذا هزمه ، وقد تولى الشيخ إيصال الكتاب شخصيا لمحمد حيث

(1) المرجع السابق ، ص . 245 – 256 .

(1380/1)

خاطبه بما يلي :

... " يا رسول الله . يقول لك الأشيب أن تبعث عليا ليبارز صنمنا . فإذا هزمه سنومن بالله ربنا وسنتخذك رسولا ونبيا صادقا .

... وبعدما استمع إليه النبي – صلى الله عليه وسلم – توجه نحو علي فقال له : مارأيك يا علي في هذا الأمر؟ ... ...

... – إنني ذاهب يارسول الله ولو كان هناك من الجان الكثير . فسار علي على رأس ألف فارس وقال له النبي – صلى الله عليه وسلم– :

... – إذهب ياعلي فكسره وفتته فإن الله سيعينك عليه .

(1381/1)

... فسار علي وامتثل أوامر النبي – صلى الله عليه وسلم – . وبعد ذلك خرج الأشيب إلى ضواحي المدينة و أمر بإحضار الصنم فأحضر . وها هو علي يأتي ومعه ألف فارس وعندما اقتربوا من الصنم إذ بالشياطين يحيطون به حتى علت سحابة من الغبار وتكدرت الأرض وخرجت جموع غفيرة من الشياطين والجان . ولما رأى الصحابة المرافقين لعلي تلك الجموع الغفيرة هربوا عن آخرهم وتركوا عليا وحده . فلما رأى علي ذلك نزل من فرسه وقال :

... – أنا علي، الفارس المعزز في كل مكان ، الصارم والمنتصر بعون الله ربي . ياقوم الجان؟هيا ، أثبتوا أمامي

(1382/1)

وذوقوا العذاب حتى تروا ما سألحقه بكم .

... فهاجم الجان وحاربهم طويلا حتى هزمهم ففروا عن بكرة أبيهم ولم يبق جن منهم أمام علي .

... ثم تقدم علي نحو الصنم فأسقطه على الأرض وبرجليه ركله وبذي الفقار سيفه قطعه وفتته حتى لم يبق منه شيء . ولما رأى الأشيب مافعل علي بالصنم دخل الإسلام بين يدي علي كما دخله قومه وفرسانه وأبناء عمومته (صص 255 – 256) "

... ومن الحكايات ذات العمق الأخلاقي والمحتوية على تعاليم إسلامية ، لدينا مثلا " حديث العربي والجارية " (1)

---

(1) انظر : O . Hegyi ، المرجع السابق ، صص . 185 – 196 .

(1383/1)

التي تحكي القصة التي يشير إليها القرآن في الآيتين 8 و 9 من سورة التكوير : { و إذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت } والتي تتعلق بفتاة موءودة بسبب تهجمها على معتقدات والديها والإيمان بالله . فقد قالت لأبيها :

... " يا أبتاه ؟ إنك تعيش في الخطإ وفي الكذب لأن صنم اللاة والعزى لا يملك قوة ولا علما ، لا ينفع ولا يضر ولا يحمي ، يا أبتاه ؟ إن ربي ورب أمي وربك أنت ورب الصنم الأكبر هو الله الذي خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان وكل الأشياء " .

... و أمام هذا النجم أشارت الأم على أب الفتاة بقولها :

(1384/1)

... " خد تلك الفتاة بين يديك واذهب بها إلى الأرض خلاء فاذبحها و آت لي بقلبها وكبدها قبل أن تفسد علينا ديننا " .

... وبعدما قام الأب بما أشارت به عليه زوجته و أراد أن يعود إلى منزله إذ بنار حامية تشتعل حوله بلهيبها المهول ، ما كان ليفلته منها إلا دخوله الإسلام . لهذا قرر الدخول في الإسلام . وبذلك انطفأت النار . وبعدئذ ذهب ليعلن إسلامه أمام محمد ويحكي له ما جرى له مع ابنته . وسيذهب النبي والصحابة إلى المكان الذي دفنت فيه الفتاة و بإذن الله ستبعث من جديد . سيسأل النبي الفتاة مسامحة أبيها ، وسيكون

(1385/1)

جوابها الرفض ما دام لم يؤمن صادقا بالله وبمحمد .

وسيخبرها الرسول بأنه قد فعل ذلك ، فتسامحه . ثم سيضع الرسول أمامها اختيار البقاء مع أبيها في الدنيا ، لكن جوابها كان : " لن أبدل الجنة بمتاع الدنيا " .

... وهنالك حكاية أخرى تطرقت إلى موضوع الخلاف بين أب وابنته بسبب الإيمان ، وهي " الجارية أركين " (1) .

---

(1) انظر

L' I - yeisimo y otras cuestiones " , A . Galmés " linguisticas en un relato morisco del siglo XVII en Estudios dedicados a Menéndez Pidal , , Madrid , 1956 .

(1386/1)

... إن هذه الفتاة هي ابنة ملك اسمه الجفر وكان يعبد صنما من الذهب . وكانت هذه الفتاة قد طلبت من أبيها أن يعبد الله الأحد ويتخلى عن عبادة الأصنام فجازاها بقطع يديها ونفيها إلى غاية كثيفة ومخيفة .

... إن التناقض في العقيدة ليس هو نقطة الاختلاف الوحيدة بين الأب وابنته في هذه الحكاية بل هناك

جانب آخر مفجع أكثر من الأول ويكمن في نوايا الأب في ارتكاب المحارم تجاه ابنته: ... ...

... " كانت الفتاة وسيمة وجميلة جدا . ولما بلغت سن الرشد عشقها الملك أبوها وطلب حبها . ولقد أدركت هذه الفتاة العفيفة والمحتشمة

(1387/1)

باندهاش أن كل ملاطفات أبيها وحبه كانوا خارج نطاق المشاعر الأبوية وتحكمهم نية الفسق " (ص . 5) .

... فما رأيناه من بتر ليدي الفتاة ونفيها كان إذا لعدم رضوخها لنوايا والدها الفاسق وليس فقط بسبب الاختلاف حول العقيدة .

... هكذا إذا وبعد نفيها إلى الغابة سنرى أن مأساة أركين ستخفف بظهور ظبية بيضاء ستقودها إلى " مغارة جميلة الصنع " وستوفر لها الطعام فكانت تطعمها بفمها وتلحس بلسانها مكان قطع يديها حتى شفيت من الجرح . وبعد هذا سيأتي أمير أنطركية الذي سيغرم بأركين التي سيتزوجها بعد ذلك . ولكن والدة

(1388/1)

الأمير سوف لا ترضى على هذا الزواج وستستغل فرصة خروج ابنها إلى الحرب لتأمر خدامها بإرجاع أركين إلى الغابة التي كانت بها سابقا . وهناك في الغابة ستستعيد يديها بعد استجابه الإله لتضرعها إليه . و إثر عودة الأمير من الحرب قالت له أمه أن أركين بمجرد ذهابه إلى الحرب غادرت القصر وحملت معها ابنها هاربة إلى الغابة . فبعد كل ما فعلته لا داعي إذا ليشغل باله بها . ولكن الأمير الذي لم يصدق ماقالته أمه ، خرج باحثا عن أركين وعن ابنه . وعندما وجدها اندهش بالسعادة لما رأى أن يديها قد كبرت من جديد . وهكذا رجع

(1389/1)

بهما إلى القصر الملكي ليعيشوا هناك معا ، بينما ذهبت الأم لتعيش في قصر جميل في مكان آخر . وبعد ذلك سيقوم الأمير بحملة ضد الملك الجعفر والد أركين الذي سيهزمه بسهولة وسيقضي على وثنيته العنيدة . و أخيرا تجدر الإشارة إلى أن أركين لا تألو من ذكر الله في لحظات الحزن أو الفرح وذلك مرددة عبارة " ليله يلا الله " (لا إله إلا الله) .

... ومن الحكايات التي تتضمن مرجعيات إسلامية بصفتها من الخصوصيات الثابتة في معظم النصوص الأعجمية

المورسكية يمكن الإشارة إلى قصة " تميم الداري " . و إذا تركنا جانبا تلك

(1390/1)

المرجعية الإسلامية الثابتة فالقصة قد تستهوينا باعتبارها نموذجا رائدا لما يسمى اليوم بأدب الخيال العلمي وبسبقها في هذا الميدان الذي يجلب إليه العديد من محبي المغامرات الفضائية و أسفار سكان الأجرام الأخرى .

وقصة " تميم الداري " نذكرنا بسناريو فيلم سبيلبارغ الأمريكي " لقاءات من النوع الثالث " أو بالعكس ، الفيلم يذكرنا بقصة تميم الداري .

فقصتنا تروي احتجاز شخص واختطافه من باب منزله والذهاب به إلى الأجواء العليا فوق كائن يطير ، وبعد وقت معين سيرجع هذا الشخص إلى المكان الذي اختطف منه بالضبط ، وكل ذلك

(1391/1)

كما سيحدث في الفيلم الأمريكي بعد قرون طويلة .

... إن المورسكيين عندما ترجموا هذه القصة لم تكن نيتهم هي الترفيه بقصة عربية خيالية فحسب ، بل كانوا يتوخون كذلك تماثل واقعهم المعاش وغبر إبرازه رمزيا من خلال قصة رجل أرغم بدوره على مبارحة أرضه ودينه قسرا لا لشيء إلا لعقيدته أو لأفكاره كما نقول اليوم . لا ننسى أن المورسكيين كانوت محط اضطهاد وتهجير وتعديب وتقتيل من قبل خصومهم في العقيدة . ولهذا نؤكد على الجانب الرمزي في قراءة النصوص الأعجمية المورسكية بإحضاره دائما .

(1392/1)

... لقد حاولنا التطرق إلى بعض الجوانب من الثقافة الموريسكية من خلال نمادج من كتاباتهم التي استطاعت أن تفلت من رقابة محاكم التفتيش لتصل إلينا وتأتمننا على تاريخ وفكر أصحابها . فلو طلب منا اليوم أن نحكم على هذه الثقافة أو نصنفها لوضعها شرطا مسبقا لذلك وقضينا بترك المصطلحات التقييمية التي تنظر إلى الأشياء نظرة عمودية لأن هم الثقافة المورسكية لم يكن في " النمو" بل في "البقاء" . لهذا يجب أن تبعد عليها نعوت مثل "منحطة" (1)

---

(1) L.P. Harvey, El Mancebo de Arévalo y la literatura aljamiada, Actas del Coloquio Intenational sobre Litereatura Aljamiade y Morisca, Madrid, Ed. Gredos, 1978. P. 23.

"فيما يخص الإرث الإسباني العربي، تجدر الإشارة إلى أن الأمر يتعلق بثقافة منحطة، ويمكن أن نقول أن ثقافة ما منحطة عندما لا تستطيع تجديد بنياتها الخاصة، فتشل وتموت بعد فترة قد تقصر أو تطول".

أنظر كذلك:

A. Domingeuz ortiz (Y B. Vincent), Histoire de los Morisocs, Mardir, Biblioteca de Revista de Occidente, de Revista de Occidente, 1979 : P , 124 :

"(...) يمثلون ثقافة ذات تقليد عريق ولكنها وصلت إلى أوج انحطاطها وانحلالها".

(1393/1)

و"فقيرة"... الخ. إنني أظن أن ما يجب مساءلة الثقافة الموريسكية حوله هو مدى توفقها في الحفاظ على الهوية الإسلامية لتلك الجماعة التي لم تكن تركن أبدا إلى راحة العيش في ظل خصوصيتها وكانت تعيش وشم

المطاردة وراءها، مطاردة عقيدة لم تقنعها فلم تقبلها.

إن هذه الثقافة لن تجيبنا أبدا عما طرحناه عليها من سؤال، بل سيكتفي بإحالتنا على قرار وتنفيذ تهجير المجتمع المورسكي لنعتبره جوابا إذا كنا نلح على الجواب.

فإذا كان حكمنا سيسير وفق هذا المعيار الأخير، فإننا سنرى أن الثقافة المورسكية قد استطاعت رغم هشاشة

الوسائل التي كانت تتوفر عليها، في وسط كله عداء وفي جو لا هواء تتنفسه فيه، أن تؤدي رسالتها. فلم تكن تهمها جودة المنتوج الثقافي بقدر ما كان يهمها وجود هذا المنتوج ماديا. فلم تكن تهم جودة التعاليم التي كان تقدم للمورسكيين بقدر ما كان يهم تلقينها الفعلي. ففي هذا الصدد يقول المؤرخ الفرنسي برنار فانسان (1) : "كان يوجد في منطقة ساغربا سنة 1505 ثلاثة فقهاء يعلمون السكان على وتيرة اجتماع أسبوعي واحد.

---

(1) أنظر : المرجع السابق، ص.135.

وقد كان هذا النشاط فعالا رغم خفيته. ولكن، إلى أي حد يمكن أن نعتبر هذا كافيا للحفاظ على الإسلام في جميع أبعاده ؟ ففي الواقع سنجد أن الانتهازية التي تمثلها التقية كانت تؤدي إلى اختيار بين الرموز الخارجية للإنتساب إلى الإسلام.

فمن أجل الحفاظ على الأهم، كانت تترك بعض هذه الرموز جزئيا أو كليا".

"الحفاظ على الأهم"، هذا هو بالضبط ما كان يسعى المورسكيون لصيانته لأنهم كانوا يومنون بالتحرر يوما ما من قبضة المسيحيين واسترجاع زمام أمورهم. ولم تكن تعوزهم التنبؤات التي كانت تعلن عن قرب عتقهم بفضل تدخل

(1396/1)

الأتراك: "فالله سيحرك قلوب ملوك المسلمين وسيكون رئيسهم هو التركي الذي سينزل من أتباعه في البحر ما لا يعد ولا يحصى. وأول شيء سيعود إلى دين الإسلام هي جزيرة صقلية وستبعها جزيرة الزيتونة وهي ميرقة ثم جزيرة الملح وهي اليابسة (...) ويقول إن المسلمين

سيريحون جزيرة إسبانيا الكبرى" (1)

---

(1) Maecedes Sanchez Alvarez, El Manuscrito de la Biblioteca Nacional de Paris, Madrid, 774 Ed. Gredos, 1982.

« Rekontamiiento de los eskandalos ke an de akaçer en la çagueria de los tiempos en la isla de Espana », P. 241.

(1397/1)

هكذا، فالانتماء إلى الإسلام هنا لا يتوقف على معرفة دقيقة لتعاليمه بقدر ما كان يكفي الانتساب الشكلي إليها، فلم يكن مهما جدا أن يستظهر النص القرآني دون ارتكاب هفوات وتشويهات للآيات المقدسة بقدر ما كانت تهم القراءة المادية لذلك النص ولو شوه تشويها. فالمهم هو أن يقرأ بالعربية بأي شكل كان لأن المورسكي كان بذلك يبقى في محيط وجو الإسلام. ففي مناسبة من المناسبات عطست الفتاة أركين واستنجدت بالصنم الذي كانت تعبده آنذاك عندئذ ظهر أمامها فأمرها بقول : ألنند لله أربن اللمن (alandu lilahi arabin allamin)،

(1398/1)

وهي عبارة إسلامية نجدها وقد تلاشت شكلا ولا يمكنها أن ترمم إلا بوضع الأصل (الحمد لله رب العالمين) أمامها وكأننا بصدد تحفة تاريخية نال منها الدهر فاحتاجت إلى ذلك الترميم، ونفس الشيء نجده عندما قالت : آمن أرب اللمن (Emin a rabi yllami).

(1399/1)

الأندلس والمغرب وحدة أم تكامل ؟

الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

عضو أكاديمية المملكة المغربية

... عاش المغرب في الأندلس ثمانية قرون من أواخر القرن الأول الهجري إلى بداية القرن التاسع أي نهاية المملكة النصرية في غرناطة . وقد كان للعدوتين طوال هذه الحقبة المترايمة تجاوب وتجاذب سبقته هجرة الوندال (Vandales واندليس) في القرن الخامس الميلادي هي التي انطلق منها اسم الأندلس حسب تخمين مؤرخين في مرحلة وسطى دعوا خلالها منطقة بيتك (Bétique) الرومانية بواندلوسية () (1Vandalicia)

(1) راجع دوزي ، " أبحاث حول تاريخ وأدب عرب إسبانيا خلال العصور الوسطى " ، الطبعة الفرنسية الثالثة ، ليد 1881 ، ج 1 . ص . 301 .

(1400/1)

ومع تقلص الإمبراطورية الإسلامية في الجزيرة الإيبيرية إلى الآن أصبحت كلمة (أندلس) مقصورة على أقاليم جنوبية تمر بإشبيلية وقرطبة و غر ناطة لتشع في وقت مبكر على جهات أخرى من العدوة الجنوبية ثم تتسع بعد هجرة الأندلسيين إلى المغرب الكبير وخاصة المغرب الأقصى بعد النفي العام وحركة الغزو الإيبيري (Reconquista) .

... ولعل نوعا من التلاحم قد تحقق في أرض الأندلس بتمازج فلول شرقية بعناصر من إفريقية والمغرب تزاوجت في كيان مشترك تمخض عبر القرون عما سماه الغربيون بالغرب الإسلامي تبلورت فيه ألوان متكاملة

(1401/1)

شملت أدق مجالي الحياة حتى ما عرف منها بالفن الإسباني المورسكي ، وقد انصهرت مؤشرات أموية عربية عريقة خاصة خلال القرن الرابع الهجري في مؤشرات صنهاجية مصمودية تحت تأثير المرابطين والموحدين ، ومن هناك انطبع تراث الأندلس بعطاءات مغربية إفريقية عربية انبثقت عنها حضارة فذة خلقت عالما ثالثا بين الشرق والغرب كاد يرتكز بين المحيط والمتوسط في المغرب وصحرائه كصلة وصل بين ثلاث قارات وثلاث حضارات ، وكان السبق في كل ذلك منذ الانطلاقة الأولى للفوج الإفريقي

(1402/1)

المغربي الذي غزا الأندلس (1) .

... وقد بدأ فتح الأندلس بحرا عام 27 هـ على يد عبد الله بن نافع وعبد الله بن الحصين (نقله ابن عذارى عن الطبري في البيان ، ج 2 ص 5 .)

... وقد ظلت الأندلس خلالا قرون متأرجحة بين التبعية والانفصال عن المغرب ، واستوثق هذا الرباط طوال ثلاثة قرون من عهد المرابطين إلى عهد المرينيين .

---

(1) بلغ جيش طارق الذي حارب رودريك في معركة وادي

بكة (Rio Barabate) إثني عشرة ألفا كلهم أفارقة انضم إليهم بإمرة موسى بن نصير عام 93 هـ/712 م عشر آلاف عربي فيهم القيسية واليمنيون .

(1403/1)

... وفي غضون ذلك كله طرأت على الأندلس أحداث كيفت بنيتها وأسيستها تدريجيا عبر العصور .

... ففي عام 123 هـ/741 م وقعت أول انتفاضة بربرية عامة في الأرض الإسبانية كانت امتدادا لانتصارات البربر في وقعة طنجة بقيادة ميسرة الخفير قبل ذلك بسنة ، وقد أعقبتها ثورة أخرى عام 124 هـ تسلسلت طوال عقد من السنين أدت بعد استيلاء عبد الرحمان الداخل على الحكم إلى عودة الكثير من البربر إلى المغرب عام 136 هـ/753 م إثر مجاعة عارمة ، ولكن الأمير عبد الرحمن ما لبث أن استدعى البرابرة الأفارقة لتضخيم فيالقه . وقد حفلت

(1404/1)

الأندلس منذ ذاك بعرب عدنانيين قرشيين وأمويين بالإضافة إلى فصائل يمنية قحطانية تركزت في شرق الأندلس وغربها وتفتقت عن الأسر المالكة في قرطبة و إشبيلية وعن حضارة اليمن بغرناطة وبذلك تجمعت اليمنية في جبال وأرباض الحواضر الكبرى التي تتكون منها الأندلس ، ولعل لذلك صلة خفية بينهم وبين صنهاجة ومصمودة في عهد المرابطين والموحدين وهم أيضا من محتد يمني ولا تزال ’إلى الآن بقايا جزولة بين غرناطة والمحيط على مسافة غير بعيدة من الجزيرة الخضراء في جبال جزولة (Sierra de las Gazules1)

---

(1) " إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر " ليفي بروفنصال ، لاروز ، باريس 1932 . ص . 27 .

(1405/1)

.

... ويتوارد مهاجرين أفارقة جدد إلى قرطبة بدعوة من المنصور بن أبي عامر تضخمت أفواج القرطبيين البرابرة الذين عزز الناصر الأموي بهم قيادته العسكرية وخططه الإدارية والقضائية ، وهؤلاء هم الذين أفردهم ابن حزم بكتاب الأنساب مدرجا بينهم الأصناف المذكورة من

صنهاجيين ومصامدة وكتاميين (1) .

... إن من الصعب أن نرسم لأنفسنا صورة صحيحة عن مسرى التطورات الحضارية خلال القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الأندلس

---

(1) راجع نقول لبن عبد الحليم عن هذا الكتاب في كتاب " مفاخر البربر " ، مخطوط بالمكتبة العامة بالرباط.

(1406/1)

أو المغرب (1) قبل المرابطين وربما قبل الموحدين مثلما أمكننا ذلك في نفس الفترة في الشرق العربي ، وقد بدأت هذه النظرية تتضح مع المقريزي (المتوفى عام 845 هـ/1442 م) والقلقشندي صاحب " صبح الأعشى " المتوفى عام 821 هـ/1418 م) وابن فضل الله العمري (748 هـ/1348 م) .

... وهكذا ظللنا في حاجة ماسة إلى أن نتحسس ونتلمس من خلال الشذرات المنتثرة في مظاهر ومجالي تبرز نتفا من الإبداعات التي حققها الأمويون وكان لها – أخذا أو عطاء – صلة مع الأوضاع الغامضة

---

(1) راجع كوتيي ، " العصور الغامضة في تاريخ المغرب "

التي رسم لنا بعض خطوطها دون عمق في خصوص العدوة الجنوبية مؤرخون أمثال ابن خلدون وابن زرع وعبد الواحد المراكشي وصاحب " تاريخ الدولتين " وابن بسام " في الدخيرة " والمقرئ في " نفح الطيب " كل ذلك نقلا عن كتب ظلت مغمورة بين ثنايا المخطوطات الغميسة من أهمها " المقتبس " لابن حيان الذي لم نتعرف على أهميته إلا خلال ما نقله عنه (ابن بسام) ، وقد برزت أكثر فأكثر قيمة هذا الكتاب بعد ما صدرت منه أقسام أثرت معلوماتنا بفيض من النقول المباشرة عن مخطوطات ضاع بعضها ، فقد نشر ابن حيان (1)

---

(1) راجع الجزء الخامس .

فصولا بكاملها اقتبسها من " تاريخ أحمد بن محمد الرازي " (1) و " تاريخ الأندلس " لابن الفرضي و " نقط العروس في نوادر الأخبار " لابن حزم وغريب بن سعيد والحسن بن محمد بن مفرج القبشي صاحب " كتاب الخلفاء

" وإسحاق بن سلمة في"تفضيل الأندلس " ومحمد بن مسعود في كتابه " الأنيق " مدليا أحيانا بآرائه المخالفة لما ينقل عن الرازي ومفصلا بشروح واسعة ما أجمله غريب بن سعيد .

---

(1) ينقل أحيانا عن ولده عيسى بن أحمد الرازي .

(1409/1)

ويستخلص ابن حيان من كل هذه المصادر نظرات دقيقة عن عصر عبد الرحمن الناصر مستعرضا الكثير من مظاهر العمران والحضارة في بلاط قرطبة أو كبريات الحواضر ، وقد استمد ابن حيان بعض معلوماته مباشرة من خطوط علماء أندلسيين مثل صاعد بن صاعد قاضي قرطبة أو رسائل موسى بن أبي العافية القائم بدعوة الناصر لدين الله بالمغرب أو ولده أبي منقذ بن موسى (عظيم أهل الولاية بالمغرب) ، و آخر ما لدينا من " المقتبس " جزؤه الخامس الذي صدر عام 1979 و و وتبلوت فيه كل المصادر المذكورة في مجال زمني يبتدئ عام 300 هـ وينتهي عام 329

(1410/1)

هـ وبقيت ملازم أخرى مجهولة ، وهكذا أشار ابن حيان (1) إلى كتابه الخليفة الناصر لدين الله الذي ندد فيه بمذهب ابن مسرة وأتباعه و قرئ في الأمصار ناقلا " عن تاريخ الرازي " و " تاريخ الأندلس " لابن الفرضي الذي أكد (2) أن والد محمد بن مسرة هو عبد الله مولى رجل من البرابرة أهل فاس.

---

(1) " المقتبس " طبعة المعهد الإسباني العربي للثقافة بمدريد ، كلية الآداب بالرباط 1979 ، ج 5 ، ص . 25 .

(2) طبعة كوديرا رقم 650 وطبعة القاهرة رقم 652 .

(1411/1)

... كما أكد لنا ابن حيان (حسب نقل ابن الآبار في " الحلة السيراء " ، ص . 33) أن عبد الرحمن الناصر كان أول من تسمى بالخلافة وتلقب بأمير المومنين في حين يلاحظ مؤرخو المرابطين أنهم إنما انتحلوا لقب إمارة المسلمين تاركين لدار السلام ببغداد شمولية الإشراف على العالم الإسلامي بأكمله .

... نعم كانت المعالم غامضة لم تسمح لنا بتوضيح قتامة بعض الخلفيات في رسومات المقارنة رغم ما بذله

مؤرخون أجانب أمثال (جوزيف أشباخ) الألماني في كتابه عن " الرابطين والموحدين " (1)

---

(1) ترجمه إلى العربية الأستاذ محمد عبد الله عنان .

(1412/1)

والمستشرق الهولندي (رينهارت دوزي) في " تاريخ المسلمين في الأندلس " (1) والأستاذ (ليفي بروفنصال) الذي لم يتعد القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي أي آخر العهد الأموي) (2) غير أنهم استطاعوا تحقيق بعض التقدم في دراساتهم بسبب ما أمكن الكشف عنه من مخطوطات غميسة مثل كتاب " أعز ما يطلب " لمحمد المهدي بن تومرت (3)

---

(1) أنجز منه ثلاثة أجزاء وقف عند فتح المرابطين للأندلس .

(2) في كتابه " إسبانيا المسلمة في القرن العاشر " ، طبعة باريس .

(3) نشره (لوشياني) عام 1903 بالجزائر بتقديم المستشرق جولد زيهر .

(1413/1)

و " أخبار

المهدي بن تومرت " لأبي بكر الصنهاجي الملقب بالبيذق

و (مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة

المومنية) (1) ثم بعد نحو عقدين من السنين ظهرت

أبحاث أخرى كشفت عن جوانب جديدة مثل كتاب " قيام

دولة المرابطين " للدكتور حسن أحمد محمود (2)

و "المرابطون" (3) للدكتور (خاثينثو بوسك فيلا)

والقسم الثاني من كتاب " المن

---

(1) نشرها مع مجموعة أخرى ليفي بروفنصال في باريس

عام 1938 أعقبها حسين مؤنس بمجموعات من رسائل

الدولة المرابطية .

(2) نشر بالقاهرة عام 1957 .

(3) نشر بالإسبانية في تطوان عام 1956 .

بالإمامة " لابن صاحب الصلاة (1) أصدره الأستاذ (

إمبروسيو أويثي ميراندا) ثم أعقبه " البيان المغرب "

لابن عذاري في طبعتين بتطوان (2) مما أتاح له فرصة

توليف أوسع في كتابه " التاريخ السياسي لدولة

الموحدين " طعمه بمعلومات دقيقة من مصنف جديد هو كتاب " نظم الجمان " لابن القطان الكتامي (3)

---

(1) نشر الدكتور عبد الهادي التازي المخطوطة الوحيدة الموجودة في مكتبة (البودليانا) في إسكفورد .

(2) عامي 1956 و 1961 ثم طبعة جديدة بتحقيق الأستاذين محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت .

(3) كان أعاره إياه (ليفي بروفنصال) بعد أن نشر جزءا منه دون أن يعرف أنه لابن القطان الكتامي ولكن معهد الدراسات الإسلامية بمدريد تملك من بين تركة بروفنصال بعد وفاته القطعة غير المنشورة من (نظم الجمان) وهي فريدة في العالم .

(1415/1)

الذي حققه الدكتور محمود علي مكي (1) والذي ظل مرجعا لكثير من المؤرخين أمثال ابن عذاري وصاحب " الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية " وابن الخطيب السلماني، و يقال إن ابن القطان هذا هو الحسن علي محمد الكتاني الفاسي الموفى عام 628 هـ/1230 م .(2)

---

(1) بإشراف معهد مولاي الحسن بتطوان (المطبعة

المحمدية)

(2) و إن كان الدكتور محمود علي يرى عن حق أنه ربما كان ابنا له أو أحد أقاربه لأن الكتاب يشير إلى خلافة المرتضي الذي وليها بين عامي 646 و 665 أي بعد وفاة أنب القطان بقريب من عشرين سنة .

(1416/1)

... ولعل بعض المجالي الحضارية الأندلسية قد تسربت إلى المغرب منذ القرن الثلاثة الأولى لا سيما بعد نزوح أربعمائة عائلة إلى فاس غب (وقعة الربض) ، ذلك أن نظام البلاط في العهد الأموي – وإن كان قد تأثر بما عرفه العباسيون والفاطميون – فإن له مميزات اتسمت بمعطيات جهوية رغم وحدة الهيكل البنيوي ،
فالصقالبة قد شكلوا معظم حشم الصقر الخليفي أو أطره كالفتيان وأصحاب المطبخ والبنيان والخيل والبرود (الرقاص المحلف) والطراز والصباغة والبيزرة (صيد الغرانيق) والسيف وخزانة السلاح بالإضافة إلى القهارمة وخاصة

(1417/1)

الخليفة . وقد استعملت نفس المصطلحات بالمغرب الأقصى
في مجالات أخرى كالبيعة وولاية العهد والسدة العالية
وعبيد القصر والحجابة والخطط الإدارية والقضائية (
كقضاة الجماعة وقاضي القضاة وقاضي العسكر)
والمحتسب وصاحب السوق والمشاورة وعمال الولايات
ويعين أصحابها بصكوك بدل ظهائر. وهنالك وظائف
أخرى تدخل في إطار "خدمة الخلافة " ككتاب الزمام
والرسائل و الأسجال الخراجية والكتابة الخاصة
والتوقيعات وتنجيزها والأوقاف وبيت المال (أو خزانة
المال التي كانت تحتوي على الصدقات والأعشار
والخراجات والضمانات والأموال

(1418/1)

المرسومة على المراكب الواردة والصادرة ورسم بيوع
الأسواق والمواريث الحشرية زد على ذلك الرسوم غير
المنظمة مثل المغارم أو الوظائف
أو القبالات والمكوس وجباتها المترفين أو الأمناء وربما
أمراء الجبايات) أما موارد الخليفة فكانت تندرج في
المستخلصات (وهي مما يسمى بخاصيات بيت المال) فيها
غلات الضياع بالعزائب السلطانية في المغرب .
... ورغم التطعيمات المغربية والصحراوية المختلفة

لحضارة الأندلس فإن روح الاستماتة والجهاد كانت هي العامل الأساسي الذي مكن الأندلس من أن ترفع راية الحضارة الإسلامية طوال ثمانية

(1419/1)

قرون ، وكانت الصليبية قد بدأت تتحرك من الأندلس للإيقاع بالإسلام فانبرى القائد المرابطي يوسف بن تاشفين (479 هـ/1086 م) أي قبل الحرب الصليبية الأولى بعشر سنوات (1096 م) لتحرير إمارات ملوك الطوائف من ضغط الإسبان فأحرز في معركة الزلاقة (عام 1086) (1) ضد (ألفونس السادس) ملك قشتالة (عام 1065 – 1109) نصرا تردد صداه في الشرق والغرب وذاع صيت القائد

---

(1) وقعت معركة (حطين) التي انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين بعد قرن كامل (عام 1187 م) فكأنها كانت ذكرى مائوية لانتصار (الزلاقة) .

(1420/1)

الظافر الذي لقب منذ ذلك اليوم " بأمير المسلمين " مع استمرار دعوته لدار الخلافة العباسية تركيزا للوحدة الكبرى . وتكونت إمراطورية واسعة ضمت الصحراء والمغارب الأربعة (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) الأندلس تحت الحكم المرابطي ثلاثة أرباع قرن (إلى 5537 هـ) برز خلالها ملوك طوائف جدد بالأندلس وزحف صليبي عارم في إفريقية (أي تونس) ، وكان المهدي بن تومرت قد بدأ جولته في الشرق منذ أوائل القرن السادس فانبرى يجدد معالم الدين ويركز العقيدة السلفية ويجمع من جديد تحت ظلال الإسلام المملكة المرابطية الشاسعة

(1421/1)

التي بدأت تنهار وقد استطاع خليفته عبد المؤمن الموحدي في سنة الأخماس (555 هـ) تخليص إفريقية من الغزو النرمندي وتحصين جبل الفتح (جبل طارق) بالأندلس بفضل أسطوله العتيد الذي أصبح أول أسطول في البحر الأبيض المتوسط (1) والضرب على أيدي العرب الهلاليين والسلميين الذين نشروا الرعب والدمار بإفريقية فازدهرت بذلك حضارة جديدة أسهمت الأندلس في طبعها بميسم خاص بزعامة يعقوب الملقب بالمنصور

منذ ظفره على الصليبيين المتكتلة في وقعة الأرك (
591

---

(1) أندري جوليان ، " تاريخ إفريقيا الشمالية " عام 1931 ، ص . 412 .

(1422/1)

هـ–1195 م) أي بعد وقعة (حطي) بثمانية أعوام . وشعر (البابا إينوسان الثالث Innocent II) (عام 1198 / 1217 م) بالخطر الداهم فتكاتفت البابوية بموجب تصميماتها المعتادة مع ملك قشتالة (ألفونس الثامن) (1158 – 1214 م) و أسقف طليطلة (رودريك جيمنيز) للكر من جديد على الإسلام المتوثب في (وقعة العقاب) (609 هـ/1212 م) التي كانت هزيمة شنعاء ضعضعت مقومات الإمبراطورية الموحدية في الغرب في نفس الوقت الذي بدأ المسيحيون يندحرون في مصر خلال الحرب الصليبية الخامسة (1219 م) حيث طردوا نهائيا من الأماكن

(1423/1)

المقدسة بعد معركة عزة (عام 1244 م) . واتجه المرينيون فيما بعد يلمون الشمل معيدين للبلاد وحدتها في حدودها الإفريقية بينما هب (الفونس العاشر) لتضييق الخناق على المملكة النصرية (أي دولة بني الأحمر) التي لم تفد من جوازات المرينيين المتوالية للأندلس سوى حضد مؤقت لشوكة المسيحية . والواقع أن الإمبراطورية المرينية كانت منهارة من أساسها رغم ذيوع صيت أبي الحسن أعظم ملوكها الذي مني بآخر هزيمة في وقعة طريف (741 هـ/ 1340 م) (Reo de Solado) قطعت الأمل في إنقاذ الأندلس واجهت مملكة غرناطة مصيرها وحدها

(1424/1)

.

... غير أننا ندرك مدى التلاحم بين حضارة العدوتين إلا إذا استعرضنا نماذج تبرز التكامل إذا لم نقل وحدة البنية في شتى مجالات الحضارة ومرافق المعرفة ، فلنضرب أمثلة لهذا التزاوج الفكري بين شقي البحر الأبيض المتوسط في مختلف حقول العلم والفن وخاصة في الطب والصيدلة والرياضيات وفي العلوم الإسلامية والمعمارية .

... لقد أدخل عمر بن الحسن الهوزني " صحيح البخاري " إلى الأندلس(1) وأدخل أبو

---

(1) " النفح " ج 3، ص. 385.

بكر بن الأحمر محمد بن معاوية بن مروان المحدث الأندلسي(المتوفى عام 365 هـ) النسائي(1) كما أدخل ابن الضابط أبو عمرو عثمان بن أبي بكر الصدفي صاحب " الرحلة إلى الشرق" كتاب " غريب الحديث " للخطابي (2) على أن صعصعة بن سلام الشامي هو أول من أدخل الحديث عموما إلى الأندلس والمغرب وقد روى عن الأوزاعي(3) وقد كتب علماء المغرب كما قال ابن خلدون

---

(1) " جذرة المقتبس "، ص. 82؛ و " بغية الملتمس "، ص. 116.

(2) " رحلة التجاني "، ص. 80.

(3) لبن الفرضي، " تاريخ علماء الأندلس " طبع مجريط، 1890 م، ص. 169.

على " صحيح مسلم " خاصة وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري من غير الصحيح مما لم يكن على شرطه وأكثر ما وقع له من التراجم ، وأملى الإمام المازري من فقهاء المالكية عليه شرحا سماه " المعلم بفوائد مسلم " ثم أكمله القاضي عياض من بعده وتممه وسماه " إكمال المعلم " وتلاه محيي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما فجاء وفيا (1) وقد دشن تدريس الحديث بمراكش يعقوب المنصور الموحدي في القرن السادس الهجري (2)

---

(1) ابن خلدون في باب علوم الحديث ، م 1 ، ص . 801 .

(2) " الاستبصار " (الإعلام للمراكشي ، ج 1 ، ص . 65) . وذكر النعيمي المتوفى عام 927 هـ في " الدارس في تاريخ المدارس "، ج 1 ، ص . 14 ، أنه كان من شروط الوقف في دمشق قراءة البخاري في ثلاثة أشهر .

ونفق سوقه أيام أبي سالم المريني (1) وعقد المنصور الموحدي مجلسا في حضرته لتدريس الحديث عين له شيخا هو ابن القطان الذي استبحر في علوم الحديث وبصر

بطرقه وميز بين سقيمه وصحيحه ونقد رجاله فكان أول شخصية مغربية ركزت الدراسات الحديثة على الأساليب والناهج المتبعة في الشرق مع نوع من الأصالة والجدة .

وقد عقد الملوك مجالس قراءة " الصحيح " من عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله لقراء الحديث شطرا من السنة .

---

(1) " سلوة الأنفاس " ج 3 ، ص . 168 .

(1428/1)

... وحاول الملوك الموحدون الارتكاز على القرآن والحديث فأحرق يعقوب المنصور كتب المذهب المالكي بعد تحريرها من الحديث (1) وكان جده عبد المومن بن علي قد أمر عام 550 هـ بتحريق الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث وأصدر بذلك تعليماته إلى طلبة المغرب وعدوة الأندلس (2) .

... وقد تتلمذ للإمام مالك مباشرة في علم الحديث يحيى بن يحيي الليثي الطنجي البربري ومحمد بن سعيد القيسي قاضي المولى إدريس كما تتلمذ الحافظ ابن حجر إمام أهل الحديث شرقا

(1) المراكشي " المعجب " ص . 171 .

(2) " الأنيس المطرب " ج 2 ، ص . 154 .

(1429/1)

وغربا لمحدثين مغاربة كأبي البركات الكمال المكناسي وتقي الدين الفاسي وابن شقرا محمد بن بدر السلاوي ، وكان إدريس الفاسي أحفظ من ابن حجر .

... وقد حاول ابن حزم في رسالته في " فضل الأندلس " (1) أن لا يذكر مؤلفا لمشرقي إلا ذكر ما يقابله لأندلسي مفضلا الثاني على الأول وهو فهرس جليل لمعارف الأندلسيين وعلمائهم ومؤلفاتهم ، وبالرغم عن كون " تفسير " محمد بن جرير الطبري قد بلغ ألف مجلدة ضخمة " (2)

(1) أورد المقريزي هذه الرسالة في " نفح الطيب " ج 2 ، ص . 125 – 128 .

(2) الشعراني ، " لواقح الأنوار القدسية " ، ج 2 ،ص . 169 على هامش اللطائف .

(1430/1)

فقد قطع ابن حزم بكون بقي بن مخلد " لم يؤلف في الإسلام مثل " تفسيره " لا " تفسير " محمد ابن جرير الطبري ولا غيره " كما قال عن مسنده :

... " مسند بقي " روي فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه فهو مسند ومصنف وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث " (1) وقد ضرب ابن حزم نفسه المثل الحي بنشاطه في دراية الحديث وروايته مستوفيا أبواب هذا الفن (2)

---

(1) " المقريزي " ، ج 1 ،ص . 580 .

(2) له (1) " شرح أحاديث الموطأ والكلام على مسائله " ، (الذيل – ياقوت) ، (2) " الناسخ والمنسوخ " (الذيل) ، يوجد بهذا الإسم منسوبا لابن حزم في مكتبة الكتاني ولعله لابن العربي المعافري) ؛ (3) " الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد "(الذيل).

(1431/1)

.

... والواقع أن كل مسجد أو جامع في المغرب كان دارا للحديث حتى صغار القرى بالبادية ، ففي أغمات كان خلف

بن عمر الباجي يدرس " صحيح مسلم " ويحضر درسه ابن الصقيل الشاطبي المتوفى بفاس بعد (500 هـ) وكان علماء المغرب يميلون إلى الحديث في تأويل كثير من التفريعات فقد نقل الحافظ ابن حجر في " الدرر الكامنة " عن " سير النبلاء" للذهبي أن ابن رشيد السبتي كان على مذهب أهل الحديث في الصفات لا يتأولها . وقد انتقل علم الحديث من الأندلس إلى حاضرة القيروان " فلما اضطرب أمر إفريقية ببعث العرب فيها وقرطبة آخر

(1432/1)

ملوك بني أمية رحل من هذه وتلك من كان فيها من العلماء والفضلاء من كل

طبقة فرارا من الفتنة فنزل أكثرهم مدينة فاس (1) .

الفن المعماري

... اتجه المرابطون خاصة نحو هندسة المساجد التي لم يعد يخلو منها ربض ولا زقاق لا سيما في فاس ، كما اهتموا ببناء القلاع على غرار الحصون الأصلية مع الاقتباس في

---

(1) " شجرة النور " ،ص . 450 ، وكان في سبتة محدثون حيث أجاز الحافظ تقي الدين بن تيمية لصاحب سبتة

بجملة من أسانيده في عشر ورقات وصدر عنه ذلك وهو معتقل في سجن الإسكندرية عام 790 هـ " فهرس الفهارس " ج 1 ، ص . 199 .

(1433/1)

آن واحد من الأندلس . وأول ما تجلى هذا الاقتباس في فاس حيث استقدم يوسف ابن تاشفين من قرطبة جملة من صناع طوروا مساجد المدينة وسقايتها وحماماتها وخاناتها كما استقدم علي بن يوسف المهندسين الأندلسيين لبناء قنطرة (تانسيقت) .

... ثم جاء الموحدون فاستطاعوا بفضل ما أبدعوه من روائع ، تبوؤ المقام السامي في تاريخ الفن الإسلامي لا سيما في عهد يوسف الذي عاش في إشبيلية حيث زينها بأروع البنايات والمؤسسات العمومية . ثم جاء ولده يعقوب المنصور فكان أبدع بناء في تاريخ المغرب الفني وقد تجلت هذه البدائع خاصة في

(1434/1)

إشبيلية والرباط ومراكش ومناراتها وخيرالدا وحسان والكتبية . و أصبحت مراكش ببناياتها وقصورها وحدائقها أشبه ببغداد في الشرق كما أشبهت مدينة فاس دمشق في روائها الفني وطبيعتها الخلابة .

... ويمكن أن تعتبر مدينة فاس أول مركز عربي تفتق في البلاد المغربية و أصبح بعد ذلك – حسب كوتيي (Gautier) – مظهر إعجاز في ميدان التكييف بالطابع الشرقي ، ذلك أن الفن اتخذ مناهج جديدة منذ العصر الأموي في كل من الشرق الأدنى والمغر بالعربي بفضل مرونة حساسية العرب ومداركهم الإبداعية . فهناك عوامل حدت العرب في الأندلس

(1435/1)

والمغرب وكذلك بمصر إلى الاستيحاء في زخارفهم من معطيات الهندسة وهذه العوامل هي إهمالهم للأشكال والصور المستمدة من الطبيعة وتعميقهم في دراسة الرياضيات وسعة مواهبهم و أذواقهم .

... وكان لفاس أثرها القوي حتى في إقريقيا وبذلك أمسى علماء الإسلام بإفريقيا تابعين لمدرسة برابرة الغرب الإسلامي (1) ويرجع فضل هذه النهضة إلى المولى إدريس الثاني الذي أمد حاضرة العلم بأولى مؤسساتها .

(1) جورج مارسي ، " الفن الإسلامي " ج 2 ، ص . 469 .

... وقد أكد المؤرخ الفرنسي طيراس (1) لدى حديثه عن الفن المرابطي أن عليا ابن تاشفين فاق والده بكثير في المؤسسات المعمارية مع أن يوسف نفسه كان من كبار البناة والمؤسسين ، وقد اندثرت معالم جميع ما أقامه من قصور ومساجد في مراكش باستثناء قبة الردعيين (قرب جامع بن يوسف) ومسجد تلمسان (عدا منارته) ومعظم أروقة جامعة القرويين الزاخر بروائع الفن المقتبس طبق الأصل من الفن الأندلسي بما كان ينطوي عليه في القرن الخامس الهجري من رقة ورشاقة وروعة زخرف ، ومع ذلم فإن مساهمة

(1) " تاريخ المغرب " ، ص . 252 .

المرابطين في الفن كان مهما لا يخلو من تجديد فالفنان لا يمكن أن يستسيغ ويقتبس إلا ما تمكن تقريبا من

الكشف عنه (1) ولنا على ذلك دليل قوي في النفوذ الشامخ الذي بسطه المرابطون في الأندلس وإفريقية وذلك في العمل البناء الذي حققوه في هذا الجزء من المغرب الإسلامي ، وقد لاحظ (كودار) (2) عن حق أن إقامة المرابطين لصروح أكبر إمبراطورية أسست في العالم (حيث امتدت من الأندلس إلى جزر الباليار إلى نهر النيل Niger) لتنم لدى

---

(1) مارسي ، " مقدمة كتاب الفن الإسلامي "

(2) في كتابه " وصف وتاريخ المغرب " ص . 314 .

الفاتح المرابطي عن تفتح مدارك قوية .

... إن قادة الموحدين الذين ركزوا للمرة الأولى وحدة الإسلام السياسية من حدود (قشتالة) إلى (ليبيا) قد ساهموا في تأصيل نوع من التوحيد بين عناصر الفن الإسلامي في المغرب (1) .

... وقد استمر نفوذ الموحدين أزيد من قرن كان لهم في غضونه أعمق الأثر في عدوة الأندلس المترامية الأطراف ، فانتصار يعقوب المنصور في الأندلس قد أضفى على الفن طابعا خاصا وحقق بتساوق مع مدرسة القيروان التجانس

الفني بين الشرق والغرب .

---

(1) مارسي ، " الفن الإسلامي " ، ص . 305 .

... وقد تجلى ذلك في جامع القرويين فعندما دعت زناتة لعبد الرحمن الناصر ملك الأندلس وبايعه أهل فاس قام العامل (أحمد بن أبي بكر الزناتي) بتوسيع المسجد منفقا عليه " من أخماس غنائم الروم " فزاد أربعة بلاطات من الغرب وخمسة من الشرق وثلاثة من الجوف .

... وفي عهد علي بن يوسف اشتريت دور كان أكثرها في ملك اليهود وزيدت في المسجد عشرة بلاطات من الصحن إلى القبلة (1)

---

(1) يوجد بجامع القرويين 19 بلاطا موازيا للقبلة وقد لاحظ (جورج مارسي) أن هذا الأسلوب يرجع عهده إلى صدر الإسلام ونجده في مصر (جامع عمرو وجامع ابن طولون) وظل هو الغالب في مساجد فاس ، " فن الإسلام " ، ص . 95)

والقبة بأعلى المحراب " بالجبص المقربص الفاخر الصنعة " ورقش ذلك كله بورقة الذهب واللازورد و أصناف الأصبغة (1) وركبت في الشماسات التي بجوانب القبلة أشكال متقنة من أنواع الزجاج و ألوانه ، ثم غشيت أبواب الجامع " بصفائح النحاس الأصفر بالعمل المحكم والشكل المتقن " ، (كل ذلك عام 533 هـ) وقد لاحظ (ابن أبي زرع) أن هذا الفن كان يبهت الناظرين ، فلما دخل (عبد الرحمن بن علي) (عام 540 هـ) خاف الفقهاء والأشياخ أن ينتقد ذلك النقش والزخرف لأن الموحدين نهجوا سياسة

---

(1) " الأنيس المطرب " ، ج 1 ، ص . 87 .

التقشف فغطى البناؤون النقش والتذهيب الذي فوق المحراب وحوله بالكاغد ثم لبسوا عليه بالجص وغسل عليه بالبياض (1) .

... وقد علق (جورج مارسي) على هذا الحدث فزعم أنه قصة لتبرير البياض والفراغ الملحوظين في قبة المحراب (2) إلا أن الحفريات التي قامت بها (مصلحة

---

(1) " الأنيس " ج 1 ، ص . 88 .

(2) كتاب " الفن الإسلامي " ، طبعة 1926 ، ج ، ص . 302 وقد أكد (مارسي) هذا الزعم في الكتاب الذي صنفه عام 1954 وهو " الهندسة المعمارية الإسلامية في الغرب " ، ص . 188 ، إلا أن الأستاذ (طيراس) أيد مقالة ابن أبي زرع .

(1442/1)

الفنون الجميلة) منذ عام 1952 أكدت حكاية المؤرخ العربي ، فقد كشف عن نقوش رائعة غير أنها لا تحتوي على أي توريق ذهبي ، وقد لوحظ أن أصناف الأصبغة المشار إليها من طرف صاحب (القرطاس) هي الأزرق والأحمر والمغرة الصفراء ، ومازالت الألوان متماسكة وفي رائق غضاضتها ، ويظهر أن مزيج الأصباغ كان يحتوي على مح البيض الذهبي اللون وأن الدهان كان كامدا للتخفيف من بريق أشعة النور المنعكس من النوافذ .

... وقد احتل الموحدون في تاريخ الفن الإسلامي مكانة تفوق ما كان للمرابطين في هذا الحقل ، وذلك بالرغم عن معارضة

(1443/1)

المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية لبعض مظاهر هذا الفن كالموسيقى والسماع والزخارف والنقوش .

... وكان ابن يوسف هذا يقطن في (إشبيلية) التي زخرف معمارها بأبهى و أروع مما زين به حاضرة مراكش ، أما ولده (يعقوب المنصور) فإن بدائعه الفنية تشهد بأنه أروع بناء في العصر الموحدي (1) مثال ذلك المؤسسات المقامة في إشبيلية والرباط ومراكش .

... وبفضل الموحدين تجلى القرن السادس لبعض علماء الآثار كعصر بلغ فيه الفن الأوج في القسم الغربي من العالم الإسلامي (2)

---

(1) مارسي ، " الفن الإسلامي " ج 1 ، ص . 303 .

(2) " الهندسة المعمارية الإسلامية في الغرب " ص . 200.

.

... وتبدو الهندسة المعمارية الموحدية في أجلى و أجل معالمها في مساجد مراكش وحسان (بالرباط) ومرصد الخالدة بإشبيلية (1) .

... وقد أكد كل من (طيراس) و (باسي) أن الكتبية

أجمل معبد أقامته الخلافة الإسلامية في المغرب ، وأنه يعادل في جدة أسلوبه روائع (الجامع الكبير بقرطبة) ، فجامع قرطبة رغم سعته لا يتسم بنفس الطابع من التجانس والتناسق ومع ذلك فإن عددا كبيرا من رؤوس الأساطين في (الكتبية) هو من أصل

---

(1) يوسف هو الذي شرع عام 567 هـ في بناء المسجد الأعظم بإشبيلية ، (ابن زرع ، " القرطاس ") .

(1445/1)

أندلسي ، فالأعمدة الأربعة التي تساند (قوس المحراب) من مخلفات (الفن الأموي) وتوجد أيضا في المسجد الموحدي بقصبة مراكش أعمدة أموية من الصعب وجودها ملتئمة في قرطبة نفسها) .

... ويرى كل من (طيراس وباسي) أن المنبر هو من أجمل منبر في المغرب الإسلامي بل أبهى و أروع منبر في العالم الإسلامي أجمع وما زال قائم الذات إلى عصرنا هذا في (الكتبية) إلا أن بعض أجزائه تميل إلى التداعي .

... وقد ازدهرت مظاهر الحضارة والعمران في عهد بني مرين الذين أصبحوا أقوى ملوك إفريقيا الشمالية (1)

(1) راجع أندري جوليان ، " تاريخ افريقيا الشمالية " .

(1446/1)

إذ بالرغم عن محتدهم الصحراوي فإن هؤلاء الرجال استطاعوا ، بفضل اتصالهم المزدوج بـ (بني نصر) ورثة الحضارة الأندلسية وبالموحدين التكيف والإنسياق في مجرى الحضارة تبعا للمقتضيات المدنية مع استمداد من معطيات الفكر الإسلامي والمجالي الطريفة في التجديد ، وقد تبلور اتجاههم في إقامة المدارس المحصنة والمساجد وقباب الأضرحة
والفنادق المزخرفة والمدارس الفخمة التي أضفت على المغرب المريني طابعا خاصا من الروعة والبهاء .

(1447/1)

... تلك هي المظاهر الجوهرية التي يمكن أن نستخلص منها صورة عن الفن المريني الذي بدأت تتبلور فيه مجالي الازدواج بين الطابعين الأندلسي والمغربي في شكل جديد سمي بالفن الإسباني الموريسكي .
... وبالرغم عن التأثرات الأندلسية التي رسمت هذا الفن

فإنه اصطبغ بسمة خاصة إذ عوضا عما كان يذكي المهندس الأندلسي من رغبة في تحقيق التوازن بين القوى في معالم المعمارية هدف المهندس المغربي إلى ضمان متانة الهيكل بالإضافة إلى ما كان يشعر به من حاجة إلى مزيد من الزخرفة والتنسيق ، وهذا هو الطابع العام الذي يتسم به مجموع

الفن الإسلامي من تسطيرات ناتئة ومقربصات وتلوينات علاوة على روعة الهندام . ورغما عما يتسم به هذا الفن المعماري ، الدي بلغ في العصر المريني أوج عنفوانه ، من إيغال في التوريق والتسطير والنقش مع قلة توازن بين الأجزاء وعدم جودة المواد فإن المجموع ظل – كما يصفه المؤرخ أندري جوليان – واضح المعالم متوازي النسب تتجانس نقوشه تجانسا رائعا ضمن الحيز الذي يملأه وهذا بالإضافة إلى ما انطوت عليه الألوان من دقة وجناس كاملين(1) .وقد أشع الفن المريني شرقا وغربا بثروته التي

---

(1) " تاريخ إفريقا الشمالية " ، ص . 456 .

لا تضاهي وروعته الطريفة الأصلية فكان فنا أندلسيا مغربيا تتناسق عناصره في (العدوتين) .

... وهذا التناسق الفني يرجع الفضل فيه إلى نشاط المهندس الأندلسي الذي كان تأثيره ملحوظا في مجموع المآثر المعمارية (1)

---

(1) كان ذلك منذ المرابطين وقد لاحظ (الناصري) نقلا عن صاحب " الجذوة " أن المهندس الإشبيلي محمد ابن علي هو الذي رسم تصميم (دار الصناعة البحرية بسلا) واستعمل الأساليب المعروفة بالأندلس (" الاستقصا " ، ج 2 ، ص . 11) كما أن نقل مياه (وادي فاس) لتزويد قصر يوسف بن يعقوب كان على يد مهندس إشبيلي اختصاصي في علم الحيل هو (محمد بن الحاج)

.

... وإذا كان الفن قد استطاع الصمود في نهاية العهد المريني فما ذلك إلا بفضل العناصر الأندلسية التي هاجرت إلى المغرب ، بحيث أصبح المغاربة منذ عهد الوطاسيين عالة في كثير من الفنون والحرف على

الأندلس (1) ومع ذلك فإن الفن المغربي الذي نشطت مقوماته العمرانية ظل محتفظا بجودته النادرة رغما عن انعدام الفخامة في مجاليه ذلك أن وفرة الزخرفة وثراءها وروعتها انتظمت في إطار من الوضوح والدقة لا غبار عليه .

---

(1) " كودار " ، ج 2 ، ص . 461 .

(1451/1)

... وقد لاحظ طيراس (1) أنه بالرغم من الجهود التي بذلها كبار الأمراء السعديين فإنهم لم يسهموا في انبعاث الحضارة الإسلامية بالمغرب ، غير أن صلات عابرة وغير مباشرة بالفنون الإسلامية الشرقية تحققت من جديد بفضل ما كان للسعدين من علاقة بالأتراك ولعل بعض هذه الآثار تتجلى في فن الطراز والنسيج والتجليد والتذهيب .

---

(1) " تاريخ المغرب " ، ج 2 ، ص . 234 .

(1452/1)

...

الأندلسيون والمغاربة في طرابلس الشام

الدكتور عمر عبد السلام تدمري

... ... الجامعة اللبنانية ـ طرابلس

العلائق الثقافية

... تعود العلائق الأندلسية ـ المغربية بطرابلس الشام إلى أكثر من ألف سنة خَلَتْ، وبالتقريب إلى مائة عام وألف من الآن، أي إلى عهد الحكم الإخشيدي (330 ـ 358 هـ/ 941 ـ 969 م)، وتنوعت تلك العلاقات ما بين ثقافية وسياسية وعسكرية وتجارية وعمرانية. وكانت بداياتها في رحلات طلبة العلم من الأندلسيين إلى المغرب الإسلامي لسماع الحديث على كبار المحدثين والحُفّاظ والمسندين.

(1453/1)

... وكانت طرابلس الشام منذ القرن الثاني الهجري (8 م) قد أصبحت حاضرة مهمة من حواضر العالم الإسلامي، فأخرجت جماعة موفورة من كبار المحدثين والرواة الإخباريين، يأتي في مقدمتهم أبو مطيع معاوية بن

يحيى الأطرابُلُسي(1) المتوفى بحدود 170 هـ/ 785 م.

... ويُعتبر خيْثَمَة بن سليمان القُرشي الأطرابُلُسي(2) المولود سنة 250

---

(1) ... انظر: عبد اللام تدمري، مسند معاوية الأطرابلسي، دار الإيمان، طرابلس، ودار ابن حزم ـ بيروت، 1997.

(2) ... انظر كتابنا: من حديث خيثمة الأطرابلسي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1980.

(1454/1)

هـ/ 862م. أشهر من أخرجته طرابلس من رجال الحديث، حيث كان حافظاً، ثقةً، مكثراً في الرواية، عُرف في عصره بأنه مُسند الشام، اشتهر حديثه في بلاد الشام، والعراق، وفارس، وعمت شهرته الآفاق، حدَّث في الجامع الأموي بدمشق، وعاد إلى طرابلس، فكان كبير محدثيها، وقصده الطلبة والشيوخ من أقطار الدنيا، فسمعوا منه، وأخذوا إجازته في رواية الحديث، وعُمّر أكثر من 90 عاماً، فكان من بين طلبته الكُثُر طلبة قدموا من الأندلس، ونزلوا طرابلس وارتادوا مجلسه في مسجدها الجامع، وشاركوا في حركتها الثقافية، وكان منهم:

(1455/1)

... (محمد بن عبد الله بن عبد البر التُجيبي الأندلس القرطبي(1)، وهو يُنسَب إلى كُشكينان من قرى قرطبة، ورحل إلى المشرق مرتين. وعندما عاد من رحلته الأولى، كانت له الوجاهة عند الخاصة والعامة في الأندلس، مع العلم والزُهد، وسمع منه الناس كثيراً،

---

(1) ... ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج 1، صص. 356 ـ 357؛ الضبي، بغية الملتمس، ص. 89؛ عمر بعد السلام تدمري، موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي، طبعة المركز الإسلامي للإعلام والإنماء، بيروت، 1984، ق 1، ج 4.ص, 241، رقم 1495، وفيه مصادر أخرى.

(1456/1)

وحج في رحلته الثانية، وجاء إلى طرابلس فأقام بها إلى أن توفي سنة 341 هـ

... (وأبو عثمان سعيد بن نصر بن عمر بن خلف الأندلسي(1) من أهل أستجة بالأندلس، رحل إلى طرابلس فحضر مجلس خيثمة وسمع منه، ثم انتقل إلى بغداد ومكة وأصبهان ونيسابور ومرو، وطوف البلاد إلى أن توفي في بخاري سنة 348 هـ

(1) ... الحميدي، جذوة الاقتباس، صص. 234 ـ 235؛ ابن بشكوال، الصلة، ج 1، ص. 207؛ تاريخ دمشق، ج 21، صص. 312 ـ 313، رقم 2563؛ الموسوعة، ق 1، ج 2، صص. 290 ـ 291، رقم 631.

(1/1457)

... (وأبو الأصبغ عبد العزيز بن عبد الملك بن نصر الأموي الأندلسي(1) من أهل قرطبة، نزل طرابلس الشام وأقام بها مدة حتى أكثر من السماع على خيثمة، ثم رحل إلى الكوفة وأصبهان ومَرو، وصحب عميد الدولة صاحب مدينة بَلْخ فكسب معه مالاً عظيماً، وانتهى به المطاف في بخاري حيث توفي هناك سنة 365 هـ

(1) ... تاريخ علماء الأندلس، ج 1، ص. 278؛ تاريخ دمشق، 42، ص. 344 ـ 346؛ الموسوعة، ق 1، ج 3، صص. 142 ـ 143، رقم 819.

(1/1458)

... (وأبو جعفر أحمد بن عون الله بن جدير بن يحيى القرطبي الأندلسي(1)، وِلد سنة 300 هـ وسمع الحديث ببلده قرطبة، ثم رحل إلى مصر والشام والحجاز، وقصد طرابلس فسمع من خيثمة، وبلغ شيوخُه الذين روى نهم اثنين وسبعين رجلاً وامرأتين. وعاد إلى قرطبة فكان يحدث بمسجدها بسنده عن خيثمة الأطرابلسي وغيره، إلى أن توفي سنة 378 هـ

---

(1) ... تاريخ علماء الأندلس، ج 1، ص. 54؛ الموسوعة، ق 1، ج 1، صص. 362 ـ 363، رقم 176 وفيه مصادر أخرى.

(1459/1)

... (وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يحيى بن مفرج الأموي القرطبي(1) المحدّث الحافظ القاضي المصنف الفقيه. صنف في فقه الحديث، وفقه التابعين. ولد سنة 315 هـ وكان يسكن بقرب عين قنت أورية من قرطبة. قام برحلة واسعة لسماع الحديث، فارتاد مصر، وسمع بالإسكندرية والقُلزم والفَرما وغزّة وفيساريّة وعسقلان والرملة وطبرية وصور وصيدا وبيروت، وسمع على خيثمة بطرابلس،

---

(1) ... تاريخ علماء الأندلس، ج 1، ص. 385؛ الحميدي، جذوة الاقتباس، ص. 40؛ بغية الملتمس، ص. 49؛ الموسوعة، ق 1، ج 4، صص. 105 ـ 106، رقم 1312.

(1460/1)

ثم رحل إلى دمشق، ومنها إلى جدة ومكة والمدينة، وبلغ شيوخه 230 شيخاً، وعاد إلى بلده سنة 345 هـ واتّصل بالحَكَم المستنصر، وصارت له مكانة عنده، واستقضاه على أستجة، ثم على المَرِيّة، وصنف "فقه الحسن البصْري" في 7 مجلدات، و"فقه الزُهْريّ" في أجزاء كثيرة، وكان من أوثق المحدثين بالأندلس، وأبصرهم بالرجال، وأصحهم كتباً. توفي سنة 380 هـ

... (وأبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد القحطاني المعافري(1)

---

(1) ... تاريخ علماء الأندلس، ص. 89؛ ابن السمعاني، الأنساب، ص. 444 أ؛ المقري، نفح الطيب، ج 2، ص. 342 و352؛ الموسوعة، ق 1، ج 4، صص. 211 ـ 213، رقم 1447.

(1461/1)

أحد فقهاء المالكية بالأندلس. طوف في رحلته إلى المشرق طلباً لسماع الحديث بين مصر والحجاز والشام والجزيرة وأصبهان ونيسابور، ووصل إلى مَرُو وبُخارى، وتوفي هناك وقد نزل أثناء رحلته بطرابلس وحضر مجلس خيثمة وسمع منه. وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاته.

... (وأبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن حَصْن الغافقي الأندلسي(1)، رحل إلى المشرق، وسمع بديار مصر

---

(1) ... ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، طبعة الجزائر، 1919، ص. 163؛ نفح الطيب، ج 3، ص. 360؛ الموسوعة، ق 1، ج 1، صص. 233 ـ 234، رقم 32 وفيه مصادر أخرى.

والشام والعراق والجبال وطبرستان، ونزل أثناء رحلته بطرابلس، وأخذ الحديث عن اثنين من محدثيها، هما : عمر بن داود بن سلمون(1) (توفي سنة 390 وقيل 395 هـ)، والحسين بن عبد الله بن محمد المعروف بـ"ابن أبي كامل الأطرابلسي"(2)

---

(1) ... تاريخ دمشق، ج 54، صص. 5 ـ 7؛ سبط ابن الجوزي،

مرآت الزمان (مخطوط)، ج 11، ق 2، ص. 211؛ الأنساب، ص. 105 ب؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 6، ص. 37؛ الموسوعة، ق 1، ج 3، صص. 379 ـ 381، رقم 1151.

(2) ... انظر عن ابن أبي كامل في: تاريخ بغداد، ج 1، ص. 411؛ والخطيب البغدادي، موضح أوهام الجمع والتفريق، ج 2، ص. 17؛ والكراجكي، التفصيل، ص. 7 و13 (طهران 1370)؛ وتاريخ دمشق، ص. 13، ص. 97؛ وابن القيسراني، الأنساب المتفقة، ص. 11؛ ومعجم البلدان، ج 2، ص. 190؛ وابن القرنسي، ذيل تاريخ دمشق، ص. 106؛ وابن نقطة، تكملة الإكمال، ج 3، ص. 559، رقم 3710؛ وابن الخطاب، المشيخة، ص. 252، والجزء الباقي من الفوائد المخرجة للسلمي (مخطوط بالظاهرية)، مجموع 80، وراقة 26 ب، 27 أ؛ نفح الطيب، ج 3، ص. 360؛ ابن الأبار، التكملة، ص. 599 (مدريد 1889)؛ ديوان عبد المحسن الصوري، ج 1، صص. 396 ـ 397؛ الموسوعة، ق 1، ج 2، ص. 146 ـ 150، رقم 486.

(1463/1)

ابن أخت خيثمة (توفي سنة 414 هـ). وبعد انتهاء رحلته، عاد إلى دمشق وولي الحسبة فيها سنة 375 هـ وبقي حتى توفي سنة 404 هـ

* * * * ...

... وفي مقابل الأندلسيين الذين قاموا إلى طرابلس الشام وأخذوا على شيوخها، فقد رحل من طرابلس إلى الأندلس ونزل عاصمتها قرطبة واستوطنها الشيخ عبد الرحمن بن حاتم التميمي في أوائل القرن الرابع الهجري، فكان من عقبه هناك ابنه محمد المعروف بـ"ابن الطرابلس"(1) وكان محدثاً، توفي بمرسية سنة 417 هـ

---

(1) ... ابن بشكوال، الصلة، ج 2، ص. 480؛ الموسوعة، ق 1، ج 4، ص. 221، رقم 1464.

(1464/1)

... (وحفيده أبو القاسم حاتم بن محمد بن عبد الرحمن بن حاتم الطرابلسي، الأندلسي(1) كبير محدثي قرطبة والأندلس على الإطلاق. كتب جده تاريخ ولادته في النصف من شعبان سنة 378 هـ ورحل إلى المشرق سنة 402 هـ فأخذ على شيوخ عصره في القيروان ومكة، ولم يأخذ في ديار مصر عن أحد، وعاد إلى القيروان سنة

---

(1) ... الصلة، ج 1، صص. 154 ـ 157؛ بغية الملتمس، ص.

270؛ فهرسة الإشبيلي، صص. 44 ـ 45؛ القاضي عياض، الغنية، ص. 106 و171 و187 و228 و280؛ مخلوف، شجرة النور الزكية، ص. 120؛ الموسوعة، ق 1، ج 2، صص. 67 ـ 74، رقم 385.

(1465/1)

---

404 هـ ومكث مدة يقابل كتبه، وينسخ سماعاته من أمالي شيوخه وأصولهم، وجالس كبار العلماء، وانصرف إلى بلده وقد جمع علماً كثيراً، وسكن طليطلة مدة فأخذ عنه الكبار والصغار لطول عمُره، ودُعي ليتولى القضاء بقرطبة فأبى، وكان في عداد المشاورين بها، وطبقت شهرته بلاد الأندلس كلها وبلاد المغرب، فكان الطلبة والشيوخ يتقاطرون بالعشرات لسماعه والأخذ عنه، وكان عالماً بالقراءات والنحو واللغة والتفسير والحديث والفقه وعلم الرجال والجرح والتعديل وغريب الحديث والمغازي وغيره، فكان شيخ الأندلس، وعالمها ومسندها، حتى توفي

(1466/1)

سنة 469 هـ

* * * * ...

... وقبل أن أختم موضوع العلائق الثقافية بين الأندلسيين وطرابلس الشام، لابد من التنويه بواجد من مشاهير نظار دار العلم بطرابلس، من أهل الأندلس، هو أبو عبد الله أحمد بن محمد الطليطُلي(1) الذي يُعتقد أنه غادر طُليطلة بعد سقوطها في أيدي القشتاليين(2) سنة 478 هـ/

---

(1) ... عمر عبد السلام تدمري، لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين، القسم الحضاري، دار الإيمان، طرابلس، 1994، صص. 238 ـ 239.

(2) ... د. سيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص. 387.

1085 م. فنزل طرابلس الشام في عهد أميرها جلال المُلك ابن عمار(1)، ثم أصبح ناظراً على دار العلم في عهد فخر الملك ابن عمار(2)، وبقي في منصبه حتى سقطت طرابلس بين الفرنج الصليبيين سنة 502 هـ/ 1109 م.

فأحرقوا دار العلم ومكتبتها الذائعة الصيت ذات الثلاثة ملايين مخطوط(3)، وأخذوا

---

(1) ... انظر عنه في كتابنا: لبنان من السيادة الفاطمية، القسم السياسي، ص. 165 وما بعدها.

(2) ... انظر عنه: المرجع السابق، ص. 189 وما بعدها.

(3) ... ابن الفرات، تاريخ الدول والملوك، مخطوطة فيينا، رقم 814، ورقة 38 أ، ب.

الطُليطُلي أسيراً. ونظراً لمكانته وفضله وعلمه، فقد دفع أمير شَيْرز وأخوه مبلغاً من المال للفرنج وافتدياه، واستضافه أمير شيرز عنده ليكون أستاذاً لابنه الأمير أسامة بن منقذ؛ فأقام عندهم عشر سنين يعلمه النحو. وكان من تلامذته الأمير سلطان بن علي بن مقلد بن منقذ(1)، وهو من مواليد طرابلس سنة 464 هـ/ 1072 م. وقد درس عليه قبل أن يصبح ناظراً على دار العلم؛ كما قصد

---

(1) ... انظر عن سلطان بن منقذ في كتابنا: لبنان من

السيادة الفاطمية... القسم الحضاري، صص. 245 ـ 246، وقد حشدت فيه مصادر كثيرة لترجمته.

(1469/1)

طرابلس الشاعر الدمشقي المعروف بـ"ابن الخياط"، فالتحق بدار العلم، وغشي حلقة الدرس التي كان يعقدها الطُليطُلي. فكان الطُليطُلي أستاذاً صارماً يعنِّف الطلاب الذين لا يحفظون ما يمليه عليهم من دروس، وكان ابن الخياط من بينهم. وقد نقل المؤرخ الذهبي عن الطُليطُلي قوله :

... وكان ابن الخياط أول ما دخل طرابلس وهو شاب، يغشاني في حلقتي وينشدني ما أستكثره له، فأتهمه، لأني كنت إذا سألته عن شيء من الأدب لا يقوم به، فوبخته يوماً على قطعة عملها، وقلت : أنت لا تقوم بنحو ولا لغة، فمن أين لك هذا االشعر؟

(1470/1)

فقام إلى زاوية ففكر، ثم قال : اسمع :

وفاضلٍ قال إذ أَنْشدْتُهُ نُخَباً
لا شيء عندَكَ مما يسْتَعينُ به
فلاَ عروضٌ ولا نحْوٌ ولا لُغَةٌ
فقلْتُ قول امرئٍ صحَّت قريحَتُهُ :
ذوْقِي عروضِي، ولفْظِي جُلُّهُ لُغَتِي،

من بعض شعْري، وشعْرِي كلُّهُ نُخَبُ
من شأْنُهُ النَظْمُ والخُطَبُ
قل لي، فمن أين هذا الفضل والأدب
إن القريحة عِلْمٌ لَيْسَ يُكْتَسَبُ
والنحوُ طبْعي، فهل يعتاقني سبب؟

فقال أبو عبد الله الطُّليطُلي : حسبُك الله، والله لا استعظمتُ لك بعدها عظيماً. ولزمه بعد ذلك، فأفاد ابن الخياط من الأدب ما

(1471/1)

استقل به(1).

... وكان الطُّليطُلي من الحفَظَة المُكثرين، ويتمتع

بملكة نادرة وذاكرة قروية في حفظ نصوص الكتب والمتون. وقد أشار الأمير أسامة بن منقذ إلى ذلك في كتابه "الاعتبار" عندما اختبره في قوة حفظه فقال ما نصه :

... الشيخ العالم، أبو عبد الله الطُليطُلي، النحوي، رحمه الله. وكان في النحو سيبويه زمانه. قرأت عليه النحو نحواً من عشر سنين وكان متولي دار العلم بطرابلس، وشاهدت من الشيخ أبي عبد الله عجباً. دخلت عليه يوماً لأقرأ عليه، فوجدت بين

---

(1) ... الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 19، صص. 480 ـ 481.

(1472/1)

يديه كتب النحو، "كتاب" سيبويه، وكتاب "الخصائص" لابن جني، وكتاب "الإيضاح" لأبي علي الفارسي، وكتاب "اللُّمع"، وكتاب "الجمل". فقلت : يا شيخ أبا عبدا لله ! قرأت هذه الكتب كلها؟! قال: قرأتها! لا والله إلا كتبتها في اللوح وحفظتها. تريد تدري؟ خذ جزءاً وافتحه واقرأ من أول الصفحة سطراً واحداً، فأخذت جزءاً وفتحته وقرأت منه سطراً، فقرأ الصفحة بأجمعها حفْظاً

حتى أتى على تلك الأجزاء جميعها. فرأيت منه أمراً عظيماً ما هو في طاقة البشر(1).

---

(1) ... ابن منقذ، الاعتبار، ص. 208 ـ 209.

... وممن قرأ على الطُّليطُلي وهو في شيْزر الأديب أبو عبد الله محمد بن يوسف بن منيرة الكفرطابي(1) المتوفى سنة 553 هـ وعبد القاهر بن عبد الله المعروف بالوأواء الحلبي(2) المتوفى سنة 551 هـ

... وبقي الطُّليطُلي مقيماً في شيْزَر حتى عُرف بنزيلها، إلى أن توفي حول سنة 512هـ/ 1019 م.

... وتذكر المصادر التاريخية أن مناظرة فقهية قد جرت في مجلس فخر المُلْك ابن عمار بين ابن أبي روْح(3)

---

(1) ... العماد الأصفهاني، خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج 1، ص. 573.

(2) ... الخريدة، ج 1، ص. 76.

(3) ... انظر عن ابن روح في : لبنان من السادة الفاطمية، القسم الحضاري، ص. 236 ـ 238، وفيه مصادر كثيرة لترجمته.

قاضي الإمامية وناظر دار العلم، وبين بعض الفقهاء المالكية(1)، وهو ما يؤيد وجود جماعة من الأندلسيين أو المغاربة في طرابلس.

العلائق السياسية

... وفي مجال العلائق السياسية، احتل المغاربة المرتبة الأولى بحضورهم، إلى جانب الحضور الديني والعسكري، وذلك في العصر الفاطمي. إذ منذ أن بسط الفاطميون نفوذهم في بلاد الشام بعد سنة 360 هـ، أخذوا يولّون القُضاة والوُلاة

---

(1) ... الذهبي، تاريخ الإسلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المجلد 36 (حوادث 501 ـ 520 هـ)، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، 1994، ص. 449.

والقادة على المدن الرئيسة والولايات، وبشكل خاص في طرابلس، لأنها كانت قاعدة أمامية متقدمة على ساحل

الشام في مواجهة الدولة البيزنطية التي كانت تهدد الأطراف الشمالية في بلاد الشام. ولذا أضحت طرابلس قاعدة أساسية للدعوة الفاطمية الإسماعيلية من الناحية الدينية، ومركزاً مهماً للأسطول البحري والقوات البرية من الناحية العسكرية، فضلاً عن اتخاذها عاصمة لولاية إدارية متَّسعة الأرجاء تمتد حدودها من نواحي نهر الكلب جنوباً، حتى مدينة اللاذقية شمالاً.

(1/1476)

... ونظراً لهذه الأهمية، فقد حرص الفاطميون على أن يكون زمام الأمور في طرابلس بيد المغاربة، وهم الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم؛ ولذا أعْطيت الولاية وقيادة العسكر للقائد نزّال الغوري الكُتامي، وهو من قبيلة كُتامة المغربية البربرية، ومن صناديد المغاربة، ووُضع تحت إمرته ستة آلاف رجل من عسكر طرابلس(1)، ثم ابنه المظهر محمد بن نزّال(2)، والقائد جيش بن الصمصامة(3)،

---

(1) ... ذيل تاريخ دمشق، ص. 30.

(2) ... لبنان من السيادة الفاطمية، القسم الحضاري، صص.

.61 ـ 60

(3) ... المرجع نفسه، ص. 61.

والقائد أبو سعادة المغربي(1)، والوالي علي بن جعفر بن فلاح الكُتامي(2)، ومختار الدولة ابن نزّال(3).

... وحين كلّف الخليفة المعزُّ لدين الله الفاطمي والي طرابلس ريان الخادم بإخراج القائد الفاطمي أبا محمود وابن أخته مقدم العسكر ابن الصمصامة من دمشق، خرج الاثنان في جماعة يسيرة من الجند، وبقي القسم الأكبر مع ريان، فأتى بهم وبمن كان خرج معه من عسكر المغاربة إلى طرابلس للدفاع عنها في وجه الإمبراطور البيزنطي

---

(1) ... المرجع نفسه، ص. 63.

(2) ... المرجع نفسه، صص. 61 ـ 62.

(3) ... المرجع نفسه، ص. 63.

باسيل(1). وقبل أن تصل حملة الإمبراطور إلى المدينة، اصطدمت قواته بنحو ألفين من العسكر المغاربة كانوا يرابطون عند وجه الحجر، وقد سماهم الإمبراطور بـ"الإفريقيين"(2).

... ولما استولى بنو أبي الفتح على طرابلس، جاءهم الأمير حيدرة بن مُنْزو الكُتاميين وتمكن من القضاء على حركتهم بمساعدة ابن قبيلته أيضاً أمين الدولة ابن عمار(3)، وتزوج جلال المُلْك ابن عمار صاحب طرابلس

---

(1) ... Documents arméniens, vol. I, p. 18.

(2) ... المصدر نفسه.

(3) ... المرجع نفسه، ص. 86؛ تاريخ دمشق، مخطوطة التيمورية، 1041، 43/37.

ابنة الأمير حيدرة بن مَنْزر(1)، كما التجأ مُعلَّى الكُتامي وهو ابن حيدرة إلى طرابلس ليحتمي بصهره خوفاً من الخليفة الفاطمي(2).

... وبلغ الحضور المغربي أوجه بإعطاء منصب القضاء للشيوخ من بني عمار الكُتاميين، اعتباراً من أوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وهم

يُنْسَبون إلى أبي محمد حسن الملقب بأمين الدولة، شيخ كُتامة ووزير مصر(3)

---

(1) ... ذيل تاريخ دمشق، ص. 86، تاريخ دمشق، مخطوطة التيمورية، 1041، 43/ 37.

(2) ... ذيل تاريخ دمشق، ص. 86، تاريخ دمشق، مخطوطة التيمورية، 1041، 43/ 37

(3) ... انظر سلسلة نسب بني عمار في كتابنا: لبنان من السيادة الفاطمية، القسم السياسي، صص. 150 ـ 151.

(1480/1)

، وقد قتله الحاكم بأمر الله سنة 390 هـ ومنهم أبو الحسن عمَّار الملقب بـ"خطير الملك رئيس الرؤساء"، وقد وقع عن الحاكم بأمر الله، وبايع الخليفة الظاهر في سنة 411 هـ وعزل وقُتِلَ سنة 412 هـ(1).

... وممن كان بطرابلس من هذه الأسرة: أبو الكتائب أحمد(2) الذي ألف له الكراجكي(3)، وأبو طالب عبد الله الملقب بـ"أمين الدولة"،

---

(1) ... تاريخ الأنطاكي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري،

طبعة جروس برس، طرابلس، 1989، ص. 374، وفيه مصادر أخرى.

(2) ... راجع سلسلة النسب.

(3) ... الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج 3، ص. 105.

(1481/1)

وهو مؤسس إمارة طرابلس شبه المستقلة عن الدولة الفاطمية، بعيد سنة 457 هـ؛ وتوفي سنة 464 هـ(1). وأبو طالب محمد المعروف بالرئيس وكان موجوداً سنة 420 هـ(2). وأبو علي الحسن وهو قرأ على المؤرخ الخطيب البغدادي بجامع صور سنة 459 هـ(3)، وأبو الحسن علي الملقب بـ"جلال الملك" الذي حكم طرابلس 28 عاماً (464 هـ - 492 هـ) وجدد بناء "دار العلم"(4)

---

(1) ... انظر سلسلة النسب.

(2) ... انظر سلسلة النسب؛ وابن حجر، لسان الميزان، ج 2، ص. 267.

(3) ... البغدادي، الفقيه والمتفقه، ج 1، ص. 39.

(4) ... ابن العديم، الإنصاف والتحري، مخطوطة دار الكتب المصرية، 1085؛ تاريخ تيمور، ورقة 50.

(1482/1)

، وأخوه أبو علي عمار الملقب بـ"فخر الملك" الذي حكم نحو عشر سنين (492 ـ 501 هـ) قبل أن تخرج طرابلس من يده(1)، وابن عمه أبو الفرج محمد الملقب بـ"شمس الملك ذي المناقب"، الذي حكم لفترة قصيرة من سنة 501 هـ(2)، وغيره. وفيهم يقول المقريزي:

... وكانت الدولة قد حولت الثغر في أيديهم على سبيل الولاية. فلما جاءت الشدائد، تغلبوا عليه. ثم جاءت الدولة الجيوشية فخافوا مما قدموه، فلم يرموا

(1) ... راجع كتابنا: لبنان من السيادة الفاطمية، القسم الساسي، ص. 225 وما بعدها.

(2) ... المرجع السابق، ص. 221 وما بعدها.

أيديهم في يدها، ولا وثقوا بما بذل لهم من الصفح على ولاتهم... (1).

... ولبني عمار الكتاميين تاريخ حافل بطرابلس لا مجال للإحاطة به في هذا البحث. فهو يحتاج مجلداً ضخماً؛ فقد كان دورهم متعدد الأوجه: سياسياً، وثقافياً، وعمرانياً،

وعسكرياً، واقتصادياً، طوال نصف قرن تقريباً.

... وفي أيامهم كانت السفن التجارية تأتي من بلاد الأندلس والمغرب، كم كان للخليفة الفاطمي سفن تسافر من طرابلس إلى المغرب للتجارة(2)

---

(1) ... المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج 3، ص. 78.

(2) ... ناصر خسرو، سفر نامه، ص. 48.

.

... ومن غير المعروف إن كان بقي بطرابلس أحد من الأندلسيين أو المغاربة إبان سقوطها بيد الفرنج وطوال مدة حكمهم لها، من أواخر 502 ـ 688 هـ/ 1109 ـ 1289 م. أما بنو عمار، فقد انقرض وجودهم فيها قبل سقوطها بقليل؛ إذ أرسل الأفضل وزير مصر أحد الولاة فحمل أهل فخر الملك ابن عمار وأصحابه جميعاً إلى مصر في البحر سنة 502 هـ فيما كان فخر الملك ينتقل بين جبلة وشيزر ودمشق وبغداد والموصل وماردين، قبل أن يعود إلى مصر في سنة 516 هـ/ 1123 م ويعلن ولاءه للخليفة الفاطمي الآمر بالله(1)

(1) ... اتعاظ الحنفا، ج 3، ص. 78 ـ 80.

(1/1485)

.

...

في عصر الحروب الصليبية

... رزحت طرابلس تحت الاحتلال الفرنجي أكثر من 180 عام. وكان من الطبيعي أن ينقطع كل ذكر للوجود الأندلسي ـ المغربي فيها، فلم يصلنا عن تلك المدة بطولها، وفي كل المصادر على كثرتها، سوى إشارة واحدة إلى استعانة الفرنج بمحاربين من الأندلس أتوا بهم بحراً للمشاركة في قتال المسلمين وحصار دمشق سنة 543 هـ/ 148 م. إذ يقول أبو الحكم الأندلسي ـ وهو مقيم بدمشق ـ من قصيدة له:

أَتَانَا مائَتَا أَلْفٍ

فبعضُهَم من أَنْدَلُس

ومن عكا ومِنْ صور

إذَا أَبْصرتَهُم أبصر

عَدَداً أو يزيدونَا

(1/1486)

وبعضهم من فلسطينَا

ومن صيْدَا وتبنِينا

ت أقْواماً مجانينا(1)

... ومن غير المعروف إن كانت طرابلس استقبلت أحداً من أولئك المحاربين الأندلسيين. والمرجّح انهم لم يصلوا إلى مينائها، إذا امتنع كونت طرابلس ريموند الثاني (531 ـ 546 هـ/ 1133 ـ 1152 م) عن المشاركة في تلك الحملة خوفاً على عرشه(2).

---

(1) ... أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج 1، ق 1، ص. 139.

(2) ... عمر عبد السلام تدمري، لبنان من السقوط بيد الصليبيين حتى التحرير، دار الإيمان، طرابلس، 1997، ص. 62.

(1/1487)

... ولكن من اللافت للنظر أن عالماً أندلسياً هو علي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم التجيبي الأندلسي المعروف بالحرالي، نسبه إلى حرالة من أعمال مُرسية، نزل طرابلس وسكنها وهي تحت احتلال الفرنجة، وكان صوفياً كبيراً، وإماماً شهيراً في العلوم. صنف تفسيراً أبدى فيه من مناسبات الآيات والسور ما يبهر العقول، فكان هو الأساس الذي بني عليه البرهان البقاعي تفسيره المعروف بـ"نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، وقيل هو رأس مال البقاعي؛ ولولاه ما راح ولا جاء. ولكن تفسير الحرالي لم يتم، ومن حيث وقف، وقف حال البقاعي

(1/1488)

في مناسباته، حسب قول المناوي.

... دخل الحرالي مصر فأقام ببلبيس مدة، ثم سكن طرابلس الشام، وأخيراً انتقل إلى حماة فمات بها، وقيل مات بحلب سنة 637 هـ(1).

في عصر المماليك

... غير أن الأندلسيين والمغاربة يعود وجودهم بقوة في عصر المماليك، وهم يتبعون المذهب المالكي، ويكثر جمعُهُم بطرابلس حتى أصبح لهم قُضاة يفصلون في قضاياهم على مذهبهم، مثلهم مثل الشافعية والأحناف والحنابلة، وكان المالكيون يأتون في المرتبة

---

(1) ... النبهاني، جامع كرامات الأولياء، ج 2، ص. 173؛ الموسوعة، ق 2ن ج 3، ص. 17، رقم 692.

الثالثة بعد الشافعية والأحناف، وهم يتقدمون على الحنابلة.

... كما ظهر ـ ولا يزال زاهراً حتى الآن ـ الأثر الأندلسي ـ المغربي في عمارة طرابلس المملوكية، في الهندسة والتزيينات والكتابة بالخط المغربي، والمظاهر الأخرى.

... ويمكن القول إن جماعة من الأندلسيين والمغاربة كانوا من جملة المتطوعة الذين أتوا من مصر مع جيش المنصور قلاوون(1) وأسهموا في فتح طرابلس وتحريرها من الفرنجة سنة 688 هـ/ 1289 م، ثم نزلوها واستوطنوها، وشاركوا في إعادة بناء مدينة المنصور

(1) ... لبنان من السقوط بيد الصليبيين، ص. 368.

المستحدثة بعد أن هُدمَت المدينة الساحلية القديمة. وتركوا طابعهم واضحاً على عمارتها المدنية والدينية. وكان لهم مشاركتهم في الدفاع عن المدينة، وإثراء القضاء والحياة الثقافية.

المشاركة العسكرية

... ينفرد النُوَيْرِيّ السَّكَنْدَري دون غيره من المؤرخين بذكر الرئيس البطرني المغربي قاضي طرابلس، ومشاركته في جهاد الفرنج، حين خرج مع نائب السلطة بها أسندمر الكُرجي لحصار جزيرة أرواد سنة 702 هـ/ 1302 م. وكان الفرنجة قد اتخذوها قاعدة لمواصلة اعتداءاتهم على سواحل الشام، والتعرض للسفن التجارية في البحر،

واعتنى صاحب قبرس بها وبعمارتها مع جماعة من قادة الفرنج، وبنوا فيها سوراً تحصنوا به، وأسموها عكا الصغيرة(1). وتم فتح الجزيرة بعد قتال لم يدُم سوى ساعة واحدة(2). فمن هو الرئيس البطرني المغربي هذا؟ ... إن المصادر المعتمدة لم تفدنا عنه شيئاً. بل جاء في "إنباء الغُمْرِ في أبناء العُمْر" لابن حجر العسقلاني، و"الضوء اللامع" للخاوي، ترجمة لواحد يُعرب بالبطرني هو محمد بن إسماعيل تاج الدين ابن العماد

---

(1) ... العيني، عقد الجمان، مخطوط، ج 21، ق 2، ص. 264.

(2) ... المقريزي، السلوك، ج 1، ج 3، ص. 928.

المغربي الأصل، الدمشقي، المالكي. كان في خدمة القاضي عَلَم الدين القفصي، وعمل نقيبه. وبعد موته ولي قضاء طرابلس، ثم ناب عن القاضي المالكي. وكان عفيفاً في مباشرته، يستحضر طرفاً من الفقه. مات بالطاعون في شهر صفر سنة 833 هـ(1). فيُحتمل أن يكون البطرني المجاهد في أرواد واحداً من أجداد محمد بن إسماعيل هذا. ... وفي السيرة الشعبية للظاهر بيبرس يرد ذكر أبي بكر البَطَرني الطنجاوي، وهو بحار يقود غليوناً ومعه

(1) ... ابن حجر، إنباء الغمر، ج 3، ص. 449؛ السخاوي، الضوء اللامع، ج 7، ص. 44.

بأمره، وهو ابن حاكم طنجة... وتزعم السيرة أنه شارك في موقعة بحرية دارت بين الروم (!) والملك الصالح الصالح بن أيوب، بالقرب من ميناء جنوى الإيطالي، فينتصر أبو بكر البَطَرني على الروم، ثم يدخل الميناء بفضل غرابه البحري(1). وتروي السيرة عنه أخباراً كثيرة؛ ومن بين تلك الأخبار دخوله جزيرة أرواد مع السلطان الظاهر بيبرس! والقبض على ملك الجزيرة المدعو جمجرين ! (2)

(1) ... سيرة الملك الظاهر بيبرس، صص. 126 ـ 129.

(2) ... السيرة، ج 3، ص. 344.

... وسواء كان البَطَرني الذي شارك في فتح أرواد مع نائب طرابلس هو نفسه الذي ورد في السيرة الشعبية للظاهر بيبرس، أو غيره، فإن تواتر الروايات يدعم وجود المغاربة بطرابلس. ويقال إن قبر البطرني المغربي لا يزال موجوداً على ساحل البحر في مدينة اللاذقية(1).

... وكان بطرابلس جنود من المغاربة يرابطون على ساحلها(2)

---

(1) ... إحسان جعفر، "أرواد درة البحر"، مجلة الفيصل، العدد 91، سنة 1984، ص. 24.

(2) ... عمر عبد السلام تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور (دولة المماليك)، طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، ص. 149.

(1495/1)

، وقد اشتركوا في الدفاع عن المدينة وتصدوا لملك قبرس بطرس دي لوزنيان بن هيو الرابع عندما غزاها بآلاف الفرنج وعشرات السفن الحربية في سنة 769 هـ/ 1367م. وحين داهمها الفرنج، كان عسكرها خارج المدينة شمالي بيروت قد خرج مع الحاجب لاستقبال نائب جديد، ولم يبق بها سوى القليل من التركمان

والمغاربة. ولذا تمكن الغزاة من الاستيلاء على طرابلس يوماً وليلة، حتى تكاثر أهل المدينة، ومن أتاهم من التركمان المرابطين عند عرقة(1) مع قاضيها، ولحق بهم المغاربة حتى زاد

---

(1) ... السلامي، مختصر التواريخ، مخطوط، ورقة 415.

(1/1496)

جمعُهم على خمسة عشر ألفاً، ودارت معارك طاحنة في الأسواق وبين البساتين، حتى دُحِر الغُزاة، وكان أول من استشهد اثنان من المغاربة، واثنان من التركمان، وواحد من أهل طرابلس(1).

... ويتكرر ذكر المغاربة مجدداً في حوادث سنة 802 هـ/ 1400 م أثناء الفتنة التي عصفت بطرابلس بين أهلها ونائب السلطنة يونس بُلطا، إذ بادر أجد الأمراء. ويدعى ناصر الدين محمد بن

---

(1) ... النويري السكندري، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة الإسكندرية، مخطوط بدا الكتب المصرية، رقم 4193 تاريخ، ورقة 68.

(1/1497)

بهادر المؤمني .إلى الاستيلاء على برج من أبراج طرابلس الساحلية، وهو برج الأمير الأتابك سيف الدين أيتمش البجاسي، ومعه جماعة من المغاربة، وركب من هناك البحر إلى مصر، وعاد ومعه نحو عشرة من قادة المغاربة وغيرهم. والتجأ ثانية إلى برج ايْتْمُش. وعندما ثار أهل المدينة على نائب الغيبة، فر منهم إلى ناحية حمص، فعاث الناس فساداً وكسروا أبواب القلعة ودخلوها ونهبوا ما فيها من حواصل النائب، وخرج المغاربة من البرج وشاركوا العوام في النهب، واستمروا على ذلك إلى آخر النهار حتى نودي بالأمان. ولما عاد النائب يونس

(1/1498)

بُلطا، اقتحم المدينة وقتل من أهلها 1732 إنسان(1)، وكان بين القتلى مفتيها، وقاضيها الحنفي، وقاضيها الحنبلي، وقاضي المالكية ابن شاشي وهو شهاب الدين أحمد بن إبراهيم الأذرعي المالكي(2)، وكان معزولاً عن منصبه قبل قليل.

القضاء

---

(1) ... تاريخ ابن قاضي شهبة (المصور بدار الكتب المصرية)، ج 4، ص. 155؛ السلوك، ج 3، ق 3، ص. 996.

(2) ... انظر قائمة قضاة المالكية بطرابلس في: عمر عبد السلام تدمري، تاريخ طرابلس، عصر دولة المماليك، ص. 67.

(1/1499)

... يعتبر محمد البقاعي المالكي أول من تولى قضاء المالكية بطرابلس بصفة شرعية ابتداء من سنة 776 هـ/ 1374 م. ولم يلبث أن توفي في السنة ذاتها(1).

... وقد أحصيت أسماء عشرين قاضياً تعاقبوا على قضاء المالكية بطرابلس منذ سنة 776 هـ/ 1374 م حتى نهاية دولة المماليك 922 هـ/ 1516 م. وهم من أصول أندلسية ومغربية من تلمسان وطنجة وغيرها.

وينسبون إلى بني أمية، ولخم، وصنهاجة، والتجاني، وغيره(2)

---

(1) ... تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، ص. 67؛ الدرر الكامنة، ج 5، ص. 86.

(2) ... راجع قائمة قضاة المالكية في تاريخ طرابلس، صص. 67 ـ 69.

. ووصل الأمر بأحدهم من بني الناسخ، وهو كمال الدين محمد الناسخ الأطرابلسي المالكي أن أصبح هو الحاكم على طرابلس دون منازع في سنة 862 هـ، بالاستناد إلى نص المرسوم الذي أصدره في السنة المذكورة، ونقش على بوابة مدرسة سبط العطار(1)، وهذا نصه:

... الحمد لله. بتاريخ المحرم الحرام سنة اثنين وستين وثمانمائة أطل سيدنا ومولانا قاضي القضاة كمال الدين ابن الناسخ

---

(1) ... انظر عن مدرسة سبط العطار في: عمر عبد السلام تدمري، تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك، طبعة دار البلاد، طرابلس، 1974، ص. 310.

حال مباشرية (الصواب: مباشرته) وظهر القضاء المالكي بطرابلس ما كان على النحيرة...

... ومن الواضح أن هذه الكتابة يعتريها النقص، ولكننا نفهم من النقص أن مكساً كان يفرض على النحيرة من الأغنام وغيرها، فرسم قاضي القضاة المالكي ابن الناسخ بإبطاله.

... وليس لدينا ما يؤكد أن هذا المرسوم قد عمل به عند صدوره، إذ أن مرسوماً آخر بإبطال ما على النحيرة في طرابلس صدر بعد حوالي عشر سنين، في نيابة الأمير إينال الأشقر اليحياوي الظاهري (872 ـ 873 هـ)، ولكن صدور المرسوم عن قاضي القضاة المالكية دون نائب السلطنة،

(1/1502)

يعطينا انطباعاً بأن القاضي ابن الناسخ كان هو المنفرد في حكم طرابلس.

... ومن أشهر المغاربة الذين زاروا طرابلس في عهد المماليك الرحالة ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي. فقد زارها في رحلته سنة 726 هـ/ 1326 م، وكتب عنها وصفاً رائعاً، إذ وصفها بأنها «إحدى قواعد الشام، وبلدانها الضخام، تخترقها الأنهار، وتحف بها البساتين والأشجار، ويكنفها البحر بمرافقه العميمة، والبر بخيراته المقيمة، ولها الأسواق العجيبة،

والمسارح الخصيبة، والبحر على ميلين منها«(1)

---

(1) ... العوامري وزميله، مهذب رحلة ابن بطوطة، صص. 52 ـ 53.

(1503/1)

.

... وابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي، المصري، من ولد رويفع بن ثابت الأنصاري، وهو القاضي، صاحب معجم "لسان العرب" وغيره من المؤلفات الكثيرة. وقد اشتهر باختصار أمهات الكتب كـ"الأغاني"، و"تاريخ دمشق"، و"الذخيرة"، و"المحكم"، و"الصحاح"، و"الجمهرة"، و"النهاية"، و"مفردات" ابن البيطار، وغيره، وقيل إن مختصراته بلغت 500 مجلد.

... ولد سنة 630 هـ، وتولى قضاء طرابلس الشام للشافعية سنة 711 هـ (1)، وهي سنة وفاته؛ كما تولى نظر جيشها

---

(1) ... تاريخ طرابلس، صص. 465 ـ 466. وفيه مصادر كثيرة.

(1504/1)

مدة. ويخطئ من يقول إنه ولي نظر طرابلس الغرب، ويظهر أن نسبة الأنصاري الرويفعي الإفريقي تجعل بعضهم يظنون ذلك، والمصادر الرئيسة لترجمته تذكر طرابلس دون إضافة إلى الشام أو إلى الغرب. ولكن من واقع دراسة عصر المماليك يمكن معرفة المدينة المقصودة، إذ أن وظيفة الناظر من الوظائف المعروفة في دولة المماليك ولم تكن طرابلس الغرب تابعة لدولة المماليك والمعروف أن المذهب السائد فيها هو المذهب المالكي، ولذا يمكن القطع بأن المقصود هو طرابلس الشام، ومؤرخو عصر المماليك المعاصرون كانوا يذكرون طرابلس دون إضافتها

(1/1505)

إلى الشام لاستغنائها عن التعريف وشهرتها عاصمة لإحدى نيابات السلطة. وهي كثيراً ما ترد في تواريخهم هكذا. أما الغربية (المغربية)، فكانت قليلاً ما يأتي ذكرها، وإذا ذكرت أضافوها إلى الغرب لتمييزها عن الشامية.

... ويؤكد ما ذهبنا إليه من أن المقصود هو طرابلس

الشام، قول المؤرخ الحافظ الذهبي: »كتبت عنه «(1).

والمعروف أن الذهبي نزل طرابلس الشام، وكتب فيها عن علمائها، ولم يعرف عنه أنه رحل إلى طرابلس الغرب.

---

(1) ... الذهبي، ذيل تاريخ الإسلام، ص. 125؛ موسوعة علماء المسلمين، ق 2، ج 4، صص. 208 ـ 210، رقم 1220.

(1506/1)

... (ومن الأندلس، نزل طرابلس الشام وسكنها مدة شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن عبد الله بن مهاجر الأندلسي، الوادي آشي، من مدينة وادي آش من كورة البيرة، بينها وبين غرناطة أربعون ميلاً(1). ثم رحل إلى حلب، وتحول إلى الحنفية، واشتمل عليه ابن العديم قاضيها، واستنابه في عدة مدارس، وفي الأحكام، وكان قيماً بالنحو والعروض، رائق النظم، خمَّس "لامية العجم" تخميساً جيداً. ومدح ابن الزملكاني لما ولي قضاء حلب بقصيدة على وزن

---

(1) ... موسوعة علماء المسلمين، ق 2، ج 1، صص. 323 ـ 324، رقم 166، وفيه مصادر أخرى.

(1507/1)

قصيدة ابن النبيه التي أولها:

باكر صبوحك أهنى العيش باكره ... فقد ترنم فوق الأيك طائره

ومطلع قصيدته هو:

يمن ترنم فوق الأيك طائره ... وطائر عمت الدُّنْيا بشَائره

وله شعر كثير. وكانت وفاته سنة 739 هـ عن نحو خمسين سنة(1).

... (ومن المغرب شهاب الدين أحمد بن البدر بن محمد بن أويس المغربي، الشافعي، نزل طرابلس فأقام بها مدة طويلة إلى أن توفي. وكان عالماً بالقراءات والفقه والنحو والحديث والفرائض. قرأ بالروايات على أبي زيد عبد الرحمن بن سليمان التونسي

(1) ... ذيل مرآة الزمان (المخطوط)، 2، ورقة 259 ب.

نزيل طرابلس الشام في سنة 782 هـ ولبس خرقة التصوف بحصن الأكراد سنة 784 هـ وقرأ على محمد بن

محمد بن سلامة الأنصاري، وبهادر القرمي مسند طرابلس، ومحمد بن هبة الله، وأحمد بن علي بن محمد الأرموي، ومحمد بن المظفر الحسيني، وعلي بن اليونانية البعلبكي.

... وجلس للتدريس والإفتاء، فأخذ عنه جماعة من شيوخ طرابلس، منهم: ابن الوجيه، وجود القرآن عليه: علي بن أبي بكر بن أحمد بن شاور العلاء البرلسي البلطيمي الضرير (ت 874 هـ)، وقرأ عليه الحديث: محمد بن عبد الله بن خليل البلاطنسي الشافعي (ت 863 هـ)، وقرأ عليه

(1509/1)

الفرائض والوصايا: البرهان إبراهيم الشوبيني شيخ طرابلس وعالمها(ت 859 هـ)، وأخذ عنه القراءات السبع والد القاضي الصلاح الطرابلسي الحنفي. مات في ذي القعدة سنة 830 هـ

... وأبو الفضل محمد بن محمد بن أبي القاسم المشدالي الزووي، البجائي، المغربي، العالم العلامة الفيلسوف المتصوف الطبيب المرابط الرحال المنطقي المفسر المحدث الفقيه المهندس الزاهد المالكي. ولد ببجاية سنة 821 أو 822 هـ وبدأ بحفظ القرآن في الخامسة،

وأتمه في سنتين ونصف، وقرأ عشرات الكتب في علوم كثيرة، ورحل في أول سنة 840 هـ إلى تلمسان فأخذ

(1510/1)

العلوم النقلية والعقلية، ومنها الجبر والمقابلة والهيئة وجر الأثقال والتقاويم والميقات بأنواعه من فنون الإسطرلابات والصفائح والموسيقى والأرتماطيقي والطلسمات، علم المرايا والمناظر، وعلم الأوفاق، وعلوم القياس والتفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والأدب، والمنطق، والجدل، والفلسفيات، والطب، والهندسة، والحساب، والفرائض، ثم عاد إلى بجاية في سنة 844 هـ وقد برع في كل العلوم، وتصدر للإقراء ببجاية، ثم دخل عنابة، وقسنطينة، ثم دخل تونس في أواسط 845 هـ ورحل في أواخرها إلى مصر، فساقت الريح مركبه إلى قبرس،

(1511/1)

ومنها انتقل إلى بيروت ودمشق، ثم نزل طرابلس، وحماة، وقطن بيت المقدس، ثم حج، وعاد إلى القاهرة.

... درس للناس في عدة فنون، فبهر العقول وأدهش الألباب. قال السخاوي: حضرت دروسه في فقه المالكية بجامع الأزهر في ذي القعدة سنة 852 هـ فظهر لي أنني ما رأيت مثله، وأن من لم يحضر درسه لم يحضر العلم ولا سمع كلام العرب ولا رأى الناس، بل ولا خرج إلى الوجود. وكان سماع درس واحد من تقريره أكثر نفعاً من سماع مائة غيره... (1).

---

(1) ... الموسوعة، ق 2، ج 1، صص. 284 ـ 285، رقم 109، وفيه مصادر ترجمته.

(1512/1)

... وقال ابن أبي عذيبة: شهد له الأئمة ببلدنا القدس وبدمشق ومصر وطرابلس الشام أنه أوحد أهل الأرض، وأنه عديم النظير في جنس بني آدم... وطول العلماء في وصفه وذكائه وسعة علمه وإحاطته بالعلوم، وما يزال يطوف البلاد براً وبحراً حتى مات غريباً فريداً في عنتاب أواخر سنة 864 هـ(1).

الآثار الأندلسية ـ المغربية

---

(1) ... الموسوعة (المستدرك على القسم الثاني)، صص. 261 ـ 264، رقم 226؛ الضوء اللامع، ج 9، صص. 180 ـ 188، رقم 466.

(1513/1)

... ظهرت تأثيرات المهندسين والمعماريين الأندلسيين والمغاربة واضحة جداً في كثير من عمارة طرابلس، مثل مئذنة الجامع المنصوري(1) الكبير شبه المربعة الأضلاع، ومئذنة مسجد البرطاسي(2)، ومئذنة جامع طينال(3) ذات السلمين اللولبيين فوق بعضهما والتي لا مثيل

---

(1) ... عمر عبد السلام تدمري، آثار كرابلس الإسلامية، طبعة دار الإيمان، طرابلس، 1994، ص. 19 وما بعدها.

(2) ...

(3) ... بناء الأمير سيف الدين طينال الحاجب الأشرقي سنة 736 هـ (انظر عنه: عمر عبد السلام تدمري، تاريخ وآثار، مرجع مذكور، صص, 162 ـ 189).

(1514/1)

لها إلا في قرطبة، وفي القاعة العلوية من قصر الأمير عز الدين أيبك الموصلي(1) نائب السلطنة بطرابلس، وهي تشبه بالعقد الذي يتوسطها أقواس قاعات قصر الحمراء في غرناطة، في ألأفاريز الناتئة، والزخارف المتناغمة، على الرخام، والنافذة الشرقية المزدوجة التي تزينها الزخارف فوق أعمدتها وتيجانها، وفي النافذة الصغيرة في أعلى الواجهة الشرقية للمدرسة الطواشية(2)

---

(1) ... تولى نيابة السلطنة بطرابلس من سنة 694 إلى 698 هـ، وتوفي ودفن بها بين قصره وحمامه، في محلة باب الحديد.

(2) ... بناها سيف الدين الطواشي في عصر المماليك، وسط سوق الصناعة. (انظر: تاريخ وآثار، مرجع مذكور، ص. 287 وما بعدها).

، في وسط سوق الصاغة، حيث يتدلى من وسطها عمود بشكل حبل مجدول أندلسي الطراز، والشعاعات الرائعة في أعلى حنية بوابة المدرسة وهي تخرج من تجويفات هندسية بديعة تشبه المحارة أو الصدفة، وفي العمود الرخامي التي نقشت عليه أشكال حبال مجدولة، وتلتف

حول نفسها بأبعاد متساوية داخل حرم مسجد الحجيجية(1). وفي محراب مقام الشيخ فضل الله المغربي(2)

---

(1) ... يقع مسجد الحجيجية في وسط سوق النحاسين. (انظر عنه: تاريخ وآثار، مرجع مذكور، ص. 314 وما بعدها).

(2) ... تاريخ طرابلس (عصر المماليك)، صص. 371 ـ 372، رقم 107؛ النابلسي، التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، صص. 93 ـ 94.

(1516/1)

، حيث تبدو التأثيرات الأندلسية ـ المغربية في تجويفة المحراب العليا التي زينها المهندس بتجويفات طولية في الجبس (الجص) على شكل شعاعات متوازية، وتجويفة المحراب نصف كروية شبيهة بمحارة البحر، وهي أشبه بحنية بوابة الطوشية. وليس جامع السيد عبد الواحد المكناسي(1) إلا واحداً من المعالم المغربية البناء بمئذنته الصغيرة، السداسية الأضلاع، ومحرابه البسيط، وقبته المفصصة، ولوحته الرخامية ذات الخط

---

(1) ... بنى جامع السيد عبد الواحد سنة 705 هـ/ 1305 م. (انظر عنه: تاريخ وآثار، مرجع مذكور، ص. 155 وما بعدها).

(1517/1)

المغربي المميز، وهي تؤرخ لبناء الجامع. وقد وقف السيد عبد الواحد ـ وهو من مدينة مكناس المغربية ـ رواقاً للمغاربة ينزلون في حجراته العلوية، ويستضيف الرواق الحجاج المغاربة في ذهابهم وإيابهم، وجعل للجامع والرواق أوقافاً كثيرة للإنفاق من ريعها على مصالح الجامع ونزلائه. ولا يزال الرواق قائماً حتى الآن وجميع نزلائه من أصول مغربية. وعلى باب الجامع يقوم ضريح عبد السلام المشيشي، وهو من سلالة السيد عبد الواحد المكناسي، ومن أتباع الطريقة المشيشية التي انتشرت في المغرب الأقصى.

(1518/1)

... ويظهر التأثير الأندلسي واضحاً على الواجهة الغربية لمئذنة مسجد البرطاسي، حتى يخيل للناظر إلى هذه

الواجهة لأول وهلة أنه يرى إحدى مآذن الأندلس أو المغرب العربي. ويشتد الإحساس بأن المهندس أندلسي الأصل، هاجر إلى طرابلس وأسهم في بناء معالمها وسجل طابعه الهندسي المميز في زخرفة العقدين التوأمين المنكسرين عند رأسهما، وتتناوب فيهما الحجارة البيضاء والسوداء، ويتركزان على ثلاثة مناكب من الحجارة البيضاء، وتنفتح تحتهما نافذتان مستطيلتان، يفصل بينهما عمود داكن اللون، والنافذتان مع العقدين ضمن إطار مجوف

(1519/1)

مستطيل الشكل غائر في واجهة المئذنة بحيث يبدو سطح العقدين بمستوى سطح واجهة المئذنة. وفوق هاتين النافذين الأخيرتين مباشرة مقرنصات متدرجة تشكل أسافين لقاعدة برج المئذنة المشرف إلى الخارج بحجم يزيد عن حجم ساق المئذنة، وهي الشرفة التي يقف عليها المؤذن(1).

... وقد لفت نظر المؤرخ الرحالة ابن فضل الله العُمَري في النصف الأول من القرن 8 هـ/ 14 م أن جميع أبنية طرابلس بالحجر والكلس، مبيضة ظاهراً وباطناً(2)

---

(1) ... تاريخ وآثار، مرجع مذكور، صص. 212 ـ 213.

(2) ... ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مصور بدار الكتب المصرية، رقم 2568؛ تاريخ، ج 2، ق 3، صص. 448 ـ 450.

(1520/1)

. وظاهرة تبييض المباني نراها في مدن المغرب، وليست الدار البيضاء إلا نموذجاً من الطراز المغربي بتسميتها وطابعها، وليست طرابلس الشام إلا انعكاساً لها ببياض مبانيها.

... وحين بنى المماليك الأبراج الحربية الستة على ساحل طرابلس، اختص المغاربة بالمرابطة في واحد منها على الأقل. ولذلك عُرف بـ"برج المغاربة"(1)، ويُرجح أنه أحد اثنين: إما برج الأمير أَيْتَمُش البجاسي(2)

---

(1) ... J. Sauvager, « Notes sur les défenses de la marine de Tripoli », Bulletin du Musée de Beyrouth, N° II, Paris, 1938.

(2) ... هو الأمير الكبير أتابك العساكر بالديار المصرية، توفي سنة 802 هـ/ 1400 م، وبرجه لا يزال

قائماً حيث أقيم مبنى سكني فوقه، وكان يعرف قبل سنوات ببرج عز الدين.

(1521/1)

، وإما برج الأمير مَنْكلي بُغا الأحمدي(1) المعروف أيضاً ببرج القناطر، أو الفاخورة، والأرجح لديّ هو البرج الثاني، وكان قريباً من برج الأمير برسباي الناصري المعروف ببرج السباع، وقد هُدم في النصف الأول من القرن العشرين لإنشاء محطة سكة القطار الحديدي مكانه(2)

---

(1) ... تولى منكلي بغا الأحمدي نيابة السلطنة بطرابلس 4 مرات بين سنة 775 و782 هـ، حيث توفي. وذكر برجه بطرابلس غرس الدين الظاهري في: نيل الأمل في ذيل الدول، مخطوطة أكسفورد، ج 1، ورقة 249.

(2) ... الشيخ محمد كامل الباب، طرابلس عبر التاريخ، بتحقيقنا مع الحاج فضل المقدم، طبعة جروس برس، طرابلس.

(1522/1)

. ولدينا صورة نادرة عنه قبل هدمه. ويتردد ذكره كثيراً في سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس العائدة للعصر العثماني. ففي سنة 1079 هـ كان إمام مسجد المغاربة داخل البرج الشيخ مصطفى بن محمد جلبي(1)، وفي سنة 1165 هـ تولى إمامته عمر أفندي قايمقام نقيب السادة الأشراف الابن الصُّلْبي لحاكم طرابلس الشرعي، لانحلال الوظيفة عن محمد بن مصطفى مقابله جي(2)، وفي سنة 1194 هـ تقرر في إمامته عبد

---

(1) ... سجل المحكمة الشرعية بطرابلس، رقم 2، سنة 1079 هـ، ص. 104.

(2) ... سجل المحكمة الشرعية بطرابلس، لسنة 1165 هـ، ص. 278.

القادر بن حسين مفتي زاده لوفاة شقيقه عبد الرحمن، ثم فرغ عبد القادر للشيخ حامد بن الشيخ حسين أبي النصر في الخامس في المحرم(1).

... وفي وثيقة عثمانية لسنة 974 هـ/ 1566 م، جاء أن عدد الجُند المرابطين في برج المغاربة كانوا سبعة (7) فقط يعرفون بـ"مستحفظان"(2). وفي وثيقة أخرى لسنة

1144 هـ ارتفع عدد المرابطين إلى خمسة

---

(1) ... سجل المحكمة الشرعية بطرابلس، رقم 27، ص. 265.

(2) ... العسكر في بلاد الشام لنوفان حمود، صص. 30 ـ 31، دفتر مالية مدورة لرئاسة الوزارة التركية لسنة 974 هـ/ 1566 م، صص. 77 ـ 83.

(1524/1)

وعشرين، بينهم بلوكباشي، وأوضه باشي، وطوبجي(1). وعاد العدد فانخفض إلى عشرة أنفار في سنة 1208 هـ(2).

... وكان المغاربة يتوزعون، منذ عصر المماليك، في أكثر من محلة من محلات طرابلس. فقد ورد في أول وثيقة عثمانية وصلتنا بعد سقوط دولة المماليك بنحو 3 سنين فقط، أن الأسر المغربية كانت تسكن في سبع محلات من أصل 26 محلة، هي: محلة جامع كبير، ومحلة زقاق الأكوز، ومحلة مسجد القرمشي، ومحلة خان عديمي، ومحلة مسجد الخشب، ومحلة الطواحين، ومحلة

---

(1) ... سجل المحكمة، ج 6، ص. 100.

(2) ... سجل المحكمة، ج 34، ص. 152.

(1525/1)

ساحة الحمصي، وكان في المحلة الأخيرة لوحدها ثلاث أسر مغربية(1).

... وكانت وظيفة المشيخة على طائفة السعاة، المعبر عنها بالمقدمية، توجه على المغاربة خصوصاً، لما هو معروف عنهم من سرعة الجري، وتحمل المشاق في السفر لمسافات طويلة. (والمعروف الآن أن المغاربة هم من أوائل الفائزين في مباريات السباق الدولية للمسافات الطويلة). ولهذا كانت وظيفة الساعي لتوصيل البريد والمراسلات من اختصاصهم،

---

(1) ... دفتر مالية لواء طرابلس الشام، رقم 68، لسنة 925 هـ/ 1519 م، محفوظ بالأرشيف العثماني برئاسة الوزراء، استنبول.

(1526/1)

وكانت هي ووظيفة التولية على وقف المغاربة توجه على واحد من مشايخهم من ديوان السلطان مباشرة، لدينا حول ذلك وثيقة مؤرخة في أواخر سنة 1088 هـ تتضمن ما نصه:

... بالمجلس المشار إليه، بعد أن وجِّهت وظيفة التولية على وقف زاوية المغاربة الكاينة باطن طرابلس، ووظيفة المشيخة على طايفة السعاة المعبر عنها بالمقدَّمية، من طرف السدة العلية الخاقانية، على الحاج إبراهيم بن فتح الله، بموجب ما بيده من البراءتين الشريفتين المودع علمهما بالسجل المحفوظ، وقرره بهما الحاكم الشرعي المشار إليه، وأذِن له بمباشرتهما

(1/1527)

وتناول معلومهما أسوة من تقدَّمه على الرسم المعتاد، حضر الآن الحاج قاسم ابن الحاج ابن سعيد المغربي تصادقاً شرعياً، محرراً، معتبراً، مرعياً، على أن تشارك معه في تعاطي خدمة الوظيفتين المزبورتين. ومهما تحصل من ذلك من عُلُوفة التولية ورسوم المشيخة، يكون ذلك بينهما نصفين، مصادقة صحيحة شرعية جرت بينهما بالطوع والرضا حسبما تصادقا على ما فيه. ووقع

الإشهاد عليه في اليوم العاشر من شهر ذي القعدة الحرام في شهور سنة 1088(1).

---

(1) ... سجل المحكمة، ج 3، ص. 95.

(1528/1)

... وقد حدث بعد مدة أن تعدى أحد سكان طرابلس من غير المغاربى على وظيفة التولية على وقف المغاربة، ويدعى عبدي أغا بن أبدال، وكان يترجم المراسلات التركية بديوان المدينة. وبحكم اتصاله بالحكام، انتزع الوظيفة لنفسه دون وجه حق، وبقيت بيده حتى قُتل بيد والي طرابلس إبراهيم باشا بن إسماعيل باشا العظم في سنة 1143 هـ/ 1730 م بعد أن ثار الأهالي على الوالي وأعوانه لظلمهم، وبموت عبدي بن أبدال عادت الوظيفة إلى أصحابها المغاربة، كما أفادتنا وثيقة مؤرخة في أوائل شهر ربيع الثاني سنة 1144 هـ، ونصها الآتي:

(1529/1)

قضية تقرير وظيفة

... بمجلس الشرع الشريف المشار إليه، حضر فخر الفُضلا السيد إبراهيم أفندي بن المرحوم أحمد آغا، وقرر أن وظيفة التولية على وقف مسجد المغاربة، الكاين باطن طرابلس، المنسوب إلى المرحوم السيد عبد الواحد المغربي ـ نوَّر الله مرقده الشريف ـ كانت مقررة عليه سابقاً مع المشيخة على طائفة المغاربة السالكين في ربع المسجد، بموجب حجة شرعية وبراءة عالية شريفة، وأن عبدي أغا الترجمان بديوان طرابلس، طلب منه فراغها. فبانتسابه للحكام وتقدمه عندهم وقوة جرأته، لم يمكنه إلا الفراغ له عنها، ولم يقم بخدمة

(1530/1)

الوقف وتعطل مصالح المسجد ووهن بناء مسقفاته.

... وأنه في السنة السابقة لما قتل، أخذه محلولاً عنه بموجب حجة شرعية. والآن فرغ عنها بالطوع والرضا، لكل من فخر الفضلا، محمد أفندي بن مفخر الفضلا عبد الحق(1) أفندي، ولفخر الطلبة الشيخ مصطفى بن الحاج عبد اللطيف مكناسي(2) زاده، فراغاً شرعياً. فالتمسا

من الحاكم

---

(1) ... هو عبد الحق المغربي الطرابلسي. ذكر المرادي في سلك الدرر، ج 4، ص. 250؛ وانظر: عمر عبد السلام تدمري، موسوعة علماء المسلمين، ق 3، ج 2، رقم 532، ص. 354.

(2) ... تصحف في الأصل إلى "مكانسي".

(1531/1)

الشرعي المشار إليه أن يقررهما في الوظيفة المرموقة، وفي المشيخة. فقررهما بوجه الاشتراك مناصفة بينهما، وأذن لهما بمباشرة الوقف، من القيام أولاً بتعميره وبفرشه وبتنويره، وما فضل من غلته يقتصا منه معلوم الوظيفتين، أسوة من تقدمهما، ويدفعا مواجب أرباب الجهات، حسب المعتاد بقدر الفائض، سالكين بذلك تقوى الله تعالى في السر والإعلان، تقريراً وإذناً شرعيين، مقبولين منهما قبولاً شرعياً. التمسا بأن يسطر لهما بذلك صك شرعي. فسطر بالطلب، في أوائل شهر ربيع الثاني من شهور سنة أربع وأربعين ومائة وألف(1)

---

(1) ... سجل المحكمة، سنة 1144 هـ

(1532/1)

.

... ... شهود:

مولانا عبد الحق فخر الفضلاء عبد الرحمن ... مولانا كاتب أصله

أفندي زيد مجده ... أفندي مغربي زاده ... الشيخ محمد مقابله جي زاده

فخر المحررين محمد أفندي ... ... ا لسيد مصطفى

عربي كاتبي ... ... بن إسماعيل باشه

(1533/1)

الأيوبيون ومملكة أرمينية الصغرى

... ... الأستاذ فتحي سالم حميدي اللهيبي

... ... كلية الآداب ـ جامعة الموصل ـ العراق

مقدمة

... لم يكد القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي يشرف على الانتهاء حتى تمخض عن ولادة مملكة مسيحية صغيرة في الجزء الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى، وهي مملكة أرمينية الصغرى التي لعبت الحركة الصليبية دوراً كبيراً في نشوئها بصفتها مملكة تقف على قدم المساواة مع الإمارات والممالك الصليبية في الشرق.

(1/1534)

... وأصبحت هذه المملكة أحد الخصوم الذين يضمرون العداء للدولة العربية الإسلامية، مما جعلها وسيلة بيد القوى الصليبية والمغولية. فكان دورها فعالاً في هذا الجانب، وخاصة في أثناء حكم الأسرة الأيوبية، من خلال إقامة الأحلاف سواء كان ذلك مع الإمارات الصليبية، أو مع الدولة المغولية وبيزنطة وأوربا، لتحقيق أغراضها.

... ويهدف البحث إلى تسليط الأضواء على الدور التآمري الذي لعبه الأرمن ضد الدولة العربية الإسلامية؛ كما يعالج الموقف الأيوبي وكيفية التصدي للمحاولات التآمرية لمملكة أرمينية الصغرى.

(1/1535)

... ويعتمد البحث على مجموعة من المصادر والمراجع العربية والأجنبية والأرمينية التي ساعدت على إظهار البحث بالشكل اللائق.

* * *

... قامت مملكة أرمينية في المنطقة المعروفة بإقليم قيليقيا الذي تحده من الشرق جبال الأمانوس، ومن جهتي الشمال والغرب جبال طوروس، ومن جهة الجنوب البحر المتوسط وتبلغ مساحتها 40000 كم2 يطول 400 كم2 من الشرق إلى الغرب ويعرض 100 كلم من الشمال إلى الجنوب(1)

---

(1) ... ل. استارجيان، تاريخ الأمة الأرمينية، الموصل، 1951، ص. 203؛ مروان المدور، الأرمن عبر التاريخ، بيروت، 1982، ص. 223.

.

... أطلق المؤرخون العرب المسلمون على هذا الإقليم عدة تسميات منها "الدرب" لوقوعها على الطريق الذي يصل بين مدينة طرطوس القيليقية الواقعة على ساحل البحر

المتوسط وبلاد الروم عبر جبال طوروس(1)؛ كما سميت بـ»منطقة الثغور الشامية« لوقوعها على أطراف بلاد الشام من جهة الإمبراطورية البيزنطية المحاددة لها من جهة أخرى وكانت مقرّاً للقوات

---

(1) ... شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم البلدان، بيروت، 1955، م 2، ص. 97؛ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فضل الله، التعريف بالمصطلح الشريف، مصر، 1952، ص. 56.

الإسلامية لصد الغارات والهجمات البيزنطية؛ وسميت بـ »بلاد ابن لاون«، نسبة إلى ملكهم ليفون حيث أطلق المؤرخون العرب المسلمون لقب ابن لاون على ملوك الأرمن جميعاً؛ كذلك أطلقوا عليها تسمية »بلاد سيس« (1)، نسبة إلى عاصمتهم سيس التي تعد من أكبر المدن الأرمينية و»بلاد التكفور« (2)

---

(1) سيس: ويقال لها سيسة، وهي مدينة قريبة من عين زربة. وهي مستقر الأرمن. تقع بين حلب وبلاد الروم. (ينظر: محب الدين أبي الفضل محمد الشحنة، الدر

المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق محمد بن اليان، بيروت، 1909، ص. 188).

(2) تكفور: لفظ أرميني معناه الملك المتوج. أطلقه الأرمن على ملوكهم؛ كما كان يطلق على ملوك الدولة البيزنطية. (ينظر: أحمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1975، ج 1، ق 2، ص. 551).

(1538/1)

، حيث أطلقت المصادر العربية لقب التكفور على كل من يعتلي عرش أرمينية الصغرى(1) مثلما لقب الأمبراطور البيزنطي بالأشكري وملك الحبشة بالنَّجاشي(2). وعلى الرغم من تعدد التسميات، فإن المقصود منها جميعاً قيليقيا (أرمينية الصغرى). وأشهر مدنها طرسوس

---

(1) ياقوت الحموي، المصدر السابق، م 2، ص. 97؛ ابن فضل الله، المصدر السابق، ص. 56؛ أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، بيروت، 1987، ج 8، ص. 30.

(2) ... سعيد عبد الفتاح عاشور، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، 1977، ص. 239.

وآياس والمصيصة ومرسين ومرعش وعينتاب وزيتون وهاجين وسيس وأدنه وإنطاليا وبورسان وسلوقيا(1).

... خضع هذا الإقليم للدولة العربية الإسلامية منذ الفتح العربي الإسلامي في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وازدادت أهميته بعد الفتح لموقعه الإستراتيجي: إذ اهتم به الخلفاء والأمراء وأجروا فيه تحصينات وأصبح مستقراً للقوات الإسلامية لحماية حدود الدولة من الهجمات البيزنطية. وبعد ثلاثة قرون من التبعية، بدأت الأوضاع في هذا الإقليم تتغير

(1) استارجيان، المرجع السابق، ص. 203؛ المدور، المرجع السابق، ص. 223.

تغيراً ملحوظاً. إذ أن الإمبراطورية البيزنطية، أخذت تستغل فرصة ضعف الدولة العربية الإسلامية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي الذي تزامن مع نهوض الإمبراطورية البيزنطية، فاستعاد الإمبراطور

نقفور (352 ـ 359 هـ/ 963 ـ 969 م) سيطرته على مدينة المصيصة وطرسوس وغيرها من مدن قيليقيا(1). وبذلك يكون هذا الإقليم قد خرج من أيدي

---

(1) ... ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، بيروت، 1967، ج 1، ص. 94؛ David Marshall Lang, Armenia Cradle of Civilization, London, 1970, p. 200.

(1/1541)

المسلمين.

... وبظهور السلاجقة بصفتهم قوى إسلامية كبيرة وانتصارهم على البيزنطيين في معركة ملاذكرد(1) 463 هـ/ 1071 م التي أبيدت فيها القوات البيزنطية عن بكرة أبيها وأسر فيها الإمبراطور رومانوس ديوجين(2)

---

(1) ملاذكرد: يطلق عليها عدة تسميات منها منازجرد وملاذكرد وملادجرت، وهي بلدة مشهورة بين مدينة خلاط عاصمة الكرج وبين بلاد الروم في أرمينيا الكبرى. (ينظر: صفي الدين بن عبد المؤمن ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد

النجاوي، بيروت، 1955، ج 3، ص. 1314).

(2) ... أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق الفارقي، التاريخ الفارقي، تحقيق بدوي عبد اللطيف، القاهرة، 1959، ص. 186؛ كمال الدين أبي القاسم محمد بن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، بيروت، 1954، ج 2، ص. 28.

(1/1542)

. ونتيجة لهذه الظروف التي مرت بها المنطقة تحت الضغط البيزنطي والسلجوقي الذي عاناه الأرمن في أرمينيا الكبرى(1)، هاجر عدد كبير منهم إلى منطقة كبدوكيا وجبال طوروس في قيليقيا لبعدها عن خط توسيع السلاجقة. وبعد ازدياد خطر السلاجقة وتهديدهم لكبدوكيا، انتشر

---

(1) أرمينيا الكبرى: يحدها من الشمال جورجيا وأذربيجان القوقازية، ومن الشرق الحدود الإيرانية التركية، ومن الجنوب الحدود العراقية التركية. أما حدودها الغربية، فتمتدّ إلى كبدوكيا (أنقرة وقيصرية الحاليتين). (ينظر: استارجيان، المرجع السابق، ص. 44).

(1/1543)

الأرمن في آسيا الصغرى وخاصة في الجزء الجنوبي الشرقي من الأناضول(1). وعلى أثر ضعف الإمبراطورية البيزنطية في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أخذ نفوذ الأمراء الأرمن الذين عينهم الأباطرة البيزنطيون حكّاماً على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية(2) في الازدياد والتوسع مؤسسين

(1) ... علية عبد السميع الجنزوري، إمارة الرها الصليبية، القاهرة، 1975، ص. 36.

(2) Roberts Lopez, Byzantium and the World Around It : Economic and Institutional Relations, London, 1979, p. 342.

بذلك إمارات مستقلة أو شبه مستقلة عن سيادة الإمبراطورية البيزنطية. ومن بين الزعماء الأرمن الذين برزت أسماؤهم في عالم السياسة الأرمينية فيلاريتوس براخاميوس (463 ـ 482 هـ/ 1071 ـ 1090 م).

... استغل فيلاريتوس فرصة الفوضى التي أصابت الإمبراطورية البيزنطية عقب معركة ملاذكرد، فرفض

الاعتراف بالإمبراطور الجديد(1)

---

(1) ... أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، بيروت، 1956، ج 2، ص. 115؛ ج. ب. سيغال، الرها المدينة المباركة، ترجمة يوسف إبراهيم جبرا، حلب، 1988، ص. 273؛ Long, op. cit., p. 201.

(1/1545)

وأعلن استقلاله في مرعش والإبلستين ورعبان وملطية ودخل في تبعيته الكثير من الأمراء الأرمن المجاورين. وبذلك يكون قد فرض سيطرته على أهم مدن قيليقيا كطرسوس والمصيصة وأدنه وعين زربة، فضلاً عن سيطرته على الرها في سنة 470 هـ/ 1077 م وعلى أنطاكيا في سنة 471 هـ/ 1078 م بعد أن قتل آخر حاكم بيزنطي عليها(1). بعد أن دعم فيلارتيوس نفوذه في قيليقيا، أخذ في اتباع سياسة الحذر والاعتدال تجاه جيرانه. فقد اعترف بسيادة اسمية لبيزنطة

---

(1) عاشور، الحركة الصليبية، القاهرة، 1962، ج 1، ص. 99؛ سيغال، المرجع نفسه، ص. 275.

في الوقت الذي كان يدفع فيه الجزية للسلاجقة المسلمين(1). إلا أن إمارته لم تلبث أن تلاشت بعد أن انقسمت إلى عدة إمارات صغيرة على أثر وفاته سنة 482 هـ/ 1090 م: إذ استقل الأمراء الصغار التابعون له كل في المدينة أو الإقليم الذين كان يحكمه كإمارة الرها الأرمينية التي استقل بها توروس وإمارة مرعش وإمارة كوغ باسيل في كسيوم ورعبان الواقعة شمالي مرعش وإمارة ملطية التي استقل بها جبريل الأرميني وإمارة أبي الغريب في قلعتي بابرون

---

(1) ابن فضل الله، المصدر السابق، ص. 55؛ القلقشندي، المصدر السابق، ج 8، ص. 30.

ولامبرون الواقعتين في الجزء الغربي من قيليقيا. إلا أن جميع هذه الإمارات أخذت تتلاشى بظهور الصليبيين

الذين أخضعوها جميعاً لسيادتهم(1). ولم يبق في معترك السياسة الأرمينية سوى إمارتين هما الإمارة الهيثومية والإمارة الروبينية اللتين ظلتا تتنافسان وتتناطحان لأجل الانفراد بالسلطة. أما أسرة الهيثوميين، فمؤسسها الأمير أوشين الأول (465 ـ 504 هـ/ 1073 ـ 1110 م) الذي نزح إلى قيليقيا في سنة 467 هـ/ 1075

---

(1) للمزيد من الاطلاع على تفاصيل نشوء الإمارات الأرمينية، ينظر: الجنزوري، المرجع السابق، صص. 42 ـ 45.

م. وعلى أثر معركة ملاذكرد، التجأ إلى أبي غريب الأرميني حاكم طرسوس الذي منحه قلعتي لامبرون وبابرون وزوجه من ابنته مورفيا(1).

... أما الأسرة الروبينية، فإن أصلها لا يقل غموضاً عن الأسرة الهيثومية؛ إذ ينتسبون إلى روبين الأول (473 ـ 489 هـ/ 1080 ـ 1095 هـ)، وهو أحد أقرباء جاجيك ملك أرمينيا الكبرى المتوفى سنة 463 هـ/ 1071 م. واستقر روبين في بعض القلاع الشرقية، ثم خلفه ولده

قسطنطين ليدعم نفوذ الأسرة الروبينية في

---

(1) M. Setton Kenneth, A History of the Crusades, Pennsylvania, vol. II1995,, p.633.

(1549/1)

قيليقيا في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي(1).

... وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق في سنة 491 هـ/ 1097 م، فوجد الأمراء الأرمن في الصليبيين الحليف والحامي القوي الذي يمكنهم من إنشاء مملكتهم، بعد صراع دام طويلاً بين الأمراء الروبينيين والهيثوميين، أدّى فيه البيزنطيون دوراً كبيراً من خلال دعمهم للبيت الهيثومي بسبب العداء المشترك للأمراء

---

(1) ... أنطوان خانجي، مختصر تواريخ الأرمن، أورشليم (القدس)، 1886، ص. 215؛ Sirape Der Nersession, The Armenians, Paris, 1977, p. 44.

(1550/1)

الروبنيين الذين حملوا بيزنطة مسؤولية ضياع استقلالهم في الوطن الأم أرمينيا الكبرى، فضلاً عن محاولاتهم التوسُّع على حساب الأراضي البيزنطية(1).

... أما الأمراء الروبينيون، فقد دأبو على عقد الأحلاف والاتفاقيات مع الصليبيين؛ إذ وجد كل من الطرفين ضالته في الطرف الآخر: فقد طمح الأمراء الأرمن إلى اتخاذ الصليبيين سنداً لهم في صراعهم ضد البيزنطيين والأمراء الهثيوميين، في حين وجد الصليبيون في الأمراء الروبينيين أعواناً لهم في تحقيق أهدافهم لإقامة كياناتهم في الشرق. ويتضح

---

(1) خانجي، المرجع نفسه، ص. 215.

ذلك من الدعم الذي قدمه الأرمن للحملة الصليبية الأولى: إذ أرشدوهم إلى الطرق المؤدية إلى بلاد الجزيرة والشام(1)، فضلاً عن دورهم في مساعدة الصليبيين أثناء استيلائهم على الرها وأنطاكيا عن طريق الإمدادات العسكرية والدعم المادي الضخم، وخاصة عند حصارهم لأنطاكيا سنة 492 هـ/ 1098 م(2).

... وبعد صراع لا هوادة فيه، استقر الأمر في حكم

قيليقيا للبيت الروبيني. غير أن العلاقات بين الأمراء الروبينيين

---

(1) المدور، المرجع السابق، ص. 225.

(2) رنسيمان، المرجع السابق، ج 1، ص. 314؛ Lang, op. cit., p. 202.

(1/1552)

والصليبيين سرعان ما شابها التوتر بسبب رغبة الأرمن والصليبيين في التوسع كل على حساب دائرة نفوذ الطرف الآخر؛ إلا أنهم سرعان ما كانوا يوحدون جهودهم أمام التهديدات الخارجية لكياناتهم من جانب السلاجقة والأراتقة والزنكيين والأيوبيين. وبما أن الأرمن حلفاء مخلصون للصليبيين، فقد دخلوا في صراع مع القوى الإسلامية بشكل مباشر منذ العهد الزنكي: إذ أخذ الزنكيون ابتداء بعماد الدين زنكي (520 ـ 541 هـ/ 1126 ـ 1146 م) الذي وجه لهم عدة ضربات بسبب محاولتهم التآمرية مع الصليبيين، ومن ثم ولده نور الدين محمود (541 ـ

(1/1553)

569 هـ/ 1146 ـ 1173 م) الذي تصدى لهذه المحاولات وأخضع الأرمن في قيليقيا لتبعيته في سنة 564 هـ/ 1169 م وعين عليها الأمير مليح الأرمني (564 ـ 569 هـ/ 1169 ـ 1173 م) نائباً عنه(1). وبقي مليح تابعاً للزنكيين حتى وفاة نور الدين زنكي سنة 569 هـ/ 1173 م(2).

---

(1) ... قوام الدين أبو الفتح محمد بن حامد البنداري، سنا البرق الشامي، تحقيق رمضان ششن، بيروت، 1970، ج 1، ص. 231؛ أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، د. ت، ج 4، ص. 225.

(2) رنسيمان، المرجع السابق، ج 2، ص. 275.

... اختلف الموقف في الربع الأخير من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، إذ قامت الدولة الأيوبية في خضم الأحداث المضطربة وأخذت على عاتقها مهمة قيادة العالم الإسلامي ومكافحة القوى الأجنبية الغازية؛ فكان على الأرمن أن يواجهوا السياسة التي رسمها الأيوبيون والقائمة على أساس الجهاد ومكافحة

الصليبيين. فبعد وفاة نور الدين زنكي، استطاع صلاح الدين الأيوبي (569 ـ 589 هـ/ 1173 ـ 1193 م) أن يرسخ جذور دولته ويوسع حدودها لتشمل مصر ومعظم بلاد الشام والجزيرة واليمن والموصل. وبذلك أصبحت ممتلكات الأيوبيين

(1/1555)

متاخمة لحدود إمارة الأرمن في قيليقيا؛ فكان له الأثر الأكبر في نشوء علاقات متوترة بين الطرفين. هذا، فضلاً عن أن الأمراء الأيوبيين لا يمكنهم أن يغضوا النظر عن دور الأرمن التآمري مع الصليبيين ضد المسلمين في بلاد الشام والجزيرة وما أبدوا للصليبيين من مساعدات أثناء إقامة كياناتهم. فكانت بداية الصدام الأيوبي ـ الأرميني في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي: إذ استغل روبين الثالث (571 هـ ـ 582 هـ/ 1175 ـ 1186 م) الذي تولى السلطة بعد مقتل عمه مليح (نهاية سنة 569 هـ/ 1173 م) فرصة الاضطرابات التي حصلت

(1/1556)

بالدولة الزنكية بعد مقتل نور الدين محمود.

... بدأ الأمير روبين الثالث بسياسة التحالف مع الصليبيين لمهاجمة ممتلكات الزنكيين في بلاد الشام. إلا أن صلاح الدين بعد توليه لزعامة العالم، ابتدأ بردع هذه الأطماع،وخاصة بعد أن نجح في تأمين الجبهة الداخلية من خلال عقده لصلح سنة 576 هـ/ 1180 م مع السلطان السلجوقي قلج أرسلان (551 ـ 584 هـ/ 1156 ـ 1188 م) ومع حكام الموصل وديار بكر. فكانت أول ثمرة لهذا الصلح ما أحرزه من انتصار على روبين الثالث أمير قيليقيا(1)

---

(1) ... الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، القاهرة، 1963، ج 1، صص. 778 ـ 779؛ الملا ناصر جاسم، صلاح الدين الأيوبي في الدراسات الاستشراقية الأنجليزية والأمريكية، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، 1992، ص. 180.

، حيث حدث ذلك عندما توجه السلطان صلاح الدين في سنة 576 هـ/ 1180 م إلى بلاد الأرمن يدعمه عسكر الصالح بن نور الدين زنكي صاحب حلب(1)، بموجب الصلح

المعقود معه في سنة 572 هـ/ 1176 م، الذي كان أحد شروطه ضرورة مشاركة القوات الحلبية مع السلطان صلاح الدين في حروبه(2)

---

(1) ... هاملتون كب، صلاح الدين الأيوبي، ترجمة يوسف ايبش، بيروت، 1973، ص. 167.

(2) ... أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، د. ت، ج 6، ص. 28؛ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، د. م، د. ت، ج 6، ص. 28.

(1558/1)

. وكان السبب الرئيس لهذه الغارة أن السلطان السلجوقي قلج أرسلان أرسل إلى صلاح الدين كتاباً يستنجد فيه من الأرمن في قيليقيا، ويشتكي إليه أمرهم، ويطلب منه أن يقصد بلادهم، حيث أخبره أن الأمير روبين الثالث استمال قوماً من التركمان ليرعوا مواشيهم في بلاده فغدر بهم وهاجمهم(1) وتمكن من أسرهم جميعاً واستولى على مواشيهم.

---

(1) ... بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1964، ص. 54؛ Andrews S Ehrenkrutz, Saladin, New-York, 1972, p. 166.

(1559/1)

فدخل السلطان صلاح الدين إلى قيليقيا، وبث فيها سراياه. فخشي الأمير روبين الثالث من ذلك، فأحرق حصن المناقير في جبال طوروس الذي كان موضع ذخيرة الأرمن(1). غير أن السلطان صلاح الدين أدركه قبل أن تلتهم النيران المؤن

---

(1) ... عز الدين أبو الكرم محمد بن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1966، ج 11، ص. 466؛ جمال الدين بن محمد ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1953، ص. 98؛ أحمد بن إبراهيم الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، بغداد، 1978، ص. 98.

(1560/1)

التي فيه(1). فبادرت العساكر الإسلامية إلى إخراج كل ما فيه من الغلال والمؤن والآلات، فتقوَّوْا بها، ثم هدموا الحصن. فاضطر الأمير روبين إلى طلب الصلح وأعلن طاعته للسلطان صلاح الدين، وأطلق جميع ما بيده من الأسرى التركمان، فضلاً عن دفعه مبلغاً كبيراً من

---

(1) ... عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، 1979، م 5، ص. 265؛ ستانلي لين بول، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس، ترجمة فاروق سعد أبو جابر، القاهرة، 1995،صص. 144 ـ 145.

المال مقابل انسحاب السلطان عن أراضيه(1).

... بعد كل ما بذله الأمير من أموال، لم يرض السلطان صلاح الدين بذلك فاضطر روبين الثالث إلى زيادة المال المدفوع للسلطان، كما قام بشراء خمسمائة أسير مسلم ممن في أسر الصليبيين، فأعتقهم. فأجابه السلطان إلى طلبه، وأخذ منه الرهائن. وأطلق السلطان سراحهم بعد أن طبق الأمير روبين جميع الشروط المفروضة عليه(2).

(1) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 11، ص. 467.

(2) ابن واصل، المصدر السابق، ج 2، ص. 99؛ W. B. Stevenson, The Crusedors in the, East, Cambridge, 1965, p. 224.

ويذكر البنداري(1) مختصر كتاب "البرق الشامي" للأصفهاني المعاصر للأحداث في تلك الفترة انسحاب السلطان صلاح الدين قائلاً: »كان الوقت متعسراً والقوت متعذراً، وكان من لطف الله إذعان الأرمني حتى عجلنا رحيلنا بالنصر السني«.

... إذا ما تأملنا في هذا النص، تبيَّنَّا أن إذعان الأمير روبين الثالث جاء في الوقت المناسب، بسبب قلة المؤن في معسكر السلطان وضيق الوقت. فجاء إذعان الأمير روبين فرصة للقوات الإسلامية بالانسحاب والعودة إلى بلادها. ولو طال الوقت أكثر من ذلك ولم يذعن

(1) سنا البرق الشامي، ج 1، ص. 248.

الأرمن، لاضطر السلطان إلى الانسحاب من تلقاء نفسه.

... بعد عودة السلطان صلاح الدين من غزوة عام 576 هـ/ 1180 م، أبرم في السنة ذاتها معاهدة أمدُها سنتان مع السلطان السلجوقي قلج أرسلان وأمير قيليقيا الأرميني روبين الثالث، فضلاً عن أمراء الموصل والجزيرة وأربل وحصن كيفا وماردين، واتفق معهم على جعل الوئام والسلام بينهم محل الاعتداء والخصام(1)

---

(1) ... حافظ أحمد حمدي، المشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دزم، 1950، ص. 125؛ Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1968, p. 206؛

Ehrenkrutz, Saladin, p. 166.

(1/1564)

. ولم تكن هذه المعاهدة إلا معاهدة عدم اعتداء بين جميع الأطراف المتعاهدة على ذلك

... بقي الأمير روبين الثالث، بموجب هذه المعاهدة، تابعاً للسلطان صلاح الدين الأيوبي ويدفع الجزية السنوية له حتى وفاته سنة 582 هـ/ 1186 م. تولى السلطة من بعده

أخوه الأمير ليفون الثاني (582 ـ 616 هـ/ 1186 ـ 1219 م)(1)، الذي عقد تحالفاً مع بوهمنيد الثالث أمير أنطاكيا الصليبي(2)

---

(1) ... نظير حسان سعداوي، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي، القاهرة، 1957، ص. 212.

(2) ... عبد المنعم ماجد، الناصر صلاح الدين الأيوبي، القاهرة، 1958، ص. 138.

. كما تعاون مع قادة الحملة الصليبية الثالثة التي توجهت إلى الشرق في سنة 585 هـ/ 1189 م تحت قيادة الإمبراطور الألماني فردريك باربروسا (543 ـ 586 هـ/ 1152 ـ 1190 م)، إذ نظر إليها نظرة المخلص من خطر صلاح الدين الذي يهدده. لهذا قدم لهم كل ما يمكن من مؤن وإمدادات وأعلاف لخيولهم(1)، وأعلن طاعته للإمبراطور الألماني وقدم له الهدايا، وأرسل إليه يعلمه بأنه على أتم الاستعداد لتقديم كل ما تحتاج إليه القوات الصليبية، بل وطلب منه

---

(1) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 12، ص. 49؛

استارجيان، المرجع السابق، ص. 220.

أن يقدم بعساكره إلى قيليقيا(1). وعلى النقيض من ذلك، نجد جاثليق الأرمن جريجوري السادس يرسل كتاباً إلى السلطان صلاح الدين يعلمه بخبر مسير ملك الألمان(2) ويقول فيه:

... كتاب الداعي المخلص الكاغيكوس، مما أطالع به علوم مولانا وملكنا الملك الناصر جامع كلمة الإيمان، رافع علم العدل والإحسان، صلاح الدين والدنيا سلطان الإسلام والمسلمين من أمر ملك الألمان وما جرى عند ظهوره، وذلك أنه ما خرج من دياره دخل بلاد الهنكر غصباً، ثم دخل أرض مقدم

---

(1) خانجي، المرجع السابق، ص. 231.

(2) ماجد، المرجع السابق، ص. 138.

الروم وفتح البلاد ونهبها(1).

يبدو أن موقف الأمير ليفون الثاني ومراسلته الإمبراطور الألماني من جهة والموقف المعاكس لجاثليق الأرمن، أن وراءهما أهدافاً خفية، ألا وهي الخوف من المستقبل. فإذا ما انتصر أي من الطرفين، يكون الأرمن قد ضمنوا وجودهم وسلامة بلادهم، فضلاً عن طموح الأمير ليفون الثاني إلى الحصول على التاج الملكي عن طريق الغرب، مما دفعه إلى مراسلة الإمبراطور الألماني

---

(1) ... شهاب الدين أبو محمد بن عبد الرحمن أبو شامة، الروضتين بأخبار الدولتين النورية والصلاحية، بيروت، د. ت، ج 2، ص. 155..

ودعوته إلى قيليقيا، إذ وعده بمنحه التاج الملكي إذا ما قدم له المساعدة. إلا أن الإمبراطور غرق في أحد أنهار قيليقيا، فخابت آمال الأمير ليفون الثاني(1).

... على الرغم من ذلك، استمر الأمير ليفون الثاني في تقديم الدعم المادي والعسكري للحملة الصليبية الثالثة التي تولى زعامتها الإمبراطور الألماني هنري

السادس (586 ـ 594 هـ/ 1190 ـ 1197 م) ابن الأمبراطور فردريك باربروسا وريتشارد قلب الأسد ملك أنجلترا(2)

---

(1) Setton, op. cit., vol. II, p. 646.

(2) Carl Erdman, The Origin of the Idea of Cruseds, New Jersey, 1977, p. 187.

(1/1569)

؛ كما اشترك الأمير ليفون في حصار عكا، فضلاً عن تقديمه المساعدة للملك ريتشارد قلب الأسد في أثناء غزوه لجزيرة قبرص سنة 587 هـ/ 1191 م(1).

... لم يلبث الأمير ليفون أن تغير موقفه من حلفائه الصليبيين. فبدل أن يقدم لهم المساعدة، حرص على الالتزام بموقف الحياد أثناء غارة السلطان صلاح الدين على أنطاكيا سنة 587 هـ/ 1191 م، وعلى الرغم من تحالفه مع أميرها بوهيمند الثالث(2). والحقيقة التي لابد من ذكرها أن الأمير ليفون الثاني قصد من وراء

---

(1) Long, op. cit., p. 203.

(2) رنسيمان، المرجع السابق، ج 3، ص. 163.

(1/1570)

موقفه هذا إضعاف شوكة الأمير بوهميند الثالث أمير أنطاكيا، الذي كان يمثل أقوى خصومه من بين الأمراء الصليبيين المعاصرين له، وبالتالي التوسع على حساب ممتلكاته من جهة، وعدم إثارة السلطان صلاح الدين من جهة أخرى خشية أن يحدث لبلاده ما حدث لأنطاكيا على يده.

... توفي السلطان صلاح الدين سنة 589 هـ/ 1193 م، فدب الانقسام في ممتلكاته بين أفراد الأسرة الأيوبية.

فأصبحت حلب من نصيب الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين (589 ـ 613 هـ/ 1193 ـ 1216 م)، ودمشق من نصيب الأفضل بن صلاح الدين، وأصبح شقيقه الملك العزيز عثمان

(1/1571)

ملكاً على مصر. وبذلك انقسمت المملكة وأصبحت مسرحاً للصراع والخلافات والاضطرابات(1). فازداد طمع الأمير ليفون الثاني في التوسع على حساب الدولة الأيوبية، مستغلاًّ هذه الصراعات بين أفراد البيت الأيوبي، مما جعله في مواجهة الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب

حلب الذي حمل على عاتقه مهمة التصدي لغارات الأرمن بسبب التداخم الحدودي بين حلب الأيوبية ومملكة أرمينية الصغرى، مما جعلها مسرحاً لغارات الأرمن، وخاصة بعد أن استقل

---

(1) ... محمود ياسين التكريتي، الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة، بغداد، 1981، ص. 263.

(1572/1)

بحكمها الظاهر غازي في سنة 590 هـ/ 1194 م. وردّاً على هذه الغارات، قامت القوات الأيوبية في سنة 594 هـ/ 1197 م بالهجوم على ممتلكات الأرمن واجتياحها بنجاح. وعادت هذه القوات في السنة ذاتها ومعها من السبي خمسون وأربعمئة أسير(1). إلا أن الأمير ليفون الثاني استمر في سياسته العدائية ودعمه للصليبيين مستغلاً فرصة انقسام الدولة الأيوبية. فكان ذلك النشاط في حدّ ذاته كفيلاً بإعلاء مكانته لإخلاصه وتجاوبه مع الأهداف الصليبية، مما دفعه إلى إرسال سفارة إلى

---

(1) أبو شامة، الذيل على الروضتين، بيروت، د. ت، ص. 13.

البابا كالستين الثالث (587 ـ 595 هـ/ 1191 ـ 1198 م) والأمبراطور هنري السادس في سنة 594 هـ/ 1197 م، وأعلن الأمير ليفون تبعيته للتاج الألماني. ونجح السفراء في مهامهم، فأرسل الإمبراطور في السنة ذاتها علماً ثميناً عليه رسم أسد تلميحاً لاسم ليفون مع كبير أمنائه كوزيزاد ومعه تاج ملكي للأمير ليفون الثاني. وبذلك أصبحت للأرمن مملكة تدعى مملكة أرمينية الصغرى التي توج عليها الأمير ليفون تحت لقب الملك «ليفون الثاني»(1)، مما أثار غضب الملك

---

(1) Der Nersession, op. cit., pp. 46–47; Lang, op. cit., p. 203.

الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب الذي استجاب لطلب بوهيمند الرابع (598 ـ 631 هـ/ 1201 ـ 1233 م) أمير أنطاكيا الصليبي في عقد تحالف معه في سنة 599 هـ/ 1202 م لمواجهة التحالف الذي عقده منافسه على

السلطة ابن شقيقه ريموند ـ روبين مع خاله ليفون الثاني ملك أرمينية الصغرى الطامع في السيطرة على إمارة أنطاكيا وضم أراضيها إلى ممتلكاته(1).

---

(1) التكريتي، المرجع السابق، ص. 269؛ رنسيمان، المرجع السابق، ج 3، ص. 243.

(1575/1)

... حاول الأمراء الصليبيون الإصلاح بين ملك أرمينية الصغرى والأمير بوهيمند الرابع بجمع كلمتهم ضد الأيوبيين(1). إلا أن الفشل كان من نصيب هذه المحاولة، بسبب ما اقترفته قوات الملك ليفون الثاني من أعمال تخريب ونهب لأنطاكيا في سنة 599 هـ/ 1202 م. وفي سنة 600 هـ/ 1203 م، ضيق ليفون الحصار على أنطاكيا، فخرج

---

(1) ابن واصل، المصدر السابق، ج 3، صص. 154 ـ 155؛ شمس الدين الذهبي، دول الإسلام، الدوحة، 1988، ص. 107؛ محمد بن راغب بن محمد بن هاشم الطباخ، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، حلب، 1924، ج 2، ص. 205.

(1576/1)

الملك الظاهر غازي لنجدتها بعد أن استنجد به حليفه بوهيمند الرابع، فخيم الظاهر على حارم. وعندما علم الملك ليفون الثاني بخروجه، اضطر إلى الانسحاب عن أنطاكيا بدلاً من الدخول في حرب خاسرة مع الملك الظاهر غازي.

... أعاد الملك ليفون الثاني الكرة، فشن هجوماً على أنطاكيا في السنة ذاتها، وحوصر الأمير بوهيمند في قلعة المدينة، الأمر الذي دفعه إلى الاستنجاد ثانية بحليفه الملك الظاهر غازي صاحب حلب الذي خرج على رأس قوة عسكرية قاصداً أنطاكيا. وما أن علم الملك ليفون بذلك حتى سحب عساكره بسرعة، وبذلك أنقذ الملك

(1577/1)

الظاهر غازي مرة أخرى حليفه أمير أنطاكيا(1). وعلى الرغم من ذلك، لم يتخل الملك ليفون عن مخططه في ضم أنطاكيا إلى ممتلكاته؛ فكرر المحاولة في سنة 601 هـ/ 1203 م، مستغلاً فرصة انشغال الأمير بوهيمند الرابع بإخماد الثورة التي قامت عليه في طرابلس التابعة له. ففرض ليفون الثاني حصاراً على إمارة أنطاكيا وضيق

عليها، ولم يرفع عنها الحصار إلا بعد أن تقدم جيش من قبل الملك الظاهر غازي لنجدة بوهيمند الرابع(2)

---

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ج 3، ص. 152؛

رنسيمان، المرجع السابق، ج 3، ص. 244.

(2) ابن خلدون، المصدر السابق، م 5، ص. 340.

.

... لقد كان للمساعدة التي أبداها الملك الظاهر غازي للأمير بوهيمند الرابع دورها في دفع الملك ليفون الثاني إلى الضغط على الملك الظاهر، عندما أغارت القوات الأرمينية على التركمان النازلين في سهل النهر الأسود، وهو من أعمال حلب في سنة 202 هـ/ 1205 م. فأسر منهم عدداً كبيراً وسلب مواشيهم وعاد إلى بلاده(1). وردّاً على ذلك، توجه الملك الظاهر إلى أرمينية الصغرى؛ إلا أن الملك ليفون الثاني ما أن علم بتوجهه وإدراكه التام عجزه

---

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ج 3، ص. 152؛

رنسيمان، المرجع السابق، ج 3، ص. 244.

(1579/1)

عن المقاومة(1)، توسل إلى الملك الظاهر غازي طالباً الصلح، وإرجاع كل ما سلبه من التركمان، وهدم الحصن الذي بناه قرب قلعة دربساك، وطلب رسولاً من السلطان الظاهر لكي يتحدث معه في ذلك فأرسل الملك الظاهر أحد رجاله، وهو سعد الدين بن فاخر، فتحدث معه في الصلح ورد جميع الأسرى والغنائم واطمأنت القلوب وعم الأمن والسلام.

---

(1) ... أبو طالب علي بن أنجب بن الساعي، الجامع المختصر في عيون التواريخ وعنوان السير، بغداد، 1934، ج 9، ص. 177.

(1580/1)

... عاود الملك ليفون الثاني أطماعه من جديد في أملاك الظاهر غازي في حلب. فهاجم حارم في سنة 203 هـ/ 1206 م وسلب ونهب وقتل، الأمر الذي أثار حفيظة الظاهر ثانية. فجهز القوات واتفق مع حليفه أمير أنطاكيا(1) على أن يدخل إلى قيليقيا من جهته، ويدخل الملك الظاهر

من جهة حلب لاستئصال شأفة الملك ليفون. وعندما علم ليفون بذلك الاتفاق، سارع بإعلان خضوعه التام للملك الظاهر غازي(2).

---

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ج 3، ص. 158؛ Setton, op. cit., vol. II, p. 642.

(2) ابن العديم، المصدر نفسه، ج 3، ص. 171.

(1581/1)

... وافق الملك الظاهر على ذلك مقابل قيام الملك ليفون الثاني بإطلاق سراح الأسرى المسلمين في أرمينية الصغرى، وعقد معه صلحاً. فأرسل سعد الدين، فتسلم جميع الأسرى الذين في حوزته. ثم عاد الملك الظاهر إلى حلب(1). فكانت هذه الموافقة على الصلح بسبب رغبة الظاهر في حماية ممتلكاته من غارات الأرمن من جهة، ونظراً لعدم ثقته بحلفائه الصليبيين وخشيته من انقلابهم عليه إلى جانب أبناء دينهم من الأرمن، ولا سيما أن الأمراء والملوك الصليبيين كانوا يسعون في إزالة أسباب الصراع بين الملك

---

(1) Setton, op. cit., p. 649.

ليفون الثاني والأمير بوهيمند الرابع أمير أنطاكيا، فضلاً عن انشغال الملك الظاهر بتصفية مشاكله مع عمه وأشقائه في الممالك الأخرى. إلا أن الملك الظاهر لم يلبث أن اشترك في سنة 605 هـ/ 1208 م إلى جانب السلطان السلجوقي غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان (588 ـ 609 هـ/ 1192 ـ 1212 م) الذي وصل إلى مرعش قاصداً أرمينية الصغرى. فأمده الملك الظاهر غازي بجماعة من عساكره، وعلى رأسهم أشهر قادته سيف الدين علم الدين بن جندر، وعز الدين أيبك فدخل غياث الدين إلى الأراضي الأرمينية واستولى على عدد من القلاع والحصون(1)

---

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ج 3، ص. 159؛ Joan Hussey, Cambridge Medieval History, Cambridge, 1966, vol. IV, Part. I, p. 631.

.

... ساد الهدوء العلاقات الأيوبية الأرمينية بعد غزوة سنة 605 هـ/ 1208 م. واستمر هذا الهدوء حتى سنة 613 هـ/ 1216 م. ويستدل على ذلك من اشتراك الطرفين الأيوبي والأرميني جنباً إلى جنب في مساعدة السلطان السلجوقي كيكاوس (609 ـ 616 هـ/ 1212 ـ 1219 م) ضد عمه، الذي نازعه السلطة بعد وفاة السلطان كيخسرو سنة 609 هـ/ 1212 م(1)، واتفاقهم على عقد معاهدة عدم اعتداء في 610 هـ/ 1213 م(2). وأطلق ليفون الثاني بموجب هذه المعاهدة

---

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ج 3، ص. 217.

(2) رنسيمان، المرجع السابق، ج 3، ص. 247.

سراح جميع الأسرى المسلمين. غير أن الملك الظاهر نقض هذه المعاهدة في سنة 613 هـ/ 1216 م، وعندما اشترك مع السلطان السلجوقي كيكاوس في الغارة على أرمينية الصغرى، فأحرق عاصمتها سيس ونهب كل ما فيها(1).

... كما أشار ابن واصل(2)، في رواية أخرى، إلى أن

السلطان كيكاوس السلجوقي أرسل في سنة 613 هـ/ 1216 م إلى الملك الظاهر غازي يطلب منه

---

(1) ... أبو بكر بن عبد الله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1971، ج 7، صص. 182 ـ 184.

(2) ابن واصل، المصدر السابق، ج 3، صص. 135 ـ 136.

(1585/1)

عقد صلح بينهما وبين بوهيمند الرابع أمير أنطاكيا، بهدف الدخول إلى قيليقيا واستعادة أنطاكيا التي استولى عليها الملك ليفون الثاني واتفقوا على أن يدخل كل من جهته. فجمع الملك الظاهر عساكره، وبذل الأموال، وبعث الجواب إلى كيكاوس مع أحد الأمراء التابعين ويدعى عبد الرحمن المنجي، الذي أوصل الرسالة وحرف فيها شروطاً تضر بالأخير، وتوافق السلطان كيكاوس. فاستشار الملك الظاهر غازي عمه العادل صاحب مصر، فنصحه الأخير بعدم التدخل. وعندما علم الملك ليفون الثاني بذلك الاتفاق، أرسل إلى الظاهر رسالة مضمونها:

(1586/1)

... إني مملوك السلطان وغرس دولته. وقد دخلت عليه دخول العرب وأطلب منه إنقاذي من هذه الورطة وأكون مملوكه ما عشت. وقد حفظت بلاد السلطان غير مرة وخدمته؛ إن السلطان لما حاصر دمشق للمرة الأولى وبقيت بلاده شاغرة من العساكر، ما شغلت قلبه، ولا آذيت باله، بل ساعدته بمالي ورجالي. لذلك لما حاصر دمشق للمرة الثانية، وقدموا لي الأموال كلها لأشغل قلبه ويفتر عن الحصار، فلم أفعل. وإن كان البرنس قد خدم السلطان، فخدمتي أكثر من خدمته، وسوف يبصر السلطان ملازمتي بابه الشريف. وقد أوصيت ابن أختي الذي نصبته لأنطاكيا

(1587/1)

بملازمة خدمته.

كما بعث الملك ليفون الثاني الهدايا الفاخرة مع هذه الرسالة. فمال قلب الملك الظاهر وبقي متردداً، ثم قدم إليه قاضي أقصر وهو قاضي عسكر السلطان كيكاوس السلجوقي. وعندما كان القاضي في بلاط الملك الظاهر، أغار السلطان السلجوقي على أعمال حلب التي يسكن

فيها الأرمن مدعين مساعدة هؤلاء الأرمن للملك ليفون. فرد الملك الظاهر عليهم: »عجباً، أتطلبون المعونة منا وتهاجمون بلادنا؟«!. وكان ذلك سبباً في إعراض الملك الظاهر عن الحركة والالتحاق بمعسكر السلطان كيكاوس(1)

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 3، صص. 135 ـ 136.

(1588/1)

.

... ونحن بدورنا بعد البحث والتمحيص في كلتا الروايتين، نرجح رواية ابن واصل (ت 697 هـ)، لكونه أقرب إلى الحدث؛ في حين أن الرواية التي أوردها ابن أيبك (توفي في القرن الثامن الهجري) تعتبر متأخرة على رواية ابن واصل. وعليه، فإن الملك الظاهر لم يدخل قيليقيا كما أورد ابن أيبك

... توفي الملك الظاهر غازي في سنة 613 هـ/ 1216 م، فخلفه في الحكم ولده العزيز (613 ـ 634 هـ/ 1216 ـ 1236 م) الذي كان صغيراً وتحت وصاية شهاب الدين طغرل(1)

(1) شهاب الدين طغرل الوصي على عرش حلب وعلى ملكها العزيز بن الظاهر غازي بعد وفاة والده سنة 613 هـ/ 1216 م. وكان الخادم والي القلعة ومتولي الخزانة وتربية أبناء الظاهر والنظر في مصالح الدار والنساء. فعند ولاية العزيز، كانت المناصب الدينية بيده. (ينظر: ابن الأثير، المصدر السابق، ج 12، ص. 170).

(1589/1)

. فاتفق الأخير مع قسطنطين الوصي على عرض أرمينية الصغرى والذي استمر في تبعيته وولائه للأيوبيين؛ كما كان عهد ليفون الثاني لملك حلب الأيوبي على مهاجمة أنطاكيا سنة 621 هـ/ 1224 م لثني بوهيمند الرابع عن مهاجمة أرمينية الصغرى. فاضطر الأخير إلى العودة إلى حاضرته أنطاكيا للدفاع عنها من الخطر المشترك(1). وفي سنة 623 هـ/ 1226 م، عاود بوهيمند الرابع أمير أنطاكيا إلى استهداف قيليقيا رغبة منه في التوسع على حسابها. غير أن محاولته كان نصيبها الفشل، إذ قدم طغرل الوصي

---

(1) رنسيمان، المرجع السابق، ج 3، ص. 308.

على عرش حلب الإمدادات للأرمن فضلاً عن الرجال والسلاح. فلما علم أمير أنطاكيا الصليبي بذلك، انطلق عائداً إلى بلاده ثانية دون أية مكاسب تذكر(1). ويلاحظ أنه بعد هذه الحادثة، أصاب الفتور العلاقات الأيوبية الأرمينية، بسبب الصراع الداخلي والظروف السياسية والاقتصادية السيئة التي سادت كلتي القوتين(2)، حيث انشغل الأرمن بأمر انتقال السلطة من البيت الروبيني إلى البيت الهيثومي وتتويج هيثوم الأول ملكاً على أرمينية الصغرى في

(1) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 12، ص. 466.

(2) عاشور، المرجع السابق، ج 2، ص. 126.

سنة 623 هـ/ 1226 م، وكذلك انشغال البيت الأيوبي في حلب بأمر تثبيت اركان دولتهم في عهد العزيز الذي توفي سنة 634 هـ/ 1236 م وولده الناصر (623 ـ 658 هـ/ 1226 ـ 1260 م) الذي كان تحت وصاية عمه تورانشاه

وجدته ضيفة خاتون بسبب صغر سنه. فاستمر ذلك الفتور حتى دخول الأرمن في تبعية المغول على أثر السفارات التي بعثها الملك هيثوم الأول إلى قراقورم عاصمة المغول بزعامة شقيقه الكندسطبل سمباذ في سنة 644 هـ/ 1246 م، حيث قابل سمباذ كيوك خان(1)

---

(1) كيوك (644 ـ 646 هـ/ 1246 ـ 1248 م): أحد خانات المغول. ويقال إنه اعتنق النصرانية، إذ كانت والدته على المذهب النسطوري في الوقت الذي أشرف على تربيته الأمير قداق النصراني. للمزيد من التفاصيل، ينظر: رنسيمان، المصدر السابق، ج 3، ص. 354.

، وحصل منه على وعد يضمن فيه لأخيه الملك هيثوم وحدة ممتلكاته وسلامتها وحق الاستيلاء على القلاع والحصون التابعة للأيوبيين(1)؛ كما توجه الملك هيثوم الأول إلى قراقورم لزيارة كيوك خان في سنة 651 هـ/ 1253 م، إذ أصبح الوقت ملائماً لإسقاط الخلافة العباسية واستعادة بيت المقدس. ونجح في عقد تحالف أرميني مغولي صليبي. إذ

---

(1) Henry H. Howorth, History of Mongols from 9the to 19th Century, London, 1986; Der Nersessian, 88, vol. III, p. 48; J. Glubb, The Lost Centuries, London, 1967, p. 248.

(1/1593)

تكلم الملك هيثوم بالنيابة عن الأمراء الصليبيين، ومنهم صهره بوهيمند السادس (649 ـ 667 هـ/ 1251 ـ 1268 م)، أمير أنطاكيا(1)، وإذ كان الهدف الرئيس من هذه الزيارة هو التباحث في أمر حملة مشتركة ضد العراق وبلاد الشام. فتم إسقاط بغداد سنة 656 هـ/ 1258 م بمشاركة فرقة من الخيالة الأرمن التي ألحقت ضرراً كبيراً بالمدينة(2)

---

(1) ... فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، بيروت، 1980، ص. 108؛ R. Grousset, Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, Paris, 1936, vol. III, p. 576.

(2) ... كارلتون كون، القافلة قصة الشرق الأوسط، ترجمة برهان دجاني، بيروت، 1959، ص. 201؛ جوزيف نسيم، الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي،

الأسكندرية، 1967، ص. 14؛ Avedisk Sanjian, The Armenian Cammunities in Syria under Ottoman Dominion, Cambridge, 1965, p. 4.

(1/1594)

؛ كما اشترك الأرمن في الحملة المغولية على بلاد الشام والجزيرة وبلغ عدد الجيش الأرميني فيها ستة عشر ألف مقاتل بقيادة الملك هيثوم الأول(1)، حيث أنزل مذبحة كبيرة بمسلمي مدينة ميفارقين الأيوبية بعد أن ساهم مع المغول في إسقاطها؛ وكذلك كان حال مدينة نصيبين وحران وسروج والرّها والبيرة(2).

---

(1) J. J. Saunders, The History of the Mangols Congusts, London, 1971, p. 105.

(2) Crousset, op. cit, vol. III, p. 580; Sanders, ibid, p. 113; M. Cbem. Three Italian Travellers, Moscow, 1965, p. 18.

(1/1595)

... كما اشترك الملك هيثوم في الوقت ذاته في احتلال مدينة حلب وارتكب فيها الكثير من المجازر في السكان المسلمين دون النصارى في سنة 658 هـ/ 1260 م(1)، وأشعل النار في الجامع الكبير والمساجد الأخرى في المدينة(2). وقد كافأه هولاكو على اشتراكه في هذه الحملة بأن منحه كميات كبيرة من الغنائم، فضلاً عن منحه بعض أملاك الأيوبيين. كما

---

(1) ... عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، القاهرة، د. ت، ج 3، صص. 200 ـ 201؛ المقريزي، المصدر السابق، ج 2، ص. 442.

(2) عاشور، المصدر السابق، ج 2، ص. 1025.

بيع الأسرى الحلبيّون البالغ عددهم مائة ألف أسير من نساء وأطفال وشيوخ في أسواق سيس عاصمة الأرمن. وكافأ هولاكو صهر الملك بأن منحه مدينة اللاذقية وبعض قلاع الأيوبيين وحصونهم الواقعة على الساحل الشامي(1).

... واستمر الملك هيثوم في تحالفه مع المغول، فاشترك في احتلال مدينة دمشق في السنة ذاتها وقام بتدميرها

وإنزال المذابح بسكانها من المسلمين وحول المسجد الجامع إلى كنيسة(2)

---

(1) الصياد، مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني، القاهرة، 1967، ص. 49؛ رنسيمان، المرجع السابق، ج 3، ص. 526.

(2) Saunders, op. cit., p. 113.

(1/1597)

، بناء على طلب الملك هيثوم وبعد عودة هولاكو إلى العاصمة قراقورم كما طلب منه شقيقه الخان. فترك هولاكو قائده كتبغا بسبب إلحاح الملك هيثوم على استكمال الخطة التي بدأها. فواصلوا احتلال بلاد الشام حتى الحدود المصرية(1). إلا أن اصطدامهم بالمماليك في مصر سنة 658 هـ/ 1260 م في موقعة عين جالوت التي ألحق فيها المماليك هزيمة

---

(1) ابن العبري، »تاريخ الدول السرياني«، مجلة المشرق اللبنانية، ع. 5، سنة 1965، ص. 137؛ ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، تحقيق نبيلة عبد المنعم وفيصل السامر، بغداد، 1977، ج 20، ص, 224.

(1/1598)

كبرى بالمغول وحطموا الأسطورة التي تقول بأن المغول قوم لا يهزمون. وانتهى بذلك دور الأيوبيين في مقارعة الأرمن على أثر سقوط ممالكهم وانضمامها إلى المماليك في مصر والذين تولوا مهمة مقارعة الأرمن.

المصادر والمراجع

أوّلاً: بالعربية

ابن الأثير، عز الدين بن أبي الحسن بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، بيروت، 1966 م.

استارجيان، ل.، تاريخ الأمة الأرمينية، الموصل، 1951.

ابن الأزرق الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي، تاريخ الفارقي، تحقيق بدوي عبد اللطيف، القاهرة، 1959.

(1/1599)

ابن أيبك، أبو بكر بن عبد الله، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1971.

البنداري، قوام الدين أبو الفتح محمد بن حامد، سنا

البرق الشامي، تحقيق رمضان ششن، بيروت، 1970.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، د. م، د. ت.

الجنزوري، علية عبد السميع، إمارة الرها الصليبية، القاهرة، 1975.

حمدي، حافظ أحمد، المشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، د. م، 1950.

(1600/1)

الحنبلي، أحمد بن إبراهيم، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، بغداد، 1978.

خانجي، أنطوان، مختصر تواريخ الأرمن، أورشليم (القدس)، 1886.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، العبر في ديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، 1979.

ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، د. ت.

الذهبي، شمس الدين، دول الإسلام، الدوحة، 1988.

(1601/1)

رستم، أسد، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، بيروت، 1956.

رنسيمان، ستفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، بيروت، 1967.

ابن الساعي، أبو طالب علي بن أنجب، الجامع المختصر في عيون التواريخ وعنوان السير، بغداد، 1934.

سعداوي، نظير حسان، التاريخ الحربي المعادي في عهد صلاح الدين الأيوبي، القاهرة، 1957.

سيغال، ج. ب.، الرها المدينة المباركة، ترجمة يوسف إبراهيم جبرا، حلب، 1988.

(1602/1)

أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد بن عبد الرحمن، الروضتين بإخبار الدولتين النورية والصلاحية، بيروت، د. ت.

ـــ، الذيل على الروضتين، بيروت، د. ت.

ابن الشحنة، محب الدين أبو الفضل محمد، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق محمد بن اليان، بيروت،

1909.

ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1964.

عاشور، سعيد عبد الفتاح، بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، 1977.

ـــ، الحركة الصليبية، القاهرة، 1963.

(1603/1)

ابن عبد الحق، صفي الدين بن عبد المؤمن، مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد النجاوي، بيروت، 1955.

ابن العبري، غريغوريوس الملطي، »تاريخ الدول السرياني«، مجلة المشرق اللبنانية، ع. 5، 1965.

ابن العديم، كمال الدين أبو القاسم محمد، زبدة الحلب في تاريخ حلب، بيروت، 1954.

العريني، الباز، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، القاهرة، 1963.

ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، د. ت.

أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل، المختصر في أخبار البشر، القاهرة، 1967.

(1604/1)

ابن فضل الله، شهاب الدين أبو العباس أحمد، التعريف بالمصطلح الشريف، مصر، 1952.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، بيروت، 1987.

كب، هاملتون، صلاح الدين الأيوبي، ترجمة يوسف أيبش، بيروت، 1973.

الكتبي، ابن شاكر، عيون التواريخ، تحقيق نبيلة عبد المنعم وفيصل السامر، بغداد، 1977.

كون، كارلتون، القافلة قصة الشرق الأوسط، ترجمة برهان دجاني، بيروت، 1959.

لين بول، ستانلي، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس، ترجمة فاروق سعد أبو جابر، القاهرة، 1995.

(1605/1)

ماجد، عبد المنعم، الناصر صلاح الدين الأيوبي، القاهرة، 1958.

المدور، مروان، الأرمن عبر التاريخ، بيروت، 1982.

الملا جاسم، ناصر، صلاح الدين الأيوبي في الدراسات الاستشراقية الأنجليزية والأمريكية، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل، 1992.

المقريزي، أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1975.

نسيم، جوزيف، الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي، الأسكندرية، 1967.

(1606/1)

ابن هاشم الطباخ، محمد بن راغب بن محمود، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، حلب، 1924.

ابن واصل، جمال الدين بن محمد، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1953.

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، معجم البلدان، بيروت، 1955.

ثانياً: باللغة الإنجليزية

Cbem, M., Three Italian Travellers, Moscow, .1965

.1967Clubb. J., The Lost Centuries, London,

Der Nersession, Sirap, The Armenians, Paris, .1977

Ehrenkrentz, Andrews, Saladin, New York, .1972

Erdman, Carl, The Origin of the Idea of .1977Crusedes, New Jersey,

Grousset, R., Histoire des Croisades et du .1943Royaume Franc, Paris,

Howorth, Henry , The History of the Mongols .1989th Century, London, 19th to 9from

Hussey, Joan, Cambridge Medieval History, .1966Cambridge,

Lane-Poole, Stanley, A History of Egypt in the .1968Middle Ages, London,

Lang, David Marshall, Armenia Cradle of .1970Civlization, London,

Lopz, Roberts, Byzantium and World Around It: Economic and Institutional Relations, London, 1979.

Sanjian, Aledisk, The Armenian Sommumties In Syria under Ottoman Dominion, Cambridge, 1965.

Saunders, J. J., The History of the Mongols Couquests, London, 1970.

Setton, Kenneth, M., A History of the Cruseds, Pennsylvania, 1955.

Stevenson, W. B., The Cruseders in the East, Cambridge, 1963.

(1609/1)

الإبداع عند المؤرخين المسلمين؛ إضافة في منهجية علم التاريخ

... ... الدكتور عبد المنعم ماجد

... ... أستاذ التاريخ الإسلامي بقسم التاريخ بكلية

... ... الآداب، والخبير الوطني بمركز الدراسات البردية،

... ... في جماعة عين شمس – القاهرة

أوجد المسلمون علوما، والعلوم لا تقوم إلا على المنهجية؛ فهم لم يكونوا مجرد نقلة. ولا شك أن علم التاريخ، وهو من مظاهر تقدم حضارة المسلمين في العصور الوسطى، قد ألفوا فيه كتبا عديدة، وزاد عدد المؤرخين عندهم زيادة كبيرة؛ حتى أنها لا

(1610/1)

تقارن بما كان يوجد قبلهم، أو لدى غيرهم؛ بحيث أن علم التاريخ في عصرنا يدين لهم بالكثير.

والواقع؛ كان للمؤرخين المسلمين قدم راسخة في إبراز منهجية علم التاريخ؛ لتعنى ما يتمثل من قواعد ومعايير ضرورية يلتزم بها القائمون به؛ إذ الحقيقة التاريخية ليست شيئا جامدا، وإنما بالأولى هي مرحلة فاصلة في شيء تجريبي متصل بغيره؛ يعتبر جزءا من وعي المؤرخ؛ بقصد التوضيح والوصول إلى غاية محددة.

ومع أن معظم إدراكنا لمنهجية علم التاريخ في وقتنا وقد أتى من أوربا؛ إلا أن الواقع يبين أن المؤرخين المسلمين يعتبرون واضعي

(1611/1)

أسسها؛ نتيجة لتراث تاريخي إسلامي عريض، استمر عدة قرون. ومن قبل لم يكن يوجد عند العرب في الجاهلية غير الخبر(1) ، مصطلحا ليعي مضمون التاريخ، وله ميزة المعرفة الواسعة ؛ بسبب أنه كانت لهم ذاكرة قوية تحفظه، لم تتوفر لأي شعب من الشعوب الأخرى.

ولقد وردت لفظة "المنهجية"(2)

---

(1) انظر: ماجد، "الخبر التاريخي عند المسلمين" نشر في مجلة المؤرخ العربي، بغداد، 1988.

(2) يقول ابن خلدون إن أغلب التواريخ عامة المناهج. انظر: مقدمة ابن خلدون، القاهرة، 1322هـ/1904، ص.3، ص. 13؛ انظر: ماجد، ذيل على مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي، القاهرة، 1979، ص. 16، س 11.

، في كتب المؤرخين المسلمين الأوائل، إلا أنها لم تظهر محددة المعنى؛ ربما على أساس أنها بديهية وضرورية للعلم.

إضافة إلى أن العلوم الإسلامية كانت لا تزال متداخلة،

وأن علم التاريخ في أول أمره لم يظهر في تقسيم العلوم كعلم مستقل، وإنما ارتبط مثل غيره بالعلوم الدينية(1) ، أو ما سمي أيضا بالعلوم الشرعية أو النقلية أو الوضعية أو الطبيعية؛ لأنها مستمدة من الدين، ومنقولة عنه.

---

(1) مقدمة ابن خلدون، ص. 45؛ الغزالي، إحياء علوم الدين، مصر 1346هـ، ج 1، صص.13 –15–16؛ انظر:
.Ency de l'Isl, (art uim), l'ed, cf

(1613/1)

يضاف إلى ذلك أن المسلمين استخدموا عبارة لم يستخدمها مؤرخون قبلهم، وهي عبارة: "فن التاريخ"(1) ؛ التي لم تظهر إلا في العصر الحديث؛ فهم ذكروا صراحة أن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال، واعتبروا علم التاريخ صناعة(2) ؛ وله ملكته الخاصة(3) ؛ كما رتبوا القائمين به في درجات، ومنهم؛ "فحول المؤرخين"(4) أو "المشاهير"(5) ؛ ويعنون بهؤلاء المبدعين، الذين لهم

---

(1) مقدمة ابن خلدون، ص. 2، س. 12، ص. 22، س. 4.

(2) نفسه، ص. 3، س. 17.

(3) نفسه، ص. 23، (في آخر سطر).

(4) نفسه، ص. 2، س.22.

(5) نفسه، ص. 2، س. 9.

عبقرية الهضم، والقدرة على التفكير.

* * * *

فكان أول مظهر لإبداعهم في علم التاريخ أن اهتموا بصحة مصادره، وكان الحفاظ هم الوسطاء الذين ينقلونه من الذاكرة، أو الشاهد العيان الذي يدرك الصورة والزمن؛ مما دعا إلى ظهور ما عرف: بالسند أو الإسناد أو الأسانيد(1) ، أو العنعنة بمعنى رفع القول إلى قائله، أو ما سماه المؤرخون المسلمون بعد ذلك بالنقل المتواتر الذي لا شبهة فيه، وأصبحت الطريقة المثلى للإجماع على صحة الخبر التاريخي، وكانت هذه الطريقة عينها؛ قد اتبعت عند جمع الأحاديث

---

(1) نفسه، ص. 452، س. 11.

النبوية، حتى يطمئن جامعو الأحاديث في اتصالها بالرسول – صلى الله عليه وسلم – (1) . وللتأكيد من صحة السند التاريخ يطبقوا عليه ما طبق على سند الحديث من الجرح والتعديل(2) . مما يبين أن التاريخ أخذ طريقة الحديث في أول تأليفه؛ حيث كان علم الحديث يسمى علم الرجال(3) ؛ لارتباطه بعلوم كثيرة.

---

(1) حاجي خليفة، كشف عن أسامى الكتب والفنون، ط1، ج1،ص.422.

(2) نفسه، ج 1، ص.39؛ مقدمة ابن خلدون، ص.28، س.5.

(3) نفسه، ج1، ص.390؛ مسلم، صحيح، القاهرة 1329– 1331، ص.240.

وقد استمر الإسناد أو السند وقتا طويلا من مصادر التاريخ؛ حتى لما كثرت الكتب المؤلفة فيه؛ فظهر لأول مرة ما عرف أيضا بأسانيد الكتب(1) ، واكتسب هو الآخر قداسة مماثلة للإسناد الشفهي؛ بسبب أن المسلمين في أي وقت لم يكونوا يستطيعون أن يكتبوا تاريخهم دون أن يذكروا المصادر، التي استقوا منها أخبارهم.

فكان حرص المؤرخين المسلمين على ذكر مصادرهم من الكتب إضافة جديدة لإبداعهم في هذا العلم، وهو تطوير واضح في اتجاه الموضوعية التاريخية؛ لا زلنا

---

(1) السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، دمشق 1349/1930، ص. 13.

(1617/1)

نقوم بها إلى الآن فيما يعرف بالتهميش أو الحواشي، وهو الإبداع في التوثيق التاريخي.

كذلك ظهر إبداع آخر على أيديهم؛ يتمشى مع المناخ السياسي الإسلامي؛ فيما سمي بالتدوين بالحوليات؛ جمع حولية، وهي طريقة لجمع الأخبار تعتبر اتجاها من عربيا إسلاميا لم يعرف قبل؛ عبارة عن تزامن أو معاصرة لمعلومات التاريخ، لفترة معينة تحدد بالسنة؛ وإن كان بعضها قد يستمر لمدة سنين، فمن قبل كانت شعوب مثل المصريين القدماء أو اليونان، أو حتى الفرس الذين أخذ العرب كثيرا من نظمهم في الإسلام لا يرتبون معلوماتهم على حسب السنين،

(1618/1)

وإنما على حسب الملوك والأسر الحاكمة، وكليهما سادة العالم القديم(1) ؛ وإن أخذ الفرس المسلمون بعد ذلك في تدوين معلوماتهم بالترتيب التاريخي على حسب السنين. وقد أخذت شعوب أخرى غير إسلامية عن المسلمين ترتيب المعلومات على حسب السنين، مثل: الإسبان الذين سموها: مدونات (Cronicas)، والفرنسيين الذين سموها الأنال (Anales)؛ بحيث ظهرت في فرنسا مدرسة(2)

(1) انظر: روز نثال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة، مقدمة، ص. 16؛ صرنشو، علم التاريخ، ترجمته، ص. 67.

(2) انظر مفرنس، "التاريخ والمؤرخون"، عالم الفكر، العدد الأول، 1974، ص. 109.

خاصة بها (Ecole des Annales).

فهذا الترتيب على السنين أو الحوليات؛ بقصد ألا تعرض الأخبار عشوائيا، ولترتبط بعضها ببعض، بجعلها في حيز واحد؛ مهما تعددت روافدها؛ باعتبار أن الزمن وعاء لتحرك الإنسان. ثم إن ترتيب الخبر في الإسلام بترتيب

السنين، يتمشى مع الاتجاه الإسلامي، الذي أصبح يهتم بالإنسان؛ بصرف النظر عن أن يكون وارثا لعرش، أو من أسرة نبيلة؛ فيقتصر الخبر عليه. فهذا الترتيب على السنين، له إذن فلسفة؛ فالحوليات لا تشتمل على أبناء الصفوة من الناس، وإنما على أخبار كل الناس؛ حتى أن مؤرخا مثل الجبرتي

(1620/1)

فيما بعد، لا يهتم في تاريخ عصره بالحكام فقط، وإنما يهتم بالشعب أيضا؛ فأتى بالحوادث من الحواري والقرى. ويؤيد هذا الاتجاه الإنساني في الخبر التاريخي، أنه أصبح يمتد عندهم إلى بدء الخليقة(1) ؛ مما يدل على ارتباط الإنسان بالإنسان؛ مهما امتدت به عدد السنين. حقا إن التاريخ سوف يهتم بالصفوة أحيانا، ولا سيما الملوك، حينما كان يضعف الاتجاه

---

(1) انظر: روزنثال، علم التاريخ، ترجمة، ص. 102.

(17) انظر: ماجد، "مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي"، تعريف بمصادر التاريخ الإسلامي ومنهاجه الحديث، ط 4، القاهرة 1946، ص. 37.

(1621/1)

الإسلامي الديموقراطي؛ ليدخل التاريخ في متاهات الشعوبية على الخصوص.

والواقع؛ فإن كبار المؤرخين المسلمين، قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر(1) .

ومن المؤكد أن المؤرخ ابن جرير الطبري (ت 210هـ/923م)، اعتبر العمدة في كتابة أخبار التاريخ، على ترتيب السنين أو الحوليات، وذاع صيت مؤلفه: تاريخ الرسل والملوك، الذي أصبح يعرف بتاريخ الطبري أيضا. كذلك حاول مؤرخون مسلمون آخرون أتوا بعد الطبري أن يقلدوه، مثل ابن الأثير (ت 620هـ/1233م)، الذي سار على

(1) المقدمة، لابن خلدون ص. 2، س. 23.

نهجه في الأخذ بالترتيب الزمني على السنين، أو حتى بالشهر.

حقا؛ إن كتابة الخبر التاريخي على ترتيب السنين؛ قد ظهر أول ما ظهر في العراق، ولكن بعد ذلك، لما برزت

المدرسة المصرية التاريخية؛ فإنها أوجدت ترتيب الخبر التاريخي على حسب القرون؛ مما يبين مجهودها في تطوير ترتيبه؛ باعتبار أن القرون تستوعب عددا أكبر من الأخبار التاريخية؛ ليست في حوزة الحوليات؛ وإن اختلف لغويا(1) في تعريف القرن، الذي قد يعني مائة أو ثمانين أو أربعين أو ثلاثين عاما؛ بحيث ظهر من مؤرخي المدرسة

---

(1) لسان العرب، ج17، ص. 211 وما بعدها.

التاريخية المصرية من تناول بأخباره مائة عام كاملة. وإذا ما قارنا تفاصيل الأخبار في كتب المؤرخين المسلمين بما كان يوجد في العصور السابقة؛ فإنه من الملاحظ أنها قد تعددت بشكل لم يسبق إليه؛ بحيث كانت تكتب بأسلوب الشفرة قصيرة جدا، ودسمة جدا، والسطر الواحد قد يشتمل على أخبار بجزئيات نادرة تجعل منها أشبه بمتحف للمعلومات. ومثل هذا الجمع للأخبار التاريخية، لا يوجد إلا عند المؤرخين المسلمين وحدهم، ولم يظهر في حجمه الكبير هذا من قبل ولا من بعد؛ مما يحير الأفكار.

فكانت هذه الأخبار التاريخية شاملة لنواح متعددة؛ خاصة بطوائف المجتمع، وبالمدن، وبالأفراد، وبالحروب، وحتى بالخبر العلمي والفكري، بحيث وجدت أنماط من الكتابة التاريخية لم تعرف قبلهم، يكمل بعضها بعضا. فمؤرخ مصري مثل السخاوي أورد أربعين نمطا من الكتابة التاريخية(1) ، كما بين أن التصنيف في التاريخ قد يصل إلى نحو من ألف تصنيف(2) ؛ تظهر في كتب مؤرخي الإسلام، وذكرت بعض عناوينها مختصرة، مثل: سير، وأخبار، ومغازي،

(1) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، دمشق 1349/1930، ص. 96 (في آخر سطر).

(2) نفسه، ص. 84، س. 14.

وفتوح، وتاريخ، ومختصر، وذيل وشرح، وأنساب، وتراجم، وطبقات، ووفيات، ومعاجم، وغرائب، وتحفة، وعقود، ونزهة، وروضة، ودر، وحديقة، وحسن، وحقائق، وخريدة،

وخطط، وغير ذلك كذلك ربط المسلمون التاريخ بكل العلوم، مثل: الأدب، والسياسة، والاجتماع، والفقه، والجغرافيا، وغير ذلك؛ فكان بحق علم العلوم.

... ... * ... * ... * ... *

وفوق ذلك؛ فإن المؤرخين المسلمين لم يكتفوا باستيعاب الخبر فقط بشكل مذهل، والالتزام بنقله صحيحا؛ مما يؤكد إبداعهم في علم التاريخ، ولكنهم عمدوا إلى تحري صحة الخبر في ذاته. فكان هذا

(1626/1)

الاتجاه يعتبر مرحلة جديدة حاسمة في كتابة التاريخ؛ بحيث أن التاريخ لم يعد الخبر وحده، وإنما المؤرخ أيضا، الذي لم يعد همزة الوصل بين الخبر وناقله، وإنما أصبح يفحص الخبر في ذاته؛ بحيث خصص مؤرخون كبارا كتبا تناولت معظمها ضرورة فحص الخبر. فألف ابن خلدون (ت 808هـ/1407م): المقدمة، والسخاوي ت 831هـ/1427م): الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، والسيوطي (ت 911هـ/1505م): الشماريخ في علم التاريخ. وبسبب هذا الاتجاه الجديد في المنهجية التاريخية برز دور المؤرخ على أساس ما يضيفه إلى المادة التاريخية من حيثيات،

(1627/1)

قائمة على الدراسة والقدرة على التفكير؛ فهو الذي ينتخبها من المادة الأرشيفية الهائلة، وهو الذي يعرضها، ويحللها، وينقدها؛ ليستنبط فيها، ويصل بها إلى نتائج. وبذلك أصبح للتاريخ نبض، وليس كالمومياء الهامدة في المتحف بدون حياة، أو اجترار للماضي فقط ولا شك أن ابن خلدون، وهو الشيخ العلامة العالم، يعتبر أول من أشار بوضوح إلى ضرورة فحص الخبر التاريخي في ذاته في مقدمته المشهورة، التي ألفها وهو في القاهرة، واحتوت على معرفة تامة بعلم التاريخ. فتكلم ابن خلدون كثيرا عن أن التاريخ؛ وإن كان يبدو في ظاهره وقائع

(1628/1)

وأخبار؛ إلا أنه بالأولى سبب ومسبب؛ وأنه في باطنه(1) نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق؛ وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق. ولذلك هاجم ابن خلدون المؤرخين الأوائل لاعتمادهم على مجرد ما نقلوه أو سمعوه، وعدم تأمل حقيقة الخبر ومناقشتها؛ إذ في

رأيه أن الفحص عن صحة الخبر قليل، والتنقيح في الغالب كليل(2) . بل ينصح أن يكون التاريخ مفيدا(3) للأجيال الناشئة، ويتساءل ما الفائدة منه إذا لم يكن كذلك فمعنى هذا أن رؤى ابن خلدون في

---

(1) نفسه، ص. 2، س. 20 وما بعدها.

(2) نفسه، ص. 3، س. 1.

(3) نفسه، ص. 3، س. 25.

علم التاريخ غير رؤى سابقيه. فيطالب المؤرخ بألا ينفصل عن روح العصر ومجتمعه؛ وألا يكون سلبيا أو محايدا/ وإنما يتدخل في التاريخ بنظرته فيه، وذلك على عكس ما هو معروف من طلب الحيدة من المؤرخ.

وقد دعاه إبداعه في علم التاريخ أنه بحث في أغوار مجتمعاته؛ ليس فقط الإسلامية، وإنما الإنسانية بعامة؛ ويبدو ذلك بسبب اتساع رقعة الإسلام، والاتصال بالأمم المختلفة. وقد كان ابن خلدون يقدر قيمة هذه النظرة المتعمقة في التاريخ الإنساني؛ وحتى أنه رأى أن ملاحظاته عنها، وكأنها بداية لعلم جديد ألهم إليه إلهاما، ولم يجده

من قبل في علوم الأوائل. مثل الفرس والفراعنة واليونان؛ وأطلق عليه: العمران(1) الاجتماعي البشري أو الإنساني. ولعل علماء العصر الحديث؛ بسبب اكتشافه لمعايير اجتماعية، جعلوه مؤسسا لعلم الاجتماع. ولكن من المؤكد أن ابن خلدون لم يقصد بعلمه الجديد أو بنظريته الجديدة عن العمران البشري أن يخرج بقوانين

(1) نفسه، ص. 30، س. 25؛ (انظر: ماجد، العمران، نظرية لابن خلدون في تفسير التاريخ"، بحيث ألقي في ندوة الحضارة الإسلامية بمناسبة مرور عام على وفاة المرحوم أحمد فكري، نشر في كتاب خاص عن جامعة الإسكندرية.

اجتماعية، وإنما بالأولى قصد تقصي الأسباب والأصول وحركات العوامل لمعرفة التاريخ، الذي هو أحد رجاله؛ معرفة سليمة. فالتاريخ في رأيه هو خبر عن الاجتماع الإنساني، الذي هو العمران؛ فيقول بلفظه: أنشأت في

التاريخ كتابا(1).

وعلى صعيد آخر سلط ابن خلدون الأضواء بشدة على الحضارة وتركيبها، وأطلق عليها أيضا: التمدين(2) أو التمدن أو المدنية، وقصد بها رفاهية العيش، وكأنه

---

(1) مقدمة ابن خلدون، ص. 27، س. 20.

(2) نفسه، ص. 97، س. 9: انظر: ماجد، "منهجية جديدة لابن خلدون في علم التاريخ"، مجلة المؤرخ العربي، تونس 1979.

(1632/1)

طبيب يشرحها، حتى جعلها تمر بأطوار(1) في الحياة مثل الإنسان. ثم هو وإن كان يرى أن الحضارة ترتبط أساسا بالحضر وما في نوعها؛ إلا أنه جعلها ترتبط بالعلوم والفنون، واعتبر ازدهار المدن يعني ازدهار العلوم والفنون، وتدهورها تدهور لها. ولذلك؛ فهو يأتي بعبارات لا توجد إلا عنده، ومنها: إن تفصيل(2) الثياب من مذاهب الحضارة وفنونها.

... ... * ... * ... * ... ... * ... ...

---

(1) نفسه، ص. 132 وما بعدها.

(2) نفسه، ص. 326، س. 25.

(1633/1)

والخلاصة أن هذا التوهج الإبداعي في علم التاريخي، ظهر بسبب أن الإسلام اهتم بالعقل، وأن البيئة الإسلامية قد ساعدت على ذلك؛ فظهر مؤرخون كبار يبحثون عن دوره ويطورونه؛ إلى أن هذا العلم قد يمتهن بالكذب والتزييف والتعصب والذهول عن المقاصد، ولا سيما بالتقرب به إلى الحكام؛ كما يقول ابن خلدون.

(1634/1)

الإسلام في إسبانيا

... ... الدكتور علي منتصر الكتاني

1 – وصف عام لإسبانيا

... إسبانيا دولة ملكية تقع في غرب البحر الأبيض المتوسط، مساحتها 504.750 كيلومترا ، وسكانها 40 مليون نسمة سنة 1991 . وتحد إسبانيا شمالا فرنسا

والمحيط الأطلسي ، وغربا البرتغال وجنوبا مضيق جبل طارق الذي يفصلها عن المغرب ، وشرقا البحر الأبيض المتوسط. وتكون إسبانيا مع البرتغال شبه الجزيرة الإيبرية وتفصلها عن فرنسا جبال البرانس ، وتتبع إسبانيا الجزر الشرقية في البحر الأبيض المتوسط، وهي ميورقة

(1/1635)

ومنورقة ويابسة وفرمنتيرة ، ومساحتها 5.014 كيلومترا مربعا وسكانها 766.000 نسمة(1991) ، وكذلك الجزر الخالدات المقابلة للشاطئ المغربي على البحر المحيط، ومساحتها 7.273 كيلومترا مربعا وتعداد سكانها 1.600.000 (1991) . ويتكون القسم القاري من إسبانيا من هضبة تحدها من جهاتها الأربع جبال عالية كشارات الثلج في الجنوب ، وأعلى قمة فيها قمة أم الحسن وعلوها 3.478 مترا فوق سطح البحر ، وفي الشرق شارات كونكة وابن الرزين ، وفي الشمال شارات وادي الرمان ، وأعلى قمة فيها المنصور وعلوها 2.592 مترا فوق سطح البحر .

(1/1636)

وتتخلل هذه الجبال سهول نهرية وساحلية كانت مركزا للحضارة الإسلامية قديما . و أهم أنهارإسبانيا الوادي الكبير ووادي تاجه ونهر إبره ونهر الدويرة .

... وتتجزأ إسبانيا إداريا إلى 17 ولاية ذات استقلال ذاتي وهي : الأندلس وأراغوان و ستورياش وقشتالة ليون وقشتالة مانشة وقطلونية وإسترامدورة وجليقية ومرسية ونبارة وبلنسية

والجزر الشرقية والجزر الخالدات و أوسكادي وقنتبرية ومجريط ولاريوخا . و أهم مدن إسبانيا اليوم العاصمة مدريد وبرشلونة وبلنسية و إشبيلية وسرقسطة وقرطبة وغرناطة . حكم إسبانيا منذ الحرب الأهلية

(1637/1)

التي دامت بين سنة 1936 وسنة 1939 ، الجنرال فرانكو . وبعد موته سنة 1975 أصبح خوان كارلوس ملكا على البلاد .

... و إسبانيا بلاد زراعية لكن الصناعات أخذت تنتشر خاصة في المناطق الشمالية ، ويزور إسبانيا كل سنة ملايين السواح حتى أصبحت السياحة من أهم مشاغل البلاد

في مناطق مختلفة خاصة في الأندلس .

2 – تاريخ الوجود الإسلامي قبل سقوط غرناطة

... كانت الجزيرة الإيبيرية ،قبل دخول الإسلام لها ، تعيش تحت حكم الغزاة القوط وقد استنجدوا بالمسلمين حينما وصلوا إلى المغرب ، فأنجدهم رئيس الجيوش الإسلامية في المغرب

(1638/1)

موسى بن نصير بإرسال أحد قواده وهو طارق ابن زياد على رأس جيش أغلبه من المغاربة. فساند الأهالي هذا الجيش ، وتحررت الجزيرة بأكملها بين سنتي 711 و 713 م.

... وقد أصبحت المنطقة الجديدة مقاطعة تابعة لولاية المغرب في الدولة الإسلامية التي كانت القيروان عاصمتها . لكن المسلمين أهملوا منطقة صغيرة في الجبال الوعرة شمال البلاد اتخذت منطلقا للغزو النصراني الذي قضى على دولة المسلمين في الأندلس مع مر العصور . هكذا وبعد الفتح أخذت الهجرة الإسلامية تنتقل إلى الأندلس بأعداد صغيرة من المشرق العربي ، وبأعداد

(1639/1)

كبيرة من شمال المغرب الأقصى المجاور . فكثرت أعداد

كبيرة من شمال المغرب الأقصى المجاور. فكثرت أعداد

المسلمين وارتفعت نسبتهم بين السكان باعتناق

الأهالي الإيبيريين الإسلام بصفة جماعية . وعندما قدم

عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس سنة 756 م كانت نسبة

المسلمين قد ارتفعت ، وبذلك استطاع أن يؤسس دولة

أموية قوية في الغرب اتخذ عاصمة لها مدينة قرطبة

الواقعة على الوادي الكبير .

... وقد أصبح المسلمون أغلبية في البلاد أيام الحكم

الأموي حين وصلت الأندلس إلى أوج حضارتها وقوتها ، لا

تضاهيها دولة في أوروبا آنداك ،

(1640/1)

أما النصارى فعادوا أقلية صغيرة أضاعت

لغتها وتعربت واتخذت الأسماء العربية أسماءا لها .

لكن هذه الأقلية بقيت كطابور خامس داخل الدولة

الإسلامية مستعدة للانقضاض على البلاد في حالة ضعفها

والتعاون مع كل غاز ومهاجم.ونظم النصارى الخارجون

عن الدولة نفسهمفي إمارات جبلية نائية شمال غرب شبه الجزيرة الإيبيرية ، ووصلت الدولة الأموية إلى أوجها أيام عبد الرحمن الناصر الذي حكم البلاد 49 سنة بين 912 و 921 م .

... وبدأ الضعف يسري في الدولة الأموية أيام حفيد الناصر حين سيطر على الحكم حاجبه المنصور بن أبي عامر .

(1641/1)

وكان المنصور هذا من أحسن القواد ومن أبرع رجال الولة . فأعاد للبلاد قوتها الأولى ووحدها تحت راية الإسلام من جديد ، لكن أبناء المنصور لم يكونوا في مستوى أبيهم ولا أحفاد الناصر في مستوى جدهم . زد على ذلك أن المجتمع الإسلامي الأندلسي أصبح مجزأ عنصريا . فالمنصور بن أبي عامر اضطر إلى تقوية جيشه بإعداد كبيرة من البربر المغاربة والمماليك السقالبة من فرنسا و إيطاليا وشمال أوروبا ، اعتنقت الإسلام عند وصولها إلى الأندلس .

(1642/1)

... فأصبحت في البلاد أربعة عناصر إسلامية : العرب والبربروالإيبيريون المسلمون والسقالبة المماليك . فعندما ضعفت الدولة الأموية ، أخذت هذه العناصر تتطاحن مع بعضها البعض فانهارت الدولة الأموية سنة 1031 م وتجزأت الأندلس إلى مجموعة من الدويلات العنصرية تحت حكم ملوك الطوائف قضت على الوحدة الأندلسية . و أصبح عدد هذه الدويلات الإسلامية الأندلسية 23 دولة ، منها العربية كبني عباد في إشبيلية وبني هود في سرقسطة ، ومنها البربرية كبني الأغطس المكناسيين في بطليوس وبني ذي النون الهواريين في طليطلة ، ومنها

(1/1643)

السقلبية كبني مجاهد وبني غانية في شرق الأندلس . ولما أخذت الدول النصرانية تلتهم الدويلات الإسلامية ، استنجد الأندلسيون بالمغاربة . فعبر إلى الأندلس أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطي بجيش عظيم هزم به القوات المسيحية في معركة الزلاقة سنة 1086 م ، ثم ضم الأندلس إلى المغرب وقضى على ملوك الطوائف ، غيير أن النصارى احتفظوا بالأراضي التي احتلوها ، مثل

طليطلة الثغر الأوسط، ولما ضعفت الدولة المرابطية أخذت الأندلس تتجزأ ثانية .

(1/1644)

فاستنجد المسلمون بالموحدين لمغاربة سنة 1145 م فأنجدهم بعد أن ضاعت مناطق أخرى في شرق الأندلس مثل سرقسطة .

... وضعفت الدولة الموحدية وانهزم المسلمون انهزاما فادحا سنة 1212 م في معركة العقاب على يد القوات النصرانية ، وأصبح تدخل الدولة المغربية المرينية متواصلا لإنقاذ ما تبقى من الأندلس ، لكن المرينيين لم يكونوا في قوة المرابطين والموحدين ، وأصبح المغاربة يخوضون معارك دفاعية مع النصارى لأول مرة في التاريخ على أرض المغرب . وسقطت مدن الإسلام الواحدة تلو الأخرى . وكانت الفاجعة الكبرى بسقوط قرطبة سنة

(1/1645)

1236 م و إشبيلية سنة 1248 م وكانت آخر عهد الأندلس لولا عبقرية محمد الغالب ابن الأحمر الذي

استطاع أن يجمع الكلمة حوله في جبال الأندلس الجنوبية . وبقيت الأندلس تشع بنورها في ذلك الجزء الصغير إلى سنة 1492 م. واستنجد الأندلسيون بالمسلمين ، ولكن هذه المرة لم يكن هناك من يجيب ، بل بكى المسلمون في الشرق والغرب على الأندلس بكاء العاجز ، ونذبها الشعراء من أهلها ومن غيرهم إلأى يومنا هذا كالشاعر الرندي صصالح بن شريف المعروف بأبي البقاء الذي نظم قصيدة مطلعها :

لكل شيء إذا ما تم نقصان

(1646/1)

فلا يغر بطيب العيش إنسان

إلى أن قال

دهى الجزيرة أمر لا غزاء له

هوى له أحد وانهد ثهلان

أصابها العين في الإسلام فارتأزت

حتى خلت منه أقطار وبلدان

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية

و أين شاطبة أم أين جيان

و أين قرطبة دار العلوم فكم

من عالم قد سما فيها له شن

و أين حمص وما تحويه من نزه

ونهرها العذب فياض وملإن

قواعدكن أركان البلاد فما

عسى البقاء إذا لم تبق أركان

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف

كما بكى لفراق الألف هيمان

على ديار من الإسلام خالية

قد اقفرت ولها بالكفر عمران

حيث المحاريب تبكي وهي جامدة

(1647/1)

حتى المنابر ترثي وهي عيدان

ثم يستنجد بالمسلمين ويصف حالة الأندلسيين في يد النصارى يباعون في أسواق الرق فيقول :

يا له من لذلة قوم بعد عزهم

أحال حالهم كفر وطغيان

بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم

واليوم هم في بلاد الكفر عبدان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم

عليهم من ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم

لهالك الأمر واستهوتك أحزان

يارب أم وطفل حيل بينهما

كما تفرق أرواح و أبدان

وطفلة مثل حسن الشمس إذا طلعت

كأنما هي ياقوت ومرجان

يقودها العلج للمكروه مكرهة

والعين باكية والقلب حيران

(1648/1)

لمثل هذا يذوب القلب من كمد

إن كان في القلب إسلام و إيمان

ولنأخذ فكرة على هذا التقهقر الإسلامي في الأندلس بالأرقام من الجدول (1) حيث بينا مساحة الأراضي الإسلامية في الأندلس عبر العصور بالكيلومترات المربعة .

... ... الجدول رقم (1) : مساحة الأندلس عبر العصور

العصر

السنة الميلادية بالتقريب

المساحة بالكيلومترات المربعة

عهد الولاة

700.000

عهد الأمويين أيام الناصر

940

440.000

عهد المنصور بن أبي عامر

1000

580.000

عهد المرابطين

1100

250.000

عهد الدولة النصرية

1450

30.00

(1649/1)

---

3 – الإسلام في إسبانيا بعد سقوط غرناطة

... عندما كان الإسلام يحكم إسبانيا تحت إسمها الإسلامي (الأندلس) كان معظم السكان مسلمين وكان كلما استعمر النصارى القادمون من الشمال أراض إسلامية

جديدة هاجر كثير من المسلمين عنها وأتى النصارى بمستعمرين من المقاطعات النصرانية الشمالية .

وبقيت تحت الحكم النصراني مجموعات إسلامية كبيرة كانت تعرف تحت اسم " المدجنين " وكان هؤلاء هم أصحاب الخبرة في البلاد ، غير أنهم كانوا يعاملون معاملة العبيد .

(1650/1)

... ولما وقعت مدينة غرناطة ، آخر المدن الإسلامية ، تحت قبضة النصارى عام 1492 م عقد هؤلاء معاهدة مع المسلمين يلتزمون فيها باحترام دينهم ومعتقداتهم . ولكن عندما استتب لهم الأمر نقضوا العهد و أجبروا المسلمين على التنصر . ولكن الإسلام في إسبانيا لم ينقرض بضياع غرناطة ، فلقد حافظ المسلمون على دينهم سرا جيلا بعد جيل وقاموا في كل هذه الأثناء بتعليم أطفالهم الدين الإسلامي . وكان كلما اكتشف أحد منهم حكمت عليه محاكم التفتيش بالإحراق حيا . وهؤلاء المسلمون في السر ، والنصارى في العلانية واسماء سماهم

(1651/1)

الإسبان " الموريسكوس " . ولقد ألفوا كتبا باللغة الإسبانية والحروف العربية ، وهي اللغة التي تسمى بالعجمية ، في سيرة الرسول ، – صلى الله عليه وسلم – ، وتفسير القرآن وتعاليم الإسلام ، ولا زالت تلك الكتب موجودة في المكتبات الإسبانية . وحاول هؤلاء المسلمون الهجرة بدينهم إلى المغرب العربي كلما سنحت لهم الفرصة ، فكان يصل منهم سيل متواصل إلى الشواطئ المغربية . وفي عام 1568 م ، ثار المسلمون في جبال البشرات ، جنوب غرناطة ، تحت زعامة البطل المسلم " فرناندو دي بالور " الذي غير اسمه إلى محمد ابن أمية .

(1652/1)

ودامت الثورة ثلاث سنوات استبسل فيها المسلمون. لكنهم هزموا بعد ذلك ، واستشهد الكثير منهم بما فيهم زعيمهم محمد بن أمية رحمه الله ، وهرب الكثير منهم إلى المغرب .

... وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان في كتابه " الحلل السندسية " (الجزء الأول) ، قصة بعض الموريسكيين ، وكيف كانوا يكونون جمعيات سرية تعلم بعضها

البعض الإسلام . كما جاء الباحث المصري محمد عبد الله عنان بقصة موريسكي آخر اسمه الشهاب الحجري الذي فر بدينه سنه 1597 م من ضواحي غرناطة ، وذهب إلى مرسى شنتمرية بالبرتغال ، وتنكر كإسباني من إشبيلية ،

(1653/1)

وركب بارجة برتغالية إلى مدينة الجديدة التي كانت تحت الاحتلال البرتغالي ، ومنها هرب هو وجماعة معه إلى مدينة آزمور المغربية .

... وبقي الإسلام حيا في الأندلس بعد فشل ثورة جبال البشرات وتابع الإسبان مطاردتهم للمسلمين وحرقتهم أحياء كلما كشفوا أنهم على دين أجدادهم ، ولم ينطفئ أمل هؤلاء الأندلسيين في استرجاع بلادهم ، فأخذوا يستنجدون بالعثمانيين ، لكن لم تأت أي نجدة . وكان آخر هجوم لقوة بحرية إسلامية على الشواطئ الإسبانية تحت قيادة خير الدين بربروسة ، وال الجزائر ، سنة 1535 م .

(1654/1)

... ولما يئس من تنصير المسلمين ، أمر طاغيتهم سنة 1609 م بطرد جميع الموريسكيين عن إسبانيا ، بعد أن صادر كل أموالهم وأخذ كل أبنائهم الذين تقل أعمارهم عن الخمس سنوات. فخرج من إسبانيا حوالي ربع مليون مسلم إلى الشواطئ المغربية والعثمانية ، حينئذ غيروا أسمائهم النصرانية إلى أسماء إسلامية وجهروا بإسلامهم في أرض الإسلام .

... ولكن الإسلام لم يمت في إسبانيا بهذه الهجرة ، بل بقي دفينا في قلوب الكثيرين جيلا ببعد جيل . ففي سنة 1769 م ، ضبطت محاكم التفتيش مسجدا سريا في مدينة قرطاجنة أنشأه المسلمون المنتصرون

(1/1655)

ظاهرا .

4 – تكوين القومية الأندلسية في القرنين 19 و 20

... قضى طرد 1609 م على تنظيم النخبة الموريسكية الذي حافظ على الإسلام في الأندلس مدة مائة و عشرون سنة بعد سقوط غرناطة.و لكن الانتماء الأندلسي ظل دفينا في النفوس، دون تعبير واضح إلى أن غزت جيوش نابليون الفرنسية إسبانيا سنة 1808 م ، وعاثت فيها فسادا، فانهارت أمامها مقاومة الدولة الإسبانية وثار

أهل الأندلس في قادس ضد الغزو الفرنسي بصفتهم أندلسيين ، فاستسلمت لهم البحرية الفرنسية في قادس وهزموا الجيش الفرنسي في معركة بايلن (مقاطعة جيان) وكونوا

(1656/1)

حكومة سرية في إشبيلية تحت اسم " المجلس الأعلى المركزي " ، وأعلن الثوار في قادس في 19 / 3 / 1812 م دستورا جديدا لإسبانيا كمملكة دستورية حددوا فيه سلطات الكنيسة والملك وقرروا الديمقراطية في المعاملة بين الأفراد والجماعات والشعوب الإسبانية . واعترف الدستور لأول مرة بالأندلسيين كإحدى الشعوب الإسبانية .ذات الشخصية المميزة . وظل دستور قادس مطلب الحركات التصحيحية في إسبانيا طوال القرن التاسع عشر .

... ولكن بعد خروج الفرنسيين ، ألغى الملك الذي عاد في سبتمبر عام 1812 م دستور قادس، و أرجع إسبانيا إلى

(1657/1)

استبداد الملك والكنيسة . وثار الأندلسيون سنة 1820 م ثم سنة 1823 م مطالبين بدستور قادس ، وهاجموا محاكم التفتيش و أحرقوها . وتتابعت محاولات الرجوع إلى دستور قادس . ففي سنة 1831 م ، ثار الجنرال طرخوس في الجزيرة الخضراء ، وثارت مالقة سنة 1835 م وطردت ممثلي الحكومة ، وتبعت مالقة مقاطعات الأندلس الأخرى . فهزموا الجيش الإسباني ، وكونوا في بلدة أندوخر (مقاطعات جيان) " مجلس أعلى للثورة " حرر دستور أندوخر الذي أعلن حكما ذاتيا للأندلس . ولكن فشلت ثورة عام 1835 م ورغم فشلها كانت لها أهمية كبرى في بلورة

(1658/1)

الهوية الأندلسية الجديدة ، إذ تحركت الأندلس لأول مرة ، منذ ثورات المورسكيين ، كأمة واحدة ، أمام الحكم المركزي في مجريط.

... ثم رجعت إسبانيا إلى فسادها الأول ، وظلت الأندلس لأفقر مناطقها يرزخ أهلها تحت تجاوزات النبلاء الشماليين والكنيسة . فثار فلاحوها سنة 1857 م في مقاطعة إشبيلية يطالبون بأرض أجدادهم ، فقضى الجيش عليهم ، وقتل منهم من قتل ونفى من نفى . فأيقضت

تلك الثورة الفلاح الأندلسي من سباته وحررته من عقدة الخوف المسيطرة عليه . ثم ثار فلاحو مالقة وغرناطة سنة 1861 م ، فقضى عليهم كما قضى على

(1659/1)

إخوتهم في إشبيلية . وفي سنة 1868 م، انطلقت الثورة من قادس وانتشرت في كل البلاد . فهزمت جيش الحكومة وهربت الملكة إلى فرنسا . وطالب الثوار بتأسيس جمهورية إسبانية اتحادية تعترف بالحكم الذاتي للأندلس وبإلغاء الدين الكاثوليكي كدين الدولة الرسمي . لكن الجيش أعاد السيطرة على البلاد و أرجع الملكة عام 1873 م . وفي سنة 1874 م ، تأسس " الحزب الجمهوري الاتحادي " الذي تبنى سنة 1883 م " دستور انتقيرة " الذي خطط لإنشاء دولة الحريات الشخصية ، تفصل فيها بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، و أصبح دستور

(1660/1)

انتقيرة أساس المشاريع الاتحادية التي اقترحت فيما بعد .

... تتلخص أهم سمات الحركة الأندلسية في القرن التاسع الميلادي في الانتماء إلى منطقة واحدة (الأندلس) و أمة واحدة (الأندلسية) ، والمطالبة بحقوقها ، والوقوف في وجه تجاوزات الدولة المركزية الكنيسة الكاثوليكية والإقطاع الزراعي . لكن بقيت أجوبة هامة في نفوس الأندلسيين تنتظر الجواب : هل الأندلسيون يرتبطون فقط بمصالح متصلة بمنطقتهم؟ أم أنهم يكونون قومية تختلف عن كل القوميات الأخرى بخاصيات مميزة ؟ و إن كان الأمر كذلك، فما هي الخاصيات ؟

(1661/1)

... أجاب عن هذه الأسئلة (بلاس انفانتا بيريز) الذي يعده الأندلسيون اليوم ، بما فيهم المسلمون ، أب قوميتهم ومفكر انبعاثهم المعاصر .

... ولد بلاس انفانتا في بلدة قشريش (مقاطعة مالقة) في 5/ 7 / 1885 م ، ودرس في بلده وفي أرشذونة (مقاطعة مالقة) وقبرة (مقاطعة قرطبة) ، ثم التحق بجامعة غرناطة حيث تخرج في الحقوق بامتياز سنة 1906 م . وفي سنة 1910 م عين انفانتا عدلا في بلدة

قنطنيانة (مقاطعة إشبيلية) ، وعين سنة 1913 م عضوا في مجلس المحامين.

(1662/1)

... وظهرت أفكار انفانتا لأول مرة في خطاب ألقاه سنة 1914 م في إشبيلية عن " النظرية الأندلسية " ، كان أساس كتابه التاريخي عن القومية الأندلسية . وفي نفس السنة ، فتح مكتب محاماة في إشبيلية . وفي سنة 1916 م ، أسس انفانتا أول " مركز أندلسي " في إشبيلية، تبعته مراكز أخرى في مدن الأندلس وقراها ، و أصدر مجلة " الأندلس " كلسان حال المراكز الأندلسية . ومع الأيام ، تحولت تلك المراكز إلى مدارس لأنشطة أندلسية تثقيفية وتخطيطية ، وأخذت تستعمل عبارة " الأمة الأندلسية " لأول مرة . ثم تبلور الفكر الأندلسي في

(1663/1)

اجتماع رندة عام 1918 م في النقطتين التاليتين :

... 1 – الاعتراف بالأندلس كبلد وقومية ومنطقة ذات

حكم ذاتي ديمقراطي على أساس دستور انتقيرة .

... 2 – اختيار العلم الأخضر والأبيض ، علما للأمة الأندلسية ، وهو علم المسلمين الأندلسين التاريخي .

... ثم أسس انفانتا في إشبيلية دار نشر ومكتبة ، نشر فيها عددا من كتبه ، كما أسس مركز الدراسات الأندلسية ، وفي سنة 1920 م ، ظهر كتاب " المعتمد ملك اشبيلية " ، وهي

قصة مسرحية تاريخية عرف فيها انفانتا بجدور الهوية الأندلسية الإسلامية .

(1664/1)

... وفي سنة 1923 م ، تحولت إسبانيا إلى الحكم الدكتاتوري ، فأقفلت الحكومة المراكز الأندلسية واتهمت القوميين الأندلسيين بمقاومة الدولة و أسكنت القوى المعادية للكنيسة . فركز انفانتا في التفكير في مصير الأندلس وجدور الهوية الأندلسية ، فانتقل إلى أغمات بالمغرب حيث ضريح المعتمد بن عباد ، فقرر إشهار إسلامه هناك ، ثم حاول بعد إسلامه ربط الحركة الأندلسية بالحركات الإسلامية والعربية .

... وبعد انهيار الدكتاتورية ، رجع انفانتا للحياة

العامة بلغة جديدة ، يمجد فيها التاريخ الإسلامي كأساس للهوية الأندلسية ،

(1665/1)

ويطالب الأندلسيين باستعادة هويتهم ، وإزاحة هيمنة الكنيسة عنهم ، وشارك القوميون الأندلسيون سنة 1930 في مؤتمر " الشعوب التي لا دول لها " بالهند ، ثم التقى انفانتا بالحركات التحررية العربية عبر مجلة " الأمة العربية " في جنيف(سويسرا) التي كان ينشرها الأمير شكيب أرسلان و إحسان المجابري .

... لكن لم يعش بلاس انفانتا ليرى انتصار أفكاره ، إذ بعد أيام من انفجار الحرب الأهلية الإسبانية ، قبض عليه أتباع كتائب الجنرال فرانكو وأعدموه رميا بالرصاص في إشبيلية يوم الاثنين 10/ 8 / 1963 م ، فمات شهيدا ، رحمه

(1666/1)

الله ، وهو يصرخ مرتين : " عاشت الأندلس حرة " .

5 – التنظمات الإسلامية الأولى المعاصرة

... غاب الإسلام ، ظاهرا ، عن أرض الأندلس منذ عام 1609 م وحفظ في القلوب و أصبح التنصير شرطا للإقامة في إسبانيا . وقد خف هذا الوضع بعد الحرب العالمية الثانية وهجرة عدد من أهل منطقة الحماية الإسبانية بشمال المغرب إلى إسبانيا إلى أن وصل عددهم سنة 1971 م حوالي 90.000 نسمة (0,3 في المائة من السكان) ، منهم حوالي 13.000 ممن تجنسوا بالجنسية الإسبانية ، ولم يكن من بينهم سوى أفراد قلائل من أصول إسبانية أو غير أندلسية

(1667/1)

، وقد

وصل هذا الرقم إلى حوالي 350.000 مسلم سنة 1991 م (0,9 في المائة من مجموع السكان)، ومنهم حوالي 80.000 مسلم حاصلين على الجنسية الإسبانية ، معظمهم من أصول مغربية ، وحوالي عشرة آلاف منهم ممن اعتنق الإسلام من أهل البلاد و أولادهم . ومعظم ما تبقى من المغاربة ويأتي بعدهم بأعداد أقل أهمية ، الجزائريون والتونسيون والمشارقة وسكان أفريقيا جنوب الصحراء وباكستان وإيران إلخ .

... ولأول مرة سمح قانون الجمعيات بتاريخ 24/ 12 /

1964 م للجمعيات الدينية غير الكاثوليكية بالوجود .

وفي 28 / 6 / 1967 م ، أصدرت

(1668/1)

الحكومة الإسبانية قانونا جديدا يسمح بحرية الأديان ، أصبح معه من الممكن تأسيس جمعيات إسلامية لأول مرة بعد سقوط غرناطة . واستفاد من هذين القانونين الطلبة المسلمون في الجامعات الإسبانية . إذ بعد زيارة أبو الحسن الندوي لإسبانيا سنة 1965 م اقترح على الطلبة تأسيس جمعية اسلامية فأسسوها في غرناطة سنة 1966 وسجلوها رسميا بوزارة العدال الإسبانية سنة 1971 تحت اسم " الجمعية الإسلامية في اسبانيا" . وفي 22 / 4 / 1974 م ، عدل نظامها لتمكينها من بناء المساجد والمراكز الإسلامية عبر إسبانيا ، فكانت هذه أول جمعية

(1669/1)

إسلامية تأسست في الوقت المعاصر في إسبانيا . وقد فتحت بعد ذلك فروعا لها في عدة مدن إسبانية .

... ابتدأت الجمعية نشاطها في شقة متواضعة في غرناطة ، ثم انتقل مقرها الأساس إلى مجريط في شقة كذلك . ثم بنت الجمعية مسجدا ومركزا اسلاميا متكاملا في حي تطوان بمجريط ، وهو أول مسجد بني حديثا في العاصمة الإسبانية . أما مراكز المدن الأخرى فكلها شقق اشتريت وأجرت . ومعظم أعضاء هذه الجمعية طلبة من سوريا وفلسطين ، تخرجوا بعد ذلك ، وتزوج كثير منهم بإسبانيات واستقروا في البلاد وحصلوا على جنسيتها .

(1670/1)

... و إلى سنة 1978 م ظلت هذه الجمعية داخل الجامعات كجمعية طلابية . ثم أخذ معظم الطلاب يتخرجون ويتزوجون ، فأخذت الجمعية تكتسب طابعا لجمعية جالية اسلامية . وتركز دورها الاعلامي في إصدار دورتين بالإسبانية كل شهرين : العروة الوثقى والإسلام . وفي نفس السنة انفصل " المركز الإسلامي بإسبانيا " عن هذه الجمعية وتتكون الجمعية المفصلة كذلك من قدماء الطلاب العرب المشارقة ، ويقع مركزها الأساس في مجريط في شقة بشارع الونسو كانو. وللجمعية فرع في برشلونة (قطلونية) والجزر الخالدات وغرناطة واشبيلية ومالقة

(1671/1)

بالأندلس .

... وفي سنة 1990 م ،كلفت رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة " المركز الإسلامي بإسبانيا" بإدارة مسجد الملك عبد العزيز بمربلة (مقاطعة مالقة) بالأندلس .

وقد ابتدأت فكرة بناء هذا المسجد سنة 1979 بقرار من الأمير سلمان بن عبد العزيز آل سعود ، وانتهى من البناء عام 1981 م . ومن أهم أنشطة " المركز الإسلامي في إسبانيا " المحاضرات واللقاءات وتوزيع الكتب الإسلامية و إحياء الشعائر الدينية .

وقد أسس " المركز الإسلامي بإسبانيا " مدرسة ابن رشد في غرناطة التي تم افتتاحها عام 1985 م بـ 74 تلميذ .

(1672/1)

... وفي 28 / 6 / 1973 م ، قدم عمدة مجريط للهيئات السياسية الإسلامية قطعة أرض مساحتها 1.500 متر مربع بإحدى أحياء مجريط الجديدة لإقامة مسجد جامع عليها. وانتهت المدة المحددة ولم يبن على الأرض شيء

فاستعادت البلدية الأرض، ثم بعد تعهد السفراء المسلمين ببناء المسجد، قدمت البلدية أرضا أخرى بضواحي مجريط الشرقية مساحتها 30.465 متر مربع. وفعلا تبنت المملكة العربية السعودية مشروع المسجد الذي انتهى بناءه سنة 1990 م تحت إشراف سفارتها. وقد أصبح هذا المسجد أكبر إسلامي في إسبانيا إذ يتسع ل 830 مصل وبه مكاتب

(1/1673)

وقاعة محاضرات ومركز ثقافي ومكتبة. وتدير هذا المركز رابطة العالم الإسلامي.

6- الطريقة الدرقاوية في غرناطة والجماعة الإسلامية في الأندلس

... لم يبدأ الأندلسيون وباقي الإسبان في العودة إلى الإسلام وتكوين الجماعات الإسلامية المنظمة إلا في أواخر السبعينات. وكان الدافع للإسلام اتجاهان : اتجاه صوفي واتجاه قومي أندلسي.

... أما الاتجاه الصوفي فكانت بدايته في نفس السنة التي توفي فيها فرانكو سنة 1975 م، عندما توجه عدد من شباب بلدة بورتيانو (مقادعة قلعة رباح) إلى بريطانيا حيث التقوا برجل اسكتلاندي اسمه

(1674/1)

الشيخ عبد القادر، كان قد اعتنق الإسلام في مكناس بالمغرب على يد الشيخ ابن حبيب، شيخ الطريقة الدرقاوية. فأمرهم الشيخ عبد القادر بالتوجه إلى قرطبة سنة 1977 م فانضم إليهم هناك عدد من الراجعين إلى الإسلام. وفي سنة 1979 م، قررت الجماعة الانتقال إلى إشبيلية ، لكنها اصطدمت مع الشرطة لمعارضتها احتفالات " الأسبوع المقدس"، فقررت الاتجاه إلى مقاطعة أولبة ثم إلى غرناطة سنة 1980 م حيث أعلنت أن اسمها "جمعية عودة الإسلام إلى إسبانيا". وفي 1980/9/22، سجلت الجمعية بوزارة العدل الإسبانية تحت اسم "الجمعية الدينية

(1675/1)

لنشر الإسلام في إسبانيا"، واستأجرت عمارة في الحي القديم من غرناطة، وأقامت فيها مسجدها ومكاتبها ومشاريعها الاقتصادية. و أقامت أول نشاط لها علني بالمدينة عندما أقامت صلاة عيد الفطر بحدائق قصر الحمراء سنة 1400 هـ (1980/8/13)،وحضر هذه الصلاة

حوالي 200 مسلم إسباني، رجالا ونساء وأطفالا.

... وأخذت أعداد أفراد الجماعة تتضاعف، فابتدأت ترسل وفودا إلى البلاد العربية، وشرعت في إقامة المشاريع الإسلامية كإقامة مسجد في حي البيازين الذي لم ير النور إلى اليوم، وشراء بيت كبير في نفس الحي، حولته إلى زاوية

(1676/1)

للطريقة الدرقاوية ومركز إسلاميا،وقد بيع مؤخرا.

وتكاثر أعضاء الجمعية إلى عدة مئات، وأخذ الطابع الإسلامي يظهر بوضوح في غرناطة، ونظمت الجمعية مؤتمرات إسلامية كما نشرت مجلة إسلامية اسمها "البلاد الإسلامية".

... لكن ما كادت تشتهر هذه الجماعة حتى أخذت تتقهر لأسباب متعددة، منها داخلية ومنها خارجية، الداخلية كطريقة تنظيمها المبنية أساسا على المركزية المطلقة حول الشيخ عبد القادر، والأسلوب الخشن والعنيف في تعامل الجماعة مع الغير، ومطالبة الجماعة المنضمين إليها بالانسحاب من المجتمع الأندلسي الذي تعده

(1677/1)

كافرا، واتهام الجماعة لكل من سواها من المسلمين بالضلال والكفر. والأسباب الخارجية،أدت إلى تبعثر آراء أعضائها حول القومية الأندلسية والتضوف بسبب تأثير مسلمي الخارج، فكثرت الانشقاقات.

... ونتج عن هذه الجمعية الأم عشرات الجمعيات الإسلامية عبر الأندلس، وغير أتباع الشيخ عبد القادر الباقون اسم الجمعية واسم مجلتها باسم جديد هو "المرابطون"، وارتبطت الجماعة

بشكل أوثق بالمراكز التابعة للشيخ عبد القادر في بريطانيا والدانمارك والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من البلاد. أما في إسبانيا فلهم ثلاث مراكز

(1678/1)

رئيسية : إشبيلية (الأندلس) وبالمة ميورقة (الجزر الشرقية) وبلباو (اسكادي).

... أما "الجماعة الإسلامية بالأندلس"، فقد انبثقت عن تجربة أندلسية بحتة، وتكونت كنتيجة طبيعية للحركة القومية الأندلسية ذات الجذور الإسلامية. وتعد

هذه الجماعة نفسها حركة إسلامية ذات أصالة في أرض الأندلس، وترى في بلاس انفاتنا مؤسسها الأول وأبوها الروحي، ففي سنة 1981 م، أشهر أنطونيو مدينة، أحد الشباب المتشيعيين بالقومية الأندلسية، إسلامه وسمى نفسه عبد الرحمن والتقب "جماعة اشبيلية الإسلامية" المكونة من أفراد من المجموعة

(1679/1)

الأولى، وبعد شهور التحق به العشرات من زملائه.
وانشقت هذه المجموعة عن "جماعة اشبيلية الإسلامية" سنة 1982 م، وكونت "الجماعة الإسلامية بالأندلس" وأقامت مركزا جديدا في إشبيلية.
... ثم انطلقت "الجماعة" من اشبيلية، وفتحت مراكزها في غرناطة وشريش ومالقة والمرية وغيرها من المدن.
وتنظمت هذه الجماعة على أساس شوري لا مركزي، فلها مجلس أعلى يتكون من ممثلي فروعها في المدن المختلفة، يرأسه منتخب، ونؤخذ كل القرارات بالتشاور.

(1680/1)

... وقامت الجماعة بأول نشاط لها علني سنة 1983 م بتنظيم ثقافي إسلامي أندلسي على مستوى رفيع في اشبيلية تخليدا لذكرى المعتمد بن عباد. فكان حفلا رائعا حضره آلاف من أهل اشبيلية وجارتها طريانة. ثم نظمت الجماعة في نفسها السنة أسبوعا ثقافيا مع جامعة مالقة. وفي سنة 1984 م، أقامت الجماعة حفلا معاكسا في غرناطة لذلك الذي تقوم به الكنيسة والدولة احتفالا بسقوط المدينة من يد المسلمين. وكان لمظاهرة المسلمين المعاكسة صدى كبيرا في الصحافة. وقد حضره عدة آلاف من أهل غرناطة. ثم عقدت الجماعة مؤتمرها العام في ضواحي

(1/1681)

غرناطة لتدشين انطلاقة جديدة. وفي سنة 1985 م، نظمت الجماعة المؤتمر الدولي الأول للمسلمين الأوروبيين في اشبيلية بهدف توحيد جهود الدعوة إلى الإسلام من طرف أهل البلاد في أوروبا.

... وفي سنة 1986 م اشترت الجماعة بيتا في قرطبة وحولته إلى مركز إسلامي وقررت أن تكون قرطبة مركزه، ومنذ سنة 1988 م، أخذت الجماعة تهتم

بالشتات الأندلسي فأقامت مؤتمرا عاليا له في بلدة قسطلة، بمنطقة جبل طارق، كان له صدى كبيرا في إسبانيا.

(1/1682)

... وأهم إنجاز للجماعة تأسيسها سنة 1994 م ل "جامعة ابن رشد الإسلامية" بمدينة قرطبة وأول مسجد حديث بالمدينة. وقد ابتدأت هذه الجامعة بإعطاء دروسها سنة 1995 – 1996 م. والجامعة كانت ضرورية لأن الأعداد الهائلة التي تنضم إلى الجماعة وتعتنق الإسلام تحتاج إلى توعية إسلامية. وقد أرسلت الجماعة العشرات من أفرادها إلى جامعات البلاد الإسلامية، ولكن النتيجة كانت أقل من المرغوب فيه. لذا تقرر فتح جامعة إسلامية في الأندلس كمؤسسة إسلامية لنشر الدعوة بين أهل الأندلس.

7– المنظمات الإسلامية بالأندلس :

(1/1683)

... تتكون منطقة الأندلس من ثمان مقاطعات، وهي من الغرب إلى الشرق، أولبة واشبيلية وقادس وقرطبة وجيان ومالقة وغرناطة والمرية. ولم يفتح في هذا المنطقة مركز إسلامي إلا سنة 1974 م، على يد المسلمين في مدينة غرناطة. ومنذ ذلك الحين تكاثرت المراكز الإسلامية والمساجد إلى أن وصلت إلى 38 في أوائل سنة 1996 م حسب الجدول رقم 2 . وهي في تزايد مستمر.

الجدول رقم 2 : المساجد والمراكز الإسلامية في الأندلس سنة 1996

المقاطعة

الأندلسية

المغربية

الأخرى

المجموع

أولبة

اشبيلية

قادس

قرطبة

جيان

مالقة

غرناطة

المربية

1

3

1

4

(1684/1)

–

2

9

2

1

1

2

–

–

1

–

5

–

1

–

–

1

2

1

1

2

5

3

4

1

5

10

8

المجموع

22

10

6

38

ومن بين هذه المراكز، 22 مركزا لهم في اشبيلية. وكل هؤلاء من الراجعين إلى الإسلام من بين المسلمين، و 10 مراكز أسسها المغاربة المقيمون في الأندلس و 6 أسسها غيرهم من المسلمين القاطنين في الأندلس.

... ففي مقاطعة أولبة يوجد مصلى في عاصمتها أسسه المغاربة في سنة 1992 م. وفي نفس السنة قررت بلدية قرية المنستير تحويل مسجد قلعتها العتيق إلى

العبادة الإسلامية، واستدعت "الجماعة الإسلامية في الأندلس" لتدشينه. وقد تكونت جماعة إسلامية

(1/1685)

في تلك البلدة الجبلية حول ذلك المسجد.

... أما في مقاطعة فكل مراكزها الإسلامية موجودة في العاصمة. فأول جمعية إسلامية تكونت في اشبيلية هي "جماعة اشبيلية الإسلامية" سنة 1981 م، وله مستأجر. كما فتحت "الجماعة الإسلامية في الأندلس" مركزها سنة 1983 م. ثم بعد سنين أسس المرابطون مركزا لهم في اشبيلة. وكل هؤلاء من الراجعين إلى الإسلام.

ومن جهة أخرى فتح المغاربة في أوائل التسعينيات مركزا إسلاميا لهم ثم فتح المسلمون العرب الشرقيون مركزا آخر. فيكون مجموع المراكز الإسلامية في مدينة اشبيلية خمسة، وكلها بيوت

(1/1686)

وشقق مستأجرة.

... أما في مقاطعة قادس، فقد فتحت "الجماعة الإسلامية

بالأندلس" مركزا لها في مدينة شريش سنة 1985 م، واشترت بيتا سنة 1990 م وحولته إلى مسجد. كما قام المغاربة سنة 1992 م، باستئجار محل حولوه إلى مركز إسلامي في نفس المدينة، وقام المغاربة بفتح مصلى سنة 1990 في مدينة الجزيرة الخضراء، فيكون عدد المراكز الإسلامية في مقاطعة قادس ثلاثة.

... أما في مقاطعة قرطبة، فلقد اشترت "الجماعة الإسلامية في الأندلس" بيتا سنة 1986 م وحولته إلى مسجد ومركز إسلامي. وفي سنة 1994 م بنت الجمعية أول مسجد في

(1687/1)

الكتاب : مجلة التاريخ العربي

المدينة بعد رجوع الإسلام لها، وهو ملحق بجامعة ابن رشد الإسلامية التي أسسها الجماعة. وفي نفس المدينة مسجد آخر كان قد بني بعد الحرب العالمية الثانية، وتحول إلى مخزن لمعدات الحديقة العامة المحيطة به إلى أن أعطته البلدية لجمعية إسلامية قامت برعايته، كما تكونت في بلدة المدور جمعية إسلامية أخرى حول الدكتور عبد السلام منصور اسكوديرو. وبهذا تكون في قرطبة أربع مراكز إسلامية ومساجد، كلها للأندلسين.

أما في مقاطعة جيان فقد أسس الباكستانيون المقيمون في بلدة قزلون (لينارس) جمعية إسلامية تحت اسم " جمعية

(1688/1)

جيان الإسلامية "، ولها مصلي . وهي الوحيدة في هذه المقاطعة حسب علمي .

... أما مقاطعة مالقة ، فلقد فتحت الجماعة الإسلامية بها

مركزا سنة 1986 م ، واشترت بيتا سنة 1988 م ، حولته إلى مركز إسلامي . وفي سنة 1996 م هدم هذا البيت لبناء مسجد ومركز إسلامي على أرضه ، و أسس عدد من المسلمين الأندلسيين " جمعية مالقة الإسلامية " في مالقة واشتروا بيتا حولوه إلى مركز إسلامي ، كما فتح المغاربة مركزا إسلاميا ببلدة تور مولينس . وبنى الإخوة السعوديون مسجدين ، أحدها مسجد الملك عبد العزيز في مربلة ، والثاني في بلدة

(1689/1)

سهيل . وبهذا يكون عدد المراكز الإسلامية في مقاطعة مالقة خمسة ، وهي في زيادة مستمرة . وبهذه المقاطعة بلدة قصر بنيرة التي تحتفل سنويا بالمولد النبوي الشريف ، وبها بلدة " بلانويبادي لا كنسبيون " التي اعتنق عمدتها ، سليم سيلفا ، الإسلام .

... ويوجد في مقاطعة غرناطة أكبر عدد من المراكز الإسلامية ، أحدها للطلبة العرب والباقية كلها للأندلسيين والإسبان العائدين إلى الإسلام ، ومعظمها منبثق من " جمعية عودة الإسلام إلى إسبانيا " التي تحدثها عنها سابقا . وتوجد معظم هذه المراكز في مدينة غرناطة ، وفي حي

(1690/1)

البيازين بالذات . ويوجد مركز إسلامي واحد في بلدة أرجبة في البشرات . وعدد هذه المراكز حوالي عشرة . ... المنتصر 6

... أما في مقاطعة المرية ، فلقد فتحت " الجماعة الإسلامية بالأندلس " بها مركزا سنة 1988 م، وهو عبارة عن مركز مؤجر . كما فتح في أوائل التسعينات عدد من المسلمين الأندلسيين التابعيين للطريقة النقشبندية مركزا في بلدة لوشر بالبشرات . وقد نظم المغاربة أنفسهم وفتحوا خمس مراكز ، إحداها في مدينة المرية و أربعة في مدن المقاطعة الأخرى ، كما نظم السنغاليون أنفسهم

(1691/1)

وفتحوا مركزا إسلاميا في المقاطعة .

8 – المنظمات الإسلامية في قطلونية

قطلونية ذات حكم ذاتي تقع على حدود فرنسا لم يمكث الحكم الإسلامي فيها طويلا ، لكنها أصبحت اليوم ثاني منطقة من حيث التواجد الإسلامي بعد الأندلس ، يسكنها

حوالي ثلث مسلمي إسبانيا ، منهم حوالي 80.000 مغربي و 20.000 إفريقي 20.000 من جنسيات أخرى ، وحوالي 10.000 على الأقل يحملون الجنسية الإسبانية ، منهم عدة من أهل البلاد . والفرق بين قطلونية يرجع فيه الفضل لمجهود المغاربة ، بينما نجد أن مجهود الأندلسيين في منطقة الأندلس كما رأينا هو

(1692/1)

الذي أفضى إلى هذا .

أما سكان قطلونية ، فيبلغ عددهم حوالي 6.200.000 نسمة أي أن المسلمين يكونون بها حوالي 2 في المائة ، وقطلونية مكونة من أربع مقاطعات ، وهي برشلونة وجرندة ولاردة وطرقونة ، وبها حوالي 20 مسجدا ومركزا إسلاميا تتوزع على المقاطعات الأربع حسب الجدول رقم 3 ، وهي تزايد مستمر ، ويمكن تقدير عددها سنة 1966 بحوالي 40 مسجدا ومصلى .

... الجدول رقم 3 : المراكز الإسلامية في قطلونية سنة 1996

المقاطعة

إسبانية

مغربية

أخرى

المجموع

برشلونة

1

20

4

20

جرندة

–

2

1

3

لاردة

–

1

–

1

طرقونة

–

1

–

1

(1693/1)

المجموع

1

19

5

25

... وفي سنة 1992 **م ، افتتحت أول مقبرة إسلامية في المنطقة ببلدة ساردنيولة بمقاطعة برشلونة . كما سمحت الحكومة المحلية القطلونية للمسلمين بالذبح على الطريقة الإسلامية سنة** 1991 **م .**

... لاشك أن الفضل في الانبعاث الإسلامي في منطقة قطلونية يعود لجماعة التبليغ . ولم يظهر هذا الانبعاث بزخمه الحالي إلا بعد سنة 1990 **م . و أول مصلي فتح في المنطقة كان من مبادرة الراهبة الكاثوليكية تيريزا لوسادا حيث فتحت سنة** 1976 **م مركزا للصلاة سمته " دارالثقافة " في مدينة برشلونة حرصا منها على " إدماج**

(1694/1)

المهاجرين المغاربة " . وبقي هذا المصلي مفتوحا إلى سنة 1980 **حين فتح الطلبة المسلمون " المركز الإسلامي " في شارع مرديانة ببرشلونة بمساندة من رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة . فأصبح هذا المركز هو النواة الأولى لانتشار الإسلام في قطلونية . ... وفي نفس السنة ، أسست الودادية المغربية مصلى للمغاربة في شارع بالمس ببرشلونة، تلى ذلك تحول المركز الثقافي الباكستاني في شارع هنبتل ببرشلونة إلى مسجد طارق بن زياد . فأصبح هذا المسجد مركز نشاط جماعة التبليغ ، وكاثر فيه المغاربة اخوانهم الباكستانيين ، وأصبح**

(1695/1)

انواة لتأسيس مساجد أخرى في منطقة قطلونية . ولم يفتح مصلى في مدينة لاردة سنة 1989 **م . وفي نفس السنة ، فتح مصلى ببلدة روزس بمقاطعة جرندة (مسجد أبو بكر) . أما مقاطعة طرقونة ، فقد فتح بها أول مصلى سنة** 1991 **م ، في بلدة بيزانتي دي كالديرس . '**

... والجدير بالذكر أن لقطونية شخصية خاصة بها داخل الدولة الإسبانية ،فلها لغتها الخاصة وهي القطلانية والمغاربة الذين يكونون معظم أعضاء المجتمع المسلم

في المنطقة علاقة جيدة . لكن هناك أقلية صغيرة من العنصريين الذين يتبجحون بمحاربة المسلمين و أحيانا لا يتورعون عن

(1696/1)

الاعتداء عليهم .

فمثلا كان إمام مسجد روزاس بمنطقة جرندة ضحية عدوان عنصريين قطلانيين في شهر فبراير سنة 1990 **م . وفي** 8 / 8/ 1991 **م ، خرج بعض سكان بلدة انغلس ، بمقاطعة برشلونة ، في مظاهرة ضد مشروع فتح مصلى ببلدتهم .**

... أما الحكومة القطلانية ، فابتدأت بموقف يكاد يكون معادي لما صرح جوردي بوجول ، رئيس الحكومة المحلية ، في 2 / 11 / 1989 **م يتهم فيه الإسلام بأنه لا يمكن أن يستوطن في قطلونية . ولقد أدى هذا التصريح إلى رد فعل قوي من طرف المسلمين .**

(1697/1)

فرد عليه إمام المركز الإسلامي أبو سعيد (وهو من مصر) باسمهم . ولقد تحسن موقف الحكومة القطلانية نحو الإسلام بعد هذه " الحادثة " .

... ومنذ سنة 1990 م أخد المسلمون يصلون صلاة عيد الفطر جماعة في ساحة عامة من ساحات برشلونة مما جعل الإسلام يظهر للزائر بوضوح ولكن منطقة قطلونية لا زالت تنتظر بناء

أول مسجد بها . إذ ليس فيها ولا مسجد واحد مبني بهندسة إسلامية في الوقت الذي نجد في الأندلس أربعة مساجد جديدة ، وعلى الأقل مسجدين قديمين استرجعا لصلاة المسلمين ولكن الإسلام في قطلونية لا زال في بداية الطريق

(1698/1)

---

9 – المنظمات الإسلامية في باقي إسبانيا

... أما التواجد الإسلامي في المناطق الإسبانية الأخرى فهو يزيد أو ينقص كما هو موضح في الجدول رقم 4 الذي يبين عدد المساجد و أماكن الصلاة بها سنة 1996 .

... الجدول رقم 4 عدد المساجد وأماكن الصلاة في المناطق الإسبانية .

المنطقة

الإسبانية

الأخرى

المجموع

الأندلس

22

16

38

قطلونية

1

21

22

مجريط

2

8

10

بلنسية

–

6

6

الجزر الخالدات

–

4

4

إوسكادي

1

3

4

مرسية

1

2

3

الجزر الشرقية

-

3

3

اشتورياس

1

1

2

قشتالة مانشا

-

1

1

قشتالة ليون

-

1

1

أراغون

-

1

1

(1699/1)

استرامادورا

-

1

1

نبارة

-

1

1

جليقية

–

1

1

نبارة

–

1

1

لاريوخا

–

1

1

المجموع

27

72

100

...

نرى أن عدد المساجد الآن في إسبانيا يناهز المائة ، منها الثلث أسسه الراجعون إلى الإسلام . وتعد اليوم منطقة مجريط هي المنطقة الثالثة بعد الأندلس وقطلونية من حيث التواجد الإسلامي.كانت أول جمعية أسست بمجريط

هي " الجمعية الإسلامية في إسبانيا " وقد انتقلت من شقة إلى مسجد ومركز إسلامي متكامل في حي تطوان بالعاصمة الإسبانية هو مسجد" أبو بكر الصديق " وهو أول مسجد بني في مجريط.

(1700/1)

وفي سنة 1978 م انفصل عنها عدد من الأعضاء وأسسوا " المراكز الإسلامية في إسبانيا " كما سبق الذكر . كما أن السفارات الإسلامية في مجريط وعلى رأسها سفارة المملكة العربية السعودية بنت مسجدا كبيرا في إسبانيا كما سبق أن ذكر كذلك ، وبمجريط كذلك جمعية إسلامية إسبانية أخرى إسمها " المعهد الغربي الإسلامي للثقافة " ، وحوالي خمسة محلات للصلاة أسسها المغاربة .

... ومنطقة بلنسية هي المنطقة الرابعة من حيث التواجد الإسلامي . وبها حوالي ستة مراكز إسلامية ، أهمها "المركز الإسلامي ببلنسية " ، وهو متكامل وبه مدرسة

(1701/1)

وقاعة للمحاضرات ومسجد للصلاة وبيت للإمام ، بني سنة 1992 م على أرض تبرعت بها بلدية بلنسية . كما يوجد بمنطقة بلنسية مسجد آخر وعدة أماكن للصلاة في مدينة بلنسية .

... وهناك تواجد إسلامي واضح ومتنامي في المقاطعات التالية : اوسكادي والجزر الخالدات ومرسية واشتورياس ، إذ يوجد في كل واحدة من هذه المناطق أكثر من مصلى واحد ، وبها كلها (عدى الجزر) مركز مؤسس من طرف الإسبان الراجعين إلى الإسلام . أما المناطق الإسبانية الثمانية الأخرى فيوجد في كل واحدة منها مصلى واحدا على الأقل .

(1/1702)

... ويتوقع أن تتزايد عدد أماكن الصلاة في إسبانيا إلى مائتين قبل دخول القرن الميلادي الواحد والعشرين . أما المساجد المبنية على هيأة مسجد فعددها الآن في كل إسبانيا ثمانية : 4 بالأندلس و 2 بمجريط و 2 ببلنسية ، ويتوقع أن تتضاعف عددها في السنوات الخمس القادمة .

10 – الخاتمة

... بالنسبة لمعظم دول غرب أوروبا ، وخاصة فرنسا ،

فالإسلام جديد في إسبانيا ، إذ لم يكن له وجود يذكر قبل 1980 **م ، بينما تأسست أول الجمعيات الإسلامية في السبعينات ، وظهرت جمعيات أخرى كثيرة في الثمانينات بظهور أعداد هامة وفاعلة من**

(1703/1)

الراجعين إلى الإسلام في منطقة الأندلس . وفي 14 / 7 / 1989 **م اعترفت إسبانيا بالبروتستانتية واليهودية . وبهذا أصبح للمسلمين نظريا في إسبانيا حقوق على الدولة الإسبانية ومساندة مالية من طرفها تمكن في عدم دفع الضرائب ، ودفع الدولة رواتب معلمي الدين الإسلامي للمسلمين في مدارس الدولة ، والحق في تأسيس المدارس الإسلامية ، والزواج على الطريقة الإسلامية ، إلخ ...**

... ولكي تحصل الجماعة الإسلامية على هذه الحقوق كان عليها أن تنظم نفسها في اتحاد عام يجتمع في " اللجنة الإسلامية الإسبانية " للتفاوض مع الدولة

(1704/1)

الإسبانية على هذه الحقوق . وهكذا اجتمعت حوالي 30 جمعية إسلامية في " الاتحاد الإسباني للمنظمات الدينية الإسلامية " (FEERI) .لكن هذا الاتحاد أخذ ينحاز ضد بعض الجمعيات الإسلامية ، خاصة الأندلسية منها ، فتجزأ إلى اتحادين ، ولكن الوضع لا زال غير مرضي لمعظم مسلمي إسبانيا ، إذ أن " اللجنة الإسلامية الإسبانية " لم تقم بشئ يذكر للحصول على حقوق المسلمين ، خاصة فيما يخص تعليم اللغة العربية والإسلام في المدارس العامة .

(1705/1)

... لكن في الحقيقة لم يظهر الإسلام في إسبانيا بشكل واضح إلا في هذا العقد الأخير من القرن العشرين . إذ أصبحت مراكز الصلاة تتكاثر حتى وصلت المائة كما فتحت أول جامعة أبوابها وهي " جامعة ابن رشد الإسلامية " في مدينة قرطبة العتيقة .

... ويتوقع أن تتزايد أعداد المسلمين في العقود القادمة باعتناق الإسلام أهل البلد وبهجرة المسلمين ، وبهذا سنرى حقبة جديدة م الوجود الإسلامي في أرض الأندلس العتيقة بعد طول الحصار .

... ... المراجع

(1706/1)

... 1 – علي المنتصر الكتاني " الصحوة الإسلامية في الأندلس اليوم ، جذورها ومسارها " كتاب الأمة ، قطر ، عام 1412 .

... 2 – علي المنتصر الكتاني " انبعاث الإسلام في الأندلس " مجمع البحوث الإسلامية ، الجامعة الإسلامية العالمية ، إسلام أباد ، باكستان ، 1992 م .

... 3 – محمد عبد الله عنان " دولة الإسلام في الأندلس " القاهرة (مصر) عام 1969 م .

(1707/1)

الإسلام في النيجر بين الماضي والحاضر

... ... الدكتور حسين محمد الربابعة

... ... كلية عجلون الجامعية جامعة البلقاء التطبيقية .

الأردن

... لم تتفق كلمة المؤرخين على تحديد دقيق ومضبوط للتاريخ الذي بزغ فيه فجر الإسلام في النيجر، وانتشرت فيه أشعة نور الإيمان، وكذلك لم يتفقوا على أسماء

الرجال الأوائل الذين قاموا بهذا العمل العظيم، وأدخلوا الإسلام واللغة العربية إلى هذه الأصقاع.

دخول الإسلام في النيجر

(1/1708)

... تضاربت أقوال المؤرخين حول التاريخ الذي دخل فيه الإسلام إلى النيجر. فيرى بعضهم أن الإسلام قد دخل البلاد في وقت مبكر من تاريخه على يد الصحابي الجليل عقبة بن عامر حسب ما في كتاب عبد الله بن فوديو(1)، أو عقبة بن نافع رضي الله عنه سنة 666 م على ما ذكره بعض المؤرخين. وقد روي أن هذا الصحابي قد توغل في الصحراء الكبرى، وتابع فتوحاته الإسلامية نحو الجنوب حتى وصل مدينة »كعوار« وفتحها كما فتح الواحات الأخرى الواقعة جنوب الصحراء(2)

---

(1) ... عبد الله بن فوديو، تزيين الورقات، ص. 40.

(2) مجلة الإسلام اليوم، إصدار منظمة الإيسيسكو، العدد 12، السنة 2، رجب 1404 هـ، ص. 91.

(1/1709)

.

... وتجدر الإشارة إلى أن إقليم »كعوار« هذا يقع في النيجر على طريق الشمال الشرقي للبلاد ناحية الحدود مع ليبيا.

... ويتضح من هذه الرواية أن الإسلام قد وصل إلى النيجر أو أطراف منها في وقت مبكر من تاريخها، أي منذ القرن الأول الهجري. على أن البعض يرى أن السكان المقيمين في جوار بحيرة »تشاد« شرقي البلاد كانوا أول من اعتنق الإسلام.

... وحجة هؤلاء هي التراث الشفهي المتناقل، والذي يرى أن مؤسس مملكة »كانم« في القرن الثامن اسمه »تبع الأول«، وهو أول من نشر الإسلام في جنوب الصحراء الإفريقية(1)

---

(1) النيجر اليوم، منشورات جون أفريك، ص. 36.

(1710/1)

.

دور المرابطين

... كما يرى البعض الآخر أن قوماً من شمال إفريقيا، وهم برابرة مسلمون أتوا من المغرب ووصلوا في القرن الثامن الهجري إلى إقليم »آيرا« الواقع شمال النيجر، وأقاموا فيه مدة من الزمن، ثم أنشأوا عدداً من المساجد في »تفيس« 759 م و»أغاديس« ولبثوا في هذه المدينة (أغاديس) أربعة قرون، وبها مسجد يحمل اسمهم حتى الآن، ثم هاجروا نحو الغرب.

... ومن المحتمل أن يكون ازدهار الإسلام في هذه المناطق قد بدأ مع وصول المرابطين الذين جاءوا من الرباط التي كانت تعني في الأصل حصناً ومركزاً دينياً وتعليمياً في

(1711/1)

الوقت نفسه، لأن الإسلام قد سبقهم إلى المنطقة.

... وفي بداية القرن الحادي عشر، وبالتحديد في سنة 1010 م، أسس الملك »كوزي« أول عاصمة للمملكة »السونغاي«، وهي مدينة »غاو«، وتقع شرق الثنية الشمالية لنهر النيجر. وقد اعتنق هذا الملك الدين الإسلامي، وأصبح من المعتاد بعدئذ أن يكون حاكم قبائل »السونغاي« من المسلمين، بالرغم من أن القبائل نفسها لم تعتنق الإسلام وظلت دياناتها القبلية(1).

---

(1) جوان جوزيف، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء، ص. 81.

(1712/1)

... كما عمد بعد ذلك بعقود، وبالتحديد 1085، السلكان »مومى« سلطان »كانم« إلى اعتناق الإسلام هو أيضاً وعرف الإسلام كذلك مع ملوك »مالي«، ولا سيما »كنكن موسى« 1312 ـ 1335 م، وازدهر ازدهاراً كبيراً تجاوز حدود إمبراطوريتهم؛ إذ بدأ الدعاة يتوجهون نحو ملوك »الهاوسا« وزعماء القبائل يدعونهم إلى الإسلام. وقد نجحوا بالفعل في كسب الممالك الكثيرة إلى الإسلام وبنوا في ممالكهم المساجد، كما قاموا بدور تعليم اللغة العربية والمبادئ الإسلامية في مجالسهم العلمية وتعليم القرآن للأطفال(1)

---

(1) ... إبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية.

(1713/1)

.

... وقد كان لأحد أباطرة »السونغاي«، وهو »أسكيا

محمد التوري «، دورٌ هامٌّ في تعزيز دعائم الإسلام في إمبراطوريته، ودعا شعبه إلى الإيمان وقام بزيارة الديار المقدسة، كما قام بإصلاحات كثيرة لصالح الإسلام والمسلمين، وأنشأ كثيراً من المساجد والجوامع التي كانت تقام فيها حلقات علمية(1).

... فالإسلام قديم في غرب إفريقية عامة والنيجر خاصة. وبعبارة أخرى، إنه لم يدخل تلك البلاد لأول مرة في القرن الحادي عشر الميلادي كما هو مشهور، بل دخله في القرن السابع الميلادي. وعلاوة

---

(1) النيجر اليوم، مصدر سابق، ص. 37.

(1714/1)

على هذا، إن الصلات المتنوعة القديمة القائمة بين بلاد السودان الأوسط والغربي وبين البلاد الإسلامية في وادي النيل وما والاه شرقاً وشمالي إفريقيا كانت ذات أثر كبير في وصول الإسلام والتعريف به في بلاد السودان قبل حركات المرابطين فيها.

دخول الإسلام عن طريق كانم

... ويمكن القول إن الإسلام وفد إلى النيجر عن طريق

كانم وبرنو. فقد كانت مصر من أسبق الأقطار إلى اعتناق الإسلام؛ كما أن وادي النيل عامة كان ولا يزال أهم المراكز التي زحفت منها الدعوة الإسلامية.

(1715/1)

... وتبعاً لرواية متداولة عند الهوسا، يقال إن شخصاً عرف باسم »أبي يزيد الفزاري« كان يدعو للإسلام في كانم وبرنو في نهاية القرن السابع ومطلع القرن الثامن الميلادي. وقد ارتبط اسمه في برنو باسم أسرة »مسبعرمة« وهي الأسرة التي وفد عدد كبير من أعضائها إلى برنو في القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين. ويقال إنها جاءت من فزان أو من وادي النيل، وكانت أسلاف عدد كبير منه العلماء في برنو ومن الوزراء البرنويين، ويطلق على جميع أفراد هذه الأسرة »مسبعرمة«. وهذه التسمية لقب معناه في برنو »الوزراء الوارثيون«.

(1716/1)

... وجاء في مخطوطة عربية ترجع كتابتها إلى الفترة ما بين 1657 و1669 م في تمبكتو عثر عليها الفرنسي «دوميزيير» أن أربعة جنود من جيش عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي (99 ـ 101 هـ/ 717 ـ 720 م) جاءوا من اليمن إلى برنو واستطاعوا أن يكونوا أسرة مالكة في برنو وغيرها من بلاد السودان. وقد اختلطت أخبار هذه المخطوطة بالأساطير. وذكر البكري أن قوماً من بني أمية هاجروا إلى كانم عند محنتهم ببني العباس. ويشكك ياقوت في هذه الرواية حين يتحدث عن كانم وأهلها بقوله: «وهم سودان مشركون ويزعمون أن هناك قوماً من بني

(1717/1)

أمية صاروا إليها عند محنتهم ببني العباس».

... وخلال القرن التاسع الميلادي وما يليه، جاءت وفود المسلمين المهاجرين عبر الصحراء نحو الجنوب منهم القبائل التيبو أو التدا، الذين هاجروا إلى كانم بعد حوالي عام 800 م، واستأذنوا سلطان الصوفي بالإقامة.

... ويقال إن هؤلاء التيبو كانوا من المسلمين الذين استطاعوا أن يحتلوا جزءاً من كانم وأن يهزموا الزغاوة وينشروا الإسلام ويعاصر استقرار التيبو في كانم

قيام الأسرة »السيفية« التي اعتبرت نفسها حامية الإسلام.

(1718/1)

... والواضح من هذه الشواهد أن الشطر الشرقي من إمبراطورية البرنو، وهو كانم، قد اعتنق الإسلام قبل القسم الغربي وهو برنو. يقول بفر: »اعتنق أهل كانم الإسلام قبل البرنويين«. ويقول أوفوي: »انتشر الإسلام في كانم وبرنو حوالي عام 1000«. ويضاف إلى ذلك أن الإسلام دخل برنو على يد الفاتحين الكانميين الذين كانوا يعتنقونه منذ مدة طويلة، وأن عدد الداخلين في العقيدة الجديدة كان يزداد يوماً بعد يوم، وأن مدناً إسلامية اشتهرت مثل مدينتي مارغي وماندرا.

... أورد بالمر ترجمة مخطوطة عربية في كتابيه:

(1719/1)

... Sudanese Memoirs – 1؛

... The Borne Shara and Sudan – 2.

... وهذه المخطوطة عبارة عن رسالة أصدرها الملك أو الماي أوم ابن عبد الجليل (حكم من حوالي عام 1086 إلى عام 1097) موجهة إلى أبنائه وخلفائه من بعده. وتعرف هذه الرسالة أو هذا المنشور أو المرسوم في المصطلح العربي البرنوي باسم »محرم«، وتتضمن معلومات عن دخول الإسلام إلى برنو.

... جاء في هذا »المحرم«، بعد البسملة والحمدلة، أن أول بلد دخله الإسلام في السودان هو برنو، وأن ذلك كان على يد الداعية المسلم الفقيه محمد بن ماني وهو السلف البعيد للإمام

(1720/1)

أحمد بن فرتوا مؤرخ بلاط برنو زمن »الماي إدريس الوما«. توفي حوالي 1602 م. يقول »المحرم« إن الداعية أو المعلم محمد بن ماني كان معمراً؛ فقد عاش 120 سنة وعاصر خمسة من مايات برنو، أولهم الماي بولو الذي حكم حوالي عام 1020 م وآخرهم الملك أوم الذي كتب هذا لمحرم عنه.

... وأن محمد بن ماني قرأ مع الماي بولو الجزءين الأخيرين من القرآن الكريم من أول "سورة الملك" إلى نهاية "سورة الناس".

... وكما جاء في نصوص المحرم، فقد قرأ معه من سورة {تبارك الذي بيده الملك} إلى {من الجنة والناس}، وأن الملك بولو منحه مكافأة

(1721/1)

على ذلك هي عبارة عن خمسين جملاً وأن محمداً بن ماني قرأ مع الماي أركي (وقد حكم حوالي عام 1035 م) من أول "سورة يس" إلى نهاية "سورة الناس". فكافأه بسبعين جملاً؛ وكذلك كافأه الماي عبد الجليل بثمانين جملاً بعد أن أقرأه من "سورة الأعراف" إلى ما بعدها.

... وأما الملك أوم، فقد قرأ معه القرآن كله من "سورة البقرة" إلى نهاية "سورة الناس"، وقرأ معه كذلك سيرة النبي – صلى الله عليه وسلم – وأمر بمنحه مائة بعير ومائة قطعة ذهبية ومائة قطعة من الفضة ومائة عبد.

(1722/1)

... جاء في هذا »المحرم« كذلك أن الماي أوم قام بنشر الإسلام مع محمد بن مالي، وأنه استحرمه عليه كما

استحرم عدداً من القبائل والأسر، وأوصى بحرمة أموالهم ودمائهم، ودعا على من يتعدَّى عليهم بالحرق في نار جهنم وأنهى المحرم بعبارة »والسلام علينا وعليكم«.

... يتضح من هذا المحرم أن الملك أوم لم يكن أول من اعتنق الإسلام من مايات البرنو. فقد سبقه مايات آخرون، فضلاً عن أن الإسلام انتشر بين كثير من أبناء قومه. وكان الماي أوم أول ملك معروف قام بدور كبير في نشر الإسلام، وهو مدفون في مصر. أدركته المنية حين كان

(1723/1)

في طريقه إلى الحج أو في طريق عودته منه. ازداد انتشار الإسلام بعد ذلك في برنو وتمسك المايات به وبمظاهره، فضلاً عن الدعاية له في شتى الوسائل.

وبانتشار الإسلام، أصبحت إمبراطورية البرنو جزءاً من العالم الإسلامي. وقد نعمت بهذا الرباط، إذ انتشرت فيها التعاليم الإسلامية والمدنية الإسلامية؛ كما حفلت بالكثير من العلماء المسلمين الذين استقروا في بلاد البرنو واختلطوا بالمواطنين. هذا، وقد عني مايات برنو بأداء فريضة الحج والطريق المألوف لحجاج بلاد السودان الأوسط والغربي عامة، طريق مصر حيث كانت السلطات

(1724/1)

المعاصرة تعمل على تيسير أداء هذه الفريضة. وأول من حج من مايات برنو المسلمين المعروفين، الماي أوم (حوالي 1097 م)؛ وقد مات بمصر وبها دفن.

... ولم يقتصر أداء هذه الفريضة على المايات، ولكن جميع المسلمين من أهل برنو كان القادر منهم يؤدي هذه الفريضة وكثرت وفودهم إلى مصر في طريقهم إلى الحج، حتى احتاجت هذه الوفود إلى مكان ينزلون فيه خلال رحلتهم. ومن أجل هذا، بنوا مدرسة في فسطاط مصر، عرفت باسم مدرسة ابن رشيق، لتدريس المذهب المالكي فضلاً عن استخدامها نزلاً للوافدين. نقل عن العمري والقلقشندي أن أهل كانم

(1725/1)

»بنوا مدرسة للمالكية بالفسطاط ينزل بها وفودهم«.

... ويقول المقريزي عن هذه المدرسة:

... مدرسة ابن رشيق بخط حمام الريش في مدينة مصر

كان من طوائف التكرور، لما دخلوا من مصر في سنة بضع وأربعين وستماية قاصدين الحج دفعوا للقاضي علم الدين بن رشيق مالاً بناها به ودرس بها فعرفت به وصار لها في بلاد التكرور سمعة عظيمة فكانوا يبعثون إليها في غالب السنين بالمال.

... وكان بناء هذه المدرسة في أواخر العهد الأيوبي وفي زمن الماي البرنوي دونمه بن دياالادن حوالي عام 1259 م؛ وكما بنيت مدرسة ابن رشيق بمصر لأهداف

(1726/1)

التعليم وإقامة حجاج برنون، بنيت فيها كذلك فنادق لنزول حجاج برنو.

... على أن أغلب المسلمين في إفريقيا السودان عامة يسيرون وفق طرق صوفية مختلفة. وكل هذه الطرق على مذهب الإمام مالك

أسباب انتشار الإسلام في النيجر

... لا يزال المؤرخون، خصوصاً دارسو التاريخ الإسلامي، يدهشون من سرعة انتشار هذا الدين وانتصاره على غيره في المناطق التي وصل إليها، ليس في إفريقيا

التي يعد النيجر جزءاً منها فحسب، بل العالم كله. فقد بسط سلطته على أجزاء كبيرة من البسيطة في وقت مبكر ووجيز نسبياً.

(1727/1)

... يقول الكاتب الأمريكي لوثروب سطودار في كتابه "عالم الإسلام الجديد" :

... إن نشر الإسلام هو الحدث الأكثر عجباً في التاريخ الإنساني. لقد خرج من بلاد وشعب لم يكن يؤبه بهما؛ وإذا به ينتشر في مدة قرن واحد في نصف الكرة الأرضية فاتحاً إمبراطوريات عظيمة، محطماً ديانات كبيرة تأسست منذ زمن طويل صاهراً في قلبه نفوس الأجناس، ومشيداً عالماً جديداً كله عالم الإسلام وبقدر ما ندرس هذا الوضع بدقة يتجلى لنا أنه أمر خارق للعادة (1).

---

(1) نقلاً عن: علال الفاسي، تاريخ التشريع الإسلامي، ط 1، 1990، ص. 16.

(1728/1)

... وفي الحقيقة إن ذلك يرجع في المقام الأول إلى الإسلام نفسه ثم إلى ظروف وطبيعة كل منطقة وصلت إليها الدعوة الإسلامية. وعند إمعان النظر في ذلك بالنسبة للنيجر، نجد أنها لم تشذ عن هذه القاعدة. فقد تظافرت عوامل كثيرة وأسباب عديدة جعلت الإسلام ينتشر في بلاد النيجر، ويستقر فيها ويدين به الغالبية الساحقة من السكان. وهذه العوامل يعود بعضها إلى طبيعة الدين الإسلامي نفسه، وبعضها إلى عوامل خاصة، أي طبيعة موقع النيجر جغرافياً. وفيما يلي نوجز أهم تلك العوامل:

أولاً : العوامل التي ترجع إلى الإسلام نفسه

(1729/1)

... 1 ـ جاذبية العقيدة الإسلامية: إن وحدة الإسلام وتجانسه وتناسقه وتماسك المسلمين وتشابههم تستهوي غير المسلمين نحوه، إذ يتقاسم جميع أفراد الجماعة الإسلامية عقيدة واحدة وعبادات متحدة، لا تتغاير مهما تباين مكان وزمان معتنقيها، ومهما تباعدت أصول أتباعها ولغاتهم وألوانهم وظروف حياتهم.

... 2 ـ سهولة الإسلام وبساطته: إن الإسلام دين الفطرة، يوافق فطرة الإنسان، لا يكلفه بما لا يستطيع القيام به {لا يكلف الله نفساً إلا وسعها}. ومما لا ريب فيه أن بساطة الإسلام وسهولة عقيدته ساهمتا في انتشاره بسرعة مذهلة

(1730/1)

في أنحاء المعمورة. فالإيمان بوحدانية الله تبارك وتعالى، والاعتراف برسالة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم –، والالتزام بمقتضى هذه العقيدة يجعل المرء كامل العضوية في الجماعة الإسلامية دون قيد أو شرط

... 3 ـ الرقي الاجتماعي الذي يخوله الإسلام لأتباعه: إن الإسلام يهيِّءُ للفرد المسلم نوعاً من التفتح على العالم الخارجي يكفل له استعداداً فكرياً، ويوفر له عوامل تساعده على الرقي الاجتماعي، ويدفعه إلى التطلع إلى حياة أفضل، ويخرجه من وضع اجتماعي وثقافي واقتصادي متدنٍّ إلى وضع أعلى وأرقى. أضف إلى ذلك أن

(1731/1)

المجتمع الإسلامي، مهما كانت بساطته، فإنه يتوفر على مؤسسات عمومية يستفيد منها جميع أعضاء الجماعة دون تمييز، ويذكر منها المساجد والجوامع والمدارس ومجالس العلم وغير ذلك مما لا نظير له في المجتمع الوثني.

ثانياً : العوامل التي تعود إلى طبيعة الموقع الجغرافي ... تكمن هذه العوامل الخاصة في ما سبقت الإشارة إليه، وهو أن جسر الإسلام إلى هذه البلاد هو الشمال الإفريقي. ولا غرابة في ذلك، إذ أن الصحراء التي تفصل بلدان شمال إفريقيا وبلاد النيجر متصلة ببعض. فهي في الواقع همزة الوصل بين الشعوب التي تقطن جنوب

(1732/1)

الصحراء والتي تقطن شمالها. ومن ثم لا نستغرب ـ كما رأينا فيما سبق ـ دخول الإسلام إلى بعض أجزاء النيجر في وقت مبكر خاصة على الرواية القائلة بأن الإسلام دخل إلى هذه البلاد على يد الصحابي الجليل عقبة بن نافع رضي الله عنه.

...

واقع الإسلام في النيجر

... يعتبر الإسلام دين الغالبية العظمى لسكان النيجر.

فتشير أكثر الإحصائيات إلى أن نسبة المسلمين في جمهورية النيجر تبلغ 95٪ من مجموع السكان(1)، والنسبة المتبقية

---

(1) زكريا مومني، وضعية التعليم العربي في مدارس النيجر، بحث مقدم لنيل دبلوم عالمي، ص. 27.

(1733/1)

موزعة بين المسيحيين والوثنيين.

... ومن الناحية الرسمية، فإن النيجر عضو في منظمة المؤتمر الإسلامي. لكن دستور الدولة الرسمي الذي أقر في المؤتمر الوطني الذي عقد في عام 1991 م أن النيجر دولة علمانية (لائيك)، أي لا دينية على الرغم من المعارضة الشديدة لهذه الفقرة من الدستور وعلى الرغم من قيام الجمعيات الإسلامية وبعض الشخصيات بالمطالبة بإلغاء هذه العبارة من الدستور. إلا أن ذلك لم يغير من الواقع شيئاً.

... وانتشر في جمهورية النيجر بعض الجمعيات الدينية التي تتخذ الإسلام منهج عمل لها إضافة إلى الجمعية

(1734/1)

الإسلامية النيجرية التي كانت موجودة من قبل، وهي جمعية حكومية شبه رسمية ترعى المصالح والشؤون الدينية وتشرف على المساجد وعلى موسم الحج والقضايا التي تهم المسلمين.

... وجاء ظهور هذه الجمعيات بعد ظهور فكرة الديمقراطية التي تحترم حرية الانتماء الديني للشخص عقب انعقاد المؤتمر الوطني العام. ونالت هذه الجمعيات اعترافاً من قبل الحكومة. وأهم الجمعيات:

1 **ـ الجمعية الإسلامية النيجرية ((** Association Islamique du Niger**. وقد تأسست بمقتضى القانون رقم** 34/ 64 **المؤرخ في** 5 **نوفمبر** 1963 **م والمنظم للجمعيات في**

(1735/1)

النيجر(1)**، ومقرها الرئيس نيامي.**

2 **ـ الجمعية النيجرية للدعوة والتضامن الإسلامي**

(Association Nigerienne pour l'appel l'unite et la solidarité Islamique**).**

3 **ـ الجمعية النيجرية للدعوة والوحدة والتعاون الإسلامي**

Association Nigerienne pour l'appel, l'unite et **(**
la solidarité Islamique**).**

4**.جمعية نشر العقيدة الإسلامية (** Association pour
le Rayonnement de la culture Islamique**).**

---

(1) **قانون الجمعية الإسلامية الأساسي، المادة الأولى، الفصل الأول، ص.** 1.

(1736/1)

5**.جمعية نشر الثقافة الإسلامية (** Association pour
le Rayonnement de la foi Islamique**).**

6**.جمعية نشر الإسلام في النيجر (** Association pour
la diffusion de l'islam au Niger**).**

7**.جمعية الشباب المسلمين بجامعة نيامي (**
Association des Etudes Musulmanes de
l'Université Nigerienne. Ienne**).**

8**.جمعية الشباب المسلمين في النيجر (** Association
des jeunes Musulmans du Niger**).**

9**.اتحاد النسوة المسلمات بالنيجر (** Unité des
femmes Musulmanes au Niger**).**

(1737/1)

... ويعد ظهور هذه الجمعيات بداية لبوادر الصحوة الإسلامية في هذه البلاد؛ والكثير من أعضاء هذه الجمعيات من الشباب والمثقفين ذوي الاتجاهات الثقافية المختلفة.

... وتقوم هذه الجمعيات بالتصدي لكل القضايا والمسائل والدعايات التي تمس الإسلام وتتعارض مع عقيدة المسلمين وكل ما يمس الشعور الإسلامي.

... وتتبنى الجمعيات الإسلامية مقاومة نشر سياسة تحديد النسل التي تسعى الحكومة إلى تعميمها على جميع فئات المجتمع، وإن كان ظاهر دعاية الحكومة هي تنظيم النسل.

(1738/1)

... كما يوجد في النيجر مجموعة من الهيئات الإسلامية الخيرية تقوم بالاهتمام ورعاية الدعوة الإسلامية وتقديم المساعدات الخيرية المختلفة التي تمكن المسلمين من التغلب على الكثير من الصعوبات التي يواجهونها. وهذه الهيئات هي:

... 1 ـ «لجنة مسلمي إفريقيا»، وهي هيئة إسلامية تهتم

بالدعوة الإسلامية وتقديم المساعدات للمحتاجين من أبناء المسلمين والعناية بالأيتام، وتقوم ببناء المساجد والمستوصفات الطبية وحفر الآبار وتعيين الدعاة إلى الله وتوزيع الأضاحي في عيد الأضحى وتقديم وجبات إفطار في شهر رمضان. ومقرها

(1739/1)

الرئيس في الكويت، ولها فروع في معظم الدول الإفريقية.

... 2 ـ »الهيئة الخيرية العالمية «، وهي هيئة إسلامية تهتم بالعمل الخيري وتقوم بتقديم المساعدات للمحتاجين في النيجر، وتقوم ببناء المساجد وحفرالآبار وتعيين الدعاة إلى الله وتوزيع الأضاحي. ومقرها الرئيس في الكويت، ولها فروع في كثير من دول العالم.

... 3 ـ »مركز رابطة العالم الإسلامي «، ويقوم هذا المركز بالإشراف على معهد لتعليم أبناء المسلمين في النيجر. وفيه مكتبة عامة للمطالعة وتوزيع المصاحف والكتب، ولها عدة مستوصفات طبية تقدم العلاج المجانِيّ

(1740/1)

للمواطنين. ويتبع لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة بالمملكة العربية السعودية.

... 4 ـ «مكتب جمعية الدعوة الإسلامية العالمية»، ويقوم بالاهتمام بإقامة الدورات لتعليم العربية. ويقدم المساعدات للمحتاجين. والمقر الرئيس له في الجماهيرية العربية الليبية، وله مكاتب في كثير من دول العالم.

... وهناك نوع من التنسيق بين هذه الهيئات للوصول إلى الهدف المشترك بينها. والمذهب السائد في النيجر هو المذهب المالكي.

(1741/1)

... والمظاهر العامة تدل على اهتمام المجتمع النيجري بالإسلام. فتنتشر المساجد والمصليات الصغيرة في المدن والقرى ويرفع الأذان في جميع الأوقات. ويلاحظ في أوقات الصلوات توجه الكثير من المسلمين إلى أداء الصلوات في المساجد والمصليات المنتشرة في كل الأحياء. وفي كل عام يقوم عدد لا يستهان به من النيجريين بأداء فريضة الحج. وفي شهر رمضان تجد مظاهر الصيام وانتشار حلقات تفسير القرآن طوال ليالي الشهر الكريم.

... وفي عيد الأضحى يكاد معظم النيجريين يقومون بالتضحية اتباعاً لسنة نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم –.

(1742/1)

... ومن العادات الإسلامية المنتشرة في المجتمع النيجري العقيقة، بحيث يذبح شاة عندما يرزق الرجل بمولود ويكون ذلك في اليوم السابع من الولادة.

... وفي مجال الزواج، فإن أبناء المجتمع النيجري يلتزمون بالطريقة الإسلامية في إجراء العقود، وينتشر الزي الإسلامي في المجتمع النيجري على نطاق واسع بين الرجال والنساء.

...

الجامعة الإسلامية بالنيجر

... وتوج وجود الإسلام في النيجر بموافقة »المؤتمر الإسلامي« في لاهور بباكستان عام 1971 م على إنشاء جامعة إسلامية في غرب القارة الإفريقية يكون مقرها دولة النيجر

(1743/1)

لموقعها المتوسط بين دول المنطقة، وللنسبة الكبيرة للمسلمين فيها. وبدأت الدراسات لتنفيذ هذا المشروع بعد المؤتمر مباشرة، وتم افتتاح الجامعة فعلاً عام 1986 م وابتدأت بكلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية. والهدف من إنشاء هذه الجامعة إحياء التراث الإسلامي في المنطقة، وتخريج وإعداد المعلمين والدعاة لنشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية .لغة القرآن الكريم .وربط حاضر المسلمين بماضيهم العتيد، ونشر الوعي بين أبناء المسلمين في المنطقة، والوقوف في وجه الهجمة الصليبية على المنطقة. وبالفعل قامت الجامعة

(1744/1)

بتخريج عدة دفعات من أبناء المسلمين في المنطقة، وأصبحت الجامعة معقلاً علمياً مهماً في المنطقة ومركز إشعاع للثقافة والعلوم الإسلامية.

الطرق الصوفية في النيجر

... يوجد للطرق الصوفية انتشارٌ واسعٌ في جمهورية النيجر، وخاصة الطريقة التيجانية التي لها تأثير كبير على أبناء المسلمين في النيجر ولها أتباع في مختلف

المحافظات. ولشيوخ هذه الطرق مكانة في نفوس المريدين. ويعود سبب انتشار الطرق الصوفية في النيجر، وخصوصاً في القرى والأرياف، إلى البساطة والسهولة في حياة الناس وتناسب هذه الطرق مع طبيعة الناس. ووجد

(1745/1)

الناس التجمع حول الشيخ وفي الانضمام إلى حلقات للذكر ما يروي الظمآن ويشبع الجوع الروحي، وطالما شاع الاعتقاد بأن للشيخ كرامات واسعة يلعب بها الخيال فيصل إلى فك المعاني وشفاء المريض وإزالة العقم. وكان الناس يتناقلون هذه الشائعات ويضيفون إليها، فتتوافد على الشيخ الجموع الغفيرة الراغبون في الانضمام إلى مريديه، بما أن رجال الطرق الصوفية لا يكترثون بالمال ولايسعون إلا للكفاف؛ ومن هنا يلقب المريد بالفقير. وإذا كان نشاط الناس يكون في النهار، فإن نشاط الطرق الصوفية يرتبط بالليل لما له من جلال وعظمة.

(1746/1)

وجمهور الليل ومريدوه أكثر، وحضرة الذاكرين لها جاذبية تشد الحاضر وتقرب لها البعيد. وفي هدأة الليل تغمر أصوات الذاكرين النجع كله، فيهرع الجميع إلى حلقة الذكر من شيب وشباب ورجال ونساء، بل ربما انتقلوا مع الشيخ من مكان إلى مكان ومن قرية إلى قرية.

... ويعتبر الشيخ أبو بكر جوتا أكبر شيوخ الطريقة التيجانية الذي استمد هذه الطريقة من الشيخ إبراهيم انياس السنغالي أشهر أعلام التيجانية في غرب أفريقيا. وقد دخلت هذه الطريقة إلى النيجر منذ قرابة قرن من الزمان وحملها إلى النيجر الحجاج الذين يمرون عبر السنغال

(1747/1)

ومالي ونيجيريا وغانا(1). وأهم المراكز التيجانية المعروفة اليوم هي: ساي، تاسوا، زندر، مرادى، منطقة غوري، فيلنجه، دسو. ثم إن هناك فرقة دينية تفرعت عن التيجانية هي الماملية. وقد انتشرت هذه الفرقة ضمن نطاق محصور قرب ولاموردى.

... أما »السنوسية«، فقد لاقت رواجاً خاصاً بين الطوارق في عير وبين التوبوس في بيلما؛ كما أن الشاذلية

عرفت لها بعض الأتباع بين الطوارق في كليل اوى وفي زندر

---

(1) من مقابلة مع الشيخ موسى سليمان، مدير التعليم العربي في النيجر. ويعد أحد أتباع الطريقة التيجانية في يوم 1995/7/25 م.

(1748/1)

وبين اتباع مذهب يان كوبلي في ماكوديا وفي زرمو قرب زندر، ولدى البول في غورى، وهي مذهب يشدد على نمط الحياة الصارمة وينتظر عودة الولي أو المخلص(1). ويسود في النيجر المنهج السلفي على نطاق واسع بين أوساط الشباب والمثقفين.

...

النشاط التبشيري في النيجر

... وعلى الرغم من انتشار مظاهر التمسك بالإسلام، فإن التأثر بالحضارة الغربية وتقليد الأجنبي منتشرة في المجتمعات النيجرية على نطاق واسع، خاصة في العاصمة والمدن الكبرى. أولى هذه المظاهر انتشار اللغة الفرنسية التي تعد

(1) النيجر اليوم، مرجع سابق، ص. 39.

(1749/1)

اللغة الرسمية للدولة ولغة التعليم؛ وهناك فئات عديدة في المجتمع النيجري تتبع النهج الغربي في العادات والتقاليد والزي وطريقة العيش، وكذلك المعاهد والمراكز والمؤسسات المختلفة. ويوجد انتشار واسع لأماكن اللهو والحضارات والنوادي الليلية. ويمكن القول إن هناك صراعاً حضارياً وثقافياً بين الحضارة والثقافة الإسلامية والحضارة والثقافة الغربية. وأما انتشار الكنائس والنشاط التبشيري لصرف المسلمين عن دينهم ومعتقداتهم الإسلامية، فكبير. وقد بدأت هذه الحملة منذ الستينيّات، وكانت في أوج نشاطها في عدد من المحافظات

(1750/1)

النيجرية. وقد تمكن هذا النشاط من جني ثمراته بتحويل عدد من أبناء المسلمين عن دينهم، وذلك بما يقدمه المبشرون من خدمات صحية وتعليمية باسم

الخدمات الإنسانية. وأهم المناطق التي تأثرت بالنشاط التنصيري منطقة تيرا ودوتشي واغادس وطاوا ونياس ومرادى وساي.

... ويستغل المبشرون الحالة الاقتصادية للسكان وجهلهم بتقديم بعض الخدمات العينية والمادية مقابل تنصيرهم(1).

---

(1) ... صلاح الدين حماد، الغزو الثقافي والفكري لغرب إفريقيا، رسالة ماجستير، ص. 168.

(1751/1)

... وتقوم جماعات التنصير بإقامة المراكز الصحية وتقديم الخدمات الطبية، وتدعو إلى إقامة مؤتمرات في النيجر منها مؤتمر السياسة السكانية الذي عقد في عام 1990 بمدينة مرادى. وقد حضر هذا المؤتمر مندوبون عن مؤسسات مختلفة في النيجر(1).

... زيادة على ذلك، بدأت الكنائس النصرانية تنتشر في النيجر بسرعة مدهشة. فمثلاً، في مدينة نيامي وحدها فيها ما لا يقل عن أربع كنائس كبيرة. فهذا العدد يعتبر كبيراً باعتبار عدد النصارى في البلد، وهناك محاولات مستمرة لبناء كنائس أخرى في مدن مختلفة.

...

---

(1) **المرجع نفسه، ص.** 169.

(1752/1)

التعليم العربي والإسلامي

... أصبح التعليم العربي والإسلامي حقيقة ملموسة في أنحاء النيجر، فلقي التعليم الديني اهتماماً من قبل الدولة. وهذا الأمر بدأ في وقت مبكر عقب الاستقلال. مما يدل على ذلك أنه أنشئت إدارة خاصة للتعليم العربي في وزارة التعليم العربي والإسلامي في جميع المراحل. وقد أرسلت حكومة النيجر بعض أبنائها ليتعلموا اللغة العربية والدراسات الإسلامية في البلدان العربية، وأصبح انتشار المدارس والمعاهد العربية ظاهرة واضحة في النيجر. فمثلاً، في نيامي يوجد المعهد الإسلامي المتخصص في التعليم

(1753/1)

العربي والإسلامي للمرحلة الثانوية؛ وكذلك معهد رابطة العالم الإسلامي. وتستعين النيجر، إضافة لأبنائها،

بمعلمين متعاونين من دول عربية مثل مصر (الأزهر) والسعودية والمغرب لسد النقص في المواد العربية والإسلامية في مدارسها؛ كما انتشرت المدارس الأهلية التي تهتم بالتعليم الديني انتشاراً واسعاً؛ وتجد هذه المدارس الدعم والتشجيع من قبل الحكومة.

... ليس هذا فحسب، بل إن جامعة نيامي الوطنية تشتمل على بعض المساقات العربية الإجبارية لطلبة بعض الكليات فيها؛ وهناك خطة لتعميم التعليم العربي ليشمل كافة المدارس في

(1754/1)

جميع المناطق والمحافظات.

(1755/1)

الإسلام والمسلمون بأوربا : مشاكل الأجيال الصاعدة في حفظ الهوية

الدكتور عباس الخراري

عضو أكاديمية المملكة المغربية

...

... لاأخفي منذ البدء مدى صعوبة هذا الموضوع، وهي نابعة من عسر التوفيق بين الأجيال الصاعدة من أبناء الجالية الإسلامية المهاجرة إلى بلدان أروبا وبين تمسكهم بالهوية، مما تجسمه المشاكل التي تعانيها هذه الأجيال، والتي سأكتفي في هذا العرض بمجرد لمسها ومقاربتها .

... وإني لآمل في هذه المقاربة أن أقف على جوانب ثلاثة :

(1756/1)

... أولا.. : مفهوم الهوية ومقوماتها والنزوع التلقائي إلى المحافظة عليها .

... ثانيا.. : موقف المهاجرين وأجيال الصاعدة من هذه الهوية وما يعاونون من مشاكل في سبيل التمسك بها .

... ثالثا.. : اقتراح خطة شاملة لمواجهة تلك المشاكل.

* * *

... الهوية بالنسبة للفرد – أي فرد – هي ما يكون به "هو" أي مجموع المقومات والعناصر المكونة لشخصه والميزة لذاته؛ وما يثبت وجوده ويؤكد حضوره في

مجتمعه الصغير والكبير، وما به كذلك يوجه أفعال وانفعالاته ويضبط علاقاته الخاصة والعامة.

(1757/1)

... وهي تتشكل انطلاقا من نوازعه الفرطية، وما يتمتع به من طاقات وقدرات، وما يكتسب من معارف وتجارب، تجعله ينصهر في بوتقة تلك المقومات، لينبثق منها مطبوعا بملامح وسمات، وهي التي تمثل هويته، وتحدد ما له فيها من أبعاد، وما يشده من روابط، وتعطيه حقا خالصا له لاسلطان فيه لأحد عليه، إذهو في طليعة ما يعترف به للإنسان من حقوق. ويمكن حصر عناصر هذا التشكل في مكونات أربعة(1) :

---

(1) انظر "الثقافة من الهوية إلى الحوار" لصاحب العرض (مشورات النادي الجراري، 3، الرباط، 1413 ه /1993م)

(1758/1)

... 1– البيئة بمختلف عناصرها الطبيعية والبشرية وما ينشأ عنها من نظم وأوضاع شتى ملدية لاتلبث أن تتبلور في تجليات ذهنية ونفسية هي التي تحل هذه

البيئة مقام الوطن بكل ما له من معان وقيم.

... 2- الدين باعتباره عقيدة تكيف المفاهيم والتصورات، وعبادات تنبع من هذه العقيدة وتضبطها، وشريعة تنظم الحياة في شتى مظاهرها، ومنظومة خلقية تحدد السلوك وأنماط العلاقات.

... 3- اللغة من حيث هي أداة خطاب وتواصل، ووعاء فكر وأحاسيسن ومظهر إثبات الوجود، والرمز المعبر عن الذات.

(1759/1)

... 4- التراث الثقافي والحضاري المعبر عن مدى نبوغ الأجيال وعبقريتها وما كان لها من إنتاج دال على ما أدركت في مجالات العقل والعاطفة والذوق والممارسة من علوم وفنون وآداب، وما أبدعت من صناعات ومهارات، وما أشاعت من عادات وتقاليد.

... وحين يتعلق الأمر بالمهاجرين المسلمين، أي أصحاب هوية إسلامية، فإن هذه المقومات تنصهر في بوتقة الدين، باعتباره المؤثر الفاعل فيها جميعا، بدءا من الأوطان التي أسست على دعامته، إلى اللغة التي هي لارتباطها بالقرآن الكريم تداخل وجدان كل مسلم حتى من لم تكن له أداة تفاهم

(1760/1)

وتخاطب، ليمس الأمر بعد ذلك التراث الذي تبع من الإسلام واصطبغ بروحه.

... والتحام هؤلاء المهاجرين بالهوية الإسلامية في مجالها الرحب الواسع، لا يحول دون تمسكهم بهويات فرعية، تشدهم إلى بيئات معينة ومجتمعات محددة، لها ثقافتها الإقليمية وممارساتها المحلية، بدءا من لهجة أو لغة غير العربية إلى تقاليد وأعراف خاصة.

... ومهما تكن الدواعي التي تقود المهاجر إلى مغادرة وطنه للإقامة في غيره، فإنها تجعله في حيرة من أمره يعاني نزاعا نفسيا أمام مختلف الاختيارات التي تكون متاحة له، أو بالأحرى تكون مفروضة عليه، إذ

(1761/1)

يتلقى ظروفها وشروطها من الطرف المستقبل.

... ويكفي بالنسبة للأجيال الصاعدة أن نشير إلى احتمالين:

... الأول.. : الاندماج في الآخر بكل معطيات حياته ومقتضياتها، ومنها الهوية.

... الثاني.. : التمسك بالهوية الأصلية، وعدم الذوبان في الآخر.

... وعلى العكس ما يبدو نظريا ولأول وهلة، فإنه ليس سهلا أن يتحقق للمهاجر هذا الاحتمال أو ذاك، سواء أكان راغبا فيه أم مكرها عليه.

... ففي الحالين، يواجه المهاجر بالرفض النابع عند الآخرين من ميز جنسي، أو تعصب ديني، أو عنصرية ثقافية، أو من هذه العوامل مجتمعة بكل ما

(1762/1)

يكون لها من انعكاسات اقتصادية واجتماعية تحل الآخر مقام التفوق، بالقياس إلى المهاجر الذي – مهما يكن مؤهله أو العمل الذي يقوم به – يبقى في مكان دوني، يتمثل ماديا في الواقع الذي يعيشه، ونفسيا في المرارة التي يجترها باستمرار.

... وهووضع يعانيه المهاجر إذا أراد أن يبقى على صلة بهويته، ولو بخيط رفيع؛ ويعانيه حتى إن أبدى قطع هذه الصلة. وتزيد هذه المعاناة حين لايكون له وضع قانوني يسمح له بالإقامة والحصول على عمل قار أو موقت.

(1763/1)

... والمشاكل التي يعانيها المهاجرون كثيرة كثرة الأسباب التي تكمن خلفها، ومن أبرزها :

... – صعوبة التمتع بوضع قانوني إلى حد الاستحالة.

... – عسر الحصول على عمل.

... – الطبيعة الشاقة أو المزرية لهذا العمل.

... – ضعف الأجر .

... – ضياع حقوق نقابية والضمانات الاجتماعية.

... – الإقامة في أحياء معزولة ومختلفة.

... – الشعور بالقلق والرعب من رد فعل الآخر وحتى من نظراته.

... – الغربة عن الأهل والوطن.

... – التمزق العائلي بالنسبة لمن يترك زوجته وأولاده في وطنه، وكذا بالنسبة لمن ينتقل بأسرته أو يضطر إلى

(1764/1)

تكوينها بالزواج المحلي.

... – الحرمان من إثبات شخصيته وممارسة حريته ....

... من هذا الحرمان تبدأ مشاكل حفظ الهوية، وهي إذا كانت مشاكل يعانيها المهاجرون عامة، فإن بالنسبة للأجيال الصاعدة تأخذ أبعادا تضاعف ما تظهره أو تخبئه من أخطار.والمقصود بهذه الأجيال، هو الجيل الثاني والثالث بالتجديد؛ وأول ما يلفت النظر فيها أن عددهما يزيد بسبب كثرة الولادات التي تدفع إليها الرغبة في الحصول على مزيد من التعويضات، حتى حين تكون الزوجة أروبية، لما لها في القوانين المحلية من مكاسب وحقوق باعتبارها أما وربة بيت.

(1765/1)

ويتخذ الوضع أبعادا أوسع حين يلجأ المهاجر إلى زيجات متعددة.

... وتبدإ معاناة هذه الأجيال بصدام مع واجهات كثيرة :

... 1– مع أنفسهم التي يضطرم فيها نزاع قوي نابع مما هم عليه في الواقع، سواء من حيث انتماؤهم في الأصل، أو الوضع المزري الذي تعيشه أسرهم.

... 2– مع هذه الأسر التي تريدهم أن يظلوا محافظين –

ولو نسبيا ومظهريا – على ما يشدهم إلى جذورهم، غير راضين عنها، لأنها ستقيهم في وضعية آبائهم وأمهاتهم، وهم لهذه الوضعية رافضون.

(1766/1)

... 3– مع المجتمع الذي يعلن عدم قبولهم، أو حين لا يعلنه يتعامل معهم بحذر شديد. وهم يشعرون بهذا الموقف في سلوك أقرانهم من جيران الحي ورفقاء المدرسة.

... والحقيقة أن هذا الصدام في البدء والختام يؤول إلى صراع مع الهوية. فإذا كان عدد ضئيل منهم يريد بقاء الارتباط بها، فإن أغلبيتهم يودون التخلص منها، لأنهم يرفضون أن يظلوا مهاجرين، ولأنهم يتمنون الاندماج، إما عن اقتناع أو لحل مشاكلهم.

... وهي مشاكل تبدأ منذ الميلاد وعند تسجيل اسم المولود، إذ يلزم الوالدان باختياره بعيدا عن المجال الذي يرتبط بالهوية.

(1767/1)

وحين لايقع الألزام، فإن يكتفي بالإيحاء والتوجيه.

... ثم تلبث هذه المشاكل أن تتضخم إذا ما تسنى للطفل أن يلتحق بالمدرسة. فعلى الرغم من أن التعليم لايتاح إلا في نطاق محدود، فإن من يحظى به يلقى تعثرا كبيرا لضعف الإمكانات ووسائل المتابعة، مما يسبب له تخلفا عن المستوى المطلوب. بالإضافة إلى أنه لطابعهالعلماني، ولابتعاذه عن مقومات الهوية، يعمق في نفس التلميذ المهاجر ذلكم النزاع النفسي الذي قد ينتهي به إما لفصله عن هويته، وإما لرد فعل مضاد يقود إلى التطرف الديني الذي يجد له مرتعا خصبا بين المهاجرين،

(1768/1)

والذي غالبا ما يرتبط باتخاذ مواقف معارضة من أنظمة البلاد الأصلية؛ هذا إن لم يؤد الأمر إلى الانحراف الذي توجد له مغريات كثيرة.

... وتأتي بعده مشاكل البحث عن عمل، وهو في الغالب غير متيسر في ظل أوضاع اقتصادية واجتماعية تولد البطالة، وفي مناخ ينظر فيه للمهاجر – مهما يكن جيله – بشيء غير قليل من الازدراء والاحتقار. وهو منظور لايتغير حين طلب الجنسية التي لاتمنح إلا في نطاق محدود، بغض النظر عن موقف الدين والوطن منها .

(1769/1)

... وفي حال التغلب على جميع هذه المشاكل، تبقى موانع تحول دون الاندماج، إذ لايمحي أثر الحاجز العنصري، ولا العائق الديني والثقافي والنفسي؛ أي لاتمحى بصمات الهوية من الشاب الراغب في الاندماج، مهما تكن رغبة الانفصال عنها، لاسيما وأن شروط التساكن وظروف التايش غير متوافرة، على نحو يتيح له علاقات طبيعية مع الأقران من أبناء البلد. كما لايدل موقف الآخر منه،حتى حين يتزوج من فتاة أروبية. بل لعل هذا الموقف يزيد عداء، للشعور بأن الشاب المحافظ على بصمات هويته، رغم أن مختلف ظروف الاندماج قد أتيحت له، هو أقوى

(1770/1)

خطرا من المهاجر الأب أو الجد، لأنه غدا صاحب حق يجعله قادرا على أن يتسرب من الداخل. وما يقال عن هذا الشاب يقال كذلك عن الفتاة المسلمة التي تقترن بأروبي. يضاف إلى كله أن الإندماج لايمكن أن يتحقق – مهما تكن الأسباب التي توافرت له – ما لم يكن الشخص الراغب فيه مقبولا لدى الآخر، أي قبولا كما هو، أعني

بهويته في جميع مقوماتها أو بعض ما يبقى لها من ملامح، حين يراد منها الانسلاخ، أو حين يفرض تعاقب الأجيال المندمجة محو آثارها، إلا ما كان من النتماء الأصلي الذي لاشك يستمر موشوما في الذاكرة لمن ينقب عنه

(1771/1)

ويبحث. وقد يستمر معه إحساس باطني يبدو غير معلن عنه ولا مكشوف؛ وإذا ظهر فبخاء وتستر واحتشام، ولكنه إن واتته ظروف لايلبث أن يتجلى في أبهى مظهر وأقواه، في شبه انفعال موقوت.

... إن الأجيال الصاعدة في خضم هذه المشاكل تسعى إلى تكوين الشخصية وفرض الذات، وتحقيق الطموحات وممارسة الحريات، على نحو ما لمثيلاتها من الأجيال الناشئة الأروبية. وهي من أجل ذلك تسارع إلى التقليد والاتباع، وإلى القناعة بالقليل، وإلى ابتلاع عقد النقص وتجاوز الصراع النفسي تجاه الهوية؛ وهو تجاوز ذو مظهرين :

(1772/1)

... أولهما.. : يتمثل في الانسلاخ عن الهوية في أبرزمكوناتها، ولاسيما الدين واللغة.

... وثانيهما.. : يتجلى في التمسك بها، أو ببصيص منها، مهما يكلف هذا التمسك

... وعلى الرغم من كل ما يفرضه واقع الغربة على المهاجرين الأوائل، فإن ارتباكهم بالهوية يتجلى باستمرار مقترنا بما لهم من حنين إلى أوطانهم، وعودتهم إليها بصفة نهائية حين تنقضي مدة عملهم، أو بصفة موسمية لقضاء عطلهم. كما أنهم غالبا ما يحولون إليها مدخراتهم المالية، لاستثمارها والتعويل عليها عندما يعودون إليها للاستقرار وقضاء بقية أيام

(1773/1)

العمر.

... أما أثر هذا الواقع على الأجيال الصاعدة فإنه يبدو مخالفا لذلك:

... 1- فهم أميل إلى الاندماج بمفهوم الانفصال عن الهوية، وهو انفصال إن لم يكن نهائيا، فإنه ينم بالتدريج.

... 2- وإذا ما اجتمعت لهم مدخرات، فإنهم لا يستثمرونها في أوطانهم.

... 3- ومن ثم، فإنهم لايفكرون في العودة النهائية إليها للاستقرار.

... 4-فلما يقضون عطلهم فيها، وإن فعلوا أحسوا بغربة تعمق شعورهم بالانفصال ورغبتهم فيه.

... 5- لايربطهم بالهوية إلا حديث الآباء والأمهات، بما يثيره هؤلاء من ذكريات، وبما يمارسون من عادات

(1774/1)

غالبا ما تواجه بالضيق والانتقاد وربما الاشمئزاز.

... 6- كما أن معاملة الأروبيين لهم تذكرهم دائما بانتمائهم.

* * * *

... ويبدو أن هذه الحقيقة الأخيرة تجعل المرارة تتضاعف في نفوسهم، ومعها يقوى شعور في لاوعيهم بضرورة التمسك بشيء يعطيهم كيانهم ويبرز شخصيتهم، وقبل ذلك يرد عنهم الإهانة ويحميهم من الضياع. وهنا يكمن بصيص الأمل في إنقاد الأجيال الصاعدة، بإعادة الثقة في هويتها التي هي كالرحم الحنون تجمع المهاجرين من مختلف الأجيال بأوطانهم

وتحميم في هجرتهم. وهذه لاشك مهمة جسيمة تقتضي من البلاد الإسلامية

(1775/1)

خطة شاملة تكون لله هادفها واضحة ووسائلها محددة ومناهجها مضبوطة.

... ونقطة البدء في هذه الخطة أمور جوهرية منها هذه الأربعة :

... أولا.. : حصر العناصر الصحيحة والمعالم الضرورية في الهوية لاعتمادها، وكذا حصر الزائف منها لإبعاده، مع تهميش ماهو اختياري أو تأجيله لقاء ما تكون له الأولوية والسبق، سواء بالنسبة للدين أو التراث

... ثانيا.. : توحيد الرؤى فيما يتعلق بأمور الدين خاصة، في بعد عن الخلافات المذهبية، وفي النطاق الذي يبرز وسيطة الإسلام واعتداله ويسره.

(1776/1)

... ثالثا.. : بحث إمكان التوفيق بين قيم ومقتضيات المجتمعات الأروبية، وإن مع شيء من التطوير الذي لامس

جوهر تلك القيم.

... رابعا.. : التوسل بأساليب العصر الحديث، بما فيها السمعية البصرية وأدوات الاتصال الجديدة، مع مراعاة التبسيط والإغراء والتشويق، وتجنب كل ما يفضي إلى التعقيد والتنفير. وحتى تتحقق هذه الخطة، فإنه ينبغي:

... 1 – إقامة مؤسسات حكومية وحرة، وإنشاء هيآت عامة وخاصة، وتأسيس مراكز ثقافية، وبناء مدارس ومساجد وقاعات للصلاة؛ وتوظيفها جميعا لمباشرة الاتصال الدائم بالمهاجرين، وتنظيم هذا

(1777/1)

الإتصال، وتوجيهه لرعاية الأجيال الناشئة منهم على الخصوص، في شتى مقتضيات الحياة، بما يجعل تلك الأجيال مشدودة باستمرار لأوطانها معتزة بهويتها.

... 2– إمداد هذه المؤسسات وما إليها بأطر كافية للنهوض بالتعليم والوعظ والإمامة والخطابة، والإشهاد العدلي، على أن يكون مؤهلة ومكونة، كل في دائرة اختصاص عمله، للقيام بالمهام التي يقتضيها حسن توجيه الأجيال الصاعدة من المهاجرين، سواء فيما يتعلق بإتقان اللغة العربية وما إليها من لهجات وعاميات وكذا

اللغات الأروبية، أو فيما يتعلق بالمعارف الدينية والتاريخية وغيرها

(1778/1)

مما يتصل بالحضارة والثقافة؛ على أن تستعمل الأساليب التربوية لذلك وينبغي لهؤلاء القيمين أن يكونوا قارين في هذه المؤسسات، وربما تنقلوا من واحدة إلى أخرى؛ دون إهمام الأساتذة والعلماء الزائرين الذين يفدون بمناسبات معينة.

... 3 – العناية بتعليم منظم للدين واللغة – أواللغات واللهجات إن اقتضى الأمر – مع ما يرتبط بهما من معارف ثقافية وحضارية، على أن تقام لهذا التعليم مدارس خاصة به، أو يتفق مع الدول الأروبية على إمكان استعمال مدارسها الرسمية في أوقات معينة وكذا على ضرورة تخصيص حصص في تعليمها لبعض

(1779/1)

المواد الدراسية التي تهم المهاجرين المسلمين. ويمكن تقديم هذا التعليم كذلك في المساجد والمراكز

الثقافية الإسلامية بتلك البلدان.

... 4 – تزويد هذه المراكز بما يلزم من كتب وصحف ومجلات وأشرطة مسموعة ومرئية وغيرها، مما تسيره أجهزة الاتصال العصرية، بهدف توفير مادة مرجعية كافية، ومقنعة، تغريهم بالتردد على هذه المؤسسات، للمحافظة على استمرار علاقات أجيال المهاجرين بها، لمتابعة توعيتهم بالهوية، ولميساعدتهم على تذليل الصعوبات التي تعترضهم في الغربة.

(1780/1)

... 5 – تخصيص إذاعات وقنوات فضائية تشرف عليها البلدان الإسلامية وتوجه مختلف برامجها الإعلامية والتثقيفية والترفيهية لما يشهد المهاجرين إلى مقومات هويتهم.

... 6 – توفير ظروف الزواج وما إليه من متعلقات الأحوال الشخصية وقضاياها المختلفة، كالطلاق والنفقة والحضانة وما إليها ، وتيسيرها لتشجيع ارتباط المسلم بالفتاة المسلمة، وعدم اضطرارهما إلى الارتماء في أحضان زيجات أجنبية، غالبا ما تكون إجرآتها سهلة ومبسطة ولكن عواقبها وخيمة.

(1781/1)

... 7 – إقامة مخيمات ومراكز للأطفال والشباب يقضون فيها عطلهم ، في نطاق تأطير يركز على مقومات الهوية، وكذا تنظيم رحلات لمختلف البلاد الإسلامية تكون في نفس الإطار.

... 8 – عقد مهرجانات ثقافية وفنية بالمناسبات الدينية وغيرها من المواسم، لتعميق الشعور الديني والحس الحضاري الإسلامي.

... 9 – إحداث مرصد للمعلومات ومختلف المعطيات التي تتعلق بالمهاجرين، لتتبعها وتحليلها والاستفادة منها في تطوير العمل وتجديد أساليبه.

(1782/1)

... 10 – توجيه الآداب التي يكتبها المسلمون بلغات أروبية، لتكون أحدى وسائل التوعية بالهوية وقيمها وخصائصها؛ أقصد في وسط الأجيال الناشئة من أبناء المهاجرين، وحتى في الله وساط الأروبيين أنفسهم.

... وتحتاج الخطة بعد هذا إلى أمرين اثنين :

... أولا.. : الحرص على تنفيذ الاتفاقات التي أبرمتها

البلدان الإسلامية مع الدول الأروبية بشأن حقوق المهاجرين، وكذا المواثيق الدولية والتشريعات الأروبية التي تحمي هذه الحقوق، والعمل على بلورتها في الواقع؛ وفي طليعتها حق الانتماء إلى هوية مخالفة، والتمتع بحرية

(1783/1)

ممارستها في شتى الجوانب.

... ثانيا.. : إقناع الدول الأروبية – مسؤولين ورأي عام – أن الهوية الإسلامية غدت بحكم عدد المهاجرين الكبيرن وبطول إقامتهم واستمرارها إلى حد الاندماج، جزءا مكونا للواقع الثقافي الأروبي تحتاج إلى أن تقبله هذه الدول، وتتعامل معه ومع أصحابه رافد من شأنه أن يغني هذا الواقع ويمده ويفتح معه – عبر المبادئ المشتركة والقيم العريقة – آفاق التقتح والتواصل، في رحابة صدر وسعة ذهن، وفي تحاور هادف لمزيد من التفاهم والتعارف، وإرادة صادقة للتعايش والتسامح. ولعلها إن سارت في هذا الاتجاه

(1784/1)

أن تقوي كيانها ، وتحمي تقدمها ، وتشيع في ربوعها ومن حولها السلام.

(1785/1)

الإسلام والمسلمون في بلاد البلغار والروملي الشرقية الفترة الثانية 1945 ـ 1980

... ... الدكتور عبد الكريم الأبيض

... ... كلية الآداب ـ الرباط

... قبل أن أدخل في الموضوع المشار إليه، أحيل القارئ الكريم على سلسلة من الوثائق المهمة والدراسات ذات الطابع العرقي والديني التي ضمتها أكثر من 80 **صفحة تحمل عنوان "المشاكل الدينية في أوربا الشرقية:** 1945 ـ 1970"(1)**:**

---

(1) ... La Documentation Française, Notes et Etudes Documentaires, N° 3790–3791, 17 mai 1971, pp. 1–78.

(1786/1)

... في العدد السابع من مجلة "التاريخ العربي" كنت قد أشرت في الصفحة 240 إلى أن البحث في وضعية الإسلام والمسلمين في بلاد البلغار والروملي الشرقية سيقسَّم إلى قسمين، وكل قسم يختلف عن القسم الآخر تبعاً للفترتين التاريخيتين.

... لقد قمت بتحديد الفترتين عبر التسلسل الزمني، فعالجت الفترة الأولى التي تمتد من سنة 1870 عند انعقاد مؤتمر برلين المشهور إلى نهاية الحرب الكونية الثانية. أما الفترة الثانية 1945 ـ 1980(1)

(1) ... كان لهذا المؤتمر الذي عقد في باريس سنة 1878 تحت رئاسة المستشار بسمارك دور أساسي في وقف الزحف الروسي والإطلال على البحر الأبيض المتوسط وكان رد فعل إنجلترا حاسماً.

(1787/1)

، فكنت قد وعدت القارئ الكريم بتقديمها في مناسبة لاحقة. وقد كان التأخر في الوفاء بهذا الوعد يرجع لصعوبة البحث أولاً ـ وكنت قد ألمحت إلى ذلك في البحث الأول ـ ولقلة المصادر والمراجع ثانياً، فضلاً عن دخول

بلغاريا عهداً جديداً في نظام الحكم، وهو النظام الشيوعي الذي عم منطقة البلقان برمتها.

... في المقال الأول أشرت إلى دور الهجرة الكثيفة للطائفة المسلمة، وخاصة طائفة الترك وطائفة التتر اللتين حملتا معهما الإسلام إلى بلغاريا بعد دخول الإمبراطورية العثمانية إلى بلاد البلغار. ولم يكن ذلك حاصلاً للطائفتين

(1788/1)

الأخريين، طائفة البوماك (Pomak) . وهم بلغار أسلموا بعد ذلك. أو الجيتان. هذه الهجرة لعبت الدور الأساسي في تكوين الصعوبة التامة للبحث، وأدت نتيجة لذلك إلى عدم توفر وسائل الدقة والمراقبة، عندما يحتاج الباحث إلى تقديم إحصاء تام ومستقر وكامل حتى يتمكن بعد ذلك من فحص الطائفة المسلمة عبر هياكلها العامة من حيث التنظيم ومن حيث التلاحم والقوة والتراص، وكذلك من حيث حياتها العامة السياسية والثقافية والاجتماعية والقانونية. إن هذا الأمر متعذر المنال صعب التحقيق. وإذا كان هذا الأمر كذلك؛ فإن تضارب المراجع

(1789/1)

وتناقصها بالنسبة لما نشره الأتراك أو ما أعلنت عنه الحكومة البلغارية، كل ذلك يزيد أمر البحث عرقلةً.

... ثم إن الحدود التي كانت تفصل بين دول البلقان كانت قابلة للتغير في كل وقت وحين بسبب الحروب البلقانية الطاحنة ضد الأتراك أو ضد بعضهم البعض(1)، فتتقلص الأرض أو تتسع حسب الانتكاس الحربي أو عقب الانتصار.

---

(1) ... الحرب البلقانية الأولى سنة 1912 جمعت دول البلقان ضد الأتراك، والثانية سنة 1913 أعلنت فيها بلغاريا الحرب على صربيا، وكان ذلك مقدمة لإشعال دول البلقان نار الحرب ضد البلغار.

(1790/1)

... لقد أدخل النظام الشيوعي شريعة جديدة، فاعتبر النظام العلماني سبيلاً إلى تحقيق أهداف النماء والتطور. ولن يتم ذلك إلا عن طريق تحرير الإنسان من سيطرة الدين(1)

---

(1) ... في سنة 1919 كتب لينين ما معناه: إن الدين عبارة عن مظهر للقهر الروحي (Notes et Etudes Documentaires)، حيث أعلنت كل المذاهب والعقائد الشيوعية عن عزمها على تحطيم كل الأديان. في بلغاريا قامت السلطات الحاكمة بتقديم اقتراح إلى لجنة تحرير جريدة "Istina" التي كانت أسبوعية وتنطق باسم الكاثوليك بنشر مقال في هذه الجريدة يقدمه لها الحزب الشيوعي، لكن الرهبان قرروا وقف هذه الصحيفة حتى يتمكنوا من إبعاد أي احتمال لتدخل الدولة:

(Notes et Etudes Documentaires, p. 12).

... ينظر الشيوعيون إلى الدين من خلال ثلاث نقط أو مواقف هي:

... 1 . لا يمكن للدين أن يكون نافعاً للحزب الشيوعي، وفي هذه الحالة يجب القضاء عليه.

2 . في تقدير الحزب الشيوعي أن المؤسسات الدينية في كنائس ومساجد يتم القضاء عليها ليس عن طريق الهدم والتحطيم، ولكن بواسطة تشديد المراقبة وتعزيزها لوظيفة هذه المؤسسات.

3 . بعد مرور الزمن، ستتعاون هذه المؤسسات الدينية . طوعاً أو كرهاً . مع النظام الشيوعي. ذلك بأن الدين في

ظل النظام الشيوعي يتعرض للذبول والتلف كالنسبة داخل شقة درجة حرارتها مرتفعة. (Notes et Etudes Documentaires).

... نورد هذه الملاحظات في الصفحات التالية: 12 ـ 14، 24 ـ 25، 32، 60 ـ 62، 74 ـ 78.

(1/1791)

. وبالفعل، تم تهميش الدين بصفة عامة، بل إنه من المرجح أن يكون نجاح الحكومة البلغارية عائداً إلى سلسلة من الإجراءات التي اتخذت في سبيل طمس عدد كبير من المصادر. وقد نجحت في إدماج طائفة البوماك، طائفة الأطفال الضائعين المعتنقين للإسلام. وإذا كان الأمر كذلك، فإنه يرجع بالدرجة الأولى إلى عدم توفر هذه الطائفة على تنظيم محكم يجعل منها أداة قادرة على المقاومة والدفاع على غرار ما رأيناه لدى الألبان المسلمين بطائفتيهم السنية والبكداشية(1)

---

(1) ... راجع مقالنا المتعلق بقوانين الطائفتين، مجلة "التاريخ العربي"، العدد الثالث، ص. 263، والعدد الخامس، صص. 196 ـ 197.

(1/1792)

.

العهد الشيوعي 1945 ـ 1980: نظرة تاريخية مقتضبة

... بعد انهزام دول المحور، قام في بلغاريا ما كان يسمى بالجبهة السياسية التي خاضت المقاومة المسلحة ضد الألمان بوضع تصميم أولي يتطلع إلى تحقيق نظام سياسي جديد للحكم. كان الصراع محتدماً بين ثلاثة أحزاب: حزب الإنجاد الزراعي والحزب الشيوعي وحزب الفلاحين الاشتراكيين. وقد تمكن الحزب الشيوعي من القضاء على المعارضة، وإعدام رئيس حزب الوحدة بالرغم من تدخل بريطانيا والولايات المتحدة لإنقاذ رأسه. بعد ذلك، تم تأسيس النظام الجمهوري بواسطة استفتاء 8 شتنبر سنة

(1793/1)

1946 **ونصب على رأس الحكم جورج دمتروف (** George Dimetrov**) الذي كان مستقراً في موسكو ويحمل الجنسية الروسية، وبذلك تم الدفع بالبلاد إلى النظام الديمقراطي الشعبي فصارت بلغاريا بعد ذلك تدور في**

فلك الاتحاد السوفياتي(1).

... في سنة 1980 كان عدد السكان في بلغاريا يقدر بتسعة (9) ملايين نسمة(2). ومن الملاحظ أن وجه الساكنة

---

(1) ... لا يخفى دور ستالين في ذلك.

(2) ... إحصاء سنة 1980. وفي سنة 1946 كان مجموع السكان 7029349، وفي سنة 1956 كان 7613709، وفي سنة 1965 طتم 8227866، وفي سنة 1975 كان 8728720 نسمة.

(1794/1)

الريفية قد تغير تغيراً مهماً بسبب موجة التمدن، حيث نلاحظ أن الساكنة الريفية كانت قبل الحرب العالمية الثانية تشكل 80 ٪ مقابل 20 ٪ فقط لسكان المدن، وهي الآن قد انخفضت إلى 60 ٪ لترتفع نسبة التمدن إلى 40 ٪، وبذلك تشير هذه الأرقام والنسب المذكورة إلى أن نسبة التمدن في بلغاريا كانت أعلى نسبة في بلاد البلقان بأجمعها(1). وهذا يجرنا إلى إقرار ملاحظة جديرة بالاهتمام، وهي أن الساكنة

---

(1) ... وبذلك يكون تجانس سكان بلغاريا كاملاً، إذ لم تكن تعاني من وجود تكتلات عرقية ودينية كما هو الحال في بعض دول البلقان.

(1795/1)

البلغارية تحتفظ بطابع التلاحم وميزة التجانس حيث تشكل للأقليات القاطنة في بلغاريا 80 ٪ من السكان. أما الأتراك، فلهم ما بين 8 و9 ٪، و2 و3 ٪ للنَّوَر أو الجيتان. والجدول الآتي يقدم الأرقام الخاصة بسكان بلغاريا حسب إحصاء 1956:

... ... **البلغار** 6.506.541

... ... **الأتراك** 656.025

... ... **النَّور أو الجيتان** ... 197.865

... ... **المقدونيون** ... 187.789

... ... **الأرمينيون** ... 21954

... ... **الروس** 10551

... ... **اليهود** 6027

... ... **التتر** ... 5993

... ... **أقليات مختلفة** ... 13527

(1796/1)

... ... **المجموع** 7.613.709

... يلاحظ القارئ الكريم ضعف الوجود اليهودي في بلغاريا، بسبب موجة الهجرات المتلاحقة إلى إسرائيل. إذ ثبت أنه خلال سنة واحدة (1948 ـ 1949) عرفت البلاد هجرة مكثفة بنسبة 90 ٪.. ومن المعروف أن اليهود قد قدموا إلى بلاد البلغار من إسبانيا في القرن الخامس عشر وكان عددهم يقدر ـ إلى حدود الحرب الثانية ـ بـ 50.000. وقد لعب التهجير والهجرة دوراً أساسياً في تقليص حجمهم إلى 6000 تقريباً.

(1797/1)

... وما دمنا بصدد موضوع الهجرة والتهجير، فإن الجدول الآتي يقدم صورة واضحة تتعلق بنزوح الأقليات بصفة عامة خارج بلغاريا:

... ... 1947 ... 954 **مهاجر**

... ... 1948 ... 15.818

... ... 1949 21.524

... ... 1951 99.477

... ... 1952 486

... ... 1953 400

... ... 1954 242

... ... 1955 820

... ... 1956 334

... ... 1970 138(1).

---

(1) ... راجع: « La population et l'économie de la république populaire bulgare », Documantation Française, Notes et Etudes Documentaires, N° 2787, 12 Juin 1961, p. 5.

(1798/1)

... وفيما يخص الأقليات الأخرى، فإن الأتراك كانوا يمثلون نسبة 8,6 ٪ من السكان ويشكلون مجوعات متراصة تقطن الشمال الشرقي من البلاد (1).

... وكانت الدولة الشيوعية تعتبر أقلية الأتراك أقلية إثنية وليست أقلية دينية. أما أقلية الجيتان، فكانت تمثل

---

(1) ... في منطقة Soudogovie ومنطقة Dobroudja، وعلى طول نهر الدانوب. كما تقطن في الجنوب الغربي من البلاد في منطقة Rhodopes الشرقية. ومن المعلوم أن هذه المنطقة عرفت ثورة طويلة وعامة قام بها البلغار المسلمون الذين يحملون اسم "البوماك" من سنة 1878 إلى سنة 1903.

(1799/1)

2,6 ٪؛ وقد بدأت تتخلى عن حياة الرعاة والتنقل إلى الاستقرار النسبي. ومع ذلك، فهي تعيش حياة الفقر المدقع على غرار إخوانها في منطقة البلقان: حب الموسيقى وكثرة الأولاد وعدم الاعتناء بالمظهر والملبس والصحة. تقطن هذه الأقلية المناطق المحيطة بالمدن والقرى، وتعيش في مجموعات حسب الديانة التي يدينون بها: فهم أرتدكس أو مسلمون، وحسب اللغة التي يتحدثون بها، التي هي يونانية أو بلغارية.

... أما المقدونيون 2,5 ٪، فهم مستقرون في وادي Strouma وفي بعض المدن الكبرى؛ وقد تم إدماجهم تقريباً.

(1800/1)

... وإذا كانت الساكنة البلغارية ملتحمة ومتجانسة لضعف دور الأقليات، سواء الدينية أو العرقية، فإنه تبعاً لذلك نلاحظ أن الطائفة الإسلامية بمجموعاتها الأربع تفتقر إلى التنظيم، باستثناء الطائفة التركية التي ضعف شأنها بعد موجات الهجرة والتهجير.

... كانت الطائفة المسلمة تضم أربع مجموعات:

... 1 .البوماك وهم سكان ينتمون بالعرق واللغة إلى المجتمع البلغاري. ويعيشون في منطقة Phodops الجبلية وفي نواحي منطقة Razlog. ويقدر عددهم بـ 952.000 نسمة (1)

---

(1) ... لا يمكن معرفة عدد المسلمين في بلغاريا لغياب إحصاء يتعلق بالديانات. وكان آخر إحصاء حول هذا الموضوع يرجع إلى (13 دجنبر) سنة 1946 حيث يمكن حصر المسلمين في 938.418 نسمة من مجموع الساكنة التي يبلغ عددها 7.029.349.

(1801/1)

.

... قلنا إن مجموعة البوماك طائفة مسلمة أصلها بلغاري،

اعتنقت الإسلام بعد دخول الأتراك إلى بلاد البلغار كما حصل لصرب البوسنة والهرسك يخيم على هذه المجموعة الجهل والفقر ويعتبرهم المسؤولون بعد الثورة التي قاموا بها(1) منشقين عن الوطن والدين. وكان إدماج هذه المجموعة في المجتمع البلغاري لا يتطلب كثيراً من الوقت، وهم في نظر الحزب الشيوعي أطفال ضائعون (2)

---

(1) ... راجع الهامش رقم 10.

(2) ... يشير ما نشره المسؤولون البلغار سنة 1945 إلى أنهم يميلون إلى الكبرياء والتعجرف، بل إنهم يؤكدون أن مجموعة البوماك بلغاريون وأن قوة باغية كانت تهدف في محاولات متعددة إلى إدماجهم في الأتراك أو عزلهم عن إخوانهم في العرق والدين.

(1802/1)

.

... المجموعة الثانية هي مجموعة الأتراك، ولها دورٌ بارز بحكم التنظيم والتراص والتجانس والاحتفاظ بلغتها الأصلية. تقطن هذه الطائفة شمال البلاد وعلى طول نهر الدانوب وكذلك في نواحي منطقة Rhodops الشرقية. وهي في نظر المسؤولين البلغار لا تمثل طائفة مسلمة،

بل أقلية عرقية. وهي تتمتع بحقوق متميزة جعلتها تعيش في وضعية متميزة. وهذا ما أعلنت عنه الحكومة البلغارية في النشرة التي تحمل عنوان "الأقلية التركية داخل الجمهورية الشعبية البلغارية" (1)

---

(1) ... La minorité turque en République Populaire de Bulgarie, Sofia, Edition de la Direction de la Presse, 1951, 1 in vol. 8.

(1/1803)

.

... وقد تعرضت الطائفة المسلمة التركية لموجبات الهجرة والتهجير ابتداءً من سنة 1945.

... أما المجموعة الثالثة، فهي أقلية التتر التي تضم 6000 **نسمة. والجيتان يمثلون المجموعة الرابعة، ويبلغ عددهم** 200.000 **نسمة.**

... يتضح مما سبق أن الطائفة المسلمة بمجموعاتها الأربع تدفعنا إلى طرح السؤال التالي، بالمقارنة مع ما تم بحثه في الأعداد السابقة في مجلة "التاريخ العربي": هل كان لهذه الطائفة المسلمة في بلاد البلغار دور فعال في المجتمع البلغاري؟

(1804/1)

... إن الجواب يقترن بملاحظتين اثنتين: أولاً، هذه الطائفة المسلمة لا تكوّن إلا 20 ٪ بمجموعاتها الأربع، وهي بذلك لا تطرح مشكلة لها وزنها بالنسبة للمجتمع البلغاري في ظل النظام الشيوعي؛ ثانياً إن الأقلية التركية التي كان لها دور فعّال داخل المجتمع البلغاري قد تعرضت لموجات الهجرة والتهجير حسب مقياس العلاقات السياسية التركية البلغارية، وهي بذلك نقص مفعولها على مر السنين.

... إن موقف الحكومة البلغارية من الإسلام خاصة ومن الدين كله عامة يتعلق توضيحه بما لدى الباحث من وسائل الدقة والمراقبة. وهذا أمر يظل

(1805/1)

حبيس النسبة والافتراض، ذلك بأن تضارب المصادر وقلتها لا يفسحان المجال لإقرار موقف ما. ويرجع تضارب المصادر بالأساس إلى طرفين اثنين هما: المصادر التركية التي تحمل لواء الدفاع عن الإسلام عن طريق سلسلة الانتقادات الموجهة للمصادر البلغارية؛ ثم

المصادر البلغارية التي تتمسك في أغلبها بفكرة الإقرار بالوضعية التي كان عليها الأتراك قبل الاندحار العثماني وإبان فترة الاستقلال وسيطرة الحزب الشيوعي (1)

---

(1) ... في سنة 1949 أصدرت الحكومة البلغارية قانوناً يتعلق بالدين وممارسة شعائره. هذا القانون منح السلطة الفعلية لوزارة الشؤون الخارجية التي صارت وصية على المؤسسات الدينية، وبذلك صار على كل المسؤولين عن الدين والرجوع إلى الوزارة المذكورة للنظر في التنظيم والميزانية وموظفي الطوائف الدينية. ومن دون الإذن والمصادقة، فإن هذه الطوائف لا يمكن أن تكون لها شخصية شرعية (المادة 3) من القانون المذكور.

(1806/1)

. ولا يقتصر الأمر على تضارب المراجع وتناقص منابع البحث، بل يتجاوز ذلك إلى قلتها وندرتها. وعلى كل حال، فإن الواضح أن الإسلام قد أخذ في التراجع بعد مجيء المسؤولين البلغار إلى هذه الأقلية على أنها أقلية عرقية وليست طائفة مسلمة. وهذه النظرة تنسحب

كذلك على طائفة البوماك البلغار: فهم مسلمون مشتتون في مناطق جبال "Rhodops"؛ وهم كذلك في نظر المسؤولين أطفال تائهون ضائعون، ولا يتطلب إدماجهم في المجتمع البلغاري وقتاً طويلاً أو مزيداً من العمل. إن التركيز على الطائفة التركية لا يعني إغفال الطائفتين

(1807/1)

الأخريين، طائفة التتر وطائفة الجيتان. فقد كان إدخال أسلوب العلمانية وتغيّر طرق التعليم منهاجاً وأسلوباً قد أصاب بحماه الطائفتين معاً، وكانت هاتان الطائفتان تتسمان بقلة التنظيم وعدم التلاحم والتراص، بالإضافة إلى أن اعتناق هؤلاء للإسلام كان اعتناقاً سطحياً بلا ممارسة فعلية لشعائر الدين. وهذا كله أدى إلى تبخر الدين وتراجعه بسبب ممارسة عمليات التفتيش والمراقبة لمراكز التثقيف ومؤسسات التعليم.

... ليس من السهل عمليّاً أن نقوم بسرد لتسلسل الإجراءات التي اتخذت ومورست في هذا السبيل على المسلمين هناك عبر

(1808/1)

قنوات تاريخية معينة؛ وعلى القارئ الكريم أن يرجع إلى ما نشر من مقالات في العددين من مجلة "التاريخ العربي" حول وضعية الإسلام والمسلمين في ألبانيا بعد مجيء الشيوعيين إلى الحكم ابتداءً من سنة 1945 م. لقد أرغمت السلطات طائفة البوماك المسلمة على التخلي عن معتقداتها الدينية كتغيير الأسماء، وحذف الأعياد الدينية، والقضاء على الصحافة المسلمة، واستحالة التوجه إلى الديار المقدسة، ومنع الاتصال بالطوائف المسلمة المقيمة في البلدان المجاورة لبلاد البلغار، وتشجيع دروس الإلحاد داخل المدارس. من جهة أخرى، نلاحظ أن

(1809/1)

الطائفة المسلمة التركية التي كان البلغار يعتبرونها أقلية إثنية وليست أقلية دينية قد تعرضت لضربات موجعة نتيجة تدهور العلاقات التركية البلغارية. وللتذكير، فإن حروب البلغار الأولى والثانية التي اندلعت فجمعت دول البلقان ضد الإمبراطورية العثمانية، كان لها الأثر البعيد في تدفق الهجرة

المسلمة التركية خارج بلغاريا. ومن المرجح أن يكون لطرد هؤلاء الناس دوافع سياسية، وقد اتخذت طريق الهجرة التركية إلى الديار التركية مظاهر مختلفة تتناسب مع طبيعة العلاقات التركية البلغارية وتقلباتها. وهذه المظاهر تحددها

(1810/1)

فترات تاريخية هي:

... أ ـ فترة 1945 ـ 1949: كانت هجرة قوية.

... ب ـ 1950 ـ 1951: طرد جماعي مكثف 150.000 مهاجر.

... ج ـ 1952 ـ 1956: كانت الهجرة تخضع لشروط ولا تتم إلا عن طريق وثيقة الإذن من السلطات المسؤولة.

... وبعد 1969، أخذت الهجرة طريقها العادي لتصل في هذه السنة إلى 2529 مهاجر؛ وفي 1970 إلى 1110 مهاجر؛ وفي 1971 إلى 9540 مهاجر؛ وفي 1972 إلى 10465 مهاجر؛ وفي 1973 إلى 3223 مهاجر.

... أما الحياة الدينية للمسلمين على اختلاف مشاربهم، فإن المعلومات التي لدينا عنها لا تخرج عن نطاق التخمين، لقلة

(1811/1)

المكتوب أو لتضارب الآراء. وعلى كل حال، فإني أحيل القارئ الكريم على مرجعين مهمين: المرجع الأول هو ما عثرت عليه في نشرة رسمية صدرت عن الحكومة البلغارية وتحمل تاريخ سنة 1950، وهذا النص يقدم لنا نظرة مختصرة عن وضعية المسلمين خلال السنوات الأولى التي أعقبت الحرب الكونية الثانية. ومن خلال قراءته، يتضح أنه لم يحصل أي تغيير على وضعية الإسلام والمسلمين عما كان عليه الأمر قبل مجيء النظام الشيوعي إلى الحكم، لكن ذلك يظل محصوراً في فترة تنتهي سنة 1951، تلك السنة التي عرفت فيها الطائفة المسلمة التركية حملة

(1812/1)

من الطرد الجماعي بلغ ـ كما سبق ذكره ـ 150.000 مطرود. أما المصدر الثاني، فيتعلق بما كتب في الصحافة اليوغسلافية، وبالأخص ما نشر في سراييفو عاصمة البوسنة والهرسك (1).

... وسنقدم في الأخير نظرة مختصرة عن وضعية الإسلام والمسلمين، وهي تتعلق بالتنظيم الهيكلي للطائفة

المسلمة بمجموعاتها الأربع: الترك والتتر والجيتان والبوماك، الظاهر أنه كان يوجد تنظيمان دينيان للمسلمين: الأول يضم الأتراك والتتر والجيتان، والثاني يتعلق بالبوماك فقط وكان على رأس التنظيمين معاً مفتٍ واحد وللطائفة المسلمة برمتها،

---

(1) ...

(1813/1)

وهو المفتي الأكبر، لكننا نجهل تماماً عدد المفتين الآخرين ووظائفهم على غرار ما كان عليه الأمر في ألبانيا للطائفة السنية والطائفة البكداشية. أما الأئمة، فكانت تسميتهم تتم عن طريق المفتي الأكبر، وكانت مرتباتهم تصرفها الدولة.

... ونظراً لقلة المصادر وتضاربها كما سبق ذكر ذلك، فإن معلوماتنا تظل ناقصة عن المؤسسات الدينية من مساجد ومراكز للعلم والتثقيف الديني.

... إن الأرقام التي حصلنا عليها من خلال المكتوب الرسمي في الفترة الممتدة ما بين 1945 و1980 تصل إلى وجود ما بين 1100 و1400 مسجد. وقد تعرض هذا

(1814/1)

الحجم من المؤسسات للتناقص بشكل ملموس بسبب النقص الحاصل في عدد الأئمة، وخاصة الأئمة الأتراك حيث انخفض عددهم من 2393 إلى 462 خلال الفترة الواقعة من سنة 1956 إلى سنة 1961. أما أئمة طائفة البوماك (المسلمون البلغار)، فقد انخفض عدد أئمتهم من 322 إلى 95 إماماً فقط ومثل ذلك حدث أيضاً لمؤسسة الوقف التي انقرض شأنها وكذلك المدارس الدينية التي كانت تكوِّن الأطر الدينية. انعدم شأن الصحافة والمنشورات الإسلامية ابتداءً من سنة 1945، ويرجع ذلك إلى الإنتاج المحلي أو عدم وجود واردات إلى بلاد البلغار من الصحافة

(1815/1)

المسلمة التي كانت تأتي من الخارج.

... أما ممارسة الشعائر الدينية من صلاة وزكاة وصوم وحج، فإن معلوماتنا تظل ناقصة عنها، باستثناء المعلومات الرسمية لسنة 1965.

... كانت ممارسة هذه الشعائر متواضعة؛ إذ القلة هي التي كانت(1) تحضر صلاة الجمعة؛ كما انعدمت مراسيم عقود الزواج والدفن والاحتفال بالأعياد الدينية. والملاحظ أنه

لم يحصل أن مسلماً قام بالحج إلى الديار المقدسة منذ سنة 1945.

---

(1) ... **هناك احتمال أن تكون الدولة قد قامت بطمس عدد كبير من الوثائق جزئياً أو كلياً.**

(1816/1)

... **وإذا كنا قد لاحظنا في البحثين السابقين المنشورين في مجلة "التاريخ العربي" حول ألبانيا أن الطائفتين السنية والبكداشية كانتا تتمتعان بتنظيم محكم عم كل مرافق الحياة الدينية، فإن طائفة البوماك محرومة من ذلك بسبب الهجرة الكثيفة التي تعرضت لها طائفة الترك**(1).

... **قبل أن نختم هذا البحث، يجب أن نشير إشارة مقتضبة إلى وضعية الإسلام والمسلمين في الوقت الراهن، فالطائفة المسلمة التي**

---

(1) ... **حتى الزوايا والطرق الصوفية اضمحلت في بلاد البلغار منذ زمن طويل، باستثناء ما كان لدى الأتراك في منطقة** Doli Orman.

(1817/1)

كانت تعيش في بلغاريا تتوزع ـ كما سبق أن ذكرنا ـ على مجموعات أربع هي: الأتراك، وهي طائفة مسلمة قدمت إلى البلاد مع دخول الجيش التركي، وتمتاز عن المجموعات الباقية بقوة إسلامها وشدة تنظيمها وتفرع هياكلها وتعدد مؤسساتها، سواء كانت للعبادة أو للتثقيف. وهذا ما دفع الحكومة البلغارية في العهد الشيوعي إلى اعتبارها أقلية إثنية وليست طائفة مسلمة، وقد تعرضت هذه الطائفة ـ وهو ما أشرنا إليه سابقاً ـ إلى موجات متتالية للهجرة والتهجير، فقلّ شأنها، وبذلك قل شأن الإسلام في بلاد البلغار؛ المجموعة الثانية هي طائفة

(1818/1)

التتر، وقد حملت معها الإسلام إلى بلغاريا؛ المجموعة الثالثة، وهي مجموعة النَّوَر أو الجيتان، كان إسلامها إسلاماً سطحياً بسبب طبيعة الحياة التي كانت تعيشها: الهجرة والتجوال وتعاطي الموسيقى وعدم الاعتناء بالمظهر والملبس؛ وينتسب بعضهم إلى الديانة الأورتذكسية، والبعض الآخر إلى الإسلام؛ أما

المجموعة الرابعة، فهي طائفة البوماك، أصلها بلغاري، اعتنقت الإسلام بعد دخول الأتراك وتشكل نسبة مهمة داخل المجتمع البلغاري.

(1819/1)

... وإذا كان النظام الشيوعي يسمي البلغار المنتسبين إلى هذه الطائفة بالأطفال الضائعين، ويتطلع إلى إدماجهم بصفة نهائية في المجتمع البلغاري ديناً وثقافة، فإن أمر الوصول إلى ذلك راجع بالدرجة الأولى إلى تفككهم لافتقارهم إلى التنظيم وغياب الثقافة والتعلم وتدني المستوى الفكري وتوغل آلة الجهل والأمية فيهم ونزول مستوى المعيشة وعدم التطلع إلى مغادرة الحياة الريفية. لقد قامت هذه الطائفة بثورة عارمة طال أمدها في منطقة جبال Rhodops قبل الحرب الكونية الأولى، هذه الثورة التي كانت تنم عن عمق الأزمة الاقتصادية

(1820/1)

والاجتماعية فيها. وبالرغم من طول مدة هذه الثورة (1878 ـ 1903)، فإن القضاء عليها كان نهاية مؤلمة لهذه الطائفة، طائفة البوماك

المصادر والمراجع:

La population et l'économie de la République » Populaire Bulgare », Documentations françaises, Notes et Etudes Documentaires, N° 2787, 12 juin 1961.

La minorité turque en République Populaire de Bulgarie; Sofia, Edition de la Direction de la Presse, 1951, 1 vol. in 8° de 72 p.

(1821/1)

Les Problèmes religieux en Europe Orientale, » 1945–1970 », La Documentation Française, Notes et Etudes Documentaires, N° 3790–3791, 17 Mai 1971, p. 62, etc.

La lutte antireligieuse et contre l'Islam principalement, Edition du Parti Communiste Bulgare, 1965, pp. 180–185.

A. Girard, les Minorités nationales ethniques et

.1932religieuses en Bulgarie, Paris,

P. Thibault, « Bulgarie », Grand larousse

.438–437, pp. 1960Encyclopédique, t. II,

, pp. 1914, 26Revue du monde musulman,

.262–259

(1822/1)

.38Cf. L. Samouche, La Bulgarie, Rieder, p.

A. Girard, « La situation des Musulmans en

, Genève, 3–1Bulgarie », dans La Nation Arabe,

précédé par une 46–39, pp. 1933Janvier-Mars

introduction « La réalité sur les Musulmans des

Balkans. Les Musulmans de Bulgarie sont-ils

bien traités par leur compatriotes ou non? »,

.39–37pp.

S. A. Dchemalovitch, « Les Musulmans en

Genève, 6–4Bulgarie », dans La Nation Arabe,

.44–38, pp. 1933avril-juin

(1823/1)

الإسهام المغربي في التراث الإسلامي إسهام أخلاقي

عمل المغاربة الخُلُقي في مصر نموذجاً

... ...

... ... الدكتور طه عبد الرحمن

... ... كلية الآداب ـ الرباط

... لقد عُرِف المغاربة في المشرق، منذ أن أخذوا يفدون عليه بعد الفتح الإسلامي، بالعكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، حتى فاقوا غيرهم عددا ومَدَدا في المجاورة بالحرمين الشريفين والحرم الأقصى، واشتهروا عند أهله بكونهم من أشد المسلمين تمسكا بالكتاب والسنة عند انتشار البدع وظهور الفساد(1)

---

(1) ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوُّف، ص.32.

، حتى وقر في القلوب أنهم هم المقصودون بالحديث الشريف: "لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة "(1)؛ كما شَهِد رجال الأخلاق بالمشرق لنظرائهم من المغاربة برسوخ القدم في التربية الخلقية والتزكية الروحية، وقدَّموهم على أنفسهم في

إرشاد من يقصدهم، طلبا للتخلق والتحقق بمكارم الأخلاق(2).

... وإذا كان الأمر كذلك، أليس معنى هذا أن العطاء المغربي في باب التربية الدينية والخلقية كان وافرا؟ ولعله كان أوفر

---

(1) حديث شريف رواه مسلم في كتاب "الإمارة".

(2) محمود عبد الحميد، قضية التصوُّف، ص. 20.

(1825/1)

في هذا الباب منه في أبواب الثقافة الإسلامية الأخرى؛ ونريد بهذا الصدد أن ندعي دعوى ونشتغل بالتدليل عليها، وهي: أن العطاء المغربي الذي غلب على المصريين الاستمداد منه تعلَّق أساساً بالعمل الخُلُقي الذي تميز به المغاربة الوافدون عليهم.

... ونحتاج في ذلك إلى بسط الكلام في الأغراض الثلاثة الآتية:

... – أشكال وأسباب تنقل رجال الأخلاق المغاربة إلى مصر.

... – خصائص العمل الخلقي المغربي.

... – دور العمل الخلقي المغربي في مصر.

1 ـ تنقل الأخلاقيين المغاربة إلى مصر

(1826/1)

... لقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن العمل الخلقي المغربي انتقل إلى الديار المصرية، لكن انتقاله إليها لم يكن بطرق نظرية تقوم على الرواية والكتابة، وإنما بطرق عملية تقتضي التنقل إلى عين المكان والإقامة به.

... لقد أخذ الأخلاقيون المغاربة ـ أساتذة وتلامذة ـ يفدون على أرض الكنانة في طريقهم إلى أداء فريضة الحج وزيارة قبر الرسول عليه السلام. وقد يختار بعضهم الإقامة بهذه الأرض المباركة؛ وتَذْكر المصادر أن أشهر من أقام بها منهم في مطلع القرن الرابع أبو الخير الأقطع التيناتي (ت 343) الذي كان أوحد عصره

(1827/1)

في التحقق بخلق التوكل، ثم تفيض في سرد أسماء من جاء بعده في القرون الموالية إلى أن تذكر الوافدين

منهم في القرن الرابع عشر الهجري؛ وسوف يطول بنا المقال لو أردنا أن نذكر أشهرهم(1)

---

(1) فيما يلي لائحة بأسماء بعضهم متسلسلةً من القرن الرابع إلى القرن الرابع عشر الهجري؛ في القرن الرابع: أبو الخير أقطع التيناني توفي سنة 340 هـ؛ وفي القرن السادس: القنائي وأبو يزيد يعلى من أصحاب أبي مدين توفي بالإسكندرية سنة 577 هـ، وأبو حفص عمر الجنان الذي استوطن الإسكندرية من أهل فاس، وابن عمران المعروف بابن تاندلست الذي أقام بالإسكندرية مدة من الزمن، وأبو محمد عبد الرزاق الجزولي الكبير وأبو العباس الطنجي الذي توفي سنة 612 هـ، ومحمد الحصار المغربي الفاسي الذي رحل إلى مصر سنة 597 هـ ومات فيها؛ وفي القرن السابع: الشاذلي والبدوي والشريشي السلوي (581 ـ 641 هـ)، وأبو الحسن بن الدقاق، وأبو زكرياء السبتي، وأبو محمد السجلماسي، وعبد الرحمان السوسي، وأبو عبد الله محمد الفاسي، وعبد العزيز بن أبي محمد صالح الذي مات بالقاهرة سنة 646 هـ، وعبد الله السايح المغربي الدمنهوري الذي كان خليفة للشاذلي في منطقة دمنهور وقد توفي سنة 684 هـ؛ وفي القرن الثامن: حسين الآدمي، وبرهان الدين إبراهيم بن محمد المغربي الذي توفي سنة 816 هـ؛ وفي القرن التاسع:

عواض بن محمد بن إسحاق الطهلموس الذي توفي بمصر سنة 878 هـ، وأحمد زروق الذي توفي سنة 899 هـ؛ وفي القرن العاشر: محمد المغربي الذي توفي في أوائل القرن الحادي عشر الهجري؛ وفي القرن الثالث عشر: محمد = = الفاسي الشاذلي شيخ الأمير عبد القادر، وقد حضر إلى مصر وتوفي بمكة سنة 1284 هـ؛ وأخيرا في القرن الرابع عشر: عبد القادر بن عبد الكريم الشفشاوني الدرقاوي، وقد توفي بالقاهرة سنة 1313 هـ الموافق لـ 1895 م.

(1828/1)

، على أن بعضهم سوف يستوقفنا عند تفصيل أدلتنا على دعوى إمداد المغاربة لإخوانهم المصريين في مجال الأخلاق.

1.1 .أشكال التنقل

اتخذ تنقل العمل الخلقي المغربي إلى الديار المصرية أشكالا مختلفة نذكر منها:

... أ .تنقل الأساتذة المغاربة إلى مدن وقرى مصرية معينة مثل الإسكندرية أو قنا أو طنطا أو الفسطاط أو القاهرة أو الفيوم، إلخ.

... ب .تنقل أتباعهم من أهل الغرب الإسلامي (أي "المغرب

الأقصى" و"الأندلس" و"المغرب الأوسط" و"إفريقية"(1) إلى مصر والانتشار بأقاليمها المختلفة.

---

(1) أي تونس حاليا.

(1829/1)

... د ـ عودة المصريين إلى بلادهم بعد الأخذ عن الأساتذة المغاربة أو تلامذتهم(1)، وإن كان الوافدون منهم على المغرب قلة قليلة.

1. 2 ـ أشكال الإقامة

... كما اتخذت الإقامة بالمدن والقرى المصرية أشكالا متعددة نورد منها ثلاثة هي:

... أ ـ الإقامة الدائمة: قد يختار الأستاذ أو التلميذ الإقامة بمصر على الدوام، فيكون نزيلها ودفينها.

---

(1) نذكر من هؤلاء المصريين: عبد العظيم الشروني الذي صحب عبد العزيز المهدوي من أكابر اصحاب أبي مدين.

(1830/1)

... ب .الإقامة المؤقتة الواحدة: قد يختار الأستاذ أو التلميذ الإقامة بمصر لفترة واحدة قصيرة أو طويلة يعود إلى المغرب أو ينتقل إلى إحدى البلاد الإسلامية الأخرى مثل الحجاز أو الشام أو العراق أو اليمن.

... ج .الإقامة المؤقتة المتعددة: قد يختار الأستاذ أو التلميذ الإقامة بمصر على فترات متعددة يقع فيها الاختلاف إلى مصر بعد تنقلات شرقا أو غربا(1).

---

(1) ممن أقاموا إقامات متعددة في مصر، نجد أبا العباس أحمد بن إدريس (1172 .1253 هـ) والمعروف بأبي العباس العرائسي والمؤسس للطريقة المحمدية الأحمدية.

(1831/1)

---

1. 3 .أسباب التنقل

لقد تعددت الآراء في شأن الأسباب التي حملت الأخلاقيين المغاربة على التنقل إلى الديار المصرية والإقامة بها. فقد قيل إن مصر التي كانت تضم مراكز للإشعاع الحضاري والنشاط الثقافي جعلت هؤلاء المغاربة يفضلون التوجه إليها لِما تفتحه هذه المراكز من آفاق لممارسة دعواتهم وجلب الأتباع إليها.

وقيل أيضا إن مصر التي تحط بها رِحال المغاربة القاصدين أرض الحجاز للحج أو للمجاورة كما يشع بمنازل الحجاج بها جو من الروحانية يناسب أذواق الأخلاقيين منهم، فيطيب لهم المقام بها.

(1832/1)

وقيل كذلك إن مدينة الإسكندرية التي كانت تعد رباطا إسلامياً كبيراً، من أقام به كان له أجر المجاهد في سبيل الله، جلبت إليها الأخلاقيين المغاربة الذين ألفوا الرباطات في بلادهم واتخذوها مراكز يزاولون فيها العلم والتعبد والجهاد.

وقيل أخيرا بأن مدينة الإسكندرية التي ظلت مدينة سُنِّية على مذهب الإمام مالك كانت تلبي حاجات الأخلاقيين المغاربة العقدية والمذهبية، فتغريهم بالمقام فيقيمون بها، ولاسيما أن الحدود بين أطراف البلاد الإسلامية لم تكن مرسومة ولا الشعور بها كان موجودا.

(1833/1)

... أيا كانت هذه الافتراضات في تعليل تنقل أهل التربية المغاربة إلى أرض الكنانة، فلا نستطيع أن نقطع بانفراد واحدة منها بالصحة. فقد يكون لكل منها جانب من الصواب، وقد يشترك بعضها مع بعض أو قد تجتمع كلها لتحصيل هذا الصواب بعضا أوكلا؛ لكن يبقى أن هذه الافتراضات تتعلق بتعليل عموم إقامة الأخلاقيين المغاربة بمصر، بينما نحتاج إلى تعليل ظاهرة تقلبات هذه الإقامة، زيادة ونقصانا، عبر فترات التواصل بين البلدين: المغرب ومصر.

(1834/1)

... فنحن نعلم أن الوافدين على مصر من الأخلاقيين المغاربة ارتفع عددهم ارتفاعا في الحقبة الممتدة بين أواخر القرن السادس وأواخر القرن السابع الهجري، وهي بالذات الفترة التي ازدهر بها العمل الخلقي بالقطر المصري واتسعت حركته اتساعا؛ ومن هؤلاء الوافدين المغاربة: الأستاذ عبد الرازق الجزولي والأستاذ عبد الرحيم القنائي والأستاذ أبو الحسن الشاذلي والأستاذ أحمد البدوي.

... أما عبد الرازق الجزولي، فأصله من المصامدة، أخذ

الطريق على يد أبي مدين الغوث واستقر بالإسكندرية وبها مات سنة 592 هـ أو سنة 596 هـ على

(1835/1)

بعض الأقوال.

... أما عبد الرحيم القنائي، فأصله من ترغاي من قبيلة غمارة بإقليم سبتة؛ ولد سنة 521 هـ ولبس خرقة التخلق على يد الأستاذ أبي يعزى، ثم انتقل إلى الحجاز حيث أقام بها مجاورا تسع سنين ومنه تحول إلى صعيد مصر، فاستقر بقَنا، منتصبا للتدريس والإرشاد حتى وفاته سنة 592 هـ

... وأما أبو الحسن الشاذلي، فتنسبه المصادر هو الآخر إلى قبيلة غمارة بإقليم سبتة؛ ولد سنة 593 هـ وأخذ الطريق على يد عبد السلام بن مشيش الذي وجهه إلى "إفريقية" (أي تونس) وأنبأه بالظهور في المشرق، فكان أن استقر بالإسكندرية،

(1836/1)

موجِّها وهاديا إلى سبيل الله بكلامه "القريب العهد بالله" إلى أن وافته المنية في طريقه إلى الحج سنة 656 هـ

... وأما أحمد البدوي، فقد وُلد بفاس سنة 596 هـ ولبس الخرقة بها على يد الأستاذ عبد الجليل النيسابوري، ثم انتقل إلى المشرق متجولا فيه حتى انتهى به المطاف إلى الاستقرار بطنطا في شمال مصر، متصدرا للتربية والدعوة إلى الله.

... قد يقول القائل بأن علة توافد أرباب التربية على مصر في هذه الفترة هي أنهم وجدوا أسباب العيش الآمن في ظل دولة الأيوبيين ودولة المماليك اللتين صارتا رمزا للقوة الإسلامية

(1837/1)

القادرة على قهر جحافل الغزاة من التتار والصليبيين؛ ولا يمكن أن يصح هذا القول، لأن الفتن كانت منتشرة في هذه الفترة والتنازعَ على السلطة كان ضاربا أطنابه بين الأيوبيين والمماليك؛ والأرجح عندنا أن لهذا التوافد علتين متكاملتين:

... إحداهما أنه كان تنقلا مطلوبا: فإذا كانت مصر في هذه الفترة تسوسها دولة ذات قوة ومنَعَة، فإن المغرب

كانت تسوسه دولة لا تقل عنها ظهورا بالسلطان؛ فقد أدرك هذا البلد آنذاك من البأس والمجد ما لم يدركه مذ كان دولة مستقلة، حتى سارعت الدولة الأيوبية إلى الاستنجاد به، طالبة منه

(1838/1)

قِطَعا من أسطوله لمنازلة المواقع التي احتلها الصليبيون.

... وهكذا، فقد كان المغرب مطلوبا للجهاد، ولا يخفى أن من يُطلَب للجهاد هو، عند الأخلاقيين المغاربة، كمن يُطلَب للمجاهدة وهم الذين ألفوا واختاروا الإقامة بالرباطات التي عُرِفت بالنضال الروحي والمادي.

... وعلى هذا، فلا يبعد أن يكون توجه المربين المغاربة إلى مصر امتدادا لتوجه المحاربين في أسطولهم إليها إن كان هذا التوجه العسكري قد تحقق أو يكون تعويضا عنه إن كان قد تعذر، وذلك استجابة لنداء إخوانهم من المصريين حتى يقوموا بواجبهم في تجديد أخلاق

(1839/1)

الجمهور وإعداده لمنع الغزاة عن بلاده؛ ولو أنهم لم يكونوا مطلوبين، لما هب الأيوبيون ينشئون المدارس والخوانق ويجرون عليها الأرزاق ويوقفون الأوقاف ويسارعون بإسناد مهام التدريس والتربية إلى الوافدين عليهم. فقد عينوا عبد الرحيم القنائي أستاذا للأخلاق في مدينة قَنا، وأسكنوا أبا الحسن الشاذلي برجا من أبراج الإسكندرية.

... والعلة الثانية أنه كان تنقلا مأذونا: لا يخفى أن الأخلاقيين المغاربة يأخذون في كل حركاتهم وسكناتهم بقِيَم روحية ومُثل ربانية لا تُجوِّز لهم ترك ترحالهم واستقرارهم تعبث بهما الأهواء

(1840/1)

العابرة وتعتورهما الأغراض الفانية، وإنما تحملهم على أن ينزلوا ويرحلوا حيثما وجدوا دلائل الاستزادة من النفع والانتفاع بهذه المعاني الخلقية، ووجدوا دلائل القيام بشروطها على الوجه الأكمل، كما تحملهم على الاستعانة بإشارات أساتذتهم في التربية والتخرج حتى لا يفوتهم حسن الأدب والوفاء بحقوق الصحبة؛ فقد أذن أبو مدين الغوث لعبد الرزاق الجزولي في الانتقال

إلى مصر، كما أشار به عبد السلام بن مشيش على أبي الحسن الشاذلي.

(1841/1)

... وقد جرى المؤرخون على عادة إسقاط مثل هذه الأسباب، إذ يعدونها من باب المزاعم أو الخواطر الذاتية التي لا تفيد كثيرا في التحليل التاريخي؛ ولا يتسع المقام لتقويم هذا الموقف، على شهرته بين الباحثين واعتقاد الجمهور في موضوعيته وعلميته، وإنما حسبنا أن نقول بأن الحياة التي تبنى أدق جزئياتها على قيم روحية صرف لا تنفع في تحليلها أساليب تتسم بالانغلاق على المادة ولا في تفسيرها أسباب تتصف بالجمود على الظاهر.

(1842/1)

... لذا نذهب إلى أن هذا الجانب المعنوي أبلغ في الدلالة على علة الانتقال إلى مصر من الجانب الحسي الذي هو الطلب الموجه إلى المغاربة، لأن الذي استهلكت نشاطه الروحانيات لا يلوي على شيء من الحس إلا أن يكون خادما

لهذه الروحانيات؛ ولولا الشعور بالإذن في التحرك، لما أتى هذا التحرك بالثمار المطلوبة منه، ألا ترى كيف أن التحول الأخلاقي الذي أحدثه المربون المغاربة في سلوك المصريين في تلك الفترة ما زالت آثاره تُشيع حتى الآن في أوساطهم روحانية قدسية !

(1843/1)

... إذا صحَّ تعليلنا لتنقل أهل الأخلاق المغاربة إلى الديار المصرية، وهو أنهم طُلِبوا (بضم الطاء) فأُذِن (بضم الهمزة) لهم، صحَّت معه أيضا الحقيقتان التاليتان:

... إحداهما أن العمل الخلقي المغربي يتصف بأوصاف لا يشاركه فيها غيره.

... والثانية أن هذه الأوصاف الخاصة للعمل الخلقي المغربي تفيد في تحقيق جوانب التجديد الخلقي التي شعر المجتمع المصري بالحاجة إليها يومذاك

... فلنمض الآن إلى بيان خصائص العمل الخلقي الذي نهض به المغاربة، ثم ننعطف على بيان الوجوه التي أفادت بها هذه الخصائص المجتمع المصري

(1844/1)

آنـذاك في إنـجاز مراده من الإصلاح الخلقي.

2 ـ خصائص العمل الخلقي المغربـي

... إن من يتـأمل في الممارسة الخلقية المغربـية في القرنـين السادس والسابـع لا يلبـث أن يتـبـين أنـها تتـصف بـخصائص أساسية ثلاث هي : "البـعد عن التـجزيء" (أو التـجزؤ، أو التـفريق؟؟؟) و"البـعد عن التـجريـد" و"البـعد عن التـسييس".

... 2. 1 ـ البـعد عن التـجزيء أو الخاصية التـكاملية

... يظهر البـعد عن التـجزيء في العمل الخلقي المغربـي في أصنـاف الجمع الثلاثة التـالية، وهي: "الجمع بـين التـخلق والتـفقه" و"الجمع بـين التـجرد والتـسبـب" و"الجمع بـين المجاهدة

(1845/1)

والجهاد".

... 2.1.1 ـ الجمع بـين التـخلق والتـفقه، تـدل على هذا الجمع الأمور الثلاثة الآتـية:

... أحدها أن الأخلاقيين المغاربـة أخذوا الفقه في معنـاه الأصلي الواسع، وهو موافقة أحكام الشريـعة ظاهرا وبـاطنـا، بـحيث تـكون الأعمال الظاهرة متـوقفة في صحتـها

على الأعمال الباطنة توقف المشروط في صحته على الشرط

... والثاني أن أغلبهم كانوا فقهاء أو محدِّثين أو حملة للقرآن أو حفظة للمتون العلمية يشتغلون بالتدريس أو التحفيظ

(1846/1)

... والثالث أنهم شاركوا الفقهاء فيما هم فيه من القيام على أداء الأعمال الظاهرة، بل نافسوهم في ذلك حتى قاموا بما وقف دونه الفقهاء؛ فقد استنبطوا الوسائل التي تُعين على نشر العقيدة الإسلامية وعلى ترسيخها في النفوس وعلى إقدار العامة على أداء شعائرهم وفرائضهم، إذ انتقلوا إلى البوادي والأصقاع النائية يعلّمون الناس أمور دينهم، مقرّين لأنماط من التعبد كالذكر الجماعي وقراءة القرآن الجماعية، حتى يُسمعوا الغافل ويجلبوا العابر وييسروا الحفظ على الأمي، كما عملوا على رفع الموانع التي جعلت الفقهاء يفتون

(1847/1)

بإسقاط فريضة الحج عن المغاربة، فأمَّنوا الطرقات ونظموا الرحلات وأنشأوا المحطات، موفِّرين للحُجاج السلام والزاد والراحة(1).

... 2.1.2 ـ الجمع بين التجرد والتسبب: اعلمْ أن التجرد عند الأخلاقيين تجردان: "تجرد عن الحظوظ أو المصالح" و"تجرد عن الأسباب أو الوسائل"، وكثيرا ما اختلط على الناظرين في التراث ا المغربي أمرهما، فحملوا أحدهما على الآخر؛ والصواب أن العمل الخلقي المغربي وَقَفَ التقدم السلوكي

---

(1) لا يخفى ما قام به أبو محمد صالح دفين أسفي وذريته من أعمال جليلة لتأمين الطريق للحُجَّاج المغاربة.

(1848/1)

للتلميذ على ترك الحظوظ أو المصالح، حتى يتحقق بإفراد الله بالقصد في الأعمال، وامتاز بالتحذير من ترك الأسباب والنهي عنه؛ وقد دخل أكابر رجالهم في طلب الأسباب واتخذوا من وسائل العيش ما يدفع عنهم الحاجة إلى الخَلْق، فمارسوا التدريس والتجارة والزراعة وكرهوا "المتعطلين" من تلامذتهم، ونصحوهم باتخاذ الحِرَف وبالبعد عن السؤال وعن انتظار عول العائلين.

... لكن، لشدَّ ما كانوا يحرصون على أن يكون تعاطي هؤلاء التلامذة للأسباب قائما بشرط الخروج عن التعلق بها، حتى يدركوا أن تسبُّبهم ليس هو الذي يوصلهم إلى تحقيق

(1849/1)

طلبهم من الرزق، وإنما الذي يوصلهم إلى ذلك هو الرزاق ذو القوة المتين، فيكونون في ذات الوقت متسببين ومتجردين.

... 3.1.2 ـ الجمع بين المجاهدة والجهاد: تدل على هذا الجمع الثالث المظاهر الآتية:

... أولها إنشاء مراكز للمرابطة بعيدة عن العمران تسمح بالانقطاع لأعمال العبادة، ومحاذية للسواحل والتخوم تسمح بالتصدي لأعمال السطو على البلاد.

... والثاني المشاركة الفعلية، إما مباشرةً بدخول غمار المعارك، طلبا لإحدى الحسنيين، وإما بصفة غير مباشرة باستنهاض الهمم واستنفار الرجال للذود عن حوزة الإسلام.

(1850/1)

... والثالث المشاركة المعنوية بقبول دعوات الولاة والأمراء لهم بمصاحبتهم عند الخروج إلى ملاقاة العدو، استدرارا للبركات وتثبيتا للقلوب واستجلابا للنصر.

... وعلى الجملة، فإن العمل الخلقي المغربي ينأى عن منحى التجزيء ويتجه اتجاها تكامليا صريحا يجعل العمل الروحي جزءا من الاشتغال الفقهي والتجردَ جزءا من التسبب والجهاد جزءا من المجاهدة.

2.2 ـ البعد عن التجريد أو الخاصية التداولية

... يظهر البعد عن التجريد في العمل الخلقي المغربي في أصناف النفور الثلاثة التالية، وهي: "النفور من الفروع الفقهية"

(1851/1)

و"النفور من الجدل الكلامي" و"النفور من الحكمة العرفانية".

... 1.2.2 ـ النفور من الفروع الفقهية: لقد اقتضى التطور أن يخرج علم الفقه عن بساطة أصوله وقرب مأخذ مسائله إلى تعقيدات في القواعد والأحكام وإلى تفريعات في الأقضية والفتاوي، فأظهرت هذه التشعبات أقوال بعض الفقهاء بمظهر النظر المجرد، وألجأت إلى رجال التخلق

الذين ظلوا يدعون إلى سلوك يتسم بالبساطة والحيوية ويراعي طاقة العامة في التعقل والتفقه، ويأخذون من الآراء ما كان تحته عمل أو ما كان داعيا إلى العمل؛ لذلك، كان يقع تقريب الأخلاقيين، فكانت

دعوتهم تنتشر متى تعرض "فقهاء الفروع" للإبعاد والمضايقة(1)؛ وعلى العكس من ذلك، كان الأخلاقيون يتعرضون للمضايقة والمراقبة كلما وقع تقريب "فقهاء الفروع" وتوسيع نفوذهم(2).

... 2.2.2 ـ النفور من الجدل الكلامي: لقد اختص الأخلاقيون المغاربة بمفهوم للتوحيد يقتضي أساسا العمل التعبدي، لا النظر التأملي على طريقة أهل الكلام، ولا يتعدون في هذا النظر القدر الذي جاء به الكتاب

---

(1) خير مثال على ذلك موقف الموحدين من الأخلاقيين والفقهاء.

(2) أفضل مثال على ذلك موقف المرابطين بين الطائفتين: الأخلاقيين والفقهاء.

والسنة، وينفرون من الخوض في مسائله التفصيلية، وقد لا يتردد بعضهم في إنكار ما جاء في كتب بعض الأخلاقيين(1)

---

(1) يأتي على رأس هذه الكتب كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي الذي أثار الضجة المعلومة وافترق الناس بشأنه بين منتقد ومعتقد حتى غلب أهل الانتقاد، فصدر أمر علي بن يوسف المرابطي بإحراقه؛ وقد كان من المنتقدين بعض كبار الأخلاقيين المغاربة من أمثال أبي الحسن بن حرزهم، ووقفته ضد "الإحياء" معروفة، إذ كان يقوم على إحراق أجزاء منه، حتى رأى رؤيا يشكوه فيها الغزالي إلى رسول الله (ص)، فقضى الرسول بضربه بالسوط

(1854/1)

من الأقوال التي تُشعر باقتباس أساليب المتكلمين والمشاركة في قضاياهم؛ والشاهد على ذلك المناظرة التي دارت بين أبي شعيب السارية وواسنار -أحد قواد الموحدين- في مجلس عقده الأمير عبد المومن بن علي، فكان واسنار يسأل أبا شعيب عن عقيدة التوحيد،

قاصدا الأوصاف التجريدية التي كان يبُثها المهدي بن تومرت في الناس، ويجيبه أبو شعيب بذكر الآيات القرآنية التي وردت فيها معاني التوحيد.

... 3.2.2 ـ النفور من الحكمة العرفانية: لقد تسربت إلى الممارسة الخلقية بمقتضى التطور والاستمداد من البيئة بعض التوجهات الفكرية

(1855/1)

والعلمية التي لا يمكن إلا أن يضيق بها أخلاقيو المغرب، إذ يعدونها بمنزلة آفات سلوكية ينبغي صون النفس عنها، من هذه التوجهات نخص بالذكر اثنين هما: "الإشراق" و"الكيمياء".

... استقر عند الأخلاقيين المغاربة أن الإشراق مستمد من النظر الفلسفي الذي يأخذ بمبدأين: "مبدأ إطلاق العقل" و"مبدأ امتياز الفرد"؛ أما مبدأ إطلاق العقل، فيعارض توجههم السني، لأن العقل إذا لم يقيد مسلكَه اعتبارُ الشرع، صار عرضة للأهواء؛ وأما مبدأ امتياز الفرد، فيعارض توجههم الجماعي، لأن الفرد إذا لم يقيد أفقَه اعتبارُ الجماعة، صار

(1856/1)

ضرره يغلب على نفعه.

... كما استقر عندهم أيضا أن الكيمياء مستمدة من الطمع الدنيوي الذي يخالف شاهد العقل(1)

(1) قال الشاذلي : "كنت في ابتداء أمري أطلب عمل الكيمياء وأسأل الله فيها، فقيل لي: "الكيمياء تجدها في بولك، اجْعل فيه ما شئت يعود كما شئت"، فحميت فأسا فطفيته فيه فعادت ذهبا، فرجعت إلى شاهد عقلي، فقلت: "يا ربي، سألتك عن شيء فلم أصل إليه إلا بمحاولة النجاسة"، فقيل لي: "يا علي، الدنيا قذرة، فإن أردت القذارة، فلا تصل إليها إلا بالقذارة"، فقلت: "يا رب أقلني منها"، فقيل لي: "احم الفأس يعود كما كان في أصله" (الصومعي، المعزى في مناقب أبي يعزى، تحقيق علي الجاوي، رسالة دبلوم الدراسات العليا مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1989).

(1857/1)

، ويوقع في صريح الفساد(1) ؛ أما مخالفة شاهد العقل، فلأن الكيميائي يطلب أسبابا باطلة لقلب الأعيان؛ وأما

الإيقاع في صريح الفساد، فلأن هذه الصنعة تحمل على ممارسة الغش والتدليس، فكان أن نهى الأخلاقيون المغاربة عن الاشتغال بها وحذروا أتباعهم منها أشد تحذير، ولاسيما أن بعض أخلاقيي عَدوة الأندلس تأثروا بهذا الاتجاه الإشراقي الكيميائي.

---

(1) قال أبو محمد صالح: "اتركوا الاشتغال بصنعة الكيمياء لأنها توقع في الغش والتدليس" (المنهاج الواضح، ص.261، 266 وص.334، 335).

(1858/1)

... وعلى الجملة، فإن العمل الخلقي المغربي ينأى عن منحى التجريد الذي وقع فيه فقهاء الفروع وأهل الكلام وأهل العرفان واتجه اتجاها تداوليا في ممارسة التعبد والعقيدة والمعرفة، اتجاها يجعلها طبيعية لا تكلُّف فيها ويسيرة لا تعقُّد فيها.

3. 2 .البعد عن التسييس أو الخاصية التأنيسية

... ويظهر البعد عن التسييس في العمل الخلقي المغربي في أصناف المدلولات الثلاثة الآتية وهي : "المدلول الروحي

للجهاد" و"المدلول الإنساني للدعوة" و"المدلول المعنوي للنسب".

(1859/1)

... 1.2.3 ـ المدلول الروحي للجهاد: تجدر الإشارة إلى أن لفظ "الجهاد" من الألفاظ التي حُرِّفت معانيها، فقد صُرف هذا اللفظ عن مقصوده بوجهين:

... أحدهما أن الجهاد صار يُحمل على معنى القتال من أجل التسلط العسكري وبسط النفوذ السياسي.

... والثاني أن الجهاد صار يدل على معنى القتال من أجل القهر الديني وبسط النفوذ العقدي.

... أما مدلول الجهاد كما أخذ به رجال الأخلاق المغاربة، فلا تعلق له أصلا بطلب الرئاسة الدنيوية، لأن هذا يناقض مقاصد التربية الروحية، كما لا تعلق له بالتشدد العقدي، لأن هذا يناقض وسائل

(1860/1)

هذه التربية، وإنما تعلقه بمجاهدة النفس وحدها ببذلها رخيصة في سبيل الدفاع عن حوزة الإسلام كما استُرخِصت

في سبيل الخروج عما سوى الله؛ وعلى هذا، فإن الجهاد بالمعنى المغربي ليس عملا سياسيا ولا سلوكا إيديولوجيا، وإنما عملا روحيا تأنيسيا بالأصالة.

... 2.2.3 ـ المدلول الإنساني للدعوة: ليس من شك أن للدعوة دورا بالغ الأهمية في الممارسة الخلقية المغربية، فقد شمل مجالها البوادي والحواضر بعد أن ابتدأ محصورا في الأصقاع البعيدة عن العمران، إلا أنها لا تشبه في شيء الدعوات التي تطلب النفوذ السياسي لطائفة

(1861/1)

معينة، أو الدعوات التي تطمع في المكاسب المادية، إلا أن تكون قد دخلت على بعضها آفة التحريف، فتبدلت أحوالها أو دخلت عليها آفة الادعاء، فانتحلها بعض الأدعياء.

... والصواب أن الدعوة الأخلاقية، كما مارسها المؤسسون من أهل العمل المغاربة، لا تبتغي بالتجديد الخُلقي للإنسان بديلا؛ ولا سبيل لتجديد الإنسانية إلا إذا قام الداعية بشرط الإخلاص لله في دعوته، وقام المدعو بشرط تسليم الإرادة لله؛ وقد سُمّي هذا التجديد الإنساني

باسم "الصلاح" وسُمي أصحابه باسم "الصلحاء" أو "الصالحين"، كما أُطلق عليهم اسم "الأفاضل"

(1/1862)

واسم "أهل الفضل والدين"(1) ، علما بأن قِيم الإنسانية مستمدة من قيم الدين؛ وعليه، فإن دعوة أهل الصلاح ليست نزعة طائفية، ولا دعاية مادية، وإنما هي دعوة إنسانية أخلاقية.

... 3.2.3 ـ المدلول المعنوي للنسب: من الثابت أن للنسب أهمية في التجربة الخلقية المغربية تزايدت مع مرور الزمن حتى ظُنَّ بأن الولاية الكبرى والفتوحات العظمى لا تحصل إلا لمن كان من أهل النسب الشريف؛ والغالب عند الأخلاقيين المغاربة أن يرفعوا نسب أساتذتهم إلى سيدنا الحسن بن

---

(1) ابن الزيات، المصدر السابق، ص. 270، 271، 300، 344، 377.

(1/1863)

علي، على خلاف الأخلاقيين في المشرق الذين غلب عليهم نسبة أساتذتهم إلى أخيه سيدنا الحسين بن علي(1)؛ وسواء صح هذا النسب أولم يصح، فإن دلالته تظل بالأساس دلالة معنوية. فلما كان سيدنا الحسن قد نزل لمعاوية عن الخلافة، دل الانتساب إليه على إرادة الزهد في السلطة السياسية، وإذا حدث لأحد الأخلاقيين المغاربة أن تولى السلطة السياسية ـ مضيَّقة أو موسَّعة ـ لِتعذر من يقوم مقامه فيها، فإن توليته لها تكون بالعرَض وبالتبعية للسلطة الأخلاقية التي اختص بها وليس بالجوهر

---

(1) حسين صافي، الأدب الصوفي، ص.146.

(1864/1)

وبالأصالة كما هو الشأن عند المنتسبين لسيدنا الحسين.

... وعلى الجملة، فإن العمل الخلقي المغربي ينأى عن منحنى التسييس ويتجه اتجاها تأنيسيا متميزا يجعل للجهاد بعدا روحيا وللدعوة بعدا إنسانيا وللنسب بعدا معنويا.

... وإذ قد عرفتَ أن العمل الخلقي المغربي يمتاز

بالخصائص الثلاث: البعد عن التجزيء .أو قل طلب التكامل .والبعد عن التجريد .أو قل طلب التداول .والبعد عن التسييس .أو قل طلب التأنيس ، فاعرفْ أن السبب في ذلك هو تمكُّن المذهب المالكي من نفوس المغاربة حتى ولَّد فيهم نزوعا إلى الممارسة الروحية

(1865/1)

بحكم منطقه وملابسات نشأته. ويقوم هذا المنطق إجمالا على عنصرين هما: "العمل" و"الصحبة"، بينما تقوم ملابسات هذه النشأة على عنصرين هما: "التعظيم" و"الإحسان".

... أما العمل، فالمالكية من دون المذاهب الفقهية الأخرى أقرت عمل المدينة مصدرا من مصادر التشريع الإسلامي. وفي هذا ما ينهض دليلا على أن المالكية تبينت حقّا ما لمشاهدة السلوك الحي من أثر في تحقيق التدين الصحيح. على أن مصادر التشريع التي اعتمدتها تنقسم إلى قسمين: القسم النظري ويشمل الكتاب والسنة والقياس، والقسم العملي ويشمل الإجماع والعمل، مما

(1866/1)

يترتب عليه أن التفقه في الدين لا يتم إلا بحصول الجمع بين الممارستين: الاستدلالية والاشتغالية. وما زالت مسألة العمل في المالكية مفتقرة إلى تناولها في سياق مستجدات البحث في مجال نظرية الممارسة.

... وأما الصحبة(1)، فهي مبدأ لازم عن أصل العمل الذي تقول به المالكية. ذلك بأن الصحبة عبارة عن المشاهدة الحية للأسباب والقرائن التي ترافق أعمال المصحوب، أقوالا وأفعالا، والتي يحصل بها العلم بالمراد

---

(1) فقد صحب مالك ـ رضي الله عنه ـ نافعا مولى عبد الله بن عمر، حتى كانت أصح أسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر.

(1867/1)

على وجه من التحقيق لا يتأتى بطريق آخر، فلا عمل حي إذن إلا بتمام الصحبة؛ لذا، فقد كان من تلامذة مالك المغاربة من يبقى على ملازمته ردحا من الزمن بعد تمام تعلُّمه وفراغ تكوينه النظري عملا بمبدإ الصحبة، حتى يرث عنه أخلاقه وأحواله.

... وأما التعظيم، فإن مالكاً، رحمه الله، كان يظهر ـ قولا وفعلا ـ من آداب تعظيم الرسول عليه السلام وفروض

محبته ما يجعل حديثه وسلوكه ينقلان إلى تلامذته وجلسائه أخبار الرسول عليه السلام حيةً وكأن معانيها رأي العين، فتحيا قلوبهم بأسرارها وتنقاد جوارحهم إلى العمل بها؛ وقد ورث

(1868/1)

عنه فقهاء المالكية المغاربة هذا التعظيم ونشروا آدابه نشرا بين طبقات المجتمع.

... وأما الإحسان، فإن مالكاً صحب علماء عاملين بلغوا النهاية في صفات خلقية اختص الأخلاقيون بطلبها، وهي: "أخلاق الإحسان" أو "الفضائل الروحية"؛ فمن أساتذته هرمز الذي اشتهر بالبكاء، وابن المنكدر الذي عرف بالزهد، وجعفر الصادق الذي اشتهر بالمحبة، كما تتلمذ عليه رجال نالوا قدم السبق في الظهور بأوصاف الإحسان، ومنهم سفيان الثوري وأبو الحسن الشيباني.

(1869/1)

... وحسبنا هذه العناية بهذه الأركان الأخلاقية: "العمل" و"الصحبة" و"التعظيم" و"الإحسان" دليلا على أن

المالكية حملت بذور ممارسة روحية سرعان ما أثمرت عند المغاربة، بمجرد تشبعهم بمنطق هذا المذهب، تخلُّقا اختصوا به وصاروا فيه قدوة لغيرهم؛ ولا عجب إذ ذاك أن يتكاثر بين فقهاء المالكية أهل العبادة وأهل الزهادة وأهل الورع وأهل التقوى حتى إن "لفظ الصوفي"(1) أُطلِق عليهم إطلاقه على أهله المختصين به لاعتبار أساسي وهو كونهم يقصدون بفقههم وجه الله تعالى. وحتى إن ذكر

(1) ابن الزيات، المصدر السابق، ص.34.

(1870/1)

الفقهاء في كتب التراجم والطبقات، صار لا ينفصل عن ذكر المتعبدين والزاهدين(1).

... بعد أن أنهينا الكلام عن الخصائص التي تميز العمل الخلقي المغربي في القرنين السادس والسابع على الخصوص والتي تجعل منه تخلقا تكامليا تداوليا تأنيسيا، نمضي إلى بيان كيف أن هذه الخصائص تخدم أغراض التجديد الخلقي الذي ينشده المجتمع المصري في هذه الفترة؛ ولا سبيل الى قيام العمل الخلقي المغربي بهده الخدمة المطلوبة إلا إذا كان وصفه التكاملي يفيد

في محو مظاهر تجزيئية لحقت بهذا المجتمع، ووصفه التداولي

---

(1) المالكي، رياض النفوس.

(1871/1)

ينفع في محو جوانب تجريدية عرضت له، ووصفه التأنيسي يفيد في محو مظاهر تسييسية طرأت عليه.

3 .آثار العمل الخلقي المغربي في التجدد الأخلاقي المصري

3. 1 .الخاصية التكاملية للعمل الخُلقي المغربي ومحو المظاهر التجزيئية في المجتمع المصري

... لقد أشرفت مصر على هذه الفترة وهي تعاني من المظهرين التجزيئيين التاليين:

... أحدهما أن الفقهاء السنيين لم يكونوا على وئام مع رجال الأخلاق، لما نُسب إلى هؤلاء من مخالطة الإسماعلية(1)

---

(1) ابن خلدون، المقدمة ، ص. 473؛ وقد شاعت تهمة مخالطة الإسماعيلية إلى غاية أن صارت وسيلة في يد الخصوم للتضييق على كل أخلاقي وافد أخذ صيته ينتشر

بين الجمهور؛ فقد رُمِي بهذه التهمة أحمد البدوي وأبو الحسن الشاذلي.

(1872/1)

؛ فقد استخدم الفاطميون ستار الخطاب الأخلاقي لفرض دعوتهم وترسيخ حكمهم، حتى حامت حول كل أخلاقي شبهات الانتماء إليهم، ولاسيما أن ما ظهر في كلام الأخلاقيين من معان يشبه بعضُه ـ وإن قَلَّ ـ عقائد أهل التشيع.

... والثاني أن وسائل القتال الرسمية (من استعدادات مادية وجيوش نظامية) لم تكن على وئام مع أساليب الجهاد الروحية، هذا الوئام الضروري لمواجهة الأخطار التي تحدق بالمسلمين في مصر بسبب هجوم المغول والتتار والصليبيين والمبشرين(1).

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، السيد أحمد البدوي، شيخ وطريقة، ص.35

(1873/1)

... فاحتاج الحكام الجدد في مصر إلى إزالة هذين المظهرين التجزيئيين: التفرقة بين الفقهاء والأخلاقيين والتفرقة بين المقاتلين والمجاهدين، مع العلم أنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالجمع بين التفقه والتخلق والجمع بين الجهاد والمجاهدة في الممارسة، فتبينوا أنه لا يصلح لهذه المهمة إلا من تحقق بالتوجه التكاملي الصحيح.

... ويبدو أن التجربة المرابطية التي جمعت بين الجهاد والمجاهدة كانت حاضرة في ذهن الأيوبيين، كما كان بين أيديهم حُكم أبي بكر الطرطوشي على سيرة المغاربة؛ فهذا الفقيه الأندلسي السلفي الذي نال حظا

(1874/1)

وافرا من التربية الروحية زار المغرب وأخذ عن علمائه بفاس واطلع عن كثب على العمل الخلقي المغربي لينتهي به المطاف إلى الاستقرار بالإسكندرية حيث تعاطى للتأليف والتدريس، فقد كان حكم هذا العالم على أهل المغرب ـ وهو الذي ألف كتابا في البدع ـ هو أنهم ما زالوا ظاهرين على الحق بما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع والإحداث في الدين(1).

... وبدا لهؤلاء الحكام أن للتجربة الخلقية المغربية توجها تكامليا صريحا، يجعلها تستجيب أكثر من غيرها لغرضهم في

---

(1) ابن الزيات، المصدر السابق، ص. 32.

(1875/1)

توثيق الصلة بين التفقه والتخلق والصلة بين الجانب الروحي والجانب المادي من الجهاد.

... ولما فُتِح باب العمل للمربين المغاربة، تولوا تحقيق الوصل بين التفقه والتخلق عند تلامذتهم، مبطلين عمليا الدعوى الإسماعيلية القائلة باستقلال علوم الباطن؛ وقد كان أغلبهم، وبالأخص عبد الرزاق الجزولي وعبد الرحيم القنائي وأبو الحسن الشاذلي، يحيطون بالعلوم الشرعية الظاهرة والعلوم القلبية معا، كما كانوا يتمتعون برسوخ القدم في ممارسة تدريس الفقه ورواية الحديث، فلقنوا تلامذتهم أن للشريعة وجهين متكاملين: وجها حُكميا

(1876/1)

تنضبط به الأعمال الظاهرة ووجها خلقيا تنضبط به الأعمال القلبية، ووجَّهوهم إلى الاشتغال بعلوم الأحكام وعلوم الأعمال اشتغالا متساويا، فتخرجت على أيديهم ثلة ممتازة من العلماء العاملين، منهم أبو الفقراء حجاج وعبد الرحمان بن طيب من تلامذة عبد الرزاق الجزولي، ومنهم أيضا أبو الحجاج الأقصري وأبو الحسن بن الصباغ وصالح بن غازي الأنماطي من مريدي عبد الرحيم القنائي، ومنهم أخيرا مكين الدين الأسمر وأبو القاسم القباري وابن المنير وأبو العباس المرسي من تلامذة أبي الحسن الشاذلي.

(1877/1)

... كما تولى هؤلاء المجددون تحقيق الوصل بين الاستعدادات الروحية والمادية في الجهاد؛ فقد نقلوا إلى تلامذتهم المصريين خبرتهم الأصيلة والطويلة في المرابطة الجامعة بين الممارسة الحربية والممارسة الخلقية، على اعتبار أن الأولى تنزل عندهم منزلة الفرع التابع للثانية، فجددوا قدراتهم المعنوية والوجدانية بأن مدوا عزائمهم بمدد روحي خلَّاق أنهضهم إلى التطوع وحبب إليهم التضحية والاستشهاد، ونصبوا أنفسهم قدوات لهم في هذا الصنف من الجهاد المتكامل،

فشاركوهم في ما خاضوه من معارك بأن حملوا السلاح وثبَّتوا الأقدام.

(1878/1)

فهذا أبو الحسن الشاذلي، على انكفاف بصره وتقدم سنه، يَهُبُّ إلى إنقاذ ثغر دمياط من الصليبيين، محفِّزا للهمم ومثبّتا للقلوب، حتى أتى نصر الله.

3. 2 .الخاصية التداولية للعمل الخلقي المغربي ومحو المظاهر التجريدية في المجتمع المصري

... لقد خرجت مصر من الحكم الفاطمي وهي تقاسي من آثار المظهرين التجريديين التاليين:

... أحدهما أن الحكمة العرفانية بوجهيها، وهما: الشطحات الإشراقية والأسرار الكيميائية الموروثة عن مصر القديمة، ظهرت على بعض الأخلاقيين المحليين والوافدين(1)

---

(1) فقد اشتهر ذو النون بممارسة الكيمياء؛ كما اشتهر تلامذته بذلك ولعل هذه الممارسة هي التي جنت على ذي النون، فتسبَّبت له في دخول السجن ببغداد في عهد الخليفة المتوكل.

(1879/1)

.

... والثاني أن العمل الخلقي الذي احتضنته الدولة الفاطمية واستعملته لنشر مذهبها الشيعي تصوف فردي، أي يختص به الأفراد دون الجماعات.

... فاحتاج الحكام الجدد في مصر إلى محو هذين المظهرين التجريديين: "الحكمة العرفانية" و"التصوف الفرداني"، مع العلم بأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بتحصيل الحكمة الشرعية والتخلق الجماعي؛ وتبينوا أن هذا الأمر لا يمكن أن يقوم به إلا من تحقق بالتوجه التداولي الصحيح.

... ولا يبعد أن تكون حالة الصوفيَّيْن الفردانيَّيْن: محيي الدين بن عربي وعبد الحق بن سبعين حاضرة في أذهان هؤلاء

(1880/1)

الحكام؛ فمعلوم أن هذين الصوفيين الأندلسيين قد استقرا بالمغرب، لكنهما ما لبثا أن تركاه، متوجهين إلى المشرق، طلباً لممارسة تجربتهما الإشراقية

والأسرارية الفردانية؛ وسواء كان تركهما للمغرب عن رغبة أو عن رهبة(1)، فإن ذلك شاهد حي على أن نوع الممارسة الخلقية الذي اشتهر به هذا البلد والذي بلغ صيته غالب الديار المشرقية، لم يكن يوافق هواهما العرفاني الخاص.

---

(1) لقد كفَّر بعض علماء المغرب عبد الحق بن سبعين وقضوا بنفيه.

(1/1881)

... ويبدو أن هؤلاء الحكام أدركوا أن للممارسة الخلقية المغربية توجها تداوليا تصير به أقدر من غيرها على التصدي للحكمة العرفانية وللتصوف الفردانيي، ففتحوا الطريق لعمل المغاربة الوافدين على مصر.

... وقد تولى هؤلاء تنقية الممارسة الخلقية المصرية من أقوال الشطح وعبارات الرمز التي يأباها ظاهر الكتاب والسنة وتخالف ما أُثِر عن جمهور السلف الصالح، كما تولوا تجريد النفوس من الميل إلى الاشتغال بالكيمياء الذي كان راسخا في البيئة المصرية، وأورثوا تلامذتهم في مصر الدعوة إلى محاربة هذا الاشتغال. فهذا أبو العباس

(1882/1)

المرسي أقرب التلاميذ إلى أبي الحسن الشاذلي يتبرأ من الكيمياء ويجعل الكرامات تعلوها درجات في قلب الأعيان وطي الأزمان(1).

... وقد ساعد إنشاءُ المراكز لتجمع التلامذة من مدارس و"خوانق" هؤلاء المجددين على ترتيب الأعمال الجماعية لهم وتوظيف الوظائف المشتركة عليهم، فكانت هذه الأعمال والوظائف

---

(1) قال المرسي: "ما أصنع بالكيمياء؟! والله لقد صحبت أقواما ما يصير أحدهم على الشجرة اليابسة، فيشير إليها، فتثمر للوقت. فمن صحب هؤلاء الرجال، ماذا يصنع بالكيمياء؟!" (أبو الوفاء التفتازاني، ابن عطاء الله، ص.101).

(1883/1)

تجمع أفرادا من مختلف الطبقات، فمنهم العالم والأمي والكبير والصغير والغني والفقير ومنهم الوجيه وغير الوجيه والشريف وغير الشريف، فجعلت الجميع ينتفع

بالجميع، فقويت بذلك بينهم أواصر الخدمة وكثرت فيهم الأسباب لإنهاض الهمة.

... ولا نستغرب إذ ذاك أن يجد ابن عربي وابن سبعين من بعده في مصر بيئة أخذ يشكلها التخلق التداولي الجماعي المغربي تشكيلا لم يلبثا أن ضاقا به أولم يلبث هو أن ضيق عليهما حتى اضطرا إلى النزوح عن هذا البلد كما نزحا عن المغرب من قبل ليستقر الأول بالشام والثاني بالحجاز(1)

---

(1) فقد ضايق قطر الدين القسطلاني عبد الحق بن سبعين؛ كما أن ابن عربي تعرض لمحاولة اغتيال.

(1884/1)

.

3. 3 ـ الخاصية التأنيسية للعمل الخلقي المغربي ومحو المظاهر التسييسية في المجتمع المصري

... لقد تولى الأيوبيون الحكم في مصر، فوجدوا أنفسهم في مواجهة المظهرين التسييسيين التاليين:

... أحدهما أنهم، وإن كسروا شوكة الصليبيين، لم يتمكنوا من إيقاف الحملات التبشيرية في بعض

المراكز من أرض الكنانة.

... والثاني أنهم، وإن أنهوا الحكم السياسي للفاطميين بخلع آخر خليفة منهم، لم يتمكنوا من إيقاف تأثير المذهب الشيعي في النفوس.

(1/1885)

... فاحتاج الحكام الجدد إلى القضاء على هذين المظهرين التسييسيين: التبشير والتشيع، علما بأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بدعوة إنسانية روحية، وتبينوا أن هذه المهمة لا ينهض بها إلا من تحقق بالتوجه التأنيسي الصحيح، حتى لا تستهويه الميول السياسية ولا تراوده الأطماع الرئاسية، فينازعهم سلطانهم ويقاسمهم نفوذهم.

... ولا شك أن مثال الإسكندرية كان نصب أعينهم، وهم يسعون إلى إيجاد وسائل هذا التجديد الإنساني الروحي؛ فقد ظلت هذه المدينة سُنية تعمل بالمذهب المالكي على عهد الفاطميين، وتُتَّخذ محط رِحال المغاربة في

(1/1886)

ذهابهم إلى الحج وإيابهم منه، فكان واضحا أن محافظة الإسكندرية على طابعها السني واتجاهها المالكي يرجع الفضل فيه إلى هؤلاء المغاربة الذين اجتمعت لهم خبرتان تاريخيتان: إحداهما خبرة مواجهة الحكم العبيدي أثناء تسلطه على بلاد المغرب قبل أن يحوِّل وجهه إلى مصر؛ والثانية خبرة مواجهة الدعوات المنحرفة والحملات التنصيرية التي ظل يتعرض لها الغرب الإسلامي(1).

... والغالب على الظن أن هؤلاء الحكام علموا أن للعمل المغربي توجها تأنيسيا صريحا يصير به أقدر من غيره على

---

(1) أبو لبابة، موقف متصوفة إفريقية وزهادها.

(1887/1)

الوقوف في مواجهة التبشير والتشيع، فاستقبلوا رجال الأخلاق المغاربة في أرضهم ومكنوا لهم المقام فيها.

... وقد استطاع هؤلاء الأخلاقيون الوافدون أن يتصدوا للدعوات التبشيرية التي كان يقوم بها الدعاة المسيحيون في المناطق القريبة من المراكز التي احتلها الصليبيون أوفي المناطق النائية من الصعيد؛ فقد تولى الأستاذ أحمد بدوي في طنطا والأستاذ عبد الرحيم

القنائي في منطقة قنا تجديد الإيمان في قلوب مَن أضلتهم هذه الدعوات التنصيرية(1)، وأشرفوا على تكوين ثلة من

(1) صلاح عزام، السيد عبد الرحيم القنائي، ص.71.

(1/1888)

الرجال انتشروا في البلاد يردون الناس إلى أصول الدين الحنيف، فهذا أبو الحجاج الأقصري تلميذ عبد الرحيم القنائي يعيد أهل الأقصر إلى الإسلام بعد أن انسلخوا عنه لسنوات عدة(1).

... كما اجتهد هؤلاء المجددون في أن ينزعوا من قلوب عامة المصريين الآثار العقدية التي تركها في نفوسهم المذهب الشيعي ويزرعوا بدلها محبة المذهب السني ويرسخوا العمل بالفقه المالكي بين بعضهم، مزاوجين بين أساليب التربية الروحية التي ترتكز على الأوراد والأذكار والأحزاب وبين أساليب الوعظ والتدريس التي

(1) المصدر نفسه، ص ص. 69–70.

(1/1889)

ترتكز على الفهم والحفظ

... وحاصل الكلام في هذا المقام، فنقول: لقد ظهر أن تنقل أرباب السلوك المغاربة إلى مصر في القرنين السادس والسابع كان تنقلا مطلوبا باعتبار توجه أنظار المسلمين عامة والمصريين منهم خاصة إليه في هذه الفترة، وكان تنقلا مأذونا باعتبار شعور المغاربة بواجبهم نحو المسلمين عامة والمصريين منهم خاصة، كل ذلك لحصول هذا العمل المغربي على صفات تؤهله لسد حاجات المجتمع المصري من التجديد الأخلاقي؛ وقد ذكرنا أن هذه الخصائص ثلاث هي: البعد عن التجزيء والبعد عن التجريد والبعد عن التسييس، جاعلة

(1890/1)

من العطاء المغربي عطاء تكامليا تداوليا تأنيسيا؛ ثم بينا كيف أن الخاصية التكاملية لهذا العطاء أفادت في محو التنافر بين التفقه والتخلق وإغناء مفهوم الجهاد في المجتمع المصري، وأيضا كيف أن الخاصية التداولية لهذا العطاء أفادت في محو آثار الحكمة العرفانية . إشراقا وأسرارا . وآثارِ التصوف الفرداني في هذا المجتمع، وأخيرا كيف أن الخصوصية التأنيسية للعطاء

المغربي أفادت في إيقاف الحملات التبشيرية وإيقاف تأثير المذهب الشيعي فيه.

(1891/1)

... وهكذا نكون قد دللنا على الدعوى التي قلنا بها وهي أن العطاء المغربي الذي غلب على المصريين الاستمداد منه تعلق أساسا بالعمل الخلقي الذي تميز به المغاربة.

... وإذا ثبتت هذه الدعوى، ترتبت عليها النتائج التالية:

... أ ـ أن أهل المغرب أمَدوا المصريين بأفضل ما يميز الثقافة الإسلامية، ما دام الإسلام هو عبارة عن مكارم الأخلاق.

... ب ـ أنهم أمدوا مصر بأخص ما يميز الثقافة الإنسانية، ما دامت "الأخلاقية" هي المقوم الذاتي للإنسان، وليست، كما يُظَن منذ أرسطو، "العقلانية المجردة".

(1892/1)

... ج ـ أن أصالة العطاء المغربي يجب أن تُطلب في المنجزات الأخلاقية أكثر مما تُطلب في سواها من الاختيارات الثقافية الأخرى، ما دام عطاء المغرب هو أبرز

في جانب الأخلاق منه في أي جانب آخر.

... د .أن العطاء المغربي يحصل إحياؤه ويسهل استئنافه متى وقع تجديد الصلة بهذا الأصل الأخلاقي من أصول الثقافة المغربية، ما دامت أسباب الإبداع متوافرة في المجال الأخلاقي أكثر مما هي متوافرة في غيره من مجالات الثقافة المغربية.

المراجع

(1893/1)

الإدريسي الحسني، يوسف بن عابد، ملتقط الرحلة من المغرب إلى حضرموت، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1988.

الأزدي القشتالي، أحمد إبراهيم، تحفة المغترب ببلاد المغرب، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1973.

أعراب، محمد سعيد، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، المطبعة الملكية، الرباط، 1982.

بدوي، عبد الرحمن، تاريخ التصوف الإسلامي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1985.

بسيوني، إبراهيم، نشأة التصوف الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، 1969.

(1894/1)

التفتازاني، أبو الوفا، ابن عطاء الله السكندري وتصوفه، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1969.

..، ابن سبعين وفلسفته الصوفية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973.

التليدي، عبد الله، المطرب بذكر بعض مشاهير أولياء المغرب، مطابع الشمال، طنجة، 1980

الجاوي، علي، (تحقيق)، كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى لأبي العباس أحمد بن أبي القاسم التادلي الصومعي، رسالة دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1989

جعفر، محمد كمال إبراهيم، التصوف، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1980.

(1895/1)

الجنحاني، الحبيب، دراسات مغربية، دار الطليعة، بيروت، 1980.

الجيدي، عمر، محاضرات في تاريخ المذهب المالكي، منشورات عكاظ، 1987.

حسين، أبو لبابة، موقف متصوفة إفريقية وزهادها، دار اللواء للطباعة والنشر.

الحفني، عبد المنعم، الموسوعة الصوفية، دار الرشاد، القاهرة، 1992.

حلمي، محمد مصطفى، ابن الفارض والحب الإلهي، دار المعارف، القاهرة، 1971.

حوى، سعيد، المستخلص في تزكية الأنفس، دار عمار، بيروت.

حوى، سعيد، مذكرات في منازل الصديقين والربانيين، دار عمار، بيروت، 1989.

(1896/1)

ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، مطبعة مصطفى محمد، مصر.

درنيقة، محمد أحمد ، الطريقة الشاذلية وأعلامها، المؤسسة الجامعية، بيروت، 1990.

رزق، يونان لبيب ومزين محمد، تاريخ العلاقات المصرية

المغربية، الهيئة المصرية العامة.

ابن الزيات التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، منشورات كلية الآداب ـ الرباط، 1984.

السكندري، تاج الدين، لطائف المنن، مكتبة القاهرة.

السلمي، عبد الرحمان، طبقات الصوفية، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1982.

الشعراني، عبد الوهاب، الطبقات الكبرى، دار الفكر.

(1897/1)

...، المختار من الأنوار في صحبة الأخيار، عالم الكتب، بيروت، 1985.

الصغير، عبد المجيد، إشكالية إصلاح الفكر الصوفي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، 1988.

الطويل، توفيق، التصوف في مصر إبان العصر العثماني، مكتبة الآداب بالجماميز.

عاشور، سعيد عبد الفتاح، السيد أحمد البدوي : شيخ وطريقة، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967.

بنعبد الله، عبد العزيز، "الفكر الصوفي والانتحالية بالمغرب"، مجلة البينة، عدد 6 ـ7، أكتوبر ـ نوفمبر، 1962.

ابن عجيبة، أحمد بن محمد، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، دار المعرفة، بيروت.

(1898/1)

عزام، صلاح، السيد عبد الرحيم القنائي، دار الشعب.

ابن عسكر الحسني الشفشاوني، محمد، دوحة الناشر، مطبوعات دار المغرب، الرباط، 1976.

الغبريني، أبو العباس، عنوان الدراية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.

الفاسي، علال، "التصوف الإسلامي في المغرب"، مجلة الثقافة المغربية، يناير ـ فبراير، 1970.

الفاسي، محمد المهدي، ممتع الأسماع في الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع، مطبعة محمد الخامس، فاس، 1989.

فهمي، محمد عبد اللطيف، السيد البدوي ودولة الدراويش في مصر، المركز العربي للصحافة، القاهرة.

(1899/1)

ابن القاضي المكناسي، أحمد، جذوة الاقتباس، دار المنصور، الرباط، 1974.

القبلي، محمد، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال، الدار البيضاء، 1987.

ابن قنفد القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط

الكتاني، محمد بن جعفر، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، المطبعة الحجرية، فاس، 1900.

الكلابدي، أبوبكر محمد، التعرف لمذهب أهل التصوف، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1980.

(1900/1)

المالكي، عبد الله بن أبي عبد الله، رياض النفوس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1901.

مبارك، زكي، التصوف الإسلامي، دار الجيل، بيروت.

المراكشي، أبو عبد الله، الذيل والتكملة، السفر السادس، دار الثقافة، بيروت، والسفر الثامن، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

محمود، عبد الحميد، قضية التصوف، دار المعارف، القاهرة.

..، أبو الحسن الشاذلي، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1978.

(1901/1)

ابن الملقن، طبقات الأولياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973.

ابن أبي المنصور، صفي الدين، رسالة صفي الدين بن أبي المنصور، ترجمة وتحقيق ديني جريل، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، القاهرة، 1986.

النبهاني، يوسف بن إسماعيل، جامع كرامات الأولياء، دار الكتب العربية الكبرى، مصر، 1983.

النجار، عامر، الطرق الصوفية في مصر، دار المعارف، القاهرة.

النشار، علي سامي، ديوان أبي الحسن الششتري، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1960.

الهجويري، كشف المحجوب، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.

(1902/1)

اليوسي، الحسن، المحاضرات في الأدب واللغة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982.

(1903/1)

الاختلاف المباح في التشريع الإسلامي

... ... الدكتور فاروق حمادة

... ... كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ الرباط

ـ1ـ

... الحمد لله ذي العزة والجلال الكبير المتعال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله عظيم السؤدد وكريم الخصال، وعلى آله الأخيار نجوم الهداية، وعلى أصحابه الأبرار ذوي المفاخر وجلائل الأعمال ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد؛

... فقد أخرج الإمام البخاري رحمه الله في "الجامع الصحيح"، »كتاب العلم«، قال: باب كيف يقبض العلم؟ وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر

(1904/1)

بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فاكتبه؛ فإني خفت دروس العلم، وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي – صلى الله عليه وسلم –.

... ولْتُفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلَّم من لا يعلم. فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرّاً.

... وعن عبد الله بن عمر بن العاص قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا، وأضلوا. إن مسألة

(1905/1)

المعرفة الإسلامية دقيقة وجليلة. دقيقة، لأنها تتعامل مع نصوص الوحي المقدس وكلام النبوة الأسمى، فتحتاج من التأهل والاستعداد ما يفوق كل علم وكل معرفة أخرى.

... فخطأ طبيب في قتل واحد، أو مهندس في تدمير عمارة أو قنطرة، ضرر محدود، وأثر معدود؛ لكنَّ فتوى جائرة، ورأياً أرْعن هو قتل لمن لا حصر لهم من البشر المعاصرين لهذه الفتوى، ولمن يأتي بعدها من الأجيال. ومن هنا

تنشأ خطورة التأهل للبلاغ عن الله والرسول. وأما دقة المسألة، فتأتي من ضوابط التعامل مع هذه النصوص وكيفية أخذ الأحكام وتنزيل هذه الأحكام على

(1906/1)

الخليقة والأنام، وكيفية أخذ الأحكام وتنزيل هذه الأحكام على الخليقة والأنام. وفي ذلك تتفاوت القرائح وتتباين العقول والأفهام، ويبقى باب التصحيح والتقويم والردّ والتأكيد مفتوحاً على الدوام. وقد أكد القرآن العظيم والسنة الشريفة على وحدة الأمة وسلامة صفها، وحذَّراها من الفرقة والاختلاف وأسبابه ودواعيه. قال الله تعالى: {إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء، إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يعملون} (الأنعام، 159)؛ وقال تعالى: {ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا

(1907/1)

شيعاً، كل حزب بما لديهم فرحون} (الروم، 32)؛ وقال تعالى: {ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما

جاءهم البينات} (آل عمران، 105)؛ وقال تعالى: {وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله. ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون} (الأنعام، 153).

... وفي الحديث الشريف: »من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد«؛ وفي رواية: »من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ«؛ وفي رواية: »من صنع أمراً على غير أمرنا فهو ردّ«(1)

---

(1) متفق عليه، البخاري، 2697؛ ومسلم، 1718؛ والرواية الثانية له وأبو داود رقم 4606، والرواية الثالثة له، وابن ماجة رقم 14.

(1908/1)

.

... وعن جابر بن عبد الله قال: »كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا خطب، احمرّت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومسّاكم، ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: أما بعد؛ فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد – صلى الله

عليه وسلم – وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة «

(1).

... وعن العرباض بن سارية السلمي قال: »وعظنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها

---

(1) أخرجه مسلم رقم 867؛ وابن ماجة رقم 45.

(1/1909)

العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودِّع، فأوصنا. قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن تأمّر عليكم عبد حبشي، وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة «(1).

---

(1) أبو داود: السنة: باب لزوم السنة، رقم 4607؛ والترمذي، ج 2، ص. 278؛ العلم: باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدعة؛ وأحمد، ج 4، صص. 126 ـ 127؛ وابن ماجة رقم 42، 43، 44؛ والدارمي؛ وابن حيان في "صحيحـ"ه وغيرهم.

(1910/1)

... ومن أشد ما جاء في التحذير من التفرق والاختلاف ما جاء من حديث عبد الله بن عمرو ومعاوية بن أبي سفيان وأبي هريرة وعوف بن مالك وغير واحد من الصحابة رضوان الله عليهم عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: »ألا إن مَنْ قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملَّة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة. وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه، أو لصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله «(1)

---

(1) أخرجه أحمد، ج 4، ص. 102؛ وأبو داود، رقم 4597؛ السنة: »باب شرح السنة «.

(1911/1)

.

... والكَلَب: داء يعرض للإنسان من عضّة لكلْب الكَلب، وهو داء يصيب الكل كالجنون، والكلب داء عظيم.

.2.

... وإذا كان التفرق والاختلاف بهذا الموقع من الذم والتنفير، فما دلالة هذا التفرق الذي جاء في الحديث الشريف؟

... لقد ذهب العلماء في تفسيره مذاهب عديدة؛ وحاولوا أن يلتمسوا أوصافهم التي خرجوا بها أو كادوا عن الملّة.

يقول الإمام الشاطبي(1):»إن للراسخين طريقاً يسلكونها في اتباع الحق، وإن الزائغين على طريق غير طريقهم...«، إلى أن قال:

---

(1) الاعتصام، ط 1، ج 2، ص. 223 وما بعدها.

(1912/1)

... فمنها اعتمادهم على الأحاديث الواهية والضعيفة والمكذوب فيها على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، والتي لا يقبلها أهل صناعة الحديث في البناء عليها كحديث أكل الباذنجان، وإكرام الديك الأبيض...

... ومنها: ردّهم للأحاديث التي جرت غير موافقة لأغراضهم ومذاهبهم، ويدَّعون أنها مخالفة للمعقول، وغير جارية

على مقتضى الدليل، كالمنكرين لعذاب القبر، والصراط، والميزان ورؤية الله عز وجل في الآخرة؛ وكذلك حديث الذباب وقتله، وأن في أحد جناحيه داءً وفي الآخر دواءً، وأنه يقدم الذي فيه الداء، وحديث الذي أخذ أخاه

(1913/1)

بطنُه فأمره النبي – صلى الله عليه وسلم – بسقيه العسل وما أشبه ذلك من الأحاديث الصحيحة المنقولة نقل العدول. وربما قدحوا في الرواة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم. وحاشاهم. وفيمن اتفق الأئمة من المحدثين على عد التهم وإمامتهم... وقد بالغ بعض الضالين في ردّ الأحاديث، ورد قول من اعتمد على ما فيها، حتى عدوا القول به مخالفاً للعقل، والقائل به معدود في المجانين.

... ومنها: تخرصهم على الكلام في القرآن والسنة العربيين مع العروِّ عن علم العربية الذي يفهم به عن الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم –.

(1914/1)

... ومنها: انحرافهم عن الأصول الواضحة إلى اتباع المتشابهات التي للعقول فيها مواقف...

... ومنها: تحريف الأدلة عن مواضعها بأن يرد الدليل على مناط ينصرف من ذلك المناط إلى أمر آخر موهماً بأن المناطين واحد، وهو من خفيات تحريف الكلم عن مواضعه.

... ومنها: بناء طائفة منهم الظواهر الشرعية على تأويلات لا تعقل يدَّعون فيها أنها هي المقصود والمراد، لا ما يفهم العربي مسندة عندهم إلى أصل لا يعقل، وذلك أنهم فيما ذكر العلماء راموا إبطال الشريعة جملة وتفصيلا. فلم يمكنهم إلقاء ذلك صُراحاً، فيردّ ذلك في وجوههم،

(1915/1)

فصرفوا أعناقهم إلى التحيل على ما قصدوا بأنواع من الحيل لإحالة الكلم عن الظواهر إحالة لها على أن لها بواطن هي المقصودة، فقالوا: كل ما ورد في الشرع من الظواهر في التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهية فهي أمثلة ورموز إلى بواطن.

... ولما كان الاجتهاد في الفروع الفقهية والاختلاف فيها واقعاً في الصحابة ومن اتبعهم بإحسان معلوماً بالقطع

واليقين، ولم يذم ذلك بل كان من محاسن الشريعة وسعتها وتيسيرها ورحمتها، كان من المؤكد أن التفرق المذموم هو في العقائد. قال أبو عمر بن عبد البر(1)

(1) جامع بيان العلم وفضله، دار الفكر، د. ت، ج 2، ص. 113،

(1916/1)

: وأما التنازع في أحكام القرآن ومعانيه، فقد تنازع أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في كثير من ذلك.. وأما الفقه، فأجمعوا على الجدال فيه والتناظر، لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع على الأصول للحاجة إلى ذلك، وليس الاعتقادات كذلك

... وقال أبو عمر: وأما تناظر العلماء وتجادلهم في مسائل الأحكام، فأكثر من أن يحصى(1). وذكر طرفاً من ذلك

... وعن القاسم بن محمد قال: لقد نفع الله باختلاف أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في العمل، لا يعمل العامل بعلم رجلٍ منهم إلا رأى

(1) المصدر نفسه، ص. 131.

(1917/1)

أنه في سعة.

... وعنه أيضاً قال: لقد أعجبني قول عمر بن عبد العزيز، ما أحب أن أصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – لا يختلفون، لأنه لو كان قولاً واحداً، لكان الناس في ضيق، وأنهم أئمة يقتدى بهم. فلو أخذ رجل بقول أحدهم، كان سنة. قال الشاطبي(1):

... ومعنى هذا أنهم فتحوا للناس باب الاجتهاد وجواز الاختلاف فيه، لأنهم لو لم يفتحوه لكان المجتهدون في ضيق، لأن مجال الاجتهادات ومجالات الظنون لا تتفق عادة، فيصير أهل الاجتهاد مع تكليفهم باتباع ما غلب على ظنونهم مكلفين باتباع

---

(1) الاعتصام، ج 2، صص. 170 ـ 171.

(1918/1)

خلافهم وهو نوع من تكليف ما لا يطاق، وذلك من أعظم الضيق، فوسع الله على الأمة بوجود الخلاف الفروعي، فكان فتح باب للأمة للدخول في هذه الرحمة.

... وإننا لما وجدنا بالقطع واليقين هذا الخلاف هو في الفروع القائمة على الاجتهاد وبذل الوسع في الوصول إلى الحق واليقين، لم نجد كذلك بالقطع واليقين من بدّع أو فسَّق هؤلاء الأئمة المجتهدين، ولو أخطأوا أو ابتعدوا عن الصواب، بل كانوا يخطئونهم ويُحصون عليهم سقطاتهم وعثراتهم، بل جمعوها من كل مذهب وأحصوها على كل إمام مهما علا قدره. وإن أكثر الأئمة تعرضاً للنقد في

(1919/1)

الفقه والاجتهاد الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت وتلامذته، ولم يُتَّهَمْ أحد منهم في اجتهاده بالفسق والبدعة أو غير ذلك، سوى ما نسب إلى أبي حنيفة من تهمة الإرجاء. وقد أصبحت عقيدة الإمام أبي حنيفة وتلامذته عقيدة جميع المسلمين من جميع المذاهب حسب ما نقله الإمام الطحاوي في عقيدته إذ قال:

... هذا ذكر بيان عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملّة أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني رضوان الله عليهم أجمعين، وما

(1920/1)

يعتقدون من أصول الدين، ويدينون به رب العالمين(1).

وقد تتبعوا أصحاب الأهواء والمخالفين في العقائد

وفندوا أقوالهم صغيرها وكبيرها، ووزنوا أقوالهم

وحصروا فرقهم، فأحصوا فرق الشيعة وبدَّعوهم لقولهم

بعصمة الأئمة، وتقديمهم الإمام علياً على الشيخين، وأن

النبي – صلى الله عليه وسلم – نصّ على استخلافه

وإبطالهم الاجتهاد في الأحكام، وأن الإمام لا يكون إلا

أفضل الناس...(2) مع أقوالهم في التجسيم والصفات،

والبَدَاء الذي يرونه جميعاً إلا شرذمة

---

(1) العقيدة الطحاوية، ص. 3.

(2) مقالات الإسلاميين، ج 1، ص. 89.

(1921/1)

قليلة منهم(1) والرجعة.

... وبدَّعوا كل من قال بأن أصحاب الكبائر مخلدون في

النار، لا يخرجون منها ولا يغيبون عنها(2) كالزيدية

وغيرهم.

... وضللوا الخوارج على كثرة عبادتهم، وتقشفهم في حياتهم، لأنهم كفروا علياً بن أبي طالب والصحابة، وقالوا إن صاحب الكبيرة كافر مخلّد في النار؛ وتتبعوا كذلك فرقهم وفندوا آراءهم

---

(1) المصدر نفسه، ص. 111؛ والبداء: هو أن يظهر لله رأي ثم يبدو له غيره، والرجعة اعتقادهم برجوع علي بن أبي طالب رضي الله عنه قبل يوم القيامة وأخذه الحق ممن خالفه.

(2) المصدر نفسه، ص. 149.

(1922/1)

وفسقوهم وردّوا عليهم في كل صغيرة وكبيرة تخالف الكتاب والسنة.

... وناقشوا المرجئة ووقفوا منهم الموقف الصارم؛ إذ قالوا: الإيمان بالله هو المعرفة فقط، وما سوى المعرفة من الإقرار باللسان والخضوع بالقلب والمحبة لله ورسوله والتعظيم لهما والخوف منهما والعمل بالجوارح فليس بإيمان(1).

... ومنهم الجهمية الذين قالوا: إن الإنسان إذا أتى بالمعرفة ثم جحد بلسانه أنه لا يكفر بجحده وأن الإيمان

لا يتبعض، ولا يتفاضل أهله فيه...

---

(1) **المصدر نفسه، ص.** 213 ـ 214.

(1923/1)

... وأما معاركهم مع المعتزلة، فسيبقى صداها يرنُّ مع الدهر، وقد تتبعوهم في كل صغيرة وكبيرة من العقائد والأصول، ولم نجدهم يقفون كثيراً أمام الفروع والأحكام الفقهية.

... أما موقفهم منهم في رؤية الله عز وجل في الآخرة، فمعروف؛ وهو من المسائل الكبرى التي خالف فيها المعتزلة ومثلها الصفات الإلهية، كقولهم: إن الله عالم قادر حي بنفسه لا بعلم وقدرة وحياة. وكان النظام يقول: معنى قولي: عالم إثبات ذاته ونفي الجهل عنه، ومعنى قولي: قادر إثبات ذاته ونفي العجز عنه، ومعنى قولي: حيّ إثبات ذاته ونفي الموت عنه...

(1924/1)

وهكذا في بقية الصفات. وقولهم: إن الجنة والنار تفنيان، حتى يكون الله سبحانه وتعالى آخِراً لا شيء

معه كما كان أولاً لا شيء معه.

... وأنكرت المعتزلة بأسرها أن يكون الله مريداً للمعاصي، وأنكروا كذلك أن يكون الله تعالى لم يزل مريداً لطاعته.

... وأعظم فتنهم التي أثاروها وامتحنوا بسببها العلماء، عندما تمكنوا من الدولة، فتنة خلق القرآن التي يرون فيها أن كلام الله مخلوق وعَرَض؛ وكان لها أثر عظيم في الفكر الإسلامي كله، وكانت محكاً لكل عالم في آخر القرن الثاني ومطلع القرن الثالث الهجري. ومن بدعهم التي لا

(1925/1)

تزال تجد صدى عند كثير من المتهورين ما أجمعوا عليه أن الناس محجوجون بعقولهم، مَنْ بلغه خبر الرسول ومَنْ لم يبلغه، ومسألة أن الله لم يخلق الكفر والمعاصي ولا شيئاً من أفعال غيره، ومسألة التحسين والتقبيح، وأن الله جعل الإيمان حسناً والكفر قبيحاً، وأن الله لم يخلق الشر.

... وأجمعوا أن مَنْ أدخله الله النار خلّده فيها، وأجمعوا على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإمكان والقدرة كيف قدر الإنسان على ذلك، مع كثير من

ترَّهاتهم التي رتبت على خمس مخالفات وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين

(1926/1)

المنزلتين، وإثبات الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

... لقد صلا المعتزلة علماء السنة وأهل الحديث على الخصوص بنارهم. فمات من مات منهم، وصبر من صبر منهم، وداهن من داهن، ودافع من دافع؛ وما نال أحمد بن حنبل مرتبة إمامة أهل السنة والجماعة إلا بثباته في هذه المحنة.

... وقد روى الآجري في كتابه "الشريعة"(1) عن صالح بن علي الهاشمي قال:

... حضرت يوماً من الأيام جلوس المهتدي للمظالم، فرأيت من سهولة الوصول ونفوذ الكتب عنه إلى النواحي فيما يتظلم

---

(1) دار الكتب العلمية، بيروت، 1403 هـ/ 1983 م، ص. 91.

(1927/1)

به إليه ما استحسنته. فأقبلت أرمق ببصري حتى إذا نظر في القصص فإذا رفع طرفه إلي أطرقت، فكأنه علم ما في نفسي فقال لي: يا صالح أحسب أن في نفسك شيئاً تحب أن تذكره؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين! فأمسك فلما فرغ من جلوسه، أمر أن لا أبرح ونهض. فجلست جلوساً طويلاً، فقمت إليه وهو على حصير الصلاة، فقال لي: يا صالح أتحدثني بما في نفسك أم أحدثك؟ فقلت: بل هو من أمير المؤمنين أحسن. فقال: كأني بك وقد استحسنت من مجلسنا. فقلت: أي خليفة خليفتنا! إن لم يكن يقول بقول أبيه من القول بخلق القرآن؟ فقال: قد كنت على ذلك

(1928/1)

برهة من الدهر حتى أقدم ابن أبي دؤاد على الواثق شيخاً من أهل الفقه والحديث من أذنة من الثغر الشامي مقيداً طُوالاً حسن الشيبة جميل الوجه، فسلّم غير هائب، ودعا فأوجز فرأيت الحياء منه في حماليق عيني الواثق والرحمة عليه.

... فقال: يا شيخ، أجب أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد عما

يسألك عنه، فقال: يا أمير المؤمنين أحمد يصغر ويضعف ويقل عند المناظرة، فرأيت الواثق وقد صار مكان الرحمة غضباً عليه، فقال: أبو عبد الله يصغر ويضعف ويقل عند مناظرتك؟ فقال: هوِّن عليك يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في كلامه؟ فقال له

(1929/1)

الواثق: قد أذنت لك

... فأقبل الشيخ على أحمد فقال: يا أحمد إلام تدعو الناس؟ فقال: إلى القول بخلق القرآن. فقال له الشيخ: مقالتك هذه التي دعوت الناس إليها من القول بخلق القرآن أداخلة في الدين فلا يكون الدين تاماً إلا بالقول بها؟ قال: نعم! قال الشيخ: فرسول الله – صلى الله عليه وسلم – دعا الناس إليها أم تركهم؟ قال: لا . قال: يعلمها أم لم يعلمها؟ قال: علمها. قال: فلم دعوت الناس إلى ما لم يدعهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إليه، وتركتهم منه؟

(1930/1)

... فأمسك فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، هذه واحدة. ثم قال له: يا أحمد أخبرني، قال الله تعالى في كتابه العزيز {اليوم أكملت لكم دينكم} الآية، فقلت أنت: الدين لا يكون تاماً إلا بمقالتك بخلق القرآن، فالله عز وجل صدق في تمامه وكماله أم أنت في نقصانك؟ فأمسك فقال الشيخ: وهذه ثانية. ثم قال بعد ساعة: أخبرني يا أحمد، قال الله عز وجل {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته}، فمقالتك هذه التي دعوت إليها الناس فيما بلغه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى الأمة أم لا؟ فأمسك

(1931/1)

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! وهذه ثالثة. ثم قال بعد ساعة: أخبرني يا أحمد! لما علم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مقالتك هذه التي دعوت إليها الناس اتسع له أن أمسك عنها أم لا؟ فقال: بل اتسع له ذلك فقال الشيخ: وكذلك لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم؟ قال نعم. فصرف وجهه إلى الواثق وقال: يا أمير المؤمنين، إذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولأصحابه، فلا وسع الله علينا. قال

الواثق، نعم! لا وسع الله علينا إذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله – صلى الله عليه وسلم –

(1932/1)

وأصحابه. ثم قال الواثق: اقطعوا قيوده. فلما فكت، جاذب عليها الجلاد، فقال الواثق: دعوه فأخذه الشيخ فوضعه في كمه ثم قال: يا شيخ! لم جاذبت عليها؟ فقال: لأني عقدت في نيتي أن أجاذب عليها فإذا أخذتها أوصيتُ أن تجعل بيني وبين كفين ثم أقول: يا رب سل عبدك لم قيدني ظلماً، وارتاع بي أهلي وإخواني بلا حق أوجب ذلك علي؟ فبكى الواثق وكل من حضر، ثم قال له الواثق: يا شيخ! اجعلني في حلّ. فقال: يا أمير المؤمنين! ما خرجت من منزلي حتى جعلتك في حلّ إعظاماً لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقرابتك منه. فتهلل وجه

(1933/1)

الواثق وسُرَّ. ثم قال: أقم عندي آنس بك فقال له: مكاني في ذلك الثغر أنفع وأنا شيخ كبير ولي حاجة. قال: سل ما بدا لك قال: يأذن أمير المؤمنين بالرجوع

إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم .أي ابن أبي دؤاد. وأمر له بجائزة فلم يقبلها. فرجعت من ذلك الوقت عن تلك المقالة وأحسب أيضاً أن الواثق رجع عنها.

... لقد دافع السلف الصالح حماة الدين وأمناء الله على كتابه وسنة رسوله، تجاه جميع التيارات والأهواء. وقال عبد الله بن عمر لابن بريدة ويحيى بن يعمر وقد قالا له: يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس

(1934/1)

يقرؤن القرآن ويتقفرون العلم(1)، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قَدَر، وأن الأمر أُنُف، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذ طلع علينا رجل

---

(1) يتقفرون العلم: بتقديم القاف على الفاء: أي يقتفونه ويجمعونه، وفي رواية أخرى للصحيح عن مسلم:

يتفقرون، بتقديم الفاء؛ والمعنى يبحثون عن غامضه وأسراره.

(1935/1)

شديد بياض الثياب... الحديث حديث جبريل المعروف(1).

... ولم يتبرأ عبد الله بن عمر ممن خالفه الرأي الفقهي أو أفتى بغير فتواه وهم كُثُر.

... ومن قبله عمر بن الخطاب ضرب صَبِيغاً بن عَسْل العراقي وكان يسأل عن متشابه القرآن في أجناد المسلمين حتى قدم مصر، فبعث به عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب فلما أتاه الرسول بالكتاب قال: أين الرجل؟ قال: في الرحل، قال: أبصر أن يكون ذهب فتصيبك مني العقوبة الموجعة، فأتاه به فقال عمر: تسأل محدثةً، فأرسل عمر إلى رطائب من جريد،

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الإيمان أول حديث فيه.

(1936/1)

فضربه حتى ترك ظهره دَبْرة، ثم تركه حتى برأ، ثم عاد له، ثم تركه حتى برأ، فدعا به ليعود له. فقال صبيغ: إن

كنت تريد قتلي فاقتلني قتلاً جميلاً، وإن كنت تريد أن تداويني فقد والله برئت، فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن لا يجالسه أحد من المسلمين، فاشتد ذلك على الرجل، فكتب أبو موسى إلى عمر: أن قد حسنت توبته، فكتب عمر أن يأذن للناس بمجالسته(1).

---

(1) انظره في سنن الدّارمي، رقم 150، ط السيد عبد الله هاشم اليماني؛ والشريعة للآجري، ص. 73.

(1937/1)

... بعد هذا، يمكننا القول إن الابتداع والتفرق قد كان في العقائد والمذاهب الفكرية؛ أما الاجتهاد في الفروع، فقد كان بمنأى عنه. قال السبكي(1): والاختلاف على ثلاثة أقسام: أحدها: في الأصول وهو المشار إليه في القرآن. ولاشك أنه بدعة وضلالة؛ الثاني: في الآراء والحروب هو حرام أيضاً لما فيه من تضييع المصالح؛ الثالث: في الفروع كالاختلاف في الحِلّ والحرمة ونحوهما. قال: والذي ـ أيده الله ـ: والذي يظهر لنا ويكاد أن يقطع به أن

---

(1) الإبهاج في شرح المنهاج، دار الكتب العلمية، 1404 هـ/ 1984 م، ج 3، ص. 19.

(1938/1)

الاتفاق فيه خير من الاختلاف. لكن هل نقلوا أن الاختلاف ضلال كالقسمين المذكورين؟ وكلام ابن حزم ومن سلك مسلكه ممن منع التقليد يقتضي أنه مثلهما؛ وأما نحن، فإنه يجوز التقليد للجاهل والأخذ بالرخصة من أقوال العلماء بعض الأوقات عند مسيس الحاجة من غير تتبع الرخص. ومن هذا الوجه يصح أن يقال: الاختلاف رحمة، إذ الرخص رحمة.

... وحتى لا يتسرب هذا الاختلاف إلى الأحكام التشريعية، أشاد حماة الدين علم أصول الفقه وضوابط الاستنباط، ووضعوا الطريق بما لا مزيد عليه، وإن كانوا قد اختلفوا في بعض القضايا في هذا العلم مما

(1939/1)

يمكن للباحث المنصف المتمكن أن يرجح ويوازن، ولكنه يجد الطريق معبدة. من ذلك الكلام إذا دار بين الحقيقة

والمجاز، وخبر ما تعم به البلوى، وموافقة الحديث لظاهر القرآن، والاستثناء المتصل هل يدخل في باب النسخ وعمل الراوي وفتواه بخلاف نقله وروايته، في مسائل عديدة جزئية.

... ولكنهم جميعاً لا يتعمدون المخالفة. قال ابن تيمية في كتابه النفيس "رفع الملام عن الأئمة الأعلام"(1):

---

(1) رفع الملام، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة بالرياض، ص. 9.

(1940/1)

... وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة ـ المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً ـ يتعمد مخالفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في شيء من سنته دقيق ولا جليل. فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول – صلى الله عليه وسلم – وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم –. لكن إذا وجد لواحدٍ منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلابد من عذر في تركه، وجميع الأعذار ثلاثة أصناف:

... أحدها: عدم اعتقاده أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قاله.

(1941/1)

... الثاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول.

... والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

... وهذا كلام دقيق ونفيس. ولهذا فإن إلصاق البدعة والفسق بمسلم، ولا سيما إذا كان عالماً أو باحثاً لها من الخطورة والعظم والدقة ما يجعل المنصف يتوقف أمامها طويلاً جداً قبل أن يطلقها أو يدونها أو يلفظها لو كان عاقلاً يبتغي مراد الله.

.3.

... ولكني وجدت إضافة لهذا في نصوص السنة على الخصوص أحاديث جاءت بالتيسير والسعة وترك الاختيار للمجتهد ولكل مسلم وعامل، وذلك في عدد كبير من المسائل التشريعية العملية

(1942/1)

وليس في الأحكام الاعتقادية.

... وقد تردد في كتبهم مصطلح الاختلاف المباح. وأول من علمته أكد على هذا المصطلح واستعمله وأقام الدليل عليه الإمام الشافعي رحمه الله تعالى. وتردّد كثيراً في كلام أحمد بن حنبل وتبعهما في ذلك أئمة أعلام كابن خزيمة (ت 311 هـ)، والطحاوي (ت 323 هـ)، والخطابي (ت 388 هـ)، وأكثر منه الحافظ أبو عمر بن عبد البر (ت 463 هـ) والحازمي (ت 575 هـ) وابن قيم الجوزية (ت 751 هـ) وابن حجر في "فتح الباري" (ت 852 هـ)، وغيرهم من الجِلَّة الأخيار.

(1943/1)

... وسأقتبس نماذج من هؤلاء الأئمة عبرة لأولي الألباب وتبصرة للباحثين عن الحق والصواب.

... قال الإمام الشافعي في كتابه "اختلاف الحديث" :

«باب الاختلاف من جهة المباح»، وساق بسنده إلى ابن عباس أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وضأ وجهه ويديه ومسح برأسه مرة مرة. ثم ساق بسند آخر عن حُمْدان مولى عثمان بن عفان أن النبي – صلى الله عليه وسلم – توضأ ثلاثاً ثلاثاً. ثم ساق بسنده إلى يحيى المازني أنه سمع رجلاً يسأل عبد الله بن زيد: هل

تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يتوضأ؟ فدعا

(1944/1)

بماء ثم ذكر أنه غسل وجهه ثلاثاً ويديه مرتين مرتين، ومسح رأسه وغسل رجليه «.

... قال الشافعي: »لا يقال لشيء من هذه الأحاديث مختلف مطلقاً، ولكن الفعل فيه يختلف من وجه أنه مباح، لا اختلاف الحلال والحرام والأمر والنهي، ولكن يقال: أقل ما تجزئ من الوضوء مرة، وأكمل ما يكون من الوضوء ثلاثاً«(1).

... وفي »باب سجود القرآن«، ذكر حديث أبي هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قرأ بـ{النجم}، فسجد وسجد الناس معه إلا رجلين، قال: أرادا

---

(1) **اختلاف الحديث مع الأم، دار الفكر، ط** 2، 1403 **هـ/** 1983 **م، ج** 8، **ص.** 599.

(1945/1)

الشهرة.

... ثم ذكر حديث زيد بن ثابت أنه قرأ عند رسول الله بـ{النجم}. فلم يسجد فيها. إلى أن قال: فإن قال قائل: فلعل أحد هذين الحديثين نسخ الآخر، قيل: فلا يدعي أحد أن السجود في النجم منسوخ إلاّ جاز لغيره أن يدعي أن ترك السجود منسوخ والسجود ناسخ، ثم يكون أولى لأنه السنة لقول الله تعالى {فاسجدوا لله واعبدوا}. ولا يقال لواحد من هذين ناسخ ومنسوخ، ولكن يقال: اختلاف من جهة المباح(1).

... وفي »باب قتل الأسارى والمفاداة بهم والمن عليهم«، ذكر بإسناده حديث عمران بن حصين قال:

---

(1) المصدر نفسه، ص. 601.

(1946/1)

... أسر أصحاب رسول الله رجلاً من بني عقيل، وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – ففداه النبي بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف. ثم ذكر حديث ثُمَامَة بن أُثال الحنفي أن خيل النبي – صلى الله عليه وسلم – أسرته فأُتي به مشركاً فربطه النبي إلى سارية من سواري المسجد ثلاثاً ثم منَّ عليه

وهو مشرك، فأسلم بعد.

ثم قال:

... أخبرني عدد من أهل العلم من قريش وغيرهم أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أسر النضر بن الحارث العبدي يوم بدر وقتله بالبادية أو بين البادية والأثيل صبراً.

(1947/1)

... وأخبرني عدد من أهل العلم أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أسر عقبة بن أبي معيط يوم بدر فقتله صبراً.

... وأن رسول الله أسر سهيل بن عمرو وأبا وداعة السهمي وغيرهما ففاداهما بأربعة آلاف أربعة آلاف، وفادى بعضهم بأقل، وأن رسول الله أسر أبا عَزَّة الجمحي يوم بدر فمَنَّ عليه ثم أسر يوم أحد فقتله صبراً.

... فكان فيما وصفت من فعل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما يدل على أن للإمام إذا أسر رجلاً من المشركين أن يقتل أو أن يمن عليه بلا شيء أو أن يفادي بمال يأخذه منهم أو أن يفادى بأن يطلق منهم على

(1948/1)

أن يطلق له بعض أسرى المسلمين، لا أن بعض هذا ناسخ لبعض ولا مخالف له من جهة إباحته. ولا يقال لشيء من الأحكام مختلف مطلقاً، إلا ما قال حاكم حلال وحاكم حرام. فأما ما كان واسعاً، فيقال: هو مباح وكل من صنع فيه شيئاً وإن خالف فعل صاحبه، فهو فاعل ما يجوز له كما يكون القائم مخالفاً للقاعد والماشي مخالفاً للقائم. وكل ذلك مباح، لا أن حتماً على الماشي أن يقوم ولا على القائم أن يقعد(1).

... وقال رحمه الله وأعلى مقامه: »باب القنوت في الصلوات كلها«:

---

(1) **المصدر نفسه، ج** 8، **ص**. 606.

(1949/1)

... أخبرني بعض أهل العلم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: لما انتهى إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – قتل أهل بئر معونة، أقام خمس عشرة ليلة كلما رفع رأسه من

الركعة الأخيرة من الصبح قال: سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد؛ اللهم افعل... فذكر دعاء طويلاً ثم كبر فسجد، قال: وحفظ عن جعفر عن النبي – صلى الله عليه وسلم – القنوت في الصلوات كلها عند قتل أهل بئر معونة، وحفظ عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قنت في المغرب، كما روي عنه في القنوت في غير الصبح عند قتل أهل بئر معونة. والله أعلم.

(1950/1)

... وروى أنس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قنت وترك القنوت جملة. ومن روى مثل حديثه روى أنه قنت عند قتل أهل بئر معونة وبعده، ثم ترك القنوت. فأما القنوت في الصبح، فمحفوظ عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في قتل أهل بئر معونة وبعده، ولم يحفظ عنه أحد تركه.

... أخبرنا سفيان عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لما رفع رأسه من الركعة الثانية من الصبح، قال: اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين بمكة؛ اللهم أشدد وطأتك على مضر

(1951/1)

واجعلها عليهم سنين كسنين يوسف.

... قال الشافعي: فأما ما روى أنس بن مالك من ترك القنوت، فالله أعلم ما أراد. فأما الذين أرى بالدلالة، فإنه ترك القنوت في أربع صلوات دون الصبح؛ كما قالت عائشة: فرضت الصلاة ركعتين فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر تعني ثلاث صلوات دون المغرب.

... وترك القنوت في الصلوات سوى الصبح لا يقال له ناسخ، إنما يقال الناسخ والمنسوخ ما اختلف. فأما القنوت في غير الصبح، فمباح أن يقنت وأن يدع، لأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يقنت في غير الصبح قبل قتل أهل بئر معونة، ولم

(1952/1)

يقنت بعد قتل أهل بئر معونة في غير الصبح. فدل ذلك على أن ذلك دعاء مباح كالدعاء المباح في الصلاة لا ناسخ ولا منسوخ(1).

... وقال قبله سفيان الثوري: من قنت فحسن، ومن لم يقنت فحسن(2).

... وقال الإمام أبو بكر محمد بن إسحق بن خزيمة المتوفى (311 هـ) في "صحيحه"(3): »باب

---

(1) المصدر نفسه، ج 8، ص. 653.

(2) الاستذكار، ج 6، ص. 201؛ وانظر مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، ط 1، الدار السلفية بالهند، 1413 هـ، ج 2، ص. 312

(3) تحقيق الدكتور مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ج. 3، صص. 170 ـ 172.

(1953/1)

القراءة في صلاة الجمعة«، وساق بسنده إلى أبي عبيد الله بن أبي رافع كاتب علي بن أبي طالب قال: كان مروان يستخلف أبا هريرة على المدينة فصلى بهم يوم الجمعة فقرأ بـ {الجمعة} و {إذا جاءك المنافقون}، فقلت: أبا هريرة لقد قرأت بها قراءة قرأها بنا علي بالكوفة، فقال أبو هريرة: سمعت حُبي أبا القاسم يقرأ بهما.

... ثم قال: »باب إباحة القراءة في صلاة الجمعة«: بـ{سبح اسم ربك الأعلى} و {هل أتاك حديث الغاشية}.

وهذا الاختلاف في القراءة من اختلاف المباح، وساق بسنده إلى سمرة بن جندب قال: كان رسول الله يقرأ في الجمعة

(1954/1)

{سبح اسم ربك الأعلى} و {هل أتاك حديث الغاشية}.

... وقال أبو عمر في "الاستذكار"، »شرح باب القراءة في صلاة الجمعة والاحتباء ومن تركها من غير عذر« (1)، حيث قال: »وقد اختلف العلماء في هذا الباب على حسب اختلاف الآثار فيه، وهذا عندهم من اختلاف المباح الذي ورد ورود التخيير«.

... وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي في كتابه "شرح معاني الآثار" : »باب المشي في الجنازة أين ينبغي أن يكون منها«، وذكر أحاديث منها حديث ابن عمر قال: »رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأبا بكر وعمر يمشون

---

(1) الاستذكار، ج 5، ص. 110.

(1955/1)

أمام الجنازة«.

... ومنها حديث أنس بن مالك أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانوا

يمشون أمام الجنازة وخلفها.

... وحديث المغيرة بن شعبة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم- :الراكب خلف الجنازة حيث شاء منها.

... إلى أن قال: فدل ذلك أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يفعل ذلك على جهة التخفيف على الناس ليعلمهم أن المشي خلف الجنازة وإن كان أفضل من المشي أمامها ليس هو مما لابد منه ولا ممّا يُحرج تاركه، ولكنه مما له أن يفعله ويفعل غيره(1)

---

(1) شرح معاني الآثار، تحقيق محمد زهدي النجار، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، صص. 481 ـ 483؛ الاستذكار، ج 8، ص. 222.

(1956/1)

.

... ومنهم الإمام الخطابي حمد بن محمد البستي المتوفى 388 هـ، حيث قال في شرحه لحديث عطاء أنه رأى ابن عمر يصلي بعد الجمعة فينحاز عن مصلاه الذي صلى الجمعة فيه قليلاً غير كثير فيركع ركعتين قال: ثم يمشي من ذلك فيركع أربع ركعات(1).

... وقد اختلفت الرواية في عدد الصلاة بعد الجمعة. وقد

رواها أبو داود في هذا الباب على اختلافها: روى أربعاً، وروى ركعتين في المسجد، وروى أنه كان يصلي في المسجد حتى إذا صار إلى بيته صلى ركعتين.

---

(1) سنن أبي داود، »الصلاة: الجمعة«، رقم 1133.

(1957/1)

... قلت ـ الخطابي ـ: وهذا ـ والله أعلم ـ من الاختلاف المباح. وكان أحمد بن حنبل يقول: »إن شاء صلى ركعتين، وإن شاء صلى أربعاً«.

... أما أبو عمر بن عبد البر الذي كان يحصّل مذاهب السلف بأدلتها والأئمة المجتهدين ومناهجها، فقد أكثر من ذلك وأخذ من ذلك أمثلة منه. ففي "الاستذكار" في شرح حديث يحيى بن سعيد أنه قال:

... كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد أراد أن يتخذ خشبتين يضرب بهما ليجتمع الناس للصلاة، فأُري عبد الله بن زيد الأنصاري، ثم من بني الحارث بن الخزرج خشبتين في النوم، فقال: إن هاتين لنحو

(1958/1)

مما يريد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقيل: ألا تؤذنون للصلاة، فأتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين استيقظ فذكر له ذلك، فأمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالأذان(1).

... قال أبو عمر: روي عن النبي في قصة عبد الله بن زيد ورؤياه في بدء الأذان جماعة من الصحابة بألفاظ مختلفة ومعان متقاربة... وهي متواترة الطرق من نقل أهل المدينة والكوفة: »وقد جاء الأذان من رواية بلال، وأبي محذورة، وسعد القرظ، وعبد الله بن زيد بن عبد ربه«.

---

(1) المصدر نفسه، ج 4، ص, 7 وما بعدها.

(1959/1)

... أما اختلاف أئمة الأمصار في كيفية الأذان والإقامة، فذهب مالك والشافعي وأصحابهما إلى أن الأذان مثنى مثنى، والإقامة مرة مرة.

... إلا أن الشافعي يقول في أول التكبير: »الله أكبر« أربع مرات، وذلك محفوظ من رواية الثقات في حديث أبي محذورة، وفي حديث عبد الله بن زيد. قال: »وهي زيادة يجب قولها«.

... وذهب مالك وأصحابه إلى أن التكبير في أول الأذان مرتين، وقد روي ذلك من وجوه صحاح في أذان أبي محذورة، وفي أذان عبد الله بن زيد.

(1960/1)

... وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري، والحسن بن حي وعبيد الله بن الحسن: الأذان والإقامة جميعاً مثنى مثنى، والتكبير عندهم في أول الأذان وأول الإقامة: الله أكبر أربع مرات، قالوا كلهم: ولا ترجيع في الأذان...

... فهذا أذان الكوفيين متوارث عندهم به العمل قرناً بعد قرن أيضاً كما توارث الحجازيون في الأذان زمناً بعد زمن على ما وصفنا.

... وأما أحمد بن حنبل، فذكر عند الأثرم أنه سمعه يقول: أنا أذهب إلى حديث محمد بن إسحق عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن محمد بن عبد الله بن زيد عن أبيه ثم وصفه أبو عبد الله

(1961/1)

فكبر أربعاً وتشهد مرتين ولم يرجِّع.

... والإقامة: »الله أكبر« مرتين، وسائرها مرةً مرةً، إلا »قوله قد قامت الصلاة«، فإنها مرتين.

... قال الأثرم: »سمعت أبا عبد الله ـ يعني أحمد بن حنبل ـ يقول: "من أقام مثنى مثنى لم أعنفه، وليس به بأس"«.

... قيل لأبي عبد الله: »حديث أبي محذورة صحيح؟«، فقال: »أما أنا، فلا أدفعه«.

... قال أبو عمر بن عبد البر:

... ذهب أحمد بن حنبل وإسحق بن راهوية، وداود بن علي ومحمد بن جرير إلى إجازة القول بكل ما روي عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في ذلك وحملوه على الإباحة

(1/1962)

والتخيير، وقالوا: كل ذلك جائز لأنه قد ثبت عن النبي – صلى الله عليه وسلم – جواز ذلك وعمل به أصحابه، فمن شاء قال: الله أكبر، الله أكبر مرتين في أول الأذان، ومن شاء قال ذلك أربعاً، ومن شاء رجّع في أذانه ومن شاء لم يرجع، ومن شاء ثنّى الإقامة ومن شاء أفردها إلا قوله: قد قامت الصلاة؛ فإن ذلك مرتان على كل حال (1).

... وقال: »قال الجلَّة من المتأخرين بالتخيير والإباحة في كل وجه نُقل منه«.

---

(1) **المصدر نفسه، ج** 4، **ص**. 16.

(1963/1)

... وفي شرح حديث أبي هريرة قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم- : »إذا ثُوِّب بالصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، واتوها وعليكم السكينة. فما أدركتم، فصلوا؛ وما فاتكم، فأتموا. فإن أحدكم في صلاة ما كان يعمد إلى الصلاة« (1).

... وأما قوله عليه السلام في هذا الحديث: »وما فاتكم فأتموا على ما رواه مالك وغيره، ففيه دليل على أن ما أدرك المصلي مع إمامه فهو أول صلاته، وهذا موضع اختلف فيه الفقهاء.

---

(1) **المصدر نفسه، ص**. 34.

(1964/1)

... وقد جاء في بعض طرقه الثابتة الصحيحة: »وما فاتكم فاقضوا«. قال أبو عمر، بعد أن نقل مذاهب الفقهاء في ما أدركه المصلي هل هو أول صلاته أو آخرها: »والحجج متساوية لكلا المذهبين من جهة الأثر والنظر؛ إلا أن رواية من روى "فأتموا" أكثر«.

... وقال في شرح حديث ابن عمر إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان إذا افتتح الصلاة، رفع يديه حذو منكبيه، وإذا رفع رأسه من الركوع رفعهما كذلك، وقال: »سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد«، وكان لا يفعل ذلك في السجود.

(1965/1)

... واختلفت الآثار عن النبيّ عليه السلام في كيفية رفع اليدين في الصلاة، فروي عنه أنه كان يرفع يديه حَذْو أُذنيه، وروي عنه أنه كان يرفع يديه حذو منكبيه، وروي عنه أنه كان يرفعهما إلى صدره، وكلها آثار معروفة مشهورة.

... قلت: وكأنه يجعلها من الاختلاف المباح. ...

... وقال في كيفية التسليم والخروج من الصلاة(1):

... وقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في كيفية السلام من الصلاة هل هو واحدة أو اثنتان، واختلفت الآثار في ذلك

أيضاً، واختلف الفقهاء أئمة الفتوى هل السلام من فروض

---

(1) **المصدر نفسه، ج** 4، **ص**. 288.

(1966/1)

الصلاة أو من سننها.

... قال مالك وأصحابه والليث بن سعد: »يسلّم المصلي من صلاته نافلة كانت أو فريضة تسليمة واحدة "السلام عليكم"، ولا يقول: "ورحمة الله"«. وقال ابن وهب عن مالك: »يسلم تلقاء وجهه "السلام عليكم"«.

... قال أشهب عن مالك أنه سئل عن تسليم المصلي وحده فقال: »يُسلم تسليمة واحدة عن يمينه«، فقيل: »وعن يساره؟«، فقال: »ما كانوا يسلمون إلا واحدة... «.

... قال أبو عمر: روي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه كان يسلم تسليمة واحدة من حديث سعد بن أبي وقاص ومن حديث عائشة ومن حديث أنس إلا أنها

(1967/1)

معلولة لا يصححها أهل العلم الحديث...

... وروي عن عثمان وعلي وابن عمر وابن أبي أوفى وأنس،

وعمر بن عبد العزيز، والحسن وابن سيرين وأبي وائل شقيق بن سلمة، ويحيى بن وثاب وأبي العالية، وأبي رجاء وسويد بن غفلة وقيس بن أبي حازم، وابن أبي ليلى، وسعيد بن جبير أنهم كانوا يسلمون تسليمة واحدة. وقد اختلف عن أكثرهم فروي عنه التسليمتان كما رويت الواحدة. والعمل المشهور بالمدينة التسليمة الواحدة، وهو عمل قد توارثه أهل المدينة كابراً عن كابر، ومثله يصح فيه الاحتجاج بالعمل في كل بلد، لأنه لا يخفى لوقوعه في كل يوم

(1968/1)

مراراً.

... وكذلك العمل بالكوفة وغيرها مستفيض عندهم بالتسليمتين، متوارث عندهم. وكل ما جرى هذا المجرى، فهو اختلاف في المباح.

... ولذلك لا يروى عن عالم بالحجاز ولا بالعراق ولا بالشام ولا بمصر إنكار التسليمة الواحدة، ولا إنكار التسليمتين. بل ذلك عندهم معروف، وإن كان اختيار بعضهم فيه التسليمة الواحدة، وبعضهم التسليمتين على حسب ما غلب على البلد من عمل أهله. إلا أن الأعم والأكثر بالمدينة التسليمة الواحدة، والأكثر والأشهر

بالعراق التسليمتان: السلام عليكم ورحمة الله على اليمين، السلام عليكم ورحمة الله

(1969/1)

على اليسار(1)، إلخ.

... وذكر في "الاستذكار" في شرحه لباب التشهد في الصلاة فقال: ذكر مالك في التشهد عن عمرو ابن عمرو عائشة وليس عنده منها شيء مرفوع إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – ... ولما علم مالك أن التشهد لا يكون إلا توقيفاً عن النبي، اختار تشهد عمر، لأنه كان يعلمه للناس على المنبر من غير نكير عليه من أحد من الصحابة، وكانوا متوافرين في زمانه، وأنه كان يعلم ذلك من لم يعلمه من التابعين وسائر من حضره من الداخلين في الدين، ولم يأت عن أحد حضره من الصحابة أنه قال:

---

(1) **المصدر نفسه، صص.** 296 ـ 297.

(1970/1)

ليس كما وصفت.

... وتشهد عمر هو: التحيات لله، الزاكيات لله، الطيبات الصلوات لله، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

... وبه أخذ مالك وأصحابه.

... وتشهد ابن مسعود ثابت من جهة النقل عند جميع أهل الحديث مرفوع إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو: التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده

(1971/1)

ورسوله. وبه قال الثوري والكوفيون وأكثر أهل الحديث. ...

... وأما الشافعي وأصحابه والليث بن سعد، فذهبوا إلى تشهد ابن عباس الذي رواه عن النبي – صلى الله عليه وسلم –. كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعلمنا التشهد كما يعلمنا القرآن، فكان يقول: التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله، سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، سلام علينا وعلى عباد الله

الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

(1972/1)

... وروي عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً وموقوفاً نحو تشهد ابن مسعود، وروي عن علي أكمل هذه الروايات كلها.

... والذي أقول به ـ وبالله التوفيق ـ أن الاختلاف في التشهد وفي الأذان والإقامة وعدد التكبير على الجنائز، وما يقرأ ويدعى به فيها، وعدد التكبير في العيدين، ورفع الأيدي في ركوع الصلاة وفي التكبير على الجنائز وفي السلام من الصلاة واحدة أو اثنتين، وفي وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة وسدل اليدين، وفي القنوت وتركه، وما كان مثل هذا كله اختلاف في مباح...

(1973/1)

... وكل ما وصفت لك قد نقلته الكافة من الخلف عن السلف، ونقله التابعون بإحسان عن السابقين نقلاً لا يدخله غلط ولا نسيان، لأنها أشياء ظاهرة معمول بها في

بلدان الإسلام زمناً بعد زمن لا يختلف في ذلك علماؤهم وعوامهم من عهد نبيهم وهلم جرّا، فدل على أنه مباح كله إباحة توسعة ورحمة.

... وقد قال الإمام الشافعي في التشهد من قبل في مختلف الحديث(1).

... وقد روى أيمن بن نابل بإسناد له عن جابر عن النبي عليه السلام تشهداً يخالف هذا في بعض حروفه .أي تشهد ابن عباس .وروى

---

(1) **اختلاف الحديث مع الأم، ج** 8، **ص.** 600.

(1974/1)

البصريون عن أبي موسى عن النبي عليه السلام حديثاً يخالفهما في بعض حروفهما، وروى الكوفيون عن ابن مسعود في التشهد حديثاً يخالفها في بعض حروفها فهي مشتبهة متقاربة.

... واحتمل أن تكون كلها ثابتة وأن يكون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعلم الجماعة والمنفردين التشهد فيحفظ أحدهم على لفظ، ويحفظ الآخر على لفظ يخالفه لا يختلفان في معنى أنه إنما يريد به تعظيم الله جل ثناؤه وذكره بالتشهد والصلاة على النبي فيقر

النبي كلاًّ على ما حفظ وإن زاد بعضهم كلمة على بعض أو لفظها بغير لفظه لأنه ذِكْر. وقد اختلف بعض

(1975/1)

أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – في بعض لفظ القرآن عند رسول الله ولم يختلفوا في معناه فأقرهم وقال: »هكذا أُنزل. إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسر منه«. فما سوى القرآن من الذكر أولى أن يتسع هذا فيه إذا لم يختلف المعنى، وليس لأحد أن يعمد أن يكف عن قراءة حرف من القرآن إلا بنسيان، وهذا في التشهد وفي جميع الذكر أحق؛ وإنما قلنا بالتشهد الذي روي عن ابن عباس، لأنه أتمها وأن فيه زيادة على بعضها (المباركات).

(1976/1)

... وقال في "الرسالة"(1): »ما في التشهد إلا تعظيم الله، وإني لأرجو أن يكون كل هذا فيه واسعاً...«.

... ولكن كيف صرت إلى اختيار حديث ابن عباس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في التشهد دون غيره؟

... قلت: لما رأيته واسعاً، وسمعنه عن ابن عباس صحيحاً، كان ذلك عندي أجمع وأكثر لفظاً من غيره، فأخذت به، غير معنف لمن أخذ بغيره مما ثبت عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

---

(1) رقم 756، تحقيق أحمد شاكر، د. ت، د. م.

(1977/1)

... وقال أبو عمر في "الاستذكار"، في »باب العمل في جامع الصلاة« (1)، في شرح حديث ابن عمر أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يصلي قبل الظهر ركعتين، وبعدها ركعتين، وبعد المغرب ركعتين في بيته، وبعد صلاة العشاء ركعتين، وكان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف فيصلي ركعتين.

... وقد اختلفت الآثار وعلماء السلف في صلاة النافلة في المسجد وكرهها قوم لهذا الحديث، ولأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نظر إلى قوم يصلون بعد المغرب في المسجد، فقال: هذه صلاة البيوت، إلى أن قال: لا

---

(1) الاستذكار، ج 6، ص. 266.

(1978/1)

خلاف بين متقدمي العلماء ومتأخريهم أنه لا حرج على من لم يصل بعد الجمعة ولا من فعل من الصلاة أكثر أو أقل، مما اختاره كل واحد منهم، وأما قولهم في ذلك على الاختيار لا على غير ذلك

... وقال في صلاة الخوف(1): في شرح حديث نافع أن عبد الله بن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف، قال: يتقدم الإمام وطائفة من الناس فيصلي بهم ركعة، وتكون طائفة منهم بينه وبين العدو ولم يصلوا، فإذا صلى الذين معه ركعة استأخروا مكان الذين لم يصلوا ولا يسلمون، ويتقدم الذين لم يصلوا فيصلون معه ركعة ثم

(1) المصدر نفسه، ج 7، ص. 75.

(1979/1)

ينصرف الإمام وقد صلى ركعتين فتقوم كل من الطائفتين فيصلون لأنفسهم ركعة بعد أن ينصرف الإمام، فتكون كل واحدة من الطائفتين قد صلوا ركعتين. فإن كان خوفاً أشدّ من ذلك، صلوا رجالاً قياماً على أقدامهم أو ركباناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها.

... قال مالك: قال نافع: لا أرى عبد الله بن عمر حدّثه إلا عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

... وقد جاءت صلاة الخوف عن عدد من الصحابة بأسانيد صحيحة وحسنة:

... ابن عباس.

... وأبي موسى الأشعري.

... وأبي هريرة.

... وابن مسعود.

... وسهل بن أبي حثمة.

(1980/1)

... وابن عياش الزرقي.

... وجابر بن عبد الله.

... وحذيفة.

... وأبي بكرة وخوات بن جبير وغيرهم، وبكيفيات مختلفة.

... قال أبو عمر في "التمهيد"(1): «وفي صلاة الخوف وجوه كثيرة. قال أحمد بن حنبل: لا أعلم أنه روي في صلاة الخوف إلا حديث ثابت، هي كلها ثابتة، فعلى أي حديث صلى صلاة الخوف أجزأه. إن شاء الله».

... وقال في "الاستذكار"(2): »كان أحمد بن حنبل، ومحمد بن جرير الطبري، وطائفة من أصحاب الشافعي يذهبون إلى جواز العمل بكل ما روي عن النبي –

---

(1) **التمهيد، ج** 15، **ص.** 269.

(2) **الاستذكار، ج** 7، **ص.** 75.

(1981/1)

صلى الله عليه وسلم – في صلاة الخوف، وهي ستة أوجه«.

... وقال الشافعي في "الرسالة"(1): »يحتمل أن يكون لما جاز أن تصلى صلاة الخوف على خلاف الصلاة في غير الخوف، جاز لهم أن يصلوها كيف ما تيسَّر لهم، وبقدر حالاتهم وحالات العدو إذا أكملوا العدد، فاختلف صلاتهم. وكلها مجزية عنهم«.

... وقد أكثر ابن عبد البر من هذا المصطلح عندما تصح عنده الآثار، ويجد كل إقليم من أقاليم الإسلام قد أخذ ببعضها.

---

(1) **الرسالة، ج** 1، **ص.** 201.

(1982/1)

... وقال في "الاستذكار"(1): »اختلف العلماء في إدخال الحج على العمرة، والعمرة على الحج... « إلى أن قال: »والاختلاف هنا واسع جداً، لأنه مباح كله بإجماع من العلماء والحمد لله«.

... وأما الإمام الحازمي محمد بن موسى المتوفى 584 هـ، فقد قال في كتابه "النافع العمدة الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار"(2) وهو يتكلم عن سجود السهو بعد كلام طويل في الموازنة والمقارنة: »وأما بقية

---

(1) الاستذكار، ج 11، صص. 137 ـ 139.

(2) النافع العمدة، تحقيق راتب حاكمي، مطبعة الأندلس، حمص، 1386 هـ/ 1966 م، ص. 117.

(1983/1)

الأحاديث في السجود قبل السلام وبعده قولاً وفعلاً، فهي وإن كانت ثابتة صحيحة ففيها نوع تعارض. غير أن تقديم بعضها على بعض غير معلوم برواية موصولة صحيحة، والأشبه حمل الأحاديث على التوسع وجواز الأمرين«.

... أما الإمام ابن قيم الجوزية، فقد ظهر ذلك في كتابه القيم "زاد المعاد في هدي خير العباد"، وفي مواطن

عديدة. وبعد استعراضه للنصوص والأدلة، آخذ نماذج من ذلك

... قال في هديه – صلى الله عليه وسلم – في الصلاة(1)

---

(1) تحقيق شكيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط 3، 1402 هـ/ 1982 م، ج 1، ص. 201.

(1984/1)

: »وكان دأبه في إحرامه لفظة "الله أكبر" لا غيرها ولم ينقل أحد عنه سواها«.

... وكان يرفع يديه ممدودة الأصابع، مستقبلاً بها القبلة إلى فروع أذنيه، وروي "إلى منكبيه". فأبو حميد الساعدي ومن معه قالوا: حتى يحاذي بهما المنكبين، وكذلك قال ابن عمر، وقال وائل بن حجر: إلى حيال أذنيه، وقال البراء: قريباً من أذنيه، وقيل: هو من العمل المخير فيه، وقيل: كان أعلاها إلى فروع أذنيه، وكفّاه إلى منكبيه فلا يكون اختلافاً، ولم يختلف عنه في محل الرفع.

(1985/1)

... وقال في هديه في الصلاة كذلك(1) في القنوت:

والإنصاف الذي يرتضيه العالم المنصف أنه – صلى الله عليه وسلم – جهر وأسر، وقنت وترك، وكان إسراره أكثر من جهره، وتركه القنوت أكثر من فعله... إلى أن يقول: ولا ريب أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فعل ذلك ثم تركه، فأحب أبو هريرة أن يعلمهم أن مثل هذا القنوت سنة وأن رسول الله فعله. وهذا ردّ على أهل الكوفة الذي يكرهون القنوت في الفجر مطلقاً عند النوازل وغيرها، ويقولون هو منسوخ وفعله بدعة. فأهل الحديث متوسطون بين هؤلاء

---

(1) **زاد المعاد، ج** 1، **صص**. 273 ـ 275.

(1986/1)

وبين من استحبه عند النوازل وغيرها، وهم أسعد بالحديث من الطّائفتين، فإنهم يقنتون حيث قنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ويتركون حيث ترك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيقتدون به في فعله وتركه، ويقولون فعله سنة وتركه سنة؛ ومع هذا، فلا ينكرون على من داوم عليه، ولا يكرهون فعله ولا يرونه بدعة، ولا فاعله مخالفاً للسنة، كما لا ينكرون

على من أنكره عند النوازل ولا تاركه مخالفاً للسنة، بل من قنت فقد أحسن، ومن تركه فقد أحسن وركن الاعتدال محل الدعاء والثناء وقد جمعهما النبي – صلى الله عليه وسلم – فيه،

(1987/1)

ودعاء القنوت دعاء وثناء، فهو أولى بهذا المحل، وإذا جهر به الإمام أحياناً ليعلم المأمومين فلا بأس بذلك، فقد جهر عمر بالاستفتاح ليعلم المأمومين، وجهر ابن عباس بقراءة الفاتحة في صلاة الجنازة ليعلمهم أنها سنة، ومن هذا أيضاً جهر الإمام بالتأمين وهذا من الاختلاف المباح الذي لا يعنف فيه من فعله ولا من تركه، إلخ.

... وقال في سياق صلاته – صلى الله عليه وسلم – بالليل ووتره وذكر صلاة أول الليل(1) بعد أن استعرض ما جاء في النصوص عن السيدة عائشة أنه كان – صلى الله عليه وسلم –

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 330.

(1988/1)

إذا قام من الليل، افتتح صلاته بركعتين خفيفتين، أخرجه مسلم، وأخرج عن أبي هريرة بلفظ الأمر إذا قام أحدكم من الليل، فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين، وحديث ابن عباس، ومبيته عند خالته ميمونة عند مسلم كذلك قال: وكان قيامه بالليل ووتره أنواعاً، فمنها هذا الذي ذكره ابن عباس، النوع الثاني: الذي ذكرته عائشة أنه كان يفتتح ورده بركعتين خفيفتين ثم يتمم ورده إحدى عشرة ركعة، يسلم من كل ركعتين ويوتر بركعة.

... النوع الثالث: ثلاث عشرة ركعة كذلك

(1989/1)

... الرابع: يصلي ثمان ركعات يسلِّم من كل ركعتين ثم يوتر بخمس سرداً متوالية لا يجلس في شيء إلا في آخرهن.

... الخامس: تسع ركعات يسرد منهن ثمانياً لا يجلس في شيء إلا في الثامنة ثم يجلس يذكر الله تعالى ويحمده ويدعوه ثم ينهض ولا يسلِّم، ثم يصلي التاسعة ثم يعقد ويتشهد ويسلم ثم يصلي ركعتين جالساً بعدما يسلِّم.

... السادس: يصلي سبعاً كالتسع المذكورة، ثم يصلي بعدها ركعتين جالساً.

... السابع: أنه كان يصلي مثنى مثنى، ثم يوتر بثلاث لا

يفصل بينهن. فهذا رواه أحمد رحمه الله عن عائشة، أنه كان يوتر بثلاث لا فصل

(1990/1)

فيهن.

... وروى النسائي عنها: كان لا يسلم في ركعتي الوتر. وهذه الصفة فيها نظر. فقد روى أبو حاتم بن حبان في "صحيحه" عن أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: لا توتروا بثلاث أو توتروا بخمس أو سبع ولا تشبهوا بصلاة المغرب. قال الدارقطني: »رواته كلهم ثقات... «إلى أن قال: »وقال حرب: سئل أحمد عن الوتر. قال: يسلم في الركعتين؛ وإن لم يسلّم رجوت ألا يضره، إلا أن التسليم أثبت عن النبي «– صلى الله عليه وسلم –.

(1991/1)

... وقال أبو طالب: سألت أبا عبد الله: إلى أي حديث تذهب في الوتر؟ قال: أذهب إليها كلِّها، مَنْ صلى خمساً لا يجلس إلا في آخرهن، ومن صلّى سبعاً لا يجلس إلا في آخرهن. وقد

روي من حديث زرارة عن عائشة: يوتر بتسع لا يجلس فيها إلا في الثامنة(1). قال: لكن أكثر الحديث وأقواه: ركعة، فأنا أذهب إليه، قلت: ابن مسعود يقول ثلاثاً، إلخ. ... وقال في هديه في صلاة الكسوف(2):

---

(1) صحيح مسلم، باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض، رقم 746.

(2) زاد المعاد، ج 1، **ص.** 450.

(1992/1)

... لما كسفت الشمس، خرج إلى المسجد مسرعاً فزعاً يجر رداءه، وكان كسوفها في أول النهار على مقدار رمحين أو ثلاثاً، فتقدم فصلى ركعتين قرأ في الأولى بفاتحة الكتاب وسورة طويلة جهر بالقراءة ثم ركع فأطال الركوع، ثم رفع رأسه من الركوع فأطال القيام وهو دون القيام الأول. وقال لما رفع رأسه: سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد، ثم أخذ في القراءة، ثم ركع فأطال الركوع، وهو دون الركوع الأول، ثم رفع رأسه من الركوع، ثم سجد سجدة طويلة فأطال السجود، ثم فعل في الركعة الأخرى مثل ما فعل في الأولى، فكان في كل ركعة ركوعان

(1/1993)

وسجودان، فاستكمل في الركعتين أربع ركعات، وأربع سجدات...

إلى أن قال: »وقد روي أنه صلاها على صفات أخر منها: كل ركعة بثلاث ركعات، ومنها: كل ركعة بأربع ركعات، ومنها: كأحدث صلاة صليت كل ركعة بركوع واحد«.

... وعند أبي داود عن أبيّ بن كعب مرفوعاً خمس ركوعات في كل ركعة(1). ثم قال: وذهب جماعة من أهل الحديث إلى تصحيح الروايات في عدد الركعات، وحملوها على أن النبي – صلى الله عليه وسلم – فعلها مراراً وأن الجميع جائز. فممن ذهب إليه: إسحق بن راهويه، ومحمد بن إسحق بن

---

(1) سنن أبي داود، رقم 1182، وهو ضعيف.

(1/1994)

خزيمة، وأبو بكر بن إسحق الصبغي، وأبو سليمان الخطابي، واستحسنه ابن المنذر.

... وقال في هديه في الجنائز(1): وذكر الصلاة على الجنازة داخل المسجد وخارجه وذكر حديث عائشة أنه صلّى على سهيل بن بيضاء وأخيه في المسجد. وحديث أبي هريرة: من صلى على جنازة في المسجد فلا شيء له(2).

... قال الخطابي: وقد ثبت أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما صلي عليهما في المسجد. ومعلوم أن عامة المهاجرين والأنصار شهدوا الصلاة عليهما، وفي تركهم

---

(1) **زاد المعاد، ج** 1، **صص.** 500 ـ 502.

(2) **أخرجه أبو داود وأحمد والطحاوي والبيهقي.**

(1995/1)

الإنكار الدليل على جوازه... إلى أن قال: سنته – صلى الله عليه وسلم – وهديه الصلاة على الجنازة خارج المسجد إلا لعذر، وكلا الأمرين جائز، والأفضل الصلاة عليها خارج المسجد. والله أعلم.

... وقال في الصلاة على الشهداء في "تهذيب السنن"(1): والصواب في المسألة أنه مخير بين الصلاة عليهم وتركها لمجيء الآثار بكل واحد من الأمرين، وهذه الروايات عن الإمام أحمد، وهي الأليق بأصوله ومذهبه.

(1) نقلاً عن حاشية زاد المعاد، ج 1، ص. 503.

(1996/1)

... وقال في صلاة الخوف بمثل ما تقدم عن ابن عبد البر والشافعي، وزاد إيضاحاً فقال: قال الإمام أحمد: كل حديث يروى في صلاة الخوف فالعمل به جائز... وقال الأثرم: قلت لأبي عبد الله: تقول بالأحاديث كلها كل حديث في موضعه، أو تختار واحداً منها؟ قال: أنا أقول: من ذهب إليها كلِّها فحسن، وظاهر هذا أنه جوّز أن تصلي كل طائفة معه ركعة ركعة، ولا تقضي شيئاً، وهذا مذهب ابن عباس وجابر بن عبد الله، وطاووس ومجاهد، والحسن وقتادة والحكم وإسحق بن راهوية.

(1997/1)

... بل وجدت ابن القيم في هديه – صلى الله عليه وسلم – في العمرة يقف موقفاً عجيباً يترك للمسلم التفكير والاختيار، لمّا صحت عنده النصوص فقال(1): والمقصود أن عُمَره كانت كلها في أشهر الحج مخالفة لهدي المشركين؛ فإنهم كانوا يكرهون العمرة في أشهر

الحج ويقولون: هي من أفجر الفجور، وهذا دليل على أن الاعتمار في أشهر الحج أفضل منه في رجب بلا شك ... وأما المفاضلة بينه وبين الاعتمار في رمضان، فموضع نظر. فقد صح عنه أنه أَمَرَ أم معقل لما فاتها الحج معه أن تعتمر في رمضان وأخبرها

---

(1) زاد المعاد، ج 2، ص. 95.

(1998/1)

أن عمرة في رمضان تعدل حجة. وأيضاً، فقد اجتمع في عمرة رمضان أفضل الزمان، وأفضل البقاع، ولكن الله لم يكن ليختار لنبيه – صلى الله عليه وسلم – في عُمَره إلا أولى الأوقات وأحقها بها، فكانت العمرة في أشهر الحج نظير وقوع الحج في أشهره. وهذه الأشهر قد خصَّها الله تعالى بهذه العبادة وجعلها وقتاً لها والعمرة حج أصغر، فأولى الأزمنة بها أشهر الحج، وذو القعدة أوسطها. وهذا مما نستخير الله تعالى فيه. فمن كان عنده فضل علم فليرشد إليه.

(1999/1)

... ثم نجد أن هذا المفهوم قد تردد عند الإمام النووي المتوفى 676 هـ والحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفى 852 هـ في الكتابين الجليلين، وهي من أكثر كتب الإسلام قبولاً وانتشاراً: "شرح صحيح مسلم"، أو "المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج"، و"فتح الباري شرح صحيح البخاري"، وناهيك بجلالتهما وقبول الناس لهما.

فنجد على سبيل المثال فيهما وهو كثير:

... الإمام النووي في »كتاب الكسوف« يقول(1): وقال جماعة من العلماء منهم إسحق بن راهوية

---

(1) انظر: النووي، الكسوف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت، ج 6، ص. 199.

(2000/1)

وابن جرير وابن المنذر: جرت صلاة الكسوف في أوقات، واختلاف صفاتها محمول على جواز جميع ذلك، فتجوز صلاتها على كل واحد من الأنواع الثابتة، وهذا قوي والله أعلم.

... ويقول الحافظ ابن حجر عن ذلك: وهو من الاختلاف المباح(1).

... وقال الإمام النووي في شرح حديث أبي سلمة بن عبد

الرحمن قال: سألت عائشة عن صلاة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقالت: كان يصلي ثلاث عشرة ركعة، يصلي ثمان ركعات ثم يوتر، ثم يصلي ركعتين وهو جالس؛ فإذا أراد أن يركع، قام فركع، ثم

---

(1) فتح الباري، المكتبة السلفية، د. ت، ج 2، ص. 532.

(2001/1)

يصلي ركعتين بين النداء والإقامة من صلاة الصبح.

... هذا الحديث أخذ بظاهره الأوزاعي وأحمد فيما حكاه القاضي عنهما، فأباحا ركعتين بعد الوتر جالساً.

... وقال أحمد: لا أفعله ولا أمنع من فعله، قال: وأنكره مالك، قلت ـ أي النووي ـ: والصواب أن هاتين الركعتين فعلهما – صلى الله عليه وسلم – بعد الوتر جالساً لبيان جواز الصلاة بعد الوتر، وبيان جواز النفل جالساً. ولم يواظب على ذلك، بل فعله مرة أو مرتين أو مرات قليلة(1).

---

(1) المنهاج، ج 6، ص. 21، بتصرف يسير.

(2002/1)

... هذه نماذج مقتطفة قدمناها دارت على ألسنة أئمة كبار، وفي كتب جليلة لها وزن واعتبار تذكرة لنفسي ولأولي النهي والأبصار، تبين لنا مدى الرحمة والسعة في هذه الشريعة الغراء، والمنحة الإلهية البيضاء حتى لا نحجر ما وسع الله، ونضيق نطاق التفكير على الناس، أختهما بكلمة للإمام المجمع على جلالته ورسوخ قدمه في السنة وفقهها والشريعة الإسلامية عامة وأصولها الحافظ أبي عمر بن عبد البر، حيث قال في "الاستذكار"(1):

---

(1) انظر: الاستذكار، ج 7، ص. 100.

(2003/1)

... وإنما يصير كل عالم إلى ما روى عن شيوخه ورأى عليه أهل بلده، وقد يجوز أن يكون ذلك اختلافاً بإباحة وتوسعة. فإن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – صلى صلاة الكسوف مراراً فحكى كل ما رأى، كل صادق قد جعلهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كالنجوم فكلهم في النقل من اقتدى به اهتدى.

... هذه نماذج من نصوص الحديث الصحيح، وهي تؤصل لجواز هذا الاختلاف المشروع المباح، فحري بكل باحث أن يتسع

أفقه وتفكيره مع هذه التوسعة الشرعية ولا ينكر على من أخذ موقفاً آخر مشروعاً. ولعل هذا المبحث يدخل في باب مختلف الحديث

(2004/1)

وتعارض الأدلة، بل هو داخل فيها بكل تأكيد.

... وقال رحمه الله(1):

... ذكر أحمد بن سعيد عن أحمد بن خالد قال: كان عندنا جماعة من علمائنا يرفعون أيديهم في الصلاة على حديث ابن عمر، ورواية من روى ذلك عن مالك، وجماعة لا يرفعون إلا في الإحرام على رواية ابن القاسم فما عاب هؤلاء على هؤلاء ولا هؤلاء على هؤلاء. وسمعت شيخنا أبا عمر أحمد بن عبد الله بن هاشم يقول: كان أبو إبراهيم إسحق بن إبراهيم شيخنا يرفع يديه كلما خفض ورفع على حديث ابن عمر في "الموطأ". وكان أفضل من رأيت

---

(1) **الاستذكار، ج** 4، **صص**. 101 ـ 102.

(2005/1)

وأفقههم وأصحهم علماً، فقلت لأبي عمر: لم لا ترفع فنقتدي بك؟ قال: لا أخالف رواية ابن القاسم، لأن الجماعة عندنا اليوم عليها ومخالفة الجماعة فيما قد أُبيح لنا ليس من شيم الأئمة.

(2006/1)

الاستعراب الإسباني الحديث من خلال كتابات فرانسيسكو كوديرا إي زايدين و فيديريكو كوريينتي كوردوبا

... ... الدكتور محمد القاضي

... ... طنجة

المدخل

... عرف القرن التاسع عشر مستعرباً كبيراً، أسس نهضة كبيرة في ميدان الاستعراب الإسباني، وأسدى خدمات جليلة للأدب الأندلسي. إنه العالم »فرانسيسكو كوديرا إي زايدين«، تلميذ المستعرب الكبير »غاينغوس«، وخليفته على كرسي الدراسات العربية في جامعة مدريد، وصاحب أشهر مدرسة استعرابية في

إسبانيا. تخرج على يديه عدد من التلاميذ كان لهم فضل كبير في

(2007/1)

توجيه نظر الباحثين في إسبانيا إلى أهمية المرحلة الإسلامية في تاريخها، وهي مرحلة زاخرة ومزدهرة حضارياً وفكرياً.

... وقد أسس هؤلاء مدرسة أطلقوا عليها اسم «بني كوديرا» (Beni Codera)**، مستخدمين في ذلك اللفظ العربي الذي شاع بين الإسبان وما زال قائماً في كثير من القرى الإسبانية التي تبدأ بلفظ** beni**، وهي منتشرة في الريف الإسباني بأسمائها هذه إلى اليوم** (1).

---

(1) **انظر: مجلة الأندلس، المجلد** 15، 1950، **ص.** 274.

(2008/1)

... وكان من أشهر تلاميذه: خوليان ريبيرا، وآسين بلاثيوس، وآنخيل غونثاليث بالينثيا، وغارسيا غوميث أبرزهم وأغزرهم إنتاجاً وفكراً (1).

كوديرا والاعتزاز بالنسب العربي

... نشأ كوديرا في قرية أندلسية بإقليم بلنسية. وبما أنه كان ابن فلاح، لم يكن له بد من أن يعيد الاشتغال بما تعوَّده: فقد كان في شبابه يغير أشكال آليات الحرث ويعدل أجهزة الجر والري ويباشر مزارع جديدة ويجلب الأسمدة المعدنية ويكتشف العيون والينابيع؛ إلا

(1) انظر دراستنا عن إميليو غارسيا غوميث في مجلة الحرس الوطني، عدد سبتمبر/ اكتوبر 1996.

(2009/1)

أن موهبته كانت تبحث عن مجالها من بين عدة اختصاصات: الدراسات الكاثوليكية باللاتينية، وعلم اللاهوت المدرس بالجامعة، بالإضافة إلى الدراسات القانونية والعلمية واللغات الكلاسيكية حيث تعلم الإغريقية والعبرية والعربية التي أحبها ودرسها في غرناطة وسرقسطة ومدريد إلى أن تقاعد سنة 1902 م. ولم يجعل من دراسة اللغة العربية هدفاً لذاته، بل جعلها معبراً لفهم مرحلة هامة من مراحل تاريخ إسبانيا نفسها، ومن تاريخ الإسلام الذي اعتقدته قروناً وازدهر

في تربتها، وفصل بين العلم والسياسة، بين الدراسات الموضوعية والتعصب

(2010/1)

الجامح. ووراء إصراره على البحث والدرس حب عميق لأهله ووطنه. فقد كانت ـ كما يقول الدكتور محمود علي مكي ـ تجري في عروقه دماء عربية زعمها لنفسه وأقام الحجة دونها، وجاهر بالانتساب إليها قومه وفاخرهم بأمسه(1).

... وكان الأمير شكيب أرسلان حين يتحدث عنه، ينطق الاسم في صيغته العربية »قديرة« ويبدو أن »كوديرا« من أصل عربي؛ وكان يقول إن »زايدين«، وهو اسمه الآخر، هو: »الزيديين« (2).

---

(1) انظر استجواباً معه أجراه جهاد فاضل لمجلة الحرس الوطني، عدد فبراير 1993، ص. 111.

(2) المرجع نفسه.

(2011/1)

... يقول الكاتب الموسوعي المكسيكي ألفونسو ريجيس:

... لقد عرف كوديرا كثيراً وعمل كثيراً، لكنه كان يطبق مبدأ الشك العلمي ويلقنه لتلامذته ويبتعد عن الأسلوب التخميني. وبالرغم من أنه كان أكثر كفاءة، فإنه كان يعلم أنه لم يكن مؤهلاً للخوض في التاريخ العام للحكم الإسلامي بإسبانيا، بل فضل أن يدشن، تبعاً لتعاليم غاينغوس، منهاج الدراسات العربية عن طريق أبحاث مونوغرافية ومساهمات متفرقة وترتيب المواد ونشرها. لم يقل قط إنه يعرف ما لم يكن يعرف ولم يسمح لتلامذته بذلك وهكذا أمكنه أن يكون مدرسة حقيقية

(2012/1)

للمستعربين الذين ورثوا عن شيخهم تفانيه العلمي. لقد كان كرمه مثالياً: »كان يؤتي علمه من يطلبه منه«، كما يصفه ميننديث بيدال؛ كما أنه لم يزك نفسه في شيء. كان العلم الذي يخدمه كل همه، وتمكن بهذه التضحية والنزاهة أن يتغلب على تردد المسلمين في فتح كنوز مكتباتهم وأن يجلب من إفريقية معلومات لم يستطع أي عالم قبله أن يبلغها (1)

---

(1) **انظر:** Retratos Reales E Imaginarios,

1984Barcelona, **(بالإسبانية). وقد قام بترجمة ما يتعلق بكوديرا إلى اللغة العربية الدكتور عبد الله اجبيلو، نشر في الملحق الثقافي لجريدة العلم، عدد** 1997/2/15 **م.**

(2013/1)

.

كوديرا وخدمة التراث الأندلسي

... قام فرانسيسكو كوديرا بمجهود كبير في تحقيق المكتبة الأندلسية. فقد شرع في إعادة ترتيب مخطوطات الأسكوريال التي ألقي بها من النوافذ لإنقاذها من الحريق وأصبحت عبارة عن رزم مبعثرة من الأوراق: »فقد رتب هذه الصفحات حسب حجمها، وقام بعدّ سطور كل صفحة وقياس طول وعرض ما هو مكتوب بها. وبهذه المعطيات كون جدولاً منهجياً استطاع بواسطته أن يضبط كثيراً من الأوراق وأن يضمها إلى المخطوطات المنسوبة إليها« (1). كما قام بنشر مجموعة »المكتبة العربية الإسبانية«

---

(1) المرجع نفسه.

(2014/1)

وعاونه في ذلك تلميذه خوليان ريبيرا، وقد صدرت في مدريد وسرقسطة 1883 ـ 1895 م (B. A. H. Ispa?a)، وتشمل عشرة أجزاء. وكان الدافع إلى ذلك هو الرد على مبالغات وافتراءات المستشرق الهولندي رينهارت دوزي الذي وصف استيلاء المرابطين على ممالك الطوائف وإنقاذ الأندلس من الفتنة والتمزق، بالخشونة والاستبداد وعدم المعرفة: »وإنهم أغاروا على البلاد وقضوا على الازدهار الحضاري والفكري الذي تمتعت به في عصر الطوائف«(1)

---

(1) انظر: أنخيل غونثاليث بالينثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، ص. 19.
ولكوديرا دراسة عن دولة المرابطين بالأندلس أصدرها في سرقسطة سنة 1899 م أنصف فيها دولة المرابطين، وبين فضلهم في حماية الإسلام بالأندلس والحفاظ على منجزاته الحضارية في تلك البلاد.

(2015/1)

.

... وشكل كتاب "الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم" لابن بشكوال، الجزء الأول والثاني من هذه المجموعة، ويحتوي على 1440 ترجمة في 650 صفحة ما عدا الفهارس. وقد ألف ابن بشكوال (494 ـ 578 هـ) خمسين تأليفاً في أنواع مختلفة أجلها كتاب "الصلة" وهو ذيل أكمل به "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي، وضمنه سير طائفة من الأئمة والمحدثين والفقهاء وأهل الأدب من الأندلسيين. يقول في حقه ابن الأبار: »إنه منتهى ما يصل إليه الواصل في معاجم التراجم«، وقال: »سلم له أكفاؤه بكفايته فيه، ولم

(2016/1)

ينازعه أهل صناعته الانفراد به ولا أنكروا مزية السبق إليه، بل تشوفوا للوقوف عليه وأنصفوا في الاستفادة منه... وهو كتاب في فنه خطير القيمة ضروريّ الاستعمال، لا يستغني أهل الفقه عن التبليغ به والنظر فيه والاحتجاج منه«(1).

... أما الجزء الثالث، فهو كتاب "بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس: علمائها وشعرائها وذوي النباهة فيها"

للضبي القرطبي، ويحتوي على 1595 ترجمة في 532 صفحة ما عدا الفهارس. وقد نشره كوديرا وريبيرا سنة 1885 م. وكان الضبي (توفي سنة 599 هـ) محدثاً بارعاً حسن

(1) المرجع نفسه، ص. 273.

(2017/1)

القراءة ذا قدرة عظيمة على فهم المتون وشرحها، وهو مشهور بكتابه "بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس"، وهو ذيل على "جذوة المقتبس" للحميدي وتصويب لما وقع فيها من أوهام... ويضم تراجم ـ موجزة في الغالب ـ لمن وفد على الأندلس وأقام بها من المشارقة، ومعلوماته التي يوردها تتفق في بعض الأحيان مع ما يذكره ابن بشكوال، مما يدل على أن مادته التاريخية عظيمة يوثق فيها. وقد أوجز الضبي في فاتحة كتابه "تاريخ الأندلس"(1).

(1) المرجع نفسه، صص. 276 ـ 277.

(2018/1)

... والجزء الرابع هو "المعجم في أصحاب القاضي الإمام ابن علي الصدفي" لابن الأبار، ويحتوي على 315 ترجمة في 324 صفحة ما عدا الفهارس. وقد نشره كوديرا وريبيرا سنة 1885 م. وهو يضم تراجم أصحاب أبي علي الحسين بن فيرة بن حيون ابن سكرة الصدفي السرقسطي (444 هـ - 516 هـ). وكان شيخاً جليلاً سمع منه ودرس عليه الكثيرون. قال ابن الأبار في فاتحة كتابه:

... سموت إلى جمع أسمائهم وإيراد أبيات تنم عن مكانهم، مما أمكن ذكره من أبنائهم مباهياً بهم وبعصرهم، ومناغياً أبا الفضل بن عياض في جمع شيوخه وحصرهم... وهم بين

(2019/1)

حاجب في الأخذ عنه راغب، وتلميذ على السماع منه راتب، ومن شيوخه من شذ، واعتقده في وقته الفذ، فكتب عن روايته، وخصه بحظ من عنايته، ذلك لاختصاصه بقربة هي ما هي، ورُتَبُهُ في العدالة بلغت التناهي...

أي أن الكتاب يصور لنا مدرسة كاملة بأستاذها وشيوخه وتلاميذه ورواته والآخذين عنه (1).

... الجزء الخامس والسادس هما كتاب "التكملة لكتاب الصلة" لابن الأبار. نشره كوديرا في مجلدين بين سنتي

1888 و1889 م. ويحتوي هذان المجلدان على 2125 ترجمة في 756 صفحة. سار فيه على نهج ابن بشكوال

(1) المرجع نفسه، ص. 274.

(2020/1)

واستدرك ما أغفل في كتاب "الصلة" وتمم ما نقص وجود ما اقتضب مما وقع إليه وترجم لديه(1). وقد قال المستشرق دوزي في حق ابن الأبار:

... إن ذلك المؤرخ الصادق كان يؤلف وتحت يديه وثائق على أكبر جانب من الأهمية، وهو يمتاز بملكة نقادة صحيحة قوية، ويمتاز إلى جانب ذلك بعاطفة جياشة تذكرنا بفحولة العرب القدماء وأسلوبهم في الحياة والإحساس، وهو شيء نادر بين معاصريه من المصنفين (2).

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه، ص. 279.

(2021/1)

لقد ترك الرجل أثراً كبيراً في الأوساط السياسية والأدبية، مما جعله شخصية ناجحة ولامعة ومحبوبة؛ وإن الهم الأندلسي ظل يلازمه إلى آخر نفس في حياته كما يقول الدكتور عبد السلام الهراس في إحدى دراساته عن ابن الأبار(1).

... الجزء السابع والثامن هما كتاب "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي، وفيه 1400 عنوان. وهو كتاب ألفه مسلمو الأندلس في مجلدين يحتويان على 1766 ترجمة في 534 صفحة ما عدا الفهارس. وقد نشره كوديرا في سنتي 1891 ـ 1892 م:

---

(1) انظر مجلة دعوة الحق المغربيّة، عدد 325، يناير 1997، ص. 69.

(2022/1)

... وكان ابن الفرضي (351 هـ ـ 403 هـ) من أهل قرطبة فقيهاً محدثاً خطيباً جماعاً للكتب حتى صار له منها خزانة عامرة. وقد ضاع بعض ما ألفه من الكتب، ولكن شهرته طارت بمعجم أعلامه المسمى "تاريخ علماء الأندلس". وهو أقدم معجم رجال عام بين أيدينا. بلغ فيه الغاية والنهاية من الحفل والإتقان. ويدل على حفله وإتقانه ما

يذكره المؤلف نفسه من أنه سأل عن هذا التاريخ أو ذاك، أو قرأ شاهد قبر ليتحقق بنفسه من شيء، بل إنه يقرر بصراحة في كثير من المواضع أنه لم يجد شيئاً يستطيع أن يطمئن إليه(1)

---

(1) تاريخ الفكر الأندلسي، مرجع سابق، ص. 271.

(2023/1)

.

... الجزء التاسع والعاشر كتاب "فهرسة ما رواه عن شيوخه أبو بكر بن خير الإشبيلي الأموي"، وهو في مجلدين من 463 **صفحة. وقد نشره كوديرا وريبيرا عام** 1895 **م. وكان ابن خير (**502 **هـ -** 575 **هـ)، وهو إشبيلي واسع العلم بالحديث والنحو والأدب وأسماء الكتب، وكان أستاذ عصره، قال عنه ابن الأبار:**

... كان من الأكفاء في تقييد الآثار والعناية بتحصيل الرواية، بحيث يأخذ عن أصحابه الذين شاركهم في السماع من شيوخه. وعدد من سمع منه أو كتب منه نيف ومائة رجل، قد احتوى على أسمائهم برنامج له ضخم في غاية الاحتفال والإفادة. لا

(2024/1)

يعلم لأحد من طبقته مثله . . . ولدينا من مؤلفاته الكتاب المسمى "فهرسة ابن خير"، وهو يضم أسامي كل من قرأه من الكتب في شتى العلوم، وأسماء شيوخه الذين درس عليهم وأجازوه، مرتبين حسب النواحي: إشبيليا وقرطبة وألمرية ومالقة والجزيرة الخضراء وغيرها من البلاد. وأهميته تتجلى في ذلك العدد العظيم من الكتب التي ذكرها، والمؤلفين الذين أثبت أسماءهم، مما لا نجده في غيره من المراجع (1).

وبهذه الفهرسة تمت هذه المجموعة القيمة من المصادر الأندلسية. وعلينا أن نتصور المجهود الجبار الذي بذل في

---

(1) المرجع نفسه، ص. 281.

(2025/1)

إخراج هذه الذخيرة إلى الوجود وتيسيرها للقارئ مادَّةً فكرية مفيدة، وخصوصاً عن تلك الفترة الصعبة في تاريخ إسبانيا. »ولئن عيب عليها تحريف وسقط، إنهما

يغتفران لها إلى جانب العناية بطبعها وتنظيم فهارسها« (1).

... وفضلاً عن عمل التحقيق والنشر، انكب كوديرا على دراسة التاريخ الأندلسي ودور الأندلس الإسلامية في عملية تنظيم المعارف العربية ونقلها إلى أوربا دون تعصب أو ضغط كنسي أو سوء نية. ويقول: »إن العرب كانوا أكثر شعوب العصور القديمة والوسطى اهتماماً بالعلم

---

(1) نجيب العقيقي، المستشرقون، ج 2، ص. 180.

(2026/1)

وأغزرهم تأليفاً في شتى صنوف المعارف« .... وكان يدعو إلى الاهتمام بالدراسات العربية في إسبانيا لا باعتبارها ترفاً استشراقياً، بل باعتبارها جزءاً من تراث إسبانيا الحضاري يمكن أن يفيد كثيراً في تجديد نهضة بلاده الفكرية (1).

... وبهذا يربط كوديرا بين الدراسات الأندلسية وواقع إسبانيا الثقافي والفكري في أيامه. فقد كان اتجاه كثير من المفكرين المنتمين إلى جيل 1898 م داعياً إلى ربط إسبانيا بالفكر الأوروبي. فإذا كوديرا

(1) **انظر:** F. Codera, Estudios Criticos de Historia ., PS1917Arabe Espag?ola, Madrid,

(2027/1)

يعلن دعوة مضادة تماماً لهذه، فيقول: »إن من الخطإ العمل على أوربة إسبانيا (أي صبغها بالصبغة الأروبية)، بل الواجب هو تعريب أوروبا، وعلى إسبانيا أن تسترد دورها الأندلسي القديم في هذا التعريب« (1). إنها دعوة جريئة في وقت كانت فيه البلاد العربية متخلفة ومطمعاً للدول الأوربية الاستعمارية.

... قام كوديرا برحلة إلى شمال إفريقيا في مهمة علمية بصفته أستاذ اللغة العربيّة بجامعة مدريد وعضو أكاديمية التاريخ، وذلك في أواخر القرن

---

(1) **المرجع نفسه؛ وانظر كذلك مجلة فصول المصرية، المجلد** 3، **العدد** 1، **ص.** 215.

(2028/1)

الماضي، حيث تمكن من الاطلاع على المخطوطات العربية في الجزائر وتونس وقام باستنساخ بعضها، واقتنى عدداً كبيراً من المخطوطات العربية النفيسة التي يرتبط أكثرها بالتاريخ الإسلامي للأندلس. كما جمع قدراً كبيراً من النقود العربية الأندلسية وصفها في دراسة مهمة، اعتمد فيها الترتيب الزمني للأحداث الإسبانية العربية. وكان أول من كسر نطاق العزلة التي كان يعيشها الاستعراب الإسباني، فكان يراسل أحمد زكي باشا (شيخ العروبة). وكان هذا الأخير قد أهداه مصورة لمخطوطه جديدة من كتاب "التكملة" لابن الأبار لم يكن كوديرا

(2029/1)

قد اطلع عليها أثناء نشره لهذا الكتاب، فعهد بها كوديرا لأحد تلاميذه وهو أنخيل غونثليث بالينثيا. وقام هذا بنشر الزيادات الواردة في هذه المخطوطة، ومجموعة من الاستدراكات على الطبعة السابقة، وصدرت هذه الإضافات ضمن مجموعة من الدراسات العربية في مدريد سنة 1915 م.

... لقد كرس كوديرا حياته للعمل دون التزامات أو مرضاة أحد. إن توجهه الموسوعي العلمي مكنه من أن

يحيط عمله بالحماس الفكري وحتى بالحرمان والجلد، فعاش طوال حياته متواضعاً كريماً مثاليّاً.

فيديريكو كوريينتي كوردوبا

(2030/1)

... من أنشط المستعربين الإسبان المعاصرين في ميدان الدراسات اللغوية والأدبية. ولد في غرناطة سنة 1940 م، ودرس في جامعة مدريد حيث نال الإجازة سنة 1962 م والدكتوراه سنة 1967 م. وكان موضوع أطروحته "مشكلات الجمع في اللغات السامية: جمع التكسير". شغل عدة مناصب جامعية في القاهرة والرباط وفيلادلفيا وسرقسطة ومدريد، وحاضر في جامعات أمريكية وألمانية وفرنسية، كما شارك في العديد من الندوات واللقاءات الثقافية داخل إسبانيا وخارجها.

(2031/1)

... يقرأ اللغة العربية ويفهمها ويتكلمها ويكتب بها وينظم الشعر بها، ويلتقطها في دقة حين يسمعها،

ويعبر بها في وضوح حين يتحدث بها، وتأخذ حروفها مكانها الطبيعي من فمه وقعاً وموسيقي، وتجيء جمله عربية في تراكيبها. وهو، إلى جانب ذلك، يعرف شيئاً من أخواتها من اللغات السامية الأخرى قواعد وتاريخاً، متمكناً من عدد من اللغات الأوروبية، يجيد اللغة الأنجليزية ... عاش سنوات في القاهرة وأكسبته نضجاً وصقلته مستشرقاً وأعدته لما يتهيأ له (1)

---

(1) الطاهر أحمد مكي، » المعلقات الإسبانية «، مجلة الدوحة، عدد 69، 1981، ص. 22.

(2032/1)

.

... يعتبر كوريينتي من المستعربين المشهورين بدراسته اللغوية، اشتغل بتأليف كتب قواعد اللغة العربية: »وكنت أول من وضع قواميس عربية إسبانية وإسبانية عربية، وألفت كتاباً في قواعد اللهجة الأندلسية، ونشرته بالأنجليزية ليصل إلى أكبر عدد من القراء«(1).

... وقد بذل مجهوداً كبيراً في إنجاز قاموسه الإسباني .

العربي، بحيث لم يقتصر على ذكر الألفاظ المستعملة في الحديث فقط، بل أدرج كذلك المصطلحات العلمية والفنية والحقوقية

---

(1) ... استجواب أجرته معه تيشرين المنيري، صحيفة الأهرام، عدد يوم 7/5/1983، ص. 12.

(2033/1)

والأدبية التي أصبحت زاداً لا غنى عنه للإنسان المثقف في مجتمع القرن العشرين. كما أورد عدداً من كلمات الدارجة في قارة أمريكا الجنوبية التي تتحدث اللغة الإسبانية وتستعملها في خطابها وكتبها. هذا، إضافة إلى البحث في علاقات الألفاظ العربية والإسبانية ومعانيها وتأثيراتها المتبادلة ومقارنتها في ضوء المبادئ اللغوية العلمية(1).

---

(1) انظر مقدمته للقاموس باللغتين العربية والإسبانية، المعهد العربي للثقافة ـ مدريد. (Instituto Hispano Arabe de Cultura, Madrid, 1970).

(2034/1)

... وقد تعمق كثيراً في دراساته عن مميزات العربية الأندلسية ومقارنتها باللهجات المغربية وتوصل إلى أن عدد المؤلفات الهامة المتعلقة باللهجة الأندلسية وأدبها الشعبي المطبوعة في النصف الثاني من هذا القرن يفوق ضعف إنتاج السنين المائة قبل هذه المدة المذكورة. فكان نتيجة هذا النشاط أن مراجع اللهجة الأندلسية التي كانت إلى منتصف القرن العشرين منحصرة في حدود محتويات مؤلفات »سيمونت« و»دوزي«، علاوة على بعض التعاليق على هامش ديوان ابن قزمان وكتاب شتيكر "ديوانا ابن قزمان والششتري"، ودراسات ذكر أهمها في فهرس

(2035/1)

المراجع المدرج في كتابه عن اللهجة الأندلسية الصادر في مدريد سنة 1977 م تحت عنوان "ملخص قواعد فصلية اللهجات الأندلسية".

... وتنقسم هذه المراجع إلى سبعة أصناف، وهي:

...

نصوص تعمد واضعوها تحريرها باللهجة لأغراض فنية

خاصة، مثل ديواني الأزجال المذكورين أعلاه، ومجموعة الأمثال الشعبية لابن هشام وابن عاصم الزجالي التي اعتنى بنشرها أو درسها الدكتور الأهواني والمستعرب غارسيا غوميث والدكتور محمد بنشريفة.

نصوص لم يتعمد أصحابها تحريرها باللهجة، إلا أن كثيراً من ألفاظها وتعابيرها مخالفة للفصحى، لأن أصحاب

(2036/1)

هذه النصوص لم يتضلعوا من الفصحى. وهي تقع في أصناف متفاوتة الأهمية، من "كتاب الإسكندر" الذي نشره غارسيا غوميث إلى مجموعات مستندات قانونية متأخرة التاريخ متنوعة اللغة لمطابقتها النماذج التقليدية، مثل "مجموعة مستندات المستعربين الطليطليين" التي نشرها المستعرب غونثاليث بالينثيا وفيها ما يزيد على ألف وثيقة، إلى جانب رسائل شخصية قليلة الأسطر مثل التي نشرها هارفي ولاركون وسيكو دي لوثينا.

معاجم وكتب قواعد وتعاليم دينية من تأليف القساوسة المسيحيين لأغراضهم التبشيرية، مثل المعجم المنسوب إلى ريموند مارتي

(2037/1)

الذي نشره سيكا باريلي، وكتابي ألكالا في اللهجة الغرناطية، والمعجم المسمى "ليدن" الذي يعزوه كونخسفلد إلى أحد المستعربين الطليطليين الناطقين بالعربية المهتمين بتعليم اللاتينية في مدارسهم الدينية. وجميع هذه المراجع معروفة من قديم، وقد استعملها دوزي في ملحقه المشهور دون أن يستوفي محتوياتها.

الكتب في لحن العامة، منها تأليف الزبيدي الذي نشره رمضان عبد التواب، وكتاب ابن هشام اللخمي الذي اعتنى بدراسته ونشره الدكتور الأهواني وآخرون، وكتاب "الجمانة" الذي نشره الباحث الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب. وهي مراجع

(2038/1)

مهمة فيما يتعلق بالأصوات والمعجم، على أن إفادتها في الصرف والنحو قليلة.

مراجع تاريخية وجغرافية إسبانية تدرج فيها أسماء أماكن وأعلام عربية الأصل، ولا سيما منها أقدمها وأدناها من أصولها مكاناً وزماناً مثل وثائق التخطيط

والإقطاع المسماة Repartimientos**، التي كان ملوك النصارى يعقدونها عند استيلائهم على نواحي الأندلس. وقد نشر منها وثيقة لإقطاع الجزر الشرقية المنفردة بوقوعها في روايتها اللاتينية والعربية معاً، ووثائق بلنسية ومرسية وإشبيلية، وكشف الأوقاف بغرناطة، إلخ.**

(2039/1)

مراجع معجمية محتوية للألفاظ العربية الأصل ومستعملة في لغات إسبانيا والبرتغال التي جمعها انكلمان ودوزي في تأليفهما المشهور تحت عنوان Glossaire des mots espagnols. **وقد عقب عليه الأستاذ كوروميناس في تأليفه الضخم المسمى "قاموس أصول ألفاظ اللغة القشتالية".**

أبحاث اللغويين المعاصرين في الأندلسيات. وهي قليلة، يغلب عليها الإيجاز. منها تأليف شتيكر المذكور، ومقالات لكولان، ولا سيما مقالاته المدرجة في مادة «الأندلس» بـ"دائرة المعارف الإسلامية".

(2040/1)

... إلا أننا نتبيّن من مطالعة فهرسة المؤلفات المختصة باللهجة الأندلسية وباللهجات العربية عموماً أنها مع زيادة عددها في السنين الأخيرة بقيت في مرحلة جمع المعلومات وأخذ اللغة من الناطقين بها؛ إذ هي عبارة عن مجموعات نصوص وأبحاث وصفية أو تحليلية مخصصة للهجة معينة، وقلما يوضع تأليف مخصص لمقارنة اللهجات العربية بالجملة أو داخل فصائلها.

... أما ما يتعلق باللهجة الأندلسية، فإنه حاول أن يجمع معلوماتها المشتتة في المراجع المذكورة أعلاه وألف وصفاً شاملاً لمميزاتها سماه "ملخصاً"، لأنه لم يقصد الاستيفاء

(2041/1)

بتأليفه، وإنما اكتفى فيه باحتوائه على ما قل ودل. ومع ذلك، فإن عنايته فيه بالوصف أكثر منها بالمقارنة.

... ومن مميزات اللهجة الأندلسية في نظره على المستوى الفونولوجي إمالة الألف في غير جوار حروف التفخيم. وقد تكون هذه الإمالة ضعيفة يقتصر تأثيرها على التقليل من انفتاح الألف المعتاد، أو تكون شديدة تحولها إلى ياء. وتعد الإمالة من خصائص جميع اللهجات العربية

المغربية القديمة من مالطة وصقلية إلى الأندلس؛ كما يبدو أنها كانت موجودة في فصيلة قديمة من لهجات الشرق حسب معلومات النحاة العرب عن لهجات نجد وثبوت

(2042/1)

وجدوها في كلام أهل العراق قبل غزو المغول الذي قضى على سكان جنوبها وأدى إلى استبدال قبائل واردة من جزيرة العرب بهم.

... ومن مميزاتها أيضاً المحافظة على الفتح الذي تليه ياء أو واو ساكنتان، مثلاً في بيت ولون. وهي قديمة غريبة في اللهجات المغربية، لا نكاد نجدها إلا في المالطية.

كما أن من خصائص الكلام الأندلسي تحويل الضاد المجهورة إلى طاء مهموسة في بعض الألفاظ وقد ذكر الدكتور بنشريفة أنها ظاهرة كثيرة الوقوع في كلام المغاربة الأندلسيي الأصل إلى اليوم، وتنعكس في بعض الألفاظ الأندلسية وأسماء أماكن

(2043/1)

عربية الأصل في الأندلس: مثلاً، Arriate، أي الرياض في مقاطعة مالقة (Malaga) وRbatine، أي الربضيون في ضواحي بلنسية (Valencia). ويرى أن كثيراً من خصائص كلامهم ـ أي أهل الأندلس ـ تشاركهم فيها اللهجات المغربية، إما أن يكون ذلك لرجوعها معاً إلى أصل مشترك، وإما أن يكون نتيجة التأثير بالجالية الأندلسية المهاجرة إلى العدوة حيث كان لها الدور المشهور في ترسيخ الشخصية التاريخية المغربية المدافعة عن ذاتها من العجم والأتراك على أساس الإسلام والعروبة(1)

---

(1) بتصرف عن محاضرة ألقاها بمدينة الرباط في شهر يونيو 1981. وقد نشرت في حلقتين بالملحق الثقافي لجريدة العلم، العددين 572 و573، 24 يوليوز 1981 و31 يوليوز 1981.

(2044/1)

.

فيدريكو كورينيتي وابن قزمان:

... من الأعمال المهمة التي يشهد له بدقتها وتفوقها

تحقيق ودراسة ديوان الشاعر الأندلسي ابن قزمان (461 ـ 555 هـ) نصاً ولغة وعروضاً. واعتبر دارسو الأدب الأندلسي ديوانه »الصورة الحية« والفنية المتكاملة والمعبرة عن الجمال والتطور اللذين وصل إليهما شعر الأندلس والتي صورت بصدق ومعاناة وقابلية فذة حياة المجتمع الذي ولد وعاش فيه سواء في مدينة قرطبة أو المدن الأندلسية الأخرى حيث عرف حبه للتجول والغناء ومشاركة الناس احتفالاتهم ومهرجاناتهم الشعبية على الرغم مما كان يعانيه من

(2045/1)

فقر وجوع(1).

... وقد عثر على ديوانه في بلدة صفد الفلسطينية، فقدم له كوريينتي بدراسة وافية حول لغة ابن قزمان باعتبارها الموضوع الذي اختلف حوله. فمنهم من ذهب إلى أن لغته كانت فصيحة مع لحن كثير، بينما ذهب آخرون إلى أنها لهجة أندلسية. وقد توصل المحقق من خلال هذه الدراسة إلى أن لغة ابن قزمان إنما هي لهجة أندلسية لها قواعد خاصة، وأما عروضه وهو الموضوع الآخر الذي أثار جدلاً بين الباحثين حيث ذهب الدكتور عبد

---

(1) عطاطة التكريتي، »ابن قزمان مغني قرطبة الضائع«، مجلة الجامعة العراقية، عدد 5، 1981، ص. 94.

(2046/1)

العزيز الأهواني إلى أنها عروض خليلية مع ضرورات عديدة. وذهب إميليو غارسيا غوميث إلى أنها عروض من النوع الرومانثي الذي يستعمله شعراء شبه الجزيرة الإبيرية على اختلاف لغاتهم. أما كوربينتي، فقد توصل إلى أنه على أساس قواعد لغة ابن قزمان فإن عروضه عربية الأصل، غير أن الإيقاع فيها لا يقوم على تناول المقاطع المحدودة والمقصودة الذي هو قوام الشعر العربي، بل على تسلسل مقاطع منبورة وغير منبورة. وفي تحقيقه لنصوص الديوان بيَّن عروض كل قصيدة، وشرح معنى كل كلمة غامضة؛ كما أنه أضاف تعليقات وإضافات وكتب فصلاً عن

(2047/1)

النصوص بالأحرف اللاتينية(1).

... كذلك قام بترجمة دقيقة للمعلقات إلى اللغة

الإسبانية: Las Muiallaqat: Antologia, Panorama de Arabia Preislamica **["المعلقات: مختارات وصور للجزيرة العربية قبل الإسلام"]. ويعترف:**

... بأنه بدأ بترجمته هذه منذ زمن غير قصير، وأنه عايش الشعر الجاهلي زمناً طويلاً وفتن بما فيه من صور شعرية

---

(1) **نشر الديوان المعهد الإسباني العربي للثقافة بمدريد،** 1980.

Gramatica Metrica y Texto del Cancionero Hispano Arabe de Aban Quzman,

an Instituto Hispano Arabe de Cultura, Madrid,1980.

(2048/1)

دقيقة، ومن موسيقى رقيقة، ومن واقعية تأخذ بالألباب، وأنه انتهى من مسودة الترجمة الأولى في القاهرة عام 1965 **م. ومنذ ذلك التاريخ لم يتوقف عن العودة إليها مهذباً، ومدققاً في ضوء نضجه، وتجاربه، وتطور دراساته، واتساع معارفه اللغوية في المجالين العربي والإسباني. ولم تأخذ شكلها النهائي إلا بعد ذلك**

بأعوام ستة، أو على التحديد في عام 1971 م، ليقوم المعهد الإسباني العربي في مدريد بطبعها بعد ذلك بثلاث سنوات.

... وقدم للترجمة بدراسة أدبية وأخرى تاريخية، وانتهى إلى أن البدوي العربي توصل بطريقة عفوية تدعمها

(2049/1)

الدراسات الحديثة إلى حل قضية الشكل والمضمون، لأن كلمة »شعر« تعني المعرفة والشعور، وإن شئت المعنى والإحساس به . . . وتعتبر هذه الدراسة الفذة هي الأولى في اللغة الإسبانية التي تدرس شعرنا الجاهلي و"المعلقات" بصفة خاصة. وأقر صادقاً وعلى وعي أنها من أدق التراجم التي نقل إليها في اللغات الأجنبية(1).

... وكان المستشرق الأنجليزي وليم جونز (مؤسس علم الاستشراق بمعناه الحديث) قد قام بترجمة "المعلقات السبع" ونشرها عام 1782، وكانت

---

(1) الطاهر أحمد مكي، »المعلقات الإسبانية«، مجلة الدوحة، عدد 69، 1981، ص. 22 و24.

(2050/1)

تلك أول مرة تترجم فيها المعلقات كاملة إلى لغة أوربية حديثة، بحيث قام بنقل القصائد بألفاظها العربية إلى الحروف اللاتينية ونشرها في الصفحة المقابلة للنص المترجم، آملاً بذلك أن ينقل إلى قارئه صورة مقربة من موسيقى الشعر الجاهلي وجماله، كما حرص على أن يدرك القارئ الأنجليزي جلال اللفظ العربي وفخامته. إضافة إلى هذه الأعمال الجليلة، فقد قام كذلك كما يقول:

... بتحقيق للششتري وابن زمرك وابن الخطيب، وشاركت مع زملائي في تحقيق المجلد الخامس من كتاب "المقتبس" لابن حيان. لكنني لا أعرف ما الذي جذبني لدراسة

(2051/1)

الأدب العربي، وإن كان قد لفت نظري أن إسبانيا تعربت تماماً بعد أن دخلها العرب عكس ما نجده مثلاً في دولة كفارس التي لم تتغير لغتها بدخول العرب(1). ويرى أن أفضل نتاجات الثقافة العربية لم تظهر في القرن العشرين أو التاسع عشر، بل ظهرت في القرن

الحادي عشر أو الثاني عشر، حيث كانت الثقافة العربية في قمة ازدهارها. وتلك الثقافة بشكل أو بآخر ما زالت صالحة، وليس من الصحيح اعتبارها من الموضة القديمة.

---

(1) ... استجواب أجرته معه تيشرين المنيري، صحيفة الأهرام، عدد يوم 7/5/1983، ص. 12 (مرجع سابق).

(2052/1)

الاستعراب الإسباني والتراث الأندلسي من خلال ثلاثة نماذج: خوان أندريس ـ غاينغوس ـ ريبيرا

... ... الأستاذ محمد القاضي

... ... طنجة

تحديد المصطلح: استشراق أم استعراب؟

... يرفض الكثير من الإسبان المهتمين بالدراسات العربية والإسلامية نعتهم بالمستشرقين ويفضلون بدلها كلمة «الاستعراب» ((Arabistas نظراً لأنهم كلهم نذروا حياتهم لدراسة اللغة العربية وآدابها وحضارة المسلمين وعلومهم في شبه الجزيرة الإيبيرية

بصفة خاصة دون أن يهتموا بلغات شرقية أخرى كالفارسية والتركية

(2053/1)

والأردية وغيرها، إلا ما كان من طرف بعض الباحثين المعاصرين وهم قلة. ويلم المستعرب بيدرو مارتينث مونتابيث على استعمال »كلمة "الاستعراب" (Arabista)، لأن الدراسات التي بدأت في إسبانيا وازدهرت منذ وقت طويل كانت الدراسات العربية، ولا توجد منذ بداية هذه الدراسات دراسات في التركية وفي الصينية والهندية وكلها تدخل في الاستشراق« (1).

---

(1) الاستجواب الذي أجرته معه مجلة "الوطن العربي"، عدد 328، يونيو 1983، صفحة 73.

(2054/1)

... ويرى الدكتور محمود صج »أنه يجب التمييز بين المستعربين والمستشرقين في إسبانيا. المستعربون هم الذين يهتمون بالدراسات العربية الإسلامية،

وبخاصة الأندلسية منها، والمستشرقون هم الذين يهتمون بقضايا الشرق على العموم، وبخاصة قضايا الشرق الأقصى«(1).

... والاستعراب استعمال قديم. فقد استعمله ابن الفرية، وهو من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة. فإنه قال لما سأله الحجاج عن أهل البحرين: »نبط استعربوا«؛

---

(1) الاستجواب الذي أجرته معه مجلة "الفكر العربي المعاصر"، عدد مزدوج 4 ـ 5، سنة 1980، ص. 165.

(2055/1)

قال: »فأهل عمان«؛ قال: »عرب استنبطوا«، وذلك يكون إما لغة أو انتساباً أو لعلاقة أخرى(1).

... أما في الأندلس، فقد أطلقت كلمة »المستعربة« أو »المستعربين« (Mozarabes)) على العناصر المسيحية التي استعربت في لغتها وعاداتها، ولكنها بقيت على دينها محتفظة ببعض تراثها اللغوي والحضاري. وقد كفلت لهم الدولة الإسلامية حرية العقيدة، فأبقت لهم كنائسهم وأديرتهم وطقوسهم الدينية التي كانت تقام باللغة اللاتينية، كما كان لهم

(1) محمد الطنجي، »من أطوار الاستشراق ومراميه«، مجلة دعوة الحق، عدد 7، السنة 13، 1970، ص. 23.

(2056/1)

رئيس يعرف بـ»القومس« (Gomez) وقاضٍ يعرف بقاضي العجم أو النصارى، يفصل في منازعاتهم بمقتضى القانون القوطي(1).

... وقد وصف ألبارو (Alvaro) ونفسه تقطر حزناً وألماً فقال:

... إن إخوتي في الدين وأبناء رعيتي يتذوقون الأشعار والروايات العربية ويتعمقون في دراسة الفلاسفة المسلمين. وليت انصرافهم هذا يؤدي إلى مساعدتهم على

(1) أحمد المختار العبادي، »الإسلام في الأندلس«، مجلة عالم الفكر، عدد 2، 1979، ص. 94؛ وانظر كذلك أسعد حومد، محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ـ لبنان، ص. 121.

(2057/1)

دحض المذاهب الإسلامية أو الرد عليها، بل على العكس لكي يتمكنوا من هذه اللغة ومن آدابها وليجيدوا استعمالها أحسن فأحسن . . . أين نجد الآن علمانياً واحداً نصرانياً يقرأ الأناجيل أو حياة القديسين وأعمال الرسل والأنبياء؟ آه ويا للأسف! إن الشباب المسيحي الذي تميز بذكائه وعبقريته لا يجد اللذة والمتعة الروحية إلا في قراءة الكتب العربية وآدابها وينفقون الأموال الطائلة على شراء هذه الكتب وتشكيل مكتبات ضخمة، وينادون على رؤوس الأشهاد: أن لا آداب توازي الآداب العربية . . . كلموهم عن الكتب المسيحية يجيبوكم بازدراء:

(2058/1)

»إنها لا تستحق الانتباه...«. آه ما أتعسنا! إن المسيحيين منا قد نسوا لغتهم، وبين ألف شخص منهم لا يوجد واحد يحسن كتابة رسالة إلى صديقه باللغة اللاتينية، ولكن إذا طلبته للكتابة باللغة العربية أجاد كل الإجادة بحيث أن الكثيرين من إخواننا في الدين يحسنون اللغة العربية أفضل من العرب أنفسهم (1).

... ولقد أدَّى هؤلاء دوراً مهماً في نقل الحضارة العربية

الإسلامية إلى الممالك المسيحية بشمال إسبانيا وجنوب فرنسا، وكانوا أداة وصل

(1) سيمون الحايك، عبد الرحمن الأوسط، المطبعة البولسية، بيروت، ص ص. 166 ـ 167.

(2059/1)

بين شطري إسبانيا، ولم ينقطعوا عن التنقل بين أراضي المسلمين وأراضي النصارى في الشمال. فعملوا بذلك على نشر الثقافة الإسلامية بين أهل الشمال، وبخاصة عن طريق ترجمة كتب المسلمين، وشاركهم في ذلك اليهود حيث اضطلعوا بدور كبير في ترجمة المصنفات العربية إلى اللاتينية والقشتالية، مما جعل الفقيه الإشبيلي ابن عبدون ـ في القرن الثاني عشر الميلادي ـ يدعو إلى ألاَّ «يباع من اليهود ولا من النصارى كتاب علم إلا ما كان من شريعتهم. فإنهم يترجمون كتب العلوم وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم، وهي من تواليف المسلمين»(1)

(1) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة، ص. 57؛ «الإسلام في الأندلس وصقلية وأثره في الحضارة

والنهضة الأوربية «، إعداد قسم البحوث والدراسات بمجلة رسالة الجهاد الليبية، عدد 57، 1987، ص. 84.

(2060/1)

.

ومع مرور الزمن وتطور مفهوم »الاستعراب« وصيرورته ذا طابع علمي

... يختص بدراسة حياة العرب وما يتعلق بهم من حضارة وآداب ولغة وتاريخ وفلسفات وأديان وله أصوله وفروعه ومدارسه وخصائصه وأتباعه ومنهجه وفلسفته وتاريخه وأهدافه. والمستعرب هو عالم ثقة في كل ما يتصل بالعرب وبلاد العرب أو باللغة العربية والأدب العربي، أو بالأحرى المستعرب هو من تبحر من غير أهل العرب في اللغة العربية وآدابها وتثقف بثقافتها وعني بدراستها (1)

---

(1) سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار المعارف، 1980، ص. 34؛ وانظر منير البعلبكي، المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ص. 58.

(2061/1)

.

... ومهما يكن من أمر، فإن إسبانيا تميزت عن غيرها من الدول الأوربية الأخرى التي تدين بالشيء الكثير لإسبانيا العربية بأنها كانت سباقة إلى الاحتكاك بالعرب والاستفادة من حضارتهم وثقافتهم، مما جعلها تتبوأ مكانة خاصة في ميدان الاستعراب بصفة عامة؛ كما أن اهتمام الإسبان اتجه بالدرجة الأولى إلى دراسة الثقافة والفكر العربي الإسلامي الذي أنتجته العبقرية الأندلسية فأدوا للتراث العربي والإسلامي خدمات لا تنكر سواء بأبحاثهم ودراستهم الجادة أو بتحقيقاتهم للتراث الأندلسي واكتشاف مصادره ونفض غبار الإهمال عن

(2062/1)

كثير من المؤلفات المهمة التي لولاهم ما رأت النور؛ كما قاموا بوضع فهارس يستفيد منها الباحثون والمهتمون بالتراث الأندلسي.

ا ـ خوان أندريس (1740 ـ 1817) والتأثير العربي في الثقافة الإسبانية

... كتب الكثير عن التأثير العربي الإسلامي في الثقافة الغربية وتناول الباحثون والمهتمون هذا الموضوع بالدراسة والتحليل والمقارنة، فأبرزوا الدور الهام الذي لعبته الثقافة العربية الإسلامية بصفتها ثقافة إنسانية متطلعة إلى أفق أخلاقي رفيع المستوى، يعطي الحضارة امتدادها الإنساني، ويرتقي بمستوى الطموح البشري ليجعله

(2063/1)

طموحاً بانياً ومعبراً عن كرامة الإنسان وسمو وعيه. وقد حظيت هذه الثقافة بالتقدير والإعجاب من طرف الشعوب التي ارتبطت بالإسلام ديناً وثقافة وحضارة. ويعتبر الراهب الإسباني خوان أندريس (Juan Andres) أول من أشار إلى الأثر العربي في الثقافة الإسبانية خاصة والأوربية عامة. فقد ألف كتاباً عن أصول الأدب عامة وتطوراته وحالته الراهنة باللغة الإيطالية ونشره في سبعة مجلدات، وذلك بين سنتي 1782 و1798 وترجمه إلى الإسبانية بين سنتي 1784 و1806)، وهو بعنوان:

Origen progresos y estado actual de toda la letteratura.

(2064/1)

وقد فجر فيه الكثير من القضايا الأدبية والفكرية والتاريخية: »وأعلن أن كل ما بلغته أوربا من نهضة في العلوم والفنون والآداب إنما كان بفضل ما تلقته من العرب عن طريق الأندلس وصقلية الإسلامية«(1).

... وقال أندريس:

... بينما تصرف المدارس الكنسية جهدها إلى تلقين الناس الأناشيد الدينية، وتعلمهم القراءة وعد الأرقام، وبينما نجد الناس في فرنسا كلها يهرعون إلى متز وسواسون يكتب أناشيدهم الكنائسية لكي يقوموها

---

(1) الدكتور محمود علي مكي، محاضرة ألقيت بجامعة قطر، ثمار الفكر، الموسم الثقافي السادس، 1980، ص. 128.

(2065/1)

على النحو المتبع في كنائس روما، نجد العرب يبعثون السفارات لاستجلاب الكتب القيمة ما بين إغريقية ولاتينية، ويقيمون المراصد لدراسة الفلك، ويقومون بالرحلات ليستزيدوا من العلم بالتاريخ الطبيعي وينشئون المدارس لتدرس فيها العلوم بشتى صنوفها (1).

... والجدير بالذكر أن أحكام الراهب خوان أندريس هذه قد أسسها على كتاب العالم اللبناني الماروني ميخائيل الغزيري () (Miguel Casiri1701 ـ 1791) الذي استدعته الحكومة

---

(1) آنخيل غونثاليث بالينثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ص. 533.

(2066/1)

الإسبانية إلى مدريد سنة 1738 م وعينته موظفاً في المكتبة الملكية بمدريد، ومديراً مساعداً لمكتبة الأسكوريال، ومترجماً للملك في اللغات الشرقية وعهدت إليه الحكومة الإسبانية منذ البداية بالمهمة الرئيسة التي دعته إلى القيام بها، وهي دراسة المجموعة العربية بالأسكوريال والتعريف بها، ونزل الغزيري

بقصر الأسكوريال في سنة 1749 ولبث مقيماً به حتى سنة 1753 م. وفي سنة 1760 م أصدر الجزء الأول من فهرسه اللاتيني الشهير بعنوان "المكتبة العربية الإسبانية في الأسكوريال". واتبع في وضعه قاعدة التركيز، وهي تدور حول

(2067/1)

المواد والتحليلات، وجرى على أسلوب الاقتباسات الموجزة والمطولة في إبراز قيمة المخطوطات ذات الأهمية الخاصة وترجمة هذه الاقتباسات إلى اللاتينية(1).

... وتتلخص أفكار هذا الراهب في أن كل ما هو موجود في أوربا من الحضارة إنما يدين للعرب وإلى المسلمين، وأن الفضل في قيام الدراسات الطبية في أوربا يرجع إلى ما كتبه العرب، وأن قيام التأليف العلمي في أوربا

---

(1) انظر ذلك بالتفصيل في "كتاب العربي"، الكتاب العشرون، يوليو 1988، "أندلسيات محمد عبد الله عدنان". نفائس المكتبة العربية في الأسكوريال، ص ص. 212 ـ 219.

(2068/1)

في الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية مرجعه إلى العرب. وتأييداً لرأيه ذكر أسماء: Gerberto و Campamo Denovara و Adelardo و Alfonso Elsabio و Moraly و Bath، **وقال إنهم أعلام حركة انتقال علوم العرب إلى أروبا وذهب إلى أن روجر باكون استقى مادة مؤلفه عن العدسات** (anteojos) **من الكتاب السابع من "أوبتيكا" للحسن بن الهيثم، وأن فيتاليون اختصر النظريات التي أودعها ذلك العالم المسلم في الكتاب نفسه وشرحها، وأن ليوناردو بساما أخذ علم الجبر من مؤلفات العرب، ونقل عنهم الأرقام العربية وأدخلها إلى أروبا، وعلمها لأهلها،**

(2069/1)

وأن جيربرت درس علم الحساب العربي في إسبانيا الإسلامية وأدخله إلى المدارس الأوربية، وأن Ronaldo di Villanova **تلقى تعليمه كله في إسبانيا الإسلامية على أيدي العرب وعن كتبهم ومدارسهم أخذ المعارف النافعة في الطب والكيمياء التي نشرها في أوربا.**

... وذهب أندريس كذلك إلى أن الفيلسوف الكتلاني

Lulio مدين للأدب العربي في كثير، وأن أعلام الطب الأوربي قبل النهضة أمثال جلبيترو وجيرالمو إنما نهلوا من كتب العرب، ومن مؤلفات أبي القاسم الزهراوي على وجه الخصوص، وأن بيير دانييل هوست ذهب إلى أن ديكارت أخذ عن أعلام

(2070/1)

الفكر الإسلامي مبدأه الرئيس الذي يقول: »إن كل من يستطيع أن يفكر فهو موجود«، وأن كبلر استوحى اكتشافه الأفلاك الدائرية للكواكب من كتابات البطروجي، وأن بعض آراء سانتو توماس في الإلهيات مستقاة من كتب العرب »ولو لم يكن للعرب من الفضل إلا الاحتفاظ بذخائر العلوم التي أهلتها الشعوب الأوروبية ونقلها، وإيداعها أيدي الناس عن طيب خاطر لاستحقوا من أهل الأدب المحدثين الشكر والعرفان«. أما عن إسبانيا الإسلامية خاصة، فقد أشار أندريس إلى حقيقة خطيرة أثبتها البحث العلمي فيما بعد، وهي أن الناس في الأندلس كانوا

(2071/1)

يستعملون لغتين دارجتين: إحداهما عربية والأخرى «رومانثية» (romance)، وأن كتدرائية طليطلة تضم مئات الوثائق باللغة العربية، خلفها النصارى الذين كانوا يستخدمون العربية في حياتهم.

... وذهب إلى أن الشعر الإسباني إنما نشأ أول أمره تقليداً للشعر العربي، وانتهى إلى هذا الرأي استنتاجاً وقال: إن اختلاط النصارى والمسلمين من الطبيعي أن يدفع الأول إلى تقليد الآخرين، ويمضي مع تفكيره المنطقي. وصور هذا الشعر وقوالبه حرية بأن تنتقل إلى بروفانس عن طريق الصلات المتبادلة بين الفرنسيين والإسبان ـ نصارى ومسلمين ـ

(2072/1)

وتجوال شعراء التروبادور، فنشأ الشعر البروفانسي على أساس من الشعر العربي، فهو ينتسب إلى العرب أكثر مما ينتسب إلى اليونان واللاتين، إذ لم يكن لدى البروفانسيين علم بهذين الأدبين في حين أن شعر العرب كان أقرب إليهم مورداً.

... ويؤكد أن قواعد القافية التي اتبعها الشعر الشعبي، إسبانياً كان أو بروفانسياً، وأساليب صياغة

الشعر الحديث ونظمه مأخوذة عن العرب؛ وكذلك قصص الخرافات والحكايات ترجع في نشأتها إلى أصول عربية.

(2073/1)

... وقد بقيت هذه الإشارات المجملة التي كتبها خوان أندريس دون إثبات مؤكد في عصره، لأن شيئاً من آثار الأندلسيين لم يكن قد نشر إذ ذاك أما اليوم وبعد قرنين من الزمن على صدور كتابه، فإننا نستطيع أن نذكر الكثير عن أثر المسلمين في آداب من جاء بعدهم من الشعوب الأوربية وخاصة الإسبان(1).

... إن هذه الآراء والأحكام والجرأة على كتابتها ونشرها في ذلك الوقت من طرف راهب منفي، لأنه طرد من إسبانيا عام 1765 لأسباب داخلية متعلقة

---

(1) آنخيل غونثاليث بالينثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ص ص. 534 ـ 536.

(2074/1)

بخلافات داخل التنظيم الكنيسي المسيحي، ما كان لها لتقبل وخصوصاً من طرف معاصريه الذين عارضوا آراءه

واعتبروها من نسج الخيال ونشطوا في الرد عليها سواء في إيطاليا أو في باقي الدول الأوربية.

II ـ باسكوال دي غايَنْغُوس (1809 ـ 1897 م) باعث الدراسات العربية والإسلامية في إسبانيا

... يعتبر باسكوال دي غاينغوس ((Pascual de Gayangos **المؤسس الحقيقي للاستعراب العلمي الإسباني الحديث. فقد أمضى طفولته في باريس حيث درس على المستشرق الفرنسي المشهور دي ساسي (** De Sacy**) مدة ثلاث سنوات انتقل بعدها إلى لندن ومنها عاد**

(2075/1)

إلى إسبانيا وبعدها إلى لندن، ومنها إلى إسبانيا.

... في سنة 1833 **عين غاينغوس مترجماً في وزارة الخارجية الإسبانية، وفي سنة** 1843 **عين لشغل كرسي اللغة العربية الذي أنشئ بالجامعة الإسبانية بمدريد.**

كان أول من اهتم به هذا الباحث هو دراسته للتراث الأندلسي تاريخاً وفكراً وحضارة، فتمكن من جمع مكتبة نفيسة ضمت أكثر من أربعمائة مخطوط ويعد:

... رائداً لضرب جديد من الدراسات الأندلسية، يقوم على

تفهم صحيح لحضارة العرب في إسبانيا وتقدير لمنجزاتها ... غير أن أهم منجزاته على الإطلاق هو إعداده لطائفة كبيرة من تلاميذه

(2076/1)

خدموا الدراسات العربية طول القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين (1).

... قام غاينغوس بتصنيف كتاب عن تاريخ المسلمين في إسبانيا ثم فهرسته للمخطوطات الإسبانية في المتحف البريطاني:

... ووصف قصر الحمراء مع بيان آثاره وتفسير كتاباته الحجرية. لندن 1843 م وفذلكة عن صحة الصحيفة الإخبارية للرازي في صفة الأندلس متنا وترجمة إسبانية ... ورسالة في بيان فضل الأندلس وذكر علمائها عن المقري متنا وترجمة إنجليزية، وقصيدة مديح

---

(1) محمد علي مكي، »الأندلس في شعر شوقي ونثره«، مجلة فصول، عدد 1، المجلد 3، 1982، ص. 215.

(2077/1)

محمد وهي من الشعر الإسباني في القرن الرابع عشر (1).

... لعل أهم أعماله في هذا الميدان هو وقوفه على مصدرين من مصادر التراث الأندلسي وتحقيقهما ونشرهما وهما: "نفح الطيب" للمقري. فقد قام بنشر قسمٍ كبيرٍ منه وترجمته إلى الإنجليزية في مجلدين (لندن ـ مدريد 1840 ـ 1843). يقول في مقدمته:

... إن ماريانا وأكابر المؤرخين الإسبانيين تحدوهم عاطفة بغض قومي عميق، أو نزعة تعصب ديني، أبدوا دائماً أبلغ الاحتقار لمؤلفات العرب ... فكانوا يرفضون وسائل

---

(1) نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف، ج 2، ص ص. 182 ـ 183.

(2078/1)

البحث التي تقدمها لهم الوثائق التاريخية العربية الكثيرة، ويهملون المزايا التي قد تترتب على المقارنة بين الروايات النصرانية والإسلامية، ويوثرون أن يكتبوا تواريخهم من جانب واحد. وقد ترتب على هذا الروح الضيق الذي يطبع كتاباتهم أثر واضح. ذلك أن تاريخ إسبانيا في العصور الوسطى ما يزال ـ بالرغم مما أفاض عليه النقدة المحدثون ـ معتركاً من الخرافة والمتناقضات (1).

---

(1) محمد عبد الله عنان، »مقدمة« كتاب دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية العهد الناصر، ط 4، ص. 10.

(2079/1)

... أما المصدر الثاني، فهو كتاب "تاريخ افتتاح الأندلس" لابن القوطية الذي نشره في مدريد سنة 1868 م، »ويؤخذ على ناشره عدم تعمقه لفهم المعنى العام للفصل أو المقطع لكثرة الأخطاء الإملائية والنحوية التي وقع فيها . . . وقد حظي المؤلف لقيمته العلمية والتاريخية بعناية كبار المستشرقين الإسبان«(1).

... لقد كسر غاينغوس الصمت الطويل الذي فرض على كل

ما هو عربي في إسبانيا منذ سقوط الأندلس، وتجرأ على

---

(1) ابن قوطية القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق وشرح وتعليق عبد الله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، ص. 25.

(2080/1)

الكلام وأثبت ذلك بالحجج والوثائق فكانت أعماله كما يقول غوستاف دوغه (Gustave Dugat) في كتابه "تاريخ المستشرقين" : »في إسبانيا إن أعمال غاينغوس الجدية فيما يتعلق بتاريخ العرب معروفة لدى الجميع. لقد أنشأ عدداً من الطلاب الذين يهتمون بالدراسات الشرقية«(1).

... وعلى العموم، فإن أعمال غاينغوس الاستعرابية تندرج في إطار تحرري لا يخلو من عطف نحو الماضي الأندلسي والموريسكي كما استشهد بذلك الكاتب الإسباني الكبير

---

(1) ميشال جحا، الدراسات العربية والإسلامية في أوربا، ط 1، بيروت، معهد الإنماء العربي، ص. 129.

(2081/1)

خوان غويتسولو في دراسته »تأملات في الاستعراب الإسباني« (1).

...

III ـ خوليان ريبيرا إي طَرَاكُو (1858 ـ 1934 م) أول من تبنى فكرة الأصل الإسباني لمسلمي الأندلس

... يعتبر خوليان ريبيرا إي طراكو (Julian Ribera y Tarrago) واحداً من كبار المستعربين الإسبان، وقف حياته على دراسة الأدب الأندلسي وتاريخه. ولد في كركخنته (Carcajente) من أعمال بلنسية، تعلم اللغة العربية على المستعرب كوديرا، وتخرج من جامعة سرقسطة، وعين أستاذاً للعربية فيها سنة 1887

(1) انظر جريدة العلم الثقافي، عدد يوم 15/12/ 1984، ص. 1.

(2082/1)

م، وأستاذاً لتاريخ حضارة اليهود والمسلمين في جامعة مدريد (1905 ـ 1927 م)، ثم اعتزل التدريس، وعكف على التأليف في بلنسية. وقد انتخب عضواً في المجمع اللغوي الإسباني وفي غيره. وعد من بين كبار علماء

الاجتماع والتاريخ والكشف عن أصل الشعر الغنائي الأوربي من المنابع العربية.

... أنجز ربييرا العديد من الأعمال المهمة المتعلقة بالتراث الأندلسي منها نشره بمعاونة أستاذه كوديرا "المكتبة العربية الإسبانية"، وله "دراسات عن نظم التدريس عند المسلمين الإسبان" (سرقسطة 1893) و"أصول القضاء العالمي في أرغون" (سرقسطة

(2083/1)

1897) و"تاريخ القضاة بقرطبة" للخشني القيرواني متنا وترجمة إسبانية، وكتب عليه بالعربية: وقف على طبعه خوليان ربييرا إي طراكو البلنسي (مدريد 1914)، كما نشر الملاحم الإسبانية سنة 1915 بمدريد، و"ديوان ابن قزمان" (مدريد 1922) و"موسيقى الأندلسي والشعراء الجوالون" (مدريد 1925 م)، كما ترجم إلى الإسبانية "تاريخ افتتاح الأندلس" لابن القوطية. وكان قد نشره غاينغوس وسابيدرا من قبله - مع إضافات من كتاب "الإمامة والسياسة" لابن قتيبة (مدريد 1926)، و"الموسيقى العربية وأثرها في الموسيقى الإسبانية" (مدريد 1927)،

(2084/1)

وصنف كتاباً بعنوان: "بحوث ورسائل" في جزئين اشتمل على الشاعر ابن قزمان والرد على دوزي، وأصول فلسفة رايموند لول، وجامعي الكتب والمكتبات في إسبانيا الإسلامية. وله في المجلات العلمية دراسات رصينة عن: أحوال العرب عند فتح الأندلس، وحول قلعة طريف، ومعاهدة سلام بين فيرناندو الأول حاكم نابولي وأبي عامر عثمان حاكم تونس. وقد حال الموت دون إنجاز كتاب: "تاريخ الثقافة الإسلامية". وقد أحصى مؤلفاته وقدم لها آسين بلاثيوس في كتاب عنوانه "أحاديث ونبذ" (1928 م) (1)

---

(1) بتصرف عن كتاب نجيب العقيقي، كتاب المستشرقون، دار المعارف، ج 2، ص ص. 189 ـ 190.

(2085/1)

.

... وككل مستعرب إسباني في عصره واجهته مشكلة التراث الأندلسي في لغته العربية الذي لم يكن متيسراً

في إسبانيا:

... وحين عزم على أن يطبع أمهات المصادر الأندلسية في نصها العربي بإسبانيا، لم يجد غير مطبعة البرلمان. ففيها قسم عربي لطبع الوثائق السياسية، ولكنه يتقاضى أجوراً باهظة لا قدرة له عليها، فتركه ليفكر في أمر لا يظنه دار بخاطر مستشرق قبله (إذا استثنينا المستشرقين الروس فقد مروا بالتجربة نفسها فيما أذكر): أن يشتري حروفاً عربية، وأن يعمل عليها مع طلابه، ويجمعون بأيديهم ويدفعون بما جمعوا إلى

(2086/1)

المطبعة، ويدفعون التكاليف من جيوبهم، ومن جيوب عشاق العصر العربي من الإسبان (1).

... وهكذا انكب خوليان ريبيرا على دراسة التراث الأندلسي ثقافة وفناً وتاريخاً. وكان يعتبر الحضارة الأندلسية جزءاً من التراث الإنساني القيم، وأن كل منجزات الأندلسيين المسلمين في العلوم والفنون والثقافة ينبغي أن تنتسب إلى إسبانيا قبل أن تنتسب إلى الشرق العربي أو الغرب الأوربي؛ كما أنه

يعتبر أن المجتمع المولد

---

(1) الطاهر أحمد مكي، »قمة الاستشراق الإسباني المعاصر«، مجلة آفاق عربية، عدد 3، السنة الثالثة، 1972، ص. 72.

(2087/1)

الجديد في الأندلس بعد الفتح والاختلاط والانصهار بين العرب الفاتحين والسكان الأصليين كان عربي اللسان إسلامي الدين، وردد علانية أنه:

... ليس ثمة فضل في أن يعرف أحدنا اللغة العربية، فهناك ملايين الرجال يعرفونها، ويتحدثون بها خيراً منا. أما الذي نستطيعه دون قدرة الملايين، فهو أن نجعل منها دوراً نكتشف في هديه أصول الثقافة الإسبانية، ونوضح في ضوئها ما خفي من جوانبها، حين كانت العربية في وطننا لغة الثقافة ولغة الحياة (1)

---

(1) مجلة آفاق عربية، مرجع سابق، ص. 73. والرأي نفسه ورد في مجلة "اللسان العربي"، العدد الخامس (غشت 1967)، ص. 66.

(2088/1)

.

خوليان ريبيرا وإسبانية الموشحات

... تعددت الآراء واختلفت حول أصل الموشحات وأوزانها، وكان الباحثون ـ وما زالوا ـ منقسمين إلى رأيين بارزين ما بين الأصل الإسباني الأندلسي والعربي المشرقي، وكل فريق يدلي بآرائه وحججه في هذا الميدان. ويرى الدكتور زكريا عناني أن:

... الآراء حول النشأة الأندلسية للموشحات أكثر من أن تحصى، ولكن ليس معنى هذا أن الموشحات ظاهرة مستقلة لا علاقة لها بالشعر العربي. فمؤلفو الموشحات هم أولاً وأخيراً شعراء عرب، وهذه حقيقة لم ينكرها حتى المستشرقون المنادون بأن في الموشحات

(2089/1)

عناصر إسبانة محلية(1).

... ويذهب خوليان ريبيرا إلى »إسبانية الموشحات« ويدلل على نظريته هاته بما يلي: إن أهل الأندلس

الإسلامي كانوا يستعملون اللغة العربية الفصيحة لغة رسمية يتعلمها الناس في المدارس ويكتبون بها الوثائق وما إليها. وأما شؤونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم، فكانوا يستعملون لهجة من اللاتينية الدارجة أو العجمية (El romance). ثم إن هذا الازدواج في اللغة هو الأصل في نشوء طراز شعري مختلط تمتزج فيه مؤثرات غربية

---

(1) الموشحات الأندلسية، سلسلة عالم المعرفة، عدد 31، يونيو 1980، ص. 66.

(2090/1)

ومشرقية. وقد ازدرى أهل الأدب الفصيح والمعنيون بأمره هذا الطراز الجديد، بينما مضى الناس جميعاً يتناقلون مقطعاته سراً فيما بينهم، وذاع أمره داخل البيوت وفي أوساط العوام، وما زال أمره والإقبال يشتد حتى أصبح في يوم من الأيام لوناً من الأدب. وقد أخذ هذا الطراز الجديد من الأدب الشعبي صورتين: إحداهما »الزجل« والثانية »الموشحة«، وهما في واقع الأمر فن شعري واحد، ولكن الزجل يطلق على السوقي الدارج منها،

إذ لابد من أن يكون في اللغة الدارجة، فقد كان يتغنى به في الطرقات؛ أما الموشحة، فلا تكون إلا في العربي

(2091/1)

الفصيح، وإسمها كذلك عربي كما هو واضح(1).

... وقد وافقه في هذا تلميذه أميليو غارسيا غوميث، ووافقهما بعض الباحثين العرب كالدكتور عبد العزيز الأهواني والدكتور مصطفى عوض الكريم وبطرس البستاني. وقد اعتمد هؤلاء على نقاط محددة في مذهبهم، منها أن الموشحات تختلف اختلافاً بيناً عن فنون الشعر العربي في المشرق لكونها استجابة لبعض متطلبات الفن الغنائي؛ وثانيها أن أوزان قسم الموشحات غير جارية وفق

---

(1) انظر ذلك بالتفصيل في كتاب أنخيل غونثاليث بالينثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ص ص. 142 ـ 143.

(2092/1)

أوزان الخليل؛ وثالثها أن فن الموشحات قد ظهر في الأندلس، وحذقه الأندلسيون وأحبوه، لذا ذهبوا إلى أن هذا الفن تقليد لشعر غنائي أعجمي كان منتشراً في الأندلس عرفه كل من العرب والإسبان. ومما قوى اعتزاز هذا الفريق برأيهم اكتشاف مجموعة من الخرجات الأعجمية، وعددها ست وعشرون، في كتاب: "عدة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس" لعلي بن بشري الغرناطي، فضلاً عن الخرجات الأعجمية التي وردت في موشحات عبرية نظمها ابن النغرلة وابن جبيرول وموسى بن عزرا ويهودا هاليفي وغيرهم. لذا انبرى جماعة من العلماء لدراستها، ومن أولئك

(2093/1)

شتيرن (Stern) ونشرها في مجلة "الأندلس" (العدد 13، سنة 1948)، وغارسيا غوميث، ونشرها في المجلة المذكورة (الأعداد: 14، سنة 1949 و15، سنة 1950 و17، سنة 1952 و19، سنة 1954)، بل جزم غوميث بأن تلك الخرجات المشتركة بين الموشحات العبرية أغان قصيرة باللهجة الرومانتيَّة كانت شائعة، وأنه على هذه الأغاني بنيت الموشحات(1).

---

(1) عباس مصطفى الصالحي، »الموشحات والأزجال«، مجلة آفاق عربية، عدد 5، ماي 1987، ص. 98. وهي الآراء نفسها التي يثبتها الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه "فصول في الأدب الأندلسي".

(2094/1)

... كما اهتم ريبيرا بدراسة موسيقى الأغاني الإسبانية ودواوين شعراء التروبادور في أروبا في العصر الوسيط، فانتهى من دراساته المستفيضة إلى أن الموشح والزجل هما »المفتاح العجيب الذي يكشف لنا عن سير تكوين القوالب التي صبت فيها الطرز الشعرية التي ظهرت في العالم المتحضر إبان العصر الوسيط، وأثبت انتقال بحور الشعر الأندلسي فضلاً عن الموسيقى العربية إلى أروبا«(1). وكان قد أكد وجود التماثل في تراكيب الأبيات وتعاقب القوافي

---

(1) أنحيل بالينثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، ص ص. 613 ـ 614.

(2095/1)

لدى أغاني التروبادور (الشعر الغنائي الجوال) البروفانسية خلال العصور الوسطى كما هي في النتاج الأصلي للشعر الشعبي الأندلسي، وذلك في محاضرة ألقاها سنة 1912 م في المجمع الملكي الإسباني.

... وكانت مقاطعة بروفانس في جنوب فرنسا أولى الإقطاعيات ازدهاراً، وكانت لغتها البروفانسية أشهر اللغات الرومانتية، وموقعها الجغرافي يجعل منها نقطة اتصال حضاري لا بين اللغات الرومانتية أو الشعوب اللاتينية فحسب، وإنما بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية أيضاً. فقد كانت على حافة الأندلس الإسلامي . . . وشهدت أول ازدهار أدبي لا

(2096/1)

يتخذ اللاتينية لغة له، وشغل هذا الازدهار قرنين كاملين في تاريخها، من مطلع القرن العاشر حتى عام 1210 م، وكانت تدين في ذلك طائفة من الشعراء دخلوا التاريخ تحت اسم التروبادور ((1Troubadour).

وثمة عامل ديني كان وراء اهتمام سكان بروفانس بالأندلس، وهو توافدهم سنوياً في أعداد كبيرة حجاجاً إلى كتدرائية سانتياكو دي كومبوستيلا (Santiago de Compostela**) في الشمال الغربي من شبه الجزيرة،**

(1) الطاهر أحمد مكي، »التروبادور ـ شعراء أوروبيون تأثروا بالشعر العربي«، مجلة آفاق عربية، عدد 10، يونيو 1976، ص. 69.

(2097/1)

لأنها تضم رفات القديس يعقوب، وهم في غدوهم ورواحهم يلتقطون الأخبار، ويسمعون الإشاعات ويحملون ما يفتقدونه في بلادهم مادياً أو فكرياً. وكان المسلمون بدورهم يعرفون قيمة هذه الكنيسة ... وأدى هذا إلى قيام رجال الدين المسيحيين فيما وراء جبال البرانس بمحاولة تعلم اللغة العربية ليتعرفوا إلى ما عند المسلمين(1).

(1) الطاهر أحمد مكي، »العلاقة بين الشعر الأندلسي وشعر التروبادور«، مجلة آفاق عربية، عدد 6، فبراير 1983، ص ص. 31 ـ 33.

(2098/1)

... وأول شاعر تروبادور عرف، ووصلتنا أخباره وجانب كبير من قصائده هو جيوم التاسع (1071 ـ 1127 م) وإليه ينسب ابتداع الشكل الجديد الغنائي، والذي يتخذ من شكل الموشحة العربية قالباً ينظم فيه أشعاره... ولم يجدد جيوم في الشكل فقط، بل في موضوعات هذا الشعر أيضاً. فكان أول من تغنى بجمال المرأة ودفعها إلى أن تحس بقيمتها. وكان جيوم قد رحل إلى المشرق في حملته الصليبية (عامي 1101 ـ 1102 م) وأقام في الشام حقبة من الزمن وجاء إلى الأندلس عام 1120 م ليساعد ألفونسو المحارب في معركة «كتندة» ضد مسلمي الأندلس، وتزوج من

(1/2099)

أندلسية هي ابنة راميرو الراهب ملك أرغون. وذلك يعني تأكيداً أنه كان يعرف أشياء كثيرة تتعلق بالإسلام والبلاد الإسلامية، ويرجح أنه كان يعرف اللغة العربية بقدر لا بأس به، يمكنه أن يقرأها ويتفاهم بها، وليس ثمة شك في أن غنائها وأشعارها كانت مألوفة لديه(1).

... وقد استنتج خوليان ريبيرا من تأثير الموسيقى العربية في نشأة الموسيقى الأوروبية عنصرين مهمين

حددهما عبد الرحمن بدوي وهما:

---

(1) الطاهر أحمد مكي، »التروبادور ـ شعراء أوروبيون تأثروا بالشعر العربيّ«، مجلة آفاق عربية، عدد 10، يونيو 1976، ص. 74.

(2100/1)

أولاً، ظهور مذهب جديد في الموسيقى اسمه فن الميزان ظهر في أروبا لأول مرة في القرن الثالث عشر والكتب التي وضعها المؤلفون الأوروبيون في هذا الفن في ذلك القرن تشابه في معالجتها لأنواع الأنغام ما كتبه العرب في القرن التاسع في الموسيقى؛ ثانياً، استعمال الآلات الموسيقية العربية في أروبا وأهمها الربابة، وهي في أصلها أسيوية قديمة جداً، ثم العود وهو ما يجمع عليه المؤلفون في تاريخ الموسيقى أنه عربي دخل إلى أروبا عن طريق الإسبان؛ وثالثاً، الناي الأندلسي أو القيتارة الموريسكية(1)

---

(1) دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، ط 2، 1979، ص. 44.

(2101/1)

.

... كما اتجه إلى دراسة الملاحم الشعبية والقصص والأساطير الأندلسية وتأثيرها في الأدب الإسباني، ودلل على ذلك في بحث نشره سنة 1915 م، حيث لاحظ وجود آثار من شعر قصصي عند أوائل مؤرخي الأندلس من المسلمين لابد أنه كان مزدهراً في الأندلس خلال القرنين التاسع والعاشر، ومضى يلتمس ما في كتب التاريخ الأندلسي من بقايا أسطورية ذات أصول محلية، إذ غلب على ظنه أن هذه العناصر الأسطورية قد اندرجت في كتب التاريخ الإسلامي الأندلسي، وبالضبط كما حدث لأشعار الملاحم القشتالية من انتشار نظمها واندراجها في المدونات

(2102/1)

النصرانية في زمن متأخر. ذلك بأنه علاوة على ما تحدثنا به من المراجع من أن نفراً من الأندلسيين وصف أحداث فتح الأندلس وما تلاه من حروب في قصائد طوال كيحيى الغزال (توفي 250 هـ) والذي اشتهر بالغارات التي قام بها لعبد الرحمن الأوسط، وبأرجوزته التي كتبها عن

فتح الأندلس والوقائع التي دارت بين العرب والإسبان . . . واستنتج من تحليله لبعض النماذج القصصية أنه كان لأهل الأندلس شعر قصصي شعبي، ولكنه ضاع ضياعاً يكاد يكون تاماً لسوء الحظ ومن الممكن أن يكون هذا الشعر القصصي قد عاش طالما وجدت بين ظهراني أهل الأندلس

(2103/1)

جماعة يعمر قلوب أفرادها الحب للغة هذا الشعر وموضوعاته. ومن الممكن أن تكون هذه الجماعة قد وجدت بين الصقالبة الذين كان لهم أثر عظيم خلال فترة معينة من العصور الإسلامية من تاريخ إسبانيا. ومضى يتساءل إن كان من الممكن لهذا الأدب بعد أن أثبت وجوده أثر في الشعر القصصي الإسباني والفرنسي الذي ظهر بعد ذلك، فوجد بعد المقارنة أن الشعر القصصي الأندلسي البدائي لا يبدو لنا مجرد محاكاة جامدة لأدب أجنبي، بل هو يروي أخباراً كانت ذكرياتها غضة ماثلة في الأخلاق، إذا ذكرنا أن المدة بين وقوع الحادث الذي تدور الأسطورة

(2104/1)

حوله وبين اندراجها في مدونة تاريخية لا تكاد تعدو قرناً من الزمان تنشأ خلاله الأسطورة التي تندرج في ثنايا المدونة. وتلك الأساطير الأندلسية تتفق في هذا مع الأساطير الإسبانية، ومن بعض النواحي مع الأساطير الفرنسية، التي ظهرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وتتفق تلك الأساطير الأندلسية كذلك مع الإسبانية في أنها نشأت في النواحي والأعصر التي حفلت بالصراع والحروب، وتتفق مع الإسبانية والفرنسية في أن شخصياتها تاريخية(1)

(1) انظر ذلك بالتفصيل في كتاب أنخيل غونثاليث بالينثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ص ص. 603 ـ 613.

(2105/1)

.

... كان خوليان ريبيرا من المتعصبين للعرق القومي الإسباني فكان أول من تبنى من المستشرقين فكرة الأصل الإسباني لمسلمي الأندلس معتمداً في ذلك على دور المرأة البالغ الأهمية في أسبنة المسلمين القادمين من

المشرق أو من شمال إفريقيا، وفي إشاعة اللغة الرومانتية والإبقاء عليها والحفاظ على الخصائص البيولوجية الإسبانية، والتقاليد التي كان عليها الإسبان قبل الفتح الإسلامي بعامة، وفي مجال الحياة العاطفية والأسرية على نحو خاص. لقد جاء العرب أو البربر جنوداً فاتحين، أو أفراداً مهاجرين، وتزوجوا في الأندلس من

(2106/1)

نسائها جواري أو حرائر، وفي كل الأحوال كن ينحدرن في الأعمِّ الأغلب من أصول إسبانية، ونشأ أولادهم هجناء في بيت مختلط ويمضي ريبيرا بعيداً مع فكرته لينتهي بها إلى أن العرب القادمين إلى الأندلس فقدوا خصائصهم السلالية بصفتهم جنساً سامياً ابتداءً من الجيل الثالث أو الرابع، نظراً لتغلغل الدم الإسباني في عروق المسلمين.

... ويثبت ذلك من الوجهة العلمية فيجري تجربته على الأسرة الأموية التي حكمت في الأندلس فيقول ما خلاصته: إن عبد الرحمن الداخل كان يحمل فقط نصف دم عربي، لأنه كان من أم غير عربية؛ وكذلك ابنه

(2107/1)

هشام لا يحمل إلا ربع دم عربي، لأن أمه كانت جارية إسبانية. وهكذا تتناقص نسبة الدم العربي كلما مضينا من أمير إلى آخر، بينما تتضاعف نسبة الدم الأجنبي. وهكذا إلى أن يصل إلى هشام الثاني، فلا يكون له من الدم العربي إلا جزء من أربعة وعشرين ألف جزءٍ(1).

---

(1) أحمد هيكل، الأدب الأندلسي. من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، ص ص. 35 ـ 36؛ والطاهر أحمد مكي، دراسات عن ابن حزم وكتابه "طوق الحمامة"، ص ص. 249 ـ 250، وكلاهما اعتمدا على كتاب خوليان ريبيرا:

.14, p. 1Disertaciones y opusculos, Vol.

(2108/1)

... ويعلق الدكتور أحمد هيكل على نظرية خوليان ريبيرا قائلاً:

... لسنا ننكر الدافع الكريم الذي حمل الأستاذ ريبيرا على محاولة إثبات أن الأندلسيين إسبان مسلمون. فهو يعتز بالأندلسيين ويحاول كسب الحضارة الأندلسية

وضمها إلى التراث الإسباني، ولكنّنا مع ذلك لا نستطيع أن نذهب مع الأستاذ ريبيرا في ما ذهب إليه من تجريد الأندلسيين من عروبتهم، ولا نستطيع كذلك أن نسلم بتلك التجربة التي أجراها على الأسرة الأموية الأندلسية كدليل على ذوبان الدم العربي في الدم الإسباني، لأننا لا نتصور أولاً أن كل الذين جاءوا إلى

(2109/1)

الأندلس من الرجال قد تركوا نساءهم في المشرق؛ ولأننا لا نتصور ثانياً أن الوفود على الأندلس كان دائماً من نصيب الرجال دون النساء؛ ولأننا لا نتصور ثالثاً أن كل عربي في الأندلس كان ينجب دائماً من إسبانية جديدة، وإن كان تصادف ذلك في الأسرة الأموية. بقي أن نقرر أن هؤلاء الأندلسيين وإن كانوا مولدين جنساً ومختلطين دماءً، فهم عرب في قوميتهم، لأنهم عرب في عقيدتهم وثقافتهم ولغتهم وكل جوانب حضارتهم (1).

---

(1) أحمد هيكل، الأدب الأندلسي. من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، ص ص. 36 ـ 37.

(2110/1)

... أما الدكتور الطاهر المكي، فيعلق على ريبيرا قائلاً:

... نحن إذاً مع خوليان ريبيرا في الدور الذي لعبته المرأة الإسبانية بوصفها هذا، في مجال الحياة الأندلسية، وكان واضحاً ومقدراً، لكننا لا نتابعه في لعبة الأرقام التي اعتمد عليها، وأدارها في مهارة وسذاجة في الوقت نفسه، لأن العلم والشواهد التاريخية والظواهر النفسية والاجتماعية تقف في الجانب المقابل منها (1).

---

(1) الطاهر أحمد مكي، دراسات عن ابن حزم وكتابه "طوق الحمامة"، ص ص. 225 ـ 252.

(2111/1)

... إنه مهما وجهت من تعليقات وملاحظات لبعض أعمال المستعرب الكبير، فإنه ينبغي أن نعترف له ببعض الإيجابيات المهمة في أعماله وأبحاثه ومجهوداته. فقد استطاع أن يثبت بالحجج والدلائل الدور العظيم الذي قامت به الأندلس الإسلامية في مجال الثقافة والفن والفكر بصفة عامة، كما أنه ساهم مساهمة فعالة في تصحيح العديد من المفاهيم الخاطئة التي رسخت في أذهان العديد من الباحثين والكتاب الإسبان منذ مئات

السنين، وذلك نتيجة التعصب الأعمى والتغاضي وعدم الاعتراف بأهم وأزهى فترة في تاريخ إسبانيا وهي الفترة العربية

(2112/1)

الإسلامية التي دامت ثمانية قرون.

(2113/1)

البحرية الإسلامية في الخليج العربي والمحيط الهندي خلال العصور الإسلامية

... ... الدكتور خالد إسماعيل نايف الحمداني

... ... كلية الدراسات الإسلامية والعربية ـ دبي

تمهيد

... يدل ما وصل إلينا من إشارات على أن الملاحة في الخليج العربي قد نشأت منذ أقدم العصور، وذلك بحكم أن هذه المنطقة كانت ممراً طبيعياً للتجارة العالمية بين الشرق الأقصى وحوض البحر الأبيض المتوسط فكان

للخليج العربي موقعٌ جغرافيٌّ متميزٌ هو بمثابة حلقة اتصال مباشر بين الشرق الأقصى من جهة والشرق العربي وأوربا من جهة

(2114/1)

أخرى، وممرّ آمن لنقل التجارة البحرية بين هاتين المنطقتين(1). وعلاوة على ذلك، فإن سكان الخليج العربي بصورة خاصة والعرب بصورة عامة كانوا يعرفون نظام هبوب الرياح الموسمية في الخليج العربي والمحيط الهندي والبحر الأحمر(2)

---

(1) صباح إبراهيم الشيخلي وآخرون، دراسات عن تأريخ الخليج العربي والجزيرة العربية، شعبة الدراسات والعلوم الاجتماعية، جامعة البصرة، 1985، ص. 11.

(2) عادل محيي الدين الآلوسي، تجارة العراق البحرية مع أندونيسيا حتى أواخر القرن السابع الهجري/ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، دار الشؤون الثقافية والنشر، بغداد، 1984، ص. 82.

(2115/1)

، فساعدهم ذلك على إتقان ركوب البحر، وبالتالي نظموا رحلاتهم البحرية إلى الشرق الأقصى والهند وشرق إفريقيا. ثم إن ضحالة المياه قرب السواحل العربية للخليج العربي مع كثرة التعرجات والخلجان فيها هيأت ظروفاً طبيعية جيدة للملاحة القديمة في السواحل العربية للخليج العربي، فضلاً عن توافر المياه العذبة وضرورات الحياة الأخرى(1). إن الأهمية الجغرافية والاستراتيجية للخليج العربي

---

(1) رضا جواد الهاشمي، »النشاط التجاري القديم في الخليج العربي وآثاره الحضارية«، مجلة المؤرخ العربي، عدد 12، بغداد، 1980، ص. 69.

(2116/1)

المذكورة آنفاً دفعت أهله إلى ركوب البحر وممارسة الملاحة فيه على نطاق واسع.

المبحث الأول: الملاحة البحرية في الخليج العربي

1 ـ قبل الإسلام

... يمتد الخليج العربي باتجاه شمالي غربي، وينتهي عند السهول الفيضية لجنوب العراق، حيث تصب فيه

ثلاثة أنهر هي الفرات ودجلة وكارون التي كانت تفرغ مياهها منفردة في العصور القديمة بينما تشترك الآن في مصب واحد هو شط العرب الذي ينتهي بالخليج العربي(1). وتنتشر على جانبي الخليج مجموعة من الجزر تقترب معظمها من الساحل. وساعدت عدة عوامل

---

(1) الهاشمي، المقال نفسه، ص. 67.

(2117/1)

الإنسان العربي على ركوب البحر وممارسة الملاحة البحرية في الخليج العربي منذ عهود مبكرة.

... أ ـ فقد أدّى الموقع الجغرافي المتميز للخليج العربي دوراً كبيراً في ممارسة الملاحة البحرية فيه(1). فهو حلقة وصل بين الشرق

---

(1) راجع الشيخلي، دراسات عن تاريخ الخليج العربي، ص. 11؛ وأحمد الشامي، »العلاقات التجارية بين دول الخليج وبلدان الشرق الأقصى وأثر ذلك في بعض الجوانب الحضارية في العصور الوسطى«، مجلة المؤرخ، عدد 12، ص. 87؛ وحسن صالح شهاب، »العرب والبحر«، مجلة التراث الشعبي، عدد 3 ـ 4، بغداد، 1979، ص. 65.

(2118/1)

الأقصى والعالم العربي وبين الشرق وجزر البحر المتوسط ومدن جنوب أوربا، فضلاً عن اتصال الشرق الأقصى بواسطة الخليج العربي بشرق إفريقيا. فهو باختصار حلقة اتصال بين الشرق والغرب.

... ب ـ وهيَّأت ضحالة مياه الخليج العربي، خاصة قرب السواحل العربي مع كثرة التعرجات والخلجان فيها، ظروفاً طبيعية جيدة للملاحة القديمة(1).

... ج ـ ساعد توافر ضرورات الحياة ـ وأبرزها المياه العذبة(2) ـ في بعض مراكز على الخليج العربي على استقرار الإنسان فيها، ومن ثم دفعه إلى

---

(1) الهاشمي، المرجع السابق، ص. 69.

(2) المرجع نفسه.

(2119/1)

ممارسة الملاحة في الخليج العربي.

... د ـ وعرف العرب نظام هبوب الرياح الموسمية في الخليج العربي والمحيط الهندي والبحر الأحمر وممارسة

الملاحة البحرية(1).

... هـ. عرقل الصراع السياسي العسكري البيزنطي الساساني طرق التجارة البرية بين الشرق والغرب، وهدد أمن مراكز الملاحة في

---

(1) الآلوسي، المرجع السابق، ص. 82؛ والشيخلي، المرجع السابق، ص. 16؛ وجورج فضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة، مطابع دار الكتاب، 1958، ص ص. 220 ـ 221.

(2120/1)

البحر المتوسط والبحر الأحمر والبحر العربي. لذلك تحولت طرق التجارة البحرية إلى الخليج العربي والمحيط الهندي. وكان للساسانيين دور في توجيه هذا الطريق في سبيل المحافظة على قوتهم الاقتصادية خلال فترة صراعهم مع بيزنطة(1).

... و ـ إن وجود حضارة وادي الرافدين العريقة وغيرها من الحضارات العربية على مقربة من الخليج العربي ووجود اتصال نهري بين العراق

---

(1) صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، مطبعة المعارف، بغداد، 1953، ص. 22؛ والآلوسي، المرجع السابق، ص. 22.

(2121/1)

والخليج العربي متمثل في نهري دجلة والفرات، وجه أنظار سكان وادي الرّافدين إلى الاهتمام بالملاحة البحرية في الخليج العربي لتأمين حاجاتهم المختلفة من الشرق.

... لقد مارس سكان الخليج العربي والمنطقة العربية الملاحة البحرية عبر الخليج العربي منذ عصور سحيقة. وتشير الآثار التي تركتها الحضارات المتعاقبة في المنطقة العربية إلى أن الملاحة البحرية نشأت في سيف البحر، أي في منطقة الخليج العربي(1). فمنذ الألف الثالثة قبل

---

(1) طه باقر، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة، وادي الرافدين، بغداد، 1955، ج 1، ص. 439.

(2122/1)

الميلاد، كان هناك نشاطٌ بحريٌّ ملموسٌ في الخليج العربي. فسلالة لجش (في حدود عام 2450 ق. م) كان لها نشاطٌ تجاريٌّ بحريٌّ في الخليج العربي(1)، وكان لسرجون الأكدي نشاط بحري في الخليج العربي(2).

... واهتم السومريون بالملاحة عبر الخليج العربي؛ وكذلك فعل البابليون(3). وظل الخليج العربي يشهد نشاطاً بحرياً بتعاقب الحقب التاريخية. ووصلت إشارات توضح اهتمام الإسكندر (ت 323 ق. م) بالخليج العربي،

---

(1) الهاشمي، المرجع السابق، ص. 77.

(2) المرجع نفسه؛ الآلوسي، المرجع السابق، ص. 25.

(3) المرجع نفسه، ص. 19.

(2123/1)

حيث أراد تأمين مواصلات إمبراطوريته الواسعة. وكان الخليج العربي الطريق البحري الوحيد الذي يربط بين بابل والهند. إن هذه الإشارات التي وصلت من المؤرخين المرافقين لحملة الإسكندر تؤكد صلاحية الملاحة البحرية في الخليج العربي، ونشاطها الواضح(1). ويشير المؤرخون إلى نشاط سكان الجهراء التي كانت من المراكز التجارية في جزيرة العرب ونشاط سكانها

الملحوظ في ملاحة الخليج العربي لتأمين تجارتهم(2).

وأشار المؤرخ اليوناني »أمبانوس«

---

(1) صالح أحمد العلي، المرجع السابق، ص. 232.

(2) الهاشمي، المرجع السابق، ص. 60.

(2124/1)

الذي عاش في أواخر القرن الرابع الميلادي إلى أن الخليج العربي كان يعج بالملاحة والسفن البحرية(1)، وكان لاهتمام الفرثيون ومن تلاهم بالطريق البري الذي يربط العراق بالشرق فسمح ذلك بزيادة هيمنة العرب على الطرق التجارية والملاحة البحرية في الخليج العربي ومنافذه(2).

...

2 ـ في العصور الإسلامية

... لقد أحدث ظهور الإسلام في الجزيرة العربية تطوراً ملحوظاً في توجه العرب الملاحي في الخليج العربي. فمنذ عهد مبكر، اهتم الرسول – صلى الله

---

(1) الآلوسي، المرجع السابق، ص. 26.

(2) الهاشمي، المرجع السابق، ص. 63.

(2125/1)

عليه وسلم – بمنطقة الخليج العربي، فأرسل الدعاة إلى بعض مناطق الخليج العربي في محاولة لنشر الإسلام وتوحيد الأرض العربية تحت لوائه(1). ولاشك في أن اهتمامات الرسول – صلى الله عليه وسلم – والخلفاء الراشدين من بعده بمنطقة الخليج العربي تعكس معرفة المسلمين باستراتيجية الخليج العربي وأهميته الجغرافية. وما أن استقر الإسلام في مناطق الخليج العربي حتى بدأ العرب المسلمون يمارسون نشاطاً بحرياً في الخليج العربي. ففي سنة 14 هـ/

---

(1) أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، مصر، مطبعة السعادة، 1959، ص. 89.

(2126/1)

---

653 م أرسل العلاء بن الحضرمي والي البحرين حملة بحرية(1) عبر الخليج العربي حققت نجاحاً واضحاً. وفي سنة 23 هـ/ 643 م أرسل عثمان بن أبي العاص، والي البحرين وعمان، حملة بحرية أخرى إلى الخليج العربي(2).

وبتقدم الوقت، زاد النشاط الملاحي

---

(1) شهاب الدين أبو عبد الله ياقون بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار صادر ـ دار بيروت، 1957، ص. 349؛ البلاذري فتوح البلدان، ص. 96.

(2) عز الدين علي محمد عبد الواحد بن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1965، ج 3، ص. 41؛ البلاذري، المرجع السابق، ص. 430.

(2127/1)

العربي الإسلامي: فمنذ خلافة عثمان رضي الله عنه (23 هـ/ 643 م ـ 35 هـ/ 655 م)، أخذت طلائع سفن العرب المسلمين تظهر في الهند، ثم تتابع النشاط الملاحي العربي الإسلامي الحربي والتجاري. فقد خرجت سفن عربية من عمان والبحرين وتقدمت نحو مصب نهر مران، وخضع ملك كابل وأدّى الجزية للمسلمين سنة (44 هـ/ 664 م) (1)، وفتح العرب المسلمون السند في خلافة الوليد (86 هـ) (2)، وظهرت وازدهرت في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي عدة مراكز بحرية في مناطق الخليج العربي

---

(1) المرجع نفسه، ص. 389.

(2) المرجع نفسه، ص. 426.

(2128/1)

مثل البحرين ودارين وعمان وصحار والإبلة وغيرها والتي سنتناولها بالتفصيل لاحقاً.

... وبظهور الخلافة العباسية في بغداد (123 هـ/ 749 م - 656 هـ/ 1258 م) وتوسع النشاط الملاحي العربي الإسلامي في الخليج العربي والمحيط الهندي، أصبحت السفن الإسلامية بأنواعها المختلفة وأعدادها الكبيرة تصول وتجول في البحار والمحيطات. وقد ساهمت عدة عوامل في ازدهار الملاحة البحرية في الخليج العربي والمحيط الهندي في العصر العباسي، فضلاً عن العوامل الأخرى المذكورة آنفاً. وأهم هذه العوامل:

(2129/1)

... 1 - بناء بغداد سنة 148 هـ/ 756 م واتخاذها عاصمة للخلافة العربية(1) الإسلامية من قبل الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (136 هـ/ 753 م - 158 هـ/ 774 م).

فارتبطت العاصمة مائياً بواسطة نهري دجلة والفرات بمراكز الملاحة البحرية في الخليج العربي كالإبلة وصحار وداريين. فازدهرت الملاحة البحرية في الخليج العربي، خاصة في القرنين الثالث والرابع

---

(1) فيصل السامر، الأصول التاريخية للحضارة العربية الإسلامية في الشرق الأقصى، بغداد، 1977، ص. 4؛ الآلوسي، المرجع السابق، ص. 23؛ الحوراني، العرب والملاحة، ص. 195.

(2130/1)

الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، نتيجة لحرص بعض خلفاء بني العباس ومسؤولي الدولة لتأمين حاجات الدولة الضرورية والكمالية من المشرق(1).

... 2 .أدى فتح العرب المسلمين السند واستقرار العرب المسلمين فيها في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي إلى تنشيط التجارة العربية البحرية مع الشرق وبخاصة مع الهند، وكان الخليج العربي محطة انطلاق السفن العربية الإسلامية إلى الهند وعبر المحيط الهندي(2).

---

(1) الآلوسي، المرجع السابق، ص. 31.

(2) السامر، المرجع السابق، ص. 14.

(2131/1)

... 3 ـ الازدهار الاقتصادي الذي شهدته الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي، خاصة العراق حيث ارتفعت الصناعة المحلية وكثرت الحاصلات الزراعية. وقد تطلب الأمر تصدير هذه السلع، فنشطت التجارة ـ خاصة البحرية ـ عبر الخليج العربي لسهولة نقل السلع والبضائع مائياً من المزارع والمصانع عبر نهري دجلة والفرات ، ولا سيما القريبة منها إلى موانئ الخليج العربي ومنه إلى بلدان العالم(1).

---

(1) الآلوسي، المرجع السابق، ص. 29.

(2132/1)

... 4 ـ كان لتطور الجغرافية والفلك وعمل الإسطرلابات واختراع جهاز البوصلة وتحسين عملها وترجمة كتاب "السند هند"، نتيجة هي تقدم الصيد البحري وانتشار الفنارات البحرية والنواظر كالمرقب بين الإبلة

وعبادان. وقد ساعد ذلك كله على ازدهار النشاط البحري(1).

... 5 ـ جهود العباسيين في تأمين الملاحة البحرية من الأخطار وحماية الموانئ من الغزو والقرصنة وتحصين الموانئ بالماصر وتحصين المدن بالأسوار وسلسلة ضخمة من الحديد تعترض الميناء فتحده من

---

(1) الحوراني، المرجع السابق، ص. 277؛ الآلوسي، المرجع السابق، ص. 30.

(2133/1)

جهة البحر. فقد روى ناصر خسرو »أنه رأى في بعض الموانئ التي زارها سلاسل مربوطة بحائطين داخلين في البحر. فإذا أريد إدخال سفينة إلى الميناء، أرخيت السلسلة حتى تغوص في الماء فتمر السفينة فوقها ثم تسد حتى لا يستطيع عدو أن يقصدها بسوء« (1).

المبحث الثاني: أهم المراكز البحرية في الخليج العربي

... 1 ـ البحرين:

... البحرين إقليم ممتد من جنوبي البصرة إلى عمان، وهي متصلة غرباً باليمامة وجنوباً بعمان وشمالاً بالبصرة

وشرقاً بمياه

---

(1) **ناصر خسرو، سفر نامه، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، القاهرة،** 1945، **ص.** 51.

(2134/1)

الخليج العربي. والبحرين جزء لا يتجزأ من الجزيرة العربية (1). **ويحدد ياقوت الأماكن التي يشتمل عليها إقليم البحرين، وهي »الخط والقطيف والاره وهجر وبينونه والزاره وجواثا والسابور ودارين والغابة وقصبة هجر الصفا والمشقرة«** (2). **ويطلق اسم هجر أحياناً على البحرين من باب إطلاق الجزء على الكل، علماً بأن إقليم البحرين يشتمل على عدة جزر،**

---

(1) **صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة،** 1945، **ج** 1، **ص.** 176.

(2) **ياقوت، المرجع السابق، ج** 1، **ص.** 347.

(2135/1)

ومنها جزيرة أورال وشفار وثاروت وحوارين وقطر(1).

... وقد دفع الموقع الجغرافي سكان البحرين ومعظمهم من قبيلة عبد القيس ابن قصي إلى ركوب البحر منذ عهد مبكر(2). فكان بعض أهالي البحرين يمتلكون السفن كما يتجلّي ذلك من البيت الذي قاله طرفة بن العبد في معلقته وهو من أهل البحرين:

عدولية أو من سفين ابن يامن

---

(1) **المرجع نفسه، ص.** 393.

(2) **شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لندن،** 1909، **ط** 2، **ص.** 93؛ **البلاذري، المرجع السابق، ص.** 89.

(2136/1)

يجور بها الملاح طوراً ويهتدي (1)

... فالعدولية منسوبة إلى ميناء عدولي في الصومال. أما ابن يامن، فهو يهودي من أهل هجر (إحدى جزر البحرين) كان يمتلك عدداً من السفن التي تبحر في الخليج العربي وتصل إلى سواحل شرق إفريقيا. ويبدو أن سكان

البحرين كانوا يمارسون الملاحة البحرية مع الشرق الأقصى وكذلك شرق إفريقيا منذ ما قبل الإسلام(2)

---

(1) أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني، شرح المعلقات السبع، تحقيق محمد علي حمد الله، المطبعة التعاونية، دمشق، 1936، ص. 139.

(2) عبد الرحمن عبد الكريم العاني، عمان في العصور الإسلامية الأولى ودور أهلها في المنطقة الشرقية من الخليج العربي وفي الملاحة والتجارة الإسلامية، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، 1975، ص. 173.

(2137/1)

.

... ويبدو أن ازدهار البحرين واكتسابها أهمية في أواخر العصر الساساني يرجع إلى عدة عوامل، منها: قربها من شمال فارس، واحتكاك سكان البحرين بالساسانيين (1)، ثم الخبرة الممتازة التي يتمتع بها سكان البحرين في صناعة السفن ومهارتهم الملاحية وشجاعتهم أمام العواصف (2).

... وبعد استقرار الإسلام في البحرين في العصر الراشدي، أخذ العرب المسلمون يهاجمون المدن الفارسية بحراً من

البحرين. وكانت أولى

---

(1) العاني، المرجع السابق، ص. 174.

(2) أحمد الشامي، المقال السابق، مجلة المؤرخ العربي، عدد 12، 1980، ص. 94.

(2138/1)

الغارات بقيادة عثمان بن أبي العاص الثقفي والي البحرين سنة (22 هـ/ 643 م) (1).

... ويظهر من المعلومات المتوافرة في المصادر العربية أن البحرين كانت عند ظهور الإسلام المركز الرئيس للتجارة والملاحة في الخليج العربي. فكان فيها عدة موانئ ترسو فيها السفن التي تتاجر مع الهند، حيث كان

---

(1) فاروق عمر فوزي، تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى، ط 2، بغداد، 1985، ص. 83؛ راجع العاني، البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، رسالة الماجستير، جامعة بغداد ـ كلية الآداب، 1971، صص. 151 ـ 155.

(2139/1)

التجار يسيرون سفنهم بمحاذاة سواحلها أو يفرغون السلع فيها ثم ينقلونها بالطريق البري (1). ولابد من أن نشير إلى أنشط مناطق البحرين في الملاحة، وهي الدارين التي اكتسبت أهمية خاصة من بين مناطق البحرين؛ فكان لها دور واضح في التجارة البحرية مع الهند (2). وكانت دارين في أوائل العصر الإسلامي من المراكز العربية المهمة للتجارة، وخاصة تجارة المسك حتى سمي بائع المسك والطيب بـ »الداري« نسبة إليها (3)

(1) العاني، عمان في العصور الإسلامية، المرجع السابق، ص. 171.

(2) العلي، المرجع السابق، ص. 231.

(3) ابن عبد الحق، المرجع السابق، ج 2، ص. 509.

(2140/1)

. وكانت دارين تستورد المسك من الهند وتتاجر به في جزيرة العرب. فكان للمسك الداري شهرة في كافة أنحاء الجزيرة. ولكن يبدو أن دارين أخذت تضعف تدريجياً بعد إنشاء البصرة التي صارت المركز الرئيس لتجارة

الهند، فحرمت دارين من أهميتها (1). وعلى العموم، فقد أخذت أهمية البحرين التجارية تضعف بعد استقرار الدولة العربية الإسلامية وحلت محلها البصرة وعمان، حيث كانتا تتمتعان بموقع جغرافي أكثر ملاءمة للملاحة البحرية.

...

... 2 ـ عمان

---

(1) العلي، المرجع السابق، ص. 231.

(2141/1)

... قاعدة الخليج العربي. وتقع على مداخله من الجهة الجنوبية على الشاطئ الغربي كما تطل على المحيط الهندي (1). ويذكر المقدسي (2) عدداً من مدن عمان، منها صحار، وهي قصبة عمان، ونزوة والسر وحفيت وديا وسلوت والقلعة وضنكان ومسقط وتؤام وسمد وجلفار وغيرها. وعمان مدينة جليلة بها مرسى السفن من الصين والهند والزنج وليس على بحر الخليج مدينة أجل منها، وهي ديار الازد (3)

---

(1) أحمد الشامي، المرجع السابق، ص. 88.

(2) أحسن التقاسيم، المرجع السابق، ص. 92.

(3) أبو العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، 1963، ج 2، ص. 55.

(2142/1)

المشهورين بالملاحة. فكان لموقع عمان أثر في ازدهارها. فهي مواجهة لكل من الخليج العربي والبحر الأحمر، وهي أيضاً قريبة من الهند؛ كما أن مياهها عميقة ومعظم شواطئها محاطة بجبال تحميها من الرياح القوية فتساعد على نشوء الموانئ، فضلاً عن أنها تقع على الطريق الرئيس للتجارة الرائجة الممتدة من الصين، إلى المدن الواقعة على جانبي الخليج، كل ذلك جعلها المركز الرئيس للساحل الغربي من الخليج العربي. وكان لهذا أثر في تطور الملاحة والتجارة البحرية (1).

---

(1) العاني، المرجع السابق، ص, 175.

(2143/1)

... ويبدو أن سكان عمان كانوا يشتغلون بالملاحة فترة طويلة قبل الإسلام. فيذكر أبو عبيدة أن «أردشير بن

بابك جعل الأزد ملاحين بشهر عمان قبل الإسلام بستمائة سنة« (1). وبعد ظهور الإسلام، كثرت الإشارات إلى اشتغال العمانيين بالملاحة وإلى مهارتهم فيها. فيروي الجاحظ(2) قصة تصف أزد عمان بأنهم ملاحون.

---

(1) ياقوت، المرجع السابق، ج 4، صص. 521 ـ 522.

(2) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط 2، القاهرة، 1966، ج 3، ص. 313.

(2144/1)

... وكان للعمانيين نشاطٌ ملاحيٌّ بعدة جهات. فيذكر المسعودي(1) أن المحيط الهندي »له خليج متصل بأرض الحبشة... ويسمى الخليج البربري... وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من بحر الزنج... وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد«. وقال بخصوص سفالة: »وهي أقاصي بلاد الزنج، وإليها تقصد مراكب العمانيين... وهي غاية مقاصدهم« (2).

---

(1) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط 4، بيروت، 1981، ج 1، ص. 107.

(2) المرجع نفسه، ج 2، ص. 6.

(2145/1)

وقد توضح من خلال هذه النصوص أنه كانت هناك ملاحة مباشرة نشطة واسعة بين عمان وسواحل شرق إفريقيا وأن عمان كانت مركزاً لهذه الملاحة. وكان لعمان اتصال مع الشرق الأقصى وخاصة الصين، فكانت الملاحة العربية نشطة ومباشرة، خاصة في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي وهي تصل خانقو، أي كانتون الحالية (1). وكان يقوم بمعظم هذه الملاحة أهل عمان. وكانت مراكب الصين بالمقابل تصل إلى المراكز العربية على الخليج العربي: »مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف... «(2)

---

(1) العاني، المرجع السابق، ص. 180.

(2) المسعودي، المرجع السابق، ج 1، ص. 140.

(2146/1)

. وكان العمانيون يتاجرون مع المحطات الملاحية والتجارية التي تقع على طريق الصين، وأهمها »كله« وهي »فرضة بالهند«. وخلاصة القول: كانت مراكب العمانيين تؤم معظم موانئ المحيط الهندي وتتاجر معها؛ فوصلت مراكبهم إلى الصنف وفنصور وسرنديب وصندايور وسندان والديبل وغيرها(1).

... ولابد من أن نشير إلى صحار أهم مدن عمان، حيث وصفها المقدسي بأنها »بلدة طريفة ممتدة على البحر... لهم آبار عذبة وقناة حلوة. وهم في سعة من العيش، ودهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومئونة اليمن«(2)

---

(1) العاني، المرجع السابق، ص. 184.

(2) أحسن التقاسيم، المرجع السابق، ص. 93.

(2147/1)

، وهي أعمر مدن عمان وأكثرها مالاً وهي قصبتها. ومما زاد أهمية صحار أنها أقرب الموانئ العربية لرسو السفن الآتية من الهند، الأمر الذي ساعدها على أن تصبح ـ فوق كونها ميناء ـ مركزاً للتجارة مع الهند وإفريقيا (1).

... ولابد من أن نشير إلى أن نشاط أهل عمان شمل مختلف جوانب النشاط التجاري والبحري. فكان بعضهم يمارس

الملاحة وآخر يدير السفن ويبحر فيها، وبعضهم يمتلك السفن ويستخدمها لنفسه أو لمن يؤجره، وبعضهم يقوم بالتجارة أيضاً. وهذا مكنهم من القيام بنقل سلع إفريقيا والهند

---

(1) **العلي، المرجع السابق، ص.** 231.

(2148/1)

والشرق الأقصى مباشرة دون الاعتماد على العناصر الأخرى (1).

... 3 ـ الإبلة

... تتمتع الإبلة بموقع جغرافي مهم، فتقع في نهاية الرأس الجنوبي لنهري الدجلة والفرات الصالحين للملاحة وعلى زاوية الخليج الذي يدخل بقناة اصطناعية إلى مدينة البصرة (2). **ويرجع تاريخ الإبلة الملاحي إلى عهد الإسكندر الأكبر** (3). **ووصفها البحار تيارجس في المائة الرابعة قبل الميلاد بأنها مستودع تجارات الخليج**(4)

---

(1) **العاني، المرجع السابق، ص.** 193.

(2) **ياقوت، المرجع السابق، ج** 1، **ص.** 97.

(3) العلي، المرجع السابق، ص. 232.

(4) الآلوسي، المرجع السابق، ص. 61.

(2149/1)

وتمتعت الإبلة بدور الوسيط في التجارة البحرية مع الشرق. ونظراً لأهمية الإبلة، توجهت إليها أنظار العرب المسلمين منذ عهد مبكر. فالخليفة أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) كتب إلى خالد بن الوليد بعد أن فرغ من حرب اليمامة سنة 12 هـ/ 633 م: »أن سِرْ إلى العراق حتى تدخلها وابدأ بفرج الهند، وهي الإبلة«(1). إلاَّ أنها لم تفتح بصورة كاملة إلا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) سنة 14 هـ/ 635 م

---

(1) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 3، بيروت، 1967، ج 3، ص. 343.

(2150/1)

وعلى يد عتبة بن غزوان(1). وكان من ضرورات فتح الإبلة هو إحكام الطوق الاقتصادي على الفرس والسيطرة

على طريق الملاحة التجارية مع الهند والصين والعالم. وكانت الإبلة ميناء صالح لرسو السفن البحرية، فكانت السفن المتوسطة تستطيع الوصول إلى الإبلة(2). وكان لانتقال الخلافة العباسية إلى بغداد دور في زيادة الاهتمام بالإبلة، وبالتالي أثر في ازدهارها: »ما رأينا مثل الإبلة أقرب مسافة ولا أطيب نطفة ولا أوطأ مطية ولا أربح لتاجر ولا

(1) المرجع نفسه، ص. 350.

(2) الآلوسي، تجارة العراق...، المرجع السابق، ص. 63.

(2151/1)

أخفى لعابد«(1). لذا زادت ملاحة الإبلة حتى وصفت بأنها »مرفأ سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين«(2). وكان الاتصال المائي وقرب المسافة بين بغداد العاصمة وميناء الإبلة، فضلاً عن قابلية الميناء لاستيعاب السفن البحرية، ممّا ساعد على وجود حلقات اتصال بحريّ بين الإبلة ومختلف المناطق. فكانت تسمى أرض الهند أو فرج الهند والسند (3)

(1) الجاحظ، البيان والتبيُّن، المرجع السابق، ج 2، ص.

.297

(2) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، 1960، ص. 117.

(3) الطبري، المرجع السابق، ج 3، ص. 347؛ راجع أمل عبد الحسين عباس السعدي، الابلة في العصر الإسلامي، رسالة ماجستير، كلية الآداب، 1976، ص. 232.

(2152/1)

. وكانت الإبلة تؤمن حاجات الدولة العربية الإسلامية المطلوبة من الهند مثل السيوف والساج والعطور وغيرها من الكماليات التي تطلبها الدولة، خاصة بغداد (1). وكانت تستورد من الهند مختلف المواد، خاصة الكمالية منها. أما عن اتجار الإبلة مع الصين، فكانت هي أيضاً مزدهرة ومتنوعة؛ »كانت مرفأ السفن من الصين«(2). وتوجد تجارة منتظمة بين الصين والعراق ترد إلى ميناء الإبلة مباشرة، حيث كانت تستورد مختلف السلع التي تحتاجها الدولة وتصدر

---

(1) العلي، المرجع السابق، ص. 232.

(2) ابن الأثير، المرجع السابق، ج 2، ص. 239.

(2153/1)

السلع الفائضة إلى الصين (1). وكان للعراق نشاطٌ ملحوظٌ مع سواحل شرق إفريقيا. وتعد تجارة جلب العبيد رائجة في البصرة (2)؛ كما تُعَدُّ تجارة الذهب من منطقة سفالة بأرض الزنج أهم الصادرات من شرق إفريقيا إلى العراق عن طريق الإبلة. وفضلاً عن ذلك، كانت للإبلة أهمية في التجارة الداخلية، فكانت تصدر إلى العراق وأنحاء الجزيرة العربية وكذلك اليمن ما تحتاجه من السلع والبضائع الوافدة لها من الخارج(3).

... 4 ـ البصرة

(1) السعدي، المرجع السابق، ص 243

(2) المرجع نفسه، ص. 254.

(3) المرجع نفسه، ص. 250.

(2154/1)

... أنشئت البصرة في زمن الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سنة 16 هـ/ 637 م (1)، وقد هيأها موقعها القريب من شط العرب أن تؤدي دوراً في التجارة البحرية بين العراق من جهة وجنوب شرق آسيا وإيران (2)، فكانت ترد إليها تجارات الهند والصين وفارس وعمان

واليمامة والبحرين لتوصلها إلى عاصمة الدولة بغداد عن طريق السفن النهرية. فيروى أن الخليفة المنصور قال: »كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة والإبلة والأهواز... فإليها ترقى وبها

(1) الطبري، المرجع السابق، ج 3، ص. 590.

(2) الآلوسي، المرجع السابق، ص. 66.

(2155/1)

ترسى«(1). فلا ريب إذن أن يكون تاجر البصرة أعظم الناس تجارة(2) وتكون البصرة فرضة البحر ومطرح البحر(3). ويذكر المقدسي أنه قد شق إليها من دجلة نهرين: نهر معقل في الشمال الشرقي فتأتيه السفن النازلة من بغداد، ونهر الإبلة وتسير فيه السفن من البصرة نحو الجنوب الشرقي إلى الخليج(4)

(1) أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، المرجع السابق، ص. 7.

(2) أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، دار الكتاب العربي، بيروت، 1925، ج 1، ص. 216.

(3) المقدسي، المرجع السابق، ص. 128.

(4) المرجع نفسه، ص. 117.

(2156/1)

. وقد أثر ذلك، فضلاً عن إنشاء مدينة البصرة التي حدها الإصطخري بالبادية غرباً ومياه الأنهار شرقاً ونهر المعقل شمالاً ونهر الإبلة جنوباً(1)، أثر في ميناء الإبلة الذي تضاءلت أهميته واستبدلت تدريجياً بالبصرة. فأصبحت الإبلة ميناء للتجار البصريين ورصيفاً للسفن المتوسطة(2)، في حين تضخمت وظيفة البصرة التجارية مع العلم الخارجي وبالذات مع بلدان المشرق كالهند

---

(1) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الإصطخري، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، القاهرة، 1958، ص. 57.

(2) العلي، المرجع السابق، ص. 232.

(2157/1)

وسرنديب وإندونيسيا والصين.

...

... 5 ـ سيراف

... تقع على الساحل الشرقي للخليج العربي. وتمت شهرتها البحرية منذ القرن السادس الميلادي. وبلغت عصرها الذهبي في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين. فبعد أن تحولت التجارة العالمية من البحر الأحمر إلى الخليج العربي والعراق، أصبحت هذه المدينة من أهم مدن الشرق التجارية(1). ومما زاد في أهمية سيراف الملاحية أن ميناءها كان صالحاً لرسو السفن الكبيرة، ومنها تحول البضائع إلى البصرة والإبلة وغيرها من

---

(1) الألوسي، المرجع السابق، ص. 72.

(2158/1)

المراكز(1)، فضلاً عن كون سيراف ممراً بطريق الملاحة البحرية الخارجة من البصرة صوب الهند والصين. ويقول البلخي: »كانت سيراف قبل ذلك مدينة كبيرة مزدحمة بالمتاجر«(2). وقد اشتهر أهل سيراف بحبهم للعمل في البحر لدرجة يصفها الإصطخري بأن الرجل ربما يقضي جل عمره في البحر لا يخرج من سفينته إلا للضرورة القصوى (3). وقد عملت سيراف ـ بحكم موضعها على ساحل إيران

جنوب شيراز ـ على السيطرة والتحكم بتجارة أقاليم إيران

---

(1) أحمد الشامي، المرجع السابق، ص. 90.

(2) المرجع نفسه.

(3) الإصطخري، المرجع السابق، ص. 138.

(2159/1)

البحرية، واشتغل أهل سيراف بالتجارة وبلغوا من الثراء حد العجب حتى بلغت ثورة أحد تجارها أربعة ملايين ديناراً اكتسبها من تجارة البحر (1). إلا أن سيرافاً لم تستمر في ازدهارها، إذ أصابها الدمار على أثر زلزال مروع تعرضت له المدينة سنة 366 هـ/ 976 م، فهجرها أهلها وأصاب المدينة الركود نتيجة ذلك (2).

المبحث الثالث: نشاط البحرية الخليجية

1 ـ مع الشرق الأقصى

... أ ـ الطريق الملاحي

---

(1) المرجع نفسه، ص. 83.

(2) الألوسي، المرجع السابق، ص. 76.

(2160/1)

... يبدأ الطريق البحري (1) بين الخليج العربي ومناطق الشرق الأقصى رحلته من البصرة إلى الإبلة عبر شط العرب إلى عبادان عند المصب ومنه إلى سيراف. ويوجد عند سيراف طريقان يوصلان إلى الشرق يلتقيان في كولم ملي (كويلون الحالية بالهند)، أحدهما يسير

---

(1) راجع المسعودي، المرجع السابق، ج 1، ص. 147؛ وحوراني، المرجع السابق، صص. 208 ـ 215؛ والألوسي، التاريخ الإسلامي في إفريقيا وجنوب شرق آسيا، مطبعة التعليم العالي، بغداد، 1987، صص. 141 ـ 143؛ والسامر، المرجع السابق، ص. 15؛ والعاني، المرجع السابق، ص. 171.

(2161/1)

بمحاذاة ساحل إيران والسند والهند حتى ملابار وهو طريق طويل نوعاً ما، والطريق الثاني يبدأ من سيراف إلى مسقط أو صحار في عمان حيث تتزود السفن بالماء والطعام ومنها تتجه صوب ساحل الملابار في الهند حتى

تصل مباشرة إلى كولم ولي. ولاحظ الرحالة أن الطريق الثاني يختصر المسافة إلى النصف، وهو أكثر مسلكاً من الأول. إلا أن الطريق الأول يتيح لسالكيه فرصة البيع والشراء وتعرّف رغبات الناس وحاجاتهم من السلع أثناء مرور السفن في المحطات التجارية والمدن الواقعة في الطريق الملاحي (1)

---

(1) المقدسي، المرجع السابق، ص. 474.

(2162/1)

، وفي مدينة أتولم ملي حيث ملتقى الطريقين. ومن هذه المدينة يتفرع مسلكان للملاحة: فمن أراد سرنديب سلك طريقاً عبر مضيق بالك بين رأس الهند الجنوبي وسيلان، والمسلك الثاني يبدأ بعد أن تغادر السفن كولم ملي وتدور حول رأس كومورين جنوب الهند، مبحرة إلى ميناء جال جنوب سرنديب ومنها إلى ميناء كالا من بلاد الملايو(1). أما الوصول إلى جزر الهند الشرقية (إندونيسيا)، فيكون إما بالإبحار من سرنديب مباشرة إلى سومطرة أو بالإبحار من كالا جنوباً إلى جاوه وسومطرة (2)

---

(1) المسعوديّ، المرجع السابق، ج 1، ص. 142.

(2) الألوسي، المرجع السابق، صص. 87 ـ 89.

(2163/1)

. وإذا أرادت القافلة الوصول إلى خانقو (كانتون جنوب الصين)، وهو الجزء الأصعب والأخطر من الرحلة، فمن كالا تدور السفن حول شبه جزيرة الملايو وتسير باتجاه الشمال الشرقي إلى جزيرة تيومه في بحر كندرنج (خليج سيام)، ومنها إلى مملكة الصنف، أي الهند الصينية، وتعبر منها إلى صندفولات، وتصل أخيراً إلى خانقو (ميناء الصين العظيم) (1). وقد قدر الرحالة الفترة الزمنية التي تستغرقها الرحلة من البصرة إلى خانقو في ساحل الصين الجنوبي ذهاباً وإياباً مع التوقفات عاماً ونصف

---

(1) الحوراني، المرجع السابق، صص. 213 ـ 214.

(2164/1)

عام، في حين يستغرق الطريق المباشر دون توقف بين جنوب الصين والخليج العربي ثلاثة أشهر (1).

... ب ـ البضائع المحمولة

... ب. 1 ـ البضائع المستوردة

... كان الرحالة العرب يجلبون في رحلاتهم البحرية من الهند والسند والصين وغيرها من مراكز الشرق الأقصى من المحطات التجارية التي يمرون بها مختلف السلع والبضائع التي تحتاجها الدولة العربية الإسلامية. فكانوا يجلبون السيوف، خاصة الهندية المشهورة بجودتها، والساج والقرنفل والفلفل وسروج الخيل والجلود والبهارات والعاج والقصدير

(1) الألوسي، المرجع السابق، ص. 143.

(2165/1)

والصندل ومختلف المنسوجات الثمينة والمسك الصيني والفخار الصيني والعود الصيني والكافور والبلور والفيلة والقسط والقنا والخيزران والقيان والياقوت والنارجيل والزنجبيل وغيها من السلع والبضائع الكمالية (1).

(1) راجع السامر، الأصول التاريخية، ص. 12؛ الألوسي، التاريخ الإسلامي، صص, 143 ـ 145؛ الألوسي، تجارة

العراق البحرية، صص. 205 ـ 228؛ **السعدي، الإبلة، صص.** 229 ـ 250؛ **عواد مجيد الأعظمي وحمدان الكبيسي، دراسات في الاقتصاد العربي الإسلامي، مطبعة التعليم العالي، بغداد،** 1988، **صص.** 134 ـ 137.

(2166/1)

... ب. 2 ـ البضائع المصدرة

... لقد صدرت الموانئ الإسلامية الواقعة على الخليج العربي البضائع والسلع المحلية الفائضة إلى بلدان الشرق الأقصى، خاصة المواد الزراعية مثل التمور والفاكهة كالعنب والنارنج والموز. وصدر المسلمون المنسوجات كالسقلاطون والعمائم والخز والبز والوشي وملابس الوبر والصوف والعنبر الشحري والبخور، كما صدروا الكندر والقاطر وأوراق التنبول والبن والوند والصبر وحجر الولادة والماسكة والنبك والدر بلؤلؤة ومرجانة والجبوة والمر والصمغ العربي الشهير وغيرها من السلع والبضائع المتوافرة في

(2167/1)

أقاليم الدولة العربية الإسلامية (1)، وفضلاً عن دور الموانئ العربية في نقل السلع والبضائع المحلية كانت تقوم بنقل السلع والبضائع القادمة من أوربا وإفريقيا والمتجهة صوب شرق آسيا (2).

... ج .أثر الملاحة العربية في الشرق الأقصى

---

(1) **الألوسي، تاريخ الإسلام، صص.** 145 ـ 146؛ **السامر، الأصول التاريخية، ص.** 21؛ **السعدي، المرجع السابق، صص.** 237 ، 350؛ **غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة،** 1948، **ص.** 663.

(2) **المسعوديّ، المرجع السابق، ج** 2، **ص.** 6.

(2168/1)

... فضلاً عن دور الملاحة العربية في نقل السلع والبضائع التجارية بين بلدان الشرق والشرق الأقصى وبين أقاليم الدولة العربية الإسلامية، الأمر الذي حقق ارتباطاً تجاريّاً واقتصاديّاً من خلال انتقال السلع والبضائع والعملات النقدية المتداولة في الأسواق المختلفة، كان لهذا الاتصال التجاري الاقتصادي آثار حضارية كبيرة من أبرزها انتشار الدين الإسلامي والثقافة العربية

الإسلامية في بعض الجهات من بلدان الشرق الأقصى، حيث تكونت جاليات عربية إسلامية استقرت ونمت في كثير من أطراف الصين والهند. وقد أدّى التجار العرب

(2169/1)

المسلمون وهذه الجاليات دوراً كبيراً في نشر الإسلام بهذه المناطق البعيدة (1)؛ كما أحدث هذا الاختلاط آثاراً اجتماعية كثيرة في المجتمعات، حيث شاعت اللغة والعادات والتقاليد والأسماء العربية. ولم يقتصر تأثير التجار والجاليات على عامة الناس في المجتمعات الآسيوية، بل تعدّى تأثيرها إلى الحكام والملوك في بلدان الشرق الأقصى. فكثيراً ما كان يدخل الحكام الإسلامي بفعل لقاء بحري

---

(1) الألوسي، تجارة العراق البحرية، صص. 142 ـ 144؛ الألوسي، التاريخ الإسلامي، صص. 192 ـ 194؛ السامر، الأصول التاريخية، صص. 49 ـ 52.

(2170/1)

بينهم وبين بعض التجار العربي المسلمين (1). مقابل ذلك، نقل التجار العرب المسلمون إلى الدولة العربية الإسلامية مختلف الصناعات والعلوم التي أسهمت في تطوير الحضارة العربية الإسلامية وازدهارها، فصناعة الورق وفنون الزخرفة وصناعة النسيج وكثيراً من المحاصيل الزراعية التي نقلت من الشرق لزرعها في مناطق مختلفة من الدولة العربية الإسلامية (2).

...

2 ـ مع شرق إفريقيا

... أ ـ الطريق الملاحي

---

(1) السامر، المرجع السابق، ص. 48.

(2) الشامي، المرجع السابق، صص. 118 ـ 120.

(2171/1)

... كان مسار السفن العربية إلى شرق إفريقيا يبدأ من أي مركز من المراكز المتعددة سواء من البصرة أو من سيراف أو من عمان تنطلق من الخليج العربي إلى عدن ومنها إلى البحر الأحمر لتجتازه إلى السواحل الشرقية للبحر الأحمر عند مدغشقر والصومال وزنجبار. وأقصى ما تصل إليه الملاحة العربية ـ كما يروي المسعودي ـ في

شرق إفريقيا إلى سفالة (1)

---

(1) مروج الذهب، المرجع السابق، ج 2، ص. 6؛ الحوراني، العرب والملاحة، ص. 230؛ محمد عبد الله النقيرة، انتشار الإسلام في شرقي إفريقيا ومناهضة الغرب له، دار المريخ، الرياض، 1982، ص. 23.

(2172/1)

.

... ب ـ أهم البضائع المحمولة

... ب. 1 ـ السلع المستوردة

... لقد جلب الملاحون العرب المسلمون من موانئ سواحل شرق إفريقيا أهم السلع والبضائع الرائجة فيها، خاصة الثمينة؛ فجلبوا العاج والذهب والنحاس والتوابل والعطور والأطياب والعبيد (1). وقد كان التجار العرب المسلمون يؤمنون حاجات الدولة العربية الإسلامية من هذه البضائع، فضلاً عن قيامهم بنقل هذه السلع إلى بلدان الشرق الأقصى، »حيث يشترون العاج ويحملونه إلى الصين«(2)

---

(1) الأعظمي، المرجع السابق، ص. 130؛ السعدي، الإبلة، صص. 255 ـ 256.

(2) المسعودي، المرجع السابق، ج 2، ص. 6.

(2173/1)

. وكانت معظم واردات الهند والصين تأتي إليهم بواسطة العرب من إفريقيا، فنقل العرب اللبان والبخور وسن الفيل والعاج والرقيق والذهب من شرق إفريقيا(1).

... ب ـ السلع المصدرة

... فضلاً عن البضائع والسلع المحلية التي ينقلها البحارة المسلمون إلى شرق إفريقيا عبر الخليج العربي مثل التمور والفواكه واللؤلؤ والأحجار الكريمة والمنسوجات المختلفة، كانوا أيضاً ينقلون بضائع بلدان الشرق الأقصى إلى شرق إفريقيا. فنقلوا التوابل والقرنفل وخشب

---

(1) الحوراني، المرجع السابق، صص. 82 ـ 85؛ النقيرة، المرجع السابق، ص. 69.

(2174/1)

الصندل والمسك والكشمير والحرير(1). وقد أكد المسعودي سيطرة العرب المسلمين على التجارة في المحيط الهندي، حيث كانوا يحملون التجارة من الهند والصين، وبالعكس، حيث يقومون بدور الوسيط بين شرق إفريقيا وشرق آسيا(2).

ج ـ أثر الملاحة العربية على شرق إفريقيا

... لقد أضحى العرب المسلمون المسيطرون على طرق التجارة وكانت سفن عرب الخليج العربي تجوب المحيط الهندي وخلجانه والبحر الأحمر لتحمل البضائع من

(1) السعدي، المرجع السابق، ص. 266؛ النقيرة، انتشار الإسلام، ص. 24.

(2) مروج الذهب، المرجع السابق، ج 2، ص. 6.

(2175/1)

شرق إفريقيا إلى العالم الإسلامي، ومنها إلى بلدان شرق آسيا. وكان العرب سادة التجارة والملاحة في المحيط الهندي منذ القرن السادس عشر الميلادي/ العاشر الهجري، وتقوم التجارة العالمية على وساطتهم(1). فقد

كان لعرب المسلمين دور تجاريّ كبير يتمثل في نقل السلع والبضائع من شرق إفريقيا إلى العالم الإسلامي، ومنه إلى شرق إفريقيا فضلاً عن ربطهم شرق آسيا بشرق إفريقيا تجارياًّ واقتصادياًّ(2)

---

(1) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، بيروت، 1967، ج 2، ص. 436.

(2) النقيرة، المرجع السابق، ص. 70.

(2176/1)

.

... وكان للتاجر العربي دورٌ حضاريٌّ كبيرٌ، حيث أسهم. ومعه الجاليات العربية الإسلاميّة المنتشرة على سواحل شرق إفريقيا. بنشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية بين أقوام الأفارقة المستوطنة شرق إفريقيا والأقوام التي تتعامل مع المسلمين في المناطق المختلفة والبعيدة نسبياً عن سواحل شرق إفريقيا(1)، بل حصل اختلاط وتزاوج بين التجار العرب والأفارقة. ولم يقتصر الأمر على ذلك: فقد تكونت بمرور الزمن جاليات عربية كبيرة تمتلك ثروة طائلة وتسيطر على شؤون

التجارة، ولها احتكاك متواصل

---

(1) المرجع نفسه، ص. 36.

بالناس. فأقبل الناس على الالتفاف حولهم متأثرين بعقيدتهم وخلقهم وتعاملهم الجميل. فاعتنقوا الإسلام وكان من بينهم ملوك وحكام أفارقة(1). وقد كون العرب المسلمون إمارات وسلطنات إسلامية من عيذاب شمالاً إلى سفالة ومدغشقر جنوباً يحكمها مسلمون من العرب أو غيرهم من المسلمين(2). فانتشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية المتمثلة في اللغة العربية والعادات والتقاليد في أنحاء كثيرة من مدن شرق إفريقيا، الأمر الذي دفع بكتاب القرن الرابع

---

(1) المرجع نفسه، ص. 69.

(2) انظر النقيرة، المرجع السابق، صص. 175 ـ 213.

الهجري/ العاشر الميلادي إلى الإجماع على ظهور تلك المدن زاخرة بالحياة الإسلامية(1).

المبحث الرابع: الصعوبات التي تواجه الملاحة البحرية في الخليج العربي

1 ـ طبيعة البحار والمحيطات

... من أكثر الأخطار والصعوبات التي كانت تواجه الملاحة البحرية في الخليج العربي ما اتصفت به البحار والمحيطات من دوامات وأمواج عاتية وعواصف وحيوانات بحرية وجزر بحرية عائمة وسط الخليج(2)

---

(1) المسعودي، المرجع السابق، ج 2، ص. 18.

(2) السعدي، المرجع السابق، ص. 266؛ الشيخلي، دراسات عن تاريخ الخليج العربي، ص. 15؛ متز، الحضارة الإسلامية، ج 2، ص. 435.

. ويشير المسعودي إلى ذلك بقوله:

... وهذه المواضع في البحر وجبال سرو ذاهبة في الهواء لا نبات فيها ولا حيوان. يحيط بها مياه من البحر (...) وأمواج متلاطمة تجزع منها النفوس إذا أشرقت عليها.

وهذه المواضع من بلاد عمان وسيراف لابد للمراكب من الجواز عليها والدخول في وسطها، فتخطئ وتصيب (1). ومن الأمور الأخرى ضحالة المياه في بعض الأقسام من الخليج العربي، وخاصة بالقرب من عبادان (2). أما الأمواج والعواصف، فمما يزيد خطورتها أن

---

(1) المسعودي، المرجع السابق، ج 1، ص. 111.

(2) السعدي، المرجع السابق، ص. 267.

(2180/1)

هياج الخليج والبحر العربي وبحر الهند والصين يكون في أوقات متفاوتة (1).

2 ـ مهاجمة القراصنة واللصوص للبحر

... لم يكن خطر لصوص البحر أقل تأثيراً مما سبقه، لأنهم كانوا يأوون إلى الجزر والشعاب المختلفة في البحر. وقد أشار المسعودي إلى خطورة وجود القراصنة في الجزر المنتشرة في عرض المحيط الهندي وإمكان قيامهم بالإغارة على السفن (2)؛ فكان على الملاحين محاذرتهم. وفي سبيل التصدي للقراصنة، زودت

---

(1) المرجع نفسه، ص. 268.

(2) المسعودي، المرجع السابق، ج 1، ص. 154؛ راجع متز، الحضارة الإسلامية، ج 2، ص. 437.

(2181/1)

السفن التجارية بالجنود المربين «النفاطين والمقتلين»(1).

3 ـ المصاعب السياسية

... كثيراً ما كانت الاضطرابات السياسية التي تواجهها القوى السياسية في المنطقة تهدد باضطراب حركة الملاحة البحرية في الخليج العربي والمحيط الهندي أو توقف سيرها على طول الطريق البحري الواصل ما بين الخليج العربي والشرق(2).

---

(1) المقدسي، المرجع السابق، ص. 12.

(2) الشيخلي، المرجع السابق، ص. 14.

(2182/1)

التحديات التي تتعرض لها الأمة العربية وسبل مواجهتها (من خلال أقوال صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان)

"إن الأمة العربية تواجه الآن ص حركة قاسية من أجل الدفاع عن حقها وترابها وشرفها"(1) في وقت تتعرض فيه لتحديات خطيرة تتمثل في .

– "مأساة التمزق والانقسام والتفرقة،)(2)،

– و"عدم اطمئناننا لبعضها البعض (3)،

– و"استنزاف وإهدار طاقات أمتنا"(4)،

– و"التدخل الخارجي في الشؤون الداخلية للدول (العربية) (5)،

(2183/1)

– و"المماطلة والتسويف بهدف فرض الأمر الواقع خلافا للحق و"القانون "(6). مما أدى إلى "حالة الضعف والهوان(7) التي باتت تهدد اليوم الوجود العربي نفسه (8).

– فماذا ننتظر م حرب من فرقتنا.... هل تنتظر حتى ينال المتربصون منا؟ (9)،

(1) زايد والسياسة الخارجية، ديوان الرئاسة، أبو ظبي ،

1991، ص.363 . (2) (2) **المصدر السابق** ، ص118

(3) **جريدة الاتحاد الإماراتية، يوم** 1997/9/5

(4) **زايد والسياسة الخارجية، ص** 138.

(5) **جريدة الاتحاد الإماراتية، يوم**، 1995/10/1

(6) **زايد والسياسة الخارجية، ص** 472

(2184/1)

---

(7) **جريدة الاتحاد الإماراتية، يوم** 1995/10/1.

(8) **زايد والسياسة الخارجية، ص**118

(9) **جريدة الاتحاد الإماراتية، يوم** 1997/9/5

قام صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان برحلات إلى مختلف العواصم (ل حربية : لإصلاح ذات البين ولتنقية الأجواء وجمع الشمل وتعزيز وحدة الصف العربي، ومن أجل الإسهام في تقويم المسيرة العربية حتى تتمكن أمتنا من مواجهة تحديات)ل حصر التي أوجدت تجمعات قوية بوحدتها السياسية والاقتصادية والحضارية : "لقد ساهمت الزيارات التي قمنا بها في تعزيز الصلات الثنائية مع الدول الشقيقة وتوثيق

(2185/1)

أواصر الأخوة القائمة بين الشعوب العربية وتنمية التعاون معها في جميع المجالات وتعزيز التضامن العربي من أجل تحقيق الأهداف السامية للأمة العربية"(10). فما أنجع السبل الكفيلة بمواجهة التحديات التي تتعرض لها الأمة العربية ؟

على المستوى العربي :

"إن أمتنا العربية... تحتاج إلى تصفية القلوب وإنكار الذات وإعلاء المصلحة العليا العربية فوق كل اعتبار"(11)، لأن "خطورة التحديات .. تتطلب وجود إدراك عربي لمواجهتها بصورة جماعية،(12)، الأمر الذي يستوجب "مراجعة شاملة للموقف العربي واتخاذ القرارات الضرورية تجاه

(2186/1)

ما يحدث "(13)، ويفرض "بناء الإنسان العربي البناء الأمثل وتوفير جميع مقومات الحياة الكريمة"(14)، والعمل على "إحياء تاريخ ومجد الأسلاف وتوثيقه وإبرازه لشباب الجامعات لكي يعملوا الأجيال القادمة كيف حافظ الأسلاف على وطنهم وعزتهم رغم عدم توفر الإمكانيات

والثروة التي يملكها العرب اليوم "(15)، لأن "من لا يعرف ماضيه فهو حتما لا يعرف حاضره. .. أما إذا عرف المرء ماضيه ، فلابد أن يعرف حاضره .. . ويعرف ماذا يجب عليه أن يحسبه من حساب للمستقبل،(16).

(10) زايد والسياسة الخارجية، ص 26.

(2187/1)

---

(11) المصدر السابق ، ص 157.

(12) جريدة الاتحاد الإماراتية ، يوم 19897/9/5.

(13) المصدر السابق.

(14) زايد والسياسة الخارجية، ص . 111 .

(15) جريدة الاتحاد الإماراتكية، يوم 1995/10/1.

(16) زايد والسياسة اظارجية، ص . 12 .

و"بدون الأخلاق وبدون حسن السلوك وبدون العلم لا تستطيع الأم أن تبني أجيالها والقيام بواجبها، وإنما تبنى حضارات الأم بال حلم وحسن الخلق و"لشهامة وص حرفة الماضي والتطلع للحاضر المستقبل "(11). على المستوى السياسي : "إنني أؤمن بأهمية اللقاء العربي المباشر والمستمر لإيجاد حوار دائم لا

(2188/1)

ينقطع . .. لنتخذ، متحدين ، مواقف لها فعالياتها وتأثيرها"(18). **وللوصول إلى ذلك ، على "الإخوان من القادة (ل حرب التآزر والمصالحة ولم الشمل والحرص على مصا، الأمة العربية وشعوبها وتجاوز حالة الفرقة بين الأشقاء ومواجهة قضايا الأمة العربية بروح أخوية صادقة وعمل جاد وفعال"**(19). **مع الحرص على إعادة التضامن العربي "القافي على مبدا احترام سيادة ووحدة أراضي كل دولة عربية وصيانة حقوقها ومصادر رزقها ثروتها وعدم التدخل في شؤونها الداخلية"**(20). **والتأكيد على "صياغة العلاقات العربية والأمن العربي بما يكفل تحقيق**

(2189/1)

أمن الدول العربية ورسم مستقبل اكثر أمنا واستقرارا والتطلع إلى غد مشرق دعامته القوة وسنده الحق ومضمونه التكاتف والتآزر وأساسه الأخوة والتضامن والعدل و شعاره فعل الخير وتحقيق السلام "(21).

ومن جهة أخرى، "نحن في حاجة إلى عقد قمة عربية، ولكن

علينا أولا قبل الدعوة لعقدها أن نسعى لإزالة الانشقاق والتصدع الموجود في الصف العربي ولابد أن يكون هناك تحضير وإعداد جيدين لضمان نجاح هذه القمة"(22).

والأمل كبير في أن "تنجح جامعة الدول العربية في تحمل المهام الموكلة إليها.

(17) المصدر السابق ، ص . 13.

(2190/1)

---

(18) المصدر السابق ، ص . 161.

(19) جريدة الاتحاد الإماراتية، يوم 1995/10/1.

(20) المصدر السابق ، يوم 12/3 /1996.

(21) زايد والسياسة الخارجية، ص .146.

(22) زايد في رحلة الصداقة والإخاء، مؤسسة الاتحاد للصحافة والطباعة والنشر، أبو ظبي، سبتمبر، 1991، ص 42 .

وأن تكون قادرة على منع أي تدهور في الموقف العربي والتصدي له قبل حدوثه بالتعاون مع القادة" (23).

أما الإعلام العربي "فعليه تحمل مسؤوليته العمل على

بلورة موقف عربي موحد يحفظ للعرب حقوقهم ووجودهم وكيانهم ... ونقل الحقائق لقادة الأمة العربية

(2191/1)

وشعوبها" (24).

على المستوى الاقتصادي :

"إننا – كعرب ومسلمين – لم نستفد من الإمكانيات والثروات التي أفحم الله بها علينا ووفرها لنا"(25) مما يتطلب أمرين متلازمين : "الاعتماد على أنفسنا، ثم تسخير طاقاتنا جميعا لتحقيق أهدافنا. والشيء الأساسي الذي يحقق هذين الهدفين هو إيماننا بالله وبما ورثناه عن أجدادنا من قيم أخلاقية و شجاعة وإخلاص "(26). ويفرض في الوقت نفسه "إقامة تعاون اقتصادي ونقدي بين الدول العربية" (27) في "هذا العصر الذي يقوم على التكتلات و توحيد المعاملات"(28). ويستوجب "تطويرا للتعاون بين

(2192/1)

العالم العربي والدول الأوربية لفتح آفاقا جديدة في التعاون الاقتصادي و العلمي الذي يساهم في تطور الحضارة الإنسانية و تعزيز السلام العالمي" (29).

"إن التكامل الاقتصادي وإقامة سوق عربية مشتركة هما المدخل العلمي والحقيقي للوحدة العربية التي لم تعد ضرورة حتمية فحسب بل أصبحت مسألة قدر ومصير"(30).

(23) المصدر السابق .

(24) جريدة الاتحاد الإماراتية، يوم 1995/10/1.

(25) زايد والسياسة الخارجية، ص. 253.

(26) المصدر السابق ، ص. 59.

(26) المصدر السابق ، ص. 190.

(27) المصدر السابق ، ص. 74.

(2193/1)

---

(28) المصدر السابق ، ص.39 .

(29) المصدر السابق ، ص . 245.

عل مستوى التضامن العربي الإسلامي :

"إن (لأحد الإسلامي بعد متصل مع البعد العربي ويكمل أحدهما الآخر،)(31) و"التكامل (لعربي الإسلامي يخلق قوة

جبارة بما تملكه الدول العربية والإسلامية من ثروات تدخل في إيجاد التوازن الدولي ،)(32).

على المستوى الدولي : "إن الحوار السلمي المخلص الجاد طريق لتقرير واحترام الحقوق والمصالح المشتركة لجميع الأطراف على السواء"(33)، وإن "التعاون مع الدول والشعوب يقوم على أساس مبادئ حسن الجوار والاحترام المتبادل ورعاية

(2194/1)

المصالح، المشتركة)،(34).

فعلى "المجتمع الدولي أن يقف إلى جانب الحق والإنصاف "(35)! فإنه لن "ينهون هناك استقرار. .. ما دام (لعرب لم يحصلوا على حقوقهم "(36). وإذا كانت "تعاليم ديننا أن نرد الخير بأكثر منه فإننا لا نستطيع أن نتحمل الإساءة إلى ما لا نهاية"(37).

هذا "هو الطريق الوحيد لإنقاذ ما يمكن إنقاذه حتى لا تضيع الحقوق العربية"(38). ولتعويض ما مر على العرب من خسارة ولدعم المصالح العربية المشتركة"(39)، فالأمة العربية "باتت تؤمن الآن بالتضامن بعد أن أدركت أن خسارتها

(31) المصدر السابق ، ص.167 .

(2195/1)

---

(32) المصدر السابق .

(33) المصدر السابق ، ص.472.

(34) المصدر السابق ، ص.357.

(35) المصدر السابق ، ص.463.

(36) المصدر السابق .

(37) المصدر السابق ، ص.367.

(38) جريدة الاتحاد الإماراتية، يوم 1997/9/5 .

(39) المصدر السابق .

في الفرقة،)(40) و"أن التضامن (لعربي مهما كلفنا من جهود يبقى أقوم سبيل للخروج من أزمتنا وتأمين استقرار أوطاننا"(41).

"نرجو الله أن يهدينا لما يحبه ويرضاه وأن ب حل الأخ عونا لأخيه ،)(42).

(40) زايد والسياسة الخارجية، ص.390.

(41) جريدة الاتحاد الإماراتية، يوم 1996/12/3

(2196/1)

---

(42) المصدر السابق ، يوم 1997/9/5 .

(2197/1)

التحديث والتجديد في الفكر العربي الإسلامي المعاصر

(وقفة تأمل ومراجعة)

... ... الدكتور سعيد بنسعيد العلوي

... ... كلية الآداب ـ الرباط

... "التحديث" ، "التجديد"، "الفكر العربي الإسلامي المعاصر" : مفاهيم ثلاثة تستلزم جملة تدقيقات أو توضيحات نرى أنها ضرورية للتوطئة لعرضنا هذا.

... 1 ـ "التحديث"، من جهة الوصف العام له وليس من جهة التعريف الدقيق لموضوعه وأهدافه، مفهوم يتصل بالوجود الاجتماعي وما يرتبط به من أنماط الوجود السياسي والقانوني والاقتصادي والفكري، مثلما يتعلق بما يحصل من

(2198/1)

الوعي في مختلف تلك الأنماط من الوجود في صلتها بالأحداث المستجدة والظاهرة في مستويات السياسة والاقتصاد والاجتماع والأقل ظهوراً .في المعتاد وفي الأغلب الأعم .في مستوى الفكر. يعني هذا القولَ إن التحديث يعني وجوب مراجعة كافة أنماط الوجود المختلفة مراجعة شاملة من حيث إنها تستهدف استصلاح وإنقاذ ما يمكن إنقاذه منها، كما يعني ذلك القول إن المراجعة تكون، حيناً آخر، في معنى إزاحة تلك الأنماط من الوجود واستبدالها بأخرى مكانها حتى يتخذ التحديث معناه الكامل: فلا تحديث إلا باعتبار الموجود متجاوزاً وحائلاً

(2199/1)

دون التطور، وبالتالي عجزاً عن إدراك مغزى التحول والتبدل الملازمين لكل عملية تغير اجتماعي وتحول اقتصادي وتطور سياسي ونقلة نوعية في مستوى الفكر.

... يمكن القول، إجمالاً، إن التحديث عملية تتعلق بالمجتمع من جهة أولى، وتتصل بالتاريخ من جهة ثانية، وترجع إلى الإيديولوجيا من جهة ثالثة. فالتحديث إذن

سيرورة ثلاثية الحدود والأبعاد. التحديث من وجهة نظر مؤرخ الفكر السياسي والاجتماعي، هو مجموع الكيفيات التي يسلكها الفكر والمجتمع في النظر إلى التحول الاجتماعي الحادث وفي التغير السياسي، الضمني أو الصريح،

(2200/1)

المواكب لذلك التحول أو الناتج عنه. والتحديث، في تعبير آخر، هو مجموع الحلول المقترحة في الرد على الإشكالات الحاصلة؛ فهو إذن حصيلة الإجابات النوعية، الدقيقة أو المضطربة، على الأسئلة الحرجة التي تمثل في صورة تحد يبتغي العصف بالبناء الاجتماعي القائم ويتوخى الإطاحة بالأنسجة الفكرية والاقتصادية والسياسية القائمة، أي تلك التي بها قوام ذلك البناء الاجتماعي ومنها يكون وجوده.

... 2 .أما "التجديد"، على النحو الذي نقصده في حديثنا هذا، فهو اصطلاح محدد له مرجعيته المعرفية التي يستمد منها: إنه التجديد في

(2201/1)

المعنى الذي يتحدث عنه الدين الإسلامي والحديث النبوي على وجه التدقيق. ففي الإسلام يكون التجديد أمراً لازماً لوجود الجماعة الإسلامية وضرورياً لاتصالها واستمرارها على حال الجماعة والاجتماع، ولذلك فهو مطلوب شرعاً وعند المسلم إيمان كامل بأن الله هو ضامن ذلك التجديد بموجب الحديث النبوي الصحيح: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها". وعند فقهاء الإسلام أن الطريق إلى ذلك التجديد يكون في ممارسة الاجتهاد على الحقيقة، والاجتهاد هو الأصل الرابع من أصول أدلة الأحكام الذي يأتي

(2202/1)

بعد الكتاب والسنة والإجماع. يقول الجويني في هذا الصدد: "نصوص الكتاب والسنة محصورة مقصورة، ومواقع الإجماع معدودة مأثورة (...) ونحن نعلم قطعاً أن الوقائع التي يتوقع وقوعها لا نهاية لها". وما دام الأمر كذلك، فإن الفقيه العالم مطالب بالبحث عن الأجوبة الشرعية المناسبة لما يستجد من الحوادث في الوجود الإسلامي. ومتى نظرنا إلى عمل الفقيه المجتهد، فنحن نجده، من زاوية نظر البحث الإبستمولوجي، إعمالاً للعقل الفقهي

قصد الحصول على الحكم الشرعي في "النازلة" التي تحل بالجماعة الإسلامية في حياتها الاجتماعية

(2203/1)

والاقتصادية والسياسية. وإعمال العقل الفقهي متى توسل بالأدوات التي يتيحها أصول الفقه، يكون بذلاً للجهد واستفراغاً للطاقة وتكلفاً للمشقة في توخي الحكم الشرعي واستخلاصه حيث لا يكون ذلك الحكم صريحاً وواضحاً. إنه نقل له من عالم التضمين والإمكان إلى مجال التصريح والوجود العيني.

... واضح، فيما نأمل، أن التجديد في الدين ينتمي إلى مجال معرفي وحقل دلالي مخالف للمجال المعرفي وللحقل الدلالي الذي رأينا، أعلاه، أن التحديث ينتمي إليه. هل يعني هذا أن التحديث والاجتهاد يتعارضان؟ هل في الإمكان تحصيل التحديث في

(2204/1)

الاقتصاد والمجتمع والسياسة عن طريق التجديد في الدين؟ تلك قضية أخرى وسؤال آخر نرجئ القول فيهما

الآن.

... 3 ـ لماذا الحديث عن "الفكر العربي الإسلامي المعاصر" وليس أحدهما فقط؟ أليس في الحديث عن الفكر العربي المعاصر تضمينٌ للفكر الإسلامي المعاصر واقتضاء ضروريٌّ له؟ فالمفكرون المعاصرون العرب يصدرون عن القضايا والمشكلات التي يتناولها الفكر الإسلامي المعاصر، والحضارة الإسلامية مجال طبيعي يتنفس فيه المفكرون العرب من غير أهل ملة الإسلام (= العرب الأقباط في مصر، والمسيحيون العرب في الشام والعراق وفلسطين

(2205/1)

ولبنان). ثم هل يعني إلحاحنا على هذا التركيب المزجي (الفكر العربي الإسلامي) أن في الحديث عن الفكر الإسلامي المعاصر إقصاءً حتمياً لجوانب من الفكر العربي المعاصر؟

... لا يخفى أن الفكر الإسلامي المعاصر نتاج نظري عام يشمل المفكرين العرب وغير العرب أيضاً. ولا يخفى، بالتالي، أنه ليس للوقوف عند الفكر العربي المعاصر (عصر النهضة، فكر النهضة، اليقظة العربية ... وما شابه من النعوت والأوصاف) أن يصرفنا عن استحضار جملة من المفكرين المسلمين المعاصرين في كل من

تركيا وباكستان والهند وإيران ممن كتبوا بغير اللغة

(2206/1)

العربية وكانت القضايا والإشكالات التي تطرحها كتاباتهم ترجع إلى شؤون المسلمين في البلاد المذكورة، وخاصة ما اتصل بأحوال المسلمين في الهند قبل ظهور دولة الباكستان بعيد منتصف الأربعينيّات. نعم، لقد تم نقل العديد من كتابات أولئك المسلمين إلى اللغة العربية، بل وكان لبعضها صدى وأثر قويان في فكر المفكرين العرب المسلمين، ولكن سمة الإسلام خارج بلاد العرب ظلت ملازمة لتلك الكتابات.

... ولا يغرب عن البال كذلك أن جانباً من الإنتاج العربي المعاصر يتقلص فيه حضور الإسلام بحسبانه شريعة وسلوكاً، وكذلك هو الشأن في

(2207/1)

كتابات المفكرين المسيحيين من رجال اليقظة العربية أمثال فرح أنطون، وشبلي الشميل، وأديب

إسحق، وسلامة موسى وغيرهم. صحيح أن الإسلام يحضر في تلك الكتابات بحسبانه مجمل الحضارة التي يرى هؤلاء المفكرون أنهم ينتمون إليها ويتنفسون في مناخها. بيد أن مسألة "التجديد الديني" تغيب في كتابات أولئك المفكرين كلية. وإن هذا الغياب هو ما حدا ببعض الدارسين إلى أن يروا في المفكرين المسيحيين العرب رواداً للفكر الليبرالي في الفكر العربي المعاصر مثلما أنهم يرون في كتابات العرب المسلمين المعاصر تعبيراً عن التيار السلفي

(2208/1)

وبالتالي فإن الفارق بين الفكرين الليبرالي والسلفي يكون في حضور الفكر الديني عند هؤلاء في غيابه عند أولئك غير أن هذه القسمة الثنائية (التي يأخذ بها العدد من دارسي الفكر العربي المعاصر) يقوم في وجهها اعتراضان اثنان:

... .أول الاعتراضين هو أن في الفكر العربي العاصر تيارات قومية تضيق عن الانحصار في أحد التيارين المتصارعين (السلفي/ الليبرالي). وقد نذكر من تلك التيارات الفكر الوطني، فنجد من زعمائه مسلمين أمثال

عبد الله النديم، ومصطفى كامل، وعلال الفاسي؛ كما نجد مسيحيين مثل أديب إسحق والخوري. ونذكر

(2209/1)

التيار القومي العربي (أو العروبي)، فنجد فيه مسيحيين أمثال نجيب عازوري وميشيل عفلق ومسلمين أمثال ساطع وعزت دروزة، وبالتالي فهناك قوميون عرب مسيحيون وقوميون عرب مسلمون، مثلما أن للوطنية دعامة من المسلمين والمسيحيين على السواء. ... .الاعتراض الثاني هو أن في الوطن العربي مفكرين يأخذون من الفكر السلفي، باعتبارهم متضامنين مع الإشكاليات التي يصدر عنها ذلك، ويتلاقون في العديد من تحليلاتهم مع دعاوى الليبرالية، وهم في الحالتين معاً منتسبون للفكر الوطني .فهم من زعمائه ومن كبار دعاته. وكل ذلك في سهولة

(2210/1)

ويسر لا يصيب المنظومة الكلية التي يعملون فيها خلل ولا اضطراب. وأنت لو تأملت كتابات علال الفاسي، لوجدت

فيها التعبير الأفضل عن اجتماع هذه المكونات جميعها؛ ولو رَجعت إلى مجمل كتابات الإصلاحيين المغاربة في العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين، لألفيت فيها ما يربك كل محاولات التصنيف المعتادة (السلفية، الليبرالية، القومية، الدعوة الإسلامية، إلخ.). ولكنني لا أحسب أن في الأمر سمة خاصة تميز الإنتاج النظري المعاصر في المغرب، وإن كنت لا أنفي القول بوجود تلوينات محلية تكسب الفكر العربي في المغرب بعض

(2211/1)

التباين عنه في المشرق العربي .تلوينات ترجع إلى الجغرافية حيناً (القرب من أوروبا، مع الاتصال المباشر بإفريقيا السوداء)، وإلى التاريخ حيناً ثانياً (عدم الخضوع للحكم العثماني...)، وإلى السياسة حيناً ثالثاً (اتصال الدولة واستقرارها مدة تربو على أحد عشر قرناً، وإن كان الحكم ينتقل من ائتلاف قبلي إلى آخر، أو من أسرة إلى أخرى). وبالتالي فلست أجد عندي اطمئناناً إلى الأخذ بالقسمة الثنائية (سلفية/ ليبرالية) التي ظل الدارسون العرب يأخذون بها زمناً غير يسير. ...

(2212/1)

... هذان الاعتراضان حملاني على الأخذ بهذا التركيب المزجي (الفكر العربي الإسلامي)، حلاًّ للعديد من الصعوبات المنهجية التي يثيرها القول بالفكر العربي المعاصر من جانب أول والقول بالفكر الإسلامي من جانب ثانٍ(1)

(1) اجتهدنا في توضيح وجهة نظرنا في دراسات شتى، فردية وجماعية، نذكر من بينها:

... أ ـ سعيد بنسعيد العلوي، الإيديولوجيا والحداثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء؛

... ب ـ سعيد بنسعيد العلوي، الاجتهاد والتحديث، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطة، 1992؛

ج ـ سعيد بنسعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1995.

(2213/1)

.

... ننفذ الآن إلى ما نرى أنه لب المشكل (حضور مفهومي

التجديد والتحديث في الفكر العربي الإسلامي المعاصر)
فنقول: إذا كان مفهوم التجديد (في الحمولة الدينية
الإصلاحية التي رأينا أنها له) وكان مفهوم التحديث (في
الحمولة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية
التي تعين مرجعيته وتحكمها) .إذا كان الأمر على هذا
النحو، أفلا يمكن الحديث عن التقاء ممكن بين برنامج
"التجديد" وبرنامج "التحديث" أم إن ذلك متعذر؟
وبعبارة أخرى، ما الصلة التي تقوم بين مجال عمل كل
من المفهومين المذكورين: أهي صلة خصومة وتناحر

(2214/1)

(بموجب الاختلاف والتنافر في الرؤية بين الحقلين
الدلاليين اللذين ينتسبان إليها)، أم إنها صلة وئام
وانسجام (يعللها الالتقاء عند إرادة مجاوزة التأخر
والتخلف عن ركب الإنسانية المتقدمة)؟
... الحق أننا إذ نتساءل على هذا النحو، فنحن نكون
بصدد اقتراح كيفية مغايرة في النظر في الفكر
العربي الإسلامي المعاصر، ونحن نأمل توخي سبيل
الاختلاف عن الكيفية التي درج عليها عدد من دارسي
ذلك الفكر. ومن أجل مزيد بيان، نقول إن هنالك، بصفة

عامة، كيفيتين اثنتين سار الدارسون على هدى إحداهما. الكيفية الأولى هي المنحى

(2215/1)

التأريخي الذي يقوم على افتراض ضمني لحركية باطنية من التطور، تطور هو إقدام حيناً وإحجام حيناً آخر، وهو حيناً ثالثاً اضطراب بينهما. والكيفية الثانية هي الأخذ (بعيداً عن التفسير التاريخي والمنحى التطوري) بمبدإ النمذجة (typologie) أو التصنيف في تيارات ومدارس يجتهد الباحث في استخلاص السمات والملامح العامة التي تميز كل تيار أو مدرسة عن غيره من المذاهب دون أن يكون للتاريخ تأثير أو دخل في ذلك التصنيف. وحيث يكون الهم الأول للكيفية الأولى من النظر هو الوقوع على جملة الأسباب التاريخية والشروط الاجتماعية

(2216/1)

والسياسية والاقتصادية التي جعلت ظهور فكر أو نظرية ما أمراً ممكناً، نجد أن الهدف الأسمى عند دعاة الكيفية الثانية يغدو هو استخلاص الثوابت والعوامل

المشتركة التي توجد بين القائلين بفكرة معينة أو مذهب معلوم وإن كان التباعد التاريخي الهائل يقوم بينهم، وإن كانت الشروط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما إليها بين أشخاص ينتمون للمذهب الواحد أو الفكرة الواحدة .وإن كانت تلك الشروط متباينة، لا بل متناقضة. وفي أحاديثنا اليوم اعتدنا أن نطلق على الكيفية الأولى من النظر نعت المنهج الدياكروني أو المسيرة

(2217/1)

الدياكرونية، في حين أننا نصف المنهج الذي تأخذ به الكيفية الثانية من النظر بالمنهج السانكروني.

... الحق أن للمقاربة السانكرونية مزايا جلية وليست المنهجية العلمية المعاصرة سوى إبراز وتدليل على أهمية تلك المقاربة وبرهنة على ما تكتسيه من صفة الإقناع والملاءمة (pertinence) معاً. غير أن التوسل بالمنهج السانكروني لا يكون مفيداً وناجعاً في تسليط الأضواء الكاشفة والضرورية للفهم في كل أنواع الإنتاج الفكري؛ وأحسب أن الدارس، في حال الأخذ بذلك المنهج مفرداً، يظل في حال من القصور عن إدراك بنية الفكر العربي

(2218/1)

الإسلامي المعاصر. والحال أن إقصاء العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإيديولوجية يجعل الفهم مشوشاً مضطرباً والرؤية الواضحة متعذرة.

... يبدو لي أن سبيل الفهم القويم يكمن في الأخذ بمنهجية تجتهد في الجمع بين المسيرتين الدياكرونية والسانكرونية في التحليل والفهم. نوع من التركيب أو المنهج الوسط بين الأخذ بمقتضيات القراءة التاريخية المحض (الاجتهاد في ربط الإنتاج النظري بجملة الشروط الاجتماعية والسياسية والأيديولوجية... التي جعلت ميلاد فكر ما ميلاداً ممكناً). فهي تشرح كيف النشأة وتلقي الأضواء

(2219/1)

على شروط العمل والتطور)، والإفادة من تقنيات تحليل الخطاب بغية استخلاص الثوابت والمكونات القارة، أو الانتهاء إلى رسم المعالم الواضحة لنماذج ذهنية تجتمع فيها جملة من الخصائص القابلة للملاحظة والتسجيل.

... لنحاول الآن النظر في الفكر العربي الإسلامي المعاصر في مجمله، في ضوء هذه المنهجية المقترحة، آخذين بعين الاعتبار قضية "التحديث" من جانب أول، ومسألة "التجديد" من جانب ثانٍ. لنحاول ذلك ونحن نأخذ في القراءة بمصفوفتين (Matrices) أو بشبكتين. نجدنا، إذ نحاول ذلك، أمام قسمة ثلاثية وأمام أطوار ثلاثة

(2220/1)

حاسمة من مراحل تطور الفكر العربي الإسلامي المعاصر. وقد يَجْمُلُ بنا تقديم مزيد بيان بصدد الشبكتين أو المصفوفتين المذكورتين فنضيف أننا قد توسلنا في القراءة بجملة من المؤشرات (Paramètres) في تلك القراءة هي جملة القضايا التي يبدو لنا أنها كانت الأكثر فعلاً في مسيرة الفكر العربي الإسلامي المعاصر مع اختلاف في كيفية تنظيمها وتباين في مستوى أهميتها بالنسبة للمرجعية التي يحيل إليها مفهوم التحديث من جهة ومفهوم التجديد من جهة أخرى. تلك القضايا هي: الإصلاح، العدل، الديمقراطية، المرأة، المجتمع، الوطن،

(2221/1)

الترقي، التقدم، المدنية أو التمدن، الحرية (1).

... 1 ـ الطور الأول من الأطوار الثلاثة الحاسمة في سيرورة الفكر العربي الإسلامي المعاصر هو ذلك الذي تواضع الباحثون على نعته بعصر النهضة، أو اليقظة العربية أو الصدمة الناتجة عن إعادة اكتشاف الذات من خلال اكتشاف "الآخر"

(1) سعيد بنسعيد العلوي، "مفهوما الأمة والوطن في التداول العربي المعاصر"، ضمن المؤلف الجماعي الأمة والدولة والاندماج في الوطن العربي، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية ومعهد الشؤون الدولية، 1989، بيروت، الجزء الأول، ص. 139 وما بعدها.

(2222/1)

أو إعادة اكتشافه بالأحرى. إنه مرحلة وعي الانحطاط أو التأخر عن ركب الإنسانية المتقدمة، وهو الذي نعته مفكرو النهضة أو "دعاة الإصلاح" بالتأخر المزدوج: تأخر المسلمين عموماً، والعرب خصوصاً، عما كانوا عليه في العصر الذهبي الإسلامي. وتأخر عما بلغته الإنسانية المتقدمة في الغرب الأوروبي. هذه المرحلة أو الطور من

النظر امتد، عملياً، من أربعينيّات القرن التاسع عشر إلى السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الثانية (منتصف الثلاثينيّات من القرن العشرين). في هذا الطور كانت المفاهيم الأكثر بروزاً هي مفاهيم

(2223/1)

العدل/ الظلم، الشورى (الحرية)/ الاستبداد، التقدم/ التأخر، المدنية/ الانحطاط وكان الجدل الفكري بين دعاة الإصلاح أو "النهضة" - على اختلاف مشاربهم - جدلاً حول أسباب "تأخر المسلمين وتقدم غيرهم"، وجدلاً حول جدوى أو عدم جدوى أن نَقْتَبِسَ من أوروبا ما هو كفيل بإفادتنا في مجاوزة واقع التأخر والانحطاط، وجدلاً حول المرأة والصورة التي يلزم أن تكون عليها في الواقع العربي الإسلامي، وجدلاً حول موافقة الإسلام أو عدم موافقته للمدنية والتقدم، وجدلاً في معنى الاجتهاد الحق في الإسلام، ودعوة عند "زعماء الإصلاح"

(2224/1)

إلى العودة، بالإحياء والدرس، إلى نصوص عبد الرحمن ابن خلدون، والشاطبي، والماوردي، وابن مسكويه، ودعاة العقل جميعهم. وإذا كان من الضروري، في هذه العجالة، أن أؤشر على بعض الكتابات والنصوص، فإنني أذكر ما كان منها الأكثر فعلاً وأثراً فأعد: مجمل كتابات محمد عبده وجداله مع فرح أنطون من جهة أولى، ومع هانوتو من جهة ثانية ("الإسلام والمدنية"، "الإسلام والرد على منتقديه"). وأنبه إلى قيمة مقدمة كتاب الشاطبي "الموافقات". في نشرة الشيخ دراز. وأعد عبد الرحمن الكواكبي في "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"

(2225/1)

خاصة، كما أعد الكاتب المصري قاسم أمين في كتاب "المرأة الجديدة"، والتونسي الطاهر الحداد في كتابه "امرأتنا بين الشريعة والمجتمع"، والمغربي محمد الحجوي في بحثه "تعليم الفتيات لا سفور المرأة"(1). وأعد، إلى جانب هذه النصوص، كتابات الرحالين العرب رفاعة رافع الطهطاوي ("تخليص الإبريز في تلخيص باريز")، أحمد فارس الشدياق ("الساق على الساق"، "الواسطة في أخبار مالطة")، محمد الحجوي ("الرحلة الأوروبية") (2)

---

(1) سعيد بنسعيد العلوي، الاجتهاد والتحديث... (سبقت الإشارة إليه)، ملاحق النصوص المرفقة بالكتاب.

(2) محمد الحجوي، الرحلة الأوروبية، نص ملحق بكتابنا "أوروبا في مرآة الرحلة"... (سبقت الإشارة إليه)، ص. 103 وما بعدها.

(2226/1)

. وأذكر هذه النصوص على سبيل الاستشهاد لا الحصر.

... 2 .الطور الثاني من أطوار الفكر العربي الإسلامي المعاصر يمتد من مطلع الثلاثينيّات (بل ونهاية العشرينيّات في بعض الأحيان) إلى السنوات الأخيرة من العقد السادس من القرن العشرين .وهذا الطور أغنى الأطوار الثلاثة من حيث وفرة التيارات الفكرية والاختلافات المذهبية، واحتدام الصراع بينها. إنه طور سمته الغزارة في الإنتاج واتساع الإنتاج النظري ليشمل مختلف أقطار الوطن العربي على وجه التقريب بعد أن ظل، في الطور الأول، إنتاجاً أغلب وطنه مصر والشام إلا ما

(2227/1)

كان من أصوات قليلة، متفرقة، في منطقة المغرب العربي. كما أن هذا الطور يواكب مرحلة تاريخية حاسمة في التاريخ المعاصر للوطن العربي: إذا كان الاستعمار الغربي (بأشكاله المختلفة من احتلال مباشر وحماية وانتداب) قد امتد ليشمل مختلف ربوع العالم العربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر والعقدين الأولين من القرن العشرين، فإن هذا الطور قد شهد بداية التحرر الوطني واسترجاع الاستقلال... وحركة استعادة الحرية المغتصبة، في الوطن العربي، ملأت العقود الثلاثة التي أعقبت نهاية العقد الثاني من القرن العشرين. ومن

(2228/1)

الطبيعي أن هذا الزخم في الأحداث، من جهة أولى، وظهور أشكال جديدة من تمثل الفكر الغربي بمختلف تياراته السياسية والفلسفية والإيديولوجية، من جهة ثانية، وما عرفته الإنسانية من رجة في صفوفها بسبب الحرب العالمية الثانية وما سبقها وما مهد لها ثم ما أعقبها من نتائج، وكذلك تنامي المد الشيوعي في أوروبا الوسطى من جهة ثالثة، كل هذا كان له فعله في انبثاق

أشكال من الوعي الإيديولوجي وظهور تيارات فكرية . سياسية كان عنها حدوث تغيير في الخارطة الثقافية في الوطن العربي. وقد يجوز لنا، في معرض الإجمال والإشارات

(2229/1)

الكلية هذه، أن نقول إن أهم تلك التيارات في الوطن العربي (في هذا الطور الثاني الذي ينحصر بين الثلاثينيّات والستينيّات) هي في زعمنا تيارات أربعة أساسية نوجز الإشارة إليها على النحو التالي:

... أ ـ تيار وطني ـ فكري، هو صدى وبلورة طبيعية لحركات التحرر الوطني في العالم العربي... إنه تيار له تجليات فكرية متنوعة، في هذه البلاد أو تلك من الوطن العربي. بيد أن ثوابته ومكوناته الأساسية تظل واحدة؛ فهي محكومة بالمنطق نفسه ، وخاضعة لأثر العناصر الواحدة المكونة(1)

---

(1) "مفهوما الأمة والوطن"، سبقت الإشارة إليه.

(2230/1)

.

... ب ـ تيار قومي عربي أو عروبي: يضطرب بين التوجه الإسلامي الواضح والمنحى العلماني والتوجه الاشتراكي الطوباوي؛ كما أن في الإمكان أن نميز في داخله بين ما نقول عنه إنه الموقف القومي العربي التقليدي، وما نرى فيه تياراً عروبياً جديداً أو متطلعاً إلى التجديد ومجاوزة الطرح التقليدي القائل بالوحدة العربية الاندماجية وإدانة "الدولة القطرية" والأخذ بنظرية "الإقليم ـ القاعدة"، إلخ.

... ج ـ تيار ليبرالي خجول متردد ومضطرب أمام خصوم من السلفية حيناً، ومن النزعات العروبية (بصوره المختلفة) حيناً ثانياً، ومن

(2231/1)

تيار الاشتراكية الطوباوية حيناً ثالثاً، ومن الآخذين بوجهة نظر المدرسة السوفياتية حيناً رابعاً... تيار ضاع صوته في محاولات عنيدة، فردية في الأغلب الأعم، في الوقوف في وجه مختلف هذه التيارات وامتزج صوته، في بعض المرات كذلك، بصوت الدعوةالوطنية التحررية.

... د .تيار رابع هو ما يصح منا أن ننعته بالمنحى السلفي في دعوته إلى الانفتاح على الغرب الأوربي وإلى الأخذ بما كان عنده صالحاً مفيداً في تنظيم الحياة السياسية.

ذاك ما يمثله عندنا القائلون بأهمية المسألة الدستورية في الحياة الإسلامية .العربية

(2232/1)

المعاصرة، والداعون إلى سلوك طريق الحياة البرلمانية.

والرأي عندي أن هذا التيار يجد ممثلاً له في المشرق العربي هو الشيخ حسن البنا، وفي المغرب العربي هو الأستاذ علال الفاسي. وكل يعكس من ذلك التيار مظهراً ويبين عن اتجاه كان له أثره في الحياة السياسية والفكرية. وقد يكون من الملائم، لموضوعنا، أن نقف عند هذه النقطة وقفة قصيرة.

... أقتبس من مؤسس جماعة الإخوان المسلمين هذه الفقرة، آخذها من إحدى رسائله فأقرأ له:

(2233/1)

... الواقع أيها الإخوان [= الإخوان المسلمون]، إن الباحث حين ينظر إلى مبادئ الحكم الدستوري التي تتلخص في المحافظة على الحرية الشخصية بكل أنواعها، وعلى الشورى واستمداد السلطة من الأمة، وعلى مسؤولية الحكام أمام الشعب ومحاسبتهم على ما يعملون من أعمال وبيان حدود كل سلطة من السلطات، هذه الأصول يتجلى للباحث أنها تنطبق كل الانطباق على تعاليم الإسلام ونظمه وقواعده في شكل الحكم. ولهذا يعتقد الإخوان المسلمون أن نظام الحكم الدستوري هو أقرب نظم الحكم القائمة في العالم كله إلى الإسلام، وهم لا يعدلون به

(2234/1)

نظاماً آخر (1).

... قد يعترض علينا معترض فيقول إننا نقرأ للشيخ البنا في مكان آخر "إن الإسلام لا يعترف بالحدود الجغرافية ولا يعتبر الفوارق الجنسية الدموية، ويعتبر المسلمين جميعاً أمة واحدة ويعتبر الوطن الإسلامي وطناً واحداً مهما تباعدت أقطاره وتباعدت حدوده "(2).

وللمعترض أن يعقب ملاحظاً

---

(1) سعيد بنسعيد العلوي، "المفاهيم السياسية في التداول العربي المعاصر (ملاحظات منهجية)"، مؤلف جماعي، إشكاليات المنهج في الفكر العربي والعلوم الإنسانية، منشورات توبقال، 1987، ص. 19 وما بعدها.

(2) المرجع السابق.

(2235/1)

أن هذا الرأي يتنافى، جزءاً إن لم يكن كلاًّ، مع المسلمات الكبرى للفقه الدستوري المعاصر. ولكن ردنا على الاعتراض هو أن زعيم "الإخوان المسلمين" يظل، في العمق، متضامناً مع مقررات الفكر السياسي الحديث المعاصر القائم على تصور دقيق للدولة وللحياة النيابية في عالمنا اليوم؛ فهو يتنفس في مناخ ذلك الفكر، وبالتالي فهو مؤمن بالتنظيم السياسي المعاصر القائم على الحزبية والحياة النيابية التمثيلية، وعلى الإيمان بالمبدإ الذي يقضي بالاحتكام إلى صناديق الاقتراع في التقرير لوجوب تداول السلطة وانتقالها من جهة إلى

(2236/1)

أخرى وفقاً لما تحكم به صناديق الاقتراع ويحكم به حال الأغلبية.

... أما عند علال الفاسي، فإن الإيمان بالأسس التي تقوم عليها الحياة السياسية في العالم المعاصر أبين وأوضح. ولعل الفكرة تغدو أكثر وضوحاً لدى مؤرخ الفكر متى أمعن النظر في الكيفية التي يحلل بها علال الفاسي طبيعة الصلة التي يراها بين الرابطة الوطنية والرابطة الدينية، ويعرض بها، محللاً، لما انتشر في بداية الأربعينيّات خاصة من الدعوة إلى الجامعة الإسلامية. ولعل من الأنسب لموضوعنا أن نقتبس من كتاب "الحركات الاستقلالية في المغرب العربي" هذه

(2237/1)

الفقرة الدالة عن معالجة علال الفاسي للقضية:

... هذه الأشياء [= دعاوى أصحاب الجامعة الإسلامية، حيث تختفي فوارق اللغة والثقافة والحضارة وبالتالي مقومات الهوية] لا يمكن أن تتحقق في الحكومة المسلمة إلا إذا خضع هذا الاجتهاد الجديد في التشريع لنواب أكفاء ضمن مجلس تختاره الأمة ويصبحون فيها مكان أهل العقد والحل الأولين. ومعنى هذا أنه لابد من اتباع النظام

الدستوري المبني على حكم الشعب بواسطة من يختاره من نوابه الأكفاء. غير أن الوصول لهذه الوسيلة لا يتحقق إلا إذا تحررت البلدان الإسلامية من سيطرة الأجنبي

(2238/1)

المادية والمعنوية. ولذلك فالعمل على الاستقلال شرط أساسي لاكتساب الحرية التي لابد منها لتحمل المسؤولية (1).

... أمر آخر يعكس، عندي، الصورة الإيجابية في المنحى السلفي في هذا التيار الرابع: ذلك هو الدعوة إلى الأخذ بما تقضي به "مقاصد الشريعة الإسلامية" والرجوع إلى الفكر المقاصدي بهدف إحيائه وتفعيله في الحياة العاصرة للمسلمين في عالم اليوم. وإذا كنت أجد أن المجال لا يتسع لي، في هذه العجالة، للتوسع في هذه النقطة مع أهميتها وخطورتها في الفكر

---

(1) علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي.

(2239/1)

العربي الإسلامي المعاصر، فإنني أود أن ألمح إلى اجتماع سمات قوية لمدرسة فكرية قوية، وجدت في منطقة المغرب العربي مناخاً ملائماً وتربة صالحة لنموها وتطورها، هي المدرسة التي أسميها بالمدرسة الشاطبية المعاصرة والتي يتصدرها،
دون مدافع، كل من الشيخ ابن عاشور في تونس والمفكر المغربي علال الفاسي في المغرب... والتي تستدعي طبيعتها وخطورتها إفرادها بدراسة توضيحية مفصلة(1).

(1) حاولت البعض وعملت على توجيه بعض الباحثين في هذا الاتجاه: بادو، الحسني، الصولبي، بلقزيز . . .

(2240/1)

... 3 ـ أما الطور الثالث من أطوار الفكر العربي الإسلامي المعاصر، فإنني أجد له، إسوة بجمهرة دارسي الفكر العربي المعاصر، بداية رمزية في التاريخ الذي أعقب هزيمة يونيو 1967. ذلك بأن تلك الهزيمة لم تكن إضاعة لمناطق شاسعة من الوطن العربي بقدر ما كانت إدانة لاختيارات سياسية وتوجهات إيديولوجية وسمت

الوجود السياسي والفكري في منطقة من أشد مناطق العالم مدعاة إلى الصراع الإيديولوجي وإلى التسابق من أجل بسط الهيمنة على مقدرات عظيمة من ثروات الإنسان العربي والفرد المسلم في العالم. وحيث إن لتاريخ الفكر منطقه

(2241/1)

الذاتي الخاص به والذي يقضي باتخاذ بعض النصوص قيمة "رمزية" هائلة ويجعلها مؤشراً على إحداث نقلات أو الإيذان بإحداث تحولات في مستوى الفكر والإدراك، حيث كان الأمر كذلك، فإن الفكر العربي الإسلامي ـ المعاصر خاصة ـ لا يشذ عن هذه القاعدة ولا يبتعد عن هذا المنطق. وبكيفية مباشرة، أزعم لنفسي (ولعل آخرين كثيرين يشاطرونني ذلك) أن كتيباً صغيراً قد استطاع أن يستوعب كل العناصر الدالة على حدوث النقلة، أو الإشارة إليها، في مستوى التصور والإدراك: "معالم في الطريق" لمؤلفه الشيخ سيد قطب. لغة نارية ونظر قطعي صارم في

(2242/1)

الحكم على وجود المسلمين في عالم اليوم:

... نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم. كل ما حولنا جاهلية: تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم [...] حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، ومراجع إسلامية، وفلسفة إسلامية، وتفكيراً إسلامياً... هو كذلك من صنع هذه الجاهلية.

... كل مظاهر هذه "الجاهلية" وتجلياتها تقوم، حسب سيد قطب، على أساس واحد: "الاعتداء على سلطان الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية... وهي الحاكمية". مصدر "الجاهلية" التي تعيش فيها المجتمعات البشرية، بما

(2243/1)

في ذلك المجتمعات الإسلامية بطبيعة الحال، هو هذا الخلط في الأذهان الذي يعمل على إلحاق خاصية إلهية بالإنسان. هو كذلك خلط إذ يجعل للبشر الحق في الحاكمية "فتجعل بعضهم لبعض أرباباً، لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهلية الأولى، ولكن في صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم والقوانين

والشرائع والأنظمة والأوضاع بمعزل عن منهج الله وفيما لم يأذن به الله "(1).

---

(1) سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق، د. ت.

(2244/1)

... لا أمل في الابتعاد عن هذه السقطة، ولا سبيل إلى الخروج من هذه الحال الغريبة عن الإسلام وما يليق بأهله إلا بإعلان القطيعة مع الغرب كلية: نظمه السياسية والاجتماعية والفكرية. وحيث كانت قضية السلطة وتنظيمها وتداولها مسألة محورية في الفكر السياسي الحديث والمعاصر، وكانت مسألة "الديمقراطية" والدعوة إليها والارتكان إليها والتعلق بالأسباب الموصلة إليها والدالة عليها هي الواجهة في العمل السياسي...، فقد كانت لمن سار من مفكري الإسلام المعاصر العرب في إثر دعوة صاحب "معالم الطريق" آراء وأفكار تتأرجح

(2245/1)

وتضطرب في التقريب بين الديمقراطية (عنوان الفكر الحقوقي الغربي المعاصر) وبين الشورى (ما به قوام الوجود السياسي في الإسلام المرجعي). ومن أجل تبين صورة تقربنا من هذا الفكر الإسلامي العربي الذي أعقب دعوة الشيخ سيد قطب، أقترح أن نفسح المجال للإنصات إلى أصوات ثلاثة من الدعاة البارزين في هذا التيار. نختار هذه الأصوات الثلاثة من جهة التنوع الجغرافي الذي يمثلون به مناطق مختلفة من الوطن العربي، ومن جهة التركيز على مظهر من مظاهر التناقض والتعارض بين الفكرين الإسلامي والأوروبي.

1 ـ الداعية المصري:

(2246/1)

... يرى القرضاوي أن في "الليبرالية الديمقراطية" (وهو شديد الحرص على الجمع بين المفهومين) جانباً إيجابياً، بل لعل أفضل جوانب الليبرالية الديمقراطية (...) هو جانبها السياسي الذي يتمثل في إقامة حياة نيابية يتمكن فيها الشعب من اختيار ممثليه الذين تتكون منهم "السلطة التشريعية" في البرلمان وفي المجلس الواحد أو المجلسين. وهي كذلك، لأنها، من حيث النظر، "طيبة ومقبولة من الوجهة الإسلامية". ولكنها لا تكون

كذلك من حيث العمل لأنها تغفل تقييداً ضرورياً أولاً هو أن "الأمة مصدر السلطات في حدود شريعة الإسلام"؛

(2247/1)

كما تهمل أمراً ضرورياً ثانياً هو "أن يكون في المجالس التشريعية هيئة من الفقهاء القادرين على الاستنباط والاجتهاد". ولكن ما يحدث في بلاد الإسلام، تلك التي تقول بالديمقراطية، هو "أن النظام الديمقراطي لم يشترط شيئاً من ذلك، رغم النص في الدستور على أن دين الدولة هو الإسلام".

... يستنتج الشيخ من ذلك أن "الليبرالية الديمقراطية" لا يمكن أن تصادف شيئاً آخر غير الفشل والخيبة في بلاد الإسلام. و"السبب الأول (...) هو أننا، نحن المسلمين، لا نؤمن بها ولا بشرعيتها ولا نمنحها من رضا ولائنا واحترامنا، بل نؤمن أعمق

(2248/1)

الإيمان أن الليبرالية الديمقراطية نظام قاصر ككل الأنظمة التي يضعها البشر لأنفسهم بعيداً عن هدى الله

ونوره". وهي تفشل ثانياً لأنها "مذهب مستورد من أرض غير أرضنا وقوم غير قومنا لهم عقيدة غير عقيدتنا، وقيم غير قيمنا". قد تكون "الليبرالية الديمقراطية" حسنة في ذاتها (وهي عند القرضاوي أفضل من غيرها من المذاهب الغربية، والماركسية خاصة، بالرغم من العيوب التي تشوبها)، ولكنها تظل، في حالة المسلمين وبلاد الإسلام، قبيحة وبعيدة عن الوفاء بالقصد الذي يبلغه "الحل الإسلامي". لكن الحق أن العيب يكمن فينا في

(2249/1)

خاتمة المطاف: ذلك بأن في هذه الديمقراطية جانباً مضيئاً لم نستطع أن نطوره بما يلائم ظروفنا وأوضاعنا، ولم نضع له من الضمانات التي تحقق مجتمع "الشورى" الحقيقية التي جعلها الله صفات المؤمنين في كتابه وجعلها عنوان سورة من القرآن: {وأمرهم شورى بينهم}... وأمر بها رسوله وكل من يقوم بأمر الأمة من بعده {وشاورهم في الأمر} (1).

2. الداعية السوداني:

---

(1) يوسف القرضاوي، الحلول المستوردة وكيف جنت على

أمتنا، مكتبة وهبة، الطبعة الرابعة، 1988، القاهرة، ص ص. 68 ـ 69.

(2250/1)

... يقرر حسن الترابي أن الحديث عن "الشورى والديمقراطية" يطرح، أول ما يطرح، قضية اللغة من حيث هي أداة تملك أن تيسر الاتصال والتفاهم بين الناس كما قد تكون مدعاة للتنافر وسوء التفاهم. فالحديث في المسألة يثير بالتالي "إشكالات المصطلح والمفهوم" (وذاك عنوان فرعي لمحاضرة عنوانها "الشورى الديمقراطية". والرأي عنده أن للكلمة (متى كانت مفهوماً دالاً) أبعاداً اجتماعية وحمولة عاطفية أخلاقية لا تنفصل عنها: "فكلمة الديمقراطية مثلاً تصاحبها في خاطر السامع جملة من المعاني تتصل بالصورة والقيم التي لازمتها عبر

(2251/1)

الأطوار التاريخية (...). فالمتحدث عن الديمقراطية لا يجردها لتقتصر على معناها في معجم اللغة، بل يصطحب

كل هذه المعاني أو ما شاء منها". والحكم ذاته يصدق على الكلمات التي نشأت في بيئة إسلامية. ومن الناحية المبدئية، وفي سياق الكلام عن نظام الحكم الإسلامي، يمكن أن نتناول الكلمة المقابلة وهي "الشورى". لكن الأمر يستدعي احتياطاً منهجياً يلزم الأخذ به منذ البداية كذلك: ذلك هو أن "الأدب الإسلامي السياسي الحديث" أضفى على كلمة "الشورى" مضامين جديدة لم تكن لها في كتب الفقه القديمة. وأما تفسير ذلك عند الترابي،

(2252/1)

فهو أن "الممارسة السياسية الشورية لم تكن واسعة ولا ذات خطر في التاريخ الإسلامي". فهل تجيز لنا هذه الملاحظة أن نقول إن ما نقصده بالحديث عن "الشورى" في منطوقها الإسلامي وفي معناها الحديث الذي لم يكن لها في السابق هو ما تفيده كلمة "الديمقراطية" في دلالتها السياسية المعاصرة؟

... يسلم الترابي، من حيث دلالات "المعاني والمقاصد"، بإمكان المقابلة الاصطلاحية بين "الشورى" و"الديمقراطية". يجيز هذه المقابلة لسبب يرجع إلى حال

الإسلام اليوم، حال تجاوز "مرحلة غربة الإسلام وغلبة المفاهيم الغربية بكل مضامينها

(2253/1)

وظلالها". فالمسلمون اليوم في حال التلقي الإيجابي الفاعل. "فلا بأس من الاستعانة بكل كلمة رائجة تعبر عن معنى وإدراجها في سياق الدعوة للإسلام ولفها بأطر التصورات الإسلامية". ولكن التسليم يظل، مع ذلك، مقيداً بشرط أساسي: شرط الدين أو التدين وما يقتضيه من الحضور الدائم للمسؤولية الفردية "لكل فرد خاطب على قدر وسعه بتكاليف الدين (...) ثم يأتي يوم القيامة ربه فرداً (...) فهو لا يسأل مع أسرته ولا مع حزبه (...) ولا مجال لأن نذوب الأفراد في فرد حاكم (...) ولا حتى أن نضم الناس كتلة واحدة صماء ونسميهم الشعب وتمارس

(2254/1)

المسؤوليات السياسية باسمهم الإجمالي".

... ألا يعني التقييد المتقدم إعلان القطيعة والفراق

بين "الشورى" من جهة و"الديمقراطية" من جهة أخرى؟
أليس يترتب على موقف الشيخ الترابي رجوع إلى
المواقع الأصلية ونبذ تام ومطلق لمفهوم الديمقراطية
وتشبث بكلمة الشورى دون غيرها في الحديث عن
"الجماعة" وعن "المشاركة"؟
... الحق أن في كتابة الترابي ما يجعل الجزم السهل أمراً
صعباً. فموقفه من هذه الناحية متميز عن موقف
القرضاوي كما عرضنا له سابقاً، كما أننا سنتبين
اختلافه عن موقف الشيخ عبد السلام ياسين كما سنراه
في

(2255/1)

الفقرة المقبلة. ذلك بأن الزعيم السوداني يميز بين
"الديمقراطية الغربية وبين الشورى والديمقراطية في
السياق الإسلامي"، كما يميز بين "ديمقراطية الشورى"
و"ديمقراطية الغرب". فهو بالتالي لا يتحفظ مطلقاً في
استعمال مصطلح "الديمقراطي" كما يفعل الآخران.
... يبقى مع ذلك أن الزعيم السوداني الإسلامي يعدد
جملة فروق بين النظامين أو بين "الديمقراطيتين".
أولها "أن الديمقراطية في المفهوم العربي يمارس
غالباً في سياق حكم لا ديني (...) ولا مجال بالطبع في

الإسلام لحكم شعبي منقطع عن معاني الإيمان "؛

وثانيها "أن الشورى

(2256/1)

في الإسلام ليست ممارسة سياسية معزولة، وإنما هي نظام حياة: فهي في الشعائر وفي الأسرة وفي الجوار وفي المجتمع وفي المعاملات الاقتصادية وفي العلم وفي السياسة"؛ وثالثها "أن السيادة في الديمقراطية الغربية تسند في النظرية الدستورية إلى الشعب (...) ومفهوم السيادة الشعبية هو ذات المعنى الذي ننسبه في الاعتقاد السياسي الديني إلى الله من حيث صفة الإطلاق"؛ ورابعها "أن ديمقراطية الشورى أدعى لضمان وحدة المؤمنين من ديمقراطية الغرب: فالنهج الليبرالي في الديمقراطية أحال إرادة الشعب إلى إرادة الأغلبية ولم يترك

(2257/1)

للأقلية إلا أن تتربص في المعارضة وتصبر (...) ولكن المنهج الإسلامي يقوم على روح الإجماع لا المغالبة "(1).

3 ـ الداعية المغربي:

... يستنكر الشيخ المغربي عبد السلام ياسين (زعيم حركة "العدل والإحسان")، كل قول يحاول الجمع بين الديمقراطية والإسلام في مقام واحد "أي تناقض هذا: "ديمقراطية إسلامية" أو "إسلام ديمقراطي"! رِجْلٌ هنا ورِجْلٌ هناك؟"!. إنهما لا

---

(1) حسن الترابي، "الشورى والديمقراطية، إشكالات المصطلح والمفهوم"، ضمن كتابه نظرات في الفقه السياسي، الشركة العالمية لخدمات الإعلام، الخرطوم، د. ت.

(2258/1)

يجتمعان، لأن العلاقة الوحيدة الممكن قيامها بينهما هي علاقة التنافر والإقصاء المتبادل. لذلك يخطئ من يساوي الديمقراطية بالشورى: "من المسلمين من يقول: الديمقراطية غنيمة ومكسب للإنسان، هي المخرج لا غيره وهي أخت الشورى الإسلامية ورديفتها وجنسها ـ وقد تكون الشورى مكملة للديمقراطية". مثلما يخطئ من يقول برأي يدفع فيه بالديمقراطية ويبعدها عن

الإسلام إلى درجة يوحدها مع الكفر أو يقربها منه: ‘‘ومن الإسلاميين من يصرح أن الديمقراطية كفر، وفي ساحة الجدل يصرخ بذلك ويصر عليه ويغضب له. وقد يتنازل فيقبل "أن

(2259/1)

الديمقراطية إن لم تكن كفراً فهي أخت للكفر" (...) ليست الديمقراطية نقيض الكفر، إنما هي نقيض الاستبداد. نقيضُ الكفر الإيمانُ’’. يخطئ الأول، لأنه يطلب القياس في مجالين لا جامع بينهما: فللشورى وللإسلام مرجعيتهما، مثلما أن للديمقراطية مرجعيتها. ويخطئ الثاني، لأنه يخلط بين حالين هما الكفر والاستبداد من جهة أولى، ولأن قسمته هذه قد تحمله على قبول المستبد، إذ يعلن إسلامه، ورفض العادل إن كان غير ذلك: ‘‘فإن وقف عملنا عند معادلة ديمقراطية = كفر، فيكون بجانبها إيمان = استبداد. وإذن فنحن مع كل مستبد يقول أنا

(2260/1)

مسلم ضد كل حر يقول أنا ديمقراطي". وهذا من جهة ثانية. فما الرأي الصواب؟

... يجيبنا الشيخ ياسين بأنه لا جدال في معنى الديمقراطية في معناها الحرفي ودلالتها المباشرة (حكم الشعب نفسه بنفسه)، فلا خوف من ذلك؛ بل على العكس من ذلك "هذا ما ندعو إليه ولا نرضى بغيره، على يقين نحن من أن الشعب المسلم العميق الإسلام لن يختار إلا الحكم بما أنزل الله، وهو الحكم الإسلامي - وهو برنامجنا العام وأفق مشروعنا للتغيير". فإذا تساءلنا: فما وجه الإشكال إذن في قبول الديمقراطية وتقييدها بنعت الإسلام أو الإسلامية. أليس يكفي

(1/2261)

ذلك التقييد، مقدمة، لبسط أوجه افتراق الشورى عن الديمقراطية (على نحو ما فعل حسن الترابي مثلاً)؟

والجواب عند الشيخ ياسين نفي جازم. وتعليل ذلك يكمن في معرفة أمرين اثنين: أ) الفروق الواضحة بين "الديمقراطيين في بلاد الديمقراطية" و"الديمقراطيين في بلاد الإسلام"؛

ب) الأسباب العميقة التي تمنع قيام الديمقراطية في بلد دين أهله الإسلام. فلنقف برهة عند حديث ياسين في

كل من النقطتين على حدة.

... أ ـ صورة الديمقراطية في "بلاد الديمقراطية" :

(2262/1)

... تعايش بين الأحزاب وتهارش ونقد متبادل ومعارضة ترصد أغلبية في الحكم وفريق متحالف ينتظر ساعته ليسقط الحكومة وتداول على السلطة وحرية للصحافة مضمونة (...) ودستور قعدته الأيام بتجاربها المرة الطويلة (...) إنه نظام استقرار على علاته (...) لها من المرونة، رغم شيخوختها، ما يقويها على تجاوز الأزمات السياسية (...) وهي آخر الأمر هناك أهون الشر وقوام المجتمع.

أما الديمقراطية في بلاد الإسلام، فالشأن فيها مغاير:

... يحيلها بكل زينة وفضيلة أنصارها والدعاة المتعطشون إليها المستجيرون بها من الاستبداد التقليدي العتيق

(2263/1)

أو الانقلابي الطارئ (...) كما يهفو قلب المؤمن إلى الجنة ويتركز طموحه على نعيمها كذلك تهفو أفئدة السياسيين، المحترفين منهم والمناضلين اللاييكيين، إلى الديمقراطية بما هي حرية وحقوق إنسان وتداول على السلطة وباب مفتوح على الرئاسة. وينحشر مع الجوقة الديمقراطية المرتزقة الانتهازيون الطفيليون الذين يجدون في أنظمة الصنائع المناخ المناسب..

فهي، في كلمة واحدة، تجمع ذوي الأغراض المختلفة وغالباً ما ينتفي فيها الشرط الأخلاقي فهي لذلك تظل هشة عرضة للإحاطة بها تبعاً لهوى الحكم. وهذا ما يكرر ذكره الشيخ وهو

(2264/1)

يستعيد، بتعابير مختلفة، ما وقع في التجربة الانتخابية التعددية الأولى في الجزائر: "ما فعله أدعياء الديمقراطية وربائبها في الجزائر بالإسلاميين حين استعدوا عليهم الدبابات وهاجموهم في الشوارع (...) بعد أن توجتهم الديمقراطية وصوت عليهم الشعب وأعلنت عن نجاحهم صناديق الاقتراع الشفافة". ثم إن هنالك أمراً ثانياً يميز "الديمقراطية في بلاد الإسلام"

عند الشيخ ياسين: فحيث تفيد في "بلاد الديمقراطية" معنى واحداً تؤول إليه، فهي إتاحة لحرية التعبير وهي احترام لما يكون عن تلك الحرية والتزام بما تقرره إرادة الشعب

(1/2265)

فإنها تصبح في "بلاد المسلمين" أصنافاً وألواناً. ‘‘فديمقراطية موجهة، وأخرى مقننة، والثالثة مطبوخة وغيرها مراقبة .أضافوا في الجزائر إلى الأصناف المجيدة ديمقراطية مشروطة، شرط صحتها أن لا تفرز اختياراً غير لايكي عصري قومي وطني. ويل لها إن عصت وأخلت بالشرط’’!. وأخيراً، فإن هنالك أمراً ثالثاً يرجع إلى حسن الأخلاق والصراحة في الاعتقاد والقول في "بلاد الديمقراطية"، في مقابل انعدام ذلك كله في "بلاد الإسلام". وتلك نقيصة تتعلق بالطبقة المثقفة أو النخبة: ‘‘تختار النخبة طريق الديمقراطية عن وعي وسابق نظر، ثم

(1/2266)

تدلس هذه البضاعة المستوردة". هي تدلس، كما يفعل التاجر الغشاش لأنها لا تقول للناس "إن الديمقراطية جسم روحه اللاييكية، أي الانفصال عن الدين وعزل الدنيا عن الساحة العامة". ودعاة الديمقراطية يدلسون، لأنهم لا يبينون للناس أن شرط الديمقراطية أن "لا نحكم بشرع الإسلام في برلماننا وسائر مؤسساتنا إلا كما تتمتم تعويذات في بدء المناقشة وختامها، تعمية وعادة ونفاقاً، والجد هو ما يقال ويقرر بقطع النظر عن الإسلام".

(2267/1)

... بـ .هذا "التدليس" من قبل نخبة أو السكوت عن حقيقة أن "اللاييكية هي إجمالاً فصل الدين عن الدولة (...) واللاييكية لصيقة الديمقراطية وضجيعتها ووجهها وقفاها ولازمتها". كما يقول زعيم "جماعة العدل والإحسان" .هو السبب الأصلي العميق في استحالة قيام "الديمقراطية الحرة النزيهة اللاييكية" في بلاد الإسلام. ذلك بأن معنى هذه الديمقراطية "يعني في آخر المطاف الحكم بما تهواه النفوس البشرية وتتوحد بالإجماع أو بنصفه وثلثه وأقله عليه". وهذا الحكم هو النقيض المطلق عند من ينشد قيام "دولة القرآن".

(2268/1)

... يتعذر قيام "الديمقراطية" (في معناها الحقيقي، لا المتوهم) في بلاد الإسلام لسبب ثان يتفرع عن السبب الأول المتقدم وينتج عنه بصورة طبيعية: ذلك هو قبول الاختلاف والتعددية من جهة أولى، والقول بأن أساس الاجتماع (أو المجتمع) هو توافق المصالح وائتلافها من جهة ثانية. وفي كلمة واحدة، يتعذر (لا، بل يستحيل) قيام "الديمقراطية الحرة النزيهة اللاييكية"، لأنها تستدعي أمراً ضرورياً، هو قاعدتها. إنه المجتمع المدني:

(2269/1)

... المجتمع المدني لا يسأل عن مبادئه الخلقية ولا عن عقيدته ودينه ولا عن المروءة والفضيلة. يسأل فقط ويجيب عن مصالح الفئات التي يتكون منها وعن المطالب السياسية والاجتماعية والنفعية التي تشد صفوفه (...) المجتمع المدني عبارة عن أحزاب ونقابات ومنظمات ومؤسسات وجمعيات سياسية، مهنية، طلابية، نسوية، جهوية، قروية، بيئية، طبية، رياضية،

خيرية، شبابية، قدماء كذا وكذا (...) والباب مفتوح، فتحته عندهم الحرية بلا حدود، وبالتالي فتحه عندنا دعاة الحرية والمساواة والديمقراطية. الباب مفتوح لمؤسسات ومنظمات ونواد للعراة

(2270/1)

والشواذ وهواة كل ما يخطر على البال، بل المتحررين من كل دين وأخلاق ومروءة.

... إذا تبينا الفروق الجلية بين الديمقراطية "في بلاد الديمقراطية"، وبين الديمقراطية "في بلاد الإسلام"، ثم أدركنا الأسباب العميقة التي تحول دون وقوعها في أرض الإسلام، فنحن نقف على جوهر الاختلاف بين "الديمقراطية" من جهة و"الشورى" من جهة أخرى. إنه الاختلاف القائم بين منظومتين متمايزتين، لكل منهما مرجعيتها ومفاهيمها وحقلها الدلالي. فأما مرجعية الديمقراطية، فهي اللاييكية، والمفهومان الكبيران الفاعلان فيها هما: المجتمع المدني

(2271/1)

(ولربما المجتمع إطلاقاً)، ثم المعارضة. وليس للمعارضة معنى آخر سوى الاعتراض البشري على حكم أكثرية لها برنامج معلوم ورغبات بشرية تسعى إلى إشباعها ومنجزات ترسم لتحقيقها .والاعتراض معناه التربص وتحين الفرصة الملائمة لإزاحة السلطة الحاكمة من أجل الحلول محلها على نحو ما يقضيه معنى التداول. وأما مرجعية الشورى، فهي الإسلام؛ فهي لا تنفك عنه، "والشورى عبادة قبل كل شيء وأمر إلهي وصفة إيمانية تتوج صفات أخرى تتكامل وتتضايف وتتساند. متى انخرمت صفة من تلك الصفات الواردة في سياق الآيات الأربع الكريمة، فسم

(2272/1)

نظامك ما شئت غير الشورى". والمفهومان الكبيران الفاعلان في منظومة الشورى هما مفهوم الجماعة، "جماعة المسلمين" من جهة أولى، ومفهوم "النهي عن المنكر" من جهة ثانية. لا تقوم بين مفهوم "المجتمع المدني" ومفهوم "جماعة المسلمين" سوى علاقة اختلاف ونفي متبادلين: في "المجتمع المدني (...) تقنن قوانينها وتعالج شؤوننا على اعتبار المواطنة في المدينة والتعايش لا غير (...) رابطة تلك المصالح الدنيوية".

وفي "جماعة المسلمين" "رابطة هذا التراحم في الله، والتواصل في الله، والتعامل في الله". قاعدة بناء ومناط تجمعه السياسي"

(2273/1)

(...) من فارقها مات ميتة جاهلية"(1). والمماثلة نفسها تظل، في العمق، صحيحة حين المقابلة بين "المعارضة" (وغايتها إقرار حكم بشري في مقابل حكم بشري آخر) و"النهي عن المنكر" (وغايته إقرار حكم الله وحده وعدم الرضا بحكم غيره).

---

(1) عبد السلام ياسين، حوار مع الفضلاء الديمقراطيين، مطبوعات الأفق، الطبعة الأولى، 1994، الدار البيضاء، ص. 21 وما بعدها.

(2274/1)

التحليل الجغرافي للأراضي

ودوره في إنجاح برامج التهيئة المجالية

... ... الدكتور عبد الله لعويـنة

... ... كلية الآداب – الرباط

لقد توالت على بلدان جنوب البحر المتوسط والشرق الأوسط عدة تجارب تسعى إلى تنمية الأراضي الجافة تنمية زراعية ورعوية تهدف إلى سن أنظمة ريفية مستديمة، في مجالات تتسم بالهشاشة من جهة وبارتفاع الساكنة من جهة ثانية. ومن أهم هذه التجارب تلك البرامج التي أعدتها منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة والتي كان الهدف منها في الوقت نفسه

(2275/1)

البحث عن توازن بين الضغط السكاني وإنتاج الغذاء وإيقاف مسلسل تدهور التربة والغطاء النباتي ...
وضمان النماء المستديم للزراعة في المجالات الجافة على صيانة التربة الجيدة القابلة لخزن الماء مع ضمان إنتاجية مرتفعة، أو تقنيات رعي تحافظ على جودة المراعي وتنوع منتوجها النباتي.
ويتضح من خلال فحص مناهج البحث المختلفة أن المنهاج الجغرافي يتميز باستجابته لرغبات التهيئة المجالية، وذلك لشموليته. وهذا ما سوف توضحه هذه الورقة.
التحليل المجالي للأراضي : خرائط المؤهلات والخريطة البيئية

(2276/1)

لتهيئة إقليم، من الواجب معرفة مؤهلاته، أي جرد موارده وتحديد إمكاناته وتوزيع هذه الإمكانات مجاليا. والأداة المستعملة عادة لهذا الغرض هي كرطوغرافية الموارد والمؤهلات.

والطريقة المتبعة تنبني على تطابق خرائط مجالية متعددة لكل واحدة موضوعها الخاص ومنها تستخرج خريطة مركبة تدعى " خريطة إمكانات الأراضي"، الغرض منها وصف المعلومات الميدانية المتعلقة بالبيئة وإحصاؤها، لإلقاء الأضواء على السياسية اللازم اتباعها في ميدان إعداد التراب الإقليمي والتوعية بمشاكل الوسط والبيئة؛ والقصد منها كذلك إثارة انتباه

(2277/1)

المستصحين إلى الأخطار المحدقة بالتوازنات الحيوية التي كان واجبا الحفاظ عليها.

تمثل هذه الخريطة المعطيات العامة للبيئة من طبوغرافيا وهدرغرافيا وهدرلوجيا ومناخ. وتكون المنشآت عنصرا أساسيا في المحيط البشري. إضافة إلى

المجالات المحروثة، المجالات الخضراء. وهذا القسم من الخريطة وصفي محض، وهو عبارة عن إحصاء لمجموعة من المعلومات حول المنطقة. أما القسم الثاني، فيهتم بدينامية البيئة، أي بالتطورات الحالية التي من شأنها تغيير معالم البيئة. ولهذا فهو أكثر ارتباطا بإمكانات التدخل البشري؛ إذ يشير بكيفية

(2278/1)

مضبوطة إلى عناصر حركية بعضها طبيعي وبعضها مرتبط بالاستغلال أو الإصلاح البشري.

– آليات تدهور سطح الأرض : منها ما هو طبيعي محض أو ناتج بصفة مباشرة عن التدخل البشري (تعرية مائية – نهرية، غابات مريضة أو محرقة) ومنها ما هو محدث من طرف الإنسان كالمزابل أو المقالع.

– تلوث الماء : ويرمز إلى المجرى المائي أو إلى السواحل كما يشير إلى التيارات التي يتبعها التلوث وإلى مواطن التلوث ومصادره (معامل – مزابل – أسمدة كيماوية – مبيدات فلاحية).

(2279/1)

– الوقاية وإصلاح البيئة : تمثل الخريطة كل التدخلات التي من شأنها وقاية الوسط أو إصلاحه، من محاربة للتدهورات الطبيعية (كبناء جسور ضد التعرية البحرية أو النهرية) ووقاية للمآثر التاريخية وأخيرا محاربة التدهورات المحدثة التي يتسبب فيها الإنسان (محطات تصفية الماء الصناعي – معامل ملوثة وأخرى مجهزة بمعدات تقي محيطها من التلوث المائي أو الجوي). ومن الممكن اعتبار خريطة التكونات السطحية أداة تستجيب للتطلعات السابقة الذكر.

(2280/1)

فتحليل التكونات السطحية يسمح بتوجيه التهيئة الوجهة الصحيحة، كما يساعد على تفادي الأخطاء التي لها عواقب وخيمة. وينبني هذا التحليل على تعريف مؤشرات مرفو ترابية قابلة للتمثيل المجالي :

– سمك التكونات السطحية وموقعها ضمن متتالية ترابية تراعي النوع التضاريسي؛

– تنوع القطاع الترابي الذي يمكن من تحديد مدى تطور هذا القطاع، اعتمادا على مؤشرات كيماوية وعدانية، من بينها التركيب المعدني للرمال،

والتركيب العداني للطين، ونسب العناصر الكيماوية الأساسية، وتطور بعض المكونات الكيماوية النادرة؛

(2281/1)

– المحتوى العضوي للمسكات السطحية ودرجة نشاط المادة العضوية؛

– القطاع المائي للتكونن باعتبار إمكانات التصريف الداخلي لكل مسكة، مع تحديد مستويات تراكم الماء، وما ينتج عنه من تراكم للأملاح أو تغير في الوضع الكيماوي للتربة.

مجموع هذه المعطيات تمثل في خريطة مرفوترابية تعطي صورة دقيقة للبيئة وإمكاناتها (العوينة، 1984 **و** 1993 **)، لكن تبقى هذه الصورة جامدة إذا لم يلحق بها تحليل للميكانيزمات المسؤولة عن تطور السطح. ولذا صار من الواجب أن تكون هذه الصورة حركية.**

التحليل الدينامي

(2282/1)

إن تهيئة السطح تستدعي معرفة الآليات التي تتحكم فيه وفي تطوراته الحالية. فمشاريع التهيئة للأحواض النهرية (أحواض التصريف) قد عمدت إلى اختيار منهاج مضبوط يهدف إلى تحديد التهديدات التحاتية. هذا المنهاج ينبني على وضع خرائط مجالية تحاول تطبيق نموذج "فيشمايير" الذي تتحكم فيه مجموعة من المؤشرات منها ثلاثة مؤشرات طبيعية هي اعتدائية المناخ وقابلية التربة للإزالة، ثم درجة الانحدار وطوله، ومؤشران يرتبطان باستعمال الأراضي ووقايتها.

(2283/1)

وباستخلاص المؤشرات لكل وسط، البعض بالتكميم المباشر والباقي بالقياس، يتم استخراج خرائط موضوعية ومنها خريطة التهديدات التي تضبط هشاشة الأوساط

لكن هذا المنهاج يعتريه إشكالان :

– الإشكال الأول أن هذه خرائط تهديدات ممكنة الحدوث، وليست بالإلزام خرائط الواقع الحالي.

– الثاني أن هذه الخرائط تعتبر سلفا أن القسط الأهم من الإزالة يتم في السفوح، داخل الحقول والمراعي؛ وتتناسى العوامل الأخرى مثل التخديدات المركزة

والحركات الكتلية ودور الأنهار في الإزالة الجانبية التي قد تكون كتلية وذات خطورة قصوى (العوينة

(1/2284)

وآخرون 1993).

وهذه الأشكال المركزة مجاليا والتي قد تمثل القسط من الإزالة ليست خاضعة لطاقة الأمطار ولا لقابلية الأتربة، وليست بالإلزام خاضعة للانحدار كما أن لا علاقة لها باستعمال السفوح؛ بل تخضع لأسباب أكثر تعقيدا، منها الجيولوجية والتكتونية ونوعية التكونات السطحية وتاريخ استعمال الأرض، الخ.

يتضح إذن قصور هذا المنهاج التحليلي المحض، بينما المنهاج المرفوديناميي أكثر اقترابا من الواقع. هذا الأخير يعتمد على مراحل البحث التالية (دونكان وآخرون، 1995) :

(1/2285)

أ- كرطوغرافية حالية للأشكال وتحديد العمليات الدينامية النشيطة والعمليات الخامدة مجاليا، وذلك

بوضع خريطة مضبوطة تستند على الواقع المرئي في تاريخ محدد.

وتفرق هذه الخريطة بين العمليات الدينامية الظاهرة، أي المنفردة في الميدان والمسؤولة عن أشكال سطحية واضحة، والعمليات الخفية التي تتضح فقط من خلال نتائجها على التربة. الأولى تبرز في الخرائط والصور الجوية، بينما لا تظهر الثانية إلا بعد الفحص الميداني الدقيق. وحجم الأولى مقارنة مع الثانية لا يدل على ترتيب في درجة الخطورة بالإلزام. ذلك بأن التعرية

(2286/1)

الكارثية التي تحدثها الخدات المركزة أو النسف القاعدي للمجاري ليست بالإلزام أكثر سلبية من الانجراف البطيء لكن المتردد للسيل السطحي المتفرق. فالأولى تحدث خللا في التجهيزات، وتعمل على تطمية حقينات السدود، بينما الثانية تفقر التربة وتقتلع المسكات السطحية الغنية بالمادة العضوية والمخصبات. كما تفرق هذه الخريطة بين العمليات المرتبطة أساسا بأوضاع طبيعية، وتأثير الإنسان عليها بسيط، وأخرى أصلها – جوهريا – من جراء التدخل البشري. ذلك بأن

الأولى معقدة في طبيعتها، ويصعب التغلب عليها لأنها ترتبط بواقع بنيوي،

(2287/1)

أو بنائي، أو صحاري، والثانية معقدة في أصولها، لأن تدخل الإنسان يحدث ميكانيزمات غير منتظرة، يصعب تداركها من أجل الرجوع إلى الوضع السابق، مثل انطلاق التذرية الريحية وما ينتج عنها من تصحر في المناطق السهلية نصف الجافة، ومثل تمليح الأراضي المسقية ذات التصريف الرديء. وعلى كل حال، فهذه الكرطوغرافيا قاعدة للتدخل، لأنها تشير إلى الديناميات القائمة وتوحي نسبيا بما يجب القيام به لتفادي السلبيات الناجمة عن العمليات الحالية.

(2288/1)

ب – ملاحظة الأشكال وقت نشاطها لتحديد نهج تصرفها، وتحديد خطورتها الفعلية. فالخدات مثلا ليست كلها خطيرة، وليست كلها من أصل واحد؛ بل هي نوعان :

– خدات تنشط بفعل المياه المتسربة، أي تنتج عن

تصريف داخلي لمياه قرب سطحية بسبب النفاذية المرتفعة للتكونات. ووجود إمكانات تحليل باطني لبعض المكونات، أو نقل جانبي للأطيان. وفي هذه الحالة، فإن أي تهيئة تسعى إلى تقوية نصيب التسرب تمثل خطرا إضافيا، بل الواجب تصريف المياه ومنع تراكمها. والتهيئة تقتضي الدفع بالمياه إلى قنوات تصريف سطحية سبق إعدادها وسبقت تقويتها،

(1/2289)

لمنع تعمقها أو توسيع مجاريها.

إلا أن الملاحظة المؤقتة لهذه العمليات غير كافية، لأن الحوادث متنوعة جدا، بالرغم من تشابه مظاهرها، والتطورات متغايرة جدا حسب ظروف نشأتها.

وهذا يعني وجوب التكميم الدقيق في الميدان، الذي يحصي مقادير السيل المائي من جهة ومقادير الإزالة الفتاتية من جهة ثانية. وهنا يجب اقتراح مجموعة من وسائل التقدير البسيطة وغير المكلفة التي تسمح بالوصول إلى تصور فعلي للنشاط البيئيي (العوينة ، 1993 **).**

(1/2290)

فالخرائط المرفوديناميـة تـوجه إذن الأعداد حيث تمكن من تحديد المجالات الخطيرة، بينما التحليلات الميدانية والتكميم يوجهان التهيئة حيث يشيران إلى نوعية الآليات الخطيرة وطرق مواجهتها.

البعد التاريخي

التهيئة تقتضي كذلك معرفة المسلسل لتدهور منطقة، وذلك لتشييد تخطيط مستقبلي، يراعي في الوقت نفسه الشكل الحالي ومسلسل تكوينه. فلا يكفي معرفة المؤهلات ومعرفة الآليات العالمة حاليا، بل من المفيد معرفة كيف وصلنا إلى الوضع الحالي، أي إدماج البعد الزمني.

(2291/1)

فالمتخصصون في الأحياء النباتية لهم منهاج مضبوط لهذا الغرض، هو منهاج خرائط المراحل التراجعية للنباتات الذي يعتمد على الانطلاق من بيئة نباتية ذروية، وملاحظة المراحل التراجعية الموجودة في الميدان، وكذلك على تفسير هذه التطورات بالأسباب المناخية أو المرتبطة بالاستعمال البشري (اجتثاث –

تفاقم استغلال موارد الغابة – إقامة زراعة).

أما المنهاج الجغرافي، فهو يهتم بالتربة واستقرار السفوح التي تحمل هذه التربة. فهناك قطاع ترابي ذروي موروث عامة. والقطاعات الحالية تدهورات تراجعية بالنسبة إليه. هذا المنهاج

(2292/1)

يدمج الإنسان، حيث تحلل مظاهر تراجع الغطاء النباتي وظهور أشكال تحاتية ويتم تاريخ بروزها وقياس تطورها، تبعا لتاريخ ومسلسل استغلال الأراضي واستعمارها.

فمعلوم أن البئية تتأثر بما يدخل عليها الإنسان من تحولات قد تكون جذرية. إلا أن مدى هذا التأثر وخطورته يختلفان :

– فقد حصر دور الإنسان في تضخيم تطورات قائمة ومنتظرة، ذلك يجعلها تكتسب سرعة معهودة في الأنظمة الطبيعية المحضة، فتصبح هذه الأنظمة مفرطة الاعتدائية مختلة التوازنات؛

(2293/1)

– وقد يدخل الإنسان على النظام القائم تحولات قصوى تجعله ينمحي كليا، ليحل محل نظام بيئي جديد، على أثر وقوع أزمة حقيقية متنوعة المظاهر عميقة الأبعاد.

خطورة الآثار البشرية على البيئة ترتبط بمدى قدرة الإنسان والمجتمعات البشرية – في مجال ما وفي وقت ما – على التحكم في القوى التي ينتجها التدخل. يعني هل تلك التجمعات البشرية متطورة بما يكفي لتنتج الوسائل الوقائية المتكيفة مع القوى الطبيعية المستحدثة ، أو أنها تكتفي بالاستهلاك ولا تملك الأدوات الكافية للحفاظ والإصلاح ؟

(2294/1)

والتأثير السلبي للإنسان في البيئة ليس قدرا محتوما، بل هو دليل على وجود خلل اقتصادي واجتماعي – وقد يكون سياسيا كذلك – وقد تكون الساكنة المحلية مسؤولة عنه مباشرة، كما قد تكون أحداث ودوافع خارجية عن المجال، وربما أجنبية تماما، سببا له. الأمر الذي يسمح بتصنيف الأزمات التي تمس البيئة من جراء التدخل البشري، إلى ثلاثة أصناف :

– أزمات سببها الاحتياج والتخلف والبحث عن الرزق، الأمر الذي يدفع الإنسان إلى إنهاك الثروات الطبيعية،

كتمديد المجال المستغل فلاحيا – وبلا وقاية – مثلا ، إلى ما وراء الحدود التي

(2295/1)

تسمح بالحفاظ على توازن المنظومات.

– أزمات ناتجة عن تقدم جبهة احتلال أو تعمير، تدفع بالسكان إلى الهوامش الشهة.

– أزمات من نوع خاص، معهودة في دول البحر المتوسط الأوروبية، وما زالت غير معتادة في الدول العربية، تنتج عن هجرة السكان عن المنشآت الوقائية التي شيدتها الحضارات السابقة، بحيث يصبح السكان الباقون محليا عاجزين عن مداومة الوقاية.

لقد اقتضى تحليل هذه التطورات من الجغرافيين عملا مشتركا متنوع التخصصات، تدخل فيه المهتمون بالطبيعة إلى جانب المهتمين بالعلوم الإنسانية.

والمطلوب فحص المشكل من واجهتين

(2296/1)

: أولاهما تجريبية ، وتعني الملاحظة الميدانية والتتبع والقياس، وهي واجهة يختص بها دارسو الطبيعة؛ والواجهة الثانية تعتبر الماضي أساسا وتهتم بآثار التدخلات التي وقعت في مختلف العهود التاريخية.
والمنهاج الخاص بهذه الواجهة الثانية يعتريه تعقيد كبير، يتلخص في وجوب الفرو بين الديناميات السطحية الطبيعية المحضة، والديناميات التي يعتبر الإنسان أصلا لها. وهو فرز ليس بالهين لسببين :
– لأن الأحداث التاريخية المسؤولة عن هذه الديناميات قلما تكون مضبوطة، وذلك لقلة الوثائق الخاصة بهذا الموضوع ؛

(2297/1)

– ولأن التشابه بين التطورات الطبيعية التلقائية والتطورات المتأصلة عن إيعاز بشري كثيرا ما يكون قويا، والفرق بينهما على مستوى القياس والسرعة لا على مستوى النوع والمضمون.
لذا كان من الواجب العمل على واجهتي التحقيق التاريخي والضبط الدينامي لتطورات السطح للإجابة عن بعض الأسئلة المطروحة ولو جزئيا. فبعبارة أخرى، كان المطلوب تحديد هل مظاهر تراجع النباتات وانجراف

التربة وتصحر مجالات واسعة يمكن نسبتها لفترة مضبوطة من التاريخ ؟ وهل الأحداث التاريخية – التي يجب ضبطها – هي المسؤولة عنها، أو أن أسبابا طبيعية

(2298/1)

عامة تسببت فيها دون تأثير بشري فعلي ؟

والمظاهر الطبيعية التي تثبت دور الإنسان في هذه الأزمات هي :

– أولا : تتبع المسكة السطحية للقطاع الترابي والتي تمتاز باختلافها الواضح شكلا ومضمونا عن المسكات الأخرى، وتحتوي على آثار أركيولوجية تؤكد توضعها أو تطورها في فترة مزامنة لحياة بشرية وتنظيمات اجتماعية يمكن ضبطها.

– ثانيا : ظاهرة انفراد وتشخص خدات أو خدو معزولة فوق سفوح عامة منتظمة ومتوازنة، مما يؤكد حدوث خلل محلي تسبب في تعميق المياه السائلة وحفر السفوح.

وتوافق هذه الظواهر دائما مجالات مجتثة أو

(2299/1)

متدهورة النبات.

– ثالثا : حجم الواردات الفتاتية المنقولة من طرف الأنهار في الفترة الحالية، ومدى خشونة هذه الموارد، إذا ما قورنت برواسب الفترات السابقة من الرباعي.

وتتأكد ضخامة هذه الموارد، إذا ما قيست الموارد المتجمعة وراء السدود المشيدة في النصف الثاني من القرن الحالي.

– رابعا : ظاهرة التصحر التي تهدد العديد من المناطق الهاشمية وتجعلها تتحول إلى مجالات عميقة، بينما يتأكد أن الأسباب المناخية ليست وحدها المسؤولة عن هذه الظواهر، بل المسؤول الأساسي عنها هو السلوك البشري، بتهديمه لتوازنات طبيعية

(2300/1)

هشة جدا.

هذه الظواهر الطبيعية المختلفة، من توضعات سطحية وتخديدات وتصحر، كلها تتطلب أن تضبط وأن تنسب تاريخيا لفترة ما، في محاولة لإيجاد الأسباب الداعية إلى انطلاقها أو إلى تضخيمها. وهذا يقتضي العمل المشترك بين المهتم بالطبيعة من جهة، ودارسي المجتمع والتاريخ من جهة أخرى.

خاتمة – الخرائط البيئية في خدمة أرياف الدول العربية :

في بلداننا يمكن التفريق بين نوعين من الأرياف :

– المناطق القروية الكثيفة السكن : هي المناطق حيث الغلبة للمجالات الزراعية، حث الكثافة البشرية عالية وحيث توجد بعض المراكز

(2301/1)

الحضرية. وأغراض الخريطة البيئية في هذا المجال الحفاظ على الثروات و الإمكانات واستصلاح الأراضي وبعث التقدم الاقتصادي والاجتماعي.

وتمثل الخريطة البيئية الوسط الجغرافي والتغيرات المستمرة التي تطرأ عليه. ولذا فمن الواجب إدخال مفهوم الزمن في هذه الكرطوغرافية. إذ أدى التطور التاريخي بالسطح إلى تغيرات هامة جدا. فجل هذه البلدان عرفت الاستعمار في القرن العشرين. وقد كان أثره على البيئة بالغا كما كان على الأنظمة الإنتاجية. والتاريخ القريب يفسر توزيع الكثافات وأنواع الاستيطانات البشرية والاختلافات المحلية

(2302/1)

في البنيات العقارية وطرق الاستغلال. إلا أن نتائج هذه الظواهر التاريخية فقط هي التي تقبل التمثيل الكرطوغرافي، ودور التحليل إظهار الآليات وتقديم التأويلات.

كما أن مفهوم الزمن يقتضي الإشارة إلى التطورات الممكن حدوثها في الحاضر والمستقبل القريب، وذلك عبر تعريف للتوازنات الحيوية وهشاشتها في الغالب.

– المناطق القروية ذات الكثافات البشرية الضعيفة هي المناطق التي احتفظت على عناصر هامة من الغطاء النباتي الطبيعي، وذلك لضعف الاستيطان البشري.

(2303/1)

لذا، يمكن تحضير خرائط البيئة في هذه المناطق بمقاييس صغرى أو متوسطة، مع الاهتمام بالثروات غير القابلة للتجديد.

والعناصر الدينامية الأكثر ترددا في هذه المناطق هي تقدم وتراجع حدود الغابة والمرفودينامية النهرية والريحية والتطورات البشرية (تغيرات في نوعية النظام الإنتاجي) والتطور المجالي للاستغلال.

مشكل الموارد والبيئة في البلدان العربية ليس إذن بسيطا، بل يرتبط بالاختيارات الأساسية وبنموذج النمو الذي يسعى إليه كل من هذه البلدان. فالحفاظ على البيئة ليس أبدا حاجزا أمام النمو، وهو ليس من الكماليات؛ بل

(2304/1)

تحقيقه أساسي ليتم التوازن بين الخيرات والثروات من جهة والنمو الاقتصادي والاجتماعي من جهة أخرى. وفي هذا الإطار يظهر الدور الذي تلعبه الدراسات الجغرافية وكرطوغرافية البيئة على الخصوص بصفتها أداة تعريف بالحقائق وأداة توعية.

بيبلوغرافيا

لعوينة، عبد الله (1984)، **"التمثيل الكرطوغرافي للدينامية البيئية في السهول المتوسطة نصف الجافة. مثال خريطة تريفة"، مجلة جغرافية المغرب، الرباط، العدد الثامن، صص.** 3–12.

(2305/1)

), « Implications spatiales et 1990LAOUINA, A. (
environnementales des transformations socio-
économiques et technologiques dans les
campagnes marocaines, » in Le Maroc, espace
et société, Passauer Mittelmerrustudien,
.181–175, PP. 1Vol.Spéc.

), « La Géomorphologie 1992LAOUINA, A. (
dans les projets de développement intégré au
Maroc », in La Recherche scientifique au
service du développement, Publ. Fac. des
lettres et des Sciences Humaines, Rabat, Série
.298–291, PP . 22Colloques, N°

(2306/1)

LAOUINA, A. CHAKER, M, NACIRI, et NAFFA, R.
), « L'érosion anthropique en pays 1993(
méditerranéen, le cas du Maroc
Bull.Ass. Géogr. . Franç., Paris, ,",septentrional
.398–384, PP . 5

), « Geomorphology in 1993LAOUINA,A. (
Morocco », in The Evolution of
Géomorphology, Edited by H.J. Walker and
.298–291W.E. Graban, Wiley, PP .

DUNCAN, F.M., Mc GEOGOR and DONALD A.
), « Géomorphology 1995THOMPSON, Eds (

and Land Management », in A Chanping
.P 339Environement, Wiley,

(2307/1)

), Hérodote, 1979TRACART, J. et KILLIAN, J. (
.P325Maspéro, Parix,

(2308/1)

التراث العربي في مواجهة المتغيرات الفكرية في القرن الحادي والعشرين

... ... الدكتور خليل عودة
جامعة النجاح الوطنية بنابلس ـ فلسطين

... يشكل التراث ـ بشكل عام ـ مرتكزاً رئيساً في التوازن القائم بين القديم والجديد، ورابطاً فكرياً وثقافياً بين إبداعات الماضي بكل ما فيه من بساطة أو عمق، وفق المعطيات القائمة في ذلك الوقت، وتعقيدات العصر بما فيه من وسائل التقدم العلمي والرقي الفكري.

... وقيمة التراث لا تقاس بالمعطيات الموجودة في الوقت الحاضر، ولكنها تأتي من أصالة التجربة التي أبدعها

(2309/1)

الأوائل، ومهدوا من خلالها لإبداعات الحاضر. وبقدر ما يكون التواصل بين القديم والجديد على مستوى التراث والمعاصرة، تأتي قيمة التراث في رفد الحركة الفكرية وانطلاقها نحو آفاق جديدة من المعرفة والإبداع.

... والتراث بشكل عام لا يمكن التعامل معه مفصولار والعلم والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص قوماً دون قوم، بل جعل الله ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره «(1)

---

(1) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق وشرح د. مفيد محمد قميحة، ط دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، 1403 هـ/ 1983 م، ص. 70.

(2310/1)

.

... فالحديث عن التراث هو حديث عن الوجود الإنساني والحضاري لأمة من الأمم في امتدادها الفكري، وتواصلها المعرفي. وليست القضية في تجريد مفهوم التراث والتعامل معه تعاملك مع فكرة، وإنما يكون التعامل معه من خلال استنباط مفاهيم جديدة ترسخ واقعاً، وتحدد معالم مستقبل، في ظل متغيرات فكرية تفرض نفسها من حيث لآخر على الواقع المعيش.

... والتراث ليس قيمة في ذاته إلا بقدر ما يعطي من نظرية علمية في تفسير الواقع والعمل على تطويره. فهو ليس متحفاً للأفكار نفخر بها، وننظر إليها بالإعجاب، ونقف أمامها في انبهار،

(2311/1)

وندعو العالم معنا للمشاهدة والسياحة الفكرية، بل هو نظرية للعمل وموجِّه للسلوك، وذخيرة قومية يمكن اكتشافها واستغلالها واستثمارها من أجل إعادة بناء الإنسان وعلاقته بالأرض، وهما حجرا العثرة اللذان تتحطم عليهما كل جهود البلاد النامية في التطور والتنمية(1).

... ... والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف تكون عملية توظيف التراث؟ أو بمعنى آخر، كيف يمكن أن نجمع بين التراث والمعاصرة، ونحن على أعتاب القرن الحادي والعشرين؟ هل

---

(1) حسن حنفي، التراث والتجديد، ط دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 1981، ص. 11.

(2312/1)

يكون التعامل مع التراث على أنه شيء مقدس، وأن ما ناسب القدماء لابد حتماً من أن يكون مناسباً لنا؟ أو أن ما توصلوا إليه هو ما ينبغي أن نقف عنده، أو ندور في فلكه على أنه خاتمة المطاف؟

... ... والجواب لا يكون بهذا أو ذاك، لأن التراث يظل تراثاً له ما له، وعليه ما عليه، والفكر الناضج يفرض علينا أن نمحص ما نأخذ، وأن نأخذ ما محّصناه لأن:

... ... الأصل في الفكر .إذا جرى مجراه الطبيعي المستقيم .هو أن يكون حواراً بين "لا" و"نعم" وما يتوسطهما من خلال وأطياف. فلا الرفض المطلق الأعمى يعد فكراً، ولا القبول

(2313/1)

المطلق الأعمى يعد فكراً؛ ففي الأول عناد الأطفال، وفي الثاني طاعة العبيد(1).

... ... ونحن بدورنا نؤكد حقيقة احترام الفكر في تعاملنا مع التراث. ولا يعني الفكر أو إمعان النظر فيه أننا نقلل من قيمته، أو أننا نعيد النظر في ثوابته، أو إعجابه به؛ ولكن هذا الإعجاب لا ينبغي أن يقودنا إلى التقديس»فما أسرع ما يتحول الأمر عند الإنسان من إعجاب بالقديم إلى تقديس له، يوهمه بأن ذلك القديم معصوم من الخطأ، فعندئذ تنسدل

---

(1) زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي، ط دار الشروق، بيروت، ط 5، 1398 هـ/ 1978 م، ص. 30.

(2314/1)

الحجب الكثيفة بين الإنسان وبين ما قد جاءت به الأيام من تطورات في العلم والمعرفة «(1).

... ... ومن أجل تحقيق الفائدة المرجوة من التراث في

مواجهة المتغيرات الفكرية والحضارية التي تتلاحق بشكل متسارع، فإنه ينبغي علينا عدم إقحام التراث بشكل غير مسوغ في قضايانا المعاصرة، وإنما نأخذ من التراث ما يساعد حقيقة في مواكبة هذه المتغيرات التي نعايشها في مختلف مجالات المعرفة، ولا يعني الاهتمام بالتراث مجرد تحقيقه أو إعادة نشره، بل يعني الوعي به أيضاً.

---

(1) المرجع نفسه، ص. 53.

(2315/1)

... فالتراث القديم ليس قضية دراسة للماضي العتيق فحسب، الذي ولّى وطواه النسيان، ولا يزار إلا في المتاحف، ولا ينقِّب عنه إلا علماء الآثار، بل هو أيضاً جزء من الواقع ومكوناته النفسية. ما زال التراث القديم بأفكاره وتصوراته ومثله موجهاً لسلوك الجماهير في حياتها اليومية، إما بعاطفة التقديس في عصر لا يسلك الإنسان فيه إلا مدَّاحاً، أو بالارتكان إلى ماض زاهر تجد فيه الجماهير عزاء عن واقعها المضني (1).

---

(1) حسن فهمي، التراث والتجديد، ص. 13.

(2316/1)

... ... وبناء على ما سبق يكن أن نفهم التراث على أنه جزء هام بين مخزون الأمة الفكري والحضاري، وأنه يشكل اللبنات الأساسية التي يُبْنَى عليها حاضر الأمة ومستقبلها. ولا يشترط أن تكون مراحل البناء متجانسة من حيث الهدف والمضمون، ولكنها من دون شك وثيقة الصلة: يمهد السابق منها للاحق، ويؤسس اللاحق لما يأتي بعده.

... ملاءمة التراث مع قضايا العصر

... ... عند الحديث عن التراث، نواجه عدة مفردات تفرض نفسها علينا في تعاملنا معه مثل: الأصالة، القداسة، العراقة، النزاهة . . .، وهي مفردات تعطي لفظة التراث صفات مجردة

(2317/1)

أكثر مما تعطيها قيمة ومضموناً ودلالة. ومع إيماننا بقيمة التراث وأهميته، وعدم انتقاصنا منه، إلا أنه لا ينبغي أن نتعامل معه من خلال مفردات تفرض نفسها

على تفكيرنا وطريقة تعاملنا معه. وتظل الإشكالية قائمة: كيف نقرب بين التراث وقضايا العصر، مع بعد المسافة، واختلاف المفاهيم، ووسائل العلم والفكر؟: وإذن فسؤالنا الأساسي هو: أي الأفكار التي يريدوننا أن نبعثها من تراث الأسلاف، يمكن أن نعلق به الرجاء؟ وهل صحيح أننا واجدون في أفكار أسلافنا بالأمس ما يمكن أن ينير أمامنا الطريق؟ لقد كانت أفكارهم وليدة

(2318/1)

مشكلاتهم، فهل تكون مشكلاتنا هي نفسها مشكلاتهم، بحيث نهتدي بحكمتهم في اقتراح الحلول؟(1)

... ... ونحن بدورنا نقرر حقيقة أن الحديث عن التراث لا يعني إعادته، أو جمع مفرداته، مع أهمية ذلك في مرحلة من المراحل، بل يعني الاستفادة منه وتوظيفه. وأما كيفية الاستفادة أو التوظيف، فينبغي أن تكون محور الحديث أو الدراسة؛ إذ كيف نوظف هذا التراث لخدمة قضايانا المعاصرة؟ وكيف نستفيد منه للتغلب على جوانب النقص والتقصير في حياتنا؟

---

(1) زكي نجيب محفوظ، تجديد الفكر العربي، ص. 84.

(2319/1)

... ... وفي هذا السياق، يجب أن ننبه إلى ضرورة عدم الدخول إلى التراث من بوابة الخروج من واقعنا، أو مدارة العجز الحاصل في تراجع الفكر، وتخلف مناهج البحث، بالعودة إلى التراث بصفته وسيلة إرضاء للذات، أو الاتكاء على إنجازات الآخرين وفق ظروف خاصة بهم، على أنها خلاصة ما يمكن أن نقدمه أو نتوصل إليه، معطين أنفسنا الحق في التقصير أو التراجع.

... ... فالتعامل مع التراث يجب أن يبدأ من بوابة الدخول إلى واقعنا، وليس العكس. بمعنى أن يكون التراث عاملاً مساعداً على الابتكار والتجديد في فترة زمنية لها خصوصيتها،

(2320/1)

ولكنها تستفيد مما سبق ولا تكتفي به:

... والابتكار ليس معناه اخترع شيء من الهواء، ولكن معناه وجود مادة تتفاعل هي وشخصية قوية، فتتمثل خلقاً جديداً: فلولا الأساطير القديمة، ما وجد كتاب

المسرحية اليونانية، ولولا الأناشيد الدينية للشعب الألماني ـ الكورال ـ ما كتب باخ موسيقاه الرائعة(1).

... وما يبنى على التراث لا يعني بالضرورة أنه الأفضل، ولكنه بلا شك هو الذي يتجاوز مرحلة التأسيس أو البدايات الأولى، للوصول إلى مرحلة أكثر

---

(1) محمد مصطفى هداره، مقالات في النقد الأدبي، دار القلم، 1964، ص. 50.

(2321/1)

تطوراً في المفهوم والفكرة، تمهيداً لمرحلة جديدة يمكن أن تؤسس على ما تم التوصل إليه مستقبلاً:

... فأنا لا أعيش في الحاضر فقط، مبدياً ردود الفعل تجاه الماضي المباشر (كما يفترض التطوريون)، بل في ثلاثة أزمنة معاً: في الماضي من خلال الذاكرة، وفي الحاضر، وفي المستقبل من خلال التوقعات والخطط والآمال. وقد أصل في أي لحظة إلى الماضي البعيد، أو إلى أبعد لحظة في تاريخ الإنسانية. إن هناك إمكانية دائمة للتزامن في تطور الإنسان العقلي، وهذا التزامن يشكل بنية تتحقق

في أي لحظة(1)

---

(1) رينيه ويليك، مفاهيم نقدية، ترجمة د. محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 110، 1407 هـ/ 1987 م، ص. 40.

(2322/1)

.

... ولا يكون التغيير أو التحديث باستعادة التراث في كليته، أو الانتقاء منه، فلا الإعادة الكاملة مجدية، ولا الانتقاء مفيد، بل يجب وضع فلسفة معينة في التعامل مع التراث من زوايا مختلفة، وتخصصات متنوعة. فإذا أردنا أن ندرس قضايا النقد الحديث - على سبيل المثال -، فلا ينبغي أن ندور في دائرة القدماء، ولا ينبغي كذلك أن نأخذ كل ما هو مستورد من فكر الآخرين على أنه خلاصة ما يمكن أن نتوصل إليه من دون الوعي بما في التراث العربي من قضايا مسبوقة، وهي قضايا - بلا شك - توصل إليها السابقون في نتاجهم الفكري، ولم

(2323/1)

نحاول الاستفادة منها أو تطويرها، وتركنا لأنفسنا أخذ نتاج الآخرين على أنه من المعاصرة أو الحداثة، بينما هو في الحقيقة نتاج فكر توصل إليه الآخرون، بعيداً عن تراث مسبوق لا يخصهم. وإذا كان تراثنا غريباً عنهم، فلا ينبغي أن يكون غريباً عنا.

... ولتأكيد هذه الفكرة، يمكن المقارنة بين مفهوم الأسلوبية (Stylistics) في النقد الحديث، وعلم المعاني في الموروث النقدي والبلاغي القديم. فالدراسة الأسلوبية تتناول بشكل رئيس دراسة العمل الأدبي بما يحويه من وسائل تتجاوز مجرد نقل المعنى، إلى عمق الاستعمال اللغوي

(2324/1)

المتمثل في وضع المفردات في صيغ وأنساق معينة، وكيفية انتظامها، وانتظام الجمل والفقرات ورسم الصور، وانسجام ذلك كله مع المعنى: »فالكلمات والعبارات في الشعر يقصد بها بعث صور إيحائية؛ وفي هذه الصور يعيد الشاعر إلى الكلمات قوة معانيها التصويرية الفطرية في اللغة«(1).

... وإذا كانت الأسلوبية قد أفادت من الدراسات النقدية الحديثة، واعتمدت في كثير من نظرياتها على ما توصل إليه علم اللغة الحديث، فإنها في الوقت نفسه قد

---

(1) محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ص. 357.

(2325/1)

أعادت ما توصل إليه الدارسون في تراثنا البلاغي والنقدي القديم، مثل رصد الأساليب الإنشائية، والصور الفنية، وأساليب المجاز والتشخيص والتجسيم، في محاولة منها للوصول إلى المعنى. ومع ذلك، فإن الأسلوبية قد عجزت عن استكمال الملاحظات البلاغية في دراسة النص الأدبي، لأنها انطلقت من بدايات جديدة، ولم تعتمد على بدايات في تراث غير التراث الذي نشأت فيه.

... وإذا قلنا إن الأسلوبية بكشفها عن التباين الأسلوبي إنما تقودنا إلى عمليات التوصيل، وتلفتنا إلى طبيعة الرسالة في النص الأدبي .إذا قلنا هذا كله، فإن علينا

(2326/1)

أن نلاحظ أن الأسلوب في ذاته لا يمكن أن يكون مساوياً لجميع الظواهر اللغوية للنص الأدبي؛ ومن الممكن أن نقول إن هناك ظواهر أخرى كثيرة لا تستطيع الأسلوبية بوصفها الحالي أن تتعامل معها، بسبب ما في مناهجها نفسها من قصور. ومن أهم الظواهر التي عجزت المناهج اللغوية المتمثلة في الأسلوب عن معالجتها، ظاهرة الأبنية البلاغية التي تفوق التركيب الواحد، ومنها الأبنية العليا الشاملة في النصوص الأدبية(1)

---

(1) محمود عياد، "الأسلوبية الحديثة: محاولة تعريف"، مجلة فصول، المجلد الأول، العدد الثاني، يناير 1981، ص. 129.

(2327/1)

.

... فانسجام التراث معا المعاصرة يفرض علينا ألا نأخذ فكر الآخرين مقطوعاً عن تراثنا الفكري، بل محاولة

الاستفادة مما هو حاصل في التراث، مع ما يمكن أن نتوصل إليه نحن، أو يتوصل إليه الآخرون. وبذلك يتحول التراث من مجرد تراث إلى فكر مكمل ورافد لكثير من الأفكار والنظريات التي يظن كثيرون أنها من المعاصرة الخالصة، بينما هي تنطلق من عمق التراث، وتستفيد منه بوعي أو غير وعي. ولا يمكن أن يتحقق ذلك من دون الاطلاع الواعي على التراث، ومحاولة ربطه بمناهج الفكر التي تم التوصل إليها، أو التي يمكن التوصل إليها،

(2328/1)

وبذلك تتحقق فكرة المعاصرة للتراث.

... وما يقال في علم الأسلوب يقال في كثير من العلوم النظرية والتطبيقية التي كان لروادنا الأوائل فضل السبق في الحديث عنها، أو التوصل إلى بعض المعطيات الأولى حولها، مما شكل حلقة في سلسلة الحلقات المتواصلة في تاريخ الفكر المتصل بهذه العلوم:

... فالتراث العربي غني في الكيفية، غني في الكمية أيضاً، ولا تزال آثار هؤلاء الأسلاف ـ في التشريع والعلوم الفلسفية والرياضية والجغرافية والطبية والنفسية

وغيرها ـ معدودة في قمة الإنتاج الفكري؛ ولا تزال النظريات الفلسفية الاجتماعية

(2329/1)

لعلماء العرب وفلاسفتهم أصلاً وجذراً من جذور علم الاجتماع والفلسفة المعاصرة(1).

التراث بين الأنا والآخر

... يعد التراث رصيداً معرفياً لأي أمة من الأمم. والناس أمام التراث أحد اثنين: إما ممجِّد دون تمحيص، وإما ممحص دون تمجيد. ونحن لا نطلب من الباحث أن يكون مجرد مادح للتراث، لأنه في هذه الحالة لا يفيد التراث ولا يستفيد منه، بل نطلب منه أن يكون ممحصاً ومستفيداً. فالتراث جزء من الماضي، وله سيطرة على الحاضر:

---

(1) عبد السلام هارون، التراث العربي، كتاب رقم 35، ص. 7.

(2330/1)

... لا ينظر الباحث إلى التراث إذن نظرة سائح إلى عالم الغيب، لأن التراث جزء من ثقافة الباحث الوطنية، والباحث مسؤول عنه مسؤولية قوية. فالأحكام الخاطئة لا ترصد بل يعاد صياغتها، وأوجه النقص في التراث لا تبرر أو تنقد بل تكمل وتزاد. فالباحث على نفس مستوى مسؤولية المفكّرين القدماء وهم أترابه وليسوا غرباء عنه. فإذا انفصل الباحث عنهم، وقع في الغربة، وأصبحت مسؤوليته هو وليست مسؤولية التراث أن يقضي على اغترابه حتى يشعر بالانتماء وبأنه جزء من التراث، وبأن التراث جزء منه. ولا ينقص الالتزام بالقضية من حياد

(2331/1)

الباحث أو من نزاهته أو من موضوعيته(1).

... وأما العجز الحاصل في الواقع العربي في مختلف قضايا العلم والمعرفة، يحاول الباحثون الهروب من هذا الواقع باللجوء إما إلى التراث، وإما إلى الثقافة الغربية. وهذا بدوره يقودنا إلى قضية هامة، وهي علاقة التراث بالثقافة الغربية، وعلاقتنا نحن بالتراث والثقافة الغربية على حد سواء.

... وللإجابة عن هذه التساؤلات، يجب علينا أن نميز بين نظرتنا نحو للتراث، ونظرة الآخرين إلى تراثنا. فإذا كنا نحن ننظر إلى تراثنا بشيء من الإعجاب

---

(1) حسن حنفي، التراث والتجديد، ص. 21.

(2332/1)

والتقدير، فإن الآخرين لا يفترض فيهم أن ينظروا إلى تراثنا بالعين ذاتها التي ننظر بها نحن إليه، لأنه عندهم مادة للبحث والدراسة والتقويم والنقد، ولا ينبغي أن ننكر على الآخرين دراسة تراثنا الفكري بشيء من الموضوعية، ولا أن نقابل ذلك بالاتهام، بل علينا أن نقابل دراساتهم بدراسات مضادة .إن جاز التعبير .تتخذ الإقناع والعقل وسيلة لإظهار التراث بالشكل العلمي الصحيح، رداً على من يحاول أن ينظر إلى تراثنا من وجهة نظر خاصة به.

(2333/1)

... وعندما نسمح للآخرين بدراسة تراثنا، فإنه ينبغي علينا كذلك أن ندرس تراثهم، لا لمجرد الرد على

دراساتهم، أو المقارنة الإيجابية والسلبية، بل من أجل أن نستفيد ونفيد، ونجعل التراث فكراً للجميع. وإذا كان تراث الآخرين لا يناسبنا أو يتفق مع تراثنا، فلا ينبغي أن نصرف النظر عن دراسته، لأن الآخر يشكل مع الذات حلقة تواصل فكري، لا يمكن الاستغناء عنها. فهو تطور دائري كما يصفه المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي؛ ونحن

(2334/1)

... عندما نتحدث عن الآخر، فنحن لسنا مقياساً، بل لسنا معياراً. من يختلف عنا فليس شاذاً، ليس ناقصاً، ليس غريباً تماماً؛ كما أننا نحن لسنا شاذين، لسنا ناقصين، لسنا غرباء بالمقارنة مع الآخر. ببساطة، ليست البشرية حجارة مصنوعة في القالب، بل أناس ، بشر. والحقيقة أن كل واحد منا يختلف عن الآخرين جميعاً(1).

---

(1) سالم جبران، "هو الآخر بالنسبة لي، أنا الآخر بالنسبة له"، مجلة مشارف القدس وحيفا، العدد 2، 1995، ص.21.

(2335/1)

... وفي هذا السياق، ينبغي ألا ننكر جهد الآخرين في تحقيق تراثنا ودراسته. »إن الجهد العلمي الذي بذله المستشرقون في إحياء التراث العربي جهد لا يستطاع إنكاره، فهم كانوا أساتذة الجيل الحاضر في الطريقة العلمية التي جروا عليها«(1).

... والقضية ليست مجرد تحقيق التراث، بل دراسته. فللآخرين فضل السبق في دراسة قضايا التراث أيضاً، وهي قضية ـ في تصوري ـ لها إيجابياتها وسلبياتها، لأنهم تعاملوا مع تراثنا وفق أحكام مسبقة حاولوا تأكيدها، مستغلين بعض الثغرات هنا أو هناك، مما أثار الشكوك في بعض الأحيان من

(2336/1)

هدف دراستهم للتراث العربي، وجعلنا نتعامل مع الآخر بقدر غير قليل من الشك والريبة. وعندما نقف عند دراساتهم في هذا الجانب، فإما أن نرفض من دون أن نسوغ هذا الرفض، أو نتهم من دون أن نستند إلى أحكام العقل والمنطق. وفي كلا الحالين يكون موقفنا ضعيفاً، لأننا ندور في حلقة مفرغة مع دراسات الآخرين بين رفض

واتهام، وهي حالة لا تسمح لنا بمراجعة التراث أصلاً، والتعامل مع قضاياه بعيداً عن ضغوط الآخرين، وآرائهم المتلاحقة تباعاً. فالمنطق يفرض علينا أن نكون نحن المبادرين إلى دراسة التراث دراسة متأنية تعالج

السلبيات. وتستفيد من الإيجابيات، وتردُّ التهم الموجّهة إلى تراثنا بالحجة والمنطق، لأن الآخر ينظر إلى تراثنا على أنه شيء من الأساطير، وأن الفكر العربي - تبعاً لذلك - عاجز عن التجديد، ولا يتفق وأصول المنطق والعلم. ووصل بهم الأمر إلى رد الإيجابيات في الفكر والتراث العربي إلى أصول غير عربية، كما يقول ديبور: «وإذا وجدنا العرب يصلون بين الأشياء المتعددة برباط منطقي أو قائم على الاعتبار لخصائص الأشياء، لا حين يحصونها إحصاء أو يجمعون بينها على غير نظام، فالراجح أنهم في كل ذلك متأثرون باليونان»(1)

---

(1) انظر محمد عبد الهادي أبو ريدة، تاريخ الفلسفة في الإسلام، الطبعة الثانية، 1948، ص. 15.

.

... وإلى جانب هذه الاتهامات، فإن الآخر يحاول أن يأخذ ما في التراث العربي على أنه واقع حقيقي، من دون أن يربط الأحداث أو المواقف بعضها ببعض. وهذا يتطلب منا ليس مجرد رد التهمة، أو تصحيح وجهة النظر، بل المبادرة في دراسة مواقف معينة، أو أحداث مميزة لربط الأسباب بالمسببات، وإخراج الخبر في إطاره الصحيح، وفق الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المصاحبة له. فإذا قرأنا مثلاً خبراً عن مصعب ابن الزبير برواية الشعبي، يتحدث عن إحضار مصعب للشعبي إلى بيته، وإظهار زوجه عائشة بنت طلحة أمامه، ثم يقول له:

(2339/1)

»لقد أتيت بك إلى بيتي، لترى جمال عائشة وتشهره بين الناس«(1)، أدركنا ما في الخبر من تشويه لشخصية سياسية مناوئة للدولة الأموية. فالزبيريون حزب سياسي معارض للحكم الأموي، وما قيل عنه برواية الشعبي لا ينعكس حقيقة مصعب بن الزبير، وهو مضرب

المثل في المروءة، كما تقول عنه عائشة عبد الرحمن(2)؛ ولا حقيقة المرأة العربية في ذلك العصر، وإنما يؤخذ الخبر في إطار

---

(1) انظر الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب المصرية، ج 2، ص. 310.

(2) انظر عائشة عبد الرحمن، سكنية بنت الحسين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص. 88.

(2340/1)

الحياة السياسية، والعلاقات القائمة بين الأحزاب المتصارعة في ذلك الوقت. وفي مقابل هذا الخبر، نقرأ شعراً لبعيد الله بن قيس الرقيات شاعر الحزب الزبيري، وهو يتغزل غزلاً حسياً مكشوفاً بنساء الخلفاء الأمويين (1).

... فالآخر إذن يدرس التراث، وعلينا نحن أيضاً أن ندرس التراث. فلا ننكر على الآخرين ما توصلوا إيه، ولا نجعل ما توصلوا إليه خلاصة ما يمكن أن يُستقرأ من تراثنا، بل يجب التعامل مع التراث وفق مقاييس خاصة تحقق

---

(1) انظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف، صص. 539 ـ 540.

(2341/1)

النظرة الشمولية المتكاملة للتراث، بعيداً عن الانتقائية الضيقة، أو المحاباة والمجاملة.

... والتعامل مع التراث وفق هذا المفهوم لا ينبغي أن يصرفنا عن دراسة فكر الآخر؛ كما أن دراسة فكر الآخر لا ينبغي أن تصرفنا عن دراسة تراثنا. صحيح أن فكر الآخر يقابل بالإعجاب والقبول، ويلقى الدعم والتأييد من الجهات الرسمية وغير الرسمية؛ إلا أن هذا الفكر الذي يتخذ شكل الغزو والتأثير في مختلف مجالات العلم والمعرفة أصبح واقعاً ملموساً في حياتنا لا يمكن تجاهله أو حتى الاستغناء عنه؛ ولكن ينبغي علينا مواجهته بشكل أو بآخر،

(2342/1)

من خلال استلهام روح التراث، وليس الانغماس فيه.

(2343/1)

التراث العربي وعناصره الصالحة لنهضة عربية حديثة

الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله
عضو أكاديمية المملكة المغربية

الحضارة في مدلولها العام تستلزم طائفة من العناصر، أبرزها: شيوع العمران وانتشار العلوم والفنون وحسن انتظام الاجتماع وتوازن الاقتصاد وعظمة الجهاز السياسي وضخامة المقومات العسكرية وما شئت من مظاهر العزة والمنعة والوفرة والأمن والنظام. والحضارات تقوى وتضعف بحسب قوة تلك العناصر وضعفها ودرجة اكتمالها والصبغة التي تصطبغ بها. فهنالك حضارات يطغى فيها الجانب المادي على الجانب الروحي، أي تسود فيها

(2344/1)

مظاهر العمران والمدنية الملموسة؛ وتلك سمة يغلب وجودها في الحضارات الأوروبية. بخلاف الحضارات الشرقية. التي تضم إلى جانب هيكلها المادي، مجموعة

روحية لا تزال الإنسانية تستمد منها إلى الآن سواء في ميدان الفلسفة أو الاقتصاد أو الاجتماع. وغير خاف أن أقدم الحضارات في العالم هي الحضارة الشرقية من صينية وهندية ومصرية وآشورية وكلدانية وفينيقية وفارسية. ولهذه الحضارات الآسيوية تراث فكري ومادي كان ولا يزال من أجل دعائم الحضارة الغربية الآرية. وأقول مادي، لأن كثيرا من الاختراعات قد استمدتها الإنسانية منذ

(2345/1)

فجر التاريخ من الحضارات السامية القديمة.

إن من يتتبع مقومات الحضارة الإنسانية يلاحظ ظاهرة قديمة، وهي إمكان رد معظم هذه المقومات إلى المدنية الشرقية. ففي الفلسفة وفي العلوم وفي الاقتصاد يصطدم المؤرخ بطائفة من المعلومات منتشرة في كتب المطبوع ومنها المخطوط يدل مجموعها على أن كثيرا من مظاهر المدنية التي تبناها عصر الانبعاث في أوروبا ترجع لأعمق العصور ولأعرق المدنيات الشرقية.

والحضارات تتكيف تبعا للجو المحلي وطبقا لمؤثرات تتفاعل فتسمها بطابع خاص.

(2346/1)

فما وضعية الحضارة المغربية بالنسبة للحضارات العالمية؟ وما منزلتها كحضارة إسلامية بالنسبة للحضارات التي توالت على المغرب قبل الفتح الإسلامي؟ وما علاقة الحضارة الشرقية بالحضارة المغربية في عدوتي المغرب والأندلس؟

إن العرب لما فتحوا إفريقية والمغرب، وجدوا الأمم التي تنازعت السلطة في المغرب قبل دخول الإسلام إليه والحضارة القرطاجية قد قضى عليها طغيان الرومان الذين محقوا عاصمة قرطاج واستأصلوا من ربوعها الزاهرة جذور المدنية والعمران ثم بنوا على أنقاضها شيئا جديدا ما لبث الوندال أن استأصلوه بدورهم، ولكن

(2347/1)

لم يلبثوا في المغرب زهاء القرن حتى انقض عليهم الروم سكان الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزانس) فارتكبوا فيهم ما ارتكبوه هم في الرومان وما ارتكبه الرومان في القرطاجيين. وقد ذكر المؤرخين أنه لم تمض ستة أشهر على انتصار الروم حتى عفوا على آثار الوندال

بالبلاد. وخرج المغرب من سلسلة الاحتلالات الأجنبية صفر اليد خاوي الوفاض منهوك القوى، ووجد سكان البلاد – وهم البربر – أنفسهم كما كانوا أول مرة بدائيين في حضارتهم. وقد أكد الأستاذ ألفريد بيل (Alfred Bel) في كتابه "ديانة الإسلام في بلاد البربر" (ص. 64)

(2348/1)

أن مما لوحظ كون لغة القرطاجنيين والرومان وكل ما استمده البربر خلال الاحتلال الروماني والقرطاجني قد اندرس بعد انقضاء الاحتلال المذكور، وأن البربر عادوا إلى استعمال لغتهم وإلى أساليبهم الوحشية؛ مما يدلنا على أنهم لم يستفيدوا قلامة ظفر من حضارة قرطاج ولا رومة. ولعل الأستاذ بيل نسي أن يقول بأن الشيء الذي ظل متغلغلا في روح البرابرة هو اللغة البونية التي كانت قريبة من العربية والتي إشعاعها على يد الكنعانيين العرب بين أبناء البربر من قرطاج إلى قابس ومن طنجة إلى بجاية.

(2349/1)

ولكن هل كانت للبربر حضارة قبل سلسلة الاحتلالات الأجنبية؟ أو كانوا مغمورين في بوتقة الشعوب المتوحشة كما يزعم كثير من المؤرخين الأجانب؟ يجب أن نعلم قبل كل شيء أن البربر آسيويون لا أفارقة وأنهم هاجروا من آسيا إلى المغرب عن طريق مصر والبلاد الليبية. وجاء برابرة الأطلس المغربي على الخصوص من ربوع الشام، حيث كان يجمعهم قرب الجوار مع أبناء عمهم العرب الكنعانيين. فالحضارة البربرية حضارة آسيوية بدائية ترتكز على الزراعة والرعي. وقد وصف لنا مؤرخون أجانب التجانس الذي كان ملحوظا بين عادات العرب والبربر والذي

(2350/1)

كان يبلغ سويداء الحياة الاجتماعية بل والدينية. وقد اخترع البربر أحرفا هجائية في الوقت الذي اخترع الكنعانيون أحرفا خاصة بهم. والحروف المعروفة بحروف تفناغ لا تزال مستعملة عند البربر الطوارق الصحراويين إلى يومنا هذا. وعندما انكشف شعاع الحضارات القرطاجنية والرومانية والوندالية من المغرب، انساق البربر في تيار حضارتهم الشرقية الأصلية التي تتبلور فيها مثل عليا ملكت منهم

المشاعر وتغلغلت في الأعماق حيث كانوا – كالعرب – يحبون الاستقلال ويتشبثون بالحرية وتجمعهم مع العرب – كما قال سديو (Sédillot) – "ميول

(2351/1)

وعواطف واحدة ومبادئ متشاكلة، كحب الفخر والهيام بالحرية وإكرام الضيف".

وقد وجد البربر أنفسهم بعد الفتح العربي الإسلامي إزاء شعب من بني عمومتهم يشاطرهم مثلهم السامية وتقاليدهم الحرة، فامتزج العنصران ولم يزد توالي القرون هذا التمازج إلا قوة، فتكونت مع الزمان مدنية مغربية مزدوجة القوام انصهر في بوتقتها تراثان كلاهما شرقي الأصل طبعه الإسلام ووسمته العروبة بميسمها الخاص.

وهنا تظهر حيوية الإسلام في إفريقيا الشمالية، وخاصة تلك الحيوية التي أقر بها ألفريد بيل كما أقر بها قبله وبعده مستشرقون منصفون.

(2352/1)

فالإسلام هو الذي استطاع وحده أن يخلق في هذه البلاد حضارة حقا دائمة مكتملة العناصر، بعدما عجزت عن ذلك الحضارتان القرطاجنية والرومانية بالرغم من سموها.

وأعني بالحضارة الحق حضارة ترتكز على مقتضيات اجتماعية كوجود الأمة واكتمال مقوماتها وتوافر العناصر الروحية والمادية الضرورية لقيام كيانها واستمرار وجودها وصيانة تراثها. وهذا الشيء قد أوجده الإسلام الذي انضوى المغرب تحت رايته طوال أربعة عشر قرنا.

وقد تطورت تلك الحضارة المغربية ضمن دائرة العروبة والإسلام محتفظة على مر العصور بروحها الشرقية الخالصة،

(2353/1)

وتطورت بجانبها حضارة أخرى هي حضارة الأندلس التي استمدت روحها من تراث الشرق الذي نقله الفاتحون والمهاجرون، وأضفت العوامل والتفاعلات المحلية على تلك الروح جلبابا لم تكن لحمته ولا سداه ليمتدا إلى الأعماق حيث ظلت السيطرة للروح الشرقية وحدها.

إن للوضعية الجغرافية بعض الأثر في تكييف العقلية نوعا ما، ثم الإنتاج الفكري، ثم مظاهر الحضارة. ومع

ذلك، فقد ظلت الحضارتان الأندلسية والمغربية شرقيتين بعد أن تفاعلتا نحوا من ثلاثة قرون، أي منذ عهد المرابطين إلى عهد المرينيين تحت إشراف عاصمتي مراكش وفاس.

(2354/1)

والثقافة الشرقية هي المنوال الذي حرك عليه رجال الفكر المغاربة منذ صدر الإسلام. ومن تتبع جزئيات التراثين الشرقي والمغربي أسلوبا ونزعة وروحا، لاحظ وحدة الجوهر أدبا وفلسفة واجتماعا مع فروق سطحية مرجعها إلى مقتضيات اللون المحلي.

فالحضارة المغربية شرقية بدءا ونهاية، ليس فيها أي أُر للحضارة اللاتينية التي قدر لها أن تمر مر السحاب في هذه البلاد.

والحضارة الأندلسية حضارة مغربية صميمة، أي شرقية المبنى عربية المعنى. وقد تداولت عواصم العدوتين، وبالأخص مدينتي فاس وقرطبة، مع عواصم الشرق في حمل راية الحضارة

(2355/1)

العربية الإسلامية في العالم أيام كان الجهل رابضا بكلكله الثقيل على أوربا، فكانت فاس مركزا للإشعاع الفكري والروحي يستمد من نبراسه الأوربيون كما هو معلوم عند من له أدنى إلمام بتاريخ الحضارات.

وتراث العروبة نفسه لم يكتمل في كثير من مقوماته إلا بمساهمة المغاربة في بناء صرحه كالشريف الإدريسي (أستاذ أوربا) بجغرافيته، وابن بطوطة برحلاته، وابن خلدون باجتماعياته، والحاتمي بإشراقاته، وابن رشد بفلسفته وفقهه وطبه، وابن الخطيب بأدبياته ونكاته (التي يبذ بها الجاحظ في كثير من الأحيان)، وابن حزم بتنسيقاته

(2356/1)

الفلسفية والدينية، وابن طفيل بنظرياته في الفلسفة الفطرية.

فنحن – معشر المغاربة بعنصريتنا – أمة عربية المحتد شرقية الروح إسلامية العقيدة، وحضارتنا حضارة شرقية عربية إسلامية في جوهرها ومقوماتها.

وهي حضارة تتمثل فيها كل المؤهلات التي تتكون الحضارة من بعضها، فضلا عن مجموعها.

وقد عاش المغرب والأندلس متحدين نحوا من ثلاثة قرون

(من عهد المرابطين إلى أوائل عهد المرينيين) وتم الانصهار والتمازج بين العنصرين اللذين كانت تجمعهما عوامل شتى لما كان بين البلدين من أواصر التزاور والمبادلة، فكانت الوفود

(2357/1)

الأندلسية تترى على مراكش عاصمة المرابطين والموحدين ثم على فاس حاضرة المملكة المغربية في عهد المرينيين، وكان أفراد الشعب المغربي الذين يهبون بين الفينة والفينة لإنجاد إخوانهم سكان العدوة الشمالية يتصلون بالعاصر الأندلسية ويقتبسون منها فكريا واجتماعيا. واستمر الاحتكاك عن طريق رجال مشهورين خلال القرنين الخامس والسادس حيث ظهر فلاسفة وأطباء أفذاذ كابن طفيل وابن رشد وبني زهر. ولم يكد ينتصف القرن السابع الهجري الذي شهد سقوط معظم العواصم الأندلسية في قبضة الإسبان حتى تضخمت حركة الهجرة، فكان لذلك أثره

(2358/1)

الفعال في حياة المغرب الناعمة. وقد توالى سيل المهاجرين الأندلسيين أيام السعديين، فنقلوا معهم نماذج الحضارة الأندلسية التي طبعت الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية المغربية. وعندما وقع النفي العام بالأندلس، غصت رحاب بعض كبريات المدن المغربية، كفاس وتطوان وسلا، بعلماء وشعراء وفنانين وتجار وأرباب حرف ساهموا فعليا في صهر الحضارتين صهرا طبعهما منذ ذلك العهد بطابع الطرافة والرصانة والسمو. وقد امتزجت كثير من العادات والمظاهر المقتبسة من الحضارتين امتزاجا عميقا تعذر معه رد كل منهما إلى ينبوعه في

(2359/1)

كثير من الأحايين.

وقد أ[رز الدكتور رين (Reinaud) في كتابه "الطب القديم بالمغرب" (نشرة معهد الدروس العليا، عدد 1، ص. 72) "امتزاج تاريخ الأندلس بتاريخ المغرب تحت راية المرابطين والموحدين". فما هي إذن هذه العناصر الخالدة التي بلورت حضارة المغرب والتي لا تزال في روحها ومبناها كفيلة بدعم كل تطور عربي في العصر الحديث؟

فمن أبرز مظاهر تراثنا الفكري والحضاري الصالحة لنهضة عربية حديثة تلك العناصر الأساسية للمنهجية العلمية والتقنية التي ارتكز عليها الانبعاث في أوربا بعد عصر النهضة وانطواء العصور الوسطى

(2360/1)

التي ظلت قرابة ألف عام الإطار الزمني لازدهار الحضارة العربية في مختلف مجاليها الإنسانية. فقد برهن العرب طوال قرون عن أصالة نادرة وعن روح خلاقة وعن استعداد للتكيف، فأبدعوا منهجا تجريبيا رصينا لم يكن للإنسانية عهد به وطوروا الاختصاص التقني وحرروا الفكر وعززوا شمولية الكشف العلمي بربط الماضي بالحاضر ودعم التبادل بين الشرق والغرب، في تسامح وموضوعية وإنكار للذات وتطلع عارم إلى التضلع من اللغات واستكناه مختلف الاتجاهات والنظريات والمذاهب والنظم والعادات لدى الأمم والشعوب، تفتيقا للفكر وتوسيعا للأفق.

(2361/1)

وبذلك شدوا بنيانا شامخا ما زال إلى الآن موئلا ومنبعا للفكر الإنساني النزيه.

فلنستعرض إذن ألوانا من الكشوف المغربية في مجالات الطب والكيمياء والصيدلة والعلوم الطبيعية والرياضية والفلكية وغيرها، ثم بعض المجالي الاجتماعية والاقتصادية والفنية لنستشف مدى إسهام المغرب الأقصى في دعم الكيان العربي الإسلامي خاصة والإنساني عامة – فكرا وحضارة – بعناصر لا تزال غضة في منهجيتها وقوامها.

كان القرن الرابع في الأندلس هو عصر النهضة، تفتق فيه الفكر العربي سواء من حيث دراسة الفنون والتقنيات أو من حيث الاختراعات

(2362/1)

والكشوف العلمية(1) . وهكذا برز ابن جلجل بصفته أعظم طبيب في عصره عرب "مفردات" ديسقوريدس وزاد عليها الأدوية التي جهلها والتي كانت معروفة عند العرب، كما برز أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي صاحب كتاب "التعريف لمن عجز عن التأليف" الذي كان أعظم ممثل لفن الجراحة في المدرسة العربية(2) ؛ اعتمده واستند إلى بحوثه جميع مؤلفي الجراحة في

القرون الوسطى. وكتابه يعد اللبنة الأولى في هذا العلم: إذ هو أولم ن ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصى

---

(1) لوكلير، تاريخ الطب العربي، ج 2، ص 350

(2) المرجع نفسه، ج 1، ص. 334.

(2363/1)

المثانة واستخرجها بتشريح جراحي وعالج الشلل واستعمل خيوط الحرير في رتق الجراحات. والظاهرة امتاز بها هذا الكتاب هي روحه التجريبية وتركيز النصوص على آلات أثبت صورها في كتاب هو أول تعبير للجراحة بصفتها علما(1) . ويرى لوكلير (2) أن المغرب كان أشد أقطار الإسلام عمقا من الناحية العلمية. يشهد بذلك – حسب القفطي(3)

---

(1) المرجع نفسه، ج 1، ص. 456. ويوجد في المكتبة الوطنية بالرباط ضمن مجموع عدد 1427د جزء من هذا الكتاب يحتوي على 28 صورة للمكاوي وآلات التشريح.

(2) المرجع نفسه، ج 1، ص. 407.

(3) إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص. 85.

(2364/1)

– عدد الأطباء والصيادلة المغاربة الذين رافقوا المعز الفاطمي إلى مصر.

وكانت بفاس في القرن الرابع مدرسة طبية(1) . كما كان البرابرة قبل هذا العصر يستعملون الحقن بجراثيم الجدري لضمان حصانة المصاب(2) . على أن القرنين الخامس والسادس قد عرفا في المغرب الأقصى تحرر الفكر بصورة لم يسبق لها مثيل، كما قال لوكلير(3) . تشهد

(1) الكانوني، شهيرات نساء المغرب (مخطوط)، نقلا عن "فن الأسنان بالمغرب الأقصى" لكاتب أوربي لم نستبن اسمه في المخطوطة.

(2) كودار، وصف المغرب وتاريخه، ج 1، ص. 239.

(3) المرجع نفسه، ج 2، ص. 72.

(2365/1)

بذلك رعاية البلاط المراكشي لأمثال ابن طفيل وابن باجة وابن رشد وبني زهر. وقد اتصل بهذا الفن علم الصيدلة وعلم العقاقير والفلاحة حيث يعتبر كتاب ابن العوام أبي زكرياء يحيى بن محمد عديم النظير في الأدب العربي(1) ، "لما يحتوي عليه من معارف تطبيقية

ووثائق قديمة وثمينة"؛ بل هو أعظم ما أنتجه لا العرب وحدهم بل حتى العصور القديمة. "وقد كان الشريف الإدريسي السبتي من هذا الطراز، فطاف في آسيا وأوربا ووصف نباتات كل قطر وصفا أصيلا"(2) . وكتابه في

(1) المرجع نفسه، ج 2، ص. 11 و110.

(2) المراكشي، الإعلام، ج 3، ص. 34.

(2366/1)

الأدوية مليء بالملاحظات الشخصية اقتبس منها ابن البيطار في مائتي موضع من كتابه في الأعشاب (لوكلير، ج 2، ص. 8)، واعتمد عليه وحده في ثلاثين موضعا (ص. 67)؛ كما اعتمده أستاذ ابن البيطار أبو العباس النبطي. وهو مع تلميذه أبرز العلماء النباتيين العرب الذين لم ينجب الشرق من يضاهيهم في هذه الآونة عدا فخر الدين الرازي. وقد استطاع الأندلس، بفضل شبكة علمائه – كما يقول لوكلير (1)

(1) المرجع نفسه، ج 2، ص. 72. وقد اعتمد ابن البيطار أيضا على عبد الله بن محمد بن صالح الكتامي الحريري النجار الذي كانت له حانوت بمراكش عام 583هـ (اللسان

العربي، ج 6، ص. 1968). أما النبطي، فهو أحمد بن محمد بن مفرج المعروف بابن الرومية أو ابن العشاب. ولد بإشبيلية عام 561هـ ودرس الأعشاب شخصيا دون اعتماد على ديسقوريدس وجالينوس. واقتبس منه تلميذه ابن البيطار ذوقه الخاص. وقد رحل إلى الشرق عام 613هـ أو 614هـ بعد ما درس أعشاب الأندلس والمغرب وصنف معجما للحشائش. وفاق أهل زمانه في معرفة النبات، وتوفي بإشبيلية عام 638هـ (المقري، نفح الطيب. ج 2، ص. 635). وذكر لوكلير بصدد ابن البيطار (مرجع مذكور، ج 2، ص. 225) أنه أعظم نباتيي العرب. وقد تنقل في جبال الشام صحبة رسام كان يصور له الأعشاب، وخلف لنا أعظم مجموعة في العلوم الطبيعية. وقد عينه الملك الأفضل في مصر رئيس عشابي القاهرة وقيل رئيس أطباء مصر (النفح، مصدر مذكور، ج 2، ص. 683). وكتابه "جامع المفردات" أكمل ما صنفه العرب في الطب يحتوي على ألفي وصفة للعقاقير. ترجمة لوكلير إلى الفرنسية. وقد كان النبطي – حسب "إحاطة" ابن الخطيب – إماما في الحديث حافظا ناقدا.

(2367/1)

-؛ أن يحمل راية الفلسفة والطب في العالم الإسلامي.
وبفضل هذا الانبعاث العربي في الأندلس، صارت أوربا
تنفض عنها أردية الركود وأصبح المسيحيون
يتوافدون على طليطلة للارتشاف من معين العلم. وقد
استنجد أسقف المدينة بعلماء العرب لعلاج الفقر
اللاتيني. وإذ ذاك بدأت ترجمة مصنفات العرب العلمية،
فنقل جيرار دوكريمون وحده من العربية إلى اللاتينية
ستة وسبعين كتابا عربيا أو إغريقيا معربا. على أن
حركة الترجمة بدأت في المغرب العربي منذ القرن
الرابع. فهذا قسطنطين التونسي الصقلي قد أسس
مدرسة سالرنا، وهي أول مدرسة من

(2368/1)

نوعها في أوربا كانت مبعث أنوار الطب الحديث في
العالم الغربي شارك في التدريس بها الطبيب يونس
العربي الفاسي ("اللسان العربي"، ج 5 – بحث الدكتور
أحمد مكي). وقد ولد عام 400 بتونس وتوفي عام 475هـ
وظلت المخطوطات الطبية العربية التي حملها إلى
سالرنة غذاء أوربا عدة قرون. وقد ترجم للاتينية أهم
كتب الطب العربي كـ»زاد المسافر" لابن الجزار وكتب
الرازي وإسحق بن سليمان الإسرائيلي، وألف نحوا من

أربعة وعشرين كتابا منها "قانون الطب" في اثني عشر مجلدا و"قياتيكوم"(1) في

---

(1) أو Viatique، ومعناه "زاد المسافر".

(2369/1)

الطب العام في سبعة أجزاء.

ونبغ في الشرق العربي في هذا العصر علماء أفذاذ تساوقت ابتكاراتهم مع زملائهم في الغرب منهم السويدي صاحب "التذكرة» المتوفى عام 691هـ، وابن أبي أصيبعة، وجمال الدين القفطي علي بن يوسف المصري (646هـ)، وعبد اللطيف البغدادي (629هـ) (حيث امتاز في وصف أعشاب مصر)، وابن النفيس المصري (687هـ) الذي كان أعظم أطباء عصره. ولعل مما ساعد على تطور الطب وما اتصل به من علوم سهر المنصور الموحدي على مصالح الأطباء وتنظيمه لمهنة الطب. وقد سبقه إلى ذلك الخليفة المقتدر الذي فرض على الأطباء تأدية

(2370/1)

امتحان تقني، فبلغ عدد المتخرجين ببغداد عام 319هـ ثمانية وستين طبيبا(1) . وقد أجري أول امتحان للصيادلة أيام المعتصم عام 221هـ

وكانت التجربة هي الطريقة العادية عند الأطباء، حيث ظهر كتاب "التذكرة" – لأبي العلاء زهر بن زهر الأندلسي الذي كان والده أبو مروان عبد الملك بن أبي بكر رئيس الطب ببغداد ثم بمصر والقيروان(2) . وهو كتاب ترجم إلى الفرنسية عام 1911م بعد أن تعددت ترجماته عشر مرات بين 1490 و1554م – بصفته مجموعة من الملاحظات سجلها

---

(1) القفطي، مصدر مذكور، ص. 130.

(2) المقري، مصدر مذكور، ج 1، ص. 445.

(2371/1)

أبو العلاء لولده ابن زهر لتعريفه بالأدواء الغالبة بمراكش وبالأدوية المناسبة لها. ولأبي العلاء أيضا "مجربات" طبية جمعت بمراكش عام 526هـ يوجد مخطوط لها في الإسكوريال (رقم 844). ولعل ولده ابن زهر أبا مروان عبد الملك مؤلف كتابي "الاقتصاد" و"التيسير" قد بذ سابقيه، حيث اعتبر أعظم من ابن سينا ولا

يعدله سوى الرازي في الشرق(1) . وكان لا يعالج إلا بعد الفحص الدقيق وجس النبض والنظر إلى قوارير البول لتحليله. وقد نهج

---

(1) ذكر ابن عبد الملك في "الذيل والتكملة" أن ابن رشد كان يفضل ابن زهر على غيره من أهل عصره.

(2372/1)

ابن زهر، خاصة في كتاب "التيسير"، أسلوبا جديدا في الحكمة القياسية مستخدما التمحيص العقلي للوصول إلى أحسن النتائج، فهو طبيب التجربة: يصف الدواء على غرار أطباء عصرنا ويباشر الصيدلة لتجربة الأدوية بنفسه. ولذلك توصل بفضل قياساته الطبية وتجربته الشخصية في البلاط المراكشي إلى الكشف عن أمراض جديدة لم تدرس قبله، كالأمراض الرئوية (التي منها تشريح القصبة في مرض الذبحة)؛ وكذلك التخصص في الجهاز الهضمي حيث استعمل الأنابيب المجوفة لتغذية المصابين بعسر البلع والحقن المغذية، واكتشف طفيلية الجرب وسماها صؤابة

(2373/1)

الجرب، وارتكز على الطبيعة لعلاج الأدواء(1) . وكان سر نجاحه هو تشبعه بروح العصر الحديث، حيث كان يتسم مثلا بنكران الذات؛ فينسى نفسه ويستغرق في مرضه. وقد عرضت عليه حالات خطيرة حاول أن يعيشها مستمدا من ذكرياته وتجاربه ومنطقه. وقد برر كودار(2) (Godard) هذه الميزة عند ابن زهر، فأكد أنه استعاض بالمنهج التجريبي والطريقة العقلية عن التقليد في ممارسة فن الطب. وكانت له عبقرية فذة تطورت بفضلها شعب ثلاث حاول توحيدها، وهي الصيدلة

(1) غوستاف لوبون، حضارة العرب، الطبعة الفرنسية، ص. 530.

(2) تاريخ المغرب، ص. 452.

(2374/1)

والجراحة والطب العام. ولعل من النقص الملحوظ في عصرنا الحاضر تباعد هذه العناصر المتزايد بعضها عن بعض. أما الحفيد أبو بكر بن أبي مروان (596هـ)، فقد أضاف إلى تضلعه من الطب مشاركته في العلوم الإسلامية؛ حيث كان محدثا يحفظ "صحيح" البخاري بأسانيده(1) .

ولم يكن في زمانه أعلم منه باللغة. وكان شاعرا يحفظ "ديوان ذي الرمة"، وهو ثلث لغة العرب(2) . وظاهرة المشاركة هذه توافرت في كثير من الأطباء كأبي جعفر بن هارون الترجالي تلميذ أبي بكر المعافري في علم الحديث

---

(1) الأنيس المطرب، ج 2، ص. 180.

(2) ابن دحية، المطرب.

(2375/1)

والمتخصص في طب العيون وأبي يحيى هانئ بن الحسن اللخمي الغرناطي المشارك في الحديث والأصول والطب والذي(1) تتلمذ لابن فرتون بفاس. ومن الأطباء الذين كان لهم باع طويل في التجارب العلمية الوزير أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ المعروف بابن باجة شيخ ابن رشد المتوفى بفاس عام 533هـ(2) . وقد تعاون معه تلميذه أبو الحسن سفيان الأندلسي المتوفى عام 537هـ في تأليف "كتاب التجربتين"(3) . على أن ابن رشد نفسه ضرب أروع

---

(1) ابن أبي أصيبعة، ج 2، ص. 75.

(2) ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص. 335.

(3) ابن أبي أصيبعة، ج 2، ص. 63.

(2376/1)

مثل في المنهجية التجريبية، فاقترح في شرحه لابن سينا ما يصفه الأطباء اليوم، وهو تبديل الهواء في الأمراض الرئوية مشيرا إلى جزيرة العرب وبلاد النوبة بصفتها مراكز شتوية(1) . وابن رشد هو أول من أشار إلى الدورة الدموية الكبرى وعللها في كتابه "الكليات" الذي استمد منه ويليام هارفي (William Harvy) معظم نظرياته. وقد سبقه ابن نفيس المصري إلى الكشف عن الدورة الدموية الصغرى أو الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون(2) .

---

(1) لوكلير، مرجع مذكور، ج 2، ص. 79.

(2) لوبون، مرجع مذكور، الطبعة الفرنسية، ص. 531.

(2377/1)

وهذه الروح العلمية الفياضة هي التي تمخض عنها ما أشار إليه مؤرخ فرنسي من ألد أعداء العرب هو رونان (Renan)

في كتابه "Averroés et l'Averroisme" ["ابن رشد ومذهبه"] من اعتراف كريسطوف كولومب في رسالة تركها بعد موته بأن الذي أوحى إليه بوجود قارة جديدة وراء المحيط هو ابن رشد المغربي في كتابه "الكليات". على أن مجلة "نيوزويك" الأمريكية أكدت (في عدد أبريل 1960) أن العرب انطلقوا قبل سنة 1100م (أي قبل كريسطوف كولومب بأربعة قرون) من ميناء الدار البيضاء بالمغرب الأقصى، فرسوا في عدة مواضع على الساحل الأمريكي.

(2378/1)

وأكد هذه النظرية كثير من العلماء(1) .

أما المارستانات، وهي المستشفيات والمصحات، فقد وصف عبد الواحد المراكشي (2) – الذي عاش في بغداد – المستشفى الموحدي قائلا:

---

(1) نشرة المعهد المصري 26 عام 1934، بحث بقلم ماكس مايرهوف، ص. 33. وقد أشار ابن النفيس إلى ذلك في "الكتاب الشامل في الطب" الذي كان يحتوي على ثلاثمائة مجلد أهدى منها المؤلف ثمانين مجلدا لمستشفى قلاوون.

(2) راجع الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة، ص. 13.

(2379/1)

... ... وبنى، أي المنصور الموحدي، بمراكش بيمارستانا ما أظن أنفي الدنيا مثله. وذلك أنه تخير ... ... ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، فأتقنوا فيه ... ... النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح . وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من ... ... جميع الأشجار والمشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياها كثيرة تدور على جميع البيوت، ... ... زيادة على أربع بركفي وسط إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع ... ... الصوف والكتان والحرير

(2380/1)

والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى ... ... له ثلاثين دينارا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجا عما جلب إليه من ... ...

... الأدوية، وأقام فيه الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعد فيه للمرضى ثياب ... ... ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء. فإذا نقه المريض؛ فإن كان فقيرا، أمر له عند ... ... خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل؛ وإن كان غنيا، دفع له ماله... ولم يقصره على الفقراء ... ... دون الأغنياء بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج

(2381/1)

إلى أن يستريح أو ... ... يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ... ولم يزل مستمرا ... ... على هذا إلى أن مات. ...

وذكر ميلي في كتابه "الموحدون" المؤلف عام 1923 (ص. 129) أن هذا المستشفى "لا يخلف وراءه مصحات أوربا المسيحية فحسب، بل تخجل منه حتى اليوم مستشفيات باريس".

ولا بدع إذا كان مستشفى الموحدين بهذه المثابة بالنسبة لأوربا. فقد قال ولتر في "مختصر التاريخ" : "ازدهر علم الطب والتداوي عند العرب، على حين كان الأوروبيون يجهلون هذا العلم الشريف ويحتقرون أربابه: إذ أن

(2382/1)

الكنيسة كانت قد حرمته عليهم وحصرت التداوي في زيارة الكنائس والاستشفاء بذخائر القديسين وبالتعاويذ والرقي التي كان يبيعها رجال الدين" إلى أن قال: "وكان الأوربيون يستنكفون من النظافة، لأنها تشبه الوضوء عند المسلمين".

وقد كان الأوربيون يضطرون إلى اللجوء للمستشفيات العربية. فهذا الملك شانجه توجه إلى قرطبة من أجل العلاج من مرض الاستسقاء (لوكلير، ج 2، ص. 351).

وبدأ أفول الحركة الفكرية في المغرب آخر الدولة المرينية بعد المرينية بعد سقوط غرناطة أواخر القرن العاشر الهجري وردود فعل الإسبان الانتقامية

(2383/1)

(Reconquista)، فلم ينبغ في البحث العلمي عدا رجال قلائل أمثال الوزير الغساني مؤلف كتاب "حديقة الأزهار" الذي نشر عنه الدكتور رينو(1) دراسة أكد فيها أن هذا الكتاب يمتاز بمنهاجه الواضح جدا في الوصف النباتي الذي يتسم غالبا بطابع الأصالة والطرافة مع

محاولة مفيدة لترتيب يدخل عنصرا في وصف أعشاب المدرسة الصيدلية الشرقية. وقد ظل المغرب مع ذلك خلال العصور الأخيرة من تاريخه – بالرغم من احتلال البرتغال والإسبان لبعض مراسيه ومحاولة تدخل

---

(1) **المعجب، ص.** 177؛ **كتاب ميلي:** Millet, Les Almohades, 1933p. 129

(1/2384)

الأتراك في شؤونه – يواصل منهجه التجريبي على نطاق ضيق، حيث ظهرت أساليب(1) **لمعالجة أنواع الرمد وتشريح العين**

لإزالة غشاوتها وتخدير المرضى قبل العمليات الجراحية واستخدام وسائل الإيحاء والتنويم مع المهارة في طب الأسنان. وقد أعطانا الطبيب أحمد بن حمدون بن الحاج(2) **المتوفى عام** 1316هـ(3) **للمرة الأولى في تاريخ المغرب تقسيما فنيا للأدوية؛ كما صنف الشريف العلمي الذي درس بالأسبطالية**

---

(1) **نشرة معهد الدروس المغربية العليا، ج** 18، **ص.** 195.

(2) **راجع كتابنا: تاريخ الطب والأطباء بالمغرب،**

1960/1380، ص. 72.

(3) رينو، ص. 8.

(2385/1)

الكبرى بالقاهرة عام 1291هـ كتاب "ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة أهل فاس" (طبع عام 1318هـ) يحتوي على مفردات بربرية ولاتينية وإفرنجية مرادفة للمصطلحات الطبية العربية مع تحليل ذلك بالمصطلحات الحديثة كالتصعيد والتقطير ووصف العمليات العلمية، وهو كتاب متين التحليل يعتبر نقطة تحول في تاريخ الطب المغربي.

ولنضرب الآن مثلا آخر بشعبة من العلوم هي الرياضيات.

فقد كان العرب أساتذة النهضة الأوربية في الحساب(1) . وقد فند سيديو ()(2Sédillot)

---

(1) المراكشي، الإعلام، ج 2، ص. 246.

(2) كوتييي (Gautier) في كتابه: عادات المسلمين وأعرافهم، ص. 238.

(2386/1)

ما زعمه بعض المستشرقين من أن علماء العرب إنما اقتبسوا من الإغريق مشيرا إلى ما أبدعه الفكر العربي في هذا المجال مثل إدراج الخطوط المماسة للدائرة (tangentes) في الحسابات والاستعاضة عن الأساليب العتيقة بحلول مبسطة أصبحت أساسا في علم حساب المثلثات الحديث (trigonométrie).

وقد لاحظ العالم شال (Charles) أنه كان للعرب فضل التفكير في تطبيق الجبر على الهندسة. وتأكد ذلك بعد أن نشرت مؤلفات محمد بن موسى الخوارزمي منذ عام 1836م من طرف روزن (Rosen)، وكان بينها بحث في الجبر حلت مشاكله في المعادلات الثلاثية

(2387/1)

بطريق هندسية. ويقال إن الخوارزمي هذا لم يحل سوى المعادلات من الدرجة الثانية

(e degré2équation de) وإن الذي حل معادلات الدرجة الثالثة هو عمر بن إبراهيم(1) . ولعل لفظتي ألغوريتم واللوغريتم مشتقتان من اسم الخوارزمي الذي يعتبر أقدم الرياضيين العرب، حيث عاش في عصر المأمون العباسي ونقلت كتبه في الجبر والمقابلة إلى اللاتينية. وقد أبدع العرب في علم المثلثات، نظرا

لتطبيقاتها في علم الفلك

---

(1) لوكلير، مرجع مذكور، ج 1، ص. 320.

(2388/1)

وأسهم الغرب الإسلامي، أي المغرب الكبير والأندلس، في بلورة هذا الإشعاع العلمي. فظهر ابن حمزة المغربي في القرن الرابع واستعمل طرقا جديدة في اللغريتم، واشتهر في الأندلس أبو عبيدة مسلم بن أحمد ويحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة وأبو القاسم أصبغ بن السمح (له تآليف منها "المدخل إلى الهندسة في تفسير أقليدس" وكتاب كبير في الهندسة) وأبو القاسم بن الصفار وأبو الحسن الزهراوي (كان عالما بالعدد والطب والهندسة له كتاب شريف في المعاملات) وأبو الحكم عمر الكرماني (من الراسخين في العدد والهندسة) وأبو مسلم بن

(2389/1)

خلدون (كان متصرفا في الفلسفة والهندسة والنجوم والطب) وتلميذه أبو الحسن مختار الرعيني (كان بصيرا

بالهندسة والنجوم) وعبد الله بن أحمد السرقسطي (ناقد في الهندسة والعدد) ومحمد بن الليث (بارع في العدد والهندسة) وأبو حي القرطبي (بصير بالهندسة رحل إلى مصر عام 442هـ) وأبو الوقشي الطليطلي (الهندسة) (النفح، ج 2، ص. 874).

وقد أحصينا في "معجم الرياضيين بالمغرب الأقصى"، الذي نشرناه عام 1385هـ / 1965م في مجلة "اللسان العربي" (العدد الثالث، ص. 134)، نحو من مائة وثلاثين من المهندسين والرياضيين وعلماء الهيئة

(2390/1)

المغاربة الذين برزوا في هذا القطاع العلمي الهام وخلفوا لنا تراثا رائعا أسهموا به في دعم شرح الحضارة والبحث العلمي في العالم. ومن بين هؤلاء:

1 – المهندس الحاج يعيش الذي بنى لعبد المؤمن ابن علي الموحدي مقصورة وضعت على حركات هندسية ترفع لخروجه وتنخفض لدخوله.

2 – المهندس عبيد الله بن يونس الذي استخرج مياه السقي بصنعة هندسية(1) .

3 – ابن الياسمين الذي ولد بفاس أواسط القرن السادس

والخبير في الجبر والمقابلة.

---

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص. 76 من الجزء المطبوع حول إفريقية والأندلس.

(2391/1)

---

4 – المهندس المعماري أبو عمران موسى بن حسن بن أبي شامة مصمم بعض الأجنحة في جامعة القرويين عام 599هـ

5 – ابن البنا المراكشي (المتوفى عام 721هـ) صاحب "مقدمة إقليدس" و"مختصر الفلاحة" و"الأصول في الجبر والمقابلة" و"تلخيص في الحساب" شرحه ابن المجدي أحمد بن رجب بن طنبغا القاهري عام 850هـ واختصره ابن الهاشم القرافي المتوفي عام 815هـ

6 – علي اليفرني المكناسي (734هـ)، وهو إمام الرياضيات في عصره(1) .

---

(1) درة الحجال، ص. 441.

(2392/1)

---

7 – علي بن أحمد التلمساني صانع منجانة المدرسة العنانية بفاس عام 758هـ(1) .

8 – أمير المؤمنين في الحساب إبراهيم المصمودي، 912هـ (2) .

9 – الفلكي أحمد الفزاني الفاسي 920هـ(3) .

10 – محمد بن هلال إمام التعاليم في سبتة وشارح "المجسطي في الهيئة" (949هـ).

11 – ابن مشون محمد بن يوسف السبتي صاحب "الرجز في الجبر والمقابلة"(4) عام 989هـ

---

(1) ابن القاضي، جدوة الاقتباس، ص. 31.

(2) درة الحجال، ص. 107؛ وسلوة الأنفاس، ج 2، ص. 4.

(3) درة الحجال، كصدر مذكور، ص. 91.

(4) المراكشي، الإعلام، مصدر مذكور، ج 3، ص. 263.

(2393/1)

---

12 – السلطان أحمد المنصور الذهبي الذي كان يفك كل يوم شكلا من كتاب "أقليدس"(1) .

13 – شيخ جماعة الفنون بمراكش أحمد التقليتي الاختصاصي في الرياضيات والمساحات والهندسة، وهو من

رجال القرن الحادي عشر.

14 – محمد بن محمد بن سليمان الروداني الفاسي (1094هـ) الخبير الأوحد في الرياضيات والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمساحة. وقد عاش في بغداد، فذاع صيته؛ واخترع آلة فلكية وصفها صاحب "نشر المثاني" (ص. 87).

---

(1) درة حجال، مصدر مذكور، ص. 176؛ درة الحجال، ص. 51.

(2394/1)

---

15 – المنجم الرياضي محمد المسناوي مرينو (1207هـ) صاحب كتاب "تقدير فرض النفقات" في علم الاقتصاد الرياضي.

16 – الأستاذ المعطي مرينو (1223هـ) صاحب كتاب "كنز الأسرار تعديل الكواكب" وكتاب "أبعاد النيرات ورصده" وكتاب "المزاول".

17 – أحمد بن عبد الله التناني الصويري (1320هـ) صاحب المؤلفات العديدة في الجبر والمقابلة واللغاريتم، والذي حل أشكالا هندسية نقلها إلى الرياضيات. وكان رئيس الرياضيين والمهندسين ورئيس المدفعية في الجيش المغربي.

(2395/1)

وإذا اعتبرنا شعبة أخرى من العلوم التطبيقية كعلم الجغرافية، لاحظنا أن الخرائط العربية الأولى كانت عبارة عن خلاصة لما ورد عن بطليموس. وظل العالم طوال ألف عام عالة على هذا الجغرافي والفلكي اليوناني الذي هو من رجال القرن الثاني الميلادي حتى ظهر الشريف الإدريسي الذي وصفه كوتيي(1) بأنه أستاذ أوربا في الجغرافية، حيث ظل الغربيون يستمدون – أزيد من ثلاثة قرون – من خريطته العالمية. فكان أطول باعا من بطليموس وأكثر دقة في ملاحظاته وتقديراته، لأن

---

(1) في كتابه عادات وأعراف المسلمين، مرجع مذكور عندما تعرض له.

(2396/1)

بطليموس أحصيت عليه في تقديره للمسافة الفاصلة بين طنجة والإسكندرية وحدها أغلاط بلغت ثمان عشرة درجة طولية، بينما تقل أغلاط تقديرات الإدريسي للأطوال ما بين طنجة وطرابلس الغرب عن درجة واحدة.

وقد نبه الإدريسي على هذه الأغلاط

ومعلوم أن الاقتصاد في كل أمة يعد قواما جوهريا في تطورها الحيوي. وقد أسهم العامل الاقتصادي في بلورة الحضارة المغربية منذ فجر الإسلام. فالأمة الغربية قد استقبلت الفاتح العربي محررا، ولا سيما أن العرب حملوا معهم إلى إفريقيا – كما يقول كوتيبي – "حكومة نظامية مجهزة بجميع المقومات

(2397/1)

العسكرية والإدارية"، فكان في ذلك الخلاص من جبايات مرهقة فرضها الرومان الذين أحالوا الشمال الإفريقي إلى "مخزن محصولات" لإمداد روما. فكان الإمبراطور الروماني نفسه أكبر ملاك عقاري في المغرب الكبير. ومنذ أواخر القرن الثاني الهجري، انطلق الاقتصاد المغربي من عقاله؛ فانتظم وأصبح "منطقيا قارا" كما وصفه المؤرخ طيراس في "تاريخ المغرب"، وأمست عاصمته الإدريسية فاس مركزا اقتصاديا وفكريا رسم الخطوط الأولى للوحدة القومية والتخفيف من عوامل الانفصالية والتشتت القبلي، ولا سيما بعد أن تجمعت في العاصمة الجديدة

(2398/1)

ثمانمائة عائلة أندلسية هاجرت إليها (عام 202هـ / 818م) بعد وقعة الربض وقبلها ثلاثمائة أسرة قيروانية (198هـ). وقد شاهد المغرب أول عملية وطنية مستقلة عام 185هـ حيث تبلور الإشعاع الحضاري باستقرار أقوى (حتى في الصحراء) وتصاعد العمران وانبثاق مدن جديدة. وتعززت الفلاحة، التي كانت محور الاقتصاد، بأعمال الري الكبرى؛ وازدهرت الحركة التجارية فكانت سجلماسة الصحراوية مركزا للقوافل بين المغرب والبصرة وبغداد. وكانت الظاهرة الأساسية التي اتسم بها هذا العصر هي الطمأنينة والأمن، مما شجع ظهور البوادر الأولى

(2399/1)

لانتشار الضيع الزراعية. وما لبث هذا الاقتصاد أن تكيف، فاتسعت مصادره وموارده باتحاد الأندلس والمغرب. وهكذا، فعندما كشف عباس ابن فرناس الأندلسي – وهو أول طيار عربي، بالإضافة إلى الجوهري، استخدم آلة لامتطاء الأثير – طريقة جديدة لصنع الزجاج من الحجر، تكونت آنذاك مجموعة من الصناعات سبقت

البندقية إلى كثير من الكشوف وغمرت العالم بأصناف المنجزات من أقداح وعلب وأنابيب وأوان كيماوية. وكانت المصانع تنفخ الزجاج وتفرغه وتنحته وتعزز بذلك فن الترصيع في دمشق والزجاج البلوري الرقيق الذي سبقت به مصر صناعات

(2400/1)

بروسيا وتشيكوسلوفاكيا أوائل هذا القرن. وقد جعل الموحدون – كما يقول أندري جوليان في "تاريخ إفريقيا الشمالية" – حدا للفوضى المالية التي كان يتخبط فيها ملوك الطوائف؛ فظهر عنصر جديد هو التصنيع وأصبحت سبتة مركزا دوليا لإنتاج الورق يضاهيه جودة ورق شاطبة في الأندلس وسامرا في العراق. وكانت هذه المراكز تمد أوربا الشرقية والغربية. وقد عثر المستشرق كازيري في الإسكوريال على مخطوط عربي من ورق القطن يرجع تاريخه إلى عام 1009م (وهو هذا العصر بالذات) يدل على أن الورق المقصود كان من القطن. وقد سبق المغرب أوربا

(2401/1)

إلى صنعه. ومعروف أن العرب أول من صنع الكاغد من الخرق البالية (لوبون، "حضارة العرب"، ص. 519). وقد أصبحت في فاس وحدها أيام الموحدين 3094 مصنع للنسيج و47 للصابون و12 لتسبيك الحديد والنحاس و11 معملا للزجاج و400 لصنع الورق أو الكاغد(1) ، علاوة على الثروة المعدنية التي اتخذت موادها الأولية من حديد ونحاس وفضة وتوتياء وغيرها منطلقا لسلسلة مصانع انتشرت بسرعة في حواضر المغرب وبواديه، بالإضافة إلى مصانع السكر. فازدهرت المبادلات بين المغرب ودول أوربا، وخاصة موانئ بيزه وجنوة

---

(1) الجزنائي، زهرة الآس، ص. 33.

(2402/1)

والبندقية ومرسيلية. وكان المسلمون آنذاك هم أول من نظم الأساليب التجارية طبقا لمقتضيات التجارة الدولية، كما يقول أندري جوليان الذي أكد أن الأسطول المغربي أصبح آنذاك أول أسطول في البحر الأبيض المتوسط

ونفتح هنا قوسا صغيرة لنؤكد أن الروح القانونية نجدها متبلورة في مواقف المغرب الذي كان يقف دائما

في صف الشعوب التواقة إلى التحرر كشعب الولايات المتحدة الذي كان المغرب أول دولة اعترفت باستقلاله في العالم أيام السلطان محمد بن عبد الله المحدث الفقيه السلفي (المتوفى عام 1204هـ) الذي كانت دول أوربية تدفع

(2403/1)

لأسطوله جزية سنوية، لحمايتها من القرصنة في البحر الأبيض المتوسط كما برهن عن روح دولية أكد المؤرخ والحقوقي الفرنسي الكبير جاك كاييي أنه سبق بها ما عرفته أوربا في العصر الحاضر.

وكانت هذه الفترة التي استمرت أزيد من ثلاثة قرون أروع فترة في تاريخ وحدة المغرب العربي تفتقت خلالها معالم الحضارة ومراسم العمارة وبدائع الفن انضافت إلى قوة التخطيط الاجتماعي الذي تبلور في تأمين السبل الصحراوية والتفجر الديموغرافي وتكاثر المارستانات وتزايد

(2404/1)

المدارس والأحياء الجامعية وانطلاق من مصانع المراهم والأدهان والأكحال(1) . ولعل من أبرز مظاهر هذا لازدهار آخر أيام بني مرين القوة الشرائية للنقود، حيث لاحظ ابن بطوطة أنها كانت تعدل في المغرب ثلاثة أضعافها بمصر. وبالرغم من النكبات التي بدأت تترى على المغرب بعد نكبة "الفردوس المفقود"، فإن المنصور السعدي استطاع أواخر القرن العاشر الهجري في معركة "وادي المخازن" إيقاف غزو البرتغال للشواطئ المغربية مع تقليص النفوذ الاستعماري البرتغالي في البحر الهندي والخليج

---

(1) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص. 177.

(2405/1)

العربي كما كان أسطوله قبل ذلك رادعا للصليبيين في سواحل الشام وفلسطين. وصعقت أوربا بعد الهزيمة النكراء التي ألحقها المغرب بالبرتغال الذي فقد استقلاله من جراء هذه الضربة أزيد من ستين سنة، فصارت الدول الغربية تخطب ود السلطان السعدي واقترحت إنجلترا عليه التعاون لتأسيس كوندومنيوم الهند، ونفق الدينار الذهبي المغربي على الصعيد

العالمي وتصاعد التصنيع، وخاصة تكرير السكر الذي أصبح البلاطان الفرنسي والإنجليزي يتنافسان في اقتنائه بصفته أجود ما ينتجه العالم. وبعث المغرب، تقوية لمبادلاته مع أوربا، عملاء

(2406/1)

للدعاية لمنتجاته كما شارك في المعارض الدولية كمعرض باريز عام 1285 هـ وحمى الصناعة الأهلية من المزاحمات الأجنبية. وبذلك برهن في شتى المجالات على تساوقه مع ما يستجد من معطيات الحضارة بأوربا. وقد عرف المغرب أنظمة اقتصادية واجتماعية سبقت الأحداث والكشوف الأوربية؛ فقد منحت الدولة مثلا القروض للدور التجارية لجلب المحاصيل أعوام الجفاف وبيعها بأثمان في متناول الشعب؛ كما كانت تتخذ كل الوسائل لإلغاء ما يزيد على الأعشار والزكوات من مكوس وجبايات تخفيفا لوطأتها على الشعب وعلى اقتصاديات البلاد. ولعل المغرب

(2407/1)

كان من أكثر الشعوب إيمانا بفعالية العمل بصفته رأس مال قبل ظهور نظرية كارل ماركس التي يعتقد أنصار الاشتراكية والشيوعية بأنها مكسب جديد للإنسانية. فقد أكد ابن خلدون في "تاريخ"ه(1) أن "الكسب هو قيمة الأعمال البشرية". فلذلك لاحظ ماسينيون في إحصاء قام به عام 1924 للصناعة المغربية(2) أن عدد رجال الحرف في المدن المغربية يعادل نصف عدد السكان؛ كما اعترف المؤرخون الأجانب بأن نظام الحناطي عندنا – وهو أشبه بما عرف

---

(1) م 1، ق 3، طبعة بيروت، ص. 686 و709.

(2) النشرة الاقتصادية والاجتماعية المغربية، رقم 49–50.

(2408/1)

أخيرا في إيطاليا (système des corporations) – كان يعمل في إطار من الحرية الكاملة لم يفسد إلا باحتكاكه بنظريات أوربا. وقد امتاز الإنتاج الصناعي المغربي بجودة نادرة فتحت له منافذ في أوربا إلى آخر القرن الماضي. ويكفي دليلا على ذلك قطن المغرب الذي كان فيه نوعان معروفان في أوربا (سي – إيسلاند)

لهما سدى حريري طويل من الطراز الأمريكي. وقد تساوق مع ازدهار التصنيع ازدهار الفلاحة حيث بلغت السوائم وحدها خمسين مليون رأس من الغنم والمعز وستة ملايين رأس من البقر(1) . ويرجع التفجر الديموغرافي

---

(1) كودار، ص. 188.

(2409/1)

بالمغرب لقلة الوفيات ولارتفاع معدل الأعمار إلى ما بين 65 و70 سنة في الحواضر ومائة في الأطلس بفضل انتشار المارستانات والملاجئ الصحية وخلو المجتمع الإسلامي من أمراض العصر الناتجة عن الخمور أو الزنا مثل الأمراض التناسلية التي عرفت في المغرب بالأمراض الإسبانية أو الفرنسية.

أما في الحقل الجامعي، فقد احتفل المغرب منذ سنوات بذكرى مرور أحد عشر قرنا على تأسيس جامعة القرويين التي ما فتئ المؤرخون الغربيون يعتبرونها "أول مدرسة في الدنيا" لا تزال قائمة إلى الآن، كما اعتبروا مدينة فاس في إفريقيا أشبه بأثينا

(2410/1)

عاصمة الفكر بأوربا واعتبرها المشارقة أنفسهم وخاصة منهم العراقيين بغداد المغرب(1) ، أي عاصمة للغرب الإسلامي بالنسبة لدار السلام في حاضرة الخلافة. وهكذا امتاز المغرب بمدارسه الرائعة التي هي أحياء سكنية للطلبة كما امتاز بمعاهد تقنية في القرن الماضي كمدرسة المهندسين(2) ومدرسة المدفعة (بالجديدة) ومدرسة الفنون. وتعزز هذا الانبعاث الفكري بإيفاد بعثات من الطلبة إلى الخارج لاستكمال معارفهم العلمية والتقنية كما تعزز نتاج العقول بمطبعة

(1) المراكشي، المعجب، مصدر مذكور.

(2) المجلة الآسيوية، المجلد 10، ص. 152.

(2411/1)

حجرية نشرت مئات المخطوطات العربية المختارة من بين آلاف المخطوطات النادرة المكدسة في المكتبات العامة والخاصة بالمغرب.

وإذا كان للشعوب والأمم مجال يجب الانصراف إليه تعزيزا للكيان الوطني ودعما للحضارة القومية، فهو هذه المجموعة من المجالات التي تستلزم تخطيطاتها

الرصينة درجة عليا من التقدم الفكري والسمو الاجتماعي والتطور التقني بالإضافة إلى الكفاية الاقتصادية.
ولذلك عمد الاستعمار – كما يقول أندري جوليان – إلى التعجيل بانهيار المغرب اقتصاديا للسيطرة عليه سياسيا، ففرضت فرنسا حمايتها عام 1912م عن طريق

(2412/1)

القروض والدبلوماسية المالية. ولذلك وجب أن تستفيد نهضتنا الجديدة من هذه العبرة، فتتلافى كل استرهان لمقوماتها وتوجه تخطيطها إلى دعم سياستها الوحدوية العربية في الإطار العالمي عن طريق تراثها الطبيعي.
فلو أن العرب استطاعوا خلق وحدة اقتصادية حقيقية تحتجز الثروات وخاصة البترول وأرصدة البنوك ومختلف أوجه الاستثمار، لتوافر لدينا أكبر ضغط سياسي على الغرب الذي ما زال يستنزف قوانا الحيوية ويجرح كرامتنا بمكايده. ومن مظاهر حضارتنا الفكرية التي يجب أن ندأب متكاتفين شرقا وغربا على صونها ودعمها لربط الماضي

(2413/1)

بالحاضر، مكانة اللغة العربية التي كان نفوذها في العصور الوسطى بعيد المدى؛ حتى أن جانبا من أوربا الجنوبية كان يوقن بأنها هي الأداة الوحيدة لنقل العلوم والآداب كما يقول جورج ريفوار: "وقد انطلق المنهاج العلمي أول ما انطلق باللغة العربية ومن خلال العربية في الحضارة الأوربية". بهذا اعترف الأستاذ ماسينيون الذي أكد "أن اللغة العربية أداة خالصة لنقل بدائع الفكر في الميدان الدولي وأن استمرار حياة اللغة العربية دوليا هو العنصر الجوهري للسلام بين الأمم في المستقبل". فلا يمكن إذن لأي نهضة عربية حديثة أن

(2414/1)

تكتمل دون أن تستعيد لغة الضاد مكانتها المرموقة في المحافل الدولية علميا وتقنيا وحضاريا، ولنقصر نظرنا على مثال واحد يبرز مدى إسهام المغرب العربي في دعم لغة الضاد. فهذا الشيخ مرتضى الزبيدي إمام أهل اللغة في القرن الثاني عشر يتتلمذ لأبي عبد لأبي عبد الله محمد بن الطيب الشرقي الفاسي (المتوفى عام 1170هـ) في أكبر موسوعة لغوية في العصر الحديث هي "تاج العروس من جواهر القاموس" كما يتتلمذ لمحمد الحسيني البليدي الجزائري ("المقولات العشر" للدكتور

حقي). وقد كان للأستاذ المغربي أثر عميق في تكوين تلميذه

(2415/1)

المصري، حتى أنه لا يمر مشكل إلا واستند الزبيدي في حله إلى شيخه الذي كان اللغويون يصححون المعاجم من إملاءاته وتحليلاته كما فعل ابن القزاز البربري حيث صحت عليه اللغة في القرن الرابع الهجري مع صاعد العراقي. أضف إلى ذلك أن الفكر المغربي قد طعم المعجم العربي بطائفة من المصطلحات النابعة من مصادر الاشتقاق العربية الأصلية(1) والتي اكتملت بها مجالي الحضارة العربية في الإدارة والقضاء والشرطة

---

(1) راجع بعضها في: دوزي، المستدرك على المعاجم العربية؛ وبعضها الآخر في كتابنا: تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث.

(2416/1)

والاقتصاد والصناعة والفلاحة والاجتماع والعمران. وقد استعرضنا جوانب من هذه المظاهر في كتابنا "تطور

الفكر واللغة في المغرب الحديث" الذي هو عبارة عن سلسلة محاضرات ألقيناها في القاهرة بإشراف معهد الدراسات العربية العليا. فعناصر التكامل هذه لا ينبغي أن تخلق في حضارتنا العربية ثنائية متنافرة الطرفين بل كيانا متساوق الأجزاء ينطلق من المفهوم العلمي العربي الخاص إلى المدرك العلمي الإنساني العام في تجاوب يحفظ للكيان العربي عالميته التي ظلت طابعه البارز طوال القرون الوسطى إلى العصر الحديث. وقد فجر

(2417/1)

الاستعمار بين الإخوة في الشرق والغرب هذه الثنائية الانفصالية التي ما زلنا نعاني من ويلاتها الأمرين في مجاذباتنا الهامشية التي تنسينا أحيانا عمق المشاكل المصيرية. وحتى في أدق مجالات المعرفة كان للمغرب النصيب المرموق فقد استطاع أن يسهم حتى في تكييف الفن المعماري العالمي بروائع ما زالت قائمة إلى الآن، حيث تجلى إبداع الموحدين منذ القرن الخامس في روعة وفخامة مرصد الخالدة أو الخيرالدة (Geralda) بإشبيلية، ومسجدي حسان بالرباط والكتبية بمراكش

كما امتاز الفن المريني في القرن الثامن برفقة الأشكال وتشعب

(2418/1)

الرسوم وتداخل التسطيرات والتوريقات والمقرنصات والترخيمات ونقوش الخشب والأدهان البديعة والشماسيات الملونة والنحاس المموه وترصيع المنارات والجدران بالزليجيات. وبالرغم من اتجاه الفن المعماري منذ القرن العاشر إلى هندسة الحصون والقلاع لمواجهة الغزو الاستعماري الأوربي، فقد ظل ينافس أوربا في التجديد، حيث لم يكن قصر «الرياض» بمكناس يقل روعة عن قصر "فرساي" بفرنسا. وهكذا تبلور في الفن المغربي طابع خاص أضفى على الحضارة في الشق الغربي للوطن العربي لونا جديدا شكل إحدى لبنات انبعاث الإنسانية الفكري منذ

(2419/1)

العصور الوسطى.

ومن هذه العجالة يتجلى أنه إذا كان المغرب العربي قد

حقق تطورا رائعا في مجالات الفكر والحضارة المختلفة، فما ذلك إلا بفضل تساوق النشاطات العلمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية بين شقي العروبة؛ فأبلغ الروابط وأعمقها قد استوثق بين الشرق العربي والشمال الإفريقي والأندلس على يد رسل الفكر الذين كانوا يهاجرون زرافات ووحدانا في موجات غامرة كل عام للحج أو الدج. وكان لهذا التبادل مظاهر شتى تبلورت في وفرة الوافدين من علماء المشرق على ملوك المغرب حماة العلم والفكر أمثال المنصور

(2420/1)

السعدي(1) الذي احتضن بلاطه رجالات أفذاذا من الحرمين والقدس ومصر والشام والعراق والهند. وكان أفصح جواز يقدمه المواطن المغربي أو المشرقي في الحدود المطاطة هو إسلامه وعروبته؛ فكانا يستقضيان ويستفسران في الحواضر العربية الإسلامية شرقا وغربا دون ميز يتبوآن هنا وهناك المناصب السياسية والدبلوماسية والعلمية. فلم يكن للمواطنة الضيقة أي أثر في الحيلولة دون انبثاق هذا الشعور الفياض بالوحدة التلقائية

---

(1) راجع بحثنا حول رسل الفكر بين الشرق العربي

والمغرب العربي في مجلة اللسان العربي، العدد 5،

1967/1387.

(2421/1)

النابعة من وحدة الدين واللغة والتاريخ والمصير. وقد ظل أقطاب الفكر المغربي ينتجعون الشرق لاستتمام المعارف وتبادل الإجازات العلمية ووجوه النظر في مختلف المجالات التقنية باطراد ووثوق؛ كما عرف الشرق كيف يقدر في شخص زملائه في الغرب الإسلامي حرية الفكر ونزعة التجديد. ولعل ما لاحظه المقري وقبله ابن خلدون من فروق بين الشقين في الاتجاهات الفكرية والمناهج العقلية يرجع إلى انطباع الشرق بالعمق الكلاسيكي في ملكة العلوم واصطباغ الفكر المغربي بألوان من البحث جديدة تحت تأثير التفاعلات مع الغرب. ومن بين

(2422/1)

المغاربة الذين كان لهم ضلع قوي في دعم هذا التبادل الثري بين شقي العروبة نجتزئ بالإشارة إلى بعض من

عاشوا في العراق أمثال:

1 – **جمال الدين محمد بن أبي بكر البغدادي. أصله من قصر كتامة. وهو صاحب "الوتريات" وقد ورد على مراكش عام 655هـ ثم للمرة الثانية عام 663هـ (المراكشي، الاعلام، ج 3، ص. 152).**

2 – **محمد ابن أحمد بن إبراهيم البغدادي الفاسي المتوفى بفاس عام 546هـ (ابن الأبار، تكملة الصلة، ج 2، ص. 193؛ ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ج 4).**

(2423/1)

---

3 – **أبو الحكم عبيد الله (أبو عبد الله) بن المظفر المريني المغربي كان طبيب المارستان بالعراق أيام السلطان محمود السلجوقي (وفيات الأعيان، ج 2، ص. 307؛ العماد الأصفهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم المغرب، تونس، 1966، ص. 289).**

4 – **عبد الله المراكشي الهنتاتي جمال الدين فوض الله عمر البغدادي المعروف بالمجرد. توفي عام 795هـ (المراكشي، الإعلام، ج 6، ص. 102 مخطوط).**

كما تتلمذ للغزالي صالح ابن حرزهم الفاسي (ابن قنفذ، أنس الفقير، ص. 12) وابن حنين الكناني المتوفى بفاس عام 569هـ (الجذوة، ص. 304 و322) وعبد

(2424/1)

القادر الأندلسي التطواني التبين المتوفى عام 566هـ (محمد داود، تاريخ تطوان، ج 1، ص. 74).

أما العراقيون بالمغرب، فقد ألفت في شأنهم المصنفات منها "العراقيون الحسينيون بالمغرب" لمحمد هاشم زيان العراقي (فهرس الفهارس، ج 1، ص. 246) و"الشيعة العراقية بالمغرب" لأحمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني و"مطلع الأشراف من الشرفاء الواردين من العراق" لعبد السلام القادري.

كما شارك مغاربة في كفاح الشرق ضد الاستعمار، منهم:

(2425/1)

---

1 – يوسف بن دوناس الفندلاوي. استشهد في حرب الصليبيين في الشام عام 543هـ (معجم البلدان، ج 6، ص. 401).

2 – العباس بن أحمد الفاسي استشهد في الحروب الصليبية بالشام عام 595هـ (الجذوة، ص. 278).

3 – يوسف بن محمد بن عبد الله البلوي المالقي المتوفى

عام 602هـ غزا مع صلاح بالشام (تكملة ابن الأبار، ص. 737؛ ابن الزبير، صلة الصلة، ص. 217).

4 – محمد الجيلاني السباعي المراكشي حارب الفرنسيين بمصر (الجبرتي، عجائب الآثار، ج 3، ص. 44؛ المراكشي، الإعلام، ج 5، ص. 144).

(2426/1)

فهل يمكن لأي وحدة أن تقوم على غير هذه الدعامة من التكامل بين أجزاء العروبة؟ وهل يتأتى لنهضة عربية رصينة أن تنبثق في العصر الحديث دون الارتواء من هذا المعين الصافي الذي عكرته – ولا تزال – رواسب وذيول التخلف الناتج عن انفصال أجزاء الوطن العربي بعضها عن بعض ردحا طويلا من الزمن تحت ضغط مكايد الكائدين؟ وهناك مظهر آخر لحضارة المغرب يتجلى في رسالتها إلى إفريقيا وأوربا وأمريكا الجنوبية.

فالمغرب يحتل موقعا ممتازا في القارة الإفريقية حيث يشرف على بحرين تركزت فيهما حيوية وحضارة. ولكن هذا الوضع المحظوظ في

(2427/1)

قلب العالم الغربي لم يفت في أعضاد روح المغرب الشرقية التي عززتها وشائج شتى وطبعها الإسلام والعروبة بميسمها النهائي.

إن المغرب الذي يتحلى منذ أزيد من ألف سنة بالحضارة العربية ما زال نقطة وصل بين عالمين ومحورا جوهريا للروابط الدولية بين الشرق والغرب.

ويقبض المغرب – بفضل طنجة التي كانت عاصمته الدبلوماسية – على مقاليد غربي المتوسط، بينما تشرف قناة السويس على شقه الشرقي. ولذلك فإن هذين الطرفين العربيين اللذين يشرفان على مركز يتسم بحساسية نادرة في الوضع الدولي الراهن لا بد أن يلعبا دورا مهما في حوض

(2428/1)

المتوسط الذي لا يمكن أن يتم شيء دون مساهمة – ترتكز على المساواة والسيادة – من طرف جميع الأقطار العربية التي تمتد حلقاتها من طنجة إلى دمشق على طول ثلاثة أخماس ضفاف المتوسط تلك حقيقة ناصعة كان من المحتوم أن تفرض وجودها على الأفكار الغربية قبل اليوم.

وبلغ إشعاع الفكر العربي عن طريق المغرب أقاليم

إفريقية شاسعة تمتد إلى تخوم النيجر جنوبا وحدود مصر شرقا؛ فكان المغرب محور ومصدر حيوية نابعة عن الاستقلال الذي كان يتمتع به. فلم تعد هناك دولة عربية مستقلة في إفريقيا غير المغرب بعد عام 1250**م، حيث سقطت مصر**

(2429/1)

نفسها تحت سيطرة الأتراك فظل المغرب يواصل طوال ألف عام حمل مشعل الحضارة العربية بصفته ولدا بارا للشرق العربي الرائد. موقنا بأن الانتماء للشرق هو الميزة الجوهرية في
حضارتنا بل هو القوام الأساسي لكياننا، ولهذا شكل المغرب بصفته جزءا قائما من هذا الوطن العربي نقطة وصل مع أوربا وقنطرة إلى العالم الجديد، وذلك ضمن التأثير الذي تركته حضارتنا في الغرب والذي لم يكن لينصرم – ضمن تبادل موصول – لولا تلك الآفة الاستعمارية التي حولت من جراء مطامعها التوسعية مجرى تاريخنا. فلو أن المغرب والغرب ظلا مستقلين

(2430/1)

سياسيا الواحد عن الآخر، لأمكنهما أن يعززا تقاربهما في نطاق روابط حرة وتناسق قار؛ لأن التعاون لا يمكن أن يثمر إلا إذا جرى على أساس من المساواة وتبادل احترام السيادة والكيان. فحتى إذا سلمنا بما يزعمه بعض المؤرخين من وجود رواسب عاطفية ضد الأجنبي في نفوس المغاربة، فإن ذلك لم يكن ذاتيا وإنما هو شيء عارض تمخض عن طغيان المطامع والدسائس الأوربية في البلاد.

إن النفسية العربية التي تجمع بين النبل والأريحية لا تنفعل انفعالا سيئا إلا إزاء ما يمس كبريائها الوطني ويهددها في حريتها ورمز وجودها. ففكرة الحرية

(2431/1)

عند الرجل العربي ليس معناها الفردية الأنانية، وإنما هي توقان طبيعي نزيه لتحقيق الذاتية وحفظها.

فلهذا تبلورت مدنيتنا في إشعاع ثقافي ممتاز أكثر منها في نفوذ مادي. ومع ذلك، فإن قوة المغرب المادية ما فتئت سائدة في البحر المتوسط الذي كان رومانيا فأصبح طوال العصور الوسطى "بحرا عربيا" – كما يقول م. ماكس فنتيجو – بجزره وسواحله وأساطيله ونهضة تجارته، وأضحت لغة القرآن هي اللغة الدولية للتجارة

والعلم.

وقد أكد الكاتب الفرنسي المقتدر أندري سيكفريد – عضو أكاديمية باريس – أن العرب غرسوا في البحر المتوسط حضارة

(2432/1)

يانعة، فطوروا الري وأدخلوا غراسات جديدة كالقطن والأرز وقصب السكر والحوامض (وبسببهم فقد البحر المتوسط طابعه المسيحي).

إن الإشعاع المادي للقوة المغربية في المتوسط هو آخر ما نفكر فيه لإبراز الرسالة التي اضطلعنا بها في هذا البحر ومع ذلك، فإن الأسطول الموحدي الذي كان يضم أربعمائة قطعة ما لبث أن أصبح أول أسطول في المتوسط (أندري جوليان). على أن المغرب قد تزعم العالم الإسلامي والعربي في هذا العصر؛ مما حدا بصلاح الدين – بطل الحروب الصليبية – إلى الاستنجاد بالأساطيل المغربية لإيقاف تقدم المسيحيين في طريق

(2433/1)

الشام. وما لبث هذا الأسطول أن ضم أزيد من ستمائة قطعة حربية أيام أبي الحسن المريني. وسيادة العرب في البحر المتوسط ظهرت بوادرها ولما يمر على انبثاق الإسلام بضعة عقود: فقد غزا معاوية بعض جزر المتوسط بألف وسبعمائة سفينة، ثم قامت الأوراش التونسية تعزز بإنتاجها الجديد قوة الشرق العربي البحرية حيث صنعت في بعض أيام ابن نصير وحده نحو مائة قطعة. وقد برهن المغاربة منذ القرن السادس الهجري عن حاسة استراتيجية مبكرة، حيث أدرك عبد المؤمن بن علي الموحدي أهمية جبل طارق الذي هو أحد مفاتيح المتوسط، فعمد إلى تحصينه

(2434/1)

وإحالته إلى قاعدة أمامية للدفاع عن إفريقيا والأندلس. وحتى في خصوص فكرة الجندي المجهول، نلاحظ وجود ما سمي في الأندلس بالشهيد الغريب (Le martyr inconnu **) في المخاضة التي بين حصن بالما (** Palma del Rio **) وهي الجرف (**Al-Jarf**) (الإدريسي، "النزهة"، ص.** 208**).**

إن رسالة الحضارة المغربية الحق في البحر المتوسط تتجلى في مظهرين اثنين هما التأثير الاقتصادي

والإشعاع الثقافي. على أن الدور الاقتصادي نفسه لم يكن في الواقع سوى نتيجة النفوذ الأدبي. فسياسة التسامح التي نهجها المغرب في أغلب عصوره قد ساهمت في توثيق

(2435/1)

الروابط بين المسلمين والمسيحيين حتى أصبحت المراسي المغربية في سواحل المتوسط مصدر نشاط فياض: فهي التي كانت الينبوع الأول للمبادلات مع بيزا وجنوة والبندقية ومرسيليا وغيرها من الموانئ.

وقد أكد مسيو ماكس فنتيجو مؤلف " Le miracle arabe" **["المعجزة العربية"] أن الحكومة الموحدية كانت من أشد الحكومات احتراما للحرية وأن الأندلس عرفت في عهدها عصرا ماجدا تألق فيه نجم المعارف والعلوم العربية التي سرى تيارها المنعش في جنبات أوربا. نعم، إن من مظاهر تلك المعجزة العربية تحقيق شعوب أوربا الغربية من إيطاليين**

(2436/1)

وفرنسيين وألمان وإنجليز لذلك الانقلاب الفكري العظيم الذي تفتق عن عصر النهضة. وقد سبق لغوستاف لوبون أن قال نقلا عن العالم الإيطالي ليبري (Libri): "لولا العرب، لتأخر انبعاث الآداب في أوربا عدة قرون". نعم، لم يتصل الأوربيون بالعلوم العربية إلا عن طريق إسبانيا المسلمة التي برهن فيها تنافس العناصر العربية والمسيحية عما للثقافة العربية من تفوق غير منازع على الثقافة اللاتينية. وما لبث هذا الإشعاع العربي أن غمر شعوب الغرب، فبلغ كبريات العواصم ونشل مدن بيزا وبولوني ومونبيلييي وسلامانك وأفنيون وباريس من

(2437/1)

وحشتها اللاتينية، حيث فتح أمامها مجال الفكر والحياة الثقافية كما قال فنتيجو. وبالرغم من انهزام الموحدين السياسي وعودة الأندلس إلى حظيرة المسيحية، ظل نفوذ الحضارة العربية يتزايد في نظر الغربيين حتى صارت باريس نفسها – التي أسس جامعتها الملك فيليب أوغست على أثر عودته من الشرق – تستمد من المغرب والشرق كثيرا من كشوفها. والذي يزيد هذه الظاهرة غرابة أن الفتوح العربية لم

تكن حركة توسيعية ولا حربا صليبية ضد المسيحية، وإنما كانت رسالة تمدينية لا تهدف إلى أي لون من ألوان الإدماج. ومن مظاهر تسامح ملوك

(2438/1)

العرب ونزاهة وجهتهم أن جوهن ملك إنجلترا عرض عام 1199 على آخر ملوك الطوائف، وهو محمد الناصر، أن يحميه من البابا في مقابل جزية سنوية واعتناق الإسلام من طرف إنجلترا ملكا وشعبا، ولكن الملك العربي رفض هذا العرض؛ لأن أريحيته أبت عليه استغلال الضائقة السياسية التي كان الإنجليز يتخبطون فيها لحملهم على اعتناق الإسلام.

أليس إذن من الغريب أن لا يتجلى أثر الحضارة العربية في ذهن الأوربي المتوسط إلا في فتوح أوقف تيارها شارل مارتيل في بلاط الشهداء؟

(2439/1)

ومنذ القرن السادس عشر، أمكن الحضارة المغربية التي كانت إلى ذلك التاريخ منحصرة في البحر المتوسط أن

تدخل إلى أمريكا الجنوبية بواسطة الغزاة البرتغاليين الذين اكتسحوا إذ ذاك العالم الجديد. فقد تلقت البرازيل مثلا طوال ثلاثة قرون متوالية تأثير المدنية الأندلسية؛ فاتسمت جميع مظاهر الحياة الاجتماعية الأمريكية بطابع مغربي ينمو ويضعف حسب الأصقاع. فتقنعت المرأة البرازيلية على طريقة زميلتها المغربية وكيفت أسلوب حياتها كما فعلت المرأة الصقلية المسيحية – فيما حكاه الرحالة ابن جبير – تكييفا يحذو حذو النعل ما

(2440/1)

عهد في الأندلسيات والمغربيات. نعم، أصبح الشيء الكثير في البرازيل صورة لما كان عليه مجتمعنا في العصور الوسطى من أناقة النساء الأرستقراطيات في الحواضر واتخاذهن الطنافس الوثيرة للجلوس بدل المقاعد الخشبية، إلى غير ذلك من طرائق الحياة الفردية ومناهج الفلاحة والغراسة في البادية. فبالرغم من اختلاف الطقس، استخدم الفلاح الأمريكي أجهزة الفلاحة المغربية وأساليبها وانتشر استخدام الطواحين الهوائية في مجموع أنحاء أمريكا الجنوبية مع جميع ما

ينطوي عليه نظام الري عندنا (السواقي والآبار، إلخ).
وقد نقل المعمرون

(2441/1)

البرتغاليون إلى أمريكا جميع ما أنجزه المغاربة في القسم الجنوبي من الأندلس من مصانع السكر والقطن إلى مزارع الحوامض ودودة القز (كانت 3060 قرية أندلسية تتعاطى تربية دودة القز). على أن اللغة الإسبانية الأمريكية تنم عن الآثار التي تركتها حضارتنا في الميدان الثقافي والاقتصادي والاجتماعي بأمريكا. فالاصطلاح الأمريكي في المياه والسقي والري معظمه عربي، وكثير من الأزهار والنباتات العطرية ما زالت تحمل في إسبانيا وأمريكا أسماء عربية. أضف إلى ذلك ما يسمى "مودة" النساء من أسماء الحلي والمصوغات.

(2442/1)

والشبه وثيق بين المغرب وأمريكا الجنوبية في ميدان الهندسة المعمارية، حيث لا تختلف في البلدين أساليب البناء في الكنائس والأديرة والمنازل والحمامات. وقد

تأثر الاصطلاح الأمريكي أيضا بالمفردات العربية.

ويضيق المجال عن تعداد المناحي التي تجلت فيها آثار الحضارة المغربية والأندلسية؛ فحتى أساليب الطبخ وأسماء العائلات لا تختلف في أمريكا عنها في المغرب.

ووحدة أصول العائلات العربية تفسر لنا نجاح الهجرة العربية إلى أمريكا. ورسالتنا الحضارية أصبحت في الظروف الدولية الراهنة أشد واقعية من أي وقت وأبرز عنصر يجب

(2443/1)

أن تنطلق منه العناصر الحضارية الأخرى عند إخواننا في الشرق لبناء نهضتنا الحديثة.

(2444/1)

الترجمة بين العربية والإسبانية

الدكتور الحسين بوزينب

كلية الآداب – الرباط

... إن الحاجة الملحة إلى المعرفة في أوروبا القرون الوسطى وتفوق الثقافة العربية آنذاك جعل

المحتكرين لغذاء العقل في إسبانيا منذ العقد الثالث من القرن الثاني عشر الميلادي يقومون بنشاط حثيث لتحويل كنوز الثقافة العربية إلى خزائنهم . نعم ، أقول المحتكرين ، لأن ما يمكن أن نسميه بثقافة الكتب كان مقتصرا أو يكاد ، على طبقة رجال الدين النصارى وعلى اللغة اللاتينية . ويمكن اعتبار حركة الترجمة هذه ، لما شملته من حقول المعرفة ، وبدون

(2445/1)

مبالغة ، الأساس الذي سيشيد عليه ما سمي بالنهضة الأوروبية .

... إنني اخترت التطرق إلى هذا الموضوع لسببين إثنين ، أولهما تاريخي والثاني تربوي ومنهجي .

1 – الجانب التاريخي

... أجل فكلنا سمع عن ترجمة التراث العربي في إسبانيا ، ولكن الكثير منا قد يجهل التنظيم الذي كانت ترتكز عليه هذه الترجمة منذ القرن الثاني عشر الميلادي . فهده العملية التحويلية لم تكن تتم بعشوائية ، بل كانت منظمة ومضبوطة ، لا تسند إلا للأخصائيين وتنجزها طقوم في عدة أطوار .

(2446/1)

... إن تطور الترجمة في إسبانيا من العربية إلى اللاتينية أو إلى الإسبانية يمتد عبر عدة قرون يمكن أن ترسم نقطة انطلاقه في الثلث الأول من القرن الثاني عشر الميلادي ونقطة اختفائه مع تهجير المورسكيين في آخر العقد الأول من القرن السابع عشر الميلادي .

ويمكن أن نبرز من بين المراحل التي قطعتها الترجمة من العربية ثلاث مراحل رئيسية :

...

... أ – مرحلة المطران Raimundo **الممتدة بين** 1130 **م** – 1187 **م . أي ما يناهز ثلث قرن بعد موته (** 1152 **م) .**

... ب – مرحلة الملك Alfonso **الحكيم من** 1252 – 1277 **م .**

(2447/1)

... ج – مرحلة المورسكين وتتجلى خصوصا في القرن السادس عشر الميلادي .

... أ – إن من أبرز مشجعي الترجمة من العربية إلى اللاتينية في قشتالة القرن 12 **م ، نجد مطران طليطلة**

Raimundo الفرنسي الأصل ، الذي يسعى إلى الحفاظ على عظمة طليطلة بالعمل الدأوب على شتى الواجهات الدينية والسياسية والعمرانية والثقافية . وقد اعتبر في هذا الميدان الأخير ، من كبار حماة الآداب في القرن 12 إلى 14 ، وإليه يعزى خلق ما يسمى بمدرسة طليطلة للترجمة . وقد اتجه عمله الثقافي بالخصوص إلى تشجيع نقل الفلسفة العربية إلى اللاتينية ،

(2448/1)

كما شجع على إرساء مدرسة للدراسات العربية – اللاتينية بتوسط اليهود ، خصوصا و أنه وجد في طليطلة جملة من المعطيات ساعدته على تحقيق أهدافه : كوجود جماعة يهودية تعرف العربية ومسيحيين مستعربين ، زد على ذلك توفره على مكتبة مهمة .

... ومن الكتب التي ترجمت خلال هذه الحقبة : " كتاب الشفا " لابن سينا و " ينبوع الحياة " لابن غبيرول و " مقاصد الفلاسفة " للغزالي وكتاب " إحصاء العلوم " للفرابي وكتاب " المدخل إلى صناعة أحكام النجوم " للقابسي و " رسالة في العقل " للفرابي و"المقاصد " للغزالي ... وكتنب أخرى كثيرة

(2449/1)

للخوارزمي والمجريطي والكندي والغزالي وابن سينا وقوسطا بن لوقا وجابر بن حيان والرازي وابن الوافد ... إلخ ، في الرياضيات والتنجيم والفلك والطب والفلسفة ...إلخ (1) .

... بعد المرحلة التي تحمل اسم المطران Raimundo ، **تأتي فترة انتقالية ستدوم ما يقارب القرن من الزمن ، ستضعف فيها الترجمة إلى اللاتينية ضعفا كبيرا في طليطلة**

---

(1) **انظر كتاب :** José San Gil , La Escuela de Traductores de Toledo , Tolido , Institudo Provincial Investigaciones y Estidios Toledanos , Diputacion Provincial , 1985 , PP. 34 SS y.

(2450/1)

وسيبدأ استعمال اللغة الإسبانية العامية كمرحلة أخيرة في الترجمة ، ذلك الاستعمال الذي سيعرف نموا وازدهارا مع Alfonso **العاشر ، الملك الحكيم .**

... وقد كانت الترجمة في المراحل ما قبل الملك الحكيم

عملية ثنائية يقوم بها متخصصان ، أحدهما في العربية والآخر في اللاتينية . كان يتكفل بالجانب الأول يهودي أو مستعرب ، يحول النص العربي إلى اللغة الرومانسية . ثم كان هناك من جانب ثاني مسيحي خبير في اللاتينية يحول النص الرومنسي إلى هذه اللغة .

(2451/1)

... ب – أما مرحلة الملك الحكيم ، والتي تمتد بين 1252 **و** 1277 **م ، فهي مرحلة ذات أهمية قسوى بالنسبة للكيان الثقافي الإسباني نفسه . فإذا كانت مرحلة المطران** Raimundo **قد لعبت على المستوى الأوروبي دورا إشعائيا ، ولو منحصرا في طبقة رجال الدين الذين كانوا يعرفون اللاتينية ، فإن مرحلة** Alfonso **العاشر ستكسر الحاجز الذي كان يمنع سائر الناس في إسبانيا من الدخول إلى عالم المعرفة ، وذلك يجعل الإسبانية تتكلم كذلك لغة العلم .**

(2452/1)

... وقد سار الملك الحكيم في الترجمات التي أشرف عليها على نفس النهج الذي رسمه المطران Raimundo ، **وكان يحرس شخصيا على إضفاء الدقة والوفاء على ماكان يحول من علوم إلى لغته . فهكذا نجد بجانب الخبيرين في كل من العربية والرومنسية ، منقح مفسر ومبوب يساعدون المترجمين . و إذا كان النص سيترجم كذلك إلى اللاتينية أو الفرنسية ، كان يضاف خبيران في هاتين اللغتين . وكان االملك الحكيم يراجع بنفسه الترجمة الأخيرة . وقد أعطى** Alfonso **العاشر أهمية لكتب الفلك والتنجيم ولم يبال بكتب الفلسفة كما كان يفعل المطران**

(2453/1)

Raimundo .

... ومن الكتب المترجمة مع Alfonso **العاشر : كتاب " كليلة ودمنة " وكتاب " السندباد" و " العمل بالصحيفة الزيغية " للزرقلي وكتاب " البارع في أحكام النجوم " لأبي الحسن علي بن أبي الرجال وكتاب " الكواكب الثابتة المصور " لعبد الرحمن الصوفي وكتاب " المعراج " والذي ترجم كذلك إلى الفرنسية سنة** 1964 **وكتاب " في هيئة العالم " لأبي علي بن الهيثم ... إلخ .**

... قبل التطرق إلى مرحلة الموريسكين ، ارتأينا التوقف عند عيسى بن جابر والراهب Juan de Segovia **في أواسط القرن** 15 **م للتحدث على الترجمة الإسبانية**

(2454/1)

للقرآن التي قام بها عيسى بن جابر ، نظرا للأهمية التي ستكون لهذه الترجمة لدى الموريسكيين ، ونظرا كذلك إلى ما أحيطت به من اهتمام وعناية لإنجازها .

... لقد قلنا أن الإمام والتخصص كانا من مميزات المترجمين ، وهذا يدلنا على الوعي بأهمية هذا الجانب في الترجمة . فغياب التخصص يحدث خللا عميقا في عملية نقل المعلومات كما يشوهها . فهذا السبب جعل أحد الرهبان وهو Juan de Segovia (1398 -1458 **م) يشكك في الترجمات القرآنية الموجودة في عصره ويتعاقد مع أحد الفقهاء المسلمين المعروفين آنذاك في شقوبية ليساعده على**

(2455/1)

ترجمة القرآن ترجمة وفية ، لأنه كان يقول بأن " المجادلة مع المسلمين بتلفيق أشياء مزيفة لهم ، يضعف من قوة دلائلنا ، لأنهم (أي المسلمين) سيظنون بحق أننا نتصرف بنفس الطريقة عندما نعرض عليهم ديننا المقدس " (1) . وهذا الراهب كان مقتنعا بأن اكتساب معرفة حقيقية حول البنية الدينية للعالم الإسلامي يستوجب ، كخطوة أولى ، دراسة معمقة للنص القرآني من

---

(1) Dario Cabanelas Rodriguez , Juan de Segovia y el Problema islamico , Madrid , Univesidad de Madrid , Facultad de Filosofia y Lettras , 1957 , P . 137 .

(1/2456)

جميع الجهات ، الشيء الذي يتطلب بدوره تمكنا جيدا من اللغة العربية أو التوفر على ترجمة قرآنية وفية و أمنية (1) . وقد كان يتطلع بشغف كبير إلى الجواب عن تساؤلات كانت تشغله باستمرار ك : 1 – ما هو السبب الحقيقي الذي جعل محمدا يستقطب أتباعا كثيرين في بداية رسالته ؟ و 2 – لماذا حظي الدين الجديد بكل ذلك الازدهار المادي ؟ 3 – ماهي نقط الاتفاق ونقط الاختلاف بين الكتاب المقدس و القرآن ؟ و 4 – ما هي أنجع

الوسائل لحل المشكل الإسلامي ؟ (2) .

---

(1) **المرجع السابق ، ص .** 128 .

(2) **المرجع السابق ، ص .** 132 .

(2457/1)

... إن الراهب Juan de Segovia **بعد أن اقتنع بأن أهم ترجمة موجودة في ذلك الوقت للقرآن ، وهي تلك الترجمة اللاتينية التي أنجزها** Roberto de Ketene (1143 **م) لم تكن تشفي غليله للجواب على تساؤلاته المذكورة ، وبعدما تبين له التشويه الذي لحق بالكتابات حول الإسلام التي اعتمدت هذه الترجمة ، رأي ضرورة إيجاد ترجمة جديدة تتلافى عيوب الترجمات التي كانت توجد في ذلك الوقت ، فتعاقد مع الفقيه الشيقوبي عيسى بن جابر الذي سيصاحب الراهب إلى دير** Aiton **بمطقة** Savoie **بفرنسا ليقوم بإنجاز ترجمة قرآنية إلى الإسبانية تكون**

(2458/1)

مطابقة أكثر ما يمكن مع النص العربي ، ولو بدون شروح ولا هوامش ، وشرح الفقرات الغامضة من الكتاب مباشرة للراهب . هذا العمل سيستغرق مدة أربعة أشهر سيكتب فيها عيسى بن جابر النص العربي في الشهر الأول وسيشكله وفي الثالث سيكتب الترجمة الإسبانية بخط يده وفي الرابع سيقابل عيسى بن جابر والراهب Juan De Segovia

النصين : سينظر عيسى النص العربي والراهب النص الإسباني.

بعد الانتهاء من الترجمة إلى الإسبانية، رأى الراهب الشقوبي أن هذا العمل سيبقى مقتصرا على أقلية من العلماء الذين يعرفون الإسبانية، ولتسهيل الإطلاع

(2459/1)

عليه ممن لا يعرف هذه اللغة، كان عليه أن يضع ترجمة إلى اللاتينية – لغة عامة العلماء الأوروبيين – هذه الترجمة أنجزها بنفسه بعدما يئس من البحث عن مترجم يتقن العربية واللاتينية ليتفادى المرور عبر جسر الإسبانية، وحتى يتمكن من مقارنة ترجمتين مستقلتين من اللغة العربية مباشرة.

وبهذه الطريقة أنجزت أول ترجمة إسبانية – لاتينية

للقرآن ستعمدها كأساس كل التفاسير القرآنية التي ظهرت في إسبانيا بعد 1465 (1)

---

(1) Consuelo Lopéz, The Qur'àn in sixeteenth , 79century : - Six Morisco Versions of Sura .14, p : 1982London, Tamesis Books Limited,

(2460/1)

.

ج – أما ثالث مرحلة ارتأينا الحديث عنها هي المرحلة الموريسكية التي تدوم أزيد من قرن من الزمن، ستظهر فيها الترجمة من العربية إلى الإسبانية متسمة بسمات تختلف تماما عن تلك التي رأيناها في المرحلتين السابقتين.فإذا كانت الترجمة من العربية إلى الإسبانية أيام Alfonso **الحكيم قد أملتها حاجة الإسبان الماسة إلى الاستفادة مما أنتجه الفكر العربي الذي عرف تفوقا على نظيره الإسباني في العصور الوسطى، فإننا سنجد اللجوء إلى الترجمة في القرنين** 16 **و** 17، **– كذلك في العربية إلى الإسبانية – تمليها حاجة آخر مسلمي**

(2461/1)

إسبانيا إلى فهم دينهم وجزء من تراثهم الذي يتعذر عنهم التوصل إليه بلغة أجدادهم، فأغلب هؤلاء المسلمين المؤسينين كانت قد فقد العربية وأصبحت لغتهم في التخاطب هي اللغة الإسبانية. لذلك سنرى كيف تطورت بينهم الترجمة لنقل بعض الكتابات الدينية والأدبية التي كانوا في حاجة إليها للإبقاء على دين الإسلام.

أما الظروف التي تتم فيها الترجمات الآن، فتختلف تماما عن تلك التي رأيناها زمن Alfonso العاشر. فالفقهاء المسلمون الذين استمروا في إذكاء روح الإسلام في إسبانيا بعد سقوط غرناطة، كان مستواهم العلمي قد نزل كصيرا

(2462/1)

بالمقارنة مع ذلك الذي كان لمن سبقهم من الفقهاء على هذه الأرض وكذلك مستواهم اللغوي كان قد تراجع كثيرا. ثم إن الظروف الحياتية عامة لم تكن تساعدهم حتى يطوروا تعليما عربيا وإسلاميا. فكما نعرف جميعا فإن الكنيسة ومحاكم التفتيش Inquisicion كانت تنزل أشد العقاب بمن وجدت في حوزته كتابا عربيا،

وكان أكبر قسط من الاضطهاد ينزل بالفقهاء. فظروف العمل إذا، لم تكن تسمح " بالكماليات" أي بتنقيح الأسلوب واختيار الخطاطين ...إلخ. إننا لا نعرف بالضبط هل كان هناك دائما عمل جماعي لإنجاز الترجمات الموريسكية. لقد استطعنا

(2463/1)

بتحليل بعض الهفوات التي سقط فيها صاحب إحدى المخطوطات الأعجمية الموريسكية، أن نكتشف وجود عدة أشخاص تعاونوا في ترجمة ذلك المخطوط (1)، لكن لا يمكن أن نجزم أن هذا كان أمرا معمما، خصوصا وأن أغلب المخطوطات الأعجمية والموريسكية لا تبين اسم كاتبها أو مترجمها أو ناسخها،

---

(1) يتعلق الأمر بالمخطوط الأعجمي للمكتبة الوطنية بمدريد رقم 5267. أنظر التحليل الذي قدمناه في

Alguans observactions sobre la traduction en » tectos aliamidos in Homenje a A Galmés de Fuentes, vol III, Madrid, Ed, Gredos, 1987, ss 613p. y.

(2464/1)

كما لا تأتي بمعلومات عن طريقة ومكان إنجازها إلا نادرا.

أما المادة المترجمة فتكونها كما قلنا سابقا تلك العناصر التي كان الموريسكي في حاجة إليها لحياته الدينية وكذلك الدنيوية. فبجانب القرآن وكتب الفقه والحديث، نجد قصصا وحكايات كتلك التي تروي بطوليات علي بن أبي طالب، وقصص الأنبياء والوصايا والتنبؤات...إلخ.

أما الترجمة العسكية، أي من الإسبانية إلى العربية، فباستثناء بعض الكتابات الدينية كـ: Doctina Cristiana لـ Martin Ayala التي ترجمت إلى اللغة العامية بهدف تلقين الدين المسيحي للمسلمين المنصين، لم

(2465/1)

يعرف الاتجاه : إسبانية ... ... عربية نقلا يذكر.

2– الجانب التربوي – المنهجي :

من الدواعي التي جعلتني أختار الكلام على الترجمة في إسبانيا خلال القرنين 12 – 13 ثم مع الموريسكيين،

الأهمية المنهجية والتربوية التي تكتسيها النصوص المذكورة بالنسبة لتدريس الترجمة بين العربية والإسبانية. إن هذه النصوص تكون مادة خامة وغزيرة لم تستغل استغلالا كافيا بعد لدراسة نتائج التقاء اللغتين المذكورتين. فبالرغم من مرور القرون على وجود هذه النصوص المترجمة، فإن عددا كبيرا من التداخلات والتقاطعات اللغوية التي حدثت

(2466/1)

قديما، لا زالت تحدث في يومنا هذا.

إن طبيعة المترجمين أيام Alfonso و Riamundo **العاشر فرضت إدخال عناصر لغوية جديدة على الإسبنانية أغنتها كثيرا. فالجانب اليهودي المسؤول عن قراءة النص العربي، كان في وضع بين العبرية والعربية يجعله – من جهة – يفهم النص العربي فهما لا يخلو من تدخل ثقافته العبرية، ثم إن إسبانيته، كإسبانية سائر الأقليات التي كانت تعيش في الأندلس ، – من جهة أخرى – كانت لها مميزاتها الخاصة**(1)

---

(1) Gonzolo Menéndez Pidal, « Como

trabajaron las escuelas alfonsies », in Nueva ,P 4Revista de Filologia Hispanica, Ano V, N° :367.

"يصبح من الضروري عندما يكون المترجم يهوديا أن يساعده مسيحي في تصحيح الأسلوب نظرا إلى أن اللغة الرومنسية المتداولة بين اليهود، كانت لهجة جد خاصة ومهجورة تستغربها آذان القشتاليين".

(2467/1)

. زيادة على أن العربية التي كانت قد خطت خطوات جبارة في ميدان العلم، امتلكت من الميكانيزمات التعبيرية مالم يكن لدى لغة حديثة العهد بعالم المعرفة كالإسبانية. لذلك سنجد أن هذه الأخيرة استفادت استفادة كبيرة من التقائها بالعربية. فمن الخصائص اللغوية المستوحاة من العربية (1) ، نجد استعمال الملاحق للتعبير على أسماء مجردة مثل : Longura - Longueza - Altura - Alteza - Gordura - Gordeza... **إلخ. واستعمال المتكلم والمخاطب والغائب المجهولين :**

---

(1) José San Gil، **المرجع المذكور، ص.**89 **وما بعدها.**

(2468/1)

– Idespués Desto dixeron cuando esto quissieres fazer

– Quando esto quissiéramos fazer

استعمال الضمير المتصل المحشو : – de saber la anchura dell orient del sol et de su occiddent.

والبدل : ... ... – delos annos romanos et de sos mess

والوصل : ... ... – E diza el que fizo fizo ndedech

... الخ. زيادة على العدد الكبير من المصطلحات التي أخذتها من العربية والتي لا يزال بعضها مستعملا إلى يومنا هذا مثل : Xarope - Caliifa - Aduana - Algodon - alfaqueque **...إلخ(1)**

---

(1) أنظر كتاب : K. Eero, Los arabismes del espanol en el siglo XIII, Helsiniki, Studia Oreintalia, 1991PP331 ..

وكذلك: A.R. Nykl, Glosarion de voces de origen arabe y persa en las traductions hechas por orden del rey don Alfonso el Sabio, Universided de Wisconsin,1957.

(2469/1)

.

من الملاحظ أن الجوانب اللغوية الإسبانية التي تأثرت بالعربية أيام Alfonso العاشر ستتأثر كذلك مع الترجمة الموريسكية. فكل التداخلات البنوية المذكورة سابقا مثلا، سنجدها تتكرر في الأدب الأعجمي المورسكي، وحتى جانب المصطلحات سيعرف نفس النتيجة. إلا أن الأسباب التي دفعت المورسكيين إلى استعمال المصطلح العربي الإسلامي لا يمكن تعليلها بغياب المرادف في الإسبانية وإنما هو ناتج عن إرادة تمييز المصطلح المسيحي من المصطلح الإسلامي، لربطهم بين الدين واللغة.

(2470/1)

وبالنسبة لمرحلة Alfonso الحكيم نجد جديدا عند المورسكيين في خلق كلمات كثيرة تحت تأثير قوالب عربية كفعل وأفعل مثلا : Amuchecer تحت تأثير أكثر؛ تحت تأثير قلل؛ Averdadecer تحت تأثير أيقن ...إلخ. وتكييف كلمات عربية مع قوالب إسبانية :

خلق Haleqar . محى Amahar . سجد Sajdeatr...إلخ. أو تحويل معنى الكلمة العربية إلى كلمة إسبانية مثل Comanero (= صديق – زميل) (= تبع – تلى) بمعنى قرأ القرآن ...إلخ.

ولكن يجدر القول بأن أغلب الصيغ الموريسكية قد اندثرت بعد تهجيرهم، ونادرة هي الكلمات التي يمكن أن نعثر

(2471/1)

عليها وهي من بنائهم.

...

... إن العلاقة التي قامت بين العربية والإسبانية عن طريق الترجمة في القرن الثالث عشر بالخصوص، لم تكن لتتثبت بدون أن تؤثر في الجانب المترجم إليه، أي الإسبانية . فالعربية في هذا القرن كانت قد قطعت أشواطا كثيرة في ميدان العلم والأدب، صقلت في بنيتها ولائمتها للتعبير العلمي والأدبي. كما كانت قد هيأت وطورت مفرداتها ومصطلحاتها الخاصة بكل ميدان من ميادين المعرفة حيث أبناؤها كانوا هم أصحاب السيادة. بينما الإسبانية القشتالية، التي لم تكن تسمح لها اللاتينية بالارتقاء إلى الأدراج

(2472/1)

العلمية والأدبية، فبالطبع، كانت تفتقر إلى كثير من أدوات الحياة العلمية التي ستكتسبها شيئًا فشيئًا بفضل احتكاكها بالعربية التي بينت لها مواضع النقص لتسدها. وكذلك بفضل الملك الحكيم الذي أدرك أن انتشار الثقافة لا يمكن أن يتم إلا باستعمال لغة الشعب، فهذا الملك كان يتعامل مع اللغة تعاملا بيداغوجيا يأخذ فيه بعين الإعتبار إمكانيات الفهم عند قرائه، الشيء الذي يفسر أغلب إبداعاته (1). ففي ما يخص المصطلحات، كان يبحث على

---

(1) Aafeal Lapesa, Historia de la lengua espanola, Madrid, Ed, Gresos, 1981 . P, 245.

(2473/1)

التعبير الرومنسي للمفاهيم العلمية والمفاهيم التي ترجع إلى فترات تاريخية قديمة والتي لم تكن تتوفر عليها آنذاك إلا اللغات المتطورة والمصقولة كالعربية واللاتينية، وهكذا نجد أن عمل هذا الملك استطاع أن

يهيئ اللغة القشتالية للتعبير التعليمي. زد على كل هذا، الدور الذي بدون شك، لعبه اليهود، الذين لم يكونوا ينظرون بعين العطف إلى اللغة اللاتينية لغة طقوس دين المسيحيين – حسب (Ragael Lapesa1) .

(1) أنظر كتابه السالف الذكر ، ص.237.

(2474/1)

وهكذا فإن فضل العربية على الإسبانية في تطورها، فضل مزدوج : فمن جهة نجد الجانب المادي الذي يكمن في الألفاظ والمصطلحات والأنساق البنيوية العربية؛ ومن جهة أخرى، كانت العربية بمثابة الحافز الذي جعل الإسبانية تبحث عن صيغ وأدوات تمكنها من التعبير عن مفاهيم جديدة. فالعربية إذا كانت كتلك المرآة التي أظهرت للإسبانية جوانب نقصها فعملت على تداركها.

إذا كان الجانب اللفظي العربي يبرز بسهولة في النصوص الإسبانية، فإن الجانب النحوي والصرفي يحتاج لإظهاره إلى دراسة دقيقة تعتمد مقارنة نصوص إسبانية تنتمي إلى عدة

(2475/1)

حقب ومستويات، مع أصولها العربية. ولو أن هناك مستويات لا يحتاج إبرازها إلى اللجوء إلى المقارنة. و من المظاهر التي يمكن أن تكون العربية قد أثرت فيها على الإسبانية مثلا، تتابع الكلمات. فالعربية اعتادت على الابتداء بالفعل وإتباعه الفاعل ثم المفعول، وهذا النظام هو نفسه المتبع في الإسبانية والبرتغالية في أغلب الأحيان خلافا لم يحدث في باقي اللغات الرومنسية. وقد سجلت في هذا المجال إمكانية تأثير سامي (1). ولكن هذا الجانب يحتاج لتوضيحه إلى دراسة عميقة.

(1) أنظر R. Lopesa، المرجع السابق، ص.125–153.

(2476/1)

والتأثيرات النحوية والبنيوية العربية في الإسبانية، رغم معرفتها لبعض الدراسات، فلا زالت تحتاج إلى مزيد من البحث والتحليل حتى يكشف النقاب عن أكبر عدد ممكن من المكانزمات التي تدخل في هذا التأثير. ومن الأبحاث التي أنجزت في هذا الصدد حول النصوص القديمة تخص بالذكر كتاب الأستاذ A. Galmés: " التأثيرات الصرفية والأسلوبية العربية في النثر

القشتالي للعصور الوسطى " (1) . وهذا الكتاب قد اتخذ كمادة للبحث فصل " الطبيب برزبويه" من كتاب

(1) من مشورات الأكاديمية الملكية الإسبانية للغة، R.A.E.L. ، مدريد، 1956.

(2477/1)

" كلية ودمنة" الذي ترجمه Alfosno العاشر عندما كان أميرا، وهي من الترجمات التي مرت بعد ذلك إلى اللاتينية سنة 1251 (1) . وزيادة على هذا الكتاب، فإن الأستاذ A. Galmés وبعض طلبته في جامعة Oviedo بإسبانيا درسوا هذا الجانب من خلال نصوص الأدب الأعجمي المورسكي.

إن التجربة التي عاشتها الترجمة من العربية إلى الإسبانية منذ القرون الوسطى يجب الاستفادة منها لتوضيح مواضع الخلل عند المترجم المتأثر بالعربية، خصوصا وأننا لا حظنا أن نتائج الالتقاء بين البنيتين

(1) أنظر كتاب A. Galmés المشار إليه سابقا، ص.228.

(2478/1)

العربية والإسبانية، لا تختلف رغم اختلاف العصور. فدراسة السلوك اللغوي من خلال هذه النصوص سيسهل على مدرسي الدارسون الحاليون لهذه المادة. ولكن هذا ليس كافيا، لأن وضع اللغتين قد عرف تحولا كبيرا منذ القرن الثاني عشر إلى اليوم. فإذا كنا قد أبرزنا تفوقا آنذاك للعربية على الإسبانية في وسائل التعبير، فلا يمكن لنا اليوم أن نردد نفس الكلام، خصوصا فيما يرجع إلى تركيب الكلمة في كل من اللغتين، ذلك التركيب الذي عرف تطورا كبيرا في الإسبانية وركودا في العربية :

(2479/1)

فالكلمة العربية تنبني على هيكل أساسي يسمى بالأصل ويتكون من ثلاثة حروف في أغلب الأحيان، تتضمن الفكرة الأساسية. وهذا الأصل يتشكل في عدة قوالب بإضافة بعض الأجزاء المحددة التي تكتسي مدلولات معينة في أول ووسط و آخر الكلمة [ا – و –ي – ت، في وسط الكلمة : ة، ءا – ءاء – ءان – ئيء– وت ، في آخر الكلمة : ءَ – ءُ – ءِ – تَ – تُ – مِ – م ... َ – مُ – يَ – يُ – ءَنّ – ءِنّ – ءُنْ – أَسْتَ – إِسْتَ – أُسْتَ ، في أول الكلمة] (1) .

وهذه

---

(1) **انظر :** . F.Corriente , Gramético Arabe , 54, P : 1984Madrid , I.H.A.C ,

(2480/1)

الجزئيات محدودة في العدد والوظيفة : 26 **من حيث العدد وأما من حيث الوظيفة فهي نحوية أكثر منها معجمية.**

أما الكلمة الإسبانية فتميز أصلا يحمل الفكرة الأساسية، وأجزاء نحوية ومعجمية في أول و آخر هذا الأصل (سوابق وملاحق) ، غير أن عدد حروف الأصل – عكس العربية – غير قار. كما أن أدوات السبق والإلحاق الإسبانية ذات الوظيفة المعجمية ، علاوة على كثرتها ، فهي تكون إطارا لغويا مفتوحا يستطيع استقبال أدوات جديدة .

واعتماد الإسبانية في بداية الأمر – كسائر اللغات الغربية – على كلمات إغريقية

(2481/1)

ولاتينية حرفتها بعض الشيء أو تركتها كما هي ، ثم ألحقتها بأول كلماتها للتعبير على معنى جديد أضافته

إلى القديم ، أكسبها مرونة سهلت عليها الاستجابة للمتطلبات اللغوية من كلمات ومصطلحات .

... ... وفيما يلي بعض الأمثلة تخص السبق :

... ... من الإغريقية :

asexual - amoral - apolitico : ... ... a ... ...

... ... antitanque - antibiotico : anti – ... ...

... autodeterminacion - antomovil : auto – ... ...

hipercriticz - hipertension : hyper – ... ...

(2482/1)

... neolatino - neograatica : neo – ... ...

... من اللاتينية :

Anteproyecto - anteguerra : ante ... ...

Bidimensional - bicéfolo : Bis ... ...

Coopositor - codiirector : cum ... ...

Despreciar - devengar : de ... ...

Extrarritorial - extraterrestre : ex ... ...

Postpalatal - postguerra : poste ... ...

...إلخ.

(2483/1)

... أما فيما يخص الإلحاق، فنجد أن الكلمة الإسبانية تستطيع أن تلحق في آخرها، زيادة عن الجزء التصريفي والإعرابي، جزءا يدقق المعنى الذي يحمله الجذر أو الجزء + جزء السبق، أو يضيف معنى آخر أو تخصصا الجذر أو الجذر + جزء السبق. فنجد مثلا أن للتصغير عدة ملاحق منها : (ajo : - pequénao و ito pequenito**) في الأول معنى ودي أو عاطفي وفي الثاني معنى احتقاري. وللكلمتين** cantante **و** cantador **معنى "مغني" غير أن الأولى تخصص لمغني الأوبيرا مثلا، بينما الثانية، كذلك لمغني، ولكن للأغاني الأندلسية. والكلمات (** habdalor

(2484/1)

– (hablante - hablista - hablantin - hablanchin **هو المتكلم (** hablante**) هو المتكلم و (** hablador**) هو الثرثار والمهدار والفضولي و (** hablantin **) و (** hablantin**) هو الذي يقول أشياء لم يكن عليه أن يقولها و (** hablista**) هو الشخص الذي يمتاز بصفاء وأناقة لغته. و (** furbolista**) و (** fubolero**) كلاهما يعني " لاعب كرة القدم" ولكن في الكلمة الأولى معنى**

إيجابي أي لاعب كرة القدم العادي، بينما في الثانية معنى سلبي، ويقصد بها الشخص الذي يمارس لعب كرة القدم بعشوائية وغياب كل روح فنية.

(2485/1)

... أما الملاحق الإسبنانية ذات الوظيفة النحوية فتكون، بالطبع، حلقة مغلقة، لأن كل ماهو نحوي، ينتمي إلى القسم القار من البنية اللغوية، ولكن عددها يفوق بكثير العدد الموجود في العربية. وما علينا إلا أن نقارن عدد الأزمنة الفعلية في كلا اللغتين لندرك الفرق.

الكلمة أو آخرها،لم تنم هذه الإمكانية. ففي العربية نجد كلمات مثل استغاث، واستمر واستفحل...التي تضيف في أولها المقطع ولها المقطع إست الذي يدل تارة على "طلب" وتارة أخرى على ما يسمى في الإسبانية بـ reflexividad **(= الإنعكاس). ولكن هذه الأجزاء قليلة جدا**

(2486/1)

وتكاد تقتصر على وظيفة نحوية، إن لم تقل على الوظيفة النحوية المذكورة.

... ومن الآثار التي يتركها التباين في تركيب الكلمات بين اللغتين، ذلك الموقف غير المكترث للمعرب بقيمة الفرق بين أجزاء السبق والإلحاق الإسبانية والحيرة أمام تعدد الإمكانيات الإسبانية، في حالة الانطلاق من العربية إلى الإسبانية في الترجمة.

إنني أقصد بعدم الاكتراث هنا، الخلط بين كلمتين أو كلمات تنتمي إلى نفس الأصل، أو مكونة من حروف متشابهة، مع حمل أجزاء سبق و / أو إلحاق مختلفة؛ أو إحداها تحمل الجزء المعني بالأمر والأخرى لا تحمله.

(1/2487)

وفيما يلي أمثلة أخذتها من تموين على الترجمة من العربية قمت به داخل القسم. وأريد التنبيه إلى أن هذه التداخلات تتكرر مرارا ولا تقتصر على طالب واحد :

الكلمة العربية ... ... ترجمة الطلبة إلى الإسبانية ... ... الترجمة الصحيحة

واجه ... ... affontar - confrontar - enfrentar ... ... afrontar

الجريمة ... ... transgresion **(تحت تأثير**

agresion ... ... crimen)

المملكة ... ... reino ... ... reinado

...

(2488/1)

المدني ... ... civil ... ... civico ...

أجدادنا السالفون ... ... antecedentes

antepasados

أسس) 1fundir)

---

(1) هذا المثال الأخير هو خلط وقع فيه أحمد هيكل عندما كان مديرا للمعهد المصري بمدريد. ففي مناسبة تكريمية للمستشرق الإسباني الكبير Enilio **في المعهد المذكور، ألقى أحمد هيكل خطابا يذكر فيه بفضائل المستشرق** Garcia Gomez **على الدراسات العربية في إسبانيا ومن بين قال : "** U.d .D. Emillio ha fundido et arabismo espano **" أي بالحرف : "إنك يا سيدي إميليو قد ذويت (بمعنى حطمت نهائيا) حركة الاستعراب الإسباني". بالطبع، لم يكن هذا قصده، ولكن الخلط بين (** fundir **) و (** fundar **) جعله ينطق بما لم يكن ينوي، ويعطي هكذا، لخصوم المستشرق المذكور**

درة مغروسة سيحتفظون بها في تاريخ الاستشراق الإسباني.

(2489/1)

---

fundar

... إن تجربتي في تدريس الإسبانية، وخصوصا مادة الترجمة، بينت لي أن الشخص المتأثر بالعربية يركز اهتمامه على نواة الكلمة أو ما يمكن أن يفهمه كنواة للكلمة، والتي غالبا ما تتطابق مع الأصل. أي أن يستحوذ على عقله في مجموعة من الكلمات المتشابهة كالتي قدمناها في المثال الأول ونذكر بها مرة ثانية :

(afrontar - confrontar - enfrenter - afrentar) ، هي النواة الصامتية (FRNT) ، وأما السوابق on - en - a ، وحتى الصوائت الداخلية، فتأتي في درجة ثانية، ولا يعيرها اهتماما كبيرا. وقد لاحظت أن هذه الظاهرة،

(2490/1)

أي ظاهرة الارتكاز على ما سميناه بالنواة على حساب باقي أجزاء الكلمة، تنعكس في النطق بالألفاظ الإسبانية والفرنسية التي دخلت العربية الدارجة،

بحيث تصل إلى درجة إلغاء السوابق نهائيا :

إسبانية ... ... posito ... ... **من** ... ... deposito

إسبانية ... ... stansia ... ... **من** ... ... instancia ...

إسبانية ... ... gratter ... ... **من** ... ... degrader ...**إلخ.**

... وهناك أثر آخر للفرق في تركيب الكلمات بين العربية والإسبانية يبرز عند الترجمة من الإسبانية إلى العربية. وهذا الأثر يكمن في صعوبة ضبط

(2491/1)

العربية للمعنى المدقق في الإسبانية بملحق معين.

فمثلا أمام الصيغ الإسبانية الآتية :

1) partidos - - partidos nacilnales ... partidos nacionalistas

2) accion colonisalista ... ... accinon colonail

... سيجد المترجم نفسه مضطرا في كل مرة إلى اللجوء إلى الترجمة التفسيرية في محاولة للبقاء وفيا للنص الإسباني. وقد تخون العبارة الإسبانية مترجمها إذا لم يستحضر مقابلاتها في هذه اللغة. فالعبارة : « partidos nacionales **» لا يمكن أن تترجم بـ "الأحزاب الوطنية" دون السقوط في التباس مع : «** partidos nacionales **» ، لأن**

(2492/1)

الكلمة العربية "وطني" تجمع بين المعنيين: السياسي والجغرافي، اللذين للصيغتين الإسبانيين. وقد يحدث نفس الشيء إذا أردنا أن نترجم عبارة : accion colonial **فهل سيمكننا أن نقول : " عمل استعماري" دون أن نسقط في مغالطة مع ما يفهم من** accin colonisalista **؟**

وعند الانطلاق من العربية، كثيرا ما نحتاج إلى تحريات خارج النص، – وذلك في حالة انتباهنا إلى إمكانية المغالطة – لفهم معنى هذا الأخير، أقول " في حالة انتباهنا"، لأن في حالات كثيرة لا يمنحنا النص العربي بإمكانية إدراك قصد صاحبه. وقد نترجم ما لم يقصد بدون أن

(2493/1)

نشعر بهذا. فبعارة "الأحزاب الوطنية" مثلا، في جملة كالآتية : "عارضت الأحزاب الوطنية مشروع الحكومة" نحتاج إلى التحريات الخارجية لنفهم بالضبط ما مقصود صاحب النص : هل الأحزاب المنتمية إلى الوطن أي

nacionales ؟ أم تلك التي اتخذت من الوطنية إيديولوجية لها nacionalistas ؟.

... وكخاتمة أخيرة أتساءل : إذا كانت العربية قد مثلت مرآة أظهرت للإسبانية جوانب نقصها فعملت هذه الأخيرة على تفاديها؛ وإذا كان المورسكيون قد طوروا لغتهم الإسبانية بالاعتماد على غنى العربية آنذاك، فكيف نستطيع نحن اليوم أن نعطي للعربية

(2494/1)

مرونة بنيوية أكبر تسمح لها، انطلاقا من عناصر قليلة، خلق ما نحتاج إليه من مصطلحات وعبارات، لأن مشكل العربية في رأيي المتواضع، خصوصا فيما يرجع إلى خلق المصطلحات، مشكل مرونة بنيوية. ثم إنني أود أن أؤكد مرة أخرى على مسألة غالبا ما تبدو تافهة رغم أن أهميتها في الحقيقة بالغة؛ وهي أن كل حرف أضيف إلى الكلمة في اللغات الغربية إلا وكان وراءه سبب. فيجب علينا أن نتساءل دائما لماذا أضيف ذلك الحرف، وأن نثبت من معنى كل كلمة بالنسبة لباقي أعضاء مجموعتها الصغيرة والكبيرة.

(2495/1)

التصريحات الفرنسية الموالية للصهيونية (1917 – 1918)

... ...

الدكتور أبو القاسم سعد الله

الجامعة الجزائرية – الجزائر

إلى الآن لا يعرف إلا القلائل أن فرنسا وعدت الصهاينة بوطن قومي قبل أن تعدهم به بريطانيا . فالمشهور هو فقط وعد أو تصريح بلفور A.J. Balfour **الإنجليزي، وليس وعد أو تصريح جول كامبون** (J.Cambon) **وبيشون** (S.Pichon) **الفرنسيين. والتي فتحت للباحثين بعد خمسين سنة على أحداثها. هذا البحث قاد إلى الكشف عن الوعود الفرنسية للصهاينة بتعاطف فرنسا مع إنشاء المستوطنات اليهودية وبعث الدولة**

العبرية في فلسطين. وقد كشف البحث أيضا عن التنسيق بين الحركة الصهيونية من جهة، وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى، بل عن التآمر بين الحلفاء ويهود

العالم خلال سنتي 1917 و1918 على مستقبل بلاد العرب والإسلام.

ونحن لم نرجع إلى الوثائق الفرنسية المذكورة بصفة مباشرة، ولكننا اطلعنا بالخصوص على بحث إيدي كوفمان(1)

---

(1) اعتمدنا على عدة مراجع، وبالأخص بحث إيدي كوفمان (Edy Kaufman) «التصريحات الفرنسية الموالية للصهيونية سنة 1917–1918»، في مجلة دراسات الشرق الأوسط (Middele Easter Studies)، المجلد 15، عدد 3، أكتوبر 1997، صص. 374–407. أما فيما يتعلق بأوضاع المشرق العربي عموما، فهناك الكثير من الكتب والأبحاث والمذكرات، ولم نر ضرورة لذكرها هنا.

(2497/1)

الذي رجع إليها ودرسها بدقة واستخرج منها وجهة النظر الفرنسية والبريطانية والصهيونية خلال التاريخ المذكور. وقد انطلق الباحث من فكرة قد تبدو جديدة إلى

حد كبير، وهي أن وعد بلفور قد جاء بعد وعد كامبون الفرنسي، وأن بريطانيا كانت حريصة على الحصول من

فرنسا على ذلك الوعد للحركة الصهيونية لأن المصلحة البريطانية تقتضي إبعاد فرنسا عن فلسطين. وأن بريطانيا هي التي أغرقت ونسقت مع الصهاينة على أن تكون هي صاحبة السيادة على فرنسا وليس فرنسا على فلسطين.

(1/2498)

ومن أجل ذلك قام مارك سايكس (M. Sykes)، المفاوض الإنكليزي بالعمل مع جورج بيكو (G. Picot) المفاوض الفرنسي، على تقسيم فلسطين بين بريطانيا وفرنسا، وكسر الطموح الفرنسي القائم على الإِدعاء التاريخي والنفوذ الروحي في جعل فلسطين فرنسية فقط والخطوة الثانية التي خطاها سايكس هي جعل حصة بريطانيا في التقسيم أكبر بكثير من الحصة الفرنسية. أما الخطوة الثالثة، فهي استعمال الضغط الصهيوني على فرنسا لكي تصدر تصريحا لصالح الصهيونية في فلسطين. وأما الخطوة الأَخيرة، فهي ضمان السيادة البريطانية على فلسطين باقتناع

(1/2499)

اليهود عموما والصهيونية بالخصوص بأن ذلك أفضل لها من السيادة الفرنسية عليها. وبعد التحضير لكل ذلك، صدر وعد بلفور المعروف.

ويرجع المخطط في الأساس إلى الموقف من الدولة العثمانية التي دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا وإلى تقسيم المشرق العربي بين الحلفاء بما فيهم بريطانيا وفرنسا وروسيا. ومنذ 1916، فاوض الحلفاء بعدة أفواه وكتبوا عدة اتفاقات ظلت سرية وكانت في جوهرها متناقضة. ويهمنا من ذلك كله محادثات الشريف حسين / ماكماهون، واتفاق سايكس / بيكو والوعد بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وقد كان هذا

(2500/1)

الوعد مقتصرا على وزارة الخارجية البريطانية، ولكنه أصبح الآن وعدا مزدوجا بعد إضافة تصريح وزارة الخارجية الفرنسية أيضا إليه والذي كان في الواقع سابقا للتصريح البريطاني.

ونص اتفاق سايكس / بيكو سنة 1916 على تقسيم فلسطين بين فرنسا وبريطانيا. ولنتذكر أن فلسطين عندئذ كانت جغرافيا جزءا من سورية الكبرى وبلاد

الشام. وبناء على الاتفاق المذكور، فإن شمال بحيرة طبرية كان سيدخل في حكم الفرنسيين (وكذلك سورية ولبنان). وأما عكا ويافا وجزء من شرق الأردن وصحراء النقب، على خط يمتد من رفح إلى شمال البحر

(2501/1)

الميت، فقد كان سيدخل في حكم الإنكليز. ومع ذلك، شعر كل طرف بأنه لم يحقق مرغوبه كاملا. فالإِنكَليز اعتبروا مفاوضهم سايكس معتدلا نحو المطالب الفرنسية. ومن جهة أخرى، اعتبر الفرنسيون ما حصلوا عليه أقل من آمالهم، لأنهم كانوا يطمعون في حكم الأماكن المقدسة التي قالوا أن الباب العالي والدول الأوروبية قد اعترفت لهم سابقا بحمايتها.

وتنفيذا لاتفاق سايكس/بيكو المذكور عزم الإِنكَليز على مهاجمة العثمانيين في فلسطين في يناير عام 1917. وانطلقوا من العريش. حاول الفرنسيون ثنيهم لعدم وجود قوات فرنسية في هذا

(2502/1)

الهجوم. كان الفرنسيون يخشون أن يبقوا خارج فلسطين ويؤول أمرها كله للإنكليز إذا لم تكن لهم مشاركة في الحرب هناك، وبذلك تضيع آمالهم ويضيع حقهم في أية مفاوضات بشأن فلسطين. ثم حاول الفرنسيون أن يشتركوا بقوة رمزية لتحقيق الغرض المذكور، فرفض الإنكليز اشتراكهم في أول الأمر ثم وافقوا بشرط ألا تتعدى القوة الفرنسية 2800 جندي. ثم جرى الخلاف بينهم حول رتبة قائد هذه القوة. ففرنسا عينت قائدا لها برتبة جنرال، فرفض الإنكليز ذلك حتى لا يكون في نفس رتبة القائد الإنكليزي، وكان على فرنسا أن تكتفي بتعيين

(2503/1)

القائد برتبة عقيد.

عين الفرنسيون ثلاث فرق جزائرية ضمن القوة المذكورة، وكانت مهمة هذه الفرق هي الإشراف على السكة الحديدية بين يافا والقدس، وحراسة المؤسسات الفرنسية في فلسطين، وكذلك حراسة الأماكن المقدسة التي كان يعترف لفرنسا بحمايتها في السابق. وبينما هاجم الإنكليز من غزة في 31 أكتوبر 1917 ووصلوا إلى يافا في 19 نوفمبر، ظلت الفرق

الفرنسية في خان يونس، شمال سينا، ولم تتحرك تقريبا. وذلك هو ما جعل موقف فرنسا العسكري ضعيفا وجعل دبلوماسييها في موقف لا يطلبون معه الكثير حول فلسطين حين جاء وقت توزيع

(2504/1)

الغنائم.

كان جورج بيكو هو الخبير والدبلوماسي الذي عُيّن محافظا في المناطق المحتلة من فلسطين وسورية. وكان يستعد للتوجه إلى القاهرة عندما طلب منه زميله الإنكليزي، سايكس أن يزور لندن بصفة مستعجلة قبل القاهرة. وكان سايكس قد خطط للقاء مباشر يتم بين بيكو والزعماء الصهاينة في لندن. ذلك أن سايكس كان مقتنعا بأن أي اعتراض يصدر من أية جهة حول خطة بريطانيا في فلسطين، من العرب أو من الإيطاليين أو من الروس، لا يمكن أن يكون في درجة الخطورة التي يمثلها اعتراض فرنسا على الخطة. فكان ضمان موافقة فرنسا أمرا

(2505/1)

ضروريا في نظر سايكس.

وفي 8 فبراير 1917 التقى بيكو والزعيم الصهيوني نحوم سوكولو (1N.Sokolow) في لندن. فقد قدم سايكس زميله الفرنسي بيكو إلى سوكولو ثم انسحب. وتركهما وحدهما للدخول في المحادثات. وكان سايكس قد اتفق مع سوكولو قبل ذلك

---

(1) كان سوكولو (سوكولوف) عضوا رئيسيا في المنظمة الصهيونية العالمية المتمركزة في كولون (ألمانيا). وقد لعبت دورا في التأثير على حركة الإِنقلاب العثماني. انظر ترجمتنا لبحث الأستاذ روبيرت أولسون (R.Olson) (جامعة كونتاكي) في كتابنا « في الجدل الثقافي«، دار المعارف، تونس، 1990.

(2506/1)

على أن يُقنع بيكو بأن الصهاينة يفضلون السيادة البريطانية على فلسطين وليس الفرنسية. وهكذا أثار سوكولو هذه النقطة مع بيكو بكل صراحة، فأجابه بيكو بأن لفرنسا آمالها في فلسطين ولا يمكنها أن تتخلى عنها، بل أخبره أن 95٪ من الشعب الفرنسي يفضلون إلحاق (كذا) فلسطين بفرنسا. وكان سوكولو

عازما على السفر إلى فرنسا، في اليوم التالي لنفس الغرض، فطلب منه بيكو ألا يثير مسألة الصهيونية في فرنسا خلال الاِجتماع لأن معظم يهود فرنسا معارضون للصهيونية، ولأن الشعور الفرنسي نحو فلسطين شعورٌ قويّ. ومن جهته وعده بيكو

(2507/1)

بإخطار الحكومة الفرنسية بالموضوع بطريقة متعاطفة مع المطلب الصهيوني.

وقد بقيت مسألة السيادة على فلسطين مسألة حساسة بين فرنسا وبريطانيا. فاقترح سايكس ذات مرة اسم أمريكا لكي تكون هي الحامية المحايدة لفلسطين.

وكان ذلك قبل دخول أمريكا الحرب طبعاً. ولكن الفرنسيين رفضوا الاقتراح بحذر. ثمّ إن سايكس قد تراجع أيضا عن رأيه. وفي اجتماع عقد بباريس بين سايكس وبيكو وسوكولو وممثل الأرمن، طرح سوكولو الموضوع على بيكو بطريقة مبسطة قائلا: إن موقف الصهاينة حول السيادة هو موقف طفل يُسأل: هل يحب أمه أكثر من أبيه

(2508/1)

(يعني بريطانيا أو فرنسا)، ولذلك اقترح سوكولو أن تبقى المسألة بين الحكومتين. وكان واضحا أن سايكس يستعمل الصهاينة ذريعة لتنفيذ المخطط البريطاني في فلسطين.

وبدأ سايكس ضغوطه في الحصول من الفرنسيين على وعد بالتعاطف مع الآمال الصهيونية قبل مغادرة بيكو إلى القاهرة. وكانت وجهة نظر سوكولو أن بيكو كان حجر عثرة في الطريق لأنه (بيكو) كان يفضل أن تكون السيادة فرنسية على فلسطين مع الإِعتراف بالآمال الصهيونية. وكان وضع الصهيونية في فرنسا مختلفا عنه في بريطانيا. فهناك خلاف بين المنظمات الصهيونية في فرنسا من

(2509/1)

جهة، وبينها وبين نفس المنظمات في بريطانيا.

وبالإضافة إلى التنافس، كانت الصهيونية في فرنسا معظمها من اليهود المهاجرين من شرق أوروبا. ولم يكن لهم نفوذ سياسي واقتصادي، وكان وضعهم الإِجتماعي مهزوزا(1). وابتداءً من سنة 1917 أسس بعض الشباب

اليهود في فرنسا (مثل روجي ليفي [R.Levy] وأندري سبير [A.Spire])

---

(1) **عاشت فرنسا في الثمانينات من القرن الماضي أزمة حادة تعرف بأزمة الضابط اليهودي دريفوس** (Dreyfus). **وفي آخر القرن وقعت الأحداث المضادة للسامية في الجزائر بين الفرنسيين واليهود، بقيادة ماكس ريجس** (M.Regis).

(2510/1)

منظمة باسم «جامعة أصدقاء الصهاينة» Ligue des Amis du Sionisme) **أخذت تجتذب إليها الأساتذة والشخصيات اليسارية.**

وقبل إعطاء رأي فرنسا، اقترح بيكو على سوكولو أن يجتمع –أي سوكولو– بزعماء اليهود في فرنسا وفي مقدمتهم بعض أعضاء الرابطة الإسرائيلية العالمية، (1) **قبل أن يعلن بيكو رأيه في التعاطف مع آمال الصهيونية. ومن جهة أخرى، كان بيكو يعرف أن رأي البارون ايدمونْ**

---

(1) **تأسست سنة** 1860 ، **وقد تولى أدولف كريميو**

A.Cremieux)) رئاستها فترة، وهو صاحب قرار تجنيس يهود الجزائر جماعيا سنة 1870، وبعد أن صار وزيرا للعدل.

(2511/1)

روتشيلد (Ed. de Rotchild) له أهمية خاصة في هذا الموضوع، فقرر أن يدخله في المفاوضات أيضا بين الحكومة الفرنسية وممثلي الحركة الصهيونية الأجانب (غير الفرنسيين)، وذلك قبل إصدار أية تصريحات لصالح الصهيونية. لقد كان رأي البارون مهما جدا لأنه أولا سيعبر للحكومة عن اتفاق ورضى الجماعة اليهودية الرسمية للزعماء نحو الأهداف الصهيونية، وثانيا لأن وجهة نظره نحو الحركة الصهيونية ستجر العديد من العناصر المعادية لهذه الحركة بين اليهود الفرنسيين.

(2512/1)

وهكذا حصل الاِجتماع مع البارون روتشيلد في أبريل 1917. الاِجتماع الأول كان مع الزعماء الفرنسيين

المسيرين للسياسة الخارجية عندئذ، وعلى رأسهم ليون بورجوا (L.Bourgeois) وجول كامبون(1)

---

(1) جون كامبون سبق له أن كان حاكما عاما للجزائر بين 1892 و1897، ثم عين سفيرا لبلاده في واشنطن، قبل أن يتولى مسؤوليات أخرى، ومنها كاتب عام وزارة الخارجية حيث أصدر التصريح الفرنسي الموالي للصهيونية الذي نحن بصدده سنة 1917. انظر جول كامبون، حكومة الجزائر، 1918. أما أخوه بول كامبون، فقد سبق له أن كان المقيم العام في تونس ثمّ عين سفيرا لبلاده في لندن حيث كان سنة 1917.

(2513/1)

. والاِجتماع الثاني حصل مع البارون وسوكولو وكذلك مع العناصر النشطة من »الرابطة الإسرائيلية العالمية« وكان الاِجتماعان منفصلين.

لقد كان جول كامبون هو الكاتب العام (الوكيل) لوزارة الخارجية الفرنسية (الكي دورزي) Quai d'Orsay وكان أخوه بول كامبون سفيرا في بريطانيا. وفي 8 أبريل، اجتمع بهما سوكولو، وحضر الاِجتماع جورج بيكو وكذلك دي مارجري (De Margerie) مدير قسم الشؤون

السياسية في وزارة الخارجية. ودار النقاش حول العواقب التي قد تنتج عن تصريح فرنسي يتعاطف مع آمال الصهيونية، ولا سيما العواقب بالنسبة

(2514/1)

للجهات اليهودية في أمريكا وروسيا. واتفقوا على أنه سيكون للتصريح نتائج إيجابية وفوائد لصالح الحرب والحلفاء. واتفقوا كذلك على أن ترسل في نهاية الاِجتماع، برقية بهذا المعنى إلى الدكتور تشيلونوف (Dr.Tchlenov) (روسيا) وجستس برندس (J.Branderis) (أمريكا)، وهما رئيسا المنظمتين الصهيونيتين على التوالي في بلديهما. وقد وقع سوكولو البرقية، ولكنها مرت عبر قنوات وزارة الخارجية الفرنسية. وجاء في البرقية ما معناه: أن نتائج إيجابية لمفاوضات لندن وباريس (and Paris) قد رحبت بها هنا وزارة خارجيتنا، وأن لي ثقة

(2515/1)

كاملة في أن النصر (للحلفاء) سيحقق آمالنا الصهيونية الفلسطينية. ونلاحظ أن الفرنسيين قد تركوا عبارة (وباريس) بارزة في البرقية تأكيدا على تدخُّل فرنسا في الموضوع (ص. 378).

وبعد باريس سعى سوكولو أيضا للحصول على نفس التصريح من إيطاليا وعلى دعمها لآمال الصهيونية في فلسطين.

تصريح جول كامبون (جوان) 1917:

سبقت هذا التصريح عدة تمهيدات واتصالات بين الزعماء الفرنسيين واليهود. فمن القاهرة أرسل بيكو برقية إلى الخارجية الفرنسية مؤكدا فيها إصدار تصريح فرنسي يتعاطف مع آمال الصهيونية. وقد بنى بيكو رأيه على عدة

(2516/1)

اعتبارات منها أنه فهم أن الصهاينة سيتركون موضوع السيادة على فلسطين للحلفاء، وأن سوكولو اعترف له بأن الأماكن المقدسة ستعرف وضعا خاصا، وأن الاِستيطان (الاِستعمار Settlement) اليهودي لن يشمل هذه الأماكن المقدسة.

كما أن جول كامبون ودي مارجوري والبارون روتشيلد، وكذلك سيلفان ليفي وهو من »الرابطة الإسرائيلية العالمية« عقدوا عدة اجتماعات. وقد عبّر سيلفان ليفي أثناءها بأنه » من الطبيعي أن اليهود الفرنسيين غير صهيونيين، ولكنهم يعترفون، بكل سرور، بأهمية وقيمة الحركة الصهيونية« (ص. 381).

(2517/1)

ومن جهة أخرى، حرر جول كامبون نفسه مذكرة عن طبيعة اليهود والصهيونية. وقد عبر فيها عن أنه في صالح الاِعتراف بموضع (Place) (لتجمّع Groupement) اليهود في فلسطين، إلى جانب الجنسيات الأخرى (Nationalités) الموجودة فيها.

إن الدافع المباشر لتصريح كامبون هو الاِستعجال بإصدار بيان مكتوب معبر عن الوقوف إلى جانب آمال الصهيونية لكي يحصل التعاطف مع الجماهير اليهودية في روسيا المعارضة لحكومة القيصر المستبدة، وهي حكومة عضو في الوفاق الثلاثي (Triple Alliance).

وبالإضافة إلى ذلك، فإن هناك عاملين آخرين متصلين

(2518/1)

بالموضوع، الأول هو خطر ألمانيا التي قد تحصل على دعم الصهيونية لوجود قرار سريع كان بصدد التحضير في برلين يعلن عن دعم ألمانيا للمشروع الصهيوني في فلسطين تحت الحماية الألمانية. والثاني هو رغبة كامبون في تجنيد ما يعتبره جماعة يهودية قوية في أمريكا لصالح الحلفاء والتأثير بها على حكومتهم لتقف إلى جانب التحالف مع بريطانيا وفرنسا. وقد كان كامبون سفيرا لبلاده في واشنطن ويعرف مدى النفوذ اليهودي هناك

وقد راجت إشاعات واردة من بعض العواصم الأوروبية مثل لاهاي وكوبنهاكَن، وهي أن ألمانيا كانت تستعد لإصدار

(2519/1)

إعلان في صالح إقامة جمهورية يهودية في فلسطين. ومن ذلك خشية الفرنسيين من وقوع تفاهم أمريكي/ ألماني مع تركيا (طلعت باشا)، يدعم المطامع الصهيونية في مقابل تعويضات مالية من الدوائر الصهيونية وتخلي

تركيا عن حكم فلسطين(1). كما أن كامبون كان يرى أنه رغم إعلان أمريكا الحرب على ألمانيا في 6 أبريل 1917 فإنها لم ترم بكل ثقلها في الحرب، وأن دور اليهود في أمريكا ضروري لدعم الحرب

---

(1) عن العلاقة المالية والاِرتباط بين زعماء تركيا والحركة الصهيونية عندئذ، انظر البحث الذي ترجمناه (في »الجدل الثقافي«) مرجع سابق.

(2520/1)

والحلفاء.

إن تصريح كامبون جاء في شكل رسالة إلى سوكولو بتاريخ 4 جوان (حزيران) 1917، ومحتواه هو ما يلي: » إنك تقدر أنه إذا سمحت الظروف وتحقق استقلال الأماكن المقدسة، فإنه سيكون من الإنصاف إذا ساهمنا من خلال حماية دول الحلفاء، في إحياء الجنسية اليهودية على أرضها حيث الشعب الإسرائيلي كان قد طرد منذ قرون عديدة خلت. إن الحكومة الفرنسية التي شاركت في الحرب الحاضرة للدفاع عن الشعوب المعتدى عليها ظلما والتي تواصل المعركة لتحقيق انتصار الحق على

القوة، لا تستطيع سوى أن تشهد بتعاطفها مع قضيتكم التي يرتبط

(2521/1)

انتصارها بانتصار الحلفاء« (1) (ص. 384).

وقد تأثر سوكولو بهذا التصريح. وأرسل إلى كامبون خطابا مؤثرا معترفا بأهمية التصريح ومعتبرا إياه انتصارا معنويا كبيرا. أما حاييم وايزمان (H.Weizmann) ، زميل سوكولو، فقد خالفه في ذلك لأنه كان يخشى من أن الفرنسيين قد يستعملون تفاهمهم مع الصهاينة لأغراضهم

---

(1) تصريح جول كامبون، وزارة الخارجية الفرنسية، المسألة اليهودية، باريس، الأرشيف السياسي، حرب 1914–1918،

ص. 44–45. من الكتابة العامة لوزارة الخارجية إلى السيد ناحوم سوكولو، 4 جوان 1917. انظر الملحق الأول.

(2522/1)

الخاصة، أي للمشاركة مع الإِنكَليز في فلسطين.
ومهما كان الأمر، فقد بقى التصريح الفرنسي غير منشور، ولم يجز توزيعه إلا داخليا فقط وعبر السفارات.
والمفترض أنه قد نشر بين الدوائر اليهودية المؤثرة.
غير أنه يُلاحظ في هذا
الصدد أنه لا الفرنسيون ولا الصهاينة قد نشروا محتوى التصريح علنيا لأسباب تتعلق بكل منهم.
والنتيجة هي أن التصريح الفرنسي قد شجع على إصدار تصريح (وَعْد) بلفور الذي جاء بعده زمنياً، وأنه قد صدر عن حكومة كانت تعتبر منافسة لبريطانيا في فلسطين. وقد أعطى التصريح الفرنسي أيضا لسايكس الفرصة

(2523/1)

المنتظرة للضغط على أعضاء الحكومة البريطانية وعلى من كانوا معارضين للآمال الصهيونية. ومن ثمة أصبح سايكس قادراً على إثارة موضوع » التصريح البريطاني« على أنه مجرد » مصلحة قومية «(1).

تصريح وزير الخارجية بيشون (14 فبراير 1918)
ظلت الاِتصالات بين الأطراف جارية لتحقيق كل طرف ما

يراه في صالحه من غنيمة الاِنتصار في الشرق الأدنى وفي أوروبا. وبعد تصريح اللورد بلفور، وزير الخارجية الإِنكَليزي،

---

(1) تصريح اللورد بلفور إلى اللورد روتشيلد، المتحف البريطاني، مخطوط 41178، فوليو رقم 1، 3 الثاني من نوفمبر 1917.

(2524/1)

جاء دور تصريح ستيفان بيشون وزير الخارجية الفرنسي. وهو بالطبع تأكيد لتصريح كامبون السابق. وهناك تطورات جعلت تصريح بيشون ضروريا. فزعماء الصهيونية في فرنسا أصبحوا يلحون على الحكومة الفرنسية في تأييد التصريح البريطاني الذي تضمن عبارة » الوطن القومي« لليهود. كما أن رئيس الحكومة السابق ريبو (Ribot) قد ترك مكانه لجورج كليمنصو (17G.Clemenceau) نوفمبر 1917. وفي ديسمبر استولت القوات البريطانية على بيت المقدس فأعلن الصهاينة الفرنسيون ترحيبهم بذلك دون الإشارة إلى اسم فرنسا. ثم إن مؤتمرا صهيونيا كبيرا كان

(2525/1)

على وشك الِانعقاد في أمريكا. وكان من المقرر أن تحضره شخصيات صهيونية من روسيا وبريطانيا. وألف الصهاينة أيضا لجنة تضم ممثلين عن يهود أمريكا وروسيا وبريطانيا لتتوجه إلى فلسطين للتحضير لما وعد به بلفور وهو إقامة » الوطن القومي اليهودي«. وليس في هذه اللجنة ممثل يهودي من أصل فرنسي. كل ذلك جعل المسألة أمام كليمنصو ووزير خارجيته بيشون تحتاج إلى إعلان موقف. جاء سوكولو إلى باريس من جديد في يناير 1918. وكان عليه أن يعلن للفرنسيين أن الحركة الصهيونية ليس لها نية في إقامة » دولة يهودية« في فلسطين وإنما لها

(2526/1)

نية إنشاء وطن قومي يهودي (Foyer National Juif). وجاءت دعوة سوكولو إلى باريس هذه المرة من السيد غو (Gout) بإيعاز من مارك سايكس. وكان غو هو المتولي عندئذ قسم آسيا بوزارة الخارجية الفرنسية، كما أنه قد تولى المسألة الصهيونية في باريس في غياب بيكو الذي أُرسل إلى فلسطين. وأثناء اللقاء بين الفرنسيين

وسوكولو، كان على هذا أن يقنعهم بضرورة مشاركة عضو يهودي من أصل فرنسي في اللجنة الصهيونية المتوجهة إلى فلسطين.

(2527/1)

وبتقديم خاص من غو، استقبل الوزير بيشون الزعيم الصهيوني سوكولو في 9 فبراير. وعبّر له بيشون عن استعداده لإصدار بيان صحفي يؤكد التفاهم الموجود بين الإنكَليز والفرنسيين حول المسألة الصهيونية. وبعد أن رجع سوكولو إلى غرفته في الفندق، كتب إلى غو يشكره على إعداد اللقاء مع وزير ا لخارجية ويؤكد أن إصدار بيان » واضح العبارة « يجب أن يكون هو نقطة الاِنطلاق للدعاية الفرنسية بين الملايين من إخوانه في الدين (اليهود) بالولايات المتحدة الأمريكية.

(2528/1)

وهناك أيضا دور تارديو (Tardieu)، المحافظ السامي الفرنسي في نيويورك، في إصدار التصريح الفرنسي الثاني الموالي للصهيونية. فقد كان تارديو مبقيا على

العلاقات مع زعماء هذه الحركة في نيويورك، ولا سيما مع برندس، وفي مراسلاته مع وزارة خارجية بلاده كان تارديو يستعمل مختلف الحجج لإصدار تصريح جديد.

وكان يبين النفوذ المالي والسياسي لليهود في نيويورك وكون زعمائهم يؤيدون الاِستعمار (Colonisation) اليهودي في فلسطين. وذهب تارديو إلى حد الاِقتراح بنقل جماعة من اليهود كانوا يعيشون في كانيا (كورسيكا) إلى فلسطين،

(2529/1)

لأن نقلهم تحت العلم الفرنسي إلى هناك يُعدُّ إشارة فرنسية جيّدة نحو اليهود عموما.

في اللقاء الذي جمع بيشون بسوكولو يوم 9 فبراير لم يرض سوكولو بعبارة المستوطنة (Settlement) اليهودية في فلسطين التي وردت على لسان بيشون، وطلب عبارة واضحة من الفرنسيين تتماشى مع الآمال الصهيونية. وبعد التأمل والتروي خلال بضعة أيام، طلب سوكولو مجددا تغيير التعبير » المستوطنة « إلخ. السابق واستبداله بالعبارة التي وردت في التصريح البريطاني، وهي » وطن قومي يهودي «. وبرر سوكولو ذلك بأهمية التصريح والتعبير لدى اليهود

(2530/1)

الأمريكيين. كما أن رسالة سوكولو تضمنت اقتراحاً بتعيين وفد فرنسي ينضم إلى الوفد (اللجنة) الصهيوني المتوجه إلى فلسطين، على أن يتمتع الوفد بثقة حكومته.

وقد استجاب بيشون لهذا الطلب وأصدر يوم 14 فبراير تصريحا أكد فيه الموقف الفرنسي واستعمل فيه تعبير » الوطن القومي« (Foyer National) الذي طلب منه سوكولو، وجاء تصريح بيشون، في صيغة رسالة موجهة إلى سوكولو، معلناً له فيها أن بياناً صحفياً قد صدر عن الحكومة الفرنسية بالمعنى المذكور. وها هو نص بيشون:

(2531/1)

»كما اتفقنا عليه خلال محادثاتنا يوم السبت التاسع من هذا الشهر، فإن حكومة الجمهورية (الفرنسية)، بالنظر إلى تحديد وجهة نظرها نحو الآمال الصهيونية العازمة على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، فقد نشرت مذكرة في الصحافة. وإني إذ أقدم إليك هذا النص،

فإني أغتنم الفرصة لتهنئتكم على إخلاصكم المتفاني الذي تابعتم به إنجاز آمال إخوانكم في الدين، ثم لأشكركم على الحماس الذي أظهرتموه لتقديم مشاعر التعاطف التي لقيتها جهودكم في بلدان الوفاق، وبالخصوص في فرنسا» (1)

---

(1) تصريح ستيفان بيشون، وزارة الخارجية في باريس، الأرشيف السياسي، حرب 1914–1918. المسألة اليهودية، م 5، ص. 19، من س. بيشون إلى ن. سوكولو، 14 فبراير 1918. انظر الملحق الثاني .

(2532/1)

. (ص. 391).

وفي يوم 16 فبراير أبرقت » الإتحادية الصهيونية الفرنسية» (French Zionist Federation) معلنة إلى الزعماء الصهيونيين في موسكو وبتروكراد والأوديسة، وروما ولاهاي ونيويورك وكوبنهاكَن، والقاهرة عن الاِتفاق التام بين فرنسا وإنكلترا حول مسألة (فلسطين اليهودية)«، وداعية إياهم إلى تنظيم مظاهرات الدعم والتعبير عن الإعتراف بالجميل للحكومة

الفرنسية.

وكانت السياسة الصهيونية العامة تتمركز في الحصول على موافقة الدول المتحالفة الأخرى على وعد بلفور.

ولذلك كان سوكولو مصرا على أن تصدر الحكومة الإيطالية

(2533/1)

أيضا تصريحا مماثلا لتصريح بيشون.

أما بيكو، فقد ترك على الهامش من هذه التطورات. فلم يعلم عن تصريح بيشون إلا من خلال المصادر الإِنكَليزية في المشرق. وهكذا وجد نفسه غريباً أمام تصريح 9 **ثم** 14 **فبراير** 1918 **المساند للصهيونية. وقد اندهش من أن حكومته لم تصدر تصريحا لصالح العرب كما كان يرغب. وشكا إلى حكومته من كونها لم تستشره قبل تصريح بيشون، وحذرها من ردود الفعل في سورية ولبنان. وقد كان بيكو يريد تحضير الرأي العام في سورية ولبنان للِانتداب الفرنسي.**

(2534/1)

لكن بيكو تلقى من حكومته نُسخا فقط من الوثائق التي أرسلتها وزارة الخارجية إلى المحافظ السامي الفرنسي في نيويورك (وهو تارديو)، وهي الوثائق التي تلح على الأثر الإيجابي لتصريح بيشون على يهود أمريكا. وطلبت الوزارة من بيكو أن يعمل على إفهام السكان، يهودا وغير يهود (كذا) من أن الحكم الذي سينشأ هناك بعد الحرب لن يكون في صالح طرف على حساب طرف آخر، وأن الوئام بين جميع العناصر هو الشرط الضروري في تمتع الجميع بالتقدم والرخاء بعد الحرب.

(2535/1)

أما تارديو، فقد أرسل برقية يوم 9 فبراير من نيويورك جاء فيها أن وزير الداخلية الألماني قد استقبل وفداً صهيونياً ووعدهم بإقامة سلطة حكم ذاتي (Autonomy) في فلسطين. وكان هدف برقية تارديو هو التعجيل بإصدار الحكومة الفرنسية تصريحا مواليا للصهيونية. وبعد أيام من تصريح بيشون، أخبر تارديو عن فرحة يهود أمريكا بالتصريح الفرنسي، وعن شكر فرنسا الذي عبرت عنه مختلف افتتاحيات الجرائد اليهودية بأمريكا.

وفي اليوم التالي لتصريح بيشون (أي يوم 15 فبراير

1918)، جاء الإعلان عن اتفاق الحكومتين الفرنسية والبريطانية حول

(2536/1)

الوضع المحفوظ للصهيونية في فلسطين. فكلتاهما تعترف بمنشأة (Establishment) يهودية في فلسطين، مع تمكين اليهود من حكم ذاتي إداري في إطار دولة عالمية (International State) ستنشأ في هذه البلاد (فلسطين). ولعل استعمال تعبير « المنشأة اليهودية « جاء من موقف وزارة الخارجية الفرنسية التي تريد أن تقف موقفا وسطا بين طالبي الحد الأقصى وهو إقامة دولة يهودية وخصوم هذه الفكرة.

لقد كان هناك بعض ردود الفعل على الموقف الفرنسي من الصهيونية. فدوائر الكاثوليك والاِستشراق وبعض العرب تحركوا ولكن لم يكن لهم فعالية. كما

(2537/1)

كانت هناك اللجنة المركزية السورية في باريس، ولكن موقفها كان غير فعال أيضا، ومعظم العرب

المتواجدين في فرنسا عندئذ كانوا من المسيحيين السوريين، ويرأسهم شكري غانم، وكانت فرنسا هي التي تدفع إليهم الأموال. ولذلك كان مطلبهم يتمثل في قطع سورية عن الدولة العثمانية ووضعها تحت حكم فرنسي. وكانوا على صلة ببعض العرب الآخرين في الخارج. غير أن أنصارهم في سورية نفسها كانوا قلة. ولم يكن لهم أي أثر على فصل فلسطين عن سورية وإقامة الوطن القومي فيها لليهود، كما لم يكن لهم أي أثر في معارضة الفكرة بعد ذلك

(2538/1)

وهكذا تبين أن سنة 1917 **كانت حاسمة ليس لأن بلفور والإِنكَليز وعدوا الصهاينة بالوطن القومي لليهود في فلسطين، بل لأن الفرنسيين قد فعلوا ذلك أيضا. وقد لاحظنا أن تصريح كامبون جاء قبل تصريح بلفور. كما أن تصريح بيشون وموافقة الفرنسيين على الوطن القومي اليهودي قد جاءت في بداية** 1918 **على عهد وزارة جورج كليمنصو. ويبدو أن ثلاثين سنة من الإِنتداب البريطاني على فلسطين قد جعل الناس ينسون دور الدول الأخرى، مثل فرنسا وألمانيا وتركيا في المنطقة.**

فهل كان التصريح الفرنسي مختلفا في المحتوى عن التصريح الإِنكَليزي؟

(2539/1)

أو هل أن الصهاينة لم يروا فيه إنجازا كبيرا أو هو أقل أهمية في نظرهم من التصريح البريطاني؟ وقد انتهى الكاتب إيدي كوفمان إلى أن الذي جعل بلفور يصدر تصريحه هو عزيمة بريطانيا على امتلاك فلسطين وليس نتيجة للضغط الصهيوني. إن هناك عدة دراسات لتصريح بلفور، مثل دراسة ليونارد شتاين (L.Stein) ثمّ دراسة فيرتي (Mayir Verete) الذي أعطى التصريح تفسيرا جديدا ورأى أن التصريح الفرنسي الرسمي لصالح الصهيونية هو الذي ساهم في إصدار التصريح البريطاني المعروف بوعد بلفور. وها هي مقالة إيدي كوفمان تعمق هذا التفسير بناء

(2540/1)

على الوثائق الفرنسية التي افتتحت حديثا أمام الباحثين(1). أما الخاسرون في هذه التطورات كلها فهم

العرب، والمسلمون.

Selected Bibliography

Ageron, Charles-Robert, les Algériens Musulmans et la France, Vol. 1–2, P.U.F., Paris, 1968.

---

(1) **ناقش موضوع الصهيونية الحلفاء، ولاسيما بريطانيا وفرنسا، إيلي كدوري** (E.Keddourie) **»المذكرات العربية الباحثية ودراسات أخرى«، لندن،** 1974، **صص.** 236–242، **وتعرض أيضا لرأي فيربتي وشتاين.**

(1/2541)

Andrew, F.Fern, The Holy Land Under Mandate, Vol. 1, Hyperion Press, Westport, Conn., 1976.

Cambon, Jules, Gouvernement de l'Algérie, Alger, 1918.

Geddes, Charles L., A Documentary History of the Arab-Israeli conflict, Praeger, New York, 1991.

Gorny, Yosef, Zionism And The Arabs, 1882–

, A Study of Ideology, Clarendon Press, 1948
.1987Oxford,

John, Robert and Hadawi, Sami, The Palestine
, New World Press, New York, 2–1Diary, Vol
.1971

(2542/1)

Kaufman, Edy, « The French Pro-Zionist
», Middle Eastern 1918–1917Declarations of
.1979, October 3, no. 15Studies,

2Khaldi, Walid. Ed., From Haven To Conquest,
Printing, Washington, The Institute For
.1987Palestine Studies,

Rizk, Edward, Trans., The Palestine Question,
The Institute for Palestine Studies, Beirut,
.1968

الملحق الأول

تصريح جول كامبون (Jules Cambon)

إنك تقدر أنه إذا حتمت الظروف وتأكد استقلال الأماكن المقدسة، فإنه سيكون من العدل والإنصاف أن نساهم، من خلال الدول المتحالفة، في

(2543/1)

إحياء الجنسية (Nationality) **اليهودية على أرضها** (On ones land) **الخاصة بها حيث الشعب الإسرائيلي كان قد طرد منذ قرون عديدة خلت.**

إن الحكومة الفرنسية التي اشتركت في الحرب الحاضرة للدفاع عن الشعوب التي تعرضت للاعتداء الظالم، والتي تواصل المعركة لضمان انتصار الحق على القوة، لا يمكنها إلا أن تبرهن على تعاطفها مع قضيتكم التي يرتبط انتصارها بانتصار الحلفاء.

جول كامبون Jules Cambon

Ministère des Affaires Etrangères, Paris,

Archives Politiques, Guerre 1914–1918 ,

Question juive, pp. 44–45.

(2544/1)

الأمين العام لوزارة الخارجية إلى السيد ناحوم سوكولو (N.Sokolow).

الملحق الثاني

تصريح ستيفان بيشون (Stephen Pichon)

كما اتفق عليه أثناء حديثنا يوم السبت التاسع من هذا الشهر، فإن حكومة الجمهورية [الفرنسية]، بالنظر إلى تحديد وجهتها من الآمال الصهيونية العازمة على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، قد نشرت مذكرة في الصحافة.

وفي الوقت الذي أرسل إليكم هذا النص، فإني أغتنم الفرصة لأهنئكم على إخلاصكم المتفاني الذي واصلتم به سعيكم لتحقيق رغبات إخوانكم في الدين (Co-religionistes) **وأشكركم على غيرتكم التي**

(2545/1)

أبديتم بها مشاعر العطف التي حظيت بها في بلدان الوفاق وبالأخص في فرنسا.

ستيفان بيشون (Stephen Pichon)

Ministère des Affaires Etrangères, Paris,

Archives Politiques, Guerre 1914–1918 ,

Question juive, Vol. 19, p.5,

من س. بيشون إلى ن. سوكولو، 14 **فبراير** 1918.

أثناء استقبال حظي به السيد سوكولو من قبل بيشون، وزير الخارجية، أعلن بيشون باسم الحكومة

الفرنسية، أن هناك تفاهما كاملا بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية فيما يتعلق بمسألة الاستيطان اليهودي في فلسطين.

(2546/1)

Ministère des Affaires Etrangères, Archives Politiques, Guerre 1914–1918, Question juive, Communiqué destiné à la presse, 9, February 1918, p. 5Vol. 144.

(2547/1)

التصريحات الفرنسية الموالية للصهيونية(1917 – 1918)

... ...

الدكتور أبو القاسم سعد الله

الجامعة الجزائرية – الجزائر

إلى الآن لا يعرف إلا القلائل أن فرنسا وعدت الصهاينة بوطن قومي قبل أن تعدهم به بريطانيا . فالمشهور هو فقط وعد أو تصريح بلفور A.J. Balfour الإنجليزي،

وليس وعد أو تصريح جول كامبون (J.Cambon) وبيشون (S.Pichon) الفرنسيين. والتي فتحت للباحثين بعد خمسين سنة على أحداثها. هذا البحث قاد إلى الكشف عن الوعود الفرنسية للصهاينة بتعاطف فرنسا مع إنشاء المستوطنات اليهودية وبعث الدولة

(2548/1)

العبرية في فلسطين. وقد كشف البحث أيضا عن التنسيق بين الحركة الصهيونية من جهة، وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى، بل عن التآمر بين الحلفاء ويهود العالم خلال سنتي 1917 و1918 على مستقبل بلاد العرب والإسلام.

ونحن لم نرجع إلى الوثائق الفرنسية المذكورة بصفة مباشرة، ولكننا اطلعنا بالخصوص على بحث إيدي كوفمان(1)

---

(1) اعتمدنا على عدة مراجع، وبالأخص بحث إيدي كوفمان (Edy Kaufman) «التصريحات الفرنسية الموالية للصهيونية سنة 1917–1918»، في مجلة دراسات الشرق الأوسط (Middele Easter Studies)، المجلد 15، عدد 3، أكتوبر 1997، صص. 374–407. أما فيما يتعلق

بأوضاع المشرق العربي عموما، فهناك الكثير من الكتب والأبحاث والمذكرات، ولم نر ضرورة لذكرها هنا.

(1/2549)

الذي رجع إليها ودرسها بدقة واستخرج منها وجهة النظر الفرنسية والبريطانية والصهيونية خلال التاريخ المذكور. وقد انطلق الباحث من فكرة قد تبدو جديدة إلى
حد كبير، وهي أن وعد بلفور قد جاء بعد وعد كامبون الفرنسي، وأن بريطانيا كانت حريصة على الحصول من فرنسا على ذلك الوعد للحركة الصهيونية لأن المصلحة البريطانية تقتضي إبعاد فرنسا عن فلسطين. وأن بريطانيا هي التي أغرقت ونسقت مع الصهاينة على أن تكون هي صاحبة السيادة على فرنسا وليس فرنسا على فلسطين.

(1/2550)

ومن أجل ذلك قام مارك سايكس (M. Sykes)، المفاوض الإنكليزي بالعمل مع جورج بيكو (G. Picot) المفاوض

الفرنسي، على تقسيم فلسطين بين بريطانيا وفرنسا، وكسر الطموح الفرنسي القائم على الإدعاء التاريخي والنفوذ الروحي في جعل فلسطين فرنسية فقط والخطوة الثانية التي خطاها سايكس هي جعل حصة بريطانيا في التقسيم أكبر بكثير من الحصة الفرنسية. أما الخطوة الثالثة، فهي استعمال الضغط الصهيوني على فرنسا لكي تصدر تصريحا لصالح الصهيونية في فلسطين. وأما الخطوة الأخيرة، فهي ضمان السيادة البريطانية على فلسطين باقتناع

(2551/1)

اليهود عموما والصهيونية بالخصوص بأن ذلك أفضل لها من السيادة الفرنسية عليها. وبعد التحضير لكل ذلك، صدر وعد بلفور المعروف.

ويرجع المخطط في الأساس إلى الموقف من الدولة العثمانية التي دخلت الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا وإلى تقسيم المشرق العربي بين الحلفاء بما فيهم بريطانيا وفرنسا وروسيا. ومنذ 1916، فاوض الحلفاء بعدة أفواه وكتبوا عدة اتفاقات ظلت سرية وكانت في جوهرها متناقضة. ويهمنا من ذلك كله محادثات الشريف حسين / ماكماهون، واتفاق سايكس / بيكو

والوعد بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وقد كان هذا

(2552/1)

الوعد مقتصرا على وزارة الخارجية البريطانية، ولكنه أصبح الآن وعدا مزدوجا بعد إضافة تصريح وزارة الخارجية الفرنسية أيضا إليه والذي كان في الواقع سابقا للتصريح البريطاني.

ونص اتفاق سايكس/ بيكو سنة 1916 **على تقسيم فلسطين بين فرنسا وبريطانيا. ولنتذكر أن فلسطين عندئذ كانت جغرافيا جزءا من سورية الكبرى وبلاد الشام. وبناء على الاتفاق المذكور، فإن شمال بحيرة طبرية كان سيدخل في حكم الفرنسيين (وكذلك سورية ولبنان). وأما عكا ويافا وجزء من شرق الأردن وصحراء النقب، على خط يمتد من رفح إلى شمال البحر**

(2553/1)

الميت، فقد كان سيدخل في حكم الإنكليز. ومع ذلك، شعر كل طرف بأنه لم يحقق مرغوبه كاملا. فالإنكليز

اعتبروا مفاوضهم سايكس معتدلا نحو المطالب الفرنسية. ومن جهة أخرى، اعتبر الفرنسيون ما حصلوا عليه أقل من آمالهم، لأنهم كانوا يطمعون في حكم الأماكن المقدسة التي قالوا أن الباب العالي والدول الأوروبية قد اعترفت لهم سابقا بحمايتها.

وتنفيذا لاتفاق سايكس/بيكو المذكور عزم الإِنكَليز على مهاجمة العثمانيين في فلسطين في يناير عام 1917. وانطلقوا من العريش. حاول الفرنسيون ثنيهم لعدم وجود قوات فرنسية في هذا

(2554/1)

الهجوم. كان الفرنسيون يخشون أن يبقوا خارج فلسطين ويؤول أمرها كله للإِنكَليز إذا لم تكن لهم مشاركة في الحرب هناك، وبذلك تضيع آمالهم ويضيع حقهم في أية مفاوضات بشأن فلسطين. ثم حاول الفرنسيون أن يشتركوا بقوة رمزية لتحقيق الغرض المذكور، فرفض الإِنكَليز اشتراكهم في أول الأمر ثم وافقوا بشرط ألا تتعدى القوة الفرنسية 2800 جندي. ثم جرى الخلاف بينهم حول رتبة قائد هذه القوة. ففرنسا عينت قائدا لها برتبة جنرال، فرفض الإِنكَليز ذلك حتى

لا يكون في نفس رتبة القائد الإِنكَليزي، وكان على فرنسا أن تكتفي بتعيين

(2555/1)

القائد برتبة عقيد.

عين الفرنسيون ثلاث فرق جزائرية ضمن القوة المذكورة، وكانت مهمة هذه الفرق هي الإشراف على السكة الحديدية بين يافا والقدس، وحراسة المؤسسات الفرنسية في فلسطين، وكذلك حراسة الأماكن المقدسة التي كان يعترف لفرنسا بحمايتها في السابق. وبينما هاجم الإِنكليز من غزة في 31 **أكتوبر** 1917 **ووصلوا إلى يافا في** 19 **نوفمبر، ظلت الفرق الفرنسية في خان يونس، شمال سينا، ولم تتحرك تقريبا. وذلك هو ما جعل موقف فرنسا العسكري ضعيفا وجعل دبلوماسييها في موقف لا يطلبون معه الكثير حول فلسطين حين جاء وقت توزيع**

(2556/1)

الغنائم.

كان جورج بيكو هو الخبير والدبلوماسي الذي عُيّن محافظا في المناطق المحتلة من فلسطين وسورية. وكان يستعد للتوجه إلى القاهرة عندما طلب منه زميله الإنكليزي، سايكس أن يزور لندن بصفة مستعجلة قبل القاهرة. وكان سايكس قد خطط للقاء مباشر يتم بين بيكو والزعماء الصهاينة في لندن. ذلك أن سايكس كان مقتنعا بأن أي اعتراض يصدر من أية جهة حول خطة بريطانيا في فلسطين، من العرب أو من الإيطاليين أو من الروس، لا يمكن أن يكون في درجة الخطورة التي يمثلها اعتراض فرنسا على الخطة. فكان ضمان موافقة فرنسا أمرا

(2557/1)

ضروريا في نظر سايكس.

وفي 8 فبراير 1917 التقى بيكو والزعيم الصهيوني نحوم سوكولو (1N.Sokolow) في لندن. فقد قدم سايكس زميله الفرنسي بيكو إلى سوكولو ثم انسحب. وتركهما وحدهما للدخول في المحادثات. وكان سايكس قد اتفق مع سوكولو قبل ذلك

---

(1) كان سوكولو (سوكولوف) عضوا رئيسيا في المنظمة الصهيونية العالمية المتمركزة في كولون (ألمانيا). وقد لعبت دورا في التأثير على حركة الإِنقلاب العثماني. انظر ترجمتنا لبحث الأستاذ روبيرت أولسون (R.Olson) (جامعة كونتاكي) في كتابنا « في الجدل الثقافي«، دار المعارف، تونس، 1990.

(2558/1)

على أن يُقنع بيكو بأن الصهاينة يفضلون السيادة البريطانية على فلسطين وليس الفرنسية. وهكذا أثار سوكولو هذه النقطة مع بيكو بكل صراحة، فأجابه بيكو بأن لفرنسا آمالها في فلسطين ولا يمكنها أن تتخلى عنها، بل أخبره أن 95٪ من الشعب الفرنسي يفضلون إلحاق (كذا) فلسطين بفرنسا. وكان سوكولو عازما على السفر إلى فرنسا، في اليوم التالي لنفس الغرض، فطلب منه بيكو ألا يثير مسألة الصهيونية في فرنسا خلال الإِجتماع لأن معظم يهود فرنسا معارضون للصهيونية، ولأن الشعور الفرنسي نحو فلسطين شعورٌ قويّ. ومن جهته وعده بيكو

(2559/1)

بإخطار الحكومة الفرنسية بالموضوع بطريقة متعاطفة مع المطلب الصهيوني.

وقد بقيت مسألة السيادة على فلسطين مسألة حساسة بين فرنسا وبريطانيا. فاقترح سايكس ذات مرة اسم أمريكا لكي تكون هي الحامية المحايدة لفلسطين.

وكان ذلك قبل دخول أمريكا الحرب طبعاً. ولكن الفرنسيين رفضوا الاقتراح بحذر. ثمّ إن سايكس قد تراجع أيضا عن رأيه. وفي اجتماع عقد بباريس بين سايكس وبيكو وسوكولو وممثل الأرمن، طرح سوكولو الموضوع على بيكو بطريقة مبسطة قائلا: إن موقف الصهاينة حول السيادة هو موقف طفل يُسأل: هل يحب أمه أكثر من أبيه

(2560/1)

(يعني بريطانيا أو فرنسا)، ولذلك اقترح سوكولو أن تبقى المسألة بين الحكومتين. وكان واضحا أن سايكس يستعمل الصهاينة ذريعة لتنفيذ المخطط البريطاني في فلسطين.

وبدأ سايكس ضغوطه في الحصول من الفرنسيين على

وعد بالتعاطف مع الآمال الصهيونية قبل مغادرة بيكو إلى القاهرة. وكانت وجهة نظر سوكولو أن بيكو كان حجر عثرة في الطريق لأنه (بيكو) كان يفضل أن تكون السيادة فرنسية على فلسطين مع الإِعتراف بالآمال الصهيونية. وكان وضع الصهيونية في فرنسا مختلفا عنه في بريطانيا. فهناك خلاف بين المنظمات الصهيونية في فرنسا من

(2561/1)

جهة، وبينها وبين نفس المنظمات في بريطانيا. وبالإضافة إلى التنافس، كانت الصهيونية في فرنسا معظمها من اليهود المهاجرين من شرق أوروبا. ولم يكن لهم نفوذ سياسي واقتصادي، وكان وضعهم الإِجتماعي مهزوزا(1). وابتداءً من سنة 1917 أسس بعض الشباب اليهود في فرنسا (مثل روجي ليفي [R.Levy] وأندري سبير [A.Spire])

---

(1) عاشت فرنسا في الثمانينات من القرن الماضي أزمة حادة تعرف بأزمة الضابط اليهودي دريفوس (Dreyfus). وفي آخر القرن وقعت الأحداث المضادة للسامية في

الجزائر بين الفرنسيين واليهود، بقيادة ماكس ريجس (M.Regis).

(1/2562)

منظمة باسم »جامعة أصدقاء الصهاينة« Ligue des Amis du Sionisme) أخذت تجتذب إليها الأساتذة والشخصيات اليسارية.

وقبل إعطاء رأي فرنسا، اقترح بيكو على سوكولو أن يجتمع –أي سوكولو– بزعماء اليهود في فرنسا وفي مقدمتهم بعض أعضاء الرابطة الإسرائيلية العالمية، (1) قبل أن يعلن بيكو رأيه في التعاطف مع آمال الصهيونية. ومن جهة أخرى، كان بيكو يعرف أن رأي البارون ايدمونْ

---

(1) تأسست سنة 1860 ، وقد تولى أدولف كريميو A.Cremieux)) رئاستها فترة، وهو صاحب قرار تجنيس يهود الجزائر جماعيا سنة 1870، وبعد أن صار وزيرا للعدل.

روتشيلد (Ed. de Rotchild) له أهمية خاصة في هذا الموضوع، فقرر أن يدخله في المفاوضات أيضا بين

الحكومة الفرنسية وممثلي الحركة الصهيونية الأجانب (غير الفرنسيين)، وذلك قبل إصدار أية تصريحات لصالح الصهيونية. لقد كان رأي البارون مهما جدا لأنه أولا سيعبر للحكومة عن اتفاق ورضى الجماعة اليهودية الرسمية للزعماء نحو الأهداف الصهيونية، وثانيا لأن وجهة نظره نحو الحركة الصهيونية ستجر العديد من العناصر المعادية لهذه الحركة بين اليهود الفرنسيين.

(1/2564)

وهكذا حصل الاِجتماع مع البارون روتشيلد في أبريل 1917. الاِجتماع الأول كان مع الزعماء الفرنسيين المسيرين للسياسة الخارجية عندئذ، وعلى رأسهم ليون بورجوا (L.Bourgeois) وجول كامبون(1)

---

(1) جون كامبون سبق له أن كان حاكما عاما للجزائر بين 1892 و1897، ثم عين سفيرا لبلاده في واشنطن، قبل أن يتولى مسؤوليات أخرى، ومنها كاتب عام وزارة الخارجية حيث أصدر التصريح الفرنسي الموالي للصهيونية الذي نحن بصدده سنة 1917. انظر جول كامبون، حكومة الجزائر، 1918. أما أخوه بول كامبون،

فقد سبق له أن كان المقيم العام في تونس ثمّ عين سفيرا لبلاده في لندن حيث كان سنة 1917.

(1/2565)

. والاِجتماع الثاني حصل مع البارون وسوكولو وكذلك مع العناصر النشطة من »الرابطة الإسرائيلية العالمية« وكان الاِجتماعان منفصلين.

لقد كان جول كامبون هو الكاتب العام (الوكيل) لوزارة الخارجية الفرنسية (الكي دورزي) Quai d'Orsay وكان أخوه بول كامبون سفيرا في بريطانيا. وفي 8 أبريل، اجتمع بهما سوكولو، وحضر الاِجتماع جورج بيكو وكذلك دي مارجري (De Margerie) مدير قسم الشؤون السياسية في وزارة الخارجية. ودار النقاش حول العواقب التي قد تنتج عن تصريح فرنسي يتعاطف مع آمال الصهيونية، ولا سيما العواقب بالنسبة

(1/2566)

للجهات اليهودية في أمريكا وروسيا. واتفقوا على أنه سيكون للتصريح نتائج إيجابية وفوائد لصالح الحرب

والحلفاء. واتفقوا كذلك على أن ترسل في نهاية الاِجتماع، برقية بهذا المعنى إلى الدكتور تشيلونوف (Dr.Tchlenov) (روسيا) وجستس برندس (J.Branderis) (أمريكا)، وهما رئيسا المنظمتين الصهيونيتين على التوالي في بلديهما. وقد وقع سوكولو البرقية، ولكنها مرت عبر قنوات وزارة الخارجية الفرنسية. وجاء في البرقية ما معناه: أن نتائج إيجابية لمفاوضات لندن وباريس (and Paris) قد رحبت بها هنا وزارة خارجيتنا، وأن لي ثقة

(2567/1)

كاملة في أن النصر (للحلفاء) سيحقق آمالنا الصهيونية الفلسطينية. ونلاحظ أن الفرنسيين قد تركوا عبارة (وباريس) بارزة في البرقية تأكيدا على تدخُّل فرنسا في الموضوع (ص. 378).

وبعد باريس سعى سوكولو أيضا للحصول على نفس التصريح من إيطاليا وعلى دعمها لآمال الصهيونية في فلسطين.

تصريح جول كامبون (جوان) 1917:

سبقت هذا التصريح عدة تمهيدات واتصالات بين الزعماء

الفرنسيين واليهود. فمن القاهرة أرسل بيكو برقية إلى الخارجية الفرنسية مؤكدا فيها إصدار تصريح فرنسي يتعاطف مع آمال الصهيونية. وقد بنى بيكو رأيه على عدة

(2568/1)

اعتبارات منها أنه فهم أن الصهاينة سيتركون موضوع السيادة على فلسطين للحلفاء، وأن سوكولو اعترف له بأن الأماكن المقدسة ستعرف وضعا خاصا، وأن الاِستيطان (الاِستعمار Settlement) اليهودي لن يشمل هذه الأماكن المقدسة.

كما أن جول كامبون ودي مارجوري والبارون روتشيلد، وكذلك سيلفان ليفي وهو من »الرابطة الإسرائيلية العالمية« عقدوا عدة اجتماعات. وقد عبّر سيلفان ليفي أثناءها بأنه » من الطبيعي أن اليهود الفرنسيين غير صهيونيين، ولكنهم يعترفون، بكل سرور، بأهمية وقيمة الحركة الصهيونية« (ص. 381).

(2569/1)

ومن جهة أخرى، حرر جول كامبون نفسه مذكرة عن طبيعة اليهود والصهيونية. وقد عبر فيها عن أنه في صالح الاِعتراف بموضع (Place) (لتجمّع Groupement) اليهود في فلسطين، إلى جانب الجنسيات الأخرى (Nationalités) الموجودة فيها.

إن الدافع المباشر لتصريح كامبون هو الاِستعجال بإصدار بيان مكتوب معبر عن الوقوف إلى جانب آمال الصهيونية لكي يحصل التعاطف مع الجماهير اليهودية في روسيا المعارضة لحكومة القيصر المستبدة، وهي حكومة عضو في الوفاق الثلاثي (Triple Alliance).

وبالإضافة إلى ذلك، فإن هناك عاملين آخرين متصلين

(2570/1)

بالموضوع، الأول هو خطر ألمانيا التي قد تحصل على دعم الصهيونية لوجود قرار سريع كان بصدد التحضير في برلين يعلن عن دعم ألمانيا للمشروع الصهيوني في فلسطين تحت الحماية الألمانية. والثاني هو رغبة كامبون في تجنيد ما يعتبره جماعة يهودية قوية في أمريكا لصالح الحلفاء والتأثير بها على حكومتهم لتقف إلى جانب التحالف مع بريطانيا وفرنسا. وقد كان كامبون سفيرا لبلاده في واشنطن ويعرف مدى النفوذ

اليهودي هناك

وقد راجت إشاعات واردة من بعض العواصم الأوروبية مثل لاهاي وكوبنهاكَن، وهي أن ألمانيا كانت تستعد لإصدار

(2571/1)

إعلان في صالح إقامة جمهورية يهودية في فلسطين. ومن ذلك خشية الفرنسيين من وقوع تفاهم أمريكي/ألماني مع تركيا (طلعت باشا)، يدعم المطامع الصهيونية في مقابل تعويضات مالية من الدوائر الصهيونية وتخلي تركيا عن حكم فلسطين(1). كما أن كامبون كان يرى أنه رغم إعلان أمريكا الحرب على ألمانيا في 6 أبريل 1917 فإنها لم ترم بكل ثقلها في الحرب، وأن دور اليهود في أمريكا ضروري لدعم الحرب

---

(1) عن العلاقة المالية والاِرتباط بين زعماء تركيا والحركة الصهيونية عندئذ، انظر البحث الذي ترجمناه (في »الجدل الثقافي«) مرجع سابق.

(2572/1)

والحلفاء.

إن تصريح كامبون جاء في شكل رسالة إلى سوكولو بتاريخ 4 جوان (حزيران) 1917، ومحتواه هو ما يلي: » إنك تقدر أنه إذا سمحت الظروف وتحقق استقلال الأماكن المقدسة، فإنه سيكون من الإنصاف إذا ساهمنا من خلال حماية دول الحلفاء، في إحياء الجنسية اليهودية على أرضها حيث الشعب الإسرائيلي كان قد طرد منذ قرون عديدة خلت. إن الحكومة الفرنسية التي شاركت في الحرب الحاضرة للدفاع عن الشعوب المعتدى عليها ظلما والتي تواصل المعركة لتحقيق انتصار الحق على القوة، لا تستطيع سوى أن تشهد بتعاطفها مع قضيتكم التي يرتبط

(2573/1)

انتصارها بانتصار الحلفاء« (1) (ص. 384).

وقد تأثر سوكولو بهذا التصريح. وأرسل إلى كامبون خطابا مؤثرا معترفا بأهمية التصريح ومعتبرا إياه انتصارا معنويا كبيرا. أما حاييم وايزمان (H.Weizmann) ، زميل سوكولو، فقد خالفه في ذلك

لأنه كان يخشى من أن الفرنسيين قد يستعملون تفاهمهم مع الصهاينة لأغراضهم

---

(1) تصريح جول كامبون، وزارة الخارجية الفرنسية، المسألة اليهودية، باريس، الأرشيف السياسي، حرب 1914–1918، ص. 44–45. من الكتابة العامة لوزارة الخارجية إلى السيد ناحوم سوكولو، 4 جوان 1917. انظر الملحق الأول.

(2574/1)

الخاصة، أي للمشاركة مع الإِنكَليز في فلسطين.

ومهما كان الأمر، فقد بقي التصريح الفرنسي غير منشور، ولم يجز توزيعه إلا داخليا فقط وعبر السفارات.

والمفترض أنه قد نشر بين الدوائر اليهودية المؤثرة.

غير أنه يُلاحظ في هذا الصدد أنه لا الفرنسيون ولا الصهاينة قد نشروا محتوى التصريح علنيا لأسباب تتعلق بكل منهم.

والنتيجة هي أن التصريح الفرنسي قد شجع على إصدار تصريح (وَعْد) بلفور الذي جاء بعده زمنياً، وأنه قد صدر عن حكومة كانت تعتبر منافسة لبريطانيا في

فلسطين. وقد أعطى التصريح الفرنسي أيضا لسايكس الفرصة

المنتظرة للضغط على أعضاء الحكومة البريطانية وعلى من كانوا معارضين للآمال الصهيونية. ومن ثمة أصبح سايكس قادراً على إثارة موضوع » التصريح البريطاني« على أنه مجرد » مصلحة قومية «(1).

تصريح وزير الخارجية بيشون (14 فبراير 1918)

ظلت الاِتصالات بين الأطراف جارية لتحقيق كل طرف ما يراه في صالحه من غنيمة الاِنتصار في الشرق الأدنى وفي أوروبا. وبعد تصريح اللورد بلفور، وزير الخارجية الإِنكَليزي،

---

(1) تصريح اللورد بلفور إلى اللورد روتشيلد، المتحف البريطاني، مخطوط 41178، فوليو رقم 1، 3 الثاني من نوفمبر 1917.

جاء دور تصريح ستيفان بيشون وزير الخارجية الفرنسي. وهو بالطبع تأكيد لتصريح كامبون السابق. وهناك تطورات جعلت تصريح بيشون ضروريا. فزعماء الصهيونية في فرنسا أصبحوا يلحون على الحكومة الفرنسية في تأييد التصريح البريطاني الذي تضمن عبارة » الوطن القومي« لليهود. كما أن رئيس الحكومة السابق ريبو (Ribot) قد ترك مكانه لجورج كليمنصو (17G.Clemenceau) نوفمبر 1917. وفي ديسمبر استولت القوات البريطانية على بيت المقدس فأعلن الصهاينة الفرنسيون ترحيبهم بذلك دون الإشارة إلى اسم فرنسا. ثم إن مؤتمرا صهيونيا كبيرا كان

(2577/1)

على وشك الِانعقاد في أمريكا. وكان من المقرر أن تحضره شخصيات صهيونية من روسيا وبريطانيا. وألف الصهاينة أيضا لجنة تضم ممثلين عن يهود أمريكا وروسيا وبريطانيا لتتوجه إلى فلسطين للتحضير لما وعد به بلفور وهو إقامة » الوطن القومي اليهودي«. وليس في هذه اللجنة ممثل يهودي من أصل فرنسي. كل ذلك جعل المسألة أمام كليمنصو ووزير خارجيته بيشون تحتاج إلى إعلان موقف. جاء سوكولو إلى باريس

من جديد في يناير 1918. وكان عليه أن يعلن للفرنسيين أن الحركة الصهيونية ليس لها نية في إقامة » دولة يهودية « في فلسطين وإنما لها

(1/2578)

نية إنشاء وطن قومي يهودي (Foyer National Juif). وجاءت دعوة سوكولو إلى باريس هذه المرة من السيد غو (Gout) بإيعاز من مارك سايكس. وكان غو هو المتولي عندئذ قسم آسيا بوزارة الخارجية الفرنسية، كما أنه قد تولى المسألة الصهيونية في باريس في غياب بيكو الذي أُرسل إلى فلسطين. وأثناء اللقاء بين الفرنسيين وسوكولو، كان على هذا أن يقنعهم بضرورة مشاركة عضو يهودي من أصل فرنسي في اللجنة الصهيونية المتوجهة إلى فلسطين.

(1/2579)

وبتقديم خاص من غو، استقبل الوزير بيشون الزعيم الصهيوني سوكولو في 9 فبراير. وعبّر له بيشون عن استعداده لإصدار بيان صحفي يؤكد التفاهم الموجود

بين الإِنكَليز والفرنسيين حول المسألة الصهيونية.
وبعد أن رجع سوكولو إلى غرفته في الفندق، كتب إلى
غو يشكره على إعداد اللقاء مع وزير ا لخارجية ويؤكد
أن إصدار بيان » واضح العبارة « يجب أن يكون هو نقطة
الاِنطلاق للدعاية الفرنسية بين الملايين من إخوانه في
الدين (اليهود) بالولايات المتحدة الأمريكية.

(2580/1)

وهناك أيضا دور تارديو (Tardieu)، المحافظ السامي
الفرنسي في نيويورك، في إصدار التصريح الفرنسي
الثاني الموالي للصهيونية. فقد كان تارديو مبقيا على
العلاقات مع زعماء هذه الحركة في نيويورك، ولا سيما
مع برندس، وفي مراسلاته مع وزارة خارجية بلاده كان
تارديو يستعمل مختلف الحجج لإصدار تصريح جديد.
وكان يبين النفوذ المالي والسياسي لليهود في
نيويورك وكون زعمائهم يؤيدون الاِستعمار
(Colonisation) اليهودي في فلسطين. وذهب تارديو
إلى حد الاِقتراح بنقل جماعة من اليهود كانوا يعيشون
في كانيا (كورسيكا) إلى فلسطين،

(2581/1)

لأن نقلهم تحت العلم الفرنسي إلى هناك يُعدُّ إشارة فرنسية جيّدة نحو اليهود عموما.

في اللقاء الذي جمع بيشون بسوكولو يوم 9 فبراير لم يرض سوكولو بعبارة المستوطنة (Settlement) اليهودية في فلسطين التي وردت على لسان بيشون، وطلب عبارة واضحة من الفرنسيين تتماشى مع الآمال الصهيونية. وبعد التأمل والتروي خلال بضعة أيام، طلب سوكولو مجددا تغيير التعبير » المستوطنة« إلخ. السابق واستبداله بالعبارة التي وردت في التصريح البريطاني، وهي » وطن قومي يهودي«. وبرر سوكولو ذلك بأهمية التصريح والتعبير لدى اليهود

(2582/1)

الأمريكيين. كما أن رسالة سوكولو تضمنت اقتراحاً بتعيين وفد فرنسي ينضم إلى الوفد (اللجنة) الصهيوني المتوجه إلى فلسطين، على أن يتمتع الوفد بثقة حكومته.

وقد استجاب بيشون لهذا الطلب وأصدر يوم 14 فبراير تصريحا أكد فيه الموقف الفرنسي واستعمل فيه

تعبير » الوطن القومي« (Foyer National) الذي طلب منه سوكولو، وجاء تصريح بيشون، في صيغة رسالة موجهة إلى سوكولو، معلناً له فيها أن بياناً صحفياً قد صدر عن الحكومة الفرنسية بالمعنى المذكور. وها هو نص بيشون:

(2583/1)

»كما اتفقنا عليه خلال محادثاتنا يوم السبت التاسع من هذا الشهر، فإن حكومة الجمهورية (الفرنسية)، بالنظر إلى تحديد وجهة نظرها نحو الآمال الصهيونية العازمة على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، فقد نشرت مذكرة في الصحافة. وإني إذ أقدم إليك هذا النص، فإني أغتنم الفرصة لتهنئتكم على إخلاصكم المتفاني الذي تابعتم به إنجاز آمال إخوانكم في الدين، ثم لأشكركم على الحماس الذي أظهرتموه لتقديم مشاعر التعاطف التي لقيتها جهودكم في بلدان الوفاق، وبالخصوص في فرنسا« (1)

---

(1) تصريح ستيفان بيشون، وزارة الخارجية في باريس، الأرشيف السياسي، حرب 1914–1918. المسألة اليهودية، م 5، ص. 19، من س.

بيشون إلى ن. سوكولو، 14 فبراير 1918. انظر الملحق الثاني .

(1/2584)

. (ص. 391).

وفي يوم 16 فبراير أبرقت » الإِتحادية الصهيونية الفرنسية« (French Zionist Federation) معلنة إلى الزعماء الصهيونيين في موسكو وبتروكراد والأوديسة، وروما ولاهاي ونيويورك وكوبنهاكَن، والقاهرة عن الاِتفاق التام بين فرنسا وإنكلترا حول مسألة (فلسطين اليهودية)«، وداعية إياهم إلى تنظيم مظاهرات الدعم والتعبير عن الإِعتراف بالجميل للحكومة الفرنسية.

وكانت السياسة الصهيونية العامة تتمركز في الحصول على موافقة الدول المتحالفة الأخرى على وعد بلفور.

ولذلك كان سوكولو مصرا على أن تصدر الحكومة الإيطالية

(1/2585)

أيضا تصريحا مماثلا لتصريح بيشون.

أما بيكو، فقد ترك على الهامش من هذه التطورات. فلم يعلم عن تصريح بيشون إلا من خلال المصادر الإِنكَليزية في المشرق. وهكذا وجد نفسه غريباً أمام تصريح 9 ثم 14 فبراير 1918 المساند للصهيونية. وقد اندهش من أن حكومته لم تصدر تصريحا لصالح العرب كما كان يرغب. وشكا إلى حكومته من كونها لم تستشره قبل تصريح بيشون، وحذرها من ردود الفعل في سورية ولبنان. وقد كان بيكو يريد تحضير الرأي العام في سورية ولبنان للاِنتداب الفرنسي.

(2586/1)

لكن بيكو تلقى من حكومته نُسخا فقط من الوثائق التي أرسلتها وزارة الخارجية إلى المحافظ السامي الفرنسي في نيويورك (وهو تارديو)، وهي الوثائق التي تلح على الأثر الإيجابي لتصريح بيشون على يهود أمريكا. وطلبت الوزارة من بيكو أن يعمل على إفهام السكان، يهودا وغير يهود (كذا) من أن الحكم الذي سينشأ هناك بعد الحرب لن يكون في صالح طرف على حساب طرف آخر، وأن الوئام بين جميع العناصر هو الشرط الضروري في تمتع الجميع بالتقدم والرخاء بعد الحرب.

(2587/1)

أما تارديو، فقد أرسل برقية يوم 9 فبراير من نيويورك جاء فيها أن وزير الداخلية الألماني قد استقبل وفداً صهيونياً ووعدهم بإقامة سلطة حكم ذاتي (Autonomy) في فلسطين. وكان هدف برقية تارديو هو التعجيل بإصدار الحكومة الفرنسية تصريحا مواليا للصهيونية. وبعد أيام من تصريح بيشون، أخبر تارديو عن فرحة يهود أمريكا بالتصريح الفرنسي، وعن شكر فرنسا الذي عبرت عنه مختلف افتتاحيات الجرائد اليهودية بأمريكا.

وفي اليوم التالي لتصريح بيشون (أي يوم 15 فبراير 1918)، جاء الإعلان عن اتفاق الحكومتين الفرنسية والبريطانية حول

(2588/1)

الوضع المحفوظ للصهيونية في فلسطين. فكلتاهما تعترف بمنشأة (Establishment) يهودية في فلسطين، مع تمكين اليهود من حكم ذاتي إداري في إطار دولة عالمية (International State) ستنشأ في

هذه البلاد (فلسطين). ولعل استعمال تعبير « المنشأة اليهودية « جاء من موقف وزارة الخارجية الفرنسية التي تريد أن تقف موقفا وسطا بين طالبي الحد الأقصى وهو إقامة دولة يهودية وخصوم هذه الفكرة.

لقد كان هناك بعض ردود الفعل على الموقف الفرنسي من الصهيونية. فدوائر الكاثوليك والإِستشراق وبعض العرب تحركوا ولكن لم يكن لهم فعالية. كما

(1/2589)

كانت هناك اللجنة المركزية السورية في باريس، ولكن موقفها كان غير فعال أيضا، ومعظم العرب المتواجدين في فرنسا عندئذ كانوا من المسيحيين السوريين، ويرأسهم شكري غانم، وكانت فرنسا هي التي تدفع إليهم الأموال. ولذلك كان مطلبهم يتمثل في قطع سورية عن الدولة العثمانية ووضعها تحت حكم فرنسي. وكانوا على صلة ببعض العرب الآخرين في الخارج. غير أن أنصارهم في سورية نفسها كانوا قلة. ولم يكن لهم أي أثر على فصل فلسطين عن سورية وإقامة الوطن القومي فيها لليهود، كما لم يكن لهم أي أثر في معارضة الفكرة بعد ذلك

(2590/1)

وهكذا تبين أن سنة 1917 كانت حاسمة ليس لأن بلفور والإِنكَليز وعدوا الصهاينة بالوطن القومي لليهود في فلسطين، بل لأن الفرنسيين قد فعلوا ذلك أيضا. وقد لاحظنا أن تصريح كامبون جاء قبل تصريح بلفور. كما أن تصريح بيشون وموافقة الفرنسيين على الوطن القومي اليهودي قد جاءت في بداية 1918 على عهد وزارة جورج كليمنصو. ويبدو أن ثلاثين سنة من الاِنتداب البريطاني على فلسطين قد جعل الناس ينسون دور الدول الأخرى، مثل فرنسا وألمانيا وتركيا في المنطقة. فهل كان التصريح الفرنسي مختلفا في المحتوى عن التصريح الإِنكَليزي؟

(2591/1)

أو هل أن الصهاينة لم يروا فيه إنجازا كبيرا أو هو أقل أهمية في نظرهم من التصريح البريطاني؟ وقد انتهى الكاتب إيدي كوفمان إلى أن الذي جعل بلفور يصدر تصريحه هو عزيمة بريطانيا على امتلاك فلسطين وليس نتيجة للضغط الصهيوني. إن هناك عدة دراسات لتصريح

بلفور، مثل دراسة ليونارد شتاين (L.Stein) ثمّ دراسة فيرتي (Mayir Verete) الذي أعطى التصريح تفسيرا جديدا ورأى أن التصريح الفرنسي الرسمي لصالح الصهيونية هو الذي ساهم في إصدار التصريح البريطاني المعروف بوعد بلفور. وها هي مقالة إيدي كوفمان تعمق هذا التفسير بناء

(2592/1)

على الوثائق الفرنسية التي افتتحت حديثا أمام الباحثين(1). أما الخاسرون في هذه التطورات كلها فهم العرب، والمسلمون.

Selected Bibliography

Ageron, Charles-Robert, les Algériens Musulmans et la France, Vol. 1–2, P.U.F., Paris, 1968.

---

(1) ناقش موضوع الصهيونية الحلفاء، ولاسيما بريطانيا وفرنسا، إيلي كدوري (E.Keddourie) «المذكرات العربية الباحثية ودراسات أخرى»، لندن، 1974، صص. 236–242، وتعرض أيضا لرأي فيربتي وشتاين.

(2593/1)

Andrew, F.Fern, The Holy Land Under
, Hyperion Press, Westport, 1Mandate, Vol.
.1976Conn.,

Cambon, Jules, Gouvernement de l'Algérie,
.1918Alger,

Geddes, Charles L., A Documentary History of
the Arab-Israeli conflict, Praeger, New York,
.1991

–1882Gorny, Yosef, Zionism And The Arabs,
, A Study of Ideology, Clarendon Press, 1948
.1987Oxford,

John, Robert and Hadawi, Sami, The Palestine
, New World Press, New York, 2–1Diary, Vol
.1971

(2594/1)

Kaufman, Edy, « The French Pro-Zionist
», Middle Eastern 1918–1917Declarations of
.1979, October 3, no. 15Studies,

2Khaldi, Walid. Ed., From Haven To Conquest,

Printing, Washington, The Institute For Palestine Studies, 1987.

Rizk, Edward, Trans., The Palestine Question, The Institute for Palestine Studies, Beirut, 1968.

الملحق الأول

تصريح جول كامبون (Jules Cambon)

إنك تقدر أنه إذا حتمت الظروف وتأكد استقلال الأماكن المقدسة، فإنه سيكون من العدل والإنصاف أن نساهم، من خلال الدول المتحالفة، في

(1/2595)

إحياء الجنسية (Nationality) اليهودية على أرضها (On ones land) الخاصة بها حيث الشعب الإسرائيلي كان قد طرد منذ قرون عديدة خلت.

إن الحكومة الفرنسية التي اشتركت في الحرب الحاضرة للدفاع عن الشعوب التي تعرضت للاعتداء الظالم، والتي تواصل المعركة لضمان انتصار الحق على القوة، لا يمكنها إلا أن تبرهن على تعاطفها مع قضيتكم التي يرتبط انتصارها بانتصار الحلفاء.

جول كامبون Jules Cambon

Ministère des Affaires Etrangères, Paris,
, 1918–1914Archives Politiques, Guerre
.45–44Question juive, pp.

(2596/1)

الأمين العام لوزارة الخارجية إلى السيد ناحوم سوكولو (N.Sokolow).

الملحق الثاني

تصريح ستيفان بيشون (Stephen Pichon)

كما اتفق عليه أثناء حديثنا يوم السبت التاسع من هذا الشهر، فإن حكومة الجمهورية [الفرنسية]، بالنظر إلى تحديد وجهتها من الآمال الصهيونية العازمة على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، قد نشرت مذكرة في الصحافة.

وفي الوقت الذي أرسل إليكم هذا النص، فإني أغتنم الفرصة لأهنئكم على إخلاصكم المتفاني الذي واصلتم به سعيكم لتحقيق رغبات إخوانكم في الدين (Co-religionistes) وأشكركم على غيرتكم التي

(2597/1)

أبديتم بها مشاعر العطف التي حظيت بها في بلدان الوفاق وبالأخص في فرنسا.

ستيفان بيشون (Stephen Pichon)

Ministère des Affaires Etrangères, Paris,
Archives Politiques, Guerre 1914–1918 ,
Question juive, Vol. 19, p.5,

من س. بيشون إلى ن. سوكولو، 14 **فبراير** 1918.

أثناء استقبال حظي به السيد سوكولو من قبل بيشون، وزير الخارجية، أعلن بيشون باسم الحكومة الفرنسية، أن هناك تفاهما كاملا بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية فيما يتعلق بمسألة الاستيطان اليهودي في فلسطين.

(1/2598)

Ministère des Affaires Etrangères, Archives
Politiques, Guerre 1914–1918, Question juive ,
Communiqué 1918, 9, February 144, p. 5Vol. .
destiné à la presse.

(1/2599)

التعليم بجامع الزيتونة وبمدارس العلم في العهد الحفصي

... ... الدكتور محمد الباجي بن مامي

... ... المعهد الوطني للتراث ـ تونس

... ...

... بودّي الإشارة ـ قبل كلّ شيء ـ إلى أنني لن أتطرق إلى النواحي المعمارية أو الفنية التي يمتاز بها الجامع الأعظم أو مدارس مدينة تونس، بل سأركز هذا البحث على الناحية التعليمية وعلى مناهج التعليم وطريقة التدريس ومحتوى برامج التعليم بصفة عامّة.

(2600/1)

... وكلّ منا يعلم أن العلم والتدريس ارتبطا منذ العصور الأولى بالدين. لذلك وجدت منذ البداية مواضع لدراسة القرآن والحديث. وكان هذا التدريس قائماً في أول الأمر بالمساجد: إذ لم تكن محل عبادة فقط، بل كانت النّواة الأولى للمدرسة، تلقن فيها القراءة والكتابة والعلوم الدينية واللغوية وغيرها... وكان للعديد من الفقهاء

حلقات بها. ويطلق على هؤلاء لقب »أهل العلم«. ففي العهد الأموي كانت المساجد مفتوحة لكل من يأنس في نفسه القدرة على التدريس، وكان الاستماع إلى الدرس مباحاً لكل من يرغب فيه. ولم يكن المدرس مجبراً

(1/2601)

على تدريس موضوع معين، بل كان دوره إبلاغ ما يعرف ثم إذا أمكن له علمه الإفتاء(1)، وهو ما نتوقع أنه حصل بجامع الزيتونة منذ القرون الإسلامية الأولى.

... ولا ريب في أن التدريس في القرون الأولى لم يكن يتناول بالبحث مؤلفات معينة، ولم يكن كذلك على ترتيب خاص في كيفية الإقراء. وقد روى القاضي عياض عن مالك بن أنس أنه: »لم ندرك أحداً من أهل بلدنا، ولا من مضى يكتب«. فقيل له: »كيف نصنع؟ « قال:

---

(1) انظر الأمثلة التي أوردها الدكتور حسين أمين في كتابه: المدرسة المستنصرية، بغداد، مطبعة شفيق، 1960، صص. 12 ـ 13.

(1/2602)

»تحفظون كما حفظوا وتعملون كما عملوا حتى تنوّر قلوبكم فيغنيكم عن الكتابة« (1). وكان العالم أو الفقيه في هذه الفترة الأولى من الإسلام يدرّس في أغلب الأحيان دون أجر، الأمر الذي أدّى إلى عدم تدخل السلط الحاكمة في أمور التدريس(2).

طريقة التدريس

(1) راجع محمد الحشايشي، تاريخ جامع الزيتونة، تقديم الجيلاني بن الحاج يحيى، تونس، 1974، ص 39

(2) يمدّنا محمد أسعد طلس بفكرة واضحة حول هذا الموضوع في كتابه: التربية والتعليم في الإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، 1957، ص. 150

(2603/1)

... وبعد قدر أدنى من التعلّم بالكتاتيب، يلتحق التلميذ، بأماكن أخرى يواصل فيها دراسته(1). وعند ارتياده للمسجد، ينظّم الدّارس وله من العمر ما يسمح له بالالتحاق بحلقات

(1) لدينا العديد من المصادر التي تحدّثت عن موضوع تعليم الصبيان. وبالطبع من أهمها كتاب محمد بن سحنون، كتاب آداب المعلّمين، تحقيق ح. ح. عبد الوهاب، تونس، 1931؛ وكتاب ابن الجزار، سياسة الصبيان وتدبيرهم، تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة، تونس، 1968؛ وكذلك: أبو علي بن محمد بن خلف القابسي، الرسالة المفصّلة لأحوال المعلمين والمتعلمين.

(2604/1)

التدريس، وهي ما نعبر عنها بمرحلة التعليم الثانوي في أيامنا، ويمكن اعتبارها مرحلة انتقالية بين الكتّاب وبين الانتساب إلى حلقات مشاهير الشيوخ. ويمدنا أبو عبد الله الرصاع في "الفهرست" بمثال يشير فيه إلى المستويات المتفاوتة التي كانت عليها الحلقات(1). كما نجد نصّاً لابن خلدون يرى فيه أنه: »إنما يكون تلقين العلوم مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً... وهو يحصل في ثلاث تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقلّ من ذلك«(2)

---

(1) انظر: الرصّاع، الفهرست، ص. 182.

(2) راجع: عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، صص. 1002 ـ 1003.

(2605/1)

.

طريقة التعليم بالجامع الأعظم والمدارس

... يبدو أنه كان للتعليم بالجامع الأعظم خلال الفترة الحفصية حرية شبه مطلقة فيستطيع الطالب القدوم في أي وقت، ولا يجبر على الانتساب إلى حلقة دون أخرى، وهو ليس مجبراً على التقيّد بأحد الشيوخ، لذلك يستطيع أن ينتقل من حلقة إلى أخرى، أو كذلك يمكن له أن يلازم شيخاً واحداً (1). وهذا مخالف تماماً لما يقع في المدرسة: فالطالب الساكن بها مجبر على الحضور في وقت معين ولا يغادر الدرس إلا عند انتهاء الشيخ من

---

(1) ومن الأمثلة ملازمة البرزلي لشيخه ابن عرفة مدة أربعين سنة.

(2606/1)

إلقائه، وليس له أن يختار شيخه بعكس ما يقع في الجامع الأعظم، إذ كانت المدارس نظامية، ولكل منها ناظر أو شيخ يراقب كل ما يحصل فيها. وقد عثرنا في تحابيس بعض المدارس التي وصلتنا اشتراط المؤسس الحضور الوجوبي للطالب (1).

---

(1) لم تصلنا تحابيس مدارس الفترة الحفصية، بينما اطلعنا على العديد منها التي ترجع إلى الفترة المرادية أو الحسينية، ونحن نتوقع أن الأمر نفسه حصل خلال الفترة الحفصية فيما يتعلق بحضور الطلاب.

(2607/1)

... ونتج عن هذا تكاثر عدد الطلبة في الجامع الأعظم، بينما كان عدد الطلبة في المدارس محدوداً لا يمكن أن يتجاوز رقماً معيناً. ففي أكثر الأحيان يحدد منشئ المدرسة عدد الطلاب الذين يسمح لهم بالإقامة فيها، وهو يكون في غالب الوقت موافقاً لعدد غرفها. ومن الطبيعي جداً أنه عندما تكون لشيخ المدرسة شهرة كبيرة يزداد عدد الطلبة القادمين من خارجها. ولذلك يتجاوز عدد الدّارسين في بعض المدارس بكثير عدد القاطنين بها. وهكذا لم يكن سكان المدرسة ينتفعون بالتعليم

فيها فحسب، بل كان دخولها وتلقي الدروس بها ممكناً أيضاً

(1/2608)

لمن لا يقطن فيها، وفي بعض الأحيان يخيّر بعض أصيلي تونس أخذ الدروس عن شيخ مدرسة على الاتجاه إلى الزيتونة، نظراً للمستوى العلمي الهام الذي يتمتع به شيخ تلك المدرسة. وعندما يكون المدرس مشتهراً، يأتيه الطلاب حتى من خارج إفريقية (1).

... ولم تمدنا المصادر بتاريخ بداية التعليم في جامع الزيتونة، ولا نعلم أيضاً متى أصبح هذا التعليم منظّماً. وأول نص يشير إلى التدريس بجامع الزيتونة يعود إلى سنة 603 هـ/ 1206 م (2)

---

(1) الفهرست، المرجع السابق، ص. 188.

(2) وهو ما يؤكده الشيخ محمد البشير النيفر في مقاله: «تاريخ الحركة العلمية بجامع الزيتونة»، المجلة الزيتونية، ج 10، سنة 1936، ص. 553.

(1/2609)

. إلا أننا نرجّح أن تكون الزيتونة قد أدّت دوراً فعلياً منذ تأسيسها كما كان شأن المساجد الجامعة سواء كان بإفريقية أو في المشرق الإسلامي (1). ويذكر أبو العرب تسعة من بين أهم أهل العلم والفضل بتونس (تراجم من عدد 106 إلى 114)، وهو ما يدفعنا إلى احتمال أنهم كانوا درّسوا بالجامع الأعظم(2). غير أن إشارات المصادر تعوزنا فيما يتعلق بالقرون الخمسة الأولى من تاريخ هذا الجامع.

---

(1) فقد جرت العادة منذ الفترات الأولى للإسلام أن يتخذ من جامع كل مدينة مركز للتعليم.

(2) أبو العرب، طبقات، صص. 212 ـ 226.

(2610/1)

... وبالطبع، فإن ارتباط الجامع الأعظم، عضوي بمدارس العلم بتونس، إذ كان العديد من الطلبة بعد دراستهم بإحدى المدارس يواصلون تلقّي العلم في هذا الجامع؛ كما نلاحظ أن العديد من العلماء وموظفي الجامع، من أئمة وقضاة ومفتين، يعيّنون شيوخاً في بعض المدارس(1)

---

(1) يكفي أن نذكر أمثلة ابن برّاء التنّوخي المهدوي،

وأبي الفضل أبي القاسم بن عبد الرفيع المشهور بابن زيتون، وأبي حفص بن قداح وأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الرفيع الربعي وابن عبد السلام وابن عرفة والبزلي واب عبد الستار والغبريني والرصاع، وكذلك أبو الفضل قاسم القسنطيني والشيخ البحيري وأبو العباس أحمد القلشاني... وغيرهم كثير.

(1/2611)

أو العكس بالعكس. فبعض الشيوخ يقضون العديد من السنين للتعليم في إحدى المدارس، وقد تتوّج حياتهم العلمية بتولّي خطّة الإمامة أو الإفتاء بالزيتونة. لكن من المرجّح أن الجامع كان يمثل منطلق المدرسين؛ فعندما ينال الشهرة الواسعة في رحاب الجامع، يمكن أن يحصل على منصب في إحدى المدارس التي تضمن له دخلاً محترماً.

... وقد كانت انطلاقة المدارس بمدينة تونس مقترنة بإنشاء الدولة الحفصية. فأول المدارس ـ وهي الشمّاعية ـ أنشأها أبو زكرياء الأول (وكان ذلك حوالي سنة 635 هـ/ 1237 م). وأسباب تأسيس هذه المدرسة عديدة.

(1/2612)

وقد اتفق جميع المؤرخين على أن إنشاءها إنّما كان أساساً لنشر المذهب الموحدي. لكن يبدو أن الغرض من إنشاء هذه المدرسة لم يكن مذهبياً فقط؛ فقد كان أبو زكرياء يرمي من وراء تأسيسه للشمّاعية إلى تكوين موظفين أكفاء وأطر مخلصين وأمناء لخدمته وخدمة دولته. هذا بالطبع، إضافة إلى عدة عوامل أخرى دفعت بأبي زكريا الأول إلى بناء هذه المدرسة، منها:

التأثيرات المشرقية على تونس، إذ سكن العديد من التونسيين الذين ذهبوا للحج أو للدراسة بمصر أو بالشام، إلخ. في المدارس. وربما كان لهم تأثير مباشر أو غير مباشر في إدخال

(2613/1)

هذا النوع من المؤسسات التعليمية إلى تونس. ولتفسير إدخال المدارس إلى تونس، يجب معرفة الفترة الزمنية التي شيدت فيها، ومعرفة شخصية أبي زكرياء الأول الذي تصفه المصادر بالتقوى ومحبّة العلم.

... ويمكن أن نقول إن أبا زكرياء نحا منحى السلاطين والملوك العظام، فبنى وشيّد حتى يعطي مظهراً عظيماً لعاصمته وكامل بلاده. وهكذا كان حريصاً على أن يجعل عاصمة ملكه قبلة لرواد العلم.

... وقد تكون زيادة عدد السكان والتطور العمراني لمدينة تونس أحدَ الأسباب التي دفعت الأمير أبا زكرياء إلى بناء هذه المدرسة. فخلافاً

(2614/1)

للتراجع الديمغرافي العام الذي شهدته إفريقية في تلك الفترة، يبدو أنّ عاصمة الحفصيين كان لها تطور غير مواز لهذا النسق؛ إذ ازداد عدد سكانها نتيجة لنزوح سكان البادية الفارّين من الاضطرابات التي كانت تعيشها الأرياف والقرى بعد أن سيطر عليها الأعراب.

... ومع مجيء الموحدين إلى تونس، وفدت جموع من سكان المغرب الأقصى من بينهم العائلة المؤسسة للدولة الحفصية، واستقرّوا بدورهم في مدينة تونس. ولا شك في أن التطور الديمغرافي الداخلي، والهجرات الخارجية، زادت في أعداد طلّاب العلم، فظهرت حاجة إلى إيجاد أماكن أخرى

(2615/1)

تلقى فيها الدروس. وقد واكب ذلك مجيء عدد من المشايخ الأندلسيين ممن كان لهم الكفاءة العلمية اللازمة، وهو ما وفّر أطراً أكفاء للمؤسسات التعليمية المستحدثة. ونذكر من بين هؤلاء ابن الأبار صاحب "الحلّة السيراء"، وكذلك ابن سيد الناس اليعمري، وأحمد القرشي الغرناطي...

... ومن الملاحظ أن المدرسة لعبت دوراً هاماً في بثّ العلم بين الطبقات الفقيرة، وفتحت لهم باب الوظائف السامية، نتيجة توفير السكن للغرباء منهم، وهو ما لم يكن يستطيع المسجد الجامع القيام به. وربما مثل هذا الفارقَ الأساسيَّ بين الجامع والمدرسة.

(2616/1)

وقد أنشأ السلاطين وكبار رجالات الدولة العديد من المدارس، كما شاركت بعض نساء الأمراء الحفصيين في بث العلم وفي بناء المدارس(1). لكن هذا لا يعني أن تأسيس المدارس وبناءها كان موقوفاً على هؤلاء فحسب؛ فهناك أيضاً بعض الأشخاص من ذوي الجاه والنفوذ وبعض الأخيار الذين شاركوا في هذا العمل، خاصة منهم بعض الأولياء والصالحين(2)

---

(1) بنت الأميرة عطف مدرسة التوفيق في أواسط القرن 7 هـ/ 13 م؛ كما أسست الأميرة فاطمة المدرسة العنقية سنة 742 هـ/ 1341 م.

(2) لدينا مثال المدرسة المرجانية والمدرسة المغربية والمدرسة الجاسوسية... التي أدى كل منها دور زاوية ومدرسة في آن واحد.

(2617/1)

. هذا، إضافة إلى بعض العلماء (كابن عصفور) وحتى القواد، الذين ساهموا في هذا العمل الجليل(1). لكن أهم المدارس من حيث المساحة ومن حيث الثراء المعماري والفني، وكذلك أهمية المدرسين فيها هي التي أسسها السلاطين والأمراء. وهكذا يمكن أن نقسّم المدارس إلى صنفين:

... . صنف أول »رسمي«، وهو يشمل المدارس التي أسسها السلاطين والأمراء والتي كان يتصرف فيها ويشرف عليها بصورة مباشرة: النظام الحاكم.

---

(1) مثال ذلك القائد نبيل أبو قطاية والقائد مراد...

(2618/1)

... . وصنف ثان يشتمل على المدارس التي أسسها الخواص. والمعلومات المتصلة بالنوع الأول التي أتت بها المصادر أثرى بكثير من الصنف الثاني. لذلك، فإذا أشرنا إلى معلومات حول المدارس، فهي تهم في غالب الحالات القسم الأول منها.

... وكان أول ما قام به أبو زكرياء الحفصي، عند إنشائه لأول مدرسة بتونس، التدخل في شؤون المدرسة التي أسسها. وقد تواصل هذا الأمر مع من خلفه وكررت الأنظمة تدخلها في شؤون الدراسة.

المدرّسون

(2619/1)

... ومن الواضح أن تدخل النظام الحاكم كان خاصة على مستوى المدرسين الذين يقع تعيينهم من قبله، فيدفعون لهم أجوراً سخيّة، وهم في واقع الأمر مأمورون من قبل الحكومة، تعيّنهم أو تعزلهم من مناصبهم متى شاءت (مثلما قامت به الأميرة فاطمة مع ابن عبد السلام الذي طردته من منصبه بالمدرسة العنقية).

... لكن بطبيعة الحال، وجد بعض المدرسين الذين لم ينطبق عليهم هذا الواقع. فابن عرفة ثمّ البرزلي مثلاً كانا من القوة بمكان، حتى أنه لا يمكن لنا أن نتوقع تدخل السلطان في شؤونهما أو في المواد التي كانا يدرسانها. ومن

(2620/1)

الواضح أن العديد من المدرسين حصلوا على مكانة محترمة في المجتمع، فالسلاطين الحفصيون بصفة عامة عظموا العلماء واحترموهم، وتودّدوا إليهم لدرايتهم بالمكانة التي يتمتعون بها في نفوس الطبقات الشعبية، إذ كانت مهنة التدريس تجلب لصاحبها الاحترام والتبجيل. ولهذا نال المدرسون في غالب الأحيان مكانة مرموقة لدى الجميع، خصوصاً إذا علمنا أن الكثير منهم تحصلوا على مناصب أخرى هامة، دينية وسياسيّة. إذ أنّ الأشخاص الذين تولوا مهام الإفتاء والإمامة بالجامع الأعظم، درسوا في آن واحد بالعديد من المدارس. فمهنة التدريس

(2621/1)

إذن هامة، ويستطيع صاحبها الارتقاء عن طريقها إلى مراتب عليها. ولهذا تهافت العلماء على مناصب التدريس بالمدارس. فتعيين عالم بمدرسة يعدّ فخراً له، وهو أيضاً منصب يدرّ على صاحبه من الأموال المحبّسة على المدرسة ما يكفيه وعائلته. فعندما يتحصل عالم على هذه المهنة، ويسهر في آن واحد على أوقاف المدرسة، يستطيع أن يتصرّف آنذاك في مداخيلها ببعض الحرية، وهو - بالطبع - عكس ما يقع للمدرسين في الجامع الأعظم الذين يتمتع بعضهم بمراتب قارة(1)

---

(1) يفيدنا البرزلي أنه توجد مراقبة من قبل إمام الزيتونة لجميع الموكلين على أحباس المدارس (البرزلي، النوازل، ج 4، ورقة 69أ). فابن عرفة بصفته إمام الزيتونة كان يشرف على جميع نظّار الأحباس، ولدينا اسم ابن عصفور الذي عُوّض فيما بعد بمحمد البيدموري ناظراً للأحباس (انظر: الزركشي، تاريخ الدولتين، ص. 150).

(1/2622)

. ويفيدنا الشيخ الرماح أن شيخ الشمّاعية (وهو أبو القاسم ابن زيتون آنذاك) تصرف في أموال حبسها كما

شاء. ونرى أيضاً أن البرزلي تصرف في الأموال التي أدرّتها أحباس مدرسة ابن تافراكين بصورة تكاد تكون حرة(1).

الحالة المادية للمدرّسين

... يرى ابن خلدون أن القائمين بمهمة القضاء والإفتاء والتدريس والإمامة والخطابة ونحو ذلك: »لا تعظم ثروتهم في الغالب، ويهتم بإقامة مراسمهم صاحب الدولة بما له من النظر في المصالح، فيقيم لهم حظاً من الرزق على نسبة الحاجة

---

(1) البرزلي، النوازل، ج 4، ورقة 35 ب 2 وورقة 61 ب.

إليهم، فلا يصح من قسمهم إلا القليل، فلذلك لا تعظم ثروتهم«(1). وهذا ينطبق فعلاً على من له مرتب فقط بالجامع الأعظم، ولدينا أمثلة لمدرسين عظمت ثروتهم، لكن نمو ثروتهم كان في غالب الأحيان نتيجة لتصرفهم في أحباس مدارس أو لانتمائهم لسلك القضاء أو الإفتاء وغيرها من الأعمال الهامة أكثر من انتمائهم إلى ميدان التدريس فقط ويحاول بعض الأساتذة إيجاد مداخيل

إضافية من خلال أعمال تدرّ عليهم المال الكافي مثل تعاطي مهنة شاهد عدل أو تاجر، أو فلّاح كابن عبد الستار. أما

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، صص. 709 ـ 710.

المدرسون الذين كانوا يتعاطون في آن واحد مهنة القضاء أو الإفتاء، فحالتهم المادية كانت أحسن من الشيوخ الآخرين؛ إذ كانوا يتمتعون بمرتبين (1). ويذكر ابن الشماع أن أبا عمرو عثمان كان يهدي الشيوخ بعض المال، خصوصاً عند سفره بالمحلة وفي الأعياد (2). ونرى أنه خلال هذه الفترة الحفصية عرف بعض المدرسين بثرواتهم الهامة، من بينهم ابن عرفة الذي أحصيت تركته عند وفاته، وذلك بسبب

---

(1) كان يتقاضى ابن عرفة مرتباً عن جامع الزيتونة، ومرتباً آخر على تدريسه بالمدرسة التوفيقية.

(2) انظر ابن الشمّاع، الأدلّة، ص. 155.

وقفية ترك فيها ثلث أرزاقه حبساً على الكعبة، وكذلك القاضي ابن زيتون الذي تولى المدرسة الشماعية، إذ نعلم أن ثروته كانت ذات بال (1). كما كان لبعض أفراد عائلة القلشاني وعائلة الرصاع أملاك شاسعة؛ إلا أن هذه الأمثلة للمدرسين الأثرياء لا تعدو أن تكون قليلة بالنسبة لعدد المدرسين الآخرين.

... ومما يلاحظ أن المدارس ارتبطت بمذاهب فقهية معينة، وفي تونس اتبعت كل المدارس خلال العهد الحفصي المذهب المالكي الذي لعب دوراً هاماً في كيفية سبر

---

(1) يصف ابن رشيد القاضي ابن زيتون بسعة الرزق (مقدمة "السنن"، ص. 26).

الدروس أو في اختيار المدرسين وخاصة في اختيار مواد التدريس. فطيلة الفترة الحفصية كان الشيخ لا يدرس إلا المؤلفات المالكية. وهكذا لم تتبنّ تونس المذاهب الأخرى، ولم تدرس من الكتب المؤلفة في المذهبين الحنبلي والشافعي إلا القليل النادر.

طريقة التعليم

... كان الدرس والصلاة بالمدرسة يحصلان في المكان نفسه، ألا وهو المسجد. وكان الطلبة في الجامع أو في مسجد المدرسة »يتحلّقون« أي ينتظمون في شبه حلقة حول شيوخهم. ولذلك سمّي الدرس حلقة. واتفقت جميع المصادر على أنه غالباً ما كان ظهر الشيخ مستنداً إلى حائط أو

(1/2627)

إلى عمود من أعمدة المسجد. فيذكر أبو عبد الله الرصاع أنه حضر درساً لأبي حفص عمر القلشاني بالمدرسة العنقية. فسأل شيخه يعقوب المصمودي عن طريقة تدريس أبي حفص عمر فقال: »ولا أدركت مشائخي يستندون إلى حائط، بل يستقبلون القبلة في المسجد، ويجلس الطلبة معهم يميناً وشمالاً«(1). وهكذا نرى أن طرق الجلوس تختلف من شيخ إلى آخر. كما بلغنا نصّ للونشريسي حول كيفية جلوس الأستاذ، فيقول: »قد كان من هدي العلماء في قعودهم أن يجتمع أحدهم، ويضع مرفقيه على ركبتيه، ومنهم من كان يقعد على قدميه

---

(1) انظر: الفهرست، ص. 130.

ويضع مرفقيه على ركبتيه وكذلك كانت شمائل كل من تكلّم في هذا العلم قبل أن تظهر الكراسي«(1). فالجلوس إذن أصبح حسب الونشريسي انطلاقاً من القرن الحادي عشر للهجرة/ الخامس عشر للميلاد يقع على الكراسي. غير أننا لا نستطيع أن نجزم بانتشار هذه الكراسي، وهل كانت مستعملة بالمدارس أو بالجامع الأعظم. أما خلال الفترة الحسينية، فأغلب المصادر تشير إلى جلوس الشيخ في المحراب(2). ونحن نرجّح أن جلوس الشيخ في

(1) ورد النص في "الفهرست"، ص. 133.

(2) وصلتنا العديد من الأمثلة في الذيل لحسين خوجة وغيرها من المصنفات.

مسجد المدرسة يحصل غالباً في المحراب حتى خلال العهد الحفصي، نتيجة لأن العديد من المساجد بمدارس تونس لا تحتوي على أعمدة، مثل المدرسة الشمّاعية والمدرسة

العنقية وغيرها... وقد مدّتنا بعض المصادر بمعلومات حول جلوس الشيخ بالجامع الأعظم، واستناد كل واحد منهم إلى أحد الأعمدة. وما زال البعض يشير إلى العمود الذي كان يستند إليه الشيخ ابن عرفة.

... ويحرص كل طالب على أن يجلس على مقربة من الشيخ سواء كان ذلك في الجامع الأعظم أو بالمدارس، لكن لا يتم جلوسهم في الحلقة دون ترتيب، بل كان لكل منهم مكان يجلس فيه،

(2630/1)

ولا يتعدى المكان الذي هو أهل له، فسنّ الطالب وأقدميته في الجلوس للشيخ، ومستواه العلمي عناصر أساسية في تعيين مكان جلوسه. أما الطلبة المبتدئون، فيكون جلوسهم في آخر الصفوف احتراماً للطلبة المتقدّمين في السن(1). وعندما يبرز أحدهم، يقربه الأستاذ ويجلسه بجانبه(2).

كيفية إلقاء الدرس وأخذ العلم

---

(1) فقد حدّث أبو عبد الله الزنديوي الرصّاع، بأنه عند قدومه إلى مدينة تونس جلس خلف الطلبة الآخرين

(الرصاع، الفهرست، ص. 182).

(2) وهو ما حصل مثلاً لابن رشيد (راجع: السنن الأبين، ص. 49 ـ 50).

(2631/1)

... وتختلف طرق التدريس باختلاف العصور، فإذا كانت الفترة مدة ازدهار وانتعاش علمي، نجد بها شيوخاً أجلاء لهم مستوى علمي رفيع. عند ذلك، يستطيع الأستاذ أن يلقي درساً يشتمل على شرح وتوضيح وتفسير الفقرات التي غمضت من المصنف الذي هو بصدد قراءته.

... ومن أحسن الأمثلة التي تعطينا فكرة واضحة عن هذه الطريقة في التعليم مثال ابن عرفة. فيذكر الأبي أن هذا العالم الجليل يقول:

... إنما تدخل التآليف في ذلك إذا اشتملت على فائدة زائدة، وإلاّ فذلك تخسير للكاغذ. ويعني بالفائدة الزائدة »على ما في الكتب السابقة عليه«.

(2632/1)

وأما إذا لم يشتمل التأليف إلاّ على نقل ما في الكتب المتقدمة، فهو الذي قال فيه إنه مخسّر للكاغذ. وهكذا يقول في حضور مجالس التدريس، وإنه إذا لم يكن في مجالس الدرس التقاط زائدة من الشيخ، فلا فائدة في حضور مجلسه، بل الأولى لمن حصلت له معرفة في الاصطلاح، والقدرة على فهم ما في الكتب أن ينقطع بنفسه ويلازم النظر، وضمّن في ذلك أبياتاً هي:

إذا لم يكن في مجلس الدرس نكتة
وعَزْوِ غريب النقل أو حلّ مقفل
فسعك دع وانظر لنفسك واجتهد

بتقرير إيضاح لمشكل صورة
أو إشكال أدته نتيجة فكرة
ولا تتركنْ فالترك أقبح خلّة

(2633/1)

... ولقد كنت أقيّد من زوائد إلقائه... نحو الورقتين كل يوم مما ليس في كتاب (1).

... أما في عصور الاضطرابات والانحطاط الثقافي، فكان

المدرس يكتفي بقراءة الكتاب وبتقديم بعض الشروح والحواشي التي أُلّفت عليه، وهي طريقة النقل. ومن بين طرق التعليم التي عرفت في كامل أرجاء العالم الإسلامي: الإملاء(2)

---

(1) نقل هذا النصّ والأبيات: الأبيّ، إكمال الأكمال، القاهرة، 1928، ج 1، صص. 346 ـ 347؛ كما نقله المقري في :أزهار، ج 3، ص. 36.

(2) انظر مثلاً: رحلة العبدري، ص. 139 و ص. 142. وحول طريقة الإملاء بالمشرق، انظر: الدكتور حسين أمين، المدرسة المستنصرية، صص. 83 ـ 86.

(2634/1)

. ويكون الإملاء بطيئاً حتى يتمكن الطالب من كتابة كل ما يمليه الشيخ(1).

... وإذا كان المستوى العلمي للشيخ محترماً، كان بإمكانه ـ عند الانتهاء من إملاء كل فقرة ـ أن يشرحها، ويدون الطالب كذلك هذه الشروح على هامش الأوراق التي كتبت عليها الأصول. وإذا

---

(1) كان الطالب يولي أهمية بالغة للتقييد على شيوخه.

ويفيدنا الرصاع أن أبا عبد الله محمد الواصلي كان من تلاميذ الشيخ ابن حفص عمر القلشاني، وكان يبدي أسفه وندمه لقلة تقييده عن شيخه، لأنه كان يظن أن عمره سيطول حتى يستفيد منه كثيراً (راجع: الفهرست، ص. 188).

(1/2635)

ما انتهى الشيخ من إملاء الموضوع الذي هو بصدد درسه، فإنه يعيد قراءته له، أو يكلف أحد الطلبة بإعادة القراءة حتى يصحّح الأخطاء. ويقع بعد ذلك نقاش في الموضوع، وهذه الطريقة هي المعروفة بالإلقاء(1).

... ويدلنا ابن خلدون على بعض طرق التعليم الموجودة آنذاك والتي لا يحبّذها، فيقول:

... ولقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفاداته، ويحضرون للمتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من

---

(1) انظر مثلاً: ابن ناجي، معالم الإيمان، ج 3، ص. 79 و 117؛ وابن فرحون، الديباج، ص. 136.

(1/2636)

العلم ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مراناً على التعليم، وصواباً فيه، ويكلفونه رعي ذلك وتحصيله، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في ميادينها (1).

... لكن الطريقة الأخرى للتعليم المنتشرة في العهد الحفصي تتمثل في أن يكلّف الشيخ طالباً بالقراءة ويقوم هو بالشرح، إذ عندما تتوافر الإمكانات المادية لطالب ما، فإنه يشتري نسخة من الكتاب الذي يدرّسه آنذاك (2). فيقرأه قبل أن يلقيه

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص. 1003.

(2) انظر ما حصل للعبدري مع أبي العباس الغمّاز في: الرحلة، ص. 240.

المدرس ويستطيع إذ ذاك أن يقرأ الكتاب في حضرة الشيخ. ويمكن أن يتناوب القراءة مع الشيخ أو طالب آخر. وقد وصلتنا العديد من الأمثلة حول هذه الطريقة التي قال عنها القاضي عياض: »لا خلاف أنها رواية

صحيحة»، وهي عنده النوع الثاني من أنواع أخذ الرواية(1). ويمدنا العبدري بمثال حول مناوبة الشيخ الغمّاز القراءة(2).

---

(1) عياض، الإلماع، ص. 70 وما بعدها.

(2) انظر: رحلة العبدري، ص. 241؛ وراجع أيضاً: الفهرست، ص. 154 و ص. 182.

(2638/1)

... واتّسم القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد بحفظ الطالب لكل ما يدرسه على شيخه(1). ويرى ابن خلدون أن:

... أيسر طرق هذه الملكة ـ أي التعليم ـ فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية، فهو الذي يقرب شأنها، ويحصل مرماها، فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة،

---

(1) يعلمنا الرصاع أنه عند قدومه إلى تونس حضر

للقراءة على مؤدب، فأمره بحفظ "الشاطبتين"، وحفظ "رسالة" ابن أبي زيد (الفهرست، ص. 56).

(2639/1)

فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم (1).

... هكذا أصبح التعليم إذن مبنيّاً على حفظ الطالب لما سجله من شرح أستاذه وما أملى عليه أو ما ورد في متون الكتب التي استطاع أن يحصل عليها. وفي بعض الأحيان يتولى إعانة الشيخ أحد طلبته، ويلقب عندئذ بالمعيد(2)، وهو من يعيد على الطلبة ما ألقاه

---

(1) ابن خلدون، المرجع السابق، ص. 780.

(2) لفظ «المعيد»، هو المستعمل في الأندلس والمغرب، بينما يطلق عليه في المشرق لفظ «المكرّر» (انظر: الفهرست، ص. 158؛ وراجع: ناجي معروف، علماء النظاميات، ص. 249).

(2640/1)

المدرس عليهم ليحسنوا فهمه، فهو دون الشيخ مرتبة، وأعظم درجة من الطلبة، ويطلق عليه في المشرق لفظ «المكرر»، ويبدأ عمله عندما ينتهي عمل المدرس، ويتمثل في شرح النقاط الغامضة من الدرس، وارتبطت وظيفته غالباً بالمدارس، والسبب في ذلك أن المدرسة جمعت طلاباً متفاوتي المستويات، فاحتيج إلى المعيد ليساعد المتخلفين حتى يتمكنوا من مسايرة الآخرين. أما في جامع الزيتونة، فكان الطالب إذا ما لاحظ تخلفه عن الآخرين، تحول إلى حلقة أخرى تكون في مستوى فهمه(1). إلا أن المصادر لا

(1) راجع الرصّاع، الفهرست، ص. 181 ـ 182.

تشير إلى وجود هاته الخطة إلا نادراً(1).

... ومما يلاحظ أيضاً أنه بداية من العصر الحفصي استغنى الشيوخ عن أمّهات الكتب، واكتفوا بالتلاخيص وبالشروح التي وردت عليها. وهذا ما يستنتج من

(1) يذكر الرصاع أن ابن عقاب عيّنه معيداً له بالمدرسة المنتصرية: الفهرست، ص. 158؛ ويذكر الرماح أن الطلبة

كلّموا الشيخ أن يعيّن لهم واحداً يقرؤون عليه "دول الميعاد"، فقال: »انظروا، "فذكرت عنده"، فقال: "اقرءوا عليه". فصاروا يقرءون لي دولهم، فنذكر لهم ما نعرفه من الأقوال« (راجع ابن ناجي، معالم الإيمان، ج 4، ص. 111).

(1/2642)

أسماء الكتب التي درّست خلال القرون السابع والثامن والتاسع للهجرة، وهو ما يؤكده أيضاً ابن خلدون. وفي رأيه أن هذا »فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل«(1). إلا أن هذا الركود الذي اتسمت به الفترات لم تمنع من وجود شيوخ متضلعين من مواد علمية معينة، فقبلوا النقاش مع طلبتهم، وحاولوا أن يعطوا دروسهم أكثر حيوية، وقد وردت في هذا المعنى العديد من الأمثلة(2)

---

(1) راجع: ابن خلدون، المقدمة، ص. 1001.

(2) راجع مثلاً: الفهرست، ص. 112 و ص. 148 و ص. 151؛ وانظر العبدري، الرحلة، ص. 240؛ وابن ناجي، معالم الإيمان، ج 3، ص. 79 و117.

(1/2643)

، لكن الشيخ ليس مجبراً على الإجابة على أسئلة الطلبة في اليوم نفسه، بل هناك من يتثبّت في الجواب. فيفيدنا الرصاع مثلاً أنّ البرزلي، »مثل العديد من العلماء، عندما يسأله طالب عن مسألة، لا يجيبه إلا بعد أن يتثبّت في الموضوع «(1).

... وكان لبعض المدرّسين فكرة واضحة عن الطريقة التي كان يجب على المدرس اتباعها. فهذا عبد الرحمان بن خلدون، وهو الشيخ الذي تولى التدريس بالعديد من الأماكن، يبدي رأيه في طرق التعليم الموجودة في النصف الثاني للقرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد.

---

(1) الرصّاع، الفهرست، ص. 62.

فهو يرى أن:

... تلقين العلوم للمتعلّمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدريج شيئاً فشيئاً، يلقى عليه أولاً مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلك قوة عقله

واستعداده لقبول ما يرد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفن. وعند ذلك، يحصل له ملكة في ذلك العلم؛ إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله، ثم يرجع به إلى فن الأول ثانية، فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما

هنالك من الخلاف ووجهه، إلى أن ينتهي إلى آخر الفن فتجود ملكته، ثم يرجع به وقد شك، فلا يترك عويصاً ولا مبهماً ولا مغلقاً إلا وضحه وفتح مقفله فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته (1)

---

(1) راجع المقدمة، صص. 1002 ـ 1003. لكننا نتساءل هل حصل تطبيق هاته الآراء في الجامع الأعظم أو في المدارس، أو بقيت في حدود النظريات. ومهما كان الأمر، فإن تطبيقها يبدو صعباً نوعاً ما إلا على قلّة من الشيوخ. انظر مثلاً كيفية تدريس الشيخ عبد العزيز العبدوسي خلال سنة 817 هـ/ 1415 م (راجع: التنبكتي، "نيل

الابتهاج"، ص. 180؛ و الزركشي، تاريخ الدولتين، ص. 130).

(1/2646)

.

... ولدينا أمثلة عديدة على اجتهاد الشيوخ. من ذلك مثلاً ما يفيدنا به الغبريني عن كيفية تدريس أحمد بن عيسى بن عبد الرحمن الغمازي(1) المتوفى سنة 682 هـ/ 1283 م الذي

... يكثر البحث وتحتد القرائح ويجيء بالمسألة الخلافية، فيرتضي أحد وجهيها، فيبحث فيه إلى أن يظهر الرّجحان ويقع التسليم، ثم يأخذ الطرف الآخر ويلزم أصحابه ما كان هو يناظر عليه. فلا يزال إلى أن يظهر الرّجحان في ذلك الطرف، ويقع التسليم أيضاً، وهذا من حدّة فكره وجودة نظره (2)

---

(1) توفي هذا الشيخ بتونس سنة 682 هـ/ 1283 م.

(2) انظر الغبريني: عنوان الدراية، ص. 112.

(1/2647)

.

ولدينا مثال آخر لشيخ يتّبع طريقة تحتوي على مجهود خاص في التعليم. فعندما يدرّس علي بن مخلوف الراشدي (المتوفى سنة 857 هـ/ 1435 م) "مختصر ابن الحاجب"، »يوضح المسألة أولاً حتى يفهمها الجميع، ثم يتّسع في نقل كلام الشرّاح مع البحث، ثم ينقل كلام الأمهات«(1).

... ومما نلاحظه أن طريقة التعليم في المدارس وفي الجامع الأعظم متماثلة تقريباً. لكن من المحتمل أن تكون قد وجدت بعض الفوارق الجزئية التي جعلت لكل منها هيكله الخاص، وشخصية مختلفة عن شخصية الآخر. وهذه الفوارق لا

---

(1) راجع ابن مريم: البستان، ص. 74.

تتمثل في محتوى الدروس، فقد كانت واحدة سواء في المدارس أو في الجامع الأعظم، وإنما تتمثل أساساً في الطريقة التي يلقي بها الأستاذ درسه، وخاصة في المستوى العلمي لهذا الشيخ. فمن خلال أسماء أساتذة بعض المدارس، نلاحظ أن جلهم يعدون من أشهر علماء

عصرهم. فلا يعيّن بهذه المدارس إلا أهمّ الشيوخ وأكثرهم علماً. وهنا نستطيع أن نقسم المدارس إلى صنفين: مدارس هامة وهي التي أنشأها بعض أفراد العائلة المالكة، كالشمّاعية والعنقية والتوفيقية والمنتصرية والمعرضية. وفي هذه المدارس عين النظام الحاكم أهم الشيوخ. أما

(1/2649)

المدارس الأخرى، فهي أقل أهمية. ولا نعثر على شيوخ هامين درّسوا بها. أما الجامع الأعظم، فمن الواضح أنه درّس به علماء أجلاء وآخرون أقل مستوى. ولذلك، فإن الرأي القائل بأن المدرسة كانت تمثل طوراً من التعليم «الثانوي» بينما يمثل التعليم بالزيتونة، مستوى عالياً، لا يرتكز على معطيات دقيقة وعلمية، إذ أنه من الواضح أن مدارس كالشماعية والعنقية والمنتصرية مثلت طوراً من التعليم يضاهي مستوى أهم الجامعات العلمية. لكن من الملاحظ أن طريقة التعليم في مدارس مدينة تونس لم تعرف تطوراً يذكر، إذ لا نجد فوارق شاسعة

(1/2650)

بين ما كان عليه الحال في الفترة الحفصية وما أصبح عليه في العهد الحسني؛ إذ تواصل التعليم على النسق نفسه، فقد اعتمدت الدراسة خصوصاً على إملاء الشيوخ وحفظ الطلبة.

الإجازة

... كما أنه من الثابت أنه لم تكن تحصل امتحانات لمنح الطالب شهادة يتخرج بها. فالطريقة كانت أبسط بكثير من طرق عصرنا هذا. فبعد أن يدرس الطالب على شيخه كتاباً أو عدّة كتب يمنحه إجازة، وهي الطريقة التي كانت متّبعة في كل الحالات. وقد تهافت الطلبة على استجازة العلماء المشاهير والشيوخ الكبار، إذ كان الجميع يعتبرون دراسة الطالب للكتاب

(2651/1)

بنفسه من غير سماع على شيخ خطأً كبيراً. وتكون الإجازة في أكثر الأحيان خطية، يذكر فيها اسم الطالب الملتمس للإجازة، واسم المدرس الذي منحها إياه، ويذكر المجيز أيضاً المصنفات التي أخذها الطالب عنه، والتي

يسمح له بتدريسها، كما تكون في بعض الأحيان مشافهة وإذناً باللفظ(1)، ويذكر في أغلب الأحيان كل طالب أنه أخذ عن شيخه كثيراً من المؤلفات ويكتبها مفصلة(2)

---

(1) انظر: رحلة القلصادي، ص. 116؛ وكذلك الرصاع: الفهرست، ص. 93، ويعدّها عياض بالمرتبة الخامسة في سلم الإجازات (الإلماع، ص. 88).

(2) راجع مثلاً: رحلة القلصادي، ص. 118؛ والعبدري، الرحلة، ص. 52؛ وكذلك الفهرست، ص. 93.

أو يذكر أنه تحصّل على إجازة عامة، تشتمل على جميع الكتب التي أخذها عن المدرس، دون ذكرها تفصيلاً(1).

... ونتيجة لتهافت الجميع على الإجازات من الشيوخ البارزين، أصبح هؤلاء يجيزون قبل وفاتهم علماء عصرهم وجل من يطلب منهم ذلك ولدينا نموذج من هذا الصنف من الإجازات هو أبو الفضل التيجاني الذي استجاز

---

(1) من بينها مثلاً إجازة ابن عرفة لابن حجر العسقلاني (انظر: السخاوي، ج 9، ص. 290)؛ وكذلك إجازة الوادي

آشي لابن خلدون (ابن خلدون، التعريف...، صص. 18 ـ 19)؛ وكذلك إجازة ابن دقيق للعبدري (الرحلة، ص. 139).

(1/2653)

أعلاماً من سبتة، وكان ذلك بواسطة ابن رشيد الفهري(1). ووصلت العملية إلى أن البعض أصبح يطلب إجازة له ولأبنائه(2).

---

(1) انظر: »مقدمة« السنن الأبين، ص. 55. وكتب التجاني هذه الاستجازة في قصيدة يقول فيها:

أيها السادة الأباعد عنّا
صلتي غائب السؤال مجابا
لم يحصل لنا حقيقة علم

اقبسونا من نوركم بالإجازه
فأجيبوا لكي يجوزوا مجازه
فبربكم ابعثوا إلينا إجازه

(2) من بين من حصل على هذا النوع من الإجازة: العبدري الحيحي الذي طلبها لابنه (راجع: الرحلة، ص. 139).

(2654/1)

... إلا أنه يوجد بعض العلماء الذين لم يتهافتوا على الإجازات. فهذا الشيخ تاج الدين الغرافي الذي التقى به ابن رشيد بالإسكندرية رفض أن يمنحه إجازة. فقد كان »ولوعه بالسماع أكثر وأحب إليه من طلب الإجازة والحصول عليها«(1).

---

(1) ابن رشيد الفهري، السنن الأبين، مقدمة الدكتور محمد الحبيب بالخوجة، ص. 42. وقد أنشد في هذا المعنى:

...

علم الحديث فضيلة تحصيلها

فإذا أردت حصولها بإجازة

بالسعي والتطواف في الأمصار

فقد استعضت الصفر بالدينار

(2655/1)

... وتمنح الإجازة شعراً أو نثراً. فمن بين الإجازات التي منحت نظماً القصيدة التي أجاز بها الرصاع أحد طلبته

وذلك بالمدرسة الشمّاعية(1).

... كما لدينا أمثلة عديدة في ذكر أسانيد بعض شيوخ الجامع الأعظم؛ وكذلك بالمدارس، ويطول سردها(2)

---

(1) راجع: فهرست الرصاع، ص. 218.

(2) انظر مثلاً الغبريني، عنوان الدراية، ص ص. 143 ـ 144؛ ورحلة القلصادي، ص. 116؛ ولدينا أيضاً مثال أحمد بن مرزوق التلمساني الذي حصل على الإجازة مشافهة من أبي إسحاق إبراهيم الشامي (الرصاع، الفهرست، صص. 92 ـ 93؛ وراجع المصدر نفسه، من ص. 94 إلى ص. 105).

(2656/1)

.

المواد الدراسية والكتب المدرّسة

... ولضبط قائمة الكتب والمصنّفات التي درّست، يمكن الاعتماد على أربعة أصناف من المعلومات:

يأتي ذكر الكتاب ضمن مواد التدريس في مدرسة معيّنة أو بالزيتونة.

ذكر الشيخ الذي درّس الكتاب، والمعروف لدينا

بتدريسه في الزيتونة أو في مدرسة أو عدة مدارس.

ذكر الطالب الذي درس الكتاب، والذي نعلم أنه درس بالزيتونة أو أنه سكن ودرس بإحدى المدارس.

تواصل تدريس هذا الكتاب عبر العصور، ومن دون انقطاع.

علوم القرآن والقراءات

(2657/1)

... وقد اتبعت في الزيتونة وفي جل المدارس بمدينة تونس خلال العهد الحفصي طريقة الإقراء بالسبع وبصورة أقل الإقراء بالعشر(1)

---

(1) نذكر من بينها:

... الطالب ... ... المدرّس

... خالد البلوي ... أبو عبد الله بن بدال (بالسبع) (رحلة البلوي، ورقة 17أ.).

... عبد الله بن عرفة ... ابن عبد السلام (القراءات بالعشر) (الرصاع، الفهرست، ص. 78).

... عبد الرحمن بن خلدون ... ابن برّاء التنّوخي (بالسبع) (العبر، ج 7، ص. 1131).

... البرزلي ... ... ابن مرزوق (بالسبع) (الفهرست، ص. 57).

... وراجع كذلك: ابن ناجي، المرجع السابق، ج 4، ص. 3.

(1/2658)

. ولدينا أمثلة عديدة وردت في المصادر عن القراء بالسبع والعشر(1).

... ويمكن بالطبع أن يقرأ القرآن بالإفراد، أي أن يتلى كلّه، أو جزء برواية أحد القراء بالسبع أو بالعشر.

ويمكن أن يقرأ القرآن جمعاً، أي بجمع القارئ بين روايتين أو أكثر من هذه الروايات، ويسمى آنذاك بالجمع الكبير إن استوفى القارئ سبع قراءات أو أكثر.

وإن لم يقرأها بالقراءات السبع، سمي بالجمع الصغير(2)

---

(1) بخصوص ترجمة القراء العشرة، راجع: عبد الباقي الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، الجامعة الأزهرية، القاهرة، 1954، ص ص. 449 ـ 457.

(2) مثال ذلك: قرأ البرزلي على الشبيبي البلوي، وهو «جمع كبير» (الفهرست، ص. 76).

(1/2659)

. ويبدو أن التونسيين بصفة عامة اتّبعوا رواية نافع في القراءة(1). وتوجد عليها روايتان هامتان لورش وقالون، وعليهما اعتمد القراء بتونس(2)

(1) فقد قرأ البلوي القرآن بقراءة نافع (رحلة البلوي، ورقة 161 أ). لكن قرأ ابن البراء أيضاً بقراءة أبي محمد يعقوب الحضرمي (المصدر نفسه، ورقة 18 أ)؛ وقرأ البلوي كذلك على ابن بدّال برواية ابن العلا (المصدر نفسه).

(2) بخصوص القراءات، راجع ابن خلدون، المقدمة، صص. 789 ـ 795؛ والزرقاني، مناهل العرفان، ج 1، صص. 405 ـ 495؛ وكذلك:

Al Koran », in Encyclopedi de l'Islam, T. III, »
.1139–1125pp.

(2660/1)

.

... وكتب العديد من المؤلفين في القراءات، وأهمّهم أبو عمرو الداني. إذ ذكر ابن خلدون أنه لم يزل القراء يتداولون هذه القراءات إلى »أن ظهر أبو عمرو الدّاني،

وبلغ الغاية في هذا العلم، ووقفت عليه معرفة القراءات وانتهت إلى روايته وأسانيدها، وتعدّدت تآليفه فيها وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها واعتمدوا من بينها كتاب "التيسير" له« (1). وقد ذكرت بعض المصادر أسماء شيوخ درسوا هذا المصنّف وبعض الطلبة الذين أخذوه عنهم(2)

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص. 790.

(2) انظر خاصة: »مقدمة« السنن الأبين، للدكتور محمد الحبيب بلخوجة، ص. 32؛ وكذلك: رحلة العبدري، الذي ذكره عدة مرات في ص. 44 وص. 241 وص. 243 وص 244، إلخ.؛ وانظر: القلصادي، المرجع السابق، ص. 122؛ والرصاع، المرجع السابق، ص. 84؛ ورحلة البلوي: ورقة 18 أ؛ كما أخذه التنبكتي على ابن عقاب (السراج، الحلل، ج 1، قسم 3، ص. 691).

. كما اعتمد الشيوخ أيضاً على "الشاطبية الكبرى"(1)، وهي قصيدة متكونة من 173 بيت. وذكر ابن خلدون أنه »عني الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلّمين، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس« (2)،

وتواصلت قراءتها من غير انقطاع، إذ مثلت المرجع في القراءات. أما

---

(1) وهي: حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع المثاني، للشيخ أبي محمد بن القاسن بن فيّرة بن خلف بن أحمد الرعيني الأندلسي الشاطبي الضرير، المتوفى بالقاهرة (538 هـ/ 1144 م ـ 590 هـ/ 1194 م).

(2) المقدمة، المرجع السابق، صص. 791 ـ 792.

(1/2662)

المصادر التي ذكرت أنها درست، فهي عديدة(1)

---

(1) نورد من بين الأمثلة: القلصادي الذي درسها في المنتصرية على ابن عقاب (رحلة القلصادي، ص. 122)، وأخذها العبدري على ابن جعفر اللبلي وعلى الوادي آشي (رحلة العبدري، ص. 44 وص. 265)، وقرأها ابن خلدون على ابن برّال (العبر، ج 7، صص. 1134 ـ 1135)، وأخذها البرزلي على ابن عرفة وعلى ابن مرزوق (فهرست الرصاع، ص. 84 وص. 90) الذي أخذها عنه الرصاع بدوره، وقرأها أيضاً على محمد بن أبي بكر (المصدر نفسه، ص.

60 وص. 117) وعليها عدة شروح وتفاسير من بينها "الدّرر اللوامع" التي درّست بدورها في تونس.

. وللشاطبي نفسه قصيدة أخرى درست ووجدت حظوة لدى الشيوخ والطلبة، وهي "عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد" في رسم المصحف. وقد درست من غير انقطاع طوال الفترة الحفصية(1)

---

(1) فقد درسها القلصادي على ابن عقاب (رحلة القلصادي، ص. 122) والعبدري على الوادي آشي (رحلة العبدري، ص. 265) وابن خلدون على ابن برّال (العبر، ج 7، ص. 1134) وأخذها كذلك البزلي على ابن مرزوق (الفهرست، ص. 57) وبدوره درسها عليه الرصاع (المصدر نفسه، ص. 60) وأخذها البلوي عن ابن برّال (رحلة البلوي، ورقة 18 أ). ويبدو أنه تمّ الاستغناء عن هذه القصيدة أو على الأقل الفتور في تدريسها؛ إذ لا نجد لها ذكراً خلال الفترة الحسينية. ويفيدنا ابن خلدون أن الخراز المغربي نظم أرجوزة اقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب أبي عمرو الشاطبي في الرسم (المقدمة، ص. 792).

. كما درست "القصيدة الحصرية" في قراءة نافع والتي انقطع ذكرها في أواخر القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد(1)، لكن وجد شرحها لمحمد الخراز أكثر نجاحاً، وعنوانها "سلوة الأنفاس" وتواصل درسها إلى القرن الحالي(2).

تفسير القرآن

... كما نالت التفاسير القرآنية عناية خاصة من قبل الشيوخ والطلبة(3)

---

(1) درّسها ابن حبيش: راجع »مقدمة « السنن الأبين، ص. 32.

(2) ذكر ذلك الحشايشي في: تاريخ جامع الزيتونة، ص. 46.

(3) بخصوص تفسير القرآن، راجع ابن خلدون، صص. 792 ـ 795؛ ويمدنا حاجي خليفة بمفهوم علم التفسير في:كشف الظنون، صص. 427 ـ 436؛ وراجع الزرقاني، المرجع السابق، ج 1، صص. 405 ـ 452.

. ومن أهم مصنفات هذا الفن التي اعتمد عليها في التدريس بالجامع الأعظم وبمدارس العلم، نجد تفسير ابن عطية. ويذكر ابن خلدون أن هذا المؤلف »لخّص التفاسير كلها، وتحرّى ما هو أقرب إلى الصحّة منها، ووضع كل ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس «(1). وتوجد بعض الإشارات إلى تدريسه خلال الفترة الحفصية(2). ومن الراجح أنه لم يتواصل تدريسه بعد ذلك.

---

(1) المقدمة، المرجع السابق، ص. 794.

(2) انظر خاصة »مقدمة« السنن الأبين، ص. 32؛ وراجع مصنف الشيخ العلامة الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص. 81.

(2666/1)

... كما لدينا أيضاً كتاب آخر من الأهمية بمكان وهو: "الكشاف عن حقائق التنزيل" للزمخشري، وهو ربما كان من أهم المصنفات التي اعتمد عليها، إذ يعلمنا ابن خلدون »أنه من أحسن ما اشتمل عليه هذا الفن، كتاب "الكشاف" للزمخشري، وهو معتزلي في العقائد. ولذلك صار للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير

للجمهور من مكامنه، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة «(1). لكن انتماء الزمخشري إلى المعتزلة لم يمنع مؤلفه من أخذ شهرة فائقة لدى الأوساط المتعلمة، ودرّس من غير انقطاع (2)

---

(1) المقدمة، ص. 795.

(2) فدرسه مثلاً البرزلي على ابن عرفة (الفهرست، ص. 48).

. وأدخل شرحه لشرف الدين الطيبي العراقي في بداية النصف الثاني للقرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد. كما اعتمد المدرسون أيضاً على تفسير الفخر الرّازي . المعروف بانتمائه للمذهب الشافعي ، "الأسامي والغايات في شرح الآيات البيّنات"؛ وكذلك: "مفاتيح الغيب". ويرجع الفضل في إدخال مصنفات الفخر الرازي إلى القاضي ابن زيتون، وذلك في أواخر القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد. وقد أقرأ "المفاتيح" بشرح السراج الأرموي(1)

---

(1) الذي درّس بعدّة أماكن خاصة بالجامع الأعظم

وبالمدرسة الشمّاعية (انظر الغبريني، عنوان الدراية ، ص. 114؛ وكذلك ابن فرحون، الديباج، ص. 99؛ والشيخ الطاهر بن عاشور، أليس الصبح بقريب، صص. 81 ـ 82).

(2668/1)

.

... ولدينا كذلك تفسير القاضي البيضاوي، وهو: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير" لخّص فيه صاحبه من "الكشاف" ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن "التفسير الكبير" ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن "تفسير الراغب"، ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق (1).

... كما نلاحظ وجود بعض المصنفات الأخرى التي لم تدرّس بصفة منتظمة أو درّست لمدة وجيزة، مثل "تفسير ابن حيّان" (2)

---

(1) قرأه ابن عقاب على ابن العباس المغامي (الفهرست، ص. 165)؛ ودرسه الرصاع على أبي العباس القسنطيني (المصدر نفسه، صص. 136).

(2) ذكره الرصاع عندما درسه على ابن عقاب (الفهرست، ص. 151).

.

علوم الحديث

... من الفنون الهامة الأخرى التي درست بانتظام، وكان إقبال الطلبة عليها واضحاً وجليّاً، علم الحديث. ومن أهم كتب الحديث المدروسة: "موطأ مالك". ومن الطبيعي أن يكون الاعتماد مباشرة على مصنفه، إذ اتبع أهل إفريقية مذهبه(1). ويعلمنا ابن خلدون أن »"الموطأ" من أصول السنن والحديث وأمهات الحديث، وهو مع ذلك أصل مذهبنا الذي عليه مدار مسائله، ومناط أحكامه، وآثاره يرجع الكثير من

---

(1) بدأ تدريسه مبكّراً، ودرّسه علي بن زياد بعد رجوعه إلى تونس (انظر: أبو العرب، طبقات علماء إفريقية، ص. 251).

فقهه «(1). ويذكر أيضاً أن الناس اقتصروا في دراسته على رواية يحيى بن يحيى، ويؤكد أنه »هجرت الروايات الأخرى، ودرست الموطآت الأخرى إلاّ موطأ يحيى بن يحيى. فبروايته أخذ الناس لهذا الكتاب شرقاً وغرباً «(2)، وهو ما يوافق ما أتت به المصادر الأخرى. فالعديد من الشيوخ درّسوا "الموطأ" برواية يحيى بن يحيى. ويكاد لا يخلو مصدر من ذكر تدريس هذا الكتاب في مدينة تونس (3)

---

(1) العبر، المصدر السابق، ج 7، ص. 1112.

(2) المصدر نفسه.

(3) راجع: رحلة القلصادي، ص. 44؛ وراجع: رحلة البلوي، ورقة 21 أ؛ وفهرست الرصاع، ص. 57، 60، 84، 154، والعبدري، المرجع السابق، ص. 44 وص. 266؛ القلصادي، المرجع السابق، ص. 121، وابن خلدون، المرجع السابق، ج 7، ص. 1123، إلخ.

.

... وبالطبع، من أهم المصنفات على الإطلاق التي درست هي: "الجامع الصحيح" المشهور بـ"صحيح البخاري" (1). وكان الإقبال كبيراً على هذا

المؤلف(2)

---

(1) أول من أدخله إلى إفريقية: هو أبو الحسن القابسي.

(2) والأمثلة لتدريسه بالجامع الأعظم وبمدارس العلم لا تحصى كثرة. فقد ذكر في أغلب المصادر عدد هام من الشيوخ الذين درّسوه أو الطلبة الذين درسوه، ويمكن مثلاً مراجعة الرصاع الذي يذكر بعض أسانيد ابن عرفة في "صحيح البخاري"، ص. 93؛ وكذلك رحلة القلصادي، ص. 116؛ وراجع العبدري، ص. 241 و245 و365؛ وانظر: المؤنس، »فصل في تعظيم البخاري من قبل أهل الحضرة«، ص. 318.

(2672/1)

، وكذلك "صحيح مسلم" لكونهما أصحّ الدواوين وأجمعها. كما يرى ابن خلدون أن الناس استصعبوا شرح البخاري، ولذلك شارحوه بإفريقية قلّة (1). ويبدو أن لهذا السبب فضّل علماء الزيتونة وغيرهم في العهد الحفصي، "صحيح مسلم"(2) على "صحيح البخاري". ويذكر ابن

---

(1) المقدمة، المرجع السابق، ص. 800.

(2) ذكرته أغلب المصادر وقرأه جمع غفير من الطلبة على

مرّ القرون. ففي غالب الأحيان، عندما يذكر مصدر ما أن شيخاً من الشيوخ درّس "صحيح البخاري"، يذكر "صحيح مسلم" أيضاً، وفي بعض الأحيان يستغني عن ذكرهما ويقول: "الصحيحين".

(2673/1)

خلدون أنه »قد كثرت عناية علماء المغرب به، وأكبّوا عليه، وأجمعوا على تفضيله على كتاب البخاري«(1). وعلى هذه المصنفات الثلاثة "الموطأ" والبخاري ومسلم، وجدت الكثير من الشروح والحواشي التي درّست هي أيضاً. فدرّس مثلاً كتاب أبي عبد الله الحاكم الشافعي المذهب "المدخل إلى معرفة رجال الصحيحين" جمع فيه بين صحيح مسلم وصحيح البخاري (2)؛ لكن يبدو أن تدريسه قد انقطع في أواسط الفترة الحفصية، إذ لا نجد له

---

(1) ابن خلدون، االمرجع السابق، ص. 801.

(2) وقد أخذه ابن رشيد عن ابن زيتون، راجع »مقدمة« السنن، ص. 28.

(2674/1)

ذكراً في المصادر بعد هذه الفترة.

... وبخصوص "الموطإ"، لدينا "التقصّي لأحاديث الموطإ" لابن عبد البر، وهو من أهم شروح "الموطأ" التي درّست في العهد الحفصي (1). أما "صحيح مسلم"، فعليه "إكمال اكمال

---

(1) قرأه ابن رشيد على ابن زيتون (السنن، ص. 27)؛ وكذلك ابن خلدون على ابن برال (العبر، ج 7، ص. 1133)؛ و لابن عبد البر نفسه كتاب: "التمهيد لما في الموطإ من المعاني والأسانيد" (راجع: الفهرس"، ص. 58)؛ ولخّصه في كتاب آخر هو: "الاستذكار لمذاهب أئمة الأمصار وفيما تضمنه الموطأ من المعاني والآثار" ودرّس كليهما.

(2675/1)

المعلم" للآبي (1) (وتواصل تدريسه إلى أواسط القرن الحالي). لكن بالطبع درست كتب أخرى في الحديث، خصوصاً منها بقية الصحاح الستة (2).

---

(1) قرأه الرصاع على ابن عقاب (انظر: الرصّاع، الفهرست، ص. 151).

(2) "سنن الترمذي" درّسه ابن حبيش (مقدمة السنن، ص.

30)، ودرسه العبدري (الرحلة، ص. 241). أما "سنن" أبي داود، فقد درّسه أبو العباس الغماز (العبدري، المرجع السابق، ص. 241)؛ ودرسه ابن حبيش »)مقدمة « السنن، ص. 32)؛ كما ذكره الرصاع (المرجع السابق، ص. 97).

(2676/1)

... ومن أهم الكتب الحديثية الأخرى التي اعتمد عليها في التدريس: "الشفا في التعريف بحقوق المصطفى" للقاضي عياض. وقد بلغت شهرته بتونس شأواً لم يبلغه إلا "صحيح البخاري" و"صحيح مسلم"، وحبّس السلطان أبو فارس عبد العزيز أوقافاً كي يقرأ "الشفا" و"الصحيحان" بالجامع الأعظم كل يوم جمعة (1). ومن بين المصنفات الهامة الأخرى في مصطلح الحديث "علوم الحديث" لابن الصلاح، ولا نعلم

---

(1) الزركشي، الدولتين، ص. 116؛ وذكره الرصاع في العديد من المرات، المرجع السابق، ص. 57، 60، 84، 90)؛ وقرأه القلصادي (الرحلة، ص. 121).

(2677/1)

بالتدقيق تاريخ دخوله إلى تونس، لكن درّسه ابن عبد السلام(1). كما اعتمد المدرسون أيضاً على مؤلف الترمذي: "الشمائل النبوية والخصال المصطفوية". ونظراً لأهميته، ذكرته المصادر العديد من المرّات، وتواصل تدريسه إلى أيامنا هذه (2). كما اعتمد

---

(1) أخذه البرزلي عن ابن مرزوق (الرصاع، المرجع السابق، ص. 57)؛ وذكره ابن عاشور (أليس الصبح بقريب، ص. 81).

(2) ذكره العبدري، المرجع السابق، ص. 43؛ وذكر الرصاع سند ابن عرفة فيه (الفهرست، ص. 105)؛ وانظر »مقدمة« السنن، ص. 32؛ والحشايشي، تاريخ جامع الزيتونة، ص. 46.

المدرسون أيضاً على "الأحكام الكبرى" و"الأحكام الصغرى" لعبد الحق الإشبيلي، ويبدو أنهما لم يدرّسا إلاّ خلال الفترة الحفصية (1).

... ومن بين المصنفات الأخرى: "عمدة الأحكام في سيّد الأنام" للجاماعيلي الحنبلي، وقد دام تدريسه فترة طويلة (2). أما في السيرة النبوية، فاعتمد المدرسون

على مصنفين نالا شهرة واسعة:

---

(1) انظر الرصاع الذي ذكر سند ابن عرفة في هذين المصنفين (الفهرست، ص. 105).

(2) ذكره الرصاع في "الفهرست"، ص. 90؛ ومدّنا بسند ابن عرفة، الفهرست، ص. 105. راجع كذلك القلصادي، المرجع السابق، ص. 122.

(2679/1)

أولهما "السيرة النبوية" لابن إسحاق، وهذا الكتاب لم يصلنا؛ والثاني هو "سيرة ابن هشام"، وهو تهذيب للكتاب الأول(1)، ودرست كذلك العديد من كتب الأربعين الحديثية (2)

---

(1) من بين من درسه ابن حبيش («مقدمة» السنن، ص. 32)؛ وانظر العبدري، المرجع السابق، ص. 182.

(2) من بينها: "كتاب الأربعين المخصوصة بالتعيين لرواية سيد المرسلين عن رب العالمين"، لأبي الحسن المقدسي التي درّست في العصر الحفصي: ذكره العبدري عندما درسه على أبي العباس البطرني (رحلة العبدري، ص. 257)؛ وقرأها ابن حبيش («مقدمة» السنن الأبين،

ص. 32)؛ ودرسها القلصادي على ابن عقاب (رحلة القلصادي، ص. 122)؛ ومن بينها أيضاً "الأربعين النووية"؛ وكذلك "الأربعين في إرشاد السائرين إلى منازل المتقين" لأبي الفتوح الطائي؛ و"الأربعين" للفراوي وغيرها. (انظر »مقدمة« السنن، ص. 72 و28 و32).

(2680/1)

.

... واهتم المدرسون والطلبة بقراءة بعض القصائد في مدح الرسول، وهي تقرأ تبرّكاً أكثر منها للدراسة والاستفادة، ومن أهمها "البردة" للبوصيري الشافعي المذهب، وعليها الكثير من الشروح والتخميسات (1). وللبوصيري نفسه: "الهمزية في المدائح النبوية" (2)

---

(1) ذكرها ابن خلدون (في "العبر"، ج 7، ص. 694)؛ وكذلك الرصّاع (في "الفهرست"، ص. 90 و122 و141 و215). وأكد الحشايشي مواصلة تدريسها خلال القرن الحالي بالجامع الأعظم: "تاريخ جامع الزيتونة"، ص. 46.

(2) سماها "أم القرى"، وتواصل تدريسها إلى القرن

الحالي، وذكرت في العديد من المصادر خاصة خلال الفترة الحسينية.

(1/2681)

، ومن القصائد الأخرى "الشقراطسية". وقد نقلها العبدري في "رحلته"، وذكر أنه «أولع الناس بها كل الولوع واستحسنوا من محاسنها كل مفرق ومجموع وعنوا بها شرحاً وتخميساً(1). وقد أخذت مكانها "البردة" خلال الفترة الحسينية»(2).

فروع الفقه

---

(1) رحلة العبدري، ص. 45 ـ 49. وقد درسها هو بنفسه (ص. 215) كما ذكرها القلصادي (ص. 122).

(2) هذا ما يؤكده برونشفيك (انظر: Brunschvig., « Les Hafsides », T. II, p. 450).

(1/2682)

... اهتم التونسيون أيما اهتمام بالفقه، ويبدو أن الفروع مثلت أهم المواد التي كانت درّست وتناولها

العلماء بالبحث. لهذا تكاثر عدد الفقهاء بتونس.

والمصنفات التي درّست في هذا الفن كثيرة جداً،

سنقتصر على ذكر أهمها. وكما ذكرنا بعد، فقد درست

خلال الفترة الحفصية مصنفات في الفقه المالكي، إلا ما

قلّ وندر من المصنفات المؤلّفة على المذاهب الأخرى.

واعتنى المدرسون اعتناءً خاصاً بـ"المدونة الكبرى في

فروع المالكية" للإمام سحنون. وبما أن رواية سحنون

هي التي عوّل عليها، فهي اشتهرت باسمه(1)

---

(1) عن كيفية دراسة سحنون على أبي القاسم، وتخيير أهل إفريقية لـ"مدوّنة" سحنون على "الأسدية" (انظر مقدمة ابن خلدون، ص ص. 811 ـ 812).

. ويدرس "المدونة" الطلبة المتقدّمون علمياً

والمستعدون أكثر من غيرهم لفهمها والتعمق فيها،

فهي ليست في متناول الجميع. واهتم بشرح كتاب

سحنون الكثير من الفقهاء، خصوصاً منهم ابن يونس،

وأضاف إلى "شرح المدوّنة" غيرها من الأمهات. وهو من أهم

الشروح التي عوّل عليها في الفترة الأولى للحكم

الحفصي(1).

(1) من بين من درّس "المدونة" بشرح ابن يونس: ابن عقاب والغبريني (الرصاع، المرجع السابق، ص. 151). ولما سأل والد الرصاع الشيخ ابن عقاب عن أي كتاب يلازمه، نصحه بـ"المدوّنة" بشرح ابن يونس (المصدر نفسه، ص. 148).

(1/2684)

أما أهم الشروح على " المدونة"، فهو للبرادعي القيرواني الذي ألف "التهذيب في اختصار المدونة" وتواصل تدريسه فترة طويلة(1)

(1) قائمة الذين درسوه طويلة جداً، نذكر من بينهم القلصادي على أحمد القلشاني (القلصادي، المرجع السابق، ص. 116) وعلى ابن عقاب (المصدر نفسه، ص. 128)؛ والبرزلي على ابن مرزوق وعلى محمد الشبيني وعلى ابن عرفة (الرصاع، المصدر السابق، ص. 54 و57)؛ وأخذه الرصاع على القلشاني (المصدر نفسه، ص. 183)؛ ودرسه الرصاع بدوره (ص. 215)؛ وانظر كذلك ابن فرحون، ص. 78؛ وراجع ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص. 92.

(1/2685)

.

... كما نذكر من بين من اختصر "المدونة" عبد الله بن أبي زيد صاحب "الرسالة" في الفقه المالكي التي وجدت صدى كبيراً بين الطبقات المثقفة، إذ تواصل تدريسها دون انقطاع. وأول ما يبدأ الطالب بقراءته في مادة الفقه هذا المصنف الهام(1)

---

(1) ومن بين من درّس "الرسالة" أبو علي بن مخلوف الراشدي المتوفى سنة 857 هـ/ 1470 م، وكان يستخرج منها فقه "مختصر" ابن الحاجب و"مدونة" سحنون (انظر: الفهرست، ص. 44) ودرسها أيضاً ابن حبيش («مقدمة» السنن، ص. 32)؛وأخذها القلصادي في عدة مناسبات (ص. 58، 59، 122، 151)؛ ودرسها الرصاع على أبي العباس احمد القلشاني الذي شرحها في كتاب سماه: "تحرير المقالة في شرح الرسالة" (الفهرست، ص. 184).

(1/2686)

.

... كما اهتم الفقهاء بـ"المختصر الفقهي" لابن الحاجب الذي لقي رواجاً كبيراً بين طلبة المدارس والزيتونة،

وهو من المصنفات التي درست بغير انقطاع(1)

---

(1) أدخل "مختصر" ابن الحاجب ناصر الدين المشدلي إلى بجاية ثم انتشر في إفريقية وأخذه القلصادي عن القلشاني (القلصادي، المصدر السابق، ص. 116)؛ وعن ابن عقاب (المصدر نفسه، ص. 121)؛ وذكره الرصاع في عدة مواضع، ومن بين من درسه: ابن عرفة والبرزلي والقلشاني والرصاع وغيرهم... كما درسه خالد البلوي عن ابن عبد السلام (رحلة البلوي، ورقة 21 أ)؛ وذكره العبدري، المصدر السابق، ص. 102؛ وذكره ابن فرحون، الديباج، ص. 30 و87؛ وذكر الحشايشي تدريسه في الزيتونة خلال القرن الحالي (تاريخ جامع الزيتونة، ص. 45).

(2687/1)

، ومثل مع "رسالة" ابن أبي زيد المؤَلَّفَيْن اللذين استطاعا البقاء على أهميتهما بعد دخول "مختصر الشيخ خليل". ويبدو أن الشرح الوحيد لـ"مختصر" ابن الحاجب الذي درس في مدينة تونس للرهوني(1). لكن بعد مدة من انتشار "جامع الأمهات"، أتى دور مؤلف آخر بلغ أهمية قصوى: إذ اعتمد كل الشيوخ عليه، وهو "مختصر خليل"

في فروع الفقه المالكي. فبداية من القرن التاسع للهجرة/ والخامس عشر للميلاد، بدأت شهرة هذا "المختصر"، أخذ بذلك المنصب الأول، ولم يزاحمه في مكانته هذه إلا

---

(1) درسه الرصاع عن الواصلي (الفهرست، ص. 191).

(1/2688)

"مختصر ابن الحاجب" و"رسالة" ابن أبي زيد ونستطيع أن نقارن "مختصر خليل" في الفقه من حيث الأهمية بـ"صحيح البخاري" في الحديث. كما اهتم العلماء في الفترة الحفصية أيضاً بكتاب ابن الجلاب: "التفريع في الفروع". فعادة بعد دراسة "رسالة" ابن أبي زيد، يمر الطالب مباشرة لقراءة هذا المصنف(1)

---

(1) قرأه البرزلي على ابن عرفة (الرصاع، المصدر السابق، ص. 84)؛ وعلى أبي محمد الشبيني (المصدر نفسه، ص. 57)؛ ودرسه الرصاع على ابن عقاب وعلى أحمد القلشاني، ثم درّسه بنفسه (المصدر نفسه، ص. 153، 183، 215)؛ ودرسه كذلك على ابن الزيّات الأندلسي (مخلوف، المصدر

السابق، ج 1، ص. 226، عدد 811)، كما أخذه القلصادي عن ابن عقاب (رحلة القلصادي، ص. 121).

(1/2689)

. كما اعتنى العلماء أيضاً بكتاب "التلقين في الفروع" للقاضي عبد الوهاب، وهو تلميذ ابن الجلاب؛ إلا أن دراسته تتواصل بعد الفترة الحفصية، وقس على ذلك شرح "التلقين للمازري". واهتم كذلك المدرسون بـ"حدود" ابن عرفة. أما "المختصر في الفقه" للشيخ نفسه، فقد عرف انتشاراً كبيراً بين الفقهاء(1). ووجدت بعض مصنفات الباجي الذهبي ـ أصيل قرطبة ـ شيئاً من إقبال الطلبة،

---

(1) ودرسه القلصادي على ابن عقاب (رحلة القلصادي، ص. 121) وأخذه الرصاع عن أبي الفضل المعلقي (الفهرست، ص. 191)، ثم درسه بنفسه (المصدر نفسه، ص. 215).

(1/2690)

خصوصاً منها: "فصول الأحكام وبيان ما مضى به العمل عند الفقهاء والحكّام" وكذلك "الوثائق المتيطية"، وهي

"النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام" الذي درّس خلال الفترة الحفصية فقط

أصول الفقه

... وهنا نلاحظ أنه بالرغم من الأهمية التي بلغتها الأصول، فهي لم تصل إلى أهمية الفروع. ويرى ابن خلدون أن أحسن ما كتب في أصول الفقه هو: "فوائد البرهان في أصول الفقه" لإمام الحرمين(1)، ودرّس أيضاً شرحه للإمام

---

(1) من بين من درّسه: أبو محمد بن عبد الحميد بن أبي البركات بن أبي الدنيا (رحلة التجاني، ص. 257).

(2691/1)

المازري الذي سماه "إيضاح المحصول من برهان الأصول".

ومن أهم مصنفات أصول الفقه التي تناولها الشيوخ بالبحث: "المستصفى" للغزالي، فهو من المصنفات التي يعتبرها ابن خلدون هامة جداً(1).

... ومن المؤلفات الهامة الأخرى: "المحصول في أصول الفقه"، وهو تلخيص الرازي لـ "برهان" لإمام الحرمين

---

(1) راجع: المقدمة، ص. 821، ودرّسه ابن أبي الدنيا

(رحلة التجاني، ص. 256)؛ وأخذه القلصادي عن ابن عقاب (رحلة القلصادي، ص. 122)؛ كما أقرأه أيضاً ابن حبيش («مقدمة» السّنن، ص. 32)؛ وراجع ابن عاشور، أليس الصبح...، ص. 81.

(1/2692)

و"المستصفى" للغزالي وكذلك "العهد" لعبد الجبّار، وشرحه "المعتمد" لأبي الحسن البصري. ويعتبر ابن خلدون "المحصول" من أحسن ما صنّف في أصول الفقه(1) وشرحه القرافي في كتاب سماه: "تنقيح الفصول في الأصول" وتواصل تدريسه إلى القرن الحالي بجامع الزيتونة(2)

---

(1) ابن خلدون، المرجع السابق، ص. 822.

(2) راجع: المقدمة، ص. 822؛ وأخذه القلصادي عن أحمد المنستيري (رحلة القلصادي، ص. 117)؛ وذكره ابن فرحون، ص. 80 و83؛ ودرسه القلصادي أيضاً على ابن عقاب (رحلة القلصادي، ص. 122)؛ وانظر الحشايشي، تاريخ جامع الزيتونة، ص. 46.

(1/2693)

. كما لخّص البيضاوي هو أيضاً "محصول" الرازي في كتاب سماه "منهاج الأصول إلى علم الأصول"(1). أما الآمدي الحنبلي، فقد لخص المصنفات نفسها التي لخصها الرازي في كتاب "أحكام الأحكام في أصول الأحكام"(2)، ولخص هذا المصنف أبو عمرو بن الحاجب في كتابه المعروف "بـ"المختصر الكبير"، وهو "منتهى السّول والأمل في علمي الأصول والجدل"، ثم اختصره في كتاب آخر هو الذي درس في تونس سماه: "مختصر منتهى السّول".

---

(1) أخذه القلصادي عن ابن عقاب (الرحلة، ص. 122).

(2) انظر: المقدمة، ص. 821؛ والقلصادي، المصدر نفسه، ص. 122.

بلغ هذا الكتاب أهمية كبرى حتى أن ابن خلدون يؤكد تداوله بين طلبة العلم، واعتناء أهل المشرق والمغرب بمطالعته وشرحه(1). ومما يؤكد هذا الاهتمام مواصلة تدريسه إلى أواسط هذا القرن بالزيتونة(2)

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص. 822.

(2) الحشايشي، المرجع نفسه، ص. 45؛ ودرسه ابن عرفة (الرصاع، المصدر السابق، ص. 57)؛ وكذلك أبو القاسم القسنطيني (المصدر نفسه، ص. 191)؛ وأخذه الرصاع عن أبي يوسف يعقوب (ص. 130)؛ كما درّسه بدوره الرصاع (ص. 215)؛ وقرأه القلصادي على أحمد المنستيري (الرحلة، ص. 117)؛ وذكر ابن فرحون (ص. 80) الشيء نفسه؛ كما أقرأه الونشريسي (المصدر نفسه، ص. 87).

(1/2695)

، كما درس في الفترة الحفصية شرح الرهوني لـ"مختصر ابن الحاجب" الأصلي(1)؛ إذ انفرد الرهوني آنذاك بهذا الشرح والتحقيق.

... كما درس كتاب "أبكار الأفكار" للآمدي(2)... تبدو إذن قائمة المصنفات في أصول الفقه التي درست في الجامع الأعظم وفي مدارس المدينة خلال العهد الحفصي ضخمة نوعاً ما، إذ نجد بعض المؤلفات الأخرى التي نالت شيئاً من الحظوة لدى المدرسين قد تفاوت الاهتمام بها حسب أهميتها. ومن

---

(1) من بين من درّسه محمد الواصلي (انظر الرصاع،

المصدر نفسه، ص. 191).

(2) راجع ابن عاشور: أليس الصبح بقريب، ص. 81.

أهمّ هذه المصنفات: "جامع الجوامع" للسبكي(1). كما لدينا شرح ابن التلمساني لـ"معالم في أصول الفقه" لفخر الدين الرازي. وبالرغم من أن الأصل لم يدرس، فقد درس الشرح الذي لم يقرأ إلا خلال الفترة الحفصية(2). انطلاقاً من هذه المؤلفات التي درست في الفقه

---

(1) درسه القلصادي على ابن عقاب (القلصادي، المصدر السابق، ص. 122)؛ ويذكره ابن فرحون وغيره، وتواصل تدريسه في الزيتونة إلى القرن الحالي (انظر الحشايشي، ص. 45).

(2) أخذه القلصادي عن المنستيري (رحلة القلصادي، ص. 116)؛ وانظر الرصاع، المصدر نفسه، ص. 216.

وأصوله، يمكن استنتاج أن المدرّسين والطلبة اهتموا أكثر بالشروح والتلاخيص من الأمهات نفسها.

...

علم الكلام

... إلى جانب المحدثين والفقهاء، وجد أصحاب علم الكلام؛ وسمي أيضاً بعلم التوحيد، لأنه يقوم على القول بالتوحيد المحض للخالق، ونفي الصفات عنه، ويطلق عليه أيضاً اسم أصول الدين، لأنه يبحث في أصل العقائد: مثل إثبات وجود الله ومسائل القضاء والقدر(1). ومن أهم ما درس في هذا الفن كتاب: "الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول

---

(1) كان اهتمام المشارقة أكثر من إفريقية بهذا الفن نتيجة تعدد المذاهب لديهم.

(2698/1)

الاعتقاد" لإمام الحرمين، وهو تلخيص لكتابه الأول "التأمل". يذكر ابن خلدون أن الناس اتخذوه إماماً لعقائدهم، وذلك نتيجة للأهمية التي بلغها بين العامة، إذ كان أول الكتب الهامة التي ألفت في فن علم الكلام والردّ على المعتزلة(1). ويبدو

---

(1) درّسه ابن أبي الدنيا (رحلة التجاني، ص. 257)؛

وأخذه البرزلي عن ابن عرفة (الرصاع، المصدر نفسه، ص. 85)؛ وقرأه الرصاع على عدة شيوخ (الفهرست، ص. 130، 188، 191)؛ كما أخذه أحد المغاربة ـ وهو أبو العباس أحمد الماكري ـ عن أبي حفص القلشاني بمدرسة ابن حكيم (الفهرست، ص. 192).

(2699/1)

أن علم الكلام نال حظوة كبرى خلال الفترة الحسينية.

... ونحن نلاحظ من خلال عدد المصنفات التي درّست في علم الكلام أن هذا الفن لم يبلغ الأهمية التي وصلها الفقه أو الحديث أو علم القرآن، ويدعم الملاحظة ما يذكره ابن خلدون الذي يرى أن علم الكلام غير ضروري(1).

علم النحو

... درست العديد من المصنفات في هذا العلم، إذ مثّل هذا الفن مادة أساسية اعتمد عليها كل طالب لتحصيل ملكة اللغة العربية،

---

(1) المقدمة، ص. 826 ـ 842؛ وراجع الطاهر المعموري، جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي، تونس، 1980.

والتمكن منها. ومن أهم ما درّس من بين مصنفات النحو: "ألفية ابن مالك" التي أطلق عليها "الخلاصة"، ودرّست في عدة مواضع بداية من الفترة الحفصية دون انقطاع(1).

... ويبدو أن الشيوخ خيّروا هذا المصنف على غيره. فجل الطلبة كانوا يحفظونه عن ظهر قلب. ولخّص ابن مالك "الألفية" في كتاب سماه

---

(1) أخذها البرزلي عن الشيخ الرملي (الرصاع، المصدر نفسه، ص. 122)؛ وقرأها محمد الزنديوي علي الوانوغي (المصدر نفسه، ص. 181)؛ ودرسها القلصادي على المنستيري (القلصادي، المصدر نفسه، ص. 117؛ وابن فرحون، المصدر نفسه، ص. 80).

"الكافية الشافية في النحو". أما الشروح التي وضعت على "الألفية"، فتعد بالعشرات، ودرس بعضها في الزيتونة والمدارس على حد سواء. وألّف ابن مالك أيضاً

"لامية الأفعال"؛ إلا أنها لم تجد النجاح نفسه الذي وجدته "الألفية".

... اشتهرت أيضاً مصنفات ابن الحاجب، خصوصاً منها "الكافية في النحو". ويذكر حاجي خليفة أنها: »مختصرة وشهيرة جداً، وهي دستور هذا الفن، إذ بها تعرف أكثر مسائله«(1). وربما يفسر هذا سبب

---

(1) راجع حاجي خليفة، كشف الظنون، ج 2، ص. 1370 و1376؛ وانظر كذلك: ابن العماد، شذرات الذهب، ج 5، ص. 234.

اهتمام المدرسين بها، ويبدو أن أهميتها ضاهت اعتماد المدرسين على "الألفية" (1).

... إضافة إلى هذين المصنفين، وجد كتاب آخر عناية خاصة من قبل المدرّسين وهو "مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب" لابن هشام. ولمعرفة أهمية هذا المصنف، تكفينا شهادة ابن خلدون الذي يبدي إعجابه ويذكر أنه »وصل إلينا بالمغرب هذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى ابن هشام، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل،

وحذق ما في

---

(1) درسها أبو عبد الله محمد الزنديوي على الوانوغي (الرصاع، الفهرست، ص.181).

(2703/1)

الصناعة من المتكرّر في أكثر أبوابها وسماه بـ"المغني في الإعراب"(1). ولهذا درّس هذا المصنف من غير انقطاع بداية من القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد(2).

... أما كتاب "الجمل الكبرى في النحو" للزجاجي، فيرى حاجي خليفة أنه نافع ومفيد لولا طوله بكثرة الأمثلة. لهذا كان اهتمام المدرسين به

---

(1) ابن خلدون، المرجع السابق، صص. 1027 ـ 1028.

(2) أخذه العبدري عن أبي محمد عبد الله الخلاصي الأندلسي (الرحلة، ص. 245)؛ كما ذكر الحشايشي أنه تواصل تدريسه في القرن الحالي (الحشايشي، المصدر السابق، ص. 45).

(2704/1)

محدوداً. كما اشتهرت "المقدمة الآجرومية" في النحو لابن آجرّوم. وقد وجد من قبله "المقرب في النحو" لابن عصفور اهتماماً كبيراً من قبل المدرسين في الفترة الحفصية(1). كما لم ينس كتاب سيبويه(2)، ويبدو أنه درس أكثر خلال الفترة الحفصية الأولى، إذ يذكر الرصاع أنه لم

---

(1) أخذه العبدري عن أبي علي الطبلي (الرحلة، ص. 38)؛ ودرسه المدغري (الرصاع، المصدر السابق، ص. 182)؛ وأخذه القلصادي عن المنستيري (القلصادي، المصدر السابق، ص. 117؛ وابن فرحون، المصدر السابق، ص. 80).

(2) راجع ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 1027.

(2705/1)

يدرك بتونس من يقرئ سيبويه ولا يذكرون ذلك عن أشياخهم - يعني أساتذته. ويقال آخر من يقرأه بالحضرة الشيخُ أبو العباس أحمد القصّار، الذي كان حيّاً سنة 790 هـ/ 1388 م(1)؛ كما درّس "الفصل" للزمخشري، فيذكر برونشفيك أنه خيّر على "كتاب" سيبويه(2). ودرّست أيضاً قصيدة "أم الفرج" لابن النحوي، وتدعى أيضاً "المنفرجة"، ودرّست طوال الفترة الحفصية؛ إلا أنه من

المرجح أنه استغني عنها بعد ذلك(3)

---

(1) الرصاع، المصدر السابق، ص. 140.

(2) راجع: Brunschvig, « Les Hafsides », T. II, p. 366.

(3) أخذها العبدري عن أبي هريرة (العبدري، المرجع السابق، ص. 52)؛ كما درّس الشيخ نفسه تخميس أبي عبد الله المصري عليها (المصدر نفسه)؛ ودرسها الرصاع (الفهرست، ص. 215).

(2706/1)

.

... من خلال هذه اللمحة الخاطفة عن المصنفات في النحو، نرى أن هذا الفن وجد هو أيضاً اهتماماً كبيراً من قبل الأساتذة والطلبة؛ فهو أساس اللغة، ولهذا كان من أهم الفنون المدرّسة في الجامع الأعظم وكذلك بالمدارس.

علم الصرف

... نلاحظ أنه لم تدرّس إلا مؤلفات قليلة جداً في هذا الفن، واعتمد خصوصاً كتاب ابن الحاجب "الشافية في الصرف"، وهي مقدمة مشهورة درّست في عدة أماكن(1). إلا أننا

نتساءل إن لم تكن قد درّست بعض المصنفات الأخرى في الصرف،

---

(1) أخذها مثلاً البرزلي عن ابن عرفة (الرصاع، المصدر السابق، ص. 87).

فمن الغريب أنه لم يدرس في هذا الفن الهام إلا كتاب واحد، إذ لم أعثر على مصنفات أخرى درست في العهد الحفصي. أما العلوم الأخرى، فلاقت انتشاراً أقل، ومن بينها:

علم الفرائض

... يذكر ابن خلدون أن أشهر المصنفات عند المالكية هو مختصر ابن القاسم الحوفي الإشبيلي. وفعلاً، فقد درّس هذا المصنف طوال الفترة الحفصية(1) وهو

---

(1) درسه الرصاع على أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (الرصاع، المصدر السابق، ص. 117)؛ وعلى ابن عقاب (المصدر نفسه، ص. 151)؛ وأخذه القلصادي بدوره عن ابن عقاب (القلصادي، المصدر السابق، ص. 121).

المقتبس في التدريس أيام ابن عرفة؛ كما درست "الرحبية في الفرائض"، وهي أرجوزة مسماة "غنية الباحث". أما الحصّار في الفرائض، فيبدو أنه لم يدرس إلا خلال الفترة الحفصية(1).

الأدب

... أهم الكتب التي اعتنى بها العلماء في هذا الفن: "مقامات الحريري"، وهي من بين المصنفات التي درست بغير انقطاع(2)

---

(1) درسه الرصاع على أبي عبد الله محمد بن أبي بكر (الرصاع، المصدر السابق، ص. 117)؛ وأخذه كذلك القلصادي عن أبي عقاب (القلصادي، المصدر السابق، ص. 122).

(2) درسها على ابن عبد البر التنوخي (الزركشي، تاريخ الدولتين، ص. 111)؛ وأخذها العبدري عن التجاني (العبدري، المصدر السابق، ص. 257)؛ وذكر الحشايشي أنها كانت تدرّس بالجامع الأعظم خلال هذا القرن (ص. 46).

؛ كما درست بعض المصنفات الأخرى(1)، إلا أنها لم تكن بانتظام أو درست في فترة وجيزة جداً، إذ كان المدرسون يعدّون الآداب مضيعة للوقت.

التاريخ

... لم يجد علم التاريخ حظاً وافراً بين المتعلمين، فهو - عند الشيوخ - كالأدب لا تحصل منه إلا فائدة قليلة جداً، ولذلك لم تدرس منه إلا مصنفات قليلة، من بينها

(1) مثلاً: "المجمل" لابن الحسن أحمد بن فارس بن زكرياء الذي درسه العبدري (الرحلة، ص. 245)؛ ودرسه خالد البلوي عند رجوعه من السفر ومروره بتونس في المدرسة الشمّاعية (رحلة البلوي، المصدر السابق، ورقة 160أ).

"الصلة" لابن بشكوال(1).

البلاغة

... اشتهر في هذا الفن "مختصر السعد التفتزاني" على "تلخيص المفتاح" للقزويني. و"المفتاح" هو كتاب السكّاكي. وقد دخل هذا "المختصر" إلى تونس خلال القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد ودرسه ابن عرفة(2). غير أن هذا الفن لاقى رواجاً أكبر في الفترة الحسينية.

الجدل

---

(1) درسه العبدري على أبي الحسن علي بن محمد التجيبي المرسي (رحلة العبدري، المصدر السابق، ص. 257).

(2) انظر ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، ص. 91.

(2711/1)

... وهو أيضاً علم لم يجد انتشاراً واسعاً بين الطبقات المتعلمة. فيذكر ابن خلدون: »وهي لهذا العهد مهجورة لنقص العلم والتعليم في الأمصار«(1). أما أهم الكتب التي درّست فيه، فهو: "المقترح في المصطلح للتقي المقترح"(2).

... أما العلوم العقلية، فمن أهم ما يجب ملاحظته أنها لم

تدرس إلا نادراً بالجامع الأعظم وبمدارس الحضرة.

المنطق

---

(1) ابن خلدون، المرجع السابق، ص, 825.

(2) أخذه الرصاع عن أبي يوسف يعقوب، الفهرست، ص. 132.

... حسب ما يمكن استنتاجه، فإنه العلم الوحيد الذي كان له بعض الحظ فقد أصبح المنطق أحد العلوم التي تؤخذ من المشرق، حينما يرتحل إليه التونسيون لطلب العلم. ودخل هذا الفن إلى تونس عن طريق هؤلاء الطلبة، وخصوصاً منهم الذين درسوا بمصر، ومن بينهم القاضي ابن زيتون.

... لكن يبدو أنه بدأ التغافل عن هذا العلم بداية من القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر للميلاد؛ إذ يذكر الرصاع أن علم المنطق قليل شيوخه، إذ أراد دراسة المنطق، فلم يجد أي شيخ يأخذ عنه(1). ومن أهم ما درس في هذا الفن

---

(1) المصدر نفسه، ص. 126.

(2713/1)

"الجمل" للخونجي، ويبدو أنه تواصل تدريس هذا المصنف طوال الفترة الحفصية بانتظام(1).

... أما "مختصر المنطق" لابن عرفة، فقد درّس على فترة طويلة المدى. وتضلع ابن عرفة من المنطق ناتج عن دراسته لهذا

---

(1) أخذه الرصاع عن ابن عرفة (الفهرست، ص. 57)؛ وعن أبي يوسف يعقوب (المصدر نفسه، ص. 130)؛ وعن ابن عقاب (المصدر نفسه، ص. 154)؛ ودرسه أبو عبد الله محمد المدغري (المصدر نفسه، ص. 182)؛ ودرَّسه محمد المنستيري (رحلة القلصادي، ص. 117)؛ كما ذكره ابن فرحون، ص. 80؛ وأخذه أيضاً القلصادي عن ابن عقاب (الرحلة، ص. 121).

(2714/1)

الفن على ابن الحبّاب تلميذ ابن زيتون(1)، كما اهتم العلماء بـ "مختصر المنطق" للسنوسي، إلخ. من المصنفات. هكذا إذن وبالرغم من المعارضة التي وجدها علم المنطق، فقد درّس في العديد من الأماكن بمدينة تونس.

الطب

... أوردت المصادر أسماء بعض الأطباء. إلا أن أغلبهم عالجوا الأمراء والخلفاء. والغالب على الظن أن تدريس الطب في المدارس لم يوجد إلا في القليل النادر. وإذا وجد ذلك، فهو ناتج عن معرفة أحد الشيوخ الذين تولوا الدراسة بمدرسة

---

(1) نعلم مثلاً أن ابن عقاب درّسه في الفترة الحفصية (رحلة القلصادي، ص. 122).

ما بهذا الفن، فهو علم يتوارث أباً عن جدّ. وأكثر الأطباء الذين باشروا مهنتهم بتونس أصيلو الأندلس أو صقلية. ومن بين من درسه القاضي ابن عبد السلام، كما درس ابن عرفة على ابن اندراس، ونجد بعض الأطباء من أصيلي تونس، وأهمهم القاضي محمد الزندي الذي داوى

السلطان أبا عمرو عثمان؛ وكذلك الطبيب الفقيه المدرّس عمر بن محمد القلشاني تلميذ أبي سعيد الصقلي؛ وكذلك ابن عقاب الذي درس على أحمد الصقلي. كما أخذ القلصادي عن أبي عبد الله محمد الدهان »الذي كان طبيباً ماهراً« (1)، ودرس

---

(1) القلصادي، المصدر نفسه، ص. 117.

(2716/1)

الرصاع على القاضي أبي القاسم القسنطيني مادة الطب(1) وأخذها أيضاً عن ابن عقاب الذي كان »عارفاً بالطب« (2). ومن بين هاته الأسماء، نجد أشخاصاً درّسوا أو درسوا بإحدى المدارس أو بالعديد منها. فمن المحتمل أن أحدهم أو بعضهم درّس الطب في مدرسة ما... إلا أنه من الواضح أنه لم يتم تدريس هذه المادة بالجامع الأعظم طوال الفترة الحفصية(3)

---

(1) الرصاع، المصدر السابق، ص. 152.

(2) المصدر نفسه، ص. 145.

(3) تحمل بعض شواهد القبور الراجعة إلى القرنين الثامن والتاسع الهجريين، أسماء العديد من الأطباء

الذين توارثوا المهنة أباً عن جدّ، ويوجد بعضها بمتحف سيدي قاسم الجليزي وجمّع البعض الآخر في فضاء داخل سور القصبة.

(2717/1)

.

علم الحساب

... وجد هذا الفن انتشاراً أكثر من بعض العلوم العقلية الأخرى، وذلك نظراً لحاجة الناس إليه في العديد من العمليات التجارية وفي القضاء والميراث... لهذا درّس في بعض الأماكن. والغالب على الظن أنه درس أيضاً في مدارس مدينة تونس، إذ اهتم العديد من العلماء الذين تولّوا مشيخة بعض المدارس بعلم الحساب(1)

---

(1) من بينهم الرصاع الذي أخذه عن البرزلي وعن أبي عبد الله محمد بن أبي بكر، وعن ابن عقاب (الرصاع، المصدر السابق، ص. 108 و118 و145)، ولازم البرزلي أبا محمد الشبيني طوال إحدى عشرة سنة وأخذ عليه الحساب. ودرّس أبو عبد الله محمد الوانوغي الحساب على ابن خلدون، كما درس ابن عرفة المادة نفسها على ابن

الحباب... إلا أننا نتصور تدريس هذا العلم بالجامع الأعظم خلال هذه الفترة.

(2718/1)

.

... ووجدت الهندسة والجبر شيئاً من اهتمام المدرسين. فقد درس كتاب ابن البناء في الجبر والهندسة؛ وكذلك "الياسمينة في الجبر والمقابلة" لابن الياسمين، وهي أرجوزة درّست في الفترة الحفصية.

... واهتم بعض الشيوخ بالتنجيم، فدرسه الرصاع على ابن عقاب، وأخذه البرزلي عن أبي محمد الشيبي؛ إلا أنه من المستبعد أن يكون قد درّس في المدارس.

الخاتمة

... وخلاصة القول إنه من خلال هذا الفصل المخصص للمواد الدراسية والمصنفات المدرسة في الجامع الأعظم ومدارس مدينة تونس، نلاحظ اهتمام المدرّسين والطلبة ببعض المواد دون

(2719/1)

الأخرى. فعلوم القرآن والحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام والنحو وجدت انتشاراً لم تجده فنون أخرى كالفلسفة والمنطق والجدل والتاريخ وعلم الفرائض.

... أما العلوم الصحيحة، فإنها ـ كما رأينا ـ لم تلق من العلماء والطلبة إلا اهتماماً محدوداً جداً. وهكذا فهنالك كتب عديدة اعتني بها في كل فنّ من الفنون المدرّسة، منها التي تواصل تعليمها بداية من الفترة الحفصية ـ أو من قبلها إلى يومنا هذا ـ ومنها التي انقطعت دراستها، وأخرى أضيفت إلى المؤلّفات المعتنى بها، وذلك إما في أواسط الفترة الحفصية أو في نهايتها. لهذا

(1/2720)

يمكن التأكيد أنه لم يوجد قط جمود في محتوى التعليم، ويدل التغيير في عناوين المصنفات المدرسة على شيء من الحركية في صلب مواد التعليم وفي محتواها عبر العصور.

(1/2721)

التنافس البحري في البحر المتوسط في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر

الدكتور محمد محمود السروجي
كلية الآداب – جامعة الأسكندرية

... كانت فرنسا من أسبق الدول الأوروبية التي عقدت معاهدة الامتيازات مع الدولة العثمانية في عام 1535، وذلك لتدعيم مصالحها الاقتصادية في ممتلكات تلك الدولة. ففرنسا لم تنس ذكرياتها ومصالحها في البحر المتوسط منذ أيام الحروب الصليبية، وتجددا تلك المصالح بحملة نابوليون بونابارت على مصر في أواخر القرن الثامن عشر، تلك الحملة التي أضرت بالمصالح البريطانية في شرق البحر المتوسط

(1/2722)

بالإضافة إلى محاولة بونابرت إثارة القوى المحلية بالمشرق العربي ضد بريطانيا.
لهذا عملت بريطانيا جاهدة على تحطيم الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية في عام 1798م وعلى إخراج الفرنسيين من مصر، وفي الوقت نفسه على

عدم وقوعها مرة ثانية في يد أية دولة أجنبية قوية، أو قيام حكم محلي بها يستطيع أن يلحق الضرر بالمصالح البريطانية في تلك المنطقة. وقد نجحت في ذلك إلى حد كبير.

... وعندما نجح محمد علي في إقامة نظام حكم قوي ومستقر في مصر لايتفق مع مصالحها عملت على القضاء عليه وعلى تحجيمه. وحينما أنزلت فرنسا

(2723/1)

بعض قواتها بالشام إثر مذابح عام 1860، بحجة حماية أرواح المسيحيين، راقبت بريطانيا هذا العمل بقلق شديد، ولم يهدأ لها بال إلا بعد أن سحبت فرنسا قواتها من تلك البلاد. كما أنها عارضت بشدة ضم حكم جزيرة كريت إلى مصر في عام 1866 بعد أن تمكنت من إخماد ثورتها ضد العثمانيين، والسبب في ذلك أنها خشيت أن يمتد نفوذ فرنسا إلى الجزيرة، نظرا للتقارب الواضح بين فرنسا ومصر في ذلك الوقت(1) .

---

(1) محمد محدود السروجي، مصر والمسألة الشرقية، الإسكندرية، 1966، صص. 31، 118.

(2724/1)

... حرصت بريطانيا على تفوق نفوذها في الدولة العثمانية على نفوذ أية دولة أخرى، ومن ثم انتهجت سياسة المحافظة على ممتلكات تلك الدولة، ورفض تقسيمها بين الدول الأوربية الطامعة، لما تحققه تلك السياسة من تدعيم للمصالح البريطانية. فسياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية التي امتدت طوال الثلاثة الأرباع الأولى للقرن التاسع عشر تمثل حجز الزاوية في سياسة بريطانيا إزاء تلك الدولة. فمنع الروس من السيطرة على المضايق والوصول إلى مياه البحر المتوسط الدفيئة تمثل الاستراتيجية البريطانية قبل فتح قناة

(2725/1)

السويس(1) .

... واعتبرت آسيا الصغرى – في نظر سياسة بريطانيا – خط الدفاع الأول عن الطريق المؤدية إلى الهند. ولذا فهم يرون أن احتلالهم مصر، إذا ما قسمت ممتلكات الدولة العثمانية، ليعادل احتلال الروس للاستانة وسيطرتهم على المضايق(2) .

... وعندما اندلعت حرب القرم في منتصف القرن التاسع عشر، أدرك الأنجليز

---

(1) رينوكان، تاريخ العلاقات الدولية، ص. 332.

(2) Seaton- Watson, Disrali,Gladston and the Eastern Question, London 1935, p. 109.

(1/2726)

-رغم كونها حربا برية - أهمية القوة البحرية والتفوق البحري وقتذاك، إذ لولاها لما استطاعت بريطانيا نجدة الدولة العثمانية، ولا المحافظة على كيانها.

... وإذا كان تفوق البحرية البريطانية على البحرية الفرنسية قد بدا واضحا خلال الحملة الفرنسية على مصر، فإنه قد تعرض للاهتزاز بعد ذلك فمنذ تسوية فينا عام 1815، أصيبت البحرية البريطانية بشيء من الإهمال، نتيجة لشعور بريطانيا بنشوة النصر على فرنسا من جهة، ولاطمئنانها على مركزها البحري من جهة أخرى، ولاعتقادها بضعف قوة منافستها فرنسا من ناحية ثالثة.

(1/2727)

... طال أمد هذا الإهمال، إذ امتد أكثر من أربعين عاما، حينما أفاقت بريطانيا من غفلتها في عام 1859، وأدركت خطورة مركزها البحري بعدما وجدت فرنسا في عهد نابليون الثالث (1848 – 1870) تبنى أسطولا جديدا من السفن البحرية المصنوعة من الحديد فأسرعت في الفترة فيما بين عامي 1859 و 1869 وهو عام افتتاح قناة السويس، إلى إعادة إنشاء بحريتها من جديد لمواجهة التهديد البحري الخطير من قبل فرنسا.

... كان هذا هو مقف الدولتين البحريتين بريطانيا وفرنسا قبل شق قناة السويس، وهو موقف اتسم بالمنافسة بينهما، نظرا لمحاولة

(2728/1)

كل منها الاحتفاظ بقوة بحرية كبيرة في البحر المتوسط وستزداد تلك المنافسة – دون شك – بعد افتتاح القناة، وذلك لازدياد أهمية الدور الذي يلعبه هذا البحر في المجال السياسي والاقتصادي. لاسيما فقد صاحب إنشاء القناة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وتطور هائل في بناء السفن الحربية، من حيث استخدام

الحديد والصلب بدلا من الخشب، فمن حيث تزويدها بمدافع أكثر قوة، وأبعد مدى، ومن حيث الخطط والتكتيكات الحربية.

(2729/1)

... هذا فضلا عن ظهور أنواع جديدة من السفن الحربية، مثل قوارب الطوربيد وغيرها، بحيث يمكننا القول بأنه قد حدثت ثورة في فن بناء السفن، جعلت من الأساطيل الحربية قوة خطيرة في الدفاع والهجوم.

... ومن العوامل التي ساعدت على زيادة الاهتمام بالشؤون البحرية انتماء كثيرين من رجال البحرية والجيش والسياسة إلى المؤسسات الصناعية المتعلقة بصناعة السفن، وإسهامهم في إدارتها.ويبدوا هذا واضحا بصفة خاصة في بريطانيا، إذ سنجد في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين عددا من رجال البحرية يسهمون في

(2730/1)

شركة فيكرز (Vickers)، وعددا آخر من رجال السياسة مثل سولسبري (Salisbury)، وبرايس (brice)، ودفنشر، ولانزدون (Lansdoun) يسهمون في شركة أرمسترنج (Armstrong) أكبر شركات صنع الأسلحة.

... وقد عبر فيشر (fisher) وهو من أكبر رجال البحرية الإنجليزية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من تطوير السلاح البحري الإنجليزي بما يتلاءم مع طبيعة العصر، بأنه ليس من الأمور الملحة فحسب، ولكنه مسألة حياة أو موت بالنسبة لبريطانيا. فهي كدولة تعتمد في حياتها وقوتها على التجارة، يصبح هذا الأمر بالنسبة لها مسألة

(2731/1)

حياة أو موت. فمن الممكن لو أستطاعت دولة أوربية أن تنتزع منها السيادة البحرية أن تميتها جوعا. ومن ثم نشأ الاعتقاد في بريطانيا "بأن بالأسطول تستطيع بريطانيا أن تبقى أو تسقط". ومن هنا جاء الاهتمام بالبحرية البريطانية، فهي في نظر البريطانيين القوة المدافعة الأولى عن الإمبراطورية، ويأتي الجيش في المرتبة الثانية. ولكن لاغنى لأحدهما عن الآخر. ومن

ثم فهم يقولون "بأن البحرية كالدرع الواقي، وأما الجيش فهو كالرمح الضارب".

(1/2732)

... ويتطلب الاهتمام بالبحرية بناء سفن جديدة متطورة، وتدريب رجال البحرية التدريب الائق، وإعداد القواعد البحرية، واعتناق مبدإ حرية البحار . وهذه الأمور كلها لاتستطيع بريطانيا القيام بها دون الدخول في منافسات مع الدول البحرية الأخرى.

... إستمرت حركة بناء وتجديد الأسطول البريطاني تجري على قدم وساق إلى أن تولى جلاد ستون (1809 – 1898) وزارته الأولى، فنظر لاعتناقه سياسة ضغط النفقات العامة، وخاصة في البحرية أن تضاءلت تلك الحركة بصورة لم يقبلها الرأي العام الإنجليزي.

(1/2733)

... ويرجع السبب في ضعف نفقات الأسطول – على الأرجح – تجربة الحرب البروسية الفرنسية 1870، فعلى الرغم من تفوق البحرية الفرنسية على البحرية البروسية،

ونجاح الأسطول الفرنسي في محاصرة الشواطئ الألمانية في تلك الحرب ، إلا أن تفوق الجيش البروسي على الجيش الفرنسي قد اكتسب بروسيا الحرب. هذا فضلا عن سياسة العزلة وعدم التوسع التي انتهجتها تلك الوزارة.

... وترتب على ذلك أنه في عام 1869، سنة افتتاح القناة، لم يكن نفوذ بريطانيا في البحر المتوسط متفوقا على نفوذ فرنسا، فأسطول فرنسا أحدث، وربما كان أقوى من

(2734/1)

الأسطول الإنجليزي، ويستند على قاعدة طولون البحرية(1) التي لايوجد لها نظير لدى بريطانيا في هذا البحر، فمالطة وجبل طارق لم تكن قواعد بحرية بمعنى الكلمة، وإن كانت بريطانيا قد أدركت خطورة موقع جزيرة مالطة بعد فتح قناة السويس، فقامت بتوسيع مينائها، لاستيعاب السفن المارة بالبحر المتوسط(2) .

... كذلك كان لدى فرنسا من القوات الكثيرة العدد في الجزائر ما يجعل اسهما محترما في شاطئ البحر المتوسط الجنوبي، وأصبح

---

(1) Marder, British naval policy (1880–1905), p. 145.

(2) laferla, British Malta, vol I,p. 240.

(1/2735)

لاسمها دوي كبير بعد افتتاح قناة السويس. فالقناة مشروع قومي فرنسي، وستكون نقطة ارتكاز للنفوذ الفرنسي في شرق هذا البحر.

... ولكن كان يحد من نفوذ فرنسا نمو قوة ألمانيا الحربية على الضفة الشرقية لنهر الراين، وازداد قلق فرنسا واضطرابها من اندحار قوات النمسا في موقعة سادوقا في عام 1866 أمام قوات بروسيا، ووقوف الروسيا موقف العطف على الآمال الألمانية. كل ذلك لم يجعل فرنسا في مركز يسمح لها بتحدي قوة بريطانيا في البحر المتوسط أو إثارة شكوكها في ذلك الوقت. فبريطانيا حتى عام 1878 كانت مطمئنة على قوتها

(1/2736)

البحرية في هذا البحر، خصوصا وأن منافسة فرنسا لها قد ضعفت بعد كارثة سيدان 1870. هذا فضلا عن انشغال فرنسا في إعادة بناء جيشها . وقد استمر هذا العمل حتى عام 1880.

... توطد نفوذ بريطانيا في البحر المتوسط بعامة(1) ، وفي شرقية بخاصة بعد نجاح دزريلي () (1804disraeli -1881) من شراء أسهم مصر في قناة السويس في عام 1875 وحرمان فرنسا منها. ولقد أدركت الدولة الأوربية عظم الصفقة، فاعتبرها ليوبولد الثاني ((LIOPOLD II 1875 -1909) ملك

---

(1) Hallberg, The Suez Canal, its history and diplomatic importance, p.249.

(2737/1)

بلجيكا كأعظم حادث في السياسة الحديثة. كما أنها أثلجت صدر المستشار الألماني بسمرك (1815 – 1898)، لأنها أضافت إذلالا جديدا لفرنسا فوق إذلال سيدان.

... أدرك دزريلي نفسه أهمية هذا العمل الذي قام به لتدعيم المصالح البريطانية في مصر، فكتب للملكة فيكتوريا يقول : "إن الفرنسيين غلبوا على أمرهم،

ولقد قدم دلسبس عرضا مغريا للخديو، ولو نجح لأصبحت القناة ملكا لفرنسا، ولأغلقتها أمام بريطانيا".

... بل لقد نالت تلك الصفقة إعجاب المعارضين للحكومة الإنجليزية، من أمثال هارنجتون، وهو من زعماء حزب الأحرار، وعبر عن

(1/2738)

إعجابه هذا بقوله بأن حقوق سيادة الخديو على قناة قد انتقلت إلى يد بريطانيا.

... أثبتت هذه الصفقة –بما لايدع مجالا للشك – أن بريطانيا قد هجرت نهائيا سياسة العزلة والسلبية التي انتهجها جلادستون في وزارته الأولى السابقة على وزارة دزريلي، وأصبحت تؤمن بضرورة اتباع سياسة خارجية قوية، ستؤدي في السنوات التي أعقبت عام 1878 إلى احتلال مصر، والتصميم على البقاء فيها، وتقسيم إفريقية، والإشراف على مناطق كثيرة في آسيا.

(1/2739)

... لقد وعت فرنسا عظم الخسارة لضياع تلك الأسهم، ولانتقالها إلى يد منافستا بريطانيا، وأدركت المغزى الحقيقي من وراء من وراء استحواذ بريطانيا على هذه الأسهم، وهو لايخرج عن أحد أمرين : التمهيد لاحتلال مصر، أو على الأقل التدخل في شؤونها المالية، لاسيما وأن الأمر الأول ينال تأييد وموافقة المستشار الألماني بسمرك ... اما بالنسبة لأثر هذه الصفقة على مصر، فمما لاشك فيه كانت وبالاعليها فرغم أن القناة مصرية، وتسير في أرض مصرية، وأنها قامت على أكتاف تسخير العمال والفلاحين المصريين، وإهدار حقوقهم، وحرمان

(2740/1)

الزراعة منهم مدة طويلة. كل هذا في مقابل لاشيء، بل لقد أصبحت القناة منذ عام 1875 كارثة عليها وعلى مستقبلها قرابة ثلاثة أرباع القرن.

... لقد جعلت القناة لمصر مركز استراتيجيا خاصا(1) في الشرق الأدنى، فجبل طارق، ومالطة، وقبرص،ومصر هي قواعد البحرية الحصينة للأسطول البريطاني في البحر المتوسط من أجل السيادة والسيطرة على هذا البحر .

وتعتبر مصر –والإسكندرية بصفة خاصة – أهم حلقة في هذه السلسلة من القواعد، ومصدر خطر شديد على

الإمبراطورية البريطانية إذا

---

(1) Silva. A.a, The expandion of Egypt, pp. 101,2

(2741/1)

ماتعرضت لغزو خارجي .

... وقد أثر هذا المركز الأستراتيجي لمصر اهتمام الدول الأستعمارية، إلى الحد الذي ضحت هذه الدول بمصالح مصر ونموها واستقلالها في سبيل الإشلراف عليه والتحكم فيه. وهذا الأهتمام من جانب ابريطانيا والدول الأخرى بمركز مصر، يشبه إلى حد ما اهتمام ابريطانيا بالعراق لوقوعه على رأس الخلج العربي، وعلى الطريق المؤدية إلى الهند التي كانت توليه ابريطانيا حتى عام 1880 **أهمية أعظم من أهمية السويس. وذلك لأن ذزريلي كان حتى ذلك التاريخ يرى أن آسيا الصغرى هي التي تشرف على الطريق إلى الهند وليست**

(2742/1)

مصر، ولا قناة السويس. ومن هنا جاءت أهمية العراق بالنسبة لبريطانيا .

... وترتب على عدم إدراك دزريلي لعظم أهمية القناة في المواصلات العالمية حتى عام 1880، أنه لم يوجه اهتماما كبيرا لعروض المستشار الألماني بسمرك خلال الأزمة الروسية التركية (7 – 1878)، بأن يأخذ مصر، في مقابل سيطرة الروس على شرق البلقان. كما أن دزريلي و زملاءه الوزراء لم يصغوا لنوبار باشا حين ذهب إلى لندن يطلب بسط حماية ابريطانيا على مصر، وأهملوه إلى حد مخاطبته لسفير ألماني في لندن قائلا : " إن الأسد البريطاني سيغرق في نومه، وأن

أظفاره ستسرق منه دون أن يستقيظ".

... ورغم أن حكومة المحافظين في بريطانيا كانت تدرك أهمية مصر لبريطانيا، وبأنها ستحتلها في يوم ما قرب أم بعد، إلا أنها خشيت في ذلك الوقت أن تفقد صداقة فرنسا إذا ما أقدمت على احتلالها، لاسيما وأنها كانت في عزلة سياسة تحتم عليها المحافظة على هذه الصداقة .

... وبمجيء سولسبري (1830 – 1903) إلى الوزارة

الخارجية الإنجليزية خلفا لدربي في وزارة المحافظين، أن بدأ تغير جوهري في السياسة الخارجية الإنجليزية إزاء الدولة العثمانية، فقد غادر نهائيا السياسة التقليدية الرامية إلى

المحافظة على كيان تلك الدولة، واتجه إلى الأخذ بوجهة نظر بسمرك والتي تهدف إلى تقسيم الممتلكات العثمانية، على أن تكون مصر من نصيب بريطانيا .ولاكنه استعاض عن احتلال مصر وقناة السويس باحتلال جزيرة قبرص في 1878، وتمتاز بإشرافها على آسيا الصغرى وقناة السويسمعا(1)

... ولايهمنا هنا الدخول في تفصيلات المسألة الشرقية، واضطراب العلاقات الروسية العثمانية إلى حد إعلان الحرب(7 – 1878)، إلا بقدر ماتثيره من تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية، وهل سيتم هذا دون حرب أم

---

(1) Stamp. D. A, Commercial geography, pp. 6, 245.

بحرب، وهل ستدخل بريطانيا الحرب ضد روسيا دفاعا عن مصالحها في منطقة الشرق الأدنى ؟

... على إي حال حاولت ابريطانيا جاهدة في التسوية التي تمت بمؤتمر برلين 1878 ألا تمس الموقف كثيرا في البحر المتوسط، وقفت بريطانيا وفرنسا أما التقدم الروسيا إلى هذا البحر، ولكن كان هذا على حساب ازدياد ضعف الدولة العثمانية .

... وأثناء انعقاد المؤتمر، وخارج قاعاته تمت مقابلات بين سولسبري وزير خارجية بريطانيا، ووادنجتون(wadington) وزير خارجية فرنسا، والمستشار الألماني بسمرك، نتيجة ثورة الوزير الفرنسي حينما علم بنبأ

(2746/1)

الإتفاقية السرية التي فردتها بريطانيا على السلطان العثماني والتي انتزعت بموجبها جزيرة قبرص وسيطرتها بالتالي على شرق البحر المتوسط القناة السويس. وقد استبد بالوزير الفرنسي الغضب إلى حد تهديده بمغادرة برلين وعدم الاشتراك في المؤتمر.

... كان بسمرك وسولسبري على استعداد لاسترضاء وزير الخارجية الفرنسية، وعلى استعداد أيضا للمساومة، طالما كان في ذلك تحقيق وجهة النظر الألمانية في تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية التي تجد تأييدا من وزير الخارجيةالإنجليزية وقتذاك، فأبديا موافقتهما على مطامع الفرنسيين في

(2747/1)

تونس، في مقابل الاعتراق بالوضع الجديد في شرق البحر المتوسط. كان هذا كافيا – من جهة نظر الوزير الفرنسي – لإعادة التوازن الذي اختل في البحر المتوسط باحتلال البريطانيين قبرص . وهذا يدلنا على مدى اهتمام فرنسا بمركزها في هذا البحر(1) .

... وفي ربيع 1881 فرض الفرنسيون حمايتهم على تونس بالقوة المسلحة، وأصبحوا من هذا الموقع الاستراتيجي الجديد يشطرون البحر المتوسطإلى شطرين. وعندما أدركت بريطانيا خطورة هذه الحقيقة بعد فوات الأوان، حاولت أن

---

(1) Renovin. p, La politique d’expansion imperialiste, p.11.

(2748/1)

تقلل من خطر الوجود الفرنسي في تونس على المصالح البريطانية في هذا البحر إلى حد ما، وذلك عن طريق أخذ وعد من الفرنسيين بألا ينشئوا قاعدة حربية بحرية في هذا المكان. ومع ذلك فقد شعرت بأن هذا الوعد لن يكون له قيمة كبيرة . ومن ثم فقد صممت على ألا تقع مصر إلا في يدها وحدها، تعويضا لها عن صفقة تونس.

... وحينما تأزمت الأمور في مصر بقيام الثورة العرابية عام 1882، طلبت بريطانيا من فرنسا وإطاليا الاشتراك معها في احتلال قناة السويس، وفي إخماد الثورة، كان جلادسون رئيس الوزارة البريطانية وقتئذ واثقا تمام الثقة

(2749/1)

من تقاعس الدولتين، فالبرلمان الفرنسي لن يسمح لحكومته بأن تدخل في مغامرة عسكرية جديدة ولم يمر أكثر من عام على احتلال تونس. أما من ناحية إيطاليا، فإن حكومتها لم تكن تستطيع أن تتحرك دون أن تتلقى الإشارة من برلين، ولم تكن برلين راغبة في

التدخل. فعروض جلادستون إذن كانت عروض مجاملة ليس إلا.

... وعندما تحرجت الأمور في مصر، واستدعى اجتماع مؤتمر الآستانة 1882 لمناقشة الموقف، رأت بريطانيا ألا يصبح المؤتمر عائقا دون تحقيق ما تسعى إليه،ألا وهو احتلال مصر، فاشتركت في جلساته ومناقشاته، ولكنها قررت عدم التقيد

(2750/1)

بما يسفر عنه من قرارات لاتتفق مع المصالح البريطانية. فاهتمامها كان مركزا على مصر في المقام الأول، فراقبت تحركات المصريين، واعتبرت تحصين بلادهم عملا عدائيا موجها للسفن الحربية الإنجليزية الراسية في ميناء الإسكندرية وقامت القوات البريطانية باحتلالها.

... حاولت بريطانيا أن تصور هذا العمل على أنه خدمة للمصالح الأوربية، فحينما وجد سفير بريطانيا في روما شيئا من الضيق والقلق يجتاح إيطاليا، أعلن "أنه يجب على دول أوربا أن تشكر هذه الظروف، وأن تحمد الحكومة الأنجليزية على اتخاذ خطوات من شأنها رفعة مركز

(2751/1)

أوربا في الشرق الأدنى".

... كان حل المسإلة المصرية –كما فهمته بريطانيا – هو في احتلال قناة السويس، واتخاذها قاعدة لتحركاتها العسكرية في زحفها نحو العاصمة. ولم تعر بريطانيا احتجاجات شركة القناة أدنى اهتمام، بل وأنذرت الحكومة الفرنسية حينما وجدت بعض العراقيل من جانب دي لسبس.وبنجاح الغزو البريطاني لمصر، استطاعت بريطانيا أن تعيد التوازن الدولي في البحر المتوسط، وكذلك الإشراف على قناة السويس. وحتى عام 1884 كان النفوذ البريطاني متفوقا في البحر المتوسط ولكن كان يثير قلق بريطانيا نمو الأسطول الفرنسي

(2752/1)

بسرعة كبيرة. هذا فضلا عن احتمال انضمام دولة بحرية أخرى مثل ألمانيا إلى جانب فرنسا . ولو تم ذلك لأصبح موقف بريطانيا جد خطير، لأن قوة الدولتين البحرية تفوق قوة بريطانيا في هذا البحر.

... لم تنظر بريطانيا بعين الارتياح إلى نمو قوة دول أوربا البحرية مثل الروسيا، وأيطاليا، وألمانيا، وخصوصا الدولة الأخيرة التي اتخذت من تقوية بحريتها سياسة مقررة، بعد أن عزنت على الدخول في مضمار الاستعمار. فهذه الدولة مجتمعة تستطيع أن تهدد مصالح بريطانيا في البحر المتوسط بعامة. وفي مصر بخاصة . وهذا هو سر تسليم بريطانيا

(2753/1)

بمطالب ألمانيا وفرنسا الاستعمارية، وتسوية المسألة المالية في مصر بطريقة ترضي فرنسا، بل وفي الاستجابة إلى مطلب فرنسا بتحديد مركز قناة السويس في معاهدة دولية.

... ونظرا لاستعمار توتر العلاقات بين بريطانيا وفرنسا بشأن مصر من ناحية،وبين بريطانيا وألمانيا بخصوص المسائل الاستعمارية، أن زاد الخطر على بريطانيا، وطالب الرأي العام البريطاني حكومته مضرورة زيادة الاعتمادات البحرية اللازمة لإيجاد أسطول بحري كبير. خصوصا وأن تقارير رجال البحرية الأنجليزية أوضحت أن الأسطول البريطاني في البحر المتوسط غير مستعد

(2754/1)

وغيركاف لمواجهة أي خطر مفاجيء من جانب فرنسا. وزاد الموقف خطورة مطالبة الرأي العام الفرنسي حطكومته بضرورة عقد تحالف مع روسيا.

... وحتى عام 1888 ظل أسطول فرنسا في البحر المتوسط متفوقا على الأسطول الإنجليزي، وأصبحت طولون أعظم ترسانة، وأقوى قاعدة للعمليات البحرية في هذا البحر. كما كان الأسطول الفرنسي على أهب الاستعداد دائما للحرب . ولم تكن قوة الأسطول الفرنسي تفزع بريطانيا وحدها، بل كانت تخفيف إيطاليا أيضا . إذ كان الإيطاليون يعتقدون بأن أسطولهم لن يستطيع الصمود أمام الأسطول الفرنسي أكثر من ثمان

(2755/1)

وأربعين ساعة.

... لقد صاحب اهتمام بريطانيا بتقوية بحريتها، زيادة اهتمام بالبحر المتوسط، فمصالحها ليست استرابيجية فحسب، وإنما اقتصادية وسياسية كذلك فعبر قناة السويس تمر 16(من وارداتها، و 21(من صادراتها،

وفقدان هذه التجارة أو تعطيها خسارة كبيرة.

... وهناك مسألة على جانب عظيم من الأهمية، ألا وهي سلامة المواصلات الأمبراطورية، وممتلكات بريطانيا في البحر المتوسط، في جبل طارق، ومالطة، وقبرص، ومصر، ومصالحها التي تدعيها في قناة السويس. فأصبح البحر الأحمر الطريق الرئيسية التجارة البريطانيا. وكلما

(2756/1)

تعاقبت السنون تكشف بريطانيا ازدياد أهميته.فالحرب الصينية اليابانية (1894 – 1895) وجهت الاهتمام إلى الصين كأهم أسواق المستقبل، وبالتالي توجه الاهتمام إلى الطريق المؤدية إليها، ألا وهي طريق البحر المتوسط

... أدركت بريطانيا أيضا أن بالقوة البحرية في ذلك البحر تستطيع إقناع دول التحالف الثلاثي (الروسيا والنمسا وأيطاليا) من 1879 – 1882، ولا سيما إيطاليا بالوقوف إلى جانبها . فبالقوة البحرية يمكن لبريطانيا أن تنال احترام الدول المطلة على البحر المتوسط، باستثناء فرنسا بطبيعة الحال. كما أن بريطانيا كانت

(2757/1)

ترى في قوة بحريتها في هذا البحر خير ضمان لعدم قيام حرب أوربية في غير صالحها.

... ومن الناحية الاستراتيجية، فوجود الأسطول البريطاني يجب أن يكون حيث يوجد العدولبريطانيا، وليس هناك عدو لها سوى فرنسا في الدرجة الأولى، وروسيا في الدرجة الثانية. وبما أن فرنسا تحتفظ بمعظم قواتها البحرية في البحر المتوسط، فوجود أسطول بريطاني قوي في مواجهتها أمر ضروري. كما أن نجاح بريطانيا في اقتحام البحر الأسود في حرب القرم (1853 – 1856) يذكر روسيا دائما بقوة بريطانيا كدولة بحرية عظمى.

(2758/1)

... وهناك ما هو أسمى من المصالح الاقتصدية والسياسية، ألا وهي هيبة بريطانيا وسمعتها اللتان اكتسبتهما منذ مائتي عام، لابد من المحافظة عليهما ، مهما كلفها ذلك من تضحيات . واعتبرت بريطانيا أن العمل على إضعاف قوتها البحرية أو إخراجها من هذا البحر يعد

بمثابة "إلقاء عود ثقاب مشتعل في برميل بارود أوربا"(1) .

... وفي الجانب الآخر نرى نمو موكز فرنسا في البحر المتوسط يسير سيرا مطردا، ففرنسا لها مصالح مهمة في هذا البحر بعد استيلائها على الجزائر،

---

(1) Mander. I, Great Britain or Little England? , 1964Boston,

(2759/1)

ونمو نفوذها في سوريا، وبعد فرض حمايتها على تونس، وبعد انشائها لإمبراطوريتها الاستعمارية الشرقية في مدغشقر والهند الصينية. بل إن روسيا قنصل فرنسا في تونس كان يعتبر البحر المتوسط بحيرة فرنسية(1).

... فمصالح فرنسا الإمبراطورية ، والتنازع مع بريطانيا بشأن الجلاء عن مصر وتأزم العلاقات بينها وبين إيطاليا ، كل هذه الأمور جعلت فرنسا تركز نشاطها حول تدعيم قوتها في البحر المتوسط، وتركز معظم سفنها الحربية الكبرى في قاعدة طولون، وخصوصا بعد أن

---

(1) Safuat. M, Tunis and rhe Great Powers, Alex, 1843p. 11.

(1/2760)

اطمأنت إلى تحديد مركز قناة السويس في معاهدة القسطنطينية 1888.

... وفي مواجهة هذا الإجراء من جانب فرنسا قررت الإمبريالية البريطانية أن ينضم أسطول القنال الإنجليزي إلىالأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط لتعزيزه وقت الخطر . ولكنها مع ذلك لاتصل قوتها حتى عام 1891 **مساوية لقوة الأسطول الفرنسي في ميناء طولون.**

... ولما وجدت بريطانيا ألا قبل لها على مجاراة فرنسا في قوة بحريتها في هذا البحر تركت سياسة التفوق البحري إلى حين، ولم يكن ذلك لقصور مادي أو فني، ولكن لعدم وجود قواعد بحرية كبيرة صالحة لرسو الأعداد

(1/2761)

الكبيرة من السفن مثل مالدى فرنسا. فجبل طارق ليس فيها الميناء المناسب، ولا يحتمل عتادا حربيا كبيرا، ولا أسبانيا لبريطانيا.

... ولذا وجدت بريطانيا أخيرا أن من الخير لأسطولها ألا يلتجئ إلى جبل طارق في حالة حرب مع فرنسا، إذ يستطيع أسطول طولون المتفرق أن يحاصره وأن يكسر شوكته. بل عليه أن يغادر البحر المتوسط طالبا للنجاة. ولكن تنفيذ هذا القرار محفوف بالمخاطر، إذ أن هروبه سيهبط باسم بريطانيا ، ولا يحفظ ما لها من مركز كبير في العالم.

(1/2762)

... ثم هناك مشكلة بنزرت (بيزرته) وهو ميناء يشرف على جزءي البحر المتوسط الشرقي والغربي، ويتسع هذا الميناء التونسي لأكثر من أسطول، ويصلح قاعدة هائلة للعمليات الحربية البحرية. ولكن فرنسا حتى عام 1890 لم يكن لها قاعدة بحرية واحدة في شمال إفريقية، لأنها التزمت حتى ذلك الوقت بالوعد الذي قطعته على نفسها لبريطانيا بعدم إنشاء القاعدة البحرية في هذا الميناء الكبير، لأن إنشاء مثل تلك القاعدة البحرية

سيقلب ميزان القوى البحرية في البحر المتوسط لصالح فرنسا ، وفيه تهديد لإيطاليا في الوقت نفسه .

(1/2763)

... وخطورة إقامة بلك القاعدة في بنزرت كبيرة على المواصلات والتجارة البريطانية عبر البحر المتوسط وإن كان البعض يرى في إنشاء تلك القاعدة تقسيم لقوى الأسطول الفرنسي بينها وبين طولون.

... وفي منتصف عام 1895 افتتحت قاعدة بنزرت – لاكقاعدة كبيرة – ولكن كرد من جانب فرنسا على افتتاح قناة كيل(1894) التي ربطت بحر البلطيق ببحر الشمال، عند ئذ تتحقق مخاوف بريطانيا،وأدركت أن وعد فرنسا لم يكن إلا من قبيل التمويه . وازداد ضطراب بريطانيا عندما علمت بنبإ زيادة قوة الأسطول الروسي في البحر الأسود، وما ينطوي عليه

(1/2764)

هذا العمل من تهديد للآستانة، وما سيلقيه هذا التهديد من أعباء جديدة على الأسطول الإنجليزي في البحر

المتوسط، لاسيما وأن احتمال اجتماع الأسطولين الفرنسي والروسي ضد الأسطول الإنجليزي أمر محتمل الوقوع، بعد أن أصبح التحالف الفرنسي الروسي حقيقة غير خافية على بريطانيا.

... طالب الرأي العام البريطاني بإلحاح شديد بضرورة زيادة الاعتمادات المخصصة للبحرية لمواجهة هذا الموقف. وقد وافق أعضاء وزارة جلادستون على ذلك، إلا جلادستون نفسه الذي انسحب من الوزارة ومن الحياة السياسية كلية .

(2765/1)

... لقد شغلت مسألة مرور السفن التجارية الإنجليزية في البحر المتوسط في حالة حدوث حرب مع فرنسا أذهان السادة الإنجليز، فوجود موانئ في تونس والجزائر ومراكز قوارب الطوربيد في يد فرنسا يجعل هذا الأمر في غاية الخطورة . وخيل لهؤلاء السادة أن الفرنسيين قد يتمكنون من إغلاق القناة . وإذا ما تم ذلك فليس أمام الإنجليز إلا ترك هذه الطرق كلية.

... زادت هموم الأنجليز في عام 1895 على وجه الخصوص ، فقد عانوا من أزمات عديدة في أماكن مختلفة من العالم

، بعضها يتعلق بالدولة العثمانية – وهذا ما يعنينا في هذا البحث –

(1/2766)

والآخر يختص بفنزويلا، وإفريقية الجنوبية.

... ففيما يتعلق بالدولة العثمانية فقد استطاع الروس السيطرة التامة على البحر الأسود، ومدوا نشاطهم جنوب الشرق الأقصى، حيث عقدوا مع الصين معاهدة تنازل لهم بمقتضاها عن ميناء بورت آرثر لاتخاذه قاعدة بحرية تشرف على مدخل بكين، وكان ذلك يمثل خطرا هائلا على المصالح البريطانية في تلك المنطقة.

... أما في جنوب إفريقيا فكانت تعطف على مطالب البوير، وتؤيد استقلالهم، وفكرت هي وفرنسا وروسيا التدخل لصالحهم ضد بريطانيا، وقد كانت بريطانيا تعتمد على صداقة إيطاليا – رغم عدم

(1/2767)

ثقتها في كفاية رجال البحرية الإيطالية، إلا أن فشلها في موقعة عدوة أمام الأحباش، جعل الاعتماد عليها أمرا

غير محسوب. ولذا كان على بريطانيا – أمام كل تلك الصعاب – ويأتي على رأسها عزلتها السياسية التي تكاد تكدون تامة – ألا تعتمد إلا على نفسها وحدها – وقد نفذت هذه السياسة الجديدة في برنامج 6 – 1897 البحري الذي يجعل قوتها البحرية في مستوى أقوى قوتين بحريتين.

... كانت عتمادات البحرية الإنجليزية حاسمة في تقرير مصير البحر المتوسط، فلقد فصلت في مصير مصر بعد أن تحرجت الأمور بين بريطانيا وفرنسا إلى أن بلغت

(2768/1)

ذروتها في أزمة فاشودة 1898. فكان اللقاء بين كتشنر(KITCHENER) قائد القوة المصرية، ومارشان (MARCHANT) قائد القوة الفرنسية في 19 سبتمبر 1898 هو نهاية المنافسة الحامية بين بريطانيا وفرنسا طوال ثلاثين عاما تقريبا. وحين رفضت بريطانيا المفاوضة في أول الأمر، وتحرجت الأمور بين الدولتين ، وضعت الحكومة الفرنسية أسطول طولون على أهبة الاستعداد . وكان الرأي العام الأنجليزي متحمسا للحرب لأنه كا مؤمنا بعد التعزيزات البريطانية

الأخيرة، من إحراز نصر على فرنسا يضاهي نصرهم في الطرف الأغر. ففي البحر المتوسط

(1/2769)

–الميدان الحربي الأول – كان لدى بريطانيا ما حمولته من السفن الحربية 450, 239 طن، بينما لم يكن لدى فرنسا سوى 170,085طن.

... بدأت بريطانيا تركز أسطولها في المناطق الحساسة ، فراقبت حركات الأسطول الفرنسي، وأرسلت أسطول القنال الإنجليز إلى قرب جبل طارق، وأسطول البحر المتوسط إلى جزيرة كورفو للمحافظة على مصر والقناة، وأسطول الشرق الأقصى إلى هنج كنج.

... ومما زاد من حرج مركز فرنسا، ومن إدلالها أن حليفتها روسيا رفضت تقديم أية مساعدة ولم يكن في واقع الأمر تستطيع ذلك، فأسطول بحر البلطيق حبيس في مياهه

(1/2770)

المتجمدة، وأسطول البحر المتوسط لم يكن على أهبة الاستعداد للحرب ، كما لم يكن لروسيا مصلحة في أن تزج بنفسها عل حرب مع بريطانيا من أجل مطامع استعمارية فرنسية.

... عزمت بريطانيا علىضرب كل موانئ فرنسا، وعلى إخراج الأسطول الفرنسي إلى عرض البحر حامية، وأدرك الفرنسيون خطورة موقفهم، فاتخدوا موقف الدفاع دون الهجوم، خصوصا وأن الحكومة الفرنسية كانت تعاني من متاعب داخلية.

... أما من ناحية الحكومة البريطانية، فكان عدد من أعضائها يرون انتهاز هذه الفرصة للتخلص نهائيا من فرنسا كمنافس عنيد. ولكن هذا الفريق لم

(2771/1)

يجد تأييدا كافيا، خصوصا بعد أن أعلنت فرنسا بأنها ستنسحب من فاشودة. وبذلك تنتهي الأزمة.

... بعد انتهاء الأزمة البريطانية الفرنسية، حاولت فرنسا التحول نحو دول التحالف العثماني، وبالفعل أخذت تتقرب من ألمانيا، ولكن مسألة الألزاس واللورين كانت عائقا دون إقامة تفاهم بين الدولتين لمدة طويلة. كذلك حاولت فرنسا تحسين علاقاتها بإيطاليا،

وحثها على زيادة قواتها البحرية حتى تستطيع الدولتان السيطرة على البحر المتوسط ولكن إيطاليا، لم تكن مستعدة للتضحية بعلاقاتها الودية مع بريطانيا من أجل فرنسا.

(2772/1)

... كانت أزمة فاشودة درسا قاسيا وعته فرنسا بعمق، وعرفت مدى أثر القوة البحرية، وأدركت في الوقت نفسه أنها لاتستطيع أن تجاري بريطانيا في الحركة بناء السفن، وخاصة الكبيرة منها . وبالتالي أيقنت بأن المنافسة مع بريطانيا يجب أن تهدأ، وأن تتنتهي إلى غير رجعة. وبانتهاء الخطر الفرنسي على بريطانيا ومصر، استقرت الأمور في البحر المتوسط إلى حين.

... وحل محل التنافس الفرنسي بالنسبة لبريطانيا التنافس الألماني. فإذا حدث واستطاعت ألمانيا التفاهم مع فرنسا لنال بريطانيا الخسران المبين...وخاصةإذا مالت الروسيا إلى

(2773/1)

مثل ذلك التفاهم. ولذا أسرعت بريطانيا بعقد حلف مع اليابان لتدعيم مركزها في منطقة الشرق الأقصى. كما عملت في الوقت نفسه على إصلاح ذات البين مع فرنسا، كي تطمئن على سلامة مرور تجارتها أمام الشاطئ الإفريقي الشمالي.

... ورأت بريطانيا أن خير حل يمكن الوصول إليه لتسوية مشكلاتها مع فرنسا أن تتنازل لها عن حقوق لاتملكها في مراكش، في مقابل تنازل فرنسا لها عن حقوق بملكها في مصر بمقتضى الاحتلال. وكانت فرنسا مستعدة لقبول مبدأ التعويض. وبالفعل دارت المفاوضات في لندن بين اللورد لانزدون(lansdown) وزير الخارجية

(2774/1)

البريطانية وبين سفير فرنسا في بريطانيا. وكانت فرنسا مترددة في أول الأمر لإدراكها أن بريطانيا ستتنازل لها عن حقوق لاتملكها، في مقابل حقوق تمتلكها انتلاكا حقيقيا. ولكنها اقتنعت أخيرا بأن حقوق فرنسا في مصر – مهما كانت أحقيتها فيها – فقد تلاشت وعفى عليها الزمن، وأن من الأفضل لها أن تتطلع إلى اكتساب حقوق جديدة في بلاد أخرى على البحر

المتوسط نفسه.

... وطالت المفاوضات بين الطرفين بسبب رفض فرسا التسليم ببقاء الإنجليز في مصر لأجل غير محدود، وتمسك الإنجليز بأن تتنا زل فرنسا عن مطالبة بريطانيا بالجلاء عن

(1/2775)

مصر، وحسم الموقف بتوقيع الاتفاق الودي بين الدولتين في ربيع عام 1904، وفيه تركت فرنسا لبريطانيا حرية التصرف في مراكش. وبهذا الاتفاق اطمأنت بريطانيا على مركزها في مصر، وإلى تفوقها في البحر المتوسط، وقررت أن تكون الاسكندرية أهم قاعدة في البحر المتوسط للأسطول البريطاني.

... وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الأتفاق – وإن كان قد وضع حدا فاصلا للمعارضة الأوروبية للاحتلال البريطاني لمصر، إلا أنه لم يغير من مركز مصر السياسي، ففرنسا لاتستطيع لأن تعطي ما ليس حقا لها . ثم إن بريطانيا نفسها وافقت على عدم تغير

(1/2776)

مركز مصر، فهي لم تضم مصر إلى ممتلكاتها ، بل لقد اعترفت بأن كل ما لها في مصر هو حماية فعلية مستورة ومؤقتة. ولكن الاتفاق لم يلق اليأس في قلوب المصريين، فلم يعترف المصريون بالوضع الجديد، وازدادوا إيمانا بحقوقهم ، واستمساكا باستقلالهم معتمدين على أنفسهم أولا وأخيرا.

(2777/1)

التنوع المجالي؛ حتمية إعداد التراب من أجل التكامل بين الجهات في المغرب

... ... الدكتور عبد الله العوينة
... ... كرسي البيئة والتنمية المستديمة
... ... كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ الرباط

ملخص

... يعرف المغرب تنمية أكيدة، تتضح على واجهات عدة وفي قطاعات متنوعة. إلا أن اختلال التوازن بين جهات البلاد، نتيجة التمركز المفرط للأنشطة والسكان في المحور الأطلنتي الساحلي، وما يقابله من التهميش الذي

يصيب مناطق عدة، كالمجالات الجبلية والسهوب الشرقية، يطرح

(1/2778)

إشكالية تماسك النسيج الاجتماعي والمجالي.

... وفي الوقت نفسه تطرح في هذه المناطق المهمشة إشكالية الضغط المفرط على الموارد الطبيعية، بينما تعيش المجالات المركزية التي تستقبل الفلاحات العصرية والصناعة وحركة التمدن، إشكالية تلويث البيئة.

... لذا، فإن اعتبار لزوم تأهيل كل المجالات، بدمج مختلف القطاعات الاقتصادية، ومعالجة الاختلالات الترابية، والجواب عن كل مشاكل البيئة في تنوعها، وتفعيل الخصوصيات الثقافية .كل هذا يمثل السبيل الوحيد لبلوغ تنمية مستديمة حقيقية، ضمن التوازن والتلاحم الضروريين، في إطار

(1/2779)

من التكامل والتعاون.

مقدمة

... يهدف إعداد التراب إلى الرفع من القدرة التنافسية لبعض المجالات التي ظلت مهمشة، وذلك عن طريق تنمية مواردها وتحسين ظروف العيش بها، رغبة في تقليل الفوارق بين المجالات الجغرافية ومكونات المجتمع.

ويتماشى هدف الرفع من المستوى الإنتاجي مع مراعاة الاستدامة التي لا يمكن أن تتحقق إلا بحضور البعدين الاجتماعي والبيئي.

... ذلك بأن الاستدامة والاستمرارية تشمل أبعاداً متعددة. فضمنها أساساً بعد اقتصادي يتمثل في النماء والإنتاج، وهو هدف صار صعب التحقيق من دون الجمع بين تشجيع هام

(2780/1)

للاستثمار الخاص ومع مراعاة استمرار حضور قوي للدولة. وضمنها يحتل البعد الاجتماعي موقعاً أساسياً، لأن التقليل من الفوارق الاجتماعية يضمن تحقيق التوافق والتعاضد. والبعد الثقافي ضمان للتنوع. أما تطوير الموارد الطبيعية والحد من استهلاكها المفرط والحفاظ

على الأوساط البيئية وعلى التنوع الإيكولوجي، فهي أبعاد أساسية لضمان النشاط البشري. إلا أن كل هذا لا يمكن أن يضمن الاستدامة الفعلية إذا لم يتحقق داخل البلد الإعداد المجالي المتمثل في نوع من التوازن بين الجهات والأوساط، وفي تقليل الفوارق بين السهول

(1/2781)

المنتجة الخصبة والصحاري القاحلة والجبال الوعرة، وبين الأرياف والمدن، وبين الأحياء المركزية في هذه الأخيرة والأحياء الهامشية. بهذا التوافق والتوازن تضمن شروط النجاعة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية والاستدامة البيئية.

... أما مستويات إعداد التراب، فهي متعددة: فهناك مستوى التقسيمات الإدارية إلى جهات وأقاليم، وهو تقسيم يراعي في الوقت نفسه خصوصيات الطبيعة والتوزيع السكاني والعلاقات التاريخية وآفاق التطوير المجالي.

(1/2782)

... وهناك مستويات الإعداد المتكيفة مع طبيعة المشاريع والقطاعات، من أقاليم فلاحية أو سياحية أو صناعية. وما دام الإعداد مرتبطاً أساساً بالمشاريع، فإن هذا المستوى يعتبر إطاراً لتصور مستقبل المجالات الجغرافية ولتخصيص التدخلات المتعلقة بها.

... ولضمان نجاح سياسة الإعداد هاته، هناك العديد من الأدوات القادرة على توجيه المشاريع والاستثمارات، من أهمها الحوافز الجبائية والمؤسساتية والمخططات التوجيهية. لكن إرساء الديمقراطية المحلية الفعلية يمثل أجدى سبيل لبلوغ هذا الهدف، إذا ما عممت لجن مؤسساتية للتشاور

(2783/1)

تضمن التوافق على مشروع مجتمعي يضمن التوازن والنماء. وهنا تظهر أهمية التشاور الوطني، عبر إقامة حوار بين المتدخلين والمهتمين على عدة أصعدة، لبلوغ تحضير ميثاق وطني موحد، يطرح القواعد الأساسية والاختيارات الكبرى والأولويات ويتصور الأدوات من أجل بلوغ الأهداف الكبرى المخططة.

... في هذه المحاولة، سنسلك خطتين:

... .الأولى: قطاعية، تهتم بالسياسة الفلاحية وضرورة

تنطيقها وأقلمتها من أجل الوصول إلى النجاعة الإنتاجية الضرورية.

(1/2784)

... .الثانية: مجالية، تبين حتمية تنمية أحد الأوساط الهامة، وهو الوسط الجبلي، لضمان تكامل وتعاضد مع السهول النامي.

...

1 .التناول المجالي لسياسة التنمية الفلاحية: التنطيق الفلاحي

... لقد عبر المغرب عن توجه مستقبلي نحو نظام الجهوية، وانطلق في تطبيق أسس اللامركزية التي تمثل إحدى أولويات البرنامج الحكومي. كما عبر عن ضرورة البحث عن توازن مجالي مبني على إعداد محكم للتراب. لذا أصبحت السياسات القطاعية المتعلقة بالفلاحة والتنمية القروية ملزمة بأن تنحو نحو الأقلمة والتنوع، على أساس تقسيمات ترابية تخضع

(1/2785)

لمنطق خاص وتتفاعل في إطار سياسة أشمل مع التقسيمات الأخرى التي تخضع لمسببات اقتصادية أو ديموغرافية أو سياسية. وتسمح المقاربة المجالية للفلاحة بتصور تدخلات وتخطيطات متكيفة مع تنوع الواقع المجالي، أي مع معايير طبيعية وبشرية محددة، ومع الوضع الحالي للموارد، آفاق تنميتها.

... ولتحديد استراتيجية للتنمية الفلاحية، من الواجب التكيف مع تنوع الاستراتيجيات المحلية التي تنبني أساساً على معايير تحددها الإمكانات والعوائق الطبيعية، لكنها ترتبط كذلك بأنظمة الإنتاج الفلاحي وبالمحيط البشري.

(2786/1)

... وتختلف هذه المعطيات حسب الأقاليم، الأمر الذي يعطي إمكانات إنتاج متفاوتة. كما أن آفاق التطوير، وإمكانات الرفع من الإنتاج وتحسين ظروفه، لا تتساوى من إقليم لآخر. فكل منطقة فلاحية تحتوي على ظروف معينة، تسمح لها بتوجه خاص بها. ولذا، فالخيارات التقنية ليست واحدة. بل من اللازم القيام بها على أساس إقليمي؛ كذلك من اللازم تكييف قانون الاستثمارات الفلاحية مع الحاجيات والاختيارات

الإقليمية.

... وتمثل المقاربة المجالية للفلاحة طرحاً آخر للإشكالية الترابية، ينطلق من إمكانات كل مجال على المستوى الفلاحي

(1/2787)

ومن الأنظمة الفلاحية التي طوّرها الإنسان داخل هذه المجالات. وينفتح على آفاق تنمية فلاحة هذه المجالات، وذلك بسن سياسة فلاحية متكيفة من جهة ومندمجة من جهة أخرى. إضافة إلى ذلك، تسمح هذه المقاربة بالوصول إلى الإدماج، وذلك يجعل كل مجال يستقبل البرمجة التي تحددها كل القطاعات الفلاحية، ويدمجها بعضها مع بعض في تصور شمولي توجيهي، يعطي لكل قطاع حقه ويؤسس لخلق ظروف من التكامل بين القطاعات.

... والأكيد أن فلاحة المغرب متنوعة، بل تتسم بالتمايز على مقاييس عدة:

(1/2788)

... . فهناك التمايز الواسع الآفاق، على مستوى مجموعات كبرى، يحسم في تحديدها عاملان: العامل الطبيعي المرتبط بظروفها المناخية والتضاريسية والأحيائية، والعامل الفلاحي الذي يتمثل في الأنظمة الزراعية الغالبة في كل مجال، والتي تعتبر نتاجاً لتفاعل الإنسان عبر الأجيال المتتالية، ولتكيفات متلاحقة مع وسط بيئي ما. هذه المجموعات الكبرى عددها محدود ومساحة كل واحدة منها كبيرة، والتنوع الداخلي ضمنها مهم. ولذا، فإنه من الصعب اعتبارها المقياس الصالح لتخطيط توجهات متميزة للسياسة الفلاحية.

(1/2789)

... . وهناك التمايز الدقيق، الذي يمثل الواقع المعيش الجلي في الميدان والعميق لما يحتويه من حمولة سوسيولوجية. وهو التمايز بين الوحدات الفلاحية الصغرى. ويعتبر هذا المقياس مقياس الإدماج الفعلي؛ إذ تتسم هذه الوحدات بانسجام داخلي كبير، يراعي الظروف الطبيعية والنظم الفلاحية معاً.

... لكن المقاربة المجالية تحتاج إلى مقياس وسيط بين مقياس المجموعات الكبرى الإيكولوجية والوحدات الصغرى الفلاحية. ذلك بأن الغاية ليست البحث عن

تقسيم مجالي يندرج ضمن وحدات »متخصصة«، وإنما الغاية هي البحث عن الاندماج. وهذا يتطلب

(1/2790)

العمل بمقياس مجالي متوسط، في إطار وحدات تتبناها كل القطاعات الفلاحية، ويحدد كل قطاع استراتيجيته دون إغفال هذا البعد الأساسي، لأنه يسمح بتلاقي وتوافق مختلف الاستراتيجيات القطاعية على أرض الواقع.

... تمثل المجموعات الإيكولوجية ـ الفلاحية المستوى الأول لتنطيق الفلاحة، لأنه يقسم البلاد إلى نطاقات كبرى أو مجموعات إيكولوجية ـ فلاحية. وهي المجالات المعهودة والمبنية على أساس تركيب خرائط معدة للمؤشرات الطبيعية والبشرية، تلك التقسيمات التي كانت القاعدة في تصور مجموعة من السياسات الفلاحية الكبرى.

(1/2791)

... . تتحدد الجبال بمؤهلاتها الغابوية والرعوية، إضافة إلى إمكانات إنتاج مواد فلاحية خاصة وذات قيمة عالية. وترتبط هذه المؤهلات بطبيعة الجبال، التي تتميز بارتفاع مقادير وتيرة التهاطل، مقارنة مع السهول المجاورة، وبوفرة المياه. كما ترتبط بتراكم حضاري في عدد من المجالات الجبلية سمح بتكوين رصيد من التقنيات والمهارات التي تمثل تراثاً لا يعوض. لكل هذه الأسباب، فإن الاستراتيجية الفلاحية الخاصة بهذا النطاق تنبني على هدفين متكاملين: تكثيف الإنتاج ذي القيمة المضافة العالية في المواقع الأكثر مؤهلات، والعمل

(1/2792)

على الحفاظ على البيئة وإعادة تأهيل الموارد في كل المواقع الأخرى، حيث تزداد الحساسية والهشاشة.

... . تمثل السهول والتلال شبه الرطبة والتي تتلقى تساقطات كافية لإنتاج بوري منتظم، مناطق محظوظة، لأنها في الوقت نفسه تحتوي على أتربة خصبة أو قابلة للتحسين. هذا المجال، بالرغم من تجانسه الطبيعي، يعرف تمايزاً في التاريخ الفلاحي، إذ يتم فيه التفريق بين أراضي قديمة الاستيطان والاستغلال (مثال تلال

مقدمة الريف) وأخرى ظلت مجال تنقل للرعاة إلى بداية هذا القرن (مثال الغرب ومنطقة زعير). إلا أن ما ميز القرن

(1/2793)

العشرين هو المجهود الهام الذي عرفته هذه المناطق من أجل تهيئتها واستغلال مواردها وتطوير الإنتاج بها. وهذا ما يفسر الكثافات البشرية العالية في أرياف هذه المناطق. كما أن هذه المجالات تتمركز بها أكبر مدن المغرب. لذا لا يجب إغفال الدور الكبير الذي تؤديه هذه الحواضر في علاقاتها بفلاحات هذا النطاق. وتنبني السياسة الفلاحية في هذا النطاق على تطوير الفلاحة البورية وتنويع المنتوج والرفع من المردود، لكنها لم تغفل الدور الذي يلعبه السقي في التكثيف والتنويع، استجابة لمتطلبات التجمعات الحضرية الكبرى.

(1/2794)

... . تغطي السهول والهضاب شبه الجافة والجافة مجالات واسعة في المغرب الأطلنتي والمغرب الشرقي. إلا أن

التدرج في ظروف المناخ (من شبه الجاف إلى الجاف) وفي وفرة المياه وإمكانات تحويلها، وفي طرق تكيف المجموعات البشرية مع الظروف الطبيعية .كل هذا سمح بالتفريق بين ثلاثة أنواع من المجموعات الإيكولوجية الفلاحية داخل هذا النطاق الواسع.

... .مجموعة الهضاب شبه الجافة تمثل أراضي تتلقى أقل من 400 مم (بل أقل من 350 في كثير من أجزائها)، إضافة إلى تفاوت سنوي مرتفع. وهي مجالات تربتها محدودة، بسبب بروز القاعدة

(1/2795)

الصخرية في الكثير من السطوح. لذا، فإن الرقعة الزراعية تنحصر في بعض المساحات الخاصة، مع محدودية كبرى للموارد المائية.

... .مجموعة الهضاب والسهول السهوبية أكثر جفافاً من المجموعة السابقة (أمطار بين 100 و300 مم)، إضافة إلى وضع قاري يرفع من حرارة الصيف، ويجعل من برودة الشتاء عائقاً إضافياً.

... في هاتين المجموعتين، تحتل الزراعة بعض المواقع، وتنمو محلياً بسبب تمديد الري. لكن الاستراتيجية التنموية تعتمد أساساً على تطوير الرعي بأشكال

مختلفة حسب الظروف، مع البحث عن إدماج الزراعات في هذا السياق، لتكون

(2796/1)

منسجمة مع الهدف الرعوي الأساسي.

... .وتنفرد داخل هذا النطاق الجاف ونصف الجاف، مجموعة من المناطق لها الخاصيات المناخية نفسها، وهي ضعف التهاطلات السنوية وارتفاع التفاوت السنوي. لكنها تتميز بظرفين هامين سمحا بإقلاع الفلاحة فيها، ألا وهما: امتداد المساحات الزراعية الخصبة التربة من جهة، وتوافر إمكانات مائية عبر تحويل مياه أنهار كبرى من جهة ثانية. هذا التظافر كان الأساس في تطوير فلاحي خلق في مجالات جافة، قطاعات سقوية ممتدة، متنوعة المنتوج ومرتفعة الإنتاج. ويمثل انتظام المورد المائي تأميناً يسمح

(2797/1)

بتصور استراتيجيات زراعية ورعوية أكثر تكيفاً مع حاجيات الأسواق.

... .المناطق الجنوبية مجال فلاحي تنبني استراتيجية تطويره على تنمية الموارد الرعوية والحماية من التصحر من جهة، وعلى تقوية منتوج الواحات من جهة ثانية. لذا كان من اللازم التفريق بين المناطق القريبة من الصحراوية والصحراوية، حيث تمتد الواحات على رقعة واسعة، سامحة بخلق رصيد زراعي وكثافات بشرية هائلة في مراكز تتمحور حول الأودية الأطلسية، ومناطق صحراوية أخرى تتباعد فيها الواحات وتقل امتداداً بسبب ندرة الموارد.

(2798/1)

... هذا التحديد السريع للنطاقات الفلاحية يبين بكل وضوح تنوع الواقع الفلاحي وضرورة اندراج السياسة الفلاحية تبعاً للظروف الطبيعية ووفرة الموارد وإمكانات تطوير هذه الموارد.

... إلا أن مقياس النطاقات لا يمثل الحجم الفعال لتوجيه السياسة الفلاحية، لأن النطاقات تخرج كلياً عن الحدود الجهوية وتتخطاها. فالنطاق الجبلي موجود من شمال المغرب إلى جنوبه، والسهول ذات الإمكانات السقوية العالية موجودة على الواجهتين الأطلنتية والمتوسطية.

لذا كان من الواجب تصور وحدات من حجم أقل، لها وحدة جغرافية من حيث الموقع،

(1/2799)

تتميز بالاستمرارية من حيث المجال وتتسم بمؤهلات متجانسة نسبياً.

... أما التحديد الإقليمي للوحدات المجالية ـ الفلاحية، فهو ينبني أولاً وأساساً على مفهوم جغرافي، وهو مفهوم الإقليم المتصف بمجموعة من الأوصاف العامة، تشخصه عن الأقاليم المجاورة، وتتآلف حول مفهوم «المؤهلات الغالبة». والمعول أن تحدد السياسات المتكيفة مع هذه المؤهلات الأساسية لكل وحدة.

... الهدف الأول من هذا التقسيم هو الإدماج الأفقي للسياسة الفلاحية للاستجابة للحاجيات المرتبطة بعضها ببعض فيما بين القطاعات المختلفة، داخل كل إقليم. ذلك

(1/2800)

بأن النظام الإنتاجي هو حصيلة لقطاعات متعددة ولا يمكن تصورها معزولة بعضها عن بعض.

... الهدف الثاني هو التكيف مع تنوع الظروف الإقليمية، باعتبار الإمكانات والعوائق وباعتبار نظام الإنتاج، وذلك بتصور اختيارات تكنولوجية متنوعة، وبنيات تأطير وتوجيه متكيفة مع الطلب والحاجيات، وقوانين استثمار تسمح بتشجيع المؤهلات الغالبة والاختيارات الأساسية.

... والهدف الثالث هو الاندماج داخل السياسة العامة، التي ترمي إلى اللامركزية الجهوية، بسن ميكنزمات جديدة للبرمجة تتم في إطار الجهات وفي توزيع حقيقي للمسؤوليات.

...

(2801/1)

---

2 ـ المجالات الجبلية: تهميش اقتصادي وتدهور بيئي

... لقد أدت الجبال في شمال إفريقيا دوراً أساسياً على المستويات الاقتصادية والسياسية والثقافية. وهي تمثل الآن ذخيرة بيولوجية وتراثاً اجتماعياً، من المستعجل تنميته قصد تخطي أشكال الانزواء الذي صار يعيشه المجال الجبلي منذ الحماية الأوروبية.

... وتحتوي الجبال على تنوع هائل في أشكال استعمال التربة والثروات، وغالباً على كثافة في الاستيطان والاستغلال، مع تكيفات عجيبة إزاء متطلبات البيئة وحدودها. وقد ساد هذا الوضع قبل الحماية مع توازنات بيئية حصل عليها

(2802/1)

الإنسان بفضل استصلاحات متقنة. إلا أن هذا التوازن هش، تهدده باستمرار كل الطوارئ التي تنتج عن تحولات عنيفة هي نفسها متزنة، تراعي هشاشة البيئة. فقد كان هذا الاقتصاد يعتبر اقتصاد قلة، ينبني على الاستهلاك الذاتي للثروات المحلية، وعلى بعض المداخيل الخارجية. ومن بين هذه المداخيل الخارجية تجارة صغرى مع المجالات السهلية المجاورة.

... فالمجال الجبلي مجال طبعه الإنسان بطابع خاص بفضل مجهودات متواصلة تهدف إلى التحكم في القوى الطبيعية وإلى تدبير متزن للموارد. ولذا من الممكن الحديث عن حضارة زراعية ورعوية تخطت

(2803/1)

الصعوبات البيئية واعتمدت أساساً على المورد البشري، أي على إبداعية وروح خلاقة تمكنت من ابتكار الحلول الملائمة، وتنظيم اجتماعي محكم، به تقنين داخلي واتفاقات شفوية هدفها استمرار النشاط وتواصل الاستغلال.

... وتعيش هذه الحضارة اليوم أزمة تهميش، يتمثل أحد مظاهرها في تدهور الموارد والاتكال على الموارد الخارجية إضافة إلى الهجرة.

... وقد سعت عدة تجارب إلى حل معضلة الجبال دون أن تنجح في ذلك

... يعتمد النظام التقليدي على حرية ولوج الموارد الطبيعية واستغلال جزء منها، مع تقنين جماعي لهذا الولوج. وأتت

(2804/1)

قوانين الغابة بعد التعمير الأوربي لاقتطاع المجال الغابوي من المساحة الجماعية مع ضبط إمكانات استغلالها؛ كما عمل التعمير على الحد من مجال تحرك القبائل، وذلك بالاستيلاء على أجواء الأراضي التي كانت تمثل أراضي تكميلية.

... وبينما ألحت المشاريع الأولى للإعداد على هدف الحدّ من

التدهور، صارت الأهداف الإنمائية في المقدمة ابتداء من الثمانينيّات؛ كما أن محاولة احتواء التعقيد الملاحظ في الأوضاع السوسيولوجية وإشراك السكان في مشاريع التهيئة مثلت تقدماً كبيراً، وأصبحت أهداف الرفع من الإنتاج عن طريق سن تقنيات

(2805/1)

جديدة تثير انتباه السكان وتضمن اهتمامهم.

... وقد كان النظام الجماعي هو السر في نجاح هذا الاستغلال المتزن للثروات حيث يسمح التقنين، المبني على تقاليد ومعاهدات شفوية غابرة في القدم، بوضع المنهاج المتقن الذي يسير عليه استعمال الثروات المتوافرة. كما ترتكز الحضارة الزراعية والرعوية الجبلية على الثروات البشرية، أي على إبداعية السكان وروحهم الخلاقة.

... ويلاحظ الآن أن هذا التوازن الهش قد تم تحطيمه، حيث تعرف جبال شمال إفريقيا مرحلة تراجع سريع تتضح على مستويات عدة: فالغابة صارت لا تغطي إلا بقعاً محدودة

(2806/1)

يتقلص مجالها بسرعة مهولة، وآليات الانجراف تقتلع التربة وتحفر في الركائز الصخرية؛ بينما صارت مياه الأنهار محملة بالأطنان من المواد الفتاتية التي تتراكم في السافلة عند قدم الجبال أو في بحيرات السدود، مهددة بذلك إمكانات الزراعة والثروات المائية القابلة للتعبئة. هذه الأزمة الحالية لها خلفيات اقتصادية واضحة. ومن العسير استصلاح المجال الجبلي من جهة، ومجال سهول قدم الجبال من جهة أخرى، دون التفكير في ظروف هذه الأزمة ودون وجود حلول ملائمة لها.

(2807/1)

... وينشأ عن التدهور التدريجي لظروف البيئة فقدان لا رجعة فيه لعدد من الثروات يمكن أن تعتبر صعبة التجديد. والجبل محكوم عليه بأن يصبح غير قادر على منح التغذية الكافية لسكانه، خاصة وأن هؤلاء يعرفون تزايداً ديمغرافياً هاماً. فهل صار الجبل محكوماً عليه بأن يطرد سكانه ليصبح فارغاً بسبب تضاؤل الإمكانات؟

... لقد كانت هذه التهديدات السبب في الإحساس الذي

أعرب عنه المسؤولون بضرورة استصلاح المجالات الجبلية، لبلوغ الهدفين:

(2808/1)

.هدف وقاية السافلات، أي العمل على توفير الظروف لخزن أكبر الكميات الممكنة من الماء، خاصة وأن بعض بحيرات السدود بدأت تشكو من مشكلة التحول والنقص من إمكانات التخزين.

.هدف وقاية العاليات، أي العمل على الحفاظ على أتربة السفوح من الضياع، وعلى الإمكانات الإنتاجية لهذه الأراضي المنحدرة، بل تقويم مسلسل التدهور وفي الوقت نفسه تحسين ظروف عيش السكان بضمان إنتاجية عالية أكثر.

... وفي هذا الإطار تم القيام بالعديد من التجارب الإنمائية والاستصلاحية بمساعدة منظمات دولية، وخاصة منها منظمة التغذية والزراعة

(2809/1)

والبنك الدولي. لكن يمكن القول، بعد 30 سنة من التجارب، إن انجراف التربة في الجبال لم يُتحَكَّم فيه بعدُ بل ما زالت آثاره في تفاقم وتهديداته في تزايد.

... يعزى هذا إلى أن مشاريع استصلاح الأحواض التصريفية الجبلية كان الهدف الأول منها التقليل من عامل الانجراف لحماية السافلة، وخاصة التجهيزات المائية والكهربائية، ولم تهدف أساساً إلى التنمية الإقليمية المتوازية للجبل. وظلت جل الاستثمارات الرسمية موجهة للتجهيز المائي، بينما بقيت المرتفعات الجبلية مهمشة ومنزوية. ومنذ أن ظهرت بوادر النقص في إمكانات

(2810/1)

التغذية المائية على المستوى الوطني، بدأ الإحساس بلزوم الاهتمام بالمجالات الهامشية.

... من جهة أخرى، يجب الإشارة إلى أن سياسة استصلاح الجبل تمت في إطار عام غير محكم، حيث كان هذا المجهود التنموي في تناقض نسبي مع التوجهات والاختيارات الأساسية للاقتصاد.

... فمثلاً، لم يكن من الممكن التقليل من اقتلاع الخشب للوقود، ما دام الغاز خاضعاً لضرائب باهظة تجعل استعماله مستحيلاً على ساكني الجبل الذين ليست لهم

إمكانات مالية. أما الزراعة الجبلية التي تكون مداخيل أساسية لسكان المرتفعات، فإن تنميتها عن طريق

(2811/1)

تكثيفها في مجالات ضعيفة متكيفة تكون مستحيلة إذا لم تستخدم المياه لسقيها، بينما نجد كل الثروات المائية تسخر لتغذية السافلة؛ ولا يمكن تكثيف هذه الزراعة إلا إذا تم الحد من منافسة زراعية السهول لها. ... ومن ثم تبقى مختلف الحلول المقترحة على فلاحي المجالات الجبلية بهدف توقيف الاستغلال الجائر للثروات والحد من التعرية حلولاً غير مرضية حتى الآن. فغرس أشجار الزيتون لا يمكن نشره على مجالات واسعة، ما دامت أثمان بيع زيت الزيتون لا تستفيد من المساعدة التي تحظى بها الزيوت الأخرى. والتدجين للحد من تنقل

(2812/1)

الماشية على السفوح يتطلب .بالضرورة .التوفر الكافي على مواد علفية وبثمن مناسب. ولذا نلاحظ أن الجبل عادة ما لا يبدي تقبله لهذه الحلول المقترحة.

... هذه الحلول عادة ما تقترحها وتنفذها إدارة المياه والغابات، بينما السلطات المحلية لا تعتبر إلا أداة اتصال. أما المؤسسات التقليدية الجماعية والتي ما زالت فعالة في العديد من جهات الأطلس، فهي لا تعتبر شريكاً أبداً، بينما تعرف أنها هي التي كانت تشرف على استغلال الثروات الطبيعية في الماضي، وذلك بتطبيقها لنظام عقوبات لكل ما يخالف هذه القواعد.

(2813/1)

... ويكمن الحل الحقيقي في استصلاح شمولي يضم التدابير المتخذة في السافلة لحماية الخزانات المائية والتدابير الخاصة بالعالية، والتي يجب أن تهدف في الوقت نفسه إلى التنمية الاقتصادية والاجتماعية لسكان الجبل، وإلى الحدّ من عمليات انجراف التربة. فلا يمكن أن تتخيل نجاحاً للسياسة الوقائية من الانجراف في غياب مساهمة فعالة للسكان؛ ومساهمة هؤلاء لا يمكن ضمانها إذا ما غاب إحساسهم بأن التدخلات هي في صالحهم المباشر.

(2814/1)

... إن استصلاح المرتفعات الجبلية ووقاية أراضيها من خطر الانجراف يقتضي عدداً من التدابير والظروف:

... .مساهمة السكان. ولهذا الغرض، لابد من تكييف الإطار المؤسساتي الذي تتم من خلاله التدخلات؛ وذلك يجعلها تصدر عن إطار تنظيمي إقليمي أو محلي، وبتقوية المؤسسات التمثيلية للجماعات المحلية.

... .اهتمام السكان بهذه السياسة رهين بارتباط التدخلات الرامية إلى الحد من التعرية بمجهود تنموي حقيقي وتحسين فعلي لمستوى عيش السكان. وهذا يقتضي، بالإضافة إلى تحسين الإطار الاقتصادي العام وتكييفه، إشراك سكان الجبل في

(2815/1)

الأرباح الناجمة عن عمليات توقيف الانجراف التي سيتمتع بها سكان السافلة أساساً، أي مستعملو مياه السقي انطلاقاً من السدود، ومستعملو الماء الشروب. فالمجهود اللازم لإيقاف الانجراف سيقوم به سكان الجبل، بينما ستعود الفائدة الكبرى على سكان السهول. لذا فمن الواجب إشراك العالية في الفوائد، خاصة وأنهم فقدوا ثروات كانت لهم الحرية في استغلالها، كحرية التنقل داخل الغابة مثلاً. ويشكّل

الحدُّ من هذه الحرية خسارة لسكان الجبل يجب أن يعوضوا عنها، وذلك بإعطائهم مجموعة من الإعانات مثلاً.

(2816/1)

... والهدف الأسمى أن يكون الحفاظ للجبل على دور اقتصادي فعال، وعلى حيوية اجتماعية وثقافية حقيقية. وللحصول على هذا الهدف، لا ينبغي حصر التدخل في الجبل وحده. بل لابد من البحث عن حلول شاملة، تجعل السهول تساهم في المجهود لتنمية المالية، والعكس. كما أن الحلول التقنية المحضة في هذه الأوساط الهشة قلما تؤتي أكلها، وخاصة إن كانت مستوردة وغير متكيفة. ويتمثل الحل الصحيح في الانطلاق من الوسائل المحلية والتلقائية التي يملك السكان مفاتيح التحكم فيها.

...

خاتمة

(2817/1)

... يمكن تلخيص إشكالية الجبال في ثلاثة رهانات كبرى مترابطة فيما بينها هي:

الرهان المجالي، وينتج عن تفاوت واضح، بل تناقض صريح، بين تقدم تجهيز ونماء المجالات السهلية والسواحل من جهة، وتأخر الجبال من جهة ثانية.
الرهان الاقتصادي، ويتضح في ضآلة استغلال واستثمار الموارد الضخمة التي تزخر بها الجبال، الأمر الذي يؤدي إلى ضعف الإنتاج ومحدودية فرص الشغل. بل لا تجد الواردات المالية الخارجية نفسها الإطار المحلي لاستثمارها. لذا نجد النزعة الحالية نحو الهجرة والتخلي عن القرى النائية، وبالعكس توسع المدن التي

(2818/1)

تستقبل السكان المهمشين.
الرهان البيئي، ويتمثل في ضياع العديد من الموارد، وتدهور أوساط بيئية، وفقدان تراث إيكولوجي وثقافي. ومن أخطر ما يصيب الجبل تناقص الكميات المائية التي يزود بها السهول المجاورة، الأمر الذي يطرح إشكالية مستقبل هذه المجالات النامية نفسها.
... وتطرح هذه الرهانات مجتمعة إشكالية الجبل بصفتها

قضية وطنية تستدعي سياسة واضحة واردة أكيدة، معبراً عنها على مستوى عالٍ. ومن الواجب أن تعترف هذه السياسة بخصوصية هذا المجال، وهو ما يقتضي القبول بقوانين متكفية، تهدف إلى تعويض العوائق عن طريق

(2819/1)

حوافز جبائية وإعانات مالية في إطار من التلاحم والتعاضد بين الجبل والسهل وبين أجزاء الجبل المختلفة. والغاية من ذلك هي السماح بانطلاق استثمارات فعالة في المجال الجبلي.

... والتناول الهادف هو ـ في الوقت نفسه ـ إراديّ، إذ يترك المجال واسعاً لتدخل الدولة، وتشاركيٌّ، لأنه يتجنّد له الجميع من منتخبين ومستثمرين وإداريين. كما أنه تناول مندمج، يتماشى مع مختلف الخطط والتصاميم القطاعية، في ميادين الفلاحة والغابات والمياه والتعمير...

(2820/1)

... وهكذا يكون للطرح الجبلي بعدُ إعداد التراب وبعدٌ تنمويٌّ. وينبني الطرح الأول على إدماج الجبل والسهل في إطار تعارف خلاق، بينما يستدعي الطرح الثاني ضبط الفاعلين الاقتصاديين والتعاون معهم في نظام مؤسساتي متوازن.

...

...

(2821/1)

التواصل الثقافي بين المغرب وبلاد شنقيط قراءة في مقررات المحظرة ورحلات العلم خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين

... ... الأستاذ محمذن ولد المحبوب

... ... انواكشوط ـ موريتانيا

... نود في هذا البحث أن ننبه إلى بعض الروابط الثقافية التي جمعت بين بلاد شنقيط ومناطق المغرب الأقصى، ساعين في تلمس قنوات العلم وصلات المعرفة التي ربطت بينهما، مبيّنين مختلف العلاقات المعرفية التي ربطت بين المنطقتين حيث كانت المؤلفات المغربية

من أسس المقررات في المحظرة الموريتانية. ثم إن الشناقطة

(2822/1)

كثيراً ما يرتحلون إلى المغرب، أو يمرون به في رحلاتهم إلى الحج. فقد تلبثوا هنالك غير يسير، محاورين نظراءهم من العلماء، محاولين الإفادة والاستفادة، مراوحين في الوقت نفسه بين الأخذ والعطاء، والتقبل والإلقاء. فمتى امتدت ينابيع المعرفة والحكمة بين البلدين؟ وبأي طريقة استطاع العلماء نسج تلك العلاقات الثقافية المتميزة؟ وكيف كان عاقبة سعي هؤلاء؟ ثم من الوجوه الثقافية التي فعلت فعلها في هذا التحاور الثقافي؟

(2823/1)

... ذلك ما سنحاول الإجابة عنه في هذه الصفحات مقسمين الموضوع إلى قسمين: في أولهما نعرض لبوادر الاتصال وللمقررات المحظرية، وفي ثانيهما نتناول رحلات العلم.

أولاً: بوادر التواصل والمقررات المحظرية

أ ـ بوادر التواصل

... ولا بأس أن ندشن هذا التواصل بتلك الصَّرخَةِ المدوية التي أطلقها القائد يحيى بن إبراهيم الكدالي(1)

---

(1) هو يحيى بن إبراهيم الكدالي، قيل إنه حج سنة 440 هـ، وفي كتاب "التشوف" ما نصه: »... من أهل السوس الأقصى، رحل إلى القيروان، فأخذ عن أبي عمران الفاسي. ثم عاد إلى السوس، فبنى داراً سماها بدار المرابطين«. وفي تاريخ حجه السابق، نظراً لأن بعض المؤرخين ذهب إلى أن أبا عمران توفي سنة 430 هـ

(2824/1)

، وهو بالقيروان مستنجداً بمعارف أبي عمران الفاسي(1)، وذلك حين قال:

... .. ما لنا علم من العلوم ولا مذهب من المذاهب لأننا في الصحراء منقطعون، لا يصل إلينا إلا بعض تجار جهال حرفتهم البيع والشراء، ولا علم عندهم، وفينا قوم يحرصون على تعلم القرآن وطلب العلم ويرغبون في التفقه في الدين لو وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فعسى ـ يا سيدي ـ أن تنظر لنا من طلبتك من يتوجه معنا إلى

بلادنا ليعلمنا ديننا (2)

---

(1) هو أبو عمران الفاسي، فقيه تونسي لقيه يحيى بن إبراهيم الكدالي أثناء حجه وأحاله على تلميذه وجاج اللمطي.

(2) "الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية "، لرجل مجهول من أهل القرن الثامن الهجري، حققه الدكتور سهيل زكار وعبد القادر زمامه، دار الرشاد الحديثية، ط 1، 1975، صص. 19 ـ 20.

(2825/1)

.

فاستجاب أبو عمران لهذا النداء وأحال الرجل على تلميذه وجاج بن زلو اللمطي الذي انتدب له الفقيه عبد الله بن يس الجزولي(1)، مؤسس الرباط ومدشن أول حلقة تدريسية بالبلاد حسب المعلومات المتوافرة إلى يوم الناس هذا. ولا ننسى أن الأمير أبا بكر بن عمر اصطحب معه في عودته من المغرب الإمام أبا بكر محمد بن الحسن الحضرمي (ت 489 هـ) والفقيه إبراهيم الأموي الذي كان معلماً وقاضياً في مجلس الأمير(2)

---

(1) هو عبد الله بن ياسين الجزولي القائد الروحي لحركة المرابطين. (ت 451 هـ).

(2) المختار بن حامد، الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب، 1990، ص. 5.

(2826/1)

، وهؤلاء الثلاثة هم أصل انتشار العلوم الدينية في قبائل موريتانيا في ذلك العهد. ثم جاء الشريف عبد المؤمن، مؤسس قرية تيشيت وجد شرفائها المعروفين، ومعه الحاج عثمان، أحد مؤسسي قرية وادان، وكانا قرآ على القاضي عياض المتوفى في مراكش سنة 554 هـ؛ فانتشر عنهما العلم واتسع نطاقه(1). وبذلك نعلم أن الفضل في التئام الحصص الدراسية الأولى بالربوع الشنقيطية يرجع إلى أهل المغرب الذين ظلوا على مر الأيام يمدون هذه البلاد بنافع العلم ونادر الحكمة. فقد وصلت المؤلفات المغربية إلى الساحة

---

(1) المرجع السابق، ص. 6.

(2827/1)

الشنقيطية في وقت مبكر وفي مقدمتها رسالة "الأجرومية"، وإن كنا لا نعلم بالتحديد تاريخ وصولها إلى البلاد. إلا أن المعلومات المتوفرة تشير إلى أن أول إشارة إليها ترجع إلى أواسط العقد الرابع من القرن العاشر، حيث ذكر البرتلي في كتابه "فتح الشكور" »أن عبد الله بن محمد الغيث المحجوبي (ت 937 هـ) قد شرح "الأجرومية"«(1). ومعنى ذلك أن هذه الرسالة النحوية كانت حاضرة في الدرس الشنقيطي منذ فترة. فمن المفترض ألا يتم شرحها إلا بعد التمكن منها

---

(1) البرتلي، فتح الشكور، دار الغرب الإسلامي، الرباط، 1981، ص. 28.

وتقبل الناس لها؛ فلعلها وصلت البلاد في القرن التاسع الهجري، فظلت على مستوى المقررات والدرس، ولم تمتد إليها أنامل العلماء للشرح والتعليق إلا ابتداء من التاريخ المذكور. والعلم عند الله. ومن كتب النحاة المغاربة التي بلغت إلى البلاد في هذه الفترة كتب المكودي (ت 807 هـ)، خاصة شرحه لـ"ألفية". وكتابه "التبسيط والتعريف في فن التصريف" اللذين قدم بهما

محمد سعيد بن تكدي اليدالي (1)

---

(1) عالم شنقيطي من قبيلة اليداليين. عاش في القرن العاشر الهجري، وارتحل إلى جنوب المغرب، وجاء بمكتبة تضم بعض الكتب النحوية، خاصة "شرح المكودي على الألفية".

(1/2829)

في رحلة عودته من المغرب. وقد كان "شرح المكودي على الألفية" من مراجع المختار بن بونه في كتابه "الجامع بين التسهيل والخلاصة المانع من الحشو والخصاصة". فهو يقول في طرته ناقلاً عن المكودي قوله: »ورد علينا تلميذ من أهل العراق ينشد بيتاً ثامناً للخطبة، وهو (1):

فما لعبد وجل من ذنبه

غير دعاء أو رجاء ربه«.

... بعد هذه الفترة، توافدت على الساحة الشنقيطية مؤلفات الفقهاء المغاربة، وخاصة "منظومة ابن عاشر"،

و"النهاية والتمام في

---

(1) مقابلة مع العالم محمدن الزايد ولد ألما، بتاريخ 2000/05/20 في انواكشوط

(2830/1)

معرفة الأحكام" للمتيطي، و"شفاء الغليل" في حل مقفل خليل لابن غازي، و"الطرر" لأبي الحسن الطنجي، و"النوازل" للهلالي. وذلك ما أوضحه النابغة الغلاوي(1) في منظومته المعروفة بـ »بوطليحة« والتي طبعت بالمطبعة الملكية بفاس (1282 هـ/ 1865 م). يقول(2):

ورجحوا ما شهر المغاربة
واعتمدوا المتيطي والزواوي
واعتمدوا الطرر لابن الأعرج
واعتمدوا نوازل الهلالي

---

(1) النابغة الغلاوي (ت 1245 هـ)؛ عالم موريتاني جليل له عدة منظومات.

(2) النابغة الغلاوي، نظم بوطليحية، تحقيق يحيى بن البراء، 1996، ص. 75.

(2831/1)

والشمس بالمشرق ليست غاربه

كذا ابن سهل عند كل راوي

وطرر الطنجي غير بهرج

ودره النثير كاللّإلي

ب .المقررات المحظرية

... ولنأخذ الآن في الحديث عن حضور المؤلفات المغربية في المقررات الشنقيطية، متتبعينها حسب المادة والاختصاص، متناولينها عبر النقاط التالية:

...

.القرآن وعلومه

... ومن أبرز الكتب المغربية المقررة في علوم القرآن "الدرر اللوامع في أصل مقرإ الإمام نافع" لعلي بن محمد بن بري.

... فقد أشار أحد الباحثين إلى أن هذا الكتاب كان معتمداً ومتداولاً بشكل كبير وأورد أحد عشر شرحاً من الشروح

(2832/1)

الشنقيطية عليه، أولها شرح عبد الله بن الحاج رحمة الله الغلاوي(1).

... وفي هذا الإطار يتنزل ذلك اللغز الذي بعث به ابن رازكه إلى أهل فاس سائلاً عن مرجع الضمير في قوله تعالى: {ثم اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ} (سورة يوسف، الآية 76)، حيث يقول(2):

شُيوخَ البيان الذائقين حلاوة
سلام من الله السلام ورحمة
سلام غريب دون شنقيط داره
قراه لديكم أهل فاس جوابه
أسائلكم ما سر إظهار ربنا

من العلم لم تطعم لغير ذويه

---

(1) مجلة الوسيط، العدد 04، 1993، ص. 74.

(2) الخليل النحوي، الرباط ـ تونس، 1987، ص. 277.

(2833/1)

يعمانكم من خامل ونبيه

من البعد تيه يتصلن بتيه

بنص بيان في البيان وجيه

تبارك مجداً من وعاء أخيه

وقد أجاب عن هذا اللغز محمد بن سعيد اليدالي بقوله(1):

سؤال بليغ في البيان نبيه

عن السر في إتيان ربي بظاهر

معمى قد أعيا أهل فاس وغيرهم

فقلت وبالله والصواب مجاوباً

فهذا بحمد الله إيضاح لغزه

فلو قال فرضاً ربنا »من وعائه«

يؤدي إلى عود الضمير ليوسف

لأن الضمير في الصناعة عائد

وإن قال منه اختل أيضاً لأنه

فتنزع منه الصاع لا من وعائه

لما في انتزاع من أذى ومهانة

---

(1) المرجع نفسه، ص. 277.

(2834/1)

أديب من أرباب الهدى وذويه

مكان ضمير في وعاء أخيه

فكنا بحمد الله مفتتحيه

له بقياس في الأصول وجيه

مساو له في بحره ورويه

فذلكم بعد التفكر فيه

فيفسد معناه لمختبريه

لأقرب مذكور هناك يليه

يؤدي لعود مضمر لأخيه

وتأنف من ذا نفس كل نزيه

ولم يرد الرحمن ذا بنبيه

... وللشوشاوي المغربي نظم في القراءت شرحه أحمد بن زياد الديماني (ت 1322 هـ)؛ كما نجد النابغة الغلاوي ينظم من الشوشاوي أحكام اجتماع الذكور الصغار مع الإناث في المكتب لدراسة القرآن. يقول(1)

---

(1) محمذن ولد باباه، النابغة الغلاوي حياته وآثاره، 1999، ص. 97.

:

ومس بـعضهم للوح البـعض لا

وما لهم مشي إلى المساجد

مكلف وليست الجماعه

والأجر لا تنـقصه الإجاره

هذا الذي قال بـه الشوشاوي

إثم ولكن كرهته النبـلا

بـل يجمعوا بـشيخهم أو واحد

لشيخهم خوفاً من الضياعه

بـشرى لنا بـهذه البـشاره

وهو الذي جرت بـه الفتاوي

وفي مقطع آخر من هذه المنـظومة يبـين النـابـغة حكم إجازة تلاميذ القرآن. يقول(1):

وكلمة في رُبُـعٍ أو أربـع

نـص عليه شيخنا الجزولي في

في الحزب لا تضر في الحفظ فعوا

مسبـعه فانـظر فيه إن خفى

.المقررات النحوية واللغوية

---

(1) المرجع نفسه.

(2836/1)

... من أبرز هذه المقررات وأكثرها حضوراً رسالة ابن أجروم المعروفة بـ "الأجرومية". فقد عول عليها الموريتانيون كثيراً، فشرحوها وعلقوا عليها ونظموها. أما شروحها، فقد ناهزت الثلاثين. وأما أنظامها، فقد وقفنا على أربعة منها، أشهرها نظم محمد بن اب الغلاوي المعروف بـ »عبيد ربه« (ت 1109 هـ) والذي نالت منظومته بين الموريتانيين شهرة واسعة، وكادت أن تصبح عوضاً عن "الأجرومية" وبدلاً منها، وتجاوزت شروحها العشرة (11 شرحاً). ويتنزل في هذا السياق "شرح المكودي للألفية" الذي قدم به من المغرب محمد سعيد بن تكدي

(2837/1)

اليدالي (ق 10 هـ)، وهو أول من جلب النحو إلى القبلة.

يقول أحمد سالم بن أبي بكر بن إمام اليدالي متحدثاً عن بعض البطون المنقرضة من قومه(1):

وانقرضوا ومنهم السعيد
أول من للقبلة النحوَ جلب

نجل تكدي العالم الفريد
وما له سوى ثلاث تنتشب

... والجدير بالذكر أن هذا اليدالي أورث النحو حفيده المختار بن بونه معلم النحو الأول في البلاد ومؤلف "الجامع بين التسهيل والخلاصة المانع من الحشو والخصاصة". وهذا ما أكده اللبناني يوسف مقلد حيث يقول: »هذا، وقد بلغ النحو أوجه في تلك البلاد. ولا نعلم

---

(1) مخطوط بحوزتنا.

(2838/1)

دخول النحو إلى موريتانيا؛ إلا أن محمد سعيد اليدالي كان أول من جلبه إلى القبلة في القرن العاشر الهجري.

ولذا سمي بالنحوي ومنه رضعه حفيده المختار بن بونه الذي انتهت إليه رئاسة علم النحو«(1). وفي هذا السياق نشير إلى أن المولى عبد الحفيظ شرح طرة المختار بن بونه على "الألفية" بكتابه المسمى "القول المختار على الألفية والاحمرار". وهذا ما يدل على أهمية كتاب ابن بونه الذي نال شهرة عجيبة. ومن الجدير بالذكر أن هذا السلطان نظم "مغني اللبيب"

---

(1) يوسف مقلد، الشعراء القدماء والمحدثون في موريتانيا، ص. 342.

(2839/1)

نظماً طالعه الموريتانيون واعتمدوه. وقد شرحه سيدي محمد الأغظف الوسري الحوضي (1).

... ولا ننسى هنا أن بعض الأدباء المكناسيين سأل ابن رازكه عن معنى بيتين من الشواهد النحوية، وهما (2):

رأت قمر السماء فذكرتني
كلانا ناظر قمراً، ولكن

ليالي وصلنا بالرقمتين

رأيت بعينها ورأت بعين

... ومن المقررات المعجمية عندهم "إضاءة الأدموس في مصطلح القاموس" للهلالي. فقد نظمها سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم؛ كما شرحها محمد

_____

(1) محمد المختار ولد اباه، تاريخ النحو العربي، 1996.

(2) مجلة الوسيط، المرجع السابق، ص. 45.

(2840/1)

محمود بن عبد الفتاح، ونظمها أيضاً محمد الأمين بن الحجاجي.

... ومن المقررات اللغوية عندهم قصيدة "الشمقمقية" لأحمد بن محمد التواتي الحميري، وشرحها "زهر الأفنان" لأحمد بن خالد الناصري صاحب "الاستقصا". وقد شرح هذه القصيدة من الموريتانيين محمد بن أحمدو فال. ومن النصوص المعتمدة عندهم في هذا الجانب بائية سيدي أحمد زروق التي مطلعها:

لقد كان خير الخلق أبهر طلعة

من البدر بل من شمسه هو ألهب

... وقد شرحها النابغة الغلاوي بـ"أنوار البروق بشرح قصيدة زروق"؛ كما شرحها محمد الأمين بن خليفة ومحمد بن محفوظ بن

دهمد(1).

.مقررات الفقه وأصوله

... ومن أبرز المقررات الفقهية عندهم كتاب "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين" لعبد الواحد بن عاشر (ت 1040 هـ). والجدير بالذكر أن هذا النظم تدوول كثيراً بالمحاظر الموريتانية؛ وكان يمثل المرحلة الأساسية من تعليم الفقه في المدارس الموريتانية. وقد شرحه النابغة الغلاوي شرحاً سماه "المباشر على ابن عاشر". وقد حقق في المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية؛ كما شرحه أحمد بن البشير شرحاً سماه "مفيد العباد". وقد شرحه أيضاً محمد يحيى بن سليمة.

---

(1) المرجع نفسه، ص. 48.

ونشير إلى أن شرح "مفيد العباد" قد نظمه الشيخ أحمدو (منَّ) بن شيخ محمد الحافظ وقد أرخ بعضهم لوفاة ابن عاشر تأريخاً طريفاً يعتمد التورية وحساب الجمل، فأشار إلى تاريخ وفاته بفعل الأمر »شُمَّ«. يقول(1):

»شمَ« برق ثاو لدى بير الطسوت ومن

سلا بأخراه عن دنياه عند سلا

... ومن المقررات الفقهية المعتمدة عندهم "لامية الزقاق" في القضاء. فقد بلغت شروح الشناقطة عليها أكثر من العشرة. ومن المقررات في جانب القواعد الفقهية نذكر كتاب "المنهج"

---

(1) مقابلة مع محمدن الزايد المتقدم، بانواكشوط، بتاريخ 2000/5/20.

للزقاق، و"تكميل المنهج" لميارة. وقد عمل الشناقطة على شرح هذين الكتابين. فمن الذين شرحوا "المنهج"

محمد محمود بن حبيب الله بن القاضي ومحمد امبارك اللمتوني، ومحمد الأمين بن أحمد زيدان، وعبد القادر بن محمد سالم. أما الذين شرحوا "تكميل المنهج"، فنذكر منهم أربعة وهم: محمد يحيى الولاتي، ومحمد امبارك اللمتوني، ومحمد يحيى بن سليمة، وزين بن حمد اليدالي(1).

... ومن المؤلفات المغربية الحاضرة في الساحة الشنقيطية "البيان المغرب في فتاوى إفريقية المغرب" لأحمد بن يحيى

---

(1) مجلة الوسيط، المرجع السابق، ص. 48.

الونشريسي، و"أجوبة محمد بن ناصر الدرعي"، و"حاشية التودي والبناني على الزرقاني"، و"نوازل الورزازي". ونشير إلى أن الشناقطة لم يقفوا من هذه المؤلفات موقف المقلد الناقل وإنما نظروا إليها نظر المحقق المتبصر. فنجد النابغة الغلاوي مثلاً في منظومته "بوطليحية" ينوه بآراء البناني والتودي، مبيناً رأيه في "أجوبة ابن ناصر" و"نوازل الورزازي" ضمن أسلوب نقدي يبرز قيمتها ويضعها في الميزان. يقول(1):

واعتمدوا "المعيار" لكن فيه

ولا يتم نظر "الزرقاني"

---

(1) النابغة الغلاوي، نظم بوطليحية، المرجع السابق، ص. 96.

(1/2845)

وجمعهم "أجوبة ابن ناصر"

وهكذا "نوازل الورزازي"

أجوبة ضعفها بفيه

إلا مع "التودي" أو "البناني"

لم يكن الشيخ له بناصر

لم تخل من قول بلا إعزاز

... ومن الكتب المعتمدة عند القوم أيضاً مؤلفات ميارة وشروحه. فكانوا يكثرون العزو إليها. من ذلك أبيات لمحمد يحيى بن ابوه الموسوي يبين خلالها حكم نية الفرض المعاد، محسناً العزو إلى ميارة. يقول(1):

في نية العود للمفروض أقوال

فإن يفوض يعد ما منهما بطلت

ميارة انظره والتفويض أشهرها

---

(1) مقابلة مع محمدن الزايد المتقدم بانواكشوط بتاريخ 2000/5/20.

(2846/1)

فرض وندب وتفويض وإكمال

والفرض أخرى وغير غيرها قالوا

وقال في كل ذي الأقوال إشكال

.مقررات السيرة والتصوف

... من المقررات المعتمدة في السيرة عندهم "قرة الأبصار في سيرة النبي المختار" لعبد العزيز اللمطي. وقد بلغت شروح الموريتانيين عليها أحد عشر شرحاً. كما اعتمدوا كثيراً على كتاب "الشفا" للقاضي عياض، فقد كان أهل ولاته يتدارسونه في شهر رمضان يومياً فيما بينهم. وأكثر من ذلك، فإن الموريتانيين اعتبروا مؤلفه نموذجاً أعلى في السيرة والحديث. يقول

أحمد بنب بن المختار ولد أحمد ولد المين بن أحمد بن العاقل

(2847/1)

في رثاء زين بن أحمد(1):

أرى الأيام تقذف بالعراض
وتسلبك المحبب لا إليها
أتانا أنها أخذت بزين
بزين العابدين لدى المصلى
وزين الآخذين على أويس

وتنتقر النفائس من قراض
وتشري العلق منك بلا تراض
إلى ذات اليمين طريق ماض
وزين الحاكمين لدى التقاضي
وزين المسندين إلى عياض

... ويتجلى اهتمام الموريتانيين بكتاب "الشفا" في مواظبتهم على قراءته تيمُّناً واستسقاء عند احتباس المطر. فيقرأونه في رمضان وفي المساجد؛ كما يفعلون

ذلك لـ"صحيح البخاري"(2)

---

(1) المقابلة السابقة.

(2) ... ... محمد يحيى بن سيد أحمد، الأزهار الشذية. مخطوط بحوزته.

، الذي اعتمدوه مصدراً من مصادر السيرة النبوية ومقرراً من المقررات المحظرية. فيذكر البرتلي في كتابه "فتح الشكور"، خلال ترجمته لبعض الرجال، أنهم كانوا يدرّسون "الشفا" للقاضي عياض. من ذلك مثلاً قوله في ترجمة محمد بن المختار بن الشواف المسلمي (ت 1175 هـ): «كان محدثاً يسرد "صحيح البخاري" في شهر رجب وشعبان في المسجد و"الشفا" للقاضي عياض في رمضان»(1). ومن المراجع المعتمدة عندهم في هذا الجانب "دلائل الخيرات" المعروف بـ "شوارق الأنوار في الصلاة على النبي المختار" لمحمد بن سليمان

---

(1) المخطوط نفسه.

الجزولي. فكانوا يدمنون قراءته تيمناً به، لما اشتمل عليه من الصلاة والسلام على النبي – صلى الله عليه وسلم – المأمور بها كتاباً وسنة وإجماعاً، والمرغب كذلك في الإكثار منها. وقد بلغ بهم الأمر أن حاكوه وحاذوه. من ذلك مثلاً "الوسيلة الكبرى" لمحمد اليدالي. فقد صرح بأنه اقتطفها من "دلائل الخيرات" وزاد عليه. كذلك الشيخ المختار الكنتي في كتابه "نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب"، ولمرابط محمد سالم بن ألما في كتابه "سبائك اللجين في الصلاة على سيد المرسلين" وغيرهم. وزيادة على ذلك، نجد الشيخ محمد المامي

(2850/1)

ينظم "دلائل الخيرات" نظماً يقول في مقدمته(1):

الحمد لله على ما ألهما

وآله كواكب الظلام

وبعد فالعونَ من الرحمن

نظماً على رواية الجزولي

سميته "تذكرة النجاة"

والنثر حفظه من القلائل

صلى على نبيه وسلما

وصحبه الأئمة الأعلام

على تمام القصد والإحسان

لصلواتنا على الرسول

لحفظهم "دلائل الخيرات"

لا سيما أن كان كالدلائل

ثانياً: رحلات العلم

... نشير إلى أن الارتحال عبر الطريق المغربي قد نما وازدهر كثيراً، خاصة أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين أيام كان هذا الطريق عماد

---

(1) المخطوط السابق.

(2851/1)

النشاط التجاري ومنطلق الحركة العلمية ومسرح التبادل المعرفي، فمثل ـ بحق ـ صلة الربط والاتصال بين المغرب وموريتانيا؛ فتضاعفت الرحلة عبره، وتنامت مشكلة نماذج مختلفة بعضها ينتهي إلى المغرب، والبعض الآخر يتخذ منه محطة تزود وعبور نحو المشرق. وسنستعرض

أثناء حديثنا جملة من هذه النماذج، ذاكرين أولاً عدداً من الذين انتهى بهم المسير إلى المغرب لنتناول بعد ذلك بعض الذين مروا بأرضه آمِّين البيت الحرام. وسنقسم هذه النماذج إلى قسمين: أولهما يهتم بالرحلات غير المدونات، وثانيهما يعول على تلك المدونات.

...

(2852/1)

أ ـ الرحلات غير المدونات

... ونقصد بها تلك الرحلات التي قام بها بعض العلماء ليساهموا من خلالها في نشر الثقافة الشنقيطية. وقد عملوا جهودهم على محاورة العلماء، لكنهم لم يدونوا شيئاً من مشاهداتهم ولا مجالسهم العلمية. فحرمونا بذلك من الاطلاع على تفاصيل تلك الرحلات. فسعينا جادين في جمع مادة هذه الجولات المعرفية من الكتب، مستنبطين أصولها من آثارهم. وهذه الرحلات حسب علمنا نوعان: رحلات تنتهي إلى المغرب، وأخرى تمر عبره متجهة إلى المشرق.

... 1 ـ الرحلات المنتهية إلى المغرب

(2853/1)

... ويبدو أن الرحلات التي انتهت إلى المغرب لم تدون ولم يكتب منها إلا النزر اليسير؛ غير أنها في ذلك متفاوتة: فبعضها شحيح المصادر مغمور مغبون، وبعضها الآخر أقل غبناً إذ نلمس له حضوراً ولو قليلاً عبر المدونات الشعرية. وسنبدأ في هذا المقام بتلك النماذج النادرة مستهلِّينها برحلة محم (محمد) سعيد بن تكدي اليدالي الذي ارتحل إلى تافلالت بجنوب المغرب خلال القرن العاشر الهجري ليدرس النحو دراسة معمقة مكنته من اقتناء بعض المصادر المهمة التي جاء بها إلى بلاده كـ"شرح المكودي على الألفية"، وكتابه المسمى

(2854/1)

"التبسيط والتعريف في فن التصريف". فرجع يصطحب معه هذه الكتب، واشتهر بعد عودته بلقب «النحوي». ... ومن الذين ارتحلوا إلى المغرب سيد عبد الله بن محم العلوي المعروف بابن رازكة (ت 1144 هـ). وقد عادت رحلته على البلاد بالخير العميم، حيث رجع يحمل معه مكتبة ذهب البعض إلى أنها تضم مئات الكتب كان

أهداها إليه الأمير محمد العالم. والجدير بالذكر أننا لا نعلم الكثير عن تفاصيل هذه الرحلة؛ إلا أنه من الثابت أن هذا العلوي اتصل بالسلطان مولاي إسماعيل وترسخت صلته بابنه محمد العالم الذي امتدحه صاحبنا بقصيدتين:

(2855/1)

أولاهما تفتتح بالندب إلى إعمال العيس رغبة في البلوغ إلى حضرة هذا الأمير. يقول(1):

دع العيس والبيداء تذرعها شطحا
وأم بساط ابن الشريف محمد

وسمها بحور الآل تسبحها سبحا
مبيد العدى ذكراً ومبدي الهدى صبحا

وفي نص آخر يؤكد تصميمه على السير متحملاً المشاق، مما يؤكد صعوبة الارتحال يومئذ: فالأرض مضلة والطريق بالمخاطر محفوفة. يقول(2):

دأبت على السير المبرح والسرى

مهامه للسارين فيها توقع

إلى حضرة سنية حسنية

---

(1) ابن الأمين، الوسيط، مؤسسة الخانجي، مصر، 1958، ص. 397.

(2) المرجع نفسه، ص. 402.

(2856/1)

حوت شرف العلم الرفيع عماده

أجوب الفيافي فدفداً بعد فدفد

لأهوال أغوال طواغيت مرد

منيرة آلاء الهدى المتصعد

إلى شرف البيت الكريم المصمد

... ويبدو أن العشرة المعرفية ترسخت بين صاحبنا وبين الأمير محمد العالم الذي كان يحتفي كثيراً بقدوم هذا العلوي. وذلك ما دعاه إلى أن يسجل ترحيبه به ضمن شعر متميز يؤكد أن مكناسة ازدهت يومئذ، فرحاً بقدوم الوفد الشنقيطي الذي يضم القاضي سيد عبد الله بن رازكه والأمير أعل شنظوره. يقول(1):

مكناسة الزيتون فخراً أصبحت

فرحاً بعبد الله نجل محمد

---

(1) المرجع نفسه، ص. 2.

تزهو وترفل في ملاء أخضر

قاضي القضاة ومن ذؤابة مغفر

... وفي نموذج آخر نرى الأمير محمد العالم يعجب بشعر الرجل، مؤكداً أن له منزلة من البيان عظيمة؛ إذ تجاوز منتوجه البلاغة الشعرية المألوفة ليتعالى فوق سحر السحرة. ولعل ذلك ما حمل الأمير على التصريح بجودة الشعر الشنقيطي عموماً وقصور الأشعار الأخرى عن رتبته. يقول(1):

أتانا من قرى شنقيط شعر

يقصر شعرنا عنه لو أنا

تعالى فوق سحر الساحرينا

بعثنا في المدائن حاشرينا

---

(1) محمذن بن المحبوبي، أدب الرحلة في بلاد شنقيط، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1995، ص. 77.

(1/2858)

... وقد ارتحل إلى زاوية محمد بن ناصر الدرعي بالجنوب المغربي عدد من الشناقطة منهم سيد محمد بن سيد عثمان بن سيد عمر الولي المحجوبي، وسيد عبد الله التنواجيوي (ت 1145 هـ)، ومسكه بن بارك الله وكانوا اتصلوا به في تامكَروت التي سمعوا بساحتها تعاليم الطريقة الشاذلية. ولم نتمكن من معرفة تاريخ وصولهم إليه بالتحديد؛ إلا أن محمد عبد الله بن البخاري صاحب "كتاب العمران" يتحدث عن إجازته لمسكه، قائلاً: «وأجازه ـ يعني مسكه ـ شيخه ابن ناصر بمقروءاته ومسموعاته»(1)

---

(1) محمد عبد الله بن البخاري، العمران، تحقيق مريم بنت آد، 1994، ص. 33.

(1/2859)

. ونص الإجازة وارد في "كتاب العمران" ومؤرخ بغرة جمادى الأولى من عام 1117 هـ، والإجازة بتوقيع أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي.

... ولا ننسى أن الشيخ سيد عبد الله بن أبي بكر التنواجيوي والعالم نختار بن المصطفى اليدالي قد ارتحلا إلى سيد أحمد لحبيب السجلماسي. فأخذ عنه الأول القراءات العشر. وفي عودته إلى بلاده، وجد الناس يلحنون في القراءة ويصحفون في الحروف، فأزال اللحن والتصحيف عنهم، وهو الذي أتى بالجيم الشديدة. أما الثاني، فإنه أتى بتعاليم الطريقة الشاذلية، وهو أول من أدخلها إلى منطقة القبلة (1)

---

(1) الخليل النحوي، بلاد شنقيط، المرجع السابق، ص. 112.

.

... ونشير هنا إلى أبيات لمحمد عثمان بن أغشممت المجلسي (ت 1300 هـ) خاطب فيها أهل فاس ملغزاً لطلبة العلم. وقد أشار صاحب "الوسيط" إلى أن هذا المجلسي ارتحل إلى المغرب، ولكن بعض الباحثين المعاصرين من

أهله يؤكد أنه لم يرتحل، وإنما أرسل بهذه الأبيات من بلاده وهي (1):

إلى مدارسِ فاسِ الغر أسئلةٌ
عن حاضر قسم متروك لوالده
وما به مانع في القسم يمنعه
وعن طوامث لا يمنعن أو جنب
واسم في الإفراد والتذكير تذكره

عيالمِ العلم أهل الحفظ والملكه
صار البكاء له حظاً من التركه

(1) ابن الأمين، الوسيط، ص. 358.

وحاز الأبعد عنه كل ما تركه
من مسجد وفروع العلم مشتبكه
وفرع ذين بنوع واحد سلكه

... ومن الذين ارتحلوا إلى المغرب أيضاً الشاعر محمد مولود بن احمدو المباركي (ت 1275 هـ) الذي اتصل بالسلطان

مولاي عبد الرحمن بن هشام وامتدحه بمطولة استفتحها بالغزل، مبدياً أزمته الغرامية حيث وجد نفسه متنازعاً بين منبهين يمنعانه النوم ويتجاذبانه ذات اليمين وذات الشمال. يقول(1):

طارف الهم أم تليد الغرام

مت أو كدت حين يجتذباني

عز ما عاقني من الأمر خلفي

---

(1) ابن المحبوب، أدب الرحلة، المرجع السابق، ص. 78.

(2862/1)

أتأني السلو عن من إليها

رمت إن رمت سلوة النفس من

وضع السهد في محل المنام

يمنة يسرة لسبع توأم

عز بل عز ما طلبت أمامي

رسني حيث تنتوي وزمامي

مثلك عن مثلها عزيز المرام

إلى أن يحسن التخلص على ممدوحه قائلاً(1):

تيد عني زيبد بعض الملام

فعليك السلام وهو وداعي

واقتني الصبر علَّ صدع افتراق

ما لمثلي على الهوى من مقام

فارجعي لي تحيتي وسلامي

بين ما أن يكون جبر التئام

فاخلفي أو معي فسيري إلى مو

تكرمي في جنابه وتجلي

لاي عبد الرحمن نجل هشام

إن يشأ ذو الجلال والإكرام

---

(1) المرجع نفسه، ص. 79.

(1/2863)

... أما الشيخ سيدي الكبير (ت 1285 هـ)، فإنه قد سافر إلى المغرب ولبث في ساحته فترة أكرم بها مثواه

وأتحف ببعض الهدايا. كما ظهرت على يده كرامات عجيبة، منها ما ذكر من أنه صادف ابن السلطان ألكن فتفل في فمه؛ فانطلق لسانه بالكلام. وذلك ما أوضحه صاحب "الوسيط" بقوله: »وحدثني الفاضل عبد الرحمن الجزولي ـ وكان أبوه كاتباً للمولى عبد الرحمن ـ أنه لما قدم (يعني الشيخ سيدنا) إلى مراكش، وجد المولى سيد محمد بن المولى عبد الرحمن ألكن لا يبين الكلام، فتفل في فمه؛ فانطلق بالكلام«(1)

---

(1) ابن الأمين، الوسيط، المرجع السابق، ص. 241.

.

... وعلى أثر هذه الحادثة، أكرم الشيخ ونال الحظوة والتقدير. وكانت رحلته ذات طابع ثقافي مكتبي. فقد سعى أثناءها في شراء الكتب واقتناء المخطوطات، واضعاً بذلك أسس مكتبته المتميزة. فقد جاء بمائتي كتاب على ما ذكر الخليل النحوي في "المنارة والرباط". وقد خلد باب بن أحمد بيب العلوي هذه الرحلة في شعره، مؤكداً قطبانية الشيخ، منتهياً إلى أن المغاربة استناروا بهديه ونعموا بصحبته فترة جعلتهم

يحرصون على استبقائه بين أظهرهم. لذلك حزنوا كثيراً لمباعدته، بل تولوا ساعة توديعه وأعينهم تفيض من الدمع حزناً على

(1/2865)

فراقه. يقول(1):

لك الطائر الميمون والمنزل الرحب
وأنت حسام قاطع كل شبهة
أضأت بلاد الغرب لما أتيتها
وجئت بكتب يعجز العيس عن حملها

فإنك أنت الغوث لاشك والقطب
وأنت سراج للبرية لا يخبو
وأصبح يبكي عند ترحالك الغرب
وعندك علم لا تحيط به الكتب

... 2 .الرحلات المجتازة إلى الحجاز

... هناك رحلات غير يسيرة اتجهت نحو المشرق مارة عبر الطريق المغربي. وسنكتفي بأربع منها، نرتبها تباعاً في ما يلي:

(1) ابن المحبوب، أدب الرحلة، المرجع السابق، ص. 78.

(2866/1)

... (رحلة كمال الدين المجيدري الذي تتلمذ عليه أحمد بن إدريس الفاسي، وأخذ عنه أصول الفقه، مما انعكس إيجاباً على إقامة المجيدري بفاس، حيث حظي بمكانة كبيرة. فقد قربه هذا التلميذ وأحسن إليه كثيراً. ويعتبر ابن إدريس هذا أبرز الآخذين عن المجيدري بالمغرب، وهو الذي استودعه منهاجه الأصولي ومشروعه الإصلاحي.

... ومن تأثيرات المجيدري الثقافيّة بالبلاد المغربية التقاؤه بالأديب حمدون بن الحاج الفاسي الذي أعجب بمعارفه كثيراً، فأرسل إليه التحف والهدايا. غير أن المجيدري أعرض عنها، فأثار ذلك شاعرية ابن الحاج،

(2867/1)

ففاضت بأبيات يعتب ضمنها على الرجل عتاباً خفيفاً. يقول(1):

بكت حمامات آيكات بأنات

وأذكرتني الحمى وساكنيه ذوي

تعففوا عن جميع ما يشين وما

إذ كان فيه تواصل ومرحمة

مغردات بأصوات وأنات

زهد ونسك وعرفان وعفات

تعففوا عن قبول للهديات

تهدي العقول إلى أوفى المودات

... فأجابه المجيدري ملتمساً منه الصفح والمغفرة، معتذراً عما بدر منه، مبيناً حجته في رد الهدية، خاتماً أبياته بالقاعدة الأصولية المعروفة: »درء المفسدة أولى من جلب المصلحة«. يقول(2):

---

(1) المرجع نفسه، ص. 81.

(2) المرجع نفسه.

(2868/1)

فإنني جاهل كثير زلات

أخفيه غيظ حمدون بخلاتي

وما مفاسدها عنكم خفيات

عن جر مصلحة أهل السيادات

اصفح فديتك واغفر لي إساءاتي

ولم تكن نيتي والله يعلم ما

بل خوف ذم اللواتي كنت قلت لكم

ودرء مفسدة مما يقدمه

... (رحلة سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم (ت 1233 هـ) التي لقي خلالها الإمام البناني وأخذ عنه فروع الفقه. وفي مرحلة لاحقة، أصبح الشيخ البناني يستأنس بآراء تلميذه ويأخذ برأيه في بعض المسائل. يقول صاحب "الوسيط" في ترجمة سيدي عبد الله: »... ثم أقام بفاس مدة كثيرة للنظر والتحرير وتلقى على البناني وتلقى

(2869/1)

البناني عنه أيضاً«(1). وأكثر من ذلك، فإن هذا العلوي شارك في الجهاد ضد البرتغاليين أيام إقامته بالمغرب. وبعد هذه الجهود، عاد الشيخ إلى بلاده مصطحباً معه الكتب والمؤلفات مدخلاً إلى بلده تعاليم الشاذلية التي تلقى بساحة فاس.

... (رحلة الشيخ محمد الحافظ (ت 1247 هـ). رحل إلى المغرب وأقام به فترة التقى خلالها بالشيخ سيد أحمد التيجاني الذي أخذ عنه الطريقة مشافهة. ففي طريق عودته من الحج، مر بالمغرب ولبث بفاس فترة، مقيماً بزاوية الشيخ التيجاني، متربياً على

---

(1) ابن الأمين، الوسيط، المرجع السابق، ص. 38.

تعاليم هذه الزاوية. وقد رجع إلى البلاد يحمل معه هذه الطريقة؛ فكان له فضل السبق في إدخال هذا النموذج الصوفي إلى البلاد. فعلى يده انتشرت هذه الطريقة داخل الربوع الشنقيطية لتمتد منها إلى بلدان غرب أفريقيا(1).

... (رحلة محمدو بن محمدي الذي نظم خلالها سينية تعرض للغربة والحنين استفتحها بقوله(2):

أم هل لداء رهين الشوق من آس

وإن كان محفوفاً بأجناس

هل في بكا نازح الأوطان من باس

آه لمغترب بالغرب ليس له جنس

---

(1) الخليل، بلاد شنقيط، المرجع السابق، ص. 123.

(2) ابن الأمين، المرجع السابق، صص. 51 ـ 52.

ثم يتخلص إلى امتداح السلطان بقوله:

إما بمراكش المحروس أو فاس

إمامنا المستمام المطعم الكاسي

باض النعام بدور منه أدراس

إني كفيل بنيل السؤل لي ولكم

أمامنا في كلا القطرين نورهما

عَمَّرْتَ عَمَّرْتَ من عهد الشريعة ما

... وتجدر الإشارة إلى أن الشاعر أثناء إقامته بالمغرب توطدت صلته بالعالم أحمد أكنسوس وخاطبه بقصيدة استفتحها قائلاً(1):

خيال من أميمة ما أثارا

رواحاً بالنجائب وابتكارا

نوافخ في البرى من لا يبارى

أخو العزمات أو يدع السفارا

أثار من التذكر حين زارا

---

(1) المرجع السابق، ص. 53.

لئن أنأى أميمة ما اعتسفنا

فقد أدنت مباراة المطايا

إلى مثل ابن أحمد فليسافر

ب ـ الرحلات المدونة

... أما الرحلات المدونات، فسنكتفي بثلاثة منها:

... 1 ـ رحلة المصطفى الطالب أحمد بن طوير الجنة الواداني (1145 هـ ـ 1265 هـ). وهي من أبرز الرحلات الشنقيطية وأكثرها ذيوعاً وسيرورة بين الناس. لذلك حظيت باهتمام البحثة والدارسين وتنوولت بالدراسة والتحليل والترجمة وامتدت إلى المكتبات العالمية.

تقديم الرحلة

... وهي عبارة عن رحلة حجازية نثرية تقع في 180 من الصفحات. وقد حققت بجامعة انواكشوط والمتصفح لهذا

النص يجد أن مؤلفه أوضح الدوافع التي دعته إلى تسجيل أحداث رحلته ضمن كتابه مشيراً إلى أنه إنما فعل ذلك شكراً لأنعم الله وتحدثاً بفضله وسعياً إلى الإفادة.

يقول: »وكل ما ذكرنا في الرحلة المباركة فمقصودنا فيه أمور منها التحدث بنعم الله تعالى، ومنها إفادة من يحب الاستفادة بسبب ما ذكرنا فيها من أحكام العلماء وفوائدهم وأشعار الشعراء وحكم الحكماء وطب الأطباء«(1).

منطق الرحلة ومبتدؤها

---

(1) ابن المحبوب، أدب الرحلة، المرجع السابق، ص. 97.

... لقد استفتح الوادانـي رحلته بـالثنـاء على الله تـعالى محدداً لحظة خروجه من تـيشيت بـاليوم والشهر والسنـة. يـقول: »إنـا خرجنـا من تـيشيت ـ جمع الله شتـاتنـا وشتـاتـها ـ يـوم الخميس سبـعة جمادى الأولى عام خمسة وأربـعين ومائتين بـعد الألف «(1).

... ويبـدو أنـه اتـجه من تـيشيت إلى ولاتة آخذاً طريـقه إلى وادي درعة، أملاً في تـدارك الركب الفيلالي هنـالك ليحج معه. غير أنـه ألفاهم قد خرجوا من قبـله، وذلك ما حمله على الإقامة عدة أشهر كانـت السبـب في

---

(1) ابـن طوير الجنـة، رحلة المنـى والمنـة، تـحقيق زينـب بـنـت الطالب أحمد، 1993، ص. 37.

(2875/1)

تـعلق نـفسه بـفاس ومراكش وغيرها. فصمم على مواصلة الرحلة عبـر الشريـط الساحلي، مجتـازاً المهامه والمفاوز. وأكَّد أنـه اسْتُقْبِل على طول هذا الشريـط بـشيء من التـقدير غير قليل. يـقول: »فمن قرية إلى قرية ونـحن لا نـرى إلا الإحسان «(1). وبـعد سفر شاق، وصل الرجل إلى الولي سيـدي التـهامي، فأقام معه فتـرة. ولما أراد الخروج من حضرتـه، أعطاه حللاً كثيرة وأتـحف جماعته بـجملة من

الهدايا وزوده بمكتوب إلى السلطان مولاي عبد الرحمن حيث يوصيه به خيراً. وقد أثرت هذه الوصية أحسن الأثر، حيث حظي الواداني

---

(1) االمرجع نفسه، ص. 38.

(2876/1)

بمقابلة السلطان بعد خمسة أيام من قدومه إلى مراكش، في حين أن الناس يلتمسون لقاءه الشهر والشهرين ولا ينالونه(1).

المؤلف في المغرب

... لقد التقى صاحبنا في مراكش بالسلطان مولاي عبد الرحمن الذي خصه بمقابلة دامت عشية كاملة. ثم انطلق إلى فاس محملاً بمكتوب من السلطان مضمونه الإكرام. غير أنه لما بلغ فاس، سمع باحتلال الفرنسيين للجزائر؛ فحول وجهته وعدل عن سبيله الأول، مرسلاً بذلك إلى السلطان الذي وجه الركب الشنقيطي إلى ميناء العرائش لركوب البحر. يقول:

---

(1) المرجع نفسه، ص. 41.

(1/2877)

... فلما قدمنا فاس، وجدنا الجزائر أخذها النصارى افرانسيس؛ كتبنا إلى مولاي عبد الرحمن وهو بمكناسة الزيتون أن البر لا يمكن السير فيه، لأنه صار أرضاً سائبة وأنا نحب الركوب في البحر. فبقينا في حيرة. فكتب هو ـ نصره الله ـ إلى قائده بالعرائش مكتوباً: "الفقيه سيدي أحمد بن اطوير الجنة وتلامذته الثمانية أركبهم في سفينة إلى الإسكندرية" (1).

وهنا تبدأ الرحلة البحرية التي مرت بإحدى المدن الإيطالية، حيث وجد الرجل نفسه لأول مرة تحت سيطرة السلطة الأوربية وقهرها. وقد تجلى ذلك في نظام

---

(1) المرجع نفسه، ص. 55.

(1/2878)

الحجر الصحي الذي كان مفروضاً على الحجاج يومئذ خوفاً من العدوى وانتشار الأوبئة. وكان الرجل يسميه الكرتينية (quarantaine)، وتعني بالفرنسية «الأربعينية». والمعنى أنهم كانوا يلزمون المسافر

الإقامة أربعين يوماً في حجر صحي خوفاً من العدوى.

وينتقد الرجل هذا الإجراء الوقائي قائلاً: »وسبب ذلك اعتقادهم الفاسد أن الموت لا يكون إلا بالعدوى لا بانقضاء الأجل كما هو معتقد أهل السنة «(1).

---

(1) المرجع نفسه، ص. 60.

(2879/1)

... وفي رحلة العودة، يمر الرجل على السلطان مولاي عبد الرحمن الذي رغب في أن يقيم معه بالمغرب. فطفق يحاور تلميذ الشيخ محمد الصابر عله أن يشير إليه برأي في ذلك غير أن التلميذ أقنع السلطان باستحالة مكث الرجل، مؤكداً أنه تنازعه رغبة إلى الوطن شديدة. وفي أعقاب هذا الحوار، تولدت فكرة تأسيس زاوية تهدف إلى شد الرباط الثقافي وتثبيت الأواصر المعرفية بين البلدين. يقول: »فتعاملنا معه في زاوية تكون وصلة بيننا وبينه، وبيننا وبين أولاده «(1).

---

(1) المرجع نفسه، ص. 53.

(2880/1)

... وما إن تم تأسيس الزاوية حتى أخذ الشيخ في الارتحال إلى أرضه. وقد خرج لتوديعه سيد محمد ابن السلطان مصحوباً بحاشيته وملآه، ولم يرجع إلا بعد أن غابت مراكش عن نظره.

... وفي الأخير، نقول إن هذا النص يمثل باكورة الرحلات الشنقيطية المدونة. وقد ورد في أسلوب سهل واضح يركن إلى السجع قليلاً، ويميل إلى التكرار أحياناً. يقول: »وربما أطنبنا وأطلنا الكلام اغتناماً للفوائد التي استفدنا (...)، لأن شأن الرحلة منذ قديم الزمان اغتنام الفوائد واستجلابها«(1).

---

(1) ابن المحبوب، أدب الرحلة، المرجع السابق، ص. 82.

(2881/1)

---

2 ـ رحلة التيجاني بن باب العلوي

... لقد انطلق هذا العلوي (ت 1257 هـ) في ريعان شبابه نحو المشرق في رحلة حجازية، مارّاً عبر الطريق المغربي، مجتازاً المهامه والصحارى، ليبلغ إلى مكناسة حيث أقام فترة بزاوية الشيخ أحمد التيجاني هنالك وبها لقي السيد العربي بن السائح الرباطي الذي أعجب بالرجل إعجاباً كبيراً، فتوطدت الرابطة بينهما، بل انتقلت إلى

عشرة معرفية وزمالة صوفية تجلت في أن الرباطي ألف كتاباً سماه "بغية المستفيد" شرح خلاله منظومة التيجاني المسماة "منية المريد". وقد أثنى في شرحه على هذا العلوي،

منوهاً بمعارفه، مؤكداً أن له رحلة مدونة مفقودة ذات أهمية كبيرة، وقد التزم فيها المؤلف بذكر من لقي من الأعلام في وجهته إلى البيت الحرام بادئاً بأشياخه الذين أخذ عنهم كوالدته ووالده. ويبدو أن هذه الرحلة كانت متداولة معروفة؛ فقد اطلع الرباطي عليها بعد أن اكتمل منها مجلد، وذلك أيام إقامة التيجاني بمكناسة قبل توجهه إلى طنجة ليركب البحر إلى الحجاز(1).

3 ـ رحلة الشيخ ماء العينين

---

(1) المرجع نفسه، ص. 86.

... لقد قام هذا الشيخ برحلة حجازية تشير بعض المصادر إلى أنها مدونة مكتوبة. غير أننا لم نتمكن من الحصول عليها بالرغم من بحثنا الطويل. وقد كان منطلق رحلة الرجل من مسقط رأسه بالحوض الشرقي في أواسط جمادى الأولى من عام 1274 هـ فقد ودع الشيخ أهله مولياً وجهه شطر المسجد الحرام، ماراً بالحواضر المغربية التي في طريقه مثل واد نون والصويرة ليبلغ إلى مراكش ومكناسة التي حظي في ساحتها بمقابلة السلطان مولاي عبد الرحمن الذي أكرم الشيخ فترة وأمده بعد ذلك برسالة إلى عامله على طنجة يأمره ضمنها بمساعدته في أمور

(1/2884)

السفر إلى الديار المقدسة. ومن طنجة يركب الشيخ البحر صحبة جماعته إلى مكة. وهنا تسكت المصادر المتوافرة، فلا تذكر شيئاً عن مدة السفر مكتفية بالقول إن بلوغ الركب إلى أرض الحرم كان في أواخر ذي القعدة من السنة المذكورة. وبعد أن أكمل الشيخ مناسك الحج في فاتحة العام التالي، شفع حجه بالزيارة، راجعاً بعد ذلك إلى أرضه. غير أن المراجع لا تسعفنا بشيء عن طريق العودة التي انتهت إلى المغرب في

أواخر شعبان من عام 1275 هـ(1).

خاتمة

---

(1) المرجع نفسه، ص. 87.

... وبالجملة، فإن المقررات المحظرية كانت أهم شاهد على عمق الروابط والصلات بين المغرب الأقصى وبلاد شنقيط فقد كان هنالك تقاطع كبير بين مراجع البلدين كما بيَّنَّا. وقد تعززت هذه الروابط بفعل رحلات العلم التي جعلت الشناقطة على صلة وثيقة بالبلاد المغربية، فقد شكلت سلسلة من حلقات الوصل الثقافية بين البلدين، حيث اتصل سيد عبد الله بن محم المعروف بابن رازكه بالسلطان مولاي إسماعيل وبابنه محمد العالم، في حين التقى كمال الدين المجيدري وسيدي عبد الله بن الحاج إبراهيم بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله. ومع

إطلالة القرن الثالث عشر الهجري، تتسع دائرة هذا التواصل لتبلغ أعلى درجاتها أيام السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام الذي كان على صلة مع خمسة من علماء القوم أمدهم بأموال وأعانهم على الحج؛ فقابلوا هذا الصنيع بالجميل: فأثنوا عليه وامتدحوا سعيه. وهؤلاء هم المصطفى الطالب أحمد بن طوير الجنة، والشيخ سيدي الكبير، ومحمد بن محمدي، ومحمد مولود بن أحمدو، والشيخ ماء العينين. وبذلك ندرك أهمية رحلات العلم عند الشناقطة. فقد كانت بحق موسوعات ثقافية توفر مناخاً صالحاً للتواصل واللقاء، وتمنح فرصاً للتبادل والأخذ

(1/2887)

والعطاء؛ كما تعمل في الوقت نفسه على شد الرباط الثقافي بين البلاد الموريتانية ومختلف الحواضر الإسلامية يومئذ، معربة عن تميز علماء القوم الذين آووا إلى ركن من المعرفة شديد وتبوأوا من العلم مكاناً علياً.

(1/2888)

التواصل الدبلوماسي بين الأندلس النصرية والمغرب المريني من خلال رسائل ابن الخطيب الأندلسي (750-770 هـ)

الأستاذ رابح عبد الله المغراوي
كلية الآداب – وجدة

الإطار التاريخي لفترة التواصل الدبلوماسي . شهد العالم الإسلامي، غربه وشرقه ، في هذه الفترة التي نحن بصدد دراسة وجه من أهم وأرقى وجوه التواصل –بين بنى الإنسان ، تحولات سياسية كبرى. كانت أبرز سمات هذا التحول ، اضمحلال امبراطوريات ودول ، تمتعت بالقوة والنفوذ نسبيا، وقيام دول أخرى مكانها، أفرزها البناء السياسي الداخلي ، الذي كانت تقوم عليه هذه

الإمبراطوريات والدول نفسها. وكانت صور وأشكال هذا التحول متباينة. فمنه ما وقع على شكل اقتطاع فوضوي ، لأجزاء معينة من مساحة تلك الإمبراطورية الواسعة، عند تفلت الزمام ، ودنو الموت من الكيان ، ثم إحكام السيطرة على هذه المنطقة المقتطعة، واتخاذها قاعدة للانطلاق ، أملا في توسيع النفوذ، كلما أتيحت

الفرصة، مع الإبقاء على نفس النفوذ الذي كان للدولة المحتضرة، لتكون وريثتها في المجد والسؤدد، مثلما حدث في بلاد المغرب عقب ضعف الدولة الموحدية 564–667 هـ / 1130–1269 م)، حيث بادرت الزعامات السياسية، المنبوثة

(1/2890)

في أرجاء المنطقة، إلى استلام مشعلي حل القيادة، مستندة إلى العصبيات القبلية المنتشرة بشكل قوي ، ومعتمدة كذلك على

السمعة السياسية واسعة النطاق . فقامت الدولة الحفصية في إفريقية (625–941 هـ / 1231–1534 م) مستقلة بالأمر، دون السلطة الموحدية المركزية في مراكش. استطاعت هذه الدولة أن تبسط نفوذها في البداية على جميع بلدان المنطقة، وترد عليها البيعات والولاءات من جهات مختلفة، وكانت هذه الدولة في حد نفسها الامتداد الشرعي والسياسي للدولة الموحدية.

(1/2891)

وقامت الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط (633–769 هـ / 1235–1373 م) متخذة من تلمسان قاعدة لها.

واستطاعت هذه الدويلة الصغيرة، بفضل بعض أمرائها الأقوياء، أن تطيل الصراع في المنطقة ردحا طويلا من الزمن . كما استطاعت أن تؤثر، أحيانا كثيرة، في مجريات الأحداث السياسية، في المنطقة، رغم ضعفها وموقعها)جغرافي غير المساعد.

وقامت أيضا الدولة المرينية في فأس (591–875هـ/1195–1170 م) بعد مكابدة ظروف القيام والاستقلال الصعبة، لأنها كانت تقاوم على جبهات عدة، فعانت الأمرين مع الدولة الزيانية طوال مدة وجودها،

(1/2892)

وخاصة إبان قيامها.

استطاعت هذه الدواسة الفتية أن تنزل ضربة قاضية بالموحدين في مراكش، فتستقل بالنفوذ على المغرب الأقصى، كما استطاعت – ولكن لمدة قصيرة – أن تبسط نفوذها على مساحة جغرافية كبيرة، تقارب تلك التي كانت تحت يد الموحدين أيام صولتهم . فسيطرت على إفريقية وتلمسان ، وعلى قواعد من الأندلس ، ونالت موالاة سلاطين الأندلس ، فاستحقت بذلك أن تكون أقوى

دول المنطقة.

ومن الأشكال وhالصور التي قامت بموجبها بعض الدول في العالم الإسلامي كذلك، ما وقع في الغرب الإسلامي أيضا، تحت تأثير الشعوب بالخطر المحدق

(2893/1)

بمصير البلاد والعباد، من جراء تكالب العدو، فكان الهدف تأسيس سلطة تستطيع – على الأقل – إيقاف زحف العدو الداهم، في محاولة استرجاع القواعد، التي اغتصبها العدو بعد توحيد الصفوف وجمع الكلمة، يدفعهم الروح الديني والوطني . وهذا ما حدث في الأندلس ، حيث قامت دويلة صغيرة، على جزء من الساحل الشمالي للبحر الأبيض المتوسط، جنوب شرق شبه جزيرة ليبيريا (إسبانيا)، متخذة من مدينة غرناطة

عاصمة لها. استطاعت هذه الدويلة أن تصمد زمنا طويلا، رغم الظروف الصعبة التي كانت تحيط بها من كل جانب . عرفت هذه الدويلة في

(2894/1)

التاريخ بالدولة النصرية، أو دولة بني الأحمر (629–697هـ/ 1262–1492 م)، كما عرفت أوج ازدهارها على عهد لسان الدين ابن الخطيب .

وتعد هذه الفترة، التي نحن بصدد دراسة التواصل الدبلوماسي فيها بين الأندلس والمغرب ، انطلاقا من المراسلات السلطانية، فترة ولاية ابن الخطيب منصب الكتابة والوزارة، وهي فترة تناهز ربع قرن من الزمن .

كما ف حد من أزهى العصور سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، بإجماع المؤرخين والدارسين تقريبا(1) سواء تعلق الأمر بالأندلس أو باقي دول منطقة الغرب الإسلامي ، حيث صادف أن تولى على

(1/2895)

هاتين الدولتين أمراء أقوياء، استطاعوا أن يحققوا الاستقرار النسبي ، ويشجعوا حركة العمران والحضارة في ميادين مختلفة بفضل سيرتهم المستقيمة وسياستهم الحكيمة.

طبيعة العلاقات السياسية والدبلوماسية بين الأندلس والمغرب :

قبل أن أسترسل في تناول. طبيعة هذه العلاقة، لابد أن ألمع إلى أبرز الحكام الذين كانوا على عهد هذه الفتوة،

التي نحن بصدد دراسة مظاهر التواصل الدبلوماسي فيها. لقد تولى زمام الحكم في الدولة النصرية، في هذه الفترة، كل من السلطان أبي الحجاج يوسف الأول (733– 755 هـ / 1333 – 1354 م)(2) وابنه

(1/2896)

السلطان محمد

(1) ينظر على سبيل المثال : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، محمد عبد الله عنان، مطبعة التأليف بالقاهرة، الطبعة الثانية، 1966 م وكذلك: لسان الدين ابن الخطيب حياته وتراثه الفكري لنفس المؤلف ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، الطبعة الأولى 1961 ، وكتاب تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في الفكر المريني للدكتور محمد عيسى الحريري ، دار القلم ، الطبعة الثالثة 1987 وكذلك رسالتنا للماجستير لسان الدين بن الخطيب وابن خلدون دراسة تاريخية مقارنة مكتوبة على الآلة الراقنة، كلية دار العلوم ، جامعة

(1/2897)

القاهرة، مصر، وكذلك كلية الآداب، جامعة محمد الأول ، وجدة، المغرب .

(2) أنظر ترجمة هدا السلطان في كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، 1973، ج 4 ، ص 211 وكتاب اللمحة البدرية ، لابن الخطيب ، تحقيق لجنة اللترات العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، الطبعة الثالثة 1980 ص 102

الخامس الغنى بالله (755–760 هـ / 762–794 هـ / 1954–1359م/1361–1392م)(3).

(2898/1)

أما بالنسبة للمغرب ، فقد تولى على عرشه ، إبان هذه الفترة الزمنية، كل من السلطان أبي الحسن المرينى (731/752هـ)(4)، ثم ابنه السلطان أبي عنان المريني (752–759هـ)(5)، ثم حكم السلطان أبو سالم (6) بعده ، لمدة لا تتجاوز أربع سنوات ، حيث قتل سنة و،رو. وأخيرا، السلطان عبد العزيز(7). الذي حكم ما بين سنة 768هـ وسنة 774هـ

لكن أهم المراسلات و"لسفارات الدبلوماسية كانت بين كل من السلطان أبي الحجاج يوسف وابنه السلطان محمد الخامس الغني بالله من جهة، وبين كل من السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان من جهة أخرى كما

(1/2899)

سيتضح.

لم تكن العلاقات السياسية والدبلوماسية بين الأندلس والمغرب ، في عمومها، تسير على وثيرة واحدة، وإنما كانت متباينة في طبيعتها عمقا واتساعا، تتأرجح بين الصداقة والعداء، وبين الولاء والتراجع ، حسب ما تقتضيه المصلحة السياسية والمنفعة الظرفية. والذي يفسر هذا الاضطراب في المواقف ، وخاصة من قبل الأندلس ، تجاه حكام المغرب الأقصى، الظروف السياسية الصعبة والحرجة المنذرة بالانهيار، التي كانت تمر بها الأندلس ، آخر سرب من أسر"ب الأمة الإسلامية، في هذه المنطقة، ما بين عدو يريد استرداد كل شبر من الأراضي

(1/2900)

، التي ضمها الفتح الإسلامي على امتداد السنين ، وصديق يريد إخضاع المنطقة، رب حلها تحت سيادته ، كما كان الأمر بالنسبة للمرابطين والموحدين في المغرب ، حينما أخضعوا الأندلس ، وأصبحت تحت تصرفهم .

)3) انظر ترجمة هدا السلطان في الإحاطة، ج 2، ص12، وكتاب اللمحة البدرية، ص 113 .

(4) انظر ترجمة هدا السلطان في شاط المستند الصحيح الحسن ، لابن مرزوق وكتاب روضة النسرين ، لابن الأحمر وكتاب العبر، لابن خلدون وكتاب تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العمر المريني ، د. محمد عيى الحريري .

)5) نفس المراجع السابقة .

(2901/1)

)6) نفس المراجع السابقة.

)7)نفسها.

يقول الدكتور محمد عيسى الحريري يصف طبيعة العلاقات التي كانت بين الأندلس والمغرب على عهد الأسرتين الحاكمتين . "يمكن وصف العلاقات بين المرينيين وبني الأحمر بأنها كانت علاقات يشوبها

الحذر والترقب ، ومرجع ذلك إلى تشكك سلاطين بني الأحمر كثيرا من نوايا بنى مرين وتطلعاتهم في بلاد الأندلس ، ولذلك كان يغلب على هذه العلاقات التذبذب بين الود المتبادل أو العداء والنفرة في بعض الأحيان (8).

(1/2902)

ورغم ذلك ، يمكن أن نقول إن العلاقات التي سادت بين الأندلس والمغرب في الأعم الأغلب خلال هذه الفترة، امتازت بالكثافة وغلبة المصافاة، بحكم أواصر الصداقة والجوار اللذين أصلتهما التقاليد السياسية والدبلوماسية العريقة المتو"زنة عبر حقب زمنية متراكمة، ساعدت على تعميقها كثير من العوامل والمؤثرات التاريخية والسياسية والدينية والجغرافية والثقافية بصفة عامة.

وإذا كان هناك من قلق ، كما تؤكد القرائن التاريخية والسياسية المختلفة في المنطقة، فمرده إلى ارتباط الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية، في وحظهم تاريخها،

(1/2903)

بالدول التي قامت في المغرب ، مثل المرابطين والموحدين . وكان الداعي إلى ذلك ، إما الاستنجاد وطلب التدخل – من –هبل الأندلسيين أنفسهم ، وإما التدخل القهري عنوة عندما يستدعي الضرورة من منطلق الإحساس بالالتزام والمسؤولية التي يبحث عليها وازع الدين والتاريخ والمصالح والمصير.

ولذلك لم يكن من الغريب أن نجد دولة بني الأحمر تستنجد بالدولة المرينية ضد النصارى مباشر بعد تأسيس هؤلاء دولتهم وتوطيد أركانها سنة 673هـ، كما تؤكد الوثائق السياسية والدبلوماسية(9)، لأنه لم يكن أمامهم غير هذه الدولة التي كانت أقوى

دولة في المنطقة، سياسيا وعسكريا. والحقيقة أن كثير" من حكام الدولة المرينية لم يبخلوا بعونهم المادي والمعنوي ، بل هناك من السلاطين من عبر البحر ليجاهد بنفسه على رأس حملته العسكرية إلى

(8) تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، د. محمد عيسى الحريري ، ص 227

)9) انظر على سبيل المثال كتاب الاستقصا، الناصري ،

ج2– ص 19.

جانب إخوانه الأندلسيين مثل السلطان أبي يوسف بن يعقوب (10) المريني (668–685هـ) الذي جاز إلى الأندلس أربع مرات برسم المناصرة والجهاد، وكذلك السلطان المشهور أبي الحسن المريني

(1/2905)

الذي بعث ابنه الأمير أبا مالك ليخوض حربا ضروسا هنالك، وعبر هو نفسه بحد ذلك رفقة خاصته وحاشيته أواخر سنة 740هـ وقاد الحرب هناك إلى جانب أهل الأندلس، ومني بهزيمة طريف الشهيرة سنة 651هـ، التي كانت لها آثار سيئة على الأندلس والمغرب على السواء.

وبلغت عرى التقارب والتعاون إلى درجة أن المرينيين أنشئوا – بموافقة الأندلس – قاعدة عسكرية جهادية دائمة تدعى "مشيخة الغزاة" على أرض الأندلس، قرب جبل الفتح (جبل طارق)، تحت إمرة عسكريين من قوات السلطان المريني، تمت إليه بصلة القرابة، ولكن تكون في الحرب

(2906/1)

تحت إمرة القيادة العليا للجيش النصري (11).
وظلت هذه القاعدة ف حبر عن حلقة الوصل السياسي والعسكري والدبلوماسي بين الدولتين ، إلى أن زالت بتأزم (ل حلاقات بينهما، في أواخر عهدها، عندما ظهر الضعف ، وساد الفساد السياسي ، في كلا البلاطين (12).
أما على عهد السلطان أبي عنان بن أبي الحسن المذكور، فقد اقتصر التواصل على الوسائل الدبلوماسية المتمثلة في تبادل المراسلات وإرسال المراسلات السفارية.

(10) للمريد من الاطلاع على شخصية (السلطان، ينظر كتاب الأنيس المطرب ، لابن أبي زرع وكذلك كتاب الذخيرة السنية

(2907/1)

لنفس المؤلف وكتاب العبر، لابن خلدون وكذلك كتاب الإخاطة، 912 – وكتاب الإستقصا.
(11) لمعرفه المزيد عن هده الخطة، ينظر بحثنا الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة" الذي

سيصدر ضمن حوليات كلية الآداب الكويتية خلال سنة 1999–2000 .

(12) ابن خلدون ، العبر، ج 14 ،ص 788 ، وابن الخطيب ، ريحان الكتاب ، ج 2 صص 76–77–80–

لمحة موجزة عن شخصية ابن الخطيب (13) السياسية والدبلوماسية :

لسان الدين بن الخطيب (713–766 هـ) شخصية أندلسية غنية عن التعريف ، تمتعت بالألمعية والمشابهة في كثير من الفنون

(2908/1)

والعلوم . فقد كان شاعرا بارعا، وأديبا متمكنا، ومؤرخا متميزا، وطبيبا ماهرا، وفيلسوفا متصوفا. ترك في جميع هذه المعارف والفنون مصنفات هامة، متعددة الأسفار والأجزاء، تنيف عن الستين كتابا، منها ما وصل إلينا، ومنها ما أبادته يد الأقدار، وانسدلت عليه أستار الأسرار.

قال ابن خلدون يصف ابن الخطيب ، وقد كانا صديقين حميمين ، دام التواصل والود بينهما، إلى آخر لحظة من لحظات الحياة، حتى حينما فرقت الظروف

بينهما : "وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله في النظم والنثر والمعارف والأدب ، لا يساجل فيها بمثل

(2909/1)

هداه ،)(14).

وقال عنه في موضع آخر أيضا : "صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية من غير مدافع (15).

وإلى جانب هذه القدرات المذكورة، فقد كان ابن الخطيب ، من الناحية السياسية، وزيرا محنكا وكاتبا للدولة حاذقا، وسفيرا في المهام الدبلوماسية لبيبا نبيها.

فقد تقلد مناصب سياسية على عهد السلطان ابن الحجاج يوسف الأول ، وعمره ستة وثلاثين عاما. يقول ابن الخطيب متحدثا عن نفسه . "فقلدني السلطان

(2910/1)

---

(13) الكتب التي تناولت حياة س تراث ابن الخطيب ، قديما وحديثا، كثيرة ومتنوعة، نذكر شذرات منها مثلا لا حصرا لأن المقام لا يسمح : ابن حجر العسقلاني،

الدرر الكامنة في أجعين المائة الثامنة العسقلاني ، إنباء الغمر بأبناء العمر؟ الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، كحالة، معجم المؤلفين ؟ حاجي خليفة، كشف الظنون البغدادي ، إيضاح المكنون ، مجموعة من المستشرقين، دائرة المعارف الإسلامية من بروكلمان، تاريخ الأدب العربي ؟ البستاني ، دائرة المعارف اللبنانية! الزير، الأعلام ؟ المقري ، نفح الطيب إ المقري ،

(2911/1)

أزهار الرياض، ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان، ابن الأحمر، نثير الجمان، ابن القاضي، جذوة الاقتباس المراكشي، الإعلام، التطواني ، ابن الخطيب من خلال كتبه، عنان ، لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكري . هدا بالإضافة إلى الدراسات والبحوث الكثيرة التي لا يحصيها العد

(14)

كتاب التعريف ، لابن خلدون ص 155.

(15) المقدمة لإبن خلدون، ج3 ، ص 1353.

كتابة سره، ولما يجتمع الشباب ، ويستكمل السن معززة بالقيادة، ورسوم الوزارة، واستعملني في

السفارة إلى الملوك، واستنابني بدار ملكه ، ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه،

(2912/1)

ائتمنني على صنوان ذخيرته ، وبيت ماله ، وسجوف حرمه ، ومعقل امتناعه ، ومن فصول منشوره : "وأطلقنا يده على كل ما جعل الله لنا النظر فيه "(16).

وهذه الوظائف التي أشار ابن الخطيب إليها، إذا اجتمعت في يد شخص واحد وسم بذي الوزاريين في الأندلس ، وزارة القلم والسيف . ووزارة القلم لا يضطلع بها إلا من كان فارس الميدان في البلاغة والبيان ، متمرسا في المعارف والآداب ، متمكنا من جميع الفنون والعلوم ، خبيرا بشؤون السياسة والحكم والإدارة، مدركا لأساليب اللياقة والعوائد الدبلوماسية(17).

(2913/1)

كان قلم ابن الخطيب – كاتب الدولة – دائم الجرية لا يجف ، يعد الرسائل الموجهة إلى المناطق المختلفة، سواء في أرض الوطن أو خارجه إلى بلاد المغرب والمشرق ، بل

وإلى الممالك النصرانية على تباينها وتباعدها.

ولم يكن قلمه قاصرا على كتابة الرسائل الدبلوماسية، وإنما كان أيضا ينشئ المراسيم والظهائر، وكتب الشفاعات ، وكتب العهود والمواثيق بين المسلمين والنصارى، وكذلك كتب عقود الزواج السلطانية، كما جاء ذلك في كتابين هامين من كتبه وضعهما خصيصا لجمع وحفظ ما صدر عنه من مراسلات متباينة الأغراض طيلة الفترة التي كان

(2914/1)

فيها صاحب الأمر والنهي ليقدمهما إلى ذوي الاهتمام بفن الكتابة والإنشاء. فسمى الكتاب الأول "كتابة الدكان بعد انتقال السكان " ضمنه مجموعة من الرسائل الدبلوماسية، ولكنها قليلة وهذا الكتاب هو النواة الأولى للكتاب الثاني.

وسمى الكتاب الثاني "ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب)،، ويتألف من مجلدين ضخمين تضمنا أزيد من مائة وعشرين وثيقة في مختلف الأغراض. وسأفرد له دراسة مقتضبة، تكشف عن فحواه شكلا ومضمونا، بعد ختم التعريف بابن الخطيب .

(16) الإحاطة في إخباز غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، ج 4، ص 443.

(2915/1)

---

(17) لمزيد من الاطلاع على شروط الكتابة والوزارة، نحيل على الكتب التي تخصصت في هدا المجال مثل كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي وكذلك كتاب التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري .

لم يقتصر أيضا نشاط ابن الخطيب السياسي على إملاء الرسائل وصياغة القرارات وإنما تجاوز ذلك إلى الممارسة الفعلية. ولم تكن هذه الممارسة محصورة في السياسة الداخلية للدولة، وإنما وحدته إلى التمثيل الدبلوماسي الفعلي، بناء على المؤهلات السياسية والأدبية والعلمية، التي ينطوي عليها، فكانت الدولة تعتمد عليه في تأسيس

(2916/1)

العلاقات، وإبرام المعاهدات ، وعقد الصداقات ، عن طريق السفارات (18).

كانت أول سفارة قام بها ابن الخطيب ، تلك التي كانت على عهد السلطان ابن الحجاج يوسف الأول ، حيث بعثه إلى سلطان المغرب آنذاك أبي عنان ، عقب وفاة والده أبي الحسن. ولم يشير ابن الخطيب إلى غرض هذه السفارة، ولكننا وجدنا صديقه ابن خلدون قد أشار إلى غرضها، حينما ترجم له في كتابه "العبر". يقول ابن خلدون متحدثا عن أول سفارة لابن الخطيب إلى المغرب سنة

(2917/1)

---

752 هـ: "وسفر عنه ، إلى سلطان أبي عنان ، ملك بني مرين بالعدوة، معزيا بأبيه السلطان أبي الحسن ، فجلى في أغراض سفارته "(19).

ولما مات السلطان أبو الحجاج ، وخلفه ابنه محمد الغني بالله ، بعثه سفيرا إلى المغرب أيضا. في غرض الاستظهار وطلب العون ، يقول ابن خلدون ، مشيرا إلى سفارة ابن الخطيب الثانية سنة 755هـ وإلى ما حققه من نجاح بما كشف عن قدرات ابن الخطيب الدبلوماسية ثم بعثوا الوزير ابن الخطيب سفيرا إلى السلطان أبي عنان

، ومثل بين يديه ، تقدم الوفد الذين معه ، من وزراء الأندلس ، وفقهائها، واستأذنه

(2918/1)

في إنشاد شئ من الشعر، يقدمه بين يدي نجواه ، فأذن له ، وانشد وهو قائم:

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح في الدجى قمر

فذكر سبعة أبيات من قصيدته الطويلة، وعقب قائلا :

"فاهتز السلطان لهذه الأبيات ، فأذن له في الجلوس ، وقال له قبل أن يجلس : ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم ، ثم أثقل كاهلهم بإحسانه ، وردهم بجميع ما طلبوه. وقال شيخنا

القاضي أبو

(18) أعمال الأعلام ، ابن الخطيب ، ج 2، ص305

(19) كتاب العبر، لابن خلدون، ج 13، ص 690.

(2919/1)

القاسم الشريف وكان معه في ذلك الوفد : لم يسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا

هذا)(20).

هذا، ولم تكن دبلوماسية ابن الخطيب معروفة لدى ملوك الإسلام فقط، وإنما كانت معروفة أيضا لدى ملوك النصارى. يقول اميليو غرسيه غومث: "ونجد في مدونة المستشار دون لوبث أيالا (Don Lopez Ayala) وإن لم يجزم النقد التاريخي بصحتها عد، رسائل صنوفا، متبادلة بين الملك القشتالي، وبين مسلم من غرناطة، كمان الملك القشتالي يثق فيه ويتخذه صديقا واسع المعرفة، فيلسوفا عظيما، ومستشار الملك غرناطة يدعى Benahatine.

(2920/1)

ولا يحتاج الإنسان إلى جهد كبير، ليت حرف على صاحب هذا الاسم، وإنه ابن الخطيب اللوشي)(21).

ولعل حل هذا ما يؤكد ما أشار إليه ابن الخطيب نفسه، بشيء من الفخر والاعتداد بالنفس، في نص رسالة الوداع، التي وجهها إلى سلطانه، عمد الغني بالله، وهو يغادر الأندلس، إلى غير رجعة، حينما قال له: "واعلموا أيضا، على جهة النصيحة، أن ابن الخطيب مشهور في كل قطر، وعند كل ملك "(22).

هذه هي شخصية ابن الخطيب الدبلوماسية، ذلك الرجل

الذي كان في جانب من جوانب حياته الغنية، أداة من أدوات التواصل السياسي والدبلوماسي ،

(2921/1)

إنسانا ورسالة، ألممنا به إلماعا، بما يستجيب مع هذه الدراسة التي زحني التواصل من الزاوية الدبلوماسية.

ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب :

هو من أهم كتب ابن الخطيب بـ حد "الإحاطة"، إذ هو من الكتب التي تعددت أسفارها. يقول ابن الخطيب :

"وريحانة الكتاب في أسفار ثمانية"(23)

(20)كتاب العبر، لابن خلدون، ج13، صص 690–691.

(21) مع شعراء الأندلس والمتنبي سير ودراسات ، ترجمة د. طاهر أحمد مكي ، ص160.

(22) ابن خلدون، عاب التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، ص 151.

(23) الإحاطة، ج 4 ، ص 461.

(2922/1)

أما منهج الكتاب من حيث الشكل ، فقد بينه ابن الخطيب في المقدمة التي استهله بها(24)، حيث قسمه إلى عدة أقسام متنوعة حسب الأغراض والفنون المختلفة. وهو تقسيم – كما يبدو – قائم على أساس الأغراض المتنوعة. ويمكن تصنيف هذه الأقسام كلها من جديد وحصرها في قسيس اثنين فقط ، حسب الفنون التي تندرج تحتها وهي : قسم تاريخي سياسي ، وقسم أدبي اجتماعي .

والملاحظ أن القسم الأول هو أكثر القسمين وفرة من حيث المادة . أما الأسلوب الذي جاءت عليه هذه الأقسام ، فهو أسلوب الرسالة الديوانية والرسالة الأدبية، إذ الكتاب في

(2923/1)

أصله لم يكن إلا جمعا وتصنيفا، وحشدا وتبويبا، إذ أن معظم مادته كان قد أنشأها في مختلف أطوار حياته ، عند مباشرة مهام الدولة المتنوعة، عندما كبرت سنه ، وخشي أن يضيع أثره الذي استفرغ فيه جهده ، وبان فيه فضله . يقول ابن الخطيب مشيرا إلى هذا الأمر : "وعلى ذلك ، فألفيت عند الافتقاد، عقب الرقاد، بدائع الأدب والنثر، قد ضاعت ، وتملكتها أيدي الذهول عنها، فوهبت

وباعت بعدما أظمأت وأجاعت)،(25).

أما حجم ما ضمنه ابن الخطيب في هذا الكتاب من مادة بالمقارنة بما أنشأ وألف في الأصل ، فهو قذر قليل ونزر ضئيل . وقد

(2924/1)

صرح ابن الخطيب بذلك قائلا : "وإذا لم يبق إلا ثمرات من أوقار عير، وإفحرات من جلد بحير، إذ كنت قبل الاعتماد من الدولة النصرية، بالمشاورة والمؤازرة، والمعاونة والمظاهرة، والحرص على خدمتها، بوظيفة الأقلام والمثابرة، إذ العمر جديد، وظل النشاط مديد، لكل مسودتها المجتلبة إلى حفظ الكتبة، وأرمى بعقودها البذخة إلى الأنامل المتسخة مشتغلا عن الشيء بما يتلوه ، غافلا عن منحطه بالغرض الذي يعلوه "(26).

كما يشير ابن الخطيب في مقدمة هذا الكتاب ، إلى المراحل التاريخية التي قطعها هذا المصنف ، إذ لم يبرز إلى

(2925/1)

الوجود دفعة واحدة، ولم يستو فجأة على الشكل

(24) ريحانة الكتاب ، ج1 ، صصر 17–20.

(25) ريحانة الكتاب ، ج1 ، ص 18

(26) ريحانة الكتاب ، ج1 ، ص 18

النهائي الذي هو عليه ، وإنما كان في البداية على شكل مؤلف صغير لم تتجاوز مادته بضيعة رسائل جمعها في كتابه المعروف "كناسة الدكان بعد انتقال السكان " الذي ألفه أيام كان لاجئا مع سلطانه في المغرب ما بين 760هـ و 763 هـ

كان "كناسة الدكان " إذن النواة الأولى، واللبنة الأساس ، ل كتاب الريحانة. وعندما عاد إلى الوزارة الثانية سنة 763هـ ، ووقعت يده على كثير من

رسائله وصدرت عنه أيضا رسائل كثيرة ومتنوعة بما كان يشغله من منصب زاد فيه النفوذ، مما برحله يفكر في جمعها وإضافتها إلى ما جمع من قبل . يقول ابن الخطيب : "وأضفت إليه – إشارة إلى "كناسة الدكان " – من بعد مما خبأته وجادة، أو دخرته استجادة، وما

استلحق من بعد الآوبة(27). ورغم هذه الإضافات الكثيرة، التي أضافها ابن الخطيب إلى "كناسة الدكان ،،، ورغم هذه الرسائل الهائلة، التي جص جمعها كتاب "ريحانة الكتاب "، الذي برحله في ثمانية أسفار، لم تكن في نظر ابن الخطيب كثيرة قياسا على جميع ما صدر عنه ، فغض الأنامل

(2927/1)

ندما. يقول : "فأدميت الأنامل ندما أن صار وجوده عدما إلا ورقات تشبثت بما أسأرته الحادثة على الدولة من سقط المتاع وشلو مختلس من براثن سباع "(28). بيد أنه يشير إلى الاكتفاء بذلك القدر، ول حله اتبع في جمعه منهجا انتقائيا انتخب بموجبه عيون إنشائه وعربون بيانه ، وإلى هذا يشير قائلا : "فرضيت منها بما حضر مضطرا، رفعت بالذي يسر. إذا أصبحت قانعا معترا "(29). إذن ، فـ "الكتاب الريحانة" من المؤلفات المتأخرة التي صنفها ابن الخطيب وإن كانت مادته تتوزع على مساحة زمنية طويلة قد تتعدى عشرين سنة حيث وجدت فيه

(2928/1)

رسائل تعود إلى سنة ه ،+س وكذلك رسائل تعود إلى سنة 770هـ، وإن لم يشر ابن الخطيب في الغالب إلى تاريخ الرسائل ، لكن مضمونها يشير إلى ذلك.

(27) ريحانة الكتاب ، ج 1 ، ص 19.

(28) ريحانة الكتاب ، ج 1 ، ص 18.

(29) ريحانة الكتاب ، ج 1 ، ص 19.

ومما لاشك فيه أن ابن الخطيب قد نقح العديد من رسائله ، وخاصة تلك التي قدم بها العهد. أما المنهج المفصل الذي عرض من خلاله رسائله ، فإنه في أغلب الأحيان يصدر الرسائل بظروف إنشائها، ويشير إلى مضمونها، مما يعين الباحث على استخلاص معانيها، واستقصاء أبعادها، وتصور

ملابساتها المختلفة، كأن يقول مثلا : "وصدر عنى أيضا ني مخاطبة سلطان مدينة تلمسان الدائل على هذا العهد، الأمير حمو موسى بن أبي زيد يعقوب يوسف بن الأمير أبي زيد عبد الرحمان بن الأمير أبي زكريا يحيى بن السلطان أبي يحيى يغمراسن بن زيان ، عن السلطان

بالأندلس في غرض الهناء لما دال أمر وطنه إليه وقد وصله كتابه يعرف بذلك "(5لأ).

وكقوله أيضا ي صدر رسالة أخرى، وتشير أخبارها إلى أنها من رسائله المتأخرة : "ولما وصل كتاب سلطان المغرب على هذا العهد، أمير المسلمين أبى فارس عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن ،

(2930/1)

يعرف باستيلائه على الخلافة بالمغرب ، صدر عنى في ذلك.. "(33).

أما إذا تشابهت الأغراض ، وتقارب زمانها، وتوحد مضمونها، فنجده يكتفي بالإشارة، فقط ، كأن يقول مثلا : "وصدر عني في هذا الغرض أيضا،)(32)، أو يقول : "ومن زلت ". وهكذا كثيرا.

كما نجده في بعض الأحيان يستغني عن الافتتاحية، مثلما فـ حل في رسالة عزاء إلى السلطان أبي عنان المريني. وكان قد أورد رسالة في نفس الغرض ، بـ حثها إليه وقدمها على هذه ، التي استغنى فيها عن الافتتاحية، يقول : "و"صبحت في س حتى العزاء والهناء إليه في غرض الرسالة كتابا نصه بعد

سطر افتتاحه "(33). أما اللغة والأسلوب الذي صيغ به الكتاب ، فهو من أقوى الأساليب وأجزلها، ومن أبلغ الصيغ وأبدعها. يقول عنه أبو بكر التطواني وهو من اكثر المعجبين المعاصرين بشخصية ابن الخطيب : "مؤلف "الريحانة" بأسلوبه ، هو ي الصدر من

(30) ريحانة الكتاب ، ج 1 ص 269

(31) ريحانة الكتاب ، ج 1 ص 308

(32) ريحانة الكماب ، ج 1 ص 337

(33) ريحانة الكتاب ، ج 1 ص 330

أدباء هذه اللغة. فالذي يميل مع الحكم القاضي بأن الأسلوب هو الكاتب نفسه ، وهو ما ذهب إليه بعض من خاض بحر أدب الجاحظ، وحاضر في أسلوبه ، لم يتردد في

ضم أديبنا الموهوب إلى قائمة من لهم في الأدب في هذا الباب . فابن الخطيب إذا كتب كأديب هو بأسلوبه أمة

وحده .. ..)(34).

ولا نرى في هذا الكلام مبالغة، وإنما هو تقرير لحقيقة يكتشفها كل من باشر أدب ابن الخطيب ، ولذوق أسلوبه . هو إعجاب لا يخفيه كل من غاص في بحار وحارفه ، وأعمل النظر في فسيفساء صياغته ، وعبقرية وشيه وتنضيده .

ولقد وصفه بأكثر من هذا صديقه ابن خلدون الذي عرف بشحه في إضفاء الحلي والصفات حينما دعاه بـ "لسان الملة والدين "، ولا غرابة في ذلك أيضا، فقد كانت كل الرسائل الواردة في هذا المصنف

(2933/1)

تصدر عن ابن الخطيب باعتباره كاتبا للدولة وعنوانا للإيالة. ومعروف ما قي حين على الكاتب امتطاؤه في الرسائل السلطانية من بيان يقوم مقام البرهان ويرفع القدر رب حلى الشأن .

قيمة كتاب "ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب" :

تتجلى قيمة الكتاب عند دراسة مضمونه وتحليل أغراضه . وهذا ما سنحاوله في هذه الدراسة. لاشك أن

كتاب "الريحانة" ينطوي على قيم وفوائد متنوعة. وحتى نقف على هذه القيم والفوائد عن كثب ، أحاول فحص مضامينه وتحليل أغراضه قدر الإمكان ، ولكن في اختصار وإجمال ، حسبما يمليه المقام.

(1/2934)

يمكن حصر القيم التي انطوى عليها هذا المصنف في النقط التالية : ، – القيمة الوثائقية : للكتاب قيمة وثائقية كبرى، بما ثوى فيه من الرسائل السلطانية الصادرة من قصر الحمراء، والمبعوثة إلى مختلف الجهات ، سواء في الداخل أو الخارج ، حيث احتوى على ما يزيد على مائة وعشرين وثيقة، تفاوتت من حيث الطول والقصر.

(34) ابن الخطيب من خلال كبه ، ج 1، ص 22.

ولقد استطاعت هذه الوثائق أن تبين – بحق – سياسة الدولة النصرية على عهد ابن الخطيب ، تلك السياسة التي اعتمدت على تحسين العلاقات ، والمحافظة على الصلات ، والمودات

(1/2935)

، وخاصة مع الدول الإسلامية المجاورة، في المغرب الأقصى والأوسط والأدنى. وكانت حصة الوثائق التي تجسد علاقة الأندلس بالمغرب أكبر، بما كان للدولتين من علاقات وثيقة، وروابط متينة، كما صورت هذه الوثائق أيضا سياسة الدولة النصرية والمترضية تجاه العدو النصراني ، تلك السياسة التي كانت في س معظمها تعتمد على المهادنة والحذر واهتبال الغرر. كما أشارت الوثائق إلى جانب كبير من الحياة السياسية في المغرب الأوسط، إفريقية، وكشفت أيضا عن المراسيم والبرتوكولات التي كانت تعتمدها الدولة النصرية في علاقتها مع جيرانها.

(2936/1)

أما الرسائل التي تضمنت ما أشرنا إليه ، فهي تلك التي أوردها تحت العناوين التالية :

1– الفتوحات الواقعة والمراجعات التابعة.

2– التهاني بالصنائع والمكيفات

3– كتب التعازي في الحوادث والنائبات

4– كتب الشكر والهدايا والواردات

5- كتب تقرير الحوادث

6- جمهور أغراض السلطانيات .

والحقيقة أن هذه العناوين لا تشير فقط إلى القيمة الوثائقية، وإنما تشير أيضا إلى القيمة التاريخية بما اندرج محتها من أخبار تاريخية كثيرة ومتنوعة.

2 – القيمة التاريخية :

(2937/1)

تتجلى القيمة التاريخية للكتاب فيما تضمنته الرسائل المنبعثة من قصر الحمراء، من أخبار تاريخية متنوعة، حيث استطاعت هذه الرسائل تغطية أحداث

حوالي ربع قرن من الزمان (5ءر-ه ر+س) واستطاعت أيضا ألا تقتصر على أخبار الدولة النصرية فقط، وإنما تجاوزتها إلى أخبار الدولة المرينية والدولة الحفصية، فصور الصراع الذي كان دائرا في المنطقة، وكذلك أشار إلى ب حض الأخبار المتعلقة بالممالك النصرانية.

ولكن الدولتين اللتين استأثرتا بأوفى نصيب من الاهتمام لدى ابن الخطيب هما الدولة المرينية والدولة النصرية، وهذا أمر

(2938/1)

بديهي لما كان يربط بين الدولتين من علاقات حميمة. لقد كانت أغلب الرسائل الإخبارية. الصادرة من الأندلس تشير إلى ما كانت تخوضه هذه الدولة الصغيرة من حروب ووقائع ضد العدو النصراني باسم الجهاد، أحيانا مدافعة، وأحيانا مسالمة مهادنة، أحيانا غازية فاتحة، وأحيانا منهزمة منكسرة، وأحيانا منتصرة منتشية. ومن العناوين الكثيرة التي تشير إلى هذا الأمر عنوان : "الفتوحات الواقعة والمراجعات التابعة)،، وأيضا "كتب الاستظهار على العداوة والاستنجاز للغزاة".

(2939/1)

أما العناوين الفرعية المشيرة إلى أغراض الرسائل التي تدخل في هذا الباب ، فمثل قوله . "وصدر عنى في أول الحركة الجهادية لهذا العهد، وقد تحرك السلطان – أعزه الله – إلى حصن أشر، القريب الجوار لأرض النصارى، بأهل حضرته وما يجاورها من الأماكن الغربية . . .. وقى مدت نائبا عن السلطان بدار مه لكه على عادتي فكتبته عنه كاتب إنشائه ، ص حرفا بذلك صاحب المغرب ،)(35).

وقوله أيضا : "وكانت الحركة بعده ، في أوائل ربيع الأول ، عام تسعة وستين وسبعمائة، إلى مدينة "أبدة"، فاحتل السلطان – بمن لنظره – من جيش المسلمين

(1/2940)

بظاهرها، فافتتحها عنوة، واستولى على مساكنها التدمير و التثبير، وعفت آثارها، وهدمت كنائسها وأسوارها، وقفل إلى حضرته العلية، بجنب نصرا لا كفاء له ، وصدرت عنه مخاطبة سلطان المغرب ، من إملائي ، بما نصه ، بعد سطر الافتتاح" (36)

(35) ريحانة الكتاب ، ج ا، ص 146

(36) ريحانة الكتاب ، ج ا، ص .171

إلى غير ذلك من الرسائل الإخبارية الهامة. وأما ما بـ حلق بأخبار دول المغرب الأقصى والأوسط والأدنى، –فأكثره يسلط الضوء على سياستهم الداخلية أو سياستهم الخارجية في حدود المنطقة، فصور الصراع الدائم الذي كان يلف

(1/2941)

الأجواء، سواء داخل الدولة الواحدة أو في علاقتهم بـ بعضهم مع بـ بعض . وقد أشارت إلى هذه السياسة الرسائل التي تندرج تحت عنوان : "التهاني بالصنائع والمكيفات ،(37)

وفيما يلي نقتطف بعض العناوين التي تشير إلى بعض جوانب هذا الصراع . يقول ابن الخطيب : "صدر عنى جواب للسلطان الشهير أبي عنان عن كتابه الذي وجهه إلى سلطان الأندلس أمير المسلمين أبي الحجاج بن نصر، يعرفه فيه بما أتاح الله له من الظهور على بنى زيان واستيلائه على ملكهم بمدينة تلمسان ، وذلك في وسط شهر ربيع الأول من عام اثنتين وخمسين وسبعمائة"(38).

(2942/1)

ومثل قوله أيضا، متحدثا عن أحد استقالات تلمسان المتكررة، كما هو وحروف : "وصدر عنى أيضا في مخاطبة سلطان تلمسان الدائل على هذا العهد الأمير أبي حمو ابن السلطان أبي يحيى يغمران بن زيان عن السلطان بالأندلس في غرض الهناء، لما دال أمر وطنه إليه . وقد

وصل كتابه بـ حرف بذلك "(39).

إلى غير ذلك من الرسائل ، التي تكشف عن الأخبار التاريخية، في دقائق تفاصيلها، لأنها صادرة من مصدر تصله الأخبار من مظانها، ويسجل الأحداث عن معانيها، وينهل من منابعها.

(2943/1)

لم تكتف الرسائل بالإشارة إلى أخبار بلاد المغرب الإسلامي، وإنما وردت إشارات أيضا، تشير إلى أحوال المشرق الإسلامي . ولقد تضمن الكتاب رسالة هامة، كـ حرب بصدق عن الهموم المصيرية المشتركة لدى الدول الإسلامية، وإن بعدت بينهم

(37) وهى الرسائل التي في عرض التهنئة على الانتصارات المختلفة، سواء تعلق الأمر بالأحوال الداخلية أو الخارجية.

(38) ريحانة الكتاب ، ج 1، ص 261.

(39) ريحانة الكتاب ، ج 1، ص 269.

الشقة، وذلك عندما دخل العدو الصليبي الإسكندرية، وهب المماليك تحت قيادة السلطان أبي الفتوح شعبان إلى رد

(1/2944)

العدوان ، فصدرت مخاطبة في هذا الشأن من بلاط غرناطة من إنشاء ابن الخطيب تشد الأزر وتقوي العزيمة.

ولعلل في هذا القدر الذي جلبناه كفاية، للدلالة على القيمة التاريخية التي احتوى عليها هذا الكتاب .

3 – القيمة الإدارية :

وف حنى بالقيمة الإدارية ما أشارت إليه المراسيم والظهائر، التي صدرت عن ابن الخطيب ، باسم الدولة بشأن تنصيب موظفي الدولة، وتعيينهم في المناصب المختلفة في الدولة، تحت عنوان ظهائر الأمراء والولاة، حيث كشفت لنا هذه الظهائر عن الوظائف الإدارية المختلفة، والصيغ القانونية التي كانت تكتب بها،

(1/2945)

ودلت أيضا على ما كان الكاتب يتولى صياغته . فقد كان يصدر المراسيم بتوليه إمارة مشيخة الغزاة، وكذلك الولاة، والأمراء، ثم ولاية القضاء وما كان يتبعها من مهام مثل تولي الخطبة في المسجد الأعظم ، وكذلك مراسيم تنصيب الكتاب أو رؤساء الكتاب .

أما نص المرسوم أو الظهير، فمن خصائصه عدم الطول ، وعادة ما يبدأ بالقول : "هذا ظهير كريم "، ثم يثنى على مكانة الظهير بما يليق بصاحبه ، ويثنى على المنتخب لولاية هذه الخطة أو تلك، كما يحدد اختصاصات متوليها، مثلما ف حل في ظهائر مشيخة الغزاة، التي كثر ورودها، وكذلك

(2946/1)

ظهائر توليه القضاة التي لم تكن تختلف ، هي الأخرى، عن ظهائر مشيخة الغزاة، من حيث الصياغة، وإنما كانت تختلف من حيث المضمون فقط، عند الإشارة إلى اختصاصات القاضي القانونية والشرعية، وهى اختصاصات متنوعة وكثيرة تليق بمقامه ومهمته .

أما ظهائر الكتاب لدى الدولة، فقد أورد ابن الخطيب أنموذجا واحدا، يت حلق برياسة الكتاب ، استطعنا من خلاله أن ف حرف حقيقة هذه الرتبة ومكانتها بين وظائف الدولة الأخرى.

، – القيمة العلمية :

(2947/1)

لاشك أيضا أن لكتاب "الريحانة" قيمة علمية كبرى، ونقصد بالقيمة العلمية ما أضافه الكتاب من فائدة للمكتبة الحربية الإسلامية، وأيضا ما أضافه الكتاب من معلومات دقيقة عن حياة ابن الخطيب الخاصة وعلاقاته سواء بملوك وأمراء أهل زمانه ، أو بذوي الرتب والمناصب الحالية، وكذلك ما حفظه لنا من إنتاج ابن الخطيب وكان ذلك في صورتين :

أ – الصورة الأولى . واكتفى فيها بالإشارة إلى أسماء مؤلفاته ، مثلما فعل في صدر الكتاب حينما نقل تحت عنوان "التحميدات التي صدرت بها ب حض التو"ليف ، وهى بعض من كل ، ويسير من جل ،

(2948/1)

المقدمات التي دبج بها بعض الكتب والمصنفات ، التي منها ما ضاع ، ومنها ما وصل إلينا. وهذه التحميدات لا تكتفي بحمد الله والثناء عليه وعلى رسوله ، وإنما تشير في الغالب إلى مضامين المؤلفات ، وأحيانا تفعل في سرد الخطة والبرنامج ، الذي اتبعه ابن الخطيب في كل مؤلف على حدة.

ب – الصورة الثانية : يمكن تقسيمها أيضا قسمين هما :

قسم نقل فيه ابن الخطيب ، بعض ما أشار إليه في مواضع أخرى على أنها مصنفات مستقلة، وهذا القسم هو الذي أشار إليه في مقدمة "الريحانة" بقوله : "المقامات في الأغراض المختلفات "؟ وقسم آخر

(1/2949)

نقل فيه مقتطفات من مؤلفات أخرى، مثل كتاب "نفاضة الجراب " تحت عنوان : "ومن ذلك كلام في الرحلة(40) وكتاب "التاج المحلى في مساجلة القدم المعلى)،، وكتاب "الإكليل الزاهر". وقد اقتطف منها بعض الأوصاف والحلى لأعيان منتخبين . وهذا ما أشار إليه في مقدمة الكتاب بقوله : "ثم إلى ب حض من أوصاف الناس في الأغراض والصلات "(41).

لقد استطاع هذا الكتاب أن يحفظ لنا العديد من إنشاءات ابن الخطيب ، وكذلك يدلنا على ما ألفه في مختلف الأغراض لذلك كان جديرا بأن ينوه ، في هذا

(40) ريحانة الكتاب ،ج 1 ، ص294

(1/2950)

(41) ريحانة الكتاب ،ج 1 ، ص 260

تعدتها إلى ما يمكن أن نعبر عنه بالخصوصية في العلاقات الدبلوماسية، وخاصة عندما ب حلق الأمر ببعض الأحوال الشخصية كالزواج مثلا ليتقرر فيه التواصل الدبلوماسي بشكل غريب وغير مألوف . وهذا النوع من التواصل أدرجه ابن الخطيب في كتابه تحت عنوان :

أ – "كتب الصداقات ، والبيعات" :

وقد جمع في ثناياه الرسائل التي تندرج من الناحية التشرب حية والتوثيقية ضمن عقود الصداقات ، وعقود المبيعات . ومن الكتب والرسائل التي جلبها ابن الخطيب ، وتؤكد على الخصوصية في العلاقات الدبلوماسية،

(2951/1)

كما سبقت الإشارة ما ذكره تحت هذا العنوان الطويل :

"ومما صدر عني أيضا صداق منعقد على بنت سيد الشرفاء الجلة، وعلم أعلام هذه الملة أبي عبد الله بن عمران ، لولد الشيخ الفقيه الخطيب الكبير الشهير أبي عبد الله محمد ابن مرزوق ، أعزها الله ، بعد أن صدر الأمر من سلطان

المغرب ، أمير المسلمين أبي سالم أن يكون الصداق المذكور، من إملائي على كتاب بابه ، فأمليت في اليوم الذي صدر الأمر بذلك ما نصه بعد سطر (الافتتا خ . . . " (43).

(1/2952)

وهناك أيضا وثيقة عقد صداق بين أحد الأمراء المرينيين المستقرين بالأندلس ، وبين عقيلة أحد الشرفاء المغاربة المستقرين أيضا بالأندلس ، برسم الجهاد من خلال مشيخة الغزاة(44).

ومن الأغراض التي شملتها التواصل الدبلوماسي أيضا بين الأندلس والمغرب في هذه الفترة التي جلبها ابن الخطيب ما برحله مندرجا تحت هذا العنوان :

ب – "كتب الفتوحات الواقعة، والمراجعات التابعة" :

إن النظر في مضامين الرسائل الدبلوماسية الواردة في هذا المبحث يؤكد على أن الرسائل المبعوثة إلى المغرب لم تخرج عن واحد من هذين الغرضين :

(1/2953)

---

(43) ريحانة الكتاب ، ج 1، ص 101

(43) ريحانة الكتاب ، ج1 ، ص 91

1 – إما أن يكون غرض الرسالة مراجعة شكر ورد على سفارة مغربية وافدة، تكون في الغالب الأعم استجابة لطلب الإمداد والاستنجاد، ورد فيه توكيد على التعاون المتبادل ، والحفاظ على المودة والعهد، فيما قي حلق بالشؤون الداخلية والخارجية لكلا البلدين . وفي الغالب تكون السفارة الوافدة معتمدة على المشافهة بالإضافة إلى الكتاب ، كما هو الشأن بالنسبة للرسالة التي ب حثها الأمير أبو الحجاج يوسف إلى الأمير أبي الحسن المريني، والتي من ضمن ما جاء فيها قول

(2954/1)

ابن الخطيب على لسان سلطانه : "فإننا ورد علينا كتابكم الذي موقعه عند العدو موقع الكتائب ، وخطابكم المشتمل على المواعد الصادقة، والعزائم المتلاحقة.. . فكلما تدبرنا فصوله وتأملنا معانيه ...، انفسح لنا في إنجاز تلك المواعد ميدان الأمل ، وراقنا تظافر النية في تلك المخاطبة والعمل ... وألقى إلينا رسولكم ... ما قصرتموه على المشافهة من ألطاف البر

ومكنون الود الكريم السر..."(45).

2 – وإما أن يكون الغرض إخبارا عن المواجهات العسكرية الجهادية التي كانت رحاها تدور باستمرار بين الدولة النصرية ودول النصارى،

(1/2955)

سواء انتصروا فيها أو انهزموا.

ومن الرسائل التي تضمنت الإخبار عن الفتوحات والانتصارات الواقعة، تلك التي بعثها ابن الخطيب على لسان السلطان النصري المذكور إلى السلطان المريني المذكور. ونقتطف منها ما يلي : "وخرجنا نجد السير.. واحتللنا رندة حرسها الله ... ثم انتقلنا بالمحلات المجتمعات ، ضفة وادي لكه ، محلة الفتح الأول .. ومنها صبحنا أولئك الكافرين ، فشاحت وجوههم ، وأحاط بهم سوء كسبهم... وقد كانوا في هذه المدد القريبة أو سمعوه تحصينا، وناصحو" عوراته رما وتسديدا، وتخلفوا المنازل مالية باكحم

(1/2956)

والأقوات ، والأشعة والآلات . . . وتحصنوا بالقصبة، والسيوف تتخطفهم ، والرماح تنو شهم ، والسهام تبعجهم .. . ولمنتصف اليوم بعده ألقوا بالإذعان إلى حكم المسلمين "(56)

(45) ريحانة الكتاب ، خ 1، صص 129–130.

(56) ريحانة الكتاب ، ج 1، صص 155–156.

ومن الرسائل التي تضمنت الإخبار عن الهزائم والانكساريات تلك التي نقتطف منها ما يلي ، وكانت بين السلطانين المذكورين : "وقد تقرر لدى مقامكم الأسمى كانت الحال آلت إليه بهذا الطاغية(47)، الذي غره الإمهال والإملاء، وأقدمه على الإسلام التمحيص المكتوب والابتلاء،

(2957/1)

وارتكب من قهر هذه الأمة المسلمة مركبا ص حبا، وسام كلمة الإسلام بأسا وحربا بكتائب بره ، توسع الأرجاء ط حنا وضربا، وكتائب بحره تأخذ كل سفينة غصبا، والمخاوف قد تجاورت شرقا وغربا، والقلوب قد بلغت الحناجر غما وكربا. .. ،،(48).

من الأغراض التي نهلها التواصل الدبلوماسي أيضا ما جاء تحت هذا العنوان :

ج – "التهاني بالصنايع المكيفات" :

ومضمون الرسائل الواردة ضمنه ، كما هو واضح ، يندرج في إطار التهنئة بالأفراح والمسر"ت ، التي أسفرت الأيام عنها، وهي إما مبادرة بالكتابة من قبل الدولة النصرية، أو مراجعة

(2958/1)

لرسالة واردة، كما هو بين من خلال عناوين ومضامين الرسائل المتعددة. وبالنظر في جميع الرسائل الصادرة في هذا الشأن ، وجدنا التهاني لا تخرج من حيث الغرض عن هذه المعاني.

1 – إما أن يكون غرض الرسالة تهنئة لسلطان تولى أمر الخلافة، كما جاء في الرسالة التي أوردها ابن الخطيب تحت هذا العنوان . "وصدر عني أيضا، وقد اتصل الخبر باستقلال ملك المغرب السلطان المعظم أبي عنان – رحمه الله – على المغرب "(49) .

(47) الملك ألفونسو الحادي عشر، ملك قشتالة.

(48) ريحانة الكتاب ، ج 1 ، 142.

(2959/1)

---

(49) ريحانة الكتاب ، ج 1 ، ص 273.

وكذلك الرسالة التي أوردها تحت هذا العنوان : "ولما وصل كتاب سلطان المغرب على هذا العهد أبي فارس عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن يعرف باستيلائه على الخلافة بالمغرب ، صدر عني في ذلك "(50).

2 – وإما أن يكون غرض الرسالة تهنئة سلطان انتصر في س حركة حققت مكسبا سياسيا هاما لدولته ، كإخماد ثائرة، أو حسم تمرد، أدى إلى توسيع رقعة بلاده على حساب جيرانه من بني حفص التونسيين ، أو بني عبد الواحد الجزائريين ، كما جاء في الرسالة التي أوردها ابن الخطيب تحت هذا العنوان . "صدر

(2960/1)

عنى جواب للسلطان الشهير أبي عنان عن كتابه الذي وجهه إلى السلطان الأندلسي، أمير المسلمين أبي الحجاج بن نصر، يعرفه فيه بما أتاح الله له من الظهور على بنى زيان ، واستيلائه على ملكهم بمدينة تلمسان ، وذلك وسط شهر ربيع الأول من عام اثنين وخمسين وسبعمائة،)(51).

وكذلك الرسالة التي أوردها تحت هذا العنوان . "ولما ثار بجبل الفتح عيسى ابن الحسن بن أبي منديل ، وقبض عليه ، ووجهه للسلطان بالمغرب ، عرف سلطان الأندلس بذلك، وكتب في مراجعته ما نصه . .."(54).

(2961/1)

3– وإما أن يكون غرض الرسالة تهنئة سلطان بالإبلال الشفاء من مرض أصابه ، كما جاء في الرسالة التي أوردها ابن الخطيب تحت هذا العنوان : "ومن التهاني في الإبلال من المرض ، صدر عني مهنئا أمير المسلمين أبا عنان)، (53) وكذلك رسالة أخرى تحت عنوان . "وصدر عني أيضا في غرض الهنا بشفاء من مرض لسلطان المغرب ،)(54).

4 – وإما أن يكون غرض الرسالة تهنئة سلطان نجا من كائنة أو مصيبة، كاد أن يهلك فيها، 3 جاء في الرسالة التي أوردها ابن الخطيب تحت هذا العنوان .

(50) **ريحانة الكتاب** ، ج1،ص 308

(2962/1)

---

(51) **ريحانة الكتاب** ، ج1، ص 316

(52) **ريحانة الكتاب** ، ج1،ص 235

(53) **ريحانة الكتاب** ، ج1،ص 318

(54) **ريحانة الكتاب** ، ج1،ص 121

"وكان مما كتبت لما وصلت الأخبار بنجاة ملك المغرب ، السلطان العظم أبي الحسن ، من هول البحر، لما هلك معه الجماعة من أعلام ناسه بأحواز الجزائر، (55)**، وكذلك رسالة أخرى في نفس الغرض ، ولكنها مراجعة لرسالة وافدة، مثلما جاء تحت عنوان: "ووصل كتابه – رحمه الله – للسلطان أبي الحجاج – رحمه الله – يعرفه أيضا بالكاينة المذكورة من أحواز الجزائر، فصدر عني – جوابا عن ذلك – ما نصه ،)**(56)**.**

(2963/1)

ومن الأغراض التي شملها التواصل الدبلوماسي أيضا، على عهد هذه المدة الزمنية من تاريخ الأندلس والمغرب ما جاء تحت هذا العنوان :

د – كتب التعازي في الحوادث والنائبات :

وواضح من خلال هذا العنوان ما يمكن أن يندرج تحته من مضامين وص حان ، كما جاء في الرسالة التي بعثها ابن الخطيب على لسان سلطانه إلى سلطان المغرب أبي عنان ، يعزيه فيها بالمصاب الذي ألم به ، عند فقدان والده أبي الحسن .

وكذلك ما جاء في رسالة أخرى من السلطان المذكور إلى السلطان المذكور يعزيه فيها بسبب وفاة إحدى قريباته كما هو مفهوم من نص

(1/2964)

الرسالة التي لم يفصل فيها ابن الخطيب القول على غير عادته . ومن الأغراض التى (هغ جلا التوامط الدبلوماسي أيضا ما عبرت عنه الرسائل التي اندرجت تحت هذا العنوان .

هـ – "كتب الشفاعات" :

والمقصود من الشفاعات – كما هو بين – التوسط لبعض

الشخصيات المغربية السياسية والعلمية ذات الوزن ، سواء في البلاط أو في المجتمع ، من قبل سلطان الأندلس لدى سلطان المغرب ، بسبب فـ حل مخالف صدر عنه قد يلحق به الأذى من قبل سلطانه ، مثلما جاء في الرسالة التي صدرها ابن الخطيب بهذا العنوان والذي

(2965/1)

---

(55) ريحانة الكتاب ، ج 1 ، ص 254.

(56) ريحانة الكتاب ، خ 1 ، ص 259.

يحمل كثيرا من الدلالات السياسية والثقافية. يقول : "وكتبت عن السلطان لهذا العهد أبي عبد الله بن السلطان أبي الحجاج ، وقد وصل لأول دولته الأستاذ قاضي حضرة المغرب أبو عبد الله المقري ، رسولا عن السلطان أبي عنان ، وعزم على الإقامة بالأندلس خارجا من عهدة الرسالة . . ."(57).

ومن الأغراض التي شملتها التواصل الدبلوماسي أيضا بين هاتين الدولتين اللتين تجمع بينهما أكثر من علاقة، ما ذكره ابن الخطيب من رسائل تحت هذا العنوان : و – "كتب

(2966/1)

الاستظهار على العداة، والاستنجاز للغداة :

وهى عبارة عن الرسائل الدبلوماسية التي توخى فيها المسؤولون الأندلسيون من المسؤولين المغاربة أن يكونوا على العهد في إنجاز الوعد بالإسراع إلى مظاهرتهم على العدو العنيد، الذي يتحين الفرص ويتربص بهم الدوائر. وغالبا ما يكون الباعث على هذه الرسائل بهذه الصورة، عندما يكون الخطر مهددا، والهول محدقا، كأن تصلهم الأخبار بإقدام العدو على غزو جهة من جهات الأندلس ، ويحتاج الأمر إلى تعبئة جادة تحسم الموقف .

(2967/1)

وغالبا ما تسود في هذه الرسائل نبر"ت الخوف والقلق على المصير المجهول . ويشتد هذا الأمر غالبا، عندما تكون أوضاع المغرب الداخلية تمر بظروف حرجة قد تحول دون الإمداد و"الإعانة، ويكون التوسل فيها إلى جناب السلطان المغربي ضارعا.

ومما نقتطف أنموذجا، توضيحا وتبيانا، ما جاء في

الرسالة التي بعثها السلطان أبو الحجاج يخبر فيها سلطان المغرب ، بما هم به ملك قشتالة ألفونسو الحادي عشر، من إعمال الحركة بقصد الاستيلاء على جبل طارق ، وكذلك مدينة رندة، حيث قال ابن الخطيب على لسان سلطانه : "وبينما نحن من مقامكم الذي

(1/2968)

هو سلالة ذلك المجد. . . إذ تعرفنا أن ملك قشتالة قد طمع في تلك البلاد المذكورة، بهلب عليها، وحشد قومه إليها، وأعلق بها أطماعه ... والحركة إليها في أرضه قائمة، فإن من بها من الحماة وذوي المرتبات قد اختلفت أحوالهم ، بسبب ما تأخر من واجباتهم ، وتعذر في

(57) ريحانة الكتاب ، ج 1 ، ص 353.

هذه المدة الطويلة من مرتباتهم ، فتبدد الكثير من عددهم ، وضياع ما توفر على الأيام من أسلحتهم وعددهم ، واشتد الإشفاق على تلك البلاد المسالمة . ...،(58).

(1/2969)

ومما جاء في رسالة أخرى أيضا قول ابن الخطيب : "فإننا قدمنا مخاطبة مقامكم المؤمل في شأن هذه البلاد، التي عظمت فيها غربة الإسلام وانقطاعه ، وتوجهت إلى استئصال رمقها آمال الكفر وأطماعه ، وتملى عليها الصليب فامتد ذراعه ، وتقدم باعه . . "(59).

ومما جاء في رسالة أخرى مؤثرة في شكلها و مضمونها بما طفحت به من استعطاف للقلوب المرهفة، واستنهاض للهمم العالية، وبعث الأريحية الإيمانية في النفوس الخامدة، قول ابن الخطيب : ". . . وهو أن هذا القطر، الذي تعددت فيه المحارب والمنابر، والراكع والساجد، والذاكر

(2970/1)

والعابد، والعالم واللفيف ، والأرملة والضعيف ، قد انقطع عنه إرفاد الإسلام ، وفتحت الأيدي به منذ أعوام ، وسلم إلى عبدة الأصنام ، وقوبلت ضرايره بالأعذار، والمواعيد المستغرقة للأعمار، وإن عرضت شواغل وفتن ، وشواغب وإحن ، فقد كانت بحيث لا يقطع السبب بجملته ، ولا يذهب المعروف بكليته ، ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة)،(60). ومن جملة الأغراض أيضا التي عبر عنها التواصل بين هاتين الدولتين ما سجلته الرسائل

الدبلوماسية التي رتبتها ابن الخطيب تحت هذا العنوان

.

و – كتب الشكر على الهدايا الوردات" :

(2971/1)

وهى عبارة عن رسائل دبلوماسية كتبت كحبر عن الشكر والاعتراف . بالجميل على الهدايا المتنوعة الو"صلة من المغرب إلى هذا القطر الأندلسي، الذي بات في أمس الحاجة اكثر من أي زمن مضى إلى المحافظة على هذه الصلات والحوادث من أجل ضمان استمرار وجوده المهدد بالانقراض في كل آونة وحين . وبعد التأمل في مضامين مجموع الرسائل المدرجة في هذا الغرض ، وجدنا جل الهدايا الجالبة للشكر – إن لم

(58) ريحانة الكتاب ، ج 1، صص 362–363 .

(59)ريحانة الكتاب ، ج 1، ص 367.

(60) ريحانة الكتاب ، ج 1، ص 377.

(2972/1)

نقل كلها – لم تخرج عن أن تكون إما خيولا أو بغالا أو جمالا، أو أنواعا من الأسلحة كالسيوف ، وأموالا من الذهب والفضة، أو ألبسة رفيعة، مثلما جاء في الرسالة التي قدم لها ابن الخطيب بهذا العنوان . راجعت السلطان الكبير أبا عنان – رحمه الله – عن هدية بى حث بها إلى الأندلس ، تشتمل على خيول ، ومهندات محلات ، ومهاميز محكمة، ودنانير من الذهب العين ..."(61).

وهناك غرض آخر شمله التواصل أيضا، وردت فيه مخاطبات ومكاتبات عدة، كما هو واضح من جمهور الرسائل التي جلبها ابن الخطيب في كتاب تحت عنوان:

(2973/1)

ك – كعب تقرير الحوادث :

فبعد التأمل في هذه الرسائل ، وعرضها على ظروفها وملابساتها، والنظر في مصادرها، والوجهة التي كانت تصير إليها، وما ذكر في طيها من معان وإشارات، تبين أنها كانت تكتب عندما يتولى على عرا!ثر المغرب سلطان جديد، لتقرر له الولاء، ولذكره بالعهد القديم ، وسيرة الأولين من أسلافه ، في إنجاد الأندلسيين ، ولكشف عن سياسة الأندلس الدبلوماسية التي تعتمد

على الأخوة الإيمانية، التي لا يشوبها كدر، ولا تتغير تجاه المغرب . رابح 7

(2974/1)

أما النبرة التي جاءت .عليها هذه الرسائل ، فهي نبرة المدح والثناء والإطراء والمبالغة في التغيير عن الود والولاء، بما أكد على فاقة الأندلس ي هذه الآونة إلى من يعنيها سياسيا وماديا لمواصلة الكفاح من أجل البقاء.

وهذا لا يعني أن الأندلس لم تكن مستقلة سياسيا، أو أن حكام المغرب آنذاك كانوا يقللون من شأن السيادة والسلطة في الأندلس ، وإنما كانوا في معظم الأحيان يبادرون بالكتابة لب حرفوا بأحوال البلاد.

وهذا ما يؤكد على التوازن والتكافؤ السياسي والدبلوماسي والإستراتيجي، الذي كان بين المغرب والأندلس على

(2975/1)

صغر حجمها، وسيادة روح الأخوة الصادقة، والتعاون الحقيقي ، عندما تكون الظروف ملائمة.

(61) ريحانة الكتاب ، ج1 ، ص 388.

ومن النماذج التي تكشف عن هذا الغرض ما نقتطفه استشهادا من إحدى الرسائل السلطانية. يقول ابن الخطيب على لسان سلطانه : ".. . فإننا كتبناه إيليكم، كتب الله لكم عناية منه واضحة الغرر، وسعادة يساعدها تصريف القدر، من حمراء غرناطة – حرسها الله – وأبوتكم ومعتمدة بالبر الكريم الآثر، والخلوص المنزه عن الكدر، وعندنا من التشيع لمقامكم مالا تحيله الأيام إذا حالت ، ولا تميل دعائمه كلما مادت أو

مالت ، رعيا لفضائلكم التي سبقت وتوالت ،(62).

وهناك نوع آخر من التواصل كان سائدا بين الأندلس والمغرب ، وإن لم يخص له ابن الخطيب عنوانا مستقلا، في حل له عنوانا مناسبا هو الآخر جريا على العادة فيما تقدم :

ل – "مخاطبة الشخصيات المغربية البارزة، وكذلك جمهور الناس :

وسواء أكان الباعث على بروز هذه الشخصيات التي تم التواصل معها العمل السياسي أو المركز الاجتماعي أو المقام العلمي ، وكان موضوع التواصل متنوع الأغراض سياسية واجتماعية وثقافية، وهلم جرا.

(2977/1)

كانت الخاطبات تتوجه إلى الجمهور من الناس في المغرب ، وكان الغرض استنهاض الهمم للجهاد، وبعث الأريحية في قلوب العباد، لمؤازرة الاخوة الذين يكابدون حر الجلاد، وقد تخطف العدو من حولهم البلاد.

ومما نذكره استشهادا على هذا ما نقتطفه من رسالة خطيبية، قدم لها يشرح ظروفها بقوله : "ولما توجه شيخ الصوفية السفارة أبو الحسن بن المحروق رسولا إلى المغرب يستدعى الإمداد، ويحض على الجهاد، كان مما رفع به العقيرة بجامع القرويين ، قولي في غرض الموعظة واستوعبه درساه ." يقول ابن الخطيب في هذه الرسالة الموعظة : "أيها

(2978/1)

الناس – رحمكم الله – إن إخوانكم المسلمين بالأندلس قد دهم العدو – قصمه الله – ساحتهم ، ورام الكفر – خيبه الله – استباحتهم ، ورجفت أبصار الطواغيت إليهم ، ومد الصليب بذراعيه عليهم ... الجهاد الجهاد فقد تعين ، الجار الجار فقد قرر الشرع حقه وبين ، الله الله في الإسلام ، الله الله في أمة محمد عليه

(62) **ريحانة الكتاب** ، ج 1، 425.

السلام ... فقد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، وقد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من إعانة... جردوا عوائد الحمية. .. صلوا رحم الكلمة، واسوا بأنفسكم

(2979/1)

وأموالكم تلك الطوائف المسلمة . . ."(63).

هذه مجمل الأغراض التي كان التواصل الدبلوماسي بين هذين القطرين المتجاورين يتعهدها، ويصر عليها،

ويحافظ عليها، لكي تدوم علاقات التعاون بينهما في جميع المجالات ، كما أكد على ذلك التاريخ في هذه الفترة.

آثار التواصل الدبلوماسي في هذه الفترة :

لاشك أنه كانت لهذا التواصل الدبلوماسي آثار إيجابية على كلا الطرفين ، وإلا ما كان ليدوم ويستمر طوال السنين ، كما يشهد على ذلك التاريخ المستند إلى الوثائق والآثار التاريخية المتنوعة، وكما تشهد كثافتها بين هذين القطرين

(1/2980)

دون باقي الأقطار المغاربية الأخرى على قرب المكان والزمان . ومن الآثار التي كانت وراء هذا التواصل ما نجمله في النقاط التالية :

1 – استمرار البعثات السفارية والدبلوماسية، المحملة بالمكاتبات و"لخاطبات ، متنوعة الأغراض كما شهدنا، إلى درجة التضخم والترام ، بصورة في حلنا لا نبالغ في التقدير، إذا قلنا : إن هذه الفترة هي التي عرفت أغزر

تواصل دبلوماسي على الإطلاق ، بالمقارنة مع الجهود السابقة، حيث وصل معدل التواصل إلى اتصال واحد كل شهر تقريبا ما بين مراسلة عادية وبعثة دبلوماسية عالية المستوى، مع

(1/2981)

التنبيه على أن كتاب "ريحانة الكتاب " لم يجمع كل المراسلات التي كتبت كما سلف ، وهذا ما يؤكد على التأثير المتبادل بين القطرين ، والذي يستند على مقومات سياسية واجتماعية وثقافية وحضارية واستراتيجية قوية تمتع بها الطرفان .

4 – من الآثار أيضا تقريب وجهات النظر السياسية، من الناحية الداخلية والخارجية. فكان التعاون من كلا الجانبين على سيادة الاستقرار واستتباب الأمن بمراقبة تحركات اللاجئين السياسيين من ذوي القرابة في كلا البلدين ، وكذلك متابعة

(63) ريحانة الكتاب ، ج 1 ، ص 61 – 62.

(1/2982)

تنقلات الشخصيات ذات الوزن المؤثر في الوسط السياسي خشية التأليب والتشغيب. ويؤكد هذا ما ذكر تحت عنوان "كتب الشفاعات " الذي أشرنا إليه آنفا. وشمل التعاون على المستوى الخارجي تبادل الاستخبارات السياسية والعسكرية، وإن كانت الأندلس هي صاحبة الحظ الرغيب في هذا الأمر بحكم القرب من موقع الصراع . وكان التجاوب من جهة المغرب من موقع الالتزام بالنصرة، الذي تفرضه العقيدة المشتركة، وكذلك من موقع الإيمان بأن الأندلس هي الحاجز الأمني، الذي يحول دون النصارى لتحقيق طموحاتهم التوسعية المتنامية كما سيؤكد هذا

(1/2983)

التاريخ فيما بعد.

3 – من الآثار أيضا تقريب المسافة المكانيه بين القطرين ، بحيث دلت كثافة الاتصالات على هذه الحقيقة إلى درجة يمكن أن ف حدها تحطيما لرقم قياسي في الاتصال بما كشف – دون شك – على التطور الكبير الذي حصل في وسائل الاتصال من تنظيم للبريد، وإحكام عمله ، والخبرة المتزايدة بشؤون ركوب البحر. ولاشك أن العامل الرئيس الذي مكن من هذا التواصل السريع ،

بالمقارنة مع التواصل الذي كان سائدا قبل الموقع الجغرافي الجديد الذي أصبحت الأندلس تحتله على عهد هذه الدويلة الصغيرة، ألا وهو الساحل الجنوبي لشبه

(1/2984)

الجزيرة الأندلسية، الذي لا يبعد كثيرا عن السواحل المغربية في بر العدوة .

4 – من الآثار أيضا تبادل الكفاءات في مختلف المجالات الثقافية والدينية وغيرها. وكذلك الأمر بالنسبة لخطة القضاء، ورسم كتابة الدولة، خاصة إذا علمنا أن الأندلس على ذلك العهد كانت تتوفر على كفاءات فكرية ودينية وأدبية عديدة، ضمنت التأثير في المغرب عن طريق الزيارات المختلفة، سواء من قبل العلماء أو الطلبة، وساعدت على مد الجسور في هذه المجالات المذكورة، كما أن المغرب نفسه كان يحتضن (ل حديد من الشخصيات الأندلسية الهامة العائدة من

(1/2985)

حيث الأصل إلى الأسر الأندلسية المهاجرة من قواعدها الأندلسية التي سقطت في أيدي النصارى. ، – التأثير والتأثر المتبادل من الناحية الاجتماعية والعمرانية.
وفي هذه الناحية كانت الأندلس أيضا قوية في تأثيرها، لما كانت تتمتع به من تقدم حضاري كبير،

ساعد عليه تراكم الخبرات بتراكم السنين ، التي عرف بها أهل الأندلس الاستقرار والازدهار كما هو معروف .
يقول ابن خلدون مؤكدا هذه الحقيقة الحضارية والتاريخية في فصل "في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها : "وهذا كالحال في الأندلس لهذا

(2986/1)

العهد : فإننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة، وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها. . . وما ذلك إلا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيم لم برسوخ الدولة الأموية وما قبلها من دولة القوط (64).
وهذه العوامل كلها كافية لفرض التأثير من قبل الأندلس كما تؤكد ذلك السنن الاجتماعية والحضارية، عندما يكون التو"صل واسعا.

6 – التأثير الذي يضمن تحقيق ما يرد في طي المكاتبات من مطالب مادية، تقتضيها الظروف الصعبة، كما رأينا في المكاتبات التي كانت بغرض الاستنجاد، وطلب الإمداد المادي والعسكري . وهذا

(1/2987)

راجع إلى العناصر الشكلية للتواصل الدبلوماسي. أكبر شاهد على ذلك السفارة التي ترأسها ابن الخطيب ، واستهلها عند الوصول بقراءته الشعرية. وكان تصريح سلطان المغرب على الفور بإنجاز كل ما جاء لطلبه ، دون أن يعرف ماهية الطلب . وهذا ما كان ليكون ، لولا قوة العناصر المشكلة لهذا التواصل كما ذكرت ، المتمثلة في شخصية ابن الخطيب الفذة ذات الوزن السياسي والعلمي المعروف ، وكذلك أسلوب الرسالة الدبلوماسية القوي المؤثر الذي عرف به ابن الخطيب كما ذكرنا.

(1/2988)

---

6 – من آثار هذا التواصل أيضا التخفيف من حدة التكالب على الأندلس من جهة العدو النصراني . ولقد أشار ابن الخطيب إلى هذه الحقيقة في اكثر من رسالة . لقد كان النصارى يخشون دائما هذا التحالف والتعاون بين الأندلس والمغرب ، يخشونه مخافة أن يحول دون تحقيق أطماع التوسع على حساب هذه الدولة الصغيرة، ويخشونه أيضا مخافة أن يشكل التحالف دولة قوية موحدة تأخذ على عاتقها مهمة استرجاع القواعد الأندلسية التي اغتصبوها إبان ضعف المسلمين .

(64) المقدمة، ابن خلدون، ج 1 ، صص 938–939 .

(1/2989)

والدليل على هذا الأمر أن النصارى ما كانوا يجرؤون على اقتحام الأراضي الأندلسية أو المغربية إلا إذا تأكدوا من ضعف العلاقة بين هذين القطرين الشقيقين . فكانوا يغتنمون الفرص ، ويتربصون بالمسلمين الدوائر في الظروف الصعبة التي قد يمر بها كلا البلدين.

ولما كان التواصل بين المغرب والأندلس في هذه الفترة قويا، لم يسجل التاريخ اعتداءات مؤثرة، باستثناء

القليل النادر.

الرسالة الدبلوماسية : دراسة شكلية :

كانت الرسائل التي يدبجها ابن الخطيب ليطار بها إلى الجهات المختلفة تخضع لمقاييس فنية وركية متفردة . وهذا

(1/2990)

التفرد مرده من جهة إلى تميز المكاتبات الأندلسية بصفة عامة عن باقي الأقطار الإسلامية الأخرى(65) حيث يمكن الزعم أن كل قطر إسلامي تحقق لديه ترام حضاري نسبى كان يتخذ لنفسه أدبيات وبهيات متميزة، تكون بمثابة الختم البريدي ، أو الشعار الخاص ، الذي يباينه عن سائر الأقطار والأمصار .

ومرده من جهة ثانية إلى إبداع ابن الخطيب الخاص ، في هذا الشأن ، حيث يرجع إليه الفضل في إحداث تغييرات طفيفة في الرسالة السلطانية، بما امتلكه من قدرة على البيان ، واتساع نطاقه في علم اللسان .

(1/2991)

لقد تفاوتت أحجام هذه الرسالات طولا وقصرا. إلا أنه يمكن التنبيه على أن ابن الخطيب كان طويل النفس في ميدان الرسالة، حتى إن الإنسان ليقضي العجب ، ويتملكه الإعجاب والاندهاش إلى حد الذهول ، وهو يتصفح رسائلها الدبلوماسية. ونخص بالذكر هنا رسالة حظيت بإعجاب العديد من المهتمين قديما وحديثا، وكانت مصدر فخر واعتزاز من جانب ابن الخطيب نفسه حيث أنافت عن الثلاثين صفحة. أما عناصر الرسالة السلطانية، فهي كالتالي :

(65) ينظر على سبيل المثال: صبح الأعشى، القلقشندي، ج 1 ، صص 107–108.

(1/2992)

– التقدير بالثناء والإطراء المبالغ فيه الذي تحشر فيه الألقاب ، وتنحت فيه الأسماء، وتخترع فيه الأوصاف ، مدحا يخص به السلطان الخاطب ، وفي نفس التقديم يخص السلطان الباعث بألقاب مادحة، لا تقل من حيث الغنى عن تلك التي حلي بها المخاطب.

– ثم بعد ذلك يشير إلى المكان الذي صدرت منه هذه الرسالة. وغالبا ما تصدر من مكان واحد، هو حمراء غرناطة، إيوان الدولة وديوان الإيالة، يسهله بقوله : "أما بعد حمد الله ، فإنا كتبناه إليكم من حمراء غرناطة"، ويخصص لها ثناء فاخرا هي الأخرى.

(2993/1)

–ثم يكون موضوع الرسالة، الذي يكشف فيه الأغراض ، ويجلي فيه المطالب ، ويسرد فيه الوقائع ، ويشرح فيه الأحوال إذا اقتضى ذلك المقام .

– ثم يشير إلى رؤساء البعثة الدبلوماسية الحاملين للرسالة مجليا عن مراكزهم الاجتماعية والسياسية لإضفاء الشرعية والمصداقية على السفارة. ثم يختم الرسالة بالسلام على الخاطب قبل أن يسجل التاريخ المفصل للمراسلة.

– ثم يكون الختم الذي يكون بمثابة التأشيرة الدبلوماسية، وكان هذا الختم عبارة "صح هذا".

(1/2994)

– أما أسلوب الرسالة، فكان الصياغة المسرحة التي يغلب عليها التكلف والصنعة. واستعمال السجع في هذا المقام له مبرراته ! فقد كانت وظيفة الكتابة والإنشاء على ذلك العهد في جميع الأقطار تتطلب أسلوبا ص حينا، تغلب عليه القوة والجزالة المتمثلة في ركوب السجع ، وإظهار البراعة، والقدرة على البيان ، والإطلاع على المعارف المتنوعة، إذ كان ذلك جزءا من سياسة الدولة ومراسيمها، حتى تبدو قوية وسط المجتمع الدولي الذي يحيط بها(66).

(1/2995)

---

(66) تراجع رسالتنا للماجستير، لسان الدين ابن الخطيب وابن خلدون : دراسة تاريخية مقارنة، صص 268–269.

قائمة ببعض المصادر والمراجع المعتمدة :

1 – الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب ،

تحقيق محمد عبد
الله عنات ، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى، 1974.
2 – ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، الطبعة الأولى،1911.
3 – كناسة الدكان بعد انتقال السكان ، لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق د. محمد كمال شبانة، مراجعة حسن محمود، وزارة
(1/2996)

الثقافة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكتاب العربي ، القاهرة، بدون تاريخ
4 – اللمحة البدرية في الدولة النصرية ، لسان الدين بن الخطيب ، لجنة إحياء التراث العربي ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ، الطبعة الثالثة، 1980.
5 – أعمال الأعلام ، لابن الخطيب تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المكشوف ، بيروت ، الطبعة الثانية، ،1956.
6 – كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، لابن خلدون ، دار الكتاب اللبناني – مكتبة المدرسة، بيروت ، 1983.

(1/2997)

---

7 – التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني. دار الكتاب المصري طبعة 1970.

8 – المقدمة، لابن خلدون ، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي ، دار نهضة القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ .

ر – الأنيس المطرب بعروش القرطاس في أخبار ملوك المغرب تاريخ مدينة فالهر، علي ابن أبي زرع الفاسي ، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973.

15 – الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، المغرب ، 1872.

(1/2998)

11– بهابة المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ابن عذاري المراكشي ، تحقيق ومراجعة ج .س . كولان وليفى بروفانسال ، ط2 ، لبنان ، دار الثقافة، 1400هـ / 1980 م.

12 – جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة

فالس ، ابن القاضي المكناسي ، دار المنصور للطباعة والوراقة، المغرب ، طبعة 1973.

13– الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، طبعة حيدر آباد، 1350.

14– أنباء الغمر بأنباء العمر، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق حسن حبشى، مصر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية،

(1/2999)

لجنة إحياء التراث (الإسلامي د.ت.

15 – شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي ابن العماد، منشورات دار الآفاق الجديدة، لبنان 138هـ / 1977 م.

16– تاريخ الدولتين الوحدية والحفصية، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي ، تونس ، الطبعة الثانية، 1977

17– نفح الطيب، المقري، تحقيق د.إحسان عباس ، دار صادر، بيروت ، لبنان ،

1388 هـ / 1967 م.

18– أزهار الرياض ، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، 1140 م / 1980 م.

(3000/1)

---

19 – الاستقصا، الناصري ، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء، ،9 ر ام . 5ر

20 – صبح الأعشى، القلقشندي ، تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى، 1407 هـ / 1987 م.

21 – ابن الخطيب من خلال كتبه ، محمد بن أبي بكر التطواني ، دار الطباعة المغربية، تطهوان ، المغرب ، ، 1954م .

22 – تاريخ إفريقية الشمالية، شارل أندري جوليان ، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1398هـ / 1978 م.

(3001/1)

23- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، عمد عبد الله عنان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثالثة ،1368 هـ / 1966م.

24- لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكري ، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1377 هـ / 1968 م.

25- مع شعراء الأندلس والمتنبي ، إميليو غرفي ، ترجمة د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف ، الطبعة الرابعة 1407 هـ / 1985 م.

26- تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني ، عمد عيى ،لح!ثم . الطبعة الثانية، الكويت ، دار القلم للنشر والتوزيع ،1408 هـ / 1978 م.

(3002/1)

الثقافة وتبليغها بالأندلس في عصر الريادة (من القرن 2 إلى 4 / 8 إلى 10 م)

الدكتور إبراهيم حركات

كلية الآداب – الرباط

قد يكون استعمال مصطلح (الثقافة) أو (المثقفين) غريبا بالنسبة لعصور الحضارة الإسلامية، فقد عرف

المسلمون في هذه العصور كلا من العالم والأديب والمشارك ، وما عدا هؤلاء فيتميز بخصوصيته كالنحوي والطبيب والنباتي . ولا يوجد مصطلح يوحد بين فئات المثقفين أو عناصر المعرفة عموما. ولذلك لا مفر من استعمال مصطلح حديث لمفاهيم قديمة.

(3003/1)

فماذا كانت الصيغة الثقافية التي تجسم إطار المعرفة في عصر الريادة ؟ إنها تبرز قبل كل شئ في إطار المعرفة الدينية التي يتوجها الفقه والحديث ، ففي القرن الثاني (الهجري) الذي يبدأ هذه المرحلة، لازال الفقه والحديث يرتبطان بمصادر المعرفة البشرية التي تقترب من عصر التابعيين ، و تابعي هؤلاء، بل هي أقرب إلى مصادر الرواية الشفوية المنتمية إلى صدر الإسلام من سائر الأجيال المتلاحقة بعد هذا القرن . وهذا هو شأن الصيغة الثقافية الدينية التي عرفتها الأندلس والقيروان أيضا. ومن ثم فالمصادر التي تستقى منها

(3004/1)

الثقافة الدينية الأندلسية هي نفس مصادر أهل الشرق . وقد يختلف الأمر في المعارف اللغوية التي كان روادها الأولون مشارقة ركبوا جذور هذه (المعارف و وضعوا أركانها بشكل متين قبل أن يغترف المغاربة من معينها ويخضعوا تركيبها وقواعدها لأسلوبهم الخاص في مرحلة لاحقة . ومع ذلك فقد وجدت

الدراسات اللغوية إقبالا كبيرا في الأندلس تحصيلا وإنتاجا، كما أن الثقافة الفقهية أخذت نصيبا من الاجتهاد في أكثر من وجه ، وإن بدأت مدرسة الرأي تتوسع اكثر فأكثر. بل هناك وجود بارز لمذاهب سنية أخرى غير المذهب المالكي كما سيرد

(3005/1)

تفصيل ذلك ، وقد يكون الأدب من أهم فروع الثقافة التي أعطت للوجه الأندلسي خصوصياته ابتداء من هذه المرحلة، لاسيما في مجالات الأدب الاجتماعي ووصف الطبيعة، ومظاهر الحضارة، بينما تظل منابع الثقافة الأدبية شرقية في مجملها أو متأثرة بالمشرق . وأخيرا في مجال الثقافة المرتبطة بال علوم الرياضية والتجريبية لم تواكب الأندلس المشرق في تقدمه و

إشعاعه خلال هذه المرحلة، فالدولة الأندلسية في أية حال كانت ميزانيتها بعيدة جدا عن ميزانية السلطة العباسية التي تتنوع مواردها برا وبحرا، عبر أقطار عديدة . أما موارد

(3006/1)

الأندلس ففي أحسن الظروف يخص ثلثها للجيش و ثلث للقصور والمرافق العامة و ثلث على سبيل الاحتياط. وهذه على الأقل كانت الوضعية حية خلال النصف الأول من القرن الرابع الذي يمثل أحسن فترات الحكم الأموي . وفي الواقع كانت الحاجة ماسة إلى الثقافتين ، الدينية، والأدبية لملء الفراغ في التأطير، سواء في مجالات الإدارة أو القضاء أو التعليم أو الوظائف الدينية..
ومع الحاجة إلى الإطارات لم تكن هناك ثقافة محنطة أو مصممة مقدما، حتى مع نفوذ هيئة الفقهاء، كما هو الشأن في الأنظمة المغاربية عموما. لكن المناخ الاجتماعي

(3007/1)

يفرض مرونة خاصة بالمجتمع الأندلسي الذي ترتفع فيه أعداد المولدين بشكل يحتاج إلى تفتح لا مناص منه في غيرما يمس المقدسات . وهكذا و عندما تفجرت ثورة المولدين كان ذلك إيدانا باستحالة تجاوز سقف التفتح الإسلامي ، وبالتالي فقد اصطدمت ثقافتان إحداهما إسلامية والأخرى تدين بولاء غير مقبول للثقافة المسيحية، على الرغم من دورها الكبير في تكييف الثقافة الإسلامية.

إن المشرق لم يعط كل شيء للأندلس . فهذا القطر نجح في خلق ذاتيته فكريا كما نجح في ذلك سياسيا واجتماعيا واقتصاديا إلى درجة أنه تحكم بسهولة في تنحية

(3008/1)

الأفكار والنظريات المناهضة للسنة والوافدة من الخارج ، لأن المجتمع الأندلسي تعاون مع السلطة في مرحلة الريادة، من حيث نشأتي تحديات في المرحلة التالية يتنازعها الجانبان السياسي والديني . ومرحلة الريادة لا تنع ...

زل عن باقي المراحل في وجود أنماط

من التعايش أو العداء بين السلطة والمثقفين حسب الظروف والرؤى لدى كل من الفريقين ، وحسب التوجه الفردي للمثقفين أيضا.

المثقفون والسلطة كانت هناك فئة كبيرة من المثقفين الذين يتقربون إلى السلطة على الرغم من أن سعة معارفهم قد تيسر لهم أسباب الرزق خارج دائرة

(3009/1)

السلطة. وهناك من استطاعوا أن يجمعوا بين رضا السلطة العليا ورض المجتمع كما هو شأن ابن عبد البر الكشكيناني الذي شغل منصب الشورى في القضاء وعرف بعلمه وزهده ، وكان الحكم المستنصر يجله ، شأنه في ذلك ، شأنه مع آخرين بينهم من يعيش على الكفاف ويخالطون السلطة ناصحين إياها غير متهبين . ولم يكن عدد هؤلاء، كبيرا، كبره في هذا العصر بالذات . وتتعلق هذه الأصناف وغيرها ضمن الحاشية في العاصمة ومراكز الأقاليم (1)، ولكل طريقته في التعامل مع كبار المسؤولين .

(3010/1)

وقد تميزت الأندلس دون غيرها من أقطار الإسلام بكثرة الطامحين فيها إلى المسؤولية من طبقة الفقهاء. وشجع هذه الفئة على خوض غمار السياسة والمسؤولية، ما كان من خر وقات السلطة القائمة وجورها الضريبي و تعديات عملائها. ولقد فشت هذه الظاهرة في المرحلتين التاليتين ولكنها لم تخل من وجود خلال المرحلة الأولى. وثورة الربض مظهر بارز للنفوذ الشعبي لطبقة الفقهاء في هذه المرحلة بالذات ، والذي كان يكشف من غير سرية، عن حاجة الفقهاء إلى المزيد من السلطة على حساب النظام القائم الذي لا يبالي بماذا يريده المجتمع

(3011/1)

وفقهاؤه في "كثر من حالة.

وعمل كل من الحكم المستنصر والمنصور بن أبى عامر، على رعاية المثقفين بشكل لم يتقدم له نطير في العصر الأموي ، لكن الثاني وهو فقيه كبير وأديب متذوق كان عمله تجاه الثقافة والفكر، احتوائيا هدفه ردع المعارضين والمنافسين ، وطمأنة الصامتين والمتملقين . فالمنصور كان وصيا على عاهل محجوب

ومهمش، والبطانة التي

(1(ابن حيان ، المقتبس ، ج 5، ص 409 عياض ، مدارك ، صص 6–119–128–7–23–8–26

اختارها المنصور هي بطانة من نوع جديد من المثقفين الذين وجهوا سهم لإرضاء السيد القائم وهيئوا لنظام

(3012/1)

الطوائف الذي أصبح فيه العلماء والأدباء مجرد حاشيات تتنافس في الولاء وتقدم بيعتها لمن يعطي أكثر.

وكان الحكم المستنصر فقيها مطعا على المذاهب ، وله عناية مباشر بالعمل الثقافي الذي عززه بخزانته الشهيرة. وقد جنى ثمار الجهد الذي بذل سلفه عبد الرحمن الناصر في ردع المعارضين وتنمية موارد بيت المال ، ولذلك عمل الحكم على جلب أعداد كبير من المثقفين من مختلف الأقطار الإسلامية، وانشغال بعضهم بالتأليف وبعضهم بالمقابلة بين المخطوطات ، وآخرون بالتدريس أو مهمات أخرى. وعندما بويع نجله هشام كانت قرطبة، ومدن

(3013/1)

الأندلس الأخرى قد بلغت أوج ازدهارها الفكري ، حيث كان "من الأعلام هضاب راسية، فسار في العلم زاخرة، وأعلام قولهم مسموع ، وبرهم مشروع ، وأثرهم متبوع " كما قال ابن الخطيب (2). واستغل المنصور بن أبي عامر هذا الازدهار فحوله لتحسين سمعته وتعضيد سطوته . هكذا أسند إلى عدد من العلماء والأدباء مهمة تأليف مجموعة كبيرة من المؤلفات ، من بينها "كتاب في الأوائل ممالك "، من عمل ابن المكوي الاشبيلي ، والفقيه المعطي.وذكر ابن الأثير أن كتبا كثيرة ألفت في مناقب المنصور(3)، وهذا يؤكد أنه كان سخيا تجاه حاشيته من

(3014/1)

المثقفين الذين ألفوا هذه الكتب امتنانا لرعايته ، ومن بينهم حسين بن عاصم صاحب "المآثرالعامرية،(4). وكان للمنصور مجلس علمي أسبوعي بقرطبة لا يتخلى عنه إلا للغزو، ويناقش في فئة العلماء وغيرهم من المثقفين ، ولكن يظهر أن مجالسه الأدبية لا تضم ذوي

الوقار من الفقهاء، وفيها تجري المساجلات والمناقشات الشي حرية وغيرها، ومن حضها لم يكن يخلو من السكر والطرب والرقص (5). وحيث إن هذه المجالس تعد من باب التسلية الفكرية والأدبية، والتي يلجأ إليها المثقفون وحتى غيرهم من كبار المسؤولين ،

(3015/1)

---

(2) الحميد، حذوة المقتبس، ص 38. بن الأثير، الكامل ، ج 7، ص 38،ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج 2،ص 48، الإحاطة، ج 1 ، ص 478.

(3) الحميدي ، جذوة، صص 124. 377 ،ابن الأثير ، الكامل ، ج 7 ، ص 216 (4) جذوة ، ص 181 .

(5) ن .م ، ص 73. المقري ، نفح ، ج 4 ، صص 93 – 228 – 243 .

فإنها لا تعنى بتدارس الأوضاع الداخلية أو الخارجية، لأن ذلك يترك للوزراء والقواد عندما يستشيرهم السلطان الذي يبقى قراره نهائيا وبدون معارضة. وهذا ما قي حلق خصوصا بالمنصور الذي شغل العمل العسكري معظم اهتمامه ، ولم يقض نحبه حتى كانت

(3016/1)

فئات العلماء والأطباء والمثقفين من مختلف الاتجاهات قد انتهت إلى أكبر عدد ضمه بلاط أموي ، كما كانت أرزاقهم سنية حسب ابن الخطيب (6)، وكان من مختلف ابن عبد النميري المحدث القدير، الذي مع جلال شخصيته ورحى ورحميا إلى بلاط المنصور يطلب رعايته وخدمته كما يوضحه نص رسالة نقلها المقري في "نفح الطيب "(7).
وعندما عالم فيما بعد، أن هناك من انتقد مشابهته في المآدب الملكية وقبوله لصلات العاهل ، رد على ذلك بسرد لائحة طويلة من الصحابة والتابعين وغيرهم من الشخصيات الجليلة في القرن الأول ، والذين كانوا يقبلون

(3017/1)

صلات الخلفاء وذوي السلطة(8).

وارتباط عدد من الفقهاء والمثقفين بوظائف الدولة لا يضعهم جميعا في صف واحد من حيث التعامل معها.
فبينهم القنوع بمورده مهما قل ، دون أن يجشم نفسه

عناء التقرب إلى الكبار من أجل ترفيع أو إنعام ، وبينهم الذي ينتظر أول فرصة تسنح لينسلخ عن مناصب الدولة مهما عظمت، وهناك الفئة التي لا يغريها القرب من السلطة لخط من نفوذها وسطوتها. وقد قيل عن الفقيه المشاور أبي إبراهيم إنه تملص من حضور حفل إعذار أقامه الناصر، فكتب إليه مستفسرا، ورد الفقيه بالثناء على الخليفة مكاتبة وبالتنويه

(3018/1)

بأسلافه الذين كانوا حسب قول الفقيه يصونون كرامة فئة من الفقهاء يتلافون بذلك ما قد لا يروق لهذه الفئة، ويحتمون بها عند الحاجة لدينهم (9).

ويبقى وجود المثقف في جميع الأحوال ضروريا لسير جهاز الدولة لاسيما في الأعمال التي لا يؤديها غيره ، ولو أن حضوره في القطاعات الحرة بمثل نسبة عالية قد تفوق في الأندلس بالذات ، نسبة المثقفين في الأجهزة الركية التي ليس كل موظف بها مثقفا. وقد يكتب المثقف في القطاع الحر كالتجارة مثلا، نوعا من الشعبية قد يضايقه في

(6) ابن الخطيب ، أعمال ج 2 ، ص 84.

(3019/1)

---

(7) نفح ، ج 2، ص 129.

(8)نفح ، ج4، صص 219، 221.

(9)ر) المقري ، أزهار الرياش ، ج 2 صص 282، 286.

عمله اليومي لكثرة الأصدقاء والمتعاطفين . وهذا العصر بالذات جسم مثال الورع والكفاف لدى الفئة الغالبة من العلماء الذين تحلوا بالفضائل بي حيدا عهن المغامرات الدنيوية، وهذه بعض النماذج على كثرتها(10) .

كان ابن وضاح (قرن 3)صبورا على الجفاء، سمحا بعلمه ، لا شغل له غير العبادة ونشر العلم.

– ابن القزاز القرطبي (قرن 3) كان لا يذكر في مجلسه إلا القرآن و العلم ، ولا يبتسم أحد في مجلسه ولو من أولاد الملوك،

(3020/1)

ولم يطلب قط شيئا من ذي سلطان أو جاه.

– قاسم بن حامد الأموي من أهل رية، حبس كتبه وكان ناسكا مع فقره و! قلا له.

– محمد بن طاهر التدميري (قرن 3) عالم ناسك عاق على النسخ ، ثم على فلم أرض له بيده ، وأخيرا يغزو ويتقوت من أسهمه الشرعية. ومات في الجهاد عن سن الثانية والأربعين . وفي الواقع قي حذر استقصاء الأمثلة التي تجسمها أجيال في عاقبة، فلا عجب أن يعمل الملوك على تقريب اكثر ما يمكن من الفقهاء والعلماء الذين يمثلون الفئة التوفيقية التي تحاول بدورها التقريب بين السلطة والمجتمع (11)، ومعظم هذه الفئة من

(3021/1)

الفقهاء تجافت عن الدسائس فيما بينها أو فيما بينها وبين خصومها، بينما كان الأمر بخلاف ذلك في أوساط الأدباء. لكن الدسائس في أوساط المثقفين عموما، وداخل دوائر السلطة، اتسع نطاقها في المرحلتين اللاحقتين ، حيث وعمقت دوافع التجاذب بين الفكر

والسياسة.

– وظاهرة رفض التعامل مع السلطة أو الانعزال عنها كانت فاشية في مرحلة الريادة بشكل يلفت الانتباه ، وهذا بالإضافة إلى أولئك الذين حتى مع شواغلهم في

(10) الحميدي ، جذوة المقتبس عياض ، مدارك ، ص 437–444–445–446، ! المقري ، نفح ، ج 3، ص 4.

(3022/1)

---

(11) ابن خلدون ، تاريخ ، ج 4 ، ص 227.

القطاع الرسمي يحتاطون في مسألة التقرب من السلطة أو مخالطتها في غير ضرورة. وهكذا فلم يكن نادرا أن يرفض كثيرون منصبا ساميا كالقضاء أو كتابة البلاط ، ولذلك كانت ظاهرة الانطواء فاشية في وسط المثقفين ، في هذا العصر أكثر من غيره ، خصوصا مع نشوب الاضطرابات المحلية والإقليمية. وقد تحدث العزلة ظرفيا أو في مرحلة معينة من العمر، كاعتزال الفقيه المعيطي، الذي تخلى في أواخر عمره حتى عن الفتيا

وانقطع كليا للعبادة : وكالفقيه حماد بن عمار الذي رفض المناصب (12) وحتى التدريس

(3023/1)

في ظروف الفتنة التي عصفت بالعامرين واعتزل الناس متعبدا.

وكذلك فإن المثقفين يرفضون وظائف الدولة لسبب مشترك في الغالب ، هو الابتعاد عن الانحراف أو تشجيعه ولو بكيفية غير مباشرة. ومع ذلك فهناك أسباب خاصة كوضعية ابن مدراج الطليطلي الذي رفض في مطلع شبابه الالتحاق ببلاط الحكم عندما تبين نبوغه المبكر وهو ضمن وفد من مدينته . وحتى في حاط الانتساب إلى سلك الوظيفة كان هناك كثيرون يتشبثون بأوضاع تبعده عن السلطة كابن المكوي الذي بض قضاء الجماعة مكتفيا بالفتيا التي برز فيها. وكذلك قبل ابن المعلم القرطبي

(3024/1)

الشورى وامتنع عن القضاء، كما أن الفقيه القنازعي لم يقبل القضاء، ولا الشهادة واكتفى باك حليم في حالة من الزهد والنسك، مع مخالطة الفقراء والمساكين (13).

والسلطة لا يؤمن جانبها حتى مع ما تغدقه على المحظوظين المقربين ، فقد عافى المحنة والسجن مثقفون كثيري ما تتجاوز عقوبتهم ما اقترفوه ، وربما أخذوا بي حاية. وهكذا فالأديب أحمد الجياني الذي ألف للحكم المستنصر في الأدب كتاب "الحدائق "، ألقي به في السجن حتى مات به لأمر نقمه عليه كما قال ياقوت . وتبدأ محنة الأدباء والمثقفين تأخذ بعدا أكبر مع القرن

(3025/1)

الرابع ، حيث السجن مال عديدين . وقد اتهم يوسف الرمادي من كبار الشعراء بهجو الحكم فأودعه السجن حيث وضع ديوانا من عدة أجزاء في وصف الطيور وخواصها. وألف أيضا

(12) ابن شكوال ، الصلة، صص 148–153–364–453.

عياض ، مدارك، ج 7، صص.119–228 ، المقري ، نفح ، ج 3 ، ص 6.

(13) **مدارك، ج 7، صص** . 30–127–145–292.

"المنتزين والقائمين " خصصه للثورات وأحداث الرد التي عاصرها أو سبقت عصره بالأندلس. وحكم على الأديب الشاعر قاسم الشبانسي بالقتل فأدخل السجن في انتظار إعدامه ، لكنه نجا من القتل بسبب قصيدة استعطف بها

(3026/1)

المنصور بن أبي عامر ورجاه أن يعيد التحقيق في تهمته، بينما وضع مروان الطليق، من سلالة الناصر، في السجن ستة عشر عاما قبل إطلاق سراحه ، وشبه أدبه ووشعره بإبداع ابن المعتز بني العباس (14) **ولم تشهد مدينة من مدن الأندلس كالذي مر على قرطبة من محن وأهوال مست الجماهير والفئات المثقفة، كمقتلة العلماء في وقعة الربض وإيداع العشرات من المثقفين السجن الذي هلك فيه كثيرون بدون محاكمة في أكثر الأحيان . وكان العلماء يتكتلون ضد العواهل المنحرفين عن الجادة والعاجزين عن الحكم لصغر أو نقص مقدرة، وهذا ما يؤدي إلى**

(3027/1)

تعريضهم للمحنة وحتى البطش. وقد رفض بعضهم ولاية هشام المؤيد فبطش بهم المنصور بن أبي عامر الذي حجب هشاما عن السلطة . وأقسى محنة و"طولها مدة هي التي تم فيها إسقاط العامريين وشبت الفتنة بين البربر والعرب . وكان من ضحاياها الفقيه ابن الفرض الذي قتله البربر سنة 4.3، كما قتلوا غيره كابن الجالطي وراشد بن إبراهيم الذي ذبح في الطريق خارج قرطبة. وقام الأندلسيون أيضا بمذبحة مروعة لم يرحموا فيها العلماء من البربر كخلق بن مي مسعود الجراوي الذي قتلوه ذبحا. وقد قتل العلماء من الفريقين بالعشرات إما اغتيالا أو

(3028/1)

دفاعا عن أنفسهم وأسرهم. وبعضهم فقدوا فلم يعرف لهم أثر. وهلك بعضهم خلال الفتنة في المطبق ، وسلم إلى أهله بقيوده . وهذه حال ابن المحتشم القرطبي، كما ساق البربر القاضي يحيى بن وافد مجرورا بعمامته فكاد المستعين يصلبه لولا شفاعات العلماء والصلحاء فقيد

بالمطبق واعتل به حتى

هلك (15)

(14) الحميدي ، جذوة، صص 310–321–349. ياقرت، معجم الأدباء، ج 4 ص 237.

(15) مدارك ، ج 7، صص 205. ج 8، ص 25.ابن شكوال ، الصلة، صص 175–184–252–339–463–464–465. النباهي ، مرقبة، ص 88. المقري ، نفح ، ج 1، ص 330 .ج 2 ، ص 330.

(3029/1)

المثقفون في الغزو والجهاد

يدعى العلماء والصلحاء إلى المشابهة في الغزوات وأعمال الجهاد في الأنظمة الإسلامية عموما ليكونوا قدوة لغيرهم ، وليحمسوا الجيش ويبصروه بواجباته الدينية ومسؤولياته في الدفاع عن العقيدة. وكذلك يحضر في الغزوات مثقفون من غير العلماء متطوعين أو مدعوين من العاهل في النظام الأموي كما في غيره . وقد أعفى أحد الأدباء من غزوة مع الحكم المستنصر مقابل قيام الأديب بتجميع أف حار خلفاء بنى أمية بالمشرق والأندلس .

وبين المثقفين من يرابط بالثغور مجاهدا أو حارسا أو متطوعا لتعليم المرابطين.

(3030/1)

ولا يعود كل المجاهدين إلى بيوتهم وذويهم فقد يستشهد عدد منهم أو يؤسر أو يفقد. ومن الأدباء والعلماء الشهداء أو المفقودين محمد بن عطاء الله النحوي ومحمد بن عبد السلام التدميري ومحمد بن ظاهر ومحمد بن قاسم ويحيى بن حجاج والقاضي الجذامي معاصر المنصور بن أبي عامر والمحدث يحيى بن أصبح والمحدث إبراهيم بن داود وعشرات غيرهم . وفيهم الفارس الشجاع والذي يرابط قصدا للغزو حتى يستشهد. وكذلك كان فيهم من يتطوع من ماله إن كان ميسورا لإطعام حامية أو ترميم رباط أو بنائه وما إلى ذلك (16). ولم تضعف هذه الظاهرة قط

(3031/1)

خلال مرحلة الريادة من أولها حتى نهايتها، خصوصا في مجال التطوع الذي لا دخل للسلطة الرسمية فيه .

الخزائن الخاصة وخزانة الحكم الكتاب والمدرس الوسيلتان الوحيدتان لتوصيل المعرفة بشكل أكثر منهجية وضبطا وأقصر وقتا بالنسبة للعصور الماضية. ونسخ الكتاب ومقابلة النسخ المخطوطة وتصحيحها من الأعمال الاقتصادية والمهن المطلوبة. وعملية بيع الكتب من أهم العمليات التجارية المربحة بشكل مضمون . وقد كان الإقبال على الكتب كبيرا في عصر الريادة، إلى درجة أن المرحلتين التاليتين عيال على هذا العصر في شطر كبير من فنون

(3032/1)

المعرفة ومصادرها الوطنية، لاسيما في الحديث والفقه والأدب والتاريخ . وفي

(16) الحميدي ، جذوة، صص 145–231.ابن حياد، المقتبس ، م 5، ص 444 . عياض ، مدارك ، ج 4 صص 271–443.ج 5، صص 170–179 ،ج 7 ، ص 204، ج 8 ، ص 137، ابن بشكوال، الصلة، صص 19–207–455–463–478.

الواقع لم يكن اقتناء الكتب ميسورا لكل واحد، لكن

إذا كانت النسخ الأصلية تعلو أثمانها فإن النسخ المأخوذة عنها أقل تكلفة. ويبقى اقتناء الكتب بأعداد كبيرة من حظ فئة محدودة مبدئيا، ولكن عددها كان عظيما فيما يبدو من المعلومات التي ترددها كتب التراجم

(3033/1)

خاصة، وهذه الخزائن الخصوصية صنفان ، أحدهما ما يضم فنونا متنوعة. والثاني ما يغلب عليه فن بعينه وهو في الغالب كتب الحديث بالنسبة للمختصين فيه ، أو كتب الأدب واللغة لمن نزعته أدبية. وكثير من جماع الكتب يعنون بتصحيحها وضبط معلوماتها. ويعني ذلك درجة التمازج بين الكتب ومقتنيها، حيث إن الاقتناء ليس مجرد هواية بل هو سبيل إلى التوسع في آفاق المعرفة، وقد عرف ابن فطيس عبد الرحمن بن محمد بأنه كان محدثا كبيرا ومشاركا. وتضم خزانته مصنفات في مختلف العلوم . وكذلك كان شأن الأديب اللغوي ابن المشاط الطليطلي .

(3034/1)

وكان لابن فطيس ستة وراقين برواتب منتظمة يتولون عملية نسخ الكتب له . وبعد وفاته استمر بيع محتويات خزانته عاما تحصل منها أربعون ألف دينار وهى مبلغ يعادل جباية مدينة صغيرة عن سنة. وقيل عن سعيد الطليطلي إنه جمع كتبا لا تحصى. وقد بذ الطلليطليون سائر مراكز الثقافة بالأندلس خلا قرطبة، في مستوى انتشار المعرفة وإنتاجها، فهذا العصر تقريبا هو كل تاريخ طليطلة الإسلامي إذا أضفنا الشطر الأكبر من القرن 54/ 11 م . وكانت خزانة ابن الفرضي إحدى أعظم خزائن قرطبة الخاصة . وكذلك كانت خزانة ابن ميمون الطليطلي التي مع

(3035/1)

ضخامتها كان معظمها منسوخا بخطه مصححا بدقة من جانبه حتى اعتبرت هذه الخزانة أصح كتب طليطلة. وامتلكت السيدات المثقفات خزائنهم الخاصة كما هو الشأن في عائشة بنت أحمد القرطبية، وكانت أديبة لامعة، وراضية مولاة عبد الرحمن الناصر، وخديجة بنت جعفر التميمي التي حبست على ابنتها كتبا كثيرة. وتستورد كميات كبيرة من الكتب من مصر والقيروان ومراكز أخرى من المشرق . لكن الاستيراد يكلف نفقات

وأتعابا كثيرة. وقد نقل العالم سلمة بن سعيد من المشرق ثمانية عشر حملا من الكتب جمعها خلال سنين عديدة لأنه درس هناك، وكلفته

(3036/1)

الكتب أموالا باهظة(17).

(17) الصلة، صص 27–129–214–220–298–299–329–590–614–615–655–658.

وبالجملة فإن أهم فترة لرواج الكتاب تأليفا ونسخا وبيعا هي القرن الرابع . وجل النماذج السابق ذكرها من هذا القرن بالذات .

وقد كان الحكم المستنصر بدون شك . رائد حركة التنافس الفائق ، والذي لم يسبق له نظير بالنسبة للأندلس ، في جمع الكتب وانتساخها وتصحيحها. وكانت ثقافته فقهية أدبية واسعة الأفق في الزمان والمكان . قال عنه الونشريسي في وحرض نازلة فقهية حسم فيها بنفسه : "كان فقيها عالما بالمذاهب جماعا للعلوم ، ولم

(3037/1)

يكن في بنى أمية بالأندلس أعظهم همة منه في مطالعة العلوم " فلم يكن غريب أن يستبد به الاهتمام باقتناء الكتب وجمعها من المشرق والمغرب ، ويوفد لذلك تجارا يقتنون له الأصول من أربابها أو باعتها 3 كان الشأن ي اقتناء (الأغاني) من مؤلفه الأصبهاني مقابل ألف دينار، وشرح مختصر ابن عبد الحكم لأبي بكر الأبهري . ومع كثرة الكتب التي ضمتها خزانته وقد بلغت أربعمائة ألف ، فقد كتب تعاليق وملاحظات على أعداد كبيرة منها(18) وحتى معلومات عن نسب المؤلف ومولده ووفاته. وتوفرت هذه الخزانة على مجموعة من الفهارس قدرت بما

(3038/1)

يعادل ألفا وسبعمائة وستين صفحة، كما خصص لها معمل للتجليد ومواقع الناسخين . ووفد على الحكم مثقفون كثيرون من المشرق وبلاد المغرب فيهم من قام بتأليف كتب لحساب الخزانة، أو بنسخ بعض المؤلفات الأخرى لعبد العزيز بن الحسين الزجاج الوافد من بغداد والذي نسخ كتبا منها : النجاة إلى الطرق، (في الزهد)

لمحمد بن المبارك الصوري . ومن نساخه الوافدين من إفريقية : إبراهيم بن سالم الوراق ، وكان شيخا صالحا. وكان بالخزانة أبو علي القالي الذي إلى جانب إشعاعه الأدبي واللغوي كان يشرف أحيانا على أعمال المقابلة بين النسخ

(3039/1)

. وكان كتاب "العين " للخليل بن أحمد، ضمن الكتب التي تمت مقابلة نسخها المتوفرة بالخزانة، وبين النسخ واحدة كتبها بخطه القاضي منذر بن سعيد، وتبين أنها في غاية التصحيف ، مما أثار دهشة الحكم وحرج القاضي. وكان من المكلفين بالمقابلة، الفقيه الأديب الأندلس أبو القاسم أحمد المعارفي ، وأبو محمد الأصيلي الذي صادف تعيينه وفاة المستنصر فتولى هذه المهمة فترة في بداية حكم

(18) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج 2 ، ص41 . 317 ، الونشريسي ، معيار، ج 2 ، ص 317. المقري نفح ، ج 1، صص 361–371.

(3040/1)

المنصور. وينوه ابن الأبار في (الحلة) بتقييدات المستنصر على الكتب التي اطلع هو (أي ابن الأبار) على جزء منها بخط الحكم . وأتاح اطلاع هذا الخليفة على الأنساب وشغفه بها تصحيح الكثير من أنساب مواطنيه ، وكلف المسؤولين في الأقاليم بإنجاز التصحيحات التي توصل إليها، لدى الأوساط المعنية . ولا تعرف على التحقيق المبالغ التي كلفتها هذه الخزانة الضخمة.

ويكفي أن الأندلسي ابن الرفاء عمر البجاني الذي قضى عشرين سنة بالبصرة، أنفق لحساب الحكم وخزانته مائة وعشرين ألف دينار وهو لم يكن إلا واحدا من عشرات المكلفين

(3041/1)

بالاقتناء. ويظهر أن بغداد ومراكز العراق قد استأثرت بأكبر نصيب من خزانة الحكم ، وقد كان القرن الرابع أزهى عصور بغداد في مجال الإنتاج الفكري . وكان قيم الخزانة لدى الحكم تليد الفتى، وقد يكون من الصقالبة. وقد كانوا مكلفين بالقصر الخليفي وإعادة ترتيب الخزانة الذي كلف في بعض الفترات أزيد من سنة.

وكانت الخزانة مفتوحة للنخبة وحدها وكان من روادها أبو عمرو بن المكوي الذي أشرف أيضا على إعادة

الترتيب المذكور، وحافظ المنصور بن أبي عامر على هذه الخزانة، وكذا خلفه المظفر إلى أن حصلت الحرب الأهلية بقرطبة

(3042/1)

فتولى واضح الحاجب بيع قسم منها : ونهب البربر باقيها(19).

وإذا كان عيب هذه الخزانة المركزية أن الاستفادة المباشر منها ظلت مقصورة على النخبة فإن هذه النخبة بالذات لم تبخل عذ الطلاب بتقديم نتائج أبحاثها واطلاعها على محتوياتها الزاخرة. أما عملية النهب والتسلط والتفويب فقد شملت معظم خزائن الأندلس عبر مراحل تاريخها المضطرب.

الدراسة والمدرسون

إيصال المعرفة يتم عن طريق العلم والأستاذ والكتاب ، ولكن أيضا داخل الأسر المستنيرة وعبر المجالس العائلية والأدبية التي تنعقد داخل البيوت وفي المنتزهات.

(3043/1)

---

(19) الحميدي ، جذوة، ص 48.عياض ، مدارك، ج 7، صص 11–22–129–137. بشكال ، الصلة، ص 356. ابن الأبار، الحلة السيراء، ص203 .التكملة، صص 174–235، ابن خلدون، ج 4، ص 316–317، المقري ، نفح ، ج 1، صص 362.ج4، ص 108.

والأندلس متجلية في كل ذلك بما أضفته عليها الطبيعة الخلابة والحياة العمامة النشيطة. ثم إن العناصر الوافدة من الشام والمحن ، وهى تضم أسرا كثيرة للأجيال الصاعدة . والنمط الحضاري الطبيعي للبلاد يتطلب ثقافة راقية مكتوبة ومتداولة، بما في ذلك الحركة التجارية برية وبحرية، والبنيات الأساسية لهذه

(3044/1)

الحركة، ومقومات الحياة الاجتماعية والدينية التي تقتضي معرفة جيدة بأسس الدين والشريعة التي تتدخل في شؤون الحياة اليومية. وأخيرا فطبيعة الأرض الخلابة تغذي أقلام الشعراء والأدباء وتفتق ألسنتهم ،

وهذا إلى جانب مقومات التنظيم الإداري والسياسي حيث الطابع المدني يغلب على البلاد حتى في قراها ومناطقها النائية، وذلك ما لم يتأت للبوادي في معظم الأقطار المسلمة الأخرى حيث ظلت بعض المدن تستأثر بالحياة الثقافية، دون غيرها من المراكز الحضارية .

(3045/1)

وأول جسور المعرفة الجماعية، أي المتاحة للجماعات هو الكتاب ، والذي هو استمرار من حيث رسالته ، للكتاتيب الإسلامية الأولى المنطلقة من المدينة المنورة والتي انتشرت بى حد ذلك عبر العالم الإسلامي. وهو عادة يلحق بالمسجد أو يكون بقربه ، وربما كان داخل الحي بين الدور. وفيه يحفظ التلميذ القرآن على مدى بضع سنوات ، وبعلم الكتابة والقراءة وربما الحساب وبعض المتون العلمية، وإذا حذق الصبي القرآن أو جزءا وحينا منه وَحين على ولي أمره أن يقيم حفلا لتلاميذ الكتاب يحضره المعلم الذي عليه أن يزخرف لوح التلميذ (الحاذق

(3046/1)

) ليكون ذلك بمثابة شهادة أو دبلوم ختامي أو مرحلي . ويدعى الحفل وعملية زخرفة اللوح مع بلوغ مرحلة معينة من حفظ القرآن (الحذقة). وكانت عرفا لا مناص منه في هذا العصر، حتى إن جماعة معلمي الكتاتيب بقرطبة استصدروا بشأن وجوب إقامة (الحذقة) فتوى من غاز بن قيس ، وهو من الموالي . وأخذ عن مالك (45)، مما يدل على مسألة الحذقة في هذه الفترة المتقدمة (أواخر القرن) كانت لا تزال موضع جدل عرفي. وكانت بعض المساجد تستغل لتعليم الصبيان أيضا. بل ظل هذا النظام فاشيا خلال كل مرحلة الريادة.

(3047/1)

ويشترط ي المؤدب أن يكون نفسه مجيدا لحفظ القرآن وتجويده ، مع وحرفة كافية باللغة العربية. وقد كان بين العلمين من لهم إلمام جيد بالمعارف العمرانية

(20) الحميدي ، م.س، ص 305 .الصلة، ص108.

والإسلامية(21). وفي أية حال ، يجب أن يكون قدوة في الصلاح والاستقامة الدينية والخلقية. وكثيرون من المؤدبين والأساتذة كان لهم مسجدهم الخاص لأن

التنافس في بناء المساجد شغل كل الأوساط الأندلسية. وهكذا كان المسجد يؤدي رسالته التعليمية إلى جانب رسالته التعليمية والعلمية لأوساط تختلف مستوى. وقد كتب أحد المعلمين من بين

(3048/1)

الفقهاء كتابا عن آداب المعلمين في خمسة أجزاء، وهو أبو عمر أحمد بن محمد بن عفيف الأموي من قرطبة(22). وكان يعلم الأطفال بمسجده وبعظ فيه العامة.

والعملية التربوية موازية للتثقيف العرفي ومندمجة فيه . فهناك مجموعة من الآداب وقواعد السلوك التي قد تطلب بإلحاح من الدارس منذ صغره إلى كبره . وهي تتجه خصوصا إلى الجانب الخلقي والديني مظهرا ومخبرا. والأب في الكتابات الأدبية والتربوية هو الموجه الأول داخل الأسرة. وهذه الكتابات تتخلى كليا عن إدراج دور المرأة داخل البيت حتى وهى مستنيرة أو مثقفة، لكن يفهم

(3049/1)

ضمنيا أن هذا الدور لابد أن يكون فعالا، خصوصا تجاه البنات اللواتي يرتبطن بأمهاتهن أكثر من الارتباط الأولاد بهن . ونجد كثيرين من الأدباء والمثقفين يوجهون إلى أولادهم وصايا شعرية أو نثرية يظل محورها الأساسي هو الحض على اكتساب المعرفة وربطها بالسلوك المثالي . وفي الواقع كانت وصايا الآباء في المشرق لأولادهم أسبق في هذا المجال وأخصب محتوى. غير أن وصايا ابن الخطيب الأندلسي لانجاله ، ولو أنها متأخرة زمنا،تعد من أهم التوجيهات الأبوية التي تنطلق من أديب كبير عرك الحياة ولدرج في أرقى المناصب وأصعبها،

(3050/1)

بينما قد تكون مطاولة الأديب عبد الملك الجزيري (23) لأنجاله من أهم ما عرفه العصر الأموي في المجال التربوي التوجيهي.

وفي الأساتذة والعلماء من كانوا يضيفون إلى مهمتهم التثقيفية إكرام طلبتهم ، لأن هذا يدخل أيضا ي مثاليات العالم والأديب عندما يكون قادرا ولو نسبيا على هذا النوع ،من السلوك تجاه طلبته. وبهذه الطريقة كان العالم يحي بن عبد الله يتألف طلبته

(21) الصلة، ص262 . ابن الأبار، التكملة، ص 205 .

(22) ابن بشكوال ، الصلة، ص 43.

(23) الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص .262

(3051/1)

للمواظبة على مجالس المناظرة التي يعقدها ببستانه والتي تضم بدون شك آخرين . فكثيرا ما أطلق لفظ الطلبة في المغرب الكبير على الأساتذة أيضا. وكان أحد علماء طليطلة يستضيف أزيد من أربعين طالبا لمدة ثلاثة أشهر في السنة تبدأ من نونبر، ويسهر على توفير التدفئة لهم ، وتمر الفترات بين الطعام والآخر في الاستماع إلى دروسه ، وكلهم غرباء عن طليطلة، من طرق الأندلس (24).

وفي الأساتذة من يدرس بمنزله ، وأغلب الذين لهم مسجد يدرسون به ، وهذه من خصوصيات التدريس بالأندلس ولو مع وجود مساجد وقفية بعضعها تؤدى به دروس

(3052/1)

عامة، والأغلب أن الذين يدرسون بمساجدهم متطوعون قد يقضون نهارهم بين العمل لمعاشهم خارج المسجد والتدريس أو الكتابة داخله . ورافقت عادة بناء المسجد الخاص بعض الأندلسيين حتى خارج الأندلس (25).

وإذا كان أخذ الأجر على التدريس من الخواص في هذا العصر عملا نادرا فإن أوضاع الأساتذة تختلف اختلافا بينا ولكن طابع التقشف يسود أوساط العلماء والمدرسين عامة حتى لو حسنت الحالة المادية لدى بعضهم . ومن ذلك أن عبد الله الثقفي القرطبي يذهب إلى حقله راجلا مع ورعه وزهده ويحمل زاده على عنقه وهو فقيه أديب وموارده جيدة.

(3053/1)

أما العالم عبد الملك بن هذيل فتأثر بصحبة الصلحاء ثم انعزل بمنزله فقيرا رث الثياب ، ويؤدي مع ذلك رسالته العلمية. وسائر الأساتذة إما موظفون مع الدولة يتطوعون للتدريس في أوقات فراغهم ، وإما ذوو مهن حرة أهما :

1 – العدالة أو الشهادة

2 – التجارة، وهى غالبا في القطاعات الصغرى، وتستوعب

أكبر عدد من الأساتذة غير الموظفان ، ومن ذلك تجارة الثياب والوراقة. وشطر كبير ممن زاولوا التجارة تنقلوا ي شبابهم بين عدة أقطار للدراسة ومارسوا التجارة بها. وهكذا عرف ابن الجباب كتاجر جبب ، ولكنه تفرغ أكثر وقته للتدريس في

(3054/1)

أواخر حياته ، وعرف الحبيب أحمد شطبون كتاجر ذي ثروة قبل أن يزداد رفعة في المناصب القضائية

(24) مدارك ، عياض ، ج6 ، ص 109. الصلة، ص 41.

(25) جذوة، ص 50. مدارك ، ج 6، ص 153 .الصلة، ص 419.

الكبرى، أما الفقيه الكبير أبو إبراهيم فيتجر في الكتان ولا تغريه المناصب التي عرضت عليه . واشتغل العالم ابن فضيل بتجارة الحديد فلقب بالحداد، وكان على اطلاع كبير بمذهب مالك وآراء تلاميذه مع الدراية والمناظرة. وعاش كثيرون على الوراقة، وربما اشتغلوا بها في مرحلة دراستهم أيضا.

(3055/1)

---

3 – الفلاحة، وتأتي أهمية بعد حد التجارة من حيث استيعاب فئة الأساتذة والمثقفين. والعادة أن يمتلك مزاولها أرضه مهما صغرت ، كما أنه يعمل فيها بنفسه.وقد كان على بن عيسى التجيبي يستقبل طلبته بجنته حيث يلقى عليهم دروسه. أما أبو حفص الرعيني فقد كان يحرث بنفسه ويحتطب على ظهره مع جلال علمه وانقطاعه للعبادة.

4 – الصناعة، وهو أقل استيعابا لهذه الفئة. ومن أهلها عمر بن حفص الثقفي، وابن بركة عبد الله بن محمد، وكلاهما اشتغل بصناعة الصابون ، وتولي الثاني أيضا مهمة الشورى، فقد كان أغلب هؤلاء الشيوخ إذا وظفوا

(3056/1)

لدى الجهاز الرسمي يثقون في استقرار الوظيف ، ولذلك اعتمدوا على الكسب الحر مهما كان التعب من أجله ، وكل هذه الشريحة الو"سر حمة من ذوي المهن الحرة إذا اشتغلت بالتدريس فعلى سبيل التطوع (26).

ومن البديهي وحال الأساتذة على ما تقدم ، أن يكون القسم الأكبر من الطلاب على ضيق من العيش، حتى إن

أحلي هم كانت تمضى عليه أيام لا يقتات فيها إلا من ورق الكرنب الذي يقذف به زبلا، وقد صار فيما بعد محدثا كبيرا ومفسرا وصف ابن حزم تفسيره بأنه لم يؤلف في الإسلام مثله ، وهو بقي بن مخلد العالم الزاهد(27). لكن الطلبة حتى

(3057/1)

مع ظروف الحياة الصعبة يواجهون همومهم بالصبر واشحطي ، بل وحتى بالدعابة. والطالب الأندلس يتجاوز أقرانه في باقي أقطار المغرب مرحا وتنكيتا، بل إن الطلبة قد ينكتون على أساتذتهم وربما أحدثوا مقالب طريفة

(26) مدارك ، ج 5، صص 165–171–174–189،ج 6 صص 118–130–172–292 ، ج 7 ص 202–203–211–280.

(27) السيوطي، طبقات المفسرين ، ص 9.

تكشف عن سذاجة هؤلاء الأساتذة وطيبوبتهم ، وهذا فضلا عن أسئلة الإحراج التي يلقونها قصدا(28).

(3058/1)

وتتعدد طرق التدريس حسب شخصيتهم العرفية، والطريقة التي تلقوا بها معارفهم ، فهناك الطريقة التقريرية التي تقتضي معلومات أو أكثر، مع شرحها والتعليق عليها. والطريقة الروائية المتبعة في تدريس الحديث النبوي ، وإملاء الدرس من معلومات المدرس أو من كتاب وحين ، لكن ما تميز به التدريس لدى الأندلسيين في هذا العصر البعيد، اللجوء إلى المناظرة التي من شأنها شحذ الأذهان واستحضار الاستدلال والترجيح بين الآراء والتوفيق نجبنا وحفز الطلاب إلى القراءة وإثراء معارفهم بشكل مباشر. وعلى ذلك فلم تكن المناظرة بين أهل

(3059/1)

المذاهب الفقهية وغيرهم فقط، كما أشار إلى ذلك ابن خلدون ي مقدمته ، وكما كان متعارفا بالمشرق خاصة، وحتى بالقيروان في بداية انتشار المذاهب الفقهية والموازية، بل كانت المناظرة تتناول غالبا، الآراء داخل المذهب المالكي ، وكذا المعارف في على اختلافها حيث تعم مناقشتها بين الطلاب بإشراف الأستاذ وتوجيهه ، فإذا توقفوا في مسألة لجأوا إلى تحكيمه. والمناظرة يفتتحها المدرس نفسه بالبسملة والتصلية ثم بإيراد

بى حض الأحاديث النبوية ليطرح بعد ذلك المسائل على الطلبة فيتناظرون ويناظرونه (29).

(3060/1)

وإذا اعتمدت الدراسة الجماعية على مؤلفات معينة، فإن هذا يرج الأستاذ إلى حد ما عندما يرجع الطلاب إلى نفس الكتاب ، خصوصا إذا كان من تأليف المدرس نفسه ، وقد كان كثير من هؤلاء يميلون إلى تقوية معلوماتهم أو تنويعها باختيار دراسة مصنفات بعينها على مؤلفيها الأساتذة، وهذا نظام عرفه المشرق أصلا وكانت كتب القراءات خلال هذه المرحلة فكانت رائدة لما بعدها.
وهكذا قام أحمد بن قاسم الإقليكشي بتدريس القراءات انطلاقا من كتبه، كما أن المغربي أحمد الجراوي قبل أن يتولى تدريس القراءات بالأندلس سمع عن ابن خلدون

(3061/1)

مؤلفاته بمصر والتي كان لهذا المقرئ دور ريادي بها.
ودرس سليمان التجيبي على ابن سفيان كتابه : الهادي في

(28) مدارك، ج 4، ص126 . نفح ، ج 5 ، ص 98.

(29) الصلة، ص255 . مدارك، ج 7، صص 114–159. ابن خلدون ، مقدمة، ص399 .

القراءات السبع . وهكذا كان الأمر في تدريس العديد من المؤلفات الأخرى على مصنفيها في علوم مختلفة، وفي القيروان ومصر بغداد(30).

ومن أهم أسبقيات المرحلة أو ظواهرها الفاشية، اللجوء إلى المختصرات في التثقيف والتدريس . وتتبوأ المختصرات الفقهية المقام الأول لارتباطها بالحياة العامة وتكوين

(3062/1)

الإطارات الوظيفية والمهنية. ومحورها العام مذهب مالك، حيث تتكاثر خلال القرنين الثالث والرابع . وهي نوعان ، أحدهما يختصر كتابا بعينه والآخر يختصر المادة نفسها، ككتاب مختصر الفقه المالكي، لمالك بن علي الفهري في القرن الثالث ، ومختصر علي بن عيسى التجيبي في القرن الرابع . وحظيت مدونة سحنون باهتمام كبير. وكان من أوائل من اختصرها إبراهيم بن عجيس الزيادي الوشقي (قرن 3)، وابن عيشون

(31)(قرن 4).

وفي إطار عملية التأليف والاختصار التي تمت بطالب من الحكم المستنصر قام محمد وعبد الله ابنا أبان باختصار

(3063/1)

المؤلفات الموسعة في الفقه ، والتي صنفها يحيى بن إسحاق . وفي مرحلة لاحمة قام القاضي الوليد بن رشد باختصار لهذا المختصر نفسه (32). ومن بين المختصرات في التفسير مختصر تفسير ابن سلام لعبد الرحمن بن مروان القرطبي وآخر لنفعهن التفسير من عمل ابن أبي زمنين (33).

وتدل عملية الاختصار في مجموعها على تشعب العارف بهرة المصنفات الكبرى في كل منها، وهو ما لا يتسع له وقت أي طالب مهما كان من قوة استعابة ، خصوصا وأن التخصص في علم واحد لم يكن واردا. على أن حملة غاضبة قد شنها بعض المفكرين والشيوخ النابهين خلال

(3064/1)

القرن 14/8 **م.**

ومن بينهم المقري وابن خلدون على المختصرات بوجه عام.

(30) **الصلة، تنظر التراجم بالأرقام:** 47–60–91–101–302–345–354–416–446–469–512–694–1051–1052–1058.

(31) **جدوة المقتبس، ص** 324، **ج** 6، **صص** 171–173.**الصلة، ص** 175. **ياقوت مادة وشقة.**

(32) **مدارك، ج**6 ، **ص** 301.

(33) **السيوطي ، طبقات المفسرين ، صص** 18–34.

التواصل الثقافي

يجري هذا التواصل عن طريق تصدير الكتاب واستيراده ، كما يتم عن طريق تبادل الأساتذة والطلاب ، بين الأندلس وباقي الأقطار المسلمة . وهو تبادل تلقائي في كل اتجاه ، كما أنه يغ فرديا ولا

(3065/1)

تحدده اتصالات دبلوماسية أو رسميات متعارفة، بالنظر لأن الحدود مفتوحة بين الأقطار المذكورة :

أ – الوافدون من بلاد المغرب

يأتي فريق منهم للدراسة، وفريق للتدريس أو لمزاولة نشاط س عين ، حر وير. وهذا بالإضافة إلى الروابط العائلية والزيارات الخاصة. ومن بين الو"فدين من المغرب (لأقصى(34):

1 – أحمد بن عبد الله الكتامي المعروف بابن العجوز من أصيلا، وبيته أنجب مثقفين كثيرين . جع بين الفقه والأدب ، ودرس على وهب بن مسرة وغيره.

(3066/1)

---

2 – أحمد بن سليمان الكتامي من طنجة، درس بالمشرق وتخص بالإقراء وقام بتدريسه ببجانة والمرية، وعمر طويلا.

3 – أبو ميمونة دراس بن إسماعيل ، زاول دراسته بالأندلس والقيروان ومصر ومكة، وارفقه في الدراسة عبد الله الأصيلي، وكلاهما صار محدثا كبيرا.

5– أبو بكر المغيلي، شاعر عاصر الحكم المستنصر، وله مساجلات شعرية مع الحاجب المصحفي.

4 – أبو عمران الفاسي موسى بن عيسى، درس بقرطبة ومصعر القيروان ومكة وبغداد، واستقر بالقيروان ، وهو من ذوي التأثير الو"سع في المدرسة المالكية.

(3067/1)

5– إسماعيل بن حمزة الأزدي ، من سبتة. مال إلى عالم أصول الديانات وهو من اتجاه نادر في هذه المرحلة.

(34) الحميدي ، جذوة، صص256–317–368. ابن بشكوال ، صلة، صص 87–88–577 .

ومن المغرب الأوسط:(35).

1 –أحمد بن قاسم التاهرتي البزاز، وفد صغيرا على قرطبة حيث درس بها ولكنه مال إلى الخمول كما يقول ابن بشكوال .

2 – أحمد بن علي الباغاني ، درس القراءات بمصر، ثم

استقر بالأندلس فتولى تأديب أولاد المنصور، وزاول الشورى مدة، لكن أعظم تأثيره كان في مجال الإقراء.

(3068/1)

---

3 – أبو مروان عبد الملك الطبني درس بالأندلس ومصر والحجاز وجمع بين الحديث والأدب ولو أن زوجة صادفه وقوة تأثيره لم تبرز إلا في النصف الأول من القرن الخامس .

4 – عبد الرحمن بن عبد الله الهمداني الوهرافي ، عرف بابن الخراز درس بالأندلس ومصر والعراق ، واستقر ببجانة قرب المرية، وكان معاشه من بيع الثياب ، وجمع بين الفقه والحديث ، ومن طلبته أبو عمرو بن عبد البر و"بن حزم. ومن المغرب الأدنى :(36)

5 – سعيد بن عثمان الأعناقي ، وهو من موالي تونس ، استقر بقرطبة في القرن الثالث ومال إلى (طل يغظ والرواية .

(3069/1)

---

6 – محمد بن القاسم القروي ، درس القراءات على ابن غلبون ، وقام بالتدريس قليلا في قرطبة، في نهاية القرن الرابع ، حيث كان يشتغل بالتجارة التي نجم فيها.

7 – مكي بن أبى طالب ، من القيروان . ذو تأثير في الفقه والأدب والقراءات . عين أستاذا راتبا بجامع قرطبة بأمر المنصور وترشيح من القاضي ابن ذكوان .

8 – محمد بن حسين الظبي، وهو أصلا من المغرب الأوسط، وفد من إفريقية أديبا شاعرا حظي بترحاب في بلاط الناصر.

(35) جذوة، صص 256–266 . الصلة، صص 86–87–305.

(3070/1)

---

(36) حيان ، المقتبس ، ج 5 ، ص 41. عياض ، مدارك ، ج 5، صص 170. ج 8 ، ص13 . بشكوال ، الصلة، ص 564.

من مصر والعراق (37) :

1 –أحمد بن زكرياء المصري . قام بتدريس الحديث

بقرطبة (ق.4)

2 – عبد الرحمن بن محمد العتكي ، قدم من مصر في أواخر القرن 4 . ودرس بالأندلس واشتغل بالتجارة، وكان أديبا شاعرا.

3 – إبراهيم بن أحمد الشيباني من بغداد، محدث فقيه نحوي ، استقر بالقيروان وعمل في بلاط الأغالبة ثم العبيديين وقدم الأندلس حيث اتصل بالعاهل محمد بن عبد الرحمن (قرن 3). وتميز بشخصيته الأدبية المتميز، وله عدد من

(3071/1)

المؤلفات في الحديث والأدب واللغة والعقيدة.

4–صاعد بن الحسن الربيعي البغدادي ، لغوي قدير، وهو مؤلف "النصوص" في الأدب لحساب المنصور الذي دعاه إلى إلقائه دروسا بجامع الزاهرة. وبرهن في مجالسه مع الأدباء عن اطلاع في اللغة واسع ، على الرغم من محاولات إحراجه . وغادر صاعد الأندلس في أيام الحرب الأهلية فمضى إلى صقلية، وبها توفي .

5– أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم ، وهو أرميني من

تركيا متبحر في اللغة العربية كبير، مع كونه قدم بجملة من تحف بغداد وطرائفها إلى الناصر. ويتفق الذين ترجموا للقالي من

(3072/1)

الأندلسيين أنه ترك تأثير" عميقا في الوسط الأدبي و العلمي بالأندلس ، سواء بفضل الشجاعة المباشر أو عن طريق عدد من مؤلفاته في الأدب واللغة كـ"النوادر" ، و" البارع " ، و" المقصور والممدود والمهموز.

3 – من فارس(38) :

1 – عبد العزيز بن جعفر، درس بالمشرق ، ووفد على الأندلس تاجرا (ق.4).

2– وثيمة بن موسى الفسوي ، درس بالبصرة ومصر، ودخل الأندلس تاجرا

(ق .3).

(37) الصلة، صص 237–223. جذوة المقتبس ، ص 225.

المقري ، نفح ، ج 4، ص 130.

(38) الصلة، ص 356.جذوة المقتبس ص 340.

(3073/1)

وهذه اللائحة غير مستوفية، بل مجرد نماذج تبرز ازو الثقافي الذي عرفته الأندلس من خلال عشرات الوافدين دارسين أو مدرسين أو مساهمين بشكل ما في الحياة الثقافية. وكأن الأندلس بما عرف عنها من حيوية فائقة في المجال الثقافي وغيره ، لفظت الأميين وأشباههم من الوافدين ، فلا يهتم مؤرخوها إلا بالمثقفين ولو كانوا مجرد تجار لا شيء جماع لديهم يذكر.

وإذا رقع إغفال فترة الولاة هنا، وما تركته من أثر، فلأن خصوصيات مرحلة الريادة تفرض نفسها على نطاق واسع تعد فترة الولاة غير ذات أهمية نافذة بالقياس إليها. ويبدأ تدفق

(3074/1)

طلاب الأندلس بشكل ملحوظ على المشرق ابتداء من النصف الثاني من القرن الثاني، وهذا ما بجعل إخصاب الثقافة بالأندلس يأخذ منحى واسعا في القرن اللاحق ويبلغ أوجه في القرن الرابع بتمازج العطاءين المشرقي

والمغاربة معا. ويقتضي ذلك أن نتعرف على نمط المعرفة التي يطلبها الأندلسيون خارج بلادهم حتى ساهموا هم أيضا وفي مرحلة نضجهم العلمي في الإشعاع العرفي ببلادهم وحتى خارجها.

4- الأندلسيون بالشمال الإفريقي

ومعظهم بدأوا دراستهم بالأندلس قبل استكمالها بالشمال الإفريقي وربما بالمشرق أيضا، لكن تأثير الشمال

(3075/1)

الإفريقي أبعد وأوسع في تكوينهم واتجاههم ، كما أن الدارسين بصورة أساسية يكونون أعدادا كبيرة. ولظل الدراسات الفقهية والحديثة في رأس قائمة اهتمامات الدارسين ، بينما تأتي القراء ات في درجة مقاربة تتبعها الدراسات اللغوية المتعمقة. وقد اختار الدارسون الذين اتخدا" صعوبات التنقل والغربة والمعاش أن يأخذوا المعرفة من منابعها الأصلية كما هو الشأن في مدرسة مالك ومدرسة سحنون. ونجد من تلاميذ مالك:

1 – زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون الذي ينسب إليه السبق إلى إدخال مذهب مالك بالأندلس ، وشاركه في ذلك كل من

(3076/1)

يحيى الليثي وعيسى بن

دينار(39)

(39) نفح ، ج 2 ، صص 251–253.

2 –محمد بن بشير الذي تولى فيما بعد قضاء الجماعة(40).

3 – يحيى بن يحيى الليثي المصمودي السابق ذكره ، وقد ترك أثرا كبيرا في نشر مذهب مالك وموطئه (41).

وتركت مدرسة القيروان بصمات راسخة في مجالات المعرفة، لأن ازدهارها ساير بالذات مرحلة الريادة بالأندلس. ولذلك تقاطر عليها الدارسون من الأندلس وسائر الشمال الأفريقى، كما أنها كثيرا ما اتخذها الدارسون عطا انتقاليا إلى مصر وباقي أقطار المشرق ، حتى يجمعلوا بين أنماط مختلفة من المعرفة وطرق

تبليغها. ولذلك نجد الذي يكتفي من القيروان بدراسة كتاب في التراجم أو بإسماع إن كان مثقفا، مثل إسماعيل الحجاري الذي اسمع كتابا للخشني في مشايخ القيروان . كما نجد الذي يدرس الفقه مادة ومؤلفات في مدرسة معينة كمدرسة ابن أبي يزيد القيرواني (42). ولم تكتف القيروان بتقديم المعرفة إلى من يقصدها فحسب ، بل قصد المثقفون والشيوخ من أبنائها الأندلس ليساهموا بشكل مباشر في بناء صرح المعرفة هناك. وما أثر مكي بن طالب في مجال القراءات وعلوم القرآن إلا مثال واحد من بين عشرات الأمثلة. فقد استقر بقرطبة بعد إنهاء

دراسته حيث ألف العشرات من كتب القراءات وعلوم القران (43). لكن التواصل في هذا المجال بالذات كما في غيره لم يكن من جانب واحد، فقبل القيرواني مكي بن طالب بوقت طويل ورد من الأندلس ابن خيرون الذي أدخل إلى إفريقية قراءة نافع ، ووصف بأنه إمام في القراءات

(44). ويلتقي بالقيروان مثقفون من مختلف أقطار المغرب فيقصدهم الأندلسيون أو طلاب أفريقية. وهكذا يبرز بالقيروان حماد بن يحيى السجلماسي في القرن الثاني ، وقد نعب إليه إدخال فقه إبن الباحثون إلى إفريقية، وهو من أساتذة سحنون ، كما أن الأندلسي محمد بن صالح

(3079/1)

القحطاني يدرس على بكر بن حماد التاهرتي من المغرب الأوسط ، بينما يسمع الوليد

(40) ن .م ، ص . 348 .

(41) الحميدي ، جذوة المقتبس ، صص 152-164

(42) ياقوت ، معجم الأدباء، صص 19-169.

(43) نفح الطيب ، ج 2 ، ص 217.

بن بكر السرقسطي بطرابلس الغرب دروس عالمها ابن زكرون الهاشمي (45). وكذلك يدرس هشام بن سعيد الخير بالقيروان على مجموعة من شيوخها اثنان منهج من المغرب الأقصى وهما أبو عمران الفالس وإبراهيم بن قاسم المكناسي ، وهذا قبل أن ينتقل إلى المشرق

لمتابعة مسيرته العلمية (46).

5 – الأندلسيون بالمشرق

(3080/1)

كثيرا ما اعتبر الأندلسيون إفريقية من المشرق كما يتضح ذلك في عدد من تراجمهم. لكن المشرق الجغرافي يبدأ من شرق أقس قطر مغاربي وهو ليبيا. وبوجه عام يضم المشرق تاريخيا، مجموع الأقطار المسلمة بآسيا فضلا عن مصر.

وقد تكاثرت الرحلة إلى الشرق خلال القرن الثالث ، وبلغت أوجها بعده ، وغالبا ما تقترن بأداء فريضة الحج .
ومقصدها أحيانا هو مصر فقط، وقد تكون إلى العراق فضلا عن الحجاز. وأقلها إلى الشام وإيران في هذه المرحلة،
وهناك من تجاوز هذا الخط العربي إلى فارس وخرا سان وما وراء النهر. ويأتي الحديث في

(3081/1)

المقدمة كموضع اهتمام رئيس للدارسين ، لكن غالبا ما يلازمه الفقه . فالقيروان على أهميتها كمركز ثقافي لم تكن في مجالات الدراسات الحديثة في مستوى الحجاز والعراق . ومن الطبيعي ، أن يتأثر عدد من الطلاب بالتوجهات المذهبية لبعض المؤثرين من أساتذتهم كابن نجيح في القرن الثاني، وقد تأثر بكل من المذهب الحنفي وسفيان بن عيينة ، وكبقي بن مخلد وابن حيون بالنسبة للمذهب الحنبلي ، وقاسم بن محمد بن سيار بالنسبة للمذهب الشافعي ، وهؤلاء من القرن الثالث (47).

(3082/1)

إن سلسلة الراحلين إلى المشرق للدراسات الحديثة والفقهية اكثر من أن تحصر ولذلك نكتفي بالأمثلة إلمذكورة(48) وهناك من رحلوا لدراسة القراءات بصفة خاصة

(45) الحميدي ، جذوة، ص 339. عياض ، مدارك ، ج4، ص 97 .المقري ، نفح ، ج 2 ، ص 242 .

(46) جذوة، ص 239 .

(47) نفح ، ج 2 ، صص 253–256–258–267.

(48) انظر أيضا : جذوة ، ، صص 63–87–113–117–

120–132–147–163–167–196–237–339،

بشكوال ، الصلة، صص 27–310–476–630 ،.

دون إهمال علوم أخرى كابن حدير الذي درس بمصر ومكة ففا!علا عن القيروان ، وابن خيرون الذي تنقل بين مصر

(3083/1)

والعراق والقيروان ، ومحمد بن أحمد القرطبى الذي تنقل بين الحجاز واليمن ومصر ومراكز الشام حتى بلغ شيوخه مائتين وثلاثين (49).

واجتذبت الدراسات الأدبية واللغوية عددا غير قليل من الطلاب ، ففي هذا المجال أيضا كان المشرق يزخر بالحلقات الدراسية والخزائن الخاصة، وفطاحل اللغويين والأدباء الذين تأثر عدد منهم بالدراسات الفلسفية وكانت لهم ثقافة موسوعية كالجاحظ وأبي حيان التوحيدي. وبعض طلاب الحديث مزجوا معارفهم الدينية بتكوين لغوي جيد يساعدهم على فهم أفضل لنصوص القران والحديث والمصطلحات عموما. وبرز الاهتمام

(3084/1)

بالدراسات الأدبية واللغوية في وقت مبكر. وقد لمع اسم سو"ر بن طارق من موالي عبد الرحمن بن معاوية، حيث استفاد من الأصم س ونظرائه من كبار الشخصيات اللغوية كالرياشي وأبي حاتم ، أما قاسم بن ثابت السرقسطهي فقد درس هو ووالده الحديث واللغة بمصر ومكة وأدخلا إلى الأندلس لأول مرة على ما يرجح ، كتاب "العين " للخليل ، وقد شغل كتاب "العين " طلابا آخرين كمنذر بن سعيد البلوطي الذي أصبح بعد ذلك فقيها كبيرا في أيام الحكم المستنصر.كما عاد عبد السلام بن السمح الموزوري الذي ينتمي إلى موزور القريبة من قرمونة عالما

(3085/1)

لغويا قديرا بعد أن تنقل بين اليمن ومصر ومكة واستقر بالزهراء في أيام المنصور بن أبي عامر(50).

واجتدب الشرق بإغراءاته الثقافية والروحية كثيرا من المثقفين الذين قضوا به فترة طويلة بعد إنهاء مرحلة الطلب ، وربما اثر بعضهم الاستقرار هناك نهائيا.

وهكذا فإن عطية بن سعيد طاف بالأقطار العربية وتأثر بالتصوف وأخذ بالسماع فتحاشاه لذلك المغاربة كما يقول الحميدي ، فقد كانت أقطار المغرب أكثر أصولية من معظم أقطار المشرق التي تتجاذبها النزعات والمذاهب والأديان . وذهبت به الرحلة إلى ماوراء النهر لإحود متنقلا بين

(3086/1)

أقطار المشرق حتى توفي بمكة(51). وعندما أدى الفقيه ابن

(49) الصلة، ص 318. نفح ، ج 2، صص 271–417.

(50) جذوة، ص326 .ياقوت ، معجم البلدان ، مادة موزور نفح ج 2 ، صص 253–255.

(51) جذوة، صص 301–302.

الفخار عمد المالكي القرطبي فريضة الحج استقر مدة بالمدينة المنورة فأفتى بها. وكان فخرا له وهو في بلد بعيدا على منابع السنة. وفي سنة 349هـ التحق الشاب محمد بن يحيى بن مالك الطرطوشى بمصر وقد تملكه حب الأدب ووسائله من نحو ولغة وغيرهما، فتابع دراسته هناك ثم بالعراق ، وأخيرا بفارس التى وجد فيها ضالته وقد ازدانت

(3087/1)

محافلها بحركة ثقافية مشعة، فظل هناك حتى توفي .
وفي نفس والوقت تقريبا التحق محمد بن عبدون الجبلي
القرطبي بمصر أيضا وقد وجه همه إلى دارسة الطب
والرياضيات ، واستطاع أن يحصل على وضع متميز في
مارستان الفسطاط. ولكنه فضل بعد ذلك أن يعود إلى
وطنه ، بينما تمكن شمس الدين محمد الأندلس المتمكن
من علوم العربية والفقه أن يمارس القضاء بحماة خلال
النصف الأول من القرن الرابع ، قبل أن يستقر ببلاد
الروم (تركيا) ينشر المعارف الإسلامية. أما عطية بن
سعيد فقد قادته الرحلة العلمية إلى عدد كبير من
أقطار المشرق كمصر

(3088/1)

والشام والعراق والحجاز، وبلغ مناطق ما وراء الهر،
واستقر أخيرا بمكة حيث أدركته المنية في أوائل
القرن الخامس بعد أن حلق في فضاء التصوف واتخذه
مذهبا وعملا، فعاش على التقشف والإيثار وجمع خزانة
ضخمة تلازمه في تنقلاته . وقام بما يشبه جلته ، وحاصره

ومواطنه إبراهيم بن عبد الله الغافقي (52) الذي جمع بين المذهب المالكي في الفقه والاعتزال في العقيدة، وتولى الحسبة باسم الحاكم العبيدي بدمشق ، لمدة تسع سنوات قبل أن يتوفى بها سنة 404هـ وكان صارما في مهمته هاته . ولا ف حلم إلى أي حد طبق مذهب الفاطميين في مجال

(3089/1)

الحسبة، ولو أن هذه الخطة ترتبط بالشريعة والأعراف المحلية معا.

وحيث إن مقدرة الدارسين الذين أنهوا دراستهم ، تحتاج للتدليل عليها إلى شهادة يدلي بها (الخرج) عند الحاجة : وأن هذا الأمر لم يكن يهم إلا فئة محدودة، فقد كان بعضهم يستصدر إجازة من أستاذ بارز، أو من أكثر من أستاذ، فقد كانت حمى الشهادات لم تجتح بى حد مناطق المغرب المسلم ولو أن لها وجودا على كل حال . وهكذا كانت الإجازة تسلم من الأستاذ إلى الطالب بعد رواية الكتاب أو الكتب التي درسها الأستاذ وقد تكون من تأليفه . ومع هذا فالإجازة قد تسلم حتى

(3090/1)

بدون

(52) الصلة، صص 432–483 .ابن الأبار، تكملة، ص 133. السيوطي ، بنية الوعاة، ص 126. نفح ،ج 2 ص 351.

رواية كما ذكر عن عبد الملك بن حبيب وقد كان أديبا ونحويا قديرا مع مشابهة عامة، فقد تناول إجازة عامة من شيخه إبراهيم المغامي الذي اعترف أن قاصده لم يدرس عليه شيئًا بل حمل نسخا من تأليف الشيخ ، وكانت هذه الإجازة المريبة من أوائل الإجازات التي حصل عليها أندلسي، وكانت وفاة عبد الملك بن حبيب سنة 238. وهي على أي حال لا تنقص من المستوى الثقافي الواسع لدى صاحبها، بل إن الإجازة كانت موضع جدل في بعض الأوساط

(3091/1)

من حيث المبدإ، حتى ألف فيها الوليد بن بكر الغمري من علماء القرن الرابع مصنفا بعنوان : الوجازة في صحة

القول بالإجازة، وقد ظل هذا المصنف يحظى بعناية القراء حتى لقد ذكره الوادي اشي من مقروءاته في القرن الثامن (53). على أن الإجازة أصبحت موضة العصر بشكل خاص منذ القرن الخامس وما تلاه من قرون . وقد كتب ابن فطيس أيضا : "الإجازة والمناولة" في القرن الرابع (54).

(53) الحميدي ، جذوة، ص 339. ابن بشكوال ، الصلة، ص 607. ياقوت ، معجم البلدان ، مادة البيرة الوادي آشى، برناج ، ص 272.

(54) الصلة، ص . 300 .

(3092/1)

بيبلوغرافيا

1 – ابن الأبار القضاعى محمد بن عبد الله ، 658 / 1260 م:

– "التكملة لكتاب الصلة"، القاهرة، 1375 / 1956 م

– "الحلة السيراء"، جزآن ، تحقيق د. حسين مؤنس ، القاهرة، 1963

2 – ابن الأثير على بن محمد الجزري ، 630/1232 م:

–"الكامل في التاريخ" تحقيق عبد الوهاب النجار، القاهرة،1648.

3 – ابن بشكوال خلف بن عبد الملك 578/1183 م

– "كتاب الصلة"، القاهرة، ،1374/1955 م

4 – ابن حيان ، حيان بن خلف القرطبي 469/1076م :

(3093/1)

– "المقتبس في تاريخ الأندلس ، جزء 5، تحقيق شالميطا، العهد الإسباني العربي بمدريد وكلية الآداب بالرباط 1979م

5 – ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله ، 776/1076م:

– "الاحاطة، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة، 1393/1973م

– "أعمال الأعلام "، جء ، تحقيق ليفي بروفنصال ، بيروت ، ،درا. ،

6– ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد، 808/1405م:

– "المقدمة"، المطبعة البهية، (د. ت) القاهرة..

– "تاريخ ابن خلدون " "كعاب العبر.."، بيروت ،

1959م

7– الحميدي محمد بن فتوح ، 488/1095 م :

(3094/1)

– "جذوة المقتبس " تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة، 911/1505 م.

8– السيوطي جلال الدين عبد الرحمان ، 911/1505م :

– "بغية الوعاة"، القاهرة، 1326/1908 م

– "طبقات المفسرين "، نسخة مصورة بطهران ، 5،را، عن طبعة ليدن ، لسنة 1839 م.

– عياض بن موسى اليحصبي السبتى، 54/ 1149 م :

– "ترتيب المدارك "، ، أجزاء، الرباط، 1964–1984 م.

10– المقري التلمساني أحمد بن محمد، 1041 / 1631 م :

–"نفح الطيب "، عشرة أجزاء، تحقيق محمد محمس الدين عبد الحميد، القاهرة، 1339/1949م

(3095/1)

– "أزهار الرياض في أخبار عياض "، أجزاء، تحقيق لجنة من الباحثين ، الرباط 1398–1399 / 1978–1979 م

11– النباهي المالقي علي بن عبد الله (ت . أواخر القرن 8/ 14م) :

–"المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، بيروت ، 1400/ 1980 م.

12 – الوادي آشي محمد بن جابر، 749/1338 م .

– "برناج الوادي اشي "، تحقيق محمد محفوظ، بيروت 1982م

13– الونشريسي أحمد بن يحيى، ،914/1508 م :

– "المعيار"، الجزء الثاني، الرباط 1401/1981م

14 – ياقوت الحموي شهاب الدين بن عبد الله ، 626/1228 م :

(3096/1)

– "معجم الأدباء (20 جزءا)، القاهرة، 1376 / 1957 م.

– "معجم البلدان "، بيروت ، 1376/1957 م.

17 – **المقري التلمساني أحمد بن محمد،** 1631/511401 **م:**

–"نفح الطيب "، عشرة أجزاء، تحقيق محمد محمس الدين عبد الحميد، القاهرة، 1949/1369 **م.**

– "أزهار الرياض في أخبار عياض ، أربعة أجزاء، تحقيق لجنة من الباحثين ، الرباط، 1398–1399 / 1978–1979.

18– **مؤلف مجهول القرن** 8 /19 **:**

–الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية"، تحقيق محمد بن أبي شنب ، الجزائر، 1339 / 1920 **م.**

– مؤلف مجهول (القرن 8/ 14 **م) :**

(3097/1)

– "الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية"، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الدار البيضاء، 1979**م.**

20 – **النباهي على بن عبد الله المالقي (أواخر القرن** 8/ 14 **م) :**

–"المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا،، بيروت

، 1400/1980م.

21 – **ياقوت الحموي شهاب الدين بن عبد الله** ، 626 / 1228 م :

–معجم الأدباء، 45 **جزءا، القاهرة**، 1937–1938م.

– **"معجم البلدان "، بيروت** ،1376 / 1957 م.

22– Cortavia (a) beita o.p :

(3098/1)

Les études mozarabes en espagne, mélanges), institus dominicain d'etudes orientales du 14(.1980Caire, libraire du liban

23– Bouthoul (g rt (mosca (g) :

.1965histoire des doctrines, paris

24– Henri) présés) :

les poésie andalouse en arabe classique au 1953onzième siècle, paris

U.N.E.S.C.O :

– 1969histoire de l'humanité , Paris

(3099/1)

الثقافة وتبليغها بالأندلس في مرحلة الاستقرار

(القرون 7 إلى 9 / 13 إلى 15م)

الدكتور إبراهيم حركات

... ... كلية الآداب – الرباط

إن تقلص الرقعة الجغرافية للدولة الأندلسية لم يوقف الزحف الثقافي لمجتمع الأندلس، بل حفز هذا المجتمع على المحافظة على نشاطه النادر في شتى المجالات، وذلك على الرغم من الظروف السياسية غير المواتية، والتي لم تساعد على استقرار المجتمع ولا النظام القائم الذي طالما زعزعت الخيانات أركانه ومزقت المؤامرات أوصاله. وعاشت الثقافة وسط هذا الخضم القاتم بشمم وإصرار، في

(3100/1)

ظل حكم وطني يغار على كيانه ويساهم أيضا في تبادل المؤامرات مع جيرانه من العدوة الأخرى، بقدر ما يتبادل المثقفون من العدوة المغاربية كلها مع العدوة

الأندلسية، الخبرات الثقافية والفكرية والعلمية على نطاق واسع تجاوز في حجمه وحتى في عمق تأثيره، فيما يخص بعض الجوانب، ما كان عليه الأمر في القرون السابقة. فما الذي استجد في مرحلة الاستقرار هاته؟

1 – اتسعت الصلات الثقافية بين الدارسين المثقفين من أهل الديانات الثلاث خصوصا مع أن هؤلاء الدارسين كانوا يلتقون معا لمتابعة الدراسة في بيوت علماء المسلمين، وفي

(3101/1)

المؤسسة التي أنشأها النصارى بمرسية في القرن 7هـ/13م.

2 – تقلص دور الفكر الفلسفي المستمد من الأصول الإغريقية، واتسع نطاق الفكر الصوفي التجريدي.

3 – تميزت مملكة غرناطة بعطائها المتميز في النحو خاصة، والدراسات اللغوية عامة. وأشع إنتاج نحاة هذا العصر على العالم العربي كله.

4 – استرجع المذهب المالكي كامل عافيته بعد التطور الذي حصل أيام الموحدين، وإن كان تراجع هذا المذهب أقل مما حصل بالعدوة الأخرى في عصر هؤلاء.

(3102/1)

---

5 – ساد الجمود الفني والفكري الإنتاج عموما بسبب الاهتمام بالزخرف اللفظي وانتشار ظاهرة الاسترزاق الثقافي بشكل تجاوز كل ما سبقه. وكان ملوك بني الأحمر يحاولون أن يكتسبوا تعاطف المثقفين عن طريق تشجيع الموالين للبلاط والإنعام على المثقفين الوافدين من أقطار المغرب بالوظائف والجرايات. لكن هذا لا يعني أن الثقافة قد احْتَوَشَتْها مصائد السلطة بشكل مطلق.

السلطة والمثقفون

عمل عدد من الملوك على تقريب المثقفين من كل الحيثيات، وبعضهم كمحمد الثاني (ت. 671) كان يقرب إلى الأطباء والحكماء والمنجمين والكتاب

(3103/1)

والشعراء(1) . وكانت ميزة العصر تعيين عدد من العلماء وكبار الأدباء في المناصب الكبرى(2) .وكان ميل محمد الثالث إلى الشعر والشعراء يستمع إليهم ويجيزهم(3) .على أن معظم الملوك مارسوا السلطة في جو غير مستقر، وكثيرون نصبوا على أشلاء سابقيهم، وفي

خضم المؤامرات والدسائس التي سادت البلاط وتورط فيها الساسة والأدباء وغيرهم من المثقفين. ولم يشهد بلاط الأندلس من هواة التملق وتغيير

---

(1) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص. 50.

(2) المصدر نفسه، ص. 45، 53، 64، 71، 79، إلخ.

(3) المصدر نفسه، ص. 60، الإحاطة، ج 1، ص. 545.

الولاء ما شهده بلاط بني الأحمر. وقد استغرب ابن الخطيب لحال أحد كبار القضاة من معاصريه، وهو ابن مسعدة أحمد بن محمد العامري الذي كان على ثقافته الواسعة يتفنن في طرق التملق للعاهل بشكل ينزل بكرامته وجلال منصبه إلى الدرك الأسفل. وبالرغم من أن ابن الخطيب خص معاصره ابن الحاج النميري الذي كان فقيها محدثا أديبا بجميل الأوصاف وحميد الشمائل، فإنه أشار أيضا إلى تقلبه بين تقلد الوظائف السامية والاعتزال للتعبد والنسك(1) .

---

(1) الإحاطة، ج 1، ص. 164؛ المقري، نفح، ج 9، ص. 315.

وبسبب تقلص مجالات العمل أمام أكثر المثقفين من شتى الميادين، كان عدد منهم في قطاع الوظائف السلطانية والإدارية يعيش على الدرس لإخوانه حتى يقفز الأدنى درجة إلى أعلى. وهذا يؤثر بطبيعة الحال في السلوك الثقافي ويعمل على تحريفه، خصوصا في أوساط الأدباء. وبالمقابل، زكما يحدث في كل عصر، فهناك مثقفون لهم مواقف في التعامل مع السلطة يلتزمونها بشكل أو بآخر. فالمحدث ابن القطان (ت. 628) كان من مناهضي المامون الموحدي الذي أبطل أصولية المذهب التومرتي، بينما ناصر يحيى المعتصم(1)

(1) عبد الهادي الحسيسن، مجلة دار الحديث، الرباط، 1979.

(3106/1)

. وابن صابر القيسي كان من كتاب السلطان أبي سعيد فرج. فلما سمع السلطان أنه يرفع يديه في الصلاة، هدده بقطع يده، فلجأ إلى مصر قائلا: "إن إقليماً تُمَاتُ فيه سنة رسول الله، حتى يتوعد بقطع يد من يقيمها لجدير بأن يرحل منه"(1) . وهكذا مست المحنة المثقفين بطرق

مختلفة، ولأسباب متباينة، منها ما هو شعائري أو شرعي، ومنها دسائس الحساد، ومنها اضطهاد الفكر، وهلمجرّاً. ومست المحنة المواطنين والوافدين على السواء. فالعالم منصور بن علي الزواوي الوافد على الأندلس من المغرب الأوسط سنة 753 كان من

---

(1) نفح، ج 3، ص. 408.

أوائل العلماء الذين عينوا للتدريس بالمدرسة النصرية بغرناطة، والتي أنشأت سنة 750. وزاول مهمته باقتدار سنوات طويلة قبل أن يطرد من الأندلس بسبب امتناعه عن الحكم بتكفير شخص اتهم بالنيل من الذات الإلهية والنبوة، خلال مجلس انعقد لهذا الغرض، وأصبح الزواوي نفسه معرضا للاتهام بمساندة مرتد. وعاد العالم إلى بلاده(1) سنة 765 بعد أن كون أجيالا من طلاب الأندلس وأقرانهم الوافدين.

---

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3، ص. 325.

وتعرض العالم أحمد بن إبراهيم بن الزبير (القرن 7هـ) لدسيسة من المتصوف إبراهيم الفزاري الذي اتهم فيما بعد بالشعوذة، فكبس منزله وصودرت كتبه وهو في حالة فرار. ثم تجددت محنته على يد الغالب بن نصر الذي أكرمه مدة قبل أن يفرض عليه الإقامة المحروسة ويمنعه عن استقبال الزوار لفترة طويلة. ولم تقع محاكمة الفزاري إلا بعد هذه المحنة التي تعرض لها ابن الزبير. وأعدم الفزاري إلا بعد هذه المحنة التي تعرض لها ابن الزبير. وأعدم الفزاري بعد إثبات الشعوذة في حقه(1) .

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 191.

(3109/1)

ولجأ الأديب الشاعر محمد بن خميس التلمساني (ت. 708) من بطش بني زيان إلى الأندلس تحت رعاية الوزير ابن الحكيم. فلما حدثت المؤامرة على السلطان محمد الثالث، قتل هو والوزير المذكور، وعمد القاتلون إلى الفتك بابن خميس لمجرد أنه كان في رعاية ابن الحكيم(1) .

ويشير ابن الخطيب إلى أن هذا الوزير كان يحقد على أحد الكتاب النابهين من الشباب في البلاط، وكاد يتلخص

منه لولا أن المنية عجلت بهذا الكاتب، واسمه عبد

---

(1) المصدر نفسه، ج. 2، صص، 528 – 529، اللمحة البدرية، ص. 67،؛ المقري، أزهار الرياض، ج 2، ص. 302، 304.

الله الشراط، وهو من مالقة(1) . وبعض السلطات الإقليمية كانت تضيق ذرعا ببعض المثقفين من شتى الاتجاهات . ونماذج الإذاية من هذا الجانب تعددت قبل هذه الحقبة، ولكنها تفاقمت خلالها. ويكفي أن يحاط بذي نفوذ لتعامل بطانته بالصورة نفسها. وقد كاد ابن رشيد السبتي (ت. 721) يلقى حتفه يوم قتل صديقه أبو عبد الله الحكيم إحدى الشخصيات البارزة في غرناطة(2) . والذين غادروا غرناطة من المثقفين لانعدام حرية الفكر أو لمضايقات من الحساد أو السلطة كثيرون. وقد كان ابن حيان

---

(1) الإحاطة، ج 3، ص. 441.

(2) المصدر نفسه، ص. 142.

النفزي (ت. 745) – وهو من كبار النحاة والعلماء – يتعرض للتنكيل بأمر السلطان، على إثر معركة قلمية بينه وبين بعض معاصريه. ومن ثم استطاع أن يفلت بجلده إلى المشرق حيث نال شهرة واسعة(1).

وبين المثقفين من استهواهم التنجيم والتنبؤات الفلكية التي يتعلق بعضها بالنظام القائم أو بعاهل يطاح به، وذلك يعرضهم لمحنة قاسية وهكذا اعتقل أحمد الجِبالي الأنصاري على يد السلطان محمد بن أبي الحجاج بعد رجوعه إلى الملك، وكان هذا الأديب الفلكي قد تنبأ بالثورة عليه. فلما اعتقل، ضرب بالسياط حتى كاد

---

(1) المصدر نفسه، ص. 46.

يهلك، ثم نفاه إلى تونس سنة 763. وقبله اشتغل محمد بن أحمد المراكشي بالغيبيات وهو من سكان ألمرية؛ فلما أحس بالشر يتهدده من السلطة، لجأ إلى المغرب فاستقدمه السلطان الأندلسي من تلمسان. فقد كانت تبرم اتفاقات أحيانا بين السلطات المغربية

بتبادل المتهمين إذا لم يحتفظ بهم حماتهم ورقة ضغط تستخدم لاحقا(1) .

وإذا كانت الضائقة المالية والاضطرابات السياسية التي لا تسمح للمسيرة الفكرية والثقافية بالاستمرار السليم، من أسباب هجرة الوطن(2)

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 205؛ ج 3، ص. 187.

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص. 225؛ السيوطي، بغية الوعاة، ص. 114.

(3113/1)

، فإن كثيرين من المهاجرين تلاحقهم المحنة في أرض الغربة لسبب أو لآخر. وكثيرا ما تنعدم حرية الفكر أو مجرد التسامح في المهجر، مع أن الجو الثقافي ترتبط سلامته بمزاج السلطة القائمة، وليس بسياسة عامة للدولة. وفي بعض الأحيان تصدر عن المثقف اللاجئ، وهو في رعاية سلطة المهجر، تصرفات طائشة قد يلقى بسببها مصرعه، كحادث ابن الأبار بتونس الذي كان يبدي الاستخفاف والازدراء بأولياء نعمته. وهذا على الأقل ما تورده الرواية التي تناولت مصرعه وإحراق كتبه(1) . وكذلك ثبتت التهمة على إبراهيم الفزاري

(1) نفح، ج 3، ص. 347.

السابق ذكره، بادعاء النبوة، فأعدم بعد محاكمة أثارت اللغط، حتى إن القاضي الحسن النباهي الذي كان ممن ناهضوه تعرض هو أيضا لنهب أمواله قبل أن يتولى السلطان الفقيه بنفسه محاكمة الفزاري(1) ، وهو واحد من كثيرين بالأندلس نكبوا بشكل علني أو اغتيالا. وكان ابن السراج محمد بن إبراهيم الأنصاري طبيب القصر السلطاني بغرناطة أيام محمد الثاني. فلما بحث في وفاة هذا السلطان بعد إعلانها، تبين أنها من طعام مسموم بعث ولي العهد، فأثبت ذلك الطبيب، فعرض نفسه لسجن طويل الأمد، ثم نفي إلى

(1) النباهي، المرقبة العليا، ص. 128.

المغرب قبل أن يصدر العفو عنه ويعود إلى بلده(1) . ومحنة لسان الدين بن الخطيب تكشف عن مدى الأحقاد

التي كانت كامنة في نفوس عدد من أعداء هذا المثقف البارز، ثم تفجرت بعد أن دال عزه ولجأ إلى المغرب في انتظار مصيره. فهو لم يغادر الأندلس حتى ترك وراءه خصوما ألداء، بعضهم في مناصب سامية كابن الحسن النباهي من كبار القضاة، وابن زمرك الذي عمل في كتابة البلاط المريني ثم لدى البلاط النصري. وكان مما أخذه الأول على ابن الخطيب، حسب بعض المراسلات التي ساقها المقري، عرقلته للأحكام القضائية

(1) الإحاطة، ج 2، ص. 162.

وخذلانه لسلطانه وانشغاله في المغرب باقتناء العقارات وترويج الأموال، وانتقاده لشخصية الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، وزيادة في الضرائب قبل انتقاله إلى المغرب. وساق المقري بعد هذا نص ظهير تولية ابن الحسن قضاء الجماعة من تحرير ابن الخطيب، وهو تزكية عجيبة وتعداد للمهمات التي قام بها الحسن(1) .

والمقري إذ يقرن هذا النص بمراسلات ابن الحسن، فهو يعبر بشكل غير مباشر عن تصرف شخص خان عهده، وآخر تصرف بسلامة نية وحسن رعاية. وإذا لم يكن ابن

الخطيب معصوما من الأخطاء، فإن اتهامه بالطعن

---

(1) نفح، ج 7، ص. 49–62.

(3117/1)

في الجانب النبوي يتناقض مع النصوص الشعرية العديدة التي خص بها ابن الخطيب شخص الرسول وشمائله. ومن ناحية أخرى، فقد كتب ابن الخطيب جملة مذكرات لاذعة في حق خصومه، بمن فيهم القاضي النباهي وابن زمرك ولا مراء في أن ابن الخطيب كان لاذع النقد للأفراد والمجتمعات والأماكن. وعندما تغيرت عليه الأيام، أمعن خصومه في اتهامه بالإلحاد والزندقة والقول بالاتحاد والحلول. وهي تضم رفضها المقري في عرضه عن حياة ابن الخطيب؛ كما أن السلطان عبد العزيز المريني عندما وقف على التقارير التي وجهت إليه من الأندلس ليحكم بموجبها

(3118/1)

بإعدام التهم، جابه المبعوثين بقوله: هلا فعلتم أنتم ذلك وهو بينكم؟ فلما توفي هذا السلطان، أحكمت

المؤامرة على ابن الخطيب، وانحشر فيها وزير مغربي حاقد، فكان ما كان من اغتياله سنة 777 حسب كاتب "ذكر مشاهير أعيان فاس..."، أو في سنة 776 عند غيره. وأحرقت جثته وشوهت على يد الوفد الأندلسي(1)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 46، 83، 98؛ ج 8، ص. 186، 254، 277، ج 9، ص. 306؛ ابن خلدون، ج 7، ص. 709؛ مؤلف مجهول، "ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم"، نشر في مجلة البحث العلمي على يد الأستاذ عبد القادر زمامة، حلقة 2، عدد 4–5، 1965، الرباط، ص. 99؛ حركات، المغرب عبر التاريخ، ج 2، ص. 54.

(3119/1)

. وكانت هذه الحادثة دليلا على اختلال الذي صار إليه جهاز الحكم المريني.

وتشاء الأقدار أن يلقى ابن زمرك (محمد بن يوسف الصريحي) مصيرا مشابها لمصير ابن الخطيب. وهو عالم وأديب كبير عمل في البلاط الغرناطي وتولى كتابة السر ومهام السفارة لدى الغني بالله. ثم نسب إلى الاستعلاء والغلظة والاستخفاف بحجاب البلاط وشراسة اللسان والتضريب بين المسؤولين، فاعتقل بقصبة

ألمرية ثم سرح وأعيد إلى منصبه أيام العاهل محمد السابع، وكلف بعد ذلك بأشغال الجباية فاشتد على الناس، وأدى ذلك إلى قتله على يد العاهل. وهو (أي ابن

زمرك) في بيته وأرته التي قتل من حضر منهم أيضا(1) ، وذلك سنة 795هـ وهذه الرواية في مقتل ابن زمرك وما نسب إليه من مآخذ وتهم، ساقها أحد أمراء بني الأحمر، ونقلها عنه المقري. وهذا الأمير السلطان هو أبو الحجاج الناصر يوسف الثالث (810–820/1407–1417).

وتأليفه الذي نقل المقري هو: "البقية والمدرك من كلام ابن زمرك"(2) . وواضح أن رواية ابن الأحمر تحتاج إلى مقابلة مع ما يمكن العثور عليه من الروايات الأخرى.

---

(1) المقري، نفح، ج 7، ص. 107؛ ج 10، صص. 22–30؛ أزهار الرياض، ج. 11، ص. 20.

(2) أزهار الرياض، ج 2، ص. 11.

وكما كان الأمر دائما في العصور الإسلامية بمختلف الجهات، فقد شارك كثير من العلماء والأدباء في الجهاد والمقاومة، واستشهد المئات منهم أو فقدوا في ساحات المعارك ولربما أسفرت معركة طريف سنة 741هـ عن أكبر عدد من الشهداء بين صفوف النخبة المثقفة خلال تاريخ الأندلس المسلمة كله. ومن بينهم الفقيه ابن جزي الكلبي محمد بن أحمد، والفقيه الزاهد محمد الغساني في مالقة، والأديب عبد الله بن سعيد السَّلْماني والد لسان الدين بن الخطيب، والعالم الحيسوبي محمد بن يحيى الأشعري المالقي(1)

---

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3، ص. 23، 65، 391؛ السيوطي، بغية الوعاة، ص. 114.

(3122/1)

.

الدراسة وطرق التدريس

بدأت طرق التدريس تتجه إلى نوع من الاستقرار والجمود في مجال العلوم الشرعية وغيرها فيما عدا الاجتهادات الخاصة التي تميز بعض الأساتذة عن أغلب أقرانهم. ونحن بفضل "مقدمة" ابن خلدون وتعاليق

الأزرق عليها، نتعرف جملة من طرق التربية والتدريس التي عاصرها وقارن بين ما يعرفه منها بالشمال الإفريقي وما يعرفه بالأندلس وحتى المشرق.

وقد اتخذ الكتاب مزيدا من الأهمية سواء على شكل مطولات أو مختصرات أو متون مشروحة، أي أن التوسع في هذا الباب ازداد عما عرف في المرحلة السابقة. ومع هذا، فقد ظل

(3123/1)

الولع باقتناء الكتب والتنافس في إنشاء الخزانات الخاصة والموقوفة قائما، ومما لا يحتاج إلى إيضاح أن أقطار المغرب عموما والمغرب الأقصى خصوصا عرفت تدفقا للكتب المنقولة من الأندلس بشكل لم يسبق له مثيل، وذلك بعد اشتداد الضغط على المدن الأندلسية وهجرة الأسر منها. وكان بين هذه الكتب ما وقع بأيدي النصارى ويتجاوز بكثير ما أمكن نقله سليما إلى خارج الأندلس. وقد استرجع يعقوب المريني فيما بين 684 و685هـ ثلاثة عشر حملا من الكتب وفقا لشروط الصلح مع القشتاليين، وهي لا تمثل إلا أقل القليل مما كان بيد النصارى وحتى

اليهود مما لم يحرق. ونفذت سياسة إحراق الكتب بقسوة في المراحل الأخيرة من الحكم الإسلامي بغرناطة على يد النصارى. أما يعقوب المريني، فنقل الأحمال المذكور إلى مدرسة الحلفائيين (الصفارين) بفاس، والتي تواجه مكتبة القرويين، وكان فيها مصاحف، و"تفسير" ابن عطية، والثعالبي، ومؤلفات الحديث والفقه والعربية والأدب وغيرها(1) . أما الخزانة السلطانية بغرناطة، فكان مقرها بقصر الحمراء، ويتولى نظارتها مثقفون مرموقون. ونافس بعض كبار المسؤولين ملوك بني نصر في اقتناء الكتب والتنقيب عن نوادرها

(1) روض القرطاس، ص. 363.

حتى قيل إن ذا الوزارتين محمد بن عبد الرحمن اللخمي الرندي (ت. 708) قد أفرط في ذلك وضاقت قصوره عن استيعابها. ووصف الفقيه الأديب ابن جُزَيّ محمد بن أحمد

بأنه كان ملوكي الخزانة. وكان بين أصحاب الخزائن من يحبس كتبه. ومما وقفه السلطان الغالب بالله على المدرسة اليوسفية بغرناطة، نسخة من كتاب "الإحاطة" في اثني عشر مجلدا(1) سنة 829هـ

---

(1) الإحاطة، ج 2، ص. 446؛ ج 3، ص. 20، 25؛ بغية الوعاة، ص. 101؛ المقري، أزهار، ج 1، ص. 55.

(3126/1)

والتعليم في مرحلته الأولى يبدأ من الكُتَّاب كما هو الأمر في سائر عصور الإسلام حتى استحدث نظام رياض الأطفال. وكثير من معلمي الكتاتيب يجسمون القدوة الصالحة ويشتهرون بالقناعة والزهد مع العبادة. ولذلك يتبرك بهم. وبالنظر لعدم وجود نظام للمشارطة في المدن، فإن كثيرا من المعلمين يرتزقون من عمل إضافي يشتغلون به خارج إدارة الكتاب القرآني. وقد وصف ابن الخطيب معلمه محمد بن عبد الولي الرعيني بإتقان القراءات وتجويد القرآن وعدله في المعاملة بين أبناء الموسرين والمعسرين. وقال إنه يقرأ على أسرته كتب الوعظ

(3127/1)

والرقائق كل جمعة، فيصغي إليه الجيران أيضا(1) .

ويتبين من كلام ابن خلدون في "المقدمة" أن التعليم في الكتاتيب لم يقتصر على حفظ القرآن ورواياته، بل كان يشمل تعليم الخط وحفظ الشعر ونماذج الترسل بالإضافة إلى دراسة قواعد العربية. ولذلك يرى ابن خلدون أن ملكة اللغة كانت تحصل لأهل الأندلس بسبب هذا التكوين المبكر. ومن ثم فهم – حسب رأيه –، مقصورون في سائر العلوم (لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث، التي هي أصل العلوم وأساسها)(2) .

---

(1) الإحاطة، ج 3، ص. 33، 231.

(2) ابن خلدون، مقدمة، ص. 377، 495، 496.

(3128/1)

ولما كان الخط الجميل الخالي من التصحيف يحتل مقاما كبيرا في المعاملات وفي دواليب الدولة والنشاط الثقافي، فقد أولاه الأندلسيون عناية خاصة، لأنه ظل حتى اختراع المطبعة صناعة حقيقية. ويظهر أن الخط الأندلسي انتشر منذ بداية القرن السادس انتشارا كبيرا في أقطار المغرب عن طريق الوافدين من

الأندلس، أدباء وفقهاء ومؤدبين وغيرهم، إلى درجة أنه اكتسح مؤسسات التعليم بإفريقية ولم يبق لخطها الخاص وجود إلا بمنطقة "الجريد" حيث الاحتكاك بأهل الأندلس قليل. ومثل ذلك حصل بالمغرب خلال عصر الموحدين وبني مرين قبل أن

تتراجع خطوط الشمال الإفريقي فتبدو الرداءة بعد ذلك في ما كتب من مصنفات لاحقة يكثر فيها التصحيف وينحرف الخط عن الجودة إلى درجة أن الفتاوي في عصر ابن خلدون تأثر مضمونها بهذا التحريف(1) .

ومع هذا، فابن خلدون يذهب بعيدا في التشاؤم وحتى إنكار المجهود العلمي قبله بالأندلس (لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين). وحتى الفقه أصبح أثرا بعد عين، وأكثر من ذلك العلوم العقلية. وسنرى فيما بعد ما الذي يمكن الأخذ به من أحكام ابن خلدون سواء في عصره أو في سائر مرحلة

---

(1) المصدر نفسه، ص. 367، 369.

الاستقرار(1) (من القرن 7 إلى القرن 9).

والفكر التربوي لهذا العصر يجسمه في الغالب ما يلقيه بعض الأساتذة من توجيهات دقيقة، وما أنجزه بعض الفقهاء المفكرين، لاسيما ابن الأزرق في كتابه "بدائع السلك" الذي هو مجموع تعاليق، معدة بشكل منهجي، على أفكار ابن خلدون الاجتماعية والسياسية في "مقدمته". وكثير من الأساتذة كانوا قدوة مثلى لتلاميذهم في العمل والمثابرة والوفاء للمبادئ. وكان محمد بن يحيى الأشعري من علماء القرن

---

(1) المصدر نفسه، ص. 377؛ وقابله بابن الأزرق، بدائع السلك، ج 2، ص. 329، 330، 364، 365.

الثامن حريصا على متابعة طلابه تربويا، وكانوا يحذون حذوه لباسا واعتدالا وجدا، ويخاطبهم بمثل ما كان يقوله الجنيد: "يا معشر الشباب! جدوا قبل أن تبلغوا مبلغي، فتضعفوا وتقصروا كما قصرت"(1)

وخص ابن الخطيب أبناءه الثلاثة، وهم راشدون، بوصية تضمنت:

1 – التذكير بمصير الإنسان وعبر الموت؛

2 – احترام وتنفيذ تعاليم الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومحبة صحابته؛

3 – التمسك بكتاب الله وشعائره الأساسية من صلاة وزكاة وصيام وحج؛

4 – الحرص على اكتساب العلوم، ولا سيما الشرعية؛

---

(1) النباهي، المرقبة العليا، ص. 142، 145.

(3132/1)

---

5 – التمسك بالأخلاق الحميدة واجتناب الرذائل كالخمر والربا؛

6 – النهي عن مصاحبة الخائضين في أمور الدنيا والبحث عن المناصب(1) .

وفيما يخص التدريس في المساجد، ليس هناك تطور كبير يذكر. فالطالب يتلقى المادة العلمية من أستاذه، والمدرس يعتمد على الكتاب نفسه الذي يدرسه طالبا، مستعينا بأمهات الكتب لمزيد من الاستيعاب والتوضيح، ولربما للتعقيد أيضا، عندما تتعدد الصور والتفريعات والأقوال دون نتيجة أو قاعدة حاسمة.

ويعتمد منهج التدريس على ذكاء المدرس واستفادته

من طرق زملائه

---

(1) المقري، نفح، ج 10، صص. 247–261.

وأساتذته الذين تلقى عنهم. وقد يبسط بعضهم أسلوبه؛ وإذا خاطب مستمعين شعبيين، زاده تبسيطا(1) .

وفي الأساتذة من لهم القدرة على تدريس عدة فنون، كابن الفخار أبي بكر محمد بن عبد الرحمن الجذامي الذي قام بتدريس الأدب والفقه والعربية والحديث والقراءات؛ وكابن علاق الغرناطي الذي تولى تدريس هذه الفنون مع "تلخيص" ابن البنا في الحساب و"تفسير" الزمخشري. وصور المشاركة قد تتسع أو تضيق، ولكن نماذجها كثيرة(2)

---

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3، ص. 69.

(2) المصدر نفسه، ص. 20، 92؛ محمد المجاري، برنامج المجاري، ص. 122؛ السيوطي، بغية، ص. 234، 344، 350.

. فقد كانت ملازمة الطلاب لبعض الشيوخ قد تستغرق سنين طويلة بل عقودا، كملازمة المجاري لمحمد القِجاطي مدة ثلاثين سنة. وكان هذا العالم مشاركا على غرار الشاطبي صاحب "الموافقات"(1) . على أن هناك من كرس نفسه لعلم بعينه حتى ولو ألم بغيره، مثل محمد بليش العبدري الغرناطي الذي عكف على البحث في العربية مع مشاركة في الطب، وكان يعيش من تجارة الكتب. كما أن بين الدارسين من يقرأ الكتاب نفسه مكررا على عدة شيوخ، أو يدرس بعضه عند هذا وبعضه عند آخرين. وهذا يعني أن الدراسة على

(1) المجاري، مصدر مذكور، ص. 104، 116.

بعض الشيوخ لا تتجاوز نصا أو بضعة نصوص من كتاب(1).

ويظهر أن ما يعرف بالدروس الخصوصية لم يعد شائعا على ما كان عليه في القرون الماضية. وقد يكون لمؤسسة الوقف وضبطها دور كبير في ذلك، حتى مع تقلص الأموال الموقوفة. ثم إن وجود سبتة وفاس بما

تضمانه من مدارس وزوايا وأوقاف عديدة ساعد على استيعاب أعداد كبيرة من طلاب الأندلس وحتى من أساتذتها. ومن الذين عرفوا بتقاضي الأجر على الدروس الخصوصية، العالم النحوي ابن أبي الربيع الأموي الإشبيلي(2)

---

(1) الوادي آشي، برنامج، ص. 202، 211، 213؛ بغية، ص. 100.

(2) بغية، ص. 319.

.

والأساتذة تنعكس طبائعهم الخاصة وحالتهم النفسية على سلوكهم الخارجي في حقل التربية والتدريس. ومن ذلك أن الأعلم إبراهيم بن قاسم البطليوسي النحوي عرف بالانفعال والغضب، حتى إنه كان يمنع طلبته من التبسم بحضوره وقد يعاقبهم على ذلك بالضرب (!). ولا شك في أن مثل هذه الحالة كانت نادرة، بينما كان المحدث أبو جعفر بن الزبير حلو الفكاهة طيب المجالسة من غير إخلال بالوقار(1) . وهناك كثيرون فتحوا بيتهم للطلاب والسائلين، مثل ابن العربي محمد بن علي

الغساني (ت. 748) الذي كان

---

(1) الإحاطة، ج 1، ص. 189؛ بغية، ص. 185.

(3137/1)

مسكنه بالحمة من إقليم ألمرية مقصدا للطلاب الوافدين من الحصون والقرى الشرقية، ففتح لهذه المناطق المنعزلة بابا واسعا لاكتساب المعرفة بموازاة طلاب المدن المحظوظين. وكان محمد بن عبد الله النميري الوادي آشي معاصره يستقبل العلماء في بيته باستمرار، مع تواضعه ودعابته. وهو مفت ومدرس(1) .واشتهر غير هؤلاء بالحرص على خدمة الآخرين ممن يحتاجون إلى المعونة، كالفقيه الموثق ابن قطبة محمد الدوسي الذي كان يساعد المتعلمين ويفك الأسرى، والفقيه المقرئ إبراهيم التنوخي الذي كان يواسي

---

(1) الإحاطة، ج 3، ص.96؛ بغية، ص. 58.

(3138/1)

قاصديه بقوته ويحظى بشعبية واسعة، ومثله الفقيه المشاور ابن سلمون الكناني. وقد كانت الوضعية الاجتماعية والسياسية المضطربة تتطلب هذا التضامن النموذجي(1)

أما المواد التعليمية، فقد ظلت المحافظة تستأثر بالاهتمام أكثر من الفهم والاستنتاج والتصرف. ومن خصوصيات العصر، وفيها ما يشترك مع بعض خصوصيات العصر السابق:

1 – تقلص دور المناظرة في حلقات الدرس؛

2 – الزيادة في حفظ النصوص منظومة ومنثورة؛

3 – اتساع عملية اختصار الكتب والرجوع إلى المختصرات؛

---

(1) الإحاطة، ج 1، ص. 374؛ ج 3، ص. 159، 401، 472.

---

4 – بلوغ حمى الشهادات منتهاها.

فأما المناظرة، فقد سبق تناولها في عرض الدراسة والمدرسين خلال مرحلة النضج والإخصاب. وأما الكتب الدراسية، فمنها ما يحفظ وما يشرح أو يجمع بينها. والقرآن الكريم على رأس المحفوظات ثم الحديث النبوي.

واسترجعت "رسالة القيرواني مكانة الأفضلية في الفقه. وكان الحديث يحفظ في الغالب من كتب "الصحاح" و"الشفا" لعياض. وفي الأصول برز على الخصوص "تقريب الوصول إلى علم الأصول" لعبد الله بن جزي. وفي مواد اللغة "كتاب" سيبيه و"فصيح" ثعلب و"التسهيل" لابن مالك و"الإيضاح" لأبي علي الفارسي.

(3140/1)

وفي الحساب "التلخيص" لابن البناء. وفي الفرائض "رجز" التلمساني و"الحوفية" (نسبة إلى الحوفي أبي القاسم أحمد بن محمد، ت. 588). وإذا كان في هذه المصنفات ما هو رجز، فإن وضع الأراجيز عم مختلف الفنون وحتى بعض الكتب مثل "فصيح ثعلب" الذي نظمه رجزا محمد البلياني الأسلمي(1) (ت. 764). وهناك مؤلفات كثيرة غير هذه المشار إليها وهي مجرد نماذج.

---

(1) المصدر نفسه، ج 2، ص. 365؛ ج 3، ص. 198، 392. وراجع برنامج المجاري وبرنامج الوادي آشي.

(3141/1)

وفيما يرجع إلى المختصرات، فهي تعني إما اختصار مادة معرفية أو جزء منها، وإما اختصار كتاب بعينه. ومن الصنف الأول: "القوانين الفقهية في المذهب المالكي"، وهو شبيه في تركيزه بـ"الأجرومية" في النحو، وكذا "المختصر البارع في قراءة نافع"، وكلاهما لمحمد بن جزي ((ت. 741). ومن الصنف الثاني مختصر وضعه ابن النشا إبراهيم الوادي أشي لشرح "الشهاب" لابن وحشي، وقد وضع أيضا مختصرا ل"العقد الفريد". ولابن ليون التجيبي عدة مختصرات، منها اختصار "بهجة المجالس" لابن عبد البر. وكان مولعا لاختصار الكتب حتى قال عنه بعض

(3142/1)

المغاربة: لو رأى رجلا طُوَالاً، لاختصره. وكذلك كان من المولعين في هذا الباب ابن فضيلة المري(1) .

وتراجع التحفظ في الإجازة أخذا وعطاء بشكل ملحوظ وأكثر المستجيزين حرصا من كانوا يبحثون عن الإجازة من علماء المغرب والمشرق معا، وإن لم يكن كل الشيوخ يجيزون طلبهم. وقد تعتبر إجازات بعضهم ذات أهمية خاصة مثل إجازة أبي جعفر بن الزبير لابن سهل في القراءات السبع. وكان ابن الزبير من كبار شيوخ القراء

في القرن

---

(1) الإحاطة، ج 2، ص. 342؛ بغية، ص. 182؛ الداودي، طبقات، ج 2، ص. 86؛ المقري، نفح، ج 8، ص. 58، 373.

(3143/1)

السابع(1) . ومن الإجازات العامة التي تتضمن مرويات الأستاذ ومؤلفاته بما فيها ما كان إبداعا، إجازات للمجاري من محمد بن مرزوق التلمساني، والمحدث زين الدين العراقي بمصر، وابن جماعة عز الدين الكناني، والمحدث اللغوي أبي إسحق الشاطبي الأندلسي(2) ، إلخ. وقد يتضمن نص الإجازة معلومات عن إنتاج المجيز وذكر بعض شيوخه وما درس عليهم، مثل إجازة محمد الإستجي الحميري لأبي الوليد إسماعيل

---

(1) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج 4، ص. 1484؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 2، ص. 242، 451.

(2) المجاري، برنامج، ص. 81، 116، 135، 149، 152.

(3144/1)

الأيادي سنة 641، وهي غزيرة المعلومات أنيقة الأسلوب(1) . وفي السنة المذكورة أو بعدها بقليل توفي طلحة اليابري الإشبيلي. وقد انتصب لتدريس القراءات والعربية في حياة معظم أساتذته، واستجير وهو في العشرين من عمره(2) .

التواصل الثقافي

على الرغم من العلاقات السياسية المتردية بين الأندلس المسلمة وجاراتها المسيحية، فإن التواصل الثقافي بين العناصر المتساكنة لم يتوقف،

---

(1) الإحاطة، ج 2، صص. 319–329. وانظر نصوص بعض الإجازات القصيرة في برنامج المجاري، ص. 81؛ وابن الشاط، الإشراف، ص. 117.

(2) السيوطي، بغية، ص. 273.

بل تزايد شكلا وحجما لدى الطوائف الثلاث. وهكذا، فإن الأرغونيين، بعد استيلائهم على مرسية سنة 641/ 1243م، أنشأوا معهدا بها لاستقبال الطلبة من الديانات الثلاث، وأسندوا إدارته إلى عالم أندلسي كبير هو أبو بكر محمد الرقوطي (من Ricate القريبة من

مرسية) والذي جمع بين الطب والهندسة والفلسفة ومعرفة اللغات، وحظي بتقدير كبير من السلطان والطلاب(1) .

وبطليطلة أنشأ الأسقف ريموند (ت. 1251م) مؤسسة لترجمة المؤلفات العربية إلى اللاتينية ليتاح للمسيحيين، طلابا ومدرسين،

---

(1) الإحاطة، ج 3، ص. 68؛ نفح، ج 5، ص. 266.

(3146/1)

الإطلاع عليها(1) .

وفي الربع الأخير من القرن 5هـ/ 11م، أنشأ إسحق بن يعقوب الكوهن – وهو يهودي مغربي من نواحي فاس – معهدا للدراسات التلمودية باليوسانة من إقليم قرطبة. وهو أحد كبار فقهاء اليهود، وضع مدونة ضخمة في فقه التلمود، من عشرين مجلدا، وترك مجموعة كبيرة من الفتاوي بالعربية(2) .

---

(1) د. رفعت ي. عبيد، "فضل العرب على أوربا"، مجلة الأصالة"، أكتوبر – نوفمبر، 1978، الجزائر.

(2) محمد إبراهيم الكتاني، "الكتاب المغربي وقيمته"، مجلة البحث العلمي، 4–5، 1965.

(3147/1)

وأنشأت أول مدرسة إسلامية على عهد السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج. وعرفت بالمدرسة النصرية نسبة إلى جد دولة بني نصر (بني الأحمر). وتولى الإشراف على إنشائها حاجبه رضوان من مواليه، وأصله قشتالي من قلصادة قلعة رباح (La Calzada de Calatrava) بين بياسة وطليطلة(1) . وخصصت لهذه المدرسة الغرناطية أوقات تلائم دورها ومتطلباتها. وأتبعت هذه المدرسة بمدارس أخرى. وتوفي العاهل مؤسسها سنة 755هـ، وفتحت أبوابها لطلاب الأديان الثلاثة من الأندلس وخارجها، فكأنها تبنت

---

(1) الإحاطة، ج 1، ص. 507 (تعليق المحقق).

(3148/1)

بغرناطة دور المعهد الأرغوني بمرسية والذي أنشئ قبل قرن واحد. وقد نقشت على جدرانها أبيات من نظم

لسان الدين ابن الخطيب. ومن مدرسيها الأولين ابن الفخار الإلبيري محمد بن علي الخولاني من كبار شيوخ العربية، وأبو عبد الله مرزوق التلمساني الذي تولى بها تدريس "صحيح البخاري". ومما حبسه السلطان محمد الثامن (الأعسر) على خزانة المدرسة النصرية، نسخة من كتاب "الإحاطة" في اثني عشر مجلدا كتب نص التحبيس عليها الوزير الفقيه أبو يحيى بن عاصم سنة 829هـ وكان ابن الخطيب قد وجه في حياته نسخة من "الإحاطة" إلى مصر، حيث

(3149/1)

وقفها على خانقاه الصالحية(1).

وقد أنشأ محمد الأنصاري الساحلي مدرسة غربي الجامع الأعظم بغرناطة مباشرة بعد بناء المدرسة النصرية، كما بنى مجموعة من المساجد. وقد ورث عن والده الجاه والثروة، لكن بناء المدرسة وغيرها كان من أموال وزير مغربي وقفها لهذا الغرض وتولى عنه الساحلي تنفيذ الأعمال(2) .

---

(1) ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص. 109؛ الإحاطة، ج 1، ص. 508؛ المجاري، برنامج، ص. 119؛ السيوطي، بغية، ص.

74؛ **المقري، نفح، ج** 9، **ص.** 186، 308.

(2) **الإحاطة، ج** 3، **ص.** 191.

(3150/1)

وبلغ التواصل الثقافي بعدا عميقا بين المسيحيين والمسلمين، في ما بين القرنين السابع والثامن، وهي الفترة التي نشطت فيها حركة الترجمة من العربية في الأوساط الكَنَسِيَّة، وفتحت خلالها مؤسسة مرسية وأخرى بطليطلة من لدن الأطراف المسيحية. كما أنشأت مجموعة مدارس بغرناطة خلال القرن الثامن. وكانت تنعقد لقاءات بين المثقفين النصارى – وأكثرهم رهبان – ومعاصريهم المسلمين أدباء وفقهاء. ونقل الونشريسي في "المعيار" نص مناظرة جرت بين الأديب الفقيه أبي علي الحسين بن رشيق التغلبي وقسيس من معهد مرسية، وأصلها في كتاب

(3151/1)

ابن رشيق: "الرسائل والوسائل"، حيث أشار هذا العالم إلى حركة الترجمة النشيطة بمرسية، قصد إطلاع

النصارى على المؤلفات الإسلامية ثم الرد عليها.

وتناولت المناظرة بين ابن رشيق والقسيس قضية الإعجاز في القرآن . ومع أن ابن رشيق يعترف بما ناله من حيرة تجاه إطلاع القسيس وجدله، فقد انتهى إلى إفحامه حسب روايته. وقد كان لابن رشيق – الذي استقر مدة بفاس كاتبا بالبلاط المريني، وبسبتة محترفا التوثيق – مهاترات وخصومات مع الأديب البارز مالك بن المرحل. وخلال هذه الفترة بالذات كان اختلاط المتعلمين من أهل الديانات

(3152/1)

الثلاث بمصر أمرا مألوفا، ولو أن ابن الحاج الفاسي ندد به. ولم يكن الفضول العلمي والرغبة في الإطلاع على ما عند الآخرين مقصورا بالأندلس على النصارى. فحتى بين المسلمين كان هناك علماء يتوجهون إلى الممالك المسيحية الإيبيرية ويخالطون رجال الدين بها لمناظرتهم. وابن لب الكناني، معاصر أبي جعفر بن الزبير، كان عالم رياضيات وطبيعيات وإلهيات، وكانت له مناظرات مع رهبان الممالك المسيحية. وقد تصدى للتدريس بمالقة مسقط رأسه. وذكر ابن الخطيب عن أحد

وزراء بني الأحمر، محمد بن عبد الله بن الحاج، أنه كان "أعلم الناس

(3153/1)

بأخبار اليوم وسيرهم وآثارهم"(1) .

وبالرغم من أن المناظرات مع رجال الدين النصارى كانت تنصب غالبا على الشؤون اللاهوتية، فإنها كانت تجري عادة في جو هادئ خصوصا عندما تكون هناك قواسم فكرية مشتركة ويرتفع المستوى الثقافي للجانبين.

أما التواصل مع باقي أقطار المغرب وبلاد المشرق، فمعظم وجوهه يدخل في نطاق الدراسة أو التدريس، ولو أن الأسباب قد تختلف أحيانا أو تجتمع كاللجوء السياسي والرغبة في الاستقرار النفسي

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 472؛ ج 3، ص. 80، 335؛ السيوطي، بغية، ص. 120؛ الونشريسي، معيار، ج 11، ص. 155.

(3154/1)

والبحث عن عمل أو شهرة:

1 – المغاربيون بالأندلس:

معظم المثقفين من هذه الطبقة تميزوا بمستوى عال من التكوين الثقافي ببلادهم، وبعضهم تابع دراسته بالأندلس. كما أن أكثرهم نالوا شهرة واسعة داخل أقطار المغرب وخارجها، ومن بينهم:

1 – محمد بن عياض، حفيد القاضي عياض (ت. 654). وقد درس بسبتة مسقط رأسه وتابع بإشبيلية والجزيرة الخضراء، وأجازه العديد من علماء المشرق مكاتبة، وتولى القضاء بغرناطة(1) .

---

(1) الإحاطة، ج 2، ص. 228.

---

2 – أبو القاسم العزفي عبد الرحمن بن أبي طالب (ت. 717). درس بالأندلس، ومن شيوخه بغرناطة أبو جعفر بن الزبير. وكان العزفي هذا فقيها محدثا. ألف كتاب "الإفادة بذكر المشهورين من المتأخرين، بالإفادة"، وأهداه للوزير الأندلسي أبي عبد الله بن الحكيم. توفي ودفن بفاس (بدرب الطويل)(1) . وهو من أسرة أبي القاسم محمد بن أحمد العزفي مؤسس الإمارة العزفية

بسبتة.

3 – ابن رُشَيْد الفهري السبتي محمد بن عمر (ت. 721هـ)

محدث مفسر أديب مؤرخ، وصاحب أكبر رحلة حجازية إسلامية في ست

---

(1) المقري، أزهار الرياض، ج 2، صص. 356–357.

(3156/1)

مجلدات. دخل الأندلس بعد رحلته إلى المشرق، فتولى – بفضل وساطة صديقه الوزير ابن الحكيم – الخطابة والتدريس بجامع غرناطة، ثم خلف في القضاء بها أبا جعفر بن الزبير. وابن رشيد من كبار المحدثين(1) .

4 – إبراهيم بن عبد الرحمن التازي التسولي (ت. 749)

فقيه جليل كتب للبلاط المريني مدة طويلة وانتدب للسفارة بغرناطة، وهناك ألقى دروسا مدة إقامته وحضرها ابن الخطيب(2) .

---

(1) الإحاطة، ج 3، ص. 135؛ المقري، أزهار، ج 2، صص. 347–356؛ الزركلي، الأعلام، ترجمة ابن رُشيد.

(2) الإحاطة، ج 1، ص. 372؛ المقري، نفح، ج 7، ص. 306.

(3157/1)

5 – أحمد الكرياني من قبيلة كريانة الريفية بالمغرب (ت. 749). درس الفلسفة والكيمياء والطب والأدب. وقام بدراسة بعض الأعشاب الطبية بضواحي غرناطة. وكانت وفاته بتونس(1).

6 – محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي التميمي من فاس (توفي في حياة ابن الخطيب). وهو فقيه متكلم أديب تولى تدريس الفقه بالجزيرة ومالقة منذ 721هـ وكان هو نفسه قد درس بالأندلس وفاس وسبتة. ووَسَمَهُ ابن الخطيب بالتملق للسلطة والتطارح على المال(2) .

---

(1) الإحاطة، ج 1، صص.272–277.

(2) المصدر نفسه، ج3، ص. 130.

---

7 – أبو القاسم محمد بن يحيى العزفي (ت. 768) أحد رؤساء سبتة، تولاها في ما بين 719 وأوائل 720هـ ثم انتقل إلى غرناطة وأقام بها مدة قبل أن يلتحق بالبلاط المريني. كان أديبا موشحا ذا علم بالطب(1) .

8 – أبو عبد الله بن أبي عثمان سعيد الصنهاجي الفاسي

(القرن 9هـ). قام بتدريس الرياضيات والفرائض بغرناطة، ونوه به تلميذه المجاري(2) .

9 – محمد بن خميس التلمساني (ت. 708). أديب واسع المعارف في العربية مع مشاركة في العلوم الشرعية والعقلية. تولى تدريس العربية

---

(1) المصدر نفسه، ص. 11–12.

(2) المجاري، برنامج، ص. 128.

(3159/1)

بغرناطة قبل أن يجتذبه التصوف والسياحة. حظي برعاية الوزير ابن الحكيم، وقتل يوم اغتيال هذا الوزير. وكان ابن خميس من كبار الشعراء(1) .

10 – محمد بن محمد القرشي المقري التلمساني (ت. 758). درس بأقطار المغرب وبمكة ودمشق وبيت المقدس. وهو فقيه كبير وذو مشاركة علمية واسعة. عينه أبو عنان على قضاء الجماعة بفاس، ثم بعثه سفيرا إلى غرناطة سنة 756 فأدى مهمته واستقر بمالقة رافضا العودة إلى المغرب، ثم لجأ إلى جامع غرناطة وتشفعت لصالحه شخصيات كبيرة لدى أبي عنان فعاد إلى فاس مكرما،

(1) المقري، نفح، ج 7، ص. 271–280.

(3160/1)

وبها توفي؛ ثم نقل جثمانه إلى تلمسان. وقد درس عليه كثيرون من أهل الأندلس كلسان الدين ابن الخطيب، وابن زمرك وأبي إسحق الشاطبي(1) .

11 – ابن مرزوق محمد بن أحمد العجيسي التلمساني (ت. 781). درس بأفريقية وتلمسان والمشرق، خصوصا الحجاز. وهو فقيه كبير ومشارك حصل على مناصب سامية بالمغرب، وانتقل مدة إلى غرناطة فتولى الخطبة بها والتدريس، وكان من أوائل أساتذة المدرسة النصرية. وعاد بعد ذلك إلى المغرب(2)

(1) الإحاطة، ج 2، صص. 191–226؛ المقري، نفح، ج 7، ص. 134، 151.

(2) الإحاطة، ج 3، صص. 103–130؛ المقري، نفح، ج 7، صص. 309–315، 323–338.

(3161/1)

.

12 – علي بن محمد الغماري التلمساني، عرف بابن الأشهب (ت. 791) وأصله من غمارة شمال المغرب. تولى التدريس مدة بغرناطة. ومن تلاميذه بها: المجاري وابن مرزوق الحفيد وأبو بكر بن عاصم وغيرهم. تزفي ودفن بفاس(1) .

13 – ابن حيان النفزي محمد بن يوسف (ت. 745). من أصل إفريقي. ولد بنواحي غرناطة. وكان عالما مشاركا على أوسع نطاق، بما في ذلك الطبيعيات والرياضيات وعلوم العربية التي لم يجاوره فيها إلا قليل، واللغة الفارسية والتركية، إلخ. درس بالأندلس

---

(1) المجاري، برنامج، ص. 125؛ ابن مريم، البستان، صص. 143 – 144.

(3162/1)

وإفريقية ومسر والحجاز. توفي بالقاهرة، ومدفنه بالقرافة. وهو غير ابن حيان المؤرخ الذي سبقه زمنا وألف موسوعة ضخمة في تاريخ الأندلس، ونسبها بعض المستشرقين خطأ إلى ابن حيان النفزي(1) .

14 – ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد (ت. 808). غني

عن التعريف. دخل الأندلس سنة 764 على عهد السلطان محمد الخامس في ولايته الثانية، ولقي منه ترحيبا عظيما. وكانت له لقاءات بالأدباء والمثقفين كصديقه ابن الخطيب الذي نوه به

---

(1) الإحاطة، ج 3، ص. 45؛ السيوطي، بغية، ص. 121؛ الزركلي، الأعلام، ترجمة أبي حيان النحري (محمد بن يوسف).

(3163/1)

في كتاب "الإحاطة"(1) ؛ ولقي ابن بطوطة، ولكنه لم يصدق الكثير من رواياته.

2 – وافدون من المشرق:

هؤلاء عددهم كثيرا بسبب تردي الأوضاع السياسية بالأندلس وانحسار آفاق العمل وهيمنة الأساطيل المسيحية على البحر المتوسط، خصوصا خلال القرن 14/8م. ومن الوافدين:

1 – إبراهيم بن خلف السنهوري. قدم من المشرق، وقضى شهورا بتونس قبل أن يحل بإشبيلية سنة 603؛ كما قضى مدة بالمغرب بعد إفلاته من أسر القراصنة. ولا يبدو أن لإشعاعه أثرا يستحق الذكر، ولو أنه أجاز بعض

الطلاب(2)

---

(1) الإحاطة، ج 3، ص. 497، 499.

(2) ابن الأبار، تكملة، ج 1، ص. 176.

.

2 – عمر ابن مودود الفارسي البخاري (ت. بعد 640).

صوفي محدث متكلم. نزل بمالقة حوالي سنة 630. من الذين أجازهم ابن الأبار. انتقل إلى مراكش وبها توفي(1) .

3 – الواعظ البغدادي الوِتْرِي محمد بن أبي بكر (ت. 663). أصل سلفه من قصر كتامة (القصر الكبير) بالمغرب. وهو واعظ كبير متمكن من المذهب الشافعي. وله مجموعة قصائد في المديح النبوي عرفت بـ"الوتريات"، وإليها نسب، لأنه جعل عددا من قصائده واحدا وعشرين بيتا، أي بزيادة وتر. أقام بمراكش سنوات منذ قدومه، وانتقل إلى الأندلس واعظا،

---

(1) المقري، نفح، ج 4، ص. 140.

ثم توجه إلى الحج على أن يعود للاستقرار بالمغرب، فأدركته المنية بتونس(1) .

4 – محمد الخلاطي الفارسي (القرن 8). قضى مدة بالمغرب، وهو متصوف وأديب. لبس خرقة الصوفية من أبي إبراهيم الماجري، ثم انتقل إلى الأندلس سنة 704 حيث ألف في نحو اللغة الفارسية وشرح ألفاظها(2) .

وكل هذه الشخصيات قضت مدة بالمغرب قد تفوق فترة استقرارها بالأندلس، لأن إمكانات التواصل به في هذه الحقبة أوسع، وفرص العمل أكثر،

---

(1) عبد الله كنون، "الواعظ البغدادي"، مجلة البحث العلمي، الرباط، 7، 1966.

(2) الإحاطة، ج 3، ص. 168.

(3166/1)

---

3 – الأندلسيون بالشمال الإفريقي:

كانت أعظم مراكز المعرفة وأنشطها في هذه الحقبة هي فاس وسبتة بالمغرب، وتلمسان وبجاية بالمغرب الأوسط، وتونس بالمغرب الأدنى، وطرابلس في القطر الليبي.

واستقبلت سبتة أعدادا كبيرة من الأندلسيين بحكم جوارها للأندلس ووضعيتها الاقتصادية المريحة. وقد وصفها ابن الخطيب ببصرة علوم اللسان، وأشار إلى ثرواتها السمكية وما يشحن إلى أسواقها من حرير وكتان، وما يتوافر بها من خزائن(1) . وقد ساعدت مدرسة أبي الحسن الشاري منذ القرن السابع، ثم مدرسة

---

(1) ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص. 146.

أبي الحسن المريني في القرن الثامن، على استقبال عدد كبير من الطلاب والأساتذة، مع توافر خزائن كثيرة بالمدينة كما كان الشأن بفاس حيث عشرات المدارس والزوايا، وكذا بتلمسان العبد الوادية، وتونس الحفصية التي توالي إنشاء المدارس بها إلى القرن التاسع. وبطرابلس توجد مدارس عديدة أشار إليها الحسن الوزان، كما كانت هناك مؤسسات تعليمية إباضية عديدة. وعلى العموم، فقد توافد على أقطار المغرب الأندلسيون طلابا ومدرسين ومثقفين من كل اتجاه، فضلا عن الأسر اللاجئة. ومن بين الطلاب من كانوا يتنقلون بين مراكز المعرفة عبر

الشمال الإفريقي، وقد يواصل عدد منهم الرحلة إلى المشرق. ومن الوافدين:

1 – إبراهيم التنوخي من طريف (القرن 8). درس بسبتة على أساتذة مغاربيين وجمع بين القراءات والعربية والأدب(1) .

2 – الحسين بن عتيق التغلبي (أواخر القرن 7) مشارك في العلوم اللسانية والتعاليم (فلسفة، رياضيات، إلخ) والتاريخ. عاصر مالك بن المرحل وهاجاه. تولى الكتابة لرئيس سبتة ثم لأبي يعقوب المريني. وهو من مرسية(2)

---

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، صص. 374–375.

(2) المصدر نفسه؛ ص. 472.

3 – أحمد بن عجلان القيسي الإشبيلي (ت. في عشر التسعينات من القرن 7). من فقهاء تونس ومحدثيها، وكانت له شعبية وحرمة لدى المسؤولين(1) .

4 – ابن الفخار أبو بكر محمد بن عبد الرحمان (ت. 723). درس بسبتة، ثم استقر بمالقة لتدريس الفقه والقراءات وغيرها. ومن شيوخه بسبتة: النحوي ابن أ[بي الربيع، والمحدث عثمان العبدري، والأصولي أبو الحسن البصري، والعروضي ابن الخضار التلمساني(2) .

---

(1) السراج، الحلل السندسية، ج 1، ص. 690.

(2) الإحاطة، ج 3، صص. 92–93.

(3170/1)

---

5 – الطوَيْجِن الساحلي إبراهيم بن محمد (ت. 747) غرناطي قام برحلة تجارية إلى السودان الغربي عبر المغرب حيث اتصل بعاهله وأهداه بعض طرف السودان، وقام أيضا برحلة إلى الشرق العربي، وكان أديبا قديراً، وذكره ابن بطوطة في "رحلته"ه. نقل بعض مؤثرات الحضارة الأندلسية إلى إفريقيا الغربية(1) .

6 – محمد بن عبد الله النميري من وادي آش (ت. 740). من أساتذته بسبتة ابن الشاط وابن الخضار وأبو بكر بن عبيدة(2) .

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 329، نفح، ج 2، ص. 393.

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص. 89.

(3171/1)

---

7 – محمد بن يحيى الأشعري المالقي (ت. 741). درس بسبتة على شيوخ من المغربين الأقصى والأوسط قام في مالقة بتدريس عدة علوم، بما فيها الأصول والحساب والفرائض، مع ولايته لمنصب القضاء. توفي شهيدا بظاهر طريف(1) .

8 – ابن جزي محمد بن أحمد الغرناطي (ت. 741)، صاحب "القوانين الفقهية". من شيوخه بسبتة ابن الشاط ودرس بغرناطة على شيوخ مغاربة كابن رشيد. وله مؤلفات شتى. استشهد في موقعة طريف(2) .

---

(1) النباهي، المرقبة، ص. 241؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 2، ص. 179.

(2) الإحاطة، ج 3، ص. 20.

(3172/1)

---

9 – ابن العربي محمد بن علي الغساني (ت. 748) عالم قراءات وعربية وعلوم دينية. ودرس بسبتة على أبي الحسن الغافقي وابن رشيد وغيرهما. ومن شيوخه بفاس سليمان اللجائي وابن آجروم الصنهاجي(1) .

10 – ابن منظور القيسي محمد بن عبد الله (ت. 750) من مالقة. من شيوخه ابن رشيد ومالك بن المرحل وأبو عمر الطنجي. كان مشاركا وله مؤلفات منها واحد في نوازل القاضي أبي عُمر بن منظور(2) . وهناك أيضا ابن منظور

---

(1) المصدر نفسه، صص. 96–97.

(2) المصدر نفسه، ج 2، ص. 170؛ الزركلي، الأعلام، ترجمة محمد بن عبد الله (ابن خميس).

الأفريقي صاحب "لسان العرب".

11 – ابن أبي الجيْش محمد الصريحي من مالقة (ت. 750) عالم فرائض وحساب مشارك في الفقه والأصول والعقليات. درس بسبتة على أبي إسحق الغافقي ومعاصريه(1) .

12 – ابن خميس محمد الأنصاري من الجزيرة الخضراء (ت. 750). درس على عدة شيوخ بسبتة، وتلقى إجازات بعض

علماء المغرب الأوسط(2) . من شهداء الطاعون الأسود بسبتة.

13 – الشُّدَيد محمد بن قاسم الأنصاري. ولد سنة 710. من جيان. معاصر ابن الخطيب. عالم قراءات. وشيوخه كثيرون بسبتة وفاس(3)

---

(1) الإحاطة، ج 3، ص. 78.

(2) المصدر نفسه، ص. 185.

(3) المصدر نفسه، صص. 198–199.

(3174/1)

.

14 – التلمساني الأنصاري محمد بن أحمد (ت. 764). من شيوخه أبو خاتم أحمد العزفي وأبو إسحق الغافقي وأبو إسحق البرغواطي(1) .

15 – ابن رضوان البخاري عبد الله بن يوسف (ت. 783). من مالقة. درس بسبتة وتلمسان وتونس. ذو ثقافة أدبية واسعة. تولى سامية بغرناطة والمغرب. وتوفي بأنفا (الدار البيضاء)(2) .

16 – المَجَاري محمد بن محمد (ت. 862). عالم جليل مشارك تابع دراسته بتلمسان وبجاية وتونس ومصر فضلا عن

غرناطة. ومن مؤلفاته "برنامج" غني بالمعلومات عن التاريخ العلمي

---

(1) المصدر نفسه، ص. 201.

(2) المصدر نفسه، ص. 444.

(3175/1)

لعصره(1) .

17 – العشاب عبد الله بن أحمد الغساني. لقي شيوخا مغاربيين كابن عرفة وابن خلدون وسعيد العقباني. واستقر بدرعة بعد إتمام "رحلته"(2) .

18 – القلصادي علي بن محمد (ت. 891). عالم جليل ألف في الرياضيات والفرائض والفقه وغير ذلك درس بباجة وتلمسان ووهران وتونس. وتوفي بباجة. ولم يتحدث عن سبتة ولا عن فاس في "رحلته"، لأن سبتة احتلها البرتغال بعد بضع سنوات من مولده، وفاس كانت تعاني تدهورا سياسيا واقتصاديا في شبابه

---

(1) المجاري، برنامج، ص. 138.

(2) محمد السراج، الحلل السندسية، ج 1، ص. 614.

(3176/1)

وبعده(1) .

وعدد الوافدين على المغاربة أكبر من أن تتابعه هذه الدراسة تفصيلا. وقد ترد أسماء أخرى في الفصول اللاحقة، من بينها على الخصوص ابن الأبار الأديب المؤرخ.

4 – الأندلسيون بالمشرق:

إن اتجاه الأندلسيين إلى الشرق بلغ أوجه في القرن السابع، وذلك رغم من النكبات

والأزمات التي عرفها المشرق في هذه الفترة، مثل الغزو التتري وسقوط بغداد واستمرار الحروب الصليبية وتحركات الأساطيل المعادية، بينما كان القرن الثامن لعموم الشمال الإفريقي حقبةَ انتشار المدارس والزوايا،

(1) القلصادي، رحلة، ص. 38، 94، 111، 123.

أي أماكن إيواء الطلاب والمثقفين. ومن ثم استقبلت هذه الجهة من العالم الإسلامي كبيرة من أهل الأندلس، مع ما كانت تثيره نكبات الأندلس من تعاطف مع مهاجريها، وما كان للجهات الرسمية من تنافس بينها لاستقبال المزيد من نبغاء القطر الأندلسي.

وكان من الوافدين على المشرق:

1 – محمد بن أحمد بن سليمان الزاهري (أو الزهري حسب السيوطي). وهو أديب مالقي (ت. 617) درس بكل من مصر والجزيرة والشام وبغداد التي لقي بها ياقوت الحموي وتوطدت بينهما الصداقة. ثم انتقل إلى إيران واستوطن في منطقة الجبال، ثم استقر ببَرُوجِرْد

(3178/1)

واستشهد على يد التتر بعد أن تعاطى تدريس الأدب وألف عدة كتب(1) .

2 – أبو الخطاب بن دِحْية الكلبي عمر بن الحسن (ت. 633). ذكر المقري أن أسلافه من "دانية". وهو بلنسي في مصادر مختلفة كـ"الوفيات" و"بغية الوعاة". وأكدت دراسة لمحمد الفاسي أنه سبتي. درس كثيرا، واتجه خاصة إلى الحديث بالمغرب وإفريقية ومصر والشام والعراق وإيران. تولى قضاء دانية، كما عينه الكامل شيخ دار الحديث بالقاهرة. وهو أديب له مؤلفات(2)

---

(1) ياقوت، معجم الأدباء، ج 17، ص. 277؛ السيوطي، بغية، ص. 11.

(2) ابن خلكان، وفيات، ج 1، ص. 481؛ السيوطي، بغية،

ص. 360؛ المقري، نفح، ج 2، ص. 301؛ محمد الفاسي، "ابن دحية الكلبي"، رسالة المغرب، يونيو 1948؛ الزركلي، "ابن دحية الكلبي (عمر بن الحسن)".

(3179/1)

. وكانت وفاته بالقاهرة حيث دفن بسفح المقطم.

3 – أحمد بن عبد الله الأنصاري المالقي (ت. 652). فقيه محدث لغوي أديب. دخل مصر وهو عالم قدير، فعظم بها صيته، وأقام بها نحو ثلاث سنوات حتى وفاته عن سن الخامسة والأربعين(1) .

4 – محمد بن علي الدهان التجيبي الغرناطي (ت. 653) درس بمكة ومصر والشام واحترف التجارة. وتوفي بقوص (المصرية)(2) .

5 – شرف الدين محمد بن عبد الله المرسي (ت. 655). نحوي فقيه أصولي محدث. درس بالأندلس ومصر والشام والحجاز والعراق وإيران وما وراء النهر،

---

(1) بغية، ص. 135.

(2) نفح، ج 2، ص. 264.

(3180/1)

وجاور بمكة، وحظيت دروسه بإقبال عظيم، وصنف مؤلفات جليلة. توفي في طريقه إلى العَريش. وكان ضريرا(1) .

6 – محمد بن عبد الله اللوشي (ت. في عشر 660). زاول الطب واستقر مدة بمصر توفي(2) .

7 – محمد بن سراقة الأنصاري الشاطبي (ت. 663). درس بالأندلس ورحل لدراسة الحديث ببغداد وحلب التي تولى مشيخه دار الحديث بها على أثر ذلك ثم انتقل إلى مصر فرأس دار الحديث الكاملية. توفي بالقاهرة(3) .

---

(1) بغية، صص. 60–61؛ الداودي، طبقات المفسرين، ج 2، ص. 173.

(2) نفم، ج 3، ص. 13.

(3) نفم، ج 2، ص. 269.

---

8 – ابن حَشيشي محمد بن عيسى الشريشي (ت. 674). استقر بالحجاز، وكان شافعيا مفتيا لغويا أصوليا. من مؤلفاته "المقتضب في الفقه"(1) . توفي بالمدينة.

9 – محمد بن علي الأنصاري البلنسي (ت. 684). عالم لغة

كبير. استقر بمصر وتولى بها تدريس اللغة. وتوفي بالقاهرة(2) .

10 – ابن سحمان أبو بكر الشريشي محمد بن أحمد (ت. 685). مشارك يتقن العربية والأصول والتفسير. درس بالإسكندرية وسوريا والعراق وزاول التدريس بمصر والقدس ودمشق التي توفي ودفن بسفح قاسيون منها(3)

---

(1) بغية، ص. 88.

(2) المصدر نفسه، ص. 83.

(3) المصدر نفسه، ص. 18؛ الداودي، طبقات المفسرين، ج 2، ص. 78؛ المقري، نفح، ج 2، ص. 332.

(3182/1)

---

11 – ابن مطرف الإشبيلي محمد بن حجاج (ت. 706). قام برحلة إلى المشرق، خصوصا الإسكندرية وعدن ومكة التي استقر بها حتى وفاته. وعرف بالصلاح والولاية، وتميز في العربية(1) .

12 – ابن الحكيم اللخمي محمد بن عبد الرحمن من إشبيلية (ت. 708). درس بمكة والمدينة ودمشق

وبغداد والقاهرة. وشيوخه كثيرون بالمشرق وأقطار المغرب. تولى مناصب سامية ببلاده(2) .

13 – محمد بن الحسن المالقي (ت. 771). استقر بدمشق وكان من أئمة المالكية وشيوخ العربية. وله شرح على

---

(1) بغية، ص. 30.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 2، ص. 448.

(3183/1)

"التسهيل"(1) .

14 – ابن هانئ اللخمي الغرناطي إسماعيل بن محمد (ت. 771). ذهب إلى القاهرة، ثم إلى الشام فاستقر بها وتولى بها قضاء المالكية، ثم تولى بعد ذلك قضاء الشام. وكان عالما مشاركا، وله باع في العربية. وقد أصبح المشرق يحتاج إلى هذا الصنف ممن يتقنون العربية والذين يفدون من أقطار المغرب(2) .

15 – المجاري محمد بن محمد الغرناطي (ت. 862). سبق ذكره في لائحة الدارسين بأقطار الشمال الإفريقي. أثبت أسماء عدة شيوخ درس عليهم بمصر، منهم ابن خلدون وبدر الدين بن جماعة،

---

(1) بغية، ص. 35.

(2) المصدر نفسه، ص. 199.

(3184/1)

وبهرام الخزرجي وكمال الدين العجمي(1) .

بيبليوغرافيا

1 – ابن الأبار القضاعي، محمد بن عبد الله (658/1260م)، التكملة لكتاب الصلة، القاهرة، 1375/1956م.

– –، الحلة السِّيرَاء، جزآن، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، 1963.

2 – ابن أبي زرع الفاسي (النصف الأول من القرن 8/14م)، روض القرطاس، في أخبار المغرب ومدينة فاس، الرباط، 1973م.

3 – ابن الأزرق الغرناطي، محمد بن علي (896/1491م)، بدائع السلك في طبائع المُلك، جزآن، بغداد، 1397/1977م.

---

(1) المجاري، برنامج، صص. 147–158.

(3185/1)

4 – ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله (776/1374م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، ثلاث مجلدات، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1393/1973م.

– –، اللمحة البدرية، تحقيق أحمد عاصي، بيروت، 1978م.

– –، معيار الاختيار، تحقيق محمد كمال شبانه، الرباط، 1396/1977م.

5 – ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (808/1405م)، المقدمة، المطبعة البهية، القاهرة (د. ت).

– –، تاريخ ابن خلدون (المعروف بكتاب العبر...)، بيروت، 1959م.

6 – ابن خلكان، محمد بن أحمد (681/1281م)م، وفيات الأعيان، جزآن، بولاق، مصر، 1299/1881م.

(3186/1)

7 – ابن الشاط، القاسم بن عبد الله (القرن 13/7م)، الإشراف على أعلى شرف، تحقيق إسماعيل الخطيب، تطوان، 1406/1986م.

8 – ابن مَرْيم التلمساني، محمد بن محمد

(1014/1605م)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الجزائر، 1986م.

9 – الداودي، محمد بن علي (945/1538م)، طبقات المفسرين، جزآن، القاهرة، 1303/1983م.

10 – الذهبي (الحافظ)، محمد بن أحمد (748/1347م)، تذكرة الحفاظ، نسخة مصورة ببيروت، عن الطبعة الهندية لسنة 1958.

11 – الزركلي، خير الدين، الأعلام، طبعة ثانية، عشرة أجزاء، القاهرة، 1954–1959م.

(3187/1)

---

12 – السراج الأندلسي، محمد بن محمد (1149/1736م)، الحلل الأندلسية، تونس، 1970م.

13 – السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (911/1505م)، بغية الوعاة، القاهرة، 1326/1908.

14 – كَنون، عبد الله، "الواعظ البغدادي"، في مجلة البحث العلمي، ع 7، 1966، الرباط

15 – الحسيسن، عبد الهادي، "بيان الوهْم والإيهام، الواقعيْن في كتاب الأحكام"، مجلة دار الحديث الحسنية، الرباط، 1979م.

16 – القلصادي، علي بن محمد (891/1486)، رحلة

القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، تونس، 1406/1985م.

(3188/1)

---

17 – مؤلف مجهول، ذكر مشاهير أعيان فاس في القديم، نشر في حلقات بمجلة البحث العلمي، الرباط، وغيرها، بتحقيق عبد القادر زمامة. ونشر لاحقا باسم بيوتات فاس الكبرى (بالرباط أيضا). وذكر محققه عبد الوهاب بن منصور أن مؤلفه إسماعيل بن الأحمر وأضاف إليه غيره زيادات بعده.

18 – المجاري، محمد بن محمد (862/1458م)، برنامج المُجاري، تحقيق محمد أبو الأجفان، بيروت، 1982م.

19 – الكتاني، محمد إبراهيم، "الكتاب المغربي وقيمته"، في مجلة البحث العلمي، ع 4–5، 1965م.

(3189/1)

---

20 – الفاسي، محمد، "الخزانة السلطانية ونفائسها"، في مجلة البحث العلمي، ع 4–5، 1965م.

21 – المقري التلمساني، أحمد بن محمد (1041/1631م)،

نفح الطيب، 10 أجزاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1369/1949م.

– –، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق لجنة من الباحثين، الرباط، 1398–1399/1978–1979م.

22 – النُّباهي، علي بن عبد الله المالقي (أواخر القرن 8/14م)، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، بيروت 1400/1980م.

(3190/1)

---

23 – الوادي آشي، محمد بن جابر (749/1338م)، برنامج الوادي آشي، تحقيق محمد محفوظ، بيروت، 1982م.

24 – الونشريسي، أحمد بن يحيى (914/1508م)، المعيار، الجزء الحادي عشر (من 13 جزءا)، تحقيق لجنة من الباحثين، الرباط، 1401/1981م.

25 – ياقوت الحَمَوِي، شهاب الدين بن عبد الله (626/1228م)، معجم الأدباء، 20 جزءا، القاهرة، 1937–1938م.

(3191/1)

الثقافة وتبليغها بالأندلس في مرحلة النضج والإخصاب

(من القرن 4 إلى 6هـ/10 إلى 12م)

... ...

الدكتور إبراهيم حركات

كلية الآداب – الرباط

(يساهم القرن الرابع: ثقافيا، في مرحلة سابقة وأخرى لاحقة. فهو أَوْجُ مرحلة الريادة، وقفزة كبرى نحو مرحلة التوسُّع والتنويع في العطاء).

حصلت تطورات كثيرة في المجالات الثقافية والمعرفية خلال هذا العصر:

1– اتسع نطاق التبادل الثقافي بين الأندلس وأقطار المغرب، ولاسيما على عهد الموحدين.

(3192/1)

2– ارتفع حجم الإِنتاج المعرفي والإِبداعي وتنوعت مجالاته أو اكتملت شخصيته كما في الفلسفة والفلاحة والأدب.

3– انعكس التوجُّه السياسي والفكري والمذهبي لدى المرابطين والموحدين على المناخ الثقافي بالأندلس سلباً وإيجاباً، دون أن يتخلى الشمال الإِفريقي عن

خصوصياته ومميزاته الأساسية، مع فتح المجال أمام المثقفين من أهل الأندلس ليستقروا بالشمال الإفريقي.

4- ظهور زعامات شعبية سياسية أو دينية تستقطب أنصاراً ومتعاطفين جعل محنة المثقفين وأنصارهم أوسع نطاقاً مما عرفته المرحلة الماضية (قرن 2-4هـ)، وذلك بحكم

(3193/1)

تعدد الاِتجاهات والطموحات الشخصية أيضاً.

5- تغلغلت الثقافة العربية أكثر فأكثر إلى الأوساط المسيحية واليهودية بعد أن شقت طريقها إلى المرحلة السابقة إلى هذه الأوساط

والمجتمع المسلم لم تكن أكثريته عربية وبربرية، بل كانت من المولدين المنحدرين من أصول أيبيرية ويهودية(1) والذين اتخذوا أسماء عربية، بينما احتفظت مجموعات من المسيحيين في ظل السلطة المسلمة، بدينها وشعائرها وأطلق عليهم لقب

---

(1) ; A. 254Pérès, La poésie andalouse, p. Cortabarria, «Les études mozarabes en Espagne», in Mélanges (10), p.14.

(3194/1)

المسْتَعْربة Mozarabes)) مع كونهم اتخذوا نمط الحياة العربية وعايشوا المسلمين في أحيائهم أو انعزلوا حسب الظروف، وكانوا يؤدون الضرائب للسطلة الإسلامية. وحمل المولدون بطبيعة الحال شيئاً من مؤثرات الثقافة القوطية التي عايشوها أو أخذوها عن أسلافهم، ولكن هذا التأثير ضعيف بالقياس إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية التي انتقلت إليهم أو ساهموا في تكوينها. فحتى أدب المستعربين ظل كنائسيا متأثرا بالكتاب المقدس(1) . وكانت مراكزهم الرئيسية هي ليون وقطلونيا وريوخا (Rioja) وقشتالة حيث

---

(1) A. Cortabarria, pp. 11–12.

(3195/1)

ألفت كتب في التاريخ ومناقب الصلحاء وشُرح الكتاب المقدس، ومؤلفو عدد منها مجهولون. وفي ظل السلطة القوطية لم تكن توجد ثقافة وطنية موحدة بل ثقافات جهوية عديدة، لكن الثقافة العربية تغلغلت في أوساط

المستعربة(1) إلى حد أن مستعربة طليطلة تشبثوا خلال القرنين 12–13 (6–7 هـ) بالعربية كلغة ثقافة إلى جانب لغتهم الخاصة في الحياة اليومية(2). وساعدت الهجرات الداخلية للمستعربة على نقل المصطلحات العربية إلى الإسبانية، كما أن المصطلحات الرومانية أخضعت للمعايير العربية

---

(1) Op. cit., pp. 16–17.

(2) Op. cit., p. 17.

(1/3196)

في تعريب المعاجم الطبية والنباتية(1).وهناك من يرى أن إسبانيا إنما ملكت أدبها الخاص لأول مرة، ابتداء من مؤثرات قصة »السيد« (Le cid)(2).

وخلال هذه الفترة كانت أوروبا المسيحيَّة لا تزال منشغلة بمشكل السلطتين الزمنية والروحية، والذي أثار الجدل والنزاعات المزمنة بين الكنيسة والملوك وقام ابن رشد الفيلسوف بإنعاش فلسفة أرسطو والعمل على الموازنة بين الفلسفة والشريعة، وغزت أفكاره بسرعة عدداً من الأوساط الثقافية بأوروبا مهيئاً الجو لسان طوماس

(1) Op. cit., pp. 18–20.

(2) Histoire de l'humanité, p.3, 581.

(1/3197)

داكان (Saint Thomas d'Aquin) للتقريب بين الإيمان وفلسفة أرسطو(1). وقبل ابن رشد الفيلسوف بقليل، لمع اسم عالم أندلسي اسمه عبد الله بن سهل الغرناطي (ت. 553/1157م) كعالم رياضي منطقي ومتضَلّع في العلوم القديمة كما يقول ابن الخطيب(2). وكان يدرس عليه طلاب من الديانات الثلاث، ويفد إليه عدد من نصارى طليطلة وهو ببياسة، أي في عمق الجنوب الأندلسي، وكان الطلاب مجمعين على أنه شخصية فريدة في تبحرها وإقناعها.

---

(1) Mosca el Boutboul, Histoire des doctrines politiques, p.64.

(2) الإحاطة، ج 3، ص. 404.

(1/3198)

وقد ظل هذا التفتح الثقافي المتبادل يسير في خطين متوازيين: أحدهما مبادرة الخواص أنفسهم كأساتذة ومؤلفين وطلاب، والثاني رعاية السلطة بشكل يختلف تنظيماً واستمراراً ونوعاً. ثم إن علاقة السلطة بالمثقفين لا تحددها السلطة بالضرورة. فما زال لهذه الشريحة دور في تحديد هذه العلاقة بشكل أو بآخر كما سنرى.

السلطة والمثقفون

القرن الخامس لم تعمل ظروف الإِضطراب خلاله على تحجيم المعرفة أو تراجعها. صحيح أن الثقافة الأدبية أصبح لها وزن يفوق حجماً ما كانت عليه من قبل، بحكم تعدّد الممالك والبلاطات والمصالح، إضافةً

(3199/1)

إلى أن هذه الثقافة اتجهت نحو الشعبية بشكل لم يكن معهوداً من قبل. أما سائر ألوان المعرفة، فتابعت طريقها قائمة على مكتسبات الماضي أو متطورة بشكل ما في هذا المجال أو ذاك من مجالات المعرفة، وملوك الطوائف يسعون إلى رعاية المعرفة حسب ميولهم وآفاقهم الفكرية. وهكذا كان المعتصم بن صمادح أمير ألمرية، والذي اختلفت الأقوال بشأن كرمه أو عدمه،

يُعنَى بالمناقشات الفقهية والدينية التي يعقد لها مجلسا يوم الجمعة الذي يصادف العطلة الأسبوعية، كما يحضر مجالسة كبار الشعراء. وله مراسلات شعرية مع أبي بكر بن عمار

(3200/1)

والمعتمد وغيرهما(1). أما المظفر محمد بن عبد الله أمير بطليموس، فلم يكن يشجع فيما يظهر، إلا الشعراء المتميزين. وألف هو نفسه كشكولاً أدَبِيا من خمسين مجلدا(2). وكان ابن رشيق أديباً فقيها تولى ميورقة من قِبَل مجاهد العامري وكانت له عناية بالعلماء والصلحاء مع حسن تدبيره السياسي(3).

أما المرابطون والموحدون، فسياسة ممثليهم بالأندلس أكثر انفتاحا منها لدى السلطة المركزية بالمغرب. على أن

---

(1) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج 2، صص. 78-88

(2) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ج 3، ص. 183

(3) ابن الأبار، م.س، ص. 128.

(3201/1)

الإطار الذي عمل فيه رجال الدولتين كان واضحاً؛ فهناك رعاية للفقهاء والفقه المالكي لدى المرابطين، ورعاية للمحدثين لدى الجانب الموحدي الذي يقدر الأدب والأدباء أيضاً في العدوتين، لكن أمراء المرابطين بالعدوة الأندلسية كان لهم حس أدبي دقيق، وبالتالي فقد نفقت سوق الأدب برعايتهم المحلية. ومن الواضح أن الدولة المرابطية قامت على سيوف صنهاجة، ولكن أيضا على هيئة الفقهاء الذين عملوا على توجيهها في كل شيء، ولاسيما فقهاء الأندلس بدءاً بأبي بكر المرادي ومروراً بأبي بكر الطرطوشي الذي كتب إلى يوسف بن تاشفين من

(3202/1)

الإسكندرية مذكرة تنويهية توجيهية، وابن رشد ومعاصريه الذين أفتوا عليّاً بن يوسف في بناء سور مراكش، إلى آخر تدخلاتهم. ويقول ابن الأثير عنه: «... ازداد في إكرام العلماء والوقوف عند إشارتهم، وكان إذا وعظه أحدهم وقف عند استماع الموعظة» (1).

وأما ملوك الموحدين، فقد تجاوزت ثقافة أكثرهم معارف أسلافهم من ملوك المغرب المسلمين. فهم يقودون إمبراطورية كبيرة، تقوم على ثقافة مصممة إلى حد كبير في شكلها

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج 8، ص. 237؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية، صص. 90–98؛ الوثائق، ج 1، صص. 210–219.

(3203/1)

وأساليبها، انطلاقا من تراث مؤسس العقيدة التومرتية. ونجد خلفه عبد المومن قد جمعت معارفه بين الأصول والحديث واللغة والقراءات والأدب والتاريخ مع معرفة بالجدل. وهو متأثر في كل ذلك بشيخه ابن تومرت، ولربما تابع شيئاً من دراسته بفاس. وتميز بحديثه، حتى إنه منع أديباً كبيراً من الأندلس هو محمد بن عبد الله العبدري القرطبي من مواصلة تعليم أبنائه (أبناء عبد المومن) لمجرد أبيات نسبت إليه في الغزل، مع أن هذا المؤدب كان عفيفا. وكانت مجالسه غاصة بمثقفي الأندلس ويحرص على أن يمدحه شعراؤهم المجيدون، لأن الشعر كان

(3204/1)

عملا إعلامياً بالنسبة للسلوك، ولاسيما الموحدين الذين مالوا إلى شيء من أبهة التشريفات لم تكن معتادة بالمغرب. ووفد عليهم شعراء وأدباء من المشرق وحتى من »كانم«(1).

وكان يجالس أبا يعقوب يوسف عدد من أطباء وفقهاء الأندلس الذين استدعاهم للعمل في قصره أو بلاطه، كالطبيب أبي بكر بن الطفيل، والفقيه أبي الوليد بن رشد، والفقيه أبي

---

(1) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص. 213 ؛ ياقوت، معجم البلدان، مادة »كانم«؛ روض القرطاس المنسوب لابن أبي زرع، ص. 203؛ ابن عذارى، بيان (موحدي)، ص. 81 ؛ السيوطي، بغية الوعاة، ص. 62.

(3205/1)

بكر بن الجد. وقال عنه ابن الأثير: »... كان طريقه ألين من طريق أبيه مع الناس؛ يحب العلماء، ويقربهم ويشاورهم، وهم أهل خدمته وخاصته«. ومن تواضعه أنه ترجل مرة عن فرسه، بينما كان ابن الجد قادماً للسلام عليه. ومع ثقافته الغزيرة، فقد تعلم الطب النظري من

»الكتاب الملكي«، وجمع خزانة ضخمة من كتب الفلسفة، وكل هذا مع حفظه لكمية ضخمة من الحديث. وكان أمين خزانته عالماً أندلسيا هو ابن الصقر أحمد بن عبد الرحمن الأنصاري السرقسطي. وكانت أمانة الخزانة العلمية من الوظائف السامية التي لا يتولاها إلا أكابر العلماء

(3206/1)

كما يؤكد ابن الخطيب. وكذلك وُصف إدريس المامون بغزارة معارفه الدينية والأدبية حتى قال عنه مؤلف »روض القرطاس« إنه كان إماما في الحديث. ومعظم الملوك الموحدين الآخرين كانوا على هذا النحو ولو أن المامون وفريقاً من خلفائه ينتمون إلى القرن السابع(1). ومن العلماء العديدين الذين استقدموا في القرن السادس أيام الموحدين، عبد الرحمن السهيلي المالقي مؤلف »الروض الأنف«، والذي كان

---

(1) **المعجب**، ص. 238 ؛ **الكامل**، ج 9، ص. 165 ؛ **روض القرطاس**، ص. 207، 249 ؛ **البيان الموحدي**، ص. 159 ؛ **ابن الخطيب، الإحاطة**، ح 1، ص. 184.

(3207/1)

ضريراً يعيش على الكفاف. وأقام بمراكش ثلاث سنين تولى فيها التدريس وإنجاز بعض مؤلفاته العديدة(1) .

والواقع أن السلطة المغربية شملت برعايتها جانباً كبيرا من نشاط الحركة الثقافية لأن مسؤوليتها سياسية ودينية، ولو أن هذه الرعاية كانت من حظ الذين يسيرون أكثر من غيرهم في الخط الفكري والعقدي للدولة. لكن الثقافة بالأندلس أخذت طريقها أيضاً بين مختلف الأوساط الاِجتماعية إما بفضل جهود الخواص أو الأوقاف العامة. ولذلك لم يكن نادراً أن تجد أسرة كبيرة برجالها ونسائها

(1) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج 4، صص. 1348–1349.

وخدمها قد نالت حظا كبيرا من المعارف المتداولة. وساد الأدب وقرض الشعر مختلف أوساط شلب إلى درجة أن الفلاح في فدانه يضع رهن إشارة السائل فوراً ما يرغب فيه من قريض في أي معنى(1) .

وهكذا فإن تكاثر أعداد العلماء والأدباء والمثقفين عموماً أصبح من الضخامة بحيث لم يكن بإمكان الدولة

احتواؤهم جميعاً ولا حتى أكثريتهم، كما أن شطراً كبيرا منهم كان يرفض مناصب الدولة أو رعايتها إما استقلالاً بفكره وحريته وإما تورعاً. وحتى بين الذين يتعاملون مع الدولة،

---

(1) ياقوت، معجم البلدان، مادة »شلب« ؛ السيوطي، بغية، ص. 245.

كان هناك فريق يعيش على الكفاف ولو أقبلت الدنيا عليه. وخارج محيط السلطة، وفي شريحة المثقفين بالذات، يوجد الزهاد الصالحون كما يوجد أضدادهم(1) . وفي القطاع الحر يشتغل عدد كبير من الأدباء والعلماء موزعين بين مهن متنوعة كالتوثيق والوراقة والتجارة وحتى بعض المهن التي يكثر فيها غيرهم كالخياطة والجزارة. فالأديب النحوي ابن سارة الشنتريني اشتغل مدة بالوراقة وتكسب بشعره. وعاش ابن

---

(1) ابن الأبار، تكملة، ج 1، ص. 223 ؛ الذهبي، تذكرة، ج 4، ص. 1254 ؛ ابن الخطيب، إحاطة، ج 1، ص. 183 ؛ المقري، نفح، ج 5، ص. 75.

(3210/1)

الرميمي على النسخ بفاس وهو أديب قدَّمَهُ أهل ألمرية عليهم بعد ثورة ضد عبد المومن الموحدي ثم لجأ بعد ذلك إلى فاس. وعلي الخشني الأبذي نحويٌّ قديرٌ يقوم على تدريس »كتاب« سيبويه، عاش على غاية من الفقر حتى عين إماماً بأحد جوامع غرناطة، فاكتفى براتب الإمامة. بينما معاصره ابن الشريك الضرير عاش مرفها من تعليم العربية والإِقْراء. وكان محمد بن عبد الله البلنسي مثقفاً عاش بالمشرق ربع قرن وتكسّب بالتجارة، وكان كثير البر يفدي العديد من أسرى بلاده، وابن الخِدَّب أحمد ابن طاهر الإشبيلي قام على تدريس العربية

(3211/1)

و»كتاب« سيبويه، وكانت له شخصيته وآراؤه في المسائل النحوية. اشتغل بالخياطة في فاس في أزهى أيام الموحدين، بينما اشتغل يحيى السرقسطي بالجزارة، وهو أديب وشاعر لامع، فوبخه أبو الفضل بن حسداي حاجب ابن هود على ذلك شعراً ورد معتذراً بقلة

ذات اليد، لكنه دافع بهمة عن حرفته. ولا يبدو أن ابن هود كان محبوبا من كثير من الأدباء(1) .

---

(1) إحاطة، ج 3، ص. 439؛ بغية، ص. 12، 147، 352، 359 ؛ نفح، ج 3، ص. 9، 417؛ ج 5، ص. 77، 281.

(3212/1)

وبعيداً عن أجواء البلاطات والوظائف والمغريات، انعزل فريق من المثقفين في جو من التأمل والتعبد، أو مؤثرين الخمول الكلي على الظهور والأضواء غير خائضين في المؤامرات والمضاربات ولا مهتمين بتحقيق طموحات أو مكاسب. وبينهم ذوو مكانة معرفية متميزة؛ وغالباً ما تفشو هذه الظاهرة في ظروف الإِضطراب السياسي والحروب الأهلية. ومنهم الفقيه الأديب ابن الرَّباحي يوسف بن سليمان، وابن الأبرش الشنتريني، ومحمد بن عمر الشرّاني الطليطلي والمقرئ المحدث محمد بن بشير المعافري من قرطبة. وذكر عن أستاذ في القراءات أنه وفد من

(3213/1)

طليطلة على قرطبة فأقام سبعة أشهر بأحد فنادقها دون أن يعمل على لقاء أحد. وحتى هذه العزلة من بعض المثقفين قد لا تروق السلطة فتعاتبهم رغبة في تقريبهم(1) .

وتفشو ظاهرة الميل إلى الجهاد في أوساط العلماء والصلحاء أكثر منها لدى الأدباء. وبين المجاهدين من يقصدون مواقع الجهاد تلقاءً، ومن تدعوهم السلطة المعنية فيتقدمون طوعاً للقيام بالإرشاد الديني وتحميس الجيش. وأعداد كبيرة منهم تستشهد. ولا تخلو غزوة كبرى من وجودهم بأعداد كبيرة، فضلا عن قيامهم

---

(1) ابن بشكوال، الصلة، ص. 174، 398، 513، 521، 526، 640.

بالمرابطة أو بالتردد على مواقع القتال من أماكن بعيدة أحياناً(1) .

وتعرض كثيرون للمحنة والنكبة لأسباب فكرية أو مذهبية أو سياسية أو غيرها. وتأخذ المحنة صوراً شتى من المحاكمات والمناظرات والطرد والسجن والمصادرة

والقتل وغير ذلك وقد كان العصر السابق أرحم بالمثقفين من حيث علاقاتهم بالسلطة، مع أن المجالات الفكرية أصبحت بعده أخصب وأكثر تنوُّعاً، ولاسيما خلال القرن

---

(1) المصدر نفسه، ص. 71، 292 ؛ ياقوت، معجم البلدان، مادة »قتندة «؛ مؤلف مجهول، الذخيرة السنية، ص. 47، 50؛ النباهي، المراقبة العليا، ص. 115.

(3215/1)

السادس. وكان ممن امتحنوا: ابن المش الخياط عبد الملك بن أحمد، وابن الحيني أبو بكر الذي أهين وسجن بقرطبة على يد بني حمود، ثم طردوه كما طُرِدَ ابن المش وغيرهما من أنصار النظام السابق. أما أحمد بن عباس التياني الذي عمل إلى جانب زهير العامري، فقد وقع في يد باديس الصنهاجي بعد الإطاحة برئيسه السابق، ثم سجن مقيداً قبل أن يقتل قتلة شنيعة. وكان ذا ثقافة متميزة جماعاً للكتب عظيم الثروة. وكان في تنوع ثقافته عمر بن الحسن الهوزني الذي قتله المعتضد بيده ودفنه بثيابه دون غسل أو صلاة، وقد تفجع عليه ابن بشكوال

صاحب »الصلة«، أو بالأصح مصدره الذي ذكر أن الهوزني قُتل ظلماً. وعندما خرج أبو بكر بن زهر من إشبيلية خوفاً من انتقام بني عباد منه، عمد هؤلاء إلى أملاكه وأمواله فاستصفوها، ومات غريباً عن ذويه. أما ابن حزم الذي لم تنجب الأندلس عالماً على نمطه، فقد قام الفقهاء ضده وتألبوا عليه في كل مكان بحجة انتقاده للأئمة، فطاردته السلطات من إقليم إلى آخر حتى مات ببعض قرى لبلة، وكانت أزمة ابن حزم أزمة اتساع فكر يعرف ما لدى خصومه وما ليس عندهم. وقد واجه خصوم الإسلام بالحجج وتناول معتقداتهم بدقة وتفصيل(1)

(1) عياض، مدارك، ج 8، ص. 20، 22، 29؛ ابن بشكوال، الصلة، ص. 381؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص. 259.

.

والمحنة التي شهدها عدد من الأدباء والعلماء لم تكن الأندلس وحدها موقعا لها. فكثير منهم تعرضوا لنكبات

بأقطار الشمال الإفريقي وحتى خارجها. وكان من أغرب المحن ما تعرض له أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الإشبيلي الذي انتقل شابا صغيرا إلى إفريقية، وبرز بعد ذلك مثقفا ممتازاً فوجهه عاهلها الزيري إلى مصر حيث سجنه ملكها الفاطمي عشرين سنة بخزانته.
وكانت هذه المحنة النادرة نعمة عليه، فتخرج متميزاً في الفلسفة والطب والتلحين كما أورد المقري. وتعرض كبير المفتين بقرطبة، أصبغ بن محمد الأزدي لسعاية لدى

(3218/1)

السلطة فاضطر إلى ملازمة بيته مدة حتى وفاته في أوائل حكم علي بن يوسف. وكان مع ذلك مقتدراً في الفقه وتدريسه. وفيما بين نهاية دولة المرابطين وقيام الموحدين، أشيع أن العالم أبا بكر بن العربي
كانت له طموحات للحكم مع التدبير لذلك وأدى الأمر بعد استقرار الموحدين إلى استدعائه إلى فاس حيث قضى نحبه. ومثله معاصره أحمد بن محمد بن حزم الإشبيلي الأديب اللغوي الذي اتهم بالثورة وادعاء المهدوية.
وكان ذلك يعني منافسة الموحدين في أهم دعائم عقيدتهم، واضطر إثر ذلك إلى أن يختفي بالمغرب منتحلا

صفات مختلفة(1)

---

(1) الصلة، ص. 110 ؛ الذهبي، تذكرة، ج 4، ص. 1296 ؛ السيوطي، بغية، ص. 158 ؛ المقري، نفح، ج 2، ص. 307.

(3219/1)

.

وتنوعت أشكال محنة الفكر مع ذلك فعلي بن يوسف الذي اشتهر بليونته أمر باستقدام المحدث محمد بن الحسن الخزرجي من غرناطة مع ابن برجان وابن العريف، كما أمر بضربه وسجنه. وبعد أن سرحه، لم يلبث إلا قليلا فتوفي بالجزائر وهو في طريقه إلى المشرق(1) .

وقد كانت محن العلماء المثقفين ونكباتهم تأخذ بالكثير من اهتمام الرأي العام، ولاسيما بين فئات الطلاب. وهناك مؤلفات كتبت عن بعض هذه المحن مشرقا ومغرباً مثل كتاب »المحن« لأبي العرب بن تميم، وكتاب »محنة أحمد بن حنبل« لابن عمه حنبل بن

---

(1) الإحاطة، ج 3، ص. 191.

(3220/1)

إسحق(1) ، إلخ. فلم يكن غريباً أن ينفر كثير من العلماء من ذوي السلطة مهما كان من حسن سلوكهم. وبعضهم يمارس تجربة التعامل مع السلطة والتقرب إليها ثم يعدل عن ذلك، وآخرون يرفضون مناصب الدولة بإغراءاتها المادية، بل يزهدون حتى في التدريس خارج بيوتهم. وبينهم من دفع المال لرسول السلطة المركزية حتى لا يُخبِر الرسولُ بوجوده ولا يُجبَر على تولي القضاء، ثم اختفى(2) .

---

(1) ابن خليفة، فهرست ما رواه عن شيوخه، ص. 301.

(2) بغية، ص. 154، 243، 245.

وفي الواقع لم يكن المثقفون يخشون السلطة بقدر ما يخشون السعايات التي حتى وإن تركتهم على قيد الحياة، فإنها قد تحيل حياتهم جحيما وتنفر عنهم معارفهم. وغالباً ما يكون الحسد سبب هذه السعايات. ومما انتشر من أنواع المحنة النفي والتغريب وقد يكون داخل

الأندلس أو خارجها، والعزل من الوظيف أو التكليف، من غير نقصٍّ(1) .

وقد يتعرض المثقفون للأسر في تنقلاتهم وأسفارهم، وهذا لا دور للسلطة فيه، لكن قد يبطش القراصنة بالأسرى دون مفاداة؛ كما أن بعضهم قد ينكل به لمجرد

---

(1) الإحاطة، ج 3، ص. 87 ؛ السيوطي، بغية، ص. 265 .

وجوده في مركز حلت به سلطة جديدة وهو غريب عن بلده، كحالة ابن الصقر الخزرجي الذي سمح الموحدون عند دخوله مراكش ببيعه مع أسرته ضمن جماعة كبيرة، ثم عفوا عنه بعد المحنة(1) .

ومن السعايات المهلكة أن الفقيه أبا بكر الجياني انتقد موقف المنصور الموحدي بإنهاء التقليد وبالعمل بالحديث فوصلت به السعاية إلى العاهل، ومات بعد محنة. وقبله نكب الكاتب أحمد بن عطية وأخوه فَقُيّدَا وسُجنا مدة بعد محاكمة صورية. وأُعْدِما بعد ذلك بأمر عبد المومن، وإن كان في بعض الروايات

---

(1) الإحاطة، ج 3، ص. 87 ؛ السيوطي، بغية، ص. 265.

ما يفيد أن أحمد بن عطية أفشى بعض الأسرار التي استودعه إياها العاهل، كما أن بعض الروايات تتحدث عن تعاطفه الإنساني مع بعض بقايا المرابطين. وما لقيه كل من ابن برجان وعياض وابن العريف وأبي مدين من الإزعاج، وبعضهم حتى من الهوان، لا يحتاج إلى إعادة تفصيل ولو أن تهمة عياض كانت واضحة وضوح حجته عن الثورة. أما الآخرون، فشعبيتهم وحدها كانت سبب مخاوف السلطة وإزعاجها إياهم، وتبعت النكبات الأندلسيين حتى في مَهاجرهم كما حدث ببخارى وكان بها عدد منهم. فلما استولى التتر على بخارى، استشهد بها حسب بعض الروايات

(3224/1)

أحد عشر ألف مدرس(1) ، وذلك سنة 616 هـ

الخزائن

استمر الاِهتمام بإنشاء الخزائن وتنميتها من أكثر الظواهر انتشاراً بين المثقفين خصوصاً الذين تسمح مواردهم أو جاههم بالحصول على النفائس من المؤلفات، وبالإِكثار من جمع

الكتب. وغالباً ما يبدأ ذلك في مرحلة الطلب ليصبح

هواية بل ولعاً بعد ذلك وبعض ملوك الطوائف لم تمنعهم اهتماماتهم السياسية من العناية باقتناء الكتب حتى قيل عن مجاهد العامري إنه جمع منها

---

(1) مؤلف مجهول، الذخيرة، ص. 55 ؛ ابن عذارى، بيان (موحدي)، ص. 57 ؛ المقري، نفح، ج 2، ص. 263 ؛ ج 7، ص. 110.

(3225/1)

ما لم يجمعه أحد من نظرائه. كما أحاط نفسه بمجموعة من الفقهاء والأدباء يفترض أنهم كانوا يرجعون إلى خزانته. وكان لابن حزم خزانة ضخمة كانت كتب الحديث تشغل منها حيزاً كبيرا. وهذا، بالإضافة إلى مؤلفاته في عدة مجالات حتى عدت بأربعمائة مؤلف. بينما كانت خزانة سراج بن عبد الملك القرطبي معظمها في الآداب واللغات. وعمل اليهودي ابن نغرالة وزير باديس بن حبوس أمير غرناطة على اقتناء الكتب التي حمل نجله يوسف على قراءتها كما أحاطه بالمعلمين والأدباء لتثقيفه. وألف ابن نغرالة نفسه مجموعة من المؤلفات في الرياضيات

(3226/1)

والمنطق. أما المظفر بن الأفطس أمير بطليوس، فاقتنى كميات ضخمة كان أغلبها في الأدب والنحو والتاريخ، وهي مصادر تأليفه الذي قيل إنه بلغ خمسين مجلداً، وقيل عشرة ضخام(1) .

وممن اشتهروا بأهمية خزائنهم في عصر المرابطين محمد بن سليمان النفزي وعبد الله بن حيان الذي يظهر أن الكثير من مقتنياته كانت من المشرق الذي درس به.

أما جعفر بن محمد بن مكي

---

(1) الحميدي، جذوة، ص. 290 ؛ ابن بشكوال، الصلة، ص. 222، 395، 500 ؛ المراكشي، المعجب، ص. 75 ؛ الإحاطة، ج 1، ص.438؛ أعمال الأعلام، ج 2، ص. 218 ؛ نفح، ج 4، ص. 351.

القرطبي العالم اللغوي، فخزانته كانت تضم العديد من كتب الآداب واللغات (اللهجات؟). وقام المقرئ محمد بن عيسى بن فرج المغامي الطليطلي بتحبيس كتبه على طلبة العدوة المغربية. وهم دون شك أحوج إليها من أهل الأندلس. وياقوت يغير شيئاً من نسب هذا العالم(1) .

وكانت قرطبة أعظم سوق للكتب إلى درجة أنها لم تكن مقصودة من المثقفين الميسورين فحسب، بل كان مزادها شعبياً كما سُجل ذلك حتى عصر الموحدين، لأن الأثرياء حتى من العوام

---

(1) الصلة، ص. 278، 528، 549 ؛ ياقوت، معجم البلدان، مادة »مغام«؛ السيوطي، بغية، ص. 212.

(3228/1)

الأميين كانوا يتنافسون في اقتناء الكتب وتزيين خزائنهم بها ويبحثون عن نفائسها وما كتب بخط مؤلفيها أو غيرهم من المشاهير. وينقل المقري عن ابن سعيد المغربي أن ابن زهر فاخر
الفقيه ابن رشد بإشبيلية. فرد عليه ابن رشد بأنه إذا مات عالم بإشبيلية، حملت كتبه إلى قرطبة لتباع بها. وإذا مات مطرب بقرطبة، حملت كتبه إلى إشبيلية(1) . وكان البحث عن الكتب الصحيحة المضبوطة أكثر من غيرها مثل كتب ابن خير التي بيعت بأثمان غالية بعد وفاته. واشتهر معاصره المحدث أبو عمر بن عياذ باقتناء الكتب أيضاً. كما

(1) نفح، ج 2، ص. 11.

(3229/1)

أن المحدث عيسى الرعيني المالقي كان يجلب المزيد من المصنفات التي لم تكن قد وصلت إلى أقطار المغرب.

وكان أحد الهواة المثقفين واسمه أبو الحجاج يوسف المراني قد حصل والده على كميات كبيرة من كتب الطب والتنجيم أيام الفتنة (بداية القرن 5)، فصودرت منه بأمر العاهل الموحدي أبي يعقوب يوسف الذي ولع بجمع كتب الفلسفة والطب. وقد أرضى الشخص المذكور بولاية إدارية كبيرة. وكانت الكتب تجمع له من الأندلس والمغرب الكبير. وأصبحت خزائنه شبه المتخصصة تداني في عظمتها خزانة الحكم المستنصر الأموي (قرن 4). وبذلك أصبحت

(3230/1)

أمانتها وظيفة سامية لا تسند إلا لكبار العلماء المؤهلين(1).

ويتضح مما سبق:

1- أن اقتناء الكتب وإنشاء الخزائن انتشر أكثر من ذي قبل.

2- فشو ظاهرة التخصص في رصيد الخزائن وإن كانت موجودة في عصر الريادة.

3- تزايد شعبية الكتاب بالأندلس، ولاسيما بقرطبة.

الدراسة والمدرسون

هيأ عصر الريادة أشياء كثيرة في مجالات الدراسة والتدريس، لما بعده من الأجيال. فإذا استمرت الكتاتيب القرآنية تؤدي مهمتها

---

(1) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص. 238-239؛ الذهبي، تذكرة، ج 4، ص. 1367، 1458؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص.184.

من غير تطور يذكر، فإن عددا ضخما من المصنفات مختصرة ومطولة، وفي مجال الإبداع ومختلف ميادين المعرفة أخذ مكانه لمدة طويلة في حلقات التدريس والمجالس الخاصة والفتاوي والخزائن، على الرغم من ضياع آلاف المخطوطات التي للكثير منها أهمية

موسوعية. ومن بين المؤلفات التي أخذت باهتمام الدارسين: كتاب »الوثائق« لابن الهندي، »مجالس« أصبغ بن الفرج، وكتاب »الفرائض« لعبد الملك بن حبيب، ومصنفات القاضي ابن مفرج وابن أبي زمنين وأبي عمر الطلمنكي وابن الحذّاء التميمي(1)

---

(1) ابن خليفة، فهرست ما رواه عن شيوخه، صص. 252–259، 265، 442–444.

(3232/1)

.

وكان من مقروءات القرن الخامس وما أنتج خلاله، كتب ابن سيده وكتب ابن حزم(1). ويكاد التراث الشعري لهذا القرن يستبد وحده باهتمام الدارسين والقراء عبر الأجيال اللاحقة، فيما يخص الشعر الأندلسي، مع بعض الاِستثناءات الشعرية الأخرى لأهل الأندلس. وبإضافة التراث الأدبي والعلمي المتنوع، والذي ظهر خلال القرنين 5–6، تكون الخزانة الأندلسية قد بلغت أوجها ضخامة ونوعا، لأن حركة الاِسترداد والهجرات المتتالية وانحصار الرقعة الأندلسية بعد ذلك كان من شأنه تقليص النشاط العلمي والفكري ولو

(1) المصدر نفسه، صص. 446–450.

(3233/1)

أنه لم يتوقف حتى آخر لحظة.

ونظرا للتطورات المعرفية، واستقلال عدد من العلوم بعضها عن بعض وما يتطلبه اكتساب المعرفة من تضحيات سواء من جانب الآباء أو من جانب الأبناء، بالإضافة إلى تشابك أنماط الحياة الاِجتماعية بالأندلس والمشرق، فإن كثيراً من الفقهاء وخبراء التربية قد اهتموا منذ القرن الخامس بالفكر التربوي والبيداغوجي، كأبي بكر الطرطوشي وابن حزم الذي ألف »مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض«، وأبي بكر المرادي الذي ضمن كتابه في السياسة أفكارا تربوية(1)

(1) الحميدي، جذوة، ص. 291 ؛ أبو بكر المرادي، السياسة، ص. 71.

(3234/1)

.

وبالرغم من أهمية الحفظ للدارس، خلال المرحلة السابقة (قرن 2–4)، فإن مكانته ازدادت قيمة ومحورية، لكن ليس على حساب الدراية التي بقي لها دائما أنصارها الكثيرون على كل حال. وحيث تورد كتب التراجم »العناية بالرواية« بالنسبة لعالم أو مدرس، فذلك دليل على الإهتمام بالحفظ مقابل »الدراية«. وقبل تفصيل هذه النقطة يمكن القول بإيجاز إن الحفظ يمثل أحد أربعة شروط أو خمسة تميز ثقافة التواصل.

والشروط الأخرى هي: ضبط ما يرويه المثقف أو يكتبه، وحسن الخَط، والدراية والرواية.

(3235/1)

1– هناك الذين جمعوا بين الحفظ والضبط والدراية والرواية وحسن الخَط(1). والمقصود بالرواية ما روي عن أساتذة بإسناد أو غيره، وقد يكون كتباً أو موضوعات أو أحاديث أو إفادات. وبالضبط يقتضي ضبط ما يُروَى أو يكتب، أي إتقانه وتحقيقه من حيث جوهر المادة. أما الدراية، فتقتضي فهم ما يُقرأ أو يحفظ، مع حسن التصرف في تبليغه وحتى تطويره عند الحاجة.

2– من جمعوا بين الضبط والرواية والدراية وحسن

الخط(2).

---

(1) ابن بشكوال، الصلة، ص. 586.

(2) م.ن، ص. 511، 648.

(3236/1)

3- من جمع بين الحفظ والرواية والدراية وحسن الخط(1).

4- من جمع بين الدراية والرواية والضبط(2).

5- من جمع بين الضبط والرواية وحسن الخط(3).

6- من وصف باثنين أو واحد من الشروط المذكورة(4).

7- من لا يضبط ما يرويه أو يكتبه، وهو أمي قد يحفظ فقط سماعاً وجزئيا(5).

وحسن الخط بالنسبة لما قبل انتشار الطباعة ظل شرطاً أساسيا من شروط التواصل الثقافي. وهواة الكتب يفضلون المخطوط المكتوب بخط جميل ومقروء

---

(1) م.ن، ص. 225.

(2) م.ن، ص. 101.

(3) م.ن، ص. 142، 147.

(4) م.ن، ص. 74، 277، 347، 379، 464، 468.

(5) م.ن، ص. 78، 163.

على غيره. وقد يبذلون أضعاف ثمن نسخ أخرى بخط رديء. وتظل صفات المدرس المثالي متشابهة عبر العالم الإسلامي بما فيه الأندلس، حيث ينظر إليه على أنه ذلك الذي يجسم المشاركة العلمية الواسعة، ويتميز بسَمْتِه ووقاره وتقواه وورعه. أما إذا لم يكن يأخذ أجراً على تعليمه بالإضافة إلى الصفات المذكورة، فذاك قمة المثالية. وعادة ما تعني المشاركة أحد الاِتجاهات التالية(1):

1- معرفة واسعة بالعلوم الدينية؛

2- معرفة واسعة بالعلوم الدينية والأدب؛

(1) السيوطي، بغية الوعاة، ص. 280، 283، 298، 300.

3- معرفة واسعة بعلوم الدين واللغة.

وهناك حالات من المشاركة تتجاوز هذه المجالات شكلا ومحتوى مثل حالة ابن حزم الذي كان منطقياً فيلسوفاً ومؤرخاً وفقيها ومحدثاً ومبدعاً في المجال الأدبي، إلخ.

وحالة هشام الكناني الوقشي (قرن 5) الذي جمع بين علوم اللغة والفقه والأدب وأصول الدين وأصول الفقه والفرائض والهندسة والحساب والفلسفة(1). وتميز ابن حزم بخصوصياته المذهبية ونظرياته وكثرة تآليفه وعمقها الفكري والجدلي.

---

(1) الصلة، ص. 617–618.

أما طبائع الأساتذة، فتختلف حسب الأشخاص أو عيناتهم، بقدر ما تختلف أساليب تبليغهم. وعلى سبيل المثل، فالفقيه المحدث ابن خيرة القرطبي (قرن 6) والذي عاش بالمشرق وصف بأن علمه كان »... أوفر من منطقه، ولم يرزق فصاحة ولا حسن إيراد«. ويحيى بن إبراهيم اللواتي نسب إليه الكذب وادعاء الرواية عمن لم يلقهم. وقيل إن ذلك كان في أواخر عمره بعد أن اختلط(1).

واشتهر العالم الأديب إبراهيم بن يوسف الأوسي بمرحه واجتذابه لجمهور مالقة ومرسية، وذلك ببراعته في تقريب المعلومات بواسطة

---

(1) م.ن، ص. 634 ؛ المقري، نفح، ج 3، ص. 10.

التشبيه والتمثيل وحسن الإلقاء. وعرف كثير من الشيوخ ببَرّهم وأعمالهم الصالحة. وعدد منهم ينفق من دخله على طلابه وأصحابه لإطعامهم مثل أبي الربيع سليمان الكلاعي وكان يحتمل مؤونة طلابه، ومحمد بن سعدون وهو قيرواني الأصل، وإبراهيم بن خلف الذي كان موثقا لا يقبل أجراً ويحنو على الضعفاء واليتامى. ومثله في التطوع أبو عمر بن عات الذي كان كثير الإحسان يتطوع للأذان والإمامة(1)

(1) الصلة، ص. 560، 577؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص. 325، 364؛ ج 2، ص. 482؛ النباهي، المرقبة العليا، ص. 119؛ المقري، نفح، ج 3، ص. 358.

.

وطلبة الأندلس لم يكونوا كلهم على مستوى واحد من احترام الأساتذة، لأن كثيراً من هؤلاء يؤدون محاضراتهم

دون نقاش، وبعضهم يتبرم من الأسئلة، ولكن فريقاً كبيراً كان يحتمل جرأة الطلبة ومضايقاتهم. ولا ريب أن أنجحهم في طرق التدريس أولئك الذين كانوا يلجأون إلى المناظرة، أي إدارة النقاش بين الحاضرين ومع الأستاذ نفسه. وهكذا قيل عن أحمد بن محمد الإشبيلي عالم النحو وعلوم اللسان إنه كان أيام دراسته على ابن الرماك يكثر من سؤاله ومباحثه. وتعرض الطلبة مرة لابن باجه مستهزئين وسألوه: ما يحمل الفقيه من العلوم؟

(3242/1)

فأجابهم بما يقتضيه الحال وسبهم(1). وبذلك لم ترفعه ثقافته إلى المستوى الخلقي الملائم لها. ولعل الأديب الفرنسي فونتونيل (Fontenelle) المتأخر عنه بقرون يتحدث عن تجربة صائبة حين يقول: »العالم يزداد علما كلما ازداد احترامه للجاهل، بالِاستماع إليه والِاطلاع على ما عنده...«.

وبالنسبة لفئة من الدارسين، لا حدود لمرحلة الطلب أو لتقمص شخصية الطالب. فالحسن بن بَكر السمّاد ظل يدرُس طالباً منذ فتوته حتى مات عن سن تجاوزت الثمانين. ومثله

(1) الذهبي، تذكرة، ج 4، ص. 1339 ؛ السيوطي، بغية، ص. 158 ؛ نفح، ج 4، ص. 345.

(3243/1)

في مبدإ طلب العلم حتى الموت محمد بن الحسن الخولاني من ألمرية. وقد دَرس دراسة جيدة بالمشرق. والحسن بن علي الفاسي الذي وفد على الأندلس وتابع حضور الدروس محتسبا حتى وفاته(1). فقد كان اكتساب المعرفة المستمر لا يعني مجرد ولع أو ظاهرة، بل يدخل في نطاق المثاليات الدينية.

وإذا كانت المناظرة معتادة بين الطلاب وبإشراف الأستاذ، فإنها أيضاً تكون بين الأساتذة أو في إطار شريحة المثقفين عموماً. وربما أصبحت مناظرة مكتوبة أيضاً. وقد ناظر العالم ابن الحداد (من منطقة بلنسية) أحد القضاة

(1) الصلة، ص. 135، 138، 542.

(3244/1)

وهو عيسى بن سهل الذي لقيه ابن الحداد بطنجة، ثم أردف ابن الحداد نقاشه برسالة تتضمن أسئلة دقيقة طلب من القاضي المذكور أن يجيب عنها. وسمى الرسالة: »رسالة الاِمتحان لمن برز في علم الشريعة والقرآن«(1).

ولكثير من الأساتذة مسجدهم الخاص يعظون فيه أو يلقون دروساً معينة. وقد أصبح أخذ الأجر على التعليم في العديد من المساجد أمراً مألوفاً، لأن الطلاب –كما ينقل المقري عن ابن سعيد المغربي– يقرأون ليتعلموا لا ليأخذوا أجراً بعد مرحلة الدراسة(2)

---

(1) م.ن، ص. 557 ؛ ابن الأبار، تكملة، ص. 23.

(2) الصلة، ص. 330، 334، 348 ؛ نفح، ج 1، ص. 205.

(3245/1)

. لكن ما يقوله ابن سعيد غير صحيح بشكل مطلق. ولو كان حقا، لخلت دوائر الدولة من مآت الموظفين والكتاب وحتى عشرات الأدباء والشعراء الذين يتقربون إلى الأمراء والملوك وكبار الشخصيات.

وبكلمة موجزة، فإن هذا العصر تميز في حقل التدريس:

1– بانتشار طريقة المناظرة وقد سبق الحديث عنها؛

2– باللجوء إلى حفظ الأراجيز ونظمها في مجالات المعرفة

لتركيزها وضبط أسسها. وعلى الأقل، فالظاهرة فشت بشكل ملحوظ بعد أن برزت في العصر السابق؛

3- بانتشار عملية اختصار الكتب المطولة. وهي أيضاً من مبادرات العصر السابق؛

(3246/1)

4- بانتشار حُمَّى الشهادات أو ما كان يعرف بالإجازة، وبالمناولة...؛

5- بالِاهتمام المتزايد بشرح نصوص أو مؤلفات.

ومن الأراجيز، ما نظم من قراءة نافع وقراءة ابن كثير لأحمد بن عبد العزيز الفهري؛ وفي الفقه لأبي الربيع سليمان الغافقي؛ وفي النحو شرح لها، لأحمد الفهري المذكور؛ وفي الخط له أيضاً(1).

أما اختصار الكتب فيتناول إما المادة العلمية نفسها أو اختصار كتاب مطول في المادة وهو أكثر. وتتسع الظاهرة كثيراً في القرن السادس،

---

(1) ابن الأبار، تكملة، ص. 47 ؛ الوادي آشي، برنامج، ص. 303 ؛ السيوطي، بغية، ص. 140.

(3247/1)

ثم فيما لحقه من قرون. ومن المختصرات واحد لابن عياش محمد التجيبي في إصلاح المنطق، وآخر لأحمد بن مفرج في تلخيص كتاب الدارقطني في غريب حديث مالك واختصر أحمد بن علي بن عبد ربه (ت 602 هـ) كتاب »الأغاني« للأصبهاني. كما اختصر ابن القصير عبد الرحمن الأزدي كتاب »الجمل« لابن
خاقان الأصبهاني. واختصر ابن الفرس عبد المنعم الخزرجي »الأحكام السلطانية« للماوردي(1). ولا يعني وضع المختصرات أنها كلها أدرجت ضمن المؤلفات الدراسية. ومن جهة أخرى، ظل عدد

(1) تكملة، ص. 121؛ إحاطة، ج 2، ص. 483؛ ج 3، ص. 229، 483، 543.

من الشيوخ يقومون على تدريس مؤلفاتهم الخاصة. والظاهرة قلت عن ذي قبل، مما يدل على أن الكثير مما كتب سابقاً ما زال يحظى برضى الطلاب والشيوخ معاً، إذ لم يكن قد اكتسب نوعا من القداسة، ولو أن الحكم ليس مطلقاً. وكان الرجوع إلى المزيد من المختصرات

يعني استحالة دراسة المطولات التي تكاثرت وشملت مختلف الفنون والعلوم.

والبحث عن الإجازات أخذ أيضاً بعداً يتجاوز بكثير ما كان عليه الأمر في الماضي خصوصاً منذ القرن السادس، وهي إما مباشرة أو بالمراسلة كما أنها قد تكون جزئية أو شاملة لمرويات الشيخ أو مؤلفاته.

(3249/1)

ويحرص الذين يتلقون معارفهم خارج الأندلس على أن يعودوا بأكثر ما يمكن من الإجازات. كما أن موضة الإجازة بالمراسلة طغت لدى طلاب الأندلس، مثل ابن الخراط عبد الحق الأزدي الإشبيلي الذي أجازه مكاتبه من المشرق، أبو بكر بن عساكر وغيره، وابن سيد الناس الذي حصل على الإجازة من أربعمائة عالم بالمشرق والمغرب، وابن عبيد الله الحجري الذي تلقى الإجازة من عياض والمازري والسلفي(1)

---

(1) ابن الشاط، الإشراف على أعلى شرف، ص. 77 ؛ الذهبي، تذكرة، ج 4، ص. 1269، 1350، 1351. وقد حصل العالم السلفي على إجازات من علماء الأندلس (انظر لسعيد أعراب بحثا في مجلة دار الحديث، 1981).

. وهناك من درسوا على عشرات الشيوخ ولم يحصلوا إلا على إجازات بعضهم. وبالمقابل، فبعض الأساتذة لا يجيزون إلاَّ مروياتهم الخاصة أو المؤلفات التي درسوها على شيوخهم أو أجازهم هؤلاء بها(1). وقد يجيز بعض الشيوخ مصنفات وهم يرفضون تدريسها، مثل كتاب « المعارف« لابن قتيبة. وكانوا ينتقدون بعض محتوياته حتى كان أحمد بن عون الله يسميه كتاب »المناكر«(2)... ومن الشيوخ من كانوا

(1) ابن خليفة، فهرست، ص. 446 ؛ الذهبي، تذكرة، ج 4، ص. 1349، 1426، 1427 ؛ السيوطي، بغية الوعاة، ص. 167.

(2) ابن خليفة، م.س، ص. 377، 378.

يرفضون الإجازة الجزئية لبعض طلابهم، مثل المقرئ أبي الحسن بن هذيل الذي رفض أن

يجيز ابن حوط الله عن جزء من كتاب تلقاه عنه في قراءة ورش. ولكن الإجازات من علماء
الأندلس لطلابهم أو مكاتبيهم بدأت تتكاثر حتى مع تحفظات بعضهم(1). بل إن في الطلاب من حرصوا على الحصول على الإجازة العامة من شخصيات كبيرة وبشتى وجوه الإجازة دفعة واحدة، مثل حالة ابن الوزان الذي حصل مع أبي الوليد ابن رشد على إجازة كل المؤلفات التي تلقاها قراءة أو سماعا أو

---

(1) ابن الشاط، الإشراف، ص. 55، 66، 79 ؛ الذهبي، تذكرة، ج 4، ص. 1397.

مناولة أو بالإجازة(1). وقد مر ما يشبه هذه الإجازة العامة خلال القرن الثالث أيضا(2). وظل ابن خليفة الأموي حتى السنوات الأخيرة من حياته، يحصد الإجازات وقد تجاوز الستين من عمره(3).
وفيما يخص شرح النصوص، فقد اتجه معظمها إلى الأدب واللغة مثل »شرح جمل الزجاجي« لإبراهيم الحضري، وشرح آخر لنفس الكتاب وضعه إبراهيم الأعلم البطليوسي الذي شرح أيضا »الكامل« للمبرد، و»الأمالي« و»الإيضاح«

لأبي علي الفارسي. ومن الشروح اللغوية: »التبيين والتنقيح لما ورد من

---

(1) ابن خليفة، ص. 453.

(2) م.ن، ص. 454.

(3) م.ن، ص. 425.

(3253/1)

الغريب في كتاب الفصيح« لإبراهيم البونسي الشريشي(1).

التواصل الثقافي

ازداد هذا التواصل حجما ونوعاً بين طلاب الأندلس ومثقفيهم من جهة، وبين أقطار المغرب وأقطار المشرق من جهة أخرى. وهو تواصل اتسع مداه في الِاتجاهين، لكن المشارقة أقل تحمساً للقدوم إلى الأندلس، ولو أنهم ما زالوا يفدون بأعداد محدودة. كما أن تبادل الإِنتاج المعرفي والإِبداعي ازداد حجمه خصوصاً مع توافد الأندلسيين على أقطار المشرق بكثرة، واستقرار عدد منهم هناك مدة طويلة أو بصفة نهائية حيث يكتبون

---

(1) ابن الأبار، تكملة، ص. 158، 170، 172.

إنتاجهم كُلًّا أو بعضاً هناك أما تبادل الأفكار والمذاهب، فالرقابة المرابطية والموحدية كانت بوجه عام أكثر صرامة مما كان عليه الأمر في مرحلة الريادة. ومع ذلك، فأفكار ابن باجة وابن رشد انتقلت إلى المشرق الذي استعاد السنيون فيه قوتهم في النصف الثاني من القرن السادس بفضل صلاح الدين الأيوبي وخلفائه. وبعض المذاهب السنية بقي لها وجود قوي أحيانا كما هو الشأن في المذهب الظاهري وحتى الشافعي الذي شجعه بشكل ما، المنصور الموحدي. وتكاد معظم فنون المعرفة يكوِّن كل منها مدرسة أندلسية بمعالمها البارزة، بما في

ذلك الفلسفة والفقه والنحو والعلوم الطبيعية.

1- المغاربيون بالأندلس:

هؤلاء يأتون من جميع أقطار المغرب، خصوصاً المغرب الأقصى، إما طلاباً أو مدرسين وحتى تجاراً ومثقفين وأدباء وموظفين. ومن بينهم عبد الله بن إبراهيم الكتامي السبتي وهو متخصص في الفقه والتوحيد والعقيدة،

وكان يخلف أبا الوليد الباجي في التدريس إذا غاب. وكان هذا النظام معمولا به في الأندلس، وهو أشبه بمهمة المعيد اليوم. ويتضح من خلال اتجاهه المعرفي أنه اشتغل بتدريس التوحيد والعقيدة بسبتة قبل التحاقه بالأندلس، ووفاته سبقت وفاة أبي بكر

(3256/1)

المرادي بسنوات كثيرة، لأن المرادي ينسب إليه أنه أول من أدخل التوحيد إلى المغرب. وكان من الوافدين إبراهيم بن جعفر اللواتي السبتي معاصر يوسف بن تاشفين. تابع دراسته بالأندلس وعمل لفترة كاتبا لبعض قضاتها، وكان أصولياً أديباً (ت. 513). ومن الذين اشتغلوا بدراسة الفقه مع ظهور المرابطين وحاجتهم إلى الفقهاء: موسى بن حماد الصنهاجي الذي عين قاضيا بمراكش (ت. 535). وممن اشتغلوا بدراسة القراءات موسى بن سليمان اللخمي الذي استقر بألمرية حيث اشتغل بالإقراء (ت. 494). وأشهر الدارسين وكبار الشيوخ هو عياض السبتي

(3257/1)

الذي تولى القضاء زمنا بالأندلس، وشيخه أبو عبد الله بن عيسى الذي تلقى شطراً من دراسته الفقهية بالأندلس قبل أن يصبح هو نفسه عمدة في الفتيا وتدريس الفقه بسبتة حيث كان يتلقى استشارات كبار قضاة الأندلس وتولى قضاء سبتة (ت. 505). وكان من الدارسين إسحاق المجابري الفاسي الذي درس الفقه بمرسية وتولى فيما بعد قضاء بلنسية. وكان يقوم على تدريس المدونة شأن عبد الله الكتامي السابق ذكره وكان يخلف الباجي في تدريسها(1)

---

(1) عياض، مدارك، ج 8، ص. 169، 200؛ ابن بشكوال، صلة، ص. 102، 289، 579؛ ابن الأبار، تكملة، ص. 195.

(3258/1)

. وتوفي المجابري سنة 606.

أما المثقفون البارزون من أصل مغاربي، فكثيرون. وهم إما طارئون أو من أعقاب وافدين من أقطار المغرب.

ومنهم الكاتبان الشاعران عبد الرحمن الفازازي وأخوه محمد، وابن دحية الكلبي عمر بن الحسن وأخوه عثمان، وكلاهما درس بالأندلس والمشرق، وأصلهما من سبتة، لكن عمر أوسع ثقافة وأبرز شخصية(1)، لأن عثمان كان

يُنتقد عليه أن معارفه غير موثقة. والغرباء بالأندلس نادراً ما يسلمون من النقد، مثل منصور المغراوي المقرئ الذي وجد من يضعف

---

(1) سيوطي، بغية، ص. 322، 360؛ المقري، نفح، ج 6، ص. 211.

(3259/1)

معلوماته(1).

وأغلب الوافدين من المغربين الأوسط والأدنى استقروا للتدريس بالأندلس، ولاسيما إذا تميزوا بقدراتهم الخاصة، مثل أبي مروان الطبني المحدث اللغوي الذي ترك أثرا كبيرا بالأندلس لكثرة الطلبة الذين درسوا عليه، وتعددهم كتب التراجم. وعبد الرحمن الهمداني الوهراني المحدث الذي كان من طلبته ابن عبد البر المحدث، وعلي بن حزم. كما كان من الوافدين عبد الله بن حمو المسيلي، وهو فقيه متميز استقر بألمرية

---

(1) ابن بشكوال، الصلة، ص. 586؛ وانظر أيضا: نفح، ج 4، ص. 132؛ ج 5، ص. 62؛ Pérès, La poésie..., p. 45.

(3260/1)

للتدريس، وقيل أصله من سبتة التي غادرها مع الزحف المرابطي على ما يظهر. وكل هؤلاء الثلاثة وفدوا من المغرب الأوسط(1).

ومن الوافدين من إفريقية محمد بن داود العكي، ورد طالبا، ثم تولى فيما بعد قضاء تلمسان ثم إشبيلية ففاس (ت. 525) ومحمد بن أبي سعيد الجذامي من القيروان، لجأ إلى الأندلس سنة 447 مع الزحف العربي على القيروان. وهو أديب لامع ألف كتبا في الأدب. وأحمد بن عمار المهدوي الذي قام بتدريس القراءات والأدب وعاصر ملوك

(1) الحميدي، جذوة، ص. 256 ؛ ابن بشكوال، الصلة، ص. 287، 305 ؛ المقري، نفح، ج 9، ص. 295.

(3261/1)

الطوائف. وأبو عَمْرو السفاقسي عثمان بن أبي بكر (ت. 440) ودخل الأندلس محدثا بارزا بعد دراسة واسعة بالمشرق ومكث بها نحو عامين قبل أن يذهب إلى القيروان. وأحمد بن عبد الرحمن الربعي المحدث، وقد استقر بالأندلس لتدريس الحديث وعاصر الدولة

الموحدية(1).

2– الوافدون من المشرق:

معظمهم وفدوا خلال القرن الخامس، ولاسيما في الربع الثاني منه، والباقون أغلبهم في ا لشطر الثاني من هذا القرن. وكثيرون وفدوا تجاراً، وآخرون اشتغلوا بالتدريس كما

---

(1) الصلة، ص. 88، 129، 571، 573؛ جذوة المقتبس، ص. 285؛ التكملة، ص. 128.

(3262/1)

جاء بعضهم للدراسة أو لاجئاً أو للجهاد. وهم في عامتهم مثقفون حمدت سيرتهم. والاِستثناءات في ذلك نادرة. وأكثر الوافدين من العراق(1)، وأغلبهم حنفية، ومن مراكز مختلفة من العراق. وكان من الوافدين فقيه حنفي اسمه عبد الرحمن بن محمد الرقّي، وعالم بغدادي اسمه أبو الفضل محمد التميمي الذي استقر مدة طويلة بإفريقية ثم لجأ إلى الأندلس بعد زحفة بني هلال واستقر أخيرا بطليطلة (ت. 454). وأبو البسّام موسى بن عبد الله من الكوفة، وكان أديباً لامعاً، دخل الأندلس

(1) **جذوة، صص.** 68–69 ؛ **الصلة، ص.** 123، 338، 566، 579، 587.

(3263/1)

مجاهداً ثم لقي حتفه مقتولا بالمغرب الأوسط سنة 486.

وكان القادمون من فارس وخراسان الكبرى كثيرين أيضاً في الحقبة نفسها(1)**، ومعظمهم مختصون في العلوم الدينية كالتفسير والحديث. وبينهم بعض الأدباء والتجار. وفيما يلي أسماء عدد منهم:**

– علي بن إبراهيم التبريزي المعروف بابن الخازن صاحب »التفسير« الذي كان معروفا باسم »شفاء الصدور« .

وقام على تدريس هذا التفسير مدة بطليطلة التي كان يقصدها المثقفون خلال القرن الخامس، لأنها كانت أكثر استقرارا من مناطق

(1) **جذوة، ص.** 334 ؛ **الصلة، ص.** 125، 286، 357، 406، 417، 599.

(3264/1)

الأندلس الأخرى، وكان هذا العلم شافعيا.

– عبد العزيز الشهروزري متخصص في علوم القرآن.

وقدم شيخا عالي السن ثم عاد من دانية بعد نحو عام، حيث قتله القراصنة سنة 426 هـ

– عبد الله بن الحسن المَرْوَزِي لغوي نحوي على مذهب بالكوفيين وفقيه حنبلي، وفد سنة 424.

– ثابت الجرجاني أديب لغوي منطقي قام على تدريس »شرح الجمل«، واتهم في غرناطة بالضلوع في مؤامرة سياسية فقتله باديس الصنهاجي (431 هـ).

– محمد بن الحسن الخرساني، درس عليه أبو عمر بن عبد البر، وأبو الوليد الباجي والحميدي صاحب »جذوة المقتبس« وغيرهم. توفي

(3265/1)

بعد 450 هـ

– نصْر بن الحسن الشاشي، تابع شطراً من دراسته بالأندلس، وقام بتدريس »صحيح مسلم«. وفد على الأندلس من سمرقند.

وقدم من الشام بعض التجار والمثقفين(1) كأيوب بن نَصر، وهو شافعي المذهب، وعبد الملك الحمصي، وتلقى معارفه بالعراق والحجاز، وكلاهما قدم تاجراً، وحاتم بن

محمد الطرابلسي. ويظهر أنه وفد صغيراً ثم قام برحلة دراسية واسعة بإفريقية والمشرق، وتولى الشورى بقرطبة رافضاً منصب القضاء.

---

(1) الصلة، ص. 114، 154، 349.

(3266/1)

وأبرز شخصية وافدة من مصر، هبةُ الله بن الحُسين؛ وهو عالم أصول وحديث، ورد في وفد من الشيعة بينهم أبو الوفا، لاجئين من ملاحقة صلاح الدين الأيوبي. وعمل المنصور الموحدي على تعيين هبة الله قاضيا بإشبيلية ثم بفاس، وأخيرا بتونس حيث توفي سنة 586 هـ كما عين أبا الوفا في منصب قضائي أيضا(1). ولا ريب أن اللاجئَيْن المصريين تخليا عن المذهب الشيعي في ممارسة القضاء على الأقل، ولو أن ابن تومرت أخذ عن هذا المذهب فكرة العصمة التي خص بها نفسه ولم يتحَل بها من الموحدين أحد بعده. وكيفما

---

(1) نفح الطيب، ج 4، ص. 68.

(3267/1)

كان الأمر، فالمنصور الموحدي المعروف بانفتاحه الفكري الواسع إنما اتخذ مبادرة التكريم في حق الوفد المصري كخط سياسي انتهجه المغاربيون منذ القديم في حق اللاجئين، وهو ما كانت تفعله مصر أيضاً، وأقطار مسلمة أخرى.

3- الأندلسيون بالشمال الإفريقي:

كانوا في القرن الخامس أقل عدداً بسبب الاِضطرابات الداخلية مثل الزحف المرابطي والزحف الهلالي، لكن في القرن السادس تكاثرت أعدادهم ولاسيما بمراكز الجزء الغربي من المنطقة. أما بالجزء الشرقي، فالقيروان تراجع دورها الثقافي وأصبحت المهدية أكثر نشاطاً. وبدأت أهمية سبتة

(3268/1)

وفاس ومراكش تبرز أكثر فأكثر. بل إن القرن السادس هو أهم فترات ازدهار مراكش عموما في العصر الوسيط كله. والوافدون على الشمال الإفريقي هم أكثر من أن يمكن حصرهم في دراسة موجزة وعامة. وكثير منهم هاجروا أو استقدموا للعمل في وظائف الدولة، وبعضهم مارس أعمالا حرة. ولا ريب أن عددا منهم عاش بعيداً عن الأضواء فتجاوزته كتب التراجم والكتابات

التاريخية، وربما ضاعت معه آثاره المكتوبة أيضاً، وتحتل القراءات والفقه والحديث ومواد اللغة والعقيدة مقدمة اهتمامات الأوساط الطلابية والتعليمية خصوصاً مع تدخل الدولة

(3269/1)

وتشجيعاتها لهذا الفن من فنون المعرفة أو ذاك، وكثيرون من الطلاب والدارسين لم يقتصروا في رحلتهم الدراسية على بعض مراكز الشمال الإفريقي، بل تجاوزها إلى المشرق. ومن الوافدين عموماً:

1- عبد الرحمن الخزرجي من قرطبة، حضر دروس ابن أبي زيد، والقابسي والصقلي ومحرز. واهتم بدراسة القراءات (ت. 446) وعاد إلى قرطبة للتدريس بجامعها(1).

2- محمد بن الفرج الأنصاري من طليطلة، درس على ابن مناس وآخرين بالقيروان وتخصص في الفقه والحديث(2) (ت. بعد 450).

---

(1) الصلة، صص. 319-320.

(2) م.ن، ص. 510.

(3270/1)

3- يوسف بن عبد الرحمن، من مجريط، درس بطرابلس وبرقة، خصوصا الفقه(1)، وتوفي سنة 473.

4- أبو بكر محمد البياسي. يقول عنه ابن بشكوال: رحل إلى المشرق وهو يقصد إفريقية. وكثيرا ما كان يدخلها مؤرخون أندلسيون في المشرق لأنها في اتجاهه. ودرس أبو بكر البياسي الفقه بالقيروان(2) (ت. بعد 480).

5- محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي، درس بإفريقية واتجه إلى الحديث والأدب والتاريخ. وهو صاحب «جذوة المقتبس» وغيره (ت. 488). وكان ظاهرياً من ميورقة(3).

---

(1) م.ن، ص. 642.

(2) م.ن، ص. 526.

(3) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج 4، ص. 1218.

(3271/1)

6- الحَسن بن عمر الهوزني من إشبيلية، درس قليلا بالمهدية في طريقه إلى الحج، وهو من الفقهاء. وكان الزيريون قد تحولوا إلى المهدية منذ سنة 452 بعد

الزحف العربي. ولذلك انتعشت بهذا التحول وأصبحت مركزاً للدراسات السنية(1) (ت. 512).

7- غالب بن عطية أبو بكر المحاربي من غرناطة، اهتم على الخصوص بالقراءات سواء بالمهدية أو المشرق(2) (ت. 518).

---

(1) الصلة، ص. 137-138.

(2) الداودي، طبقات المفسرين، ج 2، ص. 27؛ ابن بشكوال، الصلة، ص. 432.

(3272/1)

8- عبّاد بن سرحان، من شاطبة، درس بالأندلس، ثم بالمشرق، واتجه إلى مسائل الخلاف الفقهي. ويقول ابن بشكوال إنه استقر بالعدوة(1) حيث توفي 543 هـ

9- عبد الرحمن السهيلي المالقي، جمع بين العلوم الدينية والأدب واللغة. وهو صاحب «الروض الأنف في السيرة النبويَّة»، دُعي إلى مراكش للتدريس. وكف بصره في حداثته(2) (ت. 581. وقبره يزار بمراكش).

10- ابن عُبيد الله الحجري، محدث مقرئ، من ضواحي ألمرية، دُعِي للقضاء بسبتة، ودرس عليه بها طلاب كثيرون وصاروا من أبرز

(1) الصلة، ص. 428.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3، ص. 477.

(3273/1)

الشخصيات العلمية فيما بعد(1) (ت. 591).

11- ابن جُبير الكناني محمد بن أحمد، من بلنسية، واستقر بغرناطة، جمع بين الأدب والحديث والتصوف. واشتهرت رحلته مباشرة بعده، قضى شطرا من دراسته بسبتة، كما أن تلاميذه من أقطار المغرب كثيرون(2) (ت. 614).

12- ابن حوط الله الأنصاري داود بن سليمان من أُنْدَة التابعة لبلنسية. برز في الحديث والقراءات، وتابع دراسته بسبتة كما تولى قضاءها فيما بعد. وأنجبت أسرته مثقفين كثيرين(3) (ت. 621).

---

(1) ابن الشاط، الإشراف، ص. 74.

(2) الإحاطة، ج 2، ص. 230.

(3) م.ن، ج 1، ص. 503.

(3274/1)

4- الأندلسيون بالمشرق:

أغلب الذين وردوا في اللائحة السابقة تابعوا دراستهم بالمشرق أيضاً، وتولى عدد منهم مهمة التدريس أو القضاء بالشمال الإفريقي، لكن هناك كثيرين توجهوا إلى المشرق لقضاء وقت طويل به للدراسة وتبادل الصلة مع مثقفين من أقطار عديدة ومتباعدة أحيانا، ونال كثير منهم مكانة مرموقة هناك مدة طويلة أو بصفة نهائية. ومن بينهم:

1- أبو عَمْرو الداني عثمان بن سعيد، درس بالقيروان ومصر ومكة، واهتم خصوصاً بالقراءات، حتى أصبح أحد أئمتها في تاريخ الإسلام كله. وعندما عاد إلى الأندلس، تنقل في ظروف

(3275/1)

الحرب الأهلية بها بين عدة مدن يقيم في كل منها مدة(1) (ت. 444).

2- محمد بن الفرج الأنصاري، من طليطلة. مال إلى الفقه ودرس بالقيروان ومكة ومصر(2). (ت. بعد 450).

3- عبد الوهاب بن محمد الأنصاري من أشونة. درس بدمشق ومصر ومكة وميافارقين بالجزيرة. وغلبت عليه القراءات(3) (ت. 462).

4- أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف، من قرطبة، وسكن شرق الأندلس. قضى ثلاثة عشر عاما بالمشرق، فيما بين مكة وبغداد والموصل. درس الفقه المالكي

---

(1) ياقوت، معجم الأدباء، ج 12، ص. 124.

(2) الحميدي، الجذوة، ص. 298.

(3) الصلة، ص. 362.

(3276/1)

والشافعي والحنفي، وتعمق في الحديث. (ت. 474)، وله مناظرات مع ابن حزم. وهو من أبرز الفقهاء والمحدثين(1)، وتلاميذه كثيرون.

5- ابن سكرة أبو علي الصدَفي حُسين بن محمد، من سرقسطة. قضى بالمشرق تسع سنوات موزعة بين الحجاز والعراق والشام ومصر. وهو فقيه ومحدث كبير. وكان من شيوخ عياض(2). توفي شهيدا في وقعة قتندة 514 هـ

6- أبو بكر عبد الله بن طلحة اليابري، رحل إلى مكة ومصر، وتضلع في النحو والتفسير وقام بتدريس سيبويه

---

(1) م.ن، ص. 197.

(2) م.ن، ص. 143 ؛ الذهبي، تذكرة، ج 4، ص. 1253 ؛ المقري، أزهار، ج 3، ص. 151.

(3277/1)

بمكة. ومن تلاميذه جار الله الزمخشري. له مؤلفات في الفقه والأصول والتفسير وفي الرد على ابن حزم(1). توفي بمكة بعد 516.

7- أبو محمد بن الوليد الطرطوشي، رحل إلى المشرق سنة 476، وشملت رحلته العراق ودمشق وبيت المقدس ومصر. وهو فقيه كبير وعالم مشارك وقام بالتدريس في الشام ومصر التي حاز فيها شعبية كبيرة بالإسكندرية حيث درس عليه كثيرون، كما دُعي للتدريس بالقاهرة على يد الأفضل، وعاد بعد ذلك إلى الإسكندرية حيث توفي 520. ويبدو داعية إلى الإصلاح السياسي والديني دون طمع في الجاه. وله

---

(1) أزهار، ج 3، ص. 77.

(3278/1)

جملة كتب، خصوصا »سراج الملوك« و»مسائل الخلاف«(1).

8- سعْد الخير بن محمد الأنصاري البلنسي، محدث، درس ببغداد وأصبهان وبلغت رحلته إلى الصين التي تعلم لغتها وكتب بها. ثم استقر ببغداد التي توفي بها سنة 541. ومن تلاميذه ابن عساكر وأبو الفرج بن الجوزي(2).

9- أبو بكر بن العربي محمد بن عبد الله، من إشبيلية. رحل إلى المشرق في سن السابعة عشرة، وتلقى دراسة معمقة في شتى فنون المعرفة الإسلامية موزعاً رحلته بين الشام ومكة وبغداد ومصر،

---

(1) م.ن، ص. 163 ؛ ياقوت، معجم البلدان، مادة »طرطوشة«.

(2) نفح، ج 3، ص. 388.

واستغرقت رحلته عشر سنوات. وله مؤلفات في الفقه والحديث وعلوم القرآن وغيرها. توفي في الطريق من مراكش إلى فاس(1) التي دفن بها سنة 543.

10- علي بن سليمان المرادي الشقوري الفرغليطي. رحل

إلى خراسان سنة 525 وشملت رحلته أيضا العراق وسوريا، وجمع بين الحديث والفقه الشافعي الذي تمذهب به. وتولى التدريس بحماة وحلب(2) التي توفي بها سنة 544.

---

(1) الصلة، ص. 558 ؛ الداودي، طبقات المفسرين، ج 2، ص. 168 ؛ المقري، نفح، ص. 222 ؛ أزهار الرياض، ج 3، ص. 91.

(2) ياقوت، م.س، مادة »فرغليط«.

(3280/1)

11- أبو بكر بن السرّاج محمد بن عبد الملك، من شَنْتَمَرِيَة. رحل إلى مصر سنة 515، وقام بتدريس العربية كما فعل باليمن قبل أن يستقر بمصر نهائيا. وابن بري المصري من أشهر تلاميذه. وكان يعاشر السلفي بمصر. وله تآليف في العربية(1)، توفي سنة 549.

12- أبو مروان عبد الملك بن زهر، أسرته فيها العالم والأديب والفقيه والطبيب. وهو من شخصيات القرن الخامس. مارس الطب بالمشرق وكان رئيس الأطباء ببغداد ثم بمصر والقيروان. واستقر أخيرا بدانية ونال شهرة كبيرة(2)، وعرف عند النصارى بـ

(1) نفح، ج 3، ص.7.

(2) م.ن، ص. 13.

(3281/1)

.Avenzohar

13- أبو بكر الأنصاري الجياني رحل إلى المشرق للدراسة، وشملت رحلته مصر والشام والعراق وخراسان وما وراء النهر خصوصا بخارى وسمرقند، ودرس الفقه والخلافات الفقهية ومهر في الحديث وقام بتدريسه، واستوطن حلب في نهاية المطاف(1)، وبها توفي سنة 563.

14- أبو طالب عبد الجبار المعافري، طاف بالمشرق، ودرس ببغداد كما تولى التدريس بها وكان مبرزا في اللغة والأدب، ثم انتقل إلى مصر، مواصلا بها إشعاعه. ومن تلاميذه بها عبد الله بن بري(2). توفي سنة

(1) م.ن، ص. 383؛ ج 2، ص.264

(2) ابن خلكان، وفيات، ج 1، ص. 381.

(3282/1)

.566

15- أبو بكر يحيى بن سعدون، من قرطبة. درس بالإسكندرية شاباً، ثم بالقاهرة، ودخل بغداد سنة 527، ثم استوطن بدمشق سنوات ودرس عليه طلابها كما فعل بالموصل ثم بأصبهان، وتميز في القراءات وعلوم القرآن واللغة(1)، توفي بالموصل 567.

16- ابن الفنكي أحمد بن علي، من قرطبة. درس بالموصل على شيوخ منهم يحيى بن سعدون السابق ذكره، ودرس أيضا بمكة، ثم تفرغ للتدريس بدمشق، وكان الغالب عليه القراءات والحديث، وكان شافعيا(2)، توفي بدمشق 597.

---

(1) م.ن، ج 2، ص. 298.

(2) ابن الأبيار، تكملة، ص. 90.

(3283/1)

17- محمد بن طاهر الداني. تميز في الأدب وعلوم العربية. دخل دمشق سنة 554 وسنّه تتجاوز الأربعين، فقام بتدريس النحو، كما توجه إلى مصر 572. واستقر ببغداد وبها توفي سنة 619، وله تأليف في علم المجاز، وكانت وفاته عن عمر متقدم(1).

وكانت الحركة الثقافية في أوج ازدهارها بمصر، كما أن كثرة الرباطات بكل من العراق والشام وإيران ساعدت على إضفاء شعبية واسعة على المجال المعرفي بفضل الأوقات العديدة ورعاية السلطات وتكاثر الخزائن وازدهار التأليف وحركة النسخ وجعل المساجد تساهم بنشاطها في هذا

---

(1) نفح، ج 2، ص. 342.

الإشعاع الذي مس كل الشرائح. وأصبحت الرحلة إلى المشرق أمرا مألوفاً إلى درجة أن بعض الأندلسيين كانوا يضطرون إلى ادعاء الرحلة حتى ولو لم يغادروا الأندلس، لكن القرائن تفضحهم. وليس كل من رحل خارج الأندلس عاد عالماً بما يكفي لإسكات نقد الناقدين(1). على أن العطاء الأندلسي في حقبة الإخصاب هاته، سَيَتَبَيَّنُ بوضوح أكثر، من خلال الحديث عن فنون المعرفة، حيث إن مؤثرات الثقافة العربية الأندلسية لهذا العصر بالذات ظل إشعاعها قائما حتى يومنا هذا.

بيبليوغرافيا

---

(1) **الصلة، ص.** 533، 571.

(3285/1)

1– **ابن الأبار القضاعي محمد بن عبد الله،** 1260/658م:

... – **التكملة لكتاب الصلة، القاهرة،** 1956/1375

... – **الحلة السيراء، جزآن، تحقيق حُسين مؤنس، القاهرة،** 1963

2– **ابن أبي زرع (النصف الأول من القرن** 14/8م):

... – **روض القرطاس في أخبار المغرب ومدينته فاس، الرباط،** 1973م.

3– **ابن الأثير علي بن محمد الجزَري،** 1232/630م:

... – **الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الوهاب النجار، القاهرة،** 1348هـ

4– **ابن بَشكُوَال خَلَف بن عبد الملك،** 1183/578م:

... – **كتاب الصلة، القاهرة،** 1955/1374م.

(3286/1)

5– **ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله،** 1374/776م:

... – أعمال الأعلام، ج 2، تحقيق ليفي بروفنصال، بيروت، 1956.

... – الإِحاطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1393/1973.

6– ابن خلكان محمد بن أحمد، 681/1281م:

... – وفيات الأعيان، جزآن، بولاق، مصر، 1299/1881م.

7– ابن خليفة (المعروف أيضا بابن خير) أبو بكر محمد بن عمر، 575/1179م:

... – فهرست ما رواه عن شيوخه، القاهرة، 1963، مصوَّر عن طَبْعة سَرَقُسْطة ... ... لسنة 1893م.

8– ابن الشاط القاسم بن عبد الله (القرن 7/13م):

(1/3287)

... – الإِشراف على أعْلَى شرف، تحقيق إسماعيل الخطيب، تطوان، 1406/1986م.

9– ابن عذارى المراكشي أحمد بن محمد (القرن 7/13):

... – البيان المُغرِب، قسم الموحدين، تحقيق جماعة من الباحثين، بيروت، 1406/1985م.

10– الحُميدي محمد بن فتوح، 488/1095م:

... – جذوة المقتبس، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، 1372/1952م.

11– الداودي محمد بن علي، 945/1538م:

... – طبقات المفسرين، جزآن، القاهرة، 1303/1983م.

12– الذهبي (الحافظ–) محمد بن أحمد، 748/1347م:

(3288/1)

... – تذكرة الحفاظ، نسخة مصورة ببيروت، عن الطبعة الهندية لسنة 1958م.

13– السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، 911/ 1505م:

... – بغية الوعاة، القاهرة، 1326/1908م:

... – طبقات المفسرين، نسخة مصورة بطهران، 1960، عن طبعة لَيْدن لسنة 1839م.

14– عبد الواحد المراكشي (النصف الأول من القرن 7/13م):

... – المُعجِب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، القاهرة، 1368/1949م.

15– عياض بن موسى اليحصبي السبتي، 544/1149م:

... –ترتيب المدارك (8 أجزاء)، الرباط، 1964–1984م.

(3289/1)

16- مديرية الوثائق الملكية بالرباط:

مجموعة الوثائق، ج 1، الرباط، 1976م.

(3290/1)

الجاحظ بين الدعاية السياسية للسلطة ومعتقده الاعتزالي (دراسة نقدية)

... ... الدكتور موفق سالم نوري

... ... كلية المعلمين . جامعة الموصل

توطئة

... ولد الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر في البصرة في حدود عام 160 هـ(1) وتوفي في عام 255 هـ(2)، فناهز بعمره هذا الخامسة والتسعين. وهي بلا شك سنوات طويلة حفلت بنشاط فكري،

---

(1) انظر مناقشات شارل بيلا حول هذه المسألة في: الجاحظ في البصرة، ترجمة إبراهيم الكيلاني، دمشق، 1961، ص. 92.

(2) ابن المرتضى، طبقات المعتزلة، تحقيق زلور، بيروت، 1961، ص. 70.

(3291/1)

ربما ندر من ماثله في حجمه وتنوعه. وساعد على ذلك أيضاً قابليته الفكرية المتنوعة التي جعلت منه موسوعياً، حتى بات من النادر أن تجد موضوعاً لم يلجه أو يخط فيه بقلمه الرشيق المتحذلق ولو برأي أو فكرة عابرة.

... أشارت الوقائع الكثيرة إلى أن الجاحظ أعد نفسه للعلم والثقافة والأدب منذ نعومة أظفاره. فألقى بها بين العلماء والأدباء، خالطهم وجالسهم وأخذ عنهم، وعرَّض نفسه للضائقات الكثيرة مصرّاً على إتمام ما اختطّه لها من منحىً حياتيٍّ. وترافقت هذه النشأة مع ظرفها الملائم فزادتها خصوبة. وتمثل هذا الظرف

(3292/1)

باهتمام الخلافة العباسية الكبير والواسع بشؤون الثقافة والأدب والعلم والفكر، اتساقاً مع منهج الدولة

الإسلامية في عصرها الجديد بتحويل الاهتمام الأكبر للدولة من النشاط العسكري إلى النشاط المدنيّ والحضاريّ. فلا غرابة إذن أن يجد الجاحظ لنفسه مكاناً بدأ مقبولاً ليصبح مرموقاً إلى حد كبير وعلى مستويات وميادين عديدة.

... بدأ اتصال الجاحظ بالسلطة في البصرة، متردداً على دار الإمارة في مناسبات عدة(1). ثم تعمقت علاقته بالسلطة لتبلغ

---

(1) الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، د. ت، ج 1، ص. 61.

(3293/1)

شأناً كبيراً في خلافة المأمون، الذي أقام أول عهده في مرو - عاصمة إقليم خراسان. فكان الجاحظ بين الذين أنيط بهم إعداد الكتب والرسائل في موضوع الإمامة. فأنجزها وأودعها لدى الخليفة. ثم زاره مرات أخرى لمعرفة رأيه فيها(1). وفي بغداد أصبح يتردد على بلاط المأمون(2)، ثم استكتب في هذه الأثناء في ديوان الرسائل، الذي لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام فقط(3)

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1948، ج 3، ص. 45.

(2) الأصفهاني، الأغاني، طبعة دار الكتب، القاهرة، ج 10، د. ت، ص. 116.

(3) ياقوت، معجم الأدباء، تحقيق مرجليوث، ج 6، القاهرة، 1930، ص. 58.

(3294/1)

، على الرغم من الإشارات التي افادت أنه تقلد خلافة إبراهيم بن العباس الصولي على هذا الديوان مرات عديدة(1). واستمرت صلة الجاحظ بالسلطة حتى خلافة المتوكل. غير أن هذا الأخير لم يكن شديد الحماس لعلاقاته(2)، لأسباب سنأتي عليها في حينه. ومن ناحية أخرى، وثق الجاحظ صلاته برجالات الدولة الآخرين، ولا سيما الوزراء منهم، فأهداهم كتبه ورسائله ومصنفاته، فأجزلوا له العطاء بدورهم وأفاضوا عليه(3). غير أن هذه العلاقات انتابها بعض

---

(1) المصدر نفسه، ج 6، ص. 62.

(2) المصدر نفسه، ص. 74.

(3) المصدر نفسه، ص. 76.

الهزات فكاد أن يناله الأذى الكبير بسبب التصفيات التي جرت في خلافة المتوكل لولا بلاغته المشفوعة بالتوسلات التي أنقذته في المواقف الحرجة(1). ويظهر على وجه العموم أن صلاته بالسلطة كانت مصيرية؛ فغالباً ما تحدث بصيغة الانتساب إليها مثل قوله: »أصحابنا وخلفاؤنا وملوكنا...« (2). وبموجب هذه الصلة وبفضل ما امتكله من مواهب بلاغية وقدرات معرفية، ظهر بوصفه كاتباً شبه رسمي

(1) المصدر نفسه، صص. 58 ـ 59؛ ابن المرتضى، صص. 69 ـ 70.

(2) انظر مثلاً: الجاحظ، الحيوان، المصدر السابق، ج 1، ص. 73، 125، 233، 294.

واجبه إذاعة ونشر وتفسير الأوامر الحكومية أو الأفكار الدينية التي مالت إليها السلطة، ثم الدفاع عن العباسيين وتبرير وجودهم في السلطة. وربما قاده ذلك

أيضاً إلى الإسهام في صنع سياسة الدولة وصياغة مقولاتها والمشاركة في توجيهها(1). وأحيل إليه مرات عديدة وضع الكتب والرسائل في موضوعات أرادتها السلطة أن تذيع وتنتشر بين جمهور الناس. فكفى لها أن اقترنت باسمه ليلتقطها الناس، وهو أمر أدركته السلطة جيداً فأفادت منه. فكلفه المأمون ـ كما سبقت الإشارة

---

(1) طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، القاهرة، 1962، ص. 278.

(3297/1)

إليه ـ بوضع رسائل في موضوع الإمامة، وكلفه المتوكل بوضع رسالة في الرد على النصارى(1)، حتى بات الجاحظ من بين أهم وسائل الدعاية التي استخدمتها السلطة بين عامي 198 و247 هـ فعمل لأكثر من نصف قرن مروجاً للسلطة العباسية. ترى بعد كل هذا كم استطاع أن يكون منسجماً مع نفسه؟ وهل حافظ على التوازن بين واجبه الدعائي هذا وبين معتقده المعتزلي، بل بوصفه صاحب منحى خاص بالاعتزال؟ هذا ما بذلنا جهدنا المتواضع من أجل تتبعه وكشف خيوطه وتداخلاته.

أولاً: الميول السياسية للجاحظ

---

(1) ياقوت، مصدر سابق، ج 6، ص. 72.

(3298/1)

... قبلاً، لابد لنا من البحث عن موقع الجاحظ على خارطة التيارات السياسيّة المتجاذبة آنذاك فمن يقرأ الجاحظ قراءة مجتزأة وغير تاريخية، يرى فيه كاتباً قفز على الحبال ومتقلباً في أفكاره السياسية. فربما اكتشف أنه رافضيٌّ مرة، وربما استنتج في أخرى أنه أمويٌّ، وقد يرسخ لديه الاقتناع أنه عباسي الميل. وهذه الاتجاهات الثلاثة ليست متقاربة من بعضها، بما يسمح له أن يخلط بين أفكارها دون أن يكون ذلك مبعث دهشة واستغراب، بل هي اتجاهات تقاطع بعضها مع بعض إلى حد كبير. لجلاء هذه الصورة، ينبغي أن يقرأ الجاحظ قراءة

(3299/1)

شاملة تغطي كل ما كتبه ليكون بالإمكان تلمس الخيوط التي نسج عليها وبالتالي تتبُّعها، بما يكشف

حقيقة ميوله واتجاهاته السياسية. ثم لابد من أن تكون هذه القراءة تاريخية أيضاً، أعني أنه لابد من ربط ما كتبه بواقع التحولات السياسية والفكرية التي شهدها وعايشها الجاحظ نفسه. فذلك وحده الذي يقود إلى إصدار أحكام موضوعية دقيقة في هذا الجانب، ولا سيما أن الجاحظ إذا ما نافح عن فريق أو فكرة ما، فإنه يرمي في ذلك بكل ثقله الفكري وبكل أدواته البلاغية والمنطقية والحجاجية، حتى يكاد يوهم قارئه بأنه هو مبتدع هذه

(3300/1)

العقيدة أو الفكرة وليس غيره، وهو أمر عكس في الوقت نفسه سعة ما امتلكه الجاحظ من أخبار ومرويات ومعلومات وأفكار تصلح لتوظيفها لأية أغراض سياسية وفي كل وقت وحين، مع قدرة كبيرة على المحاجَّة المنطقيّة تسلَّح بها في معظم كتاباته.

... دافع الجاحظ في رسالته الموسومة بـ "العباسية" التي نشر السندوبي مقتضباً لها عن حق العلويين في ميراث الرسول – صلى الله عليه وسلم – حتى كاد أن يكون رافضياً قحاً، بحيث انتقد كثيراً سياسة كل من أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) تجاه هذه المسألة(1)

(1) رسائل الجاحظ، جمعها ونشرها حسن السندوبي، القاهرة، 1933، صص. 300 ـ 303.

(3301/1)

. وبما أن الرسالة جاءت مقتضبة، فقد أدَّى ذلك إلى التركيز على هذا الجزء منها. ولما كان موضوعها الرئيس هو »العباسية «، فإنه بوسعنا الاستنتاج أن الرسالة تعرضت لقضية إرث الخلافة بالأصل، وصولاً إلى حق العباسيين فيها، عن هذا الطريق(1)، مبرراً بذلك وجودهم في السلطة ومسبغاً عليه المشروعية والقداسة لأنه ميراث الرسول – صلى الله عليه وسلم- : فالعباس عليه السلام عم الرسول وصاحب الحق بوراثته؛ فالعم أب والعم وارث، وهو ما استند إليه أبو جعفر المنصور في محاجَّته لمحمد النفس

(1) طه الحاجري، مصدر سابق، ص. 197.

(3302/1)

الزكية، الثائر عليه، في رسائل جرت بينهما(1). وأغلب الظن أن الجاحظ وضع رسالته هذه في غضون العشرين السنة الأولى من القرن الثالث للهجرة، عندما اشتدت الخصومة بين السلطة والمحدثين(2)، الأمر الذي احتاج إلى تأكيد مسألة الوراثة هذه، إضفاءً لطابع القداسة على تولي العباسيين للخلافة، وللحد من مناوأة هذا الفريق للدولة التي كانت قد تبنت الاعتزال معتقداً فكريّاً لها.

---

(1) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، بيروت، د. ت، ج 7، ص. 568.

(2) طه الحاجري، المصدر السابق، ص. 197.

(3303/1)

... غير أننا نجد في رسالة "العثمانية" التي وضعها بعد "العباسية" وقبل عام 240 هـ(1) . وإذا قصدنا الدقة أكثر، كان ذلك في أول عهد المتوكل، عندما تحولت الدولة إلى موقف مناوئ للعلويين ومناهض لهم .(2)، نجد في هذه الرسالة خصومة شديدة للرافضة، وتفنيداً لآرائهم في العديد من مسائل الإمامة(3)، ومقدماً في الوقت نفسه كمّاً كبيراً من

---

(1) الجاحظ، العثمانية، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1955، ص. 7 من المقدمة.

(2) طه الحاجري، المصدر السابق، ص. 187.

(3) الجاحظ، العثمانية، المصدر السابق، صص. 24 ـ 37 مثلاً.

(3304/1)

الحجج والآراء التي أكدت أفضلية أبي بكر وأحقيته في الخلافة(1)، وهو الذي كان قد انتقد الكثير من سياساته في رسالته السابقة ـ أي "العباسية" ـ فجاء هذا التحول انسياقاً وراء تقلبات مواقف السلطة الحاكمة ومتطلبات هذه المواقف.

... أما موقفه من الأمويين، الذين كانوا قطباً آخر للصراع الفكري الدائر في القرن الثالث للهجرة، ممثلين بتيار النابتة والمحدثين أو ما أطلق عليه بـ »الحشوية«، فكان ذا شعبتين متضادتين. فمال إليهم مرة، ونال منهم في أخرى؛ حيث وضع في عصر المأمون رسالته في إمامة معاوية

---

(1) المصدر نفسه.

(3305/1)

وهي نفسها رسالته في النابتة(1)، وانطلقت هي أيضاً من روح الخصومة بين السلطة والمحدثين، وفي الأجواء التي حاول فيها المأمون لعن معاوية على المنابر(2). لذا جاءت هذه الرسالة مستعرة بعبارات حادة في حديثها عن الأمويين(3)، منها مثلاً:

... فعندما استولى معاوية على الملك واستبد على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين في العام الذي سموه »عام الجماعة« وما كان عام

(1) طه الحاجري، المصدر السابق، صص. 187، 193.

(2) الطبري، المصدر السابق، ج 10، ص. 45.

(3) طه الحاجري، المصدر السابق، ص. 227.

جماعة، بل كان عام فرقة وقهر وجبرية، وغلبة والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكاً كسروياً والخلافة منصباً قيصريّاً... (1)

حتى بلغ به الأمر حد إكفاره(2). ثم جاءت رسالته الأخرى في فضل هاشم على عبد شمس، التي وضعها في أول خلافة الواثق(3)، فنال فيها من الأمويين؛ وبما أنها كانت من

رسائل المفاخرة التي دأب الجاحظ على

---

(1) ... رسائل الجاحظ، تحقيق السندوبي، المصدر السابق، ص. 294.

(2) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1965، ج 2، ص. 12.

(3) رسائل الجاحظ، تحقيق السندوبي، المصدر السابق، ص. 76.

(3307/1)

اعتمادها في موضوعات عديدة أخرى(1)، ولأن أسلوب المفاخرة هذا اعتمد فيه الحجج المتقابلة، فإنه عرض في هذه الرسالة حجج الأمويين أيضاً بما أظهرهم بصورة لم يكونوا فيها أقل من الهاشميين شأناً(2). لذا جاء عموم موقفه من

---

(1) مع أنه استنكر أسلوب المفاخرة بقوله: »وليس أدعى إلى الفساد ولا أجلب للشر من المفاخرة« (رسائل الجاحظ، تحقيق السندوبي، المصدر السابق، ص. 300). ومن رسائله في المفاخرة: »مفاخرة الجواري والغلمان«، »مفاخرة السودان على البيضان«.

(2) رسائل الجاحظ، تحقيق السندوبي، المصدر السابق، ص. 93 ـ 102.

(3308/1)

الأمويين في إطار تسويغ استيلاء العباسيين على السلطة، الأمر الذي استوجب أن ينحي باللائمة على الأمويين في هاتين الرسالتين بالذات. غير أننا نجد، من ناحية أخرى، عشرات الإشارات التي تضمنتها كتاباته المختلفة، تطرق فيها إلى ذكر الأمويين في مواضع الإشادة والمدح والثناء، ومنبهاً على مناقبهم ومآثرهم في الإدارة والحكم، وأورد الكثير من العبارات التي جرت على ألسنتهم، على سبيل الحكمة والغاية في البلاغة والجزالة. ففي المثال الآتي، تحدث عن مناقب معاوية الذي كان »يكتب إلى أطرافه وعماله وإلى زياد في العراق

(3309/1)

بإطعام السابلة والفقراء وذوي الحاجة، وله في كل يوم أربعون مائدة يتقاسمها وجوه جند الشام« (1). فعلى

الرغم من أنه كان عليه مناوأة الأمويين، لكنه في الواقع لم يخف مواقفه المعجبة بسياساتهم ومهاراتهم في الإدارة والحكم وببلاغتهم أيضاً.

... وفضلاً عما ما قدمناه من رأي في كيفية فهم كتابات الجاحظ هذه، فإنه وقف وراء هذه الكتابات عامل آخر، هو رغبة الجاحظ في إظهار براعته ومهارته في التعامل مع كل الأفكار والاتجاهات على تباينها،

---

(1) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة، 1914، ص. 15.

(3310/1)

دون أن يعني ذلك تبنيها جميعاً، وإن أوحى قلمه أحياناً بمثل هذه النتيجة. وهو نفسه نبه على ذلك، فأسلوبه هذا أوهم الأولين أيضاً، فقال:

... ... وعبتني بحكاية قول العثمانية والضرارية، وأنت تسمعني أقول في أول كتابي: وقالت العثمانية والضرارية؛ كما سمعتني أقول: قالت الرافضة والزيدية، فحكمت علي بالنصب لحكايتي قول العثمانية. فهلا حكمت علي بالتشيع لحكايتي قول الرافضة!! وهلا كنت

عندك من الغالية لحكايتي حجج الغالية... (1).

---

(1) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج 1، ص. 11.

فقد دأب الجاحظ على زيادة معارفه ثم عرضها متفنناً ومظهراً مهاراته الفكرية. ومن أجل ذلك، جالس أشخاصاً من مشارب شتى، فيهم الغلاة (1) والخوارج (2) وغيرهم في أغلب الظن. إن ما يمكن أن نخلص منه في هذا الباب هو أن الجاحظ لم يكن سوى عباسي في ميوله السياسية، وانصب في هذا المجرى ما كتبه سياسياً، مباشراً كان ذلك أم غير مباشر، ومارس بذلك دوراً دعائياً واسعاً لمصلحة العباسيين سنتتبع خطواته في الصفحات التالية.

...

---

(1) المصدر نفسه، ج 3، صص. 20 ـ 21.

(2) المصدر نفسه، صص. 22 ـ 23.

ثانياً: أبواب الدعاية المباشرة للسلطة العباسية

... توزعت الدعاية التي مارسها الجاحظ لمصلحة السلطة العباسية على جانبين: الأول منهما مباشر خص فيه العباسيين بالذكر الصريح مسوغاً وجودهم في السلطة ومروجاً لأفكارهم؛ أما الجانب الآخر، فكان غير مباشر، استخدم فيه التلميح والإشارة المضمرة، وبما قاد إلى نتائج مماثلة لما في الجانب الأول. أما الدعاية المباشرة، فتضمنت الأبواب الآتية:

...

... 1 .إبراز أهمية النسب (الوراثة) في تولي الخلافة

(3313/1)

... فمن أجل ذلك، وضع رسالته في "العباسية". وكما نبهنا عليه من قبل، فإن هذه الرسالة عالجت موضوعاً رئيساً، تمثل في سوق الحجج التي جعلت من العباسيين أصحاب حق في توليهم الخلافة، ذلك الحق الذي ضمنه لهم وراثة العباس . عليه السلام . للرسول – صلى الله عليه وسلم –(1). ثم أشار إلى ذلك مرة أخرى في إطار حديثه عن المفاخرة بين الهاشميين والأمويين، فذكر من بين مناقب بني هاشم »... أنهم ملكوا بالميراث وبحق العصبة والعمومة، وأن ملكهم في مغرس نبوة وأن

أسبابهم غير أسباب بني

---

(1) طه الحاجري، مصدر سابق، ص. 197.

(3314/1)

مروان... «(1). وصيغة الخطاب في هذه الجمل تنم عن أن الحديث للجاحظ وليس للهاشميين كما اقتضى سياق المفاخرة بين الفريقين، مما يشير إلى أنه روج هو شخصياً لمثل هذه الأفكار، ثم عمد إلى استخدام أدوات الحصر والتأكيد والإقرار في تأكيد هذا الأمر بقوله: »إن كانت (الخلافة) إنما تنال بالوراثة وتستحق بالعمومة وتستوجب بحق العصبة «(2)، فحصر الإمامة بذلك في الفرع العباسي من الأسرة الهاشمية. فهو لمح إلى أن العم يرث قبل ابن العم؛ فإذا كانت الإمامة

---

(1) ... رسائل الجاحظ، تحقيق السندوبي، ص. 77.

(2) المصدر نفسه.

(3315/1)

تورث، فالعباس عليه السلام أحرى بها من غيره، وعنى بذلك استبعاده للعلويين عن هذا الأمر أيضاً بعد أن نفى أيّ حق للأمويين فيها. كما نبه في مكان آخر على أهمية النسب في طلب المراتب، والخلافة بلا شك من بينها، فقال: »ألا ترى أن أبعد الناس همة في نفسه وأشدهم تلفتاً إلى المراتب، لا تنازعه نفسه إلى طلب المراتب، لأن ذلك يحتاج إلى نسب أو إلى أمر قد وطئ له بسبب« (1).

فهل اتسق موقف الجاحظ هذا مع موقف المعتزلة من الكيفية التي يجري فيها تولي الإمامة والخلافة في

---

(1) الجاحظ، الحيوان، المصدر السابق، ج 2، ص. 83.

(3316/1)

الدولة الإسلامية؟

... كان للمعتزلة، في الواقع، موقف آخر مختلف تماماً في هذه القضية. فلا تنال الإمامة عندهم إلا عن طريق الاختيار فقط(1)، وأن أمر القرابة غير معتبر فيها؛ ولو كان هو المعتبر، لما صحت إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما(2)، وذلك ما أكّده

---

(1) قاضي القضاة عبد الجبار، المغني في أبواب العدل

والتوحيد، القاهرة، د. ت، ج 20، ق 1، ص. 287، 319، ق 3، ص. 27. وله أيضاً: شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، القاهرة، 1965، صص. 758، 762.

(2) قاضي القضاة عبد الجبار، المغني، ج 20، ق 2، ص. 70.

(3317/1)

عليه قدماء المعتزلة أيضاً(1). وإذا كان بعضهم - المعتزلة - قد اشترط القرشية - بوجهها العام - لهذا الغرض، فإن بعضهم رفض ذلك(2). والموقف الثاني هو الذي أكده قدماء المعتزلة أيضاً(3). ثم إن من اشترط القرشية منهم لم يشترطوها لخواص عرقية أو قبلية في قريش،

---

(1) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة، 1959، ج 9، ص. 87.

(2) الأشعري، مقالات الإسلاميين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1950، ج 2، صص. 134 - 135.

(3) المسعودي، مروج الذهب، بيروت، 1983، ج 3، ص. 223.

(3318/1)

بل خضع ذلك لاعتبارات سياسية خاصة(1). ويتجلى لنا بذلك أن الجاحظ خالف معتقدات المعتزلة السياسية في هذا الجانب، وهو ما كان قد أخذه على الأمويين، كما أشرنا إليه قبلاً، ثم إنه تماشى في موقفه هذا مع مقولات الراوندية(2)

---

(1) محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، بيروت، 1986، ص. 198.

(2) ... الراوندية: إحدى القوى التي اشتملت عليها الثورة العباسية، وكانت مقولاتها متطرفة، حتى أن أفرادها ألهوا أبا جعفر المنصور. ولما رأى فيهم خطراً كبيراً، حاول تصفيتهم والتخلص منهم، فثاروا عليه في عام 141 هـ (الطبري، مصدر سابق، ج 7، ص. 505) وبقوا على ولائهم للعباسيين حتى أيام الرشيد، فكانوا يجتمعون إلى أحدهم صنف كتاباً أسماه "كتاب الدولة" يقرأه عليهم ويتدارسونه (ابن النديم، الفهرست، بيروت، د. ت، ص. 287).

(3319/1)

التي آمنت بإرث العباس ـ عليه السلام ـ للإمامة، وإرث أولاده لها من بعده(1).

... أما الدكتور عمارة، فلم يكن دقيقاً في معالجته هذه المسألة من آراء الجاحظ فقد نسب إليه ما يفيد إنكاره لدور النسب في تولي الإمامة،(2) معتمداً في ذلك على بعض ما جاء في رسالة "العثمانية"، والتي حكى فيها الجاحظ آراء البكرية والعلوية في هذا الموضوع، وهي بالتالي ليست أفكاره ولا أقواله، بل أفكار من نقل عنهم حججهم في

---

(1) ... قاضي القضاة عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، ص. 754.

(2) المعتزلة وأصول الحكم، بيروت، 1977، ص. 193.

(3320/1)

هذا الأمر. ثم التفت الدكتور عمارة إلى مسألة أخرى، هي تعدد الكتب والرسائل التي وضعها الجاحظ في الإمامة (انظر آنفاً)، وقال إنه أراد بذلك أن يدحض مقولات هؤلاء جميعاً ـ العباسية والعلوية والأموية ـ بطريقة غير مباشرة، بانياً فكرته هذه على أن كل واحدة من هذه الرسائل ضمنها الجاحظ مناظرات فند فيها كل مرة

واحدة من هذه الاتجاهات الثلاثة ليصل إلى »أن كل هذه المذاهب باطلة، بدليل أن نصرتها جميعاً ممكنة، وهدمها جميعاً ممكن. وبما أن الحق واحد، فلابد من أن يكون الحق غيرها جميعاً، وإنما الحق في هذا الأمر هو

(3321/1)

الشورى والاختيار والعقد والبيعة «(1). وهو استنتاج منطقيّ جميل جدّاً، ولكن لو كانت مقدماته صحيحة. ذلك بأن الدكتور عمارة تعامل مع هذه الرسائل، أو بعضها في الأقل، من خلال عنوانها دون تحكيم مضمونها أولاً، وتجاهل الجانب الدعائي الآني لهذه الرسائل ثانياً، وهو ما أتينا على بيانه في المبحث السابق. فالجاحظ في رسائله تلك لم يمتدح أو يذم أو ينتصر أو يبطل في الوقت نفسه أيّاً من هذه الاتجاهات؛ فهو روج كثيراً للإمامة العباسية، لكنه لم يروج أبداً لإمامة العلويين، بل

---

(1) المعتزلة والثورة، بيروت، 1977، ص. 117.

(3322/1)

نقض مقولاتهم في "العثمانية"؛ كما أنه لم يمتدح إمامة معاوية في الرسالة التي حملت اسمه، كما اعتقد الدكتور عمارة، بل أبطلها وعدها غصباً واستيلاء غير مشروع، أي أنه هدم مقولات خصوم العباسيين وامتدح وروج لهؤلاء. وعنى ذلك قبولاً بطريقة تداولهم الإمامة القائمة على القرابة والوراثة، وفي الوقت نفسه خلت كتاباته من أي ترويج للاختيار والشورى والبيعة. فسمح الجاحظ بذلك لنفسه الخروج عن مقولات المعتزلة بهذا الشأن.

2 ـ الامتداح والثناء وذكر المناقب

(3323/1)

... تحدث الجاحظ في مناسبات عديدة بالمدح والثناء، سواء عن الهاشميين والعباسيين بصورة عامة أو عن الخلفاء بصورة خاصة، مشيراً إلى مناقبهم ومآثرهم. فعلى الصعيد الأول، وضع رسالته "كتاب فضل هاشم على عبد شمس"، حيث أفاض كثيراً في ذكر مناقب بني هاشم ومفاخرهم الكثيرة(1). وكما نبهنا، فإن هذه الرسالة وضعت إبان تصاعد خصومة النابتة والمحدثين للسلطة، الأمر الذي احتاج إلى إعلاء شأن الهاشميين على الأمويين،

الذين جعل منهم النابتة - أي الأمويين -

---

(1) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق السندوبي، مصدر سابق، ص. 67 - 116.

(3324/1)

رمزاً لهم في مواجهتهم للسلطة(1). ومما أبرزه من مناقب وله صلة بحديثنا هنا قوله: »وتفخر هاشم بأن أحداً لم يجد تسعين عاماً لا طواعين فيها إلا منذ ملكوا. قالوا: لو لم يكن من بركة دعوتنا إلا أن تعذيب الأمراء لعمال الخراج بالتعليق والرهق والتجريد والتسهير... قد ارتفع، لكان ذلك خيراً كثيراً«(2). كما نبهت الرسالة إلى مآخذ عديدة أخذت على الأمويين،

---

(1) موفق سالم نوري، العامة والسلطة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل، 1997، ص. 134.

(2) الجاحظ، رسائل الجاحظ، مصدر سابق، تحقيق السندوبي، ص. 80 - 81.

(3325/1)

لم يقع العباسيون فيها، فعد ذلك منقبة وفضلاً لهم (1). وإذا ما امتدح أمراً أتاه الخلفاء العباسيون، عاب على الأمويين عدم إتيانهم إياه، مثل قوله إنه لم يقم أحد من ولد العباس بالملك إلا وهو جامع لأسباب الفروسية، وتنقص بهذه المناسبة من فروسية الخلفاء الأمويون (كذا) (2). ويفهم من عموم موقفه هذا امتداحه لعصر العباسيين الذي شهد قيام الحق والعدل والرخاء.

---

(1) المصدر نفسه، ص. 81 مثلاً.

(2) البيان والتبيين، مصدر سابق، ج 3، ص. 24.

(3326/1)

... هنا تقاطع الجاحظ مرة أخرى مع عدد وافر من رجالات المعتزلة الذين كان لهم رأي آخر في الحكم العباسي. فمنذ وقت مبكر، جابه عمرو بن عبيد المنصور ووصف حكمه بالظلم والجور ورفضه التعاون معه طالباً منه إظهار العدل ونصرة أهله (1)، واشترك عدد كبير من المعتزلة في البصرة في ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن على المنصور، وقتل عدد منهم في هذه الثورة، مثل بشير الرحال(2). واستمرت الخصومة بين المعتزلة

---

(1) المسعودي، مصدر سابق، ج 3، ص. 208.

(2) ابن المرتضى، مصدر سابق، ص. 41؛ الأشعري، مصدر سابق، ج 1، ص. 145.

والسلطات العباسية حتى أيام الرشيد الذي أودع جماعة منهم السجن (1). ولم يحتفظ أبو هذيل العلاف بما أتاه من مال السلطان رافضاً التمتع به (2)، بينما رفض جعفر بن بشير قبول مثل هذا المال أصلاً للشبهة(3). ورفض جعفر بن حرب المعتزلي الصلاة وراء الخليفة الواثق(4). واستهان محمد بن إسماعيل المعتزلي بكتب السلطان وعدها أهون من التراب عنده(5). فإذا ما عرفنا أن معظم هذه المواقف كانت في

---

(1) المصدر نفسه، ص. 55.

(2) المصدر نفسه، ص. 49.

(3) المصدر نفسه، ص. 76.

(4) المصدر نفسه، ص. 73.

(5) المصدر نفسه، ص. 71.

غضون صعود نجم المعتزلة السياسي وتوليهم مراكز السلطة والنفوذ المهمة، وذلك في خلافة المأمون والمعتصم والواثق، أدركنا كم كان كبيراً التقاطع الذي نشأ بين قطاع من المعتزلة من جهة والسلطة السياسية الحاكمة من جهة أخرى.

... وفي باب الإطراء العام، تكلم الجاحظ على براعة عدد من العباسيين في الخطابة، معرباً عن إعجابه الشديد بقدراتهم هذه(1). أما في باب الإطراء الشخصي، فقد عمد الجاحظ إلى ذكر مناقب الخلفاء العباسيين، فأفرد لهم مساحة واسعة في كتاب "التاج"،

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج 1، ص. 334.

استطرد فيها بالحديث عن مزاياهم مبتدئاً بالمنصور ومنتهياً بالمأمون(1). فاجتهد في نفي صفة البخل عن المنصور بتعداد المواقف التي أظهر فيها كرم عطائه وجود سخائه(2)، ثم وصفه بأنه كان: »داهياً أريباً، مصيباً في رأيه سديداً، وكان مقدماً في علم الكلام، ومكثراً من كتب الآثار، ولكلامه كتاب يدور في أيدي

الوراقين معروف عندهم«(3). وأكاد أجزم أن أحداً لم يشر إلى أن للمنصور كتاباً في علم الكلام، وإن لم يكن

---

(1) المصدر نفسه، صص. 33 ـ 45.

(2) المصدر نفسه، صص. 41 43.

(3) البيان والتبيين، مصدر سابق، ج 3، ص. 367.

(3330/1)

غريباً عليه تعاطي مثل هذا الموضوع، خصوصاً وأن علاقته بالمعتزلة معروفة، ولا سيما بعمرو بن عبيد سواء كان ذلك قبل توليه الخلافة أو بعدها(1). ومن الذين امتدحهم أيضاً الخليفة المعتصم، مشيداً بدوره في سد الثغور ورد المظالم، ثم زاد بأن الله تعالى »حسم به عرق البغي ونواجم الفتنة، الذي لم يزل الله يزيده في كل طرفة محبة...«(2)، مع أن المعتصم أخفق أصلاً في حسم هذه القضية فعلاً (محنة خلق

---

(1) المسعودي، مصدر سابق، ج 3، صص. 202 ـ 203.

(2) رسائل الجاحظ، المصدر السابق، تحقيق عبد السلام هارون، ج 1، ص. 306.

(3331/1)

القرآن)، واضطر إلى إطلاق سراح الإمام أحمد بن حنبل، بعد إخفاقه في حمله على القول بخلق القرآن، وخوفاً من العواقب التي بدأت تلوح ملامحها، وأنذرت بما هو خطير(1)؛ كما مدحه بقوله: »وقد جمع الله لأمير المؤمنين مع كرم العروق وصلاح المنشإ، البعد عن إيثار الهوى، وهل رأيت أفعالاً أشبه بأخلاق، ولا أخلاقاً أشبه بأعراق، من أفعال بأخلاقه وأخلاق بأعراقه«(2). ومثل هذه العبارات قد فاحت منها رائحة الجبرية، وهي

(1) ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، بيروت، 1977، ص. 340.

(2) رسائل الجاحظ، المصدر السابق، ج 1، ص. 308.

الفكرة التي حاربها المعتزلة أشد حرب. وسنحيل الحديث في هذه المسألة إلى آخر البحث ليتسنى لنا مناقشتها عند استكمال دواعيها.

3 ـ الخروج على السلطان

... من المسائل الخطيرة التي عرض لها الجاحظ مسألة

الخروج على السلطان، فخصها بمجال رحب في رسالة "العثمانية". وجاءت معالجته لها معالجة منطقية استدلالية قادته، أو هو ساقها، لتقرير أن الخروج على السلطان أمر غير ممكن عمليّاً ونظريّاً. ومن يقوم بذلك لن يلقى إلا الإخفاق ليصل إلى النتيجة التي مؤداها ضرورة القبول والتسليم بالسلطان القائم فعلاً، وذلك بلا ريب أهم

(3333/1)

ما قدمه الجاحظ فكرياً للسلطة العباسية.

... بدءاً، وصف الجاحظ أشكال المعارضة التي يمكن أن تجابه السلطان بأنها لا تعدو أن تكون واحدة من عشر حالات، نعتها جميعاً بنعوت توحي بالسلبية وعدم المشروعية فقال:

... ... فإن السلطان لا يخلو من متأول ناقم، ومن محكوم عليه ساخط، ومن معدول عن الحكم زار، ومن متعطل متصفح، ومن معجب برأي ذي خطل في بيانه... ومن محروم قد اضطغنه الحرمان، ومن لئيم قد أفسده الإحسان، ومن مستبطئ قد أخذه إضعاف حقه... وصاحب فتنة خامل في الجماعة، رئيس في الفرقة(1)

(1) الجاحظ، مجموعة رسائل، القاهرة، 1324 هـ، صص. 3 ـ 4.

.

ويستشف من جميع هذه الحالات أن أصحابها ذوو نوازع ذاتية خاصة محكوم عليهم بالسلبية وعدم إجازته إيلاء أمر المسلمين أكثر من إمام، زيادة في الحزم والتحوط لأمرهم. فإذا تعدد الحكام ثم »تقاربت، وتساوت عنايتهم، قويت دواعيهم إلى طلب الاستعلاء، واشتدت منافستهم في الغلبة« (1). فتعدد الأئمة والخلفاء يدفعهم للتنافس فيما بينهم، وذلك يقود إلى تمزيق وحدة المسلمين. وأكد ذلك بقوله: »...

(1) الجاحظ، فصل من صدر كتابه في" الجوابات في الإمامة "، تحقيق يحيى الجبوري، مجلة المورد، بغداد، 1979، م 7، عدد 4، ص. 229.

وانفراد السيد بالسيادة كانفراد الإمام بالإمامة وبالسلامة من تنازع الرؤساء تجتمع الكلمة، وتكون الألفة، ويصلح شأن الجماعة. وإذا كانت الجماعة، انتهى الأعداء، وانقطعت الأهواء«(1). ثم أشار إلى القائم بأمر المسلمين ـ الإمام ـ إذا كان مشهوراً، معروفاً بالفضل، لا يطمع أحد في مجاراته ومنافسته، وذلك ـ بحسب قوله ـ الصلاح الذي أراده الله تعالى لهذه الأمة ـ أي أن يحكمها حاكم واحد ـ ثم وصل إلى

---

(1) الجاحظ، فصل من صدر كتابه في "النساء"، تحقيق يحيى الجبوري، مجلة المورد، بغداد، 1979، م 7، عدد 4، ص. 252.

(3336/1)

النتيجة التي أرادها، وهي أن الله تعالى لم يطبع الأمة على هذا الطبع إلا وهذا الحاكم الواحد موجود إذا أرادوه، لأن الله تعالى لا يلزم الناس إقامة المجهول، وبالتالي فإن على الناس التسليم لما أراده الله تعالى وطبعهم عليه(1). وهو بهذه الصياغات أراد الوصول إلى النتائج التالية: أن الخليفة القائم فعلاً (السلطة العباسية) هو ما أراده الله تعالى للمسلمين، وأنه لا جدوى من البحث عن

خليفة آخر، وذلك بالترتيب المنطقي الآتي:

---

(1) الجاحظ، فصل من صدر كتابه في " الجوابات في الإمامة"، المصدر السابق، ص. 230.

(3337/1)

إن تعدد الحكام يقود إلى الصراع بينهم؛

إن الخليفة القائم المعروف بالفضل لا ينافسه أحد؛

هذا أمر طبعه الله في عباده وفيه مصلحتهم؛

لم يكن الله تعالى ليطبع عباده على هذا الطبع إلا وهذا الخليفة موجود فعلاً؛

إن الله تعالى لا يلزم الناس الدعوة لخليفة مجهول وترك المعلوم القائم فعلاً؛

إن الناس ليس عليهم إلا التسليم بذلك، لأن هذا هو قصد الله تعالى؛

وعليه، فإنه ليس من جدوى في معارضة الإمام القائم والخروج عليه.

(3338/1)

... ثم ذهب الجاحظ إلى أبعد من ذلك بالتصريح بأن ما هو قائم هو الخير بعينه بادِّعائه، لأن الله تعالى لو أراد خلاف ما هو قائم لبينه بالنص أو التفسير ولدل عليه ولوضع له علامة، فكان في ذلك الخير لأن الله لا يصنع إلا الخير. لذا فإن ترك الأمر »على ما نحن عليه خير لنا وأفضل...«(1). وهذه فكرة أخرى فيها نزوع جبري واضح سنتعقبه فيما بعد، منبهين فقط على أن الجاحظ كان قد أنحى باللائمة على معاوية لقوله بالجبر، وعد ذلك من الضلال والفسق(2)

---

(1) الجاحظ، العثمانية، مصدر سابق، صص. 278 ـ 279.

(2) رسائل الجاحظ، تحقيق السندوبي، مصدر سابق، ص. 294.

(3339/1)

.

... وعلى طريق تفضيل ما هو قائم، وإن كان دون مرتبة مستحق الإمامة بالأفضلية، أشار إلى أن الإمام الأفضل من امتلك الخصال التالية: قوة العقل والعلم والحزم والعزم. لكنه قد يوجد من هو دون ذلك مرتبة، إلا أنه أحق بالخلافة، »لأن من التعظيم لمقام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن لا يقام فيه إلا أشبه الناس به في كل

عصر...«(1). ثم أضاف في مكان آخر: »... وأي زمان بعد زمان النبي صلى الله عليه وآله أحق بالتفضيل من زمان ظهرت فيه

(1) الجاحظ، فصل من صدر كتابه في "الجوابات في الإمامة"، مصدر سابق، ص. 230.

(3340/1)

الدعوة الهاشمية والدولة العباسية«(1).

... ثم أقبل الجاحظ على معالجة الأمر من زاوية أخرى، بالعمل على إبطال فاعلية كل الأدوات التي يمكن أن تقوم بالخروج على السلطان. فبدأ بالعامة التي هي جمهور الناس الذين شكلوا العدد الأكبر الذي لابد منه لكل من فكر بإشهار سيفه على السلطان، فأفاد أن العامة لاتعرف عن الإمامة والخلافة شيئاً، وليس في وسعها أن تميز أهمية وجودها الإمامة ـ من عدمه، ولا كيف السبيل إليها،

(1) الجاحظ، »رسالة الشكر«، في: القلقشندي، صبح الأعشى، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، ج 14، ص. 180.

وهي مع كل ريح تهب، ولعلها أشد اتباعاً للمبطلين منها بالمحققين. لذا فهي ليست سوى أداة للخاصة، تسخرها للمهن والدفاع بوجه العدو. فهي مثل جوارح الإنسان للإنسان، الذي إذا فكر في أمر ما، استخدم جوارحه لتنفيذ ما فكر به، دون أن تدرك هذه الجوارح طبيعة ما تقوم به، فما عليها سوى الطاعة والتنفيذ(1). ثم أردف أن الناس غير ملزمين فيما لم يعرفوا سبيله. وهذا حال العامة مع الإمامة. لذا بات عليها أن تعرض عن هذا الأمر ولا تلجه(2).

(1) الجاحظ، العثمانية، مصدر سابق، ص. 250.

(2) المصدر نفسه، ص. 256.

... فالعامة كالسكين الصارم بطاعتها للإمام، لكنها شديدة التهور إذا خرجت عليه(1). ثم بعد هذا كله، فإن »البلية العظمى والداهية الكبرى« إذا انقسمت العامة إلى فريقين، أحدهما مع »الخاصة« التي تريد تغيير

السلطان، والثاني مع »البغاة والظلمة« الواجب تغييرهم(2) منبّهاً، من طرف خفي، على أن ذلك يعني قيام الحرب الأهلية، التي تكون الخسارة فيها كبيرة إلى حد بعيد. لذا، فإن من رأيه أن صلاح الدنيا وتمام النعمة في »طاعة« العامة لما يدبره أسيادها ليس غير(3)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 252.

(2) المصدر نفسه، ص. 264.

(3) المصدر نفسه، ص. 251.

(3343/1)

.

... وبعد أن أجهز على دور العامة في الخروج على السلطان، وترك ذلك للخاصة، عمد إلى تناول هذه الأخيرة على النحو الآتي: إنه بقوله إن على الناس إقامة الإمام، عنى بهؤلاء أنهم »الخاصة« وهم صفوة المجتمع، وهؤلاء لا يباشرون عملية تغيير السلطة »إلا على الإمكان«، أي بضمان توافر مقومات النجاح، ومنها أن لا تكون العامة مع جند الباغي المتغلب، بل يجب أن تكون جميعها مع الخاصة في عملية التغيير هذه(1)؛ بل إنه حتى إذا اجتمعت

العامة، فلا يعني ذلك هو الإمكان المطلوب، لأن السلطان الباغي إذا

---

(1) المصدر نفسه، ص. 261.

كان معه جنده وهم بكامل عدتهم وسلاحهم وأمره مجتمع، »فقليل جمع خير من كثير نشر«. فهذه القوة التي مع السلطان حسنة التدريب والمعرفة بفنون القتال، وذلك ما لا يتوفر للعامة(1)؛ كما اشترط لنجاح الخروج على السلطان أن يكون الإمام البديل »معروف الموضع مكشوف الأمر، وكانت التقية عنه زائلة«(2). ثم عاد إلى إضعاف دور الخاصة في هذه القضية: فنجاحها يتطلب اتفاق كل أطراف الخاصة على موقف واحد، وأن تكون على درجة واحدة من الثقة والعزم والحزم. ولما كان إشهار السيف

---

(1) المصدر نفسه، ص. 262.

(2) المصدر نفسه، ص. 261.

بوجه السلطان يحتاج في مراحل طويلة منه إلى السرية . ما أسماه الجاحظ بالتقية ، فإنه عد ذلك تواكلاً وتخاذلاً، لا ينفع أن يكون وسيلة للعمل، لأن ما تتفق عليه الخاصة في السر قد لا يعني أن الجميع يضمنون مواقفهم ذاتها في العلن عندما يتطلب الأمر (1). وبذلك وضع الجاحظ عصيّاً عديدة في العجلة تحول دون حركتها. عمد بعد ذلك إلى إلقاء آخر سهم له في حسم الأمر لمصلحة عدم جواز الخروج على السلطان، فإنه يحق لأهل كل إقليم أو فرقة أن يدعوا أن الإمام يجب أن يكون منهم؛ فإذا وقع ذلك، فإن على

---

(1) المصدر نفسه، ص. 262.

أي من هؤلاء الغرماء أن يكون معه من القوة والعدد بمثل ما مع الجميع مجتمعين لضمان نجاحه في مطالبته بالإمامة(1). وذلك ضرب من الاستحالة يدفع باتجاه الحيلولة دون التفكير في الخروج على السلطان، فسد بذلك المنافذ جميعها أمام هذه العملية. فإلى أيّ مدى انسجم موقف الجاحظ هذا مع موقف المعتزلة من الموضوع نفسه؟

... في الواقع، جاء موقف المعتزلة من هذه القضية وسطاً بين الخوارج وأهل الحديث. فقد تطرف الخوارج في موقفهم، فأوجبوا إشهار السيف في وجه أئمة الضلالة والفسق والجور، وتحت

---

(1) المصدر نفسه، ص. 269 ـ 270.

(3347/1)

كل الظروف (1). أما أهل الحديث، فلم يوجبوا ذلك، بل اشترطوا له أن يبدر من الإمام كفر واضح بائن لا خلاف عليه، وأوجبوا على المسلمين طاعة الأئمة وإن فسقوا أو جاروا، خوفاً من الوقوع في الفتنة (2). وقد أنكر المعتزلة هذا الموقف ورفضوه (3)، ولكنهم في الوقت نفسه لم يتطابقوا مع الخوارج في موقفهم. فهم أخضعوا هذه العملية ـ الخروج على السلطان، إذا ما تمت، لظروف نجاحها

---

(1) الأشعري، مصدر سابق، ج 1، ص. 189.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص. 140.

(3) قاضي القضاة عبد الجبّار، المغني، مصدر سابق، ج 20، ق 2، ص. 150.

واعتبارات هذا النجاح.

... فقد رأوا أنه ما يحل لمسلم أن »يخلي أئمة الضلالة وولاة الجور إذا وجد أعواناً وغلب في ظنه أنه تمكن من منعهم من الجور «(1). وحدد عمرو بن عبيد عددهم بمثل عدة أهل بدر، ثلثمائة وبضعة عشر رجلاً، وأن يكونوا على قدر واحد من الصدق وإخلاص النية (2). وهذه الضمانة هي التي دعوها بـ »الإمكان والقدرة «(3). ومن رأيهم

(1) قاضي القضاة عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة، تحقيق عبد الكريم عثمان، بيروت، 1966، ج 2، ص. 574.

(2) ابن المرتضى، مصدر سابق، ص. 40.

(3) الأشعري، مصدر سابق، ج 2، ص. 140.

أيضاً أن يجري ذلك تحت قيادة »إمام عادل «، وإلا فلا(1).

وعليه، يمكن إيجاز موقف المعتزلة هذا على النحو الآتي:

أنهم أوجبوا على المسلمين الخروج على أئمة الجور

والضلالة والفسق - دون اشتراط كفرهم - على أن يقترن ذلك بشروط النجاح من ظهور الأعوان ووجود الإمام العادل، الذي يقود هذه العملية ويتولى تنفيذها.

... أما عن دور الأمة - العامة أو الخاصة أو كليهما معاً -، فقد عمل الجاحظ على إبطال هذا الدور، مستنداً إلى معطيات استنتاجية منطقية، ومتجاهلاً الواقع التاريخي. فالدولة

---

(1) المصدر نفسه، ج 2، ص. 141.

العباسية، وهو أحد أهم المروجين لها، لم تقم إلا بثورة اشتركت العامة فيها بالثقل الأكبر؛ وحتى قيادتها الميدانية لم تكن من الفئات الاجتماعية المصنفة ضمن الخاصة، عدا قيادتها الرئيسة (البيت العباسي). هذا، إلى جانب أن عدداً من مفكري المعتزلة كان لهم رأي آخر في دور العامة في نصب الإمام وإقامته. فأبو بكر الأصمّ رأى ضرورة إشراك العامة جميعاً في هذه المسألة (1). وكان لقاضي القضاة عبد الجبار رأي قريب من ذلك: فكلما زاد عدد الأفراد المشتركين في أمر ما، كان رأيهم

(1) الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، ص. 109.

(3351/1)

أقرب إلى الصواب. ووصل بذلك إلى النتيجة التي مفادها أن إجماع الأمة حجة (1)؛ لكنه رأى من ناحية أخرى أنه إذا تعذر إشراك جميع الأمة في نصب الإمام، فلا بأس في قصر ذلك على أهل المدينة التي مات فيها الإمام (2)، وذلك ما يمكن القياس عليه بأنه إذا كان بوسع أهل المدينة الخروج على أئمة الجور وإبدالهم بأئمة العدل، فلا بأس أن يقوموا بدورهم هذا. إن آراء المعتزلة في هذا الجانب كشفت أن الجاحظ قد ابتعد عنها كثيراً، متخذاً تبرير وتسويغ ما هو قائم

(1) المغني، ج 17، ص. 157.

(2) المصدر نفسه، ج 20، ق 2، ص. 68.

(3352/1)

فعلاً بديلاً عن الخروج عليه.

4 ـ إظهار القبول بسياسة المتوكل الدينية

... لما تولى المتوكل الخلافة، عمد إلى إحداث انقلاب شامل في النواحي السياسية وما اتصل بها من جوانب أخرى فكرية أو اقتصادية أو غيرها. من ذلك إظهار الخصومة للعلويين (1)، والتشدد إزاء أهل الذمة (2). وقد أسهم الجاحظ في هذه السياسة بالترويج لها وتدعيمها في رسالتيه: "العثمانية" و"الرد على النصارى"، وهو ما سبق التنبيه عليه. غير أن الأهم من هذا كله، إجراءات

---

(1) الطبري، مصدر سابق، ج 9، ص. 185.

(2) المصدر نفسه، ج 9، ص. 171 وما بعدها.

(3353/1)

المتوكل الخاصة بإقصاء المعتزلة عن مواقع السلطة والنفوذ في الدولة (1)، ثم إبطال القول بخلق القرآن ورفع المحنة (2). وكادت أن تشمل هذه الإجراءات الجاحظ شخصيّاً، لولا إجادته في تخليص نفسه (3). ثم نجد المتوكل بعد ذلك لا يطيق أن يجد الجاحظ في مجلسه، لما عرفه عنه من اعتداد كبير بنفسه (4). فكيف اختط الجاحظ موقفه إزاء هذه التحولات المهمة والخطيرة؟

---

(1) المصدر نفسه، ص. 179.

(2) المصدر نفسه، ص. 190.

(3) ياقوت، مصدر سابق، ج 6، صص. 58 ـ 59.

(4) المصدر نفسه، ج 6، ص. 72.

... جاء في رسالة له وسمها بـ "الشكر" ما يأتي:

... وأي زمان بعد زمان النبي صلى الله عليه وآله أحق بالتفضيل، وأولى بالتقديم من زمان ظهرت فيه الدعوة الهاشمية، والدولة العباسية، ثم زمان المتوكل على الله والناصر لدين الله، والإمام الذي جُلُّ فكره وأكثر شغله بتصفية الدين وتهذيبه وتنقيحه وإعزازه وتأييده واجتماع كلمته، ورجوع الفتنة (1).

وهكذا عد الجاحظ سياسة المتوكل هذه والخاصة بالتحديد بإبطال القول بخلق القرآن ورفع الفتنة، بأنها نقت

---

(1) الجاحظ، »رسالة الشكر«، في: القلقشندي، مصدر سابق، ج 14، ص. 180.

الدين من شوائبه، وأنها المثلى في هذا الباب؛ فأثنى عليها الثناء المبالغ فيه، مع أن واحدة من أهم مقولات المعتزلة في أصل التوحيد هي القول بخلق القرآن ونفي قدمه، وأن للجاحظ نفسه رسالة في خلق القرآن، أشار فيها إلى أن القرآن مخلوق، وأن خلقه على الحقيقة لا على المجاز(1). فامتدح سياسة المتوكل في هذا الجانب، يعني وقوع الجاحظ في تعارض شديد مع آرائه، ولم يكن موقفه هذا من قبيل التراجع الفكري، لأنه لم يعارض أفكاره السابقة بمقولات جديدة، تؤشر

(1) رسائل الجاحظ، مصدر سابق، تحقيق عبد السلام هارون، ج 3، ص. 291.

(3356/1)

قبوله بفكرة قدم القرآن ونفي خلقه، بل كان موقفه هذا من قبيل المحاباة للسلطة.

...

ثالثاً: أبواب الدعاية غير المباشرة

... ولج الجاحظ هذه الناحية من بابين، تحدث في الأول عن مناقب قريش وبني هاشم، وفي الثاني كان حديثه عن

السلطان بوجه عام.

...

1 ـ الإطراء العام لقريش وبني هاشم

... جاء حديثه في هذا الجانب بما يقود إلى سحبه بنتائجه على العباسيين، وهم القائمون على السلطة فعلاً. فقد خص قريشاً بحديث واسع في رسالة البلدان، بل يظهر أن تأليفها كان من أجل امتداح قريش وهاشم فيها. ففيما يخص قريش، أشار إلى

(1/3357)

امتيازها من غيرها بالسمو والرفعة(1) والجود والسخاء حتى أنه »لم يعترهم من بخل التجار قليل ولا كثير«(2) وأن قريشاً التزمت على الدوام بقواعد الدين، في جاهليتها وإسلامها (3)، إلى غير ذلك مما هو كثير؛ كما امتدح قريشاً في أماكن أخرى من كتاباته، فهم »أفصح العرب لساناً، وأفضلها بياناً، وأحضرها جواباً، وأجمعها عند الكلام قلباً«(4)

---

(1) الجاحظ، البلدان، تحقيق صالح أحمد العلي، مستل من مجلة كلية الآداب، بغداد، 1970، ص. 466.

(2) المصدر نفسه، ص. 467.

(3) المصدر نفسه، ص. 468، 472.

(4) الجاحظ، فصل من صدر كتابه في "تفضيل النطق على الصمت"، تحقيق حاتم صالح الضامن، مجلة المورد، بغداد، 1979، م 7، عدد 4، ص. 174.

(3358/1)

.

... وقال أيضاً: »قريش قوم لم يزل الله تعالى يقلبهم في الأرحام البريئة من الآفات، وينقلهم من الأصلاب السليمة من العاهات، ويبقيهم لكل جسيم ويرسيهم لكل عظيم«(1). ولا يستقيم مثل هذا الكلام مع منطق العقل، والمعتزلة ـ والجاحظ منهم ـ بنوا معتقدهم الفكري على المنطق والعقل، ذلك بأنه ليس بالوسع الادعائيّ على الله تعالى اختصاصه قريشاً برعاية استثنائية. ولو كان الأمر كذلك، لما ظهر فيهم وثنية

---

(1) الجاحظ، فصل من صدر كتابه في "المعلمين"، تحقيق حاتم صالح الضامن، مجلة المورد، بغداد، 1979، م 7، عدد 4، ص. 156.

(3359/1)

ولا شك، ولما احتاجوا أن يبعث فيهم نبياً (ومثل هذا الادعاء أوقع صاحبه في نوع من »الجبرية«) وأن النبي – صلى الله عليه وسلم – هو وحده الذي اختصه الله تعالى بالرعاية، وهو مع ذلك ولد من رحم ليست مؤمنة. ثم امتدح قريشاً بالفضل الوافر وسعة الصدر التي لم تكن لغيرهم(1). تناول بعد ذلك بني هاشم، فأثنى عليهم الثناء الواسع في عدة رسائل(2). ونقل عنه الثعالبي بإيجاز شديد قوله: »العرب كالبدن، وقريش روحها، وهاشم

(1) المصدر نفسه.

(2) انظر مثلاً: الجاحظ، مجموعة رسائل "رسالة الحاسد والمحسود"، و "مناقب الترك".

(3360/1)

سرها ولبها، وموضع غاية الدين والدنيا منها، وبنو هاشم ملح الأرض وزينة الدنيا...« (1). وتحدث عنهم في رسالة البلدان، مشيراً إلى الخصال التي بانوا بها على قريش، ومنها: النبوة التي هي خلاصة خصال الخير كلها(2)، وأن الملك فيهم ميراث عن الرسول – صلى الله

عليه وسلم – ورثه العباس عليه السلام ثم ورثه أبناؤه وأحفاده عنه(3)، وامتازوا أيضاً بالبركة: »وكان أول بركتهم أن الله تعالى رفع الطواعين

---

(1) ثمار القلوب، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة، 1965، ص. 13.

(2) المصدر نفسه، ص. 477.

(3) المصدر نفسه.

(3361/1)

والموتان الجارف «(1). ثم أشار إلى أن لبني هاشم طابعاً في وجوههم دل على كرم العتق وكرم التجار، ولم يكن ذلك في غيرهم، حتى أن الأحواز التي تفسد فيها الطبائع كادت أن تفسد ذلك على من سكنها من بني هاشم، »لولا أن الله غالب على أمره« (2). ثم جاءت رسالته في المفاخرة بين بني هاشم وبني عبد شمس، لتشير إلى خصال الفريق الأول ومناقبهم بشكل تفصيلي لا مجال هنا للإفاضة فيه(3).

2 ـ الحديث عن السلطان

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه، ص. 494.

(3) رسائل الجاحظ، تحقيق السندوبي، مصدر سابق، صص. 67 ـ 116.

(3362/1)

... تحدث الجاحظ في هذا الجانب عن السلطان حديثاً فيه إشادة بالخصال والصفات التي ميزت السلطان من غيره، بما أظهر سلوكه مبرراً على الدوام. وشكل ذلك ـ بصورة غير مباشرة ـ دعاية فعلية للسلطان (الخليفة) القائم فعلاً. من ذلك الوصف الآتي الذي جاء في إطار عام من الحديث بشأن المأمون، فقال:

... فلسنا نشك أن الإمام الأكبر والرئيس الأعظم مع الأعراق الكريمة والأخلاق الرفيعة والتمام في الحلم والعلم، والكمال في الحزم والعزم، مع التمكين والقدرة والفضيلة والرياسة والسيادة والخصائص التي معه من التوفيق والعصمة

(3363/1)

والتأييد وحسن المعونة. لم يكن الله جل اسمه ليجلله بالخلافة ويحبوه بتاج الإمامة وبأعظم نعمة وأسبغها وأفضل كرامة وأسناها، ثم وصل طاعته بطاعته ومعصيته بمعصيته إلا ومعه من الحلم في موضع الحلم والعفو والتغافل ما لا يبلغه فضل ذي فضل ولا ذي حلم... (1).

فأضفى على الخليفة بهذه الأوصاف من القداسة والجبرية الشيء الكثير بعبارة جزلة موجزة. ومن بين الأوصاف الكثيرة التي أضفاها الجاحظ على الخليفة هنا، نتوقف عند واحدة منها، وشكلت واحدة من المسائل التي

---

(1) الجاحظ، »رسالة إلى الفتح بن خاقان«، مجموعة رسائل، ص. 24.

توقف المعتزلة عندها ولا سيما الجاحظ منهم، وهي مسألة العصمة. فإذا كانت المعتزلة قد قالت بالمعونة واللطف والمصلحة والتوفيق وبما يدفع هذه المفاهيم عن الجبرية(1)، فإن موقفهم من العصمة كان له شأن آخر. فهي عندهم »في الأصل المنع... حتى يكون المرء معه كالمدفوع إلى أن لا يرتكب الكبائر، ولهذا لا تطلق إلى

على الأنبياء أو من يجري مجراهم«(2)، بل إنهم كادوا أن ينكروا عصمة الأنبياء أيضاً، فانقسموا بهذا الشأن إلى فريقين:

---

(1) قاضي القضاة عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، صص. 779 ـ 780.

(2) المصدر نفسه، ص. 780.

(3365/1)

قال الأول يجوز ارتكاب الأنبياء للمعاصي دون علمهم أنها معاصي، ولم يتعمدوا ارتكابها. في حين قال الفريق الآخر إنهم علموا أنها معاصي، لكنها كانت من جنس الصغار دون الكبار(1). في حين قالت فئة أخرى منهم بعصمة الأنبياء، ولكنهم قصروها على الجوانب الدينية فقط(2). أما الجاحظ، فلم يرد عنه نص مباشر في هذا الشأن، ولكن اتهمه ابن الراوندي بالآتي: »وزعم الجاحظ أن الأنبياء عليهم السلام اعتمدت المعاصي وواقعتها على غير تأويل

---

(1) الأشعري، مصدر سابق، ج 1، ص. 272.

(2) ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج 7، صص. 18 ـ 19.

(3366/1)

وارتكبتها مع العلم بأن الله نهاها عنها«؛ وعلى الرغم من أن الخياط المعتزلي حاول الدفاع عنه أمام هذا الاتهام، »فإن كل ما أمكن الخروج به من الدفاع أن رأي الجاحظ هو أن الأنبياء وقعوا في المعاصي مع علمهم أنها معاصي. وأن الله تعالى قد نهى عنها«(1). فإذا كان قد أنكر على الأنبياء عصمتهم، فكيف سوغ لنفسه الحديث عن عصمة الإمام الخليفة. لا جرم أن ذلك الباطل بعينه، مؤكداً التعارض الشديد الذي وقع فيه وهو يروج للسلطة العباسية. هذا، إذا علمنا أن عموم

---

(1) الخياط، الانتصار، تحقيق د. نيبرج، القاهرة، 1925، ص. 95.

(3367/1)

موقف المعتزلة قام على أساس إنكار عصمة الأئمة (الخلفاء) انطلاقاً من طبيعة فهمهم لمهام هؤلاء بأنها دنيوية وليست دينية(1).

... وفي إطار حديثه عن السلطان، أكد ضرورة الإمام

ووجوب قيامه(2)، ثم أشار إلى أن هؤلاء ـ الأئمة ـ أفضل من الرعية، لأنهم أفقه في الدين وأقوم بالحقوق. وهم بهذه الصفات أفضل من العباد بعبادتهم، فهؤلاء لا ينفعون سوى أنفسهم، في حين أن لأولئك

---

(1) محمد عمارة، المعتزلة وأصول الحكم، ص. 165 ـ 166.

(2) الجاحظ، »في بيان مذاهب الشيعة«، مجموعة رسائل، ص. 184؛ فصل من صدر كتابه في "المعلمين".

(3368/1)

نفعاً عاماً وواسعاً(1). ثم أشار إلى أن ثمة شيئين متباينين، إن صلح أحدهما صلح الآخر والعكس صحيح، وهما السلطان والرعية. ثم أردف بقوله إنه قد »صلح السلطان وعلى الله تمام النعم في صلاح الرعية« (2)، ثم حض بعدها على ضرورة التسليم ببعض خصال السلطان، وإن كانت توحي بالسلبية، لكنها ضرورة لابد منها مثل الخيلاء والزهو، فذلك ممكن ومقبول من السلطان، ولا يعذر به غيره(3)

---

(1) البيان والتبيين، مصدر سابق، ج 2، ص. 349.

(2) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مصدر سابق، ج 1، ص. 313.

(3) الجاحظ، مجموع رسائل الجاحظ، تحقيق باول كراوس وطه الحاجري، القاهرة، 1943، صص. 23 ـ 32.

(3369/1)

. لكنه وقع في ما هو أفدح من ذلك بقوله إن الإمام إذا كان جائراً مستأثراً بالفيء ومعطلاً لبعض الأحكام، فإنه لا بأس في ذلك، لأن بقية منافعه تغمر مضاره هذه، أي أن فائدته أشمل من مضاره حتى وإن جار وظلم، وأنه لابد من التسليم بذلك(1). وهذا الأمر، بلا شك، من الأمور الخطيرة التي تقاطع فيها الجاحظ مع قول المعتزلة بالخروج على أئمة الظلم والجور، متى ما أمكن ذلك لا التسليم به وقبوله تحت ذرائع

---

(1) الجاحظ، فصل من صدر كتابه في "الوكلاء"، تحقيق يحيى الجبوري، مجلة المورد، بغداد، 1979، م 7، عدد 4، ص. 214.

(3370/1)

ومسوغات معينة. كما دافع عن اتخاذ الخلفاء العباسيين القناع، لأن في طرحه ملابسة وابتذالاً ومؤانسة ومقاربة، في وقت احتاج فيه الناس إلى أن يهابوا الخلفاء، ففي ذلك صلاح شأنهم(1)، وأن تعظيم شأن السلطان يرعب قلوب المخالفين، وفي التهويل فيه صلاح للرعية، وإظهار السلطان قدراته على إخافة الرعية يدفعهم إلى حسن الطاعة والقبول(2). وعلى وجه العموم، فإن الاتجاه العقلاني للمعتزلة لا يوحي بقبول مثل هذه السياسة التي لا مكان

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، المصدر السابق، ج 3، ص. 118.

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص. 115.

فيها إلا للرهبة والخوف فقط، وإن كان هؤلاء في واقع الأمر قد مالوا إلى هذا النوع من السياسة إبان تولِّيهم شؤون السلطة في الدولة في حقبة الخلفاء الثلاثة: المأمون والمعتصم والواثق؛ فكان في سياستهم هذه مصرع عقيدتهم بين الناس بما قاد إلى أفول نجمهم السياسي فيما بعد.

... وفي آخر المطاف، لابد من التوقف عند مسألة مهمة في فكر الجاحظ والمعتزلة. تلك هي قضية الجبر والاختيار. وقد شكلت هذه القضية أحد أعمدة فكر المعتزلة، وأخضعوا مقالاتهم في هذا الجانب لأصل العدل من بين أصولهم الخمسة، فمالوا إلى الاختيار ونفوا

الجبر ونقضوه، وعدوا القول به تجويراً لله تعالى. والجاحظ نفسه أنكر قول القائلين بالجبر، واستنكر على الأمويين قولهم به، واستخدامهم له غطاء سياسياً، ليبرروا من خلاله وجودهم في السلطة، ويضفوا عليهم الشرعية والقبول. فهل توفق الجاحظ في اتخاذ موقف مماثل عند حديثه عن سلطة العباسيين؟

... رأى المعتزلة أن العباد هم الذين يخلقون أفعالهم، ولا تجوز نسبة هذه الأفعال إلى الله تعالى، ولا سيما تلك التي يترتب عليها ثواب أو عقاب(1)؛ وربما تطرف

---

(1) انظر مثلاً: محمد عمارة، المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية، ص. 85.

بعضهم ليذهب إلى أبعد من ذلك أما الجاحظ، فقد كان أكثر ميلاً للفلاسفة الطبيعيين، مظهراً تأثره بهم(1). فكان من رأيه أن للإنسان إرادة الاختيار فقط: فهو يختار بإرادته هذا الفعل أو ذاك من الأفعال. أما كنه هذا الفعل، فهو طبع من الله تعالى طبعه به(2). يعني ذلك أن الإنسان إذا قرر فعل العدل، فإن قراره

(1) الأشعري، مصدر سابق، ج 2، ص. 83؛ قاضي القضاة عبد الجبار، المجموع في المحيط بالتكليف، تحقيق جين يوسف هوبن اليسوعي، بيروت، د. ت، ج 1، ص. 399.

(2) الأشعري، مقالات الإسلاميين، القاهرة، 1954، ج 2، ص. 83.

هذا هو إرادته واختياره؛ أما كنه العدل وميل الإنسان إليه، فهو طبع من الله تعالى. ومن الناحية المنطقية، وبموجب مقتضيات فكر المعتزلة، فمثل هذا الادعاء ليس بعيداً عن الجبر؛ فإن الله إذا طبع في الإنسان طبعاً إيجابياً، فلابد من أن يكون هناك ما يقابله سلبياً حتى يكون للإنسان إرادة الاختيار بينهما، الأمر الذي يعزز

مبدأ العقاب والثواب ويجعل لهما معنى حقيقياً. وذلك ما نبه عليه الجاحظ بقوله:

... ...لأن الغضب والحسد والبخل والجبن والغيرة وحب الشهوات والنساء والمكاثرة والعجب والخيلاء، وأنواع هذه إذا قويت

(3375/1)

دواعيها لأهلها واشتدت جواذبها لصاحبها، ثم لم يعلم أن فوقه ناقماً عليه، وأن له منقماً لنفسه من نفسه، أو مقتضياً منه لغيره، كان ميله وذهابه مع جواذب الطبيعة، وداعي الشهوة طبعاً لا يمتنع معه، وواجباً لا يستطيع غيره (1).

وقوله: »أنا لما رأينا طبائع الناس وشهواتهم من شأنها التقلب إلى هلكتهم أو فساد دينهم وذهاب دنياهم.. «(2). والجاحظ بهذا الافتراض يكون قد تقاطع مع عموم المعتزلة الذين قالوا إن الله تعالى لا يفعل القبيح، بل يفعل

---

(1) فصل من صدر كتابه في "الجوابات في الإمامة"، ص.

.228

(2) المصدر نفسه.

(3376/1)

ويختار الحسن فقط(1). فإذا طبع الله تعالى العباد بطباع معينة، فذلك فعل الله فيهم؛ وإذا كان الله تعالى قد طبعهم على الطباع المتضادة، بحسب ما ورد في قول الجاحظ الآنف، عنى ذلك أن الله تعالى قد طبعهم على الحسن والقبيح، أي أنه فعل الحسن والقبيح. لكن هذا وحده ما جعل مقولة الجاحظ في الطباع تنسجم مع أصل العدل عند المعتزلة، لأن الله تعالى إذا كان قد طبع الإنسان على طبع واحد سلبي أو إيجابي، عند ذلك لا يكون أي معنى

---

(1) قاضي القضاة عبد الجبار، المجموع في المحيط بالتكليف، مصدر سابق، ج 1، ص. 257 ـ 264.

(3377/1)

لمعاقبته أو إثابته عليه. لذا فإن طبع الله للإنسان على طباع يجب أن يكون على الوجهين السلبي والإيجابي أولاً.

ثم يجب أن لا يقتصر هذا الطبع على فئة من الناس دون أخرى، بل لابد من أن يكون عامّاً وشاملاً فيهم، وذلك بمقتضى العدل. وبغير هذين الشرطين، فإن القول بالطبع يقود إلى الجبر ونفي الاختيار. فهل كان الجاحظ موفقاً في هذا الجانب؟ للإجابة عن ذلك، نعود إلى بعض ما سبق عرضه في الصفحات السابقة مما له صلة بهذا الحديث. ففي ثنائه على المعتصم قال: »وقد جمع الله لأمير المؤمنين . . . البعد عن إيثار الهوى«. وهذا

(3378/1)

التمييز وتأكيد هذه الصفة يعني أن الله تعالى اختارها له دون ضدها. وهذا نزوع جبري بلا شك، إذ من المفترض أن يكون الله تعالى قد طبعه على البعد عن إيثار الهوى وعلى اتباع الهوى أيضاً، ثم اختار المعتصم بإرادته البعد عن إيثار الهوى. بيد أن عبارة الجاحظ تشير إلى غير ذلك وفي حديثه عن إقامة الإمام الواحد قال: »ولم يكن الله ليطبع الدنيا وأهلها على هذه الطبيعة، ويركب أهلها هذا التركيب«. وساق هذا النص بطريقة جبرية تقود إلى التسليم للإمام القائم، لأن الله طبع الناس على القبول بإمام واحد للأمة، في حين كان

(3379/1)

المفترض أن يكون الطبع على النقيضين في هذه المسألة. ثم تبدأ عملية الاختيار من قبل الأمة، وبعكسه يعد الأمر جبراً. هذا بخصوص فكرة الطبع التي قال بها الجاحظ، حيث أنه كرسها »جبرياً« لمصلحة الدعاية السياسية للعباسيين.

... ثم جاء نزوعه الجبري أكثر وضوحاً في نواحي أخرى. فقد قال في محاجَّته للنص والوصية في شأن الإمامة: »... قلنا: الخيرة فيما يصنع الله. فلو كان الله بيَّن ذلك بالنص والتفسير دون الدلالة ووضع العلامة، كان ذلك خيرة، لأنا نعلم أن الله لا يصنع إلا ما هو خير. فلما لم يفعل ذلك ولم ينص عليه،

(3380/1)

فتركه الأمر على ما نحن عليه خير لنا وأفضل... «(1). فهو إذن تحدث عن آلية نظام الإمامة، بإقرار الحالة القائمة كما هي، ووصف ذلك بأنه خيرة من الله، أي أن الله تعالى هو الذي اختار ذلك وأراده، وهذا نزوع جبري واضح أيضاً. ثم أصبح هذا النزوع أكثر وضوحاً بقوله في حديثه

عن الخليفة المأمون: »لم يكن الله جل اسمه ليجلله بالخلافة ويحبوه بتاج الإمامة...«. فمعنى ذلك أن وجود المأمون في الخلافة فعل أراده وفعله الله تعالى. وذاك إيغال في الجبرية التي تكرس نظرية الحق

---

(1) الجاحظ، العثمانية، مصدر سابق، صص. 278 ـ 279.

(3381/1)

الإلهي للخلفاء في السلطة، الأمر الذي يضفي القداسة عليهم، ولا يجعلهم حكاماً دنيويِّين فقط، بل دينيون أيضاً. الأمر الذي نفاه المعتزلة عن الخلافة والإمامة، وسبق التنبيه عليه.

... إن عموم ما يمكن الخروج به من هذه الدراسة أن الجاحظ تشتت بين معتقداته الاعتزالية ومتطلبات الدعاية السياسية للسلطة العباسية، فمال مرات عديدة لمصلحة مقتضيات الدعاة على حساب مقولات عقيدته الاعتزالية. وعكس ذلك بلا شك أزمة المثقف التاريخية حينما يتجاذبه قطب العقيدة من جهة والدعاية السياسية من جهة أخرى.

(3382/1)

الجالية المغربية ببلاد السودان الغربي (ق 8 هـ/ 14 م)

ملاحظات حول دورها في التفاعل الحضاري بين ضفتي الصحراء

... ... الأستاذ محمد الشريف

... ... كلية الآداب ـ تطوان

... من المؤكد الآن أن الروابط والصلات التجارية بين السودان الغربي وبلاد المغرب روابط تجارية تعود إلى أزمنة تاريخية قديمة. فقد كانت قوافل قرطاجة تقطع الصحراء لجلب الذهب والعبيد والعاج مقابل المنسوجات والنحاس والأدوات المصنّعة. وظل هذا التبادل قائماً في العهديْن اليوناني والروماني ثم البيزنطي. وبعد

(3383/1)

الفتح الإسلامي للمغرب، تولى سكان المغرب تأمين أسواق السودان الكبرى وعملوا على تنظيم المواصلات مع هذه البلاد على أساس تجاري أولاً، ما فتئ يتوطّد عبر الفترات التاريخية اللاحقة، حاملاً معه مجموعة من

التنظيمات الاجتماعية والدينية والحضرية.

... ودون الدخول في تفاصيل التجارة القافليّة بين الشمال والجنوب وتنظيم القوافل وظروف السفر ومحاور الطرق وجغرافية المبادلات، ولا معالجة أساليب التعامل بين الطرفين(1)

---

(1) انظر عن هذه الجوانب: أحمد الشكري، »مقارنة تقييميّة لدور الصحراء في علاقات بلاد المغرب ببلاد السودان خلال العصر الوسيط«، مجلة المناهل (المغرب)، عدد 58، مارس 1998، ص ص. 62 ـ 71؛

J. Devisse, «Approximatives, quantitatives, qualitatives: valeurs variables de l'étude des traversées sahariennes», in Relaciones de la Peninsula Ibérica con el Magreb siglos XIII-XVI. Actas del Coloquio, .éd. Garcia-Arenal y M. J

; V. M. 203–165, pp. 1988Viguera, Madrid,

Godinho, L’économie de l’Empire

–99, pp. 1969portugais au XVIe siècle, Paris,

.125

(3384/1)

...، يمكن القول إن العلاقات التجارية كانت تنفث الروح في باقي العلاقات الأخرى من كل نوع. فالعنصر الحاسم الذي أثر في التطور الاجتماعي والحضاري بالسودان يتمثل في العامل التجاري. فإليه ينسب كثير من المؤرخين ما عرفته أقاليم السودان من ازدهار حضاري وتطور سياسي واقتصادي، وذلك لما أتاحته القوافل من فرص الاطلاع على العادات والمعطيات الحضارية في حوض البحر المتوسط(1).

---

(1) محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، بغداد، 1982، ص. 569.

(3385/1)

... نريد في هذا المقال التطرق لأهمية العنصر البشري في التفاعل الحضاري بين ضفتي الصحراء، وذلك عن طريق تسليط الأضواء على الجالية المغربية بالسودان الغربي خلال القرن الرابع عشر الميلادي. وسندنا الرئيس في هذه المحاولة هو القسم السوداني من رحلة ابن بطوطة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"(1). ومن الملائم أن نشير إلى أن ابن بطوطة عاصر ثلاث

---

(1) اعتمدنا على طبعة دار صادر، بيروت، 1963. وقد صدرت مؤخراً طبعة جديدة من الرحلة بتحقيق الدكتور عبد الهادي التازي، منشورات أكاديمية المملكة المغربية.

(3386/1)

قوى سياسية رئيسة في القارة الإفريقية هي دولة المرينيين بالمغرب، ودولة المماليك بمصر، ودولة مالي بالسودان الغربي. ومن نافلة القول كذلك إن معلومات ابن بطوطة تعتبر ذات أهمية قصوى لمعرفة المجتمع السوداني. فهي تصور لنا مكوناته الاقتصادية والثقافية والذهنية والعقدية تصويراً دقيقاً، كما تخبرنا بطريقة غير مباشرة عن أفراد الجالية المغاربية وتنظيمها وعلاقاتها بباقي مكونات المجتمع السوداني؛ فضلاً عن دورها في الربط الحضاري بين شمال الصحراء وجنوبها.

(3387/1)

... ومن الطبيعي أن يكون التواجد المغربي ببلاد السودان الغربي كثيفاً، نظراً للعلاقات التجارية والروحية التي ربطت المنطقتين منذ فترة طويلة. فقد انْبَنَت الجالية المغربية ببلاد السودان الغربي إلى جانب الجاليات الأخرى، وخاصة المصرية منها، وأدت أدواراً كبيرة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والروحي للسودان الغربي كما سنرى.

... ويمكن القول إن العناصر الفاعلة في التجارة الصحراوية كانوا إما سكان الحواضر المغربية والسودانية، وإما عناصر رُحَّلاً غالباً ما انتهى بهم الأمر إلى الاستقرار في المدن. ويظهر أنه

(3388/1)

إلى حدود القرن 6 هـ/ 12 م، كانت المبادرة بيد التجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون مع بلاد السودان. ولم يبدأ السودانيون يترددون على مدن الجنوب الغربي للمغرب إلا عند نهاية القرن 6 هـ/ 12 م(1).

... عند وصول التجار المغاربة إلى المراكز الحضرية السودانية، كانوا يقومون بكراء المنازل لسكناهم ولتخزين سلعهم طيلة فترة مقامهم هناك؛ وهي إقامة كانت تطول شهوراً(2)

(1) انظر: محمد الشريف، نصوص جديدة ودراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، تطوان، 1996، ص. 86.

(2) يقول ابن بطوطة في معرض حديثه عن توجهه إلى ابولاتن إنه كان قد كتب إلى ابن بداء، وهو رجل من سلا، ليكتري له داراً. وكانت إقامته هناك نحو خمسين يوماً. (رحلة ابن بطوطة، ص. 677)؛ وكذلك فيما يخص إقامته بعاصمة مالي، فقد كتب لكبير جماعة البيضان أن يكتري له داراً. (ص. 681).

(3389/1)

. ولكن في غالبية الحالات كانوا يقيمون مع زبنائهم أو لدى وكلاء الشركات التي ينتمون إليها. والجدير بالذكر أن الفنادق المخصصة للجاليات الأجنبية لم تكن معروفة بالسودان الغربي، على عكس بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط حيث انتشرت الفنادق المخصصة للتجار الأجانب في أغلب المدن التجارية، بل إن التجار المغاربة كانوا يسكنون أحياء خاصة بهم حيث يتوفرون على منازل وحوانيت ومساجد خاصة. فابن بطوطة وصل إلى »محلة البيضان« بمدينة مالي حيث اكترى له محمد ابن الفقيه »داراً إزاء داره«(1). وفي

(1) رحلة ابن بطوطة، ص. 681.

(3390/1)

مدينة كوكو أَضَافَهُ الفقيه محمد الفيلالي »إمام مسجد البيضان «(1). إن إقامة المغاربة في أحياء خاصة بهم لا تعني انعزالهم أو ترفُّعهم عن المجتمع السوداني. فقد سجل ابن بطوطة حسن التعايش بين أهل السودان ومن يخالطهم من البيض، ومعظمهم من المغرب وباقي الشمال الإفريقي.

... ويمكننا التأكيد أن الجاليات المغربية في مدن السودان كانت مهمة من حيث المستوى الاجتماعي، وتمثلت في أسر تجارية أو علمية سَكَنَتْ في مدن السودان، مؤقتاً أو بصفة دائمة. فقد كانت الجالية المغربية تشمل، إلى

(1) المصدر نفسه، ص ص. 695 ـ 696.

(3391/1)

جانب التجار، فقهاء وقضاة ومدرسين ومقرئين وطلبة وخطباء، وحتى رجال الأدب والشعراء والمهندسين. ولا نعلم تاريخ إقامة أفراد الجالية المغربية الذين يذكرهم ابن بطوطة؛ إلا أن بعض المؤشرات تؤكد أن عدداً منهم لم يكن طارئاً على البلاد، وإنما يمثل الجيل الثاني أو الثالث مثل مدرك بن فقوص، الذي على يَد جدّه أَسْلَمَ جدٌّ إمبراطور مالي مانسا موسى حسب رواية ابن بطوطة(1).

... ومن خلال أسماء بعض المغاربة الذين تذكرهم المصادر، نلاحظ أن التجارة الصحراوية كانت تستقطب التجار من جميع أنحاء

---

(1) المصدر نفسه، ص. 689.

بلاد المغرب، وخاصة من المدن الكبرى. ويذكر البكري أبا بكر أحمد ابن خلوف الفاسي الذي استقر بغانة. ونعلم أن أخوي المقري (عبد الواحد وعلي) كانا يمثلان شركتهما العائلية بولاتة(1). ويقول العمري إن أبا عثمان سعيد الدكالي »سكن مدينة بيتي [عاصمة امبراطورية مالي] خمساً وثلاثين سنة«(2). أما ابن

بطوطة، فبالإضافة إلى كلامه عن »المغاربة« أو

---

(1) المقري، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، 1988، ج 5، ص. 205.

(2) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق د. مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، 1983، ص. 60.

(3393/1)

عن »البيضان« وعن »التجار« بصيغة الجمع، فإنه يذكر أسماء عدد من المثقفين والتجار المغاربة المقيمين في مختلف مدن السودان. إلا أن تلك الأسماء لا تترجم في الواقع إلا جزئياً حقيقة الوجود التجاري المغاربي ببلاد السودان وكثافة هذا الوجود.

... ومع ذلك، لابد من أن نلاحظ أن الجاليتين المغربية والمصرية كانتا متساويتين من حيث الأهمية بالعاصمة المالية، حيث كانت »جماعة البيضان« بها خاضعة لقيادة شخصين من كبار القوم: الأول مغربي كما تدل على ذلك نسبته لقبيلة جزولة، وهو محمد بن الفقيه الجزولي؛ والآخر مصري هو شمس

(3394/1)

الدين بن النقوش المصري. إلا أن »ابن بطوطة يربط حديثه عن المصريين باشتغالهم بالتجارة، ولا يذكر اشتغال المغاربة بها إلا في القليل النادر، ويجعل وجودهم هناك مقروناً بالاشتغال بالقضاء والتدريس وكل ما يتصل بالحياة الثقافية «(1). فبجانب التجار المحترفين يظهر أن الفقهاء والقضاة ورجال الأدب الذين أقاموا بالسودان الغربي قد تعاطوا التجارة هم كذلك ويصعب الجزم بأنهم كانوا يقتصرون في نشاطهم على

(1) حسن حافظي علوي، »علاقة المغرب الأقصى بمالي من خلال "رحلة ابن بطوطة"«، مجلة المناهل، عدد 53، 1996، ص. 129.

الوظائف الرسمية. فمهما كانت الرواتب التي تدرّها عليهم تلك الوظائف، فإنهم بلا شك كانوا ميالين إلى ممارسة الأعمال التجارية المربحة التي تفسر وجودها عبورهم للصحراء والإقامة في بلاد بعيدة مثل السودان. فقد كانوا وكلاء للشركات الموجودة بالمغرب أو وسطاء بين المغاربة والسودانيين(1). إن الجمْعَ بين التجارة

والعِلْم هو إحدى خصائص الحضارة الإسلامية في جميع

---

(1) A. El Alaoui, Le Maghreb et le commerce transsaharien (milieu du Xiè- milieu du XIVè s.), Thése de 3ème cycle, Bordeaux, 1983, pp. 108–109.

(1/3396)

العصور.

... ونعلم أنه لم تكن هناك اتفاقيات تجارية أو معاهدات تقنن العلاقات التجارية بين المغرب وممالك السودان، وتحدّد واجبات وحقوق التجار المغاربة بالسودان؛ كما هو الحال بين البلدان الإسلامية والبلدان المسيحية(1). ويظهر أن الإسلام الذي نسج خيوط مختلف الروابط بين ضفتي الصحراء، هو أصل عدم وجود تلك الاتفاقيات. وهذا يفسر كذلك تلك التسهيلات التي منحها ملوك السودان للمغاربة، والتي دفعتهم

---

(1) انظر مثلاً دراستنا: سبتة الإسلامية: دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، تطوان، 1995، ص. 120 وما بعدها.

لتنشيط الحركة التجارية والمساهمة في مداخيل الخزينة السودانية. لذلك نجد السلطة المحلية تعمل على ضمان حمايتهم وتعاقب جميع المضرّين بمصالحهم أو بأمنهم، وتُسَهِّل حرية تنقلاتهم(1). ويؤكد ابن بطوطة أن إمبراطور مالي المانسي موسى »كان يحب البيضان، ويحسن إليهم«(2)، و »هو الذي أعطى لأبي اسحاق الساحلي في يوم واحد أربعة آلاف مثقال [...]، وأعطى لمدرك بن فقوص ثلاثة آلاف مثقال في يوم واحد«(3). وقد استمرت

(1) انظر أمثلة من ذلك عند: ابن بطوطة، مصدر مذكور، ص. 688.

(2) المصدر نفسه، ص. 689.

(3) المصدر نفسه.

هذه السياسة سارية المفعول خلال القرنين التاليين حسب شهادة الحسن الوزان(1). كذلك تقرب أغنياء

الجالية المغربية من أغنياء الأرستوقراطية السودانية ومن الدوائر الحاكمة عن طريق الزواج والارتباطات العائلية. إن كبير »جماعة البيضان« محمد ابن الفقيه الجزولي »كان متزوجاً ببنت عم السلطان«(2)

---

(1) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، ج 2، 1983، ص. 162. بمدينة مالي »يوجد عدد كثير من الصناع والتجار المقيمين والطارئين الذين يعيرهم الملك عناية أكثر من غيرهم«.

(2) ابن بطوطة، المصدر المذكور، ص. 681.

(3399/1)

. ونجد لاحقاً أن ملك تمبوكتو »زوج اثنتين من بناته من أخوين تاجرين لغناهما«(1).

... وقد عمل بعض أفراد الجالية المغربية مستشارين في دواليب الإدارة السودانية المحلية وفي دائرة السلاطين السودانيين. فالقاضي والخطيب ابن الفقيه هم من أَعْلَمَ المانسي سليمان بقدوم ابن بطوطة لمالي(2). كما قاموا بمهمة التحكيم بين الزعامات السودانية المتصارعة: »وفي أيام إقامتي به [تكادّا]، توجه القاضي أبو

إبراهيم، والخطيب

---

(1) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، المصدر المذكور، ج 2، ص. 166.

(2) ابن بطوطة، المصدر المذكور، ص. 682.

محمد، والمدرس أبو حفص، والشيخ سعيد بن علي إلى سلطان تكادّا وكان [...] وقعت بينه وبين التكركري، وهو من سلاطين البربر أيضاً منازعة فذهبوا إلى الإصلاح بينهما»(1). وبذلك يمكن القول إن دولة مالي كانت قد دخلت مرحلة جديدة في نموها عندما طور البلاط علاقاتها بالتجار والفقهاء المسلمين.

... وإذا كان ابن بطوطة في سياحته ببلاد السودان قد صدمته بعض العادات وأَنَفَ من بعض الأكلات السودانية في بعض المدن، فإن ذلك لم يكن حالة التجار الذين كانوا متعودين الحياة في هذه المناطق. ويظهر أن

---

(1) المصدر نفسه، ص. 698.

عدم تشدد السودانيين وانفتاح قيمهم ومبادئ الديانة الجديدة التي تبنوها قد ساهمت بلاشك في إدماج المغاربة في المجتمع السوداني، حيث تعايشت مبادئ الإسلام مع بقايا الديانة الأنيمية المحلية.

والواقع أنه كانت هناك علاقات وصداقات بين السكان المحليين والتجار المغاربة، حيث تزوج البعض حسب الشريعة الإسلامية؛ بينما اتخذ البعض الآخر ـ الذي كان كثير الانتقال بين المغرب وبلاد السودان ـ جواري له.

ولقد تعلم المغاربة اللسان السوداني: يذكر الحسن الوزان أنه مع انتشار الإسلام بالسودان، »بدأ تجار بلاد البربر حينئذ

(1/ 3402)

يذهبون إلى هذه البلاد ليتاجروا فيها حتى تعلموا لغاتهم«(1). و»رجل من البيضان« هو الذي شرح (أو ترجم) لابن بطوطة فحوى بعض المحادثات التي جرت في البلاط السوداني(2).

... إن الامتيازات التي كان يحصل عليها المغاربة لم تمنع ملوك السودان، في ظروف نجهلها، من اعتقال التجار المغاربة ومنع نشاطهم. مثلاً، عند نهاية القرن 12 م عرفت العلاقات المغربية ـ السودانية أزمة من

مظاهرها رفض الخليفة المنصور الموحدي »هديّة من بلاد

---

(1) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ج 2، ص. 160.

(2) ابن بطوطة، المصدر المذكور، ص. 688.

(3403/1)

السودان« عبارة عن فيل. إننا لا نعرف أسباب تلك الأزمة، وهناك من يرجّح أنها مرتبطة بما كان يتعرض له المغاربة من مضايقات من طرف حكام السودان(1). فعلى أثر اعتقال ملك السودان بعض التجار المغاربة وسجنهم، وجه الأمير أبو الربيع سليمان والي سجلماسة وأقاليمها مذكرة احتجاج شديدة اللهجة إلى ملك غانة

---

(1) إبراهيم حركات، »طبيعة العلاقات المغربية مع إفريقيا الغربية في العصر الوسيط«، ضمن كتاب: العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية، منشورات جمعية موظفي كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، عكاظ، 1992، ص. 37.

(3404/1)

يستنكر فيها العراقيل التي توضع في وجه صغار التجار المغاربة و»تعويقهم«، مذكراً إياه بأن اختلاف الاعتقاد الديني بين الجانبين لا يمنع من حسن الجوار ومن حسن التعايش: »نحن نتجاور بالإحسان وإن تخالفنا في الأديان«، وأنه يمكن معاملة التجار السودانيين الموجودين بالمغرب بالمثل: »لو شئنا، لاحتبسنا من في جهتنا من أهل تلك الناحية لكنا لا نستصوب فعله، ولا ينبغي لنا أن ننهى عن خلق ونأتي مثله«(1).

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج 3، ص. 105.

(3405/1)

... ويبدو أن العلاقة بين التجار المغاربة والسلطات السودانية كانت تعرف تأزماً في بعض الفترات. يعكس ذلك مثلاً ما كان يعانيه التجار المغاربة من تعجْرف فرْبا حسين نائب السلطان السوداني بولاتة، »أول عمالة السودان«. فلما وصلتها قافلة ابن بطوطة، »جعل التجار أمتعتهم في رحبة وتكفل السودان بحفظها، وتوجهوا إلى الفربا، وهو جالس على بساط في سقيف وأعوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقسيّ [...] ووقف التجار بين يديه، وهو يكلمهم بترجمان، على

قربهم منه، احتقاراً لهم«(1).

---

(1) الرحلة، ص ص. 676 ـ 677.

(3406/1)

... كما أن ممتلكات المغاربة كانت مهددة في فترات الاضطرابات التي كانت تشمل السودان، وخاصة عند فترات الصدام بين السلالات الزنجية المحلية. فنعرف مثلاً أن ممتلكات شركة المقري بولاتة قد تعرضت للنهب والمصادرة عندما غزا »الماندينغ« المدينة في القرن 14 م. ولكن بعد عودة الهدوء إلى البلاد، عوَّض الأسياد الجدد للبلاد الشركة ومنحوها الامتيازات التي كانت تتمتع بها سابقاً ومكنوا أعضاءها من التجارة بجميع بلادهم محققين بذلك أرباحاً طائلة(1).

---

(1) المقري، المصدر السابق، ج 5، ص. 205.

(3407/1)

... ولا نعدم إشارة إلى جشع بعض المغاربة بالسودان الغربي وضربهم عرض الحائط بحسن الضيافة والثقة

والإحسان الذي كان يُتعامل معهم به. مثال ذلك ما يورده ابن بطوطة حول أبي العباس الدكالي وهو »قاض من البيضان«. كان منسى سليمان قد أحسن إليه بأربعة آلاف مثقال لنفقته. ثم إنه اشتكى إلى السلطان بأن الأربعة آلاف مثقال سُرقت له من داره، »ولا سارق يكون بتلك البلاد« كما يؤكد ابن بطوطة. ولما اشتد البحث وتم تهديد خدّامه، اعترفت إحدى الجواري بأنه »ما ضاع له شيء، وإنما دفنها بيده«. وتم إخراجها، وأُتي بها للسلطان

(3408/1)

وعُرّف بالخبر، »فغضب على القاضي ونفاه إلى بلاد الكفار الذين يأكلون بني آدم. فأقام عندهم أربع سنوات، ثم ردّه إلى بلده«(1).

... وعموماً، ظل السودانيون يكنون الاحترام والتقدير للجالية المغربية؛ بينما نجدهم شديدي التحفظ من المصريين بعد أن فقدوا ثقتهم فيهم. يروي العمري استناداً إلى شهادة »خلق من تجار مصر والقاهرة«

---

(1) ابن بطوطة، المصدر المذكور، ص ص. 692 ـ 693.

ويتابع ابن بطوطة هذه الحكاية قائلاً: »وإنما لم يأكله

الكفار لبياضه، لأنهم يقولون إن اكل الأبيض مضر، لأنه لم ينضج؛ والأسود هو النضج بزعمهم«.

(3409/1)

أنه بعد أن كان التجار المصريون يحققون أرباحاً طائلة من تجارتهم مع السودانيين في القرن الرابع عشر، مستغلين في ذلك ثقة السودانيين فيهم.

... ساءت ظنونهم [السودان] بأهل مصر غاية الإساءة، لما ظهر لهم من غِشِّهم لهم في كل قول وفي تراجحهم المفرط عليهم في أثمان ما يباع عليهم من الأطعمة والسلع حتى أنهم لو رأوا اليوم أكبر أئمة العلم والدين، وقال لهم إنه مصري، امتهنوه وأساءوا به الظن لما رأوا من سوء معاملتهم لهم (1).

---

(1) العمري، المرجع السابق، ص. 73.

(3410/1)

... وعلى كل حال، فإن المخاطر التي كانت تحدق بالتجار المغاربة بالسودان الغربي لم تكن بالكثافة أو

الخطورة التي تمنعهم من التجارة، بينما كانت الامتيازات التي يحصلون عليها قد ساعدت على تنمية رؤوس أموالهم. ولدينا سيْلٌ من النصوص التاريخية والجغرافية وحتى المناقبية المعبِّرة عن درجة غنى التجار المتعاملين مع السودان الغربي، نعرض عنها ونكتفي في هذا المقال بإيراد شهادتين حول ذلك ذكر المقري عن شركة أجداده أنهم استثمروا أموالهم في التجارة الصحراوية حتى »خرجت أموالهم عن الحدّ وكادت تفوت الحصر والعدّ« (1)

---

(1) المقري، المرجع السابق، ج 5، ص. 206.

(3411/1)

. وورد على لسان الجنوي أنطونيو مالفانطي ((Antonio Malfante أن مضيفه سنة 1447 بـ»تامنتيت« في ناحية توات كان تاجراً مغربياً غنياً عاش في بلاد السودان لمدة 14 سنة. وصرح له هذا الأخير بأنه جمع ثروة تصل إلى مائة ألف دينار(1)، أي حوالي 425 كلغ من الذهب.

---

(1) Ch. De La Roncière, «Découverte d'une relation de voyage datée du Touat et

le bassin du Niger», in 1447décrivant en
.Bulletin de la sect. De Géo. (Com
, p. 1918, XXXIII, 1918Des trav. hist. et scient),
.11

(3412/1)

... وعلى الرغم من الامتيازات التي كان يتمتع بها المغاربة، فإنهم كانوا يمنعون من التوغل في المناطق الغابوية المنتجة للذهب، بهدف الحفاظ على احتكار ذلك المنبع التبري. ويذكر ابن بطوطة أن بلدة يوفي التي تعد »من أكبر بلاد السودان، وسلطانها من أعظم سلاطينهم« »لا يدخلها الأبيض من الناس لأنهم يقتلونه قبل الوصول إليها«(1). وقراءة المصادر الجغرافية العربية من القرن 10 إلى القرن 15 توضح أن الجغرافيين استقوا معلوماتهم من روايات شفوية متعلقة بتلك المناطق المنتجة

---

(1) **ابن بطوطة، المصدر السابق، ص.** 680.

(3413/1)

للتبر(1).

... إن القانون الذي عرفته أوربا الفيودالية، وبموجبه كانت تركة الأجنبي الهالك تؤول إلى سيده، لم يكن معروفاً ببلاد السودان الغربي. إن ممتلكات الأجنبي المتوفى هناك كانت تبقى أمانة بيد مواطنيه إلى أن تؤول إلى ورثته الشرعيين. ذلك ما يقرره ابن بطوطة في معرض حديثه عما استحسنه من أفعال السودان وما

---

(1) ديفيس جان، »مشكلة ملكية المناجم في إفريقية الغربية من القرن الثامن إلى القرن السادس عشر«، تعريب عبد الرحيم بن حادة، مجلة كلية الآداب بفاس، عدد 5، 1989، ص. 74.

.113A. El Alaoui., op. cit., p.

(3414/1)

استقبحه منها: »فمن أفعالهم الحسنة... عدم تعرضهم لمال من يموت في بلادهم من البيضان، ولو كانت القناطر المقنطرة؛ إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه«(1).

...

»شيخ المغاربة« بالسودان الغربي

... وبما أنه لم يكن هناك موظفون رسميون للدولة المغربية يمكنهم أن يقوموا بدور القنصل الأوروبي في بلاد الإسلام، فإن المغاربة تعودوا اختيار أحدهم ليمثلهم أمام السلطات السودانية. فعلى غرار الجالية المغربية ببلاد الشام التي كان لها شيخها، من المؤكد أن الجالية

---

(1) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص. 690.

(3415/1)

المغربية ببلاد السودان كانت منظمة كذلك بدليل وجود »شيخ المغاربة« بها(1). ولا نعرف شيئاً يذكر عن طبيعة هذه الرتبة أو المهمة؛ فنحن لا ندري إن كانت تختاره السلطات المغربية أو السلطات السودانية أو كان يتم انتخابه من طرف أفراد الجالية المغربية ببلاد السودان. وسواء كان يُعين أو يُنتخب، فإننا لا ندري إن كانت مهمته مؤقتة أو دائمة. كما أننا لا نعرف معايير اختيار شيخ المغاربة هناك أكانت معايير مادية مرتبطة بدرجة غناه وثروته أم كانت معايير عائلية أو قبلية؟ (2)

---

(1) المصدر نفسه، ص ص. 653 ـ 696.

(2) يحتمل أن يكون كل من »شيخ المغاربة بتكادا« سعيد بن علي الجزولي، و »كبيرهم بمالي« محمد بن الفقيه الجزولي من قبيلة واحدة هي جزولة، إن لم يكونا من عائلة واحدة. (ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص. 681 ـ 696).

(3416/1)

وهل كان اختياره يتم على أساس مؤهلاته الدينية والعلمية والأخلاقية أو على أساس معطيات سياسية؟ (1) إن النصوص لا تفصح عن طبيعة هذه المعايير. ولا يمكننا التسليم بأن المغاربة بالسودان الغربي كانوا يختارون »أكبرهم سناً« ليمثلهم كما يعتقد البعض(2). ثم إن المغاربة لم يكن يمثلهم شيخ واحد ببلاد السودان. فمعطيات رحلة ابن بطوطة توحي بأن شيوخ المغاربة وُجدوا حيث وجدت جالية مغربية، أي في معظم المدن

---

(1) كان ابن الفقيه الجزولي »متزوجاً ببنت عم السلطان«. (الرحلة، ص. 681).

(2) A. El Alaoui, op. cit., p. 112.

السودانية التجارية المهمّة مثل مدينة مالي، حيث كان محمد بن الفقيه الجزولي أحد كبيري جماعة البيضان إلى جانب شمس الدين بن النقويش المصري(1)، وفي مدينة تكادا حيث كان »شيخ المغاربة« هو سعيد بن علي الجزولي(2).

... أما عن مهام »شيخ المغاربة«، فمن الراجح أنه كان يشرف على حماية مصالح الجالية المغربية عند السلطات المحلية ويستقبل المغاربة الجدد القادمين إلى السودان ويوفر سبل إقامتهم(3)

---

(1) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص. 681.

(2) المصدر نفسه، ص. 696.

(3) كتب ابن بطوطة، قبل وصوله إلى مالي، إلى كبير جماعة البيضان ليكتري له داراً. ولما وصل إلى العاصمة، قصد شيخ المغاربة (ابن بطوطة، المصدر المذكور، ص. 681).

ويتولى تقديمهم للسلطان السوداني في حفلات الاستقبال(1). ومن المفترض أنه كان ينظم الاتصالات لمناقشة مسائل التجارة وتحضير المشاريع المشتركة والحصول على أخبار البلاد. ومن المرجح أنه في غالب الأحيان كان هو المسؤول عن تركة المغربي المتوفى هناك

...

دور الجالية المغربية في التواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء

... يظهر من خلال نماذج لأفراد »الجالية المغربية« بالسودان الغربي التي أوضحناها أعلاه، أن المغاربة علماء وتجاراً وفقهاء ومتصوفة ومدرسين وقضاة وأئمة ومجاهدين....،

---

(1) المصدر نفسه، ص ص. 682 ـ 683.

كانوا ينسجون بصمت، إلى جانب أفراد الجاليات العربية الإسلامية الأخرى، خطوط التواصل بين مختلف مناطق ضفتي الصحراء. وتبرز أهمية الأدوار التي اضطلعوا بها أكثر في أطراف السودان الغربي حيث لم يكن الإسلام

قد تركّز بعد. فنشر الإسلام بهذه المناطق لم يكن عبارة عن ظاهرة دينية وثقافية محضة، وإنما كان حركة اجتماعية تقتضي هجرة الأفراد الأدباء وأصحاب المواهب والمتصوفة والتجار. ومن المؤكد الآن ـ من خلال رحلة ابن بطوطة على الأقل ـ أن المغاربة كانت لهم مساهمة هامة في الشؤون العامة للسودان وفي تطور العلوم الدينية

(3420/1)

في مجتمعاته.

... وعلى الرغم من أهمية هذه الصلات، فإن بعض الباحثين لم يترددوا في وصف العلاقات بين المنطقتين بـ»اللاتكافؤ« على المستوى الاقتصادي، على اعتبار أن التيارات التجارية استهدفت استغلال الموارد الطبيعية الإفريقية، وأن الشمال مثّل »مركزاً للقوة والتفوق في كل جوانب الاتصال والتأثير«(1). وإذا ما سلمنا بهذا اللاتكافؤ ـ النسبي على كل

---

(1) هاشم العلوي القاسمي، »أصول الروابط التاريخية بين بلاد المغرب وغرب إفريقيا في العصور

الوسطى(استحضار أم استشراف) «، مجلة كلية الآداب بفاس، عدد 5، 1989، ص. 142.

(3421/1)

حال ـ في المبادلات وطبيعتها(1)

---

(1) بما أن التجار المغاربة كانوا يستغلون ببراعة تقدم بلادهم التقني على حساب السودان وقانون العرض والطلب، وتوفرهم على سلع كانت حيوية للسودانيين، فإنه يعتقد أن المبادلات كانت تتم على حساب السودان الغربي الذي كان عليه أداء أثمان مرتفعة جداً مقابل استمرار التجار في الإقبال عليه. إذ كانت أرباح هؤلاء لا تقل عن 400 ٪؛ كما أن »الخسارة« لم تكن كمية فقط، إذ أن السلع المتبادلة تُفصح عن تباين حضاري كبير. فمقابل الحصول على فرس واحد، كان على السودانيين إعطاء عدد من العبيد لا يقل عن 8؛ ومقابل حصولهم على مترين من الثوب الخشن، كان عليهم إعطاء صبي ومترين من الثوب البندقي الرفيع مقابل 5 عبيد، وذلك حسب ما أورده الوزان.

(3422/1)

، فإنه يصعب مجاراة بعض الخلاصات التي تعتبر »ما ورثته المناطق الاقتصادية الإفريقية من التيارات التجارية الشمالية هو الهيمنة الفكريّة الاقتصادية والاجتماعية «(1). أو نعت ما أحدثته المؤثرات الحضارية المغربية بمجتمع السودان بـ»الاستعمار الفكري «(2). إن الملاحظات الآتية تسعى إلى التخفيف من غلواء مثل هذه الأحكام، عن طريق إبراز مدى مساهمة الجالية المغربية في

---

(1) مصطفى ناعمي، الصحراء من خلال بلاد تكَنة، منشورات عكاظ، الرباط، 1988، ص. 63.

(2) أحمد الغربي، بداية الحكم المغربي، المرجع السابق، ص. 570.

(3423/1)

التواصل الحضاري بين المغرب والسودان الغربي ودورها في تطويره اجتماعياً وحضارياً.

...

... أ ـ على المستوى البشري

... لم يقتصر تأثير التجار العرب في السودان الغربي

على التقنيات التجارية وأشكال الحياة المادية فقط، بل لامس كثيراً من المظاهر الحضارية والمعتقدات الجماعية للمجتمع السوداني. ومع تكثيف العلاقات بين المنطقتين، اجتاز العلماء والمثقفون المسلمون الصحراء للإقامة في المدن السودانية وفي بعض الأحيان ليستقروا نهائياً هناك كما توافد الأدباء السودانيون على بلاد المغرب للدراسة. فالقوافل التجارية

(3424/1)

قادت على مر الأحقاب الدعاة المسلمين إلى دروب إفريقيا وسهلت بالقدر الذي لا ينكر الإشعاع الحضاري بتلك الجهات.

... ومنذ عودة المانسا موسى من الحج سنة 1325، صاحبه من المشرق حاشية كبيرة من الأجانب، تجلبهم ثورات بلاد السودان. ويذكر العمري أن المانسا سليمان قد استقدم بدوره الفقهاء والأدباء العرب المسلمين إلى إمبراطورية مالي ليطوروا بها الإسلام وثقافته. فقد »جلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وبقي بها سلطان المسلمين، وتفقه في الدين«(1).

---

(1) العمري، المرجع السابق، ص ص. 59 ـ 60.

ويشير ابن بطوطة ـ كما رأينا ـ إلى »جماعة البيضان« بالعاصمة المالية، ويتحدث عن الأدباء والفقهاء والقضاة بمختلف البلدان من السودان الغربي. وهناك شهادة متأخرة من القرن 17 م تشير كذلك إلى أن المانسا موسى قد استقدم من مكة إلى مالي سنة 1325 أربعة شرفاء قرشيين »ليتبرك أهل الناحية برؤيتهم وببركة أثر قدمهم في بلدهم«(1) »وتبعوه بأهلهم راحلين إلى بلده«(2). ويشير عبد الرحمان السعدي بدوره إلى حضور عدد كبير من المثقفين البيض الذين استقروا

(1) تاريخ الفتاش، المصدر السابق، ص. 34.

(2) المصدر نفسه، ص. 37.

بتمبوكتو، ثم بعد ذلك في دييني(1).

... إن الحضور العام للجاليات المغربية والإسلامية بالسودان الغربي وزواج أفرادها من السودانيات كان مناسبة لخلق اختلاط دائم في الدماء، ترجم بأهمية

السكان المختلطين. ونعثر على عدة أمثلة لأفراد من عائلة تجارية مغربية ـ إسلامية، مثل عائلة المقري المستقرة بولاتة. فقد اتخذ أفرادها »الأقطار الحوائط والديار وتزوجوا النساء واستولدوا الإماء«(2). ومثل عائلة المهندس والشاعر إبراهيم

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، المرجع السابق، ص ص. 28 ـ 36.

(2) المقري، نفح الطيب، ج 5، ص. 205.

الأنصاري الساحلي الغرناطي الذي زار قبره ابن بطوطة في تمبوكتو(1). فقد استقدمه إمبراطور مالي لبلاده. ورجع الساحلي بعد ذلك إلى المغرب، ثم عاد واستقر بتمبوكتو نهائياً وبها »اتخذ إماء للتسري من الزنجيات، ورزق من الجوالك أولاداً كالخنافسة«(2). مثله مثل جلّ أفراد جالية شمال إفريقيا في مدن مالي(3)

---

(1) ابن بطوطة، المرجع السابق، ص. 694.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عنان، القاهرة، 1973، ج 1، ص. 341.

(3) ابن بطوطة، المرجع السابق، ص. 697؛ ابن الخطيب، الإحاطة، المصدر السابق، ج 1، ص. 349؛ ج 2، ص. 192؛ المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ص. 205.

(3428/1)

. والواقع أن الأبناء الذين ولدوا من هذا الزواج المختلط ساهموا في تركيز »سلالات« تجارية وعلمية ومغربية . سودانية بالسودان الغربي، أو حتى سلالات شريفية.

فالشريف أحمد الصقلي ترك أبناء وأحفاداً في السودان الغربي يعتبرون شرفاء مثله(1)

---

(1) تاريخ الفتاش، المصدر السابق، ص ص. 51 ـ 52.

ويبدو أن توافد الشرفاء على السودان الغربي قديم. فقد وفد من الشرق أشراف ينتسبون للأسرة الإدريسية نفسها التي حكمت المغرب منذ عام 788... وسعوا إلى تأسيس مملكة بالسودان.. »وبقي عقب الأدارسة هناك معروفاً« حسب ابن خلدون. (انظر: أحمد الغربي، بداية الحكم المغربي، المصدر السابق، ص. 33). فقد كان ملك غانة ينسب نفسه إلى ذرية صالح بن عبد الملك بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. (عبد الحميد دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا...، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988، ص. 150).

(3429/1)

.

... ولم تترك لنا المصادر إلا معلومات قليلة عن الحضور السوداني ببلاد المغرب. ويمكن افتراض أن كثيراً من الأطر الإدارية والتعليمية السودانية الأصل قد أكملت تكوينها العلمي ببلاد المغرب أو أقامت به لفترة. إنها

حالة كاتب موسى الذي كان »من علماء السودان الذين رحلوا إلى فاس لتعلم العلم« بإيعاز من المانسا موسى(1). وبعد عودته، تولى القضاء والإمامة في الجامع الكبير بتمبوكتو لمدة أربعين سنة. كما أن الشريف عبد الرحمان التميمي الذي اصطحبه المانسا موسى معه

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، المرجع السابق، ص. 57.

من أرض الحجاز عند عودته من الحج، »رحل إلى فاس وتفقه هنالك« لما أدرك تمبوكتو »حافلاً بالفقهاء السودانيين ولما رأى أنهم فاقوا عليه في الفقه«، وذلك قبل أن يختار الاستقرار نهائياً في مدينة تمبوكتو(1). وفي معرض استنكار ابن بطوطة لعادة اتخاذ النساء السودانيات الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب، يُعَنِّفُ مضيفه السوداني قائلاً: »أترضى بهذا وأنتَ قد سكنتَ بلادنا وعرفت أمور شرعنا؟! «(2).

---

(1) المرجع نفسه، ص. 51.

(2) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص. 678.

... من جانب آخر، نجد أن العبيد الذين شكلوا إحدى أهم «السلع» التي كان المغاربة يستوردونها من السودان إلى جانب الذهب قد كان لهم أثر في المجتمع المغربي. ويجب التذكير بهذا الصدد أن تجارة العبيد كانت أمراً مألوفاً في العالم القديم وعند كل الشعوب على اختلاف مستويات حضارتها. وظلت العبودية، بصفتها مؤسّسة، قاسماً مشتركاً بين العالم الإسلامي والمسيحي في العصر الوسيط وقد لاحظ بعض الباحثين أن المغرب «أصبح يقبل على هذه "البضاعة" أكثر منذ العصر المريني، بسبب ركود ذلك التدفق الهائل من الأسرى ـ العبيد

(3432/1)

المسيحيين من شبه جزيرة إيبيريا منذ هذه الفترة» (1). لكننا لا نملك إحصاءً دقيقاً نطمئن إليه عن الأعداد التي كانت تصل إلى بلاد المغرب من العبيد السود وبالإضافة إلى الخصيان ـ الذين كانوا في معظمهم يشكلون حرساً خاصاً للسلاطين ـ و«عبيد المخزن» ـ الذين كانوا يشكلون فرقة عسكرية خاصة في الجيش المغربي ـ فإننا نجد ذكراً لهؤلاء «الرقيق الحبشان»

(2)

---

(1) عبد العزيز العلوي، »العلاقات التجارية والثقافية بين المغرب المريني وإمراطورية مالي«، مجلة كلية الآداب بفاس، عدد 5، 1989، ص. 63.

(2) ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، 1976، ص. 152.

(3433/1)

بصفتهم خدماً (طباخات، مربيات) أو جواري لدى الأعيان، أي أساساً لخدمة الفئات العليا من المجتمع المغربي؛ وهذا، على عكس ما كان عليه الحال في إمبراطورية مالي، حيث كان العبيد يستعملون على نطاق واسع ولدى جميع شرائح المجتمع، وذلك حسبما يستشف من رحلة ابن بطوطة.

... لقد ذكر ابن بطوطة أن القافلة التي رافقها من تكادا إلى توات كانت تضم حوالي 600 »خادم«(1)، أي الإماء على ما يُرجح. والجدير بالذكر أن بعض الأوربيين استندوا إلى هذا الرقم للحديث عن »تيار« في تصدير العبيد من

(1) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص. 699.

(3434/1)

السودان إلى المغرب، مقارنين ذلك بما يعرف بتجارة «الرق» في القرون التالية. واعتبرت بعض الأبحاث الغربية مسألة «الرقيق» من العناصر السلبية في اللقاء المغربي الإفريقي. بلا شك، كان هناك استعمال واسع للعبيد بالسودان الغربي ويباعون في العالم العربي وفي بلدان البحر المتوسط(1)

(1) يقدر رايمون روني عدد العبيد السود المصدرين نحو بلدان البحر الأبيض المتوسط سنوياً في العصر الوسيط بعشرين ألفاً، ويشير إلى أن الرق بدأ يتقوى منذ القرن 15 بصفة خاصة. ويفترض أن مليون عبد أسود تم نقلهم خلال القرن الرابع عشر إلى بلدان البحر المتوسط، ومليونين في كل قرن من القرن 16 إلى القرن 18؛ R. Mauny, Les siècles obscurs de l'Afrique noire, Fayard, 1971, pp. 210 -241.

(3435/1)

. لكن لا شيء يشهد ـ عند الكتاب العرب ـ باتساع خاص لهذه التجارة. فهي لم تكن تتجاوز في أهميتها تجارة العبيد التي كانت تغذي العالم العربي، والآتية من الدول الأوروبية، حيث كان المسيحيون أنفسهم يبيعون عبيداً جرماناً وسلافيين أو صقالبة.

... كذلك لم يكن لهذه التجارة اتجاه أحادي. فقد كان أباطرة مالي يتوفرون على عبيد بيض يشترونهم من مصر وغيرها من البلدان العربية. فقد ذكر بن بطوطة أن فاربا سليمان كانت له »جارية دمشقية عربية«(1). واشترى المانسا موسى ومرافقوه أثناء

---

(1) ابن بطوطة، المرجع السابق، ص. 695.

(3436/1)

حجهم عدة جوار وغلمان ومغنيات من الترك العرب أثناء وجود الوفد السوداني بمصر(1). ويذكر العمري أن سلطان مالي كان »يقف خلفه نحو ثلاثين مملوكاً من الترك وعندهم ممن تبتاع له من مصر«(2). لذلك لا يمكن مقارنة الرقّ الصحراوي القديم ـ مهما كانت أهميته ـ مع التيار المنتظم والمستمر للرق الأطلسي الذي دفع بالأفارقة إلى التدفق نحو القارة الأمريكية لمدة ثلاثة

قرون. وكيفما كان الحال، فإن هذه التجارة لا يمكن أن تكون ذات أهمية كبيرة؛ لأن

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 5، ص. 300.

(2) العمري، مسالك الأبصار، ص. 65.

(3437/1)

الرق في العالم العربي - على خلاف رق أمريكا الاستعمارية - لم يكن يؤدي دوراً هاماً في الأنشطة المنتجة. فقد كان يستعمل أساساً في الخدمات العسكرية وفي تزويد الحريم والبيوتات الكبرى بالجواري والخدم(1). والجدير بالذكر أن بعضهم تقلد وظائف سياسية(2)، بل وصل إلى قمّة المسؤولية داخل المجتمع المغربي. فكثير من الجواري السودانيات وجدن داخل البلاط

---

(1) عبد العزيز العلوي، المرجع السابق، ص. 64.

(2) مثل السعود بن حرباش الهاشمي الذي عين والياً على مدينة فاس سنة 1249 (انظر: ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 294).

(3438/1)

المغربي، بعضهن أنجبن أمراء وملوكاً حكموا البلاد(1).

وبذلك يمكن القول إن هذا الرق وإن لم يترك آثاراً عميقة في البنية السكانية المغربية، فإن العبيد سيمثلون قوة لها وزنها في الحياة اليومية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والسياسية بعد القرن الرابع عشر

---

(1) مثل علي السعدي الموحدي (انظر: ابن عذاري، البيان المغرب (القسم الموحدي)، بيروت، 1985، ص. 359؛ القرطاس، ص. 256)، وأبي الربيع وأبي الحسن وأبي فارس المتوكل على الله أبي زيان المريني. (ابن الأحمر، روضة النسرين، الرباط، 1991، ص ص. 33 ـ 55، 37 ـ 48).

(3439/1)

وخاصة ابتداء من القرن السادس عشر.

...

ب ـ على المستوى الديني والثقافي

... نعتقد أن الصلات الثقافية بين السودان والمغرب التي ابتدأت بشكل عام منذ دخول الإسلام إلى إفريقيا، لم تأخذ في التأثير في المجتمع الإفريقي إلا بفضل

الحركة الإصلاحية للمرابطين ودعاتهم الذين عملوا على إيصال الحضارة المغربية ـ الأندلسية إلى مجاهل القارة الإفريقية(1)

---

(1) انظر: عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، المرجع السابق؛ محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، المرجع السابق، ص. 568.

(3440/1)

. والواقع أنه لا يمكن إنكار الدور الفعلي الكبير للإسلام، باعتباره »قوة دينية« فكراً وحضارة، في عملية دفع الترابط المغربي السوداني وفي خلق وحدة متكاملة نتج عنها حدوث »نقلة نوعية« في تاريخ هذه العلاقات. ويلخص الدكتور يوسف فضل جيداً أثر الإسلام في تطور المجتمعات الإفريقية قائلاً:

... ومن الشمال الإفريقي توغلت المؤثرات الإسلامية العربية عبر الصحراء إلى بلاد السودان، حيث نشأت السلطنات السودانية الإسلامية التي جمعت في نظمها السياسية بين أنماط محلية ونظم إسلامية. وفيها تفاعلت الثقافة العربية

الإسلامية، مع المؤثرات الإفريقية. ونتيجة لهذه الجهود، اتسعت رقعة الإسلام حتى شملت معظم الجزء الشمالي من القارة (1).

... إن اعتناق التجار السودانيين الإسلام عن طريق احتكاكهم بالتجار المسلمين هو حدث أساسي فيما يخص تسرب الدين الإسلامي إلى السودان الغربي. وقد ساهمت الجاليات المغربية والإسلامية الكثيرة الموجودة ببلاد السودان في نشره، بفضل قوتها التجارية

(1) يوسف فضل، «الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية»، ضمن كتاب العرب وإفريقية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت، 1984، ص. 29.

وإشعاعها وتمثيلها للحضارة الإسلامية. أما عوامل انتشار الإسلام بالسودان الغربي، فهي متعددة(1). ولابد من إيلاء أهمية خاصة للعقلية المتفتحة

للأرستوقراطية السياسية والتجارية في المدن، أي الفئات العليا من المجتمع السوداني، التي فهمت بسرعة أن من مصلحتها التحالف مع أرستوقراطية التجار والفقهاء المسلمين. فقد جاء اعتناقها للإسلام تأكيداً لرغبتها في تشكيل جبهة إسلامية قادرة على توطيد التيارات التجارية بالشمال الإفريقي(2)

---

(1) انظر بعضها عند دندش عبد الحميد، دور المرابطين...، ص ص. 153 ـ 154.

(2) مصطفى ناعمي، الصحراء، المرجع السابق، ص. 60.

(3443/1)

.

... وعلى كل حال، نسلم بالدور الكبير الذي لعبه الإسلام في تأطير الممالك والإمبراطوريات الإفريقية. في القرن 5 هـ/ 11 م، اعتنق أهم سلاطين السودان الغربي (غانة، غاو، مالي، التكرور، سيلا). ابتداء من القرن 8 هـ/ 14 م، أصبح الإسلام متجذراً نسبياً داخل الدائرة المالكة لمالي التي يُعتقد أنها وضعت أسس حضارة إفريقية مسلمة بفضل امتدادها الجغرافي الكبير الذي غطى معظم بلاد السودان الغربي(1)

(1) J. L. Triaud, «Quelques remarques sur l'islamisation du Mali, des origines à 1300, XXX, B, BIFAN, 1968, pp. 1342–1344».

(1/444)

.

... وقد نشطت قوافل الحج السودانية إلى الأراضي المقدسة حتى قبل القرن الرابع عشر(1)

---

(1) ابن خلدون، العبر، ج 5، ص. 433؛ »وحج جماعة منهم [ملوك السودان] وأول من حج منهم برمندار، وسمعت في ضبطه برمندانة « في القرن الحادي عشر الميلادي. (القلقشندي، ج 5، ص. 193)؛ أما المانسي والي حج في عهد الظاهر بيريس (الذي حكم ما بين 1260 و 1277). ومن بين الحجاج الذين يذكرهم ابن بطوطة قاضي العاصمة المالية، السوداني المسمى عبد الرحمان، والموفد الشخصي للمانسا سليمان إلى سلطان المغرب، والحاج موسى الونجراني، وعامل إحدى مناطق مالي الواقعة بين مالي وميما، وهو الفاربا ماغة، وفاربا

سليمان عامل إحدى المناطق بين تمبوكتو وغاو (ابن بطوطة، المصدر السابق، ص ص. 685 ـ 694).

(3445/1)

. والمظهر الأكثر شهرة هو حجّ المانسا موسى سنة 1324 م. فقد »خرج من بلده بمائة وستّ حمل من الذهب، أنفقها في حجته على القبائل بطريقه [...] حتى احتاج إلى القرض«(1). ولقد بهرته الديار المقدسة الإسلامية حتى أنه عزم على ترك الملْك لابنه »ويعود إلى مكة المعظمة ويقيم بها مجاوراً بها«(2).

... وقد ترك لنا ابن بطوطة شهادة حيّة عن مدى تغلغل الإسلام في إمبراطورية مالي(3)

---

(1) العمري، المرجع السابق، ص. 70.

(2) المرجع نفسه، ص. 69.

(3) انظر: أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب ـ الرباط، 1991. (نسخة مرقونة).

(3446/1)

. ويبرز العمري من جانبه تديّن المانسا موسى وإسهامه في نشر الإسلام ببلاده. فعند حديثه عن المانسا سليمان، يقول إن أخاه [المانسا موسى] »بنى المساجد والجوامع والمواذن وأقام به [بلده] الجمع والجماعات والأذن، وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وبقي بها سلطان المسلمين، وتفقه في الدين «(1). ويذكر محمود كتي أن المانسا موسى »كان سلطاناً صالحاً تقياً عابداً [...] وبنى في حجه مسجد جامع تنبكت وذكر وخندم ودبري وونط وكنك«(2)

---

(1) العمري، المرجع السابق، ص. ص 59 ـ 60.

(2) تاريخ الفتاش، المصدر السابق، ص. 32.

(3447/1)

. ويؤكد السعدي معلومات العمري ومحمود كتي عندما يقول إن إمبراطور مالي »بعد جوازه إلى الحج وبطريقها رجع فابتنى مسجداً ومحراباً خارج مدينة كاغ صلى فيها الجمعة وهي هنالك إلى الآن «(1).

... ومع ذلك، ينبغي التساؤل عن مدى تغلغل الديانة الإسلامية ونقائها داخل الفئات الدنيا من المجتمع السوداني، وعن مدى خضوع الأرستقراطية السودانية

لأحكام الشريعة. يشير ابن بطوطة وغيره من الجغرافيين العرب إلى تنافر القيم العقائدية الإحيائية والمبادئ الإسلامية بمدن السودان

---

(1) السعدي، تاريخ السودان، المصدر السابق، ص. 7.

الغربي، بل حتى داخل البلاط إذ على الرغم من تدين المانسا موسى، فإنه كان يجهل بعض تعاليم الشريعة الإسلامية تماماً، وأعماله لم تكن دائماً مطابقة لها(1)

---

(1) يورد ابن أمير الحاجب أن »من عادة أهل مملكته أنه إذا نشأ لأحد منهم بنت حسنة، قدمها له أمة موطوءة فيملكها بغير تزويج مثل ما ملكت اليمين، مع ظهور الإسلام بينهم وتمذهبهم بمذهب المالكية. قال ابن أمير حاجب هذا مع كون هذا السلطان موسى كان متديناً محافظاً على الصلاة والقرآن والذكر. قال: فقلت له: إن مثل هذا لا يجوز ولا يحل لمسلم شرعاً ولا عقلاً. فقال: ولا للملوك؟ فقلت: ولا للملوك وسَل العلماء. فقال: والله ما كنتُ أعلم«. (العمري، المرجع السابق، ص. 69).

. وبعد أكثر من قرن ونصف من وفاة المانسا موسى، نجد أن المجتمع السوداني ما يزال أنيمياً. فقد جاء في السؤال الثاني الذي وجهه الأسكيا محمد إلى الإمام المغيلي:

... إن أهل بلادي يزعمون أنهم مسلمون [...] بالجامع والجمعة والأذان للصلوات الخمس، وذلك بعد أن كانت كلها بلاد كفر وأهلها عبدة أصنام. فقام عليهم بعض أجداد هؤلاء السلاطين مع أتباعهم، فقاتلوا أولئك الكفار وملكوا بلادهم وسكنوها بالإسلام أكثر من ثلاثين سلطاناً قبل سني علي... ومن صفات سني علي أنه ينطق بالشهادتين ونحوهما من ألفاظ المسلمين، ولكن لا

(3450/1)

يعرف لذلك حقيقة؛ إنما يقول ذلك بلسانه ويصوم رمضان ويتصدق كثيراً بالذبائح عند المساجد ونحوها. ومع ذلك، يعبد الأصنام ويتصدق على الكهان ويستعين بالسحرة ونحوهم (1).

... وبذلك يمكن القول إن الإسلام لم يسْمُ إلى:

---

(1) المغيلي، ذكره محمد الغربي، ص 515 هامش، 1؛

وانظر ترجمة الرسالة ضمن كتاب J. Cuoq,

Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VIII au XVIè s

.415–414, pp. 1975Bilad al Sudan), Paris,)

(3451/1)

... هدم الأسس السابقة [للمجتمع الإفريقي] وتقويض القيم وجل العادات الإفريقية القديمة، بل عمل على أن تلائم الدين الجديد [...] وقد شهدت إفريقيا ما لم تشهده أكثر البقاع الإسلامية الأخرى احتكاكاً بين التقاليد المحلية والأحكام الجديدة أدى إلى ملاءمة وانصهار بينهما وإلى ظهور المجتمع الزنجي الإسلامي ذي الخصائص المتميزة (1).

... ومع ذلك، لابد من الإشارة إلى الدور الكبير الذي أدّته فئة من التجار السودان المسلمين الذين يطلق عليهم اسم الونغرة

---

(1) الغربي، بداية الحكم المغربي، المرجع السابق، ص. ص 567 ـ 568.

(3452/1)

[Wangara] (أو الديولا [Dyoula])، في نشر الديانة الإسلامية داخل الأدغال الجنوبية للسودان الغربي كما تشير الباحثة Barbara Stepniewska إلى ذلك(1). وقد أشار ابن بطوطة إلى الارتباط الوثيق بين التجار المسلمين والوانكرة وانتشار الإسلام عند كلامه عن زاغاري: »وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان، ويسمون ونجراتة، ويسكن

(1) Barabara Stepniewska, «Portée sociale de l'islam au Soudan occidental aux XIV-XVIè siècle», Africana Bulletin, 14–16, Université de Varsovie, Centre d'Etude Africaines, 1971, p. 44.

(1/3453)

معهم جماعة من البيضان، يذهبون مذهب الإباضية من الخوارج، ويسمون صغنغو، والسنيون المالكيون من البيض يسمون عندهم توري«(1). لقد تخصصت »الديولا« في ممارسة النشاطات التجارية حتى أعمق الغابات الاستوائية، وتدريجياً أصبحت حضارة العرب الإفريقي

مطبوعة بالدور الطلائعي لهؤلاء التجار المسلمين بتكوينهم لمختلف الشبكات التجارية عبر إفريقيا الاستوائية(2)

---

(1) ابن بطوطة، المرجع السابق، ص. 680.

(2) ناعمي، مرجع سابق، ص. 66. إن بدايات التأثيرات الإسلامية الممارسة عن طريق التجار الديولا في شمال الداهومي (الجمهورية الشعبية لبنين حالياً) وشمال غانة ترجع إلى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن 16.

N. Levtxion , «Commerce et Islam chez les Dagomba du Nord Ghana», Annales E. S. C., XXIII, 1968, p. 724.

(3454/1)

. ومع ذلك، يمكن القول إن تطبيق التعاليم الإسلامية لم يجد طريقه إلى سكان الأرياف، وإن الثقافة والآداب الإسلامية لم تمس في العمق إلا الحواضر والقرى الكبيرة بالسودان الغربي.

... من جانب آخر، نجد أن أفراد الجالية المغربية عملوا على نشر الثقافة الإسلامية حتى تجذرت في السودان الغربي. فقد رحل علماء السودان للمغرب للاستزادة من العلم كما

أشرنا أعلاه. وبما أن الكتابة هي أحد النقط الهامة في جميع المعاملات التجارية، فقد عمل السودانيون على تعلم اللغة العربية للتعامل مع التجار المسلمين الآتين من الشمال.

(3455/1)

والواقع أن اللغة العربية ليست لغة تجارة فقط، بل هي لغة القرآن الكريم التي يحتاجها السوداني لأداء فروضه الدينية، خاصة الصلاة، ولغة الشؤون الإدارية في البلاد ولغة التجار والسفراء المغاربة. فاللغة العربية لم تستطع أن تفرض نفسها لغةً وحيدة، ولكنها أصبحت اللغة الأكثر انتظاراً واستعمالاً، وغدت إلى جانب الدين المظهر الأساسي لوحدة المجتمع السوداني(1). وأقبل السودانيون على تعلمها، وعلى رأسهم الإمبراطور سليمان والإمبراطور موسى الذي كان يتقنها. فلا غرو أن

---

(1) أحمد الغربي، المرجع السابق، ص ص. 570 ـ 571.

(3456/1)

استعمل السودانيون، بمن فيهم الملوك، »الخط العربي على طريقة المغاربة «(1)، ووصلتنا عدة مخطوطات سودانية بالخط المغربي(2). بل كانت الدراسة تتبنى المناهج

---

(1) القلقشندي، المرجع السابق، ص. 298؛ ويذكر العمري، (ص. 74) أنه »جاء كتاب من هذا السلطان [موسى] إلى الحضرة السلطانية بمصر، وهو بالخط المغربي «.

(2) حسن الصادقي، »مخطوطات في موضوع فاس وإفريقيا «، ضمن كتاب فاس وإفريقيا، العلاقات الاقتصادية والثقافية والروحية، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، وكلية الآداب سايس ـ فاس، الدار البيضاء، 1996، ص. 15.

(3457/1)

المغربية نفسها، وكانت الكتب المتداولة هي كتب المالكية(1).

... وقد رسم المؤرخ السوداني عبد الرحمان السعدي صورة ناصعة للحياة الثقافية والكتب المتداولة بتمبوكتو في القرن السادس عشر؛ كما أن شهادة الحسن الوزان تؤكد أنه كان بتمبوكتو »عدد كثير من الفقهاء

والقضاة والأئمة، يدفع الملك إليهم جميعاً مرتباً حسناً، ويعظم الأدباء كثيراً. وتباع مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر، وتدرّ أرباحاً تفوق أرباح سائر البضائع«(2)

---

(1) دندش عبد الحميد، دور المرابطين...، المرجع السابق، ص. 148.

(2) الوزان، المرجع السابق، ج 2، ص. 167.

(3458/1)

. ونعتقد أن هذه الصورة هي استمرار لما كان عليه الحال في القرنين السابقين.

... ج ـ على المستوى المديني

... إذا كانت التجارة التي حملت معها كثيراً من القيم الثقافية العربية ـ الإسلامية هي إحدى العوامل السوسيو ـ تاريخية الأكثر أهمية لنشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، فإن انتشار الديانة الإسلامية في الأوساط الملكيّة للسودان الغربي في العصر الوسيط يُفسر في بعض الأحيان بكون الإسلام تقدم في المقام الأول على أنه ديانة أرستقراطية ومدينية(1)

---

(1) كتبت الدكتورة دندش عبد الحميد قائلة: »ولعل أبرز خصائص انتشار الإسلام في بلاد السودان، أنه ابتدأ بالطبقات العليا، والأسر الحاكمة«. (دور المرابطين في نشر الإسلام...، المرجع السابق، ص. 152).

(3459/1)

. فالعالم السوداني كان يتلقى التأثيرات الحضارة الإسلامية عن طريق التعامل التجاري الذي دفع بالتجار السودانيين إلى الدخول في حظيرة الدين الإسلامي وفي نسقه القانوني والإداري(1). وهذه الصيرورة في التوسع للحضارة الإسلامية إلى الظواهر الحضرية والتجارية تجد مثالها في مدن جني وتمبوكتو وغاو وولاتة التي أصبحت مراكز تجارية ودينية وثقافية نشطة في إمبراطوريات السودان الغربي.

---

(1) René Luc Moreau, Africains musulmans. Des communautés en mouvement, Editions Présence Africaine, Abidjan-Paris, 1982, p. 73.

(3460/1)

... لقد ساعدت التيارات التجارية الشمالية على إنشاء مختلف العواصم الكبرى بالسودان الغربي. ويرى بعض الباحثين أن منطقة إفريقيا الغربية لم تكن تعرف الأشكال المركزية للمدن قبل القرن التاسع الميلادي، وجاءت جل هذه المدن على شكل عواصم لتمركز التجار البربر المغاربة وغيرهم مجسدين جزءاً هاماً من الكثافة البشرية ومساهمين بذلك في مختلف مراحل التنمية العمرانية والاجتماعية(1). لنأخذ مثال مدينتي جني وتمبوكتو التي تمكننا المصادر التاريخية من تتبع إقامة البنيات

---

(1) ناعمي، الصحراء، المرجع السابق، ص. 61.

الإسلامية بهما وارتباط نشأتهما بالتيارات التجارية الشمالية.

... .مدينة جني: يقول عنها عبد الرحمان السعدي:

... هي سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تاغزا وأرباب الذهب [...] ابتدأت في الكفر في أواسط القرن الثاني من الهجرة النبوية

[...] ثم أسلموا عند تمام السادس. والسلطان كثير هو الذي أسلم وأسلم أهلها بإسلامه. ولما عزم على الدخول في الإسلام، أمر بحشر جميع العلماء الذين كانوا في أرض المدينة، فحصل منهم أربعة آلاف ومائتان عالماً، فأسلم على أيديهم وأمرهم أن يدعوا الله بثلاث

(3462/1)

دعوات لتلك المدينة، وهي: أن كل من هرب إليها من وطنه ضيقاً وعسراً أن يبدلها الله له سعة ويسراً حتى ينسى وطنه ذلك، وأن يعمرها بغير أهلها، وأن يسلب الصبر من الواردين إليها للتجارة في ذات أيديهم لكي يملوا منها فيبيعونها لأهلها بناقص الثمن فيربحون بها (1).

... هذا الاعتناق للدين الجديد والأمنية السياسية . التجارية لملك جني في القرن 14 ساهم في تطوير التجارة الصحراوية بالمدينة، مع ما يستتبع ذلك من استقرار التجار والمثقفين المسلمين. ويبين السعدي أن

---

(1) تاريخ السودان، المرجع السابق، ص ص. 12 ـ 13.

العمليات التجارية ازدهرت بالمدينة بعد ذلك الاعتناق »وقد ساق الله تعالى لهذه المدينة المباركة سكاناً من العلماء والصالحين من غير أهله من قبائل شتى، وبلاد شتى«(1). أما »علماء البيضان، فقد سكن فيها كثير من أهل تنبكت«(2). من كل ذلك يبدو أن دخول الإسلام للمدينة شديد الارتباط بتوطيد المعاملات التجارية بها.

... .تمبوكتو: يقول عنها عبد الرحمان السعدي: »مسقط رأسي وبغية نفسي، ما دنستها عبادة أوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمان، مأوى العلماء

(1) المرجع نفسه، ص. 16.

(2) المرجع نفسه، ص. 20.

والعابدين، ومألف الأولياء والزاهدين، وملتقى الفلك والسيار«(1). وهي مدينة إسلامية منذ نشأتها في أواخر القرن الخامس الهجري على يد طوارق مقشرين الذين

»جعلوها خزانة لمتاعهم وزروعهم«، إلى أن صارت »مسلكاً للساكنين في ذهابهم ورجوعهم«. ثم أخذ الناس يسكنون الموضع ويزداد عمارة و»يأتيه الناس من كل جهة ومكان حتى صار سوقاً للتجارة«. ويشير السعدي إلى أن أول من كان يتردد على تمبوكتو هم تجار السراقولي، »ثم أهل تلك الجهة كلها«. ومن المرجح أنهم توافدوا عليها بعد سقوط كومبي صالح

---

(1) المرجع نفسه، ص ص. 20 ـ 21.

(3465/1)

(عاصمة غانة في العصر الوسيط) في القرن الحادي عشر الميلادي. وفي القرن 7 هـ/ 13 م فقط أصبحت تمبوكتو وجني محوراً للحياة التجارية بالسودان الغربي. وابتداء من القرن 14 م، أصبحت تمبوكتو مركزاً نشيطاً للتجارة في السودان الغربي، حيث »سكن فيها الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلد من أهل مصر ووجل وفزان وغدامس وتوات ودرعة وتفلالت وفاس وسوس وبيط إلى غير ذلك«(1)، منتقلين إليها من ولاتة. مع استقرار التجار والعلماء العرب، ازدهرت التجارة والثقافة إلى حد أن

(1) المرجع نفسه، ص. 21.

(3466/1)

تمبوكتو أصبحت منارة للعلم بالسودان الغربي. ...
... ولم يقتصر الأمر على إنشاء المراكز الحضرية، بل ساهم المغاربة في تطوير الفن المعماري بها. إذ يُعتقد أن أولى المنشآت العمرانية في غاو وتمبوكتو ونياني هي من تصميم وإشراف المهندس الأندلسي إبراهيم الساحلي، الذي أدخل إلى إمبراطورية مالي هندسة معمارية متكيفة مع البيئة المحلية، لم تكن معروفة من قبل (كاستعمال الجير والآجر المجفف والسقوف المسطحة). وقد حاول البعض أن يربط هذا الأسلوب في البناء الذي أصبح يعرف بـ »الطراز السوداني« بتأثيرات فرعونية. غير أن

(3467/1)

موريس دولافوس (M. Delafosse) يرى أن الساحلي استلهم ابتكاراته من المغرب أثناء إقامته فيه، ويؤكد أنه »يكفي ملاحظة شكل البناء وطبيعة

هندسته، لإرجاعه بالتأكيد إلى الهندسة العربية .

البربرية في الجنوب المغربي والوحات الصحراوية «(1).

وقد وصف ابن بطوطة بعض المعالم التي رسم تصاميمها

المهندس الساحلي مثل المساجد. والقصر الملكي في

نياني بقي قائماً مع المسجد إلى بداية القرن السادس

عشر(2)

---

(1) Delafosse, Les relations..., op. cit., p. 159M.

(نقلاً عن عبد العزيز العلوي، المرجع

السابق، ص. 66).

(2) الوزان، المرجع السابق، ص. 165.

(3468/1)

. وحاول كبار رجال الدولة والجند والأمراء السودانيين

منذئذ تقليد ألوان الحضارة المغربية في البناء(1). بل

إن المؤثرات الحضارية المغربية تجاوزت الميدان

الثقافي والديني لتلامس الجوانب الحياتية اليومية من

لباس وأكل، إلخ. فالعمري يشير إلى أن زي السودانيين

»شبيه بزي المغاربة، جلباب ودراريع، بلا تفريج«(2).

ويضيف القلقشندي أنهم »يرتدون عمائم بحنك مثل

المغرب [...]، وهم في ركوبهم كأنهم العرب«(3)

(1) أحمد الغربي، المرجع السابق، ص. 624.

(2) العمري، المرجع السابق، ص. 65.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، المصدر السابق، ج 5، ص. 281.

(3469/1)

. أما المؤرخ السوداني عبد الرحمان السعدي، فهو أكثر تحديداً وصراحة عندما يؤكد هيمنة الحضارة المغربية بتمبوكتو، موضحاً أن البلد »لم تأته العمارة إلا من المغرب لا في الديانات ولا في المعاملات«(1).

... والجدير بالذكر أن هذا التأثير لم يقتصر على منطقة السودان الغربي، بل تعداها إلى مناطق أخرى من القارة الإفريقية. إن ابن بطوطة يقدم لنا معلومات قيّمة من النمط الأنتروبولوجي بخصوص تأثير الوجود المغربي بإفريقيا الشرقية. فبخصوص مدينة ظفار من بلاد السواحل، يعتبر

(1) أحمد السعدي، تاريخ السودان، ص. 21.

(3470/1)

رحالتنا »من الغرائب أن أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب في شؤونهم. نزلتُ بدار الخطيب بمسجدها الأعظم، وهو عيسى بن علي [...]. فكان له جوار مسميات بأسماء خدام المغرب«. ويستطرد قائلاً: »وأكثر أهلها رؤوسهم مكشوفة [...] وفي كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة في البيت يصلي عليها صاحب البيت كما يفعل أهل المغرب« (1).

... فهل تسعفنا المصادر في تسليط الأضواء على هذا الحضور المغربي بشرق إفريقيا كما أسعفتنا نسبياً في حالة السودان الغربي؟ وهل تمكننا من تلمس الوجه الآخر من أوجه

---

(1) المرجع نفسه، ص. 261.

(3471/1)

التواصل الحضاري بين ضفتي الصحراء، وأقصد التأثير السوداني في المجتمع المغربي؟ إنها موضوعات لا تزال بحاجة إلى من يميط اللثام عن بعض جوانبها الخفية.

(3472/1)

الجبر والحفاظ على الملك في موقف

بني أمية من القَدَرية

... ... الدكتور محمد ضيف الله بطاينة

... ... جامعة اليرموك ـ قسم التاريخ إربد ـ الأردن

... شهد العصر الأموي ظهور عدد من الفرق الكلامية مثل القدرية والجبرية وغيرها. وكانت أعمال الإنسان من حيث وقوعها جبراً على الإنسان أو اختياراً منه، أبرز ما جاء في كلام هذا الفرق وجدالها. ولما أخذ الأمويون يحاربون القدرية الذين قالوا بحرية إرادة الإنسان في اختيار أفعاله وصنع أكسابه، نُسبُوا إلى الجبرية(1)

---

(1) القاضي عبد الجبار المعتزلي، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص ص. 143 ـ 144.

(3473/1)

. وعزا بعض الباحثين المحدثين موقف الأمويين من القدرية إلى كَوْن القدرية بقولهم في القدر بحرية إرادة الإنسان في الاختيار، إنما يشككون في الأساس الذي اتخذه الأمويون لتبرير أعمالهم وتسويغ سلطانهم على الناس ويتعارضون معه(1)

(1) انظر: الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، ص. 25؛ مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص. 62؛ عبد الأمير دكسن، »مظهر من مظاهر الحكم في بلاد الشام«، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، عمان، 1974 م؛ جورج عطية، »الجدل الديني المسيحي الإسلامي في العصر الأموي«، بحث ضمن أعمال المؤتمر الرابع لبلاد الشام، عمان، 1986 م؛ فرد دونَر، »تطور الوعي التاريخي في المجتمع الإسلامي المبكر«، بحث ضمن أعمال مؤتمر كتاب التاريخ الإسلامي في الإشكالية والمنهج، الجامعة الإسلامية، بيروت، 1997 م.

(3474/1)

.

... وقد ذهب بعضهم إلى القول بأن قرّاء الشام أعلنوا فكرة الجبر المطلق، وأنها التفسير الوحيد للنصوص القرآنية، فعلوا ذلك إرضاء للخليفة المغتصب (يقصد الخليفة الأموي)، وأمر الخليفة عُماله في مختلف بقاع العالم الإسلامي بنشر الفكرة، وأخْذ الناس بها، فليؤمن بها الكبير قَسْراً، وليَرْضَعْها الصغير ويَحْبُ بها ومعها، لتذلّ أعناق الناس لهم بالجبر الإلهي، ويخضعوا لحكمهم

على أنه قدَرٌ عليهم أَزَلاً. فلما أنكر القدرية ذلك، ودعوا إلى مذهب الإرادة الحرة في الاختيار، حاربهم الأمويون(1)

---

(1) انظر: علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 3، ص. 286، 314.

(3475/1)

. فإلى أي مدى يمكن أن نركن إلى هذا القول؟

... أخذ الخوض في القدر يظهر بكثرة في العصر الأموي، وكانت البصرة والشام ثم مدينة الرسول – صلى الله عليه وسلم – من البلدان الإسلامية التي شهدت الاشتغال بالكلام في القدر، وقد أُطلِق على القائلين بأن الناس هم الذين يقدرون أكسابهم، وأن ليس لله عز وجل في أكسابهم صنعٌ ولا تقدير اسم "القدرية"(1)

---

(1) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص. 94، 97، 99، 101؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، ص. 47؛ ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج 3، ص. 82؛ الأشعري، مقالات الإسلاميين، ج 1، ص ص. 298 ـ 299.

(3476/1)

.

... كان معبد الجهني (ت بعد 80 هـ بقليل) من أوائل الذين نسب إليهم القول بالقدر، وعنه أخذ غيلان الدمشقي(1)، ولكن لا يُعلم إن كان غيلان الدمشقي أخذ مقالة القدر عن معبد الجهني مباشرة بطريق اللقاء بينهما، أو بطريق غير مباشر، وهو أمر لا تذكره المصادر. ولعل موت معبد الجهني قبل موت غيلان الدمشقي بعقود، واتفاقهما في مقالة القدر، هو الذي دعا إلى القول بأن غيلان الدمشقي أخذ مقالة القدر عن معبد

---

(1) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص. 96، 98، 101؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة غيلان الدمشقي وترجمة معبد الجهني.

(3477/1)

الجهني. فمعبد الجهني مات بعد عام 80 هـ بقليل، ومات غيلان الدمشقي مصلوباً في دمشق أيام هشام بن عبد الملك في عام سابق لعام 118 هـ، لأن عبادة بن نسي الكندي المتوفى عام 118 هـ كان ممن عاصر صلب غيلان(1). وقد يكون اتفاق غيلان ومعبد في مقالة القدر راجعاً إلى أخذهما الفكرة من مصدر فكري واحد؛ وبينما لم

يمتحن معبد في مقالة القدر، امْتُحِنَ غيلان بها أيام عمر بن عبد العزيز، وقُتِل مصلوباً أيام هشام بن عبد الملك

---

(1) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة غيلان الدمشقي.

(3478/1)

... وقد تابعهما في القول بالقدر واصل بن عطاء (80 ـ 131 هـ) رأس القدرية الواصلية، وعمرو بن عبيد بن باب (80 ـ 144 هـ) رأس القدرية العمريّة(1).

... ولا شك في أن القول في القدر أخذ يتسع وينتشر ويكثر عدد القائلين فيه على تفاوت بينهم في القول فيه، والثبات عليه، والدعوة إليه، أو التوقف فيه، والتوبة والرجوع عنه، شأن الدعوات والحركات الفكرية المختلفة.

---

(1) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص. 96، 100 ـ 101؛ المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص. 104.

(3479/1)

... فقد ورد عن وهب بن منبه (ت 110 هـ أو 114 هـ أو 116 هـ)(1)، ومكحول بن عبد الله الشامي (ت 112 هـ أو 113 هـ أو 114 هـ أو 116 هـ أو 118 هـ) (2)، وقتادة بن دعامة السدوسي البصري (ت 117 هـ) (3)، وعبد العزيز بن عبد الله الماجشون (ت 164 هـ(4)

---

(1) ابن قتيبة، المعارف، ص. 268.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 5، ص. 281. (ترجمة أبو عبد الله مكحول الشامي).

(3) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 17، ص. 9. (ترجمة قتادة بن دعامة السدوسي).

(4) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 1، ص. 437. (ترجمة عبد العزيز بن عبد الله الماجشون)؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 7، ص. 31 ـ 312. (ترجمة عبد العزيز بن عبد الله الماجشون).

(3480/1)

)، أنهم كانوا قد قالوا بالقدر ثم رجعوا عنه. وجاء عن عطاء بن يسار (ت 103 هـ)، وعبد الله بن أبي نجيح المكي (ت 132 هـ)، وعوف بن أبي جميلة البصري (ت 146 هـ)، وعباد بن منصور البصري (ت 152 هـ)، وثور بن يزيد

الكلاعي الحمصي (ت 153 هـ)، وهشام الدستوائي (ت 154 هـ)، وسعيد بن أبي عروبة (156 هـ أو 157 هـ) أنهم كانوا يقولون بالقدر وغيرهم كثير(1).

أسباب نشوء القدرية:

---

(1) ابن قتيبة، المعارف، ص. 202، 206، 268. وانظر تراجم هؤلاء الأعلام عند: الذهبي، سير أعلام النبلاء.

(3481/1)

... رأى بعض الباحثين(1) أن مسألة الاختيار والجبر كانت من أولى المسائل التي واجهت العقل في تاريخ الفكر البشري. وهي مسألة شغلت الفلاسفة ورجال الدين، وبحثها فلاسفة اليونان، فقال الرواقيون منهم بالجبر والاستسلام للقضاء والقدر، وقال الأبيقوريون بحرية الإرادة في الاختيار وأن لا دخل لله في إرشاد الناس وتسييرهم(2)

---

(1) انظر: أحمد أمين، فجر الإسلام، ص. 283.

(2) الرواقية: فلسفة يونانية نشأت على يد "زينون" قبل عام 300 ق. م بقليل في أثينا، وانتحر عام 260 ق.

م. وقُدّر لها أن تكون أعظم مدرسة فلسفية حتى ظهور الأفلاطونية المحدَثة في القرن الثالث الميلادي؛ وأما الأبيقورية، فهي فلسفة تنسب إلى أبيقور (342 ق. م - 270 ق. م)، وكانت تنافس الرواقية.(انظر: ول ديورانت، قصة الحضارة، ج 1، م 3، ص. 203؛ ج 3، م 2، ص ص. 166ـ 169، 184 ـ 187؛

The Oxford English Dictionary, Epicure, ,Epicureanism; Colliers's Encyclopedia Epicureanism, Stoicism; Encyclopedia Americana, Epicureanism, Stoicism).

(3482/1)

.

... ودخل في الإسلام أناس من أهل الأديان المختلفة، وكانت رؤوسهم مملوءة بأديانهم القديمة، وكانت هذه الأديان تسلّحت من قبل بالفلسفة اليونانية، كما كانت البلاد الإسلامية مملوءة بأصحاب هذه الأديان الذين ظلوا على دينهم، وكانوا يجادلون المسلمين ويطارحونهم المسائل الدينية المختلفة. ومما ذكر في هذا الجانب أن عمر بن الخطاب لما خطب الناس بالجابية في الشام، قال: »من يهد الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له«. فرد

عليه الجاثليق رأس النصارى. وكان يحضر الاجتماع.

وقال: »إن الله يهدي ولا يُضل«، فكذّبه

(3483/1)

عمر(1). ومن المعلوم أن غيلان الدمشقي. أحد أقطاب القدرية في العصر الأموي. كان من أهل الشام، وكان قبل إسلامه قبطياً(2). كما كانت بعض الكتب ترجمت من اليونانية إلى السريانية ثم إلى العربية؛ مما ساعد على وجود الأفكار الفلسفية في المجتمع الإسلامي.

... وإضافة إلى ذلك، فإن القرآن الكريم. وهو الأساس الذي بنى المتكلمون من القدرية وغيرهم كلامَهم في القدر عليه. اشتمل على آيات متشابهات منها آيات تصف

---

(1) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة عبد الله بن الحارث بن نوفل.

(2) انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص. 212.

(3484/1)

جانباً من أفعال الإنسان بما يشعر بالاختيار، كقوله تعالى: {وقل الحق من ربكم فمن شاء فيلؤمن ومن شاء

فليكفر} (سورة الكهف، آية 29)، وقوله تعالى: {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} (سورة البقرة، آية 185)؛ وآيات أخرى من الآيات المتشابهات تصف جانباً آخر من أفعال الإنسان بما يشعر بالجبر، كقوله تعالى: {إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون} (سورة البقرة، آية 6)، وقوله تعالى: {ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم} (سورة البقرة، آية 7).

(1/3485)

... فكان من جرّاء ذلك أن أثيرت مسألة القدر، وهل الإنسان في أفعاله مسيّر أم مخيّر؟ (1).

... وبذلك ذهب هذا التفسير في نشوء القدرية إلى أن الاشتغال بالقدر كان عملاً فكرياً أفرزته العوامل الآنفة الذكر، ولا تبعة على الأمويين في نشوء القدرية.

---

(1) انظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة معبد الجهني؛ ابن خلدون، المقدمة، ص. 617؛ أحمد أمين، فجر الإسلام، ص. 299، 300، 303؛ جورج عطية، الجدل الديني المسيحيّ الإسلامي في العصر الأمويّ وأثره في نشوء علم الكلام، ص ص. 423 ـ 426.

(3486/1)

... وهناك من نفى أن يكون المسلمون في بحث الاختيار والجبر تلاميذ للمسيحيين أو لليونان، وأكد أن هذه المسألة كانت من بنية المجتمع الإسلامي، وكانت فقط معارضة سياسية لبني أمية، وأن النصوص التي استند أصحاب الاختيار والجبر على العقل في تفسيرها تؤكد ذلك؛ ولكنه لم ينكر أن مجادلات المسيحيين ومناقشتهم للمسلمين عامة قد عاونت على إنشاء علم الكلام(1).

---

(1) النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 3، ص. 100، 315.

(3487/1)

... ففي البصرة، التي شهدت ظهور القدرية قبل غيرها من البلدان كما قيل، أدت البنية السكانية لها حيث ملتقى جميع الأجناس والأعراق وتزاحم الآراء وتضارب نظم العيش وطرز الحياة، وكثرة الأموال التي أغدقها بنو أمية عليهم، أدى ذلك إلى انتشار حياة الترف والانغماس

فيه وارتكاب المعاصي، وراح الناس يتعلّلون في ارتكاب المعاصي بالقَدَر الذي لا محيص لهم عنه. وشجع بنو أمية هذا الاتجاه وعملوا على نشر فكرة الجبر الإلهي. لذلك، وحسب قول هذا الباحث، اندفع معبد الجهني يناهض هذه الفكرة وينفيها أشدّ النفي لأنها استلاب

لإرادة المجتمع الحرة في الاختيار، وشلّ لقواه، وأعلن معبد، أن لا قَدَر والأمر أُنُف، أي لم يسبق قَدَرٌ بالأعمال التي يرتكبها الناس وأن كل شيء يحدث دون سابق تقدير. فاستجاب له بعض الناس، وانتشرت القدرية من البصرة إلى غيرها(1).

... وفي الوقت الذي أكد هذا الباحث مسؤولية الأمويين عن فكرة الجبر الإلهي والمشيئة الإلهية التي لا رادّ لها، ذكر ثانية أن هناك من قام يردّ على القدرية لا باسم بني أمية، ولكن من خلال تأويل عقلي وهم المجبّرة الأوائل، أي الجبرية أو

---

(1) المرجع نفسه، ج 3، ص. 244، 314 ـ 316.

الجهمية، وكانوا أيضاً حاجة من حاجات المجتمع ونزوة من نزواته(1). وبذلك، فإن الباحث لا يجعل الجبرية من صنع الأمويين أو صنيعة لهم أقاموهم في وجه القدرية، مع أن الجبرية من أنفع الوسائل التي تخدم أغراض الأمويين في فكرة الجبر!!

... وذهب آخر إلى القول في تفسير نشوء القدرية إلى القول بأن الاختيار والجبر ظاهرتان متلازمتان لكل جماعة ذات عقيدة دينية. فالجبرية ظاهرة نفسية للجماعة الإنسانية المتدينة على العموم يقابلها الاختيار الذي هو ظاهرة نفسية عامة للجماعة المتدينة أيضاً. فإذا

---

(1) المرجع نفسه، ص. 327.

عثر المؤرخ الديني على إحداهما في جماعة مؤمنة، فلابد من أن يعثر عند التفتيش في اعتقاداتها على الظاهرة الأخرى(1).

... فعند اليهود، دار النقاش العقلي حول القدر والجبر والاختيار، وقال القراءون منهم وهم النصّيون أو

الحرفيون الذين يتّبعون النص حرفياً ولا يتجاوزونه مخافة الزلل والوقوع في الخطإ، قالوا بالجبر؛ وقال الربانيون بالاختيار. وعند النصارى، قال اليعاقبة منهم ومذهبهم قريب من مذهب أصحاب النص، قالوا بالجبر؛ وقال النساطرة، ومذهبهم قائم على

---

(1) محمد البهي، الجانب الإلهي من التفكير الإنساني، ص. 102.

(3491/1)

التأويل والعقل، قالوا بالاختيار. ووجدت عقيدة الاختيار وعقيدة الجبر عند المسلمين لا على أنهما منقولتان عن غيرهم، بل على أنهما من تطورات الاعتقاد في جماعتهم(1)، ولكنه أكد على وجود التأثير المتبادل بين الطوائف الدينية المختلفة من غير أن ينفذ ذلك إلى أساس العقيدة، وإنما يكون التأثّر والتأثير بين الجانبين في كيفية معالجة المشكلة ووجوه حلها. وفي هذا الإطار، ذهب إلى القول بتأثر المسلمين في مسألة الاختيار والجبر بأهل الديانات المختلفة، وساعد على ذلك ما جاء في القرآن

(1) المرجع نفسه، ص ص. 100 ـ 102.

الكريم من آيات يوحي ظاهرها بوجه من الوجهين في تحديد علاقة الإنسان بالله كآيات الجبر وآيات الاختيار(1).

... ومع أن هذا الاتجاه في تفسير نشوء القدرية لا يكاد يخرج عن التفسيرين السابقين، فإنه لم يشر إلى مسؤولية الأمويين في نشوء القدرية أو الجبرية، وإنما ردّ ذلك إلى نفسية الجماعة المتديّنة وتأثرها بالعوامل الفكرية والثقافية الداخلية والخارجية المحيطة بها.

... والقدر المشترك بين هذه التفسيرات التي تعرّضت لنشوء القدرية هو الاتفاق على أثر الأفكار الفلسفية اللاهوتية

(1) المرجع نفسه، ص. 74، 195 ـ 196.

التي نفذت إلى المجتمع الإسلامي وأبنائه من جهة، وطبيعة النصوص القرآنية الممثلة بالآيات المتشابهات في مجال العلاقة بين الله وأفعال الإنسان من جهة أخرى.

... ولكن أحد هذه التفسيرات انفرد بذكر عامل آخر جعله الأساس في نشوء القدرية وهو قيام الأمويين بتبني فكرة الجبر الإلهي وتشجيعها بين الناس، مما أدى إلى قيام القدرية بنفي فكرة الجبر، وإعلان مذهب الإرادة الحرة في الاختيار، ونشوء مذهب القدرية وقيام فرقتهم الكلامية.

(3494/1)

... والواقع أن الدليل على نشوء القدرية والدعوة إلى مذهب الإرادة الحرة لا يقف عند النصوص القرآنية التي استند القدرية إليها في مقولتهم فحسب، كما ظن صاحب هذا التفسير، وإنما يتعداها إلى معرفة المصدر الذي استقى القدرية الفكرة منه. والفكرة، أي مذهب الإرادة الحرة ـ كما أشارت الشواهد العديدة ـ موجودة قبل ظهور الإسلام، في البلاد التي فتحها المسلمون، وبين أهل الديانات الذين التقى بهم المسلمون وعاشوا بين ظهرانيهم وثار الجدل الفكري والنقاش العقائدي

معهم. ولذلك، فإن أصل الفكرة جاء ابتداء من خارج الفكر

(3495/1)

الإسلامي، ولم يُؤثر عن السلف أنهم تداولوها، وقام المسلمون الذين نفذت الفكرة إليهم واستهوتهم يعارضونها بالنصوص القرآنية، فما وافق الفكرة من النصوص القرآنية اعتمدوه دليلاً وحجة، وما لم يوافقها من النصوص القرآنية عمدوا إلى تأويله بما يتفق وإياها.

... أما ما قيل عن الحال في البصرة الذي سبقت الإشارة إليه، فالمعلوم أن البصرة مركز تجاري وملتقى للأعراق والأجناس، وكان حبل الأمن فيها قد اختلّ كثيراً في أيام الفتنة (35 ـ 41 هـ)؛ ولما كان عام الجماعة 41 هـ، ولّى معاوية بن أبي سفيان على البصرة عبد الله بن

(3496/1)

عامر بن كريز، ولما وجده معاوية سهلاً ليناً ويضعف عن الأخذ على أيدي السفهاء، عزله وولّى زياد بن أبيه (45 ـ 53 هـ)، فساسها زياد بالحزم والشدة، وجرّد في أهل

الذنوب والمعاصي السيف حتى استقامت له طوعاً وكرهاً، وخلفه ابنه عبيد الله بن زياد، فساسها بسياسة أبيه، وخرجت البصرة بعد موت يزيد بن معاوية إلى طاعة عبد الله ابن الزبير عام 64 هـ، ثم دخلت في طاعة عبد الملك بن مروان عام 74 هـ، فولّى عبد الملك عليها الحجاج بن يوسف الثقفي (75 ـ 95 هـ)، وكان الحجاج يقلّد في سياسته زياد بن أبيه، ومات الحجاج عام 95 هـ،

(3497/1)

أي بعد موت معبد الجهني صاحب القدرية(1).

... والملاحظ أن الفسق والمعاصي في البصرة كانت وليدة الأوضاع السياسية والأمنية. وقد عاجلها الأمويون بالسيف، وعالجوها بالشدة والحزم وليس بأفكار الجبر الإلهي.

... وإذا قبلنا الروايات التي ذكرت بعض أسماء متأخري الصحابة الذين تبرأوا من القدرية، وجدنا عام 57 هـ أو عام 58 هـ يمثّل العام الذي نشأت القدرية قبله، وهي الفترة التي تتفق وولاية زياد وابنه عبيد الله على البصرة من قبل

_____

(1) انظر: أبو جعفر الطبري، تاريخ الطبري، ج 5، ص. 212، 216 ـ 223؛ ج 6، ص ص. 202 ـ 206.

(3498/1)

الأمويين، وهي فترة تمتعت البصرة فيها بالهدوء والاستقرار والأمن. وهو حال يدعو إلى ربط نشوء القدرية بالتفاعلات الفكرية والقضايا العقائدية التي أثارها تسرّب الأفكار الفلسفية اللاهوتية إلى المجتمع الإسلامي واطلاع المسلمين عليها وتأثرهم بها.

...

موقف المسلمين من القدرية:

... لم تنشأ القدرية، بالمفهوم الذي أشرنا إليه سابقاً، مع نشأة الإسلام وضمن أصول الفكر الإسلامي وفروعه التي أعلن الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن اكتمالها في حجة الوداع، وإنما جاءت نشأتها كما رأينا في فترة تالية لظهور الإسلام. فلما

(3499/1)

أظهر القدرية مقالتهم، جاء قولهم جديداً على المسلمين، وكان سابقة جريئة في العقيدة، إذ تناولوا العلاقة بين الله وأفعال الإنسان، وجعلوا أفعال الإنسان من عمله لا من عمل الله وإرادته ومشيئته، مما أثار ثائرة المسلمين واندفع العلماء للرد عليهم وبيان خطئهم.

... فأنكر أبو هريرة (ت 57 هـ أو 59 هـ)، وعقبة بن عامر الجهني (ت 58 هـ)، وعبد الله بن عباس (ت 68 هـ)، مقالتهم. ومما روي عن ابن عباس أنه قال: »إيّاك والنظر في النجوم، فإنه يدعو إلى الكهانة، وإياك والنظر في القدر، فإنه يدعو إلى الزندقة، وإيّاك وشتم

(3500/1)

أصحاب الرسول، فيكبّك الله في النار على وجهك إلى يوم القيامة« (1).

... وروى عبد الله بن عمر (ت 74 هـ)، وهو آخر من مات بمكة من الصحابة عن النبي أنه قال: »القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم«.

ولما سأله يحيى بن يعمر في أثناء الحج عن الذين يزعمون أن لا قدر، والأمر أُنُف، قال له عبد الله: »إذا لقيت أولئك، فأخبرهم أني بريء منهم، وهم براءٌ مني، ولو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه

(1) انظر: أبو نعيم الإصفهاني، أخبار أصفهان، ج 1، ص. 324؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص. 15.

(3501/1)

ما قَبلَ الله منه حتى يؤمن بالقدر« (1). وحمل عليهم جابر بن عبد الله (ت 78 هـ)، وإبراهيم بن محمد الغزاري (ت 88 هـ)، وكان إبراهيم يطلب إلى من كان يرى رأي القدرية أن لا يحضر مجلس علمه(2).

(1) أحمد بن حنبل، المسند، ج 2، ص. 86؛ أبو داود، السنن، ج 4، باب القدر؛ مسلم، صحيح مسلم، "كتاب الإيمان"؛ أبو نعيم الأصفهاني، المسند المستخرج من صحيح مسلم، ج 1، ص. 103؛ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 1، "كتاب الإيمان"، ص ص. 118 ـ 119.

(2) ياقوت، معجم الأدباء، ج 10، ص. 210. (ترجمة إبراهيم بن محمد الغزاري).

(3502/1)

... وأنكر مقالتهم أنس بن مالك (ت 91 هـ أو 93 هـ)، وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة، وقيل عن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب (ت 106 هـ)، والقاسم بن محمد بن أبي بكر (ت 108 هـ)، وهما من أئمة الناس وخيارهم وفقهائهم في الحجاز، أنهما كانا يلعنان القدرية(1).

---

(1) ابن قتيبة، المعارف، ص. 76، 80؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص. 15؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 5، ص ص. 53 ـ 59؛ (ترجمة القاسم بن محمد بن أبي بكر).

(3503/1)

... وجعل بكر بن عبد الله المزني البصري (ت 108 هـ) على نفسه أن لا يسمع رجلين يتنازعان في القدر إلاّ قام فصلى ركعتين تجنّباً للدخول في الحديث في القدر. وقال الحسن البصري (ت 110 هـ):» من كفر بالقدر كفر بالإسلام« (1).

... وكان مكحول الشامي (ت 113 هـ أو 116 هـ) يدعو إلى هجر غيلان الدمشقي لقوله في القدر. ونهى ميمون بن مهران (ت 117 هـ) الناس عن مجالسة أهل القدر، وقرن النهي عن مجالستهم

---

(1) البَسَوي، المعرفة والتاريخ، ج 2، ص. 147؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 4، ص. 533. (ترجمة بكر بن عبد الله المزني).

(3504/1)

مع النهي عن تعلّم التنجيم والنهي عن سبّ الصحابة رضوان الله عليهم(1)، وهو قول ابن عباس الآنف الذكر. ... وكان رجاء بن حيوة الكندي (ت 112 هـ)، وعبادة بن نسي الكندي (ت 118 هـ)، وعدي بن عدي الكندي (ت 120 هـ) . وهم من قيل فيهم إن الله تبارك وتعالى ينزل بهم الغيث، وينصر بهم على الأعداء . وغيرهم من علماء الشام كثير، كانوا ينكرون مقالة القدرية، وأنكرها نمير بن أوس الأشعري (ت 122 هـ)، وربيعة الرأي بن أبي عبد

---

(1) ابن قتيبة، المعارف، ص. 198؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 5، ص. 71. (ترجمة ميمون بن مهران)؛

(3505/1)

الرحمن (ت 136 هـ) (1).

... وقال سليمان بن طرخان (ت 143 هـ): »لو كُشِفَ الغطاء، لعلمت القدرية أن الله ليس بظلاّم للعبيد«. وكان لا يُحدث من الناس من كان يعتقد مقالة القدرية. وقال محمد بن شهاب الزهري: »الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن وحّد ولم يؤمن بالقدر كان ذلك ناقضاً توحيده« (2)

---

(1) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة غيلان الدمشقي.

( ) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة عبادة بن نسي الكندي، عدي بن عدي الكندي؛ البَسَوي، المعرفة والتاريخ، ج 2، ص. 39؛ ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ترجمة نمير بن أوس.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 6، ص. 195 ـ 202. (ترجمة سليمان بن طرخان)؛ ج 5، ص ص. 326 ـ 343. (ترجمة محمد بن شهاب الزهري).

(3506/1)

.

... وتبرّأ منهم أبو حنيفة النعمان (80 ـ 150 هـ) صاحب المذهب، وجعل من أهل الجماعة من يؤمن بالقدر خيره وشرّه، ولا يتكلم في الله عز وجل بشيء، وقال للقدرية

الذين أرادوا مناظرته: أما علمتم أن الناظر في القدر كالناظر في شعاع الشمس كلما ازداد نظراً ازداد حيرة(1).

... وقال مسعر بن كدام الهلالي (ت 152 هـ)، الإمام الثبت وشيخ العراق: »التكذيب بالقدر أبو جاد الزندقة«، أي أول الزندقة(2)

---

(1) ابن عبد البر، الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة، ص ص. 163 ـ 164.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 7، ص. 168. (ترجمة مسعر بن كدام).

(3507/1)

. وأنكر الأوزاعي (ت 157 هـ) ـ فقيه أهل الشام ـ قول القدرية، ولقيه ذات يوم ثور بن يزيد الكلاعي الحمصي (ت 153 هـ)؛ وكان ثور يقول بالقدر، فمدّ ثور يده لمصافحة الأوزاعي، فأبى الأوزاعي أن يمدّ يده وقال: » يا ثور! لو كانت الدنيا، لكانت المُقاربة، ولكنه الدين« (1).

... وكان عكرمة بن عمار (ت 159 هـ) من أهل اليمامة، يخاصم أهل القدر في دمشق، ويرفض أن يحدّثهم، وكان

يخرجهم من مجلس درسه(2)

---

(1) البَسَوي، المعرفة والتاريخ، ج 2، ص. 386؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 6، ص. 344. (ترجمة الأوزاعي).

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 7، ص. 138. (ترجمة عكرمة بن عمار).

(3508/1)

.

... وأما إمام مدينة الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وصاحب المذهب مالك بن أنس (93 ـ 179 هـ)، فكان يعدّ القدرية أهل سخافة وطيش جعلوا دينهم تبعاً للجدل، وكانوا برأيه بئس الأقوام، لا يُسلّم عليهم واعتزالهم أحبّ، وكان يقول: »لا يزال أهل بلدنا ـ أي أهل المدينة ـ يكرهون القدر ورأي جهم وكلّ ما أشبهه« (1).

... وكان أبو يوسف القاضي (113 ـ 182 هـ) يتبرأ من القدرية(2).

---

(1) أبو عبد البر، الانتقاء، ص ص. 33 ـ 37.

(2) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص. 156.

(3509/1)

... وقال عبد الله بن المبارك (118 ـ 181 هـ)، أحد الأئمة الأعلام وحفاظ الإسلام:

... أيها الطالب علماً ... ايت حمّاد بن زيد
... ودَع البدعة من ... آثار عمرو بن عبيد(1)

... ومع أن الشافعي (150 ـ 204 هـ) ولد ومات خارج إطار العصر الأموي، فإنه كان صاحب مدرسة فكرية في الفترة التي تتصل مباشرة بنشوء القدرية، وكانت تمثل اتجاهاً واسعاً في المجتمع الإسلامي، وحظيت عند المسلمين بالرضا والانتشار، ولم تختلف في رأيها في القدر عن مدرسة أبي

(1) المزِّي، تهذيب الكمال، ج 16، ص. 9. (ترجمة عبد الله بن المبارك).

(3510/1)

حنيفة ومالك فكان الشافعي يقول: »لو علم الناس ما في الكلام والأهواء، لفرّوا عنه كما يفرّون من الأسد، وكان حكمه فيهم أن يضربوا بالجريد ويحملوا على

الإبل، ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويُقال: »هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأخذ في الكلام« (1).

ورجع عن قبول شهادة القدرية وأهل الأهواء وبه قال مالك وفقهاء المدينة(2).

... وكانت دعوة العلماء الناس إلى هجر القدرية، وأن لا يسلّموا عليهم، ولا يجيبوا دعوتهم، ولا يزوّجوهم، ولا

---

(1) ابن عبد البر، الانتقاء، ص. 80.

(2) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص. 156.

يعودوا مرضاهم، ولا يصلّوا على جنائزهم، ولا يمشوا فيها، من الوسائل التي اتُّبعت في الإنكار عليهم وردعهم(1).

... ولابد من الإشارة إلى أن هؤلاء الذين ذكرنا من العلماء الأعلام في بيان موقف المسلمين من القدرية لم نذكرهم على سبيل الحصر، وإنما كانوا أمثلة وشواهد توزعت بين سنّي قيام القدرية ونشوء فرقتهم، وكانوا بعض من حفظت الكتب أسماءهم ومقالتهم

---

(1) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص. 81؛ ابن حنبل، المسند، م 2، ص. 86؛ البغدادي، الفرق بين الفرق،

ص ص. 14 ـ 15؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة غيلان الدمشقي.

(3512/1)

في الإنكار على القدرية.

... فلماذا أنكر هؤلاء العلماء مقالة القدرية ونابذوهم؟ هل كان ذلك لبدعة القدرية وخروجهم على مذهب السلف في القدر، أو كان ذلك ممالأة من العلماء للأمويين ومواطأة لهم في ما اتُّهم به الأمويون من القول بالجبر الإلهي الذي ثار القدرية عليه، وأراد القدرية بذلك أن يزلزلوا قواعد سلطان بني أمية التي ترتكز إليه؟

مذهب أهل السنة والجماعة في القدر:

... كان القرآن الكريم ينزل منجّماً، ويقوم الرسول – صلى الله عليه وسلم – بتبيانه لأصحابه قولاً وعملاً، ولم يكن ما تشابه من آياته يثير فيهم

(3513/1)

آنذاك ما أثار في فترة تالية من الاختلاف في فهم مسألة القدر وغيرها، فهم أهل لغة القرآن والعارفين بأساليب البيان وعاشوا الأول فالأوَّل نزول الآيات وأسبابه وظروفه، وأدركوا زمان الوحي وشرف صحبة الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وأزال نور الصحبة عنهم ظُلَم الشكوك والأوهام، فلم يروا تناقضاً في ما تشابه من آياته يحتاج إلى التوفيق، بل فهموا كل آية في الجانب التي جاءت تصفه أو تقرره، واعتبروها وصفاً لواقع أو تقريراً لحقيقة، وفهموها فهماً مجملاً، واكتفوا بهذا الفهم، وساروا مع منهج القرآن في تلقّي آياته

(1/3514)

وفهمها، ولم يروا فضيلةً في الدخول في تفصيل الآيات المتشابهات والجدال فيها، وابتعدوا عن الخوض في المسائل الجدلية الاعتقادية ونهوا عنها(1).

... وقد أشار مالك بن أنس (93 ـ 179 هـ) إلى ذلك فقال:

... الكلام في الدين كلّه أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا (أهل مدينة الرسول) يكرهون القدر، أي القول في القدر والجدال فيه، ورأي جهم وكلّ ما أشبهه، ولا أحب الكلام إلاّ في ما كان تحته عمل؛ فأما الكلام في الله،

---

(1) ابن عبد ربه، الانتقاء، ص. 33، 37؛ طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ج 2، ص ص. 30 ـ 31.

(3515/1)

فالسكوت عنه، لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا ما كان تحته عمل.

وكان يتمثل:

وخير أمور الدين ما كان سنّة ... وشر الأمور المحدثات البدائع(1)

... وما أشار إليه مالك من خُلُق ومنهج في فهم القرآن الكريم ومعانيه وأفكاره كان وَصَلَهُ من عصر الصحابة الذين شهدوا الصورة العملية للقرآن الكريم ورأوا التطبيق الحي لما جاء فيه، وحمل عِلْمَ هذا الخُلُق جيلٌ عن جيل حتى صار إلى مالك بن أنس.

---

(1) ابن عبد البر، الانتقاء، ص. 33، 37.

(3516/1)

... ومن مظاهر هذا الخلق القائم عند الصحابة على الفكر العملي لا الجدل النظري، أن عمر بن الخطاب خرج عام 17 هـ

يريد الشام ومعه المهاجرون والأنصار. فلما وصل إلى سرْغ(1)، بلغه خبر انتشار الطاعون بالشام، فقام يشاور من معه من المهاجرين والأنصار فاختلفوا بين الرجوع ومواصلة المسير، فاختار عمر الرجوع، فقال له أبو عبيدة: »أفراراً من قدر الله؟«. فقال عمر: »لو غَيْرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت

---

(1) سرْغ: قرية بوادي تبوك بين الحجاز والشام؛ ياقوت، معجم البلدان، مادة "سرْغ".

(3517/1)

إن كانت لك إبل هبطت وادياً له عدوتان: إحداهما خصيبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟«.

وبهذا الفهم استوى عند عمر الرجوع ومواصلة السير في القدر، أي في علم الله(1).

... وانقضى الصدر الأول من الصحابة، ثم أخذ يظهر الجدال والمراء في الدين بين الناس(2)

---

(1) انظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب الطب، باب

الطاعون؛ مسلم، صحيح مسلم، كتاب السلام، باب الطاعون؛ أبو جعفر الطبري، تاريخ الطبري، ج 4، ص ص. 56 ـ 58.

(2) طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ج 2، ص. 31.

(3518/1)

؛ وكان من ذلك الجدال الجدل في القدر. فلما أعلن القدرية مقالتهم، وادّعوا أن أعمال الإنسان من صنعه وليست من صنع الله، أنكر الناس هذا القول الذي لا عهد لهم ... به من قبل، ولا سمعوا به عن السلف، وكان قول القدرية عند الناس باطلاً، سواء من حاجّهم من الناس أو من كانت حجته منهم دون حجة القدرية. فقد روي عن حسان بن عطية المحاربي (ت 130 هـ) أنه قال لغيلان الدمشقي: »أما والله، لئن كنت أعطيت لساناً لم نُعطَه، إنّا لنعرف باطلَ ما تأتي به«. وقيل إنه قال له: »يا غيلان! إن يكن لساني يَكِلّ عن جوابك، فإن قلبي

(3519/1)

يُنكر ذلك« (1).

... استند من قام يردّ على القدرية إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكانت ردوداً فردية وجزئية كوّنت بمجموعها الردّ باسم أهل السنة والجماعة على مقولة القدرية الوليدة.

... ومن الآيات الكريمة التي استشهد بها هؤلاء العلماء: قوله تعالى: {وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله } (سورة الإنسان، آية 30)، وغيرها من آيات المشيئة التي تكررت في القرآن الكريم أكثر من أربعين موضعاً في سورة "البقرة" و"آل عمران" و"النساء" و"الأنعام" وغيرها(2)

---

(1) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة غيلان الدمشقي.

(2) انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 13، ص. 449 (باب في "المشيئة والإرادة").

(3520/1)

، وقوله تعالى: {إنا كل شيء خلقناه بقدر } (سورة القمر، آية 49)، وقوله تعالى: {وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه وما ننزله إلاّ بقدر معلوم} (سورة الحجر، آية 21)، وقوله تعالى {وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من

عند الله} (سورة النساء، آية)، وقوله تعالى: {قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا} (سورة التوبة، آية 51)، وقوله تعالى: {ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها} (سورة الشمس، آية 7، 8)، وغير ذلك من الآيات القرآنية الكريمة.

(1/3521)

... واستشهدوا بالأحاديث النبوية الشريفة. ومن ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب أنه لما سُئل عن تفسير قول الله تعالى: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم...} (سورة الأعراف، آية 172)، قال عمر بن الخطاب (ت 23 هـ):

... سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يُسأل عنها، فقال رسول – صلى الله عليه وسلم – : "إن الله تبارك وتعالى خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريّة، فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل الناس يعملون". فقال رجل: "يا رسول الله، ففيم العمل؟" قال: فقال رسول

(1/3522)

– صلى الله عليه وسلم – : "إن الله إذا خلق العبد للجنة، استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيُدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار، استعمل بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيُدخله به النار" (1).

... وعن علي بن أبي طالب (ت 40 هـ) قال:

---

(1) مالك بن أنس، الموطأ، كتاب القدر؛ البسوي، المعرفة والتاريخ، ج 2، ص. 356؛ أبو داود، السنن، كتاب السنة، باب في القدر؛ الترمذي، الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، كتاب التفسير، سورة الأعراف.

(3523/1)

... كنا جلوساً مع النبي – صلى الله عليه وسلم – ومعه عود ينكتُ به في الأرض، فنكس وقال: "ما منكم من أحد إلاّ قد كُتب مقعده من النار أو من الجنة". فقال رجل من القوم: "ألا نتّكل يا رسول الله؟". قال: "لا، اعملوا، فكل ميسر"، ثم قرأ: {فأما من أعطى واتّقى وصدّق بالحسنى فسنيسّره لليسرى وأما من بَخِل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسّره للعسرى} (سورة الليل، الآيات 5 .

10) (1).

---

(1) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب القدر، باب »وكان أمر الله قدراً ومقدوراً«، ج 11، ص. 494؛ أبو داود، السنن، باب في القدر.

(3524/1)

... وعن عمران بن حصين الخزاعي (ت 52 هـ) قال: »قال رجل: "يا رسول الله أيعرف أهل الجنة من أهل النار؟" قال: "نعم"، قال: "فلِمَ يعمل العاملون؟" قال: "كل يعمل لما خُلق له، أو لما يُسِّر له"«(1).

... وعن طاوس اليماني (ت 106 هـ) قال: »أدركت ناساً من أصحاب رسول الله يقولون: كل شيء بقدر، وقال: سمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، كل شيء بقدر حتى العجز والكيس، أو الكيس والعجز«(2)

---

(1) المصدر نفسه، كتاب القدر، باب "جف القلم على علم الله"، ج 11، ص. 491.

(2) مسلم، صحيح مسلم، كتاب القدر، باب "كل شيء بقدر".

(3525/1)

.

... وبرواية عبد الله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب أنه جاء في كلام جبريل عليه السلام للرسول – صلى الله عليه وسلم – عن الإيمان: »... وتؤمن بالقدر خيره وشره« (1)، وفي رواية: »... وتؤمن بالقدر كله«، وفي رواية: »... وتؤمن بالقدر خيره وشره، وحُلوه ومره من الله«(2) وغير ذلك من الأحاديث النبوية الشريفة.

... وروي عن عمر بن الخطاب أنه كان يأمر برواية قصيدة لبيد التي يقول فيها:

---

(1) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان.

(2) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، باب في المشيئة والإرادة، ج 13، ص. 449.

(3526/1)

... إن تقوى ربّنا خير نفل ... وبإذن الله ريثي وعَجل

... أحمد الله فلا ندّ له ... بيديه الخير ما شاء فعل

... من هداه سبل الخير اهتدى ... ناعم البال ومن شاء أضلّ

... وقد انتهى هؤلاء العلماء من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآثار عن السلف إلى القول بأن أعمال الإنسان ليست من صنعه، وإنما هي بعلم الله وتقديره وإرادته ومشيئته، وأن الأمور كلها بتقدير الله، ولا يجوز أن يقع في الوجود خلاف ما تضمّنه علم الله(1)

---

(1) انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 1، كتاب الإيمان، ص ص. 118 ـ 119؛ ج 11، كتاب القدر، ص. 478، 493، 512، 515؛ ج 13، كتاب المشيئة والإرادة، ص ص. 445 ـ 452.

(3527/1)

.

... والملاحظ أن هؤلاء العلماء الذين قدموا باسم »أهل السنة والجماعة« هذا الفهم لمسألة القدر باعتباره فهماً للسلف، كانوا يضعون نصب أعينهم في أثناء ذلك مقالتين هما: مقالة القدرية ومقالة الجبرية.

... أما مقالة القدرية، فهي المقالة التي انبروا للرد عليها ودحضها، ولم يفتأوا يذكرون خطأها في كل موضع

وإشارة من آية أو حديث وجدوا الأعمال تُنسب فيها إلى الله لا إلى الإنسان خلافاً لقول القدرية، ونَفَوْا أن يكون الله ظالماً إذا عذّب من يطيعه، لأن الجميع مُلكه، وله الأمر كله، يفعل ما يشاء ولا يُسأل عما

(3528/1)

يفعل(1).

... وأما مقالة الجبرية، فقد نشأت للردّ على القدرية أيضاً، وذهبت إلى القول بأن الإنسان مُجْبَرٌ على أفعاله، ولا استطاعة له على الكسب، وأن لا فعل ولا عمل لأحد غير الله، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز(2).

---

(1) انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 11، ص. 513، باب من يعوذ بالله من درك الشقاء؛ ج 13، ص. 449، باب في المشيئة والإرادة.

(2) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص. 199، 200، 327، 328؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، ص. 85.

(3529/1)

... وبين هاتين المقالتين كان قول علماء أهل السنة والجماعة يبعد من قول القدرية ويغايره، ولكنه يقترب من قول الجبرية ويختلط به أحياناً ويصبح القولان واحداً، وهو ما ليسوا به بمؤمنين. ولذلك قالوا في أثناء تعرّضهم للحديث الذي تناول تحاجّ آدم وموسى عليهما السلام عند الله، وليس في الحديث حجة للجبرية، ولا يعني القضاء والقدر والجبر وقهر العبد، وقالوا أيضاً: والجبرية والقدرية من الإفراط والتفريط على شفا جرف هار، والطريق المستقيم القصد(1)

---

(1) انظر: ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 1، ص. 505، 509، 512، باب "تحاجّ آدم وموسى عليهما السلام عند الله".

(3530/1)

. وأما ما كان يفهم من قولهم بأن أعمال الإنسان وعداده في الجنة أو في النار بعلم الله ومشيئته، هو جبر للإنسان وسلب لحرية إرادته في الاختيار، فإنهم أكدوا أنه ليس جبراً، وأنه حال لا يدعو إلى التواكل، ولا تسقط به التكاليف الشرعية وجريان الأحكام الشرعية على

العباد بأفعالهم، وأن عمل الإنسان في العاجل دليل على مصيره في الآجل، وأن العمل هو الطريق إلى الجنة أو إلى النار، وأن اقتران العمل بتيسير الله (يشيرون إلى ما جاء في الحديث النبوي: كل ميسر لما خُلق له) رد على الجبرية، لأن التيسير ضد الجبر، والجبر لا

(3531/1)

يكون إلاّ عن كُره ولا يأتي الإنسان الشيء بطريق التيسير، وقالوا بأن المآل خاص بالله، وهو علم الله ولا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرّب، ومحجوب عن المكلّف، أي الإنسان؛ ولكون الإنسان لا اطّلاع له على المآل المحجوب، فعليه أن يبذل جهده، ويجاهد نفسه في عمل الطاعة، ولا يترك وَكولاً إلى ما يؤول إليه أمره فيُلام على ترك المأمور ويستحق العقوبة، وليس على أحد النظر في القدر المغيّب ولكنه عليه العمل بالحزم(1)

---

(1) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص. 30؛ ابن حجر، فتح الباري، ج 11، ص. 477، كتاب القدر، ص. 493، باب "جف القلم على علم الله".

(3532/1)

.

... وتأكيد علماء أهل السنة والجماعة على الانفصال والاستقلال في مسألة القدر عن القدرية والجبرية سببه تعلقهم بمفهوم السلف عن الإيمان الذي كانوا يعيشونه عملياً، وكانوا يرونه مغايراً لقول القدرية والجبرية في القدر، ولكنهم اضطروا أمام الجدل العقائدي مع هذه الفرق، أن يصوغوا قولهم صياغة نظرية كلامية مثلها معتمدين في ذلك على النصوص وفهمها للردّ عليها.

... وعليه، فقد يكون في ما تقدم من الكلام في موضوع القدر(1)

---

(1) يعد موضوع "القضاء والقدر" من الموضوعات العقائدية التي تتصل بالحياة البشرية اتصالاً حيوياً. وقد تعرض لبحثه العلماء قديماً وحديثاً. وقد وجد بعض العلماء من "العصر الحاضر" الذين قاموا بدراسة هذا الموضوع، أن كلمتي "القضاء والقدر" لم يجر استعمالهما مجتمعتين معاً من قبل أحد كاسمٍ واحدٍ، لا في القرآن ولا في الحديث ولا في اللغة ولا في كلام العلماء إلاّ بعد ترجمة الفلسفة اليونانية ووجود المتكلمين. فالمتكلمون هم الذين اصطلحوا على وضع اسم "القضاء والقدر"، للموضوع

الذي أخذوه عن الفلسفة اليونانية. وأما الآيات والأحاديث التي تضمنت ألفاظ "القضاء" و "القدر"، فإنها تتحدث عن "صفات الله" وعن "أفعال الله"، وتفسر بمعانيها اللغوية أو الشرعية، ولا شأن لها بموضوع "القضاء والقدر" الذي يبحث في "أفعال الإنسان" بحثاً عقلياً. فالقضاء والقدر هو أفعال العباد وخاصيات الأشياء التي يحدثها العبد فيها، ويجب أن يبحث على أساس موضوع الثواب والعقاب لا على أساس آخر كعلم الله المحيط بكل شيء، أو إرادة الله المتعلقة بجميع الممكنات، أو اللوح المحفوظ المحتوي على كل شيء، أو الإيجاد من الإنسان أو من الله، فهذه الأسس لا علاقة لها بموضوع الثواب والعقاب.

... ... ومن منظور اتخاذ الثواب والعقاب أساساً لبحث "القضاء والقدر"، أي لبحث أفعال العبد وخاصيات الأشياء والتي يحدثها العبد في الأشياء، يعيش الإنسان ضمن دائرتين إحداهما تسيطر عليه والأخرى يسيطر عليها. ...

... ... أما الدائرة التي تسيطر عليه، فهي قسمان: قسم يقتضيه نظام الوجود مباشرة، ويسير الإنسان بحسبه سيراً جبرياً ولا اختيار له ولا علاقة له في ذلك، لأن الله هو الذي خلق نظام الوجود؛ وقسم لا يقتضيه نظام الوجود، وإنما هو أفعال تحصل من الإنسان أو عليه جبراً عنه مثل الزلازل وحوادث السيارات والطائرات وغيرها، والأفعال

في هذه الدائرة تسمى "قضاء" ولا ثواب ولا عقاب عليها لأنه لا دخل للإنسان بها سواء وقعت منه أو عليه.

... ... وأما "القدر"، فهو خواص الأشياء التي قدرها الله في الأشياء كخاصية الإحراق في النار والاحتراق في الخشب، ولا يستطيع الإنسان أن يوجدها إلا في الأشياء التي تكون خاصية من خواصها. وبالتالي، "فالقضاء" هو أفعال الإنسان التي تقع في الدائرة التي تسيطر عليه؛ و"القدر" هو الخاصيات التي خلقها الله في الأشياء ويحدثها الإنسان فيها. والإيمان "بالقضاء والقدر" خيرهما وشرهما من الله تعالى، هو الإيمان بأن الأفعال التي تحصل جبراً عن الإنسان ولا قبل له بدفعها، والخاصيات الموجودة في طبائع الأشياء هي من الله تعالى وليست من العبد ولا دخل له بها.

... وأما الدائرة التي يسيطر الإنسان عليها، فهي الدائرة التي تقع فيها الأعمال التي تصدر من الإنسان أو عليه بإرادته واختياره، ويُثاب على الفعل إن كان مما يستحق الثواب، ويعاقب عليه إن كان مما يستحق العقاب، كإشباع الحاجات والغرائز، وهذه الأعمال لا دخل لها بالقضاء، ولا دخل للقضاء بها، لأنها أفعال اختيارية يقوم الإنسان بها بمحض إرادته واختياره، والإنسان مسؤول عنها ثواباً وعقاباً.

... ... وأما علم الله والكتابة في اللوح المحفوظ، فهو

تعبير عن إحاطة علم الله بكل شيء، ولا يكون ذلك مجبراً، لأن الإنسان لا يقوم بعمله بناء عليه. وأما إرادة الله ومشيئته، فتعني أنه لا يقع في ملك الله إلاّ ما يريد؛ فإذا عمل العبد عملاً ولم يمنعه الله منه ولم يرغمه عليه بل تركه يفعل مختاراً، كان فعل العبد ضمن إرادة الله ومشيئته، وكان فعل العبد باختيار العبد، وليس جبراً عن الله، ولا تكون إرادة الله ومشيئته مجبرة على العمل.

... (انظر: تقي الدين النبهاني، نظام الإسلام، ص ص. 12 ـ 19).

(3533/1)

ما يدل

على أن المسألة بين هذه الأطراف كانت تدور في فلك ديني لا سياسي. ومع ذلك، فهناك من وجّه الاتهام إلى هؤلاء العلماء وقرّاء الشام بأنهم عملاء للأمويين، وأن الأوزاعي كان عميلاً وضيعاً للأمويين عاش في رحابهم يغدقون عليه الأموال، ويشترون دينه ودنياه ويدفعون ثمن فتاويه، وهو يحارب مجتمع المسلمين، ويفتي بقتل كل من عبّر عن آلام هذا المجتمع(1).

---

(1) النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 3، ص. 286، 314، 323.

(3534/1)

... وقد يكون الاتهام جاء من الاعتقاد بوجود الانفصال بين الأمة والدولة أيام الأمويين، ولذلك عُدّ من يتعاون من العلماء مع الأمويين عميلاً، وهو اعتقاد خاطئ. فإذا استثنينا الأعداد المحدودة من الخوارج، فإن الأمة قبلت بالأمويين حكاماً عام الجماعة، وآثرت الأمة الدخول في الجماعة والطاعة على الفرقة، لما يتحقق في الجماعة من الخير للإسلام والمسلمين وحفظ الأموال والدماء والدين، وما يقع في الفرقة من الشرور. وكان نشر الإسلام وتوسيع داره، وحماية الدين وتعميم ثقافته، والعمل بالقرآن والسنة والاهتمام بهما مدارسة

(3535/1)

وحفظاً وتدويناً مشروعاً مشتركاً وواجباً شرعياً بين الأمة وحكامها من بني أمية، وكان جيش العلماء من الولاة والقضاء والقرّاء وغيرهم صحابةً وتابعين، ممن عمل

في ظل الأمويين، شاهداً على التعاون بين الأمة والدولة، ولم يكن العلماء الذين تبرأوا من القدرية، وكان كثير منهم يشارك في أعمال الدولة، دون الأوزاعي في الفضل؛ فهم حملة علم القرآن والسنة، واتهامهم بتفسير نصوص القرآن والسنة النبوية تفسيراً جبرياً لمصلحة الأمويين جوْر وتحيّز. فقد قاموا بالرد على القدرية والجبرية بإخلاص وغيرة على الدين، وحاولوا

(3536/1)

استيعاب مقالة القدرية والجبرية والرد عليهما، وأكّدوا على العمل طريقاً في الحياة الدنيا إلى الآخرة، وليس التواكل على المآل المحجوب. وإذا كان هناك من مظنّة اتهام، فيجب أن يُوجّه إلى الجبرية، وهو ما لم يحدث، مما يشير إلى أن الجدال بين هذه الأطراف كان يجري في فلك ديني وأجواء الغيرة على الإسلام والدفاع عن عقيدته.

... أما الأوزاعي، فكان رأساً في العلم والعمل، وكان أفضل زمانه ويحيي الليل صلاة وقرآناً وبكاء، وكان يدعو إلى التمسك بآثار السلف الصالح ويقول «إنه يَسَعُك ما يَسَعهم»، وقد أُريد على القضاء في

(3537/1)

خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك (ت 126 هـ)، فجلس لهم مجلساً واحداً، ثم استعفى، فأعفاه الأمويون ولم يكرهوه لأنه كان في أنفسهم أعظم قدراً من أن يكرهوه، ونال بعلمه وصدقه وتواضعه وزهده وتقواه احترام الناس والحكام في الدولتين الأموية والعباسية، وبلغ أن يكون عالم الأمة في عام 140 هـ(1).

قيام الأمويين بمحاربة القدرية:

---

(1) البسوي، المعرفة والتاريخ، ج 2، ص. 408؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي؛ إحسان عباس، تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي، ص. 181.

(3538/1)

... لم يُذكر أن الدولة قبل خلافة عمر بن عبد العزيز امتحنت القدرية. ولما سمع يحيى بن يعمر العدواني البصري (ت قبل 90 هـ) قول معبد الجهني أن لا قَدَر، والأمر

أُنُف، ولم يستفت أحداً من رجال الدولة في ذلك، وإنما حدّث نفسه أن يسأل أحداً من أصحاب الرسول – صلى الله عليه وسلم –، فانطلق حاجّاً أو معتمراً إلى مكة، والتقى هناك بعبد الله بن عمر، وسأله عن قول معبد، فأعلن عبد الله براءته من القدرية(1).

---

(1) انظر: مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان.

(3539/1)

... أما ما قيل عن الحجاج بن يوسف الثقفي (ت 95 هـ) من أنه قتل معبداً الجهني عام 80 هـ صبراً لقوله بالقدر(1)، فالأرجح أن الحجاج قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث. فقد ذكر مالك بن دينار (ت 127 هـ) أنه لقي معبداً بمكة بعد ابن الأشعث وهو جريح، وكان قاتل الحجاج في المواطن كلها، فقال معبد لمالك نادماً على خروجه: »... يا ليتنا أطعنا الحسن البصري«، وكان الحسن البصري ينهى عن الخروج على الحجاج، ثم أخذ الحجاج معبداً وقتله بعد

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص. 251؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة معبد الجهني.

الثمانين وقَبل التسعين للهجرة، شأن كثير غيره ممن خرج على الحجاج مع ابن الأشعث(1). وأما نسبة قتل معبد إلى الخليفة عبد الملك، فقد تكون من قبيل نسبة عمل الوالي إلى الخليفة، لأن ما يقوم به الوالي يكون باسم الخليفة ومردّه إليه.

---

(1) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ترجمة معبد الجهني؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي، ترجمة معبد الجهني؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج 1، ص. 88.

... ولما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز، بلغه كلام غيلان الدمشقي في القدر فاستدعاه وحاجّه، فأعلن غيلان توبته ورجوعه عن الضلال إلى الهدى.

... وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة عامله على البصرة يأمره أن يستتيب القدرية مما دخلوا فيه، فإن تابوا خلّى سبيلهم وإلاّ نفاهم من ديار المسلمين(1).

... وكتب عمر بعد استتابة غيلان الدمشقي كُتباً إلى الأجناد يعارض فيها قول القدرية ويدحضها، ولكن موت عمر حال دون إرسالها(2)

---

(1) ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص. 85.

(2) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة غيلان الدمشقي.

(3542/1)

، وهو خبر استند إليه من اتهم الأمويين في نشر فكرة الجبر في مختلف بقاع العالم الإسلامي وحمل الناس عليه قسراً(1).

... وعمر بن عبد العزيز إمام عدْلٌ وذو فقه وعلم وورَع ومن حملة الحديث وخامس الخلفاء الراشدين عند أهل السنة والجماعة. وخلافه مع أبناء عمه عبد الملك بعد استخلافه، ومعرفته بأن الخلافة ستؤول بعده إلى يزيد بن عبد الملك لا إلى ولده، وموته بالسم في بعض الروايات(2)

---

(1) النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 3، ص. 344.

(2) انظر: ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص.

36، 41، 61، 148 ـ 150؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة عمر بن عبد العزيز؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص. 238 وما بعدها. (ترجمة الخليفة عمر بن عبد العزيز).

(3543/1)

، يرجِّح أنه كان أقل الخلفاء حرصاً على ملك بني أمية.

... وأما خلافه مع القدرية دون غيره ممن سبقه من الخلفاء الأمويين، فقد يعود إلى الأجواء التي أوجدتها حملة جمع الأحاديث النبوية في خلافة عمر وتدوينها وتخليصها من الأحاديث الموضوعة والمدسوسة. وما واكبها من جهود في خلافة عمر جرّ إلى تنبيه أنظار الدولة إلى أقوال القدرية التي كانت غريبة وخارجة عن أفكار السلف وأقوالهم. فلما بلغت عمر بن عبد العزيز، قام يحاربها. لهذا فالأرجح أن الخلاف بين عمر والقدرية كان خلافاً في الفكر وليس على المُلْك.

(3544/1)

... وقد تابع الخلفاء من بعد عمر تعقّب القدرية، فسيّرهم الخليفة هشام بن عبد الملك إلى جزيرة دهلك،

وحمله كثرة كلام الناس في غيلان الدمشقي وشكواهم إياه إليه على أخذه ومناظرته على يد عبد الرحمن الأوزاعي (ت 157 هـ)، وقيل على يد ميمون بن مهران (117 هـ) والأول أرجح. فلما انقطعت حجة غيلان، أمر هشام بقتله، ولكنه وقر في صدره شيء من قتله(1).

---

(1) أبو جعفر الطبري، تاريخ الطبري، ج 7، ص. 203.

... ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة غيلان الدمشقي.

(3545/1)

... ولم يقبل الخليفة الوليد بن يزيد شفاعة من تشفّع بالقدرية المسيّرين إلى دهلك وأبقاهم في النفي(1)، ولكن لم يَرد شيء عن معاقبة القدرية بالقتل، ولكن الدولة وحتى خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك ظلت على عدائها للقدرية، وتجنّب القدرية الجهر بالقول في القدر اتقاء غضب الدولة وسطوتها(2).

---

(1) أبو جعفر الطبري، تاريخ الطبري، ج 7، ص. 232.

(2) النسوي، المعرفة والتاريخ، ج 2، ص. 34؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة غيلان الدمشقي؛ الذهبي،

سير أعلام النبلاء، ج 6، ص. 344. (ترجمة ثور بن يزيد الكلاعي).

(3546/1)

احتجاج الأمويين على القدرية:

... كان احتجاج عمر بن عبد العزيز على غيلان الدمشقي، ثم احتجاج الأوزاعي عليه في خلافة هشام واحداً، وهو احتجاج علماء أهل السنة والجماعة نفسه على القدرية. فمشيئة الله وإرادته وعلمه كانت الأساس الذي بنى هؤلاء عليه احتجاجهم في المناظرة التي جرت بينهم وبين غيلان. وبحسب ذلك، فإن الإنسان لا يستطيع أن يحسّن خلقه، ولا يزيد في رزقه، ولا يؤخر في أجله، ولا يصيّر نفسه حيث شاء، ولا شيء من المشيئة في يد الإنسان(1). وروي عن الحسن

---

(1) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة غيلان الدمشقي.

(3547/1)

البصري (ت 110 هـ) أنه قال: »خلق الله الشيطان، وخلق الخير، وخلق الشر، وأن الله خلق الخلق بقدر، وقسم

الأجيال بقدر، وقسم الأرزاق بقدر، وقسم العافية بقدر، وأمر ونهى« (1). وسأل رجل رجاء بن حيوة الكندي (ت 112 هـ) فقال: »ما تقول ـ رحمك الله ـ في رجل قتل يهودياً وأخذ منه ألف دينار فكان يأكل منه حتى مات، أرزق رزقه الله إياه؟ قال رجاء: كل من عند الله«(2).

وهكذا كان احتجاج الأمويين ومذهب أهل السنّة والجماعة في أفعال العباد واحداً.

---

(1) البسوي، المعرفة والتاريخ، ج 2، ص. 47.

(2) المصدر نفسه، ج 2، ص. 39.

(3548/1)

تغيّر المواقف من القدرية:

... ومع أن مُلك بين أمية حتى خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك هو مُلكهم بعده، فقد قيل إن الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك (ت 127 هـ) مال إلى القدرية، وقرّبهم وأعان على نشر مقالتهم، وبذل الأموال والصّلات لمن مدحه من شعرائهم، وكان عندهم أفضل من عمر بن عبد العزيز(1). ولو كان الخلاف بين

---

(1) أبو جعفر الطبري، تاريخ الطبري، ج 7، ص. 269، 270،

298؛ المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص. 234؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة أسباط بن واصل الشيباني؛ الذهبي، دول الإسلام، ج 1، ص. 86.

(3549/1)

الأمويين والقدرية خلافاً سياسياً أثاره خوف الأمويين على ملكهم أن يزلزله مذهب القدرية، ما قَبل الخليفة يزيد بن الوليد أن يترك جانب الجماعة ورضاهم وينحاز إلى القلة ويعتنق مذهبهم الذي يلقي الشكوك عليه وعلى أسرته(1). ...

... وآل الحُكم إلى بني العباس، فأخذ خلفاؤهم يتعقبون القدرية، واضطر القدرية في مدينة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليتقوا شر الضرب والأذى في خلافة محمد المهدي العباسي (158 ـ 169 هـ) إلى أن يلوذوا بمحمد بن عبد الرحمن بن المغيرة

---

(1) النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج 3، ص. 377.

(3550/1)

القرشي (ت 159 هـ) ويعتصموا به(1). ولكن الخليفة المأمون (198 ـ 218 هـ) تبنى مذهب القدرية، وتابعه على ذلك كل من الخليفة المعتصم (218 ـ 227 هـ)، والخليفة الواثق (228 ـ 232 هـ) (2). ولم تفلح جهود الدولة والقدرية أيام هؤلاء الخلفاء في أن تجعل مذهب القدرية يتغلغل

---

(1) البغدادي، تاريخ بغداد، ج 3، ص. 102 (ترجمة محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة القرشي)؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة القرشي.

(2) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص. 467، 468؛ المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص. 76.

في أوساط العامة، وظلت الجماعة ورؤساؤهم من العلماء والفقهاء يرفضون هذا المذهب بالرغم مما كانوا يلاقون من ألوان الأذى والعذاب ويتعرضون له من المحن. فلما استخلف المتوكل على الله (232 ـ 247 هـ)، خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد، ونهى عن الجدال في القرآن والمناظرة، وأمر المحدّثين بالتحديث وإظهار السنة والجماعة، ونفذت كتُبه بذلك إلى

الآفاق(1)

---

(1) اليعقوبي، المصدر السابق، ج 2، ص ص. 484 ـ 485؛ أبو جعفر الطبري، تاريخ الطبري، ج 9، ص. 19؛ المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص. 86، 319؛ ابن تيمية، نقض المنطق، ص. 20.

. وكان عمله استجابة للرغبة النابعة من المجتمع(1)، وزالت دولة القدرية، مما يشير إلى أن مذهب القدرية كان مرفوضاً من أهل السنة والجماعة، وكان رفضه أيام الأمويين عملاً مشتركاً بين الدولة والأمة: أما الأمة، فلأنها رأته خارجاً عن مذهب السلف؛ وأما الدولة، فلمقتضى المكانة وواجب الرعاية وحراسة الدين واتفاقها في المذهب مع الأمة.

... وعندما قام القدرية في فترة تالية، يعيدون النظر في أوضاعهم، كان لقب "القدرية" بعض ما رُمُوا به. ونظراً لما ألحقه الحديث النبوي

---

(1) فاروق عمر، الخلافة العباسية، ج 1، ص. 297.

»القدرية مجوس هذه الأمة« بهذا اللقب من وصمة(1)، أخذ القدرية يتحللون منه ويتعلقون بلقب "المعتزلة"، وجعلوا أحق الناس بلقب "القدرية"، الذين قالوا: »إن الله تعالى قدّر المعاصي، وجعلوا ذلك كالعذر للعاصي«(2)، وهم الجبرية، وعدّوا أهل السنة والجماعة جبرية(3). ومع أن احتجاج أهل السنة والجماعة

---

(1) الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، ص. 43.

(2) عبد الجبار المعتزلي، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص. 167؛ محمد بن علي المازندراني، متشابه القرآن ومختلفه، ج 1، ص. 202.

(3) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص. 80.

(3554/1)

والأمويين على القدرية كان واحداً، فإن القدرية ردّوا جبرية الأمويين إلى الحفاظ على الملك لا إلى السبب الفكري، وكان معاوية بن أبي سفيان برأيهم أول القائلين بالجبر، ومن بعده ملوك بني أمية (1).

... ولم يحارب القدرية الأمويين ولو مرة واحدة. والذين حاربوا الأمويين على الملْك لم يكونوا قدرية، وإنما

كانوا خوارج وشيعة وقياديين كثيرين من أهل السنة والجماعة أمثال الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعمرو بن سعيد بن العاص الأموي وعبد الرحمن

---

(1) عبد الجبار المعتزلي، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، ص. 143، 144.

(3555/1)

بن محمد بن الأشعث الكندي ويزيد بن المهلب الأزدي وقتيبة بن مسلم الباهلي والحارث بن سريج والعباسيين وغيرهم، وحتى الجهمية الجبرية. ولم يستأنس هؤلاء في ثوراتهم على الأمويين بصحف القدرية والجبرية وأفكارهم، وتصدى لهم الأمويون وحاربوهم بالسلاح.

... وأما الذين بايعوا بني أمية ووالوهم وآثروا الجماعة، فلم تكن طاعتهم إياهم صدى للفكر الجبري. وكان القدرية والجبرية في عصر بني أمية من إفراز التفاعل الفكري والجدل العقائدي. وتصدّى لهم أهل السنة والجماعة. وكان الأمويون أولي الأمر ورأيهم تَبَعٌ لأهل السنة

(3556/1)

والجماعة، فتعقّبوا القدرية والجبرية وحاربوهم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

كتب الصحاح والسنن.

الأصفهاني، أحمد بن عبد الله (ت 430 هـ/ 1038 م)، أخبار أصفهان، مطبعة بريل، ليدن، 1924 م.

أمين، أحمد، فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط 9، القاهرة، 1964 م.

البسوي، يعقوب بن سفيان (ت 277 هـ/ 890 م)، المعرفة والتاريخ، تحقيق أكرم العمري، مؤسسة الرسالة، ط 2، بيروت، 1981 م.

البغدادي، عبد القاهر بن طاهر (ت 429 هـ/ 1037 م)، الفرق بين الفرق، دار الآفاق الجديدة، ط 2، بيروت، 1977 م.

(3557/1)

البهي، محمد، الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، مكتبة وهبة، القاهرة، 1962 م.

ابن تيمية، أحمد بن علي (ت 728 هـ/ 1327 م)، نقض المنطق، تحقيق محمد عبد الرزاق، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1951 م.

الجاحظ، عمرو بن بحر (ت 255 هـ/ 868 م)، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (ت 852 هـ/ 1448 م)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن باز، دار المعرفة، بيروت، 1959 م.

(3558/1)

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ/1405 م)، المقدمة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984 م.

ديورانت، ول، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748 هـ/ 1347 م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة، بيروت، 1988 م.

زادة، أحمد بن مصطفى طاش كبرى زادة (ت 968 هـ/

1560 م)، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، 1980 م.

(3559/1)

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911 هـ/ 1505 م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، 1952 م.
الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (ت 548 هـ/ 1152 م)، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، 1967 م.
الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310 هـ/ 922 م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
ابن عبد البر، يوسف بن عبد البر القرطبي (ت 463 هـ/ 1070 م)، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، دار الكتب العلمية، بيروت.

(3560/1)

عبد الجبار المعتزلي، القاضي عماد الدين أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد (ت 415 هـ/ 1025 م)، فضل الاعتزال

وطبقات المعتزلة، تحقيق فؤاد سيد، ط 2، الدار التونسية، تونس، 1986 م.

ابن عساكر، علي بن الحسن (ت 571 هـ/ 1175 م)، تاريخ دمشق، دار الفكر، دمشق، 1996 م.

ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ/ 889 م)، تأويل مختلف الحديث، تحقيق محمد النجار، دار الجيل، بيروت، 1973 م.

..، المعارف، تحقيق الصاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1970 م.

(3561/1)

المازندراني، محمد بن علي شيخ الإمامية (ت 583 هـ/ 1187 م)، متشابه القرآن ومختلفه، انتشارات بيدار، طهران، 1949 م.

المسعودي، علي بن الحسين (ت 346 هـ/ 957 م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط 4، القاهرة، 1964 م.

النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ط 7، دار المعارف، القاهرة، 1978 م.

...

...

... ...

(3562/1)

الجراحة التقويمية لإصابات الحرب عند الأطباء العرب والمسلمين

الدكتورة زهراء محمد سيد محمد الأدريسي

الزرقاء – الأردن

مقدمة:

إن التراث الذي خلفه الأقدمون ، والنظريات التي اكتشفها الأوائل هي التي أوصلت الإنسان إلى ما وصل إليه ، وإن أية جهود تبذل ي ميادين المعرفة تمهد لظهور جهود جديدة. ولولا ذلك ، لما تقدم الإنسان ولما تقدمت المدنيات . وذلك لأن الفكر البشري كائن ينمو ويتقدم. فأجزاء منه تقوم بأدوار معينة في أوقات خاصة تمهد لقيام أدوار معينة أخرى. فاليونانيون قاموا بدورهم في الفلسفة و العلوم. أما

(3563/1)

الدور الذي قام به العرب ، فهو الذي مهد الأذهان والعقول للأدوار التي قام بها البشر (كلهم) فيما بعد.

وهكذا وجدت عين التاريخ كل مجموعة تأخذ عن غيرها ممن تقدمها وتزيد عليه لتقدمه للأجيال اللاحقة . ولولا الجهود الإسلامية – العربية العلمية، لبدأت الأجيال الحالية من حيث بدأ العرب والمسلون أول مرة. وفي هذا ضياع للزمن والعلم دون أدنى شك. لقد قام العرب بدورهم في تقدم الفكر الإنساني وتطوره خير قيام وخطوا في العلوم خطوات كان لها أبعد الأثر في تقدمها. .. لقد استهدفت أمتنا الإسلامية والعربية على مر العصور

(3564/1)

التاريخية وحتى هذه اللحظة بمحاولات شتى للنيل منها علميا وحضاريا، وذلك بطمس معالم حضارتها

وتراثهم الخالد، بالإضافة إلى توهين قدرة العقلية

الإسلامية – العربية على الإبداع والتطوير، الأمر الذي برحل الكثير من الأمم تتداعى عليها في محاولة لتحطيم وتشويه ومعالمها وآفاقها. لذا كان لزاما علينا أن نقف مع الواقفين من العلماء والمؤرخين العرب والمسلمين لندافع عن وجودنا الحضاري ، ولنرد على كل الذين في قلوبهم مرض من أولئك الذين لا يرجون ظهور الإسلام والمسلمين (وفي الميادين كافة) القادم إن شاء الله تعالى،

(3565/1)

ولنسجل في هذه الدراسة المتواضعة وما سيليها – إن شاء الله – للحلقات العلمية الريادية التي توصل إليها العرب والمسلمون والتي ساعدت على إذكاء الحركة. العلمية واستشراف الآفاق العديدة والمتنوعة فيها (من غير ادعاء أو إسراف ولا خروج عن القصد)، مؤكدين على إبراز ما ميز أعمالهم ، وهي صياغاتهم العلمية والمنهجية للعلوم البحتة على أسس تجريبية صحيحة ترفض الخرافة، وتعتمد البحث الجاد والبرهان ، بعد أن أنارت لهم آيات كتاب الله العزيز وسنة نبيه الكريم المصطفى صلى الله عليه وسلم، السبيل الحق والواضح في التعامل مع

(3566/1)

الكون وطبيعة والإنسان وكشف لهم عن المنهج المنطقي الذي دعاهم إلى أن يتحركوا من خلاله لفحص كل ما يحيط بهم من ظواهر وآيات ، والكشف عنها والإفادة منها في إدراك عميق لنظم الكون ، في سبيل الوصول إلى خالقه المبدع الذي صنع كل هذا وضبطه : قال تعالى : الله الذي جعل لكم الأرض قرارا .والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات . ذلك الله ربكم فتبارك الله رب العالمين)). 1)

وقال تعالى : صنع الله الذي أتقن كل شيء.إنه خبير بما تفعلون (2).

(3567/1)

هذا، ولقد أصبح القول بالسببية حقلاً من حقول العلم التي اهتم بها العرب والمسلمون ، تلك التي تنظر إلى الآفاق العلمية التي وضع القران علاماتها الأولى أكدها في أكثر من موضع ، وهى المتمثلة باعتماد أسلوب البرهان والحجة (الدليل) والجدل العلمي، للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقرار والموازنة والقياس

والكشف والتحليل . لذا كانت التجربة في البحث العلمي عند العرب

(1) سورة غافر، الآية 64.

(2) سورة النحل ، الآية 88 .

(3568/1)

استجابة علمية لمتطلبات أولية في بنيتهم العلمية التحليلية، التي صاغها القرآن وبينتها السنة وأكدا عليها تأكيدا محكما. . . (3).

في دراستنا هذه سنعكف – بشيء من الإيجاز – على بيان دور الأطباء العرب والمسلمين في فن الجراحة التقويمية للإصابات التي كانت تحدث أثناء المعارك والحروب ، لنرى دقيق وصفهم للكثير من العمليات الجراحية والتي لا يجد المرء بينها وبين ما يجري الآن في صالات العمليات الجراحية كبير فارق أو اختلاف ، اللهم إلا ما حدث من جراء الإضافة والتطور (أو التعديل) والذي هو أمر يحتمه تطور حضارة

(3569/1)

الإنسان وما تشهده مدنيته اليوم.

الطب : وقفة للتعريف

عرف ابن خلدون صناعة الطب بأنها "تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح ، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية و"الأغذية بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الأمراض التي تنشأ عنها وما لكل مرض من الأدوية، مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها، وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنصحه وقبوله الدواء أولا في الأنسجة والعضلات والنبض محاذين لذلك قوة الطبيعة فإنما المدبرة في حالتي الصحة والمرض ، وإنما الطبيب يحاذيها ويعينها

(3570/1)

بعض الشيء بحسب ما تقتضيه طبعة المادة والفضل والسن . ويسمى العلم الجامع لهذا كله عالم الطب (4).

هذا، وقد اختلف في أول من استخرج هذا العلم . فلقد أورد ابن النديم أنه "قد اختلف في أول من استنبط الطب وفي أول الأطباء، فقال إسحاق بن حنين في

(3) د.سالم آل عبد الرحمن ، المدونة الكبرى لتاريخ العلوم عند العرب والمسلمين مخطوطة، ج 3 ، ص 421.

(4) ابن خلدون ، المقدمة، ص 493.وهنا نقد مع ابن خلدون في قوله بأن قوة الطبيعة هي: المدبرة في حالتي الصحة والمرض ، لنتساءل : وما هي الطبيعة حتى يكود لها قوة التدبير

(3571/1)

(والفعل)، وحتى يحاذيها الطبيب وبعينها بعض اشيء ؟ أليس المدبر لكل شيء (الطببيعة وغيرها) هو الله العزيز الحكيم ، وهو سبحانه المتحكم بحال العليل ، وما الطب والطبيب إلا أسباب سخرها الله وتعالى بقدرته لتحقيق ما أراده وقدره على الإنسان .

تاريخية : قال قوم: إن أهل مصر استخرجوا الطب والسبب في ذلك أن امرأة كانت بمصر وكانت شديدة الحزن والهم مبتلاة بالغنط والدرد، ومع ذلك كانت ضعيفة

المعدة وصدرها مملوء أخلاطا رديئة، وكان حيضها محتبسا، فاتفق أن أكلت الراسن شهوة منها له ، فذهب عنها جميع ما كان بها استعملت

(3572/1)

إلى صحتها، وجميع من كان به شيء مما كان بها استعمله فبرئ منه . واستعمل الناس التجربة على سائر الأوجاع. وقال آخرون : إن هرمس استخرج سائر الصنائع ، والفلسفة والطب هو مما استخرجه . وبعض يقول : إن أهل قوم – ويقال قولوس – استخرجوها ويصححون ذلك من الأدوية التي ألفتها القابلة للمرأة الملك الذي كان بها، وبعض يقول : المستخرج لها السحرة، وقيل أهل بابل ، وقيل أهل فارس ، وقيل الهند، وقيل اليمن ، وقيل الصقالبة،(5).

علم الجراحة عند العرب :

(3573/1)

لم يتقدم عالم الجراحة عند العرب تقدما ملحوظا، بسبب بطء تقدم علم التشريح . لذا بقى علم الجراحة فترة من الزمن من اختصاص الحلاقين والحجامين ، فقد كانوا يقومون بال عمليات الجراحية البسيطة كالكي والفصد والبتر تحت إشراف وإرشاد الأطباء الذين كانوا يأخذون معلوماتهم الجراحية من كتب أبقراط وجالينوس وبولص الإيجانطس وغيرهم (6)

ولم يبتدئ العرب بالاشتغال بالجراحة والاهتمام بها ح حلم مستقل إلا في عصر متأخرا وكان أبو بكر الرازي (7) أول المهتمين به ! إلا أنه لم يقم بإجراء العمليات

(3574/1)

---

(5) انظر ابن النديم ، الفهرس ، ص 412. إلا أنه مهما تعدد الآراء في أولية نشأة الطب والتطبيب ، فإنه نشأ مع الألم ، ونشأ الألم مع بدء الخليقة.

(6) د. سالم آل عبد الرحمن ، المدونة الكبرى لتاريخ العلوم عند العرب والمسلمين ، مخطوطة، ج 1، ص 41.

(7) ولد ونشأ في الري وسافر إلى بغداد، وبقى فيها ردحا من الزمن وكان ميالا إلى العلوم ألعقلية والأدب مند صغره ، إلا أنه تعلم الطب وقد كبر (انظر ابن أصيبعة،

طبقات الأطباء ، ص 414). لقد بلغ ما ألفه في الطب حوالي ستة وخمسين كتابا منها . كتاب الحاوي والذي قال بحقه

(3575/1)

إدواره براون بأنه اكبر كتاب عربي ي الطب بل وأهمها (انظر إدوارد براون ، الطب العربي، ص 108)، وكتاب المنصوري ،

الجراحية بنفسه ، بل كان يذكرها فقط ، وكان غيره يقوم بها. ثم جاء أبو العباس المجوسي، فشرح عملية الشق العجاني على الحصاة(8) وقدم وصفا لعلاج الأينوريزم (oneurysm)، أي تمدد الأوعية الدموية . وجاء بـ حده ابن سينا، فشرح الكثير من العمليات الجراحية! إلا أنه لم يقم بتنفيذها أيضا(9). وفي أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ، ازدهر العصر الأندلسي بأبي بكر محمد بن مروان بن زهر (ت سنة 432 هـ / 1037 م)

(3576/1)

إلا أن أبا القاسم خلف بن عباس الزهراوي تصدر جميع هؤلاء الأطباء وأصبح رائدا في علم الجراحة حيث فرق بين الجراحة وغيرها من المواضيع الطبية رب حل أساسها يستند على درس التشريح (10).

ورسالته المشهورة في الجدري والحصبة، وكتاب الحمى في الكلى والمثانة الذي قام د.كونـنـج (koning p.de) بنشر نصه العربي مع ترجمة فرنسية في لندن شنة 1869 ، وكتاب دفع مضار الأغذية، وكتاب إلى من لا يحفره طبيب ، وكتاب برء ساعة، وكتاب المرشد، وكتاب الفاخر في الطب ، وكتاب الطب الملوكي.

(3577/1)

---

(8) أحمد عيسى، آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب ، ص 4. والمجوسي هو صاحب الكتاب المسمى بالملكي ، والمعروف بكامل الصناعة الذي لزمه الناس إلى أن ظهر كتاب "القانون ،لابن سينا، حيث أن "الملكي" في العمل أبلغ و"القانون " في العلم أثبت انظر : محمود دياب ، الطب والأطباء في مختلف العصور الإسلامية، ص 239 . طبع هدا الكتاب في القاهرة في مجلدين عام (1294هـ/1877م) وترجم إلى اللاتينية مرتين عام 1492م بفينيسيا

وعام 1523م بمدية ليدن، كما يذكر كاريسون (carrison) أن قسطنطبن قام بترجمته لين عامي 1070و1080 م،

(3578/1)

المدونة الكبرى.

(9) ويطلق عليه الغرب avicenna . لقب بالشيخ وعرف بالرئيس ، وأطلق عليه لقب المعلم الثالث بعد أرسطو والفارابي. ومن أعظم أطباء الحضارة الإنسانية في القرود الوسطى. له الكثير من المؤلفات ي الطب وغيره ، أشهرها في الطب كنابه "القانون "، وهو أكبر موسوعة طبية وصلتنا من القرون الوسطى ويوجد محفوظا في باريس (برقم 2885–2891)، طبع في العربية في روما سنة 1593م ، وتوجد له عدة ب عات لاتينية (انظر : كارادوفو، ابن سينا، ترجمة عادل زعيتر، ص 151. وهو الذي كشف عن مرض الانكلست وما قبل أن تعرفه أوربا

(3579/1)

بنحو تسعمائة عام ، وبين أن مصدره دودة معوية سماها "الدودة المستديمة" وقد أقرت ذلك مؤسسة روكفلر الأمريكية، وسجلت أن ابن سينا عرف مصدر هذا المرض قبل أن يعرفه الطبيب الإيطالي الذي نسب إليه هذا المرض . وابن سينا هو أول من اكتشف ووصف عضلات العين الداخلية، وهو أول من حاول التفرقة لين البرقان الناشئ عن انحلال الكريات الدموية، وبين الذي ينشأ عن انسداد القنوات الصفراوية (انظر : حسين مؤنس ، "اعظم أعمال ابن سينا"، مجلة الثقافة، عدد خاص (691)، القاهرة، 23 مارس 1952.

(3580/1)

---

(15) انظر : أحمد عيسى، آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب ، ص .5–4. وخلف بن عباس الزهراوي (427هـ/1035م) كان طبيبا فاضلا، خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة، وله تصانيف في المطب ، وأفضلها كتابه الكبير المعروف ب "الزهراوي ". ومن مؤلفاته الأخرى كتاب "التمي للف لمن عجز عن التأليف " في 30 جزءاً، وهو أكبر تصانيفه وأشهرها (انظر : ابن أبي أصبعة، طبقات الأطباء،

مارس الأطباء إجراء عمليات متعددة في البطن والمجاري

البولية والمثانة وكسور العظام وخلعها، وعمليات الأنف والأذن والحنجرة، وكذلك جراحة الأوعية

(3581/1)

الدموية وغيرها من العمليات الجراحية الأخرى، كذلك أدخلوا تجديدات كثيرة على عالم الجراحة ومداواة الجروح ونجحوا في شق القصبة الهوائية، وإيقاف نزف الدم بربط الشرايين الكبيرة، وهو تحقيق علمي كبير ادعى تحقيقه لأول مرة الجراح الفرنسي أمبرواز باري (Ambroise Pare1552 م)، في حين أن الزهراوي قد حققه قبله بستمائة سنة، وعرفوا كيفية خياطة الجروح بشكل داخلي لا يظهر شيئا ظاهرا منها، والتدريب في جراحة البطن ، وكيفية الخياطة بإبرتين وخيط واحد مثبت بهما، واستعمال الخيوط المتخذة من أمعاء القطط في جراحات

(3582/1)

الأمعاء. وأوصى الزهراوي كل العمليات الجراحية في النصف السفلي من الإنسان بأن يرفع الحوض والأجل قبل

كل شيء. وهذه الطريقة اقتبسها الغرب منه واستعملوها كثيرا حتى قرننا هذا، إلا أنها عرفت (وهذا مما يؤسف له كثيرا) باسم الجراح الألماني فريدريك ترند لنبورغ () (11F.T.Burg) .

ص501. ويذكر الدوميلي أنه "أشهر أطباء الأندلس ي ذلك العصر"، بل من أعظم أطباء المسلمين أيضا. وربما كان الزهراوي . أعظم الجراحين العرب على وجه الخصوص (أنظر . الدوميلي، العلم عند العرب ، ص 353). وكتابه "التصريف " عبارة عن دائرة معارف

(3583/1)

طبية كبيرة –نفس المصدر السابق– ، ص353–354 .
استمر هذا الكتاب مدة خمسة قرون العمدة في الأمور الجراحية في أوربا، وترجم مرات عديدة، وترجم إلى اللغة العبرية، كما ترجم إلى اللاتينية بفينيسيا سنة 1497م، وستراسبورغ سنة 1532م ، وبال سنة 1541 م ، ووطبع عدة طبعات لاتينية أخرى في القرنين الخامس عشر والحادي عشر. والزهراوي أول من فرق بين الجراحة وغيرها من المواضيع الطبية الأخرى، وبرحلها تستند على دراسة التشريح واعتبرها فرعا من فروث الطب (انظر :

مرحبا، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب ، ص 99) حيث كان الزهراوي

(3584/1)

مؤيدا للتخصص بمجالات المهن الطبية (انظر : سامي الحمارنة، فهرسة المخطوطات دار الكتب الظاهرية، ص 147). وهو الذي أشار باستخدام مساعدات وممرضات من النساء، وذلك عند إجراء العمليات الجراحية للنساء لغرض الطمأنينة والراحة النفسية انظر : أنور الرفاعي، تاريخ العلوم في الإسلام ، ص .110)، وكان ينقع آلاته في الصفراء لتطهيرها قبل إجراء العملبات الجراحية. وقد ثبت أن هذه المادة توقف تكاثر البكتريا (انظر : إسماعيل محمد، محاضرات في نصيب العرب في تقدم العلم والحضارة، ص .39). وبهذا أستحق أن يطلق عليه لقب "أبو

(3585/1)

الجراحة" (انظر : سامي الحمارنة، فهرست مخطوطات دار الكتب الظاهرية، ص 99). فقد كان أعظم جراحي العرب

في العصور الوسطى ومدرسة عصر النهضة في أوربا، وكان خصب الإنتاج ، مجددا في صناعته ومبتكرا (انظر : محمود دياب ، الطب والأباء، ص 246).

(11) زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع عل الغرب ، ص 278.

كما استعمل الطباء العرب أنواعا مختلفة من وسائل التخدير، فاستعملوا الخدر كالأفيون والحشيش والسكران وغيرها. وكذلك استعملوا في التخدير الثلج والماء البارد(12). أما أهم أنواع التخدير عندهم فكانت استعمال الاستنشاق بواسطة ما

(3586/1)

يسمى "الإسفنج المنوم " الذي كان يغمر بمادة عطرية ومنومة ويحفظ ويبلل قبل استعماله للتخدير ثم يوضع فوق الفم والأنف (13). وإن فن استعمال "الإسفنجة المخدرة، هو أصلا فن عربي لم يعرف من قبلهم (14).

في الفقرات التالية، سنسلط الضوء على أهم العمليات التي وصفها أو قام بها الأطباء العرب والمسلمون لمعالجة الإصابات التي كانت تحدث في المعارك والحروب .

أولا – تصحيح الالتحام الخاطئ (Malanion) والتعقيد في الكسور:

(3587/1)

من خلال متابعتنا لكتب ومؤلفات الأطباء العرب في هذا المجال ، وجدنا أن الطبيب العربي ابن سينا كان قد ف حرض لتصحيح "الالتحام الخاطئ والتعقيد في الكسور" في كتابه "القانون "، وذلك بشكل موجز ودقيق كما وجدناه يؤكد على ضرورة إجراء العملية الجراحية إذا تعذر إصلاح الإلتمام الخاطئ فيقول . "ربما كان الكسر قد جبر لا على واجبه فيحتاج أن يعاد كسره فيجب أن يكون المجبر يتعرف حال الدشبذ.. . (Callus)، وإن كان عظما قويا لم يتعرض لكسره ثانية فربما لم يمكن أن يكسر من موضع الكسر الأول . .. فيكسر غيره من الموضع فإن لم

(3588/1)

يجد بدأ فيجب أن يتقدم فيلين متى يسترخي الدشبذ ". وبعد أن يذكر الأدوية التي تلين ، يقول : "ثم يكسر

ويجب أن يداوم مع ذلك التنطيل بالماء الحار.. . فإن لم ينفع ذلك وكانت التجربة والتحريك يدلك على وثاقة شديدة فيجب أن يشرح اللحم بحيث يتمكن من حك الدشبذ من جانب وادهانه به ثم يكسر ويجبر،(15).

(12) د. زهراء محمد سعيد محمد، مبادئ علم التخدير، كتاب قيد الطبع، ص8

(13) المصدر السابق ، ص 9.

(14) هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ص 280.

(15) الزهراوي ، التصريف لمن عجز عن التأليف ، ص 796.

(3589/1)

أما الزهراوي ، فنراه يدلي برأيه في علاج العظام المسكورة إذا انجبرت معوجة بقوله : "فمتى عرض لعضو قد جبر بعد برئه اعوجاج أو نتوء للعظم المكسور أو فـ حقد وقبحت لذلك صورة العضو إلا أن العضو لم يمتنع عن فعله الطبيعي ، فليس ينبغي أن تقبل قول من يزعم أن يكسر العضو من رأس ... هذا الفعل مذموم يؤدي إلى ضرر عن أيسره العطب . .."، إلى أن يقول : "فإن كان الاعوجاج قد قدم واشتد وتحجر ودعت الضرورة إلى علاجه بالحديد، فينبغي أن تشق أعلاه ولطلق اتصال العظم ولقطع ما فضل من التعقد أو العظم بمقاطع لطاف وتستعمل الرفق

(3590/1)

في ذلك بجهد وعناية، ثم تعالج الجرح بما تقدم حتى يبرأ"(16).

ويذهب الزهراوي نفس المذهب في علاج التعقد الذي يظهر في أثر بعض الكسور فيقول : "كثير" ما يعرض هذا التعقد في أثر برء الكسر، ولا سيما ما قرب من المفاصل فيقبح منه شكل العضو وربما منع العضو عن فعله الطبيعي ، نظرت فإن كان التعقد طريا، فاستعمل فيه الأدوية . . . ". "فإن كان التعقد قد تحجر واشتد وحفزت الضرورة إلى نزعه ، فشق عليه من أعلاه واقطع الفضلة الثابتة أو اجردها بعض المجارد حتى يذهب وعالج الجرح حتى يبرأ"(17).

(3591/1)

هذا، ولقد وجدنا أن آراء ابن القف في كتابه "العمدة" حول علاج العظام المكسورة إذا انجبرت وهي مقبوحة، لا تختلف كثيرا عن آراء الزهراوي . فهو يحذر أولا من إعادة كسر العظم في العضو الذي لم يتأثر فعله الخاص . أما إذا

كان الانجبار الخاطئ قد أعاق العضو من القيام بعمله ، فيقول إن في ذلك للأطباء ثلاث طرائق:

– "أحدهما أن يكسو العضو ثم يرد إلى موضعه الطبيعي، وهذه طريقة رديئة، فإن فيها هلاك العليل وأيضا ربما الكسر الثاني على غير الأول).

(3592/1)

– "ثانيهما أن يشق على الموضع ويقطع الدشبذ برفق بحيث أن يتفرق اتصال العضو 3 كان ثم يرد على الواجب . وهذا أيضا وجه رديء ، لأن فيه تعذيب العليل وإسلامه إلى الهلاك ".

(16) المصدر نفسه ، ص 792.

(17) المصدر نفسه .

–وثالثها أن توضع على الموضع المروخات القويات ليرتخي الدشبذ ثم المحللات ، فينحل بذلك ثم التمريخ باليد. . . وليكن استعمال كل واحد من هذه أياما حتى يظهر تأثيرها. . . فإنه متى استمر على استعمال ذلك فني الدشبذ الرابط للعضو. فإذا حصل ، هز الجرائحي العضو يمنة أو يسرة وقدام ثم بعد ذلك يفرق اتصاله

(3593/1)

ثم يرده إلى موضعه الطبيعي حمل بعد ذلك ما يجبره من الجبار والرفائد والجبائر "(18) .

وهكذا نرى أن ابن القف يؤكد مخالفته لمذاهب وآراء الأطباء الذين سبقوه في التحذير من المداخلات الجراحية عند محاولة تصحيح الاعوجاجات الحاصلة نتيجة الالتئام الخاطئ في الكسور.

ثانيا – بتر (Amputation) وصناعة أعضاء الإنسان :

لقد قام الطبيب العربي علي بن عباس المجوس بوصف كيفية بتر أعضاء الإنسان ، وذلك بشكل موجز.إلا أن الجراح العربي الكبير خلف بن عباس الزهراوي المتوفى سنة 427هـ /1035 م كان قد تحدث أولا عن الأسباب

(3594/1)

الموجبة لقطع الأطراف . وجاء كلامه وصفا رائعا لما يسمى في حقل الطب اليوم "الغانغرينا"

(Gangrene) حيث يقول الزهراوي : "قد تعفن الأطراف

إما من سبب من خارج أو من سبب من داخل. فإذا عالجت ذلك الفساد بعلاج الأدوية ولم ينجح العلاج ورأيت الفساد يسعى في العضو لا يردعه شيء، فينبغي قطع ذلك العضو إلى حيث بلغ الفساد لينجو العليل بذلك من الموت أو من بلاء عظيم هو أعظام من فقد العضو.

وعلامة من عرض له ذلك أن يسود العضو حتى تظن أن النار أحرقته أو يعفن بعد السواد حتى يسعى ذلك العفن إلى ما يلي ذلك العضو ويأخذ في

(3595/1)

جملة البدن ، فبادر بقطعه ! وكذلك إن كان مسبب الفساد عن لسع بعض الهوام كعقرب

(1) ابن قف أبو الفرج ، العمدة في صناعة الجراحة، ج 2 ، ص 160. الطبعة الأولى، دار المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، بدون تاريخ .

البحر أو الأفعى أو الرينلاء (نوع من العناكب السامة) ونحو ذلك ، فإن كان الفساد أو اللسعة في طرف الأصبع ، فاقطعه ولا تمهل الفساد أن يسعى إلى اليد. وكذلك إذا كان أخذ في اليد، فاقطعها من أصل الزند ولا تمهل

الفساد أن يسعى حتى يأخذ في زندي الذراع . وكذلك إن أخذ في الذراع ، فاقطع الذراع عند المرفق

(3596/1)

في المفصل نفسه . فإن جاز الفساد ورأيته أخذ إلى نحو المنكب ، فلا تقطع المنكب البتة فإن في ذلك موت العليل واستعمل غير ذلك من العلاج على قدر الطاقة.

وكذلك تفعل بالرجل إذا أخذ الفساد في الأصبع ، فاقطع الأصبع عند أحد السلاميات . وإن أخذ في مشط الرجل ، فاقطع الرجل بأسرها. فإن صعد إلى الركبة، فاقطع الساق عند مفصل الركبة. وإن كان الفساد قد بلغ فوق الركبة، فليس فيه حيلة إلا تركه وإسلام العليل إلى الموت "(19).

(3597/1)

ومن ثم ينتقل الزهراوي إلى وصف طريقة العمل التي يتم بها قطع العضو الذي أصابه الفساد وبشكل دقيق وذكى مؤكدا على ضرورة ربط أسفل وأعلى موضع القطاع

تحاشيا قطع الموضع السليم كما يشير إلى الإسراع في التحكم في النزيف إذا حدث كما يفعل الجراح اليوم ، حيث نجده يقول : "وصفة قطع العضو أو نشره أن تشد رباطا في أسفل الموضع الذي تريد قطعه ولشد رباطا آخر فوق الموضع ويمد خادم الرباط الواحد إلى الأسفل ويمد خادم الرباط الأعلى إلى فوق وتجرد أنت اللحم كله ثم يقطع أو ينشر، وينبغي أن تضع في جميع الجهات خرق الكتان لئلا

(3598/1)

يمس المنشار الموضع الصحيح في حرض للعليل ألم زائد وورم حار. فإن حدث نزف دم في خلال عملك فأكو الموضع بسرعة أو احمل عليه بعض الذرورات القاطعة للدم. عد ثم إلى علاجك حتى تفرغ . اربط العضو المجروح برباط يصلح له وعالجه حتى يبرأ"(20).

هذا، ولقد برع الزهراوي بالإضافة إلى وصفه كيفية إجراء عملية قطع العضو، في وصف الآلات التي يحتاجها الجراح . لذا نجده ينقلنا إلى تصويرها بأسلوب فذ وشيق حيث يقول : "و"عالم أن المقاطع والمناشر لقطع هذه العظام

(19) الزهراوي ، التصريف ، المصدر السابق ، ص579.

(3599/1)

---

(20) **المصدر نفسه ، ص** 581.

كثيرة حسب وضع العظام وغلظها ورقتها وكبرها وصغرها وصلابتها وتخلخلها. فلذلك ينبغي أن تعد لكل نوع من العمل آلة مشاكلة لذلك العمل ، واعلم أن الأعمال أنفسها قد تدلك على نوع الآلة التي تحتاج إليها إذا كانت معك دربة طويلة ومعرفة بفنون هذه الصناعية، لأن من مهر الصناعة وشاهد ضروبا من الأمراض فقد يستنبط لنفسه ما يشاكله من الآلات لكل مرض وأنا مصور لك في آخر هذا الكتاب عدة آلات في حلها أمثلة تحتذي عليها وقياسات تقيس بها على غيرها إن شاء الله ،)(21).

(3600/1)

لقد أثمرت العمليات التي وصفها العلماء والأطباء العرب والمسلمون والتي نهضت وازدهرت خلال تتابع دراساتهم وبحوثهم الطبية إلى الوصول إلى تركيب وصنع مجموعة من الأعضاء البشرية التي كان يتعرض المحارب لفقدها

خلال المعارك التي خاضعها العرب والمسلمون إبان الفتوحات الإسلامية الكبرى، مثل اليد و"الأصابع والرجل والأنف والأسنان . وعليه ، فإن الباحث في تراث الأمة الإسلامية الخالد سيجد العديد من الإشارات إلى مثل ذلك ، الأمر الذي يؤكد غزو الأطباء العرب والمسلمين إلى الكثير من الميادين والتي لولا بحوثهم وما حققوا

(3601/1)

عبرها من إنجازات لما حدث ذلك التطور في العلوم الطبية ي أوربا خلال القرون الوسطى وكما أشارت إلى ذلك بعض الأقلام التاريخية الغربية المنصفة.

ولقد كان من بين هذه الإنجازات ما ذكره ابن قتيبة الدينوري (ت 272هـ / 889م) في ترجمة خلف بن خليفة، أنه كان "أقطع اليد، وله أصابع من جلود، وكان شاعرا ظريفا"(22).

وعن الرجل المصطنعة ذكر عن الزمخشري الفقيه اللغوي الشهير (538هـ / 1144م) أنه أصيب في رجله ، فقطعت واتخذ رجلا من خشب .

(3602/1)

هذا، ولقد كان تعويض الأنف إذا انقطع في الحرب بأنف من فضة أو ذهب أمرا معروفا، حيث قيل إن أول من صنع له أنفا من معدن كان عرفجة بن

(21) المصدر نفسه ، ص . 567.

(22) ابن قتيبة الدينوري ، الشعر والشعراء، تحقيق مصطفى السقاط، ص 273.

(23) جاء ذلك في بعض دواوين السنن كمسند الإمام أحمد، وسنن الترمذي .

سعد، بعدما أصيب أنفه في وقعة يوم الكلاب. وقد صنع له أنف من ورق (أي من فضة) فصدئ وتعفن أنفه ، فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتخذ أنفا من ذهب لأن الذهب لا يصدأ(23).

(3603/1)

ولقد تعرض الزهراوي لمشكلة الأسنان المفقودة سواء التي تسقط لوحدها أو نتيجة لإصابات الحرب ، فنراه يتكلم عن تعويضها صناعيا فيقول : "وقد ترد الضرس الواحد أو الاثنين بعد سقوطها من موضعهما وتشبك

كما وصفنا وتبقى، ويستمتع بذلك "(24).

ثالثا – جراحة الإصابات :

لقد أبدع الأطباء العرب في ميدان جراحة الإصابات التي تحدث للمحاربين في ميدان العركة وكان لمدرستهم في هذا المضمار أعمق الأثر في استكمال العمل الإبداعي الطبي الإنساني . ولعملنا في الفقرات التالية سنحاول إلقاء الضوء على بعض صفحاتهم العلمية المشرقة

(3604/1)

الوضاءة في ميدان جراحه الإصابات الحادثة في الأنف والشفة والأذن ، والإصابات الحادثة في العمين ، والفتق السروي ، والتحام الأصابع ، والربط تحت اللسان ، وإصلاح الورم الحادث في الأوعية الدموية .

أ – إصابات الأنف والشفة والأذن :

يعد الرازي من أوائل الذين أشاروا إلى الجراحة التجميلية كفرع من فروع الجراحة حينما تكلم عن كيفية ف هديل شقاق الشفة الذي يحدث نتيجة التئام جروح الشفة التي لا يتيسر خياطتها في ساحة المعركة.

فيقول :

"قشر الوسط واكشط الجلد من الجانبين واقطع اللحم الذي في الوسط الذي عنه كشطحنا ما قد صلب منه وارم به ، ثم خط الجلد من غير أن يكون قد تقلص منه لشيء ويلحمه فيكون العضو يرجع إلى طوله لذهاب ذلك المقلص من وسط الجلد"(4ء).

(24) الزهراوي ، التصريف ، المصدر السابق ، ص 297.

(25) الرازي ، الحاوي في الطب ، الطبعة الثانية، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، 1979 ، الجزء 6.

كما نرى أن الزهراوي يعقد في الفصل السادس والعشرين من كتابه "التصريف، بحثا لدراسة جراحة الإصابات بشكل عام ، فيقول . "اعالم أنه متى

حدث تفرق اتصال في أحد هذه الغضاريف فقلما ينجع في لا العمل إلا في بعض الناس . فينبغي متى عرض لأحد شيء من ذلك ، فانظر إن كان الجرح طريا بدمه أن تجمع شفتي

الجرح بالخياطة ثم فعالجه حتى يبرأ، وإن كان تفرق الاتصال قد اخترق شفتيه وصار كل شق صحيحا فينبغي أن تسلخ كل شق بثخن جلده الظاهر حتى يدمى ثم تجمع الشفتين بالخياطة وتشدها..."(،و).

وعن انسداد فتحة الأذن الخارجية نجد أن كلا من علي بن عباس المجوسي والزهراوي وابن القف (وغيرهم) كانوا قد تكلموا في ذلك. إلا أن كلام الزهراوي جاء أكثر إيجازا وأوضح أسلوبا

(3607/1)

ومتسما بالدقة العلمية ومن ذلك قوله : "وقد يعرض لبعض الناس سد في مجرى الأذن عن جرح أو لحم نابت فيها. وهذا السد يكون في عنق ثقب الأذن لا يدركه البصر، وقد يعرض خارج الثقب قليلا ويدركه البصر. فالذي يعرض في عمق الأذن ولا يدركه البصر يكون في أكثر الأحوال عسر البرؤ، والذي يدركه البصر يكون ، فينبغي أن تضع أذن العليل في الشمس وتنظر فيها. فإن رأيت السد ظاهرا فافتحه بمبضع لطيف .. ". وبعد وصف شكل المبضع ورسم شكله ، نراه يقول . "فإن كان السد في عمق الأذن ، فخذ ميلا لطيفا أملس فدفئه في النار قليلا ثم دسه في

(3608/1)

مجرى الأذن فإن أحسست بالسد مع ما يجده العليل من ثقل السمع فرم بطه وتحفظ من أن تجرح عصبة الأذن ثم صير في الأذن فتيلة على قدر سعة الثقب قد لنتها في المرهم المصري ، تف حل ذلك أياما حتى تأمن من التحام الجرح. . . "(27)

ب – إصابات العين :

في ميدان إصابات العين التي يمكن أن يتعرض لها المقاتل أثناء المعركة، خاصة أثناء عمليات الاشتباك القريب ، نجد أن الطبيب المسلم على بن عباس المجوسي يفتتح

(26) الزهراوي ، التصريف ، المصدر السابق ، ص 269.

(27) المصدر نفسه ، ص .203–205.

(3609/1)

بابا خاصا في بحوثه لعلاج الشترة للعين الأرينية، أي العلاج الجراحي لقصر الجفن أو ما يسمى الشترة

(ecttopion) فيقول : "فإن كان ذلك على قرحة أو خياطة الجفن بأكثر مما ينبغي ، فعلاجه بشق الجفن في الموضع الملتحم . واتركه حتى ينسبل ويوضع فيما بين الشق فتل فيها مرهم ينبت اللحم حتى لا تتلاقى شفتا القطع وينبت اللحم فيما بينها. فإن عرضت الشترة بسبب انقلاب الجفن الأسفل إلى الخارج . وهذا يكون أيضا من خياطة الجفن أو كيه على غير حذف فينقلب الجفن أو عن قرحه ... فينبغي أن تأخذ إبرة فيها خيط مفتول وتدخلها في لحم

(3610/1)

الجفن المنقلب من المآق الأصغر إلى المآق الأكبر إن كانت العين العليلة هي اليسرى، فإن كانت اليمنى فتدخل الإبرة في اللحم من المآق الأصغر وتمتد الإبرة حتى يصير الخيط في طرف اللحم ا ثم تمد الخيط بطرفيه إلى فوق وتقطعه بمبضع وتنزع ذالك اللحم ، فإن رجع شكل الجفن إلى حاله ومال ذذ

إلى الداخل فقد اكتفيت بهذا العلاج وإن انقلب بعد انتزاعها اللحم فينبغي أن تصير عرض المرود تحت الجفن الذي قطعت منه اللحم وتشق في الجانب الداخل من

الجفن شقين ويكون أطراف الشفتين من زاويتي القطع الذي قطعنا حتى تلتقي فيكون منها

(3611/1)

زاوية حادة حتى إذا اجتمعت يصير شكلها شبيها بشكل اللام في كتاب اليونانيين (28)، ثم تنزع ذلك اللحم بقدر ما يكون الجانب الحاد أسفل مما يلي العين ويكون الجانب المريض فوق مما يلي الجفن ثم تجمع الأجزاء المتفرقة بخياطتين تخيطها بخيط صوف ويلتقي لذلك فإن كانت السترة عرضت من خياطة أو من كي ، فينبغي أن تشق شقا بسيطا تحت شق الأجفان على غير ما يتبع الاندماج الأول بعينه ثم تفرق بين الشفتين بفتل،(29).

هذا ولقد أشار الزهراوي في الفصل الرابع عشر من كتابه "التصريف " إلى الموضوع ذاته . ولكون إشارته مطابقة لما

(3612/1)

وصف علي بن عباس المجوس ، فإننا سنتجنب ذكرها. و نكتفي بذكر هذه الفقرة حيث يقول : "وجملة القول في علاج الشترة إذا كانت من فوق أو من أسفل أن تجري فيها العمل على حسب ما يتهيأ لك من هيئة الشترة ج فإنها قد تكون كثيرة الاختلاف في الصورة، والصانع الدرب يدبر

(28) رسم الزهراوي في كتابه التصريف الام اليونانية بهذا الشكل (8).

(29) المجوسي، كامل الصناعة في الطب ، المطبعة الكبرى بالديار المصرية 1294هـ، ج2، ص 473.

(3613/1)

الحيلة بأي وجه أمكنه حتى يرد الشكل على هيئته الطبيعية أو بقاربها. ونفس المرض يدلك على ما يصلح له من العمل والآفة في اكثر الأحوال ....،(30).

ج – الفتق السروي :

لقد اهتم الأطباء العرب والمسلمون في جراحة الفتق السروي ، فقد شرح كل من الرازي والزهراوي والمجوسي هذه الجراحة بشكل دقيق . وكان الرازي أسبقهم في

إدراك خطورتها ومضاعفتها وخاصة ما جاء فيها من عدم رد الثرب (omentum) كله ، بل نجده ينصح بقطع الزائد منه بعد ربط ما فيه من الشرايين والعروق إذا وجدت ، مؤكدا على مراعاة الشكل الجمالي في إجراء

(3614/1)

العملية، حيث نجده يقول : "قد يعرض في السرة نتوء وغلظ لفتق وغيره . والعلاج ما كان من فتق شريان أو عرق عظم أو من ريح فلا تعالجهم . وأما سائرهم ، فأقم العليل ومره أن يمد قامته ويمسك نفسه ويقف ممتددا، ثم ارسم حول ورم السرة كله دائرة بمراد، ثم مره أن يستلقي وخد بالعادين حول ورم السرة كله حيث يهت ، ثم مد وسط الورم إلى فوق بصنارة، ثم أدخل فيه إبرة بخيط ثم اجعل في وسط الورم بأنشوطه لتتمكن به من المد ثم اربطه وسط الورم وأدخل السبابة، وانظر هل صار الخيط تحت الثرب ، أو تحت المعي ، فإن كان قد صار تحت

(3615/1)

المعي، أرخيت الخيط ودفعت المعي إلى الأسفل ، ومتى كان ثربا، مده واقطع فضلته بد شد رؤوس ما فيه من الشرايين والعروق إن كانت هناك

تحر في إدخال الإبرة أن تمر في المراق فقط لئلا تحتاج إلى ما ذكرناه وذلك يكون بلا تعمق ، ثم خذ أبرتين بقدر عظم الورم بخيط ممدودة فيها مستوية الرأسين فأدخلها في الورم من الطرف إلى الطرف ، على شكل الصليب ثم اقطع الخيط حتى يصير لها أربعة رؤوس ثم أحزمه في كل موضع حتى يسقط اللحم ويموت . ثم خذ في الإدمال واحرص أبدا أن تكون تدملة وهو متقعر غير ممتلئ فإنه أجود ليشبه شكل

(3616/1)

السرة"(31).

(30) الزهراوي ، التصريف ، المصدر السابق ، ص 227–229.

(31) الرازي ، الحاوي ، ج 10 ، ص 234–235.

د – التحام الأصابع :

أما عن الالتحام الذي يحدث بين الأصابع نتيجة اندمال الجراح ، فيقول الزهراوي في وصفه : "وأما الالتحام الذي بـ حرض للأصابع بـ حضها بـ حض ، فكثيرا ما بـ حرض ذلك ويكون مما يولد به الإنسان ويكون عند اندمال جرح أو حرق نار ونمو ذلك فينبغي أن تشق ذلك الالتحام حتى ترجع الأصابع على هيئتها الطبيعية ثم تضع بينهما فتلا أو خرقا ممثربة في دهن الورد لئلا يلتحم سريعا وتفرق بينهما أو في

(3617/1)

حل بينهما صحيفة رصاص رقيقة حتى يندمل الموضع على ما ينبغي ، وكذلك إن عرض الالتحام لبعض الأصابع بالكف فشق ذلك الالتحام على حسب ما يتهيأ ويصلح به شكل العضو"(32).

هـ – الرباط تحت اللسان :

وهو الرباط الذي قد يولد الطفل وهو به فيعيقه عن الكلام أو يكون نتيجة جرح اندمل ولم يعالج في حينه بشكل صحيح . عن ذلك وعن طريقة إجراء العملية

يحدثنا الزهراوي قائلا : "قد يكون هذا الرباط الذي يعرض تحت اللسان ، إما طب حيا يولد الإنسان به ، وإما أن يكون من جرح قد اندمل . والعمل فيه أن تفتح فم العليل ورأسه في حجرك

(3618/1)

ولرفع لسانك ثم تقطع ذلك الرباط بالعرض حتى ينطلق من إمساكه .. . واحذر أن يكون في عمق اللحم فيقطع شريانا هناك في حرض النزف ثم ضع تحت اللسان فتيلة من كتان يمسكها العليل كل ليلة لئلا تلتحم ثانية . فإن حدث ، فضع على المكان زاجا مسحوقا. فإن غلبك الدم ، فأكو الموضع (33).

إصلاح الورم الحادث في الأوعية الدموية :

إن إصلاح الورم الحادث في الأوعية الدموية والمسمى الانيورزم (Aneurysm) أو التمدد الوعائي لم يفت الأطباء العرب والمسلمين . فلقد أدرك الزهراوي تمام الإدراك أن الإصابة هي من أسباب "الأنيورزم" وأن

(3619/1)

من علاماته الصرير، حيث

(32) الزهراوي ، التصريف ، المصدر السابق ، ص 299.

(33) المصدر نفسه ، ص 371.

نجده يقول : "إذا جرح الشريان والتحم الجلد الذي فوقه ، فكثير ما يعرض من ذلك روم ، وكذلك يعرض أيضا للوريد أن ب حرض فيه نفخ وورم ، والعلامات التي يعرف بها إن كان الورم والنفخ من قبل شريان أو من قبل وريد. فالورم إذا كان من قبل السريان ، يكون مستطيلا مجتمعا ما في عمق الجسد ، وإذا دفعت الورم بأصبعك به كأن له صريرا (Thrill). والذي يكون من قبل الوريد يكون الورم مستديرا في ظاهر الجسد، والشق على هذه الأورام

(3620/1)

خطرا، ولا سيما ما كان في الإبط والأربية والعنق وفي مواضع كثيرة من الجسد وكانت عظيمة جدا فينبغي أن تجتنب علاجها بالحديد وما كان منها أيضا في الأطراف أو في الرأس فينبغي أن تجتنب)،(34).

ثم يتحدث الزهراوي عن كيفية إجراء عملية ربط

"الأنيورزم ". إلا أن عليا بن عباس المجوسي كان أسبق منه ي ذكر ذلك لذا سوف نذكر فيما يلي قوله في ذلك، حيث يقول : "ينبغي أن تشق الجلد شقا بالطول وتخرج ما ي الموضع من دم وتكشف عن الشريان وتعريه من الأجسام التي حوله وتعلق الشريان بصنارة . ثم إنك تأخذ إبرة قد نظم فيها خيط من

(3621/1)

أبريسم وتدخله تحت أحد طرفي الشريان وتعقده ولقطع الخيط، وتفعل مثل ذلك من الجانب الآخر وتنشف الموضع من
الدم ... فإن كان حدوث هذا الورم عن شق الشريان .
فينبغي أن تمسك بأصابعك كل ما أمكنك من الورم مع الجلد، ثم إنك تأخذ إبرة وخيط ابريسم جيد الفتل وتدخله تحت الورم من أحد جانبي الموضع الذي أمسكته ولربطه ربطا جيدا ثم تشق الورم في وسطه وتخرج جميع ما فيه بن الدم ثم تعصر الجلد من جميع جوانبه إلى حد الموضع المشدود ثم تضع عليه رفادة غمست بشراب وزيت والمراهم المنبتة للحم "(35).

(3622/1)

ومن هنا يتضح لنا أن عليا بن العباس المجوس ومن بعده الزهراوي في ذكرها كيفية إجراء هذه العملية كانا قد سبقا جون هنتر (1728–1793م) الذي كان أهم ما اشتهر به هو ربط الأوعية الدموية في حالات "الأنيورزم"، تلك العملية التي اعتبرت أعظم تقدم علاجي في القرن الثامن عشر، وبداية حقيقية لانطلاق الجراحة في القرن التاسع عشر(36).

(34) المصدر نفسه ، ص 371.

(35) إلمجوسي ، كامل الصناعة في الطب – القانون في الطب ، طبعة بالأوفست ، مكتبة المثنى، بغداد، بدون تاريخ ، ج 3، ص 203.

(3623/1)

---

(36) د. سالم آل عبد الرحمن ، المدونة الكبرى لتاريخ العلوم عند العرب والمسلمين ، ج 2 ، ص 301

الخلاصة :

لقد ازدهرت الجراحة العربية – الإسلامية طيلة فترة القرون الوسطى أيما ازدهار، وأصبحت فنا وعلما وتخصصا له معاهده الدراسية كباقي أقسام الطب الأخرى(37). وهكذا أعلى الأطباء العرب حياة جديدة لدراسة العلوم الطبيعية في أوربا، كما يذكر فرانك آدمز، وقدموا خدمات جلى للأوربيين (ليس فقط في عالم الجراحة) وعن طريق حفظ أعمال فلاسفة اليونان وعلمائها، وإنما عن طريق ابتكاراتهم العلمية التي قدمها علماؤهم ومن

بينهم في الطب والعلوم الطبيعية ابن سينا(38) (على سبيل المثال) في الوقت الذي لم تكن فيه أوربا تعرف الطب بالمعنى الحقيقي وكانت متأثرة إلى درجة كبيرة بالتعاويذ والأحجية والتمائم ، مع الاستسلام لأقصى أنواع الدجل والشعوذة بالإضافة إلى التعصب الديني. وها هو الباحث دريبر (draper) يورد في كتابه "التطور الفكري في أوروبا، (Development in eroupe the intellectual) بأن الفلاح الأوربي إذا أصابته حادثة وفاجأته الحمى يسرع إلى ضريح قرب قديس انتظارا لحدوث لحدوث معجزة تشفيه ، وأما العربي الإسباني (من الذين آمنوا

بعقيدة التوحيد، ونبذ الشرك وأهله)، فكان يعتمد تعليمات على تعليمات طبية ومشرط وتضميد جراحي(39).

وهكذا انتقلت فنون الجراحة والطب العربي مبكرا إلى الغرب بعدما سادت على باقي العلوم الطبية في العالم وقتذاك. فأنشأت المدارس الخاصة بالطب والجراحة في مدن مونبليه ، ونالونيا ، وبولونيا ، وبادوا ، وأوراليان ، أكسفورد ، وكمبريدج وغيرها ، والتي كانت تعتمد اعتمادا مباشرا على كتب الطب العربية المترجمة إلى اللاتينية(40).

(37) فالعرب أول من استخدم البنج ي الطب بعد أن استخرجوه

الزيوان أو الشيلم ، وكذلك هم أول من استخدم الكاويات في الجراحة، وأول من وجه الفكر في التشخيص

الطبي إلى شكل الأظافر في مرضى السل ، ووصفوا علاج اليرقان والهواء الأصفر، واستعملوا الافيون في معالجة حالات الجنون انظر : عبد المنعم ماجد، تأريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص . 243). كما ازدهر الطب وتقدم تقدما هائلا نتيجة لمنهج العلمي الذي ساروا عليه في التجربة والملاحظة والمتابعة السريرية، وما أضافوا إليه من ابتكارات علمية في التشريح والجراحة وطب العيون وطب الأطفال والصحة العامة وغيرها (عن

(3627/1)

"المدونة الكبرى"، د. سالم آل عبد الرحمن ، ج2 ، ص 305.).

(38) 55." ،دع ،9،أ،د ا،،أ 5154ع ى ى9، آه)"ح "ع +اع 7 ع + "ر ء لما،م أ" ع 8+ ،ممالأء 32 لألأء"9لا .+.

(39) د. سالم آل عبد الرحمن ، المدونة الكبرى، ج 2، ص 312 –314.

(40) عبد الرحمن بدوي ، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي ، ص .27.

وقبل أن نلقي القلم ليستريح قليلا، لابد أن نؤكد هنا على ضخامة وبروز دور الأطباء العرب والمسلمين في إغناء

الحضارات الإنسانية التي جاءت بـ حدهم ، ذلك الدور الكبير الذي كان ظاهرا ومهيمنا على غيره ، حتى قاد الجامعات

(3628/1)

والمعاهد الطبية الأوربية إلى حيث وصلت اليوم . وعلى ذلك ، كان لابد أن يحفظ لهؤلاء العلماء من الأطباء ذلك الأثر العظيم في الحضارة الإنسانية ويسجل بأممهم وبأدق ما يكون ، لا أن يعتدي عليه بسرقة هذا العمل العلمي أو ذلك ليسجل بأسماء غربية (أعجمية إ) لم يكن لها فيه أثر ولا تأثير، اللهم إلا الإدعاء بعد التزييف والتزوير، كما زيف وادعى لنبورغ الألماني وهنتر كما رأينا آنفا، وغير ذلك من مثل تجاهل دور ابن جلجل صاحب "طبقات الأطباء والحكماء" (والذي ستكون لنا وقفة معه ذات يوم إن شاء الله) الذي علا نجم

(3629/1)

ديسقوريدس عليه ظلما وجهلا وزورا لدى الغرب الحاقد، وبعض علماء العرب والمسلمين في علم النبات من أولئك

الذين يؤيدونهم على ذلك الإجحاف (41)، وكذلك نسف دور الطبيب العربي ابن النفيس (ولنا أيضا وقفة خاصة معه نكشف به آثارا قديمة – جديدة، لننتصر له بقوة الدليل القاطع وبمنطق ساطع رادع إن شاء الله) وإهدار حقه العلمي في اكتشاف الدورة الدموية الكبرى والتي ادعى هار في الإنكليزي سنة 1628م اكتشافها، حيث ذهبت المراجع الأجنبية تمجد أعمال ، وأعمال سلفه سرفينوس الإسباني الذي ادعى اكتشاف الدورة الدموية الصغرى، ظنا

(3630/1)

منهم أن الحقيقة لن تكتشف في يوم ما. ويعلم كل العالم بما قدم ابن النفيس وابن القف من بحوث ودراسات ، وإن حاولت بعض دور المخطوطات العالمية إخفاءها أو إتلافها، بعدما وقعت بأيديهم لسبات ورثتها الشرعيين الذين لم يرعوها حق رعايتها فسرقت منهم ووضعت عليها أسماء غربية. ويأتي هذا المؤرخ أو ذاك ليثبتها لهم وكأن الأمر قد انتهى إلى هذا الحد(42).

(41) د.علي عبد الله الدفاع ، "أبن جلجل صاحب كتاب طبقات الأطباء و الحكماء"، مجلة الفيصل ، العدد 93، ربيع الأول 1405هـ/ ديسمبر ،1984م ، ص . 73–76.

(3631/1)

---

(42) حصلت الباحثة من أحد الباحثات الألمانيات (طبية من أصل عربي) مؤخرا على بعض أصول المخطوطات والرسائل المهمة التي تسجل لاكتشاف ابن النفيس العربي الأصيل وبعض الاكتشافات العربية الأخرى .
وكان من بين ذلك المخطوطة التي عثر عليها الطبيب محيي الدين التطاوي سنة 1924 والتي نال بها درجة الدكتوراه عن رسالته "ابن النفيس المكتشف الحقيقي للدورة الدموية" من جامعة برلين ، ذلك الحدث الذي عاصرته الطبيبة الألمانية سيغريد هونكه ، وإشارات إليه في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب "

(3632/1)

ولكن الباطل مهما علت راياته فستنتكس لا محالة .
فالحق ابلج والباطل لجلج . وإن تزييف الحقائق وتزوير البيانات لن تدوم له دولة أبدا، وهكذا سيندحر الظلم الذي حاق بالعلماء العرب والمسلمين وسيزهق المنكر وإخوانه ويعلوا العلم والحق والمعروف وستعود دولته

ذات يوم بعد أن يشرق غد صناع تاريخ النهضة الإسلامية – العربية الثانية القريب القادم إن شاء الله (بالعلم واليقين والمجاهدة والصبر والمصابرة لا بالعاطفة والتمني والينبغيات واللو والرجائيات والتى كثيرا ما رددتها الأجيال العربية – الإسلامية هنا وهناك ودون

(3633/1)

جدوى تذكر).

وأخيرا، وقبل أن أوقف أثر هذا المداد، أود أن أسجل قولا كنت كلما قرأت في عناوين المجد الإسلامي – العربي الزاهر أتذكره دائما وأستحضره بنفس كلها شوق لعودنا العلمي الحضاري التربوي النهضوي القادم إن شاء الله ، وهو قول للأستاذ سالم آل عبد الرحمن (43)، والذي أتمنى بعد أن أهديه إلى كل أجيال النخبة الإسلامية – العربية الساعية والداعية لنهضة الأمة من جديد، أن تحفظه في ذاكرتها . "لقد أدب الله بأجداكم يا أبناء الإسلام الغيارى الناس ، وسيؤدب الله تعالى بكم كل العالم وقتما

(3634/1)

(ص . 263) والذي أظهر للملا تهافت الطبيب الإسباني سرفينوس الذي ادعى اكتشاف الدورة الدموية الصغرى وكل الذي عمله هو نقلة كل ما كتبه العالم العربي ابن النفيس (كلمة بكلمة وحرفا محرف) ونسبه كله إلى نفسه ، حيث أنه كان يجيد اللغة العربية (انظر قول المستشرق مايرهوف في ذلك في : ابن النفيس ibn-an Nifis، د. عبد الكريم شحادة (بالفرنسية) – سوريا والذي يعترف به باعتداء سرفينوس على الحق العلمي والأدبي لابن النفيس ، وشهد بذلك أيضا عميد كلية الطب في باريس الدوميللى وليون بيتيه . إلا أنه رغم كل دلك ، فإننا لا

(3635/1)

نجد أية إشارة لهذا الحدث العلمي الذي أثبت حق ابن النفيس في الموسوعات العلمية الحديثة والمراجع الطبية التي تصدر في أوبا بل أن رخص المستشرقين يحاولون التقليل من أهميته من أمثال مانفرد أولمان في كتابه "الطب الإسلامي ،)، وكذلك شاخت في كتابه

"تراث الإسلام " (انظر : د. أحمد الفنجري ، "اكتشاف الدورة الدموية إنجاز عربي)، مجلة الفيصل ، العدد ، 116 ، صفر 1407هـ/ اكتوبر – نوفمبر 1986م ، ص .39 –44 .

(43) د.سالم آل عبد الرحمن ، الأمة... وأزمة الغفلة عن التحديات ، كتاب مخطوط ضم مجموعة من الدراسات ، قدم

(3636/1)

بعضها على شكل محاضرات ودروس للباحث ، واستهدف غالبها بحث مسألة المصير الذي اتجهت له ركائب أمتنا بعدما أصابها ما أصابها ، حيث يحاول الباحث عبرها تقديم بعض معالجات الإسعاف الهادئة التي تستنهض ما بقى من العزائم والهمم لإيقاف القافلة قليلا، وتعديل مسارها إلى الصراط الذي لا مناص من اختياره إذا أردنا العز والتمكين لهذه الأمة بعد تخليصها من ألوان الفتور والخلل والتذرر والتبعية وغيرها من الآلام التي لا تزال تضرب هنا وهناك ، ودون هوادة، في جسد أعظم ما أبتلى به أنه لم يأخذ الجرعات الكاملة (وللآن) من

(3637/1)

دوائه الناجع القريب منه .

تفيقوا قليلا وتقتربوا من خط أهل العلم والإيمان ، ذلك الخط الذي رممه رسول الإنسانية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم لصحابته (رضوان الله تعالى عليهم، وهو خط العلم والعمل والدعوة ومكارم الأخلاق ، لتنهضوا لمسؤولية وراثة هذه الأرض التي لن تكون لغيركم أبدا)،

(3638/1)

الحج الأوربي إلى الناصرة في اتفاقيات الهدن المعقودة بين المسلمين والفرنج

الدكتور أحمد حطيط
كلية الآداب – الجامعة اللبنانية

مدخل

... لا جدال في أن زيارة الأراضي المقدسة في الشرق كانت، ولا تزال، تشكل أحد أبرز حوافز سفر المسيحيين إلى فلسطين، وأن طلائع حركة الحج الأوربي إلى الشرق تعود إلى ثلاثينيات القرن الرابع الميلادي، أي إلى فترة

وجيزة من اعتراف الرومان بالمسيحية، بموجب مرسوم ميلان الشهير عام 313م، الذي أصدره قسطنطين الكبير (ت.337م)، لتعلن دينا رسميا للإمبراطورية الرومانية في عهد ثيودوسيوس

(3639/1)

(376–395م).

... كانت هيلانة، والدة قسطنطين، من أوائل الحجاج الذين وصلتنا أخبارهم، وذاع عنها أنها أمرت بتشييد الكنائس في بيت لحم وعلى جبل الزيتون في القدس(1)، وكذلك كان "حاج بورد المجهول"، من منطقة أكيتانيا الفرنسية، الذي وضع كتابا في وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، تتبع فيه مسار الطريق الموصلة إليها من أوربا، وسمه بـ"التطواف من بوردو إلى القدس"(2)

---

(1) Britanica, art. « Pilgrimage », vol. 17, p.925.

(2) B. Dansette et autres, Croisades et pèlerinages (Récits, Chroniques et Voyages en Terre Sainte, XII°-XVI Siècle), Paris, 1997, p.883.

(3640/1)

.

... بعد "حاج بوردو"، تابع حجاج أوربيون آخرون وصف الديار المقدسة، فنقل القديس جيروم (Saint Jérôme)، من القرن الرابع الميلادي، عن اللاتينية، بعض ما كتبه هؤلاء الحجاج عن تلك الديار(1).

... تركزت نشاطات الحجاج الأوربيين على زيارة الأماكن التي ولد السيد المسيح وترعرع فيها، دون أن يفرض عليهم ذلك الواجبات الدينية، واقتصرت مقاصدهم، أساسا، على القدس، وبيت لحم، والناصرة، لتتعداها، بعد ذلك إلى نهر الأردن (نهر الشريعة) وإلى بحيرة طبرية وقانا الجليل(2)

---

(1) Ibid., pp. 883–884.

(2) Britanica, op. cit., p. 926.

(1/3641)

. لم تعر الكنيسة الغربية، في بادئ الأمر، اهتماما لقضية الحج، ولم تعمل، بالتالي، على تنظيم شؤون الحجاج. لكنها استدركت الأمر، في مرحلة لاحقة (منذ مطلع القرن الخامس الميلادي، وربما منذ القرن الرابع

الميلادي)، فعلمت على رعاية حركة الحج إلى فلسطين، وشجعت عليها، معتبرة إياها جزءا أصليا من أعمال التوبة وطلب الغفران والتكفير عن الخطايا(1)

---

(1) Ibid., p. 925. وقد يكون غفران الخطايا لسنة واحدة أو لسبع سنوات أو مدى الحياة. حول قيمة زيارة الأماكن المقدسة من الغفران بالسنين، راجع رحلة:

W. Wey, Itineratium of W. W., London, 1857.

(1/3642)

. وعليه، فقد ترتب على المسيحي الأوربي الراغب في الحج أن يحصل على إذن مزدوج –كان يمنح مجانا ثم جعل لقاء رسم معين– أحدهما من الكنيسة التي ينتمي الحاج، والآخر من السلطات الزمنية التي يخضع لها. ومن يسافر بلا إذن يتوجب عليه أن يعلن نفسه للكاهن عند حضوره أول خدمة كنسية في يافا أو في القدس، ليحله الأسقف من خطيئته، وليسمح له بالزيارة(1)

---

(1) نقولا زيادة، "رواد الشرق العربي في العصور الوسطى"، بيروت، 1986، صص.51–52. كان الحجاج

يلبسون ثيابا خاصة يعرفون بها. وغالبا ما كان يرتدي واحدهم قباء رمادي اللون، ويتمنطق بحزام جلدي عريض، ويضع في عنقه صليبا أحمر يتدلى من فوق القباء. كما يعتمر قبعة كبيرة، ويحمل عكازا وكيسا ومطرة ماء. وقد يسير بعض الحجاج حفاة، تكفيرا عن ذنب، بأمر من الكنيسة. لمزيد من الاطلاع، راجع: Britanica, op. cit., 926p. ; M. Mourre., Dictionnaire Encyclopédique d'Histoire, Paris, 1978, T. VI, 3454p.

(1/3643)

.

الاهتمام الأوربي بالديار المقدسة في فلسطين:

... وما عتم الاهتمام الأوربي بالأماكن المقدسة في فلسطين أن تزايد بعد شيوع الأخبار عن توافر الآثار المتصلة بحياة المسيح وحياة رسله وغيرهم من القديسين، فتعاظم عدد الحجاج إلى فلسطين، بدءا من النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي، وذلك حين توصل الأباطرة البيزنطيون إلى تفاهم مع الخلفاء الفاطميين، حكام الشام، أسفر عن تسهيل هؤلاء حركة انتقال الحجاج المسيحيين إلى القدس، وساعد على ذلك

تنامي النشاط البحري للمدن الإيطالية الثلاث، جنوا والبندقية وبيزا، بين

(3644/1)

ضفتي المتوسط بعد أن سمحت لها السلطات الإسلامية في الشام إقامة مراكز لإيواء الحجاج ورعاية أوضاعهم الاجتماعية والصحية في فلسطين(1). ثم ما لبثت حركة الحج الأوربي أن بلغت ذروتها في زمن الحروب الصليبية، باستجابة جمهور المؤمنين الأوربيين لنداء البابا أوربان الثاني (Urbain II)، في سنة 1095م، لحمل راية الصليب والتحرك باتجاه الشرق لاستعادة قبر السيد المسيح من أيدي

---

(1) وليم الصوري، "تاريخ الحروب الصليبية"، نقله إلى العربية سهيل زكار، دمشق، 1990، مقدمة المترجم، ص.16؛ B. Dansette, op. Cit., p. 886.

(3645/1)

المسلمين، ولا سيما أن الباب كان قد وعد هؤلاء المؤمنين، إذا ما استجابوا لندائه، بالغفران الشامل(1).

... وبسبب تقاسم النفوذ في فلسطين بين المسلمين والفرنج، إبان الوجود الصليبي في الشرق، استدعت الضرورة أن يحرص الفرنج على تضمين المعاهدات المعقودة مع المسلمين نصوصا تكفل سلامة الحجاج وتسهل أداءهم فريضة الحج إلى الأماكن المقدسة.

مكانة الناصرة الدينية:

... ما يعنينا في هذا البحث هو مدينة الناصرة التي قلما خلت من الإشارة إليها أي من الاتفاقيات الآنفة.

---

(1) Britanica, op. Cit., p. 926.

(1/3646)

... فالناصرة (Al Nasira)، أو ناصرة (Nasirat) في العبرانية الحديثة، أو Nazareth في اللغات الأوربية، هي مدينة في شمال فلسطين، واقعة في منخفض هلالي الشكل، محاط بالجبال، على ارتفاع 488م عن سطح البحر. وهي مذ عرفت في التاريخ لم يتغير اسمها، ولا تزال تدعى "الناصرة" داخلة عليها "أل" التعريف الزائدة(1). ويعتقد معظم الكتاب العرب أن لفظ "النصارى" (المسيحيون) الذي ورد ذكره خمس عشرة مرة في القرآن الكريم، ومفرده نصراني، ونصران، إنما هو

منسوب إلى المدينة نفسها(2)

---

(1) 1009, VII, p.2art. « al-Nasiira », El.

(2) 970, VII, p.2J. M. Vriey, art. « al-Nasiira », El

.

(3647/1)

.

... والناصرة مدينة مقدسة عند المسيحيين بوصفها مدينة مخلصهم وكعبة حجهم، وموطن السيدة العذراء، وموئل بشارتها، ومكان إقامة السيد المسيح، ولو أن والدته وضعته في بيت لحم. وتعني الناصرة، فيما يقال، النذير. لذا دعي يسوع بن مريم ناصريا، لأنه كان ضعيفا كالغصن النابت من أصل شجرة، ولأن الناصرة كانت قرية محتقرة كما كان يسوع محتقرا.

ويستشهد أصحاب هذا الرأي بآيات كثيرة تدل على أنه أنبئ أن يكون يسوع هكذا. ومن هذه الآيات ما ورد في مت(1): { لكي يتم ما قيل بالأنبياء أنه سيدعى ناصريا } ، وفي

---

(1) مت، 2، ص.32.

أشعيا(1): { يخرج قضيب من جذع يسي، وينبت غصن من أصوله } . وقيل غير ذلك(2).

... كانت الناصرة، في عهد السيد المسيح، ضيعة صغيرة(3)، ثم أخذت تكتسب، تدريجيا، مكانة مرموقة مع انتشار المسيحية واعتراف الرومان بها، وأضحت، منذ ذلك الحين، محجا للمسيحيين لوجود كنيسة البشارة فيها، يقصدها الحجاج المسيحيون بالحماس نفسه الذي كانوا يقصدون

---

(1) أشعيا، 11، ص.1.

(2) انظر: اسكندر عيسى المعلوف، "دواني القطوف في تاريخ بني معلوف"، بعيدا، 1907–1908، ص.128.

(3) راجع في هذا الصدد ما ورد ذكره في المرجع نفسه، صص.128–129.

به قبر المخلص في القدس وكنيسة المهد في بيت لحم.

... استمر وضع الناصرة مقدرا خلال الحكم الإسلامي

لفلسطين، ولو أن المدينة تعرضت، أحيانا، للضرر بسبب الصراعات الدامية التي نشبت بين المسلمين والبيزنطيين، كان آخرها ما أصابها من خراب، في أعقاب الحملة الفاشلة التي قادها الإمبراطور البيزنطي زيميس على المنطقة سنة 975م، فخلت الناصرة من سكانها آنذاك، وظلت كذلك حتى سنة 1102م، وفق شهادة الرحالة سيولف السكسوني (Saewulf) الذي زارها في أثناء خضوعها للأمير الفرنجي تنكرد (Tancrède)، فأعاد الأمير الفرنجي ترميم ما

(3650/1)

تهدم منها، وجدد بناء كنائسها، ونقل إليها أسقفية بيسان، لتكون أسقفية للمرة الأولى، وأتبع بأسقفها نائبا في طبرية.

الناصرة في الهدن المعقودة بين المسلمين والفرنج:

... أ – في العصر الأيوبي:

... منذ ذلك الحين، خضعت الناصرة لحالة من التجاذب والصراع حكمت العلاقات الإسلامية –الفرنجية عموما، فدخلت حينا في حكم الفرنج، واستقرت أحيانا في أيدي المسلمين. وبين هذه الحالة وتلك، نشأت عهود بين الطرفين رعت أوضاع الناصرة، وسهلت طريق قوافل الحج

إليها ضمنتها اتفاقيات وهدن ما انفكت تنعقد بين المسلمين والفرنج، حتى في

أوج مراحل المواجهة، واستمرت مفاعيلها قائمة إلى أن تم إخراج الصليبيين من الشرق(1).

... أولى الاتفاقيات حول وضع الأماكن المقدسة في فلسطين عقدها السلطان صلاح الدين، على أثر استعادته بيت المقدس والأراضي الفلسطينية الأخرى من الفرنج، في أعقاب معركة حطين، في 24 ربيع الآخر سنة 583هـ/1187م، فضرب المثل الصالح في التسامح عندما أمر بعدم المس بدور العبادة المسيحية في القدس والناصرة. كما نص صلح الرملة الذي عقده صلاح الدين مع ريتشارد قلب الأسد، ملك

---

(1) أخرج الصليبيون من الشرق على إثر سقوط عكا عام 1290م.

إنكلترا (Richard Coeur de Lion)، في 22 شعبان 588هـ/2 أيلول 1192م، على إخراج الناصرة وصفورية من عهدة الصلح وإعطائهما لصلاح الدين، وعلى ضمان حرية انتقال الحجاج لمسيحيين إلى القدس والناصرة وغيرها من الأراضي المقدسة الخاضعة للمسلمين، وأن لا يفرض عليهم أي ضريبة أو رسم مقابل ذلك(1). وأعلن صلاح الدين على أثر توقيع الصلح: "أن الصلح قد

---

(1) ابن الأثير، "الكامل في التاريخ"، م9، بيروت، 1967، صص.221–222؛ ابن شداد، "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1964، صص.233–234.

(3653/1)

انتظم. فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل"(1).

... ويذكر بعض المؤرخين(2) أن السلطان صلاح الدين استجاب لطلب هوبرت أسقف سالزبوري (L'évêque de Salisbury)، الذي زار الديار المقدسة عقب الصلح (1192م)، فوافق على تعيين كاهنين وشماسين

---

(1) المقريزي، "كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك"، ج1، ق1، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1934، ص.110.

(2) R. Grousset, Histoire des Croisades, vol. III, Paris, 1936, p. 118; J. Richard, Histoire des Croisades, Paris, 1996, p. 241.

(3654/1)

لاتين في كل من كنيسة القيامة في القدس، وكنيسة المهد في بيت لحم، وكنيسة البشارة في الناصرة، أسوة برجال الدين الملكانيين، والسريان النساطرة واليعاقبة. وكان من النتائج المباشرة لالتزام صلاح الدين مضامين صلح الرملة إقبال الحجاج الأوربيين على زيارة مقدساتهم في فلسطين آمنين على أنفسهم وعلى أموالهم، حتى قيل: إن السلطان صلاح الدين بالغ في إكرام وفادة هؤلاء الحجاج، وأنفذ معهم الخفراء يحفظونهم في ذهابهم وإيابهم(1)، "وشرع في مد الطعام لهم ومباسطتهم ومحادثتهم" على حد تعبير أبي شامة(2)

---

(1) Ibid, p. 118.

(2) أبو شامة، "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين"، ج2، القاهرة، 1962، ص.294.

(3655/1)

.

... تاريخ السلطان العادل الأيوبي نهج أخيه صلاح الدين في رعاية الحج الأوربي إلى فلسطين. ويظهر ذلك ما تضمنته الاتفاقية التي عقدها العادل مع أمالريك الثاني (Amaury II)، ملك القدس، سنة 601هـ/أيلول 1204م، ملتزما بتيسير أمور الحجاج القاصدين إلى بيت المقدس والناصرة(1).

... وإذا كان صلح يافا(2)

---

(1) ابن الأثير، المصدر السابق، م9، ص.265؛ س. رنسيمان، "تاريخ الحروب الصليبية"، م3، تعريب السيد الباز العريني، بيروت، 1967، ص.188.

(2) للاطلاع على تفاصيل صلح يافا، انظر ابن واصل، "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب"، ج4، تحقيق حسنين محمد ربيع، القاهرة، 1972، صص.241–242؛ رنسيمان، المرجع السابق، م3، ص.331؛ Prawer, Histoire du Royaume

201, pp.1970Latin de Jérusalem, vol. II, Paris, .307et

(3656/1)

بين السلطان الكامل بن العادل وفريدريك الثاني (Frédéric II) ملك صقلية وإمبراطور ألمانيا، في مستهل ربيع الآخر 626هـ/18 شباط 1229م، والذي أسفر عن تنازل الكامل للفرنج عن المدن المقدسة الثلاث: القدس وبيت لحم والناصرة، فضلا عن منطقة الجليل ومقاطعة تبنين، وشريط من الأرض يخترق اللد وينتهي عند مدينة يافا، قد أثار استياء عارما لدى المسلمين(1)، فإن هذا الصلح قد أثار، في الوقت عينه، اعتراضا واسعا في الأوساط الأوربية، عبرت عنه رسالة بعث بها البطريرك جيرولد

---

(1) ابن واصل، المصدر نفسه، صص.243، 245–246.

(3657/1)

(Gérold) إلى البابا بعد أسبوع واحد تقريبا من توقيع اتفاقية الصلح ضمنها ملاحظاته عليها(1). وقد أبرز

براور (Prawer) ذلك بقوله(2):

---

(1) Lettre de Gérold au pape du 26 Mars 1229, MGH Epist. Saec, XIII, I, pp. 292–303, n° 384.

قارن برسالة فردريك الثاني إلى الملك هنري الثالث بلانتاجينيه.

... M. Balard et autres, Les croisades, présentées par Robert Delort, Paris, 1988, p.p. 254–255.

(2) J. Prawer, op. Cit., pp. 202–203.

(1/3658)

... "على الرغم من أن الممر الساحلي الضيق الممتد من بيروت إلى يافا أضحى بأيدي الفرنج، فإن صلح يافا أوجد جزرا سياسية مسيحية منعزلة في محيط إسلامي واسع، ومنها الطريق الرابطة بين عكا والناصرة، ومدينة الناصرة نفسها، ومنطقة الجليل الأعلى حتى حدود تبنين".

... مما يعني أن حرية الحركة على طريق الحج إلى الأماكن المقدسة، وبخاصة من الشمال حيث منطقة عكا – الناصرة، ومن الجنوب حيث نابلس ومنطقتها، باتت

محكومة بالتوافق الإسلامي-الفرنجي، وربما بـ"حسن نوايا المسلمين" حسب ما ذكر براور(1)

---

(1) Ibid., p. 203.

(1/3659)

(Prawer).

... فإذا كان صحيحا أن صلح يافا حقق كسبا كبيرا للإمبراطور الألماني بفوزه بالقدس والناصرة في مقابل كلفة ضئيلة، فإن وجود أراض حبيسة ضمن المناطق التي حصل عليها الإمبراطور أضعف من قيمة مكاسبه، وقلل من أهميتها الاستراتيجية، ولا سيما أن السلطان الكامل سلم الإمبراطور فريدريك القدس مدمرة، واشترط عليه عدم تجديد أسوارها، على أن يحتفظ الكامل بحق الإشراف على المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

... ومنذ ذلك الحين، خضعت الناصرة لنفوذ الفرنج، واستمرت كذلك حتى نجح الخوارزمية في استعادتها سنة 1242م، وبقيت تحت

(1/3660)

السيطرة الإسلامية حتى حتى زمن متقدم من الوجود الصليبي في الشرق.

... وفي هذه الأثناء، زار الناصرة لويس التاسع (القديس لويس)، ملك فرنسا، بعد أن جرى إطلاق سراحه من الأسر، على أثر حملته الفاشلة على مصر. فانطلق من عكا، في 23 آذار 1250م/648هـ، وبات ليلته في صفورية، وتوجه منها إلى قانا الجليل، ثم انعطف جنوبا لزيارة الناصرة، وقيل إنه لما أشرف عليها نزل عن صهوة جواده، وجثا على الأرض شاكرا الله على الفرصة التي أتيحت له للحج إلى الناصرة(1)

---

(1) أسعد منصور، "تاريخ الناصرة من أقدم أرسافها إلى أيامنا الحاضرة"، مصر، 1924، ص.43؛ Art. « al-Nasira 1009, VII, p.2», El.

(3661/1)

.

... ب – في العهد المملوكي:

... خلال حكم المماليك، تعرضت الناصرة للعمليات العسكرية المبكرة. ويذكر أن الظاهر بيبرس وجه الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري إلى الناصرة، سنة

661هـ/1263م، فهدم معالم عمرانها، دون أن يحرك الفرنج ساكنا، ثم عبر السلطان على البلدة، وشاهد خراب كنيستها، وقد سويت بالأرض، وفق ما ذكره المقريزي(1).

... وفي سنة 670هـ/1272م، وبعد مفاوضات لم تخل من الحدة، أبرم اتفاق هدنة بين بيبرس وأسياد عكا(2)

---

(1) المقريزي، المصدر السابق، ج1، ق2، ص.487، 489؛ J. Richard, op. Cit., p. 429.

(2) ابن عبد الظاهر، "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر"، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976، ص.398؛ المقريزي، المصدر السابق، ج1، ق2، ص.601.

، كفل السلطان بموجبه ممتلكاتهم، من السهل الساحلي الممتد على عكا إلى صيدا، على أن يكون لمملكة عكا الحق في استخدام طريق الحج إلى الناصرة، في مقابل أراض ومناصفات(1) حصل عليها السلطان المملوكي في مختلف أرجاء بلاد المملكة اللاتينية.

... ولعل اتفاقية الهدنة المعقود بين المنصور قلاوون وحكام مملكة عكا الفرنج، في 5 ربيع الأول سنة

(1) تكرر ورود مصطلح "المناقصات" في الاتفاقيات المعقودة بين المسلمين والفرنج في زمن الحروب الصليبية، وهي تعني إدارة مشتركة لأراض معينة واقتسام مواردها على قاعدة المناصفة.

(3663/1)

682هـ/3 تموز 1283 –فيما عرف بهدنة عكا(1)– من أكثر الاتفاقيات وضوحا بشأن الناصرة والحج إليها. فقد وافق السلطان في هدنة عكا:

... ... على أن تكون كنيسة الناصرة، وأربع بيوت من أقرب البيوت إليها، لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب، كبيرهم وصغيرهم، على اختلاف أجناسهم وأنفارهم، من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة(2)

(1) راجع نصوص هذه الهدنة في: المقريزي، المصدر السابق، ص.985–997، ملحق رقم 8.

(2) يقصد بعبارة "البلاد الساحلية الداخلة في الهدنة"، مدينتي صيدا وعثليت وبلادهما. راجع: المقريزي، المصدر السابق، ص.989–990.

. ويصلي بالكنيسة الأقساء والرهبان، وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة. ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة، وإذا نقبت (حفيت) الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى برا، ولا يحط حجر على حجر لأجل بنايته، ولا يتعرض إلى الأقساء ولا الرهبان، وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دين الصليب بغير حق(1).

تعليق على ما تقدم:

... يتضح من النص آنف الذكر أن المنصور قلاوون قد وافق، بموجب هدنة عكا، على الأمور التالية:

---

(1) المصدر نفسه، ص.994.

... – أن يمنح الحجاج الأوربيين التسهيلات اللازمة لأداء مراسم الحج إلى الناصرة، فخصص لهم أربعة منازل قريبة من كنيستها لإيوائهم وسكنهم. على أن الدخول إلى الناصرة لم يكن حجرا على أولئك الحجاج، بل كان مسموحا

به لـ"غيرهم من دين الصليب، كبيرهم وصغيرهم، على اختلاف أجناسهم وأنفارهم". والراجح أن المقصود بهذه العبارة هم رعايا "مملكة عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة"، و"المترددون" على بلاد السلطنة من "التجار والسفار، في البر والبحر، والسهل والجبل ...". وهو ما تكرر ذكره في الهدنة. فلهؤلاء جميعا

(3666/1)

الأمان "على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وحريمهم وبضائعهم وغلمانهم وأتباعهم"(1)، شريطة أن يدخلوا الناصرة من مملكة عكا ومن صيدا وعثليت وبلادهما على سبيل التحديد والحصر، وهي البلاد التي جرت عليها الهدنة بين أسيادها الفرنج وسلطان المماليك ... وتشير عبارة "على اختلاف أجناسهم" إلى تنوع سكان مملكة عكا. فثمة جماعات من الأسياد والتجار تنتمي إلى جنسيات وأقوام أوربية مختلفة، تقابلها جماعات محلية يعمل معظمها في حقل الزراعة، في ظل النظام الفيدرالي الذي أقامه الفرنج في

---

(1) **المصدر نفسه، صص.** 987–989، 992–993.

(3667/1)

مملكة بين المقدس اللاتينية.

... أما لفظ "أنفار"، –وهو، لغة، اسم جمع يقع على جماعة من الأشخاص ما بين الثلاثة إلى العشرة –، فيعني على الأرجح أن دخول الزوار المسيحيين إلى الناصرة كان محددا بمجموعات صغيرة لا يتجاوز عدد كل منها عشرة أنفار، وذلك لإخضاع دخولهم للمراقبة الدقيقة لأسباب أمنية.

... – أن يقيم رجال الدين اللاتين، من قساوسة ورهبان، صلواتهم وشعائرهم في كنيسة الناصرة بحرية تامة دون أن يعترضهم أحد بضرر أو أذية. لكنه يتوجب على الفرنج، في مقابل ذلك، عدم ترميم الكنيسة، أو إعادة إعمار ما قد يتلف من

(3668/1)

بنيانها.

... – أن يتعهد السلطان توفير الأمن على طريق الحج من عكا وبلادها إلى الناصرة، ذهابا وإيابا.

... ومما يلفت الانتباه في ختام النص السالف، ورود عبارة صريحة لا تحتمل التأويل، ومفادها أن التزام

المنصور قلاوون إطلاق حركة الحج الأوربي إلى الناصرة، واستطرادا إلى القدس، لا يرتب حقا أو امتيازا "لزوار دين الصليب"، وإنما هو هبة منحها السلطان لهؤلاء، "وبغير حق" كما جاء في الاتفاقية(1). ولعل إيراد هذه العبارة يعود إلى حرص السلطان على إظهار أرجحية موقعه في معادلة الاتفاقية على

---

(1) المصدر نفسه، ص.994.

(3669/1)

حساب الفرنج.

... فعن أي كنيسة تتحدث اتفاقية عكا؟ وهل ثمة إمكان لتحديد مسار طريق الحج الأوربي من عكا إلى الناصرة وتعرف محطاتها الرئيسة، واستطرادا كم من الوقت تستغرق الرحلة من عكا إلى الناصرة ولاسيما أن الاتفاقية جاءت خلوا من أدنى إشارة إلى ذلك؟

... من بداهة القول أن "كنيسة الناصرة"، الوارد ذكرها في اتفاقية الهدنة، هي كنيسة البشارة التي بناها اللاتين بعيد استيلائهم على الجليل، وحولوها إلى كاتدرائية لتكون آخر ما تم تشييده من الكنائس

الهامة في فلسطين قبل فتوحات الناصر صلاح الدين، وهي غير كنيسة

(3670/1)

البشارة البيزنطية في الناصرة، والأقدم عهدا منها.

... لقد بنى اللاتين كنيستهم في الناصرة وفق نسق هندسي شبيه بطراز الكاتدرائيات العائدة للعصور الوسطى في أوربا، المتأثرة إلى حد بعيد بالهندسة الفرنسية التي هي أقرب إلى الطراز القوطي منه إلى الطراز البيزنطي الشرقي(1).

... ذكر كنيسة البشارة اللاتينية والمغارة الراهب "دانيال الروسي" الذي قصد فلسطين في زمن الصليبيين (1113–1115م). زار كنيسة الناصرة، ولم يكن قد مضى وقت طويل على عمارتها، فأبدع في وصف هياكلها

---

(1) س. رنسيمان، المرجع السابق، م3، ص.647.

(3671/1)

ومغارتها وأبوابها ومقام السيدة العذراء فيها، وقبر مار يوسف خطيب مريم.

... يقول دانيال الروسي في وصف كنيسة البشارة اللاتينية(1):

للكنيسة ثلاثة هياكل: عن يسار الداخل وأمام الهيكل الصغير مغارة قليلة الغور، لها بابان صغيران: أحدهما من الغرب والآخر من الشرق، فيدخل إليها من كليهما. وإذا نزلت من الباب الغربي، تجد عن يمينك بيتا له باب صغير. في هذا البيت سكنت مريم العذراء مع يسوع. وفيه دكة غير مرتفعة كثيرا، كان المسيح ينام عليها.

---

(1) أسعد منصور، المرجع السابق، ص.126.

(3672/1)

عند أول نزولك من باب المغارة الغربي تجد قبر مار يوسف، خطيب مريم، حيث دفنه المسيح بيديه الطاهرتين. ويخرج من هذا القبر ماء أبيض يشبه الزيت يستشفون به من أمراضهم. وقرب هذا الباب المكان الذي كانت العذراء جالسة فيه حين بشرها الملاك، وحيث كانت تجلس، وهي حبلى...

... وعند عمود ثالث مائدة صغيرة قائمة على عمود حيث يقام القداس، هناك بيت يوسف، حيث توجد مغارة

مقدسة فوقها كنيسة باسم البشارة، كانت قد دمرت قبلا، فجددها الأجانب، وأحسنوا ترتيبها.

مسار طريق الحج بين عكا والناصرة:

(3673/1)

... ولمعرفة الطريق التي سلكها الحجاج الأوربيون إلى الناصرة، بعد وصولهم إلى ميناء عكا، أكثر الموانئ الفلسطينية استقبالا للحجاج الغربيين في فترة الحروب الصليبية، مبحرين من الموانئ الإيطالية أو من ميناء مرسيليا الفرنسي، لينطلقوا، بعد استراحة قصيرة، إلى الناصرة ومنها إلى بيت المقدس فبيت لحم، نستند إلى ما جاء في مذكرات الرحالة فوكاس (1177م) (Joames Phocas) حين زار فلسطين خلال القرن الثاني عشر.

... ذكر فوكاس، وفق ما أثبته دوناتوس بالدي (Donatus Baldi) في كتابه "تاريخ الناصرة"، أن المسافة بين عكا

(3674/1)

والناصرة سبعة فراسخ(1)، أي حوالي 42 كلم (الفرسخ الواحد يساوي 6 كلم تقريبا)، وهو ما يحتاج إلى مسير يوم كامل على الأقدام.

... إن أول ما يصادف القاصد زيارة الناصرة، انطلاقا من عكا، بلدة شفا عمرو، الواقعة على مسافة ثلاثة فراسخ عن عكا(2) (حوالي 18 كلم)، مجتازا الطريق المحيطة بقلعة صغيرة لفرسان المعبد (Les Templiers)، ومن شفا عمرو ينتقل المسافر إلى صفورية، على مسافة ثلاثة فراسخ منها(3) (18 كلم تقريبا)، ثم يخترق تجمعا سكنيا كثيفا ليصل الناصرة، بعد

---

(1) Ibid., p. 15.

(2) Ibid., p. 15.

(3) Ibid., p. 15.

أن يقطع مسافة فرسخ واحد(1) (حوالي 6 كلم). ولكي يتابع الحاج رحلته إلى القدس، عليه أن يخترق سهل مرج بني عامر، مرورا بالعفولة وجنين وجبع ونابلس والبيرة فالقدس. وهكذا، فإن رحلة الحج من عكا إلى القدس، عبر الناصرة، تستغرق ثلاثة أيام، وفق ما ذكره

الرحالة الأندلسي ابن جبير(2). كما كانت رحلة الحج من أوربا إلى الديار المقدسة تستغرق ما يقارب ثلاثة أسابيع(3)

---

(1) Ibid., pp. 15–16; J. Prawer, op. Cit., II, p. 199

.

(2) **ابن جبير، "رحلة ابن جبير"، بغداد، 1937، ص.216.**

(3) Le Saint voyage du Jérusalem du Seigneur d'Anglure, publié par F. Bonnardot et A. Longnon, Paris, 1878, p.XVI.

(1/3676)

.

خاتمة:

... مع انتشار المسيحية، استحوذت الناصرة، ومثلها القدس وبيت لحم، بقسط وافر من التبجيل، فقصدها المسيحيون من مختلف أصقاع الأرض للتبريك بمشاهدة آثار السيد المخلص وآثار رسله القديسين. كما استحوذت هذه المدينة بالذات، ومنذ فجر الإسلام –على التقدير عينه من المسلمين، بما هي عندهم مدينة مشرفة بتاريخها وبـ"روح الله" الذي هو أحد أسمى

أنبيائهم.

... وعلى الرغم من ذلك، فإن تداعيات الصراع الدامي بين المسلمين والفرنج اللاتين، طاولت شظاياها، فيما طاولت، الأماكن المقدسة ودور العبادة المسيحية والإسلامية

(3677/1)

في غير مكان من فلسطين وبلاد الشام. لكن الأمور سرعان ما كانت تعود إلى نصابها، بعيد انتهاء حلقات العنف، لتعاود الحياة، ولو إلى حين، العلاقات السلمية بين المعسكرين المتنازعين، بما يكفل المصالح الحيوية بكلا الطرفين، فضلا عن حرية حركة رعاياهما أفرادا وجماعات، في أرجاء البلاد الخاضعة لنفوذ كل منهما. وقد ضمنت ذلك كله اتفاقيات هدن عقدت بين المسلمين والفرنج، احتوت على نصوص أكدت، بلا لبس، ضمان سلامة الأماكن الدينية في الناصرة والقدس وبيت لحم، وتوفير الأمر لطريق الحج إليها. مما جعل هذه الاتفاقيات، لما

(3678/1)

توفره من معلومات نادرة عن مكانة الناصرة الدينية بالرغم من الظروف الحرجة التي سادت المنطقة، إبان الفترة التاريخية المسماة بـ"عصر الحروب الصليبية"، مصادر لا غنى عنها لسد بعض الثغرات المتصلة بالحج الأوربي إلى الناصرة وإلى غيرها من الأماكن المقدسة في فلسطين، قلما نجد لها مثيلا في الأدبيات الإسلامية واللاتينية الوسيطة.

المصادر والمراجع

ابن الأثير، عز الدين علي، الكامل في التاريخ، م9، بيروت، 1967.

ابن جبير، أبو الحسين محمد رحلة ابن جبير، بغداد، 1937.

(3679/1)

ابن شداد، بهاء الدين يوسف، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، 1964.

ابن عبد الظاهر، محيي الدين عبد الله، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر،

الرياض، 1976.

ابن واصل، جمال الدين محمد، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج4، تحقيق محمد حسنين ربيع، القاهرة، 1972.

أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمان، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، القاهرة، 1962.

رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، م3، تعريب السيد الباز العريني، بيروت، 1967.

(3680/1)

زيادة، نقولا، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، بيروت، طبعة 1986.

الصوري، وليم، تاريخ الحروب الصليبية، نقله إلى العربية سهيل زكار، دمشق، 1990.

المعلوف، اسكندر عيسى، دواني القطوف في تاريخ بني معلوف، بعبدا، 1907–1908.

المقريزي، تقي الدين أحمد، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ق1–3، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1934–1958.

منصور، أسعد، تاريخ الناصرة من أقدم أرسافها إلى أيامنا الحاضرة، مصر، 1924.

Balard M., Les croisades, présentées par
.1988Robert Delort, Paris,

(3681/1)

Baldi, Donatus, Enchiridion Locorum Sanctore,
.1995Jérusalem,
, London, 17Britanica, art. « Pilgrimage », vol.
.1965
D'Anglure, Seigneur, Le Saint voyage du
Jérusalem du Seigneur d'Anglure, publié par F.
.1878Bonnardot et A. Longnon, Paris,
Dansette, B. et autres, Croisades et pèlerinages
(Récits, Chroniques et Voyages en Terre Sainte,
.1997XII-XVI Siècle), Paris,
., VII2Fiey, J. M., art. "Nasara", El
Grousset, R., Histoire des Croisades, vol. III,
.1936Paris,

(3682/1)

Mourre, M., Dictionnaire Encyclopédique
.1978d'Histoire, Paris,
Prawer, J., Histoire du Royaume Latin de

.1970Jérusalem, vol. II, Paris,

.1996Richard, J., Histoire des Croisades, Paris,

.1857Wey, W., Itinerarium of W. W., London,

(1)

(3683/1)

الحرب الأهلية العمانية 1718–1753م

الدكتور محمد حسن العيدروس

كلية الآداب – جامعة الكويت

مقدمة

... أدت دولة اليعاربة دورا رئيسا في تاريخ الحديث ليس في منطقة الخليج وجنوب الجزيرة العربية وشرقها فحسب، بل في سواحل الهند الغربية وسواحل إيران الجنوبية على بحر العرب وكذلك في شرق أفريقيا أيضا. ولكن الفترة الأخيرة من حكمها كانت مؤلمة، وجاءت نتيجة للحرب الأهلية العمانية التي أدت إلى نهايتها. ولذا فإننا نعالج إشكالية هذا الحرب وكيف؟ ولماذا؟ وما

الأطراف التي لعبت دورا في هذا الحرب وما دوافعها؟ ثم ما

(1/3684)

النتائج التي ترتبت على هذه الحرب؟

... هذا ما سوف نحاول دراسته انطلاقا من خلفية تاريخية لعمان قبل الحرب الأهلية، ثم النزاع الأسري وبداية الحرب الأهلية، منذ انتخاب الإمام مهنا بن سلطان ثم الإمام يعرب بن بلعرب، والتحزب الهنائي والغافري وبلعرب بن ناصر والانقسام إلى الهنائي والغافري ثم العوامل التي أدت إليه مثل العامل الجغرافي، والعامل الاقتصادي، والعامل السياسي، ثم انتخاب الإمام محمد بن ناصر الغافري، ثم مبايعة الإمام سيف بن سلطان وخلعه ومبايعة الإمام بلعرب بن حمير، ثم استعانة سيف بن سلطان بالفرس

(1/3685)

وانتخاب الإمام سلطان بن مرشد وبعدها مرحلة تحرير عمان من الغزو الفارسي، ثم نهاية اليعاربة بظهور

أحمد بن سعيد والقضاء على آخر أئمة اليعاربة بلعرب بن حمير، ثم ننهي دراستنا بأهم النتائج عن الحرب الأهلية.

الخلفية التاريخية قبل الحرب الأهلية

... برزت عمان بصفتها دولة قوية في القرن السابع عشر بفضل الحكم الإسلامي المتمثل في الإمامة(1)، وقد حكم آل نبهان منذ منتصف القرن الثاني عشر(2)

---

(1) John Kell, Britain and the Persian Gulf 1795–1880, London, 1968, p.4.

(2) » The Geographical Section of the naval Intelligence Division », A Handbook of Arabia, vol. I, p.237.

(1/3686)

، حتى مجيء الاستعمار البرتغالي واحتلاله لموانىء "قريات" و"مسقط" و"مطرح" و"خورفكان" عام 1507(1). وبذلك ضعفت سيطرة بني نبهان(2)، واتخذ الملك محمد بن

---

(1) Samuel B. Miles, The Countries and Tribes of the Persian Gulf, 2 Vols, London, 1919, and 2nd ed. in one volume, 1966, p.4.

(2) Alexander Hamilton, A New Account of the East Indies. A General Collection of the Best And Most Interesting Voyages And Travels in All Parts of the World Digested By John Pinkerton, Vol. VIII, London, 1811, p.288.

(1/3687)

سليمان النبهاني من "نزوى" عاصمة له بعدما كانت "بهلى" العاصمة في عهد بني نبهان الأوائل(1). واتفق علماء الدين الإباضية في عمان لإيجاد حل للمشاكل القائمة من التفرقة والفتن(2)، والتخلص من الاستعمار البرتغالي؛ وذلك عن طريق انتخابه إماما

---

(1) **د. محمد علي الدؤاد، "ملامح التاريخ السياسي لمنطقة الخليج العربي"، مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة، العدد** 8، 1977، **ص**.11.

(2) George Percy Badger, History of the Imams and Seyyids of Oman by Salil - Ibn - Razik, Introduction and Analysis, London, 1871, p.XXX.

(1/3688)

له. فوقع الاختيار على ناصر بن مرشد اليعربي عام 1624م الذي يرجع إلى إحدى بطون النبهان من قبيلة الأزد اليمنية، فرضي به الجميع وعقدوا عليه الإمامة بالرستاق(1). واستطاع هذا الإمام أن يستوعب كل أبعاد القضية وأن يدرك المتغيرات الجارية من حوله سواء على المستوى المحلي العماني أو الخارجي الخليجي(2)

(1) نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، "تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان"، القاهرة، 1961، ج2، ص.2.

(2) د. محمد صابر إبراهيم عرب، "دولة اليعاربة بين الوحدة الوطنية والانتصارات الخارجية"، مجلة الجمعية التاريخية المصرية، العدد 37، 1980، ص.191.

(3689/1)

. ولذا فقد أدرك ثقل المهمة وقدر كل أبعادها(1).

... قام الإمام ناصر بن مرشد بتوحيد عمان والقضاء على المعارضة ومنافسة القبائل بعضها لبعض(2)، ونجح في تحرير "رأس الخيمة" و"خورفكان"(3)، واستولى على

(1) د. محمد صابر إبراهيم عرب، المرجع نفسه، ص.191.

(2) Justus Strandes, The Portuguese Period In East Africa, Translated from the German by F. Tean, Wallwork, Nairobi, 1968, p.197.

(3) J. G. Lorimer, « Gazetteer of the Persian Gulf », Oman and Central Arabia, Vol 2, Irish University Press, 1970, p.161.

(3690/1)

"صحار" من البرتغاليين عام 1643م(1) وأرغمهم على عقد معاهدة تعهدوا فيها بدفع الجزية السنوية والسماح بحرية التجارة(2) حسب شروط الإمام(3)

---

(1) **د. جمال زكريا قاسم، "دولة البوسعيد في عمان وشرق إفريقيا** 1841–1861"، **القاهرة**، 1968، **ص**.20.

(2) **د. بدر عباس الخصوصي، "العامل الاقتصادي وأثره على إنسان الخليج العربي في العصر الحديث"، محاضرات الموسم السابع**، 1974؛ **"الخليج العربي في مواجهة التحديات"، رابطة الاجتماعيين، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت**، 1977، **ص**.405.

(3) Derek Hopwood. « The Arabian Peininsula Society and Politics, London, 1972», p.97.

(3691/1)

. وبعد وفاة الإمام ناصر بن مرشد، نجح خليفته الإمام سلطان بن سيف (1649–1668م)(1) في تحرير مسقط، وتتبعهم نحو ممتلكاتهم في الهند وشرق إفريقيا(2)، وطرد البرتغاليين من ممباسا(3)، والجزيرة الخضراء وكلوة(4).

---

(1) نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، المرجع السابق، ج2، ص.45.

(2) Badger George Percy, Op. Cit., p.XXVII.

(3) Ian Skeet, Mascat and Oman. The End of an Era, London, 1974, p.38.

(4) حميد بن محمد بن رزيق، "الشعاع الشائع"، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، 1978، ص.217.

(3692/1)

وبويع بلعرب بن سلطان (1668–1688م) بعد وفاة والده. وفي آخر حكمه، ثار أخوه سيف بن سلطان واجتمع

أعيان عمان وبايعوا سيفا بالإكراه(1). وبلغت عمان أوج قوتها وازدهارها في عهد الإمام سيف بن سلطان (1688–1711م) الذي اهتم بالزراعة وخاصة النخيل(2)، كما اهتم بزراعة جوز الهند(3)، وواصل سياسة والده فعمل

---

(1) محمد بن عبد الله السالمي وناجي عساف، "عمان. تاريخ يتكلم"، دمشق، 1963، ص.158.

(2) W. H. Ingrams, Zanzibar Its History and Its People, London, 1931, p.119.

(3) دونالد هولي، "عمان ونهضتها الحديثة"، ص.28.

(1/3693)

على مد سيادته إلى الهند وشرق أفريقيا(1). ومن خلال أسطوله البحري القوي(2)، أصبحت عمان أعظم قوة بحرية غير أوربية في المياه الشرقية(3). ويقول الكابتن شارلز لوكير (Captain

---

(1) د. جمال زكريا قاسم، "الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية"، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1975، ص.108.

(2) George Percy Badger, op. cit., p. 23.

(3) Laurence Lockhart, « Nadir Shah's Campings in Oman, 1737–1744 », Bulletin of the School of Oriental and African Studies, vol. VIII, 1936, Pt. 1, pp. 157–171.

(1/3694)

(Charles –الذي زار مسقط عام 1706م ولاحظ القوة البحرية – بأن الأسطول العماني يتكون من أربع عشرة سفينة حربية وعشرين سفينة تجارية وبعض هذه السفن يحتوي على سبعين مدفعا ولا توجد سفينة تحمل أقل من عشرين مدفعا(1). وقد بنى العمانيون طرازا جديدا من السفن والمدفعية على الطراز الأوربي ذات الأشرعة المربعة(2)، وذلك بعدما تم تخصيص المبالغ الكبيرة من الموارد المالية من ميزانية

---

(1) Charles Lockyer, An account of the Trade in India, London, 1911, p. 207.

(2) Robert Geran Landen, Oman since 1856, London, p. 56.

(1/3695)

الدولة لبناء وشراء السفن الحربية إضافة إلى السفن البرتغالية التي تم الاستيلاء عليها(1)، وبذلك أصبح العمانيون يملكون أكبر أسطول بحري في المنطقة(2)، واستخدموها للجهاد ضد البرتغاليين(3).

---

(1) R. D. Bathurst, Maritimetrade and Imamate Government: Two Principal Themes in the History of Oman tp 1728 in the arabian Peninsula, London, 1972, p.99.

(2) Robert Geran Landen, op. cit., p. 57.

(3) W. H. Ingram, op. cit., p. 120.

(1/3696)

... أصبحت عمان قوة اقتصادية(1) يشمل نشاطها التجاري الخليج العربي والهند وامتد إلى البحيرات الوسطى في إفريقيا. وكانت مسقط مركزا لهذا النشاط التجاري وأهم موانئ المحيط الهندي(2). وبويع سلطان بن سيف الثاني إماما على عمان بعد وفاة والده عام 1711م(3)، واستمر حكمه حتى وفاته عام 1718م وتابع سيرة آبائه وأجداده(4)

---

(1) Sreet, op. cit., p. 39.

(2) R. D. Bathurst, op. cit., p. 99.

(3) د. خلدون حسن النقيب، "المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987، ص.76.

(4) د. خلدون حسن النقيب، المرجع نفسه، ص.79.

(1/3697)

بالجهاد والتوسع. وكانت القوة البحرية العمانية الأولى في الجزء الغربي من المحيط الهندي(1). وعن طريقها حارب الإيرانيين وانتزع منهم جزرا عديدة منها جزيرة قشم وهرمز(2) ولارك وهنجام، كما استولى على جزيرة البحرين عام 1717م(3)، وهاجم ديو في الهند وكذلك ساحل كجرات وأخضع جزيرتي سالست والدامان واحتل بارسلور ومانجلور

---

(1) R. Coupland, East Africa and its Invaders, London, 1969, p.69.

(2) Laurence Lokchart, The Fall of the Safari

.115, p.1958, 35Dynasty, Cambridge,

.237S. B. Miks, op. cit., p. (3)

(3698/1)

بالقرب من بومباي وضم جميع تلك الأجزاء إلى عمان(1).

النزاع الأسري وبداية الحرب الأهلية:

... حقق اليعاربة الإنجازات الكبيرة لعمان وجعلوها كيانا سياسيا قويا ليس في المشرق العربي فحسب، بل في المحيط الهندي أيضا. وهي أقوى وأكبر دولة بحرية عرفت في تاريخ العرب الحديث. إلا أن هذا النجاح الذي حققه اليعاربة خارج بلادهم وقف عاجزا أمام الصراعات الداخلية(2) وخاصة الأسرية والقبلية وهو ما أضعف كيان عمان.

.98Derek. Hopwood, op. cit., p. (1)

(2) د. جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص.37.

(3699/1)

... فاضت روح الإمام سلطان بن سيف الثاني في أواخر العام 1718م(1)، وهو راقد في حصن الحزم الذي بناه

قاعدة عسكرية، ودفن فيه(2). وبموت هذا الإمام، بدأت عمان تتجه نحو حروب أهلية شاملة ومدمرة(3)، وعادت البلاد تواجه وضعا قريبا من أوضاعها قبيل قيام دولة اليعاربة ممثلا في ذلك الانقسام الذي أخذت تواجهه البلاد(4)

---

(1) J. B. Kell, op. cit., p. 8.

(2) نور الدين عبد الله بن حميد السالمي، المرجع السابق، ص.110.

(3) محمد بن عبد الله السلمي وناجي عساف، المرجع السابق، ص.160.

(4) عائشة السيار، "دولة اليعاربة في عمان وشرق إفريقيا"، وزارة الإعلام بدولة الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي، 1975، ص.182.

(3700/1)

. وبوفاة الإمام سلطان بن سيف الثاني انتهت الوحدة التي عرفها العمانيون؛ إذ أعقبت وفاته سنوات من الحروب الأهلية، استمرت أكثر من ثمانية عشر عاما وقعت في خلالها مجموعة كبيرة من الاضطرابات والثورات أدت إلى انقسام العمانيين(1). وبذلك ضاعت

هذه الانتفاضة والنهضة العمانية التي كانت تعبيرا عن المقاومة المحلية العربية للنفوذ والوجود الاستعماري البرتغالي في رمال

---

(1) د. جمال زكريا قاسم، "الخليج العربي"، دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، 1985، ص.132.

(3701/1)

الانقسامات والتحزبات القبلية والصراع على السلطة(1) من خلال الحرب الأهلية العمانية.

الإمام مهنا بن سلطان بن حامد (1718–1720م):

... ارتبطت حركة المقاومة المحلية الوطنية بالقضية المذهبية العصبية العريقة في القدم. وتغلب هذه السمة العصبية المذهبية على الدين في الجزيرة العربية عامة واليمن وعمان خاصة. فالتحرك الأول يمثل القبائل القحطانية اليمنية(2)، التي اتخذت موقف المعارضة من القبائل العربية العدنانية الحجازية في وقت مبكر ربما عاد

---

(1) د. خلدون حسن النقيب، المرجع السابق، ص.79.

(2) المرجع نفسه، ص.75.

إلى ما قبل الإسلام؛ ولذلك كان اعتناق بعضها للمذهب الزيدي في اليمن يمثل امتدادا لهذا الموقف التاريخي، في حين كان الاعتناق المذهب الإباضي في حضرموت.

وكانت القبائل العمانية التي اعتنقت المذهب الإباضي تنتمي إلى الازد أو قضاعة، وهما قبيلتان يمنيتان تحالفتا مع عناصر من قبائل كندة الحضرمية(1).

... يرجع قيام دولة الإباضية في عمان حسب ما توفر لنا المصادر العمانية إلى شخص هو الجلندى بن مسعود(2)

---

(1) المرجع نفسه، ص.75.

(2) سرحان بن سعيد الأزكوي العماني، "تاريخ عمان"، المقتبس من كتاب "كشف الغمة لتاريخ الأمة"، تحقيق عبد المجيد القيس، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، 1980، ص.345.

، الذي كان في جيش الإمام "طالب الحق" في حضرموت(1).

ولما قتل الإمام الأخير، جاء إلى عمان فبايعه أهلها. وكان هذا في مطلع النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي(2).

ولهذا نجد اختلافا في وجهات النظر بين الفقهاء من علماء الإباضية الذين كانوا يميلون إلى الشريعة الإسلامية ويصرون على تطبيقها دون محاباة، وبين عامة الشعب الذين يجرون وراء رغباتهم العاطفية دون فهم الآثار المترتبة بالخروج على

---

(1) د. خالد ناصر الوسيمي، "عمان بين الاستقلال والاحتلال"، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، 1993، ص.70.

(2) المرجع نفسه.

تطبيق الشريعة الإسلامية، إضافة إلى عامل التحيز الأسري، وهو تحزب مجموعة من رجال أسرة اليعاربة دون وعي للخطر المحدق بأسرتهم ودولتهم من خلال الوقوف إلى جانب الصبي الصغير سيف بن سلطان ضد الإمام الذي بايعه علماء الإباضية. وبرغم أن البيعة كانت محصورة في أسرة اليعاربة، فإنها لم تأخذ بمبدإ اختيار الابن

ليخلف الأب، بل كانت تنصرف إلى أي فرد من أفراد الأسرة الكبيرة(1).

---

(1) د. صلاح العقاد، "التيارات السياسية في الخليج العربي"، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1991، ص.46.

(3705/1)

... تعرضت أسرة اليعاربة إلى صراع أسري خطير حول منصب الإمامة والسلطة(1)، وزاد الوضع سوءا بقيام فتنة كبرى في عمان أدت إلى انقسام الشعب العماني الذي اختلف على الإمامة بعد وفاة الإمام سلطان بن سيف عام 1718م(2) نظرا لصغر سن ابنه سيف الذي كان صبيا دون العاشرة من عمره(3) لا يستطيع إدارة أمور الشعب(4)

---

(1) محمد عبد الله السلمي وناجي عساف، المرجع السابق، ص.160.

(2) I. B. Kelly, op. cit.

(3) George Percy Badger, op. cit., p.XXX.

(4) E. G. Ross, Annals of Oman from Early Times to the Year 1728a. p.; Beng AS. Soc.

Journal of the Asiatic Society of Bengal, Vol.
.166, p.1874XLIII, Calcutta,

(3706/1)

، ولم يكن له أخوة أكبر منه سنا. ففي الوقت الذي تمسكت فيه عامة الشعب بسيف(1)، لم يرض خاصتهم بذلك(2)، فاختلف القضاة والولاة والعلماء وشيوخ القبائل(3). وقد اعتبر علماء المذهب الإباضي هذا الانتخاب لسيف بن سلطان بدعة تتعارض مع شروط الإمامة(4) التي تفرض أن يكون بالغا عاقلا سليم الجسم

---

(1) S. B. Miles, op. cit., p. 288.

(2) د. جمال زكريا قاسم، "الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية"، ص.30.

(3) J. B. Kelly, op. cit., p. 8.

(4) Donald Hawley, The Trucial Stucial States, London, 1970, p.80.

(3707/1)

والحواس(1). إذ أنه لا يجوز في الشريعة الإسلامية إمامة الصبي في الصلاة، فكيف تجوز إمامته في الدولة(2)؟!

وظهر في الوقت نفسه منافس للصبي، وهو زوج عمته مهنا بن سلطان بن ماجد بن مبارك(3) الذي يؤيده علماء الإباضية. أما الأسرة اليعربية، فقد أرادت إبقاء السلطة بيدها وليس في يد علماء الإباضية؛ ولهذا رفضت إمامة مهنا بن سلطان

---

(1) Bertram Thomas, Arab Rule under the Al - Bu Said Dynasty in Oman and East Africa, London, 1938p.10.

(2) G. P. Badger, op. cit., p. 99.

(3) Derek. Hopwood. , op. cit., p. 104.

(3708/1)

ودعت إلى إمامة الصبي الصغير(1)، واشتدت الخصومة وتحزب كل طرف إلى جهة وإلى زعيم، وانصرف الطرفان إلى السلاح وأطلت الفتنة وبوادر الحرب الأهلية. وكان الشيخ عدي بن سليمان الذهلي قاضي القضاة، يراقب الموقف بحذر شديد، فلاحظ أن عامة الشعب العماني تؤيد إمامة الصبي الصغير. وهذا ما لم يكن يؤكده القاضي

عدي نفسه؛ فأراد استعمال الحكمة والدهاء في معالجة الموقف وسرعان ما ظهر أمام الملأ ممسكا بيد الطفل وبايعه أمام الشعب بطريقة لغوية(2)

---

(1) نور الدين بن عبد الله بن حميد السالمي، المرجع السابق، ج2، ص.116.

(2) فالح حنظل، "المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة"، لجنة التراث والتاريخ، أبو ظبي، 1983، ص.120.

(3709/1)

دبلوماسية تظهر حنكته وسياسته. وحول ذلك يقول سرحان الأزكوري في مخطوطه:

... وبعد وفاة سلطان، فإن رؤوس من القبائل الذين في قلوبهم العصبية والحمية أرادوا أن يكون مكانة ولده سيف وهو صغير لم يراهق وأراد أهل العلم وبنت الإمام سيف أن يكون الإمامة لمهنا بن سلطان بن ماجد بن مبارك وهو الذي تزوج بنت الإمام سيف، أي سيف بن سلطان الأول أخت سلطان (أي الإمام سلطان بن سيف بذلك تعتبر عمة الصبي الصغير سيف بن سلطان) هذا إذ

هو فيما عندهم أنه أحل لذلك وأنه ذو قوة عليها ولم يعرفوا عنه ما يخرجه من الولاية وعرفوا أن

(3710/1)

إمامة الصبي لا تجوز في الصلاة، فكيف يكون إماما يتولى الأحكام ويلي الأموال والدماء والفروج، ولا يجوز أن يقبض مال الله ومال الأيتام إلا في غياب من لا يملك أمره. فلما رأى الشيخ عدي بن سليمان الذهلي القاضي بين الناس إلى ولد الإمام ولم يجد رخصة ليتبعهم على ذلك وخاف أن تقع الفتنة لاجتماع الناس على الباطل وربما أشهروا السلاح ووقع بعض الجراح فأراد تسكينهم وتفرق إجماعهم، فقال لهم أمامكم سيف بن سلطان –بفتح الألف والميم الثانية من "أمامكم"– ويعني قدامكم، ولم يقل "إمامكم" –بكسر الألف وضم الميم الثانية –

(3711/1)

الذي يكون بذلك الملك والسلطان القائم بالإمامة. قال ذلك على معنى المندوحة، فعند ذلك نادوا بالإمامة وضربوا المدافع إظهارا واشتهادا.وانتشر الخبر في

عمان أن الإمام هو سيف بن سلطان. فلما سكتت الحركة وهدأ الناس، أدخلوا الشيخ مهنا حصن الرستاق خفية وعقدوا له الإمامة في هذا الشهر الذي مات فيه سلطان من هذه السنة(1).

... يدل ذلك على أن عامة الناس يجهلون في ذلك الوقت حتى مصالحهم أين تكمن، في حين نجد علماء الدين فيهم الزهد ومخافة الله، مما يجعلهم لا ينحرفون وراء

---

(1) سرحان الأزكوي، المرجع السابق، ص.115.

عواطفهم مثل عامة الناس، وذلك لعدم وجود وعي سياسي أو ديني لدى العامة؛ في حين نجد العلماء يضعون مصلحة الإمامة والبلاد فوق المصالح الأخرى، وأن بيعة الشعب للصبي تمثل عملية انتخابية في منتهى الديمقراطية، ولكن المرشح لا تتوافر فيه الشروط اللازمة كي يحكم الأمة. وهنا يكمن الخلل في العملية الانتخابية أو البيعة، نظرا لأن العامة تريد الصبي لأن أسرته أسدت خدمات جلى لعمان ابتداء من أبيه ثم جده وجد جده.

... يبدو هناك رأيان مختلفان حول قرابة نسب الإمام

مهنا إلى البيت أو الفرع الحاكم من الأسرة اليعربية.

فقد

جاء في الرأي الأول لابن رزيق في كتابه "الفتح المبين"(1) أن مهنا هو ابن سلطان بن سيف الإمام المتوفى وأخو سيف بن سلطان الصغير المرشح للإمامة أو هو الإمام سلطان بن سيف الأول المتوفى 1668م. وهذا أمر مستبعد وغير معقول؛ والأقرب في هذا الرأي هو سلطان بن سيف الثاني المتوفى عام 1718م. أما الرأي الثاني الذي جاء في كتاب "تاريخ عمان" لمؤلف مجهول(2)

---

(1) حميد بن محمد بن رزيق، المرجع السابق، ج 2، ص.30.

(2) د. سعيد عبد الفتاح عاشور، تحقيق مخطوطة لمؤلف مجهول، كتاب "تاريخ عمان"، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، 1980، ص.116.

وعند سرحان الأزكوي(1)، فمفاده أن مهنا هو ابن سلطان بن ماجد بن مبارك زوج أخت الإمام المتوفى سلطان بن

سيف الثاني. ويبدو أن الرأي الثاني هو الأصح. فما الذي يدفع بالشعب العماني وبالذات اليعاربة للنزاع فيمن يتولى الإمامة ما دام المرشحان أخوين وابنين للإمام الراحل سلطان بن سيف الثاني وما دام مهنا –كما يبدو– هو الابن الأكبر لأن سيف صغير السن لا تجوز له الإمامة. لكن اليعاربة ثارت على مهنا. وفي ذلك دليل واضح على أن مهنا ليس أخا لسيف بن سلطان ولا ابنا للإمام

---

(1) سرحان الأزكوي، المرجع السابق، ص.14.

(3715/1)

المتوفى سلطان بن سيف الثاني(1).

... تدارك قاضي القضاة وأهل الرأي الفتنة ببيعة الإمام مهنا بن سلطان(2)، الذي لا يعتبر من الفخذ الحاكم في الأسرة اليعربية بل نسيبا لها: فهو زوج أخت الإمام الراحل وزوج عمة الصبي. فكان قدومه بداية تكتل معارض تزعمته الأسرة اليعربية التي أرادت إبقاء الإمامة بين الصبي الصغير دون إعطائها إلى آخر، مما أدى إلى قيام صراع على الإمامة(3)

---

(1) د. مديحة أحمد درويش، "سلطة عمان في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر"، دار الشروق، جدة، 1982، ص.39.

(2) Donald Hawley, op. cit., p. 80.

(3) Derek. Hopwood. , op. cit., p. 101.

(3716/1)

ما بين اليعاربة من جهة(1) وشيوخ القبائل من جهة أخرى. ولم يؤد ذلك إلى إضعاف الإمامة فحسب، بل أدى إلى مزيد من الفتن والحروب الأهلية(2). وإن كان الإمام مهنا بن سلطان حسن السيرة والسلوك مجتهدا في التقرب من كافة فئات الشعب العماني بما قدمه من إصلاحات سياسية واقتصادية وكان إداريا ناجحا من الطراز الأول وعقلية تجارية نشطة؛ وقام بإصلاح ميناء مسقط(3)

---

(1) د. صالح محمد العابد، "دور القواسم في الخليج العربي 1747–1820"، بغداد، 1976، ص.42,

(2) S. B. Miles, op. cit., p. 238.

(3) د. خالد ناصر الوسمي، المرجع السابق، ص.40.

(3717/1)

، وشجع التجارة والاستيراد والتصدير، وقام بتخفيض الضرائب على البضائع(1). وحول هذا يقول سرحان الأزكوي:

فقام بالأمر واستراحت الرعية في زمنه وحط الناس العادات في مسكد (أي بمعنى خفض رسوم الجمارك في مسقط) ولم يجعل لها وكيلا وربحت الرعية في متجرها ورخصت الأسعار وبورك في الثمار ولم ينكر عليه أحد من العلماء وإن يكن هو كثير العلم، إلا أنه يتعلم ويسأل ولم يقم على أمر إلا بمشورة العلماء فلبث على ذلك سنة حتى قتل ظلما(2).

---

(1) المرجع نفسه، ص.40.

(2) سرحان الأزكوي، المرجع السابق، ص.115.

(3718/1)

... يبدو أن الإمام مهنا بن سلطان اضطر إلى إجراء الانتقالات في الأسرة الحاكمة السابقة، فحجز كبار رجالاتها ونفي بعضهم. وكان أشهر من سجنهم هو يعرب بن الإمام السابق بلعرب بن سلطان الذي حكم عامي 1668–1688م، وبهذا يكون يعرب ابن عم والد الصبي

الصغير، ولكن يعرب بن بلعرب تمكن من الهرب من السجن إلى حصن يبرين(1).

الإمام يعرب بلعرب (1720–1722):

... لم يرض الشعب العماني مهنا بن سلطان(2)، وكذلك بقية أفراد الأسرة اليعربية(3)

---

(1) فالح حنظل، المرجع السابق، ج1، ص.130.

(2) G. P. Badger, op. cit., p. 170.

(3) نور الدين بن عبد الله بن حميد السالمي، المرجع السابق، ج2، ص.116.

(3719/1)

، فلجأوا إلى يعرب بلعرب بن سلطان بن سيف بن مالك(1)، وأوغروا صدره على الإمام مهنا الذي كان مناوئا(2) له لكي ينتزع منه الإمامة(3). ومن حصن يبرين أخذ يعرب بن بلعرب يباشر نشاطه السياسي ضد الإمام مهنا بن سلطان، وصادفت نشاطاته وقعا حسنا في نفوس اليعاربة، كما أعلنت مدينة الرستاق ولاءها للثائر يعرب الذي قرر أن

---

(1) حميد بن محمد بن رزيق، "الفتح المبين في سيرة

السادة البور سعيدية"، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، 1977، ص.236.

(2) Donald Hawley, op. cit., p. 80.

(3) S. B. Miles, op. cit., p. 239.

(1/3720)

يتحرك عسكريا، فجند جيشا من أنصاره وتوجه به إلى مدينة مسقط ليتخذها قاعدة لتحركاته، وهناك استقبله وفد من سكان المدينة وفوجئ الوالي مسعود بن محمد الصارمي بيعرب وجيشه يدخل القصر فاستسلم لهم. وفي صباح اليوم التالي أعلن يعرب الثورة رسميا متخذا من مسقط قاعدة له ومعلنا انفصاله عن مهنا بن سلطان. أما مهنا، فكان في تلك الفترة في منطقة البريمي فتركها مسرعا واتجه نحو مدينة الرستاق ودخلها(1).

---

(1) فالح حنظل، المرجع السابق، ج 1، ص.13.

(1/3721)

... جمع يعرب بلعرب جيشا كبيرا توجه به نحو المدينة نفسها. وهناك التحم الطرفان في معركة انتهت بهزيمة الإمام مهنا بن سلطان الذي خذله أعوانه من القبائل والقوات الموالية له ورفضوا تقديم المساعدات له، فأصيب بيأس من الحرب واستسلم لخصومه فدخل الثائر يعرب بلعرب إلى المدينة فاتحا وألقى القبض على الإمام مهنا بن سلطان وجميع أهله ومساعديه(1).

وبعدما أمنهم على حياتهم، نكص وعدوه وأمر باعتقالهم(2) ثم أمر بربطهم بالأخشاب وتركهم على تلك الصورة مدة ثم

---

(1) المرجع نفسه، ص.131.

(2) S. B. Miles, op. cit., p. 239.

(3722/1)

أمر بإعدامهم جميعا(1). وأقام يعرب فترة قصيرة بعد توليه الحكم في الرستاق(2) ثم توجه إلى نزوى فدخلها عام 1721م(3). وحول ذلك يقول سرحان الأزكوي في مخطوطه:

... فلما عقد مهنا بن سلطان، لم تزل اليعاربة داخل الرستاق مسرين العداوة له وللقاضي عدي بن سلمان

الذهلي. ولم يزالوا بيعرب بن بلعرب بن سلطان بن سيف بن مالك يمقتونه على القيام بأمر سيف والخروج على مهنا حتى خرج

---

(1) E. G. Ross, op. cit., p. 166.

(2) G. P. Badger, op. cit., p. 99.

(3) نور الدين بن عبد الله بن حميد السالمي، المرجع السابق، ج2، ص.117.

على الإمام مهنا وسار مختفيا إلى مسكد، أي مسقط فما كان إلا وقيل أن يعرب بن بلعرب في الكوت الشرقي، أي الحصن الشرقي من قلعة مسقط وكان الوالي فيها يومئذ الشيخ مسعود بن محمد بن مسعود الصارمي الريامي.

وكان الإمام مهنا خارجا إلى فلج البزيلي من ناحية الجو البريمي فبلغه الخبر فرجع إلى الرستاق فقام وشمر وجاهد وما قعد وطلب من أهل عمان النصر فخذلوه ولم ينصروه. ونصب له أهل الرستاق الحرب وحصروه في قلعة الرستاق ثم طلع يعرب من مسكد (مسقط) إلى الرستاق وسأل المهنا النزول من القلعة وأعطوه الأمان على نفسه وماله

ومن معه ففكر في أمره فرأى أنه مخذول وليس له ناصر من أهل عمان وتبين له الخذلان فأجابهم إلى ما أعطوه من الأمان فنزل من القلعة فزالت بذلك إمامته، فأخذوه وقيدوه وخشبوه (أي صلبوه) هو وواحد من أصحابه من بعدما أمنوه. واستقام الأمر ليعرب ولم يكن يدعي الإمامة، بل جعل الإمامة لابن عمه سيف بن سلطان وهو القائم بالأمر إذ بسيف صغير السن لا يقوم بأمر الدولة. وسلمت لهما جميع حصون عمان وقبائلها(1).

(1) سرحان الأزكوي، المرجع السابق، ص.118.

... خلف الإمام مهنا بن سلطان يعرب بن بلعرب الذي جاء به إلى الحكم جماعة من الذين كانوا قد شاركوا في قتل الإمام مهنا(1)، واجه يعرب بن بلعرب معارضة شديدة من العلماء والفقهاء الإباضية الذين اعتبروا خروجه على مهنا اغتصابا للحكم. وقد اتسمت بداية وصايته بالكثير من الجفاء بينه وبين قاضي القضاة عدي الذهلي

الذي طالبه بتعويض المتضررين من الحرب التي خاضها ضد مهنا من سكان الرستاق وغيرهم. فاستجاب يعرب لذلك، وباشر إعطاء التعويضات لمتضرري الحرب الأهلية. فاعتبر

---

(1) د. خالد ناصر الوسمي، المرجع السابق، ص.40.

(3726/1)

الفقهاء ذلك توبة منه وندما على ما بدر منه من تصرفات وتصالحوا معه(1). وبذلك حصل على الشرعية بالوصاية على الصبي سيف بن سلطان(2)، بعدما كان يحكم من البداية باسم الصبي سيف الصغير ونيابة عنه(3).

... فتم ذلك الصلح بين يعرب وقاضي عدي مجال الحديث في إسقاط الإمامة عن الصبي الصغير ومبايعة الوصي. وقد أقر القضاة هذا الأمر فيما بعد، بل إنهم أقروا إسقاط دفع التعويضات لمتضرري الحرب الأهلية. وهكذا

---

(1) فالح حنظل، المرجع السابق، ج 1، ص.132.

(2) G. P. Badger, op. cit., p. 101.

(3) S. B. Miles, op. cit., p. 239.

(3727/1)

تم إعلان البيعة في مدينة نزوى(1). وبذلك استحوذ يعرب بلعرب على جميع السلطات في يديه(2). وقد عارض ذلك أفراد اليعاربة في الرستاق، بل إن سكانها أعلنوا عدم رضاهم. وعندما قام الإمام يعرب بن بلعرب، واجهه سكان الرستاق بالاحتجاج، كما تمكن أعوان الصبي من خطفه ونقله إلى إحدى ضواحي مدينة نزوى حيث يقيم خال الصبي بلعرب بن ناصر. وكانت وفود من أهالي نزوى قد توجهت إلى سكن بلعرب بن ناصر ومعه ابن

(1) د. جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص.38.

(2) نور الدين بن عبد الله بن حميد السالمي، المرجع السابق، ج2، ص.123.

أخته الصبي لتقدم له فروض الطاعة وطلبوا إليه قيادة الثورة على الإمام الجديد يعرب بن بلعرب وإعادة ابن أخته إلى الحكم كما وصلت إليه كتب ورسائل من أنحاء مختلفة من عمان تعلق الولاء وتحرض على الثورة(1).

واختمرت في رأسه هذه الفكرة وأراد أن ينفذها وكان لا بد من إيجاد حزب سياسي قوي يعتمد عليه سياسيا

وعسكريا. وكان هناك زعيمان سياسيان بارزان في المنطقة، هما خلف بن مبارك القصير الهنائي ومحمد بن ناصر الغافري ولكل منهما أتباعه وقبائله. ومن هنا كانت بداية تحزب عمان إلى

---

(1) فالح حنظل، المرجع السابق، ص.132.

(3729/1)

الهنائي والغافري.

الحرب الأهلية والتحزب الهنائي والغافري:

... يبدو أن قبيلة بني هناء كانت تشكل كتلة سياسية هامة تحت زعامة خلف بن مبارك القصير الهنائي وكذلك الغافري بزعامة محمد بن ناصر الغافري. فقد كانت قبيلة بني هناء وأحلافها على خصام مع مؤسس الدولة اليعربية الإمام ناصر بن مرشد الذي كان قد حجر على بعض أملاكهم وحجزها، مما أدى إلى نشوب خلاف سياسي بين الأسرة اليعربية وبني هناء. فقرر بلعرب أن يستغل ذلك الخلاف لصالحه وأن يكسب بني هناء إلى جانبه، فترك مدينة نزوى ومعه ابن أخته الصبي سيف وقصد منطقة

(3730/1)

السيت التي يقيم بها الزعيم خلف بمن مبارك القصير الهنائي. واتفق الطرفان على التحالف شريطة أن تعاد أملاك بني هناء التي حجزتها الدولة اليعربية إليهم في حالة نجاح بلعرب بن ناصر في الاستيلاء على السلطة في عمان(1). وهنا قرر بلعرب بن ناصر الخروج على الإمام يعرب بن بلعرب(2) وخلعه من الإمامة واستعادته لابن أخته الصبي(3) والتوجه إلى الرستاق لإعلان إسقاط الإمام يعرب بن بلعرب. فاجتمعت قبائل الهنائيين

(1) المرجع نفسه، ص.133.

(2) Derek. Hopwood, op. cit., p. 104.

(3) Donald Hawley, op. cit., p. 81.

وحلفاؤها. وسار إلى تلك القوات وتمكن من دخول الرستاق وخلع الوالي(1). وقد فشل الإمام يعرب بن بلعرب في استعادة الرستاق فعاد إلى نزوى(2).

... باشر بلعرب بن ناصر الكتابة إلى ولاة مسقط والنخل وسمائل يطلب إليهم البيعة فبايعوه، في حين تراجع الإمام يعرب بن بلعرب بجيشه نحو مدينة أذكى وقابله

سكانها بالترحاب فاتخذ فيها معسكرا وقاعدة له. فما كان من زعيم خلف الهنائي إلا أن أقر قائده العنبوري بفتح أذكى فلم ينجح الإمام يعرب في الدفاع

---

(1) S. B. Miles, op. cit., p. 240.

(2) G. P. Badger. , op. cit., p. 103.

عنها، فعاد إلى نزوى؛ في حين رجع قاضي القضاة عدي الذهلي إلى الرستاق ومعه مجموعة من القضاة. وهناك ألقي القبض عليه وجلب مخفورا إلى بلعرب ناصر الذي أمر بإعدامه ومعه قاض آخر وربطت الحبال برقبته ورقبة زميله وسحبت جثتاهما في شوارع الرستاق(1). وبذلك تم اغتيال قاضي القضاة الذي كان قد أضفى صبغة الشرعية على استلام يعرب بن بلعرب الحكم(2). أما القائد الهنائي العنبوري، فتوجه بجيشه نحو نزوى وأجبر قوات الإمام على

---

(1) فالح حنظل، المرجع السابق، ج 1، ص.134.

(2) د. خالد ناصر الوسمي، المرجع السابق، ص.40.

الاستسلام(1)، فما كان من الإمام إلا أن هرب واعتصم في قلعة مدينة جبرين(2) التي بناها والده، ثم طلب كبار القوم من نزوى أن يتنازل عن الإمامة(3) حقنا لدماء المسلمين وقطعا للفتنة والحرب الأهلية فوافق على ذلك(4). ومن هنا أعلن إمامة الصبي سيف تحت(5) وصاية خاله بلعرب بن

---

(1) نور الدين بن عبد الله بن حميد السالمي، المرجع السابق، ج2، ص.12.

(2) د. خالد ناصر الوسمي، المرجع السابق، ص.40.

(3) S. B. Miles, op. cit., p. 242.

(4) G. P. Badger. , op. cit., p. 101.

(5) د. جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص.133.

(3734/1)

ناصر وكانت هذه المرة الثالثة التي أعيد فيها إلى الإمامة.

... يقول سرحان الأزكوي في مخطوطه عن ذلك:

ولبث يعرب بن بلعرب أياما قلائل في الرستاق، ثم جاء إلى نزوى فدخلها، فلم يرض أهل الرستاق أن يكون يعرب

إماما فأظهروا العصبية لسيف بن سلطان فلم يزالوا يكاتبون بلعرب بن ناصر هو خال سيف بن سلطان وهو يقيم بنزوى مع الإمام يعرب فلم يزالوا يحرضونه حتى خرج من نزوى وقصد بلاد سيف فحالفه بني هناة على القيام معه على أن يطلق ما حجره عليهم الإمام ناصر بن مرشد من البناء والسلام وغير ذلك وأعطاهم عطايا جزيلة فصحبوه

(3735/1)

إلى الرستاق فاستقام الحرب الرستاق حتى أخرجوا الوالي مهنا وذلك بعد أن أحرقوا باب الحصن فاحترق مقدم الحصن جميعا واحترق الناس كثيرا من بني هناة من رؤسائهم ورؤساء بني عدي وفيما بلغنا أنه احترق مائة وخمسون رجلا واحترقت كتب قدر أربعين مجلدا واحترقت كتب كثيرة لم يكن لها نظير في عمان وظهر من هذا الحرق كنز عظيم به أموال جزيلة فبلغ الخبر إلى الإمام يعرب بما صنع أهل الرستاق فبعث سرية وأمر الشيخ صالح بن محمد بن خلف السليمي الأزكوي من حجرة النزار وأمره بالمسير إلى الرستاق حتى وصل العوابي فلم يكن لهم قدرة

على الحرب فرجعوا. ثم إن يعرب خرج بمن معه من نزوى ودخلوا على يعرب ناس من أهل نزوى وسألوه الخروج منها أي التنازل عن الإمامة لأجل حقن الدماء حتى وافق يعرب ونادى بالإمامة لسيف بن سلطان(1).

بلعرب بن ناصر والانقسام إلى الهنائي والغافري (1722–1742):

... يرى بعض المؤرخين(2) أن التحزب الهنائي والغافري صورة من صور التعصب التقليدي بين عرب الحجازيين العدنانيين وبين اليمنيين القحطانيين(3).

---

(1) سرحان الأزكوي، المرجع السابق، ص.119.

(2) S. B. Miles, op. cit., p. 240.

(3) J. B. Kelly, op. cit., p. 4.

فالغافريون يمثلون عرب الحجاز والهنائيون يمثلون عرب اليمن(1)، وكان الصراع قديما(2) بينهم على حد قولهم. وكان عرب القحطانيين يرون أحقيتهم بالسلطة

على اعتبار أنهم الأغلبية، وكانوا أول القادمين إلى عمان من اليمن مباشرة وأقدمهم(3)، في حين أن الحجازيين جاءوا حديثا نسبيا إلى عمان، كما أن اليمنيين هم الذين قاموا بتحرير عمان من الاحتلال الفارسي المجوسي ثم شاركوا في الفتوحات

---

(1) J. G. Lorimer, op. cit., vol. 2, p.162.

(2) د. صلاح العقاد، المرجع السابق، ص.46.

(3) Bertram Thomas, op. cit., p. 155.

(1/3738)

الإسلامية التي عبرت إلى فارس نفسها، ولكننا نلاحظ أن غالبية القبائل العمانية التي تنتمي إلى الحزب الغافري أو الهنائي هي في الأصل قبائل يمانية ترجع إلى الأزد وقضاعة بالتحالف مع عناصر(1) من كنده الحضرمية. فالحزب الغافري، مثلا، معظم قبائله من القبائل اليمانية مثل: 1- بني قنب، 2- بني نقب، 3- بني كعب، 4- بني عمر، 5- بني شكيل، 6- طنيج، 7- بني بوعلي، 8- النعيم والضوامي، 9- المساكرة، 10- الجنبة، 11- بنو ريام، 12- سوالم، 13- اليعاربة، 14- بني نبهان، 15-

(1) د. خلدون حسن نقيب، المرجع السابق، ص.75.

(3739/1)

الكنود، 16- العبريون، 17- بني خروصي، 18- الندابيون، 19- الرحبيون، 20- النواري، 21- بني عرابه، 22- اليعاقيب، 23- بني راسب، 24- السعديون، 25- المغيريون، 26- بنو راشد، 27- مواليك أما الحجازيون، فهم: 1- غافر، 2- الجبور.

... يضم حزب الهنائي غالبية قبائله أيضا من اليمنيين، مثل: 1- البوسعيد، 2- الشحوم، 3- الشرقيون، 4- بني علي، 5- الحواسنة، 6- المعادل، 7- بني بوحسن، 8- بني هناة، 9- الشعبيون، 10- المناذرة، 11- بني بطاش، 12- بني حسن، 13- الحرث، 14- المشايخ، 15- الحجريون، 16-السليميون، 17- بني ياس، 18-

(3740/1)

المناصير، 19- العوامر، 20- الكثير، 21- المناهيل، 22- عيال سعد، 23- الحبوس، 24- بني وهيب، 25- الحراسيين، 26- الهدادبة.

... أما الحجازيون، فهم: 1- بني رماحة، 2- بني وهيبة، 3- المشارقة. وبذلك لا نميل إلى هذا الرأي الذي يتعارض مع التركيبة السكانية القبلية ذات الأغلبية اليمنية على أرض الواقع في عمان، في حين كان هذا الانقسام الحجازي العدناني واليماني القحطاني في الشام ومصر والمغرب العربي في شمال أفريقيا والأندلس.

(3741/1)

... يضيف البعض الآخر إلى هذا الصراع والتحزب، طابعا مذهبيا(1). إذ كان بنو غافر في أغلبهم من الفئات السنية المالكية، ولذا كانت تشايعهم معظم القبائل التي كانت تسكن منطقة الظاهرة. أما بنو هناة وأنصارهم، فكان أغلبهم من أصحاب المذهب الإباضي(2) الذي عم الجزء الأكبر من سكان الباطنة(3). وقد يبدو

---

(1) د. محمد مرسي عبد الله، "إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى 1739-1818م"، المكتب المصري، القاهرة، 1978، ص.64.

(2) د. صلاح العقاد، المرجع السابق، ص.46.

(3) د. جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص.133.

(3742/1)

هذا الرأي حول بعض المناطق الجغرافية مقبولا إلى حد ما، في حين أن إصباغ المذهب السني على الحزب الغافري والمذهب الإباضي على الحزب الهنائي لا يتفق مع الواقع، وأن المناطق الجغرافية لإقامة القبائل هي ذات طبيعة مذهبية متقاربة. إلا أن المذهب الإباضي هو الغالب على الحزبين، كما لا ننسى أن معظم المناطق الغافرية هي في عمان الداخل وأنها معقل الإباضية وذات كثافة عالية حيث تتركز فيها معظم القبائل العمانية كما أنها مقر الحكم والسلطات الدينية الإباضية والسياسية، في حين نجد مناطق ساحل عمان الشمالي كرأس الخيمة

(3743/1)

والظاهرة برغم المساحة الصحراوية الكبيرة، هي ذات كثافة سكانية قليلة. إضافة إلى ذلك، كان اعتماد اليعاربة ذوي الأصول اليمانية الإباضية على قبيلة بني غافر الحجازية السنية خلال حكمهم، في حين كانت قبيلة بني هناة اليمنية الإباضية في الجانب المعارض لليعاربة، حتى جاء بلعرب بن ناصر وقرب الهنائية ورفع الحجر والحجز عليها؛ وبذلك أصبحت إلى جانب اليعاربة.

... يبدو أن العمانيين مثلهم مثل إخوانهم اليمنيين لا يدخلون المذهب الديني في الصراع السياسي والقبلي، أي أن الزيدية الشيعية ذات الغالبية في اليمن تتعاون مع

(3744/1)

السنة الشافعية ذات الأقلية في جميع المسائل والشؤون وخاصة في المجال السياسي والصراع القبلي، ولم يكن قد حدث أي خلاف مذهبي بين الشيعة الزيدية والسنة الشافعية في اليمن، وكذلك حال الإباضية المالكية في عمان. وبذلك يمكن إبعاد العامل المذهبي الديني من التكتل أو التحزب الغافري-الهنائي نظرا لوعي الشعب العماني بهذا العامل وعدم إدخاله في الصراع القبلي أو السياسي، لأن فكرة العصبيات المذهبية أو القبلية لا وجود لها في عمان في ظل تطور الوضع السياسي والاقتصادي.

(3745/1)

... تشابكت المصالح السياسية والاقتصادية وكان لها أثر كبير في تحطيم الكثير من النزعات القبلية

والمذهبية. ولذا فإن ظهور الحزب الهنائي الغافري بالانتماءات القبلية المختلطة يعد تطورا ضخما في الحياة السياسية العمانية(1)، إذ أن هذين الحزبين أعادا تشكيل تحالفات القبائل وولائها من العصبيات القبلية أو المذهبية إلى تحالف وولاء سياسي واقتصادي جديد(2)، انطلاقا من العامل

---

(1) J. c. Wilkinson, The Organization of the Falaj Irrigation in Oman, Oxford, 1971, p.25.

(2) د. جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص.133.

(3746/1)

الجغرافي في المجتمع العماني. ومما سبق ذكره، لا يمكننا أن نعتبر التحزب الهنائي والغافري صورة من صور التعصب التقليدي بين القبائل الحجازية العدنانية واليمانية القحطانية أو نوعا من أنواع التعصب المذهبي بين الإباضية والسنة، وإنما هو نوع من المصلحة المشتركة التي جمعت القبائل العمانية في حزب هنائي وغافري. وهناك عدة عوامل جمعت فيما بينها، منها ما يلي:

... أولا – العامل الجغرافي:

... يتضح ذلك من الوضع الجغرافي الذي كان له تأثير كبير من حيث تقارب منطقة استيطانهم وتطابق المصالح. فالقبائل الغافرية تسكن في

(3747/1)

منطقة الظاهرة والبريمي وضنك المناطق الداخلية والغربية من عمان والمناطق الشمالية من ساحل عمان مثل رأس الخيمة والشارقة والفجيرة وأم القوين وعجمان، في حين تقيم القبائل الهنائية في ساحل الباطنة عمان الساحل وبعض المناطق الداخلية وأبو ظبي ودبي(1).

... ثانيا – العامل الاقتصادي:

---

(1) د. محمد حسن العيدروس، "تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر"، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1996، ص.100.

(3748/1)

... شكل تركيز الأفلاج في مناطق جغرافية معينة وأساليب الري المشترك مصالح اقتصادية لمجموعة من

القبائل التي اعتمدت حياتها على مياه الأفلاج(1). وأدى هذا العامل الاقتصادي دورا في الانتماءات القبلية لأحد الحزبين، نظرا لأن نظام الأفلاج نظام جماعي مشترك، ابتداء من حفره وبنائه وانتهاء إلى توزيع المياه واقتسامها حسب الأسهم والحصص فيما بينهم(2)، وكأنه جمعية

---

(1) J. Wilkinson, op. cit., p. 25.

(2) للمزيد من المعلومات، يرجى الاطلاع على: د. محمد العيدروس، "الأفلاج في مدينة العين"، دار المتنبي، أبو ظبي، 1991.

تعاونية مشتركة ذات نفع عام، أو شراكة تضامنية مساهمة عامة بين مجموعة معينة في منطقة معينة يربطهم فيما بينهم المصالح المشتركة أو الشراكة المشتركة في مشروع مشترك وهو الفلج أو الأفلاج. وبذلك ترتبط المصالح الاقتصادية في تكتل سياسي، ويجب الحفاظ على تلك المصالح الاقتصادية بغض النظر عن الانتماءات العصبية سواء كانت حجازية أو يمانية، أو مذهبية إباضية، أو سنية، أو غيرها من الاختلافات

الأخرى. ومن هنا، فإن المصالح الاقتصادية أقوى من التنافس العصبي القبلي أو المذهبي الديني، لأن أي اختلاف فيما بينهم يؤثر على

(3750/1)

مصالح الأفلاج؛ مما يعني تضرر نظام الري الذي يؤثر على الزراعة التي هي العمود الفقري للحياة اليومية والمستقبلية. وللحفاظ على تلك المصالح الاقتصادية عن طريق توحيد التوجهات السياسية، يجب الاعتماد على القوة العسكرية؛ ومنها كان قيام التحالف أو التحزب الهنائي والغافري.

... ثالثا – العامل السياسي:

... أدى تطابق العامل الجغرافي مع المصلحة الاقتصادية إلى تشكيل وحدة سياسية إقليمية لمجموعة من القبائل، وشكلت هذه بدورها اتجاهات معينة من حيث المصلحة العليا لهذه المجموعات القبلية من حيث ولاؤها السياسي لأحد

(3751/1)

الحزبين. وقد أدى الدفاع عن المصالح الاقتصادية لهذه المجموعة الاجتماعية في بيئة جغرافية معينة إلى توحيد الآراء السياسية، وبالتالي إلى تشكيل الحزب الذي كان يعبر عن مجموعة قبلية تتوافر فيه تلك العوامل التي ذكرنا. ولذا كان الانقسام بين القبائل الغافرية في عمان الداخل والظاهرة، وتحزب قبائل الهنائية في عمان الساحل في الباطنة. وشمل هذا الانقسام أيضا ساحل عمان عندما تحزبت قبائل ساحل عمان الشمالية (أي الإمارات الشمالية الخمس حاليا وهي: الشارقة – عجمان – أم القوين – رأس الخيمة – الفجيرة) في حين تحزبت قبائل ساحل

(3752/1)

عمان الجنوبية أبو ظبي ودبي مع الحزب الهنائي واستمر التحزب الهنائي والغافري سواء في عمان أو ساحل عمان حتى الانسحاب البرتغالي عام 1971م وقيام دولة الإمارات العربية المتحدة، مما يعني أن جذورها كانت عميقة إلى درجة قوية(1).

... اعتمدت المجموعة القبلية الهنائية في ساحل الباطنة على المجموعة الهنائية في أبو ظبي ودبي، وجمعتهما مصلحة سياسية مشتركة تجاه المجموعتين الأخريين،

وهما مجموعة القبائل الغافرية في عمان الداخل والظاهرة والبريمي مع المجموعة الغافرية في ساحل عمان الشمالي، وإن

---

(1) المرجع نفسه، ص.100.

كانت هذه الظاهرة السياسية لتلك المجموعات القبلية لم تطور إلى الاستقلالية والتجزئة إلا بعد وصول البوسعيد إلى السلطة وجعلها تبرز منذ تلك الفترة في صورة صراعات سياسية أكثر وضوحا تبعا للأحداث التي أعقبت نهاية دولة اليعاربة مرورا بالتدخل الاستعماري البريطاني في شؤون عمان واحتلالها لساحل عمان. واستمر الانقسام الهنائي والغافري إلى قيام دولة الإمارات العربية المتحدة وقيام سلطنة عمان في السبعينيات من هذا القرن (1970م)(1).

---

(1) المرجع نفسه.

... جاءت تسمية التحزب الهنائي الغافري نسبة إلى الزعامة حيث أطلقت الهنائية نسبة إلى زعيمها خلف بن مبارك القصير الهنائي، في حين أطلقت الغافرية على أتباع محمد بن ناصر الغافري(1). واتخذ الهنائية العلم الأحمر والغافرية العلم الأبيض(2).

... بدأت عمان تواجه فترة من أصعب فترات تاريخها شهدت خلالها من الانقسام ما يمكن أن نعتبره حقيقة بداية النهاية لدولة اليعاربة(3). وبدأ الانقسام خلال

---

(1) Thomas Bertram, op. cit., p. 155.

(2) د. صلاح العقاد، المرجع السابق، ص.46.

(3) عائشة السيار، المرجع السابق، ص.183.

(3755/1)

الاحتفالات بتولية الإمام الجديد؛ إذ وصلت إلى الرستاق كثير من الوفود لتقديم التهاني للإمام سيف بن سلطان ووصيه بلعرب بن ناصر الذي كان يمثل القوة الفعلية للدولة(1). وكان بين القادمين وفود من قبائل بني غافر وأهالي بهلى على رأسها محمد بن ناصر الغافري(2)، الذي عاد إلى عمان بعد أن ترك ولاية البحرين التي خضعت لليعاربة(3)

(1) المرجع نفسه.

(2) د. جمال زكريا قاسم، "الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأدبي الأول 1507–1840"، دار الفكر العربي، القاهرة، 1985، ص.136.

(3) د. جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص.136.

(3756/1)

. وليس من الواضح تماما ماذا حدث في ذلك اللقاء الشهير بين الوصي بلعرب بن ناصر وبين محمد بن ناصر الغافري وتهديد الأول له وتوعده(1). وقد يكون سبب تحذير الغافري للوصي من تقديم الهنائيين في مسؤوليات الحكم أو الاعتماد عليهم، أو لربما طلب الغافري من الوصي ضرورة زيادة الاعتماد عليه في أمور الحكم(2)، أو كانت الغيرة الشخصية من الغافري تجاه بلعرب الذي قرب الهنائيين، أو لأن الوصي لم يحسن استقبال

(1) نور الدين بن عبد الله بن حميد السالمي، المرجع السابق، ج2، ص.111.

(2) فالح حنظل، المرجع السابق، ج1، ص.135.

(3757/1)

الغافري(1)، مما أدى –في النهاية– إلى جفوة شديدة بين الرجلين. وسواء أكان الأمر هذا أو ذاك، فإن الاحتفالات بتولية الإمام الجديد بدلا من أن تكون مناسبة لتأكيد ولاء مختلف القبائل له، تصبح بداية لحرب أهلية عمانية واجهتها البلاد(2).

... استطاع محمد بن ناصر إقناع يعرب بالخروج على الوصي بلعرب بن ناصر(3) ورفع راية المعارضة(4)،

---

(1) نور الدين بن عبد الله بن حميد السالمي، المرجع السابق، ج2، ص.117.

(2) عائشة السيار، المرجع السابق، ص.183.

(3) E. G. Ross, op. cit., p. 172.

(4) J. B. Kelly, op. cit., p. 16.

(3758/1)

وإعادة الإمامة له، ووعده بتأييد قبائل أبو ظبي والظاهرة والبريمي وغيرها(1). فقام يعرب وهاجم أزكي؛ إلا أنه هزم(2) على يد قوات بلعرب بن ناصر ورجع إلى نزوى(3)، وعندئذ تقدمت القوة التي جمعها محمد بن ناصر نحو نزوى(4) فدارت الدائرة على بلعرب بن

ناصر(5).

الإمام محمد بن ناصر الغافري (1722–1727):

---

(1) E. G. Ross, op. cit., p. 172.

(2) Thomas Bertram, op. cit., p. 104.

(3) J. B. Kelly, op. cit., p. 16.

(4) E. G. Ross, op. cit., p. 172.

(5) Thomas Bertram, op. cit., p. 104.

(1/3759)

... شجعت انتصارات محمد بن ناصر الغافري ويعرب بن بلعرب ليشكلوا أكبر تحالف قبلي على الصبي ووصيه. واستمر حلف محمد بن ناصر ويعرب بن بلعرب وقواتهم التي تمكنت من الاستيلاء على الرستاق وأسر بلعرب بن ناصر الذي أودع السجن. وبدلا من أن يلغي محمد بن ناصر إمامه الصبي كما كان متوقعا، يثبت هذا الفتى في منصب الإمامة مكتفيا بالوصاية عليه(1). **ولعله رأى في ذلك فرصا لممارسة سلطة على عمان تسترا وراء اسم الإمام الصغير في الوقت الذي كان حليفه يعرب بن بلعرب قد توفي ولم يبق سوى**

(1) عائشة السيار، المرجع السابق، ص.184.

مسقط وبركة في يد الهنائيين(1). وكان إعلان الغافري الوصاية عام 1722م إيذانا بانقسام عمان بين زعيمين لا ينتميان إلى الأسرة اليعربية بصلة القربى، ولكن كليهما يدعي الحفاظ على إمامة الصبي الذي كان برعاية الغافري.

... بدأت المعارك بين الغافرية والهنائية تعرف حدتها بعد وصاية محمد بن ناصر. وفي منطقة الغافات دارت رحى معركة ضارية انتهت بهزيمة الجيش الهنائي وتفرقه. وقد أوشك الزعيم خلف مبارك الهنائي أن يقع في أسر القوات الغافرية في معركة بلده المضيبي، ولكنه هرب إلى قبائل الحبوس. وتوجه

(1) المرجع نفسه.

محمد بن ناصر الغافري إلى نزوى ومعه الصبي الصغير، واجتمع مع علماء الدين ورجال القضاء والفقه ورؤساء القبائل، وطلب إعفاءه من منصب الوصاية والقيامة على الصبي الصغير مدعيا أنه لم تعد لديه طاقة لمواجهة القتال، وطلب منهم انتخاب وصي آخر بدلا منه. وقوبل طلبه برفض الجميع وطلبوا منه أن يبقى على رأس السلطة، لأن تركه معناه أن الهنائي سيظهر من جديد وستقوى شوكته. وكان اجتماعا عاصفا استمر يوما وليلة(1). فكان من أبرز المتحدثين حاكم نزوى الشيخ عبد الله بن محمد ومعه قاضي القضاة

---

(1) E. G. Ross, op. cit., p. 172.

ناصر بن سلمان بن مداد واقترحوا عقد اجتماع مغلق لمناقشة الطلب. وفي الاجتماع قرروا إبقاء السلطة بيد محمد ناصر الغافري وإعلان الإمامة له رسميا، أي أن يستلم الحكم بنفسه بدلا من أن يكون وصيا. وبذلك تم إسقاط الإمامة للمرة الثالثة عن الصبي سيف بن سلطان(1).

... وافق على تلك الفكرة علماء الدين والقضاة ورجال

العشائر وفاتحوا الزعيم الغافري بالأمر، فرفض يوما وليلة، ثم قبل بعد ذلك وفي يوم 1724/10/07، أعلن قاضي القضاة عن سقوط إمامة الصبي وإعطاء البيعة للإمام الجديد

---

(1) فالح حنظل، المرجع السابق، ج 1، ص.145.

(3763/1)

محمد بن ناصر بن عامر بن رمثة بن خميس الغافري إماما جديدا لعمان. ولم تنه هذه البيعة والإمامة الحرب الأهلية العمانية، إذ أن الحزب الهنائي اتخذ تلك البيعة ذريعة تقوى بها مركزه. فانتقد بعضهم ما فعله قضاة عمان واعتبروه بدعة مخالفة للعرف، بينما اعتبره بعضهم اجتهادا من قضاة وفقهاء عمان لرأب الصدع وجمع الصفوف. أما مؤرخو عمان، فقد رأوا أنه حدث جبرا من محمد بن ناصر الغافري، أقره القضاة وقبله الشعب العماني تقية وخوفا، كما أن ردود الفعل على الإمامة الجديدة لم تظهر بعد بين أوساط الأسرة اليعربية(1)

---

(1) المرجع نفسه، ص.147.

(3764/1)

.

... اتخذ الإمام محمد بن ناصر الغافري من مدينة جبرين قاعدة لقيادته، وحكم عمان حكما قويا(1)، وكان أكثر الأئمة الذين تمت بيعتهم في عمان على الدفاع، بعد مهنا بن سلطان(2)؛ وقد فتح الطريق أمام منافس آخر هو خلف، بل مبارك القصير الهنائي الذي عمل على إسقاط الإمام محمد بن ناصر(3)، الذي لم تجلب له تسمية الإمامة سوى

---

(1) J. G. Lorimer, Vol. 2, op. cit., p.162.

(2) نور الدين بن عبد الله بن حميد السالمي، المرجع السابق، ج2، ص.134.

(3) N. Niebuhr, Travels through Arabia, Edinburg, 1972, p.118, Vol.II.

مزيد من الخصومات والأعداء(1)، وتشكلت جبهة عريضة ضده، خاصة الهنائيين(2)، وانقسمت عمان مرة أخرى إلى الغافرية والهنائية(3). مما اضطر الإمام محمد بن ناصر الغافري مرة أخرى إلى مواجهتهم. ولكن بينما كان يغير

على قلعة صحار الذي كان خصمه خلف بن مبارك الهنائي وأتباعه

---

(1) د. خالد ناصر الوسمي، المرجع السابق، ص.40.

(2) د. عبد العزيز عوض، "دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث"، مكتبة الرائد العلمية، عمان، 1991، ص.68.

(3) شركة زيت العربية –الأمريكية، "عمان والساحل الجنوبي للخليج"، القاهرة، 1952، ص.16.

(3766/1)

يتحصنون بها، أصيب برصاصة طائشة أودت بحياته.

وبعد مرور وقت قصير من ذلك، علم المتمردون من الهنائية بأن قائدهم خلف بن مبارك لقي مصرعه(1) هو أيضا أثناء المعركة خارج حصن صحار عام 1728م(2).

الإمام سيف بن سلطان الثاني (1728–1732م):

... بويع سيف سلطان بالإمامة في نزوى(3) عام 1728م(4)، نظرا لأنه كان قريبا من الإمام السابق محمد بن

---

(1) د. خالد ناصر الوسمي، المرجع السابق، ج2، ص.40.

(2) E. G. Ross, op. cit., p. 144.

(3) د. بدر الدين عباس الخصوصي، المرجع السابق، ج2، ص40.

(4) J. B. Kelly, op. cit., p. 17.

(1/3767)

ناصر وملازما له في سلمه وحربه وقد تولى سيف بن سلطان الإمامة وهو صغير السن، فواجهته المشاكل الخارجية قبل الداخلية. ففي عام 1731م، بدأت البرتغال في استفزاز العمانيين فأرسل الإمام سيف بن سلطان حملة من ثلاثة سفن حربية من الأسطول العماني الذي انتصر بعد مواجهة صعبة(1). أما المشاكل الداخلية، فقد بدأت بامتناع مدينة نخل عليه(2). وبرغم نجاح الإمام في الخارج، أثبت فشله وعدم كفاءته في الداخل(3)

---

(1) S. B. Miles, op. cit., p. 256.

(2) G. P. Badger, op. cit., p. 53.

(3) N. Niebuhr, op. cit., Vol. II, p. 118.

(1/3768)

إماما للمسلمين، وانصرف عن شؤون الرعية وشؤون الحكم إلى أمور الترف والملذات. ويبدو أن قبائل عمان لم تكن راضية عن سيرته.

... انتهى الصراع الحربي الغافري والهنائي لفترة، لأن غالبية الشعب العماني أيدت اختيار الإمام سيف بن سلطان. ولكن عدم تمكن الإمام الجديد من إدارة أمور البلاد يرجع لاختفاء شخصين متنافسين على السلطة في عمان والذي ترك فراغا سياسيا، وليس لجهود ذاتية بذلها الإمام سيف بن سلطان الذي كان يمثل باستمرار الشخصية الضعيفة في حكم البلاد(1). وعلى ذلك، عادت

---

(1) E. G. Ross, op. cit., p. 195.

المشاكل والحروب الأهلية من جديد بسبب تصرفات الإمام سيف بن سلطان الشخصية الخاصة والتي تتعارض مع الشريعة الإسلامية خاصة أنه كان يشرب الخمر، علما بأن الحكم في عمان كان إسلاميا وكان علماء الدين يمثلون الجهاز الرقابي على تصرفات الحاكم(1).

... اختلفت الحرب الأهلية في هذه المرحلة عن سابقتها.

ويتمثل ذلك الاختلاف في طبيعة المتصارعين الذين كانوا من أسرة اليعاربة أنفسهم هذه المرة. كما اتسعت الحرب الأهلية نتيجة الاستعانة بالقوى الخارجية سواء البلوش أو الفرس، وبذلك

(1) عائشة السيار، المرجع السابق، ص.19.

(3770/1)

أخذت الدولة اليعربية تتجه نحو السقوط النهائي بسبب تنازع الأسرة اليعربية والتدخل الفارسي(1). ... تقدم سيف بن سلطان بعد تولي الإمامة بطلب إلى قاضي القضاة يسأله فيه زيادة مخصصاته المالية من خزينة الدولة؛ ولكن قاضي القضاة الشيخ سعيد بن بشير الصبحي جمد ذلك الطلب في العام نفسه، أي 1728م وأرجأه إلى آخر للنظر فيه بموافقة آراء بقية العلماء(2)، كما أن إعادة الفتى للإمامة، إضافة إلى سلوكه الشخصي غير السوي(3)،

(1) المرجع نفسه.

(2) فالح حنظل، المرجع السابق، ج 1، ص.154.

(3) G. P. Badger, op. cit., p. 53.

جعل قبائل الظاهرة تعلن انتخاب إمام آخر هو بلعرب بن حمير عام 1732م(1)، الذي استولى على سمائل وأزكي وبهلا والشرقية وحصون الظاهرة(2). أما الإمام سيف بن سلطان، فإن نفوذه استمر في حصون الباطنة ومسقط(3).

الإمام بلعرب بن حمير (1732–1738م):

---

(1) نور الدين بن عبد الله بن حميد السالمي، المرجع السابق، ج2، ص.144.

(2) حميد بن محمد بن رزيق، المرجع السابق، ص.327.

(3) د. سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص.177.

... اشتدت الأزمة بين الإمام سيف بن سلطان والقضاة وجملة فقهاء عمان. وإضافة إلى مطالبته المستمرة بزيادة المخصصات المالية المقررة له، فإنه انصرف إلى اللهو والمجون. فقد عرف عنه معاقرته للخمر، ومعاشرته للنساء؛ لذلك كرهه رجال الدين وفي اجتماع صاحب بينه

وبين الشيخ سعيد بن بشير الصبحي الذي كان يشغل منصب القيم على مال الدولة أو وزير المالية، رفض زيادة المخصصات المالية قائلا للإمام سيف بن سلطان:

... ولا أعلم أن جدك الإمام سيف ولا عمك بلعرب ولا أباك سلطان طلبوا، ولا أخذ أحد منهم زيادة على ما مضى عليه

إمامهم ناصر بن مرشد، وتلك فريضة كافية، ومات عليها الأسلاف. ولا أريدك خلاف ما عليه السلف، فهذا اختياري والجهدة مني ولا خفت في أمرك لومة لائم بل اخترت لك ما اختاره الله لمثلك من الأئمة، واختار المسلمون لهم ذلك نظرا ومعونة وموافقة لكتاب ربهم(1).

... جاء علماء الدين إلى نزوى، فأسقطوا الإمامة عن سيف بن سلطان للمرة الرابعة وبايعوا بلعرب بن حمير بن سلطان بن سيف بن مالك بن بلعرب اليعربي إماما على عمان. ومع ذلك، فإن الحرب الأهلية لم تنته بها؛ بل ازداد الأمر

---

(1) فالح حنظل، المرجع السابق، ج 1، ص.159.

تعقيدا وضراوة. فقد أصبح لعمان إمامان، كل واحد يدعي مسألة ولاء وطاعة أولاد العم المتقاتلين على الحكم(1). وأدى هذا الانقسام بينهما إلى شلل الإدارة السياسية وتوقف النشاط التجاري والاقتصادي إضافة إلى تدهور مكانة عمان الخارجية. ولم يعد أسطولهم مثار اهتمام وتقدير من القوى الإقليمية والدولية(2). وكان من البديهي أن يقع الصدام بين الطرفين، وخاصة أنهما استعدا له. وكان الإمام بلعرب بن حمير قد عقد النية لمحاربة الإمام المخلوع سيف بن سلطان بعد أن

(1) المرجع نفسه، ص.160.

(2) S. B. Miles, op. cit., p. 251.

(3775/1)

انضم تحت لوائه معظم قبائل عمان(1)، والتقى الجيشان وانهزمت قوات سيف التي كانت بقيادة أخيه بلعرب بن سلطان(2)، وأصبح الإمام بلعرب بن حمير سيد الموقف وبدأ يوحد عمان. لم تنته الحرب الأهلية بعد الهزيمة التي حلت بالإمام المخلوع الذي بدأ يبحث عن حلفاء في كل مكان ليتمكن من التغلب على هذا المنافس

الجديد(3) من الأسرة نفسها وابن العم.

---

(1) سرحان الأزكوي، المرجع السابق، ص.139.

(2) حميد محمد رزيق، المرجع السابق، ص.327.

(3) د. خالد ناصر الوسمي، المرجع السابق، ص.41.

(3776/1)

... تقدم الإمام المخلوع بعد الهزائم المتكررة(1) التي لحقت بجنوده إلى الاستعانة بجنود مرتزقة من ساحل مكران في بلوشستان(2). وقد وفدت أعداد كبيرة من هؤلاء الجنود إلى مسقط وأصبحوا يشكلون قوة خطيرة(3)، واتجه الإمام المخلوع بهؤلاء البلوش إلى الظاهرة(4). ويقول مؤلف مجهول (تحقيق د. عبد الفتاح عاشور): "استنهض سلاطين مكران لمؤازرته

---

(1) حميد محمد رزيق، المرجع السابق، ص.177.

(2) د. سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص.177.

(3) حميد محمد رزيق، المرجع السابق، ص.327.

(4) S. B. Miles, op. cit., p. 270.

(3777/1)

ضد بلعرب"(1). وانتهى القتال بانتصار الإمام بلعرب بن حمير وقتل عدد كبير من البلوش(2)، ويعلق لوريمر بأن جلب الإمام المخلوع سيف بن سلطان لقوات من البلوش هذه يعتبر بداية اعتماد حكام عمان على جنود مرتزقة من مكران(3)، وأن جميع البلوش استقروا في عمان ولم يعودوا إلى بلوشستان(4)، وأنشأوا لهم مستوطنات في الظاهرة وأصبحوا يعرفون نسبة إلى هذه

---

(1) Laurence Lockhart, op. cit., p. 123.

(2) د. خالد ناصر الوسمي، المرجع السابق، ص.41.

(3) J. G. Lorimer, op. cit., Vol. 2, p.161.

(4) S. B. Miles, op. cit., p. 753.

المنطقة. وبعد الهزيمة، بدأ الإمام المخلوع يفكر بعيدا عن شعبه(1).

... ويبدو أن الشعب العماني انصرف عن مساندة الإمام المخلوع بسبب خروجه على التقاليد الإباضية بالاستعانة الخارجية(2)، ولجوئه إلى طلب معونة الأجنبي(3). ونظرا لعدم فعالية الجنود المرتزقة من

البلوش(4)، فإن

---

(1) حميد بن محمد بن رزيق، المرجع السابق، ص.32.

(2) د. مصطفى عقل الخطيب، "التنافس الدولي في الخليج العربي"، المكتبة العصرية، صيدا، 1981، ص.276.

(3) Laurence Lockhart, op. cit., p. 123.

(4) د. مصطفى عقل الخطيب، المرجع السابق، ص.276.

(3779/1)

الإمام المخلوع سيف بن سلطان ارتكب أكبر خطإ قومي(1) في حق الشعب العماني وأقدم على حماقة كبيرة(2). وكان نادر شاه قد بدأ تكوين قوة بحرية كبيرة في الخليج العربي(3)، لاتباعه سياسة التوسع والسيطرة

---

(1) Allen Jr. Calivinll, Sayyids and Sultans Politics under the Al Ba Said, 1785–1914, University Micro Films International, Ann Arbor, Michigan, 1984, p.25.

(2) د. خالد ناصر الوسمي، المرجع السابق، ص.41.

(3) د. عبد الأمير محمد أمين، "القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر"، بغداد، 1966، ص.20.

(3780/1)

في عمان. وهنا جاءته هذه الفرصة لتحقيق مطامعه(1) عندما طلب الإمام المخلوع سيف بن سلطان الثاني مساعدته(2). وبذلك أسهمت الحروب الأهلية في إضعاف القوى العمانية وتصدع وحدتها الوطنية بإجبار أحد الأطراف المتنازعة على الاستعانة بالقوى الأجنبية نفسها كالفرس(3). وسرعان ما وافق شاه فارس على بسط سيطرته على عمان(4) ليصبح هو المسيطر على الخليج

---

(1) S. B. Miles, op. cit., p. 254.

(2) Allen Jr. Calivin II, op. cit., p. 25.

(3) د. خلدون حسن نقيب، المرجع السابق، ص. 77.

(4) J. G. Cit Lorimer, vol. 2, p. 164.

(3781/1)

العربي(1). وسارع بإرسال جيش ضخم إلى هناك(2).

... وصلت القوات الفارسية إلى خورفكان في عام 1737م(3)، واتجهت إلى رأس الخيمة(4)، واجتمع بهم

الإمام المخلوع سيف بن سلطان الذي خرج لمقابلتهم من مسقط(5)، وتقابل الجيشان في منطقة السيمني وانتصر بلعرب بن حمير(6)

---

(1) Robert Geran Landen, op. cit., p. 57.

(2) Saldanha, Selections from State Papers, p. 25.

(3) Ibid., p. 52.

(4) J. G. Lurimer, op. cit., vol. 2, p. 164.

(5) د. سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص.178.

(6) د. سرحان الأذكوي، المرجع السابق، ص.142.

(3782/1)

. ثم طلب الإمام المخلوع مزيدا من القوات الفارسية التي جاءت من شيراز تحمل الأعلام الفارسية(1)، واتجهت إلى شمال رأس مسندم ومنها إلى رأس الخيمة(2) حيث انضم إلى القوات الفارسية المرابطة هناك ومنها تحرك الجيش الفارسي والجيش العماني التابع للإمام المخلوع والذي يشكل معظمه من الغافرية تحت قيادة زعيمهم مبارك بن مسعود(3)

(1) G. P. Badger, op. cit., p. 141

(2) د. صادق حسن عيدواني، "ندوة الحصاد"، الجزء الثاني، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، 1980، ص.56.

(3) د. عبد الأمير محمد أمين، المرجع السابق، ص.16.

(3783/1)

. ونجح الجيش العماني المتحالف مع الجيش الفارسي في الاستيلاء على مواقع كانت خاضعة للإمام بلعرب بن حمير(1)، واستولى على بهلا(2)، كما استولى على أزكي صلحا والباطنة ومسقط ونزوى(3) التي ارتكبت فيها فظائع شديدة(4). وتعرض أفراد الجيش الفارسي للنساء والأطفال وأذاقوا العمانيين مر العذاب والهوان(5)

(1) د. مصطفى عقيل الخطيب، المرجع السابق، ص.271

(2) د. عبد الأمير محمد أمين، المرجع السابق، ص.16.

(3) سرحان الأذكوي، المرجع السابق، ص.142.

(4) د. صلاح العقاد، المرجع السابق، ص.48.

(5) د. سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص.187.

وهاجموا مدينة عبرى. واستباحوها استباحة كاملة وقاموا بقتل الأهالي من سكان المدينة وخطف النساء وإرسالهن إلى أسواق شيراز لبيعهن في أسواق النخاسة(1).

... أظهر الفرس نيتهم المبيتة ضد الإمام المخلوع وتحولوا لمحاربته ومحاصرته، ولكنه تمكن من الهرب بحرا إلى بركا ومنها إلى نخل ثم إلى الظاهرة(2). ولكن هذه الخيانة الفارسية كان لها على الأقل نتيجة إيجابية واحدة وهي وقف الحرب

---

(1) محمد عدنان مراد، "صراع القوى في المحيط الهندي والخليج العربي"، دمشق، 1994، ص.234.

(2) سرحان الأذكوي، المرجع السابق، ص.142.

الأهلية واتحاد كل الشعب العماني في وجه الغزو الفارسي(1) بعدما التقى سيف بن سلطان مع الإمام بلعرب بن حمير وعلماء عمان ومشايخها(2) وتقرر أن

يتنازل الأخير للأول عن الإمامة حتى يتحد العمانيون على الفرس(3).

الإمام سيف بن سلطان عام 1738م ثم خلعه في العام نفسه:

---

(1) د. خالد ناصر الوسمي، المرجع السابق، ص.4.

(2) حميد بن محمد بن رزيق، المرجع السابق، ص.337.

(3) د. سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص.181.

(3786/1)

... أعلن الإمام سيف بن سلطان حرب التحرير على الغزاة الفرس(1) الذين جلبهم هو نفسه والذين انقلبوا عليه بغية الاحتلال والسيطرة الكاملة، وانتهت عملية التحرير بانسحاب الفرس من مسقط إلى بركا ومنها إلى رأس الخيمة(2). غير أن الإمام سيف بن سلطان عاد إلى سلوكه الشخصي السابق وإلى بعض الأفعال التي لم يرض عنها الشعب العماني(3)، مما دفع الفقهاء

---

(1) نور الدين بن عبد الله بن حميد السالمي، المرجع السابق، ج2، ص.148.

(2) سرحان الأذكوي، المرجع السابق، ص.142.

(3) د. عبد الأمير محمد أمين، المرجع السابق، ص.16.

(3787/1)

وعلماء الدين والقضاة من نزوى والرستاق وغيرها إلى الاجتماع والاتفاق على خلع سيف بن سلطان ومبايعة سلطان بن مرشد بن عدي اليعربي(1).

... تختلف المصادر في تحديد تاريخ مبايعة سلطان بن مرشد(2). "فابن رزيق يحدد توليه الإمامة بعام 1151هـ الموافق 1738م(3)، بينما يحددها كتاب "تاريخ أهل عمان" المجهول المؤلف(4)

---

(1) Philips Wendell, Oman. A History, 1967, p.63.

(2) د. عبد الأمير محمد أمين، المرجع السابق، ص.16.

(3) حميد بن محمد بن رزيق، المرجع السابق، ص.337.

(4) د. سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص.182.

(3788/1)

وسرحان الأزكوي في عام 1154هـ/1742م(1)، وهو التاريخ نفسه الذي يحدده مايلز في كتابه(2). ونميل إلى الرأي الأول الذي قد يكون أقرب إلى الصواب، نظرا لتصرفات سيف بن سلطان الطائشة(3).

... قامت المواجهة بين الإمام الجديد سلطان بن مرشد والإمام المخلوع سيف بن سلطان وانتهى بهزيمة الأخير(4)

---

(1) سرحان الأزكوي، المرجع السابق، ص.143.

(2) S. B. Miks, p. 260.

(3) لمزيد من المعرفة، يرجى الاطلاع على بحثنا عن "التدخل الفارسي في الشؤون العمانية 1737–1744"، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، يوليو، 1988.

(4) Laurence Lockhart, op. cit., p. 166.

(1/3789)

. ومع أن الفرس خانوا الإمام المخلوع سيف بن سلطان الثاني في المرة الأولى، فقد عاد يطلب عونهم ليعودوا إلى خداعه مرة أخرى وبصورة واضحة أيضا؛ مما جعله يواجه فشلا كاملا(1) في الوصول إلى السلطة بمساعدة القوى الأجنبية. فقد أرسل شاه فارس(2) جيشا ضخما بلغ

تعداده حوالي الستين ألفا، وبذلك استولى الفرس على معظم المدن العمانية(3)

---

(1) د. خالد ناصر الوسمي، المرجع السابق، ص.41.

(2) Laurence Lockhart, The Navy of Nadir Shah. , Part, 1Proceedings of the Iran Society, vol. 184, p.1936London,.

(3) J. G. Lurimer, op. cit., vol. 2, p.164.

(3790/1)

، وكان الفرس قد بدأوا عملياتهم الوسعة أملا في استعادة مكانتهم بهجومهم الذي بدأ في مارس 1743م(1).

... وبينما كان الإمام المخلوع يريد استعادة الإمامة المفقودة(2)، وقدم تعهدا بالتنازل لهم عن مدينة صحار التي حاصرها الجيش الفارسي تسعة أشهر دون أن يتمكن من اقتحامها، وقع الخلاف بين القائدين الفارسيين محمد تقي خان ولطيف خان(3)

---

(1) B. J. Slot, the Arabs of the Gulf 1602–1784, Leidschendam, 1993, p.221.

(2) د. جمال زكريا قاسم، "دولة بوسعيد في عمان وشرق

إفريقيا"، 1741–1861، القاهرة، 1967، ص.4.

(3) د. مصطفى عقيل الخطيب، المرجع السابق، ص.278.

(3791/1)

، اللذين كانا يقودان الحملة الفارسية الثانية باستقلالية تامة في جميع التصرفات(1). وهب الإمام سلطان بن مرشد لمحاربة الفرس(2) الذين اجتاحوا عمان وغزوها، وارتكبوا مذابح للمرة الثانية(3)، واستولوا على مسقط ومطرح(4). وبذلك فقد الإمام المخلوع سيف بن سلطان سلطته كلها تقريبا(5).

---

(1) د. صادق حسن عيد داني، المرجع السابق، ص.51.

(2) د. جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص.4.

(3) Philips Wendell, op. cit., p. 63.

(4) د. جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص.40.

(5) B. J. Slot, op. cit., p. 221.

(3792/1)

... نشب قتال عنيف بين الطرفين الفارسي والعماني(1) قاوم خلاله والي صحاري واستطاع بمساعدة الإمام سلطان

بن مرشد أن يوقف تقدم الفرس ويمنعهم من احتلال صحار(2). وفي أثناء ذلك، توفي الإمام سلطان بن مرشد متأثرا بجراحه من جراء رصاصا أصابت جسده أثناء اقتحامه صفوف الجيش الفارسي عام 1743م. وبعد أيام، لحق به سيف بن سلطان الثاني الذي توفي كمدا وحزنا(3). وانتهت هذه المرحلة على أثر

---

(1) Laurence Lockhart, op. cit., p. 184.

(2) محمد عدنان مراد، المرجع السابق، ص.234.

(3) سرحان الأزكوي، المرجع السابق، ص.142.

النجاح الذي حققه على الفرس مستخدما أشد الخدع مكرا ومخططا بكل الوسائل للوصول إلى الحكم من خلال التخلص من الفرس(1) وتضييق الخناق على قواتهم في ميناء بركا حيث قضى عليهم الشعب العماني بشكل إبادة جماعية(2).

الإمام بلعرب حمير (1743–1753م):

... بايع الشعب العماني بلعرب بن حمير إماما على الدفاع للمرة الثانية في عام 1743م. وفي آخر عهده خرج عليه أحمد بن سعيد حاكم

(1) د. خالد ناصر الوسمي، المرجع السابق، ص.4.

(2) رياض نجيب الريس، "ظفار. قصة الصراع السياسي والعسكري في الخليج العربي"، لندن، 1977، ص.63.

صحار وأخذ منه نزوى عام 1753(1)، بعدما قتل في معركة فارق في وادي كلبا. وكان موت بلعرب بن حمير ضربة قاضية لليعاربة: فقد بقي ماجد بن سلطان شقيق سيف بن سلطان الثاني في عزلة، إذ لم تكن لديه قوة تقف معه ولم يبق من اليعاربة من يعارض أحمد بن سعيد سوى سليمان بن محمد بن عدي اليعرب وكان واليا للإمام سلطان بن مرشد على سمد الشأن. فلما وجد سليمان بن محمد بن اليعربي أن المدن الداخلية أعلنت خضوعها لأحمد بن سعيد قدم إليه وأعلن عن تنازله عن سمد الشأن فجازاه أحمد بن

(1) د. عبد العزيز عوض، المرجع السابق، ص.100.

سعيد، على ذلك(1) بولاية النخل. وبذلك انتهى حكم اليعاربة في عمان، وانتهت الحروب الأهلية، وظهرت دولة البوسعيد الجديدة. ولكن الانقسام استمر حتى انفصل ساحل عمان عن عمان، وكذلك عمان الداخل، نظرا لانقسام الهنائي والغافري الذي سوف يستمر حتى عام 1971م باستقلال دولة الإمارات العربية بعد الانسحاب البريطاني وإعلان سلطنة عمان.

نتائج الدراسة:

... أولا: قدمت دولة اليعاربة الكثير من التضحيات لتطور عمان. وكان أهم أعمالها ما يلي:

---

(1) عائشة السيار، المرجع السابق، ص.205.

... 1- تحرير سواحل عمان والخليج العربي وشرق إفريقيا من الاستعمار البرتغالي.

... 2- إنشاء قوة عربية كبيرة ليس في الخليج العربي فحسب، بل في المحيط الهندي أيضا.

... 3- أقام اليعاربة تنظيما سياسيا وإداريا لدولة كبيرة يشمل القسم الأسيوي منها عمان والبحرين وبعض الجزر في مدخل الخليج العربي؛ أما القسم

الإفريقي، فيشمل من مقدشيو في الصومال مرورا بساحل شرق إفريقيا مثل لاهو –مالندي –لكوة –ممباسة – الجزيرة الخضراء وزنجبار حتى حدود موزمبيق، مما جعل الاستقرار والأمن يسودان تلك المناطق التي كان اليعاربة يملكونها،

(3797/1)

وساعد بالتالي على تطور الحركة الفكرية والنشاط الاقتصادي الذي أدى إلى ازدهار التجارة والصناعة وخاصة صناعة السفن الحربية والتجارية الضخمة إضافة إلى صناعة السلاح الثقيل في ذلك الوقت.

... 4– أعاد اليعاربة العلاقات بين عرب الجزيرة العربية وشرق إفريقيا بعدما قطعها الاستعمار البرتغالي.

... ثانيا: اتخذت الإمامة في عهد اليعاربة صفة أخرى إضافة إلى تطبيق الشريعة والحكم الإسلامي. فقد امتزج الدين بالسياسة، وأدى ذلك إلى وحدة عمان الطبيعية الكبرى بعدما كانت مجزأة وممزقة، وشكل نظاما سياسيا جديدا لم تعرفه

(3798/1)

الإمامة من قبل. وأدى أئمة اليعاربة دورا مهما في السياسة والإدارة، وخاصة الإمام ناصر بن مرد الذي بدأ في بناء الدولة المنظمة العصرية وتوحيد الجبهة الداخلية العمانية، ثم اتجه إلى محاربة الاستعمار البرتغالي وبذلك بنيت الإمامة على ركنين: التوجه في الداخل بالتوحيد والوحدة، وفي الخارج بالتحرير والجهاد ضد البرتغاليين وبناء القدرة العسكرية البحرية؛ في حين كان الأئمة المتأخرين على ضعف كبير، فلم يستطيعوا توحيد الجبهة الداخلية وتحقيق الوحدة العمانية، مما زاد في الحروب الأهلية.

(3799/1)

... ثالثا: تضافرت مجموعة من الأسباب للإجهاز على دولة اليعاربة في كل من عمان وشرق إفريقيا خلال أربعينيات القرن الثامن عشر. وقد تمثلت أهم تلك الأسباب في الصراعات الداخلية التي واجهتها عمان وما تعرضت له من تدخل فارسي في الشؤون الداخلية العمانية، وهذا أثر في سير تلك الأحداث التي انقسمت فيها عمان، وظهرت الاضطرابات والفتن الداخلية بين التجمعات القبلية السائدة.

... رابعا: أدى الدين دورا بارزا عندما امتزج بالمفهوم

السياسي الوحدوي ليطرح شعارين: بناء الجبهة الداخلية وتوحيدها ثم تحرير عمان من الاستعمار

(3800/1)

البرتغالي. وقام علماء الدين من المذهب الإباضي والفقهاء بدور أساسي بجانب الحكم السياسي المتمثل في الإمامة، إضافة إلى دورهم في اختيار الأئمة. وكانوا هم المحرك الأساسي للأمور الهامة، وكانوا يتوخون العدل والمصلحة العامة. وبذلك شكل رجال الدين الجهاز الرقابي على تصرفات الأئمة، وهو أقرب إلى الجهاز التشريعي أو البرلمان المنتخب في حين كانت البيعة أو انتخاب الإمام، أي الحاكم يتم مباشرة من الشعب، كما يحدث اليوم في معظم الدول الديمقراطية الغربية وإن كان الرأي الأول لعلماء الدين وخاصة قاضي القضاة الذي يرشح

(3801/1)

الأشخاص الذين يجد فيهم الكفاءة وتنطبق عليهم شروط الإمامة في حين يكون القرار النهائي للشعب بغض

النظر عن كفاءة المرشح أو عدم كفاءته. وهذا ما أدى إلى الحرب الأهلية في عمان، نظرا لعدم وجود الوعي السياسي الكامل لدى العامة وتفضيلهم العامل الوراثي على مبدإ حرية الترشيح.

... خامسا: تعتبر الإمامة في العهد اليعربي امتدادا للفكر السياسي الأساسي الإباضي، وهو إبعاد السلطة عن التوارث. ومع ذلك، وجدنا تثبيت فكرة السلطة في أسرة واحدة وبالذات عامل الوراثة من الخاصة والعامة وبالذات علماء الدين. وقد يكون للضغط

(3802/1)

الشعبي أو مطالب العامة دور في هذا التوجه من خلال ما وجدنا بعد موت الإمام سلطان بن سيف حيث يصر الشعب على تنصيب إمام لا تنطبق عليه شروط الإمامة، في حين يقف رجال الدين ضد إرادة الشعب ويختارون مهنا بن سلطان.

... سادسا: انتهى حكم النبهانيين عندما اتصل أحد حكامهم وطلب مساعدة البرتغاليين في تثبيت حكمه، وهو ابن حمير، وكان آخر سلالة النبهانية (وهو غير سميه بلعرب بن حمير آخر سلالة اليعاربة، الذي قاوم التدخل الأجنبي الفارسي. وكما انتهى النبهانيون

عندما طلبوا مساعدة البرتغال، فإن اليعاربة أيضا انتهو عندما

(3803/1)

طلبوا مساعدة فارس من قبل سيف بن سلطان الثاني.
وكما مهدت نهاية النبهانيين لقيام اليعاربة، كذلك مهدت نهاية اليعاربة لقيام البوسعيد.
... سابعا: أثر سقوط دولة اليعاربة ليس على الاستقرار الداخلي أو الازدهار الفكري والاقتصادي في عمان فقط، بل أدى إلى اختفاء الأسطول اليعربي القوي (الذي كان عامل أمن واستقرار وحماية من أطماع الاستعمار الأوربي)، وإلى تكالب تلك الدول وخاصة بريطانيا التي قامت بملء الفراغ العسكري الذي خلفه اليعاربة نتيجة للحروب الأهلية، وذلك برغم عودة العمانيين إلى البحار الشرقية بعد سقوط

(3804/1)

اليعاربة وعودة العلاقات مع شرق أفريقيا؛ ولكنها كانت تحت المظلة البريطانية وحمايتها. وبذلك فقدت

المنطقة استقلالها وقسمتها بريطانيا إلى كيانات سياسية صغيرة أقرب إلى إمارات المدن المتبعثرة.

... ثامنا: انقسمت عمان نتيجة للحروب الأهلية إلى عدة أجزاء سياسية صغيرة وضعيفة: الجزء الأول هو عمان الساحل التي حكمها البوسعيد في ساحل الباطنة ذات التوجه الحزبي الهنائي، والثاني عمان الداخل حيث الإمامة الإباضية ذات التوجه الغافري، والثالث ساحل عمان الشمالي في رأس الخيمة ذات التوجه الحزبي الغافري الذي انقسم أيضا

(3805/1)

إلى عدة أقسام غافرية صغيرة عندما انفصلت الشارقة عن رأس الخيمة التي تزعمت غافرية ساحل عمان الشمالي كما انفصلت أقسام أخرى وهي عجمان، أم القوين، الفجيرة. والرابع المتمثل في الحزب الهنائي في ساحل عمان الجنوبي –أبو ظبي– والتي انفصلت عنها دبي كما حاولت "خور العديد" الانفصال، ولكن الظروف الإقليمية منعتها، إضافة إلى أن حكام أبو ظبي تمكنوا من استرجاعها. وبذلك يمكن القول إن النتيجة النهائية للحرب الأهلية العمانية لم تتوقف بانتهاء اليعاربة عام

1752م وباستيلاء البوسعيد السلطة، بل استمرت بالانقسام الغافري

(3806/1)

والهنائي الذي مزق عمان إلى كيانات سياسية صغيرة حتى عام 1971م، أي عند الانسحاب البريطاني وقيام دولتين هما سلطنة عمان ودولة الإمارات العربية المتحدة.

(3807/1)

الحضارة بين الهيمنة والتواصل

... ... الدكتور عباس الجراري

... ... عضو أكاديمية المملكة المغربية كلية الآداب – الرباط

تعتبر العولمة ظاهرة العصر المميزة لما سينتهي به القرن الحالي، وما سيستهل به القرن المقبل إن شاء الله. وهي متولدة عن مخاضات واقع سياسي واقتصادي واجتماعي، وكذا واقع ثقافي وتقني وإعلامي، كانت

كلها تعتمل في الساحة الدولية بشتى عواملها المتضاربة وظروفها المتناقضة، وبجميع ما يكتنفها من طموح لبسط النفوذ وتوسيع السيطرة.

(3808/1)

وهي إذا ما توافرت لها أسباب النجاح، فستفرض سلطانها، أي سيفرض قادتها والمتحكمون في زمامها هيمنتهم على الآخرين، سواء أكان هؤلاء الآخرون من شبه الأقوياء المتطلعين إلى أن يكون لهم موقع لائق في المجال العالمي يؤهلهم لدور ما في العولمة، أم كانوا من الضعفاء الذين لا يقدرون على مواكبتها والمنافسة في حلبتها والمساهمة، والذين سيجتازون – نتيجة ذلك – أزمة عامة قد تمس نموهم وتطورهم، وربما أثرت على وجودهم بما سيكون لها من انعكاس حضاري وثقافي، وبما سيولده هذا الانعكاس في نفوسهم من نزاع داخلي لا شك أن معاناته

(3809/1)

ستفضي إلى مواجهة تحديات كبيرة وعميقة.

في نطاق هذه المواجهة بما تؤسس عليه من فعل ورد نابعين من الحدب على الهويات من أن تمحى أو تذاب يكمن الموقف من العولمة، ويكمن كذلك المصير الذي ينتظرها والذي لن يكون لصالحها إن هي سارت في خيار التسلط والاستبداد ووحدة الرأي والقرار، مع ما يعنيه ... هذا الخيار من رفض وإلغاء للذين يكونون غير قادرين على مسايرتها وتحقيق مكاسبها الآنية، وإن أبدوا كامل الرغبة والاستعداد للاندماج في سياقها، تحفزا من كيانهم وما لهم فيه من خصوصيات. وإيمانا بإمكان التوفيق والتكامل بين

(3810/1)

المحلية والعالمية.

في هذا الإطار، ونظرا لأن العولمة ظاهرة حضارية وثقافية تدخل الإنسانية اليوم أول المراحل لخوض غمارها، يصبح ضروريا فتح الآفاق واسعة لمعرفة ما للحضارات والثقافات الأخرى من رؤى وقيم وتوجهات بقصد التعامل معها – أقصد مع هذه الحضارات والثقافات – ومع المنتمين إليها، بما هي جديرة به وما هم خليقون به من مراعاة واعتبار.

من هنا كانت هذه الدراسة التي أحاول عبرها إثارة الانتباه إلى ما للإسلام من منظور يمكن القول منذ البدء إنه يرفض الهيمنة ويدعو إلى التواصل، ويرى الإنسانية تسير على الدوام في

(3811/1)

خط التطور المؤدي إلى الأفضل والأشمل.

وحتى تتبين أبعاد هذا المنظور، فإني سأتناوله من خلال قسمين:

في الأول، عرض أهم القضايا الحضارية وفق ما يراه الإسلام.

وفي الثاني، أناقش – بناء على هذه الرؤية – مسألة العولمة وما يمكن أن يكون لها من توجه إيجابي أو سلبي.

... ... * ... * ... * *

أبدأ بالقسم الأول، وفيه أثير أربع نقط:

الأولى عن المنطلقات، ذلكم:

1 – أن الله لم يخلق الإنسان عبثا: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون}(1). ولكن خلقه لعبادته: { وما خلقت الجن

(1) سورة المومنون (الآية 116).

(3812/1)

والإنس إلا ليعبدون }(1) .

2 – وحتى تتم هذه العبادة على النحو الصحيح، فإنه تعالى استخلف الإنسان في الأرض: {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة }(2)، { إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان }(3) .

3 – في نطاق هذا الاستخلاف أمره أن يعمر الأرض ويستثمرها ويسير بها في طريق الصلاح: {هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها }(4) ، {وهو الذي جعل لكم

---

(1) سورة الذاريات (الآية 56).

(2) سورة البقرة (الآية 29).

(3) سورة الأحزاب (الآية 72).

(4) سورة هود (الآية 60).

(3813/1)

الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه }(1) ،

{ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها }(2) .

وإنه ليبدو من السياق القرآني لخلق الكون والإنسان أن هذا الخلق كان متتابعا، إذ يتضح أن الله خلق آدم واستخلفه مباشرة بعد خلق السماوات والأرض: {هو الذي خلق لكم في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم. وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة }(3) فقوله عز وجل { لكم } يدل على أن الله خلق الأرض

---

(1) سورة الملك (الآية 15).

(2) سورة الأعراف (الآية 55).

(3) سورة البقرة (الآيتان 28و 28).

(3814/1)

للإنسان حتى يعمرها ويستثمرها، واتباعه جعل الخليفة مباشرة بعد خلق السماوات والأرض دليل على أن أول ما خلق الله بعدهما هو الإنسان أي آدم الذي سيستخلفه الله على الأرض.

الثانية عن الدعائم التي يراها الإسلام لقيام الحضارة، إذ بها يكون الصلاح وتكون العمارة، ويكون الاستخلاف،

وتكون العبادة التي بها تتحقق الغاية من الخلق.

عن هذه الدعائم تحدث القرآن الكريم، على نحو ما ورد في إحدى أقصر سورة، وهي سورة العصر التي يقول عز وجل في آياتها الثلاث: {والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا

(3815/1)

بالحق وتواصوا بالصبر }.

وهي آيات تشير كل منها إلى إحدى تلك الدعائم:

1 – الإيمان، ويتضمن شعبا كثيرة تبدأ مما حدده رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في الحديث(1) الذي أجاب فيه النبي الكريم جبريل عليه السلام حين سأله عن الإيمان، إذ قال – صلى الله عليه وسلم- : "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره".

ومن الإيمان التصديق برسالة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – وما جاء به من أحكام وتشريعات، ومنه كذلك

---

(1) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي عن عمر بن الخطاب.

(3816/1)

ما به يتبلور، أي أداء مختلف الطاعات والعبادات والفروض التي أوجبها الله على عباده. وعندي أن هذا هو المضمون الذي ذهب إليه الذين يرون أن الإيمان قول وفعل، أي هذا النطاق من الفعل المتعلق بالواجبات، وليس مطلق العمل الذي سيأتي بعد، موصوفا بالصالح.

2 – العمل الصالح، وقد جاء في آيات كثيرة مقرونا إلى الإيمان؛ ومجاله واسع، ويكفي للدلالة على أهميته في الإسلام أن نسوق الحديث(1) الذي يحثنا فيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على أدائه ولو في آخر لحظة من الحياة: "إن قامت على أحدكم

---

(1) أخرجه ابن حنبل عن أنس.

(3817/1)

القيامة وفي يده فسلة فليغرسها"، أي قضيب من كرم صالح الغرس؛ و"إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل".

3 – السلوك الحسن وفق القيم الخلقية التي جاء بها

الإسلام، والتي بلورها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في سلوكه الذاتي ومع الغير.

ولإبراز المكانة التي يعطيها الإسلام لهذا الجانب، تكفي الإشارة إلى الحديث الشريف(1) "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". وتأكيدا لهذه المكانة جاء في حديث آخر لصيقا بالإيمان: "لا

---

(1) رواه مالك في "الموطإ"؛ وابن حنبل في "مسنده" عن أبي هريرة.

(3818/1)

يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"(1) .

وإن هذه الدعائم الثلاثة هي التي ساقتها سورة العصر:

1 – عن الإيمان جاء فيها {إلا الذين آمنوا}.

2 – وعن العمل الصالح {وعملوا الصالحات}.

3 – وعن السلوك جاء {وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}.

وإذا كانت هذه الدعائم تجمع ما جاء به الإسلام من وعقيدة وشريعة السلوك، فإن خلاصتها تكمن في "الخير". وهي كلمة جامعة لما ينبغي أن تكون عليه الحياة ويكون عليه الناس. {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

(1) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس.

(3819/1)

وأولئك هم المفلحون }(1) ، {كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله }(2) ، {الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر }(3) . في هذا الخير يتبلور مدلول الحضارة، إذ تتجلى – حسب المفهوم التوضيحي المعاصر – في مجموع مظاهر التقدم الذي يحققه شعب أو أمة في مختلف ميادين الحياة المادية، وكذا المجالات الفكرية التي قد تندرج في معنى الثقافة عند من يميزون

(1) سورة آل عمران (الآية 104).

(2) سورة آل عمران (الآية 110).

(3) سورة الحج (الآية 39).

(3820/1)

بين مصطلحي الحضارة والثقافة.

الثالثة عن وسائل إقامة الحضارة، وتقوم على نهج التوسط والاعتدال: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا}(1)، {خير الأمور أوسطها}(2)، كما تقوم على تجاوز كل أسباب الاختلاف مع الآخر والتعايش معه في تآزر وتناصر يتسنى بهما التعارف الكامل: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا}(3). وإن هذا التعارف لينبع من إدراك

---

(1) سورة البقرة (الآية 142).

(2) رواه الديلمي عن ابن عباس، وأخرجه ابن السمعاني عن علي مرفوعا بلفظ "خير الأمور أوسطها".

(3) سورة الحجرات (الآية 13).

حقيقة الوجود القائم على الاختلاف، وحق الغير في هذا الاختلاف: {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم، فاستبقوا الخيرات}(1). ومن ثم يستفاد من هذا الغير ويقتبس كل ما هو صالح عنده، في عملية أخذ وعطاء متبادلين. وهذا هو الذي يجعل الحضارة في منظور الإسلام

قائمة على التواصل بما يحتمل فيه من تداخل وتفاعل وفق شروط تكاد أن تكون من سنن الكون وطبيعة الحياة البشرية، على ما قد يرتبط بهذه الظاهرة أو ينتج عنها من قبول أو رفض.

---

(1) سورة المائدة (الآية 50).

(3822/1)

على أساس هذا التواصل تكونت الحضارة الإسلامية، وفي سياقه تشكلت وتتشكل الحضارة الإنسانية وإن تعددت محطاتها المنسوبة إلى شعوب بعينها، مهما يكن مستوى هذه المحطات. ذلكم أن الحضارة واحدة، وقد اجتازت وتجتاز مراحل منذ ما قبل التاريخ أو العصر الحجري القديم، حين وجد الإنسان الذي أشعل النار، والذي اهتدى إلى نحت الصخر وإلى صنع الأسلحة من هذا الصخر أو من العظام. وإن الآثار المكتشفة لتدل على أن بيننا وبين هذه المرحلة زمنا يقدر بنحو مليون عام أو أكثر، وكان اختراع الكتابة قبل نحو من سبعة آلاف سنة قد دخل

(3823/1)

بالحضارة إلى طور جديد متداخل الحلقات.

وإذا كان المنظور القرآني يقيم الحضارة على التواصل في صيغة يعتبر بها هذا التواصل هدفا يتحقق بشيء غير قليل من التلقائية والحتمية، فإنه لا ينفي وجود الصراع والحوار ويراهما من السبل المفضية إليه، وقد كثر الحديث عنهما في هذه السنين الأخيرة عبر مقولة صراع الحضارات أو حوارها. فعن الصراع يقول تعالى: {ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض}(1)، {ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله

(1) سورة البقرة (الآية 249).

كثيرا}(1). وعن الحوار يقول: {وقولوا للناس حسنا}(2) {وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن}(3)، {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن}(4)، {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن}(5).

الرابعة عن انهيار الحضارة: إنه إذا كان الإسلام يدعو إلى إقامة الحياة والحضارة على هذا النحو، مما يحقق السعادة والازدهار والأسباب التي تكون خلف ذلك، فإنه يبين

---

(1) سورة الحج (الآية 38).

(2) سورة البقرة (الآية 82).

(3) سورة الإسراء (الآية 53).

(4) سورة النحل (الآية 125).

(5) سورة العنكبوت (الآية 46).

(3825/1)

كيف تنهار الحياة وتنحط الحضارة وتنتهي وتموت. وقد أخبرنا القرآن الكريم عن حضارات بادت بعد أن سادت، وحدثنا عن أسباب انهيارها، مما يمكن أن ننظر إليه اليوم ونعرضه ونحلله بمنطق التاريخ. وتكفي الإشارة إلى الأقوام الذين أورد القرآن الكريم ذكرهم في سورة الفجر، وهم عاد وثمود وفرعون: {أَلَم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالوادي وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم

ربك سوط عذاب، إن ربك لبالمرصاد}(1)

---

(1) سورة الفجر (الآية 6-14).

(3826/1)

. وقد بدأت هذه الآيات باستفهام تقرير يهدف إلى تثبيت النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وهو موجه خطابا له:

1 - فعاد أهل إرم الذين كانوا معروفين بالقوة والشدة، وبحصونهم وقصورهم المرفوعة على الأعمدة، وكان الله قد بعث فيهم هودا.

2 - وثمود قوم صالح أولئك الذين كانوا مشهورين بنحت الجبال وإقامة البنايات الضخمة من الحجارة.

3 - وفرعون الذي ذاع صيت قوته وبطشه وشدة تعذيبه لخصومه، وما كان له في ميدان العمران والبناء، وقد بعث الله لهدايته وتحرير بني إسرائيل من استعباده موسى عليه السلام وأخاه هارون.

(3827/1)

هؤلاء جميعا طغوا وتجبروا على عباد الله وعلى أنبيائه الذين كان يبعثهم، وأكثروا الفساد في الأرض بما كانوا يرتكبون من فواحش وآثام ومظالم، فكان أن أهلكهم وأبادهم:

1 – أهلك عادا بالريح {فأهلكوا بريح صرصر عاتية}(1) .

2 – وأهلك ثمودا بالصيحة أو الطاغية: {فأهلكوا بالطاغية}(2) .

3 – وأهلك فرعون بالغرق: {فغشيهم من اليم ما غشيهم}(3) .

لماذا فعل الله بهم ذلك؟

---

(1) سورة الحاقة (الآية 5).

(2) سورة الحاقة (الآية 4).

(3) سورة طه (الآية 77).

(3828/1)

لأنه عز وجل لا يفوته شيء، وهو يراقب الكون والخلائق، ويحقق إرادته في إقامة عمارة الأرض على الخير، ويجزي كلا بما فعل، في إنصاف لا ظلم فيه. إن هذا الموقف القرآني الحكيم يتفق مع منطق التاريخ، أو بالأحرى أن منطق التاريخ يتفق معه، كيفما كانت مناهج تحليله؛

وتؤكده مسيرات الحضارة والثقافة في كل زمان ومكان.

وقد تسنى لنا في المرحلة المعاصرة أن نعيش تفتت قوى كبرى وانهيار دعائمها، ولما تعمر أكثر من ستة عقود، بسبب التوجه الإلحادي الذي قامت عليه، والذي قاد إلى الزوال شعاراتها الخلابة وكل مظاهر القوة المادية

التي كانت إليها مستندة.

وإن أية حضارة أخرى ستنهار إذا هي ظلت بعيدة عن الإيمان والقيم النابعة منه، وسارت في طريق الاستكبار والاستعلاء وإبطال الحقوق وظلم الضعفاء.

وللإسلام في هذا النطاق موقف متسامح يحثني – في استطراد خفيف – على أن أذكر أن القرآن في الوقت الذي تحدث عن الحضارات البائدة، تحدث كذلك عن غير المسلمين من الذين استقام سلوكهم، ونوه بهذا السلوك على نحو ما توضحه آيتان كريمتان:

الأولى: {ومن أهل الكتاب من أن تامنه بقنطار يؤده إليك}(1) ، وهي آية تعرض لتعامل المسلمين

---

(1) سورة آل عمران (الآية 74).

مع أحد اليهود، وفيها إشادة بأمانة هذا اليهودي، وهو عبد الله بن سلام وقد أسلم يوم دخل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – المدينة، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – هو الذي سماه الحصين. وكان قد أودع عنده أحد المسلمين ألف أوقية من الذهب فأعادها إليه.

الثانية: {ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون}(1) ، وهي آية تدل على أن من بين النصارى علماء وعباد متواضعين لا يتكبرون.

---

(1) سورة المائدة (الآية 84).

وإننا من خلال هاتين الآيتين ينبغي أن نفهم الواقع الذي نعيشه والذي نرى فيه غير المسلمين يتفوقون ويتقدمون في مضمار الحضارة، لولا أنهم يريدون جعلها حضارة العصر الوحيدة، في فرض لها عبر نظام عالمي جديد، وفي رفض لما عند الآخرين، ومنهم المسلمون، نحن الذين نشعر في أعماقنا بإحساس لا نخفيه، يتأرجح

عندنا بين العجز عن إدراك تفوق الغرب واللحاق به وبين إمكان هذا الإدراك وإن بصعوبة.

من هنا أنتقل إلى القسم الثاني من الدراسة، معتبرا أنه كيفما كانت معالم الواقع الراهن تدعو في ظاهرها وبالمعايير الآنية إلى التشاؤم

(3832/1)

وربما إلى اليأس من الاقتدار على الخروج من مأزق الموقع الذي نحن فيه، فإن للتاريخ مقاييس هي التي تتحكم في مسيرته؛ وفي ضوئها يتحرك المد الحضاري صعودا وهبوطا. وهي التي جعلت حضارات كبرى تندثر وتنهار حتى بلغت أوجها وأصاب أصحابها داء الغطرسة والتجبر. وهي في النهاية ومهما يكن اختلاف الرؤى ودرجات الوعي ومناهج التحليل وأشكال الخطاب، مؤدية إلى ما شاءه العلي القدير، وأراده للإنسان منذ الأزل إلى فناء العالم، ونبه إليه في كتبه السماوية عبر تجارب الأمم السابقة والشعوب الغابرة وما كان لها من حضارات بلغت أوجها

(3833/1)

بمصادمة غيرها والتغلب عليها، إلا أنها بعد تأكيد الهيمنة وبسط السلطان، استبد بها شعور أناني ومتعنت لم يلبث أن قادها إلى البغي والطغيان وإكثار الفساد، فكان أن آل أمرها إلى الخراب والفناء.

قد يرى البعض أن في هذا توجها دينيا يعارض خط سير العقل والتاريخ، ولكن الحقيقة أن أي تفسير – ولو كان نابعا في ظاهره من هذا الخط – هو لا بد متأثر بفكر إيديولوجي متوسل بأدوات وتعابير حتى وإن بدت مخالفة لما يتوسل به ذلك التوجه، فإنها في آخر المطاف تصل إلى النتيجة نفسها، مما يجعل صيغة العلم تؤكد صيغة الوحي، ويحث

(1/3834)

بالتالي على عدم إغفال الخلفية الدينية في تحليل المرحلة.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى ما عند حكماء الدارسين الغربيين للحضارة من أن في طليعة أسباب انهيارها التسلط والفساد الروحي، وأن خلف ازدهارها عاملين هما الدولة المنظمة وقوة الجانب الديني.

ولعل المنظور الإسلامي يبدو أكثر دقة وتحديدا وأوسع شمولية واكتمالا حين يعتبر دعامات قيام الحضارة –

كما مر – مرتكزة على العقيدة المتمثلة في الإيمان، وعلى العمل الصالح الذي يقتضي تنظيم حياة الفرد والمجتمع في أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية

(3835/1)

وغيرها وفق الشرع، ثم على القيم السلوكية المحققة للتواصل الذي من مظاهره الاعتراف بالآخر والأخذ معه والعطاء في غير بغي ولا طغيان أو تجبر.

وإنه ليتضح من المسيرة المعاصرة في جميع ما يشغلها من قضايا وأوضاع، أنه إذا كان الغرب غير مهتم – ظاهريا – بالحضارات الأخرى، إما لمحدوديتها أو ضعفها أو عدم توقع منافستها وخطرها في المدى القريب على الأقل – كما هو الشأن في عموم تعامله مع البلاد الآسيوية وهو مخطئ في ذلك – فإنه يبدو مهموما بحضارة الإسلام، سواء أصرح بذلك أم أخفاه، لإدراكه مدى توافرها على جميع طاقات

(3836/1)

الإنتاج والإبداع وشتى إمكانات الانتشار والامتداد، بحكم طابعها الإنساني النابع عن تعاليم السماء. وهو طابع لا يتعارض مع وجود حضارات أخرى، بل يتضمن استعدادا لقبولها والتعارف معها والتنافس في طريق الخير المفضي إلى التواصل. وما تسامح الإسلام مع الديانات الأخرى مما هو معروف إلا أحد مظاهر هذا الاستعداد.

ومن ثم فإن الغرب، في إطار هذا الهم الحضاري، مدعو إلى أن يتأمل أمرين اثنين:

الأول : أن الإسلام الذي كان الحافز والباعث على صنع حضارة كبرى ما زال قائما ينبض بالحياة، وأن المسلمين اليوم – على الرغم من

(3837/1)

الوضع الذي يعانونه – يجتازون مرحلة صحوة مبشرة ببعث كبير، إذا ما تسنى وعي صحيح بهذه الصحوة، ووجهت في الطريق القويم، ملتزمة خط التوسط والاعتدال، ومحافظة على توازن لا تردد فيه ولا انجراف.

ومن الوعي إدراك ضرورة تجديد أمر الدين وأهمية هذا التجديد، أي تصحيح المنظور له بالعودة إلى أصوله لتعريف غير المسلمين به وتصحيح ملامح الصورة التي

رسموها مشوهة في ذهنهم عنه، ثم للانطلاق من روح تلك الأصول للتعامل مع قضايا العصر، ولتصفية الذهن الإسلامي من الشوائب التي علقت به على امتداد الحقب، لا سيما عبر عصور التوقف،

(3838/1)

حتى يستطيع المسلمون أن يتجاوزوا عواقب هذا التوقف. الثاني : أنه لا بد من التمييز بين ما هو مكون ومؤسس للحضارة الإسلامية وبين ما هو تراث ناتج عن مقومات التكوين والتأسيس، حتى لا يقع أي خلط بين المقدس وغيره. فالمقدس ما جاء به الدين من عقيدة وشريعة ومنظومة سلوك مبنية على مبادئ وقيم خلقية، وما سواه هو ما أبدعه المسلمون من علوم وفنون وآداب وما مارسوه من عادات وتقاليد، مما يمثله الإرث الضخم الذي امتد إنتاجه عبر قرون تفاوتت ازدهارا وانهيارا، ومعها تفاوت التراث جودة ورداءة. على أننا في هذا النطاق لا نخفي

(3839/1)

الإحساس بمدى العبء الذي يثقل كاهلنا لضخامة هذا التراص بغثه وسمينه، وكذا الإحساس بحيرة الاختيار فيه بين الجانبين، أو في الحقيقة بحيرة الفصل في الاختيار، مما يجعلنا نبدو وكأننا نتخبط في تيه لا تقود مسالكه إلا إلى الارتطام داخل شعاب الذات، مستشعرين صعوبة الخروج من هذا التيه لمتابعة السير في ضوء العصر ومستجداته والمساهمة في هذه المتابعة، بما لنا من إمكانات وطاقات، وبما لنا من رصيد صاف وحي. وإن هذا الرصيد الباقي من الحضارة الإسلامية قادر – بعد أن أمد حضارة الغرب في الماضي – على أن يتفاعل معها اليوم.

(3840/1)

وهو تفاعل تشجع عليه التحولات الكبيرة التي يعرفها المسلمون في حياتهم المعاصرة، وما يشهدون فيها من تطور يؤدي في مجمله إلى النمو والتقدم على الرغم من كل التحديات التي تواجه هويتهم.

وإن أكبر هذه التحديات اليوم هو الظن المشاع بأن الحضارة الوحيدة في عصرنا هي حضارة الغرب، وأن ثقافته بالتالي هي التي تسود أو ينبغي أن تسود، أي أنه لا مجال للحديث عن حضارة أخرى أو ثقافة مخالفة.

ولكن النظر إلى الحضارات في بعدها الإنساني، وكذا الثقافات، يبطل مثل هذا الظن الإحباطي والمتغطرس؛ لأن الحضارة الحق – وما معها من

(3841/1)

ثقافة – هي التي تكون قادرة على التعايش والتساكن، ثم على التحاور والاستمداد بما يحقق لها التواصل اللازم للاستمرار، وبما يكسبها مزيدا من الغنى والثراء، حتى ولو كانت تشعر بالتفوق والغلبة، إذ في الوقت الذي يكون المغلوب مضطرا إلى الأخذ والاقتباس، فإنه بما له من خصوصيات ثقافية يبقى قادرا على أن يحاور، أي قادرا على أن يعطي الآخر ما عنده ويساعد هذا الآخر – نفسيا – على الشعور بذلك التفوق وتلك الغلبة. فكيف إذا كان الآخر – كشأن المسلمين – صاحب حضارة وثقافة تألقتا خلال عصور كثيرة، وكانتا من بين أهم الأسس

(3842/1)

التي قامت عليها حضارة الغرب وثقافته.

هذا بغض النظر عما يذهب إليه الذين يرون في إجراء

الحوار مع الضعيف – أو بالأحرى مع من يعتبرونه ضعيفا – إنما هو مجرد وسيلة لفهمه وإدراك جوانب ضعفه لمزيد من التحكم فيه والتمكن منه، لا سيما حين يقع التركيز في التبادل معه على المظاهر الاحتفالية والظواهر الفلكلورية والإلحاح فيهما على ما هو محرف أو مشوه.

والدعوة إلى التواصل لا تعني عدم الشعور بموقعنا في السياق الحضاري المعاصر، وبحاجتنا إلى أن نأخذ ونقتبس ونستفيد من تقدم الغرب، ولكن تعني اعتبار الشمولية التي يتسم بها

(3843/1)

هذا السياق، وما لنا من مساهمة فيه، سواء في أصله حين نشأ يستمد من حضارة المسلمين، أو بممارستنا لمنجزاته واستهلاكنا لها، وكذا بما تقدمه الأدمغة الإسلامية المهاجرة. وتعني كذلك اقتناعنا بحاجة حضارة الغرب اليوم إلى المكونات الإيمانية التي افتقدها إذ تخلى عنها، وعزمنا على إمكان إغنائها بما لدينا من خصوصيات وما لنا من قدرات للإبداع؛ دون إغفال معطيات أخرى معروفة قيمتها على الصعيد السياسي والاقتصادي والعسكري، كعدد سكان الأقطار

الإسلامية وأهمية مواقع هذه الأقطار وغنى ثرواتها،
إضافة إلى ما للغرب فيها من

(3844/1)

مصالح آنية ومستقبلية.
إن الحضارة وإن كانت مزدهرة في فترة محددة لدا شعب معين أو في ظل فكر متميز – كما هو الأمر بالنسبة لحضارة الغرب المعاصرة – فإنها في حقيقتها موسومة بالطابع الإنساني الذي يتشكل عبر تراكمات السابقين.
ثم إن الحضارة الحق ليست هي التي إذا أدركت يتيح لها التوسع في العمران والشعور بالقوة طمعت في بسط النفوذ وفرض السيطرة على الآخرين والتحكم فيهم، ولكنها التي إذا ما تسنى لها هذا التقدم الحضاري ألحمته بالقيم الروحية والمقومات الفكرية، أي بكيان ثقافي هو الذي يكمل إطار الحضارة ويمكنها من

(3845/1)

الاستمرار والتواصل، بدءا مما يجليه هذا الكيان من تمثل للحياة والكون، وما يكون به قادرا على توجيه المنجزات الحضارية والتصرف فيها بميزان الضبط والعدل.

لقد أثبت التاريخ أن الحضارات على اختلافها كانت تسعى إلى اكتساب مزيد من التوسع والنفوذ، وأن منها ما يتجاوز هذا الحد وتطلع إلى اكتسام الغير والتغلب عليه. ولعل ذلك كان أحد أسباب الصدامات التي عرفتها البشرية على امتداد العهود. ومن ثم فإنه لا سبيل لإنكار الصراع الحضاري الذي عاشته الإنسانية، وهو صراع لم يكن يتسم دائما بتدمير الآخر، والمقصود به المغلوب

(3846/1)

الذي تبقى له آثار قائمة بالإضافة إلى ما يكون امتصه الطرف الغالب من معالم وملامح يغني بها ذاته، مما ينم عن مظهر للتواصل الحضاري والثقافي حتى في ظل الصراع والغلبة.

إن العالم الذي نعيش فيه عرف ويعرف نزاعات دموية وحروبا باردة تدخلت وتتدخل في نشوبها عوامل شتى سياسية واقتصادية وعسكرية وثقافية، وكذلك

أسباب بيئية وتنموية ترتبط بتفاوت نسب السكان، وإساءة توزيع الثروات، والإجحاف في استغلال الموارد، وما يترتب على ذلك من فقدان التوازن ثم انعدام المساواة، مما يقود إلى ظهور تحديات في جانب تعكس الطغيان المادي

(3847/1)

المجرد من القيم الروحية، ومواجهة لهذه التحديات في جانب آخر نتيجة الشعور بالظلم ورغبة في التمسك ببعض تلك القيم، وهو الواقع الذي تكرسه الدعوة إلى العولمة وما يرافقها أو تتكئ عليه من حضارة.

* ... * ... * ... ... *

إنه لا إنكار أن هذه الحضارة – أي حضارة الغرب – أتاحت للإنسان أن يتمتع بحريته وحقوقه، ويسرت له أنماطا من مظاهر الرقي والرفاه، وطوت له أبعد المسافات بفضل ثورة وسائل الاتصال، وحققت غير ذلك من المنجزات التي يتحتم علينا أن نسارع ليس فقط لاكتسابها والاستفادة منها، ولكن لامتلاكها وتجاوز إمكان

(3848/1)

مسايرتها إلى القدرة على المساهمة فيها بالإنتاج والإبداع. إلا أنها مع ذلك تبقى حضارة فردية الزعامة والقطبية وأحادية المنطلق والرؤية، تستمد من المادة وإليها تعود، وتستبعد التوجه الديني بما يمكن أن يمدها به من مبادئ مثالية ومعان روحية.

وإن العالم اليوم – وهو واقع فريسة المخالب الفتاكة لهذه المادة – يتطلع إلى من ينقذه منها ويبشر بالحل، أن يهفو إلى من يحمل مشعل الرسالة التي شاءت إرادة الله منذ الأزل أن ينيطها بالإنسان، حتى تقوم عمارة الأرض، ويعم العدل، وتسود المساواة، وتتحقق كرامة هذا الإنسان أينما

(3849/1)

كان وكيفما كان.

وإن مكمن هذا الحل ينبغي أن ينطلق من إدراك أن سنة الله في الكون تقتضي استحضار وجوده، والإيمان به، والعمل بتعاليمه، والنهوض بأمانة الاستخلاف في طريق النفع والإصلاح، ووفق معايير الحق والخير.

وإن أي حل آني أو مستقبلي لا يراعي هذه المعطيات محكوم عليه بالخيبة والفشل، إن لم نقل بالانهيار والدمار؛ وهو ما يهدد الإنسانية إذا هي ظلت تراعي

المعطيات الدنيوية المادية فقط، وأصرت على موقفها المناهض للدين، في غير اعتبار لما فيه من قيم نبيلة ومقومات سامية، ودون اهتمام لما له من منظور سديد ومتكامل

(3850/1)

للإنسان والحياة.

(3851/1)

الخديو إسماعيل وبناء القاهرة الحديثة

(مشروع باريس الشرق)(1)

... ... الدكتور عبد المنعم إبراهيم الجميعي

... ... أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

... ... بجامعة القاهرة

... على الرغم من اختلاف المؤرخين، وشهود العيان في حكمهم على الخديوي إسماعيل وعصره(2)

---

(1) يرجع تاريخ إنشاء مدينة القاهرة إلى عام 969،

عندما فتح جوهر الصقلي مصر، وأسس القاهرة لتكون مقراً للخليفة المعزّ لدين الله الفاطمي.

(2) اتهمه ملنر، وكرومر، وكولفن، والجود، ودي فريسينيه، وزيتلند بالإسراف والاستبداد والانحلال؛ كما حكم عرابي على فترة حكمه لمصر بأنها كانت شراً ووبالاً على المصريين لشدة نزقه، وطمعه، وسوء تصرفه، وعدم مساواته (انظر على سبيل المثال: Milner, England in Egypt؛ وعرابي، كشف الستار عن سر الأسرار (مخطوط)، ص. 33)، بينما انصفه ووصفه بالنشاط والكفاءة الإدارية وحب العمل كل من كرابيتس، وجون مارلو، وألبرت فارمان.

(1/3852)

(1863 ـ 1879 م)، فإن جهوده العمرانية في تطوير مدينة القاهرة وتحديثها، واللمسة الأوروبية التي طرأت عليها تظل علامة مميزة لفترة حكمه، ونموذجاً لمقدرته على التمكن من تذليل الصعاب بعزيمة لا تعرف الكلل، وقوة لا تعرف الوهن، حتى لو أدى ذلك إلى تسخير موارد مصر واعتصارها. فحين حكم إسماعيل مصر كانت تتنازعها حضارتان، حضارتها الإسلامية القديمة بعاداتها وتقاليدها وبما أصابها من شيخوخة وترهل وما

حل بها من عدم اهتمام وحالة مزرية، والحضارة الأوربية الحديثة بمفاتنها ومباهجها. فقد حاول الخديوي إسماعيل نقل

(3853/1)

العاصمة المصرية من قاهرة العصور الوسطى إلى قاهرة جديدة تساير الحديث وهي تتمسك بتلابيب الماضي وآثاره. فعلى الرغم من محاولاته جعل مصر قطعة من أوربا وانفتاحه على الغرب، واستيراده للمدينة الأوربية باقتباس بعض الأنظمة والمنشآت الباريسية، فإن مصر بتراثها وتاريخها، وقدرات أبنائها، وقفت حائلاً دون اقتلاع جذور حضارتها الشرقية، وإن كانت لم ترفض اللحاق بالحضارة الأوربية واستيعاب أفضل ما فيها. فسايرت مصر الحضارة الأوربية، وإن ظل عبق الماضي يجري في عروقها، ويشع في كل شبر من أركانها، وهو يحمل بصمات الإنسان

(3854/1)

المصري وعرقه. وبين الحاضر والماضي تناقض واضح وفرق بيِّن، وكان الفاصل بينهما الشارع الممتد من محطة مصر (ميدان رمسيس) إلى قصر عابدين.

... لقد وصلت الأحوال في قاهرة المعز ذات الموقع الفريد الذي يربط الدلتا بالصعيد، ويحمل كل شبر فيها بصمات الإنسان المصري وعرق كفاحه، وصلت الأحوال فيها خلال تلك الفترة إلى درجة كبيرة من التدهور، وتراكم عليها غبار القرون. ففي النواحي العمرانية، كانت القاهرة شرقية في شكلها ومظهرها. فشوارعها كانت ضيقة لا تكفي إلا لمرور جمل واحد أو حصان واحد، كما أنها كانت غير مضاءة وكل

(3855/1)

إنسان كان يخرج إلى الشوارع ليلاً يحمل مشعلة أو يتقدمه حامل مشعلة، ولم تكن المياه متوافرة إلا في قناة تخترق المدينة كانت تحمل منها المياه في قرب(1)، يعتمد في نقلها على السقائين، كما كانت القاهرة محرومة من الحدائق، وشوارعها لا تحف بها الأشجار، بل كانت تتكاثر فيها الأنقاض والخرائب والدور المتهدمة.

---

(1) ألبرت فارمان، مصر وكيف غدر بها، ترجمة عبد الفتاح عنايت، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر، القاهرة، 1964، صص. 265 ـ 266.

(3856/1)

... وفي النواحي الصحية كان الكثيرون من الناس يدفنون موتاهم في منازلهم وفي المساجد والمدارس؛ كما اتخذ بعضهم مقابر وسط المدينة. وإلى جانب ذلك، فلم يكن أهل القاهرة يعتمدون على الأطباء في مداواة مرضاهم، بل كانوا يعتمدون على أقوال الدجالين والمشعوذين والعجائز(1).

... ولم يكونوا على وعي كامل بأهمية النظافة. فتكاثرت تلال القمامة داخل المناطق السكنية وخارجها، مما أدى إلى كثرة الغبار وتلوث الهواء، ونقل

---

(1) علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1994، ج 1، ص. 199.

(3857/1)

الأمراض المعدية؛ كما انتشرت المستنقعات والبرك التي تبعث الروائح الكريهة، وتسبب انتشار الأوبئة والفتك بالأهالي لدرجة أن وصف البعض القاهرة بأنها عاصمة البعوض، وبؤرة للأمراض المعدية، ومقر للمستنقعات والبرك الراكدة التي تصيب كل من يقترب منها بالحميات الفتاكة، وبأنها البلد الذي يقضي فيه الزائر طوال يومه تحت الناموسية حتى يخفف من المتاعب الناتجة عن هجوم الحشرات عليه(1)

---

(1) تذكر صوفيا بول التي زارت القاهرة أثناء حكم محمد علي أن استخدام الناموسية أثناء الليل كان يخفف المتاعب إلى حد ما، ولكنها لا تزيلها كلية، وأنها ضرورية جداً لمنع هجوم الزواحف الكبيرة. أما البق والبراغيث، فكان لا ينفع معها أي محاولات وقائية (انظر: حريم محمد علي، ترجمة عزة كرازة، القاهرة، 1999، ص. 57).

(3858/1)

، وأن القادم إليها كان يتأمل جسامة تلال القمامة التي تفصل بين الأزبكية وبولاق، وأنه من الخير أن يسمع الإنسان عن القاهرة بدلاً من أن يراها(1).

... وقد نجح إسماعيل في تغيير هذه الصورة إلى حد كبير وإزالة الغبار الذي لحق بالقاهرة قبل عهده لدرجة قال عنها علي مبارك

... فمن يدخل القاهرة الآن، وكان قد دخلها من قبل، أو قرأ وصفها في كتب من وصفوها في الأزمان السالفة، فلا يرى أثراً لما ثبت في

---

(1) سيد كريم، »قاهرة إسماعيل في ميزان التاريخ المعماري«، ضمن مجلة العمارة، 1945، العددان الخامس والسادس، ص. 16.

(3859/1)

علمه، ويرى أن التغيير كما حصل في الأوضاع والمباني وهيئاتها حصل في أصناف المتاجر، وفي المعاملات والعوائد وغيرها من أحوال الناس (1).

... فبعد أن كانت القاهرة محصورة في أحضان المقطم بأحيائها القديمة وأزقتها الضيقة، خرجت عن وصاية الجبل الأبوية. وبعد أن كانت محصورة بحدود سور المدينة بين بابي الفتوح والنصر شمالاً، والخليج المصري غرباً، والجبل وقرافة المماليك وسلاطينهم شرقاً،

وخرائب الفسطاط جنوباً(2)

---

(1) الخطط التوفيقية، مصدر سابق، ج 1، ص. 216.

(2) إلياس الأيوبي، تاريخ مصر في عصر الخديو إسماعيل، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1923، ج 1، ص. 141.

(3860/1)

، أخذت رقعة العمران تنمو في اتجاهين بدلاً من اتجاه واحد، حيث شمل اتساع العمران في القاهرة شمالاً وغرباً. وكان ذلك بمثابة المفتاح في نمو القاهرة(1)

---

(1) في أيام الحملة الفرنسية كان خط الحسينية، وباب الشعرية ـ بولاق يمثل أقصى امتداد للقاهرة شمالاً. ثم اخترق محمد علي ذلك الحد، وتعداه شمالاً نحو شبرا؛ كما أن عباس الأول هو الذي بدأ العباسية عبر الحسينية. أما إسماعيل، فقد شيد حي الإسماعيلية. كما كانت المعادي وحلوان تمثلان نمواً حديثاً على الضفة الشرقية في عصره. (جمال حمدان، القاهرة، دار الهلال، يونيو 1993، صص. 10 ـ 12).

(3861/1)

فحول إسماعيل مجرى العمران في القاهرة إلى الغرب، وأنشأ بينها وبين النيل حيّاً بأكمله هو حي الإسماعيلية؛ كما تجاوزت حدودها ضفة النيل الشرقية إلى الجيزة والجزيرة(1).

... وبعد أن كانت القاهرة مكتظة بأكوام الزبالة والقاذورات، وتحيطها البرك والمستنقعات من كل جانب، أمر إسماعيل بإزالة تلال القمامة والخرائب والعفونات التي كانت تنبعث منها الروائح الكريهة وتنظيف ما بين بابي

---

(1) أحمد فكري، »القاهرة في عصر إسماعيل«، ضمن كتاب إسماعيل بمناسبة خمسين عاماً على وفاته، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1945، ص. 381.

(3862/1)

الفتوح والنصر، وقلعة الكبش، والسيدة زينب من شوارع وأزقة ودروب وأسواق، بتعميم الكنس والرش فيها والعمل على منع تكاثر الغبار، وكل ما يخالف القواعد الصحية(1)؛ كما أمر بنقل المدافن التي تحيط بوسط العاصمة، وتحويلها إلى منتزهات وميادين وأحياء.

... وبعد أن كانت القاهرة تمثل مظاهر العصور الوسطى بكل سماتها، تحولت القاهرة إلى قاهرتين مختلفتين تتمايز إحداهما عن الأخرى، ولو أنهما لا تختلفان كثيراً في الموقع. أما الأولى، فقد سايرت النمط الأوروبي بكل المقاييس؛ بينما

---

(1) إلياس الأيوبي، مصدر سابق، ج 1، ص. 149.

(3863/1)

ظلت الثانية مصرية إسلامية(1) لدرجة وصفها البعض بأنها أصبحت مثل الزهرية التي انقسمت إلى شطرين(2) وبأنها الثنائية الحضارية التي يتعايش فيها القديم والجديد، والأصيل والدخيل(3).

---

(1) ستانلي لين بول، سيرة القاهرة، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1997، ص. 20.

(2) أندريه ريمون، القاهرة تاريخ وحاضر، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات، القاهرة، 1994، صص. 277 ـ 278.

(3) جمال حمدان، القاهرة، مرجع سابق.

(3864/1)

... ومعنى ذلك أن إسماعيل قام بتحديث الجزء الغربي من القاهرة. أما القاهرة القديمة التي تضم الدرب الأحمر، ومصر القديمة، والسيدة زينب، والقلعة، والمقطم، وبولاق، فقد تركت على حالها بحضارتها الإسلامية وتقاليدها(1).

... وترجع رغبة الخديو إسماعيل في تحديث القاهرة إلى تأثره بالفترة التي عاشها في إيطاليا وتعلم فيها بباريس، وتأثره بالتربية الفرنسية، ثم إلى زيارته للعاصمة الفرنسية أثناء مشاركة مصر في معرض باريس الدولي في

---

(1) ... إسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته، دار المعارف العمومية، ص. 383.

(3865/1)

عام 1867 م(1). استجابة لدعوة الإمبراطور نابليون الثالث هذا إلى جانب رغبته في تعزيز مكانته بين ملوك أوربا، ورغبته في أن يظهر أمام أباطرة وملوك

أوربا وأمرائها وعظمائها الذين دعاهم لزيارة مصر أثناء افتتاح قناة السويس(2) بأنه حاكمٌ

---

(1) شاركت مصر في هذا المعرض بعرض بعض آثارها القديمة، وكان القسم المصري فيه في مقدمة أقسام الدول الشرقية به. للتفاصيل، انظر إلياس الأيوبي، مرجع سابق، ج 1، صص. 393 ـ 398.

(2) محمد دري بك الحكيم، تاريخ حياة المغفور له علي مبارك باشا، المطبعة الدورية، القاهرة، 1894، ص. 42.

(3866/1)

عصريٌّ يحكم بلداً شرقيّاً إفريقيّاً على ضفاف النيل عاصمته أوربية الطراز يستطيع أن يقيم لهم فيها احتفالاً أسطورياً بمناسبة افتتاح القناة. ومن هنا نشأ ميله إلى جعل القاهرة باريسَ ثانية(1).

... وبعد عودة إسماعيل إلى مصر، وتأمله لأحوال عاصمة ملكه المتهالكة وأبنيتها المتداعية، فكر في استحداث تخطيط جديد للقاهرة أسماه »باريس الشرق«، وذلك عن طريق إنشاء أحياء جديدة تكون واجهة للقاهرة القديمة من الناحية الغربية

---

(1) البلاغ في 38/12/8 تحت عنوان »حديث الخميس« مقال لعبد الرحمن الرافعي بعنوان »عصر إسماعيل«.

(3867/1)

يمكنه استقبال ضيوفه فيها.

... ونتيجة لذلك، عهد إسماعيل إلى المهندس الفرنسي جورج هُوسّمَان (George Haussman)، رئيس بلدية باريس، وصاحب مدرسة تنظيم المدن الحديثة التي اقتدت بها الكثير من المدن الأوربية في تخطيط عواصمها في القرن التاسع عشر، عهد إليه بأن يخطط القاهرة كما سبق أن خطط العاصمة الفرنسية(1)

---

(1) قام بإعادة تخطيط باريس وتجميلها في عهد الإمبراطور نابليون الثالث وعمد إلى إنشاء مساحات من الحدائق الغناء وسط أبنيتها، وإلى تمهيد الطرق الواسعة المزودة بالمرافق العامة في أسلوب صار ينسب إليه. للتفاصيل، انظر: جاك جونيور، كتابة التاريخ في مصر في القرن التاسع عشر، ترجمة عبد الوهاب بكر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1993، ص. 145؛ وانظر أيضاً: محمد إبراهيم قشوة، بصمات التشريعات العمرانية على ملامح القاهرة الكبرى، جمعية

المهندسين المصرية، ندوة إدارة المدن، القاهرة، 1991، ص. 2.

(3868/1)

. وبالفعل، عكس ذلك المهندس القدير في تخطيطه للقاهرة الصورة العصرية لها.

... وإلى جانب ذلك، فقد عهد الخديوي إسماعيل إلى المهندس المصري علي مبارك بعمل الرسومات التي تتفق ورغبته في تنفيذ المشروع(1) طبقاً لطراز مدينة باريس؛ كما عهد إليه بمباشرة أعمال المقاولين ومتابعة

---

(1) ألحق الخديو علي مبارك بحاشيته في وظيفة مهندس بالمعية السنية حتى يتسنى له إدارة المشروع، ثم كلفه بعد ذلك بإدارة ديوان الأشغال العمومية، مما زاد من مسؤولياته تجاه هذا المشروع. (للتفاصيل، انظر: دري الحكيم، مرجع سابق، ص. 31، 33، 41).

(3869/1)

تنفيذ تعهداتهم مع الحكومة. وقد أوضح علي مبارك ذلك بقوله: »كنت مشغولاً بالمصالح الأميرية وتنفيذ الأغراض الخديوية ليلاً ونهاراً حتى لا أرى وقتاً ألتفت فيه لأحوالي الخاصة بي، ولا أدخل بيتي إلا ليلاً، بل وكنت أفكر في الليل في ما يفعل بالنهار« (1).

... وقد قام علي مبارك بإعداد مشروع قانون يضع إطاراً لمشروعات إسماعيل العمرانية لإعادة تخطيط القاهرة ساير فيه مخطط هوسمان الذي يشتمل على شبكة من الشوارع تربط بين اثني عشر ميداناً. ويبدو أن ضخامة الإمكانات المطلوبة لذلك جعلت الجهود

---

(1) المرجع نفسه، ص. 42.

(3870/1)

تقتصر أساساً على منطقة تقع غرب القاهرة على الضفة الشرقية للنيل وتحتل مساحة 250 هكتار (217 فدان)، وهو الجزء الذي تمثل فيه مشروع إسماعيل الكبير المسمى »باريس الشرق«، حيث لم يتم إحداث تغييرات كبيرة في القاهرة القديمة.

... ويمكن تلخيص ذلك المشروع في ما يلي:

تخطيط مناطق جديدة خارج حدود المدينة القديمة.

شق شوارع واسعة في الأحياء الجديدة، وأخرى تخترق الأحياء القديمة وتربط بينها وبين المناطق الرئيسة في المدينة.

إزالة التلال والخرائب التي كانت تحيط بالقاهرة وتمهيدها للبناء ولإقامة بساتين عليها.

(3871/1)

ردم البرك والمستنقعات المنتشرة في القاهرة.

نقل المدافن الواقعة وسط القاهرة وتحويل أماكنها إلى ميادين وأحياء.

تزويد القاهرة بالمياه الصالحة للشرب، وتعديل مجرى النيل.

تجفيف الأراضي وعمل مشروع مجاري القاهرة.

رصف الطرق وغرسها بالأشجار ووقايتها من القاذورات وأكوام القمامة.

إنشاء حدائق عامة لتكون بمثابة رئة التنفس الصحية للمدينة.

تعمير الأحياء القديمة وإصلاحها وتزويدها بمياه الشرب والغسيل.

إصلاح مداخل القاهرة، وإزالة ما يشوبها من خرائب.

(3872/1)

إعداد طرق النقل والمواصلات داخل المدينة ورصف الشوارع وربطها بالمدن المجاورة.

إنشاء الكباري لربط القاهرة بالجيزة.

إنشاء مباني عامة كدار للكتب، ودار للأوبرا، ومحطات للسكك الحديدية، ومحاكم، وجمعيات علمية وغيرها(1).

---

(1) أحمد سعيد، التطور المعماري والعمراني بالقاهرة من عهد محمد علي إلى إسماعيل، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، 1999، ص. 88؛ وانظر أيضاً: سيد كريم، مقال سابق، صص. 17 ـ 26.

(3873/1)

... ولتحقيق ذلك، تم دمج هذا المشروع في ما سمي ببرنامج المشروعات السبعة. وأهم هذه المشروعات هي:

الامتداد بالعمران على الشاطئ الغربي عن طريق تخطيط أحياء جديدة.

مشروع تحويل مجرى النيل إلى الشرق من موقعه الأصلي

وإقامة أحياء الجيزة والدقي السكنية وحدائق الأورمان والحيوان مكان المجرى القديم وربط الضفتين بعدد من الكباري(1).

إصلاح مداخل القاهرة (الفجالة ـ شارع الأهرام).

---

(1) سيد كريم، »القاهرة كمدينة، تخطيطها، تطورها، توسعها«، ضمن مجلة العمارة، العددان الأول والثاني، 1952، صص. 3 ـ 9.

(3874/1)

تطوير منطقة عابدين.

تطوير منطقة الأزبكية.

* * *

... تم تشييد حي الإسماعيلية الذي ذكره علي مبارك وحدد موقعه بقوله:

... هذه الخطة ظهرت في زمن الخديو إسماعيل، ونسبت إليه، لأنه هو الآمر بإنشائها، وهي تمتد بين جسر السبتية، أعني الطريق الموصل من مصر إلى بولاق، وهو حدها البحري، وحدها الغربي ترعة الإسماعيلية، الآخذة من

قصر النيل، وساحل النيل إلى القصر العيني، وحدها القبلي شارع القصر العالي والخليج المصري، وحدها الشرقي سور البلد القديم، وكان عبارة عن خط منكسر، به بروز ودخول على غير انتظام(1)

---

(1) علي مبارك، الخطط، مرجع سابق، ج 3، ص. 404.

(3875/1)

.

... وكانت هذه المنطقة »عبارة عن كثبان أتربة وبرك مياه وأراض سباخ. ثم لما قيّض الله للحكومة المصرية الخديو إسماعيل، أبدل وحشتها أنساً، ونظمها على هذا الرونق الجميل« (1).

... وقد تم تشييد هذا الحي مكان المنطقة التي كانت تسمى مزارع إبراهيم باشا(2)، ومساحته تسع وخمسون وثلاثمئة فدَّانٍ(3)

---

(1) المرجع نفسه.

(2) جان لوك أرنو، »من الحدائق إلى المدينة، القاهرة في القرن التاسع عشر«، ترجمة هالة مراد، دراسة ضمن

كتاب مصر والعالم العربي، CEDEJ، القاهرة، يونيو 1993، ص. 173.

(3) علي مبارك، الخطط التوفيقية، مرجع سابق، ج 1، ص. 207.

(3876/1)

. وشيد في زمن قياسي في الفترة ما بين عودة الخديوي من المعرض الدولي بباريس عام 1867 وبداية السبعينيّات.

... وترجع السرعة في إنشائه إلى رغبة الخديوي في استقبال ضيوفه أثناء افتتاح قناة السويس في هذه المنطقة التي كان يأمل ألا تقل في تنظيمها وجمالها عن أحياء العواصم الأوربية، مما دفعه إلى أن يأمر بمنح كل من يتعهد ببناء بيت فيها قطعةَ الأرض التي سيقام عليها البناء بشرط ألا تقل تكلفة البناء عن مئتين وألف جنيه وألا تزيد مدة تشييده على ثمانية عشر شهراً.

(3877/1)

... ويعد هذا الحي المحور الرئيس في مشروع باريس الشرق. وقد أراد الخديوي تنظيم أحياء القاهرة الأخرى على منواله، فأصدر أوامره لديوان الأشغال بذلك، وتم تصميم الرسومات الهندسية وفقاً لرغبته. وكان من أهدافه جعل سراي عابدين(1) (الذي نقل إليه مقر حكمه وأجهزته الإدارية بعد أن كانت في القلعة وزينه بأفخر الرياش وأبدع النقوش)(2) مركزاً يتفرع منه عدة شوارع

---

(1) نسبة إلى عابدين بك، أحد القادة العسكريين في عصر محمد علي، والذي كان يملك قصراً في هذه المنطقة.

(2) إلياس الأيوبي، مرجع سابق، ج 1، ص. 152 ـ 153.

(3878/1)

مستقيمة يتفرع منها شبكة من الشوارع المتقاطعة(1) امتدت إلى حي الإسماعيلية وإلى منطقة الأزبكية(2).

... وقد اشتهر هذا الحي بطابعه المعماري الأوربي، وبفنادقه وكنائسه، وبتواجد قنصليات الدول الأجنبية وسفاراتها به، وبالقصور والمباني الفخمة، والمنتزهات والحدائق الواسعة الممهدة التي تحف بها الأشجار من كل

جانب، والمزودة بالمياه النقية، وبمصابيح غاز الاستصباح، مما جعل علي باشا مبارك يصفه بأنه من أبهج أخطاط القاهرة وأعمرها. كل ذلك جعل أثرياء

---

(1) علي مبارك، مرجع سابق، ص. 210.

(2) المرجع نفسه، ص. 213.

القوم وكبارهم ينتقلون إلى السكنى فيه، وأدى إلى انتقال مركز القاهرة التجاري إلى هذا الحي الذي أصبحت تتوافر فيه المميزات والتسهيلات التي لا تتوافر في القاهرة القديمة. وسرعان ما تمكن التجار اليهود واليونانيون والأرمن من بسط سيطرتهم على مركز التجارة الأوربية في هذه المنطقة(1)؛ كما استطاعوا السيطرة على أسواق المال والأراضي والمهن الفنية. ... وإلى جانب ذلك فقد أمر الخديوي إسماعيل بتطوير منطقة الأزبكية وجعلها أحد المحاور الرئيسة في مشروع باريس الشرق، فأمر بردم ما تبقى

---

(1) عرفة عبده، مرجع سابق، ص. 87.

من بركتها(1) التي أساء بعض السكان استخدامها وحولوا مجراها إلى إسطبلات لدوابهم وزرائب لطيورهم لدرجة أدت إلى انبعاث الروائح الكريهة منها وباتت مكاناً ترتكب فيه أعمال العربدة والسكر وأعمال السرقة والتهتك تحت أشجارها(2). فكلف المهندس الفرنسي بارليه دي شان (De Schamps) بإقامة حديقة عليها على نمط حدائق باريس، كما أقيمت عليها بحيرة وجبلاية صناعية وممرات وجسور زودت بالمصابيح. وقد

(1) كان محمد علي قد أمر بردم جزء كبير من هذه البركة بناء على مشورة الأطباء.

(2) إلياس الأيوبي، مرجع سابق، صص. 145 ـ 146.

غرس بالحديقة مجموعات من الأشجار النادرة. وإلى جانب ذلك، أقيمت العديد من المنشآت كالبنوك والمصالح الحكومية والشركات والفنادق والحوانيت؛ كما تم إنشاء ميادين وشوارع هامة فتم اتصال حي الأزبكية بالموسكي شرقاً بعد توسيعه، وفي الجنوب الغربي اختطت أحياء التوفيقية وعابدين والإسماعيلية؛ كما

خططت منطقة الروضة لتكون حياً مسايراً للنمط الأوربي.

... أما في الجنوب الشرقي وبالقرب من القلعة، فقد اختط شارع محمد علي الذي وصفه علي مبارك بأنه »أعظم ما عمل بمدينة القاهرة«(1)

---

(1) تميز هذا الشارع باتساعه ووجود الأرصفة التي تظللها الأشجار على جانبيه؛ كما تمت إضاءته بمصابيح غاز الاستصباح، وتزويده بالمياه النقية وبمواسير المياه للرش، وسقي البساتين.

(1/3882)

. وامتداداً لهذا الشارع، افتتح الخديو شارع كلوت بك(1) الذي يبدأ من باب الحديد وينتهي عند ميدان الخازندار؛ كما افتتح شارع عبد العزيز الممتد من العتبة الخضراء إلى ميدان عابدين وسمي باسم السلطان عبد العزيز تخليداً لزيارته لمصر.

... وإلى جانب ذلك، أقام الخديوي في طرف الأزبكية الجنوبي دار الأوبرا(2)، تلك

---

(1) الطبيب المشهور، مؤسس مدرسة الطب في عهد محمد علي.

(2) للتفاصيل حول هذه الدار، انظر: دار الوثائق القومية، مجلس الوزراء، نظارة الأشغال محفظة رقم 1/2 تحت عنوان »مذكرة الأشغال بشأن تياترو الأوبرا«.

(3883/1)

الدار التي أقامها على عجل(1) رغبة منه في إقامة حفل يحضره ملوك أوربا وملكاتها بمناسبة افتتاح قناة السويس. وفي ميدان الأوبرا، أقام الخديوي تمثالاً لأبيه إبراهيم(2) وهو على صهوة

---

(1) بنيت هذه الدار في مدة لا تزيد على الخمسة الأشهر، وكلف بناؤها ستين ومئة ألف من الجنيهات، وقد افتتحت في 29 نوفمبر 1869.

(2) شيد هذا التمثال بميدان العتبة الخضراء، وقد أنزله العرابيون اثناء ثورتهم في مكانه. وبعد انكسار ثورتهم، أعيد نصب هذا التمثال في ميدان الأوبرا حيث هو الآن. (إلياس الأيوبي، مرجع سابق، ج 1، ص. 15).

(3884/1)

جواده.

... ونتيجة لذلك، أصبحت الأزبكية في عصر إسماعيل بمثابة قلب القاهرة ومركز الحركة والتجارة فيها، وحلقة الاتصال بين المدينة القديمة والحديثة.

... أما منطقة الزمالك(1)، فقد لاقت من الخديوي إسماعيل اهتماماً كبيراً حتى أصبحت من الأحياء المميزة في مشروع »باريس الشرق«.

---

(1) كلمة ألبانية بمعنى »الأخصاص« أو »العشش« المصنوعة من البوص (انظر شحاتة إبراهيم، القاهرة، مرجع سابق، دار الهلال، القاهرة، د. ت، ص. 244).

(3885/1)

... فبعد أن كانت منازلها من العشش المصنوعة من البوص أو القش، أقيم فيها العديد من القصور والفنادق الفخمة مثل قصر الجزيرة »لطف الله« الذي شيده على منوال قصر الحمراء بالأندلس، حيث أنشأ بحديقته سلاملك وأوجد بها العديد من الحيوانات الكاسرة وغيرها أمثال السباع والنمور والفيلة والقردة والنسانيس؛ كما أوجد بها أنواع الطيور المجلوبة من بقاع الأرض(1).

(1) أحمد شفيق، مذكراتي في نصف قرن، ج 1، ص. 21؛ وعلي مبارك، الخطط، مصدر سابق، ج 1، ص. 212.

(3886/1)

... ومثل فندق عمر الخيام (ماريوت حالياً) الذي أقيم ليكون مقراً لإقامة الإمبراطورة أوجيني أثناء حضورها حفل افتتاح قناة السويس، والذي أقيمت حوله حدائق مساحتها ستون فداناً؛ كما شيد إسماعيل بالقرب من هذا المكان حديقة الأسماك التي تطل واجهتها على نيل الزمالك بشارع الجبلاية. وبعد أن كانت شوارعها ضيقة ومتعرجة ومظلمة، أصبحت مستقيمة ومتقاطعة، ومخططة على النظام الحديث. وبعد أن كانت أكوام القمامة والأتربة ومشاهد البؤس والكآبة تغطي شوارعها، أقيم بها العديد من الحدائق والمنتزهات. هذا، إلى جانب ربطها بمنطقة

(3887/1)

الجيزة عن طريق الكباري مثل كوبري البحر الأعمى (الجلاء حالياً) الذي أسس لذلك الغرض(1)، وكوبري

إسماعيل (قصر النيل) الذي أسس لربط القاهرة بجزيرة الزمالك(2)

---

(1) عرفة عبده، مرجع سابق، ص. 78؛ وانظر أيضاً: الوقائع المصرية، في 13 فبراير 1872.

(2) أقيم على مدخليه أربعة سباع من البرونز، وكان المرور عليه برسوم. ونظراً لحدوث خلل به، أوقف المرور عليه وأنشئ بدلاً منه الكوبري الحالي الذي افتتح في عهد الملك فؤاد. (انظر: مصطفى نيازي، القاهرة ـ دراسة تخطيطية في المرور والنقل والمواصلات، الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت، ص. 190).

(3888/1)

.

... ونتيجة لذلك، أصبحت هذه المنطقة مقراً للصفوة من المصريين والأجانب بعد أن كانت مرتعاً للعامة، وأخذت شهرتها منذ ذلك الوقت في الاتساع. أما شبرا التي كانت المنطقة المفضلة لدى محمد علي، فقد شهدت نمواً عمرانياً متزايداً في عصر إسماعيل، خاصة بعد أن تم تنفيذ بعض الأعمال الهندسية لتحويل مجرى النيل من الغرب، فكان يمر تحت سكن ناحية الدقي إلى الشرق

حيث يوجد الآن شارع الجيزة وشارع النيل (فاروق الأول سابقاً) وما ترتب على هذا التحويل من ظهور أراضٍ جديدة أطلق عليها »طرح النهر«. وهذا الطرح هو ما يعرف

(1/3889)

حالياً بروض الفرج والساحل. فقد شيد طوسون بن سعيد باشا قصره المعروف هناك، والذي توجد به حالياً مدرسة شبرا الثانوية؛ ثم تبعه بعض الأمراء والأميرات والأعيان وكبار التجار، فشيدوا الصور ذات البساتين الزاهرة على جانبي شارع شبرا، حيث شجع الخديوي إسماعيل على امتداد حركة العمران إلى هذه المنطقة، وإنشاء الحدائق بها لدرجة أنها أصبحت إحدى الضواحي التي يفد إليها كبار الأمراء والأعيان للإقامة والنزهة(1). كما أصبحت من الأماكن التي يقبل عليها الناس بشكل ملحوظ

---

(1) عرفة عبده، المرجع السابق، ص. 84 ـ 86.

(1/3890)

... وفي إطار مشروعات إسماعيل لتطوير القاهرة، حظيت منطقة حلوان باهتمامه، فأمر في عام 1868 بإيفاد بعثة من الأطباء والعلماء لتحليل المياه الكبريتية ومعرفة حالة الجو بها. وبعد أن اثبتت البعثة أهمية عيون حلوان في علاج الأمراض المحتاجة إلى العناصر الكبريتية كالأمراض الجلدية والزهرية، طالب نظارة الأشغال بتشييد مبنى بالقرب من الينبوع ثم قام بزيارة لهذه المنطقة في عام 1871 م. وفي أعقاب ذلك، عزم على جعل حلوان منطقة سياحية، فأمر بوضع تخطيط شامل لهذه المنطقة.

(3891/1)

... ولتشجيع الأمراء وأصحاب الثراء على اتخاذ هذه المنطقة مقراً لهم، أمر ببناء قصر فخم قرب النيل في الشمال الغربي من حلوان لتقيم فيه الأميرة الوالدة عرف بقصر الوالدة باشا(1)؛ كما أمر بمنح كل راغب في البناء بها أي مساحة من الأرض بشرط أن يبني خمسها في مدة محددة، وجعل لكل خمسمائة متر مربع مبلغاً رمزياً قدره جنيه واحد(2).

---

(1) فؤاد فرج، القاهرة ـ تاريخ المدن القديمة ودليل

المدن الحديثة، القاهرة، 1943، ص. 123.

(2) أحمد رمزي، القاموس الجغرافي، ج 1، ص. 4.

(3892/1)

... وإلى جانب ذلك، أمر الخديوي بإنشاء حمامات بجوار العيون، ودار للاستشفاء، وفندق للمسافرين، وعدد من المتنزهات(1) العامة؛ كما أمر بمد خط حديدي لربط حلوان بالقاهرة وإنشاء طريق من حلوان إلى النيل طوله أربعة كيلومترات.

... كذلك أمر الخديوي بإنشاء منطقة جديدة تسمى حلوان الحمامات تمييزاً لها عن حلوان الأصلية التي كانت تسمى حلوان البلد(2).

---

(1) الوقائع المصرية في 13 يناير 1874.

(2) القاموس الجغرافي، المرجع السابق، ج 1، ص. 4؛ ج 3، ص. 12، 14.

(3893/1)

... كل ذلك ساعد على تطوير حلوان، وجعلها ضاحية سياحية، ومنتجعاً صحياً هادئاً لا يعرف التلوث، بل يرتحل

إليه الأثرياء والسياح، ولا سيما في فصل الشتاء بقصد الترويح والاستشفاء بالمياه الكبريتية الطبيعية الدافئة(1).

---

(1) مع محاولات ثوار يوليو 1952 تصنيع مصر، تحولت منطقة حلوان إلى مجمع للصناعات. فأنشئ بها مصنع للحديد الصلب في منطقة التبين وحوله مصانع للأسمنت والطوب الحراري والمطروقات وغيرها، مما جعل هذه المنطقة من مصادر التلوث البيئي للقاهرة بعد أن كانت من المراكز الصحية المشهورة.

(3894/1)

... وبخصوص مداخل القاهرة من ناحية الأهرام والجيزة، فقد أمر الخديو بتعبيدها(1) وإعدادها لسير المركبات حتى يتمكن ضيوف مصر من ملوك أوربا وأمرائها من الذهاب إلى أهرامات الجيزة راكبين عرباتهم المذهبة دون عناء أو مشقة.

---

(1) اهتم الخديوي إسماعيل بهذه المنطقة منذ عام 1863 م عندما زار السلطان عبد العزيز مصر وأراد مشاهدة الأهرام، ثم قام بتطويرها مرة ثانية تمهيداً

لزيارة الملكة أوجيني وبعض ضيوف مصر أثناء افتتاح قناة السويس.

(3895/1)

... كما تم غرس أشجار الجميز والبرتقال والأكاسيا على جانبيه. وكانت شركة فرنسية قد قامت فيما بين عامي 1863 و1865 م بردم الجزء المتخلف من تحويل مجرى النيل شرقاً، وأنشأ إسماعيل في هذا الجزء بساتين الأورمان التي بلغت مساحتها 465 فَدَّانٍ، ونسقت بها الأشجار النادرة.

... كما أقام سراي الجيزة التي كانت حدائقها ممتدة إلى موقع كوبري عباس. وفوق مساحة امتدادها خمسون فداناً من بساتين السراي، أقيمت حديقة الحيوان بعد ذلك(1). كل ذلك أعطى العمران

---

(1) عرفة عبده، القاهرة في عصر إسماعيل، مرجع سابق، ص. 52 ـ 53.

(3896/1)

بهذه المناطق دفعة قوية.

... ورغبة من الخديوي إسماعيل في إبراز صورة مصر الحضارية أمام ضيوفه من الأوربيين، أمر ببناء متحف للآثار المصرية في ساحة الأزبكية. وبعد أن ورد عليه نبأ زيارة السلطان العثماني عبد العزيز بن محمود لمصر، انشغل عن بناء المتحف بإعداد معدات الاستقبال، وأمر بأن توضع الآثار المصرية في مكان ملائم ليتمكن السلطان من مشاهدتها ريثما يتم بناء المتحف. فوضعوها في بناء واسع على ضفاف النيل ببولاق.

(1/3897)

... وقد افتتح إسماعيل هذا المكان في حفل رسمي في الثامن من أكتوبر 1863 م(1)؛ كما أمر في عام 1869 م بإنشاء مدرسة بالقاهرة لدراسة الآثار المصرية، فأنشئت مدرسة اللسان المصري القديم.

... ولم تقتصر جهود الخديو إسماعيل على الاهتمام بآثار مصر الفرعونية، بل وجه اهتمامه إلى الآثار العربية والإسلامية أيضاً، خاصة وأن القاهرة في معظمها تعد متحفاً لهذه الآثار.

... وإلى جانب ذلك، فقد قام الخديو بإحاطة القاهرة بالعديد من المؤسسات الحضارية والثقافية كدار

الكتب،

---

(1) الرافعي، عصر إسماعيل، مرجع سابق، ج 2، ص. 20.

(3898/1)

والمتاحف، ودار الأوبرا، والمسارح، والجمعيات العلمية، ودار الآثار العربية. هذا، بالإضافة إلى تشجيعه للنهضة العلمية والفنية والتعليمية التي تمثلت في العناية بالتعليم في جميع درجاته، والاهتمام بتعليم البنات، وتشجيع انتشار الصحف، وإنشاء المدارس العالية مثل مدرسة الإدارة والألسن، ودار العلوم.

... وهكذا كان المحور الرئيس الذي برز فيه التطور العمراني الحديث في عصر إسماعيل هو المحور الغربي الذي شهد مولد القاهرة الحديثة التي تمتد بمحاذاة الشاطئ الشرقي للنيل. ويشمل هذا المحور مناطق الإسماعيلية وجاردن

(3899/1)

سيتي، أي أن طولها كان من القصر العيني جنوباً حتى فم الإسماعيلية شمالاً، ومن شاطئ النيل حتى الأزبكية

شرقاً.

... ولم يتوقف ذلك عند حد النيل، بل تعداه بإضافة مساحات أخرى إلى العاصمة من الجهة الأخرى المقابلة، وذلك بعد مشروع تحويل مجرى النيل وبناء الكباري، مما ساعد الأهالي على سهولة الوصول إلى الجهة الأخرى.

... واستمرت عملية النمو على هذا المحور حتى اكتملت ازدهاراً وعمراناً في الضفة الغربية من النيل(1).

---

(1) أحمد سعيد، مرجع سابق، ص. 97.

(3900/1)

... والسؤال هو هل كانت إمكانات مصر الاقتصادية تسمح بالشروع في هذا العمل الضخم؟ الواقع أن ظروف مصر الاقتصادية في بداية الأمر كانت مهيأة لهذا الإنجاز الضخم نتيجة للرواج الاقتصادي الناتج عن الارتفاع المفاجئ لأسعار القطن، بسبب الحرب الأهلية الأمريكية (1861 ـ 1865 م)، وتوقف عملية تصدير القطن الأمريكي. ولكن ذلك لم يستمر طويلاً؛ فسرعان ما توقفت هذه الحرب وعادت الأمور إلى حالها، مما اضطر إسماعيل إلى محاولة جذب رؤوس الأموال الأجنبية إلى مصر لاستكمال مشروعاته، مما أغرقه في الأستانه.

(3901/1)

... وقد انتهت رؤية إسماعيل لتحديث القاهرة، ومحاولته تحويلها إلى قطعة من أوربا بكارثة لمصر: إذ أدى تبذيره إلى إرهاق مصر بالديون الثقيلة ذات الفوائد الباهظة التي لم تكن تتحملها ميزانية البلاد. فبلغت الديون في أواخر عهده إلى 91.000.000 **جنيه تقريباً**(1).

---

(1) Edward Dicey, The Story of the Khadivate, London, 1902, p. 71. **وكانت هذه الديون في أواخر عهد سعيد باشا تبلغ** 3.293.000 **جنيه؛ انظر:** Cramer, Modern Egypt, p. 11.

(3902/1)

... الأمر الذي اضطره إلى التفنن في فرض الضرائب حتى يستطيع دفع فوائد هذه الديون، وإلى عدم الاهتمام بأحوال الناس هذا إلى جانب التدخل الأجنبي في شؤون البلاد، حفاظاً على مصالح الدائنين. وانتهى الأمر بعزل إسماعيل، ثم رهن استقلال الوطن وسيادته والاحتلال

البريطاني لمصر عام 1882 م(1).

... وفي النهاية، لنا أن نتساءل أين قاهرة اليوم من قاهرة إسماعيل ذات الوجه المتألق والمباني المتناسقة

---

(1) شاهدان أحمد شبكة، نحو الارتقاء بعمران القاهرة. القاهرة في لحظة تحول، مركز دراسات بحوث الدول النامية، صص. 77 ـ 78.

(3903/1)

في الطراز والألوان، والتي كانت تظللها الصفوف المنتظمة من الأشجار والأزهار، وتزينها الميادين الجميلة ذات التناسق والاتساع والتي كانت تتوسطها النافورات والتماثيل، والحدائق التي بدت القاهرة من خلالها وكأنها حديقة مفتوحة تتحلى بأبهى مظاهر النهضة الحديثة لدرجة غدت معها وكأنها باريس الشرق.

... إن منظر قاهرة اليوم متعب للنفس، ومؤذ للعين، فلا تناسق ولا انسجام. فالمباني متنافرة، والطرق كالحة تلهب أشعة الشمس من يسير فيها، والميادين مضطربة تزدحم بها السيارات وتكتظ بها الكتل البشرية المتحركة ذهاباً

(3904/1)

وإياباً، والشوارع يملؤها الغبار ودخان المركبات التي تلوث الجو وتقتل الحياة النظيفة.

... وإلى جانب ذلك، فإن التضخم الرهيب في عدد السكان، مع قصور الخدمات، أصبح يمثل عبئاً كثيراً على المدينة.

... إن ما يحدث في القاهرة حالياً لا يعد جناية على الذوق والفن والإحساس فحسب، بل على الإنسان المصري وصحته وحياته. فإلى متى ستظل القاهرة كذلك، ومتى يعود إليها الزمن الجميل؟

... إن الزمن الجميل لا يعود إلى القاهرة بصرف المليارات لتحسين أحوالها ومنع تصلب شرايينها فحسب، بل بتحديد الهجرة إليها لوقف الزيادة

(3905/1)

المطَّردة في عدد سكانها، وعدم تركيز المصالح الحكومية فيها، ووقف العشوائيات، وسوء التخطيط، وتضارب القرارات. هذا، إلى جانب ضرورة تضافر كل المسؤولين وأصحاب الحل والعقد بروح تغلب عليها الوطنية لتحسين نوعية الحياة بها، حتى تعود القاهرة

مصدر إشعاع للمصريين لا مصدر إزعاج لهم، وحتى تعود »أم الدنيا« كما سماها الأقدمون.

الخط الأندلسي... تاريخ... وفكر... ومسيرة

... ... الأستاذ محمد الصادق عبد اللطيف
قليبية ـ تونس

تقديم

... وفدت الكتابة العربية على البلاد المغاربية على يد الفاتحين العرب سنة 50 هـ/ 670 م حين وجّه الخليفة معاوية بن أبي سفيان عامله وقائد جيشه عقبة بن نافع الفهري إلى بلاد البربر (إفريقيا الشمالية اليوم) لفتحها ونشر الإسلام بين القبائل البربرية، الذين كانت لهم كتابة خاصة بهم تعرف باسم تيفناغ لا تزال مستعملة حتى الآن لدى سكان الطوارق بالجزائر(1)

---

(1) محمد الشريفي، خطوط المصاحف (أطروحة جامعية)، الجزائر، 1975.

. وفي القيروان لما تأسست عاصمة إدارية ودينية، انبعثت هناك مؤسسة تعليمية جديدة (بيت الحكمة في شكل جامعة للعلوم والفنون والآداب والترجمة) كانت مقصد العلماء والطلاب. ومع بعثة الفاتحين العرب، وصل الخط إلى النقطة المحورية الجديدة (القيروان) في عصر بني أمية.

... في القيروان وقع استخدام الخط الحجازي والكوفي، ثم استقلوا بالكوفي المنسوب للقيروان (الكوفي القيرواني ذي الحروف المستطيلة المزوّاة).

... وكانت القيروان باعتبارها قاعدة الحكم محطة أولية ليس غير. ولما ارتحل الفاتحون، تغيرت أهمية القيروان وصارت

(1/3908)

الأندلس محط أنظار الجميع (السلطة الإدارية والبربر ورجال العلم)، فكانت محطة ثقل هامة في الحضارتين والثقافتين العربية والإسلامية. وفي الأندلس وقع استعمال »الخط الشامي« إلى جانب »الخط القيرواني« في مصاحفهم ورقاعهم ومراسلاتهم. وقع تقبّل الخط

القيرواني فطوّروه وأدخلوا عليه »ليونة جديدة جيدة« ميزته عن المألوف وولدوا خطاً أسموه بالأندلسيّ أو القرطبي، بالرغم من أن المسلمين الأولين كانوا يكتبون بالخط المشرقي على رأي المقري في "نفح الطيب"، ج 2، ص. 123.

(3909/1)

... في تتبع المقولات الهامة ندرك ما لهذا الخط من اهتمام المؤرخين والدارسين خاصة.

... إن ظهور الخط الأندلسي في العهد الأموي كان مظهراً من مظاهر استقلالهم عن المشرق. يقول ابن خلدون: »وتميز ملك الأندلس بالأمويين، فتميزوا بأحوالهم في الحضارة والصنائع، وتميز صنف خطهم الأندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد«(1). إن العصر الذي تم فيه الاندماج بين الأندلسيين والمغاربة كان عصراً غلب عليه الخط الأندلسي وانتشاره في بلدان المغرب، وذلك بحكم تعلق الأندلسيين

---

(1) عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ص. 956 (وافي).

(3910/1)

بأذيال الدولة وتشبثهم بالخدمة في دواوينها. يقول ابن خلدون: »فانتشروا، أي الأندلسيين، في عدوة المغرب وإفريقية من لدن الدولة اللّمتونية، إلى هذا العهد، فغلب خطهم على الخط الإفريقيّ وعفا عليه وبقي منه رسمه ببلاد الجريد«(1).

... لم ينته الخط الأندلسي بنهاية الأندلس الإسلامية، وإنما ظل مرجعاً معتمداً بعد ذلك في المغرب الأقصى، الذي احتضن تراث الأندلس، ومنه الخط وما يتعلق به. وأخذ الخط الأندلسي

---

(1) المرجع نفسه، ص. 957؛ ومحرز شريفه، »نظرة حول الخط الأندلسي«، ضمن: كتاب المخطوط، ندوة كلية الآداب، 1994.

(3911/1)

يطغى على القيرواني في ظل الحكم المرابطي. وظهر في هذا العصر خطاطون على الطريقة الأندلسية بين مغاربة وأندلسيين استوطنوا المغرب. وقد أدت مزاحمة الخط الأندلسي للقيرواني إلى حدوث منافسة بين الخطين(1).

... إن أهل الأندلس لما افترقوا في الأقطار عند تلاشي ملك

العرب بها بعد أن تغلبت الأمم النصرانية عليهم، انتشروا في المغرب حاملين معهم هذا الرافد الثقافي الجديد وهو خطهم الأندلسي، نشروه أينما حلوا وأدخلوه في تقاليدهم فتقبله المغاربة وعانقوه لما وجدوا فيه

---

(1) عبد الرحمان بن خلدون، المرجع السابق، ص. 367.

(3912/1)

من جاذبية وجمال وتفرد.

...

2 ـ الكتابة الأندلسية ... رافد جديد

... تخضع الكتابة الأندلسية لنسبة هندسية هامة مع حسن فائق ورونق آخذ بالعقل وترتيب يشهد بكثرة الصبر والتجويد. يظهر الخط الأندلسي مقوس الأشكال، والسطر العمودي هو دعامته، أدق من السطر الأفقي. تتجمع الحروف القصيرة والمستديرة على شكل الخط الإفرنجي القديم (على رأي هوداس). وقد بلغت كتابة المصاحف عند أهل الأندلس من الكمال وحسن الخط ما لم تدركه من قبل ولا من بعد. والنتيجة الطبيعية لجودة الخط أن ألقى الخط بظلاله على المخطوطات، لتأتي دُرَراً

(3913/1)

ناصعة في أناقتها وجودة كتابتها. ولعل من أجمل المخطوطات الأندلسية صفحة من مجموعة الدكتور مارتين بمدينة فلورنسا بإيطاليا مكتوبة بالخط الأندلسي الجميل.

... أخذ الخط الأندلسي يكتسح المراكز المنافسة عبر المغربين إلى منطقة القيروان(1).

... إن البنية العامة لهذا الخط هي بنية »لينة« تميل إلى التقويس والاستدارة أكثر منها إلى الاستقامة. وقد انتظمت فيها الحروف انتظاماً مركزاً مدروساً ولّد حركية أفقية نتيجة

(1) محمد المنوني، »لمحة من التطور«، المجلة التاريخية المغربية، تونس، جويلية، 89، العددان 53 و 54.

(3914/1)

انبساط الحروف على السطر وتكاملها مع صواعدها. أما الفراغات، فقد تنوعت وتوازنت في التماع حركي أحدث إيقاعاً بصرياً متكاملاً.

... لقد التزم الخطاط الأندلسي بقواعد معينة وملزمات في ملء فضاء الصفحة. لذلك نجد بعض التعريفات التي

تنساب انسياباً تلقائياً، فتخرج عن الإطار المحدد للكتابة. وهذه الممارسة تأتي عن وعي في محاولة لامتلاك الفضاء امتلاكاً جمالياً يعطي بعداً مادياً تشكيلياً لكل حرف وفراغ وحركة(1)

---

(1) علي ناصف الطرابلسي، تحليل تشكيلي لمخطوط قرآني (أطروحة مخطوطة لنيل شهادة الكفاءة في البحث)، تونس، 1983.

(3915/1)

.

3 ـ الحروف ومدى تشابهها وتطابقها

... يشهد التمعّن في هذه الكتابة الخطية للخطاط بمقدرة كبيرة وكفاءة متناهية في سيطرته على حروفه وحسن تكرارها بالحجم والكيفية والمقياس نفسها. وإن دل هذا على شيء، فإنه يدل على مدى تمكن الخطاط من صنعته ووفائه، وعلى إدراك مدى ارتباط الحروف وتشابهها (الراء والواو) وتعريقات النون والسين والشين والصاد والضاد والقاف واللام وتعريقات الجيم والعين اللذين أخذا شكل نصف دائرة. وهذا

التشابه ولّد ائتلافاً بين الحروف فتناسقت الكلمات وترابطت في نظام واحد أعطى توازناً للنص

(3916/1)

المكتوب(1).

... إن هيئة الأندلسي الشديد التناسق، بأشكاله العارية بين الزخرف والتزويق والمستديرة، لم تكن قط لتناسب مزاج شعوب المغرب(2). وحروف هذا الخط القصيرة والمستديرة تتجمع في شكل كثيف جدّاً وتكوّن مجموعاً، وغالباً ما تأتي الأسطر متقاربة. فياء آخر الكلمة توضع نقطة فوق جزئه النهائي بدلاً من أن توضع نقطة

---

(1) طارق عبيد، حماية الخط المغربي (أطروحة مخطوطة لنيل شهادة الكفاءة في البحث)، تونس، 1992.

(2) هوداس، »محاولة في الخط المغربي«، تعريب عبد المجيد التركي، حولية الجامعة، تونس، العدد 3، ص. 66.

(3917/1)

تحته. وقد تتجمع الكلمات هنا أكثر التحاماً منه في القيرواني والفاسي. وظل الخط الأندلسي يتطور من حسن إلى أحسن ثم خطا نحو الوضوح واتساع التطور وجمع حروف الكلمة. ثم تغير سمك القلم، وظهر تباين بين الرأسيات والأفقيات(1).

...

4 ـ التوسع والانتشار

... تحوّل الخط الأندلسي إلى المغرب. وفي مدينة فاس استقر وتفرغ. تقبلت فاس الخط الأندلسي فحافظت عليه وطورته بذوق جديد وجمالية متفردة. برع الخطاطون بفاس في خطهم، فكان أسلوباً فريداً في روعته. حروفه تميل قوائمها نحو

---

(1) محمد الشريفي، خطوط المصاحف، مرجع سابق.

اليمين، عكس الخطوط العربية، ويمتاز بتباين سمكه وليونته المناسبة بلطف وقوة وجمال. ويمتاز الخط الفاسي باستدارات في حروف النون والباء الأخيرة والواو واللامات والصاد والجيم وما شابه ذلك بقي الخط الفاسي كما هو تقريباً. وقد فقد قليلاً من أشكاله المتحررة

وكسب مظهراً أكثر بساطة لما اقتبس من الأندلس رتابة في تناسق الحروف(1). حروفه دقيقة الرسم وبعضها لا يكتب إلاّ بثلث القلم. وهذا الخط يمتاز باستلقاء الأحرف وامتدادها وله من الأناقة حظ كبير، بفضل طول الأسطر العمودية الذي كاد يبلغ حد

---

(1) المرجع نفسه.

(3919/1)

الشطط والتباعد بين الأحرف التي تمتد أشكالها بنوع من الوفرة. والأسطر التي اتحد حجمها ورقّ مظهرها قليلاً، تندفع في كثير من الجرأة وتبدو لأول نظرة على تناسق كبير(1).

... وقد زاد الذوق الفاسي في الإجادة الفنية ما اكتمل به جانب الإتقان والتفنّن. ولما انتشر الإسلام على يد أهل المغرب في السنيغال وفي شرقها (السودان الغربي وتمبكتو)، انتشر هناك خط متولد من الخط المغربي الأندلسي في أنحاء السودان يسمى »الخط التمبكتي«، وهي المركز العلمي الرابع للمغرب.

---

(1) المرجع نفسه.

(3920/1)

... إن لهذا الخط من الأناقة الحظ الكبير بفضل طول الأسطر العمودية التي تتباعد حروفها وتمتد أشكالها بنوع من الوفرة، والأسطر التي نجد مظهرها رقيقاً تبدو على تناسق كبير. وقد أثر في رقيه تعاقب الدويلات على المغرب وقصر أعمارها. وقد طغت عليه الأقلام المشرقية بشيوعها في الكتب المطبوعة، فانزوى في المصحف الشريف وامتنعت على الناشئة قراءته وابتعد عنه الخطاطون المعاصرون وتقاعسوا عن إحيائه أو تطويره، ولا يزال يظهر في بعض الاستعمالات على استحياء، وما فتئ المسؤولون في المغرب يتوقون إلى رجوعه للصدارة ولكن دون

(3921/1)

ذلك التشجيع الجدي منهم والاهتمام المتواصل لإحيائه من اهل الاختصاص(1).

جمالية الخط المغربي

... 1) مدخل إطاري

... عند النظر إلى التاريخ وإلى الموسوعة العلمية وتفحّص الوثائق والأحجار والنقائش والوقفيات والبراءات السلطانية، نقرّ بأن الخط المغربي قائم بذاته موجود وقديم، والتوقف عند خصوصياته يستلزم قراءة ذاتية لمعرفته (الخط المغربي) ورحلته عبر التاريخ. ترى ما ملامحه المشتركة التي تجعل منه شخصية

---

(1) محمد الشريفي، »قضايا الخط العربي«، المجلة العربية للثقافة، السنة 12، العدد 23، سبتمبر 1992، تونس.

(3922/1)

مستقلة تميزه عن الخطوط المشرقية، وما الرونق الخاص الذي تحمله حروفه وهو الذي لم يقنّن بعدد لحد الآن وكيف هو يميل إلى الأشياء الطبيعية؟

... مبدئياً وبالرجوع إلى الوراء، نتوقف عندما حمل الفاتحون المسلمون دينهم وشرائعهم إلى سكان المغرب وفرضوا في الحين نفسه وجوب استعمال اللغة العربية على البربر الذين كانت لهم في ذلك العهد كتابة خاصة بهم تعرف بـ»تيفنّاغ« التي لا تزال مستعملة حتى الآن عند الطوارق في الصحراء الجزائرية،

وكانت القيروان المحطة الأولى التي انطلق منها الحرف العربي إلى بقية أقطار الشمال

(3923/1)

الإفريقي والأندلس وغرب إفريقيا. وبالرغم من أن الكتابة المغربية الأصلية تسمى إلى القرن 5 هـ بالكتابة القيروانية، فإنه تولدت في القيروان عاصمة المغرب الكبير آنذاك في أوائل القرن 2 هـ من الخط الكوفي مباشرة ولم يقتبس من النسخي الحجازي (المكّي والمدني)، خلافاً لما حصل للخطوط المستعملة في النسخي في المشرق(1).

... 2) ظروف نشأة الخط المغربي

---

(1) حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، ج 2، ص. 159.

(3924/1)

... أدّى انتشار الإسلام بإفريقية إلى الاهتمام بالكتابة وحفظ القرآن. وإذا كانت الوسيلة الأولى للمعرفة هي

الكتابة دون مراعاة القواعد الفنية التي يكتب بها الحرف العربي أو حتى تهذيب الحروف وتحسينها وإعطائها تكاملاً وتناسقاً وبُعداً جمالياً، فإن السبب في ذلك هو ما عليه إفريقية من البداوة والتّرحال والخوف من المجهول وقصر فترات الدول المتعاقبة. وبداية من القرن الأول للهجرة عمل العلماء الذين أرسوا في القيروان، على نشر الكتابة والخط خارجها. وكان خطهم يسمى بـ»القيرواني«، وهو الكوفي القيرواني المتأثر

(3925/1)

بالكوفي العراقي(1). وبداية من القرن الرابع، بدأ التغيير يطغى على هذا الخط مع الاحتفاظ باستقامة أشكاله. وقد تشبث المغاربة بالخط القيرواني، ولم يحاولوا مجاراة غيرهم من خطاطي المشرق في تطوير الخط والابتعاد تدريجياً عن الكوفي، بل وأصبح لهم خط مستقل يعرف بـ»الخط الإفريقي« يستجيب لحاجياتهم أثناء الفتوحات الإسلامية. وفيه يقول ابن خلدون: »فغلب خطهم على الخط الإفريقي وعُفي عنه ونسي خط القيروان والمهدية

---

(1) محمد المنوني، »لمحة عن الخط العربي في الغرب الإسلامي«، المجلة التاريخية المغربية، جويلية، 1989.

(3926/1)

بنسيان عوائدهما وصنائعهما« (1).

... كانت الحركة التجارية مزدهرة بين ضفاف البحر الأحمر، وكان قدماء سكان مصر والسودان وما كان يسمى بإفريقيا على اتصال بالعرب وبكل ما يتعلق بالعرب، الأمر الذي جعلهم يتقبلون دعوة الإسلام. ولا ننسى ما كان بين العرب وأهل الحبشة من صلات، حتى أن أول هجرة للمسلمين كانت للحبشة.

... كان للبربر خط ولا يزال. وفي هذا الصدد نجد صفحات مكتوبة بخطهم القديم» تيفنّاغ«. وحروفه هي حروف اللهجات البربرية. وكانت لبربر ليبيا حروف خاصة بهم،

---

(1) عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، طبعة بيروت.

(3927/1)

وكان لبرابر الأطلس أصحاب »تمازيغت« كذلك حروف خاصة بهم. وكذلك شأن من يسمون الآن بـ »الطوارق«.

... إن سيطرة الحرف العربي أمر وارد، حتى أن طائفة من البربر اختارت أن تكتب بالعربية. ويوجد عدد من علماء البربر من الذين يكتبون باللسان العربي الفصيح.
وترجع قيمة اللغة العربية إلى كونها نقلت كلام الله وشريعته إلى الشعوب، فاكتسبت أداة نقل هذا الخطاب السيّامي نوعاً من القدسية إلى درجة أن العبث بكل مكتوب عربي يعدّ إثماً.

... 3) صورة أولى للخط المغربي

(3928/1)

... من الجدير بالملاحظة ظهور نوع من الخط الكوفي المحلي ببلاد المغرب والأندلس عرف بالخط الكوفي المغربي شاع استخدامه في كتابة مصاحفها ومكاتباتها، وهو أقرب إلى خط النسخ والثلث حيث يتميز بحروفه التي تجمع في شكلها بين حروف الخط الجاف والليّن معاً، ممّا يعطيها طابعاً مميزاً لا تخطئه العين ويجعلها أكثر طواعية في التنفيذ.
... يلجأ كاتب هذا النوع من الخط إلى كتابة بعض الحروف مثل اللاّم والنون والباء النهائية بهيئة أقواس نصف

دائرية تهبط على مستوى السطر وتتكرر على امتداده؛ كما يمزج الخطاط بين هذه

(3929/1)

الاستدارات والحروف الأخرى ذات الشكل الجاف وفي الزوايا، مما يذكرنا بالكتابة العربية البدائية. وقد ظل هذا النوع مستخدماً حتى حلّ محله خط النسخ في كتابة المصاحف في القرن 7 هـ/ 13 م. ومن الأمثلة على ذلك صفحة من مصحف القرن 5 هـ/ 11 م، محفوظة في مكتبة شستري بيتين (1).

---

(1) مايسة محمود داود، الكتابات العربية على الآثار الإسلامية منذ القرن الأول حتى أواخر القرن 12 هـ، مصر 1991؛ وكذلك ناجي زين الدين، مصوّر الخط العربي، ص. 44، شكل 14.

(3930/1)

... ويحمل الخط المغربي في ثناياه نفحة أولية من تلك الحضارات الأولى، وتطور إلى أن استقل عن النفوذ المشرقي وصاغ بنفسه شخصية وميزة عامة لها

خصوصياتها وذاتها وقواعدها. ولا مرية في أن الحضارة المغربية الأندلسية طبعته بما لها من مميزات كالفسيفساء التي دخلته، فتداخلت الحروف في فن رائع تزيد في روعته صعوبة قراءته، وكأنه يحتوي على أسرار يتدلل في الكشف عنها، يبدي زينته للقارئ ويخفي عنه مفاتنه ومفاتيح فك رموزه. كما يجب على القارئ العربي أن يكون من الفاهمين قبل قراءة النص العربي، ويجب على الرائي أن يكون من

(3931/1)

الفاهمين والمبصرين المتبصرين قبل أن يفك هذه الرموز الغامضة على كل مبتهج يقبل على الحروف المتداخلة(1).

... وقد اشتقت الكتابة المغربية اللينة مباشرة من الخط الكوفي الجاف. وكان هذا الاشتقاق في الفترة نفسها التي شاع فيها استعمال الخط الليّن المشرقي. ونحن نستبعد أن يكون الخط المغربي أخذ ليونته من المشرق.

... للمغاربة اعتزاز بما وصلوا إليه من تطوير في الكوفي إلى حد اعتبار الخطوط المشرقية أقل مستوى من خطهم المغربي.

---

(1) أحمد بن جلون، من رسالة شخصية، 1994/10/2.

(3932/1)

... قبل المغاربة الخط العربي وهجروا كتابتهم القديمة. وقد أنشأوا خطاً ذا خصائص مغربية لا يزال يحافظ على ثلث حروف الخط اليابس (الكوفي). ويمتاز الخط المغربي بانسياب عراقته الواسعة ورسوّ سطره فكان نوعاً فريداً من الخطوط العربية. وقد تطوّر بمعزل عن الخط المشرقي وتخالف معه في ترتيب الحروف الأبجدية، أنواعه قليلة، تطوره بطيء، جنى عليه ارتباطه بالكوفي وخلوّه من القواعد والموازين أو ضياعها، فبقي خط تدوين، قاصراً في مجال اللوحات واللافتات إلاّ في النادر. وقد أثّر في ترقيته تعاقب الدويلات في المغرب وقصر

(3933/1)

أعمارها حتى لقد استعصى على الناشئة قراءته، وابتعد عنه الخطاطون المعاصرون وتقاعسوا في إحيائه وتطويره. ولا يزال يظهر في بعض المجالات خصوصاً في

المغرب وموريطانيا. أما في أواسط إفريقيا، فلا يزال هو السائد، خصوصاً في المصحف الشريف. وما فتئ المسؤولون في المغرب يتوقون إلى رجوعه للصدارة، ولكن دون ذلك التشجيع الجدي منهم والاهتمام المتواصل لإحيائه من أهل الاختصاص(1).

---

(1) محمد الشريفي، المجلة العربية للثقافة، تونس، 1992/2/9.

(3934/1)

... الخط المغربي التقليدي واضح كل الوضوح ولا يخلو من جمالية بعيدة عن كل تصنّع. إن أهل فاس مثلاً أخفوا بالنسيج والجبس فوقه الكتابة المزخرفة التي تزيّن قوس محراب جامع الأندلس المجاور له عندما دال المغرب إلى المرابطين الذين تشدّدوا في أمور الدين فمنعوا كل زخرفٍ ونقشٍ، الأمر الذي فعله أهل الأندلس بمساجدهم للحفاظ على زخارفها في العهد نفسه ولم يحِد الموحّدون عن هذه السياسة. وذلك جليّ في المساجد التي بنوها. ولم تكتشف المساجد الأولى عن فسيفسائها إلا بعد اندحار المرابطين والموحدين(1)

(1) أحمد بن جلون، مرجع سابق.

(3935/1)

.

... اكتفى المغاربة في البداية بتلطيف أشكال الكوفي الحادة والمزوّاة دون أن يضيفوا إليه أكثر من نقط الحرف التي تكسبه كل ما تستطيع الكتابة العربية من دقة. وفيما بعد زادوا في التأنق عند تسطير بعض الحروف، وخفّفوا أشكال البعض الآخر المثقلة؛ ولكن لم يزدهر فن الكتابة عندهم قط وإذا كان البرابرة يعيشون إلا أقلهم عيشة بداوة، فلم يعرفوا الترف قط، ولم يتعاطوا كل الفنون، ومن ضمنها الكتابة إلا لحاجتهم الأشد عجلة. ولو أن قدم الأندلسيون الذين أخرجوا من إسبانيا، لَمَا كنّا نجد لدى سكان المغرب إنتاج صناعتهم

(3936/1)

القليل الذي يكتسي طابعاً فنياً وأن تأثير الأندلسيين في فنون المغرب قد بعث ابن خلدون عدا افتراض »أن

الكاتبة المغربية الحالية قد أخذت أشكالها النهائية من الخط الأندلسي« (1).

... 4) المدرسة المغربية وبعض خصائص حروفها

... تمثّل هذه المدرسة المغرب والأندلس. وقد جوّدت الخط الكوفي في القرون الخمسة الأولى للهجرة. وعندما ليّنته لأغراض التدوين، حافظت على عدة حروف منه

---

(1) عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، المرجع: حولية الجامعة التونسية، العدد 3، السنة 1966، من مقال للأستاذ هوداس، تعريب عبد المجيد التركي.

(3937/1)

على حالتها في الكوفي. وكانت أنواع الخطوط قليلة وفروعها ضئيلة، وليس لها قواعد تضبطها(1). ولعل من العوامل التي قيّدت الكتابة المغربية تفرعها عن الكوفي الجاف وتحجرها على كثير من رسومه وآثاره. فلم تبتعد عنه، بل تكتب بشكل واحد في الابتداء والتوسط والتطرف. والكتابة المغربية ـ في أصلها ـ نجدها موزونة ومتناسبة (للألف) باستثناء العراقات التي تشتط في التقويس وكبر الحجم وكذلك رأس

العين بالنسبة لعراقته وكانت منبسطاتها مستقيمة أو منكبة(2)

---

(1) محمد الشريفي، المجلة العربية للثقافة، شه ر 9/ 1982,

(2) د. شريفي، خطوط المصاحف، أطروحة دكتوراه، 1974.

(3938/1)

.

... وتتخذ الحروف دائماً امتداداً مبالغاً فيه وتقوّساً لا مبرر له في بعض الحروف ذات العراقات مثل: س، ص، ل، م، ن. ولم يكن لشكل كل حرف طابع خاص به لاختلاف الكتابة المغربية. فقد تعترضك صفحة حررتها يد واحدة بها ثلاثة أو أربعة أشكال مختلفة للحرف الواحد. اكتفى المغاربة في البداية بتلطيف أشكال الكوفي الحادة والمزواة، دون أن يضعوا عليها اكثر من نقط الحروف التي تكسبه كل ما تستطيع من الكتابة العربية من دقة. وفيما بعد، زاد التأنق عند تسطير بعض الحروف وخففوا البعض الآخر المثلة، ولكن فن الكتابة عندهم لم

(3939/1)

يزدهر قط (1).

... 5) بعض خصائص الخط العربي

... لم يرفض المغاربة كل ما جاء إليهم من الشرق. فقد قبلوا ترتيب الحروف الهجائية مع اختلاف يسير، واستعملوا نقط الأعجام (نقط الفاء بواحدة من أسفل والقاف واحدة من أعلى). وقد ظل استعمال الخط اليابس (الكوفي) في المصاحف المغربية حتى القرن الخامس هـ ويلاحظ تطور الخط إلى الليونة:

نلاحظ ليونة في عراقات »النون« وأشباهها. فقد تقوّست وخالفت أصلها اليابس.

---

(1) ناصر زين الدين، مصور الخط العربي، ص. 339.

(3940/1)

رُسمت الألف على استقامة، وحذف منه العقف الذي كان يلحقها من جهة اليمين.

تنحدر الألف المتصلة عن مستوى السطر، فتكوّن زائدة كوفية هي من المميزات التي نراها باقية في الخط

المغربي. ولعل هذا راجع إلى بدء رسمها من أعلى.

بحكم عدم وجود قواعد محددة لهذا الخط، لا يمكن فرض أبجدية خاصة. إذ كثيراً ما يعمد الخطاط في هذا الخط إلى طمس الأحرف، وذلك باستعمال أشكال متغيرة للحرف الواحد وبربط الكلمات ببعضها، مما يجعل الأسطر متماسكة تماسكاً محكماً يساهم في دعم البنية الأفقية للصفحة. وإن تعسرت القراءة، فإن ذلك من

(3941/1)

خاصيات هذا الخط

... 6) أنواع الخطوط المغربية

... يقول ابن خلدون: »حصل في دولة بني مرين بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي«. ثم يوضح أن هذا اللون من الخط إنما هو الأندلسي المتمغرب، حيث أخذت الكتابة تكتمل مغربيتها من عصر بني مرين إلى أن صارت متميزة عن الخط الأندلسي في وضعها وفي إغفال نقط الحروف الأخيرة وفي عدم تقطيع حروف الكلمة الواحدة بين آخر السطر وأول السطر التالي.

... إي نعم! في هاته الفترة الأخيرة ضبط الدارسون للخط المغربي وجود مدارس لهذا الخط نسبت إليها:

(3942/1)

... 1 ـ الخط القيرواني: خاصيته أن تظهر حروفه قصيرة وقريبة من بعضها على خط التناسق، والنقط الموضوعة على كل الحروف النهائية، تمثل بياناً يميز الخط بين القيرواني وغيره.

... 2 ـ الأندلسي: هو من بين أنواع الخط المغربي أسهلها تعرّفاً، حيث أن السطر العمودي هو عامة أدق من السطر الأفقي. وتتجمع الأحرف القصيرة والمستديرة على شكل كثيف جدّاً، وتكوّن مجموعات الأسطر غالباً ما تأتي متقاربة، فـ»ياء« آخر الكلمة توضع نقطة فوق جزئه النهائي بدلاً من أن توضع تحته، تجمع الكلمات هنا أكثر التحاماً منه في القيرواني

(3943/1)

والفاسي.

... 3 ـ الفاسي: له من الأناقة الحظ الكبير بفضل طول الأسطر العمودية الذي كاد يبلغ حد الشطط والتباعد بين الأحرف التي تمتد أشكالها بنوع من الوفرة، والأسطر التي رقّ حجمها ومظهرها قليلاً فتبدو على

تناسق كبير.

... 4 ـ السوداني: شكله جاف. أشكال الحروف الثقيلة هي نهاية في عدم التناسق. الأسطر كثيفة أحياناً ودقيقة أحياناً أخرى. ترتفع الأسطر العمودية إلى علو كبير لا تناسب بينه وبين غلظة الكتابة. وشكل القفلات وانحدار الكتابة العامة قوي البروز(1).

---

(1) محمد المنوني، الوراقة المغربية، الرياض، 1991.

(3944/1)

... إن حلة الإبداع في الخط المغربي بجميع أنواعه وأصنافه وخصوصياته لها أسباب، منها:

مهارة الخطاط المبدع من حيث المرونة والمطاوعة.

الميل إلى الاستحداث والابتكار.

الإثارة والإعجاب والامتزاج الفني والروحي.

التدريب المستمر والتركيز الذهني الجيد.

حيوية الخطوط وقابليتها للتشكيل.

مواكبة روح العصر بالمحافظة على الأصالة الثابتة.

التنافس المشروع بإشاعة روح الجمال(1).

... 7) أنواع الخطوط المغربية الموجودة الآن

... استقر الخط الأندلسي المتمغرب في خمسة أنواع وأشكال:

---

(1) محمد المنوني، المصدر السابق.

(3945/1)

... 1 ـ الخط المبسوط: سمي بهذا الاسم، لبساطته وسهولة قراءته وبه تطبع المصاحف المغربية الشريفة على المطابع الحجرية.

... 2 ـ الخط المجوهر: وهو أكثر الخطوط المغربية استعمالاً، به تحرر الرسائل الخصوصية والعمومية والمراسيم السلطانية والظهائر الملكية. يكثر استعماله حيث طبعت به الكتب العلمية في المغرب. نعت بالمجوهر نسبة لعقد الجوهر، لجماله وتناسب حروفه وتناسق سطوره.

... 3 ـ الخط المسند: أو الزمّامي وهو خط خاص بالوثائق العدلية والمذكرات الشخصية والتقييدات الذاتية.

(3946/1)

... 4 ـ الخط المشرقي: هو خط مقتبس من الكتابة المشرقية وبخط الثلث خاصة، ولكن اليد المغربية تصرّفت فيه ومغربته. فكان الذوق المغربي قد أضفى عليه مسحة محلية. بهذا الخط تزخرف عناوين الكتب وتكتب عادة الحروف غليظة متداخلة بعضها في البعض، وأحياناً يكتب به بماء الذهب. ولا تزال إلى اليوم نماذج منه في الوقفيات الرخامية على جدران المدارس المرينية بفاس ومكناس وسلا. سمي بالمشرقي، لأن أصله من بلاد المشرق.

... 5 ـ الخط الكوفي: وهو خط وُجد في المصاحف القديمة. وُجد منقوشاً على الحجر وأبواب بعض قصبات المغرب وفي

(1/3947)

المساجد العتيقة، وهو خط خاص تكيّف مع الوضع المغربي. وهذا الخط ورثه المغاربة في جملة ما ورثوه عن الحضارة الأندلسية(1).

... إن العلامة التي تطبع الكتابة المغربية أن طبيعة السطر هي الطابع الأكثر شمولاً للأمثلة المغربية؛ مثلاً:

حواشي السطر المغربي مدعوكة عوض أن تكون ذات جوانب حادة وجلية.

قلّما تأتي السطور العمودية من ا. ل. ط ظ مستقيمة، وتتخذ لها شكلاً منحنياً وتحمل في طرفها الأعلى شيئاً كالنقطة الغليظة. ومأتى هذه

---

(1) هوداس، »الخط المغربي«، حولية الجامعة التونسية، تعريب عبد المجيد التركي.

(1/3948)

الخاصية الأخيرة التي تلاقيها في بعض الخطوط المستقيمة قلة مائعية الحبر الذي كان يستعمله المغاربة لكأنهم مضطرون إلى أن ينقطوا بالقلم قبل الشروع في رسم الحرف.

أن الخطاط المغربي لا يخط دون توقف إلا سطراً أو سطرين. وهذه العادة العامة كانت عامل الربط بين الحروف المكونة للجموع قريبة من البيئة دائماً.

تارة تفصل الحروف (بياضات) وتارة يعلو سطر الربط الحرف الذي يجب أن يتصل به. وقد لا نفهم أشكال بعض الحروف، ومن بينها ع. غ وسط الجموع.

(1/3949)

لا يخط في الكتابة المغربية (السنية) العمودية التي تنتهي (ص. ض) في وسط الكلمة أو في أولها.

تتخذ أواخر الحروف دائماً امتداداً مبالغاً فيه في: ش. س. ص. ض. ل. م. ن. وقلّما توضع نقط الحروف النهائية في: ف. ق(1).

... لقد تفاعل الخطاط المغربي مع الحرف واندمج معه، فانصهر فيه انصهاراً وجدانياً.... تحرك القلم، فسال المداد في حركة انفعالية فتفاعلت معها الكلمة بالصورة والحرف بالفراغ والخط

---

(1) علي ناصف الطرابلسي، تحليل تشكيلي لمخطوط قرآني لابن غطوس، أطروحة شهادة التعمق في البحث (مخطوطة)، تونس، 1983.

(3950/1)

والزخرفة، فارتسمت على المصحف قمة ما أبدعه الخطاط المسلم. ووراء كل هذا وعي خاص في فكر الخطاط، هذا الفكر الذي حدا ببعض الخطاطين إلى تطهير الجسم والروح والصلاة قبل ممارسة الكتابة ممارسة تعلو على الصنعة. وتلك قمة الإبداع والخلود أعطتنا أثراً فنياً

بالغ الصنعة، وتلك الصنعة وراءها إيمان صحيح تدعمه أدوات عمل مادية وجسمية وروحية روحانية بولغ في العناية بها حتى جاءت الممارسة في الحروف والحركات والزخارف مجسدة في الخطوط المغربية بوجه خاص.

(1/3951)

... والخط المغربي من الخطوط الجميلة المنضبطة باستدارات وتصوير حروفه ومدّاته وتقاطعه. فأشكال حروفه التي يتركب منها تعطيه له فردية تميزه عن غيره من التكوينات الخطية الأخرى، الأمر الذي أكسبه نصيباً وافراً من الجمال الأخاذ. وللخط المغربي إيقاع وتنغيم وحركة توافق وتناسب، ويُلحق به مزيد من الحسن والجمال والتوازن. وقد استحسنه الناس لروعته وجماله ووضوح بيانه وسهولة كتابته وقراءته وسرعة إدراك الناس في العين لجماله ولتأثيره تأثيراً ساراً ممتعاً ولاتصافه بالوحدة والربط بما له في النفس من الهيبة والجمال.

(1/3952)

... إن الكتابة المغربية اقتصرت على المصاحف القرآنية وبعض الزخارف الخطية المزينة للعمارة الإسلامية في المساجد خاصة المنحوتة على المرمر. وقد عمل كتّاب المصاحف على انتشارها وبقيت صامدة إلى يومنا هذا. ويعود الفضل الكبير للمحافظين على هذا التراث الكتابي في المخطوطات الموجودة في المكتبات المنتشرة في مدن المغرب وقراه ولدى المؤدبين والكتّاب والإداريين وعدول الإشهاد، والطموحات متاحة إلى ضبط خاصية هذا الخط وتحديد مقاييسه واستخلاص قاعدة ثابتة لأبجديته العامة، كل حرف على حدة. وهو أمر موكول للباحثين

(3953/1)

والدارسين معاً.

(3954/1)

الدر النثير في شرح التيسير للمالقي (ت 705هـ)

الدكتور محمد حسان الطيان

المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجية دمشق
–سورية

ملخص البحث :

عبد الواحد أبي السداد المالقي واحد من كبار علماء الأندلس في القرن السابع الهجري (توفي سنة 705هـ). وقد برع في علوم شتى على رأسها عالم التجويد والقراءات القرآنية ذي الصلة الوثيقة بـ حلم الأصوات الذي يعدد من أهم فروع اللسانيات الحديثة.

وكتاب "الدر النثير" شرح فيه كتاب "التيسير" (للداني) الذي بـ حد من أجل كتب القراءات . وقد ضمنه أبوابا صوتية في غاية الأهمية،

(3955/1)

بدءا من وصفه النظام الصوتي العربي (الصوامت الصوائت ، مخارج الحروف وصفاتها. . .) وانتهاء بتحديده طرق الأداء المختلفة، وهي الوجوه الصوتية المتنوعة لأداء القرآن الكريم (الإدغام والإظهار، الهمز والإبدال والتسهيل ، الإمالة والفتح ، المد والقصر. . .).

يترجم هذا المقال للمالقي صاحب "الدر النثير" محاولا وضعه ضمن إطاره الزماني والمكاني ، ثم يعرض لكتاب "الدر النثير)، فيدل على نسخته المخطوطة قابسا نماذج منها، ويشير إلى أبرز أبوابه متوقفا بالتحليل عند اثنين منها ليخلص إلى إثبات أصالة ما جاء به الرجل

(3956/1)

موازنا بما توصل إليه عالم الأصوات (Phonétique).

مقدمة :

مع بداية القرن السابع الهجري دخلت الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس مرحلة جديدة من تاريخها الحافل . ومع أن إرهاصات هذه المرحلة كانت نذير شؤم على الوجود العربي الإسلامي هناك ، بدءا بموقعة العقاب 609 هـ، التي انتصرت فيها جيوش الإسبان على الموحدين وسقطت إثرها قواعد الأندلس التالدة شرقا وغربا بيد إسبانية تباعا، وانتهاء بسقوط إشبيلية سنة (646 هـ)، إلا أن الأمر سرعان ما تمخض عن ولادة مملكة فتية قوية على يد محمد بن الأحمر من بني نصر، استلمت

(3957/1)

زمام الأمور وهيأت لاستمرار عطاء الحضارة العربية الإسلامية زهاء قرنين ونصف من الزمن (1).

كانت سكة غرناطة على صغر حجمها وريثة الأندلس الكبرى في علومها وفنونها وحمل مشعل حضارتها. وجرى ملوكها على سنن أسلافهم في حماية العلوم الآداب ، بل كان منهم علماء وأدباء أثروا الحياة الثقافية العلمية آنذاك كمحمد الفقيه ابن مؤسس المملكة محمد بن الأحمر (671 / 701 هـ) الذي استقدم من مرسية أكابر أطبائها وفلاسفتها ليدرسوا طلاب غرناطة العلوم الطبية والفلسفية، وكأبي الحجاج يوسف نن إسماعيل النصري (733/75 هـ) الذي أنشأ

(3958/1)

لأول مرة في غرناطة، بل ربما في الأندلس ، مدرسة سماها المدرسة النصرية بعد أن كان أهل الأندلس يدرسون العلم في المساجد ودور العلماء أنفسهم. و لايقل عنهما شأنا الوزير الكاتب الشاعر الطبيب لسان الدين بن الخطيب الذي طبق الآفاق علما وسياسة وأدبا

حتى غدا سمة مميزة لعصر غرناطة بأكمله (2).

هذا، ويعد عالم اللسانايت Linquistique بفروعه المختلفة (اللغة والنحو والصرف والمعاني والقراءات والتجويد..) واحدا من العلوم الكثيرة التي اشهر بها علماء غرناطة. والدارس المتتبع لتارتخ الحركة العلمية آنذاك يروعه كثرة

(1/3959)

العلماء الذين برعوا في فروع علم اللسانيات المختلفة، كأبي حيان الأندلسي (745 هـ) صاحب "البحر المحيط" في التفسير، وابن عصفور الإشبيلي (669هـ) صاحب "المقرب في

(1) نهاية الأندلس ، صص 20–21 .

(2) نهاية الأندلس ، صص 460–461. وعصر الدول والإمارات ، صص 69–70.

النحو والممتع في التصريف "، وعبد النور المالقي (702 هـ) صاحب "رصف المباني في حروف المعاني "، وابن جزي (741 هـ) صاحب "التسهيل في علوم التنزيل ، وابن

الزيات الكلاعي (728 هـ) صاحب "إحكام صنعة الكلام ، وغيرهم كثير(3).

(3960/1)

من بين هذه الجمهرة الخيرة من علماء اللسان الأندلسيين سنوجه العناية لدراسة علم تخصص بالدرسات الصوتية من خلال علم القراءات والتجويد، هو عبد الواحد بن محمد المالقي صاحب "الدر النثير".

ترجمة المالقي :

عبد الواحد بن محمد بن علي بن أبي السداد، أبو محمد، الأندلسي الأموي المالقي الشهير بالباهلي والبائع. علم حفلت مصادر التراجم بذكره منذ القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)(4). ولد بمالقة (Malaga) ،وهي مدينة سلطية تقع على الشاطئ الجنوبي الشرقي من الأندلس ، كانت أيام دولة بني الأحمر العاصمة

(3961/1)

الثانية بعد غرناطة – ورافقت نشأته قيام مملكة غرناطة في النصف الأول من القرن السابع الهجري (الثالث عشرا الميلادي). وهو ينتسب إلى أسرة أوتيت حظا غير قليل من العلم والفضل : فأبوه الشيخ الأجل أبو عبد الله محمد ابن علي ، وخاله الولي الصالح أبو محمد عبد العظيم بن أبي الحجاج .

تلقى المالقي القراءات والتجويد والعربية عن جلة علماء عصره في بلده مالقة كالشيخ الحسين بن عبد العزيز الأحوص الفهري (699 هـ) والقاضي قاسم بن محمد الحجري السكوت (790 هـ) والمقرئ الراوية عبد الرحمن بن عبد الله بن حوط الله

(3962/1)

الأنصاري . ثم رحل إلى غرناطة وسمع على رواتها وكتب له بعضهم بالإجازة العامة

(3) تاريخ الأدب العربي ، للدكتور عمر فروخ ، صص 134–517.

(4) الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب ، ج 3. ، صص 553–554. وبرنامج الوادي آشي، صص 146–147. وبرنامج التجيبي ص 102.والديباج المذهب ، لابن فرحون

، ج 2 ، ص 73. ودرة الحجال ، لابن القاضي ، ج 3، صص 137–138 .وغاية النهاية، لابن الجزرى، ج 1 ص 477. وبغية الوعاة، للسيوطي، ج 2 ، صص 121–122 .وطبقات المفسرين ، للداودي ، ج1 ، صص 359–360. وغيرها.

(3963/1)

كالمقرئ الراوية إسماعيل بن يحيى العطار الغرناطي، والإمام المؤرخ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي وغيرهم كثير. ثم عاد إلى مالقة وقد برع في علوم شتى على رأسها القراءات والتجويد م والنحو والفقه والأصول ، مما خوله، أن يكون خطيب مسجد مالقة الأعظم وأستاذ العامة والخاصة من أبنائها.

أمه الطلبة من كل مكان ، ونحرج به الكثيرون ، كالقاضي محمد بن يحيى الأشعري المالقي (741هـ) والقاضي يوسف بن موسى الجذامي، والقاضي محمد بن عبيد الله القيسي المالقي (750 هـ) وسواهم .

(3964/1)

خلف المالقي مصنفات عديدة في الفقه وعلوم القران أجلها "الدر النثير" موضوع هبن ا البحث ، وله كتاب "الأصول الخمسة التي بني الإسلام عليها" و"المنتخب في فضائل القران "(5) وغيرها.

توفي سنة 705 هـ، بمقالة، وكان الحفل في جنازته عظيما.

كتاب "الدر النثير" :

شرح المالقي بهذا الكتاب كتاب "التيسير" لأبي عمرو الداني (ت 444 هـ)، وهو العمدة في علم القراءات القرآنية، عنه نظم الشاطبي قصيدته المشهورة "حرز الأماني ، فصار الفرع أشهر من الأصل ، إذ غدت الشاطبية طريق القراءات القرآنية لا يكاد يؤخذ إلا بها.

(1/3965)

ونسبة "الدر النثير، إلى المالقى ثابتة بأدلة ثلاثة هى :

1 – أن كل من ترجم له نسب إليه شرح "التسيير" بدءا من ابن الخطيب في "الإحاطة" وانتهاء بحاجي خليفة في

"كشف الظنون "(6).

(5) كشف الظنون ، ج1 ، صص 114– 520 . وهدية العارفين ، ج 1، صص 635–636 . هذا، وقد ظفرنا له برسالة مخطوطة عنوانها "عمدة التحرير في الإدغام الكبير" في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق ، وحصلنا على مصورة عنها.

(6) انظر مصادر ترجمته السالفة التعليقين رقم 4–5.

(3966/1)

2– أن اسم المالقي ثابت في كل نسخ الكتاب المخطوطة التي اطلعنا عليها، وهي خمسة سيأتي ذكرها.

3 – ما نقله ابن الجزري في "النشر" من كتاب "الدر النثير" مقرونا باسم صاحبه المالقي (7).

أما نسخ الكتاب المخطوطة، فهي موزعة على عدد من مكتبات العالم (8). وقد ظفرت بمصورات لخمس منها تمتاز بتمام النص ، وقلة السقط، وجودة الخط، والمعارضة مع الأصل ، ويتراوح تاريخ نسخها بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر للهجرة (القرن الرابع عشر

والقرن السابع عشر للميلاد). وهذا بيان بها (يحوي اسم المكتبة، ورقم المخطوطة فيها،

(3967/1)

وعدد أوراقها، وتاريخ نسخها) :

1 – نسخة المكتبة الأزهرية بالقاهرة (260) – أوراقها110 – القرن ا لثامن .

2 – نسخة مكتبة متحف طوبقبوسراي باصطنبول (153)– أوراقها 186– القرن الثامن .

3 – نسخة مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق – أوراقها150 – القرن التاسع .

4 – نسخة مكتبة أسميخان سلطان بإصطنبول (11) – أوراقها – 83.

5 – نسخة مكتبة كوبريلي بإصطنبول (16) – أوراقها 236–1045 هـ

وفي الصفحة التالية نماذج مصورة من هذه النسخ :

(7) النشر، ج 1، ص 60،353.

(3968/1)

---

(8) الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط ،علوم القران مخطوطات القراءات 1، ص 239. وبروكلمان (النسخة الألمانية)، ج 1، ص/407، 415 وفهرس المخطوطات مكتبة كوبريلي،29 وفهرس مكتبة طوبقبوسراي 415 ، والخزانة التيمورية، ج 1 ، ص 279..

أبواب الكتاب ومباحثه الصوتية :

يشتمل "الدر النثير" على مختلف الموضوعات التي تناولتها كتب القراءات القرآنية مما تعلق بكيفية أداء كلمات القران وفق وجوهها المختلفة جمع عز وجل وجه لناقله اتفاقا واختلافا. وقد سار فيه المالقي على خطى الداني ، فجاءت أبوابه مماثلة لأبواب

(3969/1)

"التسيير". وهذا مسرد بأهمها مما له مساس بالصوتيات :

- باب بيان مذهب أبي عمرو في الإدغام الكبير.
- باب هاء الكناية .
- باب ذكر المد والقصر.
- باب ذكر الهمزتين .
- باب ذكر الهمزة المفردة.
- باب ذكر الإظهار والإدغام للحروف السواكن .

- باب ذكر الفتح والإمالة وبين اللفظين .
- باب ذكر الوقف على أواخر الكلم .

قدم المالقي لمعظم هذه الأبواب بمباحث صوتية ضمنها عصارة علمه في الأصوات والتجويد.

ففي باب الإدغام أفرد فصولا لخارج الحروف وصفاتها وانقسامها إلى القوي والضعيف ، وما يقبل الإدغام منها ؟مالا يقبله ،

(3970/1)

وتعليل ذلك بالتماثل والتقارب والتجانس . . .

وفي باب المد والقصر تكلم على حروف المد وحروف اللين ، والعلاقة بين حروف المد والحركات ، ومواضع مد هذه الحروف . . .

وفي باب الهمز تكلم على التسهيل بنوعيه : المطلق ، وهو بـ حل الهمزة بين الهمزة والحرف الذي منه حركتها والمقيد، وهو ذو أنواع ثلاثة : البدل والنقل ر(لحذف .

وفي باب الفتح والإمالة وبين اللفظيين تكلم على ظاهرة الإمالة، وأصلها، ومنشئها، وأسبابها العشرة، ووجوهها الأربعة، وفائدتها المتمثلة بالخفة.

(3971/1)

وفي باب ذكر الإظهار والإدغام للحروف السواكن عقد فصلا خاصا بتوجيه أحكام النون الساكنة والتنوين الأربعة : الإدغام ، والإخفاء، والإقلاب ، والإظهار، ضمنه تعليلات صوتية على غاية من الدقة والأهمية.

هذا وإن ما تناثر في ثنايا أبواب الكتاب وفصوله المختلفة من أحكام صوتية وملاحظات لغوية لسانية ليرقى به إلى مصاف الكتب المتخصصة في علم الأصوات واللسان ، ويغري بعقد دراسة مقارنة بين ما جاء فيه وما حققته الدراسات الصوتية الحديثة بمحابرها التقانية وتحليلاتها الحاسوبية (9).

(3972/1)

على أن هذه العجالة لن تتسع لأكثر من مبحثين صوتيين سنقصر الكلام عليهما : أولهما النظام الصوتي العربي (مخارج الحروف وصفاتها) وثانيهما صفة الإطباق في حروف العربية.

النظام الصوتي العربي :

استهل المالقي باب الإدغام ببيان مخارج الحروف العربية وصفاتها معتمدا في ذلك على ما جاء عند سيبويه إمام النحاة. وقد أوصل عدتها إلى ثلاثين حرفا ضمنها النون الخفيفة – التي عدها سيبويه على رأس الحروف الفروع ، ثم أعاد ذكرها ضمن مخارج الحروف الستة عشر(10).

(3973/1)

حصر المالقي الخارج في ستة عشر مخرجا موزعة على الحلق والفم والشفتين والخيشوم . وحصر الصفات في ست عشرة صفة نصفها متضاد ونصفها لا تضاد فيه . والجدول رقم (1) يمثل ذلك كله مقيدا بمصطلحات المالقي في "الدر النثير.

(11) لابد عل الإشارة هنا إلى أن دراسات صوتية كثيرة لنتاج العلماء العرب في الصوتيات قد أنجزت مند عام 1855هـ ،حتى الآن، وقد شملت هذه الدراسات كتبا كثيرة مثل الكتاب لسيبويه (نهاية القرن الثاني الهجري) وشرح ابن البعبش (553–643 هـ)، لمفصل الزمخشري (447–538 هـ) وشرح الرضى (ت 684–686) لشافية ابن

(3974/1)

الحاجب (570 **هـ**) **وكتاب التيسير للداني** (371–444 **هـ**) **وغيرها. وجل من قام بهده الدراسات من المستشرقين أمثال :**

) 1860) lepsius (1861) vollers (1906Schaade (
) pretzel 1933) wallin contineau (1855brucke (
)1934) bravmann (1925) grairdner (1911 (
) 1983cantineau cour de phonétique arab (
) 1960poman (**)**

(10**) الكتاب ج** 4**، صص** 432–434.

(*)أفدت في صنع الجدول من جملة جداول تمحو هدا النحو في مصادر مختلفة، منها: اللغة العربية مبناها ومعناها، ص .79 **وعلم اللغة العام : الأصوات، ص**.136**، ودراسة السمع والكلام ، ص**.222**،**

(3975/1)

مبادئ علم الأصوات ص.271**، وعلم الأصوات العام ، ص** .127**، و معالجة الكلام . تطبيق على العربية**

إن هذا الجدول محاولة منا لتمثيل ما ذكره المالقي على

مدى عشر صفحات متتاليات (11) بأوجز صورة ممكنة.
فقد بسط المالقي الكلام على الخارج والصفات شارحا كلام سيبويه تارة، مضيفا إليه ما يغنيه تارة أخرى.
والسؤال المطروح هنا . ما مقدار دقة أحكام المالقي الصوتية هذه ؟ وما مقدار مطابقتها للدراسات الصوتية الحديثة ؟

وتمهيدا للإجابة نقول : لقد أجمعت أكثر الدراسات الصوتية الحديثة العربية والغربية على أن العلماء العرب

(3976/1)

درسوا صوتيات الحروف العربية دراسة دقيقة ووافية، وأن تحديدهم ا لخارج الحروف وصفاتها جاء مطابقا إلى حد كبير لما هو معروف حاليا في نتائج الدراسات الصوتية التجريبية.

وما جاء في الجدول السابق واحد من هذه الدراسات الصوتية التي تكاد تطابق في جملتها أحدث ما توصل إليه علم الأصوات التجريبي الحديث .
والجدول رقم (2) يوضح مخارج الحروف وصفاتها وفق ما

انتهى إليه هذا العلم ،وبعقد موازنة بين الجدولين يتبين لنا أن الاتفاق بيض كما كان كبيرا وهو لا يحتاج إلى تعليق . أما أوجه الخلاف ، فيمكن تلخيص أهمها بالملاحظات

(3977/1)

التالية :

1 – يبدو أن المالقى لم يعرف عمل الأوتار الصوتية في الحروف المجهورة، حيث تتذبذب هذه الأوتار حال النطق بها و تنعدم ذبذبتها حال النطق المهموسة، وإن كان فصله بين المجهور والمهموس صحيحا في الغالب.

2 – عد المالقي الهمزة مجهورة وهي ليست كذلك ، إذ أنها تصدر على مستوى الأوتار الصوتية التي تكون مغلقة إغلاقا تماما ثم تنفرج بسرعة ليخرج الهواء محدثا انفجارا.

3 – ذكر المالقي حرفي القاف والطاء بين المجهورات . وهذا مالا يتفق مع النطق الحالي لهما. ويميل بعض علماء الصوت المحدثين إلى أن تطورا طرأ على

(3978/1)

القاف

(11) من الصفحة 55 إلى الصفحة 64 من النص المحقق للدر النثير، (وهو جزء من أطروحة دكتوراه أنجزتها عام 1994 ونلت بها الشهادة بمرتبة الشرف).

في نطقنا لها اليوم، وأن علماء العرب – والمالقي منهم –إنما وصفوا ما يقابل الجيم القاهرية اليوم (12).

4 – مخرج الضاد في نطقنا الحالي ينتمي في الجدول رقم (2) إلى الحيز النطقي (مع الدال والطاء والتاء) خلافا لما ذكر المالقي هنا والعلماء قبله . واكثر الباحثين يعزون ذلك إلى التطور النطقي الذي طرأ على هذا الحرف (13).

(3979/1)

5–وضع الخاء والغين مع الحروف المرققة في الجدول رقم (2) يشير إلى نطقهما الحالي على ألسنة العامة خلافا للنطق الفصيح بهما – على ألسنة قراء القران الكريم – الذي يطابق ما ذكره المالقي من أنهما حرفان مستعليان . أما إعادة ذكر اللام في هذا الجدول مع الحروف المفخمة، فهي إشارة إلى تفخيمها في لفظ الجلالة (الله)فقط.

صفة الإطباق في حروف العربية :

هذه الصفة من الصفات المميزة لبعض أصوات العربية، إذ لاتكاد توجد في غيرها من أصوات اللغات الأخرى. وقد اضطربت عبارات المتقدمين في التعبير عنها، واختلفت تفسيراتهم

(3980/1)

لعبارة سيبويه فيها وقصرت عن جلاء حقيقتها وتعرف كنهها. على حين أوف عبارة المالقي هنا على الغاية في التعبير عن ظاهرة الإطباق ، وتميزت مما سواها بخاصية انفردت بها، وهي الربط بين مخارج حروف الإطباق ورسمها. وسأعمد في ما يلي إلى استعراض جل ما وقفت عليه في هذه الظاهرة ليسهل موازنته بما جاء عند المالقي .

قال سيبويه : "وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن، انطبق لسانك في مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك، فإذا وضعت لسانك ، فالصوت محصور بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف

(3981/1)

(14).

(12) البحث اللغوي عند العرب ، ص . 108.

(13) علم اللغة العام : الأصوات ، ص .105 .

(14) الكتاب ، ج4، ص .436،ج2 ، ص .406.

هذه هي عبارة سيبويه وقد تلقفها خالفوه . إلا أن عبارات كثير منهم قصرت عن تأدية المعنى المراد، فأوهمت أن الإطباق يكون بانطباق اللسان كله على الحنك دون تخصيص جزء منه . من ذلك قول الرماني : "والمطبقة أحرف ينطبق اللسان فيها على الحنك ، وهي أربعة . الطاء والظاء والصاد والضاد"(15) وقول ابن الحاجب : "المطبق ما ينطبق معه الحنك على اللسان "(16) وقول ابن عصفور : "والإطباق أن ترفع

ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقا له "(17) وقول زكريا بن محمد الأنصاري في شرحه لل"مقدمة الجزرية" : "والانطباق لغة . الالتصاق . سميت حروفه مطبقة، لانطباق طائفة من اللسان بها على الحنك الأعلى عند

النطق بها)،(18).

بيد أن ثمة عبارات أخرى كانت أكثر دقة وتوفيقا في شرح معنى الإطباق ، إذ خصصته بظهر اللسان ، أو شبهته بالطبق . إلا أنها – دون شك – لم تبلغ درجة عبارة المالقى في ذلك . منها قول ابن السراج . "وهذه الأربعة الأحرف إذا وضعت لسانك في مواضعهن ، انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من

(3983/1)

اللسان ، ترفعه إلى الحنك . فإذا وضعت لسانك ، فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف "(19) ومنها قول ابن جنى : "والإطباق أن ترفع ظهر لسانك إلى الحنك الأعلى مطبقا له . ...،(20) وقول الرضي في شرح عبارة ابن الحاجب السالفة : "... لأنك ترفع اللسان إليه فيصير الحنك كالطبق على اللسان ، فتكون الحروف التي تخرج بينهما مطبقا عليها"(21). ولعل عبارة الرضي هذه أوضح العبارات السابقة لتشبيهها وضع الحنك على اللسان بالطبق ، والطبق إنما تنطبق أطرافه بعضها على بعض لا هو ذاته . وهذا ما بـ حل عبارة

(3984/1)

المالقى أكثر بيانا إذ هي تنص على اتصال الطرفين .

وذلك قوله : "فالأحرف المطبقة : الطاء والظاء والصاد والضاد. سميت

(15) شرح الكتاب ، ورقة 161/أ.

(16) الشافية، والنص مأخوذ من شرحها،ج3، ص .262.

(17) الممتع في التصريف ، ج 2 ، ص674 .

(18) الدقائق المحكمة، ص . 40.

(19) الأصول ، ج 3، ص . 404.

(20)سر الصناعة، ج 1، ص .70.

(21) شرح الشافية، ج 3 ص 262.

بذلك ، لانطباق ظهر اللسان مع الحنك الأعلى عند النطق بها. ولهذا كتب كل واحد منها في خطين متوازيين متصلي الطرفين إشعارا بمخرجها، والمنفتحة ما عداها، لانفراج

(3985/1)

ما بين ظهر اللسان والحنك الأعلى عند النطق بها"(22).

فالمالقي هنا ينص على أن المنطبق هو ظهر اللسان ، أي

آخره (23). وهو ينطبق جمع الحنك الأعلى، والمقصود بالأعلى الحنك اللين . لأن الحنك ينقسم إلى قسمين : الأول الحنك الصلب وهو الجزء العظلي الأمامي من الجدار الفاصل ين الأنف والفج ويتخذ شكل قبة أولها اللثة وآخرها الحنك اللين ، والثاني الحنك اللين وهو الجزء العضلي المتحرك من الحاجز الفاصل بين الأنف والأسنان من جهة وبين الفم والبلعوم من جهة أخرى، ويتصل بالحنك الصلب من أمام ، وبالجدران الجانبية للبلعوم

(3986/1)

من الجانبين (24). ولما كان مخرج هذه الحروف من طرف اللسان ، أي مقدمته ، والخرج هو الحبسة الناتجة من اتصال عضوين من أعضاء النطق ، فقد تكون تجويف في الفل! بين هذا الشرج في أول اللسان وذلك الانطباق في أخره . فهو تجويف بين قبة الحنك الصلب من الأعلى وتف حر اللسان من الأسفل، وطرفاه مسدودان . وهذا ما عبر عنه المالقي بالإشارة إلى العلاقة بين رسم هذه الحروف ونطقها فهي ترسم في خطين متوازين متصلي الطرفين إيذانا بمخرجها. وفيما يلي شكل تقريبي لما أراد المالقي إيضاحه .

(22) الدر النثير، صص 62–63 .

(3987/1)

---

(23) تقدمت الإشارة إلى المعتبر في أقصى اللسان سواء استعلى معه بقية اللسان أو لا (أنظر ص 303.).

(24) دراسة السمع والكلام ، صص 151–152.

لقد عنيت الدراسات الصوتية الحديثة بظاهرة الإطباق لما لها من أهمية في تتبع الخصائص الصوتية المميزة للعربية، وجاءت نتائجها مؤيدة ما نص عليه صاحب 2 "الدر النثير". ونظرا لضيق المجال ، سأقتصر على واحدة فها وهى "الأموات اللغوية" للدكتور إبراهيم أنيس .

يقول الدكتور إبراهيم أنيس عن أحد أصوات الإطباق :

"ففي حالة النطق بالظاء يرتفع طرف اللسان وأقصاه نحو الحنك ويتف حر وسطه

(3988/1)

– كما هو واضح في الشكل – كما يرجع اللسان إلى الوراء قليلا ولذلك اعتبر القدماء (الخاء أحد أصوات الإطباق "(25).

والشكل الذي أشار إليه المؤلف يكاد يطابق الشكل الذي سبق ، كما أن الوصف الذي ذكره يكاد يطابق الوصف الذي جاء به المالقي .

وبهذا يتبين لنا جليا مقدار دقة ما جاء في هذا المخطوط الجليل وما انطوى عليه من أصالة ومعرفة.

خاتمة:

حاولنا في هذا البحث أن نومئ إلى علم من أعلام الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس كان له إسهام جاد فيها يسمى اليوم بعلم الأصوات ، وذلك من خلال كشفنا لخطوط له يحقق لأول

(3989/1)

مرة، ولما ينشر هو "الدر النثير في شرح كتاب التسيير" انطوى على مباحث هامة في الصوتيات ،

اقتصرنا مض كا على مبحثين اثنين هما: "النظام الصوتي العربي " وحروف الإطباق في العربية"، وقد بينا مدى دقة المالقي فيهما ومطابقته لأحدث ما جاء في عالم الأصوات الحديث . وما ذكرناه هنا هو قل من ثر وغيض من فيـر، لأن ما انطوى عليه الكتاب أكبر من أن يحيط به بحث صغير كهذا، ولاسيما ما ب حلق بوجوه الأداء المختلفة للنص القرآني مما يتصل بعلم الأصوات الوظيفي (Phonologie) (كظاهرة الإمالة والإدغام الكبير والصغير والتسهيل

(3990/1)

والوقف ، إلخ)، وهو ما يؤلف جمهرة الكتاب

(25) الأصوات اللغوية، صص 37–48.

لقد اتسعت آفاق الدراسات الصوتية اليوم بعد أن كانت قديما مقصورة على تجويد تلاوة القران الكريم وف حلم قراءاته وخدمة اللغة، فأصبحت تطبيقاتها تشمل كثيرا من وجوه حياتنا اليومية، كأجهزة الإنذار الصوتي ، والألعاب ، والإدخال الصوتي للمعطيات بغية الحجز في وسائل النقل والتحقق من الأرصدة في المصارف ، وأجهزة

قراءة للعيان ... وتعليم اللغات لغير الناطقين بها، و معالجة عيوب النطق والسمع وأمراضهما ، إلخ .

(3991/1)

على أن أعظم مجال دخله علم الأصوات إنما هو مجال الاتصالات (Communication) حيث غدت دراسة الهندسة الصوتية الإلكترونية من اكثر الميادين تقدما، وبرزت تطبيقاتها في نقل الأصوات الكلامية عبر القارات عن طريق الأقمار الصناعية والاتصال بسفن الفضاء، إلخ .

ومع كل هذا التقدم والتطور الذي أحرزه عالم الأصوات الحديث ، فإنه ما زال يعتمد على ركيزة أساسية لا غنى له عض عنها هي وصف النظام الصوتي للغة، وهو ما عني به علماء اللغة والقراءات المتقدمون والمالقي واحد منهم .

أهم المراجع

(3992/1)

– الإخاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، 2، 1393هـ / 1973 م.

– الأصوات اللغوية، د، إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 5، 1981.

– برنامج التجيبي ، القاسم بن يوسف التجيبي ، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب ، ليبية – تونس ، 1981.

– برنامج الوادي آشي، محمد بن جابر الوادي آشي ، محمد بن جابر الوادي آشي تحقيق محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 3 ، 1982 .

(3993/1)

– بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية، بيروت 1384هـ/1964م

– تاريخ الأدب العربي ، د. عمر فروخ ، الجزء السادس ، دار

العلم للملايين ، ط 1، 1983.

– دراسة السمع والكلام ، د. مصلوح ، عالم الكتب ، القاهرة، 1400هـ/1980م.

– الدر النثير في شرح التيسير، للمالقى، تحقيق محمد حسان الطحيان (مخطوط(

– درة الحجال في أسماء الرجال ، أحمد بن محمد الشهير بابن القاضي ، تحقيق

(3994/1)

د. محمد الأحمدي أبو النور، المكتبة العتيقة بتونس ، ط 1، 1390هـ /1970م .

– الديباج المذهب ، ابن فرحون ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث القاهرة .

– طبقات المفسرين ، عمد برت علي الداودي ، تحقيق علي محمد عمر، مركز تحقيق التراث بدار الكتب ، مصر، 1392 هـ/1972م.

– علم اللغة العام : الأصوات ، د. كمال بشر، دار المعارف بمصر، 1974 .

– غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري ، عناية ج برجستراس ، مكتبة المتنبي ،القاهرة.

(3995/1)

– الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط ، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت ، عمان 1986م .

– كتاب سيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون ، عالم الكتب ، بيروت ، 1385هـ / 1982م .

– كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة، دار الفكر، بيروت ، 1402ه / 1982م.

– سر صناعة الإعراب ، ابن جني ، تحقيق مصطفى السقا وزملائه ، الجزء الأول ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط 1، 1374هـ / 1954

– النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ، تصحيح علي الضباع ، دار الكتب العلمية،بيروت .

(3996/1)

– نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ط 4. 1408 هـ /1987 م .

– هدية العارفين في أسماء المؤلفين و آثار المنتصرين ، إسماعيل باشا البغدادي ، دار الفكر، بيروت ، 1402 هـ /1982م .

(3997/1)

الدين واللغة من خلال الكتابات الأعجمية الموركسية

الحسين بوزينب
كلية الآداب – الرباط

... إن الدين الإسلامي وهو مجسد في القرآن الكريم، جاء

باللغة العربية وتم الإصرار على هذا الأمر: { والكتاب المبين. إنا جعلناه قرآن عربيا لعلكم تعقلون } (الزخرف: 2). وفي آية أخرى

{ لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين } (الشعراء : 195)

... وقد استرعى انتباهنا التركيز على تبيان لغة النزول في القرآن وغيابها في باقي الكتب المنزلة. فلا الإنجليل ولا التوراة يبينان لغة نزولهما. فعلى هذا الأساس يمكن القول إن العربية هي اللغة

(3998/1)

الرسمية للقرآن. لهذا السبب نجد المسلمين ينظرون إلى اللغة العربية بشتىمكوناتها الداخلية والخارجية (والخط من المكونات الخارجية) كعنصر ديني يدخل في تركيب الإسلام. فالناس يربطون بين تلك المكونات الخارجية والكنه. فنجدهم يتخذون من الخط العربي، بعد أن تكتب به بعض الآيات القرآنية، دواء يشرب. كما يستعمل في كتابة التحائم كوقاية من الشياطين ومن الجان وما إلى ذلك من الإستعمالات الشعبية. وقدسية الخط العربي عند المسلمين شيء لايحتاج إلى البرهان.

فإلي يومنا هذا ما زلنا نرى المسنين من العامة إذا وجدوا في طريقهم

(3999/1)

ورقة مكتوبة بالعربية، ولو كانت ورقة جريدة يومية، نحوها عن الطريق حتى لاتداس بالأرجل. وفي نفس هذا السياق يمكن أن ننظر إلى التشريف والتقديم اللذين يحظى بهما العرب في بلاد المغرب وغيرها لاعتبارهم أقرب الناس ماديا إلى الإسلام. فهم ينتمون إلى أرض الرسول ويتكلمون لغة االقرآن. فبسهولة كانوا يصلون إلى السيادة في هذه البلاد وغيرها (الأدارسة في المغرب والأمويون في الأندلس... إلخ)وحتى من أراد من غير العرب أن يصل إلى السيادة تقمص شخصية العرب وتعلم لغتهم. ولنا مثال معبر في الجاسوس الإسباني دمنغو بديا لبليخ

(4000/1)

أو باديا العباسي في بداية القرن التاسع عشر الذي تعلم العربية وادعى أنه أمير عربي جاء من الشرق وكل

ذلك للتوصل إلى بلاط سلطان المغرب للحصول على الاستعلامات المنشودة لبعثها إلى رئيسه الوزير الأول الإسباني غوضوي بهدف الاستيلاء على المغرب وعلى بلدان أخرى في المنطقة .

... إذن فالخط بالنسبة للمسلمين، ومن بينهم الموريسكيين بالطبع، يدخل في مكونات العبادة الخارجية، كما يقول (O. Hegyi1))

---

(1) O. Hegyi, »el uso del alfabeto àrabe por Minoras Muslmanas... », en Acta del COLOQUIO Internacional sobre ligeratura aljamiada y Morisa. Madrid, ed, Goredos, 1977, p. 162.

(1/4001)

. لهذا لايمكن أن نغض الطرف عن شعور القدسية التي كانت لدى الموركسيين المؤسبنين تجاه الخط العربي الذي استعملوه لكتابة لغتهم في التخاطب أي اللغة الإسبانية. ويقول المؤرخ الإسباني j. caro Baroja في هذا الصدد : "إن نفورهم من كل ما كان يتصل بالمسيحية جعلهم يشكون أحيانا من وجودهم مرغمين على استعمال الغة الرومنسية أي العجمية الأجنبية لنشر وصيانة

الإسلام الذي لايمكن أن يفسر، حسب قولهم، إلا بالعربية ويكتب بالخط العربي الذي كانوا يعتبرونه مقدسا"(1)

---

(1) j. Garo baroja, Los Miroscos del reino de Granada, Madrid, ed. Istmo, 1976, p. 129.

(1/4002)

. وتجد الإشارة في هذا المجال إلى أن نظرية كتابة الأعجمية الموركسية بالخط العربي لأسباب ظرفية كإخفاء مضامينها عن النصارى، نظرية يصعب البرهنة عليها، خصوصا وأننا نعرف أن محاكم التفتيش Inquisicion **كانت تعاقب الموركسين لمجرد اتهامهم بتصرف يتصل من قريب أو بعيد بالإسلام ككثرة الاغتسال مثلا، فبالأحرى العثور عندهم على كتاب بالخط العربي .**

... إن الموركسيين قد تشبثوا بالخط العربي كتشبث الغريق بعجلة الإنقاذ بعد غرق سفينته. فالخط العربي كان يتركهم ماديا في محيط الإسلام. فلو اعتمدوا الخط اللاتيني لأبعدهم

(1/4003)

عنه. ثم لغة التخاطب الحية قابلة للنسيان والضياع لأنها خاضعة للتداول وأما الخط فلا يعتمد على الممارسة بنفس الطريقة، زيادة على أن تعلمه سهل ولا يحتاج إلى علم كبير.

... وسنرى قواعد الكتابة العربية عند المورسكيين قد تأثرت بالطريقة الإسبانية اللاثنية في الكتابة. فنجد في كثير من الأحيان خلطا بين حروف البداية أو الوسط بحروف الأخيرة وأن الكلمة الواحدة تقبل الانقسام بين السطرين وتقبل الالتصاق مع جاريتها وانفصال أجزائها ... إلخ. وسنعثر على بعض الصفحات المكتوبة بالخط للاتيني ضمن المخطوطات الأعجمية

(1/4004)

المورسكية. غير أن هذه الصفحات لاتكون في مسائل الدين وإنما في الأغراض اليومية كتدوين بعض تواريخ الميلاد أو التواصيل مثلا كما هو الحال مع مخطوط الخزانة الوطنية بمدريد (خ. و. م.) 5267 مثلا. أو تكتب بها بعض الحكايات ذات الطابع الأسطوري كما يحدث في المخطوطات Gay 52 للأكادمية الملكية للتاريخ بمدريد

و 5303و 9067 (خ. و. م.). وقد لفت نظرنا بصفة خاصة نص مورسكي مكتوب بخط لاتيني يتكلم عن اصطناع الديانات بصفة خاصة نص مورسيكي مكتوب بخط لاتيني يتكلم عن اصطناع الديانة المسيحية وحكاية يسوع (1)

---

(1) A.Vespertino, Leyendas al jamiadas y Moriscas, Madrid, ed, Gredos, 1983np. 326 y ss.

(4005/1)

إن هذا النص يمتاز بجودة أسلوبه وباستعماله مصطلحات وطريقة في الكتابة يمكن اعتبارها مسيحية، غير مورسكية، رغم إعداده من قبل موركسي. ففي النص الذي يتكلم عن المسيحية سنجد استعمال كلمة Dios(= الله) التي لا ترد أبدا في النصوص الأعجمية الموركسية كما سنبين لاحقا. ومقابل هذا سنجد إيراد التاريخ الهجري في نهاية النص وذكر النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالعبارة الأتية « Nuestro caudilloy bienabenturado muhamad; cresca nuestro senor » « Allah onrra y onora sober él, y

(4006/1)

:« (...)crezi [miento] en gardos de gloria. Emin

معنى هذه العبارو بالحرف :" سيدنا محمد السعيد. زاده الله ربنا شرفا وجاها وزاده درجات في الجنة. آمين".

... فانطلاقا مما أوردناه سابقا، يمكن أن نخلص إلى قول ما يلي : إن المورسكي كان يتكلم إن اقتضى الحال بعجمية خاصة عن الإسلام تختلف تماما عن تلك التي كان يتكلم بها عن المسيحية. وكان يتكلم مع المسسيحيين بلغة مختلفة كذلك عن تلك التي كان يتوجه بها إلى المورسكيين المسلمين.

(4007/1)

... إن أغلب المخطوطات الأعجمية المورسكية التي نتوفر عليها اليوم تتموضع بشكل أو بآخر حول الدين : قرآن، حديث، تصوف، حكايات إسلامية ... إلخ. وهذا الأمر يدعونا إلى التساؤل حول مدى علاقة بروز هذا الأدب بالاستجابة لحاجة مورسكية في إيجاد أداة تواصل ديني مختلف عن اللغة الرومنسية المرتبطة ارتباطا عضويا في هذه الفترة بالمسيحية في إسبانيا.

... إن الجواب العلمي عن هذا التساؤل يقتضي تتبع النتاج الأعجمي المورسكي منذ ظهوره علىشكل صيغ أولية بسيطة ستنمو وتنضج في هيئة نصوص طويلة تخضع لقواعد خطية قارة إلى حد

(4008/1)

بعيد. ولقد حاولنا في بحث سابق تحت عنوتن "لماذا كتبت عجمية المورسكيين بخروف عربية" (1) أن نقدم تعليلا لهذه الظاهرة الثقافية الأندلسية. وعلى كل حال، نستطيع أن نقول في حدود هامش لايستهان به من اليقين أن الحاجة الملحة إلى أداة للتواصل الديني بين المورسكيين قد منحت الأعجمية المورسكية ذلك النضج الذي أشرنا إليه سابقا كنتيجة لاستعمال مكثف لهذه الأداة.

---

(1) انظر المخطوط العربي وعلم المخطوطات، الرباط، منضورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1994، صص. 99، 112.

(4009/1)

... يقول الباحث الأنجليزي (1L. p. Harvey) : "إن الحافز الذي جعل المسلمين الإسبان يقومون بهذه الترجمتات هو بدون شك حافز المحافظة، على العقيدة كان هو الهدف المتوخى. ثم إن الخوف من التجديد الآتي عن طريق جهل الدين هو الذي أوحاه. ولكن الترجمة نفسها كانت تمثل تجديد (أو بدعة إذا أردنا استعمال المصطلح الديني الإسلامي)(2) توازيه في البلدان الأوربية الأخرى عملية مماثلة مثيرة

---

(1) L.P. Harvey, » El Mancebo de Aravélo y la literatura aljamiada y Morisca, Madrid, Ed, Gredos, 1978, p. 25.

(2) ما بين قوسين لنا.

(4010/1)

للانتباه، حيث كان أتباع المسيحية يترجمون كل على حدة نصه المقدس الخاص، أي الكتاب المقدس. فالترجمة كانت مسألة ساخنة، وأحيانا بالمعنى اللفظي للكلمة. ثم إن هناك مفاهيم عديدة،إذا تم اعتمادها سيظهر المورسكيون من خلالها كمتخلفين ثقافيين وككائنين قروسطيين قد ألقى بهم في شاطئ الإصلاح

المضادContrarreformea . ولكن الأدب الأعجمي الموريسكي يتوفر على بعض الجوانب التي تجعل منه ظاهرة ثقافية في انسجام تام مع العصر. إن استشهادي بكلام الأستاذ هارفي وسيلة لاقتصاد عناء التعبير عن كثير من الأشياء التي أوافقه فيه. غير

(4011/1)

أنني مع ذلك لن أحرم نفسي من تدقيق عبارة قدمها بنوع من الرقة عندما لمح إلى اعتبار الموريسكيين متخلفين ثقافيين إذا اعتمدت بعض المفاهيم التي لم نةوضحها. فكثيرا ما تكلم المؤرخون وذوو الاهتمام بهذه الأقلية المسلمة عن الانحطاط الثقافي الذي آلوا إليه عند مقارنتهم بأجدادهم الأندلسيين وبمعاصريهم من المسيحيين. ولكن لم ينظر إليهم في هذا إلا قليل من زاوية الاضطهاد الثقافي الذي كان يمارس عليهم حتى يتسنى إصدار حكم يأخذ بعين الاعتبار عمق البعد الموركسي. إن احتفاظ الموريسكيين بذلك القدر اليسير من الثقافة وتطويره

(4012/1)

بالوسائل القليلة التي بقيت بين أيديهم يجعلهم جديرين بالاعتزاز والافتخار ربما أكثر من أجدادهم الأندلسيين ومن معاصريهم المسيحيين الذين كانوا يتوفرون على كل الوسائل المهيأة وعلى الجو الملائم للقيام بنهضتهم العلمية والثقافية. ثم إن لقمة المورسكيين لم تكن مستساغة كما كان الحال بالنسبة للآخرين. ومن ناحية أخرى يجب التعامل مع الثقافة المورسكية بنوع من الذكاء الخاص لإدراك النظرة العميقة لهذه الثقافة. ففي هذا الإطار نجد لدى المورسكيين تعاملا خاصا مع اللغة التي كانوا يترجمون بها النصوص الدينية من قرآن

(4013/1)

وحديث وغيرهما من النصوص التي تتصل بالإسلام. وهذا التعامل كان يمليه ذلك الرفض لكل ما هو مسيحي. فكانوا يتجنبون استعمال أي كلمة يمكنها أن تؤدي إلى اختلاط مع طقس أو معتقد مسيحي. وقد وصل الأمر ببعض المورسكيين الذين يكتبون نصوصهم بالخط اللاتيني إل الاحتفاظ بكتابة كلمة (الله) بالحروف العربية وسط نص كله بالحروف اللاتينية. فكلمة (الله) إذا لا تترجم بـ(Dios) لأنه غير معقول أن يكون Dios.

المسيحي مطابقا ل(الله) الإسلامي. فالمسيحيون يعبدون المسيح أي Dios . وانطلاقا من هذا الطرح كان المورسكيون يرفضون مطابقة

(4014/1)

الله بـ Dios ولم يكونوا يتقبلون فكرة الله يتجسد في إنسان ويهان ويهزم (1) . وإذا ما حدث استثناء وجدنا المورسكي يستعمل الكلمة الإسبانية بدل العربية فسيكون لمبرر ما. فلقد عثرنا مثلا على استعمال كلمة Dios في المخطوط الأعجمي رقم 9067(خ. و. م.) المكتوب بحروف لاتينية. ولكن النص الذي تستعمل فيه هذه الكلمة يتكلم عن الديانات المسيحية وعن ابتداعها من قبل الأساقفة. ثم إن لهجة هذا النص تنم على أنه لم يكن موجها إلى

---

(1) Louis Cadaillac, Morisques et Chétiens, paris, Librairie Klincksieck, 1977, p. 296 yss.

(4015/1)

المسلمين بل إلى النصارى. وقد وجدنا كذلك استعمال Dios في المخطوط 2Gay s للأكادمية الملكية للتاريخ بمدريد. وهذا المخطوط يتكلم عن حكمة سليمان .

فاستعمال لفظة Dios في هذه الحالة قد تجد تعليلا لها في أن المورسكي يتكلم هنا عن حقبة زمنية سابقة لكل من المسيح ومحمد عليهما السلام. إذا بدون شك تكون كلمتا الله و Dios متطابقتي المعنى.

... وبصفة عامة نرى المورسكي إذا اضطر إلى ترجمة كلمة (الله) يستعمل Sinor (سيد) حتى يتحاشى استعمال Dios. فعندما يترجم عبارة (لاإله إلا الله) يقول no ay senor sino Allah: وعندنا

(4016/1)

كلمة أخرى لا نعثر لها على أثر في الكتب المورسكية هي Mahoma فإذا كانت هذه الصيغة التي ينادي بها النصارى نبي المسلمين فالمورسكيون تحاشوها لتجنب ما قد يتضمن هذا التحريف من استخفاف بنبي المسلمين. فهم كانوا ينطقون إسم الرسول كاملا Muhammed وأحيانا بدون تشديد Muhamad

... ونفس ما قلناه عن إسم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، نقوله عن أسماء باقي الأنبياء والرسل.

فالمورسكيون كانوا يكتبون أسماء آدم وإبراهيم وإسحاق ويوسف وسليمان ويونس وموسى وعيسى ...إلخ. كما تكتب بالعربية وكانوا يحولون نطقها كالعرب، رغم أن

(4017/1)

النظام الصوتي الإسباني كان يغلب عليهم ويجعلهم يحرفون بعض الشيء هذه الأصوات. فنجد مثلا اسم إبراهيم مكتوبا بدون المد الأول (إبرهيم) وسليمان مكتوبا (سلايمان) ربما لنطقه uleymenç لأن الفتح + الألف =e في النسق الأعجمي المورسكي. وموسى مكتوب (مسى أو مس) وعيسى مكتوب (عس) وبالحروف اللاتينية) 1yçe) واسم إسحاق مكتوب (إسحق) بضياع ستطالة الصائت الذي يغيب عن

---

(1) في مخطوط الخزانة الوطنية بمدريد رقم 9067 المذكور سابقا واذي اعتبرناه موجها لغير المسلمين، وجدنا الصيغة الإسبانية jusus أو jesus لاسم عيسى.

(4018/1)

الإسبانية. ووجدنا يعقوب بضياع حرف العين الذي لايوجد في الإسبانية ولكن لم نجد أبدا أبرهم ولاجزا ولا شلمن ولا ميشاش ولا جاشش ولا اشاك ولا جكب...إلخ.وحتى في تلك الحالات التي تتشابه فيها الصيغات العربية والإسبانية لأسماء الأنبياء فإننا نجد المورسكيين يجتهدون لإظهار العناصر المميزة للصيغة العربية. فإلياس وميكائيل تكتب في الإسبانية : Micaelو Elias . والمورسكي يكتب إلياس بالتشديد على اللام والمد على الياء وميكائيل بالمد في الصائت الأول (1)

---

(1) امظر مخطوط الخزانة الوطنية بمدريد رقم 4953 صفحة 120r

(4019/1)

... ومن ناحية أخرى نجد أن المخطوطات الأعجمية المورسكية تظهر مرصعة بمصطلحات الدين الإسلامي مثل : الصلاة – الزكاة – العبادات – السجود...إلخ . التي سنرجع إليها فيما بعد. إن هذه المصطلحات التي تكاد لا تخلو منها أي صفحة من الكتابات الأعجمية المورسكية يرجع استعمالها إلى نفس العامل الذي ذكرناه في استعمال أسماء الأنبياء. أي إلى رفض استعمال المصطلح

الإسباني المقابل، أو المسيحي في زظر المورسكي. وفي هذا الطرح أختلف مع ما قاله الدكتور أتمر حجي في كتابه : خمس أساطير وحكايات مورسكية أخرى (1)

---

(1) O. Hegyi, Cinco Leyendas y otros relatos Moriscos, Madrid, ed, Gredos, 1980, p 56.

(4020/1)

حيث يرى أن هذا الاستعمال يرجع إلى غياب المقابل في الإسبانية. لأن هذا المقابل موجود. فكلمات الصلاة والزكاة والحج والسجود والروع والوضوء... تجد في الإسبانية ألفاظا تقابلها وتترجمها وفي بعض الأحيان نرى المورسكيين يستعملون المصطلح الإسباني عوض العربي، إذا لم يربطه بالمسيحية. ففي نفس المخطوط الذي درسه الأستاذ حجي نجد مثلا كلمة (abaxar) الإسبانية عوض كلمة (سجد) العربية و(liogro) عوض (الربا)](أكل الربا=komer el logro)[، ونجد باستمرار (plegar) عوض (دعا) و(plegaria) عوض (دعاء) و(bendicion) عوض (البركة)

(4021/1)

و(debedado)بـ عوض حرام) ...إلخ.

... إن استعمال هذه المصطلحات العربية داخل النص الإسباني يجب أن يفهم بالدرجة الأولى في نطاق المجادلة الدينية التي كانت قائمة بين المسلمين والمسيحيين(1) وكذا في نطاق اعتزاز كل طرف بدينه وعدم قبول التنازل عن أدنى شيء للخصم. كما تجدر ملاحظة ندرة ترجمة المصطلح العربي إلى الإسبانية بالمقارنة مع كثرة استعمال الأصل.

... إن مصطلح العربي المستعمل في الأعجمية يبرز في صيغتين :

(1) انظر كتاب Louis Caradillac السالف الذكر.

(4022/1)

... أ) صيغة تحاول الاحتفاظ بالشكل الأصلي للكلمة العربية حدوث تحريف بسبب تأثير النسق الصوتي الإسباني الغالب على المورسكيين ولكن بدون تكيف مع بنية الأشكال الكلامية الإسبانية. مثلا : الصل – اصل – الزكا – الحج – المام – البرك – الجنـ – الاسلام – اسجْدَ – ركع – السلام – أسور –اسور – آذن – الدعاء – العتم

– الاحرام – الفردوس – الغرش – الحسنـ – الجرف – الخرف – العباد(= العبادة) – القام – النجيل – الجناسـ – الجمع – المنبر – المحرم – الم(= الأمة) – الركع – الركغ – ارسكا(=الرزق) – الرشكا (= الرزق)

(4023/1)

– اريان – اصراط – عشر (= عاشوراء) – غابد (=عابد) خلال (= حلال) – حرم – خرن – (= حرام) – جُمُعَ – مَلْغُنْ (= ملعون) – رمضن – صالم...إلخ.

... ب) صيغة عربية مكيفة مع البنية الكلامية الإسبانية، خصوصا عند اشتقاق أفعال من بعض الأسماء أو تكوين بعض المصادر والجموع. فيما يلي بعض الأمثلة :

افعال

مصادر

أسماء الفاعل أو المفعول

جموع

اشغا(أصغى)

اسجدا

اسجدر

اتبحر

لا العن

مسحر

احرر

اسجدن

اسجادرن

الركعر

سهرر

سهرشان

سهرر

سهر

حلق

حرم

مسحر

طهررشا

اسشدتا

اتسبحند

اتسبحما

خلاقب

خلاقاش

الحذيثر

... إلخ

اسحرار

(4024/1)

امحدراش

اسجدميانت

احرميانت

حلاقميانت

الحدسدر

اسجج

احرد

طهرد الركعد

حلاقذ

اتسبحنتا

اتسبحدر

آلاقذش

خلاقدش

الدعائاش

العسانس

الفقياش

الغربش

الجناسش

الكتاباش

الملكاش

امحدراش

انافلش

النبئاش

الركعش

الرزقاش

اتكبراش

العفرتاش

اتسبحاش

...

... هكذا نرى كيف أن النظام الصوتي والبنية الإسبانية تمكنا من فرض نفسيهما على الكلمات العربية. ولكن سيبقى الجانب الدلالي الذي مكث في أغلب الأحيان بعيدا عن هذا الاستيلاء. فقليلة هي المصطلحات والعبارات العربية التي قبلت تعويضها بنظيراتها الإسبانية. فعبارة صلى الله عليه

(4025/1)

وسلم مثلا، التي تأتي بعد ذكر النبي محمد، تكاد رتقبل الترجمة أبدا. وهذه العبارة تستعمل كذلك بالفواتح : (صعم). ومن بين الحالات النادرة التي يمكن العثور عليها، تلك التي وجدناها في المخطوط 4953 خ. و. م.(1)

... ذيش ءال انبي هغ شتلتسين الله ءال اشلبا.

(dio el annabi hqga salutacion allah sobre él i salave)ويحتفظ الموركسيون بالعبارتين (عله السلام) و(رضي الله عنه) كما هما في العربية. وأحيانا قليلة تترجمان كما في المثالين الآتيين :

---

(1) .202o. Heygi, Cinco liyedas. op. cit, p.

(4026/1)

... – ذيش ءال انبي شبرا ءال شا الشلبسين(1)

dios el annabi sobre él sea la salvacion

... –عمر ابا غشا الله ذال(2)

Umar apàguese Allahd-él

... كذلك نجد بعض الأحيان ترجمة للعبارات : (تعالى) و(سبحانه) و (عز وجل) الخاصة بذكر الله.

... – الله انت ءاش (3) Allah al to es

---

(1) (13 .op. cit, p. Heygi, cinco leyendas 200O

(2) (14) .op. cit, p. Heygi, cinco leyendas 168O

(3) A. verspertino, leyendas al jamiadas...,

308np1983m1983Madridn ed Gredosm

(4027/1)

... – الله باندتءاش (1Allah bento es)

... –دابوش دزا ءال نبلاتن باندت ءاش ش نبلاز(2)

.debués dize el noble ran bendi to es su nbleza

... – انزل الله وانشلسد ءاش(3)

onolo Allah, enxalzado es

... باستثناء هذه العبارات، لم أتمكن من العثور على كلمات (الشهادة) – (الصلاة) – (الزكاة) – (الحج) مترجمة بكثرة إلى (daynante). ولقد استغربت كثيرا لعدم اشتعمال

---

(1) o. heygi, cinco leyendas aljamiadas. op. cit,

(2006p.

(2) 204o. heygi cinco leyendas.op.cit, p.

(3) 200o. heygi, cinco leyendas. op. cit, p.

(4028/1)

الموريسكيين الكلمة العربية (صام) ومشتقاتها.

... وفيما يرجع إلى فعل (صلى) ربما يتعذر عليهم إيجاد تكيف لهذه الكلمة مع إسبانيا الموريسكيين، لذلك سنراهم يبتكرون عبارة "فزار الصلاة" (al- ssala faser)] بالحرف : عمل الصلاة [كصيغة قارة زمنتظمة للتعبير عن عملية الصلاة. فهذه العباراة الجديدة تؤدي لغويا وظيفة الفعل (صلى)، بالرغم من كل التناقضات التعبيرية التي ستصطدم بها مع قواعد استعمال اللغة الإسبانية وأنساقها. فمثلا : kien fara assala ocho (1arraka' as) (بالحرف :

---

(1) مخطوط خ.و .م . رقم 5267، ص. 2/3 v58

(4029/1)

من عمل الصلاة ثماني ركعات) تعني "من صلى ثماني ركعات. والجملة : kien fara assala aduhar do (1arraka'as) (بالحرف : من عمل الصلاة الظهر ركعتين) تعني فقط "من صلى ركعتين ".

... فأما هذه الحالة نجد المورسكي قد استغنى عن إمكانية التكييف البنيوي التي تعود استعمالها بكثرة في أمثلة : خلاقر – امحر – اسجدر...إلخ. وسنجد إضافة الفعل الإسباني (fazer) الذي يعين "عل وعمل" مع الكلمتين (الصدقة والحج) للتعبير عن الفعلين (صدق أو تصدق) و(حج) faze al- hajj- fazer assadaqa:

(1) مخطوط خ. و. م. رقم 5267، ص 4 r58

(4030/1)

... komo ke fiziese assadaq (a) sobre todo

(1kreyente o kreyenta -)

... – (2y ellos fazen allah) (...).

... هكذا إذن وكخلاصة عامة تقريبية، يمكن أن نقول إن هناك كلمات لاتترجم أو تكاد لا تترجم كالتي تدل على الصلاة وأجزائها : الصلاة – السجدة – سجد – الركعة – ركع – السلام – الإحرام – الإقامة – النافلة. أوقات الصلاة : الفجر – الصبح – الظهر – العصر – المغرب – العتمة. المصطلحات الدالة على أجزاء القرآن : السورة – الآية – آية

(1) مخطوط خ. و. م. رقم 5267، ص 6/7 v32

(2) مخطوط خ. و.م. رقم 2567، ص. 2 r3

(4031/1)

الكرسي. مصطلحات مختلفة مثل : الفقيه – الجنازة – الجنة – الدين – الوضوء – الطهور...إلخ. وأحيانا أخرى نجد المصطلح العربي يتعايش مع نظيره الإسباني :

– الدعاء

–الدنيا

–الجمع(=الجماعة)

–العاب

– البركة

– جهنم

–رسول الله

– الوصية

– كافر

– حرام

... إلخ

plearia

este Mundo

ajuntamiento

siervo

bendicion
fuego

Mensajero de Allah
kastigo

deskreyente
devedado

... إذا وكما رأينا عبر هذه الدراسات المتواضعة التي حاولنا أن نقرب فيها إشكالية يمكن أن تتخذ موضوعا لرسالة جامعية تغوص في المسألة وتحيط بها من جميع

(1/4032)

الجوانب، فإن الإسلام قد استطاع من جديد أن يخلق له انطلاقا من لغة مسيحية بعدما استطاع أن يحول لغة العرب إلى لغته قبل ذلك

(1/4033)

الشيخ عبد الله بن محمد فودي وآثاره الفكرية

... ... الدكتور محمد بن علي السكاكر

... جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية العلوم العربية والاجتماعية بالقصيم

ولادته ونشأته

... هو عبد الله بن محمد [فودي] بن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد بن جب بن محمد ثنب بن أيوب بن ماسران بن بوب باب بن موسى جكل(1). أما ولادته، فلم يرد في المصادر التي بين أيدينا تاريخ مؤكد لها، ولكن الشيخ

---

(1) عبد الله بن محمد فودي، إيداع النسوخ من أَخَذْتُ منهم من الشيوخ، مكتبة نولا، زاريا، نيجيريا، 1377 هـ/ 1958 م، ص. 1.

عبد الله ذكر أن بينه وبين أخيه الشيخ عثمان ثنتي عشرة سنة(1). فإذا كان الشيخ عثمان قد ولد سنة 1168 هـ/ 1754 م(2)، فإن ولادة الشيخ عبد الله تكون

في سنة 1180 هـ/ 1766 م.

---

(1) Abdullah Muhammad Fodiyo, Tazyin Alwaraqat, Edited by M. Hiskett, Ibadan University Press, 1963, p. 27.

(2) محمد ثنب بن أحمد بن مجيل، كنز الأولاد، (مخطوط)، غير مصنف، غرفة البحوث للدراسات العليا، قسم التاريخ، جامعة بايرو، كنو، جمهورية نيجيريا الفيدرالية، ق 221.

(1/4035)

... وينتسب الشيخ عبد الله إلى قبيلة الفولاني التي تنسبها بعض المصادر إلى الأصل العربي(1)، بينما ترجعها بعضها إلى الأصل الحامي(2). وسواء كان الفولانيون من العرب أو لا، فإن النسب لا يعز ولا يذل؛ فقد رفع الإسلام مكانة سلمان الفارسي وبلال بن رباح الحبشي رضي الله عنهما، وأذل الشرك أبا لهب وأبا جهل وأمية بن خلف وغيرهم من

---

(1) عبد الله بن محمد فودي، إيداع النسوخ، مصدر سابق، ص. 2.

(2) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، الإسلام والحضارة

الإسلامية في نيجيريا، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دون تاريخ، ص. 13.

(4036/1)

صناديد العرب. ولذلك، فإن قبيلة الفولاني قد رفع شأنها ومكانتها ذلك الدور الذي قام به مجموعة من أبنائها ممن تولوا مهمة التعليم والدعوة إلى الله في بلاد الهوسا وغيرها، وبخاصة الشيخ عثمان بن محمد فودي وأخيه الشيخ عبد الله، ومحمد بل بن الشيخ عثمان، والذين تكللت جهودهم الدعوية والجهادية بقيام أكبر دولة إسلامية في العصر الحديث في غرب إفريقيا جنوب الصحراء، وهي الدولة الصكتية 1219 ـ 1321 هـ/ 1804 ـ 1903 م.

(4037/1)

... لقد نشأ الشيخ عبد الله في بيت علم ودين، فقرأ القرآن الكريم على والده. ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره، التصق بأخيه الشيخ عثمان، ولم يفارقه في حله وترحاله، فقرأ عليه "العشرينيات" و"الوتريات"

وكلاهما قصائد في مدح النبي – صلى الله عليه وسلم –، والشعراء الستة، وعلم التوحيد من الكتب السنوسية وشروحها، والإعراب من "الأجرومية" و"الملحة" و"قطر الندى" ونحوها وشروحها، وعلم التصوف، وكتب الفقه مثل "الأخضرية" و"العشماوية" و"رسالة" ابن أبي زيد وغيرها، وتفسير القرآن الكريم من أول الفاتحة إلى آخر القرآن

(4038/1)

الكريم عدة مرات، وعلم الحديث دراية كالعراقي، ورواية كالبخاري، وعلم الحساب(1). وبذلك يكون الشيخ عثمان هو المعلم الأول لأخيه الشيخ عبد الله الذي يقول في حق أخيه الشيخ عثمان:

... وحصل لي ـ بحمد الله ـ التبصر في الدين من فيضان نوره، ومن تواليفه المفيدة العربية والعجمية. فما ألف كتاباً من أول تواليفه إلى الآن إلا كنت أول من نقله عنه غالباً. وصحبته حضراً وسفراً، ما فارقته منذ أنا يافع إلى أن حصل لي الآن قريب من خمسين سنة. والحمد لله على ذلك(2)

---

(1) إيداع النسوخ، مصدر سابق، صص. 2 ـ 3.

(2) المصدر نفسه، ص. 3.

.

... وتجدر الإشارة إلى أن الشيخ عبد الله لم يكتف بتلقي العلم عن أبيه وأخيه الشيخ عثمان فقط، بل اتصل بعلماء وقته، فأخذ عنهم من العلوم العربية والشرعية ما أهلته لأن يصبح من كبار علماء عصره تعليماً وتأليفاً. يقول الشيخ عبد الله عن نفسه: »والشيوخ الذين أخذت العلم عنهم لا أحصيهم الآن...، وكم عالم أو طالب علم أتانا من الغرب فاستفدت منه ما لا أحصيه، وكم عالم أو طالب علم أتانا من المشرق فاستفدت منه ما لا أحصيه «(1).

دور الشيخ عبد الله في الدعوة مع أخيه الشيخ عثمان

---

(1) المصدر نفسه، ص. 8.

... لقد كان سكان بلاد الهوسا ـ شمال نيجيريا حالياً ـ ينقسمون من حيث الدين إلى ثلاثة أقسام:

الأول : المسلمون المحافظون على إسلامهم.

الثاني : المخلطون، وهم الذين يخلطون أعمال الإسلام بأعمال الكفر، مثل: الشعوذة، والتنجيم، والاعتقاد بالأيام، والسحر... ونحوها.

الثالث: الكافرون، وهم الذين لم يعتنقوا الإسلام أصلاً(1)

---

(1) عثمان بن محمد فودي، نجم الإخوان يهتدون به بإذن الله في أمور الزمان، مخطوط، مجموعة صكت، مجلد رقم (1)، مظروف رقم (1)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، جمهورية نيجيريا الفيدرالية، ق 65؛ وعبد الله بن محمد فودي، ضياء السلطان وغيره من الإخوان، مخطوط، مجموعة صكت، مجلد رقم (1)، مظروف رقم (2)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، جمهورية نيجيريا الفيدرالية، ق. ق. 34 ـ 35.

(4041/1)

.

... ونتيجة لهذا الوضع المتردي في بلاد الهوسا، فقد رأى الشيخ أنه لزامٌ عليه السعي الجاد للقضاء على البدع بتصحيح مفاهيم الإسلام بين المخلطين، ودعوة غير المسلمين إلى الإسلام، فبدأ دعوته في سنة 1188 هـ/ 1774 م(1). وكان أخوه عبد الله في الثامنة من عمره، وكان ملازماً لأخيه الشيخ عثمان يتعلم منه، ويقتدي بآدابه وتعاليمه. وعندما بدأ الشيخ عثمان رحلاته إلى بلاد الهوسا المجاورة لموطنه »طقل« في ولاية غوبر، صحبه أخوه الشيخ عبد الله إلى ولاية »كب« و»زنفرا«، كما زار

---

(1) A. M. Fodiyo, op. cit., p. 27...

معه ملك »غوبر« [باوا] مرتين، وحصلا خلال الزيارتين على حرية الدعوة إلى الإسلام في بلاد غوبر(1). فأخذت دعوة الشيخ عثمان تشق طريقها محققة نجاحات متلاحقة، مما جعل أعداءها من أصحاب المصالح، وبخاصة رجال بلاط الملك يضعون العراقيل أمامها، عن طريق تحريض ملك غوبر على الشيخ عثمان،

(1) محمد بن علي السكاكر، دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوة الشيخ عثمان بن فودي. دراسة تاريخية مقارنة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1407 هـ، صص. 153 ـ 155.

(4043/1)

وتخويفه من ضياع سلطانه إن نجح الشيخ عثمان في دعوته. ولذلك تغير موقف ملك غوبر [نافاتا بن باوا (1216 ـ 1218 هـ/ 1801 ـ 1803 م)] الذي خلف والده في الحكم، فأخذ يضع العراقيل أمام الشيخ عثمان، بالتضييق عليه من جهة، وبمنع المجتمع من قبول دعوته من جهة ثانية(1). وفي عهد الملك ينف بن نافاتا (1218 ـ 1223 هـ/ 1803 ـ 1808 م) اشتد التنافر والتنازع بينه وبين الشيخ عثمان، وبخاصة بعد طلب الملك من الشيخ عثمان أن يهاجر من بلدته »طقل« بأهله وعياله فقط فرفض الشيخ عثمان الهجرة لوحده، وأعلن

---

(1) المرجع نفسه، ص. 183.

لجماعته أنه مهاجر ورغبهم فيها. فهاجر هو وكثير من جماعته من بلدتهم »طقل« إلى بلدة في أطراف بلاد غوبر يقال لها »قد« (1).

... لم تضع هذه الهجرة حدّاً للخلاف بين ملك غوبر وبين الشيخ عثمان، حيث أخذ الناس يهاجرون سرّاً إلى الشيخ عثمان في موطنه الجديد. فخشي الملك من زيادة قوة الشيخ وتمكينه، فبدأ يهدد الشيخ عثمان في موطنه الجديد بالحرب والقتال. فاتفق رأي الجماعة على مبايعة الشيخ عثمان أميراً عليهم. وكان الشيخ عبد الله بن فودي أول من بايعه(2)

---

(1) A. M. Fodiyo, op. cit., p. 55.

(2) محمد بل بن الشيخ عثمان، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، القاهرة، 1383 هـ/ 1964 م، ص. 96.

. ومنذ ذلك الوقت أصبح الشيخ عبد الله وزير أخيه الشيخ عثمان وكبير مستشاريه(1).

دفاع الشيخ عبد الله عن أخيه الشيخ عثمان أثناء الدعوة

... في أثناء تجوال الشيخ عثمان ورحلاته في بلاد الهوسا للدعوة إلى الإسلام، اصطدم مع بعض العلماء الذين يخالفونه في منهجه. ومن ذلك اتهام العالم مصطفى القوني للشيخ عثمان بأنه يتساهل في اختلاط الرجال بالنساء أثناء دروسه ومواعظه. فطلب الشيخ عثمان من أخيه عبد الله أن يتولى الرد على العالم القوني، فكتب إليه الشيخ عبد الله قصيدة

---

(1) محمد علي السكاكر، المرجع السابق، ص. 203.

(4046/1)

فحواها: أن ارتكاب أخف الضررين واجب إجماعاً في الدين والدنيا، وضرر ترك النساء في الجهل لا يعرفن الواجب عليهن، بل لا يعرفن الإسلام أصلاً أكبر من ضرر اختلاطهن مع الرجال. أما وقد عرفن الإسلام وقواعده وانتسبن إليه، فإن الواجب إعلام المجتمع أن اختلاط الرجال بالنساء حرام، وهذا ما فعله الشيخ عثمان(1)

---

(1) Fodiyo, op. cit., pp. 28–29؛ وكذلك: عبد الله بن محمد فودي، ضياء السياسات وفتاوى النوازل مما هو من فروع الدين من المسائل، تحقيق وتقديم أحمد محمد كاني، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط 1، 1408 هـ/ 1988 م، صص. 16 ـ 17.

(4047/1)

.

... وعندما تأزم الخلاف بين الشيخ عثمان وبين الشيخ محمد الأمين الكانمي في برنو، وذلك بعد أن أعلن الشيخ عثمان الجهاد ضد ملوك بلاد الهوسا وأمرائها، وبخاصة بعد مؤازرة أمير »برنو« لملك »غوبر«، فقد حصل خلاف فكري تبودلت فيه الكتابات والفتاوى من الشيخين. وكان للشيخ عبد الله دور بارز في هذه القضية، حيث كتب إلى الشيخ محمد الأمين الكانمي عدة مكاتيب تحمل فكر الشيخ عثمان وعقيدته. وسبب جهاده لملوك وأمراء بلاد الهوسا، وكذلك جهاد الشيخ عثمان لأمير برنو الذي بينه الشيخ عثمان بأنه بسبب مؤازرة هذا الأمير لملوك

(4048/1)

بلاد الهوسا وأمرائها ضد الشيخ عثمان(1).

دور الشيخ عبد الله في الجهاد

... في سنة 1219 هـ/ 1804 م، أعلن الشيخ عثمان الجهاد ضد ملك غوبر ومن حالفه من ملوك بلاد الهوسا وأمرائها. وقد وقعت معارك كثيرة بين الفريقين، انتهت بانتصار الشيخ عثمان وإقامة أكبر دولة إسلامية في غرب إفريقيا في العصر الحديث، وهي الدولة الصكتية التي شملت معظم بلاد الهوسا وما جاورها ـ شمال نيجيريا وأجزاء من تشاد والنيجر حالياً. وإذا كان الحديث عن جهاد الشيخ عثمان سيطول من جهة، وسيخرج

(1) محمد بل بن عثمان فودي، مصدر سابق، ص. 156.

بنا عن موضوعنا من جهة أخرى، فإني سأذكر بعض المعارف التي كان للشيخ عبد الله دور مؤثر فيها، وبخاصة المعارك التي تولى عبد الله قيادتها بنفسه.

... تعد معركة »كتو« في صفر 1219 هـ/ مايو 1804 م أهم معركة خاضها المجاهدون ضد ملك غوبر وأعوانه،

وذلك لأن ملك غوبر »ينف بن نافانا« قد قاد جيشه بنفسه، واشترك معه كثير من أمراء ولايات الهوسا مثل: »كنو« و»كاتسينا« و»زاريا« و»دور« و»أزبن«. ونظراً لأن هذه المعركة ستصبح الفاصلة بين الفريقين، فمن يخسر فيها ستكون نهايته قريبة، وذلك كما وصفها محمد بل بن الشيخ عثمان

بأنها: »أعظم وقعة وقعت بيننا وبينهم، وهي بمثابة يوم الفرقان يوم التقى الجمعان«(1). ولذلك أسند الشيخ عثمان قيادة جيشه في هذه المعركة إلى أخيه الشيخ عبد الله لفضله وعلمه وحسن تخطيطه، وحنكته القيادية، فخرج الشيخ عبد الله بجيش المجاهدين، وتوجه إلى جيش عدوه قبل أن يصل الأعداء إلى معسكر المجاهدين في »قد«، لينقل المعركة بعيداً عن معسكرهم حتى يتسنى للشيخ عثمان وجماعته الفرار من موطنهم لو وقعت الهزيمة على جيش المجاهدين.

---

(1) المصدر نفسه، ص. 99.

... ولما وصل الشيخ عبد الله قريباً من جيش عدوه، عسكر على ماء في »كتو«، ووضع جيشه في مكان مرتفع ليدركوا من خلاله جميع تحركات عدوهم؛ كما أرسل طلائع الاستكشاف لتراقب تحركات جيش عدوهم. ولما وصل العدو إليهم، كان الشيخ عبد الله قد رتب جنده، ورسم خطته بهجوم ميسرة جيشه على ميمنة جيش عدوه، وميمنة جيشه على ميسرة جيش العدو. وأما القلب، فقد أمره بالبقاء والتركيز على الرمي بالنبال ليعيق تقدم عدوه. وقد تمكنت ميمنة وميسرة المجاهدين وهم من الفرسان من الانتصار على ميسرة وميمنة جيش عدوهم، ثم انضموا إلى القلب،

(1/4052)

فتخالط الصفان وكثر القتل في جيش العدو، ثم فر من نجا منهم هائماً على وجهه. وهكذا انتهت هذه المعركة بانتصار المجاهدين وعودتهم إلى معسكرهم غانمين سالمين (1).

---

(1) المصدر نفسه، صص. 99 ـ 101؛ وعبد القادر بن محمد البخاري، تبشير الإخوان بأخبار الخلفاء في السودان،

[مخطوط]، مجلد رقم (41)، مظروف رقم (7)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، جمهورية نيجيريا الفيدرالية، ق. ق 7 ـ 9؛ وانظر تفاصيل هذه المعركة عند: محمد بن علي السكاكر، مرجع سابق، صص. 206 ـ 209.

(4053/1)

... وتكمن أهمية هذه المعركة في أنها نقلت ميزان القوى لصالح المجاهدين. فبعد أن كانوا في موقع الدفاع عن النفس، أصبحوا بعد هذه المعركة في موقع المهاجم، إذ ارتفعت الروح المعنوية عند المجاهدين، وزاد حماسهم للقضاء على ملك »غوبر« والاستيلاء على مملكته. ويفسر هذا قول الشيخ عبد الله: »لما طرد عبد الله سلطان غوبر وجيشه، صرنا نحن نغزوهم ولا يغزوننا«(1). ... ومن المعارك التي قادها الشيخ عبد الله قيادته للجيش الذي توجه لحصار مدينة »القاضاوا« عاصمة ولاية »غوبر«، حيث يقيم الملك

---

(1) Fodiyo, op. cit., p. 61.

(4054/1)

»ينف بن نافانا«، وذلك في شعبان سنة 1219 هـ/ نوفمبر 1804 م. ومن أحداثها أن الشيخ عثمان قبل أن يرسل إليها الجيش لمحاصرتها وفتحها، أرسل عدة حملات إلى المدن القريبة منها ليوجعها حتى لا تنضم إلى الملك عند حصار مدينته، فتضرب جيش المجاهدين من الخلف. ولما تمكنت هذه الحملات من فتح بعض المدن، والتحق بها بعض المؤيدين للشيخ عثمان في ولاية »غوبر«، قرر الشيخ عثمان حصار »القاضاوا«، فأمر الجيش بالخروج، وأسند قيادته إلى أخيه الشيخ عبد الله الذي تمكن من فرض حصار قوي على مدينة »القاضاوا«. وبعد عدة أيام، كادت

(1/4055)

المدينة أن تقع في أيديهم لولا خيانة فرقة الطوارق التي كانت تقاتل إلى جانب جيش المجاهدين، حيث استغل الطوارق انشغال المجاهدين في الحصار، فغدروا بالمجاهدين، وخلفوهم في عيالهم وأمتعتهم. وهنا اضطر المجاهدون إلى فكِّ الحصار، والتوجه إلى الطوارق لتأديبهم (1). ... ومن المعارك التي قادها الشيخ عبد الله أيضاً

قيادته لجيش الفتوح الذي توجه لفتح بلاد »كب« في ذي الحجة 1219 هـ/ مارس 1805 م.

---

(1) Ibid.؛ ومحمد بل بن عثمان فودي، المصدر السابق، ص. 113 ـ 114؛ ومحمد بن علي السكاكر، المرجع السابق، ص. 213 ـ 215.

(4056/1)

فقد كانت بلاد »كب« تقع في أقصى الغرب من ولايات الهوسا، ويفصلها عن بلاد »غوبر« ولاية »زنفرا« التي كانت على عداء مع ولاية »غوبر«. ولذلك استغل المجاهدون هذا العداء بالتوجه إلى »كب« لفتحها، فخرج الجيش بقيادة الشيخ عبد الله، وتمكن هذا الجيش من فتح جميع الحصون التي مر بها في ولاية »كب« حتى وصل إلى حصن »كب« في 12 محرم 1220 هـ/ 12 أبريل 1805 م، فشن المجاهدون هجومهم على الحصن حتى فتحه الله عليهم، وغنموا منه غنيمة عظيمة. أما ملك »كب« وجماعته، فقد تمكنوا من الهرب ناحية الشمال، ومات منهم أثناء الفرار أكثر

(4057/1)

من ألف شخص بسبب العطش(1). وهكذا فتح المجاهدون بلاد »كب« بعد أن استولوا على أكثر من عشرين حصناً من حصونها، ثم رجعوا إلى معسكرهم في »سابنغر« بعد أن عين الشيخ عبد الله »عثمان مسى« أميراً على »كب« (2). ... ومن خلال هذه النماذج التي ذكرناها يتضح لنا الدور الكبير الذي قام به الشيخ عبد الله لمؤازرة أخيه الشيخ عثمان في بناء الدولة الإسلامية في بلاد الهوسا، علماً بأن هناك معارك

(1) 62Fodiyo, op. cit., p. ؛ ومحمد بن علي السكاكر، مرجع سابق، صص, 220 ـ 222.

(2) محمد بل بن عثمان فودي، مصدر سابق، ص. 119.

أخرى تولى الشيخ عبد الله قيادتها بنفسه لا تقل أهمية عن هذه المعارك التي ذكرناها لم نشر إليها خشية الإطالة.دور الشيخ عبد الله في الإدارة ... بعد أن تمكن الشيخ عثمان من إقامة الدولة الإسلامية في بلاد الهوسا في الفترة ما بين 1219 ـ 1224 هـ/ 1804 ـ 1809 م، اتجه لإرساء حكمه وتحكيم الشريعة الإسلامية في

بلاده، فقسم في سنة 1227 هـ/ 1812 م دولته إلى قسمين: ... القسم الأول: شمالي شرقي، ويشمل ولايات: زنفرا وكاتسينا ودورا وكنو وبوتشي وكاتاجم. وقد أسند الشيخ عثمان مهمة الإشراف عليه إلى ابنه محمد بل. ...

(4059/1)

القسم الثاني: جنوبي غربي، ويشمل ولايات: نيب ودندي وبورجو وايللورين ولبتاكو، وقد أسند الشيخ عثمان مهمة الإشراف عليه إلى أخيه الشيخ عبد الله بن محمد فودي(1). ... وبعد هذا التقسيم، انتقل الشيخ عبد الله إلى قسمه واتخذ من »بودنقا« عاصمة له، وظل مقيماً فيها يتولى إدارة هذا القسم والإشراف عليه؛ كما أرسل جيوشه إلى المناطق القريبة منه لنشر الإسلام فيها وتوسيع رقعة الدولة الصكتية وبسط سلطتها عليها. ...

---

(1) عبد الله بن عبد الرازق إبراهيم، المرجع السابق، ص. 53؛ ومحمد بن علي السكاكر، المرجع السابق، ص. 233.

(4060/1)

وبعد وفاة الشيخ عثمان في سنة 1232 هـ/ 1817 م، بويع ابنه محمد بل بالخلافة. فتوترت علاقته مع عمه الشيخ عبد الله لبعض الوقت، حيث تمسك الشيخ عبد الله بإدارته لقسمه، ولم يعلن الانفصال عن الدولة؛ كما أنه لم يعترف بخلافة محمد بل. ثم تحسنت العلاقة بينهما بعد معركة »كالمبينا« سنة 1235 هـ/ 1820 م، فاعترف الشيخ عبد الله بخلافة ابن أخيه محمد بل بن الشيخ عثمان، وأصبح نائباً عن ابن أخيه في قسمه حتى وفاته سنة 1245 هـ/ 1829 م(1)

(1) أحمد محمد البدوي، أوراق عربية من صكتو، جامعة قاريونس، تونس، ط 2، 1991 م، ص. 65.

(4061/1)

. وخلال فترة إمارته، استطاع أن يوسع حدود الدولة في الغرب حيث استولى على إمارات »آروا« و»زابيرما« و»دندي« وجزء كبير من »بورجو« (1). وفي الجنوب من قسمه، استطاع أن يوسع حدود الدولة باستيلائه على »بنو« و»ياجبا« و»أوى« و»أجومو« و»أكوكو« و»إكاو« و»كويوروكو« (2)؛ كما استطاع أن يدخل

بلاد اليوربا ويتوسع فيها، فاستولى على

---

(1) J. F. A. Ajayi, History of West Africa, vol. 2, Longman, England, 1984, p. 65.

(2) R. A. Adeley, Power and Diplomacy in Northern Nigeria 1804-1906, Great Britain, 1971, p. 71.

(4062/1)

أجزاء كبيرة من مملكة «أويو» القديمة، ومد نفوذه إلى بلاد «أجبومينا» و«أكرون» و«جبوقن» و«إكوبي» (1)، ولم تتوقف جيوشه إلاّ عند غابة «إلشا» كثيفة الأشجار(2).خلاف الشيخ عبد الله مع أخيه الشيخ عثمان ... عندما بدأ الشيخ عثمان بن محمد فودي دعوته الإصلاحية في بلاد الهوسا، كان حريصاً على دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، وتصحيح مفاهيم المسلمين بالدعوة إلى القضاء على البدع المنتشرة في وقته مثل: التعصب في الدين، وإفساد عقائد المسلمين، والتفاؤل بالأيام

---

(1) Ajayi, op. cit., p. 67.

(2) Adeley, op. cit., p. 72.

بقولهم هذا يوم صالح وهذا يوم قبيح، والشعوذة، والتنجيم، والتبرك بالآثار والأشجار والأحجار بالذبح لها والصدقة عندها(1). كما كان

(1) انظر ما كتبه الشيخ عثمان بن محمد فودي حول هذه البدع في كتبه التالية: "نور الألباب"، مجموعة متحف جس، مجلد 1، مظروف 1، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، جمهورية نيجيريا الفيدرالية؛ و"بيان البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملة المحمدية"، كنو، جمهورية نيجيريا، دون تاريخ؛ و"إحياء السنة وإخماد البدعة"، المكتبة الإفريقية، القاهرة، ط 2، دون تاريخ.

الشيخ عثمان حريصاً على إقامة دولة إسلامية تسعى إلى تصحيح هذه المفاهيم الخاطئة وإصلاحها، وتدعو الناس إلى عبادة الله وحده، وترك الميل إلى الدنيا والتنافس في ملكها وجاهها. ولكن عندما بدأ الجهاد واستولى الشيخ

عثمان على بعض الحصون والقلاع والمدن، بدأت تتغير أحوال بعض قادة الجهاد، وبخاصة بعد أن استولوا على غنائم كبيرة من جراء المعارك التي خاضوها. فقد أخذوا يتنافسون على هذه الغنائم، فخشي الشيخ عبد الله أن تتغير مفاهيم الجهاد من سعي في الإصلاح، إلى تنافس على الأموال والجاه والسلطة. ويبدو أنه بحث هذا

الموضوع مع أخيه الشيخ عثمان الذي رأى أن الوقت غير مناسب لتصحيح هذا الخطإ الذي ربما يتسبب في فشل حركة الجهاد، بينما رأى الشيخ عبد الله أن التصحيح واجب لتحقيق الغاية من جهادهم(1). ... ولما فشل الشيخ عبد الله في تصحيح أخطاء بعض قادة المجاهدين، قرر السفر إلى المدينة المنورة. يقول الشيخ عبد الله: ... . وكنت قد جاءني من الله وارد برفض الأوطان والإخوان، والتوجه إلى خير خلق الله لطلب الرضوان، لما رأيت من تغير الزمان والإخوان، وميلهم إلى

---

(1) عبد الله بن محمد فودي، ضياء السياسات، مصدر سابق، ص. 19.

الدنيا والتنافس في ملكها وأموالها وجاهها، مع تركهم عمارة المساجد والمدارس وغير ذلك، وقد علمت أني شرهم، وأن ما رأيت من غيري لا يعدوني. فرأيت أن الفرار قد وجب علي، فتركت الجيش واشتغلت بنفسي واستقبلت إلى الشرق نحو المصطفى إن يسر الله ذلك (1).

... ولما وصل الشيخ عبد الله إلى ولاية »كنو«، إحدى ولايات الهوسا، استوقفه أهلها وطلبوا منه الإقامة عندهم لتعليمهم أمور الدين. فاستقر في »كنو« لفترة من الوقت ألف خلالها كتابه: "ضياء الحكام فيما لهم وما عليهم من الأحكام"(2)

---

(1) Fodiyo, op. cit., p 70.

(2) حققه وترجمه شيخو ياموسى، رسالة ماجستير، جامعة أحمد بيللو، زاريا، نيجيريا، 1956 م.

، كما قرأ عليهم تفسير القرآن الكريم من أوله إلى آخره(1). ومن الملاحظ أن الشيخ عبد الله لم يواصل سفره إلى المدينة، حيث لم يلبث أن ظهر مرة أخرى بين المجاهدين، وقاد عدداً من المعارك ويظهر أن الشيخ

عثمان قد أرسل إلى أخيه الشيخ عبد الله من يرجوه بالعودة إلى إخوانه لحاجتهم الماسة إلى علمه وفضله، وأن الجماعة ما زالوا يتعطشون لأفكاره وأحكامه وفتاويه(2). ... وعندما قامت الدولة الصكتية، بدأ الخلاف الفكري بين

---

(1) Fodiyo, op. cit., p. 70.

(2) عبد الله بن محمد فودي، ضياء السياسات، مصدر سابق، ص. 20.

الشيخين عثمان بن فودي وأخيه عبد الله. ويتركز الخلاف بينهما على أمور الحكم والتلقب بألقاب الملك والسلطان والخليفة ونحوها، وكذلك بعض المسائل الفقهية. ويمكننا إجمال المسائل التي اختلفا حولها فيما يلي:التقلب بألقاب معينة مثل: الملك والسلطان والوالي ونحوها.حكم استعمال آلات اللهو كالطبول والدف وغيرهما.حكم لبس ما أخذه المسلمون من الكفار من لباس الذهب والفضة إظهاراً للنعمة من غير استدامة.جواز أو عدم جواز إقامة صور للأئمة، وذلك

بتعظيم الخليفة أو الوالي أو القاضي ونحوهم.حكم تعقب الأموال التي تصرَّف فيها

(4069/1)

الكفار بالجور.تكفير المسلمين الذين يوالون الكفار وينصرونهم على إخوانهم المسلمين(1). ... وقد استمر الخلاف بين الأخوين إلى وفاة الشيخ عثمان سنة 1232 هـ/ 1817 م، ولكنه لم يتطور إلى جفاء أو انتقاص أحدهما من الآخرن بل كان خلافاً فكريّاً أثرى المكتبة الإسلامية التي لا تزال تحتفظ بهذا الكم الهائل من مؤلفات هذين الشيخين البارعين وغيرهما من قادة الدولة الصكتية ومفكريها. ... ومن أبرز مؤلفات الشيخين حول هذا الخلاف: مؤلفات الشيخ عثمان: "نجم الإخوان يهتدون به بإذن الله في أمور

---

(1) المصدر نفسه، ص. 27.

(4070/1)

الزمان"(1)، و"مصباح أهل الزمان"(2)، و"بيان وجوب الهجرة على العباد وبيان وجوب نصب الإمام وإقامة

الجهاد"(3)، و"سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان"(4). وكتابا

---

(1) مخطوط، مجموعة صكت، مجلد رقم (1)، مظروف رقم (1)، زاريا، نيجيريا، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جماعة أحمدو بيللو.

(2) هذا الكتاب ذكره الشيخ عبد الله بن محمد فودي في كتابه: "ضياء السياسات". (مصدر سابق).

(3) حققه فتحي حسن المصري، دار جامعة الخرطوم، الخرطوم، 1977 م.

(4) ... مخطوط، مجلد رقم (2)، مظروف رقم (2)، مصدر سابق.

(4071/1)

الشيخ عبد الله: "ضياء أولي الأمر والمجاهدين"(1)، و"ضياء السلطان وغيره من الإخوان"(2). ... وعندما قسم الشيخ عثمان دولته إلى قسمين ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ وجعل القسم الرئيس (الشمالي الشرقي) تحت إشراف ابنه محمد بل، بدأت تراود الشيخ عبد الله أفكار وأوهام بأن الشيخ عثمان يعد ابنه محمد بل ليخلفه في الحكم. فكتب الشيخ عبد الله كتابه: "ضياء

السلطان وغيره من الإخوان"، وتحدث فيه عن مخاطر

---

(1) ... مخطوط، مجلد رقم (29)، مظروف رقم (3)، مصدر سابق.

(2) ... مخطوط، مجلد رقم (91)، مظروف رقم (2)، مصدر سابق.

(4072/1)

الملك، ومحاباة الأقارب، ونظام الخلافة وانتقالها من الأب إلى الابن. ولعله يريد بذلك تحذير أخيه الشيخ عثمان بألا تؤدي قرابته من ابنه محمد بل لأن يصبح خليفة بعده، فرد عليه أخوه الشيخ عثمان في كتابه: "نجم الإخوان" بأنه يجوز توريث البكر من الأبناء طالما كان ذلك الابن قادراً ومالكاً لكل الصفات الضرورية والمؤهلات للخلافة أو القيادة(1). كما أن الشيخ عثمان أشار في الكتاب سالف الذكر نفسه إلى أهلية ابنه محمد بل للخلافة بعده وإن كان لم يعلن ذلك صراحة،

---

(1) عثمان بن محمد فودي، نجم الإخوان، مصدر سابق، ق. 34.

(4073/1)

وذلك عندما حث أفراد مجتمعه على قراءة مؤلفات أخيه الشيخ عبد الله في العلوم الشرعية، ومؤلفات ابنه محمد بل الذي وصفه بأنه مهتم بعلم السياسة حسب الأشخاص والمقاصد والأزمان والأمكنة والأحوال(1). ... ولما توفي الشيخ عثمان سنة 1232 هـ/ 1817 م، بايع أهل الحل والعقد في »صكت« ابنه محمد بل دون استشارة أو مشاركة عمه الشيخ عبد الله الذي كان يرى أنه أحق بالخلافة. ولذلك ظهر خلاف جديد طرفاه الخليفة الجديد محمد بل بن الشيخ عثمان، وعمه عبد الله بن محمد فودي.خلاف الشيخ عبد الله مع ابن أخيه

(1) المصدر نفسه، ق 83.

(4074/1)

محمد بل ... عندما علم الشيخ عبد الله بوفاة أخيه الشيخ عثمان، خرج من »بودنقا« إلى »صكت« للمشاركة في تشييع جنازة أخيه، والنظر في مسألة الخلافة. فلما وصل إلى »صكت«، وجد أبوابها مغلقة أمامه، ولم يسمح له بالدخول إليها، فعاد إلى »بودنقا« حزيناً متألماً من تصرف ابن أخيه محمد بل الذي حال بينه وبين مشاركته

في الصلاة على أخيه الشيخ عثمان الذي قضى معه معظم حياته في

الدعوة والجهاد(1)

---

(1) M. T. M. Minna, «Succession and Legitimacy : The Leadership Crisis and Intellectual Dispute Between Abdullah B. Fodio and Muhammad Bello », Paper presented to the Seminar on the life and wirks of sultan Muhammad Bello, Organised by the Centre for Islamic Studies University of Sokoto for the 14th-19th April, 1985, p. 5.

(1/4075)

. وبعد ثلاثة أسابيع من تولي محمد بل الخلافة، ألف الشيخ عبد الله كتابه: "سبيل السلامة في الإمامة"(1)، والذي يعد احتجاجاً فكرياً على الطريقة التي تم بها انتخاب محمد بل خليفة بعد والده. ولما علم محمد بل بكتاب عمه "سبيل السلامة"، ألف كتابه: "الإنصاف في ذكر ما في مسائل الخلافة من وفاق وخلاف"(2)

---

(1) مخطوط، مجلد رقم (25)، مظروف رقم (9)، مصدر سابق.

(2) مخطوط، حصلت على نسخة مصورة منه من السيد:

إبراهيم حنفي الإبري، مدير مدرسة التعليم العربي الإسلامي في مدينة كوارا بولاية الورين، جمهورية نيجيريا، وذلك في عام 1413 هـ/ 1993 م.

(4076/1)

، وفيه رد على آراء عمه الشيخ عبد الله حول مسألة الخلافة. وكان الخلاف بينهما حول المسائل التالية:الطريقة التي يتم بها انتخاب الخليفة الجديد؛ترشيح الخليفة السابق للخليفة الجديد؛اختيار أهل الحل والعقد للخليفة الجديد؛الصفات والمؤهلات اللازمة للخيلفة الجديد(1).وتجدر الإشارة إلى أن الشيخ عبد الله لم يعلن

---

(1) محمد بن علي السكاكر، محمد بل والدولة الصكتية في عهده 1232 ـ 1253 هـ/ 1817 ـ 1837 م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1415 هـ، ص. 62.

(4077/1)

صراحة معارضته لابن أخيه محمد بل؛ كما أنه لم يلجأ إلى استخدام القوة ضده بالثورة عليه. فقد اكتفى بالاحتجاج الفكري الذي دونه بكتابه سالف الذكر، وربما يكون السبب في ذلك عدم رغبته في الوصول إلى الحكم بقوة السلاح، أو عجزه عن تحقيق رغبته باللجوء إلى القوة نفسها. وربما يكون السبب إدراكه أن اللجوء إلى القوة سوف يتسبب في إحداث صدع كبير في الدولة الناشئة، والذي سينتج عنه عدد من القتلى في صفوف الفريقين بغض النظر عن النصر أو الهزيمة، وهو ما لا يرضاه أن يكون سبباً في قتل عدد من المسلمين بسبب السلطة، وهو ما

(4078/1)

أميل إليه وأرجحه، خاصة وأن الشيخ عبد الله بعد أن انتقل إلى »غواندو« واتخذها عاصمة لقسمه، قد ترك الأعمال الإدارية لابنيه خليل ومحمد. أما هو، فقد تفرغ للتعليم والتأليف(1). ... وعلى أية حال، فإن العلاقة بين صكتو وغواندو ظلت متوترة لفترة من الزمن حيث لم يبحث محمد بل عن مبايعة عمه؛ كما أن عمه الشيخ لم يذهب إلى صكتو لمبايعة محمد بل أو يرسل أحداً ينوب عنه في المبايعة(2). وبينما كان الحال على هذه الصفة،

إذ حدثت حادثة في »غواندو« صارت سبباً في عودة العلاقة

---

(1) Minna, op. cit., p. 5.

(2) Op. cit., p. 6.

(1/4079)

بين صكت وغواندو إلى سابق عهدها من الوحدة والوئام، وذلك بأن الخليفة محمد بل بعد أن انتصر على الثائرين من أتباع الأمير عبد السلام في معركة »كرى« سنة 1233 هـ/ 1818 م، فر المنهزمون من أتباع ذلك الأمير إلى القسم الجنوبي الغربي الذي تحت إدارة الشيخ عبد الله، وأقاموا في حصن »كالمبينا«. ولما اشتد عودهم وانضم إليهم بعض المعارضين للشيخ عبد الله، طمعوا في الاستيلاء على هذا القسم عن طريق الاستيلاء على عاصمته »غواندو«، ففرضوا الحصار عليها سنة 1235 هـ/ 1820 م. ولما علم محمد بل بهذا الحصار، خرج على رأس جيشه

(1/4080)

متجهاً إلى »غواندو« لمساعدة عمه في فك الحصار.

وبالفعل، استطاع محمد بل أن ينتصر على هؤلاء الثوار والمعارضين ويشتت شملهم(1). وبعد انتهاء المعركة، قابل محمد بل عمه الشيخ عبد الله الذي نزل عن جواده، وسلم على ابن أخيه وبايعه بالخلافة(2). وهكذا عاد الوئام بين العم وابن أخيه وظلا كذلك حتى وفاة الشيخ عبد الله سنة 1245 هـ/

---

(1) محمد بن علي السكاكر، محمد بل والدولة الصكتية في عهده، مصدر سابق، ص. 70.

(2) سعد بن عبد الرحمن، ترتيب الأصحاب وتجميع أولي الألباب، رقم (405)، جامعة بايرو، كنو، نيجيريا، ق 18.

1829 م؛ كما استمرت الوحدة قائمة بين »صكت« وغواندو حتى سقوط الدولة الصكتية تحت الاستعمار الأنجليزي سنة 1321 هـ/ 1903 م(1). ... وتجدر الإشارة إلى أن الخليفة محمد بل قد أرسل إلى عمه الشيخ عبد الله قبيل وفاته قصيدة يلتمس فيها عون عمه ومغفرته، يقول فيها:يا أهل نوبة هذا الوقت للباري

---

(1) جنيد بن محمد البخاري، ضبط الملتقطات من الأخبار المفترقة في المؤلفات، مخطوط، مجلد رقم (27، 28) مظروف رقم (1 إلى 7)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، نيجيريا، ق. ق 151 - 152.

(4082/1)

أنتم ذخيرتنا في كل نائبة

عوناً وغوثاً على نفس تقود بنا

عوناً على فتح أبواب الدخول إلى

فداركوني فقد خلفت في حجب

سجنت في قيد رسم لا يفارقني

حتى أشاهد في الأفعال قدرته

وتضمحل صفات الكون ذاهبة

وأشهد الذات بعد فناء مرتبتي __ قصدتكم فأمدوني بأنواري

وأنتم عوننا في نجح أوطاري

في كل يوم وتدعونا إلى النار

حضرات وصل تداني القرب للباري

وغلق الباب دوني بلا اختياري

فكوا قيودي من كون وأستاري

تجري الأمور على أسلوب مقداري

إذا تحلت صفات الحق كالطاري

(4083/1)

والوصل يعتقني من رق أغياري(1)__ ... وقد أجابه عمه الشيخ عبد الله بقصيدة أوضح فيها استعداده لمساعدته ومعاونته ما دام الخليفة محمد بل ملتزماً بأحكام الإسلام، يقول فيها: ...

يا طالب النور محفوفاً بأنوار

ويدعي غلق باب وهو منفتح

_____

(1) جنيد بن محمد البخاري، إفادة الطالبين ببعض قصائد أمير المؤمنين محمد بل بن عثمان المجدد رسم الدين، مخطوط، مجلد رقم (1)، مظروف رقم (2)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، نيجيريا، ق. ق 80 ـ 81؛ وعبد الله بن محمد فودي، ضياء السياسات، مصدر سابق، ص. 51.

(4084/1)

ويبتغي صفو ورد كدرته له

هذا القرآن وآثار الرسول وها

فادخل بصدق فباب الله منفتح

بزاد جوع وصمت عزلة سهر

أو قم بنا للجهاد اسأل شهادتنا

إن المعاصي رجس لا يطهرها __ يبغي سبيلاً لدار وهو في الدار

في وجهه دون حجاب وأستار

يداه يجمع بين الماء والنار

ثقاتنا بينوا مجموع أنوار

للسالكين بآداب وأذكار

على الدوام لقمع الضيغم الضاري

فذلك الطهر عندي خير أطهار

إلاّ الصوارم من إيمان كفار(1) __ ... ولما توفي الشيخ عبد الله، رثاه الخليفة محمد بل بالقصيدة التالية:إن الرزية لا

---

(1) ضياء السياسات، مصدر سابق، صص. 51 ـ 52.

(4085/1)

رزية مثلها

خطب جليل حل من فقد الذي

وعفت مدارس للعلوم وأوحشت

تبكي فنون الشرع من فقدانه

علم الحديث الفقه والفتوى به

علم البيان كذا اللغات بكت له

فالناس فوضى ما لداء جهالة

بل أقفرت منه مساجد زانها

ومنابر فيها غدا يعلو بها

فبكت عليه بكاءها بحنينها__رزء غدا الإسلام منثلماً

به

في العلم ليس له أخ من مشبه

أركانها من فقد قاضي نحبه

لا سيما التفسير جاد بسكبه

والنحو والتصريف لان بجنبه

والعلم مات لفقده في صوبه

داو لهم أو من يطبّ بطبه

بصلاته فيها يؤم بصحبه

في خطبة قد أوحشت من نصبه

(4086/1)

وبكت مسالكه لقاضي نحبه __ وخلت منازل زانها بصلاته

ومطالعات في العلوم بأسرها

وبجمعه ونظامه لشتاتها

فبكت كما تبكي العساكر إذ خلت

كم قادها لكتائب وبجده

تبت يد الفقراء تولى خيرهم

عمي وصنو أبي وأستاذي الذي

لولا تعزينا بقول إلهنا

لبكيت في ثوران لوعة فقده

خطب به ولهت قلوب أولي النهى

نكب به الخطباء قد خرسوا كذا

فالله يغفر للجميع بفضله

فله المحامد والفضائل والعلى

ولآل شيعته الكرام وصحبه __ وصيامه وتلاوة من حزبه

والعلم يفديه بأعلى صعبه

ومؤلفات في العلوم بكتبه

في ضيقهم بعراء أو في شعبه

(4087/1)

في جده انتصرت به في حزبه

فالدهر بعد الخصب جاء بجدبه

للعلم أسقاني وجاد بعذبه

في الذكر إذ عزى الأولى في حزبه

دهري على كمد رزيت بخطبه

فتحيرت وتبلبلت من نكبه

الشعراء قد ذهلوا لشدة كربه

ويجود فضلاً للجميع بوهبه

وصلاته أبداً لحائز قربه

والصادقين القائمين بحبه(1)

... كما رثاه محمد البخاري بن الشيخ عثمان بهذه القصيدة:

ألا عجبت أميمة من بكائي

---

(1) جنيد بن محمد البخاري، إفادة الطالبين، مصدر سابق، ق. ق 32 ـ 34؛ ومحمد بن علي السكاكر، محمد بل والدولة الصكتية في عهده، مصدر سابق، صص. 71 ـ 72.

(4088/1)

تقول تعجباً مني وعذلاً

عهدناه إذا ما ناب خطب

يذكرنا بآثار وآي

وعولي وانتحابي في النساء
فيا للقوم ما لأبي براء
جليل راضياً حسن العزاء
فأضحى اليوم أجزع من نساء

أنسيت الذي تتلو علينا
أقلي من عتابك أم عمرو
فإن الصبر يحسن ويك إلاّ
فلا والله لا أنفك أبكي
فما جزعي عليه لفقد عم
حليم ماجد الأصلين
عفيف طيب صدوق
ولكني جزعت لفقد حبر
تقضى عمره في نشر علم
وتدبير المصالح للأداني
ونصح ثم إشفاق عليهم

وما تحكي لنا عند البلاء؟
علي فلا جناح على بكائي

على فقد الهداة الأتقياء

على عمي وشيخي ذي البهاء

(1/4089)

كريم سيد باهي السناء

شهير بالتواضع والوفاء

وقور صابر عند اللقاء

ينوح لفقده أهل السماء

وإرشاد لأهل الاهتداء

وكل المسلمين على السواء

وذب عن حماهم باعتناء

إلى أن يقول:

سقى الله الكريم ثرى إمامي

ونيل القرب من رب السماء(1)

آثار الشيخ عبد الله الفكرية

... تميز حكام الدولة الصكتية وقادتها بأنهم علماء

عاملون، وتجلى ذلك بإنتاجهم الفكري الضخم، الذي تزخر

به محفوظات الجامعات النيجيرية حالياً. فلم تشغلهم المهمات السياسية والإدارية عن العلم والتعليم والتأليف، حتى إن

---

(1) ضياء السياسات، مصدر سابق، ص. 52.

(4090/1)

مؤلفات بعضهم، وبخاصة الشيخ عثمان بن محمد فودي، وأخيه الشيخ عبد الله، ومحمد بل بن الشيخ عثمان قد جاوزت المائة مؤلف بكثير أو قليل لكل واحد منهم. وإذا كان الشيخ عثمان يعد كبير العلماء في الدولة الصكتية وسيدهم، فإن أخاه الشيخ عبد الله يأتي بالمرتبة الثانية بعده، نظراً لغزارة علمه وسعة اطلاعه وكثرة إنتاجه العلمي من المؤلفات التي شملت معظم العلوم العربية والإسلامية مثل: علوم القرآن الكريم، وعلوم الحديث، وأصول الدين، والفقه، والعلوم الشرعية والسياسية، والتصوف، واللغة العربية وآدابها، والتاريخ،

(4091/1)

والتراجم، والفلك، والمنطق.

...

مؤلفاته في علوم القرآن الكريم

... لقد ألف الشيخ عبد الله في هذا الباب عدة مؤلفات نجملها في ما يلي:

"ضياء التأويل في معاني التنزيل"(1)."كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن"(2)

---

(1) طبعته دار الاستقامة بالقاهرة في مجلدين عام 1380 هـ/ 1960 م.

(2) مخطوط، مجموعة كنسديل، مجلد رقم (1، 2)، مظروف رقم (1)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، نيجيريا؛ انظر: عثمان سيد أحمد البيلي، فهرست المخطوطات العربية، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة الخرطوم، الخرطوم، ط 1، 1984، ص. 40.

(1/ 4092)

."الفرائد الجليلة ووسائط الفوائد الجميلة"(1)."مفتاح التفسير. نظم ما في الإتقان والنقابة للإمام

السيوطي"(2)

---

(1) ... مخطوط، مجلد رقم (119)، مظروف رقم (10)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، نيجيريا؛ وانظر: عثمان سيد أحمد البيلي، المرجع السابق، ص. 36.

(2) مخطوط، غير مصنف، دار الوثائق، جمهورية نيجيريا، صكتو؛ وانظر: بشير عثمان أحمد، الإسهام الفكري للشيخ عبد الله بن فودي، دراسة ببليوغرافية، المؤتمر الإسلامي عن حياة الشيخ عبد الله بن فودي وأعماله، المركز الإسلامي، صكتو، 8 ـ 11 مارس 1984 م، ص. 19؛ وعلي أبو بكر، الثقافة العربية في نيجيريا، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، القاهرة، 1957 م، ص. 168.

(4093/1)

."نيل السؤال في تفاكير الرسول"(1)."سلالة المفتاح"(2). ... ويعد كتاب الشيخ عبد الله "ضياء التأويل في معاني التنزيل" أهم مؤلف له في هذا الباب، وقد طبع في

---

(1) مخطوط، غرفة البحوث، جامعة بايرو، كنو؛ وانظر:

بشير عثمان أحمد، مصدر سابق، ص. 21؛ وحسن عيسى الظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1401 هـ/ 1981 م، ص. 294.

(2) مخطوط انظر: عبد الله بن محمد فودي، ضياء السياسات، مصدر سابق، ص. 45؛ وحسن عيسى عبد الظاهر، المصدر السابق، ص. 294.

(4094/1)

مجلدين كبيرين، وكل مجلد يحتوي على جزأين، وهو في تفسير القرآن الكريم. ويقول الشيخ عبد الله في مقدمته لهذا الكتاب: ... وبعد؛ فهذا لما اشتدت إليه حاجة الراغبين وإلحاح الملحين أن أكتب لهم تفسيراً يفهمون به كتاب الله مع الاعتماد فيه على أرجح الأقوال بإعراب ما يحتاج إلى الإعراب منه، والتنبيه على القراءات المشهورة السائدة في البلاد الهوسية والسودانية... وبيان الأحكام والتنبيه على ما يتعلق بالبلاغة. فأجبتهم إلى ذلك راجياً من الله تيسيره وثوابه وسميته "ضياء التأويل في معاني التنزيل"(1)

---

(1) عبد الله بن محمد فودي، ضياء السياسات، مصدر سابق، صص. 45 ـ 46.

(4095/1)

. وقد أورد الشيخ عبد الله في هذا التفسير كثيراً من القصص والأحاديث النبوية؛ كما أشار إلى الخلافات بين المذاهب الأربعة في تفسير بعض الآيات، وتطرق لذكر "القراءات السبع". ويعد "تفسير الطبري" من أشهر مصادره في هذا الكتاب(1). ... أما كتابه "كفاية ضعفاء السودان في بيان تفسير القرآن"، فهو ملخص للكتاب السابق، إذ اقتصر فيه على قراءة ورش عن نافع، لأنها هي القراءة السائدة في السودان الغربي؛ كما اقتصر فيه على المشهور من مذهب الإمام مالك في تبيين الأحكام

---

(1) بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 14.

(4096/1)

الشرعية(1)، وعلى ما لابد فيه من علوم العربية والبلاغة والقصص(2).مؤلفاته في علوم الحديث ... ألف الشيخ عبد الله في علم الحديث خمسة كتب هي:"درر الحكم للرسول

وأهل الكرم"(3). وقد أورد فيه أحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – في الحكم والمواعظ والأمثال، وكذلك ما ورد عن الصحابة

---

(1) المرجع نفسه، ص. 18؛ وعلي أبو بكر، مرجع سابق، ص. 169 ـ 170.

(2) عبد الله بن محمد فودي، ضياء السياسات، المصدر السابق، ص. 46.

(3) مخطوط (مخ ع 1/29/123)، دار الوثائق، صكتو؛ وانظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 21.

(4097/1)

والتابعين والحكماء في الحكم والمواعظ والأمثال(1)."سراج الجامع للبخاري"(2). وهو كتاب منظوم عن كيفية جمع وترتيب وتراجم ورجال "الجامع الصحيح" للبخاري، واعتمد فيه على كتاب "فتح الباري" لابن حجر العسقلاني."مصباح الراوي"(3). وتحدث فيه عن موضوع الحديث وتعريفه والخبر ومن

---

(1) المرجع نفسه، ص. 21.

(2) مخطوط (مخ ع 1/ 29/ 124)، دار الوثائق، صكتو؛

انظر بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 22؛ وعلي أبو بكر، مرجع سابق، ص. 176.

(3) مخطوط، غير مصنف، دار الوثائق، صكتو؛ وانظر: بشير عثمان أحمد، مرجع سابق، ص. 22.

(4098/1)

صنف في علم الحديث، وعن التواتر والآحاد والعزيز والقريب والمقبول والصحيح والموضوع والمتروك والمنكر والشاذ والمعلّى والمكذوب والمضطرب والمصحف والمحرف والمعلق والمرسل والمنقطع والمدلس والضعيف(1)."نيل المأمول من جوامع كلم الرسول"(2). وقد أورد في هذا الكتاب الأحاديث التي جمعت جوامع الكلم في العبادات والمعاملات والمخاصمات والمناصفات(3)

---

(1) المرجع نفسه، ص. 23.

(2) مخطوط، مجلد رقم 119، مظروف رقم 6، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا؛ وانظر: عثمان سيد أحمد البيلي، مرجع سابق، ص. 41.

(3) بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 23.

(4099/1)

."ضياء السند"(1). وهو كتاب منظوم أورد فيه المؤلف سنده في الحديث والفقه على مذهب الإمام مالك والتصوف(2).مؤلفاته في أصول الدين ... من مؤلفات الشيخ عبد الله في هذا الباب ما يلي:"ألفية الأصول"(3)؛"خلاصة الأصول"(4)

---

(1) مخطوط، مكتبة الوزير جنيد. وتوجد صورة منه في دار الوثائق، صكتو، رقم م و ج 2/ 11؛ وانظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 55.

(2) علي أبو بكر، المرجع السابق، ص. 172؛ وبشير عثمان أحمد، المرجع السابق، صص. 55 ـ 56.

(3) مطبوع. دار الكتاب العربي، القاهرة، 1381 هـ/ 1961 م.

(4) مخطوط، غير مصنف، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 25.

(4100/1)

؛"العقيدة السنوسية"(1)؛"نظم الوسطى"(2)؛"ضياء علوم الدين"(3). ... وفي كتابه "ألفية الأصول" تحدث عن الأصل النقلي وهو الكتاب والسنة، وعن صحة السند،

والدلالة وأقسامها والإجماع، والقياس بأنواعه،

والاستدلال والاستصحاب(4)، إلخ.

---

(1) مخطوط (رقم 16/ م د)، كنو، غرفة البحوث، جامعة بايرو؛ انظر: المرجع السابق، ص.26

(2) مخطوط، مخ ع 359/12/2، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: المرجع السابق، ص.27

(3) مخطوط، يوجد عند أحد العلماء في صكتو؛ انظر: المرجع السابق، ص.27

(4) حسن عيسى عبد الظاهر، المرجع السابق، ص. 269.

(4101/1)

وهو كتاب منظوم ساقه على نسق كتاب "مفتاح الأصول"

لعالم تلمسان: محمد بن أحمد الشريف الحسني. يقول

الشيخ عبد الله في مطلعه :فهاكم ألفية الأصول

مآخذ الأئمة العلاة

وعالم الفروع والأصول

شمس تلمسان محمد السني __ترى بها مباني الفصول

ومنهما لصفوة الدلاة

وفارس المعقول والمنقول

سليل أحمد الشريف الحسني(1)__ ... أما كتابه "نظم

الوسطى"، فهو نظم لكتاب "الوسطى" الذي ألفه السنوسي في العقيدة. وتحدث فيه الشيخ عبد الله عن وجوب معرفة الله على الأعيان وحكم المقلد، وعن الحكم العقلي، وبيان حدوث

---

(1) المرجع نفسه، ص. 269,

العالم، والأصول التي ينبني البرهان عليها، وصفات الله سبحانه وتعالى، وصفات المعاني، وانفراد الله بالتأثير في محل الأعمال بلا مجبر، والرسالة المحمدية، وصدق الأنبياء وعصمتهم، وأن نبينا محمداً – صلى الله عليه وسلم –أفضل الرسل وخاتمهم. وختم نظمه لهذا الكتاب بالحديث عن السمعيات(1). ... مؤلفاته في الفقه ... لقد تناول الشيخ عبد الله في مؤلفاته في الفقه بالشرح والتفصيل جميع الأحكام الشرعية من حيث أحكام الطهارة، من وضوء وغسل وتيمم، والصلوات المفروضة، والنوافل،

---

(1) بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 27.

وقضاء الفوائت، وسجود السهو، والاعتكاف، وصلاة الجنائز؛ كما تحدث عن أحكام الزكاة النقدية والعينية، وصيام الفرض والنفل، والحج، والجهاد. كذلك تحدث عن احكام النكاح والطلاق، وعن البيع، والشراء، والربا، والسرقة، والرشوة، والهدية، وعن الوصايا والمواريث، وعن النذور والحدود، وعن الردة عن الإسلام، كما تحدث عن وجوب شكر النعم والتأدب بالآداب الإسلامية. ... ... ومن أهم مؤلفاته في هذا الباب ما يلي:"تعليم الراضي أسباب الاختصاص بموات الأراضي"(1)

---

(1) مخطوط، مجلد رقم (33)، مظروف رقم (3)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، نيجيريا؛ وانظر: عثمان سيد أحمد البيلي، المرجع السابق، ص. 37.

(4104/1)

؛"السبيل المعين على المرشد المعين على الضروري من علوم الدين"(1)؛"ضوء المصلي"(2)؛"ضياء الأنام في الحلال والحرام"(3)؛"كفاية العوام في البيوع"(4)

---

(1) مخطوط، غير مصنف، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 28.

(2) طبع في صكت دون تاريخ على نفقة الحاج عثمان دور.

(3) مخطوط، مجموعة كنسديل، مجلد رقم (7)، مظروف رقم (44)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، نيجيريا؛ انظر: عثمان سيد أحمد البيلي، المرجع السابق، ص. 38.

(4) مخطوط، مخ ع 1/28/ 119، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 32.

(4105/1)

."كفاية الطلاب في النكاح"(1)؛

1 _ ... "اللؤلؤ المصون في قواعد العيون"(2)؛

1 _ ... "النصيحة بتقريب ما يجب على كل مكلف"(3)؛

_____

(1) مخطوط، مخ ع 342/2/2، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: المرجع السابق، ص. 31.

(2) مخطوط، مجموعة كنسديل، مجلد رقم (7)، مظروف رقم (32)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، نيجيريا؛ انظر: عثمان البيلي،

المرجع السابق، ص. 37.

(3) مخطوط، مخ ع 1/23/ 105، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 34.

(4106/1)

---

1 _ ... "ضياء الأمة في أدلة الأئمة"(1)؛

1 _ ... "كتاب الترغيب والترهيب"(2).

... وكتابه "ضوء المصلي" منظوم تناول فيه حكم قضاء الفوائت وأحكام السهو في الصلاة، وهو يتكون من بابين وخاتمة. فتحدث في الباب الأول عن قضاء الفوائت، وفي الباب الثاني عن سجود السهو. وأما الخاتمة، فتحدث فيها عما يفارق سهو الفرض النفل.

...

---

(1) انظر: حسن عيسى عبد الظاهر، المرجع السابق، ص. 296.

(2) ... مخطوط، مخ ع 1/33/ 173، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، صص. 49 ـ 50.

(4107/1)

مؤلفاته في الإدارة والسياسة الشرعية

... لقد تعددت مؤلفات الشيخ عبد الله في هذا الباب وتنوعت. وكان للخلاف الذي نشب بينه وبين أخيه الشيخ عثمان، وبينه وبين ابن أخيه محمد بل ابن الشيخ عثمان دور كبير في ذلك، حيث ألف حوالي عشرة كتب تتحدث جميعها عن إدارة الدولة الإسلامية والسياسية الشرعية المرعية في هذا الجانب. وتناولت مؤلفاته الإمامة وأحكامها، وآراء العلماء حولها، وولاية العهد، والإمارة، والوزارة وأنواعها، وكبار موظفي الدولة، والقضاة، وأهل الحسبة. كما تناولت الهجرة وأحكامها، والجهاد وفضله وإعداد

(4108/1)

العدة له، والرباط في سبيل الله، وكذلك التعليم، والعدل، وتنفيذ الأحكام الشرعية في الحدود، إلخ.

... ومن أهم مؤلفاته في هذا الباب ما يلي:

1 _ ... "سبيل السلامة في الإمامة"(1)؛

1 _ ... "ضياء الإمام في صلاح الأنام"(2)؛

_____

(1) مخطوط، مجلد رقم (25)، مظروف رقم (9)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، نيجيريا؛ انظر: عثمان البيلي، المرجع السابق، ص. 38.

(2) مخطوط، مخ ع 94/18/1، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 37.

(4109/1)

---

1 _ ... "ضياء أهل الرشاد في أحكام الهجرة والجهاد"(1)؛

1 _ ... "ضياء الحكام فيما لهم وما عليهم من الأحكام"(2)؛

1 _ ... "ضياء الخلفاء ومن دونهم من الأقوياء والضعفاء"(3)؛

_____

(1) مخطوط، مخ ع 347/5/21، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: المرجع السابق، ص. 39.

(2) حققه وترجمه شيخو ياموسى، رسالة ماجستير، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، 1956 م,

(3) مخطوط، غير مصنف، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 40.

(4110/1)

1 _ ... "ضياء السلطان وغيره من الإخوان"(1)؛

1 _ ... "ضياء السياسات وفتاوى النوازل مما هو من فروع الدين من المسائل"(2)؛

1 _ ... "ضياء المجاهدين حماة الدين الراشدين"(3)؛

_____

(1) مخطوط، مجلد رقم (91)، مظروف رقم (2)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، نيجيريا؛ انظر: عثمان البيلي، المرجع السابق، ص. 39.

(2) حققه وقدم له أحمد محمد كاني، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط 1، 1408 هـ/ 1988 م.

(3) مخطوط، مخ ع 134/2/2، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 43.

(4111/1)

---

1 _ ... "ضياء الولايات في الأمور الدنيوية والدينيات"(1).

...

مؤلفاته في الآداب الإسلامية والنصح والإرشاد

... لقد أولى الشيخ عبد الله جانب النصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومراعاة الآداب الإسلامية

في السلوك، وتأدية العبادات الشرعية اهتماماً خاصاً. فتعددت مؤلفاته في هذه الجوانب وتنوعت، وشملت جميع جوانب حياة الفرد والجماعة. وتحدث في هذه المؤلفات عن آداب العبادات مثل: العلم، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج،

---

(1) ... مخطوط، مخ ع 93/18/1، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: المرجع السابق، ص.44.

(4112/1)

وتلاوة القرآن الكريم، والذكر، والدعاء؛ وآداب العادات مثل: الأكل، والشرب، وإجابة الدعوة، والنكاح، والعشرة بين الزوجين، وصحبة الإخوان، ومتى تكون العزلة عن الناس، وآداب الزائر والمزار. كما تحدث فيها عن الزهد، والتواضع، والحث على فعل الخيرات مثل نوافل العبادات كصيام يوم عرفة، وقيام رمضان، وشكر النعمة، وكذلك كيفية معاشرة الناس ومعاملتهم ومخالطتهم، ومراعاة أوامر الله ونواهيه، وحقوق المسلم على المسلم، والجار على جاره، والصديق، والوالدين، والزوجين، والتحذير عن الغفلة عن الصلاة جماعة، وعدم الخشوع فيها،

(4113/1)

والإخلال بأركانها وشروطها وواجباتها، وحث على طلب العلم وتعليم الآباء لأولادهم وأزواجهم وعبيدهم وإمائهم، والمبادرة إلى التوبة، ورد المظالم، واجتناب المحارم، ومجاهدة النفس، وحفظ الجوارح، والتفكير في الموت وما بعده، والدعاء، والذكر. كما تحدث عن الموت وأهوال يوم القيامة ونفخ الصور والمحشر والشفاعة والحساب والحوض والصراط والميزان والجنة والنار. كما تحدث عن النصيحة وبين أنها لله ولكتابه ولرسوله ولعامة الناس وخاصتهم، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... وغير ذلك

(4114/1)

... ومن أهم مؤلفاته في هذا الباب ما يلي:

1 _ ... "آداب العبادات والعادات"(1)؛

1 _ ... "آداب المعاشرة لطلب النجاة في الآخرة مما ذكره الغزالي في الإحياء"(2)؛

1 _ ... "إيضاح زاد المعاد بمراقبة الأوقات بالأوراد"(3)؛

---

(1) مخطوط، مخ ع 1/27/117، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: المرجع السابق، ص. 45.

(2) مخطوط، مخ ع 1/79/265، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: المرجع السابق، ص. 46.

(3) مخطوط، مخ ع 1/32/ 136، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: المرجع السابق، ص. 46.

(4115/1)

---

1 _ ... "التبيان لحقوق الإخوان"(1)؛

1 _ ...

1 _ ... "تعليم الأنام بتعظيم الله نبينا عليه الصلاة والسلام"(2)؛

1 _ ... "تهذيب الإنسان من خصال الشيطان"(3)؛

1 _ ... "جودة السعادة"(4)؛

---

(1) ... مخطوط، غير مصنف، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: المرجع السابق، ص. 48.

(2) ... مخطوط، مخ ع 1/25/ 110، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: المرجع السابق، ص. 50.

(3) ... مخطوط، مخ ع 2/12/ 361، دار الوثائق، صكتو؛

انـظر: المرجع السابـق، ص. 51.

(4) ... مخطوط، مخ ع 1/24/ 109، دار الوثائق، صكتو؛

انـظر: المرجع السابـق، ص. 52.

(4116/1)

---

1 _ ... "سبـيل أهل الصلاح إلى الفلاح"(1)؛

1 _ ... "سبـيل السنـة الموصل إلى الجنـة وجوار الله ذي المنـة"(2)؛

1 _ ... "سبـيل النـجاة"(3)؛

_____

(1) ... مخطوط، مخ ع 1/26/ 114، دار الوثائق، صكتو؛

انـظر: المرجع نـفسه، ص. 52

(2) ... مخطوط، رقم 233/ كنـو، غرفة البـحوث، جامعة بـايـرو؛ انـظر: المرجع السابـق، ص. 53

(3) ... مخطوط، مجموعة كنـسديل، مجلد رقم (6)، مظروف رقم (25)، مشروع بـحث تـاريـخ شمال نـيـجيـريـا، جامعة أحمدو بـيـللو، زاريـا، نـيـجيـريـا؛ انـظر: عثمان البـيـلي، المرجع السابـق، ص. 38.

(4117/1)

---

1 _ ... "شفاء الناس من داء الغفلة والوسواس"(1)؛

1 _ ... "شكر الإحسان على منن المنان"(2)؛

1 _ ... "ضياء الاحتساب"(3)

_____

(1) ... مخطوط، مجلد رقم (25)، مظروف رقم (7)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، نيجيريا؛ انظر: المرجع السابق، ص. 38.

(2) ... مخطوط، مجلد رقم (25)، مظروف رقم (5)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، نيجيريا؛ انظر: المرجع السابق، ص. 38.

(3) ... مخطوط، رقم 2/ عبد، كنو، غرفة البحوث، جامعة بايرو؛ انظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 55.

(4118/1)

؛

1 _ ... "طريق الصالحين"(1)؛

1 _ ... "علامات المتبعين لسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –"(2)؛

1 _ ... "فضائل الجهاد"(3)؛

1 _ ...

_____

(1) ... مخطوط، مجلد رقم (30)، مظروف رقم (7)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، نيجيريا؛ انظر: عثمان البيلي، المرجع السابق، ص. 39

(2) ... مخطوط، مخ ع 1/21/ 101، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 60.

(3) مخطوط، رقم 14/ عبد، كنو، غرفة البحوث، جامعة بايرو؛ انظر: المرجع السابق، ص. 60.

(4119/1)

---

1 _ ... "مصالح الإنسان المتعلقة بالأديان والأبدان"(1)؛

1 _ ... "كتاب المواعظ"(2)؛

1 _ ... "النصائح في أهم المصالح وهو الدين"(3)؛

1 _ ... "النيات في الأعمال الدنيوية والدينيات"(4)؛

_____

(1) مخطوط، غير مصنف، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: المرجع السابق، ص. 63.

(2) ... مخطوط، غير مصنف، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: المرجع السابق، ص. 66.

(3) ... مخطوط، مخ ع 1/32/ 132، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: المرجع السابق، ص. 67.

(4) ... مخطوط، مخ ع 1/24/ 107، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: المرجع السابق، ص. 69.

(4120/1)

---

1 _ ... "ورد الأذكار والدعوات مما يقرأ في الصباح وسائر الأوقات"(1).

...

مؤلفاته في التصوف

... لاشك في أن التصوف من البدع المحدثة في الدين، وكانت نشأته بالبصرة في القرن الثاني الهجري، وذلك عندما أقبل الناس على الدنيا، وانصرف آخرون للزهد والعبادة، فضخموا الجانب الروحي، وانعزلوا عن الدنيا وانقطعوا للعبادة. وهذا انحراف عن منهج الإسلام المتوازن، وسوء فهم حقيقة العبادة بحصرها في الأوراد والشعائر التعبدية، على حين أنها

---

(1) ... مخطوط، رقم 226، كنو، غرفة البحوث، جامعة بايرو؛ انظر: المرجع السابق، ص. 71.

(4121/1)

تشمل أعمال المسلم ونشاطاته كلها(1). قال تعالى:

{قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين

لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين }(2).

... وفي القرن الثالث الهجري أخذ طابع التصوف يحيد عن

الزهد، ودخلت فيه البدع الطرقية الباطنية. ثم تردى

بعض المتصوفة في المهالك فحادوا عن طريق الإسلام

نهائياً، وذلك عندما بدأت الشطحات

---

(1) ... ناصر عبد الله القفاري وناصر عبد الكريم العقل،

الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، دار الصميعي،

الرياض، ط 1، 1413 هـ/ 1992 م، ص. 167.

(2) ... سورة الأنعام، الآية 162.

(4122/1)

والضلالات في الأعمال والعقائد، وأخذت طائفة من الصوفية

بعقيدة الحلول والاتحاد، فخرجوا عن الإسلام بالكلية(1).

... وأما المتأخرون من الصوفية، فمنهم من أخذ التصوف

بمعناه الأول وهو الزهد في الدنيا مع ممارسة بعض

البدع، ومنهم من أخذ طرقاً وحركات ومظاهر، فمارس

كثيراً من الشركيات والعقائد الباطنية وهم الأكثر،

ومنهم من آمن بعقيدة الحلول والاتحاد فكفر بدين

الإسلام(2).

---

(1) ... القفاري وزميله، المرجع السابق، ص. 166 ـ 167.

(2) ... المرجع نفسه، ص. 166.

(4123/1)

... ومن اللاّفت للنظر أن حجم هذه الطرق وتكاثرها وتطورها لم يتوقف قط؛ فهي في ازدياد مستمر، لأن كل من عَنَّ له أن يبتدع طريقاً فعل وسماها باسمه أو اسم قبيلته أو عشيرته، كما هو مشاهد في إفريقيا مثلاً. ويكفي أنه في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري قد بلغ عدد الطرق الصوفية في بلد واحد أكثر من مائة طريقة(1).

---

(1) ... صابر طعيمة، الصوفية معتقداً ومسلكاً، دون ذكر الناشر ومكان النشر، ط 1، 1405 هـ/ 1985 م.

(4124/1)

... وتجدر الإشارة إلى أنه بالرغم من أن الدولة الصكتية التي يعد الشيخ عبد الله بن فودي أحد مؤسسيها

ومشيدي بنيانها، قد جاهد قادتها لإقامة الدولة الإسلامية في بلاد الهوسا ونشر الإسلام في ما جاورها، فإنهم انتحلوا التصوف، واتخذوا من الطريقة القادرية منهجاً يسيرون عليه، مع تسليمهم بجميع أنواع الطرق الصوفية الأخرى بالثناء على أقطابها، وحتى أتباع عقيدة الحلول والاتحاد لم يكفِّروهم أو يبدِّعوهم، حيث نلاحظ أن الشيخ عثمان وأخاه الشيخ عبد الله يشيران إلى ابن عربي ويقتبسان من مؤلفاته(1)

---

(1) ... انظر: عثمان بن محمد فودي، نجم الإخوان، مصدر سابق، ق 19؛ وعبد الله بن محمد فودي، مطية الزاد إلى المعاد، الناشر جعفر بن الحاج الحسن الكماوا، صكتو، د. ت، ص. 40.

(4125/1)

.

... ومن أهم مؤلفات الشيخ عبد الله في التصوف ما يلي:

1 _ ... "بيان الأركان والشروط للطريقة الصوفية وتلقين الأسماء السبعة على طريق السادة الخلوتية"(1)؛

1 _ ...

1 _ ... "تقريب في علم أهل الذوق"(2)؛

1 _ ... "قواعد الصلاح مع فوائد الفلاح"(3)؛

---

(1) ... مخطوط، غير مصنف، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 47.

(2) ... مخطوط، كتبه المؤلف سنة 1221 هـ/ 1806 م؛ انظر: المرجع السابق، ص. 51.

(3) ... مخطوط، مخ ع 1/33/ 135، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: المرجع السابق، ص. 61.

(4126/1)

---

1 _ ... "لباب المدخل في آداب أهل الدين والفضل"(1)؛

1 _ ... "ضياء القواعد ونشر الفوائد لأهل المقاصد"(2)؛

---

(1) ... مخطوط، مجموعة كنسديل، مجلد رقم (5)، مظروف رقم (5)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، نيجيريا؛ انظر: عثمان البيلي، المرجع السابق، ص. 40

(2) ... مخطوط، مجلد رقم (119)، مظروف رقم (4)، مشروع

بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا، نيجيريا؛ انظر: المرجع السابق، ص. 39

(4127/1)

---

1 _ ... "مطية الزاد إلى المعاد"(1)؛

1 _ ... "مِنَنُ المنان لمن أراد شعب الإيمان"(2).

... ومع أن كتاب الشيخ عبد الله "مطية الزاد إلى المعاد" كتاب في الزهد والدعاء والذكر، فإنه مليء بشطحات الصوفية، مثل قوله:

... واعلم يا أخي أنه لما قبض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بكت الأرض فقالت: إلهي بقيت لا يمشي علي نبي إلى يوم القيامة. فأوصى الله

---

(1) ... مطبوع، صكت، نشره جعفر بن الحاج الحسن الكماوا، د. ت.

(2) ... مخطوط، مخ ع 1/34/ 139، دار الوثائق، صكت؛ انظر بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 66.

(4128/1)

إليها سأجعل على ظهرك من هذه الأمة نواب الأنبياء لا أخليك منهم إلى يوم القيامة. نقل بعض الأولياء هذه القصة عن الخضر، فقال للخضر: كم هم؟ قال: ثلاثمائة وهم الأولياء، وسبعون وهم النجباء، وأربعون وهم الأوتاد، وعشرة وهم النقباء، وسبعة وهم العرفاء، وثلاثة وهم الأخيار، وواحد هو الغوث... (1).

كما أورد بعض القصص الخيالية لبعض الأولياء كما يسميهم، مثل: ركوب البحر بلا مركب حيث تحملهم الأمواج إلى حيث يريدون، ورؤية الله تبارك وتعالى في

---

(1) ... عبد الله بن فودي، مطية الزاد إلى المعاد، مصدر سابق، ص. 31.

المنام، والطيران في الهواء فتحملهم الريح إلى غاياتهم... ونحو ذلك والشيخ عبد الله يرى مثل غيره من أهل التصوف أن ما جاز أن يكون معجزة لنبي من الأنبياء جاز أن يكون كرامة للولي(1).

مؤلفاته في اللغة العربية وآدابها

... لقد أولى الشيخ عبد الله علم اللغة العربية وآدابها اهتماماً كبيراً، فألف في النحو والصرف والأدب والعروض،

وله قصائد قالها في المدح والرثاء ووصف المعارك الحربية التي خاضوها أثناء حركة جهادهم ضد ملوك دويلات الهوسا وأمرائها. ومن الملاحظ

---

(1) ... محمد ثنب بن أحمد بن مجيل، مصدر سابق، ق 477.

(4130/1)

أن أكثر مؤلفاته في اللغة وآدابها قد كتبها نظماً، وتجاوز بعضها الأربعة الآلاف بيت، وبعضها الآخر تجاوز الألف بيت.

... ومن أهم مؤلفاته في هذا الباب:

1 _ ... "البحر المحيط"(1). وهو كتاب منظوم في علم النحو، بلغت أبياته أكثر من أربعة آلاف بيت، وكتبه على نسق كتابي جلال الدين السيوطي: "جمع الجوامع"، و"همع الهوامع". وقد ذكر الشيخ عبد الله أنه ربما زاد أو نقص عما ذكره السيوطي، وربما قدم أو أخر لضرورة الشعر. ولذلك يقول

---

(1) ... مخطوط، غير مصنف، دار الوثائق، صكتو؛ انظر:

بشير عثمان أحمد، مرجع سابق، ص. 72.

(4131/1)

في المقدمة:

وربما أنقص أو أزيد

وربما قدمت أو أخرت

لعلة ونيل ما يفيد

لمقتضى داع إلى ما اخترت(1)

1 _ ... "الحصن الرصين"(2). وهو كتاب منظوم في الصرف يحتوي على ألف بيت(3).

1 _ ... "تلخيص الحصن الرصين"(4). وهو كتاب منظوم لخص فيه كتابه

_____

(1) ... علي أبو بكر، مرجع سابق، ص. 177.

(2) ... حققه محمد صالح، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية، جامعة بايرو، كنو، 1983 م.

(3) ... بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 77.

(4) ... مخطوط، غير مصنف، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 75.

(4132/1)

السابق "الحصن الرصين". ويتكون من مقدمة وبابين وخاتمة، فتحدث في المقدمة عن علم التصريف وموضعه واصطلاح فنه؛ وفي الباب الأول تحدث عن أبنية الفعل وتصاريفه؛ وفي الباب الثاني تحدث عن أبنية الاسم وتصاريفه؛ وفي الخاتمة تحدث عن التصريف لتخفيف اللفظ(1).

1 _ ... "لمع البرق"(2). وهو كتاب مختصر منظوم في علم النحو. ويبدو أن الشيخ عبد

---

(1) ... المرجع نفسه، صص. 75 ـ 76.

(2) ... مخطوط، مجلد رقم (58)، مظروف رقم (9)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمد بيللو، زاريا؛ انظر: عثمان البيلي، مرجع سابق، ص. 40.

(4133/1)

الله قد كتبه قبل تأليفه لكتابه الكبير "البحر المحيط".

1 _ ... "تزيين الورقات بجمع بعض مالي من الأبيات"(1).

وهو كتاب جمع فيه الشيخ عبد الله بين فني النثر والنظم. وقد أورد فيه قرابة عشرين قصيدة قالها في مناسبات مختلفة، وشملت فن المدح، والرثاء، ووصف المعارك، والنصائح، والاستعطاف، والتهنئة، والافتخار. وهو بالإضافة إلى ذلك يعد مصدراً هاماً لدراسة تاريخ حركة الجهاد التي قادها الشيخ عثمان بن فودي

_____

(1) ... قام بتحقيقه وترجمته: م. هسكت، وطبع في مطابع جامعة عبدان عام 1963 م. وقد سبق ذكره في هوامش البحث.

(4134/1)

في بلاد الهوسا(1).

1 _ ... دالية الشيخ عبد الله في مدح النبيّ – صلى الله عليه وسلم –؟المسماة: "روض العاشق في مدح سيد العباد"(2)

_____

(1) ... انظر: محمد بن علي السكاكر، نظرة في المصادر

العربية المحلية في تاريخ الدولة الصكتية، ندوة مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي، مكتبة الملك عبد العزيز بالتعاون مع وزارة الشؤون الإسلامية والبنك الإسلامي للتنمية بجدة، 22 ـ 25 رجب 1420 هـ/ 31 أكتوبر ـ 3 نوفمبر 1999 م، الرياض، صص. 28 ـ 29.

(2) ... مخطوط، صكتو، مكتبة الحاج إبراهيم الخاصة؛ انظر: علي أبو بكر، مرجع سابق، ص. 178.

(4135/1)

.

1 _ ... "فتح اللطيف الوافي في علمي العروض والقوافي"(1). وقد نظم فيه المؤلف علمي العروض والقوافي في حوالي ثلاثين ومئتي بيت، ويتكون من مقدمة وخمسة فصول وخاتمة(2).

1 _ ... "النفحات البشرية شرح القصائد العشرية"(3)

_____

(1) ... مخطوط، مخ ع 2/ 15/ 370، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 79.

(2) ... علي أبو بكر، المرجع السابق، ص. 178؛ وبشير عثمان أحمد، المرجع السابق، صص. 79 ـ 80.

(3) ... مخطوط، مجلد رقم (28)، مظروف رقم (2، 3، 4)،

مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا؛ انظر: عثمان البيلي، المرجع السابق، ص. 37.

(4136/1)

. وهو كتاب شرح فيه المؤلف القصائد العشرية للأديب أبي زيد عبد الرحمن الفازازي(1).

مؤلفاته في التاريخ والتراجم

... لقد أولى الشيخ عبد الله سيرة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – وتاريخ الخلفاء الراشدين اهتماماً خاصاً في مؤلفاته التاريخية. واقتصر في مؤلفاته على تاريخ هذه الفترة فقط من تاريخ الأمة الإسلامية. أما مؤلفاته الأخرى في هذا الباب، فهي في نسب أسرته وقبيلته، وفي ذكر شيوخه الذين تلقى العلم عنهم؛ كما أن له كتاباً واحداً في تراجم مشاهير العلماء

---

(1) ... بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 80.

(4137/1)

والفقهاء والصالحين من القرن الأول إلى القرن العاشر الهجري.

... ومن أهم مؤلفاته في هذا الباب ما يلي:

1 _ ... "أخلاق المصطفى"(1)؛

1 _ ... "ضياء أولي الأمر والمجاهدين في سيرة النبي والخلفاء الراشدين"(2)؛

_____

(1) ... مخطوط، مجلد رقم (30)، مظروف رقم (9)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا؛ انظر: عثمان البيلي، المرجع السابق، ص. 36.

(2) ... مخطوط، مجلد رقم (30)، مظروف رقم (8)، مشروع بحث تاريخ شمال نيجيريا، جامعة أحمدو بيللو، زاريا؛ انظر: المرجع السابق، ص. 39.

(4138/1)

---

1 _ ... "ضياء المقتدين للخلفاء الراشدين"(1)؛

1 _ ... "تاريخ العلماء والصالحين"(2)؛

1 _ ... "إيداع النسوخ من أَخَذْتُ منهم من الشيوخ"(3)؛

1 _ ... "مسألة أصل الفولانيين"(4)؛

_____

(1) ... مخطوط، مخ ع 2/6/ 348، دار الوثائق، صكتو؛

انظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 84.

(2) ... مخطوط، مخ ع 1/31/ 129، دار الوثائق، صكتو؛

انظر: المرجع السابق، ص. 81.

(3) ... مطبوع، زاريا، مكتبة نولا، 1377 هـ/ 1958 م.

(4) ... مخطوط، غير مصنف، دار الوثائق، صكتو؛ انظر:

بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 85.

(4139/1)

---

1 _ ... "كتاب النسب"(1)؛

1 _ ... "موصوفة السودان". وهي أرجوزة تقع في ثمان وعشرين صفحة في مدح أخيه الشيخ عثمان، وذكر ما جرى بينه وبين ملك غورب، وذكر فتوحات الشيخ عثمان(2).

مؤلفاته في الفلك والمنطق

... من أهم مؤلفات الشيخ عبد الله في هذا الباب:

1 _ ... "تعريب ما أعجم الشيخ عثمان"(3)

_____

(1) ... مخطوط، مخ ع 1/63/ 216، دار الوثائق، صكتو؛

انظر: المرجع السابق، ص. 86.

(2) ... علي أبو بكر، المرجع السابق، ص. 179.

(3) ... مخطوط، مخ ع 2/4/ 344، دار الوثائق، صكتو؛

انظر: بشير عثمان أحمد، المرجع السابق، ص. 86.

(4140/1)

؛

1 _ ... "درع الكيئة في هيجاء علم الهيئة"(1)؛

1 _ ... "فتح البصير في علم التبصير"(2)؛

1 _ ... "مفتاح التحقق في غالب ما يحتاج إليه في المنطق"(3).

_____

(1) ... مخطوط، مخ ع 1/32/ 34، دار الوثائق، صكتو؛

انظر: المرجع السابق، ص. 87.

(2) ... مخطوط، انظر: المرجع السابق، ص. 88.

(3) ... مخطوط، غير مصنف، دار الوثائق، صكتو؛ انظر: المرجع السابق، ص. 88.

(4141/1)

العامية والفصحى في القاهرة والرباط

... ... الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله

... ... عضو أكاديمية المملكة المغربية ـ الرباط

... نحييي ـ بكل اعتزاز وإكبار ـ مجمعنا الموقر مجمع اللغة العربية بالقاهرة بصفته مجمعاً رائداً أخذ على نفسه منذ اللحظة الأولى إمداد العروبة بالرصيد الأصيل للغة الضاد لغة العلم والحضارة والتكنولوجية. وقد وفَّى في شمولية نادرة وعمق وبعد كبيرين بهذا الوعد الخطير، مما جعل منه المنتدى العروبي الوالد الذي برهن بمنجزاته الرائعة على أن لغة القرآن كانت ولا تزال منبع

(4142/1)

الكلمة الرصينة الجزلة الطيعة ذات المحتوى العلمي والحضاري الدقيق.

... وقد كان لإبداعات مجمعنا الذي يضم في رحابه العامرة أقطاب الفكر وجهابذة العلم من أبناء الوطن العربي القول الفصل في سيولة الكلمة وشيوعها.

فهنيئاً لمجمعنا وهنيئاً للعروبة بهذا الكيان الذي تنضوي تحت رايته معتزة فخوراً.

* * *

... العامية هي ما يسميه الجاحظ بلغة المولدين

والبلديين (البيان والتبيين، ج 1، ص. 111). وقد لاحظ أن في كل مدينة ألسنة ذلقة، غير أن اللحن كان فاشياً في العوام (ص. 111).

(4143/1)

... وقد تحدث أحمد أمين عن العامية في القرن الرابع فقال: »إن اللغة العامية أصبح معترفاً بها يبحث في ألفاظها وأساليبها، وينتقي منها خيرها إلا بعض علماء كأبي العلاء المعر0ي« (ظهر الإسلام، ج 2، ص. 100).

... وأغلب الأصول والقواعد الأساسية مشتركة بين الفصحى والعامية حتى ما يتصل بالقلب والإبدال والتسهيل والترخيم والنحت وغير ذلك وتمتاز العامية بمظاهر بسيطة تجعلها في بعض الأحيان أكثر إيغالاً في القلب والتسهيل.

(4144/1)

... ولهذه الوحدة الأصيلة أمثلة لا تنفرد بها العامية في قطر عربي دون آخر، بل تمس اللهجات الدارجة في معظم أجزاء العالم العربي. فمن مجالي التخفيف في اللسان

الفصيح والتي أثرت في ألسنة العامة وجود مترادفات يختلف بعضها عن بعض بإضافة حرف واحد. وقد اختار الدهماء لتخاطبهم اليومي أخفها نطقاً وإن كان أكثرها أحرفاً، مما يؤكد أن عقلية العامة لا تنحرف عادة عن الأصيل إلا إذا لم تجد في صيغه ما يتفق وطبيعتها الميالة إلى التسهيل.

(4145/1)

... وتوجد في مجمع اللغة العربية بالقاهرة لجنة للهجات من أهدافها استقراء الألفاظ والتراكيب الجارية على ألسنة أهل الأقطار العربية من الناحية الصوتية ومن ناحية المعنى وتدوين هذا في معاجم وأطالس لغوية. وقد اتخذت اللجنة لهجة القاهرة مقياساً. وترتكز اللجنة في هذا البحث على تنقل القبائل، لما له من أثر كبير في لهجات الأقاليم وتطورها واختلافها (مجلة المجمع، ج 7).

... وهناك مترادفات يختلف ترتيب حروفها مثل جبذ وجذب (جبذ) وخربش وخرشب العمل، أي لم يتقنه.

(4146/1)

... أما النحت، فأمثلته كثيرة: ويلمه وهي منحوتة من أصلها (ويل لامه).

... صبحه، أي: قال له صباح الخير.

... مساه: قال له مساء الخير.

... تويل: قال يا ويلي.

... فسقه: قال له يا فاسق.

... ما شا الله ـ (ما شاء الله) ـ ما طيبو (ما أطيبه) ـ محلاه (ما أحلاه)، إلخ.

... ومن أمثلة الإتباع أو الإبدال بالمعنى نفسه: العجر والبجر ـ حيص بيص ـ هين لين (سهل) ـ هش بش (مسرور) ـ الكوع والبوع (كعو وبعو) ـ الجوع والنوع ـ شيطان ليطان ـ حسن بسن، إلخ.

... وهناك مئات الكلمات تحكي الأصول أو الحركات وتتحد فيها اللهجات.

(4147/1)

... أما الصيغ، فكثيراً ما تتخذ الوزن نفسه في العامية والفصحى للتدليل على المدركات نفسها، كالمبالغة والتفضيل والبقية والسقاطة والتظاهر والتشبيه أو التشبه والوصف مثل كنز (مكنوز) وعلاج (دواء) ووقف (موقوف) وغصب (مغصوب). وتفاقر (أظهر الفقر)،

وتباكى وتجاهل وتماوت وتناعس وتشيطن وتفحل وتفرعن وتفرنج وتمدن وتوحش وبخل وجهل وسفه وضعف وفسق وغلط وكفر وأحمق (أي موصوف بالحمق) وأبله وأعمى.

... ويجمع المذكر في اللسانين بإضافة تاء مربوطة إلى المفرد مثل: حمَّارة (أصحاب الحمير) وخيالة ورحالة وعسالة (أصحاب العسل).

(4148/1)

وتشترك الفصحى والعامية في الاشتقاق المنطقي من ألفاظ ذات معنى حسي مجرد كالحمام من حم الماء، أي سخنه ومخدة من الخد والسماء من سما، أي ارتفع.

... وقد تعددت اللهجات في الجاهلية بتعدد القبائل الكبرى وخفت أوجه الاختلاف بما استوثق إذ ذاك من صلات في الأسواق الإقليمية والمبادلات التجارية والمصاهرات.

وقد أدت قريش دوراً هامّاً في انتقاء أجود اللغات، فنسقت واجتبت أفضل لغات العرب حتى صارت لغتها أفضل لغاتهم (لسان العرب) فنزل القرآن بها وازدادت مظاهر الوحدة تحت راية الإسلام بالرغم عن الفوارق القبلية البسيطة

(4149/1)

التي ساندتها أحرف القرآن السبعة. وقد احتفظت ألسنة جهوية بميزات خاصة »من حيث التصريف والهيئة والإبدال وأوجه الإعراب والبناء« (متن اللغة، ج 1، ص. 47). فقريش مثلاً تفتح نون المضارعة وأسد تكسرها والحجازيون يثبتون ما النافية وتميم تهملها. أما الاختلاف في الأسماء، فلا يكاد يظهر إلا في حمير التي ظلت محتفظة بكثير من مفرداتها (المدية الحميرية بدل السكين).

... ويتجلى الاختلاف بين لهجات العرب في مظاهر مختلفة كالإظهار والإدغام والإشمام والتفخيم والترقيق والمد والقصر والإمالة والفتح والتسهيل والإبدال وهو

(4150/1)

اختلاف في الصور الظاهرة لمخارج الحروف مع وحدة اللفظ وقد عرف العرب منها قديماً العنعنة عند تميم وقيس (إبدال الهمزة عيناً) والكسكسة عند ربيعة (إبدال كاف الخطاب شيناً) والغمغمة عند قضاعة (وهي إخفاء بعض الحروف) والفخفخة عند هذيل (إبدال الحاء عيناً

مثل حتى وعتى) واللخلخانية في عمان واليمن (وهي حذف همزة ما شاء الله مشا الله) والتلتلة في بهراء وهي كسر تاء المضارعة (تِلعب) والوتم عند أهل اليمن (قلب السين المتطرفة تاء كالنات في الناس).

(4151/1)

... وقد لاحظ الأستاذ فريد أبو حديد (مجلة مجمع اللغة العربية، ج 7، ص. 205) أن حركة الكسر تكاد تكون شائعة في كثير من الدول العربية. مثال ذلك كسر آخر الاسم المضاف إلى ضمير المؤنثة المخاطبة فيقولون في الشرق أنت مالك (يقول المغاربة »مالك« بفتح اللام) هي لهجة لخم التي تكسر ما قبل كاف المخاطبة.

... والوكم والوهم عند ربيعة وكلب (كسر كاف الخطاب وهاء الضمير): عليكم، عنهم) والاستنطاء (في لغة سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار) هي قلب العين الساكنة قبل الطاء نوناً (أنطى ـ أعطى) وما زالت مظاهر ذلك إلى

(4152/1)

الآن عند الأعراب.

... والمشترك نفسه يرجع لتعدد الألفاظ للمدلول الواحد بين القبائل كما أن في اللغة الموحدة نفسها اختلافاً في الأبنية من لغتين إلى ثلاث عشرة لغة (عباءة ـ عباية، إلخ).

... وقد أرجعت أصول الكلمات الواردة في القرآن إلى خمسين لهجة من لهجات القبائل، علاوة على وجود كلمات معربة.

... وظهر الانحراف في الحركات الإعرابية منذ صدر الإسلام، فسار العوام في منهجهم المنحرف واستفحل هذا الزيغ اللغوي باختلاط العرب بالأعاجم بعد الفتوح. فهب علماء اللغة لتقويم العامية وإرجاعها إلى أصالتها الفصحى، وتجلى

(4153/1)

هذا المجهود في "أدب الكاتب" لابن قتيبة و"درة الغواص" للحريري، فخف البون بين الفصحى والعامية، إذ روعيت شساعته في اللغات الراقية اليوم وبقيت العامية في جميع مظاهرها لغة عربية محرفة الشكل غير مضبوطة القواعد.

... وتجلى هذا الانحراف كما سنرى في عامية الشماليين

الشرقي والغربي للقارة الإفريقية، أي مصر والمغرب.

... وقد أشار الثعالبي في "فقه اللغة" (طبعة 1978 ـ 1959، القاهرة، ص. 450) إلى أسماء فارسيتها منسية وعربيتها محكية أوصلها إلى واحد وأربعين ومئة، منها البياع والدلال والبقال والجمال والطراز والخياط

(4154/1)

والند والبخور والغالية والحناء والمضربة والقمري والربعة والخرج والدواة والمرفع والفتيلة والمجمرة والمزارق والطبل والشكال والقلية والهريسة والعصيدة. وقد دخلت كلها في عامية البلدين.

... ثم ذكر (ص. 453) أسماء تفردت بها الفرس، فعربها العرب أو تركوها منها: الإبريق والكوز والطبق والقصعة والسندس والياقوت والبلور والسميذ والكعك والسكنجبين والجلنجبين والفلفل والكرويا والقرفة والزنجبيل والسوسن والياسمين والمسك والعنبر والكافور والقرنفل.

(4155/1)

... وقد تأثرت العامية المغربية بالفارسية عن طريق الدخيل في المعجم العربي لا بكيفية مباشرة كما هو الحال في مصر، لأن المغرب ظل في منحى عن التأثيرات الفارسية.

... ويختلف هذا التأثير في الأقطار الأخرى. ولعل الدخيل من الفارسية في لغة العراقيين يوازي الدخيل فيها من التركية، خلافاً لما عليه الحال في مصر؛ فإن معظم الدخيل فيها في لغتها الشائعة من التركية، ثم من اللغات الإفرنجية (محمد رضى الشبيبيّ، مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية، ج 8، ص. 131).

(4156/1)

... وديوان العراق لم ينقل من الفارسية إلى العربية إلا في عهد الحجاج الذي أمر بذلك كاتبه صالحاً بن عبد الرحمن الذي كان يتقن اللغتين (تاريخ ابن خلدون، المجلد الأول، القسم الثاني، ص. 437).

... وكذلك شأن اللغة التركية مثل باشا وبكرج (إناء معدني) وخازوق وتخوزق (التخوزيق) وسنجق وطابور وطز (للاستهزاء والاستياء) وطوبجي (مدفعي) وصابونجي وجبدولي (صدرية) وجامكية (مرتب عسكري في عبد

الموحدين) وخواجي (تاجر) وبابوشة (بابوج) وبازار وباشادور وبرنامج، إلخ.

(4157/1)

... ومن الكلمات العربية المقتبسة من اليونانية على ما يقال: ياقوت، وملوخية، ومصطكى، ولوبياء، ولجنة، وكروياء، وكرنب، وكافور، وقيطون، وقيراط، وقيثارة، وقنطرة، وقنب، وقمقم، وقلم، وقصدير، وقرنفل، وقرميد، وقانون، وقالب، وقارب، وقادوس، وفندق، وفنار، وفلس، وفص، وفخ، وطاجن، ورطل، ودلفين، ودرهم، وتؤلول، وبلغم، وبجماط، وبطاقة، وبارود، وأوقية، وإقليم، والألماس، والرز.

... أما اللاتينية، فقد استمدت منها اللهجتان الفصحى والعامية ألفاظاً يقال إن منها إسطبل، وبوق، ودينار، وسجل، وصراط، وصاقور، وطرطور، وقرصان،

(4158/1)

وفرن، وقفة، وقلنسوة، وقميص، وقنديل، وقنطار، وكوفية، ومد (مكيال) ومنديل، وميل، إلخ.

... وبينما كان التأثير الإسباني في اللهجة المصرية منعدماً، إذا هو يتخذ طابعاً عميقاً في العامية المغربية، نظراً للتبادل الموصول بين الأندلس والمغرب خلال الحكم الإسلامي، أي طوال ثمانية قرون. وبعد ذلك بثلاثمئة عام، احتل البرتغاليون والإسبان في غضونها مراكز هامة في شواطئ البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطيقي من المغرب.

(4159/1)

... وقد ذكر برونو Brunot ("هسبريس"، 1949 . العددان الثالث والرابع) أن اللغة الرومانية اللاتينية أمدت العامية عن طريق الفصحى بألفاظ مثل مد وقصر أو مباشرة بكلمات مثل الطابية وكرزية وكركور، وذكر أن لفظ قنديل (Candi) مقتبس من اللفظ العربي quindid وأن الكفة مأخوذة من التركية.

... ولاحظ في مقدمة مذكراته حول المفردات البحرية بالرباط وسلا أن وفرة الألفاظ الإسبانية الدخيلة في هذه المفردات تدعو إلى نسبة بعض الكلمات إلى أصل يوناني لاتيني. وهذا الغلط هو الذي وقع فيه سيموني (Simonet) في "معجمه" (Glosario)

(4160/1)

حيث ذكر مثلاً أن الشابل (alose) مستمد من اللفظ اللاتيني sapidus. وقد أعطى برونو صورة عن مروح التأثيرات الأجنبية في العامية البحرية بالرباط وسلا، فذكر أنه بالإضافة إلى 455 لفظ عربي يوجد 217 كلمة إسبانية و30 لاتينية يونانية و6 فرنسية وإيطالية و6 إنجليزية وكلمة واحدة برتغالية وعشر كلمات بربرية وعشر تركية وإحدى عشرة كلمة مشكوك في مصدرها، وذلك من مجموع يبلغ 753 لفظة. ويلاحظ هنا قوة تأثير العربية الفصحى في موانئ أخرى في المغرب مثل مستغانم بالجزائر. ففي الرباط مثلاً تسمى chaloupe بالعشارية، وفي

(4161/1)

مستغانم ببوطة من bota الإسبانية.

... على أن البرتغالية قد تأثرت باللهجة المغربية حيث كان البرتغاليون يراسلون بالعجمية التي كانت عبارة عن برتغالية مملوءة بالألفاظ المغربية وكانوا يكتبونها بالحروف العربية (كواساك ((Coissac de

Chavrebière، **تاريخ المغرب، ص.** 273).

... ولعل أول نواة حضارية عربية تلقاها المغرب بعد الفتح الإسلامي قد جاءته عن طريق القيروان التي بدأت تنصهر فيها الحضارة الأموية بعد مرور ثلاثة أرباع قرن على الهجرة، فأقيمت المساجد والدواوين والمصالح والدور الصناعية على غرار ما عرفته مصر

(4162/1)

والشام.

... فأول مسجد على النسق المعماري الإسلامي في المغرب هو ذلك الذي بناه سعيد بن صالح الحميري في نكور في نهاية القرن الأول استمد في تصميمه من جامع الإسكندرية التي ظلت مهبط الرواد المغاربة وعلى رأسهم الصوفي أحمد البدوي دفين طنطا. وكانت البساطة آنذاك هي طابع الفن المعماري الذي لم يعرف بعد المقرنصات ولا التعاريج العربية.

... والواقع أن انعدام الاقتباس من الطبيعة والإمعان في دراسة الرياضيات ونزعة الإبداع حدت مسلمي الأندلس والقيروان ومصر ثم المغرب إلى التسطيرات الهندسية الساذجة. ومما يبرز تأثير

(4163/1)

الأندلس إحداث الموالي الصقالبة لقرية تحمل اسمهم فوق مدينة نكور (البكري، المسالك والممالك، مطبعة الجزائر، 1911، ص. 97) أو منح اسم القاهرة تيمناً وإجلالاً لمركز في قلب الأطلس بقبيلة بني دويران.

... ولعل الوحدة السياسية التي حققتها الدولة البربرية في المغرب الكبير قد تجلت خاصة في تجديد الاتصال بين الفن المغربي الأندلسي والفنين المصري والعراقي السائدين في بجاية ومهدية وتونس الخضراء. وبذلك تعززت الوصلة بين جناحي العروبة، واندرجت في المجتمع المغربي مصطلحات كانت عصارة الاحتكاك الموصول.

(4164/1)

... وقد كان للأندلس أثر على بعض مظاهر الحضارة المصرية، نظراً لهجرة طائفة من الغرناطيين إلى بلاد الكنانة(1). ففي عام 1019 هـ هاجرت ألوف الأندلسيين إلى فاس وألوف إلى تلمسان وجمهورهم من تونس فتسلط عليهم الأعراب ونهبوا أموالهم في تلمسان وفاس وسلم

(1) وكذلك الأندلسيون الربطيون الذين ثاروا على الأمير الأموي الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ووصل بعضهم على رأس المئتي هجرية إلى الإسكندرية. وكان فيهم علماء (نفح الطيب، ج 1، ص. 318).

... تاريخ ابن خلدون، ج 4، ص. 1/275؛ مجلة السيراء، ج 1، ص. 44، ط 1963.

(4165/1)

أكثرهم في تونس وتطوان وسلا وفسحة الجزائر ووصل جماعة إلى قسطنطينية العظمى ومصر والشام (نشر المثاني عن نفح الطيب، ص. 101).

... ففي الحقل العمراني يلاحظ أن »قصر البديع« الذي استغرق بناؤه زهاء العشرين السنة (986 هـ. 1002 هـ) يبرز لنا مدى التطور الحاصل في الفكر الحضاري ولغته. فقد ظهرت معه فنون طريفة ومصطلحات فريدة كالرخام المجزع والزليج الملون والقباب الخمسينية كتبت في أبهائها الأشعار بمرمر أسود في أبيض تذكرنا بروائع الأندلس. فمن شعر أبي فارس عبد العزيز الفشتالي يصف فن هذه الروائع:

(4166/1)

فإنها والتبر سال خلالها

وكأن أرض قراره ديباجة

وكأن موج البركتين أمامه

صفت بضفتها تماثيل فضة

وشي وفضة تربها كافور

قد زان حسن طرازها تشجير

حركات سحب صافحته دبور

ملك النفوس بحسنها تصوير

... وقد كتب بجدران المصرية المطلقة على الرياض:

باكر لدي من السرور كؤوسا

وارض النديم أهلة وشموسا

(المصرية، أي الغرفة الواقعة في طبقة عليا (العلية بالفصحى). ولعل لوجود طبقات في الأبنية منذ القديم بمصر أثراً في هذه التسمية).

(4167/1)

... ولا يخفى ما لتوازي الأصلين القبطي والبربري من أثر في تكييف كثير من أوجه الشبه بين العاميتين، بالإضافة إلى تأثير مظاهر الأصالة العربية في فصحى المغرب وعاميتها عن طريق القوافل التجارية ومراكب الحجيج ورسل الفكر من كبار الرحالين منذ القرن الهجري الثاني لعظيم ما اكتسبوه على طول منازلهم بأرض الكنانة. ...

... لقد كان لكثير من القبائل العربية التي دخلت المغرب لهجات محرفة عن لهجة قريش التي نزل بها القرآن؛ ولكن تطورها اللغوي لم يخرج عن النطاق العادي في تبادل التأثير بين الفصيح والعامي، لأن المغرب ظل

(4168/1)

بعيداً عن التأثيرات الفارسية والرومية والتركية، وعاش في إطار مقفل طوال قرون تمكن خلالها من الحفاظ على كثير من معطياته اللغوية. فكان الخلاف أقل بين الفصيح والعامي. ويتجلى ذلك في المصطلحات المستعملة في كثير من مرافق الحياة. ولعل أبرز مظهر لعراقة المحتد العربي في قبيلة أو إقليم يتجلى في صفاء

لسانها. وقد ارتكز ابن خلدون لتحقيق الأرومة على عنصرين هما: الموطن والعجمة (التاريخ، ج 6، ص. 96)، وإن كان الموقع الجغرافي لا يمثل في نظرنا عاملاً جوهرياً لإمكانية الهجرة في فترات سالفة.

(4169/1)

... ومن الصعب أن نميز بعد التفاعل اللغوي الناتج عن ارتباط الأقاليم بين ما جد وما تلد في هذه اللهجة. غير أننا إذا قارنا بين المصطلحات المستعملة في هذه القبيلة والتي تتبع المستعرب الفرنسي لوبينياك عام 1916 الكثير منها في كتابه "نصوص عربية في زعير" (طبعة باريس، 1952)، لمسنا مدى الصفاء الملحوظ في الكثير من الكلمات التي درجت على ألسنة العامة من أهل زعير مما لا نجد له مثيلاً إلا عند القبائل التي لا يتطرق الشك إلى عروبتها كالشاوية. وقد أشار كثير ممن درس أنساب الفصائل السلالية المغربية إلى أن القبائل

(4170/1)

الرحالة في سهول المغرب الغربية وأقاليم عبدة ودكالة والشاوية وشرقاً بالحدود الجزائرية ما زالت تحتفظ بعروبتها الأصيلة التي طبعتها منذ الفتوح الأولى. وقد أثر ذلك في العنصر البربري حيث لوحظ أن عامية القبائلية بالجزائر تشتمل على نحو ثلث الألفاظ العربية (كوستاف لوبون، حضارة العرب، الطبعة الفرنسية، ص. 250). ولا يخفى ما تتسم به لهجات الأندلس وإفريقيا الشمالية من صفاء، بالرغم من عدم تقيدها بالهندام الشكلي للفظ، وبالرغم من الألفاظ البربرية التي تسربت إلى الأقاليم العربية نفسها. على أن الكثير من الكلمات

(4171/1)

التي يزعم بعض اللغويين رطانتها يتضح أصلها العربي بعد التحليل. فقد نشرت مثلاً مجلة "مجمع اللغة العربية" (ج 8، ص. 326، عام 1955) بحثاً للأستاذ شارل كونتز خبير لجنة اللهجات حول أثر اللغة العربية في عربية المغرب أورد فيه نماذج من الصيغ والكلمات الدخيلة التي ترجع إلى أصل بربري. وقد وفق الأستاذ في طائفة من الكلمات، ولكنه لم يتحر في مقارنة الأصل العربي المحتمل لطائفة أخرى مثل:

أملوس (الوحل) الذي يمكن مقارنته باللفظ العربي (الملس)، وخاصة الملص، بمعنى الزلق؛ إذ أعظم خاصية في الوحل أنه مدعاة للزلق.

(4172/1)

داليس (الخيزران) bambou تقارن بالدلس، وهو نبت يورق آخر الصيف، ومعروف أن الخيزران لا يترعرع إلا في الحرارة وفيه عشرات الأنواع.

المازوزي (الأخير من النتاج). ويظهر أنه مشتق من »مزز« الفصحى، حيث يقال: »فعلته على مزز«، أي على مهل.

فالمازوزي يأتي متأخراً كأنه يتمهل في انبثاقه.

قطوس (قط): من مميزات العامية سواء في المغرب أو بعض الأقطار العربية كسوريا ولبنان نقل بعض الصيغ من فعل أو فعلل أو أفضل إلى فعلول مثل أحق وحمقوق أو حموق وبط (كالبطة في السمن) وبطبوط وخنفر أو مخنفر وخنفور. فيمكن القول إذن بأن »قط«

(4173/1)

العربية أعطت »قطوس« العامية.

أقراب، وهو الخرج أو الجراب من القراب (لأن أداة التعريف بالبربرية هي الهمزة للمذكر والتاء المتصدرة، أي في أول الكلمة؛ والمتكسّعة، أي في آخرها).

ساط، بمعنى نفخ. ولعلها من ساط الفحم، أي خط بعضه ببعض لينتقد كله إذا كانت النار لم تمس سوى جانب دون آخر. والبادية تستعمل الكثير من ذلك، كالمسوط للتحريك والنفخ. وقد ورد في "المعجم الوسيط" أن المسجر هو الخشبة التي تسوط بها الوقود في التنور.

كفس، بمعنى لطخ بسواد أو فضح أصلها كفس، أي أعوج، والتكفاس بالعامية الاعوجاج، إلخ.

(4174/1)

وقد تحدث كرد علي عن »عجائب اللهجات« (مجلة مجمع اللغة العربية، ج 7، ص. 128، سنة 1953) فقال: »لعل الدخيل كان نادراً في أرض الأندلس، لأن الأمويين توخوا الوحدة في كل شيء«، إلى أن قال:

... وكانت اللهجة الأندلسية من أجمل اللهجات نقلها أهلها بعد الجلاء إلى البلاد التي نزلوها: مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام، ولعلها كانت لقربها من الفصحى

أشبه بلهجات اليمن والحجاز، والأندلس استعملت ألفاظاً فصيحة ما استعملها العراق ومصر والشام.

(4175/1)

... ولاحظ فليش (Fleisch) في "المدخل لدراسة اللغات السامية" (ص. 101) أن لهجة المثقفين العامية تقتبس من الفصحى اللغوية بكيفية خاصة. ويعني بذلك أنها لا تتقيد كثيراً بالأوزان والصيغ.

... وإذا أردنا أن نبلور مدى تأثير لهجة مصر في المغرب، وجب أن ننظر بين عاميتي القاهرة والرباط إذ التوافق ملحوظ في اللهجة العامية بين القاهرة والرباط عدا خلاف بسيط في الشكل مثل بات وبام يبات ويبوم بكسر فاء المضارع في القاهرة وبتسكينه في الرباط وقد نشرت "مجلة مجمع اللغة العربية" (ج 7، ص. 319) تسعاً وخمسين كلمة بصدد

(4176/1)

دراستها للهجة القاهرية، ولاحظنا من بينها خمساً وثلاثين لفظة مشتركة في المادة عدا الخلاف الشكلي

المذكور. ومن بين أمثلة ذلك: بخس يبخس بكسر الخاء في القاهرة وفتحها بالرباط، وبدا يبدي (ق) ويبدأ (ر) وبدر يبدر وبرق يبرق وبرم يبرم وبشر يبشر بضم عين الكلمة (ق) بدل فتحها (ر) وبطأ يبطئ بكسر الطاء (ق) وفتحها (ر) وبل (ق) عوض بلل (ر). يضاف إلى ذلك تباين خفيف في النطق (ترقيقاً وتفخيماً وإمالة، إلخ) مع المؤثرات اللغوية الخاصة كالتركية على نسق التأثير السرياني والنبطي في الشام. وهنا نورد مفردات تفاعلت خلال

(4177/1)

التاريخ في نطاق مؤثرات موحدة أو مختلفة:

-ء-

... أبو جعران: كنية الجعل بوجعران.

... أبو علي: الرجل اللطيف الكريم (مصر)؛ وأبا علال: في المغرب كناية عن الفقر المدقع.

... أنسرق، أي أنسل خلسة من انسرق (المغرب)؛ ويقال: انسرأ في (مصر).

... اعشاري، أي عشري نسبة إلى عشرة (مصر والمغرب).

... امتا، أي متى (ويقال أيضاً يمتى في المغرب وميته

بالإمالة في الصعيد المصري).

... انفضم، بمعنى افتضم في مصر؛ ويحتفظ المغرب باللفظ الفصيح وهو افتضم، لأن المغرب لا يستعمل صيغة انفعل إلا لمعنى المطاوعة.

(4178/1)

... أور عينيه (مصر)، قلعهما أو عورهما؛ ويقال خور عينه بالمغرب. ولعل الكلمتين من قار يقور قوراً، بمعنى العور.

... ايس لغة في يئس، وهي مستعملة في البلدين.

... ايش، بمعنى أي شيء. خفف منه. نص عليه ابن السيد في "شرح أدب الكاتب" وصرحوا بأنه سمع من العرب (شفاء الغليل، »ايش«، ص. 15).

- ب -

... باب الفتوح: إحدى أبواب القاهرة وفاس.

... بابوج: بابوش (كلمة فارسية): حذاء.

... باس: قبل، والبوس التقبيل (يقال بأنه فارسي معرب) (شفاء الغليل).

... باسل: فلان باسل أو كلامه باسل، أي ثقيل لا معنى له.

(4179/1)

... الباع: مقياس يمتد من طرف أصابع اليد إلى طرف أصابع الأخرى. وتقول العامة في مصر والمغرب: »فلان باعه طويل«، أي له قدرة ونفوذ.

... بتاع: هذا الشيء بتاع فلان، أي متاعه أو في ملكه (متاع في المغرب).

... بحلق بعينيه: أي حدق النظر وحملق.

... برا: أي في الخارج، ومنه براني، أي غريب وأجنبي.

... البربر: لفظ يطلقه المصريون على سكان النوبة لبربرتهم، أي كثرة كلامهم وجلبة لسانهم ويطلقه العرب في المغرب على سكانه الأصليين للسبب نفسه.

... برطم: تكلم بكلام غير مفهوم (بركَم في المغرب).

(4180/1)

... برمكي: معناه في مصر فاقد الغيرة، ذو أعمال جنسية شائنة. أما في المغرب، فمعناه الكريم نظراً لكون البرامكة كانوا في عهد الرشيد موصوفين بذلك.

... بريمة: مثقب (لعلها مشتقة من الإيطالية Barrena).

... البزبوز: القصبة أو القضيب المجوف، ويطلقه المغاربة

على أنبوب الصنوبر.

... بسبس: دعوة الهر إلى الطعام، يقال له بس بس بس (بفتح الباء في المغرب وكسرها بمصر).

... البشماط: المرادف العربي للبشماط هو الكبنة، أي الخبز اليابس)المخصص(، (البقسماط في مصر).

(4181/1)

... بشويش (بفتح الباء في المغرب): أي بتؤدة وهدوء. يقال: »تكلم بشويش«.

... البصارة: تصنع من الفول المطبوخ بماء وتوابل وبصل وسمن.

... بصبص الكلب بذنبه، حركه.

... بطال: عاطل من العمل، تعطل الأجير فهو بطال.

... بطنطة: ضريبة التجارة.

... البعبع: ما يخوف به الصبيان (بعو بالمغرب).

... البعصوص: أي العظم الصغير الذي بين إليتي الإنسان. ويستعمل عامة المغرب الكلمة الفصحى.

... بعيد: يقال: »هو البعيد«، أي الأجنبي.

(4182/1)

... بغل: »فلان بغل«، أي غبي. ومن العادات المشتركة بين مصر والمغرب أن البلغة إذا حملت وولدت، فهذا دليل على انتهاء عمر الدنيا.

... البقال: حسب "القاموس" ـ بمعنى »بياع الأطعمة« عامية، والصحيح »البدال«. وقد ورد في "فقه اللغة" أن البقال بمعنى بائع البقول معربة عن الفارسية (المغرب ومصر).

... بكرج: وعاء القهوة، ويسمى في المغرب بقرج ومقرج، وهي كلمة تركية معناها: غلاية.

... البلغة: حذاء من جلد أصفر »ويظهر أن أصله من فاس في المغرب، لأنهم ينادون علهيا البلغة الفاسية« (أحمد أمين، قاموس العادات، إلخ، ص.

(4183/1)

---

95).

... بندير: آلة للطرب كالدف ولعل أصلها إسباني (bondera).

... بنديره: العلم، وهي إيطالية (bandiera).

... بهدله: أي احتقره واستخف به (الشعراني، لطائف المنن، ج 1، ص. 175).

... البوري: سمك ينسب إلى قرية بساحل مصر قرب

دمياط، وذلك حسب ياقوت (شفاء الغليل، ص. 46).

... بوغاز: أي مضيق. كلمة تركية عربيها الزقاق كغراب، وهو مجاز البحر مثل ما بين طنجة والجزيرة الخضراء (المغرب ومصر).

... بونية: عربيها جمع الكف (القاموس)، وهي فرنسية الأصل (المغرب ومصر).

(4184/1)

... يباع: أي بائع مثل بياع الرؤوس (عربيها الرءاس) وبياع الزجاج (عربيها الزجاجي) (مصر والمغرب).

... تأفف: أي قلق وغضب، فكأنه يقول لمن يخاطبه: »أف بك«!.

ـ ت ـ

... تبهر: أي عجب من أبهر، أي جاء بالعجب. وأصل انبهر تأثر بأشعة الشمس ووهجها. وقد اقتبس العامة في مصر المعنى نفسه من كلمة عربية أخرى هي وهر، فيقولون: انوهر، أي انبهر وعجب. إذ الوهر توهج الشمس، ويستعمل المغاربة أيضاً تفهر بالفاء.

... التربيعة: مكان بالقاهرة تباع في البضاعات

المغربية من بلغ وبطاطين (أحمد أمين، قاموس العادات، ص. 96)، وكذلك

(4185/1)

العنبر المحلول وعطر الورد والزهر (ص. 115). والتربيعة .بالتصغير بتقديم الياء .تفيد في المغرب المعنى نفسه.

... ترزي: الخياط، وهو من الدرز، أي الثوب بالفارسية وبنو درز: الخياطون، ويقال الدراز بالمغرب، وهي من الطَّرَّاز، أي صاحب الطراز.

... تعبان: أي متعب. ولم يعرف عند العرب على ما يظهر (مصر والمغرب)، عدا ألفاظ قلائل مثل غضبان.

... تعنطز فلان: تكبر وتجنب الناس، ويسمي المغاربة العبيد وأولاد الإماء العناطيز، لأنهم يعيشون عادة معزولين عن الناس.

... تفرج على لعبة: تفكه بالنظر إليها.

(4186/1)

... تفرشح: جلس وفرج ما بين رجليه. ويقال في المغرب: تفرشخ (بالخاء بدل الحاء المهملة) بمعنى جلس ماداً رجليه (ولها في المغرب معنى آخر يقال تفرشخ البطيخ بمعنى تكسر).

... وتستعمل لفظتا فسخ وقشح في مصر بهذا المعنى.

... تفنطز: كلمة يونانية معناها تريض (phantasia). وتوجد في العامية المغربية، ولعلها اقتبست من الكلمة الفرنسية fantasia لألعاب الفروسية التي كانت تسمى قبل بالتبوريدة (أي اللعب بالبارود).

... تكابوا على الشيء: بمعنى ازدحموا عليه واشتهرت في مصر خاصة اتكببوا (بكسر الباء الأولى وتشديدها).

(4187/1)

... تكَرع: تجشأ، ويقال تبعج في الشام. ولعلها من تجرع الماء إذا بلعه. فالجشاء من لوازم تجرع الماء.

... تمسخر ومسخرة: فلان يتمسخر بك (بيتمسخر في مصر، أي يهزأ بك).

... تندة: مقتبسة من tente الفرنسية بمعنى ظلة أو خباء، وعربيها الزفن، وهو حسب "القاموس" ظلة تتخذ فوق السطوح تقي من حر البحر ونداه.

... تنهد: أي تنفس الصعداء، وعربيها تنفس وزفر.

- ج -

... جَابْ الشيء: جاء به.

... جاحم: أي دفع نفسه وسط آخرين. وقد لاحظ الدكتور أحمد عيسى في "محكم"ه أنها من الجحيم. ويظهر أنها من زاحم مزاحمة، بمعنى مدافعة

(4188/1)

الناس.

... جرجر: أي جر وجذب. ويقال إنها سريانية الأصل. وقد اقتسبها المغاربة من العربية الفصحى لا من السريانية التي لم تؤثر في العامية المغربية، نظراً لانعدام كل صلة بين المغاربة والسريانيين تاريخياً.

... الجعيدي: الجعد من الرجال المجتمع المتداخل المدمج. ويطلق في مصر على من قل ذوقه وكياسته، وفي المغرب على الضعيف البنية كأن أجزاء جسمه تندمج في بعضها.

... جلبية: جلباب أو قميص (جلابية بالمغرب).

... جليطة: بتسكين اللام في مصر وتشديدها في المغرب، معناها الخلط وعدم الإتقان. تقول: »فلان جليط عمله«، إذا

(4189/1)

لم يتقنه (جلط في المغرب ومنها الإتباع المغربي: خلط جلط).

... جواني: براني.

... الجوخ: نوع من النسيج. والجوخة كلمة فارسية معناها: الكساء من الصوف.

... الجوق: فرقة تقوم بعمل واحد كالجوق الموسيقي ويقال بأنها تركية الأصل.

- ح -

... حاف: خبز حاف، أي من غير إدام.

... حب الرشاد: عربيها الحرف ("المخصص")، ويستعمل عامة المغرب الكلمتين وخاصة »الحرف«.

... الحجاب: الحرز اشتهر باستعماله المصريون، ويعمله المغاربة للتحصن، ويطلق عليه في كل من المغرب ومصر لفظ »الحرز«.

(4190/1)

... الحرقة: ما يجده الإنسان عندما يطعم شيئاً محرقاً، أي حاراً أو دسماً يثير نوعاً من التخمة في معدته.

... الحريرة: دقيق يطبخ بلبن أو دسم ("القاموس") (مصر

والمغرب).

... الحريف: الزبون، وحريفك: معاملك في حرفتك والزبون مولد (القاموس)، ويستعمل عامة مصر لفظة »زبون« المولدة وعامة المغرب كلمة »حريف«.

... الحشيش: الكيف القديم. ولعل منه اسم الحشاشين، أي القرامطة شرابي الحشيش.

... حط: بمعنى وضع. اشتهرت في عامية مصر والمغرب، وتستعمل في الفصحى في مثل العبارة التالية: حط الله عنه الوزر، أي وضعه عنه.

(4191/1)

... الحفا: عدم لبس شيء في الرجل.

... حمص القهوة: قلاها على النار، وهي عربية حسب الأزهري (حب محمص أي مقلو).

... حوائج: ما يلزم الإنسان من ملابس وغيرها.

- خ -

... الخازوق: الخشبة كانت تستعمل قديماً لإعدام المجرمين، وهي من الخزق، أي الطعن بالرمح. وقد دخلت إلى مصر عن طريق التركية ولا ندري كيف تسربت إلى المغرب. فهل تم ذلك في عهد السعديين بسبب تسرب

العناصر التركية إلى المغرب أو عن طريق التجار المغاربة الذين استقر منهم عدة آلاف بمصر، ولا سيما في عهد العلويين؟

... خربشة: خدشة وخمشة.

(4192/1)

... خربق عمله: أفسده (تستبدل العامة في مصر بالقاف الألف فتقول: خربأ).

... خرخش: أي صوت، وتستعمل بالمغرب لصوت الآلة، وفي مصر لأزيز الصدر.

... خردة: قطع الحديد المستعمل، وهي كلمة فارسية مقتبسة من الخرثى الفصحى على ما يظهر.

... الخس: بقل عريض الورق يؤكل نيئاً (مصر والمغرب).

... خلاه: خلاه في المحل، أي تركه. يقال: »خله في المحل، أي اتركه حتى تعود إليه«.

... خمسة وخميسة: عبارة عن كف فيها خمسة أصابع يزعمون أنها تدفع العين (أحمد أمين، قاموس، ص. 195).

وقد عرفت في إفريقيا الشمالية منذ عهد القرطاجنيين،

(4193/1)

وتوجد صوره لها في متحف باردو بتونس؛ ويقال في المغرب: »خمسة الخمامس« بدل »خمسة وخميسة« في مصر ويسميها الفرنسيون »يد فاطمة«.

... الخنفسة: أي غير الجميلة. وفي المثل المصري: »الخنفسة عند أمها عروسة« ويقابله المثل المغربي: »كل خنفوس عند مو غزال«، أي كل خنفسة لدى أمها غزالة.

... الخوا: بكسر الخاء (وتسكينها بالمغرب)، أي الفراغ. يقال: »شربت على الخوا«، أي على الريق، والخواء فراغ المعدة من الطعام.

... خواجه: كانت تطلق في الأصل على الأعيان والتجار، ثم أطلقت على الأجنبي بمصر، ولكن المغرب احتفظ بمعناها

(4194/1)

الأصيل، وهي لفظة فارسية معناها سيد (مصر والمغرب والشام).

... خوخ الفاكهة: فهي مخوخة، أي فارغة القلب لا لب فيها.

... الخوخة: تطلق غالباً على الباب الصغير في قلب الباب الكبير، وعربيها حسب "القاموس" هو »الخادعة«. وقد ورد: »سدوا كل خوخة إلا خوخة أبي بكر«.

- د -

... الدادة: المربية، ودادا كلمة فارسية معناها خادم ومربية.

... دحدح فلان: مشى على مهل أو تقارب خطوه مع سرعة، والدحداح في المغرب: القصير، وتلك هي صفة سير كل من قصر جسمه.

... درابزين: الحاجز الحامي في السطح أو الدرج (دربوز بالمغرب).

(4195/1)

... دربكة: الطبل الصغير، وهي فارسية. عربيها »الكوبة« التي أشار إليها صاحب "القاموس".

... الدرفة: درفة الباب، أي مصراعها. وهو من الدفة، بمعنى الجنب. ويستعمل العامة في المغرب لفظة »دفة« بدل »درفة« في مصر.

... درويش: فقير. كلمة فارسية ("البرهان الجامع") (مصر والمغرب).

... الدشيش: دشيش الفول طحينه، وهي من جش الحب إذا دقه. ويقال »الدشيشة« في المغرب (الطحين المدقوق).

... دغري: مشى الرجل دغري، أي قدماً لا يلوي على شيء.

ويقال بأنها من »طغرو« الفارسية بمعنى مستقيم أو »طوغري« التركية.

(4196/1)

... الدمغة: الطابع والتنبر. ويقال أيضاً »التمغة« بالمغرب، وهي فارسية (من التمغ أو الطمغ).

... دندن: غنى بصوت أو آلة موسيقية.

... دهست السيارة الرجل: أي داسته ودعسته. وتستعمل العامة بالمغرب »معس« بهذا المعنى مستبدلة الدال ميماً.

... الدوار: معروف في ريف مصر، بمعنى مكان يضم عناصر اجتماعية كالأمير والمدير والمعلم وغيرهم. فهي نواة حضرية، وأصلها فارسي (دوارا) وهي بمعنى »القرية« بالمغرب.

- ر -

... رأس مشعنن: أي منتفش الشعر، أشعث.

... الرزمة من الثياب: ما شد في ثوب واحد.

(4197/1)

... رغرغت عينه بالدمع: أي اغرورقت (غرغرت بالمغرب).

... الرقاق: الخبز الرقيق واحدتها رقاقة (رقاقة بالمغرب).

... الرقعة: عربية معناها البطاقة استعيرت لرقعة الشطرنج، وهي دخيلة حسب "شفاء الغليل". ومن أدواتها المعروفة كذلك في عامية مصر والمغرب: البيدق والرخ والفرز والفرس والشاه.

- ز -

... الزريبة: المكان الذي تنام به البهائم، وهي فصحى.

... زعأ: صاح من الزعق. (زعق بالمغرب).

... زعلوك: أي صعلوك وقد ورد »زعلوك« - بضم الزاي - بمعنى القصير المجتمع العضل. ويطلق بالمغرب خاصة على شديد المراس وصعب الطبع

(4198/1)

(مصر والمغرب).

... زغرتت النساء في الأفراح: من الزغردة، وهي هدير الفحل يخرج من حلقه، فاستعير منه صوت النساء يتردد بين ألسنتهن وأصابعهن.

... زفر: ريحه زفرة، أي منتنة، وهي رائحة بعض الأطعمة

كاللحم والجبن وهو من الذفر، أي شدة رائحة الطيب أو النتن.

... زلاَّ: أي زلق (زلق بالمغرب).

... الزلط: يقول المصريون: »فلان رأسه زلط فيه«. في الجزائر: »فلان زلط من فار الجامع«، وهو المدلول المغربي للزلط بمعنى الفقر.

... الزمت: شدة الحر ووقوف الريح، وهي من زمته إذا خنقه.

(4199/1)

... زنبيل: وعاء من خوص. هو المعنى العربي الأَصيل، ويطلق في المغرب خاصة على وعاء من نحاس.

... الزواق: النقش بالأَلوان، وهو من الزاووق، أي الزئبق. ويسمى الزئبق بالمغرب: الزواق.

- س -

... السبوع: اليوم السابع من ولادة الطفل والسبوع لغة في الأَسبوع.

... السبيل: صهريج يخزن فيه الماء لشرب الناس في قارعة الطريق. ولعله من السبل بحركتين، أي المطر الهاطل والسبيل، أي الطريق.

... ستف: رتب، وهي من صفه أو صفصفه فاصطف وهو مصطف (مستف).

(4200/1)

... سطل: بمعنى بقرج، ولكن له عروة خاصة، وهو ستل بالفارسية (situla) باللاتينية.

... السقاء والسقا: موزع الماء على البيوت (مصر)، وهو المسمى »القراب« بالمغرب لحمله القربة على ظهره، و»القربة« هي السقاء (بكسر السين).

... سك الباب: سدها. ويقال في المغرب أيضاً: »سكرها«، وهي سريانية. وفي مصر: »سنكر« بزيادة النون.

... السميد: لون من ألوان الدقيق، وهو معرب عن الفارسية ("فقه اللغة") واستعمله الحريري في "مقاماته". ويقال السميد بالمغرب، والسميط بمصر.

(4201/1)

... السوة (بكسر السين في مصر وفتحها في المغرب): أسفل البطن، وهي من السوأة بمعنى الفرج، ولكنها أطلقت خاصة على الدبر.

... سيأ الأرض: غسلها (سيق بالمغرب)، وهي من »صيأ رأسه« إذا غسله فلم ينقه ("متن اللغة").

... السيفون: مجرى خاص للماء أصله siphon (مصر والمغرب).

ـ ش ـ

... شاف: أي تطاول ونظر.

... شألب: أي سقلب، بمعنى صرع؛ وأصلها قلب، وهي شائعة أيضاً في الشام (شقلب بالمغرب).

... الشايط: الطعام الذي يحترق على النار، فيسوء طعمه وتفسد رائحته فيرمى. والشايط في المغرب هو كل ما يرمى.

(4202/1)

... الشربات: الماء يذاب فيه السكر مع ماء الورد للمناسبات المفرحة.

... الشربة: الحساء الذي يقدم قبل الطعام. ومقابلها التركي »جوربا«.

... شرشر الماء: أي خرّ، بمعنى اشتدَّ سيله.

... شرمط: مزق (اشرمط في مصر). وذكر الدكتور أحمد عيسى في "المحكم في أصول الكلمات العامية" أنه من

اثرنمط السقاء إذا انفتح والاثرنماط اطمحرار السقاء إذا راتب ورغا. ففي ذلك معنى التمزق. »ويظهر لي أن أصل شرمط شرم فهو أشرم إذا انشق وتنزق وتشرم، أي تمزق. وأصل تشرمط تشرمت (تاء التأنيث)، وقد تكون من الشرط بمعنى الشق فتكون الميم

(4203/1)

زائدة «.

... شقافة: أي شظية الخزف، والشقف الخزف المكسر (شقفة بتسكين القاف في المغرب).

... الشكال: أي رباط العقال للفرس، ولعلها فارسية دخيلة في الفصحى.

... شكم الدابة: شد فمها بالشكيمة.

... الشنطة: الوعاء من الجلد تحفظ فيه الملابس (ويطلق في المغرب على الحقيبة) وأصلها تركي على ما يظهر (جنته).

... شوشة: شعر قمة الرأس، ومعناها بالسريانية كبة القطن. وتطلق في المغرب على أزرار الحرير السوداء المتدلية من الطربوش.

... شوية: أعطني شوية، أي شيئاً يسيراً.

... الشياط: رائحة الاحتراق.

(4204/1)

... الشيت: نوع من القماش (أصلها هندي).

... الشين: علامة النفي في اللهجتين مثلاً: »فلان ما جاش«، أي لم يات (أصلها »لم يأت شيء«).

... وما كلتش: أي لم آكل شيئاً و»أخذتش حاجة؟«، أي هل أخذت شيئاً؟ (وأضيفت »حاجة« لزيادة البيان).

ـ ص ـ

... صرصح: صاح بصوت عال، وهي من »صرصر«. وتستبدل العين حاء بالمغرب فيقال: صرصح.

... صنارة: حديدة الصيد.

... صنايعي: نسبة إلى الجمع وهو صنائع (على خلاف القاعدة الغالبة) وجمعه »صنايعية« بمصر والمغرب.

(4205/1)

... صينية: طبق يجهز فيه الطعام ويطلق في المغرب على طبق من نحاس تصف فيه كؤوس الشراب، وهو منسوب منذ العهد الجاهلي إلى الصين التي يستورد منها.

ـ ط ـ

... طابور: صف العساكر (التابور تركية).

... طاجن: وعاء للطبخ (كلمة يونانية).

... الطار: محرف على »إطار« الأعجمية وعربته الدف وقد دخل في عامية مصر والمغرب وغيرهما (ويقول عامة المغرب »طر«).

... طاقة: كوة.

... طاقية: ما يلبس على الرأس، ولعلها مشتقة من تقية، أي وقاية الرأس من الحر والقر.

... طبطب على الولد: ربته.

(4206/1)

... طربوش: قبعة تركية (»سربوش« بمعنى غطاء الرأس كلمة فارسية)، أشار إليها ابن دحية في تفسير حديث »يلبسون الشعر«، أي السرابيش.

... طز: كلمة يقولها الإنسان إذا شاهد شيئاً رديئاً أو قبيحاً، فتكون بمعنى السخرية (»دز«، بالفارسية و»طاز« بالتركية وقد عربت).

... الطقس: حال الجو من حر أو برد.

... طنجرة: وعاء للقلي أو الطبخ (تنجرة أو طنجرة تركيتان)، والطنجير بالمغرب معناه الطنجرة الكبرى.

- ع -

... عافر الرجل: بذل جهده ليقوم بعمل (تعافر بالمغرب).

... عبد اللاوي: نسبة إلى عبد الله، ومنه البطيخ العبدلاوي.

(4207/1)

... عربية أو عربة: عاميتان مرادفهما »عجلة«، وأطلق على مركب في عجل تجره الخيل، و»العربية« هي الشائعة عند عامة مصر والمغرب.

... عرقان: فصيحة بمعنى »عرق« ("المصباح"). يقال: »عرقان« في مصر والمغرب.

... العرقسوس: عرق نباتي حلو يمتص.

... عيان: مريض. ومدلوله الأصيل في الفصحى من الإعياء في الأمر والشيء لا في المرض (القاموس) (مصر والمغرب).

... عيط: نادى، والعيطة في المغرب نوع من السماع يضرب فيه على الدفوف.

... العينة: النموذج من السلع (العينة بتسكين الياء في المغرب).

- غ -

(4208/1)

... غامق: لون أسود غامض، أي شديد السواد؛ ومقابله «فاتح» إذا خف لونه.

... غرقان في الدين: أي فيه بحيث لا يستطيع أداءه.

... الغريبة: نوع من الكعك يصنع من دقيق وسمن وسكر ويكثر فيه السمن (أحمد أمين، ص. 299).

ـ ف ـ

... فتافيت: ما تبقى من قطع الخبز على المائدة، من فته إذا دقه («فتايت» بالمغرب).

... الفدان: وحدة المقاييس المصرية أو الممرات وهو لفظ نبطي ("شفاء الغليل")، ويطلق الفدان بالمغرب على الحقل الزراعي.

... الفرت (بكسر الفاء): الكرش، وأصله الفرت (وهو بفتح الفاء في المغرب).

(4209/1)

... فرتك: قطع ومزق مثل الذر.

... فرجية: ما يلبسه العلماء فوق ملابسهم. ويقال إن أصلها يوناني وإن الأتراك اقتبسوها، وتطلق في المغرب

على لباس يجعل فوق الثياب للرجال والنساء وهو منفرج من الأمام. لذلك لا يبعد أن يكون أصلها عربياً.

... فرحان: فرح ("القاموس"). يقال »فرحان« بمصر والمغرب.

... فرم: أي قطع وكسر، وهي سريانية الأصل على ما يقال. ولعلها دخلت إلى المغرب عن طريق الفصحى، نظراً لانعدام التأثيرات السريانية في اللهجة المغربية، وهي تطلق في المغرب على الكسر الجزئي كفرم الأسنان أو الكأس.

(4210/1)

... فش: أي فتح. ويقال في المغرب: »فش الوطب«، أي أفرغه من الهواء. وفي المثل: »فشه فش الوطب«، أي أزال نفخته وكبرياءه.

... الفشار: الكذاب المغالي في كلامه.

... فقس الطائر البيضة: فضخها.

... الفقي (بالهمزة وكسر الفاء): الفقيه.

... الفلقة: الآلة تمسك بها الأقدام في الكتّاب لضرب الصبيان. ويقال بأنها يونانية، واقتبس منها الفرنسيون palanque.

... فلوكة: سفينة صغيرة، وهي من الفلك، أي المركب.

... فلصو: أي زيف وزائف. »درهم فلصو«، أي زائف. وأصلها

إسباني (falso) أو إنجليزي (false) (مصر وشمال المغرب). ويمكن

(4211/1)

مقارنتها بكلمة »فلس وإفلاس« العربية.

... فميلية: أسرة. وعاميتها »عائلة« بمصر والمغرب، وهي من اللفظ الفرنسي famille.

... الفنطزية: نوع من اللعب بالبارود على صهوة الخيل. وهي يونانية أخذ منها الغربيون fantazia.

-ق -

... قارب: سفينة صغيرة، وهي يونانية - على ما قيل - عربت.

... القراع: مرض جلد الرأس، وأصله القرع بحركتين، أي بثر يخرج بالرأس (القرعة بتسكين الراء في المغرب).

... قرنص من البرد: تقبض، ويقال في المغرب: »حنية مقرنصة أو مقربصة« (بالباء)، أي متقبضة النقش والترقيم ((stalactie.

(4212/1)

... القرينة: الجنية تكون من الشخص.

... القصرية: الوعاء يتبول فيه. وأصلها من اللاتينية gastrum. ومعناها إناء مجوف، وتطلق في المغرب على وعاء مجوف لعجن الخبز.

... قطع اللبن أو لبن قاطع: بمعنى حامض (و»انقطع الحليب« في المغرب أو »تقطع«، أي لم يصلح لأن يغلى أو يروب نظراً لعدم طراوته، ولعلها من قطع الخمرة بالماء: مزجها) (متن اللغة).

... القفطان: من الملابس الخاصة بالرجال في مصر ويلبسها حتى النساء بالمغرب، وأصلها »قفتان« التركية المقتبسة هي أيضاً من »خفتان« الفارسية.

(4213/1)

... قفقف من البرد: ارتعش، وهي فصيحة. تستعمل في مصر والمغرب.

... قلع ملابسه: أي خلعها وهي بحركتين في مصر؛ إلا أنها مشددة اللام بالمغرب، حيث تستعمل بمعنى الانتزاع كقلع الأسنان أو تقليع الحجارة من الأرض. وهو معنى فصيح.

... القهاوي: المقاهي.

... قورمة: مأخوذة من» قارومة« التركية، وهي لحم يطبخ

بالبصل (المغرب ومصر).

ـ ك ـ

... كاكي: تقول: »كاكت الدجاجة«، أي صوتت عند البيض. وأصلها »قاقت«. وتستعمل العامة بالمغرب هذا اللفظ فتقول: »الدجاجة تقاقي«.

(4214/1)

... كاني ماني: يقال بأنها تركية. ومعناها »كيت وكيت«، بمعنى الإكثار من الكلام عن طريق التلميح والكناية. ويقول العامة في المغرب: »كيني ميني«.

... وأكد الدكتور أحمد أمين أنهما كلمتان قبطيتان. فـ»كاني« معناها السمن، والثانية العسل. وهي في الأصل خلط السمن بالعسل، ثم استعمل في خلط صحيح الكلام بفاسده، ثم في الكلام غير المفهوم (قاموس العادات، إلخ. ص. 333).

... كاوح أو أوح: في مصر من كافح، أي قاتل وناضل. وتستعمل في المغرب »المكابرة«، وتروج عند عامة المغرب كلمة »كافح« الفصحى في المعنى نفسه.

(4215/1)

... الكباب: قطع صغيرة من اللحم تشوى في السفافيد، ويظن أنه فارسي عربه المولدون (شفاء الغليل، ص. 174).

... كم: سعل (كحكم بالمغرب، وهي ترديد للمحاكاة أو على نسق جرجر بدل جر).

... كرنفال: مسخرة. أصلها فرنسي Carnaval (مصر والمغرب).

... الكسكس: طعام معروف بالمغرب خاصة. يكس، أي يدق. من القمح. فهو مكسوس ومكسكس، ويسمى الكسكس بالمغرب.

... كش كش (بكسر الكاف): زجر الكلب ونحوه. وهو في المغرب بضم الكاف.

... الكفتة (بضم الكاف في مصر وفتحها بالمغرب): اللحم المهرم، أي المقطع قطعاً صغاراً (ويقال في عامية مصر

(4216/1)

والشام »المقروم«). ويقال بأن اللفظ فارسي دخل إلى التركية، ومنها إلى بعض العاميات العربية كالمصرية والمغربية.

... كفى القدر: أي قلبها (»كفحها« بالمغرب).

... الكمنجة: بمعنى الرباب. معرب حسب "شفاء الغليل".

... الكوارع: الكراع مستدق الساق عند البقر والغنم وجمعه أكراع وأكارع، وتجمعه العامة بمصر والمغرب على كوارع.

... كورجة: باع كورجة، أي بلا وزن ولا عد. وهي تركية معناها العمى. ووجه الشبه ظاهر بين هذه الآفة والبيع الأعمى بلا تبصر.

(4217/1)

... الكيب: في مصر هو الحصير من ألياف البردي، وهي من اللفظة التركية كيب. ومعناها غطاء. وتستعملها العامة في المغرب (الباء والميم) بمعنى غطاء من خشب يجعل فوق الدكاكين على نسق الإفريز. والاستعمال المغربي أقرب إلى الأصل التركي.

... الكوشة: موقد الحمام. وعربيها »الأتون«. وتستعمل الكوشة عند عامة مصر والمغرب خاصة لأتون الآجر، وهو بيت يطبخ فيه الآجر.

... كومبانية: شركة (compagnie) (مصر والمغرب).

... الكيف: بعض أنواع التبغ (يقال له في مصر »حسن كيف«).

ـل ـ

(4218/1)

... لبارح ـ البارحة: أي الليلة الماضية، ويقال في مصر »امبارح« باستبدال »أم« من »أل« على لغة حمير لقوله عليه السلام: »ليس من امبر امصيام في امسفر«.

... اللبخة: دواء كالمرهم يوضع حاراً أو بارداً فوق العضو الألم (اللبخة).

... الألثغ: من في لسانه عسر في نطق بعض الحروف كإبدال الراء غيناً بوجه خاص (وهو كثير بفاس)، وتقول العامة بمصر »الدغ« بإبدال الثاء دالاً.

... لهط الرجل في الأكل: أي ازدرد اللقم الكبرى دون مضغ. وتستعمل في المغرب خاصة للتعبير عن إظهار التلهف في الطعام. ولفظة »لهف« جارية أيضاً بهذا

(4219/1)

المعنى في البلدين.

... ليلة الحنة: هي التي تسبق عادة الزواج وللحمام

والحناء فيها أهمية، وليلة الدخلة الزفاف والبناء.

- م -

... مبلم (بكسر الميم في مصر وبتسكينها في المغرب)، أي ساكت لا ينبس ببنت شفة.

... المتختخ: أي المسترخي من كثرة الماء (بكسر الميم في مصر وبتسكينها في المغرب)،

... المترد: وعاء اللبن والثريد، وأصله المثرد.

... أمخروع: ضعيف لا يقدر على العمل.

... مخطوف: لون مخطوف، أي أصفر.

... مخوخ: فارغ اللب.

... مدغس: عين مدغسة، أي ضعيفة البصر. يستعمل عامة المغرب خاصة »مدعمس« بالعين المهملة.

(4220/1)

... مزنجر: أي يعلوه الصدأ أو الزنجار.

... مسوكر: جواب مسوجر أو مسوكر، أي مؤمن عليه أو مضمون (assicurare).

... المضربة: النجاد المخيطة بالقطن ("المصبام") (ويقال: »مضربية« في مصر).

... المعجون: خليط لتخدير الأعصاب.

... الملابطة: المصارعة (»الملاكطة« بالمغرب).

... »ملط« في مصر و»أملط« في المغرب: أي أملط لا شعر على جسده.

... الميت: يتقارب المثلان المصري والمغربي: »الضرب في الميت حرام« (مصر)؛ »البكاء على الميت خسارة« (المغرب).

... الميضة: المرحاض.

- ن -

(4221/1)

... نخشوش (بالنون في مصر) وتخشوش (بالتاء في المغرب): إذا دخل الماء في خيشومه، فأثار قلقه واضطرابه.

... نش الذباب: أي طرده.

... نغز: أي حرض. و»نغزه بإبرة«، أي وخزه. وفي الفصحى: »نخس«.

... نقر (»نكَر« في المغرب) بالكاف المفخم، أي أكثر من الكلام المؤلف. »نكَر عليه«، أي لمزه بالكلام المؤلم.

... ننه: تغنى للطفل لإغرائه بالنوم. ويسمى غناء الأطفال بالتركية: »نيني«. والمهد بالفارسية

»نـانـون«.

... نـونـو: الطفل الحديث الولادة (مصر). وهو من الكلمة الفارسية »نـو«. ويقال في المغرب: »نـيـنـو«، لكل جديد في لغة

(4222/1)

الأطفال.

... نـيـنـة: معناها أم جدة. وأصلها »نـنـة« الفارسية. وقد اقتبسها الأتراك ثم العرب. ويستعمل عامة المغرب »نـانـة« (التي ترخم »نـه«). وكثيراً ما يصف المغاربة الجدة بـ: حنـيـنـة، فيقولون: »جدتي الحنـيـنـة«. ولا يبعد أن تكون »نـيـنـة« مرخمة عنها بحذف الحرف الأول على غير قياس تسهيلاً.

-هـ-

... هبهب الكلب: نبح.

... هجالة: عزب ويقال عزباء (الأزهري). وتستعمل في الغرب خاصة بمعنى الأرملة.

... هطل فلان (بتشديد الطاء في مصر وتخفيفها في المغرب): استرخى.

(4223/1)

... الهمج: الطبقات الوضيعة من الناس. وأصله البعوض في العربية، ثم أطلق على كل رذيل من القوم.

... هيه: زجراً للطفل إذا استعملت ياؤها ممدودة، هاه: هي كلمة وعيد حتى للكبار بمعنى حذار حذار!

- و -

... الوحش (بفتح الواو في المغرب وكسرها في مصر): أي الرذيل من الناس.

... ورديان: أي الحارس. أصلها بالإيطالية gardiano**، أو الفرنسية** gardien**، أو الإنجليزية** warden**. وقد اشتق منها المصريون والمغاربة »الوردية«. واستعمل عامة المغرب كلمة »وردن« للتدليل على عمل حراس الجمارك**

- ي -

(4224/1)

... يوغورت: اللبن الرائب في التركية. وقد دخلت إلى المغرب أخيراً عن طريق الكلمة الفرنسية yagourt.

... تلك نماذج تبرز مدى تفاعل اللهجة الدارجة في مصر والمغرب.

... ...

(4225/1)

العربية لغة العلم والحضارة

... ... الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

... عضو أكاديمية المملكة المغربية الرباط

... لسنا بحاجة إلى بيان الدور الذي أدّته اللغة العربية في العصر الجاهلي بما هي أداة للتخاطب ومصهر لصقل التعابير عن أدق الإحساسات وأرق العواطف. إذ يكفي أن نراجع موسوعات اللغة لنلمس ذلك الثراء الذي عز نظيره في معظم لغات العالم. ولعل من مظاهر هذا الثراء تدرج الأسماء للمسمَّيات نفسها في مئات التعابير من القوة إلى الضعف من خلال شتى الاعتبارات تبعاً لأدق مجالي الميز. ولا تزال هذه

(4226/1)

الموسوعات اللغوية لم تدرس حق الدرس إلى الآن، وتنطوي على كنوز تكشف المجامع مع الأيام عن مدى ارتباطها بالمعاني الجديدة واتساقها مع مولدات الفكر الحديث.

... على أن في مصنفات الفنون والعلوم الرياضية والأدبية والفلسفية والقانونية ذخيرة لغوية كانت هي القوام الأساسي للتفاهم بين العلماء، والتعبير عن أعمق النظريات التقنية يوم كانت الحضارة العربية في عنفوان ازدهارها. ويكفي أن تتصفح كتاباً علمياً أو فلسفياً لتدرك مدى هذه القوة وتلك السعة الخارقة. ففي العربية إذن »مقدرات« شاسعة لا يتوقف حسن استغلالها إلا

(4227/1)

على مدى تضلُّعنا من فقه اللغة.

... والكل يعلم أنه منذ أواخر القرن الهجري الأولى »انبثقت حركة فكرية واسعة أذكت جامعات الشرق«. ولم تستفد من هذه الحركة .كما يقول مؤلف "المعجزة العربية" .السريانية ولا الفارسية ولا اليونانية، وإنما

استفاد منها شعب عاش منذ ذلك التاريخ خارج حدود العالم المتمدن. ولم يكن هناك في الظاهر ما يحدوه إلى الاضطلاع بالدور الخطير الذي قام به مع ذلك في تاريخ الحضارة. وهذا الشعب هو الشعب العربي.

(4228/1)

... كانت العربية لغة أدب وشعر منذ أعرق عصور الجاهلية، ولكن سرعة انتشارها ترجع إلى الثمار المادية والروحية التي جنتها من الإسلام أكثر منها إلى القرار الذي اتخذه الأمويون بجعل العربية إجبارية في الوثائق الرسمية. وخلال القرن الثاني الهجري، بدأ انحلال مراكز الثقافة اليونانية في الشرق الأدنى، وتمخض هذا الانحلال عن »أكبر فوضى في اللغات والأديان«. فقد بدأت شعوب عريقة في الحضارة، كالمصريين والهنود، تتحلل من تراثها الخاص لتعتنق على أثر احتكاكها بالعرب »معتقداتهم وأعرافهم وعوائدهم«.

(4229/1)

... ومنذ ذلك العهد ظهرت شعوب أخرى خلفت العرب في النواحي التي احتلتها. »ولكن نفوذ أتباع محمد ظل لازباً لم يتغير «. ففي جميع نواحي أفريقيا وآسيا التي دخلوها من الغرب إلى الهند ذلك النفوذ في الأعماق إلى الأبد، ولم يستطع فاتحون جدد استقصاء دين العرب ولغتهم، وأمست العربية في فارس اللغة الرسمية، واتخذها الشعراء أنفسهم أداة لصياغة القريض؛ في حين ظلت اللهجة البهلوية مستعملة في الجبل. وقد استمر نفوذ العربية في القرون التالية، بل صارت العنصر الجوهري في الأوردية التي هي لغة الثقافة عند الهندوس والتي يعتبر

(4230/1)

نصف مفرداتها تقريباً من أصل عربي. وإذا كان شعراء مثل الفردوسي صاحب "الشاهنامه" الذي هو عند الفرس بمثابة هوميروس عند الأغريق والذي كان متضلعاً من العربية »عادوا يقرضون الشعر منذ القرن العاشر الميلادي بالفارسية «، فإن معظم المصنفات العلمية ظلت تحرر بالعربية مثل موسوعة الرازي الطبية وغالب مؤلفات ابن سينا.

... وقد أوضح جوستاف لوبون في كتابه "حضارة

العرب"(1) أن العربية أصبحت اللغة العالمية في جميع الأقطار التي دخلها العرب، حيث خلفت تماماً اللهجات التي كانت مستعملة في تلك

---

(1) الطبعة الفرنسية، ص. 472.

(4231/1)

البلاد كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية...

... ووقع الحادث نفسه كذلك في فارس مدة طويلة.

وبالرغم من انبعاث الفارسية، بقيت العربية لغة جميع المثقفين. وقد أكد لوبون أيضاً (ص 174) أن الفرس يدرسون اليوم (أي أواخر القرن التاسع عشر) العلوم والدينيات والتاريخ في مصنفات عربية.

... هذا، وقد عربت أهم المصنفات اليونانية في عهد الخلفاء العباسيين، حيث انكب العرب على دراسة الآداب الأجنبية بحماس »فاق الحماس الذي أظهرته أوربا في عهد الانبعاث«. وقد خضعت اللغة العربية لمقتضيات الإصلاح الجديد، فانتشرت في

(4232/1)

مجموع أنحاء آسيا واستأصلت نهائياً اللهجات القديمة.
وقد قضت حتى على اللاتينية، ولا سيما في شبه الجزيرة
الإيبيرية (إسبانيا والأندلس) حيث ندد الكاتب
المسيحي ألفارو ـ وهو من رجال القرن التاسع الميلادي ـ
بجهل مواطنيه باللاتينية فقال:
... إن المسيحيين يتملون بقراءة القصائد وروائع الخيال
العربية ويدرسون مصنفات علماء الكلام المسلمين لا
بقصد تنفيذها، بل من أجل التمرن على الأسلوب الصحيح
الأنيق في العربية. وجميع الفتيان المسيحيين
المبرزين لا يعرفون سوى اللغة العربية والأدب العربي؛
فهم يقرأون الكتب العربية

(4233/1)

ويدرسونها بكامل الحرارة ويتهافتون على اقتناء
المكتبات الضخمة مهما كلفهم ذلك من ثمن ويعلنون
على الملأ حيثما وجدوا أن الأدب العربي شيء بديع... ما
أعظم الألم! لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم الدينية
ولا تكاد تجد واحداً بين الألف يحسن تحرير رسالة
باللاتينية إلى صديق له. أما باللغة العربية، فإنك تجد
أفواجاً من الناس يحذقون التعبير بهذه اللغة بكامل

الأناقة، بل إنهم يقرضون من الشعر ما يفوق من الواجهة الفنية أشعار العرب أنفسهم.

(4234/1)

وقد نقل الأستاذ ليفي بروفنصال مقتطفات من كتاب ألفارو في كتابه "حضارة العرب في إسبانيا".

... وقد أكد المؤرخ دوزي(1) أن أهل الذوق من الإسبان بهرتهم نصاعة الأدب العربي واحتقروا البلاغة اللاتينية وصاروا يكتبون بلغة العرب الفاتحين.

... كما نقل دوزي عن صاحب كتاب "ألوسي موزار أبيس دوطوليلا :

... أن العربية ظلت أداة الثقافة والفكر في إسبانيا إلى عام 1570 م. ففي ناحية بلنسية، استعملت بعض القرى الإسبانية العربية لغة لها إلى أوائل القرن التاسع عشر. وقد جمع أحد أساتذة

---

(1) تاريخ مسلمي إسبانيا، ج 1، ص. 317.

(4235/1)

كلية مدريد 1151 م عقوداً في موضوع البيوع محررة بالعربية بصفتها نموذجاً للعقود التي كان الإسبان يستعملونها في الأندلس.

... ولم يفت المؤرخ فياردو الذي كتب منذ نحو القرن "تاريخ العرب في إسبانيا" أن ينوه بثراء اللغة العربية الخارق وشاعرية العرب الفياضة حتى أن معظم سكان شلب ـ وهي اليوم جنة البرتغال ـ كانوا شعراء في نظر القزويني، بل يؤكد دوزي أنهم كلهم كانوا شعراء.

... إن اللغة العربية التي بلغت مبلغاً كبيراً من المرونة والثروة في العهد الجاهلي أدركت في القرن الرابع الهجري، أي في عنفوان العصر

(4236/1)

العباسي، أوج كمالها. وقد وصف زكي مبارك روعة النثر الفني العربي في هذا القرن، ووصف فيكتور بيرار اللغة العربية في ذلك العصر بأنها «أغنى وأبسط وأقوى وأرق وأمتن وأكثر اللهجات الإنسانية مرونة وروعة؛ فهي كنز يزخر بالمفاتن ويفيض بسحر الخيال وعجيب المجاز رقيق الحاشية مهذب الجوانب رائع التصوير». وأعجب ما

في الأمر . وهو شيء لا نظير له عند الشعوب الأخرى . أن البدو كانوا هم سدنة هذه الذخائر »وجهابذة النثر العربي جبلة وطبعاً«، ومنهم استمد كل الشعراء ثراءهم اللغوي وعبقريتهم في القريض.

(4237/1)

... إن نفوذ اللغة العربية أصبح بعيد المدى حتى أن جانباً من أوربا الجنوبية أيقن بأن العربية هي »الأداة الوحيدة لنقل العلوم والآداب«، وأن رجال الكنيسة اضطروا إلى تعريب مجموعاتهم القانونية لتسهيل قراءتها في الكنائس الإسبانية، وأن جان سيفيل وجد نفسه مضطراً إلى أن يحرر بالعربية معارض الكتب المقدسة ليفهمها الناس(1)

---

(1) منذ القرن العاشر الميلادي تبنى اليهود لغة الفاتحين العرب كلغة علمية في أفريقيا وغيرها ويجدر أن نذكر يهودا بن قريش لما يمتاز به كتابه في فقه اللغة المقارن والذي وجهه في ذلك العهد إلى بيعة فاسن (طودار، ص. 454).

(4238/1)

.

... أما في فرنسا، فقد أكد جوستاف لوبون في "حضارة العرب" (ص. 174) أن للعربية آثاراً مهمة في فرنسا نفسها. وقد لاحظ المؤرخ سديو - عن حق - أن لهجة ناحيتي أوفيرني وليموزان زاخرة بالألفاظ العربية، وأن الأعلام تتسم في كل مكان بالطابع العربي.

... وكان من الطبيعي أن يزود العرب - الذين كانوا قادة المتوسط منذ القرن الثاني الميلادي - كلاًّ من فرنسا وإيطاليا بمعظم مصطلحاتها البحرية، على أنها تركت أثرها في مصطلحات الجيش والإدارة والصيد والعلوم وغيرها.

(4239/1)

... وقد لوحظ التأثير نفسه في صقلية، حيث كان الملك روجير النرمندي يتسربل بالأزياء الشرقية ويرقم جبته الرسمية بالحروف العربية. وكان كل من خاتمه ونقوده يحمل الكتابة العربية النرماندية. وقد كان أميرال صقلية متضلعاً من العربية. وبالجملة، فقد صارت العربية لغة دولية للتجارة والعلوم.

... أما نسبة هذا التأثير، فقد ذكر بعض الباحثين أن المفردات العربية التي دخلت إلى الإسبانية تقدر بربع محتويات القاموس الإسباني، بينما دخلت إلى البرتغالية ثلاثة آلاف كلمة عربية. وقد صنف الأب ساسا باتيستا الذي ولد في دمشق من

(4240/1)

أبوين عربيين قاموساً عام 1789 جمع فيه الكلمات التي اقتبستها البرتغال من العربية. وهذا القاموس يقع في مائة وستين صحيفة. كما ألف دوزي وأنجلمان قاموساً للكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية. وتوجد في مكتبة الإسكوريال معاجم عربية يونانية وعربية لاتينية وعربية إسبانية صنفها علماء مسلمون(1). وقد كان للمغرب حظه في هذا التأثير اللغوي على الأندلس التي استمر حكمه لها نحواً من ثلاثة قرون. أما البرتغاليون الذين عاشوا في المغرب، فقد ذكر شافروبيير

---

(1) حضارة العرب، المرجع السابق، صص. 166 ـ 474.

(4241/1)

(1) أن الجالية التي كانت بالمغرب في القرن السادس عشر كانت تتراسل بعربية حشوها تعابير مغربية وتكتب مراسلاتها بالحروف العربية.

... وهناك لغات أخرى كالمالطية اقتبست معظم مفرداتها من العربية. وكم استمعنا لخطابات فاهت بها شخصيات مالطية لم يعسر فهمها على المستمعين، ولا سيما أن اللهجة المالطية تتجانس مع لهجات المغرب العربي ومعلوم أن الكثير من اللهجات تتقارب في العالم العربي، نظراً لتواكبها مع اللغة البونيقيّة، كما يتجلى ذلك من دراسة الكتابات التي عثر عليها في

---

(1) في كتابه من تاريخ المغرب، ص. 273.

(4242/1)

البرازيل. وقد أكد جوستاف لوبون (ص. 472):

... أن العربية من أكثر اللغات انسجاماً. فهي وإن كانت تحتوي على عدة لهجات كالشامية والحجازية والمصرية والجزائرية، فإن هذه اللهجات لا تختلف فيما بينها إلا بفوارق طفيفة جدّاً. فبينما نلاحظ أن سكان قرية في شمال فرنسا لا يفهمون كلمة من اللهجات المستعملة في

قرى الجنوب، نرى سكان شمالي المغرب الأقصى يتفاهمون بسهولة مع سكان مصر والحجاز. وقد قال الرحالة بوركارد بأن كل من عرف إحدى هذه اللهجات، فهم سائرها دون عناء.

(4243/1)

... وقد كشفت في صقلية لوحة مسيحية محررة بالعربية ومؤرخة بالتاريخ الهجري بعد انتهاء الاحتلال العربي بستين سنة.

... واللغة الإغريقية نفسها اقتبست الشيء الكثير من العربية. غير أن المقتبسات اتخذت قالباً يعسر معه إرجاعها إلى الأصل العربي.

... ومعلوم أن الجامعة الأوربية كانت عاملاً مهمّاً في ذيوع اللغة العربية التي أصبحت في العصور الوسطى لغة الفلسفة والطب ومختلف العلوم والفنون، بل أصبحت لغة دولية للحضارة. ففي عام 1207 م، لوحظ وجود معهد في جنوب أوربا لتعليم اللغة العربية. ثم نظم المجمع المسيحي العالمي

(4244/1)

بعد ذلك تعليمها في أوربا، وذلك بإحداث كراسي في كبريات الجامعات الغربية. وفي القرن السابع عشر اهتمت أوربا الشمالية والشرقية اهتماماً خاصاً بتدريس اللغة الغربية ونشرها. ففي 1636 قررت حكومة السويد تعليم العربية في بلادها. ومنذ ذلك الحين انصرفت السويد إلى طبع المصنفات الإسلامية ونشرها، وبدأت روسيا تعنى بالدراسات الشرقية والعربية خاصة في عهد بطرس الأكبر الذي وجه إلى الشرق خمسة من الطلبة الروسيين. وفي عام 1769 قررت الملكة كاترينا إجبارية اللغة العربية. وفي عام 1816 أحدث قسم اللغات السامية في جامعة

(1/4245)

بتروكَراد.

... وقد اتجه اقتباس أوربا من العربية نحو الميدان العلمي، فدخلت إلى اللغات الأوربية كثير من المصطلحات العربية مثل الكحول والاكسير والجبر واللوغريتم. وقد استمد الإسبان ـ حسب ما قرر ليفي بروفنصال ـ معظم أسماء الرياحين والأزهار من العربية. ومن جبال البرانس انتقلت مصطلحات العلوم الطبيعية إلى فرنسا مثل البرقوق والياسمين والقطن والزعفران. ومجموع

مصطلحات الزي هي كذلك من أصل عربي؛ كما تحمل الحلي في إسبانيا أسماء عربية. ويتجلى التأثير نفسه في الهندسة المعمارية. وبالجملة، فقد استمدت إسبانيا

(4246/1)

وبواسطتها أمريكا اللاتينية من اللغة العربية الشيء الكثير من مقوماتها اللغوية ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً.

... وقد لاحظ عالم إيطالي كبير أن معظم التعابير العربية التي تغلغلت بكيفية مدهشة في لغة روما لم تنتقل عن طريق التوسع الاستعماري، ولكن بفضل إشعاع الإسلام الثقافي.

... بل إن الإصلاح الخاص بالكنيسة تأثر إلى حد بعيد بالطابع العربي. فقد اعترف البارون كارا دو فو (Carra de Vaux) مؤلف "مفكرو الإسلام" - وهو مسيحي متحمس - بأن الإسلام علَّم المسيحية منهاجاً في التفكير الفلسفي هو ثمرة عبقرية أبنائه

(4247/1)

الطبيعية، وأن مفكري الإسلام نظموا لغة الفلسفة الكلامية التي استعملتها المسيحية. فاستطاعت بذلك استكمال عقيدتها جوهراً وتعبيراً. وهذه ظاهرة، ولا سيما إذا اعتبرنا مدى مساهمة الفلسفة الإسلامية في تكوين »علم الكلام« (Théologie) خلال القرون الوسطى والدور الذي قام به في ذلك كل من ابن سينا وابن رشد وما كان لهما من تأثير في أشهر مفكري المسيحية.

... وإذا كان قد قدر العرب أن يقوموا بدور ما في عصر الجاهلية، فإنما كان ذلك عن طريق اللغة التي كانت أنصع عنصر في حياة العرب. وقد دعا فولفنسن في كتابه "تاريخ

(4248/1)

اللغات السامية" المشارقة المتكلمين بلغة الضاد إلى درس فقه اللغات السامية للاقتناع بعظمة أجدادهم وبالدور الذي قاموا به في حضارة العالم القديم. ثم أكد أن المستشرقين الذين نددوا بالعروبة وبالإشعاع العربي لم يهدفوا إلا لغايات دينية واستعمارية.

... وقد عبر الأستاذ ماسينيون عن الفكرة نفسها قائلاً: »إن المنهاج العلمي قد انطلق أول ما انطلق باللغة

العربية ومن خلال العربية في الحضارة الأوربية«.

... ثم قال: »إن العربية استطاعت بقيمتها الجدلية والنفسية والصوفية أن تضفي سربال الفتوة على التفكير الغربي؛ كما

(4249/1)

أنعشت "ألف ليلة وليلة" في القرن السابع عشر الميلادي ذهنية أوربا التي أتخمتها أساطير الإغريق والرومان«.

... وقد ختم ماسينيون وصفه الرائع قائلاً: »إن اللغة العربية أداة خالصة لنقل بدائع الفكر في الميدان الدولي، وإن استمرار حياة اللغة العربية دوليّاً لهو العنصر الجوهري للسلام بين الأمم في المستقبل«.

... وهكذا يمكن القول بأن اللغة العربية انتشرت في العالم من قبل، وذيوعها في بلاد المشرق وفي أفريقيا قد تم في كنف الحضارة الإسلامية.

فروع الطب ووسائل العلاج

(4250/1)

... كان علم الطب يدرس في جامعة القرويين بواسطة كتب أبقراط وجالينوس وديجنوس المعربة، ولكن كتب خزانة القرويين اندرس بعضها على يد الإسبان (عام 1161 م/ 557 هـ). ولم تعد العلوم والطب تدرس رسمياً اللهم إلا ما كان من دروس يلقيها أطباء في جوامع العاصمة أو بعض زوايا المدن الأخرى حيث يعلقون على المصنفات العربية المخطوطة أو المطبوعة. وكانت البوعنانيّة بسلا مدرسة للطب (عبد العزيز بنعبد الله، الطب والأطباء بالمغرب، ص. 47)؛ كما كانت بفاس في القرن الرابع مدرسة للطب بإزاء جامع القرويين. ومع ذلك، فقد ذكر لوكلير

(4251/1)

أنه منذ اندرس أعلام التدريس في قرطبة والقيروان، لم يكن لفاس ولا لباقي مدن المغرب أي نظام مقبول في التعليم (الطب عند العرب، ج 1، ص. 575).

... والواقع أن علوم الحكمة انتقلت من الأندلس إلى مراكش منذ أواخر العهد المرابطي، فكان لذلك أثره في تبلور هذه العلوم وظهور تخصصات وتفريعات جديرة بالعصور الحديثة. وهذا لم يمنع من كون هذه العلوم فقدت روحها التجريبية، وأمست مجرد تطبيقات آلية

بإزاء مستشفيات كانت أقرب إلى ملاجئ للمجانين.

...

إحصاءات طبية

... طب الأطفال (ابن الجزاء، تدابير الأطفال، خم 1044).

(4252/1)

... وإسحاق بن عمران هو الذي أدخل الطب إلى المغرب؛ وكذلك ابن الجزار صاحب "زاد المسافر وقوت الحاضر"، وهو أحمد بن أبي خالد (395 هـ/ 1004 م)، يوجد الجزء الأول منه في خم؛ وكذلك كتاب "الاعتماد في الأدوية المفردة".

... الطب التخصصي: ذكر رينو (في كتابه "الطب القديم في المغرب"، ص. 122) أن بعض الأطباء المغاربة كانوا متخصصين، بعضهم في الأوجاع وبعضهم في أمراض العيون، وبعضهم في الحميات. وقد وصف الطبيب الفاسي عبد السلام العلمي في كتابه "ضياء النبراس"، بعض الأمراض الباطنة وعلوم التشريح العضلي المفصلي

(4253/1)

والعصبي، والكيمياء الطبية والمستحضرات الصيدلية وطب الرمد والأمراض الجلدية والداء الزهري وأمراض النساء والأطفال.

... الطب التطبيقي: كتاب "التيسير" المنسوب لابن رشد هو غير "تيسير" ابن زهر. وهو يعالج الطب التطبيقي في وصف عيادي لأمراض منها جرح المنصفي (pericaditis mediastinal) الذي كان مصاباً به، وترك لنا وثائق حول الأعراض الشخصية التي أحس بها. وهذا الكتاب غير معروف باللغة العربية، وقد نشر عدة مرات باللاتينية:

Haddad, Arabian Contributions to Medicine, Anna. med/His., T. 3, 1942, pp. 60–72.

(1/4254)

... الطب التقليديّ البدائيّ: ذكر بنسيمون (Bensimon) في بحث حول الطب والأطباء بالمغرب قبل الحماية (مجلة المغرب الطبي، شتنبر 1951)، أن الطب التقليديّ كان يستعمل في عدة حالات أنواعاً من العلاج لم يعد نزاع في جدواها. فمن ذلك أن المريض المصاب بالحصبة، أي الحميرة (بوحمرون)، كان يجعل في غرفة يكسى فراشها

وجدرانها وأغطيتها بلون أحمر، وهذه الطريقة في العلاج ما زال يستعملها الدكتور شاطينيير، الذي لاحظ أن إليها يرجع الفضل في تخفيف تفجر الحميرة والحمى وتدارك الاستعصاءات.

(1/4255)

... الطب الروحي: قال ألكسيس كاريل(1) (Alexis Carel) الطبيب العالمي الحاصل على جائزة نوبل في الطب والجراحة:

... لقد سجلت آرائي على ما رأيته من تأثير الصلاة في الحالات الباتولوجية على المرضى الذين برئوا على الفور من أمراض مختلفة متعددة كالتدرن والبريتوني والأخرجة الباردة والتهاب العظام والجروح القائمة والسرطان. وتمتاز معجزة العلاج الروحيّ بسرعتها في عمليات الإبراء العضوي، ولاشك أن التئام الجروح بالعلاج الروحيّ أسرع من العلاج العادي.

---

(1) عبد الرزاق نوفل، طريق الله، طبعة القاهرة، 1381 هـ/ 1962 م.

(1/4256)

والشرط الوحيد الذي يمكن الاستغناء عنه حدوث ظاهرة الإبراء هو الصلاة. وهذا يثبت الأهمية المحسوسة للمناشط الروحية التي يهمل بحثها علماء الصحة والأطباء والمربون والاجتماعيون مع أنها تفتح للإنسان دنيا جديدة.

... طب العجائز: قال المنصور للكاتب محمد بن علي الفشتالي وقد مرض له ولد فلم ينجع فيه دواء طبيب: »إن أمراض الصبيان قلما ينجع فيها إلا طب العجائز ولا كعجائز دارنا فابعث من يسألهن« (الاستقصا، ج 3، ص. 95).

(4257/1)

... الطب النفسانيّ الجسمانيّ: طبق بعضه في المغرب (انطلاقاً مما أشار إليه ابن زهر من القوة الباطنية، فمنذ حوالي 2900 قبل الميلاد كان للطب الصيني خمسة أسس في نطاق دورة الطاقة المسماة "العروق العجيبة"):

... 1 ـ معالجة الروح على الصعيد الماورائي للإنسان.

... 2 ـ معرفة تغذية الجسم، أي تنظيم طاقاته من خلال الأطعمة.

... 3 ـ وصف الأدوية التقليدية.

... 4 ـ استعمال الإبرية (acupuncture).

... 5 ـ التفكير في الجراحة (chirurgie).

الصيدلة (الأقراباذين)

(4258/1)

... كان الطبيب بن زهر على سنن والده أبي العلاء، يقوم شخصياً بتحضير الأدوية غير مستعمل الخمر على خلاف (جالينوس والرازي)، وبذلك تتأكد الصلة الوثيقة بين الطب والصيدلة. وبفضل هذه العبقرية، وحد عبد الملك بن زهر الصيدلة والجراحة والطب العام (ص. 27). على أن الطبيب لم يكن يركب الدواء بنفسه، وإنما يسند إلى أعوانه الأعمال اليدوية كالفصد والكيّ وفتح الشرايين وغيرها. اللهم إلا عبد الملك بن زهر نجل أبي العلاء، فإنه كان ولوعاً بالمباشرة اليدوية في الصيدلة وتجربة الأدوية والتوصل إلى قيمتها وتركيباتها.

(4259/1)

... وقد أجرى أول امتحان للصيادلة أيام المعتصم (عام 221 هـ/ 835 م). وقد جاء في "نهاية الرتبة طلب الحسبة" لعبد الرحمن الشيرزي، أن المحتسب كان يستحلف الأطباء الصيادلة ألاَّ يعطوا دواء مراً أو تركيب سم أو يذكروا دواء يسقط الأجنة لدى النساء أو دواء لقطع النسل عند الرجال.

... وقد تحدث أبو مروان عبد الملك بن زهر في كتاب "التيسير" عن »يمين أبقراط«، الذي كان يطالب بها جميع من يدرس مصنفاته ويقتضي منهم إلزام تلاميذهم بها. وقد ذكر أن والده أبا العلاء تلقى اليمين منه عندما كان لا يزال طفلاً لدى ابتدائه

(4260/1)

دراسة الطب. وحكى أن أحد الثوار طلب منه سمّاً فأبى معرضاً نفسه للخطر. ثم سقط هذا الثائر مريضاً، وبدلاً من أن يقضي الطبيب عليه عالجه بإخلاص طبقاً لمبادئ أبقراط (عبد العزيز بنعبد الله، الطب والأطباء، ص. 29).

... قَسَمُ الطبيب العربي بدل قسم أبقراط: عندما كان

الطبيب يقبل عضواً في مهنة الطبيب، يلتزم بتكريس حياته لخدمة الإنسانية بالقسم الآتي:

... سأعامل أساتذتي بالاحترام والممنونية اللذين يستحقونهما.

... وأمارس مهنتي بضمير وكرامة، وسيكون هدفي الأول هو الحفاظ على صحة مرضاي.

(4261/1)

... ولن أفشي الأسرار المؤمنة عندي. ...

... وسأحافظ بجميع ما لدي من وسائل على شرف المهنة الطبية وتقاليدها النبيلة.

... الأطباء يكونون إخواني.

... ولن يحول بين واجبي ومريضي أي اعتبار من الدين أو الجنسية أو السلالة ولا أي اعتبار سياسي أو اجتماعي.

... وسأحافظ بدقة على احترام الحياة الإنسانية منذ النفخ في الجنين.

... ولن أستعمل أبداً، ولو تحت التهديد، معلوماتي الطبية بكيفية منافية للنواميس الإنسانية، وألتزم بذلك بحرية وعلى شرفي.

(4262/1)

... وقد لاحظ الحسن الوزان (ليون الأفريقي) عقم فن الصيدلة نسبياً في القرن العاشر الهجري، لأن العقاقيريين بفاس في عصره لم يكونوا قادرين على تركيب الأشربة والأدهان طبقاً لما يصفه الأطباء. فكانوا يجتمعون كلهم لتركيبها، ثم يرسلونها إلى دكاكينهم لتوزيعها حسب الوصفات. وهذه ظاهرة تنم عن إخلاص للمهنة.

... ومن أبرز ما عرفه المغرب في العهد الحسني، مصنفات أحمد بن محمد بن حمدون بن الحاج الذي تحدث عنه رينو (الخطاب، ص. 8) بصفته أنموذجاً أخيراً للطبيب والعالم العربي الكامل. وله مؤلف اسمه "الدرر الطبية المهداة

(4263/1)

للحاضرة الحسنية" في ثلاثة أجزاء (يوجد الجزء الأول منه في خع 402 د)، والقسم الأول من الجزء الأول خاص بمبادئ الطب والطبائع، والثاني في ضروريات الحياة (الهواء والأغذية والأشربة)، والثالث في الأدوية المفردة. والجزء الثاني للأمراض وطرق علاجها. والثالث في الخواص الطبية

لبعض الأسماء. وقد لاحظ رينو أن ابن الحاج أعطانا للمرة الأولى في تاريخ المغرب تقسيماً فنياً للأدوية.

... ومن الأطباء الصيادلة الذين اعتمدهم الطبيب الفاسي عبد السلام العلمي في كتابه "ضياء النبراس" (ص. 80)، أبو الفضل محمد العجلاني صاحب

(4264/1)

"تحفة الأريب عند من لا يحضره الطبيب" (لوكلير، الطب عند العرب، ج 2، ص. 317)، وكذلك "كتاب الأشربة والمعاجين وتركيب الأدوية" (مخطوط في خع). ولأبي العلاء زهر بن زهر (مقالة) في شرح رسالة يعقوب بن إسحاق الكندي حول تركيب الأدوية.

... [الصيدنة في الطب لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت 440 هـ)؛ كشف الظنون، ج 2، ص. 1434؛ الصيدنة أعرف من الصيدلة... والصيدلاني أعرف من الصيدناني، جامعة بغداد 48، 432 ورقة؛ نسخة أخرى في المتحف العراقي، بغداد 1911 (273 ورقة)؛ جاك موري (Jacques Mauray)، »مساهمة في دراسة

(4265/1)

الصيدلة المغربية التقليدية «، الأمراض وعلاجاتها في المغرب، 1954].

... .التيفوس (Typhus): مرض معد يتسبب القمل في نقله، فتظهر بقع حمراء على الجلد أو انهيار عميق خلال الحمى، وهو منتشر في أفريقيا والهند.

... ويوجد نوع آخر يصيب البقر يعرف بالوباء البقري أو الطاعون البقري (peste bovine). وقد زعم لوكلير أن ثلاثة ملايين نسمة ماتت عام 1295 هـ/ 1878 م بالتيفوس والكوليرا، وهو تعداد مفرط يصعب تصوره لا سيما وأن وسائل الإحصاء لم تكن تسمح بذلك.

(1/4266)

] H P J Renaud, Le typhus exanthématique au cours de l'histoire du Maroc. Communication faite à la 7ème réunion de la Fédération des Soc. des SE. Med. de l'Afrique du nord-Alger, 15. nov. 1937, (reprod. in Maroc médical, 1937, pp.413–434].

... .الجذري (Variole): مرض معد طفحي وبائي، يتسبب عن وجود فيروس يمتاز بظهور تبثرات على الجلد في شكل بقع حمراء، وهو مرض مميت في خمس عشرة حالة في

المائة، وعند الشفاء يترك ندبات لا تنمحي. وقد ألفت فيه مصنفات منها "هز السمهري في من نفى عيب الجذري"، للطبيب عبد

(4267/1)

الوهاب ابن أحمد أدراق (خم 9213).

... وكان الجذري يظهر في المغرب كل سبع سنوات تقريباً. ويعمد بعض الناس إلى التلقيح ضده بحقن جراثيم بثور ودماميل العجل أو الناقة، بينما يستعمل آخرون الكبريت والملح ويخلدون إلى الراحة في مكان مظلم. وقد عرف البربر منذ عهود سحيقة حقن جراثيم الجدري كانوا يستعملونها لتحصين المصاب، (كودار، وصف وتاريخ المغرب، ج 1، ص. 239؛ كتاب ماثيو دوليسيبس (Mathieu de Lesseps) والد فرديناند مؤسس قناة السويس). زار المغرب عام 1972 م ونص في رحلته على الحقن ضد الجدري عند البربر. ولعل طريقة

(4268/1)

التطعيم هذه قد نقلت إلى البلاد الإسلامية من الصين والهند، حيث كانوا يطعمون السليم بمادة مستخرجة من بثرة الجدري نفسه في بداية اليوم الثامن. (راجع رسالة ماري منتاغو زوجة سفير إنجلترا في البلاد العثمانية عام 1717 م (شوكت الشطي، اللب في الإسلام والطب، ص. 182).

... .الجذام: سيدنا عمر بن الخطاب هو أول من أسس مأوى للجذمى مع منحهم مساعدة من بيت المال وإعفائهم من الجبايات، بينما كان الجذمى يجبرون في أوربا على لبس الأسود وحمل جرس لإنذار الناس بمرورهم. واستمر ذلك إلى القرن العشرين، حيث أعدم في مكان واحد

(4269/1)

تسعة وخمسون مجذوماً أوائل الحرب العالمية الأولى، تجرأوا على مغادرة مخيمهم يوم عيد. وقد بلغ عدد الجذمى في العالم في السبعينيّات اثني عشر مليوناً حسب إحصاء »المنظمة العالمية للصحة«. ومن الدراسات الدقيقة في الموضوع، كتاب "الاقتصاد" لأبي مروان عبد الملك بن زهر. وقد ألفه لإبراهيم بن يوسف أخي علي بن يوسف بن تاشفين (مخطوط باريس 2959، ومخطوط

الإسكوريال المحرر بالعربية وبحروف عبرية) وأوضح فيه الفرق بين الجذام والبهق ومسألة العدوى التي أفرد لها رسالة خاصة لم تصلنا.

(4270/1)

... .الحصبة أو الحميرة (بوحمرون) (راجع ما قاله عنه بنسيمون في قسم الطب التقليدي). ولم يعرف المغرب الحمى الحصبية.

... ."الحميات" (أرجوزة في الحميات والأورام لابن عزرون هارون بن إسحاق (خم 6001)). أما الحمى الوبائية، فلم تعرف في المغرب بالرغم من انتشارها بأوربا، وكانت مصحوبة بحبوب صغيرة؛ كما لم تظهر إصابات بالدفتريا أو التفويد إلا نادراً (رينو، ص. 140).

... .الربو: رسالة لموسى بن ميمون الذي عاش بفاس (601 هـ/ 1206 م)، وهو المعروف بالضيقة.

(4271/1)

... .الزهري («النوار» في العامية المغربية)، وهو المرض الإفرنجي.

[H. P. J. Renaud-Abulcassis, « Avicenne et les grand médecins arabes ont-ils connu la syphilis ? », Communic. présentée au Congrès de médecine de Tunis, mai 1934, La Tunisie médicale, n° 10, 1934.

H. P. J. Renaud, Documents marocains pour servir à l'histoire du « mal franc », Textes arabes publiés et traduits, I.H.E.M, T. XXVII, Paris, Larose (1935, 123 et 39p. de texte arabe).

(4272/1)

Marie Margueterie Irasque, Contribution à l'étude de l'organisation de la prophylaxie des maladies vénériennes au Maroc, Bordeaux, 1926, p 108.**]**

... .السل: لاحظ رينو (الطب القديم بالمغرب، ص. 141) **أنه بقدر ما كان داء السل منتشراً في الصغار، يقل لدى الكبار. وبالرغم من الحياة في الهواء الطلق، فإن قلة وسائل الدفء .خاصة في البادية .كان من شأنها أن**

تثير السعال وداء المفاصل (الروماتيزم)، ولكن المغاربة كانوا يكثرون من المعاجين والأدهان الساخنة (ص. 142).

(4273/1)

... .السن (مرض...) كان أطباء الأسنان بالمغرب يقلعون السن المسوسة بأدوات خاصة. ذكر منها رينو (الطب، ص. 135) مجموعة بعضها مصنوع في المغرب، وبعضها مجلوب من أوربا. ومن الأطباء من كان يضمخ السن بمركب من الثوم والملح والحريف (وهو الفجل الوحشي أو الحرف)، ثم يملأون السن المسوسة بجذر جوز ريان بعد غمسه في اللبن ويغطى الكل بالصمغ. وقد اقترح ابن رشد في شرحه لابن سينا ما يصفه الأطباء اليوم، وهو تبديل الهواء في الأمراض الرئوية. وقد أشار إلى جزيرة العرب وبلاد النوبة بصفتها مراكز شتوية (جوستاف لوبون، حضارة

(4274/1)

العرب، ص. 531 [الطبعة الفرنسية]).

... .العظام (جبر...): كان الأطباء المغاربة يعمدون في جبر الأعضاء المنكسرة إلى طريقة الدلك التي سبق به المغاربة .كما يقول رينو (ص. 134) .اكتشاف لوكاس شامبيونييير. وكان مما يعطي الطبيب لمن كسرت عظامه »إيلاَّن«، وهو حب يكثر في ناحية مراكش غني بمادتي الفوسفاط وكاربونات الجير. وقد مهر أفارقة هاجروا إلى أمريكا منذ قرون في جبر العظام (محاضرة للدكتور روجي دالي (Roger Dalet)، المركز الطبي بإنزكَان حول المعالجة بالإبر (acupuncture).

(4275/1)

... .العين (مرض...): كانت أمراض العيون تشكل مع الزهري ثلثي أمراض أفريقيا الشمالية. وكان للكحالين، أي أطباء العيون المغاربة، أساليب مفيدة لمعالجة أنواع الرمد، ولهم فيه مهارة، وكذلك في الجزائر. وكانوا يزيلون غشاوة العين بمهارة لإعادة البصر مع عمليات أخرى أصعب (رينو، الطب القديم في المغرب، ص. 136).

... .الدمعة: هي مرض العين السائلة ("الرحمة في الطب والحكمة" للسيوطي، ص. 52).

H. P. J. Renaud, « Le trachome dans la **[**
médecine arabe marocaine ». Rapport
ème réunion de la Féder. Des8présenté à la

(4276/1)

Soc. médic. de l'Afrique du Nord, Tunis, avril
pages); T. Sarnelli, A propos du nom 7(1938
berbère « Tizri » dans le « guide oculistique »
de l'arabo-espagnol Mohamed al-Gafiqi (XIIè
siècle), traduit par M. Meyerhof, Actes du XXIè
1948Congrès des Orientalistes, **].**

... .الفتق (داء...): بروز عضو أو جزء منه خارج التجويف الذي يكون فيه عادة، وكان أطباء المغرب يوقفون الفتق بآلات من جلد أو ثوب محشوّ بالصوف (رينو، ص. 134).

(4277/1)

... ـ المعدة (مرض...): كان كثير الانتشار بالمغرب (رينو، ص. 142)، ويوجد كتاب حول مرض المعدة للزهراوي (Abulcassis)، مكتبة كلية ابن يوسف بمراكش/ أربع نسخ في خم 134 ـ 8354) وآخر بعنوان "طب المعدة" لابن الجزار (الظاهرية 3166/ المتحف العراقي ببغداد (2103)).

... والواقع أن الجهاز الهضمي كان موضوع اختصاص أبي مروان عبد الملك ابن زهر الذي تحدث عنه في كتاب "التيسير"، واستعمل أنبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع؛ كما استعمل الحقن المغذية. وكان سر نجاحه اعتباره أن الطبيعة قوة داخلية تدبر شؤون

(4278/1)

الجهاز البشري، وهي كافية وحدها في الغالب لعلاج الأدواء (كوستاف لوبون، حضارة العرب، ص. 530، [الطبعة الفرنسية]).

... ـ النقرس: توفي به في مراكش أبو الحجاج يوسف موراطير طبيب المنصور والناصر والمستنصر.

... .الطاعون والوباء: يظهر أن الطاعون كان له مفهوم غير مفهوم الوباء، حيث أكد ابن خلدون أن الطواعين أمراضها مخصوصة بالرئة (م 1، ق 3، ص. 544). والفرق بين الطاعون والوباء (كما يقول محمد بن أبي العاص الأندلسي صاحب "الرسالة في تحقيق الوباء") أن الطاعون مصحوب دائماً بذبيلة، أي عقدة عصبية ملتهبة؛ في حين

(4279/1)

أن الوباء قد لا يتمخض عن أي التهاب من هذا النوع ولكن كليهما قاتل. (عبد العزيز بنعبد الله، الطب والأطباء، ص. 64).

... .الطاعون (peste): مرض معد ينتشر مثل الوباء (Epidémie)؛ إلا أنه أشد خطراً منه. وقد ظهر »الطاعون الأسود الأكبر« الذي هلك فيه .كما يقول رينو .ثلث سكان المعمور. وقد صنف بعض الأطباء المغاربة مؤلفات في علل هذا الداء وطرق علاجه (رينو، الطب القديم بالمغرب، ص. 47). وقد أشار ابن خلدون إلى:

(4280/1)

... الطاعون الجارف الذي نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف المائة الثامنة، وتحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحاها. وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية في مداها، فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهى من سلطانها، وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أحوالها. وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر، فخربت الأمطار المصانع ودرست السبل والمعالم، وخلت الديار والمنازل، وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن. وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه. ("الاستقصا"، ج 3، ص.

(4281/1)

---

144).

وقد وصفها المؤرخون الغربيون بأنها تفشت في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، فجرفت بالقارة الأسيوية وأودت بحياة خمسة وعشرين مليون نسمة في أوربا.

وقد ظهرت طواعين أخرى في لندن عام 1665 م ومرسيليا عام 1720 م والشرق الأدنى عام 1799 م وخاصة بمصر، وكثيراً ما تجرف دورياً بالشرق الأوسط والشرق الأقصى، خاصة الهند وكذلك أمريكا اللاتينية.

وهنالك أصناف منها الطاعون الرئوي.

... وكان المغرب قد عرف عام 574 هـ طاعوناً أصاب مراكش هلك منه لدى مقدمه من قرطبة الشيخ أبو حفص الهنتاتي جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس

(1/4282)

وأفريقية، فدفن بسلا (الاستقصا، ج 1، ص. 61).

... وقد نصح المنصور السعدي ولده في رسالة وجهها إليه باستعمال الدواء إبان الطاعون الذي طرأ في عهده في وصفات تدل على براعة المنصور في الطب. ومن جملة ما أوصاه به عدم فتح الرسائل إلا بعد غمسها في الخل القوي ثم تنشيفها. وهذا يدل (كما يقول رينو، ص. 79) على أن المغرب كان يعرف إذ ذاك أن عزل المرضى أصلح وسيلة لدرء المرض. ولا ينبغي الخلط بين الطاعون والوباء، فالفرق بينهما ـ كما يقول محمد بن أبي العصا الأندلسي صاحب "الرسالة في تحقيق الوباء" ـ أن الطاعون مصحوب

(1/4283)

دائماً بذبيلة، أي عقدة عصبية ملتهبة؛ في حين أن الوباء قد لا يتمخض عن أي التهاب من هذا النوع، ولكن كلاهما قاتل.

... وقد لاحظ رينو أن »الموت الأسود« الذي هجم من الصين على الهند وروسيا وأوربا من عام 1334 م إلى عام 1350 م لم يوجد له أثر بالمغرب، وكثيراً ما ينشأ هذا المرض عن المجاعة والتلوث. وقد لاحظ رينو خلال المدة المتراوحة بين 867 هـ و1325 هـ، أي طوال أربعة قرون ونصف طرأت المجاعة بالمغرب ست عشرة مرة، ومنذ هذا التاريخ أي أزيد من ثلاثة قرون لم يقع قحط بالمغرب سوى ثماني مرات، أي كل خمس وثلاثين سنة

(1/ 4284)

تقريباً (ص. 76). وقد وقعت هذه المجاعة إبان الحماية الفرنسية حوالي 1940، بالرغم من الوسائل الوقائية الحديثة ووفرة المواصلات.

المراجع

ابن الخطيب، مقنعة السائل عن المرض الهائل، الإسكوريال، 1785، مدريد، ص. 269.

رسالة في أحكام الطاعون، خم 1854 **د، مكتبة تطوان،** 555.

ابن مبارك أحمد اللمطي تلميذ سيدي عبد العزيز الدباغ، جواب عمن حل ببلادهم طاعون هل يجوز الخروج منه فراراً أم لا؟ (خم 1348 **د). (راجع حديثاً شريفاً في الموضوع).**

محمد بن عبد القادر الصبيحي، تقييد في الوباء (خم 5323**).**

(1/4285)

أبو حفص عمر المالقي، مقالة في أمر الوباء (خم 1872 **د). راجع نصها في أزهار الرياض، ج** 1**، ط وزار الأوقاف المغربية. ص.** 125.

H. P. J., Renaud, « La peste de 1799–1818, d'après des documents inédits », Hespéris I, 1er trim. V, 1è trim.-III, 2, 1921-1er trim 1, 1925.

___ ___ ___, Recherches historiques ur les « épidémies du Maroc – Les « pestes » des XVè et XVIè siècles principalement d'après les sources portugaises », in Mélanges Lopes – Cenival, Lisbonne, Paris, 1945, pp. 363–389. (vol. VI de collection

(4286/1)

.(portugaise, Lisboa

Sur une épidèmie de la pulmonaire »

autochtone (pneumonie pesteuse primitive) au Maroc occidental », Bull. Soc. Path. Exotique, .798–791, pp. 1924, 9, n° 1924T. XVII,

Un nouveau document marocain sur la peste »

.89–83, pp. 1925er trim, 1», Hespéris, 1799de

Aperçu sur l'épidémiologie du Nord marocain »

, n° 1926», Bull. De l'enseign.. Public du Maroc, .((Rif et Jbala 71

Les pestes du milieu du XVIII e siècle », »

.319–293, T. XXVI, pp. 1939e trim, 4Hespéris,

(4287/1)

Guyon, J. L. G, **تاريخ زمني للأوبئة في شمال أفريقيا**

.1855

(4288/1)

العقلانية والوجدان في شعر المغرب الأقصى

الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله
عضو أكاديمية المملكة المغربية والمجامع العربية

...

... إن نظم الشعر موهبة والإبداع في نسج مناويله عبقرية توذن بحساسية متناهية وشاعرية خلاقة وكثيرة من فنون البيان وصنوف البديع لم يعرفه الخزرجيون ولاشراح كتب العروض كفن (المدرج) الذي لم يذكره سوى علماء الحديث.

... فاسم الشاعر لايطلق –كما يقول محمد بن العربي الشرقي –"إلا على من وصف في حرم المعاني بكل المشاعر أما من سلك طريقة واحدة فآراؤه فاسدة وبناءه على غير قاعدة" وهو يقصد بهذا

(4289/1)

التعريف جولات الشاعر وصوته في شتى مجالي الحياة التي يحاورها بكل أحاسيسه " فالضلاعة في علم العروض ليست شرطا في قرض الشعر لأن غاية نظم الشعر صفة كمالية والقدرة على نظمه طبيعة غريزية وإنما يحتاج لعلم العروض ليعرف المتزن من النظم من غيره، فسيدي

إدريس العراقي من العلماء المحققين كانت له اليد الطولى في العروض ومع ذلك لم يعرف له بيت شعر وكان لايقدر أن يلفق سطرا واحدا منه"(1)

---

(1) كلمة لأبي فوائد سيدي العبي بن السائح في رسالته إفادات وأنسادات وهي نسخة مخطوطة مصورة في مكتبتي الخاصة عن مخطوط الخزانة العامة بالرباط (حع)، ص. 12.

(4290/1)

.

... فالشعر فن له قواعده لاسيما الموزون منه لأن الشعر الحر والمرسل لايدخل في نطاق بحثنا هذا – وقد كانت مكتبات شعرائنا منذ العصور الأولى مليئة بالمصنفات التي استهدفت تقعيد هذا الفن.

وقد حفل المغرب عبر عصوره الزاهرة برجالات قاموا بحفظ وتدوين ورواية أشعار العرب في جنبات العالم العربي كافة منهم:

... – محمد بن أبي بكر الدلائي الشاذلي الذي انفرد بعلم اللغة وحفظ دواوين العرب وقد توفي (عام 1103ه / 1691م)(1) .

(1) الأعلام للمراكشي ، ج 4، ص. 367، الطبعة الأول.

(4291/1)

... – علي بن عبد الرحمن بن عمران السلاسي قاضي فاس ومفتيها والمحدث المولود (عام 960هـ/1552) الذي يكاد يحفظ (اكتفاء) الكلاعي ساردا عن ظهر قلب القصائد المطولات التي توجد فيه.

... – ومن أعلام الأندلس الذين أسهموا في دعم علمي الدراية والرواية بالمغرب محمد بن عبد الله بن قيس ابن الغازي القرطبي الذي توفي بطنجة (عام 296هـ/908م) وهو الذي أدخل الأندلس والمغرب علما كثيرا من الشعر والغريب والخبر وعنه أخذ أهل الأندلس المشروحة كلها(1)

---

(1) تاريخ ابن الفرضي،ج 1، ص. 323؛ بغية الوعاة، ص. 58؛ العبر للذهبي، ج 3، ص. 181.

(4292/1)

الكتاب : مجلة التاريخ العربي

... ذكر الحسن بن محمد الوزان وهو الأسد الإفريقي (في كتابة الذي نشره شيفر (Schefer)،ج2 ص.131).

... إن شعراء فاس كانوا يجتمعون في العصر المريني سنويا بمناسبة المولد النبوي لنظم الشعر كل صباح في ساحة « رئيس القناصلة » حيث يصعدون منصة لتلاوة قصائدهم أمام الجمهور فيختار أحسنهم شعرا أميرا للشعراء في تلك السنة وكان ملوك بني مرين يقيمون مأدبة للشعراء في مدح الرسول عليه السلام بحضرة السلطان وتقام منصة ويحكم الحاضرون حيث تمنح خلعة لأحسن شاعر وهي مائة دينار وفرس وأم مع خمسين دينار للباقين وتوقفت هذه

(4293/1)

العادة منذ مائة وثلاثين سنة (أي بالنسبة للقرن العاشر الهجري).

... وقد كان للشعر العربي وجهابذته أثر عميق في الفكر المغربي مما فتق عبقرية وشاعرية رواده الذين خاضوا غمار مناظرات عرفها أقطاب القريض ويكفي أن

نشير هنا إلى ما أبدعته يراعة عالم مغربي في هذا المجال وهو علي بن أحمد مصباح الخمسي اليصلوتي المتوفي عام 1125ه /1713م).

... وقد تردد على الساحة المغربية نتاج الفكر العربي في كل مجاليه ومحاوره فعرف المغرب صنوفه من هجاء ورثاء ومديح وتغزل وتشبيب ووصف للطبيعة ومآثر للدول المتعاقبة على المغرب وغيرذلك

(4294/1)

مما رسمنا بعض ألوانه في تراجم شعرائنا ضمن هذا البحث.

... وكان الشاعر العربي والمغربي يشعران ويعبران عن وحدة الصف والفكر والهدف في الوطن العربي ويتغنيان بأمجاده ولنستمع إلى البحتري يقول معرضا بطنجة والسوس:

إن شعري سار في كل بلد
أهل فرغانة قد غنوا به
وقرى طنجة والسوس التي
واشتهى رقته كل أحد
وقرى السوس وألطا وسدد
بمغيب الشمس شعري قد ورد(1) .

... وقد اهتم شعراؤنا بل وكل علمائنا وإن لم يكونوا شعراء كعلي بن أبي الحسين بن مومن بن محمد ابن عصفور الذي عرفنا جولاته وصولاته في

---

(1) معجم البلدان، ج6، ص. 365.

مراكش وأنفا والذي توفي بتونس (عام 669ه /1270م) وقد حلل لنا (سرقات الشعراء) وكذلك (الضرائر الشعرية)(1) وعلاوة على إسهامه في بلورة عطاءات المتنبي الذي أفرد ديوانه بشرح قيم.

* * * *

... وبرز شعراؤنا في التوشيح على نسق الأندلس فرسموا روائع بدوا فيها أحيانا ينابيع الاقتباس وممن نظم من المتأخرين على طريقة توشيح إبراهيم بن سهل الأندلسي (المتوفي عام 659ه /1260م) علي بن أحمد زنيبر السلاوي (المتوفى عام 1320ه /1902م) في رسالته : « درر عقد

---

(1) ذكر كتاب الضرائر هذا عبد القادر البغدادي في (خزانة الأدب).

(4296/1)

النصيحة بسك الإبريز بنحور جنة حبور مولاي عبد العزيز "(1) ومن مظاهر استكمال شعرائنا لأبواب القريض نماذج أشرنا إليها في صلب بحثنا وقد كان الشاعر الإفراني يفتخر بأنه أشعر الشعراء(كما في « درر المرصعة ») حيث قال:

أنا أشعر الشعراء غير مدافع

فكري هو البحر الخضم شبيهه

من قال لست بشاعر ياتيني

والحبر حاوي الجوهر المكنون(2)

---

(1) توجد نسخة بالخزانة الأحمدية السودية بفاس ضمن مجموع(80بيتا).

(2) الأعلام المراكشي، ج5، ص. 56 الطبعة الأولى.

(4297/1)

وقد جمع (ابن الأحمر إسماعيل بن يوسف) ما قيل من شعر من لدن كتاب بني مرين في "سيف منار القرويين"(1).

... أما المديح فقد شمل دررا غراء في مدح الرسول بالإضافة إلى مجم الملوك

... ونلاحظ أن مديح بعض الأمراء انصب خاصة على بعض مآثر كتنويه علماء شعراء أفذاذ وهم عبد الواحد الونشريسي ويحيى السراج وعلي ابن هرون بالسلطان أحمد الوطاسي بمناسبة تجديد

---

(1) في كتاب نثير الجمان من أهل المائة الثامنة من الفرسان (دار الكتب المصرية، عدد 1963/1791 وتوجد نسخة بالخزانة الحسنية بالرباط، طبع في بيروت بدار الثقافة عام 1967.

(4298/1)

بناء قنطرة الرصيف بفاس (1) .

... وقد انصب مديح بعض شعرائنا على الإنتاجات العلمية فقرض شاعرنا الفذ محمد بن اليماني الناصري شقيق زميلنا الشيخ المكي كتاب "الأعلام للمراكشي" فقال:

أنثير در أم حباب الكأس

أم أزهر الروض الأريض الكاسي

أم تاج مائسة القوام وقد بدت

تذكي الغرام بعطفها المياس

كما مدح شعراء آخرون السلطان محمدا بن عبد الرحمان العلوي من خلال الإشادة بالمطبعة الحجرية التي أنشأها بفاس منها قصيدة مطلعها:

سألت الندى والجود أين حللتما

---

(1) الإستقصا، ج2، ص. 178.

(4299/1)

وأين مقر المجد والأثرات(1) .

... وقد حرص علماؤنا على تجميع هذه الأنظام الرائعة في دواوين ك(الأمداح الحسنية) (أي السلطان الحسن الأول) التي جمعها عالم من سوس حين كان الحسن الأول خليفة بالجنوب (عام 1282ه /1865) (2) .

... وقد أشاد الشعراء في مدائحهم النبوية بشمائل الرسول عليه السلام أو بفضائل سرد أحاديثه أو التمسك بسنته وكان الملوك يهتمون منذ العهد السعيدي

أوائل القرن العاشر الهجري بإقامة حفلات لإنشاد البردة والهمزية و(بانت سعاد)

---

(1) نسخة مخطوطة في خع 1115د.

(2) نسخة بخزانة العلامة المختار السوسي.

(4300/1)

بمناسبة حلول شهر ربيع الأول فكان المنصور السعدي – كما ورد في" المنتقى المقصور في مآثر خلافة المنصور » لابن القاضي – (الباب الرابع) يستدعي الناس أيام المولد النبوي على ترتيبهم فيقرأ بعض القراء شيئا من كلام الولي الصالح محمد بن عباد ثم الميلاديات بألحان ذكية وإنشاد مقطعات الشعر.

... وقد دشن السطان سيدي محمد بن عبد الله إتمام (جامع السنة) بالرباط فأقام حفلا كبيرا حضره المادحون فكان التلحين مناوبة بين أهل فاس وأهل تطاوين ووزع بالمناسبة الأعطيات على الفقهاء والطلبة والمجاهدين(1)

---

(1) كتاب النهضة العلمية في عهد الدولة العلوية لعبد الرحمن بن زيدان.

(4301/1)

وفي عام (1290ه / 1873م) أقام السلطان الحسن الأول حفلة بمناسبة عيد الفطر بالرباط ختم خلالها "صحيح الإمام البخاري" على العادة الجارية وسردت خلالها نيف وخمسون قصيدة أجاز عنها كل الشعراء.

... وقد نظم علماء المغرب والأندلس قصائد في التوسل بالرسول عليه اليلام كانوا يوجهونها إلى القبر الشريف. ومن هذه القصيدة لابن مرزوق محمد بن محمد (خع 2417د) .

... ومن النمادج المصنفة في الموضوع كتاب "غنيمة العبد المنيب في التوسل بصلاة النبي الحبيب" لمحمد بن محمد بناصر الدرعي(1085ه / 1674م)(1)

---

(1) نسخة بالمكتبة الوطنية بتونس (3948م)، خم 7520، باريز 6230، القاهرة 334، 1.

(4302/1)

وهو مرتب على حروف المعجم لكل حرف خمس وثلاثون فقرة.

... -"القصائد المغربية في مدح خير البرية" لأحمد بن محمد المقري التلمساني الفاسي صاحب "نفح الطيب ».

... -"مجموعةقصائد على حروف المعجم" في الموضوع لأبي سالم العياشي(من 700 بيت)وقد

أشار أبو سالم في رحلته (1) إلى أمداح نبوية لشعراء مغاربة(2) .

... وأشار باشا السودان علي بن عبد القادر الشرقي المغربي (الذي كان مرفقا بمحمد بابا السوداني ومحمد بن عبد العزيز الدرعي وأحمد بن

---

(1) ج1، صص. 6، 9، 12، 310.

(2) جمعت في مخطوطة توجد بخزانة الأستاذ محمد المنوني.

(4303/1)

محمد السوداني) في رحلته إلى بعث رسالة سلطانية وتلاوة قصيدة أمام الروضة النبوية كما كان الأمر بالأندلس وفي عهد المرابطين (1) .

... وقد جادت قرائح شعراء المغرب بقصائد في مناسبات وطنية كالإشادة بتحرير العرائش وهي أنظام ألهبت قرائح المواطنين وحدتهم إلى مواصلة النضال لإجلاء العدو

(1) راجع في الأنيس المطرب للعلمي (القصائد العشرة في الشوق للبقاع المطهرة). وهي مرتبة على حروف المعجم (راجع مجموعة منها في ركب الحج المغربي لمحمد المنوني، ص. 44؛ راجع ملخص الرحلة في الأعلام للمراكشي، ج4، ص. 273، الطبعة الأولى.

(4304/1)

المغير عن (جيوب الساحل) في العهد الإسماعيلي.

... ومن هذه القصائد قول عبد الواحد البوعناني:

ألا أبشر فهذا الفتح نور

قد انتظمت بعزمكم الأمور

... وقصيدة لعبد السلام جسوس يعرض بوجوب تحرير سبتة قائلا(1) :

رفعت منازل سبتة أقوالها

تشكوا إليكم بالذي قد هالها

... وثالثة للشيخ عبد السلام القادري مطلعها :

علا عرش دين الله كل العرائش

وهد بنصر الله قصر العرائش(2)

... وقد نضم يوسف الشودري التطواني عند تحرير

العرائش قصيدة مطولة (170)بيتا قال فيها :

_____

(1) نزهة الحادي ،ج4، صص. 35و262.

(2) نفس المصدر ، ج4، ص. 36.

(4305/1)

الحمد لله الذي قد أظهر

عصابة الدين على من كفر

ونصر الإسلام والحق بدا

وضل من دين الطيب عبدا

... ولمحمد بن علي الرافعي التطواني قصيدة استهلها

بهذا الهتاف:

هنيئا هنيئا وبشرى لنا

بنصر سعيد وفتح مبين(1)

... ولعمر الحراق:

ومن عجب تروم الروم حربا

بسهل أو حزون أو جبال

وقد شهدوا العرائش يوم جاءت

بها الأجناد تزحف للقتال(2)

... ولنستمع للشاعر ابن الأعرج السليماني (1926م) وهو

يعبر عما فتت كبده من لواعج عند حصار الجيش

الفرنسي لفاس(عام 1329ه)

---

(1) نشر المثاني، ج2، ص. 40.

(2) تاريخ تطوان لمحمد داود، ج2،ص. 12.

(4306/1)

:

سلا هل إلى (وادي الجواهر من قرب

وهل أنبتت حافاته عاطر العشب؟

... (خع 1254د)

... ولمحمد بن الشيخ سيدنا بن المختار بن الهبة

الصحراوية (1284ه) شعر يحث فيه الصحراء المغربية

على الانتفاضة لمحاربة كل من المستعمر الفرنسي

والإسباني قائلا:

رويدك إنني شبهت دارا

ولو في المسلمين اليوم حر

على أمثالها تقف المهاري

يفك الأسر أو يحمي الذمارا

لفكوا دينهم وحموه لما

أراد الكافرون به الصغار

حماة الدين ُن الدين صارا

أسيرا للصوص وللنصارى

فإن بادرتموه تداركوه

وإلا يسبق السيف البدارا

(1/4307)

... وقد حفلت الدواوين بقصائد لاتخلوا من فائدة تاريخية ك "ديوان عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي" (836هـ / 1481م) وكان مفقودا فاستطاعت أكاديمية المملكة الحصول على نسخة طبعتها وهي تعطينا صورة عن حالة المسلمين بالأندلس قبل النفي العام بسنوات وقد سجل الناظم أحداث سقوط آخر مدن وحصون الأندلس.

... ومن الملامح الشعرية ما أشار إليه ابن خلدون (1) في " الحدثان" حول دولة لمتونة واستيلائهم على المغرب وكذا "نظم الدرر بآي أحمد أجل البشر" لأبي

---

(1) المقدمة ، م1، ص. 602، طبعة بيروت؛ معجم البلدان ، ج4، ص. 27.

(4308/1)

الحسن الرهوني وهو من الشعراء العلماء في منتصف القرن السابع الهجري يضم رجزه هذا 6.300 بيت نظمت بطلب من الخليفة المرتضى الموحدي (665ه و 1266م).

... وقد انبثقت من ثنايا هذه المجموعات الشعرية نفثات نسائية كتعريضات الجارية المطلومة التي نشأت بالمغرب وأهداها يوسف بن تاشفين للمعتمد بن عباد فرمى بها في النهر لسبب تعريضانها به(1) .

وهناك شواعر كسارة الحلبية الفاسية المتوفاة بمراكش (بين 656ه و 685ه) القائلة في مالك بن المرحل واعلها كانت تحبه

---

(1) نفح الطيب، ج2، ص. 454، طبعة مصر.

(4309/1)

ياذا العلي يا ملكا أنعم علي بمالك

وورقاء بنت ينتان الفاسية (توفيت بعد 540ه).

... وقد عرفت الصحراء المغربية شواعر مثل (ميمونة بنت محمد الحضرمي (المولودة عام (1307ه /1889م)) وكانت راوية للشعر مشاركة في العلوم.

... وقد عني المغاربة بما نظمه الشلحيون من قصائد عربية أو أسهموا بها في إثر الفكر الإسلامي والشلحة هي لغة رجال الأطلس الصغير وهم الشلوح (وفيهم عرب من آل البيت لايعرفون العربية) يقابلها في الأطلسين الكبير والأوسط والريف (تامازيغت).

... وممن برز في الشلحة :

(4310/1)

... –الشاعر جامع بن محمد بم علي أيليغ (1387ه /1966م) (1) من قرية إتوزونين) في (أقا).

... –حمو قيس : له قصيدة في المديح النبوي (خع 9356).

... –حم المازغي : له نظم بالشلحة في التوسل بسيدس أحمد وموسى (ثلاث نسخ مصورة في خع 1321د).

... –الشيخ علي الدرقاوي والد الأستاذ محمد المختار

السوسي (1328 ه/1910م) نظم "الحكم العطائية" بالشلحة يقرأأصحابه كل صباح بعد مجلس الذكر ولكنه لم يستوف كامل الحكم(2) وهناك عشرات الشروح النثرية المصنفات

---

(1) المعسول، محمد المختار السوسي، ج16، ص. 261.

(2) المعسول، ج1، ص. 184.

(4311/1)

عربية كشرح بالشلحة لعبد الله بن يحيى الحامدي (خ1098د).

... وقد نظم علي الهوزالي (1) شعر بالتركية يمدح به بعض العجم وهو أحد كتاب الإنشاء بباب ولي العهد السعدي عبد الله المامون بالحضرة الفاسية رحل إلى القسطنطينية مع القائد أحمد بن يحيى الهوزالي(2) .

... ومن أغرب اهتمامات علمائنا بما ينشر عنا خارج المغرب باللغات شعرا أو نثرا قيام العلامة محمد بن علي دينية الرباطي (1358ه/1938م) بتجميع وطبع أربعين قصيدة إسبانية وعربية لبعض

---

(1) من هوزالة (أوزال) بسوس.

(2) روضة الآس للمقري (الطبعة الملكية بالرباط، ص. 90)

(4312/1)

المستشرقين من الإسبان(1) .

... وقد استعرضنا فعلا الكثير من شعراء المغرب منذ أزيد من ألف عام رتبناهم على الحروف الألفية فناب حرف الألف وحده (235) شاعر فيهم الحضري والبدوي والصحراوي تبلور عطاؤهم في فسيفساء زاخرة بألوان اختلفت مجاليها وتنوعت مواجدها في وحدة فكرية تناسقت أجزاؤهم بين المتوسط والمحيط وعبر الفيافي القاحلة مما قد لانجد له إلا المثيل النادر وقد انعكس على هذه الشاعرية – بالإضافة إلى نوافح الوجدان إحساس غامر بوصف مظاهر الطبيعة ومجالي الحياة التي ينغمر فيها

---

(1) طبعة في تطوان في 144 ص.

(4313/1)

الشاعر، فتجد بين أصناف القريض بوادر وبوادره تشهد بتلقائية هذا الفيض الشاعري الغامر الذي اتسمت بعض مظاهره بميزات طغت أحيانا على التقاليد الكلاسيكية مما يبرز نوعا من روح التجديد إذ هناك نماذج من الأنظام الغزلية تقصد فيها أصحابها الاستهتار شكلا ومضمونا كابن غزلة الذي تغزل بأخت عبد المومن بن علي (رميلة) الشاعرة الزجالة فأوغل كما أوغل استخفافا بالقواعد فلحن في الموشح وأعرب في الزجل بالموشح عن ظريق إعراب بعضه كما ألحق الموشح بالزجل فزنمه وعرفت موشحاته بالموشحات المزنمة.

(4314/1)

... وقد حاد نافع التغزل بعض علماء الحديث إلى إفراغ قواعد الدراية والرواية أي مصطلحات الحديث في قوالب غزلية كقول ابن فرج اللخمي المراكشي (699ه) في مطلع قصيدة علمية :

(غرامي صحيح والرجا فيك معضل)

(والحديث المعضل معروف)

... وقد قال أبو المواهب سيدي العربي بن السائح في

وصف الأتاي مستعملا كلمة (معضل) وقد كان الناس يتركون شرب الشاي لما في السكر (آنذاك):

وارو المسلسل موصل الإسناد

واترك مقالة معضل في شأنها

(4315/1)

... ومن الشعراء الذين حاولوا التلاعب بضبط الألفاظ تلميحا لبعض الصفات الشاعر الهرغي عبد الله بن محمد الذي حج (عام 747ه)، حيث ألغز في (البربر) قوله :

وعيش أعاليهم إذا صم أوله
وبالسكر من كل عليه معوله

وما أمة سكناهم نصف وصفهم
ومقلوبه بالضم مشروب جلهم

... ("الدرر الكامنة"لابن حجر جر2،ص.402).

... ولشاعر الدولة السعدية عبد العزيز الفشتالي (ت 1031ه) مولديات نقشت بها كتابات في (قصر البديع)

بمراكش مع وصف رائع للمهرجانات المخزنية وحفلات الشموع.

(4316/1)

... وقد مدح محمد بن عليالوجدي الغماد (قبة الريح) وهي إحدى قباب المنصور السعدي بمراكش فقال : مشيرا إلى (قبة الخيول) (وقبة النصر) :

ومنظرلجياد حول ريحان
وتاج الملوك الإمام الشيخ أنشاني

أنا التي لسرور النفس مبدعة
لقبة الريح والأفراح ناظرة
... وقد نظم محمد بن يوسف النجاري الفاسي في (السد) الذي بناه المنصور السعدي :

حاز الفخار بها أبو العباس
شتى مكارم لم تعد لقياس

سد تعاظم أمره من فاس

فأقلها تأسيسه وسداده

("الجذوة"،ص.149 ؛ "روضة الآس" للمقري طبعة الرباط، ص.338).

(4317/1)

... ومن شعر صاحب القلم الأعلى (أبي القاسم ابن رضوان) كتب على دواة موشاة بالذهب للسلطان (أبي سالم المريني) جاء في مطلعها :

وفقت بمنظري زهر الربيع

لبست محاسن الوشي البديع

... أما المنصور الموحدي فقد حظي بمعظم "ديوان يحيى بن عبد الجليل الشقوري المراكشي" (587ه) الذي تضمن (9.4000)بيت وصف فيها (مقصورة القصبة) التي كانت تتترك بدواليب آلية وقد أشار إلى ذلك (ابن خلكان،ج2،ص.328).

... أما الهجاء فقد ورد فيه السبك المالوف كما عرفت فيه نمادج بديئة نتحاشاها .

(4318/1)

... كما حفلت الدواوين مناظرات ومساجلات شعرية حول مدن وحواصر مغربية (1) وغير مغربية حيث تضمن "إتحاف أسراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا" لمحمد بن علي الدكالي السلوي (المتوفى بفاس عام 1364ه/1945م) ردا في نحو (3000) بيت علي رسالة ابن الخطيب السلماني (مفاخرة بين مدينة مالقة ومدينة سلا) (خع 383/11 (65 ورقة / خع 227)).

... وهنالك سجلات حافلة بألوان معرفية تحيد أحيانا عن مستهدفات القريض كنظم " رحلة حجازية "رحلة حجازية"(2)

---

(1) الأعلام للمراكشي، ج7، صص. 95، 106، الطبعة الأولى.

(2) لمحمد بن سعيد بن محمد الرعيني السراج الفاسي(778ه/ 1376م) الجذوة، ص. 147؛ السلوة، ج3، ص. 278، وله أيضا رسالة في الوعظ والشعر.

(4319/1)

وأراجيز في الطب ("أرجوزة ابن طفيل" في 7000 بيت) و "الياقوت الفريدة في نظم العقيدة " لأحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي (1175هـ /1761 م) و "الجملة الشعرية في بعض الأمثلة النحوية " (وهي نظم للأجرومية في أكثر من 100 بيت لأحمد بن صالح) وغيرها .

... ومن الأنظام الفكاهية قول الشاعر القاضي (بسير) جد أبي حامد البطاوري الرباطي :

ومسكا وكافورا فقلت له...(يستنشق)

ومسكي وكافوري فقلت له... (يستنثر)

مررت بعاطر يبيع قرنفلا

فقال العطار رد قرنفلي

(4320/1)

... ولعلي بن محمد الشودري التطواني (كان حيا عام 1078هـ) رجزفكاهي يشكوا فيه حالة عدول عصره إلى قاضي تطوان محمد بن قريش : ولمحمد ركشة الرهوني (المتوفي عام 1230هـ قصيدة رثى بها الشيخ التاودي بنسودة مطلعا :

فأمست قلوب العالمين على جمر

لقد غربت شمس الزمان لدى العصر

... (خع 158د) .

... وقد توافرت في الديوان المغربي صوفيات وزهديات كشعر الحراق الذي كان يضاهي (ابن الفارض) في مثل قوله :

وتحسبها غيرا وغيرك ليست

اتبحث عن ليلى وفيك تجلت

(4321/1)

... وقد عارض الشاعر مسعود المريني ابن الوفا وابن الفارض في قصائد رائعة منها :

ونحن مع البطالة لانبالي

سهام الموت راشقة النبال

... ولمحمد العربي بن أحمد بردلة الفاسي (1032ه)

بيتان جريا مجرى المثال :

وأمرك ممتثل في الأمم

فإن الهموم بقدر الهمم

وقائلة لم عرتك الهموم

فقلت ذريني على حالتي

... (شرحهما أبو المواهب سيدي العربي بن السايح في رسالة وجيزة).

... وقد جمع شعراء بين الموزون والملحون كأحمد بن الطيب السفياني الفاسي (المتوفي عام 1286 ه) حيث قال :

إنني شائق لحسن بهاك

فغدا القلب لايروم سواك

(1/4322)

يابديع الجمال روحي فداك

ذاب جسمي يامالك العقل مني

... وهو القائل أيضا :

وماقلبي من ألم واكتئاب

وأنا في رقة شيخ وشاب

ياترى محبوب قلبي هل درى

وعذابي في هواكم حلا

... وقد فاق التهامي المدغري المتوفي بفاس (عام

1273ه) أهل زمانه في الزجل وشحن ملحونه بالقضايا التاريخية تلميحا وتصريحا دون إغفال الغزل والحب والخمريات ووصف الطبيعة وكان أستاذا في (جامع ابن يوسف) بمراكش.

... ومنهم من نظم تمجيدا لمسقط رأسه كالشاعر عبد المالك التجموعتي قاضي سجلماسة (المتوفى 1118ه) الذي مدح طنجة في قصيدة مطلعها :

(4323/1)

بثغرك الأشنب ياطنجة

ليهنك أن زدت الهدى بهجة

... كما مدح محمد ابن داني التازي الكبير (1305ه) مدينة العرائش قائلا :

وإن غبت عنها تشوقتها

بمرسى العرائش ما يشتهي

... ومثلها قصيد للوزير ابن إدريس في مدح فاس :

بفاس وحولي من مناي ثلاث

أجل بهم بين الورى وأغاث

وهل يبدوا لي زالغ وتغاث

الا ليت شعري هل أبيتن ليلة

مغان بها أغنى وأهل وجلة

وهل أردن وادي الجواهر جهرة

... (وزالغ تغاث جبلان محيطان بفاس).

... وللشيخ العربي بن محمد بن يوسف الفاسي لما تغرب

عن فاس :

وقد شب في أحضان فاس وشابا

(1/4324)

وأي الحياة غير فاس تروقه

ويحسب ما فوق التراب ترابا

يرى كل ترب دون تربتها قذى

... ولمحمد الفاطمي الصقلي (1311ه)

دار تطيب بها للطيب أنفاسي

حيي الحيا الواكب الأرجاء من فاس

كما يفوق بنوها جملة الناس

تفوق أندلسا والشام نظرتها

... والواقع أن الشاعر المغربي قد استوفي جميع أصناف القريض في إبداع وتلوين ودقة في التعبير والتصوير والتنظير مع بادرات رائعة أضفت –كما رأينا – طابعا خاصا على هذا اللون من الإشعاع الفكري الذي لو حاولنا تقصيه لاستغرق الاستقراء العديد من المجلدات وأروع ما نلمسه في مختلف الأنظام

(4325/1)

الصراع بين نوازع وجواذب متضاربة حيث زخر الشعر المغربي توالي العصور برنات حماسية وخلجات عاطفية ولقاءات واقعية غلب جانب منها أحيانا على جانب آخر تبعا للنوازع التي فجرت المشاعر فكان للحروب الصليبية أثرها ولمأساة الفردوس المفقود وخزاتها منذ القرن التاسع الهجري أنست الشاعر ورود الخدود ورشاقة القدود فامتلأ الشعر وأصبح نحيب الشعراء ينسكب في مراثي محزنة كلما استولى العدو على مغني من مغاني العدوتين أو مربع من مرابعهما ولعل هذا التفتح انطلق منذ ألف سنة حيث قال الإمام السهيلي المراكشي عندما خرب الإسبان

(4326/1)

مسقط رأسه (سهيل) :

أم أين جيران علي كرام

حيى فلم يرجع إليه سلام

يادار أين البيض والآرام

راب المحب من المنازل أنه

... وقام (أبو بكر محمد بن صاحب "الصلاة")خطيبا في وفد الأندلس أمام عبد المومن بن علي فأنشد من حماسياته ما أذكى النفوس وألهب الأحاسيس وأهاب بالخليف إلى نجدة الأندلس المهدد وهنا انتزجت روح الشاعرين المغربي والأندلسي في زفرات علي انتثار عقد الأندلس الذي ظل منتظما نحوا من ثمانية قرون فبكى أمثال (أبي البقاء صالح بن شريف) وأبكى حين قال :

إن كان في القلب إسلام وأيمان

(4327/1)

لمثل هذا يذوب القلب في كمد

... غير أن الشاعر ما لبث أن عاد إلى أفانينه زمنازعه في التغني بالسوالف والخدود فقال السلطان زيدان بن المنصور الذهبي:

وعيون مدعجات رقود
وشعور على المناكب سود
وخضعنا لها ونحن أسود

فتنتنا سوالف وخدود
ووجوه تبارك الله فيها
أهلكتنا الملاح وهي ظباء

... وانساق الشعر عبر القرون التالية في متاهات الحب وفيافي الوجدان ، فلنستمع ألى الشاعر (المهدي الغزال) وهو يصف راقصة :

بين الغواني رقصها طرب
بدر تبدى حوله كوكب
قامت بكأس الراح راقصة
كأنها والكأس في يدها

(4328/1)

... ثم يقول متأثر بزهادة العصر :

وكل آت قريب

يعتريك منه وثوب

الموت لاشك آت

فثب وثب قبل أن

... وللشاعر عبد القادر بن شقرون القائل :

إن عراني السقام فهي الدوالي

حفظ الله عهد تلك الليالي

وظباء قنصتها باحتيال

اسقياني كؤوس بنت الدوالي

كم ليال قضيتها في نعيم

بين راح وشمعة ومغن

... ولاتكاد بصدق أنه هو القائل في نزعة صوفية عارمة :

صدر من صدره من العلم خال

رب يسر لعبدك الفتح واشرح

... ومن شعر (علي مندوصة) الذي قيل عنه إن كلامه

(يغار منه امرؤ القيس ويحن إليه جميل بثينة وقيس):

بسهم نضي اللحظ أرياشه هدب

إلى كم فدتك النفس ترمي فؤادنا

... إلى أن قال :

مفوفة هيفاء هام بها الحب

سوى أنها عذراء ناهدة عرب

فدونكم ربات قرط خريدة

مبرقعة لمياء غضة بضة

... ونسمع في مسارنا هذا عبر العصور الحديثة قول الشاعر (الهاشمي شكلانط) الرباطي وهو يلهو في وصف أمرد :

آل يافث

المثاني والمثالث

قال دع عنك الوثاوث

ولحظ ورشله لسحر منافث

يخطأ السين إلى ثاء

قلت جدلي بوصال

... ويذكر هذا الشعر المرح ببيتين ساقهما الجاحظ في "البيان والتبيين" :

يفعل ملا ينبغي

قال بلى أنا بغي

وألثغ رأيته

قلت له أنت بري

(4330/1)

... وظل الشاعر متأرجحا بين همسات المواثيق والعهود ونوازع الخدود والنهود إلى أن انبثق فجر القرن العشرين فعاد الشاعر ألى حماسه الوطني وانبرى أمثال محمد غريط صاحب "فواصل الجمال" يردد نشيدا نحا فيه منحى طريفا في التوشيح مناديا :

داعي النصح المنير

كان ذا صيت شهير

واركبوا كدا وجدا

والبسوا للحزم بردا

يابني الدهر أجيبوا

واستجدوا ذكر قطر

جددوا للغرب مجدا

واقدحوا للعلم زندا

... وعبد الله الفاسي سفير السلطان مولاي عبد الحفيظ

بباريس القائل :

هاذي المآثر والآثار في الدول

متن البسيطة في سهل وفي جبل

(4331/1)

أعلاه تفعل فعل الفارس البطل

ليس التمدن بالألحان والغزل

هادي المناطد فوق الجو تنشدنا

هذا القطار يحد الأرض ممتطيا

هاذي البواخر في عمق البحار وفي

هذا التمدن هذا الفضل فاعن به

... ومع ذلك فقد ظل الشاعر يتغنى ويتشبب لافرق في

ذلك بين عالم زاهد وفتى خليع فاستمع إلى الفقيه

الناسك أحمد البليغيثي :

ولكن لها في القلب وقع البواتر

لواعج أشواق كحر الهواجر

بدت لي ترنو بالعيون الفواتر

بدت لي وفي قلبي المعنى بحبها

(4332/1)

... وكان لشعر الثورة والنضال دور فعال في تحريك الهمم واستغفار الجماهير للإسهام في الجهاد للجوار إلى الأندلس لنشر الإسلام أو تحرير "الجيوب"التي احتلها البرتغاليون والإسبان في سواحل المغرب بعد سقوطالأندلس . وبعد معركة أسلي (1260ه/ 1844م) نظم الصنهاجي الرباطي أرجوزة خول صنعة المدفع رفعها إلى السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام عام (1266ه).

... وبعد هزيمة تطوان (1276ه/1860م) نظم المكي بنقصابة ومحمد سباطة أرجوزة مشتركة رفعاها للسلطان محمد ين عمد الرحمان عام (1288ه/1872م) .

(4333/1)

... ومن شعراء الرباط البارزين الذين طرقوا كل أبواب الشعر أبو المواهب سيدي العربي بن السائح الشرقي

العمري العلامة الصوفي وندرج هنا صورا من إبداعاته في شتى المجالات :

... فقد قال في المديح النبوي والإستشفاع :

وأذا بنى الهم المليم الأصعب

أرياحها بي كل وقت تلعب

من يرتجى أومن إليه المذهب

أحزان قلب كل يوم ينصب

لجنابها الأزلي المعين الأعدب

إني إذا ضاقت وعز المطلب

ورمتني الأيام رمية من غدت

ويئست من كل الوجود ولم أجد

وتكاثرت عني الهموم وضوعفت

تأدبت يا أماه يا من قد صفا

... وله أيضا :

(4334/1)

وتمتع الطرف من سنا محياك

من حر ثار الجوى شوقا لرؤياك

متى تجود على المضنى بلقياك

ويبرد الوصل ما بالقلب من لهف

... وقال :

طيبا بديعا في بجيع صوان

من فعله قرت نها العينان

أهدى إلي الطيب الأردان

فألام لي الظن الجميل بشارة

... وقال :

يسبح القمر الوضاح لله

عم الوجود سنا بقدرة الله

يامن لطلعته الغرا إذا وضحت

ومن إذا افتر في الظلماء مبسمه

... وله :

فكانت وحق الحب أسنى الغنائم

زماني وبعد الحرب أضحى مسالمي

وساعة أنس من حبيب غنمتها

بها عاد من بعد البعاد مساعدي

... وله يمدح مثال النعل النبوي :

(4335/1)

من مقام وارتحال

شرفت بين النعال

بغيتي في كل حال

لثم تمثال نعل

... وله :

والأنس لغيري يسعده

أن قد حللت سواد القلب والحفق

مما يكابد من جوى ومن حرف

كم ليل أبيت سمير أسى

رفلت في الحلة السوداء معترفا

وهل ترف لقلب أنت ساكنه

... وله في رثاء الهادي بادو المكناسي وهو من شيوخه

(توفي في ثامن عشر صفر 1278ه):

كأنما الروح منك في تراقيها

كأنما اليم بحر من مآقيها

مابال نفسك عز اليوم راقيها

وما لعينيك لا ترى مدامعها

... وله :

تغار منه حسنه الدراري

كأنه صيغ من نضار

لج به السكر في العثار

(4336/1)

وهو من الزهو في الخمار

وشادن أبلج المحيا

يقدمه إن مشى سناه

إن رام في مشيه انطلاقا

لاموه في الزهو إذ ترى

... وله :

لما رماه رشا الجمال بنبله

نهاره بين الأنام وليله

ومتيم ذهب الغرام بعقله

فقدا بقيد القوم غير مميز

... وقال :

لها وجنة فيها الأزاهر نابتة

تكلمني ألحاظها وهي ساكتة

بروحي أفدي ظبية بدوية

إذا رمت منها تكلمني غدت

... وله من شعر الثورة والجهاد قصيدة أنسأها عقب

(وقعة إسلي) مطلعها :

كأنني بصباح ليلها انبلجا

إن الهموم التي قلبي لها انزعجا

(4337/1)

... وله رضي الله عنه في زوجته عائشة الشرقية

الحفيانية :

فلم تخطه إذ لم تكن عنه طائشة

لديها وشوقا نحوها وهي عائشة

وريم رمت قلبي بأسهم لحظها

منائي من الدنيا أموت صبابة

... وتقارب آنذاك أبعاد الوطن العربي في خضم التحالفات الاستعمارية فاشتد حنين بعضها لبعض وبدأ المغرب يردد في تلهف وحنان أصداء الشرق المتنائي الذي حالت دونه حجب مغتعلة مترسما خطاه في كل شاذ وفاذ فعبر الشاعر المغربي عن حرقة الأدباء في فجيعتهم
بـ(المنفلوطي) حيث أنشد (محمد بن اليمني الناصري) هذا اللون الجديد من الشعر مشيرا إلى بعض

(4338/1)

مصنفات الفقيد .

نحو الثرى وتسلسل "العبرات"
ذاك الأبي مذلل العقبات

وما للمعارف ترسل "النظرات"
فالمغرب الأقصى يعزي مصر في
... ومنذ ذاك بدأنا نستشف من حلال نماذج شعرية اتجاها جديدا في التفكير ولكن التأرجح بين العقل والوجدان قضى بغلبة هذا على ذاك فهذا الشاعر الكبير علال الفاسي يقول :

حليف هوى مغر وخدن أذى معدي

فتابي سوى صدى وتابي سوى ردي

ولكنها تطغى على العقل في الحد

ظلالا من الألوان لامعة المد

مضى الشطر من عمري وإني دائما

وأطمح للروح كبلسم جرحها

وأطلب عقلي منجدا في كفاحنا

(4339/1)

تجاذبني أهواءها وتمد لي

... ولكنه فجر مع ذلك في دواوينه سيولا غامرة فتقت

قنوات الصراع وينابيع الاستشهاد في الكفلح ضد

المستعمر .

... ومثله علد الله إبراهيم في قوله :

أفشته ألسنة القضاء

ليس يحكمها ذكاء

تجيب في لغة الضياء

سر كرعش الكهرباء

فأنا هنا قوى اندفاع

فسل النجو لو النجوم

... إلى أن قال :

وكيف أفشاني القضاء

وما بنته إلى الفناء ؟

ياليت شعري ما القضاء

أمصير أتعاب الشعوب

... وقد أدليت بين الدلاء وأنا ابن العشرين فقلت أصف الربيع :

لما بدا ضوء القمر

عرف الربيع قد انتشر

خده موج البشر

(4340/1)

ببرقة تجلو النظر

فيشع بالزهو البصر

فتزاحمت فيها الفكر

من فوق أفناها الشجر

مثل الولال بلا وتر

النور بدد ما اعتكر

والأرض في جنباتها

وانساح في الروض المنمنم

فالجو يغشاه السناء

والقلب يخفق نشوة

والنفس نبع فيضها

والطير يشدو زاهيا

نبراته ورقراقة

... تلك نماذج مزجاة لعلها ترسم لنا صورة واضحة عن هذه الفسيفساء التي أبدعت زخرفتها شاعرية مغربية فياضة منذ أزيد من ألف سنة وقد حفل بحثنا بتراجم لهؤلاء الشعراء ألحقنا بكل ترجمة خلاصة المظان والمراجع التي استقينا منها وهي تشكل رصيدا ثريا أحلنا عليه القارئ

(4341/1)

الكريم ليقتبس منه المزيد من الإنتاج الشعري المغربي ونود الآن الإشارة إلى مراجع أفردت لوصف هذا التراث وقد سقناها على سبيل المثال لاالحصر منها (حسب الترتيب الأبجدي) :

... – "نثير الجمان في نظم فحول الزمان من أهل المائة الثامنة من فرسان الكتيبة الكامنة " (الفصل الثاني في "شعراء الأندلس والمغرب") لأبي الوليد بن الأحمر.

... – "شعراء أهل البيت" : ديوان جمع فيه السلطان المنصور السعدي شعراء أهل البيت أتى فيه على أزيد من ألف ترجمة مع شعره هو ("كشف الظنون" ، ج 1 ، ص . 400) وأشار الشهاب في الخبايا إلى هذا

(4342/1)

الديوان وذكر (الزياني) أنه وقف عليه ألا أنه لم يستوف الألف شاعر من أهل البيت .

... – « الكوكب الثاقب في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوي المناقب » لعبد القادر بن عبد الرحمن السلاوي الفاسي ألفه (عام 1176ه /1762م) يحتوي على مقدمة وعشر أبواب وخاتمة في غرائب الشعر وفنونه وحكاياته) (4845 أدب) / مكتبة الشاذلي النيفر بتونس / دار الكتب الوطنية بتونس ق 275 ، س 25 / مكتبة حسن حسني عبد الوهاب 18429) ("السلوة" ، ج 2 ، ص . 186 / "فواصلالجمان" ، محمد غريط ، ص.199).

(4343/1)

... – "كناشة عبد العزيز الغريس" أورد فيها أشعارا وتراجم مغربية)خع 1081 د).

... – كناشة لعبد الواحد بن محمد بن فقير المكناسي" (1317ه / 1899 م) جمع فيها أشعار أدباء القرن الثالث عشر (خع 158د /157د) .

... – " المطرب من أشعار أهل المغرب " ، تحقيق د. مصطفى عوض لعمر بن الحسن ابن دحية السبتي (633ه / 1264م).

... – " الأدب العربي في المغرب الأقصى " لمحمد بن العباس القباج (1399ه / 1979م) طبع في مجلدين عام 1929 وتجدد طبعه أخيرا .

(4344/1)

... – "الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة " لابن الأبار محمد بن عبد الله القضاعي (658ه /1259م) (نسبة بروكلمان غلطا لابن الخطيب).

... – "الكتيبة الكانة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة" لمحمد بن عبد الله ابن الخطيب السلماني (776ه /1374م) طبع ببيروت (عام 1963 كاملا وطبع

طرف من أوله بمطبعة يمني بفاس (عام 1327ه/1909م)

... توجد نسخة في خزانة القرويين (خق د132 / المكتبة الوطنية بتونس (408م) / ثلاث نسخ في خم (559 /756 /6117)مكتبة الكلاوي (خع) / مكتبة تطوان (192) الزاوية

(4345/1)

الحمزاوية 128 – 141) . ...

... – "قصائد مختارة لأدباء العصر " لمحمد بن علي بن محمد بن أحمد الرافعي التطواني (كان حيا عام 1116ه / 1698م)؛ ("تاريخ تطوان "، ج 1، صص . 372، 390 ؛ ج 2 ، صص. 12، 30) ، (وهو صاحب ديوان الشعر الحاوي لثلاثة آلاف بيت مرتب على حروف المعجم) .

... – "الروض الأيض من بديع التوشيح ومنتقى القريض" ، وهو ديوان شعر لمحمد بن قاسم يم محمد ين عبد الواحد ابن زاكور الفاسي (1120 ه / 1708 م) صاحب "عنوان النفاسة في صرح ديوان الحماسة" (يوجد النصف الأول منه في الزاوية الحمزاوية ، صص . 110،

(4346/1)

164) .

... – "كناشة" لمحمد بن محمد بن الحاج بن سودة (1122هـ / 1710م) تحتوي على مختارات أدبية لشعراء من معاصريه كمحمد ابن غازي (خع 163د).

... – " إفادات وأشعار الخالد بن محمد الهادي العمري الطنجي " بقلم محمد بن محمد بن يحيى الطنجي (خع 2847).

... – " الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة" لابن هاني محمد اللخمي السبتي (733هـ / 1332م).

... – "نبذة الزهريات" لمحمد بن يحيى الصقلي نزيل الدار البيضاء (جمع فيه مساجلات غرامية مع بعض الشعراء)، مطبعة العرب بتونس (1342هـ /1924)، (21ص).

(4347/1)

... – "الشعر النسوي في الأندلس" لمحمد الريسوني، بيروت دار مكتبة الحياة، 1978، ص. 192.

... – "شعراء موريطانيا القدماء والمحدثون " لمحمد بن يوسف مقلد (الطبعة الأولى – الدار البيضاء – مكتبة الوحدة العربية 1962).

... – " رايات المبرزين وغايات المميزين" في شعراء الأندلس والمغرب (مكتبة الأزهر) أدب 642 (7224) طبع بمدريد عام 1942م /1361ه مع الترجمة الإسبانية .

... – " نفائح الأزهار في أطايب الأشعار" للمولى عبد الحفيظ

(4348/1)

... وهناك عشرات المراجع والمظان تتحفنا بنبذ رائعة من شعر فحول القريض قد استجلينا بعض مختاراتها في كتابنا "الشعر والشعراء بالمغرب الأقصى طوال ألف عام "

(4349/1)

العلاقات السياسية والاقتصادية بين غرناطة وأرغون 695 هـ/ 1296 م ـ 726 هـ/ 1326 م

دراسة في وثائق قصر التاج ببرشلونة

... ... الدكتورة أحلام حسن مصطفى النقيب

والدكتور مزاحم علاوي الشاهري

... ... كلية التربية . جامعة الموصل . العراق

... لقد شهد العقد الأخير من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي تطورات واضحة في سياسة بعض الممالك الإسبانية من جهة ومملكة غرناطة من جهة ثانية، أدت إلى قيام علاقات بينهما اتسمت بطابع الصداقة في أغلب أوقاتها بعد أن كانت حالة الحرب هي السائدة

(4350/1)

بينهما؛ كما نجم عن ذلك قيام تبادل اقتصادي أديمت استمراريته بالاتفاقيات التي أبرمت بينهما في أوقات متقاربة أحياناً، ومتباعدة أحياناً أخرى.

... وهدف بحثنا تتبع تلك العلاقات السياسية والاقتصادية بين مملكة غرناطة العربية الإسلامية وجارتها مملكة أرغون النصرانية بين سنتي 695 هـ/ 1296 م و726 هـ/ 1326 م من خلال رسائل صدرت عن بلاط غرناطة إلى بلاط أرغون في شأن العلاقات بين المملكتين، وهي اليوم وثائق من محفوظات التاج الأرغوني الإسباني ببرشلونة(1)

---

(1) Alarcon y Santon and Ramon Garcia, Delinarers Los Documentos de la Corona, Madrid, 1940.

... ويرمز له (Docum. Arab).

(1/4351)

.

... ويسعى البحث إلى كشف الأسباب التي تقف وراء استمرار تلك العلاقات أو انقطاعها، من خلال تعرُّف الظروف التي تحكم المنطقة بشكل عام وأثر ذلك على المملكتين بالاعتماد على ما جاء في المصادر التاريخية المعاصرة للحدث أو القريبة منه.

... هذا، وتجدر بنا الإشارة إلى أن مجموعة الرسائل التي غطت مدة البحث سبع وعشرون رسالة جميعها موجهة إلى ملك أرغون جيمس الثاني (James II 1291 - 1327م) الذي شهدت السنة الأخيرة من حياته آخر رسالة من تلك الرسائل الموظفة في هذا البحث. وقد عاصره خمسة سلاطين في غرناطة آخرهم

(1/4352)

السلطان محمد الرابع (725 ـ 733 هـ/ 1325 ـ 1333 م).

وسيقتصر البحث في إطار عنوانه على ما جاء في تلكم الرسائل من مضامين سياسية واقتصادية.

... ومما يذكر في هذا الصدد اشتراك الرسائل الموجهة من سلاطين غرناطة ووزرائهم وقوادهم بالإشارة إلى ذكر ألقاب الملك الأرغوني بالنص على ذكر الأقاليم التي تخضع لحكمه. فهو »سلطان بلنسية، وملك أرغون، وقر صفة وقمط برجلونة« (1). وهو في عام 714 هـ/ 1314 م »الملند عن البابا بالكنيسة العظمى«(2) (Delpapaen La Iglesia

---

(1) Docum. Arab, N°. 7, 8, 9.

(2) Docum. Arab, N°. 10.

(1/4353)

Mayor). وهو حاكم مناطق أخرى مثل ميورقة وسردانية، بالإضافة إلى ما ذكرناه آنفاً(1)؛ بينما لا تذكر الرسائل الاعتيادية أية ألقاب للسلطان الغرناطي، ولكن يندرج ذلك في الرسائل التي تحمل نصوص المعاهدات المبرمة بين الطرفين. فهو في سنة 695 هـ/ 1296 م »سلطان غرناطة ومالقة وما إليها« (2)، وهو في

سنة 721 هـ/ 1321 م «سلطان غرناطة ومالقة والمرية ورندة والجزيرة»(3).

---

(1) Docum. Arab, N°. 1, 6.

(2) Docum. Arab, N°. 1.

(3) Docum. Arab, N°. 15.

(1/4354)

... وبقدر ما يتعلق الأمر بألقاب سلطان غرناطة، فإن ذلك يشير إلى طبيعة العلاقات التي قامت بين سلاطين غرناطة وبين بني مرين(1)

---

(1) قام المرينيون في المغرب الأقصى سنة 668 هـ/ 1269 م واتخذوا من مدينة فاس عاصمة لهم. ويعد السلطان يعقوب بن عبد الحق أول سلطان لهم بعد قضائهم على الموحدين في مراكش في العام المذكور آنفاً. وللمزيد من الاطلاع، ينظر: عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث، القاهرة، 1963، ص. 419؛ أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري، مسالك

الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق مصطفى أبو ضيف، ط 1، الدار البيضاء، 1988، ص. 114.

(4355/1)

، حكام المغرب الذين حازوا مجموعة من المدن الأندلسية على عهد أميرهم السلطان يعقوب بن عبد الحق (656 ـ 685 هـ/ 1258 ـ 1286 م) من أبرزها الجزيرة الخضراء وطريف ومالقة وقمارش ورندة وغيرها(1). ثم جاء ولده السلطان يوسف بن يعقوب (685 ـ 706 هـ/ 1286 ـ 1306 م) ليتنازل عن الكثير منها مكتفياً بطريف والجزيرة الخضراء(2)

---

(1) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1972، ص. 90.

(2) عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدإ والخبر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1959، ج 7، ص. 217.

(4356/1)

.

... أما فيما يتعلق بنفوذ الملك جيمس الثاني، فيتضح أنه كان في العقد الثاني من حكمه يقف على رأس الكنيسة الكاثوليكية بوصفه من أكابر حكام أوربا الكاثوليكية. وقد أظهر في مراسلاته مع المماليك في مصر اندفاعاً في دعم النصارى الساكنين فيها، فضلاً عن سعيه لفتح الكنائس فيها(1).

... وزيادة على ذلك، فقد ابتدأت الرسائل بتأكيد العلاقات الوطيدة القائمة بين البلدين المقرونة بالمودة والصداقة، فضلاً عن استخدام

---

(1) حياة ناصر الحجي، العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية، الكويت، 1980، ص. 121 وما بعدها.

(4357/1)

ألقاب التفخيم للملك جيمس الثاني(1). وهو سياق تقتضيه بطبيعة الحال العلاقات الدبلوماسية بين البلدان التي تحرص على ديمومة مصالحها مع البلد الآخر.

... ومهما يكن من أمر، فقد شهد عهد السلطان محمد الفقيه (671 ـ 701 هـ/ 1272 ـ 1301 م) أول رسالة حملت في مضمونها نص المعاهدة التي أبرمت مع مملكة أرغون

على عهد ملكها جيمس الثاني، وذلك في 11 رجب سنة 695 هـ 15/ أيار 1296 م(2). وبذلك عدت بداية مرحلة جديدة في العلاقات وإقرار الصلح الذي تقرر سريانه في

---

(1) Docum. Arab, N°. 8, 9, 10, 11.

(2) Docum. Arab, N°. 1.

(1/4358)

المملكتين بحسب ما أظهرته الاتفاقية التي أفصحت عن وصول كتاب من ملك أرغون يعلن فيه الالتزام بما سيصدر من اتفاق سيرد نفسه في رسالة السلطان الغرناطي التي جاء فيها:

... .أن يكون الصلح جيداً وثابتاً طوال حياة الملكين.

... .الإيفاء بميثاقه، وعدم إفساده، وأن لا يحمل أي طرف أحداً يفسد في أرض الطرف الآخر وفي رعيته.

... .أن لا يتعاون أي من الطرفين مع عدو الطرف الثاني لا في البر ولا في البحر؛ كما أكدت الاتفاقية في الجانب الاقتصادي على ما يأتي:

(1/4359)

... .أن يدخل الأهالي والتجار من كلا البلدين براً وبحراً للبيع والشراء وحمل كل شيء دون اعتراض عليهم لا في أجسامهم ولا في أموالهم ولا في تجارتهم ولا في كل ما يخرجونه من ذلك البلد.

... .تخصيص(1)

---

(1) إذا لم تكن الاتفاقية المعنية بالدرس تشير إلى طبيعة محتويات الفندق من غير السكن، فإن البنود التي وردت في بعض الاتفاقيات المعقودة مع الحفصيين على عهد الأمير أبي يحيى زكريا، مع تجار مدينة بيزة الإيطالية في جمادى الأولى سنة 713 هـ/ 1314 م تشير إلى أن الفندق الخاص بتلك المجموعة لا يشاركها أحد فيه حتى وإن كان من دينهم، وإن للفندق كنيسة للعبادة ومدفناً ومخبزاً. وللمزيد من المعلومات، ينظر:

Di Michele Amari, I diplomi arabi R. Archivio Florention, Frienze, 1863, p. 88. ...

(4360/1)

فندق لهم في كل موضع ديوان وتقديم قنصل لهم يقضي حوائجهم كلها بحسب ما جرت به العادة.

... .الالتزام بتغريم كل من يحدث من أهل البلدين كائناً

من كان فساداً في أرض الطرف الثاني أو في رعيته أو في مالهم أو في تجارتهم في البر أو في البحر. وهنا تثار أسئلة ملحة هي: لماذا حرص الطرفين في ذلك الوقت بالذات على عقد صلح بينهما؟ وما أثر ذلك على علاقة الممالك المجاورة من جهة، وغرناطة وأرغون من جهة ثانية؟

... وللإجابة عن ذلك قبل كل شيء، نشير إلى أن ما تحفظه المصادر التاريخية القريبة إلى عهد السلطان محمد الفقيه

(4361/1)

يقر بأنه كان »ممهد الدولة... أقام رسوم الملك فيها... مستظهراً على ذلك بسعة الصدر وأصالة السياسة ورصانة العقل... وطول الحنكة... وتملؤه التجربة «(1). وهذا يعني أن المدة الطويلة التي أمضاها قبل عقد الاتفاقية والتي بلغت عشرين سنة كانت كافية لكي تعطيه الرؤية الأشمل وتهديه إلى سياسة صائبة تعزز دولته ومصالحها، ولا سيما أنه أحس بفداحة الخسارة التي لحقت بغرناطة يوم ارتضى أن ينحاز إلى ملك قشتالة

---

(1) لسان الدين بن الخطيب، اللمحة البدرية في الدولة

النصرية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1978، ص. 50.

(4362/1)

ويتفق على وضع خطة للسيطرة على جزيرة طريف (Tarifa) معه إجراء لإبعاد المرينيين عن شؤون غرناطة. فتعهد ابن الأحمر آنئذ لسان شو الرابع ملك قشتالة بالإنفاق على جيشه مدة الحصار، لقاء أن يسلمها إليه بعد سقوطها. وبعد أربعة أشهر من الحصار المفروض عليها والذي اشترك فيه الملك جيمس الثاني بموجب الاتفاق القائم مع قشتالة آنذاك ضد المرينيين، سقطت في شوال سنة 691 هـ/ 1291 م وجاءت المصيبة عندما رفض ملك قشتالة التنازل عنها بالرغم من استلامه ستة حصون من ابن الأحمر لقاء تعاونه(1)

---

(1) ابن أبي الزرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973، ص ص. 380 ـ 381.

(4363/1)

. فذهبت طريف المعبر الستراتيجي الذي يتم منه جواز المغاربة، والقاعدة التي تشكل عيناً على من يفقدها من الاثنين المغاربة والغرناطيين(1).

... ورداً لفعل ما جرى، عبر السلطان محمد الفقيه إلى المغرب ليعتذر للمرينيين عما حدث وليعيد المياه إلى مجاريها. وتحقق له ما أراد(2). لكنه من جهة ثانية واصل جهاده في جبهة قشتالة، فحقق انتصاراً عسكرياً مهماً حين تمكن من فتح مدينة قيجاطة(3)

---

(1) ابن خلدون، العبر، ج 4، ص. 173.

(2) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ص. 383 ـ 384.

(3) قيجاطة (Quesada) تقع على مقربة من أبده، من أعمال ولاية جيان، محمد عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، لبنان، 1984، ص. 488.

(4364/1)

والحصون التي ترجع إليها، وذلك في محرم سنة 695 هـ/ 1295 م(1) وأن ينازل مدينة القبذاق من أعمال قرطبة ويدخلها في شوال سنة 699 هـ/ 1299 م(2).

... أما فيما يتعلق بالأسباب التي دفعت مملكة أرغون إلى

توثيق الصلات مع غرناطة، فهي إدراكها على عهد ملكها جيمس الثاني أن صلاتها مع العالم الإسلامي بوجه عام يكفل لها رفاهاً اقتصادياً ويعينها

---

(1) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، حققه وقدم له محمد عبد الله عنان، دار المعارف، القاهرة، 1976، ج 1، ص. 569.

(2) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص ص. 569 ـ 570.

(4365/1)

على حاجاتها، وهو منهج اعتمده الملك منذ السنة الثانية من حكمه عندما وقع اتفاقية صلح مع سلطنة المماليك في مصر في 19 صفر سنة 692 هـ/ 28 كانون الثاني 1292 م على الرغم من عقوبة الحرمان (Excommunication) التي كانت تصدرها البابوية بحق كل من يتاجر مع المسلمين(1) والتي تعرض لها هو أيضاً(2)

---

(1) الحجي، العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية، ص ص. 65 ـ 66.

(2) روبار برنشفيك، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي

من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ج 2، ص. 267.

(4366/1)

، ولكنه مع هذا قد واصل نشاطه في هذا الاتجاه(1).

... يضاف إلى ذلك أن مملكة أرغون كانت على خلاف سياسي قديم مع فرنسا والبابوية من جهة بسبب تشبثها بصقلية التي كانت تابعة لها على عهد ملكها بطرس الثالث () (Pedro III1276 ـ 1285 م) وألفونسو الثالث () (Alfonso III1285 ـ 1291 م) الذي اختارها منفصلة لأخيه، فتجدد النزاع من جديد مع البابوية وفرنسا(2).

_____

(1) Docum. Arab, N°. 145.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، القاهرة، 1966، ج 1، ص ص. 599 ـ 560.

(4367/1)

... وفوق هذا كله، فقد كانت مملكة أرغون تجد في نفسها المنافس القوي لقشتالة. فسعت إلى تقوية نفسها بالتدخل في شؤون قشتالة خاصة بعد وفاة ملكها سانشو الرابع لتدعيم ألفونسو دي لاسيردا، ولكي تزيد من أوضاع قشتالة سوءاً من جهة(1)، ولتعزز تواصلها مع غرناطة من جهة ثانية. فبادرت إلى عقد اتفاقية جديدة وقعت في آخر ربيع الآخر سنة 701 هـ/ 31 كانون الأول 1301 م، أي قبل وفاة السلطان

---

(1) ماريانو آريباس بالاو، »بنو مرين في الاتفاقيات المبرمة بين أرغون وغرناطة«، مجلة تطوان، العدد الثامن، الرباط، 1963، ص. 192.

(4368/1)

الغرناطي محمد الفقيه ببضعة أشهر(1)، نصت في الجانب السياسي منها على التالي:

أن يكون أصحاب غرناطة أصحاباً لأرغون، وأعداؤهم من أهل قشتالة أعداء لأرغون.

أن يدفع الضرر والفساد بين البلدين ولا سبيل لأحد في ذلك لا في البر ولا في البحر. وإذا ما وقع ذلك، فيحكم

الطرف المعني بذلك.

إذا استرجعت غرناطة بلداً من بلاد العدوة .إشارة إلى سبتة .أو أناساً من أهلها، فيكون الحكم في ذلك حكم سائر بلاد الأندلس.

---

(1) توفي في 8 شعبان من عام 701 هـ/ 1301 م؛ ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص. 58.

(4369/1)

يتعهد سلطان غرناطة بمعاونة أرغون ضد ملك قشتالة، إذا ما شن الأخير غاراته على منطقة مرسية.

أن لا يعقد أي طرف صلحاً أو هدنة مع قشتالة إلا بموافقة حليفه.

يتعهد سلطان غرناطة بإعانة ملك أرغون بفرسان من عنده في أرض مرسية، شريطة أن يضمن لهم المأكل والعلف من يوم خروجهم؛ ويتم تعويض الفرسان بالمال في حالة موت دوابهم.

أن لا يعترض سلطان غرناطة على كل موضع تحصل عليه أرغون من قشتالة بشرط أن لا يكون تابعاً لغرناطة.

وتتكفل أرغون بمساعدة غرناطة في استرجاع

أراضيها التي احتلتها قتشالة، إن كانت تحت حكم ألفونسو حاكم

(4370/1)

قشتالة أو أخيه الافانت الدون فراندة.

وقد أفردت للعلاقات الاقتصادية في الاتفاقية المذكورة بنود جاء فيها:

أن يفتح كل بلد لتجار البلد الآخر حق مزاولة كل أنواع التجارات مؤمنين في أنفسهم وأموالهم.

أن يعامل تجار غرناطة بالحقوق الواجبة على العادة من غير إحداث زيادة.

يمنع تجار أرغون من التجارة مع إشبيلية (Seville) أو غيرها من المدن الواقعة تحت سيطرة قشتالة. وإذا ما قام أحدهم بذلك ووقع في أسر غرناطة، فيكون حكمه حكم الأعداء(1).

---

(1) Docum. Arab, N°. 3.

(4371/1)

... ومما يلفت الانتباه وجود اتفاقية مماثلة تحمل نصوصاً شبيهة بنصوص الاتفاقية المذكورة قد وردت بلا تاريخ أرسلها السلطان محمد الفقيه إلى الملك جيمس الثاني، ولكنها قد تميزت بغلبة اللكنة الأعجمية على نصوصها. ولعلها نسخة كتبها أحد المترجمين العاملين في أرغون آنذاك(1).

... ومما يلحظ في الرسائل الغرناطية أنها تنتقل إلى عهد السلطان إسماعيل الأول (713 ـ 725 هـ/ 1314 ـ 1325 م) خامس سلاطين غرناطة متجاوزة عهد السلطان محمد الثالث (701 ـ 708 هـ/ 1302 ـ 1308 م) ونصر بن محمد (708 ـ 717

---

(1) Docum. Arab, N°. 2.

(1/4372)

هـ/ 1309 ـ 1314 م). ولعل الأسباب التي تكمن وراء ذلك هي ما أحاط غرناطة من ظروف داخلية بوجه خاص وعلاقاتها مع الممالك المجاورة بوجه عام. فعلى صعيد الظروف الداخلية التي عاشتها غرناطة بعد وفاة محمد الفقيه تعكس حالة الاضطراب الداخلي التي عاشتها تاركة الاهتمام بالشؤون الخارجية إن لم نقل إن الممالك

الإسبانية لم تعد تنظر إليها نظرة القوي الذي يحسب له حساب. المهم أنه ما أن نصب السلطان محمد الثالث(1)

---

(1) يكنى أبا عبد الله. نصب ليلة الأحد الثامن من شعبان سنة 701 هـ/ 1302 م. فتح مدينة المنظر عنوة، وكان فتحاً عظيماً. ثم خلع في عيد الفطر من عام 708 هـ/ 1308 م. وتوفي في الثامن من شوال سنة 713 هـ/ 1314 م. ترجم له ابن الخطيب في الإحاطة، ج 1، ص. 552 ـ 564؛ اللمحة البدرية، ص. 60 ـ 69.

(4373/1)

، حتى بدأت الأحوال تتدهور شيئاً فشيئاً بسبب الأوضاع الداخلية التي اتسم بها حكمه كالفتن التي انتهت الأمور في واحدة منها إلى خلعه ونقل على أثرها إلى مدينة المنكب (Almunecar)، فنصب أخوه بدلاً عنه(1). وتوقع الناس أن أحوال البلاد ستتحسن والفتنة ستهدأ. غير أن الواقع أثبت عكس ذلك فما أن تولى نصر السلطنة، حتى عصفت بالبلاد أوضاع جديدة هي أكثر سوءاً من التي قبلها جلبها إليهم بسبب فساد تدبيره، وسوء سيرته، ووصل به الحال إلى

---

(1) ابن الخطيب، المصدر السابق، ج 1، ص ص. 560 ـ 561؛ اللمحة البدرية، ص ص. 66 ـ 67.

(4374/1)

الخضوع لملك قشتالة فرناندو الرابع وتعهده له بدفع الجزية(1)، الأمر الذي أثار غضب الناس عليه. فقامت الثورة ضده بقيادة ابن عمه صاحب مالقة الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل الذي تحرك نحو غرناطة وهزم قوات السلطان النصري الذي تنازل عن الحكم ونصب بدلاً عنه السلطان إسماعيل ابن خرج الموصوف بالأول في شوال

---

(1) هناك من يذكر أن نصر بن محمد قد سعى لعقد معاهدة مع مملكتي قشتالة وأرغون، فرفضا سعيه في ذلك (ضيا باشا، الأندلس الذاهبة، تعريب عبد الرحمن أرشيدات، نشر وزارة الثقافة والإعلام، عمان، 1989، ج 3، ص. 165).

(4375/1)

سنة 713 هـ/ 1314 م(1).

... أما على صعيد الأوضاع الخارجية، فقد حدث العدوان القشتالي الأرغوني الجديد على غرناطة بعد أن تقرر في سنة 708 هـ/ 1309 م عقد تحالف بين فرناندو الرابع (Ferdenand IV) ملك قشتالة وجيمس الثاني ملك أرغون برعاية البابوية للقيام بحملة صليبية على غرناطة(2)، وشرع الملكان في تنفيذ اتفاقهما عملياً، وتقرر احتلال الجزيرة الخضراء

---

(1) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص ص. 75 ـ 76.

(2) مارمول كرنجال، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف، الرباط، 1984، ج 1، ص. 396.

(4376/1)

(Algeciras) وجبل طارق (Gibraltar)، فضلاً عن الشروع كذلك في احتلال المرية (Almeria) من قبل أرغون التي تناسى ملكها العهود والمواثيق التي أبرمها مع سلاطين غرناطة قبل ذلك وبدأت القوات في محاصرة المرية وجبل طارق، ولكن القوات الغرناطية استطاعت إلحاق الهزيمة بقوات الملك جيمس الثاني المحاصرة

للمرية؛ بينما شددت القوات القشتالية الضغط على الجبل براً وبحراً، فسقط في أواخر سنة 709 هـ/ 1310 م(1)

---

(1) ابن الخطيب، المصدر السابق، ص. 75؛ يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني نصر، المؤسسة الجامعيَّة للدراسات والنشر، بيروت، 1982، ص. 40؛ شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريف محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985، ج 2، ص. 227. ومن المفيد أن نذكر أن حصارهم للجزيرة الخضراء قد فشل بعد تراجع القشتاليين عنها في شعبان 709 هـ/ كانون الثاني 1301 م بعد أن عقد صلح بين ابن الأحمر وملك قشتالة. (ابن خلدون، العبر، ج 7، ص. 240؛ فرحات، غرناطة في ظل بني نصر، ص. 39).

(1/4377)

.

... وزيادة في تدهور أوضاع غرناطة الخارجية ما قامت به من تحريض لشيخ الغزاة القائد عثمان بن أبي العلاء(1)

---

(1) تولى منصب شيخ الغزاة في الأندلس منذ يوم

استشهاد أخيه في سنة 693 هـ/ 1293 م بعد أن كان مرابطاً في مالقة، وأبلى في معارك كثيرة بلاء حسناً كالمعركة التي خاضها ضد قوات قشتالة سنة 709 هـ/ 1309 م والمتوجهة نحو مرشانة ثم في معركة أسطبونة التي قتل فيها قائد الجيش القشتالي بيرش وأعداد كبيرة من قواته. أما أبرز معركة خاضها، فهي في سنة 719 هـ/ 1319 م؛ ولولا قيادته لجنده وقيامه باختراقه صفوف قوات قشتالة التي قدرت أعدادها بأكثر من خمسة وثلاثين ألفاً وأعداد أخرى من المشاة، لسقطت غرناطة. توفي سنة 730 هـ/ 1329 م وخلفه ولده عامر. للمزيد عنه، ينظر: ابن خلدون، العبر، ج 7، ص. 249، 371 ـ 372؛ أحمد بن خالد الناصري، أخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، 1954، ج 3، ص ص. 109 ـ 110.

(4378/1)

ودفعه للسيطرة على سبتة، بل ودعمه في معارك مباشرة خاضها ضد أبناء عمومته حكام المغرب في شمال العدوة المغربية، تلك القصة التي ابتدأت منذ سنة 705 هـ/ 1305 م ولم تنته إلا عندما تمكن المرينيون من إلحاق الهزيمة بعثمان بن أبي العلاء، وتحرير سبتة

في 10 صفر 709 هـ/ 1309 م(1)، بعد محاولات قاموا بها لإقناع أرغون بتقديم العون لهم بطرد ابن الأحمر عنها. ففي سنة 708 هـ/ 1308 م، قدم إلى مملكة أرغون أبو العباس صحبة برناردوسيكي مرسلين من قبل السلطان عامر المريني،

(1) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ص. 387 ـ 393.

(4379/1)

وأخيراً مساندة الأسطول الأرغوني تحت إمرة الفيسكوندوي كاستلنو للمرينيين في تحريرها(1). ... ومهما يكن من أمر، فإن عهد السلطان إسماعيل الأول شهد جهداً كثيفاً ونشاطاً واضحاً في العلاقات السياسية والاقتصادية مع أرغون. فقد سجلت أول رسالة بعثها إلى ملكهم جيمس الثاني تاريخ الثالث والعشرين من صفر سنة 714 هـ/ 29 أيار 1314 م، وهي جواب على رسالة وصلت إليه وعكست الود الذي يكنه الطرفان

(1) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، مطبعة فضالة، المحمدية، 1986، ج 2، ص. 285.

لبعضهما، فضلاً عن المشاعر المطمئنة التي يقدمها سلطان غرناطة لملك أرغون بشأن رعاياه. إذ يقول: « ... وذكرتم أن كل من عندكم بجميع بلادكم من ناسنا وأهل بلادنا محمول على الأمن والحفظ على النفس والمال وجميع الأحوال... فقابلناه بمثله ... وكل من عندنا من تجاركم محمول على سبيل الحفظ والرعاية واللحظ والأمن في النفس والمال، وسلوا الوارد والصادر فسيخبركم بصدق هذا المقال «...(1).

... ولقد سجلت الرسالة المؤرخة(2) في 17 ذي القعدة سنة 714 هـ/ 24 آذار 1315 م تطوراً

(1) Docum. Arab, N°. 10.

(2) Docum. Arab, N°. 8.

مهماً في العلاقات بين البلدين. فقد جاءت في مضمونها استجابة السلطان إسماعيل الأول لرغبة الملك جيمس الثاني في تجديد الصلح معه: «.. إذا أردتم صحبتنا

وتجديد العهود التي كانت بينكم وبين جدنا ...،
فنحن نريد من ذلك ما تريدون ونوافقكم على ما يكون
فيه الخير والصلاح للفريقين فلا تمنعوا رسولكم من
الوصول إلينا فلا موجب لمنعه ... «. كما أشارت الرسالة
إلى قرار غرناطة بإيقاف العمليات العسكرية من جهتها
في جبهة أرغون:
... ... لما ظهر لنا من مقاصدكم الحسنة ولما تضمنته
كتبكم من الأغراض المشكورة أن منعنا جيشنا الذي

(1/4382)

بحضرتنا أن يقف على شيء من أرضكم أو يتعرض لبلد من
بلادكم فما وقف لكم علمنا على موضع مع كثرة
المرغبين لنا في ذلك والظالمين له.

وزيادة على ذلك، فقد أشارت إلى قضية اقتصادية بين
البلدين أجبرت أرغون على إرسال سفيرها إلى غرناطة
وهي مشكلة الغنم التي استولى عليها "المغاورون"(1)

---

(1) المغاورون: شاع هذا المصطلح في مملكة أرغون على
عهد ملكها جيمس الأول (ت 1276 م)، وهم فئة من الجنود
النظاميين الذين يعيشون على المغانم وتأليف عصابات

قطاعي طرق، تخطف المسلمين. وقد بلغ عددهم أكثر من ثمانية آلاف شخص في منطقة لقنت، مهمتهم الإغارة على المدن والقرى الإسلامية القريبة. فينهبون البيوت دون رادع لا من دين ولا من سلطة.

(1/4383)

في منطقة البيرة (Elvira). وتقدم الرسالة توضيحاً بشأن ذلك، مشيرة إلى طريقة أخذها وذاكرة أن السلطان إسماعيل الأول لا قدرة له على منعهم، »إلا إذا ارتبطت العهود وكملت الصحبة بيننا وبينكم«.

... وأكدت الرسالة المؤرخة في 18 ذي القعدة سنة 714 هـ/ 5 آذار 1315 م الصادرة عن السلطان إسماعيل الأول على الغرض نفسه الوارد بشأن الغنم المسروق في لقنت (Alicante) ومخبرة إياه بأن سلطان غرناطة بعث جوابه مع سفيرهم الذي حضر إلى حاضرته(1).

---

(1) Docum. Arab, N° . 9.

(1/4384)

... ولقد كشفت الرسالة المؤرخة في 12 شوال 716 هـ/ 28 كانون الأول 1316 م المرسلة من السلطان إسماعيل الأول عن طبيعة المباحثات الدائرة بين البلدين بشأن الصلح المقرر إبرامه مع أرغون. فهي تخاطب الدون بطره لبس دياله (D. Pedro Lopez de Ayala) الذ لنطادة بلورقة (Lorca) ومرسيه (Murcie) من أعمال أرغون الوسيط بينهما على الرغم من أنها قد كشفت عن وجود مساع أخرى كانت حثيثة بشأن الصلح نفسه يقوم بها الا فانت الدون بطره؛ كما أكدت طبيعة العلاقات القائمة بين المملكتين وأفصحت عن أنه لا وجود لصلح بينهما منذ عهد

(4385/1)

السلطان محمد الفقيه ثاني سلاطين غرناطة فضلاً عن إبرازها لحقيقة اقتصادية تضر بغرناطة مفادها »أن كل ضرر لحق المسلمين هذا العام إنما كان ينسب لأريول«(1) (Orihuela).

... وهنا لابد من أن نوضح أمراً مهماً يتعلق بالممالك الإسبانية التي عانت في تلك المدة من غموض في أوضاعها يرجع إلى المناورات والمطامع الشخصية والصراعات التي نجمت بينها. فحال ذلك دون قيام

علاقات مع غرناطة، بينما سعت الأخيرة إلى الاهتمام بشؤونها الداخلية وعدم استغلال فرصة الفتن الناشبة في تلك الممالك(2)

---

(1) 12Docum. Arab, N°.

(2) جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج 2، ص. 320؛ ضيا باشا، الأندلس الذاهبة، ج 3، ص. 166.

(4386/1)

. وهذا الأسلوب في جوهره كان على النقيض مما تفعله تلك الممالك التي ما أن تلحظ اضطراباً أو تناحراً داخل غرناطة حتى تشن حملاتها إمعاناً في إيذائها واستحواذاً على أراضي جديدة.

... ومع حلول سنة 721 هـ/ 1321 م، عقد السلطان إسماعيل الأول معاهدة مع الملك جيمس الثاني مدة خمسة أعوام من تاريخ الرسالة المؤرخة بـ 17 ربيع الثاني سنة 721 هـ/ 16 أيار 1321 م التي حملها سفير أرغون شمون دي طوبية (Simon de Tobiya) بصحبة سفير غرناطة الحسن علي حسن الغراف مؤكدة في نصوصها ما يأتي:

(4387/1)

أن يعقد بين الطرفين »صلح ثابت محفوظ العهد مؤكد العقد« مدة خمسة أعوام.

تؤمن به أراضي المملكتين أماناً تاماً براً وبحراً سراً وجهراً.

أن يعادي كل طرف عدو الطرف الآخر ولا يقبله ولا يعينه كائناً من يكون.

أن تكون سواحل الطرفين ومراسيها وأجفانها (1) بناسها آمنة لا ينالها ضرر؛ وإذا ما استولى طرف على جفن

---

(1) الأجفان: مفردها جفن، وهي سفينة حربية بطيئة الحركة لكبر حجمها، وكانت تستعمل في كثير من البلاد ومنها بلاد الهند. استخدمها ابن بطوطة في رحلته (محمد ياسين الحموي، الأسطول العربي، دمشق، 1945، ص. 44).

(4388/1)

يعود للطرف الآخر في البحر أو طائفة من الناس فيطلق سراحهم في الحال.

أن لا يمنع ملك أرغون من يريد الخروج من أرضه من

المدجنين إلى أرض المسلمين بأهلهم وأموالهم آمنين، »مرفوعاً عنهم الاعتراض من غير شيء يلزمهم إلا المغرم المعتاد«.

ونصت كذلك على التبادل التجاري بين البلدين بما يأتي:

أن يباح لتجار البلدين حرية بيع البضائع وشراء الطعام والبغال وسائر الدواب، ولا يستثنى من ذلك إلا الخيل والسلاح.

أن لا يزاد على تاجر في سعر شيء يشتريه، وأن لا يزاد عليه في أي ضريبة جمركية وحسب ما جرت عليه العادة(1)

---

(1) Docum. Arab, N°. 15.

(1/4389)

.

... هذا، وتجدر بنا الإشارة إلى أن الرسالة المذكورة آنفاً قد أشارت إلى ظاهرة المدجنين بصفتهم أقلية لها أهميتها في العلاقات الغرناطية الأرغونية حرصت مملكة

أرغون على إبقائهم في مدنهم لأسباب اقتصادية(1).

فعلى الرغم مما فرضته البابوية على ملكها جيمس الأول وإجباره على إصدار منشور في 18 تموز 1276 م يحدد لولده بيدرو الثالث صيغة التعامل مع العرب المسلمين في مملكتهم يقضي بطردهم، وخاصة من بلنسية التي ألزم المنشور

---

(1) محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، القاهرة، 1966، ج 4، ص. 120.

(4390/1)

الوصي بأن لا يبقى فيها من المسلمين أحداً لأي سبب كان حتى ولو أدوا ما عليهم من التزامات مالية. بيد أن الواقع دفعه إلى ترك وصية والده، مكتفياً بتجريد المسلمين من السلاح وتوزيعهم على مناطق المملكة لأعمارها(1).

... وزيادة على ذلك، فقد حصرت الرسائل عدداً من حوادث الأسر التي مثلتها ظاهرة القرصنة في السواحل التابعة للملكتين وما تسببه من مشكلات إنسانية، وأضرار اقتصادية تعيق حركة التجارة، كما كشفت أيضاً عن العرف المعمول به بشأن أحكام الأسير وما يقع عليه في

(1) أسعد حومد، محنة العرب في الأندلس، ص. 208.

(4391/1)

أراضي الصلح والحرب.

... وقد ذكرت الرسالة التي بعثها إسماعيل الأول في 3 محرم سنة 723 هـ/ 12 كانون الثاني 1323 م بصدد موضوع أسر جفن خرج من مترايل (Motril) متجهاً إلى مرسى هذين. فأسر بجفن بلنسي يدعى صاحبه برنقير قلفاط، فسرح ثمانية أشخاص منهم وأبقى ثلاثة هم ابن البقيق الحجام من غرناطة وأحمد الأعرج الدلري من وادي آشي وأحمد البحري من المنكب وذكرت حادثة الاعتداء التي وقعت على الغليوط(1)

(1) الغليوط: يعرف بـ »غيلاطة«، ويتميز بسرعته، نظراً لضيق عرضه وكبر طوله. برز وعرف بعد ذلك

في مراكب الأسطول المصري في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ينظر: سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967، ص. 361.

(4392/1)

(Galeota) الخارج من المرية متجهاً إلى لقنت بهدف التجارة. فهاجمته قرقورة(1) أسرت شخصاً منه، ثم هاجمه شيطي(2)

---

(1) القرقورة: سفينة أصل اسمها بالإسبانية »كاراكا« بحجم كبير تحمل المؤن للأساطيل الحربية ولها ثلاثة
أشرعة، ولها القدرة على السير في الرياح العاصفة.
(محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1979، ص. 78).

(2) الشيطي: مركب يجذف بثمانين مجذافاً، ومهمته استطلاع الموانئ واستكشافها، وهو يتميز بسرعته.

(المنوني، المصدر السابق، ص. 78؛ ماهر، البحرية في مصر، ص. 352).

(4393/1)

بالقبطة فاستولى على بضاعته وأسر امرأتين وصبيتين وصبياً بيعوا بعدها في جزيرة اليابسة؛ بينما توجه

الشيطي، فباع البضاعة المسروقة في لقنت والمدور والملاحة وقد وصلت كميات من البضاعة المسروقة إلى المرية(1).

... ولقد تناولت الرسالة المؤرخة في 17 جمادى الثاني سنة 723 هـ/ 23 حزيران 1323 م من قبل السلطان إسماعيل الأول إلى الملك جيمس الثاني، الصلح الذي عقد مع أهالي لورقة ومرسية في ضوء المعاهدة التي أبرمت مع ملك أرغون. ومع ذلك، فقد أظهروا غدرهم وفسادهم بسبب عدوانهم على موفدي ملك

---

(1) Docum. Arab, N°. 5.

(1/ 4394)

غرناطة إلى أرغون وقتلهم ونهب أموالهم، وفيها يطالب السلطان إسماعيل باتخاذ الإجراءات بحقهم موضحاً لجيمس الثاني »أن أهل قشتالة ما أووهم ولا ضموهم فانتم أولى أن تغاروا على عهدكم وحرمة الإرسال الموجهين إليكم« (1). بينما كشفت رسالته التي حملها رسوله أبو علي الغراف إلى الملك جيمس الثاني في 29 رجب سنة 723 هـ/ 25 نيسان 1323 م طلبه بإطلاق سراح أبي بكر بن حسن الأزرق من أهل المرية بلقنت؛

كما يشكره على إطلاق اثنين من المسلمين المأسورين في الصلح من بلاده(2)

---

(1) Docum. Arab, N°. 16.

(2) Docum. Arab, N°. 18.

(1/4395)

.

... واكتنفت سنة 724 هـ/ 1324 م خمس رسائل صادرة من السلطان إسماعيل الأول إلى أرغون كانت مضامينها تتعلق بتجاوزات وقعت مخالفة للصلح المبرم بينهما وطالبة بمعالجة تلك التجاوزات. فقد ألمحت الرسالة الموجهة إلى نائب ملك أرغون في أريولة بيدرو بيره ذي قرالط (Pedro de Garalt) في 14 ربيع الآخر سنة 724 هـ/ 11 آذار 1324 م إلى الغارة التي شنتها قوات المسلمين على أرض منول التابعة لقشتالة ومخبرة إياه بأن السلطان إسماعيل ما اتخذ إجراءه الوقائي إلا لدفع الضرر عن المسلمين بعد أن فشلت كل المراسلات الجارية بصدد

(1/4396)

ذلك منذ أكثر من عام. وكانت الأخيرة مبعوثة إلى ملك قشتالة كما يطمئنه فيها على دوام المودة بين المملكتين(1).

... وكانت رسالة التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة 724 هـ/ 17 كانون الأول 1324 م إلى الملك جيمس الثاني تحتوي على ذكر عدد من الأحداث، منها إطلاق سراح النصراني برتلمين والصبي الذي أخذ في الأبركة(2) التي أقلعت من إشبيلية وسراح برنقيل ارنو المطلوب من ولده الافانت الرمون برنقيل وتبادل

---

(1) Docum. Arab, N°. II.

(2) الأبركة: من السفن الخفيفة، وكانت مستعملة منذ القدم. (ماهر، البحرية في مصر، ص. 334).

بعض المأسورين بين البلدين، وأخيراً نفي انتساب المدعو ابن جندي من أهل غرناطة وكان قد قام ببيع أشخاص من أرغون في بجاية(1).

... وجاءت رسالته في 13 جمادى الثاني سنة 724 هـ/ 7 حزيران 1324 م الموجهة إلى نائب ملك أرغون بألش

Jaime Andren متضمنة طلبه مساعدة رسله الذين عادوا من أرغون بعد أن أنجزوا مهمتهم ومنها شراء البغال، فطال مقامهم في الشن وإخباره بأنه قد وجه أجفانه لتأمين عودتهم؛ وإن لم يتحقق ذلك، فسيضطر إلى توجيه جيشه إلى تلك الأرض لمساعدتهم محذراً إياه من ذلك(2)

---

(1) Docum. Arab, N°. 23.

(2) Docum. Arab, N°. 24.

(1/4398)

.

... وفيما حملت رسالته الموجهة إلى الملك جيمس الثاني في 17 شعبان سنة 724 هـ/ 9 آب 1324 م شكره لإطلاق سراح المسلمين الستة المأسورين في زمن الصلح بصحبة رسول أرغون، أجابت الرسالة الموجهة إليه في جمادى الثاني سنة 724 هـ/ أيار 1324 م عن بعض الشكايات التي استفسر عنها رسول أرغون(1) الذي وصل إلى غرناطة غليم سحنويه (Guillem de Sayun Wiya)، ومنها طلب اثنين من رعايا أرغون أسراً في بلس. وقد أخبر السلطان ملك أرغون بأنه أرسل أصحابه الثلاثة مع

شمون طوبيه، فتعرضوا في طريق العودة إلى

---

(1) Docum. Arab,N°. 21.

(1/4399)

اعتداء من قبل الجواسين الذي ألقي القبض عليهم وقتلوا في غرناطة؛ كما طلب منه إطلاق سراح شخصين أخذا في قرطاجنة. وهنا يذكره السلطان بالقواعد المعمول بها بينهم فيما يتعلق بأرض »الصلح« و»النفاق« ويطلب منه تسريح المأسورين في زمن الصلح ويخبره بقصة التاجر الجنوي منول دي نغروني الذي باع سلعاً تعود لأهل أرغون في مدينة المرية وقصة الغليوط الذي أسر بأجفان أرغون وفيه رعايا من أرض "النفاق" الذين ثقفوا لهذا السبب. ومع ذلك، فهو يعلمه بتسريحهم حال تسريح المسلمين المأخوذين في الصلح. ويضيف إلى ذلك أنه قد كتب إلى

(1/4400)

سلطان تلمسان في شأن رعاياه المأخوذين في البحر مرات حتى تم إطلاق سراحهم وهم في طريقهم إليه.

ويختم السلطان رسالته بجملة شكايات حملها نيابة عنه سفيره يحيى بن ذنون لغرض حلها عملاً بالمثل ويبدي في آخر الرسالة ارتياحه من السفير الأرغوني غليم على ما ظهر منه وامتعاضه الشديد من موفده المرافق لغليم بيرو روبرت (Pero Ropert)، لارتكابه أموراً منكرة وغير صحيحة(1).

... ولم يشهد عام 725 هـ/ 1325 م غير رسالة واحدة بعثها السلطان إسماعيل الأول إلى الملك جيمس الثاني أكد فيها استجابته لكل

---

(1) Docum. Arab, N°. 24.

(1/4401)

حاجة يريدها، ويطلب بالمقابل تقديم العون لمبعوثه يحيى بن ذنون الذي وصل إلى أرغون لشراء حاجات من بينها الدواب والبغلة العائدة لبيرو مركو (Pedro Marco) وأشياء أخرى(1).

... وبحلول السادس والعشرين من رجب سنة 725 هـ/ يونيو 1325 م، أعلن عن مقتل السلطان إسماعيل الأول على يد ابن عمه محمد بن إسماعيل ليخلفه ولده السلطان محمد الرابع(2)

---

(1) Docum. Arab, N°. 25.

(2) يكنى أبا عبد الله. بويع يوم وفاة والده. نازل مدينة قبره من أعمال قرطبة ودخلها وفتح على عهده جبل طارق في 12 ذي الحجة سنة 733 هـ/ 1332 م، واغتيل في 13 ذي الحجة سنة 733 هـ/ 1332 م. ترجم له ابن الخطيب. (اللمحة، ج 9، ص. 102).

(1/4402)

(725 ـ 733 هـ/ 1325 ـ 1333 م) الذي ما أن استلم مقاليد الحكم حتى راح يرتب أوضاع بلاده. فانصرف إلى أرغون راغباً في تجديد الصلح مع ملكها جيمس الثاني، وبعث له رسالة في 11 جمادى الآخرة سنة 726 هـ/ 17 أيار 1326 م ذكر فيها استلامه لكتابه من يد رسوله جوان أنريق (Juan Enric) ورفيقه جيمس من قلعة أيوب متضمناً رغبة الملك في تجديد الصلح الذي كان سارياً مع والده مدة خمسة أعوام. فأكد موافقته على ذلك(1). وقد اشتملت المعاهدة البنود الآتية:

---

(1) Docum. Arab, N° . 26.

(1/4403)

تجديد الصلح الذي كان سارياً بين المملكتين مدة خمسة أعوام أولها نصف شهر أيار سنة 1326 م/ أواسط جمادى الآخر سنة 726 هـ

أن يتردد سكان المملكتين وأجفانهم إلى بعضهما آمنين براً وبحراً في نفوسهم وأموالهم وجميع أحوالهم سراً وجهراً.

أن يباح لتجار المملكتين البيع والشراء في جميع البضائع بقيمها المعتادة هنالك، ولهم الحق في إخراج ما يشترونه من إحدى الجهتين إلى الأخرى وحسب ما جرت به العادة من الحقوق الجمركية المعروفة بين البلدين ما عدا البضائع التي جرت العادة على منعها.

(1/4404)

أن لا تتعرض أجفان المملكتين لبعضهما لا في بحر ولا مرسى، ولا لمن كان فيها من عدو أو صديق.

إذا ما استولى أي طرف على جفن لا يرجع لأي من الطرفين وكان فيه أحد من أهل الجهتين فيسرح في الحين مع ماله.

أن لا يتعرض أي طرف لمرسى من مراسي الطرف الآخر مهما

كان فيها من كان من عدو أو صديق، ولا يتعرض بضرر لما في مراسي الطرف الثاني وسواحله وبحاره من الأجفان كائنة لمن كانت من المسلمين أو النصارى ومن أي جهة كانت مدة هذا الصلح.

أن لا يعين أحد على الآخر عدواً، في البر ولا في البحر بأي وجه من وجوه الإعانة.

(4405/1)

إذا خرج أحد على طاعة بلده، فلا يضم إلى ذلك البلد ولا يقدم له العون في قوت أو أي شيء آخر.

أن لا يمنع المسلمون المدجنون بمملكة أرغون من الخروج إلى أرض غرناطة بأموالهم وعيالهم من غير أن يتعسف عليهم في شيء، ولا أن يطلب منهم مغرماً إلا على وفق ما جرت به العادة(1).

... وزيادة على ذلك، فقد أكدت الرسالة التي بعثها السلطان محمد الرابع في 11 جمادى الآخرة سنة 726 هـ/ 7 أيار 1326 م في موضوع العلاقات الاقتصادية مع مملكة أرغون، موافقته على إجراء التبادل بين المسلمين الذين أسروا بـ

(1) Docum. Arab, N°. 21.

(1/4406)

»سلورة الدعدع«(1) والأرغونيين الأربعة المبيعين بجزيرة ميورقة المحتجزين في غرناطة؛ كما أبلغه عن قيام شخص من سكان أريولة يدعى بيدرو اغرو (Pedro Grau) بتعمير شيطي في المدور، وأخذ بطرفي القبطة اثني عشر شخصاً من أهل المرية ترجاه في إعادتهم إلى بلاده والإيعاز بكف الضرر عن أراضي مملكته(2)

---

(1) السلورة: وجمعها سلالير، مركب متوسط الحجم يتكون من ثلاثة أشرعة وأربعين مجذافاً، يستعمل في الحرب والسلم على حد سواء، ويتميز بسرعته حتى أنه شبه بالطائر الذي يحلق عالياً. (ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، ص. 347).

(2) Docum. Arab, N°. 26.

(1/4407)

.

... وبقي أن نذكر أن العلاقات السياسية بين البلدين لم تقتصر في ضوء المراسلات على ملوك البلاد فحسب، بل حوت الوثائق رسائل تخص بعض وزراء غرناطة وقادتها، اشتملت موضوعاتها على مجموعة من القضايا التي تؤكد استعداد المرسل للعمل من أجل تعميق الصداقة والمودة مع مملكة أرغون.

... ولقد برزت شخصية القائد عثمان بن أبي العلاء شيخ الغزاة في الأندلس الذي تواصل في مراسلاته مع الملك جيمس الثاني. فقد بعث له في 18 جمادى الأولى سنة 417 هـ/ 13 أيار 1314 م رسالة أوضح فيها عن وصول كتاب بيربوييل (Pero Boil) على يدي أبي

(4408/1)

الربيع سليمان خديم دولتهم يذكر فيها ود الملك جيمس الثاني للقائد. وقد لقن عثمان سليمان حفظاً أموراً لا يقدر على كتابتها تخص مصلحة البلدين(1).

... وفي 18 ربيع الثاني سنة 721 هـ/ 23 أيار 1321 م، بعث القائد برسالة إلى الملك جيمس الثاني أعلمه فيها عن وصول رسالته بصحبة سفيره شمون دي طوبية بخصوص الصلح المبرم بين المملكتين وقد جدد فيها وده

وحفظ عهده لملكهم(2).كما صدرت رسالة أخرى منه في 11 شوال سنة 723 هـ/ 13 تشرين الأول 1323 م طلب فيها الشفاعة لاثنين

---

(1) Docum. Arab, N°. 6.

(2) Docum. Arab, N°. 13.

(1/ 4409)

من رعايا الملك جيمس الثاني والعفو عنهما بعد أن دخلا عليه(1).

... وفي 19 شعبان سنة 724 هـ/ 12 آب 1324 م، بعث له رسالة أخبره فيها بوصول كتابه بصحبة مبعوثه أحمد بن الحجاج؛ كما طلب فيها مساعدته بالعثور على الخريطة الموضوعة في كنانة من الخشب كان مبعوثه الحاج عبد اللام قد نسيها في دار أقام بها في أرغون يعرفها سيدون من رجالات الملك الأرغوني ويوجد معها كتاب من صاحب مصر جاء به مبعوثه القائد من الإسكندرية يخص السلطان النصري إسماعيل الأول (2) وجدد عثمان

---

(1) Docum. Arab, N°. 17.

(2) Docum. Arab, N°. 19.

(4410/1)

في السنة التي تليها رسالة أخرى أكد فيها أهمية البحث عن الكنانة المفقودة لما تحتويه من رسائل مهمة تخص بلاده (1). وكانت الرسالة الأخيرة التي بعثها عثمان إلى الملك جيمس الثاني في آخر ذي الحجة سنة 724 هـ/ 17 كانون الأول 1324 م تؤكد المودة القائمة بينهما ويطمئنه على سلامة وصول سفيره وأنه سيرجع بأخبار تسره(2).

... وأخيراً، فقد كان من حصة والي قصبة المرية (3) يوسف بن محمد بن كماشة (4)

---

(1) Docum. Arab, N°. 20.

(2) Docum. Arab, N° 22.

(3) Docum. Arab, N°. 4.

(4) لم نعثر له على ترجمة، ولم يذكره ابن الخطيب إلا في إشارة سريعة وردت عن ولده الذي استوزره فيما بعد السلطان محمد بن يوسف الغني بالله (755 ـ 760 هـ/ 1354 ـ 1359 م). وقد وجدناه غير راضٍ عنه يرى كون

»المستفيض عن تصرفاته ـ كما قال ـ عدم التبجح أمراً مطروداً«. وقد حفظت الرسائل الغرناطية الصادرة بين عامي 735 ـ 737 هـ نصيباً للولد المذكور بعثه إلى ملك أرغون وبعض ولاته (قارن: اللمحة البدرية، ص. 126).

(4411/1)

رسالة واحدة من بين تلك الرسائل خصبها الدون ارنوطراش (D. Arnau Torres) والي اريولة بعثها له في 18 جمادى الثاني سنة 716 هـ/ 8 أيلول 1316 م تضمنت الإجابة عن تساؤلات الأخير بشأن الصلح المقرر عقده بين المملكتين وأنه كتب إلى مولاه ولم يصل جوابه بعد كما يطلب منه إيقاف عمليات الإغارة مدة عشرين يوماً حتى يتوضح الأمر بشكل نهائي.

... من كل ما تقدم يتبين أن العلاقات الغرناطية الأرغونية اتسمت بطابع السلم وحرص الطرفين على استمرارها بما يخدم مصالح المملكتين السياسية والاقتصادية على الرغم مما كان يشوبها من

(4412/1)

فتور ناجم أحياناً عن الاضطرابات الداخلية التي تحصل بأوقات متباينة فيها بسبب المشكلات الخارجية التي ينجر لها أحدهم فتنعكس سلباً على الآخر.

... وزيادة على ذلك، فقد كشفت لنا تلك المراسلات عن جملة من الحقائق تأتي في مقدمتها ظاهرة المدجنين في مملكة أرغون الذين كانوا يشكلون أثراً اقتصادياً وسياسياً واضحاً، فضلاً عن إبرازها لظاهرة الاعتداءات البحرية المتكررة بين المملكتين وما تسببه من مشكلات إنسانية واقتصادية جسيمة، إضافة إلى المشكلات التي كانت تقع بين الحين والآخر على البر فتدفع بقوة لتبادل المراسلات

(4413/1)

وإيفاد المبعوثين بغية حلها.

... ومن جانب آخر، فقد عكست تلك الرسائل الحالة السياسية التي تعيشها غرناطة داخلياً في تلك المدة ودرجة قوة سلاطينها والشخصيات الأخرى المتنفذة في البلاد كشيخ الغزاة منها.

... وأخيراً، فإن المراسلات الغرناطية إلى مملكة أرغون قد أضاءت وأغنت المصادر التاريخية التي تناولت تلك المدة، من حيث أنها قدمت معلومات جديدة عن العلاقات

بين المملكتين وضمن تفصيلات عما جرى بينهما تختلف عما ألمحت إليه تلك المصادر بصورة عاجلة ومتيسرة.

...

المصادر والمراجع

المصادر

(4414/1)

الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، لبنان، 1984.

ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الله عنان، القاهرة، دار المعارف، 1976.

..، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1978.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدإ والخبر، بيروت، مؤسسة الأعلمي، 1959.

ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، الرباط، دار المنصور، 1973.

(4415/1)

..، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، دار المنصور، 1972.

العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق مصطفى أبو ضيف، ط 1، الدار البيضاء، 1988.

المراكشي، عبد الواحد بن علي، المعجب في تاريخ المغرب، تحقيق محمد بن سعيد العريان، القاهرة، لجنة إحياء التراث، 1963.

المراجع والدوريات

باشا، ضيا، الأندلس الذاهبة، تعريب عبد الرحمن أرشيدات، عمان، وزراة الثقافة، 1989.

(4416/1)

بالاو، ماريونواريباس، »بنو مرين في الاتفاقات المبرمة بين أرغون وغرناطة«، مجلة تطوان، العدد الثامن، الرباط، 1963.

برنشفيك، روبار، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15 م، ترجمة حمادي الساحلي، ط 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988.

جوليان، شارل أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة

محمد مزالي والبشير بن سلامة، تونس، الدار التونسية، 1985.

الحجي، حياة ناصر، العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية، الكويت، 1989.

الحموي، محمد ياسين، الأسطول العربي، دمشق، 1945.

(4417/1)

حومد، أسعد، محنة العرب في الأندلس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1988.

عاشور، سعيد عبد الفتاح، أوربا العصور الوسطى، القاهرة، 1966.

عنان، محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1966.

فرحات، يوسف شكري، غرناطة في ظل بني الأحمر، بيروت، المؤسسة الجامعية، 1982.

كرنجال، مارمول، إفريقيا، ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط، مكتبة المعارف، 1984.

ماهر، سعاد، البحرية في مصر الإسلامية، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1967.

(4418/1)

المنوني، محمد، ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط، كلية الآداب، 1979.

Amari, DL Michele, I Diplomi Arabi R. Archivio Florention, Firenze, 1863.

Santon, A. and De Linares, R. G., Los documentos archivo de la Corona de Aragon, Madrid, 1940.

...

(1/4419)

العلاقات بين المغرب وإفريقيا جنوبي الصحراء كيف نفسر أحداث التاريخ ؟

الدكتور علي القاسمي

الإيسيسكو – الرباط

أقام معهد الدراسات الإفريقية بجامعة محمد الخامس ندوة دولية بمراكش في الفترة من 23 **إلى** 25 **أكتوبر** 1992 **حول (المغرب وأفريقيا جنوبي الصحراء في بدايات العصر الحديث : السعديون والصنغاري)، بدعم من**

المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ومؤسسات أخرى. وقد تميزت هذه الندوة بحسن التنظيم والمستوى الرفيع للمشاركين فيها، فقد أسهم في جلساتها نخبة من الباحثين المتخصصين المرموقين قدموا من إسبانيا

(4420/1)

وأمريكا وبريطانيا وكندا ومصر، ومن البلاد الإفريقية المعنية : السنغال وغينيا والكاميرون ومالي وموريطانيا والنيجر ونيجيريا، إضافة إلى باحثين وأساتذة من عدد من الجامعات المغربية.

وانصب كثير من البحوث التي قدمت في الندوة على الحملة العسكرية التي وجهها السلطان السعدي مولاي أحمد المنصور الذهبي (1578–1603) إلى إمبراطورية الصنغاي في عهد عاهلها أسكيا إسحاق الثاني (1588–1591). وكانت هذه الحملة قد انطلقت من مراكش في 29 أكتوبر 1590 بقيادة الباشا جودر ووصلت إلى غاو، حاضرة دولة الصنغاي في فاتح مارس 1591،

(4421/1)

ووقعت المعركة في 12 أبريل 1591 بمنطقة سونكاي قرب بلدة بونديبي.

وكان الجيش المغربي يتألف من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف محارب (طبقا

لتقديرات المصادر المختلفة)، في حين كان جيش إسحاق الثاني يتألف من ثمانية عشر

ألف خيال وعشرة آلاف من الجنود المشاة. ومن الطرائف التي تروى عن تلك المعركة

أنه عندما تقابل الجيشان تفتقت أذهان قادة جيس الأسكيا عن تقنية مبتكرة تتمثل في إطلاق ألف رأس من الماشية باتجاه الجيش المغربي بهدف امتصاص ضربته الأولى، ولم يدر بخلدهم أن هذه التقنية ستقود إلى نتائج معكوسة، إذ أن المغاربة

(4422/1)

أطلقوا بعض الطلقات النارية باتجاه قطيع الماشية القادم إليهم أدخلت الرعب فيه وردته على أعقابه ليهجم على أصحابه ويثير الفوضى في صفوفهم.

وكان من الطبيعي أن يخصص جانب كبير من الجلسة الأولى في تلك الندوة الدولية لبحث الدوافع التي قادت إلى توجيه تلك الحملة العسكرية والأسباب التي أدت

إليها، والعوامل التي أرهصت لاتخاذ القرار بشأنها. ولما كان الوقت المخصص لكل باحث مشارك في الندوة لا يتجاوز ربع ساعة أو عشرين دقيقة على الأكثر، فقد اضطر الباحثون إلى تركيز تدخلاتهم، وانحصرت تعليلاتهم في خمسة أسباب مفترضة

(4423/1)

لتلك الحملة العسكرية، ويمكن تلخيص هذه الأسباب الخمسة فيما يلي :

1- إن الأوضاع الاقتصادية السيئة وتصاعد الاحتياجات المالية داخل المغرب آنذاك دفعت بالسلطان السعدي إلى توجيه تلك الحملة للحصول على الذهب الإفريقي.

2- كان المغاربة يرومون من وراء تلك الحملة الوصول إلى مناجم الملح في منطقة تغازه والسيطرة عليها والاستفادة منها.

3- إن السلطان المنصور الذهبي ربما كان يسعى من وراء تلك الحملة إلى جلب الرقيق من إفريقيا لتجنيدهم في جيشه تقوية لمركزه.

(4424/1)

4- إن التنافس التجاري بين المغرب من جهة والبرتغاليين والإسبان من جهة ثانية، المتمثل في التنافس بين قوافل الجمال وأساطيل المراكب التجارية السريعة، دفع بالمغاربة إلى اجتياح إفريقيا جنوبي الصحراء تقوية لمركزهم التجاري.

5- إن الدافع الأساسي للحملة هو التنافس السياسي الذي كان مشتدا آنذاك بين الدولة السعدية والإمبراطورية العثمانية، ولما كان المغرب لا يستطيع التوسع شرقا حيث تهيمن قوات الأتراك، اندفع جنوبا.

(4425/1)

وشعرت - وأنا أتابع تلك البحوث - أن التفسيرات التي قدمت تكاد تنحصر في العامل الاقتصادي، وتغفل العوامل الدينية والتاريخية والجغرافية والنفسية وغيرها. وهذا قصور عن بلوغ شأو البحث التاريخي المتكامل الذي يتطلب كثيرا من الإحاطة بالجوانب المختلفة للموضوع، وتطبيق مبادئ علم التاريخ والتقيد بقواعده، فالتاريخ - بشكل عام - عبارة عن تسجيل الأحوال والأحداث التي يمر بها الفرد والمجتمع، في محاولة لتبين جميع عللها الباعثة، وإدراك كل أسبابها

الأصلية، واستجلاء مجمل معانيها ودلالاتها، من أجل استيعاب آثارها على

(4426/1)

حاضرنا، واستكناه المستقبل، والتحكم فيه، والعمل على بنائه بشكل أفضل، وبعبارة أخرى فإن التاريخ هو "السعي لإدراك الماضي البشري وإحيائه"(1).

وتسجيل أحداث التاريخ مجرد رواية ينقلها راو متأخر عن راو متقدم، وكل رواية لا يمكن فصلها عن راويها ودوافعه الذاتية وتكوينه النفسي والحضاري، ومن هنا تتعرض هذه الرواية للتبديل بالحذف أو الإضافة او التعديل(2). ومن

---

(1) قسطنطين زريق، نحن والتاريخ، (بيروت، دار العلم للملايين، 1959) ط 5، ص. 49.

(2) عمر فروخ، تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه، (بيروت، دار الباحث، 1980) ص. 5.

(4427/1)

أجل أن تكون الرواية أقرب إلى الصحة والدقة أصبحت لها أصولها وقواعدها وأساليبها. فيبدأ المؤرخ بالبحث والتفتيش عن المصادر المتعلقة بالمضووع المتمثلة بالآثار الأدبية والمادية، ثم يتولى تمحيص هذه المصادر ونقدها نقدا خارجيا وداخليا، ومن ثم يقوم بتثبيت هذه المصادر وترتيبها وتركيبها والتأليف بينها، ليتمكن أخيرا من تعليل الأسباب وإبراز النتائج(1). وقد كان للمؤرخين العرب الأوائل فضل تقعيد هذه القواعد وتأصيل تلك الأصول مستفيذين بذلك من بحوث المحدثين وجهودهم في ضبط رواية الحديث النبوي

---

(1) المصدر السابق.

الشريف ونقده والتأكد من صحته.

واضطلاع المؤرخ بتفسير الظاهر الطبيعية والبشرية وتعليل الأحداث والأحوال

الاجتماعية غالبا ما يتأثر بالفلسفة التي يتبناها أو المدرسة الفكرية التي ينتمي إليها.

ومعروف أن اتخاذ العامل الاقتصادي – دون غيره من العوامل الأخرى – أساسا

لتفسير أحداث التاريخ وتعليلها يرجع إلى المادية التارخية التي تستند إلى المادية الجدلية، وهي النظرية التي نادى بها كارل ماركس وفريدريك إنجيلز بعد أن تأثرا بمنطق هيجل الجدلي وبمادية فويرباخ. ويرى أباع هذه النظرية أن المادة هي أصل الكون والإنسان،

(4429/1)

وأن الإنسان نشأ من المادة بالتطور والارتقاء، ويردون تفسير الظواهر الطبيعية والفكرية إلى المادة. ومن هنا فإن المادية التاريخية تقرر أن تاريخ البشرية ينشأ في الأساس عن العلاقة الفاعلة التي يمارسها الإنسان مع عناصر الطبيعة وهي في صلبها علاقة إنتاج. ويقرر نمط الإنتاج شكل المجتمع وتطوره وأبعاد وعيه الاجتماعي، فالعلاقات الاقتصادية بين افراده هي التي تحتم نوع الأوضاع الاجتماعية والفكرية فيه. وفي (البيان الشيوعي) لعام 1898 أعلن ماركس أن "تاريخ كل مجتمع لم يكن في يوم من الأيام سوى صراع الطبقات"، ولهذا

(4430/1)

فإن التاريخ هو في جوهره سلسلة من الصراعات بين النقائض وخاصة القوى الاجتماعية والاقتصادية، وسيؤدي الصراع الطبقي في نهاية الأمر إلى إسقاط الرأسمالية وترسيخ دكتاتورية الطبقة العاملة، وبعد ذلك يقوم مجتمع بلا طبقات على أنقاض الدولة المنهارة(1).

ولقد تعرضت هذه النظرية للنقد والتفنيد لا لنزعتها الحتمية التي ترقى إلى نوع من "المثالية" فحسب، وإنما كذلك لتجاهلها طبيعة افنسان، وإغفالها تكوينه الروحي والنفسي، وغمطها أهمية تعلقه بحرية

---

(1) عبد الوهاب الكبالي (المؤسس)، الموسوعة السياسية (بيروت)، صص. 626–630.

(4431/1)

وممارستها، فقد ثبت بما لا يتطرق إليه الشك أن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده وأن الدوافع الروحية والفكرية كانت محركا رئيسيا لمسيرة التاريخ البشري، في حين أن انتهاج هذه النظرية في الدرس التاريخي يؤدي إلى تغليب العامل المادي أو الاقتصادي في تفسير دوافع الحدث التاريخي واستخلاص النتائج

المترتبة عليه، فيأتي هذا التفسير مبتسرا مخالفا للواقع، ويمسي ذلك الاستخلاص ناقصا لا يفي بالغرض.

ومن ناحية أخرى، فإن المؤرخ المعاصر قد يقع تحت تأثير ما يجري في

(4432/1)

محيطه الفعلي وعالمه القائم في تفسير الأحداث التي وقعت في حقبات سابقة، وذلك لبعده عن مكان الحدث وزمانه واختلاف مشاعره وأحاسيسه وقيمه عن تلك التي كانت سائدة في تلك الحقبة والتي شكلت دوافع ذلك الحدث.

ومن الأمثلة على تأثر المؤرخ المعاصر بما يسود عصره من أولويات وهواجس ومفاهيم وتطبيقات على الظواهر والأحوال والأحداث التي جرت في عصور سابقة، استخدام كثير من المؤرخين الأوربيين المحدثين عبارة "الاستعمار المغربي للسودان" عندما يتطرقون لاتصال المغرب بإفريقيا جنوبي الصحراء في زمن المرابطين أو السعديين

(4433/1)

وسايرهم في ذلك عدد من الباحثين الأفارقة. وحتى إذا افترضنا حسن النية في هؤلاء المؤرخين، فإن قواعد علم المصطلح لا تسمح باستخدام مصطلح ينتمي إلى منظومة مفهومية حديثة للتعبير عن مدلولات تعود إلى عصور سابقة.

لقد ظهر مصطلح "الاستعمار" للدلالة علة توسع الدول الأوروبية في إفريقيا والشرقين الأوسط والأدنى وخاصة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين حينما أخذت بريطانيا وأمريكا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا وروسيا واليابان تتبارى في الاستحواذ المستعمرات وبناء الإمبراطوريات لتأمين أسواق استهلاكية لتصريف مصنوعاتها

(4434/1)

وبضائعها(1). إن استخدام هذا المصطلح بصورة دقيقة أمينة يتطلب من الباحث مراعاة الخصائص المميزة والشروط والحدود والمواصفات الواجب توافرها في المفهوم الذي يعبر عنه هذا المصطلح، لأن كل مفهوم ينتمي إلى منظومة مفهومية لصيقة بميدان معرفي

معلوم وزمان معين ومكان محدد مما يفرقها عن المنظومات المفهومية الأخرى المشابهة أو المجاورة لها.

---

(1) Webster's Encyclopedie Dictionnary (New York : Lexicon Publications, Inc, 1990, p. 485.

(1/4435)

إن كل مصطلح حمولته النفسية وإيحاءاته العاطفية وظلاله الهامشية، ولا يجوز استخدام مصطلح معين يعبر عن مفهوم في منظومة مفهومية محددة للتعبير عن مفهوم ينتمي إلى منظومة مفهومية أخرى مهما كان التشابه كبيرا بين المنظمتين تفاديا لاقتراب خطإ فادح. إن إطلاق مصطلح "الاستعمار" على اتصال المغرب بإفريقيا جنوبي الصحراء هو خطأ صارخ لا يضاهيه إلا خطأ استخدام مصطلح "الجهاد" مثلا لوصف احتلاف فرنسا لشواطئ الجزائر بقصد استعمارها عام 1830، أو احتلال ألمانيا النازية لبولندة عام 1939، ذلك الاحتلال الذي أشعل نيران الحرب

(1/4436)

العالمية الثانية.

إن إغفال العوامل الدينية والروحية التي قادت إلى توجيه الحملة المغربية إلى

غاو عام 1591 يتنافى تماما مع الدور الهام الذي يضطلع به الدين في حياة الأمم

بشكل عام وفي التاريخ المغربي في ذلك العصر على وجه الخصوص. لقد كان لسقوط الممالك الإسلامية في الأندلس، وفقدان غرناطة آخر معاقلهم عام 1492، وما أعقبه من هروب المسلمين زرفانا ووحدانا ولجوئهم إلى المغرب، واستمرار اضطهاد الإسبان للمسلمين الذي بقوا في الأندلس (المورسكيين)، أثر بالغ في تأجيج مشاعر المغاربة الذين كانوا يشعرون بضرورة توحيد

(4437/1)

صفوف المسلمين، وتجميع إمكاناتهم المادية، وحشد قواهم العسكرية للقيام بواجب الجهاد المقدس في الأندلس. حتى إذا كان غرض حملة المنصور الذهبي على الصنغاي الحصول على المال والمجندين، ألا يحق لنا أن نتساءل عن الهدف ثم الغاية الكامنين وراء ذلك الغرض ؟ أو ليس من واجب المؤرخ ان يفرق بين الغرض والهدف والغاية من النشاط البشري موضع البحث، توخيا لتوضيح

الرؤية وتعميق الإدراك في سبيل التوصل إلى تحليل أدق وتفسير أقرب إلى الحقيقة والصدق ؟.

(4438/1)

إن الادعاء القائل إن حملة المنصور الذهبي على إفريقيا جنوبي الصحراء لا تمت بأية صلة إلى نشر الإسلام في تلك البقاع لأن أفارقة جنوبي الصحراء كانوا مسلمين في تلك الآونة، ثبت بطلانه مؤخرا. فقد أوضح عدد من الباحثين أنه على الرغم من أن حكام الصنغاي كانوا مسلمين في الظاهر وكانت البلاد تضم مراكز الثقافة الإسلامية مثل مدينة تمبكتو، فإن أغلبية الشعب بقيت على وثنيتها دون ان يبذل الحكام جهدا يذكر لأسلمة المحكومين بل إن بعضهم كان يجد في الإسلام عدوا لمطامعه السياسية، ولم ينتشر الإسلام على نطاق واسع في

(4439/1)

إفريقيا جنوبي الصحراء إلا في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أثناء الاستعمار الأوربي(1). ومن

هنا فقد تكون من بين دوافع حملة المنصور الذهبي
العمل على نشر الإسلام وتعزيزه في تلك البلاد.
لقد أشار الدكتور عمر كانه عميد كلية الآداب بجامعة
داكار في بحثه
الذي قدمه في ندوة مراكش إلى أن كلمة "المغربي"
تعني آنذاك للسامع الإفريقي
"المسلم"، وأضفت في تعليقي بالندوة أن كلمة
"مغربي" مرادفه لكلمة "مسلم"

---

(1) Thomas Amitale, Scrible, Griot and Novelist
(Gainesville, Univer, of Florida Press, 1990) p. 20–26.

(1/4440)

ليس في إفريقيا وحدها بل في الفلبين كذلك حيث
يطلق على المسلمين هناك اسم "المورو" أي المغاربة،
وجبهتهم السياسة معروفة باسن "جبهة المورو".
وجاءت تسمية المسلمين هناك بعد قدوم الإسبان الذين
وصلوا أول مرة إلى الفلبين بقيادة الملاح البرتغالسي
الأصل ماجلان عام 1521. وهذا يعني أن اسم "المغربي"
كان مرادفا مرادفة لكلمة "المرابي" أو "التاجر" أو

"تاجر الرقيق". كان "المغربي" دائما وسيظل أبدا صاحب رسالة حضارية وحامل راية ثقافية، هما رسالة الإسلام ورايته.

(1/4441)

لقد شعر المغاربة إبان القرن السادس عشر – وهم يستقبلون بحزن وأسى وكرم ضيافة الفوج تلو الفوج، والجماعة بعد الجماعة من إخوانهم المسلمين الأندلسيين (الموريسكيين) الذين يضطهدون ويطردون من بلادهم – أن من واجبهم مساعدة هؤلاء الإخوة في العودة إلى أوطانهم، إضافة إلى ضرورة إيقاف تغلغل البرتغاليين في السواحل المغربية، وهذا يتطلب توحيد كلمة وتكثيف جهودهم وتجميع إمكاناتهم المادية والبشرية للقيام بواجب الجهاد المقدس. ومن الذي يدرك ذلك أكثر من المنصور الذهبي الذي خاض غمار معركة وادي المخازن (1578) بنفسه وحاز

(1/4442)

النصر والظفر فيها ؟ ومن أجل بلوغ تلك الغاية وجه رسله إلى حكام إمبراطورية الصنغاي التي كانت تتناهبها الاضطرابات الداخلية والصراعات العرقية والقبلية مبددة ثرواتها ومشتتة قواها. وما وجه حملته العسكرية إلا بعد أن يئس من تحقيق غرضه بالتي هي أحسن. وإذا لم يكن العامل الديني حاسما في تلك الفترة فكيف نفسر تجمع آلاف المقاتلين من البرتغال والإسبان والألمان والطليان بمباركة البابا في جيش سبستيان في معركة وادي المخازن(1)

---

(1) أحمد خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدارالبيضاء، دار الكتاب 1955)، ج 5، ص. 83.

(4443/1)

.

إن المغاربة أصحاب رسالة حضارية، جعلهم موقعهم الجغرافي ركيزة وصل ثقافية بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب. وإذا كان بعض الباحثين يعزون توجه المغاربة إلى إفريقيا جنوبي الصحراء من أجل الحصول على الذهب فقط، فكيف

يفسرون اندفاعهم عدة مرات شمالي البحر الأبيض المتوسط وكانوا لا ينفقون الذهب
في تلك الحملات فحسب وإنما كانوا يضحون بما هو أغلى من الذهب في سبيل نصرة إخوانهم المسلمين في الأندلس، "والجود بالنفس أقصى غاية الجود".

(1/4444)

إن تفسير الحدث بمعزل عن الأحداث السابقة له والمتصلة به أمر لا يقره المنهج السليم والبحث المتأني. فالأحداث التاريخية كأمواج البحر كل موجة تتأثر بسابقتها وتؤثر بلاحقتها. وينبغي أن يدرس تدخل السعديين في إفريقيا جنوبي الصحراء في إطاره التاريخي، وأن يفسر في ضوء تدخلات المغرب السابقة في عهود الأمويين والأدارسة والمرابطين والموحدين والمرينيين، سواء اكانت تلك التدخلات مدنية أم عسكرية.
ولنضرب مثلا واحدا للماضي القريب من حملة المنصور الذهبي، للدلالة على أن تلك الحملة وأسبابها ليست منقطعة عن أحداث الماضي.

(1/4445)

فعندما كتب السلطان مولاي أحمد حوالي عام 1542 إلى أسكيا إسحاق (1539–1549) سلك الصنغاي، يرجو تعاونه وتمكينه المغاربة من الاستفادة من مناجم الملح في تغازه لمواجهة النصاري في الشمال، رد الأسكاي إسحاق ردا مهينا، وبعث بألفين من جنوده الطوارق لنهب منطقة وادي درعة المغربية التي تبعد 1500 كم شمال غربي غاو و 210 كم جنوب غربي مراكش(1). إن مثل هذه الأحداث لا يمكن إسقاطها من

(1) Zakari Dramani-Issifou, l'Afrique noire dans les relations internationales au XVI siécle (Paris, Karthala, 1982), pp. 106–107.

(1/4446)

مخيلة المنصور الذهبي وهو يتخذ قراره في توجيه حملته إلى الصنغاي.

إن المؤرخ الذي يدرس حملة المنصور الذهبي في معزل عن الأحداث التي سبقتها وقادت إليها كالمؤرخ الذي يعزو نشوب الحرب العالمية الأولى (1914–1918) إلى اغتيال الأرشيدوق فرانز فرناند ولي عهد النمسا على يد

الإرهابيين الصرب في سيراييفو في 28 يونيو 1914، لأن هذه الحرب كانت نتيجة التنافس الاستعماري والسياسي والاقتصادي والديني بين الدول العظمى خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر إضافة إلى العلاقات والتحالفات المتباينة بينها، ذلك التنافس الذي

(4447/1)

قاد إلى سلسلة من التوترات والحروب المحدودة. أما اغتيال الأرشيدوق فرانز فرناند فلم يكن سوى القشة التي قصمت ظهر البعير او الشرارة التي أضرمت النار.

وكما أننا لا يمكن أن نقلل من دور العوامل الدينية والتاريخية في توجيه سير أحداث التاريخ، إضافة إلى العوامل الاقتصادية فإنه لا ينبغي لنا أن نهمل العوامل الجغرافية هي الأخرى. فإذا كانت السياسة هي وليدة التاريخ فإن الجغرافية هي أم التاريخ، كما قيل. وفي حدث كحملة المنصور الذهبي نجد أن الجغرافية هي من العوامل الهامة التي ساعدت عليها. فالصحراء لم تكن في يو

(4448/1)

ممن الأيام حاجزا بين أبناء إفريقيا شمال الصحراء وبين إخوانهم جنوبها. فغالبا ما انحدرت موجات بشرية من شمال الصحراء إلى جنوبها أو من جنوبها إلى شمالها بفعل الكوارث الطبيعية، أو الجفاف والقحط، أو الحروب، وامتزجت دماؤهم وتقاربت نفوسهم وتآلفت أرواحهم بالمعتقدات الواحدة، والمصاهرات العائلية، والتحالفات القبلية، حتى لم تعد الصحراء تشكل حاجزا أو فضلا بينهم.

ويمكن أن نضيف إلى خصوصية هذا العامل الجغرافي خصوصية عامل نفسي كثيرا ما أهمله المؤرخون.

فالسلطان المنصور الذهبي نفسه كان يمثل هذا الامتزاج وذلك

(1/4449)

التآلف وتلك الوحدة بين أبناء شماليي الصحراء وأخوتهم جنوبها. فإذا كان أبوه عربيا قرشي النسب أسمر اللون، فإن أمه كانت إفريقية فلانية الأصل سوداء البشرة، وقد غذته منذ طفولته – بما روته له من قصص وحكايات – بحب إفرقيا واستبطانها والتعاطف معها، حتى لم

يعد يشعر أنه غريب عنها أو أنه لا يعنيه أمرها ومصيرها، فقد كان يحس في أعماقه بأنه إفريقي قلبا وقالبا، وأن إفريقيا أصبحت هي نفسه، وأصبح هو إياها. ونحن لا نستبعد أن هذا الرجل المغربي الإفريقي الذي آل إليه الملك كان يطمح إلى توحيد المغرب وإفريقيا في وحدة

(4450/1)

سياسة راسخة كما توحد الدم المغربي والدم الإفريقي في جسده واندمجت المثل المغربية والإفريقية في روحه. ولهذا لم يكن قراره في التدخل في إفريقيا جنوبي الصحراء مخاض تفكير فحسب، وإنما نتاج عاطفة كذلك، وكم من عاطفة جياشة كانت وراء الأحداث التي غيرت وجه التاريخ وعدلت مسار البشرية(1).

---

(1) Abriola Felix Iroko, « Motivations psycologiques et religieuses de la conquête de Gao en 1591 (14 et 15)», Africa Zamani, n° 14, 1984, p. 49–61.

(4451/1)

ولي في نيتي أن أذهب في هذه العجالة إلى ما ذهب إليه عالم الاجتماع والاقتصاد الألماني ماكس فيبر (1864–1920) في كتابه الموسوم بـ"الأخلاقيات البروتستانتية وروح الرأسمالية" الصادر عام 1905 الذي أكد فيه أن أنواعا معينة من الفكر الدينين تؤدي إلى تنمية أنماط خاصة من السلوك الاقتصادي، وإنما أريد أن أخلص إلى أن تفسير أحداث التاريخ يتطلب تمحيص جميع العوامل التي أسهمت في إيجاد تلك الأحداث : العوامل الدينية والورحية واللغوية والتاريخية والجغرافية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية، وقد تزداد اهمية عامل من

(1/4452)

العوامل دون غيره في إثارة حدث من الأحداث. ور يجوز لنا الاقتصار على عامل واحد في تفسير جميع الأفعال البشرية مهما كان زمانها ومكانها؛ لأن النفس البشرية التي تصدر عنها الأفعال مزيج معقد من الأفكار والأحاسيس والمشاعر والقيم والمثل والدوافع والرغبات.

(1/4453)

العلاقة بين أمويي الأندلس والخلافة العباسية

... ... الدكتور خالد إسماعيل نايف الحمداني

... ... كلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي

تمهيد

... شكل عام 41 هـ/ 661 م قيام الدولة العربية الإسلامية في عهدها الأموي (1) على أثر تنازل الحسن بن علي ودخول معاوية الكوفة ومبايعة أهلها له وسمي هذا العام »عام الجماعة« (2).

---

(1) استمرت الخلافة الأموية من 41 هـ إلى 132 هـ/ 661 م إلى 750 م.

(2) وذلك لأن الله جمع كلمة المسلمين فيه. (ابن الأثير، الكامل، ج 3، ص. 203).

(4454/1)

... استطاع معاوية بن سفيان - مؤسس الدولة الأموية - بسياسته الرشيدة المحنكة، أن يثبت أركان دولته واستأنف العرب المسلمون على أثر استقرار الدولة العربية عملية الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً(1).

... وشهد عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ـ المؤسس الثاني للدولة الأموية ـ تغيراً كبيراً أعاد للدولة العربية الإسلامية هيبتها وقوتها وقام بإصلاحات

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، صص، 4، 25، 29، 30، 32، 34، 60، 63، 69، 82، 85، 97، 118؛ الدكتور رشيد عبد الله الجميلي، تاريخ الدولة العربية الإسلامية، ص. 378.

(4455/1)

إدارية كثيرة منها تعريب الدواوين، فأصبحت اللغة العربية لغة الإدارة إضافة إلى كونها لغة العلم والدين والسياسة؛ وكذلك قام بتعريب النقود محاولاً صبغ الدولة بالصبغة العربية(1).

... ثم شهدت الدولة العربية في نهاية القرن الأول الهجري ظهور الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز الذي استطاع إعادة الدولة إلى خطها الإسلامي بعد أن أصابها شيء من الانحراف. فاستحق بذلك أن يسمى خامس الخلفاء

---

(1) ابن كثير، المرجع السابق، ج 8، ص. 283، ج 9، صص.

16 ـ 17؛ ثابت إسماعيل الراوي، تاريخ الدولة العربية، ص. 179.

(4456/1)

الراشدين(1).

... ثم استمرت الدولة في عهد هشام بن عبد الملك على زهوها الحضاري العربي الإسلامي وشكل حادث وفاة هذا الخليفة انعطافاً خطيراً في مسيرة الدولة الأموية، فدبت عوامل الضعف والانحلال تسري في كيان الدولة، فجاء على أثره خلفاء ضعاف انشغلوا بمصالحهم الشخصية عن مصلحة الأمة، وجاء بعد ذلك دور الخليفة مروان بن محمد الذي شهد نهاية عهده انتهاء وسقوط الدولة الأموية عام 132 هـ/ 750 م(2)

---

(1) راجع الدكتور عماد الدين خليل، ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز، ص. 15، 19.

(2) الخليفة مروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية في المشرق (127 ـ 132 هـ/ 740 ـ 750 م). لقب بالجعدي، ولقب أيضاً بالحمار لصبره على مقاتلة الأعداء، (ابن كثير، المرجع السابق، ج 9، صص. 44، 48، 50).

(4457/1)

.

... وقد ذكر المسعودي عوامل ضعف الدولة الأموية وسقوطها بقوله:

... سئل بعض شيوخ ابن أمية ومحصليها عقِب زوال الملك عنهم إلى بني العباس، ما كان سبب زوال ملكهم قال: إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا، فيئسوا في إنصافنا وتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا، فتخلوا عنا وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا ووثقنا بوزرائها فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أموراً دوننا، أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا فتظافروا معهم على حربنا، وطلبنا

(4458/1)

أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا(1).

... وقد عالج بعض الباحثين(2) عوامل ضعف الدولة الأموية وسقوطها ومنها تعصب الأمويين للعرب،

والعصبية القبلية التي أثارها بعض الخلفاء، بالإضافة إلى ولاية العهد. ومما زاد الأمر سوءاً توليته أكثر من واحد، وكذلك ضعف بعض الخلفاء المتأخرين، والمعارضة السياسية والدينية

---

(1) مروج الذهب، ج 3، ص. 258.

(2) ينظر الدكتور حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج 2، ص. 326؛ الدكتور علي حسني الخربوطلي، غروب الخلافة الإسلامية، ص. 88.

(4459/1)

للخلافة الأموية التي سلكت طرقاً شتى في سبيل إسقاط الخلافة الأموية ووجدت غايتها في الدعوة العباسية فانضوت تحت لوائها.

... وجد دعاة العباسيين الظروف ملائمة لتحركهم، فبدأوا نشاطهم السري المنظم وتركز في المناطق المعارضة للأمويين ورفعوا شعار «الرضا من آل البيت»، محاولين استمالة أكبر عدد من الناس إلى دعوتهم(1). وكان العمل على مرحلتين: الأولى سرية من 100 إلى 127 هـ/ 719 إلى 745 م، تركز العمل فيها على

---

(1) ابن كثير، المرجع السابق، ج 9، ص. 197؛ الدكتور فاروق عمر فوزي، طبيعة الدعوة العباسية، ص. 25.

الدعوة والتنظيم، والثانية علنية عسكرية (127 - 134 هـ/ 745 - 750 م) (1) شهدت أحداثاً كبيرة منها مبايعة أبي العباس السفاح بالخلافة في الكوفة، وحدث بعد ذلك التصادم العسكري بين الأمويين والعباسيين؛ إذ حشد مروان بن محمد كل قواه للتصدي لجيوش العباسيين التي كانت تحت قيادة عبد الله بن علي. وحصل الصدام في معركة الزاب (2) قرب الموصل، فانكسر فيها الجيش الأموي وهرب مروان إلى

---

(1) ابن كثير، المرجع السابق، صص. 10، 27، 29، 131؛ الدكتور حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج 3، ص. 13.

(2) المرجع نفسه، ج 10، ص. 43.

بلاد الشام وتبعه الجيش العباسي ودخل دمشق، فانطلق مروان هارباً إلى مصر ثم لم يزل العباسيون وراءه حتى استطاعوا قتله في منطقة بصعيد مصر(1) عام 132 هـ/ 750 م.

... وبمقتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، انطوت صفحة الخلافة الأموية وسقطت نهائياً بعد أن حكمت الدولة العربية الإسلامية من 41 إلى 132 هـ، وشهد العام الأخير قيام الدولة العربية الإسلامية في عهدها العباسي من 132 إلى 565 هـ/ 750 إلى 1258 م. وبعد أن تخلص أبو العباس من خطر الأمويين العسكري، عزم

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 6، ص. 88.

على متابعة من بقي من البيت الأموي ليأمن جانبهم على دولته، فقتل منهم من قتل وهرب من هرب(1).

المبحث الأول: قيام الإمارة الأموية في الأندلس

1) حالة الأندلس قبيل عبد الرحمن الداخل

... أطلقت كلمة أندلس على شبه الجزيرة الإيبيرية التي تشمل حالياً دولتي إسبانيا وألبرتغال، وسماها العرب بالأندلس نسبة إلى سكانها عند الفتح الإسلامي وهم

الوندال، فأصبحت تطلق كلمة الأندلس على المناطق التي كانت تحت الحكم الإسلامي والتي لا يفصلها عن المغرب العربي سوى جبل طارق(2)

---

(1) اليعقوبي، تاريخ، مجلد 2، ص. 356.

(2) ينظر المقري، نفح الطيب، ج 1، صص. 133 ـ 137؛ الدكتور عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي، ص. 37؛ الدكتور إبراهيم باس خضير الدوري، عبد الرحمن الداخل في الأندلس، ص. 40.

(4463/1)

.

... بدأ الفتح الإسلامي للأندلس منذ عبور طارق بن زياد سنة 92 هـ/ 711 م، ثم تبعه موسى بن نصير سنة 93 هـ واستمر العهد الأول (عهد الفتح)(1) للفترة 92 ـ 95 هـ/ 711 ـ 714 م، وتم فتح أراضٍ واسعة جداً في الجزيرة الإبيرية.

... وبدأ العهد الثاني، وهو عهد الولاة (95 ـ 138 هـ/ 714 ـ 756 م). وكانت الأندلس في هذا العهد تابعة للخلافة الأموية حتى سقوطها: »وما زالت الولاة بالأندلس تليها من قبل بني أمية أو من قبل من

(1) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص. 65؛ الدكتور عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي، ص. 37.

(4464/1)

يقيمونه بالقيروان «(1).

... شهدت الفترة الأولى من عهد الولاة إنجازات كبيرة في الأندلس؛ إذ بدأت عملية غرس الحضارة العربية الإسلامية واستمرت عمليات الجهاد لنشر الإسلام في الأندلس. وفيما وراء جبال ألبرت خصوصاً في عهد الولي السمح بن مالك الخولاني والولي عبد الرحمن الغافقي وغيرهم(2).

(1) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص. 39.

(2) ينظر الدكتور محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، القسم الأول، ص. 80.

(4465/1)

... كما أسلفنا القول إن الأندلس ولاية تابعة للخلافة الأموية. وبديهياً، كانت تتأثر بما يجري من أحداث

ومتغيرات في مركز الخلافة. فكانت الأندلس قوية، ما دامت الخلافة قوية متماسكة واستمرت الأندلس على هذه الحال طيلة فترة ثلثي عهد الولاة، ولكن ما أن دب الضعف والانحلال في الخلافة الأموية حتى انعكس ذلك على ولايات الخلافة ومنها الأندلس الولاية البعيدة عن مركز الخلافة والمحاطة بالأعداء من عدة جوانب.

... ففي سنة 126 هـ/ 744 م، اجتاحت الخلافة الأموية الفتن والاضطرابات على أثر مقتل الخليفة الوليد بن يزيد في

(1/4466)

العام المذكور وتولى الخلافة مروان بن محمد، حيث انشغل بمجابهة الفتن والاضطرابات الواسعة التي واجهته ولم يراع ما يدور في أقاصي االبلاد فوقع الاضطراب بإفريقيا والاختلاف بالأندلس(1).

... واستمرت حالة الأندلس مضطربة، بالرغم من قيام الخلافة العباسية (132 هـ/ 750 م) التي كانت في فترتها الأولى منشغلة بأحداث الشرق: »فبقي الأمر بالأندلس سدى«(2).

_____

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، القسم الأول، ص. 37.

(2) ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس، ص. 55.

(4467/1)

... ازدادت الأوضاع في الأندلس تدهوراً وتهدد الوجود العربي الإسلامي فيها، إذ استغلت دول إسبانيا الشمالية الفرصة محاولة ضم بعض المقاطعات الأندلسية، وكذلك حاولت مملكة الفرنجة التوسع على حساب الأندلس(1).

... فرأى أهل الأندلس ضرورة جمع كلمتهم على يد زعامة قوية، فقدموا يوسف بن عبد الرحمن الفهري(2)، فاتفقوا على تقديمه بصورة مؤقتة لمدة عام ينتقل الأمر إلى حيث كان يوسف من المضرية أو يأتي أمر

---

(1) الدكتور محمد عبد الله عنان، تاريخ الإسلام في الأندلس، ص. 129.

(2) ابن الكرديوس، تاريخ الأندلس، ص. 26.

(4468/1)

الخلافة العباسية، ولكن انشغال الخلافة بالمشرق لم يتح لها النظر في أمر الأندلس. فاستغل يوسف الفهري الظروف، محاولاً الاستبداد بحكم الأندلس(1)؛ فعادت الخلافة الداخلية مرة أخرى وشاع الانقسام مرة ثانية.

...

2) هروب عبد الرحمن من الشام إلى الأندلس

... لقد هرب من بلاد الشام عدد من أفراد البيت الأموي خشية الوقوع بأيدي العباسيين. ومن الذين هربوا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، الذي هرب بأعجوبة من أيدي العباسيين، فاختفى برهة من الزمن في أحد بساتين

---

(1) ابن خلدون، تاريخ، ج 4، ص. 262.

الفرات. ولما شعر بقرب العباسيين، عبر الفرات واتجه بعد ذلك إلى فلسطين وتركها متوجهاً إلى مصر ولم يمكث طويلاً إذ خشي من ملاحقة العباسيين فتركها متوجهاً إلى المغرب فاستقر أولاً في برقة(1). وكانت هناك دوافع في توجه عبد الرحمن نحو إفريقيا، منها:

... أ ـ بعدها عن العباسيين، حيث لم تمتد أيديهم لها

لحد الآن؛ فكانت دار أمن للأمويين الهاربين من العباسيين(2).

---

(1) المقري، المصدر السابق، ص. 27.

(2) الدوري، المصدر السابق، ص. 37.

(4470/1)

ب ـ وقد يكون للدم دور، حيث كان في إفريقيا أخوال عبد الرحمن وهم قبيلة نفزة(1).

... جـ ـ ربما كان لنبوءة مسلمة بن عبد الملك دورٌ في دفع عبد الرحمن إلى المغرب، حيث قال عنه: »فإنه صاحب بني أمية ومحيي دولتهم بعد زوالها«(2).

---

(1) قبيلة نفزة البربرية الضاربة في أحواز طنجة، وكانت أمه من قبيلة نفزة (مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص. 50؛ الدكتور عبد المجيد النعنعي، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، ص. 138).

(2) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 2، ص. 60.

(4471/1)

... د ـ كانت إفريقيا تموج بالفتن والخارجين، فربما رغب في استمالتهم له(1).

... هـ ـ ربما يكون قصده منذ البدء الأندلس. فكانت إفريقيا محطة أولى له، إذ كان اهتمامه بالأندلس منذ خلافة هشام بن عبد الملك؛ إذ وهب له جميع أخماس الخلفاء في الأندلس(2). فربما ولد ذلك عند عبد الرحمن حباً وشغفاً واهتماماً بالأندلس.

... كان على إفريقيا عبدُ الرحمن الفهري الذي أعلن انفصاله عن العباسيين ورحب بالأمويين الهاربين في البدء في سبيل اتخاذهم

---

(1) الدوري، المصدر السابق، ص. 35.

(2) المقري، المصدر السابق، ج 3، ص. 27.

(4472/1)

واجهة لمعارضته الخلافة، ولكنه بدل سياسته الترحيبية بعد كثرتهم فضيق عليهم. فانتقل عبد الرحمن من برقة إلى قبيلة مكناسة، ومنها التحق بمليلية، ثم انتقل إلى قبيلة زناتة على شاطئ البحر(1) ممهداً لنفسه الوصول إلى الأندلس حيث لم يجد في إفريقيا ما يحقق حلمه. فتوجهت أنظاره منذ 136 هـ/

753 م نحو الأندلس، وبدأ خطوته العملية الأولى في سبيل تحقيق هدفه، فوجه مولاه بدراً إلى الأندلس ليضع أساس حركته، فحمله كتاباً إلى موالي الأمويين في الأندلس مخبرهم أمره وعارضاً

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص. 262.

(4473/1)

فكرته، فاستجاب لدعوته بعض رؤساء الأمويين(1) وأخذوا يبثون له ذكراً مستغلين سوء حالة الأندلس سياسياً راغبين في تزعمها، فانضمت اليمنية تحت دعوة عبد الرحمن(2). وبعد هذا النجاح، سار أحد عشر رجلاً من أنصار بني أمية ومعهم بدر على مركب(3) نحو عبد الرحمن (الذي كان بانتظار بدر) على شاطئ البحر، ناقلين له الأخبار السارة داعينه إلى التحرك نحو الأندلس.

...

3) موقعة المسارة

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص. 62.

(2) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص. 261.

(3) المقري، المصدر السابق، ج 3، ص. 31.

(4474/1)

... توجه عبد الرحمن بن معاوية على أثر عودة بدر بأخباره السارة إلى الأندلس ونزل في جنوبها(1)، حيث توافد عليه المؤيدون والأتباع خاصة من موالي الأمويين واليمنية(2). وما هي إلا فترة قصيرة حتى أصبح جنوب الأندلس جميعها مؤيداً لعبد الرحمن.

... بدأ عبد الرحمن على أثر ذلك التحرك السريع لاستلام الحكم في الأندلس، وعزم حاكم الأندلس يوسف الفهري والصميل على التحرك لمواجهة التحرك الأموي؛ ولكنه شعر بحالة جيشه غير المشجعة للقتال، فسلك طريق

---

(1) الحميدي، الروض المعطار، ص. 29.

(2) المراكشي، المصدر السابق، ص. 40.

(4475/1)

المفاوضة(1) مع الأمير الأموي الذي دفعه موقفه القوي إلى رفض ذلك، وأصر على المنازلة العسكرية. ودارت معركة

المسارة بين الطرفين قرب قرطبة، فانكسر يوسف الفهري وجيشه وانسحب إلى غرناطة(2) وتبعه عبد الرحمن ونازله فيها وهزمه هزيمة نكراء، فدخل عبد الرحمن بن معاوية ـ على أثر ذلك ـ قرطبة عاصمة الأندلس في عيد الأضحى 138 هـ/ 755 م (3).

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص. 263.

(2) المصدر نفسه.

(3) ابن الأبار، المصدر السابق، ج 1، ص. 35.

(4476/1)

... بعد انتصار عبد الرحمن في معركة المسارة، بويع أميراً على الأندلس فحقق بذلك حلمه وأعاد مجد الدولة الأموية من جديد، معلناً بذلك انتهاء عهد الولاة بالأندلس وبدء عهد جديد فيها وهو عهد الإمارة الأموية الذي استمر من 138 إلى 316 هـ/ 755 إلى 928 م (1).

4) العوامل التي ساعدت عبد الرحمن على النجاح

... يمكن إجمال عوامل نجاح الداخل في تحقيق هدفه بما يأتي:

---

(1) الدوري، المصدر السابق، ص. 57؛ النعنعي، المصدر السابق، صص. 133 ـ 307.

(1/4477)

---

1 ـ نجاح بدر مولى الداخل في مهمته السرية الأولى (136 ـ 138 هـ/ 753 ـ 755 م). فكان عبد الرحمن موفقاً في اختيار بدر، إذ عرف كيف يتحرك وينشر دعوته.

2 ـ وجود موالي الأمويين بكثرة في الأندلس، فتقبلوا الدعوة وتحمسوا لنشرها محاولين إعادة مجد الأمويين راغبين في تزعم الأندلس.

3 ـ اشتداد الصراع بين اليمنية والمضرية واستبداد يوسف الفهري بالحكم، حيث كان من المضرية، مما دفع اليمنية إلى الانضمام إلى حركة الداخل.

4 ـ رغبة الناس في وضع حد لفوضى الأندلس.

5 ـ ميول الناس لعبد الرحمن، لكونه من بيت الخلافة الأموية.

(1/4478)

---

6 ـ شخصية عبد الرحمن الداخل وشجاعته وصبره وجرأته.

المبحث الثاني: موقف أمويّي الأندلس من الخلافة العباسية

1) الخطبة للعباسيين وقطعها

... لقد شكل قيام الإمارة الأموية في الأندلس (138 هـ/ 755 م) انفصال هذا الجزء عن الخلافة العباسية)سياسياً)، ولكن خيوط الانفصال التام لم تبرز وتتوضح لحد الآن. فالأحداث التي جاءت عقب ذلك قد بينت الانفصال ووضحته وأعطته صورة ظاهرة.

... لقد وردت أخبار كثيرة ومختلفة عن علاقة الأمويين (والداخل بالذات) بالخلافة العباسية. فقد جاءت رواية أكدت أن الأمراء الأمويين كانوا يدعون

(1/4479)

ويخطبون للعباسيين بدءاً من الداخل إلى أن جاء الناصر، فأبطل ذلك، حيث »تسمى الخليفة أمير المؤمنين وخطب لنفسه وكان من تقدمه من آبائه يخطبون لبني العباس«(1). إلا أن هذه الرواية لا نستطيع التسليم بها، إذ لم تعاضدها روايات أخرى من مصادر أندلسية أو غير أندلسية. فهذه الرواية ليس لها ما يدعمها

تاريخياً، في حين يذكر ابن عذاري أن عبد الرحمن الداخل لم يخطب للعباسيين نهائياً، إذ »خرج عبد الرحمن طالباً الفهري والصميل وأعطاهم الأمان، واستوثق الأمر للأمير عبد الرحمن

---

(1) ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص. 60.

(4480/1)

وأمر بلعن المسودة وقطع الدعاء لأبي جعفر المنصور «(1). وهذه الرواية أيضاً لم نستطع التسليم بها؛ إذ إنها جاءت متفردة، بالإضافة إلى كونها جاءت بأخبار غريبة، إذ ليس هناك ما يدل على أن عبد الرحمن لعن أو أمر بلعن العباسيين، فتخلو هذه الرواية من الدقة مما يجعلنا نستضعفها.

... وقد مال بعض الباحثين المحدثين(2) إلى الرواية القائلة »إن عبد الرحمن لم يخطب للعباسيين نهائياً مستبعدين اللعن«، مستدلين على ذلك بالمذابح

---

(1) البيان المغرب، ج 2، ص. 73.

(2) فريدة رؤوف الأنصاري، الإمارة الأموية في الأندلس، ص. 85.

التي رآها عبد الرحمن تجاه أفراد البيت الأموي من قبل العباسيين، خصوصاً وأن أخاه الصغير قتل أمامه، بالإضافة إلى المضايقات التي واجهها الداخل منذ هروبه حتى دخوله الأندلس(1). وتذكر رواية أخرى أن الداخل خطب دون السَّنَة للعباسيين: »يقال إنه أقام أشهراً دون السنة يدعو إلى أبي جعفر المنصور«(2). ويورد المقري وابن خلدون أسباباً دعت عبد الرحمن إلى قطع الخطبة للعباسيين، منها: »وفد عليه جماعة من أهل بيته من الشرق، فقطع دعوته«(3)

(1) المصدر نفسه، ص. 85

(2) ابن الأبار، المصدر السابق، ج 1، ص. 36

(3) نفح الطيب، ج 1، ص. 307؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص. 264.

. ويحدد صاحب "الكامل في التاريخ" وصول »عبد الملك بن عمر بن مروان الذي سبب قطع الدعوة العباسية«(1)

عندما ذكره بعمل العباسيين تجاه أهله وأقربائه من بني أمية. وعندما امتنع عبد الرحمن عن ذلك، قال له عبد الملك: »إن لم تقطع الخطبة عنهم، قتلت نفسي«(2). ولكن الواضح من دراسة النصوص أن عبد الرحمن الداخل قطع الخطبة قبل وصول عبد الملك بن عمر إلى الأندلس، إذ أنها ذكرت أن الداخل خطب للعباسيين دون السنة، أي منذ دخوله قرطبة (ذو الحجة 138

---

(1) ابن الأثير، ج 6، ص. 110.

(2) المقري، المصدر السابق، ج 1، ص. 307.

هـ/ 755 م). فمعنى هذا أنه قطع الخطبة في بداية 139 هـ/ 756 م. والمصادر تذكر صراحة أن عبد الملك المذكور دخل الأندلس في 140 هـ/ 757 م (1) وفي 758 م (2)، مما يجعلنا نستبعد ونضعف الرأي القائل بأن دخول عبد الملك دفع الداخل إلى قطع الخطبة للعباسيين.

... وأرجح الروايات التي تذكر أن الداخل خطب للعباسيين فترة قصيرة (دون السنة) ثم قطع خطبته لهم(3)

---

(1) ابن الأبار، المصدر السابق، ج 1، ص. 56.

(2) المقري، المصدر السابق، ج 1، ص. 307.

(3) ابن الأبار، المصدر السابق، ج 1، ص. 36؛ الدكتور محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام، القسم الأول، ص. 194؛ الدكتور أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص. 42.

(4484/1)

، وأميل أيضاً إلى السبب الذي ذكره ابن خلدون، حيث ذكر دافع الداخل إلى قطع الخطبة للعباسيين وهو »أنه كان يدعو للمنصور، ثم قطعها لما تم له الملك بالأندلس ومهد أمرها« (1). وأستند في ترجيحي المذكور إلى ما يأتي: إن الأمير عبد الرحمن الداخل سياسي بارع بدليل شهادة شيخ مؤرخي الأندلس ابن حيان صاحب كتاب "المقتبس من أبناء أهل الأندلس" : »كان عبد الرحمن راجح الحلم فاسح العلم ثابت الفهم كثير الحزم نافذ العزم بريئاً من العجز سريع النهضة...«(2)

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص. 264.

(2) المقري، المصدر السابق، ج 3، ص. 37.

(4485/1)

. فعمد منذ دخوله قرطبة ونجاحه في إقامة الإمامة الأموية إلى مراعاة شعور الناس والرأي العام، »خاصة في مسألة الخطبة للعباسيين وعدم تلقبه بلقب أمير المؤمنين، بل لقب بالأمير وابن الخلائف«، خصوصاً وأن الظروف المحيطة به كانت متوترة، حيث:

... 1 . إن قيام الخلافة العباسية كانت قد وصلت إلى مسامع الأندلسيين. فلم يرغب أن يقوم بعمل لا يعلم عواقبه، حيث لم يعتد الناس على الانفصال عن الخلافة ولم يشع ذلك بينهم.

... 2 . كان رجلاً غريباً عن الأندلس ولم يعرف بعد طبيعة تفكير أهلها.

(4486/1)

... 3 . كانت الأندلس عند دخوله تموج بالفتن والاضطرابات، فلم يرغب بمواجهة العباسيين حتى يستقر على ملكه فجعل جل اهتمامه نحو الاضطرابات محاولاً تهدئتها والقضاء عليها. وبالفعل، حقق الاستقرار النسبي وبفترة وجيزة، حيث »استسلم الثوار عليه عن كثرتهم في النواحي«(1). فقضى على معظم الاضطرابات

فيها، وليس هناك أدل من هذا على براعته السياسية.

... فعزم الداخل على قطع صلة الأندلس الرسمية بالخلافة العباسية، »فدعا الداخل لنفسه عند استغلاظ أمره «(2)

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 308.

(2) ابن الأبار، المصدر السابق، ج 1، ص. 36.

واستقرار ملكه. ورغب في أن »يخلد لبني مروان السلطان بها وجدد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها «(1). فمن هنا نستطيع القول إن الأمير عبد الرحمن الداخل لم يعترف بسلطان العباسيين منذ تأسيس إمارته إلا لفترة قصيرة اضطرته الظروف السياسية إلى ذلك وبالمقابل، كان الخليفة العباسي يعتبر الأمير عبد الرحمن خارجاً عن طاعته(2). والملاحظ أن قطع الخطبة للعباسيين قطع اتصالات الأندلس بالخلافة سياسياً وإدارياً، ولكنها لم تنقطع عنها في

---

(1) المصدر نفسه.

(2) فريدة رؤوف الأنصاري، المصدر السابق، ص. 82.

مجالات الحياة الأخرى »طلب العلم، الحج، التجارة، وغيرها« بسبب قيام واستمرار العلاقة الوضاءة الفريدة بينهم، وهي رابطة العقيدة الإسلامية(1).

2) إعلان الخلافة الأموية(2) في الأندلس (316 هـ/ 929 م)

... إن عبد الرحمن الداخل ومنذ نجاحه في إقامة الإمارة الأموية في الأندلس لم يتلقب بلقب أمير المؤمنين، وإنما لقب بـ »الأمير«(3)

---

(1) الدكتور عبد الرحمن الحجي، المصدر السابق، ص. 240.

(2) جاء ذكر إعلان الخلافة في هذا المبحث قبل ذكر الحركات خلافاً للسياق التاريخي، وذلك تماشياً مع تقسيم البحث إلى مباحث محددة.

(3) ابن الأبار، المصدر السابق، ج 1، ص. 36؛ المقري، المصدر السابق، ج 1، ص. 308.

(4489/1)

، وكذلك بـ »ابن الخلائف«(1). وعلى هذا سار بنوه من بعده إلى أن جاء عبد الرحمن الناصر الذي استمر يتلقب بالأمير للفترة من 300 إلى 316 هـ وبعد ذلك، لقب أمير

المؤمنين، وأعلن الخلافة الأموية في الأندلس.

... نستطيع أن نعرج على الظروف التي أحاطت بالأمير الداخل وخلفائه إلى عهد الناصر وحالت دون إعلانهم الخلافة، ومنها:

---

(1) ورد ذكر الخلافة تعبيراً عن حكم أمراء بني أمية قبل الناصر، (راجع ابن حبان، المقتبس، ص. 99).

(4490/1)

... 1 ـ عدم رغبة الداخل وخلفائه من بعده إلى عهد الناصر القيام بعمل يثير عليهم بشكل مباشر الخلافة العباسية التي كانت في أوج قوتها. وربما لم يكن هذا اللقب ضمن طموحات الداخل وخلفائه قطعاً، بالإضافة إلى خشيتهم من تقسيم العالم الإسلامي.

... 2 ـ إن ظروف العالم الإسلامي كانت تشهد قيام إمارات متعددة منفصلة أو متصلة بالخلافة العباسية ولكنها لحد الآن لم تشهد ظهور خلافة إسلامية ثانية، وظلت الخلافة العباسية تحافظ على سلطانها على العالم الإسلامي.

(4491/1)

... 3 ـ عدم استعداد المسلمين في هذه المرحلة لتقبل قيام أكثر من خلافة إلى جانب الخلافة العباسية القوية؛ والداخل، بالرغم من حزمه وطموحه، كان يميل إلى مراعاة شعور الناس الذين كانوا ينظرون بأحقية الخلافة إلى من بيده الحرمان الشريفان (مكة والمدينة) فلم يقدم الداخل على إعلان الخلافة »تأدباً مع الخلافة بمقر الإسلام ومنتدى العرب «(1).

... ولكن في عهد الناصر، استجدت ظروف سمحت له بالتلقب بأمير المؤمنين وإعلان الخلافة الأموية. وقد أصدر كتاباً للأمة يبين فيه

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص. 265.

(4492/1)

أحقيته بالخلافة(1)، وبرر فيه أسباب تلقبه بأمير المؤمنين. ويمكن إجمال أسباب إعلان الناصر الخلافة الأموية سنة 316 هـ بما يأتي:

... 1 ـ ما بلغته الأندلس في عهده (300 ـ 350 هـ/ 913 ـ 961 م) من قوة وازدهار وتماسك، حيث كان لعبد الرحمن بن محمد بن عبد الله (الناصر) دور كبير في ما وصلت

إليه الأندلس، وبما يملكه من قدرة إدارية وبراعة سياسية، فنجح في القضاء على الفتن والاضطرابات وقضى على المتمردين الخارجين على سلطان الإمارة(2)

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، صص. 198 ـ 199.

(2) راجع المراكشي، المصدر السابق، ج 3، ص. 55.

، ووضع حداً لتحرشات الدول الإسبانية على الأندلس(1). وتأكيداً لقوة الأندلس هذه على الصعيدين الداخلي والخارجي، رأى من المناسب إعلان الخلافة.

... 2 ـ كانت ظروف العالم الإسلامية تسمح له بمثل هذا العمل، إذ لم تعد تلك النظرة المقدسة للخلافة العباسية من قبل الناس، خصوصاً بعد ضعفها وقلة هيبتها لكثرة الإمارات المنفصلة عن الخلافة في المشرق والمغرب؛ إذ لم يعد للخليفة العباسي سلطاناً كاملاً حتى على المناطق القريبة من بغداد. ومما قلل هيبة الخلافة أكثر بالإضافة إلى ضعفها هيمنة العنصر

---

(1) المصدر نفسه، ص. 54.

الأجنبي المتمثل بالأتراك على مقدرات الخلافة، فإنه «عندما التاب أمر الخلافة بالمشرق واستبد موالي الترك على بني العباس وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة 317 هـ، فتلقب بألقاب الخلافة» (1).

... 3 ـ ظهور الدولة الفاطمية التي أعلنت الخلافة بالرغم من مجيئها بعد الدولة الأموية في الأندلس وانتشر لها دعاة في المغرب، محاولين جعل المغرب الإسلامي خاضعاً بأكمله لهم، الأمر الذي أقلق الناصر فعزم على التصدي لهم على محورين الأول عسكري من خلال إرساله أسطولاً

(1) المقري، المصدر السابق، ج 1، ص. 353.

بحرياً إلى سبتة فاستولى عليها فدفع أمراء البربر من الأدارسة وزناتة إلى مهادنته وطاعته فامتد نفوذه إلى فاس (1). والمحور الثاني كان على الصعيد السياسي، حيث تلقب بأمير المؤمنين معلناً الخلافة الأموية في الأندلس.

... 4 ـ استهدف عبد الرحمن الناصر إعطاء قرطبة دوراً أكثر مركزية، بحيث تشتد قبضتها على أطراف الدولة

وإعطائها سعة أكبر خصوصاً بعد استقرارها في عهده وبلوغها درجة عالية من الازدهار الفكري والعلمي والمعماري والسياسي.

---

(1) خالد الصوفي، تاريخ العرب في إسبانيا، ج 1، ص. 53.

(4496/1)

... 5 ـ طموح عبد الرحمن الناصر الشخصي في بعث الخلافة الأموية مجدداً، بالإضافة إلى كونه »أعظم بني أمية بالمغرب سلطاناً وأفهمهم في القديم والحديث شاناً« (1).

المبحث الثالث: موقف العباسيين من أمويّي الأندلس

... أقدم الأمير عبد الرحمن الداخل على أثر انتصاره في معركة المسارة ونجاحه في إقامة الإمارة الأموية في الأندلس على قطع اتصالات الأندلس بالخلافة العباسية. وقام بذلك بعد أن استقر ملكه في الأندلس؛ فما أن مضت أشهر دون السَّنَة (2)

---

(1) ابن الأبار، المصدر السابق، ج 1، ص. 198.

(2) المصدر نفسه، ص. 36.

(4497/1)

حتى أمر بقطع الدعاء والخطبة للعباسيين. وهذا يعني انفصال الأندلس رسمياً عن الخلافة العباسية، ويعني أيضاً أن الأمير الداخل لم يعترف بسلطان العباسيين وخلافتهم عن العالم الإسلامي. ومن جانب آخر، كانت الخلافة العباسية تنظر إلى الداخل وإمارته في الأندلس نظرة الخلافة الشرعية إلى العاصي المتمرد على طاعة الخلافة، وكان خلفاء بني العباس، ولا سيما الأوائل منهم، يتمنون زوال هذه الإمارة ويسعون إلى ضم الأندلس إلى سلطانهم، ولكن ظروف الدولة ومشاكلها وبعد الأندلس عن مركز الخلافة حال دون بعث جيش عباسي لضم الأندلس

(4498/1)

ولكنهم لم يتأخروا في تقديم الدعم المادي والمعنوي لكل من حاول ضرب الإمارة الأموية والقضاء آملين في ضم الأندلس إلى كيانهم. وأهم الحركات التي حاولت القضاء على الأمويين ـ وكانت باسم الخلافة العباسية ـ هي:

1) حركة العلاء بن مغيث

... تختلف المصادر في نسب العلاء بن مغيث. فالبعض يطلق عليه لقب اليحصبي(1) والآخر الجزامي(2) وكذلك الحضرمي(3). وتختلف المصادر أيضاً في المنطقة التي يعود

---

(1) المقري، المصدر السابق، ج 1، ص. 310.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص. 77.

(3) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص. 102.

(4499/1)

إليها العلاء: فالبعض يشير إلى أنه من أهل باجة في الأندلس وأنه كان على رأس جند باجة(1)، فيما يشير البعض الآخر إلى أنه من أهل إفريقيا (2)قدم إلى الأندلس واستقر في باجة معلناً حركته على الداخل. وتتفق الروايات على أنه بدأ حركته في باجة غربي الأندلس (جنوب ألبرتغال حالياً) أو في »لقتت« أحد أعمال باجة وكان ذلك في سنة 146 هـ/ 763 م (3)، فيما

---

(1) الحميدي، المصدر السابق، ص. 75.

(2) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 2، ص. 575؛ ابن خلدون،

المصدر السابق، ج 4، ص. 266.

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص. 77.

(4500/1)

تذكر رواية أخرى أن حركة العلاء كانت في سنة 149 هـ/ 766 م(1). والأرجح سنة 146 هـ/ 763 م لإجماع المصادر على هذا التاريخ.

... وعلى الرغم من أهمية حركة العلاء وخطورتها على إمارة الداخل، فلم تزودنا المصادر بتفاصيل كافية حول طبيعة الحركة وصيغة الاتصال بين العلاء وبين الخلافة العباسية. فمثلاً يذكر صاحب كتاب "أخبار مجموعة" أنه »ثار عليه العلاء بن مغيث اليحصبي ويقال حضرمي بباجة وسود ودعا إلى طاعة أبي جعفر المنصور وكان قد بعث إليه بلواء أسود« (2)

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص. 466.

(2) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص. 102.

(4501/1)

، فيما تذكر رواية أخرى »أن المنصور كان أرسل للعلاء بولاية الأندلس، فنشر الأعلام السود وقام بالدعوة العباسية بالأندلس« (1)، في حين يذكر المقري أنه »سنة 146 هـ، سار العلاء بن مغيث اليحصبي من إفريقيا إلى الأندلس، ونزل بباجة الأندلس داعياً لأبي جعفر المنصور« (2). إن عدم التصريح الواضح من قبل المصادر حول حقيقة حركة العلاء يجعلنا نتساءل: هل كان العلاء من أتباع الخليفة المنصور وعاملاً للخلافة العباسية منفذاً لأوامرها

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص. 77.

(2) المقري، المصدر السابق، ج 1، ص. 310.

(4502/1)

ومندفعاً من قبلها في حركته؟ أو كان مستغلاً اسم الخلافة في حركته ليضفي عليها الصفة الشرعية ليجمع أكبر عددٍ من الناس حوله في سبيل تحقيق طموحه الشخصي في توليه الأندلس؟ وهل بدأ العلاء مراسلة الخلافة العباسية قبل القيام بحركته؟ أو راسله الخليفة المنصور عندما علم بحركته بالأندلس رامياً عليه تأييده وباعثاً له كتاباً ينص على توليه أمر

الأندلس وأعلاماً سوداً شعار حركته، مستغلاً إياه في سبيل القضاء على الداخل وإمارته وضم الأندلس إلى السلطة العباسية ولو اسمياً؟ لا نستطيع الجزم في الجواب عن هذه التساؤلات،

(4503/1)

ولكننا نرجح أن يكون العلاء بن مغيث من أتباع الخليفة المنصور مستندين في ذلك إلى ما يأتي:

... 1 ـ خروج العلاء بن مغيث من إفريقيا والذي نصت عليه معظم الروايات التاريخية. لا يمكن أن يتم هذا الخروج دون علم والي إفريقيا من قبل الخليفة المنصور (1).

... 2 ـ تفويض المنصور للعلاء بولاية الأندلس، واللواء الأسود الذي بعثه المنصور للعلاء برفقة كتاب جاء فيه: «إن كان فيك محمل لمناهضة عبد الرحمن، وإلا فأبعث إليك بمن يعينك» (2). كل

---

(1) فريدة الأنصاري، المصدر السابق، ص. 175.

(2) الدوري، المصدر السابق، ص. 160.

(4504/1)

ذلك يقوي الرأي القائل بأن العلاء كان مندفعاً بحركته من قبل الخليفة المنصور.

... 3 ـ إقدام الأمير عبد الرحمن الداخل على بعث رأس العلاء بعد قتله ورؤوس زعماء حركته برفقة كتاب المنصور ولوائه الأسود إلى الخليفة المنصور مغدقاً الأموال لمن يحمله إلى الخليفة(1). وكان ذلك بمثابة تحدٍّ من الداخل للخلافة العباسية معلماً علناً للمنصور فشل حركته ومحاولته النيل من الإمارة الأموية مشعراً إياه بقوته وعزمه.

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص. 77.

(4505/1)

... 4 ـ قول المنصور حينما وصله رأس العلاء: »إنا لله عرضنا بهذا المسكين للقتل«(1).

... إن كل ما تقدم يقوي الرأي القائل بأن العلاء كان من أتباع المنصور مندفعاً من قبله الذي وجد فيه حباً للولاية وخصومه للأمويين، فأراد استغلاله في القضاء على الإمارة الأموية.

... بدأ العلاء بن مغيث تحركه في باجة ورفع الأعلام السود شعار العباسيين وبدأ يحرض الناس على الداخل

معلناً لهم أنه خارج عن سلطان الخلافة الشرعية. وقد اختار العلاء ظرفاً

---

(1) المقري، المصدر السابق، ج 1، ص. 310؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ص. 77.

ملائماً لحركته، إذ كان الداخل يواجه حركات معارضة تجتاح الأندلس من شمالها وجنوبها(1)، الأمر الذي أحرج الداخل. ولكن الإحراج الأكبر كان بانضمام أعداد كبيرة من الناس؛ »فانحشر إليه الناس«، وانضم إليه الأجناد(2)، واتبعته الفهرية على أثر انضمام »واسط بن مغيث الطائي وأمية بن قطن الفهري« (3). وانضمت إلى الحركة كذلك اليمانية، »فأقبلت اليمانية« (4)

---

(1) السيد عبد العزيز سالم، المؤرخ العربي، عدد 2، بغداد، 1975، ص. 144.

(2) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص. 77.

(3) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص. 102.

(4) المصدر نفسه، ص. 102.

، وسادت الأندلس فترة من الهيجان الشديد، وأحرج موقف الأمير الداخل إحراجاً كبيراً لكثرة المنضمين للحركة، »وكادت دولة الأمير أن تنصرف وخلافته أن تنخرم« (1).

وكان لكثرة الناس المنضمين لحركة العلاء أسباب هي:

... 1 ـ استغلال العلاء الخلافة العباسية في حركته وأثار شعور الناس بإشاعته أن الداخل خارج عن سلطان الخلافة العباسية، الأمر الذي أوهم ودفع الكثير من الناس إلى الانضمام إلى حركته.

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص. 77.

... 2 ـ انضم إلى حركة العلاء الذين تضررت مصالحهم بقدوم الداخل وقيام الإمارة الأموية، وخاصة الفهري الذي أبعد عن السلطة بمجيء الداخل؛ وانضمت كذلك القبائل اليمانية التي انقلبت على عبد الرحمن، لأنهم لم يجدوا في عهده النفوذ الذي كانوا ينشدونه مقابل مساعدتهم في كفاحه ضد المضرية(1). تقدمت الجموع المؤيدة للعلاء إلى إشبيلية، فخرج الداخل بقواته من قرطبة مفضلاً ملاقاة الخارجين خارج قرطبة، خاصة بعد أن

سمع بكثرة عددهم؛ واشتد الكرب

---

(1) الدكتور أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي، ص. 307.

(4509/1)

بالداخل عندما علم بخروج »غياث بن علقمة اللخمي من شدونه ممداً لهم. فلما سمع بخبره الأمير، بعث إليه بدراً مولاه في قطيع من عسكره فنازله بدر وانعقد الصلح«(1). فعاد اللخمي إلى شدونه، ورجع بدر إلى الداخل، ناقلاً له رجوع غياث اللخمي ووصل الداخل إلى قرمونة(2)،» وهي موقع حصين على الطريق بين منطقة الثائرين وقرطبة«، ووصلت قوات الخارجين وحاصرت قوات الداخل، وبدأت المناوشات بين الطرفين شديدة من خلف أسوار المدينة. ولما طال أمد الحصار، تخلخل

---

(1) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص. 102.

(2) المصدر نفسه، ص. 102.

(4510/1)

جيش العلاء؛ إذ لم يتوقعوا استمرار الحصار لهذه الفترة(1). فلما أعلم الداخل أن اليأس قد دب في صفوف أعدائه، أراد استغلا ل الفرصة والقضاء على الحركة، »فأمر الداخل بنار فأوقدت، ثم أمر بأغمدة سيوف أصحابه فأحرقت وقال لهم اخرجوا معي لهذه الجموع خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع وكانوا 700 من ذكور الرجال ومشاهير الأبطال فأخذوا سيوفهم وخرجوا« (2)، مباغتين أعداءهم مثيرين فيهم الرعب. فدارت الحرب بينهم طويلاً وزلزل قوم العلاء وأصحابه فولوا منهزمين،

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص. 77.

(2) لمصدر نفسه.

وقتلوا قتلاً ذريعاً، وقتل العلاء مع سبعة آلاف من أصحابه(1). ربما يكون أعداد مقاتلي الجانبين مبالغاً فيه أو ليس من المعقول أن يقتل 700 مقاتل سبعة آلاف مقاتل؟ وبذلك تخلص الداخل من خطر شديد هز كيان إمارته هزاً عنيفاً وليس أدل على تأثير حركة العلاء على نفسية الداخل من العمل الذي قام به، وهو أنه »ميز رؤوس المعروفين ورأس العلاء ومثله ثم كتب باسم كل

واحد بطاقة ثم علقت في أذنه ثم أجزل العطاء لمن انتدب لحمل تلك الرؤوس» (2). وحملت الرؤوس ورأس

---

(1) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص. 103.

(2) المصدر نفسه.

العلاء معها بعد أن أفرغ وحشي ملحاً وصبراً وجعل معه لواء المنصور وبعثه مع رجال وأمرهم أن يضعوا بمكة. فوافق المنصور بها حاجاً في تلك السنة، فجعل السقط عند باب سرادقه. فلما نظر إليه، قال مقولته التي ذكرناها سابقاً(1).

... إن عمل الداخل بما يحمل من سخرية وتحد لأبي جعفر المنصور يعكس الصعوبة التي واجهها الداخل في حركة العلاء، بحيث جعلته يفقد سيطرته على نفسه ويقوم بعمله المثير. وقد جعل فشل حركة العلاء وتحدي الداخل للخلافة بسخرية وعنف، هذه المحاولة الأولى والأخيرة التي يقوم بها أبو

---

(1) ينظر آنفاً.

جعفر المنصور؛ فلم يقدم على أي محاولة ثانية ضد الإمارة الأموية في الأندلس.

2) حركة الصقلبي

... بفشل حركة العلاء، انتهت محاولة المنصور بالقضاء على الإمارة الأموية في الأندلس، وقامت محاولات العباسيين بمجيء الخليفة المهدي (158 ـ 169 هـ/ 755 ـ 785 م) الذي كان لا يقل طموحاً عن المنصور في ضم الأندلس تحت لوائه. وربما كان عدم إقدام المنصور على محاولة ثانية لاتعاظه بما حصل للعلاء أو لعدم وجود شخص كالعلاء يستطيع المجازفة. توافرت الفرصة للخليفة المهدي بالقضاء على الأمويين بوجود شخصية مناسبة على استعداد

(4514/1)

كبير للتضحية والطموح في تولي الأندلس.

... فقد عبر عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي(1) من إفريقيا إلى تدمير(2) (جنوب الأندلس). وتختلف الروايات في تحديد سنة عبوره وحركته.

فالبعض يشير إلى سنة 161 هـ/ 778 م(3)، والآخر إلى سنة 162 هـ/ 779 م أو سنة 163 هـ/ 780 م(4)

---

(1) ليس هو عبد الرحمن بن حبيب والي إفريقيا، بل هو شخص آخر؛ ولم يكن صقلبياً، وإنما سمي بذلك لكونه شبيهاً بالصقالبة. (ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص. 79).

(2) المصدر نفسه.

(3) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص. 210.

(4) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص. 79.

(4515/1)

. نزل في تدمير ودعا للعباسيين ولبس السواد واتخذه شعاراً لحركته(1).

... إن حركة الصقلبي تشبه إلى درجة كبيرة حركة العلاء خصوصاً في الجهة التي عبروا منها وانتهاج الأسلوب نفسه ورفع الشعارات نفسها، ولكن ما يميز حركة العلاء هو كثرة المنضمين إليها بفعل ظروف خاصة كانت تمر بها الأندلس. أما حركة الصقلبي، فتميِّزها محاولته التفاهم مع سليمان بن يقظان الأعرابي الذي كان عاملاً في برشلونة أو سرقسطة مستغلاًّ سوء علاقته بالداخل،

حيث إنه »كاتب سليمان بن يقظان الأعرابي

(1) ابن الأثير، المصدر السابق، ج 5، ص. 54.

في أمره ومحاربة عبد الرحمن الأمويّ والدعاء إلى طاعة المهدي«(1). وهنا تكمن خطورة حركة الصقلبي على الإمارة الأموية، ولكن لحسن حظ الداخل لم يتم التفاهم والموافقة بين الطرفين. فلم يجب الأعرابي دعوة الصقلبي كاتباً له »إني لا أدع عونك« (2)، الأمر الذي وتر العلاقة بين الطرفين ووصل إلى الصدام العسكري بينهما، وَجَرَتْ معركة بين الأعرابي والصقلبي قرب برشلونة انهزم فيها الصقلبي وعاد منسحباً إلى تدمير(3)

(1) المصدر نفسه؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص. 210.

(2) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص. 110.

(3) المصدر نفسه.

. وكان ذلك كله في صالح الأمير عبد الرحمن الداخل الذي استغل فرصة ضعف أعدائه، فهاجم تدمير وأحرق مراكب الصقلبي الموجودة في ساحل البحر(1) محاولاً منع الصقلبي من العودة إلى إفريقيا. واستعمل الداخل سلاح المال، فأعلن أنه يبذل ألف دينار جائزة لمن يأتيه برأس الصقلبي فاغتاله رجل من البربر وحمل رأسه إلى عبد الرحمن فأعطاه الداخل ألف دينار وتم ذلك على أرجح الروايات سنة 162 هـ/ 779 م(2).

---

(1) ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص. 79.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج 5، ص. 54؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص. 210.

(4518/1)

وبذلك فشلت محاولة العباسيين العسكرية الثانية والأخيرة في استرجاع الأندلس. ولكن بعض الباحثين أشار إلى عدم وجود صلة بين الصقلبي والخليفة المهدي بدليل أن الصقلبي كان إباضي المذهب هارباً من سلطان العباسيين في إفريقيا وساعياً إلى نشر المذهب الإباضي في الأندلس، الأمر الذي حال دون اتفاقه مع الأعرابي وأهل الأندلس بصورة عامة إذ لم يرغبوا في غير المذهب

المالكي(1). ولكن لبس الصقلبي السواد ودعوته للعباسيين كان شعار حركته، ثم طلبه من الأعرابي بحرب الداخل، فالدخول

---

(1) فريدة الأنصاري، المصدر السابق، ص. 178.

في طاعة المهدي، ثم ردود فعل الأمير الداخل على حركة الصقلبي التي كانت موجهة ضد العباسيين خصوصاً إعلانه عزمه على غزو بلاد الشام(1). كل ذلك يدل على اتصال الصقلبي بالخليفة المهدي وأن خروجه كان باسم الخلافة العباسية. وتمخضت عدة نتائج عن حركة الصقلبي وهي:

... 1. مقتل عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي، وفشل حركته ضد الإمارة الأموية.

... 2. فشل محاولة العباسيين الثانية التي كانت بإشراف الخليفة المهدي الذي حاول من خلالها ضم الأندلس إلى سلطانه.

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص. 210.

... 3 ـ عدم إقدام العباسيين على أثر فشل هذه المحاولة على أي عمل عسكري موجَّهٍ ضد الإمارة الأموية في الأندلس.

... أما ردود الأمير الداخل على حركة الصقلبي، فتمثلت في عدة أمور هي:

... 1 ـ أشاع الأمير عبد الرحمن الداخل عزمه على غزو الشام من الأندلس على العدوة الشمالية لأخذ ثأره من العباسيين، وكان ذلك سنة 163 هـ/ 780 م. ولكن قيام ثورة سليمان بن يقظان الأعرابي والحسين بن يحيى الأنصاري في سرقسطة حال دون تنفيذ عزم الأمير المذكور.

(1/4521)

... وفي الواقع لم يكن تنفيذ مثل هذا العمل سهلاً على الداخل، لأنه يحتاج إلى إمكانات مادية وبشرية كبيرة جداً، بالإضافة إلى البعد الجغرافي وما يترتب على ذلك من صعوبة كبيرة. ثم إن الداخل رجل سياسي يعرف ما يعنيه مثل هذا العمل ـ كل ذلك يجعلنا نقول إن الداخل لم يكن جاداً في عزمه بغزو بلاد الشام، وإنما أشاع ذلك

تهديداً للخلافة العباسية مثيراً مخاوفها متحدياً لها ولأي عمل عسكري جديد توجهه ضد إمارته.

... 2 ـ كان من نتائج حركة الصقلبي أن أرسل الداخل رسالة إلى الخليفة المهدي اتصفت بالسلبية والخشونة، فرد

(1/4522)

عليها المهدي برسالة مماثلة(1).

3) حركات أخرى

... ثمة رأي ساد عند بعض الباحثين(2)

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج 8، ص. 172.

(2) السيد عبد العزيز سالم، «سياسة الدولة العباسية في عصرها الأول مع الأمويين في الأندلس»، مجلة المؤرخ العربي، عدد 2، 1975، بغداد، ص. 146؛ الدكتور أحمد مختار العبادي، المصدر السابق، ص. 310؛ الدكتور عبد الجليل عبد الرضا الراشد، العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس، الرياض، 1969، ص. 95؛ الدكتور إبراهيم ياس الدوري، المصدر السابق، ص. 161؛ الدكتور حسن زعين العاني، سياسة المنصور، ص. 402.

(4523/1)

مفاده أنه تم تدبير مؤامرة دولية كبرى أعضاؤها الرماحس الكتاني والي الجزيرة، وسليمان بن يقظان الأعرابي والحسين بن يحيى الأنصاري في سرقسطة، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي الذي عليه أن يعبر لينضم للمؤامرة، ومساعدة شارلمان ملك الإفرنجة. وتمت هذه المؤامرة بإشراف الخليفة العباسي المهدي. وكان الهدف من المؤامرة المذكورة القضاء على الإمارة الأموية في الأندلس وضم الأندلس إلى حظيرة الخلافة العباسية. وقد استند هؤلاء الباحثون في رأيهم هذا إلى ما يأتي:

(4524/1)

... 1 .المراسلات والسفارات المتبادلة بين الخليفة المهدي وشارلمان ملك الإفرنجة والتي كانت موجهة ضد الأمويين في الأندلس وبتأثير الاتفاق والمراسلات العباسية الإفرنجية، تحرك شرلمان بجيشه إلى سرقسطة مساعداً الأعرابي والأنصاري في حركتهما على الأمير الداخل(1).

... 2 ـ هروب الرماحس الكتاني بعد فشل حركته إلى بغداد لاجئاً عند الخليفة المهدي(2).

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص. 269.

(2) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص. 112؛ السيد عبد العزيز، المصدر السابق، ص. 146.

(4525/1)

... 3 ـ المراسلات المتبادلة بين الأمير الداخل والخليفة المهدي والتي بدأها الأمير الداخل. فبتأثير المؤامرة الداخلية الكبرى المذكورة وإحراجها لموقف الداخل في الأندلس، أقدم على إرسال رسالة إلى الخليفة المهدي وصفت بأنها شديدة اللهجة. فما كان من الخليفة المهدي إلاَّ أن رد عليها بالمثل.

... لا نميل إلى الرأي القائل بأن مؤامرة دولية كبرى كانت قد تمت ضد الإمارة الأموية، مستندين في قولنا إلى ما يلي:

... 1 ـ عدم وجود روايات تاريخية تذكر هذه المؤامرة. فالرأي القائل بأن مؤامرة تمت بين أطراف عديدة لا يستند

(4526/1)

ولو إلى مصدر واحد. وعدم وجود دليل تاريخي يجعلنا نضعف وجود مؤامرة دولية كبرى.

... 2 .لا يوجد دليل تاريخي ينص على أن مراسلات سياسية كانت قد تمت بين الخليفة المهدي وشارلمان ملك الإفرنجية، وإنما قال الباحثون بذلك نتيجة استقراء الواقع. فوجدوا أن علاقات تجارية وبعض السفارات كانت موجودة بين العباسيين والإفرنجة من جهة وبين الأمويين والبيزنطيين من جهة أخرى مع وجود عداء تقليدي بينها.

... 3 .أما مسألة هروب الرماحس الكتاني إلى بغداد بعد فشل حركته في الأندلس، فليس دليلاً على وجود اتفاق دولي كبير. فمن

(4527/1)

الطبيعي جداً أن يهرب الرماحس إلى الخليفة المهدي باعتباره عدواً للداخل، فهرب الرماحس من عدوه إلى عدو عدوه في سبيل تأمين حياته.

... 4 .إن خلاف الصقلبي مع الأعرابي وعدم مساعدة هذا الأخير للأول في حركته ضد الداخل يفند وجود أي اتفاق

مسبق بين الأطراف الخارجية.

... 5 .ليس من المعقول أن يقدم الخليفة المهدي الخليفة المسلم ويطلب المساعدة من ملك نصراني، ويستعين به ضد المسلمين في الأندلس. ثم ما موقف المسلمين في الخلافة العباسية من هذا العمل؟ وما موقف المهدي من رعاياه المسلمين؟ ولو قيل إن الاتفاق كان

(4528/1)

سرياً، نتساءل ما فائدة الخليفة المهدي من عمله المذكور. فحتى لو تم القضاء على الإمارة الأموية في الأندلس، فمن يضمن له تسليم شارلمان الأندلس بعد استيلائه عليها؟

... 6 .نتساءل أيضاً لو كان هناك اتفاقٌ دوليٌّ متعدد الأطراف موجه ضد الداخل، فلماذا كان هناك اختلاف في توقيت الحركات، خصوصاً وأن حدوث كل حركة في وقت يختلف عن وقت الحركة الأخرى سهل مهمة الأمير في القضاء عليها جميعاً. لقد كانت حركة الصقلبي منفردة كما رأينا، واستطاع الداخل القضاء عليها في 162 هـ/ 779 م. أما حركة الرماحس بن عبد العزيز الكتاني

(4529/1)

الذي كان والي الجزيرة، فلم تمض عشرة أيام على إعلان حركته حتى أقبل عليه الأمير عبد الرحمن الداخل بقواته. فما كان من الرماحس إلا أن هرب بأهله في مركب عبر البحر إلى إفريقيا، ومن هناك وصل إلى الخليفة المهدي(1) طالباً اللجوء عنده.

... أما حركتا الأعرابي والأنصاري في سرقسطة وطلبهما مساعدة شارلمان سنة 161 هـ/ 778 م(2)، فتنسجم مع مصالح الطرفين: فالأعرابي والأنصاري يرغبان في القضاء على الداخل وإمارته ويرغبان بالتالي في ولاية الأندلس؛ في

(1) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص. 112.

(2) المصدر نفسه، ص. 113.

حين كان شارلمان يطمع في الاستيلاء على الأندلس أيضاً وضمِّها للإمبراطورية الكارولنجية. وبالفعل، تم استدعاء شارلمان بجيشه إلى الأندلس في سبيل تنفيذ الاتفاق بينهما. ولما كان شارلمان وجيشه برفقة الأعرابي على مشارف سرقسطة، أقدم الحسين بن يحيى

الأنصاري على إغلاق أبواب سرقسطة في وجه شرلمان وجيشه. ولم يفلح شارلمان في دخول سرقسطة، فانسحب إلى بلاده عبر جبال ألبرت(1) معلناً فشل اتفاقه وتآمره على الداخل. فأقدم على تغيير سياسته ضد الإمارة الأموية، فتمت بين الطرفين

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص. 269.

(4531/1)

مراسلات للسلم. وكانت هناك دعوة للمصاهرة، فتم الاتفاق السلمي بين الطرفين ولم تتم المصاهرة(1).

... أما الأعرابي والأنصاري، فساءت العلاقة بينهما إلى درجة أن أقدم كل منهما على التخلص من صاحبه. فما أن دخل عام 169 هـ/ 783 م حتى تخلصت الأندلس منهما وعادت سرقسطة للإمارة الأموية(2).

4) أسباب عدم نجاح العباسيين في السيطرة على الأندلس

... نلخص أسباب فشل العباسيين في تحقيق ذلك بما يأتي:

---

(1) المقري، المصدر السابق، ج 1، ص. 308.

(2) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 4، ص. 269.

(4532/1)

... 1 . انشغال الخلافة العباسية بمشاكل المشرق الإسلامي المتمثلة في قيام حركات مناوئة للعباسيين وقيام إمارات منفصلة عن جسم الخلافة العباسية في أماكن قريبة من مركزها . كل ذلك حال دون توجيه اهتمام الخلافة بشكل مباشر نحو الأندلس(1).

... 2 . البعد الجغرافي، حيث كانت الأندلس بعيدة جداً عن مركز الخلافة العباسية ووجود البحر الذي يفصل بين الأندلس والعالم الإسلامي . كل ذلك حال دون إقدام الخلافة العباسية على محاولة جادة وبعث جيوش عباسية لضم الأندلس إلى

---

(1) الدكتور حسن زعبن العاني، المرجع السابق، ص. 402.

(4533/1)

كيانها.

... 3 ـ قوة الأمير عبد الرحمن الداخل وحزمه وجرأته وشجاعته حالت دون نجاح المحاولتين العباسيتين (حركة العلاء وحركة الصقلبي).

... 4 ـ حالة إفريقيا السائدة. فقد كانت تابعة اسمياً للخلافة العباسية. وتفاقم الأمر أكثر بقيام دويلات مستقلة عن الخلافة العباسية ـ هذه الحالة جعلت العباسيين يوجهون اهتمامهم نحو إفريقيا دون الأندلس لأهميتها للخلافة(1).

خلاصة

لقد توصلنا في بحثنا إلى جملة من الاستنتاجات يمكن إجمالها بما يأتي:

---

(1) عبد الجليل الراشد، المرجع السابق، ص. 131.

... 1 ـ نجاح الأمير عبد الرحمن الداخل في هروبه من العباسيين على أثر سقوط الدولة الأموية في بلاد الشام، وتحمله الصعاب والمشاق في هروبه، وتمكنه أخيراً من النجاح بإقامة إمارة أموية بالأندلس ـ كل ذلك يعكس

الجرأة والشجاعة والقدرة على التحمل والصبر الذي يتمتع به عبد الرحمن الداخل.

... 2 ـ كان لظروف الأندلس وأحوالها قبيل وصول الداخل دور في نجاحه. ويظهر استقرار أوضاع الأندلس في ظل الإمارة الأموية دور هذه الإمارة في الحفاظ على الوجود العربي الإسلامي في الأندلس وإعادة وحدتها وتماسكها.

(4535/1)

... 3 ـ كان الداخل سياسياً بارعاً. فبعد نجاحه في إقامة الإمارة الأموية في الأندلس، أقدم على الخطبة للعباسيين ريثما تستقر أوضاع الأندلس ويستقر ملكه، ومن ثم قطع خطبته للعباسيين بعد ذلك.

... 4 ـ كانت الخلافة العباسية تعتبر الداخل خارجاً عن سلطاتها متمرداً على كيانها، فلم تتأخر في دعمها لمن طلب مساعدتها في سبيل ضم الأندلس لسيطرتها، وتم تقديم الدعم المادي والمعنوي لحركتين خطيرتين أقلقتا الداخل وإمارته وهما:

أ ـ حركة العلاء بن مغيث اليحصبي في زمن الخليفة أبي جعفر المنصور سنة 146 هـ

(4536/1)

ب ـ حركة عبد الرحمن بن حبيب الفهري الصقلبي في زمن الخليفة المهدي سنة 161 هـ/ 778 م.

... شكلت هاتان الحركتان خطورة كبيرة على الإمارة الأموية، ولكن الداخل استطاع بحزمه وقدرته القضاء على المحاولتين.

... 5 ـ لم تكن هناك حقيقة للمؤامرة الدولية الكبرى على الإمارة الأموية التي ذكرها بعض الباحثين، وذلك لعدم وجود دليل تاريخي ينص على ذلك وإنما جاء هذا الرأي نتيجة استقراء واقع العالم العربي الإسلامي والدول المجاورة له.

(4537/1)

... 6 ـ كان قيام الخلافة الأموية في الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر سنة 316 هـ/ 928 م معلناً عن خلافة عربية إسلامية ثالثة في العالم العربي الإسلامي بعد الخلافة العباسية في العراق والخلافة الفاطمية في مصر. وكان إعلان الخلافة الأموية يعني انفصال الأندلس كلياً عن الخلافة العباسية.

... 7 ـ ظل الترابط بين الأندلس والعالم الإسلامي مستمراً،

بالرغم من توتر العلاقات السياسية. فظلت رحلات الحج وطلب العلم واستمرت العلاقات التجارية قائمة. وكان هذا الاستمرار في الترابط بفعل العقيدة الإسلامية التي ينعم بها

(4538/1)

العالم الإسلامي.

المصادر والمراجع

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي (ت 628 هـ)، الحلة السيراء، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، ط 1، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، جزآن، 1963.

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري (ت 630 هـ)، الكامل في التاريخ، بيروت، عشرة أجزاء، 1965.

الأنصاري، فريدة رؤوف، الإمارة الأموية في الأندلس على عهد الأمير عبد الرحمن الداخل، رسالة ماجستير غير مطبوعة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1975.

(4539/1)

ابن الشياط، محمد بن علي بن محمد بن الشياط المعري التوزري (ت 681 هـ)، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشياط، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، 1971.

بيضون، إبراهيم، الدولة العربية في إسبانيا منذ الفتح حتى سقوط الخلافة، ط 2، دار النهضة، بيروت، 1980.

الجميلي، رشيد عبد الله، تاريخ الدولة العربية الإسلامية، ط 2، بغداد، 1986.

الحجي، عبد الرحمن علي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار العلم، بيروت، دار القلم، دمشق، 1976.

(4540/1)

حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط 6، القاهرة، 4 أجزاء، 1964.

الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر (ت 488 هـ)، جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط 2، دار الكتاب، القاهرة، 1983.

الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت 910 هـ)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1970.

ابن حبان القرطبي، ابو مروان حبان بن خلق بن حسين بن حبان بن محمد (ت 469 هـ)، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكي، دار الكتاب

(4541/1)

العربي، بيروت، 1973.

الخربوطلي، علي حسني، غروب الخلافة الإسلامية، القاهرة، د. ت.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 80 هـ)، العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأعظم، بيروت، 1979.

خليل، عماد الدين، ملامح الانقلاب الإسلامي في حياة عمر بن عبد العزيز، ط 2، بيروت، 1970.

الدوري، عبد العزيز، العصر العباسي الأول، بغداد، 1944.

الدوري، إبراهيم باس خضير، عبد الرحمن الداخل في الأندلس وسياسته الخارجية والداخلية، دار الحرية، بغداد، 1982.

(4542/1)

الراشد، عبد الجليل عبد الرضا، العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس في القرن الثاني والثالث الهجري، مكتبة النهضة، الرياض، 1969.

الراوي، ثابت إسماعيل، تاريخ الدولة العربية، بغداد، جزآن، 1976.

سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار النهضة، بيروت، 1981.

ـــ، »سياسة الدولة العباسية في عصرها الأول مع الأمويين في الأندلس«، مجلة المؤرخ العربي، العدد 2، بغداد، 1975.

(4543/1)

الصوفي، خالد، تاريخ العرب في إسبانيا، مكتبة دار الشروق، حلب، سوريا، د. ت.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310 هـ)، تاريخ الرسل والملوك، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 11 جزءاً، 1939.

العاني، حسن زعين، سياسة المنصور أبي جعفر الداخلية والخارجية، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1981.

العبادي، أحمد مختار، في التاريخ الأندلسي والعباسي، دار النهضة الحديثة، بيروت، 1972.

ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي (ت 695 هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت،

(4544/1)

أربعة أجزاء، د. ت.

عنان، محمد عبد الله، دول الإسلام في الأندلس، ط 3، القاهرة، 1960.

فوزي، فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، بيروت، 1970.

ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت 773 هـ)، البداية والنهاية في التاريخ، ط 3، مكتبة المعارف، بيروت، عشرة أجزاء، 1978.

المراكشي، عبد الواحد (ت 647 هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب (من لدن الفتح الأندلسي إلى آخر عصر الموحدين)، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963.

(4545/1)

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346 هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط 4، دار الأندلس، بيروت، 1981.

المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041 هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، 1949.

ـــ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ثمانية أجزاء، 1968.

مؤلف مجهول، أخبار مجموعة من فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، مطبعة بدثير، مجريط، 1867.

(4546/1)

النعنعي، عبد المجيد، تاريخ الدولة الأموية في الأندلس. التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، 1986.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، تاريخ اليعقوبي، دار بيروت، بيروت، 1960.

...

(4547/1)

العمارة الإسلامية بفلسطين في العهد الأيوبي

... ... الدكتور شوقي شعث

... ° مدير المتحف الوطني بحل

° عضو اللجنة الدولية لحماية التراث الإسلامي الحضاري

المقدمة

... تركزت حركة البناء بفلسطين في العهد الأيوبي

بالقدس الشريف والخليل، لقدسيتهما في الإسلام،

فالدولة الأيوبية كانت في حالة حرب جهادية مع الإفرنج

الصليبيين الذين كانوا يغتصبون فلسطين وأجزاء أخرى

من العالم الإسلامي وعليه كانت استراتيجيتها تقوم

على تحرير و إعمار الأماكن المقدسة بفلسطين، فالقدس

مثلا، بما فيها من معالم مقدسة إسلامية ومسيحية،

كانت

(4548/1)

جوهر الصراع في الحروب الإفرنجية – الإسلامية فكل من الطرفين يسعى لامتلاكها ولكل أسبابه الدينية في ذلك، وعليه فإننا نلاحظ أن العمائر الأيوبية قليلة جدا في المناطق والمدن الساحلية من فلسطين ولا شك أن هناك أسبابا أخرى كانت السبب في عدم وجود معالم تاريخية أيوبية في تلك المناطق لعلها أن تلك المناطق كانت مناطق عسكرية كانت الحرب فيها سجالا بين الطرفين ولم يغامر الأيوبيين في الإنفاق على العمائر فيها خوفا من أن يستردها العدو وينتفع بها، وهذا منهج تميز به العصر الأيوبي فلقد دمروا أسوار عسقلان والقدس

(1/4549)

وغيرها حتى لا تسقط في يد الأعداء، ومن الأسباب الأخرى تأخر تحرير تلك المناطق من أيدي الإفرنج إذ لم يتم تحريرها نهائيا إلا في عهد الممالك الذين جاؤوا بعد الأيوبيين. سيما وأنه بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي ضعفت الدولة الأيوبية وتقسمت ودب الصراع بين الأبناء والأعمام ولم ينتبهوا إلى قضية التحرير حتى أن السلطان الكامل سلطان مصر وابن السلطان العادل أبي بكر تنازل عن القدس للإفرنج من أجل

الاحتفاظ بمصر ووقع معهم المعاهدة التي عرفت في التاريخ بالمعاهدة الكاملية الفردريكية.

(4550/1)

... على ضوء ما سبق فإن الأيوبيين اقتصر عملهم في تلك المناطق الداخلية والساحلية من فلسطين، وحتى في القدس والخليل، على تحويل العمائر القائمة إلى مساجد أو بيمارستانات وغيرها على خدمة المسلمين الذين أصبحوا هو الكثرة في البلاد المحررة. ولكن هذا لم يمنع أحيانا إقامة رباطات عسكرية في المناطق الساحلية مثل رباطات : غزة وميماس وعسقلان وأسدود ويافا (1)، ففي هذا العصر تركز الاهتمام على الإنفاق على القضايا العسكرية التي تخدم المعركة، ويظهر ذلك جليا عند

---

(1) عفيف بهنسي، الموسوعة الفلسطينية، ق 2، م3، ص.789/ أ.

(4551/1)

المقارنة بين العصرين الأيوبي والمملوكي، فقد كان الأخير غنيا بالعمائر المدنية والدينية التي انتشرت

في المدن والقرى الفلسطينية وهذا بالتأكيد عائد إلى أن العصر المملوكي شهد تحرير البلاد نهائيا من أيدي الإفرنج وبالتالي شهد استتبابا أمنيا وازدهارا اقتصاديا ملحوظا.

... وإذا أردنا أن نتحدث عن الصفات العامة التي اتصفت بها العمارة الأيوبية بفلسطين عامة فيمكن تلخيصها في خطوط عامة تحمل روح العصر الذي أقيمت فيه حيث كان الدين الذي يفرض الجهاد كما ألمحنا وبالتالي يفرض الملامح العسكرية على الأبنية، وبذلك

(4552/1)

اتصفت عمارة العصر الأيوبي بهذه الصفة في فلسطين وغيرها من البلاد الإسلامية، لقد بنيت عمائر هذا العصر وفق مخطط مربع غير منتظم تتوسطها فسحة سماوية طولانية تحيط بها الغرف من ثلاثة أو أربعة جهات، وجعلت في طابقين وأقيم درج في إحدى زوايا هذه الفسحة السماوية، كانت الأساسات والجدران غالبا من الحجر الذي تبلغ أطوال كل منها نحو 30 x50 سم وتتصل بعضها ببعض بواسطة ملاط مؤلف من الكلس والرمل، وكانت الجدران تورق

(تزرق) وتطلى بطلاء أبيض، أما السقوف فكانت في

الغالب تتألف من عقود تقوم ركائزها على الأرض، أما الطابق

(1/4553)

الثاني فتتألف سقوفه أحيانا من قباب منبسطة، رصفت غرف الطابقين والباحة السماوية والمصطبة بصفائح حجرية Flagstones ، وكانت المداخل الرئيسية عالية جعلت في فجوات داخلة في البناء أي ليست على سوية الجدران الخارجية، وكانت تعلوها أقواس أما الأبواب نفسها فكانت لاتشغل إلا حيزا صغيرا من المدخل، تزود أحيانا بفتاحات علوية للإنارة العلوية. وهناك طلاقات صغيرة في الجدران الخارجية، أما الأبواب والنوافذ العائدة للطابق الأرضي فتفتح مباشرة على الباحة الداخلية التي كانت مصدر الهواء والنور. أما أبواب وشبابيك الطابق

(1/4554)

العلوي فكانت تفتح على شرفة غالبا ما كانت تحيط بالباحة الداخلية، وكانت البيوت الأيوبية خالية من

الزخارف ومن أي نوع كما مر معنا(1) عموما يمكن القول إن العمارة في هذا العصر تشترك مع عمارة سائر بلاد الشام في أنها تحمل الطابع الإسلامي (2) وهي متعددة الأغراض فلم تقتصر على بناء المساجد التي نرى شواهدها في القدس والرملة (3)

---

(1) D. C. Baramki, the Art...PP, 227 - 228

(2) عفيف بهنسي، الموسوعة الفلسطينية، ق 2، ج 2، ص. 788 / أ.

(3) يذكر مصطفى شاكر في الموسوعة الفلسطينية، ق 2، ج 2، ص. 494 / أ أن الرحلة أهملت وهدمت أسوارها أيام السلطان صلاح الدين، ولم يبق من أسواقها ما يذكر واندثر ما بين الجامع والقرية وأضحت مسرحا للمتصوفين والقرويين وشاركتها نفس المصير اللد وعسقلان ولم تعمر إلا في أواخر العهد الأيوبي.

(4555/1)

والخليل (1) ، بل تعدتها إلى كثير من المباني كالمدارس والبيمارستانات وغيرها.

1- العمارة الأيوبية بالمناطق الفلسطينية

... قلنا سابقا أن العمارة بالمناطق الفلسطينية، غير

القدس والخليل، قليلة نسبيا وبينا أسباب ذلك، والأعمال العمرانية هناك اقتصرت في الغالب على الترميم والإصلاح والتجديد أو التحويل، ومن الأمثلة على ذلك:

... ° جامع النبي يونس في بلدة حلحول فقد بناه الملك العظيم عيسى بن الملك العادل الأيوبي عام 623 هـ/ 1226 م وأقام له مئذنة (2)

---

(1) عفيف بهنسي، المرجع السابق، ص.788/أ.

(2) محمود العابدي، الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن، ص.136.

(4556/1)

.

... ° جامع الخليل (الحرم الإبراهيمي).

... عندما اغتصب الإفرنج مدينة الخليل عام 1099 م عمدوا إلى هدم الحرم الإبراهيمي بالخليل وأقاموا حصنا على أنقاضه لفرسانهم وديرا لرهبانهم وكنيسة صغيرة على الطراز القومي، وعندما حررها صلاح الدين حول البناء إلى مسجد ونقل إليه منبر جامع عسقلان التي خربها حتى لا تقع بيد الإفرنج، ثم أضاف خلفاؤه بعض

الإضافات إليه من أهمها الرواق وهذا ما تشير إليه كتابة فوقه :

... " بسم الله الرحمن الرحيم ...بني هذا الرواق في أيام مولانا السلطان الملك (1)المظفر شرف الدين عيسى

...لمولانا السلطان المكل العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب – قدس الله روحه – بتولي العبد الفقير سعد الدين مسعود بن عمر بن أحمد وقد أوقف ابنه المعظم عيسى على جامع الخليل قريتي دورا وبني تميم عام 612 هـ " (1) .

... ° ضريح باالفالوجية :

... يوجد ببلدة الفالوجة ضريح لأحد الصوفيين أقيم فوقه مسجد ، توجد لوحة عليها كتابة تشير إلى أن البناء كان بالعهد الأيوبي نصها كالآتي : " بسم الله الرحمن الرحيم ..وصلى الله على سيدنا محمد ، هذا ما أنشأ وعمر في أيام مولانا السلطان

---

(1) المرجع نفسه ، ص . 146 – 148 .

المعظم شرف الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين قامع الكفرة والمشركين عيسى بن مولانا السلطان الحاكم العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب بتولي العبد الفقير لرحمة ربه – مسعود بن محمد المفطمي ، وذلك في مستهل جمادى سنة إحدى وعشرين وتسعمائة " (1) .

... ° الجامع الأبيض بالرملة :

... جدد السلطان صلاح الدين عمارة الجامع الأبيض على يد رجل من رجال دولته اسمه إلياس بن عبد الله – من جماعة الأمير علم الدين قيصر عين الأمراء بالدولة الصلاحية عام 586 هـ / 1190 م (2)

---

(1) المرجع نفسه ، ص . 179 .

(2) المرجع نفسه ، ص . 169 وهو ينقل عن الحنبلي في كتابه الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل ، ج 2 ، ص 69 .

.

... ° الجامع الكبير بنابلس :

... بعد أن استرد السلطان صلاح الدين الأيوبي مدين نابلس من الإفرنج حول أحد الأبنية إلى جامع وهو ما يعرف اليوم بجامع نابلس الكبير (1) .

... هناك أيضا كثير ما المساجد والأضرحة التي جددت أو رممت في العهد الأيوبي وهكذا نرى أن اهتمام الأيوبيين من الناحية المعمارية انصب أولا على القدس ، للأسباب التي وردت في سياق النص وتلك التي سترد لاحقا .

...

2 – العمارة الأيوبية بالقدس الشريف

... ° مدخل :

---

(1) الحلو مسلم ، نابلس ، ص ، 101 .

(4560/1)

... تمر القدس الشريف اليوم بحالة شبيهة لتلك التي مرت بها في زمن العدوان الإفرنجي الصليبي عليها نظرا لأن المنطلقات التي انطلقت منها وارتكزت عليها الحركة الصليبية في تعاملها مع القدس الشريف تتشابه مع المنطلقات التي تنطلق منها الحركة الصهيونية ، فكلتا الحركتين ادعتا وتدعي أن القدس إرث حضاري روحي لها دون غيرها ، وعليه لابد من

الإستحواد عليها وجعلها مدينة تستجيب في عمرانها وعمارتها لتؤدي الوظيفة المطلوبة

(4561/1)

منها (1) .

... نجحت الحركة الصليبية ، في غفلة من العالم الإسلامي بسبب تمزقه ، في أن تقيم بالقدس مملكة لاتينية خاصة لم يكن للمسيحين الشرقيين (الأرثوذكس) ولا المسلمين ولا حتى لليهود دور فيها ، وحاولوا أن تكون لاتينية خالصة فطردوا المسلمين منها ولم يبق فيها واحد منهم ، وكذا فعلوا باليهود والمسيحيين الشرقيين (الأرثوذكس) (2)

---

(1) انظر ما كتبناه عن الأطماع الإفرنجية الصليبية في المقالة المنشورة بمجلة المنهل السعودية العدد 479 السنة 56 مارس 1990 .

(2) انظر حول المملكة اللاتينية بالقدس : مصطفى دباغ ، في بلاد فلسطين ، ج 9 ، ق 2 ، في بيت المقدس ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ، ص . 169 – 204 ؛ وكذلك انظر : شوقي شعث في كتاب القدس الشريف ، إسيسكو ، الرباط، 1988 ،ص . 36 ؛ وأيضا انظر عارف

العارف في كتابه المفصل في تاريخ القدس ، ط 2 ، 1406 هـ / 1986 م ، ص .158 – 163 .

(4562/1)

وقد كانت مملكة القدس اللاتينية بمثابة المركز الروحي والسياسي الأم لجميع الإمارات الإفرنجية في شرق البحر الأبيض المتوسط التي جرى إقامتها (1) .

... أيقظ الغزو الصليبي الإفرنجي لبلاد المشرق العربي واغتصاب القدس الشريف ، روح الجهاد والتحرير في نفوس بعض القادة

---

(1) عماد الدين زنكي الظابط السلجوقي و أتابك الموصل قاد حركة الجهاد والمقاومة العربية الإسلامية التي بدأها سلفه صلاح الدين على محور الموصل / حلب ، وبذلك صار أقوى حاكم مسلم في زمانه لأنه جعل قوته ومورده العسكرية في خدمة المطلب الإسلامي العام .

(4563/1)

المسلمين الذين لم يقبلوا أن تغتصب القدس وتظل في أيدي الأعداء الكفار فكانت الصحوة الإسلامية الجهادية

فرفعت راية الجهاد لتحرير القدس والأرض المقدسة وظلت مرفوعة حتى تحرير آخر شبر من الأرض الإسلامية بما فيه القدس الشريف . كان أول من رفع راية الجهاد التي ألمحنا إليها القائد المسلم عماد الدين زنكي الذي كان أحد أتابكة الدولة السلجوقية التي كانت تحكم إلى جانب الخليفة العباسي ببغداد وقد استطاع تحقيق نجاح كبير حين قضى على أول إمارة في الشرق وهي إمارة الرها عام 1144 م ، وبذلك دق أول إسفين في نعش الحركة

(4564/1)

الصليبية وعبد طريق التحرير أمام القادة العظام الذين جاءوا بعده (1) .

---

(1) انظر ما كتبه الباحث حول " الجيش العربي ووسائل الإسناجد الأخرى في عهد صلاح الدين الأيوبي " في بحث قدم إلى الندوة العالمية التي عقدتها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية عام 1987 م إحياء للذكرى مرور ثمانمائة سنة على معركة حطين ، ونشر في مجلة تاريخ العرب والعالم البيروتية ؛ وكذلك انظر :

الدكتور نظير حسان سعداوي ، جيش مصر في أيام صلاح الدين ، ط 2 ، 1909 ، القاهرة .

(4565/1)

... كان أبرز أولئك القادة العظام السلطان صلاح الدين الأيوبي أحد القادة البارزين في جيش نور الدين بن عماد الدين المار ذكره ، الذي انتدب مع عمه أسد الدين لنجدة الخلافة الفاطمية بمصر ومنع الإفرنج من السيطرة عليها . ورث صلاح الدين راية الجهاد التي رفعها عماد الدين وورث الروح التي سادت في البلاد الإسلامية لدعم الجهاد سبيل الله وتحرير القدس الشريف ، كما ورث جزءا كبيرا من الجيش الذي أعد للجهاد وأضاف عليه جيش مصر ، وجيش المغرب الذي انتدبه سلطانه للمشاركة في تحرير بيت المقدس وفلسطين ،هذا إلى جانب الجيوش

(4566/1)

الإسلامية الأخرى (1) .

... نجم صلاح الدين في الانتصار الكبير الذي أحرزه في معركة تحطين الشهيرة الذي فتح الباب أمامه واسعا

لتحرير القدس ، ونجح في ذلك بعد نحو ثلاثة أشهر فقط من معركة حطين، وقد كان لهذين الحادثين : معركة حطين وتحرير القدس ، الأثر البالغ على الحركة الصليبية برمتها في شرق البحر المتوسط فقلبا موازين القوى السياسية محليا ودوليا ، وأجبر الغرب الأوروبي آنذاك على إعادة النظر في مشروعه الشرقي (2)

---

(1) قاسم عبد قاسم " ماهية الحروب الصليبية " ، عالم المعرفة (149) ، 1990 ، ص . 144 – 146 .

(2) ليتل دونالد ، " القدس تحت حكم الأيوبيين والمماليك " في القدس في التاريخ بين 1187 – 1516 م ، عمان ، 1992 ، ص 206 ، ترجمة الدكتور كامل العسلي .

(4567/1)

.

... تم هذا التحرير أي تحرير القدس الشريف بعد اغتصاب إفرنجي دام ثمانين عاما أو أكثر قليلا وقد كان لهذا الحدث العظيم أهمية بالغة الأثر في العالم الإسلامي وفي الدولة الأيوبية نفسها ، ويشير إلى أهمية الحدث ما ورد في أول خطبة للجمعة في بيت المقدس بالمسجد الأقصى التي حضرها السلطان نفسه وكبار رجال دولته ، تلك

الخطبة التي تنافس عليها كبار علماء المسلمين و أخيرا فاز بها الشرف الرفيع ، القاضي محي الدين بن الزكي قاضي الشافعية بدمشق وحلب ، وانتقى ابن الزكي لخطبته ألفاظا بليغة مشيدا بالسلطان وبأهمية

(4568/1)

القدس الشريف عند المسلمين موضحا الأسباب التي حارب المسلمون من أجلها لاسترداد القدس قائلا " فهو موطن أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام ، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام ، وهي مقر الأنبياء ومقصد الأنبياء وموقف الرسل ومهبط الوحي ومنزل ينزل به الأمر والنهي ، وهو أرض المحشر وصعيد المنشر وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها اللهفي كتابه المبين وهو المسجد الأقصى الذي صلى فيه رسول الله ص بالملائكة المقربين وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم

(4569/1)

وروحه عيسى الذي أكرمه رسالته وشرف نبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته وهو أولى القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين ... (1) .

... واجه السلطان صلاح الدين بعد تحرير القدس الشريف عدة قضايا من أبرزها إعادة الوجه الإسلامية لمدينة القدس وإعادة سكانها الأصليين لها ، لأن الإفرنج خلال مدة اغتصابهم ، اغتصبوا كل المؤسسات الإسلامية السابقة كالمدارس والمساجد والزوايا وحولوها وغيرها لخدمة أغراضهم

---

(1) كواكبي سعد زغلول ، " منبر المسجد الأقصى " ، في دراسات في تاريخ آثار فلسطين ، المجل الأول 1984 ، ص . 101 .

(4570/1)

وذلك في إطار الطمس المتعمد لكل شيء يدل على الإسلام والمسلمين فلقد حرص السلطان على إعادة ما خربه لاحتلال الإفرنجي إلى ما كان عليه وترميم وصيانة القائم منه و إضافة معالم جديدة إسهاما منه في جعل القدس الشريف مدينة عامرة ، فيها لكل الناس على مختلف مذاهبهم وطوائفهم ما يهمهم (1) ، فقد قام بتطهير الصخرة

المشرفة والمسجد الأقصى ونقل إليه المنبر الذي كان نور الدين قد أمر بصنعه بحلب ، للمسجد الأقصى بعد تحريره ، محققا بذلك رغبة سيده الذي عاش من أجلها (2)

---

(1) ايتل دونوالد ، المصدر السابق ، ص . 207 .

(2) لقد ذبح الإفرنج أهل القدس المسلمين في مذبحة يتفق المؤرخون العرب والإفرنج على بشاعتها ، وطردوا من نجا منهم خارج القدس وأزالوا كل أثر يدل عليهم في المدينة كي تصبح إفرنجية خالصة على غرار مدنهم التي جاءوا منها ولكن صلاح الدين لم يفعل هذا أبدا بل عامل الإفرنج حين حرر المدينة بلطف وتسامح .

، كما أقيمت تحت رعايته مؤسسات دينية وعلمية واجتماعية كثيفة بالقدس منها مدرسة للشافعية ورباط للصوفية وبيمارستان كلها حملت اسمه ، وأعاد كنيسة القيامة إلى الكنيسة الأرثوذكسية التي كانت لها قبل الاغتصاب الإفرنجي كما سمح لليهود بالبقاء في المدينة والإقامة فيها بعد أن كان هذا محرما عليهم ، وفوق ذلك نقل إليها عدة قبائل عربية

و أسكنها في المدينة وحولها كي تصبح المدينة عربية إسلامية (1)

---

(1) كان ذلك بسبب أن العصر الأيوبي كان عصر جهاد ولابد من إنفاق الأموال على تجهيز الجيوش للحرب وتوفير كل ما يساعد على كسب المعركة وإعداد الدعاة في المدارس والجوامع لحث الناس على الجهاد في سبيل الله و تحرير الأرض المقدسة .

(1/4572)

.

... لقد نجح السلطان صلاح الدين في إعادة القدس للمسلمين و إعادة المسلمين إليها ونجح في تعمير الأماكن الإسلامية المقدسة وترميمها و إقامة مؤسسات لخدمة المسلمين كما ألمحنا ، وضمن حرية العبادة لكل أصحاب الديانات السماوية دون استثناء ؛ إلا أن عملية إقامة المؤسسات لم تتضمن إنشاء وبناء مؤسسات جديدة فقد اقتصر الأمر على تحويل المباني الإفرنجية القائمة إلى مؤسسات إسلامية وقد يكون ذلك من باب إعادة الشيء إلى أصله

(1/4573)

أو إلى الرد على فعل الإفرنج عند دخولهم المدينة (1) ، ولكن المرجح أن الإمكانات المادية لم تتوفر لديه بسبب إنفاقه الكثير في معركة حطين وتحرير القدس ، والمعركة لا تزال قائمة من أجل تحرير البلاد الإسلامية التي بقيت في

(1) شكل المغاربة ظاهرة إيجابية في المشرق العربي الإسلامي ، ساهمت في تحرير البلاد من الإفرنج فقد وفد الكثيرون منهم للجهاد في سبيل الله و أداء مناسك الحج ومنهم من جاء لأداء الفريضتين معا . من المغاربة فيما بعد باسم حارة المغاربة مستقرا ، وقد كان معظم من أهل السنة وعلى المذهب المالكي .

أيدي الأعداء ، وهو بحاجة إلى المال لتوفير العتاد والرجال للجهاد في سبيل الله وقد ارتد ذلك حتى على العمائر الأيوبية في سورية ومصر وغيرها من البلاد حيث نجدها في العصور اللاحقة كالعصر المملوكي (1) .

(1) من أشهر الأسبلة التي أقامها السلطان العادل أبي

بكر السبيل المعروف بسقاية العادل أبي بكر أو المظهرة أنشأه عام 589 هـ ، وهناك أسبلة أخرى تعود إلى العصر الأيوبي منها الكأس وقد بناه العادل بين الصخرة والمسجد الأقصى ، انظر : العسلي في آثارنا في بيت المقدس، ص . 222 .

(4575/1)

... تابع خلفاء السلطان صلاح الدين نهجه في الاهتمام بالقدس ، فقد شاركوه الاهتمام بجعل المدينة ذات وجه إسلامي ، وشاركوه بتعميرها عن طريق إنشاء مبان دينية جديدة ، ومن أشهر هؤلاء ولده الأفضل (ت 622 / 1225) الذي أنشأ المدرسة الأفضلية التي أوقفها على أصحاب المذهب المالكي وجلهم من المغاربة (1)

---

(1) للملك المعظم آثار جمة بمدينة القدس نذكر منها : الأروقة التي أمام المسجد الأقصى من الشمال والمؤلفة من سبعة أقواس وكذلك الأبواب الخشبية التي نجددها عند مدخل الخليل ومنها سبيل شعلان والمدرسة البدرية وغيرها . انظر : المفصل في تاريخ القدس ، ص . 185 – 186 .

(4576/1)

، ومن هنا جاء اختيار موقعها لتكون في حارة المغاربة بالقدس الشريف وقد بنيت هذه المدرسة عام 590 هـ / 1194 م ؛ ومنهم السلطان العادل أخي السلطان صلاح الدين الذي أقام عدة أسبلة لمياه الشرب داخل الحرم الشريف (1) ؛ ويأتي بعده الملك المعظم عيسى لبن الملك العادل (ت 264 / 1226 م) (2)

---

(1) ليتل دونوالد ، المصدر السابق ، ص . 209 .

(2) هكذا كان يدعى الإمبراطور فريديرك الثاني لأن القدس كان جوهر الصراع الإفرنجي – الإسلامي ولأنه كان يريد أن لا تفشل الحملة التي قادها إلى الشرق لذلك ألح في إقناع الملك الكامل ومن هنا جاءت الاتفاقية محددة المدة .

(4577/1)

. لقد قام هذا الملك بتعمير أروقة الحرم الشريف وبنى برجا بالقلعة وبنى مدرستين إحداهما للحنفية حملت اسم المعظمية وتم بناؤها عام 614 هـ / 1217 – 1218 والأخرى حملت اسم المدرسة النحوية (القبة النحوية) وأنشئت عام 604 هـ / 1207 م .

... وعلى الرغم من اهتمام الأيوبيين بالمدينة المقدسة وحرصهم باستمرار على الاحتفاظ بها إلا أنهم سرعان ما اكشفوا (1)

---

(1) استنكر المسلمون المعاهدة الكاملية – الفردريكية التي قضت بتسليم القدس الشريف إلى الإفرنج ومن مظاهر ذلك الاستنكار ما حدث بدمشق فقد بكى الناس فيها على ما جرى في بيت المقدس وزاد سخطهم على الملك بسبب تحريض ابن أخيه الملك الناصر صاحبها وبسبب دروس الحافظ شمس الدين سبط بن الجوزي مؤلف كتاب مرآة الزمان عن فضائل بيت المقدس فاجتمع في الجامع الأموي بدمشق عدد من الناس وعلت أصواتهم . واشتد بكاؤهم وأنشد الحافظ شمس الدين المار ذكره قصيدة بلغت أبياتها ثلاثمائة بيت منها :

... على قبة المعراج والصخرة التي ... ... تفاخر ما في الأرض من صخرات

... مدارس آيات خلت من تلاوة ... ... ومنزل وحي مفقر العرصات ...

(4578/1)

أن القدس لم تكن تعادل في أهميتها من الناحية الاستراتيجية دمشق أو القاهرة ، المركزين الهامين في الدولة الأيوبية ، وعليه وبناء على ذلك ظهر لهم أنه بالإمكان التنازل عنها للأعداء عند اشتداد الأزمات السياسية والعسكرية سيما وأن الإفرنج الأعداء كانوا يلحون باستمرار على امتلاكها لتهدئة الرأي العام الأوربي أولا حسب ادعائهم ولحفظ ماء الوجه ثانيا (1) . فقد وقع الملك الكامل ابن السلطان الملك العادل وهو ملك مصر معاهدة مع الإمبراطور فريدريك

---

(1) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج 1 ، ق 1 ، ص . 204 .

(4579/1)

الثاني عرفت بالمعاهدة الفردريكية – الكاملية قضت بإعادة لمدينة المقدسة إلى الإفرنج ، وقد وجدت هذه المعاهدة معارضة شديدة
من المسلمين آنذاك (1) ، إلا أن ضعف الملك الكامل ورغبته في الحصول على هدنة لإعادة بناء قوته هي التي دفعته للقيام بتوقيع تلك المعاهدة ، ولعلها الأسباب نفسها هي التي دفعته للقيام بتوقيع تلك المعاهدة ،

ولعلها الأسباب نفسها هي التي دفعت الملك المعظم عيسى قبل ذلك إلى هدم أسوار بيت المقدس والتسبب في تشتيت أهلها إلى القاهرة ودمشق والكرك وغيرها

---

(1) ليتل دونالد ، المصدر السابق ، ص . 211 .

(4580/1)

من المدن الإسلامية حسب رواية المؤرخ المعصر سبط ابن الجوزي (ت 654 هـ / 1256م) . ويصف المقريزي صاحب كتاب السلوك (1) ردة الفعل العنيفة التي واجه بها الناس تدمير أسوار القدس قائلا : (...وخرج الناس من القدس ولم يبق إلا نفر قليل منهم ..) ، ويضيف أن الأفضل نقل ما كان في القدس من الأسلحة وآلات القتال . وعلى الرغم من الفزع الشديد الذي أصاب المسلمين في شتى أقطارهم لتسليم القدس ، إلا أن الملك الكامل لو يبذل جهدا في سبيل استعادة القدس حتى

---

(1) كهن وشوبخخ ، مجلة الدراسات الشرقية ، 21 ، (1977) ، ص . 100 .

(4581/1)

أنه عندما جاء الملك الناصر داوود ملك الكرم إلى القدس واستردها أجبره على إعادتها إلى الإفرنج بسبب النزاعات الأيوبية الداخلية ، وظلت القدس بأيدي الإفرنج إلى أن تمكن الخوارزمية ، الذين جلبهم الملك الصالح نجم الدين أيوب للاستظهار بهم على أهله ، عام 1344 م من استردادها وظلت بعد ذلك أيوبية حتى وفاة آخر ملك أيوبي(1) . ومع ذلك نجد الملك الصالح أيوب نفسه يوصي ولده بالتخلي عن القدس إن كان ذلك لا مفر منه بقوله : " وهذا العدو المخذول إن عجزت عنه وخرجوا من

---

(1) ليتل دونالد ، المصدر السابق ، ص . 213 – 214 .

دمياط وقصدوك ولم تكن لك بهم طاقة و تأخرت عنك النجدة ، وطلبوا منك الساحل وبيت المقدس وغيرها من الساحل فأعطهم ولا تتوقف على أن لا تكون لهم في الديار المصرية قعر قصبة " (1) . وفي مكان آخر ،نجد الناصر يوسف الثاني الملقب بصلاح الدين سلطان حلب يعرض على لويس التاسع التخلي عن بيت المقدس مقابل حلف يعقده معه ضد المماليك، القوة الإسلامية الفتية ،

إلا أن العرض رفض (2) .

خلاصة :

---

(1) ليتل دونالد ، المصدر السابق ، ص . 124 .

(2) مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين بيت المقدس ، ج 1 ،ص . 224 .

(4583/1)

... لقد تمكن الإفرنج من اغتصاب المدينة المقدسة نحو تسع وتسعين سنة ، منذ اغتصابهم الأول لها حتى استردادها منهم من قبل الخوارزمية ، وذلك في فترات متقطعة على النحو التالي:

... – من عام 1099 – عام 1187 أي 88 سنة وهي الفترة التي قامت فيها المملكة اللاتينية والتي انتهت بتحرير القدس على يد صلاح الدين الأيوبي (1) .

... – من عام 1229 – عام 1239 أي 10 سنوات وهي مدة المعاهدة الفردريكية الكاملية .

---

(1) مصطفى الدباغ ، المصدر نفسه ، ص . 226 .

(4584/1)

... – من عام 1242 – عام 1243 أي سنة واحدة تنفيذا للاتفاق الذي تم بين الإفرنج وملكين من ملوك الأسرة الأيوبية .

... أما حكم الأيوبيين للقدس فكان نحو اثنين وخمسين سنة وهي كالآتي :

... من عام 1187 – 1229 أي 42 سنة .

... من عام 1239 – 1243 أي 4 سنوات .

... من عام 1244 – 1250 أي 6 سنوات .

... بعدها دخلت القدس تحت سيطرة المماليك (1)

---

(1) العارف في المفصل ، ص . 196 . نجم في كنوز القدس ،ص . 75 – 76 ؛ جمعة في دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ، م 1 ، ص 65 وما بعدها . هناك دراسات وبحوث كثيرة حول المسجد الأقصى يمكن للمتتبع العودة إليها في مظانها .

(4585/1)

، وظلت في أيديهم إلى أن أخذها منهم الأتراك العثمانيون ، وبعد الحرب العالمية الأولى اغتصبها البريطانيون حتى عام 1947 حين اغتصبها الصهاينة وهي لا تزال ترزح تحت نير ذلك الاغتصاب .

... 3 – المعالم التاريخية في القدس الشريف

... مر معنا أن السلطان صلاح الدين الأيوبي قد حول بعض المباني التي كانت قائمة قبل تحرير القدس ، والتي كانت من إنشاء الإفرنج الصليبيين أو من إنشاء من سبقهم إلى مبان عامة لصالح المسلمين ، فإن بعض المعالم التاريخية التي ظلت حية في العهد الأيوبي تحمل ملامح معمارية إسلامية ومسيحية .

(4586/1)

جرى مسح المباني التاريخية بالقدس من قبل المدرسة البريطانية للآثار ومن قبل المؤسسات الإسلامية نورد فيما يلي أهم تلك المعالم التي تعود إلى العهد الأيوبي كليا أو جزئيا :

... 1 – المسجد الأقصى :

... يعود بناء هذا المسجد أصلا إلى العصور الإسلامية الباكرة وقد حافظ عليه المسلمون كمسجد طيلة عهودهم ، وإن لحقه الخراب أحيانا ، إلا أنه كان يجدد أو يرمم باستمرار . ونتيجة لذلك طرأ تغير على مخططه كما تشير المراجع التاريخية . حوله الإفرنج عند احتلالهم للقدس الشريف إلى استعمالات أخرى ، وعندما حرر الأيوبيون

القدس عملوا على إعادة إعماره ورصفه بالفسيفساء وترخيمه وتخشيب قبته وتجديد محرابه ، وتوجد اليوم كتابة فوق المحراب تشير إلى ذلك وتنص على مايلي : " أمر بتجديد هذا المحراب المقدس وعمارة المسجد الأقصى ، الذي هو على التقوى مؤسس ، عبد الله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدنيا والدين عندما فتحه الله على يديه سنة 583 هـ وهو يسأل الله إذاعة شكر هذه النعمة وإجزال حظه من المغفرة والرحمة " (1)

(1) العارف في المفصل ، ص . 185 ؛ نجم في كنوز القدس ، ص . 71 – 72 ؛ وكذلك انظر ما ورد في الهامش رقم 26 .

.

... 2 – قبة الضخرة المشرقة :

... بناء أقامه الأمويون هو والمسجد الأقصى ، على تواتر الروايات ، حوله الإفرنج عند احتلالهم القدس إلى كنيسة ، وعندما حرر السلطان صلاح الدين الأيوبي أزال

النقوش والصلبان التي أقامها الصليبيون على جدران الصخرة الداخلية وغطاها بالرخام ، وغسل الصخرة بماء الورد ثم بخرت وفرشت (1) . بعد ذلك ، أدخلت تعديلات كثيرة على قبة الصخرة ورممت عدة ممرات حتى وصلت إلى

---

(1) ليتل دونالد ، المصدر السابق ، ص . 207 ؛ نجم المرجع السابق ، ص . 92 ؛ الحنبلي في الأنس الجليل ، ج 2 ، ص . 304 – 341.

(1/4589)

حالتها الراهنة .

... 3 – البيمارستان الصلاحي :

... أسسه السلطان صلاح الدين الأيوبي عام 583 هـ / 1187 م أي عقب تحرير القدس بقليل وقد أوقف عليه أوقافا كثيرة وعين له كبار الأطباء و أصبح من أشهر البيمارستان في تلك الفترة ، كما افتتح مدرسة للطب ،يتدرب الأطباء فيها ، وكان البيمارستان مقسما إلى عدة قاعات خصصت كل قاعة إلى نوع من الأمراض على نحو ما هو مألوف في بيمارستانات ذلك العصر ، تغطي قاعاته سقوف ذات أقبية متقاطعة أو سقوف برميلية . تعرض

البناء لزلزال عام 1358 م تهدمت على أثره أجزاء كثيرة من

(4590/1)

البيمارستان ، وهو اليوم عبارة عن مكان خرب يشغله مكان سوق ، يعتقد أن البيمارستان الصلاحي اتخذ مقرا له ، كنيسة في حي الدباغة (1) ... .

... 4 – الخانقاة الصلاحية :

... أنشأها السلطان صلاح الدين عام 583 هـ / 1187 م في المقر السابق لبطريرك القدس بالعهد الإفرنجي المجاور لكنيسة القبر المقدس من الناحية الشمالية ، وقد أوقفها السلطان على فقراء الصوفية من عرب وعجم مقابل أن يشاركوا بتلاوة آيات الذكر الحكيم في حفلات الذكر وأن

---

(1) العارف في المفصل ، ص . 178 – 179 ؛ الحنبلي ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص . 47 .

(4591/1)

يقوموا بالدعاء للسلطان صاحب الحبس . لعبت هذه الخانقاة دورا في الحياة الفكرية بالقدس الشريف وكانت مشيختها من الوظائف الهامة بالدولة الأيوبية وتضم الخانقاة مسجدا وغرفا للسكن ومرافق عامة ، وقد تابعت وظيفتها في العهد المملوكي كما تشير بعض البقايا المعمارية فيها ، وفي عام 830 هـ/ 1417 م أنشأ الشيخ برهان الدين بن غانم شيخها منارة لها ؛ ويذكر الحنبلي عن الشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ عبد الله البغدادي أنه لما قصد الشيخ برهان الدين بن غانم بناء المنارة المذكورة شق ذلك على النصارى لكونها تطل على كنيسة

(4592/1)

القيامة فدفعوا للشيخ مالا كثيرا على أن يترك بناءها فلم يقبل (1) .

... 5 – الزاوية الختنية ،

... أنشأها صلاح الدين الأيوبي عام 587 هـ وأوقفها على الشيخ جلال الدين أحمد بن محمد الشاش وهي إضافة إلى كونها زاوية تضم مدرسة أيضا ، وقد طرأت تغييرات كثيرة عليها . هددت الحفريات الإسرائيلية هذه الزاوية بالسقوط لولا تدارك الأوقاف الإسلامية الأمر ؛ يشغلها

اليوم مكتب تابع للجنة إعمار

---

(1) كامل عسلي ، معاهد القدس ، ص . 100 –103 ؛ نجم ، ص . 98 ، الحنبلي ، ج 2 ،ص . 34 – 144 . 147 ؛ عسلي في دراسات ، ص . 189 .

(4593/1)

المسجد الأقصى المبارك يعدها البعض مدرسة أحيانا و أحيانا أخرى يعدونها زاوية . كان لها وقف بالقرن العاشر عبارة عن دار بخط القطانين (1) .

... 6 – قبة يوسف :

... أنشأها صلاح الدين عام 587 هـ / 1191 م ، وجددت عام 1093 هـ / 1681 م في العصر العثماني ، وتشير الكتابة التدشينية الموجودة عليها إلى ذلك بناء القبة عبارة عن بناء مربع طول ضلعه يبلغ مترين تعلوه قبة محمولة من الجانب الشمالي

---

(1) نجم ، ص . 4 ؛ عفيف بهنسي ، في دراسات في تاريخ فلسطين و آثار فلسطين ، م 1 ، ص . 133 ؛ العارف في المفصل ، ص . 180 – 181 .

(4594/1)

على عمودين جميلين وهي مفتوحة من جميع جهاتها باستثناء الواجهة الجنوبية التي هي عبارة عن جدارية محراب صغير ، بأعلى بناء القبة كتابتان إحداها تعود إلى العهد الأيوبي أما الثانية فتعود إلى العهد العثماني وهي موجودة داخل البناء . يحتاج البناء إلى صيانة ، ويعتقد أنها سميت قبة يوسف نسبة لاسم يوسف الذي هو صلاح الدين . تقع إلى الجنوب من فناء الصخرة بين القبة النحوية ومنبر برهان الدين عليها كتابة هذا نصها : " بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على محمد النبي

(4595/1)

و آله أمر بعمارته وحفر الخندق مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين خادم الحرمين الشريفين وهذا البيت المقدس ، أبو المظفر يوسف بن أيوب محي دولة أمير المؤمنين أدام الله كيانه ونصر أعلامه في أيام الأمير الكبير سيف الدين علي بن أحمد أعزه الله سنة سبع وثمانين وخمسمائة للهجرة النبوية (1) .

... 7 – سور القدس (إعادة بناء):

... أعاد السلطان صلاح الدين بناء أسوار القدس أو ما تخرب منها وتقويتها عام 587هـ / 1191م، وقد عمل هو نفسه فيه

---

(1) نجم ،ص . 100 ؛ العارف في المفصل ، ص . 180 .

(4596/1)

وجاراه في ذلك أولاده و أمراؤه ، وعماله ، خاصة بالمنطقة الممتدة بين باب العمود وباب الخليل ، كما تم حفر الخندق حول السور في عهده ، هذا وقد حرص الملوك الأيوبيون الذين جاءوا بعد صلاح الدين ، على تقوية الأسوار باستمرار حتى أصبح في عام 610 هـ / 1214 م في غاية المنعة والقوة إلا أنه في عام 616 هـ / 1217 م اضطر الملك المعظم عيسى إلى هدمه حتى لا يستفيد العدة منه على هذا نحو ما أسلفنا . وينقل العارف عن موفق الدين عبد اللطيف البغدادي وصفا لاهتمام صلاح الدين ببناء السور قوله:

(4597/1)

... (وكان مهتما في بناء سور القدس وحفر خندق ، يتولى بنفسه وينقل الحجارة على عاتقه وتأسى به جميع الناس ، الفقراء والأغنياء والضعفاء الأقوياء ، حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل ؛ ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر ويأتي مواعيد الطعام ثم يستريح ، ويركب العصر ، ويرجع في المشاعل ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمل نهارا ..) (1) .

... 8 – المدرسة الصلاحية :

---

(1) نجم ،ص . 102 ؛ العسلي ، معاهد العلم ، ص . 54 ؛ لينتل ، ص . 207 ؛ العسلي في دراسات ، ص . 190 ؛ العارف في المفصل، ص . 179 – 180 .

(4598/1)

... أنشأها السلطان صلاح الدين عام 583 هـ / 1187 م ووقفها عام 588 هـ / 1192 م في الكنيسة المعروفة بكنيسة صندحنة (القديسة حنة) وكرسها لتدريس الفقه الشافعي ، وكانت هذه المدرسة تتمتع بمكانة عظيمة بوصفها مقر المذهب الفقهي السائد في العصرين الأيوبي والمملوكي ، وذلك بعد شرائها من أصحابها ، فيما يذكر البعض أنها أقيمت في مكان دير للراهبات

هجر في رحيل الإفرنج ، وقد فوض السلطان التدريس فيها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد . وفي عام 1237 هـ / 1806 م أعطاها العثمانيون للفرنسيين لوقوفهم إلى جانبهم في حرب

(1/4599)

القرم فأعادها الفرنسيون مدرسة وكنيسة . وفي عام 1915 استرها العثمانيون وجعلوها كلية لتدريس العلوم الدينية عرفت باسم " كلية صلاح الدين الأيوبي"، وظلت كذلك حتى عام 1917 حين أخذ الإنجليز البلاد فأعادوها إلى الآباء البيض الذين أقاموا بها مدرسة تضم اليوم مدرسة ومكتبة ومتحف وكنيسة . يوجد على مدخلها بلاطة تدشين تشير إلى انشائها ، أوقف عليها صلاح الدين أراضي البقعة بظاهر القدس وبركة حاملا بظاهر القدس والحمام المعروف بالبطرك بالقدس والقبو والحوانيت المجاورة له (1)

---

(1) نجم ، ص . 104 ؛ بهنسي ، المصدر السابق ، ص . 137 ؛ الحنبلي ، ج 2 ، ص . 12 – 13 ؛ الدباغ في بيت المقدس ، ج 1 ، ص . 94 – 95 .

(1/4600)

... 9– جامع عمر بن الخطاب :

... أقام المسلمون هذا الجامع في وقت مبكر بالمكان الذي صلى فيه الخليفة عمر بن الخطاب ، إلا أنه جدد في العصر الأيوبي عام 589 هـ / 1193 م من قبل الأفضل بن صلاح الدين وأعيد بناء مئذنته في العصر المملوكي عام 589 هـ / 465 م ، وهي مئذنة مربعة الشكل جميلة . يولج إلى هذا الجامع عبر مدخل تذكاري معقود أكبرا لظن أنه في العصر العثماني ، يتكون الجامع من بيت للصلاة يقع في الجانب الجنوبي

(4601/1)

من الساحة المكشوفة وهو عبارة عن بناء بسيط مستطيل الشكل مغطى بالأقبية متقاطعة له محراب يتكون من حنية يعلوها نقش تذكاري . حالة البناء جيدة إلا أنه يحتاج إلى صيانة مستمرة (1) .

... 10 – المطهرة :

... أنشأها السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب ووقفها عام 589 هـ / 193 م وجدد بناءها الأمير علاء الدين البصيري ناظر الحرم الشريف ، تتكون المطهرة

من مجموعة من الغرف المخصصة للطهارة وأماكن للوضوء وفسيقة كبيرة وهي قسمان قسم

---

(1) نجم ، ص . 106 ؛ الحنبلي ، ج 2 ، ص . 31 ؛ الدباغ ، بيت المقدس ، ج 1 ، ص . 213 .

للرجال وقسم للنساء ومجموعة غرف فوق مطهرة النساء (1) .

... 11 – الكأس :

... وهو عبارة عن بركة للوضوء تأخذ ماءها عبر قناة تصلها من الخليل على بعد عشرين ميلا أنشأها السلطان العادل أبو بكر بن أيوب عام 589 هـ / 1193 م ، وجددت في عهد السلطان قايتباي بتولي الأمير تنكز الناصري عام 728 هـ/ 1327 م . تتألف البركة (الكأس) من حوض رخامي مستدير الشكل في وسطه نافورة وعلى جوانبه الخارجية صنابير يخرج منها الماء للوضوء حيث يجلس المتوضؤون على مقاعد حجرية تحيط بالكأس . حالته

---

(1) نجم ، ص . 108 ؛ بهنسي ، ص . 135 .

اليوم جيدة لكنه يحتاج إلى صيانة مستمرة (1) .

... 12 – جامع النساء :

... كان إبان العهد الصليبي قاعة للطعام خاصة بفرسان الهيكل حوله السلطان صلاح الدين إلى مسجد عرف فيما بعد بجامع النساء ، يتألف بناؤه من بيت للصلاة ، يتركز على جدار المسجد الأقصى الغربي في الزاوية الجنوبية الغربية من سور الحرم الشريف الغربي ، يقسم هذا المسجد إلى ثلاثة أقسام حسب الوظيفة الحالية :

---

(1) نجم ، ص . 109 – 110 ؛ بهنسي ، ص . 135 .

(4604/1)

... القسم الأول ويشغله المتحف الإسلامي ، والقسم الثاني وهو القسم الشرقي وتشغله لجنة إعمار المسجد الأقصى ، أما القسم الثالث وهو القسم الأوسط فيشغله مصلى النساء .

يتألف الجامع بأقسامه الثلاثة من أسكوبين يقوم فوقهما عدد من العقود المدنية وقد سقف ما بينهما بطريقة الأقبية ، المتقاطعة ، له عدد من النوافذ في الجدار الجنوبي والجدار الغربي ، يفتقر المصلى إلى محراب

، أما مدخله فهو في الجهة الشمالية وهو عبارة عن مدخل صغير يحيط به عمودان من الرخام ، حالته الحاضرة لا بأس بها (1) .

---

(1) نجم ، ص . 110 – 111 .

(4605/1)

... 13 – مسجد ولي الله محارب :

... بني هذا المسجد في العهد من قبل ولي الله محارب عام 595 هـ/ 1198 م ، أوقف عليه بانيه أوقافا كثيرة ويشير إلى ذلك الكتابة التدشينية القائمة فوق مدخله . يتألف المسجد من بيت للصلاة صغير الحجم مستطيل الشكل له محراب جميل في منتصف واجهته الجنوبية أما سقفه فهو على الشكل قبو نصف برميلي حالته الراهنة جيدة (1) .

... 14 – قبة المعراج :

---

(1) نجم ، ص . 112 ؛ بهنسي ، ص 132 ؛ فان برشيم ، ص . 37 – 54 .

(4606/1)

... تقع في الجهة الشمالية الغربية من قبة الصخرة وهب مؤلفة من قبة خشبية مغطاة بالرصاص ترتكز على مجموعة من الأقواس المغطاة وتأخذ شكل المثمن ، تزين أضلاع المثمن أعمدة من الرخام يبلغ عددها نحو ثلاثين عمودا . جدد بناء القبة عام 597 هـ/ 1200 م على يد الأمير عز الدين عثمان بن علي الزنجبيلي متولي القدس الشريف في عهد السلطان العادل أبي بكر بن أيوب وقد أقيمت قبل ذلك تخليدا لمعراج النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – إلى السماء وتشير إلى إنشائها أو ترميمها كتابة موجودة في كتاب فان برشيم الذي أصدره حول نقوش

(4607/1)

القدس (1) .

... 15 – الزاوية الجراحية :

... حملت هذا الاسم نسبة إلى واقفها الأمير حسام الدين بن شرف الدين عيسى الجراحي أحد قادة السلطان صلاح الدين وقد توفي الأمير ودفن في هذه الزاوية . يذكرها مجير الدين الحنبلي ويقول " إنها بظاهر القدس من الجهة الشمالية أوقف عليها الواقف أوقافا ورتب لها الوظائف " . والزائر لهذه الزاوية اليوم يجد على جدارها

الغربي من الخارج كتابة تأتي على ذكر الحسين بن عيسى الجراحي . تتألف هذه الزاوية من فسحة

---

(1) نجم ،ص . 113 ؛ معاهدا لعلم ، ص . 343 ؛ الحنبلي ، ج 2 ، ص . 48 .

سماوية يحيط بها عدد من الغرف المختلفة في الحجم والمساحة والتسقيف . أكبر غرفها غرف الضريح . وهي عبارة عن بناء مربع الشكل بسيط التكوين تعلوه قبة ،بها محراب ، أضيف إليها بيت للصلاة عام 1313هـ/ 1895 ، يلحق بهذه الزاوية مئذنة تقوم في الزاوية الشمالية الغربية (1) .

... 16 – باب السلسلة وباب السكينة :

... جدد هذان البابان أو أقيما في العهد الأيوبي وهما من الأبواب الرئيسية للحرم الشريف . البابان مرتفعان تزينهما من الأعلى صنج حجرية مزررة ويغلق كل منهما بمصراعين من

---

(1) بهنسي ، ص . 128 ؛ نجم ، ص . 115 .

الخشب السميك ، توجد بكل منهما فتحة (خوخة) صغيرة لدخول الأشخاص ، وتزين مدخل كل منهما ثمانية أعمدة رخامية أربعة من كل طرف (1) .

... 17 – قبة سليمان :

... اختلف مؤرخو العمارة ففي تحديد تاريخ إنشائها فبعضهم يذكر أنها أنشئت في العهد الأموي والبعض الآخر يعيد إنشاءها إلى العصر الأيوبي وهذا هو المرجح . البناء عبارة عن قبة محكمة البناء بداخلها صخرة ثابتة تأخذ الشكل المثمن تحيط به أربعة وعشرون عمودا من الرخام سد ما بينها

---

(1) فان برشيم ، ص . 204 ؛نجم ، ص . 117 ؛ بهنسي ،ص . 136 ؛ الحنبلي ، ج 2 ، ص . 21 .

(4610/1)

بألواح من الرخام تعلو البناء قبة لطيفة متناسبة مع البناء وحجمه . جددت هذه القبة في العهد العثماني زمن السلطان محمود الثاني كما تشير إلى ذلك كتابة أوردها فان برشيم ، حملت هذه القبة أحيانا اسم قناطر السلطان محمود الثاني ، وهي تقع بالقرب من باب

الدويدارية (1) .

... 18 – باب الناظر :

... يعود بناء هذا الباب إلى فترة سابقة للعهد الأيوبي إلا أنه جدد في عهد الملك المعظم عيسى عام 600 هـ/ 1203 م . حمل هذا الباب اسم ميكائيل في بادئ الأمر ثم حمل اسم علاء الدين البصير

---

(1) بهنسي ، ص . 128 ؛ نجم ، ص . 118 .

(4611/1)

ثم باب الحبس وباب النذير ويعرف الآن بباب الناظر أو باب المجلس نسبة إلى المجلس الإسلامي الأعلى ، وهو باب ضخم محكم البناء توجد في أعلاه صنج مزورة ، له مصراعان من الخشب السميك المصفح بالنحاس (1) .

... 19 – القبة النحوية أو المدرسة النحوية :

... أنشأها الملك المعظم عيسى الأيوبي عام 604 هـ/1207 م وكرسها لتدريس العلوم العربية، اتخذها المجلس الإسلامي الأعلى مؤخرا مقرا لمكتبته ثم اتخذت مقرا للمكتب المعماري الهندسي لإصلاح قبة

---

(1) الحنبلي ، ج 2 ،ص . 34 ؛ ص . 109 ؛ فان برشيم ، . 61 ؛ بهنسي ، ص . 133 .

(4612/1)

الصخرة المشرفة ، وهي الآن مكتب من مكاتب لجنة إعمار المسجد الأقصى . يتألف البناء العائد للقبة من غرفتين وصالة تعلوه قبة ويقع طرق الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب . يحمل بناء القبة كتابة ذكرها فان برشيم تشير بناء القبة من قبل الملك المعظم عيسى في التاريخ المذكور أعلاه على يد الأمير حسام قيماز والي بيت المقدس (1)

... 20 –صهريج الملك المعظم عيسى :

... بناه الملك المعظم عيسى الأيوبي 607 هـ/ 1210 م ، يتألف من ثلاثة أروقة مغطاة بأقبية متقاطعة وله ثلاثة مداخل في الجهة الجنوبية وهي

---

(1) نجم ، ص . 124 .

(4613/1)

معقودة بعقود مدببة ، يوجد فوق المدخل الأوسط كتابة تشير إلى اسم الباني وسنة البناء (1) .

... 21 – المدرسة البدرية :

... أنشأ هذه المدرسة الملك المعظم عيسى عام 610 هـ / 1213 م بمساعي بدر الدين محمد بن أبي القاسم محمد الهكاري وهو من كبار المجاهدين في عصر الحروب الصليبية ، تقع هذه المدرسة وسط المدينة القديمة في الجانب الغربي من شارع القرمي الذي يقع بين شارع باب السلسلة وشارع السرايا .

---

(1) الحنبلي ، ج 2 ، ص . 47 ؛ العارف ، ص . 185 و204 ؛ العسلي ، معاهد العلم ، ص . 205 – 206 ؛ نجم ص . 125 – 126.

(4614/1)

المدرسة المندثرة الآن ولم يبق منها إلا بعض البقايا التي دمجت مع الأبنية الحديثة . على مداخلها كتابة نسخية أيوبية تنص على ما يلي : " بسملة ... أنشأ هذه المدرسة المباركة و أوقفها على أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنه ، الوالي الأمير الكبير الغازي المجاهد الشهيد بدر الدين محمد بن أبي القاسم الهكاري ، رحمه

الله وتقبل منه شهر سنة عشر وستماية وجعل نظرها إلى الرشيد من أولاده ، كثرهم الله تعالى وجعل سعيهم مشكورا وذنبهم مغفورا . رحمه الله ولمن ترحم عليه " .

وهناك كتابة أخرى تشير إلى أن الملكة العلية

(4615/1)

المجاهدة بدرية أمرت بإنشائها ؛ وضعها الآن سيء جدا في بعض العقارات المجاورة كما أسلفنا . يذكر العارف أن المدرسة معدة للسكن وتسكنها اليوم عائلة علي نصرة التوتونجي و إخوانه وهي تقع في حارة الواد (1) .

... 22 – القلعة :

... هذه القلعة موجودة قبل العهد الأيوبي واستمرت تؤدي وظيفتها العسكرية في العهد الأيوبي ، وقد ضمت عددا من الأبنية العامة كأماكن سكن الجند والمسجد .

---

(1) الحنبلي ، ج 2 ، ص . 55 ؛ العارف ، ص . 185 ؛ نجم ، ص . 128 .

(4616/1)

جددت في العصر الأيوبي و أضيف إليها عدد من الأبنية ،فقد بنى الملك المعظم عيسى برجا حربيا فيها عام 610 هـ / 1213 م وتشير إلى ذلك كتابة موجودة على أحد جدرانه فوق حجر كلسي هذا نصها : " بسم الله الرحمن الرحيم ...لا إله إلا الله محمد رسول الله ..عمل هذا البرج المبارك بأمر مولانا الملك المعظم شرف الدنيا والدين أبي المظفر عيسى ابن الملك العادل سيف أبي بكر محمد بن أيوب بن شاذي وتولى عمارته عز الدين عمر بن يغمور المعظمي في شهور سنة عشر وستماية والحمد لله رب العالمين " . لقد كان عز الدين متولي القدس ينزل

(4617/1)

بالقلعة (1) .

... 23 – الرواق الشمالي من الحرم الشريف :

... أنشأ جزءا من هذا الرواق الممتد من باب العتم غربا الملك المعظم عيسى ، كما تشير إلى ذلك كتابة تدشينية يعود تاريخها إلى عام 610 هـ/ 1213 م . يقع هذا الجزء من الرواق أمام المسجد الأقصى من الجهة الشمالية وهو مؤلف من سبعة أقواس ، وكذلك عمل الأبواب الخشبية الموجودة عند مدخل المسجد الأقصى

الشمالي عام 634 هـ/ 1236 م . تقوم فوق هذا الجزء من الرواق المدرسة الأمينية والمدرسة الفارسية والمدرسة الملكية والمدرسة

---

(1) العارف ، ص . 185 ؛ نجم ، ص . 131 .

(4618/1)

الأسعردية والمدرسة الصبيبية . ثم عمر ولده نجم الدين يوسف الجزء الممتد بين باب حطة وباب العتم عام 694 هـ/ 1294 م يوم كان نائبا للقدس وناظرا للحرمين الشريفين (1) .

... 24 – باب العتم :

... جدد هذا الباب في عهد الملك المعظم عيسى عام 610 هـ/1213 م (2) .

... 25 – سبيل شعلان :

... بناه الملك المعظم عيسى عام 613 هـ/1216 م . وجدده في العهد المملوكي الأمير شاهين الذباح نائب القدس في عهد الملك الأشرف برسباي عام 832 هـ/1429 م ، كما جدد في العهد

---

(1) نجم ، ص . 132 .

(2) العارف ، ص . 158 ؛ نجم ، ص . 133.

(4619/1)

العثماني في عهد السلطان مراد الرابع بتولي محمد باشا متولي القدس . يقع هذا السبيل في الطرف الشمالي من الحرم الشريف بالقرب من الرواق الذي بناه الملك المعظم عيسى . لا يعرف فيما إذا حافظ هذا السبيل على شكله الأول الذي كان عليه بالعهد الأيوبي . وضعه الحالي عبارة عن بناء مربع الشكل له أربع دعامات صغيرة ، جانبه الغربي مسقوف وهو مفتوح من جوانبه الثلاث : الغربي والجنوبي والشمالي . يضم السبيل بئرا وعليه كتابة تدشينية (1)

---

(1) العارف ، صص 240 – 241 ؛ العسلي في معاهد العلم ، ص . 273 – 280 ؛ نجم ، ص . 134 – 135 .

(4620/1)

.

... 26 – المدرسة المعظمية :

... أنشأها الملك المعظم عيسى عام 614 هـ/1217 م .
وأوقفها على أصحاب المذهب الحنفي وقد تحدثت عن ذلك
لوحة التدشين ، تقع أمام باب شرف الأنبياء المعروف
بباب الدويدارية وتسمى أحيانا المدرسة الحنفية ،
تتألف المدرسة من طابقين ويولج إليها عبر مدخل يؤدي
إلى دركاة تفضي إلى صحن . يقوم إلى الشمال من هذا
أتصحن إيوان كبير مرتفع يتحلق حوله عدد من الغرف
والخلاوي ؛ يقول عارف العارف في كتابه المفصل في
تاريخ القدس ، ص . 249 – 241 : " دخلتها في اليوم
العشرين من شهر شباط 1947 فرأيت

(1/4621)

الخراب مخيما على الجانب الأكبر منها وقد احتكر جانبا
منها رجل من الخليل يدعى محمد دعسان . في جدارها
القبلي كتابة تقول " أمر بعلمه مولانا السلطان الملك
المعظم شرف الدنيا والدين أبو العزائم عيسى بن أبي
بكر بن أيوب الواقف هذه المدرسة على الفقهاء
والتفقهة من أصحاب الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله
عنه وغفر له وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم
تسليما " .
... يلحق بهذه المدرسة مئذنة من إنشاء الملك القاهر كما

تشير كتابة على الوجه القبلي من حائط المنارة على بلاطة رخامية نفذت بالخط النسخي الأيوبي أو

(4622/1)

المملوكي القديم وبأحرف صغيرة نصها كما يلي : " أمر بعمارة هذه المئذنة المباركة الملك القاهر الناظر بهذه المدرسة غفر الله له وتغمد رحمته والده الواقف السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى قدس الله روحه في شهور سنة ثلاث وسبعين وستماية " (1) .

... 27 – باب حطه :

... يعتبر هذا الباب من أقدم أبواب الحرم القدسي الشريف ، جدد عدة مرات آخرها في عهد الملك المعظم عيسى عام 617 هـ / 1220 م ، يشير إلى هذا التجديد نص كتابي موجود فوق

---

(1) الحنبلي ، ج 2 ، ص . 49 ؛ نجم ، ص . 136 ؛ العارف في الحرم المقدس ،ص . 87 – 92 .

(4623/1)

المدخل العالي الارتفاع ، لهذا المدخل باب له مصراعان من الخشب السميك ، وتحيط بجانبي المدخل مصطبتان حجريتان جميلتا الشكل (1) ... .

... 28 – تربة بركة خاتون :

... أنشأها الأمير حسام الدين بركة خان الخوارزمية الذي استقدمهم الملك الصالح نجم الدين أيوب للمشاركة في تحرير القدس ، وعندما استشهد عام 644 هـ/ 1247 م دفن وكذلك دفن فيها والداه : برد الدين محمد وحسام الدين كره بك . جددت هذه التربة

---

(1) العسلي في معاهد العلم ، ص . 73 وفي أجدادنا في ثرى القدس ، ص . 73 – 75 ؛ الحنبلي ، ج 2 ، ص . 45 ؛ نجم ، ص . 137

(4624/1)

ووسعت في العصر المملوكي من قبل محمد بن أحمد العلائي عام 792 هـ/1294 م . تتألف هذه التربة من ساحة مكشوفة ، يوجد في التربة ثلاثة قبور وفيها غرفة تستخدم الآن مكتبة لآل الخالدي(1)

... 29 – قبة موسى :

... أنشأها الملك الصالح نجم الدين بن الملك الكامل عام

647 هـ/1249–1250 م كما يشير النص التدشيني الموجود فوق المدخل ، يتكون بناء القبة من غرفة مربعة فوقها قبة بها عدد من المحاريب بالداخل والخارج ؛ يولج إليها من الجانب الشمالي وهي اليوم مدرسة لتحفيظ

---

(1) بهنسي ،ص . 136 ؛ ليتل ، ص . 213 ؛ نجم ، ص . 139 .

(4625/1)

القرآن الكريم . يذكر البعض أن القبة كانت موجودة قبل عهد الملك الصالح ولكنه أعاد إنشاءها (1) .

... 30 – القبة القمرية :

... تنسب هذه القبة إلى جماعة من المجاهدين من قلعة قمير الواقعة في الجبال المتموضعة بين الموصل وخلاط ، توجد قبورهم فيها وهم : الأمير الشهيد حسام الدين أبو الحسن ابن أبي الفوارس القيمري الذي توفي عام 648 هـ/ 1250 م ، والأمير ضياء الدين مدسي ابن أبي الفوارس وتوفي أيضا في عام 648 هـ/ 1250 م ، والأمير حسام الدين خضر

---

(1) نجم ، ص . 140 – 141 ؛ الحنبلي ، ج 2 ، العارف في المفصل ، ص . 513 .

(4626/1)

القيمري التي كانت وفاته عام 661 هـ/1262 م ، والأمير ناصر الدين أبو الحسين القميري التي كانت وفاته عام 665هـ/ 1266 م . وأضيف إلى قبور الأمراء الذين سبق ذكرهم قبر أمير من العهد المملوكي هو أمير ناصر الدين محمد جابر بك أحد أمراء الطبلخانة وناظر الحرمين الشريفين بالقدس الشريف والخليل وكانت وفاته عام 776 هـ/ 1374 م .

... يتكون بناء القبة من بناء مربع الشكل جعل على شكل مثمن ليشكل رقبة مثمنة الشكل ، توجد بها عدد من النوافذ ، تعلو هذه الرقبة قبة بديعة البناء . يضم الجدار الجنوبي من البناء محراب بسيط ،

(4627/1)

تلحق ببناء القبة مئذنة . تقع هذه القبة بظاهر القدس في الطرف الشمالي مما يلي الغرب حسب قول الحنبلي ،

بالقرب من مزار سيدنا عكاشة ، وبظاهره قبور جماعة من المجاهدين .

... هذه هي أهم آثار القدس الأيوبية والكثير منها يحتاج إلى صيانة وترميم ، ورغم الجهود التي بذلت من قبل الأهالي والدول والمنظمات العربية والإسلامية (1)

---

(1) هناك الكثير من المؤسسات والهيئات التي أحدثت للاهتمام بشؤون ترميم وصيانة المعالم التاريخية في مدينة القدس الشريف ، تأتي في طليعتها لجنة إعمار المسجد الأقصى والصخرة المشرفة التابعة لوزارة الأوقاف الأردنية ، كرمز ترميم وصيانة وتوثيق القدس التابع لجامعة الدول العربية ، ولا تزال الأولى تمارس أعمالها وقد قامت بأعمال جليلة من أهمها ترميم المسجد الأقصى بعد حريقه المتعمد عام 1969 م ، أما المركز فقد بدأ نشاطا إلا أنه بدأ يتراجع بسبب نقص الاعتمادات وهي اعتمادات قليلة جدا إذا ما قورنت بأهمية القدس الروحية لدى المسلمين ومع الدموع التي تذرف على القدس .

وهناك مؤسسات قدمت بعض المساعدات في حقل الدراسات والمؤسسات المقدسية مثل منظمة المدن العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم واليونسكو وغيرها مما يضيق المجال هنا لذكره .

(4628/1)

، إلا أن تلك الجهود ظلت متواضعة ، فقضية الحفاظ على مدينة القدس الشريف تتراجع يوما بعد يوم ، والتراث الثقافي والحضاري الإسلامي فيها بحاجة ماسة إلى الترميم والصيانة والحماية لأن الحكومة الإسرائيلية تتحدث بلسانها عن السلام وتحمل معولا بيدها لتهدم ذلك التراث وبالتالي تغيبه ، ولا يسع المرء أن يسأل أين المشكلة ؟ إن المشاكل التي تعترض الحفاظ على التراث الثقافي في مدينة القدس الشريف كثيرة ومتشعبة وتأتي في طليعة تلك المشاكل غياب السلطة الوطنية الفلسطينية أي غياب من يهمهم الحفاظ على ذلك التراث ، فكما

(4629/1)

أشار الباحث سابقا إن سلطات الاحتلال تمارس ضغوطا كثيرة على أهل القدس ليتركوها وتمارس ضغوطا من أجل تغيير البيئة العمرانية وتغيير الطابع التاريخي المعماري للمدينة توطئة لاستيعابها في المدينة الحديثة أي القدس الإسرائيلية وعليه لا بد أن تتضافر

جهود الشعب والحكومات الإسلامية لتظل مدينة القدس الشريف إسلامية الطابع كي تبقى مقدساتها بيد أصحابها الذين أثبت التاريخ بوقائعه التاريخية الكثيرة ، أنهم الأمناء على تراث أصحاب الديانات التوحيدية الثلاث الإسلام والمسيحية واليهودية .

(4630/1)

... تأتي بعد ذلك المشاكل الأخرى مثل مشكلة تأمين الكوادر الفنية اللازمة والأجهزة والمال وغيرها ، ويتصور الباحث أنه إذا ما حلت المشكلة الأساسية فيمكن أن تحل المشاكل الثانوية تدريجيا عن طريق الجهود الوطنية والتعاون العربي والإسلامي والدولي .

... وفي الختام بعد الاستعراض الذي شمل نحو ثلاثين معلما أثريا أيوبيا يمكن استخلاص النتائج التالية :

... 1 – إن هذه المباني تحمل صفات معمارية مختلفة في المخطط والزخارف والأقسام ... وذلك لأن بعضها كان قد حول وظيفيا فقط بما يتلاءم والعهد الجديد وأدخلت عليه ... بعض

(4631/1)

الإضافات ويبدو أن ذلك جاء كرد فعل كما هو الحال مع المباني الإفرنجية مثل ... الخانقاة الصلاحية ، جامع النساء وغيرها .

... 2 – إن قسما من هذه المباني رمم أو جدد في العهد الأيوبي وظلت وظيفته كما ... كانت عليه أصلا مثل : المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة ، أسوار القدس ، ... القلعة ، جامع عمر بن الخطاب ، سبيل باب العتم ، باب حطة ... إلخ .

... 3 – إن بعض هذه المباني قد أقيم في العهد الأيوبي وحمل صفات المباني الأيوبية العامة ... في المتانة والخلو من الزخارف وغيرها ، ذلك بسبب أن العصر الأيوبي كان عصر

(4632/1)

... جهاد ، ويحتاج المال في سبيل ذلك مثل : سبيل شعلان ، المدرسة المعظمية ، تربة ... بركة خاتون ، قبة موسى ... إلخ .

... 4 – ساهم في بناء تلك المباني السلاطين والأمراء والفقهاء طلبا لمرضاة الله عز وجل ... وأجريت عليها الأوقاف ضمانا لاستمرارها في تأدية الوظيفة التي أقيمت من أجلها . ... وعندها شحت موارد تلك الأوقاف

بدأت تتراجع تلك الوظائف لدرجة أن بعضها ... قد توقف عن القيام بوظيفته وبالتالي هجر ودثر ، مثل : البيمارستان الصلاحي .

(4633/1)

... ومن المؤسف أنه حدثت في الآونة الأخيرة أحداث جسام تهدد هوية المدينة وتاريخها منها : فتح النفق الذي حفره الإسرائيليون تحت المقدسات الإسلامية ، والعزم على إقامة مستوطنة جديدة في جبل أبو غنيم ، إنها لمأساة حقا تدمر المدينة وتنتهك أمام أعين أصحابها الشرعيين وتنتهك مقدساتهم .

... مما سبق تعرفنا على أهم المباني الإسلامية من العهد الأيوبي و أكثرها يتركز في مدينة القدس الشريف وهذا ينطبق أيضا على المباني المملوكية والعثمانية .

المراجع العربية

(4634/1)

... 1 – فان برشيم ماكس ، القدس الإسلامية ، نقله إلى العربية عطا الله دهينة ، شوقي ... شعث، سامي حسن

وراجعه الدكتور شوقي شعث .

... 2 – مجبر الدين الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، جزءان ، عمان ... 1973، نشر مكتبة المحتسب .

... 3 – العارف عارف ، المفصل في تاريخ القدس ، الطبعة الثانية ، القدس 1986 ، ... الناشر مكتبة الأندلس بالقدس .

... 4 – بهنسي عفيف ، المنشآت الأثرية في الحرم الشريف تاريخ إنشائها وتجديدها في ... دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ، م 1 ، جامعة حلب ، 1984 بتحرير الدكتور ...

(4635/1)

شوقي شعث.

... 5 – بهنسي عفيف ، الموسوعة الفلسطينية ، ق 2 ، م 4 ، العمارة الإسلامية في ... فلسطين ، بيروت ، 1990 .

... 6 – العسلي كامل ، معاهد العلم في بيت المقدس ، عام 1981 .

... 7 – العسلي كامل ، معلومات جديدة عن مدارس القدس الإسلامية ، مستخلص ... من سجلات المحكمة الشرعية في القدس ، دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ، م 1 ، ...

جامعة حلب، 1984 .

... 8 – ليتل دونالد ، القدس تحت حكم الأيوبيين والمماليك (1187 – 1016) ، في ... القدس في التاريخ ، عمان 1992 عربه وحرر الطبعة الإنجليزية من الكتاب الدكتور

(4636/1)

... كامل العسلي .

... 9 – شعث شوقي ، القدس الشريف ، إيسسكو ، الرباط ، 1988 .

... 10– نجم رائف و آخرون ، كنوز القدس ، منشورات منظمة المدن العربية ومآب ... ط1، 1983 .

... 11 – الدباغ مصطفى فراد ، بلادنا فلسطين ، ج 2 ، ق 2 ،في بيت المقدس ، ج 1 ، ... دار الطليعة بيروت ، ط 1 ، 1975 .

... 12 – المقريزي ، لسلوك لمعرفة دول الملوك ، ج 1 ، ق 1 .

... 13 – الإمام رشاد ، مدينة القدس في العصر الوسيط (1235 – 1516 م) ، الدار ... التونسية للنشر .

(4637/1)

... 14 – مجموعة باحثين ،دراسات في تاريخ و آثار فلسطين ، م 1 ، جامعة حلب ، ... 1983، تحرير الدكتور شوقي شعث .

... 15 – مصطفى شاكر ، الموسوعة الفلسطينية ، ق 2 ، م2 ، بيروت ، 1990.

... 16 – العابدي محمود ، الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن ، عمان ، 1973 .

... 17 – الحلو مسلم ، نابس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

المراجع الأجنبية

18 – PETERS , F.E, Jerusalem , Princeton 1985 , University 1985.

19 – VAN BERCHM 'S , materiaux ,Pt II , II Jerusalem Haram.

(4638/1)

20 – CLAUDE , C. and CHABBOUH , I , "Le testament d'al Malik asalih Ayyub" , ... Bulletin d'etudes Orientales , XXIX , 1977.

21 – DUNCAN , the Noble Sanctuary , portrait of a Holy Place in Arabic Jerusalim , ... 1972.

22 – DUNCAN , A , Conseving Muslim Jerusalem , Arts of Islamic word vol . 4 N , 3°, ... , 1987.

23 – SHAATH , sh , Theatre Facing Jerusalem , Arts of Islamic word vol . 4 N , 3°, ... , 1957.

24 – BARAMKI , DC , The Art and Architecture of Ancient Palistine , Beirut , 1969.

(4639/1)

---

25 – NATSHAH , Yusuf , " The Architecture of Islamic Jerusalem , our Duties " , Proceding ... in the interbational Symposium held in Istanbul , April 1983 , Damascus , ... 1989.

(4640/1)

الفتح المغربي لبلاد السودان

... ... الدكتور عبد الكريم كريم

... ... كلية الآداب . الرباط

... بعد سقوط الأندلس واستيلاء البرتغاليين والإسبانيين على معظم السواحل المغربية الشمالية والغربية، انطلقت حركات الجهاد التي تعددت قواعدها بتعدد مراكز الاحتلال والتي أفسدت على الغزاة كل محاولة للتوغل داخل البلاد.

... وازداد الشعور بالخطر عندما قاد الملك البرتغالي "دون سباستيان" الحملة الصليبية التي انهزمت في معركة وادي المخازن يوم الاثنين 30 جمادى الأولى عام 986 هـ الموافق 4 غشت 1578 م:

(4641/1)

"وناهيك عن يوم أجلى عن ثلاثة ملوك موتى ما بين مجندَلٍ وغريق وفائض النفس حتف الأنف وعن ثمانين ألفاً من المشركين ما بين قتيل وأسير "(1).

... لقد كان الانتصار في معركة وادي المخازن التي انتهت بمقتل "دون سباستيان" وأسر الآلاف من الجيش البرتغالي حافزاً ومشجعاً على تحرير القواعد البرتغالية بالسواحل المغربية. ولكن التدخل العسكري الإسباني من جهة، والتهديدات التركية بضم المغرب من جهة أخرى حالت دون ذلك:

(1) عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، ص. 39.

(4642/1)

... فقد تدخلت القوات الإسبانية في اليوم الثالث لمعركة وادي المخازن بدعوى حماية القواعد البرتغالية الأربع (سبتة وطنجة وأصيلا ومازكان) من الهجومات المغربية(1).

... وتوالت مؤامرات الأتراك العثمانيين للإطاحة بالمولى أحمد المنصور والتدخل لضم المغرب إلى الإمبراطورية العثمانية:

... – ساعة توليته: فقد نادوا بالأمير إسماعيل بن المعتصم المستقر مع أمه بالجزائر، "فلم يقبل ذلك أهل مراكش. فجيء بمولاي أحمد أينما كان، فولوه. فكان مولاي أحمد أميراً"

(1) عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص. 110.

(4643/1)

---

(1).

... – عندما وصل إلى فاس، "قتل النفر الأربعة جميعاً ليوم واحد من شهر رجب عام ستة وثمانين وتسعمائة وأصبحت رؤوسهم معلقة على الشرفات بباب السبع من أبواب فاس الجديد"(2)، بعد مؤامرة فاشلة.

... – مساندتهم للأمير داود بن عبد المومن في ثورته على عمه المنصور بسوس في شعبان عام 987 هـ/ أكتوبر 1579 م.

... – التهديد بالتدخل العسكري بقيادة علوج باشا في جمادى الثانية عام 989 هـ/ يونيه 1581 م(3)

---

(1) عبد الرحمن السعيدي، تاريخ السودان، ص. 208.

(2) مناهل الصفا، ص. 47.

(3) المغرب في عهد الدولة السعدية، ص. 112.

(4644/1)

.

... وبذلك ضاعت على المغاربة فرصة تحرير ما تبقى للبرتغال من قواعد احتلال في السواحل المغربية، وأجبر المنصور على تسليم جثة "دون سباستيان" إلى الوفد الإسباني ـ البرتغالي الذي قدم إلى المغرب "يرغبونه

في الامتنان عليهم بشلو الطاغية بستيان الموارى بالقصر في تابوته... فامتن لذلك به عليهم وأسلمه إليهم"(1).

* * *

... خلال الربع الأخير من القرن العاشر للهجرة، ظل المغاربة حذرين من أي تحرك إسباني يستهدف الانتقام لهزيمة الحملة الصليبية في المخازن أو التمركز في قواعد تهدد بلاد

---

(1) مناهل الصفا، ص. 49.

(4645/1)

الإسلام وديار المسلمين في غربي إفريقيا وبلاد السودان التي تربطها بالمغرب علاقات دينية واجتماعية واقتصادية منذ قرون بعيدة.

... وحرصاً من المولى أحمد المنصور السعدي (1578 ـ 1603 م) على تدعيم هذه الروابط للحيلولة دون أي تهديد خارجي، سارع إلى تعزيز الوجود المغربي في المنطقة الساحلية ما بين درعة ونهر السينغال عام 992 هـ/ 1585م.

... وخاضوا القفر مع الساحل إلى السودان، فوصلوا إليها من بعد الجهد لتسعين مرحلة متصلة من ثغور ممالك العرب القبلية ... وارتحلت العساكر تخترق ممالك السودان حتى انتهت لخليج النيل

(4646/1)

المنبعث من قاصية السودان ... وكان الذي استجاب لهم ودان بالطاعة والانقياد من عرب الفلاة فقط وأممهم الذين ينتجعون الكلأ في مجالات القفر الممتد من ثغور المغرب القبلية إلى ممالك السودان بالجنوب نيفاً وأربعين ألف خيمة(1).

... وبذلك حال المنصور دون أي تدخل للإسبان في بلاد السودان بالرغم من احتلالهم لجزيرة "أركان" القريبة من الرأس الأبيض ومصب نهر السينغال: " ... العساكر والأجناد التي جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد واعتدناها للذب عن

---

(1) عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، ص. 80.

(4647/1)

كلمة الإسلام وحياطة البلاد والعباد "(1) أو القيام بأي تبشير مسيحي:

... ولما رأيناهم قد أتوا من الغواية ... وتفاقم الأمر حتى ... النزوع إلى دين النصرانية واستبدال الملة التوحيدية بالملة التثليثية، فوجهوا وفداً خاض من بلادهم ثبج البحر إلى الاشبونة قاعدة برتغال من بلاد الكفر حتى أتوا منها بقسيسين يفقهونهم في دين الطاغوت وعقائد اللاهوت ... فانقدح بذلك دين النصرانية في من يليهم انقدام النار حتى تفاقم الداء واستشرى ورجعت كلمة الإسلام في تلك الآفاق القهقرى ... (2)

---

(1) عبد الله كَنون، رسائل سعدية، ص. 132.

(2) مجموع مخطوط بالخزانة العامة بالرباط ك 278، ص. 187.

(4648/1)

.

... وتمتعت نتيجة لذلك بلاد السودان بالطمأنينة والسلام: وهي جنود الله التي لولا ما حجزت بينكم وبين

طواغيت الشرك سيوفها القاصمة وضربت في وجه الكفر دونكم بأسوارها العاصمة ... لفاض عليكم طوفانه السائل وسال على أرضكم منه شؤبوب هاطل. وكبحت عنكم عنان الكفر حتى نمتم في كفالتها آمنين وفي حياطتها وادعين مطمئنين (1).

... غير أن اضطراب الأوضاع الداخلية لدولة سنغاي الممتدة على الحوض الأوسط لنهر النيجر والمضاعفات الخطيرة التي ترتبت عليها في شتى المجالات السياسية والاقتصادية

---

(1) رسائل سعدية، ص. 132.

(4649/1)

والاجتماعية. "ثم بدلوا نعمة الله كفراً، وما تركوا شيئاً من معاصي الله تعالى إلا وارتكبوها جهراً" (1) جعلت أحوال السودانيين تتصف "بالأحوال الذميمة والطبائع الرذيلة" (2) وأيامهم بأنها "أيام بؤس ومجاعة" (3) في وقت ارتفعت فيه أصوات الاستغاثة وطلبات النجدة من الخليفة المنصور، وهو الحريص على "لم شعث المسلمين ودعم دعائم الدين وتشييد معالم

الجهاد وإخماد شرر الكفر" (4).

---

(1) عبد الرحمن السعيدي، تاريخ السودان، ص. 135.

(2) المصدر والصفحة نفسهما.

(3) المصدر نفسه، ص. 122.

(4) المناهل، مصدر مذكور، ص. 133.

(4650/1)

... أرسل المولى أحمد إلى السودان قوات عسكرية لإقرار الأمن والطمأنينة في شهر جمادى الأولى 999 هـ الموافق لمارس 1591 م. وعندما وصلت إلى تمبوكتو، شرعت "في التمهيد وتسكين الشارد وتأمين الطريد وخفض الجناح حتى اطمأنت النفوس المستنة في مجال القلق واستقرت الأفئدة الجائشة" (1).

... ومن الذين استقبلوا القوات المغربية استقبال الفاتحين قاضي القضاة بتمبوكتو عمر بن محمود بن عمر وخطيب جامع كاغو محمود رامي، "وتلقاهم الخطيب المذكور بالترحيب والإكرام وأضافهم إضافة فاخرة كبيرة" (2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 148.

(2) تاريخ السودان، ص. 141.

(4651/1)

، وعدد كبير من الأمراء السودانيين. "وكان ممن انخذل عن الاسكيا أخوه في نحو ثلاثمائة من إخوته ووجوه عساكره ورؤساء دولته ... راسل أجناد المنصور ليصل يده بأيديهم" (1).

... وعن عدالة الحكم المغربي في السودان يؤكد المؤرخ السوداني عبد الرحمن السعيدي ـ وهو معاصر ـ بأن سلوك أغلبية المسؤولين المغاربة كان محموداً:

... فعندما أخذت الأوضاع تستقر، ولوا على بلاد السودان الاسكيا سليمان. "وأكرم الباشا سليمان غاية الإكرام حتى جعله اسكيا عليهم"(2).

---

(1) المناهل، ص. 153.

(2) المصدر نفسه، ص. 152.

(4652/1)

... وقد كان الباشا منصور "رجلاً مباركاً عدلاً ذا حكم شديد في الجيش وأمسك أيدي الظلمة والفسقة على المسلمين فصار يحبه الضعفاء المساكين ويبغضه الفسقة والظالمون" (1).

... أما الباشا محمد طابع، "فذو معرفة وذو رأي وتدبير" (2).

... والباشا سليمان كان "ذا همة عالية ورأي فائق وتدبير عجيب وحكم سديد وسار بذلك في الجيش كله" (3).

... وعن القائد مامي المغربي ذكر السعيدي في "تاريخ"ه: "ثم جاء القائد مامي إلى جني ... وأصلح من أمور البلاد ما

---

(1) تاريخ السودان، ص. 177.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه، ص. 190.

(4653/1)

أصلح ... ثم رجع القائد مامي لتمبوكتو وقد استقام الحال بحيث لم يبق في تلك الناحية ما يشوش البال والحمد لله الكبير المتعال" (1). ...

... وهكذا ساد الأمن والاستقرار مجموع بلاد السودان وازدهرت بالتالي أحوالها الاقتصادية. "وعن قريب إن شاء الله تعود تلك الأقطار تزهو على جِلَّقَ وشط الفرات ويطير صيتها في الخصب فتمير القاصي والداني من أقاليم السودان "(2).

... وبالفتح المغربي للسودان، "اجتمعت اليوم - بحمد الله - بانتظام هذه الممالك كلمة الإسلام وارتقى الأمر -

---

(1) المصدر نفسه، ص. 162.

(2) المناهل، ص. 167.

بحول الله - إلى الكمال "(1).

... [و] الهمم الشريفة قد همت بتجديد الأسطول وكلفت بالاستكثار من المراكب الجهادية والآلات الحربية بما كان مولانا أمير المؤمنين - أيده الله - يؤمل من فتح جزيرة الأندلس وعبور البحر إليها بجنود الله وعساكر الإسلام لتجديد رسوم الإيمان بها وافتكاكها من أيدي الكفر المتغلب عليها (2).

... لما تم لمولانا الإمام الخليفة المنصور بالله أمير المؤمنين ـ أيده الله ـ ما أراد من فتح إقليمي توات وتيكورارين ...، بادر بتجهيز العساكر إلى

---

(1) المصدر نفسه، ص. 145.

(2) المصدر نفسه، ص. 170.

(4655/1)

جهة الساحل ... وبعث عن مولاه القائد أبي عبد الله محمد بن سالم صاحب الشرطة بفاس. فعقد له عليهم وسرحه إلى السوس بالمال وخزائن العدة والبارود وأوعز إلى القائد أبي محمد عبد المولى بن عيسى بن بر الوالي كان على عمالة تكاوصت ووادي نول بالحركة معه بقومه وسائر عشائره من عبده النازلين معه وجعله إسوة مولاه ابن سالم في تدبير الحروب دون الخراج، فنهضوا من السوس من بعد استكمال الأهبة في شهور عام اثنين وتسعين (وتسعمائة) وخاضوا القفر مع الساحل إلى السودان فوصلوا إليها من بعد الجهد لتسعين مرحلة متصلة من ثغور ممالك

(4656/1)

العرب القبلية ولم يكن لأهل السودان من علم بالعساكر لوحشية القفر حتى نزلوا بساحتهم... ولم يكن إلا أن بادر ملوكهم باللحاق إلى المعسكر واللياذ بالطاعة... ووصلوا إلى معسكر جنود الإمام أمير المؤمنين يقدمهم كبيرهم الموفى على الغاية في السن والهرم إبراهيم بن رضوان يامرفال وموسى جوب وغولي أخو يامرفال وكلهم من ملوك السواحل ببلاد السودان وألقوا أنفسهم على القواد مستسلمين فتلقوهم بما يتلقى به أمثالهم من عظماء القوم وملوكهم وأكرموا موصلهم وخلعوا عليهم... وارتحلت العساكر من بعد ذلك وسارت تحت رايات أمير المؤمنين

(1/4657)

تخترق ممالك السودان حتى انتهت لخليج النيل المنبعث من قاصية السودان وكرعت خيل المنصور في مائة وخفقت راياتها على شطه... وقفلت العساكر إلى المغرب ظافرة ظاهرة وكان الذي استجاب لهم ودان بالطاعة والانقياد من عرب الفلات فقط وأممهم الذين ينتجعون الكلأ في مجالات القفر الممتد من ثغور المغرب القبلية

إلى ممالك السودان بالجنوب نيفاً وأربعين ألف خيمة كلها من أهل الوبر والكراع المربى على النمل كثرة والجراد انتشاراً.

... عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، ص ص .78 ـ 80.

(4658/1)

... وبعد الفتح المغربي لبلاد السودان،

... كتب ـ أيده الله ـ إلى الجهات والأقطار من ممالكه بالفتح وإنهاء البشرى . . .

... ولما استوى القدم بعساكرنا ـ وفرها الله ـ في البلاد، وأصبحوا في دنيا لا تفي العبارة لها بكنه ولا تعارض بشبه ولا نظير لها في الأرضين بوجه، ما شئت من ممالك متعددة الأقطار، متنوعة الأوطان والأوطار، جمة المرافق والفوائد وما ألف الوافد والرائد، لا تحد بغاية ولا تدرك بها نهاية محشر الأمم وبستان العالم ومدرج الذر من بني آدم، وملك ضخم لا تصل إليه الهمم لولا عنايته التي لا تقاوم. وناهيك

(4659/1)

بممالك يخترقها بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه الرحمة . . . تزخر بالنعم واتصال العمران . . . ولقد اجتمعت اليوم ـ بحمد الله ـ بانتظام هذه الممالك كلمة الإسلام وارتقى الأمر ـ بحول الله ـ إلى الكمال الذي دل منه حسن الابتداء على حسن الاختتام، ولم يبق ـ بحول الله ـ إلا صرف العزائم إلى جهاد العدو الكافر وأن تدور عليه ـ بحول الله ـ الدوائر حتى نغزوه بجنود الله في عقر ديارة ومحل قراره، ويعلو حزب الله على حزب الشيطان وأنصاره بعز الله وتأييده . . . وفي ليلة الجمعة سابعة شعبان المكرم عام تسعة وتسعين وتسعمائة.

(4660/1)

... ... عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر ... ... مواليينا الشرفا، صص 142 ـ 146.

(4661/1)

الفهرسة والكناشة في نشاط المغرب الفكري

عبد العزيز بن عبد الله

عضو أكاديمية المملكة المغربية والمجامع العربية

ا– الفهرسة

الفهرسة اسم كثر استعماله عند المغاربة. وهم يطلقونه على البرنامج الذي كان يطلق في الأول على زمام يرسم فيه متاع التجار. أما المشارقة، فإن جلهم يطلق عليه اسم ثبت وهو بفتح الباء ما يثبت فيه المحدث مروياته مع أسماء المشاركين له (السَّخاوي في »شرح الألفية«، ص.102).

وكان العلماء يجيزون الفهارس بأسانيدها كما فعل ابن القاضي أحمد بن محمد مع أحمد بن محمد المقري حيث أجازه بفهرسة محمد بن

(4662/1)

أحمد بن غازي العثماني، وفهرسة أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، وفهرسة أبي عبد الله المنتوري، وفهرسة ابن جعفر بن الزبير، وفهرسة محمد بن جابر الوادآشي. كما أجازه بـ»رحلة« ابن رشد ومصنفات عبد الرحيم العراقي وزروق البرنسي وخليل بن إسحاق المالكي (»روضة الآس« للمقري، طبعة الرباط، ص. 297).

وقد كان محمد بن الغازي الكبير جماعا للفهارس

والمعاجم («من أعلام الفكر المعاصر»، ج 2، ص. 186).

وأكبر فهرس للمغاربة فهرس محمد بصري المكناسي وهو ثبت في نحو أربعين كراسة يسمى «إتحاف أهل البداية والتوفيق والسداد بما يهمهم

(4663/1)

من فضل العلم وآدابه والتلقين وطرق الإسناد» («فهرس الفهارس»، ج 1، ص. 165).

والثَّبَت –بالتحريك كما في «فهرس الفهارس» أيضا (ج 1، ص. 39) –ما يثبت فيه المحدث مسموعه مع أسماء المشاركين له فيه؛ والثَّبْت (بسكون الباء): الحجة.

ومن هذه الفهارس والفهرسات:

– فهرست إبراهيم التادلي الرباطي. توجد نسخة منها في مكتبة محمد بن عبد السلام السائح.

– فهرسة صغرى لأبي سالم العياشي، اسمها «إتحاف الأخلاء بأسانيد الأجلاء». وله «مسالك الهداية إلى معالم الرواية» على «العجالة الموفية بأسانيد الفقهاء والموحدين والصوفية»

(4664/1)

على »اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر« (خع 2173 (م=

26–64/ الخزانة الأحمدية السودية بفاس)(1).

– فهرست ابن عمران الفاسي (430هـ/1038م).

– فهرست لأبي القاسم بن سعيد العميري (ست نسخ في

خم من 560 إلى 6903).

– فهرست أحمد بن أحمد زروق البرنسي

(899هـ/1493م).

---

(1) الرموز المستعملة في هذا البحث:

(خع) : الخزانة العامة برباط الفتح.

(خم أو خم): الخزانة الحسنية بالرباط.

(خق) : خزانة جامعة القرويين بفاس.

(خس) : خزانة آل بنسودة بفاس.

(د.م) : دليل المؤرخ للعلامة السيد عبد السلام بنسودة.

(4665/1)

– فهرست أحمد بن الحسن بن محمد المكودي نزيل

تونس يعرف بالورشان (1169هـ/1955م).

ألفها باسمه أحمد بن مبارك السجلماسي (نسخة بخزانة

محمد بن الحسن الحجري وأخرى بخزانة إدريس بن

الماحي).

– فهرست لأحمد الشيخ بن عبد العزيز الهلالي (1175هـ/1761م) –وهي الفهرسة الكبرى (في كراستين)– (خم 1194/6778/ الخزانة الأحمدية السودية بفاس) اختصرها القادري في »النشر«. وله »العجالة« ، وهي ثبت صغير.

– فهرست لأحمد بن عجيبة التطواني (خمسة كراريس). (خع 1845 د م = 1–33)/الخزانة الأحمدية السودية بفاس).

(1/4666)

–فهرست ابن عجيبة الصغير. أشار إليه صاحب »التصور والتصديق« (ص. 17)، ولم يرد في »فهرس الفهارس«.

–فهرسة ابن حسون أحمد بن العربي الوزاني الرحالة اسمها »زهرة الآس فيمن لقيته من الناس بوزان وفاس«، ذكرها في »رحلته«.

– فهرسة ابن الحاج أحمد بن العربي الحارثي (خم 6778).

– فهرسة أحمد بن علي بن محمد البوسعيدي (1046هـ/1636م) (»بذل المناصحة في فعل المصافحة«)، ذكر فيها أشياخه وإجازاتهم (نسخة بسوس) (»سوس العالمة« لمحمد المختار السوسي).

(4667/1)

– فهرسة أحمد بن الحاج العياشي سكيرج (1363هـ/1943م) جمعها باسمه في كراسة محمد بن عبد القادر بن الطالب بنسودة.

– فهرست ابن القاضي أحمد، اسمه »رائد الصلاح بعوالي الأسانيد الصحاح«. ذكر فيه شيوخه (نسخة فريدة بخط المؤلف في مكتبة الأكاديمية الملكية التاريخية بمدريد/عدد 17).

– ونقل صاحب »دليل المؤرخ« (ج 2، ص. 298) عن الأستاذ محمد العابد الفاسي أن نسخة منه كانت بخزانة جده علال بن عبد الله الفاسي وضاعت في حياته.

– فهرست لابن الحاج أحمد بن محمد بن أحمد المرادسي جمعها له تلميذه محمد بن عبد السلام بناني.

(4668/1)

– فهرست لابن الخياط أحمد بن محمد بن عمر الزكَاري في نسختين صغرى وكبرى (الخزانة السودية بفاس).

– الفهرسة الصغرى (خم 1205)/الفهرسة الكبرى (خم 1182).

– فهرسة لأحمد بدوي بن محمد بن نافع الحافظ الفاسي ضمنها شيوخه (1260هـ/1844م). («السلوة«، ج 3، ص. 236).

– فهرسة أحمد حميد بن محمد بناني قاضي فاس فرغ منها عام 1318هـ/1900م (نسخة في ثلاثة كراريس بالخزانة الأحمدية السودية بفاس).

– فهرست لأحمد بن محمد السوسي العباسي (1149هـ/1763م) ذكرها صاحب »سوس العالمة«.

(1/4669)

– فهرست لأحمد المنجور في خمسة كراريس (خم 5164) نسخة في الخزانة الأحمدية السودية (ضمن مجموع) وأخرى كبرى أو صغرى («الجذوة«، ص. 67).

– فهرست جعفر بن إدريس الكتاني (ط بفاس).

–فهرست »إتحاف الأعيان بأسانيد أولي العرفان« للحسن بن عمر مزور (1376هـ/ 1957م) (خس).

–فهرست الحسن بن محمد الكوهن الفاسي الشاذلي (كان حيا عام 1346 هـ/1927م) توجد نسخة منها في مكتبة الكَلاوي.

– فهرسة ابن ناصر الحسين بن محمد بن أحمد الدرعي

شقيق سيدي محمد بناصر (نسخة في خمسة كراريس بالخزانة الفاسية).

(4670/1)

– فهرسة لابن حوط الله داود بن سليمان قاضي الجزيرة الخضراء ذكر فيها أسماء شيوخه وقد درس في سبتة ومراكش وسلا («الإعلام» للمراكشي، ج 7، ص. 108) (الطبعة الأولى).

– فهرسة لسعيد بن أبي القاسم العميري التادلي تلميذ اليوسي (1131هـ/1719م). اقتبس منها الناصري في «الاِستقصا» (ج 4، ص. 34).

– فهرسة السلطان المولى سليمان بن محمد بن عبد الله «جوهرة التيجان وفهرست الياقوت واللؤلؤ والمرجان في الملوك العلويين وأشياخ أمير المؤمنين مولانا سليمان» لأبي القاسم الزياني (خم 7159/ نسخة بخط المؤلف في الخزانة العباسية

(4671/1)

اختصرها تلميذه التهامي بن رحمون في »الدرر والعصيان فيما قيدته من جواهر التيجان« (يوجد بخط المؤلف في الخزانة الأحمدية السودية بفاس).

– فهرسة سليمان الحوات »ثمرة أنسي في التعريف بنفسي« استعرض فيها أشياخه وقارن الوسط الثقافي في الجبل المغربي بالبيئة الفاسية (خس) (لم يرد في »فهرس الفهارس«).

– فهرسة لابن ناصر سليمان بن يوسف بن محمد اسمها »إتحاف الخل المعاصر بأسانيد أبي المحاسن يوسف بن محمد بن ناصر« أو »البدور الطالعة السنية في الأحاديث المسلمة بالأولوية« ذكر فيها أشياخه وأشياخ والده يوسف (خم

(4672/1)

5263/الخزانة الناصرية بسلا).

– فهرست لصالح بن العربي أبي أيوب التدلاوي (1307هـ/1889م) (في كراستين لم ترد في »فهرس الفهارس«).

– فهرسة لعبد الرحمن بن إدريس المنجرة (1179هـ/1765م) اسمها »الإسناد للشفيع يوم التناد«

(خع 471/خع 2285د (81 ص)).

– فهرسة لعبد الرحمن بن جعفر الكتاني

(1334هـ/1916م) جمع فيها فهرسة والده المسماة

»إعلام أئمة الأعلام وأسانيدها بما لنا من المرويات

وأسانيدها«.

– فهرسة لعبد الرحمن بن محمد بن حميدة البريوسي

الحمري (1215هـ/1800م) تسمى »سلسلة المشائخ« وقف

عليها صاحب »الطبقات في

(4673/1)

مولاي العربي الدرقاوي« لم ترد في »فهرس الفهارس«

(ف.ف).

– فهرسة عبد العزيز بن إبراهيم بن هلال (توجد

بمكتبة الشيخ عبد الحي الكتاني).

– فهرسة لعبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي

مختصرها هو »إجازة الممنوحة« لأبي سالم العياشي، وهي

التي علق عليها ابن أبي شنب في المؤتمر الرابع عشر

للمستشرقين.

– فهرسة عبد الكريم بن علي اليازغي الفاسي

(1199هـ/1785م).

– فهرسة عبد الله بن إبراهيم بن موسى الوزاني شيخ

الطريقة الوزانية ذكرها صاحب »التحفة القادرية« جمع فيها طرف أشياخه وأسانيده (نسخة بزاوية أهل وزان بالشرشور)

(1/4674)

(دم 1317).

– فهرسة أبي سالم عبد الله بن إدريس البدراوي (1316هـ/1898م) إجازة محمد بن خليفة المزني في »فهرست«ه وكتبها له باسمه (لم ترد في ف.ف).

– فهرست لعبد الله المدعو الكامل بن محمد ابن سالم الأمراني جمعها له عبد الحفيظ الفاسي في كراسة (لم ترد في ف.ف).

– فهرسة عبد المجيد بن علي المثالي الزبادي الفاسي (نسخة بخزانة سيدي محمد إبراهيم الكتاني ربما بخط مؤلفها).

– فهرست عبد الملك بن محمد أبي الوليد التاجموعتي قاضي سجلماسة (1118هـ/1706م) (نسخة بالخزانة الفاسية).

(1/4675)

– فهرسة لعبد الواحد بن أحمد بن محمد العلوي السجلماسي (1003هـ/1595م) اسمها »الإلمام ببعض من لقيته من علماء الإسلام« (خزانة محمد إبراهيم الكتاني).

– فهرسة العربي بن محمد الدمناتي الفاسي (1253هـ/1873م): »سمط الجوهر في الأسانيد المتصلة بالفنون والأثر« (يوجد طرف منها بخزانة محمد إبراهيم الكتاني، وهي فهرسة جامعة).

– فهرسة العربي بن المهدي بن العربي العزوزي نزيل لبنان (1308هـ/1890م): »إتحاف ذوي العناية ببعض ما لي من المشيخة والرواية« (مطبعة الإنصاف، بيروت، 1370هـ/1950م).

(4676/1)

– فهرسة علي بن أحمد بن علي الحريشي الفاسي (1143هـ/1730م) (يوجد طرف منها في مكتبة محمد إبراهيم الكتاني).

– فهرست علي بن أحمد الشريف اللنجري الصرصري (1037هـ/1627م).

– فهرست ابن هاشم علي بن زين العابدين المدعو زيان

بن هاشم العراقي (1194هـ/1780م) (ف.ف، ج 1، ص. 346).

– فهرسة لعلي بن سليمان الدمناتي البوجمعاوي (1306هـ/1888م): »أجلى مساند على الرحمن في أعلى أسانيد علي بن سليمان« ذكر فيها أسانيده في الحديث والتفسير. (المطبعة الوهبية، مصر، 1298هـ/1880م) (لابن عتيق علي بن عيسى القرطبي ثلاثة فهارس: كبير

(1/4677)

ومتوسط وصغير).

– فهرست لعلي بن قاسم بن عمر اليطيوي الريفي قاضي الجماعة بفاس (1039/1629م) نسبها له صاحب »التحفة القادرية« (»فهرس الفهارس«، ص. 159) حيث ذكر غلطا أن اسمه قاسم.

– فهرست لعلي بن محمد العربي بن علي السقاط المصري الفاسي (1183هـ/1769م) جمع فيها أشياخه ومروياته الحديثية والصوفية. وقد أفرد أسانيدها فتح الفرغاني المصري (1210هـ/1795م) سماه »الضوابط الجالية في الأسانيد العالية« (ف.ف، ج 2، ص. 21).

(4678/1)

– فهرست اليوسي أبي الحسن (مات دون إتمامها في أربعة كراريس) (خع 1838د/الخزانة الأحمدية السودية بفاس/خم 1183–5470).

– فهرسة عمر السوسي الجراري (1360هـ/1940م)، وقف عليها محمد المختار السوسي («سوس العالمة»).

– فهرسة عياض «الغنية» في اصطلاح الحديث وسماعه من الأشياخ ترجم فيها لمائة من شيوخه (مكتبة مدريد 307/الخزانة الأحمدية السودية بفاس/ خع 1807د (132ص)/خع 1732د (158هـ)/خق د 1732/مكتبة الكَلاوي).

– فهرسة فتح الله بن أبي بكر بناني (1353هـ/1934م) في مجلد ترجم فيها لأشياخه المغاربة والمشارقة اسمها

(4679/1)

«المجد الشامخ ممن اجتمعت به من أعيان المشائخ».

– فهرست لأبي القاسم محمد بن أبي نعيم الغساني قتل بفاس (1032هـ/1623م) اعتمدها الإفراني في

»الصفوة«.

– فهرست كبيرة لابن جزي محمد بن أحمد صاحب »القوانين الفقهية«، اشتملت على كثير من رجال المشرق والمغرب.

– فهرست لابن غازي محمد بن أحمد تسمى »التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد« أجاز بها أربعة من أعلام تلمسان من بينهم ابن مرزوق (وله ذيل يوجد مع الأصل في خم 413/خم 2008د (م=471–484/ خم 425 (22 ص) وفي الخزانة الأحمدية السودية والأصل بخط

(4680/1)

المؤلف في الخزانة الزيدانية بمكناس (خم 7247/خم 1203/5820/ الإسكوريال 1725).

–فهرست لمحمد بن أحمد الجنان (1050هـ/1640م) (»فهرس الفهارس«، ج 1، ص.220 نقلا عن »إجازة المرغيثي« للحسن اليوسي).

– فهرست لابن مرزوق محمد بن أحمد الخطيب اسمه »عجالة المستوجز والمستجاز في ذكر من سمع من المشائخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام (الحجاز)«

ضمت ألفي ترجمة نقلها عنها المقري في »النفح« بواسطة »الإحاطة« لابن الخطيب.

(1/4681)

– فهرسة محمد بن أحمد العبدي الكانوني (1357هـ/1938م) (ذكر فيها أشياخه أسماها »الهداية والإرشاد إلى معالي الرواية والإسناد«، وله فهرسة أخرى سماها »مراقي الإسعاد إلى سماء الرواية والإسناد« جمع فيها أسانيده ومروياته ومشائخ أستاذه عبد الرحمن بن محمد الهنتيفي.

– فهرسة »مدد التآليف في ترتيب المحفوظات والتقاييد محفوظة التكرار والأسانيد« لمحمد بن أحمد اليحمدي الوزير (ألفه عام 1153هـ (الخزانة الإسماعيلية المحتوية على نفائس المخطوطات).

(1/4682)

– فهرست لمحمد بن إدريس القادري نزيل الجديدة. (كتبها باسم أبي حامد المكي البطاوري). (نسخة عند محمد التطواني بسلا، وأخرى عند إدريس بن الماحي

الإدريسي بفاس).

– فهرست لمحمد الأمين بن جعفر العلوي الصوصي من أيت الرتب (1240هـ/1824م) يوجد طرف منها بخزانة محمد إبراهيم الكتاني).

– فهارس أربعة لمحمد بن مسعود بناني (1194هـ/1780م) في طرق الحديث ثم الفقه ثم التصوف (توجد ثلاثة في خزانة محمد بن عبد السلام بناني ضمن المجموع، والرابعة وهي الفهرسة الكبرى بالخزانة الأحمدية السودية بفاس ضمن مجموع نسخ منها في خم

(4683/1)

1189–5755–6778).

–فهرسة لمحمد بن الحسن الحجوي (1376هـ/1956م)، اسمها »العروة الوثقى في أسانيد أهل العلم والتقى«. طبع اختصاره بمطبعة الثقافة بسلا (1357هـ/1938م).

– فهرست محمد بن الحسن العرائشي المكناسي (1352هـ/1933م) سماها »عنوان السعادة والإسعاد لطالب الرواية والإسناد« (خس).

– فهرسة لابن خليفة محمد المسعودي المدني (895هـ/1313م) ألف محمد بن عبد الرحمن البْرِيبْرِي

الرباطي فهرسة باسمه اسمها »إتحاف ودود بمقصد محمود«.

(1/4684)

– فهرست محمد بن زروا الصفريوي (1245هـ/1829م) تقع في ثلاثة كراريس (يوجد طرف منها بخزانة محمد إبراهيم الكتاني) (لم ترد في »ف.ف«).

– فهرسة لمحمد بن سعيد بن يحيى المرغيثي (1089هـ/1678م) اسمها »العوائد المزرية بالموائد«، وهي كشكول علم وأدب (خع 537د/خع 285 (272 ورقة).

– فهرست صغرى أجاز بها الشيخ محمد بن ناصر الدرعي (كراسة واحدة).

– فهرسة محمد بن عبد الرحمن البريبري قاضي الرباط (1326هـ/1908م)، له »إتحاف ودود بمقصد محمود« ألفها باسم محمد المسعودي المعروف بابن خليفة المدني (1313هـ/1895م).

(1/4685)

– فهرسة لمحمد بن عبد السلام بناني (1163هـ/1749م) (خس) (خع 414 (أطال فيها ترجمة شيخه ابن الحاج) خع 385 مكرر (14 ورقة)؛ وله أيضا »الفهرسة الصغرى« (خزانة الكتاني) ذكر فيها المولى اسماعيل.

– فهرسة محمد بن عبد القادر الفاسي جمعها ولده محمد الطيب سماها »أسهل المقاصد لحلبة المشائخ ورفع الأسانيد الواقعة في مرويات شيخنا الوالد«.

– فهرست محمد بن عبد الله السجلماسي الفاسي (1151هـ/1728م) (»فهرس الفهارس«، ج 2، ص. 225).

– فهرست لمحمد بن عبد الملك المنتوري (834هـ/1431م)، يوجد طرف منها في الخزانة الكتانية.

(4686/1)

– فهرست لابن عطية الزناتي محمد بن علي السلوي (1052هـ/1643م) نسبها له عبد السلام القادري في »التحفة القادرية«.

– فهرس »الدرر السنية بما علا من الأسانيد السنوانية« نسبه صاحب »فهرس الفهارس« لابن منصور محمد بن علي الفاسي (المتوفى 1232هـ/1817م).

– فهرس (مجلد) في شيوخ ابن موسى محمد بن علي أبي البركات المراكشي الأصل المكي الشافعي سبط العفيف

اليافعي 823هـ/1420م).

– فهرسة محمد بن علي الورزازي المعروف بالورزازي الصغير (1179هـ/1766م) («ف.ف«، ج 1، ص. 431). توجد نسخة بخزانة الكتاني في ثلاثة كراريس.

(4687/1)

– فهرسة وذيل لمحمد بن عمر بن أحمد الهشتولي أتمَّها عام 1212هـ («الإعلام« للمراكشي، ج 5، ص. 141).

– فهرسة لابن خير محمد بن عمر بن خليفة اللمتوني الأموي (نسبة إلى أمة جبل بالمغرب) الحافظ، وهي »فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف« (ط كوديرا وربيرا، مدريد، 1893) (أعاد طبعه قاسم محمد رجب بالأوفسيت، بيروت، 1963).

– فهرست لمحمد بن عمر عاشور (1366هـ/1947م) خطيب القصر الملكي، ذكر فيها شيوخه.

(4688/1)

– فهرست لمحمد بن قاسم بن محمد بن قاسم جسوس (1182هـ/1768م) نسبها له صاحب »نشر المثاني« الكبير في ترجمة عبد المجيد المنالي (لم ترد في »فهرس الفهارس«).

– فهرسة لابن زاكور محمد بن قاسم بن محمد الفاسي (1120هـ/1708م)، اسمها »نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء الأكابر والأعيان« (ط. بالجزائر، عام 1319هـ) (نسخة بمكتبة الجزائر 1740).

– فهرست (مطبوع) لمحمد بن قاسم بن محمد الفاسي (1331هـ/1903م)، وله أيضا »إتحاف أهل الدراية بما لي من الأسانيد والرواية« (»ف.ف«، ج 2، ص. 292) (طبعت بفاس،

(4689/1)

1320هـ/1902م).

– فهرست لمحمد بن القاسم القادري (1331هـ/1912م).

– فهرست محمد بن قاسم القصار (خس) (نسختان في خم 3730–5164). (له فهرسة أخرى كبرى جمع فيها روايته في الفقه والحديث (»فهرس الفهارس«، ج 2، ص. 317).

– فهرست لمحمد بن محمد بن إبراهيم التكركسي السوسي (1167هـ/1753م) ترجم فيها أشياخه (نسخة بخزانة محمد المختار السوسي (لم ترد في »ف.ف«)).

– فهرسة لابن ريسون محمد بن محمد الصادق (المتوفى بوزان عام 1236هـ/1820م)، ألفها باسم أبي القاسم الزياني (خم 3399).

(1/4690)

– فهرست محمد بن محمد بن سليمان البوعناني (استفاد منها سليمان الحوات في »البدور الضاوية«).

– رحلة وفهرست لابن عمرو محمد بن محمد التهامي الرباطي ذكر فيها شيوخه التونسيين.

– فهرسة ابن ناصر محمد المدني بن محمد بن عبد السلام الدرعي (1238هـ/1822م) وقف عليها محمد الكانوني – تعرف مجموعة إجازته بكناشة ابن عبد السلام، وقف عليها الكتاني (»فهرس الفهارس«، ج 2، ص. 221).

– فهرسة محمد بن محمد الحجوجي الفاسي (1370هـ/1950م) اسمها »كنز اليواقيت الغالية في الأسانيد العالية«. وهي الفهرسة الصغرى؛ أما الكبرى، فهي »نيل

(4691/1)

المراد في معرفة رجال الإسناد«.

– فهرست محمد الفضيل بن محمد الفاطمي الشبيهي الزرهوني (1318هـ/1900م) جمعها تلميذه صاحب »فهرس الفهارس«.

– فهرست ابن ناصر محمد المكي بن موسى بن محمد الكبير الدرعي اسمها »فتح الملك الناصر في إجازة مرويات بني ناصر« (خس).

– فهرست لمحمد بن يحيى السوسي الأضاريفي (1164هـ/1750م) جمع فيها أسانيده ومروياته (»سوس العالمة«– نسخة عند الشيخ المختار السوسي).

– فهرسة لمحمد بن يعقوب الإيسي المراكشي أحد كتاب المنصور.

(4692/1)

– فهرسة للمكي بن عبد السلام بن أحمد الشرايبي (1245هـ/1829م) جمعها له تلميذه محمد بن محمد بن مسعود ابن عقبة. تقع في كراسة بخزانة محمد إبراهيم الكتاني (لم ترد في »ف.ف«).

II- الكناشة

أما الكناشة، فهي تشتمل على الأحداث التي شاهدها صاحب الكناشة وأشعاره ومساجلاته الأدبية وفوائده (توجد 40 كناشة لفحول العلماء بالخزانة الأحمدية بفاس).

ويسميها بعضهم الزمام والبطاقات. وهي أوراق كالدفتر تقيد فيها الفوائد والشوارد للضبط («تاج العروس»، ج 4، ص. 347، مكتبة الحياة، بيروت). وهو أشبه بما عرف بالمشرق من تذكرات

(4693/1)

ك«تذكرة الصفدي» و«التذكرة التيمورية» أخيرا.

وأقدم كناشة معروفة وهي للجادري عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن المديوني الفاسي (818هـ/1415م). وقد ترجم أحمد زروق البرنسي لنفسه في «كناش»؛ كما خلف عبد الواحد الونشريسي عدة كنانيش. وأشار المنجور إلى كنانيشه في طالعة فهرسته الكبرى والصغرى. ثم توالى استعمال الكلمة في العصر العلوي ك«كناشة العربي القادري» والكناشات الفاسية والسودية واليحمدية والشرقاوية، وكناشات الحافي

وبنيس وشطير والمعداني، إلخ. («الكناشات المغربية»، محمد المنوني، المناهل، ج 2، ص. 196).

(1/4694)

– كناش أملاك المخزن:

سجل تثبت فيه أملاك الدولة الموجودة بكل مدينة والمناطق التابعة لها ويشرف على مراقبته «أمين المستفاد» المحلي الذي يحاسبه المخزن على أعماله في هذا المجال (راجع رسالة سلطانية تلقاها أمين مستفاد أزمور عام 1302هـ/1855م (خم 360، ص. 212) بسبب تعطيل السواني التي تحت عهدته ومطالبة ببيان السبب؛ وإلا عوقب.

توجد نسخة منه في وثائق السيد بناصر غنام عرضتها وزارة الثقافة في «المعرض الخامس» (مارس 1973) (الرقم الخاص 56).

– كناش الحاجب:

(1/4695)

كان السلطان يفض بنفسه المكاتيب الواردة على الحضرة باسم السلطان مختومة، إلى أن توعكت صحة المولى الحسن (عام 1304هـ/1886م) ففوض لحاجبه أحمد بن موسى في فتحها والإستعانة بكاتبين من صدر الوزارة لتقييد مضمون كل كتاب ليرفع للجناب العالي فيراجع كل مضمون ثم يوقع عليه بما يراه ويقيد الحاجب في كناش خاص سائر تلك المضمنات بتواقيعها (»العز والصولة« لابن زيدان، ج 1، ص. 42).

– كناش الحساب لدى التجار:

كناش الدخل – كناش الخرج – اليومية – كناش الوسخ – كناش الكوبية (أي النسخ) (لوتورنو، »فاس في عهد الحماية«، ص. 398).

(4696/1)

– كناش الديون:

كانت تثبت فيه ديون الدولة في عهد الحسن الأول (توجد نسخة منه في اسم صاحبها (بناصر غنام) وأحرضان. عرضتها وزارة الثقافة ضمن وثائق ومحفوظات المعرض الخامس (مارس 1973) (الرقم الخاص هو 52–77) وكانت تسمى بكناش ما بالذمم للمخزن (راجع كناش ديون العرائش) (وثائق بناصر وأحرضان – المعرض

الخامس – الرباط مارس 1973) (الرقم الخاص 88))؛

وكناش ديون تطوان (الرقم الخاص 96).

كناش شروط الأجناس في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (فيه الشروط المعقودة مع فرنسا (عام 1180هـ/1766م) مع عقود ومعاهدات اقتصادية

(4697/1)

وبحرية مع أوروبا (خع 1694د (63هـ)).

– كناش مكاتيب الطابع الشريف:

رسائل رسمية موجهة إلى القواد والعمال خلال عام واحد (1324هـ/1325هـ/1907م (في عهد المولى عبد العزيز) (مكتبة كلية ابن يوسف/خع 1695د).

والطابع السلطاني: خاتم مستدير كانت تختم به الرسائل والأوامر والظهائر السلطانية. وكان يوضع بأعلى المراسيم في العهد السعدي بخصوص المظالم أو رسائل الأشغال والعطاء، في حين كان السلطان يسجل »العلامة« بيده على الكتب والأجوبة والظهائر (»مناهل الصفا«، ص. 206).

(4698/1)

وصاحب الطابع كان قائدا للجيش (عام 1223هـ/ 1808م، وهو أحمد بن مبارك («الإستقصا»، ج 4، ص. 142).

والواقع أنه كان لكل قائد من قواد الحواضر أو القبائل الكبرى طابع (مثال ذلك الطابع الرسمي لقائد تطوان محمد عاشير، وهو بيضوي الشكل بأعلاه نتوء قليل قد كتبت في دائرته: «ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»، وفي وسطه «خديم المقام العالي بالله محمد عاشير وفقه الله» («تاريخ تطوان»، ج 2، ص. 270).

– كناشة أبي سالم إبراهيم بن محمد بن إبراهيم البرنسي (1130هـ/1717م)، تحتوي على رسائل علمية وإجازات من أشياخه

(4699/1)

(خع 1056د).

– كناشة لأحمد بن الحسن اليحمدي الوزير (1132هـ/1719م)، وهي أكبر كناشة عرفت بالمغرب (نسخة في عشرة أجزاء، في خم تسعة منها رقم 1034، والعاشرة رقم 3985. والنسخة في ثمانية أجزاء في

مجلدين (خع 330ك)، وهي غير كناشة اليحمدي محمد بن الحسن (الجزء الأول، خم 2272).

– كناشة لأحمد بن الطالب بن سودة (1321هـ/1903م) (خع 473ك).

– كناشة لأحمد بن عبد السلام السريفي الصفصافي (1343هـ/1925م) بها نقول وإجازات لأبي القاسم بن أحمد الفاسي.

(4700/1)

– كناشة لأحمد بن عبد الله التناني الصويري المهندس رئيس قواد الطبجية في العهد الحسني جمع فيها فوائد أشياخه ومؤلفات في الحساب والجبر والمقابلة وأغرتم («الإعلام» للمراكشي، ج 2، ص. 266).

– كناشة لأحمد بن القائد عمر بن أبي ستة المراكشي (1292هـ/1875م)، وهي إجازة الشيوخ. يوجد عند بعضهم بمراكش («الإعلام» للمراكشي، ج 2، ص. 227).

– كناشة لأحمد بن قاسم جسوس الرباطي (1331هـ/1912م)، ضمنها شيوخه (نسخة عند ابن أخيه الحاج قاسم جسوس بالرباط).

(4701/1)

- كناشة أحمد بن محمد بن السعيد الفلالي العلوي قاضي مقصورة المواسين (خم 10327).
- كناشة أحمد بن محمد بن عاشر السلوي الحافي (خع 1044ك).
- كناشة لأحمد بن محمد الرشيدي المكناسي (1319هـ/1902م) (خع 1068ك).
- كناشة للطيب بن محمد البياز عامل فاس (خم 3665).
- كناشات أربع للعباس بن محمد بن عبد الرحمن الفيلالي الحجرتي (1311هـ/1893م). وقد سجل فيها وفيات المتأخرين من أهل فاس (خع 3634د 685هـ/3747د/70ك).
- كناشة لعبد الرحمن ستين قيد فيها بخطه الفوائد الحديثية وغيرها (راجع فهرسة تلميذه المنجور).

(4702/1)

- كناشة عبد العزيز الغرديس (خع 1081ك)/2276ك/2848د).
- كناشة لعبد القادر بن محمد التطواني الهزروم حول وثائق سياسية ومستندات تاريخية ترجع لعصر

السلطان محمد الثالث وكان كاتبا له (مكتبة العلامة محمد التطواني بسلا).

– كناشتان لابن المواهب سيدي العربي بن محمد بن محمد السائح (خع 147د/139د (الثانية مستخرجة من الأولى)).

– كناشتان للعربي بن عبد القادر بن علي المشرفي المعسكري نزيل فاس (1313هـ/1895م) (خع 204د/471د).

(4703/1)

– كناشة لعبد الله بن علي شطير التطواني (1215هـ/1800م) اسمها «نضار الأصيل على بساط الخليل»، أشار فيه إلى ابتكار طريقة جديدة للعبة الشطرنج ولعبة الكارطة (خزانة داود بتطوان) («تاريخ تطوان»، ج 6، ص. 199).

– كناشة لعلال بن أحمد بن شقرون الكريمي الفاسي (1319هـ/1901م) ذكر فيها أشياخه (خع 469ك).

– كناشة لعلال (أوعلى) بن محمد التهامي بن أحمد الحمومي الفاسي (1259هـ/1843م) (خع 1531ك) («السلوة»، ج 1، ص. 177).

(4704/1)

– كناشة لمحمد بن أحمد بن الطيب بناني (1317هـ/1899م) (ضمنها إجازات شيوخه) (راجع بعضها في »الأعلام« للمراكشي، ج 7، ص. 119، ط الرباط).

– كناشة محمد بن أحمد بن العربي الصقلي (1316هـ/1898م) (خع 480ك).

– كناشة محمد بن أحمد الرافعي الأزموري الجديدي (1360هـ/1941م) (خع 1198 (خع 1198ك)).

– كناشة محمد الطالب بن حمدون بن الحاج (خم 3063).

– كناشة محمد بن الطاهر الزبدي الرباطي (»تاريخ تطوان«، ج 4، ص. 78).

– كناشة تاريخية لمحمد العربي بن الطيب بالقادري (خم 2389).

(4705/1)

– كناشة لمحمد بن عبد الرحمن (1343هـ/1925م) (نسخة عند أسرته تابع تقييدها ابنه عبد الكبير وحفيده).

– كناشة محمد الطيب بن عبد السلام الخياط قيم خزانة

الرصيف بفاس في العهد الرحماني (خم 1574ك) فيها تقييد في الأنساب.

– كناشتان لمحمد بن عبد القادر فرفرة الرباطي (1371هـ/1952م) تحتويان على معلومات تاريخية نادرة حول القرنين الرابع عشر والثالث عشر (نسخة في خزانة محمد التطواني بسلا).

– كناشتان لمحمد بن عبد الله المراكشي تحتويان على تقاييد مقتبسة من نوادر المصنفات (خم ج 88/ج 91).

(4706/1)

– كناشة لمحمد بن العربي بن أحمد الفيلالي (خم 911ك).

– كناشة محمد بن العربي قصارة الفاسي (1257هـ/1841م) (وقد أشار إليها الطيب بن محمد البياز عامل فاس في كناشة خم 3665).

– كناشة لمحمد بن محمد بن علال النحول الفاسي. نسخة بالخزانة الأحمدية السودية بفاس تحتوي على فوائد نادرة.

– كناشتان لمحمد المدني بن علي بن جلون الكومي (1298هـ/1880م) (خم 29ك/خم 2676ك).

– كناشة لمحمد بن قاسم الزجالي الفاسي (1072هـ/1662م) ذكر فيها أساتذته ورحلته الدراسية إلى القاهرة («نشر المثاني»، ج 1، ص. 242).

(4707/1)

– كناشة لمحمد بن محمد بن إدريس العمراوي الفاسي الوزير ترجم فيها لنفسه (نسخة في خس).

– كناشة ابن عبد السلام، فهرسة فيها مجموعة إجازات ابن ناصر محمد المدني بن محمد بن عبد السلام الدرعي وقف عليها الكتاني («ف.ف»، ج 2، ص. 221).

– كناشة محمد المكي بن محمد بن علي البيطاوري (1355هـ/1936م) (خم 2857).

– كناشة محمد بن محمد بن علي الدكالي السلاوي مصورة على الشريط (خع 36).

– كناشة لمحمد بن محمد بن محمد بن العناية بن فقيرة (توفي بعد 1320هـ/1902م) (خع 3736د).

(4708/1)

– كناشة محمد بن محمد بن يحيى الطنجي (خم 2847) فيها إفادات وأشعار.

– كناشة محمد الصالح بن محمد المعطي الشرقي (خم 3425) فيها بعض إجازات.

– كناشة لمحمد بن ا لمعطي السرغيني (1296هـ/1878م) (خع 491ك).

– كناشتان لمحمد الطيب بن اليماني بوعشرين وزير محمد الرابع تتضمن إحداهما 114 ص حول البريد المغربي من عام 1276هـ إلى 1281هـ والذعيرة الإسبانية وأسماء قواد عصره.

– كناشة محمد السعيدي المنوني (1334هـ/1916م) (خع 2803ك).

– كناشة لمحمد الفاطمي الشرادي (1344هـ/1925م) (خع 1555ك).

(4709/1)

الفهرسة وعلم المخطوطات

الدكتور أحمد شوقي بنين

الخزانة الحسنية – الرباط

على الرغم من المحاولات العديدة التي عملت على تقنين

قواعد فهرسة المخطوطات ورسم مناهجها، فإن الصورة النهائية لهذه العملية لم تتحدد حتى الآن في أذهان الممارسين لها في جميع الجهات. ولم تكن المشكلة وليدة اليوم، بل هي قديمة قدم الفهرسة ذاتها. وإذا استعرض الباحث في هذا المجال الفهارس التي عملت على توصيف المخطوطات بدءا بما بقي من شذرات فهرس الشاعر اليوناني كاليماخوس ()(1Callimacus)

---

(1) كاليماخوس: شاعر يوناني في القرن الثالث قبل الميلاد عينه البطالسة على رأس خزانة الإسكندرية. وقد وضع لها فهرسا مفصلا بعنوان "قوائم جميع المؤلفات الهامة في الثقافة اليونانية وأسماء مؤلفيها". يعتقد الأخصائيون أنه أول فهرس منهجي (Pinakes) وضع في التاريخ باعتبار الطريقة العلمية التي لجأ إليها كاليماخوس في تقسيمه للمعرفة تقسيما علميا، وتتصنيف الكتب حسب هذا التقسيم. واعتبره البعض نوعا من الفهارس الموحدة وضعه كاليماخوس لجميع خزائن الإسكندرية. والحقيقة أن هذا الفهرس يمكن اعتباره تاريخا للأدب اليوناني باعتبار التعاليق التي خصه بها أريستوفانيس البيزنطي أحد أمناء مكتبة الإسكندرية بعد كاليماخوس. وقد احتفظ

بشذرات من هذا الفهرس بخزائن المتحف البريطاني بلندن.

(4710/1)

لمخطوطات مكتبة الإسكندرية مرورا بما وضعه الغربيون من فهارس لمخطوطاتهم(1)

---

(1) قد تجدر الإشارة إلى أن أول من اهتم بفهرسة الأرصدة العربية المحفوظة في الخزانات الأوربية هم العرب المشارقة. كان بطرس دياب الحلبي وباروت السوري ويوسف العسكري أول من فهرس مخطوطات المكتبة الوطنية الفرنسية بباريز. كما كانت أسرة السماعنة المارونة مثل يوسف شمعون السمعاني وشقيقه عواد أول من تصدى لفهرسة التراث العربي في مكتبات إيطاليا. وكذلك كان الأمر في إسبانيا: فإن ميخائيل الغزيري اللبناني كان قد وضع أول فهرسة للمخطوطات العربية بخزانة الإسكوريال.

(4711/1)

إلى الفهارس الحديثة التي وضعت للتراث العربي المخطوط، فإنه يلاحظ خلوها من أية أسس موحدة، وبالتالي فإنها تختلف اختلافا بينا في المنهج المتبع في
أساليب وصف المخطوطات. لم يقتصر الأمر إذن على التراث العربي، بل يشمل المخطوطات في جميع اللغات وفي مختلف العصور والأزمان.
فهل يرجع السبب في ذلك إلى عدم تحديد الفهرسة تحديدا علميا من شأنه أن يوحد هذه العملية في جميع الجهات وفي مختلف اللغات؟ تكاد كل التحديدات تتفق على أن الفهرسة تهدف إلى الضبط الببليوغرافي للمخطوطات وتوثيق وجودها والتعريف بها للمهتمين من

(4712/1)

القراء والباحثين. ولكن ما حدود هذا التعريف؟ وما مواصفاته؟ وما البيانات المختلفة والضرورية التي يجب أن نقف عندها ولا نتجاوزها في توصيفنا للمخطوطة؟ وما الطرق الكيفية التي يمكن المفهرسَ أن يعالج بها مخطوطته في عملية الفهرسة؟ أعتقد أن هذا لا يمكن أن يتم إلا إذا حاولنا أن نحدد الفهرسة تحديدا كوديكولوجيا، أي أن نبرز الحدود التي تفصل بين

خصائص الفهرسة ومهام علم المخطوطات.

اختلف علماء الغرب في تحديد الفهرسة بالنسبة لعلم المخطوطات أو الكوديكولوجيا. فمنهم من جعلها عنصرا من عناصر هذا العلم(1)

---

(1) Alphonse Dain, Les Manuscrits.

(4713/1)

، ومنهم من اعتبرها فنا قائمة بذاته يتداخل ويتكامل مع علم المخطوطات. والحقيقة أن كثيرا من العناصر اللازمة لتوصيف المخطوط قد يشترك في الاهتمام بها كل من الكوديكولوجي والمفهرس يعمل كلاهما على التعريف بالمخطوط أو دراسته باعتباره قطعة مادية(1). ومن بين هذه العناصر قضية مصدر

---

(1) طريقة الكوديكولوجي تشبه طريقة العالم الأثري الذي يحاول إعادة بناء القطعة الأثرية المكتشفة. لهذا اقترح بعض علماء الفيلولوجيا في ... فرنسا وفي بلجيكا عبارة "أثرية المخطوط"(L'Archéologie du manuscrit) للتعبير عن علم المخطوطات.

(4714/1)

المخطوط التي يتكلف المفهرس بالبحث فيها كأن يقول مثلا: "جاء هذا الكتاب من خزانة كذا أو كان محفوظا في مسجد أو زاوية معينة" "جاء به وجيه من مجموعة وجيه آخر" على غرار ما نجد في مختلف الفهارس(1). فهذه ليست مهمة المفهرس بقدر ما هي مهمة الكوديكولوجي الذي يدخل في اختصاصه البحث عن مصادر المخطوط ورحلاته بين الخزائن والمكتبات عبر العصور، وذلك

---

(1) ينظر "فهرس" المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة الوطنية بباريز؟

(4715/1)

ليدرس مجالات أخرى كتاريخ الخزانات وتاريخ المخطوطات. وهي كما نعلم من أخص عناصر علم المخطوطات الحديث.

وقد أوصى رمضان شش التركي في أحد أبحاثه بإعطاء لمحة عن تاريخ المكتبات التي مر منها المخطوط أثناء فهرسته، وهو – كما نلاحظ – تجاوز صريح المجال الكوديكولوجي من طرف المفهرس(1)

---

(1) من الأمثلة على تتبع مصادر المخطوطات والبحث في رحلاتها وتاريخها تلكم الأعمال التي خص بها العالم المغربي محمد المنوني النسخة التي بقيت من مصاحف عثمان رضي الله عنه، حيث تتبعها منذ أن دخلت المغرب في القرون الإسلامية الأولى وانتقلت في بوت الملوك والسلاطين إلى أن ضاعت في البحر في القرن الثامن الهجري على العهد المريني. وهي – حسب المختصين – آخر نسخة من نسخ القرآن التي نسخها هذا الخليفة الراشدي.

(4716/1)

.

وقد يعمل الرجلان على تأريخ المخطوط غير المؤرخ. فالمفهرس يؤرخه بالتقريب، اعتمادا على الحدس والتخمين والتجربة الشخصية في مجال الفهرسة. ولا ينكر أحد الجهود التي بذلها علماؤنا الأجلاء في هذا المجال(1).غير أنه قد يصيب كما أنه قد يخطئ.

---

(1) التملكات والسماعات والإجازات لها أهمية بالغة لمن يأرخون للمخطوط العربي غير المؤرخ. وهي من الوسائل التي يعتمدها معظم العاملين في مجال الفهرسة. فإنها

تساعد على تحديد تاريخ المخطوط في حالة عدم وجوده، وتكشف عن قيمته ومدى اهتمام الناس به في فترات معينة من التاريخ.

(4717/1)

ولا مجال هنا للتعرض للأخطاء التي وقع فيها كثير من المفهرسين في هذا الميدان. أما عالم المخطوطات، فإنه، بالإضافة إلى كفاءته وتجربته الفردية، يستعمل لتأريخ المخطوط غير المؤرخ مجموعة من الأدوات التقنية والعلمية استعيرت من النظريات الفيزيائية والكيماوية أتاحتها البحوث العلمية الحديثة(1)

---

(1) يعمل الكوديكولوجي في مخبر الإِستفادة من النظريات الفيزيائية والكيماوية كالتحليل الكيميائي للمداد والأوعية والهولوغرافيا (Hologrphie) للمقارنة بين الخطوط والبتارديوغرافيا (Bétardiographie) لمعرفة علامات الكاغد (Filigranes) ، خصوصا إذا كان الكاغد أوربيا؛ لأن الكاغد العربي لا يحمل هذه العلامات. والمعهد الوحيد في العالم الذي تطبق فيه هذه الأشياء هو معهد البحث وتاريخ النصوص (I.R.H.T) التابع للمركز الوطني للبحث

العلمي في باريز. يتكون هذا المعهد من شعب مختلفة، وهي الشعبة الإغريقية والشعبة ==اللاتينية والشعبة العبرية والشعبة العرربية. بالإضافة إلى هذه الأقسام، هناك قسم الكوديكولوجا. ينشر المعهد مجلة "تاريخ النصوص"، وهي الدورية الدولية الوحيدة المتخصصة في تاريخ النصوص. ...

(4718/1)

.

أما إذا كان المخطوط مؤرخا، فالمفهرس يحتفظ بالتاريخ المذكور في الكولوفون (Colophon) أو حرد المتن؛ ولكن عالم المخطوطات يبحثه بحثا كوديكولوجيا ليتأكد من صحته. فقد يدرس الورق ليتحقق من عمر المخطوط، ولم يكن دائما قدم الورق دليلا على قدم المخطوط في الزمن. وقصة ابن البواب الذي أكمل الجزء الثلاثين من قرآن ابن مقلة في ورق شبيه بورق ابن مقلة أكبر دليل على ذلك(1)

---

(1) انظر للمستشرق الدنمركي : يوهنس بدرسن (Johans Pedersen) ، الكتاب العربي، Book The Arabic)) ، الترجمة العربية صيد رغيبة، ص. 113. في

الثلاثينيات عرض في مكتبة القاهرة الكبرى ما يفترض أنه مخطوطة أصلية لابن ملة. وقد تبين فيما بعد أنها كانت من أعمال خطاط حديث.

(4719/1)

. ويعلم المختصون كم هي كثيرة تلكم المخطوطات التي يحتفظ الناسخ في نسخته بتاريخ النسخة المنسوخ منها. وقد يقصد الناسخ إلى ذلك قصدا، وقد يكون منه سهوا. وللتأكد من تاريخ المخطوط أهميتان أساسيتان للفيلولوجيين ولعلماء المخطوطات: أولاهما تعطي المقومات الأساسية لتاريخ النصوص، وهو الأساس لما نسميه نحن العرب بالتحقيق العلمي؛ وثانيتهما تساعد على تقدم الدراسات المتعلقة بالبالوغرافيا أو علم الخطوط القديمة(1)

---

(1) لفظ باليوغرافيا (Paléographie) من وضع العالم والراهب البندكتي (Bénédictin) الفرنسي مونفكون (Montfaucon) (1741م). استعمله لأول مرة في اللغة الفرنسية بهذا الشكل في إحدى رسائله المؤرخة بتاريخ 14 دجنبر 1708. درس هذا الراهب اللغة الإغريقية واللغات الشرقية، وله كتاب في المنهج

بعنوان "علم الخطوط الإغريقية القديمة"

(Paleographia graeca).

ويجب الإشارة إلى أن علم المخطوطات كان يعتبر إلى وقت قريب جزءا من الباليوغرافيا أو علم الخطوط القديمة. وقد كان العلماء الألمان يقولون: "الباليوغرافيا التطبيقية" أو "التاريخية" (Pala(graphie) للتعبير عن علم المخطوطات قبل أن يستعملوا لفظ هاند شغيفتن كونده (Handschriftenkunde) ، واحتفظوا بلفظ "باليوغرافيا" لعلم الخطوط القديمة.

(4720/1)

.

ومن البيانات التي يشترك فيها المفهرس والكوديكولوجي وصف نوع الورق أو الجلد أو الطرس الذي كان المادة التي تم نسخ المخطوط عليها. ويقضي بعض المفهرسين وقتا طويلا في وصف المادة التي هي وعاء المخطوط باحثا عن نوعيتها ومصدرها، كأن يقول إذا كان المخطوط مكتوبا على الورق: وهو ورق عربي، أو أوربي إذا كان يحمل علامة () (1Filigrane)

---

(1) يظهر هذا جليا في بعض الفهارس التي وضعها المستشرقون للمخطوطات العربية المحفوظة في الخزانات الأوربية. فإنهم يصفون العلامة ويحددون معالمها، كأن يقال مثلا: علامة على شكل رأس ثور أو شكل هلال. مثلا، انظر فهرس باريز.

(4721/1)

؛ وإذا كان

مكتوبا على الرق يقول: هو رق غزال أو جلد أو غير ذلك

أما إذا كانت المادة المستعملة للكتابة طرسا(1)

---

(1) الطرس: ج. طروس، وهي رقاق. وقد جاء ذكرها هنا وهناك في النصوص الأدبية. أخبرنا ابن النديم في "الفهرست" بأن سلطات بغداد ... اضطرت إلى استخدام الرقاق المستعملة لسنوات كثيرة ، لأن المكاتب سرقت ونهبت. ولما أصبح الكاغد يصنع في بغداد على عهد ... الرشيد، أمر البرمكي الكتاب ألا يكتبوا الرسائل الرسمية إلا على الورق، لأن الجلود تمحى ويكتب فيها من جديد. (انظر: بدرسن ... (Pedersen)، الكتاب العربي، التترجمة العربية، ص. 81). ويقال كذلك

"طلس" : ج: أطلاس، وهي الصحيفة الممحوة، كما يقال ... له: رق مبشور.

(4722/1)

(Palimpseste)، وهو الجلد الذي يكتب عليه ثم يمحى ويكتب عليه من جديد – وهذه الظاهرة عرفتها النساخة العربية في فترات تاريخية مختلفة –، فإن المفهرس يكتفي بكلمة "رق" أو "جلد" لنعت مادة الكتابة، لأنه لا يملك من الإمكانات العلمية ما يؤهله لتمييزه من الجلد الخام. إن الإسهاب في وصف مادة الكتابة من ورق وجلد وطرس هو من مهام عالم المخطوطات الذي يبحث فيها لتحقيق غايات أخرى يهدف إليها من خلال دراسته للمخطوط دراسة كوديكولوجية.

(4723/1)

فالبحث في نوع الورق(1) وفي مصدره وفي أماكن صنعه يهدف منه عالم المخطوطات إلى إبراز مظاهر التطور التي عرفتها هذه المادة عبر التاريخ منذ أن كان مادة عربية تصدر إلى أوربا حتى صار مادة أوربية تصدر إلى البلاد

العربية والإسلامية(2)

---

(1) في بعض النصوص القديمة كلمة "ورق" لا تعني الكاغد (وهي كلمة صينية) بمعناه الحديث (Papier)، بل يقصد بها أحيانا ورق البردي ... المصري (Papyrus). لهذا وجب الاحتياط وإمعان النظر عند قراءة النصوص القديمة المتعلقة بالورقق.

(2) كان الكاغد العربي يصدر إلى أوربا قبل أن تنشأ فيها مصانع لصنعه. وأكبر دليل على ذلك احتفاظ اللغات الأوربية بكلمة "رزمة" ... العربية التي هي خمسة كفوف؛ والكف يضم خمسا وعشرين صحيفة. يقال في اللغتين الإيطالية والإسبانية Resma و"رامّ (Rame) ... في الفرنسية و "رايز" (في الأصل رز) في الألمانية، و"ريز" في الدنماركية، و"ريم" طبعا في الإنجليزية. (انظر : بدرسن، الكتاب العربي، ... الترجمة العربية، ص. 92). وأصبح الكاغد الأوربي يستورد إلى الدول العربية بدءا من القرن الثالث عشر الميلادي، خاصة من مدينة ... البندقية الإيطالية التي كانت مشهورة بمصانع الورق. وكان الورق المصنوع فيها يحمل علامة (Filigrane) غالبا ما تكون رمزا من ... رموز المسيحية. ولكن الورق الذي يصدر للبلاد الإسلامية يحمل علامة ترمز إلى رمز من رموز الإسلام كالهلال وغيره. أما الطروس ... أو الطلوس،

فهي ظاهرة قد عرفت في الغرب الإسلامي. عندما فتح العرب الأندلس وصقلية، محوا الكتب اللاتينية واليونانية بعد ... ترجمتها وكتبوا عليها ثانية. ولما خرد العرب من الأندلس، محا الإفرنج كتب العرب وكتبوا عليها مع أنهم في غنى عن ذلك لوجود ==الكاغد الذي نشره العرب في أوربا،. وفي القرن الماضي، استخرج الأوربيون بوسائل كيماوية النصوص الغربية القديمة من الطروس ... العربية وبقيت الطلوس الإفرنجية محتفظة بسر الكتب العربية المطلوسة.

(4724/1)

. ويهدف من البحث في نوع الجلد الذي يمكن أن يكون خاما أو مدبوغا أو مصنعا أو ورقا (Parcheminn) أو طرسا (Palimpseste)

إلى رصد التطور الذي عرفته كذلك هذه الأداة من جهة، ثم إلى التنافس الذي عرفته المادتان معا – الورق والجلد(1)

---

(1) هناك نماذج من المخطوطات كتبت على الجلد والورق معا. إن هذا التركيب المزدوجج يمثل التزامن الذي عرفته المادتان معا باعتبارهما وعاء للكتابة العربية،

كما يرمز إلى الانتقال التدريجي من الجلد إلى الورق.والمثال على ذلك: المعجم اللاتيني – العربي المحفوظ بخزانة جامعة ليدن بهولندة تحت رقم 231 OR. صفحات الوقاية من الرق وباقي صفحات المخطوط من الورق.

(4725/1)

– باعتبارهما أداتين أساسيتين للكتابة العربية من جهة أخرى.

وقد دأبت بعض فهارس المستشرقين على الإسهاب في وصف مادة الكتابة وصفا يكاد يخترق به مجال عالم المخطوطات. وقد يلاحظ هذا بالخصوص في توصيف الجلد الذي كان أداة للتجليد أو التسفير.

إن بعض الفهارس وكذلك بعض البطاقات التي اقترحها مكتبيُّن وعلماء لفهرسة المخطوط العربي تلح على الإشارة إلى مكان نسخ المخطوط مع ذكر اسم الناسخ إن ذكرا في حرد المتن أو الكولوفون. وذكر الناسخ أساسي في التعريف بالمخطوط وقد تحدد قيمة الكتاب بحسب ناسخه. فالمخطوطة نسخة أصلية

(4726/1)

إذا كانت بخط مؤلفها، وهي مهمة إذا كانت بخط أحد العلماء المشهورين أو الخطاطين المعروفين. وإذا كان من مهام المفهرس الاكتفاء بذكر اسم الناسخ، فإن مهمة عالم المخطوطات استغلال وجود هذا الاسم لتحديد نوع النسخة – أصلية كانت أو عادية –، ولإبراز رسم الخط(1)

(1) يحاول بعض المفهرسين التمييز بين المداد والحبر الذي نسخ به المخطوط، وهو كذلك تطاول على مهمة الكوديكولوجي الذي يحلل المداد أو الحبر في المختبر محاطا بالآلت والتجهيزات اللازمة لهذا التحليل بهدف الوصول إلى المواد التي تتركب منها هذه المادة وليتوصل إلى الأسباب التي دعت إلى انطماس المداد أو إلى بقائه.

(4727/1)

. كما يساعد البحث في هذا الموضوع على دراسة مسألة النساخة والنساخ بوجه عام في التراث العربي، وهي قضية من قضايا علم المخطوطات التي لم تحظ بعناية الباحثين حتى اليوم. وكم هي كثيرة المشاكل التي

شوهت تشويها كبيرا نصوص

هذا التراث بسبب أيدي الناسخ الذي يجب تخصيصهم

بكشافات(1)

---

(1) هذا النوع من الكشافات قد يؤدي خدمة جليلة للمهتمين بالتوثيق والتحقيق العلمي. كما يجب علينا في عالمنا العربي أن نضع مونغرافيات للنساخ المشهورين مثل ابن مقلة وابن البواب والمستعصمي وسواهم من ألوف النساخ الذين عرفتهم البلدان الإسلامية في مختلف العصور.

(4728/1)

وأدلة ومونوغرافيات تساعد على القيام بالبحث في حيواتهم وسلوكهم ثم إخضاعهم لعملية الجرح والتعديل التي خضع لها رواة الحديث وخضع لها حتى الرواة من علماء اللغة والأدب. وقد يسفر مثل هذا البحث عن نتائج إيجابية تستفيد منها الكثير نصوص التراث العربي.

أما مكان نسخ المخطوط الذي نجده في كثير من الفهارس، فهو ليس مهما للمفهرس بقدر ما هو أساسي للباحث في علم المخطوطات. إن الإشارة إلى مراكز النسخ

في خواتم المخطوطات قد تؤدي خدمة كبرى للكوديكولوجي: إذ تساعده على استجلاء الكثير من الغوامض والإجابة عن كثير من

(4729/1)

الأسئلة العلمية والتقنية المتعلقة بالمخطوط والتي لا تزال حتى اليوم تحير الباحثين في هذا المجال. وأقتصر هنا على قضية الكراس أو الكراسة في التراث العربي المخطوط يبدو – حسب الكثير من المخطوطات – أن الكراسة لا تعدو عشر ورقات، وتكون الإشارة إليها بحرف الكاف وقد تكون الإشارة بالكلمة بكاملها(1). وقد أكد البحث في هذا المجال أن الكراسة(2)

---

(1) وقد يكون الترقيم بالكراريس بالأرقام الهندية، وقد يكون كتابة كأن يقول: سابع، ثامن أو سابعة، ثامنة مع الضمير الذي يعود على الكراسة.

(2) لم يوجد حتى الآن تعريف نهائي متفق عليه لكلمة كراسة التي استعملت في العربية منذ بداية حركة التأليف ةوالتي اعتبرها بعض القدماء كتابا، واعتبرها البعض الآخر كتيبا. وقد تجدر الإشارة إلى أن كثيرا من مخطوطاتها العربية المحفوظة في الخزانات الأوربية

كخزانة برلين ... بألمانيا قد أدى ترميمها إلى قص الأوراق، مما أدى في غالب الأحيان إلى تقزيم أو فقدان "كاف" الكراسة أو الكلمة نفسها، لأنها لم ... تعد مهمة بعدما عوضت بنوع آخر من الترقيم.

(4730/1)

قد تكون إحدى عشر ورقة، وقد تكون ثمانية(1) ، وقد تكون غير ذلك(2)

---

(1) سحر البلاغة وسر البراعة، للثعالبي المحفوظ بمكتبة توبنجن(Tubingen) بألمانيا بخط مغربي نسخ عام 582هـ كراسته ثمان ورقات. وهو مرقم ترقيما هنديا.

(2) عثرت في أبحاثي الكوديكولوجية في ألمانيا عن مجموعة من المخطوطات القديمة المرقمة حسب الكراريس، أن الكراسة لا تتجاوز فيها ثمان ورقات كما كان عددها إحدى عشرة ورقة في مخطوطات أخرى. وقد أشار بدرسن (في كتابه: الكتاب العربي، ص. 92 من الترجمة العربية) إلى أن الكراسة ثمان صفائح مطوية .وقد اعتبر أحد المحدثين وهو حسن حسني عبد الوهاب الكراسة عبارة عن كتيب حين ... قال في شأن كتاب

"المختار من شعر شعراء الأندلس" لابن الصيروفي 542هـ:

"يظهر أن أصل هذا الكتاب يخرج في ستة كراريس، أي نحو مائتي صحيفة. والصحيفة هي الورقة" (انظر مقدمة الكتاب بقلم محققه هلال ناجي، ص. 11).

(4731/1)

.

فهل يعني هذا أن عدد أوراق الكراسة يختلف باختلاف مراكز التنسيخ أو أن هذا الاختلاف يرجع في أصله إلى أسباب أخرى مجهولة لن يكشف عنها إلا البحث الكوديكولوجي للمجموعات الخطية المحفوظة في مختلف الخزانات الدولية، بدءا بوضع قوائم خاصة بالمخطوطات التي حظيت بذكر مركز النسخ ثم ترتيبها زمانيا ومكانيا؟

ومن البيانات التي تدخل في حقل الوصف المادي للمخطوط بيان نوع الخط الذي كتبت به النسخة المفهرسة.

يكتفي المفهرس بأن الخط شرقي أو مغربي من دون أن يحدد نوعيته الشرقية أو المغربية(1)

---

(1) الخط الشرقي أنواع والخط المغربي كذلك أنواع: منه الأندلسي والتونسي والفاسي والبدوي وما إلى ذلك

. وقد توحي المخطوطة المفهرسة بأنها كتبت بخطوط مختلفة، فيشير المفهرس في بيانه إلى هذا الاختلاف من دون بذل أي محاولة لمعرفة سبب ذلك، مكتفيا بقوله إنها نسخت بأقلام مختلفة. إن عالم المخطوطات يستطيع أن يثبت أنه ليس من الضرورة أن تكون المخطوطة قد نسخها نساخ مختلفون، بل هي من خط ناسخ واحد نسخها في حالات نفسية مختلفة أو في فترات زمنية متباعدة تغير معها خطه. وقد يستخلص هذا من دراسة مخطوطية معمقة لكل أثر من آثار المؤلف. ولن يتأتى هذا البحث المفهرس العاجل المحاط بآلاف النسخ التي تنتظر التعريف والفهرسة(1)

---

(1) أثبت علماء المخطوطات أن النساخ يملكون أكثر من خط واحد بدليل أنهم يكتبون الشروح والهوامش بخط مغاير لخط النص، وأنهم يميلون في بعض الأحيان إلى تقليد خط النسخة التي ينقلون منها أو ليكون خطهم قريبا من خط النسخة الأم. وقد ثبت في التراث الأوربي المخطوط أن كثيرا من النصوص الدينية المقدسة المنسوخة في القرن 12 و 13م تذكرنا من حيث الخط بمخطوطات القرن العاشر الميلادي (انظر ألفونش دان

(Dain) ، كتاب المخطوطات، ص. 31 (بالفرنسية). ومما يبرز مهارة النساخ هو قدرتهم على تعويض ورقة أو جزء من أجزاء مخطوط ضاع مع الزمن بخط الأوراق أو الأجزاء الأخرى نفسه، ولا أدل على ذلك من قصة ابن البواب الذي كلفه بها الدولة حينما كان على رأس خزانته بشيراز بكتابة الجزء الذي ضاع من القرآنالذي نسخه ابن مقلة في ثلاثين جزءا، فكتبه وقدمه للأمير مع باقي الأجزاء، ففحصها بدقة دون أن يكتشف النسخة المكتوبة حديثا، فاحتفظ بها جميعا على أنها من أعمال ابن مقلة (انظر: ياقوت الحموري، معجم الأدباء؛ وبدرسن، الكتاب العربي، ص. 113 من الترجمة العربية).

(4733/1)

وعلى الرغم من هذه الأكداس من المخطوطات، فإن هذا المفهرس العابر قد يتوسع أحيانا في التفصيل؛ فيحاول المقارنة أو المقابلة بين نسخ المخطوط المفهرس. يكتفي تارة بمقارنة الكتاب بما هو محفوظ من نسخ أخرى بالخزانة المفهرسة ويتجاوزها تارة أخرى إلى مقابلة نسخته بما تيسر له ووقف عليه من نسخ المخطوط المحفوظة في مكتبات أخرى(1)، مستعينا في عمله هذا بالأدوات الببليوغرافية من كتب تراجم

وأثبات

---

(1) بعضهم – وهم كثير – يشير إلى طبعات الكتاب إذا كان قد طبع، معتبرا الطبعة نسخة أخرى يستأنس بها في المقابلة أو المقارنة.

(4734/1)

وقوائم وفهارس مثل كتاب "تاريخ الأدب العربي" لبروكلمان(1)

---

(1) كثير من الفهارس تشير إلى وجود الكتاب أو عدم وجوده في كتاب بروكلمان (Gal) . ولم تعد الإشارة إلى هذا الكتاب ضرورية، ما دامت الكتب التي يحصيها لا تتجاوز العشرين ألف كتاب في حين يقدر تراثنا المخطوط بالملايين. من المستحب أن يستشار الكتاب لا من طرف المفهرس، بل من طرف عالم النصوص الذي يكون بحاجة إلى النسخ المتعددة للمخطوط الواحد. وقد أصبح الكتاب اليوم متجاوزا بحيث ترجع آخر طبعاته إلى بداية الأرعينيات وقد صدرت منذ ذلك الوقت مئات الفهارس فهرست فيها آلاف المخطوطات العربية المكتشفة.

(4735/1)

(Brokelman) . وقد تدعو البيانات التوثيقية المفهرس إلى ما يسمى بالبيانات التلخيصية يعرف خلالها بموضوع الكتاب وأفكاره وأبوابه وفصوله، فيتجاوز الملخص أحيانا مرحلة التحليل الموجز للكتاب إلى مرحلة النقد وإبداء الرأي، فيصبح الفهرس ببليوغرافيا نقدية. بل ربما تجاوز المفهرس كل هذه المراحل ليقوم بتاريخ للنص المفهرس، مقتحما بذلك – دون أن يشعر – فضاء المختص في تاريخ النصوص أو مجال الكوديكولوجي الذي يعمل على البحث على مختلف نسخ المخطوط للمقارنة بينها، ولدراستها دراسة مخطوطية علمية يستفيد من نتائجها من

(4736/1)

تسميه بالمحقق.

رأينا – في ما سبق – بعض العناصر التي تعتبر – في رأي العلماء – أساسية في عملية ما اصطلح عليه بالفهرسة، وأبرزنا العلاقة التي تربط بين المفهرس والكوديكولوجي في معالجة كل منهما لهذه العناصر.

فهل نكتفي في فهرسة المخطوط بهذا الوصف المادي السريع الذي لا يشفي غليل الباحث المدقق أو نرفع المخطوط للمختبر الذي كثيرا ما كانت نتائجه ونتائج الفهرسة العادية على طرفي نقيض.

إذن هل هناك طريقة علمية وخطة عملية يهتدي بها المفهرس في إطار علاقة الفهرسة بفضاء علم المخطوطات إلى النزوع إلى المعالجة

(4737/1)

الكيفية لعناصر الفهرسة وتعميق البحث فيها؟ إن علم المخطوطات لا يقبل البيانات السطحية اليسيرة المكدسة في فهارس المخطوطات موجزة كانت أو مفصلة؛ إنه لا يستسيغ الأحكام المبنية على الحدس والتخمين في حين يمكن إثباتها بوسائل علمية حديثة. إن التداخل بين العلمين والتكامل لازب بينهما يدعوان إلى القيام بعمل مشترك قمين بالكتاب المخطوط، وذلك في معهد علمي على غرار معهد البحث وتاريخ النصوص الذي استحدث في باريز منذ الثلاثين من هذا القرن. هناك يمكن علمَ المخطوطات أن يتعامل مع الفهرسة التقليدية تعامل القاضي مع

(4738/1)

المحجور عليه حتى يتبين رشده(1). ورشد الفهرسة هو أن يؤكدها علم المخطوطات في بياناتها التاريخية والانتساخية والمادية وما إلى ذلك من معلومات قمينة بتمييز مخطوطة عن أخرى. وإذا ما تم هذا في إطار المعهد المقترح استحداثه وبآلات ووسائل علمية حديثة، انعدم السؤال الخالد المتعلق بقضية الاختصار والتفصيل؛ ولم تعد تطرح هذه المسألة في الفهرسة، بقدر ما تطرح الطرق الكيفية التي يعالج بها كل من المفهرس والكوديكولوجي مخطوطة

---

(1) مدخل إلى الكوديكولوجيا، الترجمة العربية، "المقدمة"، ص. 79، مرقون بكلية الآداب بالرباط

(4739/1)

معينة.

(4740/1)

الفوائد التاريخية لتصنيف النباتات بفاس من خلال كتاب "حديقة الأزهار" لأبي القاسم الغساني (ق 10 هـ/ 16 م)

الأستاذ عبد الأحد الرايس
... كلية الآداب ـ وجدة

... سبق لعدة باحثين مهتمين بتاريخ المدينة المغربية أن أثاروا الانتباه إلى الصعوبات الجمة التي تعترض الباحث وهو يسعى إلى تكوين صورة متكاملة وشاملة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والحضارية للمدينة المغربية، وكيف أن ما تقدمه المصادر التاريخية التقليدية من معلومات لا تسمح بتاتاً بتقديم إجابات شافية للتساؤلات والإشكالات التي تطرحها المناهج

(4741/1)

والنظريات التاريخية الحديثة. وهي تساؤلات وإشكالات تهدف إلى الكشف عن واقع البناء الاجتماعي وضعية الفئات الدنيا في المجتمع الحضري، وتهدف أيضاً إلى دراسة البنى الاقتصادية والتخطيط العمراني للمدينة

المغربية وتطوره عبر الحقب التاريخية المختلفة، إلى جانب البحث في النظم الحضارية والعادات والتقاليد، وإلى غير ذلك من القضايا التي تتناولها المناهج التاريخية الحديثة(1)

---

(1) حول تطور مناهج البحث التاريخي في المغرب وطبيعة المشاكل التي تعترض الباحثين في هذا الميدان، انظر: أعمال ندوة البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقويم، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1989؛ وانظر أيضاً: أعمال ندوة المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب ـ ابن مسيك، الدار البيضاء، 1990.

(4742/1)

.

... وتبعاً لطبيعة الانشغالات الجديدة التي أصبحت تؤرق الباحثين في تاريخ المدينة المغربية، اتجه اهتمام عدد من الباحثين المعاصرين إلى استغلال مصادر متنوعة ككتب النوازل والجغرافيا والرحلات والمناقب والحسبة والوثائق والعقود والحوالات الحبسية، وعدم الاكتفاء بكتب التاريخ التقليدي ذات الطابع السياسي

والحدثي، وذلك أملاً في تحقيق الأهداف المرجوة(1)

---

(1) إبراهيم القادري بوتشيش، »دور المصادر "الدفينة" في كشف الجوانب الحضارية المنسية للمدينة المغربية. دراسة تطبيقية حول مدينة مراكش من التأسيس حتى أواخر عصر الموحدين«، ضمن كتاب: تاريخ الغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، 1994، صص. 123 ـ 124؛ انظر أيضاً: محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، منشوارات كلية الآداب، الرباط، 1983، ج 1، صص. 8 ـ 9. يصنف المرحوم العلامة المنوني المصادر إلى نوعين: أولى موضوعية هي المؤلفات في تاريخ الدول والبلدان المغربية، وفي تراجم النابهين من سكانها . . . ومصادر أخرى دفينة ككتب الجغرافيا والرحلات والموسوعات القديمة، ومدونات النوازل، وكتب البدع والمناقب والأنساب وغيرها.

(4743/1)

.

... والواقع أن حصيلة البحث التاريخي في موضوع المدينة المغربية تبقى بعيدة إلى اليوم من الوفاء بطموحات

الباحثين، لأن المقتحم لهذا الميدان لا تتوفر له، بالرغم من كل الجهود التي يبذلها في استغلال كافة المصادر، المادة الكافية للإحاطة بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والحضارية لمدينة بعينها وفي فترة محددة، فكيف بفترات تاريخية مختلفة. إن الباحث في تاريخ المدن الكبرى التي كانت في فترات سابقة مراكز الثقل السياسي والثقافي والحضاري كمدينة فاس ومراكش، تعترضه هو أيضاً صعوبات على الرغم من أن تلك المدن كانت

(4744/1)

موضع اهتمام المؤرخين القدماء الرسميين، ونقطة لقاء العلماء والرحالة والأدباء من شتى الأصقاع. ومن هنا، فإن من يبحث في تاريخ مدن من الدرجة الثانية أو الثالثة تعترضه صعوبات أكبر(1). وبالرغم من هذه المثبطات، يبقى الأمل يحدو الباحثين في الكشف عن مصادر مغمورة، وتحقيق المزيد من المخطوطات التي ما زالت حبيسة بعض المكتبات العامة أو الخاصة، وكذا النهوض بالبحث

---

(1) إبراهيم القادري بوتشيش، إسهامات في التاريخ

الاقتصادي .الاجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط، منشورات عمادة جامعة مولاي إسماعيل، 1997، ص. 16.

(4745/1)

الأركيولوجي للحواضر المغربية القائمة والمندثرة.

... إن المهتم بتاريخ المدينة المغربية وهو في غمرة البحث والتنقيب وتصفح الكتب المخطوطة والمنشورة لعله يظفر ببعض المعلومات التي يمكن أن تساعده في فك بعض الألغاز أو سد بعض الثغرات يصاب في كثير من الأحيان بخيبة أمل، ولكن في أحيان أخرى تقع له مفاجآت سارة من خلال تصفح كتب يمكن أن تكون متداولة ولكن غلب على أصحابها الاهتمام بقضايا نظرية جافة فارغة من أي إشارات ملموسة للواقع التاريخي. هذه كانت نظرتنا الأولى للكتاب الذي نحن بصدد التعريف بقيمته التاريخية في

(4746/1)

هذا البحث حول جانب من تاريخ مدينة فاس في القرن 10 ـ 11 هـ/ 16 ـ 17 م، وهو كتاب "حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار" لأبي القاسم بن محمد بن إبراهيم الغساني الشهير بالوزير(1).

صاحب الكتاب

... ولد أبو القاسم بن محمد الأندلسي الغساني الشهير بالوزير عام 955 هـ/ 1548 م بفاس ونشأ وتلقى العلم بها، وأخذ علم الطب والعلم بالأعشاب من أبيه، وأخذ علوماً أخرى عن شيوخ آخرين ذكرهم المقري في كتابه "روضة الآس"(2)

---

(1) الكتاب صدر بتحقيق محمد العربي الخطابي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985.

(2) أبو العباس أحمد المقري، روضة الآس العاطرة الأنفاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، مطبوعات القصر الملكي، الرباط، 1964، ص. 222، حيث أخبره بذلك صاحب الترجمة نفسه؛ انظر أيضاً مقدمة تحقيق كتاب حديقة الأزهار، ص. ب، ج.

(4747/1)

.

... لا تقدم المصادر أخباراً دقيقة حول تاريخ استقرار أسرة الغساني الأندلسية بفاس ولا معلومات عن والد المؤلف. إنما يفهم من كلام الابن نفسه أن والده كان مولعاً بالتجوال في نواحي فاس بحثاً عن الأعشاب الطبية والكشف عن مواقعها، حيث يستند إليه الغساني في تحديد مواقع عدة نباتات. والظاهر أن أسرة الغساني من غرناطة نزحت إلى فاس بعد سقوطها في يد المسيحيين سنة 898 هـ/ 1492 م(1).

---

(1) حديقة الأزهار، مقدمة التحقيق، ص. ج.

(4748/1)

... كما أنه لا تتوفر معلومات وافية حول سيرة أبي قاسم الغساني. فالمقري الذي كان له على ما يبدو اتصال وثيق بالمؤلف في فترة من الفترات، اكتفى في ترجمته له بالثناء على أصله ونسبه، مؤكداً سمو أخلاقه وكرم خصاله. ويذكر أنه »تفرد ـ حفظه الله ـ بعلم الطب بالحضرتين ـ يقصد فاس ومراكش ـ وشارك في سائر العلوم« (1).

... والظاهر أن الخبرة الكبيرة التي اكتسبها الغساني

في مجال الطب والتداوي بالأعشاب هي التي جعلته من بين الأطباء المقربين إلى السلطان السعدي أبي العباس أحمد المنصور الذهبي

---

(1) روضة الآس، ص. 217.

(4749/1)

(986 ـ 1012 هـ/ 1578 ـ 1604 م) (1)

---

(1) تمثل فترة حكم هذا السلطان أوج الدولة السعدية، حيث شهد المغرب الأقصى قدراً من الاستقرار والازدهار العمراني والاقتصادي، خصوصاً بعد الحملة على بلاد السودان (999 هـ/ 1591 م) والتي سمحت بمضاعفة موارد الدولة من الذهب، وتم وضع حد للخطر الإسباني والبرتغالي الذي كان يهدد سواحل المغرب، وذلك بعد انتصار معركة وادي المخازن التي بويع على أثرها هذا السلطان بالخلافة. حول شخصية وعهد السلطان أحمد المنصور الذهبي، انظر: محمد حجي، «أحمد المنصور الذهبي»، معلمة المغرب ، مطابع سلا، 1989، ج 1، صص. 173 ـ 175.

(4750/1)

. فالغساني في خطبة كتابه يصرح بأنه صنفه بقصد إرضاء السلطان السعدي: »فإن وقع من المولى ـ أيده الله ـ موقع القبول، فهو الغاية والمأمول« (1).

---

(1) حديقة الأزهار، ص. 6. يذكر الغساني في خاتمة كتابه أنه ألفه »برسم خزانة السلطان المظفر المعان مولانا أمير المؤمنين أبي العباس المنصور«، المصدر نفسه، ص. 351. المشهور أن هذا السلطان كانت له بمراكش »أعظم مكتبة علمية في ذلك العصر الزاهر حوت نفائس مؤلفات القدماء والمحدثين...«، حيث كان العلماء يتنافسون لمدها بمصنفاتهم. (محمد حجي، مرجع سابق، ص. 174).

(4751/1)

... ويتضح من خلال بعض المصادر أن الغساني كان شاعراً مبرزاً، قام بنظم عدة قصائد وموشحات في مدح السلطان السعدي في مناسبات مختلفة، إحداها كانت بمناسبة تدشين سد »بوطوبة« في فاس سنة 1009 هـ/ 1600 م(1)

---

(1) روضة الآس، صص. 219 ـ 221. يذكر محمد بن الطيب القادري أن الغساني كان من »أطباء السلطان أحمد المنصور (...) وإحدى خاصته«. (نشر المثاني، تحقيق محمد حجي، مكتبة الطالب، الرباط، 1982، ج 2، ص. 404). والظاهر أن هذا النص هو الذي حمل إبراهيم حركات على القول إن الغساني شغل »منصب الطبيب الرئيسي في الإدارة المركزية بمراكش، كما عين وزيراً« (السياسة والمجتمع في العصر السعدي، دار الرشاد الحديثة، الدارالبيضاء، 1987، ص. 442).

(4752/1)

.

... وهناك قرائن تدل على أنه قام أيضاً بدور المترجم في البلاط السعدي، وذلك في فترة شهدت ازدهاراً في العلاقات المغربية الأوربية وكثرت السفارات التي تفد على هذا البلاط فالمصادر تنسب لصاحبنا كتاباً عنوانه "مغني الطبيب عن كتب أعداء الحبيب" هو »عبارة عن ترجمة عربية موسعة لكتاب طبي محرر بالإسبانية أو البرتغالية أهداه بعض الأوروبيين إلى أحمد المنصور الذهبي، وقد أضاف المترجم إلى الأصل مقدمة وفصولاً من إنشائه«(1)

---

(1) محمد رزوق، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991، ص. 283، حيث يعقد الباحث فصلاً للحديث عن إسهامات المهاجرين الأندلسيين في الميدان العلمي في تلك الفترة.

(4753/1)

.

... وقد شهد أحمد بن القاضي لصاحبنا بالمشاركة في فنون من العلم وقال عنه: »إنه اختص من بين الأطباء بسلامة الاعتقاد« (1). وهذه شهادة لها وزنها في ذلك الزمان للريبة التي كانت تطبع نظرة الفقهاء وفئات من المجتمع لطبقة الأطباء، لما كان يغلب على عدد منهم من اهتمام بكتب الفلاسفة القدماء وتأثر بمذاهب الفلاسفة الإغريق.

---

(1) أحمد بن القاضي المكناسي، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، ج 3، ص. 289.

(4754/1)

... يعود الفضل للعلامة محمد المنوني في الكشف عن تاريخ وفاة الغساني من خلال بعض المصادر الدفينة:

... أشهر طبيب مغربي في مطلع العصر الحديث، وهو أبو القاسم الوزير الغساني، حيث لم تحدد المصادر الموضوعية تاريخ وفاته، وإنما ورد تعيينها .في عام 1019 .بكتاب فقهي، وهو شرح محمد ميارة الفاسي على الأرجوزة التي تحمل اسم "تحفة الحكام" لابن عاصم، ج 1، ص. 275 من الطبعة المصرية (1).

---

(1) محمد المنوني، مرجع سابق، ج 1، ص. 10.

(4755/1)

... والحقيقة أن الجانب الذي يهمنا أكثر في حياة وسيرة أبي القاسم الغساني هو أنه كان من أهل فاس، حيث ولد بها ونشأ بها. وهذا من دون شك يعطي وزناً كبيراً للمعلومات التي وردت حول مدينة فاس في كتابه الذي هو موضوع الدراسة. فبالرغم من أن أسرة الغساني لم يمر على استقرارها بفاس عهد طويل، فإن ما ورد في كتاب "حديقة الأزهار" من معلومات حول جوانب مختلفة من أوضاع المدينة تتصل بالعادات والتقاليد

وأنشطة اقتصادية متنوعة ينم عن سرعة اندماج هذه الأسرة، وقوة ودقة حس الملاحظة عند صاحبنا. وهي خصال ضرورية في من يهتم

(4756/1)

بعلم الأعشاب والعقاقير، ويهتم بعلاج الأبدان؛ إذ لا تكفي الإحاطة بغريب الأعشاب والأدوية، بل يجب الإحاطة أيضاً ببيئة المريض ومعرفة مختلف العناصر النفسية والطبيعية والاجتماعية التي يمكن أن تكون سبباً في الإصابة بالمرض.

... صنف الغساني ثلاثة كتب كلها في الطب والأعشاب(1)، أهمها كتاب "حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار". وقد أنجزه في شهر محرم عام 994 هـ/ 1585 م وألفه برسم خزانة السلطان أحمد المنصور الذهبي.

---

(1) انظر تفصيل ذلك في: روضة الآس، ص. 217؛ أو مقدمة تحقيق كتاب "حديقة الأزهار"، ص. د و هـ

(4757/1)

ذكر المقري كتاب "حديقة الأزهار" فقال: »كتاب عجيب في بابه لم يؤلف مثله، يذكر سائر الأعشاب والعقاقير بما سميت به في الكتب، ثم يذكر اسمها بلسان عامة الوقت، ثم يذكر خواصها على وجه عجيب«. ولقد وضع الغساني مختصراً لهذا الكتاب ليكون في متناول الطلبة(1).

موضوع كتاب "حديقة الأزهار" ومنهجه

... يعتبر هذا الكتاب من ذخائر التراث الإسلامي في علم الأعشاب والعقاقير، صنفه طبيب مغربي متمرس في هذا الميدان، سلك في

---

(1) هناك مخطوطات متعددة لهذا المختصر بالخزانة العامة بالرباط، (محمد رزوق، مرجع سابق، ص. 274).

كتابته أسلوباً علمياً دقيقاً معتمداً في ذلك على المصادر العربية الرائدة في علمي الطب والنبات(1)

---

(1) الملاحظ أن أبا القاسم الغساني اعتمد كثيراً على معرفته المباشرة بالأعشاب التي وقف عليها بنفسه

بالمغرب. وأما أعشاب البلاد البعيدة أو التي تعذر عليه الوقوف عليها، فهو ينقل عن مصادر سابقة. ونبه المحقق الأستاذ الخطابي على أن أهمها كتاب "عمدة الطبيب في معرفة النبات" لأبي الخير الإشبيلي (ق. 6 هـ/ 12 م). هذا الكتاب نشر أيضاً بعناية الباحث نفسه، وصدر عن دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، في جزءين؛ حديقة الأزهار، مقدمة التحقيق، ص. ط

(4759/1)

، ومعتمداً أيضاً على المعاينة والملاحظة المباشرة كلما تيسر له ذلك فنجده في عدة مواضع يقول مثلاً: »ولقد رأيته كثيراً ووقفت عليه بجبال تاغيا وقطفته هنالك بيدي«...، و»قد رأيته ووقفت عليه«...، و»قد رأيت منه شجرة واحدة عندنا بفاس«...(1). كما أننا نجده في حالات أخرى ينقل عن مصادر موثوقة يتخيرها. من ذلك مثلاً: »ولقد حدثني والدي... أنه رآه ووقف عليه«...، وفي مكان آخر: »وحدثني والدي.. أنه رأى أخرى«...(2).

---

(1) حديقة الأزهار، ص. 15 و53 و85.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 170 و85.

(4760/1)

... ونجد الغساني في مواضع أخرى عندما يتعلق الأمر بمواد مستوردة من بلاد بعيدة، فهو لا يكتفي دائماً بالنقل عن كتب القدماء الموثوقة، بل يجتهد في تعرّف تلك المواد عند باعة العطور والأعشاب الذين كانوا بمثابة الصيادلة. كما أنه يلجأ إلى سؤال الرحالة والتجار لاستكمال معلوماته حول المواد النادرة والتي أغفلها القدماء. ومن ذلك ما يحكيه عند تعريفه بخروب السودان: »لم يذكره أحد من الأطباء القدماء والمتأخرين إلى هلم جراً، وإنما استخرج بعدهم. حدثني من أثق به من التجار المسافرين للسودان أن شجرته«...(1)

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 324. سنعود للحديث عن هذا النبات في موضع آخر من هذه الدراسة.

(4761/1)

.

... ولقد تناول المؤلف في كتابه قرابة 380 مادة مفردة، معظمها من النبات وسبع مفردات حيوانية ومعدنية، حيث قام بشرحها والتعريف بها. رتب المفردات على الحروف الأبجدية، فيذكر الاسم العلمي

للمادة ثم يشرح ماهيتها ويصف شكلها وأجزاءها. وفي كثير من المواضيع يذكر الغساني البيئة التي تنبت فيها الأعشاب، ويذكر الاسم الشائع للمادة عند العامة بفاس أو المغرب عامة سواء بالدارجة العربية أو اللهجة الأمازيغية. وبعدها يبين المؤلف طبيعة المادة ويذكر خواصها ومنافعها الطبية(1)

---

(1) ... امتاز أبو القاسم الغساني عن بعض من كتب قبله في موضوع النبات بدقة تصنيفه، ووضوح وصفه، واهتم بالأزهار والثمار والبزور والجذور والأوراق والنباتات الطفيلية، واهتم بتحديد البيئة الطبيعية التي تعيش فيها النباتات من حيث الرطوبة والجفاف، ونوعية التربة، والمستوى الارتفاعي، وذكر نماذج لمواقع عدة نباتات بفاس ونواحيها. حول مكانة الغساني بما هو عالم نبات وآراء بعض المستشرقين في أعماله، انظر: مقدمة تحقيق "حديقة الأزهار"، ص. ح و ط؛ وفي موضوع تطور علم النبات عند العرب: إبراهيم بن مراد، بحوث في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991، ص. 255 وما بعدها.

(4762/1)

.

قيمة الكتاب التاريخية

... يحتوي كتاب "حديقة الأزهار" على فوائد تاريخية مهمة تشمل جوانب مختلفة. فهو إلى جانب أهميته الأساسية في التعريف بالأعشاب ومنافعها الطبية، وأنواع الأمراض التي كانت موضع عناية الأطباء في تلك الحقبة التاريخية، فالكتاب يتضمن أيضاً معلومات تهم أنشطة اقتصادية وأوضاعاً اجتماعية ميزت بلاد المغرب على العموم ومدينة فاس على الخصوص. وعدد كبير من هذه المعلومات مهم ينفرد الغساني بإيرادها دون المصادر التقليدية، كما أن عدداً من هذه المعلومات فاتت عدة باحثين معاصرين اهتموا بالتأريخ

(4763/1)

للفترة السعدية. ومما يزيد في قيمة تلك المعلومات أن صاحبها اعتمد في جمع جزء كبير منها على مشاهداته الخاصة وخرجاته الاستكشافية الميدانية.

... إن قيمة الكتاب التاريخية لا تهم فاس فقط، بل تتعداها إلى جهات أخرى. من ذلك مثلاً المعلومات النادرة التي يقدمها الغساني حول القطاع الفلاحي والمحاصيل الزراعية التي ميزت بعض المناطق من بلاد المغرب. فهو

عند حديثه عن »الفِصفِصة« (بكسر الفاءين) يذكر أن »منابته الجنات والعمارات وبين التخوم والزروع«، ويضيف: هي »كثيرة بمراكش يحرثها الناس بالجنات والعيون تسمن عليها

(1/4764)

الخيل جداً«(1).

... وفي مكان آخر يذكر الموز ويصف ثمر هذه الشجرة، فيقول إنه »كالخيار يجنى قبل نضجه ويترك في أزيار (جمع »زير« وهو الكتان) مغموماً حتى يأخذ في النضج. فإذا نضج، كان طعمه كعسل وسمن ممزوجين«(2)

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 220. يعرف هذا النبات عند العامة اليوم بـ»الفصَّة«.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 173. معلوم أن الموز من الفواكه الدخيلة على منطقة البحر الأبيض المتوسط، ولا نعرف بالضبط تاريخ جلب هذه الشجرة إلى المغرب الأقصى، ولكن هناك احتمالاً كبيراً أن يكون الفضل في ذلك يعود للجالية الأندلسية التي استقرت بمدينة سلا. فأبو الخير الإشبيلي (القرن 6 الهجري) يذكر أن شجر الموز »كثير بمالقة وقرطبة« (مصدر سابق، ج 1، ص. 379).

. ثم يقرر: »ليس شيء منه بأرضنا في هذا الزمان«، أي في أواخر القرن العاشر الهجري، بينما يؤكد أنه »كان قبل هذا الوقت بمدينة سلا ودمر منها« (1)

(1) حديقة الأزهار، ص. 173. تفيد هذه الإشارة أن ناحية سلا كانت تعرف قبل أواخر القرن العاشر الهجري زراعة الموز، وهو ما يؤكده الحسن الوزان (توفي بعد عام 957 هـ/ 1550 م، وألف كتابه حوالي 933 هـ/ 1526 م) بقوله: »وينبت الموز بكثرة في سلا... «(وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1983، ج 2، ص. 282). والظاهر أن هذه الزراعة توقفت بعد ذلك لأسباب لا يفسرها الغساني بوضوح. فعبارته تفيد حصول نوع من الخراب والتدمير الذي يمكن أن يكون مرده إلى حملات تخريبية لبعض العناصر الأجنبية عن المنطقة، أو يحتمل أن يكون السبب عجز الفلاحين عن توفير العناية الضرورية لأشجار الموز وإهمالهم لها.

. هذه الملاحظة الأخيرة ينفرد بها حسب علمنا الغساني، وفاتت بعض الدارسين المهتمين بالفترة السعدية، فقرروا استمرار زراعة الموز بسلا استناداً إلى إشارة الوزان في هذا الموضوع(1).

... ويشير الغساني إلى ازدهار زراعة قصب السكر، الذي »يعرف عند العامة بالمغرب بالقصب الحلو. وهو كثير بناحية سوس من المغرب الأقصى خارج مدينة تارودانت، يعتصر هنالك بمعاصر كثيرة الرجال والخدام«(2). ومما ينبه عليه الغساني إنتاج »عسل أبيض كالكافور« بناحية دبدو

---

(1) إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص. 278.

(2) حديقة الأزهار، ص. 244.

(4767/1)

بالمنطقة الشرقية من المغرب الأقصى، إذ أن النحل ترعى نبات الشيح الذي يكثر بهذه المنطقة، حيث »منابته الرمال وقرب البحر«(1).

... ومن جملة الفوائد التي يتضمنها الكتاب أيضاً، استعمالات بعض الأعشاب والمواد في المجال الغذائي والصناعي. من ذلك مثلاً لجوء الناس في زمان الجدب والغلاء

إلى نبات يعرف تحت اسم »لوف«، وهو »من جنس الكفوف، ومن نوع البصل (...) ويسمى عندنا بالمغرب آيرنا«، حيث يصنع منها الخبز، بالرغم من »أنها تضر بالحلق وتنفطه«(2). وفي مكان آخر

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 338.

(2) المصدر نفسه، ص. 161.

(4768/1)

يشير الغساني إلى نبات يعرف عند العامة بالزوان »منابته مع الزرع، يطحن ويعتصد ويقتات منه، ويأكله الطير الصغير مثل العصافير واليمام والحمام، معروف عند الفلاحين« (1).

... ويطلعنا الغساني عند حديثه عن شجر العرعر على أن »خشبه أحمر ملزز صفيق يكل في قطعه الحديد (...)، عطر الرائحة، تصنع منه الأكواب والمشربات والغراريف«. ثم يضيف: »وهو كثير بناحية تازة، وبها تصنع هذه الأواني المحكمة الصنعة والإتقان وجميع أنواع القصع والأجفان«(2). ومن دون شك، فإن

---

(1) المصدر نفسه، صص. 340 ـ 341.

(2) المصدر نفسه، ص. 211.

(4769/1)

منتجات بهذه الجودة والتنوع والإتقان كانت تجد لها سوقاً رائجة بمدينة فاس وتنافس إنتاجها المحلي، إذ أن حاجة الناس لمثل هذه الأواني دائمة ومستمرة. وعند تعريفه لنبات يسميه العامة بالمغرب »القنب«، يذكر أن هذا النبات »كثيراً ما يزرع بناحية مكناسة الزيتون«، حيث »إذا يبس وجف، يمرس وينفض كما ينفض الكتان، ويصنع منه الشرائط والحبال«. ثم يشير الغساني إلى ظاهرة اجتماعية خطيرة مرتبطة بأكل ورق هذا النبات الذي من خواصه الإسكار، ويسمى عند العامة بالحشيش، فيقول: »وقد عمت البلوى في هذا الزمان الكثير الفواحش

(4770/1)

والمناكر بكثرة أكله والاشتغال به عند الرجال والنسوان والشبان والصبيان، وفحش ذلك فيهم

واتبعوا أهواءهم إلا من عصمه الله« (1).

... ويطلعنا الغساني عند شرحه لماهية نبات يعرف تحت اسم »أشتان«، أنه »كثيراً ما ينبت بناحية مراكش، ويسمى عندهم بالغاسول«، ثم يشرح سبب إطلاق العامة لذلك الاسم فيقول: »لأنه يغسل به الثياب فينقيها من درئها ويبيضها، وله رغوة كرغوة الصابون«. ثم يذكر فائدة أخرى: »وبه يغسل اللك(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 336 ـ 337.

(2) اللك جمع ألكاك ولكوك: صمغ وعصارة نبات يحمل الاسم نفسه يستخرج منه صبغ أحمر تصبغ به الجلود ونحوها ويستعمل للكتابة.

(4771/1)

فينقيه من درئه وحثالته، ويحل به حتى تتمكن به الكتابة« (1).

... ويدلنا الغساني في كتابه على مكان استخراج بعض المعادن ووجوه استعمالها في عصره. فهو عند تعريفه للإثمد، يذكر أنه حجر صلب ثقيل ملمع براق كحليّ اللون »يخالطه الرصاص في جسمه. ولذلك، إذا جعل مع الفضة عند السبك، كسرها«. ثم يضيف: »وله معادن ومواضع

بناحية ملوية بقرب أرض ميسور بأماكن هناك ومعادن تسمى ببني يسترى وبني تجت(2)

---

(1) حديقة الأزهار، ص. 32.

(2) ما زال هذا الموقع قائماً إلى عصرنا. يعرف ـ حسب النطق المحلي ـ بـ»بني تجِّيتْ« (السكون على التاء والتشديد على جيم مع الكسرة)، وهو »اسم يطلق على قصر قديم يقع في قلب الأطلس الكبير الشرقي على الضفة اليسرى لوادي أيت عيسى، وهو عالية وادي بوعنان«. وبهذا الموقع مناجم للرصاص والزنك (انظر: عبد الرحمان حرادجي، »بني تاجيت«، معلمة المغرب، ج 5، صص. 1514 ـ 1516).

(4772/1)

مشهورة معروفة فيها معادن الإثمد والرصاص والحديد« (1).

... إن الحديث يطول بنا لو أننا كلفنا أنفسنا تتبع الفوائد التاريخية التي يتضمنها الكتاب والتي تخص مناطق مختلفة من بلاد المغرب وبلاد الأندلس، ولكننا أردنا لهذا البحث أن يركز بالأساس على مدينة فاس وأحوازها. إن الكتاب يكتسي أهمية كبيرة بما يتضمنه

من معلومات ولو أنها غير مباشرة، لأنها تسلط الضوء على بعض الجوانب الدقيقة من أوضاع المدينة الاجتماعية والاقتصادية، خصوصاً في فترة جاءت مباشرة بعد سلسلة من الأزمات المختلفة

---

(1) حديقة الأزهار، ص. 37.

(4773/1)

التي مرت بها المدينة وكافة بلاد المغرب نتيجة انحطاط الدولة المرينية منذ أواخر القرن الثامن الهجري، حيث كانت فاس عاصمة لتلك الدولة. ولقد عجز خلفاؤهم من الوطاسيين عن وضع حد للفوضى التي كانت تعيشها البلاد، والتي كان من مظاهرها استفحال الصراعات القبلية، وتوالي سنين الجفاف والقحط، وانتشار الأوبئة، وتفشي المناكر والفواحش. وهذا مع نجاح حركة الغزو الصليبي في القضاء على آخر معاقل الوجود الإسلامي بالأندلس وانتقالها إلى الاستيلاء على عدة مواقع أو أراضي ساحلية مغربية، وذلك في غياب أي مقاومة جادة من الدولة

(4774/1)

المغربية.

... ولقد شكل قيام الدولة السعدية بارقة أمل في تدارك تلك الأوضاع، ولكن ذلك لم يكن بالأمر السهل. فبالرغم من الإصلاحات التي قامت بها السلطة السعدية والنصر الذي تحقق لها في معركة وادي المخازن على الإسبان والبرتغال، فحجم الأزمات التي مرت بها البلاد المغربية تركت آثاراً عميقة في النسيج الاجتماعي والسياسي والثقافي صعب تجاوزها في فترة وجيزة. إن ميزان القوى كان في صالح الأطراف الأوروبية التي كانت تعيش البدايات الأولى لعصر النهضة، وكان طموحها قوياً في تحقيق المزيد من النفوذ السياسي والاقتصادي

(4775/1)

في الجزء الغربي من حوض البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي وبلاد السودان. وهزيمة وادي المخازن كانت مجرد عثرة نجحت إسبانيا والبرتغال تدريجياً في تداركها. وإبان العهد السعدي تراجعت مكانة مدينة فاس على المستوى السياسي، بعد أن جعلت الدولة الجديدة من مراكش عاصمة لها. هذا التحول دعم دور

مراكش الاقتصادي وجعلها تنافس فاس على المستوى الثقافي والديني.

... إن أهمية كتاب "حديقة الأزهار" بما هو مصدر لجانب من تاريخ مدينة فاس في مطلع العصر الحديث تتأكد لكونه صنف من زاوية لها مميزات خاصة تميزه عن المصادر

(4776/1)

المتداولة والتي اعتمدتها الدراسات التي همت فاس في تلك الفترة. هاته المصادر التي غلب عليها الاهتمام بالأحداث أو بالترجمة للشخصيات العلمية أو الصوفية، أو الوقوف عند الظواهر الاجتماعية والاقتصادية من زاوية فقهية. إضافة إلى مصادر غلب عليها الطابع الجغرافي أو الاستكشافي حررها مغاربة أو أجانب. هذه الأخيرة تقترب في أسلوبها نسبياً من أسلوب الكتاب الذي هو موضوع دراستنا، لأن أصحابها اعتمدوا في الغالب أسلوب الملاحظة المباشرة والملموسة، ويمكن أن نذكر هنا نموذجاً هو كتاب "وصف إفريقيا" للحسن الوزان الفاسي

(4777/1)

المعروف بليون الإفريقي(1).

... لقد سبقت الإشارة إلى أن محور اهتمام الغساني في كتابه هو التعريف بالنباتات. والذي يجب أن ننبه عليه أنه لم يقتصر في عرضه على الأصناف الطبيعية والبرية، بل تعداها إلى ما اصطلح على تسميته في كتابه بالأصناف البستانية التي كان للإنسان دور في زراعتها والعناية بها. فالحبوب والقطاني والخضار والفواكه والثمار كانت موضع عنايته وإن بدرجات متفاوتة، لأنها

---

(1) بحكم وجود قرابة نصف قرن تفصل بين هذا المؤلف والغساني، فإننا سنعمد إلى مقارنة المعلومات التي يقدمانها كلما كان ذلك ممكناً.

(4778/1)

هي أيضاً لا تخلو من منافع طبية حرص الأطباء وعلماء النبات القدماء منذ عهد الإغريق على حصرها. وهو أمر تراجع عنه علماء النبات المحدثون بعد استقلالهم عن علم الطب، إذ انصب اهتمامهم على حصر وصف النباتات الطبيعية والبرية والتعريف ببيئتها.

... إن الغساني في معرض شرحه ووصفه لتلك المواد

وتحديده لخواصها ومنافعها الطبية، يستطرد في كثير من الأحيان ليحدد أسماء مواقع لعدد من تلك المواد، خصوصاً تلك التي وقف عليها بنفسه، فيصف البيئة الطبيعية التي تظهر فيها. وإذا كانت لتلك المواد استعمالات أخرى في حياة الناس غير

(4779/1)

الاستعمالات الطبية، فهو يذكرها. وبحكم أن عدداً كبيراً من الاستطرادات يهم موادّ توجد لها عينات بمدينة فاس أو أحوازها، فهي معلومات ذات أهمية لا يستهان بها، إذ تكشف عن جوانب أغفلتها المصادر الأخرى، أو أن بعض هذه المعلومات يكمل أو يعضد مثيلات لها في تلك المصادر. وسنبدأ في عرضنا لهذه المعلومات بتلك التي تخص المحيط والبيئة الطبيعية التي تميز موضع مدينة فاس وأحوازها القريبة.

...

تصنيف النباتات بفاس وأبعادها البيئية والطبيعية(1)

---

(1) لقد أرفقنا هذه الدراسة بمجموعة من الجداول التي تعرف بشكل مفصل بأصناف النباتات بفاس وأحوازها.

(4780/1)

... إن هذا الجانب يكشف بدقة ووضوح عن الأسلوب العلمي الذي سلكه الغساني في تعريفه بمختلف النباتات، وهو أمر يعبر عن الخبرة التي اكتسبها من خلال رحلاته الاستكشافية المتكررة التي قام بها في الميدان. وهو بملاحظاته الملموسة والدقيقة التي قدمها يعتبر من علماء النبات الأوائل والقلائل الذين اكتشفوا أن هناك مجموعة من العوامل التي تتحكم في توزيع الغطاء النباتي الطبيعي، مثل طبيعة التربة ودرجة الرطوبة والتعرض لأشعة الشمس أو عدمه والمستوى الارتفاعي. ولقد نجحت العلوم الحديثة في الكشف عن المزيد من العوامل

(4781/1)

المؤثرة في ذلك التوزيع وتوضيح طبيعة التفاعلات بين مختلف العناصر الفيزيائية والعضوية والمناخية التي تتحكم في توزيع النبات. ويعود تقدم المعرفة الإنسانية في هذا المجال أولاً إلى ما جمعه علماء النبات - من أمثال الغساني - من ملاحظات ميدانية منذ القدم

والتي تضاعفت في العصور الحديثة وأصبحت أكثر دقة وتنظيماً. ويعود الفضل في حصول ذلك التقدم المعرفي أيضاً إلى اكتشاف أدوات البحث المجهري واستعمالها، وتضافر جهود تخصصات علمية مختلفة للبحث في الميدان نفسه، واستقلال علم النبات عن علم الطب. وكانت النتيجة أن

(4782/1)

الباحثين المحدثين وضعوا خرائط بأنواع وأصناف النباتات التي تميز كل مجال جغرافي ومناخي وطبيعي على حدة من سطح الكرة الأرضية(1)

---

(1) حول النباتات التي تميز مثلاً منطقة البحر الأبيض المتوسط والتي ينتمي إليها المغرب، انظر: عبد السلام تشاح، جغرافية النبات، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1990، ص. 149 وما بعدها. وحول الأسس التي يقوم عليها علم البيوجغرافيا ومختلف العوامل المؤثرة في توزيع الغطاء النباتي الطبيعي، انظر:

Alain Lacoste et Robert Salanon, Eléments de biogéographie et d'écologie, Collection Nathan Université, Paris, p.65.

(4783/1)

.

... إن الإطار الطبيعي شكل عنصراً مهماً في نشأة المدينة ونموها وتطورها. فطبيعة الموضع الذي تقوم عنده المدينة، ونوعية التربة، وحجم الموارد المائية وطبيعتها، وطبيعة الموقع من حيث الغطاء النباتي والمناخ، كلها عناصر لها تأثير واضح في النمو العمراني والاقتصادي والديمغرافي للمدينة. الأمر الذي يفسر في كثير من الأحيان نمو واستمرار عدة مدن وزوال أخرى واندثارها. ولقد تنبه ابن خلدون لأهمية هذه العناصر في أوضاع المدن، فذكر منها:

(4784/1)

... حاجة الماء وهي ضرورية فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة. ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم، إذ صاحب كل قرار لابد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، ولابد لها من المرعى. فإذا كان قريباً طيباً، كان ذلك أرفق بحالهم (...). ومما يراعى أيضاً المزارع؛ فإن الزروع هي الأقوات. فإذا كانت

مزارع البلد بالقرب منها، كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله. ومن ذلك الشجر للحطب والبناء؛ فإن الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ. والخشب أيضاً ضروري لسقفهم وكثير

(4785/1)

ما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم..(1).

... كما أن ابن أبي زرع تنبه لوفرة هذه المرافق وتنوعها في موقع وموضع مدينة فاس، واعتبرها السبب الرئيس الذي حمل الإمام إدريس الأزهر على اختيار مكانها ليكون قاعدة لعاصمته الفتية. ثم إنه عد تلك العناصر من عوامل ازدهارها: »وقد جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء، واعتدال الهواء، وطيب التربة، وحسن الثمرة، وسعة المحرث وعظيم بركته، وقرب المحطب وكثرة عدده وشجره (...). وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصال التي هي كمال المدن

---

(1) كتاب المقدمة، دار القلم، بيروت، 1978، ص. 348.

(4786/1)

وشرفها...«(1).

... ولقد حفلت المصادر الجغرافية وكتب الرحلات الوسيطية بالإشارات إلى أصناف من النباتات التي ميزت منطقة فاس، ولكنها ركزت بالأساس على تلك التي لها اتصال مباشر بالنشاط الزراعي وبالحاجات الغذائية للسكان كأصناف الحبوب وأنواع الأشجار المثمرة. وحديثها عن هذه الأصناف كان مختصراً ومقتضباً في جمل قليلة متكررة. ويمكن اعتبار ابن أبي زرع من بين المؤرخين القلائل الذين ذكروا أصنافاً

(1) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973، ص. 33.

(4787/1)

من الأعشاب والأشجار الطبيعية والبرية، وذلك عند حديثه بالخصوص عن موضع فاس قبل بنائها: »والموضع يومئذ شعراء بالطخش والبلوط والطرفاء وغير ذلك (...) وكان بعين علون شجر من طخش وعليق وكلخ وبسباس وأشجار برية« (1).

... إن الغساني يقدم في كتابه "حديقة الأزهار" معلومات أكثر تفصيلاً ودلالة عن المميزات الطبيعية والبيئية لمدينة فاس مما قدمته مصادر معاصرة له أو تعود للعصر الوسيط من ذلك مثلاً ذكره لعدد من النباتات التي تظهر أساساً في الأماكن الرطبة والظليلة إشارة إلى المواضع

---

(1) ... المصدر نفسه، صص. 38 ـ 39.

(4788/1)

التي تتميز بدرجة عالية من رطوبة التربة وكثافة الغطاء النباتي. وهذا من دون شك له صلة بما عرفت به مدينة فاس من وفرة الموارد المائية وتنوع مصادرها من عيون متدفقة كثيرة داخل أسوار المدينة وخارجها، وأنهار وجداول: واد فاس الذي يشق المدينة، وواد مصمودة اللذان تتفرع عنهما وعن العيون سواقٍ تتخلل كل دور المدينة وأحيائها، ونهر سبو الذي لا يبعد كثيراً عنها(1).

... يذكر الغساني نباتاً يعرف عند العامة بفاس باسم »السوسن الأزرق«: »وكثيراً ما ينبت عندنا بالمقابر وبالمواضع الرطبة

(1) المصدر نفسه، صص. 33 ـ 34.

(4789/1)

من الجبال (...) وفي تلك الزهرة سواد وبياض. وبالجملة، فإنها ذات ألوان من صنع الصانع العظيم القدرة والإتقان، لا إله غيره «(1). ويطلعنا أبو القاسم الغساني أيضاً على نبات يدعوه العامة بفاس بـ»العقربان«: »منابته الصخور وأماكن الماء والمغاثر التي يطرد منها الماء، وكثيراً ما ينبت عندنا بفاس بجبل صالغ« (2)

(1) حديقة الأزهار، ص. 18.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 36. المراد بجبل صالغ الجبل الذي يقع شمال المدينة والذي يعرف إلى اليوم باسم زالغ أو زلاغ، وهي كلمة تعني »التيس« أو (العتروس) (الحسن الوزان، مصدر سابق، ج 1، ص. 293؛ وانظر: محمد مزين، فاس وباديتها: مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1549 م ـ 1637 م، سلسلة الرسائل والأطروحات رقم 12، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1986، ج 1، ص. 48).

(4790/1)

.

... وهناك نبات يعرف عند العامة في فاس باسم »عشبة خير من ألف« من جنس الحشيش: »منابته المواضع الظليلة الحسنة والأماكن الرطبة وعلى شطوط الأنهار، وبالقرب من منابع المياه«. ثم يضيف صاحب الكتاب أنه ينبت كثيراً بجنات فاس(1).

... وفي الإطار نفسه يندرج نبات مشهور في فاس حسب الغساني، وهو الكرفس الذي يكثر في »الجنات والأماكن الرطبة والمروج والسياجات«(2)

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 60.

(2) المصدر نفسه، ص. 138. يؤكد ابن أبي زرع كثرة هذا النبات عند ضفاف وادي فاس: »فيجري في بسيط من الأرض على الكرفس والسعدا من منبعه حتى ينحدر على المدينة في مرج لا يزال كذلك صيفاً وشتاء... « (مصدر سابق، ص. 34).

(4791/1)

. ومن ذلك نبات اسمه عصا الراعي، يعرف لدى العامة باسم »بوعقاد«: »منابته الجنات والمواضع الرطبة

والقيعان وقرب المياه«. وهذا النبات إلى جانب منافعه الطبية للإنسان كالنباتات السابقة، فهو غذاء مهم للدواب، فهي تأكله وتحبه، و»تربي عليه لحماً وشحما« (1). ...

... وهناك أصناف من النباتات يوردها الغساني تنبت بالأساس في الأماكن الصلبة والجبال، حيث توجد منها عينات بأحواز فاس. وهذا الأمر يدلنا على أن تنوع الأشكال التضاريسية الذي يميز منطقة فاس ساهم في تنوع أشكال التربة وفي تنوع

---

(1) حديقة الأزهار، ص. 199.

(4792/1)

الغطاء النباتي وغناه(1). ومن أمثلة ذلك نبات يعرف باسم »بسبايج«: »ينبت بالصخور الندية (...) منابته عندنا بفاس على الصخور بجبل صالغ« (2).

---

(1) من مظاهر التنوع التضاريسي الذي تعرفه فاس: أولاً موضع المدينة؛ فهو في منخفض يشقه نهر وتحفه مرتفعات، وغير بعيد من جهة الشمال يوجد جبل زالغ واتغات وزرهون ثم مرتفعات بني زروال ثم جبال غمارة،

وإلى الجنوب جبال بني يازغة ثم جبال فازاز، وبين هذه المجموعات الجبلية المتفاوتة الارتفاع يقع سهل سايس. (محمد مزين، مرجع سابق، ص. 48 وما بعدها).

(2) حديقة الأزهار، ص. 49.

(4793/1)

ونبات يسمى »زوفا« من نوع الصعاتر: »منابته الجبال الصلبة، وهو كثير عندنا بفاس خارج باب الجيسة بإزاء الحصن العظيم المصون المعروف بحصن البستيون«(1).

تصنيف النباتات بفاس ودلالاتها الاقتصادية

1 ـ الفلاحة

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 105. المراد بحصن البستيون أحد البرجين العظيمين اللذين بناهما أحمد المنصور الذهبي على مشارف فاس البالي حوالي سنة 990 هـ (انظر: أحمد بن القاضي، جذوة الاقتباس، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973، ج 1، ص. 50 و206).

(4794/1)

... تتعدد المعلومات ذات الطابع الاقتصادي التي يوردها الغساني في معرض حديثه وتمثيله لعينات النبات التي تحفل بها منطقة فاس. فهناك ما يتصل بالقطاع الفلاحي، وهناك ما يهم القطاع التجاري والقطاع الصناعي. فأما الفلاحة، فقد شكلت نشاطاً اقتصادياً مهما في تاريخ مدينة فاس. فاتساع الأراضي الخصبة المحيطة بها ووفرة الموارد المائية تم استغلالها بشكل مكثف منذ وقت مبكر من طرف سكانها الأوائل، وخصوصاً من جانب الوافدين عليها من بلاد الأندلس، بما حملوه من تقنيات وأساليب جديدة في السقي والحرث والعناية بالتربة

(4795/1)

وبالأشجار، وما جلبوه من بذور وأشجار مثمرة متنوعة. ولقد شهد هذا القطاع تطوراً مهماً ابتداء من القرن السادس الهجري، بفعل العوامل السابقة الذكر، إضافة إلى الاستقرار السياسي النسبي الذي تحقق في عهد المرابطين والموحدين، فتضاعف الإنتاج الفلاحي، ووظف الفائض في مجال التصدير(1)

---

(1) عز الدين عمر موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب

الإسلامي خلال القرن 6 الهجري، دار الشروق، بيروت، 1983، ص. 195 وما بعدها؛ وانظر أيضاً: محمد حجاج الطويل، »دور الفلاحة في تأسيس المدن وتطورها«، ضمن أعمال ندوة: المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب/ بنمسيك، الدارالبيضاء، 1990، ص. 172.

(4796/1)

.

... وكما سبقت الإشارة، فإن كتب الرحلات والجغرافيا التي صنفت في العصر الوسيط، أولت هذا الجانب اهتماماً كبيراً في معرض وصفها وحديثها عن فضائل فاس. فعبرت عن إعجابها بما تحفل به المدينة من جنات وبساتين وسهول خصبة واسعة، تتميز بوفرة إنتاجها وتنوّعه.

... وينفرد الغساني بتقديم تفاصيل إضافية ودقيقة حول أصناف الثمار وأسمائها عند الفلاحين والعامة بفاس، وذكر تاريخ نضج بعض الفواكه وظهور بعض النباتات حسب فصول السنة، إلى جانب ذكر نباتات للزينة أو ذات رائحة طيبة ومنافع طبية يعتني بها أصحاب الجنات والبساتين.

(4797/1)

... تشغل زراعة الحبوب جانباً مهماً من النشاط الفلاحي بأحواز فاس، وذلك لوجود أراضٍ شاسعة وخصبة، أهمها سهل سايس. وعادة ما يكون الإنتاج غزيراً، خصوصاً في السنوات المطيرة. ولقد اشتهرت فاس بكثرة عدد الأرحي التي تطحن فيها كافة أصناف الحنطة، إذ تقارب حسب بعض الروايات عدد أيام السنة، كما أنها اشتهرت بجودة منتوجها من السميد(1). ولقد عرض

---

(1) أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري (ت 487 هـ/ 1094 م)، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له أدريان فان ليوفن وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي، 1992، ج 2، ص. 796.

(4798/1)

الغساني لموضوع الحبوب في موضعين من كتابه: الأول عند مادة الحنطة، والثاني عند مادة الشعير. والملاحظ أن حديث الغساني كان مقتضباً جداً، وذلك باعتبار أن أصناف الحنطة من قمح وشعير وسلت وخندروش هي

بحسب المؤلف كلها معروفة ولا حاجة للإطالة بذكرها. وهكذا يكتفي عند تعريفه بالحنطة بالوقوف عند الصنف المعروف بالقمح فيقول: »له أنواع باعتبار جودته أو رداءته. فالجيد منه هو الأصفر الذهبي الممتلئ، وفيه احديداب. وهذا النوع يعرف عندنا بفاس بصدر باز وهو أجودها، ومنه يصنع الدرمك والسميد... « (1)

(1) حديقة الأزهار، ص. 123.

(4799/1)

.

... وأما في حديثه عن الشعير، فيقول: »وأنواعه كثيرة. فمنها الأملس والأحرش، ومنه شعير النبي – صلى الله عليه وسلم –، وهو حب قصير ينعزل عن قشره سريعاً، ومنه الشعير الرومي .وهو الأشقاليا .وكلها معروفة «(1). هذا النص يحملنا على الاعتقاد أن الاستقرار النسبي الذي عرفه المغرب بعد استيلاء السعديين على السلطة ساهم في حدوث انتعاش في القطاع الفلاحي وازدهار في إنتاج الحبوب. كما أن انفتاح المغرب على بعض البلاد الأوروبية كان من نتائجه جلب بذور جديدة وتجربتها في المغرب، وهو ما توحي

(1) المصدر نفسه، ص. 346.

به إشارة الغساني للشعير الرومي(1). ولا نجد عند الحسن الوزان -ويا للأسف!- أي إشارات دقيقة لأصناف الحبوب المعروفة والمستهلكة في فاس يمكن أن تؤكد أو تنفي ما ذهبنا إليه. فهو عند تعريفه بسهل سايس، يذكر أن »أراضيه ممتازة، لكنها تنتج قمحاً أسود صغيراً«، ويعني بذلك على ما يبدو القمح الصلب(2)

(1) يدلنا الحسن الوزان على نموذج آخر من النباتات التي جلبت من أوروبا في عهده، وهو نوع من الأزهار يعرف تحت اسم »الوزال« الذي يستحسنه المغاربة والذي يكثر بجنات فاس. (مصدر سابق، ج 1، ص. 248).

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص. 299. خلص محمد مزين في دراسته حول إنتاج الحبوب بمنطقة فاس إلى أن سهل سايس تخصص في إنتاج القمح الصلب والطري، بينما الشعير انتشرت زراعته بالمناطق الفقيرة والتربة والمياه مثل منحدرات فازاز ومرتفعات مقدمة الريف، (مرجع سابق، ج 2، ص. 395).

(4801/1)

.

... ومن جملة الفواكه التي تنتج بفاس المشمش: »وهو من فاكهة الصيف، أولها نضجاً يظهر عندنا بفاس في العشر الأواخر من أبريل. له أنواع كثيرة وألوان عديدة «(1). ومن الفاكهة الرمان:

... له أنواع كثيرة، فمنه الحلو، والحامض والمر، والمائي والعظمي، وله ألقاب وأسماء عند العامة بفاس، مختلف باختلاف أصنافه وأنواعه، فمن ذلك: السلطان. وهو أجودها وأرفعها. ثم السفري. وهو دونه. ثم الكلخي ثم ميمونة. وهي أعظم ثمار الرمان. ثم العظمي وهو أرداً أنواع الرمان وأقله.

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 177.

(4802/1)

ثم يقارن الغساني بين أصناف الرمان في فاس ومراكش فيقول: »والرمان بمراكش كله جيد وليس فيه رديء، وهو نوع واحد: السفري، يعظم كثيراً كمثل ما يعظم

صنف ميمونة عندنا بفاس« (1).

... ومن الأشجار المثمرة السفرجل: »وأنواعه كثيرة. فمنه الحلو، والحامض، والطويل، والمدحرج، والمنهّد لشبهه بنهود الأبكار، وهو معروف كثير عندنا بفاس بالجنات والبساتين«(2). ومن الفواكه التي اشتهرت بها

---

(1) المصدر نفسه، ص. 253. يكتفي ابن أبي زرع بذكر الرمان السفري على أنه أجودها بفاس. (مصدر سابق، ص. 44).

(2) حديقة الأزهار، ص. 275.

مدينة فاس التين، إذ يكثر الإقبال عليه طريّاً ويابساً حتى أن أهل فاس لا يكتفون باستهلاك إنتاجهم المحلي بل يقبلون على استهلاك ما يرد عليهم من البلاد المجاورة خصوصاً من بلاد غمارة. والتين أنواع كثيرة: ... فمنه الأبيض والأسود والأحمر. فالأبيض له أصناف وأنواع منها الودناكسي يلد مرتين في السنة باكوراً وتيناً، وهو أجود أنواع التين وأحسنها. والأسود له أنواع وأجناس، فمنها ما يلد إلا مرة واحدة في السنة، ولا

يلد باكوراً وإنما يلد تيناً .وهو التين الشعري .وهو أجود هذا النوع من الأسود وأطيبه وأحسنه.. (1)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 296. ما زالت هذه الأصناف من التين معروفة في فاس إلى اليوم. يذكر ابن أبي زرع صنفي الشعري والسبتي. (مصدر سابق، ص. 44). ووردت عند السقطي إشارة بوجود تين أسود مشهور بإشبيلية يعرف بالشعري، مما يتفق مع ما توصلت إليه عدة دراسات من أن ازدهار العلاقات بين العدوتين الأندلسية والمغربية كانت له آثار إيجابية على مختلف الأنشطة الاقتصادية، حيث أثمر ذلك تبادل الخبرات الزراعية. (أبو عبد الله محمد السقطي المالقي (ق. 6 هـ)، في آداب الحسبة، نشر ليفي بروفنسال، دار إيرنيست لرو، باريس، 1931، ص. 17).

(4804/1)

.

... ولعل أكثر الأشجار انتشاراً في أحواز فاس شجرة الزيتون، التي اتسع غرسها منذ قيام دولة المرابطين، وتضاعف إنتاجها في أواسط القرن السادس الهجري. وهذا

النمو في المساحات المخصصة لشجرة الزيتون كان الغرض منه مواكبة تضاعف الطلب على الزيتون ومشتقاته بعد النمو الديمغرافي الكبير الذي شهدته مدينة فاس في تلك الفترة. كما كان لازدهار حركة المبادلات التجارية على نطاق واسع، وتحول فاس إلى محور ومحطة أساسية في التجارة المحلية والدولية أثر كبير في الزيادة على الطلب، خصوصاً زيت الزيتون(1)

---

(1) عز الدين عمر موسى، مرجع سابق، ص. 196.

(4805/1)

. والظاهر أن مكانة الزيتون في اقتصاديات مدينة فاس استمر نسبياً على المستوى نفسه في العهود التالية، إذ أن بعض الحوالات الحبسية من الفترة السعدية تتحدث عن وجود غابات من شجر الزيتون في ملكية الأحباس(1).

... ويذكر الغساني أن الزيتون من الأشجار المعروفة في عامة بلاد المغرب وأنه نوعان: »بستاني وبري.

فالبستاني يعظم كثيراً، وثمره أعظم من ثمر البري (...) وتسمى شجرة البري الزبوج«. ويميز أيضاً بين ثمر البستاني حسب درجة نضجه ولونه: فهناك الزيتون

المدرك التام النضج،

---

(1) محمد مزين، مرجع سابق، ج 2، ص. 397.

(4806/1)

والزيتون الفج والياقوتي وهو المتوسط بين الفجاجة والنضج(1).

... ويدلنا الغساني على بعض وسائل الري المستعملة في نواحي فاس. من ذلك استعمال النواعير والدواليب لسقي أحد أنواع الحناء الذي هو من جنس البقل النابت من بزره كل عام، وهو كثير بالجنات والولجات على ضفة نهر سبو، حيث يكثر استعمال هذه التقنية في السقي من الوادي(2). والناعورة هي عبارة عن دولاب دائري الشكل، يحمل أوعية ينزل بها إلى مستوى الماء عند بئر أو نهر ثم يرفع الماء ويقذف به في قناة توصل

---

(1) حديقة الأزهار، ص. 103.

(2) المصدر نفسه، ص. 116.

(4807/1)

الماء إلى حوض حيث يتم توزيع الماء عبر قنوات للري.

وعادة ما يحرك الدولاب حمار أو بغل(1).

... تتوزع الأراضي الزراعية بمنطقة فاس بين أراض في ملكية خواص وأراض تدخل في إطار الملكية العامة، جزء كبير منها أراضي الأحباس، وجميع هذه الأراضي تتفاوت في مساحتها. والصنف الأول من الأراضي يوجد في كثير من الأحيان في ملكية تجار وفقهاء من سكان المدينة، يعهدون لفلاحين باستغلال تلك البساتين والجنات طبقاً لشروط خاصة. وتعرف مثل هذه القطع الأرضية بالعرصة.

---

(1) إبراهيم حركات، مرجع سابق، ص. 281.

... ولقد كشف محمد مزين في دراسته لفاس وباديتها عن النظام الذي كان يميز استغلال هذه العرصات في العهد السعدي، ووقف على أسماء الأشخاص أو العائلات التي ينسب إليها عدد من تلك العرصات داخل المدينة وخارجها وفي المناطق المجاورة، وذلك اعتماداً على مجموعة من الوثائق والنوازل الفقهية(1).

... ونجد في ثنايا كتاب الغساني إشارة إلى عرصتين

تقعان داخل المدينة لم يرد ذكر لهما في الدراسة السالفة الذكر. وجاءت هذه الإشارة عند تعريف الغساني لنبات يعرف تحت اسم »دادي«، وهو من جنس

---

(1) مرجع سابق، ج 2، ص. 424 وما بعدها.

(4809/1)

الشجر العظام حيث يقرر قائلاً: »وقد رأيت منه شجرة واحدة عندنا بفاس بعرصة عائشة المرينية برحبة بني زناسن. وحدثني والدي ـ رحمه الله ـ أنه رأى أخرى بعرصة الطريفي من البلد المذكور« (1).

... والظاهر أن أصحاب القطع الأرضية الزراعية كانوا يلجأون إلى وسائل مختلفة لرسم حدود ممتلكاتهم وحمايتها. من ذلك استعمال نباتات شائكة تكون حدّاً فاصلاً لأراضيهم. ومن أكثر تلك النباتات استعمالاً حسب الغساني نبات العوسج ذو الأشواك الطويلة الحادة الأطراف: »يغرس في الحدود بين الجنات

---

(1) حديقة الأزهار، صص. 84 ـ 85.

(4810/1)

والأرضين، وهو كثير عندنا بفاس بالمقابر والجبّانات« (1).

... ولما كانت البساتين والجنات تعتبر قبلة مفضلة من طرف أهل فاس للنزهة والترويح على النفس، فإن أصحابها كانوا يغرسون بها أنواعاً من النباتات تضفي عليها جمالاً وبهجة، وتفوح منها روائح طيبة وعطرة.

يقدم لنا الحسن الوزان وصفاً رائعاً للبساتين التي تنتشر في القسم الجنوبي من فاس ويذكر أصناف النباتات التي تحتوي عليها:

... كالبرتقال والليمون الحامض والأترج، وبالأزهار الجميلة كالياسمين والورد الدمشقي والوزال المجلوب من

---

(1) المصدر نفسه، ص. 203.

(4811/1)

أوروبا الذي يستحسنه المغاربة كثيراً. وتزدان هذه البساتين بأروقة جميلة وصهاريج وأحواض يحيط بها الياسمين والورد وزهر الليمون. وعندما يمر المرء في فصل الربيع بجوار هذه الرياض، يشم نفحات عبقة منبعثة من كل جانب.

يطلعنا الوزان على أنه جرت العادة أن الأعيان »يقيموا

بها (البساتين) من أوائل أبريل إلى نهاية شتنبر «(1).

... والظاهر أن أصنافاً متعددة من الأزهار والرياحين المغروسة بهذه الجنات كانت تقطف وتباع بدكاكين خاصة داخل المدينة، حيث يكثر الإقبال عليها، وهو ما يلمح إليه

---

(1) مصدر سابق، ج 1، ص. 248.

(4812/1)

الوزان نفسه(1). ولعل أكثر تلك النباتات انتشاراً بفاس نبات الياسمين، المتخذ في البساتين وفي الدور أيضاً. ولما كان هذا النبات الذي هو من جنس التمنس(2)، »يأخذ في

---

(1) يذكر الحسن الوزان أنه قريباً من الباب الرئيس لجامع القرويين في الجهة الغربية يوجد قرابة عشرين دكاناً لبائعي الأزهار: »يبيعون الليمون والحامض أيضاً. وعندما ترى كل هذه الأزهار الكثيرة الأنواع، تخالك تشاهد أجمل المروج وأكثرها نضرة في العالم«. (المصدر نفسه، ج 1، ص. 234).

(2) التمنس: لفظ يوناني معناه المتوسط من النبات بين الشجر والبقل.

(4813/1)

التدويح أكثر مما يأخذ في الارتفاع «، فإنه كانت تستعمل عدة أساليب لتسهيل وتوجيه امتداده، وذلك بتهييء الخشب والقصب كما يفعل بالنسبة لدوالي العنب، أو جعله يمتد على أغصان الشجر. والنوع الأكثر وجوداً بفاس هو »الأبيض ذو أربع شرافات أو خمس، عطر الرائحة وأعطر ما هو في زمن الصيف« (1).

... ومن جملة تلك النباتات أيضاً نبات يعرف لدى العامة بفاس بالحبق القرنفلي، له »رائحة ذكية عطرة، ينبت بالبساتين، يقوم على أغصان كثيرة متدوحة تفترش الأرض كالفسطاط في قدر شبر ونصف أو شبر، له زهر

---

(1) حديقة الأزهار، ص. 132.

(4814/1)

أبيض وورق كورق المردقوش« (1).

... ويطلعنا الغساني على نبات آخر يتميز برائحته

العطرة، وهو النسرين. وهو من أنواع »التمنس يتدوح كثيراً، وفيه شوك (...)، وزهره كزهر الورد الجبلي شكلاً وقدراً«. ويضيف الغساني أن هذا النبات »معروف ومشهور، منابته الجنات والعراص، زكي الرائحة طيب الشمة«(2).

... وهناك نباتات تضفي جمالاً وبهجة وتسر الناظرين، أحدها يعرف عند العامة بفاس بالقزقاز يكثر بالجنات والأماكن الرطبة والسياج، يتخذ في البساتين لجمال منظره(3)

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 52.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 179.

(3) المصدر نفسه، ص. 234.

(4815/1)

.

... ومن الأنشطة المرتبطة بالفلاحة والتي ازدهرت بفاس ونواحيها تربية المواشي والأغنام والدواجن، وذلك لحاجة السكان الطبيعية للحوم والألبان ومختلف مشتقاتها. ويندرج ضمن النشاط نفسه العناية بالدواب الخاصة بالركوب والضرورية للنقل وحمل الأثقال. إن جزءاً

كبيراً من هذه الأنشطة كان يقوم عند مشارف المدينة وجزء منه داخل المدينة. ولقد ساعد على ازدهار هذه الأنشطة توفر المراعي الجيدة قريباً من المدينة وفي الجبال المجاورة، وذلك عبر كل فصول السنة وحتى في فصل الصيف الحار والجاف. ونجد عند الغساني معلومات تؤكد

(4816/1)

هذا الأمر. من ذلك مثلاً نبات النَّفَل (حركة الفتحة على النون والفاء)، وهو من أنواع البقل المستأنف كل سنة. وجميعها حسب الغساني تعد غذاء ومرعى مفضلاً للدواب والبهائم. وهذا النبات »دقيق الورق ينبسط على الأرض كالطنافس والزرابي (...)، منابته المروج في زمن القيظ وهو كثير عندنا بفاس في ضفة وادي الجواهر خارج مدينة الملك من حضرة فاس المحروسة« (1)

---

(1) حديقة الأزهار، ص. 189 ـ 190. المراد بمدينة الملك فاس الجديد الذي بناه المرينيون في بداية دولتهم عند ضفتي وادي فاس قبل أن ينحدر ويدخل المدينة العتيقة، واتخذوا هنالك قصوراً لإقامتهم وإدارة دولتهم. (ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص. 322).

(4817/1)

.

... ومن النباتات التي تقبل عليها الدواب النبات الذي أشرنا إليه سابقاً والمعروف لدى العامة بفاس ببوعقاد، إذ تأكله الدواب وتحبه وتربي عليه لحماً وشحماً. وهذا النبات يكثر بالجنات والمواضع الرطبة والقيعان وقرب المياه، وهي شروط تتوفر في جهات مختلفة من أحواز فاس لكثرة العيون والأنهار بها. كما أن هناك نباتاً كالزرع له سنابل يعرف بالبهمي عند العامة بفاس: »وهو في أول نباته يضر بالبهائم والإبل والدواب. فإذا جف ويبس، نفعها وسمنها... «(1). ومما يفيدنا في تأكيد حيوية هذا القطاع

---

(1) حديقة الأزهار، ص. 67.

(4818/1)

إشارة غير مباشرة نجدها لدى الغساني تدل على كثرة الإسطبلات ومرابض الماشية بالمدينة وضواحيها، وذلك عند تعريفه بنبات يعرف بالخبازي وهو من أنواع

البقل(1)، مشهور عند العامة، يسمونه البقول. هذا النبات »كثيراً ما ينبت بقرب الأنهار والسياجات وسواقي الماء ومرابض الغنم والبقر، وفي الخرب والدمن والمزابل«(2).

... ومن جملة النشاطات المرتبطة بالفلاحة التي ازدهرت بفاس في تلك الفترة تربية دود الحرير. ووجود هذا النشاط

---

(1) البقل: كل نبات ينبت من بزره لا من أرومته الباقية تحت الأرض.

(2) المصدر نفسه، ص. 307.

(4819/1)

نستشفه من بعض الإشارات غير المباشرة من طرف الغساني. من ذلك مثلاً ذكره لوجود صناعة أطباق دود الحرير بفاس والتي تقوم على استغلال مادة القصب، خصوصاً منه الرقيق المعروف لدى العامة بالمدينة بقصب الريح، والموجود بكثرة في أحواز فاس(1). ثم نجد إشارة ثانية في مادة شجر التوت حيث يبين الغساني أن الصنف البستاني من هذه الشجرة هو المعروف لدى العامة بفاس بتوت دود الحرير، وهو أبيض وأسود(2).

---

(1) **المصدر نفسه، ص.** 240.

(2) **المصدر نفسه، ص.** 297.

(4820/1)

... إنه يصعب حصر النباتات التي يقوم الفلاحون بغراستها في البساتين والعراص التي توجد بفاس وأحوازها؛ كما أنه يصعب تحديد كافة الأسباب التي تدفع هؤلاء الفلاحين إلى اتخاذ نباتات وتعهدها دون أخرى.

... وواضح أن الرغبة في الربح عن طريق بيع فائض الإنتاج تأتي في المقام الأول، وتندرج في هذا الإطار كافة أصناف الحبوب والقطاني والفواكه والخضار التي ذكرنا نماذج منها. ولكن لا ينبغي أن ننسى أن هناك من النباتات ما يمكن أن يجني منه الفلاح أرباحاً لا يستهان بها، خصوصاً تلك التي تستخلص منها مواد تستخدم في بعض

(4821/1)

الصناعات والحرف، أو مواد تستخدم للزينة والعناية بالشعر والبشرة أو توابل في تهييء الأطعمة أو حفظها، أو مواد ذات منافع طبية. وهذه الخاصية الأخيرة هي أصلاً تشمل جل المواد التي يوردها الغساني في كتابه.

...

2 . الصناعة

... لا يخلو كتاب "حديقة الأزهار" من معلومات طريفة ومهمة حول ارتباط الصناعة والحرف بفاس بمجالها الجغرافي. وهذا الأمر ليس بجديد: فلقد كانت مميزات هذا المجال منذ وقت مبكر مساعدة إلى أبعد الحدود على ازدهار النشاط الحرفي والتجاري بما يوفره من موارد ومواد أولية متنوعة، نجحت العناصر البشرية

(4822/1)

التي استوطنت المدينة في استغلالها والإبداع في تحويلها وتصنيعها. هذه الموارد تتمثل أساساً في وجود عنصر الماء بوفرة ممثلاً في وادي فاس والعيون المتعددة والمطردة التي تزخر بها المدينة. فعنصر الماء كان أساسياً في تحريك الرحى، وعاملاً مساعداً في نمو حرفة الدباغة والصباغة مثلاً. كما أن التنوع في التضاريس والتربة والغطاء النباتي سمح بتوافر مواد

أولية مختلفة سهلة التناول، كالجبص والرمال والحجارة المستعملة في البناء، أو الصلصال المستعمل في صناعة الخزف. ثم الموقع الجغرافي الاستراتيجي الذي كان يستقطب أغلب

(1/4823)

خطوط التجارة المحلية والدولية والذي كان يسمح بجلب المواد المفقودة في عين المكان ويفتح آفاقاً كبيرة لتصدير المنتوجات المحلية(1). ومن دون شك إن كل هذه العناصر والمميزات لا يمكن إلا أن تدفع عجلة الصناعة والتجارة في فاس إلى الأمام، خصوصاً في فترات الاستقرار السياسي والاجتماعي، وانعدام الكوارث الطبيعية والأوبئة التي تؤثر سلباً في التوازن الديمغرافي.

---

(1) J. Cellerier, « Les conditions géographiques du développement de Fès », Hespéris, T. XIX, 1934, pp. 3–6.

(1/4824)

... إن المعلومات التي توفرها المصادر حول قطاع الصناعة بفاس منذ العصر الوسيط قليلة لا تسمح بمعرفة كافة المواد المعدنية المستعملة وطرق تصنيعها. وفي كثير من الأحيان، فإن تعرُّف بعض المصنوعات المعدنية يكون بطريقة عرضية. كما أن المعومات التي تقدمها المصادر تركز على المعادن النفيسة كالذهب والفضة أو معادن كانت استعمالاتها كثيرة كالحديد والنحاس وتغفل معادن أخرى ولا تذكرها إلا عرضاً. ولقد انعكست طبيعة هذه المعلومات على الدراسات التي اهتمت بالموضوع، فتميزت بالعمومية وحاولت سد الثغرات من خلال توظيف

(4825/1)

معلومات تخص القطاع نفسه، ولكن في مدن وبلاد أخرى كالأندلس مثلاً. ومن جملة المعادن التي كان اهتمام الباحثين بها قليلاً أو منعدماً مادة الرصاص والقصدير. فالغساني يشير إلى تصنيع هذين المعدنين بفاس، حيث كانت تشكل منهما صفائح يتم صباغتها بلحاء يستخرج من أصول شجرة تعرف باسم »أزرغنت« باللسان البربري، وهو شجر البرباريس من نوع العوسج. وهذه الشجرة تنبت كثيراً بجبال بني زينة، ومنها يجلب إلى مدينة فاس. ويذكر الغساني أن والده حدثه

»أنه وقف عليه ورأى شجرته بموضع يقال له سليلجو على مقربة من ضريح الولي الصالح

(4826/1)

سيدي يحيى بن بكار ـ رحمه الله ـ من عمل فاس« (1).

... ووردت في كتاب "حديقة الأزهار" إشارة إلى صناعة تزويق الكتب مثل المصاحف والكتب الدينية القيمة أو غيرها، وهي صناعة عريقة شجعها الحكام والأمراء وكبار الأثرياء الذين كانوا يتنافسون في اقتناء نسخ جميلة من القرآن والكتب النفيسة من شتى العلوم والآداب ويودعونها في مكتباتهم الخاصة.

---

(1) حديقة الأزهار، مصدر سابق، ص. 8. وردت أخبار في "القرطاس" تشير إلى اتساع استعمال الرصاص في صنع قواديس الماء. (مصدر سابق، ص. 64 و70).

(4827/1)

... ومنذ القرن السادس الهجري برزت أسماء في هذا الميدان بمدينة فاس، نذكر منها أبو الحسن يحيى بن محمد القيسي القرطبي ثم الفاسي مُسْتَوْطَناً المعروف

بابن الإشبيلي حيث وصف بأنه من أهل الخط والتذهيب(1). ويدلنا الغساني على مادة تدعى: أُشَّق (ضم الهمزة، والشين مشددة مع الفتحة)، وهو »صمغ الكلخ (...) ويقال له لزاق الذهب، لأن به يلصق الذهب في القراطيس في فواتح سور القرآن والتراجم وأسماء الله تعالى وأسماء نبيه سيدنا محمد –

---

(1) العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ط 2، الرباط، 1977، صص. 267 ـ 268.

(4828/1)

صلى الله عليه وسلم –. ويعرف عندنا بفاس بفاسوخ الوشق« (1).

... ومن الصناعات التي شهدت تطوراً كبيراً بفاس منذ عهد المرابطين النجارة، وذلك لتوافر مادة أولية متنوعة في الغابات القريبة من فاس. فكانت هناك أصناف من الخشب تتميز بصلابتها لفترات زمنية طويلة تستعمل في تدعيم وبناء السقوف والأبواب. ولعل الصنف الذي كان أكثر استعمالاً: خشب الأرز. فابن أبي زرع يذكر أنه »على مسيرة ثلاثين ميلاً من فاس جبال بني يازغة حيث يقطع خشب الأرز فيجلب إلى المدينة

منه في كل يوم ما لا

---

(1) حديقة الأزهار، مصدر سابق، ص. 38.

يحصى كثرة «(1). وهذا الخشب كان يستعمل في بناء سقوف الدور التي أكثرها من عدة طبقات و»يعمر العود منه في سقف البيت ألف سنة لا يعفن ولا يسوس ولا يعتريه شيء ما لم يصبه ماء« (2). وفي مكان آخر يدلنا هذا المؤرخ نفسه على أصناف أخرى من الخشب المستخدمة في صناعة النجارة بفاس، وذلك عند حديثه عن منبر جامع القرويين الذي تم تجديده في عهد المرابطين: »وصنع المنبر الذي به الآن من الأبنوس والصندل والعاج والنارنج والعناب وأصناف الخشب العظيم« (3)

---

(1) المصدر نفسه، صص. 35 ـ 36.

(2) المصدر نفسه، ص. 41.

(3) المصدر نفسه، ص. 62.

.

... ويدلنا الغساني على استمرار استعمال المواد نفسها في الفترة السعدية، بل يعرفنا بأصناف أخرى لا تقل أهمية. فهو يذكر مثلاً خشباً يعرف عند العامة بفاس باسم »العرعر«، وهو من جنس الشجر المشوك ومن الشجر العظام، لون خشبه يميل إلى الحمرة كخشب العذاب، وهو »عطر الرائحة تصنع منه الأواني والجفان« (1). ويطلعنا الغساني أيضاً على بعض الاستعمالات الأخرى لخشب الأبنوس في مجال النجارة. وقبل ذلك، يدلنا على الاسم الذي تطلقه العامة على هذا الصنف من الخشب: »يعرف عند العامة بفاس

---

(1) المصدر نفسه، ص. 22.

(4831/1)

بـ"اليابنوز" (بياء وزاي). وبالعربية الفصيحة "الساسم"، وبالبربرية "ايسغارن انيسمشان"، معناه: حطب السودان، وبعضهم يقولون: "إيسغارن يزان"، أي العود الأسود«(1). إن هذه المعلومات اللغوية النادرة تدلنا على مدى حرص هذا العالم الأندلسي الأصل على الإحاطة بكافة العناصر المتعلقة بميدان تخصصه حتى

اللغوية منها، لأنها تعبر عن تعدد العناصر المشكلة للثقافة السائدة وما تحمله من تعدد في الخبرات والتجارب. وحول الخشب نفسه يذكر الغساني معلومات إضافية تعبر عن دقة ملاحظاته وخبرته بدقائق

(1) المصدر نفسه، ص. 23.

الأمور: »ولونه أسود شديد السواد، فيه ملامسة وبراقة يحسبه الناظر قرناً محكوكاً، أجوده ما كان رزيناً إذا وضع في ماء غاص فيه وغرق. يصنع من خشبه حقاق وأوعية، وترصع به المنابر والكراسي، يغش بخشب البطم إذا صبغ«(1).

... ومن جملة أصناف الخشب المتوافرة بمنطقة فاس والتي تستخدم لأغراض مختلفة: الطرفاء، وهو من الشجر العظام، ومن أنواعه الأثل:

... ولون خشبه أحمر كالبقم تصنع منه الأواني والقصع والجفان، ويسمى النضار؛ والنضار كل خشب أحمر تصنع منه الأواني. ويسمى عندنا بالمغرب ـ في فاس

(1) المصدر نفسه، ص. 24.

ومراكش وما والاهما من القرى والمداشر .بتكاوت، تدبغ بثمره الجلود وتصنع منه الأمدة للكتابة (1).

... والواضح أن صنعة النجارة كانت تعرف عدة تخصصات لها علاقة بطبيعة المادة المستعملة وطرق تصنيعها والأشياء المصنعة. ومن هنا نجد حرفاً تتفرع عن النجارة كالتزويق والخراطة. والغساني يحدثنا عن سوق بفاس للخراطين، من بين ما يختصون بصنعه »الحقاق ونواعير فتل الحرير وغزل الصوف وأفلاك المغازل«. وهم يعتمدون في ذلك على خشب الدفلى، خصوصاً النهري منه: »ينبت في الخنادق الرطبة من الجبال وغيرها

(1) المصدر نفسه، ص. 34.

وعلى شطوط الأنهار، وهو كثير معروف عند الناس (...) وله خشب أبيض خوار...«(1).

... أما القصب، فهو أيضاً من المواد المتوافرة بكثرة في

أحواز فاس. وهو أنواع تختلف من حيث رقتها أو قصرها، ومنها ما هو »كثير اللحم صلب متلزز يسمى بـ"القَشّ" (حركة الفتح على القاف) تصنع منه الأقلام والسهام، ومنها ما هو قليل اللحم رقيق سريع الانكسار يقال له "قصب الريح" عند العامة بفاس، تصنع منه الحصر وأطباق دود الحرير «(2). وهناك نبات آخر تتخذ منه الحصر أيضاً وهو

---

(1) المصدر نفسه، صص. 87 ـ 88.

(2) المصدر نفسه، ص. 240.

(4835/1)

»الأسل« والمعروف بـ»السمار« الذي ينبت بالمروج(1). ... يجب التنبيه على أن الغساني عرض لمجموعة من النباتات التي اشتهرت بها منطقة فاس دون أن يقوم بتحديد أماكن وجودها أو بعض وجوه استعمالاتها غير الطبية كما تعودنا منه ذلك في مواطن متعددة من كتابه. فهو في عدة مواضع يكتفي بالإشارة إلى شهرة النبات وأنه معروف لدى العامة، وذلك تجنباً منه للإطالة. والحقيقة أن هذا الاختصار يحرمنا من معلومات قلما نجدها في مصادر أخرى. ولكن من حسن الحظ أن الحسن الوزان

يغطي جانباً من ذلك النقص بذكره

---

(1) المصدر نفسه، ص. 40.

(4836/1)

مثلاً للاستعمالات الصناعية لمجموعة من تلك النباتات التي كان حديث الغساني حولها مقتضباً. ونورد هنا نموذج شجر التوت والجوز والعناب والليمون. فالوزان عند وصفه لبعض أسواق فاس، ذكر أن:

... القباقب التي ينتعلها الأعيان عندما تكون الأزقة موحلة (...) تصنع هذه القباقب عادة من خشب التوت الأسود أو الأبيض، وقد تصنع من خشب الجوز والليمون والعناب. والقباقب المصنوعة من هذين النوعين الأخيرين من الخشب أكثر جمالاً وأناقة، لكن التي تصنع من التوت تدوم مدة أطول (1).

---

(1) مصدر سابق، ج 1، صص. 243 ـ 244.

(4837/1)

... ومن الصناعات التي ازدهرت في فاس منذ العصر الوسيط صناعة الحياكة، حيث أحصيت بها في مطلع القرن السابع الهجري/ القرن الثالث عشر الميلادي قرابة ثلاثة آلاف موضع لهذه الحرفة(1). والظاهر أن هذه الحرفة تراجعت نتيجة الأزمات التي مرت بها المدينة في أواخر الدولة المرينية، حيث يذكر الحسن الوزان بخصوص مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي أن عدد دور النساجين بفاس كان عشرين وخمسمئة دينارٍ، ثم يقرر أن هذه هي الصناعة الرئيسة بفاس إذ أنها تكفل العمل لعشرين ألف

---

(1) ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص. 48.

عامل(1). ولقد كانت الدور الخاصة بالحياكة تستقبل ما يرد عليها من صوف وقطن وكتان خام وحرير، وتقوم بتصنيعه بعد أن يمر بعمليات مختلفة إلى أن يأخذ شكل خيوط متعددة الألوان ومتفاوتة الجودة، قابلة لنسجها حسب رغبات التجار والزبناء. ومن أهم العمليات التي يمر بها الصوف الخام عملية التنظيف التي كانت تستعمل فيها مواد خاصة مضافة إلى الماء تساعد على

إزالة الأوساخ العالقة بالصوف. ويذكر الغساني من بين تلك المواد نباتاً يعرف بسعوط الدواب، و»يسمى عند العامة بفاس وغيرها من مدن

---

(1) مصدر سابق، ج 1، صص. 246 ـ 247.

(4839/1)

المغرب بـ"تغيغشت"، وهي العروق التي يغسل بها الصوف للتنقية والنظافة «(1).

... واستخدمت عدة مواد نباتية في صباغة الصوف منها مادة تستخلص من شجرة تعرف بـ»الصفيراء«: »وهو خشب يجلب إلينا يستعمل في صبغ الثياب والصوف، معلوم عند الصباغين، معروف مشهور بالصفيرا« (2).

3 ـ التجارة

... نشطت الحركة التجارية في فاس في الفترة السعدية، خصوصاً في عهد أحمد المنصور الذهبي الذي يمثل أوج الدولة السعدية وقمة نشاط العلاقات التجارية الداخلية والخارجية،

---

(1) حديقة الأزهار، مصدر سابق، ص. 149.

(2) المصدر نفسه، ص. 196.

(4840/1)

وذلك نتيجة للإصلاحات التي قام بها، ورفعه لعدد كبير من المكوس والضرائب التي كانت تفرض على السلع في المراسي وعلى أبواب المدن(1). ولا يخلو كتاب "حديقة الأزهار" من معلومات حول واقع الحركة التجارية بفاس إبان هذه الفترة التي عاصرها الغساني. وهي معلومات تهم جوانب مختلفة، نذكر منها أولاً وجود صلات تجارية بين فاس وبلاد مختلفة، خصوصاً بلاد السودان وبلاد المشرق وحتى بلاد الروم. وهذه الإشارات هي بمثابة قرائن تدل على أنه بالرغم من التوتر الذي طبع العلاقات السعدية

---

(1) محمد مزين، مرجع سابق، ج 2، ص. 497.

(4841/1)

بالأتراك في المغرب الأوسط أو العلاقات مع السودان في فترة من الفترات، فإن ذلك ـ على ما يبدو ـ لم تكن له

آثار عميقة. ففاس ظلت تستقبل عدداً من المواد التي كانت تجد لها سواقاً رائجة خصوصاً في العطارين ولدى الصيادلة، وإن بكميات أقل في فترات التوتر الحادة، مما ينعكس على الأسعار ويجعلها ترتفع.

... ترد على فاس من بلاد السودان مواد متعددة، نذكر منها: »جوز الزنج«: » يؤتى من أرض السودان، ويسمى عند العامة بفاس وغيرها "جوزة الشَّرك" (التشديد والفتحة على الشين)، لها ثمرة في قدر جوزة الأكل، في داخلها بزر

(4842/1)

كالقاقلة الصغيرة، لونه أحمر إلى السواد وطعمه كالخلجان أو الزنجبيل، بل أمرّ منهما« (1). وفي مكان آخر يطلعنا الغساني على مادة تدعى بخروب السودان من جنس الشجر العظام التي لم يذكرها ـ حسب المؤلف ـ »أحد من الأطباء القدماء والمتأخرين إلى هلم جرا، وإنما استخرج بعدهم«. ولم يكتف صاحبنا بتعرُّف ثمرة هذه الشجرة عند باعة العطور، بل سأل عنها بعض التجار الثقات الذين يذهبون إلى السودان، فحدثه أحدهم بأن »شجرته تشبه شجرة النارنج شكلاً وورقاً، ولا تمتاز عنها إلا بثمرها (...) وهذا الثمر

(1) المصدر نفسه، ص. 77.

(4843/1)

هو الموجود عندنا بالمغرب، يعرف عند العامة بالكورو (بكاف تحته ثلاث نقط)».

... ويضيف الغساني معلومات مهمة عن بعض الأساليب التي كان يستعملها أصحاب القوافل التجارية لحفظ المواد التي ينقلونها خلال المسافات الطويلة التي يقطعونها والظروف الشاقة التي يجتازونها، فيقول عن الكورو:

... منابته بالسودان بموضع هناك (...) ينطوي على معادن الذهب والتبر، ومنها يجلب إلينا في أوعية مشدودة بورق وسوافط محكمة الشدة والرباط لئلا يجف ذلك الثمر وييبس وتذهب رطوبته، ويعالج في تلك الأوعية بالماء، لا بقليله ولا بكثيره، حتى

(4844/1)

يصل إلينا ولأقطار البلاد غضاً رطباً كأنما قطف من يومه... (1).

... ومن المواد التي ترد على فاس الأسارون

... [و] هو من جنس اللبلاب، مشهور عند الأطباء معروف (...) أجوده ما جلب من الصين وبعده الأندلسي، وخيره ما جمع بناحية الجزيرة الخضراء؛ ويعرف عندنا بفاس بآسرون (بهمزة ممدودة وألف بعدها) موجود عندنا بسوق العطارين بها مشهور معروف عند باعة العطر (2).

---

(1) المصدر نفسه، صص. 324 ـ 325.

(2) المصدر نفسه، ص. 28.

(4845/1)

... ومن مواد الطيب التي ترد على فاس أيضاً: الأذخر، وهو من جنس الديس ومن أنواع الأسل (...) كثيراً ما ينبت بأرض بابل ـ وهو أجوده ـ وبأرض الحجاز، وبمكة المشرفة وأرض العرب (...)، وعندنا بالمغرب بناحية مكناسة الزيتون؛ ويسمى عندنا بفاس باسمين: »أحدهما الأذخر، والآخر تبن مكة، بالإضافة إليها... « (1). ومن ذلك أيضاً: بلاذر وهو »ثمر شجرة تنبت بأرض الهند والصين، وقد توجد بصقلية عند جبل النار، وهو يشبه القسطل لوناً

وشكلاً، (...) وقد شاهدته ورأيته بسوق العطارين في فاس «(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 29.

(2) المصدر نفسه، ص. 65.

(4846/1)

.

... ويطلعنا الغساني على مادة كانت تصدر إلى بلاد الروم، إشارة من دون شك إلى بلاد أوروبا عموماً والمدن الإيطالية على الخصوص، وهذه المادة من جنس الفطر يعرف باسم أغاريقون. فالنوع الأبيض من هذا الفطر والأنثى بالتحديد، يذكر الغساني أن فيها رخواً و»هشاشة وتفرك بسرعة، وهو في قدر جمجمة الإنسان، مدحرج الشكل كأنه ثؤلول عظيم، ينبت في أعلى شجرة الأرز«. ثم يضيف »وكثيراً ما ينبت عندنا بالجبل الكبير(1)

---

(1) الظاهر أن المراد بالجبل الكبير جبل بني بهلول الذي يقع في قبلة فاس والذي كان المصدر الرئيس لمادة

الحطب والفحم لسكان المدينة. (انظر ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص. 33).

(4847/1)

من جبال الفحامين خارج مدينة فاس، ومنه يحمل إلى سائر البلاد وإلى بلاد الروم«(1).

... وترتبط فاس بصلات تجارية وثيقة مع كافة جهات المغرب، وذلك أنها بموقعها الجغرافي المتميز كانت تعتبر قاعدة بلاد المغرب ومحطة أساسية في خطوط المواصلات التي تربط جنوب المغرب الأقصى بشماله، وغربه بمشرقه. ولقد اشتهرت مكناسة الزيتون في حياة الغساني بزراعة نبات القنب. وكانت كميات منه توجه إلى فاس حيث يستخدم في صنع الشرائط والحبال، وذلك بعد تجفيف القنب وتيبيسه ومرسه ونفضه كما ينفض الكتان(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 35.

(2) المصدر نفسه، ص. 336.

(4848/1)

. ومن الجهة نفسها كان يجلب إلى فاس الأنيسون، ويعرف عند العامة بحبة حلاوة، و»كثيراً ما يستعمل منه بزره، وأجوده ما كان رزيناً كبير الحبة حديثاً لا يتقشر قشراً شبهاً بالنخالة «(1). ويطلعنا الغساني على مادة ترد على فاس من واحات سجلماسة، وتعرف تحت اسم »ترنجبيل «، ومعناه »"عسل الندى" (...) وأكثر ما ينزل من السماء على شجر النخل بناحية سجلماسة، ومنها يجلب إلينا، وأجوده الأبيض الشبيه بالجلاب «(2).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 12.

(2) المصدر نفسه، ص. 294.

(4849/1)

... ومن جملة الفوائد ذات الطابع التجاري التي يتضمنهاكتاب "حديقة الأزهار"، وصفه الحي لأساليب بيع بعض الفواكه فور ظهورها ووصولها إلى أسواق فاس الخاصة بمثل هذه المواد. من ذلك إشارته إلى أنه عند ظهور الكمثرى والأجاص في زمن الصيف، فإن الباعة يضعونه على موائد تم تزيينها بورق نبات يعرف بالخطمي، وهو من البقل. وذلك الورق يشبه ورق الخبازى، يعرف عند العامة بفاس بورد الزوان. وبهذه الطريقة

يجلب الباعة الزبناء، ويعملون على سرعة نفاد الفواكه المعروضة. ويشير الغساني إلى أن نبات الخطمي يتخذ في البساتين والجنات

(4850/1)

والعراص للزينة(1).

... ويطلعنا الغساني على ظاهرة أخرى تقع بأسواق الخضر والفواكه بفاس عند أواخر فصل الخريف من كل سنة، وهي قدوم بربر غمارة بأنواع الفاكهة. ومن ذلك السفرجل الذي يجيئون به في أوعية مغطاة بورق السرخس. وهذا النبات ينمو بكثرة في الجبال الكثيرة المياه وقرب العيون، وهو كثير بجبال غمارة. ويقوم هؤلاء البدو بعرض بضاعتهم على موائد في إحدى رحاب المدينة المخصصة لذلك، وببيعها مباشرة للزبناء دون اللجوء إلى تجار وسطاء من أهل المدينة.

---

(1) المصدر نفسه، ص. 305.

(4851/1)

... واللاَّفت للنظر في هذا الأمر هو أن هؤلاء البربر إذا »قضوا مآربهم وباعوا ما في تلك الأوعية، نبذوه [ورق السرخس] وطرحوه وألقوه بالطرق وشوارع السوق يطأه الناس بأقدامهم«(1).

... ووردت في كتاب الغساني إشارة إلى أن هناك نباتاً »كثيراً ما يباع عندنا بالملاح عند باعة اليهود«(2)، وهو الترمس. وهو من جنس البقل أو

---

(1) المصدر نفسه، ص. 265.

(2) المصدر نفسه، ص. 291. يؤكد الحسن الوزان في وصفه لأحياء فاس الجديد أن اليهود »يشغلون شارعاً طويلاً وعريضاً جداً، فيه دكاكينهم ومعابدهم«. (مصدر سابق، ج 1، ص. 284).

(4852/1)

من نوع الكفوف، وأصنافه كثيرة. وهذا الخبر فيه ـ من دون شك ـ إشارة إلى اشتغال عدد من اليهود بمهنة الطب والصيدلة وبيع الأعشاب والعقاقير الطبية في الحي الخاص بهم بفاس الجديد. وهذا، إلى جانب سوق العطارين بفاس العتيقة والذي كان يضم دكاكين

الأطباء والصيادلة وباعة الأعشاب والعقاقير أيضاً(1)

---

(1) ... يتحدث الحسن الوزان في وصفه لسوق العطارين عن وجود نحو مائة وخمسين دكاناً: »وهناك تباع المواد المتعلقة بالعطارة والطب، ولكن لا تهيأ فيه الأشربة ولا المراهم ولا المعاجين، وذلك لأن الأطباء يعدون الأدوية في منازلهم، ثم يرسلونها إلى دكاكينهم، حيث يسلمها مستخدموهم مقابل وصفة طبية، ومعظم دكاكين الأطباء مجاورة لدكاكين العطارين«. (وصف إفريقيا، ج 1، صص. 242 ـ 243).

(4853/1)

.

... إن النشاط الاقتصادي الكبير الذي كانت تشهده مدينة فاس، كانت تحكمه عادة ضوابط وقيم يحرص المحتسب بتعاون مع أمناء الحرف والأسواق على أن تحترم ويعاقب من يخالفها. ولكن لم يمنع هذا من حدوث أنواع من التدليس والغش في بعض المعاملات التي تجري في خضم الحركة الدائبة التي تعرفها كافة الأسواق. وكان أكثر الناس تعرضاً لعمليات التدليس الغرباء والأشخاص الذين ليست لديهم الخبرة الكافية للتمييز

بين الأشياء وتقدير القيمة الحقيقية لكل سلعة على حدة، ومعرفة درجة جودتها بالنظر إلى طبيعة المواد المستعملة في صناعتها.

(4854/1)

... ويدلنا الغساني على بعض طرق الغش التي كانت تعرفها حرفة النجارة. من ذلك أن خشب الأبنوس الذي هو من المواد النفيسة التي ترصع بها المنابر والكراسي، كان »يغش بخشب البطم إذا صبغ«. وينبه الغساني إلى طريقة معرفة الأبنوس الأصيل »بالرائحة والمذاق، لأن رائحة الأبنوس طيبة عطرة، ومذاقه يلذَعُ اللسان، وليس كذلك البطم« (1). ...

... ويذكر الغساني نموذجاً آخر للغش في مجال بيع الأعشاب، لا يمكن أن يتبينه إلا من له دراية كبيرة بالخواص الدقيقة للأعشاب. ويتعلق الأمر بنبات

---

(1) حديقة الأزهار، مصدر سابق، ص. 24.

(4855/1)

اسمه السنا، وهو على ما يبدو من العطور المستوردة التي تنسب إلى الأماكن المقدسة بالحجاز فيقال: »سنا حرمي« و»سنا مكي«. وحسب المؤلف، فإن »السنا معروف عندنا بفاس، موجود عند باعة العطر والصيادلة، له ورق كورق السدر وبه يغش«(1)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 273. ولقد خصص السقطي في كتابه "في آداب الحسبة"، فصلاً كاملاً لعرض نماذج من تدليس العطارين والصيادلة، حيث قرر في مقدمة الفصل صعوبة حصر وكشف أساليب غشهم بقوله: »هؤلاء قوم شغلهم أوسع الأشغال، وأمورهم مختلفة الأحوال، والكشف عنهم صعب المرام، وغش مفسديهم لا يكاد يحصر ولا يرام... «. (مصدر سابق، ص. 41).

(4856/1)

.

الدلالات الاجتماعية

... من الخصائص الفريدة التي تميزت بها مدينة فاس تركيبتها السكانية المتعددة الأصول والعناصر. فإلى جانب سكانها الأوائل من البربر والعرب، فإنها في

فترات مختلفة من تاريخها، منذ تأسيسها وإلى حدود ظهور دولة السعديين، كانت قبلة لعدة هجرات من إفريقية والأندلس ومن تلمسان ومن البدو، ومن عائلات تنتسب إلى مدن مغربية أخرى. وعلى العموم، فإن الهجرات الأولى كانت لها في كثير من الأحيان آثار إيجابيّة على المدينة، لأنها طعمتها بعناصر ذات خبرات علمية أو حرفية إلى جانب عادات وتقاليد في الملبس

(4857/1)

والمأكل أغنت تقاليد أهل فاس وتفاعلت مع المكونات الأخرى ذات الأصول البربرية والعربية. ومن دون شك أن مما ساعد على اندماج كافة تلك العناصر وبلورتها لحضارة وتقاليد متميزة أن أغلب تلك الهجرات حدثت في فترات كانت فيها المدينة تملك القدرة نسبياً على استيعاب جزء كبير من المهاجرين وإدماجهم في النسيج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي وجعلهم يساهمون في بناء وتدعيم موقع المدينة على شتى المستويات.

... والظاهر أن هذه القدرة ضعفت في أواخر عهد الدولة المرينية بفعل تردي الأوضاع السياسية والاقتصادية والعسكرية وتوالي

(4858/1)

سنوات الجفاف والأوبئة. وتراجع دور مدينة فاس على المستوى السياسي وضعفت مؤسساتها التعليمية واضطربت مؤسسة الأوقاف والأحباس وعجزت عن الأخذ بيد الفئات الفقيرة من سكان المدينة أو المستوطنين الجدد الذين لجأوا إليها هرباً من الجوع والمرض من البوادي المجاورة، أو من قمع المسيحيين في الأندلس. ولقد ترتب على هذه التحولات بروز اختلالات في المجتمع وبروز ظواهر اجتماعية تعبر عن الفقر والحرمان والجهل الذي أضحت تتخبط فيه فئات من المجتمع. وبعض هذه الظواهر السلبية سيظل قائماً، بالرغم من قيام الدولة السعدية وسنها

(4859/1)

لمجموعة من الإصلاحات، وذلك لأن فترات الاستقرار والقوة كعهد أحمد المنصور الذهبي لم تدم طويلاً، ولم تلبث أن عادت الصراعات والفوضى من جديد.

... وكما عكس الغساني في كتابه بعض مظاهر الانتعاش الذي شهدته بعض القطاعات الاقتصادية،

والتي أشرنا في الفقرات السابقة إلى نماذج منها، فإنه من جهة أخرى عكس بعض الاختلالات الاجتماعية والظواهر السلبية التي برزت وتفشت في فاس أكثر من أي وقت مضى. ومن الظواهر الاجتماعية الخطيرة التي يقرر الغساني انتشارها واستفحالها في القرن العاشر الهجري في مناطق مختلفة من المغرب

(4860/1)

ومدينة فاس أيضاً، ظاهرة التعاطي للحشيش والتي عمت شرائح اجتماعية من مختلف الأعمار وكلا الجنسين معاً. والحقيقة أن هذه الظاهرة ليست بالجديدة، ولعلها انتقلت من المشرق إلى المغرب: فالبادسي يذكر قدوم أحد »الفقراء« من المشرق لزيارة أحد شيوخ التصوف بسبتة ومعه جراب من ورق القنب، فخاف أن يدخل على الشيخ بشيء محرم فأخفاه. وينقل البادسي أن الشيخ علم بمكان الجراب فأمر أحد خدامه بأخذه وقذفه في البحر(1)

---

(1) عبد الحق بن إسماعيل البادسي (ولد حوالي 650 هـ، وتوفي بعد 722 هـ)، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب،

المطبعة الملكية، 1982، ص. 101؛ كما يذكر ابن الخطيب خبراً يفيد تفشي ظاهرة تعاطي الحشيش في غرناطة خلال القرن الثامن الهجري في كتابه: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد المختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ص. 183؛ وانظر أيضاً مقدمة التحقيق حيث يؤكد الباحث انتقال تلك الظاهرة من المشرق إلى المغرب، ص. 21.

(4861/1)

. ويصرح أحد الدارسين بأن تناول الحشيش انتشر منذ القرن السابع الهجري في أواسط بعض رجال التصوف الذين استعملوها لزيادة الحماس الذي تذكيه الأذكار الصوفية(1).

... ويوضح الغساني أن ورق القنب المأكول للإسكار يسمى عند العامة بالحشيش، ثم يستنكر قائلاً: »وقد عمت البلوى في هذا الزمان الكثير من الفواحش والمناكر بكثرة أكله والاشتغال به عند الرجال والنسوان والشبان والصبيان، وفحش ذلك فيهم

---

(1) محمد الشريف، سبتة الإسلامية: دراسات في التاريخ

الاقتصادي ـ الاجتماعي، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، 1995، ص. 152.

(4862/1)

واتبعوا أهواءهم إلا من عصمه الله« (1). ...

... ويؤكد الغساني تفشي ظاهرة مشينة لا تقل خطورة عن الأولى وهي ظاهرة البغاء والسحر، وهو أمر سبق للوزان أن أشار إلى وجوده في أحياء وفنادق من مدينة فاس(2). وجاء ذكر الغساني لهذا الموضوع عند تعريفه لنبات الخطمي، وهو نوع من البقل الذي يكثر غرسه بالجنات والعراص بفاس بقصد الزينة. يطلق عليه بعض العامة اسم »ورد الزناة والزواني (جمع زانية)، لأن البغايا يستعملنه في أعمالهن من الإيلاف

---

(1) حديقة الأزهار، مصدر سابق، ص. 337.

(2) وصف إفريقيا، مصدر سابق، ص. 232.

(4863/1)

والاختلاف على طريق السحر« (1).

... كما يتطرق الغساني في كتابه "حديقة الأزهار" إلى

بعض المعتقدات السائدة في أواسط العامة والتي تتصل ببعض الأعشاب أو الأشجار. من ذلك مثلاً: نبات يعرف باسم ذنب الخيل، »وهو من جنس الهدبات(2) له ورق طويل كالقضبان في رقة الحبل، وهو معروف عندنا بفاس مشهور. وتزعم العامة أن من استدبر شجرته وألقاها وراء ظهره وشد يديه من خلفه وعقد عقدة في هدباتها، فإن ذلك ينفعه من وجع ظهره« (3)

---

(1) مصدر نفسه، ص. 305.

(2) هدب: كل ورق غير مستعرض كورق الأثل والطرفاء والسرو.

(3) المصدر نفسه، ص. 327.

(4864/1)

. وهناك نبات آخر ينمو في وسط فصل الخريف له نور أصفر يسمى عند أهل فاس بالمخبر والمديلكة، وهو »عند الناس سمة وعلامة على العام الخصيب الطيب يتفاءلون بكثرة زهره« (1).

... كما وردت عند الغساني أخبار تتصل ببعض أوضاع المرأة في تلك الفترة والتعريف ببعض اهتماماتها وهمومها. من ذلك اهتمامها بزينتها وقيامها بشؤون

البيت كتهييء الطعام والسهر على نظافة المسكن وزينته. يذكر المؤلف استعمال النساء لزلائف العكر لزينتهن. وجرت العادة أن تلك الزلائف تصبغ بمادة تستخلص من نبات يزرع بجنات فاس

(1) المصدر نفسه، ص. 31.

(4865/1)

يعرف لدى عامتها بالعصفر، وهو القرطم البستاني(1). ... ويتحدث المؤلف عن نوع من البخور كانت النساء يستعملنه في بيوتهن. وأصل هذه البخور نبات دقيق الورق يعرف بـ»سرغينة«. ويذكر الغساني أن الأطباء اختلفوا فيه: »قيل هو بخور مريم وقيل بخور السودان، وقيل بخور البربر وهو الصحيح«. ثم يضيف المؤلف أن مادة البخور هذه تستخلص من أصل النبات »وهو على صورة الجزرة، أصهب، عطر الرائحة، فيه رطوبة لا يندق سريعاً إلا إذا جفف بالنار (...) ويعرف عند العامة بالمغرب بتاسرغنت، معروفة يتخذها

(1) المصدر نفسه، صص. 247 ـ 248.

(4866/1)

النساء للبخور «(1).

... ومن الأعمال التي تتسلى بها نسوة فاس العناية بمجموعة من النباتات التي يغرسنها في أشقاق الجرار والمراجل على سطح الدور، خصوصاً الأحباق وأنواع الخيري. فلقد كانت أغلب الدور تتألف من طابقين ولها سطوح مستوية ليسهل نشر الغسيل والنوم فيها صيفاً. كما جرت العادة أن يبنى في السطوح »منتَزَه يشتمل على عدة حجيرات فسيحة ومزخرفة جداً، تتسلى فيه النساء عندما يتعبهن العمل، إذ يستطعن من هناك أن يشرفن على المدينة كلها«(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 289.

(2) الحسن الوزان، مصدر سابق، ج 1، صص. 222 ـ 223.

(4867/1)

.

... ومن أشهر الأحباق التي كانت النساء يغرسنها نبات »يعرف عند العامة بالمرددوش، له ورق كأذن الفأر ولون أخضر مائل إلى الغبرة، وله قضبان رقاق غبر... «(1). وعادة ما يغرس النساء نباتات تفوح منها روائح عطرة.

من ذلك مثلاً الخيري الأزرق والأصفر، وهما يتميزان ببهاء نورهما وبطيب رائحتهما التي تنبعث منهما بالليل، خصوصاً عند هبوب نسيم السحر، فسمي لذلك بنفسج الليل. وقد ذكر ابن الخطيب السلماني(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 169.

(2) هو لسان الدين المشهور بابن الخطيب، له عدة مصنفات أكثرها في الأدب والتاريخ والطب (ت 776 هـ)، قضى عدة سنوات بفاس.

(4868/1)

هذا النبات في إحدى موشحاته الجميلة فقال:

... بنفسج الليل تذكى وفاح ووشى البطاح

... ... أظنه يسقى بمسك وراح

... ويذكر الغساني أن لهذا النبات أسماء أخرى غير هذه وأنه »يغرس بالجنات والعراص والبساتين لطيب رائحته« (1).

... ولعل أخطر اللحظات التي تمر بها عدد من النساء في حياتهن بعد الزواج، عملية وضع الجنين بعد الحمل. إذ

كانت النساء يقدمن على تناول أي شيء أو فعل أي شيء يمكن أن يخفف آلام الوضع. ومما يذكره الغساني في هذا المجال نبات يعرف بشجرة الطلق، وهو عبارة عن دويح صغير

(1) مصدر سابق، ص. 287.

(4869/1)

متشنج إذا ألقي في الماء لان، وكانت المرأة الحامل التي تسقى ماء نقع فيه ذلك النبات وهي »في حالة الطلق ولدت وأطلقت الولد سريعاً، ولذلك سميت شجرة الطلق« (1). ويطلعنا الغساني على نبات آخر يعرف عند العامة بفاس بالحبق القرنفلي، وهو »من نبات الصيف والخريف، يغرسه النساء في أشقاف الأواني على سطوح الدور لطيب رائحته وبهاء منظره، ويجعلنه تابلاً لطبخ اللحم« (2).

... ولقد برعت المرأة الفاسية في صنع ألوان من العطور التي تستعمل في المناسبات والأعياد الدينية وكذا صنع

(1) المصدر نفسه، ص. 348.

(2) نفسه، ص. 337.

(4870/1)

بعض التوابل التي تضاف إلى الأطعمة. من ذلك مثلاً ما يذكره الغساني بخصوص النارنج، وهو من أنواع شجر الأترج الذي يكثر وجوده بجنات فاس وبساتينها، و»يسمى عندنا بفاس: النرنج ـ بغير ألف ـ وله زهر عطر الرائحة تقطر منه المياه كمياه الورد يسمى بماء زهر...«. ومن أصناف الأترج أيضاً الليم: »ورقه وثمره أصغر. منه النارنج، والليم يكون مدحرجاً وطويلاً في قدر بيض الدجاج، يفوق بقليل وينقص بقليل، رقيق القشر كثير اللحم شديد الحموضة يصنع منه تابل يسمى عند العامة بفاس "ليما مسيرا"«(1).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 21.

(4871/1)

... ومن الأطعمة المفضلة عند أهل فاس طعام الكسكسو، وهو طعام مشهور يصنع من البر، ويسقى بمرق يهيأ بعناصر مختلفة بحسب الخضار المتوافرة في كل فصل من السنة، وعادة مضافة إلى اللحم. ويشير الغساني إلى

طريقة خاصة في تهييء كسكسو إبان فصل الربيع وتعتمد على استعمال عرق أبيض غائر في الأرض لنبات يحمل اسم الشبث، وهو من نوع البقل. وذلك العرق »يعرف عند العامة بفاس بأسليلي، من خضار أيام الربيع عندهم، يطبخ بالحليب، ويسقى به "كسكسو"، فيجيء في غاية اللذة والمطعم البنين. مشهور معروف« (1)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 342. حول الكسكسو وطرق تهييئه وتناوله، انظر الحسن الوزان، مصدر سابق، ج 1، ص. 253؛ وانظر أيضاً كتاباً في فن الطبخ يعود للقرن 7 هـ/ 13 م يذكر طرقاً في تهييء الكسكسو ليس منها ما يتفق مع الوصفة التي أوردها الغساني: ابن رزين التجيبيّ، فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، تحقيق محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984، صص. 87 ـ 89.

(4872/1)

.

... ويحدثنا أيضاً عن الخرشف وهو بستاني وبري أنواعه كثيرة: »فالبستاني هو القنارية، والبري تحته أنواع

منها "الخرشوف" المعروف الذي يطبخ به اللحم وتؤكل عسالجه ورؤوسه...«(1).

... أما مادة الزيتون، فقد شكلت غذاء مفضّلاً لدى شريحة عريضة من السكان، خصوصاً وأنه ساد اعتقاد راسخ بأن شجرة الزيتون شجرة مباركة وكذا ثمرها وزيتها. ولقد توارث أهل فاس أساليب مختلفة في حفظ الزيتون لفترات زمنية طويلة. وحسب الغساني، فإن كل أنواعه مقوية للأبدان ومنشطة للحركة. ويطلعنا على أن

---

(1) حديقة الأزهار، مصدر سابق، ص. 111.

البري من شجر الزيتون يسمى بالزبوج (بضم الزَّاي): »ويعتصر منها زيت يقال له "الركابي"، لكونه مركباً للأذهان والحشائش، والذي يعتصر من الزيتون الفج يقال له "زيت الإنفاق"«. فالزيت الأول يستعمل »كدهن الورد في كثير من المعاني وحفظ الشعر في منع سرعة الشيب إليه إذا استعمل كل يوم«. أما "زيت الإنفاق"، فهو جيد للمعدة، وهو أجود الزيت للأصحاء. وبين الزيت الذي اعتصر حديثاً وبين الزيت العتيق، فكل منهما له طعمه ومنافعه واستعمالاته الخاصة(1).

(1) المصدر نفسه، ص. 103.

(4874/1)

... أما في فترات الجفاف والمجاعة، فإن الناس يلجأون إلى وسائل شتى لتخفيف ما هو واقع بهم من شدة الجوع والضعف. من ذلك حب نبات البهمي: »وهو نبات كنبات الزرع ينبت على السطوح والطرق، وله سنبلة كسنبلة الشيلم (...) وتنقل حبه النمل إلى بيوتها. فإذا كانت السِّنُون الجدباء، حفر الناس بيوتها وأخرجوا منها ذلك الحب وأكلوه وتقوّتوا به. ويعرف عندنا بفاس بـ"البهميّ"«(1). وتحت ضغط الظروف نفسها، يلجأ الناس إلى نبات "الوف"، وهو من نوع البصل، ويعرف عند أهل المغرب بـ"آيَرْنا" (حركة الفتحة

(1) المصدر نفسه، ص. 67.

(4875/1)

على الياء والسكون على الراء). وهو معروف عندهم، إذ يصنعون منه الخبز في زمان الجدب والغلاء، بالرغم من

أنه يضر بالحلق وينفطه(1).

... يتضمن كتاب "حدائق الأزهار" إشارات نادرة تخص جوانب من عمران مدينة فاس قلما نصادف حولها معلومات وافية في المصادر التقليدية. ويتعلق

---

(1) المصدر نفسه، ص. 161. حول التغذية بالمغرب في فترات القحط والجفاف، انظر: محمد استيتو، »أقوات وتغذية في تاريخ المغرب الحديث (ق 15 ـ ق 18 م) «،مجلة الأمل، عدد 17 (خاص حول التغذية والأزمة في تاريخ المغرب الحديث)، 1999، ص. 35 وما بعدها.

(4876/1)

الأمر بالأماكن التي كان بها عمران ثم لحقها الخراب والدمار بسبب عجز أصحابها عن ترميمها وهجرهم لها لسبب من الأسباب. ولقد خلصت إحدى الدراسات إلى أن عدداً مهماً من الدور وبعض المرافق العمومية والبساتين تعرضت للخراب بعد الأزمات والمجاعات التي تعرضت لها مدينة فاس في أواخر الدولة المرينية وإبان حكم الوطاسيين، حيث تراجع العمران بفعل الأزمة الديمغرافية التي شهدها المغرب الأقصى عقب توالي تلك الفترات العصيبة(1)

(1) ... محمد مزين، مصدر سابق، ج 1، ص. 253 وما بعدها.

خلص الباحث في دراسته إلى أن السعديين، بالرغم ممّا قاموا به من إنجازات عمرانية وترميمهم لمجموعة من المرافق العمومية دينية وعسكرية؛ فإن المدينة لم تسترجع كامل ازدهارها العمراني الذي شهدته إبان الفترة المرينية.

(4877/1)

.

... والظاهر أن عدداً من تلك الخرب المتناثرة داخل المدينة أو في أطرافها تحولت إلى مواضع تطرح فيها القاذورات، وذلك من دون شك نتيجة ضعف الوازع الديني والأخلاقي وفي غياب أي رادع أو مراقبة صارمة من طرف السلطة ومتولي الحسبة.

... ولقد قامت منازعات حول من تقع عليه مسؤولية كنس تلك الخرب التي ألحقت ضرراً كبيراً بمن جاورها من السكان، حيث وردت في "المعيار" نوازل في هذا الموضوع عرضت على أنظار المفتين بفاس(1)

(1) ... أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (ت. 914

هـ)، المعيار المغرب، نشر بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف المغربية، بيروت، 1981، ج 8، ص. 20 وما بعدها.

(4878/1)

.

... يذكر الغساني في معرض وصفه وتعريفه للنباتات ذات المنافع الطبية أن بعضها ينبت وينمو في »الخرب والمزابل والدمن«، وهي إشارة إلى أماكن داخل أسوار المدينة أو خارجها كان بها عمران فهجر وتعرض للفساد والخراب، أو أماكن اعتاد الناس على إلقاء القاذورات والفضلات بها، أو أماكن خارج المدينة كانت تجمع فيها فضلات الحيوانات التي تعرف بالزبل لاستعمالها بعد ذلك في تخصيب التربة أو وقوداً للنيران. وبشأن هذا الصنف الأخير، يذكر الحسن الوزان: »ويعمل عند الحماميين غلمان وبغالون يجوبون أرجاء المدينة ليشتروا الزبل

(4879/1)

من الإسطبلات وينقلوه إلى خارج المدينة ثم يجعلوه أكداساً ويتركوه ليجف شهرين أو ثلاثة أشهر. وبعد ذلك، يستعمل كالحطب في تسخين القاعات وماء الحمامات«(1).

... ومن النباتات التي تنمو في مثل هذه المواضع بقل يعرف عند العامة بـ»الحريق« و»القريص«، وهي نوعان: حرشاء وملساء. وتتميز الحرشاء بأنها لذاعة لمن يلمسها(2). ومن ذلك أيضاً الخبازى، وهو من البقل الذي يعرف عند العامة بفاس بـ»البقول«، وهو يتميز بورقه المستدير(3).

---

(1) مصدر سابق، ج 1، صص. 229 ـ 230.

(2) المصدر نفسه، ص. 10.

(3) المصدر نفسه، ص. 307.

(4880/1)

... ومن الإشارات الطريفة والمفيدة التي يذكرها الغساني في كتابه والتي تتصل بالعمران من بعض الوجوه، تلك التي تنبه على أصناف من العيوب التي تطرأ على بعض المباني داخل مدينة فاس. فصاحبنا يذكر أن من الأعشاب ما يظهر وينمو في شقوق البيوت والحيطان

ومنها ما ينبت بالسطوح. من ذلك مثلاً نبات يعرف بـ»حيّ العالم« وهو كبير وصغير ومتوسط، يتميز بخضرته الدائمة عبر كل الفصول »لا يجف ولا يتغير عن رطوبته. إلا أنه يدركه القحط زمن الصيف من حر الشمس (...) منابتها على الجدارات (الجدران) وشقوق البيوت والحيطان والصخور،

(4881/1)

ويعرف عند العامة بفاس بـ"صحيفة الملوك"«(1).

... ومن النماذج الأخرى »نبات البهميّ« الذي سبق الإشارة إليه والذي ينبت على السطوح والطرق، ويعرف عند العامة بفاس بالاسم نفسه. ومن ذلك أيضاً »حشيشة الزجاج«، خصوصاً الصنف المعروف بـ»عشبة البرطال« المستخدم في غسل الزجاج وتجليته من الأدران العالقة به. فهذه الحشيشة »تنبت بالحيطان والسياجات، وتعرف عند العامة بـ"الحبيقة"«(2). ثم هناك نبات يعرف عند الأطباء بـ»كزبرة البير« ـ لأنها تنبت كثيراً بالآبار ـ

---

(1) المصدر نفسه، صص. 118 ـ 119.

(2) المصدر نفسه، ص. 123.

(4882/1)

و»شعر الغول« إلى غير ذلك من الأسماء، وهو »نبات ينبت بالحيطان والسروب والآبار، له ورق كورق الكزبرة البستانية؛ إلا أنها أدق وأصغر، ولها أغصان دقاق سود كشعر الخنزير الذي تخرز به النعال والأخفاف وغيرها (...) ويسمى عندنا (أي بفاس) بقسبيرة البير (مصغراً بقاف وسين)«(1).

... إن هذه الإشارات إلى جوانب دقيقة من عمران مدينة فاس، بالرغم من اختصارها؛ لأن غرض الكاتب كان بالأساس التعريف بالنبات ومنافعه العلاجية. فهي تسمح بالوقوف على جملة من الآثار السلبية والعيوب المتمثلة في الشقوق

---

(1) المصدر نفسه، ص. 50.

(4883/1)

والرطوبة الكبيرة التي كانت تعرفها عدد من المباني داخل مدينة فاس نتيجة لعوامل مختلفة لها علاقة بطبيعة مواد البناء وارتفاع نسبة الرطوبة في فصل

الشتاء وشدة الحرارة في فصل الصيف. إن انتشار العيون والجداول و»السواقي« التي هي عبارة عن قنوات تنقل الماء وتوزعه على دور ومساجد وحمامات المدينة .وهي القنوات التي عبر عنها الغساني بالسروب في النص الذي نقلناه عنه سابقاً .كثير منها كان يمر تحت الأرض ويخترق الحيطان. وهذا الأمر كان يسمح بتسرب الماء بدرجات متفاوتة إلى أساسات المباني والجدران، مما كان يلحق

(4884/1)

بالمباني ضرراً بليغاً مع مرور الزمن، خصوصاً المباني التي كان أصحابها عاجزين عن القيام بالإصلاحات اللاّزمة والمنتظمة لقنوات الماء وترميم ما أفسدته الرطوبة في أسس البناء والحيطان.

... كما أن ما أشار إليه الغساني من ظهور شقوق في الجدران ونمو نباتات بها وكذا في السطوح فيه دلالة على أن عدداً من المباني المتواضعة لم تبلط جدرانها وسطوحها بشكل يحد من نسبة تسرب الرطوبة وماء الأمطار إلى داخلها، وبالتالي فإنه نتيجة لعوامل فيزيائية وكميائية مترتبة على توالي ارتفاع نسبة الرطوبة والبرودة في فصل الشتاء

(4885/1)

والتعرض لأشعة الشمس الحارقة في فصل الصيف تظهر تلك الشقوق.

... إن هذه الدراسة التي قمنا بها لكتاب "حديقة الأزهار" للغساني أظهرت الأهمية البالغة للمعلومات التاريخية التي قدمها صاحب الكتاب حول جوانب مختلفة من واقع مدينة فاس في مطلع العصر الحديث، حيث أن هذه المعلومات تهم الجانب الجغرافي والطبيعي؛ كما تهم الواقع الاقتصادي وجوانب أخرى لا تقل أهمية. وجميع المعلومات التي عرضنا لها في هذه الدراسة تؤكد أكثر من أي مصدر آخر أرخ لمدينة فاس من قريب أو بعيد - حسب ما نعتقد - ذلك التفاعل الكبير الذي كان للمدينة

(4886/1)

مع محيطها الطبيعي والجغرافي، حتى أنه ساهم وساعد في ازدهار المدينة وتوجيه مجموعة من أنشطتها التجارية والصناعية.

... وتزداد قيمة الكتاب التاريخية بما قدمه الغساني من معلومات لسانية دقيقة ونادرة حول أسماء عدد

كبير من النباتات باللهجة العامية لأهل فاس، واستمرار استعمال جزء كبير من تلك الأسماء إلى يومنا هذا يفيد أن إنتاج عدداً من المواد لم يطرأ عليه تغيير كبير، كما يفيد أن استعمالات تلك المواد ما زالت تأخذ حيزاً مهمّاً في عادات أهل فاس وتقاليدهم إلى عهد قريب. وعلى العموم، فإن الكتاب بما يدّخر من

(4887/1)

معلومات ما زال بحاجة لمزيد من البحث والتحليل والآفاق التي يفتحها كما تتبعنا من خلال هذه الدراسة المتواضعة تظل متعددة.

ملحق الجداول

1 .النباتات التي تنبت بالأماكن الرطبة

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس(1)

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

إيرسا

(جنس السيوف)

السوس الأزرق

المواضع الرطبة من الجبال (كثير بالمقابر)

معنى الإيرسا قوس قزح لكثرة ألوان زهره

---

(1) أوردنا الاسم عند العامة كلما كان ذلك ممكناً. وفي حالة غيابه، فذلك فيه إشارة إلى استعمال الاسم العلمي عند العامة وعند العطارين والصيادلة.

(1/4888)

"حديقة الأزهار"، ص. 18.

أسقولو فندريون

العقربان

الصخور وأماكن الماء والمغائر التي يطرد منها الماء

(كثير بجبل زالغ)

"حديقة الأزهار"، ص. 36

بنطافلون

(من الحشيش من نوع الكفوف)

عشبة خير من ألف

المواضع الظليلة والأماكن الرطبة وعلى شطوط الأنهار

والعيون (كثير بجنات فاس)

"حديقة الأزهار"،

ص. 60

باذورد (من الشوك)

العصفور البري

منابته الجبال الرطبة (خارج باب الجيسة)

عليه نور فرفيري إذا سقط فتح عن شيء كالصوف

يتطاير عند هبوب الرياح

"حديقة الأزهار"،

ص. 53

بنتومة

الأنجبار

(4889/1)

ينبت على أشجار الزيتون والكمثرى واللوز من غير أصل له بالأض يتغذى من رطوبة الهواء

"حديقة الأزهار"، ص. 69

هندباء

(من البقول بستاني وبري)

تيفلت والهندبا

السياجات والمواضع الظليلة في الخريف والشتاء بأعلى الجدارات

"حديقة الأزهار"،

ص. 94

لسان الثور

(من جنس الألسن ومن نوع الجنبة)

الجنات وقرب المياه والأماكن الرطبة

"حديقة الأزهار"،

ص. 158

كرفس

(أنواع منها الجبلي والصخري والمائي)

الجنات والأماكن الرطبة. (في الأرض التي يجري فيها نهر فاس قبل دخوله المدينة)

"حديقة الأزهار"،

ص. 138؛

(4890/1)

"القرطاس"، ص, 34

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

لسان الحمل

من جنس الألسن)

المصاصة

له ورق كورق الأترج

"حديقة الأزهار"،

ص. 159

ماميران

حشيشة الخطاطيف

قليل بناحية فاس، وقف عليه أبو المؤلف بزواغة

نبات دقيق له أغصان بعضها يفترش على الأرض وبعضها

يرتفع منها نحو شبر وله ورق طويل

"حديقة الأزهار"،

ص. 170

نعنع

(من الأحباق ومن نوع الصعاتر)

الأماكن الرطبة وقرب المياه

من أنواعه النمام الذي يتميز بقوة الرائحة

"حديقة الأزهار"، ص. 183

عصا الراعي

(من الجنبة ومن البقل)

(4891/1)

بوعقاد

الجنات والمواضع الرطبة والقيعان وقرب المياه

تأكله الدواب وتحبه، وتربي عليه لحماً وشحماً. له أغصان

كثيرة يمتد على الأرض حبالاً طوالاً كثيرة العقد وله

ورق

"حديقة الأزهار"، ص. 199

سعدى

(من الديس)

"

المروج وقرب الأنهار والجبال في المواضع الرطبة منها

والرمل (كثير بواد الجواهر خارج فاس الجديد من منابعه

برأس الماء إلى دخوله في المدينة)

أنواعه معروفة متشعب متشبك بعضه ببعض يدب تحت

الأرض، أسود إلى الحمرة، طيب الرائحة.

"حديقة الأزهار"، ص. 263؛

"القرطاس"، ص, 34

سلق

(4892/1)

(من البقول المأكولة، وهو أبيض وأسود)

"

الأبيض منابته تحت الشجر والمواضع الرطبة؛ والأسود

منابته السهل والأرض الخصبة

الأسود معروف عند العامة

"حديقة الأزهار"،

ص. 266

2 **.النباتات التي تنبت بالأماكن الصلبة أو الجبال**

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

أسطوخودوس

(من التمنس ومن ضروب الصعاتر)

الحلحال

الجبال والأرض الصلبة، (كثير بجبال تاغيا وقرب ضريح

أبي يعزى)

كثير الأغصان وله ورق دقيق، عطر الرائحة

"حديقة الأزهار"، صص. 14 ـ 15

بسبايج

"

(4893/1)

ينبت بالصخور الندية (على الصخور بجبل صالغ)

المستعمل منه عروقه

"حديقة الأزهار"،

ص. 49

أغاريقون (من الفطر وهو أسود وأبيض: ذكر وأنثى)

من الفطر ينبت في أعلى شجرة الأرز، كثير بالجبل

الكبير من جبال الفحامين خارج المدينة

يصدر ويحمل إلى سائر البلاد وإلى بلاد الروم

"حديقة الأزهار"،

ص. 35

زوفا

(من الصعاتر جبلي وبستاني)

"

الجبال الصلبة (كثير بفاس خارج باب الجيسة بإزاء حصن

البتسيون)

الجبلي له رائحة طيبة وطعم مر

"حديقة الأزهار"،

ص. 105

3 **.النباتات التي تغرس في الدور وفي السطوح**

الاسم العلمي

(4894/1)

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

أفسنتين

(من التمنس)

شيب العجوز

كثير الأغصان وأوراقه كثيرة ومتكاثفة وبيض شهب

يغرسه النسوة بأشقاف الجرار والمراجل على سطح الدور

"حديقة الأزهار"،

ص. 11

مرزنجوش

(من الأحباق)

مرددوش

البستاني له ورق كأذن الفأر ولون أخضر إلى الغبرة،

وقضبان رقاق

منابته الجنات وبأعلى السطوح يغرسه النساء مع

الأحباق وأنواع الخيري

"حديقة الأزهار"،

ص. 169

سذاب

(من التمنس)

الروطة

(1/4895)

البستاني منه يعلو نحو القعدة من الأرض، له أغصان

صلبة خضراء عليها ورق يشبه ما صغر من ورق الياسمين،

وله زهر أصفر مشرف يطلع في زمن القيظ

له رائحة حادة منتنة

"حديقة الأزهار"،

ص. 262

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

شاهشبرم

(من الأحباق)

الحبق القرنفلي

وهو الحبق الصغير الورق جداً ونوره فرفيري اللون، وهو

من نبات الصيف والخريف

يغرسه النساء في السطوح لطيب رائحته وبهاء منظره،

ويجعلنه تابلاً لطبخ اللحم

"حديقة الأزهار"،

ص. 337

ياسمين

(من التمنس)

"

(4896/1)

يأخذ في التدويح أكثر مما يأخذ في الارتفاع ويمتد على

الشجر وعلى ما يهيأ له من سائر الخشب والقصب كالعنب

النوع الأبيض هو الأكثر وجوداً بفاس، عطر الرائحة وخصوصاً في الصيف. مشهور يتخذ في البساتين والدور "حديقة الأزهار"،

ص. 132

4 .الأعشاب والأشجار الموجودة بالبساتين والجنات

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

بنفسج

(من الجنبة)

البستاني له نور أسمانجوني يميل تارة إلى البياض وتارة إلى الحمرة. والبري له نور دقيق أسمانجوني. منابته الجنات والمواضع الظليلة والمروج وهو

(4897/1)

كثير بزواغة

له رائحة زكية عطرة، يدخل في صنع الطيب، وإليه

تنسب البنفسجية المستعملة في مصر

"حديقة الأزهار"،

ص. 43 ـ 44

جلنار

"

ذكر الرمان، لا شوك له وينور ولا يثمر ونوره كنور

الورد وهو شديد الحمرة

يتخذ بالبساتين ليس بكثير فيها ولكن بقدر كافٍ

يستجيب للاستعمالات الطبية

"حديقة الأزهار"، ص. 71

النارنج

(من نوع الأترج)

النرنج

(بغير ألف)

منه سكري ومائي، ثمره مدحرج شديد الحموضة ولونه

قانٍ

له زهر عطر الرائحة تقطر منه المياه كمياه الورد

ويسمى بماء زهر

"حديقة الأزهار"،

ص. 21

الزنبوع

(من نوع الأترج)

"

(4898/1)

ورقه أعرض وثمره أعظم حسن المنظر ولونه أصفر وأحمر

"حديقة الأزهار"،

ص. 21

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

الليمون

"

لون ثمره شديد الصفرة مدحرج وشحمه حامض جداً

"حديقة الأزهار"،

ص. 21

الليم

"

ورقه وثمره أصغر من النارنج وهو مدحرج وطويل في قدر

بيض الدجاج،

شديد الحموضة

يصنع منه نابل يسمى عند العامة بفاس»ليما مسيرا«

"حديقة الأزهار"،

ص. 21

بادرنجويه

(من الأحباق)

الحبق القرنفلي (صغير الورق) والحبق البربري (كبير الورق)

(1/4899)

يقوم على أغصان متدوحة تفترش على الأرض، وله زهر أبيض، ينبت بالبساتين

له رائحة عطرة

"حديقة الأزهار"،

ص. 52

باقلاء

الفول

وهو شامي ومصري ونبطي

يستعمل رطباً ويابساً، المختار منه الأبيض الذي لم يتسوس. والمراد به الغض الطري وإصلاحه جودة طبيخه بالأبازير والتوابل كالفلفل والملح والحلتيت والصعتر مع الأدهان

"حديقة الأزهار"،

ص. 54

بصل

"

البستاني منه أنواع: كبير وصغير ومدحرج وطويل

وأبيض وأحمر

وهو معروف

"حديقة الأزهار"،

ص. 54 ـ 55

باذنجان

(بقل بستاني)

"

منه الأسود والمائل إلى الحمرة والمدحرج والطويل

(1/4900)

وهو معروف

"حديقة الأزهار"،

ص. 55

بطيخ

(من اليقطين)

"

وأنواعه كثيرة: مستدير وطويل وأبيض وأحمر، ومن

أنـواعه الدلاع.

وهو معروف

"حديقة الأزهار"،

ص. 56

جزر

(من الهدبـات)

السفنـارية

(بـمراكش خيزو)

البـستانـي أنـواع منـها ما هو أصله أبـيض وأصفر وأحمر

"حديقة الأزهار"،

ص. 72

جلبـان

(من القطنـية)

"

البـستانـي له ورق طويل عريض شديد الخضرة ونـوره

بـنـفسجي تخلفه خرابـيب تحوي الحَبّ

"حديقة الأزهار"،

ص. 79

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

الدردار

(من الشجر العظام)

"

(4901/1)

الجنات والأماكن الرطبة الكثيرة المياه

يتخذه الناس في البساتين لدوالي العنب

"حديقة الأزهار"،

ص. 89

زعفران

(من نوع البصل)

"

له ورق كورق السعدي، وسطها ساق في رأسها زهر بنفسجي اللون في داخله شعرات صفر، ومن بينها ثلاث شعرات حمر طيبة الرائحة، ويظهر الزهر في الخريف قليل بجنات فاس، كثير بأرض الأندلس، وبالشام وخراسان، ويوجد بتادلا من أعمال مراكش

"حديقة الأزهار"، ص. 108

حناء

"

النوع الموجود بفاس هو من جنس البقل النابت من بزره كل عام

(4902/1)

كثير بالجنات والولجات الواقعة على ضفة وادي سبو حيث تسقى من الوادي بنواعير ودواليب

"حديقة الأزهار"،

ص. 116 ـ 117

طرخون

(من االبقل)

المعدنوس

وهو المقدونس يشبه الكرفس. يكثر بالجنات والأماكن الرطبة

"حديقة الأزهار"،

ص. 130 ـ 131

ياسمين

(من جنس التمنس)

"

البستاني الأبيض هو النوع الأكثر وجوداً بفاس، وهو ذو أربع شرافات أو خمس، وأعطر ما هو في زمن الصيف معروف مشهور، يتخذ في البساتين والدور لرائحته العطرة

"حديقة الأزهار"،

ص. 132

كزبرة

القصبور

البستاني منه هو المشهور

يستعمل في الطعام

"حديقة الأزهار"،

(1/4903)

ص. 139

نسرين

(من جنس العليق ومن أنواع التمنس)

"

يتدوم كثيراً، له شوك كثير، زهره كزهر الورد الجبلي

شكلاً وقدراً، وهذا النبات مشهور، منابته الجنات

والعرصات

ذكيّ الرائحة

"حديقة الأزهار"،

ص. 179

قلقاص

(من جنس الكفوف)

القزقاز

له ورق عظيم يشبه الترس، في طول كل ورقة منها نحو

ثلاثة أشبار وفي عرضها شبران، يانعة شديدة الخضرة،

منابته الأماكن الرطبة والسياج

يتخذ في البساتين لجمال منظره، وتغطي بورقه موائد

التين في البساتين زمن الخريف

"حديقة الأزهار"،

ص. 233 ـ 234

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

(4904/1)

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

رازيانج

(من جنس الهدبات ومن أنواع الجنبة)

"

وهو أنواع كثيرة: بستاني وبري. والبستاني يعرف

عند العامة بالاسم نفسه، بينما البري بالبسباس

البستاني هو النافع، معروف عند العامة. كثير بالجنات
والعراص وبناحية العباد من جبل زالغ
"حديقة الأزهار"،
ص. 252

ثوم
(من جنس البصل

أنواعه كثيرة، وهو بستاني وبري
والبستاني معروف ومشهور، يزرع بالبساتين، وهو من
التوابل
"حديقة الأزهار"،
ص. 301

خطمي
(نوع من البقل، يسمى أيضاً ورد الزينة)
ورد الزناة والزواني

(4905/1)

البستاني ثلاثة أنواع: أبيض وكافوري وآزواردي غمامي
يعلو على الأرض نحو القامة، له ورق كالخبازى، يتخذ في

البساتين والعراص للزينة

تزين به في أسواق فاس موائد الكمثرى والإجاص في زمن الصيف لجلب مشتريها وسرعة نفادها. ويسمى بورد الزناة والزواني، لأن البغايا يستعملنه في السحر...

"حديقة الأزهار"،

ص. 305

خس

(من البقل)

بري وبستاني

البستاني معروف من الخضار وطعمه تفه، يؤكل في الشتاء والربيع

"حديقة الأزهار"،

ص. 306

5 .الحبوب والقطاني

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

(1/4906)

الحنطة

(المقصود هنا القمح)

الجيد يعرف بصدر باز

منها القمح، وهو أنواع باعتبار جودته. فالجيد منه هو

الأصفر الذهبي المملتئ وفيه احديداب

من صدر باز يصنع الدرمك والسميذ.

(الحنطة أوفق حبة عمل منها الخبز وأحسنها ملاءمة لبدن

الإنسان المعتدل)

"حديقة الأزهار"،

صص. 123 ـ 124

حمص

(من أنواع القطنية)

وهو أبيض وأحمر وأسود

"حديقة الأزهار"،

صص. 124 ـ 125

قرطمان

(من أصناف الشعير)

الخرطال

ومن أنواع الحب الذي له غلافان، له ساق غليظة وأنابيب

طوال في أعلاها سنابل

منابته التخوم وبين الزروع

"حديقة الأزهار"،

(4907/1)

صص. 236 ـ 237

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

عدس

(من أنواع القطنية)

"

نوعان: مزدرع وغير مزدرع. الأول هو البستاني،

والثاني هو العدس البري

البستاني معروف

"حديقة الأزهار"،

ص. 207

الشيلم

(من الحبوب)

الزوان

(كافة المغرب)

يشبه نبات الزرع، إلا أن ورقه مائل إلى البياض، وقصبه

أصلب وأطول. منابته مع الزرع

يطحن ويخبز ويعتصد ويقتات منه، ويأكله الطير

الصغير مثل العصافير واليمام والحمام، معروف عند

الفلاحين

"حديقة الأزهار"،

صص. 340 ـ 341

أرز

(من الحبوب)

(1/4908)

الروز (بفتح الراء وسكون الواو سكوناً حياً)

وبالبربرية (بضم الراء وسكون الواو سكوناً ميِّتاً)

مزارعه المياه والمروج والآجام

مشهور معروف. جلاء عاقل للبطن يغذي غذاء صالحاً. وإذا طبخ بدهن اللوز واللبن، غذى كثيراً، وأجودهما لو طبخ بغيرهما كالماء ـ مثلاً ـ ولكن يقسط منه تجفيفه وعقله.

"حديقة الأزهار"،

ص. 33

لوبيا

(من أنواع اللبلاب)

"

هي أنواع كثيرة معروفة

"حديقة الأزهار"،

ص. 163

شعير

(من نوع الحنطة)

"

(4909/1)

ورقة بين الخضرة والصفرة وأنواعه كثيرة: الأملس،

والأحرش، وشعير النبي – صلى الله عليه وسلم –، ومنه

الشعير الرومي وهو الأشقاليا

كلها معروفة

"حديقة الأزهار"،

ص. 346

6 **.الخضار والفواكه**

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

مشمش

(من جنس الشجر العظام)

مشماش

(كافة المغرب)

من فاكهة الصيف، أولها نضجاً يظهر بفاس في العشر الأواخر من أبريل، له أنواع كثيرة وألوان عديدة مسكن للعطش، أوفق للمعدة من الخوخ، سريع العفونة

"حديقة الأزهار"،

ص. 177

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

(4910/1)

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

قراسيا

(من جنس الشجر العظام)

حب الملوك

البستاني: الياقوتي والأحمر القاني والأسود والأبلق.

وثمره على شكل عناقيد

يتخذ في البساتين والعراص

"حديقة الأزهار"،

ص. 232

الرمان

(من الشجر)

السلطان هو أجودها ثم السفري ثم الكلخي ثم ميمونة

وهي الأعظم ثم العظمي

المقصود هنا هو الأنثى، وهو أنواع. فمنه الحلو والحامض

والمر والمائي والعظمي، وهو أرذلها

"حديقة الأزهار"،

صص. 253 ـ 254

قثاء

(من جنس اليقطين)

الفقوص

يمتد على الأرض ولا ساق له، ثمره طويل هلالي الشكل

(4911/1)

مسكن للعطش. ويذكر أبو الخير الإشبيلي أن أجوده

وأحسنه للأكل: العناني. يباع كثيراً بفاس

"حديقة الأزهار"،

ص. 233؛

"عمدة الطبيب"،

ج 2، ص. 495

سلجم

(من جنس البقل)

اللفت البلدي واللفت المحفور

اللفت البلدي مدور، له أصل كأصل الجزرة. إلا أنه أقصر

ولونه فيه بياض وحمرة. أما اللفت المحفور، فهو القلشر؛

له ورق كالسلجم، إلا أنها لاصقة

كلاهما معروف موجود بالمغرب كله

"حديقة الأزهار"،

ص. 267

سفرجل

(من الشجر الخشبي)

"

أنواعه كثيرة: فمنه الحلو، والحامض، والطويل

والمدحرج، والمنهد

(4912/1)

وهو معروف وكثير بفاس بالجنات والبساتين

"حديقة الأزهار"،

ص. 275

التفاح

(من الشجر العظام)

تختلف ألقابه حسب أصنافه:

منه الحلو والحامض والمر: الحلو منه الأحمر ـ وهو البستاني

والأصفر ـ وهو الصريح ـ والأبيض العاجي، الكبير يعرف

بالرخامي والصغير بالغلالي. والمخطط بخطوط حمر وصفر

نوعان: الحلو يدعى المريش والحامض هو الأيوبي. والحامض

منه الكلخي والمشي والجبلي والبقسي. ومن أنواع الأحمر

الحلو: العكري...

ذكر ابن أبي زرع الطرابلسي الحلو الأصفر والتفاح

الليوبي (الأيوبي) والطلحي والكلخي

"حديقة الأزهار"،

ص.295؛

(4913/1)

"القرطاس"،

ص. 44

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

تين

تختلف ألقابه بحسب أصنافه

أنواعه كثيرة: منه الأحمر والأبيض والأسود، من أصناف الأبيض الودناكسي، ومن أجود أصناف الأسود الشعري...

التين أفضل الفواكه وأقلها مضرة وأكثرها منفعة...

"حديقة الأزهار"،

ص. 296

خيار

نوع من القثاء له ثمر أقصر وأعرض من القثاء، يظهر في آخر الربيع ويكثر في أول الصيف

"حديقة الأزهار"،

ص. 308

شبث

(من البقل ومن ذوي الجمم)

عرقه يعرف بأسليلي

(4914/1)

له ورق مهذب طويل، خضرته إلى الغبرة وله عرق أبيض غائر بالأرض

من خضار أيام الربيع عند أهل فاس، يطبخ بالحليب

ويسقى به كسكسو فيجيء في غاية اللذة

"حديقة الأزهار"،

ص. 342

شقاقل

(من جنس اليقطين ومن نوع الجنبة)

له قضبان رقاق وزهر أصفر يظهر في آخر الربيع، وله

أصول في غلظ السبابة في طعمها حلاوة...

منابته بالغياض والجبال المظللة، وهو كثير بفاس

ونواحيها

"حديقة الأزهار"،

ص. 347

إجاص

البرقوق

منه البلنسي الأصفر اللون، وهو أبنها وأولها نضجاً،

يظهر في آخر الربيع، ومنها المكناسي والخبزي واللقيم

والشحمي، وفيه

(4915/1)

الأصفر والأسود والأحمر.

"حديقة الأزهار"،

ص. 19

بطيخ

(من جنس اليقطين)

"

نبات يمتد على الأرض ليس له ساق، منه المستدير

والطويل والأبيض والأحمر. ومن أنواع الدلاع.

معروف

"حديقة الأزهار"،

ص. 56

توت

(من الشجر العظام)

"

("تازلت" بالبربرية)

البستاني هو توت دود الحرير وهو أبيض وأسود. والبري

هو العليق والتوت الوحشي

هما معاً معروفان

"حديقة الأزهار"،

7 .النباتات المستعملة في الصناعة

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

البرباريس

(من نوع شجر العوسج)

(4916/1)

آرغيس بالبربرية (هو كذا اسم لحائه)

جبال بني زينة وبقرب ضريح يحيى بن بكار

يصبغ بلحائه صفائح الرصاص والقزدير

"حديقة الأزهار"،

ص. 8

أبـهل

(من الشجر المشوك والعظام)

العرعر

وله أنـواع كثيرة، لون خشبـه أحمر عطر الرائحة

تصنـع منـه الأوانـي والجفان

"حديقة الأزهار"،

ص. 22

آبـنـوس

(من الشجر العظام)

اليابـنـوز

يصنـع من خشبـه الحقاق والأوعية وترصع بـه المنـابـر

والكراسي. يغش بـخشب البـطم إذا صبـغ ولكن يمتاز منـه

بـرائحته الطيبـة

"حديقة الأزهار"،

ص. 24

أثل

(من الشجر العظام)

تكاوات

(في فاس ومراكش وما والاها من القرى)

(4917/1)

من أنواع الطرفاء

لون خشبه أحمر تصنع منه الأواني والقصع والجفون،

وتدبغ بثمره الجلود وتصنع منه الأمدة للكتابة.

ويسمى النضار وهو كل خشب أحمر تصنع منه الأواني

"حديقة الأزهار"،

ص. 34

أشق

فاسوخ الوشق، ويقال له لزاق الذهب

صمغ الكلخ وقيل صمغ الطراثيث

يلصق به الذهب في القراطيس عند كتابة الآيات

القرآنية وأسماء الله تعالى وأسماء الرسول عليه السلام

"حديقة الأزهار"، ص. 38

أسل

(من جنس الديس)

السمار

منابته المروج وهو حاد الأطراف كالإبر يعلو من الأرض

نحو الذراع والذراعين

تتخذ منه الحصر

(4918/1)

"حديقة الأزهار"، ص. 40

الفجل البري

نوع منه يدعى الشطبة

نبات خشن يعلو من الأرض نحو الذراع أو الذراعين، وله

زهر أبيض تخلفه مزاود طوال فيها نوى

سميت الشطبة، لأن الناس يشطبون بها سرائر دود

الحرير لكي ترقى الدودة إليها وتصنع فيها لوز الحرير

"حديقة الأزهار"،

ص. 72 ـ 73

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

دفلى

"

ورقه طويل ومتين وعريض، له خشب أبيض خوار يعلو من الأرض مثل شجر التفاح

(4919/1)

خشب هذه الشجرة مثير بفاس بسوق الخراطين تصنع منه الحقاق ونواعير فتل الحرير وغزل الصوف وأفلاك المغازل

"حديقة الأزهار"،

ص. 88

كندس

(من نوع الجنبة)

البقلة عند العامة

ذات أصول لها شعب رقاق سود داخلها أبيض يحفر عليها

وتخرج الأصول

يؤخذ لحاء تلك الشعب فتدق وتعصر وتطبخ العصارة حتى

تصير كالقار، فذلك هو السم الذي تطلى به السهام

والسيوف

"حديقة الأزهار"،

ص. 149

سعوط الدواب

(من صنف الكندس)

تيغيغشت

(في فاس وباقي مدن المغرب)

يشبه الكنكر

عروقه تستعمل في غسل الصوف وتنظيفه

"حديقة الأزهار"،

ص. 149

صفيراء

(4920/1)

(من جنس الشجر العظام)

يجلب خشبه ويستعمل في صبغ الثياب والصوف

"حديقة الأزهار"،

ص. 196

عندم

(من جنس الشجر العظام)

"

هو شجر البقم، وصمغه: الشيان، وهو من نبات أرض الهند تصبغ بصمغه الثياب والصوف وهو متوافر بكثرة بفاس

"حديقة الأزهار"،

ص. 208

عرعر

من الشجر العظام)

خشبه أحمر ملزز صفيق يكل في قطعه الحديد، يشبه خشب العناب، عطر الرائحة وهو كثير بناحية تازة تصنع منه الأكواب والمشربات والغراريف، وتصنع به الأواني المحكمة وجميع أنواع القصع والأجفان، ومنه يتخذ أجود القطران

"حديقة الأزهار"،

ص. 211

فودنج

(4921/1)

(من الأحباق والصعاتر)

مشيشترو

أنواعه كثيرة، منابته الجنات والأماكن الرطبة وقرب المياه

تغطي به أوعية التفاح في زمن المصيف

"حديقة الأزهار"،

ص. 214

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

قصب

(هو جنبة)

أنواعه كثيرة منها ما هو طويل عريض كالرمح أو أطول، ومنها رقيق قصير، ومنها ما هو قليل اللحم صلب متلزز يسمى بالقش، ومنها ما هو قليل اللحم رقيق سريع الانكسار. يقال له قصب الريح

القش تصنع منه الأقلام والسهام، وقصب الريح تصنع منه الحصر وأطباق دود الحرير

"حديقة الأزهار"،

(4922/1)

ص. 240

قرطم

العصفر

البستاني نوعان: أحدهما مشوك جداً وزهره أحمر قانٍ، والآخر زهره أصفر وشوكه قليل

يزرع بجنات فاس، ويصبغ به زلائف العكر لزينة النسا.

(ينقي الكلف من الوجه والبهق من البدن...)

"حديقة الأزهار"،

ص. 247 ـ 248

سماق

(من جنس الشجر)

وهو نوعان: أندلسي وشامي. الأندلسي له عود خوار، مجوف شديد القبض

تدبغ بورقه ودقيق خشبه الجلود، وهذا هو سماق الدباغة، ويستعمله الصباغون في تسميق الثياب، معروف عند الناس موجود بالعطارين وعند الصيادلة "حديقة الأزهار"،

ص. 280

شهدانج

(من جنس الكفوف)

(4923/1)

القنب (عند العامة بالمغرب)

يزرع في البساتين ومنه الذكر والأنثى. وإذا يبس وجف يمرس وينفض كما ينفض الكتان. كثيراً ما يزرع بناحية مكناسة الزيتون

ويصنع منه الشرائط والحبال. يسمى ورقها المأكول للإسكار ـ عند العامة ـ بالحشيش، وقد عمت به البلوى في هذا الزمان...

"حديقة الأزهار"،

ص. 336 ـ 337

أشتان

الغاسول العشبي

مشهور وينبت كثيراً بناحية مراكش

يستعمل في غسل الثياب وتبييضها وله رغوة كرغوة الصابون، ويقال له أشتان القصارين. وإذا تبخر في المنزل بدخانه، فرت الهوام منه

"حديقة الأزهار"،

ص. 32

(4924/1)

حشيشة الزجاج أو عشبة البرطال

الحبيقة

تنبت بالحيطان والسياجات

يغسل به الزجاج ويجلوه ويغسله من أدرانه

"حديقة الأزهار"،

ص. 122 ـ 123

8 ـ نباتات مختلفة

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

إكليل الملك

(من البقل المستأنف في كل سنة)

حميدش ومكيدش (الكاف بثلاث نقط)

نوعان: أحدهما له ورق يشبه ورق الحمص وله زهر أصفر،

والآخر يختلف عنه في الورق وعليه زغب أبيض

يسميه أهل البادية المجاورون لفاس بالعكيفية

"حديقة الأزهار"،

ص. 7 ـ 8

أنـجرة

(من البـقل)

الحريق والقريص

(4925/1)

نـوعان: حرشاء وملساء. ينـبـتان بـالخرب والمزابـل

الحرشاء لذاعة للجسوم عنـد ملاقاتها بـها

"حديقة الأزهار"،

ص. 10

بـاذورد

(من جنـس الشوك)

العصفور البـري

شجر يـعلو على الأرض نـحو الذراعين، له ورق أبـيض وعليه

زغب

قرب العبـاد خارج بـاب الجبيسة

"حديقة الأزهار"،

ص. 53

البـهمي

البـهمي

كنبات الزرع ينبت على السطوح والطرق

اليابس منه ينفع البهائم

"حديقة الأزهار"،

ص. 67

أشقيل (بصل الفأر، من جنس البقل ومن أنواع البصل)

بصل الخنزير

(4926/1)

وهو أول نبات يقوم بالخريف، وإن لم تنزل على الأرض

قطرة من السماء إلا بتغير الهواء من الحر إلى البرد

"حديقة الأزهار"،

ص. 31

المخبر والمديلكة

يظهر بعد أشقيل، له نور أصفر

هو عند الناس سمة على العام الخصيب يتفاءلون بكثرة

زهره الأصفر

"حديقة الأزهار"،

ص. 31

بقلة حمقاء

الرجلة

تنبت على طرق الناس

"حديقة الأزهار"،

ص. 46

هليون

(من الهدبات)

السكوم

أنواع كثيرة: بستاني وبري وصخري. البستاني لا شوك له و ما عداه شوك كله، وهو كثير بفاس

(4927/1)

له عساليج تؤكل في زمن الربيع مستلذة، نافع من اليرقان وطبيخ. أصوله مدر للبول يزيد في الباءة نافع من عسر الحمل...

"حديقة الأزهار"،

ص. 96

زراوند

(من الجنبة)

برستم

مدحرج أو طويل ولون زهره أصفر، عطر الرائحة، منابته

الجبال والسهول في التربة الرملية

كثير بفاس ومكناسة الزيتون

"حديقة الأزهار"،

ص. 104

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

خرشف

القنارية الخرشوف

أنواعه كثيرة: البستاني هو القنارية، والبري منه

الخرشف

(4928/1)

الخرشف هو المشهور بالمغرب، الذي يطبخ به اللحم

وتؤكل عسالجه ورؤوسه

"حديقة الأزهار"،

ص. 111

حي العالم

صحيفة الملوك

نبات كبير وصغير ومتوسط دائم الخضرة صيفاً وشتاء

منابته على الجدران وشقوق البيوت والحيطان والصخور

"حديقة الأزهار"، صص. 118 ـ 119

كمادريوس

بلوط الأرض

نبات له قضبان وورقه يشبه البلوط

يوجد بموضع يقال له الحبالات خارج باب المسافرين

بفاس

"حديقة الأزهار"،

صص. 147 ـ 148

نرجس

(من جنس البصل)

النوع الأبيض منه يعرف بالبهار ويسميه بعض العامة بحنبق زنبق

(4929/1)

نوعان: أصفر وأبيض. الأبيض ورقه كأطراف الحلقة يمتد على الأرض وله ساق خضراء في أعلاها زهر أبيض

الأصفر قليل بناحية فاس. أما الأبيض، فكثير. له رائحة قوية تصدع الرأس، ويظهر في الشتاء بعد نزول المطر

"حديقة الأزهار"،

ص. 180 ـ 181

نفل

(من أنواع البقل المستأنف كل سنة)

أنواعه كثيرة: منها الحمصي والكبري والحندقوقا التي تعرف عند العامة بالعنزرود، والأنجبار وكلها متشابهة

جميعها مرعى للدواب والبهائم. نوع بساط الملك

(ينبسط في الأرض كالزرابي)، منابته المروج في زمن القيظ، كثير في ضفة وادي الجواهر

(4930/1)

"حديقة الأزهار"،

صص. 189 ـ 190

عوسج

(من جنس التمنس)

أبيض وأسود: الأبيض له أغصان بيض مشوكة وله زهر أبيض يظهر عليه في زمن الخريف. الأسود أغصانه حمر مائلة إلى السواد ومنابته الجبال

الأبيض يغرس في الحدود بين الجنات والأرضين وهو كثير بفاس بالمقابر والجبانات. أما الصنف الأسود إذا قدم خشبه أسود وصار كخشب الأبنوس

"حديقة الأزهار"،

صص. 203 ـ 204

عناب

(من جنس الشجر العظام)

الزفزوف

أنواعه كثيرة: بري وبستاني، وأحمر وأبيض. فالأحمر هو

المقصود هنا

كثير بفاس ومكناسة الزيتون

"حديقة الأزهار"، صص. 206 ـ 207

(4931/1)

الاسم العلمي

الاسم عند العامة بفاس

البيئة والموضع

ملاحظات

المصدر

سرخس

أفرسيون

(عند العامة بفاس وبغمارة)

له قضبان كثيرة تخرج من أصل واحد عليها ورق متواز

كأجنحة النسور، ولا ساق لهذا النبات ولا زهر ولا ثمر

منابته الجبال الكثيرة المياه وقرب العيون وهو كثير عندنا بجبال غمارة يجيئون به إلى فاس على أوعية السفرجل للتغطية

"حديقة الأزهار"،

ص. 265

ترمس

(من جنس البقل)

أنواعه كثيرة، بستاني وبري: فالبستاني نوعان: أحدهما له حب وزهر أبيض والآخر له زهر مائل إلى الفرفرية

(4932/1)

كلاهما معروفان عند أهل الفلاحة وعند عامة فاس، كثيراً ما يباع بالملاح عند باعة اليهود

"حديقة الأزهار"،

ص. 291

خبازي

(نوع من البقل)

البقول

له ورق مستدير

كثيراً ما ينبت بقرب السياجات وسواقي الماء ومرابض الغنم والبقر، وفي الخرب والدمن والمزابل

"حديقة الأزهار"،

صص. 307 ـ 308

الخشخاش الأحمر أو شقائق النعمان

أبو النعمان او طاكوك

ورقة رطبة، وهي كثيرة تخرج من أصل واحد، بعضها مفترش على الأرض وبعضها قائم إلى فوق، وله زهر أحمر قانٍ

منابته الزروع والسياجات والتخوم، وهو من نبات أول الصيف وآخر الربيع

(1/4933)

"حديقة الأزهار"،

صص. 318 ـ 319

ذنب الخيل

(من جنس الهدبات)

له ورق طويل كالقضبان في رقة الحبل

تزعم العامة أن من استدبر شجرته وألقاها وراء ظهره

وشد يديه من خلفه وعقد عقدة في هدباتها، فإن ذلك

ينفعه من وجع ظهره.

"حديقة الأزهار"،

ص. 327

المصادر والمراجع

المصادر

ابن أبي زرع الفاسي (ت حوالي 741 هـ)، الأنيس المطرب

بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة

فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973.

البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري (ت 487

هـ/ 1094 م)، كتاب المسالك والممالك، حققه وقدم له

أدريان فان ليوفن وأندري فيري، دار الغرب الإسلامي،

1992، في جزءين.

البادسي، عبد الحق بن إسماعيل (ت بعد 722 هـ)،

المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية، 1982.
التجيبي، ابن رزين (ق 7 هـ)، فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، تحقيق محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984.
ابن الخطيب، لسان الدين (ت. 776 هـ)، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد المختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء.

(1/4935)

ابن خلدون، عبد الرحمان (ت. 808 هـ)، كتاب المقدمة، دار القلم، بيروت، 1978.
أبو الخير الإشبيلي (ق. 6 هـ/ 12 م)، عمدة الطبيب في معرفة النبات، تحقيق محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، في جزءين.
السقطي، أبو عبد الله محمد المالقي (ق. 6 هـ)، في آداب الحسبة، نشر ليفي بروفنسال، دار إيرنيست لرو، باريس، 1931.
الغساني، أبو القاسم الوزير (ت. 1019 هـ)، حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار، محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.

(4936/1)

ابن القاضي، أحمد المكناسي (ت. 1025 هـ)، درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، 3 أجزاء.

ـــــ ـــــ، جذوة الاقتباس، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973، جزآن.

القادري، محمد بن الطيب (ت. 1187 هـ)، نشر المثاني، تحقيق محمد حجي، مكتبة الطالب، الرباط، 1982، ج. 2.

المقري، أحمد القرشي التلمساني (ت. 1041 هـ)، روضة الآس العاطرة الأنفاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، مطبوعات القصر الملكي، الرباط، 1964.

(4937/1)

الوزان، الحسن بن محمد (ت. 957 هـ)، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1983، جزآن.

الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت. 914 هـ)، المعيار المغرب...، نشر بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف المغربية، بيروت، 1981، 13 جزءاً.

المراجع

استيتو، محمد، »أقوات وتغذية في تاريخ المغرب الحديث (ق 15 ـ ق 18 م)«، مجلة أمل، عدد 17 (خاص حول التغذية والأزمة في تاريخ المغرب الحديث)، 1999، صص. 22 ـ 52.

(1/4938)

أعمال ندوة: البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقويم، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1989.

الطويل، محمد حجاج، دور الفلاحة في تأسيس المدن وتطورها، ضمن أعمال ندوة: المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب/ ابن مسيك، الدار البيضاء، 1990، صص. 167 ـ 176

تشاح، عبد السلام، جغرافية النبات، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1990

حجي، محمد، »أحمد المنصور الذهبي «، معلمة المغرب، مطابع سلا، 1989، ج 1، صص. 173 ـ 175

حرادجي، عبد الرحمان، »بني تاجيت «، معلمة المغرب، ج 5، صص. 1514 ـ 1516.

(4939/1)

حركات، إبراهيم، السياسة والمجتمع في العصر السعدي، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1987.

رزوق، محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و17 م، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991.

الشريف، محمد، سبتة الإسلامية: دراسات في التاريخ الاقتصادي ـ الاجتماعي، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، 1995.

عز الدين عمر موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن 6 الهجري، دار الشروق، بيروت، 1983.

(4940/1)

القادري بوتشيش، إبراهيم، »دور المصادر "الدفينة" في كشف الجوانب الحضارية المنسية للمدينة المغربية، دراسة تطبيقية حول مدينة مراكش من التأسيس حتى أواخر عصر الموحدين«، ضمن كتاب: تاريخ الغرب الإسلامي، دار الطليعة، بيروت، 1994.

ـــــ ـــــ، إسهامات في التاريخ الاقتصادي ـ الاجتماعي لمدينة مكناس خلال العصر الوسيط، منشورات عمادة جامعة مولاي إسماعيل، 1997.

بن مراد، إبراهيم، بحوث في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991.

(4941/1)

مزين، محمد، فاس وباديتها: مساهمة في تاريخ المغرب السعدي (1549م ـ 1637 م)، منشورات كلية الآداب ـ الرباط، سلسلة الرسائل والأطروحات رقم 12، 1986، جزآن.

المنوني، محمد، المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1983، ج 1.

ـــــ ـــــ، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ط 2، الرباط، 1977.

Celerier, J., «Les conditions géographiques du développement de Fès», Hespéris, T. XIX, pp. 1–19.

(4942/1)

Lacoste, Alain et Robert Salanon, Eléments de biographie du développement et d'écologie, Collection Nathan Université, Paris, 1993.

(1/4943)

القدس عربية منذ خمسة آلاف عام

في ضوء النصوص الكتابية والاكتشافات الأثرية

... ... الدكتور شوقي شعث

... ... دبي ـ الإمارات العربية المتحدة

مقدمة

... القدس مدينة مقدسة عند أصحاب الديانات الثلاث: الإسلام والمسيحية واليهودية. وهي بهذا تنفرد وتتميز عن غيرها من المدن المقدسة في العالم. هذه القدسية كانت وما زالت سبباً في الصراع بين أصحاب الديانات التوحيدية. وعليه لا توجد مدينة في الدنيا لقيت اهتماماً كمدينة القدس؛ إذ حظيت بدراسات وأبحاث متنوعة بلغت حداً لا يمكن تصوره في آلاف

(1/4944)

الكتب والدراسات والخرائط قامت القدس في البدء على الطرف الجنوبي الشرقي من جبل موريا، ويبدو أن سكانها الأوائل اختاروا هذا الموقع، لكونه موقعاً محصناً من ثلاث جهات ولكونه يضم عدداً من عيون المياه، وهو شرط حيوي لقيام أي مستوطنة بشرية(1).

... حملت القدس عبر تطورها التاريخي، وصولاً إلى عصرنا الحاضر، عدة أسماء منها: أورشليم (وتعني مدينة السلام)، ويبوس نسبة إلى سكانها اليبوسيين

(1) القدس، المؤتمر الثالث لبلاد الشام (فلسطين)، ص. 225، 1983؛ الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، مادة «القدس»، ص. 508 ب.

(4945/1)

الأوائل، والمدينة، وإيليا كابيتولينا، وإيليا، وبيت المقدس، والقدس الشريف، ودار السلام، والقدس(1).

ففي مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ورد اسمها في نصوص "اللعنات المصرية" ()(2Execration Text)

(1) شوقي شعث، القدس الشريف، المنظمة الإسلامية

للتربية والثقافة والعلوم، الرباط، 1983، ص. 15.

(2) وهي نصوص مصرية قديمة حيث كان ملوكهم يكتبون أسماء المدن أو الحكام التابعين أو المعادين لهم على تماثيل أو أوان، معتقدين أنهم إذا حطموا هذه التماثيل أو الأواني، حاق الشّرّ بالأشخاص أو الأشياء التي كتبت أسماؤهم عليها. فقد عثر عليها عام 1925 بمصر.

(1/4946)

باسم روشاليموم (1Rushalimum)() وورد اسمها في مراسلات تل العمارنة، التي عثر عليها في مصر إبان التنقيبات الأثرية، والتي تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد باسم: أورشاليم (2Urusalim)(). ونجدها في كتابات الملك الآشوري سنحاريب في القرن السابع قبل الميلاد ترد باسم أورشاليمو (Ursalimmu). وتأخذ في كتابات المؤرخين

---

(1) شوقي شعث، المصدر السابق، ص. 15.

(2) المصدر نفسه، ص. 17؛ إسحاق الحسيني، ص. 43؛ الأب مرمرجي، بلدانية فلسطين (1948)؛ مادة «بيت القدس»، الموسوعة الفلسطينية، قسم 1، ص. 510 ب و ص. 1511.

العرب المتأخرين عدة أسماء منها: يروسالم يروشالايم، ويبوس، وصهيون موريا، وإيليا، وبيت المقدس، والقدس، والقدس الشريف، والبلاط وغيرها.

... أسس العموريون (أول القادمين من العرب القدماء إلى بلاد الشام) (1) واليبوسيُّون الذين هم فرع من العموريين ـ الكنعانيين، وسادت ثقافتهم وديانتهم ولغتهم وأشكال حياتهم. وحينذاك لم يكن للإسرائيليين وجود إلا في الروايات التوراتية التي تتحدث في وقت

---

(1) حول أصول العموريين ومواطنهم، انظر كتاب ألفرد هاليدار الذي عربه الدكتور شوقي شعث ونشرته دار الأبجدية بدمشق، 1993.

متأخر، في مطلع الألف الأول قبل الميلاد، عن تاريخ القدس حيث تزعم أن داوود الملك أخذ المدينة عنوة من اليبوسيين؛ والثابت أن المدينة استعصت على

المهاجمين ولم يتمكنوا إلا من أخذ الحصن الذي كان يعرف بحصن صهيون فقط(1)، وظلت المدينة بسكانها ومؤسساتها يبوسية، ولم يصلنا أي علم بهجرهم المدنية؛ إلا أن الزمن ساعد على فقد المدينة تحصيناتها وربما وقع سلم بين الطرفين، وتدعي روايات التوراة أن المدينة أصبحت يهودية وعاصمة لمملكة يهوذا؛ إلا أن ذلك إن وقع، لم يدم

---

(1) كامل العسلي (محرر)، القدس في التاريخ، ص. 19.

(4949/1)

أكثر من سبعين عاماً فقط

...

النصوص الكتابية والروايات التاريخية

... أمدتنا التنقيبات الأثرية بنص أثري ورد فيه ذكر لبعض أسماء حكام مدينة القدس الأوائل، وهو من نصوص اللغات المصرية من بداية الألف الثاني قبل الميلاد، حيث ورد فيه اسمان لأميرين هما: ياقر عمو وساز عنو، وقام عالم الآثار واللغات القديمة الأستاذ أولبرايت بتحقيق هوية الاسمين فقال إنهما اسمان عموريان(1). ويعتبر ذلك متوافقاً مع الأحداث التاريخية التي كانت سائدة؛

فقد كان سكان سوريا فلسطين في تلك الفترة من العموريين

---

(1) المصدر نفسه، ص. 29.

(العرب القدماء)، أي من سكان الجزيرة العربية القدماء. لقد بقى اسم العموريين متداولاً فترة طويلة من الزمن، وكانت اللغة السائدة آنذاك هي اللغة العمورية (الكنعانية). ويقول فيليب حتي حول الموضوع: »ما أن حل الألف الثاني قبل الميلاد حتى غدت سوريا الطبيعية عمورية بلغتها وسكانها وممالكها« (1).

... وهناك اسم »ملكي صادق« الذي تربطه الروايات التاريخية بالقدس وإبراهيم، ويعني هذا أن »ملكي صادق« كان يعاصر إبراهيم، وهو دون شك اسم عموري(2)

---

(1) فيليب حتي، تاريخ سوريا وفلسطين ولبنان، ج 1، مؤسسة فرانكلين، بيروت.

(2) كامل العسلي، المصدر السابق، ص. 29.

. واسم »عبدي حيبا« ملك القدس في فترة العمارنة (نصوص تل العمارنة) الذي كان ظاهرياً مخلصاً لفرعون مصر ورجلاً له في القدس. وهذا ما جعله ينجح في قتاله مع جيرانه في الجنوب اعتماداً على الدعم المصري له، هذه النجاحات جعلت عبدي حيبا في واجهة الأحداث.

فنجد(1)»سوار داتا« من كيلتي (حربة كيلا في جنوب القدس)، يكتب إلى فرعون مصر شاكياً »لابايا من شكيم«: »استولى على المدن. لقد مات الآن لابايا، ولكن هناك عبدي حيبا آخر وهو يأخذ مدننا« (2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 29.

(2) المصدر نفسه. حيبا هو اسم لرب حوري، وهذا يدل على التأثير الحوري في المنطقة.

(4952/1)

. وفي "الكتاب المقدس" ورد اسمان لملكين هما »أدوني بازق«، ويعني سيدي هو بازق؛ و»أدوني صادق«، ويعني سيدي هو صادق. وهما ولاشك اسمان عموريان. وعليه، فإن الشعوب التي سكنت القدس في بداية عهدها كانت من العموريين(1). ونحن نعرف أن

العموريين ظهروا على مسرح الأحداث التاريخية في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد في سوريا وبلاد ما بين النهرين، خاصة في نصوص سلالة أور الثالثة. وقد أطلق عليهم السومريون اسم »مارتو«؛ أما الأكاديون، فقد أطلقوا عليهم »عمورو«، وتعني بلاد الغرب أو الغربيون(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 30.

(2) المصدر نفسه؛ هاليدار، العموريون، ص. 3.

(4953/1)

.

... وتتحدث عالمة الآثار الإنجليزية السيدة كينيون أن شعباً جاء إلى فلسطين ابتداء من عام 2300 ق م هو العموريون، وكان شعباً بدوياً سرعان ما دخل المدن واستوطن فيها(1) تبعه شعب آخر من الأرومة نفسها هو الشعب الكنعاني نحو عام 1900 ق م وساعد على إنعاش وتطوير الحياة في المدن الفلسطينية وتحدث باللغة العمورية ـ الكنعانية. بعد ذلك بزمن طويل، أي في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، جاءت أقوام بدوية عرفت بالعبرانيين توطنت على هامش المدن

الفلسطينية وفي الريف وعاشت عمّالاً في تلك المدن، ولم

---

(1) المصدر نفسه.

تكن لديهم صناعة أو حضارة فاستعاروا عناصر الحضارة من سكان المدن الفلسطينية، أي من العموريين والكنعانيين. ومع الزمن ومن خلال التسلل الطويل، توصلوا إلى إقامة تنظيم شبه عشائري تحكمه التقاليد ببعض مناطق فلسطين، لم يستمر ذلك طويلاً وتلاشى واندثر ثم جاء الفرس والهلينسيون (الاسكندر والسلوقيون) والرومان ثم البيزنطيون، وأخيراً العرب المسلمون.

...

التنقيبات الأثرية بمدينة القدس(1)

---

(1) للاطلاع على ما نشر حول التنقيبات الأثرية بالقدس، انظر ما نشر في كتاب الأمريكية E.K. Vogel المعنون Bibliography of Holyland Sites، خاصة الصفحات ما بين 44 و49، 1974.

... في نهاية القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين الميلادي، حاول الصهاينة أو مؤيدوهم القيام ببعض أعمال كانت تهدف إلى تدمير الهوية التاريخية العربية للمدينة وحتى لفلسطين كلها، وكانت تلك الأعمال واضحة في أعمال التنقيب الأثري في القدس.

... بدأت الاستكشافات والتقيبات الأثرية في فلسطين في وقت مبكر، وتركزت بشكل خاص في مدينة القدس من أجل تعرّف تاريخها وآثارها. فأول تنقيبات أثريبة قامت فيها كانت بين أعوام 1865 و1887 برعاية صندوق الاستكشاف البريطاني بإدارة وارين (1Warren)()

---

(1) نشر وارين نتائج أعماله البحثية التي بدأت في شباط 1867 واستمرت حتى عام 1880 في كتاب بعنوان Recovery of Jerusalem، ثم نشر كتاباً آخر بعنوان Underground Jerusalem، ولكن أهم كتاب نشر حول أعمال وارين كان الكتاب الذي نشر عام 1884 من قبل صندوق الاستكشاف بعنوان Memoirs of the Survey of Western Palestine.

، ذلك الصندوق الذي كان قد تأسس لتوه عام 1865 م.
لقد تمكن وارين عن طريق الأنفاق والقنوات أن يتعرف أسوار مدينة القدس القديمة، على حد قوله. استأنفت جمعية »صندوق الاستكشافات«، الذي ورد ذكره آنفاً، أعمال التنقيب الأثري في الفترة الواقعة بين 1894 و1897 بإدارة بلس (F. S. Blis) وديكي (A. C. Dickie). وقد حاولا في تنقيباتهما تتبع الأسوار الجنوبية القديمة(1)

(1) هناك بحث جيد حول صندوق الاستكشاف البريطاني ونشاطه بفلسطين قدمته الدكتورة خيرية قاسمية إلى المؤتمر الثالث لتاريخ بلاد الشام الذي عقد في رحاب الجامعة الأردنية ونشر بالمجلد الثاني "جغرافية فلسطين وحضارتها" من أعمال المؤتمر المذكور من ص. 393 إلى ص. 447.

.

... وفي عامي 1909 و1911، قامت بعثة بريطانية بإدارة السيد ماكر (Marker). ومع أن الأهداف التي وضعتها البعثة كانت أهدافاً استعراضية أكثر منها علمية، فإنها تمكنت من تتبع الأنفاق والقنوات والفتحات في وادي قدرون المتصلة بنبع جيحون. وقد قام السيد ل. هـ فانسان (L. H. Vincent) بنشر نتائج تلك البعثة. وبمعونة البارون إدموند روتشيلد اليهودي، قام السيد ر. فايل (R. Weill) بإجراء تنقيبات أثرية واسعة في الطرف الجنوبي من الهضبة. كما جرت تنقيبات أخرى في الفترة ما بين 1923 و1925 برعاية صندوق الاستكشافات أيضاً

(4958/1)

وبإدارة السيدين ر. أ. س. مكاليسستر R.A.S. Macalister)) ودونكان ((J. C. Duncan، ثم بإدارة السيد كروفوت (J. W. Crowfoot) في الفترة ما بين 1927 و1929.

... لقد نقب مكاليستر وزميله في قمة تلة الهضبة واكتشف أجزاء من دفاعات قوية في الطرف الشرقي كما قام كروفوت بالتنقيب في منطقة في السفح الغربي

من الهضبة نفسها واكتشفت بوابة متصلة بدفاعات قوية(1). إلى جانب تلك التنقيبات، كانت تنقيبات السيد جونز (C.N. Johns) في قلعة القدس بإشراف

---

(1) انظر نتائج تلك التنقيبات في كتاب Excavation of Jerusalem (1894–1897).

(4959/1)

دائرة الآثار الفلسطينية في الفترة ما بين 1935 و1940.

... وفي الفترة ما بين 1961 و1967 جرت تنقيبات أثرية بإدارة بعثة أثرية مشتركة مؤلفة من المدرسة البريطانية للآثار بالقدس وصندوق الاستكشافات البريطانية والأكاديمية البريطانية والمدرسة التوراتية الدومينكانية ومتحف أونتاريو الملكي الكندي بإدارة عالمة الآثار الإنجليزية كاثلين كينيون، كانت تلك التنقيبات الأثرية بالمدينة القديمة بالقرب من باب دمشق ومن السور الثالث (؟) وعلى جبل صهيون. وخلالها جرى فحص نتائج التنقيبات السابقة عن طريق تطبيق طرق ومناهج

(4960/1)

حديثة في التنقيب الأثري(1). وفي هذه التنقيبات وغير بعيد عن موقف التنقيبات التي كان قد أجراها كروفوت (Crowfoot) عثرت كاثلين كينيون في عام 1963 على بيوت بيزنطية بنيت في المقالع الرومانية وخزانات المياه التي لها أدراج، وكانت تلك البيوت كبيرة ومبنية بشكل جيد(2). هذا، وقد كان السيد ديمتري برامكة ـ عالم الآثار الفلسطيني ـ قد عثر على كنيسة صغيرة مرصوفة

---

(1) Encyclopedia of Excavations in the Holyland, Vol. II, Oxford, pp. 591-593 (Yadin Y. (ed.

(2) Kathleen Kenyon, Digging up Jerusalem, 1967.

(1/4961)

الأرضية بالفسيفساء في التنقيبات الأثرية التي أجراها عام 1937 باسم دائرة الآثار الفلسطينية بالقرب من السور الثالث. وقد بلغت أطوال هذه الكنيسة 1,6 × 3,5 م، وقد اعتبر المنقب الكنيسة تعود إلى العهد

البيزنطي في القرن الخامس الميلادي(1). كما أجرى جونز عام 1937 باسم دائرة الآثار الفلسطينية أيضاً عدة تنقيبات في عدة مواضع تعود إلى فترة سيطرة الإفرنج على القدس العربية منها تنقيبات في إحدى الكنائس بوادي قدرون وفي القلعة العربية التي أصبحت مقراً لحاكم القدس

---

(1) Encyclopedia of Excavation, Oxford.

(1/ 4962)

الإفرنجي. ومن الأماكن الأخرى التي تم تعرُّفها وتعود إلى الفترة نفسها كنيسة القديس أنسطاس وكنيسة صغيرة بجانب كنيسة القديس اسطفان(1). وفي عامي 1956 و1962، قام الآباء البيض بالتنقيب الأثري في الأرض التي يملكونها بالحي الإسلامي بالمدينة القديمة بالقرب من كنيسة القديسة أنا (Anna) وعثروا على بعض اللقى التي تعود إلى العهد البيزنطي أيضاً(2). هذا، إلى جانب الكثير من التنقيبات الأثرية التي قامت بها المؤسسات الدولية.

...

التنقيبات الأثرية الإسرائيلية بالقدس

---

(1) Ibid., p. 619.

(2) Ibid., p. 626.

(1/4963)

... بعد العدوان الإسرائيلي على القدس واغتصابها عام 1967، قامت السلطات الأثرية الإسرائيلية بإجراء تنقيبات أثرية في عام 1968 عند الجدار الجنوبي من المسجد الأقصى، مخالفة بذلك المواثيق والأعراف الدولية التي تنص على الامتناع عن قيام أيّ تنقيبات أثرية في المناطق المحتلة عسكرياً؛ كما قامت بعد ذلك بتوسيع تنقيباتها الأثرية لتشمل الجانب الغربي من السور بالقرب من القوس المعروف بقوس روبنسون. وقد تبين، نتيجة التنقيبات في الموسم الأول على طول الجدار الجنوبي، أنها آثار عربية إسلامية باكرة (من الأمويين حتى

(1/4964)

السلاجقة)، وقبله كان العصر البيزنطي، وقبله العصر الروماني. وعلى الرغم من أن المنقبين الإسرائيليين

كانوا يحلمون بالعثور على آثار يهودية، فإن المكتشفات خيبت آمالهم؛ وكان أهمها المنشآت المعمارية الإسلامية الأموية في الزاوية الجنوبية الغربية من الحرم الشريف. فقد عثر هناك على ثلاثة أبنية ربما كانت قصوراً، لأنها تشبه القصور الأموية التي تنتشر في سوريا وفلسطين والأردن، وهي ذات أبراج مستديرة توضع في الزوايا. لقد تبين أن هذه القصور أعيد استخدامها مرة أخرى بعد ترميمها وتأهيلها للاستخدام الجديد للسكن بعد

(1/4965)

إعادة توضيبها في القرن التاسع، أي في العصر العباسي؛ إلا أنها تخربت في القرن الحادي عشر وأخذ الناس يستعملون حجارتها في بناء مساكنهم(1).

... وفي الفترة ما بين 1975 و1978 قامت السلطات الإسرائيلية بإجراء تنقيبات أثرية بالقلعة على طول السور الغربي، اكتشفت فيها قناة صرف على بعد 16 متراً من السور، وتبين أنها تنحدر نحو الغرب من نقطة تحت السور وقد بنيت جوانبها بالحجارة الغشيمة وغطيت برقائق حجرية ويبلغ طول القسم المكتشف من هذه القناة حوالي خمسة عشر متراً. وفي عام

(1) Encyclopedia Excavation, p. 612.

(1/4966)

1982 اكتشفت قسم جديد من تلك القناة إلى الشرق من سور المدينة. أما الجزء الذي يصل بين الجزءين المذكورين سابقاً، فهو ضيق يبلغ عمقه وعرضه حوالي 40 سم2.

... وبإشراف الجامعة العبرية بالقدس ودعم من الجمعية المسماة جمعية مدينة داوود، جرت تنقيبات أثرية عام 1981 في محاولة لتعرُّف التوضعات السكنية في المدينة من العصر الحجري النحاسي (الكالكوليتي) إلى عام 70 م. ومن خلال تلك التنقيبات، عثر على تحصينات المدينة التي تعود إلى العصر البرونزي الوسيط، أي إلى الفترة اليبوسية(1)

---

(1) B. Mazar, The Excavations in the Old City of Jerusalem Near the Temple Mount, Jerusalem, 1971, p. 1; and M. Bendou, The Area of the Temple Mount in the Islamic Period, pp. 97–102؛

... العابدي محمود، الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن، عمان، 1973، ص ص. 123 ـ 124.

(4967/1)

.

... هذا، إلى جانب تنقيبات أثرية قامت بها سلطات الاحتلال في عامي 82 و83 في المدينة القديمة وفي جبل سكوبس وفي جبل صهيون وفي المناطق المجاورة لمدينة القدس في خربة عين التوت والعيساوية. وفي عامي 81 و82 جرى مسح أثري عثر فيه على حد زعمهم على ثمانية وثمانين موقعاً أثرياً تشمل مستوطنات ومعاصر زيت ومزارع مسورة وأبراج مراقبة ومدافن ومحاجر وأفران كلس وتوضعات زراعية وحمامات. هذا، إلى جانب أدوات ولقى تعود إلى عهود ما قبل التاريخ من الدور الموستيري والدور الحجري القديم الأعلى وبقايا أبنية وأدوات من عصر ما

(4968/1)

قبل الفخار النيوليتي. وإلى الجنوب من تل الفول التي تقع على الحدود الشرقية من المنطقة الممسوحة، وإلى الجنوب من خربة الصومعة، عثر على كسر فخارية وأدوات من العصر الكالكوليتي ـ الحجري النحاسي. لقد سبق أن تعرف الأب نصر الله هذا الموقع عام 1936، حيث جمع حوالي ثلاثة آلاف أداة صوانية من الثقافة الغسولية، وبالقرب منها عثر على بيوت شبه دائرية قال عنها السيد نصر الله إنها تعود إلى العصرين الميغاليتي (Megalithic) والكالكوليتي (Chalculithic)؛ كما عثر على بقايا من العصور البرونزية والحديدية والفترة الهلنيسية

(4969/1)

والبيزنطية(1).

... ويندرج تحت هذا الأمر النفق الذي حفرته السلطات الإسرائيلية تحت الحرم القدسي الشريف؛ فهو يخدم التنقيبات الأثرية وأهدافها وبعدها السياحة. وكذلك مشروع النفق المزمع إقامته بدءاً من ساحة البراق. أما الأهداف التي من أجلها قامت تلك التنقيبات، فهي عديدة ومتشعبة وتختلف باختلاف الأشخاص والمؤسسات والأهداف التي دفعتها للقيام بتلك التنقيبات الأثرية.

(1) Excavations and Surveys, Vol. I, pp. 49–66.

(1/4970)

... إن بقاء مدينة القدس الشريف حية على الدوام في أذهان أصحاب الديانات السماوية الثلاث هو الذي دفع البعض للقيام بإجراء دراسات ومسوح وتنقيبات أثرية هدفها تعرُّف تاريخ المدينة عبر العصور وأهميتها الروحية والاستراتيجية. لقد سعى المسلمون والمسيحيون واليهود على الدوام لزيارة بيت المقدس والتبرك بزيارة المقدسات هناك ومشاهدتها. وبسبب ذلك، جرى التنافس بين أصحاب الديانات الثلاث على امتلاك القدس الشريف، ذلك التنافس الذي بلغ حد الحرب، في حروب مشهورة في التاريخ. كيف لا ومن يملك القدس يملك أقدس بقعة في

(1/4971)

العالم؛ كما اتخذ التنافس مظاهر أخرى، منها التنقيبات الأثرية التي قام بها الصهاينة ولا يزالون يقومون بها في محاولة منهم لدعم نظرية الحق التاريخي المزعوم

الذي ينادي به ساستهم في محاولة تثبيت شرعية الكيان!! إلا أنهم فشلوا حتى الآن في العثور على شواهد تؤيد ذلك وقد تسببت هذه النظرية القصرية الصهيونية للتراث الحضاري في القدس خاصة، وفي فلسطين عامة، في تخريب كثير منه وفي اعتماد تفسيرات تاريخية خاصة.

... واعتماداً على ما سبق عرضه من معلومات تاريخية وكتابية استقيت من المصادر التاريخية والتنقيبات

(4972/1)

الأثرية، نخلص إلى ما يلي:

إن القدس عربية النشأة والثقافة والسكان، أسسها وقام على تطويرها وتطوير مؤسساتها الثقافية والدينية العموريون والكنعانيون واليبوسيون، وهم من العرب القدماء الذين نزحوا من الجزيرة العربية أو من سورية. وهي لا تختلف في تطورها عن المدن السورية أو الفلسطينية الأخرى.

لم يسبق للعبريين أن أقاموا عاصمة خالصة بالقدس، حيث لم يثبت تاريخياً أنهم احتلوا القدس. تتحدث الروايات التاريخية عن احتلالهم لقلعة صهيون بالقدس

فقط وأكبر دليل على ذلك هو بقاء سكانها اليبوسيون فيها بكثافة في الأعمال

(1/4973)

التجارية أو في الجيش أو في المؤسسات الدينية.
ويعني هذا أن المدينة ظلت عربية في مجتمعها وثقافتها ولغتها.
لم يتوصل المنقبون الأثريون إبان الحكم العثماني أو الانتداب البريطاني أو الاحتلال الإسرائيلي إلى العثور على بقايا عبرية خالصة. إلا أن كثيراً من تلك فسرت خطأً، وقد أظهر علماء الآثار المنهجيون بطلان تلك التفسيرات وخطأها.
إن أكثر المخلفات الحضارية الظاهرة في القدس الآن هي مخلفات حضارية عربية إسلامية ومسيحية مثل قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى وكنيسة القيامة، إلى جانب ما في المدينة القديمة من

(1/4974)

خانات ومدارس وأسواق وجوامع وتكايا ومستشفيات وغيرها. وهذا يفسر سبب الهجمة الصهيونية على تغيير البيئة التاريخية للمدينة وطمس معالمها.

ثبت بالدليل التاريخي المؤكد أن العرب المسلمين حموا المقدسات الخاصة بدينهم وبالأديان الأخرى من العبث.

وعليه، فمن حقهم استمرار هذه المهمة التاريخية، أي من حقهم الاستمرار في القيام بدورهم التاريخي في حماية المقدسات الدينية في مدينة القدس ودعوة العالم لتأييد ذلك الحق.

وحتى تظل القدس عربية إسلامية ومسيحية في بيئتها التاريخية، فإنه من الضروري تنشيط البحوث التاريخية

والدراسات المعمارية التي كانت تقوم بها المؤسسات العربية والدولية، وتصحيح الأخطاء الفادحة التي وقعت.

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية والمعربة

أبو طالب، محمود، آثار الأردن وفلسطين في العصور

القديمة. أضواء جديدة، عمان، 1978.

العابدي، محمود، الآثار الإسلامية في فلسطين والأردن، 1973.

العسلي، كامل (محرر)، القدس في التاريخ، عمان، 1973.

...

طومسون، توماس، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، تعريب صالح علي سودام، بيروت، 1995.

(4976/1)

حتي، فيليب، تاريخ سوريا وفلسطين ولبنان، ج 1: العموريون، مؤسسة فرانكلين ودار الطليعة، بيروت.

شعث شوقي، أضواء على الأبحاث الأثرية بفلسطين، الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، المجلد 2، جامعة حلب، 1983.

الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول مادة »آثار« ومادة »علماء الآثار« (شوقي شعث). القسم الثاني، قسم التاريخ، »القدس« (كامل العسلي).

هاليدار، ألفرد، العموريُّون من هم؟ وما هي مواطنهم؟، تعريب د. شوقي شعث، دمشق، 1993.

ثانياً: المصادر والمراجع الأجنبية

(4977/1)

Kenyon, K. M., Archaeology in the Holyland, 1979.

– – , Digging up Jerusalem.

– – , Jerusalem Excavation, 3000 Years of History, London, 1967.

Yadin, Y. (ed) Jerusalem revealed.

Encyclopedia of Excavation, Vols. 1–4.

Moorey, Roger, Excavations in Palestine, 1981.

Warren, Memoirs of the Survey of Western Palestine (1867–1884).

– – , Underground Jerusalem.

Bliss, F. S. and Dickie, A. C., Excavations of Jerusalem (1894–1897).

Mazar. B., The Excavation in the Old Jerusalem Near the Temple Mount,

(4978/1)

Jerusalem, 1971.

Ben Dou, M., The Area of the Temple Mount in

the Islamic Period. The Omayyed Structures
., I-I1971Near Al Haram Al-Sharif,
Encyclopedia of Excavation the Holyland,
.1975Oxford,
.1982, 1Excavations and Surveys, Vol.

(4979/1)

القدس والعرائش مقارنة بين موقفين من ضياع مدينتين

... ... الدكتور عبد الكريم غرايبة
... ... الجامعة الأردنية – كلية الآداب – عمان

جاء في رواية مسيحية قديمة جرت أحداثها قبل الهجرة، وصف دقيق للاحتلال الفارسي الساساني للقدس. فقد وصف الراهب أنبا أسطراط من المقيمين في دير القديس مارسابا. "خراب القدس وأخذ الصليب وسيبي الرعية" على يد الفرس "الأعداء الذين سلطهم الله على المسيحيين" حدث ذلك في السنة الرابعة من حكم هرقل. ثم بعد عشرين يوما "دخلوا المدينة فلما دخلوا كل من كانوا يلقونه كانوا

(4980/1)

يقتلوه" ووصف الراهب فرح اليهود الشديد بما حدث لأنهم كانوا باغضين للنصارى ومرتبة اليهود كانت عظيمة عند الفرس وأبناء النصارى اختاروا أن يهلكوا ولا يكون لهم مع اليهود نصيب ولا معاش واليهود كانوا يشترون النصارى في البركة بالدراهم ويذبحونهم قتل الخراف". وبعد ستة عشر سنة من خراب القدس وبعد عشرين سنة من ولاية هرقل أعيد الصليب إلى القدس بعد انتصار بيزنطه على الفرس. بقيت القدس ساسانية من عام 614م إلى عام 8 هـ/629م، أي من العام الرابع للبعثة إلى العام الثامن للهجرة. ويتبين أن البيزنطيين لم يكونوا جيرانا

(4981/1)

للعرب والمسلمين خلال هذه الفترة الطويلة إلى أشهر قليلة قبل فتح مكة. يثير هذا التساؤل حول هوية خصوم العرب في مؤته. وبعد أربعة أعوام فقط من جلاء الفرس وعودة البيزنطيين وإعادة الصليب إلى القدس كانت جيوش العر المسلمين تجوب بلاد الشام محررة القدس

ودمشق. أي أن الحكم البيزنطي لم يستقر في بلاد الشام منذ بداية حكم هرقل أو منذ السنة الرابعة للبعثة.
وأصبحت القدس عربية مسلمة عام 17 هـ/638م ولم يضطهد أحد ولم يقتل إنسان.

(1/4982)

وبعد استقرار الحكم الإسلامي في بلاد الشام بسبعين سنة كان المسلمون قد مدوا سلطانهم غربا إلى المحيط الأطلسي وامتدوا شرقا إلى الصين والهند. وقطعوا بحر الزقاق، مضيق جبل طارق، إلى إسبانيا وتوغلوا في فرنسا ووصلوا ما يعرف الآن بسويسرا وإيطاليا. ولكن عدوهم التقليدي بقي مرابطا على بعد خمسمائة كيلومتر إلى الشمال من عاصمة الأمويين دمشق. وبقيت مدن الشمال مهددة رغم إقامة الثغور ثم العواصم.
وينبغي الإشارة إلى ظاهرتين مهمتين للتوسع الإسرمي. إذ لم يقض المسلمون في أي بلد دخلوها على دولة وطنية باستثناء الدولة

(1/4983)

الساسانية. وفي كل بلد عربي كانوا محررين من مستعمر. وأخرجوا الغوط الجرمان. أما الظاهرة الثانية فهي الأهم. فقد استمر وجود المسيحيين واليهود في البلاد المفتوحة على حاله ولم يغادر رجال الدين المسيحي البلاد فرار كما فعلواو زمن الاحتلال الساساني ولم يقاس أحد من اضطهاد أو سوء معاملة. وخير دليل على ذلك هو استمرار وجودهم في البلاد. وجاز للمسيحيين في بلادنا وحدها أن يفتخروا بأنهم أتباع الديانة الوحيدين الذين استمر وجودهم رغم انتشار دين جديد. وقد أبيد أتباع الديانات الأقدم في البلاد التي انتشر فيها دين

(1/ 4984)

جديد غير الإسلام. وإذا افتخر المسيحيون العرب بذلك فإن للمسلمين العرب أن يفتخروا بهذا البرهان القوي على عدالتهم. وإذا ادعى أحد المسيحيين شاكيا بأنه كان مواطنا من الدرجة الثانية فكلنا نشكو شكوى مماثلة وكلنا كنا مواطنين من الدرجة الثانية.

وتعرض البيزنطي لتهديد عربي شديد في عهد المعتصم، كان أقله أهمية احتلال المعتصم لعمورية. فقد عادت عمورية بيزنطية بعد عامين من احتلال المعتصم لها بينما استمر الوجود العربي في صقيلية وكريت.

وقلقت بيونطة من انتصارات العرب في صقيلية وجنوب إيطاليا واحتلالهم كريت أكثر من

(1/4985)

قلقها من قوة الخلافة في بغداد.

وانتقل البيزنطيون إلى الهجوم والتوسع في بلاد الشام خلال النصف الثاني من

القرن العاشر ميلادي (4 هـ) فقد انتصروا على سيف الدولة واحتلوا عاصمته حلب،

كما احتلوا جزيرة كريت بعد أن استمر الوجود العربي الإسلامي منها قرنا وثلث

(282–961) واحتل البيزنطيون أنطاكيه في

996/10/28 أي زمن وصول

الفاطميين إلى بلاد الشام في عهد المعز لدين الله

وقائده جوهر الصقلي. ولم تنجح محاولات الفاطميين

لحماية البلاد من البيزنطيين الذين أرقوا حمص وأخذوا

بعلبك وأخضعوا بيروت وصيدا وعكا. ودخل

(1/4986)

الإمبراطور البيزنطي طبريا ووقف على جبل طابور وهدد القدس.

تغيرت الصورة بعد قرن. فقد هدد النورمان الدول القائمة في الغرب على نطاق واسع واحتلوا مناطق كانت خاضعة للعرب والبيزنطيين في جنوب إيطاليا وصقيلية ومواقع على الساحل الإفريقي الشمالي. أقدم جيش نورماني بقيادة وليم الفاتح على احتلال إنجلترا عام 1066م. واستخدم البيزنطيون مرتزقة نورمان في جيوشهم لمحاربة المسلمين ولكن السلاجقة والمرابطين قلبوا الموازين. فقد انتصر ألب أرسلان السلجوقي التركي على جيش بيزنطة من مرتزقة نورمان وفرنجة وأتراك واستعاد

(4987/1)

السلاجقة مدن أنطاكية واللاذقية بعد أن كانت خاضعة لبيزنطة أكثر من قرن، كذلك عمل جيش مسلم تألف من بربر على إنقاذ المسلمين في الأندلس في معركة الزلاقة عام 1086/469 ووحد المسلمين تحت راية السلطان المرابط أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذي أسس مدينة مراكش عاصمة له ومدينة تمبكتو في مالي عام 1100/493 على نهر النيجر "التي لم تدنسها عبادة

الأوثان قط ولا سجد على أديمها لغير الرحمن".

وساءت الأحوال أثناء ذلك في المشرق العربي. فقد وصل الإفرنج الصليبيون

(1/4988)

إلى بلاد الشام في صيف 490/1097 واحتلوا أنطاكية في الثالث من حزيران

1098 بعد حصار طويل استمر أكثر من نصف عام، ثم واصل الإفرنج تقديمهم

جنوبا على الطريق الساحلي إلى القدس ولكن عجزوا عن أخذ طرابلس ووصلت

الحملة إلى القدس في السابع من حزيران 491/1099

وأخذوها بعد حصار استمر

أربعين يوما ضحى الجمعة 23/22 شعبان 492/ منتصف تموز 1099. ودافع

الجند السوداني ببسالة عن المدينة. واستمر القتال في الشوارع أسبوعا"، فلما سمع

أهل بغداد هذا الأمر الفظيع هالهم وتباكوا. ونظم أبو يعد الهروي كلاما قرئ في

(1/4989)

الديوان وعلى المنابر فارتفع بكاء الناس ..." وعلق الناس فقالوا "واختلف السلاطين
فتمكن الإفرنج من البلاد" وفشلت محاولات الوزير الفاطمي الأفضل بن بدر الجمالي
لاستعادة القدس، وكان يوسف بن تاشفين أثناء ذلك يقوم بعبوره الرابع إلى الأندلس
ليعود بعدها وينشغل ببناء تمبكتو بعد عام من ضياع القدس، أي أن النكسات الكبرى في المشرق قابلتها انتصارات في المغرب رغم أن العدو واحد.
فلماذا هذا التراجع الكبير في بلاد الشام رغم الانتصارات في الأندلس وقد يقال إن الأندلس والمغرب بعيدان عن بلاد الشام لذا يصعب إرسال المدد

(4990/1)

من مراكش إلى القدس، ولكن المسافة لم تكن سببا معقولا، فإن عددا من أمراء الإفرنج الذين برزوا في حرب المسلمين في بلاد الشام كانوا قد برزوا في حرب الأندلس فقد قاومت طرابلس الشام عشر سنوات محاولات صنجيل كونت تولوز الذي في حروبه الأندلسية. كذلك

ساهم في الحربين دوق اللورين وشقيقه بلدوين، واشترك في الحرب عدد من نبلاء النورمان بينهم زوج ابنة وليم الفاتح ووالد ستتيفن ملك الإنجليز وبو همند ابن روبرت ملك صقلية النورماندي وشقيق روجر مصطحبا ابن أخيه طنكري، وروبرت كونت بروفسال ومعه محاربو القوط والجاكسون، أي

(1/4991)

أنهم جميعا تركوا قتال العرب في الأندلس وصقلية وجاؤوا لحربهم في فلسطين قاطعين مسافات لا تقل عن المسافة من المغرب إلى فلسطين.

وظهر في المشرق مفهوم جديد للقوة العسكرية، فقد اعتمد حكام أغراب على قوة عسكرية أفرادها غرباء مرتزقة أو مماليك وكاد أن ينتهي عهد الجنود الوطنيين والقبليين، وازدادت الهوة بين الحاكم والمحكوم اتساعا، ولم يعد غريبا أن يجهل الحاكم وجنده وأركان دولته لغة المواطنين الذين أطلقوا أحيانا على الجند اسم الخرس لأن كلامهم غير مفهوم.

ودفع المواطنون الضرائب مكرهين بعد أن حملهم الحاكم على

(4992/1)

الاقتناع بأنهم رعية. ولم يبال الرعايا بمصير الحاكم ولم تقلقهم هزائمه أو انتصراته. ولم تعد قوة الحاكم مرتبطة بمساحة البلد أو عدد ساكنه بل على مقدار ما يجبيه الحاكم وينفقه على شراء الجنود والمماليك لذا صمدت طرابلس وهي دولة مدينة عشر سنوات بينما سقطت المدن التابعة للفاطميين بسهولة، واستطاع حاكم صغير مثل المملوك طغتكين أن يحمي دمشق ورجاه الفاطمي أن يحمي صور، وشاهد الرعايا ما يحدث فاكتفوا بالمشاهدة والدعاء والهجرة.

(4993/1)

وبقيت القدس بيد الإفرنج تسعين سنة (1099/7/15– 1187/10/2، 22 شعبان 492/27 رجب 583) أي حوالي 91 سنة قمرية أو 23200 يوما. وهب أكثر حكام المشرق لمساعدة صلاح الدين رغم مشاعر العداء والشك في نفوسهم ومخاوفهم من أطماعه، ولكن الواجب الديني علا على كل المشاعر، وحرم صلاح الدين نفسه من مساعدة سلطان المغرب القوي يعقوب المنصور الموحدي (1184–

1199) لأن عامل صلاح الدين في طرابلس الغرب قراقوش الأرمني أيد ثورة ابن غانية. وانتصر الموحدي على ابن غانية وقراقوش عام معركة حطين، لذا لم يجد سفير صلاح الدين أذنا مصغية

(1/4994)

لاستغاثاته في مراكش وكل ما ناله "جنود من دعاء" من شيوخ الموحدين.

وتعرضت القدس للتهديد والاحتلال طوال الخمسين سنة التالية لتحريرها، فقد هددها الإفرنج في عهد صلاح الدين واقترب منها الملك النورماني ريكاردوس ملك إنجلترا ولكن أمكن صده، وتعرضت للخطر ثانية عام 618/1219 عندما احتل الإفرنج دمياط، وبذل المسلمون "بيت المقدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجبلة وجميع ما فتحه صلاح الدين من الساحل ما عدا الكرك والشوبك ليسلموا دمياط ويرحلوا عن الديار المصرية، فلم يرضوا وطلبوا .. واضطر المسلمون إلى قتالهم لما يريده

(1/4995)

الله تعالى من النصرة عليهم وسلامة القدس والبلاد الساحلية منهم " وخاف صاحب دمشق الملك المعظم بن العادل على القدس فأمر بخراب أسوارها عام 616، وتم للمسلمين تحرير دمياط في 19 رجب 618 لعد احتلال دام ثلاثة سنين وشهورا.

وتعرضت القدس للخطر بعد ست سنوات من تحرير دمياط وذكر ابن واصل أنه لما "تأكدت الوحشة بين الملك المعظم وأخويه أرسل الأمير فخر الدين بن صدر الدين شيخ الشيوخ إلى الإمبراطور فردريك صاحب ألمانيا وصقلية يطلب منه القدوم إلى عكا ووعده أن يعطيه البيت المقدس وبعض الفتوح الناصرية، وقصد بذلك إشغال

(4996/1)

أخيه الملك المعظم". وقدوم فردريك إلى عكا في صيف 1228/625.

وفردريك الثاني هو إمبراطور ألمانيا وملك صقلية. وهو ابن الإمبراطور هنري السادس وأمه ابنة روجر الثاني النورماندي ملك صقلية. تولى بعد وفاة الإمبراطور أوتو الرابع السكوني ابن أخت يكاردوس قلب الأسد، أي أن النسب مترابط يشدهم إلى غزو فلسطين ودار الإسلام.

وتزوج فرديريك ابنة يوحنا الذي قاد حملة دمياط ومع ذلك يردد المؤرخون العرب أنه كان محبا للإسلام والمسلمين وأن البابا قال عنه إنه قرصان محمدي. وليس فارسا صليبيا رغم أنه جاء إلى فلسطين إيفاء لنذر

(1/4997)

صليبي.

ورافق فردريك قوة فرسان صغيرة أكثرها ألماني.

وينتمي كثير منهم إلى قوة

فرسان التيوتون التي أسسها فرديريك لتغزو الأقطار السلافية لاسيما بروسيا التي

حولوها من سلافي بروسي إلى ألماني وجعلوا كلمة بروسيا رمزا للعنجهية الألمانية. ووفى الكامل بعهده وسلمه القدس وممرا إلى عكا. ودخل الإمبرطور القدس يوم السبت 17 آذار 1229.

وشرع الفرنج في عمارة صيدا. وكانت مناصفة وسورها خرابا فعمرها واستولوا عليها وأزالوا عنها حكم المسلمين كما يروي ابن واصل الذي رافق الأحداث. وكان هذا خرقا للاتفاق السابق وحدث قبيل

(1/4998)

توقيع الاتفاق الجديد. واشترط الكامل أن يبقى سور القدس خرابا لا يجدد "وأن لا يكون للفرنج شيء من ظاهره البتة بل يكون كل قراياه للمسلمين ... عليها وال مقامه بالبيرة وأن الحرم بما حواه يكون بأيدي المسلمين وشعار المسلمين فيه ظاهر ويتولاه قوام المسلمين ..."

ونادى منادي السلطان بخروج المسلمين من القدس. ووقع في أهل القدس "الضجيج البكاء وعظم ذلك على المسلمين وخزنوا الخروج القدس من أيديهم وأنكروا على الكامل هذا الفعل واستشنعوه، إذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الكفار أعظم مآثر عمه". وهجر المدينة

(1/4999)

المسلمون والمسيحيون الشرقيون فغدت شبه مهجورة. وشاهد بعض الفضوليون فردريك وهو يضع التاج على رأسه في كنيسة القيامة بغياب كامل للقساوسة وقدروا ثمنه لو كان عبدا يباع في سوق الرقيق بمائتي درهم.

وشاعت الأخبار بتسليم القدس والكامل محاصر لابن أخيه

الناصر داود صاحب دمشق. فقامت قيامة الناس. ووصل رسول صاحب أربل يشير بأن يسير الكامل "رسولا إلى الخليفة كي ينعي البيت المقدس والعذر عنه ... فجهز فخر الدين بن شيخ الشيوخ رسولا للخليفة"، وفخر الدين هو السفير المحرض للإمبراطور وهو الذي وقع معاهدة التسليم. واشتد

(5000/1)

البكاء "وعظم الصراخ وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل وأذنوا على بابه في غير وقت الآذان، فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء واشتد الإنكار وكثرت الشناعات عليه في سائر الأقطار ... وقامت القيامة في جميع بلاد الإسلام واشتدت العظايم بحيث أقيمت المآتم".

واستغل صاحب دمشق المحاصر هذه الواقعة لينال عطف الناس وتأييدهم له

ضد عمه. وتقدم الناصر إلى الشيوخ شمس الدين يوسف سبط الشيخ جمال الدين

بن الجوزي الواعظ وكان له قبول عند الناس في الوعظ، في أن يجلس في جامع دمشق

(5001/1)

للوعظ ويذكر فضائل القدس وما ورد فيه من الأخبار والآثار وأن يحزن الناس ويذكر ما في تسليمه إلى الكفار من الصغار للمسلمين والعار. وقصد بذلك تغيير الناس من عمه ليناصحوه في قتاله. فجلس شمس الدين للوعظ كما أمره وحضر الناس لاستماع وعظه وكان يوما مشهودا وعلا يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم.

وحضرت أنا – ابن واصل – هذا المجلس ومما سمعته يومئذ قصيدة تائية وازن بها قصيدة دعبل الخزاعي :

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ... ومنزل وحي مقفر العرصات

(5002/1)

على قبة المعراج والصخرة التي ... ... تفاخر ما في الأرض من صخرات

وروى شمس الدين سبط ابن الجوزي الحادثة بشكل مماثل فقال:

"وأشار الملك الناصر دواد بأن أجلس بجامع دمشق وأذكر ما جرى على بيت المقدس فما أمكنني مخالفته. فرأيت من

جملة الديانة والحمية للإسلام موافقته. فجلست بجامع دمشق وحضر الناصر دواد على باب مشهد علي وكان يوما مشهودا لم يتخلف من أهل دمشق أحد. وكان من جملة الكلام: انقطعت عن بيت المقدس وفود الزائرين يا وحشة المجاورين كم كانت لهم في تلك الأماكن من ركعة. ولو تقطعت قلوبهم أسفا لما شفت.

(5003/1)

أحسن الله عزاء المؤمنين. يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة، تسكي العبرات لمثلها وتنقطع القلوب من الزفرات، لمثلها تعظم الحسرات".

وفوجئ الكامل بوفد من مسلمي صقلية يشكو له ما فعله صديقه بهم. فقد قصده الحاج أحمد بن أبي القاسم المعروف بالرمان من مشايخ غلو من جبال صقلية. وذكر له أن الجزيرة كلها بيد الإمبراطور إلا الجبال التي اعتصم بها المسلمون. وقد غدر الإمبراطور بأصحاب الجبال الأحد عشر فنقل مائة وسبعين ألفا إلى البر الكبير "وأخرجهم من أوطانهم وأخذ أموالهم وقتل من الشطار مثلهم" وخلت هذه الجبال

(5004/1)

من المسلمين. وطلب الحاج أحمد من السلطان الكامل التوسع للسماح لهم بالهجرة إلى مصر أو غيرها بأمان.

وتحدث كثيرا عن العذاب الذي أوقعه الإمبراطور بزعمائهم.

وقام بتحرير القدس ثانية ثم تسليمها مرة أخرى الملك الناصر داود. فقد

حاصر الناصر الفرنج في القدس عام 637/1239 وصابر حتى سلمت إليه بالأمان.

فهدم القلعة وبرج داود واستولى على القدس الشريف وطهره من الفرنج

ومضى من كان فيه إلى بلادهم. واتفق عند هذا الفتح وصول رسول الخليفة وصحبته جمال الدين بن مطروح.

ونظم جمال الدين قصيدة في مدح الناصر داود ذكر فيها

(1/5005)

اشتراكه مع عمه صلاح الدين بلقب الناصر.

المسجد الأقصى له عادة ... ... سارت فصارت مثلا سائدا

إذا غدا بالكفر مستوطنا ... ... أن يبعث الله له ناصرا

فناصر طهره أولا ... ... وناصر طهره أخرا

وما زلنا وأواخر القرن العشرين نأمل ببروز هذا الناصر إنه قادر على كل شيء ولكن ناصر الذي حرر القدس سلمها ثانية للإفرنج بدون قتال عام 641/1243.

سلمها "على أن يكون الحرم بما فيه من المزارات لهم، وعلى تسليم طبرية وعسقلان وكوكب ... فيتسلم الإفرنج ذاك كله، وعمروا قلعتي طبرية وعسقلان وحصنوهما ... ودخل الفرنج القدس وتسلموا

(1/5006)

الصخرة المقدسة والأقصى وما في الحرم الشريف من مزارات". وعدهم الناصر صاحب الكرك والصالح صاحب دمشق والمنصور صاحب حمص بجزء من مصر عندما يتم التغلب على الملك الصالح نجم الدين. ولكن عسكر نجم الدين بمساعدة الخوارزميين هزم الفرنج ومن حالفهم "وأخذت الفرنج سيوف المسلمين فأفنوهم قتلا وسبيا ولم يفلت منهم إلا الشارد والنادر ... ووصل أسرى الفرنج راكبين الجمال والمقدمون على خيولهم" وأبى الخليفة المستعصم، آخر بني العباس في بغداد، أن يؤيد ملوك الأيوبيين في حلفهم مع الإفرنج. وروى المنصور صاحب حمص "أوقع الله في

(5007/1)

قبي أنا لا ننتصر لا نتصرانا بالكفار على المسلمين".
ووصف ابن واصل تسليم القدس للفرنج عندما مر بها في طريقه إلى مصر فقال"وسافرت في أواخر هذه السنة (651 – ربيع 1244) إلى الديار المصرية. ودخلت بيت المقدس ورأيت الرهبان والقسوس على الصخرة المقدسة وعليه قناني الخمر برسم القربان. ودخلت الجامع الأقصى وفيه جرس معلق. وأبطل بالحرم الشريف الآذان والإقامة وأعلن فيه الكفر. وقدم الملك الناصر داود القدس في ذلك اليوم الذي زرت فيه المقدس، ونزل عزيبي القدس فلم أجتمع به خفية أن يصدني عن الوصول إلى الديار المصرية".

(5008/1)

وكان ابن واصل محبا مخلصا للناصر لولا هذا الحادث الرهيب. ولكن الاحتلال الجديد لم يدم أكثر من سنة. إذ اجتاح الخوارزميون القدس وذبحوا الفرنج عن بكرة أبيهم.
هكذا كان الحكام. قال المؤرخون عنهم "ولا يستغرب

في حقهم أن يهدموا أساس الشريعة ليبنوا منارة رياستهم. فشراع أفئدتهم تلعب بها رياح الشهوات فتلقي سفينة قلوبهم على بحر القنوط من رحمة الله". وسيتبين أن ما فعله الملوك الأيوبيون في المشرق مماثل لما فعله السادة السعديون في المغرب عندما تخلوا عن مدينة العارئش.

(5009/1)

فقد أصدر السلطان المولى إسماعيل العلوي مرسوما غريبا موجها إلى أهل تمبكتو في مالي. وتمبكتو مدينة أسسها المرابطون بعد سنة من ضياع القدس الأول. أما المرسوم السلطاني فقد صدر بعد ذلك بستة قرون – في 22 ربيع أول 1103 الموافق الثالث عشر من كانون الأول 1691، وينص على منع "لبس السباط الأسود" ويأمر بلبس السباط الأصفر "ما قيل من أن الناس اتخذوا النعال السود منذ استولى النصارى على العرائش على يد المأمون السعدي" حدادا على المدينة. واستمر الحداد ثمانين عاما.

(5010/1)

وكانت العارئش مدينة خربة من 1269/668 – 1473/910، حينما استولى عليها البرتغاليون وعمروها. فأخرجهم المنصور السعدي عام 1578/986 بعد نصره في المخازن. وأقدم ابنه المأمون الشيخ على تسليمها للإسبان في 4 رمضان 20/1019 تشرين الثاني 1610، مثيرا بذلك فتنة وتساؤلات خطيرة. فقد أراد المأمون من الفقهاء أن يفتوا بأن فداء المسلمين لا سيما أولاد أمير المؤمنين من يد العدو الكافر يجيز إعطاء الكافر بلدا من بلاد المسلمين. ورفض الفقهاء بأشكال مختلفة إصدار الفتوى باستثناء محمد بن قاسم بن القاضي. واختفى إمام القرويين

(5011/1)

وخطيبها المفتي أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد المقري (1631/1041) صاحب "نفح الطيب" وهاجر إلى المشرق 28 رمضان 1027. ومات في مصر رجب 1041. ورفض الشيخ أبو عبد الله بن الشيخ أبي الحسن على الحاج الأغصاوي من بلدة غصاوة، أن يفتي لأمير المؤنين بما أراد. وقال الشيخ الأغصاوي للسلطان "لو حمل أهل الغرب خراجا يدفعونه للنصارى في فكاك المأسورين لكان أهون". فخالفه السلطان بأنه لابد من بيع المدائن

المذكورة. فصرح الأغصاوي بأن المأمون "تنقض بيعته بهذا السبب". فأنفذ السلطان إليه قوة أتت به وقتل صبرا وضربا

(5012/1)

وشهيدا "وقبره شهير بطالعة فاس يزار ويتبرك به".
وفر عدد من العلماء إلى البادية واختفى آخرون.
وكان ممن أفتى بجواز تسليم العرائش، الفقيه محمد بن قاسم ابن القاضي واختفى بعد الحادثة خوفا ثم ظهر.
وهجم عليه العامة في الجامع "عند العشاء يوم الإثنين 21 حجة 1140/ وقتلوه ضربا. نقموا عليه وحقدوا بسبب تعلقه "بأغراض فاسدة وأمور واهية لم يقبلها أحد".
وبدأ السلطان الشيخ المأمون بن المنصور جولة تعسفية في المناطق الشمالية. واستولى على تطاوين وأخرج منها "كبيرها المقدم المجاهد أبا العباس أحمد النقيس". ولم يزل يجول

(5013/1)

ويعسف أهلها إلى أن ملته القلوب وتمالا أشياخ على قتله لما رأوا من انحلال عقيدته ورقة ديانته وتمليكه ثغر الإسلام للكفار، ففقتك به المقدم أبو الليف في وسط محلته بموضع يعرف بفج الفرس وبقي صريعا مكشوف العورة أياما حتى خرج جماعة ... "فحملوه مع من قتل من أصحابه وبعض أولاده ودفونهم" ... خامس رجب سنة 1022.

وبقيت العرائش بيد الإسبان إلى أن تم تحريرها في عهد المولى إسماعيل العلوي. واستسلمت الحامية الإسبانية يوم الأربعاء الثامن عشر من المحرم سنة إحدى ومائة وألف. ونشر المولى إسماعيل بيانا وزعه على نطاق واسع

(5014/1)

للإعلان عن تحرير العرائش. وتلقى التهاني من كثيرين كان من أبرزهم أول شيخ للأزهر "الشيخ الكبير العالم الشهير الفقيه المشارك العلامة ملحق الأحفاد بالأجداد أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخرشي من آل صباح الخير ..."، الذي أهدى السلطان شرحه على صغرى الشيخ السنوسي بعد الفراغ من تأليفه "يتحفه به ويهنئه بفتح العرائش ويذكر له فرحه بذلك – ويمدحه ...".

وأجابه السلطان "بمكتوب بديع من إنشاء بعض أدباء دولته" اختتمه بقوله "وأنا أيها الماجد الدار والقطب الذي عليه بين أفاضل وقته المدار منذ ولانا الله تعالى أمور

(5015/1)

عباده وأقامنا فضلا منه لحياطة دينه وكلاء بلاده، لم نزل نجتهد في جمع الكلمة بحسب الإمكان ونجد في حسم مادة البغي بكل محل من هذه الآفاق الغريبة ونحتفل بطهارة أديم الأرض من ردى الشرك ونبتهل في استئصال شأفة أهل الضلالة".

يستنتج من كل هذا أن الرأي العام في المشرق والمغرب استنكر تسليم المدن.

ولكن طريقة الاستنكار كانت مختلفة. ففي المشرق بكى الناس وأذنوا في غير أوقات

الأذان وألقوا المواعظ دون أن يتهموا الحاكم بكفر أو بخيانة. قبلوا الأمر الواقع محتجين مستنكرين مطيعين. أما في المغرب فقد استنكر الناس

(5016/1)

وتحركوا بعنف. فقد أفتى

الفقهاء بإسقاط بيعة الحاكم المتخاذل مما اتاح لنا

قمين أن يقتلوه بشكل مهين. ورفض المصلون غض

الطرف عن فقيه أفتى بما يخالف آراء الناس وقتلوه في

الجامع بعد عشر سنوات من جرمه، ولم يواجه قتل

الفقيه في الجامع اعتراضا من الفقهاء ولا اعتراض أحد

على قتل أمير المؤمنين ضربا بالصخور وتركه ملقى

بالعراء. وأثنى الناس على عمل المولى إسماعيل وتحريره

العرائش وطنجة وغيرها رغم اعتراضهم على كثير من

تصرفاته الأخرى. والأغرب من ذلك أن مؤرخي المغاربة لم

يسقطوا كلمة "رحمه الله" عن أي من المقتولين

(5017/1)

رغم عدم اعتراضهم على القتل. وحمل سلطان المغرب

لقب إمام وأمير المؤمنين وأعلن لنفسه نسبا هاشميا

حسنيا بينما لم يحمل السلطان المشرقي أيا من هذه

الصفات. ومع ذلك أفتى المغاربة بجواز تجاهل الإمام إذا

ما تقاعس عن القيام بواجباته وألزموا الناس بما تخلى

عنه الإمام على أساس أن الأمة تقوم مقام الإمام. أما في

المشرق فلم يصل التحدي إلى هذا المستوى ولم يبخلوا

على الحاكم، مهما رأيهم فيه، بالولاء والطاعة والانقياد.

(5018/1)

والآن وقد ضاعت القدس للمرة الخامسة منذ تحريرها على يد عمر بن الخطاب، يترتب علينا أن نراجع حساباتنا ونقرر أسلوبا يضمن بقاء مبدأ تحرير القدس حيا في فكر العرب والمسلمين إلى أن يتم التحرير الفعلي. وقد وضع اليهود من قبل دعاء لتذكيرهم بالقدس التي لم تكن لهم. وابتدع العرب في المغرب أسلوبا لطيفا طريفا لتذكيرهم بالعرائش يصلح أن يكون نموذجا لمدينة لها وضع خاص في نفوس الجميع. وقد يكون ارتداء شعار مميز يذكر العرب والمسلمين بالقدس أمرا مفيدا. وأقترح صنع قطعة ذهبية أو فضية أو معدنية لا تصدأ، عليها صورة عرق

(5019/1)

زيتون وكلمة يا قدس، ويحمله كل عربي ومسلم.

(5020/1)

القدس؛ أسماؤها بين الحقائق التاريخية وتحديد الهوية العربية

... ... الدكتور أحمد محمود صابون

... ... كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

... ... جامعة أم القرى ـ مكة المكرمة

... تقع القدس على خط عرض 31° ـ 46° شمال خط الاستواء، وعلى خط طول 35° ـ 13° شرق جرينتش، وعلى مبعدة اثنين وعشرين كيلا إلى الغرب من البحر الميت، واثنين وخمسين كيلاً إلى الشرق من البحر المتوسط، وسبعة أكيال إلى الشمال الشرقي من بيت لحم(1)

---

(1) عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، القاهرة، 1974، ص. 13؛ وكذا:

M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 576; Dictionary of the Bible, Ed. by J. Hastings, 2nd. ed., Edinburgh, 1963, pp. 471–472.

.

... وتقع القدس القديمة على تلين يمتدان جنوباً ليكونا شوكة ذات ثلاث شعب على رأس وادٍ صغير. والثلاث الشعب، التي تتحد عند الركن الجنوبي الشرقي للمدينة كونت حلقة من الانحدار تفصل المدينة عن التلال المجاورة من جميع الجهات فيما عدا الجانب الشمالي. وقد قسمت بعض الوديان الصغيرة التلين الرئيسَيْن إلى تلال صغرى؛ فالتل الغربي انقسم إلى: التل الجنوبي الغربي (جبل صهيون)، والتل الشمالي الغربي، وكما انقسم التل الشرقي إلى التل الشمالي الشرقي، ومنطقة وسطى، وتل جنوبي شرقي، وهذا الأخير (أوفيل) عبارة عن نتوء ضيق

(5022/1)

يبلغ اتساعه حوالي 100 ياردة (91 متراً)، وهو المكان الأصلي للمدينة القديمة. وبمرور الوقت، امتدت المدينة نحو الشمال ونحو الغرب(1).

... ارتبطت القدس بشعب فلسطين(2)

---

(1) الموسوعة الأثرية العالمية، إشراف ليوناردو كوتريل، ترجمة د. محمد عبد القادر محمد، ود. زكي

إسكندر، مراجعة د. عبد المنعم أبو بكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977، ص. 188.

(2) التعبير التوراتي »أرض كنعان« إنما يغطي كل فلسطين غرب الأردن. (انظر: إسحاق الحسيني، "أسماء فلسطين"، مجلة مجمع اللغة العربية، مؤتمر الدورة السابعة والثلاثين ـ القسم الثاني ـ البحوث، القاهرة، 1391 هـ/ 1976 م، ص ص. 9 ـ 19؛ وكذا محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (8) إسرائيل، الكتاب الثاني، التاريخ، الإسكندرية، 1398 هـ/ 1978 م، ص ص. 514 ـ 522 وكذا:

A. Lods, Israel, From its Begining to the Middle ,of the Eighth Century, London ,1962

; R. Giveon, « Palastina », LA, IV, 56p. ,644–642sps.

(5023/1)

منذ أقدم العصور. فقد سكن الإنسان في منطقتها منذ عصور ما قبل التاريخ، وهناك آثار اكتشفت له فيها تعود إلى العصر البلستوسيني، وآثار العهد الباليوليتي. وقد استقر المناخ فيها وأصبح كما هو اليوم في العهد الميسوليثي. وهناك موقعان في

المدينة يرتبط وجودهما بتلك الفترة. ويشار إلى ستة عشر موقعاً تعود إلى العهد النيوليتي، الذي لاشك في أن الإنسان قد مر فيه بمرحلة انتقال مهدت إلى إحداث ثورة اقتصادية هامة في حياته، والتي أدت إلى نقلته نحو إنشاء القرى الأولى والاستقرار فيها ومواصلة تقدمه الجديد في كافة

(5024/1)

المجالات المادية والفكرية، وبادئاً بذلك المرحلة الحاسمة، وهي مرحلة العصر الحجري الحديث(1)

---

(1) رشيد الناضوري، المدخل في التحليل الموضوعي المقارن للتاريخ الحضاري والسياسي في جنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا، الكتاب الأول، دار النهضة العربية، بيروت، 1968، ص. 117؛ وكذا أحمد صدقي الدجاني، »القدس وفلسطين في التاريخ«، مجلة الأكاديمية، العدد الثاني، المملكة المغربية، جمادى الأول 1405 هـ/ فبراير 1985 م، ص. 39؛ وكذا:

M.K. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, London, 1965; M. Grant, pp. 41–43

The History of Ancient Israel, New York, 1984,

,; W. Bray and D. Trump17–11pp.

The Penguin Dictionary of Archaeology,

,1984nd., 2Penguin Reference Books,

.125p.

(5025/1)

.

... ظهرت القدس بصفتها مدينة في بدايات العصر البرونزي، حيث كان بناؤها، تقريباً، حوالي الألف الرابع قبل الميلاد (3300 ق. م) لتخدم غرضين: أحدهما دفاعيٌّ والآخر دينيٌّ(1).

... لقد تعددت أسماء مدينة القدس، حيث وردت في النصوص المصرية القديمة والآشورية والكتابات اليهودية والمسيحية، وأيضاً كتابات المؤرخين الإغريق والرومان

---

(1) محمود العابدي، »الحفريات حول العالم«، حولية دائرة الآثار العامة، السابع عشر، عمان 1972، ص. 23؛ وكذا:

; M. Grant, 473–472Dictionary of the Bible, pp.

.58, 19op. cit., pp.

والمسلمين.

...

أولاً: النصوص المصرية القديمة

... 1 .أوش .أمم 3 ? m m 3W

... لقد ورد هذا الاسم في بعض النصوص المصرية بأشكال ثلاثة لكتابة هذا الاسم: ورد ذكر اسم المدينة في نصوص اللعنة(1)

---

(1) عُرفت بين علماء المصريات باسمي Execration Texts و Textes d'envoutement ؛ وكتبت بالخط الهيراطيقي على أواني من الفخار وتماثيل من الطين لأسرى موثوقين، وكانت تكسر هذه الأشياء وتدفن بجوار الميت في طيبة وسقارة، وهي عبارة عن قوائم بأسماء أشخاص، وأشياء أخرى كان ينظر إليها على أنها ربما تضر المتوفّى ومليكه، وتضم إلى جانب مختلف الأضرار العامة، أسماء المتوفين من المصريين، التي كانت أرواحهم الشريرة الخالدة، ربما تسبب ضرراً، وكذلك أسماء كثير من الأمراء الأجانب، والناس الذين لم يوضعوا تحت الرقابة، يحتمل أن يشكلوا تهديداً لأمن مصر وتقدمها. (انظر: عبد الحميد زايد، مصر الخالدة، دار

النهضة العربية، القاهرة، 1966، ص. 388؛ وكذا: عبد الحميد زايد، القدس الخالدة، ص, 41؛ وكذا: (W. A. Ward, « Egypt and the East Mediterranean in the Early Second Millennium B. C. », Orientalla, 30Vol. 1961, p. 32).

(5027/1)

، والتي ترجع إلى أواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد، أي إلى نهايات الدولة الوسطى، حوالي 1850 ق. م ـ 1800 ق. م(1)، وذلك ضمن ما ورد من الأقاليم المراد تدميرها(2)

---

(1) هناك من يرى أن هذا النص إنما يرجع إلى أيام سنوسرت الثالث (1878 ـ 1843 ق, م) من الأسرة الثانية عشر أو بعده بقليل وربما قبله بقليل. (انظر: J. A. Wilson, « Egyptian Rituals and Incantations- The Execration of Asiatic Princes », ANET, p. 328 I, n.).

(2) G. Posener, « Achtungstexte », LAI, SP, 69.؛ وانظر: عصام محمد السعيد، نصوص التدمير والهلاك لأعداء مصر. دراسة لغوية ـ أثرية ـ تاريخية، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1993، ص ص. 202 ـ 203.

(5028/1)

على أواني برلين مرتين بالصيغة المعتادة، التي تذكر اسم المدينة وحاكمها وكل التابعين له، كما يلي:

أ: ... ... (1)

---

(1) K. Sethe, Die Achtung Feindlicher Fursten, Volker, und Dinge auf Alt Agyptischen tong Fassacher ben des Mittleren Reiches, Berlin, 1926p. 53؛ J. H. Breasted, Ancient Record of Egypt, Vol. 4, A 724, par. 1927Chicago, ؛ W. Helck, Die Beziehungen Agyptens zu Vorderasiem in 3. und 2v. Jahrtausend .. ; J. A. Wilson, op. cit., p. 329؛ 1971 58, 48, s.s. 2nd ed., 1962, 5Chr., AA S. Ahituv, Canaanite Toponyms in Ancient Egyptian Documents, Jerusalem, 122p.

(5029/1)

... ...

- mw skryw ntyw 3mm Iy - K 3W? 3n 3H K ... ...

hnc .f

»حكام أوشامم، "إي ـ قاع ـ مو"، وكل توابعه الذين كانوا معه،...«

ب: 3 ? - 3W) ... ... (1m m

جـ: أو بزيادة حرف الياء 4:

(2) ... ... 3 ?3W i m m ... ...

... إن الاسم أوش ـ أمم، هو بالنطق المصري القديم للمدينة، بينما يرى البعض أن الاسم ينطق يورشاليم(3)

---

(1) S. Ahituv, Canaanite Toponyms in Ancient Egyptian Documents, Jerusalem, 1984, p. 122.

(2) Ibid.

(3) إسحق موسى الحسيني، عروبة بيت المقدس، منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1969، **ص.** 30؛ **وكذا:** Lexicon in Vetris Testamenti Libros, Leiden, 1951, p. 403؛.

(5030/1)

، حيث يرى كَوتييه ((1Gauthier) أن »شالم« التي وردت في سجلات رعمسيس الثاني في معبد الرمسيوم، تعني القدس. وإن كان (2Ahituv) و(3Helck) لم يطابقاها بالقدس، وإن أقرَّا أنها تعني بالعبرية Salam، أي »سلام«، ولكنهما لم يستطيعا تحديد ومعرفة هذه المدينة.

... 2 ـ يوروسالم ((Urusalim

---

(1) H. Gauthier, Dictionnaire des noms géographiques, V, Caire, 1929, p. 104.

(2) Ahituv, op. cit., p. 122.

(3) Heleck, op. cit., pp. 208–209.

(5031/1)

... ورد ذكر هذا الاسم في رسائل العمارنة(1)، حيث في بعضها كتب عبدى خيبا(2) في رسائله أن مدينة

---

(1) انظر عن رسائل العمارنة وعصرها: محمد بيومي

مهران، أخناتون، الإسكندرية، 1979، **ص ص.** 233 ـ 245؛

وكذا:

2S. A. B. Mercer, The Tell El-Amarna Tablets,

1939vols., Toronto,؛

W. F. Albright, « Akkadian Letters-The Amarna

–487Letters », ANET, pp.

J. Kemp Barry, « Tell El-Amarna », La, VI, 489؛

,; W. Helck319–309sps.

.174–173Amarna-Brief », LA, I, sps. »

.3–2W. Helck, « Abdi-Hepa », LA, I, sps. **(2)**

(5032/1)

القدس كانت باسم يوروسالم ((1Urusalim(**)، إلى الفرعون إخناتون (**1367 ـ 1350 **ق. م) من ملوك الأسرة الثامنة عشرة، ومنها على سبيل المثال (وإن كانت أسطر رسائل العمارنة باللغة الأكدية، لغة المراسلات الدبلوماسية آنذاك)**(2)**: »تأمل! لم يضعني والدي ووالدتي في هذا المكان، بل لقد أقامني في هذا البيت ملك والدي (أبي**

---

(1) S. A. B. Mercer, op. cit., II, 711–721; W. F. Albright, « Akkadian Letters The Amarna

–487», ANET, pp. 290–286Letters-EANOS.

.489

(2) Cf. C. Aldred, Akhenaten, Great Britain,

.142, p. 1972

(5033/1)

نصبني في الإمارة) ساعد الملك« (1).

ثانياً: النصوص الآشورية

... ورد اسم المدينة في النصوص الآشورية باسم:

أوروسليمو (أورشاليمو) Ur-Sa-Li-im-mu

... جاء في حوليات الملك الآشوري سنحريب (705 ـ 681 ق.م) في حملته الثالثة على سورية وفلسطين وحصاره لمدينة القدس:

... المواطنون (العامة) الذين أذنبوا في جرائم غير خطيرة، اعتبرتهم أسرى حرب. أما البقية منهم، والذين لم يتهموا في الجرائم وسوء السلوك، أعتقهم. جعلت

---

(1) أحمد فخري، مصر الفرعونية، القاهرة، 1971، ص. 235؛ وكذا: S. A. B. Mercer, op. cit., 286–289.

(5034/1)

"بادئ"، مليكهم يأتي من أورساليمو Ur-Sa-Lim-mu (أورشليم) ونصبتهم كأسيادهم على العرش، فارضاً عليه جزية (واجبة الأداء) لي (ك) سيد أعلى(1)

---

(1) عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر والعراق، الطبعة الثالثة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1979، ج 1، ص. 525؛ وكذا:

D. D. Luckenbiolle, Ancient Records of Assyria and Babylonia (Sennacherib; The Historical Texts) , Vol. II, Chicago, 1927, Chap. 8; Sennacherib-Historical Texts- a) The Siege of Jerusalem », ANET, 120–143; A. Leo Oppenheim, « Babylonian and Assyrian (681–704)) 240V, Paris, 312, pp. 288p. 576; M. F. Unger, op. cit., p.

(5035/1)

.

... إن ورود الاسم ـ بحرف السين حيناً، وبحرف الشين حيناً آخر ـ مألوف في اللغات السامية، فهذان الصوتان يتبادلان، ولهما أمثلة كثيرة أقربها سلام وشلوم وسم وشم في العربية والعبرية.

ثالثاً: الكتابات اليهودية:

... 1 ـ شاليم (Shulman) Shalem

... جاء ذكر هذا الاسم للمدينة، بمناسبة قدوم إبراهيم(1)

---

(1) انظر دراسة تاريخيّة تفصيلية عن إبراهيم عليه السلام: محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم (1) في بلاد العرب، (5) لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1400 هـ/ 1980 م، ص ص. 113 ـ 138,

(5036/1)

(أبرام)، عليه السلام، إلى أر ض كنعان، منتصراً على أعدائه. إذ خرج الملوك لاستقباله، ومنهم: »ملكي صادق(1)

---

(1) اسم ملكي صادق مكون في اللغة الفينيقية من مقطعين: "ملك" و"صادق" أو "عظيم" و"مقدس". وقد بقي اسم صادق في تاريخ أورشليم. ففي أيام داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ نجد طائفة من الكهنة تحمل اسمه وتسمى طائفة الصدوقيين، وهم مميزون عن اللاويين. كما أن اسم »ملكي صادق« كان يشكل جزءاً من اسم حكام أورشليم من الكهنة، مما يدل على أهمية المدينة الدينية قبل العهد اليهودي، لأن عَجُزَ الكلمة يعني الصدق والصلاح والاستقامة. (انظر: عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص. 40؛ وكذا: محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (8) إسرائيل، الكتاب الثاني، التاريخ، ص. 836 (1)).

(5037/1)

، ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً. وكان كاهناً لله العلي«(1).

... 2 ـ أورشليم(2)

... »فلما سمع أدوني صادق(3)

---

(1) سفر التكوين، 18: 14؛ وكذا: Josephus, p. 151; S. Yeivin, « The Sepulchers of the Kings of the House of David », JNES, 7, 1948, p. 40; H. Cattan, Jerusalem, London, 1981, p. 19.

(2) انظر عنها: Ebach, « Jerusalem », LA, III, SPS. 267–268 J .

(3) أدوني صادق: اسم كنعاني، ومعناه « سيد البر » أو « سيد العدل ». وكان ملكاً على أورشليم قبل أن يفتتحها داود عليه السلام. (انظر: قاموس الكتاب المقدّس، ج 1، ص. 41).

(1/5038)

ملك أورشليم أن يشوع(1) قد أخذ عاي وحرَّمها« (2)

---

(1) يكاد ينعقد الإجماع الإسرائيلي حول يشوع بن نون، على أنه واحد من كبار أنبياء بني إسرائيل، ويضعونه في الأهمية والترتيب، كما هو في الأسفار، بعد موسى عليه السلام، وخليفة له. (انظر:

... صابر عبد الرحمن طعيمة، التراث الإسرائيلي في العهد القديم وموقف القرآن الكريم منه، بيروت، دار الجيل، 1399 هـ/ 1979 م، ص ص. 43 ـ 44، ص ص. 486 ـ 4910؛ وكذا: محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ص. 201 ـ 202؛ وكذا: .. (M 490Grant, op. cit., p.

(2) سفر يسوع، 10: 1، 3، 5.

(5039/1)

.

... يذكر "قاموس الكتاب المقدس" أن أرض هذه المدينة، في بدايتها، صحراوية بين أودية وتلال، وأن ملكي صادق نزل بأرضها وسكن كهفاً من جبالها للعبادة، واشتهر أمره فجاءه ملوك الأرض، الذين بالقرب من أرض المدينة وعدتهم اثنا عشر ملكاً، فسمعوا كلامه وأحبوه، وأعطوه مالاً يعمر به المدينة، حيث اختطها وعمرها. ولما انتهى من ذلك، عينه الملوك ملكاً عليهم وسموه أبا الملوك، وأنه سماها باسم روشلم، بمعنى بيت السلام(1).

---

(1) قاموس الكتاب المقدس، ج 2، ص. 922.

(5040/1)

... يقول مجير الدين الحنبلي(1):

... إن سفينة نوح(2) سارت حتى بلغت بيت المقدس. وقالت: يا نوح! هذا موضع بيت المقدس الذي يسكنه الأنبياء من

(1) مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، الجزء الأول، القاهرة، 1283 هـ، صص. 6 ـ 9؛ وكذا: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحمويّ، معجم البلدان، الجزء الأول، بيروت، 1986، ص. 25.

(2) انظر: محمد بيومي مهران، »قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة«، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، العدد السادس، الرياض، 1396 هـ/ 1976 م، ص ص. 383 ـ 457.

(5041/1)

أولائك وقوله: إن سام بن نوح هو أول من بناها، وكان ملكاً عليها، وكان يلقب (ملكيا صادق) وأنه سماها بروشلم بمعنى بيت السلام.

... إن ما سبق يحتاج إلى تصحيح. فملكي صادق، ليس هو سام بن نوح. كما أن بناة المدينة هم الكنعانيون الساميون العرب. ثم إن بروشلم ليس معناها بيت السلام(1).

... وتشير "التوراة" إلى مقاومة أهل المدينة الكنعانية أورشليم، حين حاربهم بنو إسرائيل: »وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار«(2)

---

(1) مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، بيروت، 1975، ص. 25.

(2) سفر القضاة، 1: 8.

(5042/1)

.

... يزعم المؤرخ اليهودي يوسف بن متى في مجادلاته "ضد أيبون"(1)، أنه يروي طبقاً لما جاء في تاريخ مانيتو(2):

... قام ملوك طيبة وسائر مصر(3)

---

(1) » Against Apion », I, pp. 74–90 English . Transalation by H. St. J. Thackery, London,

.1926

(2) انظر عن مانيتو: محمد بيومي مهران، مصر، الكتاب الأول، الإسكندرية، 1982، ص ص. 52 ـ 55.

(3) حرب التحرير التي قام بها ملوك الأسرة السابعة عشر في طيبة. (انظر: محمد بيومي مهران، مصر، الجزء الثاني، الإسكندرية، 1409 هـ/ 1988 م، صص. 467 ـ 476؛ وكذا: أحمد محمود صابون، دراسة تاريخية للإقليم الثالث (نخن ـ نخب) ودوره السياسي والحضاري حتى بداية الدولة الحديثة، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 1404 هـ/ 1984 م، صص. 122 ـ 137).

(5043/1)

بثورة ضد الرعاة(1)

---

(1) الرعاة المقصود بهم الهكسوس الذين حكموا مصر فترة الانتقال الثاني في مصر القديمة. ولقد اختلف الباحثون في تفسير اسم الهكسوس، فذهب رأي إلى أنه بمعنى ملوك الرعاة، لأن »هيك« تعني في اللغة المقدسة »ملك«، و»سوس« تعني في اللغة الدارجة »راع«. وذهب رأي آخر إلى أنه بمعنى الملوك الأسرى، لأن

كلمة »هيك« المصرية تعني »أسير«. وأرجح الآراء أن كلمة »هكسوس« مشتقة من اصطلاح »حقا ـ خست«، وتجمع »حقاو ـ خسوت« بمعنى »رئيس البلد الأجنبية الجبلية«، كما أنها تشير إلى الحكام وحدهم، وليس إلى الجنس كله. (انظر: محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص. 455 (7)؛ وكذا: T. Save - Soderbergh, « The Hyksos Rule in Egypt », JEA, 59, pp. 1951, 37ff; D. Alt, Die Herkunft der Hyksos in Newer Sicht, 15, p. 1961Munchen, ; J. Von Seters, The Hyksos. A New Investigation, New Haven and London, 1966, pp. 87ff; D. B. Redford, « The Hyksos Invasion in History and Iradition », Orientalia, 1970, 39, pp. 1ff; W. Helck, Die Beziehungen Aegyptens zu Vorderaslen im 3. Jahrestausend V. Chr., 2und ed. 1971, pp. 2ff; Manfred Bietak, « Hyksos », LA, III, sps. 89–103).

(5044/1)

، واندلعت نار حرب عظمى طالت مدتها، بواسطة ملك يدعى مسفراجموثيس ((Misphragmuthosis هزم الرعاة وطردوا من مصر كلها، وحاصرهم في مكان يدعى أواريس، مساحتها عشرة آلاف أرورة. وطبقاً لمانيتو،

كان الرعاة قد أحاطوا كل هذه المساحة بجدران عظيمة مبنية حماية لكل متاعهم وغنائمهم. توموسيس (Thummosis)، ابن مسفراجموثيس حصاراً (مستمراً)، محاولاً محاصرة الجدران بجيش يبلغ 480.000 رجل، وحاول أن يجعلهم يستسلمون بالحصار. ولكنه لما يئس من بلوغ غرضه، عقد معهم معاهدة تقضي بأن يخلوا كل أرض مصر، وأن يذهبوا حيث شاءوا دون أن

(5045/1)

يضيق عليهم. وبمقتضى هذه الشروط، غادر مصر لا يقل عن 240.000 من الأسرى، ومخترقين الصحراء إلى سورية. ولما كان الرعب قد أخذ منهم كل مأخذ خوفاً من بطش الآشوريين، الذين كانوا في خلال هذه الفترة أصحاب السيادة في آسيا، فإنهم أقاموا مدينة في الأرض، التي تسمى يوديا (Judaea) صالحة لإيواء الآلاف من الناس، وقد أطلقوا عليها اسم أورشليم(1).

---

(1) Manetho, with an English Translation by W. G. Waddell, London, 1971, pp. 87–89.

(5046/1)

... ويذكر سليم حسن بأنه يجب أن نشك - في الحال - في قوة أشور في تلك الفترة من التاريخ(1)، كما نتشكك في مساحة مدينة أواريس وفي عدد الرجال، الذين كانوا فيها وقتئذ. يضاف إلى ذلك أنه ليس من المعقول أن الهكسوس بعد طردهم - وهذا ثابت من مقبرة أحمس بن إبانا(2) - بأن هناك ما يشير إلى أن القتال حول أواريس كان عنيفاً، وربما دام عدة سنوات، حتى تم إخضاعها. على

(1) انظر عن الفترات التاريخية لعصور آشور: عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص ص. 494 - 530.

(2) انظر: أحمد محمود صابون، المرجع السابق، ص ص. 123 - 130.

(5047/1)

أن يوسف بن متى اليهودي إنما يزعم - نقلاً عن مانيتو - أن الهكسوس قد عقدوا معاهدة مع أحمس الأول، على أن يخرجوا بأمتعتهم وقواتهم (240 ألف) دون أن ينالهم أي أذى؛ وإن كذبت الأحداث التاريخية هذه الرواية.

... ويضيف يوسف بن متى - في زعمه - أن هؤلاء الرعاة

(الهكسوس) بعد طردهم من مصر، قد استوطنوا بلدة جديدة هي أورشليم؛ ولكن لا يخفى ما لهذه الحقيقة من قيمة في نظر يوسف بن متى هذا اليهودي.

... إن النطق العبري هو يروشاليم. ويبدو أن اليهود حرفوا الاسم أو حولوه إلى العبرية، حتى يتوهم الناس أن المدينة عبرانية

(5048/1)

الأصل(1). وقد تكون اللاحقة »يم« (Yim) للتثنية، كقولهم مصرايم ـ أي المدينتان ـ في العبرية، وقد تكون للمكان أيضاً. ويبدو أن هذه العبرنة لم توجد عند جميع اليهود. فكعب الأحبار، مثلاً، يسميها »أوري شَلَمَ« في حديثه عنها إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حسب رواية ابن جرير الطبري(2). ويذكر الزركشي أن اسمها أورشليم حسب رواية أبي عبيدة

---

(1) Yeivin, G. E., Op. cit., p. 40.

(2) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري، الجزء الرابع، القاهرة، دار المعارف، 1969، ص. 161.

(5049/1)

معمر بن المثنى، كما أنشد للأعشى:

وقد طغت للمال آفاقه عمان فحمص فأورشلم(1)

... لا نجد في أيّ من الروايتين ذكراً للاحقة »يم« العبرية، لكي تصبح عبرية النطق. ويدعم هذا الرأي أن النطق اليوناني القديم هيروسوليما ـ كما سيأتي بعد ـ وما تبعه في اللغات الأوروبية (Jerusalem) يخلو من هذه اللاحقة. إن اللاحقة »يم« اختارها رجال المازورة، الذين أثبتوا نص العهد القديم في ما بين القرن السادس والعاشر الميلادي. والاسم الكنعاني

(1) محمد بن عبد الله الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، القاهرة، 1385 هـ، ص. 278.

(5050/1)

قديم، والمدينة كنعانية قديمة. وبداية الاسم بالياء بالعبرية مطابق للنطق الكنعاني، وبدايته بالهمزة على وفق النطق الآشوري والسرياني والعربي(1).

... أما معنى أورشليم، فمختلف فيه. وأرجح الآراء من

الناحية العلمية أنها مركبة من »أور« بمعنى مدينة، ومن »شالم«، الذي هو معبود وثني لسكان فلسطين الأصليين. وهو معبود السلام. ومن ثم، فإن المدينة إذن كانت مكرسة لمعبود السلام، حتى وصل العبرانيون(2)

---

(1) Encyclopedia Biblica, II, London, p. 1899, 2407.

(2) حسن ظاظا، مدينة الله أم مدينة داود؟، الإسكندرية، 1970، ص. 9.

.

... وهناك من يقول إن كلمة »أور« معناها »الميراث«، فتكون أورشليم بمعنى »ميراث السلام«، وإن أحبار اليهود يدعون أن سام بن نوح قد سماها »شلم«، أي السلام. وإن إبراهيم - عليه السلام - قد سماها »يرأة«، وهو بمعنى »الخوف« باللغة العبرية، فقرر الرب أن يسميها بالاسمين جميعاً »يرأة - شلم«، أي أورشليم؛ بمعنى الخوف والسلام، وبنوا على هذه التخريجات الفولكلورية عقائد رهيبة حول السلام المتوالد عن الرعب، وقيل أيضاً إن »يرو« يمكن أن تكون في اللغات

السامية بمعنى »معبود«، ويكون اسم المدينة بكل بساطة »معبود

(5052/1)

السلام« (1). غير أن هناك رأياً آخر يذهب إلى أن معناها »مدينة السلام«، غير دقيق؛ لا مِنْ ناحية الاشتقاق ولا من الناحية التاريخية(2). كما أن هناك من يضيف أنه من الواضح أن الاسم ليس اسماً دينياً، وإنما هو اسم دنيوي، أطلقه أحد الملوك اليبوسيين، فأخذه

---

(1) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص. 9؛ وكذا: محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (8) إسرائيل، الكتاب الثاني، التاريخ، ص. 822.

(2) فيليب حتى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، بيروت، 1958، ص. 72.

(5053/1)

اليهود وحشروه في "توراتـ"هم المحرفة(1).

... 3 ـ يبوس

... لقد جاء اسم يبوس (Yapus) أو مدينة اليبوسيين(2) في "العهد القديم" : »ذهب داود وكل إسرائيل إلى أورشليم أي يبوس. وهناك اليبوسيون سكان الأرض. وقال سكان يبوس لداود: لا تدخل إلى هنا« (3).

---

(1) المزامير، 128: 6، 187: 2؛ وكذا: شفيق جاسر أحمد محمود، تاريخ القدس، عمان، 1404 هـ/ 1984 م، ص. 17.

(2) Dictionary of the Bible, pp. 461–472.

(3) صموئيل الثاني 5: 6؛ أخبار الأيام الأول، 11: 4 ـ 5؛ القضاة 19: 1، 11.

(5054/1)

... هكذا، لقد ظلت مدينة القدس تعرف بتلك الأسماء السابقة في مصر ومناطق الشرق الأدنى القديم. غير أن اليبوسيين سكنوا هذه المدينة، وهم أحد الشعوب السبعة، التي تزعم التقاليد العبرية في سفر التثنية أن رب إسرائيل قد أعطى أرضهم لشعبه إسرائيل، وأنهم ـ في رأي "التوراة" ـ من سكان الجبال.

... اليبوسيون هم قبيلة كنعانية على رأي(1)، بل هم بطن من بطون العرب الأوائل، نشأوا في صميم شبه

الجزيرة العربية، وترعرعوا في أرجائها، واستوطنوا

---

(1) قاموس الكتاب المقدس، ج 2، ص. 1053؛ وكذا: M. F. Unger, op. cit., p. 557.

(5055/1)

ديارها، وكان ذلك حوالي عام 3000 ق. م، ثم نزحوا منها مع من نزح من القبائل الكنعانية(1).

... غير أن هناك من يرى أن اليبوسيين ليسوا ساميين، اعتماداً على أن الاسم »يبوس« غير سامي. بل لقد ذهب صاحب هذا الرأي إلى أن الجزء الأكبر من سكان فلسطين - فيما قبل العهد الإسرائيلي - غير سامي، وإنما هو من القبائل الحورية(2). وبديهي أن تلك مبالغة غير مقبولة(3)

---

(1) عبد الحميد السايح، بيت المقدس، القاهرة، 1969، ص. 49؛ وكذا حسن ظاظا، الساميون ولغاتهم، الإسكندرية، 1970، ص. 24.

(2) S. Yeivins, op. cit., p. 41.

(3) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ص. 562 - 563.

(5056/1)

، والأمر كذلك في ما ذهب إليه آخر من أن اليبوسيين قوم من أصل حبشي(1).

... لقد استقل اليبوسيون بمدينتهم، بعد فترة الضعف التي انتابت الإمبراطورية المصرية في أخريات عصر الدولة الحديثة في آسيا، أي في سوريا وفلسطين. ومن ذلك يتضح أن المدينة كانت غريبة عن اليهود، بل وفي أيدي أصحابها اليبوسيين(2). ذلك لأن يشوع لم يستطع الاستيلاء عليها والانتصار على ملكها

---

(1) S. Abramsky, Ancient Town in Israel, Jerusalem, 1963, p. 122.

(2) Josephus, p. 150; Dictionary of the Bible, p. 19; M. Grant, op. cit., p. 461.

(5057/1)

أدوني صادق. ومن ثم لم يقدر بنو يهوذا على طردهم منها، بل نجدهم يسكنون مدينة يبوس مع اليبوسيين.

... ويذكر "العهد القديم" : »وأمّا اليبوسيون الساكنون في أورشليم، فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم. فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم«(1).

... »وصعد التخم في وادي ابن هِنُّوم إلى جانب اليبوس من الجنوب« (2).

---

(1) صموئيل الثاني 5: 6، أخبار الأيام الأول 11: 4 ـ 5؛ القضاة 19: 10، 11.

(2) سفر يشوع 15: 8، 63.

(5058/1)

... ومن هذا يتضح أن داود ـ عليه السلام ـ وبني يهوذا حاولوا الاستيلاء على المدينة وانتزاعها من أيدي اليبوسيين. وقد اتفق شراح "العهد القديم" على أن أورشليم كانت في أيدي اليبوسيّين في حوالي خمسين ومائتي سنة ما بين يشوع وداود(1)

---

(1) هناك اتجاهات مختلفة لفترة حكم داود عليه السلام، فهي في الفترة 1010 ـ 955 ق. م أو (1004 ـ 963 ق. م أو1000 ـ 960 ق. م أو 975 ـ 963 ق. م أو 1012 ـ 972 ق,

م. (انظر: فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، بيروت، 1958، ص. 203؛ وكذا: محمد بيومي مهران، مصر والشرق الأدنى القديم، بلاد الشام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1410 هـ/ 1990 م، صص. 249 ـ 255).

(5059/1)

عليه السلام(1).

... وذلك ما يُبيِّنه "العهد القديم" جلياً: »وبنو بنيامين(2) لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم، فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في أورشليم إلى هذا اليوم« (3).

... ومن ثم، فإنه لم يكن بنو بنيامين، أي اليهود، قادرين على طرد اليبوسيين، كما فهم ذلك صراحة من نصوص

---

(1) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ص. 44 ـ 45.

(2) حينما قسمت كنعان بين الأسباط الاثني عشر، كانت أورشليم تقع ضمن سبط بنيامين، ويفصلها عن يهوذا واد ضيق. (انظر: عبد الحميد زايد، المرجع

السابق، ص. 44).

(3) **سفر القضاة** 1: 21.

(5060/1)

"العهد القديم".

... كما تذكر "الموسوعة اليهودية" أن مدينة أورشليم كانت تدعى »المدينة الأجنبية«، وأنها لا تخص الإسرائيليين، وأن اليبوسيين كانوا يعيشون فيها لسنوات كثيرة مع بني بنيامين(1).

... ويؤكد "العهد القديم" أجنبية هذه المدينة حين يذكر قول رجل إسرائيلي وامرأته وغلامه، كانوا على سفر فأدركهم الليل: »وفيما هم عند يبوس، والنهار قد انحدر جداً، قال الغلام لسيده: تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها. فقال له سيده: لا نميل إلى مدينة غريبة، حيث ليس أحد

---

(1) Jewish Encyclopedia, VII, p. 120.

(5061/1)

من بني إسرائيل هنا«(1).

... ومن ثم يتضح في هذا النص أنها مدينة غريبة على بني إسرائيل، إذ لا توجد سكنى لأي من بني إسرائيل فيها.

... هناك من يرى أن اسم مدينة يبوس أطلقه عليها يشوع بن نون، عندما أغار على أرض كنعان(2). ويبوس اسم لزعيم القبيلة الكنعانية السامية العربية، التي استقرت في أرض فلسطين منذ فجر تاريخها(3)

---

(1) سفر القضاة 19، 11 ـ 12.

(2) J. H. Hayes and M. J. Muller (ed), Israelit ,nd, Bungay 2and Judaic History, .350–238, pp. 1984Suffolk,

(3) شفيق جاسر أحمد محمود، المرجع السابق، ص, 18.

(5062/1)

. ويبدو أن اسم يبوس، الذي سُمي اليبوسيون باسمه(1)، هو أحد أولاد كنعان، »وكنعان وَلَدَ صيدون بكرة وحِثًّا واليبوس... «(2)، وأن حفائر هذه المدينة الكنعانية تعود إلى حوالي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وأحيطت بالأسوار مما زاد في منعتها(3)

---

(1) G. E. Yeivin, op. cit., p. 41.

(2) سفر التكوين 10: 15 ـ 16.

(3) المعتقد أن السور اليبوسي الذي حال دون وقوع المدينة في أيدي بني إسرائيل. ولهذا فقد اعتقد البعض أن المدينة اليبوسية كانت شرقي أسوار الحرم، وليس على جبل المريا. (انظر: محمود العبادي، قدسنا، القاهرة، 1973، صص. 169 ـ 170؛ وكذا مصطفى مراد الدباغ، المرجع السابق، ص ص. 22 ـ 23؛ وكذا:

Crown Prince Hassan bin Talal, A Study on Jerusalem, Amonan, 1974; M. Kenyon 79, p. 1974; Kath Leen, Digging up Jerusalem (Emest Benn, London, 1974); M. A. Aamir, Jerusalem, 79), p. 1978; Arab Origin and Heritage, London, 1978, p. 1; Jerusalem, The Key to World Peace, ed. by Islamic Council of Europe, London, 1980, p. 19; H. Cattan, op. cit., p. 123).

(5063/1)

. بل هناك من يرى أنها أسست حوالي ما بين 1800 ق. م و1550 ق. م، وأن هذه المدينة كانت من المدن العديدة المحمية بوسط فلسطين(1)، وأنها كانت مدينة ذات حضارة، حيث اشتملت على منازل كبيرة بها الكثير من

أسباب الراحة، وكانت بها حكومة وصناعة وتجارة(2).

... 4 ـ صهيون

---

(1) R. Vaux, Histoire ancienne d'Israel

,; H. Cattan72, p. 1971(Gabaldu), Paris,

.19op. cit., p.

(2) سيد فراج راشد، القدس، عربية إسلامية، الرياض، دار المريخ للنشر، 1406 هـ/ 1986 م، ص. 56؛ وكذا: شفيق جاسر أحمد محمود، المرجع السابق، ص. 18.

(5064/1)

... ورد هذا الاسم، في "العهد القديم"، بمسمى »صهيون« (1) (Zion)، وهو اسم جبل يشرف على المدينة(2)، جاء ذكره للمرة الأولى في "العهد القديم" موقعاً لحصن يبوسي الذي استولى عليه داود عليه

---

(1) سفر صموئيل الثاني 5: 6 ـ 10، سفر أخبار الأيام الأول 11: 5.

(2) أما عن جبل صهيون، الذي جاء ذكره في "العهد القديم"، فهو غير ذلك الذي يعرف الآن. إن حقيقة الجبل

الأصلي هي أنه يقع إلى الشرق من الحالي والمسمى بهذا الاسم. (انظر: عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص. 56 ـ 75؛ وكذا: 40G. E. Yeivin, op. cit., p.).

(5065/1)

السلام(1)، حين انتزع المدينة من اليبوسيين(2).

... يبدو أن اسم حصن »صهيون« مسمى من اسم جبل صهيون، وهو جبل معروف بهذا الاسم قبل استيلاء داود ـ عليه السلام ـ وظلت بعده(3). وكانت عليه قلعة أمامية لليبوسيين يدافعون منها عن المدينة. وكانوا يسمون جبل صهيون

---

(1) انظر محمد بيومي مهران، »داود عليه السلام والفلسطينيّون«، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (8) إسرائيل، الكتاب الثاني، التاريخ، ص. 710 ـ 713.

(2) Interpreter's Dictionary of the Bible, Vol. II, 807p.

(3) 41G. E. Yeivins, op. cit., p.

(5066/1)

بكل منشآته »المدينة الفوقانية«؛ أما اسم »المدينة التحتانية«، فقد أطلقوه على هضبة الحرم(1).

... وتُذكر صهيون بأنها العاصمة الدينية، والمكان الذي يمتحن به الرب عباده المؤمنين: »لذلك هكذا يقول السيد الرب. هأنذا أؤسِّس في صهيون حجراً، حجر امتحان حجر زاوية كريماً أساساً مؤسساً. من آمن لا يهرب«(2).

---

(1) محمود العابدي، المرجع السابق، ص. 23؛ وكذا: سيد فراج راشد، المرجع السابق، ص. 55؛ وكذا: Josephus, p. 78; M. Grant, op. cit., p. 151.

(2) سفر أشعياء 28: 16.

(5067/1)

... كما يقارن سكان صهيون بسكان مدينة السامرة: »ويل للمستريحين في صهيون والمطمئنين في جبل السامرة نقباء أول الأمم«(1).

... ولقد ورد هذا الاسم كثيراً في "العهد القديم"، حتى أصبح رمزاً إلى ما يرجوه شعب بني إسرائيل من الرب من الحماية والعناية في خدمته(2). وقد أشاد اليهود بذكره، حيث جاء: »والرب أحب أبواب صهيون أكثر من

جميع مساكن يعقوب(3)

_____

(1) سفر عاموس 6: 1.

(2) قاموس الكتاب المقدس، ج 1، ص. 23؛ وكذا: M. Grant, op. cit., p. 84.

(3) انظر دراسة جيدة عن يعقوب عليه السلام: محمد بيومي مهران، دراسات الشرق الأدنى القديم (7) إسرائيل، الكتاب الأول، التاريخ، الإسكندرية، 1398 هـ، 1978 م، صص. 191 ـ 210؛ وكذا: صابر عبد الرحمن طعيمة، المرجع السابق، ص. 5 (1)، 29 ـ 30؛ وكذا: M. G. Unger, Israel and Aramaeans of Damascus, London, 1957; A. Lods, op. 541, p. 155cit., p.

(5068/1)

، قد قيل بك أمجاد يا مدينة الله سلاه« (1).

... وصار مسكن الرب: »والرب من صهيون يزمجر، ومن أورشليم يعطي صوته فترجف السماء والأرض... فتعرفون أني أنا الرب إلهكم في صهيون جبل قدسي، وتكون أورشليم مقدسة، ولا يجتاز فيها الأعاجم في ما بعد«(2).

... هناك من يذكر أن كلمة »صهيون«، لم نجد لها أصلاً

متفقاً عليه في اللغة العربية، وأكثر الشراح يرجحون أنها عربية الأصل، لها نظير في اللغة الحبشية، وأنها من مادة الصون والتحصين، وكانت فعلاً من حصون الروابي العالية(3)

---

(1) المزامير 87: 2.

(2) سفر يوئيل 3: 16 ـ 17.

(3) عباس العقاد، الصهيونية العالمية، القاهرة، 1968، ص. 11.

(5069/1)

. وهناك من يفترض أنها كلمة مستعارة من العيلاميين ـ عن طريق البابليين ـ بمعنى »معبد«. إلا أن هذا الفرض إنما يصطدم بصعوبات عدة، منها: (أولاً) أنه لا توجد أية أدلة تشير إلى قيام علاقات خاصة بين فلسطين وبابل وعيلام في تلك الفترة؛ ومنها (ثانياً) أنه لا يوجد أي دليل على استعمال هذه الكلمة في اللغة البابلية أو الآشورية في ذلك الوقت المبكر، الذي كانتا قد انفصلتا فيه عن السومرية(1)؛ ومنها (ثالثاً) أن الكلمة العيلامية تعني »معبد«، بينما تعني كلمة »صهيون« أصلاً »القلعة

(1) G. E40Yeivins, op. cit., p. ..

(5070/1)

أو الحصن«، ثم اتسع مفهومها الجغرافي فيما بعد ليضم تل المعبد، ثم أصبح الاسم في زمن متأخر نسبياً يطلق على كل التل في جنوب شرق القدس. ومن جهة أخرى، فإن كلمة »صهيون« ـ على ما يبدو ـ ترجع إلى ما قبل الإسرائيليين، حيث أن الحصن كان معروفاً بهذا الاسم قبل أن يستولي عليه داود ـ عليه السلام ـ ويطلق عليه اسمه(1). (وأخيراً)، فهناك من يذهب إلى أن الكلمة »حورية«، ومن ثم فقد فسر »حصن صهيون« بمعنى »حصن الماء«، أي الحصن الذي يحمي مورد ماء القدس(2).

---

(1) Ibid., pp. 40–41.

(2) Ibid., p. 41.

(5071/1)

... وعلى أية حال، نسب اليهود السياسيون الداعون إلى إقامة دولة لهم في فلسطين العربية حركتهم إلى

صهيون(1)

---

(1) لقد كان لصهيون هذه عند يهود الأسر البابلي شأن عظيم، حتى أصبح الحنين إلى صهيون رمزاً للحنين إلى عودة المملكة الغابرة، وتحولت الوعود الإلهية في كتبهم تحولاً جديداً مع السياسة، فانحصرت في ذُرية داود، عليه السلام، ليخرج منها من غير ذوي الذُّرية من اليهود. (انظر: عباس العقاد، المرجع السابق، ص. 11؛ وكذا:

, pp. 1942L. T. Brandies, On Zionism, New York, , 1934; N. Bentwich, Palestine, London, 26–24 .60p.

... وللمزيد عن الحركة الصهيونية، انظر: محمد بيومي مهران، المرجع السابق، صص. 38 ـ 47.

(5072/1)

، وذلك بعد مضي نحو ثلاثة آلاف سنة على حكم داود عليه السلام. كما أن علماء الآثار يبحثون عن جبل صهيون والمدينة والهيكل. والمؤكد عندهم أن جبل صهيون لا يقوم في الجهة الجنوبية والغربية من بيت

المقدس، كما كان يعتقد المسيحيون منذ القرن الرابع الميلاديّ، وإنما على قمة التلة الشرقية(1).

... وعلى كل، فإن الرومان في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد هدموا المدينة والهيكل، حتى أصبحا أطلالاً، والبحث عنهما بقصد إعادتهما يدعو إلى قلب الأرض رأساً على

---

(1) Interpreter's Dictionary of the Bible, Vol. IV, p.959.

(5073/1)

عقب، حقيقة ومجازاً.

... 5 ـ مدينة داود

... قاوم الكنعانيون وحدة بني إسرائيل بقيادة داود ـ عليه السلام ـ الذي شعر بخطرهم. ولذلك خطط للقضاء عليهم وهزمهم في معركتين فاصلتين في وادي الرفائين جنوب القدس، حيث طاردهم حتى المنطقة الساحلية. وبذلك انحصر خطر الكنعانيين على بني إسرائيل فترة من الزمن. وفي أعقاب ذلك فكر داود ـ عليه السلام ـ في تغيير عاصمته حبرون ـ وهي مدينة

الخليل، على مبعدة 190 ميل (306 متر) إلى الجنوب الغربي من أورشليم ـ في الشمال، واتجه نظره إلى مدينة يبوس في الجنوب(1)

---

(1) ... انظر عن أسباب اختيار القدس عاصمة لمملكة يهوذا: محمد بيومي مهران، دراسات الشرق الأدنى القديم (8) إسرائيل، الكتاب الثاني، التاريخ، صص. 829 ـ 830؛ وكذا: سيد فرج راشد، المرجع السابق، ص. 48؛ وكذا: W. Bray, and D. Trump, op. cit., p. 251.

(5074/1)

، وكانت في أيدي اليبوسيين العرب، فخطط للزحف عليها. وقام بحصارها(1)؛ إلا أنه واجه مقاومة عنيفة من اليبوسيين، ولكنه كرر هجومه، حيث مارس ضغوطاً على سكان المدينة، حتى استولى عليها(2).

... جاء في "العهد القديم" : »وأخذ داود حصن صهيون. هي مدينة داود«(3)

---

(1) Atlas of the Bible, p. 98; J. H. Hayes and M. J. Miller, op. cit., p. 251.

(2) سفر صموئيل الثاني 5: 17 ـ 25؛ 8: 10؛ وكذا: محمد

بيومي مهران، المرجع السابق، ص. 828؛ وكذا:

.151–150Josephus, pp.

(3) سفر صموئيل الثاني 5: 7؛ أخبار الأيام الأول 11: 5؛ الملوك الأول 8: 1.

(5075/1)

.

... ولم يلبث أن سُمي ذلك الجزء باسم «مدينة داود»، وربما لأن اسمها القديم إنما كان غريباً على آذان العبريين، وربما أراد داود - عليه السلام - أن يُطلق عليها اسماً عبرياً، لأن فيه تخليداً للاهوتهم(1). وربما - وهذا هو الأرجح - لأن داود - عليه السلام - إنما أراد أن يخلد اسمه بإطلاقه على المدينة القديمة، أو حتى على جزء منها(2)

---

(1) ; M. Grant, op. cit., 40G. E. Yeivin, op. cit., p. .84p.

(2) حسن ظاظا، إسرائيل ركيزة للاستعمار بين المسلمين، القاهرة، مجمع البحوث الإسلامية، 1973، ص. 88؛ وكذا:

; Dictionary of the Bible, 98Atlas of the Bible, p.

; J. H. Hayes and473p.

.350M. J. Miller, op. cit., p.

(5076/1)

. ومن ثم فقد أصبح يطلق هذا الاسم على المدينة كلها عندما جعلها داود ـ عليه السلام ـ مقراً لحكمه.

... وأياً ما كان الأمر، وسواء أكان داود ـ عليه السلام ـ قد أطلق على المدينة اسماً عبرياً، أو أراد أن يخلد اسمه، فهو في ذلك إنما كان مقلداً لغيره من الحكام الذين كانوا ـ ولا يزالون ـ يطلقون أسماء جديدة على أماكن قديمة، كما أن الاسم الجديد الذي أطلقه داود ـ عليه السلام ـ على المدينة (مدينة داود) لم يحل محل الاسم القديم؛ ربما لأنها حالة من حالات كثيرة في التاريخ القديم والحديث، اختفت فيها الأسماء

(5077/1)

الجديدة، التي فرضتها السلطات الحاكمة في القضاء على الأسماء القديمة التي لها جذور عميقة في الوعي الشعبي(1).

... 6 ـ أَرِيئِيلَ:

... ورِد في "العهد القديم" : »ويل لأريئيل قرية نزل عليها داود« (2). ومعنى الاسم »أسد الله« أو »مسكن الله« (3).

... 7 ـ »موريا«:

---

(1) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص. 821؛ وكذا: 40G. E. Yeivin, op. cit., p.

(2) سفر أشعياء 29: 1.

(3) Interpreter's Dictionary of the Bible, Vol. VI, 218p.

(5078/1)

... جاء هذا الاسم في "العهد القديم" : »وشرع سلميان(1) في بناء بيت الرب، في أورشليم، في جبل المرايا(2)

---

(1) انظر دراسة جيدة عن سليمان عليه السلام: محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ص. 744 ـ 811.

(2) جبل المرايا يقوم بين جبل سكوبس، والذي يُسميه "التلمود" »جبل المراقبين«، وبين هضبة الحرم

الشريف. ذكره يوسف بن متى في كتابه "حرب اليهود" (الجزء الأول ـ الباب الخامس)، وسماه »بزيتا« (أي بيت الزيتون أو منبت الزيتون). وهو يقع بالقرب من »باب الساهرة«، وهو الجبل الذي بنى سليمان ـ عليه السلام ـ عليه الهيكل في أورشليم. وكان في القسم الشرقي من المدينة الحاضرة يشرف على وادي قدرون كان عليه بيدر أرونة (أرنان) اليبوسي وكان إلى الشمال من صهيون. ولما بنى الهيكل على قمة هذه الأكمة بنيت أسوار من جوانب الأودية إلى الجهات الأربع حوله. (انظر: صموئيل الثاني، 24: 16، 24؛ قاموس الكتاب المقدس، ج 2، ص. 859؛ وكذا عبد الحميد زايد، المرجع السابق، صص. 13 ـ 14).

(5079/1)

، حيث تراءى لداود أبيه الذي هيأ مكاناً في بيدر أرنان اليبوسي(1). وقد جرى العرب على القول بأن هذا المكان هو جبل الموريا، الذي يعتقد اليهود أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ شرع في ذبح(2)

---

(1) أخبار الأيام الثاني 3: 1.

(2) جاء اسم»المرايا« في "العهد القديم"، على أنه

المكان الذي قدم فيه إبراهيم ولده إسحاق ـ عليهما السلام ـ قرباناً لله، والموضوع لا يزال حتى الآن محل خلاف كبير في هذه القضية بين الباحثين، بل بين اليهود أنفسهم. فاليهود السامريون يرون أن الحادث إنما كان على جبل جرزيم القريب من نابلس، حيث قام أقدم هيكل لبني إسرائيل، حتى جاء داود ـ عليه السلام ـ فأبطله وعطله بعد أن نقل عاصمته إلى القدس. هذا، فضلاً عن أن الذبيح إنما هو إسماعيل ـ عليه السلام ـ، وأن الحادث كان بمكة المكرمة.(انظر: سفر التكوين 22: 2؛ وكذا حسن ظاظا، القدس: مدينة الله ـ أم مدينة داود؟، ص. 14؛ وانظر عن الذبيح من وجهات النظر اليهودية والمسيحية والإسلامية: محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج 1، في بلاد العرب، صص. 159 ـ 177).

(5080/1)

ولده إسحق عليه(1). ويحتمل أن يكون اشتقاق الاسم من مادة »رأى« العبرية والعربية ـ فيكون المعنى »أرض الرؤية« (2). ويطلق أحياناً على هضبة الحرم (جبل الموريا) »المدينة التحتانية« (3).

... لقد وردت في العهد القديم أسماء عدة أخرى، ولكنها

كانت قليلة الأهمية والشيوع منها:

... 8 ـ المدينة

---

(1) **عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص.** 62.

(2) Interpreter's Dictionary of the Bible, Vol. VI, 438p.

(3) **سيد فرج راشد، المرجع السابق، ص.** 55.

(5081/1)

... »تكون حفنة بُرٍّ في الأرض في رؤوس الجبال. تتمايل مثل لبنان ثمرتها، ويزهرون من المدينة مثل عُشب الأرض« (1).

... 9 ـ مدينة الله

... »نهرٌ سواقية تُفرح مدينة الله مقدس مساكن العلى« (2). **وأيضاً: »عظيم هو الرب وحميد جداً في مدينة إلهنا جبل قدسه«**(3).

... 10 ـ مدينة العدل

... »بعد ذلك تُدعين مدينة العدل القرية الأمينة« (4).

... 11 ـ مدينة الحق

_____

(1) مزمور 72: 16.

(2) مزمور 46: 4.

(3) مزمور 48: 1.

(4) سفر إشعياء 1: 26.

(5082/1)

... »هكذا قال الرب. قد رجعت إلى صهيون وأسكن في وسط أورشليم فتدعى أورشليم مدينة الحق« (1).

... 12 ـ مدينة القدس

... »فإنهم يُسَمَّون من مدينة القدس ويسندون إلى إله إسرائيل« (2). وأيضاً: »وسكن رؤساء الشعب في أورشليم. والتقى سائر الشعب قُرعا ليأتوا بواحد من عشرة للسكنى في أورشليم مدينة القدس« (3).

... 13 ـ الجبل المقدس

... »ويكون في ذلك اليوم أنه يضرب ببوق عظيم، فيأتي التائهون في أرض أشور والمنفيون في أرض مصر

ويسجدون للرب في الجبل

---

(1) **زكريا**: 8: 3.

(2) **سفرإشعياء** 48: 2.

(3) **سفر نحميا** 11: 1.

(5083/1)

المقدس في أورشليم«(1).

... 14 **.القرية الأمينة**

... »**وبعد ذلك تُدعين مدينة العدل القرية الأمينة«**

(2).

رابعاً: الكتابات المسيحية

... **لقد وردت إشارة باسم:**

... 1 **.المدينة المقدسة**

... »**ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة وأوقفه على جناح الهيكل«** (3). **وأيضاً: »وخرجوا من القبور بعد قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين«**(4).

* * *

---

(1) **سفر إشعياء** 27: 13.

(2) **سفر إشعياء** 1: 26.

(3) **إنجيل متى** 4: 5.

(4) **إنجيل متى** 27: 53.

(5084/1)

... هذه هي الأسماء التي وردت في "الكتاب المقدس"، على أن اسم أورشليم هو الأكثر شيوعاً، منذ فتح داود - عليه السلام - المدينة حتى منتصف القرن الثاني الميلادي. وقد تكرر ذلك في ثلثي أسفار "العهد القديم" ونصف أناجيل "العهد الجديد". وهو الاسم، الذي قدسه اليهود ودار على ألسنتهم وترنموا به:

... كيف ترنم ترنيمة الرب في أرض غريبة؟

... ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك

... إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي (1).

---

(1) **مزمور** 37: 1.

(5085/1)

... ويذكر أحد الباحثين اليهود أن فكرة دولة إسرائيل بقيت حية في كلمات هذا المزمور، وأن منها نبتت بذور الصهيونية الوطنية مع أن أنبياءهم عاموس وأمريا وميخا وأشعياء، لم يوجهوا اهتمامهم إلى استعادة السلطة الزمنية، وإنما حصروه في دفع الظلم عن بني قومهم، وحثهم على عبادة الله والتمسك بالفضيلة(1). وأرشليم التاريخية قد اندثرت، وحلت محلها القدس المسيحية، ثم بيت المقدس الإسلامية.

...

خامساً: كتابات المؤرخين الإغريق والرومان

... 1 ـ سوليما

---

(1) ألفرد ليلنيتال، ثمن إسرائيل، بيروت، 1954، صص. 7 ـ 8.

(5086/1)

... كما يذكر يوسف بن متى أن هومر (Homer) ذكرها باسم سوليما (Solyma)، لأنه سمى المعبد سوليما، وتعني ـ حسب اللغة العبرية ـ السلام، بينما في بعض النسخ للمؤرخ يوسف بن متى يذكرها باسم هيروسوليما (Hirosolyma) وأورشليم (Jerusalem). والأخيرة من

المؤكد أن يوسف بن متى ذكرها في نسخ أخرى بأن المدينة كانت تسمى سالم أو سوليما قبل زمن ملكي صادق، ولكن هو الذي سماها هيروسولميا أو أورشليم. واعتقد (المترجم) أنها سميت كذلك بعد نزول الوحي (يهوه) على إبراهيم (1)

---

(1) Josephus, p. 151 and no.*; M. F. Unger, op. cit., p. 576.

(1/5087)

.

... 2 . إيلياء

... هو اسم لها مشتق من اسم الإمبراطور الروماني إيليا هادريان (Aelius Hadrianus) الذي هدم مدينة أورشليم للمرة الثانية في عام 135 م، بعد تيتوس الروماني الذي هدمها سنة 70 م، حتى تكون ختاماً نهائياً لليهود في فلسطين بوجه عام، والقدس بوجه خاص، سياسياً وسكانياً. وبنى هادريان مكانها سنة 135 م مدينة أسماها إيليا كابيتولينا (Aelia Capitolina)، أي إيليا العظمى، أو إيليا (Aelia)، فقط، ليمحو من الوجود كل أثر

يهودي فيها (1)

_____

(1) Crown Prince 246M. Grant, op. cit., p. ;

Hassan bin Tolal, op. cit., p. 8.؛

(5088/1)

. وظلت المدينة لا يسكنها اليهود حتى القرن السابع الميلادي والفتح العربي الإسلامي لها.

... حاول المؤرخون الإسلاميون أن يفسروا معنى الاسم، فيرى البكري (1) أن معناها «بيت الله»، ويرى ياقوت الحموي (2) المعنى نفسه، بل يزيد بإيراد أنها

_____

(1) عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج 1، تحقيق مصطفى السقا، ط 1، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1364 هـ/ 1945 م، ص. 217.

(2) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص. 293.

(5089/1)

»بيت الله«، »الأرض الحزن«، وأن الذي بناها هو إيلياء بن أرم بن سام بن نوح. ومن ثم فقد سُميت باسمه. غير أن هذا اجتهاد من ياقوت الحموي، حيث أراد أن يفسر معنى الاسم فيكون بدايته بمقطع »إيل«، ومعناها الله. ومن ثم فلم يفطن إلى أن إيليا اسم روماني أصلاً، غير أنه ربطه بـ »إيلياء بن أرم بن سام بن نوح«.

... ظل اسم إيلياء سائداً نحو مائتي سنة، إلى أن جاء الإمبراطور قسطنطين (306 ـ 337 م) ـ وهو أول من تنصر (1)

---

(1) وهناك رأي بأنه بقي وثنياً طوال حياته، ولم يتقبل النصرانية إلا على فراش المرض. (انظر: عمر كمال توفيق، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية، 1967، ص. 29).

(5090/1)

من الأباطرة الرومان في عام 312 م ـ فألغى اسم إيلياء، وأعاد محله اسم أورشليم، سنة 324 م. إلاَّ أن العرب ظلوا يعرفونها باسم »إيليا«، حتى بعد الفتح الإسلامي لها، لأن هذا الاسم تضمنته العهدة العمرية، التي حررها عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لأهل القدس، عندما تسلمها

عام 15 هـ/ 637 م، حيث أن العهدة العمرية صُدرت بعبارة: »هذا ما أعطى عبد الله عمر أهل إيلياء من الأمان«. ولكن اليهود، كعادتهم، أخذوا اسم »إيلياء« وحشروه في "توراتـ"هم. فقد وردت إشارة مع أواخر سفر الملوك الأول، إلى اسم »إيليا«، وهو اسم

(1/5091)

أحد الملوك اليهود (1). ومع ذلك، لم يفضل اليهود استعمال هذا الاسم على استعمال اسمي »أورشليم« أو »صهيون«(2).

سادساً: كتابات المؤرخين المسلمين

... هو الاسم الذي أُطلق على المدينة بدءاً من الفتح الإسلامي لها، محل إيليا وأورشليم. على أن اسم »بيت المقدس« كان أكثر وروداً في مختلف المصادر(3). ومن ثم فهو

---

(1) سفر الملوك الأول 17: 1 ـ 18؛ وكذا: بطرس البستاني، دائرة معارف البستاني، بيروت، 1900، مادة »إيليا«.

(2) شفيق جاسر أحمد محمود، المرجع السابق، ص. 19.

(3) مصطفى مراد الدباغ، المرجع السابق، ص. 96.

(5092/1)

اسم يعيد ما عُرفت به قديماً. والاسم مشتق من القُدُس - بضم القاف والدال -، وهي الطهارة والبركة. ومن ثم، فإنه يعني بيت المقدس، المكان الذي يتطهر فيه من الذنوب، ويقال المنزه عن الشرك والمرتفع. والبيت المُقَدَّس - بضم الميم وفتح الدال المشددة -، أي المطهر، وتطهيره إخلاؤه من الأصنام. وقد جعلت مسكناً للأنبياء والمؤمنين(1). وهي مدينة

---

(1) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1923، ج 1، ص. 325؛ وكذا: مجير الدين الحنبلي، المرجع السابق، ص. 4.

(5093/1)

أنبياء الله ومعجزاتهم ابتداء بإبراهيم الخليل إلى عيسى بن مريم حتى معراج محمد – صلى الله عليه وسلم

-. وقد أشار إلى ذلك بأسلوب بليغ من خطب من المسلمين في المسجد الأقصى على أثر الفتح العربي الإسلامي، القاضي محيي الدين محمد بن زكي الدين علي القرشي، حين قال: »هو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومدفن الرسل، ومهبط الوحي، ومنزل ينزل فيه الأمر والنهي«(1). ومن ثم فإن كلمة »قدس« منها »مقدس«؛ فهي ـ حسب القواميس المعروفة ـ واحد من المعاني الثلاثة التالية: ما هو مكرس لخدمة الله

(1) المرجع نفسه، صص. 296 ـ 297.

(5094/1)

ولعبادته، ما هو مكرس أو مزعوم أنه مكرس لهدف غير ذاتي ولمقصد روحاني، وما هو مرتبط بشخص أو بشيء له قداسته، وأخيراً هو الذي تعتبره أو تعترف به سلطة أو تقليدٌ دينيٌّ ما أنه مقدس. فالمعنى، إذن، له مدلول تاريخي وليس مجرد نتيجة نظرية جامدة. والعالم مقسوم، في الأديان المعروفة، إلى قسمين لأحدهما وزن خاص، وهو القسم المقدس. وما يميزه عن القسم الآخر، غير المقدس، هو الطقوس والعبادة والمحرمات وغيرها من الإجراءات الدينية، وبإمكان الشيء أن يكون مقدساً

بالاستمرار أو الارتباط (1)

---

(1) حسن سعيد الكومي، »قدسية فلسطين عند المسلمين«، شؤون فلسطينية، مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية، رقم 11، تموز (يوليو) 1972، ص. 144.

(5095/1)

. والقدس، وقدس الأقداس، ألفاظ شائعة في "العهد القديم". وهي بلاشك مشتقة أصلاً من مادة »قادس« السامية بمعنى »طهر« أو »حرُم« (1). وهي ذات دلالة دينية. فالقدس هو مكان في الهيكل يتعبد فيه الكائن، ويفصل بينه وبين قدس الأقداس حجاب. وقدس الأقداس هو المذبح؛ وهو متعبد كبير الأحبار. وفي سفر اللاويين ينهى الرب هارون ـ عليه السلام ـ عن دخول القدس كل وقت داخل الحجاب أمام الغطاء الذي على التابوت لئلا يموت (2)

---

(1) Thesaurus, Linguae Hebraecae et Chaldacae, Tom. II, Lipsiae, 1840, p. 1195.

(2) سفر اللاويين 16: 1.

. والمَقْدِس مكان القُدس، جاء في "سفر العدد : »وقال الرب لهارون: أنت وبنوك وبيت أبيك معك تحملون ذَنْب المَقْدِسِ« (1).

... وعلى أية حال، فقد عرفت المدينة منذ بداية تاريخها باسم »القدس«(2)، عندما أقيمت فيها أماكن مقدسة للعبادة. ومن الجلي أن هيرودوت (484 ـ 425 ق. م) لم يذكر اسم أورشليم، ولكنه ذكر كلمة »قديتس« مرتين في الجزء الثاني والثالث من تاريخه. وقد حاول بعض الباحثين الوصول إلى تفسير العلاقة بين القدس وكلمة »قديتس«، فجاء التفسير

(1) سفر العدد 18: 1.

(2) سفر أشعياء 48: 2؛ نحميا 11: 13.

لافتاً للنظر: فاسم القدس محرف من اليونانية عن النطق الآرامي »قديشتا« (1). ومما يثير في النفس ريبة أن اليهود أطلقوا عليها أحياناً اسم »مدينة القدس« (2).

وفي "إنجيل متى" ورد في النص العربي باسم »المدينة المقدسة« (3)، ويقابله في النص السرياني »بيت مقديشيو«، أي بيت المقدس.

---

(1) حسن ظاظا، المرجع السابق، ص. 8؛ وكذا: سيد فرج راشد، المرجع السابق، ص. 28.

(2) قاموس الكتاب المقدس، ج 1، ص. 129.

(3) إنجيل متى 27: 53.

(5098/1)

... كانت الأديان، في كل مراحل تطورها، تبني أماكن العبادة وصروح التقديس بالقرب من الأماكن المقدسة أو فيها، وكانت هذه المباني، تكتسب، أحياناً، قداسة بحد ذاتها. إذ ليس كل معبد أو كنيسة أو مسجد مبنياً على مكان كان مقدساً من قبل، بل إن مجرد تشييد المبني يُعطي المكان صبغة دينية، ربما لم تكن موجودة من قبل. إلاَّ أن عدداً كبيراً من المباني المقدسة إنما أقيم على أراضٍ كانت، بالفعل، مقدسة عند طائفة ما؛ كأن يكون المكان موقع مولد مؤسس الطائفة، أو موقع عمل أو اعمال خارقة له، أو محل حصول حدث تاريخي مهم

للطائفة. والقدس، المعروفة باسم المدينة المقدسة عند اليهود والنصارى والمسلمين، مثال ممتاز على ذلك (1). فقد أمدت القدس فلسطين كلها بالقداسة، بالارتباط والجوار. لم يكن للرسول موسى عليه السلام، أي ارتباط بالقدس، ولكن نظراً لأنه كان رسولاً لليهودية، ولأن داود ـ عليه السلام ـ اختار القدس عاصمة له واختارها أيضاً لبناء الهيكل الذي بناه سليمان ـ عليه السلام ـ ونظراً للعلاقة بين هؤلاء الثلاثة؛ لذلك كله كانت القدس مدينة مقدسة عند اليهود طيلة تاريخهم القديم.

(1) حسن سعيد الكرمي، المرجع السابق، ص. 144.

وقد يهب الربط التاريخي أو الديني مكاناً أو موقعاً أو مدينة أو ربما مناطق مقدسة مماثلة. ولا نحتاج إلى أمثلة على ذلك فهو أمر شائع في أمم وأديان كثيرة. ولذلك كانت أرض كنعان (فلسطين)، بما هي أرض ميعاد،

مقدسة عند يهود، لأن اليهود القدامى آمنوا أن الله وعد أرض كنعان لإبراهيم وإسحق ويعقوب (1)

---

(1) سفر العدد 34: 1 ـ 12. وانظر هذه الوعود: محمد بيومي مهران، »قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة«، في مقالين بمجلة الأسطول، العدد 66، 67، الإسكندرية، 1971؛ وكذا: رشاد محمود بغدادي، حول الأرض المقدسة عند اليهود، الإسكندرية، 1416 هـ/ 1996 م.

(5101/1)

. ولا تتطلب قدسية كهذه وجود مبان أو آثار قديمة، وحتى بقايا ومخلفات دينية. وفلسطين، الأرض المقدسة، »مقدسة« لليهود، مع أنهم انقطعوا عن إقامة أيّ صلة مادية ملموسة بها منذ القرن الأول الميلادي، ولفترة طويلة جداً. فقد زال وجودهم الديني بها تماماً؛ بينما يختلف الوضع في حالة الوجود الديني الإسلامي أو المسيحي، فقد احتفظ الدينان بارتباطاتهما التاريخية والدينية باستمرار؛ وهي ارتباطات دعمها وقواها الوجود الفعلي الإسلامي والمسيحي، ووجود الآثار والمباني الدينية. وإن اعتبار القدس مدينة مقدسة عند الأديان

الثلاثة لا يضعف من موقف المسلمين، بل بالعكس، يزيده قوة: فالإسلام يؤمن باليهودية والمسيحية(1). ... ويذكر مجير الدين أن »بيت المقدس« يطلق على الصخرة والمسجد الأقصى خاصة، بينما يطلق اسم »القدس« على المدينة بعامة(2). أما أسماؤها العربية، فهي بيت المقدس والبيت المقدس والمقدس والقدس والقدس الشريف والأرض المقدسة. أما الاسم الغالب، فهو »القدس«، والذي يبدو أنه رافق المدينة منذ بداية تاريخها (3)

---

(1) حسن سعيد الكرمي، المرجع السابق، ص ص. 144 - 147.

(2) مجير الدين، المرجع السابق، ج 1، ص. 6.

(3) محمد بيومي مهران، دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم (8)، إسرائيل، الكتاب الثاني، التاريخ، ص. 821.

. كما أن كلمة »شريف« لا تضاف إلاَّ إلى الأسماء التي لها قدسية خاصة. وهكذا فإن الحرم، حيث يقوم المسجد الأقصى وقبة الصخرة، يسمى »الحرم الشريف« (1)

---

(1) حسن سعيد الكرمي، المرجع السابق، ص. 147. إن الكنعانيين العرب هم أقدم من قدس بقعة الحرم الشريف، حيث اتخذ ملكهم ملكي صادق فيه معبداً قبل أن يقوم سليمان ـ عليه السلام ـ ببناء هيكله بحوالي ألف سنة. لذلك فليس غريباً أن يقول الأقدمون إن بناء سليمان ـ عليه السلام ـ كان على أساس قديم. (انظر: مجير الدين، المرجع السابق، ص. 5؛ وكذا: مصطفى مراد الدباغ، المرجع السابق، صص. 26 ـ 27).

(5104/1)

.

... جاء في الخبر (1) أن أهل القدس اشترطوا ألاَّ تُسلم مدينتهم إلاَّ للخليفة عمر بن الخطاب

---

(1) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، 1968، ج 3، صص. 607 ـ 613؛ وكذا: محمد الخضري، تاريخ الأمم الإسلامية،

القاهرة، 1370 هـ، ج 2، صص. 5 ـ 7؛ وكذا محمد حسين هيكل، الفاروق عمر، القاهرة، 1962، ج 1، صص. 246 ـ 263؛ وكذا عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، القاهرة، 1967، ج 1، ص. 188؛ وكذا محمد علي، ملف وثائق القضية الفلسطينية، القاهرة، 1970، ج 1، صص. 3 ـ 4.

(5105/1)

(13 ـ 22 هـ = 624 ـ 644 م) ـ رضي الله عنه ـ نفسه، وأن يمنحهم الأمان لدينهم وكنائسهم، ويقبل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ويأتي إلى القدس في عام 15 هـ (637 م)، فيدخل المدينة التي يسلمها له بطريرك أورشليم «صفرونيوس» (Sophronius)، ويمنح أهلها النصارى الأمان في دينهم وأموالهم وأعراضهم، لا يضار أحد منهم بسبب دينه، ولا يكره على شيء في أمره. ولا يسكن بإيليا أحد من اليهود (1)

---

(1) هناك رواية أخرى تذهب إلى أن الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ رفض الموافقة على استمرار القرار الروماني القديم بمنع اليهود من النزول بالمدينة، معتذراً بأن القرآن الكريم قد حدد ما لأهل

الكتاب وما عليهم، وليس فيه شيء يسمح بهذا. ولكنه تعهد لنصارى القدس بألّا يدخل أحد من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن في حارتهم. (انظر: حسن ظاظا، المرجع السابق، ص. 30؛ وكذا محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص. 823. (1)).

(5106/1)

.

... إن العهد العمرية، اشترطت ألَّا يقيم في القدس يهود، وذلك بناء على طلب صفرونيوس، الذي كان يمنعهم من السكن في المدينة المقدسة. أما عن وجود اليهود في فلسطين العربية طوال حكم المسلمين الذي استمر قرابة أربعة عشر قرناً، كان سببه هو سماحة الإسلام والمسلمين، الذين تغاضوا عن تسللهم وسمحوا لهم بتأدية شعائرهم والبكاء عند الحائط أما وجودهم قبل الإسلام، فكان وجوداً همجياً، حافلاً بالقسوة والعنف والحقد. ومنذ أن قادهم موسى، عليه السلام، إلى أرض فلسطين .والتي لم يدخلوها في عهده .اعتبروا شعبها من

(5107/1)

الفلسطينيين عدواً لهم وصمموا على إبادة ذلك الشعب (1).

... هناك أسماء عربية أخرى للقدس ورد ذكرها في القرآن الكريم: {والتين والزيتون، وطور سنين، وهذا البلد الأمين} (2). وهذا يعني أن »التين« بلاد الشام، و»الزيتون« (3)

---

(1) عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص. 178.

(2) سورة التين: آية: 1 ـ 3.

(3) من أهم جبال القدس، جبل الزيتون، ويسميه العرب »جبل الطور«، ويقع إلى الشرق من القدس، مواجهاً لأسوار الحرم الشريف في مواجهة الجبل من الجهة الشرقية، ويفصله عنه وادي قدرون. ويسميه التلمود باسم »جبل المسيح«، أي جبل التتويج، لأنهم كانوا يستخلصون من زيتونه الزيت المقدس المستخدم في تتويج ملوكهم. (انظر: سيد فرج راشد، المرجع السابق، ص. 30).

(5108/1)

بلاد القدس، و»طور سينين« هو الجبل الذي كلم الله منه موسى، عليه السلام، و»هذا البلد الأمين« هو مكة المكرمة. ومن أسمائها »القرية«، وإلى ذلك تشير الآيات: {ادخلوا هذه القرية، فكلوا منها حيث شئتم رغداً، وادخلوا الباب سجداً، وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم} (1). ومنها »الأرض المباركة«، وإلى ذلك تشير الآية: {ونجيناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين} (2). ومنها »الساهرة«، وجاء في الآية: {فإذا هم بالساهرة} (3).

---

(1) سورة الأعراف، الآيات 7.

(2) سورة الأنبياء، أية 21.

(3) سورة النازعات، آية 79.

(5109/1)

... من الملاحظ أن أسماء القدس كلها عربية الأصول كنعانية أو يبوسية؛ إلاَّ عندما سماها داود، عليه السلام، والإمبراطور الروماني هادريان باسميهما، اللذين ذهبا مع الأيام. حتى الاسم »أورشليم« اسم كنعاني، وكذلك الاسم »يورشاليم« تعبير أرامي عربي. كما نلاحظ أن قدسية المدينة عربية الأساس، فقد دشن

البيوسيون العرب هذه القدسية قبل مرور، إبراهيم، عليه السلام، بالقدس، أكثر من ألف سنة. وهي مدنية عربية قبل أن يفتحها داود، عليه السلام، بأكثر من ألفي سنة(1)

---

(1) فايز فهد جابر، القدس، ماضيها، حاضرها، مستقبلها، عمان، دار الجيل للنشر، 1985، ص. 14.

(5110/1)

.

... وقد حملت هذه الأسماء في أذهان الناس دلالة على قدسية المدينة وكونها بيتاً مقدساً(1). وأن شعب فلسطين الكنعاني العربي، هو الذي أسس المدينة في زمان بعيد في الماضي، وهو الذي أطلق عليها أسماءها(2)

---

(1) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص. 819.

(2) ومهما قيل في أسمائها، فإنها تستحق القول الذي قال فيها أمير الشعراء أحمد شوقي:

... ... بلد على أرض الهدى وسمائه ... المجد حائطه ورأس بنائه

... ... بلد بنوه الأكرمون قبورهم ... وقصورهم وقف على

نـزلائه

... انـظر: أحمد صدقي الدجانـي، المرجع السابـق، صص. 41 ـ 42.

(5111/1)

.

التسلسل السياسي لمدينـة القدس

... هذا وظلت القدس (أورشالم) في أيدي أهلها اليبـوسيين حتى استولى داود عليها في العام السابـع من حكمه، وغير اسمها إلى »مدينـة داود« واتـخذها عاصمة جديدة لمملكته الموحدة، وقد بـقي اليبـوسيون في مدينـتـهم »يبـوس« (أورشالم) حتى بـعد أن استولى داود عليها(1). وقد أصبحت منـذ هذا التاريخ مدينـة مقدسة عنـد اليهود.

... وبـعد وفاة داود ـ عليه السلام ـ في عام 960 ق. م، حكم من بـعده ابـنـه سليمان، فاستمرت عاصمة للمملكة الموحدة ما يـقرب من أربـعين عاماً، حتى وفاته

---

(1) صموئيل الثانـي 24: 16 ـ 25.

(5112/1)

في عام 922 **ق. م**(1). **وقد دلت الحفريات الحديثة على أن القدس بقيت في عهد داود كما هي دون أي توسع أو تطوير، في حين أثبتت هذه الحفريات ـ أيضاً ـ أنها قد اتسعت وتطورت في عهد سليمان لتبلغ مساحتها حوالي** 155 **فدَّانٍ**(2). **ولعل أعظم الإنشاءات التي قام بها سليمان في القدس**

---

(1) W. F. Albright, The Biblical Period, from Albraham to Ezra, New York, 1963, pp. 120–123.

(2) **عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص.** 67 ـ 75؛ **وكذا:**

M. K. Kenyon, « Palestine in the Middle Bronze Age », CAH, Vol. II, I 98–104, 116–118.

(5113/1)

كانت المعبد أو ما يعرف باسم «هيكل سليمان» الذي استغرق بناؤه حوالي سبع سنوات (956 ـ 949 **ق. م)**

(1).

... وبعد موت سليمان، بدأ الصراع القبلي بين الإسرائيليين، وانقسمت المملكة التي وحدها داود إلى مملكتين منفصلتين: مملكة الشمال وتدعى »إسرائيل«، والأخرى في الجنوب وتدعى »يهوذا«. وقد اتخذت الأخيرة من القدس (أورشاليم) عاصمة لها؛ وتعرضت عاصمة مملكة »يهوذا« خلال عصر هذه المملكة (922 ـ 587 ق. م) للعديد من

---

(1) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ص. 840 ـ 860؛ وكذا: M. K. Kenyon, op. cit., pp. 119–123.

(5114/1)

الاعتداءات وواجهت الكثير من المصائب والمحن (1): فقد هاجمها ملك مصر »شيشنق« في عام 917 ق. م (2)، كما تعرضت لهجوم الفلسطينيين في عام 850 ق. م، واحتلها ملك دويلة إسرائيل » يهواش« (796 ـ 781 ق. م) (3)، وكذا خلال فترة حكم ملك يهوذا »احاز« (734 ـ 720 ق. م) (4)

---

(1) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص. 869، 951،

993؛ **وكذا:** H. Cattan, Jerusalem, London, 1981.

(2) **أحمد فخري، مصر الفرعونية، القاهرة،** 1971، **ص.** 398.

(3) Dictionary of the Bible, p. 473.

(4) **محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص.** 969، **قارن:** Dictionary of the Bible, p. 473.

(5115/1)

. ولكنه عندما غزا الآشوريون مملكة يهوذا أثناء حكم الملك »حزقيا« (715 ـ 687 **ق. م) سلمت القدس من الاحتلال الآشوري** (1)**، وقد ظلت بمنأى من الاحتلال حتى جاء الملك البابلي »نبو خذ نصر« واحتلها في عام** 592 **ق. م. بيد أنها ظلت تحت حكم ملوك يهوذا حتى عام** 586 **ق. م، عندما محت يد السبي البابلي مملكة يهوذا من الوجود ودمرت عاصمتها القدس (أورشليم)** (2)

---

(1) **محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص.** 970، 973 ـ 975، **الملوك الثاني** 19: 35.

(2) **الملوك الثاني:** 25: 12، **محمد بيومي مهران، المرجع السابق، صص.** 989 ـ 993؛ **وكذا:** Dictionary of the Bible, p. 474.

(5116/1)

. ...

... وقد بقيت أورشليم (القدس) تحت الحكم البابلي حتى جاء الملك الفارسي »كيروش الثاني« (558 ـ 530 ق. م)، فقضى على الإمبراطورية البابلية في عام 539 ق. م. ومن ثم أصبحت أورشليم خاضعة لحكم الإمبراطورية الفارسية(1). وقد سمح »كيروش« لليهود المنفيين في بابل بالعودة إلى ورشليم وإعادة بناء معبدها الذي كان »نبوخذ نصر« قد دمره في عام 587 ق. م(2).

---

(1) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ص. 1032 ـ 1033.

(2) المرجع نفسه، صص. 1034 ـ 1043.

(5117/1)

... وحين أفل نجم الفرس وسقطت دولتهم على يد الإسكندر المقدوني، أظهر اليهود ولاءهم وخضوعهم وترحيبهم بالإسكندر المقدوني عندما استولى على أورشليم في عام 332 ق. م. فأصبحت منذ ذلك التاريخ خاضعة لحكم الإغريق. وبعد وفاة الإسكندر المقدوني، تقاسم قواده إمبراطوريته فيما بينهم؛ فآلت مصر إلى

بطليموس (Ptolemy) وخضعت ولايات الشمال إلى سلوقس (Selecus). وبعد صراع بين بطليموس وسلوقس، انتصر بطليموس بانيون عام 199 ق. م(1)

---

(1) المرجع نفسه، ص. 1105؛ عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص. 109؛ مصطفى مراد الدباغ، المرجع السابق، ج 9، صص. 55 ـ 56؛ وكذا: Josephus, BK. XI, ch. VIII, 3pp.–7.

(5118/1)

.

... وفي عام 198 ق. م. استولى ملك سورية «أنتيخوس» (Antiochus) على أورشليم، فأصبحت بذلك خاضعة لحكم السلوقيين. وقد تعرضت أورشليم بعد ذلك للعديد من الفتن والثورات والحروب الدامية(1)، حتى جاء القائد الروماني «بومبي» (Pompy)، فاحتل أورشليم في عام 63 ق. م. ودخلت بذلك تحت حكم

---

(1) عن الثورات والحروب والفتن التي عمت فلسطين خلال هذه الفترة بالتفصيل، انظر: محمد بيومي مهران، المرجع السابق، صص. 1105 ـ 1136؛ عبد الحميد زايد، المرجع

السابق، صص. 110 ـ 115؛ مصطفى مراد الدباغ، المرجع السابق، صص. 55 ـ 58.

(5119/1)

الرومان (1). وقد ظل الرومان يتحكمون في مقاليد الأمور في أورشليم حتى جعلوها ولاية رومانية. وتعاقب بعد ذلك الولاة الرومان على حكم أورشليم. وخلال هذه الفترة التاريخية كانت ولادة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام في مدينة »بيت لحم«، وذلك في أواخر حكم »هيرودوس« (37 ـ 4 ق. م). وقد عاش عليه السلام حياته في مدينة »الناصرة« و»الجليل«. وكانت أورشليم مكان تبشيره بدعوة التوحيد(2)

---

(1) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص. 1137؛ عبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص. 116؛ وكذا: H. Cattan, op. cit., pp. 23–24.

(2) كذب الله سبحانه وتعالى دعوى اليهود والنصارى بأن عيسى بن مريم عليه السلام قتل وصلب. فيقول عز وجل في القرآن الكريم: {وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله. وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم

به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما } (سورة النساء، آية: 157 ـ 158).

(5120/1)

؛ وقد أصبحت أورشليم منذ ذلك الوقت مدينة مقدسة عند المسيحيين.

... وعندما قام اليهود بالعصيان والثورة على الحاكم الروماني، أرسل الإمبراطور الروماني »فسباسيان« ابنه »تيتوس« (Titus) للقضاء على هذه الثورة. فهاجم »تيتوس« أورشليم في عام 70 م، وقتل الكثير من اليهود(1). وبقيت

---

(1) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، صص. 1140 ـ 1155؛ وعبد الحميد زايد، المرجع السابق، ص ص. 141 ـ 147؛ مصطفى مراد الدباغ، المرجع السابق، ج 9، ص. 59، 68 ـ 70؛ وكذا: H. Cattan, op. cit., p. 24; Dictionary of the Bible, p. 475.

(5121/1)

أورشليم مدينة خربة مدة طويلة لا يسكنها سوى حامية رومانية. ويبدو أن »تيتوس« لم يسحق اليهود نهائياً. فقد ثار اليهود على الرومان مرة أخرى، واستقلوا بأورشليم في ما بين عامي 132 م و135 م (ثورة باركوخيا). ولكن الإمبراطور الروماني »هادريان« أخمد تلك الثورة ومحا أورشليم من الوجود، وبنى فوقها مدينة جديدة سماها »إيليا كبيتولينا« (Aeilia Capitolina). وقام الرومان بمذبحة خدمت مصير اليهود في فلسطين بما هي دولة قومية، ولم يسمح لليهود أن تطأ أقدامهم مدينة »إيليا« إطلاقاً منذ عام 135 م(1)

---

(1) محمد بيومي مهران، المرجع السابق، صص. 1155 ـ 1157؛ وكذا: عبد الحميد زايد، المرجع السابق، صص. 153 ـ 157؛ وكذا: Cattan, op. cit., p. 24.

(1/5122)

.

... وعندما انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين، كانت فلسطين تابعة للإمبراطورية الرومانية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية)؛ فأصبحت »إيليا« تحت حكمها منذ القرن الرابع الميلادي حتى عام 614 م، عندما

احتلها الملك الساساني »كسرى ابرويز«. وظلت كذلك حتى استعادها منه الإمبراطور البيزنطي »هرقل« في عام 627 م. ولم يدم انتصار »هرقل« طويلاً؛ فقد أعقبه مباشرة الفتح الإسلامي لمدينة »إيليا« في السنة الخامسة عشرة من الهجرة النبوية (636 م)، وذلك في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ومن ثم، فقد سمح

(5123/1)

المسلمون لليهود بالعودة إلى القدس (1).

... وفي حقيقة الأمر، فقد احتلت القدس مكانة دينية فريدة بين مدن العالم، القديم منها والحديث. فهي المدينة الوحيدة في العالم أجمع، التي يجمع أصحاب الديانات السماوية الثلاث ـ اليهودية والمسيحية والإسلام ـ على قدسيتها. ومن ثم، فقد كانت ولا تزال ـ وستظل أبداً إن شاء الله ـ رمزاً للبشرية المتدينة على اختلاف مللها ورسلها ومذاهبها. وهكذا، فإن اليهود يقدسونها، لأن لهم فيها ذكريات دينية (2)

---

(1) مصطفى مراد الدباغ، المرجع السابق، ج 9، صص. 74 ـ 77.

(2) أما عن البراق الشريف، والذي يسميه اليهود بحائط المبكى، والذي يدعون أنه البقية الباقية من الهيكل القديم، فهو أثر إسلامي. وقد أثيرت القضية دولياً عام 1930 م. وشكلت لجنة دولية للتحقيق كان أعضاؤها من الدول المسيحية، ووافق مجلس الأمم في 5 أيار (مايو) عام 1930 م على تأليفها، وأقر اليهود صلاحيتها، وأصدرت قرارها 14 كانون الثاني (يناير) 1931 كما يلي: »للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربي، ولهم وحدهم الحق العيني فيه، لكونه يؤلف جزءاً لا يتجزأ من ساحة الحرم الشريف التي هي من أملاك الوقف. وللمسلمين أيضاً تعود ملكية الرصيف الكائن أمام الحائط وأمام المحلة المعروفة بحارة المغاربة المقابلة للحائط، لكونه موقوفاً .حسب =

= ... أحكام الشرع الإسلامي .لجهات البر والخير «. وعلى ذلك، فمدينة القدس تشمل شطري المدينة قديمها وجديدها، وهي عربية صرف. كذلك القرى العربية التي تجاورها، والتي اغتصبها اليهود بعد عدوان 5 حزيران (يونيه) 1967، وعمدوا إلى تغيير الوضع الراهن منذ عام 1931. وكان الانتداب البريطاني في هذا الوضع يعترف بأن للمسلمين وحدهم الحق العيني في ملكية هذا الحائط، مع إباحة سلوك اليهود إليه للعبادة. وقد نظم القرار الشروط الخاصة بالسلوك إلى الحائط: عدم جلب الخزانة

المحتوية على أسفار "التوراة" والمائدة التي توضع عليها عند الحائط إلاَّ في الصوم أو الصلاة الجماعية وما شابه ذلك؛ منع جلب المقاعد والسجاجيد والكراسي، إلخ. على أن يحترم حق المسلمين في الذهاب والإياب على الإفريز بالطريقة المعتادة؛ ويحرم على اليهود نفخ البوق (الشوفار) بالقرب من الحائط.. إلى آخره من الشروط التي يجب أن يراعيها اليهود والمسلمون. (انظر: الحق العربي في حائط المبكى، منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1968، صص. 105 ـ 109؛ وكذا عبد الحميد زايد، المرجع السابق، صص. 189 ـ 190، 206 ـ 257).

(5124/1)

وسياسية: ففيها كان هيكلهم المشهور؛ كما أنها كانت عاصمة لدولتهم حيناً من الدهر. ويقدسها المسيحيون، لأنها موطن المسيح ـ عليه السلام ـ ومبعث هدايته، ومن ثم فقد اتخذوا عادة الحج إليها. ولعل الأرجح أن المسيح ـ عليه السلام ـ، طبقاً لرواية "إنجيل لوقا" ـ قد حج إليها في صباه؛ ولما كان في الثانية عشرة من عمره، بقي فيها حيناً من الدهر يتعلم ويسأل ويعظ (1). ثم زاد الحجيج من المسيحيين إلى القدس،

بعد أن بنت »هيلانة« أم الأمبراطور الروماني

قسطنطين في عام 326 م كنيسة القيامة؛ فسعى إليها

---

(1) لوقا 2: 41 ـ 52.

(5125/1)

الحجيج من كل حدب وصوب (1). ويقدس المسلمون هذه المدينة، لأن الله تعالى شاءت إرادته أن يخصها بالعديد من الأنبياء ابتداء من أبيهم آدم حتى عيسى ابن مريم ـ عليهم السلام ـ ولأن فيها أولى القبلتين (2) وثالث الحرمين الشريفين، ولأن بها مسرى النبي الأعظم رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؛ وصدق الله العظيم حيث يقول: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي

---

(1) عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص. 29؛ وكذا: فيليب حتي، المرجع السابق، ص. 387.

(2) انظر: سورة البقرة، آية 142 ـ 144.

(5126/1)

باركنا حوله}(1).

---

(1) سورة الإسراء، آية 1.

(5127/1)

الكتاب : مجلة التاريخ العربي

القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى اللغة الروسية

الدكتور عبد الرحيم العطاوي

... ... كلية الآداب – الرباط

يعرف المسلمون في دول الاتحاد السوفييتي السابق عموما و في جمهورية روسيا الفيدرالية خصوصا في الوقت الراهن إقبالا قل نظيره على الترجمات الروسية لمعاني القرآن الكريم. ويظن البعض أن هذا الاهتمام يفتقد إلى جذور في الماضي وأنه أتى، كما أتت أشياء أخرى، نتيجة لانهيار الدولة السوفييتية فقط غير أن تاريخ هذه المنطقة من العالم يؤكد أن المسلمين بها كانوا، على مر العصور، مجندين لنسخ كتاب الله وطبعه

(5128/1)

وتوزيعه في نصفه الأصلي(1) . كما أن للمستشرقين إسهامات لا يستهان بها في ترجمة معانيه إلى اللغة الروسية.

إننا، في هذا المقال، نسعى إلى تسليط النور على بعض جوانب هذا الموضوع عموما وعلى الترجمات الروسية لمعاني المصحف الشريف خصوصا. وأملنا أن تكون هذه الصفحات بمثابة إسهام متواضع في المزيد من التعريف بالإسلام والمسلمين والقرآن الكريم قديما وحديثا في ربوع

---

(1) انظر حول هذا الموضوع: عبد الرحيم العطاوي، "نفض غبار النسيان عن بعض أمجاد تتارستان" ، مجلة التاريخ العربي ، عدد2، ربيع 1417 / 1997، ص. 222 – 223.

(5129/1)

البلاد الروسية.

في النصف الأخير من القرن التاسع الميلادي اتحد عدد من إمارات الجناح الشرقي للعالم السلافي(1) وكونوا أول دولة روسية (أكرانية؟ سلافية شرقية؟). موحدة أطلق عليها اسم "روس الكييفية" أو "روسيا الكييفية" (KIEVSKAYA RUS) ، نسبة إلى مدينة "كييف"(2)

---

(1) ينقسم العالم السلافي إلى ثلاث مجموعات لغوية كبيرة هي:

– المجموعة الشرقية، وتضم روسيا وأوكرانيا وبيلاروسيا؛

– المجموعة الجنوبية، وتضم بلغاريا وشعوب يوغوسلافيا السابقة؛

== – المجموعة الغربية، وتضم بولونيا وتشيكيا وسلوفاكيا.

(2) هي عاصمة أوكرانيا حاليا.

(5130/1)

التي كان مقرا لحكامها. وبعد قرن كامل، بدأت هذه الدولة الجديدة تبحث لنفسها عن دين من بين الديانات السماوية التي اعتنقتها جل الشعوب المجاورة. وهكذا طلب أميرها"(VLADIMIR)

من ملوك عدد من البلدان وأمرائها أن يبعثوا إليه برسل ليحدثوه عن دينهم حتى يتمكن مع باقي الأمراء الروسيين من اختيار أحد هذه الأديان ليتخذه دينا رسميا للبلاد قصد توحيدها أكثر وتعزيز شرعية الحكم بها. إلا أن الروسيين والسافيين الشرقيين عموما لم يكونوا يجهلون تماما أهم تعاليم هذه الديانات. فهم كانوا على اتصال مستمر مع الخزر اليهود،

(5131/1)

كما أنهم كانوا على اطلاع على مضمون الدين المسيحي الأرثودوكسي في بيزنطة والكاثوليكي عند جيرانهم في الغرب. أما الدين الإسلامي، فقد تعرفوا بعض تعاليمه وربما سمعوا بكتاب يسمى "القرآن" من خلال البلغار المسلمين الذين كانوا يقطنون الأراضي الممتدة على طول ضفتي نهر "الفولكا" (VOLGA) والتي تشكل حاليا موطن أحفادهم التتار المعروف الآن تحت اسم "جمهورية تتارستان ذات الاستقلال الذاتي" الموجودة ضمن الجمهورية الفيدرالية الروسية(1)

---

(1) انظر حول الجمهوريات الإسلامية ذات الاستقلال الذاتي في روسيا: العطاوي، مرجع مذكور، صص. 218– 219.

(5132/1)

.

ولقد اختار الأمراء الروسيون، وعلى رأسهم "فلاديمير"، الدين

المسيحي في شكله الأرثودوكسي البيزنطي. وقد يكون هذا الأمير اعتنق الإسلام، ثم ارتد عنه إلى المسيحية كما جاء في إحدى أقدم المخطوطات الروسية(1). ولا نرى أهمية في الوقوف عند الأسباب المتداولة التي رجحت هذا الاختيار، وهي أقرب ما

---

(1) يتعلق الأمر بالمخطوطة المعروفة تحت عنوان "قصة السنين الغابرة" (POVEST VREMENNYKH LET)
حولها: مكارم الغماري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، سلسلة المعرفة، عدد 155، الكويت ، نوفمبر 1991، ص. 311 (وصفحات أخرى).

(5133/1)

تكون إلى الخرافات. والحقيقة أن هذا الاختيار كانت له أبعاد سياسية واقعية(1) . غير أنه ترتب عليه الكثير من العواقب، أهمها أن روسيا انعزلت عن باقي أوربا الكاثوليكية وأصبحت تمثل العدو الأول في المناطق المسلمة الشرقية والجنوبية.
فالأوربيون كانوا يرون فيها بلدا أسيويا غريبا عنهم، في حين أصبح المسلمون يعتبرونها قلعة متقدمة لأوربا المسيحية داخل بلدانهم الإسلامية(2) .

---

(1) A. TAHERI, ISLAM/ U.R.S.S. LA REVOLTE DE L'ISLAM EN U.R.S.S. ED. TSURU, PARIS, 1990, P 35.
(2) المرجع نفسه، ص. 36.

(5134/1)

سبق لنا في دراسة سابقة(1) أن تناولنا موضوع علاقة الروسيين القدامى بجيرانهم المسلمين في شرق روسيا وجنوبها الشرقي، وركزنا بالأخص على حالة الحرب بين الروسيين والشعب التتاري. وإن تلك الدراسة التي حاولنا من خلالها تسليط النور على تاريخ المنطقة قد مكنتنا من تصور نوع العلاقات التي كانت سائدة بين شعوبها. غير أن هذه العلاقات لم تكن تميزها دائما الصراعات والمعارك الدموية. فلقد كانت تتخللها فترات سلام طويلة كان يزهر فيها التبادل التجاري والحضاري. وكلما تحدثنا عن هذا

(1) العطاوي، مرجع مذكور، صص. 217 – 229.

(5135/1)

التبادل الحضاري، فإننا نجد أن قسطا وافرا منه يشمل الثقافة العربية، وهو قسط يصعب فصله عن باقي الثقافة الإسلامية. وإذا كان العارفون بالأدب الروسي يعلمون بأن القرن التاسع عشر هو العصر الذي تجلى فيه بوضوح تأثير القرآن الكريم والمؤلفات الأدبية العربية، فإن الفترات السابقة تبقى مجهولة إلى حد بعيد(1) . غير أن هذه المرحلة التي امتدت من القرن التاسع الميلادي إلى غاية القرن التاسع عشر(2)

(1) الغماري، مرجع مذكور، صص. 31 – 32.

(2) انظر حول هذه المرحلة: عبد الرحيم العطاوي، الدراسات العربية في روسيا، كراتشكوفسكي نموذجا، أطروحة لنيل دكتوراه

الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، في جزئين، ج1، صص. 51 – 81. (مرقونة).

(5136/1)

كانت تعرف ظهور بعض الكتابات التي تتطرق للدين الإسلامي. وبالرغم من قلة هذه الكتابات، فإن لها أهمية تاريخية خاصة من حيث دراسة الفكر الروسي آنذاك
ولفهم جوهر التصور العام للإسلام السائد آنذاك عند الروسيين، لا بد من التذكير بأن هناك مصدرا أساسيا مدونا كان الروس يستقون منه معلوماتهم. ويتعلق الأمر باللاهوت والمراجع التاريخية اليونانية – البيزنطية التي بدأت تظهر في روسيا منذ القرن الحادي عشر. ومعلوم أن ما كان يكتبه اليونانيون – البيزنطيون، وهم ألدُّ أعداء الإسلام، لم يكن ليعطي صورة حقيقية أو قريبة من

(5137/1)

الحقيقة عن العرب والمسلمين. فجل كتاباتهم، إن لم نقل كلها، كانت عبارة عن تشويه وتحريف للحقيقة الدينية والتاريخية والحضارية. وهكذا تكونت عند الروسيين صورة خيالية عن الإسلام والمسلمين لا علاقة لها بتاتا بالواقع(1) . وهذه الصورة المشوهة هي الصورة نفسها التي نجدها عند باقي الشعوب المسيحية في بلدان أوربا الغربية في ذلك العصر.

---

(1) إ. كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، منشورات أكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي، موسكو / لينينكراد، 1950، ... ص. 20. (بالروسية).

(5138/1)

غير أنه يجب الاعتراف بأنه ظهر، في مرحلة لاحقة، نوع أخر من الكتابات التي حاولت الاقتراب شيئًا ما من الحقيقة وسعت إلى تغليب المنطق في تناولها لهذه الموضوعات. وكان ينتمي بعض مؤلفيها إلى فئة قليلة من المفكرين الروسيين الذين سبق لهم أن عاشوا فترة من الزمن داخل العالم الإسلامي. ونذكر من بين هؤلاء المفكرين "بيريسفييتوف" (IVACHKO PERESVETOV) وكذلك "كوسوي" (FEODOSI KOSOY) الذي عاش في القرن السادس عشر والذي دافع ففي كتاباته عن المساوات بين جميع الناس وبين جميع الديانات واللغات(1) .

---

(1) المرجع نفسه، ص. 24.

(5139/1)

ولقد لقيت أفكاره إقبالا في بعض الأوساط الروسية المثقفة. وبعد حوالي مائة سنة تقريبا، أي في القرن السابع عشر، كتب "بوسوشكوف" (POSOCHKOV) مؤلفه "الفقر والثراء" الذي سار فيه على نهج "بيريسفييتوف" وأوصى بأن يؤخذ من التشريع الإسلامي ما قد يفيد المجتمع الروسي(1) . وللمفكر "أندري

كوربسكي" (ANDRIEY KURBSKIY) مكانة خاصة في معالجة هذه المواضيع. فهو، بالرغم من معارضته للإسلام، يضع عددا من تعاليمه في مرتبة أعلى من الكثير من تعاليم المسيحية(2) . والجدير بالذكر أن

---

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه، ص. 25.

(5140/1)

"كوربسكي" فر من مملكة موسكو عام 1563، خوفا من القمع الذي كانت تمارسه الكنيسة والأمراء على أصحاب الأفكار المتفتحة. ولقد قضى هذا المفكر ما تبقى من حياته في بلاد "ليتفا" على شاطئ بحر البلطيق حيث توفي سنة 1583. ويمثل "كوربسكي" في واقع الأمر تحولا مهما في التعامل مع الإسلام والدراسات حوله. غير أنه لم يكن باستطاعته الوصول إلى ما يقارب حقيقة الأمور، لأن جل المصادر والمراجع التي كان يعتمدها لم تكن سوى تلك الكتابات اليونانية البيزنطية ووليداتها التي جعلت من الشتم والقذف في الدين الإسلامي والمسلمين هدفها

(5141/1)

الأسمى.

تزايد اهتمام الروس بالإسلام نتيجة تصاعد قوة الدولة العثمانية، ولم يكن لعظمة هذه الدولة أن تمر أن تسترعي اهتمام المفكرين

والمؤرخين في بلدان أوربا الغربية التي تكاثرت فيها المؤلفات التي تناولت بالدرس هذه الإمبراطورية من جميع الجوانب. وكانت لهذه الظاهرة الجديدة انعكاس ملحوظ على سير الحياة الثقافية في روسيا حيث بدأت تتنوع مصادر المعلومات حول الدولة التركية. ذلك بأنه في هذه الفترة أخذت تدخل البلاد كتب من أوربا الغربية، وخاصة "بولونيا" و "هولاندا". وتم ترجمة البعض منها.

(5142/1)

عرفت روسيا في القرن الثامن عشر تحولات كبيرة على يد القيصر "بطرس الأول" المعروف كذلك بـ «بطرس العظيم" والذي نجح في تغيير وجه البلاد التي أصبحت خلال عهده وبعده تحتل مكانة مرموقة على الساحة الدولية. ولعل أبرز ما قام به هذا الإمبراطور فور توليه قيادة البلاد هو سعيه المستمر لتغيير جميع مظاهر الحياة اليومية التي كان يطغى عليها الطابع الشرقي ومحاولته تقليد نمط العيش بأوربا الغربية. لكنه، بانحيازه إلى الغرب، لم يهمل الشرق. ومعلوم أن اهتمام "بطرس الأول" بالشرق عموما وبالإسلام خصوصا لم يكن مجرد صدفة؛ فهو

(5143/1)

نابع من رغبته الشديدة في التعمق في معرفة عدوه الأول المتمثل في الدولة العثمانية المجاورة. فلا غرابة إذن أن يعود تاريخ المحاولات الأولى للدراسات الاستشراقية الروسية إلى عهد

حكمه(1)؛ ولا غرابة كذلك أن تكون أول ترجمة كاملة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية قد تحققت في عهده بالذات، وهي الترجمة التي أنجزها "بوسنيكوف" () (2P. POSNIKOV)

---

(1) انظر حول الدراسات الاستشراقية في عهده: العطاوي، الدراسات العربية في روسيا... مرجع مذكور، ج1، ص. 67 – 73.

(2) ALKOURAN MAGOMETA... PEREVOD P. POSNIKOVA, 1716SAINT-PETERSBOURG, طبعت هذه الترجمة بأمر من "بطرس ... الأول".

(5144/1)

عام 1716 انطلاقا من الترجمة الفرنسية ل "دورييي" (A. DU) (1RUYER) التي يرجع عهدها إلى سنة 1647. ويتفق جميع الاختصاصيين على أن "بوسنيكوف" لم يوفق في عمله هذا. وخير دليل على رداءة هذه الترجمة وبعدها عن مضمون كتاب الله هو العنوان الذي أطلق عليها : "القرآن حول محمد أو التشريع التركي"! (2). وبالرغم من العيوب الكثيرة التي تشوب هذا العمل، فإن

---

(1) يتعلق الأمر بـ: . L'ALCORAN DE MAHOMET, TRADUIT 1647PAR SIEUR DU RUYER, PARIS,

(2) إ. كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستغراب الروسي... ، مرجع مذكور، ص. 43.

(5145/1)

قيمته التاريخية تظل كبيرة.

في الربع الأخير من القرن الثامن عشر تزايد اهتمام مختلف الأوساط المثقفة الروسية بالشرق العربي الإسلامي. ومعلوم أن هذه الفترة، وهي عهد الإمبراطورة "كاتيرينا الثانية"، تميزت بتفتح كبير على مسلمي روسيا وألغت فيها الكثير من القرارات الجائرة في حقهم(1). ففي عام 1778 تم إدخال الحرف العربي بشكل واسع في الطباعة. وطبع في السنة نفسها في العاصمة "سان بيترسبورغ" المصحف الكريم بحروف عربية جميلة. ويقول "كراتشكوفسكي إن هذه

(1) العطاوي، "نفض غبار النسيان..."، مرجع مذكور، ص.221، 222.

الحروف انتقلت فيما بعد إلى مدينة قازان التتارية، ثم إلى القرم وتركيا فمصر والهند(1). وقد تكون بعض النسخ من هذه الطبعة دخلت المغرب. ونعتمد في هذا الافتراض على العلاقات الجيدة التي كانت تربط السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالإمبراطورة "كاتيرينا الثانية"(2) . ومعلوم أنه جرى بينهما تبادل

(1) إ. كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي...، مرجع مذكور، ص. 58.

(2) ت. موساتوفا، "العلاقات الروسية المغربية في القرن التاسع عشر" ، تعريب عبد الرحيم العطاوي، مجلة دار النيابة، عدد18، 1988، ص. 25 – 31.

(5147/1)

هدايا ورسائل ودية جدا؛ وأي هدية أغلى من الطبعة الروسية للقرآن الكريم ستجد الإمبراطورة لإرسالها إلى السلطان المغربي المسلم؟...

لقد أعيد طبع المصحف الكريم بهذه الحروف الخمس مرات في الفترة ما بين 1789 و 1798(1) وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى الدور الكبير الذي لعبته فيما بعد

---

(1) انظر الصفحة 16 من المقدمة التي كتبها كل من "بيلياييف" و "غريزنييفتش" للطبعة الثانية لترجمة معاني القرآن الكريم ... "لكراتشكوفسكي" (القرآن، تلاجمة وتعليق كراتشكوفسكي، دار النشر "ناووكا"، موسكو، الطبعة الثانية، 1990 (بالروسية)..

(5148/1)

مطبعة "قازان" الإسلامية التي أحدثت عام 1802، والتي طبعت، خلال القرن التاسع عشر، عشرات الآلف من نسخ القرآن وعددا كبيرا من المؤلفات الإسلامية الأخرى(1). ... ...

ومن مظاهر نمو الاهتمام الروسي بالإسلام كذلك صدور ترجمتين اثنتين للمصحف الكريم إلى اللغة الروسية أنجزتا انطلاقا من الفرنسية والإنكليزية. قام بالأولى "فيريو فكين" (VERYOVKIN) سنة 1790 عن الترجمة الفرنسية القديمة ل "دي

---

(1) A. BENNINGSEN ET CH. QUELQUEJAS, LES OUVEMENTS NATIONAUX CHEZ LES MUSULMANS DE RUSSIE, MOUTON C°? P. 1990, 29? ...

(5149/1)

ريبيي" (A. DU RUYER) **وأنجز الثانية سنة** 1792 **"كولماكوف"** (KOLMAKOV. SAL) **عن ترجمة "سالي"** (G E) (1)

---

(1) **هذه الترجمات هي**

- ALKOURAN , PEREVOD M.I. VERYOVKINA, SAAINT-PETERSBOURG, 1790.
- LKOURAN , PEREVOD A.V. KOLMAKOVA, IZD. SOPIKOV, SAINT-PETERRSBOURG, 1792.
- THE KORAN, COMMONTY CALLED ALKORAN OF MOHAMMED, TRANSL. BY GEORGE SALE, LONDON, 1734 (VOL 2).**أعيد طبع ترجمة "سالي" مرات متعددة في كل من إنكلترا والولايات المتحدة الأمريكية.**

(5150/1)

الإنكليزية(1)**. وكانت هاتان الترجمتان في مستوى حسن بالمقارنة مع ما سبقتها من ترجمات. وقد ألهمت إحداهن، فيما بعد، أمير الشعر الروسي "بوشكين"** (A. PUCHKIN) **لنظم سلسلة قصائده المشهورة "قبسات من القرآن" التي عالج فيها شعريا**

نصوصا مقتبسة من ثلاث وثلاثين سورة قرآنية. ويعترف الشاعر "بأن القرآن كان الكتاب الديني الأول الذي أذهل مخيلته"(2)

---

(1) إ. كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي... ، مرجع مذكور، صص. 55.

(2) ب. غغريزنييفتش (P.GRIZNIYEVITCH)، "القرآن في روسيا"، ضمن: أبحاث جديدة للمستعربين السوفييت (الكتاب الأول)، موسكو، ... 1986، صص. 249 – 259 (بالعربية).

(5151/1)

... وقد أفلح "بوشكين" في إعطاء صورة دقيقة المعالم عن مضمون القرآن الفلسفي والديني؛ كما أن هذه القصائد – يقول غريزنييفتش – أعطت لأول مرة في الأدب الروسي مفتاح الفهم الصحيح للقرآن الكريم وساعدت إلى درجة كبيرة على استمرار نمو الاهتمام به عند أوسع أوساط القراء الروس(1) .

ويمكن القول بأن اهتمام "بوشكين" بالإسلام وبالقرآن الكريم لم ينبع من "فراغ أو كنتيجة لشطحات الخيال الإبداعية؛ بل آتى – كما أشارت إلى ذلك الأستاذة مكارم الغماري – كثمرة لقراءاته المتعمقة في تاريخ الشرق العربي وحضارته

---

(1) المرجع نفسه.

(5152/1)

وآثاره الأدبية والقرآنية، فضلا عن الجذور الشرقية الإسلامية التي ربطت بين الشاعر والشرق الإسلامي"(1) . وتجدر الإشارة إلى أن أحد أجداد "بوشكين" لأمه، وهو إبراهيم المشهور في مختلف الكتابات الأدبية الروسية، كان ينتمي إلى أسرة إفريقية مسلمة. وهذا ما جعل الشاعر يبحث عن جذوره المسلمة ويحاول التعمق في معرفة دين أجداده وكتابهم المقدس – القرآن الكريم(2)

---

(1) الغماري ، مؤثرات عربية إسلامية... ، مرجع مذكور، ص.170.

(2) ABDERRAHIM LATAOUI, « LA LITTERATURE RUSSE », IN LANGUES ET LITTERATURES, VOL. XV, 1997, P 85.

(5153/1)

.

يعتبر موضوع ترجمة معاني القرآن الكريم ودراسة بعض جوانبه أحد الموضوعات الأكاديمية الجادة التي أخذت حيزا مهما من اهتمامات عدد من المستشرقين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

لقد سبقت الإشارة إلى الترجمات الأولى التي خضع لها المصحف الكريم في الإمبراطورية الروسية. غير أن هذه الترجمات لم تعد تساير اهتمامات وتطلعات المدرسة الاستشراقية الروسية الجديدة التي تأسست في مطلع القرن التاسع عسر وبدأت تعطي ثمارها في منتصفه. وهكذا صدرت في موسكو عام1864 ترجمة أخرى لمعاني القرآن

(5154/1)

الكريم أنجزها "نيكولاييف" ()(1K. NIKOLAEV) انطلاقا من ترجمة "كازيميرسكي" (A. B. KAZIMIRSKYI) الفرنسية(2) ،

---

(1) . KORAN MAGOMETA..., PPEREVOD NIKOLAYEVA, 1864MOSKVAA,

(2) LE KORAN, TRADUIT PAR A. BIBESTEINN KASIMIRSKI, ((PREMIERE EDITION 1840PARIS

أعيد طبع هذه الترجمة الفرنسية مرات متعددة (كانت الأولى عام 1840 والثانية 1841 والثالثة 1875... وكانت الطبعة العشرون ... 1909...). ويقول عنها العقيقي: "تعوزها بعض الأمانة العلمية..." (انظر : نجيب العقيق، المستشرقون، القاهرة، 1981، ط 4، ... ج2، ص. 499).

(5155/1)

ونالت هذه الترجمة شهرة واسعة في روسيا وأعيد طبعها عدة مرات. يقول الباحث "غريزنييفتش" عن الدور الذي لعبته ترجمات المصحف الكريم الأولى إلى اللغة الروسية: "أنها مارست، على الرغم من كل ما اعتورها من نواقص، دورا إيجابيا بإتاحتها الفرصة أمام القارئ الروسي للتعرف عن كثب – إلى هذا القدر أو ذاك – على المصحف الإسلامي الشريف، وساعد ذلك على ما خلفته المدونات التاريخية الإغريقية والمداخلات المسيحية القديمة من تصورات خرقاء عن الإسلام والقرآن، وعن شخصية "محمد ونشاطه"(1)

---

(1) ب. غريزينييفتش، القرآن في روسيا... ، ص.255.

(5156/1)

.

والجدير بالذكر أن ترجمة "نيكولاييف" كانت آخر ترجمة تنجز عن طريق لغة وسيطة. وبدأ المستعربون الروسيون يعدون لنقل المصحف الكريم مباشرة من الأصل العربي. وهكذا أنجزت في الوقت نفسه تقريبا ترجمتان: كانت الأولى عام 1871 للجنرال بوكوسلافسكي" () (D. N. BOGUSLAVSKI 1826- 1893) "الذي نال تحصيلا جيدا في علم الاستعراب في الكلية الشرقية بجامعة بطرسبورغ، وقضى سنوات طويلة في العمل مترجما للسفارة الروسية في الآستانة. وكانت ترجمته التي أتمها خلال فترة مكوثه في الشرق تمتاز بالدقة العالية وبالمزايا الأدبية

(5157/1)

الفريدة، مما جعلها وقتذاك تحظى بتقدير نقاد مرهفي الحس والقلم، أمثال "روزين" و "كراتشكوفسكي"...(1) . لكن هذه الترجمة بقيت مخطوطة(2) ، لأن صاحبها لما رجع من الشرق، علم بصدور ترجمة أخرى نقلت عن النص العربي كذلك في مدينة "قازان". فتخلى "بوكوسلافيسكي" عن

---

(1) المرجع نفسه.

(2) طبعت هذه الترجمة مؤخرا (1996) في موسكو. انظر حولها: المرجع نفسه والصفحة نفسها؛ وكذلك مقالة كراتشوكوفسكي "القرآن في ... ترجمة بوكوسلافيسكي" ، ضمن مجلة الاستشراق

الروسي، عدد 3 ،1945 ، موسكو – لينينكراد، صص. 293 – 301 ... (بالروسية).

(5158/1)

طبع عمله. وكانت الترجمة)الثانية من إنجاز المستشرق القازاني «سابلوكوف») ((1880- 1804G.S. SABLUKOV) (1) الذي كرس كل حياته لهذا العمل. وتجدر الإشارة إلى أنه أضاف سنة 1879 إلى ترجمته فهرسا للتعريف بعدد من الأحداث التاريخية والأماكن الجغرافية التي

---

(1) . (VOL 2(1878KORAN, PEREVOD G.S. SABLUKOVA, أعيد طبع هذه الترجمة عدة مرات (1894، 1898، 1907...) وتم تصويرها بعد سقوط الاتحاد السوفييتي. وتجدر الإشارة إلى أن طبعة ... 1907 جاءت بالنصين العربي الأصلي والروسي: كل صفحة من الأصلي تقابلها صفحة من الروسي.

(5159/1)

ورد ذكرها في القرآن الكريم؛ كما أنه صدرت له بعد وفاته دراسة تحليلية للمصحف الكريم عنوانها "معلومات عن القرآن لكتاب قوانين تعليم القرآن"، وهي الدراسة التي يقول عنها نجيب العقيقي: "... فيها جدل وحشو..."(1) .

ويتفق جل الاختصاصيين على أن بهذه الترجمة عددا كبيرا من الأخطاء التي يرجع سببها بالأساس إلى عدم تمكن صاحبها من اللغة

العربية.

وبقيت ترجمة "سابلوكوف" الترجمة الوحيدة التي كان المسلمون في روسيا والاتحاد السوفييتي يتداولونها أزيد من 80 سنة.

---

(1) ن. العقيقي، المستشرقون...، مرجع مذكور، ج3، ص. 70.

(5160/1)

مع بداية القرن العشرين، وبعد الازدهار الكبير الذي عرفته الدراسات الاستعرابية، لم تعد ترجمة "سابلوكوف" تتجاوب ومتطلبات العلوم العصرية. لذا بدأ التفكير في إنجاز عمل جديد يكون في مستوى طموحات المدرسة الاستشراقية الروسية الجديدة. فقام العالم الأكراني "كريمسكي(1) " (KRYMSKI) في مطلع القرن بإصدار بترجمة لعدد من السور القرآنية مصحوبة بالشروح ضمن سلسلته المشهورة "محاضرات حول القرآن" (2)

---

(1) انظر حوله وحول مؤلفاته،: العطاوي، الدراسات العربية في روسيا... ، مرجع مذكور، صص. 131 – 140.

(2) . AGAFANGEL KRYMSKI, LEKTII NO KORAN..., VYPUSK 1902I , MOSKVA,

... أعيد طبعه عام 1905.

(5161/1)

. غير أن هذه المحاولة توقفت ولم يتمم صاحبها مشروعه هذا. فأخذ العالم "كراتشكوفسكي" على عاتقه هذه المهمة التي تطلبت منه

وقتا طويلا وجهودا جبارا. وبما أننا نعتبر أن مستوى العمل الذي قام به هذا العالم الكبير يفوق جميع الترجمات الروسية من جهة والعديد من الترجمات الأوربية من جهة أخرى، فإننا سوف نتوقف قليلا عند مميزات هذا العمل وبعض المراحل التي مر منها. يمكن القول بأن اهتمام "كراتشكوفسكي" بهذا الموضوع ظهر مع بداية خطواته الأولى في عالم الاستشراق ولم ينصرف عنه طوال حياته كلها. غير أن العالم لم يتمكن

(5162/1)

من رؤية عمله مطبوعا، إذ توفي عام 1951، ولم تصدر ترجمته إلا سنة 1963(1) . إن العمل الذي استغرق أربعين سنة كاملة، مر من عدة مراحل. فقد كان الاهتمام بموضوعه أولا، والتمهيد للخوض في غماره؟، ثم البحث المستمر لإنجازه تدريجيا، ومقارنة ما أنجز منه، في كل مرحلة، بأجود الترجمات الأوربية

---

(1) KORAN, PPEREVOD I KOMMENTARRII I. KRATCHKOVSKOVO, IZD. NAOUKA, MOSKVA, 1963.

(القرآن، ترجمة وتعاليق ... كراتشكوفسكي، دار النشر CHALIDZE PUBLICATIONS بنيويورك كما – أعيد طبعه عدة مرات في كل من موسكو ودوشانبي...

(5163/1)

الغربية. يقول "غريزنييفيتش" بهذا الصدد:

... ...في العامين 1915 و 1916 ألقى «كراتشكوفسكي» أول محاضراته عن القرآن في ... ... كلية اللغات الشرقية بجامعة "بطرسبورغ". وفي العام 1917 قدم وصفا لمجموعة مخطوطات ... ... المصحف التي تلقاها " المتحف الآسيوي". ونشر في الأعوام 1922 – 1925 ثلاث ... ... ملاحظات تتعلق بتواريخ ترجمة القرآن في الفترة الممتدة ما بين القرنين الخامس عشر إلى ... ... اللغة البيلوروسية – البولندية بين أوساط التتر اللتوانيين(1)

---

(1) انظر حول هذا الموضوع مقالته: "نسخة مخطوطة للقرآن في مدينة بسكوف"، ضمن : مختارات كراتشكوفسكي، ج1،صص. 162 – ... 165 (بالفرنسية). انظر حول التتار اللتوانيين والبولونيين مقالة غريزينييفتش، "القرآن في روسيا"، مرجع مذكور، ص.250.

(5164/1)

.وفي عام 1930 صدر مقال ... ... "كراتشكوفسكي" عن مغزى كلمة النجم في القرآن(1) ، ونشر في العام 1934 ثم في العام

... ... 1940 أبحاثا عن الترجمة الروسية المجهولة للقرآن في مطلع القرن الثامن عشر(2) وعن ... ... ترجمة "بوكوسلافسكي"(3)

---

(1) إ. كراتشكوفسكي، مختارات كراتشكوفسكي، ج1، صص. 391 – 395.

(2) إ. كراتشكوفسكي، "ترجمة روسية مخطوطة للقرآن في القرن الثامن عشر" ، مختارات كراتشكوفسكي، ج1، صص. 177 – 178.

(3) إ. كراتشكوفسكي، "القرآن في ترجمة بوكوسلافسكي" ، مجلة الاستشراق السوفييتي، (S.V) ، عدد 3

... 1945 ، صص. 293 – 301 (بالروسية).

(5165/1)

.

ويمضي غريزنييفيتش" في حديثه عن مختلف المراحل التي مرت منها ترجمة "كراتشكوفسكي" فيقول:

... ... منذ العام 1919 أعلن "كراشكوفسكي" في نشرة "دار الأدب العالمي للنشر" عن ... ... إعداد ترجمة روسية جديدة للقرآن. وقد باشرها بالعمل على وضع هذه الترجمة في خريف ... ... العام 1921، كما بدأ في الوقت ذاته بإلقاء دورة محاضرات عن القرآن استمر بها حتى ... ... أواخر حياته. وأنفق "كراتشكوفسكي" على ترجمة القرآن تسع سنوات فأكمل مسودة ... ... الترجمة في خريف العام 1930. لكنها كانت المرحلة الأولى فقط من العمل.

(5166/1)

وواصل في ... ... السنوات التالية هذا العمل مراجعا قدرا جما من الأدبيات العربية والأوربية عن القرآن. فهو ... ... يستشهد فيما جمعه من مواد للشرح بزهاء 400 مصدر...(1) .

يتضح من خلال هذه السطور مدى جسامة الدراسات والأبحاث التي قام بها "كراتشكوفسكي" لإنجاز ترجمته.

وعلى سبيل توضيح بعض المسائل والرد على القائلين بأن ترجمة "كراتشكوفسكي" بعيدة عن مضمون كتاب الله، وذلك لسبب واحد وهو أنه مستشرق(2)

---

(1) ب. غريزينييفيتش، "القرآن في روسيا" ، مرجع مذكور، صص. 258 – 259.

(2) سمعت هذا الكلام في عدة مناسبات، وهو من حسن الحظ نابع عن أشخاص لا صلة لهم البتة باللغات الأجنبية وبفنون الترجمة.

(5167/1)

، أقول بأن العالم لم يعتنق الإسلام. ولو فعل، ما صنف إطلاقا ضمن المستشرقين ولدار الحديث حوله كما يدور حول جميع علماء الإسلام. لذا يجب النظر إليه بصفته مستشرقا صرفا ولا يجوز إطلاقا أن يطلب منه أن يرجع إلى هذه الآراء ويأخذها بعين الاعتبار مثلما يأخذ بعين الاعتبار كتابات زملائه المستشرقين. أما نزاهة
"كراتشكوفسكي" العلمية وعلمه الغزير في مجال الثقافة العربية الإسلامية وتعاطفه معها ، فهذه أمور يعلمها علم اليقين كل من كانت له اهتمامات ولو بدائية بموضوع الدراسات الاستشراقية العالمية. وللتأكد من صحة

(5168/1)

هذا الكلام، يكفي الرجوع إلى كتاباته المتعددة باللغات الروسية والعربية والفرنسية والإنجليزية والألمانية ولغات أخرى(1) ... كما

يكفي الرجوع إلى إنتاجات المجامع العلمية العربية ودورياتها في النصف الأول من القرن العشرين التي له فيها إسهامات لا بأس بها. وانطلاقا من هذا التوضيح، نرى أنه لا بد من التذكير بأن عمل "كراتشكوفسكي" يختلف عن الترجمات الأخرى، روسية كانت أو غيرها، من عدة جوانب. ويمكن تلخيص أهم مميزات هذه الترجمة في النقط

---

(1) انظر أعماله المختارة في ستة أجزاء، موسكو – لينينكراد 1960 (بالروسية).

(5169/1)

التالي:

1 – إن ترجمة "كراتشكوفسكي" جاءت نتيجة منهجية جديدة اعتمد فيها صاحبها على محاولة فهم مضمون كتاب الله انطلاقا من الدراسات اللغوية والأدبية التي قام بها شخصيا في فترات متباعدة من حياته. وهو يتعامل مع النص القرآني بصفته وثيقة لغوية قديمة يرجع تاريخها إلى فترة معينة. لذا وجب، في نظره، إرجاعها إلى تلك الحقبة الزمنية ومحاولة فهم أحداثها انطلاقا من تاريخ المنطقة في تلك الفترة، كما أنه يجب النظر في تركيبة الجمل وتصريف الكلمات وفهم معانيها ومعاني شواردها انطلاقا من مقارنة لغة القرآن الكريم مع

(5170/1)

مجموعات الحديث الأولى من جهة ومع نصوص الشعر العربي القديم في وسط الجزيرة العربية وشرقها من جهة أخرى(1) . وهكذا، فإن "كراتشكوفسكي" حصر دراسته اللغوية للنص القرآني بالأساس في الحقبة الزمنية التي عاشها الرسول قرآن كريم ومددها بعض التمديد لتصل إلى غاية القرن الثالث الهجري. فهو إذن يتعامل مع النص القرآني في فترة محدودة زمنيا

---

(1) انظر المقدمة التي كتبها كل من "غريزنييفيتش" (GRIEZNIEVITCH) و "بيليايييف" (BIELYYAYEV) لترجمة كراتشكوفسكي (الطبعة ... الثانية، دار النشر "ناووكا"، موسكو، 1990، صص. 9 – 11.

(5171/1)

تمتد بين القرنين الأول والثالث للهجرة.

2 – حاول "كراتشكوفسكي" الابتعاد جهد المستطاع في ترجمته عن أسلوب اللغة السلافية القديمة ومفرداتها ومصطلحاتها التي تشكل أساس الترجمات الروسية للإنجيل ومميزاتها، لأن هذه اللغة هي اللغة الرسمية للكنيسة الروسية(1).

وكانت الغاية من كل هذا هو جعل القارئ الروسي يشعر بأن ما يقرأه يشكل نوعا من الكتابات المسيحية المتداولة أو اقتباسا منها، بل هو كتاب أخر له مميزاته الخاصة(2)

---

(1) المرجع نفسه، ص. 9.

(2) لقد وقع في هذا الخطإ بعض المترجمين المعاصرين كما وقع فيه "سابلوكوف" من قبل.

(5172/1)

.

3 – إن "كراتشكوفسكي"، وهو العالم المتمكن من اللغة العربية والعارف بأسرارها وكنوزها، أدرك تمام الإدراك، وذلك منذ شروعه في عمله، أن أسلوب القرآن الكريم هو أسلوب خاص فريد من نوعه، ولا نجد له مثيلا في الكتابات العربية الأخرى. لذلك حاول جهد المستطاع الاقتراب من هذا الأسلوب العربي في النص الروسي لترجمته حتى يمكن القارئ من الاقتراب أكثر من كتاب الله شكلا ومضمونا. وقد جاء أسلوبه سهلا في متناول مختلف شرائح القراء. غير أن بعض النقاد لم يفهموا مغزى هذه المقاربة واعتقدوا أن العالم اعتمد النقل الحرفي في

(5173/1)

عمله(1). ويعلم المختصون في فنون الترجمة أن نقل المعنى والأسلوب معا إلى لغة أخرى يشكل المبتغى الأسمى لكل مترجم. غير أن مثل هذا الإنجاز لا يتأتى إلا نادرا ولا ينجح في تحقيقه إلا ذوو الباع الطويل في علوم اللغة وفنونها من جهة وعلوم الترجمة من جهة أخرى.

---

(1) انظر على سبيل المثال: علاء الدين فرحات، "حول الترجمات الروسية للقرآن"، مجلة فيبستنك (مجلة الجمعية الدولية لأساتذة اللغة الروسية وأدبها)، عدد 13، موسكو، 1996. (بالروسية).

(5174/1)

يمكن القول إن "كراتشكوفسكي" قد وفق إلى حد بعيد في مهمته وإن عمله يعتبر حاليا أجود ترجمة روسية لمعاني القرآن الكريم وإحدى أجود الترجمات العالمية. وبالرغم من هذا كله، فإن عمله لا يخلو بالطبع من الهفوات المتفاوتة الخطورة والمتمثلة أساسا:

1 – في عدد من الأخطاء في ترجمة بعض الكلمات أو الآيات. وأخطر هذه الأخطاء، في نظرنا، هو ترجمة معنى الآية الأولى من السورة 90 حيث جاء نفي القسم في الترجمة: "لا (ولن) أقسم بهذا البلد". غير أننا نعتقد أن هذا الخطأ مطبعي صرف، بدليل أنه يوجد في الشروح والتفاسير المرفقة

(5175/1)

بالترجمة في آخر الكتاب الملحوظة التالية: "هذا قسم بلا"؛ كما جاءت في المكان نفسه من الكتاب إحالة على الآية 74 من السورة 56 وعلى الآية 16 من السورة 84 حيث القسم بلا كذلك (1 – {فلا أقسم بمواقع النجوم}ج؛

2 – {فلا أقسم بالشفق}). وقد جاء معنى هاتين الآيتين صحيحا في الترجمة عند "كراتشكوفسكي".

2 – في الغموض الذي يشوب دلالة عدد من الكلمات أو الجمل (المترجمة للآيات) والتي يمكن أن تؤدي كثيرا من المعاني. وهنا يحس القارئ بأهمية الشروح التي تفتقدها (1)

---

(1) حقا، يوجد عدد كبير من الشروح في آخر الكتاب، لكنها تمثل في واقع الأمر كل ما جاء في جذاذات العالم من ملاحظات ومقارنات مع أعمال أخرى. والعالم غير مسؤول بتاتا عن الطريقة التي أدرجت بها هذه الجذاذات في آخر عمله. ذلك بأن "كراتشكوفسكي" لم يقم بصياغة نهائية لهذه الأوراق، لأنه توفي عام 1951 قبل قيامه بإخراج نهائي لمسودته. ومعلوم أن هذه المهمة أنجزتها أرملته وبعض طلبته الذين سهروا كذلك على طبع الترجمة عام 1963.

(5176/1)

هذه الترجمة.

غير أننا لا نتفق مع الأستاذ علاء الدين فرحات الذي يعتبر أن هذه الترجمة تعتمد النقل الحرفي(1). وما كان للأستاذ فرحات أن يقول هذا الكلام لو كان على علم بالنقط التي ذكرناها أعلاه والتي تميز تعامل "كراتشكوفسكي" مع النص القرآني الأصلي في ترجمته. ثم إن خطأ النقل الحرفي لا يقع فيه إلا المتعلمون المبتدئون في الترجمة. أما "كراتشكوفسكي"، فكان يعتبر في عصره أحد الشيوخ العالميين لهذا الفن. وإن الحديث عن "النقل الحرفي" في

---

(1) علاء الدين فرحات، "حول الترجمات الروسية..."، مرجع مذكور، ص. 29 – 30.

(5177/1)

مجال ترجمة معاني القرآن الكريم ليستوجب، في نظرنا، الحديث كذلك عن "الفهم الحرفي" لكلا النصين العربي والأجنبي؛ ذلك بأنه إذا كان قارئ النص الأصلي العربي يحتاج إلى التفاسير والشروح لفهم معاني كتاب الله، فإن قارئ النص الأصلي العربي يحتاج إلى التفاسير والشروح لفهم معاني كتاب الله، فإن قارئ النص المترجم لفي حاجة أكثر إلى هذه الشروح والتفاسير. ولتفادي السقوط في أخطاء "النقل الحرفي" و «الفهم الحرفي"، وجب إرفاق النصين العربي والأجنبي على حد سواء بعدد من الشروح في طرر مختلف الصفحات كما فعل العالم السيد

(5178/1)

محمد حميد الله في ترجمته الفرنسية لمعاني القرآن الكريم(1) ، وليس داخل النص كما جاء في عمل الأستاذة "بوروخوفا"(2) الذي لا يستطيع فيه القارئ غير العارف للغة العربية أن يميز في كثير من الأحيان بين النص القرآني المترجم وبين الشروح التي أدخلتها الترجمة. وهذا سلوك لا تخفى خطورته على أحد.

---

(1) LE CORAN. TRADUCTION INTEGRAL ET DE MUHAMMAD HAMIDULLAH, LE CLUB FRANCAIS DU LIVRE, PARIS, 1959.

(2) سيأتي الحديث عن ترجمة "بوروخوفا" في السطور التالية من هذه الدراسة.

(5179/1)

وبعد زوال الدولة السوفييتية، عاد الاهتمام من جديد بهذا الموضوع بشكل مثير للانتباه من قبل جمهوريات الاتحاد السوفييتي السبق عموما وجمهورية روسيا الفدرالية خصوصا. وقد أدى هذا الإقبال الكبير على قراءة كتاب الله والتأمل في معانيه إلى إعادة طبع ترجمتي كل من "سابلوكوف" و "كراتشكوفسكي" عدة مرات كما طبعت ترجمة "بوكوسلافسكي" التي سبق أن أشرنا إليها والتي بقيت مخطوطة حتى هذا العهد. وظهرت في السنوات القليلة الأخيرة (بعد 1991) ترجمتان جديدتان: الأولى للأستاذة "بوروخافو" (V. 1OPOROKHOVA) (

---

(1) صدرت لها حتى الآن ثلاث طبعات مختلفة هي على التوالي:

... – معاني القرآن الكريم باللغة الروسية، ترجمة وصياغة فاليريابوروخوفا، موسكو، 1991. (تجدر الإشارة إلى أن هذه الطبعة ناقصة، ... وعدد السور المترجمة 75 سورة وهي تمثل 35٪ تقريبا من مجموع المصحف الكريم. السور الناقصة: من السورة 4 إلى 35).

... – معاني القرآن الكريم باللغة الروسية، ترجمة وصياغة فاليريا بوروخافو، موسكو، 1993.(هذه الطبعة ناقصة كذلك السور الناقصة: ... من السورة 10 إلى 35).

... – ترجمة معاني القرآن الكريم وتفسيره إلى اللغة الروسية، الطبعة الثانية المزيدة والمنقحة، موسكو، 1997.(هذه الطبعة كاملة). (تجدر ... الإشارة إلى أن هذه الترجمة في مختلف طبعاتها أنجزت "بمساعدة وتحقيق وإشراف الدكتور محمد سعيد الرشد"، وهو زوج المترجمة ... السيدة إيمان فاليريا بوروخافو).

(5180/1)

، والثانية للأستاذ عصمانوف المعروف في ساحة الدراسات الشرقية بصفته اختصاصيا في اللغة الفارسية. ويعتقد الأستاذ علاء الدين فرحات أن "بوروخافو"، بسبب جهلها اللغة العربية واعتمادها أساسا على ترجمات أجنبية أخرى، قد ارتكبت العديد من الأخطاء(1)

.

ونعتقد من جهتنا أن هذه الترجمة تنطلق بالأساس من عمل "كراتشكوفسكي" مع بعض المستجدات وكثير من التحايل والتصنع(2)

---

(1) علاء الدين فرحات، "حول الترجمات الروسية للقرآن..."، مرجع مذكور، صص. 29 – 30.

(2) لنا دراسة نقدية مقارنة لعدد من الآيات القرآنية المترجمة في عملي كل من "كراتشكوفسكي" و "بوروخافو". ونأمل نشرها في القريب ... إن شاء الله.

(5181/1)

.

أما ترجمة عصمانوف التي لم تتح لنا بعد فرصة الاطلاع عليها، فقد أشاد بها الأستاذ علاء الدين فرحات واعتبر أن صاحبها وفق في نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية(1) .

غير أن عددا من النقاد يخالفون هذا الرأي، ويعتبرون أن هذه الترجمة لا تخلو بدورها من عيوب وهفوات.

وبالرغم من هذا كله، فإننا نعتقد أن هذين العملين يشكلان تجربة جديدة فريدة من نوعها في مجال الترجمات الروسية لكتاب

الله. ذلك أنهما أنجزا لأول مرة في روسيا

---

(1) علاء الدين فرحات، "حول الترجمات الروسية للقرآن..." ، مرجع مذكور، صص. 29 – 30.

(5182/1)

من قبل مسلمين(1) ، وهو الأمر الذي يتغير معه بالطبع التعامل مع النص القرآني نظرا للارتباط الديني الوثيق الذي يجمع المترجم المسلم بالقرآن الكريم. غير أن هذا وحده لا يكفي، لأن المطلوب من المترجم هو أن يكون، أولا وقبل كل شيء، ذا مستوى علمي رفيع وإلمام واسع باللغتين العربية والروسية على الأقل وبفنون الترجمة، وأن يكون كذلك صادقا وأمينا.

---

(1) يتعلق الأمر بكل من : إيمان فاليريا بوروخوفا، وهي أستاذة متخصصة في العلوم الفلسفية، اعتنقت الإسلام قبل سنوات؛ وعصمانوف، وهو روسي مسلم أبا عن جد.

(5183/1)

وتجدر الإشارة إلى أنه بسبب بعض الإغراءات المادية التي لا داعي لذكرها هنا، ولج ساحة هذا النوع من الترجمة عدد من الناس ممن لا علاقة لهم بهذا الميدان العلمي النبيل. فكَثُرَ "مترجمو" معاني القرآن الكريم و "المتخصصون" في علومه، وتزايدات أعدادهم، بالرغم من أن بعضهم لا يكتب ولا يقرأ اللغة العربية، وبالرغم من أن أسمائهم لم تكن معروفة إطلاقا من قبل في ساحة الترجمة

العلمية عموما والترجمة العربية والروسية خصوصا. ويستغرب المرء للسرعة الفائقة التي يقترح هؤلاء "العلماء الجدد" إنجاز أعمالهم فيها حتى يكونوا

(5184/1)

سباقين في "حلبة" هذا النوع الجديد من "المباريات"! ويعلم الجميع أن أكبر العلماء العالميين من مسلمين ومستشرقين قد قضوا عشرات السنين، إن لم نقل حياتهم كلها، في العمل الدؤوب لإنجاز ترجمات معاني كتاب الله إلى اللغات الأجنبية.

و لابد من التذكير في الختام بأن الترجمة علم قائم بذاته، له قواعده وأحكامه، وهو يستوجب من المترجم الصدق والأمانة والإلمام الواسع بلغتين على الأقل – المترجم منها والمترجم إليها، ويستحب أن تكون له دراية بلغات أخرى وعلومها حتى يتمكن من الاستفادة من ترجمات أخرى بمقارنة عمله بها.

(5185/1)

وعلى المترجم، إذا تعلق الأمر بالقرآن الكريم، أن يكون على اطلاع بعلوم القرآن والحديث وأن يكون على صلة مستمرة بعلماء الدين، على اختلاف مشاربهم، قصد استشارتهم والاستفادة من عملهم...

وفضلا عن هذا وذاك، فهو ملزم بأن يكون على علم كامل بالأخطاء الواردة في الترجمات السابقة، وذلك لتجنب الوقوع فيها من جديد.

كان هدفنا في هذه الصفحات القليلة التعريف ببعض مراحل دخول القرآن الكريم إلى روسيا وانتشاره بها، وكذلك إبراز مسيرة

عملية ترجمة معانيه في هذا البلد. وتحدثنا عن الحالة الراهنة وأشرنا إلى ما يميزها من

(5186/1)

اضطراب ناتج بالأساس عن محاولة بعض الجهات الإساءة إلى ميدان العلم والترجمة النزيهة. وبالرغم من هذا كله، فإننا واثقون من أن العلماء الحقيقيين من أبناء روسيا وبعض بلدان آسيا الوسطى والقوقاز الذين يعلمون في صمت مكتبات الجامعات والأكاديميات يبذلون قصارى جهدهم لتطوير الترجمات السابقة وتحسين مستواها بعيدا عن الأبواق الدعائية وضجيج أسواق الكتب التجارية.

التصويتات النمطية وبدائلها اللهجية

الأستاذ محمد الأوراغي

كلية الآداب – الرباط

1 – تقديم

(5187/1)

وإن تركنا الحديث عن إفادات الشعوب الإسلامية من كتابة لغاتها بالحرف القرآني، وتجنبنا سرد وجوه الانتفاع بها في شتى المناحي، فسيبقى للعرض بدون ذلك هدف مزدوج؛ إذ يتوخى، من جهة، الاستدلال النظري على إمكان هذه العملية وورودها، ويسعى،

من جهة ثانية، إلى إيجاد الوسيلة التقنية التي تمكن من استعمال نفس المجموعة من الحروف لرسم تصويتات مختلف اللغات. ولا بأس من البدء باستحضار بعض الثوابت الأولية التي توجه تناولنا لمسائل هذا الموضوع حتى يأتي واضحا بالقدر المطلوب. نبدأ ذكرها متدرجة تبعا لأهميتها على المنوال

(5188/1)

التالي:

1 – إن جهاز التصويت البشري واحد، وهو مهيأ خلقة لتوليد أي من التصويتات المستعملة في أي لغة من اللغات البشرية. وما نراه من الاختلاف الصوتي بين اللغات فمرده إلى مبدأ الخفة أو الاقتصاد في الجهد الذي يحمل كل قوم أو أهل بلدة ما على تحريك ما يسهل عليهم من أعضاء جهاز التصويت لديهم. وبسبب من التمايز الخلقي بالنسبة إلى كل عضو في جهاز التلفظ، فإن ما يسهل على قوم قد يعسر على غيرهم. وبذلك يشكل مبدأ الخفة والاقتصاد السبب المباشر في اختلاف اللغات البشرية وتغايرها(1)

---

(1) مبدأ الخفة وما يترتب عنه صاغة الفارابي بقوله: "والظاهر أن اللسان إنما يتحرك أولا إلى الجزء الذي حركته إليه أسهل. فالذين هم في مسكن واحد وعلى خلق في أعضائهم متقاربة، تكون ألسنتهم مفطورة على أن تكون أنواع حركاتها إلى أجزاء أجزاء من داخل الفم أنواعا واحدة بأعيانها، وتكون تلك أسهل عليها من حركاتها إلى أجزاء أجزاء آخر. ويكون أهل مسكن وبلد آخر، إذا كانت أعضاؤهم على خلق وأمزجة مخالفة لخلق أعضاء أولئك، مفطورين على أن تكون حركة ألسنتهم إلى أجزاء أجزاء من داخل

الفم أسهل عليهم من حركتها إلى الأجزاء التي كانت ألسنة أهل المسكن الآخر تتحرك إليها.فتتتخالف حينئذ التصويتات التي يجعلونها علامات يدل بها بعضهم بعضا على ما في ضمير... ويكون ذلك هو السبب الأول في اختلاف ألسنة الأمم" (كتاب الحروف، ص. 136).

(5189/1)

.

2 –ما ذكر من التغاير اللغوي الناجم عن الاختلاف الخلقي لأعضاء جهاز التصويت يمكن تجاوزه بعملية الترويض، وذلك بتكرير نفس الفعل؛ كإعمال للسان واللهوات في جهات بعينها من الفم حتى تنشأ ملكة صوتية جديدة وتستقر في موضعها(1)

---

(1) الملكة حيث استعملت في الفكر العربي قصد بها استحداث صفة مكتسبة وترسيخها في العضو المهيإ للتحلي بها. وهو ما يعبر عنه ابن خلدون بقوله: "الملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال... ثم يزيد التكرار فتكون ملكة، أي صفة راسخة؛ كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها بعد ذلك ثم لا يزال سماعه لذلك يتجدد... واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة... هكذا تصير الألسن من جيل إلى جيل" (ابن خلدون، المقدمة، ص. 289).

(5190/1)

عملية الترويض هذه تضمنها مرونة الجهاز التصويتي وقابلية أعضائه للتشكل في كل حين لإنتاج أنساق صوتية مختلفة، كما يشهد على إمكانها ما يلاحظ بوضوح من استعداد كل إنسان على اكتساب أكثر من لغة واحدة.

3 – ليس للحِرافة (بمعنى رسم التصويتات اللغوية بصور خطية معينة) أي تأثير في اختلاف اللغات أو ائتلافها, يشهد على ذلك كون اللغات الأوربية المتعددة تكتب بالحرف اللاتيني على الرغم من اختلاف فصائلها، وتغاير أنماطها صوتيا وصرفيا ومعجميا وتركيبيا. وكذلك حال الكثير من لغات الشعوب الإسلامية التي تكتب بالحرف

(5191/1)

القرآني. كما أن انتقال اللغة الواحدة من حرافة إلى أخرى، وهو حصل مع اللغة التركية، لا يترتب عنه تغيير يمس نسقها(1) .

4 – تصويتات أي لغة لها تحقيقات نمطية يميزها سيبويه بمصطلح الحروف الأصول، ولها أيضا بدائل لهجية يطلق عليها اسم الحروف الفروع، ويشعبها إلى حروف مستحسنة، وأخرى مستقبحة. الأولى

---

(1) ما ذكرناه في حياد الحرافة سبق إليه المفكرون القدماء بقول أحدهم: "معلوم أنه لا مدخل لصورة الكتاب في اختلاف اللغات؟. وإنما تعتبر اللغة بالألفاظ دون صور الكتاب" (ابن عطية وغيره، مقدمتان في علوم القرآن، ص. 218).

(5192/1)

تتسم بالورود وبحسنها في قراءة القرآن الكريم والشعر، بخلاف الثانية(1) .

5 – تمثل الكتابة طورا مستقلا ينضاف في مرحلة لاحقة إلى اللغة الشفوية. هذه الأخيرة تعتبر قاعدة لاستحداث الكتابة التي تضمن للأجيال التواصل، وتحفظ تجربة السلف من الضياع. والكتابة، كغيرها من المهارات المستحدثة بالاكتساب، لا تكون في أول نشأتها تامة مكتملة،

(1) للمزيد من التفصيل، انظر: سيبويه، الكتاب، ج2، ص. 404؛ وابن سينا، أسباب حدوث الحروف، ص. 86. ومن المحدثين، انظر: ص. 47 وما بعدها من كتاب: TROUBETZKOY, PRINCIPES DE PHONOLOGIE

(5193/1)

وإنما يحصل لها ذلك بالصقل والتهذيب على مر الزمان(1)

(1) ما ذكرناه أعلاه يشير إليه الفارابي بقوله: "ولا يزالون الحفظ إلى أن يكثر عليهم ما يلتمسون حفظه ويعسر. فيحوجهم إلى الفكر فيما يسهلونه على أنفسهم فتستنبط الكتابة. وتكون في أول أمرها مختلطة إلى أن تصلح قليلا فقليلا على طول الزمان، ويحاكي بها الألفاظ، وتشبه بها وتقرب منها اكثر ما يمكن...، فيدونون بها في الكتب ما عسر حفظه عليهم، وما لا يؤمن بأن ينسى على طول الزمان، وما يلتمسون إبقاءه لمن بعدهم، وما

يلتمسون تعليمه وتفهيمه لمن هو ناء عنهم في بلد أو مسكن آخر" (كتاب الحروف، ص. 144).

(5194/1)

.

ما سردناه من الضوابط إذا تقيد العرض بها صار من السهل الإجابة بالوضوح المطلوب عن مختلف الأسئلة التي تهم هذه الندوة؛ من قبيل : ما إفادات شعوب الأمة الإسلامية من كتابة لغاتها بالحرف القرآني؟ وما وجوه الانتفاع بهذه الكتابة في شتى المناحي العقدية والعملية؟ وما أنجع السبل لاستثمار التجارب السابقة من أجل وضع مقترحات مواتية للمرحلة الراهنة؟ هذا الضرب من الأسئلة وغيرها نترك الإجابة عنها لبحوث أخرى، لتوجيه الاهتمام إلى الوسائل التقنية الكفيلة بإرجاع تصويتات مختلف اللغات إلى الحرف الواحد.

(5195/1)

---

2 – النمطية اللسانية والقرابة اللغوية

يعتقد المشتغلون باللسانيات التاريخية أن العربية ولغات السودان الإفريقي تنتمي إلى نفس الفصيلة اللغوية، لأنها تنحدر جميعها من أصل واحد(1) . وسواء صحت هذه القرابة أم لم تصح، فإن النمطية اللسانية بوسعها أن تثبت التشاكل البنيوي بين طائفة من اللغات، يجمعها الاستناد إلى نفس الوسائط اللغوية. ولتجنب الإطالة، لن نهتم في هذا الموضع بمسألة الوسائط التي

تجمع العربية

---

(1) انظر، ص. 33 ممن كتاب .LA LINGUISTIQUE GENETIQUE HISTOIRE ET THEORIE لجماعة من المؤلفين نشره . A. JOLI

(5196/1)

ولغات السودان الإفريقي أو غيرها، ولا بتتبع مظاهر تشاكلها البنيوي في مختلف المستويات، إذ لا يعنينا منها حاليا سوى المستوى النصغي(1).

ثبت أن جهاز التصويت البشري قادر على إنتاج عدد كبير من التصويتات المتمايزة. إلا أن المستعمل منها في لغات العالم لا يصل إلى الخمسين، وهو ما يفسر تقاسم كل اللغات البشرية التي تعد بالمئات لعيِّنة من تلك التصويتات. وليس رسم هذه بالحرف الواحد مشكل، ولا يطرح

---

(1) النصغ: قالب لغوي يعنى بالقواعد الصوتية المشكلة للبنية القولية. ويتفرع إلى نطق (PHONETIQUE) ونصت (PHONOLOGIE).

(5197/1)

ذلك أدنى صعوبة، كما سيتضح بعد قليل.

1. 2 – من مبادئ التنميط الصوتي:

لا شك في أن اللغات البشرية تخضع جميعها لمبادئ صوتية عامة، ولا يستبعد أن يكون لهذه المبادئ دور في تقليل الاحتمالات،

بحيث ترتفع نسبة التقاء اللغات ؛ كأن يشترك بعضها في احتمال بعينه. وهو ما يقوي الحظوظ لإنشاء أنساق صوتية تعم أكثر من لغة. من تلك المبادئ نسوق ما يلي:

1 – المبدأ التصنيفي: من بين ما تتناقله كتب النص أن جميع اللغات تميز، داخل الأساس الصوتي المستعمل فيها، بين الصوامت التي تصورها بالحروف، والصوائت المصورة فيها أتحركون (=

(5198/1)

تركيب مزجي من الحركة والسكون). وكلها يميز أيضا داخل الصوامت بين التصويتات (وهي المتغايرة الفارقة دلاليا) والبدائل (وهي المتغايرة صوتيا غير

الفارقة دلاليا). وقد سبق أن ذكرنا أن البدائل تتفرع بدورها إلى وارد مستحسن ونابي مستقبح(1) . وداخل مجموعة الحركون

---

(1) التصنيف المذكور للصوامت تداوله من القدماء سيبويه، الكتاب، ج2، ص. 404. نفس التصنيف نقله ابن جني، سر صناعة الإعراب، ... ج1، ص. 45؛ والرضى، شرح الشافية، ج1، ص. 250.ويكاد اتْروبيتسكويْ من المحدثين يكرره في ص. 47 من كتابه المذكور في ... الطرة (4).

(5199/1)

يقع التفريق بين "الصوائت الأولية" (كالفتحة والكسرة والضمة والسكون) و "الحركات الثانوية" (كالمد وهو ضعف الحركة؛ وهمزة

الوصل، وهي نصفها).

2 – مبدأ التساند النصغي: يقوم على علاقة الانتماء التي تسمح بتنظيم مجموعات صوتية صغرى داخل أي من الأصناف المسرودة أعلاه. وقد تحدث عنه نصغيون كثير بعبارات متقاربة. من المحدثين استعمله ياكُبْسون(1) من أجل تفسير

---

(1) انظركتابه: LES LOIS PHONIQUES DU LANGAGE ENFANTIN ET LEUR PLACE DANS LA PHONOLOGIE GENERALS ، ص. 367 ... ضمن :. TROUBETZKOY, PRINCIPES DE PHONOLOGIE

(5200/1)

ظاهرة التدرج عند اكتساب الصغار لتصويتات لغاتهم. وهو ما يتبين من قوله: "اكتساب الحروف المستعلية والشجرية، يترتب، في النسق النصتي لدى الصغار، عن اكتساب الحروف الشفوية والأسنانية. وإن وجود أحرف الاستعلاء الشجرية في لغات العالم يقتضي الوجود الفوري للشفويات والأسنانيات. وهذا التساند لا ينعكس، لأن وجود الشفويات والأسنانيات لا يقتضي وجود أحرف الاستعلاء الشجرية". كما وظف ابن جني المبدأ المذكور في أكثر من موضع. فاستدل به على أولية أحرف اللين وتبعية الحركات؛ إذ وجد هذه الأخيرة أبعاضا للأولى(1)

---

(1) انظر" ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص. 17، 18، تجده يقول: "فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو... وبذلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف أنك متى أشبعت واحدة منهن حدث الحرف بعدها الذي هي بعضه... فلولا أن

الحركات أبعاض لهذه الحروف وأوائل لها، لما نشأت عنها ولا كانت تابعة لها". وقد تحدث ابن سينا أيضا عن هذه العلاقة في كتابه أسباب حدوث الحروف، ص. 84.

(5201/1)

. وبه أثبت أيضا أن التصويتات المستعملة في أي لغة يجب أن تتمحور حول "نواة صوتية"؛ كالنفث الجامع بين (/ث/، /ذ/، /ظ/)(1) . بحيث ينتظم بعضها في ثلاثيات؛ كأحرف النفث (/ث/، /ذ/، /ظ/)، وأحرف الصفير (/ز/، /س/، /ص/).
وبعضها الآخر ينتظم في ثنائيات؛ كالشجرية (/ش/، /ج/)، والغنية (/ن/، /م/). والدِّواض (/د/، /ض/)، والتطريف (/ت/، /ط/).
ويتنازل الانتظام إلى الأحادي في نحو /ق/.

---

(1) للمزيد من التفصيل، انظر: ابن جني، سر صناعة الإعراب، ج1، ص. 171 و 184.

(5202/1)

ومن جهة أخرى، قد يتصاعد الانتظام فيدرك في بعض اللغات عتبة الرباعيات أو يزيد، وذلك تبعا للأحياز الصوتية التي يقع عليها التركيز لدى مختلف الأقوام في مقابل إهمالها الجزئي لأحياز أخرى. مثلا الإهمال الجزئي للأحياز الصوتية المولِّدة للحلقيات قد يقود إلى التركيز ُعلى الأحياز المولدة للشفويات، وبالتالي إلى رفع عتبة الانتظام، في هذا الضرب من التصويتات، إلى ما فوق الثلاثيات. خذ

مثالا على ذلك اللغة الفرنسية بالنظر إلى عدد الصوائت المتفرعة عن الضمة. كما هو مبين في الطرة(1)

---

(1) الضمة في اللفظة (ROUE)المصورة نطقيا كالتالي [U] تتفرع عنها حركات. منها [0] في مثل (MOT)، و [OE] في نحو (PEUR)، و [Y] في اللفظة (RUE)، و [E] المتحققة في المقطع الأول من اللفظة (PREMIERE).

(5203/1)

أسفله.

يلزم عن المثبت في هذه الفقرة أن اللغات التي يستثمر الناطقون بها جميع الأحياز المكونة لجهاز تصويتهم يكثر في أساسها الصوتي الأصوات المتباعدة مخرجا، فتنخفض فيها عتبة الانتظام إلى الأحادي، والثنائي، ولا يتجاوز الثلاثي. كما هو الحال في اللغة العربية. ويفترض في كل لغة استثمر أهلها أحيازا وأهملوا أخرى أن تكثر فيها الأصوات المتقاربة مخرجا. فيقل الأحادي فيها ويكثر ما فوق الثلاثي.

أهم ما في المبدأ الأخير يمكن التعبير عنه واحدة بسلمية التساند (1)التالية:

(1)

ظ، ص

ذ ، س ط، ض ، م ، ش

(5204/1)

ث ، ز ت ، د ، ن ، ج ، ق

المحور الأفقي في السلمية (1) يشخص التصويتات الأوائل، منها (/ث/، /ز/، /ت/، /د/، /ن/، /ج/، /ق/) في مثالنا، بينما المحور العمودي يشير إلى الثواني (/ذ/، /س/، /ط/، /ض/، /م/، /ش/) والثوالث (ظ، ص). ولا تخلو لغة من هذا التصنيف المتدرج لأساسها الصوتي. ويستفاد من قولنا "سلمية التساند" أن الأعلى في السلمية، مثل (ص، ظ، ض، م)، ويتعلق وجوده في اللغة بوجود الذي يسفله مباشرة، ولا ينعكس. إذن كل اللغات التي تستعمل ثواني بعينها، كالذال في العربية مثلا، يلزمها أن تستعمل أيضا أوائل من جنسها

(5205/1)

كالثاء. لكنه ليس ضروريا آن تستعمل تلك اللغات ما في بعضها من الثوالث، كظاء العربية. وعليه، يجب أن تكون /ث/ مستعملة في كل لغة تستعمل /ذ/. إلا أن /ظ/ باعتباره من الثوالث قد لا يُستَعمَل إلا في بعضها. كما تكشف المقارنة بين اللغتين العربية والإنجليزية.

والانتظام الموصوف هنا بسلمية التساند (1) يصاغ في أعمال لسانية معاصرة(1)

---

(1) قدم سيمون ديك للكليات اللزومية أمثلة من المستوى الصوتي. إذ وجد بين تصويتَتَيْ الخيشوم (/ن/، /م/) تساندا يفرض على كل لغة تستعمل /م/ أن تستعمل أيضا/ن/، ولا ينعكس.

للمزيد من التفصيل، انظر: S.DIK, THE THEORY OF FG.

(5206/1)

بواسطة "الكليات اللزومية" المعبر عنها بالصيغة (2) التالية:

... ... (2) (أ). ز < س < ص

(ب). ث < ذ < ظ

(ج). د ض

(د). ن < م

(هـ). ت < ض

تعبِّر الصيغ (2) عن كون التصويتية اللاحقة الواقعة بعد العلامة < يتعلق وجودها في أي لغة بالتصويتية السابقة عليها. وكذلك الحركات في كل اللغات، إذ تعتبر الضمة والفتحة والكسرة أوائل لا تخلو لغة منها. ولكل حركة ثوان تستعمل في بعض اللغات، وقد تكون لها ثوالث تستعمل في بعض البعض؛ بحيث كلما تصاعدت طبقات السلمية، تناقصت اللغات التي تشترك في استعمال نفس التصويتات.

(5207/1)

لكن ما علاقة المبدأين المذكورين بموضوع كتابة لغات الشعوب الإسلامية بالحرف القرآني. مثل هذه المسألة نخصها فيما يلي بمبحث مستقل.

2 . 2 – تصوير المثلين والمتقاربين بنفس الحرف:

قبل الشروع في حرافة مجموعة لغوية، يتعين البدء بالتصنيف السلمي للأساس الصوتي(1) في كل لغة

---

(1) لكل لغة أساس صوتي يتألف من: 1 – صوامت متفرعة إلى تصويتات وبدائل تتشعب بدورها إلى بدائل مستحسنة وأخرى مستقبحة؛ ... و 2 – صوامت بصنفيها الأصول والفروع. من الأول الفتحة والضمة والكسرة، ومن الصنف الثاني المدود والأبعاض؛ كهمزة ... الوصل.

(5208/1)

من تلك المجموعة . والغاية منه تكوين فئات صوتية، كل فئة تتمحور حول نواة صوتية، وتنتظم بعلاقة الانتماء في سلمية تساند، بحيث يكون الصويت السابق، في السلمية، متضمنا في اللاحق منها. وأن الأخير في السلمية يتركب، فضلا عن صويته الذي يميزه عن فئته، من صويتات الذي سبق. وهكذا نجد "الصفير "، وهو الصويت الأساس في الحرف /ز/، ساريا في الحرف /س/ وقد خلى من جهر السابق، وبزيادة صوت التفخيم على اللاحق نحصل الحرف /ص/. كما أن صويت "النفس" الأساس في حرف /ث/ موجود أيضا ضمن صويتات الحرف /ذ/ المتميز عن سابقه بصويت

(5209/1)

الجهر، والصويتان معا (نفس + جهر)، موجودان في الحرف اللاحق /ظ/ المتفرد بالتفخيم. وكذلك يتدرج تركيب التصويتية الثانية

والثالثة والرابعة في سلمية التساند. وهو حال سائر الثنائيات.

وعلى الصويت الذي يتكرر في فئة صوتية نطلق لفظ "النواة الصوتية". وهي المتولدة عن علة عامة، أو بنفس السبب، حسب نظرية ابن سينا في أسباب حدوث الحروف(1)

---

(1) استند ابن سينا، في تصنيفه للتصويتات المستعملة في العربية وغيرها من اللغات التي يعرفها، إلى علل عامة من أجل تكوين طبقات أخرى. وإلى أسباب خاصة لتكوين مجموعاتت صغرى داخل كل طبقة. يظهر ذلك من حين لآخر في مثل قوله: "وبعد اشتراك كل واحدة من الطبقتين في العلة العامية، فقد تختلف بسبب اختلاف الأجرام التي يقع عندها وبها الحبس والإطلاق". وكذلك قوله: "وها هنا حروف غير هذه الحروف تحدث بين حرفين فيما يجانس كل واحد منهما بشركة في سببه" (أسباب حدوث الحروف، ص. 62،86).

(5210/1)

.

يترتب عما تقدم أن كل تصويتة لاحقة في السلمية هي عبارة عن تراكم للصويتات المميزة للسوابق فضلا عن صويتها الفارق لها عن فئتها. وأن أوائل السلمية يجب أن تكون الأبسط؛ أي الصوت اللغوي الأقل تركيبا في فئته.

هب إن لغات السودان الإفريقي متميزة صوتيا بالنزوع إلى التركيز على الشفويات، مع الإهمال النسبي للحلقيات (إذ تضطر كغيرها من لغات العالم إلى استعمال الفتحة /أ/، لكنها لا تكون مجبرة على

الأخذ بما سوى الفتحة من نحو الهاء والعين والحاء والخاء)، والإهمال الكلي لحروف الإطباق (/ص/، /ط/، /ظ/)؛ فإن مثل هذه

(5211/1)

الوضعية ستخلق للحرافة مشاكل متعددة، إلا أن حلها ليس بالمستعصي.

2. 2. 1 – المشترك الحرفي:

يقوم الحرف القرآني على استغلال جهاز التصويت بجميع الأحياز التي تكونه؛ بدءا من أقصى الحلق مخرج الهاء وانتهاءً بأقصى الشفتين مخرج الواو. لأن من شروط الفصاحة على مستوى القَوِلَة تباعدُ مخارج الحروف التي تنبني منها اللفظة المفردة. ومثل هذا الاتساع في استغلال جهاز التصويت سيقود إلى قلة "التصويتات المتحايزة" بحيث لا يكفي ما فيه من الشفويات (/ب/، /م/، /و/) على تصوير جميع الحروف الشفوية المستعملة في بعض لغات

(5212/1)

السودان الإفريقي. وفي مثل هذه الحالة لا مندوحة من الاستثمار مبد الاشتراك؛ باستعمال نفس الحرف لتصوير أكثر من تصويتة.

والاشتراك الحرفي لا تخلو لغة منه. وهو ملحوظ في العربية الفصيحة التي تصور بحرف الباء مثل تصويتي (//B، //P)، في نحو كلمة "بونابرت". كما تصور بحرف الفاء تصويتتي (//F، //V)في جملة من قبيل "في البيت تلفزيون".

وإذا قارنا بين اللغة العربية الفصحى واللهجات العربية المتفرعة

عنها، ستبدو ظاهرة الاشتراك الحرفي واضحة بشكل جلي. يكفي التذكير بأن الحرف "ج" يُتَلَفَّظُ به مرة /J/ ومرة أخرى /G/،

(5213/1)

ويحصل ذلك في نفس العشيرة اللغوية، كما في القاهرة. وفي نحو "كتابك" يُتَلَفَّظ في الكويت وجنوب العراق بالكاف الأولى كافاً وبالثانية تاء مشربة بالشين.

بل تمتد ظاهرة الاشتراك الحرفي إلى العربية الفصحى. إذ يُصَوَّرُ، بنفس الحرف، الراء المرققة في مثل "درست الحنطة في سنبلها"، و "درست القرآن"(1) . فالفارق بين دلالة الفعلين ترقيق الراء أو تفخيمها. ويتكرر هذا في كلمة "المسرح" الدالة بترقيق الراء على مكان الرعي، وبتفخيمها على مكان التمثيل. وصوتا التفخيم

---

(1) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة "درس".

(5214/1)

والترقيق، مع ورودهما من حيث التفريق الدلالي والحرافي (كما في نحو "سيف" و "صيف" و "ذليل" و "ظليل" و "تدريس" بمعنى التحزيز، و "تَرَف" و "طرف" يصوران بنفس الحرف في اللغة العربية الفصحى.

نخلص مما تقدم إلى أن التصويتات المتحايزة؛ وهي المنتمية إلى نفس الحيز من جهاز التلفظ، إذا اختلف عددها من لغة إلى أخرى، رخَّص مبدأ الاشتراك استعمال الحرف الواحد لتصوير أكثر من صوت لغوي.

إلا أن هذا المبدأ قد لا يفيد في الحالة الموالية.

2. 2. 2. – التقارض الصوتي:

(5215/1)

إذا ثبت مراسيا أن بعض لغات السودان الإفريقي لا يتوفر أساسها الصوتي على أحرف الإطباق المستعملة في العربية، ولا على أغلب ما في هذه اللغة من الحروف الحلقية، ففي هذه الحالة ستنتفي الحاجة إلى إدماج مثل هذه الحروف في تلك اللغات. لكن التقارض اللغوي الناجم عن دخول أمم غير عربية في الدين الإسلامي سيكثر من الألفاظ الإسلامية في لغات تلك الأمم. منها اسم الجلالة "الله"، وألفاظ التعبد من قبيل "صلاة العصر، وصوم رمضان، والوضوء والطهارة"، ونحوها من الألفاظ الشرعية المتوفرة على حرف مطبق.

(5216/1)

للنطق بمثل تلك الألفاظ الإسلامية، يتعين ترويض جهاز التصويت لاكتساب القدرة على إنتاج التفخيم. فيستعمل موضعيا، كما في الحالات التي ينطق فيها لفظ "الله" مفخما إذا لم تسبقه كسرة. أو يطرد استعماله، وهو حال أحرف الإطباق. ويكون إدخال هذه الأحرف، نطقا وكتابة في لغات الشعوب الإسلامية الناطقة أصلا بغير العربية، تابعا لدخول الألفاظ الشرعية إلى لغات تلك الشعوب التي لم ترض بغير الإسلام دينا.

مبدأ التقارض الصوتي المذكور ينسحب أيضا على الحروف الحلقية. إذ سيكثر سماع تصويتات (/ع/، /هـ/، /ح/، /خ/، /أ/) بانتشار

(5217/1)

مصطلحات الفقه الإسلامي كالخلع، والمسح على الخُفِّ، والغسل، والطُّهْر، وعقد النكاح، والشفعة، والعقيقة، واللِّعان، والحِجْر، والحجج، والرهن، والهبة، والشهادة، والجهاد، والظِّهار.

مثل ما سُرد من الألفاظ الشرعية، ويتوقع أن يكون منها الكثير في لغات الشعوب الإسلامية، سينمي قطعا الأعضاء المكونة للحلق، ويبعثها على الاشتغال من أجل توليد حروف حلقية. وهو ما يدعو أيضا إلى إدراج كل الحرف القرآني في الأساس الصوتي لأي لغة من لغات الشعوب التي دين بالإسلام.

(5218/1)

اللغة العربية خصائصها وتطورها على ضوء آيات رب العالمين

الدكتور التهامي الراجي الهاشمي
كلية الآداب – الرباط

... الحمد لله الذي فضلنا بالقرآن على الأمم أجمعين و آتانا به مالم يؤت أحدا من العالمين أنزله سبحانه هداية عالمية دائمة ، وجعله للشرائع السماوية خاتمة ، ثم جعل له من نفسه حجة على الدهر قائمة، و الصلاة و السلام على من كان خلقه القرآن، ووصيته القرآن الذي ملأت قلبه من جلالك، و عينه من جمالك، فأصبح مؤيدا منصورا؛ القائل " خيركم من تعلم القرآن وعلمه(1)

_____

(1) – صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن باب "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" سنن الترميذي، أبواب فضائل القرآن، باب ماجاء به النبي – عز وجل – في فضل تعليم القرآن.

(5219/1)

".

... اللهم كما أعطيتنا حظا من وراثة هذا الذكر الحكيم، فيسرت علينا حفظه و تذكره ، و حببت إلينا تلاوته و تدبره ، نسألك أن تجعلنا من خيار وارثيه ، الذين هم بهدايته مستمسكون، و الذين هم على حراسته قائمون و الذين هم تحت رايته يوم القيامة يبعثون في جند إمامنا الأعظم، و رسولنا الأكرم وعلى آله و صحابته الذين أعلوا رايته، اللهم فأنبتنا نباتا حسنا و جنبنا وساوس الغرور و هواجس الضلال (1)

---

(1) –النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز، صفحة 9 الطبعة الخامسة 1400ه (1980م) وأثر القرآن الكريم في اللغة العربية، دار المعارف بمصر سنة 1969 صفحة 7.

(5220/1)

.

–1بعض تعريفات اللغة :

... أما بعد فإن اللغة العربية التي سأحاول البحث عن خصائصها و التصدي إلى تطورها، قد عرفها الناس قديما و حديثا بتعريفات لا يخلو سردها من فائدة .

... وأول تعريف أحب أن أورده هنا هو التعريف الذي حاول أن يحدد به الشيخ أبو حاتم بن حمدان الرازي اللغة العربية؛ أورده لا بنية أن أدعو الناس إلى جعله حدا يضبط اللغة ، و إنما أورده لنتبين أن تعريف اللغة هو أيضا سجل عبر عقود من الزمن تطورا ملفتا للنظر. لا شك أننا سنلاحظ أن هذا التعريف الذي يقدمه لنا الشيخ الرازي المتوفى سنة 322 هجرية

(5221/1)

تعريف تمليه بالدرجة الأولى العاطفة الجامحة و المحبة الكبيرة التي يكنها هذا العالم الفذ للغة القرآن. يقول في كتابه الموسوم ب "كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية "(1) : إن لغات الأمم أكثر من أن يحصيها أحد أو يحيط من ورائها محيط أو يبلغ كنهها مخلوق ، بل كل أمة تتكلم بلسانها و لا يعرف أكثرهم غير لغتهم. " ثم يضيف قائلا "(2) أفضل السنة الأمم كلها

---

(1) – « كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية " للشيخ أبي حاتم بن حمدان الرازي صفحة 60 من البعة الثانية بمصر سنة 1957.

(2) – المرجع السابق، صفحة 61.

(5222/1)

أربعة : العربية و العبرانية و السريانية و الفارسية ، لأن الله عز و جل أنزل كتبه على أنبيائه عليهم السلام آدم و نوح و إبراهيم و من بعدهم من أنبياء بني اسرائيل بالسريانية و العبرانية ، و أنزل القرآن على – صلى الله عليه وسلم – بالعربية . وذكر أن المجوس كان لهم نبي و كتاب، و أن كتابه
كان بالفارسية ثم يؤكد بعد ذلك هذا الأمر فيقول : " إن أفضل اللغات الأربع لغة العرب ، و هي أفصح اللغات وأكملها و أتمها و أعذبها و أبينها ".

(5223/1)

... ليس هذا كما نلاحظ تعريفا للغة العربية بالمعنى العلمي الدقيق الذي نتوخاه في التعريفات الآن و لا هو مدعم بالبراهين التي تعززه أو توضحه . و ما كان ينتظر منه ذلك ، فيما أعتقد لأن كتابه (كتاب الزينة) الذي يتحدث عن هذا الأمر هو نافع و لا شك للأديب و الفقيه و المحدث و المفسر و العامة و الخاصة و لكنه لا يمكن أن يحدد اللغة ، و الحالة هذه إلا بما حددها به .
... أما التعريف الثاني الذي أود أن نتأمله فهو التعريف الدقيق الذي استعرضه اللغوي الكبير أبو الفتح عثمان بن جني في خصائصه حين قال : أما حدها

(5224/1)

فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم ، هذا حدها. و أما اختلافها فلما سنذكره في باب القول عليها : أمواضعة هي أم إلهام

. وما تصريفها و معرفة حروفها فإنها (فعلة) من لغوت : أي تكلمت ".(1)

... هذا كما نرى تعريف يمكن أن يشفي الغليل لأنه صادر عن لغوي ماهر جعل البحث في اللغة صنعته التي لا محيص له عنها.

---

(1) – « الخصائص » أبو الفتح عثمان بن جني، ج 1، ص. 32، بعة القاهرة 1371ه (1952) ولد سنة 321ه مات سنة 392ه.

(5225/1)

... هذا و إن مسألة " التعريفات التي بها اللغة العربية هي كمسائل العلوم كلها تبدأ بسيطة ثم تكبر . و الله در الإمام مجد الدين بن السعادات المبارك ابن محمد الجزري (المشهور بابن الأثير الذي يقول عن هذا المعنى في مقدمة نهايته(1) .

... "...إن كل مبتدئ لشيئ لم يسبق إليه و مبتدع لأمر لم يتقدم فيه عليه، فإنه يكون قليلا ثم يكثر و صغيرا ثم يكبر " .

---

(1) – "النهاية في غريب الحديث والأثر" الجزء الأول صفحة 4 من المقدمة.

(5226/1)

... ثم صارت التعريفات للغة تترا؛ كل يقدم تحديده حسب شريعته و منهاجه؛ فقال إمام الحرمين (1) في " البرهان" : اللغة من لغي يلغي من باب رضي يرضى، إذا لهج

بالكلام، و قيل من لغى يلغي ".

... و قال ابن الحاجب (2) في مختصره : " حد اللغة كل لفظ وضع لمعنى ".

---

(1) – هو عبد الملك عبد الله بن يوسف الجويني الملقب بإمام الحرمين بني له نظام الملك المدرسة النظامية بنيسابور، توفي سنة 478ه.

(2) – هو أبو عمر جمال الدين عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب ولد سنة 570ه مات في الإسكندرية سنة 646ه.

(5227/1)

... و قال الاسنوي (1) في شرح منهاج الأصول : " اللغات عبارة عن الألفاظ الموضوعة للمعنى."(2)

... نرى من هذه المعاني أن اللغة تتألف من الألفاظ و المعاني و الأغراض و إن لم تذكر هذه الثلاثة صراحة فلن يسع ابن جني – و قد أهمل المعاني التي هي مدلولات الألفاظ – إن لا يراعيها مقدرة في نفسه ، و إن لم يبرزها في لفظه.

---

(1) – عبد الرحمن بنالحسن بن علي الأسنوي ولد سنة 721ه، انتهت إليه رئاسة الشافعية.

(2) – "المزهر في علوم اللغة وأنواعها" لجلال الدين السيوطي صفحة 8، ج1، طبعة القاهرة بدون تاريخ.

(5228/1)

... كما أنه لن يسع ابن الحاجب أن يلاحظ الأغراض التي يرمي إليها المتكلم من وراء الألفاظ الدالة. و لا بد لهذه الألفاظ التي على المعاني مقصودا بها أغراضا خاصة من طريق خاص فيه تجتمع تلك الألفاظ آخذا بعضها برقاب بعض وهو ما يسمى الأسلوب "(1)

... و لا بد أن نلاحظ من تأملنا في تعريف كل من ابن جني و ابن الحاجب أن لا أحد منهما حدد اللغة العربية لغة القرآن الكريم فيمكن أن نستأنس – في بداية بحثنا على الأقل على ما يقول الهويرني يقول : "هي

---

(1) – "أثر القرآن الكريم في اللغة العربية" أحمد حسن الباقوري، صفحة 24.

(5229/1)

عبارة عما حفظ من كلام العرب الخلص و نقل عنهم من الألفاظ الدالة على المعنى ."(1)

---

(1) – الهورني أبو الوفاء ابن الشيخ نصر يونس الوقائي من أهل مصر، توفي سنة 1291ه (1874م) له من المصنفات المطبوعة "شرح ديباجة القاموس" وهو مطبوع مع" فوائد شريفة في معرفة اصطلاحات القاموس" وله "مختصر روض الرياحين لليافعي" ومن مؤلفاته التي لم تطبع بعد تذكر " تفسير سورة الملك" و"تسلية المصاب عند فراق الأحباب" و" التواصل لحل مشاكل التوسل"، وله رسالة في أسماء رواة الحديث سماها : "المؤتلف والمختلف". وغير ذلك من الكتب.

(5230/1)

... هذا كما نرى تعريفا للغة لابد أن نقبله و لكنه أخرج منه الأسلوب و الأغراض. و اعتقد أن أحسن من استصاغ هذه التعريفات : التعريفات الأولى للغة ابتداء من تعريف ابن جني وابن الحاجب و ابن سيده (1) و ابن فارس (2)

---

(1) – علي بن إسماعيل المعروف بابن سيدة، أبو الحسن، ولد بمريسة عام 398ه (1007م) كان رحمه الله ضريرا مثل أبيه. له "المخصص" وله "المحكم" مبوع كذلك، توفي سنة 458ه (1066م).

(2) – انظر أخبارا عنه في الموضوع في " تنقيح المقال" لعبد الله المامقاني الجزء الأول صفحة 76. كان ابن فارس رحمها لله شافعي المذهل ثم صار مالكيا في سنواته الأخيرة. نجد هذا في "معجم البلدان" الجزء الرابع الصفحتين 83،84. هذا التحول سيؤثر في تعريفه للغة.

(5231/1)

مرورا بتعريف التاج السبكي إلى الغزالي و الرازي و السراج الأرموي هو العالم اللغوي الكبير ابن الطيب الشرقي الصميلي (1) الذي يقول في مصنفه الكبير الذي و ضعه شرحا لقاموس الفيروز آبادي بعد أن يستعرض تعريفات من ذكرنا أعلاه (2)

---

(1) – شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الطيب الشركي الفاسي الصميلي ولد سنة 1110ه (1099م) بفاس وتوفي بالمدينة المنورة سنة 1175ه (1761م).

(2) – "إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضافة القاموس"

تحقيق الدكتور التهامي الراجي الهاشمي عبد السلام صفحة 26 من الجزء الأول طبعة وزارة الأوقاف المغربية عام 1403هـ(1983م).

(5232/1)

: " و مآل تلك العبارات شيئ واحد في المعنى كما أشرنا إليه في شرح
الكفاية "(1) و هي عبارات ظاهرة . ثم رأيت بعض الأفاضل قال : " اللغة علم يبحث فيه عن مفردات الألفاظ الموضوعة من حيث دلالتها على معانيها بالمطابقة " فخرج بالمفرد " المركب " و بالموضوع " المهمل " و بالدلالة " المطابقية للمجاز" لأن دلالته إما بالتضمن أو بالالتزام و المراد بالمفرد مالا يدل جزؤه على جزء معناه ".

(1) – لبن الطيب الشركي شرح على " الكفاية" لازال مخطوطا.

(5233/1)

... أما المحدثون فعرفوا اللغة على العموم ثم اللغة العربية على الخصوص تعريفا دقيقا استمدوا جميعهم أسسه من تعريفات القدماء التي أوردنا بعضها. إلا أن تعريفاتهم تختلف جميعهم بحسب تكوينهم الشخصي أو بحسب الوظيفة التي يرونها للغة. و إذا أوردت هذه التعريفات و أحلت القارئ لهذا البحث عن مكان وجودها فإن هذا لا يدل على أن هؤلاء الباحثين أتوا بما لا يستطيع أن ياتي به أحد و على القارئ أن يعود إلى أقوالهم في مظانها

ليستفيد منها و إلا ضاعت منه فرصة ذهبية، بل إنني أفضل ذلك للتوثيق فقط و إلا فإنها تعريفات يمكن

(5234/1)

أن يصوغها كل من اهتم بالدرس اللساني.

... قال تمام حسان محاولا صياغة تعريف الباحث الأروبي vendryes صياغة عربية (1) " اللغة من العوامل التي تتميز بها المجتمعات بل من العوامل التي تهب كل مجتمع خصائصه المميزة ففي كل مجتمع، مهما كانت طبيعته وحجمه، تلعب اللغة دورا ذا أهمية أساسية، إذ هي أقوى الروابط بين أعضاء هذا المجتمع، و هي نفس الوقت رمز إلى حياتهم المشتركة وضمان لها.فما الأداة التي يمكن أن تكون أكثر كفاءة من اللغة في

---

(1) – "اللغة بين المعيارية والوصفية" تمام حسن صفحة 7 من طبعة القاهرة سنة 1958.

(5235/1)

تأكيد خصائص الجماعة، إذ هي في مرونتها و يسرها وامتلائها بالظلال الدقيقة للمعاني تصلح لاستعمالات مختلفة متشعبة، و تقف موقف الرابطو التي توحد أعضاء الجماعة، فتكون العلامة التي بها يعرفون النسب الذي إليه ينتسبون ".

... وقال جرجي زيدان(1) : اللغة هي نتيجة عمل عقلي قامت به أجيال

متوالية من الناس. و اللغة من شأنها أن تسير في طريق الإصلاح المستمر فهي في حركة دائبة دائمة نحو تجربة مثالية ".

---

(1) – "اللغة العربية كائن حي" جرجي زيدان صفحة 7 طبعة دار الهلال بالقاهرة بدون تاريخ.

(5236/1)

... ويقول عنها محمود فهمي حجازي (1) : فاللغة – أولا وقبل كل شيئ – نظام من الرموز ومعنى هذا أنها تتكون من عدد كبير من الجزئيات التي تنتظم بعلاقات محددة في سياق أو نظام محدد، و أقل هذه الرموز الوحدة تليها الكلمة ثم تتكون الجملة من الكلمات وقد رتبت في سياق متعارف عليه في البيئة اللغوية ."

2–وظائف اللغة(2)

---

(1) – « المدخل إلى علم اللغة" محمود فهمي حجازي، صفحة 12 طبعة دار الثقافة القاهرة، سنة 1976.

(2) – "الدلالية" الجزء السابع من سلسلة الدراسات اللغوية وعلوم القرآن، للدكتور التهامي الراجي الهاشمي صفحة 91 من طبعة دار النشر المغربية سنة 1990.

(5237/1)

... كل المهتمين بالبحث اللغوي تحدثوا عن وظائف اللغة، و لكن R. Jakobson هو الذي قدم للمهتمين بهذا الموضوع تكلمة لترسيمه

معارة من نظرية الاتصال. لقد أصبحت هذه الترسيمية التي أثمها jakobson وهويحاول عزل الوظيفة الجمالية ترسمة كلاسيكية يمكن عرضها على الشكل الآتي :

مرجع 1

2 قناة 4 3

باث متلق

بلاغ6

رمز 5

... إن البلاغ الذي يرسله الباث في اتجاه متلق يحيل على مرجع يكون معلوما لكل من الباث و المتلقي و إلا كانت عملية الاتصال لاغية . و يتطلب البلاغ كذلك ربطا بين محركي القضية هو ما يسمى قناة أو وصل

(5238/1)

كما

لا بد من وجود "رمز " أي قواعد متحكمة في البلاغ تكون معروفة لا غموض فيها لا من طرف الباث و لا من طرف المتلقي.

... يلعب كل واحد من هذه العوامل دورا يترك أثرا و يلون البلاغ هذا الدور أو هذا الأثر أو حتى التلوين إن شئنا هو ماأسماه R.Jkobson بوظائف اللغة .

... هذه الوظائف هي :

2.1– الوظيفة المرجعية (La fonction référentielle)

... الوظيفة المرجعية هي أس كل اتصال؛ إنها تحدد العلاقات الموجودة بين " البلاغ " و بين الشيئ الذي تعود إليه. المشكل المهم هنا هو أن نصدر بالنسبة لهذا المرجع معلومة صادقة

(5239/1)

و لتكون هذه المعلومة صادقة لا بد أن تتوفر فيها الضوابط الثلاثة الآتية : أن تكون:

... أ – مجردة : أما إذا كانت مغرضة ذاتية لا تقبل نقاشا بين باث و متلق فإن عملية الاتصال باطلة أو على الأقل تقومبوظيفتها كما يجب.

... ب – ملحوظة : أما إذا كان المرجع الذي يدور حوله الحديث لا يمكن أن يشاهد. كأن يكون الحديث حول مسألة غريبة للغاية لا معرفة لا حد بها فإن عملية الاتصال لا يمكن أن تتحقق.

... ج – قابلة للتحقيق : لا بد أن تكون القضية التي يدور حولها الاتصال قابلة للتحقيق أي أن الباث يستطيع أن يقدم البراهين

(5240/1)

التي تؤدي ما يقول و أن المتلقي يستطيع في المقابل أن يقدم الحجج التي يمكن أن تبطل أو تؤيد مايدعيه المخاطب.

... عندما نتوصل بالكلام مثلا أو بأية وسيلة أخرى من وسائل

المعنى، فإننا نصدر أفكارا تتعلق بالمرجع، هذه هي الوظيفة بالذات تعود جميع الترميزات (codes) الإشارية (signalisation) و كل البرامج الممارسة (les programmes opérationnels) مثل الشغل و الإحتراب العسكري (tactique militaire) إلى آخره.

... إن غاية هذه الوظيفة هو تنظيم العمل المشترك و إننا لنعلم أن موضوع المنطق و كثير من العلوم التي

(5241/1)

هي ترميزات (cdes) وظيفتها الأساسية هي أن تحمي المستعملين من الوقوع في الخلط بين الدليل (signe) و بين الشيئ المدلول عليه بين البلاغ و بين الواقع المرمز.

... لكن العلاقة بين الدال (signifant) و المدلول (signifié) هي كيف ما كان الحال عرفية بل اعتباطية؛ إنها ناتجة عن اتفاق بين المستعملين أو عن اتفاق انبثق عن حالة وجود الدلائل (signe) معللين motivés)) أو عن إمارات طبيعية استعملت لأداء وظيفة الدلائل.

(5242/1)

... قد تكون هذه العلاقات ضمنية أو تصريحية وهو حد (ضبابي) من الحدود التي تفصل بين الترميزات التقنية و بين الترميزات الشاعرية.

... إن مفهوم الادراك الضمني، على الخصوص مفهوم نسبي؛ لأن الإدراكية درجات، قد تقل أو تكثر قوتها، قد تحصل بالإجماع الكلي أو تحصل بالإجماع النسبي و قد تكون جبرية كليا أو جزئيا.

2.2– الوظيفة التأثيرية (1) :

---

(1) –اقتبست معظم الفرقات المتعلقة بوظائف اللغة من كتاب p. guraud (الدلاليو) رقم 1421 من سلسلة : "ماذا أعرف".

(5243/1)

... تحدد هذه الوظيفة العلاقات الموجودة بين البلاغ و بين الباث. لقد قلنا قبل قليل: إننا حين نتواصل، أي حين نصدر أفكارا تتعلق بالمرجع نكون في نطاق الوظيفة المرجعية. لكننا، في ذات الوقت، نستطيع أيضا أن نعبر عن موقفنا تجاه هذا الشيئ فنصفه بأنه حسن، إن كان فعلا حسنا أو رديئا إن كان هو كذلك أو نحكم عليه بأنه جميل إن كان جميلا أو رديئا إن كان يستحق وصف الرداءة أو قد تقول عنه إنه منفر أو مشوق، محترم أو مهان إلى آخره.

(5244/1)

... لكن يجب ألا نخلط بين التظاهرية العفوية للتأثيرات الناتجة عن العواطف أو الطبيعة وهي غرائز منبعها اجتماعي وبين

الاستعمالات التي يمكن أن نلجأ إليها لأجل أن نتواصل.

... و معلوم أن الوظيفة المرجعية و الوظيفة التأثيرية هما أساسان متكاملان وفي نفس الوقت متواجهان داخل عملية الاتصال. إلى درجة أننا نتحدث في كثير من الأحيان عن " الوظيفة المضعفة للاتصال " واحدة إدراكية ومجردة و الأخرى عاطفية وذاتية. أنهما تضعان أنواعا من الترميز مختلف، إن الثانية منهما على الخصوص. تستمد روحها من التغيرات الأسلوبية ومن

(5245/1)

معنى المعنى.

... هذا و لا يخفى أن الغاية من الترميز العلمي هو إبطال هذه التغييرات و إلغاء العنانية في حين أن الترميزات إيجابية تنعش هذه التغييرات و تطورها .

2.3(La fonction Conative) :

... تحدد هذه الوظيفة العلاقات الموجودة بين البلاغ و بين المتلقي؛ و معلوم أن كل اتصال غايته رد فعل من طرف المستمع (المتلقي) يمكن ان يوجه الايعاز إما إلى ذهن المتلقي و إما إلى وظيفته، وهكذا نجد أنفسنا من جديد في هذا المستوى أمام التمييز بين التجريدي الذاتي من جهة و الإدراكي العاطفي من جهة ثانية؛ هي إذن مواجهة

(5246/1)

بين الوظيفة المرجعية و الوظيفة التأثيرية.

2.4– الوظيفة الشاعرية أو الجمالية (Fontion poétique ou esthétique) :

... تحدد هذه الوظيفة حسب R .Jakobson بأنها العلاقة بين البلاغ و بين البلاغ نفسه .

... ففي الفنون المرجع هو البلاغ الذي يتخلى عن دوره كجزء من آلة الاتصال ليصبح الموضوع نفسه.

... و هكذا تخلق الفنون و الآداب بلاغات المواضيع التي بصفتها هي نفسها مواضيع للاتصال تحمل من خلال الدلائل المباشرة التي تحتوي عليها " دلالتها " منتسبة إلى دلائلية خاصة أسلوبية. هذه الوظيفة هي التي تميز الأسلوب

(5247/1)

الأدبي البليغ عن سائر استعمالات اللغة.

... فالفقهاء مثلا يؤكدون أن أحد عناصر إعجاز القرآن الكريم هو إخراج البلاغ القرآني (الآية الكريمة) أي اللغة (إذا سمح لنا أن نتجاوز قليلا) من عالمها المألوف إلى حيز الإبداع الذي يسم الكلمة بجمال فريد.والقارئ أو السامع لها يقف متأملا أمام الحرف و موسيقاه، الكلمة و جرسها و العبارة و نسقها قبل أن يعي معناها أو يفقه محتواه(1).

5.2 – **الوظيفة التنبيهية** (fonction fatique) :

---

(1) – « **وظائف اللغة" بسام بركات، "المجلة العلربية" رجب** 1403**ه صفحة** 61.

(5248/1)

... غاية الوظيفة هو تأكيد أو تقوية أو الاحتفاظ بالاتصال أو إيقافه يشير R. Jakobson **بواسطة هذه الوظيفة إلى الدلائل التي بواسطتها يكون الاتصال قائما ممتدا أو مقطوعا أو حتى التحقق من أن الاتصال مازال قائما : (فهمت ؟ اتسمعني). هذا التأكيد على الاتصال هو الذي يسمى بالوظيفة التنبيهية و يمكن أن يكون سببا في تبادل بعض العبارات الضبابية الغامضة، بل إلى حوار كامل غايته الوحيدة تمطيط مكالمة.**

... إن هذه الوظيفة لتلعب دورا كبيرا في جميع أنواع الاتصال الرسمي، أو خطاب أمام تجمع، مكالمة عائلية أو غرامية لا

(5249/1)

سيما حين يكون محتوى الاتصال أقل أهمية من البرهنة على الحضور و التأكيد على الاندماج في المجموع.

... إننا هنا نكرر نفس الألفاظ، نعيد نفس الحركات، نشغل أنفسنا بنفس القصص مما يجعل الاتصال غير مفيد بل مملا لا يكف بالنسبة للأجنبي عن الحديث و لكنه مريحا بالنسبة للذي يشترك

في الاتصال، إنه يجد عنتا في أن يوفق البلاغ لأن ذلك يعني أنه ينعدم.

... إن مرجع الوظيفة التنبيهية هو الاتصال نفسه كما أن مرجع الوظيفة الشاعرية هو البلاغ ذاته في حين يكون المرجع بالنسبة للوظيفة التأثيرية الباث نفسه.

(5250/1)

---

3 –خصائص اللغة العربية المرتبطة بوظائف اللغة

... نلاحظ حين نعود لترسمة عملية الاتصال أن بها ستة عناصر.

– العنصر الأول هو : " المرجع "، يمكن أن نقرب فكرة المرجع هذا إلى الأذهان بأن نقول : إنه الموضوع الذي ينصب حوله الحديث أو إذا أردنا الفكرة الكبرى أو الصغرى التي تناقش .

... و لا شك أن اللغة العربية التي نشتغل بها الآن بصفتنا مهتمين بكل ماله مساس بالدراسات الإسلامية هي بالدرجة الأولى لغة القرآن و لغة الحديث الشريف ثم الأدبيات التي أنجزت حولهما وهي أدبيات يكاد لا يحصرها العد.

(5251/1)

... هذا المرجع مقدس و لا يمكن بحال من الأحوال الطعن فيه، أو النقص من قيمته، سواء منه ما علمناه فأدركنا مقصده كاملا، أو ما غاب عنا منه شيئ، و انفرد الباث بعلمه دون سواه أو علمناه بواسطة نص آخر.

... و معلون أن ما علمناه منه أو على الأصح ما علمناه منهما (قرآن كريم وحديث شريف) هو ما يعرف عندنا ب " المحكم "، و المحكم – في نظرنا – ما كان قائما بنفسه لا يحتاج أن يرجع فيه إلى غيره كقوله تعالى :

{ ولم يكن له كفوا أحد } (1) أي لم يكن له مثلا أحد. فهذا علمناه دون ان نعود

---

(1) – الصورة 112 الغخلاص (الآية 4).

(5252/1)

لمعرفته إلى آيات أخر توضحه وكقوله تعالى : { و إني لغفار لمن تاب وآمن و عمل صالحا ثم اهتدى } (1) ، هذا لا يحتاج إلى أن نعود فيه لنعرفه إلى آيات أخر توضحه و تبينه . نحن نعلم أن من " تاب " من الشرك و " آمن " أي بعد الشرك " و عمل صالحا " صلى و صام مثلا " ثم اهتدى " مات على ذلك هذا كما نرى لا يحتاج لتحصيله إلى كبير مشقة.

... أما ما لم نعلمه – وهو الذي يعرف عندنا بالمتشابه . و المتشابه – في نظرنا أيضا – لا يقوم بنفسه بل نحتاج ليدرك إلى أن يرجع فيه إلى غيره. كقوله تعالى :

---

(1) –السورة 20 طه (الآية 82).

(5253/1)

(1) { إن الله يغفر الذنوب جميعا } هذا يرجع فيه إلى قوله تعالى : { و إني لغفار لمن تاب } و إلى قوله تعالى (2) {إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء و من يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما}.

... بل أن هذه الآية بالذات اشتملت على النوعين معا : الحكم المتفق عليه الذي لا اختلاف فيه بين الأمة؛ و إليه الإشارة بقوله تعالى في هذه الآية نفسها : { ويغفر مادون ذلك لمن يشاء}.

---

(1) –السورة 39 الزمر جزء من (الآية 35).

(2) –السورة الرابعة النساء (الآية 48).

(5254/1)

هذا المصطلحان المحكم و المتشابه مصطلحان أخذنا من قوله تعالى(1) : { هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب و أخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله و مايعلم تأويله إلا الله و الراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا و مايذكر إلا أولوا الألباب}.

... بقي بعد أن أعطينا مثالا عن المتشابه و المحكم في القرآن أن نعطي مثالا عن المتشابه و المحكم في الحديث .

---

(1) – السورة الثالثة آل عمران (الآية 7).

(5255/1)

... روى الشيخان البخاري و مسلم، رحمهما الله، عن أبي عبد الرحمان عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم –و الصادق المصدوق : " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون
علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذاك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح و يؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه و أجله و عمله و شقي أو سعيد فهو الله لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها و إن أحدكم ليعمل بعمل أهل

(5256/1)

النار حتى ما يكون بينه و بينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ".

... إن مراد هذا الحديث الشريف و الصحيح لا يمكن أن يدرك كما أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالرجوع فيه إلى غيره من الأحاديث الشريفة؛ ذلك أنه يصعب علينا ان نفهم كيف أن أحدنا يعمل بعمل أهل الجنة طيلة العمر الذي قد يكون طويلا ثم يدخل النار لأنه عمل بعمل أهلها في وقت قصير من آخر عمره ألا يحتسب له ما عمل من عمل صالح طيلة السنوات الطويلة التي مضت لا سيما و أن الحق سبحانه و تعالى يقول في أماكن مختلفة من

كتابه الكريم (1) : { ذلك بما قدمت أيديكم و أن الله ليس بظلام للعبيد }.

... و يبين ذلك بوضوح ما عليه من مزيد في فصلت فيقول(2) : { من عمل صالحا فلنفسه و من أساء فعليها و ما ربك بظلام للعبيد }.لا يمكن أبدا أن يضيع العمل الصالح كله بسبب عمل طالح قام به في مدة وجيزة جدا عبر عنها رسوب الله – صلى الله عليه

---

(1) –السورة الثالثة آل عمران (الأية 182) ونفس الأمر نقرأه في السورة الثامنة الأنفال (الآية 51) وفي سورة الحج (الآية 10)، لكن بالأفراد في الأيدي، أي « بما قدمت يداك".

(2) – السورة 44، فصلت (الآية 46).

وسلم – ب " ذراع ". و العكس صحيح، كيف يدخل الجنة من عمل بعمل أهل النار في

عمره المديد فقط لأنه عمل بعمل أهل الجنة و لما يبقى له إلا يسير من عمره في الدنيا.

... لا بد لنفهم هذا الحديث الشريف الفهم الدقيق من أن نعود إلى حديث آخر صحيح كذلك يوضحه و يبينه، هذا الحديث الذي يحتاج إلى غيره ليتضح هو متشابة سيوضحه وضوحا لا مزيدا عليه الحديث الشريف الذي يرويه لنا الإمام الحسن مسلم بن الحجاج القشيري

النيسابوري، يقول في كتاب القدر (1)

---

(1) – أخرجه البخاري في كتاب "الجهاد" ص. 235؛ وأخرجه مسلم في كتاب " الإيمان" ص. 179 وغيرهما.

(5259/1)

: " حدثنا قتيبة ابن سعيد، حدثنا يعقوب (يعني ابن عبد الرحمن القاري) عن أبي حازم عن سهل ابن سعد الساعدي، أن رسول الله – عز وجل –قال : " إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، و إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة ".

... الآن اتضح لنا الحديث الأول و الحمد لله، الناس في حكمهم بسبب علمهم القاصر و استحالة اطلاعهم على أسرار القلوب يخطئون، إنهم يرون الرجل ثم يعتقدون فيه الصلاح جراء ما يقوم به أمامهم من أعمال تظهر لهم صالحة فيحكمون عليه تبعا لما

(5260/1)

يبدو لهم من أمره وهو في الحقيقة غير ذلك. أما الحق سبحانه و تعالى فلا يظلم الناس مثقال ذرة .

... العنصر الثاني و الثالث : عملية الاتصال هما الباث و المتلقي أو المجيب و المجيب. هذان العنصران في عملية الاتصال عند العرب

بسيطان للغاية و لا يشكلان شيئا ذا بال، متكلم يتكلم سمته عملية الاتصال باث وآخر يستمع فهو بهذا متلق للكلام الذي يصدره الباث، فإذا ما أجاب أصبح باثا وصار الذي كان باثا متلق، لكن الأمر يختلف في عملية الاتصال الخاصة بالقرآن الكريم و الحديث الشريف.

(5261/1)

... عملية الاتصال هذه عندنا فيها باث هو الحق سبحانه وتعالى و متلق هو الرسول – صلى الله عليه وسلم –هذا بالنسبة للقرآن. أما بالنسبة للحديث فالباث هو الرسول – صلى الله عليه وسلم –و المتلقي هو الصحابي و من ورائه أفراد الأمة جمعاء.

... الأمر عندنا سيختلف و لا شك عما عندهم، لسبب بسيط وهو أن مكانة الباث و المتلقي سواء بالنسبة للقرآن أو بالنسبة للحديث الشريف مكانة رفيعة لا تدرك، ومن هنا سيكون التباين و ستكتسب عملية الاتصال الإسلامية جمالا لا يوصف تظهر به ومن خلاله الخصائص الرفيعة للغة العربية.

(5262/1)

... اعتقد أنه ليتضح هذا الأمر جليا لابد من إعطاء مثال أو مثالين، و سنقتصر هنا على ما يتعلق بعنصري الباث و المتلقى، و لن نهتم، الآن على الأقل بالمسائل النحوية التي يمكن أن يثيرها المثال الذي سنتعرض له. قد نعود إليه في باب آخر إن اقتضى الحال. يقول الله

سبحانه و تعالى في كتابه الكريم(1) : { إنا أرسلناك بالحق بشيرا و نذيرا و لا تسئل عن أصحاب الجحيم}.

... لابد إذا أردنا أن تتضح لنا مكانة الباث و المتلقى جليا من استعراض القراءات الموجودة في هذه الآية. في هذه

---

(1) – السورة الثالثة البقرة (الآية 119).

(5263/1)

الآية قراءاتان متواترتان قراءة الفعل المضارع " تسئل " بضم التاء وهي قراءة الجماعة و بعبارة أدق قراءة القراء جميعهم (1)

---

(1) –لا تعتبر نحن هنا في بحثنا القراءت المتواترة إلا سبعا وهو مذهب الإمامين أبي سعيد عثمان الداني (ت 444ه) والقاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الشاطبي الرعيني الأندلس (ت 590ه) وهو المذهب الذي درج عليه المغاربة منذ منتصف القرن الخامس الهجري وما زالوا عليه وأنا ضمن هؤلاء المغاربة مع التنبيه إلى القراءات الثلاثة للعشرة أو القراءات الأربعة عشر لا تخرج في شيء قل أو كثر عما في القراءات السبع، فمن قرأ بالعشرة أو حتى بالأربعة عشر ما أضاف شيئا ومن اقتصر على السبعة متا نقص من القرآن المنقول بالتواتر شيئا.

(5264/1)

إلانافعا، وسنعود إلى هذه القراءة، قراءة الرفع حين نتعرض لموضوع : " اللغة و النحو في القرآن الكريم ".

...

... أما القراءة الثانية فهي قراءة " تسئل " بفتح وجزم الام. ولقراءة نافع هذه أوجه ثلاثة، أرى أن أورد هاهنا لعلاقتها الشديدة بما نحن بصدده و لأنها توضح بشكل بديع مكانة الباث (المرسل) و المتلقى(المرسل إليه) في عملية الاتصال الإسلامية زيادة على إبرازها لخصائص اللغة العربية و قدرتها على تلوين الخطاب ليكون ملائما للمراد المبتغى ابلاغه للناس:

(5265/1)

... الوجه الأول : إن الله تبارك وتعالى لا يرى في السؤال عمن عصى و كفر من الأحياء فائدة إذ قد يتغير حاله فينتقل عن الكفر إلى الإيمان وعن المعصية إلى الطاعة، يقول الإمام أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي

(ت 437 هـ) مبعدا أن يكون في الآية نهي : و لو كان نهيا لكان بالفاء، كما تقول : " أعطيتك مالا فلا تسأل غيره " (1) .

---

(1) – "الكشف عن وجوه القراءات وعللها وحججها" ج 1، صفحة 262، طبعة القاهرة سنة 1394ه (1974م).

(5266/1)

... ما جاز هذا في هذا المثال إلا لأن إعطاء المال هو علة لئلا يسأل غيره أما هنا في الآية التي نتحدث عنها فلم تكن أبدا الرسالة بالبشارة علة لئلا يسأل عن أصحاب الجحيم يقول له ربه لماذا تشغل نفسك بالكفار ءامنوا

أم لم يومنوا إن ذلك ليس لك { إن عليك إلا البلاغ }(1)

---

(1) 34 – السورة 42 الشورى جزء من (الآية 48)، وهي بتمامها : { فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيضا إن عليك البلاغ وإنا إن أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور}. والآية موضحة أشد ما يكون التوضيح ما سجب أن يفعله الرسول الكريم صلوات الله عليه مع المغرضين وهو ما تؤكده الأية 82 من السورة النحل والآية 54 من النور والآية 18 من سورة العنكبوت والآية 12 من سورة التغابن.

(5267/1)

. وفي ذلك تخفيف عليه مما كان يجده من عناد الكفار و تعنتهم. فكأنه قال له : لست مسؤولا عنهم. فلايحزنك كفرهم، و في هذا دليل على أن أحد لا يسأل عن ذنب أحد.

... الوجه الثاني : في قراءة نافع رضي الله عنه نهي عن السؤال عمن مات على كفره و معصيته. لقد روي أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سأل : " ليت شعري ما فعل أبواي " (1)

---

(1) – روي هذا الخبر ابن عباس ومحمد بن كعب القرطبي (انظر الاستئناس فق وإلا فطرق تحرير الحديث غير هذه) "تفسير القرآن

العظيم" لأبي الفداء القرشي بن كثير الدمشقي، ج1 ، ص. 167
وكذا " الجامع لأحكام القرآن" لأبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي، ج2، ص. 92.

(5268/1)

أو أنه قال عليه الصلاة و السلام : " أي أبويه أحدث موتا " فنزل النهي عن السؤال عنهما. فول النهي على صحة الجزم.

... الوجه الثالث : قد يكون جزمها (أي جزم و لا تسأل) على تعظيم الأمر، أي لا تسأل يا محمد عنهم فقد بلغوا غاية العذاب التي ليس بعدها مستزاد.
... ووجه التعظيم إما أن يكون بسبب أن الباث (المرسل المخاطب) وهو هنا الحق سبحانه وتعالى الذي لا يريد – بفضله و كرمه – أن يجرى في كلامه ما فيه قساوة و غلظة شديدتين على مسامع حبيبه محمد – صلى الله عليه وسلم – رغم أن

(5269/1)

الأمر يتعلق بأهل النار، و إما أن يكون بسبب المتلقي (المرسل إليه ، المخاطب) وهو هنا الرسول الكريم صلوات الله و سلامه عليه، الذي لا يقدر، لما جبل عليه من خلق حسن – أن يسمع خبر أهل الجحيم لما فيه من إيحاش للسمع واضجار له، و الله أعلم بالمراد يقول أبو حيان الغرناطي (1) : " فيكون معنى التعظيم إما بالنسبة للمجيب

و إما بالنسبة إلى المجاب، و لا يراد بذلك حقيقة النهي " .

---

(1) – "البحر المحيط" لأثير الدين أبي عبد لله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي (ت 745ه) الجزء الأول صفحة 368 السطر 14.

(5270/1)

... العنصر الرابع في عملية الاتصال : العنصر الرابع في عملية الاتصال هو " القناة " كما رأينا. و لا بد لتقوم عملية الخطاب بوظيفتها كما يجب أن تكون القناة " موصلة " للبلاغ بشكل من الأشكال، أي لا بد أن يسمع المتلقي ما يقوله الباث و أن يسمع الباث ما يرد به المتلقي و لا يكون في السماع ما يشوشه أو يعكره.

... هذا بالنسبة لعملية الاتصال بين الناس أما عملية الاتصال في القرآن الكريم فتمتاز بخصائص متميزة نذكر بعضها الذي يدخل في ميدان اهتمامنا .

(5271/1)

... أ – يتلقى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –الوحي عن ربه، فما هي ياترى القناة هنا ؟ لنستمع إلى ما ترويه مولاتنا عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ليتضح لنا الأمر.

... يروي الإمام مسلم بن الحجاج فيقول (1) : " حدثني أبو طاهر أحمد

بن عمرو بن عبد الله بن عمرو ابن سرح .اخبرنا ابن وهب. قال أخبرني يونس عن ابن شهاب. قال : حدثني عروة ابن الزبير، أن عائشة زوج النبي – صلى الله عليه وسلم –أخبرته ، أنها قالت : كان أول ما

---

(1) – صحيح مسلم "كتاب الإيمان" باب بدء الوحي إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رقم73 .

(5272/1)

بدئ به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الوحي الصادقة في النوم. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء(1) .فكان يخلو بغار حراء (2) يتحنث فيه (وهو التعبد) الليالي أولات العدد(3)

---

(1) – قال أبو سفيان الخطابي "حببت العزلة إليه – صلى الله عليه وسلم – لأن معها فراغ القلب وهي معينة على التفكير وبها ينقطع عن مألوفات البشر ويتخشع قلبه.

(2) –هو جبل يبعد عن مكة بحوالي ثلاثة أميال عن يسار الذاهب من مكة إلى منى.

(3) –الليالي أولات العدد متعلقة بـ"يتحنث" لا بـ" يتعبد" ومعناه يتحنث الليالي. ليجعل متعلقا بالتعبد فسد المعنى لأن التعبد لا يشترط فيه الليالي (مقتبس من "ملخص شرح النووي).

(5273/1)

، قبل أن يرجع إلى أهله و يتزود لذلك الحديث .

... نستنتج إذن من هذا الحديث أن " القناة " هنا هي الرؤيا الصادقة. و معلوم أن رؤيا الأنبياء حق إذا رأوا في المنام شيئا فعلوه لأن رؤيا الأنبياء عليهم الصلاة و السلام وحي. و لتندبر قوله تعالى (1) : { فلما بلغ معه السعي قال يابني إني أرى في المنام إني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تومر ستجدني إن شاء الله من الصابرين }.

---

(1) – السورة 37 – الصادقات، (الآية 102). 73

(5274/1)

... و قد تكون القناة أحيانا على شكل " صلصة الجرس " (1) يروي لنا الإمام مسلم حديثا شريفا يوضح لنا هذه القناة، فيقول (2) : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا سفيان بن عيينة وحدثنا أبو كريب

---

(1) –" الصلصة" الصوت المتدارك الذي يسمعه السامع ولا يثبته أول ما يقرعه سمعه حتى يفهمه من بعد ذلك

(2) – صحيح البخاري « بدأ الخلق »، ص. 7؛ وصحيح مسلم ، « فضائل » ص. 87؛ و « سنن الترميذي من قاب »، ص. 7؛ و « سنن النسائي افتتاح »، ص. 37؛ و « موطأ الإمام مالك » قران ، ص. 7؛ و « مسند أحمد بن حنبل في ثلاثة أماكن متفرقة » .

(5275/1)

حدثنا أبو أسامة وابن بشر جميعا عن هشام عن أبيه عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل النبي – صلى الله عليه وسلم – : كيف يأتيك الوحي؟ فقال :

أحيانا يأتيني في مثل صلصلة الجرس و هو أشده علي ثم يفصم عني (1) و قد وعيته. و أحيانا يأتيني ملك في صورة الرجل، فأعي ما يقول.

... في هذا الحديث قناتان. يمكن أن نسمي القناة الأولى بـ " صلصلة الجرس " و نسمي الثانية طريق ملك في صورة رجل. وهو – صلى الله عليه وسلم – يقول وهو الصادق المصدوق عما يتوصل به عن طريق القناة الأولى :

(1) – " يفصم عني" أي يقلع وينجلي ما يغشاني منه .

(5276/1)

" ثم يفصم

عني و قد وعيته " حتى لا يظن ظان أن صلصلة الجرس قد تمنع فهم مايأتيه من الحق سبحانه بل أنه يعيه كامل الوعي ويقول عما يأتيه بواسطة القناة الثانية : " فأعي ما يقول " حتي لا يظن ظان أن الملك حين جاءه على صورة رجل قد يكلمه بلغة لا يدركها، فيخبرنا أنه وعى عنه كل ما قال .

... العنصر الخامس عملية الإتصال: هذا العنصر هو : "الرمز أو إذا أردتم القواعد التي تتحكم في البلاغ، وهي قواعد لابد أن تكون

معروفة من الباث والمتلقي معا فإن لم تكن كذلك ما كانت عملية الإتصال ولا تحقق من ورائهما شيء .

(5277/1)

... ومعلوم أن القواعد التي تتحكم في عملية الإتصال عندنا هي قواعد اللغة العربية وهي قواعد سنتحدث عنها في موضوع، اللغة العربية والنحو في القرآن الكريم.

...

... لعنصر السادس والأخير في عملية الإتصال : هذا العنصر هو " البلاغ " ومعلوم أن البلاغ الذي يهمنا نحن الآن بصفتنا مشتغلين بالدرس الإسلامي هو لقرأن الكريم وحديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

... 4 –الخصائص العامة للغة العربية :

... الخصائص التي تميز اللغة كثيرة منها خصائص عامة تميز هذه اللغة حيث استعملت ومنها خصائص خاصة سنهتم بما يتعلق منها

(5278/1)

بالقرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف.

... الخاصية الأولى للغة العربية : اللغة العربية ثلاثية بالدرجة الأولى :

... أنها ثلاثية بالدرجة الأولى، وهم من أجل هذا اختاروا لوصفها الوزن " فعل " بمعنى أن معظم كلمات اللغة العربية قابلة لتكون

موزونة بهذا الوزن ذي الحروف الصامتة إلى درجة أن أصبح الحرف الأول يعرف بـ
" فاء الكلمة " إشارة إلى الحرف الأول في الوزن بقطع النظر عن الحركة التي يمكن أن تكون مصاحبة له ويعرف الحرف الثاني بعين الكلمة إشارة إلى العين في الوزن ويعرف الحرف الثالث في الكلمة أيا كانت

(5279/1)

بلامها، لا يعبأون بحركات هذه الحروف لأن اللغة العربية تعتمد اعتمادا كبيرا على الصوامت (الحروف) لا على الصائتان (الحركات).

... إن هذا ليدل عندهم على أن للكلمة معنى رئيسي تعبر عنه الصوامت (الحروف) أما الصائتان
(الحركات) فإنها تقوم بوظيفة أخرى وهي أنها تحور هذا المعنى وتعدله وتلونه في بعض الأحيان إلى ما شاء لها التلوين.
... بل أن بعضهم بالغ في ذلك إلى درجة أن أعطى لكل حرف معنى يلازمه و اصبح يفسر اللغة انطلاقا من مزج حروفها، وعلى رأس هؤلاء اللغوي ابن فارس الذي وضع معجما حاول إخضاع اللغة فيه

(5280/1)

لهذا المنحى فصار يستخرج معنى الكلمة من مزج حروفها، فيقول مثلا إن أصل معنى" قط " (أي حين يجتمع القاف مع الطاء) هو القطع

و أن معنى قطف هو القطع بلين و أن قطب هو القطع بلين شديد إلى آخره، وهو أمر لا يمكن أن يكون مقبولا لأن لو كان الأمر كذلك ما اختلفت اللغات.

... الخاصية الثانية للغة العربية : صيغ الفصل الحاصرة للأزمنة :

... إن اللغة العربية على الأقل في الصيغ الفعلية لا تهتم بالأزمنة الثلاثة الرئيسية المعروفة الماضي و الحاضر

(5281/1)

و المستقبل فضلا عن اهتمامها بفروعه. لم تهتم بهذا الأمر اهتماما كبيرا لأنها فضلت أن تهتم عوض ذلك بالحدث المنتهى و الحدث الذي لم ينته بعد وهذا الاهتمام بهذا الشكل هو الذي جعلها تقتصر على صيغتين للفعل: الماضي للحدث المنتهي و المضارع للحدث الذي لم ينته بعد. لا يدل قولنا هذا على أن العربية قاصرة عن التعبير عن الأزمنة الموجودة عند أقوام يتكلمون بلغات أخرى، إنها قادرة عن التعبير عن كل الأزمنة الموجودة عند أقوام يتكلمون بلغات أخرى، إنها قادرة عن التعبير عن كل الأزمنة ولكنها حرصا منها على الإيجاز الذي

(5282/1)

تمتاز به كما سنوضحه تقتصر على صيغتين فعليتين فقط ولكن بواسطة أدوات تحدد الزمن الذي تريد.

... إنها بصيغة واحدة وهو المضارع تستطيع أن تعبر عن الأزمنة

الثلاثة، لنأخذ مثلا فعل " كتب " فإن أردنا أن نعبر به عن الماضي قلنا :

... كان يكتب حين وصلت

... و إن أردنا أن نعبر عن المستقبل قلنا مثلا :

... سأكتب حين تحضرني فكرة.

... فإن أردنا أن نعبر عن الحال قلنا مثلا :

... أكتب وأنا مطمئن.

... وهناك أدوات تجعل الفعل المضارع دالا على المستقبل مثل " لن " أو على الماضي مثل " لم " أو على الحال مثل " لا "

(5283/1)

... الخاصية الثالثة للغة العربية : كُرهُ اللبس :

... إنها تكره اللبس و تفر منه كما يفر الرجل السليم من المجدوم، إنها، مثلا تصوغ قاعدة و تريد أن تجعلها مطبقة على كل حال لا تقبل شذوذا لكن إن أدى تطبيقها إلى لبس يفسد الاتصال بين الناس و يحول بين الفهم و الافهام خالفوا تلك القاعدة التي أرادوها مطردة و أصبح تطبيق عكسها وهو القاعدة، لأن الذي يرمون إليه بلغتهم هو التواصل في وضوح، لنوضح هذا الأمر بمثال، يقولون إذا تحركت الواو و الياء و انفتح ما قبله قلبتا ألفا بمعنى أنه كلما توفر في لفظة ما الشرطان :

(5284/1)

... أ – تحرك الواو و الياء.

... ب – انفتاح ما قبلهما.

... إلا و انقلبتا ألفا، وهكذا قالوا في " قول" : و في " بيع " باع ، لأن الشرطين متوفران فيهما، لكن إن قلت : الحاك في " الحيك لقالوا لك إنك مخطئ، لأنهم عندما طبقوا القاعدة التبس عليهم بين الحياكة و الذي يحكي الحكايات."

... الخاصية الرابعة للغة العربية : إنها مولعة بالإيجاز.

... ومعلوم أن الكلام لا يكون قويا إلا إذا كان موجزا بطبعه. إن البلاغيين العرب ليعدون هذا الإيجاز المقياس الحق لبلاغة الكلام.

(5285/1)

... أحب، في هذا المضمار أن أروي حكاية وقعت لأصحاب الكندي، تدل دلالة قاطعة على أن القرآن وهو باللغة العربية مولع بالإيجاز الذي أعطاه هذه القوة التي لا تضاها و رفع بلاغته إلى درجة استحال إدراكها.

... حكى النقاس أن أصحاب الكندي قالوا له : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال : نعم ! عمل مثل بعضه فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدرو لا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو نطق بالوفاء و نهي عن النكث وحلل تحليلا عاما ثم استثنى استثناء بعد استثناء ثم أخبر عن

(5286/1)

قدرته وحكمته في سطرين، و لا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا في إجلال.

... يقصد الفيلسوف الكندي بالسطرين من سورة المائدة الآية الأولى منها (1) وهي قوله تعالى : { يأيها الذين ءامنوا أوفوا بالعقود أحلت لكن بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد و أنتم حرم إن الله يحكم ما يريد}.

---

(1) – هي الآية الأولى في العدد الكوفي الذي لا يعد قوله تعالى { ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود}(الآية 1)أما علماء العد الآخرون هم علماء العد المدني الأول والثاني، ومكة وبصرة والشامي بفرعيها الدمشقي والمعي فآيتان .

(5287/1)

... كيف نفهم حكم الكندي على إيجاز هذه الآية : قال:

... ماذا هو (يقصد الحق سبحانه وتعالى) نطق بالوفاء و نهي عن النكث :

و إليه الإشارة بقول الله تعالى : { يأيها الذين ءامنوا أوفوا بالعقود }. ثم قال الكندي : حلل تحليلا عاما.

... و إليه الإشارة بقوله : { احلت لكم بهيمة الأنعام}.

... ثم قال فيلسوفنا : ثم استثنى استثناء بعد استثناء.

... و إليه الإشارة بقول الله تعالى : {إلا ما يتللى عليكم غير محلي

الصيد و أنتم حرم } ثم قال الكندي أخيرا : ثم أخبر عن قدرته وحكمته.

(5288/1)

... و إليه الإشارة بقوله تعالى : { إن الله يحكم ما يريد}.

... قد توجز اللغة العربية إيجازا كبيرا و لكنها لا بد أن يكون في هذا الإيجاز البليغ ما يشير بإشارة خفيفة و لبيبة إلى ما لم يذكر وهذا في الأدب العربي كثير جدا (شعره و نثره) و في القرآن و الحديث أكثر.

... وأعتقد أنه يكفي أن نمثل لهذا بمثال أو مثالين ليتضح الأمر جليا إن شاء الله، يقول الله تبارك و تعالى(1) : { قد كان لكم ءاية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ترونهم مثليهم رأي العين

---

(1) –السورة الثالثة آل عمران (الآية 13).

(5289/1)

و الله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار}.

... وبما أن مراد الله لا يكتمل إلا بالقراءات المتواترة كلها و لا سيما ما يتعلق بالفرش منها فإن معنى الآية باعتبار القراءتين "

ترونهم " التي يقرأ بها الإمام نافع و " يرونهم " التي يقرأ بها الآخرون معنى الكلام سيكون : قد كان يا معشر اليهود آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله و هم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – و أصحابه ببدر و أخرى
كافرة وهو مشركون ترونهم أنتم اليهود المسلمين مثلي ما أنتم عليه من العدد و يرونهم (أي المسلمون يرون

(5290/1)

أنفسهم مثلي ما أنتم عليه).

... من شأن هذا الإيجاز الذي فهم معناه الفئتان أن يحط من عزائم المشركين و يقوي إرادة المومنين.
... ونلاحظ ثنيا أن الفئة المذكورة أولا لم توصف بلفظ في حين أن الفئة الثانية متبوعة بوصفها.
... ثم نلاحظ ثانيا أنه إذا كان الحذف مس الشطر الأول من المقطع و لم يمس شطره الثاني في أمر وصف الفئتين بملزوم الجهاد وهو الإيمان المسكوت عنه بالنسبة للفئة الأولى فإنه ذكر ملزوم الدفاع عن الضلال وهو الكفر بالنسبة للفئة الثانية.

(5291/1)

... لقد عكس الأمر ليقع التوازن بين شطري المقطع، فإثبت في الشطر الأول المحذوف منه الملزوم لازم الإيمان و هو القتال في

سبيل الله وحذف من الشطر الثاني لازم الكفر وهو القتال في سبيل الشيطان ذاكرا فقط ملزومه.

(5292/1)

اللغويات التاريخية والتاريخ اللغوي

الأستاذ محمد الأوراغي

كلية الآداب – الرباط

0. تقديم

... ... اقتران لفظة التاريخ باللغة له معنيان، لأحدهما يستعمل التاريخ اللغوي، وهو الذي يتناول كل دراسة توسل اللغة، وتتخذها ذريعة لاقتناص المعرفة بوقائع غير لغوية، وللآخر راسمة اللغويات التاريخية، التي تصدق على أعمال تعالج اللغة ذاتها بوصفها موضوعا للتحليل التاريخي. غايتنا من التقديم تحليل هذين المعنيين بالقدر الموضح لأوجه الإئتلاف والاختلاف بينهما.

(5293/1)

... ... يستند التاريخ اللغوي إلى مقدمة تقول : للغة بنية غيرها ، وغيرها ذهن بشري أو واقع خارجي، لكن إسناد الطابع المرآتي إلى اللغة يغري الكثير من فروع المعرفة على توسيل اللغة إلى غيرها، وهو ما يدفعنا إلى ضرورة سبر أقسام هذا المعنى وإقصاء غير المناسب لأحد المتراكبين في راسمة (التاريخ اللغوي).

... ... من جملة ما يستبعد مناسبته للمفهوم من اللغة نذكر مختلف الأعمال المتميزة باستثمار قواعد اللغة في تحليل مضامين

الأقاويل المدونة وغيرها من الرموز الدالة. لأن أي عمل من هذا القبيل ينتمي إلى حقل معرفي

(5294/1)

ينفرد موضوع، يمكن أن يستعين بقواعد اللغة في دراسته أو بغيرها من وسائله المنهجية. وما كان كذلك ليس من التاريخ اللغوي في شيء. أما المستبعد لعدم مناسبته للمفهوم من التاريخ فينحصر في مختلف الدراسات اللغوية التي تروم الكشف عن الثابت الذي لا يتغير من القوانين المنتمية إلى غير اللغة، أعمال من هذا القبيل تنتسب إلى اللغة، لأنها تتخذها موضوعا، لا إلى التاريخ لأنها تسعى إلى التمثيل لبينة لا تتحول،وبفقدها للشرط الأخير لا تدخل
في ما صدق التاريخ اللغوي.

(5295/1)

... ... ولتحرير العبارة بالمثال الموضح لما لم ينتسب إلى اللغة أو إلى التاريخ فلم يجز إنضاؤه إلى المركب منهما نذكر دراسات أدبية تلجأ أحيانا إلى مفاهيم لغوية وسميائية لتحليل أقاويل تشكل نصا فنيا أو غيره ، وأخرى نفسية توظف معطيات لغوية للكشف عن نمو نفسية الفرد. كربط ولادة اللغة لدى الطفل بتكون المسافة التي يتخذها من الواقع المعيش (1) . مثل هذه الدراسات قد تنتسب إلى التاريخ ،

---

(1) للتوسع في العلاقة بين ولادة اللغة ومفارقة الواقع لدى الطفل انظر الفصل الثاني من كتاب Anika L . Jacques Lacan , p . 99.

(5296/1)

لأنها تتناول مثله موضوعا متجولا متبدلا و إن اختلفت طبيعة المتحول في كليهما ، لكنها لا تنتسب إلى اللغة . وبعكس ذلك " فلسفة اللغة العادية " (1)

---

(1) رائد هذه المدرسة أستين ورسول ، في صف منهجية الأول مقدمة كتابه : Quand dire c'est faire ما مفاده " لأستين منهجية ، بل وسيلة لإدرك الوقائع والظواهر ، أو تجربتنا الواقعية إنه يطرق اللواقع من جهة اللغة العادية ... فلسفة ترمي من وراء تناول اللغة دراسة الواقع . وردد الثاني في مواضع غير قليلة من كتاب Les Actes du Langage أن موضوع فلسفة اللغة الواقع ومنهجيتها اللغة "

(5297/1)

، التي تتخذ من دراسة اللغة العادية وسيلة لإدراك ظواهر الواقع ، ومثلها " الأنحاء الفلسفية " على اختلاف صورها المتلاحقة المتشكلة حاليا في نموذج التوليدي التحويلي ، إذ لم يتردد شومسكي صاحب النموذج في اعتبار نحوه بديلا للإحيائيا فرعها الذري المتخصص بدراسة البنية العضوية للذهن البشري ، لأنه يعتقد أن " بنية اللغة تعكس بدقة متناهية العقل حتى صار علم اللغة لا يختلف في

شيء عن علم العقل ، أي العلم الذي يدرس طبيعة العقل البشري وإوالياته . فكان النحو بداية لتحليل طرق العقل " (1)

---

(1) مثل الكلام المثبت أعلاه يتكرر في أغلب كتب شومسكي الكثيرة . يكفي القارئ غير المختص كتابه La l'in guistique cartésienne لتكوين فكرة واضحة عن الأمحاء الفلسفية .

(5298/1)

. مثل هذه الأعمال تنتسب إلى اللغة ، لأنها تدرس بنيتها ، لا إلى التاريخ لأنها تتوخى من المدروس الثمتيل لقوانين و أبنية قارة لا تتبدل .

... ... بإقصاء ما سرد من أقسام المعاني المحتملة لم يبق للتاريخ اللغوي سوى الدراسات التي تتخذ من بنية اللغة موضوعا ، ومن الكشف عن تعاقب أطوار الناطقين بها هدفا . إذن كل عمل توسل بدراسة اللغة إلى تحديد الأطوار الكسبية المتعاقبة على الناطقين باللغة المدروسة وجب انضواؤه إلى التاريخ اللغوي كما سيتضح بأمثلة في مبحثه .

... ...

(5299/1)

... ... أما اللغويات التاريخية فهي متميزة من جهة عن التاريخ اللغوي باعتبارها تتخذ اللغة موضوعا وهدفا للدراسة ، ومن جهة أخرى عن اللغويات المسرحية من أي وصف بحكم أن هذه الأخيرة

تسكن اللغة عن طريق التجريد ، وتفصلها بذلك عن عوامل التغيير ، بخلاف الأولى إذ تحافظ في اللغة على تفاعل بنيتها مع العوامل المتحكمة في تغييرها ، وهي في ذلك تستند إلى مقدمة مفادها أن الموضوع الذي يكون مادة التاريخ يمثل أفعالا بشرية محكومة بإرادة الإنسان وقدراته الذهنية (1)

---

(1) من خلال المقارنة بين دراسة تلاحقية diachronie و أخرى تزامنية syn chronie ، أثبت انكلر أن اللغة موضوع لتحليل تاريخي وليست موضوعا لتحليل مجرد ، للمزيد من التفصيل أنظر :R. Engler , . .

, dans La 141- 115L' apport de Genéve , pp .

linguistuque génétique , Histoire et théories .

(5300/1)

، واللغة ، بوصفها ملكة صناعية (1) ، تشكل مادة للتاريخ .

... ... مما تقدم يجب الاحتفاظ مرحليا بأن للغة بنية متغيرة ، و أن انتقالها عبر أطوار متلاحقة ينفلت للملاحظة ويصعب إدراكه وضبطه . لأن الدارسين للغة

---

(1) اعتبر ابن خلدون وغيره من المفكرين العرب " للغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة ... وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها " المقدمة ، ص 285 ، انظر أيضا الفارابي ، إحصاء العلوم ، ص 111 وكل صناعة فهي " ملكة نفسانية تصدر عنها أفعال إرادية بروية تنحو تماما مقصودا ، ابن سينا ، البرهان ص 192 .

(5301/1)

والمتكلمين بها لا يكونون عبر تاريخها الطويل سوى حلقة من سلسلة بحيث يشاهدون تلك الحلقة لا السلسلة (1) . أضف أن تبدل اللغة لا يحدث صدفة ، و إنما تحكمه مبادئ ثابتة ، لكن مبادئ تغير اللغات ليست ذاتية التأثير ، بل تحتاج إلى حفاز لتمارس مفعولها على اللغة . ومحرضها لا يخلو إما أن يكون المتكلم بها ، و إما أن يكون اللغوي الواصف لها . والفرق بينهما أن الأخير يعجل بالتغيير، عن طريق إلحاحه المستمر على

(1) راجع فيما أثبتناه أعلاه C. buridant , Définition de la diachronie , dans la Linguistique génétique .

(5302/1)

تحريض المبدأ المسؤول الذي يمكن من تهيئ بديل يعوض المقصود بالإقناء ، على هذا الأساس وجب أن تتفرع اللغويات التاريخية إلى فرعين : أحدهما يضم الدراسات التي تلاحق
أطاريح اللغويين الموجهة لتحاليلهم اللغوية باعتبارها صنفا من عوامل التحريض لمؤثرة في تطوير اللغة في أحد الإتجاهين (1)

(1) قديما تنبه إلى ما للغويين من تأثير في التعجيل بتغيير فقال في تحديد مهامهم بعدما وصف عدتهم المعرفية : فهؤلاء هم الذين يتأملون ألفاظ هذه الأمة ويصلحون المختل منها، ينظرون إلى ما كان النطق بع عسيرا في أول ما وضع فيسهلونه، وإلى ما كان بشيع المسموع فيجعلونه لذيذ المسموع... وينظرون إل أصناف التركيبات الممكنة في ألفاظهم، والترتيبات فيها،ويتأملون

أيها أكمل دلالة على تركيب المعاني في النفس وترتيبها ...فتصير عندها ألفاظ تلك الأمة أفصح مما كانت، فتصير عندها ألفاظ تلك الأمة أفصح مما كانت، فتكمل عند ذلك لغتهم ولسانهم، ثم يأخذ الناشئ هذه الاشياء عن السالف، كتاب الحروف، ص.144.

(5303/1)

. ويضم الفرع الآخر دراسات ترصد ما اختفى من اللغة وما ظهر بديلا لمنقرض وبأي المبادئ يمكن ربط كل تغيير محتمل يلحق أحد مستويات اللغة، كما سيتضح بأمثلة في المبحث الثاني من هذه الدراسة .

1– التاريخ اللغوي

... ... ينتمي إلى التاريخ اللغوي الدراسات المتميزة بالخاصيتين : 1) مقاربة بنية اللغة بمنهجية واردة من أجل ؛ 2) استصدار أحكام تخص أطوار الناطقين بها وأحوالهم المبتذلة. وهكذا يمكن أن يتوصل، باستعمال منهجية اللسانيات السلالية في الدراسة المقارنة بين مجموعة من اللغات، إلى إثبات القرابة العرقية بين

(5304/1)

الناطقين بها، وإرجاعهم، لحالجة في النفس، إلى أصل واحد ينحدرون منه انحدار لغاتهم من لغة أصل غابرة.

... ... ولعل ضمان الاستقرار للتوسع الإنجليزي في آسيا كان وراء اختلاق راسمة "اللغات الهند أروبية" في أواخر القرن الثامن عشر.

وتضم هذه المجموعة لغات، اعتبرها المستشرق الإنجليزي وليم جونسن تنحدر لقرابتها من أصل واحد غابر، وهي الإغريقية واللاتينية والسنسكريتية اللغة القديمة المقدسة في الهند (1) . ولا يستبعد أن يكون التحديد المسبق

---

(1) للمزيد من التفصيل الأول من كتاب J. Lyons , Linguistiques FGénérale.

(5305/1)

للهدف المراد تبريره بدراسة لغوية وراء التخلي المبكر عن اللسانيات السلالية. إذ سرعان ما أغرقت برواسم جديدة. من قبيل " النحو التاريخي" و "النحو المقارن" و "اللسانيات التلاحقية" (1) بل لم يعد أحد يطمئن إلى ثبوت القرابة بين لغات من خلال التشابه الصوتي والدلالي بين بعض الكلمات.

---

(1) لتحديد الفوارق بين بعض الرواسم أعلاه أنظر hritian peetrs, « Grammaire Histotique et Linguistique » dans La linguistique génétique, pp. 67–72.

(5306/1)

... ومن المحتمل أن يجعل ضمن أهداف المقارنة بين لغات في إطار نظرية للنحو الكلي إثبات علاقة تفاضلية بني أقوام. كأن تنعت لغة البعض بكونها طبيعية تشخص الصور الكلية للفكر البشري، منها تستنبط قواعد النحو الكلي التي تحكم الأنحاء الخاصة

باللغات الأخرى، والتي لم تذعن فهي شاذة غير طبيعية، تعكس الذهنية الغربية لأهلها الناطقين بها، ومثل هذه الأحكام المعيارية والاستخفافية تتردد بكثرة في أعمال النحاة التوليديين .

(5307/1)

... ... يدل على علاقة التفاضل بين أقوام وجود كلمات في لغات للتقليل من المتكلمين بغيرها، مثل (بربر) (1) التي تعنين في اللاتينية والإغريقية واللغات المنحدرة منهما، الأجنبي البدائي الذي يبين. ومثلها كمة (عجم ولا عرب) (2)

---

(1) للمزيد من التوضيح أنظر ص 24 من كتاب Eco Umberro, La recherche de la Langue Pzrfaite.

(2) علل ابن فارس إطلاق لفظة العرب على الناطقين بالعربية، ولفظة على الناطقين بغيرها فقال : "العجم الذين ليسوا من العرب ...كأنهم لم يفهموا عنهم سموهم عجما ...والعين والراء والباء أصول ثلاثة : أحدهما الإبانة والإفصاح ...فأما الأمة التي تسمى العرب فليس ببعيد أن يكون سميت غربا من هذا القياس، لأن لسانها أعرب الألسنة وبيانها أجود البيان".

(5308/1)

. فالأول يخلط في كلامه ولا يبين فلم يفهم عنه الثاني. أما في عربية الإسلام فقد صارت كلمة (عجم) تدل على غير المبين بأي

لغة تكلم، أو صمت، فيقال للصبي مادام لم يتكلم صبي أعجم ويقال صلاة النهار عجماء أي لا يجهر فيها بالقراءة، ذكره ابن فارس في معجمه أسفله.

... ... ويشهد أيضا لعلاقة المفاضلة تقارض اللغات المتفاوت أهلها رفعة. إذ تضطر أحيانا اللغات إلى التشقيق المتفاوت لبعض المعاني المعجمية. وفي هذه الحالة كل لغة تحتفظ بما لديها أصلا لمعنى شقيق تقترضه مع لفظته ومكانته من إحدى ضرائرها، أما موقع المعنى

(5309/1)

الشقيق بالمقارنة مع مكانة المعنى الأصل فتحددها علاقة التفاضل بين اللغتين المتقارضتين. إذ تحتل مرتبة عليا إذا كانت اللغة المقترضة في مرتبة دنيا، وتكون له مرتبة دنيا إذا كانت المقترضة في مرتبة عليا. يوضح المثال (1) في الطرة (1) أسفله علاقة التفاضل القائمة بين المعاني الأصول (أ) في اللغة الفرنسية ، والمعاني الشقائق (ب) المقترضة مع ألفاظها من العربية . يستعمل

---

(1) المتعاقبة (أ) في المثال (1) الأصول لفظا ومعنى للشقائق (ب) المفترضة.

1) **(أ)** ...Fort , Chef, Chien... .

(ب) .....Cadour, Caid, Clebs

(5310/1)

المتكلم بهذه

اللغة الألفاظ (أ) إخبارا عن حياده إزاء معانيها ، لكنه إذا قصد الحط من قيمها اضطر إلى استعمال شقائقها (ب) المقترضة من لغة تقع في مرتبة دون مكانة الفرنسية باعتبار الناطقين باللغتين .

... ... هذه العلاقة الترابية يمكن ملاحظتها أيضا بين فصيح اللغة الواحدة وعاميها . كأن يعدل متكلم عن اللفظة الفصيحة ليستعمل بدلها لفظة عامية إذا قصد التقليل من المعنى الأصل لتحقيق غرض التحقير ، وبعكس هذه العملية يحقق غرض التعظيم .

(5311/1)

... ... الكشف عن الطابع المميز للأمة في فترة من تاريخها هدف لكثير من الدراسات اللغوية. أوضح مثال يشخص هذا الصنف لغويات الفترة الرومانسية بألمانيا في أواخر القرن الثامن عشر . إذ نسب إلى هنبلت ، وهو رجل دولة و أشهر لغوي ألمانيا في الفترة الذكورة، دفاعه عن فرضية تقول بالارتباط الشديد والطابع القومي إلى درجة اختلاط العرق الآري باللغات الجرمانية . تنبيه لهذه الفرضية تركه يعتقد أن لكل لغة بنية خاصة تكيف تفكير أهلها، وتعكس أسلوبهم الخاص في العبارة (1)

---

(1) للتوسع في موضوع أنظر كتابي لاينس وشومسكي الآتيين

Lyons , Linguistique générale ; Chomsky , La linguistiqque cartésienne

(5312/1)

. عملا بهذا التوجه المتميز بالتحام اللغة بمستعمليها نجد الخليل في النص الآتي يتناول في خطاب واحد اتصاف العربية وأهلها بالحكمة. يقول : " إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها وقام في عقولها علله ، و إن لم ينقل ذلك عنها ، واعتللت أنا بما عندي أنه علة لما عللته منه : فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمست ، و إن تكن هناك علة له فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل دارا محكمة البناء ، عجيبة النظم والأقسام ، وقد صحت عنده حكمة بانيها ... فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال : إنما فعل

(5313/1)

هذا هكذا لعلة كذا و كذا ، ولسبب كذا وكذا " (1) . محتوى هذا المص يكشف عن الانطلاق من فرضية واحدة مفادها : إن إتقان اللغة أو اختلالها ليرتبطان ، بالتوالي ، بحكمة أهلها أو بعفويتهم ، وإذا اتضح التاريخ اللغوي موضوعا ومنهجية تعين المرور إلى تناول شريكه الموالي .

2 – اللغويات التاريخية

... ... سبق في التقديم أن ذكرنا أن هذا القسم من الممارسة المعرفية يتميز بخاصيته : أولا اتحاد ما يشكل حقل اللغة موضوعا للدراسة وهدفا ، فلا يتجاوزه طلبا

---

(1) انظر النص بكامله في كتاب الإيضاح في علل النحو للزجاجي ، ص 66 .

(5314/1)

لغيره . ثانيا التزام الحياد بالإمساك عن التدخل في الموضوع كاصطناع سكونه عن طريق تجريده ، وعزله عن العوامل التأثير في تغيره ، بإدماج الخاصتين نحصل على عبارة تقربنا أكثر من تصور دقيق لهذا الفرع ، فنقول ، اللغويات التاريخية : ممارسة معرفية تلاحق تغيير اللغة بنية ونحوا وترصد تطورهما في الاتجاهين .

... ... تقدم أيضا أن تحول اللغة أو تطورها لا يعزى إلى الصدفة ، وإنما يحصل بفعل عوامل تمارس تأثيرها بتحفيظ طبيعي من المتكلم أو اصطناعي من اللغوي ، وهو ما اقتضى تفريع هذا القسم إلى فرعين أحدهما يرصد أطارح

(5315/1)

اللغويين وتحاليلهم لمجموع الوقائع اللغوية التي تشكل نسقا وظيفيا ينتقل من حالة إلى أخرى عبر الزمان . نخص هذا الفرع من الدراسة باسم

" الملاسة " ، أما الصنف الآخر فإنه يتعقب كيفية انسلال نسق من سابق ، ويحدد المدرس من وقائع النسق مقرونا بعلة اختفائه وظهور بديله الذي يعوضه . هذا الفرع من اللغويات التاريخية نخصه باسم " الملاغاة " (1)

---

(1) الملاغاة ، ومعاودة واستمرار لمدلول الجذر (ل غ و) ، وتصدق

على كل دراسة تلاحق تطور الوققائع اللغوية عبر الزمان . وهمس المقابل العربي لراسمة Diachronie في محاضرات سوسر .

(5316/1)

.

1.2 – الملاسنة :

... ... ظهر أن الملاسنة فرع من اللغويات التاريخية ، يهتم بميلاد الأفكار المنتمية إلى علم اللغة، وبتحركها بين اللغويين عبر الزمان ، ويشمل ما كان من جهة اللغة متوحدا أو متغايرا: فتكون الملاسنة متوافقة إذا رصدت الدراسة متوافقة إذا رصدت الدراسة انتقال الأفكار وطرق المعالجة بين لغويين يشتركون في دراسة اللغة الواحدة ، وتكون متغايرة إذا وقع التركيز على تتبع هجرة الأفكار اللغوية وكيفيات المعالجة بين لغويين يفرقهم اهتمامهم بلغات مختلفة .

(5317/1)

... ... إذا وضعنا أسئلة من قبيل ،بأي لغوي تقترن مثلا فكرة التقسيم الثلاثي للكلم وهو يدرس أي لغة، و بأي القنوات صارت إلى غيره ممن درسوا لغات مختلفة ، وهل أصاب تعديل الفكرة في صياغتها الأصلية ، و بأي لغوي وهو يدرس أي لغة اقترن التعديل المدخل، فإن الأجوبة المقترحة لمثل هذه الأسئلة تشكل ملاسنة متغايرة ، لكن أسئلة من قبل بأي لغوي العربية يقترن التقسيم الثلاثي للكلم ، ومن منحا ة هذه اللغة تجاوز الرواية والنقل عن

السابق إلى فحص مقترحه ونقده دعما أو نقضا ، وعلى يد من صار المقترح السابق متجاوزا، وبأي

(5318/1)

أسلوب حصل التجاوز ، أعن طريق إدماجه في تصور أعم أم بالانتقال به إلى نمط آخر من التفكير في اللغة ، فإنها تنتمي وأجوبتها إلى ملاسنة متوافقة ، ولنختبر صدق الصنفين من الملاسنة بأمثلة تحقق في اللغويات التاريخية .

1.1.2 – الملاسنة المتغايرة :

... ... جاء في كتاب لاينس المذكور في الطرة (8) أن تحليل اللغات الأوروبيبة ظل إلى أواخر القرن التاسع عشر متأثرا ، بالنحو الذي وضعه بانيني للهندية ، خاصة في مجال الدراسة الصوتية والصرفية . إذ عنه أخذ لغويو أوروبا التصنيف المفصل لأصوات اللغة المؤسس على الملاحظة

(5319/1)

والتجربة ، كما أن الكثير من مظاهر لغويات القرن المذكور لتعكس بوضوح نظرية النحاة الهنود أو ممارستهم اللغوية . بل ذهب إلى أن مبادئ لبانيني ، كالإنسجام والعموم والاقتصاد ، ما زالت تبدو واضحة التأثير في أعمال لغوية حديثة .

... ... لكنه يغلب على التقليل من الأعمال التاريخية لعلم اللغة في أوروبا عدم التثبت في استخلاص النتائج ، وإطلاق الأحكام . إذا ركزنا على بعض الأفكار اللغوية المتناقلة بين ابلمفلد (1)

ولاينس امبرتو إيكو لأمكن إرجاع ما ذكر من

---

(1) انظر الفصل الأول من كتاب Leonarol bloofied ,Le Language

(5320/1)

النقص في التثبت إلى عدم التفريق بين ما هو (ضروري) في الملاسنة وما هو (وضعي) . لأنه يكفي أن يحصل تراكم معرفي في دراسة لغة معينة لكي تظهر مجموعة من المبادئ المنهجية المتماسكة . و إذا حصل مثل ذلك التراكم حول لغة أخرى أدى إلى نفس النتيجة و إن لم يحصل اتصال فاقتراض .

... ... يلزم عن المثبت في الفقرة السابقة أن كثرة الدارسين للغة المعينة تقود إلى ضرورة تفسير أوصافهم لها ، أو تعليل أحكامهم عليها ، ولا تفسر أو تعليل بغير الانطلاق من مبادئ عامة

(5321/1)

تحكم عددا معينا من الجزئيات ، (التعميم من المبادئ الضرورية التي لا يخلو منه حقل معرفي) . والعلل متصاعدة إلى فرضية العمل الأولي التي تعتبر مصدرا لاشتقاق ما دونها من المبرهنات المتنازلة ، ولا اشتقاق بغير مبدأ الانسجام الضروري لكل عمل معرفي . أما الاقتصاد في الجهد أو مبدأ الخفة فهو طبعي في الإنسان المجبول على التحرك نحو الأسهل كما عبر عنه الفارابي بقوله : " فتنهض نفسه إلى أن يعلم أو يفكر أو

يتصور أو يتخيل أو يتعقل كل من كان استعداده له بالفطرة أشد و أكثر ، فإن هذا هو الأسهل عليه

(5322/1)

"(1) . ولذلك لجأ نحاة العربية إلى مبدأ الخفة لتعليل الكثير من الظواهر المنتمية إلى مختلف مكونات اللغة ومستوياتها ، وسوف يطول الحديث بإيراد نماذج منه . (2)

---

(1) الفرابيي ، كتاب الحروف ، ص . 134 .

(2) استعمل ابن جني مبدأ الخفة في تعليل عدد كبير من الظواهر الظرفية . إذ به فسر إهمال ما أهمل من الألفاظ (الخصائص ج 1 ، ص 54) ، وامتناع تراكيب التصويتات المتولدة عن أبنية تتشكل في حيز واحد كالحلقيات (ابن جبي ، المرجع السابق ، وسر صناعة الإعراب ، ج 1 ، ص 75) ، وامتناع اجتماع ساكنين في الوصل (ابن جني ، المنصف ، ج 1 ص 10 . للاستزادة من النماذج المذكورة انظر محمد الأوراغي ، اكتساب اللغة في الفكر القديم ، ص . 141 .

(5323/1)

الأوراغي 2

... ... نخلص ما سبق إلى أن التأريخ لهجرة الأفكار اللغوية يجب ألا يدخل في الاعتبار المنتمي إلى الضروري . كالمبادئ التي نسبها لاينس إلى بانيني ، وعنه صارت إلى غيره من لغويي هذا العصر ، ومن قبيل الضروري المفسر بالواقع المنعكس في اللغة ، التقسيم

الثلاثي للكلم المعلل بالواقع في قولهم : " الكلمة جنس تحته هذه الأنواع الثلاثة لا غيره... ودليل الحصر أن المعاني ثلاثة : ذات ، وحدث ، ورابطة للحدث بالذات . فالذات الاسم ، والحدث الفعل ، والرابطة الحرف ... ولا يختص انحصار الكلمة في الأنواع الثلاثة

(5324/1)

بلغة العرب، لأن الدليل الذي دل على االانحصار عقلي ، والأمور العقلية لا تختلف باختلاف اللغات " (1) . معنى هذا أن كل من تأمل في اللغة باعتبارها نسقا رمزيا سينتهي لا محالة إلى ذكر للأقسام الثلاثة بصورة أو بأخرى . لذا لا يجوز أن يعزى التقسيم الثلاثي بصورة أو بأخرى . لذا لا يجوز أن يعزى التقسيم الثلاثي إلى لغوي بعينه ونقله إلى غيره المعاصر له أو المتأخر عنه .

... ... يلزم عما تقدم أن تنحصر الملاسنة المتغايرة في " الوضعيات " باعتبار هذه الراسمة تتناول كل ما يضعه

---

(1) ابن هشام ، شرح شذور الذهب ، ص . 21 .

(5325/1)

لساني من المفاهيم الإجرائية منتميا إلى نظرية معدة لوصف اللغة . يمكن توضيح هذا الصنف بمثال " العامل " بوصفه مفهوما إجرائيا ينتمي إلى فص يتولى ، داخل نظرية للنحو ، مهمة إسناد العلامات المعربة عن الأحوال التركيبية .

... ... ينشأ العامل عن قيام علاقة تركيبية بين عنصرين ، أحدهما

عامل يجلب الحالة فعلامتها للآخر القابل لهما ، وهو بهذا المعنى ينسب إلى سيبويه ، بحسب المتوفر من كتب النحو المنشورة وقد يرفعه مختص في تاريخ النحو العربي إلى أحد المتقدمين عليه (1)

---

(1) أرخ الكثير من المفكرين العرب العلماء ، كل في مجال تخصصه ، ولكنهم غفلوا عن التاريخ للعلوم ، فلم يهتموا برصد ميلاد الأفكار في حقل معين وملاحقة تنقلها بين المشتغلين داخله اهتمامهم برجالات العلم . أهمل التاريخ للغة العربية وعين بتسجيل الحياة الثقافية والاجتماعية لعلماءها ، ذكر الألباني النجاة متلاحقين من غير أن يحدد سهم كل واحد ، وصدر كتابه بأول من وضع شيئًا من النحو ،وهو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وختمه بذكر شيخه ابن الشجري . وجاء سيبويه حلقة في سلسلة النجاة إذ أخذ النحو " عن الخليل بن أحمد ، و أخذالخليل عن عيسى بن عمر ، وأخذه عيسى بن عمر عن بن أبي إسحاق ، و أخده بن أبي إسحاق عن ميمون الأقرن، و و أخده ميمون الأقرن، عن عنبة الفيل ، و أخذه عنبة الفيل عن أبي الأسود الدولي ، وأخده أبو الأسود عن أمير المومنين علي عليه السلام " أبو البركات الأنباري ، نزهة الألباب ، ص . 406 ، وللقفطي طريق آخر ، إذ دكر أن سيبويه أخذ عن الخليل عن أبي عمرو بن العلاء عن نصر بن عاصم عن أبي الأسود عن علي ، أنظر كتابه ، إنباه الرواة على أنباه النجاة ، ج . 1 ، ص . 6 ولم ينسب أحد مفهوم العامل إلى غير سيبويه ممن سبقه .

(5326/1)

وبهذا المعنى انتقل العامل ، عن طريق معربين كيوسف عون وغيره إلى نظرية العمل والربط لشومسكي(1)مع فارق لازم عن

اختلاف النحوين المترتب عن اختلاف اللغتين ، إذ يتحدث كل من سيبويه وشومسكي عن أحوال تركيبية واحدة كحالة الرفع وحالة النصب وحالة الجر (2) وبما أن

---

(1) انظر الفصل الثالث من كاتب شومسكي ، نظرية العمل والرابط ؛ Chomsky ,Théorie du gouvernement du liage ;p . 261 .

(2) انظر سيبويه ، الكتاب ، ج 1 ، ص 2 . ولما ذكر من الأحوال يستعمل شوسكي على التوالي cas nominatif , cas objectif , et cas oblique

(5327/1)

الأخير يصف لغة من النمط التركيبي سيضطر إلى الحديث عن مبدأ الجوار القاضي بأن يكون العمل رأس مركب عجزه معموله ، ولا يشترط ذلك سيبويه ، لاهتمامه بلغة من النمط التوليفي ، إلا في حالة الجر ، لأن الجار ومعموله مركب واحد . وإذا كان الفعل المتعدي في نحو سيبويه يجلب حالة الرفع للفاعل وحالة النصب للمفعول فإن هذا العامل في نحو شومسكي لا يجلب إلا حالة النصب للمفعول . أما حالة الرفع فيجلبها الفاعل صرفة الزمن المتضمنة لأمارة المطابقة اللاصقة بالفعل ، وما ذكرناه هنا قليل من كثير لأن الغرض والقصد توضيح

(5328/1)

الملاسنة المتغايرة في الوضعيات بالتمثيل .

2 . 1 . 2 – الملاسنة المتوافقة :

... ... يأتلف هذا النوع مع السابق (1.1.2) في الاهتمام برصد ميلاد الأفكار النحوية وملاحقة تنقلها بين المشتغلين داخل ميدان اللغة ، ويختلف معه في كون الأول يلاحق هجرة الأفكار وانتقالها بين نحاة يدرسون لغات متغايرة ، بينما الثاني يتتبع أفكار نحاة يتوافقون في دراسة لغة واحدة . لتحديد هذا الفرع بمثال يمكن أن نقتفي ثنائية الكلام والقول في لغويات العربية، أو نزيد عليها المفهوم من الاستثناء المتصل والمنقطع .

(5329/1)

... ... (أ) ثنائية الكلام والقول :

... ... هذه الثنائية تداولها نحاة العربية بالمعنى المعبر عنه بقول ابن ملك في ألفيته :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم ... ... واسم وفعل ثم حرف الكلم

واحده كلمة والقول عم ... ... وكلمة بها كلام قد يؤم

... ... من محتوي البيتين يعني هذا المبحث كون الكلام يصدق على ما كان من الألفاظ مستقلا بالفائدة لا يفتقر إلى غيره ليتم معناه . بينما القول يستغرق المفيد وغير المفيد من الألفاظ المركبة.

(5330/1)

... ... تمييز الكلام و القول استينادا إلى علاقة الانتماء القائمة بين خاص (الكلام) وعام (القول)، أسسه ابن جني (1) ثم انتشر في كتب النحو بعده ، ويظهر مما ختم به الباب أنه لم يكن يريد من إطلاق الكلام على المفيد من اللفظ التام ، و إطلاق القول

(1) انظر ابن جني ، الخصائص ، ج 1 ، صص 17 – 32 ، نجد مثل قوله : " أما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه " سموا كل ما مذل به اللسان من الأصوات قولا ناقصا كان أو تاما " عبارات ابن جني في هذا الباب تكاد تتكرر بألفاظها في مفصل الزمخشري في شرحه لابن يعيش .

(5331/1)

على الناقص والتام سوى الرد على المتكلمين ونقد تصورات فرقهم للكلام على الخصوص .

... ... و إذا كان لابد من كلمة تفصل بين التصورين للثائية فإن النظرة الفاحصة لتكشف عن كون النقاش الدائر بين المتكلمين في مسألة خلق القرآن أساسه العلاقة القائمة بين الدال والمدلول، أو اللفظ والمعنى . المعتزلة (1)

(1) يستدل القاضي عبد الجبار لى أن الكلام يصدق على ملامسة المعنى لأصواب اللغة المبنية على وجه مخصوص فيقول : " فصل في أن الكلام هو الصوت المقطع الواقع على بعض الوجوه و إبطال القول بأن الكلام غير الصوت يدل على ذلك استحالة وجود الكلام المعقول= ==عاريا من الأصوات المقطعة ، واستحالة وجود الأصوات عارية من الكلام ، ولو كان أحدهما غير الآخر لم يمتنع ذلك فيهما على بعض الوجوه " المغني في أبواب التوحيد والعدل ، ج 7 ، ص 21 .

(5332/1)

لا يجوزون وجود المعنى مع عدم اللفظ لما بينهما من التعلق .

فأطلقوا الكلام وأرادوا به ملامسة المعاني المنظومة للصوتيات المتراكبة تركيبا متدرجا غير مستويات اللغة . وبما أن الأشاعرة (1) يجوزون إمكان الفصل بين الدال والمدلول انتفى المانع من إطلاق

---

(1) بعد أن ذكر الجويني بمفهوم الكلام عند المعتزلة عقب فقال : وذهب أهل الحق إلى اثبات الكلام والقائم بالنفس ، وهو الفكر الذي يدور في الخلد ، وتدل عليه لعبارات تارة ، وما يصطلح عليه من الإشارات ونحوها أخرى " الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، ص . 105.

الكلام على المعاني المنتظمة قبل أن تلامسها الألفاظ المعبرة عنها .

... ... يهمنا ذكر حديث المتكلمين عن تصورين للكلام متوازنين ، إذ يطلقه بعضهم ويريد به وجه العبارة الحسي الملابس لوجهها المعنوي ، ويقتصره آخرون على الوجه المعنوي قبل أن تباشره الألفاظ المعبرة عنه . فحصلنا بذلك على وجود وجهين متوازيين متطابقين ، أحدهما دلالي معنوي يكون سببا للآخر الصوتي الذي يكون دليلا على السابق . على الوجه الدلالي المجرد يطلق نظار من مختلف الحقول المعرفية اسم الكلام ، وعلى الوجه المعنوي يطلقون اسم القول ولما

بينهما من موازنة والمطابقة يتم أحدهما بتمام الآخر وينقص بنقصانه .

... ... على علاقة الموازنة المثبتة بين الكلام والقول يحمل وصف سيبويه (1) لهما لا على علاقة الانتماء كما أوله ابن جني في الموضع المشار إليه من كتابه الخصائص ثنائية الكلام ولا قول ، كما حدد سيبويه قطبيها ، يمكن استثمارها على نطاق واسع لمعالجة مسائل لغوية ، وهي على النقيض من ذلك في تصور ابن جني ، إذ لم يثبت أن لوحظ استعمالها في غير موضعها ، وهو ما يدل على كونها مشكلا مغلوطا هب ابن

(1) انظر سيبويه ، الكتاب ، ج 1 ، ص 62 . و ص . 471 .

جني إلى اختلافه لإخراج آراء المتكلين من الملاسنة المتوافقة ، كما يظهر بوضوح من قوله : " قد علمت بذلك تسعف المتكلمين في هذا الموضع ، وضيق القول فيه عليهم حتى لم يكادوا يفصلون بينهما ، والعجب ذهابهم عن نص سيبويه فيه ، وفصله بين الكلام والقول ، ولكل قوم سنة و إمامها " (1) .

... ... بما تقدم يتضح دور الملاسنة في الكشف أولا عن التأثير المتبادل بين الأنظار النحوية أيا كانت اللغة أو اللغات المدروسة . وثانيا عن كيفية تسرب الخطأ إلى المفاهيم النحوية المغلوطة

(1) ابن جني ، الخصائص ، ج أ ، ص 32 .

التي تثقل النحو ، الأمر الذي يقضي بإقصائها ، و إعادة صوغها صياغة واردة .

(ب) الاستثناء المتصل المنقطع :

... ... الاتصال و الانقطاع في الكتاب من رواسم الإعراب ، لا يستعملها سيبويه إلا لوصف إعراب التابع . إذا قامت علاقة التبعية بين متراكبين احتمل التابع الاتصال ، إذا طابق إعرابه إعراب المتبوع ، والانقطاع إذا لم يطابقه ، كما يتضح من المقارنة بين الجملتين المواليتين :

... ... (1) ما حضر المدعوون إلا خالد

... ... (2) ما حضر المدعوون إلا خالدا

... ... بما أن للخاص (خالد) بعد (إلا) إعراب العام (المدعوون) قبلها كان الاستثناء في الجملة (1) متصلا ، وهو الجملة (2) منقطع ، لأن العامل (حضر) لما انشغل بالعمل في العام (المدعوون) قطع امتداد أثره إلى الخاص (خالدا) بعد (إلا) ، وبذلك يكون الانقطاع وصفا لمركب ناظر مركبا آخر حالة تركيبية لا علامة إعرابية ، ويكون الاتصال وصفا لمركب ناظر آخر حالة تركيبية لا علامة إعرابية .

... ... ولا يحصل الاتصال أو الانقطاع ، كما تحدد ، إلا بتوافر شرطين أولهما : قيام علاقة الانتماء الواجبة (1)

---

(1) اشترط سيبويه ضمنيا و أصوليون تصريحا أن يكون الخاص

منتميا إلى العام على " سبيل الوجوب لا على سبيل الصحة ، من الأول قوله تعالى : { ولاعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا ... } إذ ما بعد (إلا) واجب للانتماء إلى الإنسان قبلها ومثل الثاني قوله الشاعر :

وبلده ليس بها أنيس ... ... إلا اليعافير والعيس ...

لأن مابعد (إلا) ليس واجب الانتماء إلى الأنيس قبلها ، لكنه يصح على سبيل المجاز . وفي حالة الصحة لا تكون (إلا) في نسق الاستثناء . لأن " الاستثناء يخرج مالولاه لوجوب دخوله تحته على جهة الشمول والمجمع " أبو الحسين البصري ، المعتمد في أصول الفقه ، ج 1 ، ص . 220 . انظر أيضا سيبويه ، الكتاب ، ج 1 ، ص . 363 . " باب ما يختار فيه النصب لأن الآخر ليس من نوع الأول " . إذ لم يستعمل كلمة استثناء في هذا الباب .

(5338/1)

بين العام أو المستثنى منه والخاص أو المستثنى ، لأن وجوب الانتماء أساس بنية (إلا) الاستثنائية . وثانيهما شغل العامل بذكر العام وقد نفي عنه ما أدخل فيه الخاص . لأنه بغير مثوله لا شيء يشغل العامل عن التسلط مباشرة على الخاص بعد (إلا) ، كما يظهر من الجملة (3) .

... ... (3) ما حضر إلا خالد .

... ... وبعد المثول العام ، كما في الجملة (3) ، تنتفي التبعية أساس الاتصال أو الانقطاع . مع المبرد (285 هـ) بدأت ثنائية الاتصال تأخذ معنى جديدا يستند إلى أساس دلالي (1)

---

(1) انظر المبرد ، المقتضب ، ج 4 ، ص . 412 ، " باب مايقع في الاستثناء غير نوع المذكور قبله " .

(5339/1)

، يمثل في علاقة الانتماء ( ) ، أو عدمها ( ) . فإن انتمى الخاص بعد (إلا) إلى العام قبلها كان الاستثناء متصلا بغض النظر عن إعرابهما ، و إذا لم ينتم إليه فهو منقطع ، وعليه فإن الاستثناء من الجنس متصل ومن غير الجنس منقطع (1)

---

(1) بالمعنى المذكور للقطبين وصلت إلى النحاة المتأخرين ، كابن هشام فقال : " وإن كان المستثنى منه مذكورا فإما أن يكون الاستثناء متصلا ، وهو ان يكون المستثنى داخلا في جنس المستثنى منه ، أو متقطعا ، وهو أن يكون غير داخل " شرح شدور الذهب ، ص 280 . انظر كاتبه ، شرح قطر الندى وبل الصدى ، ص 244 .

(5340/1)

، وبهذا المعنى وصلا إلى ابن السراج (316 هـ) الذي يرتكز هو الآخر ، من أجل التفريق بينهما ، على العلاقة الدلالية القائمة بين المفردات المعجمية قبل أن تتراكب في بنية قولية على صورة الاستثناء (1) ، ثم إلى الزمخشري (538) ، وغيره ممن جاء بعده . ... ولم نهتد إلى نحوي أو بلاغي أو أصولي ، ممن رجعنا إلى أعمالهم ، أهمل المفهوم الثاني للثنائية المؤسس على علاقة الانتماء الدلالية أو عدمها ، وذلك من أجل إحياء

---

(1) انظر ابن السراج ، الأصول في النحو ، ج 1 ، ض . 290 ، " باب الاستثناء المنقطع من الأول " .

(5341/1)

مفهومها الأول القائم في كتاب سيبويه على امتداد إعراب المتبوع إلى تابعه أو انقطاعه ، وهو ما يعبر عنه بوضوح إذ يقول : " هذا باب النصب فيما يكون مستثنى بدلا ...يقول : (ما مررت بأحد إلا زيدا) و (ما أتاني أحد إلا زيدا) . وعلى هذا (ما رأيت أحدا إلا زيدا) ، فتنصب (زيدا) على غير (رأيت) . وذلك أنك لم تجعل الآخر بدلا من الأول ولكنك جعلته منقطعا مما عمل في الأول (1) . و إذا اتضح مفهوما الثنائية تعين المرور إلى المفاضلة بينهما ما لم يكن لقطبيهما معان فرعية

---

(1) سيبويه ، الكتاب ، ج 1 ص . 363 .

(5342/1)

استأثرت باهتمام ناظر .

... ... قبل النظر فيما يترجح به أحد المفهومين يحسن أن نجمل القول ، مع الكشف المباشر عن وجه الخلل ، في مفاهيم أخرى فرعية انفرد الأصوليون بإسنادها إلى هذه الثنائية . أحدها ينسب إلى أبي الحسين البصري (1) ، إذ يطلق الاستثناء المتصل على الإنجاز المتواصل لبنيته ،

بحيث ينتجها المتكلم دفعة واحدة ، و إذا أنجز الحملة قبل (إلا)

في زمان أول وباقي البنية في زمان ثان فالاستثناء منفصل أو منقطع

---

(1) انظر كاتبه ، المعتمد في أصول الفقه ، ج 1 ، ص 260 . " باب في تخصيص الكلام بالاستثناء "

(5343/1)

---

(1) ، وقد بين في الوضع المشار إليه من كتابه أنه لا يجوز في حق المتكلم العادي إلا المتصل فقال : " الاستثناء غير مستقل بنفسه فهو كالخبر إذا تأخر عن المبتدأ شهرا ، لم يستفد به السامع شيئا ، فكذلك الاستثناء المتأخر "

---

(1) استقى أبو الحسين البصري هذا المفهوم من آية الشعراء . إذ أنزل قوله تعالى : { والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واحد يهيمون ، و أنهم يقولون ما لا يفعلون } وبعد مدة وقع الاستثناء فنزل قوله تعالى : { و إلا الذين آمنوا ...} ، انظر السيوطي ، لباب النقول في أسباب النزول ، ص . 164 .

(5344/1)

، وبإبطاله المنقطع المنجز في زمانين لم يبق مبرر لذكر الثنائية بهذا المفهوم في إطار الملاسنة المتوافقة .

... ... أما القرافي ، وهو من مؤسسي العلاقة الدلالية بين المفردات المعجمية ، فقد احتفظ براسمة المتصل للاستثناء من الجنس ، لكنه وسع ليشمل ، 1) على صورة الاستثناء من غير علاقة الانتماء مثل

قولهم (ما رجع الجند إلا دبابة) ، (2) أن يسند إلى ما قبل (إلا) غير ما يسند إلى الذي بعدها و إن كان من جنسه ، كما في (ما رجع الجند من المعركة إلا ضابطا هرب) ، والقسم الأخير الذي أضافه القرافي (1)

---

(1) علق القرافي على أمثلة المتصل والمنقطع بقسميه فقال : " إذا قلنا القول زيدا ، فزيد من جنس القوم وحكمت أولا بالقيام وعلى زيد بعدم القيام ، وعلى زيد بعدم القيام وهو كنقيض الحكم فهذا متصل . و إذا قلنا : قام القول إلا فرسا ، فالحكم و إن وقع بالنقيض على الفرس الذي هو عدم القيام ، لكن الفرس ليس من جنس القوم فكان منقطعا ، فإن قلت قام القوم ، إلا زيدا سافر ، كان منقطعا أيضا " الاستغناء في أحكام الاستثناء ، ص .282 .

(5345/1)

يسهل إبطاله ، لأن (إلا) في نسق الاستثناء يقع بعدها المفرد أو ما حكمه من الجملة المعمولة : (أي التي يكون لها محل من الإعراب) .

... ... 3. 1. 2 – المفاضلة بين المفاهيم المتنافسة :

... ... بعد أن سردنا ما عثرنا عليه من المفاهيم المغمورة لثنائية المتصل والمنقطع ، حيث أن التاريخ للعلوم يقتضي أيضا الاستقراء التام لفروع الفكرة المرصودة ولتلويناتها ، تعين المرور إلى المرحلة الأخيرة من الملامسة المتوافقة المتمثلة في مسألة المفاضلة بين مفهومي الثنائية الشهيرين ، هذه المرحلة تكتسب مشروعيتها من مقدمة

(5346/1)

معرفية يمكن أن نقول في التعبير عنها:

... ... (4) إذ تكون رأيان متغايران حول موضوع معين كان أحدهما خاطئا أو كان الصواب في غيرهما معا .

... ... لكن المفاضلة بين مختلف الأنظار المتنافسة للاستئثار بالموضوع المعين تفيد إذا تقيدت بقواعد منهجية مضبوطة ، نذكر منها :

... ... (5) إذا تعارض مفهوما ثنائية رجح القائم على أساس جامع المستند إلى أساس فارق.

... ... وعليه فإن قائل الاستثناء من الجنس منقطع يستند إلى علاقة الانتماء أو عدمها أساس فارق بين العطف وعدمه وليس أساسا جامعا بين قسمين من العطف

(5347/1)

---

(1) ، يترتب عن المثبت هنا أي مفهوم لا يتفرع إلى نفسه و إلى نقيضه .

... ... بخلاف ما تقدم فإن العنصرين المتراكبين بعلاقة الانتماء الماثلين في بنية الاستثناء يشكلان أحد وجوه التبعية ، وكل تابع يحتمل أن يوافق بإعرابه متبوعه ، فيكون متصلا به ، و أن يخالفه فيكون منقطعا عنه . إن علاقة الانتماء تضمت للأداة (إلا) معناها الوضعي وتمنعها من التقارض (2)

---

(1) للمزيد من التفصيل حول حلاقة التناظر المؤسسة للعطف ، انظر الدكتور أحمد المتوكل ، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي ،

الفصل الثاني ، ص . 175 .

(2) في معنى التقارض ذكر ابن هشام : " إعطاء " غير " حكم " إلا " في الاستثناء بها .. وإعطاء " إلا " حكم " غير " في الوصف بها "، معنى اللبيب ، ص . 778 . وقد نقله السيوطي إلى كتابة الأشباه والنظائر ، ج 1 ، ص 276 . وقبلها قال الزمخشري : " أعلم أن " إلا " و " غيرا " يتناقضان ما لكل واحد منهما " ، المفصل ، ج 1 ، ص . 200 .

وقد يحصل الافتراض في اتجاه واحد كأن تقترض " إلا " معنى (الاستدراك) الخاص بالأداة " لكن " فتأتي في سياقها معوضة إياها إذا كان ما بعد " إلا " جملة غير معمولة ، أي ليس لها إعراب توافق به إعراب ما قبلها أو تخالفه وللمزيد من التفصيل ، انظر القسم الثالث من كتاب محمد الأوزاغي ، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم.

" أعلم أن " إلا " و "غيرا " يتناقضان مالكل واحد منهما " ، المفصل ، ج 1 ، ص 200 . وقد يحصل الاقتراض في اتجاه واحد كأن تقترض " إلا " جملة غير معمولة ، أي ليس لها إعراب توافق به إعراب ما يقابلها أو ما تخالفه . وللمزيد من التفصيل ، انظر القسم الثالث من كتاب محمد الأوراغي ، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم .

(5348/1)

. حتى إذا تكون الاستثناء ومثل في بنيته العام قبل أداته " إلا " والخاص بعدها نشأ

أساس جامع يسمح بالانتقال إلى تفريع المفهوم الذي يستند إليه ، فنحصل على المتصل ،وهو الاستثناء المنفي المشغول الذي يتبع فيه الخاص بعد " إلا " العام قبلها من جهة البدل ، وعلى المنقطع : وهو الاستثناء المنفي المشغول الذي فيه الخاص بعد " إلا " عن

تبعية العام قبلها ن حيث العلامة الإعرابية .

... ... (6) إذا نشأ حول موضوع ميعن رأيان متغايران قدم الملحوظ في ظواهر أخرى على القاصر الذي لا يتجاوز موضعه .

(5349/1)

... ... استنادا إلى الضابط المصوغ في العبارة (6) فإن مفهوم الثنائية المؤسس على علاقة الإعراب يفضل المفهوم الآخر المستند إلى العلاقة الدلالية ، لأن الأول ملحوظ أيضا في غير الاستثناء ، كالبدل (1) ، والنعت(2) ، والعطف (3)

---

(1) انظر سيبويه ، الكتاب ، ج 1 ، ص. 224 ، " باب بدل النعرفة من النكرة والمعرفة من المعريفية ، وقطع المعرفة من المعرفة مبتدأة " .

(2) نفسه ، " باب ما ينتصب في التعظيم والمدح ، وإن شئت جعلته صفة فجرى على الأول و إن شئت قطعته فابتدأته " ، ص 248 .

(3) في وصف إعراب المعطوف يقول سيبويه : " ويرفع الآخر على قطع وابتداء " ، ج ص 24 .

(5350/1)

. بخلاف الثاني فإنه لم يعثر على استعماله خارج الاستثناء .

... ... (7) ما يفسر بمبدأ عام مقدم على منافسه غير المؤصل .

عملا بالقيد (7) فإنه يمكن إرجاع اتصال الإعراب في بنية الاستثناء المنفي المشغول أو المنقطع إلى عاملين تداولي ، فنقول

: إذا شكل العام قبل " إلا " محط اهتمام المتخاطبين وجب القطع ، كما توضحه الجملة (2) السابقة ، (ما حضر المودعون إلا زيدا) ، وإذا كان الخاص بعد " إلا " محط اهتمامهما وجب الاتصال ، وهو ما توضحه الجملة (1) المعادة هنا (ما حضر المدعوون إلا زيدا) . وبهذا العامل

(5351/1)

التداولي نتجنب أيضا ما يذهب إليه نحاة من جواز رفع المستثنى ونصبه في مثل هذه الحالة (1) . لكنه لا يمكن إرجاع الاتصال أو الانقطاع الدلالي إلى مبدأ عام ، يمكننا من إيجاد مبرر بعدول المتكلم عن الاستثناء من الجنس ولجوئه إلى الاستثناء من غير الجنس ، وعدم وجود مبدأ عام يناط به الاتصال والانقطاع الدلالي دليل آخر على فساد هذا المفهوم ونجاح منافسه .

---

(1) للمزيد من التفصيل ، انظر محمد الأوراغي ، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم ، منحث " أصول تخاطبية توجب الانقطاع والاتصال " ، ص . 255 .

(5352/1)

---

(8) اضطراب المبني على الفاشل من المفهومين المتنافسين يومئ إلى انسجام المبني على الناجح منهما .

... ... يلزم عن تطبيق القيد الأخير من منهجية المفاضلة ظهور خطابين متباينين . أحدهما يتناول المفهوم الفاشل : من مميزاته اضطراب عباراته ونبو كلماتهما . بخلافه الخطاب الآخر المتميز ،

لارتباطه بالمفهوم الناجم ، بوضوح العبارة وتوافق معاني مفرداتها وانسجام الأفكار. من أمثلة الخطاب الأول قول المبرد في وصف إعراب المركب بعد (إلا) في قوله : ما جاءني أحد إلا حمارا " ... فوجه هذا وحده النصب ، وذلك لأن الثاني

(5353/1)

ليس من نوع الأول فيبدل منه فتنصبه بأصل على منعى لكن (1) . من مظاهر الاضطراب في عبارة المبرد نذكر:1) لا مركب ينصب بأصل الاستثناء ، إذ كل ما ينصب فعلى تمام الكلام أو بعامل جملي (2) . 2) قوله ، " فتنصبه بأصل الاستثناء على معنى ولكن " ينقض مبدأ ثابتا لا يتخلف

---

(1) المبرد ، المقتضب ، ج 4 ، ص . 412 .

(2) للمزيد من التفصيل ، انظر محمد الأوراغي ، " إعراب الناسخ الحرفي " صص . 31 – 65 ، من مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية،العدد 19 سنة 1994 ، واكتساب اللغة ، ص . 252 ، مبحث " نسق (إلا) الاستثنائية " .

(5354/1)

أبدا ، عبر عنه ابن النحاس ونقله عنه السيوطي فقال : " كل ما تضمن ما ليس له في الأصل منع شيئا مما له في الأصل (1) " بمعنى إذا خرج عنصر إلى باب غيره منعه ذلك أن يكون له عمل بابه ، بمقتضى هذا المبدأ الفعل (قال) ر يعمل في مكونات الجملة وهو

في بابه ،كما في (قالوا هذه أنعام) ، لكنه إذا خرج إلى باب (ظن) عمل ، كما في (أتقول العقل نقمة) .

... ... ومن مظاهر اضطراب الخطاب المتناول للمفهوم الفاشل قول ابن السراج " وليس منهاج الاستثناء المنقطع منهاج

---

(1) السيوطي ، الأشباه والنظائر ، ج 1 ، ص . 228 .

(5355/1)

الاستثناء الصحيح (1) . ألفاظ هذه العبارة نابية قلقة لأن التقابل يكون بين الصحيح والخاطئ لا المنقطع إلا إذا كان بمعناه ، وأن كلمة الاستثناء لا تطلق على بنية إلا توافرت فيها جميع شروط صحتها ، وفي هذه الحالة لا مبرر لتقييد اسم البنية بوصف صحيح ، ولا تطلق أبدا على بنية ليست على منهاج الاستثناء ، ولذلك ما ستعمل سيبويه قط كلمة الاستثناء في الباب الذي تناول فيه تراكيب استعملت فيها (إلا) بمعنى (لكن) لانعدام علاقة الانتماء .

---

(1) ابن السراج ، الأصول في النحو ، ج 1 ، ص . 292 .

(5356/1)

... ... وتزداد حدة الاضطراب في الخطاب المتناول للمفهوم الفاشل في ثنائية الاتصال والانقطاع مع ابن الناظم في شرحه لألفية أبيه (1) إذا احتفظ بعلاقة الانتماء لكلا القسمين، وجعلها في المنقطع تقوم بين متراكبين يدل أحدهما بالمفهوم (2)

(1) انظر ابن الناظم ، شرح ألفية ابن مالك ، ص .288 .

(2) دلالة المنطوق ، ودلالة المفهوم من رواسم علم الأصول . يطلق الأول على المعنى المدلول عليه بعبارة لا تحتمل ألفاظها معنى غيره ، ويطلق الثاني على المعنى اللازم عن دلالة المنطوق . للمزيد من التفصيل ، انظر الغزالي ، المنخول من تعليقات الأصول ، ص .164 " كتاب التأويل " ، ص 208 " كاتب المفهوم " والأسنوي نهاية السول في شرح منهاج الأصول ، ج 1 ، صص . 194 – 205 .

(5357/1)

، وهي في المتصل قائمة بين متراكبين دالين بمطوقهما ، وهم بجعل لكلا القسمين أدوات خاصة ، وجرد " إلا " و «لكن " من التقارض و التعاوض . و إلى هاتين الأداتين يرجع لوصف بنية بالاستثناء أو الاستدراك بشرط أن تتراكب فيها ألفاظ تدل بالمفهوم . وهكذا تحتمل الجملة (9) الآتية الاستثناء والاستدراك تبعا لتعاقب أداتيهما عليها .

... ... (9) لاعيب فيكم ... ... إلا ... ... أقلامكم جفت

... ... لكن

... ... وهذا أمر لا يجوز النسق إذ يمنع أن يتوارد العنصران في موقع معين من البنية وهما بمعنى.

(5358/1)

... ... ولعل ما قدمناه هنا كاف للوقوف على أهمية الملاسنة المتوافقة ، بوصفها عملية تتعقب أفكار للكشف عن شعبها ، وتحللها لاستكناه أصولها ، وتقارن بين المتغاير لتعيين مواطن الخلل في ضعيفها ، وجوانب القوة في الوارد منها ، وبذلك لا غير يحصل للملاسن صناعة النحو .

... ... 2 . 2 – الملاغاة ...

... ... سبق أن بينا أن الملاغاة ممارسة تنظر إلى اللغة بوصفها مادة للتحليل التاريخي إذ تلاحق بنيتها المتحولة ، وتتعقب تطورها في الإتجاهين للكشف عن العوامل المسؤولة عن انسلال نسق لاحق من سابق ، وتحديد المندرس من

(5359/1)

وقائع النسق مقرونا بعلة اختفائه و ظهور بديله الذي يعوضه .

إذن، من المباحث الرئيسية في الملاغاة تحديد أسباب عدم استقرار اللغات .

... ... أسباب تغيير اللغات في تصور من سبق (1) يمكن تجميعها في صنفيين :

1) أسباب خارجية ، كالزمن و إن كان من العوامل الضعيفة التأثير إذ لم يربط بالعامل الثاني الذي هو الاستعمال المرتبط بالجماعة التي تمارس العمل اللغوي تكلما ودراسة؛

---

(1) أنظر مقال Peter Wunderli, « sassure et la diachronie , dans La Linguistique134.199», PP.

(5360/1)

2) أسباب داخلية ترجع إلى محرك واحد يتمثل في الطابع الوضعي للغة المتحقق في العلاقة الاعتباطية بين الرمز ومدلوله.

... ... تبدل اللغة، كما جاء في المقال المشار إليه في الطرة (48) ، لا يحدث بإرادة المتكلمين، ولا يحصل دفعة واحدة، إنه يحدث في مجال الكلام الفردي، ومنه يصير إلى اللغة، وهو يمس نقطا بعينها في النسق ليتسرب بناء على مبدأ التساند إلى غيرها لكن كيف يمكن الاهتداء إلى المتغيرات في اللغة.

... ... سبق أن ذكرنا أن تحول الوقائع وانتقالها عبر أطوار متلاحقة ينفلتان للملاحظة، لأن حدوث أي تغيير

(5361/1)

ببنية اللغة لا يقع تحت أعين المتلاغين، ومع ذلك يمكن التماس الجديد في النسق عن طريق المقارنة بين الاستعمال الآني للغة كما هي متصورة في أذهان المتكلمين بها وبين وصفها السابق المدون في كتب النحو. بالمقارنة بين حاضر اللغة وماضيها تنكشف قطعها المتآكلة المعوضة بأخرى حديثة، ويظهر المستعمل في نسقها الحالي بديل المهمل المنتمي إلى نسقها السابق. وكأن تطور وقائع اللغة يخضع لمبدأ التطارد، بحيث يؤدي بزوغ عنصر نسقي جديد إلى أفول الطريد.

(5362/1)

... ... بقي أن نثير في هذا التمهيد للملاغاة أسئلة تخص أنماط التغيير الذي يلحق اللغة، أولها يمس أصوات اللغة باعتبار هذا القطاع من أكثر فصوص اللغة قابلية للتغيير غير الإداري.

فتعايشت فيه التصويتات (1) الوظيفية بجانب بدائلها المجردة من الوظيفة، سبب القابلية المذكورة كون فص الأصوات الأكثر ارتباطا بالإنجاز الفردي للغة، وفيه تنعكس الاستعدادات الطبيعية للمتكلمين باللغة المعنية. إذن اختلاف الأمزجة وأعضاء جهاز التصويت البشري عامل فعال في تغاير أصوات اللغات

---

(1) التصويتة المقابل للراسمة الأجنبية Phonème..

(5363/1)

وتبدلها. وقد قارن الفارابي (1) اختلاف الأمزجة بأصل الخفة فكون منهما سببا قويا يولد تنويعا في أصوات اللغة وتبدلا.

---

(1) عن السبب المذكور عبر الفارابي فقال : " إذا كانت أعضاؤهم على خلق وأمزجة مخالفة أولئك مقصورين على أن تكون حركة ألسنتهم إلى أجزاء من داخل الفم أسهل عليهم من حركتها إلى الأجزاء التي كانت ألسنة أهل المسكن الآخر التي تتحرك إليها فتخالف حينئذ التصويتات التي يجعلونها علامات يدل بها بعضهم بعضا على ما في ضميره" كتاب الحروف، ص.136.

(5364/1)

... ... وبموازاة أصوات اللغة يأتي معجمها من حيث القابلية للتغيير، لكن التغيير هذه المرة إرادي بحكم ما ينشأ لتوسيعه من مؤسسات التعريب والترجمة. والازدهار التغيير في قطاع المعجم تكونت لغة خاصة بوصف حركة مواده، كالمولد، والدخيل، والمعرب، والنقل أو استئناف الوضع، وفي مقابل هذه الأصناف نجد الضعيف، والمنكر، والمتروك، والشوارد، والنوادر، والمهمل(1) .

---

(1) للتوسع في حدود الرواسم المذكورة، أنظر السيوطي ، المزهر.

(5365/1)

... ... ولاشتداد العلاقة بين المعجم من جهة وقطاعي التصريف والتركيب من جهة أخرى فإن التغيير الذي يمس دلالة معجمية قد يسبب في تسريب التغيير إلى فصي التصريف فالتركيب، وهذان المكونان أقل تأثيرا بعوامل التغيير.

مصادر البحث

(أ) باللغة العربية

... ... – أبو البركات الأنباري، نزهة الألباء في طبقة الأدباء، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، 1386 هـ

... ... – أبو الحسين البصري، المعتمد في أصول الفقه، دمشق، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، 1385 هـ

(5366/1)

... ... – أحمد المتوكل، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1406 هـ

... ... – ابن جني، سر صناعة الإعراب، دمشق، دار القلم، 1405 هـ

... ... – المصنف ، القاهرة، البابي الحلبي، 1373هـ

... ... – الخصائص، القاهرة ، دار الكتب، 1371 هـ

... ... – ابن خلدون ، المقدمة، القاهرة، بولاق، 1274 هـ

... ... – ابن السراج، الأصول في النحو، بغداد، مطبعة سلمان الأعظمي، 1393 هـ

... ... – ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة، القاهرة، البابي الحلبي، 1389 هـ

(5367/1)

... ... – ابن الناظم، شرح ألفية ابن مالك، بيروت، دار الجيل، دون تاريخ.

... ... – ابن هشام، مغنى اللبيب، دمشق، دار الفكر، 1384 هـ

... ... – شرح شذور الذهب، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، دون تاريخ

... ... – ابن يعيش، شرح المفصل ، بيروت، عالم الكتب، دون تاريخ.

... ... – سيبويه، الكتاب، بغداد، مكتبة المثنى عن بولاق، 1316 هـ

... ... – علي بن يوسف القفطي، إنباه الرواة على أنباء النحاة، القاهرة، دار الكتب، 1369 هـ

... ... – الأسنوي، نهاية السول في شرح منهاج الأصول، بيروت، عالم الكتب، 1982.

(5368/1)

... ... – الجويني، الإرشاد إلى قواطع الأدلة من أصول الاعتقاد، القاهرة، مطبعة السعادة، 1369هـ

... ... – الزجاجي ، الإيضاح في علل النحو، بيروت، دار النفائس، 1399 هـ

... ... – الزمخشري، المفصل في علم العربية ، القاهرة، مطبعة حجازي، دون تاريخ.

... ... – السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، دون تاريخ

... ... – بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، القاهرة، البابي الحلبي 1384 .

... ... – لباب النقول في أسباب النزول، بيروت ، دار إحياء العلوم، 1400 هـ

(5369/1)

... ... – الأشباه والنظائر، مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق، 1406 هـ

... ... – الغزالي ، المنخول من تعليقات الأصول، دمشق، 1390 هـ

... ... – الفارابي، إحصاء العلوم، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968 .

... ... – كتاب الحروف، بيروت، دار المشرق، 1969.

... ... – القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دون تاريخ.

... ... – القرافي ، الاستفتاء في أحكام الاستثناء، بغداد،وزراة الأوقاف والشؤون الدينية، 1402 هـ

(5370/1)

... ... – المبرد، المقتضب، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1399 هـ

... ... – محمد الأوزاغي، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، الرباط، دار الكلام 1900.

... ... – إعراب الناسخ الحرفي، ضمن مجلة كلية الآداب، الرباط، عدد 19 سنة 1994.

(ب) بغير العربية :

Anika L., Jacques Lacan, Buxelles, 1977.

Austin J.L, Qaund dire c'est faire, seuil, Paris , 1970.

Bloomfield L, le language, payot, Paris 1970.

Buridand C., définition de la diachronie, linguuistique génétique, PUL, 1988.

(5371/1)

Chomsky N., La Linguistique cartésinne, Seuil, Paris, 1966.

... ... Théorie du gouvernement et du liage, Seuil, Paris, 1991.

Engler E, L'apport de Genéve, linguistique génétique, PU. de lille, 1988.

Peeters C, Grammaire historique et linguistique
.1988génétique, PUL,

.1972Seorle J.R., les actes de language, Herman, Paris,

Umberro E. La recherche de la language parfaite, Seuil,
.1994Paris,

Wunderlil. P., Saussure et la diachronie, linguistique
.1988génétique, PUL,

(5372/1)

المآذن الطينية بمنطقة حوض الفرات الأوسط وصيانتها في سورية

... ... الأستاذ شوقي شعث

... ... أمين المتحف الوطني بحلب – سورية

تنتشر المآذن الطينية في منطقة الفرات الأوسط في سورية، وبتعبير أدق في ما بين دير الزور ومسكنة / بالس. فهناك واحدة في بالس / مسكنة، وثانية في منطقة أبي هريرة، وثالثة في قلعة جعبر، ورابعة في مدينة الرافقة / الرقة، وخامسة في دير الزور (1)

---

(1) هدمت هذه المئذنة عند إزالة الدير العتيق بدير الزور قبل نحو عشرين سنة أو أكثر بقليل. وبإزالتها فقدت العمارة الإسلامية في سوريا نموذجا هاما من نماذج العمارة الطينية لسوريا. وأغلب الظن أنها كانت مئذنة مثمنة الشكل.

(5373/1)

. وبالطبع، لا يقتصر انتشار هذا النوع من المآذن الطينية على سوريا. فهناك نماذج منها في العراق الذي يعتقد أن هذا النمط قد نقل منه أو من إيران، وهناك أخرى في جنوب شرقي تركيا.
وسيقتصر موضوعنا على المآذن الطينية في سورية فقط
ربما سأل سائل لماذا بنيت هذه المآذن من الطين المشوي بهذه المنطقة دون غيرها من المناطق الأخرى في سوريا ؟ وقد يكون الجواب على هذا السؤال هو عدم وجود حجارة تستطيع مقاومة التقلبات المناخية كما هو الحال في المدن السورية الأخرى مثل حلب ودمشق وحماه واللاذقية وغيرها، فلا شك في أن هذه

(5374/1)

الإجابة صحيحة إلى حد كبير. فالحجارة المتوافرة في هذه المنطقة التي سبقت الإشارة إليها هي من نوع الحجر الطباشيري الطري الذي لا يقاوم طويلا الرياح أو تقلبات الطقس، كالمطر. إلا أنه توجد أسباب أخرى، منها أن المنطقة تتعرض للزلازل والطوب المشوي (القرميد) أكثر مرونة من الحجارة. وعليه، لا تتأثر الأبنية الطينية بالزلازل تأثر الأبنية الحجرية بها . وهناك سبب ثالث هو أن ارتفاع درجة الحرارة في هذه المنطقة نهارا وانخفاضها ليلا قد يجعل البناء الطيني أكثر مناسبة في هذه المنطقة من البناء الحجري. وهناك سبب رابع

(5375/1)

اقتصادي :فالبناء بالطين قد يكون أقل تكلفة. ومهما يكن الأمر، فقد تكون الأسباب التي أتينا على ذكرها هي التي دفعت المعماريين إلى استخدام الطين المشوي في البناء لضمان مقاومته لعاديات الزمن (1) .

ولا شك في أن هذه المآذن أقيمت بجوار المساجد ملاصقة لها أو منفردة في الصحن أو خارجه لمناداة الناس لإقامة الصلاة في أوقاتها أساسا، لكن البعض يضيف بأنها اتخذت أبراجا للمراقبة.

---

(1) هناك استخدام للطوب المشوي في العصور التي سبقت العصر الإسلامي. فهناك أمثلة على ذلك في بالس وقصر ابن وردان وغيرها من المواقع السورية.

(5376/1)

ويسوغ قبول هذا الرأي وقوع تلك المآذن في مواقع استراتيجية هامة. فمئذنة بالس / مسكنة تمكن الرائي في يوم صاف من مشاهدة القادم، من بعيد ، في جميع الجهات، وخاصة القادم من الجانب الآخر من نهر الفرات. فمن مئذنة مسكنة / بالس يمكن مراقبة العدو القادم من الجزيرة السورية.

وقس على ذلك مئذنة أبي هريرة التي كانت تنتصب فوق مرتفع من الأرض تحرس منطقة يقول البعض إنها مناسبة لعبور النهر، ناهيك عن أنها مقابلة لقلعة جعبر. أما مئذنة قلعة جعبر، فهي – ولا شك – أكثر المآذن الطينية في حوض الفرات ارتفاعا حيث تتوسط قلعة

(5377/1)

جعبر المرتفعة. فإذا أضيف هذا الارتفاع إلى ارتفاع المئذنة نفسها، أمكن بسهولة رصد التحركات في الجزيرة السورية أو منطقة الشامية. ويمكن تصور الأمر نفسه في حالة مئذنة الرقة، ومئذنة الدير العتيق في مدينة دير الزور (1) .

(1) يقول الأستاذ الدكتور فريد شافعي (في كتابه العمارة العربية في مصر الإسلامية، ص .648) : "شيدت المنارات في أقطار العالم الإسلامي لتؤدي معظمها وظيفتي الأذان والمراقبة، وخاصة في المساجد والأربطة الواقعة على سواحل البحر أو القريبة منها".

(5378/1)

كيف عرف المسلمون المئذنة ؟ وما الشكل الذي اتخذوه في بنائها ؟ هل هو مربع أو مستدير ؟ للإجابة على هذا السؤال ؟ يذكر كريزويل (1) أن المئذنة لم تكن معروفة عند ظهور الإسلام. ولكن بعد هجرة المسلمين إلى المدينة المنورة كانوا يصلون دون أذان، حسب قول ابن هشام؛ وعندما علموا أنه كان لليهود بوق (شوفار) وللمسيحيين ناقوس أرادوا أن يكون لهم

(1) K.A.C. Creswell, Early Islamic Architecture, a Pelican Book, Penguin, 1958. P .5.

(5379/1)

... شيء مماثل لصلاتهم، فأمر الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – مؤذنه بلال بالأذان من فوق أعلى سطح مجاور و أصبح لزاما على المسلمين إقامة شعائر الأذان من فوق منطقة مرتفعة. ومع الزمن، أصبح لذلك تقاليد فرضت أشكالا خاصة في تصميم المئذنة (1) أو المنارة التي أضحت عنصرا معماريا إسلاميا متطورا مع الزمن تطلب عمله بناء على تعاليم الدين الإسلامي.

استعمل العرب المسلمون ثلاثة تعابير للدلالة على المئذنة هي : المئذنة والصومعة والمنارة. فقد اشتقت الكلمة الأولى من الأذان، وبذلك

(1) فرسد شافعي ، مرجع مذكور، ص.684.

تعني المئذنة المكان الذي ينطلق منه الأذان. أما الكلمة الثانية، فقد اشتقت من الاسم الذي أطلقه العرب على أبراج النساك (Hermits Towers) في الكنائس السورية. ومن هنا ربما جاءت كلمة الصومعة في شمال إفريقيا كما شاع الشكل المربع، وحمل هذا الشكل مع العرب إلى إسبانيا ودخل اللغة الإسبانية باسم زوما ( ) (1Zoma) . أما الكلمة الثالثة، أي المنارة، فتعني المكان الذي تشغل فيه النار. ومن أمثلة ذلك في الشمال الإفريقي منارة جامع مدينة سوسة (245 هـ / 860 م) المربعة المسقط

(1) Creswell, Op cit , P : 14and P : 156.

(1) . وعليه ، فإن أغلب الظن أن جميع مآذن العالم الإسلامي المبكر كانت تتبع تكوينا معماريا مشتركا مشابها لمئذنة جامع القيروان المربعة أو قريبا منها. وينحصر الاختلاف في النسب المعمارية للأجزاء العلوية من المئذنة أو أبدانها (2) . ومما يستوقف النظر أن مآذن الشام حتى القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي كانت تخضع في الأجزاء الرئيسية منها الشكل المربع في مسقطها، بينما تخضع تلك الأجزاء – أي بدن

---

(1) فريد شافعي ، مرجع مذكور ، ص 648 ؛ و Creswell , Ibid , . 14 P

(2) فريد شافعي ، المرجع نفسه ، ص.643،646.

المئذنة – في العراق وفارس للشكل الدائري الأسطواني الذي كان يوضع فوق قاعدة مربعة المسقط، متفاوتة الارتفاع، ولكن لا يزيد ارتفاعها عن ارتفاع البدن الأسطواني، وأحيانا كانت البداية من فوق السطح العلوي الجامع. وربما كان أقدم مثل لهذه المنارات ببلاد الشام هو منارة قصر الحير الشرقي التي يعود تاريخها إلى حوالي 110 هـ/ 729 م، ومنارة جامع المنطير بالقرب من الرقة. أما منارات العراق، فأقدم مثل لها هو بناء المحضة ويرجع تاريخها هي وقصر الأخيضر إلى حوالي عام 161 هـ؛ إذ كان شكلها أسطوانيا، وخاصة البدن منها،

الذي يرتكز على قاعدة مربعة المسقط شيدت بالآجر، وهي ناقصة في جزئها العلوي؛ ويبدو أنها شيدت وسط الصحراء لتكون علامة يهتدي بها من يقصد الأخضير الذي شيد بعيدا عن العمران، أو لتكون علامة يهتدي بها من يقصد الأخيضر الذي شيد بعيدا عن العمران، أو لتكون نقطة ارتكاز ساكني القصر (1) .

بعد هذه العجالة القصيرة، نأتي إلى مآذن الفرات الأوسط الطينية في سوريا لنتحدث عن تاريخ بنائها وطبيعة هذا البناء، وعن أشكالها وتزييناتها وصيانتها والوسائل والطرق التي اتبعت في الحفاظ عليها، ولا سيما بعد

(1) المرجع نفسه ، ص.647.

أن أصبحت مهددة مع غيرها من البقايا الحضارية في منطقة الفرات الأوسط

تأتي في طليعة تلك المآذن :

1- مئذنة الجامع الكبير في بالس / مسكنة

تتخذ هذه المئذنة شكلا مثمنا، خلافا لمئذنة جعبر ومئذنة أبي هريرة وجميع المآذن في منطقة حوض الفرات. وهي تعود إلى أوائل القرن السابع الهجري، إلا أنها ربما كانت أقدم مئذنة مثمنة في سورية ترتفع إلى نحو سبع وعشرين مترا ويقوم بدنها فوق قاعدة مربعة، بابها عند مستوى الأرض - خلافا لباقي المآذن الأخرى الطينية في حوض الفرات - وتزيينها عدة أشرطة من الكتابات (1)

(1) عبد القادر ريحاوي، "إنقاذ منطقة سد الفرات"، الحلوليات الأثرية السورية، مجلد 15، ج1، ص.65.

(5385/1)

. وصف "فان برشم" بعض هذه الكتابات الموجودة على مئذنة مسكنة / بالس بأنها تقع في أربع حواش. ولا شك المئذنة هو بين عامي 589 و 615 هـ / 1193 – 1218 م.وتشير الكتابة الثانية الكوفية إلى التاريخ الحقيقي لبناء المئذنة أو تجديدها. وحسب "برشم"، فإن الكتابة هي : "بسم الله الرحمن الرحيم جددت هذه المئذنة سنة سبع وست مائة"،أي إبان حكم الملك العادل في عام 607 هـ لبالس. إذ تذكر كتب التاريخ أن الملك الظاهر غازي حاكم حلب كان قد تخلى عن بالس لعمه العادل قبل موته عام 613 هـ وإن أمعنا النظر في الكتابات الموجودة

(5386/1)

على المئذنة، نجدها ثلاثا وهي من الأسفل إلى الأعلى : الكتابة الأولى كتابة نسخية وتضم اسم السلطان والمعمار؛ الكتابة الثانية وهي بالكوفية وتشير إلى تاريخ البناء؛ أما الكتابة الثالثة، فهي كوفية وتشير إلى مدائح وتعابير.

تمتاز المئذنة بالانسجام وأناقة الزخرفة الكتابية مع شكل المئذنة المثمن. ونجد في مئذنة سنجار مشابها ومعاصرا لمئذنة بالس؛ كما أنها تشبه المآذن العراقية في أسلوب بنائها الذي

كان شائعا في القرن السابق والذي كان واقعا تحت تأثير الفن الإيراني السلجوقي. إلى جانب هذه المئذنة كان يقوم جامع سال

ودولوريه تنقيبات أثرية عام 1932، أماطت اللثام عن أن الجامع كان مزينا بزخارف جصية عليها نباتات وكتابات.
يبلغ ارتفاع هذه المئذنة نحو 27 مترا (1) . ولقد أوجبت أعمال الإنقاذ في منطقة حوض الفرات نقل هذه المئذنة إلى منطقة مرتفعة بمسكنة نفسها حفاظا عليها من المياه. وقد نفذت أعمال النقل الذي تم بواسطة تقطيعها إلى قطع، ثم أعيد تركيبها في المكان الجديد. والحق يقال إن النقل تم بكفاءة عن طريق فنيي ومهندسي المديرية

---

(1) المهندس يوسف جبلي، آثار الفرات، معرض مكتشفات الحملة الدولية لإنقاذ الفرات، 1974، ص.22.

العامة للآثار والمتاحف بالطريقة نفسها التي سبق أن اتبعت في نقل مئذنة أبي هريرة مع مراعاة طول المئذنة ووزنها وقطرها وتصميم درجها الذي يختلف نسبيا عن درج مئذنة أبي هريرة (1) .
وإذا اطلعنا على ما كتب في دليل معرض المكتشفات الأثرية بحوض الفرات، وجدنا أن جهودا كبيرة بذلت في حقل الدراسات والتوثيق والأعمال الأخرى. فمن بين تلك الأعمال بناء سقائل

---

(1) المرجع نفسه والصفحة نفسها. ولمزيد من التفصيل عن مئذنة بالس / مسكنة، أنظر : الحوليات الأثرية العربية السورية، تعريب كامل عياد، المجلدات 4 و 5 (1954 و 1955).

(5389/1)

خشبية بارتفاع ثلاثين مترا، نظرا لصعوبة الحصول على رافعة آنذاك يبلغ طول ذراعها ثلاثين مترا؛ كما جرى تقطيع المئذنة إلى الفقرات ووضعت على عربات حديدية تتحرك على سكة حديدية صممت خصيصا لهذه الغاية. وجرى نقل تلك الفقرات إلى المنطقة التي اختيرت لإقامة المئذنة فيها عند منسوب يصل إلى حوالي 345 م فوق سطح البحر. وعلى الرغم من أن هذا المكان لا يبعد سوى كيلو متر واحد في خط النظر، إلا أنه كان لابد من قطع مسافة نحو ثلاثين كيلو مترا للوصول إلى المكان الجديد. وفي هذا المكان الجديد حفرت الأسس وأقيمت ركائز "

(5390/1)

البيتون" المسلح وأعيد تركيب السقائل الخشبية مرة جديدة لبناء المئذنة أو على الأصح لتركيب حلقاتها (1).

هكذا حفظت آبدة جميلة هي مئذنة مسكنة التي بناها أو جددها السلطان العادل أبو بكر الأيوبي في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. وهذه الآبدة كانت موضع دراسة مفصلة لتكوينها المعماري وزخرفتها وكتاباتها (2) . وكان يقوم بجوار المئذنة مسجد ذو طابع أموي واضح يبدو أنه

(1) يوسف جبلي، مرجع مذكور، ص.22،23.

(2) تمت قراءة شريط الكتابة الأخير الذي كان مستعصيا على الباحثين (دليل مكتشفات حوض الفرات،ص.111).

أقيم فوق مسجد أقدم، أصغر من قبل البعثة الفرنسية في الفترة ما بين (1970 – 1973). فتبين أن أحدث مراحله تعود إلى العهد الأيوبي ولم تكتشف أي معالم بيزنطية تحت هذا المسجد الأول (1) .

2– مئذنة جامع الرقة

وفي الرقة مسجد جامع له مئذنة مستديرة الشكل تقع في باحته الداخلية، وهي من أعمال نور الدين محمود الزنكي، وتشبه إلى حد كبير مئذنة أبي هريرة ومئذنة قلعة جعبر اللتين سيأتي الحديث عنهما. أحيطت المئذنة في أعلاها بشريط نباتي حجري يتضمن كتابات تشير إلى أن بانيهما هو نور الدين محمود، كما

(1) المرجع نفسه.

أشرنا، وعليها ألقابه. بنيت المئذنة بالآجر الذي يبلغ طوله نحو 23.5 سم. أما ارتفاعها، فيبلغ نحو عشرين مترا (1) . وأقيمت فوق قاعدة حجرية كلسية منحوتة جددت عدة مرات كان آخرها عام

1986 (2) .

لقد ارتبط مصير هذه المئذنة بمصير المسجد الجامع بالرقة. فكان العمران والخراب يتناوبان عليهما. ويعود بناء المسجد إلى عهد الخليفة أبي جعفر المنصور، أي إلى زمن بناء مدينة الرافقة عام 155 هـ/ 772 م (3)

---

(1) مجموعة من الباحثين، الرقة درة الفرات، دمشق، 1992، ص.314.

(2) المرجع نسفه ، ص.315.

(3) قاسم طوير، الحوليات الأثرية العربية السورية، م34، 1984، ص.60/ ب؛ الرقة درة الفرات، مرجع مذكور،ص.313.

(5393/1)

. وفيه تجتمع خصائص المسجد الرافدي (الكوفة) والمسجد الشامي – الأموي. فالأبراج نصف الدائرية في زواياه تذكر بمسجد الكوفة. أما حرمه المؤلف من ثلاثة مجازات، فتذكرنا بطراز جامع دمشق (1) . لقد توالت أعمال التجديد والترميم على هذا المسجد ومئذنته؛ إلا أنها أهمها كان ذلك الذي تم في عهد نور الدين محمود الزنكي عام561 هـ / 1159 م. وهذا ما تؤيده لوحة كتابية بالخط النسخي وتوجد في منتصف واجهة ما تبقى من الأقواس الجنوبية. وتقول : "الزاهد المجاهد المظفر المنصور نور الدين

---

(1) قاسم طوير، المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(5394/1)

ركن الإسلام والمسلمين أبو القاسم محمود بن أتابك بن أفه سنقر ناصر أمير المؤمنين. وذلك في شهور سنة إحدى وستين وخمسمائة" (1) .

يصف كريزويل جامع الرقة قائلا : "يقع الجامع الكبير في الرقة في النصف الشمالي من الرافعة، وهو يتألف من مستطيل تبلغ أطواله 108.10 x92.95 وتحيط به بقايا من الأسوار الطينية المقواة بأبراج نصف دائرية" (2)

---

(1) الرقة درة الفرات، مرجع مأثور، ص.313.

(2) Crewell, Opcit., Early Musium Architecture, P . 187..

ويورد كتاب " الرقة درة الفرات" في ص.317. أن أطول الجامع هي 110x98 سم. وهي مختلفة قليلا عما ذكره كرزويل.

(5395/1)

نجد في باحة المسجد ضريحا هو لأبي سعيد قسيم الدولة المتوفى عام 541 هـ على ما يذكره بعض المؤرخين. ويضيف البعض أن السطان السلجوقي محمود بن محمد ملكشاه بن ألب أرسلان كان قد ندبه لولاية ديار الموصل في البلاد الشامية بعد مقتل سنقر البريسقي (1) .

3- مئذنة أبي هريرة :

تقع هذه المئذنة المستديرة فوق جبل يعرف باسم جبل بنات أبي هريرة بالقرب من قرية "الكرين". وهي ترتفع بـ 287 م فوق سطح البحر (2) . ويعتقد البعض أنه بالقرب من

---

(1) الرقة درة الفرات، مرجع مذكور، ص.314.

(2) دليل مكتشفات حوض الفرات، مرجع مذكور، ص.20.

(5396/1)

موقع أبي هريرة جرت موقعة صفين المشهورة بين علي ومعاوية تولى بعدها معاوية بن أبي سفيان الخلافة الإسلامية مؤسسا بذلك الحكم الأموي (1).

مئذنة أبي هريرة مئذنة مستديرة الشكل مبنية بالقرميد الطيني، تقوم على قاعدة مربعة. ويبلغ ارتفاع هذه المئذنة نحو خمسة عشر مترا، وقطرها نحو 3.5 م؛ ويقع إلى جانبها آثار جامع دارس. وهي في ذلك تشبه مئذنة قلعة جعبر ومئذنة جامع المنصور بالرقة (2)

---

(1) Middle East Guide, Hacette, 1966. P 484

(2) قاسم طوير، الحوليات الأثرية، مرجع مذكور ، م34، 1984 ، ص.62 / ب؛ عبد القادر ريحاوي، "إنقاذ..."، مرجع مذكور، م15، ج1، ص.65.

(5397/1)

. ونظرا لأن هذه المئذنة تقع على ارتفاع 287 م فوق مستوى سطح البحر، فإنها معرضة للغرق كليا. ولذلك تطلب الأمر دراسة إمكان نقلها إلى مكان بعد دراسات مستفيضة للاقتراحات المطروحة. وقد طبقت الطريقة نفسها التي طبقت في حالة نقل مئذنة مسكنة، أي

قطعت إلى قطع حتى يتسنى بعد ذلك نقلها إلى مكانها الجديد.
ويذكر الباحث أنه جرى احتفال رسمي لذلك الغرض حضره لفيف من المسؤولين والمهتمين مساء يوم 30 آب من عام 1972.وكان الكاتب يشغل آنئذ وظيفة مدير آثار المنطقة الشمالية ومتاحفها.
وفي بدء العمل تم قص أولى فقراتها وفكها

(5398/1)

وتنزيلها في ذلك الاحتفال. وانتهى العمل من إعادة بنائها في منتصف كانون الأول عام 1973 (1) .
يذكر البعض أن المئذنة بعد إعادة إقامتها، أصبحت أحسن حالا مما كانت عليه في مكانها القديم؛ كذلك أصبحت الشاهد الأثري الوحيد الذي يمثل حضارة حوض الفرات في أحدث مدينة من مدن القطر العربي السوري. ولا شك في أن الأمر يحتاج إلى متابعة لتحسين وضع تلك المئذنة وتشجيع زيارتها؛ وإلا شعرت بالغربة والإهمال، وحينها تعود سيرتها الأولى يوم كانت تقوم فوق جبل أبي هريرة لا تؤنسها

---

(1) دليل مكتشفات حوض الفرات، مرجع مذكور، ص.21.

(5399/1)

سوى بنات أبي هريرة وتاريخ موقعة صفينالذي يعود إلى مطلع العهد الإسلامي بسوريا (1) .

4- مئذنة قلعة جعبر

عرفت قلعة جعبر باسم "قلعة دوسر". وأكبر الظن أنها بنيت في العهد

السلجوقي (القرن الخامس الهجري): أخذها السلطان ملكشاه

السلجوقي من صاحبها النميري من سابق القشيري عام 477 هـ أو

479 بعد أن قتل؛ وسلمها ملكشاه إلى سالم بن مالك بعد أن تسلم حلب منه وظلت بيد أولاده وأحفاده من

---

(1) نقيت في المكان بعثة لمدة قصيرة جدا، وكنا نأمل أن نعرف تاريخ الموقع على وجه الدقة؛ إلا أن البعثة لم تنشر أي شيء عن تنقيباتها.

(5400/1)

بعده. ويبدو أن النميري هو الذي أعطى القلعة الاسم الذي لا تزال تحمله إلى يومنا هذا. ثم أخذها السلطان نور الدين محمود الزنكي عام 564 هـ وظلت عامرة في العهدين الأيوبي والمملوكي. ويذكر أن نائب الشام المملوكي سيف الدين تنكز عندما كلف بترميمها، بذل جهودا كبيرة وأنفق أموال الخزينة بالشام من أجل ترميمها وإصلاحها. وبعد ذلك، أخذت مكانتها تضعف تدريجيا حتى عفا عليها الزمن في العصر العثماني. يتوسط القلعة جامعها الكبير الذي تقوم بجواره مئذنة مستديرة تتخذ شكل أسطوانة ترتكز على قاعدة مربعة مبنية بالآجر تنصب

(5401/1)

بطول نحو ثمان وعشرين مترا، وتعد من أجمل المآذن وأضخمها في سورية. ويوجد في أعلاها نص كتابي يشير إلى أن بانيها أو مجددها هو نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي. وهي تشبه مئذنة المسجد الجامع في مدينة الرافقة / ومئذنة أبي هريرة، وهما من القرن السادس الهجري والثاني عشر أو الثالث عشر الميلادي (1). ويرجح أن يكون هذا المسجد قد تهدم عام 658 هـ عند اجتياح المغول للقلعة والعالم الإسلامي الغربي. وأكبر

---

(1) عبد القادر ريحاوي ، "إنقاذ...." مرجع مذكور، ج1، م15، ص.65؛ دليل مكتشفات حوض الفرات، مرجع مذكور، ص 44.

(5402/1)

الظن أن القلعة ظلت خرابا فترة طويلة من الزمن حتى قام المماليك بترميمها سنة 735 هـ وبخصوص الشواهد الكتابية المتعلقة بالقلعة، فلدينا النص الذي أشرنا إليه سابقا، وهو عبارة عن نص تأسيسي يقول : " هذا ما أنشأ مولانا الملك العادل المجاهد نور الدنيا والدين، ركن الإسلام والمسلمين ، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين" (1) .

5- مئذنة الدير العتيق بدير الزور :

---

(1) أنظر عبد الرزاق ، دليل قلعة جعبر، نشر المديرية العامة للآثار والمتاحف.

(5403/1)

كان يوجد في الحي القديم من مدينة دير الزور مسجد تقوم إلى جواره مئذنة مضلعة على الأرجح (1). وكانت في الوقت الذي شاهدتها فيه في وضع جيد. إلا أنه من سوء الحظ حدث ما يحدث في كثير من المدن العربية القديمة. فيبدو أن المخططين شعروا بأن الماضي أصبح عبئًا على الحاضر، فقرروا إزالة العتيق برمته وأزيل الجامع وأزيلت المئذنة؛ فقد بذلك التراث الإسلامي في مدينة دير الزور معلما هاما من معالمه لا يمكن تعويضه (2)

---

(1) إذا لم تخن الباحث الذاكرة؛ إذ شاهدها لأول مرة منذ ما يزيد على خمسة وثلاثين عاما.

(2) من المؤسف أن هذه المئذنة والمسجد لم يوثقا لينتفع بذلك الباحثون والدارسون. إلا أن هناك نفرا من أهالي دير الزور يحتفظ ببعض الصور للمئذنة.

(5404/1)

مناقشة

مما سبق يتبين أن أبدان المآذن التي تحدثنا عنها بنيت بالقرميد المشوي وكذا قواعدها، فيما عدا قاعدة مئذنة الرقة التي بنيت من الحجر. كما نلاحظ أن مئذنة الرقة ومئذنة مسكنة منفصلة عن الجامع التابع لها. ومداخل المآذن كلها مرتفعة، في حين أن مئذنة مسكنة مدخلها منخفض قريب من الأرض. ففي الحالة الأولى، يصعد إلى المئذنة من السطح الخاص بالجامع أو بواسطة سلم..أما في الحالة الثانية، فيصعد المؤذن مباشرة من المكان المنخفض من الأرض. وقد زينت أكثر هذه المآذن بتزيينات كتابية، وفي بعض الأحيان بأشكال إنشائية

(5405/1)

أو هندسية وبفتحات (طلاقات) سهمية لجلب النور والهواء؛ ويمكن استخدامها في بعض الأحيان فتحات لإطلاق السهام. ولم يقتصر استعمال القرميد في البناء على بناء المآذن : فقد بنيت به المساجد والأسوار والبوابات وغيرها لأسباب مر ذكرها. وهو تقليد نجده في أبراج سور الرقة وفي باب بغداد وقلعة جعبر وأسوار مسكنة.

والمادة الأساسية التي يصنع منها القرميد متوافرة في منطقة الفرات. لذلك أقيمت الأفران لشي القوالب الطينية بعد تشكيلها. وهذا ما قامت به المديرية العامة للآثار والمتاحف بالجمهورية العربية السورية عند تصديها

(5406/1)

بكفاءة لترميم الأوابد الطينية في منطقة الفرات الأوسط، كأسوار الرقة وباب بغداد العائد للسور نفسه، وقلعة جعبر وهرقلة ومئذنة مسكنة ومئذنة أبي هريرة وغيرها. إذ تم إقامة فرنين أحدهما بقلعة جعبر، والآخر بهرقلة لتزويد ورشات الترميم بالقرميد المطلوب بعد شيه. وقد جاء مطابقا في أوصافه وتكوينه وقياساته. وقد قام الباحث بزيارتهما ومشاهدة إنتاجهما. كما أن بعض المؤسسات الحكومية قامت بصناعة بعض أنواع القرميد المتطور للاستفادة منه في أعمال البناء والتزيين.

خاتمة

(5407/1)

إن هذا النمط من المآذن شاع في منطقة الفرات الأوسط في المنطقة الممتدة بين دير الزور جنوبا ومسكنة شمالا. وقد يكون ذلك لأسباب أتينا على ذكرها سابقا، ومنها المناخ الحار صيفا والبارد شتاء؛ كما أنه حارا أحيانا بالنهار، رطب ليلا. كما أن نقص الحجر المناسب والمقاوم كان سببا في ذلك يضاف إلى ذلك السبب البيئي. و هناك أمر آخر يمكن استدراكه – ويتعلق بتاريخ هذه المآذن – وهو أن معظمها أقيم في العهدين السلجوقي والأيوبي، وهما عهدان يتمم أحدهما الآخر؛ ناهيك عن أن العهد الأول حمل معه كثيرا من التقاليد المعمارية

(5408/1)

الرافدية إلى سورية. وقد استفاد العهد الثاني من ذلك

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : هل بالإمكان صيانة هذا النوع من المنشآت ؟ بالطبع، يمكن ذلك بكل سهولة. فمن قام بالأعمال الصعبة التي تتلخص في نقل مئذنتي مسكنة وأبي هريرة بوسائل غير مألوفة وغير مكلفة، يستطيع أن يرمم تلك المنشآت ويصونها، ويدخل في إطار الصيانة والتوثيق الذي يرى الباحث ضرورة القيام به وفق الأساليب العلمية المتفق عليها في مثل هذه الحالة. فهذه الأوابد، من مآذن وغيرها، تستحق أن يحافظ عليها لتظل شواهد حية على فترة زمنية هامة في تاريخ العرب

(5409/1)

والمسلمين تكاد تكون من ألمع فترات تاريخهم. فلولا انتصارتهم التي حققوها بفضل تعاونهم وتفاعلهم مع عقيدتهم، لكان العالم العربي الإسلامي مقاطعة صليبية إفرنجية، وبالتالي لانحسر الإسلام عن رقعة كبيرة من الأرض الإسلامية.

المراجع

سوبرديل، جانيين، الحوليات الأثرية السورية، مجلد 3، ج1 و 2، 1953، بام 4 و 5، 1954 / 1955.

ريحاوي، عبد القادر، الحوليات الأثرية السورية، مجلد 19،1969.

طوير قاسم، الحوليات الأثرية السورية، مجلد 34، 1984.

زقزق عبد الرزاق، دليل قلعة جعبر، مطبوعات المديرية العامة للآثار والمتاحف.

(5410/1)

مجموعة من الباحثين، دليل مكتشفات حوض الفرات، النسخة العربية، 1974.

مجموعة من الباحثين، الرقة درة الفرات، دمشق، 1992.

شافعي فريد، العمارة العربية في مصر الإسلامية عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، م1، 1970.

Raymond A., et Paillet J.L, Balis II, Damas, 1955.

Creswell K.A.C.,A Short Account Of Early Muslim Architecture, A Pelican Book, 1958.

.1968Middle East Guide,hacette,

.1987Bloom J., Minaret symbol of Islam, Oxford Univ.,

(5411/1)

المؤرخ المصري الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد (1921 ـ 1999 م)

أضواء على حياته مؤلفاته

... ... الدكتور محمد مؤنس أحمد عوض

... ... كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ـ القاهرة

... في العشرين من يناير من عام 1999 م رحل من عالمنا الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد، أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس، بعد حياة حافلة بالتأليف في مختلف مراحل تاريخ المسلمين خاصة خلال مرحلة العصور الوسطى. ولذا فمن الأهمية بمكان أن نخصص الصفحات التالية للتعريف بذلك المؤرخ الكبير وإسهاماته المتعددة في

(5412/1)

الكتابة التاريخية.

... ولد الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد في مدينة الإسكندرية عام 1921 م، وتدرج في مراحل التعليم المختلفة حتى حصل على شهادة الليسانس الممتازة من قسم التاريخ بكلية الآداب ـ جامع الإسكندرية عام 1945 م، ثم أوفد في بعثة علمية فحصل على

دكتوراه الدولة (Doctorat d'Etat) في التاريخ الإسلامي من جامعة باريس (La Sorbonne) بمرتبة الشرف الأولى عام 1951، وعاد إلى مصر ليعين بقسم التاريخ بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس، وتدرج في وظائف هيئة التدريس إلى أن حصل على الأستاذية في عام 1967 م، ثم صار

(5413/1)

رئيساً لقسم التاريخ منذ عام 1972 حتى عام 1978 م، وعمل أستاذاً متفرغاً بالقسم نفسه منذ عام 1981 إلى عام 1999 م. كذلك يذكر عن الراحل الفاضل أنه عمل مديراً لمركز الدراسات البردية من عام 1981 إلى 1983 م. ثم خبيراً وطنياً بالمركز المذكور منذ عام 1985 إلى عام 1999 م، كذلك كان عضواً في المجالس القومية المتخصصة ولجان الترقية العلمية لأعضاء هيئات التدريس بالجامعات المصرية.

... ونجد أن الراحل الفاضل أرسل خلال حياته العلمية الحافلة في إعارة إلى جامعة بيروت العربية من 1964 إلى 1966 م، وإلى جامعة الجزائر

(5414/1)

فيما بين 1967 و1970 م، كما دعته هذه الجامعة الأخيرة في عام 1974 م أستاذاً زائراً بها، وكذلك فعلت جامعة بغداد عام 1975 م وجامعة الموصل في العام نفسه. وعمل أستاذاً زائراً لجامعة هولواي الملكية بلندن (Royal Holloway Collège University of

London).

... كما قام بإلقاء محاضرة في مدرسة اللغات الشرقية بلندن عام 1977 م، وعمل أستاذاً زائراً لجامعة الخرطوم في عام1980 م، ووجهت له الدعوة لإلقاء محاضرتين في أبو ظبي والعين بدولة الإمارات العربية المتحدة من جانب وزارة الدفاع فيها في عام 1984 م، كذلك عمل

(5415/1)

أستاذاً زائراً لجامعة اليرموك بالأردن خلال فصل دراسي من عام 1990 م.

... وهكذا نجد أن مؤرخنا الراحل تنقل في العديد من الأقطار العربية أستاذاً زائراً ومحاضراً وأمن نشاطه العلمي إلى إنجلترا في الاتجاه نفسه. ولا نغفل هنا حقيقة مهمة، وهي أنه أرسل في مهام علمية إلى تركيا وفرنسا والنمسا وإيطاليا من أجل البحث في أرشيفات تلك الدول والإفادة من ذلك في مؤلفاته التي قام بإعدادها. ومنطقي بعد كل ذلك الجهد العلمي الكبير أن يحصل مؤرخنا الراحل على عدد من مظاهر التكريم، وهي كالتالي:

(5416/1)

... أولا: وسام جمهورية مصر العربية من الدرجة الثانية؛

... ثانياً: درع القوات المسلحة بدولة الإمارات العربية المتحدة بأبي ظبي؛

... ثالثاً: درع جامعة الإسلاميات في لبنان بمناسبة المؤتمر الخاص

بكتابة التاريخ الإسلامي الذي عقد في بيروت خلال المدة من 14 إلى 16 نوفمبر 1997 م.

... رابعاً: منح المؤرخ الكبير شهادة التاريخ العربي في فبراير عام 1990 م من جانب الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب؛

... خامساً: شهادة تقدير بمناسبة ندوة "الأندلس: الدرس والتاريخ" منحته إياها كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

(5417/1)

بالتعاون مع رابطة الجامعات الإسلامية، وذلك في أبريل عام 1994 م.

... ومن ناحية أخرى، أود أن أوضح للقارئ العزيز أن قيمة الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد تأتي من قيامه بكتابة مؤلفات التاريخ الإسلامي منذ البعثة النبوية حتى نهاية حكم المماليك بمصر. وذلك يعني أنه قدم محاولة ـ لعلها الأخيرة من جانب مؤرخ مصري منفرد في أواخر هذا القرن ـ للتأليف عن تاريخ المسلمين بصورة مسحيّة عامة شاملة سواء على المستوى السياسي والحضاري ـ وكل ذلك من خلال محاولات وإسهامات جادة بالاعتماد على المصادر العربية الأصيلة وكذلك

(5418/1)

الدراسات المتخصصة من جانب المؤرخين الغربيين، مع عدم إغفال الجهد البارز الذي قام به الأستاذ الدكتور أحمد شلبي الذي ألف موسوعته القيمة الخاصة بالتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.

... على أية حال، فها هي قائمة بمؤلفات الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد، أقدمها لكافة المهتمين بدراسة التاريخ الإسلامي.

... (أ) الكتب

... (نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، الجزء الأول، القاهرة، طبعة أولى 1953، وثانية 1973، وثالثة 1985. (مكتبة الأنجلو المصرية).

(5419/1)

... (مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي، وتعريف بمصادر التاريخ الإسلامي ومنهاجه الحديث، القاهرة، طبعة أولى 1953، وثانية 1964، وثالثة 1971، ورابعة 1986. (مكتبة الأنجلو المصرية).

... (السجلات المستنصرية: سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه، إلى دعاة اليمن وغيرهم، قدس الله أرواح جميع المؤمنين، تقديم وتحقيق، القاهرة، طبعة أولى 1954، وثانية 1985. (دار الفكر العربي).

(5420/1)

... (نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، دراسة شاملة لنظم القصر الفاطمي ورسومه، الجزء الثاني، القاهرة، طبعة أولى 1955، وثانية 1977، وثالثة 1985. (مكتبة الأنجلو المصرية).

... (التاريخ السياسي للدولة العربية، عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين، الجزء الأول، القاهرة، طبعة أولى 1956، وثانية

1960، وثالثة في بيروت 1965، ورابعة في القاهرة 1966، وخامسة 1975، وسادسة 1979، وسابعة 1983. (مكتبة الأنجلو المصرية؛ مكتبة الجامعة العربية ببيروت).

(5421/1)

... (التاريخ السياسي للدولة العربية، عصر الخلفاء الأمويين، الجزء الثاني، القاهرة، طبعة أولى 1956، وثانية 1960، وثالثة في بيروت 1965، ورابعة في القاهرة 1966، وخامسة 1975، وسادسة 1979، وسابعة 1983. (مكتبة الأنجلو المصرية، مكتبة الجامعة العربية ببيروت).

... (الناصر صلاح الدين الأيوبي، القاهرة، طبعة أولى 1858، وثانية في بيروت 1967، وطبعة ثالثة شعبية بالقاهرة 1987. (مكتبة الأنجلو المصرية؛ مكتبة الجامعة العربية ببيروت؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب).

(5422/1)

... (الحاكم بأمر الله، الخليفة المفترى عليه، القاهرة، طبعة أولى 1959، وثانية 1983. (مكتبة الأنجلو المصرية).

... (الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى، بالاشتراك مع عليّ البنا، تصنيف وتقديم، القاهرة، طبعة أولى 1960، وثانية 1967، وثالثة 1985. (دار الفكر العربي).

... (الإمام المستنصر بالله الفاطمي، القاهرة، 1960. (مكتبة الأنجلو المصرية).

... (تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، ط 1، 1963؛ 2، 1973؛ 3، 1974؛ 4، 1977؛ 5، 1987. (مكتبة الأنجلو المصرية).

(5423/1)

... (نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، الجزء الأول، القاهرة، ط 1، 1965؛ ط 2، 1979. (مكتبة الأنجلو المصرية).

... (العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، بيروت، 1969، (نفدت الطبعة). (مكتبة الجامعة العربية).

... (ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر، التاريخ السياسي، الإسكندرية، ط 1، 1968, (دار المعارف بالإسكندرية)؛ القاهرة، ط 2، 1976؛ ط 3، 1985. (مكتبة جامعة عين شمس)؛ ط 4، 1986. (دار الفكر العربي).

(5424/1)

... (تاريخ أفريقيا، تأليف شارل .أندريه جوليان، تقديم ومراجعة، القاهرة، 1968. (نفدت الطبعة).

... (العصر العباسي الأول أو القرن الذهبي في تاريخ الخلفاء العباسي، التاريخ السياسي، الجزء الأول، القاهرة، ط1، 1973؛ ط 2، 1979؛ ط 3، 1984. (مكتبة الأنجلو المصرية).

... (طومان باي .آخر سلاطين المماليك في مصر، دراسة الأسباب التي أنهت حكم دولة سلاطين المماليك، القاهرة، 1978. (مكتبة الأنجلو المصرية).

... (ذيل على مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي، دراسة لمفهوم التاريخ عند المسلمين، ودور المؤرخ الإسلامي

(5425/1)

الحديث، القاهرة، 1979. (مكتبة الأنجلو المصرية).

... (جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها، حققه Wustenfeld، ترجمة وتقديم وتقديم، بالاشتراك مع عبد المحسن رمضان، القاهرة، 1981. (مكتبة الأنجلو المصرية).

... (خواطر سائح مصري في رحلة إلى إسبانيا في الماضي والحاضر، القاهرة، 1983. (مكتبة الأنجلو المصرية).

... (التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر، دراسة تحليلية للازدهار والانهيار، القاهرة، 1984 ـ 1988. (مكتبة الأنجلو المصرية).

(5426/1)

... (الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، التاريخ السياسي، القاهرة، ط 1، 1995؛ ط 2، 1997. (مكتبة دار الفكر العربي).

... (مذكرات مبعوث مصري إلى باريس، حوار بين نحن والآخر. (تحت الطبع).

(ب) المقالات باللغة بلفرنسية

– Magued, « Le personnel de la Cour Fatimide en

Egypte », in Majallat al-Aadab, Université Aïn Shems, .1955

La fonction de juge suprême dans l'Etat Fatimide en » –

.1960Egypte », L'Egypte contemporaine, Janvier

(5427/1)

De quelques juridictions Fatimide en Egypte », » –

.1961L'Egypte contemporaine, Juillet,

L'organisation financière en Egypte sous les » –

.1962Fatimides », L'Egypte contemporaine, Avril,

éd; pp. 2L'encyclopédie de l'Islam (art «Hâfiz »), … –

.57–56

La Divination de Calife Hâkim, Résumé des » –

Communications XXIX », Congrès international des .1973Orientalistes,

Les Origines persanes dans le Cérémonial de la cour … –

.1977Abbaside à Baghdad, Téhran,

(5428/1)

Science papyrologique arabe, pour la première » –

.1983fois... » Congrès International à Naples ,

Massignon: Histoire », Colloque à l'Université de » … –

.1983Caire,

Le Papyrus était la cause de l'expansion du droit de » –

.1984l'Antiquité », Congrès International du Caire,

(ج) المقالات باللغة العربية

... (»العلاقات بين بغداد والقاهرة في عهد الفواطم«، مجلة الرسالة، العددان 703 **و**704**، ديسمبر** 1946.

... » (حكم المفكرين الغربيين على محمد علي«، مجلة الرسالة، العدد 683**، أغسطس** 1946.

(5429/1)

... » (أصل حفلات الفاطميين في مصر«، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الثاني، 1954**، العددان** 1 **ـ** 2**، صص.** 253 **ـ** 257.

... » (ما ساهم به المؤرخون العرب في المائة سنة الأخيرة في دراسات التاريخ العربي وغيره«، إشراف هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية، بيروت، 1959**، ونشرت في حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس، المجلد السادس،** 1961.

... » (أسس السياسة الحربية للفاطميين في مصر«، مجلة المعهد الثقافي بالجزائر، جوان ـ جوليه، 1968.

(5430/1)

... » (موقف المصريين من حكم المماليك في العصور الوسطى«، فصلة من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس، العدد 2**،** 1969.

... » (أضواء على البرامكة ونكبتهم«، محاضرة ألقيت في الجمعية

التاريخية المصرية، ونشرت بمجلتها في 1973.

... » (البارود والمدفع والبندقية ـ اختراعات مصرية «، في مجلة آخر ساعة الأسبوعية، العدد 2044، 26 ديسمبر 1969. (دراسة تاريخية).

... » (قال عماد الدين الأصفهاني: "المصريون السمر وحدهم خلصوا القدس من الصليبيين" «، بحث ألقي في الجمعية التاريخية المصرية؛ ونشر في مجلتها؛ ونشر ملخص له في مجلة

(5431/1)

آخر ساعة، العدد 2037، 7 نوفمبر 1973؛ وفي أعداد جريدة الوفد، 82 و90 و102 و114، 1985 ـ 1986. (دراسة تاريخية).

... » (قلم الحبر النباع ـ من اختراع الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله «، في مجلة آخر ساعة، العدد 2043، 19 ديسمبر 1973، وفي جريدة الوفد، العدد 73، الخميس 18 يوليو 1985. (دراسة تاريخية).

... » (كل هؤلاء الأنبياء خرجوا من الموصل «، في مجلة آخر ساعة، العدد 2120، 11 يونيه 1975.

... » (مكان عبد الرحمن الجبرتي بين المؤرخين المسلمين «، بحث ألقي في ندوة عبد الرحمن الجبرتي وعصره، نظمها المجلس الأعلى

(5432/1)

للفنون بالاشتراك مع الجمعية التاريخية المصرية، في مايو 1974. وقد نشر المقال بعدد مجلة الهلال، يوليو 1974، ص. 20 وما بعدها؛

كما نشر في كتاب خاص بهذه المناسبة، 1976.

... » (المصطلحات التاريخية عند الماوردي في كتابه "الأحكام السلطانية"«، بحث ألقي في ندوة عن الماوردي: الاحتفال بمرور ألف عام على مولد أبي الحسن الماوردي بمناسبة العيد الفضي لجامعة عين شمس، وقد نشر في كتاب خاص بهذه المناسبة، 1976؛ ونشر في جريدة المساء، العدد 4327، الأحد 26 سبتمبر 1976. (دراسة تاريخية).

(5433/1)

... » (عصر السيوطي«، بحث ألقي في ندوة عن جلال الدين السيوطي، نظمها المجلس الأعلى للفنون بالاشتراك مع الجمعية التاريخية المصرية، في مارس 1976؛ وقد نشر في كتاب خاص بهذه المناسبة، ونشر في جريدة المساء، العدد 7146، الخميس 25 مارس 1978. (دراسة تاريخية).

... » (أقفال ومفاتيح الكعبة الشريفة وأهميتها في تاريخ مصر الإسلامية«، بحث ألقي في ندوة كلية الآثار بجامعة القاهرة. وقد نشر في كتاب خاص بهذه المناسبة، عام 1976، ونشر له ملخص في مجلة آخر ساعة، العدد 2156، 18 فبراير 1976. (دراسة تاريخية).

(5434/1)

... » (امرأة تتزعم مظاهرة أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمي«، مقال نشر في الجمعية التاريخية، عام 1976، ونشر في جريدة المساء، الخميس 21 أكتوبر 1976، العدد 7352.

... » (مفهوم التاريخ الإسلامي في العصر الحديث«، بحث ألقي في مؤتمر الحضارة الإسلامية بين الأصالة والتجديد في بيروت، عام 1975؛ ونشر في مجلة المؤرخ العربي، بغداد، 1977؛ وفي جريدة المساء، العدد 7333، السبت 12 أكتوبر 1976.

... » (أضواء جديدة على معركة عين جالوت«، بحث ألقي في الجمعية التاريخية المصرية، عام 1977؛ ونشر في جريدة المساء، العدد

(5435/1)

7223، السبت 12 يونيه 1976. (دراسة تاريخية).

... » (العمران ـ نظرية لابن خلدون في تفسير التاريخ«، بحث ألقي في ندوة الحضارة الإسلامية، بمناسبة مرور عام على وفاة المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد فكري، ونشر في كتاب خاص بهذه المناسبة.

... » (تحقيق عن ندوة الحضارة الإسلامية في ذكرى وفاة المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد فكري«، نشر في مجلة آخر ساعة، مارس 1977. (دراسة).

... » (روابط الإيمان بين مصر وأفريقيا«، بحث نشر في مجلة المؤرخ العربي، العدد الرابع، 1977.

(5436/1)

... » (البارود وأثره في تغيير ميزان القوى في الشرق الأوسط في القرن السادس عشر الميلادي«، بحث ألقي في ندوة الحضارة، نظمها مركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس، ديسمبر 1976،

ونشر في كتاب خاص عام 1977.

... » (سياسة الفاطميين في الخليج العربي، مستمدة من السجلات المستنصرية ـ وثائق فاطمية معاصرة «، بحث ألقي في مؤتمر الدراسات التاريخية لشرقي الجزيرة العربية بقطر، مارس 1977؛ ونشر في كتاب خاص بهذه المناسبة.

(5437/1)

... » (منهجية علي بهجت في كتابة التاريخ «، بحث ألقي في ندوة الجمعية التاريخية المصرية عام 1978؛ ونشر في كتاب خاص بهذه المناسبة.

... » (منهجية جديدة لابن خلدون في علم التاريخ «، بحث نشر في مجلة المؤرخ العربي، تونس، 1979.

... » (العالم الهجري وتقويمه «، مجلة الكويت، العدد 2، نوفمبر 1980. (دراسة تاريخية).

... » (علم البردي العربي لأول مرة «، بحث ألقي بالعربية في أول ندوة دولية عن البردي نظمها مركز الدراسات البردية بجامعة عين شمس عام 1983؛ ونشر في كتاب خاص مع مقالات أخرى صدر عن المركز عام 1989؛ وألقي

(5438/1)

بالفرنسية في المؤتمر الدولي السابع عشر لعلم البردي بنابولي، 1983.

... » (مدينة القاهرة «، جريدة الوفد، عدد 274، الخميس 8 أغسطس

1985. (دراسة تاريخية).

... » (البردي العربي .إعادة اكتشاف التراث العربي المجهول... الموجود«، مقال بجريدة الأهرام، العدد 36059، الجمعة 30 أغسطس 1985.

... » (موقف الروم العرب في صدر الإسلام«، بحث ألقي في المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام في صدر الإسلام؛ ونشر في كتاب خاص عام 1987؛

... ونشر في جريدة الوفد، أعداد 116، 117، 118، 118، عام 1986.

(5439/1)

... » (رمضان المعظم في مصر«، جريدة الوفد، العدد 47، الأحد 3 مايو 1987. (دراسة تاريخية).

... » (رمضان في الجاهلية والإسلام«، جريدة الوفد، العدد 57، الأربعاء 13 مايو 1987. (دراسة تاريخية).

... » (موكب رمضان في مصر أيام الفاطميين«، جريدة الوفد، العدد 61، الثلاثاء 18 مايو 1987. (دراسة تاريخية).

... » (موكب الخليفة الفاطمي في رمضان«، جريدة الوفد، العدد 68، الثلاثاء 26 مايو 1987. (دراسة تاريخية).

... » (أطباق الحلوى والذهب: هدية الخليفة الفاطمي إلى كبار موظفي الدولة في رمضان«، جريدة الوفد، العدد 69،

(5440/1)

الأربعاء 27 مايو 1987. (دراسة تاريخية).

... » (سوق السلاح ـ أشهر شوارع القاهرة التاريخية «، جريدة الوفد، العدد 196، الخميس 3 ديسمبر 1987. (دراسة تاريخية).

... » (مادة تاريخية عن: سد مأرب، لحساب التلفزيون في دول الإمارات العربية المتحدة لعام 1987 ـ 1988«. (لم تنفذ).

... » (حليّ الكعبة الشريفة «، بحوث في أربع مقالات آخرها مقالة متحف لكنوز الكعبة الشريفة في إستانبول، نشرت في جريدة الوفد اليومية، أبريل 1988.

(5441/1)

... » (الخبر التاريخي عند المسلمين «، بحث ألقي في ندوة بغداد، بعنوان: مدرسة عربية في فهم التاريخ وكتابته (نشر مع بحوث أخرى في مجلة المؤرخ الغربي، بغداد 1988)؛ كما كتب تقرير عن الندوة، بعنوان: "قيام مدرسة عربية في التاريخ وكتابته"، نشر في جريدة الوفد، العدد 204، الخميس 4 فبراير 1988.

... » (حكاية عيد اسمه شم النسيم «، دراسة تاريخية نشرت في جريدة الوفد، العدد 342، الاثنين 11 أبريل 1988. (في صفحة كاملة).

(5442/1)

... » (مصر وعُمان في وحدة سياسية ومذهبية واقتصادية في أيام الخلافة الفاطمية، بالاعتماد على السجلات المستنصرية «، محاضرة ألقيت في الجمعية التاريخية المصرية، 1988. (لم تنشر بعد).

وألقيت بحثاً في ندوة جامعة القاهرة، أبريل 1993. (لم تنشر بعد).

... » (جزيرة كريت بين الإخشيديين والفاطميين والروم«، بحث ألقي في ندوة تونس 1989. (نشرت مع أبحاث أخرى في عدد خاص بعنوان: الكراسات التونسية، فصل الثلاثة أشهر الأولى والثانية لسنة 1993، ص. 65 وما بعدها).

(5443/1)

... » (الأسرة المصرية من خلال البردي العربي«، محاضرة ألقيت في الجمعية التاريخية المصرية 1989. (لم تنشر بعد)؛ وملخص لها في ندوة مركز الدراسات البردية بجامعة عين شمس 1991؛ ونشر في مجلة المركز، العدد 9، القاهرة 1992؛ وملخص آخر لها في كتاب أوراق في التاريخ والأدب، مُهدى إلى نقولا زيادة في مناسبة عيد ميلاده الخامس والثمانين، ط لندن، 1992.

... » (الضياع الأموية في العصر العباسي«، ندوة تاريخ بلاد الشام في عام 1990؛ نشر البحث في مجلة المؤرخ العربي، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، العدد الأول،

(5444/1)

المجلد الأول، مارس 1993، صص. 109 ـ 170.

... » (النصوص البردية العربية في أقسام التاريخ«، ندوة في رحاب جامعة عمان بالأردن (أُجلت بسبب حرب الخليج)، ثم أُعيدت الندوة، 21 ـ 23 مارس 1994؛ ونشرت في مجلة المؤرخ العربي

ببغداد، العدد 53، 1996، صص. 76 ـ 88. ثم ألقيت في مركز البرديات، ديسمبر 1994، بعنوان: "النصوص البردية في درس علم التاريخ وعلوم أخرى"، ونشرت في مجلة الدراسات البردية، العدد 3، القاهرة، 1996، مع ملخصها بالفرنسية، صص. 103 ـ 104 ـ 137 ـ 151.

(5445/1)

... » (علاقة مصر التجارية بالبندقية في حوض البحر المتوسط في وثائق أرشيف البندقية ـ وقت دولة سلاطين المماليك«، بحث لندوة قسم التاريخ بجامعة القاهرة، مارس 1991 ـ لم تنشر ـ وأرسل لندوة تاريخ حضارة العصور الوسطى في الإسكندرية، 24 ـ 25 أبريل 1994، في ذكرى أ. د. جوزيف نسيم يوسف. (لم ينشر).

... » (الفاطميون مصريون«، مجلة الهلال، يونيه 1991.

... » (الإبداع عند المؤرخين المسلمين إضافة في منهجية علم التاريخ«، بحث ألقي في ندوة التاريخ بين التسجيل والإبداع، نوفمبر 1991؛ مجلة التاريخ العربي، العدد (3)،

(5446/1)

1998، صص. 179 ـ 185.

... » (دور المصريين في البحرية الإسلامية في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، من خلال وثائق البردي العربي«، بحث ألقي في ندوة مركز الدراسات البردية؛ نشر بالعربية، في مجلة المركز، العدد 9، 1993، صص. 365 ـ 369. أما ملخصه بالإنجليزية، فلم ينشر

بعد؛ وألقي في ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة مع زيادات فيه، نوفمبر 1414 هـ/ 1993؛ نشر مع غيره في كتاب خاص بالندوة، صدر في القاهرة، صص. 271 ـ 277.

(5447/1)

... » (إنجازات الفاطميين الحضارية في مصر، من خلال كتاب "سفر نامة"، للرحالة الفيلسوف ناصر خسرو«، بحث ألقي في ندوة العصور الوسطى، 30 أكتوبر ـ 1 نوفمبر 193، نظمها قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة المنيا. (لم ينشر بعد).

... » (منطقة الأزبكية الخضراء، مشروع عمراني مستقبلي كبير، خرج من حوائط القاهرة، في زمن دولة سلاطين المماليك«. (بحث قُبل للإلقاء والنشر في المؤتمر العاشر لمنظمة المدن العربية الذي عقد في مدينة دبيّ بدولة الإمارات العربية المتحدة، خلال الفترة 3 ـ 7 أبريل 1994؛ ونشر مع أبحاث المؤتمر

(5448/1)

الأخرى في ثلاثة مجلدات ضخمة، من إصدارات المعهد العربي لإنماء المدن بالسعودية، حيث يقع البحث في المجلد الثاني، من صفحة 1193 وما بعدها، مع رسم تصوري للمشروع من واقع المصادر)؛ كما ألقي البحث في محاضرة عامة في افتتاح الموسم الثقافي للجمعية المصرية، في يوم الأحد الموافق 101995/29، مع زيادات وتعديلات، نشر في جريدة الوفد اليومية، في العددين 2741 ـ 1995 و2774 ـ 1995، بعنوان: "مشروع أزبك القديم، هل نعيد

إحياء القاهرة، أمام فوضى قاهرة العشرين"، وبعنوان: مشروع أبك السكاني؛ قضى على عشوائيات القاهرة

(5449/1)

القديمة".

... » (النص (تولية الإمام) في خلافة الفاطميين والآثار المترتبة عليه«، بحث في الندوة العربية الأولى حول الزج بالإسلام في المعترك السياسي، المزمع عقدها بالجماهيرية العظمى. (أرسل البحث، ولم تنفذ الندوة، منذ مارس 1992).

... » (بيت المقدس بين الفاطميين والسلاجقة«، بحث للمؤتمر السادس لتاريخ بلاد الشام (العصر السلجوقي)، من 22 إلى 26 أكتوبر 1994. (أرسل البحث ولم تقم الندوة).

... » (وثيقة عربية نادرة في أرشيف البندقية«، بحث لندوة اتحاد المؤرخين العرب في الفترة 28 ـ 29/ 11/ 1994. نشرت في مجلة

(5450/1)

المؤرخ العربي، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، العدد 3، المجلد الأول، مارس 1995، ص. 207 وما بعدها.

... » (الأمن التاريخي العربي في منهجيته الحديثة«، ضمن ندوة جامعة عين شمس، في الفترة 28 ـ 1994/11/30. (سوف يصدر مع أبحاث أخرى في كتاب خاص).

... » (الدور البارز للعسكر المصري في استرداد القدس من

الصليبيين»، لندوة فلسطين عبر عصور التاريخ، 4 ـ 5 نوفمبر 1995. بحث ألقي في مركز البحوث والدراسات التاريخية، بكلية الآداب بجامعة القاهرة. (سوف ينشر مع بقية الأبحاث).

(5451/1)

... » (دور المصريين في تحرير القدس»، ندوة جامعة أسيوط، مركز الدراسات والمستقبل، 29 ـ 30 أكتوبر 1996م.

... » (خمس وثائق نادرة تبين ارتباط إقليم الخليج بمصر في عهد الخليفة المستنصر»، ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة في الفترة من 23 إلى 25 نوفمبر 1996 م.

... » (المسألة القومية في بحوث التاريخ الإسلامي»، ندوة الجامعة الإسلامية في لبنان خلال الفترة من 14 إلى 15 نوفمبر 1997 م.

... » (توثيق استرداد الفاطميين للمغرب بعد انفصاله عنهم؛ من واقع السجلات المستنصرية، وهي وثائق فاطمية معاصرة»، لندوة اتحاد

(5452/1)

المؤرخين العرب بالقاهرة من الفترة 26 إلى 27 نوفمبر 1997 م.

... » (نقولا زيادة مؤرخاً»، بحث ألقي في مهرجان تكريم المؤرخ الكبير المذكور لبلوغه التسعين نظمته مؤسسة الأوديسية في الجامعة الأمريكية ببيروت في 26 فبراير 1998 م.

... (ومن المرجح أن المقالة المذكورة آخر ما كتب مؤرخنا الراحل، إذ اعتلت صحته في أواخر أيامه وانصرف إلى أمر العلاج.

... (الموسوعة الفلسطينية، مقالات:» صلم مآب «،» يبني أو أبني «،
»داثن أو الذاثنة «،» بيسان «،» فحل «،» علقمة بن محرز الأعور «.

(5453/1)

... (الموسوعة الأفريقية، مقالات: »المعز لدين الله «، »جوهر
الصقلي «، »النعمان بن حيون «، »العزيز بالله «، »ابن كلس «،
»الحاكم بأمر الله «، »ست الملك«، »المستنصر بالله «، »طلائع بن
رزيك«.
... (المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بعمان بالأردن، نشر
بحثاً بعنوان: "التعليم عند الفاطميين".
... (موسوعة الحضارة الإسلامية بعمان بالأردن، "الآمر بأحكام الله".
... (مشروع لكتابة تاريخ الأمة العربية. (المنظمة العربية
للتربية والثقافة والعلوم، ومقرها تونس) بموضوع: "الخلافة
الفاطمية"، ويقع في 9 صفحات.

(5454/1)

... (الموسوعة الإسلامية التركية (Islâm Ansiklopedisi)، بمادة
عن: "عيسى بن موسى".

... ولديّ عدد من الملاحظات عن تلك القائمة الببليوغرافية لمؤلفات
مؤرخنا الراحل، وهي كالآتي:
... 1 ـ بدأ مؤرخنا الكتابة التاريخية منذ وقت مبكر، وذلك في عام
1946 م عندما نشر مقالاً في مجلة الرسالة عن العلاقات بين بغداد

والقاهرة في عهد الفواطم، وكان ذلك في العام الثاني لتخرجه من كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية وحصوله على الليسانس الممتازة في عام 1945 م.

(5455/1)

... 2 ـ من الملاحظ أن مؤرخنا جعل اهتمامه الأكبر تناول تاريخ مصر الإسلامية الفاطمية والأيوبية والمملوكية، وخاصة العصر الفاطمي الذي هو في الأول تخصصه العلمي الأول الذي ساهم فيه بأطروحته للدكتوراه عن نظم الفاطميين ورسومهم في مصر بإشراف كل من ماريوس كنار وليفي بروفنسال وهما من كبار المستشرقين الفرنسيين.

... 3 ـ ساهم الراحل الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد في مجال الكتابة التاريخية عن الحروب الصليبية. ونجد مثالاً وضاحاً على ذلك في صورة كتابة العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، وكذلك كتابه عن

(5456/1)

الناصر صلاح الدين الأيوبي حيث عمل على إبراز عصر الحروب الصليبية وجهاد المسلمين في مواجهة الغزاة الصليبيين.

... 4 ـ اهتم مؤرخنا بأثر منهجية الكتابة في التاريخ الإسلامي. ولذلك خصص دراستين صغيرتين حجماً كبيرتين أهمية هما: "مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي"، وّالذيل على المقدمة". وقد تنبه إلى أهمية التأليف في هذا المجال منذ وقت مبكر، فأفاد بذلك طلاب

الدراسات العليا من الذين خاضوا غمار الكتابة التاريخية في المجال المذكور، وهو في ذلك كله يشارك قلة من المؤرخين المصريين المحدثين الذين اهتموا بتأليف دراسات

(5457/1)

عن منهجية الكتابة في التاريخ الإسلامي مثل الأستاذة الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف التي ألفت كتاباً بعنوان "مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه"، وقد صدر بالقاهرة عام1960 م. ومع ذلك، فمن الإنصاف أن نقرر أن الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد كانت له الريادة، حيث أصدر كتابه هام1953 م، وما زال الكتابات المذكوران على جانب كبير من الأهمية على الرغم من مضي الأعوام وتقادم الكتابين.

... 5 .أدرك الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد أهمية الترجمة، وخاصة ترجمة الكتب الأساسية التي ألفها المستشرقون مثل "جدول

(5458/1)

التواريخ الهجرية وما يقابلها من التواريخ الميلادية" لوستنفيلد. وعكف على ترجمته بالاشتراك مع زميله الفاضل الدكتور عبد المحسن رمضان؛ فأسدى بذلك خدمة جليلة للمشتغلين بدراسات التاريخ الإسلامي بوجه عام.

... 6 .أدرك مؤرخنا منذ أمد بعيد أهمية تبسيط التاريخ الإسلامي للقارئ العادي غير المتخصص. ولذلك عمل على الكتابة في الصحف

والمجلات مثل صحيفة الوفد ومجلة آخر ساعة. وقد أدى في هذا المجال خدمة كبيرة لما يمكن أن نصفه بالثقافة التاريخية وخروج التاريخ من أسر الأكاديمية وتوجهه إلى العطاءات الواسعة من عامة

(5459/1)

المثقفين، وهو يذكرنا في ذلك الراحل الفاضل الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال الذي اتجه من قبل الوجهة نفسها.

... 7 ـ يذكر لمؤرخنا أنه ساهم في مجال البيبليوغرافيا، ولا أدل على ذلك من مقالته التي بعنوان: "ما ساهم به المؤرخون العرب في المائة سنة الأخيرة في دراسات التاريخ العربي وغيره. وغني عن التقرير أهمية ذلك الجانب على نحو خاص في مجال الدراسات التاريخية بصورة عامة".

... 8 ـ أثار مؤرخنا الراحل بعض الجدل بشأن بعض مؤلفاته، ولا سيما كتابه الشهير "التاريخ السياسي للدولة العربية" (الجزء الأول)، وأودُّ

(5460/1)

أن أقر بأنني بصدد عمل دراسة على هذا الكتاب من أجل تقويمه بموضوعية وحياد من خلال إدراك ضرورة دراسته دراسة متأنية دون انفعال أو قولبة أو اعتساف في الأحكام.

... 9 ـ اهتم الراحل الفاضل بالكتابة في مجال أدب الرحلات. ولذلك نجده قد ألف كتاب "خواطر سائح مصري" في رحلة إلى إسبانيا في

الماضي والحاضر الصادر عام 1983 م، وكتابه الآخر "مذكرات مبعوث مصري إلى باريس، حوار بين نحن والآخر"، وهو مخطوط لم يطبع بعد، وأسعى حالياً إلى نشره بالاتفاق مع عائلته الكريمة.

(5461/1)

... 10 ـ من المجالات الإبداعية الأخرى لمؤرخنا الراحل علم البردي. وقد ألف عدة مقالات في هذا المجال في وقت كانت فيه الساحة العربية تعاني من قلة المساهمين العرب بالتأليف في علم البردي بصفته مصدراً للتاريخ الإسلامي في مصر، وذلك من قبل ظهور باحثين من العناصر الشابة مثل الدكتور سعيد مغاوري صاحب الإسهامات المهمة في هذا المجال. وعلى كل حال، فيذكر لمؤرخنا الراحل أنه أسس مركز الدراسات البردية بجامعة عين شمس، وظل يعمل فيه باعتباره الخبير الوطني حتى وفاته.

(5462/1)

... 11 ـ اهتم الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد بأمر تحقيق المخطوطات، وله إسهامه فيما يتصل بتحقيق السجلات المستنصرية التي أفاد منها في إعداد عدة مقالات عن السياسة الخارجية الفاطمية وعلاقات الفواطم بالقوى الإسلامية المجاورة. ويلاحظ أنه لم يستمر في أمر التحقيق حيث لم يتجه إلى مخطوطات أخرى باستثناء السجلات المذكورة.

... وبعد؛ فتلك حياة مؤرخنا الراحل التي كانت حافلة بالتأليف الذي

تراوح بين الكتب والمقالات. وأسأل الله تعالى أن يغفر له وأن يتغمّده برحمته الواسعة. آمين

(5463/1)

الماء في سبتة الإسلامية: تقنيات التجميع والتوزيع

... ...

... ذ. محمد الشريف

... كلية الآداب – تطوان

على عكس المدن المغربية الأخرى التي تحتفظ بتراث عمراني يعود إلى قرون خلت، فإن مدينة سبتة قد عرفت –وما تزال– عملية إتلاف لتراثها العمراني الإسلامي بطريقة منتظمة حسب المصادر الأيبيرية المتعلقة بالغزو البرتغالي للمدينة(1)

---

(1) G. de Mascarenhas, Historia de la ciudad de Ceuta, 1918éd. Dornellas, Lisbonne, p. 22; Zurara, Crónica da tomada da Ceuta, pp. 234–235; cité par Ricard, Le Maroc septentrional..., pp. 14–15.

(5464/1)

وحسب شهادة الأركيولوجيين الإسبان المعاصرين أنفسهم(1). فالنواة الحضرية الحالية هي عبارة عن صورة للمدينة الأوربية، بحيث لا تقدِّم للمشاهد سوى منظر للعمران الإسباني وبقايا مادية برتغالية؛ في حين تكاد البقايا الأثرية الإسلامية تنمحي كلية

وبصفة مطلقة من الخريطة الحضرية السبتية. وإذا كنا في مقام لا يسمح لنا بالتفصيل في أسباب هذه الظاهرة ومحدداتها، فإننا نشير إليها لتوضيح الصعوبات التي تكتنف عملية

(1) Posac Monc, ‘‘Datos para la arqueologia musulmana 1de Ceuta’’, Hespéris-Tumuda, vol. 159, p. 1960.

(5465/1)

توطين المعالم العمرانية التي تشير إليها مصادرنا واستحالة «إعادة التركيبة الحضارية للمدينة الإسلامية».
وإذا كانت هذه الصعوبات متعلقة بمورفولوجية المدينة وخلاياها القاعدية من منشآت دينية وثقافية واجتماعية واقتصادية، فإنها تزداد حدة عندما يحاول المرء أن يتعرف على طرق تجميع المياه وتوزيعها، وهو موضوع دقيق ومرتبط بالمرافق الأخرى الدينية والاقتصادية والعمومية وغيرها. فباستثناء نصّ فريد حول معالم سبتة الإسلامية وهو «اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنيّ الآثار» لمحمد بن القاسم الأنصاري السبتي الذي

(5466/1)

أفرده الباحثون ما يستحق من عناية بحيث تعددت طبعاته، وترجم إلى لغات أجنبية عديدة(1)؛ فإن النصوص المتعلقة بالجوانب المعمارية السبتية قليلة ونكاد نفقدها فيما يخص

موضوع الماء وتقنيات تجميعه وتوزيعه. فالنصوص العربية التي أولت اهتمامها لمسألة الماء مرتبطة أساساً بمنطقة بليونش، إحدى منتزهات الأرستقراطية السبتية خلال العصر الوسيط فقد أطنبت النصوص في وصف خصبها الزائد ومتنزَّهاتها وعيونها

(1) محمد بن القاسم الأنصاري، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1983.

(5467/1)

الجارية، إلخ. أما قضية الماء بالمدينة نفسها، فإنها نادراً ما أثارت انتباه المؤرخين. كما أن شهادات الجغرافيين العرب بقدر ما هي قليلة ويعيد بعضها بعضاً، فإنها متضاربة وتحتاج إلى تأويل كما سيتبين لنا في حينه.

إن الغموض في نصوص الجغرافيين والمؤرخين العرب وغياب التحريات الأثرية هو الذي يفسر لنا تضارب آراء الباحثين المحدثين فيما يخص طرق تموين المدينة بالماء. فالأستاذ جرمان عياش يرى أن المدينة »لم تكن تتوفر على ماء (1)

(1) G. Ayache, ‘‘Beliounech et le destin du Ceuta entre le Maroc et l’Espagne‘‘,

Hespéris-Tamuda, vol. XIII, 1972, p. 12.....

(5468/1)

« وأن تزويدها به كان يتم من الخارج، أي من بليونش. بينما يؤكد أوغست موليبراس الذي زار المدينة في نهاية القرن التاسع عشر أن »سبتة تتوفر على ميزة كبيرة مقارنة مع باقي المناطق التي تحتلها [إسبانيا] على الساحل الريفي؛ إنها مزودة بكثرة بالماء. فعيونها وخزانات مائها وصهاريجها تحميها من الموت عطشا«(1). والواقع أن الرأيين في حاجة إلى تعديل. فلم يكن تزويد المدينة بالماء متوقفاً كلية على الخارج، ولم يكن باطن شبه الجزيرة السبتية زاخرا بالماء.

---

(1) Moulières, le Maroc inconnu, t. II, Paris, 1899A. p. 710.

(5469/1)

1– الموارد المائية الطبيعية

من بين خمسة أمور، يرى ابن خلدون أنه يجب مراعاتها عند اختطاط المدن، نجد أربعة منها كانت تنقص مدينة سبتة؛ وهي الماء وطيب المراعي والمزارع والشجر. بل إن صاحب »المقدمة« وضع مسألة المياه على رأس الأمور التي يجب مراعاتها في أوضاع المدن »لجلب المنافع وتسهيل المرافق للبلد«(1). فكيف استطاع السبتيون توفير مادتهم الحيوية؟ وكيف استعملوها وخزنوها؟ وما طرق تجميعها وصرفها؟ وكيف تدخلت هذه المياه في إضفاء طابع خاص على

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص. 371.

(5470/1)

المنشآت العمرانيَّة بالمدينة؟

خلافاً للمدن الأخرى، لم يكن وجود المدينة مشروطاً بعنصر الماء. فالأرض التي تقوم عليها شبه الجزيرة السبتية مكونة من أحجار شستيّة مانعة لنفاذ المياه ولا تسمح بخلق أكياس مائية تحت أرضها. إن غياب الماء كان أحدث الثوابت التي لم تقف حائلاً أمام تطور المدينة، لأن سكانها تمكنوا بوسائل متعددة من الحصول على المياه الضرورية. ومن المؤكد أن العيون التي كانت تتدفق في سبتة لم تكن تلبي حاجيات السكان. وباستثناء »عين ماء لطيفة لكنها لا تجف البتة«، أشار إليها الإدريسي بأعلى جبال

(5471/1)

الميناء(1)، فإن أغلب عيون المدينة لم تكن تقدم سوى صبيب ضعيف وهي فترات محددة من السنة. وإذا كان مصادر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تشير إلى عيون عديدة ذات صبيب ضعيف بشبه الجزيرة السبتية وتجف في أغلب فترات السنة، باستثناء عين المينا والقبة(2)

---

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد الثاني، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، (د.ت)، ص. 527.

(2) Cravioto C. Gozalbes, ‘‘El abastecimiento de agua en la Ceuta medieval’’, Boletin de la Asociación Española de Orientalistas, XVII, 1981, pp. 229–230 ; Idem, ‘‘El

, pp. 1993agua en la Ceuta medieval’’, Transfretana, v,
.63–62

(5472/1)

، فإنه يصعب التسليم بكونها كانت موجودة خلال العصر الوسيط

السقايات:

يخبرنا الأنصاري في بداية القرن 15م أنه كانت توجد بسبتة خمس وعشرون سقاية عمومية. وضمن هذا العدد، يجب على الأقل إدخال بعض العيون التي كانت تقع داخل المدينة أو بالأرباض. والملاحظ أن أغلبية السقايات التي يذكرها الأنصاري في كتابه »اختصار الأخبار« كانت سقايات اصطناعية، بمعنى أن الماء لم يكن ينبع منها مباشرة، بل كان يجلب إليها إما بواسطة القنوات أو أنها كانت عبارة عن جباب تخزن مياه الأمطار.

(5473/1)

– سقاية باب الشواشين، التي لا يطرح موقعها على الخارطة الحالية لسبتة مشكلاً، كانت تقع بإزاء باب الشواشين من أبواب جامع سبتة (الكاتيدرائية حالياً) بطرف العطارين (شارع O’Donnell**) وأول سماط العدول (شارع** Jaudens**). وقد اعتبرها الأنصاري »أبدعها صنعة ووضعاً [...] ذات العنابيب النحاسية والألواح الرخامية والزخرفية والتنميق«(1).**

وقد تم اكتشاف صهاريج كبيرة مزدوجة ومتصلة ببعضها البعض في شارع Independencia **و** Jaudens **يبدو أن لها ارتباطاً مع**

هذه السقاية أو مع الحمام

---

(1) الأنصاري: Gozalbes, El agua, p. 63, 40.

(5474/1)

المجاور للجامع(1). ومع ذلك، فإن المكان الذي توجد فيه هذه السقاية هو عبارة عن طبقة سميكة من الحجر الشستي الذي يمنع تكوين أي حوض أو إمكانية توفير جيوب مائية في أيٍّ فترة من السنة. لذلك يفترض أن هذه السقاية كان يتم تزويدها بواسطة قناة »الأقواس المنحنية« الآتية الذكر(2).

– سقاية جب الميناء:

---

(1) Mon C. Posac, ''La arqueolog ي en Ceuta entre 1960a y 1970, Noticiario Hispanico Arqueológico, XV, 1971'', p.233.

(2) نفسه.

(5475/1)

يخبرنا الأنصاري أنه من بين السقايات المعدة لسقي الدواب من الخيل وغيرها »سقاية جبّ الميناء العظيم الهيكل« الذي ابتناه الفقيه الرئيس محمد العزفي. لقد كان عبارة عن »صهريجين مشتركين يمد أحدهما الآخر، قد أحكم الأسفل والأعلى منهما فرشا بألواح الصخر المنجور أتم إحكام وأكمله«(1). يمكن القول إن جباب الميناء كانت مفتوحة وتجمع مياه الأمطار المنحدرة من جبل

هاشو. لذلك، فإنها لم تكن صالحة للشرب إلا في الحالات الاستثنائية.

– سقاية القبة:

(1) الأنصاري، ص. 40.

(5476/1)

كانت سقاية القبة تقع حسب الأنصاري بالربض البراني، وهي عبارة عن »صهريج مستطيل متصل ببئر قريبة التناول طيبة الماء وعليها قبة على أربعة أعمدة وإلى جانبها آثار متعددة للسبيل وربما تبلغ الثمانين«(1). هذه السقاية تطابق بدون شك عين » «Chafaris البرتغالية أو عين « San Antonio » التي تظهر في عدة خرائط إسبانية وبرتغالية، توافق حاليا »حدائق الجمهورية الأرجنتينية«. إن هذه السقاية بآبارها الثمانين دفعت بعض الباحثين إلى افتراض أنها آبار لها علاقة بشبكة هدرولوجية تحت – أرضية تربط البئر الرئيسي بالآبار

(1) نفسه.

(5477/1)

الأخرى التي قد تكون حفرت على مسافات متشابهة(1). إلا أن الأبحاث الأركيولوجية لم تؤكد بعد هذا الافتراض.

2– نقل المياه

تتضارب نصوص المؤرخين والجغرافيين العرب عندما تتعرض لطرق نقل المياه بمدينة سبتة الإسلامية. ففضلاً عن النقولات التي تأخذ بعين الاعتبار تطور تقنيات النقل المستعملة بالمدينة، فإن المصادر تذكر، عندما لا تلوذ بالصمت، استعمال »الشوني« أو »الشواتي« أو »الظهر« في عملية نقل المياه. وطرق النقل هذه تظل غامضة في غيبة سياق مفسر وموضح لها. فابن حوقل

(1) Gozalbes, ‘‘El agua’’, op. cit., p. 63.

(5478/1)

يقول إن ماء المدينة »من داخلها يستخرج من آبار بها معين، ومن خارجها أيضاً«(1). أما البكري، فيذهب إلى أن »حماماتها يجلب إليها الماء على الظهر من البحر«(2)، بينما يخبرنا ابن عذاري بأنه »يجلب الماء إلى حماماتها من البحر«(3)؛ في حين يرى العمري أن »شرب أهلها من الماء المجلوب إليهم من البحر من بليونش

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، 1963، ص. 79.

(2) أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دي سلان، باريس، 1965، ص. 103.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق ليفي بروفنسال، الجزء الأول، ص. 202.

(5479/1)

وغيرها« وأن »حماماتها يجلب إليها الماء على الظهر من البحر في الشواتي«(1)، بينما ينقل القلقشندي قوله: »الماء يجلب إليها في الشواني حتى للحمامات التي بها«(2).

بما أن العيون السبتية كانت تنقل صبيباً لا يغطي بتاتاً احتياجات السكان، فقد وجد منذ العهود القديمة ضرورة جلب الماء من الحقول الخارجية عن طريق مجرى مائي اصطناعي.

---

(1) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر)، تحقيق مصطفى أبو ضيف، الدار البيضاء، 1988 ، صص. 137–138.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، 5/153.

(5480/1)

إن بقايا قناة مائية بنواحي سبتة تطرح بعض المشاكل في وجه المؤرخين والأركيولوجيين. فعلى بعد بضع كيلمترات من سبتة في اتجاه الحدود المصطنعة مع المغرب، وعلى مقربة من جدول Las Bombas بالقرب من شاطئ »طارخال«، توجد بقايا قناة أطلق عليها اسم »الأقواس المنحنية« (Arcos Quebrados). إن بقايا هذه القناة لا تزال بادية للعيان لحد الآن، وهي عبارة عن ركيزة للقوس الرئيسي، علوها حوالي 15 مترا وبجانبها بقايا ثلاثة أقواس أخرى فقط وقد ظل قوس واحد منها –وهو أصغرها– قائماً. إن تركيب القناة غير منتظم؛ فهي مكونة من

(5481/1)

أحجار مشذبة في الزوايا، ومضمومة لبعضها البعض بملاط كلسي(1). ترجع القناة من الناحية الأركيولوجية إلى الفترة الرومانية المتأخرة أو إلى الفترة البيزنطية. ويُعتقد أنها بنيت في فترة كانت فيها سبتة موضوع صراع بين السلطة الفيزيقوطية والسلطة البيزنطية(2). إن موقعها كان سيكون مستحيلاً عندما تتعرض المدينة لهجوم من ناحية الجنوب، أي من

(1) Mon C. Posac, ‘‘El acueducto romano de Arcos Quebrados’’, Segovia y la Arqueología romana, Barcelone, 1977, pp. 325–327.

(2) Gozalbes, ‘‘El agua’’, op. cit., p. 66.

(1/5482)

الناحية القارِّيّة. فهل كان الخطر الوحيد الذي تعرضت له المدينة طيلة العصور القديمة يأتي من جهة البحر فقط؟

كان لـ«أقواس المنحنية» تخطيط ملتو. فهي بذلك يجب أن تسير بمحاذاة البحر. إن أول ذكر لهاته القناة يرجع للبكري الذي أشار إلى ذلك المنحنى عندما يقول إنها كانت تسير «مع ضفة البحر القبلي»(1)، وبالتالي فمن الممكن أنها كانت تخترق الربض البراني. إن قربها من البحر هو الذي يفسر لنا قول ابن عذاري بأن ماء المدينة «يجلب الماء إلى حماماتها من البحر» أو قول العمري: «وشرب أهلها من الماء

(1) البكري، 104.

(5483/1)

المجلوب إليهم من البحر«.

من جهة أخرى، يخبرنا البكري بأن ماء سبتة كان يجلب »من نهر أويات مع ضفة البحر القبلي في قناة إلى الكنيسة التي هي اليوم الجامع«، أي المنطقة الوسطى لسبتة. ونعتقد أنه انطلاقاً من هاته المنطقة الوسطى كانت القنوات الصغرى توصل الماء الشروب إلى السقايات الأخرى بالنواة الحضرية.

ويبدو أن هاته القناة لم تعد تلبي كل حاجيات المدينة المائية المتزايدة بتزايد عدد سكانها وتوسع نسجها الحضري، أو أنها تعرضت للتلف؛ الأمر الذي استدعى ضرورة البحث عن وسائل أخرى لجلب المياه للمدينة. ففي القرن

(5484/1)

الثاني عشر يخبرنا صاحب »الاستبصار« أن الخليفة الموحدي أبا يعقوب أصدر أوامره سنة 580 [1181م] »بجلب الماء إليها من قرية بليونش المذكورة على ستة أميال من سبتة في قناة تحت الأرض حسبما جلبه الأوائل في قرية قرطاجنة وغيرها، وشرع في العمل فعرضت أمور أوجبت التربص إلى حين يأذن الله تعالى بذلك، والرجاء الآن مؤمل ونحن في سنة 87 [5]«(1). وإذا كنا لا نعرف مصير المشروع الموحدي، فإن بليونش التي كانت مقصد العائلات السبتية

---

(1) مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر سعد زغلول، الدار البيضاء، 1985، ص. 137.

(5485/1)

الميسورة خلال فصل الصيف، هي التي كانت تتوفر على مياه غزيرة. إن الأبحاث الأركيولوجية توضح وجود نظام واسع ومعقد للزراعة وتخزين المياه بهذه المنطقة(1).

---

(1) P. Cressier (et autres), ‘‘El urbanismo rural de Belyounech aproximación metodológica a un yacimiento del norte de Marruecos’’, Teruel, 1986, pp. 327–349.

H. Terrasse, ‘‘Recherches archéologiques d’époque islamique en Afrique du Nord’’, Compte rendu de l’Académie des Inscriptions et Belles Lettres de Paris, 1976, pp. 590–611.

(5486/1)

3– أساليب أخرى لاستخراج وجلب المياه

ولم يكن جلب المياه من بليونش العملية الجديدة ولا الوحيدة التي لجأ إليها السبتيون للحصول على الماء، فقد وجد طرائق أخرى لاستخراجه. يتعلق الأمر بماء البحر المستعمل في الحمامات. فالبكري يخبرنا أن حمامات المدينة كان »يجلب إليها الماء على الظهر من البحر«(1)، بينما يخبرنا العمري أن »شرب أهلها من الماء المجلوب إليهم من البحر«(2). في حين ينقل القلقشندي عن غيره

قوله: »والماء يجلب إليها في الشواني حتى للحمامات التي

---

(1) البكري، ص. 104.

(2) العمري، صص. 137–138.

(5487/1)

بها«(1).

ومن المحتمل أن يكون الأمر يتعلق بنظام الناعورات الرافعة للماء والتي تحركها الدواب بحيث تستخرج المياه من البحر وتصب في المصاريف التي توزعها بدورها على الصهاريج والحمامات. ويشير الأنصاري إلى هذه الطريقة –ولا شك– عندما يخبرنا أن الميضأة الكبرى، ميضأة الجامع الأعظم، كان يجلب إليها الماء بالدواليب. كما أن المقري يشير إلى التقنية نفسها في معرض حديثه عن مآثر الشريف أبي العباس الحسني إذ يقول: »وله بسبتة آثار تحكي الآثار العزفية كالرياض الأعظم الذي أمام باب

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 5، ص. 153.

(5488/1)

الميناء الأسفل الذي تأنق في بنيانه وأبدع صنعته وجلب إليه الماء بالدواليب حتى أوصله إلى القبة ذات الأعمدة«(1).

هذا، وقد استعملت طريقة أخرى أشار إليها كل من العمري وأبي الفدا والقلقشندي، وهي حمل الماء بواسطة المراكب. وأخيراً، فإننا لا نعدم وجود السقائين الذين يحملون المياه على أكتافهم أو على

دوابهم(2) بسبتة في العصر الوسيط

4- تخزين الماء: الأحواض والصهاريج

---

(1) المقري، أزهار الرياض، ج 1، صص. 39-40.

(2) الأنصاري، ص. 43.

(5489/1)

لقد أشار ابن حوقل إلى استعمال الآبار بسبتة منذ القرن العاشر قائلا: »وماؤها من داخلها يستخرج من آبار بها معين«(1). ولكن نادراً ما كانت الآبار تعطي مياها غزيرة. وفي كل الحالات كانت مياهها أجاجاً، وذات نوعية رديئة. فقد وصف ابن الخطيب آبار المدينة بكونها »غير بكية« ولا غزيرة(2).

ولا تشير مصادرنا إلى استعمال الخزانات والصهاريج لتخزين مياه الأمطار ولجلبها إلا ابتداء من القرن الثالث

---

(1) ابن حوقل، ص. 79.

(2) ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، الرباط (د.ت)، ص. 146.

(5490/1)

عشر. فقد أشار إليها كل من أبي الفدا والعمري والقلقشندي والأنصاري. فالعمري يقول: »وفي داخلها صهاريج من ماء المطر«. أما أبو الفدا والقلقشندي، فيؤكدان أن ماءها مجلوب، »ولها صهاريج من المطر«.

ويبدو أن الصهاريج والجباب كانت لها أهمية كبيرة في المدينة، حتى صارت كتب التواريخ تحرص على تسجيل سنوات إنشائها وتعدها من المنجزات التي تستحق التنويه بالمدينة. فالأنصاري يتحدث عن سقاية »جب الميناء العظيم الهيكل الذي ابتناه الفقيه الرئيس محمد العزفي وخلده أثراً غريباً بعده«(1)

(1) القلقشندي، 157؛ العمري، ص. 137–138؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص. 133.

(5491/1)

بينما سجل صاحب »الذخيرة السنية« بناء الفقيه العزفي للجب بأسفل الميناء من مدينة سبتة ضمن أهم أحداث المغرب سنة 654 هجرية(1). بل إن المطامير التي استعملت على نطاق واسع بالمدينة لتخزين الحبوب(2) كانت في بعض الأحيان تستعمل لخزن المياه كما توضح ذلك نتائج الأبحاث الأركيولوجية(3).

(1) الأنصاري، ص. 40.

(2) مجهول، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، 1972، ص. 82.

(3) M. Cherif, Ceuta aux époques almohade et mérinide, l'Harmattan, Paris, 1995.

(5492/1)

أما المؤرخون البرتغاليون، فقد أشاروا كذلك للصهاريج. ف »زرارا« يخبرنا أنه كانت توجد »صهاريج وسقاية قرب الباب المسماة باب المينا التي تشرع على الربض الشرقي نحو جبل هاشو الحالي«(1). وقد ترك لنا أحد الكتاب البرتغاليين وصفاً لأحد هذه الصهاريج بما ينم عن أهميتها في تزويد السكان بالماء الشروب. يقول: »إنه صهريج جميل وكبير، مقبب، ويحتوي على

(1) Mon. C. Posac, ‘‘Datos para la arqueologia musulmana de Ceuta’’, Hespéris-Tamuda, vol. 1, 1960, p. 161; R. Ricard, ‘‘Le Maroc septentrional’’, op. cit., pp. 9–10.

(1/5493)

أكثر من ثلاث مائة عمود من حجر. وسطه كله مغطى بالزليج أو الآجر المزلج«. وبعد أن يشبه هذا الصهريج بقرية من خمسمائة نسمة، يخبرنا أن »المسلمين كانوا يجمعون في هذا الصهريج كميات هائلة من المياه، بالإضافة إلى العيون التي تتدفق بالمدينة«. ويبدو أن سلطات المدينة لم تتكلف وحدها بنفقات صيانة هذا الصهريج، لأن »كل السفن التي تأتي إلى هنا وتريد أن تأخذ ماء كانت تؤدي قدراً معينا لإصلاح هذا الصهريج(1)

(1) Valentin Fernandez, Description de la côte d’Afrique de Ceuta au Sénégal, Traduction par P. de Cenival et T. Monod, Paris, 1938.

(1/5494)

. ويبدو أن هذا الصهريج قد تعرض للتلف قبل بداية القرن الخامس عشر، لأن الأنصاري لم يشر إليه بتاتاً في »اختصار أخباره« بالرغم من حرصه على الإشادة بمآثر المدينة القائمة منها والمندثرة.

ومن بين أهم الصهاريج المائية التي كانت تزود سكان المدينة بالماء، نشير بصفة خاصة إلى صهريجين كبيرين على مقربة من الجامع الكبير، أحدهما كان يجمع مياه الأمطار؛ لكن ليس فقط عن فتحة الجب، وإنما بواسطة طريقة معقدة لصرف المياه. أما الصهريج الآخر، فكان يجمع المياه المنقولة بواسطة قناة الأقواس المنحنية(1)

(1) Gozalbes, ‘‘El agua’’, op. cit., p. 69.

(5495/1)

.

ونتوفر على مثال لصهريج كبير عثر عليه في سراديب إحدى البنايات في بداية شارع Jaudenes ودرسه الباحث الأركيولوجي الإسباني كارلوس بوساكمون. كان الصهريج يتألف من ثلاثة مستودعات (خزانات) متصلة ببعضها ومغطاة بقبو أزجي (Voûte en berceau) وكان حجم المستودعين الجانبيين أكبر، وكانت لهما فتحة مستديرة الشكل تدخل منها قناة تتكون من أنبوبين من الخزف. أما المستودع الأوسط، فقد كان سقفه فجوة رباعية الزوايا حيث كانت توجد فتحته. أما بالنسبة للمواد المستعملة، فكانت عبارة عن حجارة وآجر ملتصقة بجير. بينما كانت

(5496/1)

الحيطان مغطاة بملاط من كلس ومرمر مطلي باللون الأحمر(1)، كما عثر على صهريج آخر يتكون من مستودعين مستطيلين ومتصلين(2).

إن هذه الصهاريج كانت لها علاقة –ولا شك– بقاعة وضوء الجامع الكبير أو بقاعة وضوء المدرسة الجديدة أو بالحمامات الملحقة بها. كما أن كثيراً من هذه الصهاريج كانت توجد قرب جبل هاشو لاحتواء المياه السيالة من سفوحه. ويشير الأنصاري بدوره إلى «صهريجين مشتركين يمد أحدهما الآخر»

---

(1) Mon C. Posac, Estudio arqueológico de Ceuta, Ceuta, 1962, p. 43.

(2) Mon C. Posac, Estudio arqueológico de Ceuta.

(5497/1)

بجبل المينا(1).

5– ترشيد استعمال الماء بسبتة: التخصص في الاستعمال على عكس المناطق التي يتوفر بها الماء بكثرة والتي كانت تستعمل نوعية واحدة من الماء في جميع الاستعمالات والوظائف، فإن قلة الماء في سبتة دفعت بالسكان إلى الاستفادة من جميع أنواع المياه الموجودة وإلى استغلالها حسب نوعيتها، مما خلق نوعاً من التخصص في وظائفها. لقد استُعمل صنفان أساسيان من المياه في الحمامات وفي البيوت الميسورة وكذا في ريِّ البساتين

داخل المدينة نفسها(2)

---

(1) الأنصاري، ص. 40.

(2) يشير زورارا إلى المنازل ذات البساتين في الطرف الغربي بين المدينة وأفراك (Ricard, Le Maroc, op. cit., p.11.).

(5498/1)

: الماء الشروب وماء البحر. لقد كان ربض المينا في هوامش جبل هاشو يستفيد من مياه الأمطار ومياه الآبار التي كانت توجد هناك بلا شك كما كان يتم الحصول على الماء المخصص للشرب وللحمامات كذلك من الجباب والآبار التي كانت تتوفر عليها أغلب المنازل السبتية(1). وعندما تجف الآبار في فصل الصيف، كان يتم التزود من العيون أو من الصهاريج الكبيرة بالمدينة التي كانت توجد بجوار الجامع الكبير. وبهذا الصدد، يشير بوساك مون –وهو يستند على أبحاثه الأركيولوجية – أن

---

(1) Mon C. Posac, Estudio arqueológico de Ceuta, p. 43.

(5499/1)

منازل سبتة كانت تتوفر على بساتين ملاصقة لها تجري إليها المياه بواسطة سقايات صغيرة أو في أنابيب من الرصاص والطين. إن أغلب المكتشفات الأثرية المتعلقة بفوهات الآبار تم العثور عليها بمنطقة الربض الأوسط(1).

ولقد أشارت المصادر التي تجمع على أن حمامات المدينة كانت

تستعمل مياه البحر إلى هذا التخصص. من جهة أخرى، نجد الأنصاري يلمح إليه في معرض حديثه عن مياه أحواض جبل المينا التي لم تكن كلها شروباً. فهو يشير إلى »السقايات المعدة لسقي الدواب من الخيل وغيرها«، وعلى رأسها سقاية جب الميناء

(1) نفسه، ص. 45.

(5500/1)

»العظيم الهيكل المشهور«(1).

وكانت كثير من الصناعات تحتاج إلى كميات هائلة من الماء مثل الطاحونات المائية والمقاصر والدباغة، إلخ. ويستنتج من »اختصار الأخبار« أن جميع مرافق المدينة الصناعية كانت تتوفر على كميات كافية من المياه. فقد كان عدد المقاصر بالمدينة خمسة وعشرين مقصراً توجد »تحت الأسوار والأبراج والأبواب« منها بالميناء ستة عشر. كما كانت بعض المقاصر توجد بأرباض المدينة وبقراها. والملاحظ أن غالبية هاته المقاصر كانت توجد قرب »القالات« التي كان الماء يجري فوقها داخل قواديس،

(1) الأنصاري، ص. 40.

(5501/1)

كقالة الدنيفي وقالة البسابيس وقالة الصندل وقالة العين(1).

أما طواحين المدينة، فقد كانت جميعها بمياهها »لا تفتقر ولا تحتاج إلى شراء ماء من سقاء ولا من غيره أصلا«(2). والملاحظ أن

الطواحين كانت تقع في غرب المدينة في الجزء الخارجي لأسوار الربض البراني. وفي هذه الحالة، فإن الماء الضروري لها كان يجب أن يستخرج في غالبيته من البحر. وهذا ما يفترض وجود ناعورة كانت تقع في مرتفع الربض البراني وتطل على البحر الجنوبي.

---

(1) نفسه، صص. 49–50.

(2) نفسه، ص. 43.

(5502/1)

ومن شبه المؤكد أن الطاقة المائية المحركة للطواحين السبتية كانت تستمد من مياه البحر. إن طبوغرافية البرزخ السبتي تمتاز بارتفاع الساحل الجنوبي عن الساحل الشمالي. ونعرف أن الماء كان يستخرج من البحر للحمامات. فإحدى الحلول الممكنة والمحتملة جداً لمشكلة الطاقة تكمن في كون أحجار الطاحونات كان يتم تحريكها بواسطة ماء البحر حسب الطريقة التالية: تستخرج المياه من البحر في الساحل الجنوبي عن طريق الناعورات، وكانت هاته المياه تخزن في الجباب والصهاريج، ومنها تطلق في القنوات (كانت مسندة إلى الجانب الداخلي

(5503/1)

للأسوار) التي تحملها في المنخفضات تنازلاً حتى الحمامات والطاحونات. وحتى الصناع التقليديون القريبون منها الذين يحتاجونها. ومن الواضح أن مياه البحر هي التي كانت تستخرج من

البحر الجنوبي. بما أن هناك اختلالات في المستوى أكثر فجائية منه في الساحل الشمالي الذي كان وما زال ساحلا متوحلاً(1).

بفضل هذه التقنيات وبفضل التخصص في استعمالهم للمياه حسب الحاجة، سينجح سكان سبتة في التغلب على مشكلة قلة المياه بمدينتهم. بل إنهم سينجحون في تزويد جميع مرافق

---

(1) Craviato C. Gozalbes, ‘‘El agua’’, op. cit., p. 72.

(5504/1)

مدينتهم بالمادة الأساسية حسبما يستخلص من وصف الأنصاري لسبتة في القرن الخامس عشر. إنه وصف يترك الانطباع لدى القارئ بأن مشكل الماء قد وجد حلاًّ بصورة نهائية بكل أنحاء المدينة وعلى جميع المستويات. فهو عندما يتطرق للمرافق المحتاجة للمياه مثل السقايات والميضآت والمقاصر وغيرها، يقدم لنا عنها وصفاً لا يدع مجالاً للشك في وفرة المياه بالمدينة. فعند تعرضه مثلاً للحمامات بالمدينة، يقول: »وعدد الحمامات المبرزة للناس إثنان وعشرون حماماً«، ويصف حمام القائد بكونه »بلغ الغاية في الكبر، يسع المئين من الناس«.

(5505/1)

أما »حمام عبود بناحية الميناء، [فكان] نظير حمام القائد في الضخامة والهيكل«؛ كما كان بـ»القصبة عشرة حمامات«، بل كان »بكل دار من ديار سبتة حمام ومسجد إلا القليل«. أما بخصوص

الطواحين المائة وثلاثة، فإنها كانت جميعها »بمياهها فيها لا تفتقر ولا تحتاج إلى شراء ماء من سقاء ولا من غيره أصلاً«. ويختم الأنصاري شهادته بالقول: »وذلك جميع مساكن سبتة حيثما كانت بأقطار المدينة حتى ذلك موجود في المصريات والعليات المحملة«(1).

---

(1) الأنصاري، صص. 34–35، 39–41، 43، 49–50.

(5506/1)

لقد عرف السبتيون كيف يحصلون على الماء وكيف يخزنونه حتى أصبحوا من مهرة استعماله. لقد تم تجاوز مشكلة قلة المياه بطريقتين: تنويع طرق الحصول عليه بشكل يضمن أقصى غزارة ممكنة ولو عن طريق الحصول على كميات صغيرة. ومن جهة أخرى، تحقيق ما يمكن أن نسميه بالتخصص في وظيفة كل نوع من أنواع المياه مع ترشيد استغلالها على أحسن وجه.

أما بنية توزيع الماء بسبتة خلال العصر الوسيط، فقد ظلت صالحة لتزويد المدينة بالمادة الحيوية طيلة العصر الحديث والمعاصر(1)

---

(1) Craviato C. Gozalbes, ‘‘El abastecimiento de agua’’, op. cit., p.238.

(5507/1)

. وإلى حدود بدايات القرن العشرين، كانت البنية الوسيطية كافية لتلبية حاجات سكان شبه الجزيرة السبتية.

ومن الثابت الآن أن عملية تنظيم شبكة المياه من أهم العوامل التي ساعدت على إنشاء العديد من المنشآت المعمارية التي كانت تزخر بها مدينة سبتة الإسلامية. فالسقايات والميضآت مثلا تعتبر أشكالاً معمارية ذات قيمة فنية وزخرفية أضفت رونقاً على الطرق العامة بالمدينة ومشآتها العمومية والخصوصية(1)

---

(1) إن وصف الأنصاري يفصح جليا عن هاته العلاقة بين الماء والزخرفة المعمارية. يصف لنا حمام القايد ناصح قائلا: (ص.34-53): »وهذا الحمام [...] قائم على أعمدة الرخام، مفروش بألواحه الساطعة البياض، والمسلخ متسع الساحة [...] وسقفه قبة مرتبة متقنة على أربع حنيات، وبالصحن صهريج كبير مرتفع عن الأرض، وفي وسط الصهريج سارية مجوفة فوقها طيفور من الرخام الموصوف يصعد الماء في جوف السارية إلى أن يفور في الطيفور وفيضه يملأ الصهريج«. أما ميضأة المدرسة الجديدة، فيقول عنها (ص.141): »تحتوي على بيوت ثمانية ومطهرة كبيرة، وفي كل منها نقير من الرخام يصب فيه ميزاب من النحاس، وفرش الجميع ألواح منجورة من الصخر، وبوسطها صهريج مفروش بالزليج الملون وقبتها مونقة ومن بعضها صنائعها نور البابونج يخاله الناظر إليه خلقة من أحكام الصناعة، ويجلب الماء إلى ذلك كله بالدواليب«. أما سقاية باب الشواشين، فكانت أبرع سقايات المدينة »ذات العنابيب النحاسية والألواح الرخامية والزخرفية والتنميق« (نفسه، ص.40).

(5508/1)

.

لائحة المصادر والمراجع المعتمدة

الأنصاري، محمد بن القاسم، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1983.
أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دي سلان، باريس، 1965.
الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد الثاني، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، (د.ت).
ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.
أبو الفدا، تقويم البلدان، ط وترجمة، راينود، باريس، 1848.
ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، 1963.

(5509/1)

ابن عذاري، البيان المغرب، تحقيق ليفي بروفنسال وكولان...، الجزء الأول، ط بيروت، 1980.
ابن الخطيب، معيار الِاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، الرباط، (د.ت).
مجهول، كتاب الِاستبصار في عجائب الأمصار، نشر سعد زغلول، الدار البيضاء، 1985.
مجهول، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، 1972.
المقري، أزهار الرياض، الجزء الأول، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، القاهرة، 1940.
العمري (ابن فضل الله)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (من الباب الثامن إلى الباب الرابع عشر)، تحقيق مصطفى

(5510/1)

أبو ضيف، الدار البيضاء، 1988.

القلقشندي، صبح الأعشا في صناعة الإنشا، الجزء الخامس، ط القاهرة، 1915.

محمد الشريف، سبتة الإسلامية: دراسات في التاريخ الاِقتصادي والاِجتماعي، تطوان، 1995.

Ayache G, «Beliounnech et le destin de Ceuta entre le Maroc et l'Espagne», Hespéris-Tamud, vol. XIII, 1972.

Bravo Pérez (J.) y Bravo Soto (J.), Vestigios del pasado de Ceuta, Transfretana (Instituto de estudios ceutistas), Ceuta, n° 4, 1983–84.

(5511/1)

Cherif (M.), Ceuta aux époques almohade et mérinide, l'Harmattan, Paris, 1996.

Cressier P. (et autres), «El urbanismo rural de Belyounech aproximación metodológica a un yacimiento del norte de Marruecos», Teruel, 1986.

Gozalbes Cravioto (C.), «El abastecimiento de agua en la Ceuta medieval», Bolet de la Asociación Española de Orientalistas, XVII, 1981.

Gozalbes Cravioto (C.), «El agua en la Ceuta medieval», Transfretana, V, 1993.

Moulières (A.), Le Maroc inconnu, t. II, Paris, 1899.

(5512/1)

Posac (Mon C.), «Datos para la arqueolog
a ي
musulmana de Ceuta», Hespéris-Tamuda, vol. 1, 1960.
Posac (Mon C.), Estudio arqueológico de Ceuta, Ceuta, 1962.
Posac (Mon C.), «El acueducto romano de Arcos
Quebrados», Segovia y la Arqueolog ي
a romana, Barcelone, 1977.
Posac (Mon C.), «La arqueolog ي
a en Ceuta entre 1960 y
1970», Noticiario Hispánico Arqueológico, XV, 1971.
Ricard (R), «Le Maroc septentrional au XVe siècle
d'après les chroniques portugaises», in Etudes sur
l'histoire des portugais au
Maroc, Coimbre, 1955.
Terrasse (H.), «Recherches archéologiques d'époque
islamique en Afrique de Nord», Compte rendu de
l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres de 1976,
Paris, 1977.
Valentin (Fernandez), Description de la côte d'Afrique
de Ceuta au Sénégal, Traduction par P. de Cenival et T.
Monod, Paris, 1938.

(5513/1)

(5514/1)

المثلث العربي (الخليج–الشام–المغرب) وظهور الإنسان الأول

... ... الأستاذ عبد العزيز بن عبد اللّه

عضو أكاديمية المملكة المغربية

... كانت منطقة الخليج العربي أول ساحة ترعرع فيها الإنسان الأول الذي عاش حول "خط الإستواء" في الربع الخالي من القارتين الأسيوية و الإفريقية و من هذه المنطقة انطلقت هجرات الأشوريين و البابليين و الكلدانيين الذين أسسوا ممالك حول (ميزوبوطانيا) (Mésopotamie) أو للاد الرافدين (دجلة و الفرات) ثم (آسيا الصغرى) (Asie Mineure) من حيث هاجرت قبيلتان هما

(5515/1)

الآخيون والدوريون لبحر (إيجي) حيث تم تأسيس مملكة الإغريق أو اليونان وقد توثقت هذه المعلومات من طرف علماء غربيين لاحظوا أن الأغارقة كانوا يكتبون من اليمين إلى اليسار و أن حروفهم مقتبسة من الألفبائية العربية وهو (Alfa B etc.) (أي الألف و الباء) و يرى بعض هؤلاء المؤرخين أن العرب الكنعانيين و هم الفينيقيون كانوا قد استقروا فترة من الزمن في شواطئ الخليج قبل أن ينتقلوا إلى سواحل الشام و أنهم سموا مدينة "صور" على شاطئ البحر المتوسط تيمنا باسم مدينتهم الأولى بالخليج و لعل الآثار التي تم مؤرخون محدثون

(5516/1)

أمثال (جان كاك بيريبي) في كتابه حول (الخليج) و بذلك يكون الكنعانيون قد هاجروا من الخليج إلى البحر المتوسط عبر الشام منذ خمسة الآف سنة كما يقول المؤرخ (رولنسون) وعندما وسع الفينيقيون مراكزهم التجارية على شواطئ البحر المتوسط أسسوا حوالي عام (1100 قبل الميلاد) مدن ليكس(Lixus) (قرب العرائش بالمغرب الأقصى) و لمطة بليبيا (Leptis Magne) (على وزن مكة و بكة)، و عتيقة (Ultique) ثم (Cartage) (قرية حداش أو القرية الحديثة) بتونس و مالقة و قادس الأندلس و هيبو (عنابة) و بنزرت.

(5517/1)

... و هنالك هجرات أخرى من الخليج إلى المغرب عبر فارس أشار إليها سالوست (Salluste) المتوفي عام 35 قبل الميلاد، في كتابه حول (حرب يوغورتا) ملك نوميديا عام(154ق.م) ملاحظا أن الفرس انتقلوا ضمن غاراتهم على (الجزيرة الإيبيرية) (إسبانيا و البرتغال) في عهد هيراكلس () (Heraclius575 ه –641ه)فتحولت أشرعة مراكبهم بشدة الريح إلى المحيط الأطلنطيقي فوصلوا إلى جنوب المغرب حيث اتصلوا بالجيتول(Gétules) و هم أهل جزولة الحالية على ما يظهر، فتصاهروا معهم و سميت (سوس) (و كذلك كل من مدينتي سوسة التونسية (التي عرفت

(5518/1)

بحضرموت) و الليبية) اقتباسا من كلمة سوسيانة (Susiane) (أو أرض عيلام) الواقعة بمنطقة الأهواز على أن الفرس اشتهروا قديما بالنوميديين.

... و إذا رجعنا إلى الحفريات الجيولوجية لاحظنا أن عناصر مستحجرة قرب الدار البيضاء هي أقدم ما وجد في الشمال الإفريقي مما يدل على أن الإنسان ظهر في المغرب في عهد سحيق مثله في أوربا الغربية أي في "عتبة العهد الجيولوجي الرابع".

... كما يدل التوزيع الجغرافي لهذه العناصر على أن المغرب لم يحتله الإنسان الأول و لكن عبره في جميع الجهات منذ أعرق عصور ما قبل التاريخ ففي بعض

(5519/1)

المناطق كالمنحدر الأطلنطكي و نواحي الشرق بوادي ملوية يلاحظ نوع من الموصولية و الاستمرارية في مواقع السكن خلال العصر الرابع في حين أن الأطلسين الأوسط و الأكبر لم يعرفا تسربا بشريا جزئيا أو موسميا إلا ابتداء من العصر الجيولوجي الأعلى وهكذا يمكن القول بأن أقدم البقايا التي خلفها الإنسان تفتح أمامنا آفاقا جديدة عن ماضي المغرب في سحيق ما قبل التاريخ تشمل مئات الآلاف من السنين و قد تأكد وجود الإنسان الأول في المغرب عندما تم الكشف في أبواب الرباط (القبيبات) عن شظايا جمجمة بشرية كما يظهر بقايا إنسان ما

(5520/1)

قبل التاريخ من نفس الفصيلة أي إنسان (النياندرتال) (Homo Neandertalensis) Neandertal و قد عثر عليها في مغارة قرب أشقار بإقليم طنجة و توجد نماذج من ذلك في مريكا(Peabod Museum of American Archaeology and Ethnology - Harvard University, Cambridge, mass...;USA)

... و يلوم أن المعطيات المستخلصة من "منجم القبيبات" تسمح بتحديد ميقات دقيق نسبيا لإنسان الرباط هو نفس تاريخ إنسان النياندرتال بل إن ما عثر عليه في مناجم فلسطين يرجع لنفس التاريخ و هذا الثالوث المستحجر هو الوحيد الذي وقع الكشف عنه لحد الآن

(5521/1)

و مناجم فلسطين هذه هي مستحجرات جبل كرمل و جبل كفزة قرب الناصرة فإنسان جبل كفزة شبيه في فكه و حنكه بإنسان الرباط (هسبريس، ص. 35 عام 1945) .

... و قد عثر على جمجمة في (تافوغالت) إحدى جماعات دائرة بني إسناسن (إقليم وجدة) Abbé Jean Roche-l'épipaléolithique marocain-Bertran, Lisbonne, Didier, Paris, vol 2, 1963 p 262) حول حفريات كهف (تافوغالت) بالمغرب الشرقي في هضاب بني يزناسن وهي تعطي صورة عن أدوات يرجع تاريخها إلى ألفين من السنين قبل فجر العصر الحجري الحديث و تليه أيضا دراسة حول حفريات مغارة

(5522/1)

كيفان بلغماري بناحية تازة و في الأخير دراسة حول حفريات مناجم المغرب الأطلنطيكي بورغة العليا (مغارة عين معطوف و مركز تاونات).

... و قد عثر في الصين على قحف أو جمجمة يظهر أنه هو أقدم نموذج لإنسان ما قبل التاريخ و ذلك في Kung Wangling بإقليم Chensi و هو عبارة عن قحف الرأس بعظم الأنف و الجبهة اليمنى و بعض الفك الأعلى و سنين و عمره يقدر بستمائة ألف عام (600.000) حسب حسابات العالم الصيني Wu Yu Kang و هذا هو رابع نموذج لإنسان ما قبل التاريخ عثر عليه بعدما وجد في جاوا و Cro-maghon و بيكين (عن وكالة

(5523/1)

الصين الجديدة –يناير 1965) و كان يظن فيما قبل أن الإنسان الأول عاش في خط الاستواء قبل ثلاثمائة ألف عام ثم عثر في جزر المحيط الهادي على تلك الجماجم البشرية فتأكد بعد تحليلها أن تاريخها يرتفع إلى ستمائة ألف عام ثم عثر مرتين في بلاد التشاد و كينيا على جماجم يظهر أنها ترجع لمليون بل ملايين السنين حسب نتائج التحليل العلمية و إن كانت التجارب العلمية الحديثة أصبحت تثير الشك في هذه الأعداد الخيالية و مهما يكن فإن الإنسان ربما عاش في الصحراء الإفريقية كما تؤكد ذلك النماذج التي عثر عليها بشمال المغرب و

(5524/1)

القبيبات بالرباط و سيدي عبد الرحمن بالدار البيضاء.

... أما جمجمة إنسان النياندير تال المكشفة في دوسلدورف بألمانيا عام 1857 و تاريخها 40000 عام قبل الميلاد فقد صور العلماء عصرا بأسره عنها ساد أوربا منذ 60000 عام و كان هؤلاء الناس قصارا لهم جماجم تزيد على جماجمنا 200 سنتمتر مكعب : 2p. 6Lull, The Evolution of Man, /قصة الحضارة، ج 1، ص. 158 (ول ديورانت) حيث أكد المؤلف أن جنسا آخرا حل بأوربا حوالي 20000 عام ق.م.. كما تدل الآثار المكشوفة عام 1868 في مغارة Cro-Magon بفرنسا و يقول العلماء بأن هذه

(5525/1)

الفصيلة جاءت من آسيا الوسطى و إفريقيا و الآثار التي وجدت في تونس و الجزائر مما يشبه آثار العصر الأورجناسي حول عام 25000 ق.م (Aurignacian) تدل على أن إفريقيا هي الأصل التي شهدها العصر الحجري.

لاحظ العالم الباكستاني مولانا قوصر نيازي (Causer Niazi)) في كتابه خلق الإنسان (Creation of Man) (ص.6) أن العالم (كارلطون) أكد أن العالم خلق قبل الميلاد بسبعة الآف سنة وقد ورد ذلك مفصلا في كتاب تاريخ الإنسان (The History of Man, 63p.) .

(5526/1)

كما لاحظ ويلز (H.G. Wells) في كتابه الخطوط الكبرى للتاريخ (Outliné History) أن هذه المدة يمكن رفعها إلى إثني عشر ألف سنة بل وحتى عشرين ألفا على الأكثر و لم يقل أحد من العلماء قبل قولة داروين عام 1858 م إن عمى الإنسان سبعمائة ألف سنة و قد فند العالم الباكستاني هذه الدعوى بالحجج العلمية في جزء كبير من كتابه مستندا إلى نصوص المؤرخين و الفلاسفة و النسابين العرب و المسلمين و النشوء و الارتقاء مذهب كان معروفا عند العرب قبل داروين فقد قال الخازن : "إن الجهلة حينما يسمعون بتحول بعض الأجسام بطريق

(5527/1)

التكامل يعتقدون أنه كان رصاصا ثم فضة إلى أن انتهى ذهبا و لا يدركون أن الفلاسفة يريدون بما يقولونه الإنسان أيضا إذا لم يصل إلى الحالة التي هو فيها الآن بالانقلاب السريع بل بالتدريج كان مر بصورة العجل فالحمار فالفرس فالقرد إلى أن انتهى إنسانا" (حاضر العالم الإسلامي، ج1، ص.153).

(5528/1)

المجتمع الإسلامي والثقافة اليوم

الدكتور سعيد بن سعيد العلوي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية –بالرباط

الاهتمام بالمسألة الثقافية في المجتمع الإسلامي، إجمالا، والبحث في صلة الثقافة في ذلك المجتمع بمسألة القيم، اهتمام ضئيل، بل يكاد يكون منعدما. وحضور المسألتين في الفكر العربي الإسلامي المعاصر حضور خجول متردد، صنيع الوافد الغريب الذي يخشى أن يكون حضوره مزاحمة للحضور ومضايقة له. وحين يكون الحديث عن القيم أو يكون حديثا في الثقافة فهو إما يأتي متسما بسمة الخطابية والقول العقيم الذي لا يفيد في العلم ولا

(5529/1)

يحدث تقدما فيه، وإما أنه يكون خطاب من يرضى الوجود في منطقة الظل ويقنع من الترتيب من الأهمية بمكان المؤخرة – والحال أن القول في السياسة، من حيث طبيعته، هو قول في القيم (وإن بدا للبعض غير ذلك). والحال أن القول في الثقافة وتصورها وشطر أكيد من دلالتها ومعناها. فلماذا كان الأمر على هذا النحو في الفكر السياسي العربي الإسلامي المعاصر؟ وما مصدر هذه الغرابة أو المفارقة (قول في السياسة أو احتفال بها يقصي القول في الثقافة ويدعو إلى غيابه)؟ وما دلالة هذا الواقع، لا على الماضي والحاضر، بل على المستقبل وآفاق

(5530/1)

ممكناته؟ أسئلة ثلاث نحاول الإجابة عنها في هذه المحاولة المتواضعة، في خلال وقفات ثلاث: نسعى في الأولى إلى النظر في مغزى غلبة الاهتمام السياسي على الفكر العربي الإسلامي المعاصر

في عصر "النهضة". ونلمس، في الثانية فحصا إجماليا لدلالة هذه الغلبة، كرة أخرى، في فكر الحركات الإسلامية اليوم. ونهدف، في الثالثة، استخلاص ما يكون استخلاصه ممكنا من الفوائد والدروس بالنظر إلى وجودنا السياسي
والاجتماعي من جهة أولى، وبالنظر إلى آفاق مستقبلنا في عالم دينه التحول والتغير السريعان والدائبان وقوامه السعي نحو إرساء

(5531/1)

منظومة عالمية شمولية من القيم والمكونات الثقافية تحف بها وبالإسلام وبوجود ((حضارة وفكرا) صعوبات وعراقيل وتعترضه أشواك ومتاريس من الشك والتشكيك.
لكننا نرى أن نمهد لحديثنا بجملة من الاحتياطات لمنهجية يرجع أولها إلى مسألة " المجتمع الإسلامي" ومعنى القول فيه، وثانيها إلى المسألة الثقافية أو مسألة "الثقافة" وعلى أي نحو يكون القول فيها، وترجع ثالثتها وآخرها إلى "مسألة القيم" ومعانيها ودلالتها في حديثنا هذا.

ا – احتياطات منهجية

(5532/1)

1– لسنا نقصد بنعت "الإسلامي" إصدار حكم قيمة على مجتمعات العالم الإسلامي اليوم فيما أبعدنا، في هذا القول، عن نعت هذه

المجتمعات بالقرب من الإسلام أو الابتعاد عنه استنادا إلى مرجعية تقضي بإقصاء وإبعاد كل مختلف معها عن الانتماء الإسلامي. ذلك هو الشأن، على سبيل المثال، في حديث المتحدث اليوم عن "الجاهلية" وعن "المجتمع الجاهلي" بحسبانه نقيض المجتمع "الإسلامي" أو "المسلم" الحق. كذلك ليس من نعتنا الخوض في واقع وشروط غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية فهم، بحسب قوة المنطق وحكم التاريخ، ينتمون إلى

(5533/1)

المجتمع الإسلامي حضارة وثقافة. وما يزال إخواننا العرب المسيحيون، في بلدان المشرق العربي، يعلنون انتماءهم إلى الحضارة العربية ويرون في أنفسهم بعضا صميميا منها – والتصريحات والأقوال في ذلك، كثيرة ومشهورة. وحيث كنا نرى الأمر على هذا النحو فليس من شأن نعت "الإسلامي"، على نحو ما نورده، أن يسلمنا إلى متاهات قول عقيم يضيف نسبة الشيعي أو السني أو نحوهما إلى قولنا "المجتمع الإسلامي".
إذا اتضح قصدنا من هذا التحديد بالسلب، كما يقول المناطقة، أي تحديد الشيء من حيث أنه غير نقيض، فإننا نقول: بالمجتمع

(5534/1)

الإسلامي نقصد الوجود الحضاري والثقافي لجملة من الشعوب والأقوام والمكونات الثقافية واللسانية والإقليمية تلتقي عند انتسابها إلى الدين الإسلامي

من جهتي العقيدة والشريعة دون أن تنفي من كان على غير الملة الإسلامية (وهذا الشأن في العرب المسيحيين تخصيصا). هذا المجتمع يخضع "بالضرورة" لحتميات التاريخ والحضارة ويعرض له ما يعرض للمجتمعات الإنسانية كلها وتلك سنة الله في الخلق: تلك التي لا نملك أن نجد لها تبديلا ولا تحويلا. المجتمع الإسلامي، مع خصوصياته الثقافية ومكوناته الحضارية الذاتية، ومع فعل التلوينات

(5535/1)

العديدة لجملة الأقوام والشعوب التي تدخل في عداده، ينتمي إلى الوجود الإنساني في تنوعه وغناه، من جهة أولى، وبدليل إسهامه في الفعل الإنساني الحضاري، من جهة ثانية، ولذلك، فالمجتمع الإسلامي، بحكم هذا كله يدخل في عداد "المجتمع المفتوح" (Open Society)– وكل محاولات الحجر عليه أو تضييق الخناق حوله، بإقفال النوافذ والمنافذ ورفض "الآخر" والامتناع عن محاورته، وإنما هي محاولات تسيء إلى هذا المجتمع وتبعد عن مغزاه وطبيعته.

(5536/1)

---

2 – لا نحصر القول في الثقافة فيما كان مكتوبا ومدونا، فيما كان مسطرا في كتب ومجلدات، وفيما كان نظرا عقليا ساميا مجردا، وإنما الثقافة، على نحو ما نقصد الحديث عنها، كل شامل "يشمل المعارف والمعتقدات الدينية، ويشمل الفن، والأخلاق، والقانون، والعادات والتقاليد وكذا كل العادات والكفاءات التي يكتسبها

المرء بحسبانه عضوا في المجتمع"(1) . والثقافة الإسلامية، أو الثقافة من حيث نسبتها إلى المجتمع الإسلامي على هذا الشرط، هي مجموع النسيج الحضاري الشمولي الذي قوامه

(1) E . B . Taylor, « Primitive culture . »

(5537/1)

الدين الإسلامي: لا من حيث هو عقيدة وشريعة فحسب، بل من حيث هو حضارة وفعل إنساني تضافر في إبداعه مجموع الشعوب التي التقى بها الإسلام عن طريق الفتح، وعن طريق التجارة والاتصال، و عن طريق الترجمة والآداب والحكم المقتبسة (ذاك هو الشأن في الأثر اليوناني خاصة، وفي الأثر الذي يتفاعل معه عامة). ومن هذه الجهة فقد اغتنت الثقافة الإسلامية بكل المكونات التي كانت قاعدة لها (وهذه هي العربية وعلومها وما تعلق بها، وما كان الإسلام نفسه سببا في تقعيدها وتنظيمها أولا وفي تطويرها ثانيا)، ثم اغتنت، بعد ذلك، بما

(5538/1)

أدركته من آداب الفرس والرومان والكلدانيين وبما اقتدرت على استيعابه من الأثر الإغريقي (مع غناه وتعدده). ثم، من هذه الجهة أيضا أمكن لهذه الثقافة العربية الإسلامية في أبعادها الكثيرة هذه أن تسهم في بناء الصرح الحضاري الإنساني وأن تعمل على حفظها من الضياع أولا (في مراحل الهمجية والعنف) ثم أن تسعى

إلى تطويرها وحثها على العطاء الجديد (العلوم العربية الإسلامية، العلوم "الدقيقة"، الفلسفة الإسلامية، الفكر الاجتماعي والسياسي عند كبار مفكري الإسلام...).

(5539/1)

وبالجملة، فنحن نقصد بالثقافة الإسلامية الثقافة في دلالتها الأنتربولوجية الفسيحة من جانب أول، ونقصد بها تلك الثقافة من حيث هي سمة للمجتمع الإسلامي "المفتوح" – وبالتالي فهي الثقافة وقد كانت انفتاحا على "الآخر" وقبولا له (مع الوعي بالاستقلال الروحي والتمايز الحضاري) وهي الثقافة وقد كانت اتجاها نحو المستقبل وقبولا له وإقبالا عليه.

3 – إذا تقرر معنى المجتمع "الإسلامي"، على النحو ما سعينا إليه إلى تعيينه أعلاه، وإذا تقرر معنى الثقافة في معناها الأنتربولوجي الشامل ثم تقرر معناها من حيث نسبتها إلى

(5540/1)

الإسلام (أو نسبة الإسلام إليها) كما حاولنا تحديد ذلك فإن حديثنا عن "القيم" لا يقبل التقييد في المعاني الدينية ولا في الحدود الأخلاقية المجردة وحدها. نقصد بالقيم ما به ينتظم سلوك الأفراد والجماعات، ما به يكون المجتمع البشري ويستقيم أمر الوجود الاجتماعي والسياسي. تستمد القيم قوامها، على نحو ما نتحدث عنه، مما أسميه "العما الثقافي". وبهذا الأخير أقصد ما هو عصب الحياة فيه. يمكن القول أيضا إن القيم، من حيث صلتها بالثقافة

من وجه أول ومن حيث صلتها بالوجود الاجتماعي والسياسي للإنسان من وجه ثان، هي ما

(5541/1)

يعصم من الوقوع في العبث وفي الفوضوية من جهة أولى وهي ما يفرز الوعي الثقافي وينظمه، فينتظم أمر الإنسان في المجتمع من جهة ثانية.

وبالجملة، فالقيم شرط وجود المؤسسات السياسية وقيام المجتمع المدني، وهي شرط وجود المؤسسات السياسية وقيام المجتمع المدني، وهي شرط الصحة أو الوجود في تحقق الإيمان بالعمل، وبالجدية، وبالإنتاج، والإنتاج الاجتماعي.

II – المسألة السياسية في الفكر العربي الإسلامي في عصر "النهضة"

انشغل الفكر العربي الإسلامي، في القرن الماضي، بقضايا التقدم، والازدهار والتأخر والانحطاط انشغال

(5542/1)

كبيرا. وحيث نظر صوب أوربا فلمس من مظاهر قوتها وعظمتها ما جعل

ألمه وحيرته هائلين أمام تأخر العالم الإسلامي عن ركب الإنسانية المتقدمة وانحطاط المسلمين بالقياس إلى ما كانوا عليه في عصور القوة والغلبة.

اختلفت رؤى المفكرين وتباينت، بعضا أو كلا، ولكنها كانت تلتقي جميعها عند الحكم بأن السر في تقدم الغرب وقوته لا يرجع إلى ما استطاع أن يحققه من إنجازات تقنية وكشوف علمية، على أهميتها الكبرى، بقدر ما يرجع إلى أشكال الحكومات في ذلك الغرب وإلى طبيعة الأنظمة السياسية التي بها وجود تلك الدول والحكومات.

(5543/1)

وفي المقابل ذلك كان بين أولئك المفكرين، على تباين أنماط مقاربتهم وتباعد ديارهم (مع ميل البعض منهم إلى التصريح في القول في حين اكتفى آخرون بالتلميح فيه) إجماع على القول بأن أسباب انحطاط المسلمين وتأخرهم يرجع إلى فساد المؤسسات السياسية في بلاد الإسلام – ذلك الفساد الذي هو شكل من أشكال البعد عن الصراط المستقيم الذي يدعو إلى الدين.

1 – تبدو أولى صور هذا "الهم السياسي"، أو الربط بين التقدم والعدل من جهة أولى (وهذا حال الغرب الأوربي) وبين الانحطاط والظلم من جهة ثانية (وهذا واقع العالم الإسلامي) فيما

(5544/1)

دونه الرحالون المسلمون من ملاحظات. كان الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي، كما نعلم، شاهدا على حوادث ثورة 1830 في باريس وقد حصل له من العلم بشؤون الوجوديين السياسي والاجتماعي في فرنسا ما مكنه من إدراك ما يحدث من أعمال الفتن في الشوارع

متعلما من مطالعة الصحف اليومية. "فلما كانت سنة 1830 وإذا بالملك قد أظهر عدة أوامر منها النهي عن أن يظهر الإنسان رأيه وأن يكتبه وأن يطبعه بشروط معينة، خصوصا للكازيطات اليومية فإنه لا بد في طبعها من أن يطلع عليها أحد من طرف الدولة (...) فصنع وحده ما لا ينفذ إلا إذا كان صنعه

(5545/1)

مع غيره (...) فظهر بعض كازيطات الحرية آمرة بعصيان الملك والخروج عن طاعته ومعددة لمساويه وفرقت على الناس من غير مقابل"(1) .

نجد شيئا قريبا من هذا المعنى (في الربط بين العدل، في معنى المشورة والالتزام بالدستور وبالقوانين المسطرة) عند المغربي محمد بن عبد الله الصفار في مشاهداته في باريز سنة 1845

---

(1) رفعة رافع الطهطاوي، تلخيص الإبريز في تلخيص باريز، نشرة محمود فهمي حجازي، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974، ص. 249 – 348.

(5546/1)

فبعد أن يذكره بدوره "من جملة ما نقموا على ملكهم شارل العشر، الذي كان قبل هذا الملك الموجود الآن وكان السبب في قيامهم عليه (...) أنه أظهر النهي عن أن يظهر أحد رأيه أو يكتبه ويطبعه في الكازيطات إلا إذا أطلع عليه أحد من أهل الدولة. يضيف

في إشارة بليغة الدلالة "وإن جدار سلطانهم، فضلا عن كبير من كبرائهم، أو خرج عن القانون في أمر ما يكتبونه في الكازيطة ويقولون إنه ظالم وليس على الحق"(1)

---

(1) محمد بن عبد الله الصفار، الرحلة، انظر:

صدفة اللقاء مع الجديد: رحلة الصفار إلى فرنسا (1845 – 1846) ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط (1995)، ص. 161 – 168 ؛ وانظر أيضا : سعيد بنسعيد العلوي، أوربا في مرآة الرحلة : صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط (1995) ، وعلى وجه الخصوص الصفحات 49 – 70.

(5547/1)

.

2 – يخطوا النقد "الضمني" للمؤسسة السياسية في العالم الإسلامي خطوة أكثر جرأة عند مفكرين إسلاميين من مفكري القرن التاسع عشر لم يحظيا بالصيت الذائع الذي عرفه غيرهما من مفكري هذا القرن. أولهما مصري الجنسية وهو مصطفى فاضل باشا، وهو أخ للخديوي إسماعيل وحفدة محمد علي. ذلك أنه لا يرى للعالم الإسلامي استقامة حال ولا يرى للتخلص من واقع الانحطاط سبيلا، ولا يجد للالتحاق بركب الإنسانية المتقدمة طريقا آخر سوى القول بالفصل العلني والصريح بين السياسة وبين الدين. يخاطب السلطان العثماني عبد العزيز مكاتبا

فيقول: "تعلمون، أفضل مني، أن سلطان الدين يحكم الأرواح وأنه هو الذي يجعل أبواب المستقبل مشرعة في وجهنا، ولكن ليس هو من ينظم حقوق الناس"(1). وثانيهما تركي، ينتمي إلى وسط اجتماعي أكثر تواضعا، ويدعى نامق كمال. يكتب بدوره إلى السلطان العثماني مشيرا عليه بتبني نمط من الحكم السياسي يفسح المجال للاستشارة الشعبية على نحو

(1) أورده الباحث الفرنسي M. Colombo في دراسته.
« Trois réformateurs des institutions de l'Islam », Etudes d'orientalisme, les éditions Maisonneuve et Larose, Tome1962, Paris, P. 1, 1107.

ما يقضي به النظام الذي يقوم على أسس احترام الدستور فقط محض فرغه تخوف بها روسيا، على ما تصنعه اليوم"(1).

3 – لا يمكن للناظر في الفكر العربي الإسلامي في عصر "النهضة"، من جهة غلبة الاهتمام بالمسألة السياسية على ذلك الفكر، أن يغض الطرف عما كتبه عبد الرحمن الكواكبي وتفرد به من قول في الموضوع. بل لسنا نعلم مفكرا مسلما معاصرا يربط بين الانحطاط، من جهة أولى، وبين فساد الواقع السياسي، من جهة ثانية، على نحو ما فعله مؤلف "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد". يذكر في مقدمة

(1) المرجع السابق الذكر، الصفحة 108.

(5550/1)

هذا الكتاب أنه، في زياراته المتعددة إلى مصر، قد وجد القوم في أرض الكنانة، على غرار ما عليه الشأن في البلاد الإسلامية الأخرى قد خاضوا "عباب البحث في المسألة الكبرى، أعني المسألة الاجتماعية في الشرق عموما وفي بلاد المسلمين خصوصا وإنما هم كسائر الباحثين كل يذهب مذهبا في سبب الانحطاط وفي ما هو الداء (...) قد يمحص عندي أن أصل الداء هو الاستبداد السياسي، دواؤه دفعه بالشورى الدستورية"(1)

(1) عبد الرحمن الكواكبي، "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"، ضمن الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1975، الصفحة 1131. وتشديدنا تأكيد لتشديد المحقق الناشر.

(5551/1)

.

لا يرجع "داء الشرق" أو "انحطاط المسلمين" إلى التهاون في الدين، فذاك قول يسلم إلى السقوط في الدور الفاسد (الاختلاف في الآراء، التهاون في الدين، سبب الاختلاف، الجهل...). بل إن هذا السبب وما إليه ليس، في العمق، إلا نتيجة لفساد التدبير السياسي – وقارئ تاريخ الإسلامي يرى أن بين تذني الحياة السياسية وابتعادها عن

المثل الأعلى الذي جاء الإسلام مبشرا به وكان النبي، عليه السلام، مجسدا له في حياته بسلوكه وفعله قد سلك منحدر الفساد قبل أن يسقط سقطته الكبرى" يخيل إلي أن سبب الفتور هو تحول نوع السياسة

(5552/1)

الإسلامية، حيث كانت نيابية اشتراكية أي "ديموقراطية" تماما، فصارت بعد الراشدين، بسبب تمادي المحاربات الداخلية ملكية مقيدة بقواعد الشرع الأساسية، ثم صارت أشبه بالمطلقة"(1) . القول إن السياسة الإسلامية « صارت أشبه بالمطلقة" قول يعني أنها أصبحت منتسبة، من حيث طبيعتها الجديدة هذه، إلى سياسة "الاستبداد" يصدق عليها من النعوت والأوصاف ما يصدق على هذه الأخيرة، ويكون في ارتفاع هذه

---

(1) عبد الرحمن الكواكبي، " أم القرى"، انظر الصفحة 250 من الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق محمد عمارة... (سبقت الإشارة إليه).

(5553/1)

الطبيعة الجديدة وزوالها استقامة الحال والعودة إلى الحال الأول المستقيم.

يصير أمر المسلمين، في حكم الاستبداد، إلى حال اليتامى والقاصرين من حيث الحجر عليهم، بل إنهم يبتلون بمحنة "الوصي

الخائن القوي" فهو يتصرف في حقوقهم وأموالهم كما يحلو له طالما كانوا قاصرين. والمستبد يحكم الطوق ويطيل أمد الوصاية بإشاعة الجهل" فكما أنه ليس من صالح الوصي أن يبلغ الأيتام رشدهم، كذلك ليس من غرض المستبد أن تتنور الرعية بالعلم"(1). و في مسيرة

---

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد... (سبقت الإشارة إليه) ، ص. 153.

(5554/1)

تحليل منطقي صارم، من جهة بنائه الذاتي لا من جهة الواقع التاريخي، ينتهي المفكر العربي الإسلامي إلى وجوب الربط بين الثورة على الاستبداد من جهة أولى وبين مجاوزة حال التأخر والانحطاط من جهة ثانية – ولكن صاحب "مصارع الاستعباد" يرى لذلك الأمر بادئ وقواعد وخطوات طبيعية يلزم خطوها: أولها دفع الأمة إلى وعي هذا الأمر فتلك التي لا "يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية" وثالثها، وآخرها، أنه "يجب، قبل مقاومة الاستبداد، تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد"(1)

---

(1) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد...، ص. 222

(5555/1)

.

في استطاعة الباحث أن يحدد الأمثلة أكثر مما فعلنا وأن يفسح

مجال النظر في المجالات السياسية مما صنعنا: يولي فكره وجهة الشيخ الثائر جمال الدين الأفغاني، في التفاتة أولى، ويقوده نحو مناقشات المسلمين الهنود في مؤتمراتهم في نهاية القرن الماضي ومطلع هذا القرن (كما نجد ذكر ذلك عند محمد عبده في كتابه "الإسلام والرد على منتقديه")، في التفاتة ثانية، أو يولي فكره، في التفاتة ثالثة، صوب علماء المغرب في القرن الماضي وقولهم الضمني في وجوب الإصلاح السياسي والقوة السياسية شرطا لتحقيق إصلاح شؤون الأمة

(5556/1)

الإسلامية. وفي هذه النظرات كلها سيجد أن الفكر الإسلامي، في القرن الماضي ومطلع القرن العشرين وإلى غاية نهاية العقد الثاني منه سيرون الأهمية الأولى في الانتهاء من "الانحطاط" و "سلوك سبيل التقدم" مرتبطين بالمسألة
"الكبرى" كما يقول الكواكبي. (وهل لكتاب علي عبد الرزاق "الإسلام وأصول الحكم" مغزى آخر غير ذلك).
يصح القول، إجمالا، إن الفكر العربي الإسلامي في "عصر النهضة" كان يقرأ في صورة أوربا، على نحو ما ترسمه نظرته إليها، ما كان بالضبط يفتقده في عالمه فلا يجده: يقرأ فيها معنى الحياة السياسية

(5557/1)

التمثيلية، ويقرأ فيها حضور "الشورى الدستورية". فما صنع قوة الغرب وتقدمه هو نقيض ما كان عنه ضعف المسلمين وانحطاطهم، وهو أمر يرجع إلى "السياسة" أولا وأخيرا. وهذه القراءة، أو على الأحرى موجهاتها، هي ما جعلت كل المطالب والقضايا الفكرية والاجتماعية تحتجب كلية، أو يدفع بها إلى منطقة الظل لتحتل مرتبة ظلت على الدوام هامشية. نعم، نحن نجد عند بعض دعاة الفكر العربي الإسلامي(1)

---

(1) ذلك ما نجده، على سبيل المثال، عند ثلة من العلماء المغاربة وفي رحلات البعض منهم على وجه الخصوص. في هذه المسألة، وفي إشارتنا السالفة إلى علماء المغرب في القرن الماضي، انظر دراستنا: الاجتهاد والتحديث: دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب، مركز دراسات العالم الإسلامي، 1992، مالطة.

(5558/1)

المعاصر إعجابا بالصورة الأخرى لأوربا (تقدير العمل، حب النظافة، رعاية العلم والعلماء)، أوربا القيم الاجتماعية والفكرية ولكن إلحاح الاستعجال السياسي كان يعمل إما على ربط ذلك كله بالسياسة وما يتعلق بها، وإما كان يحيلها إلى مرتبة الكمالي أو الهامشي.

III – المسألة السياسية في فكر الحركات الإسلامية المعاصرة

هل كان الأمر غير ذلك في فكر الحركات الإسلامية المعاصرة، على نحو ما تظهر عليه منذ ثلاثينات القرن الحالي؟ هل كان من شأن انهيار الخلافة العثمانية من جهة أولى، وحصول التحولات السياسية التي عرفها

(5559/1)

العالم الإسلامي أن تغير من النظرة التي كان يأخذ بها مفكرو "عصر النهضة"؟ يلزمنا قبل محاولة القول في المسألة وقبل الشروع في فحص نماذج أو تيارات هذه "الحركات الإسلامية المعاصرة"، أن نقطع برأي دقيق وواضح في نقطتين لا يملك الناظر في فكر
هذه الحركات وعملها إلا أن يتخذ في شأنهما نظرا واضحا لا يعتبره غموض أو التباس في الفهم.

– أما النقطة الأولى فهي الصلة بين هذا الفكر الإسلامي المعاصر، عند هذه "الحركات" وبين الفكر العربي الإسلامي في "عصر النهضة" : أهي صلة استمرار واتصال، فإنما هي تلوينات في النظرة

(5560/1)

الواحدة وهي لا تخرج عن الإطار العام للإشكالات التي أثارها مفكرو النهضة السلفيون؟ أم أن الأمر يتعلق، بالأحرى، بمغايرة تامة، بل وربما "قطيعة" تامة، بالنظر إلى التباعد البنيوي بين الظرفين السياسيين والتاريخيين وبالنظر إلى الجديد الذي نجده منذ كتابات المرحوم حسن البنا والذي يبلغ مدى بعيدا من الابتعاد والانفصال منذ كتاب "معالم الطريق" للمرحوم سيد قطب؟
وبكيفية واضحة ومباشرة نعلن مشاطرتنا رأي أصحاب التساؤل الثاني وتأكيدنا، معهم، لصحة القول بالمغايرة، بل "القطيعة" بين دعاوي المعاصرين (والمتأخرين

(5561/1)

المعاصرين لنا خاصة) وبين مفكري "عصر النهضة".

– أما النقطة الثانية، وهي إلى حد بعيد من مقتضيات الأخذ بالرأي الثاني في النقطة الأولى، فهي التساؤل عما إذا كان الأمر يتعلق في "التحركات الإسلامية المعاصرة" بحركة واحدة. يكون الاختلاف فيها في المظاهر والتعبيرات، أم الأمر يتعلق بتعدد وكثرة؟

وعلى غرار ما أعلناه في النقطة الأولى نسند، بدورنا الرأي الثاني الذي يقضي بلزوم الكلام عن حركات عدة ما دام الواقع السياسي والوجود الاجتماعي يقتضيان، بحكم المنطق والتاريخ معا، كثرة وتنوعا فيهما حكمت بها التحولات

(5562/1)

الاجتماعية والسياسية التي ما فتئ العالم الإسلامي يشهدها في العقود الثلاثة الأخيرة.

أما الجواب عن سؤالنا الأول (طبيعة "حضور المسألة السياسية" في فكر الحركات الإسلامية المعاصرة) فنحن نلتمس الإجابة من خلال وقفات قصيرة عندما نعتبر النماذج الأكثر تمثيلية ودلالة.

1 – نقرأ "رسائل الإمام الشهيد" فنجد عند صاحبها اهتماما بالمسألة "التربوية" يكاد مهيمنا على ما سواه من الاهتمامات الأخرى. والتربية، عند المرحوم البنا، ليست سبيلا من بين سبل العمل الأخرى الممكنة في عقيدة "الإخوان المسلمين" ولكنها جوهر تلك

العقيدة وماهيتها.

"تستطيع أن تقول، لا حرج عليك، إن الإخوان المسلمين دعوة سلفية (...) وهيأة سياسية: لأنهم يطالبون بإصلاح الحكم في الداخل وتعديل النظر في صلة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم في الخارج، وتربية الشعب على العزة والحرص على قوميته إلى أبعد حد (...) ورابطة علمية ثقافية: لأن الإسلام يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ولأن أندية الإخوان هي في الواقع مدارس للتعليم والتثقيف ومعاهد لتربية الجسم والعقل والروح"(1)

(1) حسن البنا، الرسائل، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، بيروت، (د. ب)، الصفحة 156.

.

التربية جوهر عقيدة "الإخوان المسلمين" لأنها برنامج شامل في الفعل والسلوك وخطة عملية لتنفيذ ذلك البرنامج. التربية إذن استراتيجية شاملة وبرنامج تنفيذها ثلاثي الخطوات. خطوة أولى هي الإعداد أو التعريف بالفكرة (مرحلة الدعوة)؛ وخطوة ثانية ("مرحلة التكوين وتخير الأنصار وإعداد الجنود")؛ وخطوة ثالثة حاسمة، هي خطوة ("التنفيذ والعمل والإنتاج"). التربية كذلك لأن الهاجس المسيطر عليها هو هاجس التنظيم، تنظيم العقيدة (وهذا

معنى المحاسبة، محاسبة النفس كل ليلة والالتزام بقراءة أوراد ودعوات محددة) – ثم تنظيم

(5565/1)

الأنصار رجال العمل (ذلك هو مغزى "رسالة التعاليم") ... وهكذا حيث كان عمل البناء والتأطير، تأطير الرجال والعاملين، يتم في صور ثلاث على نحو ما يسهب المرحوم البنا في الحديث عن ذلك (الكتائب، الفرق، درس التعاليم) فنحن نجد أن لكل صورة هدفا معلوما. هدف الكتائب تحقيق التعارف "وتمازج النفوس والأرواح ومقاومة العادات والمألوفات (...) وهذا هو معهد التربية الروحية للإخوان المسلمين". وهدف الفرق "تقوية الصف بتنمية جسوم الإخوان (...) وهذا هو معهد التربية الجسمية" وهدف درس التعاليم في الأندية "تنمية أفكار

(5566/1)

الإخوان وعقولهم بدراسة جامعة لأهم ما يلزم الأخ المسلم معرفته (...) وهذا هو معهد التربية العلمية والفكرية للإخوان المسلمين"(1)

التربية استراتيجية شاملة من حيث أنها برنامج نقدي لعمل الأحزاب في أي السياسية لأنها "ليست أحزابا حقيقية بالمعنى الذي تعرف به الأحزاب في أي بلد من بلاد الدنيا، فهي ليست أكثر من سلسلة انشقاقات أحدثتها خلافات شخصية بين نفر من أبناء هذه الأمة (...) هذه الأحزاب لا برامج لها ولا مناهج ولا

خلاف بينها إلا في الشخصيات"(2).

---

(1) المرجع السابق، ص. 160.

(2) المرجع السابق، ص. 220.

(5567/1)

فهل تخرج التربية في هذه الاستراتيجية عن المنحى السياسي وهل تحيد عن قصدها المباشر؟

2 – تكاد كل الآراء الواردة في كتاب المرحوم السيد قطب "معالم في الطريق" ترتد إلى محورين إثنين أو إلى زوج مفهومي، عنهما تكون كل الأفكار التي ينتظمها الكتاب: الإسلام / الجاهلية (أو المجتمع الإسلامي / المجتمع الجاهلي). والجاهلية، عند سيد قطب هي سمة العصر الذي نعيش فيه اليوم: "نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم. كل ما حولنا جاهلية: تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم

(5568/1)

وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم"(1). وحيث يكون الأمر على هذا النحو فإن الدعوة الإسلامية لا تعني شيئا آخر سوى إعلان القطيعة والانفصال مع "مجتمع الجاهلية" تمهيدا لإلغائه إلغاء فعليا عن طريق إزالته، متى أمكن استجماع الأسباب الكافية لذلك وفي ذلك لا بد من صلابة في الموقف ومن صرامة في معاداة هذا المجتمع،

"أولى الخطوات في طريقنا هي أن نستعلي على هذا المجتمع الجاهلي وقيمه وتصوراته وألا نعدل نحن في قيمنا وتصوراتنا قليلا أو كثيرا لنلتقي معه في نصف الطريق.

(1) سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق، بيروت، 1983.

(5569/1)

كلا! إنا وإياه على مفرق الطرق، وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق"(1).

رفض المجتمع "الجاهلي" هو كما نلاحظ، رفض شامل ومطلق لكل القيم والتصورات والتقاليد والعادات، وكذا لكل الشرائع والقوانين.

إنها "القطيعة" فعلا وهي مهمة شاقة وعسيرة ضعفين. عسيرة أولا لأن الإنسان يولد ويشب ويكبر في ظل "الجاهلية"، حيث، "الإسلام" غير متحقق بالفعل، وهي عسيرة ثانيا لأن "منهج التربية الإسلامية"، كما يقول محمد قطب مطلوب إقراره بعدما كان التيه عنه قرونا عديدة. "القطيعة"

(1) المرجع السابق، ص. 22.

(5570/1)

(متى نظرنا إلى المسألة في وجهها السلبي) أو تحقيق "المنهج الرباني" (متى نظرنا إلى المسألة في وجهها الإيجابي) مهمة عسيرة لكنه لا محيد عنها "لقد علم الله أنها ضرورة لازمة لتربية الجيل الأول على الأقل، الذي يحمل على أكتافه

مسؤولية التأسيس وإقامة البناء فجعلها سنة دائمة مع ذلك الجيل الأول بالذات"(1) .

التربية، في قول جامع إذن، هي سبيل الانفصال عن "الجاهلية" أو عن "المجتمع الجاهلي" وهي منهج التحضير والإعداد

---

(1) محمد قطب، مناهج التربية الإسلامية (جزءان)، القاهرة، دار الشروق، 1980؛ الجزء الثاني، ص. 59.

(5571/1)

لتحقيق "المنهج الرباني" (والعبارة لمحمد قطب). إنه التحضير لعمل تغيير شامل في الاجتماع وفي السياسة.

مع مرحلة "قطب" تمضي الاستراتيجية التي اختط لها حسن البنا خطوة جديدة حاسمة إلى الأمام.

3 – في فكر الحركات الإسلامية المعاصرة مفهوم محوري نحسب أن مفاهيم عديدة غيره ترجع إليه أو أنه، على كل، التوطئة العقائدية لذلك الفكر فلا يقوم اعتراض عليه من هذه الفئة أو تلك، من هذه الجماعة أو الأخرى من الجماعات الفكرية والسياسية الإسلامية: ذلك هو مفهوم "الصحوة". وإذا جاوز لنا أن نأتي للصحوة بنعت أو صفة (وليس

(5572/1)

بتعريف دقيق، فذاك ما يتكفل به أو يحاوله رجال الدعوة أنفسهم) فإننا نقول عنها: إنها حال يراد لوعي المسلم، في عالم

اليوم، أن يتصف بها. إنها نوع من "الانتفاض في النفس" يلزم تحقيقه لأولا وأخيرا. ذلك أنه لا تغيير، اجتماعيا كان ذلك التغيير أو سياسيا، انعدام حال "الصحوة".

وسواء كان الحديث، في خطاب الحركات الإسلامية المعاصرة لنا، حديثا عن "حتمية الحل الإسلامي" أو عن دعوة إلى وجوب "تطبيق الشريعة" أو كان مجرد نداء من أجل "تكوين الطليعة المسلمة المرجوة لنصرة الإسلام، والتي تمثل في عصرنا دور الصحابة في عصر

النبوة"(1) . فإن الدعوة إلى "الصحوة" تظل، كما أشرنا إلى ذلك، هي التمهيد أو المقدمة الضروريان لعمل التغيير الإسلامي الحاسم: اجتماعيا وسياسيا، (بل سياسيا ثم اجتماعيا).

يربط الفكر المعروف الشيخ يوسف القرضاوي، في كتاباته الغزيرة والمسهبة، بين "الصحوة" من جهة أولى، وبين القول بـ "حتمية الحل الإسلامي" من جهة ثانية ثم بين كل منهما على حدة وبين التربية من جهة ثالثة، إذا "التربية هي المدخل الأساسي والضروري لأي

---

(1) يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، القاهرة، مكتبة وهبة، 1991، ص. 73.

حركة إسلامية تعمل على تغيير الواقع بتغيير ما بالأنفس"(1).

ثم إن الحل الإسلامي (أو حتمية هذا الأخير بالأحرى) يظل هو الحل الوحيد الممكن بعدما جرب العالم الإسلامي عامة والعربي الإسلامي خاصة حلولا أخرى غير ذلك "أهدافنا السياسية الكبرى لم تتحقق ولم نقترب منها بل زدنا عنها بعدا : ضعف الأمل، بل إنه يكاد ينعدم في تحقيق الوحدة العربية "نتيجة للخلاف العقائدي بين المحافظين من دعاة اليمن والثوريين من دعاة الأيسار" . وقضية فلسطين ما تفتأ تزداد تأزما، وفي الموقف اللازم اتخاذه بإزاء

---

(1) نفس المرجع والصفحة.

(5575/1)

نصرتها "فشلت الثورية السياسية في سنة 1967، كما فشلت من قبلها الليبرالية في سنة 1948" . أضف إلى ذلك، كله أن قضايا "بلبلة الفكر، وسوء الأخلاق، وفساد الذمم وضعف الوازع، واضطراب الأسرة، وتفكك المجتمع وما شابه ذلك، فحدث عنه و لا حرج"(1) .

يجتهد فكر "الصحوة" في تقديم نظرية شاملة في الوجود السياسي والاجتماعي، ويسعى إلى رسم معالم نظرية تشمل الفكر والثقافة (وذلك، ما يستهدفه الحديث عن التربية).

---

(1) يوسف القرضاوي، الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، القاهرة، مكتبة وهبة، 1988، الصفحات 5 ، 9 ، 17 ، إلخ...

(5576/1)

ولكن منطق "الدعوة، من جانب أول والانشغال بأولويات الحركة من جانب ثان، ثم الالتزام بما تقضيه "حتمية الحل الإسلامي"، من جانب ثالث – كل هذه أمور تجعل الأولوية والصدارة للعمل السياسي أو لعمل سبيله ووجهته معا هما السياسة وما يرتبط بها. تمايز في المناهج وتعدد في المعالجة غي فكر الحركات الإسلامية المعاصرة: هذه حقيقة لا مجال لإنكارها، وشهادات النصوص في اختلافها (حسن البنا، وسيد قطب ومدرسته، والقرضاوي ومفكرو "الصحوة" عموما) – لكن الرؤية في أساسها تظل خاضعة لهيمنة "السياسي"، لا تنفك أن تحيد عن مقتضياته

(5577/1)

ومستلزماته.

في أحاديث البنا، وقطب، والقرضاوي مرارة ومعاناة تجد تبريرها وشرحها معا في ما كان هؤلاء المفكرون يفتقدونه بدورهم ولا يجدونه (بل إنهم قدما حياتهم ثمنا له في بعض الأحيان): ضعف المشاركة السياسية الفعلية ولربما غيابها، قوة الدولة بحسبانها مجموع "أجهزة إيديولوجية" تستهدف عمل الإبعاد والإقصاب من جانب، وتستهدف تركيز السلطة في جانب قليل من المجتمع من جانب آخر. وفي مقابل هذا، ضعف الدولة الشديدة، بحسبانها حضورا للعقل والمشاركة من جانب وتحقيقا لما ظل، منذ عصر الكواكبي، مطلبا ينتظر التحقيق:

(5578/1)

"الشورى الدستورية".

في أثناء هذا كله، ظلت "المسألة الثقافية" قابعة في زاوية النسيان، وإن بدا احتفال بها، وظلت قانعة من الوجود بمكانة المؤخرة والتبعية وإن بدا في خطاب الحركات الإسلامية المعاصرة أن الأمر غير ذلك ومن هذه الزاوية تحديدا، يصم الحديث عن مماثلة أو مقايسه بين ما ينتهي إليه الفكر العربي الإسلامي في "عصر النهضة"، وبين ما يتقرر، بكيفية عفوية، في فكر "الحركات" الإسلامية المعاصرة اليوم.

IV – المجتمع الإسلامي والثقافة، والمستقبل

(5579/1)

بين المجتمع الإسلامي (على نحو ما عرفناه) وبين العالم من حوله أسباب وصلات قوية، فهذا المجتمع في سيره وفي صيرورته معا يخضع لأثر العالم ولتأثيره – ومن أجل تأكيد آخر لهذا المعنى، وفي سبيل طرح واع متبصر لآفاق المستقبل في هذا المجتمع نقف، في أسطر قليلة، وقفة استخلاص ومراجعة.

1 – فـ "عصر النهضة" تعلق الأمر بالنسبة للمجتمع الإسلامي بما يحق نعته بالاكتشاف المزدوج، أو بالاكتشاف "الآخر" أو "الغير" – ذلك هو "الغرب".

(5580/1)

والنظر في أسباب قوته وازدهاره، عند المفكر المسلم، جعل الانتباه منه ينصرف إلى "الشورى الدستورية" وإلى سلامة المؤسسة السياسية وقوتها. واكتشاف ثان هو اكتشاف " الذات"، ذلك هو :"الشرق"، والنظر في علة تأخره وأسباب "انحطاطه" قاد إلى القول باعتبار "المسألة الكبرى" =كما يقول الكواكبي) الأساس والمصدر (على نحو ما رأينا).

في المقابل هذا الوعي المزدوج (التأخر/ التقدم) كان "الغرب" صعودا أمبرياليا وهيمنة استعمارية وكان "عصر النهضة" هو عصر التحضير لاقتسام تركة "الرجل المريض" وتوزيع غنيمة الوطن العربي والعالم

(5581/1)

الإسلامي.

2 – في الأزمنة المعاصرة، أي في المرحلة التي تشمل حركات التحرر الوطني وما بعدها يجوز الحديث عن تقابل بين أمرين اثنين هامين. أولهما أن "الزمان" كان زمان اقتسام للسيطرة العالمية بين العظميين أو القطبين وكان كل من المعسكرين (الرأسمالي والشيوعي) يسعى في استقطاب جزء من الوطن العربي وبعض من العالم الإسلامي. (وغنى عن البيان أن كلا منهما قد قطع على درب النجاح في مسعاه خطوات كبيرة). وبعبارة أخرى، فقد كان المجتمع الإسلامي يتفاعل مع واقع "الحرب الباردة" وينفعل بها. وأما الأمر الثاني فهو أن دول

(5582/1)

الإسلام (وقد كانت في أغلبها الأعم بصدد الخروج من هيمنة الاستعمار المباشر، دون أن تقدر على التخلص من براثن أحد القطبين العملاقين) كانت تصارع مشاكل ذاتية، مشاكل بناء دولة الاستقلال (تكوين الأطر، إحداث البنايات الاقتصادية والسياسية والقانونية الملائمة، مشكلات "الديمقراطية " وهيمنة الحزب الواحد – في الأغلب الأعم من الأحوال). ومشاكل بناء صرح المجتمع الجديد (البحث عن الهوية، والخضوع للأثر الإيديولوجي الخارجي، الصراع بين نظام العلاقات السابقة وما يفرضه منطق التحول من نظام جديد للعلاقات وسلم جديد

(5583/1)

للقيم...).

3 – لا يزال العالم يعيش اليوم (في التسعينيات) حالة التأهب والتوقع التي نشأت عن تداعي النظام الدولي المعروف (نظام الثنائية القطبية) نتيجة انهيار المعسكر الشيوعي. فلا تزال صورة "النظام الدولي الجديد" بصدد التكون والصياغة، ولربما كانت بساطة من المرء في التفكير أن يحسب أن القيادة في هذا النظام "الجديد" ستكون للولايات المتحدة الأمريكية وحدها دون منازع. نعم، هنالك مؤشرات كبرى تدل على ذلك، وعند رجال الاستراتيجية والتصورات المستقبلية يبدو هذا المشهد أو السيناريو الأكثر احتمالا وامتلاكا

(5584/1)

لأسباب القوة والنجاح. أضف إلى ذلك أن "النموذج الأمريكي" (من حيث هو صورة لثقافة وتعبير عنها، ومن حيث هو تجسيد لسلم من القيم وتأكيد لها في الوقت ذاته) يتجه، أكثر فأكثر، نحو الهيمنة شبه المطلقة في كافة أرجاء المعمور (بما في ذلك دول الشرق الأقصى من جانب أول، وما كان يشكل "المعسكر الاشتراكي" من جانب ثان). كل هذا صحيح، ومن العسير على الإنسان أن يجاحد فيه – ولكن احتمالات مشاهد أخرى تظل ممكنة. ولكن الإشكال لا يكمن في هذا وحده بالنسبة للمجتمع الإسلامي.

(5585/1)

يكمن الإشكال، في عمقه، من وجهة نظرنا أن ما كان عند "الآخر" تحققا تاريخيا لا يزال عندنا احتمالا وإمكانا في انتظار الكون والظهور – القصد بذلك بناء الدولة الحديثة على الحقيقة (دولة القانون والمؤسسات، دولة الديمقراطية في معنى مراقبة السلطة بالطرق القانونية وفي معنى تداولها وانتقالها من جهة إلى أخرى)، كما أن القصد به بناء ما به تتحقق أسس تلك الدولة ودعاماتها الحضارية وأسسها الثقافية.

يكمن الإشكال، من جهة أخرى، في الصورة التي يكتسبها الإسلام اليوم هذا النظام "الجديد" الذي لا يزال بصدد الكون والتشكل.

(5586/1)

فمن السهولة بمكان أن يطمئن المجتمع الإسلامي إلى صورة الإسلام بحسبانها خطرا أو قوة خطيرة يحسب لها حسابها بعدما كان من

انهيار المعسكر الشيوعي. وبعبارة أكثر وضوحا نقول، من اليسير أن يطمئن المجتمع الإسلامي إلى صورة الإسلام المستهدف أو المهدد في وجوده ثم يحتسب كل المشاكل والصعوبات التي يعانيها على حساب الخطر الخارجي الذي يتهدده.

لا أملك أن أقطع في مسألة المجتمع الإسلامي والمستقبل برأي حاسم ولكني أدرك أن واقع المجتمع الإسلامي، من داخله (أي بالنظر إلى مشكلاته الذاتية من جهة أولى، وبالنظر إلى الأطوار

(5587/1)

التي مر بها في وتيرة متسارعة نسبيا منذ القرن الماضي من جهة ثانية)، وأن هذا الواقع "الدولي" الذي هو قيد الكون والتشكل، كل هذا يحملنا حملا على اعتبار أن الجذر والأساس في المجتمع الإسلامي يؤول إلى مسألة الثقافة وإلى قضية القيم في ارتباطهما وتضافرهما.

تعيش الإنسانية اليوم، في هذه السنوات الأخيرة من القرن العشرين، مخاضا هائلا وتحولا عظيما يسهم فيه التقدم التكنولوجي نحوا من الإسهام يشي بإحداث نوع من الانتماء أو القطع مع العصور المتقدمة جميعها، وتجليات هذا المخاض والتحول قابلة للملاحظة والدرس في

(5588/1)

مظاهرها الكبرى الواضحة، فكأنما الإنسان يبحث، فعلا، عن جديد يفتقده فلا يجده، وكأنما العالم في امتداده واتساعه قد استحال

إلى قرية واحدة تحت تأثير وسائل الاتصال وقوة الإعلاميات ووسائل المواصلات السريعة. وفي هذا كله لا يملك الإسلام، بحسبانه تراثا حضاريا كبيرا، أن يكون في موقع الغالب أو اللاهي. وطبيعة "المجتمع المفتوح" التي مكنته من الوجود والاستمرار قرونا وأزمنة شتى تحمل اليوم على النظر إلى المستقبل قوة وثقة.
هل نملك إحداث نقلة "كيفية" نجد بها لأنفسنا مكانة لائقة في العقود القليلة المقبلة؟.

(5589/1)

ذكرى تأسيس جامعة محمد الخامس

تحل في هذه السنة ذكرى مرور أربعين عاما على تأسيس جامعة محمد الخامس بمدينة الرباط (21 دجنبر 1957)، ومما جاء في خطاب المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه بهذه المناسبة:
"إن من حق هذه البلاد أن تعتز بتاريخ ثقافي عريق، فمنذ العهود الأولى لانبثاق فجر الإسلام في ربوعها ظهرت من بين المغاربة الوافدين عليهم طائفة من العلماء الذين انصرفوا إلى إماطة لثام الجهل عن العقول وغرس مبادئ الدين الحنيف في النفوس وتبصير الناس بما فرض عليهم دينا ودنيا ومن هذه الطائفة كانت النواة لأول

(5590/1)

مركز ثقافي عرفه المغرب وكان من بين المراكز الثقافية المعدودة على الأصابع آنئذ هذا المركز الذي عرف باسم القرويين.

... إلا أن هذا لم يكن من شأنه أن ينسينا ما يقتضيه العصر وما تتطلبه مقتضيات التطور من تأسيس جامعات عصرية كفيلة بسد حاجات البلاد إلى من يعوزها من الكفاة في جميع الميادين ...

... وها نحن ندشن اليوم بحمد الله أول جامعة مغربية عصرية مبتهجين بتحقيق أمل من أعز آمالنا مغتبطين بهذا الحدث الجليل الذي شاء الله أن يكون مما نتوج به عهد الاستقلال".

... ... انبعاث أمة، ج 3، ص. 118.

(5591/1)

"من المسلم به أن التعليم أضحى اليوم يلعب دورا أساسيا في تنمية البلدان الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فالانفتاح الاقتصادي والتعاون الدولي والتطور التقني والتكنولوجي كلها غايات ستجعل من التحكم في المعرفة عمادا للتنافس والشراكة بين أمم أصبحت – إن لم تكن كلها فجلها – متداخلة المصالح ...

إن نظامنا التعليمي يجب أن يتم تصوره والتنظير له في إطار سياسة شاملة منسجمة تتوخى المستقبل وتتسم بمرونة كبيرة حتى يمكنها أن توفي بما يلزم من الملاءة. ويتعلق الأمر بوضع سياسة قابلة للتكيف تمكن من الاستجابة للحاجيات

(5592/1)

الآتية والمستقبلية المتصلة بما تعرفه بلادنا من تحولات اقتصادية واجتماعية وثقافية ...

إن تعليمنا يجب أن يعزز ويقوي شخصيتنا المغربية وأن يعيد لبلادنا المكانة المرموقة التي كانت تحتلها عبر التاريخ ضمن حظيرة الأمم، كما يجب أن يستمد هذا التعليم روحه من مبادئ الإسلام وأن يقوم عليها بصفة خاصة، ذلك أن الإسلام هو دين التفتح والتسامح الذي جعل من المغرب خلال حقبه الزاهرة بلدا محظوظا قويا محترما، بلدا يرفض الانكماش على النفس أو ممارسة سياسة الأنانية والتعصب، ويعرف تلقائيا كيف يعامل الآخرين باحترام وتقدير

(5593/1)

واعتبار، كما حض على ذلك ديننا الحنيف".

جلالة الملك الحسن الثاني، انبعاث أمة، ج. 39، صص. 237–241.

اتحاد جامعات العالم الإسلامي

إن الهدف الأساسي للاتحاد هو دعم الجامعات الوطنية والمعاهد العليا التي في مستواها في لعالم الإسلامي في إعداد الإنسان القوي القادر على خدمة أمته الإسلامية وتحقيق تطلعاتها في بلوغ الغايات النبيلة لهذه الأمة على أسس متينة نابعة من العقيدة الإسلامية فكرا وعملا والقيام بدوره الفاعل في تحقيق السلام والإخاء في هذا العالم بالعلم والثقافة من طريق التعاون بين هذه الجامعات والمعاهد

(5594/1)

الأعضاء في الاتحاد والاتحادات والروابط الجامعية الإسلامية وبينها وبين الجامعات الأخرى في العالم وخصوصا الجامعات الإسلامية في غير البلاد الإسلامية في مختلف المجالات.

ويعمل الاتحاد على تحقيق هذا الهدف بجميع الوسائل المشروعة مع التركيز على:

1 – التعاون على رفع مستوى البحوث العلمية في جميع المجالات وتبادل نتائجها وتوجيه العناية إلى البحوث التطبيقية التي تعالج مشكلات الأمة الإسلامية وربط موضوعات البحوث بالتنمية الشاملة،

(5595/1)

---

2 – التصدي للغزو الثقافي والفكري الذي تتعرض له الأمة الإسلامية عن طريق العناية بالتراث الإسلامي وحفظه ونشره وبيان مكانته وأثره في الحضارة الإنسانية.

3 – التعاون مع الاتحادات الجامعية الأخرى.

4 – تشجيع تدريس اللغة ونشرها في البلاد الإسلامية التي لغتها الرسمية غير العربية.

5 – تبادل الزيارات بين المحاضرين والطلبة.

6 – إتاحة الفرص لحضور المؤتمرات العلمية وعقد الندوات المشتركة.

7 – تبادل البرامج الدراسية واللوائح وغيرها بما يدعم المستوى العلمي.

(5596/1)

... ... المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو)

(5597/1)

المحمدية قاعدة بلاد السوس وأم القرى والأمصار وملاك باب السودان

... ... الدكتور عبد الكريم كريم

... ... كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط

... تعرضت سواحل بلاد السوس عند مطلع القرن 10 هـ/ 16 م للحملات البرتغالية والإسبانية المتوالية التي انتهت بإقامة مراكز نفوذ واحتلال عليها، وذلك للأهمية الستراتيجية التي أصبحت لهذه السواحل القريبة من جزر كناريا بعد اكتشاف العالم الجديد وتعرُّف طريق الهند البحرية من حيث التحكم في طريق التجارة العالمية الجديدة بين غربي أوروبا والهند

(5598/1)

والشرق الأقصى أو فيما يرجع لاتخاذها نقطة انطلاق للتوسع في بلاد السوس التي تشتهر بمزارع قصب السكر وبمراكز التجارة مع غربي إفريقيا وبلاد السودان.

... وهذه الحملات الأجنبية أثارت رد فعل قوي من قبل أهالي السوس الذين أعلنوا الجهاد على المحتلين ومن يتعاون معهم، خاصة وأن بلاد السوس كانت المنطلق الأول للطريقة الجزولية التي عمت

شهرتها كل بلاد المغرب. ومن أشهر الأئمة الذين عرفتهم بلاد السوس العالم الحسن بن عثمان شيخ جزولة بقرية »اسجاور«، والإمام محمد بن مبارك بقرية »أقا« والشيخ علي بن محمد الأديب(1)

---

(1) المختار السوسي، سوس العالمة، ص. 156.

(5599/1)

وغيرهم من الذين عرفوا بالورع والتقوى والقيام بشؤون التعليم والتدريس والذين دعوا إلى محاربة الغزاة وتزعموا صفوف المجاهدين.

... اتجهت أنظار قبائل السوس إلى الشيخ محمد بن مبارك بأقا الذي كان قد »وضع أياماً معلومة في كل شهر يسمونها أيام سيدي محمد بن المبارك لا يحمل فيها أحد سلاحاً ولا يقدر أحد على المشاجرة فيها ويجتمع الرجل مع قاتل أبيه وولده وما يقدر أحد أن يكلمه وذلك شائع عند قبائل العرب والبربر من أهل سوس«(1). فدلهم على أحد أشراف »تاكمادارت« ببلاد درعة، وهو

---

(1) ابن عسكر، دوحة الناشر، ص. 74.

(5600/1)

المولى محمد بن عبد الرحمن: »فلو بعثتم إليه وبايعتموه، كان أنسب لكم وأليق بمقصودكم«(1). والمولى محمد بن عبد الرحمن كان يعرف بين قومه بسعة العلم و»التمسك بسيرة السلف

الصالح من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر «(2)؛ كما ذاعت شهرته ببلاد السوس لقيامه بأعمال الجهاد والمرابطة، إذ كان »يستنفر الناس للرباط بأقدير حيث كان النصارى(3)، الشيء الذي يجعل له بين القبائل

(1) الإفراني، نزهة الحادي، ص. 12.

(2) الزياني، المعرب في دول المشرق والمغرب، مخطوط بدار الوثائق بالرباط (د 258)، ص. 343.

(3) المصدر نفسه.

(5601/1)

السوسية نفوذاً كبيراً. فقد كان يأمر أشياخ القبائل فيمتثلون أمره «(1). ومن مجريات الأحداث نعلم أن اتصالات قد جرت مع المولى محمد بن عبد الرحمن الذي »بعث له فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل واستدعوه إلى تقديمه عليهم وتسليم الأمر إليه، فلبى دعوتهم وأجاب رغبتهم«(2).

... وفي قرية »تدسي« القريبة من مدينة تارودانت اجتمع المولى محمد بن عبد الرحمن بزعماء القبائل ومشايخها، حيث »خطبهم خطبة عجيبة بلسان البربر ذكر فيها ووعظ وحض على الجهاد«(3)

(1) المصدر نفسه.

(2) الإفراني، نزهة الحادي، ص. 17.

(3) الزياني، المعرب، ص. 343.

(5602/1)

واشترط على كل قبيلة تقديم عشرة أشخاص من أبنائها مجهزين بكامل الأسلحة والعتد. »فاستحسنوا رأيه وأنعموا له بذلك وقدموا له خمسمائة رجل وكذا بسلاحهم وخيلهم«(1)، أي أن القبائل السوسية التي أعلنت بيعة المولى محمد بن عبد الرحمن في قرية تدسي كانت خمسين قبيلة. تلقب المولى محمد بن عبد الرحمن بـ»القائم بأمر الله«، وأسند لابنه الأكبر المولى محمد قيادة القوات المجاهدة. وحسب رسالة الحاكم البرتغالي بأكادير Ignacio Martines إلى الملك البرتغالي عمانويل الأول والمؤرخة بيوم 5 نوفمبر 1510

(1) المصدر نفسه، ص. 344.

(5603/1)

م، فإن بيعة القائم بقرية تدسي كانت في مطلع نوفمبر 1510 م الموافق لمطلع شعبان 916 للهجرة(1). استغلت القيادة الجديدة في تدسي إمكانات البلاد، وخاصة قصب السكر، للاستعداد لمنازلة البرتغاليين؛ الأمر الذي يفسر لنا انقضاء نحو السنة قبل أن يقوموا بأول هجوم ضد حصن »سانتاكروز« يوم 18 غشت 1511 م(2)، وهو التاريخ الذي يعد بداية انطلاق الحركة الجهادية الرامية إلى تحرير السواحل المغربية من الاحتلال الأجنبي.

(1) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب، المجموعة الأولى البرتغال، م1، ص. 255.

(2) المصدر نفسه، م 1، ص. 334.

(5604/1)

... وفي عام 1516 م، تمكن المجاهدون من الدخول إلى مدينة تارودانت(1) أعظم المراكز ببلاد السوس والباب الموصلة إلى الجوز عبر جبال الأطلس؛ وارتبطت منذ هذا التاريخ مدينة تارودانت بحركات الجهاد وأصبحت الرباط الأول للمجاهدين.

... استمرت تارودانت، المركز الرئيس لأعمال الجهاد ضد قواعد الاحتلال البرتغالي بالسواحل السوسية؛ وتضاعفت هجوماتها عام 1518 م، مما أجبر القائد البرتغالي Don Francisco de Gastro لأول مرة على طلب النجدة من لشبونة(2)

---

(1) المصدر نفسه، فرنسا، هامش، ص. 440.

(2) المصدر نفسه، البرتغال، م 2، ص. 93.

(5605/1)

. وفي مطلع يناير 1525 م، تمكن المولى أحمد الأعرج من دخول مدينة مراكش بعد أن استخلف أخاه المولى محمد الشيخ على تارودانت: »ارتحل من رودانة وقصد مراكش، فنزل عليها وحاصرها وملكها أحمد الأعرج وبايعه أهلها وقبائلها وخرجت من حكم بني وطاس «(1).

... تضاعفت هجومات المجاهدين وحصارهم لقواعد الاحتلال، وتمكن أحد المجاهدين من اغتيال الحاكم البرتغالي لسانتا كروز(2). وعندما كان يوم 12 مارس 1541 م، تحقق أول

---

(1) الزياني، الترجمان، ص. 345.

(2) المصادر الأصلية لتاريخ المغرب، المجموعة الأولى، البرتغال، م2، ص. 450.

(5606/1)

نصر حاسم، وذلك بفتح حصن سانتا كروز بقيادة المولى محمد الشيخ(1). وعن الأوضاع الجديدة لمدينة تارودانت يطلعنا تقرير للتاجر الأوروبي Sebastiao Alvares بتاريخ 5 يناير 1542 م على مدى استغلال المولى محمد لموانئ ساحل السوس في الاتصال مع العالم الخارجي، وكيف أن واردات مدينة تارودانت قد ازدادت: فقد وصلت إليها حمولة تسعة مراكب معظمها ثياب مختلفة مقابل السكر والنيلة والشمع والعنبر والجلود(2).

---

(1) المصدر نفسه، م 3، ص. 560.

(2) المصدر نفسه، م 4، ص. 6.

(5607/1)

... ويضيف تقرير آخر أن التجار الفرنسيين يبيعون المولى محمد الأسلحة والعتاد الحربي ويستوردون معدن النحاس لصب المدافع(1).

... وهكذا أصبحت لمدينة تارودانت مكانة متميزة: »اختط محمد الشيخ مدينة تارودانت وأذن للناس عامة في إحيائها والغرس فيها قصد عمارتها ورغبة في استيطانها«(2). ولم تلبث أن اتسع

عمرانها بفضل العناية التي لقيتها. »فهي من مشيدات مولانا الإمام المهدي رضي الله عنه قاعدة بلاد السوس وأم

---

(1) المصدر نفسه، ص. 133.

(2) التامنارتي، الفوائد الجمة، مخطوط الخزانة الحسنية بالرباط، رقم 513، ص. 67.

(5608/1)

القرى والأمصار وملاك باب السودان «(1). ومنذ عهد المولى الشيخ، أصبحت تارودانت تعرف بمدينة المحمدية (إحدى الحواضر الثلاث وهي المحمدية ومراكش وفاس)(2). وعندما انتقل المولى محمد الشيخ إلى مراكش عام 1544 م، ولّى على المحمدية ابنه المولى محمد الحران.

... وفي عهد المولى أحمد المنصور ازدادت مكانة المحمدية:

---

(1) عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، ص. 253.

(2) ظهير التوقير والاحترام، مخطوط بدار الوثائق بالرباط (كلا 278)، ص. 42.

(5609/1)

... 1 . فقد ولى عليها ابنه المولى أبا الحسن علي: »هذا ظهير كريم أمر به عبد الله أمير المؤمنين... لولده الأحظى... الأمير أبي الحسن... فقلدناه إمارة حضرة السوس الأقصى وجميع أفقها السهل والجبل

وفوضنا له فيها التفويض المطلق في القول والعمل «(1).

... 2 ـ جاء في إحدى مراسلات المنصور عن مدينة المحمدية »قاعدة مملكتنا السوسية مشرق شمس خلافتنا الشريفة ومحل انبعاث أشعة بدر مملكتنا المنيفة «(2).

---

(1) مخطوط بدار الوثائق بالرباط (ك278)، ص. 76.

(2) المصدر نفسه، ص. 176.

(5610/1)

... 3 ـ كانت لقاضي الجماعة بمدينة المحمدية مكانة خاصة. فقد كان يطلعه على الكثير من مجريات الأحداث. ومن ذلك ـ كما تحفظه الوثائق ـ:

... مراسلة من المنصور إلى قاضي الجماعة بالمحمدية في ربيع الأول 997 هـ الموافق ليبراير 1589 م تتضمن ـ بصفة خاصة ـ الأخبار عن هزيمة الإسبان في معركة الأرماد (غشت 1588 م) ووصول الأمير البرتغالي »دون كريستوف « بن »دون أنطونيو« المطالب بالعرض البرتغالي لاجئاً بالمغرب (محرم 997 هـ الموافق يناير 1589 م) واستقباله لسفارة عثمانية بفاس(1). وعندما نجح المولى

---

(1) المصدر نفسه.

(5611/1)

أحمد المنصور في فتح بلاد السودان، كانت مدينة المحمدية أول مدينة زف إليها البشير الخبر السعيد(1). وعن المكانة الاقتصادية لمدينة تارودانت، يهمنا بصفة خاصة أن نشير إلى زراعة قصب السكر ومعاصره التي كانت في ضواحيها:

... معاصر السكر الجاثمة حواليها جثوم أهرام مصر... ما شئت من توطيد وتشييد وبرك مستجرة وجفان كالجواب وقدور راسيات وحركات هندسية ولوالب فلسفية.. وأنهار تتسنم لإجراء أرحيتها العظيمة الأخشاب ذرى الأسوار الممتدة الأعراف إلى عنان السماء بتدبير وفلسفة (2)

---

(1) الفشتالي، المصدر السابق، ص. 143.

(2) المصدر نفسه، ص. 254.

(5612/1)

.

وحول كل معصرة نشأت قرية صناعية: »وإذا ألقيت عصا التسيار بمعصرة وحشرت من الخلف ولا تسل عن هولها، ولغط الأصوات بها تدل على عظمة شأنها وضخامة أحوالها على ضخامة الملك وسعة ذرع الدولة «(1). وفي أولاد مسعود وتازموت وأميز، وهي قرى مجاورة لتارودانت توجد حتى اليوم أطلال هذه المعامل السكرية.

... ومن جهة أخرى، ظلت تارودانت تحتفظ بموقعها الاستراتيجي في طريق المبادلات التجارية مع غربي إفريقية وبلاد السودان:

»المحمدية من مشيدات مولانا الإمام المهدي رضي الله عنه قاعدة بلاد سوس..

(1) المصدر نفسه، ص. 210.

(5613/1)

وملاك باب السودان «(1).

... وفي الجانب العمراني، ارتقت المحمدية إلى مرتبة العواصم الكبرى كمراكش وفاس، وأصبحت:

... أم القرى والأمصار... ذات القصور المشيدة والأواوين الموطدة والرياض المفوفة والأنهار المطردة والمساجد المزخرفة والمآذن المقرطة بلآلئ النجوم المشنفة... لا يطير تحت جناحها البلد الجديد من فاس الذي هو عند بني مرين... ولا قصبة مراكش التي هي عند الموحدين... وإذا ذكرت المحمدية، لف كل منهما رأسه استحياء (2).

(1) المصدر نفسه، ص. 253.

(2) المصدر نفسه .

(5614/1)

... وأخيراً، لقد قضى المولى أحمد شبابه بالمحمدية، حيث درس بمختلف معاهدها:

... قال أيده الله: لما تحرك السلطان رحمه الله لسوس... رحلني معه رحمه الله، فبدأت الرسالة بالسوس على الفقيه أبي عمران موسى السوسي رحمه الله، وسلكتها على الفقيه أبي الربيع سليمان باللوم مرتين وكنت أقرأ "مختصر خليل" لنفسي وأكتب منه لوحاً.

وبعد خروجي من الكتاب أدرسه، إذ لم يكن يكلفني السلطان رحمه الله قراءته لطوله. ثم درست "الرسالة" أيضاً باللوح على الفقيه النحوي أبي محمد عبد العزيز بن إبراهيم سلكتين وقرأتها عليه قراءة فهم

(5615/1)

وتدقيق بعد حفظها. وقرأت عليه أيضاً "مقدمة" ابن آجروم قراءة فهم وتدقيق مراراً وأعربها عليه وقرأت عليه أيضاً "ألفية ابن مالك" باللوح سلكتين أو ثلاثاً. وقرأت علم الحساب، وقرأت علم العربية على الفقيه الأستاذ نحوي زمانه بلا مدافع أبي العباس أحمد القدومي رحمه الله. وبدأت قراءة "الألفية" على الفقيه المتفنن الدراك الفهامة أبي عبد الله بن أبي القاسم الشريف وعاق عن التمام ما كان من تحرك الطاغية باستدعاء ولد أخينا. فتحركت لفاس ومعه لبسيط أزغار (1).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 266.

(5616/1)

المخطوطات العربية وفهرستها في دمشق

... ... الدكتور عزة حسن

... ... دمشق ـ سورية

... كانت دمشق أكبر مركز ثقافي في بلاد الشام، طوال عصور التاريخ، من أقدم الأزمنة إلى أيامنا الحاضرة. وفيها كانت مدارس العلم وخزائن الكتب، أنشأها وبناها خلال هذه الحقب أولو الأمر وأصحاب الفضل من الملوك والأمراء والحكام والوزراء والقضاة وشيوخ العلم الكبار، وجمعوا فيها أسفار العلم، ووقفوا عليها الأوقاف. ولهذا كانت هذه المدارس مجامع لمخطوطات الثقافة العربية الإسلامية على اختلاف

(5617/1)

فنونها. وكانت لذلك موئل العلماء وطلاب العلم على مر العصور، يلتقون فيها، ويقرؤون ويدرسون ويرجعون إلى مخطوطاتها في دراستهم.

... وإلى جانب هذه المدارس كانت هناك خزائن الكتب الخاصة في بيوت الأعلام والأسر المعروفة من عامة الناس. بل كان وجود خزانة الكتب في البيوت تقليداً عاماً من التقاليد التي يراعيها الناس، ويعدونها من كمال أسباب الحياة، وتمام أداة البيت، مثل قطع الأثاث والرياش ووسائل الزينة والزخرف. وهي خزانة خشبية كبيرة مزينة بالنقوش تسمى بالكتبية. وكانت تنصب في غالب الأحوال في صدر القاعة الكبرى

(5618/1)

في البيت، وترصف فيها المخطوطات صفاً صفاً، قليلة أو كثيرة، حسب مكانة صاحب البيت وعلى قدر اهتمامه بالعلم والكتب. فقد

يكون عالماً من العلماء فتكثر كتبه، أو يكون رجلاً من عامة الناس فتقل كتبه، ولا تعدو بعض نسخ المصحف وبعض أسفار الحديث وعلوم الدين المعروفة.

... وفي القرن التاسع عشر حين بدأت نظم التربية والتعليم تتغير بتغير معطيات العلم والحضارة الجديدة في العالم، وصارت الكتب تطبع في المطبعة، وأنشئت مدارس العلم الحديثة في العالم الإسلامي على مثال المدارس في بلاد المغرب، قلّ اهتمام الناس بالمخطوطات،

(5619/1)

وانصرف معظم طلاب العلم من المدارس القديمة. فضعف لذلك شأنها، واختل نظامها، واستهان بها الرجال الذين كانوا يتولون أمرها وبما حفظ فيها من أسفار مخطوطة. فأخذت هذه الأسفار تتفرق شيئاً فشيئاً، وامتدت إليها الأيدي الطامعة بالربح من ثمن بخس تبيعه به، فضاع شيء كثير منها. فانتبه لذلك بعض النابهين من أولي الأمر والسلطة ومن ذوي الفضل والكرم، وفكروا في حفظها والإبقاء عليها.

... وكان معظم المخطوطات في بلاد الشام مجموعاً محفوظاً في دمشق وحلب وهما العاصمتان الثقافيتان الكبيرتان في هذا البلد.

وسنقصر كلامنا هنا

(5620/1)

على المخطوطات الموجودة في دمشق وحدها، وفي الخزائن العامة المعروفة فيها، دون الخزائن الخاصة الكائنة في بيوت الناس. وهذا لا ينفي أن تكون هناك مخطوطات في أماكن غير هاتين العاصمتين. ولكن عددها قليل، وشأنها ضعيف ضئيل، فلا تستحق لذلك الذكر والبيان.

مخطوطات دمشق:

... عندما تذكر المخطوطات في دمشق، ينصرف ذهن الإنسان عفواً إلى اسم علم من الأسماء الشهيرة الجميلة في دمشق هو اسم الظاهرية، أو المكتبة الظاهرية كما يسميها الناس، أو دار الكتب الظاهرية، وهو اسمها الرسمي. والسبب في ذلك أن مخطوطات دمشق قد جمعت

(5621/1)

وحفظت في الظاهرية فصارت محلاً لها، كما صارت هذه المخطوطات شهرة للظاهريّة. وعرف الناس ذلك من أمرها داخل البلاد وخارجها.

... ولكن كيف تجمعت هذه المخطوطات في الظاهرية؟ إن لذلك حديثاً نرويه ها هنا في كليمات قصار، فنقول: هبط دمشق سنة 1878 الوالي العثماني المشهور مدحة باشا، وهو رجل ذكي لامع، كان يحب الإصلاح والتجديد. فاهتم بأمر العلم والمعارف، ورأى أن ينشئ في دمشق مكتبة عامة على مثال المكتبات الموجودة في إستانبول عاصمة الدولة. فدعا بعض علماء البلد وأعيانه، وشاورهم في الأمر. ولما اتفق رأيهم على ذلك،

(5622/1)

ألف منهم جماعة سماها الجمعية الخيرية، وكلفها أن تعمل على إنشاء المدارس والعناية بالتعليم والبحث عن الكتب وجمعها. فشرعت هذه الجمعية بجمع المخطوطات الموقوفة في مدارس دمشق المختلفة، ونقلتها إلى المدرسة الظاهرية بعد إصلاحها وإعدادها لذلك(1). ورتبتها في خزائن خاصة موضوعة في قبة ضريح الملك الظاهر على مثال خزائن المخطوطات في إستانبول تماماً.

(1) حبيب الزيات، خزائن الكتب في دمشق وضواحيها، القاهرة، 1902، ص. 5.

(5623/1)

... وما كاد مشروع المكتبة يتم حتى عزل الوالي مدحة باشا عن دمشق، وأقبل مكانه أحمد حمدي باشا. فتم الأمر في زمنه، وفتحت المكتبة أبوابها للقراء من طلاب العلم والباحثين، وسميت بالمكتبة العمومية، ووضعت تحت إشراف لجنة من أعضاء الجمعية الخيرية دعيت جمعية المكتبة العمومية.

... وكانت الكتب التي جمعت في الظاهرية مخطوطات كلها إلا بضع عشرات من الكتب المطبوعة. وكان عددها حينذاك2453 كتابٍ كما يظهر في الفهرس الذي صنع للمكتبة في ذلك الحين، وطبع بمطبعة الجمعية الخيرية. ويبدو أن هذا الفهرس كان من صنع الشيخ طاهر

(5624/1)

الجزائري. وقد أخذت هذه المخطوطات من مكاتب مدارس دمشق القديمة، وهي عشر مدارس كما ذكر في أول فهرس المكتبة. أولها المدرسة العمرية، ثم مدرسة عبد الله باشا العظم، ثم مدرسة سليمان باشا العظم، ثم مكتبة الملا عثمان الكردي وكانت في مدرسة سليمان باشا أيضاً، ثم مكتبة الخياطين وكانت في مدرسة إسماعيل باشا العظم، ثم المدرسة المرادية، ثم المدرسة الشميصاتية، ثم المدرسة الياغوشية، ثم مكتبة الأوقاف، ثم مكتبة بيت الخطابة في جامع بني أمية. إلا أن في فهرس المكتبة إشارات وملاحظات تدل على أن جملة من الكتب قد أهدي إلى

(5625/1)

المكتبة إهداء من بعض علماء المدينة وبعض موظفي الولاية. وكان عدد المخطوطات 2387 مخطوطة، وباقي الكتب وهو 66 كتاباً من المطبوعات.

... وأخذ عدد الكتب يزداد في المكتبة مع الزمن شيئاً فشيئاً عن طريق الإهداء والوقف فحسب. فقد كان علماء المدينة وفضلاؤها وموظفو الولاية ودوائرها الرسمية ونظارة المعارف العثمانية يرسلون إلى المكتبة الكتب المخطوطة والمطبوعة. ويظهر هذا جلياً في الذيل الذي صنع لفهرس المكتبة، وألحق به مكتوباً بخط اليد. وقد بلغ عدد المخطوطات فيها سنة 1894 في عهد الوالي رؤوف باشا الذي أولى

(5626/1)

المكتبة عناية خاصة 2548 مخطوطة.

... ثم قامت الدولة العربية في بلاد الشام أوائل سنة 1919 في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وأنشئ ديوان المعارف، وألحقت به المكتبة، وسميت بدار الكتب العربية. وهنا بدأت مرحلة جديدة، طيبة وخيّرة في تاريخ الظاهرية. فقد عزم ديوان المعارف على توسعتها، وخصص المال المطلوب لذلك يظهر لنا ذلك من هذا الإعلان الذي أذيع في الصحف في العشرين من آذار سنة 1919 بعد قيام الدولة العربية، بتوقيع رئيس ديوان المعارف، وهذا نصه:

(5627/1)

... عزمت الحكومة العربية على إنشاء دار للكتب في هذه العاصمة، تجمع فيها نفائس الكتب القديمة والحديثة، من مخطوطة ومطبوعة، في العلوم والفنون المتنوعة؛ في اللغة العربية وغيرها من اللغات المشهورة، لكي يتسنى للأمة العربية الارتقاء العلمي والأدبي بمطالعة ما تختاره من تلك الكتب. فمن كان عنده شيء منها، وأراد بيعه، فليعلم بذلك ديوان المعارف، فيعطى الثمن الذي يتم عليه الاتفاق بلا تردد ولا مماطلة (1).

---

(1) أسماء الحمصي، المدرسة الظاهرية، ص ص. 49 ـ 50.

(5628/1)

ثم ألحقت بالظاهرية في السنة نفسها بالمجمع العلمي العربي، ولقيت عناية كبيرة من رئيس المجمع الأول العلامة محمد كرد علي خلال سني رئاسته الطويلة للمجمع حتى توفي سنة 1953.

... وفي هذه المرحلة ازداد عدد الكتب في الظاهرية زيادة كبيرة. فقسمت مقتنياتها لذلك إلى ثلاثة أقسام: قسم المخطوطات، وقسم الكتب المطبوعة، وقسم المجلات والصحف. وقد كان عدد المخطوطات فيها 2833 مخطوطة في شهر حزيران سنة 1919. فبلغ عددها 3830 مخطوطة في نهاية سنة 1928. وصار عددها 3927 مخطوطة في نهاية سنة 1936، و7156 مخطوطة في نهاية سنة

(5629/1)

1951، و9062 مخطوطة في نهاية سنة 1960. وعددها اليوم يقارب 11500 مخطوطة.

مخطوطات الخزائن الخاصة بدمشق:

... أما المخطوطات المكنونة في الخزائن الخاصة، فما زال أمرها مكتوماً مجهولاً غير معروف. وكان في دمشق عدد من هذه الخزائن الخاصة الغنية التي لا تقل عن الظاهرية قيمة وشأناً، مثل خزانة أبي السعود الحسيبي نقيب الأشراف في العهد العثماني، وعبد المجيد السقطي، والشيخ طاهر الجزائري، والشيخ خالد الصاحب، والشيخ أحمد أبي الفتح، ومحمود حمزة، ومراد القوتلي، وكثيرين غيرهم. ذكر هذا كله حبيب الزيات في كتابه

(5630/1)

"خزائن الكتب في دمشق وضواحيها"(1) الذي طبعه في القاهرة سنة 1902. وعنه أخذت هذا الكلام، ولا أدري ما حقيقة كلامه. على أنني أجد فيه آثاراً من المبالغة التي يعمد إليها الإنسان لإثبات الشيء وتقويته، كما يقول أحدنا في حديث له مع أخ من إخوانه: »قلت لك هذا مائة مرة«.

فهرسة المخطوطات في الظاهرية:

1 ـ دفتر المكتبة الأول:

... وضع للمكتبة في أول تأسيسها فهرس بدائي كان أقرب أن يكون سجلاً للكتب أريد به إحصاء عددها وضبط أسمائها، وسمي بدفتر المكتبة. وقد وضع هذا الدفتر شبيهاً

---

(1) انظر الكتاب المذكور، ص. 90.

بالدفاتر الموضوعة لخزائن المخطوطات العربية في إستانبول أيام الدولة العثمانية. وسجلت الكتب في هذا الدفتر على أبواب مصنفة حسب أصناف العلوم، وأحصي عدد الكتب في كل صنف منها بأرقام متسلسلة. ولكن تصنيف الكتب في هذه الأبواب لم يكن دقيقاً. وفي ذلك قال حبيب الزيات في كتابه الذي ذكرناه آنفاً: »ومما يدل على تسرع اللجنة في إفراز هذه الكتب، وعدم تأنيها في تمييز مشتملاتها، هذا الخلط الواقع في توزيع المؤلفات على أصناف العلوم. فإن كثيراً منها مذكور في غير فنه الجدير به، حتى لقد يرى الكتاب الواحد في نسختين أو

أكثر وكل منها في واد« (1).

... وطريقة وضع هذا الدفتر ساذجة، لا تعدو ذكر اسم الكتاب واسم مؤلفه في اختصار، وإيراد بعض الملاحظات الأخرى التي لا تنفع كثيراً في تقويم الكتب. وكل ذلك في سطر واحد وحسب.

والاختصار آفة في مثل هذا المجال. فقد اقتصر الذين وضعوا هذا الدفتر على نقل جزء من أسماء الكتب وأسماء مؤلفيها في كثير من الأحيان لضيق السطر الواحد من استيعاب التفصيل في ذلك

واكتفوا كذلك بتسجيل العنوان الظاهر في أول المخطوطة دون السعي إلى تقليب صفحات المجلدات

---

(1) خزائن الكتب في دمشق وضواحيها، ص. 20.

وتسجيل الكتب الموجودة فيها. وكان بين المخطوطات آنذاك عشرات من المجاميع لم تسجل إلا باسم الكتاب الأول في كل مجموع منها في أغلب الأحيان. حتى قال حبيب الزيات في كتابه:

... إن المطالع الذي يقع إليه برنامج المكتبة الظاهرية خاصة لا يعلم من أمرها ومأخذها وتاريخ مصير هذه الكتب إليها إلا ما يقرؤه في الفاتحة من أسماء المكاتب العشر التي نقلت منها. ولا يدري أحياناً ما وراء هذه الأرقام والألقاب المدلول بها على المخطوطات إلا ما ينبئ عنه الظاهر فقط، فضلاً عما يفوته مراراً ضمنها من المؤلفات والأجزاء التي لم

ينتبه لها عند التقويم والإحصاء (1).

2 ـ كتاب خزائن الكتب في دمشق وضواحيها:

... كان يتردد إلى الظاهرية في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر عالم قارئ هاو، يهوى القراءة والاطلاع على المخطوطات، اسمه حبيب الزيات، وهو من أبناء دمشق كما يقول عن نفسه. وقد ذكرنا اسمه مرات أثناء كلامنا في الصفحات السابقة.

... رأى الزيات ـ كما يقول ـ فهارسَ الظاهرية في دمشق والمكتبة الخالدية في القدس، ورأى أنها تقتصر على سرد الأسماء دون تحقيق ولا استيفاء في البحث والنقل. فأراد أن يكمل هذا

(1) المصدر نفسه، المقدمة د.

النقص. وقال يبين ذلك:

... دفعتني آصرة البلدية والرغبة المخلصة في الخدمة الأدبية إلى أن أتولى بقدر ما يسعه الذرع القاصر سدّ جانب من هذه الثلمة في تاريخ وطني دمشق. فعلقت منذ أربع سنوات أقلب مخطوطات خزانتها الظاهرية وأطالع منها ما دعت الحاجة إلى مطالعته، إلى أن تم لي مراجعة كل كتبها الأدبية، خلا الحديث والفقه كما سيأتي شرح ذلك في مكانه. فأثبت باختصار ما اجتمع لدي من هذه التعليقات والقيود في الجزء الأول من هذا الكتاب (1).

...

(1) المصدر نفسه، المقدمة د.هـ

وذكر الزيات في مكان آخر من كتابه أنه ظل يتردد على الظاهرية عشر سنين، طالع خلالها معظم كتبها الأدبية. فندب نفسه لذلك لصنع فهرس لمخطوطات الظاهرية(1).

... والظاهر هو أن الزيات كان قد اطلع على بعض الفهارس العلمية التي صنعها المستشرقون للمخطوطات العربية المحفوظة في مكاتبهم، مثل فهارس مكتبة برلين وغيرها(2). فأراد أن يحذو حذوهم، ويستفيد من مناهجهم في عمله. ولكن علمه وخبرته ضاقا عن ذلك، فلم يستطع السير في أثر هؤلاء المستشرقين، فقال يبين ذلك:

(1) المصدر نفسه، ص. 21.

(2) المصدر نفسه، المقدمة أ.

... هممت أن أتلو في وصف هذه المخطوطات تلو الفهارس الأوربية من بسط الكلام على كل كتاب وتعريف ماهيته، وإيراد جانب من ترجمة مؤلفه حيث تدعو الضرورة إليه، واقتضاب نبذ منه، وتعيين تاريخ نسخه ومكانه، واسم الناسخ له، وما شاكل ذلك من الإيضاحات التي يتبين بها حال الكتاب، وتظهر أغراضهم. ولكني وجدت أن ما يستغرقه هذا التطويل من الأوقات والنفقات يضيق عن

بلوغه ذرعي. فاكتفيت بنقل عنوان المؤلف واسم مؤلفه فقط، مع الإشارة إلى موضوعه الخاص، وذكر أوائله أحياناً (1).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 26.

(5638/1)

... عمد الزيات أولاً إلى المجاميع، وهي من أغنى مخطوطات الظاهرية، وكان عددها حينئذ 132 مجموع، تضم مئات من الكتب والوسائل والأمالي القصار النادرة في فنون الثقافة العربية المختلفة، ولا سيما فن الحديث. فذكر ما تضمنه كل مجموع من الكتب والرسائل جميعاً. وهذا ما لم يذكر في دفتر الظاهرية الأول الذي تكلمنا عليه آنفاً، وهو أجود ما صنعه الزيات في كتابه وأحسنه.

... ثم انتقل المؤلف بعد ذلك إلى المخطوطات الأخرى، فذكر عدداً منها كان يختاره من كل فن من الفنون واتبع في ذلك ترتيب الفنون في دفتر الظاهرية الأول دون

(5639/1)

تغيير البتة. وقد صرح بذلك قائلاً:

... ومع كوني خالفت الفهرست في أشياء كثيرة أوردها على غير وجهها الصحيح، فقد اضطررت أن أوافقه على ترتيبه الذي جرى عليه في نسق المؤلفات، ونسبتها إلى فنها الخاص بها فذكرت كل مخطوط في الباب الذي ساقه فيه، وإن كان غيره أحياناً أولى به

وأحرى بمكانه، وذلك تسهيلاً للطلب، وحذراً من التشويش (1).

وقد بدأ الزيات ذلك بعلم الفرائض، وختمه بعلم الهيئة، تاركاً الفنون التسعة الأولى في دفتر الظاهرية الأول، وهي في علوم القرآن والحديث والفقه الإسلامي.

---

(1) المصدر نفسه، ص. 27.

(5640/1)

... وهكذا نرى أن صاحب كتاب خزائن الكتب في دمشق وضواحيها لم يستطع صنع شيء كبير، ولم يمكنه الخلاص من الدوران حول دفتر الظاهرية الأول في جملة عمله. لقد أراد أن يضع فهرساً علمياً لمخطوطات الظاهرية، فقصر باعه عن ذلك، ووقفت به همته عن بلوغ ما كان يصبو إليه ويرغب فيه. وقد أحس بذلك من نفسه، فاعتذر عنه في مقدمته كما ذكرنا آنفاً. ولكن الزيات مع ذلك كان أول من فكر في هذا الأمر، ونبه إليه أذهان الناس في بلاد الشام. فكان له حسنى السبق إلى ذلك، وإن لم يكن له حسنى الإجادة فيه.

(5641/1)

... هذا وقد جعل الزيات كتابه أربعة أقسام سماها أجزاء. الجزء الأول منها في مخطوطات الظاهرية (ص 1 ـ 90)، وهو الذي تكلمنا عليه في الصفحات السابقة. والجزء الثاني في خزائن الكتب في الأديار والكنائس (ص 91 ـ 120). والثالث في بلدة معلولا ولهجتها

السريانية (ص 121 ـ 161). والرابع في بلدة يبرود ومكتبة المطران غريغوريوس عطا فيها (ص 161 ـ 246).

... والأجزاء الثلاثة الأخيرة من الكتاب لا صلة قريبة لها بالمخطوطات، ولا تضم سوى أخبار وروايات حول بعض المكاتب والمخطوطات الكنسية، وهي مع ذلك لا تتصف بالدقة، ولا

(5642/1)

تسير على خطة علمية.

3 ـ فهرس الكتب الخطية لدار الكتب الظاهرية للشيخ حسني الكسم

... عين الشيخ حسني الكسم مساعداً لمحافظ الظاهرية، واستلم عمله فيها سنة 1919، وظل في هذا العمل مدة طويلة امتدت إلى غاية كانون الثاني (يناير) سنة 1934. وكان في هذه الفترة الطويلة هو المدير الفعلي للظاهرية.

... ويبدو أن الشيخ حسني قد لاحظ أن الدفتر الأول الذي وضع للظاهرية لا يفي بالغرض، ولا يفيد كثيراً في تعريف المخطوطات وبيان أحوالها. فعزم لذلك على صنع فهرس آخر لهذه المخطوطات يكون أجدى وأوفى بالغرض. فاتبع طريقة دفتر

(5643/1)

الظاهرية الأول، وصنف المخطوطات حسب أصناف العلوم كما جاءت في ذلك الدفتر. وسار بعد ذلك على سنّة حسنة فساق أسماء الكتب في كل صنف مرتبة على حروف الهجاء. وهذا ما لم يفعله أصحاب دفتر الظاهرية الأول ولا حبيب الزيات في كتابه. وإنما هو شيء جديد بدأ به الشيخ حسني. ويغلب على ظننا أنه اقتدى في ذلك بالدفاتر الموضوعة لخزائن المخطوطات في إستانبول، وكان رآها في الظاهرية إذ أرسلتها إليها نظارة المعارف العثمانية فيما أرسلت من الكتب.

(5644/1)

... وكذلك سار الشيخ حسني على سنّة حسنة أخرى أيضاً، فذكر أسماء الكتب والمؤلفين مفصلة كاملة في أغلب الأحيان، مع ذكر وفيات المؤلفين. وفاق بذلك واضعي الدفتر الأول وحبيب الزيات معاً، وزاد في فهرسه أشياء أخرى لم يفطن لها هؤلاء جميعاً. فنراه يأخذ في وصف المخطوطات وبيان أحوالها وأشكالها، مثل بيان موضوعها ومضمونها، وذكر أجزائها، وأنواع خطوطها، وعدد صفحاتها، وتاريخ نسخها، وأسماء الناسخين، وإيراد جمل من أوائل الكتب تبين أغراضها في أغلب الأحيان، وغير ذلك من المعلومات المفيدة في هذا المجال.

(5645/1)

... وهذا مثال مما جاء في هذا الفهرس في وصف جزء مخطوط من كتاب "المجمل" في اللغة لابن فارس. قال:

... "المجمل في اللغة" : لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا بن حبيب الرازي القزويني الشهير بابن فارس المتوفى سنة 390. الموجود منه مجلد في 375 صفحة متوسطة، يبتدئ من مادة (ع ب ث) إلى آخر الكتاب. وهو معجم مرتب على الحروف كترتيب "المصباح"، التزم فيه الصحيح والواضح من الكلام العرب دون الوحشي المستنكر، وآثر فيه الإيجاز. كتب بقلم نسخ نفيس مضبوط الحركات سنة 589، رقم 123 (1).

---

(1) فهرس الكتب الخطية، 176.

(5646/1)

... ومن الحق أن نقول إن عمل الشيخ حسني الكسم كان شيئاً جديداً فذاً في فهرسة المخطوطات في دمشق. فيمكننا أن نعده لذلك خطوة واسعة للوصول إلى وضع الفهرس العلمي الدقيق الصحيح للمخطوطات، وكاد الشيخ حسني يبلغ هذه الغاية، ويصيب الغرض بعمله هذا، لولا افتقار فهرسه إلى شيء من الدقة والتنظيم، ولولا نقص تجربته، وقلة معرفته وخبرته بالكتب وطبيعة المخطوطات.
... هذا، وقد أنجز الشيخ حسني فهرسة معظم مخطوطات الظاهرية في فهرسه هذا، فجاء في 187 صفحة كبيرة بخطه. ولكنه لم يكمله بعد أن قارب تمامه. فقد انتهى فيه إلى حرف

(5647/1)

الهاء من قسم كتب الفلك والميقات، ولم يتم هذا القسم بدليل أنه ترك فيه بياضاً في آخره كأنه كان يريد أن يكتب فيه شيئاً. ثم انتقل إلى كتب علم الحساب من قسم الرياضيات، ورسم عنوان هذا القسم، ولكنه لم يذكر فيه شيئاً من الكتب البتة.

... والظاهر أن المنية قد وافت الشيخ حسني، وحالت بينه وبين إتمام فهرسه، فبقي ناقصاً مبتوراً في مسودته. وأهمل هذا الفهرس بعد ذلك، وترك للنسيان. وهو اليوم لا يستعمل، ولا ينظر فيه أحد، وإنما بقي في الظاهرية ذكرى تمثل مرحلة مهمة في سبيل وضع فهارس علمية صحيحة لمخطوطات الظاهرية.

(5648/1)

---

4 ـ فهرس المجاميع

... في الوقت الذي كان فيه الشيخ حسني الكسم يقوم بإعداد فهرسه الذي وصفناه آنفاً، كان الشيخ صادق المالح يضع فهرساً آخر للكتب والرسائل والأجزاء والأمالي الموجودة ضمن المجاميع المخطوطة في الظاهرية. وقد أشرنا إلى هذه المجاميع فيما سبق من بحثنا هذا.

... كان الشيخ صادق موظفاً بوظيفة ناسخ في الظاهرية، فكلفه الشيخ حسني الكسم بأن يضع فهرس المجاميع بإشرافه. فقام الشيخ صادق بذلك، وكتب لهذه المجاميع سجلاً عاماً بخط يده في دفتر كبير، استوفاها فيه جميعاً، وأحصى ما تضمنته بالتفصيل كتاباً

(5649/1)

كتاباً ورسالة رسالة حسب ترتيب ورودها في كل مجموع مع ذكر أسماء أصحابها وعدد صفحاتها، دون أي ترتيب آخر. ولكنه لم يصنع شيئاً آخر وراء هذا الإحصاء، حتى إنه ذكر كل كتاب منها في سطر واحد وحسب. فكان عمله في جملته سجلاً عاماً لما في هذه المجاميع كما قلنا. وهذا هو الذي قصد إليه الشيخ صادق من عمله في الأصل، وليس غير ذلك ويبدو أنه اقتفى في كتابة سجله خطى حبيب الزيات فيما صنعه في كتابه "خزائن الكتب" من نثر ما تضمنه عدد كبير من هذه المجاميع كما ذكرنا.

(5650/1)

... ولم يتم الشيخ صادق هذا السجل جميعه، وإنما بقيت منه بقية ضئيلة أتمها السيد فوزي العاني بخط يده.

... ويفيدنا هذا السجل في تيسير الاطلاع على ما تضمنه كل مجموع من كتب ورسائل في سهولة ويسر. ويوفر علينا الوقت الطويل الذي نصرفه في تقليب أوراق المجاميع الكثيرة طلباً للكتب والرسائل الصغيرة الضائعة في ثناياها.

5 ـ سجل المخطوطات

... كانت المخطوطات والكتب المطبوعة تحفظ معاً في مكان واحد في الظاهرية من يوم تأسيسها. وقد ذكرنا آنفاً في كلامنا على دفتر الظاهرية الأول أنها سجلت معاً أيضاً في هذا الدفتر،

(5651/1)

وكانت الكتب المطبوعة قليلة حينئذ، لا يعدو عددها بضع عشرات من الكتب. وكذلك ظلت المخطوطات والكتب المطبوعة التي دخلت الظاهرية بعد تأسيسها وطبع دفترها الأول، ظلت تسجل في أوراق ملحقة بهذا الدفتر، وعلى الترتيب نفسه الذي اتبع فيه، أي مصنفة حسب أصناف العلوم.

... وظلت الأمور تسير هكذا في الظاهرية حتى كثرت مقتنياتها مع مضي الأيام، وزاد عدد المطبوعات على عدد المخطوطات فيها في أيام الدولة العربية بعد الحرب العالمية الأولى. وصارت الحاجة وضرورات التنظيم تدعو إلى فصل المخطوطات عن المطبوعات. وفي هذه الأثناء

(5652/1)

تولى إدارة الظاهرية الأستاذ عمر رضا كحالة أواخر سنة 1934، فرأى أن يحقق هذا الأمر. فتم استقلال المخطوطات في تلك الآونة، وجعل لها سجل خاص بها في دفتر كبير الحجم. وكتبت المخطوطات جميعاً في هذا السجل على الطريقة التي اتبعت في دفتر الظاهرية الأول بأسماء الكتب ومرتبة حسب أصناف العلوم، مع تغيير طفيف وزيادات قليلة في حقول الملاحظات والمعلومات. وأعطيت المخطوطات في هذا السجل أرقاماً متسلسلة إلى جانب أرقامها الخاصة القديمة.

(5653/1)

... على أن تسجيل المخطوطات في دفتر مثبت الأوراق حسب أصناف العلوم أمر يسير إذا كان عدد المخطوطات ثابتاً لا يزيد مع الأيام. فإذا كان عددها يزيد، أصبح تسجيلها على هذه الطريقة أمراً عسيراً جداً في دفتر مثبت الأوراق. وكانت مخطوطات الظاهرية تزيد زيادة مطردة على الزمن. وأمام هذا العسر رئي التخلي عن هذه الطريقة، وترجيح تسجيل المخطوطات في الدفتر بأسماء الكتب حسب ورودها ودخولها الظاهرية بصرف النظر عن أي اعتبار آخر، واختيار إعطائها أرقاماً متسلسلة وحسب. والأمر مستمر على هذه الطريقة إلى اليوم. وتسجيل

(5654/1)

المخطوطة في هذا السجل يشبه بوجه من الوجوه شهادة ميلاد لها في الظاهرية أو وثيقة سجن مؤبّد فيها، لأنها لا تخرج منها في حال من الأحوال.

6 ـ فهرس المؤلفين

... في سنة 1935 عين الدكتور يوسف العش مديراً لدار الكتب الظاهرية، فبدأت بذلك مرحلة جديدة خيرة في تاريخ هذه الدار، نستطيع أن نسميها المرحلة العلمية في وضع الفهارس، وتنظيمها على أسس وقواعد معروفة واضحة في جميع أقسام الدار. وكان الدكتور يوسف العش قد حصل على شهادة المكتبات من باريس، وعاد للعمل في الظاهرية، فكان أول ما بدأ به في قسم المخطوطات هو

(5655/1)

تنظيم فهرس آخر للمخطوطات حسب أسماء المؤلفين أول مرة في تاريخ الظاهرية.

... لم ينظم هذا الفهرس في دفتر صغير أو كبير مثل الفهارس والسجلات التي وصفناها فيما مضى من كلامنا، وإنما نظم في جذاذات مفردة متساوية من الورق السميك، وحفظت في أدراج مقسمة ضمن خزانة خاصة.

... كتب لكل مخطوطة جذاذة خاصة في هذا الفهرس، تبدأ بالاسم أو الشهرة أو اللقب الذي عرف به المؤلف، أي بالاسم العلمي الذي يعرف به، مثل امرئ القيس وابن قتيبة والمبرد والجاحظ مثلاً. ويكتب مفرداً في سطر، ويكتب معه اسم المؤلف كاملاً وتاريخ وفاته.

(5656/1)

ويأتي بعد ذلك تعريف موجز للكتاب، وبعده وصف موجز للمخطوطة أيضاً، مضمونها وشكلها، مثل عدد أوراقها وتمامها أو نقصانها ونوع خطها وتاريخ نسخها واسم ناسخها وما إلى ذلك من المعلومات. وتختم الجذاذة برقم المخطوطة، وقد رتبت هذه الجذاذات بعد ذلك في أدراجها الخاصة حسب أسماء المؤلفين بترتيب حروف الهجاء.

... هذا الفهرس مفيد جداً للباحثين، ولا سيما في معرفة المخطوطات الموجودة للمؤلف الواحد في الظاهرية. ولكنه على فائدته ليس بدقيق ولا تام، إذ تعاورت عليه أيد مختلفة في فترات مختلفة من الزمن، من اليوم الذي بدئ

(5657/1)

فيه بتنظيمه إلى هذا اليوم. فهو لذلك يضل الباحثين في بعض الأحيان، ويحسن لذلك مراجعته وإصلاحه وتنظيمه بدءاً تنظيماً دقيقاً يجعل الاستفادة منه ميسرة مثمرة، ولكن ذلك شأن بعيد المنال الآن بسبب كثرة المخطوطات من جهة، وقلة الاختصاصيين الذين يجيدون العمل في ميدان المخطوطات من جهة أخرى.

...

7 ـ فهرس الموضوعات

... في الوقت الذي بدئ فيه بتنظيم فهرس المؤلفين الذي تحدثنا عنه قبل هذا، وضع فهرس آخر حسب الموضوعات، أي حسب أصناف العلوم. وقد وضع على شاكلة فهرس المؤلفين على جذاذات من الورق السميك حفظت كذلك في

(5658/1)

أدراج مقسمة في الخزانة الخاصة التي حفظت فيها جذاذات فهرس المؤلفين.

... كتب لكل مخطوطة جذاذة خاصة في هذا الفهرس تبدأ باسم الكتاب مكتوباً في سطر، ويتلو ذلك اسم المؤلف في سطر أيضاً، ويأتي بعده وصف المخطوطة وبيان أحوالها كما جاءت في الجذاذة الخاصة بالمخطوطات نفسها في فهرس المؤلفين. وقد رتبت جذاذات هذا الفهرس، في كل فن من العلوم، حسب أسماء الكتب وعلى ترتيب حروف الهجاء.

... هذا الفهرس مفيد جداً في معرفة المخطوطات الموجودة في الفن

الواحد من العلوم في الظاهرية. ولكنه مع ذلك ليس بدقيق ولا تام للسبب نفسه

(5659/1)

الذي بيناه في كلامنا على فهرس المؤلفين غير بعيد، ويحسن لذلك إصلاحه وتنظيمه من جديد وإكمال نقصه لتحصل منه الفائدة. ولكن هذا مطلب عسير يستغرق زمناً طويلاً لكثرة المخطوطات وقلة الاختصاصيين. هذا، وقد سعت إدارة الظاهرية منذ سنوات في سبيل إنجاز الفهارس العلمية الموضوعة على الموضوعات، وهي التي ستغني الباحثين عن فهرس الموضوعات هذا وسواه من الفهارس.

8 ـ فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية

... وينتهي بنا البحث أخيراً إلى الكلام على فهرس ختم به هذا الجهد الطويل الذي استمر أكثر من خمسين سنة في سبيل الوصول إلى

(5660/1)

وضع فهرس علمي لمخطوطات الظاهرية. فقد كان أقصى ما فكر فيه الدكتور يوسف العش، بعد تنظيمه شؤون الظاهرية على أسس جديدة، أن يضع فهرساً علمياً قويماً لمخطوطاتها على نمط بعض الفهارس العلمية التي وضعها المستشرقون للمخطوطات المحفوظة في خزائن بلادهم.

... كان هذا الفهرس، كما تصوره الدكتور يوسف العش، سلسلة من

الفهارس الموضوعة على تعريف المخطوطات ودراستها وتحليلها، تخصص كل حلقة منها لفن من فنون الثقافة العربية، وتطبع في كتاب قائم على حدته، وتوزع مثل سائر الكتب المطبوعة، ليطلع عليها القاصي والداني من

(5661/1)

الباحثين في الثقافة العربية في الشرق والغرب من بقاع الأرض.

... وكانت الفهارس المختلفة التي تحدثنا عنها آنفاً لا تفيد إلا القارئ الذي يقصد الظاهرية بنفسه، ويطالع فيها، لأنها كانت مكتوبة بخط اليد غير مطبوعة، سوى الدفتر الأول منها. وقد ابتدأ بهذه السلسلة الدكتور يوسف العش نفسه، فوضع الجزء الخاص بالتاريخ وملحقاته، وطبعه مجمع اللغة العربية بدمشق في سلسلة مطبوعاته سنة 1947.

... أ ـ التاريخ وملحقاته

... كان عمل الدكتور يوسف العش فذاً فريداً في بابه، يجري أول مرة في العالم العربي. وبسبب ذلك كان فضل

(5662/1)

السبق للظاهرية في هذا الميدان. وقد جرت قبل عمله محاولتان اثنتان في هذا السبيل في الظاهرية. الأولى محاولة حبيب الزيات في كتابه "خزائن الكتب"، والثانية محاولة الشيخ حسني الكسم في "فهرس الكتب الخطية". ولكن المحاولتين كانتا ناقصتين

غير تامتين، ولم تسيرا على منهج علمي صحيح كما بينا آنفاً.

وكانت المحاولة الثانية مع ذلك أقوم وأوفى من المحاولة الأولى.

... بيّن الدكتور يوسف العش خطته التي اتبعها في فهرسه، فقال:

(5663/1)

... سرت في هذا الفهرس على نهج اختطته ليكون وافياً بغاية الباحث، قريب المتناول، سهل التصفح. فقسمت موضوعات التاريخ إلى أقسام توخيتها واضحة، ثم وزعتها إلى فصول تبين أجزاءها، وتضبط مناحيها، ثم أدرجت في كل فصل وصف المخطوطات التي تنتمي إليه خاصة، أو تنتسب إليه أكثر مما تنتسب إلى غيره. ورتبتها بتتابع وفيات مؤلفيها إن عرفتها، أو بترتيب تاريخ تأليفها إن اتضح لي، فقدمت القديم على ما هو أحدث منه، ثم أدرجت في آخر الفصل ما جهلت.

... وأقسام الفهرس التي أشار إليها المؤلف هي:

(5664/1)

... 1 ـ علم التاريخ ومقدماته. وفيه فصل واحد.

... 2 ـ التاريخ الإسلامي وعصوره. وفيه أحد عشر فصلاً.

... 3 ـ تاريخ الأقطار الإسلامية. وفيه ستة فصول.

... 4 ـ التراجم. وفيه أربعة عشر فصلاً.

... 5 ـ ملحقات التاريخ الإسلامي. وفيه فصلان اثنان.

... 6 ـ تاريخ الأنبياء وغير المسلمين. وفيه فصل واحد.

... ونفهم من كلام المؤلف في بيان خطته كما نرى في هذا التقسيم الذي عمد إليه أن هذا الفهرس قد قسم أقساماً وفصولاً على الموضوعات. وذكرت المخطوطات في هذه الفصول المختلفة، ورتبت فيها ترتيباً زمنياً حسب وفيات

(5665/1)

مؤلفيها أو زمان تأليفها، أي بتقديم القديم على ما هو أحدث. وهكذا.

... ونلاحظ للوهلة الأولى أن الدكتور يوسف العش قد أكثر من الأقسام والفصول في كتابه. فقد بلغت فصوله خمسة وثلاثين فصلاً، وفي هذا شيء كثير من الكلفة والتعقيد على المؤلف والباحث معاً. وقد زاد الأمر تعقيداً ترتيبه المخطوطات في الفصول ترتيباً زمنياً كما ذكرنا، وكان الأقوم أن ترتب على حروف الهجاء. هذا وقد صنع المؤلف فهارس لأسماء الكتب وأسماء المؤلفين وغير ذلك على حروف الهجاء، وألحقها في آخر كتابه، فكانت هذه الفهارس سبيلاً إلى تيسير الأمر

(5666/1)

وإزالة قسط كبير من التعقيد؛ ولولا هذه الفهارس، لشق أمر النظر في الكتاب على الباحثين.

... ولقد وصف الدكتور يوسف العش كل مخطوطة في فهرسه وصفاً

قصد أن يكون دقيقاً وافياً، وجعل هذا الوصف في خمس فقرات بينها في مقدمته، فقال:

... 1 ـ الفقرة الأولى: ذكرت فيها اسم الكتاب والمؤلف بحروف دقيقة ثخينة بعد أن اختصرتها بأقصر عبارة.

... 2 ـ الفقرة الثانية: نقلت اسم الكتاب من طرة المخطوطة كما ورد فيها... ثم أوردت اسم المؤلف كما هو في طرة المخطوطة... وأتبعت بذلك بذكر تاريخ وفاة المؤلف.

(5667/1)

... 3 ـ الفقرة الثالثة: أشرت فيها إلى طبع الكتاب إن كان مطبوعاً، وقابلت فيها المطبوع بالمخطوط، وأشرت إلى الاختلاف بينهما، وذكرت وصف موضوع الكتاب إن لم يكن مطبوعاً، وتحقيقاً عنه إن استحق التحقيق، وبيان فصوله ومكانها من الكتاب إن اتضحت وكانت مما يستوجب البيان، أو نقلت من خطبة الكتاب ما يشير إلى موضوعه أو يفسر أمره، ومن خاتمته ما يفصح عن نهايته. وإذا كان الكتاب في التراجم، أشرت إلى ما حفل منها بالأخبار واتسع وفصل.

(5668/1)

... 4 ـ الفقرة الرابعة: وصفت فيها النسخة... ووصفت خط النسخة... وذكرت تاريخ النسخة إن عرفته... وذكرت اسم الناسخ إن عثرت عليه.

... 5 ـ الفقرة الخامسة: أوردت فيها رقم النسخة الذي تجلب به من خزائن الظاهرية.

... هذه هي خطة الدكتور يوسف العش في وصف المخطوطات. وهي ـ لعمري ـ طريقة مثلى في هذا المجال، لا ريب. ولكننا نرى الإطالة ظاهرة فيها، فليس من وظيفة واضع فهرس المخطوطات أن يحلل مضمون المخطوطة، ويوازن بينها وبين غيرها مما هو في موضوعها. وليس من وظيفته كذلك أن يقابل مخطوطة كتاب ما بالمطبوع منه، ويشير

(5669/1)

إلى الاختلاف بينهما. فهذا ومثله من عمل المحققين الذين ينشرون المخطوطات، وإلا طال الأمر على واضعي فهارس المخطوطات، وهم قلة قليلة في كل الأزمان، ومضت أعمارهم دون أن ينجزوا شيئاً مذكوراً. وهذا مع كثرة المخطوطات العربية التي تعد بالآلاف في معظم الخزائن كما في الظاهرية. ولهذا السبب نفسه نرى أن الدكتور يوسف العش لم يستطع إنجاز فهرس آخر غير فهرس التاريخ. فكان من الضروري إعادة النظر في طريقته لتحقيق التيسير المطلوب في فهرسة المخطوطات، والسرعة في إنجازها.

... بـ ـ علوم القرآن

(5670/1)

... كان الدكتور يوسف العش قال في مستهل مقدمته لفهرس التاريخ: »وعسى أن يسعف الزمان بإتمام الأقسام الأخرى، أتولاها أنا أو غيري«. ولكن يبدو أن شواغل قد شغلت الدكتور يوسف العش، وصرفته عن الاستمرار في العمل الجليل الذي كان بدأ به. ولم يسعف الزمان كذلك بمن يتولى إتمام هذا العمل طوال سنين عديدة. ثم جئت إلى دار الكتب الظاهرية أواخر سنة 1959، وكنت قد تمرست بالاطلاع على مخطوطات التراث العربي في خزائن إستانبول وسائر مدن الأناضول خلال إقامتي الطويلة في تركية. وخزائن التراث العربي في تركية أغنى الخزائن في

(5671/1)

العالم إطلاقاً. فقضيت مثل رهبان الدير أياماً طويلة في عتمة هذه الخزائن ساعياً وراء عيون تراثنا المفقودة.
... قمت في أول الأمر بتنظيم المخطوطات في قبة الملك الظَّاهر. ثم كان جل اهتمامي منصرفاً بعد ذلك إلى وضع فهارس لفنون المخطوطات المختلفة، ووصل ما انقطع من هذا العمل العلمي الجليل الذي افتتحه الدكتور يوسف العش. فابتدأت بالعمل في مخطوطات علوم القرآن، وجعلتها في جزء ذكرت فيه جميع الكتب التي تمت إلى القرآن الكريم بسبب من الأسباب.

(5672/1)

... توخيت في هذا الفهرس أن يكون مختصراً ميسراً، خالصاً من التعقيد الواقع في فهرس التاريخ. وجوهر الأمر فيه قائم على

تعريف المخطوطة وتعريف صاحبها تعريفاً صحيحاً، ثم بيان حال هذه المخطوطة وقيمتها، من غير عناية كبيرة بتحليلها أو دراستها مجملاً أو مفصّلاً للسبب الذي شرحته حين كلامي على فهرس التاريخ آنفاً. ولبلوغ هذه الغاية، رسمت لنفسي خطة خاصة تتفق وخطة الدكتور يوسف العش في خطوطها العامة. وسعيت إلى بيان الأمور التالية فيها:

1 ـ بيان اسم الكتاب المخطوط في تفصيل، وتعريفه في إيجاز.

(5673/1)

---

2 ـ بيان اسم مؤلفه في تفصيل، وذكر تاريخ وفاته، أو تعيين العصر الذي عاش فيه.

3 ـ وصف المخطوطة وبيان قيمتها في إيجاز.

4 وصف خطها، وذكر اسم الناسخ وتاريخ النسخ.

5 ـ ذكر السماعات المرقومة عليها وتاريخها، والتملكات وتاريخها حين اللزوم.

6 ـ بيان عدد أوراقها، وعدد السطور في كل صفحة، وقياس طولها وعرضها، وبيان رقمها.

7 ـ الإشارة إلى المصادر التي ذكرت الكتاب المخطوط أو تكلمت عليه.

... ولقد جعلت هذا الجزء في أقسام أيضاً مثل فهرس التاريخ، ولكنني أخليته من الفصول لتسهيل الرجوع إليه والنظر فيه. وأقسامه هي:

(5674/1)

... 1 ـ المصاحف الشريفة.

... 2 ـ كتب التجويد.

... 3 ـ كتب القراءات.

... 4 ـ كتب التفسير.

... 5 ـ كتب علوم القرآن العامة.

... ورتبت المخطوطات في كل قسم على حروف الهجاء لتسهيل المراجعة على الباحثين. وصنعت لهذا الجزء فهرسين أيضاً، أحدهما لأسماء المؤلفين، والثاني لأسماء النساخ، وألحقتهما في آخره.

... هذا، وقد طبع هذا الجزء الخاص بعلوم القرآن في سلسلة مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة 1962، أي بعد خمسة عشر عاماً من طبع الجزء الخاص بالتاريخ وملحقاته.

(5675/1)

... وبعد صدور فهرس علوم القرآن، مضى العمل حثيثاً في إعداد أجزاء أخرى من سلسلة فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية خلال عشر سنوات متتالية، على الطريقة التي رسمتها، وشرحتها آنفاً، مع تعديلات طفيفة فيها. فتم وضع عدة فهارس طبعت جميعها في سلسلة مطبوعات مجمع اللغة العربية، وهي:

الفقه الشافعي، من وضع الأستاذ عبد الغني الدقر، وقد طبع سنة 1963.

الشعر، من وضع الدكتور عزة حسن، وقد طبع سنة 1964.

الطب والصيدلة، من وضع الدكتور سامي خلف الحمارنة، وقد طبع سنة 1969. وقد سار المؤلف في هذا الفهرس على طريقة خاصة فيها

(5676/1)

دراسات وتحليلات كما في فهرس التاريخ.

علم الهيئة وملحقاته، من وضع الأستاذ إبراهيم خوري، وقد طبع سنة 1969.

المنتخب من مخطوطات الحديث، من وضع الأستاذ ناصر الدين الألباني، وقد طبع سنة 1970.

الجغرافية وملحقاتها، من وضع الأستاذ إبراهيم خوري، وقد طبع سنة 1970.

الفلسفة والمنطق وآداب البحث، من وضع الأستاذ عبد الحميد الحسن، وقد طبع سنة 1970.

التاريخ، الجزء الثاني، وهو يتضمن مخطوطات التاريخ التي اقتنتها الظاهرية بعد سنة 1945، من وضع الأستاذ خالد الريان، وقد طبع سنة 1972.

(5677/1)

اللغة وعلومها، من وضع الأستاذة أسماء الحمصي، وقد طبع سنة 1973.

الفقه الحنفي، من وضع الدكتور مطيع الحافظ، وقد طبع سنة

.1973

... ...

(5678/1)

المدلول التاريخي لنصوص الهدن المعقودة بين المماليك والفرنج هدنة عكا (682 هـ/ 1283 م) نموذجاً

... ... الدكتور أحمد حطيط

... ... الجامعة اللبنانية ـ بيروت

مدخل

... لم تكن العلاقات بين المماليك والفرنج الذين أقاموا كيانات سياسية في الشرق ـ بدءاً من أواخر القرن السادس الهجري / أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ـ محكومة دائماً بمساق الصراع الدامي، بل تخللت حالة المواجهة بينهم فترات من الهدوء والاسترخاء العسكري، ضمنتها اتفاقيات هدن سعى إليها غالباً أمراء الفرنج، وبخاصة في أيام

(5679/1)

السلطان الظاهر بيبرس (658 ـ 676 هـ/ 1260 ـ 1277 م).

... والسلطان المنصور قلاوون (678 ـ 689 هـ/ 1279 ـ 1290 م).

تنوعت محتويات هذه الهدن لتشمل ضمان ممتلكات الطرفين، وسلامة الحكام الشخصية، وسلامة رعاياهم، وحرية حركة التجارة،

وتنظيم جباية الرسوم والضرائب من المكلفين، من تجار ومسافرين ومقيمين.

... عكست اتفاقيات الهدن حالة التجزئة، التي كانت تعاني منها السنيوريات الفرنجية القائمة على ساحل الشام، حيث كان يستحيل عليها أن تتواصل فيما بينها دون المرور بالمناطق الخاضعة للسيادة الإسلامية، أو اجتياز معابر

(5680/1)

ملامسة لهذه المناطق، أو واقعة على مقربة منها. فكانت هذه السنيوريات بمثابة جزر سياسية منعزلة في محيط إسلامي واسع: كان معبر إسكندرونة، مثلاً، يعزل سنيورية عكا عن سنيورية صور. وكان القسم الجنوبي من سنيورية صيدا معزولاً تماماً عن سنيورية صور. كما أُجبر أسياد بيروت على التنازل للتنوخيين أمراء الغرب عن قسم من بلدة الدامور التي شكلت، آنذاك، الحد الفاصل بين سنيوريتي بيروت وصيدا.

... لم تصل إلينا نصوص اتفاقيات الهدن المعقودة بين المماليك والفرنج كاملة، باستثناء عدد قليل منها نقع عليه لدى مصنفي سيرتي

(5681/1)

بيبرس وقلاوون(1). هذا، مع الإشارة إلى أن ما عُقد منها أيام قلاوون جاء موجزاً وعامّاً، وكان بمثابة تجديد لما سبق أن تعاهد عليه بيبرس مع أمراء الفرنج، مكتفياً،

(1) ... ألفت لبيبرس سيرتان: الأولى لمحيي الدين بن عبد الظاهر، وهي "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر" واختصرها من بعده شافع بن علي بعنوان "المناقب السرية في السيرة الظاهرية"؛ والثانية لعز الدين بن شداد، وهي "تاريخ الملك الظاهر" فيما أفرد لقلاوون سيرة واحدة صنفها محيي الدين بن عبد الظاهر بعنوان "تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور".

(1/5682)

في كثير من الأحيان، باستعادة مضمون الهدنات السابقة دون أية إضافات أخرى. وعليه، فإن من أكثر اتفاقيات الهدن أهمية، نظراً لاكتمالها، تلك المعقودة بين المنصور قلاوون وحكام عكا عام 682 هـ/ 1283 م(1) »لمدة عشر سنين كوامل وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات« مورخة بالتقويم الهجري وما يقابله بالتقويم الإسكندري (المقدوني)، وهو ما كان يعتمده المسيحيون الشرقيون والفرنج الأوروبيون، عندما كان

(1) ... راجع نص هذه الهدنة كاملاً في كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزي، ج 1، ق 3، صص. 285 ـ 990. (ملحق رقم 2).

(1/5683)

هؤلاء يكتبون مراسلاتهم بالعربية(1).

لماذا وقع اختيارنا على هدنة عكا (682 هـ/ 1283 م)؟

... لأن عكا أضحت بعد استعادة صلاح الدين القدس، على أثر معركة حطين عام 583 هـ/ 1187 م، بمثابة الحاضرة الرئيسة لمملكة اللاتين في بيت المقدس، وصار ملك بيت المقدس يدعى ملك عكا(2)

---

(1) ... J. Richard, « Un partage de Seigneurie entre Fra ncs et Mamelouks; Les Casaux ... de Sur », In Syria XXX, 1953, Facs. 1–2, p. 74.

(2) ... أحمد حطيط، تاريخ لبنان الوسيط، دراسة في مرحلة الصراع المملوكي ـ الصليبي، بيروت، 1986، ص. 84.

(5684/1)

. وكان من الطبيعي أن يركز المماليك جهودهم للاستيلاء على عكا، منذ بدأ الظاهر بيبرس نشاطه العسكري في بلاد الشام. فسقوطها سيؤدي بالضرورة إلى تهاوي المناطق الفرنجية الواقعة في دائرة نفوذها، ولا سيما الشريط الساحلي بين بيروت وصور. وقد أسفرت العمليات العسكرية عن عقد السلطان اتفاقية هدنة مع أسياد عكا عام 666 هـ/ 1268 م، مدتها عشر سنوات، قضت وفق ما ذكره ابن عبد الظاهر (1)

---

(1) ... ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976، ص. 332؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، ق. 2، تحقيق محمد مصطفى زياد، القاهرة، 1957 ـ 1970، ص. 571.

(5685/1)

.

... أن يكون حيفاً للفرنج ولها ثلاث ضياع، وبقية بلادها مناصفة، وعثليت يكون لها خمس قرى، والباقي مناصفة، والقرين عشر قرايا، والباقي للسلطان، وبلاد صيدا: الوطأة للفرنج (المنطقة الساحلية) والجبليات للسلطان.

... وما لبثت هذه الهدنة أن جددت بعد انقضاء أربع سنوات على عقدها، ثم جددت ثانية في عهد السلطان قلاوون عام680 هـ/ 1281 م (1)، لتعقد بعد سنتين هدنة جديدة بين السلطان وولده علاء الدين علي، وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعثليت وبلادها.

---

(1) ... المقريزي، المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص. 685.

(5686/1)

ماذا تضمنت بنود هدنة عكا؟

... تصدن هدنة عكا لمعالجة المسائل الخلافية الرئيسة بين المماليك وأسياد مملكة عكا. فاحتوت بنوداً نصت صراحة على التزام كل من الطرفين باحترام أمن بلاد الطرف الآخر وسلامتها، وتنظيم إدارة "المناصفات"، وضمان حرية التجارة، وانتقال الأشخاص، وضبط الممنوعات، واستيفاء الرسوم والضرائب المفروضة على السلع والسفار، وغير ذلك مما سنأتي على ذكره فيما يلي:

ما يتصل بالأراضي السلطانية

... تشمل مفاعيل الهدنة جميع بلاد السلطان وولده »وهي التي في تملكها وتحت حكمها وطاعتهما وتحويه يدهما،

(5687/1)

يومئذ، من جميع الأقاليم والمماليك والقلاع والحصون والأعمال والمدن والأراضي«. ثم تسهب الهدنة في ذكر بلاد السلطان المصرية والشامية والحجازية بالإضافة إلى أملاكه داخل مملكة بين المقدس وهي: غزة، والكرك، والشوبك، والصلت، وبصرى، والخليل، وبيت المقدس، والأردن، وبيت لحم، وبيت جبرين، ونابلس، واللطرون، وعسقلان، ويافا، والرملة، وأرسوف وقيصرية، وقاقون، واللد، والعوجة، وبيسان، والطور، واللجون، وجينين، وعين جالوت، والقيمون، وطبرية، وصفد، وتبنين، وهونين، وشقيف أرنون، ونصف مدينة إسكندرونه، وقلعة مارون، وشقيق

(5688/1)

تيرون، وبانياس، والصبيبة، وكوكب، وعجلون، فضلاً عما سيفتحه السلطان من بلاد وحصون وقلاع مستقبلاً(1).

... وتشمل الهدنة عساكر السلطان وجميع رعاياه من سائر الناس على اختلاف أجناسهم وأديانهم، من عرب، وتركمان، وأكراد، وسكان محليين... المقيمين في بلاد السلطان والمترددين إليها ومنها، من سائر بلاد المسلمين وجميع التجار والسفار والمترددين براً وبحراً، وجميع هؤلاء يكونون آمنين مطمئنين، في حالتي صدورهم وورودهم، على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وحريمهم

وبضائعهم وغلمانهم

---

(1) ... المصدر نفسه، صص. 986 ـ 987.

وأتباعهم وماشيتهم ودوابهم، وعلى جميع ما يتعلق بهم، وكل ما تحوي أيديهم من سائر الأشياء على اختلافها، من الحكام بمملكة عكا »ومن جميع الفرنج على اختلافهم الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في الهدنة، وكل واصل إليها، في بر وبحر، على اختلاف أجناسهم وأنفارهم«(1).

ما يتصل بأراضي مملكة عكا

... ويقابل اللائحة المطولة لأملاك السلطان تعداد مقتضب لبلاد مملكة عكا. وهذه المناطق هي: مدينة عكا واثنتان وسبعون ناحية، ومدينة حيفا وسبع قرى تابعة لها، ومارينا(2)

---

(1) ... المصدر نفسه، صص. 987 ـ 988.

(2) ... منطقة ساحلية بين عكا وحيفا.

، وثلاث عشرة قرية من بلاد الكرمل للإفرنج، وقريتان للسلطان (عفا والمنصورة)، ومدينة عثليت وقلعتها وبساتينها وكرومها وأراضيها المزروعة وست عشرة قرية تكون للفرنج، وللسلطان من عثليت قرية الهراميس بكاملها، على أن تكون بقية بلاد عثليت

مناصفة بين الطرفين، وهي: ثماني قرى، وفلاحة الاسبتار بعمل قيسارية، ونصف مدينة إسكندرونه، ونصف قرية مارن تكون خاصاً للفرنج، وما عدا ذلك يكون خاصاً للسلطان، وكذلك الأمر بالنسبة إلى صيدا: المدينة وقلعتها وكرومها وضواحيها وخمس عشرة قرية تابعة لها تكون للفرنج، وما عدا ذلك من

(5691/1)

مناطق صيدا الجبلية تكون بكاملها للسلطان(1).

... يحدد أحد بنود الهدنة كيفية استخراج عائدات أراضي المناصفات، فيذكر أنها تتم بإشراف ممثلين من الجهتين المتعاهدتين معاً دونما انفراد، وتقسم مناصفة بينهما(2).

الالتزام بضمان الأمن المتبادل

... يتعهد السلطان بعدم الاعتداء على أمن وسلامة البلاد العكاوية، الخاص منها وما هو مناصفة، وتكون هي ورعاياها وسائر سكانها والمترددين إليها، على اختلاف أجناسهم وأديانهم، من افرنج وتجار وسفار، في البر

---

(1) ... المصدر نفسه، صص. 988 ـ 989.

(2) ... المصدر نفسه، صص. 989.

(5692/1)

وفي البحر، آمنين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم »لا ينالهم ولا ينال هذه البلاد المذكورة التي انعقدت الهدنة عليها سوء ولا شرر ولا إغارة. ولا ينال إحدى الجهتين المذكورتين الإسلامية والفرنجية من الأخرى ضرر ولا أذية «. بيد أن تعهد السلطان السالف مشروط بتعهد مماثل، من أسياد عكا، وبعدم تجديد وترميم الحصون والقلاع والأبراج المهدمة خارج عكا وعثليت وصيدا (1).

قضايا ومسائل أخرى

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 990؛ المقريزي، المصدر السابق، ج 1، ق 3، صص. 985 ـ 997.

(5693/1)

... وثمة في اتفاقية الهدنة بنود تتعلق بتنظيم أحوال رعايا الجهتين المتعاهدتين، من مقيمين ومسافرين وتجار، والحفاظ على سلامتهم وعلى حقوقهم، فضلاً عن التزام كل جهة بضمان أمن ومصالح الجهة الأخرى مع تحديد آلية التنفيذ وفاقاً للآتي:

1 ـ ما يترتب على إبدال المعتقد الديني

... ـ عند المسلم

... إذا هرب أحد الرعايا المسلمين إلى عكا وبلادها وقصد الدخول في دين النصرانية وتنصر بإرادته، يلتزم أسياد عكا برد جميع ما يكون قد حمله معه من بلاد السلطان.

(5694/1)

... وفي حال دخول المسلم الهارب النصرانية دون أن ينتصر، يلتزم أسياد عكا بإعادته إلى بلاد السلطان بجميع ما حمله معه بعد أن يعطى الأمان(1).

... . عند النصراني

... إذا هرب نصراني من عكا وبلادها إلى بلاد السلطان قاصداً الدخول في دين الإسلام، وأسلم بإرادته يلتزم السلطان بإرجاع جميع ما حمله معه إلى مملكة عطا. أما إذا قصد الدخول في الإسلام، ولم يسلم، يعاد إلى عكا آمناً بجميع ما حمله معه(2).

---

(1) ... المقريزي، المصدر نفسه، ج 1، ق 3، ص. 990.

(2) ... المصدر السابق، ص. 90.

(5695/1)

---

2 . ما يترتب على التعديات والجرائم والحكم فيها

... تلحظ بعض بنود الهدنة أنه متى اغتصب مال أو بضاعة أو قتل قتيل من الجانبين، لأي سبب كان، رد المال إلى أصحابه إن كان موجوداً، أو قيمته إن كان مفقوداً، ويعوض عن القتيل بنظيره من جنسه: فارس بفارس، وراجل براجل، وتاجر بتاجر، وفلاح بفلاح... وفي حال خفي أمر القتيل أو المال حددت مهلة أربعين يوماً للكشف عنه، فإن ظهر المال، وتحقق من أمر القتيل، أعيد المال بعينه، وعوض عن القتيل بنظيره، وإلا يتوجب على والي المكان المدعى عليه وثلاثة أشخاص يختارهم المدعى عليهم

حلف اليمين، فإن لم ينصف الوالي المدَّعى، يحق لهذا الأخير، خلال أربعين يوماً، إحالة أمره إلى الحكام من الجهتين للبت في القضية العالقة(1).

3 ـ في التعامل التجاري وحقوق التجار

... وثمة بنود أخرى تشترط استمرار نفاذ ما هو مستقر من رسوم وضرائب مفروضة على التجار، فلا يُطرح عليهم، في حال صدورهم وورودهم، رسم ولا حقٌّ، ما لم تجربه عادة، وتُستوفي منهم الرسوم من غير زيادة في أماكن محددة ومعروفة من الجهتين، على أن يلتزم كل منهما بتأمين الحماية للتجار ولبضائعهم في حالتي

(1) ... المصدر نفسه، صص. 990 ـ 991.

سفرهم وإقامتهم(1). بيد أن اتفاقية الهدنة تتشدد في شأن إدخال الممنوعات إلى بلاد الطرفين، فمتى ضُبط مع أحد التجار شيء من الممنوعات، كالسلاح وغيره، يعاد إلى المصدر الذي اشتُري منه، على أن يُرجع الثمن للتاجر دون أن يتعرض للأذية في الجهة الأخرى، وأن يُعاد التجار المتجاوزون إلى بلادهم كي تفصل في أمرهم سلطاتهم القضائية المختصة(2).

... أما من ترتب عليه مال نقدي أو عيني، وعجز عن السداد، يتعرض للاحتجاز ويصبح في حكم الرهينة حتى تسديد الدين، أو

(1) ... المصدر نفسه، صص. 990.

(2) ... المصدر نفسه، صص. 993

(5698/1)

إظهار والي المكان الذي منه الرهينة تعهده بذلك(1).

... وإذا توفي أحد التجار المسلمين الصادرين والواردين، على اختلاف أجناسهم وأديانهم، في بلاد مملكة عكا، يتوجب على حكام عكا أن يحفظوا ماله ويعيدوه إلى بلاد السلطان، وكذا حال التاجر النصراني المتوفى في ديار السلطنة(2).

4 ـ في ضمان حركة السفن التجارية وتموينها وإصلاح ما تضرر منها

... تُولي الهدنة حركة السفن التجارية اهتماماً خاصاً، فالتزمت الجهتان المتعاهدتان صراحة بتوفير صيانة السفن

(1) ... المصدر نفسه، صص. 993

(2) ... المصدر نفسه، صص. 992.

(5699/1)

التجارية التابعة لكل منهما، وإصلاح ما قد يتعطل منها، مميزة بين حالتين اثنتين:

... ـ الحالة الأولى: إذا قصدت سفن السلطان بلاداً معاهدة لحكام عكا، فلا يُلزم هؤلاء بتزويد هذه السفن بالمؤن، لكونها تستطيع الحصول على ذلك في البلاد المعاهدة لمملكة عكا. أما إذا كانت تلك

البلاد غير معاهدة لمملكة عكا، فيتوجب على حكام عكا السماح للسفن الإسلامية بالتزود بالمؤن من موانئ البلاد التي انعقدت عليها الهدنة.

... .الحالة الثانية: إذا قصدت سفن السلطان بلاداً لها مع مملكة عكا عهد. ولم يكن للسلطان مع صاحب هذه البلاد

(5700/1)

عهد، وتعرضت سفنه لأعطال في أحد موانئ »البلاد العكاوية وسواحلها« يُلزم أسياد بحفظ سفن السلطان وتزويد بحارتها بالمؤن وتسهيل صيانة ما تعطل منها وتأمين عودتها إلى البلاد الإسلامية. أما إذا كان السلطان معاهداً »لتلك البلاد، فيصار بعد إصلاح أعطال السفن المتضررة إلى تسهيل حركتها إلى الجهة المرسوم لها بقصدها«(1).

5 .في التعامل مع القراصنة واللصوص والمجرمين

... يلتزم الطرفان المتعاهدان بإصدار أوامرهما إلى ولاة البلاد التابعة لهما، وبخاصة الساحلية منها، كي يمنعوا من تصفهم

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 992.

(5701/1)

اتفاقية الهدنة بـ "حرامية البحر" من التزود بالمؤن والمال، وأن يجدُّوا في القبض عليهم ومصادرة ما يحملونه من سلع مسروقة

والاحتفاظ بها حتى يظهر أصحابها وتسلم إليهم، على أن يتعهد الطرفان يحفظ أراضيهما وممتلكاتهما التي انعقدت عليها الهدنة من عساكرهما ومن جميع المجرمين واللصوص والمفسدين ممن هم داخل حكمهما وطاعتهما، ضماناً لأمن بلادهما واستقرارها(1).

6 ـ في حال قدوم صليبية جديدة وحركة التتار

---

(1) ... المصدر نفسه، صص. 993 ـ 994.

(5702/1)

... يتعهد كفيل(1) مملكة عكا ومقدموها(2) بـ»أن يتعرّفوا السلطان وولده بحركة الملوك الفرنجية وغيرهم من جو البحر، بقصد الحضور لمضرّة السلطان وولده في بلادهما المنعقدة عليها الهدنة«، وذلك قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية الداخلة في الهدنة بمدة شهرين. كما يلتزم من علم من الطرفين بتهيؤ

---

(1) ... أو نائب المملكة وكان يدعى Etude poilechien. (R. , Vol. III, p. 1963Grousset, Histoire des Croisades, Paris, 702).

(2) ... وهم مقدم الأسبتارية، ومقدم الداوية، ونائب مقدم التوتون، حسب ما جاء في نص المعاهدة.

(5703/1)

التتار لغزو الشام أن يخبر الطرف الآخر بذلك، كي لا يؤخذ على حين غرة. وفي حال توغل التتار في بلاد السلطان حتى المناطق الساحلية المشمولة بالهدنة، فعلى أسياد عكا محاربتهم، كما عليهم تأمين سلامة المسلمين المنكفئين إلى بلاد مملكة عكا والتعهد بـ»حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر «(1).

7 ـ حال الفلاحين الهاربين من إقطاعاتهم إلى بلاد الطرف الأخر

... تولي اتفاقية الهدنة اهتماماً خاصاً بالفلاح، العنصر المنتج في النظام الإقطاعي. ويُفهم مما جاء في أحد بنودها حرص

---

(1) ... المقريزي، المصدر السابق، ص. 993.

(5704/1)

السلطان وأسياد عكا على وضع حد لهروب فلاحي بلاد السلطان إلى بلاد الفرنج المنعقد عليها الهدنة، وكذا الأمر بالنسبة لفرحي مملكة عكا(1).

8 ـ مسائل أخرى

... بالإضافة إلى ما تقدم، منح السلطان وولده الحجاج المسيحيين الواردين »من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة « حق ممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة في كنيسة الناصرة، واستخدام أربعة بيوت قريبة منها لإيوائهم، على أن تكون طريق سهل عكا والطريق المؤدية إلى الناصرة آمنتين، شريطة أن لا يُعاد ترميم ما قد يتهدم من

(1) ... المصدر نفسه، ص. 993.

كنيستها(1).

... ويتعهد الطرفان باحترام ما تضمنته اتفاقية الهدنة والعمل بأحكامها وعدم بطلان مفاعيلها بموت أحدهما، بل تستمر على حالها إلى حين انقضاء أجلها المحدَّد.

... وثمة استدراك في ذيل اتفاقية عكا، مفاده أنه متى انقضت الهدنة أو وقع فسخٌ قسريٌّ لها، حُدِّدت مهلة أربعين يوماً ليعود رعايا الجهتين، كل إلى دياره، متمتعاً بتسهيلات السفر والانتقال بأمن وسلام(2).

المدلول التاريخي لنصوص هدنة عكا (682 هـ)

(1) ... المصدر نفسه.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 995.

... تقدم هدنة عكا ثبتاً دقيقاً لما اشتملت عليه دولة المماليك بمصر والشام من بلاد في عصر المنصور قلاوون ومملكة الفرنج بعكا، وهو أمر قلما نقع عليه بالدقة عينها في المرويات التاريخية المعاصرة للحروب الصليبية والمتأخرة عنها. على أن ما تلحظه الهدنة من توافق الطرفين على الإدارة المشتركة لبعض

الأراضي الداخلة ضمن سيادة مملكة عكا، فيما عرف بـ"المناصفات"؛ وكذا الحال في الكيانات الفرنجية الأخرى (كونتية طرابلس وسنيورية بيروت، وسنيورية صور...)، فإنما يدل على مدى السطوة التي كانت لسلطان المماليك في دويلات

(5707/1)

اللاتين في الشرق، حتى بلغ من نفوذ الظاهر بيبرس في سنيورية بيروت، وفق ما ذكره ابن الفرات، أن صاحبتها إيزابيلا إيبلان (Isabella Ibelin) كانت، كلما عزمت على السفر، ومغادرة بيروت، ذهبت بنفسها إلى السلطان بيبرس، واستودعته بلادها إلى أن تعود(1)

---

(1) ... ابن فرات، تاريخ الدول والملوك، م 7، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت، 1939، ص. 35. وتعزز شهادة وليم الطرابلسي الدومينيكاني المعاصر للأحداث ما ذكره ابن الفرات بقوله: »لو أراد السلطان (بيبرس)، لكان بمقدوره أن يجعلنا أكثر تعاسة مما نحن عليه اليوم، وأن الله الذي يرفق بنا هو وحده قادر على وضع حد لجموح السلطان المملوكي باحتياج المدن والقلاع المتبقية لنا« (M. L. De Mas Latrie, Histoire de l’ïle de Chypre, I, Paris, MDCCCLXI, p. 416).

(5708/1)

.

... أما المنصور قلاوون، فقد سعى حثيثاً لمنع التقارب بين الفرنج والتتار، وهذا ما يعلل تعهده بضمان سلامة أملاك أسياد عكا من أي اعتداء كي يتفرغ لجبه غزوات التتار لبلاد الشام. فأعاد السلطان للفرنج بعض الأراضي التي سبق أن استولى عليها، ومنه ضمانات للحجاج المسيحيين القاصدين من بلاد عكا زيارة كنيسة الناصرة. وتشير بعض نصوص هدنة عكا إلى حالة القلق التي كانت تراود السلطان قلاوون من شيوع أخبار مشاريع التحالف بين الفرنج والتتار، وهي مشاريع عمل اللاتين على تحقيقها جدّياً، لضمان سلامة ممتلكاتهم في فلسطين.

(5709/1)

لذا حرص السلطان على تضمين الهدنة نصاً يلزم أسياد عكا بإنذاره بعزمهم على فسخ الهدنة قبل شهرين على الأقل من قدوم صليبية جديدة إلى الشرق. أما إذا علم أحد الطرفين بحركة التتار، أو أية شعوب أخرى آتية من سهوب آسيا باتجاه الشام، فيتوجب عليه أن يخطر الطرف الآخر بذلك كي يتدبر أمره ويستعد لمواجهة الخطر الداهم. ولأن خطر التتار يستهدف المسلمين أساساً، فقد تعهد أسياد عكا بتوفير الحماية لهؤلاء إذا ما أرغموا على الانهزام أمام التتار إلى بلاد مملكتهم(1)

---

(1) ظل هاجس خطر الهجمات التتارية يقض مضاجع سلاطين المماليك حتى فترة متأخرة من حكمهم. حول الغزوات التتارية لبلاد الشام في عصر المماليك، انظر: كتابات ابن عبد الظاهر، وعز الدين بن شداد، والنويري، وابن أيبك الدواداري، وابن خلدون، والمقريزي،

والعيني، والجويني، ورشيد الدين، وابن عربشاه، ورمزي و Grouset, D'Ohsson, Cahen, Spuler, Lewis, Lemercier Quelquejay.

(5710/1)

.

... وتوفر هدنة عكا للمؤرخ معلومات مفيدة عن العلاقات السلمية بين المماليك والفرنج، والتي لم تعكرها ضراوة العداوة بينهم. فاستمرت حركة التجارة ناشطة بين الموانئ الشامية والمصرية من جهة والموانئ الأوروبية المتوسطية من جهة أخرى، بالرغم من فترات الانقطاع التي عرفتها (1). فكانت هذه التجارة ضرورة حيوية لاستيراد المماليك ما تحتاجه مخازنهم من المعادن والأخشاب وغيرها من الموارد الحربية، مقابل

---

(1) ... راجع في هذا المجال: W. Heyd, Histoire de Commerce du Levant au Moyen-Age, Vol I-II, Leipzig, 1885–1886.

(5711/1)

ما يحتاجه الغرب من متاجر الشرق النادرة وبخاصة تجارة الكارم (التوابل) التي احتكرها المسلمون (1)، بالرغم من معارضة البابوية وتهديدها بفرض العقوبات الكنسية على التجار المتعاملين مع المسلمين (2).

---

(1) ... أحمد حطيط، "الكارمية وتجارة الكارم في عصر المماليك"،

مجلة الفكر العربي، عدد 54، كانون الأول، بيروت، 1988، ص. 107.

(2) ... ف. هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، تعريب أحمد محمد رضا، ج 2، القاهرة، 1991، ص. 255 وما بعدها.

(5712/1)

... وعلى قاعدة تقاطع المصالح، دأب المماليك والفرنج على توفير أفضل السبل لحركة التجارة، وانتقال الأشخاص، وتنظيم الموجبات الضرائبية وضبطها، وتوفير الأمن والطمأنينة للتجار على نفوسهم وأموالهم ومراكبهم ومتاجرهم، ما عدا الممنوعات من سلاح وغيره، على أن لا يُفرِّق بين أولئك من حيث الجنس أو الدين، ويشير رنسيمان (1) إلى أن تجديد الهدنة مع عكا أعاد إليها بعض الثقة من قبل التجار المسلمين، فعادوا يمارسون تجارتهم في

---

(1) ... س. رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، بيروت، 1968، ج 3، ص. 692.

(5713/1)

اطمئنان، كما بدأ تجار دمشق يرسلون قوافلهم التجارية من جديد إلى الساحل وتوافد المزارعون المسلمون بمنتجاتهم إلى أسواق عكا. وكان هؤلاء يلقون معاملة حسنة من الفرنج حيث سمح لهم أن يؤدوا شعائرهم الدينية بحرية تامة في بلاد مملكة عكا.

... ولضمان سلامة التجارة البحرية بين الشرق والغرب، كتجارة التوابل والعطور والعاج والأصباغ والعقاقير التي كان يؤتى بها

من الشرق الأقصى والهند إلى شواطئ مصر والشام، عبر البحر الأحمر ونهر النيل، اتخذ المماليك والفرنج تدابير صارمة لقطع دابر متجرمة البحر (القراصنة) بتوفير

(5714/1)

الحماية المسلحة للسفن التجارية، واعتماد ضوابط إجرائية ورد ذكرها في هدنة عكا (1) لمنع »حرامية البحر من الزوادة من عندهم«، ولا من حمل ماء، »وإن ظفروا بأحد منهم يمسكوه، وإن كانوا يبيعون عندهم بضائع فيمسكهم كفيل المملكة بعكا والمقدمون... وكذلك يعتمد السلطان وولده«(2).

... وتعير اتفاقية الهدنة اهتماماً خاصاً للفلاح باعتباره مصدر الإنتاج الوحيد في النظام الإقطاعي إلى جانب التجارة. فهو يوفر للأسياد الإقطاعيين من ناتج عمله أسباب

---

(1) ... المقريزي، المصدر السابق، ص. 993.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 993.

(5715/1)

العيش الرغيد، بينما يخضع هو نفسه، مسلماً كان أم مسيحياً، لأبشع أساليب القهرة والاستغلال. فكان يقوم بأعمال الحراسة والزراعة والحصاد بالإضافة إلى مختلف أعمال السخرة، كشق الطرق وحفر الخنادق، وإصلاح الجسور، وإقامة السدود، وتشييد القلاع والحصون. وأضحى، بالتالي، أقرب إلى العبد منه إلى الحر. بمعنى آخر،

اتخذت العلاقات الاقتصادية / الاجتماعية في مجتمع العصور الوسطى شكل علاقات السيد بالمسود، علاقات متبادلة بين نوعين من الناس يؤمن أحدهما (السيد) الحماية للآخر (المسود)، ويمده بأسباب الحياة و"حق" البقاء،

(5716/1)

فيما يزود الآخر سيده بالموارد الغذائية الأساسية / المحاصيل الزراعية، والمالية / الضرائب والرسوم مقدماً له الولاء والخدمات في أيام السلم كما في أيام الحرب(1).

... لذا أكدت الهدنة ضمان ارتباط الفلاح في بلاد الجهتين ارتباطاً وثيقاً بأرضه، بصفته فلاحاً قرارياً(2)

---

(1) ... ج. و. كويلاند وب. فينو كَرادوف، الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا، ترجمة محمد مصطفى زيادة، القاهرة،1958، ص. 19؛ .1118–1115, IIIX, pp. 2C. Cahen. art. « Ikta » EI

(2) ... الفلاح القراري: يعيش على قطعة من الأرض يمنحها إياه سيده الإقطاعي، ويكون مربوطاً إليها، ولا يملك حرية الانتقال عنها، وليس له أن يتزوج من جهة خارج الإقطاع التابع له إلا بإذن من سيده(المرجع السابق، صص. 36 ـ 39).

(5717/1)

، ولم تسمح له بمغادرتها إلا نادراً، حيث ينتقل مع الأرض بانتقالها من سيد إلى سيد دون أن يكون له، بطبيعة الحال، حق

المشاركة في القرار.

... وتبرز مجموعة القوانين والأحكام والقواعد الناظمة لأوضاع مملكة اللاَّتين في بيت المقدس والمعروفة بـ"الأسيز" (Assises) (1de Jérusalem) حالة الظلم والقهر التي كان الفلاح يعاني منها في المجتمع الإفرنجي، فهي تخضع »العبيد والفلاحين والأسرى لقانون البيع والشراء كالمواشي، وأن للسيد الإقطاعي أن

---

(1) ... سعيد عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، بيروت، 1972، ص. 333.

(5718/1)

يفعل بهؤلاء ما يشاء«، وعليه كان يعتبر هروب الفلاحين من إقطاعاتهم بمثابة جريمة كبرى. وقد شددت هدنة عكا على توافق السلطان قلاوون وأسياد عكا على وضع حد لمحاولات هروب الفلاحين إلى بلاد كل منهما، واضعة آلية لضمان ذلك فنص أحد بنودها على أن يُنادى في البلاد الإسلامية والفرنجية الداخلة في هذه الهدنة: من كان من فلاحي بلاد الإسلام يعود إلى بلاد المسلمين مسلماً كان أو نصرانياً، وكذلك من كان من فلاحي بلاد الفرنج يعود إليها مسلماً كان أو نصرانياً مغروقاً قرارياً. ومن لم يعد بعد المناداة يطرد من الجهتين...

(5719/1)

على أن يكون عود الفلاح إلى موطنه آمناً.

... واللافت للنظر في اتفاقيات الهدن كما في المراسلات بين المسلمين والفرنج حِرْصُ منشئيها على تضمين نسخها العربية عبارات التعظيم والتفخيم بالحكام الفرنج. ومن ذلك ما ورد في رسالة السلطان بيبرس إلى بوهيمند صاحب كونتيه طرابلس - أنطاكية، على أثر استيلائه على أنطاكية عام666هـ/ 1268 م، فجاء في مستهلها(1):»قد علم القومص الجليل المبجل المعزز الهمام الأسد الضرغام فخر الأمة المسيحية رئيس الطائفة الصليبية كبير الأمة

(1) ... ابن عبد الظاهر، الروض، ص. 309.

(5720/1)

العيسوية...«.

... وورد في مقدمة الهدنة المعقودة بين السلطان بيبرس وصاحبة بيروت عام 667 هـ/ 1269 م(1): »استقرت الهدنة المباركة بين مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وبين المملكة الجليلة المصونة الفاخرة...«.

... واستهلت هدنة عكا بين السلطان المنصور قلاوون وأسياد عكا عام 682 هـ/ 1283 م بما يلي(2):»استقرت الهدنة بين مولانا الملك المنصور... وبين الحكام بمملكة عكا... وهم: »كفيل المملكة بعكا وحضرة

(1) ... القلقشندي، صبح، ج 14، ص. 39.

(2) ... المقريزي، المصدر السابق، ص. 985 وما بعدها.

(5721/1)

المقدم الجليل...«؛ كما جاء في مقدمة اتفاقية هدنة صور بين السلطان قلاوون وصاحبة بيروت عام 684 هـ/ 1285 م(1): »... استقرت الهدنة المباركة بين مولانا السلطان الملك المنصور... وبين الملكة الجليلة دام مراريت... مالكة صور...«.

... تعكس ألقاب الأبهة والفخامة الآنفة مدى ارتقاء أدبيات التخاطب السياسي لحكام القرون الوسطى. فبالرغم من حالة العداء المستفحلة بين الشرق والغرب آنذاك، والتي عبرت عنها بوضوح كتابات مؤرخي الحرب الصليبية الأوروبيين والمسلمين،

---

(1) ... ابن عبد الظاهر، تشريف، ص. 103 وما بعدها.

(5722/1)

مستخدمة مفردات وعبارات فظة تظهر صورة الآخر بأبشع أشكالها .ومن ذلك: "الكفار" و"الكلاب" و"الشياطين" و"قبحهم الله" و"خذلهم الله" و"لعنهم الله" . تحدد المصنفات الديوانية الإسلامية المعاصرة القواعد والأصول الواجب اعتمادها في مخاطبة ملوم الفرنج وأمرائهم، فضلاً عن رجال الدين من أهل الكتاب. فثمة ألقاب ونعوت تختص بهؤلاء كل حسب منزلته ومقامه. ومن هذه المصنفات: كتاب "صبح الأعشى" للقلقشندي وكتاب "التعريف بالمصطلح الشريف" لابن فضل الله العمري وكتاب "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" لابن شاهين

(5723/1)

الظاهري.

... وإذا كانت الحالة التي سادت بلاد الشام من تكرار هجمات التتار، وترقب المماليك الدائم لحركة المدد الأوروبية إلى الشرق، فضلاً عن التنافس الحاد بين أمراء اللاَّتين أنفسهم(1)، قد دفع المماليك والفرنج إلى تجديد الهدن، فإن ثمة عاملاً كان له أهمية أبعد مدى في الزمان أفسد كل جهد ممكن

---

(1) ... عن الصراع داخل المعسكر الفرنجي، راجع: أحمد حطيط، تاريخ لبنان الوسيط، دراسة في مرحلة الصراع المملوكي الصليبي، بيروت، 1986، صص. 29 ـ 33؛ R. Grousset, L'Epopée des Croisades, Paris, 1936, pp. 371–372.

(5724/1)

لتحويل الصلح المؤقت إلى سلام دائم.

... ذلك بأن المماليك المطعون في مشروعيتهم من أنصار الأيوبية ومن بقايا الفاطمية في مصر والشام، وجدوا في إحياء خلافة بني العباس في القاهرة، بعد سقوطها في بغداد على يد التتار عام 656 هـ/ 1258 م، فرصة لإضفاء صفة الشرعية الدينية على حكمهم، ورأوا في متابعة حركة الجهاد ضد الفرنج والتتار ما يعزز مكانتهم لدى المسلمين كافة، ويجعل سلاطين المماليك في مرتبة أعلى من حكام البلاد الإسلامية الآخرين باعتبارهم حماة الإسلام والخلافة الإسلامية(1)

(1) ... C. Cahen, La Syrie du Nord à l'époque des Croisades et la principauté d'Antioche, Paris, 1942, p. 713.

(5725/1)

.

... لذا لم يكن بوسع المماليك أن يرضوا باستمرار وجود دولة أجنبية دخيلة على بلاد المسلمين، بالرغم من "علاقات حسن الجوار" التي ضمنتها اتفاقيات الهدن، ولو إلى حين.

... لقد اندرجت اتفاقيات الهدن المعقودة مع الفرنج في سياق استراتيجية عمادها إقامة الأحلاف واستفراد الأعداء، أرسو قواعدها السلطان المظفر قطز (657 ـ 658 هـ/ 1259 ـ 1260 م)، حين نجح عشية معركة عين جالوت (658هـ/ 1260 م)، في عقد اتفاقية مع بارونات عكا قضت بالتزامهم الحياد من الصراع المملوكي ـ التتاري، والسماح لجيشه باجتياز أراضي عكا، وهو في

(5726/1)

طريقه إلى ساحة المعركة(1). وتابع سلاطين المماليك سياسة سلفهم قطز، ونقضوا عهودهم مع الفرنج كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، حتى أن البر بالوعود بات مستحيلاً »لديهم. في عام 661 هـ/ 1262 م، مثلاً«، وافق بيبرس على عقد الهدنة مع كونت يافا وفرسان المعبد أصحاب أرسوف(2). إلا أن ذلك لم يمنعه من الاستيلاء على يافا وأرسوف تدريجياً: »الأولى عام 666 هـ/

(1) ... المقريزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص. 430؛ J. Prawer, Histoire, III, p. 433.

(2) ... ابن عبد الظاهر، الروض، صص. 152 ـ 157؛ J. Richard, Histoire, p. 456.

(5727/1)

1268م(1)، والثانية 664 هـ/ 1265 (2) م، دون أن يكون السلطان مضطراً« إلى تبرير خرق الهدن المعقودة مع أسياد المدينتين.

... ولم يَحد المنصور قلاوون عن نهج سلفه في نقض الهدن. فقبيل وقعة حمص مع التتار، عام 680 هـ/ 1281 م، سارع السلطان إلى عقد الصلح مع الداوية والاسبتارية، ومع بوهيمند السابع أمير كونتية طرابلس(3)، لكنه على أثر انتصاره على التتار،

(1) ... المصدر نفسه، ص. 292؛ J. Richard, Histoire, p. 456.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 235؛ J. Richard, Ibid.

(3) ... ابن عبد الظاهر، تشريف، صص. 210 ـ 215.

(5728/1)

وبعد مضيّ أربع سنوات على توقيعه الصلح مع الفرنج، جدَّ في قتال الاسبتارية، واستولى على حصنهم المنيع في المرقب عام 684 هـ/ 1285 م(1).

... إزاء سياسة المماليك هذه، رأى الفرنج في السعي للصداقة مع المسلمين خيانة لمُثُل الفارس الأوروبي، بالرغم من مبادراتهم

المتكررة لطلب الصلح من السلطان، تحت وطأة الضغط العسكري والتنافس على زعامة مملكة بيت المقدس، فضلاً »عن حالة العداء الناشبة بين المدن

(1) ... المقريزي، المصدر السابق، ج 1، ق 3، صص. 727 ـ 728؛ R. Grousset, Histoire des Croisades, Vol. III, p. 703.

(5729/1)

لإيطالية بسبب تضارب مصالحها التجارية«. وفي ضوء ما تقدم يمكننا أن نفسر ملابسات مبادرة أسياد اللاتين المهادنين للسلطان قلاوون لإرسال المدد إلى مدينة طرابلس إبان حصارها عام 688 هـ/ 1289م متناسين مؤقتاً »ما بينهم من عداء(1) واعتراض السلطان على ذلك متهماً« إياهم بنقض العهود كما جاء في الرسائل التي بعث بها إلى هنري دي لوزنيان، ملك قبرص، وإلى فرسان الأسبتار والداوية. فكان رد هؤلاء بأنهم حريصون على الالتزام بما عاهدوا السلطان عليه

(1) ... المقريزي، المصدر نفسه، ص. 747؛ J. Prawer, Histoire, II, 537p.

(5730/1)

بشأن مملكة عكا وبلاد السلطان، إلا أنهم لا يستطيعون أن يقفوا مكتوفي الأيدي حيال الأخطار التي تهدد إخوانهم المسيحيين في طرابلس(1).

بعض الملاحظات الختامية

... تستدعي المراجعة الدقيقة لنصوص اتفاقيات الهدن المعقودة بين المماليك والفرنج إثارة جملة تساؤلات حول بعض ما ذكره المؤرخون عن واقع دويلات اللاتين في الشرق خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. فمهما كانت حالة الضعف والتردي التي ألمت بالفرنج وقتذاك، يلاحظ القارئ لنصوص الهدن، موضوع

---

(1) ... M. L. De Mas Latrie, op. cit., I. p. 484.

(5731/1)

البحث، أن المناطق التي خضعت لسلطة هؤلاء وقت السلم كانت أكثر اتساعاً مما جاء في روايات المؤرخين المعاصرين التي قللت من شأن هذه المناطق وحصرتها في ثلاثة أو أربعة كيانات على الساحل الشاميّ.

... كما يستفاد من نصوص هذه الهدن أن الوضع السكانيّ في ساحل الشام والداخل الفلسطيني، حيث نشأت الكيانات الفرنجية، كان أكثر كثافة وأغنى مورداً »مما كانت عليه في الفترات اللاحقة. ويستفاد من هدنة صور (684 هـ) مثلاً »أنه كان يتبع لسنيورية صور خمس وثمانون قرية ودسكرة، وهي منطقة لم نجد فيها، حتى مرحلة متأخرة، سوى بعض

(5732/1)

القرى والدساكر المنعزلة. فيما تحدد هدنة عكا (682 هـ) اتساع مملكة عكا لتشمل ستاً وسبعين مقاطعة مكتظة بالسكان العاملين في الزراعة، بحيث أنه يتعين علينا ـ إذا ما أردنا إعادة تكوينها على أساس كثافة سكانها، وليس على أساس مساحتها الجغرافية، حسب تعبير دي ماس لاتري (De Mas Latrie) ـ أن نضيف إلى مدينة عكا الحالية الجزء الأكبر من مملكة اللاتين في بيت المقدس وامتدادها حتى حدود البحر الميت تقريباً»(1).

---

(1) ... Ibid., p. 471.

(5733/1)

... وأدى نجاح المماليك بعقد هدن منفردة مع السنيوريات والبارونيات الفرنجية دون العودة إلى المرجعيات السياسية في مملكة بيت المقدس وكونتية طرابلس إلى إضعاف العلاقة بين المركز والأطراف وفقدان التوازن السياسي والعسكري لصالح المماليك وبات مألوفاً أن يتكرر بند في اتفاقيات الهدن بنص على اشتمالها على ما سيفتحه ويضيفه السلطان وولده على يدهما وعلى يد نوابهما وعساكرهما من بلاد وقلاع وملك وأعمال وولايات برّاً وبحراً وسهلاً ووعراً، أو "الفتوحات السعيدة"، حسب الأدبيات الديوانية الإسلامية المعاصرة. والمقصود

(5734/1)

بطبيعة الحال الأراضي الإسلامية التابعة للإفرنج، كما أن موافقة الأمير مرغريت صاحبة صور على استثناء طائفة الإسماعيلية الخاضعة للسلطان من التعهد الذي قطعه على نفسه بضمان أمن السنيورية ـ "لا يتعرض أحد من عساكر مولانا السلطان وجنوده ومعاهديه للملكة دام مراريت لا في نفسه ولا في خيالتها وأصحابها، »خلا الإسماعيلية الذين تحت حكم مولانا السلطان«، حسب ما جاء في هدنة صور (684 هـ) ـ تركت للسلطان هامشاً واسعاً من حرية الحركة تسمح له باجتياح أراضي سنيورية صور متى شاء. بيد أن ما ذهبنا إليه يتعارض مع ما ذكره

(5735/1)

كاترومير () (1Quatremère) الذي حاول أن يقلل من شأن عبارة »خلا الإسماعيلية...«، فاتهم السلطان بإقحام هذه العبارة في نص الهدنة مستغلاً جهل مفاوضيه اللغة العربية. وكان من الطبيعي أن تسفر هذه الأمور مجتمعة عن انحلال النسيج البنيويّ لمجتمع الفرنج السياسي والعسكري، مما أفسح المجال، تالياً، للإجهاز على دويلاتهم في الشرق الإسلامي، وإخراجهم من البلاد عام690 هـ/ 1291 م.

---

(1) M. Quatremètre, Histoire des sultans Mamlouks ... de l'Egypte de Makrizi, Paris, 1845, Vol. I, T. 2.

(5736/1)

... وخلاصة القول، توفر اتفاقيات الهدن، الآنفة الذكر، معلومات تستحق الوقوف عندها عن العلاقات السياسية بين المماليك والفرنج، فضلاً عن الصلات التجارية بينهم، وما يتصل منها بتسهيل أمور التجار وضمان سلامتهم في حلهم وترحالهم، وتنظيم استيفاء الضرائب والرسوم المفروضة على متاجرهم، وعلى حركة المسافرين والمقيمين في بلاد السلطان ودويلات اللاتين، ما يجعل نصوص هذه الهدن، لما احتوته من مادة تاريخية موثوقة، مصدراً لا غنى عنه في دراسة العلاقات بين الشرق والغرب في فترة ما سمي »عصر الحروب الصليبية«.

(5737/1)

المصادر والمراجع

ابن عبد الظاهر، محيي الدين عبد الله، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة، 1961 م.

ـ ـ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976 م.

ابن الفرات، ناصر الدين محمد، تاريخ الدول والملوك، م7، تحقيق قسطنطين زريق، بيروت، 1939 م.

حطيط، أحمد، تاريخ لبنان الوسيط: دراسة في مرحلة الصراع المملوكي الصليبي، بيروت، 1986 م.

ـ ـ، "الكارمية وتجارة الكارم في عصر المماليك"، مجلة الفكر العربي، عدد 54، كانون الأول، بيروت، 1988 م.

(5738/1)

رنسيمان، س. ، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، ج 3، بيروت، 1968 م.

عاشور، سعيد، "تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب"، بيروت، 1972م.

كوبلاند، ج. و. وفينوكَرادوف، ب.، الإقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا، ترجمة محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1958 م.

المقريزي، تقي الدين أحمد، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1957 ـ 1970 م.

هايد، ف.، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، تعريب أحمد محمد رضا، ج 2، القاهرة، 1991 م.

(5739/1)

.118–115, vol. III, pp. 2Cahen. C. at. « Ikta », El

– –, La Syrie du Nord à l'époque des Croisades et la principauté d'Antioche, Paris, 1942.

De Mas Latrie, M. L., Histoire de l'île de Chypez, vol. I, Paris, MDCCCIXI.

Grousset, R., L'Epopée des Croisades, Paris, 1936.

– –, Histoire des Croisades, vol. III, Paris, 1936.

Heyd, W., Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age, vol. I-II, Leipzig, 1885–1886.

Pawer. J., Histoire du Royaume Latin de Jérusalem, Vol. III, Paris, 1970.

(5740/1)

Quatremère, M., Histoire des sultans Mamlouks de l'Egypte de Makrizi, vol. I, Paris, 1845.

Richard. J., Histoire des Croisades.

– –, « Un partage de seigneurie entre Francs et Mamelouk; Les Casaux de sur », in Syria, XXX, 1935, Fasc. 1–2.

(5741/1)

المذهبية في فكر أبي الوليد بن وشد (الحفيد)

الدكتور فاروق حمادة

كلية الاداب – الرباط

بداية مشرقة :

ولد محمد بن أحمد بن رشد في بيت مجد وسؤدد، وعلم ووجاهة. وقد تميز هذا البيت بقيامه على مذهب مالك بن أنس وخدمته له ، بعد أن كثرت رواياته في الأندلس ، وتشعبت أقواله وتنوعت كتبه ، وتزايدت مؤلفاته وشروحاته ، حتى اعتاصت على العلماء، وتمنعت على كبار الفقهاء، ولم يذلل للدارسين صعابها، ويطامن لهم قننها وعقابها(1) إلا الإمام العلامة شيخ المالكية، وقاض جماعة قرطبة، أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد جد ابن رشد

(5742/1)

الفيلسوف . يقول أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال المتوفي د وهو من تلامذته : "كان فقيها عالما، حافظا للفقه ، مقدما فيه على جميع أهل عصره ، عارفا بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه ، بصيرا بأقوالهم واتفاقهم واختلافهم "(2). ترك مؤلفات جليلة، ومن أجثها كتاب "البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل" شرح فيه "المستخرجة" للعتبي ، ووجه أقوالها، ومهد بين يدي هذا الكتاب وكتاب "المدونة" للإمام سحنون بكتاب "المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات ، والتحصيلات

(5743/1)

الممكنات لأمهات مسائلها المشكلات، برحله كضوابط كلية،

(1) القنن . جمع فنة : وهى ذروة الجبل وقمته ة والعقاب . جمع عقبة، بوزن رقاب ورقبة، وهى الطريق الوعر ي الجبل .

(2) انظر : الصلة، ج2 ، ص 576.

ونظرات شمولية إجمالية. وأما "البيان والتحصيل، فقد جع فيه ما تفرق من أقوال المالكية وكتبهم ، ومحص ذلك أفضل تمحيص ، وقرب الفقه المالكي إلى طالبيه وراغبيه أسهل تقريب . وفي ذلك يقول يحيى بن السكاك : "وقرب ابن رشد مذهب مالك تقريبا لم يسبق إليه "(3).

(5744/1)

وقال الضبي عن "البيان والتحصيل" : "كتاب كبير ظهر فيه ، وكان أوحد زمانه في طريقة الفقه "(4). ولهذا وغيره قد حلاه غير واحد بأنه شيخ المالكية، وأفقه أهل الأندلس . وقد عاش هذا الإمام ش حين سنة، ومتوفي 520 ، أي أنه عاش في ظلال الدولة المرابطية ومدة بقائها الذي استمر زهاء خمسة وسبعين عاما.

وقد تميزت الدولة المرابطية في الجانب العلمي بأمرين اثنين ، أولهما : سيادة عقيدة السلف والبعد عن التأويل ، وعدم العمق في آيات الصفات وأحاديثها. ويتجلى ذلك في مؤلفات العقائد في تلك الفترة في المغرب والأندلس ، وفي

(5745/1)

طلبعتها انتشار –رسالة –، الإمام أبي محمد بن أبي زيد القيرواني المتوفى 386هـ. وقد صدرها بعقيدة سلفية صافية لا تزال محل اهتمام وقبول بالجملة إلى يومنا هذا(5).

وثانيهما : سيادة المذهب المالكي، وتمكنه من قلوب وعقول المغاربة والأندلسيين . وكان للفقهاء المالكية في الدولة المرابية العز والصولة، وفي طليعتهم ابن رشد الأكبر، إذ كان مكينا من السلطان ، ومن أهل الرفعة والشأن ، وقد وفد عليه إلى مراكش فلقيه أكرم لقاء، وبقى عنده أبر بقاء(6).

(5746/1)

في هذا الرسوخ العقدي والمذهبي، والوجاهة والمكانة للبيت الرشدي ، ولد ابن رشد الحفيد، في العام الذي توفي فيه جده سنة 5520هـ إثر عودته من لقاء السلطان بمراكش وقبل وفاته بشهر، فتفاءل الأب والجد بالمولد الجديد، فأسماه محمدا وكنياه بأبي الوليد تفاؤلا تشبها.

(3) انظر : نفح الطيب ، ج 5، ص 346.

(4) انظر . بغية الملتمس ، ص51.ترجمة 24.

(5) في هذه العقيدة السديدة كلمة واحدة لا نوافق عليها المؤلف رحمه الله وهي قوله : "استوى على العرش بذاته . فكلمة "بذاته " لم يأت بها نص ، بل استوى حق سبحانه وتعالى على العرش

(5747/1)

وكفى.

(6) انظر . البناهي ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص 99.

ولد أبو الوليد، والدولة المرابطية قائمة، وسطوتها مستحكمة، فرضع لبان العلم والعقائد وتشبع بالمذهب المالكي صدرا من شبابه ، وأهم مرحلة في حياته إبان فتوته وتحصيله ، أي في السنوات العشرين الأولى من عمره ، وكان ذلك قبل قيام الدولة الموحدية.

وقد جاء في ترجمته أنه ما ترك الاشتغال بالعلم منذ عقل سوى ليلتين ، ليلة موت أبيه ، وليلة عرسه (7).

ولهذا، فقد بلغ الحفيد من العلم مبلغا عظيما. قال فيه ابن الآبار القضاعي المتوفى 658هـ: لم ينشأ بالأندلس مثله

(5748/1)

كمالا، وعلما، وفضلا(8).

وما ذلك إلا لما تعهده به والده في صغره ، وأحاطه به من عناية ورعاية في مدارج طفولته . فقد حفظ–الموطأ–، عن ظهر قلب وعرضه على أبيه في هذه السنين الأولى من حياته ، كما أنه ألهم حب المعرفة فأقبل عليها. ومن كان بهذه الصفات العرفية فهو حقيق بأن يصبح عالما راسخا في سن العشرين ، عندما دخلت الأندلس تحت جناح الدولة الموحدية.

ولا شك أن هذه البداية العلمية المشرقة قد صاغته صياغة مالكية، وبرحلته مؤتمنا على إرث أبيه وجده العلمي تدريسا ونشرا واستمرارا، و"تهد ذلك أنه قد تولى منصب

(5749/1)

القضاء في بلده قرطبة، وهي كعبة العلم بالأندلس والغرب الإسلامي في هاتيك العصور، فكان قاض الجماعة فيها، وقد حمدت سيرته في ذلك ، ولم ينقم عليه حسب ما بلغنا لشيء فيما هنالك (،).

ومن يتولى منصب القضاء ويتصدر للفصل بي الخصومات وإقامة الأحكام الشرعية بين الخاصة والدهماء، لا شك أنه يدرك أنه لابد للعامة وللمستفتين والمتنازعين من لزوم محجة واضحة سواء، حتى لا يتهم بالتناقض أو يشار إليه بأفن الرأي أو بالتحيز والبغضاء. وما كان هذا المهيع الذي لزمه وتلك المحجة الواضحة إلا المذهب المالكي الذي رسخ دهرا غير

(5750/1)

قصير في المغرب والأندلس .

(7) انظر : ابن الأبار، التكملة، ج2 ، ص 552. (نقلا عن الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 21، ص 308).

(8) انظر : ابن الأبار، التكملة، ج2 ، ص 552. (نقلا عن الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 21، ص 308).

(9) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس ، ص11 . وابن فرحون ، الديباج المذهب ، ج2 ، ص 257.

تحول كبير :

ولما قامت الدولة الموحدية نحوه 540هـ ومدت رواقها إلى الأندلس عام ا،لأر ودخلت تلك البلاد في طاعتها، كانت هذه الدولة دولة فكرية علمية.

فمؤسسها وداعيتها عالم كبير ادعى التجديد والمهدوية.
وخليفته عبد المؤمن ، وابنه يوسف ، وحفيده يعقوب كلهم علماء مذكورون في هذا الشأن ، وكانت هذه الدولة تقوم على دعامتين فكريتين مناقضتين للدولة المرابطية، أرساهما المهدي بن تومرت قبل وفاته وقبل قيام دولته ، وهما الألف حرية في العقائد، أو على الأدق مناهضة منهج المرابطين في العقائد وتصوراتهم فيها، ثم الاجتهاد في التشريع والفقه القائم على الكتاب والسنة، لنقض بناء الدولة المرابطية المتشبثة بالمالكية. وقد كان المهدي بن تومرت ينص على فقهاء المالكية الذين

قالوا بأن كل مجتهد مصيب ، واتبعوا هذه المقالة سلما إلى هدم الشريعة، وإسناد الأحكام إلى غير مستندها، وعكس الحقائق عن موضوعها، وصيروا الحلال حراما والحرام حلالا، رجعوا الشرع تناقضا، واتبعوا قولة كل قائل وإن تناقضت ، واعتقدوا طق في المجتهدات وإن تعارضت (10).
وكان خليفته عبد المومن بن على عالما بالأصول ، القرآن والسنة، وكذلك ابن يوسف ، ومن بعده ابنه يعقوب المنصور، واسطة عقد هذه الدولة، وناشر لوائها، والمركز في التاريخ جلائل أعمالها. أما الطريقة الأشعرية، فقد حملها معه المهدي بن تومرت من المشرق

وخاصة من الإمام الغزالي ، الذي تأثر به المهدي غاية التأثر. وقد ف
سر المهدى على المرابطين بأنهم في عقيدتهم السلفية التي تقوم
على ظاهر نصوص الكتاب والسنة مع المبالغة في الإثبات مجسمون ،
وأبدأ في ذلك وأعاد، وأعلن الحرب العقائدية على المرابطين
لتخليص التوحيد، وتصفيته من شوائب التجسيم . ولهذا سمى نفسه
وأتباعه بالموحدين ، وصنف الكتب في ذلك ، وفرضها على أتباعه
ف حلما وحفظا وجادل على هذه العقيدة وناظر عليها في حضرة
الخليفة على بن يوسف بن تاشفين المرابطي بمراكش، وقبلها في
فاس وغيرها، وظهر على العلماء

(5754/1)

الذين كانوا يناظرونه . وقد اعتنى عبد المؤمن من
بعده بهذه العقائد التي كتبها المهدي بن تومرت ، ورتبتها في
(10) انظر : الدكتور عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت ، ص
332. (ونقله عر كتاب المهدي بن تومرت . أعز ما يطلب ، ص25.

سفر جامع هو "أعز ما يطلب "، ودرسها بنفسه في مجالس كان
بعقدها لهذا الغرض ، وأصدر مرسوما يلزم فيه العامة ومن في
الديار بقراءة ، وهى العقيدة التي في أولها : "اعلم أرشدنا الله
وإياك "، وحفظها وتفهمها، وهى ذات صبغة ألفمرية خالصة، وكان
لها دور كبير في انتشار الأشعرية بالمغرب (11).

(5755/1)

وقد أصبح لهذه العقائد دعاتها ومؤلفاتها والمنافحون عنها، ومن أبرزهم المتكلم النظار أبو عمرو عثمان بن عبد الله السلالجي الفاسي المتوفى 574هـ، الذي أتقن العقائد على الطريقة الألف حرية، وقصر عمره على نشرها وتعليمها وتعميمها، وقد قيل فيه : هو الذي أنقذ أهل فاس من التجسيم، أي من اتباع مذهب السلف (14).

وبهذا، فقد غدت العقيدة الأشعرية في هذا العصر عقيدة الغرب الإسلامي دون منازع . ويجمع المؤرخون – حسب علمنا – أن بداية التمكن لأشعرية وانتشارها في الغرب الإسلامي كانت مع المهدي بن تومرت ، وإن كانت هناك

(5756/1)

إرهاصات و آثار لها قبل المهدي ، وقبل ابن العربي اللذين حملاها عن الغزالي وأضرابه من المشرق ، وخاصة في الأندلس مع الراحلين إلى المشرق ، وكانت كتبها موجودة في الأندلس ، وأفكارها لها رواج.

وما كان أهل المغرب .قبل هذه الفترة يدينون إلا بتنزيه الله تعالى، مع ترك الخوض فيما .نقصر العقول عنه . وكانوا كما يقول الإمام السبكي وغيره ينافرون هذه العلوم – أي التعمق – و بعادون من ظهرت عليه (13).

وأما الاجتهاد القائم على الكتاب والسنة في الفروع ، والتحرر من سيطرة المذهب المالكي ، فهو أمر س حروف مشهور متداول

(5757/1)

، وفقدت المالكية بذلك سيطرتها، ولكنها لم تمت ، بل خف أوارها، وانكسر قرنها. وما ذلك إلا لتأثر المهدي بن تومرت ، بل وجل الراحلين في عصره بالمدارس الفكرية في المشرق . وقد طاف المهدي ومعاهدها،

(11) انظر . المرجع السابق ، ص 444. ولا أسعد أن يكون المهدي بن تومرت قد اقتبس قوله : "أرشدكم الله" من مصنفات إمام الحرمين في العقيدة، ك"الشامل "، ومختصره –الأرشد–. إذ أكو فيها ص ت قوله : "اعلموا أرشدكم الله. . . ".

(12) انظر : النبوغ الغربي، ج 1، ص 158.

(5758/1)

---

(13) انظر . المراكشي، المعجب ، ص 270. والسبكي ، الطبقات الكبرى، ج 6 ص116.

وجاب أقطارها، وسبر أغوارها، وعاد إلى المغرب الذي كان يلتزم المذهب المالكي ، ويغوص علماؤه في الفروع والتفريعات ، بعيدا عن الدليل من السنة أو التنزيل . ومما هو في حكم المتواتر أن الدولة الموحدية لم تلتزم المذهب المالكي التزاما جمياً، بل دعت إلى

الكتاب والسنة . قال الحافظ أبو بكر بن الجد : "لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب (ت 580 هـ) أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه "كتاب ابن يونس "، فقال لي : يا أبا بكر، أنا أنظر في

(5759/1)

هذه الآراء المتعبة التي أحدثت في دين الله ، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا، فأي هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك، فقال لي ، وقطع كلامي : يا أبا بكر ليس إلا هذا، و"شار إلى المصحف ، أو هذا، وأشار إلى سنن أبي داود، وكان عن يمينه ، أو السيف "(14)

وفتح المهدي بن تومرت باب العمل بالسنة. فقد جمع أحاديث في الطهارة، وأمر بحفظها، واستمر ذلك إلى أيام يعقوب المنصور الذي وصفه عبد الواحد المراكشي في "المعجب "(15)

(5760/1)

بقوله : "وفي أيامه انقطع علم الفروع ، وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب بى حد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن ، ففعل ذلك فأحرق منها جملة في سائر البلاد – كـ–مدونة –، سحنون ، وكهاب ابن يونس و– نوادر –، ابن أبي زيد، و–مختصراه – ، وكتاب "التهذيب " للبرادعي ، و–واضحة –، ابن حبيب ، وما جانس هذه الكتب ونحا

نحوها. لقد شهدت منها، وأنا يومئذ بمدينة فاس ، يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار. وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي ، والخوض في شيء منه ، وتوعد على

(5761/1)

ذلك بالعقوبة الشديدة، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء والمحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة –الصحيحين –، و– الترمذي –، و–الوطأ –، و–سنن – أبي داود، و–سنن –، النسائي ، و– سنن –، البزار، و–مسند–ابن أبي شيبة، و–سنن –الدارقطني و– سنن – البيهقي في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة، فأجابوه إلى ذلك ، وجص حوا ما أمرهم بجمعه ، فكان يمليه بنفسه على

(14) انظر : المعجب ، ص 402.

(15) انظر : المصدر السالف ، صص 400–401.

(5762/1)

الناس . ويأخذهم بحفظه ، وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العوام والخاصة، فكان بعل لمن يحفظه الجعل السني من الكسا والأموال . إلى أن يقول عبد الواحد المراكشي : "وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك ، وإزالته من المغرب مرة واحدة، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد

بعينه كان مقصد أبيه وجده ، إلا أنهما لم يظهراه ، وأظهره يعقوب ".

وإن كان قوله : "كان مقصده في الجملة محو مذهب مالك " يحتمل عداء المذهب كما ذهب إليه بعض الباحثين ويحتمل كذلك اقتلاع سيطرته ولفرده بالسيادة

(5763/1)

الفكرية، وهذا الذي نذهب إليه بدليل استمرار كتب المالكية و آراء علماء هذا المذهب إلى جانب مذاهب أخرى لم يكن لها حضور في المغرب كالحنفية والشافعية و الداودية واتباعها الأوائل إلى جانب آراء ابن حزم الذي كان قريب العهد. يقول ابن خلكان : "وكان الأمير أبو يوسف يعقوب يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس ، وقتل في بعض الأحيان على شرب الخمر، وقتل العمال الذين تشكو الرعايا منهم ، وأمر برفض فروج الفقه ، وأن العلماء لا يفتون إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية، ولا يقلدون أحدا من الأئمة المجتهدين

(5764/1)

المتقدمين ، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس . ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا إلى البلاد وهم على ذلك الطريق ، مثل أبي الخطاب بن دحية، وأخيه إبي عمر، ومحمس

الدين بن العربي نزيل دمشق "(16).

موقف متميز:

في هذا الجو العقائدي والمذهبي نتساءل . ما هو موقف ابن رشد من ذلك ؟ وما هو مذهبه العقدي والفقهي ؟

1 –من المعلوم أن ابن تومرت قد تأثر بالغزالي ، وتلقى عنه وحمل عنه الألف حرية. وهو أكبر أساتذته الذين وجهوه . وإنا لنجد أن

(5765/1)

الدولة الموحدية كانت سباقة في تطبيق بعض الآراء التربوية والمدرسية التي كان يراها الغزالي ، ولا يخفى على

(16) انظر : وفيات الأعيان ، ج 7، ص . 11.

أحد من الدارسين الحملة الشعواء التي كان ابن رشد يشنها على أبي حامد بمناسبة وبغير مناسبة، وكتب ابن رشد طافحة بها وفي طليعتها "تهافت الهافت "، وكذلك كتاب "مناهج الأدلة"، و"فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ". وبهذا الحط والحمل على الغزالي بحق وبغير حق ، فإنه يأتي إلى أسطوانة الدولة الموحدية الفكرية ليهدمها، وبالتالي يأتي على أسس الدولة التي

(5766/1)

قامت عليها وسوغت وجودها بها ضد المرابطين.

يقول في كتابه "فصل المقال" : "يجب أن لا تثبت التأويلات إلا في كتب البراهين، لأنها إذا كانت في كتب البراهين لم يصل إليها إلا من هو من أهل البرهان. فأما إذا أثبتت في غير كتب البرهان ، واستعمل فيها الطرق الشعرية والخطابية أو الجدلية كما يضعه أبو حامد، فخطر على الشرع وعلى الحكمة، وإن كان الرجل إنما قصد خيرا، وذلك أنه رام أن يكثر أهل العلم بذلك ، ولكنه كثر أهل الفساد بدون كثرة أهل العلم ، وتطرق بذلك قوم إلى ثلب الحكمة، وقوم إلى ثلب الشريعة، وقوم إلى الجمع

(5767/1)

بينهما، ويشبه أن يكون هذا أحد مقاصده بكتبه.
والدليل كل أنه رام بذلك تنبيه الفطر أنه لم يلتزم مذهبا من المذاهب في كتبه بل هو مع الأشعرية أشعري ، ومع الصوفية صوفي ، ومع الفلاسفة فيلسوف ، وحتى إنه كما قيل :
يوما يمان إذا لقيت ذا يمن وإن لقيت معديا فعدنان
والذي يجب على أئمة المسلمين أن ينهوا عن كتبه التي تتضمن هذا العلم ، إلا من كان من أهل العلم ..."(17). وكأنه بذلك يؤيد عمل الدولة المرابطية وعلماءها في إحراق –الإحياء– بل إنه يصل بالغزالي إلى شفير التكفير، حين يقول : "إن المصرح بهذه التأويلات لغير

(5768/1)

أهلها فكافر"(،1)، ويقول عنه في مكان اخر : "إنه ليس بصادق "(18).

(17) انظر . فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، صص52-53 .

(18) انظر : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، ص59.

(19) انظر : ضميمة في العلم الإلهي مع فصل المقال ، ص 75.

2- وأما الأشعرية، وقد حول الموحدون المغاربة إليها، فقد نذر ابن رشد نفسه لمحاربتها ونقضها، كما يتجلى ذلك في كتابيه اللذين بقيا وطبعا: "مناهج الأدلة"، و"فصل المقال ".

(5769/1)

فإذا كانت الأشعرية طريقة لتفسير الآيات والأحاديث المتعلقة بالعقائد، فقد ألف ابن رشد كتابه "مناهج الأدلة" لينقضهما مسألة مسألة. يقول في تسويغ تأليفه هذا، ودواعي كتابته له : "فقد رأيت أن أفحص عن الظاهر من العقائد التي قصد الشرع حمل الجمهور عليها، وأتحرى في ذلك كله مقصد الشارع صلى الله عليه وسلم بحسب الجهد والاستطاعة، فإن الناس قد اضطربوا في هذا المعنى كل الاضطراب في هذه الشريعة حتى حدثت فرق ضالة، وأصناف مختلفة كل واحد منهم يرى نفسه أنه على الشريعة الأولى، وأن من خالفه إما مبتدع وإما كافر مستباح

(5770/1)

الدم والمال . . . واشهر هذه الطواائف في زماننا هذا أربعة : الطائفة التي تسمى الأشعرية وهم الذين يرى أكثر الناس اليوم أنهم أهل السنة، والتي تسمى بالمعتزلة، والطائفة التي تسمى بالباطنية، والطائفة التي تسمى
بالحشوية . . .(20).

ويقول عن المعتزلة إنها لم تدخل إليهم في جزيرة الأندلس . وكان رده على الباطنية والحشوية قصيرا جدا. فالحشوية الذين قالوا : "إن طريق وحرفة وجود الله تعالى هو السمع لا العقل ". قال عنهم : "الظاهر من أمر هذه الفرقة الضالة أنها مقصرة عن مقصود الشرع في الطريق التي نصبها وبيض كما

(5771/1)

للجميع(21)، واتهمهم بالفدامة، وبلادة العقل.

وأما الصوفية الباطنية، فأكد أن طرقهم في النظر ليست نظرية، وإنما المعرفة عندهم بالله وبغيره من الموجودات شيء يلقى في النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية، وإقبالها بالفكرة على المطلوب. وهذا الطريق يبطل طريق النظر الذي دعا إليه القران والسنة ولا تصلح لعامة الناس (22).

(20) انظر : مناهج الأدلة، صص 40–40.

(21) أنظر : مناهج الأدلة، ص 42.

(22) انظر : فاهج الأدلة، ص 43.

(5772/1)

وبهذا، فقد كان الكتاب كله منصبا على الألف حرية بدءا من الأدلة التي نصبوها للدلالة على وجود الصانع ، وانتهاء بما يجوز وما لا يجوز من التأويل .

ولأتناول شيئًا من كلامه في الأسس الألف الأشعرية لنتبين مقدار ومعاداته للألف حرية وتشهيره بها. يقول عن طريقة الأشاعرة في "الأدلة : إنهم رأوا أن التصديق بوجود الله تعالى لا يكون إلا بالعقل ، لكن سلكوا في ذلك طرقا ليست هي الطرق الشرعية التي نبه الله عليها، ودعا الناس إلى الإيمان به من قبلها، وذلك أن طريقتهم المشهورة انبنت على بيان أن العالم حادث ، وانبنى

(5773/1)

حدوث العالم على القول بتركيب الأجسام من أجزاء لا تتجزأ، إلخ (23).

إلى أن يقول : "والدلائل التي تستعملها الأشعرية في إثباته هي خطابية في الأكثر، ويناقشهم في طريقة البرهان ، ويحط عليهم بعبارات قوية جريئة كقوله : "هذه الطريقة ليست برهانية صناعية ولا شرعية"(24)، و"هذا قول في غاية السقوط (25)، "فقد

تبين لك من هذا كله أن الطرق المشهورة للأشعرية في السلوك إلى معرفة الله تعالى ليست طرقا نظرية يقينية ولا طرقا شرعية يقينية"(26).

(5774/1)

إنه بهذا يريد إثبات جفل الأشاعرة بالفلسفة وأحكام العقل ، وكذلك بعدهم عن الكتاب والسنة والوقوف عند حدود السمع . وهذا أمر خطير من مثل ابن رشد، بل إن فيه حيفا واضحا يستحق المناقشة، وخاصة في طريقة التصديق التي لا تكون إلا بالعقل.

وإمعانا في تخطئة الأشاعرة في الطرق الدالة على الله سبحانه وتعالى قدم ابن رشد طريق دليل العناية والاختراع كما أسماه . وقد أشار إلى مثل هذا المنى جده في "المقدمات الممهدات " من قبل ، وقد أكد بكل يقين وثبات أنه استقى ذلك من استقراء الكتاب العزيز، إذ يقول : "قلنا الطريق التي

(5775/1)

نبه الكتاب العزيز عليها، ودعا الكل من بابها إذا استقرئ الكتاب العزيز وجدت تنحصر في جنسين : أحدهما طريق

(23) انظر : مناهج الأدلة، ص 43.

(24) انظر . مناهج الأدلة، ص 54.

(25) انظر : مناهج الأدلة، ص 58.

(26) انظر : مناهج الأدلة، ص 62.

الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجلها، ولنسم هذه دليل العناية، والطريقة الثانية . ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات ، مثل اختراع الحياة في الجماد، والإدراكات الحسية والعقل ، ولنسم هذا الدليل دليل الاختراع .

(5776/1)

فأما الطريقة الأولى، فتنبني على أصلين : أحدهما أن جميع الموجودات التي ها هنا موافقة لوجود الإنسان ، والأصل الثاني أن هذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك مريد، إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق ...

وأما دلالة الاختراع ، فيدخل فيها وجود الحيوان كله ، ووجود النبات ، ووجود السماوات . وهذه الطريقة تنبني على أصلين موجودين بالقوة في جميع فطر الناس ، أحدهما أن هذه الموجودات مخترعة، والأصل الثاني ، فهو أن كل مخترع فله مخترع ...)، إلى أن يقول . "فهذان الدليلان هما دليلا الشرع"(27)، وإن

(5777/1)

كان في هذه عمليه درك ومعه مناقشات ، إلا أنه بسط الأمر ووضحه ، وما ذلك إلا لينسف الآلاف حرية من جذورها.

وعندما ناقش صفة الوحدانية لله سبحانه وتعالى ى، نالت الأشعرية حظها من هجومه ومعارضته ، فقال : "وأما ما تتكلف

الأشعرية من الدليل الذي يستنبطونه من هذه الآية"(28)، وهو الذي يسمونه دليل الممانعة، فشيء ليس يجري مجرى الأدلة الطبيعية والشرعية. وقد خالف في ذلك جده أبا الوليد الذي قال قول الأشاعرة، وأخذ كلامهم ، وقال . "وهذا الدليل الذي يسمونه دليل التمانع ، وقد نبه الله عليه وذكره في كتابه "، وذكر

(5778/1)

الآيات (29).

ومما ذهب إليه الأشعرية في تقسيم الصفات بأن جعلوها صفات نفسية وصفات معنوية وعد ذلك ابن رشد من البدع التي حدثت في الملة، وحاول أن يقرب ذلك من اعتقادات النصارى ومشابهتها بالأقانيم الثلاثة.

(27) انظر : مناهج الأدلة، صص. 65–67.

(28) قوله تعالى : (قل لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا) (سورة الأنبياء، الاية22) وقوله تعالى : قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا* (سورة الإسراء، الآية 48) وقوله تعالى : ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله ، إذا لذهب كل إله بما خلق

(5779/1)

ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون سورة المؤمنون ، الآية 41).

(29) انظر : المقدمات الممهدات ، ج 1، ص . .18

وفي مسائل التنزيه في الفصل الرابع من "مناهج الأدلة"، جهل الأشعرية في نفي الجسمية، ونفي الجهة، وكذلك جهلهم في مسألة الرؤية، وحط على أبي حامد وشيخه أبي العالي الجويني، وكثيرا ما كان يصف أدلتهم ومساعيهم بأنها مضادة للحكمة و الشريعة(30).

ومن قوله فيهم . "وبالجملة، فلما كان نظر هؤلاء القوم مأخوذا من بادئ الرأي ، وهو الظنون التي تخطر للإنسان من أول نظرة... فمن أظلم ممن أبطل الحكمة، وافترى

(5780/1)

على الله الكذب "(31). بل هم في نظره مبتدعة يفسدون عقائد الجمهور، إذ يقول : ".. . استعمال لفظ الحدوث أو القدم بدعة في الشرع ، وموقع في شبهة عظيمة تفسد عقائد الجمهور، وبخاصة الجدليين منهم ، ولذلك عرضت أشد حيرة تكون ، وأعظم شبهة للمتكلمين من أهل ملتنا، أعني الاشعرية".

ويستمر ابن رشد في سائر المسائل العقدية في نقض الأسس الأشعرية في النبوات والمعجزات وفي القضاء والقدر، ويصفهم في بيان هذه المسائل بالتناقض وعدم الفهم حيث يقول : "وأما الأشعرية، فإنهم راموا أن يأتوا بقول وسط بين القولين ، فقالوا(: إن

(5781/1)

للإنسان كسبا، وإن المكتسب به والكسب مخلوقان لله تعالى .هذا لا معنى له ! فإذا كان الاكتساب والمكتسب مخلوقين لله تعالى، فالعبد مجبور على اكتسابه "(32).

وينقض على أبي العالي وأبي حامد ما ذهبا إليه ، واستدلا به ، إلى أن يقول : "وأما المتوسط – أي بين المعتزلة والجبرية – الذي تروم الأشعرية أن تكون هي صاحبة الحق بوجوده ، فليس له وجود أصلا"(33). وأما مسألة العدل والجور في حق الله وتعالى، فوصل فيها إلى قمة هجومه على الأشعرية، إذ قال : "قد ذهب الأشعرية في العدل والجور في حق الله تعالى إلى رأي

---

(30) انظر . مناهج الأدلة، صص. 100 ، 101 ، 116 .

(31) انظر : مناهج الأدلة، ص.118 .

(32) انظر : مناهج الأدلة، ص.136.

(33) انظر: مناهج الأدلة، ص.143.

غريب جدا في العقل والشرع ، أعني أنها صرحت من ذلك بمعنى لم يصرح به الشرع ، بل صرح بضده ... ".

إلى أن يقول : "وما تقوله الأشعرية من أنه يجوز على الله تعالى أن يفعل ما لا يرضاه، أو يأمر بما لا يريده ، فنعوذ بالله تعالى من هذا الاعتقاد في الله سبحانه وتعالى، وهو كفر"(34). وقد صرح بتكفير بعضهم في كتابه "فصل المقال)، حين قال : "كثير من الأصول التي بنت

عليها الأشعرية معارفها سوفسطائية، فإنها تجحد كثيرا من الضروريات مثل ثبوت الأعراض ، وتأثير الأشياء بعضها في بعض ، ووجود الأسباب الضرورية للمسببات ، والصور الجوهرية، والوسائط. ولقد بلغ تعدي نظارهم في هذا المعنى على المسلمين أن فرقة من الاشعرية كفرت من ليس بعرف وجود الباري سبحانه بالطرق التي وضعوها لمعرفته في كتبهم ، وهم الكافرون ، والضالون بالحقيقة"(35).

ومن خلال هذه النبذة اليسيرة التي كشفنا فيها عن موقف أبي الوليد الحفيد من الأشعرية، يمكننا أن ندون ونضيف إليها من خلال كتابيه سالفي الذكر : "فصل

(5784/1)

المقال " و"مناهج الأدلة" الملاحظات التالية :

1 – لقد كتب ابن رشد هذين الكتابين وهو متشبع بالفلسفة متمكن منها، ويظهر ذلك من خلال نصوصه ودفاعه عن الحكمة – أي الفلسفة – وإشاراته إلى أساطينها الأول ، وقد جاء في ختام النسخة التي بين يدي مطبوعة : "وكان الفراغ من سنة خمس وسبعين وخمسمائة،)، أي إبان فترة حكم يوسف ابن عبد المومن ، وذلك في قوة الدولة الموحدية وعلو شأنها. وهذه الملاحظة تقودنا إلى الملاحظة الثانية :

(5785/1)

---

2 – إن فيلسوفا متمكنا من الفلسفة واسع الأفق ، بعيد الغور كابن رشد نجده في كتابيه هذين يجنح كثيرا إلى الإثبات في آيات وأحاديث الصفات – بل يصل أحيانا إلى حد يقترب من التجسيم . فمن ذلك قوله : "فإن قيل : ما تقول في صفة الجسمية هل هي من الصفات التي صرح المشرع بنفيها عن الخالق أم هي من

(34) انظر: مناهج الأدلة، صص .142،145.

(35) انظر: فصل المقال ، صص . 63–64.

المسكوت عنها ؟ فنقول : إنه من البين من أمر الشرع أنها من الصفات المسكوت عنها، وهي إلى التصريح بإثباتها في الشرع أقرب منها إلى نفيها، وذلك أن

(5786/1)

الشرع قد صرح بالوجه واليدين في غيرما آية من الكتاب العزيز. وهذه الآيات قد توهم أن الجسمية هي له من الصفات التي فضل فيها الخالق والمخلوق ، كما فضله في صفة القدرة والإرادة، وغير ذلك من الصفات المشتركة بين الخالق والمخلوق ، إلا أنهما في الخالق أتم وجودا. ولهذا صار كثير من أهل الإسلام إلى أن يعتقدوا في الخالق أنه جسم لا يشبه سائر الأجسام ، وعلى هذا الحنابلة وكثير من تبعهم "(36).

وقد حاول أن يلطف هذا النص ويدفع عن نفسه القرب من التجسيم أو التجسيم نفسه بقوله : "والواجب عندي في هذه الصفة أن يجري فيها

(5787/1)

على منهاج الشرع ، فلا يصرح فيها بنفي ولاإثبات ، ويجاب من سأل في ذلك من الجمهور بقوله تعالى : ليس كمثله شيء وهو السميع البصير"(37). إلا أنه عاد ليدافع عن الفكرة الأولى، فكرة التجسيم ، بقوله : "الجمهور يرون أن الموجود هو المتخيل المحسوس وأن ما ليس بمتخيل ولا محسوس ، فهو عندهم عدم . فإذا قيل لهم : إن هاهنا موجودا ليس بجسم ، ارتفع عنهم التخيل ، فصار عندهم من قبيل المعدوم

ومنها قوله : "إذا صرح . بنفي الجسمية، وجب التصريح بنفي الحركة، فإذا صرح بنفي هذا عسر ما جاء في صفة الحشر من أن البارئ يطلع على

(5788/1)

أهل الحشر، وأنه يتولى حسابهم ، كما قال تعالى : وجاء ربك والملك صفا صفا*، وذلك يصعب تأويل حديث النزول المشهور،،(38).

وغير خاف أن للأشعرية أجوبة واضحة وقوية في هذه الآية وغيرها، وفي الأحاديث المتشابهة، وخاصة حديث النزول المشار إليه ، لا أطيل بذكرها(39).

(36) انظر . مناهج الأدلة، صص . 88 –89.

(37) انظر : مناهج الأدلة، ص . 90.

(38) انظر . مناهج الأدلة، ص. 90

(39) انظر مثلا : الجويني ، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في الاعتقاد، ص

. 156 وما بعدها ! وابن فورك ، تأويل مشكل الحديث و الرازي ، أساس التقديس،

(5789/1)

فقد جمع في ذلك فأوعى وغيرها من كتب الأشعرية.

ومن ذلك قوله : "القول في الجهة". وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتونها لله سبحانه حتى نفتها المعتزلة، ثم تبعهم على نفيها متأخرة الأشعرية كأبي العالي ومن اقتدى بقوله ، وظواهر الشرع كلها تقضي إثبات الجهة"(40).
إلى أن يقول . "إن إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل ، وأنه الذي انبنى عليه وأن إبطال هذه القاعدة إبطال للشرائع "(41).
وقد خالف أبو الوليد جده في هذا الذي تقدم حين قال في "المقدمات الممهدات ،، : "ولا يجوز عليه تعالى ما يجوز على

(5790/1)

الجواهر والأجسام من الحركة والسكون ، والزوال والانتقال ، والتغير والمنافع والمضار، ولا تحويه الأمكنة، ولا تحيط به) لأزمنة "(42) .
وهذا القرب من التجسيم يتنافى مع عقلية الفيلسوف الشارح ، ويقودنا كذلك إلى ذكر الملاحظة الثالثة .
3 – لقد أبدأ الحفيد وأعاد في ذكر الخاصة والعامة، وأكد عدم التصريح للعامة بما هو للخاصة في نصوص كثيرة. وهذا أمر فيه ما

فيه ، بل إنه جنوح إلى الباطنية واضح جدا. وكان في ردوده على الأشاعرة، وموقفه من تشابه الآيات والأحاديث ، ونصوص الصفات يلجأ إلى هذا الأسلوب ويعتمده ويحيل

(5791/1)

عليه ، وإن كان أبو حامد الغزالي قد سبقه بهذه القضية وألم عليها قبله في كتابيه "إلجام العوام عن علم الكلام " و"المضنون به على غير أهله)،، بل قد صرح أبو الوليد كثيرا بالظاهر والباطن ، ولم يظهر لنا حدود الباطن الذي يذهب إليه ، ويخص به أهل البرهان ، أي المتحققين المتشبعين بالفلسفة والحكمة . فمن ذلك قوله . (انقسم الشرع إلى ظاهر وباطن . فإن الظاهر هو تلك الأمثال المضروبة لتلك المعاني، والباطن هو تلك المعاني التي لا تنجلي إلا لأهل البرهان "(43).

(40) انظر: مناهج الأدلة، ص . 93.

(5792/1)

---

(41) انظر : مناهج الأدلة، ص 96

(42) انظر : المقالات الممهدات ، ج 1 ، ص .23.

(43) انظر : فصل المقال ، ص. 46.

فإذا كان ابن رشد في العقائد قد باين المعتزلة، وانفصل عن الحشوية والسلف ، ونعى على الباطنية، وانقض على الأشعرية، فإن

المرء ليحار في الكشف عن مذهبه الذي تستر له كثيرا خلف تقسيم الناس إلى عامة وخاصة، وبالغ في الإثبات في عقائد العامة، ونصر ذلك وأخفى عقائد الخاصة أهل اليقين والبرهان . ويمكنني القول إنه مع العامة كان ولجما لما نشأ فيه من عقائد وكان رائجا إبان الدولة المرابطية بما يقرب من

(5793/1)

التجسيم ولزوم الظاهر، وخفيا فيما أدته إليه الفلسفة والحكمة ووصله من التأثر بهما من آراء القدماء، مراعيا في تخفيه طبيعة المجتمع المغربي الذي كان يأبى الفلسفة، والخروج على القران والسنة.

4 – ومن الملاحظ أن أبا الوليد قد يهز هجومه على أبي العالي وأبي حامد، ولم في حرض في كتابيه سالفي الذكر إلى أئمة الألف حرية الكبار كالباقلاني وابن مجاهد البصري وأبي الحسن الباهلى وأبى إسحق الأسفراييني وغيرهم . وما ذلك إلا لانتشار كتب هذين الإمامين وأفكارهما في المغرب في تلك الفترة – والله أعلم – فكان رد أبي الوليد

(5794/1)

جرأة عظيمة، وعارضة فكرية نادرة، علما بأن آراء الباقلاني والسمناني ومن هم أسبق من الجويني والغزالي موجودة في كتب جده ابن رشد الأكبر. وتأثره بالشعرية ظاهر(44)، ويمكن أن أشير هنا إلى أن الأشعرية دخلت المغرب والأندلس عن طريق

الباقلاني بواسطة تلميذه عبد بن أحمد أبي ذر الهروي ، وكانوا قبل ذلك إما أهل قران ، أو حديث أو فقه ، أو عربية، يتقنون ذلك ولا يخوضون في الكلام ، وأبو ذر الهروي توفي بمكة سنة 434هـ(45).

(5795/1)

---

5 – وأما فقه ابن رشد الحفيد، فقد تجلى في كتابه "بداية المجتهد ونهاية المعتقد،،. ويبدو أنه هو الكتاب الفقهي الوحيد الذي كتبه أو وصلنا خبره ! أما ما نكب إليه من كتب أخرى في الفقه ، فهي إما تحريف في عنوان "بداية المجهد،، أو تشابه مع كتب جده أورث خطأ.

وكتاب "بداية المجهد" مطبوع متداول ، ومن خلاله نستطيع البحث عن مذهبه الفقهي وتوجهه في الاستنباط.

(44) انظر على سبيل المثال : المقدمات الممهدات ، ج1، ص .20، 22،58. (45) قال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء، ج17، ص . 558.

(5796/1)

---

1 – يبدو لي – و"لله أعلم – أن ابن رشد قد أ لف "بداية المجتهد)، وهو في منصب القضاء وفي قمة الشباب ومجتمع العقل . ولهذا تكرر في ثنايا الكتاب : "قال القاضي رضي الله عنه ، أو "قال القاضي" ولا شك أن هذه من الناسخ للكتاب عنه أو راويه عنه ، ولو كتب ذلك في حده لقيل : "قال القاضي رحمه الله "(46).

وقد وجدت في آخر "كتاب الحج " من الكتاب قوله : "وكان الفراغ منه يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى الذي هو عام أربعة وثمانين وخمسمائة، وهو جزء من كتاب "المجتهد" الذي وصفته منذ أزيد من عشرين عاما أو نحوها.

(5797/1)

والحمد لله رب ا لعالمين" .

وجاء عقب ذلك : "كان بنى الله عنه عزم حين تأليف الكتاب أولا ألا يثبت "كتاب الحج ثم بدا له بعد فأثبته "(47).

ومعنى هذا أنه قد ألف الكتاب نحو سنة 560هـ، وكان قد انقضى على قيام الدولة الموحدية ودخولها الأندلس نحو من عشرين سنة، وكان عمره عند تأليفه ، زهاء أربعين عاما، أي في نصف عمره الأول تقريبا أو مطلع النصف الثاني ، لأنه عمر خمسة وسبعين عاما.

ولم ير إدخال "كتاب الحج أولا فيه لأنه نادرا ما يحتاج إليه القاضي ، ثم بدا له أن يكمل أبواب الفقه كلها فأكمل به الكتاب في التاريخ

(5798/1)

المذكور. و – في المناخ الفكري الاجتهادي من الأصول القران والسنة، والدعوة إلى الفتوى المستقلة والاستنباط المتحرر، يصعب على قارئ "بداية المجتهد،) من أوله إلى آخره أن يجد في ثناياه آراء طريفة أو استنباطات مبتكرة أو أحكاما مستقلة قائمة تنسب لابن رشد، بل كل ما يجده القارئ المتأمل جزئيات قليلة، أو

ترجيحات بين المذاهب مثل قوله في الماء المتغير : "والحق أن الاختلاط يختلف بالكثرة والقلة. فقد

(46) انظر على سبيل المثال : ج1، ص .87 ج2، ص . 371 ج 3، ص . 190 ج 7، ص .398، 451ج8 ص199،255،532، 676.

(5799/1)

---

(47) انظر : البداية، ج 5، ص .487.

يبلغ من الكثرة إلى حد لا يتناوله اسم الماء المطلق ، مثل ما يقال : ماء الغسل ، وقد لا يبلغ إلى ذلك الحد، وبخاصة متى تغيرت منه الريح فقط ،)، إلخ (48).

ومثل حديثه عن تقسيم الحنفية النجاسة إلى مخففة ومغلظة، فعقب بقوله : "وتقسيمهم إياها إلى مغلظة ومخففة حسن جدا"49.

وقوله في الحيضة المتقطعة : "والحق أن دم الحيض ودم النفاس يجري ثم ينقطع يوما أو يومين ثم يعود حتى تنقضي أيام الحيض أو أيام النفاس ، كما تجري ساعة أو ساعتين من النهار ثم تنقطع "(50). وهذه ، وأمثالها لا

(5800/1)

تكون مذهبا اجتهاديا أو اراء فقهية .ننسب إليه كالتى نسبت لابن حزم . إذا فماذا كان عمل ابن رشد في كتابه ؟

3 – لقد كانت الدعوة إلى الاجتهاد والتحرر من المذهب المالكي إبان تأليف "بداية المجتهد" في فورتها ودعوى الاجتهاد شيء خطير لا

يحسنه إلا قمم العلماء، والصفوة النبهاء، عبر العصور. فأراد ابن رشد – في تقديري ، والله أعلم – أن يواجه هذه الدعوى الخطيرة بعمل علمي رصين يثبت فيه أن اجتهاد الأئمة كانت له مسالكه وضوابطه ، وقواعده وأصوله ؟ فمن لمن يحسن ذلك ويتقنه ، فلن يتأتى له أسباب فهم الاختلاف الذي حصل

(5801/1)

بين السلف الصالح وأئمة الاجتهاد من بعدهم . ومن أراد أن ينافسهم ويجتهد مثلهم ، فلتكن له أصوله وقو"عده الواضحة في ذلك مثل أولئك الأعلام . فوضع هذا الكتاب اليتيم الفذ في مؤلفات ابن رشد، بل وفي المكتبة الإسلامية عامة ليكون رداءا وجنة في وجه هذه الدعوى الخطيرة، وسماه "بداية المجتهد"، أي أن من بدايات الاجتهاد معرفة القواعد الأصولية، وأسباب الاختلاف بين الفقهاء، ثم ص حرفة مذاهب السلف الماضين في الأحكام التشربعية كلها بدءا من الطهارة ومسائلها، وانتهاء بالقضاء وشؤونه. وقدم له بمقدمة موجزة، ذكر فجها الطرق

(5802/1)

التي تتلقى منها الأحكام الشرعية، وأصناف الأحكام الشرعية، والأسباب التي الاختلاف ، بعبارة سهلة دقيقة، وإشارة لطيفة رقيقة، أشبه ما تكون بمفاتيح بين يدي المتفقهين المتمكنين ليكونوا في نظرهم إلى اختلاف الأئمة الماضين ، وتنازعهم في

(48) انظر : بداية المجتهد، ج 1، ص 272.

(48) انظر : بداية المجتهد، ج 2، ص 196

(48) انظر : بداية المجتهد، ج 2، ص 43.

المسألة الواحدة مذاهب شتى، من المنصفين الذين يلتمسون لهم العذر، ويدركون مرامي كلامهم ، وقوة أو ض حف حججهم .

(5803/1)

واستخدم في ذلك عقليته الأصولية، وقدرته التخيلية الفلسفية ليجمع أطراف الباب الواحد ويقسمه أقساما متتابعة تحيط به ، لا يشذ عنها شيء، ولا تختلط المسائل ببعضها.

وكان أول ما يبدأ به مسائل الإجماع والاتفاق ، لأن الإجماع – كما هو معلوم – أقوى الأدلة. ثم يبين مواطن الخلاف ويتقصى مذاهب الأئمة الثلاثة . مالك ، والشافعي ، وأبي حنيفة، ويذكر أحمد بن حنبل ، والليث بن سعد، والثوري ، والأوزاعي، وقبلهم مذاهب الصحابة والتابعين إن كان لهم ذكر في المسألة ويصل إلى أبي ثور، والطبري ، وداود الظاهري وأتباعه . والأمر

(5804/1)

المطرد عنده هو ذكر أدلة الأئمة وتوجيههم للنصوص التي أخذوا بها أو خالفوها. ولما كان زمانه زمان البحث عن السنة ونصوص الحديث ، فقد أكثر من ذلك إكثارا واضحا فجاء في كتابه نحو من ألف وخمسمائة حديث ، ولم يتسن لي حتى الآن عدها بدقة، ولكنها

تزيد على هذا العدد بكل تأكيد، إذ فيه بالمكرر ألف وسبعمائة وتسعة وتسعون حديثا حسب تخريجه في "الهداية)، للحافظ الشيخ أحمد ابن الصديق الغماري . وعندما يسوق أدلة كل إمام ووجهة نظره ، يبين كخلاصة أسباب اختلاف الأئمة في المسألة . فمثلا في سؤر المشرك والحمار والحيوان يقول

(5805/1)

بعد أن ذكر المذاهب في ذلك : "وسبب اختلافهم في ذلك هو ثلاثة أشياء : أحدها معارضة القياس لظاهر الكتاب والثاني معارضته لظاهر الآثار والثالث ومعارضة الآثار بعضها بعضا في ذلك "(51). وبدأ يفصل هذه الأسباب تفصيلا منهجيا دقيقا مقنعات حاً، إلى أن قال : "فهذه هي الأسباب التي حركت الفقهاء إلى هذا الاختلاف الكثير في هذه المسألة، وقادتهم إلى الافتراق فيها، والمسألة اجتهادية محضة)(52).

(51) انظر : بداية المجتهد ، ج 1، ص .274،275.

(52) انظر : بداية المجتهد، ج 1، ص .290.

(5806/1)

وقد أكثر بوضوح من بيان اختلاف الأئمة بسبب الآثار والنصوص الحديثة، إما تصحيحا وتضعيفا، وإما تعارضا واختلافا، وإما تفسيرا وتأويلا، وإما نسخا. ففي كل باب تقريبا يواجهك بمثل قوله . "وأصل اختلافهم في هذه المسألة اختلافهم في الآثار الواردة في

ذلك (53). وكأنه يقيم الدليل على فساد دعوى الاجتهاد المباشر من السنة والكتاب دون مراعاة المسالك الدقيقة والآراء العميقة للأئمة حين اجتهدوا. فليس كل حديث صح يجوز الاستنباط منه ، وليس كل حديث ضعيف يحرم الاستدلال به . .. وكان كتاب "بداية المجهد،) في هذا المعنى، أي

(5807/1)

توجيه الأحاديث والآثار، وبيان مدارك الأئمة المتقدمين فريدا في بابه يذكرنا بالأوائل الكبار كالشافعي في كتابه "الأم ،)، والطحاوي في "شرح معاني الآثار،،، والبيهقي في "السنن الكبرى" وغيرهم . وقد اقتدى ابن رشد في ذلك ببلديه وحامل راية السنة في الغرب الإسلامي وفقهها ابن عبد البر القرطبي المتوفى 463ه كما سيأتي مع تأصيل وتعقيد.

وكان للدلالات اللغوية من عمله نصيب غير قليل في بيان أسباب الاختلاف ، كما في قوله : "وسبب اختلافهم في هذه المسألة اشتراك اسم اللمس في كلام العرب . فإن العرب تطلقه مرة على اللمس

(5808/1)

الذي هو باليد، ومرة تكنى به عن الجماع ، فذهب قوم إلى أن اللمس الموجب للطهارة في اية الوضوء هو الجماع في قوله تعالى : أو لامستم النساء*، وذهب آخرون إلى أنه اللمس باليد. . ."(54). ومن ذلك قوله في بيان وقت العشاء : "وسبب اختلافهم في هذه المسألة اشتراك اسم الشفق في لسان العرب . فإنه كما أن الفجر في

لسانهم فجران ، كذلك الشفق شفقان أحمر وأبيض .. .،)(54).

(53) انظر على سبيل المثال : ج 1، ص . 331، 381،454 ،وج 2 ، ص . 288، 310، 322،352، 372،388 ج5، ص .176،317، 325 ،وج 6، ص . ،282، 328، ،وج 7 ص . 285،

(5809/1)

وغيرها كثير.

(54) أنظر : البداية، ج 1، ص . ،340.

(55) انظر : البداية، ج2 ، ص . 285.

وقد أكد في مقدمته الموجزة أن للغة أثرا كبيرا في أسباب الاختلاف من حيث تردد اللفظ بين العموم والخصوص ، أو يكون له دليل خطاب أو لا يكون ، أو أن يكون مشتركا كما أن الاختلاف في دلالة لفظ الأمر والنهي على أي شيء تحمل، وكذلك تردد اللفظ بين الحقيقة والمجاز، والاختلاف في إعراب اللفظ ، وإطلاقه تارة وتقييده أخرى. كل هذا كان له أبلغ الأثر في استنباط الأحكام وقد كشف عنه في اجتهادات الأئمة أحسن كشف ، وطبقه أتم تطبيق .

(5810/1)

وكذلك كان للقواعد الأصولية التي التزمها كل إمام نصيب وافر في بيان مدارك الأئمة، وأعطى للقياس ومسائله حيزا غير قليل مما يصلح به هذا الكتاب أن يكون أنموذجا في بيان استعمال القياس

وكيفية تطبيقه على الفروع الفقهية.

وكان في عمله هذا وذاك، وهو يبين مذاهب الأئمة، يكشف عن مدى ارتباطها بأصولها أو ابتعادها عنها، وذلك في أمهات المسائل التي تستند إلى الأدلة الشرعية المعتبرة : الكتاب والسنة والإجماع والقياس . وقد نص على ذلك بقوله : "وفي هذا الباب مسائل كثيرة، أعني في اختلافهم في الصفات المشترطة في الإمام

(5811/1)

تركنا ذكرها لكونها مسكوتا عنها في الشرع . قال القاضي : وقصدنا في هذا الكتاب إنما هو ذكر المسائل المسموعة، .أو ما له تعلق قريب بالمسموع "(56). 4. – بعمد هذه الإشارة إلى منهج ابن رشد في بيان مدارك الأئمة الفقهاء الكبار أصحاب المذاهب المتبوعة خاصة، ومن سبقهم من السلف الصالح ، وجاء بعدهم من الأعلام ، نتساءل : ما موقع المذهب المالكي في عمل ابن رشد هذا، وما موقفه من هذا المذهب إذا تذكرنا ما تناقله المؤرخون من شدة إقصاء المؤرخين له ، وعيبهم على فقهائه إغراقهم في الفروع ، واضطرابهم في الأقوال ، أو كما

(5812/1)

وصف القاضي أبو بكر بن العربي فقهاء المغرب والأندلس في عصره بقوله : "أقواهم لا نظر لهم إلا المسائل ، فإذا طالبهم بالدليل كاعوا"(57). ويقول : "فكلما جاء أحد من المشرق بعلم ، دفعوا في صدره ، وحقروا من أمره ، إلا أن يستتر عندهم بالمالكية، ويجعل ما

(56) انظر : البداية، ج 1 ، ص . 190 .

(57) انظر : العواصم من القواصم ، ج2 ، ص .337. وكاعوا : أي جبنوا.

عنده من علوم على رسم التبعية . .. ثم حدثت حوادث لم يلقوها في منصوص المالكية فنظروا فيها بغير عالم ، فتاهوا، وجعل الخلف منهم يتبع في ذلك السلف ، حتى آلت

(5813/1)

الحال ألا ينظر إلى قول مالك ، وكبراء أصحابه ، ويقال : قد قال في هذه المسألة أهل قرطبة، وأهل طلمنكة، وأهل طلبيرة، وأهل طليطلة فانتقلوا من المدينة وفقهائها إلى طلبيرة وطريقها، وحدثت قاصمة أخرى ف حلم العلم ، فصار الصبي عندهم إذا عقل ، فإن سلكوا به أمثل طريقة علموه كتاب الله ، فإذا حذقه نقلوه إلى الأدب ، فإذا نهض فيه حفظوه "لموطأ"، فإذا لقنه نقلوه إلى "المدونة" ثم ينقلونه إلى "وثائق " ابن العطار، ثم يختمون له ب "أ حكام " ابن سهل ، فقال : قال فلان الطليطلى وفلان المجريطس ، وابن مغيث – لا أغاث الله

(5814/1)

نداءه ، ولا أناله رجاءه – فيرجع القهقرى أبدا إلى وراء. على أمه الهاوية"(58).

وإن الدارس لكتاب "بداية المجتهد"، يشعر بأن ابن رشد أراد أن

يرش المذهب المالكي الذي وصلت حاله إلى ما تقدم بماء الحياة، ويرتقي به من جديد إلى مستوى المذاهب الثلاثة الأخرى . الشافعي والحنبلي والمالكي بل والظاهري . وكان لهذه المذاهب مدارسها التي تنافح عنها وتناظر بالأدلة والبراهين عليها، عامرة بعلمائها وأعلامها مما كان يبر الواردين عليها من المغرب وافي ندلس فيصدرون عنها ويعودون إلى الغرب فيصطدمون بما صوره وذكره ابن العربي

(5815/1)

فتحصل المفارقات والغرائب . ومن المعجبين بتلك العاهد والديار المهدي بن تومرت ، فرش المذهب المالكي بماء جديد، ونفض الكثير عنه من غبار طليطلة وطلبيرة، وأزاح عن صدره هذا الكابوس الثقيل بذكر مسائله بالدليل الواضح من النص الصريح ، أو بالإشارة والاستنباط المقبول المليح .

لقد جهد ابن رشد في هذا الكتاب في نصرة المذهب المالكي تجاه المذاهب الأخرى، وبيان أصوله المتينة، وقواعده الثابتة الرصينة، فكان على الأعم الأغلب ما يصدر به الأقوال ويسوق له حججه وأدلته في معرض الحجاج والاستدلال ، وكثيرا ما يقول : والحجة

(5816/1)

لمذهب مالك (59). وإذا ظهر له في مسألة ما أن استدلال المالكية

(58) انظر . العواصم من القواصم ، ج2 ، ص . 489،494 .

(59) انظر على سبيل المثال : ج 5، ص .309، 311 ج8،ص 59.130 ج2

، ص . 306 وج 7،ص 166.

ضعيف ، تلطف غاية التطلف في بيان ضعفها كقوله في مواطن عديدة : "ولعل مالكا لم تصح عنده هذه الآثار"(60).
وقد اكثر ابن رشد من آراء تلامذة مالك ، وخاصة ابن القاسم الذي كان لفكره الذي أودعه في "المدونة،) تأثير كبير في المغرب والأندلس ، وأشهب بن عبد العزيز، وعبد الله بن وهب ، وأبي مصعب الزهري ، وعبد العزيز بن

(5817/1)

أبى سلمة، وابن نافع ، ومطرف ، وابن كنانة، وابن الماجشون ، وأصبغ بن الفرج ، وسحنون بن سعيد، وابن عبد الحكم ، شعبان المصري ، ثم يصل إلى فقهاء الأندلس الكبار كعبد الملك ابن حبيب ، ومحمد بن المواز، وأبي الحسن اللخمي وابن لبابة، فيبرز اجتهاداتهم واختياراتهم ، ويذكر مصادرها ني كتبهم . قد ذكر "المدونة" التي أراد الموحدون إخماد ذكرها كما قيل ، وذكر "العتبية،) التي شرحها جده في "البيان والتحصيل " و"الواضحة،، لعبد الملك بن حبيب (61). وكان ينص على المشهور من غير المشهور(62) ي المذهب المالكي واختيارات

(5818/1)

المالكية في مدارسهم المتعددة، المدنيين والبغداديين ج وذكر اختيارات ألمع أئمة المالكية البغداديين ابن القصار، وابن الجلاب ،

والقاضي عبد الوهاب (63) ولم يدخر وسعا في ذكر علماء المالكية وآرائهم في المسائل التي تحتمل النظر وتقبل تعدد الاجتهاد دون أن يذكر من أتباع المذاهب الأخرى إلا الطبقة الأولى منهم على قلة وندرة. وقد وصل في تقوية المذهب المالكي ودعمه إلى أن وصل إلى اختيارات جده فقواها، واعتمد عليها في عدد من المواطن ونص على مصدره فيها "المقدمات الممهدات " وهو من أمهات كتب المذهب المعتمدة(64). وإن

(5819/1)

بث آراء هؤلاء العلماء وتقويتها أو ذكرها مع علماء الاجتهاد الكبار، وتنبيه لها دون خوف ، ولو كانت الدولة لا ترى هذا الاتجاه ، أو على الأقل لا ترغب

(60) وانظر على سبيل المثال : ج 6، ص . 168.

(61) انظر : بداية المجتهد ، ج 8، ص .82،176.

(62) انظر : م 6، ص .180،182 . وقد اكثر من ذلك، ويقول في ج 6، ص. 300 : "وعلى هذا القول عول جمهور أصحابه وهو المنصور عندهم ".

(63) انظر على سبيل المثال : ج 3،ص191 ج5، ص . 275 ج6، ص .180.ج7 ص478.

(64) انظر : ج1 ، ص .291 . ج7 ص .502 ج8 ، ص .623 .

(5820/1)

فيه ولا تعمل على تأييده ونشره . وإني قد وجدت ابن رشد في "كتاب الحج " وصنفه بعد عشرين سنة من تأليف كتابه ، أي إبان فترة حكم يعقوب المنصور وكان أكثر آل عبد المومن تشددا تجاه المالكية كما نقل عنه – وجدته كسائر الكتاب ، يذكر أصحاب مالك : ابن القاسم (65) وأشهب (66)، وابن الماجشون (67)، وابن نافع (68)، وعبد الملك (69)، وابن حبيب (70)، وابن المواز(71) وذكر أصحاب مالك على التعميم ثلاث مرات (72) وأصحابه البغداديين مرة واحدة(73). بل إنه ينص بعبارة رشيقة على تشبعه بالمذهب المالكي بقوله : "ولا أعلم في هذا

(5821/1)

خلافا في المذهب "(74).

هذا وغيره يعطي الحق إلى حد كبير لمن يصنف كتاب ابن رشد من أمهات كتب المالكية، كما نصنف "المجموع " شرح "المهذب " للإمام النووي من أمهات كتب الشافعية، وكتاب (،فتح القدير" للكمال ابن الهمام من أمهات الكتب الحنفية، و"المغني" ، لابن قدامة المقدس من أمهات كتب الحنابلة. وبهذا يمكننا القول إن ابن رشد كان مدافعا صلبا عن المذهب المالكي في فترة حرجة من فترات تطوره واستمراره في الغرب الإسلامي ، وفيا لأسلافه في خدمة هذا المذهب ورئاسته. ولنا هنا أن نتساءل : هل كان هذا من ابن رشد معارضة

(5822/1)

للدولة الموحدية التي كانت تقدره وتكبره ، وتخطئة لها في نهجا وتوجهها ؟ أو كان وفاء للدولة المرابطية التي كانت في حرف حق بيته وسلفه ، ولقوم على رعاية المذهب المالكي وفقهائه ؟ أو إخلاصا للحق الذي رآه في المذهب المالكي نفسه عندما قايسه بغيره من المذاهب ، وإن كان لم يصرح بشيء من هذا حسب ما أذكر في بدايته ؟!

(65) انظر . ج 5 ، ص362 .

(66) انظر . ج 5 ، ص362 - 433

(67) انظر . ج 5 ، ص336

(68) انظر . ج 5 ، ص393.

(69) انظر . ج 5 ، ص430-461.

(70) انظر . ج 5 ، ص485.

(71) انظر . ج 5 ، ص 346.

(5823/1)

---

(72) انظر . ج 5 ، ص296-275-336.

(73) انظر . ج 5 ، ص275.

(74) انظر . ج 6 ، ص284.

وهنا نتساءل : هل كانت الدولة الموحدية متسامحة إلى هذه الدرجة مع الفكر والمفكرين حتى ولو كانوا ممن يعارضون عقيدتها الرسمية، ومذهبها السائد، وتكون بهذا التسامح قد فسحت مجال القول للمفكرين والعلماء، وأقامت سوق الدرس والمناظرة بحضرة

الخلفاء تجديدا لما رث من ناضر عهود العلم وزاهر رياض المعرفة في الغرب الإسلامي، وتنافسا مع معاهدها في المشرق ؟!

(5824/1)

أو أن هذه الآراء كان يخفيها ابن رشد أو يلقيها بتؤدة وتأن ؟ وقد يشعر القارئ بذلك في ثنايا كتابه وفي صدره حيث يقول : "إن غرضي في هذا الكتاب أن أثبت فيه لنفس على جهة التذكرة من مسائل الأحكام المتفق عليها والمختلف فيها بأدلتها. . . "(75). فيشعر القارئ بالاقتصاد في بسط الكلام وإظهار نفسه خلاف سابقيه جده ، أو ابن عبد البر، أو ابن حزم ، أو ابن العربي وغيرهم .

كل هذه الأسئلة ترد وتثور بعدما تقدم عندما نجد أن ابن رشد يحط بكل قواه على الأشعرية، وينافح بكل جهده عن المالكية. وفي ذلك شيء من الغرابة

(5825/1)

والمفارقة، وقبل أن أنهى هذه الومضات عن فكر ابن رشد، أنبه إلى أن ابن رشد قد اعتمد في بدايته بشكل كبير على كتاب "الاستذكار في الشرح الموطأ"، للحافظ ابن عبد البر القرطبي المتوفى 463هـ في نقل مذاهب السلف والعلماء، والتصحيح والتضعيف للأحاديث ، وذكر الإجماعات ومواطن الاتفاق عند المجتهدين (76).

وقد نص في كتابه على بعض ذلك فقد قال في "كتاب الطهارة"، : " وأكثر ما عولت فيما نقلته من نسبة هذه المذاهب إلى أربابها هو كتاب "الاستذكار"، وأنا أبحث لمن وقع من ذلك على وهم لي أن يصلحه "(77).

(5826/1)

وقد أضاف إلى كتابه من مصادر أخرى، وخاصة فيما في حلق بفقه المالكية والأندلسيين منهم ، وذكر مذهب ابن حزم في عدد من المواطن ، كما ذكر تصحيحه

(75) انظر : ج 1، ص79

(76) انظر على سبيل المثال : ج 1، ص 147–344–358 ، ج3 ، ص334–350–370، ج 3 ، ص 205، ج 5 ، ص 158–166–260–338–445–350–381–، ج 6، ص 54–76–148–291 وغيرها

(76) انظر : البداية ج 2، ص 241.

لبعض الأحاديث ومواطن أخطأ فيها(78). ويبدو أنه كان يتكئ على "المحلى بالآثار" في نقل بعض النصوص الحديثية ومذاهب الفقهاء، والأمر يحتاج لتدقيق ومقارنة لما يتسن لي

(5827/1)

بعد.

ونتساءل أخيرا عن موقع ابن رشد في عالم الحديث والسنة مع

توجه الدولة والفكر في زمانه إليه وحنو الناشئة نحوه . ويمكنني القول بإيجاز بأن ابن رشد من خلال هذا الكتاب يظهر أنه / يكن بارعا في عالم الحديث ، إلا أنه لم يكن عاطلا عنه خاملا فيه ، بل كان مقلدا لغيره محيلا ومعتمدا في الغالب آراء وأقوال ونقولا أبي عمر بن عبد البر، ونقول قليلة جدا عن غيره ، كابن صفور(79)، وابن مفوز(80). وقد وقع في كتابه هذا في بعض الأوهام الحديثية.

نهاية محرقة :

(5828/1)

لئن بقيت أسباب نكبة يعقوب المنصور لابن رشد وهجره سرا مطويا في حنايا التاريخ وضمير الغيب ، أفلا يمكن أن تكون قد ساهمت هذه التوجهات العقائدية و"لفكرية والمذهبية التي كانت من أبي الوليد مع الأمور الأخرى التي نسبت إليه ، وهي خلاف التوجه العام لعصره ودولة زمانه ، في المحنة الخانقة، والنهاية المحرقة التي هجر بسببها، وأحرقت كتبه أمام ناظريه ، وسجن وأهين على كبر سنه وعلو قدره وجاهه ؟ وبقي منسيا مهجورا إلى أن لقي وجه ربه سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمراكش، ثم نقل بعمدها – ول حل ذلك بوصية منه – إلى قرطبة

(5829/1)

مسقط رأسه ، ومقبرة سلفه ، وفاء لهذا البيت العتيد. وحبا بهذه المدينة العظيمة، وَرحبيرا عن عدم رضاه بالموحدين وأشياعهم ؟ ! !

(78) انظر : البداية، ج 1، ص 54–56–93–265–352–، ج 5، ص62، ج 6، ص 188،ج 7، ص 122 .

(78) انظر : ج6، ص 188.

(78) انظر : ج 1، ص 436.

(5830/1)

المرأة بين تكريم الإسلام وسلبيات الواقع

... ... الدكتور عباس الجراري

... ... عضو أكاديمية المملكة المغربية

ليس من شك في أن المرأة حظيت باهتمام كبير في المرحلة المعاصرة، نتيجة إدراك دورها الأساسي والحيوي في المجتمع.

وليس من شك كذلك في أن هذا الاهتمام راجع أيضا إلى ما نالته المرأة من حقوق لم تكن تحظى بها من قبل عند كثير من الأمم والشعوب.

وفي هذا السياق، ولأمر لا تخلو من معاداة ورغبة في الكيد، يلاحظ أن غير قليل من خصوم الإسلام – ومعهم عدد من الجاهلين به حتى من

(5831/1)

المنتسبين إليه – يتخذون موضوع المرأة مطية للنيل من الدين الحنيف وشرائعه، منادين بإنصافها وإعطائها حقوقها ومساواتها بالرجل وما يقتضي ذلك من إعادة النظر في المساطر والقوانين.
وإن كل ذي رأي سديد يسعى إلى الصالح العام لا يمكنه إلا أن يحبذ كل محاولة للمراجعة والتصحيح، سواء في هذه القضية أو غيرها، شريطة أن يتم ذلك في نطاق الشريعة بما فيها من ثوابت لا مجال لمسها، ومتغيرات قابلة للتكيف مع الزمان والمكان.

(5832/1)

وإذا كان المجال متسعا للتطوير والتجديد داخل هذه المتغيرات، فإن أي دعوة لمس الثوابت المحكمة بالنصوص تعد مسا بهذه النصوص وما تشكله من عقيدة وشرع. وهو ما يتطلب الكثير من الحيطة والحذر.
ولإدراك حقيقة المرأة في الإسلام، لابد من استحضار النظرة التي كانت سابقة عليه، أو معاصرة له، وحتى لاحقة، عند كثير من المجتمعات، سواء منها العربية أو غيرها، ولا سيما الأوروبية.
فقد كانت بعض قبائل العرب في الجاهلية – كبني تميم – تئد البنات (1) مخافة العار؛ في حين كانت قبائل أخرى – كخزاعة وكنانة –

---

(1) أي تدفنهن حيات.

(5833/1)

تئدهن للاعتقاد بأن الملائكة بنات الله، وبأنه يلزم إلحاق البنات به.

كذلك كانت المرأة تعتبر عند كثير من العرب متاعا يورث كما يورث المال. وبذلك فإنها لا حق لها في الميراث شأنها في ذلك كشأن الصبيان؛ بل لاحق لها حتى في أن تتزوج ما لم يرض وارثها بأن يأخذ مهرها، أو تفدي نفسها بمال تعطيه.

أما في أوربا، فإن المرأة كانت مجرد متاع يمكن التصرف فيه بالبيع والشراء، بل إنها كانت تعد مخلوقا ناقصا لا روح له أو له روح حيوان؛ مما جعلها في هذا المنظور لا ترقى إلى بلوغ الحياة الآخرة. ووصل الأمر إلى حد إلجامها بقفل

(5834/1)

يوضع على فمها حتى لا يسمع لها صوت. وكانت – باعتبارها رجسا – تمنع من قراءة " الكتاب المقدس".

ومن ثم طال الجدل حول إنسانيتها، ووقع الاتفاق على إثبات هذه الإنسانية، على أن تعد من الرقيق، وعلى أن تكون – تبعا لذلك – في خدمة دائمة للرجل. وكذلك استمر وضع المرأة في غير قليل من البلاد الأوروبية حيث كانت محرومة من أدنى حقوق المواطنة.

وحين ظهرت الثورة الصناعية في هذه البلاد، بدأ تشغيل النساء والأطفال بأرخص الأثمان. ثم حدث بعد الحرب العالمية الأولى أن مات نحو عشرة ملايين من الشباب الأوروبي والأمريكي، مما

(5835/1)

خلف نساء دون عائل كن مضطرات إلى العمل. وزادت حاجة المصانع إلى من يشتغل بأقل أجر، ففتحت الأبواب أمام النساء. ومن ثم بدأت المرأة تشعر بضياع حقوقها، وأخذت تطالب بهذه الحقوق. ووصل الأمر في بعض البلاد الراقية – حتى الآن – إلى حد أن المرأة لا تتقاضى أجرا كالرجل، مهما يكن مستوى العمل الذي تؤديه. هذا، في الوقت الذي فتحت لها أبواب التحلل والتفسخ على مصراعيها، لتعود – كما كانت من قبل – مجرد أداة للعبث واللهو، ووسيلة للإغراء والإمتاع.

* ... * ... *

(5836/1)

أمام هذا المنظور المسيء للمرأة ، يحق التساؤل عن موقف الإسلام منها. وإن المتأمل في هذا الموقف لا يلبث أن يجده متجليا في جوانب كثيرة، كلها دالة على التكريم والاهتمام. هذه أهمها :

أولا : خصها بسورتين في القرآن الكريم هما : 1– سورة النساء؛ 2 – سورة مريم . هذا بالإضافة إلى سور أخر تعنى بالمرأة، كسورة النور، المجادلة والممتحنة، والطلاق؛ علما بأن الأحكام المتعلقة بها مبثوثة في سور أخرى كثيرة.

ثانيا : نظر إليها باعتبارها مخلوقا كالرجل لا يفضل أحدهما الآخر إلا بالتقوى؛ منهما تتكون الأسرة التي هي الخلية

(5837/1)

الأولى للمجتمع، ودونها لا إمكان لإيجاد هذه الخلية. يقول تعالى : { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم} (1) . وبذلك أدان الإسلام وأد البنات. يقول عز وجل : { وإذا بشر أحدكم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون} (2) .

كما حرم اعتبارها متاعا تورق أو تمنع من الزواج. يقول سبحانه : { يا أيها الذين آمنوا لا يحل

---

(1) سورة الحجرات، الآية 13.

(2) سورة النحل، الآيتان 58 – 59.

(5838/1)

لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن} (1) .

ثالثا : جعل علاقة الرجل والمرأة في إطار حميمي عبر عنه الحق سبحانه بالسكون المرتبط بالمودة والرحمة، وما ينشأ عنهما من حب وعطف وحنو:{ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} (2) .كما عبر عنه باللباس الذي يحمي ويستر : { هن لباس لكم وأنتم لباس لهن} (3)

---

(1) سورة النساء ، الآية 19.

(2) سورة الروم، الآية 21.

(3) سورة الروم، الآية 21.

(5839/1)

رابعا : أقام هذه العلاقة على أساس الزواج، في نطاق مفهوم صحيح، قننه بأحكام دقيقة راعى فيها عوامل إنسانية واجتماعية كثيرة، تخلص في اعتباره عهدا بين الزوجين، وميثاقا وصفه الله بأنه غليظ : { وأخذن منكم ميثاقا غليظا} (1) . وهو ميثاق قائم على التساوي والتكافؤ بين الطرفين، وكذا على الرضى والقبول اللذين بهما تهدأ النفس وتطمئن وتسكن، ويزول طمعها ويذهب ما قد يساورها من وساوس. يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح

---

(1) سورة النساء، الآية 21. ومعنى "غليظ" أنه كبير وملزم.

(5840/1)

البكر حتى تستأذن". قالوا : "يارسول الله وكيف إذنها ؟ ". أجاب صلوات الله وسلامه عليه : " أن تسكت" (1) . وذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها للرسول الكريم : " إن البكر تستأمر فتستحيي فتسكت". فقال لها : "سكاتها إذنها" (2) .وحتى تتحقق هذه العلاقة على نحو متين ودائم، دعا الإسلام الرجل أن يتخير المرأة الصالحة وفق توجيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم –. إذ يقول : "تنكح

---

(1) أخرجه البخاري عن أبي هريرة، والاستئمار أن يطلب رأيها وتستشار.

(2) رواه البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والنسائي والدارمي عن أبي هريرة

(5841/1)

المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك" (1) . ويقول كذلك : " لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تتزوجوهن لمالهن فعسى أموالهن أن تطغينهن، ولكن تزوجوهن على الدين، ولأمة سوداء ذات دين أفضل" (2) .

إن تفضيل الإسلام لذات الدين يعني أمورا كثيرة، منها أن الرجل لن يتزوج المرأة طمعا في مالها أو جاهها، ولا تعلقا بجمال عارض قد يزول ذات يوم، والحياة الزوجية عمر ممتد. وحتى إذا لم

---

(1) أخرجه البخاري والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة.

(2) رواه ابن ماجة عن ابن عمر.

(5842/1)

يزل، وهو لابد زائل مع الأيام، فإنه يصبح عند الرجل أمرا عاديا يألفه. ويعني كذلك أن الهدف من الزواج هو إقامة أسرة تؤسس على الفضيلة. ولهذا ألح رسول الله

– صلى الله عليه وسلم – على عنصر الدين للزوج كذلك، كما في

قوله : " إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير" (1) . وكررها ثلاث مرات.

إن التركيز على عنصر الدين في الزواج هو الذي يجعل من العلاقة الزوجية رباطا مقدسا قائما على الاقتناع وعلى القناعة أيضا. وهي كلها عوامل يتسنى

---

(1) أخرجه الترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة.

(5843/1)

بها الدوام والاستمرار.

وفي إطار هذا الميثاق دعا الإسلام إلى المعاملة الطيبة القائمة على المعروف، كما أحل الطلاق عندما تتعذر العشرة الحسنة. يقول تعالى : { فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف} (1) . وفي هذا الطلاق – وعلى عكس ما يروج بعض المغرضين – يكمن جانب من حرية المرأة وكرامتها قبل ذلك؛ إذ هو من المنظور الإسلامي حل لمشكل، ولا يكون اللجوء إليه إلا حين لا يبقى أي حل آخر. ولهذا يقول رسول الله على – صلى الله عليه وسلم- : " أبغض الحلال إلى الله الطلاق" (2)

---

(1) سورة البقرة، الآية 231.

(2) رواه أبو داود والبيهقي والحاكم عن ابن عمر.

(5844/1)

. وقد جعل له الإسلام قوانين وأحكاما تضبطه.

خامسا : سوى بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات. يقول عليه الصلاة والسلام : "إنما النساء شقائق الرجال " (1) . وفي هذا الصدد الضابط للمساواة يقول عز وجل : { ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة } (2) . وقد شكلت هذه الدرجة التي هي في الحقيقة درجة تكليف لا تشريف، والتي أسيء فهمها عند كثيرين، ذريعة للطعن في هذه المساواة؛ في حين شرحها القرآن

---

(1) رواه ابن حنبل وأبو داود والترمذي والدارمي عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

(2) سورة البقرة، الآية 228.

(5845/1)

الكريم في هذه الآية : { الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم} (1). وهي تحدد أمرين يوضحان حقيقة التفضيل والقوامة :

1- مرد التفضيل إلى الطبيعة التكوينية للمرأة وما تتعرض له كل شهر، ثم ما تعانيه عند الحمل والوضع والإرضاع والتربية، وما إلى ذلك مما اعتبر في آيات كثيرة كرها، على نحو قوله عز وجل : { حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا} (2) . ويكفي لإبراز هذه الحقيقة أن أحد كبار الأطباء قال في ندوة

---

(1) سورة النساء، الآية 34.

(2) سورة الأحقاف، الآية 15.

(5846/1)

علمية حضرتها، إن ربانة الطائرة لا يسمح لها بالقيادة أثناء عدتها الشهرية، بسبب ما يتعرض له جسمها ومزاجها من اضطراب.

ولعل هنا يكمن تفسير الحديث الشريف الذي كثيرا ما يردد في هذا السياق بأن النساء "ناقصات عقل دين" (1) .

وليس يخفى أن المرأة بحكم تكوينها أكثر عاطفة من الرجل، وأميل إلى إعمال الحدس، بالإضافة إلى أنها أثناء ما تتعرض له كل شهر معفاة من الفروض الدينية كما هو معروف. وهو ما يستفاد من بقية الحديث : "قلن : "وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله

(1) أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري، كما رواه غيره.

(5847/1)

؟ " . قال : "أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ؟". قلن : "بلى" . قال : "فذلك من نقصان عقلها. أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ "؟ قلن : "بلى". قال : "فذلك من نقصان دينها " (1)

(1) يأخذ الحديث الشريف اتجاها آخر، إذ أعطيت كلمة "العقل" معنى الدية، إذ كانت العادة أن يوتى بالإبل التي تعطى في الدية فتعقل – أي تربط– بفناء ولي المقتول. ثم أصبحت الدية بعد ذلك تقدم بالذهب والفضة. ومعروف في الفقه أن دية المرأة في النفس النصف، بالقياس إلى دية الرجل باتفاق. أما غير النفس – كالجراح والأعضاء – ، ففي المذاهب اختلاف تكفي فيه الإشارة إلى أن مالكا يرى ما يراه فقهاء المدينة من أن ديتها تساوي دية الرجل حتى تبلغ ثلث الدية الكاملة؛ فإذا زادت عليه، رجعت إلى نصف دية

الرجل. وواضح أن مسألة الدية تنسجم مع قسمة الميراث وارتباطها بالقوامة التي سيتناولها العرض بعد.

(5848/1)

. على أن الإسلام خول للمرأة – بحكم وضعها التكويني – موقعا متفردا لا يبلغه الرجل، إذ هي بعد الحمل والوضع تمارس الأمومة التي تبوئها مكانة متميزة عبر عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين جاءه رجل، فقال : "يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ ". فأجابه : "أمك". وسأل الرجل مرة : أخرى "ثم من ؟". فرد صلوات الله وسلامه عليه : "أمك". ثم استفسر الرجل ثالثة، فكان الرد النبوي الكريم كذلك : "أمك". وحين سأل الرجل بعد ذلك، قال الرسولالأعظم : "أبوك" (1) .و جاء جاهمة

---

(1) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

(5849/1)

السلمي إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – وقال : "يارسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك". فسأله النبي – صلى الله عليه وسلم – : "هل لك من أم؟" . قال : "نعم". فكان جواب النبي الكريم : "فالزمها، فإن الجنة تحت رجليها" (1) . ومعروف قوله عليه الصلاة والسلام : "الجنة تحت أقدام الأمهات" (2) .

---

(1) أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجة والحاكم من حديث جاهمة.

(2) رواه الخطيب في " جامعه" ه والقاضي في " مسند" عن أنس مرفوعا.

(5850/1)

2- سبب القوامة راجع إلى أن الرجل مطالب في الإسلام بحمل أعباء الأسرة والنهوض بجميع التكاليف والنفقات، حتى ولو كانت الزوجة ذات مال. وخلف هذه المسؤولية الشرعية يكمن السر في أن { الذكر مثل حظ الأنثيين} (1) عند قسمة الميراث. ومع ذلك، فإن ما يحدث اليوم في كثير من الأسر التي تساعد فيها الزوجة زوجها في الإنفاق شيء محمود ولا شك أن المرأة في هذا الوضع تكون لها أموالها وممتلكاتها تتصرف فيها كما تشاء. وقد تكون شريكة لزوجها فيما يملكه، وهو أمر معروف كذلك وشائع. وتجدر الإشارة إلى أنه

---

(1) سورة النساء، الآية 11.

(5851/1)

في إطار مسؤولية الزوج وإلزام الإسلام له بالإنفاق، لا يحق له أن يدفع الزكاة أو أي صدقة لزوجته. ولو دفعها، لكان كمن يدفعها لنفسه. في حين أن الزوجة إذا كانت ذات مال وكان زوجها فقيرا، فإنها تعطيه. فقد جاءت زينب امرأة عبد الله بن مسعود - ومعها امرأة أخرى - إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -
وسألناه : "أتجزئ الصدقة عنهما إلى أزواجهما ؟ ". فأجابهما صلوات

الله وسلامه عليه : "لهما أجران : أجر القرابة وأجر الصدقة " (1) .

---

(1) رواه البخاري ومسلم عن زينب.

(5852/1)

بهذا وغيره مما يتسع المجال لعرضه، يتضح أن الدرجة التي خص الله بها الرجل لا تمس وضع المرأة، وهو وضع يزينه التكريم الذي أمر به النبي الكريم في أكثر من حديث، كقوله – صلى الله عليه وسلم –

"استوصوا بالنساء خيرا" (1) ؛ وقوله كذلك : " لا يفرك مومن مومنة، إن كره منها خلقا رضي منها آخر" (2) .

من خلال هذه الجوانب الخمسة تبرز المبادئ الكبرى التي جاء بها الإسلام لإعطاء المرأة حقوقها الإنسانية، وإحلالها المكانة اللائقة بها.

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة.

(2) رواه مسلم عن أبي هريرة، لا يفرك : لا يبغض.

(5853/1)

وبذلك أتاح لها أن تتحمل رسالتها في الأسرة وأن تنهض بدورها في المجتمع :

أولا : تتحمل رسالتها في الأسرة، باعتبارها أما تحمل وتضع وترضع وتربي، وتكون الأجيال الصالحة إذا صلح أمرها، وتنشئ الأجيال الفاسدة إذا فسدت حالها، كما هو معروف.

ثانيا : تنهض بدور فعال في المجتمع بطريق مباشر يتمثل في ممارستها مختلف الأعمال التي يقوم بها الرجل.

والدليل على ذلك أن المرأة في الإسلام اضطلعت بمسؤوليات عديدة، في تدبير التجارة وفي مجال الجهاد، وفي شتى ميادين العلم والحياة، بدءا من عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – ،

(5854/1)

بما فيها ميدان السياسة التي يمثلها تقديم البيعة وفق ما سيأتي بعد. ويكفي أن نذكر أسماء بعض أمهات المومنين، كالسيدة خديجة رضي الله عنها في شؤون المال والتجارة، والسيدة عائشة رضي الله عنها في العلم ورواية الحديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ؛ إضافة إلى أنها كانت على رأس الجيش في حرب الجمل. واللائحة بعدهما طويلة قبل أن نصل إلى ما بلغته المرأة المسلمة في العهد الحاضر. وإن ما نشاهده في المغرب المعاصر وغيره من المجتمعات الإسلامية من اقتحام المرأة لمختلف ميادين العلم والعمل، لكاف للإقناع بمدى ما

(5855/1)

تتمتع به من حقوق وما تؤديه من واجبات.

هنا قد يأتي من يعترض محتجا بالحديث الشريف الذي يقول فيه النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه : " ما أفلح قوم يلي أمرهم امرأة". ومن غير أن ندخل في تفاصيل لا يتسع لها مجال هذا العرض، نكتفي بالقول بأن هذا حديث قال الفقهاء إن المقصود منه الولاية

الكبرى – أي الخلافة – وإن اعتمد عليه الشافعية فلم يجيزوا تولية المرأة القضاء (1)

---

(1) وهو غير ما هو معمول به في المغرب، بدليل تولية كثير من القاضيات مشهود لهن بالعدل والنزاهة. علما بأن الطبري أجاز تولية المرأة بإطلاق، وأن أبا حنيفة حصر هذا الجواز في قضاء الأموال، في حين يتجه الجمهور إلى اعتبار الذكورة شرطا في الحكم. هذا، وقد قاس الفقهاء على الإمامة الكبرى

(5856/1)

. والحقيقة أن المقصود منه يتضح من السياق الذي ورد فيه، الذي يربطه بما آلت إليه دولة الفرس حين تقوض أمرها، وغدت قيادتها إرثا لامرأة لا قبل لها بالحكم. إذ قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (1) : " من يلي أمر فارس؟ ". قالوا : "امرأة" قال : " ما أفلح قوم يلي أمرهم امرأة". ولو كان الإسلام رافضا تولية المرأة بإطلاق، لما جاء القرآن الكريم متحدثا عن بلقيس ملكة سبأ وما كان لها مع سليمان عليه السلام ومع قومها الذين وجهتهم بحكمة

---

(1) رواه أحمد في "مسنده" عن أبي بكرة؛ وكذلك رواه البخاري والترمذي والنسائي.

(5857/1)

وذكاء وسداد إلى الإيمان بالله.

وفي مجال الحياة العامة، تعرض القرآن الكريم لبعض النساء اللائي

كان لهن رأي وشخصية ودور، على نحو حديثه عن امرأة نوح وامرأة لوط اللتين كانتا على رأي مخالف لزوجيهما. إذ يقول سبحانه : { ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين} (1) ؛ في وقت تحدث عن امرأة فرعون التي كانت على عكس زوجها مؤمنة، فقال عز من قائل : { وضرب الله مثلا للذين آمنوا

(1) سورة التحريم، الآية 10.

امرأة فرعون إذ قالت رب ابن عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين} (1) .

* ... * ... *

وعلى الرغم من أن الإسلام بوأ المرأة هذه المكانة المرموقة التي تتمتع فيها بجميع الحقوق التي ما زالت النساء اليوم في بعض المجتمعات المتقدمة يطالبن بها، فإنه يتعرض للهجوم من الذين يبحثون عن أتفه الأسباب لبلبلة الأفكار وإشاعة الاضطراب بافتعال قضايا تثار لإظهار الإسلام
على غير حقيقته الوسطية المعتدلة؛ مما يفسح المجال لتيار الدين ونبذه عند البعض، ولتيار التشدد والغلو

(1) نفسها، الآية 11.

(5859/1)

عند آخرين.

و إن من أبرز هذه القضايا التي لا تدل على غير واقع يضغط بتخلفه الفكري والاجتماعي، ما يروج حول الحجاب الذي ثار الجدل حوله في كثير من البلدان، ولا سيما الأوربية. وهو جدل يقصد منه إلى ربط الإسلام بلباس معين يتخذ ذريعة بعد ذلك للطعن في الدين، باعتباره أداة عرقلة للمرأة، أو مسا بما ينبغي أن يكون لها من حرية. وهذا رأي يجعل المرأة في بعض المجتمعات الإسلامية، تشعر بأن الحجاب مظهر لفكر متحجر، وعائق يمنع من التحرك الذي تتطلبه مقتضيات الحياة الاجتماعية المعاصرة. وهو شعور قد يحسه الرجل وربما

(5860/1)

المجتمع كله. في حين قد تشعر امرأة أخرى في البيئات نفسها، ومعها كذلك رجال آخرون ومجتمع بكامله، أن الحجاب إنما هو عنوان عفة وحياء، ورمز للتمسك بالفضيلة، لا ينقص من المرأة ولا يعوقها عن ممارسة أي عمل.

إن اللباس من حيث هو، سواء أكان خاصا بالمرأة أم كان خاصا بالرجل، إنما هو مظهر حضاري اجتماعي خاضع للزمان والمكان، ومعرض للتغير حسب الظروف والأحوال. فما كان يلبسه الرسول – صلى الله عليه وسلم – والصحابة رضي الله عنهم ليس هو ما لبسه المسلمون على امتداد العصور، فكيف بما نلبسه اليوم ؟

(5861/1)

ويكفي أن نذكر بالتطور الذي عرفه المغاربة خلال نصف القرن الأخير، سواء الرجل منهم أو المرأة. فهي في مدينة الرباط – على سبيل المثال – كانت حتى سنوات الأربعين، ترتدي " الحايك" وتضمه على وجهها فيما كان يعرف ب "التغنبيرة" أو " لعوينة"، إذ لا تبدي غير عين واحدة؛ بالإضافة إلى أن بعض النساء كن يزدن على ذلك "اللثام" الذي كان يعرف كذلك ب "النكاب"، أي النقاب. ثم انتقلت المرأة إلى ارتداء الجلباب مع النقاب. وكان الانتقال في ركاب الوعي الجديد الذي ظهر في المغرب يومئذ، وما صاحبه من نهوض لتعليم الفتيات. وكان لا

(5862/1)

يخلو من صعوبة بسبب موقف الذين يرفضون أن تلبس المرأة الجلباب، متشبهة بالرجال. ولم تلبث بعد ذلك أن تخلت عن هذا الجلباب للباس الجديد. ثم ظهرت العودة إليه عند البعض، وكأنه هو اللباس الصحيح؛ وكان مرفوضا من قبل. ومثل هذا يقال حتى عن الرجال الذين لم يكن لباسهم يختلف عما يرتديه النساء، إذ كانوا – ولا سيما منهم العلماء – يرتدون "القفطان" وفوقه "الفرجية" التي لم تكن تتميز عن "الدفينة" النسوية إلا في نوع قماشها ولونه الذي كان أبيض.

(5863/1)

وتجدر الإشارة إلى أن اللباس الذي يرتديه الجنسان اليوم، والذي يوصف بأنه "رومي" أو " أوربي"، غدا عالميا ومنتشرا في معظم البلدان، ولم يعد بذلك متميزا بصفة معينة أو خاصا بمجتمع محدد. وعلى افتراض أنه "رومي"، فإنه لا ضير منه؛ فقد لبس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "رداء نجرانيا غليظ الحاشية" (1) .

---

(1) كما في الحديث الذي رواه البخاري وابن ماجة وغيرهما عن أنس بن مالك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخادمه.

(5864/1)

ولعلنا هنا نقرأ قول الله تعالى : { قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق} (1) ، وقوله كذلك من قبل : { خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا} (2)، وقول رسوله – صلى الله عليه وسلم – : "كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسراف ولا مخيلة" (3) ،وقول ابن عباس : "كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك اثنتان : سرف أو مخيلة" (4) .

---

(1) سورة الأعراف ، الآية 32.

(2) نفسها ، الآية 31.

(3) رواه أحمد والنسائي عن ابن عمرو بن العاص. والمخيلة هي العجب والكبر.

(4) كما في البخاري.

(5865/1)

وإنه ليتضح من هذه التوجيهات أن الإسلام – في نطاق الحرية الشخصية – يحدد مقاييس تضبط اللباس وما قد يتولد عنه من سلوك يركز عليه القرآن الكريم في قوله عز وجل : { قل للمومنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم. إن الله خبير بما يصنعون. وقل للمومنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أو

(5866/1)

التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، ول
يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن. وتوبوا إلى الله جميعا أيها المومنون لعلكم
تفلحون } (1) .

إن في هاتين الآيتين الكريمتين جملة تنبيهات أساسية، منها :
أولا : أن الأمر موجه للرجال والنساء معا، على عكس ما يتوهم البعض من أنه خاص بالنساء فقط
ثانيا : أنه يحث على غض البصر ، أي خفضه وعدم إرساله وإطالته للتحديق وتتبع ما هو محرم، مما قد يفضي إلى الاستفزاز والإثارة.
وهذا لا يعني عدم النظر،

---

(1) سورة النور، الآيتان 30 – 31.

وكأن المومنين مطالبون بأن تبقى رؤوسهم منحنية لا ينظرون إلا إلى أسفل بدليل قوله تعالى { من أبصارهم}. وهي صيغة تفيد التبعيض، أي بعض الغض. وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لعلي كرم الله وجهه : " لا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى، وليست لك الثانية" (1). ويكفي بخصوص هذه النقطة أن نشير إلى أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أباح للرجل أن ينظر إلى المرأة قبل خطبتها، إذ قال للمغيرة بن شعبة وقد خطب امرأة : "أنظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما" (2)

---

(1) رواه الترمذي عن علي.

(2) أخرجه أبو داود والترمذي عن المغيرة.

. وأتى رجل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – يخبره بأنه خطب امرأة من الأنصار فسأله – صلى الله عليه وسلم – : "أنظرت إليها ؟ ". أجاب : " لا ". قال صلوات الله وسلامه عليه : "فاذهب، فانظر إليها؛ فإن عين الأنصار شيئا" (1)

---

(1) رواه مسلم عن أبي هريرة. والمقصود النظر إلى ما يقع بخطبتها. وقد يصل الأمر – كما عند الأوزاعي وابن حزم – إلى الجسد كله ما عدا السوأتين. وفي الحديث الذي رواه أبو داود عن جابر أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " إذا خطب أحدكم

امرأة؛ فإن استطاع أن ينظر إليها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل.

(5869/1)

.

ثالثا : أن غض البصر يجعل المومنين – والمومنات – ينشغلون بما هو أزكى لهم، أي أطهر وأعف وأنفع – مما هو مفيد من المحامد والفضائل والأعمال المجدية –، لأن المجتمع الإسلامي ليس مجتمع كبت وضغط ولا مجتمع مجون واستهتار، حتى يستبد موضوع الجنس باهتمام أفراده؛ ولكنه مجتمع شريف يحفظ الأعراض، ويحث على العمل الجاد الذي يشترك فيه الرجل والمرأة على السواء.

رابعا : أن المقصود بقوله تعالى: { إلا ما ظهر منها } ما جعله الله مكشوفا بالفطرة والطبيعة. وهو ما لا يثير الناظر من خفايا الجسد ومكامن الإثارة. وهذا ما جعل

(5870/1)

الفقهاء يفتون – كما عندنا في المذهب – بأنه لا ضير على المرأة في أن تكشف وجهها وكفيها للعموم(1) ، وأجاز بعضهم الشعر والقدمين.

---

(1) اعتمادا على بعض الأحاديث النبوية الشريفة، كالحديث الذي رواه أبو داود عن السيدة عائشة رضي الله عنها، أن أسماء بنت أ[بي بكر الصديق رضي الله عنهما دخلت على رسول الله – صلى الله عليه

وسلم – وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها النبي – صلى الله عليه وسلم – وقال: «يا أسماء! إن المرأة إذا بلغت المحيض، لم يصلح لها أن تبدي منها إلا هذا وهذا"، وأشار إلى وجهه وكفيه.

(5871/1)

خامسا: أن المرأة لا ينبغي أن تبدي زينتها ومفاتنها وتجملها، سواء ما كان من ذلك طبيعيا أو مصطنعا، إلا في الحالة التي لا تكون فيها معرَّضة ومعرِّضة للفتنة، أي حين تكون مع أقاربها وذوي المحارم.

سادسا: أن قوله عز وجل: { وليضربن لخمرهن على جيوبهن } ينبغي أن يفهم في سياق معاني مفردات التعبير القرآني الكريم.

فالخُمر جمع خِمار، وهو ما تضعه المرأة على رأسها، ويقابله ما يعرف عندنا بـ"السَّبنية" أو "الدرة" وما أصبح يطلق عليه تأثرا باللغة الفرنسية: "الإشارب". والجيوب جمع جيب، وهو فتحة القميص الكاشفة للعنق

(5872/1)

والصدر. وكانت النساء يضعن الخمار ويلقين به على الظهر فقط

سابعا: أن قوله سبحانه: { ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن } يعني المشي بضرب الأقدام على الأرض، لإثارة انتباه الناس بالخلاخل التي اعتاد النساء في بلاد العرب وضعها في أرجلهن. ويدخل في ذلك كل ما يلفت النظر من عطر قوي أو ثوب شفاف أو لباس مكشوف أو ما إلى ذلك(1)

(1) مما يذكر بتبرج الجاهلية الذي نهى عنه القرآن الكريم في سورة الأحزاب، الآية 33، { ولا تبرجن تبرج الجاهلية}. ومعروف أن التبرج يرتبط بمظاهر متعددة، منها أن تكون النساء "كاسيات عاريات مميلات مائلات" كما في الحديث النبوي الشريف الذي رواه مسلم عن أبي هريرة. وقد روي كذلك في "الموطأ" و"مسند" ابن حنبل. والتبرج غير السفور الذي يجعل المرأة تكشف عن المبام من جسمها.

(5873/1)

؛ لأن الإسلام يريد من المرأة أن تكون شقيقة الرجل في الحقوق والواجبات، وأن تكون بهذا عضوا فاعلا ونافعا ومثمرا في المجتمع، وليس لعبة أو دمية أو أداة لهو وغواية. ثم إن الرجل في المنظور الإسلامي ليس مجرد حيوان تثير شهوته وتغريه أبسط مظاهر الزينة في المرأة التي عليه – من جانبه – أن يراعي مشاعرها فلا يسرف في مظهره وزينته.

إن جماع هذه التنبيهات كامن في قول الله تعالى: { يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى، ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون }(1)

(1) سورة الأعراف، الآية 26.

(5874/1)

.

لقد جعل الله اللباس على ثلاث درجات:

الأولى: لباس لستر العورة، وهو ما يعتبر ضروريا ولازما للإنسان، وينبغي أن يكون عاديا غير مثير ولا لافت للنظر.

الثاني: لباس التزين والتجمل في المناسبات والأعياد، وهو المشبه بالريش، استعارة من ريش الطائر.

الثالث: لباس التقوى الذي هو رداء العفة والورع والطهارة الروحية. ويعتبر أفضل ما يمكن أن يتحلى به الرجل والمرأة على السواء. ومتى تحليا به، زال كل تخوف عليهما وعلى المجتمع من الانحلال والانهيار.

(5875/1)

إن القصد من هذا التوجيه الإسلامي في موضوع اللباس، مما هو مبثوث في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ليس هو التضييق على المرأة في لباسها أو في خروجها للعمل إلى جانب الرجال كما قد يتوهم كثيرون – وفيهم غير قليل من المغرضين –؛ ولكن القصد هو إشاعة آداب وأخلاق ينبغي أن يلتزم بها الجنسان معا، بعيدا عن الخلاعة والتبرج والتحلل والانحراف. وقديما قال الشاعر العربي عنترة متحدثا عن غض الطرف باعتباره من أبرز ملامح المروءة العربية: وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها فهو إذا لقي جارته، لا

(5876/1)

يمعن فيها النظر ويدققه في تتبع لها، ولكنه يخفض بصره إلى أن تدخل دارها.

لقد ظلم الإسلام طوال عهود الانحطاط، فألصق به ما ليس منه، وارتبطت به مظاهر هي من قبيل العادات والتقاليد التي عرفتها بعض المجتمعات الإسلامية في هذه العهود، مما أشاع أنه متصل بظاهرة "الحريم" التي أساءت إلى المرأة المسلمة وخلفت عادات وتقاليد هي – بما تخفي خلف ستارها من فواحش وآثام – أبعد ما تكون عن الإسلام، وإن ألصقها به بعض الجاهلين أو المغرضين، وامتطوها للطعن فيه وفي موقفه من المرأة.

(5877/1)

وفي إطار هذه الظاهرة وما خلفت من مواقف متضاربة بدا توجه متشدد لا يقتصر على اللباس وما يراه من ضرورة الحجاب فيه، ولكن يتجاوزه إلى المناداة بحجب صوت المرأة، باعتباره عورة لا يجوز أن يصل إلى أسماع الرجال، خشية الفتنة، بدليل أنها لا تأذن ولا تجهر في الصلاة ولا ترفع صوتها بالتلبية في الحج. في حين أن الأمر ليس كذلك، وفق ما تدل عليه آيات قرآنية وأحاديث نبوية ومواقف لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وغير ذلك من متعلقات الدين.

(5878/1)

وليس يخفى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يحدث النساء وكن يحدثنه. وكان صلوات الله وسلامه عليه يتلقى أسئلة من اللائي كن يستفسرنه عن مسائل دينية أو غيرها فيجيبهن،

على نحو ما جاء في بعض الأحاديث النبوية التي وردت في هذا العرض. ويكفي أن نشير إلى أنه – صلى الله عليه وسلم – تلقى بيعة النساء التي تحدث عنها القرآن الكريم في قوله سبحانه: { يا أيها النبيء إذا جاءت المومنات يبايعنك على أن يشركن بالله شيئًا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا ياتين ببهتان بين أيديهن وأِجلهن ولا يعصينك في معروف

(5879/1)

فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم }(1)

---

(1) سورة الممتحنة، الآية 12، وهي آيات همت بعض النساء المومنات اللائي كن يردن الهجرة من مكة إلى المدينة، وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يمتحنهن بها، على حد ما روت السيدة عائشة رضي الله عنها في الحديث الوارد في "صحيح" البخاري ومسلم. وكان النبي الكريم يجري هذه البيعة على نساء الأنصار كذلك، بل كان يجريها حتى على غيرهن. ويبدو أن العمل بالآية استمر حتى بعد أن تحقق فتح مكة. إذ تحكي السيرة النبوية أنه – صلى الله عليه وسلم – جلس على الصفا يوم ثاني الفتح وأخذ البيعة من المومنين والمومنات.

(5880/1)

.

ثم إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان يستمع إلى الشواعر

ينشدن فيتأثر لإنشادهن، على حد ما روي عنه أنه سمع قتيلة بنت الحارث تبكي أخاها النضر بن الحارث – وقيل هو أبوها – وكان من أسرى بدر، وأمر به الرسول – صلى الله عليه وسلم – فقتل؛ وهي تقول:

هل يسمعني النضر إن ناديته ... أم كيف يسمع ميت لا ينطق

أمحمد يا خير ضنء كريمة في قومها والفحل فحل مُعرِق

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المَغِيظ المحنَق

أو كنت قابل فدية فلنأتين بأعز ما يغلو لديك وينفق

(5881/1)

فالنضر أقرب من أسرت قرابة وأحقهم إن كان عتقٌ يعتِق

فتأثر – صلى الله عليه وسلم – وقال: "لو بلغني هذا قبل قتله، لمننت عليه"(1) . ومن شديد تأثره بإنشاد هذا الشعر أنه أمر بعدم قتل أسرى قريش.

وعلى نهج الرسول الكريم سار الصحابة والتابعون، مما يكفي فيه التلميح إلى الأحاديث النبوية الشريفة التي أخذها الرواة عن السيدة عائشة رضي الله عنها. ومعروف عنها أنها كانت مكثرة، إذ ذكر المحدثون

---

(1) ابن هشام، سيرة...، ج 2، صص. 42–43. وقد أسلمت قتيلة بعد ذلك، وهي تعد من روايات حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

(5882/1)

أنها روت عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عشرا ومائتين وألفي حديث. وعنها روى صحابيون كثيرون، كأبي هريرة وأبي موسى الأشعري، وتابعيون كثيرون كذلك، كسعيد بن المسيب وعلقمة بن قيس وعائشة بنت طرحة التي كانت لها زميلات في التلمذة على أم المؤمنين، كعَمْرة بنت عبد الرحمن وحفصة بنت سيرين. ولا يخفى في هذا الصدد أنه شاع بين الناس حديث: "خذوا شطر دينكم عن الحميراء"(1)

---

(1) "أو ثلث دينكم". وعلى الرغم من أن سند هذا الحديث واه، فإن معناه صحيح. والحميراء – وهو لقب السيدة عائشة – تصغير حمراء، بمعنى بيضاء، وكانت العرب تسمي الأبيض أحمر. ...

(5883/1)

.

إن صوت المرأة في حد ذاته ليس بعورة. وهو ليس كذلك حتى إن أدت غناء، شريطة ألا يكون في هذا الغناء ما يمس الحياء أو يخدش الأخلاق أو يقود إلى المنكر، وألا يكون في طريقة الأداء تفسخ وتحلل أو ميعة وتهتك فقد قالت الرُّبَيِّع بنت مُعوِّذ وزوج إياس بن البكير الليثي(1): "جاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فدخل علي صبِيحة بُني بي فجلس

---

(1) صحابية جليلة بايعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بيعة الرضوان وحضرت غزواته. وكان – صلى الله عليه وسلم – كثيرا ما يزورها في بيتها ليتوضأ ويصلي أو ليتناول الطعام.

(5884/1)

على فراشي كمجلسك مني فجعلتْ جُويريات يضربن بدف لهن ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر، إلى أن قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد. فقال لها – صلى الله عليه وسلم- : دعي هذا وقولي الذي كنت تقولين"(1)

---

(1) رواه البخاري وأبو داود والترمذي عن الربيع. وتستفاد منه إباحة التغني بالأمجاد الدينية والوطنية، على الرغم من المواقف المختلفة من الغناء، انطلاقا من قوله تعالى في سورة لقمان، الآية5: { ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوًا أولئك لهم عذاب مهين }. وهي آية نزلت في النضر بن الحارث الذي كان له مجلس فيه قينات يسقين ويغنين. فكان إذا سمع بشخص يميل إلى الإسلام أو يريد الدخول فيه، دعاه إلى هذا المجلس مدعيا أن ما يقدمه له فيه من خمر وغناء هو خير مما يدعو إليه النبي الكريم. وأخرج الطبراني عن عبد الله بن مسعود أنه قال حين سئل عن هذه الآية: "والله الذي لا إله إلا هو – وكررها ثلاثا – إنما هو الغناء". وذكر الحسن البصري – كما عند الطبري – أن هذه الآية نزلت في الغناء والمزامير. هذا، ولا تخفى مواقف المذاهب الفقهية في هذا الصدد. فالأحناف والحنابلة يحرمون والشافعية والمالكية يرون الكراهة. والسبب في حقيقة الأمر ليس مرده إلى الغناء في حد ذاته ولكن ما يجر إليه من فواحش ومنكرات إذا وقع الانحراف به.

(5885/1)

.

هذا، وقد نبه الحق سبحانه إلى حديث النساء كيف ينبغي أن يكون مع الرجال، فقال مخاطبا أمهات المومنين: { يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن، فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا}(1) . وهو خطاب موجه إلى أمهات المومنين – وعبرهم إلى النساء عامة – كي لا يتحدثن إلى الرجال بكلام فيه لين ورقة ولطافة، حتى لا يظن من يوجهن إليهم هذا الكلام أنهن يتقربن إليهم ويتحببن، ولا سيما إن كان هؤلاء من قليلي الإيمان وسيئي الأخلاق. وهو في الوقت نفسه دال على أن

---

(1) سورة الأحزاب، الآية 32.

(5886/1)

محادثة المرأة للرجال مباحة إذا كانت في إطار جاد ومتزن. يؤكد هذا قوله تعالى: { وقلن قولا معروف}، أي قولا في نطاق المتعارف عليه، مما لا يمس الكرامة ولا يخدش العرض. وقد يفهم منه كذلك أنه عز وجل يدعوهن إلى أن يأمرن بالمعروف وينهين عن المنكر. وإن ما أدركته المرأة اليوم في شتى المجتمعات الإسلامية من تعليم بوأها مراكز عالية في الجامعات والمستشفيات والإدارات، لما يحث على تجنب أي موقف من شأنه أن يوصم بالتزمت والتخلف أو حرمان المرأة من حقوقها الإنسانية مهما تكن صغيرة أو كبيرة، أو الحيلولة دون أداء

(5887/1)

رسالتها في الحياة.

* * *

إن إثارة قضية الحجاب وما إليه من موضوعات جانبية، تزعم في قصدها الدفاع عن حقوق المرأة وكرامتها، لا يفضي إلى غير صرف المهتمين، بل صرف المجتمع كله، عن القضايا الأساسية التي تحتاج إلى أن يقع الانكباب عليها لما فيه تطوره. وقيه، ولما يتطلع إليه من مواكبة العصر ومستجداته والمشاركة في إبداعها وتقديمها، انطلاقا من الأصالة الحق القائمة على روح الدين الصافي وقيمه الثابتة، ومقوماته المبنية على مبدإ التغيير والتجديد والإنصاف المكرم للجنسين.

(5888/1)

إنه لا شك أن المرأة اليوم تشكو في العديد من الحالات حرمانها من حقوق أساسية، بل هي تعاني كذلك سوء المعاملة وقسوتها من المجتمع على العموم، ومن الرجل على الخصوص. وهي ظاهرة لا يمكن أن تجد تعليلها بعيدا عن السبب التربوي والسلوك الاجتماعي، بما يتحكم في هذا السلوك من رواسب عادات وتقاليد كانت وليدة معطيات ثقافية وحضارية خلفت أمزجة وعقليات ما زال – ويا للأسف! – شيء من آثارها في بعض الأذهان.

ولعل في هذا تفسيرا لكثير من الظلم المادي والنفسي الذي تقاسيه بعض النساء، وكذا تفسيرا لغير قليل من الحيف الذي

(5889/1)

يعانينه في قضاياهن بالمحاكم؛ على الرغم من جودة النصوص وصحة المساطر التي لو طبقت على نحو سليم، لأنصف أولئك النساء في مشكلاتهن.

على أنه ينبغي الظن بأن هذه الظاهرة لا تمس سوى المجتمعات الإسلامية. فما يمارس على المرأة من الرجل في كثير من البلاد الغربية المتقدمة، ليزيد في بعض جوانبه على ما تشكوه المرأة في بلاد الإسلام؛ مما يدل على أن المسألة وليدة أمزجة وعقليات وما ينشأ عنها من عقد ومركبات قد توجد في كل مجتمع. وقد تتجلى ليس عند الرجل فقط، ولكن حتى عند المرأة التي لا تخلو معاملتها له من تصرفات سيئة،

(5890/1)

كعدم الثقة فيه واللجوء إلى الشعوذة وما إليها من أنماط سلوكية سلبية لا تلبث أن تخلف ردود فعل شنيعة تعود عليها بالضرر.

ومع ذلك، فإن انتشار التربية والتعليم في المجتمع الإسلامي وما صاحبه من تعميم الثقافة عبر مختلف وسائل الإعلام، أنتجا وعيا جديدا عن الرجل والمرأة بحقيقة الحياة ومسؤوليتها والحاجة الملحة إلى أن يتحملا جميعا أداء الرسالة، في تعاون على الأعباء، بما فيها الأعباء المادية التي أصبحت الزوجة اليوم تشارك فيها بسهم وافر ونصيب كبير، إن لم تكن هي التي تنهض بها وحدها في بعض الزيجات.

(5891/1)

وإذا كان هذا الأسلوب الجديد من الحياة الأسرية يأخذ في الذيوع، فإنه يحتاج إلى أن يحصن بدعائم تربوية إسلامية، ويحتاج كذلك إلى أن يضبط بأحكام حتى لا يكون وسيلة لتخلي الرجل عن مسؤولياته، وسبيلا لإثقال كاهل المرأة وإرهاقها بالمزيد من التحملات.

وإن هذا التحصين للعلاقة بين الجنسين وضبطها، لما به تستقيم الحياة الفردية والجماعية، في نظام يحفظ للمجتمع توازنه، ولا سيما للأجيال الصاعدة منه، لما يتطلب مراجعة الذات، وإعادة النظر في السلوك الخاص والعام، وكذا في بعض النصوص التشريعية إن اقتضى الحال – كمسطرة

(5892/1)

الطلاق والحضانة في مدونة الأحوال الشخصية المغربية – على أن يتم ذلك في نطاق الشريعة الإسلامية ووفق ما تدعو إليه من تكريم للإنسان من حيث هو، ذكرا كان أو أنثى، وتمتيعه بحقوق إن حرم منها، فإنه لن يستطيع القيام بواجباته وأداء الأمانة الملقاة عليه.

(5893/1)

المغاربة في ساحل الشام تاريخهم السياسي والحضاري

(في العصر الفاطمي)

الدكتور عمر عبد السلام تدمري

الجامعة اللبنانية ، طرابلس وبيروت

...

... يرتبط تاريخ " ساحل الشام " – اعتبارا من النصف الثاني في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي – ارتباطا وثيقا بالمغاربة الذين ظهروا على مسرح الأحداث بقوة ، وذلك بعد دخول الفاطميين مصر مباشرة سنة 358 هـ/869 م وتأسيس قاهرة المعز .

... ويأتي " الكتاميون " في صدارة القوة المغاربية التي بسطت نفوذها في بلاد الشام عموما ، وفي ساحل الشام خصوصا ، وذلك بدءا من استيلاء

(5894/1)

قائد جيوش المغز لدين الله "جعفر بن فلاح الكتامي " على الرملة وطبرية بفلسطين . ويمكن القول إن الحكم الفاطمي في بلاد الشام قام على أكتافهم ، فمنذ أن تمكن " جعفر بن فلاح " من دخول دمشق سنة 360 هـ/971 م بدأ يقيم علاقات مع أمير التنوخيين في جبال لبنان المشرفة على بيروت ، والمعروفة في المصادر باسم " بلاد الغرب " نسبة لموقعها من دمشق حاضرة بلاد الشام ، حيث قدم " المنذر بن النعمان التنوخي " الطاعة للخليفة المعز فخلع عليه القائد " جعفر " وأقره على أعماله (1)

---

(1) طنوس الشدياق ، أخبار الأعيان في جبل لبنان ، بيروت 1954 ، ج 2 ، ص . 500 .

(5895/1)

... أما بسط النفوذ والسيادة الفاطمية على كامل الساحل الشامي فقد تأخر لبعض سنين، إذ واجه القائد "جعفر " تحالفا مضادا تألف من : القرامطة والحمدانيين والعقيليين ، ولقي أمامهم مصرعه بالقرب من دمشق في أواخر سنة 360 هـ/971 م (1) إلى أن عين على دمشق ابنه " أبو محمود إبراهيم بن جعفر بن فلاح الكتامي " المعروف بالمغرب ، وتمكن من

---

(1) المقريزي ، أنماط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة 1967 ، تحقيق جمال الدين الشيال .

(5896/1)

دخولها سنة 363 هـ/974 م (1)

---

(1) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، (مخطوط التمورية 1041 تاريخ) ، ج 18 ، ص . 522 ؛ تهذيب تاريخ دمشق ، ج 7 ، ص . 120؛ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، نشره أمدروز ، المطبعة الكاتوليكية ، بيروت 1908 ، ص . 4–9 ؛ ابن سنان وابن العديم الحلبي ، تاريخ أخبار القرامطة ، تحقيق سهيد زكار ، بيروت 1971 ، ص . 61–62 ؛ ابن أبيك الدواداري ، الذرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة 1961 ، ص . 1961 ؛ اتعاظ الحنفا ، ج 1 ، ص . 210–211 ؛ المقريزي ، المعفي الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوي ، طبعة دار المغرب الإسلامي بيروت ، 1411 هـ/1991 م ، ج 1 ،ص 129 ، ابن تغري براي ، النجوم الزاهرة في

ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، 1962 ، ج 4 ، ص . 58 .

(5897/1)

وجرى في السنة نفسها تعيين " ريان الصقلبي " المعروف بخادم المغز (1) . كما دخل المغاربة مدينة صيدا وشحنوها بالجنود ، وإن كانت الولاية عليها بقيت في يد أسرة " ابن الشيخ " العربية المشرقية (2)

---

(1) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامي الدهان ، طبعة المعهد الفرنسي بدمشق ، 1962 ، ج 2 ، ص . 106 ؛ اتعاظ الحنفا ، ج 1 ، ص . 220 .

(2) انظر عن أسرة " ابن الشيخ " بصيدا ، في كتابنا : لبنان من قيام الدولة العباسية حتى سقوط الدولة الأخشدية (122–258 هـ/750 –969 م) ، سلسلة دراسات في تاريخ الساحل الشامي ، طبعة جروس برس ، طرابلس 1912 ، ص . 57 ومابعدها .

(5898/1)

... إلا أن الحكم الفاطمي القائم على أساس مذهبي " ثيوقراطي " لم ينعم بالراحة بسبب الاختلاف في المذهب ، إذ أن أغلب أهل دمشق من السنة ، فلم يتقبلوا حكم الفاطميين وهم شيعة إسماعيلية . وزاد من تفاقم الأمور وصول مقدم العسكر الفاطمي " جيش بن الصمصامة " وهو ابن أخت القائد أبي محمود الكتاني المغربي ، فشبت الحرب

بين الطائفتين، واضطرب البلد وخربت المنازل والدور ، وانقطعت المواد ، وبطل البيع والشراء ، وقطعت المياه ، وهلك الكثير من الجوع والبرد ، وانتشر الخوف في المسالك والطرقات ، مما دفع بالخليفة المعز أن

(5899/1)

يكلف والي طرابلس بالإشراف على تهدئة الأوضاع في دمشق ، وإخراج القائد المغربي منها (1) ولكن أهل دمشق لم يأنسوا لاستبدال قائد فاطمي بقائد فاطمي آخر ،
وتطلعوا إلى قيادة سنية ، ولذلك سرعان ما خرج شيوخها وأشرافها لمقابلة القائد التركي " هفتكين " القادم من بغداد والترحيب به ، ودعوته ليقيم بينهم ويتولى أمر دمشق وإزالة الحكم الفاطمي المتعارض مع مذهبهم (2) . وبذلك انحسر النفوذ الفاطمي في المناطق الداخلية من بلاد الشام وتجمع المغاربة في فلسطين ، وفي

---

(1) الدولة المضية ، ص . 169 .

(2) ذيل تاريخ دمشق ،ص . 11 .

(5900/1)

المدن الساحلية .

... وجاء خروج دمشق من أيدي الفاطميين ليشكل تهديدا خطيرا

لسياستهم التي كانت أهم أهدافها الوصول إلى العراق – عبر بلاد الشام – وإسقاط الخلافة العباسية في بغداد ، ولذلك كان على الفاطميين أن يتشبثوا بمواقعهم على سواحل الشام حتى تتهيأ لهم الفرصة لاستعادة دمشق من جديد . غير أن الدولة الفاطمية ما لبثت أن واجهت خطرا آخر كاد يقضي على سيادتها على ساحل الشام أيضا ، وجاء الخطر ، هذه المرة من الدولة البيزنطية ، حيث قام الإمبراطور " تزيمسكيس " (Tzimisces) – المعروف في المصادر العربية " ابن

(5901/1)

الشمشقيق " (1) – في أواخر سنة 364 هـ وأوائل 365 هـ / 976 م . بجملة برية ضخمة استهدفت أولا المدن الداخلية حمص ، وبعلبك، وإقليم البقاع ، وصلت إلى " الزبداني " بالقرب من دمشق ، ثم إلى عين الجر (حاليا عنجر) في البقاع بين بيروت ودمشق ، ثم تولت إلى الساحل ، فهاجمت كلا من صيدا ، وبيروت، وجبيل ، وطرابلس ، وبلنياس، وجبلة ،

---

(1) يقال الشمشقيق ، وشميشق ، وسميسق ، وهو قريب من الصيغة الأرمنية (chemshkik) أو (chemskik) (الدكتورالسيد الباز المريني ، الدولة البيزنطية ، القاهرة 1960 ، ص . 450 بالحاشية) .

(5902/1)

وغيرها

... وقد تتبع المؤرخون من المسلمين والروم على السواء تفاصيل مسار الحملة البيزنطية وأحداثها (1)

---

(1) انظر عن حملة " تزيمسكس " في : يحيى بن سعيد الأنطاكي ، تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا ، بتحقيقنا ، طبعة جروس برس طرابلس 1409 هـ، 1919 م ، ص . 161 ومن بعدها ؛ وابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ؛ وابن العبري ، تاريخ الزمان ، تعريب إسحاق أرملة ، نشره جان موريس فيه ، طبعة دار المشرق ، بيروت 1986 ، ص . 68 ؛ والدرة المضيئة ، ص . 170 ؛ وبسط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، (مصور بدار الكتب المصرية ، رقم (55 تاريخ) ، ج 11 ، ص . 55 ؛ واتعاظ الحنفا ، ج 1 ،ص .22 ؛ والنويري ، نهاية الأدب في فنون الأدب ، طبعة الهيئة العامة للكتاب ، تحقيق محمد محمد حلمي ، ومحمد حلمي محمد أحمد 1412 هـ/1992 م ، ج 28 ، ص . 150 ؛ كتابنا : لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين (258– 518 هـ/969 – 1124م)، طبعة دار الإيمان ، طرابلس 1414 هـ/1994 م ، ص . 16 وما بعدها ، وفيه مصادر أخرى .

(5903/1)

، ولكنني سأركز – التزاما بعنوان البحث – على الوجود المغاربي في أثنائها على ساحل الشام ، حيث تشير المصادر إلى أن القائد الفاطمي " نصير الخادم الصقلبي " وصل إلى

بيروت بطريق البحر ومعه عسكر كثير من المغاربة للدفاع عنها (1) .كما أن " ريان الخادم " غادر دمشق بمن معه من المغاربة ليدافع عن طرابلس بعد أن جاءته الأخبار بنزول الإمبراطور

لحصارها . وإلى ذلك ، فقد تحدث الإمبراطور نفسه ، في رسالة بعث بها إلى ملك الأرمن " أشوط شاهان " عن أن فرقة من

---

(1) الدرة المضية ، ص . 170 ؛ اتعاظ الحنفا ، ج 1 ، ص . 218 .

(5904/1)

المغاربة من حامية طرابلس ، تقدر بألفي رجل ، كانت تقوم بمهمة استطلاعية وترصد عند وجه الحجر (1) بين مدينتي طرابلس وجبيل ، وهو يدعو المغاربة بالإفريقيين ، ويضيف أن الجسارة والجرأة دفعت بهؤلاء المغاربة – الإفريقيين لمواجهة قواته ، وادعى أن قواته انقضت عليهم وأبادتهم عن آخرهم (2)

---

(1) وجه الحجر نتو صخري ضخم يعترض الطريق الساحلي بين طرابلس وجبيل ويدخل في البحر ، وكان يشكل حاجزا طبيعيا منيعا ، ويعرف بالأرمنية .

(2) " Chronique de Mathieu Recueil des Historiens des Croisades " .18documents Armébiens , vol . I, P.

(5905/1)

. فيما أفادت مصادر المؤرخين المسلمين عن انهزام الروم ، ووقوع القتلى والأسرى والغنائم بيد " ريان " وجنده عند طرابلس ، وأنهم سيروا في البحر إلى القاهرة ، وأظهر الخليفة المعز السرور ، وتصدق ، ودخل الناس عليه فهنئوه ، وقال الشعراء في ذلك ، وطيف برؤوس قتلى الروم في أسواق القاهرة (1) . وقد عاد الإمبراطور

فاعترف في ختام رسالته بأن طرابلس هي التي منعته من الوصول إلى القدس .

---

(1) اتعاظ الحنفا ، ج 1 ، ص . 223 .

... وفي تلك الأثناء حاول القائد " أبو محمد المغربي " وهو في طبرية بشمال فلسطين – أن يعود لأخذ دمشق ومعه نحو الألفين من جنوده ، فسار إلى البقاع ولكنه وقع في قبضة " شبل بن معروف العقيلي " الذي قام بتسليمه إلى " هفتكين " صاحب دمشق ، فسلمه ، هذا بدوره إلى الإمبراطورية وهو في عين الجر (1) .

... أما مدينة صيدا، فقد شحنها الفاطميون أيضا بآلاف الجند المغاربة ، يتقدمهم قائد يدعى " ابن كرامة المغربي " تفرد بذكره " ابن إيبك

---

(1) اتعاظ الحنفا ، ج 1 ، ص .222 ؛ المطصفى الكبير ، ج 1 ، ص .135 وج 2 ، ص .118 .

الدواداري " في تاريخه ، وهو يتحدث عن موقعة جرت عند أبوابها بين " هفتكين " صاحب دمشق ، من جهة ، و"أبي الفتح ابن الشيخ " صاحب صيدا ، و"المنذر بن النعمان " أمير بلاد الغرب التنوخي ، و" ظالم بن موهوب العقيلي " ، من جهة أخرى .

... وفي التفاصيل ، إن " هفتكين " قصد عقب حملة الإمبراطور "

تزيمسكس " في سنة 365 هـ/976 م . فتصدى له صاحبها " ابن الشيخ " ومع رؤساء ومشايخ من المغاربة ، و"ظالم العقيلي"و" رجاله من العرب " ولما عجز عن اقتحامها لجأ إلى الحيلة والخداع ، فأظهر أنه عجز عن مقاتلتهم وعاد كالمنهزم ،

(5908/1)

فتبادر المدافعون إلى الخروج من باب المدينة ليلتحقوا به ، ولكن « ظالم العقيلي " فطن بخبرته وتمرسه في الحروب لمكر " هفتكين " ونبه أصحابه إلى أن في الأمر مكيدة ، وإن هدف " هفتكين " هو استدراجهم إلى خارج صيدا ، ولكن تحذره لم يلق آذانا صاغية ، بل إن أحد رؤساء المغاربة وشيوخهم " ابن كرامة المغربي " اتهمه بأنه " دسيس على أمير المؤمنين " (1) .
... ووقع ما توقعه " ظالم " ، إذ استدرج " هفتكين " المدافيعن عن صيدا بعيدا عنها لعدة أميال ، حتى وصل إلى نهر في الجنوب منها ، وأمر

---

(1) الدرة المضية ، ص . 176 .

(5909/1)

ساقة العسكر أن يطلبوا طريق بانياس الداخلية ، فطمع عليهم وفاجئوهم بمن معه " فلقوهم بالصدور ، وأقبلوا باللتوت (1) عليهم، و داسوهم بالخيل عليها التجافيف (2)

---

(1) اللتوت : مفردها : لت ، وهو الفأس العظمة ، ومعرب عن الفارسية .

(السيد إدي شير ، معجم الألفاظ الفارسية المعربة ، طبعة مكتبة لبنان 1980 ، ص . 141 .

(2) التجافيف : مفردها التجفاف ، وهو يوضع على بدن الفرس لحمايته من الأذى ، وقد يلبسه الإنسان أيضا ، وهو تعريب " تنيتاه " أي حارس البدن (معجم الألفاظ الفارسية ، ص . 24) وهو كسوة من النسيج محسوة تبطن بها جواشن الفرسان والخيول .

Dozy , Supplément aux dictionnaire arabes , beirut , 1968 , P . 200 .

(5910/1)

، فانهزموا وأخذهم السيف (1) ولم يسلم منهم إلا المخف ، فقتل شيخ المغاربة " ابن كرامة " ، وانهزم " ابن الشيخ " و"ظالم " ، وأحصى القتلى بعد انتهاء الموقعة ، فبلغوا " أربعة آلاف من عساكر المغاربة " – على حد قول المقريزي " (2) .

... ولم يستعد الفاطميون نفوذهم في بلاد الشام إلا بعد انتصار الخليفة " العزيز بالله " على القرامطة وحلفائهم من القبائل العربية في مدينة الرملة بفلسطين في أوائل

---

(1) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص . 10 .

(2) اتعاظ الحنفا ، ج 1 ، ص . 229 .

(5911/1)

سنة 368 هـ/978م (1) وبعد ذلك ، تولى أمر طرابلس قائد مغربي هو " نزال الغوربي الكتامي" حيث يرد اعتبارا من حوادث سنة 370

هـ/980 م . وكان تحت إمرته بها (6000) ستة آلاف رجل (2) . واكن له دور هام في مواجهة البزنطيين ، حيث نازل مدينة اللاذقية لتي كانت في أيديهم آنذاك ، ونجح هو وقائد فاطمي آخر يدعى " ابن شاكر " في أسر القائد البيزنطي المعين عليها من قبل الإمبراطور " باسيليوس الثاني " (3)

---

(1) تاريخ أخبار القرامطة ، ص . 65 – 66 ؛ اتعاظ الحنفا ، ج 1 ، ص . 244 .

(2) ذيل تاريخ دمشق ، ص . 30 .

(3) Schumberger , L'époquée Byzantine , PARIS 1925 , 3V. 488P. .

(5912/1)

ويورد " النويري " هذا الخبر في حوادث سنة 372 هـ/ 982 م .

ويضيف أن " نزالا " دخل القاهرة ومعه 500 أسير من الروم مقيدين بالسلاسل (1) .

... ومن جهة أخرى ، فقد أدى دورا آخر لايقل أهمية عما سبق ، وهو إعادة النفوذ الفاطمي وتثبيته في الشام ، ووضع دمشق ضمن دائرة نفوذه المباشر ، فجمع في وقت واحد بين ولايته على طرابلس ودمشق معا ، وذلك في سنة 381 هـ/991 م (2)

---

(1) نهاية الأدب ، ج 28 ، ص . 158 – 159 .

(2) الروذاوري ، ذيل تجارب الأمم ، نشره أموروز ، مصر ، 1916 ، ج 2 ،ص. 208 –211 ؛ ذيل تاريخ دمشق ، ص . 20–24 ؛ ابن الأثير ،

الكامل في التاريخ ، طبعة صادر ، بيروت 1957 ، ج 9 ، ص . 58 و 85–86 ؛ الذرة المضية ، ص 210 و 222 .

(5913/1)

وبعد وفاته في السنة نفسها خلفه ابنه " المظهر . بن نزال الكتامي " على ولاية طرابلس (1) ، إلا أنه لم يكن بمستوى أبيه في الشجاعة ، إذ أبدى تخاذلا مهينا أمام الإمبراطور " باسيليوس الثاني " عندما قام بحملة إلى طرابلس وحاصرها فيسنة 385 هـ/995 م . فخرج ’ليه " المظهر بن نزال " ومعه جماعة من وجوه أهلها ، وطرحوا أنفسهم بين يديه ، وأعلموه أنهم في طاعته ، فخلع عليهم وأحسن إليهم ، وعادوا إلى البلد على أن يسلموه إليه . وكان في البلد قاض من

---

(1) العظمى ، تاريخ حلب ، تحقيق إبراهيم زعرور ، دمشق 1984 ، ص . 212 .

(5914/1)

أهله هو " علي بن عبد الواحد " ويعرف بحيدرة ، فأغلق هو والرعية الباب في وجوههم ، وأخرج عيال « المظهر بن نزال " من البلد ، فأخذهم وسار مع الإمبراطور (1) ويذكر " المقريزي " أن أهل طرابلس اجتمعوا على أن ينصبوا أخا " المظهر " مكانه (2) . ... وجاءت حملة الإمبراطورية إلى طرابلس ، وطرد واليها لتعجل بإيفاد القائد " جيش بن الصمصامة " فتولى إمرتها لفترة قصيرة

من سنة 386 هـ/995 م . حيث صرفه عنها القائد "سليمان بن جعفر بن

---

(1) تاريخ الأنطاكي ، (بتحقيقنا) ، ص . 229 – 220 .

(2) اتعاظ الحنفا ، ج 1 ، ص . 286 .

(5915/1)

فلام " ، إذ كان " جيش " من شيوخ كتامة المغربية ، إلا أن "سليمان" كان سيء الرأي فيه لعداوة بينهما (1) . غير أن التهديد الخطير الذي كانت بلاد الشام الشمالية تتعرض له من البزنطيين دفع الخليفة " العزيز بالله " أن يجهز حملة برية أعطى قيادتها ل" ابن الصمصامة " ، الذي ما لبث أن دخل طرابلس من جديد ، كما أمر الوزير "عيسى بن نسطوس " بإنشاء أسطول بحري ليتوجه إلى طرابلس أيضا (2) وبدا واضحا أنها أضحت أهم قاعدة متقدمة للدولة الفاطمية على ساحل

---

(1) ذيل تاريخ دمشق، ص.44.

(2) تاريخ الأنطاكي ، (بتحقيقنا)، ص.222.

(5916/1)

الشام في وجه التوسع البيزنطي .

... وعندما آلت الخلافة إلى " الحاكم بأمر الله " سنة 386 هـ/996 م . أعطى ولاية الشام للقائد " سليمان بن جعفر بن فلام الكتامي " ، وأمره بالخروج لتمهيد البلاد وبسط سيادة الدولة الفاطمية عليها

، وقبل أن يتوجه إلى دمشق نظر في أمور السواحل ، فصرف بعض الولاة ، وعين آخرين (1) ، فأعطى ولاية طرابلس لأخيه " علي بن جعفر " وصرف عنها "جيش بن الصمصامة " (2)

---

(1) ذيل تاريخ دمشق، ص.48.نهاية الأرب، ج 28، ص.171؛ الشدياق، أخبار الأعيان،ج2، ص.502.

(2) المصادر نفسها، مع ذيل تجارب الأمم،ج2،ص.224؛والكامل في التاريخ، ج9، ص.119.

(5917/1)

. ثم أجرى حركة مثاقلات في السنة التالية 387 هـ/997 م . تولى فيها مدينة صور الأمير " فحل الكتامي " ، فدخلها في جمع كبير من المغاربة بحيث زاحموا أهلها مزاحمة شديدة وضايقوهم ، مما دفع بالأهالي إلى إعلان الثورة ضدهم ، وضد الدولة الفاطمية ، وأمروا عليهم رجلا ملاحا من رجال البحر ، يعرف بـ"العلاقة " وقتلوا أصحاب الخليفة وموظفيه ، وقام أمير الثائرين بضرب السكة باسمه (1) وانفرد المؤرخ "شمس الدين الذهبي" بتوضيح

---

(1) ونقش على النقود : "عز بعد فاقة، وشطارة بلبقاة، للأمير علاقة" (نهاية الأرب، ج28، ص.174).

(5918/1)

دوافع هذه الثورة فقال : "وكان الفاطميون قد أذاقوا المسلمين القتل والنهب، حتى أن أهل صور قاموا عليهم وقتلوا فيهم، فهربوا

وحتى أن أهل صور استنجدوا بنصارى الروم وكان أهل صور قد لحقهم من المغاربة من الظلم والجور وأخذ الحريم من الحمامات والطرق أمر كبير" (1) .

... وشهدت دمشق ثورة مماثلة ضد القائد "سليمان بن جعفر الكتامي" قام بها جماعة "الأحداث" برئاسة رجل منهم يعرف بـ "الدهيقين" (2)

---

(1) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق أكرم البوني ، طبعة مؤسسة الرسالة بيروت 1982 ، ج 16 ، ص : 468 .

(2) ذيل تاريخ دمشق ، ص : 48 .

(5919/1)

. واستغل "ابن الصمصامة" تلك الأوضاع المتردية في بلاد الشام ، فأغرى "برجوان الخادم" وكان وصيا على "الحاكم بأمر الله" وأوغر صدره على القائد "سليمان" خصمه اللدود، وأطلعه على شدة بغض أهل الشام للمغاربة واستيحاشهم منهم(1) ، فأعطاه تفويضا بتدبير أعمال دمشق وغيرها، وكانت أول خطوة اتخذها هي الخروج إلى الرملة والقبض على القائد "سليمان"، وتمكن فيما بعد من القضاء على الثورتين في صور ودمشق سنة 388 / 998 م. وأعطى ولاية صور للحمدانيين تهدئة لخواطر أهلها (2)

---

(1) المصدر نفسه .

(2) المصدر نفسه ، ص : 51 ؛ الكامل في التاريخ ، ج 9 ، ص : 121 ؛ الأعلاق الخطيرة ، ج 2 ، ص : 165 ؛ المصفي الكبير ، ج 2 ، ص : 499 .

(5920/1)

، وأعطى ولاية طرابلس للقاضي "علي بن عبد الواحد حيدرة الكتامي" الذي جمع بين منصبي الولاية السياسي، والقضاء والدعوة الدينية (1) ، فيما أبقى صيدا بيد الشيخ الشيبانيين، وبيروت تابعة لأمراء الجبل التنوخيين.

... وبلغ نفوذ قاضي طرابلس "ابن حيدرة الكتامي" أقصى اتساع حازه أي قاض أو وال، قبله أو بعده، حيث وصل نفوذه إلى ما وراء مدينة حلب شمالا، وإلى مدينة

---

(1) انظر عنه في كتابنا : لبنان من السيادة الفاطمية حتى سقوط بيد الصليبيين (القسم السياسي) ، ص : 58 وما بعدها (والقسم الحضاري) ، ص : 20 وا بعدها .

(5921/1)

صور جنوبا، وكانت حلب بحكم موقعها المتوسط لدائرة النفوذ البيزنطي في الشمال، والنفوذ الفاطمي في الجنوب، تعاني من حالة عدم التوازن في الحكم، وزاد من ذلك الخلافات والمنازعات التي كانت لا تفتأ مستمرة بين أمرائها الحمدانيين، وكان على طرابلس بحكم موقعها المتقدم كقاعدة فاطمية على ساحل الشام أن تقوم بمواصلة دورها السياسي في تثبيت السيادة الفاطمية، وبسط النفوذ الفاطمي إلى أقصى حدود بلاد الشام الشمالية، بعد أن مارست هذا الدور في دمشق وما حولها من قبل على عهد القائدين "ريان" ثم "نزال" وعادت في سنة 400 هـ/

(5922/1)

1009 م. تمارس هذا الدور على حلب وما حولها، في عهد قاضيها "ابن حيدرة الكتامي"، وقائد جندها "أبي سعادة المغربي"، حيث استنجد "مرتضى الدولة ابن لؤلؤ" الوصي على "أبي الهيجاء الحمداني" أمير حلب بالخليفة الفاطمي "الحاكم بأمر الله" ليساعده ضد صاحب ديار بكر الذي كان يطمع في الاستيلاء على حلب، وأرسل إليه يشترط على نفسه أن يقيم على المدينة واليا فاطميا من قبله (1) . فرأى "الحاكم" في ذلك فرصة ليخرج

(1) ابن العديم الحلبي، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، طبعة المعهد الفرنسي بدمشق، 1945، ج1، ص199.

(5923/1)

بعسكر كثيف، وضم معه القاضي "ابن حيدرة" ونجم القاضي – بشكل خاص – في إنزال الهزيمة بحلفاء الروم، وتحييد القبائل العربية عن الصراع بين الأمراء، وسجل الشاعر "التهامي" الذي صادف وجوده بطرابلس آنذاك خروج القاضي "ابن حيدرة" مشيدا بدوره في قصيدة مطلعها :

شاء المهيمن أن تسير مشرقا ... ... "حلب فقيض ما جرى وأتاحا

واردت إصلاح الأمور فأفسدت ... ... فنهضت حتى استحكمت إصلاحا

كانوا يرونك مفردا في جحفل ... ... ووراء سور إن نزلت براجا (1)

(1) ديوان التهامي، تحقيق محمد زهير الشاويش، نشره المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية (؟) ص.13.

... وكان في قلعة "عزاز" شمالي حلب غلام من غلمان "مرتضى الدولة" متهم بأنه كان يميل إلى الأمير الحمداني "أبي الهيجاء" فطلب منه "مرتضى الدولة" أن يتنازل عن القلعة، فلم يجبه الغلام إلى ذلك، وتملكه الخوف منه، ولما شدد "مرتضى الدولة" طلبه، أجابه الغلام بأنه لا يسلم القلعة إلا لقاضي طرابلس "ابن حيدرة" المستولي على النظر في طرابلس وفي سائر الحصون" (1) . ولما كان "ابن حيدرة" ما يزال عند حلب، فقد ذهب إلى "عزاز" وتسلم قلعتها، وسلمها بدوره إلى "مرتضى الدولة" ، وكتب

(1) تاريخ الأنطاكي، (بتحقيقنا)، ص 216.

إلى الخليفة يخبره بذلك (1) .

... ويذكر "الأنطاكي" عقب هذا الخبر أن بني كلاب طالبوا "مرتضى الدولة" بالوفاء بما شرطه على نفسه من منحهم الإقطاع إن نصروه، وعندما دافعهم عنه تسلطوا على حلب، وحاصروه في القلعة وضيقوا عليه حتى احتال عليهم وقبض على زهاء سبعمائة من أمرائهم ورؤسائهم وذوي الشجاعة فيهم، وقتل جماعة منهم، وأسر الباقين (2) .

... أما الشاعر "التهامي" الذي كان بطرابلس في ذلك الوقت، فقد ضمن ديوانه قصيدتين يفهم منهما أن بني كلاب تحركوا في جنوب "لبنان" أيضا،

---

(1) الأنطاكي ، ص.216.

(2) نفسه، ص.218.

(5926/1)

ودخلوا صور فنتزعوها من يد الدولة الفاطمية، فخرج "ابن حيدرة الكتامي" لقتالهم وهزمهم بعد معركة طاحنة، فقتل من قتل من رجالهم، وفر الباقون تاركين نساءهم وراء ظهورهم، فقال "التهامي" من قصيدة :

غادرت أسد بني كلاب أكلبا ... ... إذ زرتهم، وزئيرهن نباحا

فنسوا النساء، ودمروت ما دبروا ... ... ورأوا بقا أرواحهم أرباحا

يتلو هزيمهم السنان كأنه ... ... حر ان يطلب في قراه قراحا

والسمر قد لفتهم أطرافها ... ... لفا كما اكتنف البنان الراحا

فمعفر حسد الحياة، وهارب ... ... حسد الرفات العبر والصفاحا

(5927/1)

حتى إذا افتنت القنا أواحهم ... ... قتلا، وقدمت الصفاح صفاحا

رفعوا أصابعهم إليك ونكسوا ... ... أرماحهم فثنين منك جماحا

وتركت أعينهم بـ"صور" في الوغى ... ... صورا، وقد جاح الورى ما جاحا (1)

... ووضع "ابن حيدرة" عاملا على صور من قبله، وصفح عن أهلها فقال "التهامي" :

أغدى ندى كفيه "صور وأهلها ... ... والبدر يقلب طبع كل ظلام

ولو أن "صورا جنة مااستكثرت ... ... وأبيك من غلمانه لقلام

(1) ديوان التهامي، ص.12.

يعفو، فيفعل حلمه بعدوه ... ... ما تفعل الأسياف بالأجسام (1)

... وهكذا نرى أن قاضي طرابلس كان يبسط نفوذه إلى أقصى بلاد الشام في الشمال، وأقصى مدن "لبنان" في الجنوب.

... وقد أعاد "ابن حيدرة" إلى "مرتضى الدولة" يطلب منه إنجاز وعده الذي قطعه له وللخليفة بإقامة وال على حلب، ولكن "مرتضى الدولة" دافعه ولم يبر بوعده، فعاد إلى طرابلس بمن ورد معه (2) ، دون أ ن يحقق ما كان يرغب به الخليفة، فنقم عليه "الحاكم بأمر الله" لكونه سلم قلعة عزاز إلى "مرتضى

(1) ديوان التهامي، ص.125–126.

(2) الأنطاكي، ص.217.

الدولة" ، وبعث إلى طرابلس قائدا وخادمين معه، فقطوا رأس القاضي في شهر ذي الحجة سنة 401 هـ وحملوه إلى مصر (1) ، وخسرت طرابلس قاضيا من أعظم قضاتها، و تعاقب على القضاء بعده إبناه : القاضي "الحسين بن علي حيدرة" (2) ، والقاضي "هبة الله بن علي حيدرة " (3)

(1) زبدة الحلب، ج1، ص.200؛ طبعة دار الكتاب العربي، بيروت 1412هـ، 1992 م، ص.45–46، رقم 21، وفيه حشدت مصادر أخرى.

(2) ذكره التهاي في ديوانه، ص.112.

(3) ذكره التهامي في ديوانه، ص.176–178، وعبد المحسن الصوري في ديوانه،تحقيق مكي السيد جاسم وشاكر هادي شاكر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد 1980، ج1، ص.208.

(5930/1)

.

... فيما بقي "أبو سعادة" يتولى قيادة عسكرها ومعظمهم من المغاربة، واستنجد به والي "المعرة" لدفع المحاصرين لبلده، فوافاه في ثلاثة آلاف رجل، وذلك في سنة 402 هـ/1011 م(1).

... ونرى في بعض النواحي من "لبنان" ابن ثعبان الكتامي "وهو يرسل عشرة أحمال تفاح إلى الخليفة "الظاهر" (2) .

---

(1) مرآة الزمان، (المخطوط))، ج11، ق2، ص.221–222.

(2) المسبحي ، أخبار مصر في سنتين، تحقيق وليم ج. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب 1980، ص.204.

(5931/1)

... ولما استولى "بنو أبي الفتح" على طرابلس حول منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، جاءهم الأمير "حيدرة بن منزو الكتامي" وتمكن من القضاء على حركتهم بمساعدة ابن قبيلته

أيضا "أمين الدولة ابن عمار" (1) . بل إن "ابن منزو" مات وهو على صور، يتعقب "بدرا الجمالي" سنة 462 هـ/ 1070م. وكان "جلال الملك ابن عمار" صاحب طرابلس قد تزوج ابنة "حيدرة بن منزو" وأوى أخاها "معلى الكتامي" إلى صور، ثم إلى طرابلس قبل أن يحمل إلى مصر ويقتل هناك

---

(1) ذيل تاريخ دمشق، ص.90؛ مرآة الزمان، (المخطوط) / ج12، ص.102–102.

(5932/1)

---

(1) .

... وظل بنو عمار الكتاميون يقبضون على زام الإمارة في طرابلس إلى مطلع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، مما يدل على الحضور القوي للجالية المغاربية في ساحل الشام، وبشكل خاص في الولايات الساحلية بـ «لبنان» . وتجدر الإشارة أيضا إلى أن المغاربة لم يكونوا كلهم إسماعليين على مذهب الدولة الفاطمية، بل كانوا في الغالب من الشيعة الأمامية، وبعضهم من السنة على المذهب المالكي.

---

(1) ابن عساكر، تاريخ دمشق، مخطوط التيمورية، ج42، ص.27؛ ذيل تاريخ دمشق،ص.96.

(5933/1)

... وتستحوذ إمارة بني عمار الكتاميين المستقلة في طرابلس الشام الكثير من الأخبار في المصادر التاريخية لمدة تنيف على الخمسين عاما، هي مدة قيام إماراتهم التي امتدت من جبلة شمالا إلى جنوبية جنوبا. ووقفت على الحياد بين الدولة الفاطمية الإسماعيلية في مصر، والدولة السلجوقية السنية في العراق، وواجهت الحملات الصليبية حتى سقطت سنة 502 هـ/ 1109م. ودمر الصليبيون دار العلم بطرابلس وأحرقوا مكتبتها الرائعة التي قيل إنها كانت أكبر مكتبة في الدينا، وتضم نحو ثلاثة ملايين مخطوط (1)

---

(1) جيبيون ، تاريخ الدولة الرومانية، طبعة أوربا، ج2، جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، القاهرة ، 1958،.2، ص.224.

(5934/1)

. وإن الحديث عن إمارة بني عمار سياسيا وعسكريا وإداريا واقتصاديا واجتماعيا يتطلب كتبا قائما بذاته. كذلك الأمر فيما يتعلق بدار العلم وتأسيسها، وتطور بنائها، ونظارها، ومعلميها، وتلامذتها، والمؤلفات التي تحتويها...وبما أن المقام لا يتسع لذلك، أكتفي بهذه الإلماعية السريعة، محيلا الباحثين الكرام إلى بعض ما كتب عن بني عمار، وعن المكتبة (1) .

---

(1) أنظر كتابنا : لبنان من السيادة الفاطمة...(القسم السياسي)، ص.142 ومابعدها. و (القسم الحضاري)، ص.222 وما بعدها.

(5935/1)

... ولما كان ساحل الشام قد خضع لاحتلال الصليبيين ما يقرب من القرنين من الزمان
(6 و 7 هـ/ 12 و 13 م)، فإن أخبار المغاربة في المنطقة انحسرت بشكل شبه كامل، ليعود ذكر المغاربة من جديد عند حملات المسلمين التحريرية لساحل الشام الصليبية، وفي عصر المماليك وقبل الانتقال إلى مرحلة ما بعد الحروب الصليبية، أتوقف قليلا للتعرف على بعض المغاربة الذين نزلوا سواحل الشام وشاركوا في حركتها الثقافية، وأبدأ بأحد أعلامهم في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي وهو :

(5936/1)

... ° عقبة بن علقمة الفهري المعافري، أبو سعيد البيروتي أصله من المغرب، سكن الشام، ونزل ببيروت وأقام فيها فنسب إليها. وتتلمذ على إمام أهل الشام وفقيهم "عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي" الذي انتشر مذهبه في بلاد المغرب والأندلس في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وكان "عقبة" يلازم "الأوزاعي" حتى عد واحدا من أصحابه العشرة الذين اختصوا بصحبته. وتفرد هو بأحاديث عن "الأوزاعي" لا يرويها غيره. وهو الذي حكى سبب موته.

(5937/1)

... روى عنه : ابنه محمد بن عقبة ، والعباس بن الوليد البيروتي، وشيبة بن أبي ملك البيروتي، وعبد الحميد بن بكار البيروتي،

وتمام بن كثير الجبيلي (من جبيل بين بيروت وطرابلس) ، وغيرهم وهو توفي سنة 204 هـ (1)

---

(1) ابن زير الريفي، تاريخ مولد العلماء ووفياتهم، تحقيق عبد الله بن أحمد بن سليمان الحمد، طبعة دار العاصمة الرياض 1410 هـ، ص.455؛ ابن أبي حاتم الرازي، الجرح والتعديل، ج2،ق1، ص.214؛ تقدمة المعرفة بكتاب الجرح والتعديل، ص.209–210؛ وكتبانا : لبنان من قيام الدولة العباسية حتى سقوط الدولة الأخشيدية، ص.228–229 ، وفيه حشدت مصادر الترجمة.

(5938/1)

.

... وفي العصر الفاطمي نتعرف على شاعر كتامي الأصل، وهو :

... ° جعفر بن علي بن دواس الكتامي، أبو طاهر، المعروف بقمر الدولة وهو من أهل مصر، ولكنه نشأ بطرابلس الشام ودرس فيها، ثم رحل إلى بغداد وأقام بها مدة في خدمة "قسيم الدولة البرسقي" وكان نديما له. وكان شاعرا رقيق الألفاظ، عذب الإيراد، لطيف المعاني، وله في الغناء وضرب العود والتطريب طريقة حسنة بديعة. ذكره "العماد الأصفهاني" في " الجريدة " وأفاض في وصف براعته بالعزف على العود، والغناء ولعب الشطرنج، والنظم والنثر، وحكاية النوادر. ومن شعره :

(5939/1)

تعجبت "در" من شيبي فقلت لها : ... ... لا تعجبني، فطلوع البدر في السلف

وزادها عجبا أن رحت في سمل ... ... وما درت "در" أن الدر في الصدف

ولم تؤرخ المصادر لوفاته (1)

---

(1) العماد الأصفهاني، جريدة النصر وجريدة العصر، (قسم شعراء العراق)، ج2، ص.64–56، (قسم شعراء مصر)، ج2، ص.218–220؛ الحظيري، لمح الملح، مخطوط أحمد الثالث 2244)، ورقة 72، الملك المنصور الأيوبي، أخبار الملوك ونزهة الملك والمملوك في طبقات الشعراء، (مخطوط لندن 269)، ورقة 229أ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ص.224–225؛ الدرة ص.57؛ السلفي، معجم السفر، (مصور بدار الكتب المصرية 2922 تاريخ)، ق2،ص.262.

(5940/1)

وبعدها، ونزل في رحلته بساحل الشام، فقرأ علي ابن رجاء بعسقلان، وإسماعيل بن عليان بارسوف، وجامع بن الخضر بصيدا، والخضر بن أحمد بصيدا أيضا، وسليم بن أيوب الرازي الفقيه بصور، ومحمد بن إسماعيل الجوهري ببيروت، وسمع وقرأ في بلاد كثيرة إلى أن قال : فجملة من لقيت في هذا العلم ثلاث مائة وخمسة وستين شيخا من آخر المغرب إلى باب فرغانة يمينا وشمالا وجبلا وبحرا، ولو عملت أحدا يقدم علي في هذه الطريقة، في جميع الإسلام لقصدته. وله كتاب "الوجيز" وكتاب " الهادي" ،ثم ألف كتاب "الكامل» وجعله جامعا للطرق المتلوة،

(5941/1)

والقراءات المعروفة، ونسخ به مصنفاته، وذكر فيه الشيوخ الذين قرأ عليهم، وعدتهم مائة واثنان وعشرون شيخا (1) .

---

(1) ابن بشكوال، الصلة، ج2، ص.680؛ العبر في خبر من غبر، ج3، ص.260 ؛ ومعرفة القراء الكبار، تحقيق بشار بن عواد معروف، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت 1404هـ / 1984م، ج1، ص.429–422، رقم 267؛ نكت الهميان في نكت العميان، ص.214؛ ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج2، ص.297–401؛ موسوعة علماء المسلمين، ق1، ج5، ص.220–222 رقم 1871.

(5942/1)

... هذا، عدا عشرت الأندلسيين الذين نزلوا سواحل الشام وشاركوا في الحياة العلمية، وهم يستحقون أن نفرد لهم بحثا آخر.

... أما من أعلام المغاربة الذين نزلوا سواحل الشام في فترة الاحتلال الصليبي، فنذكر :

... ° عبد الوهاب بن عيسى بن محمد، أبو محمد البسكري المغربي الفقيه المالكي، قدم دمشق وهو شاب سنة 525 هـ، وكان يختلف إلى مدرسة الفقيه أبي البركات بن عيد، ثم رزق عناية من الأمير فتحلق تحت النسر بالجامع الأموي، واجتمع في الوعظ، وفتح عليه، ودرسهم مذهب مالك في حياة الفقيه الفندلاوي، ثم شرع في الوعظ، وفتح

(5943/1)

عليه، فلما استشهد الفندلاوي جلس في حلقة المالكية، فلما مات "أنر" قصده ابن الصوفي رئيس دمشق، فخرج إلى بعلبك فأحسن إليه أميرها عطاء بن حفاظ السلمي الحصني. فلما جاء عطاء إلى دمشق أعاده إلى الحلقة، وعزل عنها الفقيه عيسى بن هارون.

... مات ليلة الخميس 6 رجب سنة 554 هـ (1).

... °عبد الله بن محمد بن عبد الله بن علي، أبو محمد الأشيري الصنهاجي الشيخ الحافظ مجد الدين الأشيري، نسبة إلى أشير حصن بالمغرب الفقيه

---

(1) تاريخ دمشق، (مخطوط التيمورية)، ج25، ورقة 182؛ موسوعة علماء المسلمين ...، ق2، ج2، ص.293،رقم 644.

(5944/1)

المالكي.

روى عن أبي الحسن الجذامي، والقاضي عياض، وكان عالما بالحديث وطرقه وبالنحو واللغة والنسب، كثير الفضائل.

... أجاز للمؤرخ أبي المحاسن يوسف بـ رافع المعروف بابن شداد صاحب "السيرة" جميع ما يرويه عن اختلاف أنواعه.

... قال "ابن شداد" : في فهرستي خطه بذلك مؤرخا بشهر رمضان سنة 559 وفهرسته عندي بذلك

... توفي في شوال سنة 561 بالشام ودفن ببعلبك ظاهر باب حمص شمالي البلد، وقبره ظاهر ببعلبك (1)

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، ج7،ص.86؛ ابن العمار الحنبلي، شذرات الذهب، ج4، ص.198؛ موسوعة علماء المسلمين...، ق2، ص.274 رقم 617.

(5945/1)

.

... ° محمد بن سليمان بن معالي بن أبي سعيد المغربي الشافعي له سماع للحديث، حضر مجلس الشيخة الصالحة أم الفضل كريمة حفيدة محمد بن أبي ذر الصوري من مدينة صور بساحل الشام، وسمع عليها "مسند عبد الله بن عمر" بقراءة أحمد بن إسماعيل بن فلوس، وذلك بالميطور بالبقاع، في 7 ربيع الآخر سنة 641 هـ واسمه مذكور في سماعات المسند (1)

---

(1) مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب، تخريج أبي أمية محمد بن إبراهيم الطرسوسي، تحقيق أحمد راتب عرموش، طبعة دار النفائس، بيروت 1981، ص.52–54؛ موسوعة علماء المسلمين...ق2،ج4،ص.22،رقم1012.

(5946/1)

.

... ° مروان بن عثمان، أبو الحسن الصقلي المغربي فقيه، له شعر لابأس به. قدم دمشق سنة 478 هـ، ونزل صور بساحل الشام وأنشده شيئا من شعره. ذكره "ابن عساكر" وقال : وهو رجل صدر

إمام، زاهد، فقيه، عالم، أحسن الناس خطا، وأكثر في العلم حظا.

وصل إلى دمشق فأنزله الشيخ الأمين أبو محمد بن الأكفاني بمنزله وتكفل بجميع حوائجه مدة مقامه عنده، ولم يكن يقبل الهدية ولا له في التكسب نية، ولم يدرس أحدا، وكان يكاد يظهر، ولم أجتمع به إلا بعد أن استأذنه الشيخ، ففسح في حضوري فحضرت ومعي

(5947/1)

" الجمل" (للزجاجي) وقرأت عليه منه كراسة واحدة. وسار إلى بغداد واتصل بالخليفة وعزم عليه في تعليم ولده، فدخل داره وهناك توفي، ولم يذكر ابن عساكر تاريخ وفاته.

... وهو القائل :

... هل من لواعج البين من جار ... ... لمتسهام غريب دمعه جاري

... حيران مغترب مكتئب ... ... ذي دمع سرب كالسيل خرار

... وكلما نسمت بخديه نظمت ريح ... ... الجنوب بتاريخي وأفكاري

... فيض الدموع ونيران الضلوع معا ... ... يا قوم كيف اجتمع الماء و النار؟(1)

---

(1) تاريخ دمشق(مخطوط التيمورية)، ج61، ص.164–165؛ موسوعة علماء المسلمين، ق2، ج4، ص.251–252 رقم 1269.

(5948/1)

... وكان للمغاربة دور واضح في ساحل الشام على عهد المماليك، سياسيا وحضاريا، ولا تزال آثارهم قائمة حتى الآن في عدة معالم عمرانية، وخاصة في مدينة طرابلس الشام، آمل أن أتناوله في بحث قادم إن شاء الله.

(5949/1)

المغاربة والجهاد البحري ضد الصليبيين

... ... الأستاذ عبد المجيد بهيني

كلية الآداب ـ بني ملال

... يكتسي الجهاد البحري أهمية خاصة للفترة موضوع الدراسة، وذلك لأنها فترة شهدت حملات وحروباً شنّها الغرب الأوربي المسيحي على البلاد الإسلامية عرفت في التاريخ العام باسم »الحروب الصليبية«. وقد استمرت هذه الحملات على مدى قرنين من الزمان، ومكنت أوربا من توطيد سيطرتها في العديد من المناطق الإسلامية المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، وخاصة سواحل بلاد الشام والمناطق المجاورة لها، حيث تمكن الفرنجة من

(5950/1)

تأسيس ثلاث إمارات ومملكة بيت المقدس. وكان لهذه الأحداث أصداء في كل أنحاء العالم الإسلامي، أفرزت ردود فعل عبر عنها بأشكال مختلفة ومتفاوتة الأهمية. وقد سجلت المصادر وجود مشاركة مغربية مكثفة في الجهاد ضد الصليبيين بصفة عامة،

والجهاد البحري في الجزء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وبالبحر الأحمر بصفة خاصة. فما طبيعة هذه المشاركة؟ وإلى أي حد يمكن اعتبار هذا الوجود المغربي بالمشرق وهذه المشاركة تجسيداً لإرادة سياسية؟

... للإجابة على هذين السؤالين، قسمنا هذه المداخلة إلى أربعة عناصر:

... .مقاربة منهجية.

(5951/1)

... .أسباب وجود المغاربة بمصر والشام.

... .مكانة المغاربة في نفوس المشارقة.

... .مظاهر مشاركة المغاربة في الجهاد البحري ضد الصليبيين.

ا .مقاربة منهجية:

... 1 .المصادر:

... شكل موضوع »الحروب الصليبية« مجالاً خصباً لظهور مئات المؤلفات والمقالات. وقد تنوعت هذه الدراسات بتنوع الاتجاهات والموضوعات والزوايا التي نظر منها إلى هذا الحدث، حيث عولجت من زاوية غربية، وكذلك من وجهة نظر شرقية. ولم تكن هذه الدراسات لترى النور لولا وجود مادة مصدرية غزيرة ومتنوعة الأصول والمشارب. وإذا كانت هذه المادة تحتوي

(5952/1)

على معلومات مهمة بخصوص الأحداث العسكرية والحربية والمعاهدات والاتفاقيات، فقد خلدت كذلك أسماء العديد من الرجال الذين شاركوا في هذه الحروب، وكانت لهم فيها أدوار بارزة، سواء إلى جانب القوات الصليبية أو في صفوف القوات الإسلامية. هذا التنوع في المعلومات لا ينطبق على موضوع عرضنا، حيث يلاحظ وجود معلومات قليلة من حيث الكم لكنها تبقى مع ذلك مهمة، إلا أنها غير متكافئة في ما بين المصادر المشرقية والمصادر المغربية؛ إذ أنه في الوقت الذي نعثر فيه على بعض الإشارات المتفرقة في المؤلفات المشرقية على اختلاف

(5953/1)

أجناسها، تكاد المصادر المغربية تخلو ـ حسب علمنا ـ من المعلومات التي تفيد موضوع جهاد المغاربة البحري في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط إبان هذه الفترة؛ الأمر الذي يجعل مهمة الباحث صعبة جداً في التعامل مع هذه الإشارات ذات النظرة الأحادية، ويفسح المجال، في غياب وثائق واضحة وصريحة، للقياس والاستنتاج. وفي هذا الإطار، وأمام ندرة المعلومات، عمدنا إلى استغلال كل الإشارات التي وردت في المصادر والدراسات وحاولنا التنسيق بينها، رغبة في استنتاج بعض الحقائق.

(5954/1)

... من المصادر التي اعتمدناها لإنجاز بعض عناصر هذه الدراسة نذكر "كتاب الاعتبار" لأسامة بن منقذ (ت 1188 م)، و"الرحلة"

لابن جبير الأندلسي (ت 614 هـ/ 1217 م)، وكتاب "الكامل في التاريخ" لابن الأثير (ت 630 هـ/ 1232 م)، و"الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" لأبي شامة الدمشقي (ت 665 هـ/ 1268 م)، وكتاب "الذيل على الروضتين" المعروف بـ" تراجم رجال القرنين السادس والسابع" للمؤرخ نفسه، ثم كتاب " الإلمام بالإعلام لما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية " لمحمد بن القاسم النويري السكندري

(5955/1)

المالكي (عاش في القرن الثامن الهجري) (1)

---

(1) هو غير شهاب الدين النويري صاحب كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب" المتوفى سنة 732 هـ/ 1332 م. وكتاب "الإلمام" هو مخطوط بدار الكتب المصرية. وقد أورد السيد عبد العزيز سالم بعض الصفحات والفقرات منه في كتابه المفيد: "تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي"، الإسكندرية، ط2، 1969 م. واعتمد عليه أحمد مختار العبادي في كتاب "تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام"، القسم الثاني، دار النهضة العربية، بيروت، 1981. وقد اعتمدنا بدورنا في اقتباس بعض نصوص "الإلمام" على المرجع الأخير.

(5956/1)

، وكتابا "السلوك لمعرفة دول الملوك" و"المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" لتقي الدين أحمد المقريزي (ت 845 هـ/ 1442 م)، ومصادر أخرى...

...

... 2 ـ الدراسات:

... يبدو أن قلة المعلومات في المصادر، المغربية على الخصوص، هي التي يمكن أن تفسر قلة اهتمام الباحثين بموضوع مشاركة المغاربة في الجهاد البحري ضد الصليبيين بسواحل بلاد الشام ومصر. ومع أنه لا توجد ـ حسب علمنا ـ دراسة مخصصة لهذا الموضوع، فإن هنالك من الأبحاث والمؤلفات ما أشار إلى بعض عناصره في إطار اهتمامات وانشغالات بقضايا أخرى.

(5957/1)

... من بين الدراسات نذكر كتاب "تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام"(1) للسيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي حيث أوردا بعض الإشارات المتعلقة بمشاركة البحريين المغاربة في مهاجمة سفن الصليبيين، وبالعناية التي أولاها المشارقة لهؤلاء إبان العهدين الأيوبي والمملوكي. ثم هناك كتاب "الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري"(2)

---

(1) دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981 م.

(2) دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، 1989.

(5958/1)

لأحمد علي الذي خصص بعض السطور للحديث عن انخراط المغاربة في جيش نور الدين محمود بن زنكي (511 هـ/ 569 هـ) في حربه ضد الفرنجة ببلاد الشام، وعن مسألة الأسرى. ونذكر كذلك كتاب الأستاذ عبد الهادي التازي عن "التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم"(1) في عشر مجلدات حيث يبرز في بعض فقراته الدور العسكري والحربي للمغاربة بالمشرق، ويحاول ربط هذا الدور برغبة سياسية مغربية مبنية على التعاون بين المغرب والبلدان

(1) مطابع فضالة، المحمدية، المجلدان السادس (1407 هـ/ 1987 م) والسابع (1408 هـ/ 1988 م).

(5959/1)

المشرقية. لكن إن صح ذلك في فترات معينة من تاريخ علاقات المغرب بهذه البلدان، فإنني أعتقد أنه لا ينطبق على الإطار الزمني الذي رسمته لهذه المداخلة. ثم هناك دراسة لصاحب هذا المقال نشرت في مجلة "المناهل"(1) سلطت الأضواء على الأثر الواضح الذي تركه المغاربة ـ بالمفهوم الواسع للكلمة ـ بالمشرق في شتى

(1) عبد المجيد بهيني، «أثر مهاجري المغرب الإسلامي في الحياة العامة بالمشرق خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني والثالث عشر الميلاديين»، مجلة المناهل، العدد 53، دجنبر 1996، ص ص. 138 ـ 157.

المجالات، ومن بينها المجال العسكري والجهاد ضد الصليبيين(1).

...

II ـ أسباب وجود المغاربة بالبلدان المشرقية

... في أغلب الحالات وانطلاقاً من المعلومات المتوافرة في كتب التراجم، نستنتج أنه من الصعب تحديد تاريخ مدقق لتوافد المغاربة على المشرق بشكل عام على الرغم من ذكر بعض الرحالة والعلماء والتجار لتواريخ وأسباب رحلاتهم(2)

(1) وهو الأمر الذي جعلني أفكر في تعميق الدراسة في موضوع جهاد المغاربة البحري على عهد الحروب الصليبية.

(2) انظر بهذا الخصوص: أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بـ"الذيل على الروضين"، دار الجيل، بيروت، ط 2، 1974، ص . 7 و 186.

؛ مع ذلك، ليس من العسير إستنتاج أسباب وجودهم بالبلدان المشرقية، وذلك باعتبار الظروف والتطورات التي طرأت على الساحة السياسية بالغرب الإسلامي. ففضلاً عن الرحلات العلمية والدينية، يمكن تلخيص هذه الأسباب في ما يلي:

... (سقوط الخلافة الأموية بالأندلس، وظهور ما يسمى في تاريخ هذه المنطقة بـ »دويلات ملوك الطوائف«، ونتائج ذلك على أوضاع الأندلسيين الاقتصادية والاجتماعية والنفسية.

... (تعاقب أسر ذات مبادئ إيديولوجية وعقائدية مختلفة على حكم هذه المنطقة بعد سقوط ملوك الطوائف تتمثل في: دولة المرابطين (485

(5962/1)

. 541 هـ/ 1092 . 1146 م)، ودولة الموحدين (541 . 668 هـ/ 1146 . 1270 م). هذا التبدل في الدول رافقه تبدل عقائدي، الأمر الذي أضر بمصالح فئة مهمة من الأندلسيين أصبحت معارضة للحكم، وتمخض عنه حروب شبه مستمرة بين الدول الحاكمة والمعارضين تسببت في اضطراب الأوضاع بالأندلس، مما دفع بالكثير إلى الهجرة إلى أقطار أخرى.

... (ما تمخض عن حروب الاستردادات (التي انتهت بشكل نهائي في حدود 659 هـ/ 1261 م باستثناء غرناطة 1492 م) من إجراءات قاسية فرضت على كل من أثر البقاء من العرب المسلمين في مدنهم شروطاً بلغت حداً

(5963/1)

من الإهانة لا يطاق، مما أجبر أعداداً كبيرة من الأندلسيين على النزوح عن أرضهم إلى أقطار عربية إسلامية متعددة(1).

... وفيما يتعلق بالمغرب، تكمن الأسباب في:

... (نقل مركز حكم الدولة الفاطمية إلى مصر، وآثار ذلك على النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية لمنطقة بلاد المغرب (فقدان إفريقية لمكانتها الاقتصادية نتيجة اهتمام الفاطميين

بالمشرق .التنافس في أمور التبذير بين الولاة الذين تركهم الفاطميون في المهدية وبين أسيادهم في القاهرة، إلخ).

---

(1) علي أحمد، المرجع السابق، ص. 90.

(5964/1)

... (دخول قبائل بني هلال وبني سليم إلى إفريقية، وما نتج عن ذلك من خراب وتدمير أوقع البلاد في حالة من الفوضى والاضطراب الدائمين.

... (الهجوم النورماندي على إفريقية، واستيلاء ملوك صقلية المسيحيين على المهدية وكل المناطق الساحلية.

... (بداية تفوق أوربا في الملاحة وانعكاس ذلك على الأحوال الاقتصادية.

... (قيام الدولة الموحدية وما ترتب عليه من مضايقة أنصار النظام السابق.

... صحيح أن هذه المعطيات التاريخية تلقي الضوء على أسباب وجود المغاربة بمناطق مختلفة من العالم الإسلامي، وتساعد على فهم الإطار

(5965/1)

العام لهجرتهم ونزوحهم، لكن هنالك أيضاً نصوصاً مباشرة ومعاصرة لفترة موضوعنا تمكننا من فهم بعض أسباب هذا الوجود.

فهذا أسامة بن منقذ يذكر أن الفرنجة استولوا، في حدود منتصف القرن السادس الهجري، على مركب كان يقل على متنه حوالي أربعمائة نفس، رجالاً ونساءً، من الحجاج المغاربة وأن المشارقة أولياء الأمور، ومن بينهم أسامة نفسه، عملوا كل ما في وسعهم من أجل افتدائهم من أيدي الصليبيين(1).

---

(1) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، تحرير فيليب حتي، مكتبة الثقافة الدينية، ص. 81.

(5966/1)

... ويخبرنا أبو شامة عن مغاربة أندلسيين قدموا إلى دمشق في سنة 627 هـ بعدما تم افتكاكهم على ساحل الشام من أيدي الفرنجة(1).

... ويفترض كلود كاهن (Claude Cahen) ثلاثة أصول محتملة لوجود المغاربة بالبلاد المشرقية: حجاج ألقى عليهم الفرنجة

---

(1) انظر أدناه. ويتحدث أبو شامة أيضاً عن حالة هجرة الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله الضرير الأندلسي الإشبيلي الذي »ورد من الأندلس في سنة إحدى وعشرين وستمائة في البحر، فأسرته الفرنج ثم نجاه الله منهم... سكن دمشق...«، حيث توفي سنة 648 هـ (تراجم رجال القرنين، ص. 186).

(5967/1)

القبض في طريقهم إلى الحج، أو كان قد طال مقامهم من أجل المشاركة في الجهاد فأسروا، وتجار كان لهم المصير نفسه أو تجار وحجاج أسرهم في البحر القراصنة الصليبيون وباعوهم على سواحل بلاد الشام. هذه الاحتمالات تنسجم مع ما جاء في الإشارات الآنفة الذكر بالرغم من أن كاهن (Cahen) يقر بعدم وجود أمثلة ملموسة تسمح باعتماد فرضية محددة لتفسير هذا الوجود(1)

---

(1) C. Cahen, «Ibn Jobayr et les Maghrebins de Syrie», R.O.M.M, N° 13–14, 1973, p. 208؛

... كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة، ط 1، 1995، ص. 176.

(5968/1)

.

... على أن من بواعث توافد المغاربة على المشرق، يمكن أن نذكر الرغبة الملحة في المشاركة في الجهاد وتحرير المدن الإسلامية التي سيطر عليها الصليبيون عموماً، وبيت المقدس على الخصوص(1).

... بعد هذا الجرد للظروف والتطورات التي أسهمت في هجرة المغاربة ونزوحهم من الغرب الإسلامي، سنحاول في عنصر آخر مناقشة أسباب اعتماد الحكام في كل من مصر والشام عليهم في ميدان البحر.

...

III ـ مكانة البحارة المغاربة في نفوس المشارقة

(1) ابن جبير، الرحلة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 1981، ص. 247.

(5969/1)

... كان للموقع الجغرافي ولطبيعة المغرب الإسلامي دور بارز في تمرّس المغاربة بأمور البحر. وقد لاحظ ابن خلدون ذلك عندما قال: ... والساكنون بسيف هذا البحر (البحر الأبيض المتوسط) وسواحله من عدوتيه يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة من أمم البحار. فقد كانت الروم والإفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله. ولما أسف من أسف منهم إلى ملك العدوة الجنوبية مثل الروم إلى إفريقية، والقوط إلى المغرب، أجازوا في الأساطيل وتغلبوا

(5970/1)

على البربر بها وانتزعوا من أيديهم أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة... وطنجة. وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبعث الأساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد، فكانت هذه عادة لأهل هذا البحر الساكنين حقاً فيه معروفة في القديم والحديث(1).

... هذا التمرس، وما ترتب عليه من شهرة بحرية للمغاربة، أشادت

به المصادر التاريخية وكتب الرحلة ليس في الغرب الإسلامي فقط، ولكن في المشرق كذلك فيذكر المقريزي

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دون تاريخ، ص. 199.

(5971/1)

مثلاً أن فقراء المغاربة الذين وجدوا في القاهرة قد أكرههم الفاطميون على الخدمة، دون تمييز، في الأسطول المصري(1) لكونهم يتمتعون بسمعة حميدة، وأيضاً لشهرتهم في ميدان البحر. ويتعلق الأمر هنا بأهل إفريقية على الخصوص(2). أما ابن سعيد المغربي، فقد ذكر أن الأساطيل كانت وقفاً على المغاربة

---

(1) المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، بولاق، 1270 هـ/ 1853 م، ج 1، ص. 368.

(2) جوانيابن، دراسات في التاريخ والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1980، ص. 245.

(5972/1)

لمعرفتهم بمعاناة الحرب والبحر(1). كما أن العدد الأعظم من البحريين (نواتية الأسطول) في العصر الفاطمي كانوا مغاربة عرفوا بمهارتهم في قيادة السفن والملاحة في البحر منذ وقت مبكر(2).

... واستخدم صلاح الدين الأيوبي ـ من جهته ـ الملاحين المغاربة في أساطيله في إطار قيامه بالإصلاحات التي استهدفت تقوية الأسطول المصري(3)

---

(1) المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1949، ج 3، ص. 111.

(2) أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص. 130.

(3) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، نشر وتحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1936، ج 1، ص. 45.

(5973/1)

الذي لم يكن قادراً في نهاية حكم الدولة الفاطمية على التصدي للأسطول الإيطالي أو إلحاق الهزيمة به(1).

... وبخصوص اهتمام صلاح الدين بالملاحين المغاربة، أورد العماد الكاتب الأصفهاني (ت 597 هـ) إشارة على قدر كبير من الأهمية تفيدنا في فهم الدور الذي أدّاه هؤلاء على الصعيد العسكري بصفتهم مقاتلين أشداء. مفاد هذه الإشارة أنه أثناء حصار الجيوش الإسلامية لمدينة عكا سنة 587 هـ/ 1191 م، جاء رسول من قبل أحد قادة الصليبيين ومعه أسير مغربي، فقدمه إلى السلطان صلاح الدين

---

(1) كلود كاهين، المرجع السابق، ص. 117.

(5974/1)

على سبيل الهدية، فاستُقْبل الأسير بحفاوة وتقدير(1).

... فمن غير المستبعد أن يتعلق الأمر هنا بالرايس عبد السلام المغربي الذي تم أسره أثناء حصار قوات صلاح الدين لصور في 583 هـ/ 1187 م، والذي ذاع صيته في مجال الجهاد البحري كما سنرى. كل ذلك يدل على مدى إعجاب صلاح الدين بالمغاربة وتقدير جهودهم في الحرب ضد أعدائه. فهذا الاستقبال له

دلالة عميقة ليس عند صلاح الدين فقط، ولكن أيضاً عند الفرنجة الذين لم يكونوا على ما يبدو غافلين عن هذه

---

(1) إشارة للعماد الأصفهاني أوردها علي أحمد، مرجع سابق، ص. 304.

المكانة التي يحتلها المغاربة في نفوس حكام الشام ومصر خلال هذه الفترة.

... ومما يعضد هذا الطرح ما جاء عند أبي شامة خلال تعرضه

لأحداث 627 هـ، حيث يقول: »وجاء الخبر بأن الفرنج - خذلهم الله - استولوا على جزيرة ميورقة وقتلوا خلقاً كثيراً، وأسروا كذلك وقدموا ببعض الأسرى إلى ساحل الشام، فاستفك منهم طائفة، فقدموا علينا دمشق وأخبروا بما جرى عليهم«(1). وهذا يدل على أن هذه المكانة استمرت إلى ما بعد فترة حكم صلاح الدين. كما لا يستبعد أن تكون الوظائف العالية التي

---

(1) أبو شامة، تراجم رجال القرنين، ص. 159.

نالها المغاربة في القدس بعد تحريرها مكافأة لهم على خدماتهم ورغبة في استمرار هذه الخدمات في الوقت نفسه.

... ويمكن أن نلمس أثر هذا الاهتمام في إجراءات وموقف صلاح الدين من الغرباء المغاربة، حيث يذكر ابن جبير أنه جعل المسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس بن طولون »مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر« (1). بل أكثر من ذلك جعل أحكامهم إليهم، ولم يجعل يداً لأحد عليهم، حيث قدموا من أنفسهم حاكماً يمتثلون أمره

ويتحاكمون في طوارئ

---

(1) ابن جبير، المصدر السابق، ص. 25.

أمورهم عنده(1).

... وكما كان الحال عليه زمن الفاطميين الأواخر والزنكيين والأيوبيين، فإن الأمر لم يتبدل في عهد المماليك حيث يذكر النويري السكندري أنهم (المغاربة) أصبحت لهم مكانة خاصة في عصر المماليك البحرية، وأن يلبغا الخاصكي (ت. 768 هـ) كان يقدرهم قدرهم، ويعتبرهم فرسان البحر(2)؛ كما كان يكثر من قياد المغاربة على المراكب. ويلخص النويري سبب اعتماد المماليك على البحارة المغاربة(3)

---

(1) المصدر نفسه.

(2) أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص. 130.

(3) معلقاً بذلك على الدور البارز للرايس إبراهيم التازي، رئيس دار الصناعة بالإسكندرية، في التصدي وغزو القبارصة في عقر ديارهم. انظر أدناه.

بقوله إن الفرنج:

... ليس يقهرهم سوى المغاربة، ذلك لمخالطتهم لهم بجزيرة الأندلس، يعرفون طرق حربهم وطعنهم وضربهم في بر وبحر. فلو كان منهم بالإسكندرية من المغاربة جمعاً كبيراً بجوامك مرتبة، وغربان(1) مجهزة بعددها وأزوادها، كانوا يخربُوا جزراً كثيرة، وسارت الفرنج معهم في جزيرة (2).

... فأين يتجلى المظهر العملي لجهاد المغاربة البحري ضد الصليبيين؟

---

(1) مفردها »غراب« وهو نوع من المراكب.

(2) نص للنويري أورده أحمد مختار العبادي في المرجع السابق، ص. 130.

(5979/1)

IV ـ مظاهر مشاركة المغاربة في الجهاد البحري ضد الصليبيين

... خلدت المصادر التاريخية أسماء العديد من المغاربة الذين شاركوا في الجهاد ضد الصليبيين، ليس خلال

الحروب البرية التي جمعتهم بالمسلمين على الأراضي المصرية أو الشامية فقط(1)

---

(1) تزخر المصادر المغربية والمشرقية على السواء بالعديد من الإشارات التي تخص اشتراك المتطوعين المغاربة في جيش نور الدين محمود بن زنكي وفي جيش صلاح الدين الأيوبي في حروبهما البرية ضد الصليبيين. راجع في هذا الصدد ابن جبير، المصدر السابق، ص. 247 و 253؛ وابن الأثير، الكامل في التاريخ، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1407 هـ/ 1987 م، المجلد التاسع، ص. 353؛ وابن الزبير، صلة الصلة، نشر بروفنصال، الرباط، 1938 م، ص. 218.

(5980/1)

، بل كذلك في الجهاد البحري بسواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقية وبالبحر الأحمر.

...

... 1 ـ سواحل البحر الأبيض المتوسط

... لم يكن المغاربة نزلاء البلاد المشرقية التي عانت من ويلات الحملات الصليبية ليبقوا مكتوفي الأيدي أمام تطور الأحداث، بل شاركوا بشكل مكثف في المعارك

التي خاضها المسلمون ضد الغزاة. ولم تكن هذه المشاركة على صورة واحدة. إذ فضلاً عن الاشتراك المباشر في القتال، هناك من قدم المال لتجهيز المقاتلين(1)

---

(1) يمكن استنتاج ذلك من نص المسألة التي أنشأها، بأمر من صلاح الدين الأيوبي، القاضي الفاضل البيساني، وأرسلها إلى يعقوب المنصور الموحدي يستنجده فيها على الفرنج إبان حصاره لعكا في سنة 586 هـ، حيث يقول: »... وإن كان دون الأسطول موانعُ إما من قلة عدة أو من شغل هناك بمهمة أو بمباشرة عدو ما تحصن منه العورة أو قد لاحت منه الفرصة، فالمعونة ما طريقها واحدة ولا سبيلها مسدودة ولا أنواعها محصورة، تكون تارة بالرجال وتارة بالمال« (أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ، ج 2، ص. 171).

(5981/1)

.

... أول إشارة أوردتها المصادر بخصوص جهاد المغاربة البحري على عهد الحروب الصليبية ـ حسب علمنا ـ جاءت في

رسالة للقاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى وزير بغداد يبشره فيها بفتح حصن الأحزان(1)

---

(1) كان على المسلمين من هذا الحصن ضرر عظيم، وكان هذا الحصن لفرقة الداوية (وهي منظمة دينية عسكرية أخذت على عاتقها حماية الحجاج المسيحيين والدفاع عنهم وعن الأرض المقدسة)، وكان من فيه يقطعون الطرقات على قوافل المسلمين. (أبو شامة، كتاب الروضتين، ج 2، ص. 8). يتعلق الأمر بالوزير ظهير الدين أبي بكر منصور بن أبي القاسم نصر بن العطار وزير الخليفة العباسي المستضيء (ت 575 هـ).

(1/5982)

وتخريبه (574 هـ)، حيث يُذَكِّرُهُ فيها بالانتصار الذي حققه الأسطول المصري على الصليبيين بعكا، وبالبلاء الحسن الذي أبلاه المغاربة المعروفون - على حد قول القاضي الفاضل - »بغزو بلاد الكفر« عندما ضيق الفرنجة الخناق على عكا(1). هذه العبارة التي جاءت في نص الرسالة تصريح واضح وشهادة بالدور الذي لعبه المغاربة في هذه المواجهة واعتراف باشتهارهم بحرب النصارى سواء بالغرب الإسلامي حيث كانوا مجاورين لهم،

أو بالمشرق حيث لم يكن الأسطول المصري يستغني عنهم.

---

(1) أبو شامة، كتاب الروضتين، ج 2، ص. 14.

(1/5983)

... ويظهر أن البحريين المغاربة شاركوا إلى جانب حسام الدين لؤلؤ، قائد الأسطول المصري سنة 583 هـ/ 1187 م، في تضييق الخناق على الصليبيين في بيت المقدس.
وكانت مهمة الأسطول تتمثل في قطع الطريق بحراً على الإمدادات الفرنجية حيث كانوا »كلما رأوا لهم مركباً، غنموه؛ وشانياً، أخذوه«(1). وقد انتهى هذا الحصار باسترجاع القوات الإسلامية لبيت المقدس.
... وقد تولى المغاربة أعلى المراتب في التنظيمات البحرية بمصر، حيث يتحدث كل من ابن الأثير وأبي شامة عن المدعو »عبد

---

(1) ابن الأثير، المصدر السابق، م 10، ص. 154.

(1/5984)

السلام المغربي« الذي كان رئيساً للأسطول. وهي مهمَّةٌ ومسؤولية خطيرة تتمثل في تدبير أمر جِرية الأسطول بالريح أو بالمجاديف وأمر إرسائه في مرفئه(1). وكان عبد السلام المغربي هذا موصوفاً ـ في نظر ابن الأثير ـ بالحذق في صناعته وشجاعته(2). فقد اشتهر بمواجهة الصليبيين على سواحل مصر وبلاد الشام، وظهر دوره

---

(1) المصدر نفسه، ص. 160؛ أبو شامة، كتاب الروضتين، ج 2، ص. 119. بخصوص التنظيمات البحرية، راجع: ابن خلدون، المقدمة، مبحث »قيادة الأساطيل«، ص ص. 199 ـ 200.

(2) ابن الأثير، المصدر السابق، م 10، ص. 160.

(5985/1)

جلياً في الجهاد البحري أثناء حصار صلاح الدين لمدينة صور في سنة 583 هـ/ 1187 م.

... على أن من الأحداث التي لها علاقة بالتاريخ البحري للبحر الأبيض المتوسط عموماً، وبالجهاد البحري على الخصوص، الرسالة التي وجهها صلاح الدين الأيوبي إلى يعقوب المنصور الموحدي سنة 586 هـ/ 1190 م، »طالباً مدد الأساطيل لتحول في البحر بين أساطيل الكفرة ـ

كما يقول ابن خلدون ـ وبين مرامهم من إمداد النصرانية بثغور الشام (الصليبيين) «(1)

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 202؛ انظر نص الرسالة في الروضتين، ج 2، ص ص. 170 ـ 171. ويتعلق الأمر هنا بالحملة الصليبية الثالثة.

(5986/1)

.

... لقد أثارت مسألة الاستجابة لهذا الالتماس نقاشاً بين المؤرخين والباحثين. فإذا كانت كل المصادر، مشرقية ومغربية، تكاد تجمع على أنه لم يحصل من جهة الخليفة الموحدي ما الْتُمِسَ منه من مساعدة، فإن هنالك إشارةً مضطربةً أوردها أبو العباس أحمد بن خالد الناصري في كتابه "الاستقصا" (وهو كتاب متأخر) يقول فيها:

... ولما وقف عليه (الكتاب) المنصور ورأى تجافيهم فيه عن خطابه بأمير المؤمنين، لم يعجبه ذلك، وأسَرَّهَا في نفسه، وحمل الرسول على مناهج البر والكرامة؛ وردَّه إلى مرسله ولم يجبه إلى حاجته. ويقال إنه

(5987/1)

جهز له بعد ذلك مائة وثمانين أسطولاً، ومنع النصارى من سواحل الشام. والله تعالى أعلم(1).

... ومع أن الناصري نفسه يتحفظ من هذه المعلومات، كما هو ظاهر في النص، فقد تم الاعتماد على هذه الإشارة لتأكيد وقوع استجابة لهذا الالتماس، وذلك بناء على إجراءات كانت مألوفة لدى حكام البلاد المشرقية اتخذت في حق النازحين

(1) الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدولتان المرابطية والموحدية)، ج 2، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1995، ص ص. 182 ـ 183.

(1/5988)

والمهاجرين من المغاربة إلى هذه الأقطار حتى قبل هذا التاريخ (تاريخ الرسالة) (1)

(1) بنى الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي طرحه هذا على مبادرة الملك الأفضل الذي خلف والده صلاح الدين، حيث حبس عام 589 هـ/ 1193 م المكان الذي اعتاد

المغاربة أن يجاوروا عنده في بيت المقدس ليسكنوا في مساكنه وينتفعوا بمنافعه. (عبد الهادي التازي، المرجع السابق، المجلد السادس، ص ص. 314 ـ 315).

وكانت هذه المعاملة مألوفة لدى حكام بلاد الشام ومصر قبل هذا التاريخ (راجع ابن جبير، المصدر السابق، ص. 232)، حيث يذكر أن نور الدين محمود بن زنكي عين للمغاربة الغرباء أوقافاً كثيرة منها سبعة بساتين وأرض بيضاء، وأن المشرف عليها كان هو الآخر مغربيّاً يدعى أبو الحسن علي بن سردال الجياني. وقد ذكرنا كذلك موقف صلاح الدين من الغرباء المغاربة قبل هذا التاريخ.

(1/5989)

. فهل يصح الاعتماد على إشارة كهاته وعلى إجراءات كانت مألوفة لتأكيد وقوع الاستجابة؟

... ولنفترض أن يعقوب المنصور أجاب صلاح الدين إلى ما طلب، فلابد من أن يكون لذلك وقع وأصداء في البلدان التي شاركت في الحملة الصليبية الثالثة، وبالتالي انعكاس في وثائقها ومصادرها. لكن شيئاً من ذلك لم يقع، لأننا لم نجد أثراً لهذه الاستجابة في الدراسات الغربية التي اهتمت بالتأريخ لهذه الحقبة من تاريخ

الشرق الأوسط

... وفي هذا الإطار، يرى كلود كاهين، وهو من أكبر المتخصصين في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمنطقة الشرق

(5990/1)

الأوسط، أن صلاح الدين لم يتمكن من إثارة اهتمام مسلمي الغرب الإسلاميّ (ويعني الموحدين) بالكفاح المستمر ضد الفرنجة(1). ويمكن إرجاع سبب ذلك إلى انشغال يعقوب المنصور بأحداث البرتغال، مما يدفعنا إلى القول بأن غياب الوثائق الرسمية في المصادر يمكن أن يدل على غياب إرادة سياسية رسمية. وعلى الرغم من التوتر الذي كان قائماً بين الأيوبيين والموحدين، فإن ذلك لم يحل دون استمرار وجود إرادة شعبية ورغبة ملحة في المشاركة في الجهاد ضد الصليبيين بدليل استمرار حركة المتطوعين

---

(1) كلود كاهن، المرجع السابق، ص. 242.

(5991/1)

إلى ما بعد العهد الأيوبي، وهو الأمر الذي يظهر بجلاء من خلال كتب التراجم ومن خلال وجود أحياء وأوقاف خاصة بهم بكل من مصر والقدس(1).

... وسواء حصلت الاستجابة أو لم تحصل، وهو المرجح، فإن تلك الرسالة تكشف عن ضعف الأسطول المصري عن مجابهة الأساطيل الإفرنجية، وعن سمعة الأساطيل التي كان المغرب يتوفر عليها على عهد الدولة الموحدية.

وقد لاحظ ابن خلدون ذلك حين قال في معرض حديثه عن هذه الرسالة: »وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل« (2)

---

(1) عبد الهادي التازي، المرجع السابق، م 6، ص. 315.

(2) ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 202.

.

... 2 ـ البحر الأحمر

... تشير المصادر إلى أن المغاربة شاركوا إخوانهم بمصر في التصدي لما عرف في التاريخ بـ »حملة البحر الأحمر« في سنة 578 هـ/ 1182 م. ذلك بأن أحد القادة

الصليبيين يدعى رينو الشاتيوني (Renaud de Chatillon)، صاحب حصن الكرك (جنوبي فلسطين)، والمعروف في المصادر الإسلامية باسم »أرناط«، جهز مراكب وشحنها بالرجال وآلات القتال، ومضى بها »نحو عيذاب، فقطعوا طريق التجار وشرعوا في القتل والنهب والأسر، ثم توجهوا إلى أرض الحجاز وتعذر على الناس وجه الاحتراز فعظم البلاء... وأشرف أهل المدينة

(1/5993)

النبوية منهم على خطر« (1). ويرى ابن جبير »أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وإخراجه من الضريح المقدس«(2). فلما وصل الخبر إلى مصر، أمر الملك العادل (أخو صلاح الدين ونائبه بمصر) الحاجب حسام الدين لؤلؤ، فعمر المراكب »بالرجال البحرية ذوي التجربة من أهل النخوة للدين والحمية«، مع أنجاد من المغاربة البحريين(3)،

---

(1) أبو شامة، كتاب الروضتين، ج 2، ص. 35.

(2) ابن جبير، المصدر السابق، ص. 32.

(3) المصدر نفسه.

(1/5994)

... وسار إلى أيلة، فظفر بالمركب الفرنجي عندها، فخرق السفينة وأخذ جندها، ثم عدّى إلى عيذاب وشاهد بأهلها العذاب ودل على مراكب العدو فتبعها فوقع بها بعد أيام فأوقع بها وواقعها وأطلق المأسورين من التجار ورد عليهم ما أخذ لهم... وعاد إلى القاهرة ومعه الأسارى. فكتب السلطان إليه بضرب رقابهم وقطع أسبابهم، بحيث لا يبقى منهم عين تطرف ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف (1).

---

(1) أبو شامة، كتاب الروضتين، ج 2، ص ص. 35 ـ 36.

(1/5995)

... لا يهمنا هذا السرد إلا بقدر ما يعطينا فكرة عن هذا الحدث الذي أسال مداداً كثيراً سواء من جانب الباحثين العرب أو أمثالهم الغربيين، عبروا من خلاله عن وجهات نظرهم بخصوص هذه الحملة، والأبعاد التي يمكن أن تكون قد اتخذتها. وقد اختلفت الأبعاد باختلاف وجهات النظر هاته؛ حيث هناك من أعطى هذه الحملة بعداً دينياً، بمعنى أن هدفها كان هو الهجوم على الأراضي الإسلامية المقدسة (إخراج الرسول من الضريح المقدس) (1). وهناك

من أعطاها بعداً اقتصادياً(2)

---

(1) ابن جبير، المصدر السابق، ص. 32.

(2) G. Schlumberger, Renaud de Chatillon, Prince d'Antioche et seigneur de la terre d'Outre-Jourdain, Paris, 1898; Mohamed Lamli, L'Islam et la société au temps de Salah-Din (1138–1193), Thèse de doctorat (nouveau régime), Lille III, 1989.

(1/5996)

. وبخصوص هذا الأخير، تباينت التأويلات والتحليلات، حيث يرى البعض في هذه الحملة تجسيداً للرغبة في منازعة المصريين واليمنيين سيطرتهم على تجارة البحر الأحمر(1)، مفرغاً إياها من كل محتوى ديني. لكنه يبقى في اعتقادنا تحليلاً بعيداً في التأويل لعدة أسباب:

... (إذ نرى مع كلود كاهين أنه لا يمكن أن يتوقع من رينو الشاتيوني (أرناط) الذي بدأ مسيرته في الشرق بالقيام بعملية سطو على القبارصة الذين لم يفعلوا له ما يبرر ذلك التصرف إلا أن يقوم بعملية نهب جديدة تكون أكثر تهوراً(2)

---

(1) Lamli, op. cit., p. 201sq.

(2) كلود كاهن، المرجع السابق، ص. 191.

(1/5997)

.

... (يعضد هذا القول ما ذهب إليه ابن العديم (ت 660 هـ) و كَروسي (Grousset) من أن أرناط قام في سنة 555 هـ/ 1160 م (وكان حينها أميراً على أنطاكية) بنهب قطعان الماشية (خيل وأبقار وأغنام) التي كانت منتشرة في الحقول الواقعة بين مرعش ودلوك(1) (شمال حلب)، دون أن يتساءل لحظة هل هذه القطعان للمسيحيين

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، نشر وتحقيق سامي الدهان، دمشق، 1954، ج 2، ص ص. 311 ـ 312؛ R. Grousset, Histoire des croisades et du Royaume franc de Jérusalem, Paris, 1991, tome II, pp. 23–24.

(1/5998)

الأرمن والسريان. إذ المهم عنده أنه رأى في ذلك تجاراً يسهل التغلب عليهم ونهب أموالهم أو فلاحين ورعاة دون مقاومة.

... (ومما يزكي ذلك ما أورده ابن العديم من أن أرناط، بعد حصوله وتوليه على حصن الكرك، تعرض للحاج، وقطع طريق القوافل ما بين مصر ودمشق(1).

... (ثم إن احتكار تجارة البحر الأحمر يتطلب توافر إمكانات مادية وبشرية هائلة من مراكب وعتاد ومقاتلين لم تكن لتتوافر حتى عند أقوى الأمراء الصليبيين آنذاك(2)

---

(1) ابن العديم، المصدر السابق، ج 3، ص. 34 و 92.

(2) فاحتلال المدن الساحلية لبلاد الشام، وضمان الإمدادات البشرية، وكل ما يتعلق بتأمين الوجود الصليبي بالمنطقة كان يتم في أغلبه على متن أساطيل إيطالية.

، فما بالك بحصن الكرك كما أن الإمارات الصليبية في حدود هذا التاريخ كانت تشكو كلها من الانخفاض في عدد جيوشها الناتج عن الحروب المستمرة من جهة، وانقطاع الإمدادات البشرية التي كانت تصلها من

الغرب إبان الحملة الصليبية الأولى وبعدها من جهة أخرى(1).

... هذه إذن عوامل يمكن أن تنهض دليلاً على عدم صحة الطرح الذي يرى في حملة البحر الأحمر رغبة أرناط في منازعة

---

(1) ف. فارج و ي. كرباج، المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، 1994، ط 1، ص. 79 وما بعدها.

(6000/1)

المصريين واليمنيين احتكارهم لتجارة هذا البحر.

... وبخصوص البحريين المغاربة، فإن أهمية مشاركتهم في التصدي لهذه الحملة تكمن في الحملة نفسها، لأنها تعتبر - على حد معرفتنا - أول تدخل إفرنجي في هذا البحر. وتزداد هذه الأهمية إذا ما اعتبرنا البعد الديني للحملة ومن خلاله شرف التصدي لحماية الأماكن الإسلامية المقدسة، وهو شرف سينضاف لمشاركتهم في حصار الصليبيين ببيت المقدس في سنة 583 هـ/ 1187 م كما رأينا(1).

---

(1) انظر أعلاه.

(6001/1)

... فيبدو من خلال كل ما سبق أن الأسطول المصري لم يستغن في أي وقت من الأوقات إبان العهدين الفاطمي والأيوبي عن المغاربة البحريين، وأن هؤلاء شاركوا مشاركة فعالة في الجهاد البحري. وقد استمر هذا الوضع طوال فترة حكم المماليك بمصر والشام(1)

---

(1) حيث يتحدث النويري عن مجاهد مغربي عرض على الأمير سيف الدين إلاكز (أحد نواب السلطنة) سلاحاً جديداً سهل على المسلمين مهمة مقاتلة الإفرنج في البحر. عن هذا السلاح وطريقة صنعه واستعماله، راجع: أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص. 324؛ وأيضاً: عبد الحميد بهيني، المرجع السابق، ص. 147. ويتحدث المصدر نفسه عن مغربي جمع بين الإسهام بصفة شخصية وفعالة في الجهاد البحري ضد القبارصة (رجب 769 هـ) المغيرين على الإسكندرية بزعامة ملكهم بطرس لوسينيان ((Lusignan وفي ردع محاولة الأسطول القبرصي الثانية لغزو مدينة الإسكندرية في

سنة 770 هـ، وبين شغل منصب رياسة دار الصناعة بالإسكندرية. ويتعلق الأمر بالقائد البحري الريس إبراهيم التازي الذي أشادت المصادر ببطولاته في غزو القبارصة. (النويري، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص ص. 130، 327 ـ 328؛ عبد الهادي التازي، المرجع السابق، المجلد 7، ص. 220؛ عبد المجيد بهيني، المرجع السابق، ص. 148).

(1/6002)

.

...

خلاصة

... نخلص في ختام هذه الدراسة إلى ما يلي:

... (أن اختيارنا لهذه النسبة (المغاربة) لم يكن محكوماً بنظرة »شوفينية«، لأن الأمر يتعلق بالمفهوم الواسع للكلمة الذي يعني، بالإضافة لأبناء المغرب الأقصى، أبناء كل من المغرب الأوسط وإفريقية والأندلس.

... (أن وجود المغاربة بكل من مصر والشام لم يرتبط في غالبيته بحدث محدد (الحملة الصليبية الثالثة وتوجيه

الرسالة إلى يعقوب المنصور الموحدي)، بل يعود إلى فترات سابقة؛ الأمر الذي يستوجب التمييز بين المغاربة المستقرين، وهم الذين ورد لهم ذكر في المصادر

(6003/1)

المشرقية وكانت لهم أدوار طلائعية في الجهاد البحري، وبين النازحين والمتطوعين الجدد الذين وإن شاركوا في الجهاد ضد الصليبيين، فإن مشاركتهم ـ في قسط وافر منها ـ همت المواجهات البرية على الخصوص.

... (أن مفهوم الأمة على المستوى السياسي وإن لم ينتظم حول سلطة سياسية وروحية معينة إبان هذه الفترة بسبب التوترات السياسية، فإن الشعور بوحدة الأمة الإسلامية وبضرورة الحفاظ عليها والوقوف صفاً واحداً أمام كل ما من شأنه أن يهددها، كان حاضراً في وعي أبنائها، وهو ما تجسد في رغبة المغاربة الملحة بالمشاركة، إلى جانب

(6004/1)

إخوانهم بالمشرق، في المعارك البرية والبحرية من أجل تحرير رمز هذه الوحدة، ألا وهي البقاع الإسلامية الطاهرة.

(6005/1)

المفاهيم الأساسية التي أرسيت في مؤتمر السقيفة(1)

... ... الدكتور محمد خريسات

... ... رئيس قسم التاريخ ـ الجامعة الأردنية

---

(1) سقيفة بني ساعدة: هي ظلة كانوا يجلسون تحتها. وذكر الزمخشري أنها شبيهة بدار الندوة في مكة، كان من عادة الأنصار الاجتماع بها للتشاور في شؤونهم العامة. (انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة « السقيفة"؛ الزمخشري، الكشاف، المكتبة التجارية، 1354 هـ، ج 3، ص. 407).

(6006/1)

... ما أن انتقل الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى جوار ربه حتى بادر الأنصار إلى عقد اجتماع لهم في سقيفة بني ساعدة من الخزرج للتشاور في أمر اختيار قائد جديد

للمسلمين. ونحن لسنا في صدد الحديث عن السرعة التي تم بها عقد المؤتمر، ولا عن الأفكار المسبقة التي دارت بين أهل المدينة أثناء مرض الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وإنما نحن بصدد محاولة تعرُّف المفاهيم الأساسية التي أرسيت في السقيفة ومحاولة المسلمين طيلة القرنين الأولين للهجرة والدعوة لها والتقييُّد بمضمونها.

(6007/1)

... اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، واختاروا مرشَّحاً هو سعد بن عبادة. ومع أن المصادر لا تُسعفنا عما دار بين الأنصار من حديث قبل وصول المهاجرين إليهم، وكيف تم التوصل إلى ترشيح سعد، فإن المؤشر العام يؤكد أن الأنصار رأوا أنفسهم بأنهم أحق بهذا الأمر من المهاجرين.

... ولما وصل المهاجرون إلى السقيفة ممثلين بأبي بكر وعمر وأبي عبيدة، اتضحت الصورة حول دعوة الأنصار لمُرشحهم. فهم أصحاب المصالح الحقيقية في المدينة (أهل الدار)، وهم العدد والعدة، وهم أول من نصر وآزر، فكان لابد من أن تكون القيادة لهم حسب

(6008/1)

قصورهم. وكان من الطبيعي أن يُرشح سعد بن عبادة لهذا الأمر، نظراً لما كان يحظى به من مكانة بين الأنصار.

... أما المهاجرون، فقد طرحوا أفكاراً تماثل أفكار الأنصار من حيث هم أول الناس إسلاماً، وهم عشيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – العرب نسباً، والعرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش.

... والمدقق في حجج الفريقين يرى أنهما يركزان على مبدأين أساسيين تبلورا فيما بعد، وهما الاتجاه القبلي والاتجاه الإسلامي، أي أن في كلا حجج الفريقين مسحة قبلية. وجاء تصدع جبهة الأنصار أمام تمسك المهاجرين بأحقيتهم بالخلافة

(6009/1)

سبباً في رجحان كفّتهم.

... وخلال ما دار من مناقشات بين الفريقين، اتضحت مفاهيم للمسلمين حول أحقية الخلافة، وكيفية الانتخاب، وأهمية رأي الأمة في الاختيار، وعدد المرشحين للخلافة،

ووحدة الرئاسة (السلطة). وسأتناول أبرز هذه المفاهيم بشيء من التفصيل:

أولاً: مفهوم القرشية

... تركّز هذا المفهوم حول أحقية قريش الذي جاء باحتجاج أبي بكر بحديث عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – الأئمة من قريش. وهذا الحديث صحيح رواه نحو من أربعين صحابياً من التابعين، واثنين من تابعي التابعين(1)

---

(1) ... السيرة الحلبية، ج 3، ص. 480. وقد جاء الحديث في ألفاظ مختلفة؛ إلا أنها جميعاً تشير إلى أحقية قريش؛ وانظر ما دار في السقيفة في: ابن هشام، م 2، ص 659؛ الطبري، تاريخ، ج 3، ص. 205 ـ 206؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، ص. 582 ـ 584.

(6010/1)

. وجرى تأكيد هذه الأحقية منذ اللحظات التي تم بها انتخاب أبي بكر. فالحارث بن هشام المخزومي ـ وكان سيد بني مخزوم آنذاك ـ قال مخاطباً الأنصار: و»والله لولا قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم- :"الأئمة من

قريش"، ما أبعدنا منها الأنصار، ولكانوا لها أهلاً، ولكنه قول لا شك فيه، فوالله لو لم يبق من قريش كلها إلا رجل واحد لصيّر هذا الأمر إليه «(1).

... وأشار ضرار بن الخطاب إلى مثل ذلك بقوله: »لولا أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "الأئمة من قريش"،

---

(1) ... الزبير بن بكار، الموفقيات، ص. 264.

(6011/1)

لقلنا: "الأئمة من الأنصار"، ولكن جاء أمر غلب الرأي «(1).

وقال عكرمة بن أبي جهل: »والله لولا قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "الأئمة من قريش"، ما أنكرنا إمرة الأنصار علينا، والله ما قبضنا عليهم الأمر، ولا أخرجناهم من الشورى «(2).

... لقد حسم أمر القرشية في السقيفة واستقر هذا المفهوم في العصر الراشدي، ولم يظهر هناك من عارض الفكرة إلا ما بدر من الخوارج على

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 601.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 608؛ وانظر: شرح نهج البلاغة،

ج 2، ص. 4، 14؛ ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج 1، ص. 291.

(6012/1)

إثر قبول عليٍّ بن أبي طالب للتحكيم؛ على أن جمهرة المسلمين كانت ترى ذلك حقاً لقريش دون سواهم.

ونفهم ذلك من خلال الحوار الذي دار بين الأحنف بن قيس وأبي موسى الأشعري عند خروج أبي موسى للتحكيم حيث قال الأحنف لأبي موسى: »فإن لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلي، فخيّره أن يختار أهل العراق من قريش الشام من شاءوا؛ فإن فعلوا، كان الأمر فينا«(1). وهذا اعتراف باستمرار أحقية قريش بالخلافة.

---

(1) ... نصر بن مزاحم، وقعة صفين، صص. 536 ـ 537.

(6013/1)

... وخلال المفاوضات والمراسلات التي جرت بين علي بن أبي طالب ومعاوية وغيرهم من الصحابة كان تأكيد هذا الأمر في قريش(1).

... ولما جاء الأمويون إلى الخلافة، ركّزوا على مفهوم

القرشية خدمة وتبريراً لوجودهم على رأس السلطة. قام معاوية خطيباً وقال: »أما بعد؛ فإني سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: إن هذا الأمر في قريش؛ لا يعاديهم أحد إلا كبّه الله على وجهه ما أقاموا الدين «(2)

---

(1) ... انظر: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة (منسوب إليه)، ج 1، صص. 91 ـ 92؛ نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص. 75.

(2) ... انظر: فتح الباري، ج 6، ص. 416؛ ج 13، ص. 299.

(6014/1)

.

... وفي خطبة أمام المعارضين لبيعة يزيد في المدينة أكّد معاوية أن هذا الأمر لبني عبد مناف، لأنهم أهل رسول الله – صلى الله عليه وسلم –. فلما مضى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ولى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك والخلافة، غير أنهما سارا بسيرة جميلة، ثم رجع الملك إلى بني عبد مناف فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة(1). ومع وجوب أخذ الحيطة والحذر من هذا النص، فإنه يدل على تمسك الأمويين بشرط القرشية، وإن هذا التمسك كان يزداد قوة كلما قامت ثورة على

(1) ... الإمامة والسياسة، ج 1، ص. 150.

(6015/1)

الأمويين. فقد فقال مسلمة بن عبد الملك بعد ثورة يزيد بن المهلب: »أترى هؤلاء القوم خرجوا علينا؟ كانوا يظنون أن الخلافة فيهم. لئن كانوا ظنوا ذلك، فقد ظنوا إفكاً وزوراً«(1).

... وفي العصر العباسي، اتخذ هذا المفهوم بعداً فقهياً يدلل على وجوب القرشية. فقد فهم الفقهاء حديث »الأئمة من قريش« على أنها شرط في صحة الخلافة، وشرط في عقد البيعة، ومن لا يتصل بنسبه من أبيه بفهر بن مالك الجد الجامع لقريش فلا تجوز بيعته ولا تنعقد إمامته ولا تجب طاعته. واعتبر ذلك إجماع

(1) ... ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 8، ص. 21.

(6016/1)

من الأمة وجميع مذاهب أهل السنة والجماعة، واعتبر من لا يقبل بذلك مبتدعاً خارجاً عن إجماع المسلمين(1).

... مما تقدم يلاحظ أن مفهوم القرشية قد استقر خلال الفترات التاريخية بإجماع المسلمين التدريجي، وإن ظهرت هناك حركات تُعارض ذلك وعلى رأسها الخوارج الذين رفضوا استئثار قريش بهذا الأمر. كما أن التطورات الاجتماعية والتاريخية داخل

---

(1) ... انظر: البغدادي، أصول الدين، ص. 27؛ النوبختي، الفرق، ص. 1؛ الشافعي، الأم، ج 1، صص. 188 ـ 190؛ البيهقي، مناقب الشافعي، ص. 488؛ المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص. 237.

(6017/1)

الدولة الإسلامية ودخول فئات غير عربية كالموالي والترك وغيرهم، واستئثارهم بالسلطة قد قوّى من تأكيد الفقهاء فيما بعد على وجوب شرط القرشية، بل وصل بهم الأمر إلى اعتبار حكم الحديث مستمراً إلى يوم القيامة ما بقي من الناس اثنان(1). وفيما بعد، تطوّر مفهوم القرشية لدى الفقهاء بالكفاية. قال أبو حامد الغزالي: »إن الإمامة عندنا تنعقد بالشَّوْكة، والشَّوْكة تقوم بالمبايعة«.

ثانياً: مفهوم الشورى

---

(1) ... فتح الباري، ج 3، ص. 101.

(6018/1)

... مع أن خلافة أبي بكر جاءت دون طرح مسبق، فإن فهم المسلمين لها، وعلى رأسهم أبو بكر، أن خلافته جاءت عن طريق اختيار الأمة له. وجاء عن أبي بكر أنه سئل هل أوصى لك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بهذا الأمر من شيء؟ قال: لا، ولكنه ترك للناس أمرهم ليختاروا متفقين لا مختلفين.

... فمسألة الاختيار لا تتم إلا عن طريق التشاور حسب مفهوم هذا النص. ومفهوم الصحابة كذلك لا يخرج عن ذلك فأبو بكر ولاّه المؤمنون ذلك، وفوضوا إليه الزكاة(1). ويبدو أن تبرير عمر بن الخطاب بأن

---

(1) ... ابن بحشل، تاريخ واسط، ص. 186.

(6019/1)

بيعة أبي بكر كانت فلتة (أي سريعة) وقى الله الأمة شرَّها ما هي إلا لمطالبة الأمة بالتمسك بالشورى كما نرى فيما بعد.

... ولما أراد أبو بكر أن يرشح عمر بن الخطاب خليفة بعده، نظر إلى الشورى من زاوية أخرى تتمثل بـ»الشورى المقيدة «، وهي استطلاع رأي الأمة حول مرشح واحد، وهو ما يقابله في الوقت الحاضر »الاستفتاء«. فاستشار أبو بكر جلة كبار المهاجرين والأنصار(1). وبرر أبو بكر اختيار عمر بوصيته حيث قال: »اللهم إني لم أرد إلاّ صلاحهم،

---

(1) ... انظر: البلاذري، أنساب الأشراف (الشيخان)، صص. 70 ـ 71، ص. 165.

(6020/1)

وخفت الفتنة عليهم، فعملت فيهم بما أنت أعلم...، فوليت عليهم خيرهم لهم، وأقواهم عليهم، وأحرصهم على ما يرشدهم«(1).

... وقد تبلور الخوف من الفتنة إلى جواز تعيين الخليفة عند الفقهاء. وأشار أبو علي البجائي إلى مثل هذه الطريقة في الظروف القاهرة وقال:

... ... أن بموت الإمام وقد انصرف على المسلمين عدو أو تفتق عليهم فتق يخافون منه على الدين، ويخشون أن توقفوا على طلب الإمام وعلى الاجتماع للمشاورة الفتنة العظيمة،

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 5، ص. 446؛ وانظر: البلاذري، أنساب العرب (الشيخان)، ص. 120 ـ 351.

(6021/1)

ويحضرهم من يصلح لذلك، ولا يعلمون في الأمة من هو أفضل منه أم لا، فعليهم إذاً خافوا التوقف عن بيعته والتشاغل والتفتيش والنظر، الفتنة على الدين وغلبة العدو أن يبادروا إلى بيعته، فإن بايعه واحد من (أهل السير والمعرفة) تثبت إمامته ويجب على الناس مبايعته(1).

... أما عمر بن الخطاب، فقد اعتبر الشورى إحدى الركائز الأساسية التي تقوم عليها الخلافة. فعندما سمع بما يجري بين الناس من أحاديث بأنه »لو مات أمير المؤمنين، لبايعت

(1) ... المغني، ج 20، صص. 553 ـ 557؛ الفراء، المعتمد، ص. 223؛ خير الدين، ص. 124.

(6022/1)

فلاناً«، أراد أن يخطب في الناس في مكة؛ إلا أن عبد الرحمن بن عوف نصحه بتأجيل ذلك إلى حين العودة إلى المدينة خوفاً من غوغاء الناس. فلما عاد، خطب في الناس وقال:

... ... فلا يغرن امرءاً أن يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة، فقد كانت كذلك، غير أن الله وقى شرها، وليس فيكم من يقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر، فمن بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين، فإنه لا يتابع هو ولا الذي بايعه تغرّه أن يقتلا(1)

(1) ... انظر: الطبري، تاريخ، ج 3، ص. 205؛ ابن هشام، م 2، ص. 658؛ البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، صص. 583 ـ 584؛ أحمد بن حنبل، المسند، ج 1، صص. 55 ـ 57؛ عبد الرزاق، المصنف، ج 5، صص. 439 ـ 455.

(6023/1)

.

... وجاء عن عمر كذلك: »من دعا إلى إمارة نفسه أو غيره من غير مشورة من المسلمين فلا يحل لكم إلا أن تقتلوه «(1). وفي خبر ثالث: »الإمارة شورى «(2).

... وقد جسد عمر بن الخطاب مبدأ الشورى عمليّاً بترشيحه ستة من كبار المهاجرين إلى خلافته، مستنداً في ذلك إلى أمرين هما(3):

... .أنهم رؤساء الناس وقادتهم (في قريش).

---

(1) ... المصنف، ج 5، ص. 445.

(2) ... المصدر نفسه، ج 5، ص. 446؛ وانظر: البلاذري، أنساب الأشراف (الشيخان)، ص. 120، 351.

(3) ... الطبري، تاريخ، ج 4، ص. 228.

(6024/1)

... .أنهم من أهل الجنة، والرسول – صلى الله عليه وسلم – مات عنهم وهو راض.

... الشورى .في رأي عمر .هي حق الجماعة صاحبة السلطة، وهي عامة للمسلمين. وكي لا يحتج أحد بما جرى في اختيار أبي بكر، أكد عمر أنها فلتاة، أي أن الشورى لم تشمل

المسلمين جميعاً لصعوبة الظروف آنذاك، وضرورة الحسم السريع في هذه المسألة، وللثقة أن بقية المسلمين لن يعترضوا على بيعة رجل مثل أبي بكر(1).

---

(1) ... رضوان السيد، الأمة والسلطة والجماعة، ص. 82.

(6025/1)

... ولما حدثت الفتنة الأولى وأدت إلى ما أدت إليه من قتل الخليفة عثمان، وبيعة علي ابن أبي طالب، اعتبر رجال الشورى ومعاوية أن بيعته لم تقم على أساس الشورى، فكانت المحادثات والمراسلات لا تخلو من هذا الطلب، سواء كان ذلك حقيقة أو على سبيل أخذ الحجة عليه.

... فرجال الشورى الذين بقوا على قيد الحياة بعد مقتل عثمان، يتضح مطلبهم للشورى من خلال الرسالتين المتبادلتين بين معاوية وسعد بن أبي وقاص. فقد طلب معاوية من سعد أن ينضم إلى طلحة والزبير وعائشة عند خروجهم على علي، ثم يكون الأمر شورى فيما بعد. فكان جواب

(6026/1)

سعد:

... أما بعد؛ فإن عمر لم يُدخل في الشورى إلا من يحل له الخلافة من قريش، فلم يكن أحدنا أحق بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه. غير أن علياً قد كان فيه ما فينا، ولم يكن فينا ما فيه، وهذا أمر قد كرهنا أوله وكرهنا آخره. فأما طلحة والزبير، فلو لزما بيوتهما، كان خيراً لهما، والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت(1).

... وأشار طلحة إلى مثل ذلك خلال المفاوضات مع علي قبل وقعة الجمل، وقال لعلي: »فاعتزل هذا الأمر، ونجعله شورى بين المسلمين. فإن رضوا بك، دخلنا فيما دخل

---

(1) ... نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص. 75.

(6027/1)

فيه الناس؛ وإن رضوا غيرك، كنت رجلاً من المسلمين«. ولم يكتف طلحة بذلك، بل أفصح عندما قال: »كنا في الشورى ستة، فمات اثنان، وقد كرهناك ونحن ثلاثة«. وكان جواب علي عليه: »إنما كان لكما ألا ترضيا قبل الرضى، وقبل البيعة؛ وأما الآن، فليس لكما غير ما رضينا

به «(1).

... وموقف الزبير من بيعة علي يماثل موقف طلحة، حيث اعتبر الزبير أن اختيار علي لم يستند إلى مبدإ الشورى الذي ركزه عمر بن الخطاب، ذلك المبدأ الذي أوصى إلى رجال الشورى وحصر الخلافة فيهم - حسب رأيه - واعتبر قبول

---

(1) ... الأمة والسياسة، ج 1، ص. 70.

(6028/1)

علي لأمر الخلافة خروجاً على هذا المفهوم، ولذلك قال لعلي: »تفرد واحد، واجتماع ثلاثة، والأمر شورى«، أي أن علياً انفرد بالأمر لوحده ولم يأخذ برأي الثلاثة الذين بقوا على قيد الحياة من رجال الشورى، وعليه أن يعتزل الخلافة. وهذا الرأي هو الذي تمسّك به طلحة والزبير وعائشة التي صرّحت في إحدى خطبها: »... وإن من الرأي أن تنظروا إلى قتلة عثمان فيقتلوا به، ثم يرد هذا الأمر شورى على ما جعله عمر بن الخطاب «(1).

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 1، ص. 64.

(6029/1)

... فهِمَ رجال الشورى ومعهم عائشة أن مفهوم الشورى مقصور على من رشحهم عمر بن الخطاب، وهم وحدهم الذين يقررون أمر الخلافة. وهذا المفهوم عارضه معاوية معارضة شديدة، ولا سيما بعد مقتل طلحة والزبير، ووقوف سعد على الحياد كما سنرى.

... لقد رفع معاوية سلاح الشورى، ولكنها لم تتضح اتضاحها عند طلحة والزبير. ففي البداية أخبر معاوية أهل الشام بعد وصول كتاب عزله من علي، أنه لا يطمع في الخلافة، ولكنه يريدها شورى بعد أن يقتل قتلة عثمان(1). وكتب بمثل ذلك إلى عبد الله

(1) ... نصر بن مزاحم، رقعة صفين، صص. 81 ـ 82.

(6030/1)

بن عمر، وإلى سعد بن أبي وقاص، وحتى إلى علي نفسه(1).

... وامتد النقاش بين علي ومعاوية حول أحقيّة مَنْ في الشورى، فكان رأي علي بأنها لأهل بدر(2)، وفي موضع آخر هي للمهاجرين والأنصار، وليست لأهل الأمصار، ولا سيما أهل الشام، كتب إلى معاوية: »... وأما قولك إن أهل الشام

هم الحكام على الناس، فهات رجلاً من قريش الشام يقبل في الشورى، أو تحل له

---

(1) ... انظر: الإمامة والسياسة، ج 1، صص. 88 ـ 96؛ نصر بن مزاحم، وقعة صفين، صص. 74 ـ 77؛ ابن أعثم، الفتوح، م 1، صص. 542 ـ 546.

(2) ... الخوارزمي، المناقب، ص. 15.

(6031/1)

الخلافة؛ فإن سميت، كذّبك المهاجرون والأنصار، وإلا أتيتك من قريش الحجاز «(1).

... وفي الرسالة التي بعث بها علي إلى معاوية مع عبد الله بن جرير البجلي أشار إلى مثل ذلك وقال:

... بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان وعلي ما بايعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد. وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار. فإذا اجتمعوا على رجل فسموه إماماً، كان ذلك لله رضا... واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا تعرف فيهم الشورى (2)

---

(1) ... الإمامة والسياسة، ج 1، صص. 91 ـ 92.

(2) ... نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص. 92؛ الخوارزمي، المناقب، ص. 132.

(6032/1)

.

... أما معاوية، فقد تمسك بالشورى العامة وإجماع الأمة، وهما حجّتان ركز عليهما منذ البداية. ونلمس ذلك عندما بعث معاوية وفداً إلى علي فيهم حبيب بن مسلمة الفهري الذي خاطب علياً بقوله: »... فادفع إلينا قتلة عثمان نقتلهم به. فإن قلت إنك لم تقتله، فاعتزل أمر الناس فيكون أمرهم هذا شورى بينهم، يولي الناس أمرهم من أجمع عليهم رأيهم«(1).

... ولما وصل معاوية إلى سدة الخلافة بالقوة، حاول خلق التبريرات لبيعته، سواء كان ذلك عن طريق طرح مفاهيم جديدة مثل تسمية

---

(1) ... نصر بن مزاحم، المصدر نفسه، ص. 200.

(6033/1)

العام الذي بويع فيه بعام »الجماعة«، وهو مصطلح جديد للدلالة على إجماع الأمة عليه، ورغبتها في خلافته ظاهرياً على الأقل، ووفقاً لما كان يرفعه معاوية من طلب للشورى(1)، أو عن طريق اعتبار أهل الشام أصحاب الشورى. وقد وضع معاوية ذلك بقوله: »وإن كان قد بايعه (علي) أهل الحجاز وأهل العراق، فقد بايعني أهل الشام، وإن هؤلاء في الأمر سواء، ومن غلب على شيء فهو له«(2).

(1) ... انظر: الطبري، تاريخ، ج 5، ص. 7.

(2) ... ابن أعثم، الفتوح، م 1، ص. 551.

(6034/1)

... واتهم معاوية أهل الحجاز بأنهم قد خرجوا عن صورة الحق، وأن أهل الشام هم الذين حملوها بعد أن تخلى عنها الحجاز، وبذلك أصبح أهل الشام هم الحكام على الحجاز وغيرهم من الناس(1). ويبدو أن معاوية بدأ يركز على هذا الاتجاه حتى لا تتجه الأنظار إلى حجازي آخر، ولا سيما سعد بن أبي وقاص أحد رجالات الشورى أو عبد الله بن عمر وهما من الأسماء التي طرحت في التحكيم. ولعلّ هذا

التفكير دفع معاوية إلى إرسال المغيرة نصر بن مزاحم(2) أن

---

(1) ... المصدر نفسه، م 1، ص. 551.

(2) ... نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص. 540.

(6035/1)

المغيرة سأل أبا موسى: »ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر، وكره الدماء«؟ قال: »أولئك خيار الناس خفت ظهورهم من دمائهم، وخمصت بطونهم من أموالهم«. ثم أتى عمراً فقال: »يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر، وكره هذه الدماء؟« قال: »أولئك شرار الناس، لم يعرفوا حقاً، ولم ينكروا باطلاً«.

... واتجه معاوية لتبرير موقفه كذلك نحو مفهوم الجبرية، المتمثل بأن ما جرى ليس فيه دور للناس. ذكر صاحب "الإمامة والسياسة"(1) أن معاوية إذا أراد أن لا ينفذ أمراً لجأ إلى الجبرية،

---

(1) ... الإمامة والسياسة، ج 1، ص. 163.

(6036/1)

وكان كثيراً ما يقول: »فإن كون ما هو كائن لابد منه، ولا محيص عنه، ولا خيّرة فيه للعباد، والأقدار غالبة، وما سبق في علم الله لابد جار فيه«. وفي موضع آخر قال: »... وجعلني راعي خلقه، وأمينه في بلاده، والحاكم في أمر عباده، ليبلوني أأشكر آلاءه أم أكفرها«.

... واستخدم معاوية مفهوم الجبرية عند ترشيحه لابنه يزيد ولياً لعهده. فقد خاطب أهل المدينة قائلاً: »لقد هممت ببيعة يزيد، وما تركت قرية ولا مدرة إلاّ بعثت إليها في بيعته، فبايع الناس جميعاً وسلموه«. ولما أعيته الحيلة في إقناع الناس، قال: »إن بيعة يزيد

(6037/1)

كانت قدراً مقدوراً«(1).

... أما المعارضة، فقد تمسكت بالشورى، وطلبت منه أن يفعل كما فعل من سبقه من المسلمين، ووصل الأمر بهم إلى حد التهديد إن لم يسلك معاوية مسلك الشورى.

وظهر ذلك في موقف عبد الرحمن بن أبي بكر الذي قال: »... والله لتردن هذا الأمر شورى في المسلمين، أو لنعيدهن عليك جذعة«(2).

... إلا أن معاوية أصر على موقفه، فاعتبرت المعارضة تلك البيعة بادرة جديدة لم يعرف لها مثيل من قبل. وقال

ابن الزبير معبّراً عن ذلك: »إن

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 1، ص. 162.

(2) ... ابن خياط، تاريخ، ج 1، ص. 200.

(6038/1)

مللت الإمارة فاعتزلها، وهلم ابنك فلنبايعه، أرأيت إذا بايعنا ابنك معك لأيّكما نسمع، لأيكما نطيع، لا نجمع البيعة لكما - والله - أبداً«(1).

... فرد معاوية على معارضة أهل الحجاز بأنه لم يخرج عن نطاق الشورى، وإنما هو يلجأ إلى طريقة جديدة في الاختيار، وهو بهذا يسير على خُطى من سَبقه نحو التجديد في أمر البيعة. وقال: »إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قبض ولم يستخلف أحداً، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر، وكانت بيعته بيعة هدى، فعمل بكتاب الله وسنّة نبيّه؛ فلما حضرته الوفاة، رأى

---

(1) ... المصدر نفسه.

(6039/1)

أن يستخلف عمر. فعمل بكتاب الله وسنّة نبيّه. فلما حضرته الوفاة، رأى أن يجعلها شورى بين نفر اختارهم من المسلمين، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد لما وقع الناس فيه من الاختلاف ونظراً لهم بعين الإنصاف« (1).

... ولم يكتف معاوية بهذه التبريرات، بل عزا فرقة المسلمين وتشتتهم إلى الطريقة التي طرحها عمر بن الخطاب في الشورى، وأن مسؤولية ما حدث من

---

(1) ... الإمامة والسياسة، ج 1، صص. 168 ـ 169.

(6040/1)

فتنة تقع على أسلوب هذا الاختيار؛ لأن هذه الطريقة شتَّتَتْ أمر المسلمين، وفرَّقت من أهوائهم: »ولا خالف بينهم إلا الشورى التي جعلها عمر لستة، حيث لم يكن رجل منهم إلا رجاها لنفسه ورجاها له قومه، وتطلعت إلى ذلك نفسه، ولو أن عمر استخلف عليهم كما فعل أبو بكر، لما كان في ذلك اختلاف«(1).

... وهكذا اختلف مفهوم الشورى بين أهل الحجاز الذين

تزعموا الثورة فيما بعد ضد يزيد ممثلة في الحسين وعبد الله بن الزبير، وبين معاوية. فاعتبر أهل الحجاز أن ما فعله

---

(1) ... ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج 5، صص. 30 ـ 32.

(6041/1)

مخالف للشورى وللسنن التي سبقته، بينما يراها معاوية أسلوباً جديداً في الاختيار سيحمي الأمة من الفتنة، إلا أن توقّعاته لم يُكتب لها النجاح حيث اندلعت ثورة الحسين ومن بعده ابن الزبير ضد هذا الاختيار ورفضهم البيعة ليزيد لأن خلافته لم تتم على أساس الشورى، فكره البعض بيعته(1).

... أما الفقهاء، فقد اعتبروا عمل معاوية مخالفاً لما سبقه. ونجد فقيهاً مثل الحسين البصري يقول:

---

(1) ... انظر: مصعب الزبيري، نسب قريش، ص. 263.

(6042/1)

... أربع خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه إلا واحدة منهم لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأمة بالسيف حتى ابتزّها أمرها بغير مشورة بينهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة؛ واستخلافه بعده ابنه يزيد، سكَير خميِّر، يلبس الحرير، ويضرب الطنابير؛ وادعاؤه زياداً، وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

لم يذكر الرابعة(1).

... كما حمل الحسن البصري المغيرة بن شعبة بطلان الشورى عندما أشار بيزيد وقال: »ولولا ذلك، لكانت شورى إلى يوم القيامة «(2)

---

(1) ... الزبير بن بكار، الموفقيات، ص. 574.

(2) ... السيوطي، تاريخ الخلفاء، صص. 205 ـ 206.

(6043/1)

. ...

... ولما انتقلت الخلافة إلى المروانيين، استمر الشعور لدى الناس بأنها لم تكن بالشورى. فقد اعتبر البعض أن مروان بن الحكم لا يعد بين الخلفاء، وإنما هو باغ خارج على ابن الزبير؛ ولا عهده إلى ابنه (عبد الملك)

بصحيح، وإنما صحت خلافة عبد الملك حين قُتل ابن الزبير(1).

... وهذا المفهوم برز في الجابية عند حسان بن مالك بعد بيعة مروان حيث خاطب حسان مروان بقوله: »يا مروان! إن الناس ـ والله ـ ما كلهم يرضى بك«. فقال مروان: »إن يرد الله أن يعطينيها لا يمنعني إياها أحد من

(1) ... المصدر نفسه، ص. 212.

خلقه، وإن يرد أن يمنعنيها لا يعطينيها أحد من خلقه«(1).

... واعتبر أبو حازم سلمة بن دينار الأعرج ـ مولى لقوم من بني ليث بكر، وقد توفي في خلافة المنصور ـ بأن المروانيين أخذوا الأمر عنوة من غير مشاورة من المسلمين والاجتماع عن رأيهم. وتذكر المصادر أنه خاطب بهذا القول سليمان بن عبد الملك(2).

(1) ... الطبري، تاريخ، ج 5، ص. 537.

(2) ... ابن الجوزي، صفوة الصفوة، ج 2، ص. 159؛ وانظر: الإمامة والسياسة، ج 2، ص. 89.

(6045/1)

... ولما كانت معظم الثورات التي قامت على الأمويين، قامت باسم الشورى مثل ثورة المطرف ابن مغيرة بن شعبة سنة 77 هـ، وثورة ابن الأشعث سنة 82 هـ، وثورة يزيد ابن المهلب سنة 101 هـ، كان على الأمويين مواجهتها بالمفاهيم التي أرساها معاوية وهي الجبرية والجماعة والطاعة.

... ففي مجال الجبرية، لجأ المروانيون إلى التركيز عليها عندما كانت تعييهم الحجة في إقناع الناس. فلما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق وطرح رأسَه على الناس مع الدنانير والدراهم، هتف المنادي: »إن أمير المؤمنين قتل

(6046/1)

صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ«(1).

واستمر هذا المفهوم إلى نهاية الدولة الأموية.

... ومما كتبه الوليد بن يزيد إلى هشام بن عبد الملك عندما فكر هشام في خلعه من ولاية العهد:

... »فإن يكن ذلك لشيء في نفس أمير المؤمنين عليّ، فقد سبب الله لي من العهد، وكتب لي من العمر، وقسم لي من الرزق ما لا يقدر أحد دون الله على قطع شيء منه دون مدته، ولا صرف شيء عن مواقعه. فقدر الله يجري بمقاديره فيما أحب الناس أو كرهوا... «.

---

(1) ... الإمامة والسياسة، ج 2، ص. 22.

(6047/1)

... ورد عليه هشام بمثل ذلك: »... وأما ما ذكرت مما سبب الله لك، فإن الله قد ابتدأ أمير المؤمنين بذلك، واصطفاه الله...«(1).

... وقامت المعارضة برفض مفهوم الجبرية التي تُنادي بأن الأفعال والأعمال تجري بقدر من الله، وأن ما يحدث هو من مشيئته وإرادتهن وأنه ليس للعباد تغييره.

وأكدوا مفهوم الاختيار، ومسؤولية الإنسان عن أعماله بمن فيهم الخلفاء. وقامت القدرية حركةً مضادّة للجبرية، فأكدت أن الإنسان قادر على خلق أفعاله خيرها وشرّها، مستحق لما يفعله ثواباً وعقاباً

---

(1) ... الطبري، تايخ، ج 7، صص. 112 ـ 114.

في الدار الآخرة، والرب (الله) تعالى منزه عن أن يضاف إليه شر وظلم، وفعل هو كفر ومعصية، لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً، كما لو خلق العدل كان عادلاً(1).

... وأمام انتشار هذه الأفكار، كان على الأمويين محاربة القدريين طيلة الفترة الأموية ونفيهم إلى جزيرة دهلك(2)، في البحر الأحمر عقاباً لهم على هذه الأفكار، وبالرغم من مقاومة الأمويين لهذه الأفكار، فإنها اخترقت صفوفهم، فكان أن اتهم معاوية الثاني بميله للقدرية.

---

(1) ... الشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، ص. 43.

(2) ... ياقوت، معجم البلدان، مادة "دهلك".

... وقد حاول عبد الملك بن مروان الرد على هذه الأفكار وأوعز إلى الحسن بن محمد بن الحنفية بكتابة رسالة يرد فيها على القدرية حوالي 72 هـ/ 692 م، كما بعث برسالة إلى الحسن البصري بعد أن جاءت الأخبار من أن

القاضي عطاء بن يسار ومعبد الجهني يأتيان إليه ويسألانه: إن هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون الأموال ويفعلون ويقولون، إنما تجري أعمالنا على قدر الله. فقال: »كذب أعداء الله «(1). وبالرغم من مواقف الأمويين المتشددة من القدرية، ولا سيما في عهد هشام، فإنها

---

(1) ... ابن قتيبة، المعارف، ص. 441.

(6050/1)

تسللت إلى أبنائهم، وخاصةً يزيد بن الوليد الذي قام بالثورة على ابن عمه الوليد فقتله عام 162 هـ وجاء مفهوم الطاعة والجماعة في خطبة للوليد بن عبد الملك: »... يا أيها الناس! عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع الفرد «(1). وبالرغم من إجراءات الأمويين العديدة في مقاومة الخصوم، فإن المعارضة بقيت على تأكيدها لمفهوم الشورى ورفض الجبرية.

---

(1) ... الطبري، تاريخ، ج 6، ص. 423؛ النويري، نهاية الأرب، ج 21، ص. 282.

(6051/1)

... ولما جاء العباسيون، تراجع مفهوم الشورى إلى الأبد، وأيَّد الفقهاء ممارسات الخلفاء صراحة، وظهر ذلك بوضوح عند إمام مثل الشافعي الذي يقول: »من غلب على الخلافة بالسيف حتى سمي خليفة، واجتمع الناس عليه، فهو خليفة إذا كان من قريش يغزى معه ويصلى خلفه، ومن لم يفعل فهو مبتدع «(1).

... كما تطور مفهوم الجبرية إلى مفهوم خليفة الله، إذ يقول أبو يوسف: »إن الله ـ بمنّه ورحمته وعفوه ـ جعل ولاة الأمر خلفاء في أرضه، وجعل لهم نوراً يضيء للرعية ما أظلم عليها

(1) ... الرازي، مناقب، ص. 137؛ مناقب الشافعي، ص. 448.

من الأمور فيما بينهم«(1).

ثالثاً: وحدة الخلافة (السلطة) ووحدة الجماعة

... طرح الأنصار في السقيفة مفهوم التعددية في السلطة عندما اقترحوا أن يكون هناك أميران، أحدهما من الأنصار والثاني من المهاجرين. لكن هذا الأمر رفضه المهاجرون وأكده عمر بن الخطاب عندما قال: »الله واحد،

والإسلام واحد، والدين واحد، ولا تصلح الأمور والأشياء إلا على واحد؛ لأنه إن جرى اليوم إمامان، ولا يجوز أن يكون الإسلام إلا واحداً«(2)

---

(1) ... أبو يوسف، الخراج، تحقيق إحسان عباس، ص. 71؛ وانظر، ص. 59، 70.

(2) ... ابن الأعثم، الفتوح، م 1، ص. 8.

(6053/1)

. وفي رواية أخرى أنه قال: »سفيان في غمد واحد إذن لا يصلحا«(1).

... وتأكد هذا المفهوم من خلال الصراع بين علي ومعاوية. ولكي يضفي معاوية على خلافته شيئاً من الشرعية، سُمي العام الذي تمت فيه البيعة وتنازل فيه الحسن عن الخلافة بـ»عام الجماعة«.

... وفي الفترة المروانية، استمر هذا المفهوم. فقد ذكرت المصادر أنَّ سعيداً بن المسيب رفض بيعة ابني عبد الملك: الوليد وسليمان، معتبراً ذلك مخالفاً لوحدة السلطة (الخليفة) لما

---

(1) ... ابن بحشل، تاريخ واسط، ص. 58؛ وانظر: البلاذري، أنساب الأشراف (الشيخان)، ص. 117.

(6054/1)

رأى فيه إحداث منصبين للخليفة في دار واحدة. وعندما احتج عليه عبد الملك بفعل معاوية لبيعة يزيد، رفض ابن المسيب أن يكون فعل معاوية حجة. ورفض البيعة وعبد الملك حي، فضربه هشام بن إسماعيل المخزومي ضرباً مبرحاً وألبسه المسوح وسرّحه إلى باب ثنية بالمدينة، وكانوا يُقتلون عندها ويُصلبون، لكن هشاماً رده ولم يُبايع(1). وسبب الرفض قوله: »لم أكن لأبايع بيعتين في الإسلام بعد حديث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "إذا كانت بيعتان في

---

(1) ... انظر: الطبري، تاريخ، ج 6، صص. 415 ـ 416؛ التميمي، المحن، ص. 292.

(6055/1)

الإسلام، فاقتلوا الأحدث منهما"«(1). وأورد ابن خياط أنه قال: »إن أحب عبد الملك أن أبايع الوليد، فليخلع

نفسه «(2). وهو بهذا يقف موقف ابن الزبير من بيعة يزيد.

... وقد تعزز مفهوم وحدة السلطة (الخليفة) بما ورد عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – من أحاديث حول ذلك. فعن أبي سعيد الخدري أنه قال: »إذا بويع لخليفتين، فاقتلوا الآخر منهما«. وخطب أبو بكر فقال: »لا يحل أن يكون للمسلمين أميران، فإنه مهما يكن ذلك، يختلف أمرهم وأحكامهم،

---

(1) ... الإمامة والسياسة، ج 2، ص. 45.

(2) ... ابن خياط، تاريخ، ج 1، ص. 290.

(6056/1)

وتتفرق جماعتهم/ ويتنازعون فيما بينهم. هنالك تترك السنة، وتظهر البدعة، وتعظم الفتنة، وليس لأحد على ذلك صلاح«.

... وتعزز هذا المفهوم لدى الفقهاء. فالشافعي يقول: »أجمع المسلمون أن يكون الخليفة واحداً، والقاضي واحداً، والأمير واحداً«(1). وهذا تأكيد لوحدة الإمامة، لأنها من وحدة الأمة ووحدة الدار (الأرض).

... لقد استمر الإلحاح على مفهوم هذه الوحدة، لأنها جزء من

مبدإ وحدة الأمة على الرغم من أن الواقع السياسي قد أوجد أكثر من خليفة

---

(1) ... الشافعي، الرسالة، ص. 419؛ رضوان السيد، الأمة والسلطة، ص. 135.

(6057/1)

في القرن الرابع الهجري؛ إلا أنهم لم يعطوا مبرراً لذلك إلا البعد المكاني. فالماوردي يقول: »إذا عقدت الإمامة لإمامين في بلدين، لم تنعقد إمامتهما؛ لأنه لا يجوز أن يكون للأمة إمامان في وقت واحد«(1). غير أنه أشار في كتاب "الدين والدنيا" إلى البعد المكاني، وأنه سبب في جواز بيعة أكثر من إمام وقال: »إذا قام إمامان في ناحيتين متباعدتين، فإن إمكان الاعتراف بهما جائز؛ لأن الإمام مندوب للمصالح«(2). وهو بذلك

---

(1) ... الماوردي، الأحكام السلطانية، ص. 9

(2) ... الماوردي، أدب الدين والدنيا، صص. 129 ـ 130.

(6058/1)

يعطي مبرراً لقيام الخلافة في الأندلس، ولم يعط ذلك المبرر للخلافة الفاطمية في مصر.

... وأكدت السقيفة مفهوم الجماعة. وحددها أبو بكر في الدار والأمة والإمام(1). ومفهوم المعارضة ولو كان فردياً، فهو غير مقبول في أمر البيعة ووحدة الجماعة. ويذكر البلاذري(2) أن عمر بعث رجلاً إلى سعيد بن عبادة يدعوه للبيعة، فقدم الرجل الشام فوجد سعيداً في حائط بحوارين فدعاه إلى البيعة. فقال: »لا أبايع قرشياً أبداً«. قال:

---

(1) ... رضوان السيد، الأمة والسلطة، ص 79.

(2) ... البلاذري، أنساب الأشراف (الشيخان)، ص. 127.

(6059/1)

»فإني قاتلك«. قال: »وإن قاتلتني«. قال: »أفخارج أنت مما دخلت فيه الأمة؟« قال: »أما من البيعة، فإني خارج«. وبهذا المفهوم يرى سعد أنه لن يخرج عن رأي الجماعة، ولكنه يرفض. إلا أن الطبري(1) يروي رواية أخرى، وهي تؤكد أهمية وحدة الجماعة. لقد قال سعد لأبي بكر: »أنتم معشر المهاجرين حسدتموني على الإمارة، وإنك وقومي أجبرتموني على البيعة«. فقال: »إن لو أجبرناك

على الفرقة فصرت إلى الجماعة، كنت في سعة. ولكنا أجبرناك على الجماعة، فلا إقالة فيها. لئن نزعت يداً من طاعة، أو

---

(1) ... الطبري، تاريخ، ج 3، ص. 223؟

(6060/1)

فرّقت جماعة، لنضربن الذي فيه عيناك«.

... وأكد عمر بن الخطاب هذا المفهوم، فقال مخاطباً العرب: »يا معشر العرب! الأرض الأرض، إنه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة«(1).

... وفي تولي علي الخلافة، حاول كل من عمار بن ياسر والأشتر النخعي دفعه للتوجه نحو المهاجرين والأنصار وأخذ بيعة من تخلف عنه منهم علامةً على وحدة الأمة والجماعة، لكنه أجاب: »إنه لا حاجة لنا فيمن لا يرغب فينا«(2).

---

(1) ... سنن الدّارمي، ج 1، ص. 79.

(2) ... ابن أعثم، الفتوح، م 1، ص. 439.

(6061/1)

... وتعزز مفهوم الجماعة بالأحاديث التي رويت عن الرسول – صلى الله عليه وسلم –. فقد روى حذيفة بن اليمان أنه قال – صلى الله عليه وسلم – : »فإن لم تكن في جماعة ولا إمام، فكن حلس بيتك، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك«(1). وفي حديث آخر قال – صلى الله عليه وسلم – : »من مات (أو بات) وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية«(2).

---

(1) ... صحيح مسلم، ج 2، ص. 412.

(2) ... مسند احمد، ج 2، ص. 83، 93؛ صحيح البخاري، ج 9، ص. 59؛ صحيح مسلم، ج 3، ص. 478.

(6062/1)

... وكان مفهوم الجماعة لدى عمر بن الخطاب يتمثل في متابعة الأقل الأكثر؛ ومن يخالف فليضرب عنقه(1). ... وأكد هذا المفهوم لرجال الشورى عندما قال لعبد الله بن عمر: »قم على رؤوسهم! فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد، فاشدخ رأسه، أو اضرب رأسه بالسيف؛ وإن اتفق أربعة فرفضوا رجلاً منهم وأبى اثنان، فاضرب رؤوسهما؛ فإن رضي ثلاثة رجلاً منهم، وثلاثة رجلاً منهم، فحكموا عبد الله بن عمر. فأي الفريقين حكم له.

فليختاروا رجلاً منهم. فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر،

---

(1) ... البلاذري، أنساب الأشراف، ج 5، ص. 18.

فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس«(1).

... ونلمس تعمق هذا المفهوم على الصعيد السياسي العملي نظرة الناس إلى الألوية الأربعة التي وقفت بعرفات بعد موت معاوية الثاني في زمن مروان بن الحكم وهي: لواء محمد بن الحنفية، ولواء عبد الله بن الزبير، ولواء نجدة الحروري، ولواء بني أموية. فقال المساور بن هند بن قيس:

... وتشعّبوا شعباً فكل ... قبيلة فيها أمير المؤمنين(2)

---

(1) ... الطبري، تاريخ، ج 3، ص. 229.

(2) ... اليعقوبي، تاريخ، ج 3، ص. 10.

... وأكد الأمويون مفهوم الجماعة كما أسلفت، وذلك رداً على المطالب بالشورى، وبقي هذا المفهوم شعاراً لهم طيلة حكمهم. وشهد الفكر السياسي في فترتهم تحذيرات ومخاوف كثيرة على وحدة الجماعة؛ وتجلى ذلك في مسألتين هما: مسألة الفتن والحروب الأهلية، ومسألة وصول المتغلب إلى السلطة دون موافقة الجماعة أو الأكثرية(1).

... وفي العصر العباسي ركز الفقهاء على الجماعة والوحدة، وقدّموها على الشرعية، فقد ذكر ابن حنبل (ت 741 هـ) أنه

(1) ... رضوان السيد، »الشخصية الإسلامية«، مجلة دراسات (الجامعة الأردنية)، 1986، ص. 2.

(6065/1)

من غلبهم بالسيف حتى صار خليفة وسُمِّي أمير المؤمنين لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه عليه إماماً، عادلاً كان أو فاجراً(1). وإلى مثل ذلك أشار الشافعي كما رأينا.

... مما تقدم يمكن القول إن مؤتمر السقيفة قد أرسى

مفاهيم عامة للخلافة الإسلامية ولموقف الأمة منها. وقد أثرت هذه المفاهيم في مجرى التطور السياسي للخلافة الإسلامية بشكل خاص وفي مجرى التاريخ الإسلامي بشكل عام خلال الفترتين الراشدية والأموية على الأقل. إلا أنها تلاشت في الفترة العباسية،

---

(1) ... ابو يعلي، المعتمد، ص. 238.

(6066/1)

مما دفع بعض الفقهاء إلى إعطاء المبررات لما هو كائن وموجود.

... لقد حددت السوابق التاريخية التي حدثت في السقيفة وما تلاها في الفترة الراشدية الإطار العام لمبدإ الشورى والاختيار، واعتبرها الفقهاء من المفاهيم الواجب التمسك بها. وقد حاول المسلمون طيلة القرنين الأول والثاني للهجرة الدعوة لها، وقامت من أجلها الثورات المختلفة. إلا أن التطورات الاجتماعية والسياسية والتاريخية، وما رافقها من تسلط العسكر وهيمنة الفرس والأتراك والبويهيين والسلاجقة على مقاليد الأمور جعلت هذه المفاهيم تنحرف عن المسار الذي

(6067/1)

رسم لها في الفترة الإسلامية المبكرة. وجاء تأكيد هذه الانحرافات من عدد من الفقهاء والفلاسفة الذين آثروا السير في المنحى الذي فرضه الواقع السياسي للدولة الإسلامية عبر تاريخها الطويل. وكان من أبرز نتائجه أن شوهت المعالم السياسية للخلافة الإسلامية، واعتقد المستشرقون وبعض المعاصرين أن ما حدث من انحرافات كان بفعل التعليمات التي رسمت في بداية المسيرة، ولم يدركوا أن الأسس التي رسمت في الفترة المبكرة كان الواقع السياسي يغير من مضمونها شيئاً فشيئاً حتى وصلت إلى ما وصلت إليه.

... ويبقى سؤالان مهمان:

(6068/1)

... 1 ـ ما المبادئ والأسس التي يجب أن يقوم عليها الحكم في المجتمع الإسلامي؟

... 2 ـ كيف يمكن للحاكم أن يحتفظ بحكمه ويحظى برضى رعيته؟

... ويبقى تساؤل آخر: هل الفكر السياسي الإسلامي يدور في فراغ يكرر فيه اللاحقون ما كان له السابقون من

غير إضافة أو تجديد؟

المصادر والمراجع

ابن أعثم، أبو محمد أحمد الكوفي (ت 314 هـ/ 962 م)، الفتوح، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت 256 هـ/ 869 م)، الجامع الصحيح، تح أحمد محمد شاكر، دار الجيل، بيروت.

(1/6069)

ابن بحشل، أسامة بن سهل الرزاز (ت 292 هـ/ 905 م)، تاريخ واسط، تح كوركيس عواد، المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1967.

ابن بكار، الزبير (256 هـ/ 869 م)، الأخبار الموفقيات، تح سامي مكي العاني، مطبعة العاني، بغداد، 1972.

البغدادي، عبد القاهر بن طاهر (429 هـ/ 1037 م)، أصول الدين، دار المدينة، بيروت.

البلاذري، أحمد بن يحيى (ت 279 هـ/ 892 م)، أنساب الأشراف (الشيخان)، تح إحسان صدقي العمد، مؤسسة الشراع العربي، الكويت، 1989.

(6070/1)

البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (458 هـ/ 1065 م)، مناقب الشافعي، السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، 1971.

التميمي، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم (ت 333 هـ/ 944 م)، المحن، تح يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، 1980.

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج (ت 597 هـ/ 1200 م)، صفوة الصفوة، تح محمود فاخوري وزميله، بيروت، 1985.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت 852 هـ/ 1448 م)، الإصابة في تمييز الصحابة، مطبعة السعادة، مصر، 1328.

(6071/1)

ابن حنبل، أحمد (ت 241 هـ/ 875 م)، المسند، تح أحمد محمد شاكر وزميله، دار المعارف، القاهرة، 1980.

الخوارزمي، أبو المؤيد الموفق بن أحمد بن محمد البكري (ت 568 هـ)، المناقب، قدم له محمد رضا الموسوي، المطبعة الحيدرية، النجف، 1967.

ابن خياط، خليفة (ت 240 هـ/ 854 م)، تاريخ، تح أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1977.

الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن (255 هـ/ 868 م)، سنن الدارمي، تصحيح محمد دهمان، دار الكتب العلمية، بيروت.

(1/6072)

رضوان السيد، الأمة والجماعة والسلطة، دراسات في الفكر السياسي الفرعي الإسلامي، دار اقرأ، بيروت، 1984.

الزبيري، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت 236 هـ/ 850 م)، نسب قريش، تح أ. ليفي بروفنسال، دار المعارف، مصر، 1967.

الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف، المكتبة التجارية، 1354.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت 911 هـ/ 1505 م)، تاريخ الخلفاء، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، السعادة، مصر، 1952.

الشافعي، محمد بن إدريس (ت 204 هـ/ 819 م)، الأم، دار الفكر، بيروت، 1983.

(6073/1)

الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (ت 548 هـ/ 1553 م)، الملل والنحل، تح محمد سيد الكيلاني، دار صعب، بيروت، 1986.

الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام (ت 211 هـ/ 826 م)، المصنف، تح حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي، بيروت، 1970.

الطبري، محمد بن جرير (ت 310 هـ/ 922 م)، تاريخ الأمم والملوك، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، 1976.

ابن عبد ربه، أحمد بن محمد (ت 328 هـ/ 939 م)، العقد الفريد، تح محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، 1963.

(6074/1)

الفراء، أبو يعلى محمد بن الحسن (ت 458 هـ/ 1065 م)، المعتمد في أصول الدين، تح يوسف أيبش، ضمن الفكر السياسي الإسلامي (الإمامة عند أهل السنة)، دار الطليعة، بيروت، 1966.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276 م)، الإمامة والسياسة (منسوب إليه)، تح طه محمد الزيتي، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة، 1967.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (ت 450 هـ/ 1058 م)، الأحكام السلطانية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.

(1/6075)

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت 364 هـ/ 957 م)، مروج الذهب، تح محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1998.

مسلم، مسلم بن حجاج بن الحسين (ت 261 هـ/ 847 م)، الجامع الصحيح، دار الآفاق، بيروت.

المنقري، نصر بن مزاحم (ت 212 هـ/ 827 م)، وقعة صفين، تح عبد السلام هارون، الخانجي، القاهرة، 1981.

النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسى (ت 301 هـ/ 922 م)، فرق الشيعة، تصحيح هـ ريتر، جمعية المستشرقين الألمانية، إستانبول، 1931.

(1/6076)

النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت 733 هـ/ 1322 م)، نهاية الأرب، تح علي محمد البجاوي، الهيئة المصرية، القاهرة، 1976.

ابن هشام، عبد الملك (213 هـ/ 828 م)، السيرة النبوية، تح مصطفى السقا وزملائه، البابي الحلبي، القاهرة، 1955.

الهمذاني، عبد الجبار محمد بن الحسن (ت 415 هـ/ 1024 م)، المغني في أبواب العدل والتوحيد، تح عبد الحليم محمود وزميله، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطبعة المخيمر.

ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626 هـ/ 1228 م)، البلدان، دار صادر، بيروت، 1979.

(1/ 6077)

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت 292 هـ/ 904 م)، تاريخ، قدم له محمد صادق بحر العلوم، الحيدرية، النجف، 1964

يوجه سوي، خير الدين، تطور الفكر السياسي عند أهل السُنة، فترة التلوين، من بدايته حتى الثلث الأول من القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، 1990.

أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت 182 هـ/ 798 م)،

الخراج، تح إحسان عباس، دار الشروق، بيروت والقاهرة، 1985.

(1/6078)

المُنْيَات بالأندلس

... ... الدكتور محمد حمام

... ... كلية الآداب ـ الرباط

... عديدة ومتنوعة هي المظاهر الحضارية والثقافية التي انتقلت من المشرق الإسلامي إلى الأندلس، وازدهرت هناك بفعل وجود وتفاعل كثير من العوامل المادية والبشرية. وتعد المنيات إحداها. وموضوع المنيات هذا، تزوِّدنا في شأنه بعض المصادر التاريخية بإفادات وإشارات هامة بإمكانها أن تعيننا ـ في هذا البحث ـ على تتبع تاريخ المنية، ورصد وظائفها منذ ظهورها بالأندلس في غضون القرن الثاني الهجري إلى نهاية القرن

(1/6079)

الخامس الهجري / النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي إلى نهاية القرن الحادي عشر للميلاد.

... كثيراً ما يرد لفظ »المنية« في المصادر العربية في صيغة المفرد، لكنه في أحيان قليلة يرد أيضاً في صيغة الجمع ويرسم »مُنَى«(1)

---

(1) حسب المؤرخ ليفي بروفنصال، فإن الصيغة المشرقية لهذه الكلمة هي مينيا (بكسر الميم)، وتوجد في مصر كثير من أسماء المكان والمواقع تحمل هذا الاسم. وله معان مختلفة مثل محطة أو مرسى الإبحار أو دير. وليس مستبعداً أن يكون أصل الكلمة إغريقياً واستوعبته اللغة القبطية.

E. Lévi-Provençal, L'Espagne musulmane au Xè) siècle, Institutions et vie .(.52, p. 1932sociale, Ed. Larose, Paris,

(6080/1)

. وقد وردت كلمة مُنْيَة في "قاموس" دوزي بمعنى الحديقة الفسيحة(1). وعنه نقل مؤلفا "قاموس اللغة القشتالية والإسبانية" هذا المعنى وأضافا عليه معنى

آخر هو معنى المزرعة(2)

_____

(1) R. Dozy, Supplément aux dictionnaires arabes, Librairie du Liban, Beyrouth, 1981, T. II, p. 628.

(2) انظر جوان كوروميناس وخوسي باسكال:

Joan Corominas et José Pascual, Diccionario critico etimologico castellano et hispanico, Vol. I, Editorial Gredos, Madrid, 1980, p. 20. والواقع أن هذا المعجم هو مراجعة للمعجم الأول الذي أنجزه خوان كوروميناس عن اللغة القشتالية بعنوان: J. Coronominas., Diccionario critico etimologico de la lengua castellana, Vol. I, Editorial Francke, Berna, 1954, p. 161.

(1/6081)

. غير أن ما وصلنا تاريخياً من معلومات يُبَيِّن بوضوح أن للمنية في الأندلس، إلى جانب المعنييْن السابقيْن، معاني أخرى حسب الوظائف التي قامت بها. وهو ما سنحاول تبيانه من خلال هذه الدراسة.

... يتفق المؤرخون على أن عبد الرحمان الداخل، الأمير الطريد، عمل كل ما في وسعه على إحياء أمجاد الدولة

الأموية البائدة لينغِّص بذلك الحياة على أعدائه العباسيين في المشرق. ومن ثم لم يألُ جهداً في نقل كل مظاهر الحياة والحضارة المشرقية إلى الأندلس(1)

---

(1) وهذا الطابع المشرقي يسميه الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم بـ »اللون السوري« في كتابه: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية، عمرانية، أثرية في العصر الإسلامي)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1971، ج 1.

(1/6082)

. ولعل المنية من بين تلك المظاهر التي نقلها إلى هذا البلد، فاتخذت به طابعاً متميزاً طيلة الفترة المروانية وبعدها.

... وهكذا قام في بداية حكمه بإنشاء أول منية معروفة بالأندلس، هي منية الرصافة إلى الشمال الغربي من مدينة قرطبة. وقد أرادها أن تكون نظيرة لرصافة دمشق، منية جده هشام، فسماها بهذا الاسم :

... فاتخذ بها قصراً حسناً، ودحا جناناً واسعة، ونقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية، وأودعها ما

كان استجلبه يزيد، وسفر رسولاه إلى الشام من النوى المختارة، والحبوب الغريبة حتى نمت بيمن الجد

(1/6083)

وحسن التربية في المدة القريبة أشجاراً معتمة أثمرت بغرائب من الفواكه، انتشرت عما قليل بأرض الأندلس، فاعترف بفضلها على أنواعها (1).

... ومن بين أشجار الفاكهة التي حرص عبد الرحمان الداخل على غرسها في منيته هذه، الرمان السفري »الموصوف بالفضيلة المقدم على أجناس الرمان بعذوبة الطعم ورقة العجم، وغزارة الماء وحسن الصورة، وقد انتشر هذا النوع من الرمان بالأندلس وتوسعت غراسته بها،

---

(1) الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، دار صادر، بيروت، 1388/ 1968، ج 1، صص. 466 ـ 467.

(1/6084)

واشتهر بالرمان السفري»(1).

... ويذكر ابن عذاري المراكشي أن شجر النخيل كان من بين الأشجار التي ضمتها منية الرصافة. وحسب المؤرخ نفسه، فإن الأمير عبد الرحمان الداخل لما نزل أول مرة بهذه المنية أثارت نخلة شجونه، وتذكر وطنه، فأنشد على التوِّ هذه الأبيات، قائلاً (2):

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

---

(1) المقري، المرجع نفسه، ج 1، ص. 467.

(2) ... ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنصال، دار الثقافة، بيروت، 1400/ 1980، ج 2، ص. 60.

(6085/1)

فقلت شبيهي في التغرب والنوى

نشأت بأرض أنت فيها غريبة

سقاك غوادي المزن من صوابها الذي

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

وطول التنائي عن بني وعن أهلي

فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

يسح ويستمري السماكين بالوبل

... وموقع منية الرصافة، خارج قرطبة، لا يزال معروفاً إلى اليوم، وتنتصب فيه أطلال جدران وقاعات في جوفها باب يؤدي إلى طريق في باطن الأرض يعتقد أنه كان يصل الرصافة بقرطبة، وأن عبد الرحمان الداخل كان يمر عبره كلما رغب في الراحة والتسلية بعيداً عن أنظار رعيته بقرطبة(1)

---

(1) الدكتور السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية، عمرانية، أثرية في العصر الإسلامي)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1971، ج 1، ص. 52.

(6086/1)

.

... وتعتبر منية نصر بعد منية الرصافة من أولى المنيات التي تشير إليها المصادر. وقد ذكرها ابن حيان في "مقتبس"ه سنة 236 هـ/ 850 ـ 851 م عند حديثه عن

مهلك صاحبها أبي الفتح نصر الخصي »خليفة الأمير عبد الرحمان بن الحكم، المقدم على جميع خاصته، المدبر لأمر داره، المشارك لأكابر وزرائه في تصريف ملكه«(1).

وهذه المنية التي كانت تقع في غربي مدينة قرطبة على ضفة الوادي الكبير قريباً من

---

(1) ابن حيان القرطبي، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق وتقديم الدكتور محمود علي مكي، القاهرة، 1415/ 1994، ص. 49.

(6087/1)

مقابر الربض، وصفها الشاعر الديبلوماسي يحيى الغزال بأنها قصر، في قصيدة يتحدث فيها عن نصر ونمط عيشه فيها. ومما جاء في مطلعها (1):

أيا لاهياً في القصر قرب المقابر

يرى كل يوم وارداً غير صادر

... غير أن الحميري صاحب "الروض المعطار" ذكرها ناعتاً إياها بما يلي:

... قرية قريبة من قرطبة موفية على النهر، وهي في شرقيها وتعرف بأرحاء الحناء، وهي منية فسيحة ذات مبان رفيعة، والذي ابتنى منية نصر الإمام عبد الله بن محمد، وفي ذلك يقول عبيد الله بن يحيى من قصيدة له:

---

(1) ابن حيان، المرجع نفسه، ص. 153.

(6088/1)

لعل زماني يستجد بوصلها

فكم صدفت عنها الخطوب وأحرزت

جفاها البلا إذ واصل الملك ربعها

قريب المدى رحب المحل تحفه

تجدد عهد الملك في منية النصر

جنان المصلى دونها حلة الفخر

وتم بها قصر يضاهي سنا البدر

رياض ونهر تحت عقوته يجري

... ... والركن الشرقي مما يلي القبلة من هذه المنية يعرف بالركين، وهو على النهر، وفيه ثمرات زيتون،

وبين النهر وبين الركن موضع ينتابه النبيذيون وينتجعه الظرفاء فلا يكاد يخلو منهم، يتفيَّأون ظلّه ويعومون في نميره لاشتهاره وبرده. وفي ذلك يقول محمد بن شخيص على لسان ابن الحمالة إذ كان

(1/ 6089)

غائباً في القسطنطينية في شعر له طويل:

اقر السلام على الركين وقل له
سقيا لظلك بالعشي وبالضحى
لو كنت أملك منع مائك لم يقم

مذ غبت لم أرتح لظل نسيم
ولبرد مائك في احتدام سموم
في ظل ساحك منتم للئيم(1)

... واللاّفت للانتباه في هذا الوصف هو التطور الذي شهدته منية نصر فيما بعد؛ إذ توسعت على طول الوادي الكبير إلى درجة أنها أصبحت مكان استقطاب لأولئك الذين كانوا يبحثون عن الطبيعة

---

(1) محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس، مكتبة لبنان، ط 2، 1984، ص. 548.

(6090/1)

الساحرة للاستمتاع بجمالها.

... وتنفرد ضاحية مدينة قرطبة عن ضواحي مدن الأندلس الأخرى بكونها الضاحية التي عرفت إقامة أكبر عدد من المنيات وأشهرها كذلك وذلك راجع إلى كونها عاصمة الدولة الجديدة، إضافة إلى وفرة الأراضي الغنية على جنبات الوادي الكبير. فالأرض الفلاحية والماء المنساب كانا عنصرين أساسييْن في إقامة المنيات في كل الأماكن التي شهدت إقامتها.

... ويظهر أن قصر الخلافة بقرطبة في عهد الأمير محمد كان محاطاً بمنى كثيرة، وهو ما تفيده الإشارة الواردة عند ابن عذاري في "بيانـ"ه، حيث يقول: »وفي سنة

(6091/1)

---

250 هـ (864 م)، كملت مقصورة المسجد الجامع بقرطبة، وبنى فيها الأمير محمد بنياناً كثيراً في القصر الكبير والمنى الخارجة عنه... «(1). وجدير بالملاحظة أن هذه الإشارة ربَّما هي أول إشارة تاريخية يرد فيها هذا المصطلح بصيغة الجمع (منىً).

... أما الأمير عبد الله بن محمد، فقد كانت له منية خاصة منذ أيام والده هي منية الناعورة التي اعتنى بها عناية كبيرة. وقد ورد في شأنها عند ابن حيان في "المقتبس" ـ نقلاً عن الراوي معاوية ـ ما يلي:

---

(1) ابن عذاري المراكشي، المرجع السابق، ج 2، ص. 98.

... ما علمنا للأمير عبد الله بناء في مدة خلافته كلها غير منية الناعورة على شط النهر أسفل قرطبة المتصلة بمصلى فحص المصارة العتيق، وكان اشتراها أيام والده الأمير محمد، فأنشأها منية عجيبة واسعة الخطة أرادها للفرجة، فأوسع خطتها وأكثر غراساتها، واقتصد مع ذلك في الإنفاق عليها. وقد قرأت كتاب شرائه لها بما حولها من أحقالها المحيطة بها من خليل البيطار، سنة ثلاث وخمسين ومائتين، فنوه بها ملكه لها. غير أن

ابتناءه لها كان قصداً مشبهاً بفعله في جميع شؤونه، ثم انتقلت هذه المنية من بعده إلى ابنه عبد الرحمان بن

(6093/1)

محمد، ولها حظ من اجتبائه أمال إليها عزمه فبلغ بها العناية التي كان قصده لها في ما تناوله بقوة جد لم يخذله(1).

وقد أضاف قائلاً إن الأمير عبد الله اصطفى:

... في خلافته أيضاً منية نصر الخصي، أثير الأمير عبد الرحمان بن الحكم جدهن الموفية على شط النهر أيضاً بعدوة الربض إلى جانب مقبرة الربض العتيقة، وصارت إليه بعد نصر مخترعها وكلف

---

(1) ابن حيان، كتاب المقتبس في تاريخ الأندلس، تحقيق الدكتور إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، مطابع النجاح الجديدة، الدار البيضاء ـ المغرب، 1990، صص. 59 ـ 60.

(6094/1)

بها فشيد بنيانها وأتقن مصانعها. إلا أن ذلك [كان] في حد الاقتصاد والاختصار اللذين لم يفارقا مذهبه فيهما [في] آخر وقته. قسم أوقات نزهته وفرجته بين هاتين المنيتين الصيفيتين فطفق يتردد إليهما إذا فرغ لهما ويتفرج فيهما إلى أن مضى لسبيله. وقد كان شعراء وقته اعتمدوه في وصف المنيتين هاتين وغبطوه بهما بأشعار حسان أجادوا فيهما يطول القول بها (1).

ويشير المؤلف نفسه إلى أن الثائر عمر بن حفصون كانت له بضاحية قاعته ببشتر «منيته الخاصة التي كان اتخذها بالموضع المعروف بالعرصات»(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 60.

(2) المصدر نفسه.

(6095/1)

. وقد تمكن المطرف بن الأمير عبد الله من هدم هذه المنية مع كنيستها سنة 280 هـ/ 893 م(1). ويبدو أن أحد أبناء عمر بن حفصون تمكن من إنشاء منية أخرى ببشتر بعد هذا التاريخ. ويشير ابن حيان إلى أن هذه «المنية المنسوبة إلى ولده (أي ابن عمر بن حفصون) وما

حولها من القرى والمنازل« قد أحرقها أبان ابن الأمير عبد الله أثناء الصائفة »المعروفة بغزوة ريه« التي قادها سنة 291 هـ/ 903 م ضد ببشتر (2). وخلال الحقبة نفسها تقريباً كان لطالب بن مولود، ثائر آخر على الأمير عبد الله،

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(6096/1)

منية خاصة قريباً من حصن أقواط على نهر إبره. ولما تغلب عليه الأمير عبد الله سنة 282 هـ/ 895 م، استولى »على الحمام والمنية؛ فهدما وأحرقا، وانحجر طالب بن مولود وأصحابه داخل حصن أقواط وتمادى الهدم والقطع والإحراق والتدمير في ما حوله من قرى«(1).

... وقد أولى عبد الرحمان الناصر اهتماماً خاصاً بالمنيات، فقام بإنشاء العديد منها في قرطبة وفي أماكن أخرى من الأندلس. وحسب ابن حيان، فقد كان مولعاً ببنائها إزاء كل قصر كان يقوم بإنشائه لفائدة أبنائه الكثيرين، إذ:

---

(1) المصدر نفسه.

(6097/1)

... لم يكن ينشأ له غلام من بنيه إلا ابتنى له بالمدينة قصراً يقرنها لكل واحد بمنيته بستان بخارج البلد في أمكنة منتزهاته الحسنة، وأضعف لهم على ذلك الأرزاق الهلالية والمعاريف الـ[سينية]، وأوسع لهم من الضياع المغلة والعقار الخارجية [...] وطفق يخرج كل من أدرك منهم [واحتـ]ـلم أولاً إلى قصورهم التي تقدم باتخاذها لهم بداخل المدينة، بعد أن أطفحها بنعمهم وأهلها بعيالهم وخولهم، فظلوا يتقلبون في نعم لا كفاء لها ويقسم لهم بمناهم الموسومة بنزههم خارج البلد أيام فرجهم قسط من راحاتهم، فيقضون أوطاراً تفوق

(6098/1)

طماح الأهل تحت جناح دهر مسعد قد غفل عنهم أوانه (1).

... وتعتبر منية البنتلي الواقعة بشرقي قرطبة أول منية ظهر بها الناصر في بداية حكمه، فخرج عليها

يروم الصيد »في أول ركوب ظاهر كان له في خلافته، فكان موكبه فخماً نبيلاً ملأ قلوب رعيته بهجة ومسرة [...] وقضى [بها] وطراً من فرجته، وانصرف إلى القصر عشي يومه... «(2).

---

(1) ابن حيان، المقتبس، ج 5، نشر شالميتا، وف. كورينطي، وم. صبح،مدريد، المعهد الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب، الرباط، 1979، ص. 15.

(2) المصدر نفسه، ج 5، ص. 57.

(6099/1)

... ويبدو أن منية الناعورة المشرفة على عدوة مدينة قرطبة كانت المنية المفضلة عند الخليفة عبد الرحمان الناصر، إذ كثيراً ما كان يخرج إليها للنزهة. كما كانت محطة لنزوله ذهاباً وإياباً خلال تنقلاته خارج عاصمة الخلافة في اتجاه الجنوب والجنوب الشرقي. ففي سنة 316 هـ/ 928 م، نزل بهذه المنية بعد رجوعه من غزوته التي قادها شخصياً مع ابنه الحكم وولي عهده ضد حصن ببشتر قاعدة آل ابن حفصون الثائرين عليه (1). ولما أراد زيارة ببشتر في آخر السنة التالية لتفقد ما »أقام فيها من بنية وتم من

(1) المصدر نفسه، ص. 219.

(6100/1)

تحصين وتوثقه «، »انبعث لها من قصر الناعورة، مقامه للفرجة «(1). وهذه الإشارة توضح أن منية الناعورة كانت تضم أيضاً قصراً من قصور الخلافة خارج مدينة قرطبة.

... وقد ازدادت المنيات أهمية في عهد الحكم المستنصر. ومن المنيات التي ذكرتها المصادر في عهده منية عبد العزيز(2)، ومنية الشماماتت بشط النهر الأعظم المنسوبة إلى أبي الحكم بن القرشية(3)

(1) المصدر نفسه، ص. 250.

(2) ابن حيان، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، 1983، ص. 45.

(3) المصدر نفسه، ص. 43.

(6101/1)

، وكذا منية أرحاء ناصح(1) التي كانت ـ حسب تعبير ابن حيان ـ حظيته(2)، مما يفيد أنه كان كثير التردد عليها. فقد قصدها في شهر رجب عام 364 هـ/ 974 م في فترة نقاهته بعد أن نصحه أطباؤه بالرحيل عن قصر الزهراء. ومن هذه المنية توجه إلى منية الناعورة قبل أن يعود إلى قصر قرطبة(3). وقبل ذلك بثلاث سنوات:

... في يوم الخميس بقين من ربيع الأول [...] أوصل الخليفة المستنصر بالله إلى نفسه، وهو بمنية أرحاء ناصح، العارضين: محمد بن يعلى وابن أخيه

---

(1) المصدر نفسه، ص. 68.

(2) المصدر نفسه، ص. 212.

(3) المصدر نفسه.

(6102/1)

يعلى بن أحمد بن يعلى، فأمرهما باللحاق بسيدهما، الوزير القائد في سرقسطة أحمد بن يعلى إذ اتصل به أنه بآخر رمق من علة... (1).

وكانت المصحفية من بين المنيات المشهورة أيضاً في عهد هذا الخليفة. وسميت بالمصحفية نسبة إلى حاجبه

أبي عثمان بن جعفر المصحفي. وفي صددها يقول صاحب "نفح الطيب" .نقلاً عن الحجاري في "المسهب" .»أن الرئيس أبا بكر محمد بن أحمد بن جعفر المصحفي، اجتاز بالمنية المصحفية التي كانت لجده أيام حجابته للخليفة الحكم المستنصر، فاستعبر حين تذكر ما آل إليه حال جده مع

---

(1) المصدر نفسه، ص. 68.

(6103/1)

المنصور بن أبي عامر واستيلائه على ملكه وأملاكه، فقال(1):

قف قليلاً بالمصحفية واندب
واسألنها عن جعفر وسطاه
جعفر مثل جعفر حكم الدهـ
ولكم حذر الردى فصممنا
بينما يعتلي عدا خافضاً منـ

مقلة أصبحت بلا إنسان
ونداه في سالف الأزمان

ـر عليه بعسرة وهوان

لا أمان لصاحب السلطان

ـه اكتساب ككفة الميزان

... وكانت للحكم المستنصر منية أخرى تسمى المنية الرمانية، أهداها له خادمه الفتى الكبير دُرِّي الأصغر الخازن الصقلبي سنة 362 هـ/ 972 م تزلفاً إليه. وحسب ابن حيان، فقد

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص. 471.

(6104/1)

كانت من إنشاء هذا الأخير، وكانت في غاية الجمال؛ إذ وصفها بالغراء. ويبدو أيضاً أنه بالغ في الإنفاق عليها. ونظراً لأهمية التفاصيل الواردة في هذا الوصف، نورده كاملاً:

... وفي النصف من شعبان منها [أي سنة 362 هـ اقترب الفتى الكبير دري الأصغر الخازن الصقلبي إلى الخليفة مولاه بإهدائه إليه منيته الغراء بوادي الرمان المنسوبة إليه. وكانت اختراعه ومرسى جنته ومستفرغ نفقته حتى أبلغ منها الغاية التي ناغاها كثير من منى مولاه

وقسمت له حظاً من هواه صيره ينتابها أيام نزهه

ويقسم لها من راحاته، تحرى لها هذا الفتى

(6105/1)

مسرته فزفها عند استوائها واكتمالها هدية إليه،

بجميع ما كان له فيها داخلها وخارجها من البساتين

المسقية والأرضين المزدرعة، وما كان له بها من عبد

وأمة وثور ودابة، اشتمل ذلك على أعداد متوالية وأموال

وافرة ونعم مؤثلة تقبلها منه الخليفة مولاه وأبدى لها

مسرة، وتقدم إليه بإقراره عليها وكيلاً ومسنداً إلى

نظره فيها، كما لا ينخرم شيء من عمرانها، فعمل

بذلكن وسأل الخليفة أثر ذلك أن يشرفه بحضور دعوة

يعدها له فيها، فيشهدها بالأمير هشام ولده وعياله،

فنيف بمقداره، فأسعفه الخليفة بذلك، وركب إليه من

قصر الزهراء

(6106/1)

إلى هذه المنية الرمانية المهداة له، يوم الأحد لثلاث

عشرة ليلة خلت من شعبان منها قاصداً مع الأمير هشام

ولده والعيال. وقد قدر المبيت فيها ليلته فأقيم له داخلها بيوت المنام وضربت حولها الفساطيط والأبنية لمن حفها من الخدم والغلمان، فنزلها عامة يومه ذلك، عاكفاً على نعيم لا ينادى وليده، مطهر من حرام يشوبه، وأفاض رب الدعوة على جميع من حضره داخلاً وخارجاً من صنوف الأطعمة الغريبة وأنواع الفواكه الملذة ما غالب شهواتهم وعم طبقاتهم، فأجمعوا أنهم لم يشاهدوا في المنتزهات السلطانية أكمل ولا أهذب ولا أعم من

(6107/1)

صنيع دري هذا. ودنا المساء وقد بدا للخليفة في المبيت بمنزه المنية، فانصرف مع الأمير ابنه وعياله إلى قصره بالزهراء (1).

... وشهدت الأندلس ظهور منيات أخرى خلال فترة ولاية محمد بن أبي عامر المنصور للحجابة. فمدينة الزاهرة التي أنشأها سنة 368 هـ/ 978 م كانت بها منتزهات ومنيات كثيرة ذكر ابن عذاري بعضها قائلاً: »وابتنى المنصور على طريق المباهاة والضخامة مدينة الزهراء ذات القصور

---

(1) ابن حيان، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق

عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، نشر وتوزيع دار الثقافة، 1983، ص ص. 106 ـ 107.

(6108/1)

والمنتزهات المخترعة كذات الواديين ومنية السور وأرطانية وغيرها من منشآته البديعة «(1). وتخليداً لاسمه ولذكراه، فقد سمى إحداها بالعامرية. وليس مستبعداً أن تكون أحظاها لديه. وقد ورد عند ابن عذاري في شأنها أن شخصاً اسمه عمرو بن أبي الحباب دخل على ابن أبي عامر وهو مقيم بهذه المنية »والروض قد تفتحت أنواره، وتوشحت نجاده وأغواره، وتصرف فيها الدهر متواضعاً، ووقف بها السعد خاضعاً، فقال(2) [بسيط]:

لا يومَ كاليوم في أيامك الأول

---

(1) ابن عذاري، المرجع السابق، ج 2، ص ص. 298 ـ 299.

(2) المرجع نفسه، ص. 277.

(6109/1)

هواؤها في جميع الدهر معتدل

ما إن يبالي الذي يحتل ساحتها

بالعامرية ذات الماء والظلل

طيباً وإن حل فضل غير معتدل

بالسعد ألا تحل الشمس بالحمل

... ومن المنيات المنسوبة أيضاً إلى ابن أبي عامر بضاحية مدينة الزاهرة المنية المعروفة باللُّؤلؤة(1). وقد نسب عليه المؤرخ علي بن موسى المشهور بابن سعيد الغرناطي الأندلسي منية أخرى بضاحية مدينة بلنسية أشار إليها في وصفه لهذه المدينة قائلاً: »وحيث خرجت من جهاتها لا تلقى إلا منازه ومسارح، ومن أبدعها وأشهرها الرصافة، ومنية ابن أبي

---

(1) المرجع نفسه، ص. 300.

(6110/1)

عامر «(1). وكانت هذه الأخيرة في:

... منتهى الجمال، ومزهى الصبا والشمال... وبوسطها مجلس قد تفتحت للروض أبوابه، وتوشحت بالأرز الذهبية

أثوابهن يخترقه جدول كالحسام المسلول، وينساب فيه انسياب الأيم في الطلول، وصفاته بالأدواح محفوفة، والمجلس بروق كالخريدة المزفوفة. وفيه يقول علي بن أحمد أحد شعرائها [أي بلنسية]، وقد حله مع طائفة من وزرائها:

قم سقني والرياض لابسه

---

(1) علي بن موسى بن سعيد الغرناطي الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417/ 1997، ج 2، ص. 243.

(6111/1)

في مجلس كالسماء لاح به

والشمس قد عصفرت غلائلها

والنهر مثل المجر حف به

وشيا من النور حاكه القطر

من وجه من قدر هويته بدر

والأرض تندى ثيابها الخضر

من الندامى كواكب زهر (1)

... وتحدث ابن عذاري عن منية أخرى ظهرت أيام ابن أبي عامر هي منية العقاب الواقعة بشرقي قرطبة، وهي التي أنزل بها الحاجب ابن أبي عامر جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي حينما استقدمه من العدوة ليضرب به منافسه وصهره القوي القائد الكبير غالب الناصري(2)

---

(1) المقري، المرجع السابق، ج 1، ص ص. 557 ـ 558.

(2) ابن عذاري، المرجع السابق، ج 2، ص. 278.

. ومعلوم أن ابن أبي عامر استوزره وعظم شأنه. إلا أن ذلك لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما تخلص منه بمجرد تخلصه من غريمه غالب الناصري السالف الذكر. وجدير بالملاحظة أن منية العقاب هذه نزل بها بعد ثلاثين سنة من هذا التاريخ مائة من أصحاب القومط بن مامة النصراني الذي وقف إلى جانب الثوار ضد ابن عبد الجبار(1).

... ومن بين المنيات التي كان يتردد عليها عبد الملك الملقب بالمظفر وعبد الرحمان الملقب بشنجول ابني محمد بن أبي عامر المنصور خلال فترة حجابتهما، منية

أرملاط فالأول حل بها

---

(1) المرجع نفسه، ج 3، ص. 91.

وهو في طريقه إلى غزو النصارى سنة 393 هـ/ 1002 م(1). وقد حل بها للمرة الثانية هو وعسكره أثناء توجهه إلى جليقية في غزوته الثانية للنصارى سنة 395 هـ/ 1004 م(2). أما أخوه عبد الرحمان شنجول، فقد نزل مضطراً بعياله بمنية أرملاط سنة 399 هـ/ 1008 م بعد أن عقد لنفسه ولاية العهد على الخليفة في انتظار الدخول إلى مدينة قرطبة التي اقتحمها الثائر محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمان الناصر، ابن عم الخليفة هشام المريد بالله(3).

---

(1) المرجع نفسه، ج 3، ص. 5.

(2) المرجع نفسه، ص. 11.

(3) المرجع نفسه، ص. 71.

وقد استولى ابن عبد الجبار أيضاً على قصر الزاهرة وجمع ما به من أموال وأثاث ونقل كل ذلك إلى قصر الخلافة(1).

وهكذا شهدت منية أرملاط نهاية القوة العامرية، إذ اقتحمها الثوار ودكوها دكاً(2). وجدير بالإشارة إلى أن عبد الرحمان شنجول «افتتح... أمره بالخلاعة والمجانة، فكان يخرج من منية إلى منية ومن منتزه إلى منتزه مع الخياليين والمغنين والمضحكين مجاهراً بالفتك وشرب الخمر... «(3).

---

(1) المرجع نفسه، ص. 49.

(2) المرجع نفسه، ص. 88.

(3) المرجع نفسه، ص. 39.

(6115/1)

... وهناك منية أخرى تعود إلى الفترة نفسها، وهي المنية الواقعة بالرملة قرب قصر الزاهرة (1). وكان عبد الملك بن أبي عامر (المظفر) قد منحها لوزيره عيسى بن سعيد الذي دبر مؤامرة لاغتياله بها هو وأخوه عبد الرحمان شنجول. إلا أن خيوط هذه المؤامرة تم افتضاحها، فقام عبد الملك المظفر بقتل وزيره المتآمر عليه(2).

... وعلى أثر استفحال الأزمة السياسية واختلال الأمن

بالأندلس في نهاية الفترة العامرية، تعرضت العديد من المنيات للنهب والتخريب. وهكذا »أخذ ابن عبد

---

(1) المرجع نفسه، ص. 31.

(2) المرجع نفسه، ص. 33

(6116/1)

الجبار ما كان بقصر قرطبة والناعورة والرصافة فأمحقه الله على يده ويد جنده... «(1). وفي يوم الأربعاء 11 من ربيع الأول سنة 400 هـ/ 1009 م، داهم البربر »أرملاط فأحرقوا فندق أبي الأصبغ الوزير والمنية وغير ذلك.. «(2). وخلال السنة التالية، »أطلق واضح ـ بسوء رأيه وخذلانه ـ يد السفهاء على منية الرصافة، فخربها وحرقها وقطع ثمارها بعد حسنها وجمالها خوفاً أن يدخل البربر عليه من جهاتها، ثم ندم بعد ذلك عليها وعلم أنها كانت حضّاً عليه... «(3)

---

(1) المرجع نفسه، ص. 99.

(2) المرجع نفسه، ص. 88.

(3) المرجع نفسه، ص. 102.

(6117/1)

.

... وتشير بعض المصادر إلى أن ملوك الطوائف بدورهم قد اهتموا بإنشاء المنيات جرياً على التقاليد التي رسخها المروانيون في ميدان البناء وغيره من الميادين الحضارية بالأندلس. ولعل من أشهرها خلال هذه الحقبة منية الناعورة بطليطلة التي جعلها القادر بالله بن ذي النون مقراً لمجلسه. وقد وصفها المقري ـ نقلاً عن الفتح بن خاقان في "قلائد"ه ـ قائلاً بأنها: »المنية المتناهية البهاء والإشراق، المباهية لزوراء العراق... «(1). وحسب ابن سعيد الأندلسي، فإن مدينة المرية كانت لها

(1) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص. 644.

(6118/1)

منتزهات كثيرة منها: »منى عبدوس، ومنى غسان والنجاد وبركة الصفر، وعين النطية «(1). إلا أن أشهرها على الإطلاق هي الصمادحية التي هي من إنشاء المعتصم بن صمادح حاكم هذه الإمارة (ما بين 412 هـ و480 هـ/ 1021 م و1087 م). ومما قاله العذري في هذا الصدد أن المعتصم بن صمادح

... بنى بخارج مدينة ألمرية بستاناً وقصوراً متقنة البنيان غريبة الصناعة، وجلب إليها من جميع الثمار الغريبة وغيرها. ففيها من كل شيء غريب مثل الموز الكثير وقصب السكر وأنواع سائر الثمرات، مما

---

(1) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج 2، ص. 162.

(6119/1)

لا يقدر على صفته، وفي وسطه بحيرة عظيمة عليها مجالس مفتحة مفروشة بالرخام الأبيض. ويسمى ذلك البستان بالصمادحية وهو قريب من المدينة جداً، وقد اتصل به بساتين كثيرة تقرب من صفتها، فيها منتزهات لا يعلم مثلها في جميع المنتزهات (1).

أما ابن سعيد، فقد وصفها بأنها أعظم مباني ألمرية وأنها من بناء المعتصم بن صمادح (2)

---

(1) هذا النص أوردته الباحثة الدكتورة مريم قاسم طويل في مؤلفها حول مملكة ألمرية في عهد المعتصم بن صمادح، 443 ـ 484/ 1051 ـ 1091 م، دار الكتب

العلمية، بيروت، 1994، ص. 144.

(2) ابن سعيد، المغرب...، ج 2، ص. 162,

(6120/1)

.

... واشتهرت في شمال الأندلس بمدينة سرقسطة المنية المسماة بالبديع التي هي من إنشاء المتوكل بن الأفطس. »وهو روض كان المتوكل يكلف بموافاته، ويبتهج بحسن صفاته... ويعد غاية الأرب، ويعده مشيداً للطرب، ومدفعاً للكرب«. وقد كان يقصد هذه المنية أيضاً الوزراء من أسرة القبطرنة (1).

... وخلال الفترة نفسها تقريباً كان للصنهاجيين بني زيري منية خارج مدينة غرناطة إزاء الموضع الذي كان يعرف بالرملة، »وكان يحكم بها حبوس [...] وكان لها بابان... «(2)

---

(1) المقري، نفح الطيب...، ج 1، صص. 637 ـ 638.

(2) الأمير عبد الله بن بلقين، كتاب التبيان، تحقيق وتقديم الدكتور أمين توفيق الطيبي، منشورات عكاظ، الرباط، 1995، ص. 69.

(6121/1)

.

... ويبدو أن المنيات تراجع دورها في الأندلس بعد فترة ملوك الطوائف، بدليل أن ذكرها في المصادر أصبح نادراً جداً. فخلال فترة حكم المرابطين بالأندلس، لم يرد سوى ذكر منية واحدة، هي منية الزبير المنسوبة إلى الزبير بن عمر الذي كان والياً على مدينة قرطبة(1). وورد في كتاب "مفاخر البربر" أنه كان والياً على مدينة غرناطة(2)

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص. 471.

(2) مؤلف مجهول، كتاب مفاخر البربر، منشور ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي، دراسة وتحقيق محمد يعلى، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد، 1996، صص. 250 ـ 251.

(6122/1)

.

... ومهما يكن من أمر، فإنه يتجلى من التحليل السابق أن المنيات بالأندلس كانت محط عناية كبيرة من طرف

الحاكمين الذين تعاقبوا على الحكم منذ قيام الدولة الأموية بها في غضون القرن الثاني الهجري إلى نهاية القرن الخامس الهجري/ الثامن ـ الحادي عشر الميلادي.

وخلال هذه المدة كانت لها وظائف متعددة، نعرض لها فيما يلي:

... إن أول شيء تنبغي الإشارة إليه ـ في هذا الصدد ـ هو موقع المنية الذي يكون في غالب الأحيان خارج المدينة أو الحاضرة. وهذا المعطى أساسي في إنشاء المنية، لأنه كان يجعل منها مكاناً يختلي فيه

(6123/1)

الأمير أو الخليفة أو الحاكم بعيداً عن إكراهات المدينة وصخبها. ولذلك فالمنية هي أولاً وقبل كل شيء مكان للخلوة كانت تتوافر فيه كل مقومات الشعور بالراحة والهدوء والسكينة بعيداً عن أعين الناس. وهي بهذا المعنى مرادفة للمنتزه. فالشعراء يصفون المنيات بأنها رياض وجنان يانعة تخترقها الجداول والأنهار، وتحيط بها إحاطة الأساور بالمعاصم.

... وكما سبقت الإشارة، كان الأمير عبد الله بن محمد في آخر عهده، يقضي فصل الصيف موزعاً بين منية الناعورة ومنية نصر اللتين بالغ في تنميقهما.

(6124/1)

... وتفيد مختلف الإشارات التاريخية المتوافرة أن المنيات بالأندلس شهدت ـ بمضي الوقت ـ تطوراً كبيراً سواء في تصورها أو تصميمها حتى تكون قادرة على أداء وظائف ذات طبيعة سياسية وإدارية وعسكرية. ومن أجل ذلك، أقيمت بداخلها القصور ومرافق أخرى.

... وكان بعض الأمراء يتخذون المنيات للنزول بها كلما رغبوا في القيام بالرياضة المفضلة لديهم، وهي رياضة الصيد، خارج الحاضرة. وقد سبق الذكر أن عبد الرحمان الناصر خرج قاصداً منية البنتلي بشرقي قرطبة وهو يروم الصيد، وذلك في بداية حكمه(1)

---

(1) ابن حيان، المرجع السابق، ج 5، ص. 57.

(6125/1)

. كما كانت المنيات مقصداً للأمراء لقضاء فترة نقاهتهم مثلما فعل الحكم المستنصر بالله لما أصابته علة الفالج «التي لا يكاد يستفيق منها». فنصحه أطباؤه «بالرحيل من قصر الزهرا لغلبة البرد عليه [...] وهي

سيدة القصور ومرتبة السرور ومفيدة الحبور [...] واحتل بمنية أرحاء ناصح حظيته، ولحق ولده الأمير هشام، فنزل بها وبات فيها «(1). وقد تركها بعد ذلك متجهاً نحو منية الناعورة التي »نزل بقصرها وأقام فيه إلى أن صلى الظهر «. ومن هناك قصد قصر قرطبة، »فدخله من باب الجديد

---

(1) ابن حيان، المقتبس، تحقيق الحجي، ص. 212.

(6126/1)

القبلي بركبة منقطعة «(1).

... وكانت بعض المنيات تتخذ مقراً لعقد بعض الاجتماعات لتصفية بعض الصفقات لفائدة الخليفة كما وقع في عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله، وتحديداً سنة 363 هـ:

... في يوم الاثنين لعشر بقين من شوال [حينما] أنذر الحكام والفقهاء والعدول بالاجتماع بمنية ابن عبد العزيز، فحضره ووافاهم بها صاحب الخيل والحشم زياد بن أفلح، فأرسل في جعفر ويحيى ابني علي الأندلسي وقد كان أحكم معهما ما ذهب إليه أمير المؤمنين من دفع المال إليهما في أثمان عبيدهما الذين استعفوا من

(1) المرجع نفسه، ص. 213.

(6127/1)

خدمتهما ومن الخروج معهما ودعوا إلى الانتقال عن ملكيّتهما لسوء ما يجشمانهم، ونفذ العهد بالفصل معهما في التبايع بمحضر من الفقهاء والعدول على ما كان أبرمه معهما، خالفاه وانصرفا عنه وخشنا بالقول وجههما بالرد، وبدا من أكبرهما، جعفر، جفاء كثير واستخفاف لحق الخلافة المعظم شأنها، استبانت فيه غائلته وما يكن صدره من نيات شيعته، حتى علم من أهل العلم أنه نطق عن ضمير نغل، وصغو مستكن إلى أئمته الذين أظهر مفارقتهم من الشيعة [...] خالص إلى المشارقة [...] ووجب على زياد إعلام الخليفة بجميع ما دار في المجلس ووقفه

(6128/1)

عليه، وأمر باعتقال الرجلين لمكانهما والتوكل بهما، وركب إلى الخليفة من فوره، وهو بمنية أرحاء ناصح، فتوصل غليه من ساعته وأعلمه بما جرى بينه وبينهما،

وما بدا من جعفر، فاحفظه وذلك ونذكر ما تقدم لجعفر في هذا العام من سرف الجفاء الذي ذاع عنه ولم يخف عن الخاصة والعامة غله، ولن تسوغ احتماله السياسة، فأمر زياداً بالعود إلى المجلس وإهانة جعفر ويحيى وأشياعهما بما يسوؤهما، وحملهما راجلين من مكانهما إلى سجن الدويرة بمنية الزهراء، فتم ذلك عليهما وقامت منه قيامتهما [...] فمكثا فيه بقية سنة ثلاث وستين

(6129/1)

وثلاثمائة وصدراً من سنة أربع وستين بعدها (1).

ثم أطلق سراحهما بعد ذلك (2).

... وقد سبقت الإشارة إلى أن بعض حكام الأندلس كانوا قد اتخذوا بعض منياتهم مقرات لمجالسهم الرسمية كما فعل القادر بالله بن ذي النون بمنية الناعورة بطليطلة. وقد حذا حذوه حبوس ابن ماكسن الزيري الصنهاجي، فاتخذ مجلسه بمنية خارج مدينة غرناطة قريباً من المكان المعروف بالرملة.

---

(1) المرجع نفسه، صص. 171 ـ 172.

(2) المرجع نفسه، ص 173.

... وإلى جانب الدور السياسي والإداري الذي كان لبعض المنيات بالأندلس، فإن بعضها الآخر أعدت لاستقبال الوفود والطارئين من خارج الأندلس من مسلمين وغيرهم. وهكذا، لما قتل زيري بن مناد الصنهاجي «صاحب الغرب وما يليه» الموالي لشيعة إفريقية سنة 360 هـ/ 970 م من طرف جعفر بن علي الأندلسي، عامل المسيلة، وأخيه يحيى، اضطربت الأحوال ببلاد المغرب، ففر القاتلان إلى الأندلس ونزلا بمرسى بشرقي قرية بزليانة من عمل مالقة (1). وهناك تلقاهما مرحباً «صاحب السكة والمواريث وقاضي إشبيلية محمد بن

(1) المرجع نفسه، ص. 42.

أبي عامر فتى الدولة «(1)، رسول الخليفة الحكم المستنصر بالله، صاحب الأندلس، إليهما. وقد وصف ابن حيان تفاصيل ذلك اللقاء ومختلف مراحل تنقلاتهم في اتجاه مدينة قرطبة.

... [ولما] نزلوا فحص السرادق طرف شرقي قرطبة، فعدل بعيال الرئيسين جعفر ويحيى إلى المنية بالشمامات بشط النهر الأعظم المنسوبة إلى الأخ أبي الحكم بن القرشية، مسورات في العمارات على ما عهد به الخليفة، إكراماً لجعفر ويحيى وإبلاغاً في ستر أهلي الرجلين وصيانتهن، ونفذ عهده إلى الخصيان أصحاب الرسائل والمقدمين أن إذا جن

---

(1) المرجع نفسه، ص. 41.

(6132/1)

الليل أن تنهضوا بهن إلى مدينة قرطبة مع ثقات الرجال في خفية، فتردوا عيال جعفر إلى الدار التي أمر بها وهي المنسوبة إلى يوسف بن سليمان المعروف بابن البياني وتردوا عيال يحيى أخيه إلى الدار المنسوبة إلى قاسم بن يعيش الحديثة الشراء من ورثته، فانقضى ذلك ليلته (1).

وسنتين بعد ذلك أنه

... دخل إلى قرطبة جمع من قبيلة مصمودة من أهل العدوة

الذين حشتهم حرب الملحد حسن بن قنون الحسني المنتزي فيها على الخليفة المستنصر بالله، عدتهم سبعون رجلاً نزعوا إلى الطاعة، فأرسل بهم صاحب

---

(1) المرجع نفسه، صص. 43 ـ 44.

(6133/1)

الشرطة العليا قائد البحر عبد الرحمان بن رماحس أكبر قواد الخليفة المستنصر بالله المتكاملين بالعدة، ذكر أنهم قصدوا نحو طنجة راغبين في الطاعة، ووصفهم بالنجدة، فقبلت إنابتهم، وأنزلوا بمنية نجدة المنسوبة إلى الأقرع، ووسع عليهم (1).

... وأثناء قدوم زرياب، المغني المشهور، إلى الأندلس اعتنى به الأمير عبد الرحمان بن الحكم عناية كبيرة، وأنزله بمنية نصر السالفة الذكر (2).

---

(1) المرجع نفسه، ص. 96.

(2) المرجع نفسه، تحقيق محمود علي مكي، ص. 154.

(6134/1)

... وكما سبق الذكر أيضاً، كانت بعض المنيات مهيأة لإيواء البعثات الديبلوماسية الأجنبية التي كانت تزور الأندلس من حين لآخر، وخاصة أيام حكم عبد الرحمان الناصر وابنه الحكم المستنصر بالله.

... وهكذا وفدت على عبد الرحمان الناصر البعثة التي بعثها إليه قسطنطين السابع، إمبراطور بيزنطة، استقبلها الناصر استقبالاً كبيراً »في يوم مشهود«. وكان وصولها إلى قرطبة

... في صفر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وتقدم كلام ابن خلدون أنها ست وثلاثون. فالله أعلم أيهما أصح. وتأهب الناصر لورودهم وأمر أن يتلقوا أعظم تلق

(6135/1)

وأفخمه، وأحسن قبول وأكرمه... وأنزلوا بمنية ولي العهد الحكم المنسوبة إلى نصر بعدوة قرطبة في الربض، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملة ومن ملابسة الناس طراً، ورتب لحجابتهم رجال تخيروا من الموالي ووجوه الحشم، فصيروا على باب قصر هذه المنية ستة عشر رجلاً لأربع دول، لكل دولة أربع منهم، ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه... (1).

(1) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص. 366 ـ 367.

(6136/1)

ووضح من هذا النص أن وصول وفد الإمبراطور قسطنطين السابع إلى قرطبة تزامن مع وصول وفود دول مسيحية أخرى، وأن أفراد هذه الوفود تم إنزالهم جميعاً بمنية نصر المشهورة، قبل أن يستقبلهم الخليفة الناصر. أما الوفود الأخرى التي يعنيها الأمر هنا، فهي:

... رسول من ملك الصقالبة ـ وهو يومئذ هوتو ـ، ورسول آخر من ملك الألمان، ورسول آخر من ملك الإفرنجة وراء ألبرت ـ وهو يومئذ أوقة ـ، ورسول آخر من ملك الإفرنجة بقاصية المشرق ـ وهو يومئذ كلدة .. واحتفل الناصر لقدومهم، وبعث مع رسول الصقالبة الأسقف إلى ملكهم هوتو ورجع

(6137/1)

بعد سنتين (1).

... ولما ورد على الحكم المستنصر بالله سنة 351 هـ/ 962 م، الملك أردون بن أذفونش «المتملك على طوائف من أمم

الجلالقة والمنازع لابن عمه الملك قبله شانجه بن رذمير«، أنزل بمنية الناعورة قبل استقباله

... وقد كان تقدم في فرشها بضرب الغطاء والوطاء، وانتهى من ذلك إلى الغاية، وتوسع له في الكرامة ولأصحابه، فأقام بها الخميس والجمعة. فلما كان يوم السبت، تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه بعد إقامة الترتيب وتعبئة الجيوش والاحتفال في ذلك من العدد والأسلحة

---

(1) المرجع نفسه، ص. 365.

(6138/1)

والزينة... (1).

وبعد الاستقبال، »صبت عليه الخلع التي أمر له بها الخليفة... وانصرف مع ابن طملس إلى قصر الرصافة مكان تضييفهن وقد أعد له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون، واستقر أصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وإرغاد المعاش«(2).

... وحينما وصل قسطنطين الملقى إلى قرطبة »في يوم الأحد لسبع بقين من جمادى الأولى« سنة 361 هـ/ 972 م،

موفداً من قبل الإمبراطور البيزنطي يوحنا أبو السمسقين »صاحب القسطنطينية المقدم على مملكة الروم« . حسب

---

(1) المرجع نفسه، ص. 389.

(2) المرجع نفسه، ص. 393.

(6139/1)

تعبير ابن حيان . أكرم الخليفة المستنصر بالله وفادته »وأمر بإنزاله في منية البنتي، وأجريت عليه الجراية الواسعة «(1).

... وقبل ذلك بسنة (أي سنة 360 هـ/ 970 م)، وردت على الخليفة الحكم المستنصر سفارة من بوريل (Borrell) بن صونيي (Sunier)، حاكم إمارة برشلونة بقيادة يون فلي (Euneco Boufill) »ثقة بريل ومقدمه على حصونه ومهمات مدنه «. وكانت تضم بالإضافة إليه »عشرين فارساً من وجوه بريل وأتباعهم ومعهم رسول لغيتار القومس النبيه مقدم الأمير بريل على مدينة

---

(1) ابن حيان، المرجع السابق، تحقيق حجي، صص. 71 ـ 72.

(6140/1)

برشلونة المتقدمة وفادته إلى الحضرة بكتابه إلى الخليفة في ثلاثة فوارس من أصحاب غيتار إلى الخليفة... «. وقد جلبت معها هذه السفارة ثلاثين أسيراً من أسارى المسلمين ذكوراً وإناثاً. وكان هدفها عقد معاهدة سلم بين برشلونة وقرطبة. وقد استحسن الخليفة الحكم ذلك، فاستقبلها أحسن استقبال وأنزل »الأعاجم بمنية نصر بشط النهر... وأمر بإكرام مثواهم«(1).

... يُستخلص من التحليل السابق أن المُنية بالأندلس كانت مظهراً من مظاهر القوة السياسية والاقتصادية والحضارية، وكانت بالتالي عنصر مباهاة

(1) المرجع نفسه، ص. 21.

(6141/1)

وتفاخر بين الحاكمين - على اختلاف مستوياتهم - المتعاقبين على حكمها خلال الفترة المدروسة.

ويتساءل المرء عما إذا كان لظاهرة حضارة بمثل هذه القوة إشعاع خارج الأندلس، خاصة في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي، علماً بأن الجنوب الغربي الفرنسي شهد خلال القرنين الثاني والثالث عشر للميلاد ظهور

إقامات ريفية من طرف بعض السادة الإقطاعيين في أماكن من إقطاعياتهم كانوا يقصدونها لأغراض متعددة وهي المعروفة باسم aulae، وتختلف عن الحصون والقلاع الفيودالية المشهورة. وهذا النوع من الإقامات الريفية (aulae) ذكرتها بعض

(6142/1)

سجلات أديرة منطقة كَاسكونيا (1) بصفة خاصة.

---

(1) يراجع في هذا الشأن على الخصوص سِجِلّ دير أُوشْ (Auch) وسِجِلّ دير بِرْدُوسْ (Berdoues).

(6143/1)

المهادنات بين معاوية بن أبي سفيان والبيزنطيين في القرن الأول الهجري/ القرن السابع الميلادي

الدكتور إبراهيم بن حمود المشيقح
رئيس قسم التاريخ – كلية العلوم العربية والاجتماعية بالقصيم – جامعة الإمام – المملكة العربية السعودية

تتأتَّى أهمية هذا الموضوع ممَّا يتيحه من تناول لعدد من المصادر العربية والبيزنطية والسريانية والأرمينية التي تطرقت لهذه الهدنة، ووقوف على أوجه الاتفاق والاختلاف والتوفيق بين هذه الصادر للوصول إلى معالجة دقيقة لهذه المصادر وتعرُّف للمهادنات بين معاوية بن أبي سفيان

(6144/1)

والإمبراطور البيزنطي قنسطانز وقسطنطين الرابع، وتاريخ كل هدنة والظروف التي دعت لعقد هذه المهادنة بين الطرفين ولمدة الزمنية التي اتفق عليها، وهل هي هدنة واحدة أو أنها تعددت في أوقات مختلفة.

الحرب والسلم لهما أثرهما في حياة الشعوب منذ القدم، ومثلما خاض المسلمون عددا من الحروب، مالوا أيضاً إلى السلم حقناً للدماء. قال عز وجل : { وإِن جنحُوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله } (1).

ومن يستقرئ التاريخ الإسلامي، يقف على الكثير من المهادنات والمعاهدات السلمية بين المسلمين وأعدائهم.

---

(1) سورة الأنفال، آية 61.

(6145/1)

لذلك خصصنا هذا البحث للحديث عن المهادنات بين معاوية بن أبي سفيان وكل من الإمبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني (21هـ-48هـ/641-668م) والإمبراطور قسطنطين الرابع (48-65هـ/668-685م).

كذلك خصصنا له، لأهمية هذا الموضوع الذي يتناول العلاقات السياسية بين المسلمين والبيزنطيين، وهو من الموضوعات التي تصدى لها المؤرخون القدامى والمعاصرون. إلا أن المهادنات بين معاوية والبيزنطيين من الموضوعات الشائكة التي اختلفت فيها روايات المؤرخين المسلمين والبيزنطيين والأرمن والسريان، ومن الأهمية بمكان دراسة روايات هذه

(6146/1)

المصادر.

وإذا أخذنا المصادر العربية بعين الاعتبار، لاحظنا أن الروايات التي أشارت إلى هذه المهادنات يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات رئيسية :

* تتضمن المجموعة الأولى إشارات عابرة إلى كل من ابن

سلام(1) والبلاذري(2)(وابن الطقطقي(3) والشيباني (5) تفيد "أن

---

(1) ابن سلام، كتاب الأموال، مصر، د.ت.، ص. 162.

(2) البلاذري، فتوح البلدان، ليدن، 1866م، ص. 159.

(3) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية، مصر، د.ت.، صص. 59–60.

(5) الشيباني، شرح كتاب السير الكبير، تحقيق عبد العزيز أحمد، القاهرة، 1972م، ص. 1753.

(6147/1)

معاوية بن أبي سفيان قد هادن الروم". ولم توضح هذه الروايات في أي عام كانت هذه المهادنة، ومن الذي بادر من الجانبين الإسلامي أو البيزنطي بطلب الهدنة، وما شروط المهادنة أو بنودها، وما مدتها، وكم علم استمرت هذه المهادنة.

ويمكن أن نضيف إلى هذه المجموعة رواية كل من المسعودي(1) والنويري(2) إذ يشيران في رواية مختصرة إلى أن معاوية بن أبي

---

(1) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، 4ج، بيروت،

1983م، ج1، ص. 329.

(2) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، 27 ج، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1975–1976م، ج 15، ص. 27.

(6148/1)

سفيان قد هادن كلاًّ من الإمبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني(1) وابنه الإمبراطور قسطنطين الرابع(2).

وعلى هذا، يمكن القول إن رواية كلّ من المسعودي والنويري تتميز عن رواية كلّ من ابن سلام والبلاذري وابن الطقطقي والشيباني بأنها حددت أسماء الحاكمين البيزنطيين اللذين في عهدهما كانت المهادنة مع معاوية، ولكنهما في الوقت نفسه لم يحددا العام الذي كانت فيه المهادنة، خاصة إذا

---

(1) يطلق عليه المسعودي اسم "مورق بن مورق" والنويري اسم "فوق بن مورق".

(2) يطلق عليه المسعودي "قلفط بن مورق"، والنويري اسم "فوق بن مورق".

(6149/1)

علمنا أن فترة حكم كلّ من قنسطانز الثاني وقسطنطين الرابع قد امتدت من عام 21هـ/641م حتى عام 65هـ/685م ؛ كما أنّهما لم يحددا هل كانت المهادنة بين معاوية بن أبي سفيان والإمبراطور قسطنطين الرابع امتدادا للمهادنة التي سبق أن عقدت بين معاوية ووالد الإمبراطور البيزنطي أو أن معاوية قد هادن كلاًّ من قنسطانز الثاني وقسطنطين الرابع، كلٍّ على حدة ؛ وبهذا تكون هناك مهادنتان مع الروم.

* أما المجموعة الثانية من المصادر العربية، فتشمل روايات كلّ من ابن قتيبة(1)

---

(1) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، 2 ج، مصر، 1904م، ص. 160.

(6150/1)

والطبري(1) والدينوري(2)الذين أشاروا إلى أن "قيصر الروم زحف بجنده لمقاتلة المسلمين" أثناء فترة النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وأن عمرو بن العاص قدم النصيحة لمعاوية بضرورة مواعدة قيصر الروم في تلك الفترة بإعطائه المال والحلل، وإطلاق سراح الأسرى ؛ فاستجاب معاوية ابن أبي سفيان

لنصيحة عمرو بن العاص.

---

(1) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، 10ج، بيروت، 1979م، ج6، ص. 186.

(2) الدينوري، كتاب الأخبار الطوال، بغداد، 1959م، ص. 157.

(6151/1)

ومن خلال روايات المجموعة الثانية من المصادر العربية يمكن أن نستنتج عدة ملاحظات، منها أن الإمبراطور البيزنطي وهو قنسطانز الثاني كان البادئ بمهاجمة المسلمين، وأنه استغل انشغال المسلمين بالفتنة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهما – ليشن هجومه، وأن معاوية هو الذي بادر بطلب الهدنة من الإمبراطور البيزنطي استجابة لنصيحة عمرو بن العاص، وأن معاوية بن أبي سفيان قدم للإمبراطور البيزنطي المال والحلل، وأطلق له سراح بعض الأسرى البيزنطيين كي يوافق على هذه المهادنة.

(6152/1)

ولكن وقفة تحليلية لهذه الرواية تبيِّن أنها رواية ينقصها التحديد الدقيق للعام الذي عقدت فيه هذه المهادنة ؛ إذ أنها اكتفت بالإشارة إلى أن المهادنة كانت في فترة النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وهي خمس سنوات (350–400هـ/656–661م) ؛ كما أنها لم تشر إلى موافقة الإمبراطور البيزنطي على طلب معاوية للمهادنة، ولم تحدد مدة هذه الهدنة. ويلاحظ أن هذه المهادنة كانت في عهد الإمبراطور قنسطانز الثاني فقط، ولم تشر الرواية إلى استمرارها أو عقد مهادنة أخرى مع البيزنطيين في عهد

(6153/1)

الإمبراطور قسطنطين الرابع.

ويمكن أن نضيف رواية المؤرخ ابن كثير(1) إلى إشارات المجموعة الثانية من المصادر العربية. إذ يشير إلى ملك الروم قد طمع في معاوية بعد أن كان يخشاه، فزحف بجيش كبير لمحاربة المسلمين. عندئذ أرسل إليه معاوية كتابا يتوعده، فبعث يطلب المهادنة، ثم كان من أمر التحكيم ما كان.

وتعتبر رواية ابن كثير على جانب كبير من الأهمية ؛

إذ تتفق مع رواية المجموعة الثانية من المصادر العربية في أن المهادنة بين معاوية بن أبي سفيان

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ط 3، بيروت، 1980م ج 8. 119

والبيزنطيين كانت في أثناء فترة النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، ولكنهما أكثر دقة في أنها حددت عقد المهادنة قبل الشروع في التحكيم بين علي ومعاوية. ولما كان التحكيم في صفر عام 37هـ/ يوليو عام 657م، فمعنى هذا أن هذه المهادنة قد تمت في الفترة ما بين عامي 35 و 37هـ/ 655 و 657م(1).

على أن هناك اختلافا بين رواية ابن كثير ورواية المجموعة الثانية من المصادر العربية يتمثل في أن المبادرة بطلب

---

(1) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، الرياض 1985م، ص. 191.

الهدنة جاءت من جانب الإمبراطور البيزنطي، وليس من جانب معاوية كما أشارت إلى ذلك رواية المجموعة الثانية من المصادر العربية. ويوضح ابن كثير السبب في ذلك بأن معاوية قد أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي كتابا يتوعده، لأنه استغل انشغاله بالنزاع مع علي بن أبي طالب وزحف بقواته لمقاتلة المسلمين. ثم يزيد ابن كثير الأمر وضوحا بقوله إنه لما كان "ملك الروم" يخشى معاوية، بعث يطلب المهادنة.

ونخلص من إشارة المجموعة الثانية من المصادر العربية إلى أن هناك رأيين : الأول يرى أن معاوية قد استجاب لنصيحة عمرو بن

(6156/1)

العاص عندما هاجم الإمبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني الأراضي الإسلامية في أثناء فترة النزاع بين أبي طالب ومعاوية بطلب الهدنة مع البيزنطيين، وقدم لهم المال والحلل، وأطلق لهم سراح بعض الأسرى، والرأي الثاني يرى أن الإمبراطور البيزنطي استغل انشغال معاوية بالنزاع مع علي بن أبي طالب، فأراد مهاجمة

المسلمين، وتجرأ بذلك على معاوية بعد أن كان يخشاه. لكن معاوية بن أبي سفيان بعث إليه كتابا يهدده ويتوعده ؛ فما كان من الإمبراطور البيزنطي إلا أن أسرع بطلب الهدنة.

(6157/1)

---

* أما المجموعة الثالثة من المصادر العربية، فتضم رواية كل من خليفة بن خياط واليعقوبي. إذ يشير الأول إلى أن معاوية بن أبي سفيان قد "صالح الروم" في عام 41هـ/661م(1).أما اليعقوبي، فيزيد الأمر وضوحا ويشير إلى أن معاوية بن أبي سفيان قد بلغه في عام 41هـ/661م أن "طاغية الروم قد زحف في جموع كثيرة وخلق عظيم، فخاف أن يشغله عما يحتاج إلى تدبير وأحكامه، فوجه إليه، فصالحه على مائة ألف دينار(2)".

---

(1) خليفة بن خياط، المصدر السابق، ص.205.

(2) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، 3ج، النجف، 1358هـ، ج2، صص. 193–213.

(6158/1)

وأهم ما نلحظه في رواية كل من خليفة بن خياط واليعقوبي أنها حددت المهادنة بين معاوية والبيزنطيين بعام 41هـ/661م. وهي بذلك تختلف عن رواية المجموعة الثانية من المصادر العربية التي ترى أن المهادنة بين الجانبين كانت في فترة النزاع بين معاوية بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، بينما تشير رواية كل من خليفة بن خياط واليعقوبي إلى أن المهادنة كانت بعد انتهاء فترة النزاع واستقرار معاوية الحكم. ونلاحظ أيضا من رواية المجموعة الثالثة من المصادر العربية أن الإمبراطور البيزنطي هو الذي بادر بمهاجمة

(1/6159)

المسلمين، بالرغم من انتهاء النزاع بين علي ومعاوية واستقرار الأمور لمعاوية؛ ولكن معاوية – حسبما أشار إليه اليعقوبي – خاف أن تشغله هذه الحرب عن تدبير أمور دولته، وإحكام قبضته عليها. فأسرع بطلب الهدنة من الإمبراطور البيزنطي، وقدم له في مقابل عقد المهادنة مائة ألف دينار.

وفي ضوء العرض السابق لروايات المصادر العربية، يمكن القول إن هناك فريقا من المؤرخين المسلمين يضم

ابن سلام والبلاذري والشيباني وابن الطقطقي اكتفى بالإشارة إلى أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قد هادن البيزنطيين. ثم يزيد المسعودي

(6160/1)

هذا المر وضوحا ويشير إلى إن معاوية هادن كلا من الإمبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني وابنه الإمبراطور قسطنطين الرابع.

وهناك فريق آخر يضم ابن قتيبة والطبري والدينوري، ويرى أن المهادنة بين معاوية بن أبي سفيان والإمبراطور قنسطانز الثاني كانت في أثناء الصراع لبن علي بن أبي طالب ومعاوية رضي الله عنهما، وأن الأخير استجاب لنصيحة عمرو بن العاص، وأسرع بطلب الهدنة من الإمبراطور البيزنطي، وقد قدم له المال والحلل بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(6161/1)

وهناك فريق ثالث يضم كلا من خليفة بن خياط واليعقوبي، ويرى أن المهادنة بين معاوية بن أبي سفيان والبيزنطيين كانت في عام 41هـ/661م بعد أن استقر معاوية في حكن المسلمين وشرع في تدبير أمور دولته، وأن معاوية هذا بادر بطلب الهدنة من الإمبراطور البيزنطي عندما شرع في مهاجمة المسلمين، وأنه قد قدم للبيزنطيين مائة ألف دينار.

أما المصادر البيزنطية، فتأتي روايات المؤرخ ثيوفانيس في مقدمتها؛ إذ يشير إلى أن معاوية بن أبي سفيان عقد ثلاث مهادنات مع البيزنطيين. ويحدد ثيوفانيس – الذي اتبع النظام الحولي في كتابته –

(6162/1)

تاريخ المهادنة الأولى. ويشير إلى أنها كانت في العام الخامس من حكم ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان (24–35/644–656م). ثم يوضح أنها كانت في الفترة الممتدة من أول سبتمبر عام 650م/28 ذي الحجة عام 29هـ حتى 31 أغسطس عام 651م/8 المحرم عام 31هـ، وذلك عندما كان معاوية واليا على الشام(1).

---

(1) Theophnes, The Chronicle of Theophanes

, Trans. by Harry Turledove, °813–602(A,D.

.44, p. 1982U.S.A, Pensylvania,

(6163/1)

ويبين لنا ثيوفانيس أسباب هذه المهادنة، ويشير إلى أن معاوية أرسل القائد بشراً، فتوغل بقواته داخل الأراضي البيزنطية وعاد ومعه خمسمائة أسير. عندئذ، أرسل الإمبراطور البيزنطي قنسطانز مبعوثا يدعى بركوبيوش إلى معاوية يعرض عليه رغبة الإمبراطور في عقد اتفاقية للسلام بينهما. وأن معاوية قد احتجز بعض الرهائن البيزنطيين في دمشق، ومن بينهم جريجوري ابن ثيودور شقيق الإمبراطور(1).

---

(1) Theophones, op. cit., pp. 44–47.

(6164/1)

وإذا ما تناولنا هذه الرواية بالتمحيص، وجدنا أنها لا تتفق مع إشارات المصادر العربية. ولكن يمكن فقط أن تُعتبر إشارة ابن كثير التي توضح أن الإمبراطور البيزنطي كان يخشى معاوية قبل النزاع مع علي بن

أبي طالب تتوافق مع هذه الرواية. ثم إننا نلاحظ أن مبادرة طلب الهدنة – حسبما أشار غليه ثيوفانيس – جاءت من جانب الإمبراطور البيزنطي. ذلك بأن مقتل الخليفة عثمان بن عفان كان في يوم الجمعة 18 من ذي الحجة عام 35هـ/17 يونيو عام 656م(1) غير أن هذه الرواية تشير في الوقت

(1) الطبري، المصدر السابق، ج4، صص. 411–412

نفسه إلى أن هذه المهادنة كانت في العام الذي توفي فيه البابا مارتن الأول الذي مات عام 36هـ/656م(1) وبهذا يكون هناك اختلاف كبير بين التاريخ الأول والثاني.

ونلاحظ كذلك أن هذه المهادنة – حسبما أشار إليه المؤرخ ثيوفانيس – كانت في فترة النزاع بين معاوية وعلي بن أبي طالب(2).وبهذا، فهي تتفق مع ما سبق أن أشارت إليه بعض المصادر العربية. ولكن إذا أخذنا بالتاريخ الأول الذي حدده المؤرخ ثيوفانيس، وجدنا أنه كان بعد عام من التحكيم بين علي ومعاوية(3)،

---

(1) 21Theophanes, op. cit., pp.

(2) 46Ibid., p.

(3) **انظر ما سبق**

(6166/1)

وأن الأمور بدأت تستقر لصالح معاوية، ولم يكن بحاجة لمهادنة البيزنطيين. هذا، بينما يتفق التحديد الثاني، وهو عام 36هـ/656م، مع إشارة ابن كثير إلى أن المهادنة كانت قبل التحكيم. ولكن يواجهنا في هذا الأمر ما أشار إليه ثيوفانيس من أن المهادنة كانت بعد ثلاث سنوات من مقتل الخليفة عثمان بن عفان. ومما زاد الأمر تعقيدا أننا لم نعثر في المصادر البيزنطية الأخرى أو المصادر الأرمينية أو السريانية ما يحسم هذا الأمر. وعليه، فإننا لا نجد سوى أن نضع احتمالا، فنقول إنه يبدو أن المؤرخ ثيوفانيس قد أخطأ وأشار إلى أن

(6167/1)

المهادنة كانت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بثلاث سنوات، وإن الصواب هو أنها كانت بعد

مقتل الخليفة بثلاثة شهور؛ وبذلك تكون المهادنة في شهر ربيع الأول عام36 هـ/سبتمبر عام 656م.

ومما هو جدير بالملاحظة أن المؤرخ ثيوفانيس لم يشر في روايته عن المهادنة الثانية إلى أن الإمبراطور البيزنطي قد هاجم الأراضي الإسلامية، مما دفع معاوية إلى طلب الهدنة كما ذكرت المصادر العربية. ولكن عدم إشارة ثيوفانيس إلى الهجوم البيزنطي لا ينفيه. ولهذا أميل إلى رأي المصادر العربية القائل بأن كل هذه التنازلات التي

(6168/1)

قدمها معاوية بن أبي سفيان للبيزنطيين كانت نتيجة شعوره بخطورة الهجوم البيزنطي في هذه الفترة.

أما المهادنة الثالثة، فيشير ثيوفانيس إلى أنها كانت فيما بين عامي 57 و58هـ/677 و678م. وفيها تعهد معاوية بدفع إتاوة سنوية للبيزنطيين هي عبارة عن ثلاثة آلاف نوميسماتا وخمسين حصانا أصيلا؛ كما تعهد بإطلاق سراح خمسين أسيرا من البيزنطيين. واتفق الجانبان على أن تكون مدة المهادنة ثلاثين عاما(1) ويذكر المؤرخ ثيوفانيس أسباب كلب معاوية لهذه

المهادنة، فيرجعها إلى ما قام به

---

(1) 54Theophanes, op. cit., pp.

(6169/1)

المردة(1)من إثارة للفتن والاضطرابات في منطقة جبل لبنان؛ إذ انضم إليهم كثير من العبيد والأهالي، فزاد خطرهم مما تسبب في إزعاج معاوية بن أبي سفيان، فأرسل سفارة إلى الإمبراطور البيزنطي سفارة معاوية بن أبي سفيان وأكرم وفادتها.

---

(1) المردة : هم جماعة الجراجمة الذين كانوا يسكنون منطقة الثغور الإسلامية، وأطلق عليهم المؤرخون المسلمون اسم المردة لكثرة عصيانهم. (لمزيد من التفاصيل، انظر : فتحي عثمان، المرجع السابق، ج 11، ص.362؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، 2ج، القاهرة، 1979، ج2، صص. 32–33.

(6170/1)

وعند عودتها إلى الشام، صحبها مبعوث من الإمبراطور يدعى حنا بتزيجورس الذي يصفه ثيوفانيس بالفطنة والحكمة، وأنه كان يعمل في الجهاز الإداري للإمبراطور.

ونجح المبعوث البيزنطي بعد عدة لقاءات مع الجانب الإسلامي في عقد اتفاقية سلام بين الجانبين.

وبعد توقيع صيغة المهادنة، احتفظ كل جانب بنسخة منها. وعاد المبعوث الإمبراطور إلى موطنه محملا بكثير من الهدايا النفيسة(1).

وأهم ما نلحظه في هذه الرواية أن المصادر العربية لم تشر إليها. ولكن إذا نظرنا إلى أن أسبابها ترجع إلى

---

(1) Theophanes, op. cit., pp. 53–54

(1/6171)

القلاقل التي أثارها جماعة المردة في هذه الفترة، فإننا نجد في المصادر العربية ما يؤكد أن هذه الجماعة كانت تثير الفتن؛ إذ يشير ابن الأثير إلى أنهم أحدثوا الاضطرابات في منطقة جبل اللكام في لبنان عام 69هـ/688–689م(1).ويؤكد البلاذري رواية ابن الأثير، مشيرا إلى أن المردة أثاروا المتاعب عام 70هـ/689–690م، مما دفع عبد الملك بن مروان إلى موادعتهم

ومنحهم ألف دينار كل أسبوع، إلى أن دبر لهم الحيلة ونجح في القضاء عليهم(2)

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 9ج، بيروت، 1979، ج4، ص.304.

(2) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 160؛ وأيضا: أنساب الأشراف، تحقيق د. إحسان عباس، 5ج، بيروت، 1979م، ج5، صص. 199–200.

(6172/1)

.

وهكذا يتضح لنا من خلال إشارات بعض المصادر العربية أن المردة كانوا في نظر الحكام المسلمين يمثلون خطورة كبيرة من جهة، ولهذا سعوا إلى شراء موادعتهم بتقديم بعض التنازلات المالية وغيرها، لكونهم يقطنون منطقة الثغور الإسلامية، ويدينون بالولاء الكامل للبيزنطيين؛ إذ يشير المؤرخ ثيوفانيس إلى أن المردة كانوا موالين للبيزنطيين، وكانوا بمثابة السور النحاسي للإمبراطورية البيزنطية(1) داخل الأراضي الإسلامية.

62Theophanes, op. cit., p. (1)

(6173/1)

وإذا نظرنا إلى تاريخ عقد هذه المهادنة – حسبما أشار إليه المؤرخ ثيوفانيس –، تبينا أنه كان فيما بين عامي 57 و58هـ/677 و678م، أي أنها عقدت في عهد الإمبراطور قسطنطين الرابع. وعلى هذا يمكن القول إن إشارة كل من المسعودي والنويري إلى أن معاوية بن أبي سفيان قد هادن أيضا الإمبراطور قسطنطين الرابع(1) تتوافق مع رواية ثيوفانيس.

وفيما يخص المؤرخين البيزنطيين الآخرين، يشير المؤرخ موناخوس هرتولوس إلى رواية تتفق مع ما أشار إليه ثيوفانيس بشأن المهادنة الأولى التي كانت بين معاوية بن أبي سفيان و

---

(1) انظر ما سبق

(6174/1)

الإمبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني في عام 31هـ/651، ويوضح أن هذه المهادنة قد انتهت نتيجة مهاجمة معاوية لجزيررودس عام 33هـ/653م(1).

كما تتفق رواية موناخوس مع رواية ثيوفانيس بشأن المهادنة الثالثة، ويرى أنها كانت في عام 58هـ/678م. ويحدد موناخوس ما أحدثه المردة من اضطرابات عام 57هـ/677م. والاختلاف الوحيد بين الروايتين ينحصر في أن موناخوس يشير إلى أن العرب تعهدوا بتقديم مائة من الخيول الأصيلة كل عام(2)

---

(1) Georgius Monachus Hamartolus, Chronicon, Ed. Migne, Patrologia Greaca, T 895

(2) Hamartolus, op. cit., col.

(6175/1)

، بينما يحددها ثيوفانيس بخمسين فقط

كذلك تتطابق رواية كل من جوزيف جنزيوس (1) والبطريق نقفور(2)مع رواية ثيوفانيس بشأن المهادنة الثالثة، ويشير إلى أنها كانت في عام 58هـ/678م، ولكنهما لم يذكر أنها كانت بسبب المردة.

---

(1) J. Genesius, Historia de Rebus Constantinopolinis, Ed. Migne Patrologia Greaca, T.CIX, Paris, 1863, col. 13

(2) Nicephonrus Patriarchae, Breviarum Historicum, Ed. Migne Patrologia Greaca, T.C, Paris, 1860. clls. 930, 936

(1/6176)

وتتفق أيضا رواية كل من جورج كدرينوس(1)وحنا زوناراس(2)وليو جرامتيكوس(3)مع رواية ثيوفانيس بشان المهادنة الثالثة، ويرون أيضا أنها كانت في عام 58هـ/678م، ولكنهم لم يحددوا بنود هذه المهادنة.

---

(1) G. CEDRENUS, HISTIRICUM, ED. MIGNE PATOLOGIA GREACA, T. CXXI-CXXII, PARIS, 1864, T.CXXI, COL 843, T. CXXII, PARIS, 1864.

(2) J. ZONARAS, EPITOME HISTORICUM, ED. M. 3PENDER, BONNE, 1841–1892, VOL. II, P. 321.

(3) J. Zonaras, Epitome Historicum, Ed. M. 3Pender, Bonne, 1841–1892, vol. II, p. 321.

وهكذا يتضح أن المصادر البيزنطية تكاد تتفق جميعها على أن المهادنة الثالثة بين معاوية بن أبي سفيان والإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع كانت في عام 58هـ/678م.

ومن المصادر الأرمينية يشير المؤرخ سبيوس (Sebios) إلى رواية تتفق مع رواية المصادر البيزنطية بشان المهادنة التي كانت بين معاوية بن أب سفيان عندما كان واليا على الشام والإمبراطور قنسطانز الثاني.

ويضيف سبيوس أن هذه المهادنة قد انتهت عام 33هـ/653م(1) وهذه الإشارة تتفق مع ما رواه

(1) Sebios, Histoire d'Herclius, Tr. Fr. Macler. Paris, 1904, p. 137

المؤرخ موناخوس همرتولوس.

وفيما يتعلق بالمصادر السريانية، يشير المؤرخ ميخائيل السرياني إلى أن معاوية عقد الهدنة مع

الإمبراطور قنسطانز أثناء نزاعه مع علي بن أبي طالب، كما عقد مهادنة مع الإمبراطور قسطنطين عام 58هـ/678م(1).

ومن المؤرخين النصارى الذين دونوا كتابتهم باللغة العربية، يشير أجابيوس بن قسطنطين المعروف بالمنبجي إلى أنه :

---

(1) Michel Le Zyrien, Chronique, Texte syriaque , 1899vols., Paris, 4et trad. fr. par J. B. Chabot, vol. II, pp.450–469.

(6179/1)

في العام الثالث من عهد الخليفة عثمان بن عفان (24–35هـ/644–656م) وجه ملك الروم قسطوس(1) رسلا على رأسهم رجل يدعى منويل إلى معاوية يسأله الصلح، فأجابه معاوية إلى ذلك، على يترك ملك الروم عند معاوية رهائن من أهل بيته(2).

وأهم ما نلحظه من رواية المنبجي أنها تتفق مع رواية المصادر البيزنطية، ولكن تختلف معها في تحديد تاريخ المهادنة، وفي تحديد اسم الرسول الذي أرسله

---

(1) المقصود الإمبراطور قنسطانز الثاني.

(2) المنبجي، المنتخب من تاريخ المنبجي، انتخبه وحققه أ.د. عمر عبد السلام تدمري، لبنان، 1986م، ص. 57.

(6180/1)

الإمبراطور البيزنطي لعقد الصلح مع معاوية. ولكن بما أن المصادر البيزنطية والسريانية قد اتفقت على أن المهادنة كانت في عام 31هـ/651م، فإننا نرى أنه حدث خطأ عند نسخ كتابات المنبجي، وكتبت "العام الثالث" بدلا من "العام الثامن" من عهد الخليفة عثمان بن عفان. وأما الاختلاف في اسم المبعوث البيزنطي، فهذا من وجهة نظرنا لا يمثل اختلافا كبيرا؛ لأن كلا من ثيوفانيس والمنبجي قد أشار إلى أن السفارة كانت تتكون من عدة رجال، وربما يكون كل من بركوبيوس ومنويل قد قاما بدور في المفاوضات التي انتهت بعقد المهادنة بين

(6181/1)

الجانبين الإسلامي والبيزنطي.

وهكذا يتضح من خلال عرض روايات المصادر العربية عن

المهادنات بين معاوية بن أبي سفيان والبيزنطيين في خلال القرن الأول الهجري/القرن السابع الميلادي، أن المصادر العربية ترى أن معاوية عقد ثلاث مهادنات مع البيزنطيين: الأولى أثناء الخلاف مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والثانية في عام 41هـ/661م، والثالثة مع الإمبراطور قسطنطين الرابع.

أما المصادر غير العربية، فترى أن معاوية عقد أيضا ثلاث مهادنات مع البيزنطيين: الأولى علم 31هـ/651م عندما كان واليا على الشام، والثانية في

(6182/1)

قسطنطين الرابع في عام 58هـ/768م.

وهكذا ينحصر الخلاف بين روايات المصادر العربية وغير العربية في خلافين هما :

أولا : أن المصادر غير العربية ترى أن المهادنة الأولى بين معاوية والبيزنطيين كانت في عام 31هـ/651م، بينما لم تشر المصادر العربية إلى هذا التاريخ.

ولكن بما أن المصادر غير العربية قد أجمعت على هذه الرواية، وبما أن هناك إشارة أوردها المؤرخ ابن كثير تتفق مع ما جاء في رواية المصادر غير العربية، فإنه يمكن القول إن المهادنة الأولى بين معاوية

والبيزنطيين كانت في عام 31هـ/651م، وإنها جاءت نتيجة

(6183/1)

للانتصارات التي حققتها قوات معاوية عندما كان وليا على الشام. ولهذا بادر الإمبراطور البيزنطي قنسطانز بطلب الهدنة، واستجاب لمطلب معاوية بترك بعض الرهائن البيزنطيين في دمشق كي يتم إبرام هذه المهادنة.

ونرى أيضا أن هذه الهدنة قد استمرت عامين، وانتهت عام 33هـ/653م. ولكن نلحظ أن المصادر غير العربية لم تشر إلى بنود هذه المهادنة. ولا ريب في أنها كانت في صالح المسلمين في هذه الفترة.

أما الاختلاف الثاني بين روايات المصادر العربية وغير العربية، فيتضح في أن بعض المصادر العربية ترى أن هناك مهادنة بين معاوية

(6184/1)

بن أبي سفيان والبيزنطيين في عام 41هـ/661م. أو في العام الذي يليه، بينما لم تشر المصادر غير العربية إلى ذلك

وإذا نظرنا إلى أحوال كل من الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية خلال هذه الفترة، لم نجد ما يؤيد رأي الرواية العربية؛ إذ أن الاضطرابات الداخلية التي واجهت معاوية بن أبي سفيان في بداية عهده كادت أن تنتهي بعد أن خمدت الفتنة(1) ؛ كما أن أحوال الإمبراطورية البيزنطية لم تكن تسمح للإمبراطور قنسطانز الثاني بشن هجوم(2)

---

(1) عبد المنعم ماجد، المرجع السابق، ج1، ص.272.

(2) A.A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire (324–1453, 2 vols, Madison, 1958–1960, Vol. I, p. 193.

(6185/1)

على الدولة الإسلامية وقتذاك إذ يشير ثيوفانيس إلى قيام النزاع بين الإمبراطور قنسطانز والبابا مارتن الأول، الذي انتهى بموت البابا في منفاه عام 36 هـ/656م، ثم النزاع بين الإمبراطور قنسطانز وأخيه

ثيودور وانتهى بمقتل الأخير عام 40هـ/660م(1) كل هذه الأحداث جعلت الإمبراطور البيزنطي يواجه سخط رجال الدين، وكراهية سكان العاصمة القسطنطينية(2)هذا بالإضافة إلى تعرض أملاك الإمبراطورية

---

(1) Theophanes, op. cit., p. 47

(2) G. Ostrogorsky, History of ghe byzantin State, Tr. J. Hussy, Oxford, 1956, pp. 106–109

(1/6186)

البيزنطية في إيطاليا للهجمات اللومباردية(1) . ولكل هذه الأسباب، ترك الإمبراطور قنسطانز الثاني العاصمة القسطنطينية، واتجه إلى صقلية عام 41هـ/661م، وظل بها حتى تعرض لمؤامرة انتهت بقتله عام 48هـ/668م(2).

نخلص من العرض السابق إلى أن أحوال الدولة الإسلامية كانت مستقرة، بينما كانت الإمبراطورية البيزنطية تعاني من عدم الاستقرار؛ إذ اضطربت أحوالها في الداخل، وتعرضت أملاكها في الغرب

---

(1) Paul the Deacon, History of byzanitin State, 106–109, pp. 1956Tr. J. Hussey, Oxford,

(2) Theophanes, op, cit., pp. 50–51

(1/6187)

الأوروبي لتهديد اللومبارديِّين. ولهذا لم تكن تمثل تهديدا على الجانب الإسلامي، مثلما أشار كل من اليعقوبي وخليفة بن خياط(1)، وبالتالي لم يكن هناك خطر يجبر معاوية بن أبي سفيان على إغداق الأموال على البيزنطيين.

ومن جهة مناقضة، يشير اليعقوبي نفسه إلى أن الإمبراطور البيزنطي عندما شعر بسوء أحوال بلاده، أرسل إلى معاوية يطلب الصلح على أن يدفع لمعاوية أضعاف ما كان يتلقاه المسلمون من قبل، فلم يوافق معاوية على طلبه(2)، كما يشير اليعقوبي أيضا إلى إن

---

(1) انظر ما سبق

(2) اليعقوبي، المصدر السابق، ج2ن ص. 193.

(1/6188)

الأمور بدأت تستقيم لمعاوية، فأصدر أوامره لغزو الأراضي البيزنطية، فقام بسر بن وطأة بالتوغل في أرض الروم عام 43هـ/653م(1).

ويؤكد كل من المنبجي(2) وثيوفانيس(3) وابن العبري(4) هذا الأمر، مشيرين إلى أن الأرمن رفعوا راية العصيان أمام البيزنطيين، وأرسل حاكمهم سابور رسولا يدعى سرجي إلى معاوية بن أبي سفيان عام 46هـ/667م يطلب منه أن يقدم له العون والمساعدة ضد

---

(1) المصدر نفسه، ص. 213.

(2) المنبجي، المصدر السابق، ص. 58

(3) Theophanes, op. cit., p. 48

(4) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول بيروت، 1958، ص.109.

البيزنطيين. فلما علم قسطنطين(1) ابن الإمبراطور قنسطانز الثاني بأنباء هذه المفاوضات، أرسل إلى معاوية رسولا يدعى أندرو يطلب منه عدم تأييد الأرمن في موقفهم ضد البيزنطيين. وعندما استمع معاوية إلى مطالب الرسول البيزنطي، رد عليه قائلا: "إن أعطيتمونا

كل خراج بلادكم، نبقى لكم اسم المملكة؛ وإلا أزحناكم عنها". فعاد الرسول البيزنطي دون تحقيق الهدف الذي جاء من أجله.

---

(1) هو قسطنطين الرابع الذي كان يتوالى إدارة الحكم في القسطنطينية نيابة عن أبيه قنسكانز الثاني الذي كان وقتذاك مقيما في صقلية.

(6190/1)

وفي ضوء ما سبق، يمكن القول إن رواية كل من خليفة بن خياط واليعقوبي، والتي تشير إلى أن معاوية بن أبي طلب عقد الصلح مع البيزنطيين عام 41هـ/651م أو العام التالي، ودفع لهم مائة ألف دينار، لا تستند إلى دليل قوي، وأن أحوال كل من الدولة الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية وقتذاك تجعل الباحث يشك في صحة هذه الرواية، ولا يقبلها.

وهكذا، لما كان تحديد تاريخ هذه المهادنات على جانب كبير من الأهمية لتوضيح التسلسل التاريخي، وتقويض الأسس التي أدت إلى الأخطاء التاريخية، وبعد عقد المقارنة بين روايات المصادر العربية

(6191/1)

وغير العربية، يمكن القول إن معاوية بن أبي سفيان عقد ثلاث مهادنات مع البيزنطيين في القرن الأول الهجري /القرن السابع الميلادي : الأولى كانت في عام 31 هـ/ 651م عندما كان معاوية واليا على الشام، وجاءت مبادرة طلب الهدنة من جانب الإمبراطور البنزنطي قنساطنز الثاني، الذي وافق على أن يحتجز معاوية بعض الرهائن البيزنطيين في دمشق، وقد استمرت هذه الهدنة عامين وانتهت عام 33هـ/653م، بمهاجمة قوات معاوية لجزيرة رودس.

(6192/1)

أما المهادنة الثانية، فكانت في أثناء النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وعقدت في عام 36هـ/656م، وجاءت مبادرة طلب الهدنة من جانب معاوية حتى يتجنب الخطر البيزنطي ف هذه الفترة، وكانت هذه المهادنة في مجملها لصالح البيزنطيين؛ إذ قدم معاوية لهم ألف نوميسماتا وحصانا، وأطلق سراح أسر بيزنطي كل يوم، وانتهت هذه الهدنة في عام 40هـ/660م بعد أن انتهت فترة

النزاع واستقرت الأمور لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(6193/1)

أما الهدنة الثالثة، فكانت في عام 58هـ/678م، وكان معاوية هو الذي طلب من الإمبراطور قسطنطين الرابع عقدها ليتجنب خطر جماعة الجراجمة (المردة) في جبل لبنان، وكانت ثلاثين عاما. ودفع معاوية مقابل هذه الهدنة ثلاثة آلاف نوميسماتا وخمسين حصانا أصيلا، وأطلق سراح خمسين أسيرا من الأسرى البيزنطيين.

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية والمعربة :

ابن الأثير (ت 630هـ/1233م) عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الكامل في التاريخ، 9ج، بيروت، 1979م.

(6194/1)

ابن سلام (ت 224هـ/838–839م) أبو عبيد القاسم، كتاب الأموال مصر، د.ت.

ابن الطقطقي (ت 709هـ/1313–1311م) محمد بن علي بن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، مصر د.ت.

ابن العبري (ت 276هـ/1286م)، أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون الطيب، تاريخ مختصر الدول، بيروت، د.ب.

ابن قتيبة (ت 276هـ/886م) أبو محمد بن عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة، 2ج، مصر، 1904م.

––، عيون الأخبار، 2ج، القاهرة، 1925م.

ابن كثير (ت 774هـ/1373م) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية 13 والجامع لأحكام القرآن للقرطبي

(6195/1)

بيروت، 1984م.

البلاذري (ت279هـ/892م) أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي، أنساب الأشراف، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، 1979م

––، فتوح البلدان، ليدن، 1866م.

خليفة بن خياط (ت 240هـ/854م)، أبو عمرو خليفة بن خياط بن أبي هبيرة، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، الرياض، 1985م.

الدينوري (ت 882هـ/1895م)، أبو حنيفة أحمد بن داود،

كتاب الأخبار الطوال، بغداد، 1959م.
الشيباني (ت 490هـ/1096–1097م)، محمد بن الحسن الشيباني، شرح كتاب السير الكبير، تحقيق عبد العزيز أحمد، القاهرة، 1972م.

(1/6196)

الطبري (ت 310هـ/922م)، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، 10 ج، بيروت، 1979م.
المسعودي (ت 346هـ/956م)، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، 4 ج، بيروت، 1983م.
المنبجي (عاش في القرن الرابع الهجري / القرن العاشر الميلادي)، أغابيوس بن قسطنطين المنتخب من تاريخ المنبجي، انتخبه وحققه أ.د. عمر عبد السلام تدمري، بيروت، 1986م.
النويري (ت 732هـ/1332م)، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، 27 ج، القاهرة، 1975–1975م.

(1/6197)

اليعقوبي (ت بعد عام 292هـ/ بعد عام 904م)، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر، تاريخ اليعقوبي، 3 أجزاء، النجف، 1358هـ

ثانيا : المصادر غير العربية :

Cedrenus, G., Historicum Compendium, Ed. Migne Patrologia Greaca, T. CXXI-CXXII, Paris 1964.

Genesius, J., Historia de Rebus Constantinopolitanis, Ed. Migne, Patrologia Greaca, T. CIX, Paris, 1863.

Georgius Monachus Hamartolus, Chronicon, Ed. Migne Patrologia Greaca, T. CX, Paris, 1863.

Leo Granmmaticus, Chronographia, Ed. Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonne, 1892.

Michel le Syrien, Chronique, Texte syriaque et trad. fr. R.P.G., XV, Letter Gomroon diry. par Chabot, 4vols, Paris, 1899.

Nicephorus Patriarchae, Breviarum Historicum, Ed. Migne Patrologia Greaca, T.C, Paris, 1860.

Paul the Deacon, History of the Lombards, Tr.
.1907by W.D. Faulkf, Philadelphia,

(6199/1)

الموقف الإسلامي الهندي من الثورة الفلسطينية

(1936–1939)

الدكتور تيسير

جامعة النجاح الوطنية نابلس (فلسطين)

مقدمة

شهدت فلسطين أطول إضراب في العالم العربي احتجاجا على السياسة الإنجليزية. كانت كثرة الهجرة اليهودية وبيع الأراضي تتغاضى عنها الحكومة الإنجليزية في فلسطين، والهدف من ذلك تطبيق وعد بلفور بإيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين. وطبيعي أن لا يسكت الفلسطيني على هذا الظلم، لكنه لا يستطيع وحده أن يرغم بريطانيا على تغيير سياستها. لذا نادى الفلسطيني بضرورة الدفاع عن المقدسات الإسلامية والمسيحية وأن

(6200/1)

المسجد الأقصى بحاجة إلى الدفاع عنه. وقد وصل هذا النداء إلى العالم الإسلامي وخصوصا الهند. ومن المعروف أن المسلمين في شبه القارة الهندية أكثر عددا من كل قطر من أقطار العالم الإسلامي. والهند هي درة التاج البريطاني. لذا فالتأثير عليها من قبل الثورة الفلسطينية سيكون مؤثرا على وضع الإنجليز هناك وهذا التأثير سيأتي من المسلمين قاطبة في شبه القارة الهندية. لذا دعم المسلمون الهنود إخوانهم في الدين في فلسطين في ثورتهم ضد الإنجليز والصهيونية. ولم تستطع بريطانيا التغاضي عن هذا الدعم فحاولت إيقافه وحاولت

(6201/1)

وقف الإضراب الفلسطيني بشتى الطرق إلى أن تم لها ذلك ولكن بعد جهود مضنية.

إن دوافع هذه الدراسة كانت لعدة أسباب، منها أن هذا التاريخ من الدعم الهندي الفلسطيني لم يتطرق إليه أحد من المؤرخين. لذا واجب علينا أن نبين ونكشف هذه الحقائق المدفونة في دور الأرشيف المختلفة في

بريطانيا وخارجها، كما أن هذا العدد الهائل من المسلمين في شبه القارة الهندية لم يعرف عنه العرب كثيرا. ففيهم العالم والمجاهد والطبيب والغني والأديب وكل هذه الطاقات كانت في خدمة فلسطين أثناء الإضراب.

(1/6202)

موقف المسلمين الهنود من الثورة الفلسطينية (1936–1939م)

تعتبر هذه الفترة التاريخية من تاريخ فلسطين عام 1936م حافلة بالأحداث الجسام، منها الإضراب الفلسطيني ومحاولة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود. وفي الإضراب الفلسطيني الطويل، عبر الفلسطينيون عن ظلمهم ونقمتهم. لذا ثار الشعب بسبب عدم وقف الهجرة اليهودية المتزايدة لفلسطين وبيوع الأراضي، ويعتبر هذا الإضراب أطول فترة تحد للإنجليز شهدته فلسطين ولم يشهد الإنجليز مثيلاً له في العالم العربي. ومن أهم الأسباب التي دعت إلى الإضراب هي:

(1/6203)

1– الهجرة اليهودية الكثيفة حيث دخل فلسطين في الفترة التي سبقت الإضراب، أي من 1931 إلى 1935م، مهاجرون يهود أكثر مما دخلها خلال خمسين سنة مضت، وهؤلاء المهاجرون كانوا بحاجة إلى أراض يقفون عليها. لذا قام زعماء الصهاينة بشراء أراض على الساحل الفلسطيني من لبنانيين وسوريين إقطاعيين لهم أراض واسعة في فلسطين.

2– استشهاد الشيخ عز الدين القسام عام 1935م. وقد كان هذا أول من قام علناً وتصدى للإنجليز بسبب السياسة الجائرة في فلسطين. وبعد استشهاده، استمرت العمليات العسكرية ضد الإنجليز من » إخوان القسام« مثل

(6204/1)

الشيخ فرحان السعدي الذي تصدى لقافلة إنجليزية كانت تسير لحماية بعض المستوطنين اليهود، على الطريق بين نابلس وطولكرم قرب عنبتا بتاريخ 14/4/1936م(1). وما أن سمع اليهود في تل أبيب بالخبر حتى قاموا بالانتقام

واعتدوا على السكان في يافا فاستشهد سبعة من العرب وجرح آخرون في حي المنشية في يافا(2).وفي 1936/4/19م، وهو اليوم الأول للإضراب، قام سكان يافا –الملاصقة لتل أبيب–

---

(1) صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين 1936–1939م، مطبعة دار الهنا، 1959. ص30

(2) أميل الغوري، فلسطين عبر ستين عاماً، ص. 57 .

(6205/1)

بمظاهرة ضد الإنجليز واليهود بسبب هذه الأحداث وتأزم الوضع في يافا وتل أبيب، فأعلن المندوب السامي منع التجول على اليهود وعلى العرب في يافا(1). وفي اليوم التالي، أي في 1936/4/20م، وقف سكان نابلس مع إخوانهم في يافا فأعلنوا الإضراب المفتوح احتجاجاً على السياسة الإنجليزية في فلسطين وحتى ينال الفلسطينيون حقوقهم المشروعة. وتشكلت في نابلس أول لجنة للإشراف على الإضراب، وفي اليوم التالي تشكلت لجنة قومية في يافا دعت إلى الإضراب المفتوح تأييدا لما

---

(1) عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، صص. 302–303.

(6206/1)

أعلنته نابلس، وفي الأيام التالية تشكلت لجان قومية في المدن والقرى الفلسطينية بلغت 22 لجنة قومية. اجتمع رؤساء الأحزاب السياسية في فلسطين في 1936/4/25م تلبية لنداء اللجان القومية، وقرروا تشكيل » اللجنة العربية العليا« للإشراف على الإضراب العام. وكانت اللجنة مكونة من السادة: الحاج أحمد الحسيني (رئيسا)؛ وعوني عبد الهادي (رئيس حزب الاستقلال) سكرتيرا؛ وجمال الحسيني (رئيس الحزب العربي)؛ وحسين فخري الخالدي (رئيس حزب الإصلاح)؛ ويعقوب الغصين (رئيس حزب الكتلة الوطنية)؛ وأحمد حلمي عبد الباقي (أمين المال)؛

(6207/1)

وألفرد روك (عن المسيحيين الكاثوليك)؛ ويعقوب فراج (عن المسيحيين الأرثوذكس). وقد قرر رؤساء الأحزاب

السياسية في اجتماعهم عدم وقف الإضراب إلا إذا تحققت مطالب الشعب الفلسطيني وتتلخص في ما يلي:

1- وقف الهجرة اليهودية وعدم بيع الأراضي؛ 2- الاستقلال التام لفلسطين؛ 3- إلغاء وعد بلفور. وأقسم الأعضاء في اجتماعهم على مواصلة الإضراب حتى تتحقق مطالبهم

العادلة(1).

---

(1) محمد عزة دروزه، حول الحركة العربية الحديثة، ص.125.

(6208/1)

عم الإضراب كل مدن فلسطين حيث تعطلت حركة السير وأقفلت الحوانيت وأصبح الوضع متدهوراً. وقد شرح المندوب السامي في رسالة لوزارة المستعمرات البريطانية بتاريخ 1936/4/29م عن هذا الوضع، وذكر أن الأحوال لن تهدأ إلا إذا تحققت مطالب الشعب الفلسطيني وهي: وقف الهجرة اليهودية ومنع بيع الأراضي العربية لليهود وتشكيل حكومة فلسطينية والاستقلال التام لفلسطين(1).

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ملف رقم Co 733/297/75156II part ./

(6209/1)

أرسل رئيس اللجنة العربية العليا الحاج أمين الحسيني رسائل إلى زعماء العالم الإسلامي شارحاً فيها الوضع في فلسطين، وطالباً منهم تأييد الشعب الفلسطيني في مطالبه العادلة والوقوف لدفع الخطر اليهودي الذي يهدد الأماكن الإسلامية في القدس وأهمها المسجد الأقصى المبارك وقد وقفت المخابرات الإنجليزية للمفتي بالمرصاد فأخذت ترصد حركاته ورسائله خوفا من تأثيرها على الرأي العام الهندي وحصول إضرابات مشابهة في أماكن تخضع للسيطرة الإنجليزية. وقد بعثت لندن إلى حاكم الهند الإنجليزي تسأله عن مدى تأثير الإضراب

(6210/1)

الفلسطيني على المسلمين في الهند، فأجابت حكومة الهند في برقية جوابية بتاريخ 1936/5/31م إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند في لندن قالت فيها: »

إنه حتى هذا اليوم لم يهتم المسلمون الهنود بشؤون فلسطين، لكن الصحافة هنا سوف تحرك الشعور الإسلامي «(1).

وكانت من الرسائل المؤثرة رسالة مفتي القدس لمولانا شوكت علي –رئيس جمعية الخلافة في الهند– حيث قال فيها: » إذا بقي

---

(1) الأرشيف نفسه، ملف رقم CO 3755/p.z.75528/310/733.

انظر برقية رقم 1287 من حكومة الهند إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند، لندن، بتاريخ 1936/5/31م.

(6211/1)

الموقف جامدا من قبل زعماء العالم الإسلامي والعربي تجاه فلسطين، فإن المسلمين سيفقدون فلسطين كما فقد العرب الأندلس «(1). قرر الفلسطينيون عدم دفع الضرائب للحكومة ابتداء من 1936/5/15م، ووقفت كل طبقات الشعب الفلسطيني مع الإضراب، فتوقف عن العمل، مثلا عمال السكك الحديدية وعمال شركة بترول العراق وعمال الموانئ، وطلاب المدارس، والتجار في المدن أغلقوا محلاتهم التجارية، وتضامن الشعب من أجل

(1) عبد الوهاب الكيالي، وثائق المقاومة، وثيقة رقم 185، ص.388، ووثيقة رقم 164. انظر أيضا نجيب صدقة، قضية فلسطين، ص.18.

(6212/1)

إنجاح الإضراب. وقد وصف هذا التكاتف والتضامن المندوب السامي في رسائله لوزارة المستعمرات قائلا: » إن الفلاح رغم فقره إلا أنه يتبرع من محاصيله إلى رفاقه في المدن، وأن العائلة الغنية في المدن تعتني بعائلة أو عائلتين فقيرتين، وأن التاجر يدفع لمستخدميه العاطلين عن العمل أجورهم كاملة أو بقسم منها، وأن الظرف الراهن قد خلق مشاعر أخوية قوية بين المسلمين «(1).

(1) أرشيف وزارة الخارجية البريطانية، ملف رقم CO 20022/733.

(6213/1)

استعمل الإنجليز أساليب قاسية لوقف الإضراب مثل فتح الحوانيت بالقوة وإعدام كل من يمسك بحوزته بندقية والسجن المؤبد لمن يمسك معه طلقة رصاص وتفتيش البيوت أثناء الليل بالقوة. وقد احتج الفلسطينيون على هذه التصرفات فشكا علماء ومشايخ القدس إلى المندوب السامي أثناء اجتماعهم معه، حيث قال الشيخ إسماعيل الحافظ للمندوب السامي: » إن الجنود الإنكَليز قاموا – بحجة التفتيش عن الأسلحة – بمداهمة البيوت ليلا لإرهاب الأهالي، فدخلوا بيوت العرب في حي باب حطه في القدس ليلا، حيث ما زالت النساء ترتدين ملابس النوم ولم

(6214/1)

يسمح لهن بتغطية أنفسهن، كما أن الإنجليز رموا القرآن الكريم وداسوا عليه بأرجلهم بقصد إهانة المسلمين «(1).

أعلن رئيس اللجنة العربية الجهاد ضد الإنجليز علناً وطلب من الوعاظ والشيوخ إعلان الجهاد، وأرسل لزعماء العالم الإسلامي رسائل حثهم فيها على الجهاد والدفاع عن المقدسات الإسلامية فقال في رسائله: » إن الصهاينة سوف يهدمون المسجد الأقصى المبارك ويقيمون بدلا منه هيكل سليمان «(2)

(1) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ملف رقم.
.602/ part II. Disp. No: 75528/310/733CO

(2) الأرشيف نفسه، ملف رقم 75591/321/733CO/.
انظر رسالة من جورمان إلى باركنسون بتاريخ
1936/7/5م.

(6215/1)

. واستند في كلامه هذا إلى تصريحات زعماء الصهاينة في الجرائد اليهودية.

رغم بعد المسافة عن فلسطين ورغم محاولات الإنجليز خنق أخبار الإضراب كي لا يعلم عنها المسلمون في الهند، إلا أن مولانا شوكت علي رئيس جمعية الخلافة قد وصلته أنباء الإضراب وكفاح الشعب الفلسطيني، لذا حث إخوانه المسلمين هناك على نصرة إخوانهم في فلسطين فكتب في جريدة Roznama-e-Khilafat بتاريخ 1936/5/17م قائلا: »إن العرب في فلسطين يكافحون بشجاعة لنيل استقلال بلدهم –البلاد المقدسة– إنني أحث مسلمي بومبي على أن لا يضيعوا وقتهم بل يسرعوا

(6216/1)

لمساعدة إخوانهم الشعب ا لفلسطيني «(1).

وقد كتب M.G. Hallet: »من حكومة الهند في سملا إلى وزارة الهند في لندن بتاريخ 1936/5/28م رسالة ذكر فيها أن الزعيم الهندي المسلم شوكت علي سيكون أول من يبادر بتحريك شعور المسلمين في الهند ولكن ستبقى عيوننا تراقبه وتراقب جرائد بومبي «(2).

---

(1) الأرشيف نفسه، ملف رقم CO

./part III75528/310/733

From: M.G. Hallet (Government of India, Simla,). To: R.T. Peel. India Office, 1936th May, 28 .London

رسالة من حكومة الهند في سملا إلى وزارة الهند في لندن.

(2) المصدر نفسه.

(6217/1)

والحقيقة أن مقالات شوكت علي في الجرائد الهندية أيقظت الشعور الإسلامي وعرفته على قضية فلسطين والإضراب في البلاد المقدسة. وفي مقال له بتاريخ

1936/5/21م، اتهم بريطانيا بعدم احترامها للعهود ونقضها للعهود. فقال: » إن بريطانيا العظمى أعطتنا – نحن المسلمين الهنود – وعدا كما أعطت مسلمي فلسطين وعدا كذلك بعدم التعدي على الأراضي المقدسة وسكانها في فلسطين، ولكن لماذا تحدث مثل هذه الحوادث الآن في فلسطين؟ أين وعود بريطانيا للعرب؟ لم تُمنح هذه الوعود بسبب ضغط اليهود على الإنجليز. إنني أرى أنه رغم جهودنا

(6218/1)

الحسنة مع الإنجليز، إلا أن العلاقات الإنجليزية الإسلامية سوف تسير من سيئ إلى أسوأ بسبب السياسة الإنجليزية الحالة في فلسطين «(1).

اطلع الإنجليز في الهند على هذا المقال، فكتبت حكومة الهند في سملا إلى وزارة الهند في لندن حول هذا المقال فقالت: » إن عيوننا ستبقى تراقب شوكت علي، وإن مقاله الحالي شجع على الوحدة الإسلامية، ولكن سنقوم بدعاية مضادة، وواضح أن الدعاية المضادة ليست سهلة، ولكن سنحاول قدر الإمكان بجهودنا «(2)

---

(1) المصدر نفسه.

(2) أرشيف مكتب الهند في لندن، ملف رقم L/P and /3347/12S.

انظر وثيقة رقم 3899p.z. من حكومة الهند في سملا إلى المستر بيل (Peel) بتاريخ 1936/5/28م.

(6219/1)

.

حاول المندوب السامي في فلسطين تهدئة الوضع فيها، وطلب من اللجنة العربية العليا فك الإضراب، وقبول مقابلة اللجنة الملكية التي سيبعثها وزير المستعمرات لدراسة الأوضاع السياسية في فلسطين ودراسة أسباب الإضراب، رفض زعماء فلسطين طلب المندوب السامي، فاتبع سياسة القمع بشدة والاعتقالات الجماعية ونسف البيوت ونسف دور اللجان القومية، ونصح وزارة المستعمرات في رسالته المؤرخة في 1936/5/18م ضرورة نفس زعماء فلسطين إلى قبرص أو مالطا، فجاء جواب وزير المستعمرات أنه إذا ساءت الأحوال في فلسطين فلا مانع من نفيهم إلى

(6220/1)

جبل طارق(1).

وبعد مضي شهر على الإضراب، ازدادت الانتقادات في الصحف الهندية ضد سياسة الإنجليز في فلسطين. وهذا يعود إلى نشاط مولانا شوكت علي في مقالاته في » روزنامة الخلافة« واعترف الإنجليز بذلك كما أن زعيم الهند نهرو وهو غير مسلم، تعاطف مع الشعب الفلسطيني في كفاحه ضد الإنجليز، وقام بالتحضير لعقد اجتماع في مدينة » الله أباد« ضد السياسة البريطانية في

(1) أرشيف وزارة المستعمرات، ملف رقم CO 6/75528/311/733.

انظر رسالة من المندوب السامي إلى سكرتير الدولة لشؤون المستعمرات بتاريخ 1936/5/18م.

(6221/1)

فلسطين(1).

وعقدت » جمعية عموم مسلمي الهند« اجتماعاً بتاريخ 1936/6/9م بشأن الدعم الإسلامي الهندي لفلسطين، وفي الاجتماع حذر المسلمون الهنود الحكومة

البريطانية من استمرار الدعم اليهودي، وأن سياستهم هذه تواجه سخطاً شديدا من مسلمي الهند. واتخذت الجمعية في الاجتماع قرارات هامة منها: اعتبار يوم 6/9/ من كل عام

---

(1) الأرشيف نفسه، ملف رقم 13/312/733CO.

انظر رسالة Ian Stephens من دائرة المعلومات العامة –سملا– الهند إلى R.A. Vernes (المسؤول الصحفي– القدس) بتاريخ 1936/6/4م. وجاء جواب هذه الرسالة في 1936/7/7م.

(6222/1)

هو » يوم فلسطين « حيث تعطل فيه المدارس والمؤسسات الإسلامية في الهند دعماً لفلسطين، وقرارات أخرى. وتشكلت لجنة في الاجتماع لتطبيق بنود القرارات مكونة من السادة: محمد إقبال (شاعر الهند)، وكفاية الله، وظفر علي خان، وشوكت علي، وشمس العلماء نهر الحسن، وداود غزوني(1). وقد عين محمد إقبال رئيسا لجمعية المسلمين في الهند(2)

---

(1) الأرشيف نفسه، ملف رقم 13/75528/312/733CO.

رسالة من حاكم الهند The Viceroy **إلى مكتب الهند في لندن بتاريخ** 1936/6/13**م.**

(2) **جريدة فلسطين عدد** 3272/81 **بتاريخ** 1936/6/18**م. انظر تحت عنوان »جمعية المسلمين في البنجاب تستنكر سياسة عداء انكَلترا للعرب«.**

(6223/1)

.

وقد بعث حاكم الهند رقية إلى وزارة الهند في لندن بشأن هذا الاجتماع ذكر فيها أن المسلمين الهنود عقدوا مؤتمرا لهم في لاهور يوم فلسطين، وأضاف قائلا: » ... وتشير التقارير التي وصلتني أن السيد ظفر علي خان اتخذ قراراً حماسياً جاء فيه أن الحالة في فلسطين ستقود إلى حرب إسلامية مسيحية تشبه الحروب الصليبية، وطلب من جميع الممالك الإسلامية المستقلة أن تقوم بواجبها في محاولة تغيير الحالة الحاضرة في فلسطين«(1).

---

(1) **أرشيف مكتب الهند في لندن. ملف رقم** 34L/PO/S/.

(6224/1)

كتبت الجرائد العربية الصادرة في فلسطين وصفاً مسهباً حول هذا المؤتمر الهندي. وقد كان صدى هذا المؤتمر مؤثراً على الإنكليز في شبه القارة الهندية. فقد اقتبست جريدة » جريدة فلسطين« الصادرة في القدس بعض ما ذكرته الصحف الهندية عن الشعور الإسلامي الهندي، فقالت جريدة » «Advance الهندية الصادرة في كلكتا أن ثورة السوريين ضد فرنسا، والإضراب الفلسطيني، هما دلالة واضحة على أن هناك خطأً في طريقة الانتدابات؛ كما أن جريدة » Star of India « التي تصدر في كلكتا ذكرت أنه يستحيل التغافل عن إخواننا في فلسطين الذين

(6225/1)

اشتبكوا اليوم في عراك مميت مع العنصر اليهودي الغني والقوات الإنجليزية «(1).

وقد صرح مولانا الشيخ مشير حسن علي في مدينة لكنو للصحف الهندية ذاكراً أن عرب فلسطين يشاهدون بأعينهم ما بين 50 و 60 ألف يهودي يدخلون فلسطين كل عام. ومعنى ذلك أن » إخواننا في فلسطين

سيصبحون بعد عشر سنوات أقلية في وطنهم الذي عاشوا فيه سادة قروناً عديدة، إن الواجب يحتم على تركيا وإيران والعراق والهند بنوع خاص أن تشترك في الإلحاح على عصبة الأمم

---

(1) جريدة فلسطين بتاريخ 1936/6/19م الموافق 30 ربيع أول عام 1355هـ عدد رقم 3273/87.

(6226/1)

بوجوب إلغاء الانتداب البريطاني على فلسطين«(1).

كما عقد المسلمون الهنود مؤتمرات شعبية كثيرة عدا مؤتمر » عموم مسلمي الهند« لدعم فلسطين. وأهم هذه المؤتمرات هي (2) مؤتمر في ساماستيبور (Samastipur) في مقاطعة خيري حيث دعا أعضاء المؤتمر إلى مساعدة المسلمين في فلسطين ووقف الهجرة الصهيونية، ومؤتمر عقده المسلمون في Araria برعاية الحاج رياض الدين مختار، وبعث أعضاء المؤتمر

---

(1) جريدة فلسطين بتاريخ 1936/6/24م الموافق 5 ربيع الآخر عام 1355هـ عدد رقم 3278/87.

(2) أرشيف مكتب الهند في لندن، ملف رقم L/Pand /4473/12S.

(6227/1)

رسالة احتجاج إلى حاكم الهند البريطاني بسبب السياسة البريطانية المجحفة في فلسطين. وعقد مؤتمر في مدينة أحمد آباد حضره أكثر من عشرة آلاف مسلم وأرسلوا برقية لحاكم الهند احتجوا فيها على السياسة البريطانية في فلسطين، كما عقد مؤتمر ضم ممثلين عن جمعية الشباب المسلم في Balia Batam، وعصبة الشباب المسلم في مدينة سملا، ومسلمي كابا دونجي، وقد اتخذت جميع المؤتمرات السابقة قرارات أيدت جميع القرارات التي أوصى بها مؤتمر جمعية عموم مسلمي الهند.

(6228/1)

وكانت الصحف البريطانية المؤيدة للصهاينة وكذلك الصحف الصهيونية التي تصدر في الهند قد نشرت دعايات مضللة لقرائها كاد المسلمون الهنود يصدقون

هذه الأخبار الكاذبة، وقد تصدت لهذه الأكاذيب جريدة » النير ايست« (Near East) التي كانت تصدر في الهند باللغة الإنجليزية وكانت الناطقة باسم المسلمين في الهند، ومما جاء فيه أن العرب قاموا بثورة ضد الإنجليز لأسباب عدة، منها أن اليهود طلبوا من الإنجليز تفريغ شحنات البواخر بدلا من ميناء يافا العربي إلى ميناء تل أبيب اليهودي(1)

---

(1) جريدة فلسطين بتاريخ 1936/6/18م الموافق 29 ربيع أول عام 1355هـ عدد 3272/81.

(6229/1)

. حتى أن هذه الجريدة المسلمة تصدت للجرائد العبرية التي صدرت في فلسطين. فتصدت لجريدة » هآرتس« الصهيونية التي كانت وصفت زعماء الحركة الوطنية الفلسطينية بصفات الإجرام وقطاع الطرق، فانبرت الجريدة المسلمة الهندية للرد على أكاذيب » هآرتس« قائلة: » أيها الإنجليز! وأنت يا عصبة الأمم! لقد آن لكم أن تلغوا هذا الانتداب على فلسطين«(1). وقد استمر الدفاع على صفحات جريدة » Near East « عن الحقوق العربية ودحضت الأكاذيب الصهيونية

(1) جريدة فلسطين بتاريخ 1936/6/19م الموافق 30 ربيع أول عام 1355هـ عدد 3237/82.

(6230/1)

الكثيرة. ومن هذه الأكاذيب أن الحرب في فلسطين هي حرب أهلية، وأن ثورة الشعب الفلسطيني هذه دبرها الإقطاعيون من زعماء العرب وغيرها من أكاذيب. فكتبت الجريدة المسلمة تقول: » إن هذه دعوى كاذبة، وليس أدل على كذبها من الاستشهاد بجرائد إنجلترا الاستعمارية... إن كل يهودي ينزل فلسطيني يعتبر نفسه أوروبياً متحضراً ينزل بين أمة من الهمج، أو أنه سيد من الجنس الأبيض آت ليحكم آخرين من الشعوب الملونة. إن المبدأ الإجرامي الذي يقوم عليه وعد بلفور لا يعادله في الهند إلا تشبيهنا إياه برجل يقوم الآن فيزعم أن لليونان

(6231/1)

الحق في إقامة وطن قومي لهم في البنجاب، لأن الإسكندر فتح الهند منذ 2300 سنة فاستعمرها فريق من اليونان

القدماء، ثم تأتي حراب الإنجليز وترغم الهنود على قبول هذا الاستعمار اليوناني «(1).

تصاعدت عمليات الثورة في فلسطين عام 1936م وأصبح موقف الإنجليز حرجاً، خاصة عندما قام الثوار بالهجوم على الثكنات العسكرية الإنجليزية واستولوا على أسلحة الإنجليز وحاربوهم بها. لذا جرى نقاش في مجلس العموم البريطاني عن محاولة نقل جنود من

---

(1) جريدة فلسطين بتاريخ 1936/6/25م الموافق 6 ربيع الآخر عام 1355هـ عدد 3279/88.

(6232/1)

الهند إلى فلسطين لإيقاف الثورة الفلسطينية والإضراب الفلسطيني بالقوة. فقد اقترح المستر كلفتون براون (Clifton Brown) على وزير المستعمرات البريطانية ضرورة الإسراع في نقل فرق عسكرية من الفرسان الموجودين في الهند إلى فلسطين وذلك لعدم تمكن فرق المشاة الإنجليز من تهدئة الحال في فلسطين(1).

وعن هذا الموضوع نشرت مجلة « Indian Social Reform » وهي جريدة هندية ناطقة باسم المسلمين في الهند، مقالا ذكرت فيه:

(1) جريدة فلسطين بتاريخ 1936/7/17م الموافق 27 ربيع الآخر عام 1355هـ عدد 3292/103.

(6233/1)

إن حكومة الانتداب لا تبدي عطفاً على العرب، ومن الغريب أنك لا تجد إنجليزياً واحداً يوافق حكومته على سياستها الحاضرة ضد العرب. أما رأي الهند المسلمة، فهو جلي ظاهر ويتلخص في أن سبعين مليون هندي مسلم يعطفون عطف الأخ على أخيه لأنهم يرتبطون معهم برباط

الإسلام. إن الهنود المسلمين يطالبون بمنع الهجرة اليهودية بتاتاً والامتناع عن زيادة عدد اليهود الحاليين في فلسطين، وتريد الهند أن تعلن في جلاء عبارتها أنها ترفض إرسال جنود هندية لمحاربة العرب أو الضغط عليهم إذا طالت الاضطرابات في فلسطين وخطر للحكومة

(6234/1)

إرسال جنود من الهند إليها. ونريد أخيرا أن نطلب من حكومة الهند إبلاغ لندن أن الرأي العام الهندي يهمه أكبر الاهتمام أن ترعى حقوق الفلسطينيين في فلسطين وأن تهدأ ثائرتها لأننا ثائرون لهم غاضبون لغضبهم(1).

لقد أصبح وضع الإنجليز في الهند حرجاً بسبب الهياج الإسلامي في الهند على السياسة البريطانية في فلسطين، لذا فقد اقترح المستر Haig حاكم المقاطعات المتحدة في الهند على حاكم الهند أن ينشر مذكرة ولو كذباً للمسلمين الهنود

---

(1) جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/6/28م الموافق 9 ربيع الآخر عام 1355هـ عدد 3282/91.

(6235/1)

تؤكد لهم فيها أن المسلمين في فلسطين يأخذون حقوقهم كاملة وأن الإنجليز هناك يهتمون بالمسلمين في فلسطين(1).

وكان قد بعث حاكم الهند رسالة إلى وزير المستعمرات شرح فيها الوضع الإنجليزي السيء والحرج في الهند بسبب السياسة البريطانية الظالمة في فلسطين، فقال

فيها: » إن المسلمين في الهند يهتمون أكثر فأكثر بشؤون فلسطين، وهذا الاهتمام يمكن أن يسبب لنا مشاكل خطيرة

---

(1) أرشيف المستعمرات البريطانية، ملف رقم CO 13/75528/312/733.

انظر رسالة من المستر والتون في مكتب الهند بلندن إلى المستر وليامز بتاريخ 1936/8/5م.

(6236/1)

في المستقبل«(1)، مشيراً من طرف خفي في رسالته بأن تتدبر وزارة المستعمرات الأمر وتخفف الضغط عن المسلمين في فلسطين وتعطي الشعب الفلسطيني حقه في تقرير المصير ووقف الهجرة الصهيونية.

لقد توصل رجال المخابرات البريطانية إلى أن المسلمين في فلسطين ومصر هم الذين حركوا مشاعر المسلمين في الهند. والدلالة على ذلك وصول رسائل كثيرة إلى المسلمين الهنود مرسلة من القاهرة والقدس طلبوا فيها إرسال ممثلين عن المسلمين الهنود إلى لندن

---

(1) المصدر نفسه. انظر رسالة من زيتلاند في مكتب الهند إلى أورمسبي غور وزير المستعمرات.

(6237/1)

لشرح المعاناة الفلسطينية للشعب والحكومة البريطانية(1)؛ كما أن وزارة المستعمرات استلمت تقارير من
المسؤولين الإنجليز في الأماكن التي كانوا يسيطرون عليها في العالم ذكروا فيه القضية الفلسطينية. كما استلم مكتب الهند في لندن رسائل من المستعمرات؛ فقد بعث المقيم السياسي البريطاني في الخليج برقية تحمل رقم 525 إلى سكرتير وزارة الهند شرح فيها تأييد الكويت للإضراب الفلسطيني، فقال المقيم البريطاني

---

(1) أرشيف مكتب الهند. ملف رقم /366L/PO. انظر رسالة حاكم الهند إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند بتاريخ 1936/7/5م.

(6238/1)

في برقيته: »سلمني اليوم شيخ الكويت برقية بعثها إلى الحاج أمين الحسيني بتاريخ 1936/7/8م طلب فيها أن يخبره بالتفصيل عن الحوادث في فلسطين، وأن يوضع حد لسفك الدم العربي«. وقد أجاب سكرتير الهند في برقية جوابية إلى المقيم البريطاني بتاريخ 1936/7/20م قال فيها: »قل لشيخ الكويت أن لا يزج نفسه في الشؤون الفلسطينية«(1)

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ملف رقم 1/par 44/75528/314/733CO.

انظر برقية رقم 525 من المقيم السياسي البريطاني في الخليج إلى سكرتير وزارة الهند. وانظر برقية جوابية بتاريخ 1936/7/20م.

(6239/1)

.

وعقد المسلمون الهنود مؤتمراً في مدينة » الله أباد« بتاريخ 1936/7/18م، دعماً لفلسطين. وقد أرسل جواهر لال نهرو –الزعيم الهندي غير المسلم– رسالة باسم الأمة الهندية إلى المؤتمر الإسلامي مؤيدا القضية الفلسطينية. وجاء في رسالته ما يلي: » إني متأسف جداً

لعدم مقدرتي حضور الاجتماع في الله أباد بسبب أشغال هامة. ولو كنت موجوداً، لاشتركت بكل إخلاص ومودة وأخوة مع عرب فلسطين... وقد قرر المجلس الوطني الكبير إظهار المحبة والعطف على قضية العرب في فلسطين بإجماع آراء أهالي الهند«(1)

---

(1) جريدة الدفاع، الخميس 1936/8/13م الموافق 25 جمادى الأولى سنة 1355هـ عدد 669.

(6240/1)

.

وبعد مرور مائة يوم على الإضراب الفلسطيني، حاول الإنجليز أن يوسطوا بعض الزعماء العرب لكي يقنعوا زعماء الشعب الفلسطيني بفك الإضراب. فقام بالوساطة وزير خارجية العراق نوري السعيد، لكنه فشل في وساطته ورجع للعراق. لذا قرر الإنجليز استعمال القوة لوقف الإضراب، فأرسلوا الجنرال ديل (Dill) الذي كان يشغل منصبا عسكريا كبيرا في الهند، فوصل فلسطين وتحت إمرته سبعون ألفا من الجنود المدججين بالحراب الإنجليزية. غضب المسلمون الهنود لسماعهم هذه الأخبار، وقد عبر عن هذا الانزعاج اللورد ليلينثاو

(6241/1)

(Linlithgaw) في رسالته من الهند إلى وزير المستعمرات أورمسبي غور (Ormsby Gore) حيث شرح فيها الشعور الإسلامي الهندي تجاه القضية الفلسطينية(1).

واجتمع أعضاء الجمعية التشريعية في الهند وناقشوا سياسة حكومة بريطانيا في فلسطين وناقش آصف علي السير كرايك (Sir Karyl) فقال له إن جمعية العلماء في الهند وجواهر لال نهرو وجميع الجمعيات والمؤسسات الهندية تحتج على سياسة

---

(1) أرشيف مكتب الهند في لندن، ملف رقم /366L/PO. انظر رسالة من W.D.C إلى Boyd؛ وكذلك برقية حاكم الهند إلى مكتب الهند في لندن بتاريخ 14/9/1936م.

(6242/1)

الحكومة البريطانية في فلسطين. فأجاب كرايك قائلا: »إن الحكومة أدركت مبلغ الشعور المتأثر في الهند بسبب الحالة في فلسطين وأبلغت حكومة لندن بذلك«.

ووجه آصف علي سؤالا إلى كرايك قائلا: » هل طلبت حكومة الهند من حكومة لندن عدم إرسال جيوش إلى فلسطين؟« فأجاب السير كرايك أنه لم يعلم بأمر إرسال الجيوش إلى فلسطين إلا أمس فقط وقد أثبت آصف علي أن كلام كرايك ليس صحيحاً لأن حكومة لندن تستشير دوماً حكومة الهند في كل أمور السياسة البريطانية(1).

---

(1) جريدة الدفاع، بتاريخ 1936/9/22م الموافق 6 رجب سنة 1355هـ عدد 701.

(6243/1)

لم ينجح ديل (Dill) في وقف الإضراب، بالرغم من استعماله أساليب القمع الوحشية ضد الشعب الفلسطيني. لذا أخذ الأهالي يتهكمون عليه قائلين: » دبرها يا مستر ديل يمكن على يدك بتحل«(1). وفي الحقيقة أنه في الوقت الذي وصل فيه الجنرال ديل (Dill) إلى فلسطين كان المفتي الحاج أمين الحسيني قد دعا سراً فوزي القاوقجي البطل اللبناني الأصل والذي كان يعمل في مدرسة بغداد العسكرية، وذلك للتصدي للقوات الإنجليزية. وعندما وصل إلى فلسطين، انضم إليه

كثير من

---

(1) مذكرات الدكتور حسن فخري الخالدي محفوظة عند ابنته في بيروت.

(6244/1)

المتطوعين الفلسطينيين والعرب(1).

تحول الإضراب من مظاهرات عامة إلى أعمال عسكرية مسلحة ضد الإنجليز، كما انضم البوليس العربي للثوار، وازدادت عمليات الثوار في كل فلسطين مثل نسف الجسور، وقلب القطارات، وقطع خطوط التليفونات، ووضع الحجارة في الطرقات بقصد إعاقة القوات الإنجليزية من التحرك بحرية، ونسف أنابيب البترول. وقد وصل فلسطين مئات من المتطوعين من الدول المجاورة. ومن

---

(1) محمد عزة دروزة، تسعون عاما في الحياة، ج.2، ص.26. هذا الجزء أهداني إياه المرحوم دروزة قبل نشره أثناء مقابلتي له بدمشق عام 1980م.

(6245/1)

هؤلاء الثوار الشيخ محمد الأشمر وسعيد العاص وهما من سوريا، وقد سيطر الأشمر على طولكرم ومنطقة الثلث. أما سعيد العاص، فقد سيطر على المنطقة الممتدة بين الخليل والقدس(1).

ووصل متطوعون مسلمون من شبه القارة الهندية إلى فلسطين للدفاع عن الأقصى. والدلالة على ذلك وجود هنود جرحى في المستشفى الحكومي، حيث كتب المندوب السامي رسالة إلى وزير المستعمرات البريطانية بتاريخ 1936/6/12م جاء فيها: »

---

(1) محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ج.3، ص.128. استشهد سعيد العاص في فلسطين ودفن في قرية الخضر قرب بيت لحم.

(6246/1)

إن هناك اثنين من الهنود يعالجون في المستشفى الحكومي نتيجة جراح بسيطة «(1).

كانت الصحف الهندية المسلمة نشيطة في إيصال أخبار الإضراب الفلسطيني للشعب المسلم في شبه القارة الهندية. وبسبب الإجحاف الإنجليزي بحق الشعب الفلسطيني، عقد المسلمون الهنود مؤتمراً ضخماً برئاسة

مولانا السيد سليمان الندوي في نيودلهي شهده أكثر من 25.000 مدعو، كان بينهم ممثلون عن الأقاليم الهندية، كما حضر المؤتمر جواهر لال نهرو –الزعيم الهندي غير المسلم والذي أصبح

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات، ملف رقم CO 602/III.Disp.75528/310/733

(6247/1)

رئيسا للهند فيما بعد. استمر المؤتمر ثلاثة أيام اتخذ فيها المسلمون قرارات هامة كان من أهمها: مقاطعة حفلات التتويج البريطانية، والدعوة إلى مقاطعة البضائع الإنجليزية، وعدم التجنيد في الجيش البريطاني إذا لم تغير بريطانيا سياستها تغييراً أساسياً في فلسطين وتمنح العرب حقوقهم الشرعية في وطنهم(1).

كما عقد المسلمون اجتماعاً في كولومبو بجزيرة سيلان جنوب الهند، حضره آلاف من المسلمين الهنود، وترأسه السيد جانا رئيس الجمعية الإسلامية في تلك

---

(1) محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ج، 3، ص.132.

(6248/1)

الجزيرة. وفي بداية الاجتماع قرأ رئيس المؤتمر رسالة فلسطين مرسلة من الحاج أمين الحسيني حث فيها المسلمين على نجدة عرب فلسطين، وأصدر المؤتمر قرارا هاما جاء فيه: » المسلمون في سيلان يتتبعون بقلق وباهتمام ما بعده اهتمام الحوادث المؤسفة في فلسطين... ونقترح على حكومة بريطانيا سرعة الوفاء بعهودها للعرب وتغيير السياسة الحاضرة. وبغير ذلك يفقد الإنجليز عطف كل العالم الإسلامي... إن فلسطين أقدس لدى المسلمين والمسيحيين مما هي لدى اليهود، وإن هذا البلد المقدس الذي أخرج للعالم أكثر من نبي يجب أن لا تحوله

(6249/1)

السياسة إلى ميدان اضطرابات وتقتيل وتدمير، كما أنه يجب تعديل وعد بلفور «(1).

كانت الضغوط الإسلامية على حكومة الهند هائلة. لذا أخذ حاكم الهند يستجدي وزير المستعمرات كي يرسل مقالاً أو اثنين ولو كذبا عن سياسة بريطانيا في فلسطين، وذلك لنشرها في الصحف الهندية. والقصد من ذلك التخفيف من حدة الغضب الإسلامي الهندي على سياسة الإنجليز التعسفية في فلسطين، كما طلب أن يتضمن كل مقال شيئاً عن إنصاف الإنجليز للمسلمين في فلسطين.

---

(1) جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/8/10م الموافق 23 جمادى الأولى عام 1355هـ، عدد 3304/113.

(6250/1)

فبعث وزير المستعمرات البريطانية رسالة للمندوب السامي في فلسطين طلب منه كتابة مقالين لنشرهما في الصحف الهندية. فجاء الجواب من المستر هول (Hull) السكرتير العام إلى المستر باركنسون (Parkinson) في لندن جاء فيه: »وجدت من الصعوبة تحضير معلومات لنشرها في عمودين في جرائد الهند حول تاريخ سياستنا في فلسطين نبين فيه أن العرب أنصفناهم وأعطيناهم حقوقهم. إن كتابة عمودين للدعاية أمر

غير ناجح»(1)

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات، ملف رقم CO 13/7:28/312/733 رسالة من هول Hull إلى باركنسون؛ وانظر رسالة من والتون إلى وليامز بتاريخ 1936/9/8م.

(1/6251)

.

نستنتج من المراسلات المتبادلة بين الإنجليز في لندن والإنجليز في الهند أن المسؤولين الإنجليز في لندن كانوا يحسبون ألف حساب لرأي المسلمين الهنود قبل أن يتخذوا قراراً بشأن فلسطين. ونستنتج أيضا أن الجرائد الهندية الإسلامية كانت مليئة بالأخبار عن فلسطين. لذا فإن كتابة مقال كاذب في الصحف الهندية مصيرها الفشل وعدم التصديق.

أثار المسلمون الهنود قضية فلسطين في البرلمان الهندي. وقد ذكرت جريدة

»فلسطين« عن هذا الموضوع فقال: »كانت من الأسئلة الملتهبة التي أثارها إخواننا الهنود في برلمان الهند في الأسبوع

(1/6252)

الماضي ما يدل على مدى خطورة ثورة النفوس هناك غضباً وسخطاً على السياسة المتبعة فيها... ثورة لها خطورتها الدولية «(1).

كانت الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية على علم بما تنشره الصحف الإسلامية الهندية. لذا حاولوا نشر دعاية هدامة في الهند ضد الإضراب الفلسطيني كي يقرأها المسلمون في الهند من جهة، وشد أزر اليهود الموجودين في الهند وهم قليلون. لذا أرسل مدير »الكارن هايسود« (»مكتب المال التأسيسي اليهودي«) مندوباً يهودياً له إلى

(1) جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/9/28م الموافق 13 رجب عام 1355هـ، عدد 3243/152.

(6253/1)

الهند واستراليا هو الدكتور عمانويل أولفانجر لتشجيع اليهود على الصبر والثبات ولجمع الأموال لليهود في فلسطين. وقد وصل هذا المندوب مدينة بومباي في أواخر شهر آب عام 1936م، وألقى خطاباً هناك نشرته الجريدة الهندية اليهودية ذي جيوش

أدفوكيت (The Jewish Advocate) قال في خطابه:

» إن العرب الآن في منتهى التعب من الإضراب... إن اليهود لم يختل شعورهم من جراء الحوادث... يجب أن تفهموا أن الثورة الفلسطينية ليست من صنع الأمة العربية، إنها من صنع أفراد قلائل من المحرضين الإقطاعيين » الأفندية « الذين يستغلون جهل

(1/6254)

الفلاحين ويستغلون تعصبهم الديني لغاية واحدة هي احتفاظ هؤلاء الأفندية بما أيديهم من الممتلكات ومن النفوذ على العوام. أما الفلاح العربي الفلسطيني، فلا يهمه شيء من أمور السياسة؛ ولكنه عندما يمس شعوره الديني، فعندئذ يهيج ويثور كما هو ثائر وهائج الآن «(1).

إن هذه الدعاية اليهودية في الهند كانت تهدف بطبيعة الحال إلى الطلب من اليهود عدم تصديق الجرائد الإسلامية الهندية وتطلب منهم عدم قراءتها لأنها تخيفهم وتغير أفكارهم.

---

(1) جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/9/13م الموافق 27 جمادى الآخرة عام 1355هـ، عدد 3335/44.

(6255/1)

وربما استأجر اليهود خائناً فلسطينياً كي يبث لهم دعاية خبيثة في الهند مفادها أن الحالة الاقتصادية في فلسطين أصبحت جيدة منذ مجيء اليهود لفلسطين. وقد وضحت جريدة »فلسطين« هذا الموضوع فكتبت تحت عنوان: »اليهود يتصيدون فلاحاً عربياً ليبث لهم دعوتهم الخبيثة في الهند«. قالت: »نقلت الجريدة اليهودية الهندية ذي جويش ادفوكيت عن جريدة »ذي تايمز أوف انديا«(The Times of India) ما يلي: »وصل من فلسطين إلى بومباي المستر أحمد الصفدي، وهو فلاح عربي، فوصف لنا تقدم فلسطين في السنين الأخيرة والحرية الاقتصادية التي

(6256/1)

يتمتع بها قسم من العرب أصحاب الأراضي منذ بدأت الهجرة اليهودية إلى الآن...«(1). وقد علقت جريدة »

فلسطين« على هذا النبأ قائلة: »ربما يكون هذا الشخص هو » أدونا« وتسمى باسم أحمد. ومهما يكن من أمر هذا الفلاح العربي، فيجب معرفة شيء أهم وهو أن الجالية اليهودية قليلة جداً وأفرادها معدودون على الأصابع؛ أما الجالية الإسلامية هناك، فهي أكثر من ثمانين مليون مسلم. ولكن لم تذكر هذه الدعايات اليهودية حقيقة أهداف اليهود وهي جعل فلسطين

---

(1) جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/10/15م الموافق 30 رجب عام 1355هـ، عدد 3355/164.

(6257/1)

يهودية كما هي إنجلترا إنجليزية وفرنسا فرنسية حسب أقوال الزعيم الصهيوني وايزمن«.

ونشرت الجريدة اليهودية في الهند » ذي جيوش أدفوكيت« أخباراً غير صحيحة عن فلسطين والأوضاع فيها، فنشرت رسالة مطولة وصلتها من لندن وهي عبارة عن دعاية يهودية ملفقة وتقول إن الإنجليز في فلسطين يقفون في صف العرب ويحتقرون اليهود، وإن الأكثرية الساحقة من موظفي الإدراة الإنجليز في فلسطين موالون للعرب تماماً بسبب النزعة اللاسامية

التي تسيطر على نفوس هؤلاء الإنجليز، وإن العربي في نظر الإنجليز هو » جنتلمان« (Gentleman) أما

(6258/1)

اليهودي، فليس كذلك(1). وإذا كان هذا الكلام صحيحا، إذا لمن صدر

وعد بلفور؟ هل صدر لإعطاء وطن قومي للعرب؟ ومن هنا نستنتج عدم صحة الدعاية اليهودية في الهند. وقد اعترفت جريدة »دافار« اليهودية في فلسطين بأن مقالات مولانا شوكت علي في الصحف والمساجد الإسلامية في الهند كانت طافحة بدعايات شديدة لمساعدة عرب فلسطين. وليس من المعقول مناظرة ومنافسة هذه الدعاية(2).

---

(1) جريدة فلسطين، بتاريخ 27 تشرين أول عام 1936م الموافق 2 شعبان عام 1355هـ، عدد 3257/166.

(2) جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/8/27م، عدد 3329/128.

(6259/1)

ازدادت الأعمال التعسفية البريطانية ضد الشعب الفلسطيني وذلك بقصد فك الإضراب بالقوة، كما جلبت بريطانيا جنوداً آخرين لفلسطين. لذا قرر المسلمون في الهند مقابلة الحاكم الإنجليزي في الهند للإعراب عن احتجاجهم على السياسة الإنجليزية في فلسطين. وهكذا، ففي يوم 1936/9/28م قابل حاكم الهند وفدا إسلاميا برئاسة السر محمد يعقوب ممثلا عن »منظمة مسلمي الهند«. وألقى رئيس الوفد خطاباً أمام حاكم الهند قال فيه: » إن التعاون الإسلامي البريطاني في الهند لن يستمر وفلسطين في خطر«(1)

---

(1) جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/10/14م الموافق 29 رجب عام 1355هـ، عدد 3254/136.

(6260/1)

. ومما جاء في الخطاب ما يلي:

إنكم تعرفون شعور القلق والاضطراب الذي أعرب عنه المسلمون في اجتماعاتهم الكثيرة التي عقدوها في معظم أنحاء البلاد الهندية بعد أن قرأوا أنباء الجيوش البريطانية التي ترسل إلى فلسطين لتسحق الآمال الشرعية القانونية للأمة العربية الفلسطينية ولتخمد

بقوة السلاح هذه الحملة التي يقوم بها العرب من مسلمين ومسيحيين ضد الظلم الواقع عليهم من وعد بلفور، ومن استمرار تنفيذه بالقوة على شعب يحتج عليه غير راغب فيه. إن هذا الوعد هو الذي يقاومه جميع المسلمين مع العرب الفلسطينيين... لقد تلقى

(1/6261)

المسلمون في الهند تأكيدات كثيرة متكررة عن ضمان بريطانيا للأماكن الإسلامية المقدسة وللحقوق والامتيازات التي منحها لأهالي الأراضي المقدسة الخليفة (عمر). ومما يقلق هؤلاء المسلمين الآن أشد القلق أن سلسلة العهود قد طرحت جانبا ... وعليه، فإننا باسم الإنسانية واسم الإنصاف نطلب من حكومة صاحب الجلالة أن تعيد الحق إلى نصابه للشعب الفلسطيني الآن، وذلك بمحو الإجراء الحربي وهو وعد بلفور وإنهاء الانتداب، والمساعدة على تأسيس حكومة مسؤولة في فلسطين والسماح لشعبها بأن يعيش بسلام في بلاده ليؤدي الواجبات الدينية

(1/6262)

والإنسانية التي عليه وكلما تأخر اتخاذ هذه الإجراءات الضرورية، زاد نفور المسلمين من بريطانيا(1).

بعد هذه المقابلة التي تمت بين الوفد الإسلامي الهندي وحاكم الهند الإنجليزي، وبعد تقديم الخطاب له، قال الحاكم مُطمئناً الوفد الإسلامي بأن اللجنة الملكية ستأتي إلى فلسطين وسوف تبحث المسألة الفلسطينية وأسباب الإضراب، ولكن بعد أن تهدأ البلاد. ثم غادر الوفد الإسلامي مقر الحاكم، ورجع كل إلى مقاطعته، وبعث حاكم الهند رسائل إلى زعماء المقاطعات الإسلامية جواباً لهم عن الأسئلة والطلبات التي قدموها

---

(1) المصدر نفسه.

(6263/1)

له أثناء مقابلتهم معه(1).

بقي الإنجليز في قلق خاصة بعد هذه المقابلة التي جرت بين الوفد الإسلامي الهندي وحاكم الهند الإنجليزي. لذا بعث الموظف الإنجليزي والتون (J.C.M.C. Walton) رسالة إلى باركنسون (Parkinson) في وزارة المستعمرات البريطانية شارحاً فيها مقابلة الوفد

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ملف رقم: 13/75528/312/733CO. انظر رسالة من A.S.Hands مفوض السكرتير العام لحكومة الهند إلى نائب سكرتير الدولة العام لحكومة الهند إلى نائب سكرتير الدولة لشؤون الهند في لندن، بتاريخ 1936/10/1م.

(6264/1)

الإسلامي الهندي لحاكم الهند، فقال في رسالته: »إن حاكم الهند أجاب الوفد عن أسئلتهم... ولكن ما زال الحاكم يشعر أن المشكلة مع المسلمين الهنود ما زالت معلقة«، وأضاف والتون أنه سيكون مسرورا لو أن وزارة المستعمرات تقوم بتقديم أية مساعدة له عن شرح نية حكومة جلالته في فلسطين، وأضاف والتون أيضاً » أن الوفد الإسلامي سأل حاكم الهند كم عدد العرب (مسلمين ومسيحيين) وكم عدد اليهود في فلسطين؟«. وأضاف قائلاً: »هل نقول للمسلمين الهنود إننا لسنا مسؤولين عن وعد بلفور وإنما المسؤول عصبة الأمم؟«(1)

---

(1) المصدر نفسه. انظر رسالة من والتون إلى باركنسون، بتاريخ 1936/10/9م.

(6265/1)

.

أجاب باركنسون من وزارة المستعمرات البريطانية إلى والتون في تاريخ 1936/10/16م قائلاً: » إن وعد بلفور هو جزء من الانتداب، وإنه أجري آخر إحصاء للسكان في فلسطين بتاريخ 1936/6/30م، وكان قد جرى إحصاء للسكان عام 1922م وفي عام 1931م. وكان عدد سكان فلسطين حسب آخر إحصاء وذلك بتاريخ 1936/6/30م كما يلي:(1).

-عدد المسلمين

:848.342 **مسلماً،**

-عدد المسيحيين

:106.474 **مسيحياً،**

-عدد اليهود

:307.483 **يهودياً،**

-آخرون

:11.219.

المجموع

(1) المصدر نفسه. انظر رسالة باكنسون إلى والتون، بتاريخ 1936/10/16م.

(6266/1)

1.336.518: نسمة.

وذكرت الصحف الإسلامية في الهند أن فلسطين بحاجة إلى أطباء بسبب كثرة الجرحى والشهداء في صفوف المسلمين في فلسطين. لذا عقدت » جمعية علماء الهند« مؤتمرا بتاريخ 1936/9/27م في نيودلهي برئاسة مولانا شفيع داود. وقد صدر قرار عن هذا الاجتماع طلب فيه المسلمون الهنود ضرورة إرسال لجنة طبية لمعالجة الجرحى الفلسطينيين من جراء الحوادث. ومما جاء في القرار ما يلي: »قررت جمعية علماء الهند بإجماع الآراء الاحتجاج على السياسة المتبعة في فلسطين ومطالبة الحكومة البريطانية بإجابة مطالب العرب الحقة

(6267/1)

العادلة، وترى الجمعية أن الحاجة ماسة في فلسطين إلى بعثة طبية. وهي -لذلك- تقرر سرعة إرسال هذه البعثة من الأطباء المسلمين في الهند، كما تقرر جمع مساعدة مالية قيمة لتقديمها إلى اللجنة العربية العليا في فلسطين «(1).

ازدادت النداءات أكثر من ذي قبل من علماء المسلمين في العالم الإسلامي تحث على ضرورة مساعدة إخوانهم في الدين شعب فلسطين. ففي نداء وجهه الزعيم الشيعي حجة الإسلام محمد حسين آل كاشف الغطاء إلى العالم الإسلامي بعنوان »

---

(1) جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/10/17م الموافق 2 شعبان عام 1355هـ عدد 3357/166.

(6268/1)

فلسطين الدامية « أوضح فيه ضرورة مساعدة إخوانهم في الدين المسلمين في فلسطين الذين استمر إضرابهم حتى الآن خمسة شهور(1).

لم تُلب وزارة المستعمرات البريطانية اقتراحات حاكم الهند الإنجليزي وأهمها النظر في احتجاجات المسلمين في الهند. لذا أرسل الحاكم رسالة احتج فيها للحكومة

البريطانية في لندن على وزارة المستعمرات لأنها لم تهتم بمسلمي الهند. ففي رسالة من لاثويث (Lathwaite) نائب حاكم الهند إلى ستيوارت (Stewart) نائب سكرتير الدولة

---

(1) أرشيف مكتب ا لهند، ملف رقم India Office: /165/12/15R، بتاريخ 1936/10/31م.

(6269/1)

لشؤون دولة الهند قال فيها: يجب أن يكون المسلمون الهنود مهمين في نظر الحكومة، إن الحاكم العام في الهند قلق بسبب عدم الاهتمام بالمسلمين ذوي المقام المرموق من قبل الحكومة البريطانية، علما أن هؤلاء المسلمين يستطيعون التأثير على كل المسلمين في الهند، ويجب أن لا نسمح لوزارة المستعمرات أن تنسى الشعور الإسلامي في الهند، بل يجب أن تبقى حكومة الهند في الصورة «(1). يتضح من هذه الرسالة الصراع القائم بين وزارة

---

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم India Office: L/S /3347/12and S. انظر الرسالة بتاريخ 1936/10/1م.

(6270/1)

المستعمرات البريطانية وبين حكومة الهند الإنجليزية بسبب عدم الاهتمام بملايين المسلمين في الهند. ومعروف أن رأي هؤلاء الملايين واضح وهو شد أزر إخوانهم في الدين في فلسطين؛ ولأن وزارة المستعمرات لم تهتم كثيرا بالمسلمين الهنود، ظن هؤلاء أن رأيهم لم يوصله حاكم الهند إلى لندن. لذا احتج السيد محمد يعقوب رئيس جمعية المسلمين الهنود لدى حاكم الهند قائلا: »يجب أن نرسل احتجاجاً رسمياً إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند في لندن، وعندما يأتي جواب احتجاجاتنا من بريطانيا يجب أن ننشره رسمياً باسم حكومة الهند«(1)

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات، ملف رقم: CO 13/75528/311/733. انظر رسالة من والتون إلى باركنسون، بتاريخ 1936/11/4م.

(6271/1)

.

أصبح موقف الحكومة البريطانية حرجاً أمام الرأي العام العالمي بسبب الإضراب الفلسطيني. لذا قررت بريطانيا أن توسط ملوك العرب لكي يبادروا بإقناع إخوانهم في فلسطين لفك الإضراب، فتوجه نوري السعيد –وزير الخارجية العراقي– إلى فلسطين بعد أن جرت مفاوضات في عمان والرياض وبغداد بين وزراء الخارجية لهذه العواصم ا لعربية. وبعد مباحثات مطولة أجراها نوري السعيد مع رؤساء اللجنة العربية العليا في فلسطين، قرر الفلسطينيون موافقتهم على استمرار المفاوضات مع وزير الخارجية العراقي كي يتصل برؤساء الدول العربية. وفي

(6272/1)

نفس الوقت الذي كان نوري السعيد يجري فيه اتصالاته مع زعماء فلسطين، كانت الحكومة البريطانية تخطط لطرد المفتي وصحبه الذين أشرفوا على الإضراب، طردهم من فلسطين، معتقدة أن طرد الزعماء يحل المشكلة ويفك الإضراب، فبعثت وزارة الخارجية البريطانية برقيات إلى المندوبين الساميين الإنجليز في كل من بغداد (المستر كلارك كير) وجدة (المستر سير بولارد)

والإسكندرية (المستر كيلي) تسألهم عن رأي المسلمين في مناطقهم لو طرد المفتي وجماعته، وطلبت منهم أن يبقى ذلك سراً(1)

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ملف رقم: 6/75528/311/733CO. انظر برقيات من وزارة الخارجية إلى المندوبين السامين بتاريخ 1936/10/7م.

(6273/1)

.

استمرت المفاوضات السرية بين الزعماء الإنجليز في وزارة الخارجية حول طرد زعماء فلسطين بسبب الإضراب. فقد أرسل سكرتير الدولة لشؤون الهند في لندن برقية رقم 2838 إلى حكومة الهند في نيودلهي بتاريخ 1936/10/8م سأل فيها عن شعور المسلمين في الهند إذا تم طرد المفتي وجماعته، وطلب في البرقية عدم إفشاء السر وبأن يبقى ذلك الخبر مكتوما. فجاء جواب حكومة الهند إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند في لندن بتاريخ 1936/10/10م في برقية رقم 2297 تنص على »أن معظم التقارير التي وصلت مكتب الهند تقول إن طرد المفتي لن يؤثر

(6274/1)

كثيرا، ولكن لا بد من معارضة لأنها لا تريد مشاكل أخرى تضاف على رأسها«(1). بينما كان رأي المندوب السامي في فلسطين ليس طرد المفتي بل » قص جناحه« ، أي تجريده من وظائفه(2). وبعد جهود مضنية مع زعماء اللجنة العربية العليا في

---

(1) أرشيف مكتب الهند في لندن، ملف رقم L/P and 7298/p.z.3342/12S/ من حكومة الهند إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند، بتاريخ 1936/10/10م.

(2) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ملف رقم 6/75528/311/733CO. رسالة من المندوب السامي في فلسطين إلى باركنسون في وزارة المستعمرات، بتاريخ 1936/10/31م.

(6275/1)

فلسطين، نجح نوري السعيد في إقناعهم على فك الإضراب. لذلك وجّه ملوك العرب إلى أبنائهم عرب فلسطين، نداء طلبوا فيه فك الإضراب. واستعد الملوك

القيام بالمباحثات مع الإنجليز لتحقيق طلبات الشعب الفلسطيني. وهذا هو نص النداء الذي وجهه ملوك العرب للشعب الفلسطيني:

إلى أبنائنا عرب فلسطين. لقد تألمنا للحالة السائدة في فلسطين، فنحن بالاتفاق مع إخواننا ملوك العرب والأمير عبد الله ندعوكم للإخلاد والسكينة حقناً للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل وثقوا بأننا

(6276/1)

سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم(1).

وهكذا انتهى الإضراب الفلسطيني الذي استمر ستة شهور عندما أصدرت اللجنة العربية العليا نداء إلى الشعب الفلسطيني بتاريخ 1936/10/13م بوقف الإضراب، وطلبت من الشعب الفلسطيني أن ينتظر مجيء اللجنة الملكية (لجنة بيل) التي ستبحث أسباب الإضراب، لكن الإنجليز اشترطوا قبل إرسال

---

(1) أكرم زعيتر، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، وثيقة رقم 261، ص.458؛ انظر أيضا: وثيقة رقم 57 في

كتابي

وثائق فلسطينية في دور الأرشيف البريطانية، إصدار مركز البحث العلمي، جامعة الخليل، عام 1986م، ص. 217.

(1/6277)

لجنة التحقيق هذه أن يغادر فوزي القاوقجي والمتطوعون معه أرض فلسطين.

غادر القاوقجي وصحبه الثوار البلاد دون رغبة منه، علماً أنه طلب من اللجنة العربية العليا البقاء في فلسطين حتى تنتهي اللجنة الملكية من التحقيق، بل وحتى تنشر قرارها وتوصياتها. فإذا كان القرار لصالح الشعب الفلسطيني، فسوف يغادر فلسطين؛ وإذا كان القرار غير ذلك، فسوف يستمر في ضرب الإنجليز. لكن اللجنة العربية العليا شكرته على جهوده وجهاده وطلبت منه -بسبب ضغوط الملوك العرب- مغادرة البلاد، فغادرها على مضض(1)

---

(1) خيرية قاسميه، مذكرات القاوقجي، دار القدس، بيروت 1975م.

(1/6278)

.

كان من أهم نتائج الإضراب الفلسطيني صدور قرار الوزارة البريطانية بتاريخ 1936/7/29م الذي ينص على ضرورة إرسال اللجنة الملكية (لجنة بيل)(1)

---

(1) سميت اللجنة الملكية » لجنة بيل« نسبة إلى رئيسها اللورد بيل. كان بيل يشغل منصب سكرتير لشؤون الهند، وكان عضواً في مؤتمر المائدة المستديرة المتعلق بالهند عام 1931/1930م، وعمل وكيلاً لوزارة الحربية ثم وزيراً للمواصلات ثم مندوباً لوزارة الأشغال ثم وزيراً لأختام الملك (انظر جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/7/23م الموافق 5 جمادى الأولى عام 1355هـ، عدد 3296/105؛ وانظر جريدة

فلسطين، بتاريخ 1936/8/11م الموافق 24 جمادى الأولى عام 1355هـ، عدد 3205/114، توجد في هذا العدد صورة اللورد بيل وتحت صورته عبارة تقول: » حامل وسام كوكب الهند من رتبة كوماندوز أعظم ووسام صليب الإمبراطورية الأكبر. وفي سن 33 أصبح عضواً في البرلمان وعضواً في مجلس ولاية لندن، ثم أسندت له رئاسة هذا المجلس الخطير. وفي سن الخمسين، عين وزيراً

من وزراء صاحب الجلالة الملك.. ومنصب وزير الهند ورقي إلى رتبة ايرل».

(6279/1)

إلى فلسطين للنظر في أسباب الإضراب، ولكن لجنة بيل قررت عدم السفر إلى فلسطين إلا بعد انتهاء الإضراب.
وعندما هدأت الحالة في البلاد، سافر أعضاء لجنة بيل إلى فلسطين ووصلوها بتاريخ 1936/11/11م، وكان من المفروض أن تصل اللجنة قبل هذا التاريخ.
واتصل الصهاينة، والإنجليز المؤيدين لهم، باللجنة الملكية سراً قبل شهرين من وصولها إلى فلسطين، حيث قابلها وايزمن وجابوتنسكي، الزعيمان الصهيونيان، ولويد جورج، وجيمس مالكوم الذي قد أجرى مفاوضات عام 1916 مع الصهاينة والتي أدت إلى إصدار وعد بلفور.
وعندما باشرت لجنة بيل

(6280/1)

عملها بمقابلة الأشخاص في فلسطين، تظاهر وايزمن بأنه لا يعرف بيل ولم يشاهده من قبل.

وقبل وصول اللجنة الملكية إلى فلسطين، كان وزير المستعمرات البريطانية اورمسبي غور

–صديق الصهاينة – قد منح 1800 شهادة هجرة يهودية جديدة إلى فلسطين، ضاربا بعرض الحائط طلبات الشعب الفلسطيني التي كان أهمها منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين. ومن المعروف أن الإضراب الفلسطيني الطويل الذي دام ستة أشهر كان أحد أسبابه زيادة الهجرة اليهودية. لذلك أعلن مفتي القدس الحاج أمين الحسيني أنه لن يقابل اللجنة الملكية

(6281/1)

–لجنة بيل(1)–، احتجاجا على قرار وزير المستعمرات البريطانية بمنح 1800 مهاجر يهودي للإقامة في فلسطين.

وبعث المفتي رسائل إلى الملك غازي ملك العراق، والملك عبد العزيز بن سعود، والأمير عبد الله، شارحاً لهم في رسائله الأسباب التي دفعت زعماء فلسطين إلى عدم مقابلة اللجنة الملكية. ففي رسالته إلى الملك عبد العزيز بن سعود بتاريخ 1936/11/21م، كتب المفتي قائلا: »إن سياسة الهجرة اليهودية إلى فلسطين هي بالنسبة لنا مسألة

(1) عبد الوهاب الكيالي، وثائق المقاومة الفلسطينية، وثيقة رقم 188، ص. 456، بتاريخ 1936/11/6م.

(6282/1)

حياة أو موت، لأن اليهود كانوا يشكلون 7 ٪في بداية الانتداب. أما الآن، فيشكلون 30٪ من السكان. إن القضية الفلسطينية بالنسبة للعرب قضية وجود أو لا وجود، وإن الكيان العربي الإسلامي بدأ في التلاشي والزوال تدريجيا، وإن هذا الكيان سيفقد آجلا أو عاجلاً، وإن فلسطين ستكون إما ولاية يهودية وإما دولة عربية إسلامية «(1).

مكثت اللجنة الملكية في فلسطين أكثر من شهرين استمعت فيها إلى شهادات اليهود والإنجليز، ولكنها لم تستمع إلى

(1) المصدر نفسه، وثيقة رقم 271، ص.469. انظر أيضا عزة دروزة، حول الحركة العربية، ص.139.

(6283/1)

شهادة عربي واحد بسبب رفض العرب مقابلة اللجنة، وتدخل ملوك العرب مرة ثانية وضغطوا على زعماء فلسطين لمقابلة لجنة بيل والإدلاء بشهاداتهم وتقديم طلباتهم العادلة. فوافق زعماء فلسطين وقابلوا أعضاء اللجنة في أواخر أيام إقامتهم في البلاد. وكانت أهم طلبات الشعب الفلسطيني كما عرضها المفتي أثناء مقابلة اللجنة وهي: منع الهجرة اليهودية منعاً باتاً ومنع انتقال الأراضي العربية لليهود وإلغاء وعد بلفور واستقلال فلسطين(1). ثم رجع أعضاء اللجنة إلى لندن لتقديم

---

(1) ناجي علوش، المقاومة العربية الفلسطينية، ص.133.

(6284/1)

تقريرهم إلى وزير ا لمستعمرات البريطانية.

سافر وفد فلسطيني إلى مكة المكرمة، وكان مكوناً من الحاج أمين الحسيني ومحمد عزة دروزة. وأثناء وجودهما في مكة، حضرا اجتماعاً دعت إليه جمعية الشباب العربي السعودي في منى؛ كما حضر الاجتماع المقيم الهندي في الحجاز بدعوة من محرر جريدة » صوت الحجاز «؛ كما حضرت

أيضا شخصيات عربية مثل رياض الصلح وبشير السعداوي أثناء وجودهما في مكة وكانا مبعوثين من الرئيس السوري إلى السعودية لبحث موضوع الوحدة العربية(1)

---

(1) أرشيف مكتب الهند في لندن، ملف رقم L/P and /3342/12S. رسالة من لامبسون في القاهرة إلى المستر ايدن بتاريخ 1937/4/8م.

(6285/1)

. وألقيت في الاجتماع خطب سياسية عن فلسطين كانت حماسية ردد الجميع معاً » الله أكبر «، وظهرت في الصحف السعودية وخاصة صحيفة » صوت الحجاز « مقالات وصفت المفتي وجماعتهم بأنهم قادة سوريون أبطال ومجاهدون، كما وصفتهم جريدة » أم القرى « كذلك(1). وعندما كان في مكة، اقترح الجنرال ديل استغلال الفرصة ومنع الحاج أمين من العودة إلى فلسطين(2)

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ملف رقم CO733/326/75023/2. انظر رسالة من القنصل البريطاني في جدة (بولارد) إلى ايدن بتاريخ 1937/3/9م.

(2) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم L/P and /3342/12S. وثيقة رقم 1488 «سري».

(6286/1)

. ولكن أورمسبي غور وزير المستعمرات رفض هذا الإقتراح، ورفض طرد المفتي بهذه الطريقة، وذلك – حسب ما قال أورمسبي غور – » خوفا من تحريك شعور المسلمين في الهند

والعالم ضدنا، ولكن نستطيع أن نطرده بطريقة مناسبة عندما يرفض قرار لجنة بيل«(1).

وانتشرت في الأفق إشاعات تقول إن اللجنة الملكية ربما توصي بتقسيم فلسطين، فبعث المفتي وفداً فلسطينياً إلى لندن في أيار عام 1937م يتكون من جمال الحسيني

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات، ملف رقم CO 733/326/75023/2. انظر رسالة من اورمسبي غور إلى رئيس الوزراء، بتاريخ 1937/3/2م.

(6287/1)

وعزة طنوس(1) للاحتجاج سلفا على التقسيم إذا صدرت لجنة بيل ذلك القرار. كما أرسل المفتي رسائل إلى الزعماء المسلمين في الهند طلب في رسائله أن ترسل الهند وفدين إلى لندن للاحتجاج سلفاً على قرار التقسيم المقترح إصداره من قبل لجنة بيل(2). وقد قال مولانا شوكت علي إلى حاكم الهند

---

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم L/P and /3347/12S. وثيقة رقم 3882P.Z.

(2) الأرشيف والملف نفسه، رقم 3882P.Z. انظر رسالة من S.I James إلى المستر Clauson؛ وانظر أيضا رسالة حاكم الهند إلى ويليامز وثيقة رقم 2643P.Z وثيقة رقم 2367P.Z.

(6288/1)

بتاريخ 1937/4/14م إن إرسال وفدين من الهند إلى لندن للدفاع عن فلسطين هو قيد الدرس الآن، وإن المفتي سيرسل اثنين من فلسطين إلى لندن للاحتجاج سلفاً على قرار لجنة بيل في حالة توصيتها بالتقسيم(1).

وأصدرت لجنة بيل تقريرها الذي يوصي بتقسيم

فلسطين إلى ثلاث مناطق، مناطق يهودية، ومنطقة عربية تمتد إلى شرقي الأردن، ومنطقة تبقى تحت الانتداب وهي الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم والناصرة. كما أوصى

---

(1) الأرشيف نفسه، رقم الوثيقة 2643P.Z.، بتاريخ 1937/4/16م. برقية من الحاكم العام في الهند إلى مكتب الهند، لندن.

(6289/1)

تقرير اللجنة الملكية بوجوب تبادل السكان بين المنطقتين العربية واليهودية. ونستنتج من التقرير أنه في حالة تطبيق تبادل السكان، فإنه لن يكون سوى تنفيذ عملية طرد السكان العرب من أراضيهم وبيوتهم، لأن عدد العرب في المنطقة اليهودية المقترحة يبلغ عددهم نصف السكان، أي ثلاثمائة ألف نسمة، ويملكون ثلاثة أضعاف الأملاك اليهودية ومقدارها ثلاثة ملايين وربع المليون دونم تقريبا، بينما عدد اليهود في المنطقة العربية لا يتجاوز 1250 يهودي فقط وأن أراضيهم مائة ألف دونم تقريبا(1)

---

(1) محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ج، 3، ص.155.

(6290/1)

. وهذه التوصية ظلم فادح للسكان العرب.

نستنتج من توصيات لجنة بيل أنها كانت واضحة لصالح اليهود، لأنها أعطتهم منطقة ليشكلوا فيها دولة لأول مرة في التاريخ. ونستنتج أن الأماكن المقدسة لن تكون تحت إشراف العرب بل تحت إشراف الإنجليز الذين سوف يعملون على تسليمها تدريجياً لليهود. لذلك بعث مفتي القدس رسائل إلى زعماء العالم الإسلامي طلب منهم حماية المقدسات الإسلامية في فلسطين، فقال: » إن هذه الأماكن المقدسة الإسلامية ليست للفلسطينيين وحدهم بل هي لكل المسلمين في ا لعالم« (1)

---

(1) أرشيف مكتب الهند في لندن، ملف رقم R 25/19File No: 156/2/15.

(6291/1)

. وأما رسالته إلى الملك عبد العزيز بن سعود، فكانت أكثر تأثيرا عندما ذكر له أن الأقصى في خطر، وسيؤدي هذا الوضع إلى أن تكون مكة المكرمة والمدينة المنورة في المستقبل بنفس الخطر(1).

والحقيقة أن رسائل المفتي كانت مؤثرة. والدليل على ذلك أن علماء المسلمين في الدول الإسلامية أصدروا فتاوى ضد التقسيم المقترح. فمثلا، أصدر علماء العراق فتوى تنص على أن أي شخص يوافق على التقسيم لا يسمح بدفنه في

---

(1) أرشيف جمعية الدراسات العربية، القدس، ملف مخابرات مع السعودية رقم 25/1، » اللجنة العربية «، بتاريخ 19/7/1937م.

(6292/1)

مقابر المسلمين(1).

وأرسل مفتي القدس رسائل وبرقيات باسم اللجنة العربية العليا إلى كل زعيم هندي في منطقته. وكان ذلك بتاريخ 8/7/1937م. ومن أهم هذه الرسائل رسالة إلى مولانا طاهر سيف الدين في مدينة بومباي، وإلى مولانا أبو الكلام آزاد في كلكتا، وإلى مفتي الهند في

دهلي، وإلى مولانا سر محمد إقبال في لاهور، وإلى مولانا أبو بكر وسكان كانتور، وإلى يوسف عبد الله فوزان رئيس جمعية الشبان المسلمين في الهند، وإلى

---

(1) محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ج.3، ص.163؛ وانظر نجيب صدقة، قضية فلسطين، ص.204.

مولاي أشرف في راندر، وإلى عبد الرحمن صديقي في كلكتا، وإلى الشيخ غلام رسول سكرتير مجلس اتحاد الأمة –صدر بازاردلهوزي، وإلى مولانا شوكت علي، وغيرهم من زعماء الهند المسلمين. وفي كل رسائله شرح المفتي للزعماء الهنود تقرير اللجنة الملكية وبيان الحكومة البريطانية المتضمن تقسيم فلسطين، وكان يركز على

أن القدس قبلة المسلمين الأولى ومسرى النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وكان يذكر آيات من القرآن الكريم في رسائله وطلب منهم الدعم الكامل لفلسطين والاحتجاج ضد الإنجليز سواء في الهند أو لندن على خطورة

التقسيم(1).

واستلم مفتي القدس عدة رسائل من هؤلاء الزعماء الهنود رداً على رسائله نذكر منها: رسالة من أبي بكر وسكان كانتور بتاريخ 1937/7/26م حيث ذكر للمفتي أن مؤتمراً عقد لبحث قضية فلسطين، ورفعوا تقريراً لحكومة الهند يستنكرون فيه التقسيم، فأرسل الحاج أمين برقية بتاريخ 1937/8/14م يشكرهم فيها على ذلك (2). كما استلم المفتي رسالة

(1) أرشيف جمعية الدراسات العربية، القدس، ملف الهند، » الهيأة العربية العليا« ، بتاريخ 1937/7/9م.

(2) الأرشيف نفسه، برقية من المفتي إلى أبو بكر وسكان كانتور، بتاريخ 1937/8/14م.

(6295/1)

من رئيس جمعية الشبان المسلمين يوسف عبد الله فوزان أخبره فيها بعقد اجتماع كبير في 1937/8/1م برئاسة الأستاذ حبيب إبراهيم استنكروا فيه تقرير اللجنة الملكية بشأن التقسيم وأن المسلمين الهنود سيرفعون شكوى إلى عصبة الأمم. وبعث المفتي جوابا

لهم بتاريخ 1937/8/8م يشكرهم على ذلك (1).

وأما رسالة الدكتور محمد إقبال (رئيس الحلف الإسلامي في البنجاب) للمفتي، فكانت بتاريخ 1937/7/29م.

وكانت أكثر شدة وصرامة ضد الإنجليز، حيث ذكر

---

(1) الأرشيف نفسه، رسالة من رئيس جمعية الشبان المسلمين يوسف عبد الله فوزان إلى المفتي.

(6296/1)

للمفتي أن اجتماعاً عقد في مدينة لاهور بتاريخ 1937/7/26م وألقى محمد إقبال خطبة قال فيها للمسلمين هناك: » أؤكد لكم أن مسألة فلسطين مسألة إسلامية وتهم جميع المسلمين في العالم«. واقترح إيجاد عصبة إسلامية بدلاً من عصبة الأمم (1)، كما انتقد السياسة البريطانية المجحفة بحق المسلمين في فلسطين، وقد حضر الاجتماع أكثر من 20.000 مسلم هندي(2)

---

(1) الأرشيف نفسه، رسالة محمد إقبال إلى المفتي في 1937/7/29م.

(2) أرشيف مكتب الهند في لندن، ملف رقم L/P and

/3347S، وثيقة رقم .5152P.Z ، رسالة من الحلف الإسلامي في البنجاب إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند بتاريخ 29/7/1937م.

(6297/1)

.

كما وصلت برقيات أخرى من زعماء هنود إلى الحاج أمين الحسيني، منها برقية من مولاي أشرف –راندر في الهند البريطانية، قال فيها: » نؤيدك في معارضة تقسيم فلسطين «(1)؛ وبرقية من جمعية الشبان المسلمين في بومباي بتاريخ 25/8/1937م ذكروا فيها أن قرار اللجنة العليا الملكية غير عادل للقضية الفلسطينية وللمسلمين عموماً(2)

---

(1) أرشيف جمعية الدراسات العربية، برقية رقم 47 من راندر –الهند البريطانية بعثها مولاي أشرف إلى المفتي الحاج أمين الحسيني.

(2) الأرشيف نفسه، برقية من جمعية الشبان المسلمين إلى المفتي في 25/8/1937م.

(6298/1)

؛ وبرقية من شيخ غلام رسول –دلهوزي بتاريخ 1937/8/24م، وفيها تأييد الهند لفلسطين ومعارضة المسلمين الهنود تقسيم فلسطين(1)؛ وبرقية من عبد الرحمن صديقي بدعم الهنود المسلمين للشعب الفلسطيني واستنكاره للتقسيم. وقد بعث الحاج أمين الحسيني أجوبة على هذه البرقيات كان آخرها بتاريخ 1937/9/1م شكر فيها عبد الرحمن صديقي على الدعم الهندي لفلسطين(2).

---

(1) الأرشيف نفسه، برقية غلام رسول إلى المفتي، في 1937/8/24م.

(2) الأرشيف نفسه، برقية إلى عبد الرحمن صديقي من الحاج أمين الحسيني، بتاريخ 1937/9/1م.

(6299/1)

أما جواهر لال نهرو الزعيم الهندوسي غير المسلم، فكان قد صرح لمراسل جريدة »مدينة« ، وهي جريدة هندية، قائلا إنه يستنكر التقسيم الذي اقترحته اللجنة الملكية ويؤيد الحقوق الفلسطينية. فأرسل مفتي القدس برقية لسيادته بتاريخ 1937/9/2م يشكره

فيها على دعمه لفلسطين في التصريح الذي أدلى به لجريدة »مدينة« . فأرسل الزعيم الهندوسي للمفتي برقية جوابية بتاريخ 1937/9/5م قال فيها: » ... إن عدم تقسيم فلسطين يضمن لها الحرية التامة من نفوذ الاستعمار البريطاني«(1)

---

(1) الأرشيف نفسه، برقية من جواهر لال نهرو رقمها 384 وعدد كلماتها 64 ووصلت إلى القدس بتاريخ 1937/9/5م.

(6300/1)

.

وأرسل زعماء الهنود المسلمين رسائل وبرقيات إلى حكومة الهند، ورسائل وبرقيات أخرى إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند في لندن احتجوا فيها على اقتراح اللجنة الملكية بتقسيم فلسطين. وكان من أهم البرقيات برقية المجلس الإسلامي في مالابار –مدارس سكرتير الدولة لشؤون الهند بتاريخ 1937/8/24م(1)؛ وبرقية من جمعية الإدارة في عمان إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند بتاريخ 1937/7/23م(2)؛ وبرقية من الحلف الإسلامي في

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم L/P and /3347/12S، وثيقة رقم 6355P.Z.

(2) الأرشيف نفسه، رقم الوثيقة 6007P.Z.

(6301/1)

البنجاب إلى سكرتير الدولة بتاريخ 1937/7/29م(1) . وقرر المسلمون الهنود أن يرسلوا وفداً هندياً مسلماً لبريطانيا للتعبير عن شعورهم في معارضة تقرير اللجنة الملكية بشأن تقسيم فلسطين. وقد عين الوفد بعد أن عقد مؤتمرا يدعى »مؤتمر عموم مسلمي الهند بشأن فلسطين« في الفترة الواقعة بين 24 و1937/9/26م في مدينة كلكتا. وشكل هذا الوفد من السادة: نواب محمد إسماعيل خان ومحمد أشرف وعبد الرحمن صديقي(2).

(1) الأرشيف نفسه، رقم الوثيقة 5152P.Z.

(2) الأرشيف نفسه، رقم الوثيقة 5782P.Z.

(6302/1)

وأصدر المؤتمر قراراً جاء فيه: » إن تقسيم فلسطين غير مقبول لمسلمي الهند ومسلمي العالم، وإن السياسة التي تتبعها بريطانيا هي التحيز لليهود ويجب وقفها وعدم التحيز لهم؛ وإلا فإن بريطانيا ستفقد صداقتها مع العالم الإسلامي وتجبر الهند على ذلك أيضا لمصلحة الإسلام«(1). وتأسست في المؤتمر لجنة الدفاع عن فلسطين، وتكلم بعض الأعضاء في المؤتمر فقال: » إن قرار اللجنة الملكية بالتقسيم قد وضع ثمانين مليون مسلم هندي في موقف حرج، وهو إما أن يختاروا الولاء للدولة البريطانية أو

---

(1) الأرشيف نفسه، رقم الوثيقة .7803P.Z.

(6303/1)

الولاء للدين الإسلامي. وطبعا سيختارون الولاء للإسلام«(1). ومعنى هذا الكلام أن المسلمين سيثورون ضد الإنجليز عن حقوق الشعب الفلسطيني –إخوانهم في الدين.

كما عقد جميع مسلمي الهند في لكنو بالهند بتاريخ 1937/10/18م وقرر أعضاء المؤتمر الدعم الكامل للشعب الفلسطيني ورفض التقسيم، وقرر إرسال وفد

هندي لزيارة فلسطين

---

(1) كتاب تاريخ بريطانيا العظمى وفلسطين 1915–1939م، مكتب المعلومات البريطانية Great Britain and Palestine 1915–1939.

أرشيف مكتب رقم .1852T.

(6304/1)

للتعرف على أحوالها عن كثب. ومن الشخصيات الهامة التي حضرت المؤتمر إسكندر حياة خان رئيس وزراء البنجاب وفضل الحق رئيس وزراء البنغال(1).

وفي برقية من ضابط الإدراة الحكومية في فلسطين إلى سكرتير الدولة لشؤون المستعمرات بتاريخ 25/11/1937م قال فيها: »إنه لن يسمح بدخول الوفد الهندي إذا قرر زيارة فلسطين«(2).

---

(1) جريدة الأهرام بتاريخ 19/10/1937م و14 شعبان 1356هـ، عدد 19073، ص.7.

(2) أرشيف وزارة المستعمرات، ملف رقم CO

733/333/7515/32. برقية من O.A.G إلى سكرتير الدولة البريطانية، بتاريخ 25/11/1937م.

(1/6305)

ووصلت رسائل إلى حاكم الهند من زعماء هنود مسلمون احتجوا فيها على التقسيم على السياسة البريطانية في فلسطين. وكان أهمها رسالة بعثها مولانا شوكت علي إلى السكرتير الخاص لحاكم الهند المستر لايثويت (Mr. Laithwaite) بتاريخ 10/10/1937م قال فيها: »إنني أكتب إليكم بناء على طلب الأعضاء المسلمين في المجلس التشريعي، حيث طلبوا مني أن أقدم البيان المرفق الذي صدر عنهم بالنسبة للمسألة الفلسطينية. إن هذه القضية تأخذ أبعاداً خطرة وجدية وتقلق المسلمين الهنود، وإنه لمن الواضح أن الحكومة البريطانية سلمت إلى يهود

(1/6306)

العالم، وليس من العدل والحكمة أن تهمل ملايين المسلمين لمصلحة اليهود الغرباء«(1). وحذر شوكت علي

أنه إذا استمر الوضع في فلسطين، فإنه من الصعب السيطرة على الأمور في الهند، وذكروا أن هناك كثيراً من التواقيع لمسلمين هنود احتجوا فيها على التقسيم، وقالوا: » يجب حتى عدم التفكير في فكرة التقسيم، لأن المسلمين في العالم سيثورون إذا حصل ذلك«(2)

---

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم /366L/po. من شوكت علي إلى المستر Laithwaite، بتاريخ 1937/10/10م.

(2) أرشيف وزارة المستعمرات، ملف رقم CO 32/75156/333/733. رسالة من شوكت علي إلى Laithwaite بتاريخ 1937/10/10م من سملا بالهند.

(6307/1)

.

وليس مسلمو الهند فقط الذين استنكروا اقتراح التقسيم، بل استنكره أيضا المسلمون في أفغانستان وإيران وكل زعماء العرب. وقد طلب المسلمون في إيران وأفغانستان من سمو آغاجان في الهند أن يوصل احتجاجاتهم إلى بريطانيا(1).

وكان سكرتير الدولة البريطانية لشؤون الهند في

لندن قد أرسل مجموعة برقيات إلى المسؤولين الإنجليز في مختلف المناطق بالخليج العربي يستفسرهم عن شعور المسلمين في الخليج تجاه اقتراح

---

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم /366L/PO. رسالة من آغاجان إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند بتاريخ 1937/10/23م.

(6308/1)

التقسيم(1). فكانت الأجوبة التي تلقاها السكرتير تدل على غضب العرب من اقتراح لجنة بيل بشأن التقسيم.

غضب الإنجليز من المفتي، لأنه حث العالم الإسلامي ضد الاستعمار. لذلك قرروا نفيه وطرده من فلسطين، واعترفوا أنهم لا يستطيعون منافسة نشاطه في العالم الإسلامي(2)

---

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم: /366L/PO. برقية من سكرتير الدولة إلى حاكم الهند بتاريخ 1937/10/1م.

(2) أرشيف وزارة المستعمرات، ملف رقم: CO

733/332/75156/1. **رسالة من شكبرغ**

J.E.Shuckburgh **إلى**

W.D.Battershill **بتاريخ** 4/10/1937**م.**

(6309/1)

. وقد وضع الجنرال ديل خطة للقبض على المفتي، وذلك بمداهمة اللجنة العربية العليا، ولكن المفتي شعر بذلك حين همس حارس البناية في أذن المفتي بتقدم الإنجليز نحو البناية؛ فهرب المفتي من الباب الخلفي للبناية والتجأ للحرم الشريف(1)، ومكث فيه ثلاثة أشهر مختبئًا. وقد احتج المندوب السامي في رسالته إلى سكرتير الدولة البريطانية على المستر فيتزجرالد (Fitz gerald**)**

---

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم L/P and /3350/12S**، وثيقة رقم** 7066P.Z./ **رسالة من هافارد (**Havard**) القنصل البريطاني في بيروت إلى وزارة الخارجية البريطانية.**

(6310/1)

(مدير البوليس)، لأنه فشل في القبض على المفتي في الاجتماع العام للجنة العربية العليا بتاريخ 1937/7/17م مساء السبت. وقال المندوب السامي: « يجب أن يعاقب مدير البوليس، ولن يقبل عذره لأن المفتي نجم في الهرب «(1).

وفي الوقت الذي كان فيه المفتي مختبئاً في الحرم، اغتيل المستر أندروس الحاكم الإنجليزي لمنطقة الجليل في فلسطين بتاريخ

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم L/P and /3350/12S، وثيقة رقم /7066P.Z. رسالة من القنصل الإنجليزي في بيروت إلى وزارة الخارجية البريطانية؛ وانظر أيضا بيان الحوت، القيادات، ص.373.

(6311/1)

1937/9/26م، واتهم الإنجليز المفتي بأنه وراء عملية الاغتيال رغم أنه ملتجئ في الحرم(1). وقد قرر الإنجليز بسبب اغتيال أندروس اعتقال كثير من شيوخ شمال فلسطين في منطقة الحادث، وكذلك جميع أعضاء اللجنة العربية العليا وذلك بتاريخ 1937/9/30م. وتم القبض

على بعض أعضاء اللجنة العربية لأن الباقين كانوا خارج فلسطين. أما الذين اعتقلوا، فتم نفيهم إلى جزيرة سيشل في المحيط الهندي كما جرد الإنجليز مفتي القدس من وظائفه. وأرسل المفتي رسالة إلى ضابط الإدارة الحكومية احتج فيها

---

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم /366L/PO.

(6312/1)

على اعتقال كثير من العلماء في شمال فلسطين بسبب اغتيال أندروس(1).

وبعث الشيخ عبد الرحمن سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين في مصر رسالة إلى السفير البريطاني في الإسكندرية بتاريخ 1937/10/3م احتج فيها على اعتقال القادة الفلسطينيين وطردهم من بلادهم وتجريد المفتي من وظائفه، وهدد قائلا إنه إذا استمرت السياسة البريطانية هذه في فلسطين، فإن الصداقة بين المسلمين في العالم وبريطانيا ستنقطع(2)

---

(1) أرشيف مكتب الهند، رقم /366L/PO. رسالة من حكومة الهند إلى المندوب السامي في فلسطين، بتاريخ

1937/11/17م.

(2) أوراق تشارلز تيجارت محفوظة في جامعة سانت أنطوني في اوكسفورد ببريطانيا.

(6313/1)

.

احتار الإنجليز في الطريقة التي يتم بها اعتقال المفتي: هل يقتحمون الحرم ويكسرون حرمة الأماكن المقدسة ويغتالون المفتي أو يتركونه وشأنه؟ واقترح بعض الإنجليز عدم اعتقال المفتي خوفاً من تفسير المسلمين الهنود بأن الإنجليز أهانوا حرمة المسجد الأقصى(1)، بينما اقترح آخر أثناء المناقشة في وزارة المستعمرات عدم احترام قدسية الحرم الشريف حيث قال الكولونيل Dennys أن الاعتقال يجب أن يتم بواسطة بوليس هندي مسلم، بينما المستر Buss قال إن هذا صعب للغاية(2).

---

(1) بيان الحوت، القيادات، ص.382.

(2) أوراق تشارلز تيجارت.

(6314/1)

ولما علم المفتي بمحاولة اعتقاله عن طريق بوليس هندي، قرر الهرب سراً خوفاً من حصول مجزرة في ساحة الأقصى(1). وقد خرج إلى يافا سراً ثم إلى لبنان حيث طلب من السلطات الفرنسية هناك منحه حق اللجوء السياسي(2).

وعقدت الوزارة البريطانية جلستها رقم 1937/36 بتاريخ 1938/12/8م، وتوصل الوزراء في مناقشاتهم إلى أن الاحتجاجات على التقسيم

(1) جريدة الدفاع، الأحد 2 صفر عام 1357هـ الموافق 1938/4/3م، عدد 1120، انظر تحت عنوان «المسلمون الهنود في فلسطين».

(2) جريدة الدفاع، بتايخ 1938/4/22 الموافق 21 صفر 1357هـ، عدد 1137.

(6315/1)

قد ازدادت لدى المسلمين الهنود. كما ناقشوا بيان رئيس «رابطة عموم مسلمي الهند» الذي صرح به قبل أيام قليلة من جلسة اجتماع أعضاء الوزارة البريطانية، حيث قال المسؤول الهندي إنه إذا لم تذلل

الصعاب في المشكلة الفلسطينية، فإن مستقبل الإمبراطورية البريطانية سيهتز(1).

وقررت »رابطة عموم مسلمي الهند« إرسال وفد مسلم هندي لزيارة الدول الإسلامية وبريطانيا وجنيف، وذلك لشرح موقف المسلمين الهنود من القضية الفلسطينية، وتشكل الوفد من السادة: مولانا عبد الرحمن صديقي رئيساً، وعضوية كل

---

(1) بيان الحوت، القيادات، ص.385.

(6316/1)

من جسرات موهاني شودري وخليف الزمان ومولانا سيد فضل الحسين ورجا أمير أحمد خان(1).

بعد اغتيال الجنرال اندروس في منطقة الجليل، أرسلت حكومة لندن مزيدا في الجنود الإنجليز إلى فلسطين وازدادت الثورة الفلسطينية قوة. عندئذ قررت وزارة المستعمرات البريطانية إرسال ضابط إنجليزي خبير في محاربة الثوار، فوصل إلى فلسطين قادما من الهند الجنرال تيجارت(2)

---

(1) أرشيف مكتب الهند في لندن، ملف رقم /75L/PO.

برقية من حاكم الهند إلى مكتب الهند، بتاريخ 1939/11/10م.

(2) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم 75L/PO/ من اللورد زيتلاند (حكومة الهند) إلى مالكوم وزير المستعمرات بتاريخ 1938/11/23م.

(6317/1)

الذي نظر إلى فلسطين بأنها حديقة صغيرة مقارنة بالهند. فبدأ منذ وصوله فلسطين بناء سور من الأسلاك الشائكة طوله ثمانون كيلو مترا وعرضه ثلاثة أقدام، وزرع على مقربة منه مجموعة من الألغام. وكان قد كلف بناء السور نصف مليون جنيه، وسمي بسور تيجارت. والقصد من بنائه هو منع وصول المتطوعين من الثوار من خارج فلسطين إلى فلسطين، ومنع خروج الثوار المحليين للبلاد المجاورة لطلب المزيد من الأسلحة والمساعدات المالية. ورغم متانة السور، إلا أن الثوار بدأوا في تقطيعه قبل إكماله وباع الثوار أجزاء من السور في دمشق

(6318/1)

وبيروت. وهكذا قدم تيجارت للثورة مورداً مالياً من حيث لا يدري(1).

... وقام تشارلز تيجارت بتسجيل أسماء الثوار وعناوينهم، وذلك لمحاولة القبض عليهم في بيوتهم. وقد تم له جمع قائمة أسماء من الثوار لكل بلد في فلسطين(2). ومن أبرز الثوار: في منطقة الشمال أبو إبراهيم الكبير (خليل العيسى) وأبو إبراهيم الصغير (توفيق الإبراهيم) وأبو علي (سليمان عبد القادر)؛ وفي منطقة الوسط أبو كمال (عبد الرحيم الحاج محمد)

---

(1) الأرشيف والملف نفسه.

(2) الأرشيف نفسه، برقية من حاكم الهند إلى مكتب الهند في لندن، بتاريخ 1938/11/10م.

(6319/1)

القائد العام وأبو فيصل (عارف عبد الرزاق) وأبو علي (حسين سلامه) وعبد القادر الحسيني وعيسى البطاط وغيرهم.

وبسبب ازدياد لهيب الثورة الفلسطينية وغضب العالم الإسلامي على التقسيم، قررت وزارة المستعمرات

البريطانية إرسال لجنة فنية إلى فلسطين لدراسة احتمال نجاح أو فشل التقسيم. ووصلت اللجنة إلى فلسطين بتاريخ 1938/4/27م برئاسة السير جون وودهيد، فقابلها العرب بالمظاهرات الاحتجاجية وقرر زعماء فلسطين مقاطعة اللجنة.

(6320/1)

وكان المسلمون الهنود قد اقترحوا على بريطانيا إرسال محقق هندي مع لجنة وودهيد للوقوف على آراء العرب، فكتب السر سيد سردار علي رسالة إلى جريدة «المانشستر غارديان» (The Manchester Guardian) في لندن كي يطلع عليها زعماء الإنجليز، فقال في رسالته التي نشرتها الجريدة اللندنية ونقلت عنها جريدة الدفاع ما يلي:

... ليس من الضروري تذكير القراء الإنجليز بأن الهند في الهند طائفة كبيرة جداً وهامة جداً... ويلوح لي أن بريطانيا تتظاهر بالهدوء والسكينة في مسألة فلسطين... آمل من الإنجليز أن لا يظنوا في الهند أنها غير

(6321/1)

قلقة على مصير فلسطين. نعم، لا يجوز للإنجليز أن يقعوا في مثل هذا الخطإ، فإننا معشر المسلمين الهنود في قلق شديد على فلسطين وعلى كل ما يجري فيها مما يؤثر أسوأ الأثر على الأخوة الإسلامية، ولكن الوقت لم يفت بعد لتعيين رجل هندي يذهب مع لجنة التحقيق الجديدة الذاهبة إلى فلسطين ويكون هذا الرجل موضع ثقة كصاحب السمو آغا خان الذي يستطيع أن ينظر بإنصاف إلى مطالب المتخاصمين من المسلمين واليهود من وجهة النظر الهندية. وهذه مسألة

(6322/1)

أؤكد لكم أنها مسألة مستعجلة جداً وأنها في غاية الخطورة(1).

في تلك الفترة الحرجة عام 1938م وهي الفترة التي كان الإنجليز يتدارسون فيها احتمال تقسيم فلسطين، أصيبت الهند بفاجعة كبيرة لفقدانها رئيس الحلف الإسلامي السر محمد إقبال الشاعر والفيلسوف والسياسي الهندي، بتاريخ 21/4/1938م، وهو الذي ناصر ودافع عن القضية الفلسطينية طيلة حياته(2)

---

(1) الأرشيف نفسه، ملف رقم /75L/PO رسالة من محمد علي جنه إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند، بتاريخ 1939/1/30م.

(2) جريدة الجهاد، 15 ذي الحجة عام 1357هـ الموافق 1939/2/4م، عدد 10.

(6323/1)

، فكانت وفاته صدمة للشعبين الهندي والفلسطيني. وقبل صدور توصية لجنة » وودهيد«، شكل محمد علي علوبة في القاهرة لجنة برلمانية، ودعا النواب البرلمانيين في الدول العربية والإسلامية لعقد المؤتمر البرلماني العالمي للبلاد العربية والإسلامية. وقد لبى الدعوة ممثلو مجالس النواب في معظم الدول الإسلامية. وقد مثل الهند السادة: عبد الرحمن صديقي (عضو المجلس التشريعي في البنغال) والسيد خليف الزمان (عضو المجلس التشريعي في المقاطعات المتحدة). وعقد المؤتمر البرلماني في القاهرة بتاريخ 1938/10/8م؛ وكان أبرز قراراته

(6324/1)

استنكار التقسيم والتنديد بالمظالم التي يلقاها الشعب الفلسطيني. وقرر المؤتمر إرسال وفد إلى لندن للدفاع عن الحقوق الفلسطينية(1).

وكانت المراسلات مستمرة بين حاكم الهند ووزير الهند في لندن. وكان يذكر له في رسائله سخط وغضب المسلمين من اقتراح لجنة بيل بالنسبة للتقسيم، وكان يوصي دوماً في رسائله ويعطي نصائحه بضرورة إلغاء هذا الاقتراح، لأنه سيؤثر كثيرا على الإنجليز في الهند. ففي برقية بعثها حاكم الهند إلى مكتب (وزارة) الهند في لندن بتاريخ

---

(1) جريدة الجهاد، 17 ذي الحجة عام 1357هـ الموافق 1939/2/6م، عدد 12.

(6325/1)

1938/11/10م، قال فيها: »إن المحمديين (المسلمين) في الهند يشكلون أكبر نسبة محمديين في العالم، وهم دائما يهتمون بالقضية الفلسطينية وإنه من غير المعقول دفن آرائهم وهم أكبر جماعة في الإمبراطورية"(1).

وكان حاكم الهند يذكر في رسائله أن عدد المسلمين

في الهند يبلغ حوالي 90 مليون مسلم تقريباً.

وصدر قرار لجنة وودهيد بتاريخ 1938/11/9م، وأشار إلى الصعوبات الجمة التي ستواجه التقسيم سياسياً واقتصادياً وجغرافياً في حال تطبيقه. وبناء على ذلك،

---

(1) جريدة الجهاد، 27 ذي الحجة عام 1357هـ الموافق 1939/2/16، عدد 21.

(6326/1)

أصدرت الحكومة البريطانية بياناً بالعدول عن التقسيم. وقد اعتبر الثوار العرب أن توصية لجنة وودهيد بعدم التقسيم نصر كبير للثورة الفلسطينية.

ومن الأسباب التي أدت ببريطانيا إلى العدول عن التقسيم هو خوفها من حدوث ثورة إسلامية كبرى في جميع مستعمراتها، يكون على رأس هذه الثورة المسلمون الهنود.

مؤتمر المائدة المستديرة بشأن فلسطين في لندن عام 1939م

بعد أن أصدرت وزارة المستعمرات البريطانية بياناً بالعدول عن التقسيم، أصدرت بياناً آخر بضرورة عقد

مؤتمر في لندن لبحث المسألة الفلسطينية من جميع جوانبها وأن

(6327/1)

تتفاوض بريطانيا مع العرب واليهود حول مائدة مستديرة. وافق الفلسطينيون على حضور المؤتمر، ولكن بشرط أن لا يجلسوا مع اليهود، كما وافقت الدول العربية على حضور المائدة المستديرة أيضا واشترطت لحضورها عدم الجلوس مع اليهود على طاولة معا. وبارك المسلمون هذه الخطوة بعد أن أكثروا رسائل الاحتجاج ضد السياسة البريطانية حول توطين اليهود في فلسطين لأنها بلد إسلامي(1).

---

(1) جريدة الجهاد، 10 صفر عام 1358هـ الموافق آذار عام 1939م، عدد 58.

(6328/1)

وفي رسالة بعثها اللورد زيتلاند (Zetland) من حكومة الهند إلى وزير المستعمرات مالكوم ماكدونالد (Malcom Mac Donald) بتاريخ 1938/11/23م شرح

فيها شعور المسلمين في الهند حول تقرير لجنة وودهير ومذكرة الحكومة البريطانية وتأثير ذلك على مسلمي الهند، فقال في رسالته: » إن الصحافة هنا لا تحبذ التقسيم، وإنما تفضل عقد مؤتمر المائدة المستديرة، كما ترغب الصحف في عدم اشتراك اليهود في المؤتمر وضرورة إعطاء العرب الحرية في اختيار مندوبيهم، كما انتقدت الصحف رفض الإنجليز اشتراك مفتي القدس في المؤتمر «(1)

---

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم /75L/PO رسالة من آغاخان إلى حاكم الهند، بتاريخ 3/4/1939م.

(6329/1)

. ونصح محمد علي جنه –» رئيس رابطة عموم مسلمي الهند«– زعماء العرب الاشتراك في مؤتمر المائدة المستديرة ومباحثاتها(1).

واقترح حاكم الهند على وزير المستعمرات ضرورة قبول وفد هندي مسلم للمشاركة في مباحثات مؤتمر المائدة المستديرة بشأن فلسطين في لندن، وذلك لأن المسلمين في الهند أكبر نسبة » محمديين « في العالم(2).

---

(1) جريدة الجهاد، 8 ربيع أول عام 1358هـ الموافق 1939/4/28م، عدد 83.

(2) جريدة الجهاد، 4 ربيع أول عام 1358هـ الموافق 1939/4/24م، عدد 79.

(6330/1)

وقبل انعقاد جلسات المؤتمر، رفع رئيس » رابطة عموم مسلمي الهند «كتاباً بتاريخ 1939/1/30م إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند قال فيه: » إن » عصبة عموم مسلمي الهند « تحث حكومة جلالته على إعطاء الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وتطلب العصبة أن يحضر ممثلون عنها المؤتمر. إن المسلمين في الهند ينتظرون بفارغ الصبر نتائج المؤتمر. إن فشل المؤتمر سيكون وبالاً ومصيبة كبرى على جميع المسلمين في العالم وسينتج عن ذلك عواقب وخيمة «(1). ونستنتج من هذه الرسالة التهديد الإسلامي الهندي

---

(1) أكرم زعيتر، القضية الفلسطينية، ص.140.

(6331/1)

للإنجليز في حال فشل مؤتمر المائدة المستديرة وعدم إعطاء الحقوق الكاملة للشعب الفلسطيني.

وكانت الزيارات متبادلة بين الوفود العربية قبل افتتاح المؤتمر الذي تم انعقاده في 1939/2/7م. ودعا الوفد الهندي الوفود العربية لتناول الطعام في فندق كلاردج في لندن تكريماً لهم، وكذلك للتشاور فيما بينهم حول اتخاذ موقف موحد في المؤتمر. وكان الوفد الهندي غير الرسمي مكوناً من السادة: عبد الرحمن صديقي (عضو المجلس التشريعي في البنغال)؛ خليق الزمان (عضو المجلس التشريعي في المقاطعات المتحدة)(1)

---

(1) بيان الحوت، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية 1918–1939م، من أوراق أكرم زعيتر، وثيقة رقم 15، ص.648.

(6332/1)

. وطلب الوفد الهندي من الحكومة البريطانية موافقتها على المشاركة في جلسات مؤتمر المائدة المستديرة إلى جانب الوفود العربية(1). إلا أن الحكومة البريطانية اعتذرت عن ذلك عندئذ رفع الوفد الهندي مذكرة باسم

رابطة جميع مسلمي

الهند إلى وزير الهند في لندن عن آراء المسلمين الهنود بشأن فلسطين. وتقع المذكرة في ثماني صفحات من الحجم المتوسط، وزعت نسخ منها على أعضاء مجلس البرلمان البريطاني (مجلس اللوردات ومجلس العموم)، ورؤساء وأعضاء الوفود العربية في لندن، كما وزعت نسخ أخرى على عدد كبير من أنصار

---

(1) المصدر نفسه.

(6333/1)

القضية العربية. وتناولت هذه المذكرة تاريخ القضية الفلسطينية منذ بدايتها، وذكرت بالتفصيل جميع الوثائق والمذاكرات التي اعترف فيها الإنجليز باستقلال فلسطين. وأهم هذه الوثائق مراسلات حسين – مكماهون، والتصريح البريطاني الفرنسي الذي أعلن للزعماء العرب السبعة في القاهرة، والبيان الإنجليزي الذي أعلنه الجنرال اللنبي، وغيرها من الوثائق.

وذكرت الوثيقة الهندية أنه بعد دراسة كل هذه الوثائق السالفة الذكر المتعلقة بفلسطين والبلاد

العربية، تميل »رابطة عموم مسلمي الهند« إلى الاعتقاد بأن الوعود التي قدمت إلى

(6334/1)

المسلمين لم تلق العناية الجدية التي تستحقها وأن الإنجليز خالفوا كل الوعود المقطوعة للعرب. وأضافت المذكرة أن حاكم الهند اعترف للمسلمين الهنود في بداية الحرب العالمية الأولى أن الأماكن المقدسة الإسلامية في بلاد العرب ستبقى تحت السيادة الإسلامية وسوف يتم المحافظة عليها من كل اعتداء. وأضافت الوثيقة أنه »بناء على هذه التصريحات التي أيدها رؤساء حكومتي الهند وبريطانيا العظمى، انضم المسلمون إلى صفوف قوات حكومة جلالة ملك بريطانيا بمئات الألوف وحاربوا في كل جبهة من جبهات الحرب العظمى«(1)

---

(1) جريدة الجهاد، 1939/7/25م الموافق 16 جمادى الأول عام 1358هـ، عدد 131.

(6335/1)

.

بدأ مؤتمر المائدة المستديرة جلساته بتاريخ 1939/2/7 وانتهى في 1939/2/17م، وألقى الأستاذ جمال الحسيني رئيس الوفد الفلسطيني خطاباً حدد فيه المطالب الفلسطينية.

وغادر الوفد الهندي لندن غاضباً وذهب يشكو الإنجليز إلى عصبة الأمم في جنيف. وهناك شرح الوفد الهندي (عبد الرحمن صديقي وخليق الزمان) إلى سكرتير عصبة الأمم موقف المسلمين الهنود، وقد أكدا له أن الإسلام لا يمكن أن يستقر في فلسطين ما لم تتحقق رغبات العرب في استقلال بلادهم وحريتها. كما أطلعاه على رأي المسلمين الهنود النهائي من قضية فلسطين، وأكدا له

(6336/1)

أن مسلمي الهند لا يوافقون على أي حل يطبق على فلسطين لا يكون ضامنا لحقوق إخوانهم العرب، وقالا: »إن فلسطين ليست للفلسطينيين وحدهم وإنما هي ملك لكافة العرب والمسلمين. ولذلك، فإن العالمين العربي والإسلامي عامة ومسلمي الهند خاصة يراقبون باهتمام زائد تطورات الموقف في قضية فلسطين والذي ستحل على أساسه«.

والحقيقة أن الإنجليز اعترفوا أثناء مفاوضاتهم في مؤتمر المائدة المستديرة إعطاء الشعب الفلسطيني استقلاله ولكن بعد عشر سنوات، ولكنهم اشترطوا أن يكون ذلك مرهونا بموافقة اليهود. وفي نفس الوقت حاولت الحكومة

(6337/1)

البريطانية أن توسط بعض زعماء الهنود لإقناع العرب بقبول مفاوضات مؤتمر المائدة المستديرة. ففي رسالة من آغا خان إلى حاكم الهند بتاريخ 1939/4/3م، قال فيها إن الحكومة البريطانية دعته إلى لندن لبحث شؤون فلسطين، فوافق وذهب إلى لندن، واجتمع هناك بزعماء العرب وحاول إقناعهم بخطة بريطانيا، ولكن العرب رفضوا لسببين هما: الهجرة الصهيونية، والاستقلال بعد عشر سنوات. واقترح آغاخان على الإنجليز أن يسافر إلى مصر لمقابلة رئيس الوزراء المصري والتباحث معه لإقناع المفتي بقبول هذه النقاط، وقد حبَّذت الحكومة البريطانية

(6338/1)

اقتراح آغاخان.

ثم سافر الوفد الهندي إلى دمشق ثم إلى بلاده. وعندما كان الوفد الهندي في دمشق، عرج على بيروت لزيارة مفتي القدس. وقد انضم للوفد الأستاذ الأنصاري، حيث رحب بهم المفتي وشكرهم على ما قاموا به من دفاع عن قضية فلسطين في لندن وجنيف والهند.

وفي هذه الفترة، توفي مولانا محمد عرفان رئيس صحيفة »خلافت« اليومية سكرتير جمعية الخلافة التي أسسها المرحوم مولانا شوكت علي. ومن المعروف أن الفقيد حضر مؤتمر الدفاع عن فلسطين وكان مندوبا عن حزب الكتلة الإسلامية (Muslim League)؛ وللفقيد خدمات جليلة في سبيل

(6339/1)

القضية الفلسطينية.

وفي تلك الفترة أصبح العالم على شفا حفرة من الحرب العالمية الثانية عندما بدأ هتلر تهديداته لجيرانه. عندئذ أرادت بريطانيا استرضاء العالم الإسلامي والعربي. فأصدرت الكتاب الأبيض بشأن فلسطين. والحقيقة أن إصدار الكتاب الأبيض كان القصد منه أن لا يشترك العرب والمسلمون

مع هتلر في الحرب العالمية الثانية ضد بريطانيا.

صدر الكتاب الأبيض في 1939/5/27م، وصرح الإنجليز أنهم سوف ينفذون بنود الكتاب الأبيض بالقوة سواء قبل به العرب أو رفضوه وسواء عارضه اليهود أو وافقوا عليه. وأهم ما جاء في الكتاب

(6340/1)

الأبيض من بنود ما يلي:

1- أن تصبح فلسطين دولة مستقلة بعد فترة انتقال مدتها عشر سنوات وأن يوضع دستور لفلسطين.

2- يسمح بالهجرة في أول خمس سنوات، فيسمح بدخول 75 ألف مهاجر يهودي في هذه الفترة ثم تتوقف الهجرة اليهودية نهائيا، وتصبح الهجرة مرهونة بموافقة العرب.

3- يمنع انتقال الأراضي العربية إلى اليهود خوفاً من إلحاق الضرر بالاقتصاد العربي، ويسمح لليهود بشراء أراض في أماكن مختلفة محددة في فلسطين، وتوضع قيود على انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود في بعض المناطق الأخرى.

(6341/1)

رفض الفلسطينيون الكتاب الأبيض، لأنه لم يحقق المطالب الفلسطينية التي تدعو إلى تشكيل جمهورية فلسطينية خلال ثلاث سنوات كحد أقصى، وكذلك لأن الكتاب الأبيض يقوم على صك الانتداب، وأن الدولة الفلسطينية مرهون قيامها بالوفاق العربي اليهودي.

احتج الشيخ عبد الحميد سعيد (رئيس اللجنة العليا المصرية للدفاع عن فلسطين والرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمون) على الكتاب الأبيض، حيث أرسل برقيتين بتاريخ 1939/5/22م: الأولى إلى الحكومة البريطانية، والثانية إلى العصبة الإسلامية في الهند، احتجاجاً على الكتاب الأبيض.

(6342/1)

فقال في برقيته إلى الحكومة البريطانية: » كتابكم الأبيض عن سياستكم بفلسطين خيب آمال العرب والمسلمين كافة في إمكان التحالف مع بريطانيا. إن هياج اليهود اليوم جاء نتيجة تدليلكم ومحاباتكم لهم طوال العشرين سنة الماضية، وتذبذب السياسة البريطانية

في الاعتراف بعروبة فلسطين يقطع الأمل في وقوف العالم الإسلامي إلى جانب بريطانيا في الأزمات المقبلة، وكل من يقول لكم عكس هذا يضلل الشعب البريطاني وحكومته «.

وأما برقية الشيخ عبد الحميد سعيد إلى العصبة الإسلامية في الهند، فطالبت بالدعم الإسلامي الهندي لفلسطين.

(6343/1)

وهذا هو نص البرقية: » استنكرنا تلغرافياً سياسة بريطانيا في كتابها الأبيض بشأن فلسطين، لأنها أبقت باب الهجرة اليهودية مفتوحاً، ولم تمنع انتقال الأراضي إلى اليهود، واشترطت لتشكيل الحكومة الفلسطينية المقبلة شروطا فرضت فيها لنفسها حرية التصرف وقضت بالنص صراحة على صبغة فلسطين الإسلامية ولا يزال الجيش البريطاني ينكل ويمثل بالمسلمين إلى اليوم. فندعوكم باسم الإسلام إلى الاحتجاج «.

وهكذا كانت المكاتبات المستمرة بين المسلمين لاستنصار بعضهم بعضاً، وكان المسلمون في الهند يؤيدون الحقوق المشروعة للشعب

(6344/1)

الفلسطيني. لذلك عقد المسلمون في بومباي بالهند ثلاثة مؤتمرات إسلامية لثلاث هيئات سياسية كبرى في الهند. وتناول البحث في هذه المؤتمرات الثلاث قضية فلسطين، وموقف المسلمين الهنود من الكتاب الأبيض. وقد تقرر في هذه المؤتمرات الثلاث بالإجماع ما يلي:

» 1– إعلان عطف مسلمي الهند العام على إخوانهم عرب فلسطين وتأييدهم في مطالبهم.

2– الاحتجاج على السياسة الحالية الموجودة في فلسطين.

3– الاعتراف بأن مقترحات الكتاب الأبيض معناه الاعتداء الصريح على حقوق العرب ونقض للعهود والمواثيق التي أعطيت لهم.

(6345/1)

4– محاولة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين معناها الاستهتار بشعور مسلمي الكرة الأرضية.

5– مطالبة السلطات المسؤولة بإجابة أماني عرب فلسطين «.

الخاتمة

نستنتج مما تقدم أن المسلمين الهنود كانوا يدافعون عن المسجد الأقصى الموجود في فلسطين دائما، وكانوا يقفون بجانب الشعب الفلسطيني في كل مؤتمر هندي أو عالمي. كما نستنتج مما تقدم أيضا أن الإنجليز كانوا قبل اتخاذ أي قرار بشأن مصير فلسطين أو بشأن زعماء فلسطين يحسبون ألف حساب للتأثير الإسلامي الهندي. وكان الإنجليز يعلمون أنه إذا غضب المسلمون الهنود بشأن

(6346/1)

فلسطين، فإن الشجرة البريطانية ستهتز؛ وإذا اهتزت، فإنهم لن يستطيعوا النوم الهادئ.

كان تأثير الإضراب واضحا على المسلمين في شبه القارة الهندية. فقد وقفوا مع إخوانهم في فلسطين موقفا مشرفا فدعموهم بالكلمة الهادفة في الجرائد الإسلامية في الهند، ودعموهم ماديا لإسعاف الجرحى والعائلات الثكلى نتيجة الثورة الفلسطينية. ودافعوا بقوة أمام المحافل الإنجليزية عن الحقوق الفلسطينية والأماكن المقدسة وضرورة صيانتها واحترام قدسيتها. إن النداء

الإسلامي في الهند بأن المسجد الأقصى ليس للفلسطينيين فقط بل هو لكافة

(6347/1)

المسلمين في العالم، كان نداء واضحا وصل لمسامع الإنجليز. لذا تأكدوا أنه مهما بعدت المسافات بين أقطار العالم الإسلامي، فإن الرابطة الدينية تجمعهم للدفاع عن الأماكن المقدسة.

لقد حاولت الدعايات الصهيونية المضللة أن تصل إلى مسامع المسلمين في الهند، ولكنها كانت تواجه دعايات أشد من قبل زعماء الهند المسلمين. فالحرب الدعائية الصهيونية لم تكن ناجحة في الهند. فلم يستطع الكاتب الصهيوني تغطية الشمس بالغربال. إن المسلم الهندي الذي يقدم روحه فداء للدفاع عن المقدسات الإسلامية كغيره من المسلمين في العالم. ولو

(6348/1)

لم تمنع بريطانيا المسلمين الهنود المتطوعين لوصل إلى فلسطين عشرات الآلاف للدفاع عن فلسطين، ولكن

بريطانيا منعت الهنود من الذهاب لفلسطين في تلك الفترة.

المصادر والمراجع

الأرشيفات

أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية (PRO)، لندن.
أرشيف وزارة الخارجية البريطانية (FO)، لندن.
أرشيف مكتب الهند (L/P and S)، لندن.
أرشيف جمعية الدراسات العربية –القدس، والجرائد العربية.

الكتب بالعربية

1– بيهم، محمود جميل. –فلسطين أندلس الشرق، بيروت، 1946.

(1/6349)

2– جبارة، تيسير. –وثائق فلسطينية في دور الأرشيف البريطانية، مركز الأبحاث، جامعة الخليل، 1986م.

3- حسين، محمد عبد الرحمن. -العرب واليهود في الماضي والحاضر والمستقبل، دار المعارف، الإسكندرية، بدون تاريخ النشر.

4- الحسيني، محمد أمين. -حقائق عن قضية فلسطين، المطبعة السلفية مصر 1954م.

5- الحوت، بيان. -القيادات والمؤسسات في فلسطين، دار الأسوار، عكا، 1984م.

6- الخالدي، حسين فخري. -مذكرات، محفوظة لدى ابنته في بيروت.

7- دروزة، محمد عزة. -حول الحركة العربية الحديثة، المطبعة العصرية، صيدا، لبنان، 1951م.

(6350/1)

8- الزركلي، خير الدين. -شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز.

9- زعيتر، أكرم. -وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية (1918م-1939م)، إعداد بيان الحوت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، بيروت.

10 --. -القضية الفلسطينية، دار المعارف، مصر، 1955.

11- سعيد، أمين. -تاريخ الدولة السعودية، عهد الملك

عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل (1319–1373هـ).
المجلد الثاني، دار الكتاب العربي.
12– سعيد، محمد علي. –بريطانيا وابن سعود، العلاقات السياسية وتأثيرها على المشكلة الفلسطينية، دار الجزيرة للنشر، 1982م.

(1/6351)

13– صدقة، نجيب. –قضية فلسطين، دار الكتاب، بيروت، 1946م.
14– طربين، أحمد. –الوحدة العربية (1916–1945م)، القاهرة، جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية العليا، 1959م.
15 ––. –فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار (1939–1947م)، القاهرة، جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، 1972م.
16– عبد الهادي، مهدي. –المسألة الفلسطينية، منشورات المكتبة العصرية، ط1، صيدا، 1975م.
17– علوش، ناجي. –المقاومة العربية في فلسطين (1917–1948م)، مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت، 1967م.

(6352/1)

18- الغوري، إميل. -فلسطين عبر ستين عاماً، دار النهار، بيروت، 1975م.

19- قاسمية، خيرية. -مذكرات القاوقجي. دار القدس، بيروت، 1975م.

20- الكيالي، عبد الوهاب. -وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني الصهيوني (1918-1939م)، مركز الأبحاث الفلسطيني، 1969م.

المراجع باللغة الإنجليزية:

1- Abu Lughud, Ibrahim, The Transformation of Palestine, Northwestern Univ. Press, Ebanston, 1971, Collection of Essays by Scholars.

(6353/1)

2- Bentwich, Norman and Helen, Manadate Memories 1918-1948, The Hogarth Press, London, 1965.

Furlonge Sir Geoffrey Warren, Palestine is –3
my country, the Story of Musa Al-Alami, John
.1969Murry, London,

Hyamson, Albert, Palestine Under the –4
, Green-wood Press 48–1920Manadate
.1976Publishers Port, Conn,

Jeffries, J.M.N., Palestine, the Reality, –5
.1939Longmans Green and co., London

Jbara, Taysir, Hajj Muhammad Amin Al- –6
Husayni, Mufti of Jerusalem, The Kingston
Press, Inc. Princeton, New

(6354/1)

.1985Jersey,

Kish, F.H., Palestine Diary, Victor Gollancz –7
., London1938Ltd,

Porath, Yehushua, The Emergence of the –8
, 1939–1918Palestine National Movement,
.Trank Cass and Co Ltd

. 1939–1915Great Britian and Palestine - –9
A) The Royal 20Information, Dept No. (
Institute of International Affaires Oxford

, 1852, India Office, T.1939University Press,
.1939–1915Palestine,

(6355/1)

الموقف الإسلامي الهندي من الثورة الفلسطينية

(1939–1936)

الدكتور تيسير

جامعة النجاح الوطنية نابلس (فلسطين)

مقدمة

شهدت فلسطين أطول إضراب في العالم العربي احتجاجا على السياسة الإنجليزية. كانت كثرة الهجرة اليهودية وبيع الأراضي تتغاضى عنها الحكومة الإنجليزية في فلسطين، والهدف من ذلك تطبيق وعد بلفور بإيجاد وطن قومي لليهود في فلسطين. وطبيعي أن لا يسكت الفلسطيني على هذا الظلم، لكنه لا يستطيع وحده أن يرغم بريطانيا على تغيير سياستها. لذا نادى الفلسطيني بضرورة الدفاع عن المقدسات الإسلامية والمسيحية وأن

(6356/1)

المسجد الأقصى بحاجة إلى الدفاع عنه. وقد وصل هذا النداء إلى العالم الإسلامي وخصوصا الهند. ومن المعروف أن المسلمين في شبه القارة الهندية أكثر عددا من كل قطر من أقطار العالم الإسلامي. والهند هي درة التاج البريطاني. لذا فالتأثير عليها من قبل الثورة الفلسطينية سيكون مؤثرا على وضع الإنجليز هناك وهذا التأثير سيأتي من المسلمين قاطبة في شبه القارة الهندية. لذا دعم المسلمون الهنود إخوانهم في الدين في فلسطين في ثورتهم ضد الإنجليز والصهيونية. ولم تستطع بريطانيا التغاضي عن هذا الدعم فحاولت إيقافه وحاولت

(1/6357)

وقف الإضراب الفلسطيني بشتى الطرق إلى أن تم لها ذلك ولكن بعد جهود مضنية.

إن دوافع هذه الدراسة كانت لعدة أسباب، منها أن هذا التاريخ من الدعم الهندي الفلسطيني لم يتطرق إليه أحد من المؤرخين. لذا واجب علينا أن نبين ونكشف هذه الحقائق المدفونة في دور الأرشيف المختلفة في

بريطانيا وخارجها، كما أن هذا العدد الهائل من المسلمين في شبه القارة الهندية لم يعرف عنه العرب كثيرا. ففيهم العالم والمجاهد والطبيب والغني والأديب وكل هذه الطاقات كانت في خدمة فلسطين أثناء الإضراب.

(1/6358)

موقف المسلمين الهنود من الثورة الفلسطينية (1936–1939م)

تعتبر هذه الفترة التاريخية من تاريخ فلسطين عام 1936م حافلة بالأحداث الجسام، منها الإضراب الفلسطيني ومحاولة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود. وفي الإضراب الفلسطيني الطويل، عبر الفلسطينيون عن ظلمهم ونقمتهم. لذا ثار الشعب بسبب عدم وقف الهجرة اليهودية المتزايدة لفلسطين وبيوع الأراضي، ويعتبر هذا الإضراب أطول فترة تحد للإنجليز شهدته فلسطين ولم يشهد الإنجليز مثيلاً له في العالم العربي. ومن أهم الأسباب التي دعت إلى الإضراب هي:

(1/6359)

1– الهجرة اليهودية الكثيفة حيث دخل فلسطين في الفترة التي سبقت الإضراب، أي من 1931 إلى 1935م، مهاجرون يهود أكثر مما دخلها خلال خمسين سنة مضت، وهؤلاء المهاجرون كانوا بحاجة إلى أراض يقفون عليها. لذا قام زعماء الصهاينة بشراء أراض على الساحل الفلسطيني من لبنانيين وسوريين إقطاعيين لهم أراض واسعة في فلسطين.

2– استشهاد الشيخ عز الدين القسام عام 1935م. وقد كان هذا أول من قام علناً وتصدى للإنجليز بسبب السياسة الجائرة في فلسطين. وبعد استشهاده، استمرت العمليات العسكرية ضد الإنجليز من » إخوان القسام« مثل

(6360/1)

الشيخ فرحان السعدي الذي تصدى لقافلة إنجليزية كانت تسير لحماية بعض المستوطنين اليهود، على الطريق بين نابلس وطولكرم قرب عنبتا بتاريخ 14/4/1936م(1). وما أن سمع اليهود في تل أبيب بالخبر حتى قاموا بالانتقام

واعتدوا على السكان في يافا فاستشهد سبعة من العرب وجرح آخرون في حي المنشية في يافا(2).وفي 1936/4/19م، وهو اليوم الأول للإضراب، قام سكان يافا –الملاصقة لتل أبيب–

---

(1) صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين 1936–1939م، مطبعة دار الهنا، 1959. ص.30.

(2) أميل الغوري، فلسطين عبر ستين عاماً، ص. 57 .

(6361/1)

بمظاهرة ضد الإنجليز واليهود بسبب هذه الأحداث وتأزم الوضع في يافا وتل أبيب، فأعلن المندوب السامي منع التجول على اليهود وعلى العرب في يافا(1). وفي اليوم التالي، أي في 1936/4/20م، وقف سكان نابلس مع إخوانهم في يافا فأعلنوا الإضراب المفتوح احتجاجاً على السياسة الإنجليزية في فلسطين وحتى ينال الفلسطينيون حقوقهم المشروعة. وتشكلت في نابلس أول لجنة للإشراف على الإضراب، وفي اليوم التالي تشكلت لجنة قومية في يافا دعت إلى الإضراب المفتوح تأييدا لما

---

(1) عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، صص. 302–303.

(1/6362)

أعلنته نابلس، وفي الأيام التالية تشكلت لجان قومية في المدن والقرى الفلسطينية بلغت 22 لجنة قومية. اجتمع رؤساء الأحزاب السياسية في فلسطين في 25/4/1936م تلبية لنداء اللجان القومية، وقرروا تشكيل » اللجنة العربية العليا« للإشراف على الإضراب العام. وكانت اللجنة مكونة من السادة: الحاج أحمد الحسيني (رئيسا)؛ وعوني عبد الهادي (رئيس حزب الاستقلال) سكرتيرا؛ وجمال الحسيني (رئيس الحزب العربي)؛ وحسين فخري الخالدي (رئيس حزب الإصلاح)؛ ويعقوب الغصين (رئيس حزب الكتلة الوطنية)؛ وأحمد حلمي عبد الباقي (أمين المال)؛

(1/6363)

وألفرد روك (عن المسيحيين الكاثوليك)؛ ويعقوب فراج (عن المسيحيين الأرثوذكس). وقد قرر رؤساء الأحزاب

السياسية في اجتماعهم عدم وقف الإضراب إلا إذا تحققت مطالب الشعب الفلسطيني وتتلخص في ما يلي:

1- وقف الهجرة اليهودية وعدم بيع الأراضي؛ 2- الاستقلال التام لفلسطين؛ 3- إلغاء وعد بلفور. وأقسم الأعضاء في اجتماعهم على مواصلة الإضراب حتى تتحقق مطالبهم

العادلة(1).

---

(1) محمد عزة دروزه، حول الحركة العربية الحديثة، ص.125.

(6364/1)

عم الإضراب كل مدن فلسطين حيث تعطلت حركة السير وأقفلت الحوانيت وأصبح الوضع متدهوراً. وقد شرح المندوب السامي في رسالة لوزارة المستعمرات البريطانية بتاريخ 1936/4/29م عن هذا الوضع، وذكر أن الأحوال لن تهدأ إلا إذا تحققت مطالب الشعب الفلسطيني وهي: وقف الهجرة اليهودية ومنع بيع الأراضي العربية لليهود وتشكيل حكومة فلسطينية والاستقلال التام لفلسطين(1).

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ملف رقم Co 733/297/75156 part II./

(6365/1)

أرسل رئيس اللجنة العربية العليا الحاج أمين الحسيني رسائل إلى زعماء العالم الإسلامي شارحاً فيها الوضع في فلسطين، وطالباً منهم تأييد الشعب الفلسطيني في مطالبه العادلة والوقوف لدفع الخطر اليهودي الذي يهدد الأماكن الإسلامية في القدس وأهمها المسجد الأقصى المبارك وقد وقفت المخابرات الإنجليزية للمفتي بالمرصاد فأخذت ترصد حركاته ورسائله خوفا من تأثيرها على الرأي العام الهندي وحصول إضرابات مشابهة في أماكن تخضع للسيطرة الإنجليزية. وقد بعثت لندن إلى حاكم الهند الإنجليزي تسأله عن مدى تأثير الإضراب

(6366/1)

الفلسطيني على المسلمين في الهند، فأجابت حكومة الهند في برقية جوابية بتاريخ 31/5/1936م إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند في لندن قالت فيها: »

إنه حتى هذا اليوم لم يهتم المسلمون الهنود بشؤون فلسطين، لكن الصحافة هنا سوف تحرك الشعور الإسلامي «(1).

وكانت من الرسائل المؤثرة رسالة مفتي القدس لمولانا شوكت علي –رئيس جمعية الخلافة في الهند– حيث قال فيها: » إذا بقي

---

(1) الأرشيف نفسه، ملف رقم CO 3755/p.z.75528/310/733.

انظر برقية رقم 1287 من حكومة الهند إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند، لندن، بتاريخ 1936/5/31م.

(6367/1)

الموقف جامدا من قبل زعماء العالم الإسلامي والعربي تجاه فلسطين، فإن المسلمين سيفقدون فلسطين كما فقد العرب الأندلس «(1). قرر الفلسطينيون عدم دفع الضرائب للحكومة ابتداء من 1936/5/15م، ووقفت كل طبقات الشعب الفلسطيني مع الإضراب، فتوقف عن العمل، مثلا عمال السكك الحديدية وعمال شركة بترول العراق وعمال الموانئ، وطلاب المدارس، والتجار في المدن أغلقوا محلاتهم التجارية، وتضامن الشعب من أجل

(1) عبد الوهاب الكيالي، وثائق المقاومة، وثيقة رقم 185، ص.388، ووثيقة رقم 164. انظر أيضا نجيب صدقة، قضية فلسطين، ص.18.

(1/6368)

إنجاح الإضراب. وقد وصف هذا التكاتف والتضامن المندوب السامي في رسائله لوزارة المستعمرات قائلا: » إن الفلاح رغم فقره إلا أنه يتبرع من محاصيله إلى رفاقه في المدن، وأن العائلة الغنية في المدن تعتني بعائلة أو عائلتين فقيرتين، وأن التاجر يدفع لمستخدميه العاطلين عن العمل أجورهم كاملة أو بقسم منها، وأن الظرف الراهن قد خلق مشاعر أخوية قوية بين المسلمين «(1).

(1) أرشيف وزارة الخارجية البريطانية، ملف رقم CO 20022/733.

(1/6369)

استعمل الإنجليز أساليب قاسية لوقف الإضراب مثل فتح الحوانيت بالقوة وإعدام كل من يمسك بحوزته بندقية والسجن المؤبد لمن يمسك معه طلقة رصاص وتفتيش البيوت أثناء الليل بالقوة. وقد احتج الفلسطينيون على هذه التصرفات فشكا علماء ومشايخ القدس إلى المندوب السامي أثناء اجتماعهم معه، حيث قال الشيخ إسماعيل الحافظ للمندوب السامي: » إن الجنود الإنكَليز قاموا – بحجة التفتيش عن الأسلحة – بمداهمة البيوت ليلا لإرهاب الأهالي، فدخلوا بيوت العرب في حي باب حطه في القدس ليلا، حيث ما زالت النساء ترتدين ملابس النوم ولم

(6370/1)

يسمح لهن بتغطية أنفسهن، كما أن الإنجليز رموا القرآن الكريم وداسوا عليه بأرجلهم بقصد إهانة المسلمين «(1).

أعلن رئيس اللجنة العربية الجهاد ضد الإنجليز علناً وطلب من الوعاظ والشيوخ إعلان الجهاد، وأرسل لزعماء العالم الإسلامي رسائل حثهم فيها على الجهاد والدفاع عن المقدسات الإسلامية فقال في رسائله: » إن الصهاينة سوف يهدمون المسجد الأقصى المبارك ويقيمون بدلا منه هيكل سليمان «(2)

(1) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ملف رقم.
.602/ part II. Disp. No: 75528/310/733CO

(2) الأرشيف نفسه، ملف رقم 75591/321/733CO/.
انظر رسالة من جورمان إلى باركنسون بتاريخ
1936/7/5م.

(6371/1)

. واستند في كلامه هذا إلى تصريحات زعماء الصهاينة في الجرائد اليهودية.

رغم بعد المسافة عن فلسطين ورغم محاولات الإنجليز خنق أخبار الإضراب كي لا يعلم عنها المسلمون في الهند، إلا أن مولانا شوكت علي رئيس جمعية الخلافة قد وصلته أنباء الإضراب وكفاح الشعب الفلسطيني، لذا حث إخوانه المسلمين هناك على نصرة إخوانهم في فلسطين فكتب في جريدة Roznama-e-Khilafat بتاريخ 1936/5/17م قائلا: »إن العرب في فلسطين يكافحون بشجاعة لنيل استقلال بلدهم –البلاد المقدسة– إنني أحث مسلمي بومبي على أن لا يضيعوا وقتهم بل يسرعوا

(6372/1)

لمساعدة إخوانهم الشعب ا لفلسطيني «(1).

وقد كتب M.G. Hallet: »من حكومة الهند في سملا إلى وزارة الهند في لندن بتاريخ 1936/5/28م رسالة ذكر فيها أن الزعيم الهندي المسلم شوكت علي سيكون أول من يبادر بتحريك شعور المسلمين في الهند ولكن ستبقى عيوننا تراقبه وتراقب جرائد بومبي «(2).

---

(1) الأرشيف نفسه، ملف رقم CO

./part III75528/310/733

From: M.G. Hallet (Government of India, Simla,). To: R.T. Peel. India Office, 1936th May, 28 .London

رسالة من حكومة الهند في سملا إلى وزارة الهند في لندن.

(2) المصدر نفسه.

(6373/1)

والحقيقة أن مقالات شوكت علي في الجرائد الهندية أيقظت الشعور الإسلامي وعرفته على قضية فلسطين والإضراب في البلاد المقدسة. وفي مقال له بتاريخ

1936/5/21م، اتهم بريطانيا بعدم احترامها للعهود ونقضها للعهود. فقال: » إن بريطانيا العظمى أعطتنا – نحن المسلمين الهنود – وعدا كما أعطت مسلمي فلسطين وعدا كذلك بعدم التعدي على الأراضي المقدسة وسكانها في فلسطين، ولكن لماذا تحدث مثل هذه الحوادث الآن في فلسطين؟ أين وعود بريطانيا للعرب؟ لم تُمنح هذه الوعود بسبب ضغط اليهود على الإنجليز. إنني أرى أنه رغم جهودنا

(6374/1)

الحسنة مع الإنجليز، إلا أن العلاقات الإنجليزية الإسلامية سوف تسير من سيئ إلى أسوأ بسبب السياسة الإنجليزية الحالة في فلسطين «(1).

اطلع الإنجليز في الهند على هذا المقال، فكتبت حكومة الهند في سملا إلى وزارة الهند في لندن حول هذا المقال فقالت: » إن عيوننا ستبقى تراقب شوكت علي، وإن مقاله الحالي شجع على الوحدة الإسلامية، ولكن سنقوم بدعاية مضادة، وواضح أن الدعاية المضادة ليست سهلة، ولكن سنحاول قدر الإمكان بجهودنا «(2)

---

(1) المصدر نفسه.

(2) أرشيف مكتب الهند في لندن، ملف رقم L/P and /3347/12S.

انظر وثيقة رقم 3899p.z. من حكومة الهند في سملا إلى المستر بيل (Peel) بتاريخ 1936/5/28م.

(6375/1)

.

حاول المندوب السامي في فلسطين تهدئة الوضع فيها، وطلب من اللجنة العربية العليا فك الإضراب، وقبول مقابلة اللجنة الملكية التي سيبعثها وزير المستعمرات لدراسة الأوضاع السياسية في فلسطين ودراسة أسباب الإضراب، رفض زعماء فلسطين طلب المندوب السامي، فاتبع سياسة القمع بشدة والاعتقالات الجماعية ونسف البيوت ونسف دور اللجان القومية، ونصح وزارة المستعمرات في رسالته المؤرخة في 1936/5/18م ضرورة نفس زعماء فلسطين إلى قبرص أو مالطا، فجاء جواب وزير المستعمرات أنه إذا ساءت الأحوال في فلسطين فلا مانع من نفيهم إلى

(6376/1)

جبل طارق(1).

وبعد مضي شهر على الإضراب، ازدادت الانتقادات في الصحف الهندية ضد سياسة الإنجليز في فلسطين. وهذا يعود إلى نشاط مولانا شوكت علي في مقالاته في » روزنامة الخلافة« واعترف الإنجليز بذلك كما أن زعيم الهند نهرو وهو غير مسلم، تعاطف مع الشعب الفلسطيني في كفاحه ضد الإنجليز، وقام بالتحضير لعقد اجتماع في مدينة » الله أباد« ضد السياسة البريطانية في

(1) أرشيف وزارة المستعمرات، ملف رقم CO 6/75528/311/733.

انظر رسالة من المندوب السامي إلى سكرتير الدولة لشؤون المستعمرات بتاريخ 1936/5/18م.

(6377/1)

فلسطين(1).

وعقدت » جمعية عموم مسلمي الهند« اجتماعاً بتاريخ 1936/6/9م بشأن الدعم الإسلامي الهندي لفلسطين، وفي الاجتماع حذر المسلمون الهنود الحكومة

البريطانية من استمرار الدعم اليهودي، وأن سياستهم هذه تواجه سخطاً شديدا من مسلمي الهند. واتخذت الجمعية في الاجتماع قرارات هامة منها: اعتبار يوم 6/9/ من كل عام

---

(1) الأرشيف نفسه، ملف رقم 13/312/733CO.

انظر رسالة Ian Stephens من دائرة المعلومات العامة –سملا– الهند إلى R.A. Vernes (المسؤول الصحفي– القدس) بتاريخ 1936/6/4م. وجاء جواب هذه الرسالة في 1936/7/7م.

(6378/1)

هو » يوم فلسطين « حيث تعطل فيه المدارس والمؤسسات الإسلامية في الهند دعماً لفلسطين، وقرارات أخرى. وتشكلت لجنة في الاجتماع لتطبيق بنود القرارات مكونة من السادة: محمد إقبال (شاعر الهند)، وكفاية الله، وظفر علي خان، وشوكت علي، وشمس العلماء نهر الحسن، وداود غزوني(1). وقد عين محمد إقبال رئيسا لجمعية المسلمين في الهند(2)

---

(1) الأرشيف نفسه، ملف رقم 13/75528/312/733CO.

رسالة من حاكم الهند The Viceroy **إلى مكتب الهند في لندن بتاريخ** 1936/6/13**م.**

(2) **جريدة فلسطين عدد** 3272/81 **بتاريخ** 1936/6/18**م. انظر تحت عنوان »جمعية المسلمين في البنجاب تستنكر سياسة عداء انكَلترا للعرب«.**

(6379/1)

.

وقد بعث حاكم الهند رقية إلى وزارة الهند في لندن بشأن هذا الاجتماع ذكر فيها أن المسلمين الهنود عقدوا مؤتمرا لهم في لاهور يوم فلسطين، وأضاف قائلا: » ... وتشير التقارير التي وصلتني أن السيد ظفر علي خان اتخذ قراراً حماسياً جاء فيه أن الحالة في فلسطين ستقود إلى حرب إسلامية مسيحية تشبه الحروب الصليبية، وطلب من جميع الممالك الإسلامية المستقلة أن تقوم بواجبها في محاولة تغيير الحالة الحاضرة في فلسطين«(1).

---

(1) **أرشيف مكتب الهند في لندن. ملف رقم** 34L/PO/S/.

(6380/1)

كتبت الجرائد العربية الصادرة في فلسطين وصفاً مسهباً حول هذا المؤتمر الهندي. وقد كان صدى هذا المؤتمر مؤثراً على الإنكليز في شبه القارة الهندية. فقد اقتبست جريدة » جريدة فلسطين« الصادرة في القدس بعض ما ذكرته الصحف الهندية عن الشعور الإسلامي الهندي، فقالت جريدة » «Advance الهندية الصادرة في كلكتا أن ثورة السوريين ضد فرنسا، والإضراب الفلسطيني، هما دلالة واضحة على أن هناك خطأً في طريقة الانتدابات؛ كما أن جريدة » Star of India « التي تصدر في كلكتا ذكرت أنه يستحيل التغافل عن إخواننا في فلسطين الذين

(6381/1)

اشتبكوا اليوم في عراك مميت مع العنصر اليهودي الغني والقوات الإنجليزية «(1).

وقد صرح مولانا الشيخ مشير حسن علي في مدينة لكنو للصحف الهندية ذاكراً أن عرب فلسطين يشاهدون بأعينهم ما بين 50 و 60 ألف يهودي يدخلون فلسطين كل عام. ومعنى ذلك أن » إخواننا في فلسطين

سيصبحون بعد عشر سنوات أقلية في وطنهم الذي عاشوا فيه سادة قروناً عديدة، إن الواجب يحتم على تركيا وإيران والعراق والهند بنوع خاص أن تشترك في الإلحاح على عصبة الأمم

---

(1) جريدة فلسطين بتاريخ 1936/6/19م الموافق 30 ربيع أول عام 1355هـ عدد رقم 3273/87.

(6382/1)

بوجوب إلغاء الانتداب البريطاني على فلسطين«(1).

كما عقد المسلمون الهنود مؤتمرات شعبية كثيرة عدا مؤتمر » عموم مسلمي الهند« لدعم فلسطين. وأهم هذه المؤتمرات هي (2) مؤتمر في ساماستيبور (Samastipur) في مقاطعة خيري حيث دعا أعضاء المؤتمر إلى مساعدة المسلمين في فلسطين ووقف الهجرة الصهيونية، ومؤتمر عقده المسلمون في Araria برعاية الحاج رياض الدين مختار، وبعث أعضاء المؤتمر

---

(1) جريدة فلسطين بتاريخ 1936/6/24م الموافق 5 ربيع الآخر عام 1355هـ عدد رقم 3278/87.

(2) أرشيف مكتب الهند في لندن، ملف رقم L/Pand /4473/12S.

(6383/1)

رسالة احتجاج إلى حاكم الهند البريطاني بسبب السياسة البريطانية المجحفة في فلسطين. وعقد مؤتمر في مدينة أحمد آباد حضره أكثر من عشرة آلاف مسلم وأرسلوا برقية لحاكم الهند احتجوا فيها على السياسة البريطانية في فلسطين، كما عقد مؤتمر ضم ممثلين عن جمعية الشباب المسلم في Balia Batam، وعصبة الشباب المسلم في مدينة سملا، ومسلمي كابا دونجي، وقد اتخذت جميع المؤتمرات السابقة قرارات أيدت جميع القرارات التي أوصى بها مؤتمر جمعية عموم مسلمي الهند.

(6384/1)

وكانت الصحف البريطانية المؤيدة للصهاينة وكذلك الصحف الصهيونية التي تصدر في الهند قد نشرت دعايات مضللة لقرائها كاد المسلمون الهنود يصدقون

هذه الأخبار الكاذبة، وقد تصدت لهذه الأكاذيب جريدة » النير ايست« (Near East) التي كانت تصدر في الهند باللغة الإنجليزية وكانت الناطقة باسم المسلمين في الهند، ومما جاء فيه أن العرب قاموا بثورة ضد الإنجليز لأسباب عدة، منها أن اليهود طلبوا من الإنجليز تفريغ شحنات البواخر بدلا من ميناء يافا العربي إلى ميناء تل أبيب اليهودي(1)

---

(1) جريدة فلسطين بتاريخ 1936/6/18م الموافق 29 ربيع أول عام 1355هـ عدد 3272/81.

(6385/1)

. حتى أن هذه الجريدة المسلمة تصدت للجرائد العبرية التي صدرت في فلسطين. فتصدت لجريدة » هآرتس« الصهيونية التي كانت وصفت زعماء الحركة الوطنية الفلسطينية بصفات الإجرام وقطاع الطرق، فانبرت الجريدة المسلمة الهندية للرد على أكاذيب » هآرتس« قائلة: » أيها الإنجليز! وأنت يا عصبة الأمم! لقد آن لكم أن تلغوا هذا الانتداب على فلسطين«(1). وقد استمر الدفاع على صفحات جريدة » Near East « عن الحقوق العربية ودحضت الأكاذيب الصهيونية

(1) جريدة فلسطين بتاريخ 1936/6/19م الموافق 30 ربيع أول عام 1355هـ عدد 3237/82.

(6386/1)

الكثيرة. ومن هذه الأكاذيب أن الحرب في فلسطين هي حرب أهلية، وأن ثورة الشعب الفلسطيني هذه دبرها الإقطاعيون من زعماء العرب وغيرها من أكاذيب. فكتبت الجريدة المسلمة تقول: » إن هذه دعوى كاذبة، وليس أدل على كذبها من الاستشهاد بجرائد إنجلترا الاستعمارية... إن كل يهودي ينزل فلسطيني يعتبر نفسه أوروبياً متحضراً ينزل بين أمة من الهمج، أو أنه سيد من الجنس الأبيض آت ليحكم آخرين من الشعوب الملونة. إن المبدأ الإجرامي الذي يقوم عليه وعد بلفور لا يعادله في الهند إلا تشبيهنا إياه برجل يقوم الآن فيزعم أن لليونان

(6387/1)

الحق في إقامة وطن قومي لهم في البنجاب، لأن الإسكندر فتح الهند منذ 2300 سنة فاستعمرها فريق من اليونان

القدماء، ثم تأتي حراب الإنجليز وترغم الهنود على قبول هذا الاستعمار اليوناني «(1).

تصاعدت عمليات الثورة في فلسطين عام 1936م وأصبح موقف الإنجليز حرجاً، خاصة عندما قام الثوار بالهجوم على الثكنات العسكرية الإنجليزية واستولوا على أسلحة الإنجليز وحاربوهم بها. لذا جرى نقاش في مجلس العموم البريطاني عن محاولة نقل جنود من

---

(1) جريدة فلسطين بتاريخ 1936/6/25م الموافق 6 ربيع الآخر عام 1355هـ عدد 3279/88.

(6388/1)

الهند إلى فلسطين لإيقاف الثورة الفلسطينية والإضراب الفلسطيني بالقوة. فقد اقترح المستر كلفتون براون (Clifton Brown) على وزير المستعمرات البريطانية ضرورة الإسراع في نقل فرق عسكرية من الفرسان الموجودين في الهند إلى فلسطين وذلك لعدم تمكن فرق المشاة الإنجليز من تهدئة الحال في فلسطين(1).

وعن هذا الموضوع نشرت مجلة « Indian Social Reform » وهي جريدة هندية ناطقة باسم المسلمين في الهند، مقالا ذكرت فيه:

(1) جريدة فلسطين بتاريخ 1936/7/17م الموافق 27 ربيع الآخر عام 1355هـ عدد 3292/103.

(6389/1)

إن حكومة الانتداب لا تبدي عطفاً على العرب، ومن الغريب أنك لا تجد إنجليزياً واحداً يوافق حكومته على سياستها الحاضرة ضد العرب. أما رأي الهند المسلمة، فهو جلي ظاهر ويتلخص في أن سبعين مليون هندي مسلم يعطفون عطف الأخ على أخيه لأنهم يرتبطون معهم برباط

الإسلام. إن الهنود المسلمين يطالبون بمنع الهجرة اليهودية بتاتاً والامتناع عن زيادة عدد اليهود الحاليين في فلسطين، وتريد الهند أن تعلن في جلاء عبارتها أنها ترفض إرسال جنود هندية لمحاربة العرب أو الضغط عليهم إذا طالت الاضطرابات في فلسطين وخطر للحكومة

(6390/1)

إرسال جنود من الهند إليها. ونريد أخيرا أن نطلب من حكومة الهند إبلاغ لندن أن الرأي العام الهندي يهمه أكبر الاهتمام أن ترعى حقوق الفلسطينيين في فلسطين وأن تهدأ ثائرتها لأننا ثائرون لهم غاضبون لغضبهم(1).

لقد أصبح وضع الإنجليز في الهند حرجاً بسبب الهياج الإسلامي في الهند على السياسة البريطانية في فلسطين، لذا فقد اقترح المستر Haig حاكم المقاطعات المتحدة في الهند على حاكم الهند أن ينشر مذكرة ولو كذباً للمسلمين الهنود

---

(1) جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/6/28م الموافق 9 ربيع الآخر عام 1355هـ عدد 3282/91.

(6391/1)

تؤكد لهم فيها أن المسلمين في فلسطين يأخذون حقوقهم كاملة وأن الإنجليز هناك يهتمون بالمسلمين في فلسطين(1).

وكان قد بعث حاكم الهند رسالة إلى وزير المستعمرات شرح فيها الوضع الإنجليزي السيء والحرج في الهند بسبب السياسة البريطانية الظالمة في فلسطين، فقال

فيها: » إن المسلمين في الهند يهتمون أكثر فأكثر بشؤون فلسطين، وهذا الاهتمام يمكن أن يسبب لنا مشاكل خطيرة

---

(1) أرشيف المستعمرات البريطانية، ملف رقم CO 13/75528/312/733.

انظر رسالة من المستر والتون في مكتب الهند بلندن إلى المستر وليامز بتاريخ 1936/8/5م.

(6392/1)

في المستقبل«(1)، مشيراً من طرف خفي في رسالته بأن تتدبر وزارة المستعمرات الأمر وتخفف الضغط عن المسلمين في فلسطين وتعطي الشعب الفلسطيني حقه في تقرير المصير ووقف الهجرة الصهيونية.

لقد توصل رجال المخابرات البريطانية إلى أن المسلمين في فلسطين ومصر هم الذين حركوا مشاعر المسلمين في الهند. والدلالة على ذلك وصول رسائل كثيرة إلى المسلمين الهنود مرسلة من القاهرة والقدس طلبوا فيها إرسال ممثلين عن المسلمين الهنود إلى لندن

---

(1) المصدر نفسه. انظر رسالة من زيتلاند في مكتب الهند إلى أورمسبي غور وزير المستعمرات.

(6393/1)

لشرح المعاناة الفلسطينية للشعب والحكومة البريطانية(1)؛ كما أن وزارة المستعمرات استلمت تقارير من
المسؤولين الإنجليز في الأماكن التي كانوا يسيطرون عليها في العالم ذكروا فيه القضية الفلسطينية. كما استلم مكتب الهند في لندن رسائل من المستعمرات؛ فقد بعث المقيم السياسي البريطاني في الخليج برقية تحمل رقم 525 إلى سكرتير وزارة الهند شرح فيها تأييد الكويت للإضراب الفلسطيني، فقال المقيم البريطاني

---

(1) أرشيف مكتب الهند. ملف رقم /366L/PO. انظر رسالة حاكم الهند إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند بتاريخ 1936/7/5م.

(6394/1)

في برقيته: »سلمني اليوم شيخ الكويت برقية بعثها إلى الحاج أمين الحسيني بتاريخ 1936/7/8م طلب فيها أن يخبره بالتفصيل عن الحوادث في فلسطين، وأن يوضع حد لسفك الدم العربي«. وقد أجاب سكرتير الهند في برقية جوابية إلى المقيم البريطاني بتاريخ 1936/7/20م قال فيها: »قل لشيخ الكويت أن لا يزج نفسه في الشؤون الفلسطينية«(1)

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ملف رقم 1/par 44/75528/314/733CO.

انظر برقية رقم 525 من المقيم السياسي البريطاني في الخليج إلى سكرتير وزارة الهند. وانظر برقية جوابية بتاريخ 1936/7/20م.

(6395/1)

.

وعقد المسلمون الهنود مؤتمراً في مدينة » الله أباد« بتاريخ 1936/7/18م، دعماً لفلسطين. وقد أرسل جواهر لال نهرو –الزعيم الهندي غير المسلم– رسالة باسم الأمة الهندية إلى المؤتمر الإسلامي مؤيدا القضية الفلسطينية. وجاء في رسالته ما يلي: » إني متأسف جداً

لعدم مقدرتي حضور الاجتماع في الله أباد بسبب أشغال هامة. ولو كنت موجوداً، لاشتركت بكل إخلاص ومودة وأخوة مع عرب فلسطين... وقد قرر المجلس الوطني الكبير إظهار المحبة والعطف على قضية العرب في فلسطين بإجماع آراء أهالي الهند«(1)

---

(1) جريدة الدفاع، الخميس 1936/8/13م الموافق 25 جمادى الأولى سنة 1355هـ عدد 669.

(1/6396)

.

وبعد مرور مائة يوم على الإضراب الفلسطيني، حاول الإنجليز أن يوسطوا بعض الزعماء العرب لكي يقنعوا زعماء الشعب الفلسطيني بفك الإضراب. فقام بالوساطة وزير خارجية العراق نوري السعيد، لكنه فشل في وساطته ورجع للعراق. لذا قرر الإنجليز استعمال القوة لوقف الإضراب، فأرسلوا الجنرال ديل (Dill) الذي كان يشغل منصبا عسكريا كبيرا في الهند، فوصل فلسطين وتحت إمرته سبعون ألفا من الجنود المدججين بالحراب الإنجليزية. غضب المسلمون الهنود لسماعهم هذه الأخبار، وقد عبر عن هذا الانزعاج اللورد ليلينثاو

(6397/1)

(Linlithgaw) في رسالته من الهند إلى وزير المستعمرات أورمسبي غور (Ormsby Gore) حيث شرح فيها الشعور الإسلامي الهندي تجاه القضية الفلسطينية(1).

واجتمع أعضاء الجمعية التشريعية في الهند وناقشوا سياسة حكومة بريطانيا في فلسطين وناقش آصف علي السير كرايك (Sir Karyl) فقال له إن جمعية العلماء في الهند وجواهر لال نهرو وجميع الجمعيات والمؤسسات الهندية تحتج على سياسة

---

(1) أرشيف مكتب الهند في لندن، ملف رقم /366L/PO. انظر رسالة من W.D.C إلى Boyd؛ وكذلك برقية حاكم الهند إلى مكتب الهند في لندن بتاريخ 14/9/1936م.

(6398/1)

الحكومة البريطانية في فلسطين. فأجاب كرايك قائلا: »إن الحكومة أدركت مبلغ الشعور المتأثر في الهند بسبب الحالة في فلسطين وأبلغت حكومة لندن بذلك«.

ووجه آصف علي سؤالا إلى كرايك قائلا: » هل طلبت حكومة الهند من حكومة لندن عدم إرسال جيوش إلى فلسطين؟« فأجاب السير كرايك أنه لم يعلم بأمر إرسال الجيوش إلى فلسطين إلا أمس فقط وقد أثبت آصف علي أن كلام كرايك ليس صحيحاً لأن حكومة لندن تستشير دوماً حكومة الهند في كل أمور السياسة البريطانية(1).

---

(1) جريدة الدفاع، بتاريخ 1936/9/22م الموافق 6 رجب سنة 1355هـ عدد 701.

(6399/1)

لم ينجح ديل (Dill) في وقف الإضراب، بالرغم من استعماله أساليب القمع الوحشية ضد الشعب الفلسطيني. لذا أخذ الأهالي يتهكمون عليه قائلين: » دبرها يا مستر ديل يمكن على يدك بتحل«(1). وفي الحقيقة أنه في الوقت الذي وصل فيه الجنرال ديل (Dill) إلى فلسطين كان المفتي الحاج أمين الحسيني قد دعا سراً فوزي القاوقجي البطل اللبناني الأصل والذي كان يعمل في مدرسة بغداد العسكرية، وذلك للتصدي للقوات الإنجليزية. وعندما وصل إلى فلسطين، انضم إليه

كثير من

---

(1) مذكرات الدكتور حسن فخري الخالدي محفوظة عند ابنته في بيروت.

(6400/1)

المتطوعين الفلسطينيين والعرب(1).

تحول الإضراب من مظاهرات عامة إلى أعمال عسكرية مسلحة ضد الإنجليز، كما انضم البوليس العربي للثوار، وازدادت عمليات الثوار في كل فلسطين مثل نسف الجسور، وقلب القطارات، وقطع خطوط التليفونات، ووضع الحجارة في الطرقات بقصد إعاقة القوات الإنجليزية من التحرك بحرية، ونسف أنابيب البترول. وقد وصل فلسطين مئات من المتطوعين من الدول المجاورة. ومن

---

(1) محمد عزة دروزة، تسعون عاما في الحياة، ج.2، ص.26. هذا الجزء أهداني إياه المرحوم دروزة قبل نشره أثناء مقابلتي له بدمشق عام 1980م.

(6401/1)

هؤلاء الثوار الشيخ محمد الأشمر وسعيد العاص وهما من سوريا، وقد سيطر الأشمر على طولكرم ومنطقة الثلث. أما سعيد العاص، فقد سيطر على المنطقة الممتدة بين الخليل والقدس(1).

ووصل متطوعون مسلمون من شبه القارة الهندية إلى فلسطين للدفاع عن الأقصى. والدلالة على ذلك وجود هنود جرحى في المستشفى الحكومي، حيث كتب المندوب السامي رسالة إلى وزير المستعمرات البريطانية بتاريخ 1936/6/12م جاء فيها: »

---

(1) محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ج.3، ص.128. استشهد سعيد العاص في فلسطين ودفن في قرية الخضر قرب بيت لحم.

(6402/1)

إن هناك اثنين من الهنود يعالجون في المستشفى الحكومي نتيجة جراح بسيطة «(1).

كانت الصحف الهندية المسلمة نشيطة في إيصال أخبار الإضراب الفلسطيني للشعب المسلم في شبه القارة الهندية. وبسبب الإجحاف الإنجليزي بحق الشعب الفلسطيني، عقد المسلمون الهنود مؤتمراً ضخماً برئاسة

مولانا السيد سليمان الندوي في نيودلهي شهده أكثر من 25.000 مدعو، كان بينهم ممثلون عن الأقاليم الهندية، كما حضر المؤتمر جواهر لال نهرو –الزعيم الهندي غير المسلم والذي أصبح

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات، ملف رقم CO 602/III.Disp.75528/310/733

(6403/1)

رئيسا للهند فيما بعد. استمر المؤتمر ثلاثة أيام اتخذ فيها المسلمون قرارات هامة كان من أهمها: مقاطعة حفلات التتويج البريطانية، والدعوة إلى مقاطعة البضائع الإنجليزية، وعدم التجنيد في الجيش البريطاني إذا لم تغير بريطانيا سياستها تغييراً أساسياً في فلسطين وتمنح العرب حقوقهم الشرعية في وطنهم(1).

كما عقد المسلمون اجتماعاً في كولومبو بجزيرة سيلان جنوب الهند، حضره آلاف من المسلمين الهنود، وترأسه السيد جانا رئيس الجمعية الإسلامية في تلك

---

(1) محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ج، 3، ص.132.

(6404/1)

الجزيرة. وفي بداية الاجتماع قرأ رئيس المؤتمر رسالة فلسطين مرسلة من الحاج أمين الحسيني حث فيها المسلمين على نجدة عرب فلسطين، وأصدر المؤتمر قرارا هاما جاء فيه: » المسلمون في سيلان يتتبعون بقلق وباهتمام ما بعده اهتمام الحوادث المؤسفة في فلسطين... ونقترح على حكومة بريطانيا سرعة الوفاء بعهودها للعرب وتغيير السياسة الحاضرة. وبغير ذلك يفقد الإنجليز عطف كل العالم الإسلامي... إن فلسطين أقدس لدى المسلمين والمسيحيين مما هي لدى اليهود، وإن هذا البلد المقدس الذي أخرج للعالم أكثر من نبي يجب أن لا تحوله

(6405/1)

السياسة إلى ميدان اضطرابات وتقتيل وتدمير، كما أنه يجب تعديل وعد بلفور «(1).

كانت الضغوط الإسلامية على حكومة الهند هائلة. لذا أخذ حاكم الهند يستجدي وزير المستعمرات كي يرسل مقالاً أو اثنين ولو كذبا عن سياسة بريطانيا في فلسطين، وذلك لنشرها في الصحف الهندية. والقصد من ذلك التخفيف من حدة الغضب الإسلامي الهندي على سياسة الإنجليز التعسفية في فلسطين، كما طلب أن يتضمن كل مقال شيئاً عن إنصاف الإنجليز للمسلمين في فلسطين.

---

(1) جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/8/10م الموافق 23 جمادى الأولى عام 1355هـ، عدد 3304/113.

(6406/1)

فبعث وزير المستعمرات البريطانية رسالة للمندوب السامي في فلسطين طلب منه كتابة مقالين لنشرهما في الصحف الهندية. فجاء الجواب من المستر هول (Hull) السكرتير العام إلى المستر باركنسون (Parkinson) في لندن جاء فيه: »وجدت من الصعوبة تحضير معلومات لنشرها في عمودين في جرائد الهند حول تاريخ سياستنا في فلسطين نبين فيه أن العرب أنصفناهم وأعطيناهم حقوقهم. إن كتابة عمودين للدعاية أمر

غير ناجح«(1)

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات، ملف رقم CO 13/7:28/312/733 رسالة من هول Hull إلى باركنسون؛ وانظر رسالة من والتون إلى وليامز بتاريخ 1936/9/8م.

(1/6407)

.

نستنتج من المراسلات المتبادلة بين الإنجليز في لندن والإنجليز في الهند أن المسؤولين الإنجليز في لندن كانوا يحسبون ألف حساب لرأي المسلمين الهنود قبل أن يتخذوا قراراً بشأن فلسطين. ونستنتج أيضا أن الجرائد الهندية الإسلامية كانت مليئة بالأخبار عن فلسطين. لذا فإن كتابة مقال كاذب في الصحف الهندية مصيرها الفشل وعدم التصديق.

أثار المسلمون الهنود قضية فلسطين في البرلمان الهندي. وقد ذكرت جريدة

»فلسطين« عن هذا الموضوع فقال: »كانت من الأسئلة الملتهبة التي أثارها إخواننا الهنود في برلمان الهند في الأسبوع

(1/6408)

الماضي ما يدل على مدى خطورة ثورة النفوس هناك غضباً وسخطاً على السياسة المتبعة فيها... ثورة لها خطورتها الدولية «(1).

كانت الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية على علم بما تنشره الصحف الإسلامية الهندية. لذا حاولوا نشر دعاية هدامة في الهند ضد الإضراب الفلسطيني كي يقرأها المسلمون في الهند من جهة، وشد أزر اليهود الموجودين في الهند وهم قليلون. لذا أرسل مدير »الكارن هايسود« (»مكتب المال التأسيسي اليهودي«) مندوباً يهودياً له إلى

(1) جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/9/28م الموافق 13 رجب عام 1355هـ، عدد 3243/152.

(6409/1)

الهند واستراليا هو الدكتور عمانويل أولفانجر لتشجيع اليهود على الصبر والثبات ولجمع الأموال لليهود في فلسطين. وقد وصل هذا المندوب مدينة بومباي في أواخر شهر آب عام 1936م، وألقى خطاباً هناك نشرته الجريدة الهندية اليهودية ذي جيوش

أدفوكيت (The Jewish Advocate) قال في خطابه:

» إن العرب الآن في منتهى التعب من الإضراب... إن اليهود لم يختل شعورهم من جراء الحوادث... يجب أن تفهموا أن الثورة الفلسطينية ليست من صنع الأمة العربية، إنها من صنع أفراد قلائل من المحرضين الإقطاعيين » الأفندية « الذين يستغلون جهل

(6410/1)

الفلاحين ويستغلون تعصبهم الديني لغاية واحدة هي احتفاظ هؤلاء الأفندية بما أيديهم من الممتلكات ومن النفوذ على العوام. أما الفلاح العربي الفلسطيني، فلا يهمه شيء من أمور السياسة؛ ولكنه عندما يمس شعوره الديني، فعندئذ يهيج ويثور كما هو ثائر وهائج الآن «(1).

إن هذه الدعاية اليهودية في الهند كانت تهدف بطبيعة الحال إلى الطلب من اليهود عدم تصديق الجرائد الإسلامية الهندية وتطلب منهم عدم قراءتها لأنها تخيفهم وتغير أفكارهم.

---

(1) جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/9/13م الموافق 27 جمادى الآخرة عام 1355هـ، عدد 3335/44.

(6411/1)

وربما استأجر اليهود خائناً فلسطينياً كي يبث لهم دعاية خبيثة في الهند مفادها أن الحالة الاقتصادية في فلسطين أصبحت جيدة منذ مجيء اليهود لفلسطين. وقد وضحت جريدة »فلسطين« هذا الموضوع فكتبت تحت عنوان: »اليهود يتصيدون فلاحاً عربياً ليبث لهم دعوتهم الخبيثة في الهند«. قالت: »نقلت الجريدة اليهودية الهندية ذي جويش ادفوكيت عن جريدة »ذي تايمز أوف انديا«(The Times of India) ما يلي: »وصل من فلسطين إلى بومباي المستر أحمد الصفدي، وهو فلاح عربي، فوصف لنا تقدم فلسطين في السنين الأخيرة والحرية الاقتصادية التي

(6412/1)

يتمتع بها قسم من العرب أصحاب الأراضي منذ بدأت الهجرة اليهودية إلى الآن...«(1). وقد علقت جريدة »

فلسطين« على هذا النبأ قائلة: »ربما يكون هذا الشخص هو » أدونا« وتسمى باسم أحمد. ومهما يكن من أمر هذا الفلاح العربي، فيجب معرفة شيء أهم وهو أن الجالية اليهودية قليلة جداً وأفرادها معدودون على الأصابع؛ أما الجالية الإسلامية هناك، فهي أكثر من ثمانين مليون مسلم. ولكن لم تذكر هذه الدعايات اليهودية حقيقة أهداف اليهود وهي جعل فلسطين

---

(1) جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/10/15م الموافق 30 رجب عام 1355هـ، عدد 3355/164.

(6413/1)

يهودية كما هي إنجلترا إنجليزية وفرنسا فرنسية حسب أقوال الزعيم الصهيوني وايزمن«.

ونشرت الجريدة اليهودية في الهند » ذي جيوش أدفوكيت« أخباراً غير صحيحة عن فلسطين والأوضاع فيها، فنشرت رسالة مطولة وصلتها من لندن وهي عبارة عن دعاية يهودية ملفقة وتقول إن الإنجليز في فلسطين يقفون في صف العرب ويحتقرون اليهود، وإن الأكثرية الساحقة من موظفي الإدراة الإنجليز في فلسطين موالون للعرب تماماً بسبب النزعة اللاسامية

التي تسيطر على نفوس هؤلاء الإنجليز، وإن العربي في نظر الإنجليز هو » جنتلمان« (Gentleman) أما

(6414/1)

اليهودي، فليس كذلك(1). وإذا كان هذا الكلام صحيحا، إذا لمن صدر

وعد بلفور؟ هل صدر لإعطاء وطن قومي للعرب؟ ومن هنا نستنتج عدم صحة الدعاية اليهودية في الهند. وقد اعترفت جريدة »دافار« اليهودية في فلسطين بأن مقالات مولانا شوكت علي في الصحف والمساجد الإسلامية في الهند كانت طافحة بدعايات شديدة لمساعدة عرب فلسطين. وليس من المعقول مناظرة ومنافسة هذه الدعاية(2).

---

(1) جريدة فلسطين، بتاريخ 27 تشرين أول عام 1936م الموافق 2 شعبان عام 1355هـ، عدد 3257/166.

(2) جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/8/27م، عدد 3329/128.

(6415/1)

ازدادت الأعمال التعسفية البريطانية ضد الشعب الفلسطيني وذلك بقصد فك الإضراب بالقوة، كما جلبت بريطانيا جنوداً آخرين لفلسطين. لذا قرر المسلمون في الهند مقابلة الحاكم الإنجليزي في الهند للإعراب عن احتجاجهم على السياسة الإنجليزية في فلسطين. وهكذا، ففي يوم 1936/9/28م قابل حاكم الهند وفدا إسلاميا برئاسة السر محمد يعقوب ممثلا عن »منظمة مسلمي الهند«. وألقى رئيس الوفد خطاباً أمام حاكم الهند قال فيه: » إن التعاون الإسلامي البريطاني في الهند لن يستمر وفلسطين في خطر«(1)

---

(1) جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/10/14م الموافق 29 رجب عام 1355هـ، عدد 3254/136.

(6416/1)

. ومما جاء في الخطاب ما يلي:

إنكم تعرفون شعور القلق والاضطراب الذي أعرب عنه المسلمون في اجتماعاتهم الكثيرة التي عقدوها في معظم أنحاء البلاد الهندية بعد أن قرأوا أنباء الجيوش البريطانية التي ترسل إلى فلسطين لتسحق الآمال الشرعية القانونية للأمة العربية الفلسطينية ولتخمد

بقوة السلاح هذه الحملة التي يقوم بها العرب من مسلمين ومسيحيين ضد الظلم الواقع عليهم من وعد بلفور، ومن استمرار تنفيذه بالقوة على شعب يحتج عليه غير راغب فيه. إن هذا الوعد هو الذي يقاومه جميع المسلمين مع العرب الفلسطينيين... لقد تلقى

(1/6417)

المسلمون في الهند تأكيدات كثيرة متكررة عن ضمان بريطانيا للأماكن الإسلامية المقدسة وللحقوق والامتيازات التي منحها لأهالي الأراضي المقدسة الخليفة (عمر). ومما يقلق هؤلاء المسلمين الآن أشد القلق أن سلسلة العهود قد طرحت جانبا ... وعليه، فإننا باسم الإنسانية واسم الإنصاف نطلب من حكومة صاحب الجلالة أن تعيد الحق إلى نصابه للشعب الفلسطيني الآن، وذلك بمحو الإجراء الحربي وهو وعد بلفور وإنهاء الانتداب، والمساعدة على تأسيس حكومة مسؤولة في فلسطين والسماح لشعبها بأن يعيش بسلام في بلاده ليؤدي الواجبات الدينية

(1/6418)

والإنسانية التي عليه وكلما تأخر اتخاذ هذه الإجراءات الضرورية، زاد نفور المسلمين من بريطانيا(1).

بعد هذه المقابلة التي تمت بين الوفد الإسلامي الهندي وحاكم الهند الإنجليزي، وبعد تقديم الخطاب له، قال الحاكم مُطمئناً الوفد الإسلامي بأن اللجنة الملكية ستأتي إلى فلسطين وسوف تبحث المسألة الفلسطينية وأسباب الإضراب، ولكن بعد أن تهدأ البلاد. ثم غادر الوفد الإسلامي مقر الحاكم، ورجع كل إلى مقاطعته، وبعث حاكم الهند رسائل إلى زعماء المقاطعات الإسلامية جواباً لهم عن الأسئلة والطلبات التي قدموها

---

(1) المصدر نفسه.

له أثناء مقابلتهم معه(1).

بقي الإنجليز في قلق خاصة بعد هذه المقابلة التي جرت بين الوفد الإسلامي الهندي وحاكم الهند الإنجليزي. لذا بعث الموظف الإنجليزي والتون (J.C.M.C. Walton) رسالة إلى باركنسون (Parkinson) في وزارة المستعمرات البريطانية شارحاً فيها مقابلة الوفد

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ملف رقم: 13/75528/312/733CO. انظر رسالة من A.S.Hands مفوض السكرتير العام لحكومة الهند إلى نائب سكرتير الدولة العام لحكومة الهند إلى نائب سكرتير الدولة لشؤون الهند في لندن، بتاريخ 1936/10/1م.

(6420/1)

الإسلامي الهندي لحاكم الهند، فقال في رسالته: »إن حاكم الهند أجاب الوفد عن أسئلتهم... ولكن ما زال الحاكم يشعر أن المشكلة مع المسلمين الهنود ما زالت معلقة«، وأضاف والتون أنه سيكون مسرورا لو أن وزارة المستعمرات تقوم بتقديم أية مساعدة له عن شرح نية حكومة جلالته في فلسطين، وأضاف والتون أيضاً » أن الوفد الإسلامي سأل حاكم الهند كم عدد العرب (مسلمين ومسيحيين) وكم عدد اليهود في فلسطين؟«. وأضاف قائلاً: »هل نقول للمسلمين الهنود إننا لسنا مسؤولين عن وعد بلفور وإنما المسؤول عصبة الأمم؟«(1)

---

(1) المصدر نفسه. انظر رسالة من والتون إلى باركنسون، بتاريخ 1936/10/9م.

(6421/1)

.

أجاب باركنسون من وزارة المستعمرات البريطانية إلى والتون في تاريخ 1936/10/16م قائلاً: » إن وعد بلفور هو جزء من الانتداب، وإنه أجري آخر إحصاء للسكان في فلسطين بتاريخ 1936/6/30م، وكان قد جرى إحصاء للسكان عام 1922م وفي عام 1931م. وكان عدد سكان فلسطين حسب آخر إحصاء وذلك بتاريخ 1936/6/30م كما يلي:(1).

-عدد المسلمين

:848.342 **مسلماً،**

-عدد المسيحيين

:106.474 **مسيحياً،**

-عدد اليهود

:307.483 **يهودياً،**

-آخرون

:11.219.

المجموع

---

(1) المصدر نفسه. انظر رسالة باكنسون إلى والتون، بتاريخ 1936/10/16م.

(1/6422)

1.336.518: نسمة.

وذكرت الصحف الإسلامية في الهند أن فلسطين بحاجة إلى أطباء بسبب كثرة الجرحى والشهداء في صفوف المسلمين في فلسطين. لذا عقدت » جمعية علماء الهند« مؤتمرا بتاريخ 1936/9/27م في نيودلهي برئاسة مولانا شفيع داود. وقد صدر قرار عن هذا الاجتماع طلب فيه المسلمون الهنود ضرورة إرسال لجنة طبية لمعالجة الجرحى الفلسطينيين من جراء الحوادث. ومما جاء في القرار ما يلي: »قررت جمعية علماء الهند بإجماع الآراء الاحتجاج على السياسة المتبعة في فلسطين ومطالبة الحكومة البريطانية بإجابة مطالب العرب الحقة

(1/6423)

العادلة، وترى الجمعية أن الحاجة ماسة في فلسطين إلى بعثة طبية. وهي -لذلك- تقرر سرعة إرسال هذه البعثة من الأطباء المسلمين في الهند، كما تقرر جمع مساعدة مالية قيمة لتقديمها إلى اللجنة العربية العليا في فلسطين «(1).

ازدادت النداءات أكثر من ذي قبل من علماء المسلمين في العالم الإسلامي تحث على ضرورة مساعدة إخوانهم في الدين شعب فلسطين. ففي نداء وجهه الزعيم الشيعي حجة الإسلام محمد حسين آل كاشف الغطاء إلى العالم الإسلامي بعنوان »

---

(1) جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/10/17م الموافق 2 شعبان عام 1355هـ عدد 3357/166.

(6424/1)

فلسطين الدامية « أوضح فيه ضرورة مساعدة إخوانهم في الدين المسلمين في فلسطين الذين استمر إضرابهم حتى الآن خمسة شهور(1).

لم تُلب وزارة المستعمرات البريطانية اقتراحات حاكم الهند الإنجليزي وأهمها النظر في احتجاجات المسلمين في الهند. لذا أرسل الحاكم رسالة احتج فيها للحكومة

البريطانية في لندن على وزارة المستعمرات لأنها لم تهتم بمسلمي الهند. ففي رسالة من لاثويث (Lathwaite) نائب حاكم الهند إلى ستيوارت (Stewart) نائب سكرتير الدولة

---

(1) أرشيف مكتب ا لهند، ملف رقم India Office: /165/12/15R، بتاريخ 1936/10/31م.

(6425/1)

لشؤون دولة الهند قال فيها: يجب أن يكون المسلمون الهنود مهمين في نظر الحكومة، إن الحاكم العام في الهند قلق بسبب عدم الاهتمام بالمسلمين ذوي المقام المرموق من قبل الحكومة البريطانية، علما أن هؤلاء المسلمين يستطيعون التأثير على كل المسلمين في الهند، ويجب أن لا نسمح لوزارة المستعمرات أن تنسى الشعور الإسلامي في الهند، بل يجب أن تبقى حكومة الهند في الصورة «(1). يتضح من هذه الرسالة الصراع القائم بين وزارة

---

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم India Office: L/S /3347/12and S. انظر الرسالة بتاريخ 1936/10/1م.

(6426/1)

المستعمرات البريطانية وبين حكومة الهند الإنجليزية بسبب عدم الاهتمام بملايين المسلمين في الهند. ومعروف أن رأي هؤلاء الملايين واضح وهو شد أزر إخوانهم في الدين في فلسطين؛ ولأن وزارة المستعمرات لم تهتم كثيرا بالمسلمين الهنود، ظن هؤلاء أن رأيهم لم يوصله حاكم الهند إلى لندن. لذا احتج السيد محمد يعقوب رئيس جمعية المسلمين الهنود لدى حاكم الهند قائلا: »يجب أن نرسل احتجاجاً رسمياً إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند في لندن، وعندما يأتي جواب احتجاجاتنا من بريطانيا يجب أن ننشره رسمياً باسم حكومة الهند«(1)

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات، ملف رقم: CO 13/75528/311/733. انظر رسالة من والتون إلى باركنسون، بتاريخ 1936/11/4م.

(6427/1)

.

أصبح موقف الحكومة البريطانية حرجاً أمام الرأي العام العالمي بسبب الإضراب الفلسطيني. لذا قررت بريطانيا أن توسط ملوك العرب لكي يبادروا بإقناع إخوانهم في فلسطين لفك الإضراب، فتوجه نوري السعيد –وزير الخارجية العراقي– إلى فلسطين بعد أن جرت مفاوضات في عمان والرياض وبغداد بين وزراء الخارجية لهذه العواصم ا لعربية. وبعد مباحثات مطولة أجراها نوري السعيد مع رؤساء اللجنة العربية العليا في فلسطين، قرر الفلسطينيون موافقتهم على استمرار المفاوضات مع وزير الخارجية العراقي كي يتصل برؤساء الدول العربية. وفي

(6428/1)

نفس الوقت الذي كان نوري السعيد يجري فيه اتصالاته مع زعماء فلسطين، كانت الحكومة البريطانية تخطط لطرد المفتي وصحبه الذين أشرفوا على الإضراب، طردهم من فلسطين، معتقدة أن طرد الزعماء يحل المشكلة ويفك الإضراب، فبعثت وزارة الخارجية البريطانية برقيات إلى المندوبين الساميين الإنجليز في كل من بغداد (المستر كلارك كير) وجدة (المستر سير بولارد)

والإسكندرية (المستر كيلي) تسألهم عن رأي المسلمين في مناطقهم لو طرد المفتي وجماعته، وطلبت منهم أن يبقى ذلك سراً(1)

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ملف رقم: 6/75528/311/733CO. انظر برقيات من وزارة الخارجية إلى المندوبين السامين بتاريخ 1936/10/7م.

(1/6429)

.

استمرت المفاوضات السرية بين الزعماء الإنجليز في وزارة الخارجية حول طرد زعماء فلسطين بسبب الإضراب. فقد أرسل سكرتير الدولة لشؤون الهند في لندن برقية رقم 2838 إلى حكومة الهند في نيودلهي بتاريخ 1936/10/8م سأل فيها عن شعور المسلمين في الهند إذا تم طرد المفتي وجماعته، وطلب في البرقية عدم إفشاء السر وبأن يبقى ذلك الخبر مكتوما. فجاء جواب حكومة الهند إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند في لندن بتاريخ 1936/10/10م في برقية رقم 2297 تنص على »أن معظم التقارير التي وصلت مكتب الهند تقول إن طرد المفتي لن يؤثر

كثيرا، ولكن لا بد من معارضة لأنها لا تريد مشاكل أخرى تضاف على رأسها«(1). بينما كان رأي المندوب السامي في فلسطين ليس طرد المفتي بل » قص جناحه« ، أي تجريده من وظائفه(2). وبعد جهود مضنية مع زعماء اللجنة العربية العليا في

(1) أرشيف مكتب الهند في لندن، ملف رقم L/P and 7298/p.z.3342/12S/ من حكومة الهند إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند، بتاريخ 1936/10/10م.

(2) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ملف رقم 6/75528/311/733CO. رسالة من المندوب السامي في فلسطين إلى باركنسون في وزارة المستعمرات، بتاريخ 1936/10/31م.

فلسطين، نجح نوري السعيد في إقناعهم على فك الإضراب. لذلك وجّه ملوك العرب إلى أبنائهم عرب فلسطين، نداء طلبوا فيه فك الإضراب. واستعد الملوك

القيام بالمباحثات مع الإنجليز لتحقيق طلبات الشعب الفلسطيني. وهذا هو نص النداء الذي وجهه ملوك العرب للشعب الفلسطيني:

إلى أبنائنا عرب فلسطين. لقد تألمنا للحالة السائدة في فلسطين، فنحن بالاتفاق مع إخواننا ملوك العرب والأمير عبد الله ندعوكم للإخلاد والسكينة حقناً للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل وثقوا بأننا

(6432/1)

سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم(1).

وهكذا انتهى الإضراب الفلسطيني الذي استمر ستة شهور عندما أصدرت اللجنة العربية العليا نداء إلى الشعب الفلسطيني بتاريخ 1936/10/13م بوقف الإضراب، وطلبت من الشعب الفلسطيني أن ينتظر مجيء اللجنة الملكية (لجنة بيل) التي ستبحث أسباب الإضراب، لكن الإنجليز اشترطوا قبل إرسال

---

(1) أكرم زعيتر، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، وثيقة رقم 261، ص.458؛ انظر أيضا: وثيقة رقم 57 في

كتابي

وثائق فلسطينية في دور الأرشيف البريطانية، إصدار مركز البحث العلمي، جامعة الخليل، عام 1986م، ص. 217.

(6433/1)

لجنة التحقيق هذه أن يغادر فوزي القاوقجي والمتطوعون معه أرض فلسطين.

غادر القاوقجي وصحبه الثوار البلاد دون رغبة منه، علماً أنه طلب من اللجنة العربية العليا البقاء في فلسطين حتى تنتهي اللجنة الملكية من التحقيق، بل وحتى تنشر قرارها وتوصياتها. فإذا كان القرار لصالح الشعب الفلسطيني، فسوف يغادر فلسطين؛ وإذا كان القرار غير ذلك، فسوف يستمر في ضرب الإنجليز. لكن اللجنة العربية العليا شكرته على جهوده وجهاده وطلبت منه -بسبب ضغوط الملوك العرب- مغادرة البلاد، فغادرها على مضض(1)

---

(1) خيرية قاسميه، مذكرات القاوقجي، دار القدس، بيروت 1975م.

(6434/1)

.

كان من أهم نتائج الإضراب الفلسطيني صدور قرار الوزارة البريطانية بتاريخ 1936/7/29م الذي ينص على ضرورة إرسال اللجنة الملكية (لجنة بيل)(1)

---

(1) سميت اللجنة الملكية » لجنة بيل« نسبة إلى رئيسها اللورد بيل. كان بيل يشغل منصب سكرتير لشؤون الهند، وكان عضواً في مؤتمر المائدة المستديرة المتعلق بالهند عام 1931/1930م، وعمل وكيلاً لوزارة الحربية ثم وزيراً للمواصلات ثم مندوباً لوزارة الأشغال ثم وزيراً لأختام الملك (انظر جريدة فلسطين، بتاريخ 1936/7/23م الموافق 5 جمادى الأولى عام 1355هـ، عدد 3296/105؛ وانظر جريدة

فلسطين، بتاريخ 1936/8/11م الموافق 24 جمادى الأولى عام 1355هـ، عدد 3205/114، توجد في هذا العدد صورة اللورد بيل وتحت صورته عبارة تقول: » حامل وسام كوكب الهند من رتبة كوماندوز أعظم ووسام صليب الإمبراطورية الأكبر. وفي سن 33 أصبح عضواً في البرلمان وعضواً في مجلس ولاية لندن، ثم أسندت له رئاسة هذا المجلس الخطير. وفي سن الخمسين، عين وزيراً

من وزراء صاحب الجلالة الملك.. ومنصب وزير الهند ورقي إلى رتبة ايرل».

(1/6435)

إلى فلسطين للنظر في أسباب الإضراب، ولكن لجنة بيل قررت عدم السفر إلى فلسطين إلا بعد انتهاء الإضراب.
وعندما هدأت الحالة في البلاد، سافر أعضاء لجنة بيل إلى فلسطين ووصلوها بتاريخ 1936/11/11م، وكان من المفروض أن تصل اللجنة قبل هذا التاريخ.
واتصل الصهاينة، والإنجليز المؤيدين لهم، باللجنة الملكية سراً قبل شهرين من وصولها إلى فلسطين، حيث قابلها وايزمن وجابوتنسكي، الزعيمان الصهيونيان، ولويد جورج، وجيمس مالكوم الذي قد أجرى مفاوضات عام 1916 مع الصهاينة والتي أدت إلى إصدار وعد بلفور.
وعندما باشرت لجنة بيل

(1/6436)

عملها بمقابلة الأشخاص في فلسطين، تظاهر وايزمن بأنه لا يعرف بيل ولم يشاهده من قبل.

وقبل وصول اللجنة الملكية إلى فلسطين، كان وزير المستعمرات البريطانية اورمسبي غور

–صديق الصهاينة – قد منح 1800 شهادة هجرة يهودية جديدة إلى فلسطين، ضاربا بعرض الحائط طلبات الشعب الفلسطيني التي كان أهمها منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين. ومن المعروف أن الإضراب الفلسطيني الطويل الذي دام ستة أشهر كان أحد أسبابه زيادة الهجرة اليهودية. لذلك أعلن مفتي القدس الحاج أمين الحسيني أنه لن يقابل اللجنة الملكية

(6437/1)

–لجنة بيل(1)–، احتجاجا على قرار وزير المستعمرات البريطانية بمنح 1800 مهاجر يهودي للإقامة في فلسطين.

وبعث المفتي رسائل إلى الملك غازي ملك العراق، والملك عبد العزيز بن سعود، والأمير عبد الله، شارحاً لهم في رسائله الأسباب التي دفعت زعماء فلسطين إلى عدم مقابلة اللجنة الملكية. ففي رسالته إلى الملك عبد العزيز بن سعود بتاريخ 1936/11/21م، كتب المفتي قائلا: »إن سياسة الهجرة اليهودية إلى فلسطين هي بالنسبة لنا مسألة

(1) عبد الوهاب الكيالي، وثائق المقاومة الفلسطينية، وثيقة رقم 188، ص. 456، بتاريخ 1936/11/6م.

(6438/1)

حياة أو موت، لأن اليهود كانوا يشكلون 7 ٪في بداية الانتداب. أما الآن، فيشكلون 30٪ من السكان. إن القضية الفلسطينية بالنسبة للعرب قضية وجود أو لا وجود، وإن الكيان العربي الإسلامي بدأ في التلاشي والزوال تدريجيا، وإن هذا الكيان سيفقد آجلا أو عاجلاً، وإن فلسطين ستكون إما ولاية يهودية وإما دولة عربية إسلامية «(1).

مكثت اللجنة الملكية في فلسطين أكثر من شهرين استمعت فيها إلى شهادات اليهود والإنجليز، ولكنها لم تستمع إلى

(1) المصدر نفسه، وثيقة رقم 271، ص.469. انظر أيضا عزة دروزة، حول الحركة العربية، ص.139.

(6439/1)

شهادة عربي واحد بسبب رفض العرب مقابلة اللجنة، وتدخل ملوك العرب مرة ثانية وضغطوا على زعماء فلسطين لمقابلة لجنة بيل والإدلاء بشهاداتهم وتقديم طلباتهم العادلة. فوافق زعماء فلسطين وقابلوا أعضاء اللجنة في أواخر أيام إقامتهم في البلاد. وكانت أهم طلبات الشعب الفلسطيني كما عرضها المفتي أثناء مقابلة اللجنة وهي: منع الهجرة اليهودية منعاً باتاً ومنع انتقال الأراضي العربية لليهود وإلغاء وعد بلفور واستقلال فلسطين(1). ثم رجع أعضاء اللجنة إلى لندن لتقديم

---

(1) ناجي علوش، المقاومة العربية الفلسطينية، ص.133.

(6440/1)

تقريرهم إلى وزير ا لمستعمرات البريطانية.

سافر وفد فلسطيني إلى مكة المكرمة، وكان مكوناً من الحاج أمين الحسيني ومحمد عزة دروزة. وأثناء وجودهما في مكة، حضرا اجتماعاً دعت إليه جمعية الشباب العربي السعودي في منى؛ كما حضر الاجتماع المقيم الهندي في الحجاز بدعوة من محرر جريدة » صوت الحجاز «؛ كما حضرت

أيضا شخصيات عربية مثل رياض الصلح وبشير السعداوي أثناء وجودهما في مكة وكانا مبعوثين من الرئيس السوري إلى السعودية لبحث موضوع الوحدة العربية(1)

---

(1) أرشيف مكتب الهند في لندن، ملف رقم L/P and /3342/12S. رسالة من لامبسون في القاهرة إلى المستر ايدن بتاريخ 1937/4/8م.

(6441/1)

. وألقيت في الاجتماع خطب سياسية عن فلسطين كانت حماسية ردد الجميع معاً » الله أكبر «، وظهرت في الصحف السعودية وخاصة صحيفة » صوت الحجاز « مقالات وصفت المفتي وجماعتهم بأنهم قادة سوريون أبطال ومجاهدون، كما وصفتهم جريدة » أم القرى « كذلك(1). وعندما كان في مكة، اقترح الجنرال ديل استغلال الفرصة ومنع الحاج أمين من العودة إلى فلسطين(2)

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية، ملف رقم CO733/326/75023/2. انظر رسالة من القنصل البريطاني في جدة (بولارد) إلى ايدن بتاريخ 1937/3/9م.

(2) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم L/P and /3342/12S. وثيقة رقم 1488 »سري«.

(6442/1)

. ولكن أورمسبي غور وزير المستعمرات رفض هذا الإقتراح، ورفض طرد المفتي بهذه الطريقة، وذلك – حسب ما قال أورمسبي غور – » خوفا من تحريك شعور المسلمين في الهند والعالم ضدنا، ولكن نستطيع أن نطرده بطريقة مناسبة عندما يرفض قرار لجنة بيل«(1).

وانتشرت في الأفق إشاعات تقول إن اللجنة الملكية ربما توصي بتقسيم فلسطين، فبعث المفتي وفداً فلسطينياً إلى لندن في أيار عام 1937م يتكون من جمال الحسيني

---

(1) أرشيف وزارة المستعمرات، ملف رقم CO 733/326/75023/2. انظر رسالة من اورمسبي غور إلى رئيس الوزراء، بتاريخ 2/3/1937م.

(6443/1)

وعزة طنوس(1) للاحتجاج سلفا على التقسيم إذا صدرت لجنة بيل ذلك القرار. كما أرسل المفتي رسائل إلى الزعماء المسلمين في الهند طلب في رسائله أن ترسل الهند وفدين إلى لندن للاحتجاج سلفاً على قرار التقسيم المقترح إصداره من قبل لجنة بيل(2). وقد قال مولانا شوكت علي إلى حاكم الهند

---

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم L/P and /3347/12S. وثيقة رقم 3882P.Z.

(2) الأرشيف والملف نفسه، رقم 3882P.Z. انظر رسالة من S.I James إلى المستر Clauson؛ وانظر أيضا رسالة حاكم الهند إلى ويليامز وثيقة رقم 2643P.Z وثيقة رقم 2367P.Z.

(1/6444)

بتاريخ 1937/4/14م إن إرسال وفدين من الهند إلى لندن للدفاع عن فلسطين هو قيد الدرس الآن، وإن المفتي سيرسل اثنين من فلسطين إلى لندن للاحتجاج سلفاً على قرار لجنة بيل في حالة توصيتها بالتقسيم(1).

وأصدرت لجنة بيل تقريرها الذي يوصي بتقسيم

فلسطين إلى ثلاث مناطق، مناطق يهودية، ومنطقة عربية تمتد إلى شرقي الأردن، ومنطقة تبقى تحت الانتداب وهي الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم والناصرة. كما أوصى

---

(1) الأرشيف نفسه، رقم الوثيقة 2643P.Z.، بتاريخ 1937/4/16م. برقية من الحاكم العام في الهند إلى مكتب الهند، لندن.

(6445/1)

تقرير اللجنة الملكية بوجوب تبادل السكان بين المنطقتين العربية واليهودية. ونستنتج من التقرير أنه في حالة تطبيق تبادل السكان، فإنه لن يكون سوى تنفيذ عملية طرد السكان العرب من أراضيهم وبيوتهم، لأن عدد العرب في المنطقة اليهودية المقترحة يبلغ عددهم نصف السكان، أي ثلاثمائة ألف نسمة، ويملكون ثلاثة أضعاف الأملاك اليهودية ومقدارها ثلاثة ملايين وربع المليون دونم تقريبا، بينما عدد اليهود في المنطقة العربية لا يتجاوز 1250 يهودي فقط وأن أراضيهم مائة ألف دونم تقريبا(1)

---

(1) محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ج، 3، ص.155.

(6446/1)

. وهذه التوصية ظلم فادح للسكان العرب.

نستنتج من توصيات لجنة بيل أنها كانت واضحة لصالح اليهود، لأنها أعطتهم منطقة ليشكلوا فيها دولة لأول مرة في التاريخ. ونستنتج أن الأماكن المقدسة لن تكون تحت إشراف العرب بل تحت إشراف الإنجليز الذين سوف يعملون على تسليمها تدريجياً لليهود. لذلك بعث مفتي القدس رسائل إلى زعماء العالم الإسلامي طلب منهم حماية المقدسات الإسلامية في فلسطين، فقال: » إن هذه الأماكن المقدسة الإسلامية ليست للفلسطينيين وحدهم بل هي لكل المسلمين في ا لعالم« (1)

---

(1) أرشيف مكتب الهند في لندن، ملف رقم R 25/19File No: 156/2/15.

(6447/1)

. وأما رسالته إلى الملك عبد العزيز بن سعود، فكانت أكثر تأثيرا عندما ذكر له أن الأقصى في خطر، وسيؤدي هذا الوضع إلى أن تكون مكة المكرمة والمدينة المنورة في المستقبل بنفس الخطر(1).

والحقيقة أن رسائل المفتي كانت مؤثرة. والدليل على ذلك أن علماء المسلمين في الدول الإسلامية أصدروا فتاوى ضد التقسيم المقترح. فمثلا، أصدر علماء العراق فتوى تنص على أن أي شخص يوافق على التقسيم لا يسمح بدفنه في

---

(1) أرشيف جمعية الدراسات العربية، القدس، ملف مخابرات مع السعودية رقم 25/1، » اللجنة العربية «، بتاريخ 19/7/1937م.

(6448/1)

مقابر المسلمين(1).

وأرسل مفتي القدس رسائل وبرقيات باسم اللجنة العربية العليا إلى كل زعيم هندي في منطقته. وكان ذلك بتاريخ 8/7/1937م. ومن أهم هذه الرسائل رسالة إلى مولانا طاهر سيف الدين في مدينة بومباي، وإلى مولانا أبو الكلام آزاد في كلكتا، وإلى مفتي الهند في

دهلي، وإلى مولانا سر محمد إقبال في لاهور، وإلى مولانا أبو بكر وسكان كانتور، وإلى يوسف عبد الله فوزان رئيس جمعية الشبان المسلمين في الهند، وإلى

---

(1) محمد عزة دروزة، حول الحركة العربية الحديثة، ج.3، ص.163؛ وانظر نجيب صدقة، قضية فلسطين، ص.204.

مولاي أشرف في راندر، وإلى عبد الرحمن صديقي في كلكتا، وإلى الشيخ غلام رسول سكرتير مجلس اتحاد الأمة –صدر بازاردلهوزي، وإلى مولانا شوكت علي، وغيرهم من زعماء الهند المسلمين. وفي كل رسائله شرح المفتي للزعماء الهنود تقرير اللجنة الملكية وبيان الحكومة البريطانية المتضمن تقسيم فلسطين، وكان يركز على

أن القدس قبلة المسلمين الأولى ومسرى النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، وكان يذكر آيات من القرآن الكريم في رسائله وطلب منهم الدعم الكامل لفلسطين والاحتجاج ضد الإنجليز سواء في الهند أو لندن على خطورة

التقسيم(1).

واستلم مفتي القدس عدة رسائل من هؤلاء الزعماء الهنود رداً على رسائله نذكر منها: رسالة من أبي بكر وسكان كانتور بتاريخ 1937/7/26م حيث ذكر للمفتي أن مؤتمراً عقد لبحث قضية فلسطين، ورفعوا تقريراً لحكومة الهند يستنكرون فيه التقسيم، فأرسل الحاج أمين برقية بتاريخ 1937/8/14م يشكرهم فيها على ذلك (2). كما استلم المفتي رسالة

---

(1) أرشيف جمعية الدراسات العربية، القدس، ملف الهند، » الهيأة العربية العليا« ، بتاريخ 1937/7/9م.

(2) الأرشيف نفسه، برقية من المفتي إلى أبو بكر وسكان كانتور، بتاريخ 1937/8/14م.

من رئيس جمعية الشبان المسلمين يوسف عبد الله فوزان أخبره فيها بعقد اجتماع كبير في 1937/8/1م برئاسة الأستاذ حبيب إبراهيم استنكروا فيه تقرير اللجنة الملكية بشأن التقسيم وأن المسلمين الهنود سيرفعون شكوى إلى عصبة الأمم. وبعث المفتي جوابا

لهم بتاريخ 1937/8/8م يشكرهم على ذلك (1).

وأما رسالة الدكتور محمد إقبال (رئيس الحلف الإسلامي في البنجاب) للمفتي، فكانت بتاريخ 1937/7/29م.

وكانت أكثر شدة وصرامة ضد الإنجليز، حيث ذكر

---

(1) الأرشيف نفسه، رسالة من رئيس جمعية الشبان المسلمين يوسف عبد الله فوزان إلى المفتي.

(6452/1)

للمفتي أن اجتماعاً عقد في مدينة لاهور بتاريخ 1937/7/26م وألقى محمد إقبال خطبة قال فيها للمسلمين هناك: » أؤكد لكم أن مسألة فلسطين مسألة إسلامية وتهم جميع المسلمين في العالم«. واقترح إيجاد عصبة إسلامية بدلاً من عصبة الأمم (1)، كما انتقد السياسة البريطانية المجحفة بحق المسلمين في فلسطين، وقد حضر الاجتماع أكثر من 20.000 مسلم هندي(2)

---

(1) الأرشيف نفسه، رسالة محمد إقبال إلى المفتي في 1937/7/29م.

(2) أرشيف مكتب الهند في لندن، ملف رقم L/P and

/3347S، وثيقة رقم .5152P.Z ، رسالة من الحلف الإسلامي في البنجاب إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند بتاريخ 29/7/1937م.

(6453/1)

.

كما وصلت برقيات أخرى من زعماء هنود إلى الحاج أمين الحسيني، منها برقية من مولاي أشرف –راندر في الهند البريطانية، قال فيها: » نؤيدك في معارضة تقسيم فلسطين «(1)؛ وبرقية من جمعية الشبان المسلمين في بومباي بتاريخ 25/8/1937م ذكروا فيها أن قرار اللجنة العليا الملكية غير عادل للقضية الفلسطينية وللمسلمين عموماً(2)

---

(1) أرشيف جمعية الدراسات العربية، برقية رقم 47 من راندر –الهند البريطانية بعثها مولاي أشرف إلى المفتي الحاج أمين الحسيني.

(2) الأرشيف نفسه، برقية من جمعية الشبان المسلمين إلى المفتي في 25/8/1937م.

(6454/1)

؛ وبرقية من شيخ غلام رسول –دلهوزي بتاريخ 1937/8/24م، وفيها تأييد الهند لفلسطين ومعارضة المسلمين الهنود تقسيم فلسطين(1)؛ وبرقية من عبد الرحمن صديقي بدعم الهنود المسلمين للشعب الفلسطيني واستنكاره للتقسيم. وقد بعث الحاج أمين الحسيني أجوبة على هذه البرقيات كان آخرها بتاريخ 1937/9/1م شكر فيها عبد الرحمن صديقي على الدعم الهندي لفلسطين(2).

---

(1) الأرشيف نفسه، برقية غلام رسول إلى المفتي، في 1937/8/24م.

(2) الأرشيف نفسه، برقية إلى عبد الرحمن صديقي من الحاج أمين الحسيني، بتاريخ 1937/9/1م.

(6455/1)

أما جواهر لال نهرو الزعيم الهندوسي غير المسلم، فكان قد صرح لمراسل جريدة »مدينة« ، وهي جريدة هندية، قائلا إنه يستنكر التقسيم الذي اقترحته اللجنة الملكية ويؤيد الحقوق الفلسطينية. فأرسل مفتي القدس برقية لسيادته بتاريخ 1937/9/2م يشكره

فيها على دعمه لفلسطين في التصريح الذي أدلى به لجريدة »مدينة« . فأرسل الزعيم الهندوسي للمفتي برقية جوابية بتاريخ 1937/9/5م قال فيها: » ... إن عدم تقسيم فلسطين يضمن لها الحرية التامة من نفوذ الاستعمار البريطاني«(1)

---

(1) الأرشيف نفسه، برقية من جواهر لال نهرو رقمها 384 وعدد كلماتها 64 ووصلت إلى القدس بتاريخ 1937/9/5م.

(6456/1)

.

وأرسل زعماء الهنود المسلمين رسائل وبرقيات إلى حكومة الهند، ورسائل وبرقيات أخرى إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند في لندن احتجوا فيها على اقتراح اللجنة الملكية بتقسيم فلسطين. وكان من أهم البرقيات برقية المجلس الإسلامي في مالابار –مدارس سكرتير الدولة لشؤون الهند بتاريخ 1937/8/24م(1)؛ وبرقية من جمعية الإدارة في عمان إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند بتاريخ 1937/7/23م(2)؛ وبرقية من الحلف الإسلامي في

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم L/P and /3347/12S، وثيقة رقم 6355P.Z.

(2) الأرشيف نفسه، رقم الوثيقة 6007P.Z.

(6457/1)

البنجاب إلى سكرتير الدولة بتاريخ 1937/7/29م(1) . وقرر المسلمون الهنود أن يرسلوا وفداً هندياً مسلماً لبريطانيا للتعبير عن شعورهم في معارضة تقرير اللجنة الملكية بشأن تقسيم فلسطين. وقد عين الوفد بعد أن عقد مؤتمرا يدعى »مؤتمر عموم مسلمي الهند بشأن فلسطين« في الفترة الواقعة بين 24 و1937/9/26م في مدينة كلكتا. وشكل هذا الوفد من السادة: نواب محمد إسماعيل خان ومحمد أشرف وعبد الرحمن صديقي(2).

(1) الأرشيف نفسه، رقم الوثيقة 5152P.Z.

(2) الأرشيف نفسه، رقم الوثيقة 5782P.Z.

(6458/1)

وأصدر المؤتمر قراراً جاء فيه: » إن تقسيم فلسطين غير مقبول لمسلمي الهند ومسلمي العالم، وإن السياسة التي تتبعها بريطانيا هي التحيز لليهود ويجب وقفها وعدم التحيز لهم؛ وإلا فإن بريطانيا ستفقد صداقتها مع العالم الإسلامي وتجبر الهند على ذلك أيضا لمصلحة الإسلام«(1). وتأسست في المؤتمر لجنة الدفاع عن فلسطين، وتكلم بعض الأعضاء في المؤتمر فقال: » إن قرار اللجنة الملكية بالتقسيم قد وضع ثمانين مليون مسلم هندي في موقف حرج، وهو إما أن يختاروا الولاء للدولة البريطانية أو

---

(1) الأرشيف نفسه، رقم الوثيقة .7803P.Z.

(6459/1)

الولاء للدين الإسلامي. وطبعا سيختارون الولاء للإسلام«(1). ومعنى هذا الكلام أن المسلمين سيثورون ضد الإنجليز عن حقوق الشعب الفلسطيني –إخوانهم في الدين.

كما عقد جميع مسلمي الهند في لكنو بالهند بتاريخ 1937/10/18م وقرر أعضاء المؤتمر الدعم الكامل للشعب الفلسطيني ورفض التقسيم، وقرر إرسال وفد

هندي لزيارة فلسطين

---

(1) كتاب تاريخ بريطانيا العظمى وفلسطين 1915–1939م، مكتب المعلومات البريطانية Great Britain and Palestine 1915–1939.

أرشيف مكتب رقم .1852T.

(6460/1)

للتعرف على أحوالها عن كثب. ومن الشخصيات الهامة التي حضرت المؤتمر إسكندر حياة خان رئيس وزراء البنجاب وفضل الحق رئيس وزراء البنغال(1).

وفي برقية من ضابط الإدراة الحكومية في فلسطين إلى سكرتير الدولة لشؤون المستعمرات بتاريخ 25/11/1937م قال فيها: »إنه لن يسمح بدخول الوفد الهندي إذا قرر زيارة فلسطين«(2).

---

(1) جريدة الأهرام بتاريخ 19/10/1937م و14 شعبان 1356هـ، عدد 19073، ص.7.

(2) أرشيف وزارة المستعمرات، ملف رقم CO

733/333/7515/32. برقية من O.A.G إلى سكرتير الدولة البريطانية، بتاريخ 25/11/1937م.

(1/6461)

ووصلت رسائل إلى حاكم الهند من زعماء هنود مسلمون احتجوا فيها على التقسيم على السياسة البريطانية في فلسطين. وكان أهمها رسالة بعثها مولانا شوكت علي إلى السكرتير الخاص لحاكم الهند المستر لايثويت (Mr. Laithwaite) بتاريخ 10/10/1937م قال فيها: »إنني أكتب إليكم بناء على طلب الأعضاء المسلمين في المجلس التشريعي، حيث طلبوا مني أن أقدم البيان المرفق الذي صدر عنهم بالنسبة للمسألة الفلسطينية. إن هذه القضية تأخذ أبعاداً خطرة وجدية وتقلق المسلمين الهنود، وإنه لمن الواضح أن الحكومة البريطانية سلمت إلى يهود

(1/6462)

العالم، وليس من العدل والحكمة أن تهمل ملايين المسلمين لمصلحة اليهود الغرباء«(1). وحذر شوكت علي

أنه إذا استمر الوضع في فلسطين، فإنه من الصعب السيطرة على الأمور في الهند، وذكروا أن هناك كثيراً من التواقيع لمسلمين هنود احتجوا فيها على التقسيم، وقالوا: » يجب حتى عدم التفكير في فكرة التقسيم، لأن المسلمين في العالم سيثورون إذا حصل ذلك«(2)

---

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم /366L/po. من شوكت علي إلى المستر Laithwaite، بتاريخ 1937/10/10م.

(2) أرشيف وزارة المستعمرات، ملف رقم CO 32/75156/333/733. رسالة من شوكت علي إلى Laithwaite بتاريخ 1937/10/10م من سملا بالهند.

(6463/1)

.

وليس مسلمو الهند فقط الذين استنكروا اقتراح التقسيم، بل استنكره أيضا المسلمون في أفغانستان وإيران وكل زعماء العرب. وقد طلب المسلمون في إيران وأفغانستان من سمو آغاجان في الهند أن يوصل احتجاجاتهم إلى بريطانيا(1).

وكان سكرتير الدولة البريطانية لشؤون الهند في

لندن قد أرسل مجموعة برقيات إلى المسؤولين الإنجليز في مختلف المناطق بالخليج العربي يستفسرهم عن شعور المسلمين في الخليج تجاه اقتراح

---

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم /366L/PO. رسالة من آغاجان إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند بتاريخ 1937/10/23م.

(6464/1)

التقسيم(1). فكانت الأجوبة التي تلقاها السكرتير تدل على غضب العرب من اقتراح لجنة بيل بشأن التقسيم.

غضب الإنجليز من المفتي، لأنه حث العالم الإسلامي ضد الاستعمار. لذلك قرروا نفيه وطرده من فلسطين، واعترفوا أنهم لا يستطيعون منافسة نشاطه في العالم الإسلامي(2)

---

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم: /366L/PO. برقية من سكرتير الدولة إلى حاكم الهند بتاريخ 1937/10/1م.

(2) أرشيف وزارة المستعمرات، ملف رقم: CO

733/332/75156/1. **رسالة من شكبرغ**

J.E.Shuckburgh **إلى**

W.D.Battershill **بتاريخ** 4/10/1937**م.**

(6465/1)

. وقد وضع الجنرال ديل خطة للقبض على المفتي، وذلك بمداهمة اللجنة العربية العليا، ولكن المفتي شعر بذلك حين همس حارس البناية في أذن المفتي بتقدم الإنجليز نحو البناية؛ فهرب المفتي من الباب الخلفي للبناية والتجأ للحرم الشريف(1)، ومكث فيه ثلاثة أشهر مختبئًا. وقد احتج المندوب السامي في رسالته إلى سكرتير الدولة البريطانية على المستر فيتزجرالد (Fitz gerald**)**

---

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم L/P and /3350/12S**، وثيقة رقم** /.7066P.Z **رسالة من هافارد (**Havard**) القنصل البريطاني في بيروت إلى وزارة الخارجية البريطانية.**

(6466/1)

(مدير البوليس)، لأنه فشل في القبض على المفتي في الاجتماع العام للجنة العربية العليا بتاريخ 1937/7/17م مساء السبت. وقال المندوب السامي: « يجب أن يعاقب مدير البوليس، ولن يقبل عذره لأن المفتي نجم في الهرب «(1).

وفي الوقت الذي كان فيه المفتي مختبئاً في الحرم، اغتيل المستر أندروس الحاكم الإنجليزي لمنطقة الجليل في فلسطين بتاريخ

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم L/P and /3350/12S، وثيقة رقم /7066P.Z. رسالة من القنصل الإنجليزي في بيروت إلى وزارة الخارجية البريطانية؛ وانظر أيضا بيان الحوت، القيادات، ص.373.

(6467/1)

1937/9/26م، واتهم الإنجليز المفتي بأنه وراء عملية الاغتيال رغم أنه ملتجئ في الحرم(1). وقد قرر الإنجليز بسبب اغتيال أندروس اعتقال كثير من شيوخ شمال فلسطين في منطقة الحادث، وكذلك جميع أعضاء اللجنة العربية العليا وذلك بتاريخ 1937/9/30م. وتم القبض

على بعض أعضاء اللجنة العربية لأن الباقين كانوا خارج فلسطين. أما الذين اعتقلوا، فتم نفيهم إلى جزيرة سيشل في المحيط الهندي كما جرد الإنجليز مفتي القدس من وظائفه. وأرسل المفتي رسالة إلى ضابط الإدارة الحكومية احتج فيها

---

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم /366L/PO.

(6468/1)

على اعتقال كثير من العلماء في شمال فلسطين بسبب اغتيال أندروس(1).

وبعث الشيخ عبد الرحمن سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين في مصر رسالة إلى السفير البريطاني في الإسكندرية بتاريخ 1937/10/3م احتج فيها على اعتقال القادة الفلسطينيين وطردهم من بلادهم وتجريد المفتي من وظائفه، وهدد قائلا إنه إذا استمرت السياسة البريطانية هذه في فلسطين، فإن الصداقة بين المسلمين في العالم وبريطانيا ستنقطع(2)

---

(1) أرشيف مكتب الهند، رقم /366L/PO. رسالة من حكومة الهند إلى المندوب السامي في فلسطين، بتاريخ

1937/11/17م.

(2) أوراق تشارلز تيجارت محفوظة في جامعة سانت أنطوني في اوكسفورد ببريطانيا.

(1/6469)

.

احتار الإنجليز في الطريقة التي يتم بها اعتقال المفتي: هل يقتحمون الحرم ويكسرون حرمة الأماكن المقدسة ويغتالون المفتي أو يتركونه وشأنه؟ واقترح بعض الإنجليز عدم اعتقال المفتي خوفاً من تفسير المسلمين الهنود بأن الإنجليز أهانوا حرمة المسجد الأقصى(1)، بينما اقترح آخر أثناء المناقشة في وزارة المستعمرات عدم احترام قدسية الحرم الشريف حيث قال الكولونيل Dennys أن الاعتقال يجب أن يتم بواسطة بوليس هندي مسلم، بينما المستر Buss قال إن هذا صعب للغاية(2).

---

(1) بيان الحوت، القيادات، ص.382.

(2) أوراق تشارلز تيجارت.

(1/6470)

ولما علم المفتي بمحاولة اعتقاله عن طريق بوليس هندي، قرر الهرب سراً خوفاً من حصول مجزرة في ساحة الأقصى(1). وقد خرج إلى يافا سراً ثم إلى لبنان حيث طلب من السلطات الفرنسية هناك منحه حق اللجوء السياسي(2).

وعقدت الوزارة البريطانية جلستها رقم 1937/36 بتاريخ 1938/12/8م، وتوصل الوزراء في مناقشاتهم إلى أن الاحتجاجات على التقسيم

---

(1) جريدة الدفاع، الأحد 2 صفر عام 1357هـ الموافق 1938/4/3م، عدد 1120، انظر تحت عنوان «المسلمون الهنود في فلسطين».

(2) جريدة الدفاع، بتايخ 1938/4/22 الموافق 21 صفر 1357هـ، عدد 1137.

(6471/1)

قد ازدادت لدى المسلمين الهنود. كما ناقشوا بيان رئيس «رابطة عموم مسلمي الهند» الذي صرح به قبل أيام قليلة من جلسة اجتماع أعضاء الوزارة البريطانية، حيث قال المسؤول الهندي إنه إذا لم تذلل

الصعاب في المشكلة الفلسطينية، فإن مستقبل الإمبراطورية البريطانية سيهتز(1).

وقررت »رابطة عموم مسلمي الهند« إرسال وفد مسلم هندي لزيارة الدول الإسلامية وبريطانيا وجنيف، وذلك لشرح موقف المسلمين الهنود من القضية الفلسطينية، وتشكل الوفد من السادة: مولانا عبد الرحمن صديقي رئيساً، وعضوية كل

---

(1) بيان الحوت، القيادات، ص.385.

(6472/1)

من جسرات موهاني شودري وخليف الزمان ومولانا سيد فضل الحسين ورجا أمير أحمد خان(1).

بعد اغتيال الجنرال اندروس في منطقة الجليل، أرسلت حكومة لندن مزيدا في الجنود الإنجليز إلى فلسطين وازدادت الثورة الفلسطينية قوة. عندئذ قررت وزارة المستعمرات البريطانية إرسال ضابط إنجليزي خبير في محاربة الثوار، فوصل إلى فلسطين قادما من الهند الجنرال تيجارت(2)

---

(1) أرشيف مكتب الهند في لندن، ملف رقم /75L/PO.

برقية من حاكم الهند إلى مكتب الهند، بتاريخ 1939/11/10م.

(2) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم 75L/PO/ من اللورد زيتلاند (حكومة الهند) إلى مالكوم وزير المستعمرات بتاريخ 1938/11/23م.

(6473/1)

الذي نظر إلى فلسطين بأنها حديقة صغيرة مقارنة بالهند. فبدأ منذ وصوله فلسطين بناء سور من الأسلاك الشائكة طوله ثمانون كيلو مترا وعرضه ثلاثة أقدام، وزرع على مقربة منه مجموعة من الألغام. وكان قد كلف بناء السور نصف مليون جنيه، وسمي بسور تيجارت.

والقصد من بنائه هو منع وصول المتطوعين من الثوار من خارج فلسطين إلى فلسطين، ومنع خروج الثوار المحليين للبلاد المجاورة لطلب المزيد من الأسلحة والمساعدات المالية. ورغم متانة السور، إلا أن الثوار بدأوا في تقطيعه قبل إكماله وباع الثوار أجزاء من السور في دمشق

(6474/1)

وبيروت. وهكذا قدم تيجارت للثورة مورداً مالياً من حيث لا يدري(1).

... وقام تشارلز تيجارت بتسجيل أسماء الثوار وعناوينهم، وذلك لمحاولة القبض عليهم في بيوتهم. وقد تم له جمع قائمة أسماء من الثوار لكل بلد في فلسطين(2). ومن أبرز الثوار: في منطقة الشمال أبو إبراهيم الكبير (خليل العيسى) وأبو إبراهيم الصغير (توفيق الإبراهيم) وأبو علي (سليمان عبد القادر)؛ وفي منطقة الوسط أبو كمال (عبد الرحيم الحاج محمد)

---

(1) الأرشيف والملف نفسه.

(2) الأرشيف نفسه، برقية من حاكم الهند إلى مكتب الهند في لندن، بتاريخ 1938/11/10م.

(6475/1)

القائد العام وأبو فيصل (عارف عبد الرزاق) وأبو علي (حسين سلامه) وعبد القادر الحسيني وعيسى البطاط وغيرهم.

وبسبب ازدياد لهيب الثورة الفلسطينية وغضب العالم الإسلامي على التقسيم، قررت وزارة المستعمرات

البريطانية إرسال لجنة فنية إلى فلسطين لدراسة احتمال نجاح أو فشل التقسيم. ووصلت اللجنة إلى فلسطين بتاريخ 1938/4/27م برئاسة السير جون وودهيد، فقابلها العرب بالمظاهرات الاحتجاجية وقرر زعماء فلسطين مقاطعة اللجنة.

(1/6476)

وكان المسلمون الهنود قد اقترحوا على بريطانيا إرسال محقق هندي مع لجنة وودهيد للوقوف على آراء العرب، فكتب السر سيد سردار علي رسالة إلى جريدة «المانشستر غارديان» (The Manchester Guardian) في لندن كي يطلع عليها زعماء الإنجليز، فقال في رسالته التي نشرتها الجريدة اللندنية ونقلت عنها جريدة الدفاع ما يلي:

... ليس من الضروري تذكير القراء الإنجليز بأن الهند في الهند طائفة كبيرة جداً وهامة جداً... ويلوح لي أن بريطانيا تتظاهر بالهدوء والسكينة في مسألة فلسطين... آمل من الإنجليز أن لا يظنوا في الهند أنها غير

(1/6477)

قلقة على مصير فلسطين. نعم، لا يجوز للإنجليز أن يقعوا في مثل هذا الخطإ، فإننا معشر المسلمين الهنود في قلق شديد على فلسطين وعلى كل ما يجري فيها مما يؤثر أسوأ الأثر على الأخوة الإسلامية، ولكن الوقت لم يفت بعد لتعيين رجل هندي يذهب مع لجنة التحقيق الجديدة الذاهبة إلى فلسطين ويكون هذا الرجل موضع ثقة كصاحب السمو آغا خان الذي يستطيع أن ينظر بإنصاف إلى مطالب المتخاصمين من المسلمين واليهود من وجهة النظر الهندية. وهذه مسألة

(6478/1)

أؤكد لكم أنها مسألة مستعجلة جداً وأنها في غاية الخطورة(1).

في تلك الفترة الحرجة عام 1938م وهي الفترة التي كان الإنجليز يتدارسون فيها احتمال تقسيم فلسطين، أصيبت الهند بفاجعة كبيرة لفقدانها رئيس الحلف الإسلامي السر محمد إقبال الشاعر والفيلسوف والسياسي الهندي، بتاريخ 21/4/1938م، وهو الذي ناصر ودافع عن القضية الفلسطينية طيلة حياته(2)

---

(1) الأرشيف نفسه، ملف رقم /75L/PO رسالة من محمد علي جنه إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند، بتاريخ 1939/1/30م.

(2) جريدة الجهاد، 15 ذي الحجة عام 1357هـ الموافق 1939/2/4م، عدد 10.

(1/6479)

، فكانت وفاته صدمة للشعبين الهندي والفلسطيني. وقبل صدور توصية لجنة » وودهيد«، شكل محمد علي علوبة في القاهرة لجنة برلمانية، ودعا النواب البرلمانيين في الدول العربية والإسلامية لعقد المؤتمر البرلماني العالمي للبلاد العربية والإسلامية. وقد لبى الدعوة ممثلو مجالس النواب في معظم الدول الإسلامية. وقد مثل الهند السادة: عبد الرحمن صديقي (عضو المجلس التشريعي في البنغال) والسيد خليف الزمان (عضو المجلس التشريعي في المقاطعات المتحدة). وعقد المؤتمر البرلماني في القاهرة بتاريخ 1938/10/8م؛ وكان أبرز قراراته

(1/6480)

استنكار التقسيم والتنديد بالمظالم التي يلقاها الشعب الفلسطيني. وقرر المؤتمر إرسال وفد إلى لندن للدفاع عن الحقوق الفلسطينية(1).

وكانت المراسلات مستمرة بين حاكم الهند ووزير الهند في لندن. وكان يذكر له في رسائله سخط وغضب المسلمين من اقتراح لجنة بيل بالنسبة للتقسيم، وكان يوصي دوماً في رسائله ويعطي نصائحه بضرورة إلغاء هذا الاقتراح، لأنه سيؤثر كثيرا على الإنجليز في الهند. ففي برقية بعثها حاكم الهند إلى مكتب (وزارة) الهند في لندن بتاريخ

---

(1) جريدة الجهاد، 17 ذي الحجة عام 1357هـ الموافق 1939/2/6م، عدد 12.

(6481/1)

1938/11/10م، قال فيها: »إن المحمديين (المسلمين) في الهند يشكلون أكبر نسبة محمديين في العالم، وهم دائما يهتمون بالقضية الفلسطينية وإنه من غير المعقول دفن آرائهم وهم أكبر جماعة في الإمبراطورية"(1).

وكان حاكم الهند يذكر في رسائله أن عدد المسلمين

في الهند يبلغ حوالي 90 مليون مسلم تقريباً.

وصدر قرار لجنة وودهيد بتاريخ 1938/11/9م، وأشار إلى الصعوبات الجمة التي ستواجه التقسيم سياسياً واقتصادياً وجغرافياً في حال تطبيقه. وبناء على ذلك،

---

(1) جريدة الجهاد، 27 ذي الحجة عام 1357هـ الموافق 1939/2/16، عدد 21.

(6482/1)

أصدرت الحكومة البريطانية بياناً بالعدول عن التقسيم. وقد اعتبر الثوار العرب أن توصية لجنة وودهيد بعدم التقسيم نصر كبير للثورة الفلسطينية.

ومن الأسباب التي أدت ببريطانيا إلى العدول عن التقسيم هو خوفها من حدوث ثورة إسلامية كبرى في جميع مستعمراتها، يكون على رأس هذه الثورة المسلمون الهنود.

مؤتمر المائدة المستديرة بشأن فلسطين في لندن عام 1939م

بعد أن أصدرت وزارة المستعمرات البريطانية بياناً بالعدول عن التقسيم، أصدرت بياناً آخر بضرورة عقد

مؤتمر في لندن لبحث المسألة الفلسطينية من جميع جوانبها وأن

(6483/1)

تتفاوض بريطانيا مع العرب واليهود حول مائدة مستديرة. وافق الفلسطينيون على حضور المؤتمر، ولكن بشرط أن لا يجلسوا مع اليهود، كما وافقت الدول العربية على حضور المائدة المستديرة أيضا واشترطت لحضورها عدم الجلوس مع اليهود على طاولة معا. وبارك المسلمون هذه الخطوة بعد أن أكثروا رسائل الاحتجاج ضد السياسة البريطانية حول توطين اليهود في فلسطين لأنها بلد إسلامي(1).

---

(1) جريدة الجهاد، 10 صفر عام 1358هـ الموافق آذار عام 1939م، عدد 58.

(6484/1)

وفي رسالة بعثها اللورد زيتلاند (Zetland) من حكومة الهند إلى وزير المستعمرات مالكوم ماكدونالد (Malcom Mac Donald) بتاريخ 1938/11/23م شرح

فيها شعور المسلمين في الهند حول تقرير لجنة وودهير ومذكرة الحكومة البريطانية وتأثير ذلك على مسلمي الهند، فقال في رسالته: » إن الصحافة هنا لا تحبذ التقسيم، وإنما تفضل عقد مؤتمر المائدة المستديرة، كما ترغب الصحف في عدم اشتراك اليهود في المؤتمر وضرورة إعطاء العرب الحرية في اختيار مندوبيهم، كما انتقدت الصحف رفض الإنجليز اشتراك مفتي القدس في المؤتمر «(1)

---

(1) أرشيف مكتب الهند، ملف رقم /75L/PO رسالة من آغاخان إلى حاكم الهند، بتاريخ 3/4/1939م.

(6485/1)

. ونصح محمد علي جنه –» رئيس رابطة عموم مسلمي الهند«– زعماء العرب الاشتراك في مؤتمر المائدة المستديرة ومباحثاتها(1).

واقترح حاكم الهند على وزير المستعمرات ضرورة قبول وفد هندي مسلم للمشاركة في مباحثات مؤتمر المائدة المستديرة بشأن فلسطين في لندن، وذلك لأن المسلمين في الهند أكبر نسبة » محمديين « في العالم(2).

---

(1) جريدة الجهاد، 8 ربيع أول عام 1358هـ الموافق 1939/4/28م، عدد 83.

(2) جريدة الجهاد، 4 ربيع أول عام 1358هـ الموافق 1939/4/24م، عدد 79.

(6486/1)

وقبل انعقاد جلسات المؤتمر، رفع رئيس » رابطة عموم مسلمي الهند«كتاباً بتاريخ 1939/1/30م إلى سكرتير الدولة لشؤون الهند قال فيه: » إن » عصبة عموم مسلمي الهند« تحث حكومة جلالته على إعطاء الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وتطلب العصبة أن يحضر ممثلون عنها المؤتمر. إن المسلمين في الهند ينتظرون بفارغ الصبر نتائج المؤتمر. إن فشل المؤتمر سيكون وبالاً ومصيبة كبرى على جميع المسلمين في العالم وسينتج عن ذلك عواقب وخيمة «(1). ونستنتج من هذه الرسالة التهديد الإسلامي الهندي

---

(1) أكرم زعيتر، القضية الفلسطينية، ص.140.

(6487/1)

للإنجليز في حال فشل مؤتمر المائدة المستديرة وعدم إعطاء الحقوق الكاملة للشعب الفلسطيني.

وكانت الزيارات متبادلة بين الوفود العربية قبل افتتاح المؤتمر الذي تم انعقاده في 1939/2/7م. ودعا الوفد الهندي الوفود العربية لتناول الطعام في فندق كلاردج في لندن تكريماً لهم، وكذلك للتشاور فيما بينهم حول اتخاذ موقف موحد في المؤتمر. وكان الوفد الهندي غير الرسمي مكوناً من السادة: عبد الرحمن صديقي (عضو المجلس التشريعي في البنغال)؛ خليق الزمان (عضو المجلس التشريعي في المقاطعات المتحدة)(1)

---

(1) بيان الحوت، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية 1918–1939م، من أوراق أكرم زعيتر، وثيقة رقم 15، ص.648.

(6488/1)

. وطلب الوفد الهندي من الحكومة البريطانية موافقتها على المشاركة في جلسات مؤتمر المائدة المستديرة إلى جانب الوفود العربية(1). إلا أن الحكومة البريطانية اعتذرت عن ذلك عندئذ رفع الوفد الهندي مذكرة باسم

رابطة جميع مسلمي

الهند إلى وزير الهند في لندن عن آراء المسلمين الهنود بشأن فلسطين. وتقع المذكرة في ثماني صفحات من الحجم المتوسط، وزعت نسخ منها على أعضاء مجلس البرلمان البريطاني (مجلس اللوردات ومجلس العموم)، ورؤساء وأعضاء الوفود العربية في لندن، كما وزعت نسخ أخرى على عدد كبير من أنصار

---

(1) المصدر نفسه.

(6489/1)

القضية العربية. وتناولت هذه المذكرة تاريخ القضية الفلسطينية منذ بدايتها، وذكرت بالتفصيل جميع الوثائق والمذاكرات التي اعترف فيها الإنجليز باستقلال فلسطين. وأهم هذه الوثائق مراسلات حسين – مكماهون، والتصريح البريطاني الفرنسي الذي أعلن للزعماء العرب السبعة في القاهرة، والبيان الإنجليزي الذي أعلنه الجنرال اللنبي، وغيرها من الوثائق.

وذكرت الوثيقة الهندية أنه بعد دراسة كل هذه الوثائق السالفة الذكر المتعلقة بفلسطين والبلاد

العربية، تميل »رابطة عموم مسلمي الهند« إلى الاعتقاد بأن الوعود التي قدمت إلى

(6490/1)

المسلمين لم تلق العناية الجدية التي تستحقها وأن الإنجليز خالفوا كل الوعود المقطوعة للعرب. وأضافت المذكرة أن حاكم الهند اعترف للمسلمين الهنود في بداية الحرب العالمية الأولى أن الأماكن المقدسة الإسلامية في بلاد العرب ستبقى تحت السيادة الإسلامية وسوف يتم المحافظة عليها من كل اعتداء. وأضافت الوثيقة أنه »بناء على هذه التصريحات التي أيدها رؤساء حكومتي الهند وبريطانيا العظمى، انضم المسلمون إلى صفوف قوات حكومة جلالة ملك بريطانيا بمئات الألوف وحاربوا في كل جبهة من جبهات الحرب العظمى«(1)

---

(1) جريدة الجهاد، 1939/7/25م الموافق 16 جمادى الأول عام 1358هـ، عدد 131.

(6491/1)

.

بدأ مؤتمر المائدة المستديرة جلساته بتاريخ 1939/2/7 وانتهى في 1939/2/17م، وألقى الأستاذ جمال الحسيني رئيس الوفد الفلسطيني خطاباً حدد فيه المطالب الفلسطينية.

وغادر الوفد الهندي لندن غاضباً وذهب يشكو الإنجليز إلى عصبة الأمم في جنيف. وهناك شرح الوفد الهندي (عبد الرحمن صديقي وخليق الزمان) إلى سكرتير عصبة الأمم موقف المسلمين الهنود، وقد أكدا له أن الإسلام لا يمكن أن يستقر في فلسطين ما لم تتحقق رغبات العرب في استقلال بلادهم وحريتها. كما أطلعاه على رأي المسلمين الهنود النهائي من قضية فلسطين، وأكدا له

(1/6492)

أن مسلمي الهند لا يوافقون على أي حل يطبق على فلسطين لا يكون ضامنا لحقوق إخوانهم العرب، وقالا: »إن فلسطين ليست للفلسطينيين وحدهم وإنما هي ملك لكافة العرب والمسلمين. ولذلك، فإن العالمين العربي والإسلامي عامة ومسلمي الهند خاصة يراقبون باهتمام زائد تطورات الموقف في قضية فلسطين والذي ستحل على أساسه«.

والحقيقة أن الإنجليز اعترفوا أثناء مفاوضاتهم في مؤتمر المائدة المستديرة إعطاء الشعب الفلسطيني استقلاله ولكن بعد عشر سنوات، ولكنهم اشترطوا أن يكون ذلك مرهونا بموافقة اليهود. وفي نفس الوقت حاولت الحكومة

(1/6493)

البريطانية أن توسط بعض زعماء الهنود لإقناع العرب بقبول مفاوضات مؤتمر المائدة المستديرة. ففي رسالة من آغا خان إلى حاكم الهند بتاريخ 3/4/1939م، قال فيها إن الحكومة البريطانية دعته إلى لندن لبحث شؤون فلسطين، فوافق وذهب إلى لندن، واجتمع هناك بزعماء العرب وحاول إقناعهم بخطة بريطانيا، ولكن العرب رفضوا لسببين هما: الهجرة الصهيونية، والاستقلال بعد عشر سنوات. واقترح آغاخان على الإنجليز أن يسافر إلى مصر لمقابلة رئيس الوزراء المصري والتباحث معه لإقناع المفتي بقبول هذه النقاط، وقد حبَّذت الحكومة البريطانية

(1/6494)

اقتراح آغاخان.

ثم سافر الوفد الهندي إلى دمشق ثم إلى بلاده. وعندما كان الوفد الهندي في دمشق، عرج على بيروت لزيارة مفتي القدس. وقد انضم للوفد الأستاذ الأنصاري، حيث رحب بهم المفتي وشكرهم على ما قاموا به من دفاع عن قضية فلسطين في لندن وجنيف والهند.

وفي هذه الفترة، توفي مولانا محمد عرفان رئيس صحيفة »خلافت« اليومية سكرتير جمعية الخلافة التي أسسها المرحوم مولانا شوكت علي. ومن المعروف أن الفقيد حضر مؤتمر الدفاع عن فلسطين وكان مندوبا عن حزب الكتلة الإسلامية (Muslim League)؛ وللفقيد خدمات جليلة في سبيل

(1/6495)

القضية الفلسطينية.

وفي تلك الفترة أصبح العالم على شفا حفرة من الحرب العالمية الثانية عندما بدأ هتلر تهديداته لجيرانه. عندئذ أرادت بريطانيا استرضاء العالم الإسلامي والعربي. فأصدرت الكتاب الأبيض بشأن فلسطين. والحقيقة أن إصدار الكتاب الأبيض كان القصد منه أن لا يشترك العرب والمسلمون

مع هتلر في الحرب العالمية الثانية ضد بريطانيا.

صدر الكتاب الأبيض في 1939/5/27م، وصرح الإنجليز أنهم سوف ينفذون بنود الكتاب الأبيض بالقوة سواء قبل به العرب أو رفضوه وسواء عارضه اليهود أو وافقوا عليه. وأهم ما جاء في الكتاب

(1/6496)

الأبيض من بنود ما يلي:

1- أن تصبح فلسطين دولة مستقلة بعد فترة انتقال مدتها عشر سنوات وأن يوضع دستور لفلسطين.

2- يسمح بالهجرة في أول خمس سنوات، فيسمح بدخول 75 ألف مهاجر يهودي في هذه الفترة ثم تتوقف الهجرة اليهودية نهائيا، وتصبح الهجرة مرهونة بموافقة العرب.

3- يمنع انتقال الأراضي العربية إلى اليهود خوفاً من إلحاق الضرر بالاقتصاد العربي، ويسمح لليهود بشراء أراض في أماكن مختلفة محددة في فلسطين، وتوضع قيود على انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود في بعض المناطق الأخرى.

(1/6497)

رفض الفلسطينيون الكتاب الأبيض، لأنه لم يحقق المطالب الفلسطينية التي تدعو إلى تشكيل جمهورية فلسطينية خلال ثلاث سنوات كحد أقصى، وكذلك لأن الكتاب الأبيض يقوم على صك الانتداب، وأن الدولة الفلسطينية مرهون قيامها بالوفاق العربي اليهودي.

احتج الشيخ عبد الحميد سعيد (رئيس اللجنة العليا المصرية للدفاع عن فلسطين والرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمون) على الكتاب الأبيض، حيث أرسل برقيتين بتاريخ 1939/5/22م: الأولى إلى الحكومة البريطانية، والثانية إلى العصبة الإسلامية في الهند، احتجاجاً على الكتاب الأبيض.

(1/6498)

فقال في برقيته إلى الحكومة البريطانية: » كتابكم الأبيض عن سياستكم بفلسطين خيب آمال العرب والمسلمين كافة في إمكان التحالف مع بريطانيا. إن هياج اليهود اليوم جاء نتيجة تدليلكم ومحاباتكم لهم طوال العشرين سنة الماضية، وتذبذب السياسة البريطانية

في الاعتراف بعروبة فلسطين يقطع الأمل في وقوف العالم الإسلامي إلى جانب بريطانيا في الأزمات المقبلة، وكل من يقول لكم عكس هذا يضلل الشعب البريطاني وحكومته «.

وأما برقية الشيخ عبد الحميد سعيد إلى العصبة الإسلامية في الهند، فطالبت بالدعم الإسلامي الهندي لفلسطين.

(1/6499)

وهذا هو نص البرقية: » استنكرنا تلغرافياً سياسة بريطانيا في كتابها الأبيض بشأن فلسطين، لأنها أبقت باب الهجرة اليهودية مفتوحاً، ولم تمنع انتقال الأراضي إلى اليهود، واشترطت لتشكيل الحكومة الفلسطينية المقبلة شروطا فرضت فيها لنفسها حرية التصرف وقضت بالنص صراحة على صبغة فلسطين الإسلامية ولا يزال الجيش البريطاني ينكل ويمثل بالمسلمين إلى اليوم. فندعوكم باسم الإسلام إلى الاحتجاج «.

وهكذا كانت المكاتبات المستمرة بين المسلمين لاستنصار بعضهم بعضاً، وكان المسلمون في الهند يؤيدون الحقوق المشروعة للشعب

(6500/1)

الفلسطيني. لذلك عقد المسلمون في بومباي بالهند ثلاثة مؤتمرات إسلامية لثلاث هيئات سياسية كبرى في الهند. وتناول البحث في هذه المؤتمرات الثلاث قضية فلسطين، وموقف المسلمين الهنود من الكتاب الأبيض. وقد تقرر في هذه المؤتمرات الثلاث بالإجماع ما يلي:

» 1– إعلان عطف مسلمي الهند العام على إخوانهم عرب فلسطين وتأييدهم في مطالبهم.

2– الاحتجاج على السياسة الحالية الموجودة في فلسطين.

3– الاعتراف بأن مقترحات الكتاب الأبيض معناه الاعتداء الصريح على حقوق العرب ونقض للعهود والمواثيق التي أعطيت لهم.

(6501/1)

4– محاولة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين معناها الاستهتار بشعور مسلمي الكرة الأرضية.

5– مطالبة السلطات المسؤولة بإجابة أماني عرب فلسطين«.

الخاتمة

نستنتج مما تقدم أن المسلمين الهنود كانوا يدافعون عن المسجد الأقصى الموجود في فلسطين دائما، وكانوا يقفون بجانب الشعب الفلسطيني في كل مؤتمر هندي أو عالمي. كما نستنتج مما تقدم أيضا أن الإنجليز كانوا قبل اتخاذ أي قرار بشأن مصير فلسطين أو بشأن زعماء فلسطين يحسبون ألف حساب للتأثير الإسلامي الهندي. وكان الإنجليز يعلمون أنه إذا غضب المسلمون الهنود بشأن

(6502/1)

فلسطين، فإن الشجرة البريطانية ستهتز؛ وإذا اهتزت، فإنهم لن يستطيعوا النوم الهادئ.

كان تأثير الإضراب واضحا على المسلمين في شبه القارة الهندية. فقد وقفوا مع إخوانهم في فلسطين موقفا مشرفا فدعموهم بالكلمة الهادفة في الجرائد الإسلامية في الهند، ودعموهم ماديا لإسعاف الجرحى والعائلات الثكلى نتيجة الثورة الفلسطينية. ودافعوا بقوة أمام المحافل الإنجليزية عن الحقوق الفلسطينية والأماكن المقدسة وضرورة صيانتها واحترام قدسيتها. إن النداء

الإسلامي في الهند بأن المسجد الأقصى ليس للفلسطينيين فقط بل هو لكافة

(1/6503)

المسلمين في العالم، كان نداء واضحا وصل لمسامع الإنجليز. لذا تأكدوا أنه مهما بعدت المسافات بين أقطار العالم الإسلامي، فإن الرابطة الدينية تجمعهم للدفاع عن الأماكن المقدسة.

لقد حاولت الدعايات الصهيونية المضللة أن تصل إلى مسامع المسلمين في الهند، ولكنها كانت تواجه دعايات أشد من قبل زعماء الهند المسلمين. فالحرب الدعائية الصهيونية لم تكن ناجحة في الهند. فلم يستطع الكاتب الصهيوني تغطية الشمس بالغربال. إن المسلم الهندي الذي يقدم روحه فداء للدفاع عن المقدسات الإسلامية كغيره من المسلمين في العالم. ولو

(1/6504)

لم تمنع بريطانيا المسلمين الهنود المتطوعين لوصل إلى فلسطين عشرات الآلاف للدفاع عن فلسطين، ولكن

بريطانيا منعت الهنود من الذهاب لفلسطين في تلك الفترة.

المصادر والمراجع

الأرشيفات

أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية (PRO)، لندن.
أرشيف وزارة الخارجية البريطانية (FO)، لندن.
أرشيف مكتب الهند (L/P and S)، لندن.
أرشيف جمعية الدراسات العربية –القدس، والجرائد العربية.

الكتب بالعربية

1– بيهم، محمود جميل. –فلسطين أندلس الشرق، بيروت، 1946.

(6505/1)

2– جبارة، تيسير. –وثائق فلسطينية في دور الأرشيف البريطانية، مركز الأبحاث، جامعة الخليل، 1986م.

3- حسين، محمد عبد الرحمن. -العرب واليهود في الماضي والحاضر والمستقبل، دار المعارف، الإسكندرية، بدون تاريخ النشر.

4- الحسيني، محمد أمين. -حقائق عن قضية فلسطين، المطبعة السلفية مصر 1954م.

5- الحوت، بيان. -القيادات والمؤسسات في فلسطين، دار الأسوار، عكا، 1984م.

6- الخالدي، حسين فخري. -مذكرات، محفوظة لدى ابنته في بيروت.

7- دروزة، محمد عزة. -حول الحركة العربية الحديثة، المطبعة العصرية، صيدا، لبنان، 1951م.

(6506/1)

8- الزركلي، خير الدين. -شبه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز.

9- زعيتر، أكرم. -وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية (1918م-1939م)، إعداد بيان الحوت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، بيروت.

10 --. -القضية الفلسطينية، دار المعارف، مصر، 1955.

11- سعيد، أمين. -تاريخ الدولة السعودية، عهد الملك

عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل (1319–1373هـ).
المجلد الثاني، دار الكتاب العربي.
12– سعيد، محمد علي. –بريطانيا وابن سعود، العلاقات السياسية وتأثيرها على المشكلة الفلسطينية، دار الجزيرة للنشر، 1982م.

(1/6507)

13– صدقة، نجيب. –قضية فلسطين، دار الكتاب، بيروت، 1946م.
14– طربين، أحمد. –الوحدة العربية (1916–1945م)، القاهرة، جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية العليا، 1959م.
15 ––. –فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار (1939–1947م)، القاهرة، جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، 1972م.
16– عبد الهادي، مهدي. –المسألة الفلسطينية، منشورات المكتبة العصرية، ط1، صيدا، 1975م.
17– علوش، ناجي. –المقاومة العربية في فلسطين (1917–1948م)، مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت، 1967م.

(6508/1)

18- الغوري، إميل. -فلسطين عبر ستين عاماً، دار النهار، بيروت، 1975م.

19- قاسمية، خيرية. -مذكرات القاوقجي. دار القدس، بيروت، 1975م.

20- الكيالي، عبد الوهاب. -وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني الصهيوني (1918-1939م)، مركز الأبحاث الفلسطيني، 1969م.

المراجع باللغة الإنجليزية:

1- Abu Lughud, Ibrahim, The Transformation of Palestine, Northwestern Univ. Press, Ebanston, 1971, Collection of Essays by Scholars.

(6509/1)

2- Bentwich, Norman and Helen, Manadate Memories 1918-1948, The Hogarth Press, London, 1965.

Furlonge Sir Geoffrey Warren, Palestine is –3
my country, the Story of Musa Al-Alami, John
.1969Murry, London,
Hyamson, Albert, Palestine Under the –4
, Green-wood Press 48–1920Manadate
.1976Publishers Port, Conn,
Jeffries, J.M.N., Palestine, the Reality, –5
.1939Longmans Green and co., London
Jbara, Taysir, Hajj Muhammad Amin Al- –6
Husayni, Mufti of Jerusalem, The Kingston
Press, Inc. Princeton, New

.1985Jersey,
Kish, F.H., Palestine Diary, Victor Gollancz –7
., London1938Ltd,
Porath, Yehushua, The Emergence of the –8
, 1939–1918Palestine National Movement,
.Trank Cass and Co Ltd
. 1939–1915Great Britian and Palestine - –9
A) The Royal 20Information, Dept No. (
Institute of International Affaires Oxford

, 1852, India Office, T.1939University Press,
.1939–1915Palestine,

(6511/1)

النشاط التجاري في بلاد المغرب خلال القرن ، 4 هـ دراسة من خلال كتاب –صورة الأرض–، لابن حوقل

الدكتورة صباح إبراهيم الشيخلي
كلية الآداب – جامعة بغداد

أولا : ابن حوقل والمغرب :

أ – حياة ابن حوقل ونشأته

لا نعرف إلا القليل عن الرحالة و"لتاجر إلى القاسم محمد بن على بن حوقل (1)، فالغموض يلف تاريخ ولادته ومكانها، حيث اختلف الكتاب العرب الوسطيين الذين أخذوا عنه في نسبته ، فأسماه بعضهم "النصيبي " (2)، وآخرون "الموصلي"(3)، واكتفى أكثرهم باسم ابن حوقل أو الحوقلي(4). وكما اختلف الكتاب

(6512/1)

---

(1) أهملت كتب تر"جم الرحال ذكر ابن حوقل ، مما جعل معرفتنا قليلة بحياة هذا الرجل. ويعزو بعض الباحثين هذا الإهمال إلى ابن حوقل كان رحالة متجولا لم يستقر به المقام في بلد. انظر : عبد الواحد ذي النون طه، "الأندلس من خلال كتاب صورة الأرض لابن حوقل)، المؤرخ العربي، العدد 3، (1983)، ص . 30 سعد عبود سمار، ابن حوقل . دراسة تاريخية في كتابه صورة الأرض، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة البصرة، 1987)، صص. 2–3.

(6513/1)

---

(2) الصاحب عز الدين أبو عبد الله بن على بن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، نشرة دومنبك صوديل(دمشق ، 1953)ج1، ق1، ص 139.

(3) زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد (بيروت ، دار صادر، 1960، صص. 419–458 ياقوت الحموي ، معجم البلدان،(دار صادر، بيروت ، 19، ج1، صص 262 ،369،542،ج2 ، ص. 339،ج3،صص . 458،419.

(4) عبد الله بن عمد بن إدريس الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، (روما، 1970)، ج2 ،

(6514/1)

في نسبته ، فقد اختلفت المخطوطات التي عثرنا عليها لكتابه "صورة الأرض "، فيما يخص لقبه فبعضها تسميه "النصيبي" والأخرى "الحوقلي البغدادي ،)(5). ولكن الشيء المؤكد عن حياة ابن حوقل علاقته الوثيقة بمدينة بغداد – مكان نشأته ولتكوينه الفكري ومنطلق رحلته العلمية – التجارية الشهيرة التي استغرقت اكثر من ثلاثين عاما إلى أقاليم الدولة العربية الإسلامية. عرف عن ابن حوقل شغفه بقراءة وتمحيص كتب المسالك والممالك ، والظاهر أن اطلاعه على ما بها لم يوفر له القناعة الكافية لذا قرر القيام برحلته المعروفة، توسيعا

(6515/1)

لمعارفه عن البلدان ، إلى جانب رغبته في تحقيق الربح التجاري والابتعاد عن الجو السياسي المتسم بالظلم والفساد، وإشباعا لميله إلى الأسفار ر"لمغامرة(،). بدأ ابن حوقل رحلته ، كما يقول ذلك نفسه ، من بغداد مدينة السلام "في يوم الخميس لسبع خلون من شهر

رمضان سنة أحد وثلاثين وثلاثمائة،) (15 أيار / ماي سنة 943 م)، وزار خلالها مصر والمغرب والأندلس وصقلية والجزيرة والعراق والأحواز وجرجان وغيرها. والذي يهمنا في أسفاره جلته إلى المغرب التي وصلها عام 336هـ/ 947م وقضى فيها أربع سنوات ، جل بعد ذلك إلى الأندلس في

(6516/1)

عام 340هـ / 951م ، وفى طريق عودته من الأندلس مر على المغرب ثانية حيث نجده في هذا الإقليم عام 350هـ /961م (7)

ص . 177 إسماعيل بن على بن محمد أبي الفدا، تقويم البلدان ، نشرة رينو (باريس ، 1848، صص . 44–58– 90–122–139 شمس الدين أد عبد الله محمد إلى طالب ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (بطرسبورغ ، 1865، ص 122 عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة (دار إحياء التراث العربي، بيروت ، د–ت)، ص . 53– علي بن عيسى الديهي، عجائب البلدان والجبال والأحجار، مخطوط مكتبة الداسات العليا، كلية الآداب ، جامعة بغداد (رقم

(6517/1)

---

14) ورقة 56–142–161.

(5) أبو القاسم بن حوقل ، صورة الأرض ، (منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1979)، ص7.

(6) المصدر نفسه ، صص . 10–273. ومما يذكر أن بعض الباحثين أضاف سببا آخر لرحلات ابن حوقل ودلك لكونه داعية سياسيا للفاطميين أو العباسيين ، فقد كان يجمع لهم معلى مات تخصهم على أقاليم الدولة العربية الإسلامية. انظر . اغناطيوس يوليانوفتش كراتشكرفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح المدين عثمان هاشم (دار المغرب الإسلامي ، بيروت ، ط2، 1987)، صص 216–221 ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الأندلس

(6518/1)

، ترجمة دوقان قرطوط (منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 19) صص 87–88.

(6) صورة الأرض ، صص . 152– 193 . c.van ArendowicL ENCYCLOPIDIE OF ISLAM, NEW

عد الباحثون المحدثون ابن حوقل من بين أصحاب المدرسة الجغرافية العربية الكلاسيكية التي اهتمت بوصف البلدان (8). ولكنه تميز عنهم بمشاهدته لكل ما كتبه ونقده لكل ما سجله ، ثم التدوين بلغة معقولة سلسة(9). ولذا جاءت معلوماته على درجة كبيرة من الدقة العلمية، ويظهر هذا واضحا وبشكل، متميز فيما كتبه عن إقليم المغرب . يقول كراتشكوفسكي :

(6519/1)

"وإنه يجب الاعتراف بأن ابن حوقل هو الخبير الأول بين جغرافي هذه المدرسة الكلاسيكية في شؤون المغرب ، ؟إن معلوماته الكثيرة عن تلك البلاد اكتسبت كتابه صورة الأرض شهرة في بلاد المغرب "(10) .

وهذه شهادة مهمة من باحث درس الجغرافية العربية بعين الناقد المتفحص والعارف الدقيق ، ولعل الملاحظة المهمة التي أبداها كراتشكوفسكي عن ابن حوقل والمغرب هي التي دفعتني لمعرفة أسباب ما ذهب إليه.

(8) كراتتكوفسكي ، المصدر السابق ، ص 22.

(6520/1)

(9) أدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة عبد الهادي أو ريدة (دار الكتاب العرفي، بيروت، ط 3،1958)، صص 5–8.

(10) تاريخ الأدب الجغرافي، ص221.

فيما يخص المدرسة الكلاسيكية الجغرافية العربية فيه تشمل كتب المسالك والممالك التي كتبها البلخي والإصطخري وابن حوقل والمقدسي. (كراتشكوفسكى، ن .م، ص221 . وكان الإصطخري ميدان السبق في كتب المسالك والممالك، أما ما كتبه عن المعرب فيشمل وضع حدود هده البلاد إلا أن ذلك لم يصل إلى ما رممه أبن حوقل من حيث الدقة والوضوح

(6521/1)

. كما وصف الإصطخري مدن المغرب وحدد المسافات لينها، وذكر معلومات متفرقة عن لعض الثروات الطبيعية وعموميات الإنتاج الزراعي لمدن المغرب وكذلك سكانها. أما الفعاليات التجارية للمعرب فقد أشار إلى تجارة الذهب مع بلاد السودان تطرق إلى الحركة الملاحية بين المغرب والأندلس. انظر أبو إسحاق إبراهيم بن محمد

الإصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيس (دار القلم ، القاهرة، 1961)، صص 34–8. أما المقدسي، الذي وصفت معلوماته بالأصالة، وعمق الملاحظة والصياغة ألمنظمة كراتشكوفسكي ، ن .م ص227)، فقد

(6522/1)

كان اهتمامه بالمغرى قد برز في وصفه للتقسيمات الإدارية لهذا الإقليم الذي يشمل الأندلس والمغرب في أيامه . وأشار أيضا إلى بعض الحاصلات الزراعية والثروات المعدنية وغير المعدنية لبعض مدن المغرب وإلى الأسواق التجارية فيها. ولكنه ، وكما يقول هو نفسه ، إنه ذكر ذلك باختصار خوفا من ملاط القارئ وطول الكتاب . وعلاوة على ذلك لم يتطرق المقدسي إلى شبكة الطرق التجارية أبدا والتي فصل فيها ابن حوقل . حول ما ذكره المقدسي انظر : شمس الدين أبو عبد الله محمد أحمد المقدسى البشاري ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

(6523/1)

(بريل ليدن 1906) ص 228.

ب – المغرب في كهاب صورة الأرض :

كتب ابن حوقل عن المغرب بوصفه شاهد عيان لما شاهده وما عرفه بنفسه عن كثب وما سأل فيه أهل تلك البلاد ممن وثق بمعرفته ، ولندعه يذكر لنا مصادر معلوماته عن المغرب فهو يقول : "هذه صورة المغرب وسكان كل عمل ومدينة منها وموقعها من شمالها وجنوبها وشرقها وغربها، حسب ما أدت الاستطاعة إليه ووقعت بالمشاهدة والخبر الصحيح بالمفاوضة عليه "(11).

وفي موضع آخر من كتابه يؤكد ذلك بقوله : "وهذه .. . مما انتهيت إليه وأدركته بالعيان أو أخذته ممن نشأ فيه ،،(12).

(6524/1)

وعلى ذلك جاءت معلومات ابن حوقل عن المغرب دقيقة وموثوق فيها.

والسؤال الذي يطرح نفسه أولا ماذا كتب ابن حوقل عن المغرب ! وملخص الجواب بكلماته هي : "صورت مدنه وذكرت أعماله وازلفاعها وما فيها من التجارات والمجالب إلى ما سوى ذلك "(13). فابن حوقل إذن دون كل ما ر"ه

وخبره وأثار انتباهه في بلاد المغرب.

بدأ برسم حدود إقليم المغرب بدقة في القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي ، اكثر من أي جغرافي أو كاتب عاصره ، وهو عنده يبدأ من –برقة شرقا إلى سواحل المحيط الأطلسي غربا، أما جنوبا فيمتد المغرب إلى نواحي أرض

(6525/1)

أودغست وأرض غانة (بلاد السودان) ويحده بحر الروم من الشمال . كا جعل الأندلس في جملة بلاد المغرب (،1). رسم ابن حوقل خارطة ثبت فيها مكان المدن الساحلية و"لداخلية المغربية بالإضافة إلى مراكز الاستقرار الصحراوية وبعض معالم بلاد السودان . كما لم ينس أن يثبت شبكة الطرق البرية التي ربطت بين مناطق المغرب ومدنه ومحطاته التجارية.

(11) صورة الأرض ، ص69.

(12)ن .م ،ص83

(13) ن . م ، ص64.

(14) ن . م ، صص.64–5. ومن الملاحظ أن المقدس ضم صقلية إلى إقليم المغرب . ولم يدخل الأندلس ، لأنها كانت مستقلة وتحت حكم

(6526/1)

الأمويين في أيامه . أحسن التقاييم ، ص. 216.

دون ابن حوقل وصفا شاملا لمدن المغرب ، صغيرها وكبيرها، قراها ومحطاتها، ولم يترك شيئا منها إلا وصفه ، على حد قوله (15). وشملت أوصافه بصورة عامة الوضع السياسي لمدن المغرب ولخصه بأن المغرب من برقة إلى آخر أعمال طنجة "في جملة صاحب المغرب وحوزته وقبضته أو في يد خليفته)(16)، وهو يريد بذلك السلطة الفاطمية أو ممثليها في القيروان من آل زيري الصنهاجيين.

أما التقسيمات الإدارية لبلاد المغرب فلم يذكرها بصورة واضحة، لكنه سجل بعض الاصطلاحات الإدارية مثل الكورة (وحدة

(6527/1)

إدارية أصغر من الإقليم)، والمدينة (وحدة إدارية)، والرستاق (المنطقة الزراعية التابعة للمدينة)، والناحية (أحد أقسام إقليم ما،)(17)، والقرية (وحدة

إدارية أصغر من المدينة)، وقسمها إلى صغيرة وكبيرة. وذكر ابن حوقل أسماء بعض الوظائف الإدارية في مغرب القرن ،ر/5ام مثل الوالي ، والعامل ، وصاحب الصلاة (وهو الناظر في شؤون البلد)، وصاحب الشرطة(18). ومن المناصب الإدارية الأخرى التي ذكرها صاحب بيت المال وصاحب الخراج وصاحب ديوان المغرب ، أما سلطان المغربي فمقره القيروان (19).

(6528/1)

تطرق ابن حوقل ، أثناء وصفه لمدينة ما، إلى بعض الجوانب التاريخية الخاصة بها مثل تحديد زمن بنائها أو خرابها، وبعض الأحداث التاريخية التي شهدتها. ولم ينس ذكر البناء الوظيفي للمدينة المغربية من حيث حجمها ووظائفها : الإدارية و"لدينية والعسكرية والتجارية(20).

اهتم ابن حوقل ببعض الجوانب الجغرافية لإقليم المغرب ، فذكر ثرواته الطبيعية : زراعية وحيوانية، معدنية وغير معدنية، فضلا عن مصادر المياه فيه .

(15) صورة الأرشيف ص83 .

(16) ن . م ، صص 83–4.

(6529/1)

---

(17) ن . م ، ص . 83–86–94. ومما يذكر أن الجغرافي المقدس المعاصر لابن حوقل، قسم إقليم المغرب إلى سبع كور هي : برقة وإفريقية وتاهرت وسجلماسة وفاس والسوس الأقصى وصقلية. أحسن التقاسيم ، ص 216.

(18) صورة الأرض ، صص 70–72–144.

(16) ن . م ، صص 94.

(19) انظر : سمار، المصدر السابق ، صص 187–239.

كما نالت الجو"نب الاجتماعية اهتمام ابن حوقل فقد ذكر سكان إقليم المغرب ، وتقاليدهم وعاداتهم وأخلاقهم وملابسهم وعلمهم . وانفرد من بين جغرافيي عصره بتدوين قائمة طويلة لأسماء قبائل المغرب وصحاريه. إذ ذكر ما لا يقل

(6530/1)

عن مائتين منها، موزعا إياها على أقسام المغرب المختلفة وصحاريه. وبذلك يكون ابن حوقل قد حفظ لنا

خارطة أولية للتوزيع السكاني في إقليم المغرب في القرن 4هـ/10م.

تابع ابن حوقل الشؤون الاقتصادية للبلدان التي مر بها، فرسم في كتابه مخططا دقيقا للإنتاج في العالم على أيامه ، وهو الجغرافي الوحيد في عصره الذي أولى الأمر ذلك الاهتمام المتميز(21). وكانت اقتصاديات المغرب في ضمن هذا الخطط، إذا احتلت مساحة واسعة فيما دونه ابن حوقل عن المغرب ،وشملت الجوانب النشاط الزراعي والصناعي والتجاري لمغرب القرن هـ د/5ام.

(6531/1)

وتحك الفعاليات التجارية المغربية باهتمام متميز من ابن حوقل . وإذا كانت مثل هذه الفعاليات في أقاليم الدولة العربية الإسلامية قد نالت اهتمامه الواضح ، فإن ما سجله عن التجارة لمغرب القرن 4هـ/10م يمكن أن يعد الإضافة المهمة التي سطرها والتي ميزته عن غيره من البلدانيين الذين كتبوا عن المغرب . ويعزى اهتمام ابن حوقل بالفعاليات التجارية ببساطة إلى الحس التجاري الذي امتاز به لكونه كان يمض لن التجارة، وهى دافعه الأسلسي في الرحلة والتجول (22).

(6532/1)

جاءت معلومات ابن حوقل التجارية عن المغرب مفصلة شاملة، اهتم أولا بتبيان الأسباب التي تتحكم في تجارة هذا الإقليم ، ثم صنف الأنشطة التجارية المغربية إلى تجارة داخلية وتجارة خارجية : برية فسرية لكلا الصنفين . ورسم شبكة الطرق التجارية الرئيسية والفرعية سواء أكانت ساحلية أو داخلية بدقة، وأعلى لمحطاتها التجارية اهتماما كبيرا. وضع ابن حوقل قائمة بأسماء السلع الصادرة والو"ردة إلى بلاد المغرب من مختلف الأنواع ومن وإلى مختلف الجهات الداخلية و"لخارجية. كما نالت بعض النظم التجارية اهتمام ابن حوقل فذكر

(6533/1)

الأسواق وأنو"عها، والعاملين بالتجارة، وكذلك الضرائب المفروضة على التجارة. ولم ينس التطرق إلى

(21) كراتشكوفسكي ، المصدر السابق ، ص 220.

(22) المصدر نفسه ، صص 21–220

طرق التعامل التجاري والأسعار والموازين والمكاييل !

فجاءت معلوماته عن النشاط التجاري غاية في التفصيل والشمول ، فضلا عن دقتها لأنه سبر غورها بالمشاهدة والمعرفة الشخصية.

ثانيا : تجارة المغرب في القرن ،4هـ /10م.

أ – العوامل التي تتحكم في التجارة : كانت الفعاليات التجارية لمغرب القرن ،هـ /215، كما صورها كتاب صورة الأرض ، نشيطة وواسعة

(6534/1)

ومتنوعة، تدر أرباحا كبيرة على تجارها(23). وأسباب هذا الانتعاش التجاري يجدها الباحث المتمعن مبثوثة بين سطور الورقات التي كتبها ابن حوقل عن المغرب . ومما لا شك فيه أن التجارة تعتمد بصورة أساسية على ما تنتجه الزراعة من حاصلات وما تنتجه الصناعة من سلع فضلا عن الثروة الطبيعية والحيوانية، وهذا ما .حاول ابن حوقل توضيحه ، مهتما بربط ذلك بالواقع الجغرافي والسياسي للمغرب في القرن ،4هـ/15 م.

أدى النشاط الزراعي للمغرب دورا أساسيا ومهما في نشاط الحركة التجارية لهذه البلاد، فقد اتخذت المنتجات الزراعية في

مقدمة السلع التجارية، وهذا ما أكد عليه ابن حوقل مرارا، إذ كان يربط بين الإنتاج الزراعي في المغرب وبين حركة التجارة. فحين يتكلم عن مدينة سرت يقول "لها أجنة و"سعة ومزارع عظيمة . . . وأهلها تجار"(24). وجمعت تاهرت بين توفر المحاصيل الزراعية والأشجار والبساتين وبين التجارة الواسعة (25)، كما جمعت فاس هي الأخرى بين الغلات الكثيرة والتجارات (26)، وكانت أغمات كثيرة الخير كثيرة التجارة(27).

(23) انظر مثلا : ابن حوقل ن . م ، صص 73–76–90.

(24)ن .م ،ص 81.

(25) ن . م ، ص 86.

(26)ن. م ،ص89.

(27)ن. م ،ص90.

وعلاوة على ذلك فإننا نجد ني صورة الأرض زخما من المعلومات عما يتوفر من محاصيل زراعية في كل مدينة

وناحية في إقليم المغرب ، مع توضيح خصوصية كل منها فيما تنتجه من محاصيل زراعية . ويعزو ابن حوقل وفرة الإنتاج الزراعي في المغرب إلى طبيعة هذه البلاد الجغرافية، حيث توفر المياه وخصوبة التربة وجودة الهواء، وهذا ما أدى إلى كثرة الغلات والزروع في مدنه ، التي لم تدر أرباحا طائلة على مزارعيها فحسب وإنما على تجارها أيضا(28).

(6537/1)

ويمكن أن نسجل الملاحظات التالية عن الإنتاج الزراعي لمغرب القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد:

1 – تكثر في المغرب من إفريقية إلى أخر أعمال طنجة المدن والمزارع والمياه ، فأرضه زراعية معطاء(29).

2 – يتنوع فيه الإنتاج الزراعي الذي يزيد عن حاجة المدن التي تنتجه ، فتصدره إلى حيث الطلب عليه داخل المغرب أم خارجه (30).

3 – كانت الحنطة والشعير في مقدمة الحاصلات الزراعية التي تنتجها مدن المغرب وعلى نطاق واسع (31).

(6538/1)

---

4 – تنتج مزارع المغرب الواسعة غلات مهمة في السوق التجارية مثل القطان والسمسم والكتان والقنب وقصب السكر و"لزيتون (ولاً).

5 – تتوفر الأشجار المثمرة في بساتين مدن المغرب ، حيث تنتج كميات كبيرة من التين والأترج والسفرجل ، والجوز واللوز، بالإضافة إلى التمور التي تنتجها أشجار نخيل المغرب ، وأنو"ع أخرى من الفواكه المتنوعة والكثيرة(33) .

وقد رافق الإنتاج الزراعي الوفير والواسع لمدن المغرب في القرن 4هـ/10م كثرة الثروة الحيوانية، التي كانت من الأسباب المنشطة لحركة التجارة المغربية.

(28)ن .م ،صص 76–81..

(6539/1)

---

(29) ن . م ، صص 83 .

(30)ن .م ،صص 88–89.

(31) ن . م ، صص 81–90–88–84–85–90–73–75–89.

(لاًلاً) ن. م ، صص 90–87–85–90–92–77–89–81–86.

ونستطيع أن نجمل ملاحظات ابن حوقل عن الثروة

الحيوانية ومنتجاتها عن المغرب بما ل!.1 – كثرة الثروة الحيوانية ومنتجاتها بما يزيد عن حاجة المدن المنتجة لها(34).

1 – تنوع الثروة الحيوانية في بلاد المغرب ، فهي على سبيل المثال ، الغنم ، والبقر والدواب والخيل والإبل والأسماك (35).

(6540/1)

---

2 – كانت منتجات الثروة الحيوانية المغربية واسعة، وشكلت سلعا أساسية في الحركة التجارية المغربية في القرن ،د/5ام ، ومنها الزيت والعسل والسمن والصوف والجلود(36).

وكان من أسباب النشاط التجاري توفر الثروة المعدنية وغير المعدنية في بعض مدن المغرب ومناطقه . فهي على سبيل المثال الحديد والرصاص والزئبق والقطران والشب والمرجان (37).

كما لم ينس ابن حوقل الربط بين الإنتاج الصناعي والتجارة. فتوفر السلع المصنعة في بعض مدن المغرب كان عاملا من عوامل نشاطها التجاري . فالمنسوجات الصوفية التي تنتجها طرابلس

وقسطيلية وغيرها كانت تشكل سلعا تجارية تصدر إلى المشرق (38)، وكذلك الحال بالنسبة إلى الخزف والفخار(39).

ومن الملاحظ أن –الموقع الجغرافي لبعض مدن المغرب كان عاملا مهما في ازدياد الفعاليات التجارية فيها، ويمكن تصنيف هذه المدن على الشكل التالي :

1 – مدن جعلها موقعها محطات تجارية حدودية تعمل على تصدير واستيراد السلع والمنتجات . ومن هذه المدن مدينة برقة التي كانت أول محطاة تجارية يصلها القادم من مصر وآخر محطة تجارية يغادرها الذاهب إلى مصر والشرق . ولذا كانت

(34) ن . م ، صص .77.

(35) ن . م ، صص 73–75–77–86–94–95 .

(36) ن . م ، صص . 72–77–78–86 .

(37) ن . م ، صص . 77–86–94–69–70–77–76 .

(38) ن . م ، صص 72–92–94.

(39) ن . م ، ص 75.

حركة التجارة دائبة فيها لا تنقطع ليلا ولا نهارا، فكثرت تجارتها وتجارها، وازدهرت أسواقها بضروب المتاجر "الصادرة في المشرق والواردة في المغرب "(40). وفى المحطات التجارية الحدودية المهمة مدينة سجلماسة، التي تعد مركز القوافل التجارية الصحراوية الذاهبة إلى بلاد السودان ، أو القادمة منه . فهي مركز لتجمع "القوافل التجارية التي تقطع بلاد المغرب لتصل

(6543/1)

إلى سجلماسة ومنها تنطلق عابرة الصحراء إلى بلاد الزنج ،(41).والملاحظ أن أهمية سجلماسة التجارية إنما جاءت في ارتباطها بطرق تجارية متعددة الاتجاهات مع مدن المغرب ، فأصبحت مركزا لتجمع التجار المغاربة وغير المغاربة(42).

2–مدن جعلها موقعها محطات تجارية مهمة لكونها تشكل حلقة وصل للطرق التجارية المغربية وبعدة اتجاهات ، رمنها على سبيل المثال مدينة المسيلة (مركز منطقة الزاب)(43)، التي كانت محطة ابتداء

وانتهاء الطرق التجارية بين إفريقية والمغرب ا
لأقصى(44).

(1/6544)

كما كانت كل من فاس وأغمات محطات تتجمع وتتفرق عندها عدة طرق ، ولهذا فقد ربطت مدن المغرب الأقصى، فنشطت فعالياتها التجارية(4"). ويمكن أن يقال الأمر ذاته بالنسبة ليهل مدينة مغربية ارتبطت بطرق التجارة الرئيسية والفرعية. 3 – مدن جعلها موقعها الجغرافي محطات نشطة للتجارة البحرية، وهي مدن سواحل المغرب ، كأجدابية وسيرت وطرابلس وقابس وبرقة وتنس ووهران وسبتة وغيرها(46).
4– مدن جمعت بين التجارة البحرية وبرقة معا.
فموقعها على البحر جعلها مراسي للمراكب التجارية، وارتبطت في الوقت نفسه بمراكز التجارة البرية

(1/6545)

الداخلية.

(40) ن .م ،ص 69.

(41) ن .م ،ص 65.

(42) ن . م ، ص 65. ص 97.

(43) المقدس ، أحسن التقاسيم ص 220.

(44) ابر حوقل ، صص 85–90 .وقد حظيت هذه المدينة باهتمامه كثيرا.

(45) ن .م ،ص 90.

(46) ن . م ، صص 79–80–82–94.

ويعدد ابن حوقل عددا من أمثال هذه المدن مثل سرت التي جمعت بين التجارة البرية والمبحرية فكانت "تجتازها القوافل . . . وتردها المراكب بالمتاع وتصدر عضلا"(47). أما أجدابية فهي بالإضافة إلى كونها مركزا للتجارة البحرية بسبب قربها من البحر "حيث تأتيها المراكب وتصدر عنها بضروب من التجارة"، كانت

(6546/1)

محطة تجارية للقوافل "صادرة وواردة من بلاد السودان "(48). كما ارتبطت طرابلس وبونه بطرق تجارية مع المدن المجاورة لها فضلا عن ارتباطها بالطرق البحرية(49).

لم ينكر ابن حوقل الإشارة إلى تأثير الوضع السياسي على الفعاليات التجارية في المغرب . إذ أن خضوع هذه البلاد لسلطة سياسية موحدة، قد وفر لها الأمن والاستقرار الضروريين للنشاط التجاري في القرن 4 هـ/11م ، إذ يقول في ذلك : (كانت المغرب من برقة إلى المحيط الأطلسي إلى صاحب المغرب وتحت حوزته وقبضته أو في يد خليفته)(50)، ويقصد ابن حوقل بذلك السلطة

(6547/1)

الفاطمية أو نوابها في المغرب من آل زيري .

يشير ابن حوقل ، من حين لآخر، إلى تأثير الوضع السياسي ي منطقة أو مدينة على ازدهار أو تدهور فعالياتها كما هي الاقتصادية ومن ضمنها التجارة. فمدينة تاهرت ، على سبيل المثال ، كانت ذات غلاه وفيرة وتجارات واسعة كبيرة، إلا أنها قد تغيرت في أيام ابن حوقل فكثر القحط فيها بسبب تواتر الفتن عليهم)، وعد أهلها من الفقراء(51).

– أما مدينة المهدية فقد كانت سنة ،336ه/947م مقرا لحكام المغرب الفاطميين وجيوشهم ، كما هي مركزهم السياسي والإداري ، ولذا توسعت تجارتها ونشمط

!ارها، ولكن بعد انتقال مركز الحكيم عنها فقد "اختلفت حوالها والتاثت أعمالها وانتقل منها رجالها، بانتقال ملوكها عنها وبعدهم منها...)،(52) وزاد الوضع سوءا بدخول أحد الثائرين إليها (وهو أبو زيد مخلد بن كيداد) وسيطرته عليها، فضعف نشاط المهدية التجاري .

(47)ن .م ،ص 71.

(،،) ن . م ، ص 70.

(ر،) ن . م ، صص 72–77.

(5د)ن .م ،صص 83–4.

((د)ن .م ،ص 93.

(4،) ن. م ، ص 73.

أما القيروان فكانت أيام زيارة ابن حوقل للمغرب "أعظم مدينة بالمغرب وأكثرها تجرا وأحوالا وأحسنها منازل وأسواقا"(53). ويعود سبب ذلك إلى

كونها المقر السياسي والإداري لنواب حكام المغرب الفاطميين . فهي عاصمة حكام المغرب من آل زيري على أيامه ، وكانت ترد إليها جميع الجبايات والضرائب . كما ترد إليها الغلات من جهات المغرب المختلفة التي ترتبط معها بشبكة من الطرق البرية فاتسعت لذلك أسواقها وكثرت بجاراتها.

2 – أنواع الأنشطة التجارية :

يمكن تصنيف أنشطة المغرب التجارية ني القرن 5د/215 إلى تجارة داخلية وأخرى خارجية.

أ – التجارة الداخلية :

شهد إقليم المغرب نشاطا تجاريا داخليا قائما على تبادل السلع والبضائع بين مناطقه ومدنه المختلفة، وكان هذا

(6550/1)

النشاط بريا فسريا. فالتجارة البرية الداخلية في المغرب ، إما أنها إقليمية محدودة في منطقة واحدة وبين مدن متجاورة، أو واسعة بين مدن ومناطق متباعدة.

لقد شهدت منطقة إفريقية(54) نشاطا تجاريا في الصنف الأول بين مدنه المختلفة، فالإنتاج الوفير في مدينة ما، كان ينقل إلى المناطق المحتاجة إليه . فمن أوجله الواقعة جنوب برقة على طرف الصحراء والمشهورة بكثرة وجودة ثمرها، صدر التمر إلى برقة(55). كما أن وفرة الإنتاج الزراعي من حبوب وفواكه وثمار، ووفرة الثروة الحيوانية في بونة، جعلها تصدر ما يزيد عن حاجتها إلى

(6551/1)

المناطق المجاورة، فيغرقها أو يزيد، على حد قول ابن حوقل (56).

(53) ن . م ، ص 94.

(54) يقسم الجغرافيون العرب المغرب عموما إلى ثلاثة أقسام هي : إفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى، وسنتبع هذا التقسيم في بحثنا. أنظر أبو الفدا، تقويم البلدان ، ص122.

(55) أبن حوقل ، ن . م ، ص69.

(56) ن . م ، ص .77.

ومن تونس حملت البضائع ، والسلع إلى القيروان ،و بخاصة القطن والقنب والكرويا والعصفر والعسل والسمن ، والحبوب والماشية(57). وحمل إلى القيروان من جزائر بني مزغناي (على ساحل البحر) العسل والتين والسمن (58)،

(6552/1)

وحمل السفرجل المعتق من المسيلة(59)، وبهذا تكون القيروان قد احتلت مركز الصدارة في التجارة الداخلية لمنطقة إفريقية، لكونها عاصمة البلاد ومقر حكامها، كما أسلفنا القول . وهذا ما يشجعنا على القول بأن التبادل التجاري بين مدن الساحل ومدن الداخل في منطقة إفريقيا كان واضحا في القرن 4ه/10م(60). أما منطقة المغرب الأقصى فقد شهدت هي الأخرى نشاطا تجاريا إقليميا واسعا، فانتقلت البضائع والسلع بين مدنها المختلفة كفاس وسجلماسة وأغمات والسوس . وحدث الأمر نفسه بالنسبة لانتقال السلع من المناطق الداخلية إلى السهل

(6553/1)

الساحلي (61) .

وفي مجال التجارة الداخلية الواسعة، كان لمنطقة إفريقية نشاط متميز أيضا. إذ لدينا في كتاب صورة الأرض أسماء البضائع والسلع التي ترسل من مختلف مدن المغرب إلى إفريقية – مركز الحكم والإدارة لإقليم المغرب في القرن 4هـ /10م. فمدينة قسطيلة كانت "ممونة افريقيا بتمورها"(62).وتاجرت مدن المغرب الأقصى كسجلماسة وفاس مع إفريقية(63)، وحمل من مدينة البصرة (إحدى المراكز التجارية ني المغرب الأقصى) القطكن إلى إفريقية(64). والملاحظ أن مدن منطقة إفريقية قد ساهمت من جانبها بحركة النشاط التجاري الداخلي

(6554/1)

الواسع بشكل واضح ، حيث حملت غلاتها ومنتجاتها إلى المدن المغربية المختلفة(65).

(57) ن . م ، ص 75

(58)ن .م ،ص 78

(59)ن .م ،صص 85

(60)) ن . م ، ص 73–75–78–85.

(61)ن .م ،صص 83.

(62)ن .م ،صص 92.

(63)ن .م ،صص 78–79–97.

(64) ن . م ، صص 81.

(61)ن .م ،صص 72–77–84.

لم يكن النشاط التجاري الداخلي لمغرب القرن 4ه /10م بريا فقط، بل كان بحريا أيضا. فقد استخدم الطريق البحري في الفعاليات التجارية بين مدن المغرب ، وكانت المدن الساحلية المغربية المحطات التجارية النشطة فيه . ويبدو أن ميناء طرابلس كان المحطة التجارية

(6555/1)

الأهم التي تحط بها المراكب ليلا ونهار" وهى تحمل ضروب الأمتعة من المغرب (66). كما استخدم أهل مدينة البصرة الطريق البحري لنقل منتجاتهم إلى إفريقية وفي مقدمتها القطن (67). وبالرغم من أن ابن حوقل لم يشر صراحة إلى نشاط كل مند المغرب الساحلية في التجارة البحرية الداخلية، إلا أن واقع الحال يشير إلى قيام أغلب هذه المدن بممارسة مثل هذا النشاط لارتباطها بالبحر.

على أن أهم الفعاليات البحرية في التجارة الداخلية التي مارستها موانئ المغرب في القرن ،4ه /10م كانت مع الأندلس ، التي عدت جزءا من إقليم المغرب أيام

(1/6556)

ابن حوقل . فمن المغرب حملت "التجارة والجهاز" إلى الأندلس (68)، ومن الأخيرة قدمت المراكب بالسلع والبضائع إلى مراسي المغرب .

والملاحظ أن معظم مراسي المغرب الواقعة على البحر المتوسط كانت محطات للمراكب القادمة من الأندلس والذاهبة إليها. إذ تقصد طبرقة "من أوائل مراسي الأندلسيين "(69). وذلك لكثرة ورود مراكب التجارة الأندلسيين وتجار"تهم إليها في القرن 4هـ /10م.

وكانت تنس فرضة لمراكب الأندلسيين يقصدونها بمتاجرهم(70)، كما كانت وهران مركز استقبال وتصدير السلع والغلال إلى الأندلس (71).

(1/6557)

ب بالتجارة الخارجية :

كان الإنتاج الوفير والفائض عن الحاجة من المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية والمعدنية وغير المعدنية، ومن السلع المصنعة، أول واهم أسباب النشاط التجاري

(66)ن . م ، ص 72.

(67)ن . م ، ص 82.

(68)ن .م ،ص 106.

(69)ن .م ،ص 76.

(70)ن .م ،ص 78.

(71)ن .م ،ص 79.

الخارجي للمغرب في القرن 4ه/10م ، وسهل الأمر شبكة الطرق البرية والبحرية التي مكنت أهله من ممارسة فعالياتهم التجارية مع الأقطار الخارجية بحرا وبرا في آن واحد.

(6558/1)

تاجر المغرب مع أقاليم الشرق ومصر، ومع أقطار حوض البحر المتوسط، كما غل نشاطه التجاري الخارجي

المناطق الواقعة إلى جنوبه في بلاد السودان . فالتجارة البرية الخارجية كانت باتجاه مصر وأقاليم الشرق . وفي هذا يقول ابن حوقل وهو يتكلم عن برقة بأنها المحطة التجارية الأولى التي تستقبل صادرات المشرق ، والمحطة التجارية الأخيرة التي ترسل واردات المغرب إلى المشرق (72). وقد سجل لنا ابن حوقل قائمة ليست بالكبيرة ولكنها دقيقة وشاملة بصادرات المغرب إلى المشرق (73)، ولكنه مع الأسف لم يسجل مثل هذه القائمة فيما يخص

(6559/1)

واردات المغرب من المشرق .

كانت مصر إحدى الجهات المهمة التي شملها نشاط أهل المغرب التجاري لقربها منهم ، ويبدو أن القيروان كانت محطة انطلاق القوافل التجارية إلى مصر، واستقبال القادمة منها(74). وكان ذلك يتم عبر الطريق البري المار ببرقة، ومرة أخرى يشير ابن حوقل إلى بعض المنتجات والسلع التي حملت من المغرب إلى مصر(75)، من دون أن يذكر ما كان يحمل منها إلى المغرب .

ومن المناطق التي تاجر معها المغرب في القرن 4ه /10م

بلاد السودان ، الواقعة جنوبا ويسميها ابن حوقل "بلد السودان "(76)، أو "بلاد الزنج "(77)،

(6560/1)

والتي تفصلها عن المغرب صحاري ومفاوز عظيمة ولكنها تظل من قبل القوافل ا لتجارية(78) كان الذهاب إلى بلاد السودان من محطات معلومة في المغرب ، إذ استخدمت في القرن 4ه/10م محطتان تجاريتان رئيسيتان لانطلاق واستقبال تجارة السودان

(72)انظر : ن . م ، ص 69.

(73)ن . م ، ص 95.

(74)ن .م ،صص 94.

(75)ن .م ،ص 69–73.

(76) ز. م ، ص 99.

(77)ن .م ،ص 65.

(78)ن .م ،ص 65.

إحداهما في إفريقية وهى اجدابية مركز "القوافل الصادرة والو"ردة من بلاد السودان "(79). أما الثانية فكانت مدينة سجلماسة الواقعة في المغرب الأقصى،

(6561/1)

والتي احتلت مكانة متميزة في تجارة المغرب مع السودان في ق 4ه/10م "فتجارتها غير منقطعة منها إلى السودان ، وسائر البلدان ، وأرباح متوافرة ورفاق متقاطرة . . ."(80) واعتاد التجار على التجمع فيها من جهات المغرب ومن خارجه للخروج إلى بلاد السودان لجلب التبر، عبر الطريق الصحراوي الذي يربط سجلماسة بالسودان (81).

نالت التجارة البحرية الخارجية المغربية ونشاطها اهتماما واضحا من ابن حوقل في القرن 4ه/10م. ففي كتابه صورة الأرض نجد وصفا تفصيليا لمراسي بلاد المغرب سواء الواقعة على ساحل البحر المتوسط أم على البحر

(6562/1)

المتوسط. وقد شمل الوصف التفصيلي طبيعة المراسي والعوامل التي تتحكم في نشاطها التجاري ، إلى جانب إشارات متفرقة عن جهود سكان هذه المراسي في تذليل الصعاب والمعوقات التي تجابه المراكب التي ترسو في

موانئهم . وسنسير مع ابن حوقل على سواحل بلاد المغرب لنتعرف على النشاط البحري التجاري الذي مارسته . ولنبدأ شرقا من اجدابية وهى "قريبة من البحر فترد عليها المراكب بالمتاع والجهاز وتصدر عنها بضروب التجارة"(82). فهي على ذلك محطة لاستيراد وتصدير السلع عبر البحر. وكانت كذلك سرت التي "ترد المراكب أيضا عليها

(6563/1)

بالمتاع وتصدر عنها بشيء منه كالشب الشرقي فإنه بها غزير كثير والصوف أيضا،)(83)، وهذا يشير إلى خصوصية سرت في تصدير منتجات مغربية معينة. أما ميناء طرابلس فقد كان ميناء مكشوفا يصعب الرسو فيه لما تواجه السفن من شدة الرياح الدائمة والأمواج ، وفي هذا يقول ابن حوقل . "إذا وردت المراكب ميناءهم عرضت لها دائما الرج البحرية فيشتد الموج لانكشافه وصعب الإرساء، فيبادر أهل البلد بقواربهم ومراسيهم وحبالهم متطوعين

(79) ن . م ، ص 80.

(80)ن .م ،ص 81.

(81)ن .م ،ص 82.

(82)ن .م ،ث 70.

(83) ن . م ،ص.71.

(1/6564)

فيعيد المركب ويرسي به في أسرع وقت بغير كلف لأحد ولا غرامة حبة ولا جزاء مثقال "(84).

وهناك من بين مدن ساحل المغرب من لا توفر مرسى صالح لحركة التجارة. فسفاقس مثلا يوصف مرساها بأنه "ميت المياه ،)(85)، إذ يتعذر على السفن الرسو فيه . كذلك كان ميناء بونه ذات مرمى "غير مأمون "، فلم يكن له مساهمة تذكر في النشاط البحري المغربي(86). ومن المراسي التي لم يتطرق ابن حوقل إلى نشاطها التجاري البحري ، وهي تلك التي تقع بين مدينة بونه ومرسى جزائر بني مزغناي ، وتمثل مرسى جيجل ومرسى بجاية ومرسى بني جناد ومرسى

(1/6565)

الدجاج 87 من دون أن يوضح أسباب ذلك، إلا أن الأمر قد يكون مرتبطا بعدم صلاحية مراسيها للملاحة البحرية.

ومن مراس المغرب التي كانت تعج بالنشاط التجاري البحري في القرن 4ه/10م، مرسى مدينة المهدية الواقعة على البحر مباشر وهي "فرضة لما والاها من البلاد"(88)، كذلك كان مرسى طبرقة ومرسى تنى محطة لإقلاع واستقبال المراكب المحملة بالتجارة(89).

وللمرسى الأخير طبيعة خاصة وفرته له الحماية من الرياح ، حيث أنه يقع على خور يمتد لمجيلين –عن البحر باتجاه الداخل (90).

(6566/1)

ومن المراس المتميزة في ساحل المغرب التي ساهمت في التجارة البحرية مرسى وهران الذي كان "في غاية السلامة والصون من كل ريح وما أظن له مثلا في نواحي البربر سوى مرسى موسى، فقد كنفته الجبال وله مدخل آمن)،(91). فالجبال التي تحيط بمرسى وهران وفرته حماية طبيعية للمراكب من الرياح الدائمة، التي كانت تعاني منها كل مراسي ساحل المغرب المطل على البحر المتوسط.

(84) ن . م ، ص72

(85) ن . بم ، ص 73

(86)ن .م ،ص 77.

(87)ن .م ،ص 77.

(88)ن .م ،ص 73.

(89) ن . م ، صص73–78.

(90) ن . م ، ص78

(91)ن .م ،ص 79.

(6567/1)

كما أن هناك بعض المدن الساحلية المغربية التي استخدمت الجزر القريبة منها كمراسي أرجكوك ومرسى مدينة نكور الذي يقع "في بطن جزيرة تعرف بالزمة،،(92). أما آخر المراسي المغربية التي تقع على اسحل البحر المتوسط، فهو ميناء سبتة الواقعة على نحر البحر والذي وصف بأنه مرسى "قريب الأمر)،(93) ولعل ابن حوقل يريد بذلك بأنه واقع على البحر مباشرة. وضمن حدود سبتة نجد مرسى مشهور وهو مرسى موسى الذي كان بمثابة مرسى وهران من حيث أمنه وسلامة الرسو فيه (94).

(6568/1)

ومن الجانب الآخر للمغرب ، فإن أهم مدنه (واقعة على المحيط الأطلسي التي ساهمت في التجارة البحرية الخارجية في القرن 4ه/10م ولو بشكل أضيق ، نجد مرسى "بحيرة أريغ " – الواقعة على ساحل البحر المحيط التي استخدمت لرسو المراكب القادمة من الأندلس لتحمل غلات تلك النواحي . كما استخدم هذا المرسى تجار مدينة البصرة (في المغرب الأقصى) لتسيير سفنهم في مياه المحيط ومن ثم إلى البحر الغربي (المتوسط)/ثم مواصلة السير حيث شاءوا(95).

(6569/1)

أما الاتجاهات التي سارت إليها المراكب من مراسي المغرب وإليها، فأكثرها الأندلس و"بلد الروم" 96 والبلد الأخير، على الرغم من أن ابن حوقل يؤكد أن المراكب كانت تقدم ضنه إلى المغرب ، لكنه لم يحدد أيا من بلاد الروم مارس المغاربة معها نشاطهم التجاري البحري . أما أهل! المراسي التي استخدمت في هذا النشاط فهي مرسى طرابلس ومرسى طبرقة، اللتان كانتا

محطتين لحط المراكب التجارية القادمة من "بلد الروم)،(97).

وهكذا قدم لنا ابن حوقل من وصفه لمراس مدن المغرب الواقعة على البحر صورة دقيقة لنشاطاتها التجارية البحرية،

(6570/1)

معتمدا في ذلك على ما شاهده بعينه وما خبره من أهل تلك البلاد.

(92) ن . م ، ص 79.

(93) ن . م ، صص 79.

(94) ن . م ، صص 79.

(95) ن . م ، صص 80.

(96) ن . م ، ص 79.ومن الجدير بالذكر أننا فصلنا تجارة الأندلس في موضوع التجارة الداخلية البحرية.

(97) ن . م ، صص 72–76.

د – الطرق التجارية ومحطاتها

كانت الطرق التجارية في المغرب خلال القرن ،4ه/10م، على اختلاف أنواعها، ممهدة ومحطاتها متقاربة، وسارت

هذه الطرق مع مراكز الإنتاج ومراكز الاستهلاك. وكانت هذه الطرق برية وبحرية – داخلية وخارجية .

(6571/1)

أ – الطرق الداخلية .

فالطرق البرية المستخدمة في الفعاليات التجارية هى ساحلية وداخلية . أما الطريق الساحلي، فهو كما رسمه ابن حوقل يقطع السهل الساحل المغربي ابتداء ا من برقة إلى البحر المحيط (الأطلس)، ويسميه باسم "طريق الجادة)،(98)، وهى تسمية استخدمها البيزنطيون لهذا الطريق فظلت شائعة فيما بعد(99).

كانت برقة أول محطة تجارية على "طريق الجادة" ينزلها القادم من مصر متجها إلى إفريقيا(100). وكان هذا الطريق يجتاز عدة مدن ساحلية قبل أن يصل مناطق القيروان ، ومن بينها مدينة اجدابية ثم طرابلس الواقعة على

(6572/1)

ساحل البحر، كما كان يمر على صبرة الواقعة على بعد يوم بعد طرابلس ، وهي مركز لجباية الضرائب (101). ومن المحطات التجارية (الواقعة على "طريق الجادة،) مدينة قابس الساحلية التي تقع على "بعد ست مراحل من جهة القيروان "(102). ومن قابس يسير الطريق إلى سفاقس – مركز إنتاج الزيت والزيتون في المغرب (103)، ومنها إلى المهدية الواقعة على نحر البحر – وتعرف بنشاطها التجاري في القرن 4ه/10م . (104). وبين المهدية

(98) ن . م ، ص . و+.

(6573/1)

---

(99) بما يشار إليه في هذا المجال أن ابن عبد الحكيم يسميه باسم الطريق الأعظم " على حين يسميه البكري وابن أد زرع "الجادة،) فقط أنظر : عبد الرص ظ بن عبد الله بن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ، تحقيق عبد الله أنيس الطباغ (بيروت ، 1964)، ص 14. أبو عبيد البكري ، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب ، (الجزائر، رلأ؟ا)، ص . 15 ؟ على بن عبد الله ابن أد زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس ، تحقيق كارل تدور بنورغ أو بسالة، 1843 ص . 6.

(100) ابن حوقل ، ن . م.ص 69.

(101) ن . م ، ص .71.

(102) ن . م ، ص .72.

(1/6574)

---

(103) ن . م ، ص . 73.

(104) ن . م ، ص .73.

والجزيرة تقع مدينة سوسة "أحد فرض البحر)، التي يقدم عليها التجار لتنوع غلاتها(105)، ويصل إلى مدينة تونس – مركز إنتاج القطن وتصديره (106). ويسير طريق ،(الجادة" من تونس إلى طبرقة، وفي هذا "يقول ابن حوقل ،) من أراد طبرقة من تونس على ،(الجادة" اجتاز على مدينة باجة الكثيرة، الغلات والزروع ما ليس بجميع المغرب ، كثيرة التجارة وافرة الأرباح (107). ثم يجتاز هذا الطريق بعد مرحلة مرسى الخرز الشهير بمعدن المرجان ذات الجودة العالية، ولذا أصبح محطة تجارة مهمة مع قلة

(1/6575)

زروعه وغلاته ، وعد من مراكز الاستهلاك في المغرب حيث جلبت إليه الأقوات والفواكه من المناطق المجاورة(109). أما المدن الأخرى الواقعة على طريق الساحل فبونه وجزائر بني مزغناي زلغى ووهران وواسن وأجكوك ونكور(110). وكانت هذه المدن الساحلية محطات نشطة للتجارة البحرية، وارتبطت فعالياتها التجارية مع المناطق الداخلية أيضا، حيث نقلت منتجاتها الزراعية والحيوانية والمعدنية الوفيرة إلى الداخل عبر طرق فرعية(111). وكانت آخر المحطات)التجارية في الطريق الساحلي سبتة وطنجة. واشتهرت الأولى بإنتاج المرجان والثانية

(6576/1)

بإنتاج الحنطة والشعير عماد تجارتها وترائها(112). ومن ساحل سبتة وطنجة ينعطف الطريق إلى مناطق المغرب الأقصى الساحلية والداخلية . أما الطريق البري الثاني الذي كان مستخدما في الفعاليات التجارية المغربية في القرن 4ه/10م، فهو الطريق الداخلي "الذي يجتاز مناطق المغرب الداخلية الواقعة بين المنطقة الساحلية وبين البراري والمفاوز (الصحراء) التي تفصل المغرب عن بلاد السودان . وهذه المناطق – كما يقول

ابن حوتل – تبدأ "من إفريقية إلى آخر أعمال

(105) ن . م ، ص 74–5.

(106) ن . م ، ص 75.

(107)ن .م ،ص 76.

(6577/1)

---

(108) ن . م ، ص 76.

(109) ن. م ، ص 76–7.

(110) ن . م ، ص 77–79.

(111)ن .م ،ص 77–8

(112) ن . م ، ص 79–80.

طنجة عن مرحلة أو عشر مراحل .. . فبلاد مسكونة ومدن متصلة الرساتيق والمزارع والضياع والمياه . . . ،،(113). والطريق البري الداخلي عبارة عن شبكة.من الطرق التي تربط بين المراكز والأسواق التجارية المغربية. وفي هذه الشبكة نجد طرقا رئيسية ذات اتجاهات عامة وأخرى فرعية. فالطرق البرية الرئيسية تربط شرق المغرب بغربه ، وتبدأ من إفريقية وتنتهي بأقصى المغرب ، وهى طريقان :

(6578/1)

1 – الطريق البري الأول ، بجل أ من القيروان ، وهو بثلاثة فروع تلتقي عند المسيلة (في الزاب)، حيث تعد مركز التقاء الطرق البرية الداخلية، فالفرع الأول ، يتوسط الفرعين الآخرين ، ويبدأ من القيروان باتجاه مدينة تاهرت غربا، وينتهي عند فاس . يمر هذا الطريق على مناطق الإنتاج الزراعي والحيواني وعلى مناطق الثروة المعدنية (في هضاب تل الأطلس). أما أهم المدن والقرن التي يمر بها فهي سبيبة التي يغلب على غلاتها الكمون والكرويا والكتان 114)، ومدينة مجانه الكثيرة الزعفران ، وكونها مركزا لإنتاج الحديد

(1/6579)

والفضة(115). ولا ينسى ابن حوقل أن يذكر المسافر عبر هذا الخط ببعض الطرق الفرعية التي تتفرع منه . فمن مجانه طريق يسير باتجاه الشمال إلى مدينة تجيس مارا بعدد من القرى، هذا مع العلم أن تجيس ترتبط بالفرع الثاني من طريق القيروان – مسيلة116). ومن مجانة يستمر الطريق العام بالسير إلى باغاي التي تقع على أطراف جبل أوراس (يبعد عنها خمسة أميال جنوبا)،

وهناك طريق فرعى يصل بين هذا الجبل وباغاي (117).

ويبدو أن الأخيرة كانت مركز" لالتقاء عدة طرق فرعية حيث هناك طريق يربطها بطبنة عبر بلزمة ومن ثم يصل إلى مدينة

(6580/1)

بونة الساحلية(118)، وهذا يعنى ارتباط الطريق الداخلي الرئيس بالساحل بطرق فرعية. يسير الطريق العام من باغاي إلى طبنة مارا بدار علول ، ومدينة طبنة كانت مركزا كبيرا لإنتاج مجموعة من الغلات منها القطن والحنطة والشعير والكتان ، كما أنها

(113) ن . م ، ص 83.

(114) ن . م ، ص 84.

(115)ن .م ،ص 84.

(116) ن . م ، ص 84.

(117) ن. م ، ص 85.

(118) ن . م ، ص 85 يرتبط بطريق باغاي بونه طريق مجانه تجيس الصنا.

وافرة الثروة الحيوانية(119)، وهذا يدل على أن الطريق

البري الرئيس يسير حيث مراكز الإنتاج الوافر في المغرب .

(1/6581)

وقبل أن ينتهي هذا الطريق إلى مسيلة يمر على مقره منزل فيه مرصد (ويقصد مركز لأخذ الضرائب)(120). أما المسيلة فهي مدينة كثيرة الخيرات وافرة الغلال منها القطن والحنطة والشعير كثيرة المواشي من الدواب والأنعام والبقر، وهى مركز مهم للإنتاج الزراعي والحيواني أيضا(121).

ومن المسيلة يسير الطريق البري الرئيسي مارا بعدد من القرى والمدن الصغيرة إلى أن يصل إلى تاهرت المركز التجاري المهم "حيث معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية، ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلال ،،(122). ومن الملاحظ أن

(1/6582)

ابن حوقل لا يكمل وصف هذا الطريق من تاهرت إلى فاس ، بل إنه يتوقف ليصف لنا الفرع الثاني الذي يربط

القيروان بالمسيلة. يمر الفرع الثاني (وهو الفرع الشمالي) من الطريق البري العام الذي يربط القيروان بالمسيلة عبر بلاد كتامة والأربس (أطلس التل)، حيث العديد من القرى التي تحف بها البساتين ومزارع الحنطة والشعير(123) أما أهم منتجات منطقة الأربس فهي الزعفران ، بالإضافة إلى ما تنتجه من غلات وثمار وفواكه (124). يسير هذا الطريق مارا بتجيس ومنها إلى قرى جمدة تنتج القمح والشعير أيضا حتى يصل إلى المسيلة(125).

(6583/1)

أما الفرع الثالث (وهو الفرع الجنوبي) الذي يربط القيروان بالمسيلة فيمر على المناطق الواقعة جنوب جبل أوراس – وهي مناطق الواحات والجريد، ويربط هذا الطريق المسيلة بطبنة ثم تهوذا وبادلر (الواقعتان على ضفاف جبل إدراس الغربية، وهما

(119) ن . م ، ص 85

(120)ن .م ،ص 85

(121)ن .م ،ص 85

(122) ن . م ، ص 76

(123)ن .م ،ص 87

(124)ن .م ،ص 87

(125) ن . م ، ص 87

من مدن مناطق الزاب)(126)، ومنها إلى المدن الواقعة جنوب الأوراس تامديت ومدالة ثم نفطة وقسطيلية وينتهي بقفصة الواقعة جنوب القيروان (127). بعد أن تلتقي

(6584/1)

الفروع الثلاث ، من الطريق البري الخارج من القيروان ، عند المسيلة يسير الطريق باتجاه الغرب حيث ينتهي في فاس ، مركز التقاء الطرق التجارية البرية الداخلية في أقصى المغرب . والملاحظ أن ابن حوقل يصف هذا الطريق مقلوبا، مبتدئا من فاس ومنتهيا بالمسيلة، والسبب كما يقول "لأني سلكته من المغرب إلى إفريقية"(128). والواضح أن الطريق يسير بعد فاس في منطقة سهول تتخللها الأنهار (الوديان) و hالقرى المتصلة ذات المزارع والبساتين الكبيرة والشيء العظيم من الثروة الحيوانية(129). ومن هذه الوديان غالته وإيناون وملوية

(6585/1)

وصاع التي تصب في البحر. والطريق في هذا الجزء من المغرب يسير بموازاة البحر وليس بعيدا عنه فهو يمر بجرارة أبي العيش (التي تقع على بعد ، أميال من البحر) ونتمان (تلمسان). وعموما نجد أن وفرة المياه في هذه المنطقة جعلها كثيرة الفواكه والكروم والزرع (130). يسير هذا الطريق إلى أفكان ومنها يتفرع إلى فرعين ، أحدهما يسير باتجاه الشرق إلى تاهرت الواقعة على بعد 3 مراحل من أفكان (131). ومن تاهرت يرتبط بالطريق المؤدي إلى المسيلة. أما الفرع الثاني فيسير من أفكان بموازاة البحر إلى مدن شلف وغنزه وتنس والخضراء.

(6586/1)

ومرة أخرى يسير الطريق البري في منطقة ذات إنتاج زراعي وفير (بخاصية من التين والسفرجل) يغذيها نهر شلف (132). ومن الخضراء ينحرف الطريق باتجاه جنوبي شرقي إلى مليانة التي تستقي نجم شلف أيضا، ثم يمر الطريق على عدة قرى إلى أن يصل إلى مدينة أشير التي تقع على بعد 3 مراحل من

(126) المقدسي ، المصدر السابق ، ص 20.

(127) ابن حوقل ، ن . م ، ص . 6،. وجبل الأطلس هو من مناطق الأطلس الصحراوي في المغرب . يرى الجوهري ، لشمال إفريقيا : دراسة في الجغرافية التاريخية والإقليمية، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1976)، ص

(6587/1)

.286

(128) ن . م ، ص 89

(129) ن . م ، ص 88

(130) ن . م ، ص 88

(131) ن . م ، ص 88

(132) ن .م ،ص 89

المسيلة(133). ومن هناك يرتبط بالطرق الثلاثة المتفرعة من المسيلة والمؤدية إلى القيروان وإفريقية عموما134

ب – أما الطريق البري الرئيسي الثاني الذي يربط إفريقيا بأقصى المغرب ، فيسير في مناطق الواحات المغربية وبلاد الجريد التي أصبحت حلقة اتصال بين

أجزاء المغرب المختلفة وسارت عبرها القوافل التجارية. يصف ابن حوقل هذا الطريق ابتداء من سجلماسة ذاكرا أهم المراكز التجارية التي يمر بها وهي على التوالي سماطه

(1/6588)

من أرض نفزاوة، ونفطة ثم قسطيلية. وأهم ما يميز هذه المدن هي كثرة نخيلها وإنتاجها الواسع من التمور، فقسطيلية مثلا كانت (غنية بتمورها)
(135). ولكن هذه المدينة كغيرها من مدن الجريد تفتقر إلى القمح والشعير الذي يجلب إليها من المناطق المغربية الأخرى. ولقد كانت قسطيلية سوقا تجاريا مهما لكثرة الصادر والوارد من التجارات . كما كانت مركزا صناعيا لإنتاج بعض المنسوجات الصوفية من الصوف المتوفر فيها بكثرة، ومن منتجاتها الشقة والكسي والحنبل (136). وتحمل هذه المنتجات منها إلى جميع الأقطار(137). ومن المدن التي

(1/6589)

يمر بها طريق الجريد التجاري مدينة قفصة – وهي منطقة نخيل . ويذكر ابن حوقل بعد هذه المدينة عدة مدن قليلة الخيرات بسبب وضعها السياسي وسيطرة ابي زيد مقلد بن كيداد الأباضي عليها(138). يستمر هذا الطريق حتى ينتهي بالقيروان . وتقدر المسافة التي تقطعها القوافل بين سجلماسة والقيروان – عبر أرض نفزاوة (الجريد) ونواحي قسطيلية – بشهرين (139).

أما المجموعة الثانية من الطرق البرية الداخلية، فهي الطرق الفرعية التي تربط مدن منطقة واحدة، وهو ما نجده في إفريقية والمغرب الأقصى . ففي إفريقيا تظهر كثافة

(6590/1)

---

(133) ن . م ، ص 89

(134) ظل هدا الطريق مستعملا بعد القرن 4هـ /10م ي النشاطات التجارية المغربية الكبرى ط 14–6.

(135) ن . م ، ص 92.

(136) الكي : لماس مغربي على هيئة معطف. أما الحنبل فهو لوث من زينة الراس العصابة تستخدمه النساء. انظر : رينهارت دوزي ، المعجم المفصل بأسماء المجهر

عند العرب ، ترجمة الدكتور اكرم فاضل (دار الحرية للطباعة، بغداد، 1971) صص 308–312. ص 105

(137) ابن حوقل، ن . م ، ص 92

(138) ن . م ، ص 92.

(139) ن . م ، ص 91.

(6591/1)

الطرق الفرعية عند القيروان ، حيث ترتبط الأخيرة مع قابس بطريق ، ومع طرابلس بثانية(140) ومع تونس وجزيرة بنى مزغناي بثالثة(141) كما نجد أن المدن الساحلية المغربية المطلة على البحر المتوسط ترتبط بطرق فرعية مع مدن الداخل ، وعبر هذه الطرق تنقل السلع والتجارات بين الداخل والخارج وبالعكس ، كما يتم عبر الطرق الفرعية حمل الفائض من إنتاج المدن إلى المدن المحتاجة إليه أو التي لا يتوفر فيها(142).

وفي المغرب الأقصى نجد أن الاتصال بين الساحل والداخل عبر الطرق الفرعية التي تربط مدن المنطقة. فمدينة البصرة ترتبط

(6592/1)

بمدينة تشمس – الواقعة على المحيط الأطلس – بطريق طوله دون المرحلة(143). كما أن البصرة ترتبط بمدينة الأقلام بطريق فرعي طوله أقل من مرحلة أيضا باتجاه الساحل (144). وتتصل مدينة أغمات – المركز التجاري المهم في أقصى المغرب – بساحل المحيط الأطلس عبر طرق فرعية تربطها بمناطق السوس الأقصى(145).

ومن الطرق البرية الداخلية الفرعية التي نجدها في مناطق المغرب الأقصى، تلك التي تربط بين المراكز التجارية المهمة كفاس وسجلماسة وأغمات . فهناك طريق يربط فاس بسجلماسة بطول ثلاث عشر مراحل ، وعلى يسار هذا الطريق إقليم

(6593/1)

أغمات – وهو رستاق عظيم فيه مدينة كثيرة الخير والتجارة إلى سجلماسة وغيرها(146). وأغمات ترتبط بطرق تجارية مع سجلماسة وفاس وغيرها من مدن المغرب الأقصى(147). كما ترتبط أغمات بطريق تجاري مع المنطقة الواقعة إلى جنوبها الغربي باتجاه البحر المحيط وهي السوس الأقصى – البلد الكثير الخير الذي تجتمع فيه

(140) ن . م ، ص 71

(141)ن .م ،ص 75–78

(142)ن .م ،ص 71–78

(143) ن . م ، ص 80

(144)ن .م ،ص 81

(145)ن .م ،ص 90

(146) ن . م ، ص 90

(147) ن . م ، ص 90

(6594/1)

من المنتجات الزراعية ما لا تجتمع لغيره من مناطق المغرب ، كما يقول ابن حوقل (148)، وهو يرتبط بسجلماسة أيضا. والطرق البرية الفرعية في مغرب القرن 4ه/10م كثيرة ومتنوعة منها طرق جبلية تربط المراكز الواقعة على سفوح الجبال ، ومنها طريق إلى مدينة كرت الواقعة على سفح جبل في إقليم طنجة(149) وهناك طريق آخر إلى مدينة الحجر – الكثيرة الخير"ت التي استخدمها الأدارسة حصنا منيعا لأملاكهم (150). ومنها طرق تربط مدن المنطقة الواقعة في حافات الصحراء الشمالية، فهناك طريق فرعى صحراوي يربط أو جلة بمناطق ودان – وهو

(1/6595)

طريق "قصد في الرمال " يؤدي إلى ناحية ومدينة ودان الواقعة جنوب مدينة سرت التابعة لها، وهي منطقة تمتاز بكثرة وجودة تمورها(151).

أما عن الطرق النهرية، فلم نعثر إلا على إشارة واحدة تذكر أن أهل مدينة البصرة في المغرب الأقصى يستخدمون مياه النهر في تسيير مراكبهم ليصلوا بها إلى المحيط الأطلسي(152). وربما استخدمت مدن مغربية أخرى الوديان التي تجري عبرها كطرق داخلية تجارية . وعموما فإن استخدام الطرق النهرية في المغرب لابد أن يكون قليلا بسبب طبيعة . أنهارها غير الصالحة للملاحة(153).

ب – الطرق الخارجية :

(1/6596)

تربط الطرق البرية الخارجية المغرب بالمناطق المجاورة له عموما. فهناك طريق بري يربط المغرب بمصر. وأول مرحلة في هذا الطريق كانت مدينة برقة التي ينزلها المسافر القادم من مصر(154). ويسير الطريق مع "طريق

الجادة"، إلى أن يصل إلى

(148) ن . م ، ص 90

(149) ن . م ، ص 81

(150) ن . م ، ص 81–2

(151) ن . م ، ص 70

(152) ن . م ، ص 80

(153) عز الدين مولى، النشاط الاقتصادي في المغرب خلال القرن السادس البحري (دار الشروق ، بيروت ط 1 ، 1983) ص 216.

(154) ن . م ، ص 69

(6597/1)

قابس ومنها يعرج إلى القيروان عبر طريق فرعي(155) – حيث كثافة الطرق البرية فيم لا. ومن القيروان يستطيع المسافر أن يختار أي طريق يخرج منها إلى مختلف الاتجاهات في المغرب . ومن الطرق البرية الخارجية التجارية التي نجدها في مغرب القرن 4ه/10م هي طرق القوافل التجارة الصحراوية التي تربط المغرب ببلاد السودان عبر الصحراء. وقد وجه ابن حوقل، اهتماما واضحا لهذه المسالك ونشاطاتها، التي بلغت أوجها في أيامه . إذ يبدأ بوصف عام لها حيث يقول . "بين المغرب

والبلدان التي قدمت ذكرها وبلد السودان مغاور وبراري منقطعة

(1/6598)

قليلة المياه متعذرة المراعى، لا تسلك إلا في الشتاء، وسالكها في حينه متصل السفر دائم الورود والصدور"(156).

هناك طريقان صحراويان تقطعهم تجارة المغرب إلى بلاد السودان في القرن 4ه/10م الأول يربط مناطق برقة بالسودان . يبدأ هذا الطريق من مدينة أجدابية باتجاه صحراء فزان جنوبا ويمر بزويلة (المحطة التجارية المهمة في صحراء فزان)، ومنها إلى أرض زغاوة (في السودان الأوسط)،وتقدر المسافة بين فزان وزغاوة بمسيرة شهرين (157). وهناك فرع ثان لهذا الطريق يسير من فزان باتجاه جنوبي غربي إلى مرندة، ثم كوكو وبعدها

(1/6599)

يصل إلى غانة (في السودان الغربي)(158). وبذلك نستطيع أن نقول إن مناطق برقة ترتبط بالسودان

الأوسط والغربي (إفريقيا الغربية) بطرق تجارية صحراوية تسير عبر فزان .

أما الطريق الثاني الذي يربط المغرب ببلاد السودان ، والذي نال اهتمام ابن حوقل كثيرا، بسبب نشاطه المتميز في القرن 4ه/10م ، فهو الطريق الذي يبدأ من سجلماسة (المركز التجاري المهم في المغرب الأقصى) وينتهي بأودغست وغانه – في السودان الغربي . ومما يجدر ذكره ، أن سبب نشاط هذا الطريق الصحراوي في تجارة المغرب الخارجية، إنما يعود إلى التحول الذي

(6600/1)

أصاب طرق التجارية البرية الصحراوية في

(155) ن . م ، ص 72

(156) ن . م ، ص 100

(157) ن . م ، ص 91

(158) ن . م ، ص 90

القرن 4ه/10م . وفي هذا يسجل ابن حوقل معلومة مهمة وفريدة، وهي اندثار الطريق الذي يربط بين مصر بغانة عبر الصحراء والرمال ، والذي كان معروفا ومستخدما من

المشتغلين بتجارة السودان قبل القرن 4ه/10م.

وأسباب اندثار هذا الطريق يعود إلى كثرة الرياح التي صادفتها القوافل التجارية والتي أهلكت الكثير منها، يضاف إلى ذلك الهجمات التي تعرضت لها القوافل السالكة لهذا الطريق وقضت على الكثير منها، من

(1/6601)

قبل من يسميهم ابن حوقل "العدو"(159). أكثر الظن أنه يقصد قطاع الطرق أعداء القوافل التجارية الصحراوية. ولذا بطل استخدام هذا الطريق ، وتوجه التجار عبر المغرب إلى سجلماسة، ومنها قطعوا الطريق الصحراوي (عبر الصحراء المغربية) إلى أودخسست ، وغيرها من مراكز التجارة السودانية(160). وبتحول تجارة الصحراء إلى القسم الغربي من بلاد المغرب أصبحت سجلماسة أكثر من أي وقت اخر – مركزا تجاريا مهما لاستقبال وتوديع القوافل التجارية الصحراوية(161). وعلى ذلك عجت هذه المدينة بالتجار المغاربة وغير المغاربة، الذين قدموا

(1/6602)

إليها من مختلف الأماكن ، يقيمون فيها إقامات دائمة أو مؤقتة مستخدمين المسالك الصحراوية المؤدية إلى أودغست وبقية مدن السودان الغربي (162).

يصف ابن حوقل باهتمام ودقة الطريق الصحراوي الغربي الذي ينتهي بأودغست ويمثله بشكل مثلث رأسه في مدينة أودغست ، وأقصر أضلاعه بين السوس وأدوغست ، والضلع الأطول هو الممتد بين سجلماسة وأودغست حيث يقدر بمسير شهرين (163). ومن أودغست يسير هذا الطريق التجاري إلى غانة ومن ثم إلى مراكز الإنتاج السودانية (مثل كوغة وسامة وكزم وكوكو)(164).

وتنال أودغست اهتمام ابن

(6603/1)

---

(159) ن . م ، ص 65.

(160) ن . م ، ص 65.

(161) ترتبط سجلماسة بطرق تجارية برية فرعية مع مدن المغرب الأقصى بالإضافة إلى. ارتباطها بالطريق العام المؤدي إلى إفريقية، وهدا ما راد في أهميتها ونشاطها التجاري.

(162) ابن حوقل ن . م ، ص 65.

(163) ن . م ، ص 91.

(164) ن . م ، ص 91.

حوقل ، ويبدو أن الوصف الذي قدمه عنها – وبخاصة عن نشاطها في ميدان التجارة – أشمل وأدق الأوصاف قاطبة(165). ولا ينسى ابن حوقل أن يذكر التجار بمنجم الملح الواقعة في الطريق الصحراوي المؤدي إلى أوغست ، وهو منجم "أوليل " – الواقعة على

(6604/1)

ضفة المحيط الأطلس (166). وما يذكره يعد من أقدم الإشارات التي تصلنا عن الملح وتجارته . كما يصف ابن حوقل القبائل التي تسكن الصحراء ويمر عبرها الطريق التجاري بين سجلماسة وأودغست ، وهى قبائل صنهاجة – المسيطرة على الطريق بما لديها من معرفة وخبرة بأوضاع الصحراء وطريقها، وبما تقدمه من خدمات الإرشاد للمسافرين ، وبما تجنيه من ضرائب فرضتها على التجار المارين عبر ديارها في ذهابهم وإيابهم (167). ولعل اهتمام ودقة ابن حوقل في وصف المسالك التجارية الصحراوية التي تربط المغرب بالسودان ، إنما تعود لأن تلك المسالك

(6605/1)

قد استخدمها تجار التبر (الذهب)، وأن محطاتها كانت مراكز أساسية لهذه التجارة في القرن 4ه/10م.

أما الطرق البحرية المستخدمة في النشاط التجاري الخارجي لبلاد المغرب في القرن 4ه/10م ، فهي الطرق التي تنطلق من وإلى مدن سواحل المغرب . وقد سبق أن تطرقنا إلى أهم الموانئ والمراسي المغربية التي مارست الأنشطة التجارية، أثناء وصفنا التجارة الداخلية، لأن الكثير من نشاطات المغرب البحرية كانت مع الأندلس التي هي جزء من المغرب في القرن 4ه/10م، والقليل منها مع بقية دول البحر المتوسط الإفرنجية.

(6606/1)

---

4 – الصادرات والواردات

انعكس وضع الطرق التجارية داخلية كانت أم خارجية، برية منها أو بحرية من حيث كثافتها وتنظيمها، على تسهيل حركة السلع الصادرة والواردة في مغرب القرن 4ه/10م.

(165) ك. ف. يوري ، "المصادر العربية للتاريخ الإفريقي " في كتاب : تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات العربية بغداد، ،،ر ا ، ص . ، ر ا . (166) ن . م ، ص 91.

(167)ن .م ،صص 98–92

(6607/1)

كما أن غزارة الإنتاج الزراعي والحيواني وتنوعه في مدن المغرب المختلفة أغنى قائمة الصادرات الإقليمية والخارجية للمغرب . يضاف إلى ذلك ما وفرته الطبيعة من ثروة معدنية وغير معدنية في أرض المغرب ومياهه ، قد ساهم هو الآخر في حركة السلع الصادرة والواردة.

واستفاد المغرب من المواد الخام المتوفرة أو المنتجة فيه ليس للتصدير فقط بل في تصنيع سلع على درجة كبيرة من الجودة وتصديرها إلى جهات الطلب عليها.

والجدير بالإشارة إلى أن المغرب مع وفرة الإنتاج وتنوع السلع فيه ، أدى دور الوسيط التجاري في العالم المعروف في

(6608/1)

القرن 4ه/10م. فقد نقل بضائع أقاليم البحر المتوسط إلى المشرق ، كما نقل سلع السودان إلى المشرق وأوربا أيضا. كما نقل في الوقت نفسه إلى السودان سلع وبضائع المغرب والمشرق والبحر المتوسط معا فنشط ذلك كله حركة التصدير والاستيراد في المغرب .

1 – الصادرات :

أ – الصادرات المحلية :

كانت السلع والبضائع على اختلاف أنواعها تنتقل بين مناطق المغرب المختلفة، ويقع في مقدمة ذلك. غلال الإنتاج الزراعي . فالحنطة والشعير مثلا كانتا في مقدمة الغلاة الوفيرة التي تنتجها كثير من مدن ألمغرب مثل بونه وبرشك وباغاي وطبنة

(6609/1)

والمسيلة وطنجة والبصرة وسجلماسة وزلول (168)، وتقوم هذه المدن بإرسال ما يزيد عن حاجتها إلى تلك التي تحتاجها(169). كما كانت تحمل غلاة القطن بين المدن المغربية المختلفة، فمن طرابلس والبصرة ينقل القطن إلى القيروان (170)، واختصت المسيلة وطبنة

بإنتاج الغطن الوفير.

ويدخل الزيتون وزيته في قائمة الصادرات المحلية المغربية، فهو من منتجات المناطق الساحلية المغربية كسفاقس وقابس وتونس ، ومنها يحمل إلى المدن الداخلية التي لا تنتجه كالقيروان (171).

(168) انظر :صص 77–78–80–85–90–91.

(169) ن . م ، صص 77–8.

(6610/1)

---

(170) ن . م ، صص 85–81.

(171) ن . م ، صص 75–72–73.

ومن الغلاة التي يمكن اعتبارها مواد خام زراعية أنتجها مدن المغرب القنب والكرويا وهو من منتجات تونس وصادراتها الداخلية(172). ومن منتجات سبيبة وأغمات ، وكذلك الزعفران الذي اشتهرت به مدينة مجانة(173). ويعد الكتان من غلاة سبيبة وطبنة(174). أما السمسم وقصب السكر فقد اشتهرت به أغمات (175). ومن المؤكد أن مثل هذه الغلات كانت من بين السلع المتبادلة بين مدن المغرب المختلفة، وإن

لم يشر ابن حوقل إلى ذلك صراحة . تصدر مدن المغرب إلى بعضها الفواكه بكثرة أيضا.

(6611/1)

فقد اشتهرت كثير من مدن المغرب بإنتاجها الوفير من الفواكه منها تونس وقابس وبونة وتنس ووهران ، ومنها كان يحمل إلى حيث النقص فيه 176). كان التين في مقدمة الفواكه التي تم نقلها بين مدن المغرب ، إذ كانت تنتجه جزائر بنى مزغناي ويجهز منها إلى القيروان وغيرها. كما يحمل من مدينة بونة إلى البلاد النائية(177).

وينقل السفرجل المعتق الذي اشتهرت به المسيلة وتونس إلى مدن المغرب . وساهم التمر في الصادرات الداخلية لبعض المدن المغربية الذي تنتجه بغزارة وجودة، ومن بينها أو جلة التي وصفت بجسامة غلاتها من اشر الذي

(6612/1)

جرى تصديره إلى مناطق برقة(178)، كذلك صدرت بونه التمر، وكانت سجلماسة تنتج تمورا غاية في الحلاوة و كذلك هو شأن أغمات (179).

تبادلت مدن المغرب الثروة الحيوانية ومنتجاتها.

والواضح أن هذه الثروة كانت وافرة غزيرة ومتنوعة في كثير من مدن المغرب . فتونس كثيرة الماشية مختصة بها(180). وإن أهل جزائر بنى مزغناي أكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم سائمة في

(172) ن . م ، صص 75–90

(173) ن . م ، ص 48

(174) ن . م ، ص 84

(175) ن . م ، ص 90

(176) ن . م ، صص 72–75–77–78–79

(177) ن . م ، ص 78–77

(6613/1)

---

(178) ن . م ، ص 78–85

(179) ن . م ، ص 88–90

(180) ن . م ، ص 75

الجبال "(181). وإن أكثر أموال أهل برشة وواسلن (بعد وهران) من الماشية(182)، وكان هذا هو شأن مدن أخرى مثل طبنة وسجلماسة والبصرة(183).

أما الأسماك فقد شكلت جانبا مهما من منتجات المغرب الحيوانية، وهى عادة تتوافر في المدن الساحلية والمدن الواقعة على الأنهار، مثل قابس وسوسة ومرسى الخرز، وفى جميع هذه المدن تكثر الثروة السمكية بشكل لا يصدق – على حد تعبير ابن حوقل (184) –. ساهمت منتجات الثروة الحيوانية المغربية في النشاط التجاري الداخلي ،

(6614/1)

فالصوف مثلا كان من صادرات قابس وبونه واجدابية(185). والجلود اشتهرت بها قابس بخاصة الجلود المدبوغة بالقرط وهي "تعم أكثر المغرب ".

والعسل الذي تنتجه جزائر بني فرغناي كان يجهز منها ويحمل إلى القيروان وغيرها، كذلك كان يخرج مض بونه "إلى المناطق المجاورة)، ومن برشك (187).

والملاحظ أن ما ذكره ابن حوقل عن انتقال منتجات الثروة المعدنية وغير المعدنية بين مدن المغرب غير تفصيلي . فقد أشار إلى تصدير بونه للحجارة التي تعتمد

عليها المطاحن إلى جميع أنحاء المغرب (188). وتحدث عن وجود الكثير من معادن الحديد في

(6615/1)

بونه ،– وقال : "وبها معادن حديد كثيرة ويحمل منه إلى الأقطار،)(189). أما القطران الكثير ذات الجودة العالية فكان من منتجات برقة ومتاجرها(190)، ولكننا لا نعرف فيما إذا كان هذان المنتوجان يتاجر بهما في داخل المغرب أم الخارج (191).

(181) ن . م ، ص 78

(182) ن . م ، صص 78–79

(183) ن . م ، صص 77–81–85–98

(184) ن . م ، ثث 73–75–76

(185) ن . م ، صص 70–71–72–77

(186) ن . م ، ص 72

(187) ن . م ، صص 77–78

(188) ن . م ، ص 84

(189) ن . م ، ص 77

(6616/1)

---

(191) يذكر أبو الفدا، أن القطريين يحمل من برقة إلى مصر، تقويم، ص 127.

أما عن السلع المصنعة فلا نجد ذكرا واضحا لمشاركتها في قائمة صادرات المدن المغربية إلى بعضها. إلا أننا نستطيع القول إن هذه السلع كانت من صادرات المغرب إلى الأندلس ، بخاصة وأن الأخير كان جزءا من مغرب القرن 4ه/10م . إذ يشير ابن حوقل إلى أن "جميع ما بالأندلس من المجالب في جملة ما يرد من المغرب من التجارة والجهاز"(192)/(193). فالمراكز كانت تخرج من طرابلس واجدابية وهي محملة بالسلع المصنعة وفي مقدمتها جهاز الصوف من الأكسية والطيقان

(6617/1)

---

(194)، هذا فضلا عن المواد الخام المعدنية وغير المعدنية التى نقلت إلى الأندلس (951)

أما صادرات الأندلس إلى المغرب فهي السلع المصنعة عموما وبخاصة الأقمشة والألبسة. إذ جلبت الأقمشة الكتانية والصوفية، والحرير والديباج والخز، إلى جانب اللبود الغالية الثمينة(196).

ب – الصادرات الخارجية .

صدرت المغرب منتجاتها وسلعها برا وبحرا، وقائمة الصادرات الخارجية المغربية في القرن 4ه/10م متنوعة وإلى جهات مختلفة. إذ صدرت المغرب إلى مصر الزيت الذي اشتهرت به سفاقس ، وكذلك الجلود(197).

(6618/1)

أما إلى المشرق فقائمة الصادرات إليه أوسع وتشمل : العنبر، والحرير، والأكسية الصوفية الرفيعة والونية، وجباب الصوف (198)، والأنطاع (199)، والحديد والرصاص والزئبق والخيول النفيسة، والبراذين والبغال والإبل والغنم والماشية والخدم المجلوب من بلاد السودان والخدم المجلوب من أرض الصقالبة على الأندلس (200).

(192) ابن حوقل ، ن . م ، ص 106

(193) ن . م ، صص 70–71

(194) ن . م ، ص . 6. والطاق هو الطيلسان الأخضر. والطيلسان نوع من الخمار الذي يطرح على الرأس والكتفين أو يلقى أحيانا على الكتفين فقط. أنظر دوزي ،

(6619/1)

المصدر السابق ، صص 229–230.

(195) ابن حوقل ، ن . م ، صص 82–79–77–71

(196) ن . م ، ص . 109 . واللبدة بمعنى طاقية، عرقية، بحلومة، دوزي ، ص 319.

(197) ابن حوقل ، ن . م ، صص 73–69.

(198) الجبة رداء يلبس على ثياب أخرى أشبه بالسترة الطويلة . دوزي ، المصدر السابق ، صص 93–98.

(199) لعل المقصود الانطاق (أو الأخرمة).

(200) ابن حوقل ، ن . م ، ص 95

وهكذا صدرت المغرب إلى المشرق المواد الخام المعدنية وغير المعدنية، والسلع المصنعة لا سيما الأقمشة والألبسة وما يلحقها، فضلا عن الثروة الحيوانية بأنواعها .

(6620/1)

أما صادرات المغرب برا إلى بلاد السودان جنوبا فيأتي الملح في القمة، وذلك لحاجة السودان له ولانعدام وجوده عندهم(201). ولذلك فقد حمله التجار من مناجمه في

الصحراء، وهو منجم (أوليل) على المحيط الأطلسي في الطريق بين سجلماسة وأودغست (202). وكان الملح يباع بثمن عال في بلاد السودان حيث يقدر ابن حوقل سعر حمل الملح هناك بين 200 و300 درهم (203).

صدر المغرب بحرا إلى أقطار البحر المتوسط الإفرنجية السلع المصنعة مثل الأكسية من اجدابية، وطيقان الأكسية الفاخر الأزرق والسود والبيض الثمينة من طرابلس (204) كما

(6621/1)

صدر المغرب عبر البحر المواد الخام مثل الصوف الذي حمل من قابس وطرابلس واجدابية(205). ويستفاد من الإشارات الكثيرة عن المرجان بأنه كان من المواد التي اشتهرت كثيرا من مدن المغرب الساحلية بإنتاجه مثل مرسى الخرز وتنس وسبتة، وقيام التجار في هذه البلاد بالاتجار به لجودته النادرة(206).

4 – الواردات :

كانت قائمة واردات مغرب القرن 4ه/10م أقل من قائمة الصادرات ، مما يدل على أن الميزان التجاري كان لصا، المغرب . ولهذا فإننا لا نجد كثيرا من التفصيلات في

قائمة الواردات المغربية التي ذكرها ابن حوقل ، وهي في

(1/6622)

معظمها عموميات . فهو عندما يتكلم عن المستوردات المشرقية يقول عنها : "ضرب المتاجر الصادرة من المشرق "(207) وفي إشارة فريدة يذكر ابن حوقل أن الخزف كان يجلب من العراق إلى

(201)ن. م ،ص 98

(202)ن .م ،ص 91

(203) ن . م ، ص98

(204) ن . م ، صص 70–71

(205) ن . م ، ص .ص 70–72

(206)ن. م ،صص 76–79

(207)ن. م ،ص 79

المغرب (208). أما من بلاد الروم فتأتي المراكب "بضروب الأمتعة والمطاعم "(209).

ضمت قائمة المستوردات المغربية من بلاد السودان

التبر (الذهب)، حيث كان يجلب بكثرة مما يدل على نشاط التجار في هذه

(6623/1)

المادة. هذا مع العلم أن المغرب كان يؤدي دور الوسيط التجاري في نقاط الذهب من السودان إلى المشرق وأوروبا.

5 التنظيمات التجارية

يستفاد مما كتبه ابن حوقل عن المغرب وجود معلومات تخص التنظيمات المتعلقة بالنشاط التجاري لهذه البلاد في القرن 4ه/10م . فالمشتغلون بالتجارة كانوا فئتين ، تجار مغاربة وغير مغاربة يسميهم ابن حوقل "غرباء"(210). ويلاحظ الدارس للتجارة المغربية في القرن 4ه/10م ،ممارسة التجار المغاربة النشاطات التجارية مجتازين بلاد المغرب في الطول والعرض متنقلين بين مدنه وقراه ومراكزه التجارية حيث

(6624/1)

يتوفر العرض أو الطلب على البضائع والسلع التجارية(211). كما شارك التجار غير المغاربة في

الأنشطة التجارية الخارجية مع بلاد السودان (212) وفي إدارة تجارة الموانئ المغربية، بخاصة الأندلسيين (213).

مارس التجار الاندلسيون نشاطا كثيفا في الموانئ المغربية. ففي طبرق مثلا اشتهرت "بكثرة ورود المراكب بالأندلسيين والتجار عليها ونزولهم فيها". وهى أيضا "عدوة لأهل الأندلس ، إليها ينتهون ومنها إلى الأندلس يركبون "(214). أما تنس "فكانت أكبر المدن التي يتعدى إليها الأندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم وينهضون

(6625/1)

منها إلى ما سواها،)(215). ووهران هي الأخرى كانت "فرضة الأندلس وإليها

(208) ن. م ، ص 75

(209) ن. م ، ص 72

(205)ن. م ص 69

(210) انظر : ن. م ، صص 71–75–76–77–78.

(211)ن .م ،صص 70–75–96.

(212) ص 70–72–76

(214)ن .م ،ص 76

(215)ن. م ،ص 78

ترد السلع ومنها تحمل الغلال "(216) كما مارس التجار الأندلسيون نشاطا تجاريا مع الموانئ المغربية المطلة على المحيط الأطلس ، ولكن بصورة أقل مما هو في موانئ البحر المتوسط المغربية . ففي بحيرة إريغ ترسو "المراكب الأندلسية التي تحمل غلاة الناحية،،(217) . أما التجار غير

(6626/1)

المغاربة "الغرباء"، فكان تواجدهم الدائم أو المؤقت كثيرا في الموانئ التجارية المغربية المهمة في القرن 4ه/10م . ففي برقة – مركز استقبال وتصدير المنتجات والسلع بين المغرب والمشرق – كثر التجار الغرباء "في كل وقت لا ينقطاع طلابا لما فيها من التجارة، وعابرين عليها مغربين ومشرقين "(218). ومما يذكر أن الفرص الكافية التي أعطيت للتجار وتوفير الأمن لهم في القرن 4ه/10م جعلهم يستقرون في المراكز التجارية المغربية، منها مدينة سجلماسة التي شهدت استقرارا واسعا للتجار غير المغاربة مع عوائلهم مستثمرين أموالهم في

(6627/1)

التجارة مع بلاد السودان التي درت عليهم أرباحا عظيمة وفوائد جسيمة فعاشوا في نعم "قلما يدانيها التجار في بلاد الإسلام سعة حال "(219). وكان معظم تجار سجلماسة الغرباء من أهل العراق ومن البصرة والكوفة وبغداد(220)، الذين سيطروا بصورة واضحة على التجارة الصحراوية بين سجلماسة وادغست (في السودان). كما كان التجار الروم يقدمون ببضائعهم إلى موانئ المغرب (221). وفيما يخص الأسواق التجارية في مدن المغرب والتي اكثر ابن حوقل من ذكرها فهي نوعان أسواق ثابتة دائمة نكاد نجدها في كل مدينة، وأخرى أسواق شهرية. وأشار

(6628/1)

ابن حوقل مرة واحدة لها حين ذكر مدينة باشوا (وهي من إقليم الجزيرة قرب سوسة)، حيث كانت أسواقها "تحضر في كل شهر لأيام معلومة"(222).

(216) ن. م ، ص 79

(217) ن. م ، ص 82

(218)ن. م ص 69

(219) ن. م ، ص65

(220)ن .م ،ص 65

(221)ن –م صص 72–94

(222)ن .م ،ص 75

أما تنظيم الأسواق فمعرفتنا عنها قليلة، ذلك لأن ابن حوقل يكتفي بإيراد أوصاف عامة للأسواق ، كأن يقول : اسواق سبيبة وسوسة والبصرة حسنة... "(223)، و"أسو"ق مجانة صالحة.. "(224)، وأسواق قابس عامرة(225).. وأسواق طرابلس كبيرة(226)... ".

(6629/1)

كانت أسواق المغرب في القرن 4ه/10م قد نظمت على أساس أن تكون في أرباض المدينة وليس في داخلها. فأسواق قابس وسبيبه في ربضها(227) وأسواق طرابلس كانت في الربض وقد نقل السلطان بعضها إلى داخل السور(228). على العكس من أسواق باغاي التى كانت قديما في المدينة ونقلت إلى الربض (229). ونجد الخانات ، وهي مخازن السلع المتصلة بها، متوفرة في مدن

المغرب ، وهى عادة في أرباض المدينة مع الأسواق (230).

أما أسعار المنتجات والسلع في أسواق المغرب ومحطاته التجارية فكانت على العموم رخيصة في القرن 4ه/10م ، بخاصة في المدن

(6630/1)

والمناطق التي تنتج كميات كبيرة تفيض عن حاجتها(231). كان التعامل التجاري في تجارة المغرب الداخلية و"لخارجية نقدا في القرن 4ه/10م ، ذلك لأن ابن حوقل يقدر قيم السلع التجارية بالدينار دائما(232)، بخاصة وأن الدينار كان هو العملة السائدة في المغرب آنذاك كما كان نظام الصكوك (الحوالات) معمولا به في المغرب ويعرفه تجارها. وقد استخدم هذا النظام في التجارة

(223) ن. م ، ص 84–81–74.

(224) ن. م ، ص 84.

(225)ن. م ص 73.

(226) ن. م ، ص 71.

(227)ن .م ،صص 72–84

---

(228) ن . م ، ص . 71 ولم يذكر ابن حوقل سبب هذا النقل .

(229) ن . م ، ص 84

(230) ن . م ، صص 73–84

(231)ن .م ،صص 69–80–92–95.

(232)ن .م ،صص 65–73–96–98.

الصحراوية بين المغرب وبلاد السودان . وفي هذأ يذكر (بق حوقل أنه رأى "صكا كتب بدين على محمد بن أبي سعدون بأودغحت ، وشهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينار)،(233). أما نظام المقايضة فلم نجد له ذكرا، وربما كان استخدامه على نطاق ضيق جدا بحيث / يلفت انتباه ابن حوقل . وهناك إشارات قليلة عن بعض الأوزان والمكاييل المستخدمة في أسواق المغرب ، منها القفيز

– كوحدة وزن "(234).

تطرق أبن حوقل إلى الضرائب وأنواعها في مغرب القرن 4ه/10م ، والذي يهمنا في هذا المجال الضرائب المفروضة على الأنشطة التجارية، والتي شكلت جزءا كبيرا من واردات المغرب ودخله . وفي هذا نجد إشارة تعود إلى عام 336/937 إذ جاء فيها

"دخل المغرب من جميع وجوه أمواله وسائر كوره ونواحيه وأصقاعه عن خراج وعشر وصدقات ومراع جوال ومراصد، وما يؤخذ عما يرد من بلد الروم والأندلس فيعشر على سو"حل البحر، وما يلزم الخارج من القيروان إلى مصر ويلزم ما يرد منها من الورق والمقوم بقيمة العين ت والعين

(6633/1)

المجتبى من هذه الوجوه ، فيكون من سبعمائة ألف دينار إلى ثمانمائة ألف دينار)،(235).

ويظهر مقدار هذا الرقم قيمة الضرائب البرية والبحرية على التجارة المغربية ويبدو أنها كانت معتدلة لأن أبن حوقل يكمل هذا النص بقوله : ولو بسطت يده (أي صاحب بيت المال) لبلغ ضعفه (أي الدخل)(236).

فرضت الضرائب في مغرب القرن 4ه/10م على القوافل

المارة ما بين مدينة مغربية وأخرى. فالقوافل القادمة إلى طرابلس عليها أن تدفع الضرائب في قرية بلبدة الواقعة على بعد مرحلتين شرق طرابلس (237). وكان على القوافل التي تسير بين طرابلس

(6634/1)

والقيروان .أن تدفع الضرائب التجارية "كل جمل ومحمل وحمل ". وهي "منزل

(223)ن .م ،صص 65.

(234) يعادل 45 كلغ : ومن الجدير بالذكر أن معلومات المقدس عن الأوزان والمكاييل تعد أكثر من معلومات ابن حوقل .

(235) اس حوقاط ، ن . م ، ص 94

(236)ن .م ،ص 94

(237)ن .م ص 71

من طرابلس على يوم ، في ذهابها وإيابها"(238). وحصلت الضرائب في سرت من القوافل المجتازة بها، وكان صاحب صلاتهم هو الذي يجبي هذه الضرائب والضرائب الأخرى، ولديه سجلات تسجل فيها البضائع وقيمة الضرائب المفروضة عليهم، وكانت تراجع دائما خوفا من

(6635/1)

التحايل والتلاعب (239). وهذا ما يشير إلى إحكام السلطان المغربي لجباية الضرائب التجارية .

وفي أقس المغرب كان والي مدينة سجلماسة، المركز التجاري المهم في تلك المنطقة، يأخذ الضرائب من التجارات الداخلية والخارجية، سواء المتنقلة بين مدن المنطقة مثل فاس وأغمات والسوس ، أم القادمة من نواحي أفريقية والأندلس . كما فرضت الضرائب على القوافل التجارية التي تعمل في التجارة إلى بلاد السودان (240). والظاهر أن القوافل المختصة بالتجارة السودانية كانت تفرض عليها لوازم ، ليس في مدينة سجلماسة فقط، بل وفي مدينة

(6636/1)

اجدابية – مركز استقبال وتوزيع التجارات السودانية أيضا(241)، وهذا يعني أن الضرائب فرضت على التجارات الخارجية في المحطات التجارية المرتبطة بالتجارة الصحراوية مع السودان . والجدير بالإشارة أن هناك أماكن خاصة في مدن المغرب تسمى "المراصد"، ومهمتها

جباية الضرائب من التجارات الصادرة والواردة، ومن بينها ومرصد طبنة(242).

وفي مغرب القرن ،د/5ام نجد أن هناك ضرائب غير حكومية في بعض مناطقه فرضت على الأنشطة التجارية، من قبل القبائل المقيمة على الطرق . فقبائل البرانس المقيمة في مناطق السوس وأغمات وفاس كانت لها

(6637/1)

لوازم على المجتازين ببضائعهم وسلعهم بين هذه المدن لقاء الخفارة التي يقدمونها للقوافل.

(238) ن. م ، ص71

(239) ن. م ، ص 70–71

(240)ن. م ص 97

(241) ن. م ، ص70

(242)ن .م ،ص 85

(243)ن –م صص 76

أما التجارة البحرية فلم تكن معفاة من الضرائب ، فقد أخذت العنعور من المراكب الأندلسية القادمة بالمتاجر إلى ميناء طبرقة(244). وكان حا ام تنس يعشر

التجارات وله (مراصد) على المتاجر الداخلة لهذه المدينة والخارجة صادرة وواردة(245). وفي مرس الخزر مركز إنتاج "معدن المرجان " فرض ناظر صلاتهم فيه الضرائب على تجارة هذا

(1/6638)

المعدن ، وكان له أمناء يشرفون على عملية استخراجه وتجازله (،"ء). وهكذا كانت الضرائب على التجارات المغربية الصادرة والوازة تحت إشراف وتنظيم الجهاز الحام في مغرب القرن 4هـ/10م بصورة عامة، إلا القليل منها كان يجبى لصالح بعض سكان المناطق .

الخاتمة

ومما سبق ذكره يتضح لنا كيف استطاع ابن حوقل ، الرحالة والتاجر البغدادي ، أن يعطي لنا صورة دقيقة وتفصيلية في كتابه صورة الأرض ص ظ النشاط التجاري الذي كان عليه المغرب في القرن 4هـ/10م، وهو بحالة مزدهرة بفعل جملة عوامل اقتصادية وجغرافية وسياسية . وقد اعتمد

(1/6639)

هذا النشاط على شبكة من الطرق التجارية شملت مدن المغرب جميعها ساحلية وداخلية، وارتبطت بمراكز الإنتاج والاستهلاك، وكانت على درجة كبيرة من التنظيم. وعلى هذه الطرق كانت المراكز التجارية المهمة محطات لتجمع الطرق التجارية وتشعبها.

والجدير بالملاحظة أن الازدهار التجاري الذي شهده مغرب القرن 4هـ/ 10 م، قد خلقه تجار مغاربة وغير مغاربة، وكان الأخيرون من أهل الشرق وحوض البحر المتوسط. وقد ارتبط بهذا الازدهار التجاري تنيمات خاصة بالأسواق ، والتعامل التجاري ، كما نظمت الضرائب على التجارات الصادرة

(6640/1)

والواردة .

(244)ن .م ،ص 76.

(245)ن .م ،ص 78.

(246)ن .م ،ص 76.

(6641/1)

النظام العدلي الجزائري (1514 ـ 1837)

... ... الدكتور علي آجقو

... معهد الحقوق ـ جامعة تبسة ـ الجزائر

مقدمة

... لاشك في أن جهاز العدالة من أهم الأجهزة في الدولة وأعظمها أثراً، لأنه المقياس الذي يعكس درجة رقي المجتمع وفاعلية مؤسساته. وإقامة العدل التي تعني حفظ النفس، والعرض والمال، هي من المصالح التي جاء الإسلام لحفظها ورعايتها، والمجتمع العادل هو ذاك الذي يهيِّء كل فرد فيه الحياة الآمنة والعيش الكريم، حتى ينتظم المجتمع ويزدهر في جوانبه المختلفة.

(6642/1)

... والدولة الجزائرية التي ظهرت إلى الوجود، في بداية القرن السادس عشر، كانت تتوفر على جهاز عدلي يستجيب لمتطلبات البلاد والعباد ومنسجماً مع مبادئ العدل وقواعده التي أمر بها ديننا الحنيف ومع

موروثنا الحضاري الثري بالقيم النبيلة من عدل وتسامح. لكن بعد نهاية الدولة الجزائرية، بصفتها كياناً سياسيّاً، سنة 1837(1)

---

(1) تنص المادة الخامسة من الاتفاقية الموقعة بين الداي حسين والكونت دوبرمون سنة 1830 على ما يلي: »تبقى ممارسة الديانة المحمدية حرة، كما أنه لن يقع أي اعتداء على حرية السّكّان من جميع الطبقات وعلى دينهم وتجارتهم وأملاكهم، وستحترم نساؤهم «.

(1/6643)

، أقدمت سلطة الاحتلال الفرنسية، بموجب الأمر الصادر عام 1841، على التضييق على الجهاز العدلي الجزائري، وحصرت مجالاته في بعض القضايا المتعلقة بالعقود المدنية والأحوال الشخصية وما يتعلق بهما.

... لقد أقام الاستعمار الفرنسيّ جهازاً عدليّاً استعماريّاً وطبعه بالشكل الذي يخدم أهدافه، ضارباً عرض الحائط بما تعهد به الرسميون الفرنسيون لدى دخولهم مدينة الجزائر عام 1930. لم يكتف الفرنسيون بإقامة أجهزتهم الاستعمارية، بل راحوا يشنون حملة واسعة

النطاق لطمس معالم الدولة الجزائرية في جميع المجالات.
وكان ذلك

(1/6644)

بهدف القضاء النهائي على المرجعية التاريخية
والحضارية للجزائر بصفتها دولة وأمة. ولتحقيق هذه
الغاية، أطلق العنان لمؤرخي الاحتلال وضباطه ليرسموا
لوحة قاتمة عن حالة الجزائر بغية تبرير احتلالهم لها،
لدرجة أنهم نزعوا عنها صفة الدولة على الرغم من أن
دولتهم (فرنسا) كانت تتبادل مع الجزائر الممثلين
وتبرم معها المعاهدات وتعمل على كسب ودها
وصداقتها بتقديم الهدايا والإتاوات.
... تلكم اللوحة القاتمة أصبحت المادة الخام التي ينهل
منها غالبية المؤرخين والباحثين، عرباً وغيرهم، حينما
يتناولون تاريخ ومؤسسات الدولة

(1/6645)

الجزائرية الأولى PEA)). أما المؤرخون العرب، فكانوا
يفعلون ذلك. كما يقول الدكتور محمد العربي الزبيري .

»بدافع التقليد الأعمى الناتج عن مركب النقص الذي يكاد يكون عاماً لدى مثقفينا الذين اضمحلت شخصيتهم، فلم يعودوا قادرين على نقد ما يكتبه السادة الأوروبيون حتى ولو كانت تلك الكتابة زوراً وبهتاناً«(1).

---

(1) محمد العربي الزبيري، مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1974، ص. 75.

(6646/1)

... وقد تصدى لهذا التحريف والتزييف العمدي لتاريخ الجزائر الحديث، الحافل بالأمجاد والبطولات، نخبة من الباحثين والمؤرخين الجزائريين: المرحوم توفيق المدني والدكتور مولاي بلحميسي والدكتور جمال قنان والدكتور محمد العربي الزبيري.... بالرغم من ذلك، يبقى تاريخ هذه الدولة في انتظار المؤرخين ـ الباحثين لإعادة كتابته من جديد، دارسين جوانب الحياة كلها على مدى أكثر من ثلاثة قرون.

... وتدعيماً لتلك الجهود الصادقة، أردت بهذا المقال

المتواضع تأكيد إحدى الركائز المهمة في بناء الدول وقيام الحضارات، ألا وهو جهاز

(1/6647)

العدالة، وأن أضع بين يدي كل متطلع إلى المعرفة دليلاً عساه يساعد في كشف الحقيقة، وبالتالي التصدي لكل المغالطات التي يروج لها في كل مناسبة وحتى بغير مناسبة للنيل من عظمة الدولة الجزائرية وفاعلية مؤسساتها، لا لشيء إلاَّ لأن رجالاتها استطاعوا أن يجعلوا من البحر المتوسط بحيرة في »خدمة الجزائر والإسلام«(1).

أولا: المبادئ الأساسية والمؤسسات

... ا ـ المبادئ الأساسية

---

(1) M. Belhamissi, Histoire de la marine algérienne (1516–1830), Alger, ENAL, 1986, p. 9.

(1/6648)

... يرتكز الجهاز العدلي الجزائري على مجموعة المبادئ الأساسية التي وجدت لخدمة غرض واحد يتمثل في السير الحسن لهذا الجهاز بغية نشر ثقافة الأمن وإرساء دعائم الدولة العادلة أو ما يعبر عنه في وقتنا الحاضر بدولة القانون، وفي الوقت نفسه ضمان حصول المواطنين وغيرهم على قضاء عادل بإجراءات مبسطة وتكاليف معقولة.

... هذه الأسس نوردها مختصرة في ما يلي:

... ا ـ 1 ـ الحق في اللجوء إلى العدالة

... حق الجميع في التقاضي ثابت من ثوابت النظام السياسي الجزائري. ولتجسيد ذلك، تم تزويد الأشخاص بالوسيلة اللازمة للحصول

(6649/1)

على حقوقهم، أي العدالة، لأنه وفق ما يقوله القانونيون: »فلا قانون بلا قاض، ولا حق أو واجب قانوني بلا قضاء يفرضه وخصومه تكون أداة له في حمايته«(1).

... والحق في اللجوء إلى القضاء يعد من الأمور التي لا يجوز للأشخاص التنازل عنها بصورة مطلقة إلا في حالات خاصة كحالة تراضي الأطراف

(1) وجدي رأفت فهمي، »دراسات في مركز الخصم أمام القضاء المدني«، مجلة العلوم القانونية والاقتصادية، جامعة عين شمس، عدد 1، 1976، صص. 115 ـ 116، نقلاً عن محمد أمقران بوبشير، النظام القضائي الجزائري، الجزائر، OPU، 1993، ص, 162.

(6650/1)

باللجوء إلى صلح الجماعة أو أي وسيط آخر للبت في نزاع ما. وهذا أمر تتفق بشأنه جميع الشرائع والقوانين والأعراف.

... ا ـ 2 ـ المساواة أمام العدالة

... التجسيد الفعلي لهذا المبدإ لا يتأتى، طبعاً، إلا بتحقيق أمرين:

... ـ المساواة التامة بين الخصوم أمام القضاء؛

... ـ وحدة المعايير الشرعية والقانونية المطبقة، والتي تقتضي أن تكون المعاملة واحدة لجميع الأطراف.

... ويستكشف المتصفح النزيه والموضوعي لتاريخ العدالة الجزائرية ـ بطريقة جلية ـ أن اللجوء إلى القضاء كان متاحاً للجميع دون أي تمييز.

(6651/1)

... ا ـ 3 ـ الحرية في اختيار القاضي

... هذا المبدأ تنفرد به العدالة الجزائرية، مقارنة بالأنظمة العدلية المعاصرة لها، حيث أن الجميع كانت لهم مطلق الحرية في اختيار القاضي الذي ينظر في نزاعهم دون تحديد جغرافي لمكان إقامتهم ولا لموقع الشيء المتنازع فيه. ولا تنحصر حرية الاختيار هذه في اختيار القاضي، بل تتعداه إلى حرية التقاضي أمام أي من المحكمتين المالكية أو الحنفية(1).

... ا ـ 4 ـ مجانية القضاء

---

(1) حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تعريب وتقديم محمد العربي الزبيري، الجزائر، ط 2، 1982، ص. 110.

(6652/1)

... فيما يخص الاختصاص الرئيس للقاضي والمتمثل في المعالجة والبت في ما يعرض عليه من قضايا، فإنه يقوم بذلك دون ان يتلقى أي أجر من المتقاضين، نظراً لكونه

موظفاً معيناً من طرف الدولة.

... ا ـ 5 ـ المسؤولية الجماعية

... من المبادئ الأساسية التي كانت تقوم عليها العدالة الجزائرية وتمتاز بها مبدأ المسؤولية الجماعية: فكل حي وكل ناحية، سواء تعلق الأمر بالمناطق الحضرية أو القروية، يكون مسؤولاً عن الجرائم والسرقات المرتكبة ضمن حدوده(1)

---

(1) وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص. 111.

(6653/1)

. وكان من نتائج ذلك انعدام ظاهرة السرقة كما يؤكد ذلك عديد المؤلفين(1).

...

... ا ـ 6 ـ استقلالية العدالة وحيادها

... المقصود بذلك هو أن تقوم الهيئات القضائية (محاكم ومجالس) بعملها مستقلة عن سائر الدوائر الحكومية مركزية كانت أو بايليكية: فالفصل في المنازعات المختلفة يبقى من اختصاص السلطة القضائية، التي لا

تخضع في عملها لغير الشريعة والقانون والعرف. فليس لأي جهة الحق في أن تملي على الهيئات المذكورة أو توحي إليها

---

(1) Mahfoud Kaddache, L'Algérie durant la période ottomane, Alger, OPU, 1992, 114p.

(6654/1)

بوجه الحكم في أيّ قضية معروضة أمامها، أو أن تعدل الحكم الذي أصدره القاضي أو تحول دون تنفيذه.

... مما سبق يتضح أن الجهاز العدلي الجزائري كان يتمتع باستقلالية مطلقة عن السلطة سواء على مستوى دار السلطان أو على المستوى الإقليمي: فكل أجهزة الدولة تخضع لوصاية، ما عدا جهاز العدالة فلا وصاية عليه إلا في أواخر عهد الدايات، حين صار شيخ الإسلام بمثابة وزير العدل والثقافة(1).

II. **المؤسسات**

---

(1) **المقاومة الجزائرية، عدد** 6، **يناير** 1957، **ص.** 2.

... بعد قيام الـ PEA، عملت السلطات الجزائرية على إقامة وتنظيم جهاز قضائي مغاير للشكل التقليدي السابق ومتمشٍّ مع متطلبات المرحلة الجديدة ومُراعٍ لخصوصياتها المتمثلة في الانتقال من مجتمع القبيلة إلى مجتمع الدولة .الأمة وتقسيم البلاد إلى أربع بايليكات (أقاليم) (1)

---

(1) هذه البايليكات هي:

... ... .بايلك الغرب ومقره معسكر، ثم وهران ابتداء من سنة 1722، ويضم 46 قسماً إدارياً.

.بايلك الوسط (التيطري) ومقره المدية، وهو أصغر البايليكات وأقلها نفوذاً، وذلك نظراً لقربه من دار السلطان. يضم هذا البايلك 14 قسماً إدارياً.

.بايلك الشرق ومقره قسنطينة، وهو أكبر البايليكات مساحة وأكثرها نفوذاً، ويضم 47 قسماً إدارياً.

.دار السلطان (العاصمة وضواحيها)، وهي عاصمة الدولة وبها جميع المؤسسات العليا والممثّليّات الأجنبية المعتمدة. وتضم دار السلطان 19 قسماً إداريّاً.

، وكل بايلك إلى عدة أوطان، وكل وطن إلى عدد من الأعراش. ولم يلغ إنشاء الجهاز العدلي الجديد بفرعيه . العادي (مدني وجزائيّ) والعسكري .القضاء التقليدي، بل حافظ عليه وشجعه، باعتباره إرثاً حضارياً ولبنة مهمة في الصرح القضائي الجزائري القائم على حرية التعددية المذهبية(1).

أنواعها:

... أصبح جهاز العدالة يتشكل من المؤسسات القضائية التالية:

1 .القضاء التقليدي

---

(1) تتمثل في وجود المذاهب الفقهية التالية:

... .المذهب المالكي.

... .المذهب الحنفي.

... .المذهب الإباضي.

(1/6657)

... لقد كان سكان المغرب الأوسط يلجأون في حل مشاكلهم وفض نزاعاتهم، مهما كان نوعها إلى شخصيات محلية مشهور لها بالعلم والتقوى والصلاح.

القائمون عليه:

... يقوم على هذا النوع من القضاء شخصيات يمكن حصرها في ما يلي(1):

... أ ـ الجواب وبيان المعارف: هاتان الشخصيتان يلجأ إليهما الناس في البوادي والمدن على التوالي من أجل الحسم في الخلافات التي تقع بين الفلاحين والخماسين

---

(1) Claude Collot, Les institutions de l'Algérie durant la période coloniale (1830–1962), Ed. CNRS-Paris et OPU- Alger, p. 167.

(1/6658)

والرعاة.

... ب ـ شيوخ الزوايا: يقوم هؤلاء الشيوخ بالفصل في ما يعرض عليهم من قضايا ذات علاقة خاصة بالأحوال الشخصية والمواريث والملكيات.

... ج .الأئمة: لم تكن لهؤلاء مسؤوليات قضائية، ولكنهم كانوا كثيراً ما يطلب منهم الناس الإدلاء بآرائهم في كثير من الحالات لحسم خلافاتهم.

... د .الجماعة: كانت الجماعة تمثل هيئة »القضاء«، خاصة في منطقة القبائل(1)

---

(1) مما تجدر الإشارة إليه أن السلطات الفرنسية أنشأت بعد الاحلال نظام جماعة خاص ببلاد القبائل. كان ذلك بموجب القرار الصادر يوم 15 رجب 1251 هـ/ 28 غشت 1874 م ليحل محل الجماعة التقليدية والمحاكم الشرعية وتبنى أحكامه على العرف والتقاليد دون مراعاة لأحكام الشرع. هذا القرار يشبه إلى حد بعيد الظهير البربري الذي أصدره الفرنسيون لاحقاً بالمغرب بتاريخ 26 ماي 1930 (انظر عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ج 3، ص. 1513).

(1/6659)

والمناطق الجبلية في الأوراس وغيرها. لقد كانت الجماعة تعتمد على العرف تشريعاً لحل الخلافات المعروضة عليها (مدنية كانت أم جزائية)، خاصة ما

يتعلق بجرائم القتل والقضايا التي تمس الشرف أو العرض. وما زال دور الجماعة في رأب الصَّدْع وإصلاح ذات البين تقليداً معمولاً به حتى الآن في كامل أنحاء الوطن. هذا النوع من القضاء، بالرغم من تقليديته وبساطته، ساهم بصورة ملحوظة في تحقيق العدل ونشر الأمن.

2 ـ القضاء العادي

فروعه:

(6660/1)

... تم إنشاء هذا النوع من القضاء ليواكب الانتقال من مجتمع القبيلة إلى مجتمع الدولة ـ الأمة، وينقسم إلى فرعين: مدني وجزائي.

أ ـ الفرع المدني

خصائصه:

... يكتسي هذا الفرع ثلاث خصوصيات:

1 ـ التفويض(1)

... تكمن هذه الخاصية في كون الرئيس، الذي هو القاضي الأول في البلاد، يفوض هذا الاختصاص إما إلى أحد

المسؤولين الساميين في

---

(1) Claude Bontemps, Manuel des institutions algériennes de la domination turque à l'indépendance: la domination et le régime militaire 1518–1870, Ed. Cujas, Paris, 1970, p. 25.

(1/6661)

الدولة أو إلى شخصية مختصة كالقاضي.

... وقياساً على ذلك، يمكن الباي، باعتباره القاضي الأول في بايلكه، أن يقوم بتفويض مماثل.

... هذا التفويض يمكن أن يسحبه مانحه متى حدث ما يدعو إلى اتخاذ مثل هذا الإجراء.

2. السرعة

... هذه الخاصية تفسر على أساس أن العدالة الجزائرية لا تهتم بالجانب الشكلي: فالمثول الشخصي للطرفين المتخاصمين إجباري، بمعنى أن المدعي مطالب بإحضار المدعى عليه أمام المحكمة(1). ولو كان هذا الأخير عاصياً، كُلِّفَ الشاوش بإحضاره شخصياً. أما إذا تمكن من الإفلات، فيعتبر

(1) Ibid., p. 26.

عاصياً فعلاً (1). والحكم الغيابيّ غير معمول به في القضاء الجزائري خلال هذه الفترة، كما أن المحاكمات لم تكن لتستمر أكثر من بضع ساعات إلا نادراً(2).

3. قلة التكلفة

... هذه الخاصية مردها إلى مجانيّة التقاضي والسرعة في إصدار الأحكام وتنفيذها وبساطة الإجراءات؛ كما أن الأحكام القضائية لم تكن تسجل بالاسم، وإنما بالختم أو الطابع المميز الذي يضعه القاضي على أيّ شهادة مسجلة(3). وأخيراً، نجد أنه يمكن عقد جلسات المحاكمة في أي مكان عام

(1) Ibid.

(2) Idem.

(3) الجزائر في عهد رياس البحر، مرجع سابق.

كالأسواق والساحات أو أي مكان تتم فيه مقابلة القاضي(1).

ب ـ الفرع الجزائي

... هذا الفرع يتولاه الرئيس شخصياً في دار السلطان بمساعدة أعضاء ديوانه أو أشخاص ينوبون عنه، وهم: الباي والقائد والشيخ، سواء كان ذلك في دار السلطان أو في عواصم البايليكات أو في الأوطان أو في الأعراش.

... ويفصل في الجنح مجلس الكاهية، وهو المخول له النظر في القضايا الإجرامية التي تجري حوادثها بين المدنيين. يرأس المجلس المذكور:

---

(1) Mouloud Caid, Chronique des Beys de Constantine, Alger, O.P.U, 1979, Annexe I, p. 131.

(1/6664)

... ـ بدار السلطان: الحاكم نفسه أو أحد نوابه كخوجة الخيل أو آغا العرب.

... ـ بقسنطينة: الباي نفسه أو قائد الدار.

... ـ بوهران: الباي نفسه أو القايد أو شيخ البلد.

... يضم مجلس الكاهية في عضويته عسكريين متقاعدين برتبة آغا. غير أن هذا المجلس ليس من صلاحياته إلا إصدار عقوبات جسدية أو فرض غرامات(1). أما عقوبة الإعدام، فلا تصدر إلا عن الرئيس أو الباي؛ ما عدا دار السلطان، فإن آغا العرب(2) وخوجة الخيل(3)

---

(1) Ibid.

(2) آغا العرب: هو وزير القوات البرية والمكلف بإدارة الأوطان التابعة لدار السلطان.

(3) خوجة الخيل: هو وزير مكلف بممتلكات الدولة.

(1/6665)

يمكنهما إصدار هذه العقوبة. كان تنفيذ العقوبات يتم على مستوى دار السلطان في ثلاثة أماكن:

... .باب عزون.

... .دار الصابون.

... .الزمبوج.

... ويحدث في بعض الحالات أن يقوم الرئيس بإحالة بعض القضايا الجزائية على القضاء المدني للفصل فيها طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية.

... ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن جرائم القتل، التي لم تكن ذات طابع سياسي، كانت تعالج عن طريق صلح الجماعة، الذي يتوج بدفع الدية(1)

---

(1) كان نظام الديات معمولاً به عند العرب. فأبقاه الإسلام وفق ما تشير إليه الآية القرآنية الكريمة 178 من سورة البقرة. {فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم}. حول موضوع الديات، انظر: محمد لعساكر، »حقوق المجني عليه ومبادئ التعويض في الشريعة الإسلامية (الدية)«، المجلة الجزائرية للعلوم القانونية والاقتصادية والسياسية، عدد 2، 1990، ص. 340 وما بعدها.

(6666/1)

.

3 ـ القضاء العسكري

... المتعارف عليه أن العسكريين لا يحاكمون بواسطة القوانين المدنية، وإنما بواسطة القوانين العسكرية. وعليه، فحينما يخل العسكريون بقواعد الانضباط أو

يتعدون القوانين، يتوجه رؤساء المحاكم الجنائية والتأديبية العسكرية إلى القاضي لمعرفة رأيه في تطبيق القانون(1).

---

(1) حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 1982، ص. 110.

(1/6667)

... وعند صدور الأحكام، وتوجُّب عقوبة، فإن رئيس الديوان أو آغا العرب هما اللذان يأمران بتنفيذها في مقر الديوان سراً(1)، حتى لا تهان كرامتهم(2)، بينما غيرهم يشهر البرام بجرائمهم(3). ففي دار آغا الهلالين

---

(1) المرجع نفسه.

(2) نصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800 ـ 1830، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979، ص 51.

(3) المرجع نفسه؛ J. M. Venture de Paradis, Tunis et Alger au 18e siècle, mémoire et observations rassemblés et présentés par Joseph Cuoq, Paris, Sindbad.

(6668/1)

والتي تسمى دار السركاجي يتم تنفيذ ما أصدرته المحاكم العسكرية وأمر الداي بتنفيذه من أحكام في المخالفات التي ارتكبها أفراد المليشية(1). غير أنه في عهد علي باشا، تم إعدام سبعة ضباط في قصر الجنينة وتعليق جثتهم أمام الملأ(2).

ثانياً: المحاكم والمجالس

ا. المحاكم

أ. أنواعها:

---

(1) 1983, .254p.

(2) محمد الشريف الزهار، مذكرات نقيب الأشراف، تحقيق المدني أحمد توفيق، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1985، **ص.** 63.

(6669/1)

... تنوعت المحاكم بتنوع التركيبة المذهبية للمجتمع الجزائري. وتبعاً لذلك، فقد تم إنشاء ثلاث محاكم تعمل

وفق ما يقتضيه كل مذهب.

أ. 1. المحاكم المالكية

... تنظر في القضايا وفق مذهب الإمام مالك، الذي تتبعه الغالبية العظمى من سكان الجزائر.

أ. 2. المحاكم الحنفية

... تختص في معالجة ما يعرض عليها من قضايا وفق مذهب الإمام أبي حنيفة، الذي يعتبر المذهب الثاني في الجزائر؛ وغالبية أتباعه من الجزائريين ذوي الأصول العثمانية والأندلسية.

أ. 3. المحكمة الإباضية

(6670/1)

... تعالج هذه المحكمة ما يعرض عليها من قضايا تخص أتباع المذهب الإباضي، خاصة في منطقة وادي ميزاب.

وتنقسم هذه المنطقة قضائياً إلى سبعة قرى(1)، ولكل قرية قانونها ونظامها القضائي، الذي قد يتفق وقد يختلف مع نظام غيرها من القرى الأخرى.

... ومن الأحكام التي تصدر عن القضاء العرفي في محكمة

غرداية معاقبة الشخص الذي يكلم المرأة في الشارع

---

(1) عبد اللطيف شهيدة، نشرة القضاء، عدد 2، 1970، نقلاً عن عبد العزيز سعد، أجهزة ومؤسسات النظام القضائي الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1988، ص. 20.

(6671/1)

العام أو المدخن أو شارب الخمر، بالغرامة والجلد بالعصا ثمانين جلدة(1).

... إضافة إلى ما سبق ذكره، توجد هيئات قضائية عديدة نوردها باختصار في التالي:

... .هناك قضاء مختص في معالجة القضايا ذات الطابع التجاري والمهني، إضافة إلى علاقات العمل بين المالكين والعمال.

... .هناك قضاء خاص بالمسيحيين واليهود يقوم به على التوالي القناصل والحاخامات. وهذا النوع يمكن أن يطلق عليه اليوم مصطلح الاختصاص النوعي أو المذهبي(2).

---

(1) المرجع نفسه.

(2) ... عبد العزيز سعد، المرجع السابق، ص. 22.

(6672/1)

... غير أن هذه المحاكم تفقد حق الاختصاص في مقاضاة رعاياها(1)، إذا كانت المخالفات المرتكبة تمس أمن الدولة الجزائرية أو كان المواطنون الجزائريون طرفاً فيها: ففي هاتين الحالتين، يعود الاختصاص إلى القضاء الجزائري.

... ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن الجيجليين كان لهم أمين خاص بهم، كما أن مقاضاتهم وعقابهم كان يتولاهما الداي مباشرة(2). وهذا الامتياز مرده ـ في رأيي ـ إلى المواقف التاريخية لهذه المدينة: فهي التي استقبلت

---

(1) سعيدوني، المرجع السابق.

(2) Venture de Paradis, op. cit., p. 119.

(6673/1)

الفاتحين (1514) وساعدتهم في طرد الاستعمار الجنوي، كما أنه بعد الفتن التي أعقبت وفاة بابا عروج، والتي قام بها بالقاضي، بتحريض من الحفصيين

والإسبان، وجد خير الدين في هذه المدينة الملاذ الآمن الذي ساعده وجنوده في القضاء على المتمردين والعودة ثانية إلى مدينة الجزائر.

ب ـ تشكيلها: تتشكل المحاكم الجزائرية من:

ب ـ 1 ـ القاضي (مالكي أو حنفي): وهو يتولى الفصل في القضايا والمنازعات المعروضة على المحكمة، كما سنفصل ذلك لاحقاً.

(6674/1)

ب ـ 3 ـ المفتي: وهو بمثابة رئيس شرفي مهمته تقديم الاستشارة الشرعية أو القانونية حول المسائل التي تعرض عليه، وليس حول طبيعة الأحكام. ويتم تعيين المفتين من طرف السلطات العليا بناء على علمهم ونزاهتهم، وكان يمكن تمييزهم عن غيرهم بواسطة القفطان الأبيض(1) الذي كانوا يرتدونه.

ب ـ 3 ـ العدول(2)

---

(1) الجزائر في عهد رياس البحر، مرجع سابق، ص. 107.

(2) الشهود العدول مصطلح تم استعماله مختصراً من قبل المغاربة والأندلسيين في مصطلح عدول، ومن قبل المشارقة في مصطلح شهود. ويعود أول استعمال

للمصطلحين إلى سنة 870 هـ، حين قام القاضي المصري المفضل بتعيين 10 أشخاص بلقب شهود. (حول هذا الموضوع، انظر:

H. Vandevelde, Cours d'histoire du droit musulman et des institutions musulmanes, OPU-Alger, 1983, p. 207.)

(1/6675)

: يقوم هؤلاء بتحرير الإجراءات القضائية وتوقيعها. وسنتعرض بالتفصيل إلى العدول ودورهم فيما بعد.

ب ـ 4 ـ الكتّاب: هؤلاء مهمتهم تحرير بعض الأعمال القضائية وتدوين الملاحظات أثناء جلسات المحاكم.

ب ـ 5 ـ الشواش: يقوم هؤلاء بحفظ الأمن والنظام داخل المحاكم، وإحضار المطلوبين أمام العدالة.

ج ـ أسلاكها:

... سوف نقصر الحديث على سلكي القضاة والعدول، نظراً لأهمية الدور الذي يؤدِّيه كل من القاضي والعدل:

1 ـ القضاة

(1/6676)

... يعتبر القضاة الدعامة الأساسية للجهاز العدلي، لأن بيدهم أهم ما يملكه الإنسان، روحه وماله وعرضه. ومن هنا كان حرص المسؤولين على اختيارهم كبيراً، فكان يتم استناداً إلى ما لهم من درجات علمية في الفقه وأصول الدين، إلى جانب ما يشتهرون به من نزاهة وخلق كريم. كما أن هؤلاء القضاة كانوا من الحاصلين على شهادات عليا(1) من القاهرة أو إسطانبول. ويتم اختيار هؤلاء مباشرة من قبل السلطات العليا في البلاد(2) باقتراح من المفتي وموافقته.

---

(1) Kaddache, op. cit., p. 114.

(2) Ibid.

(1/6677)

... ويتم هذا الاختيار في شكل رسالة تعيين تسمى رسالة إنعام أو تولية، كما توضح ذلك رسالة تعيين في منصب قاضٍ بعث بها الحاج أحمد، باي قسنطينة، إلى علي الزغداني مولياً إياه قاضياً على نجع لحراكتة بالأوراس.

... يقول الباي في هذه الرسالة(1):

... الحمد لله. أمرنا بهذا المنصب المبارك بحول الله تعالى وقوته المهيب سي الفقيه الأجل أبتنا علي الزغداني على أننا

---

(1) عثرنا على هذه الوثيقة في كتاب صالح فركوس، الحاج أحمد باي 1826 ـ 1850، الجزائر، O.P.U، 1930، ص. 110. ونحن الذين قمنا بإعادة كتابتها الحرفية.

(1/6678)

أنعمنا عليه وليناه قاضياً بنجع لحراكتة أولاد عيسى وأوصيناه بأن يحكم بمشهور مذهب الإمام مالك بن أنس الذي به الفتوى وأوصيناه بتقوى الله العظيم وطاعته في السر والعلانية ومراقبة من لا تخفاه خافية وأمرنا بطاعته والإذعان لحكمه مع الإيصاء عليه بالحرمة والاحترام والمبرة والإكرام بحسب الواجب على أمرنا هذا أن يعمل بمقتضاه ولا يخالفه ولا يتعداه. ومن خالف الأمر، استوجب العقوبة والحبل والمشنقة من المنعم سمو مولانا السيد الحاج أحمد باشا أيده الله تعالى ونصره آمين.

... أواسط جمادى الأول سنة 1350 هـ

(6679/1)

... تبين لنا رسالة التعيين هذه من جهة مدى الاهتمام الذي كان يليه المسؤولون الجزائريون للعدالة ولرجالها، وتوضح بجلاء حقوق القاضي وواجباته من جهة أخرى: ففيما يخص الحقوق، تلتزم الدولة بأن تأخذ على عاتقها حماية القاضي من جميع التجاوزات قولية كانت أو فعلية، حتى يتمكن هذا القاضي من ممارسة وظيفته بكل حرية ليفصل في القضايا والمنازعات المعروضة عليه بالعدل والمساواة دون إفراط أو تفريط، وحتى يكون حكمه عنواناً لعدالة عادلة وقاضٍ نزيه. وفيما يخص الواجبات، فالقاضي مطالب بأن يكون نزيهاً محايداً بعيداً عن كل

(6680/1)

الضغوط والمغريات من أي نوع كانت ومهما كان مصدرها، وإلا تعرض لأقسى أنواع العقوبات.

أ .اختصاصاتهم:

1 .أساسية: اختصاصات القاضي عديدة وواسعة، إذ تشمل في جانبها النوعي كل القضايا المدنية وبعض

القضايا الجزائية، وتشمل في جانبها المكاني كامل أراضي القطر الجزائري، هذه الاختصاصات تعد المهمة الأساسية للقاضي.

2 ـ ثانوية: غير أن القاضي يضطلع، زيادة على ما تقدم، بمهام أخرى ليصدر فيها أحكاماً خارج أي نزاع. من هذه المهام التي تعد اختصاصاً ثانوياً نذكر ما يلي:

(6681/1)

... 2 ـ أ ـ الوصاية على القصر: في القانون الإسلامي توجد ست حالات لعدم الأهلية وبالتالي للمنع من التصرف. وهذه الحالات هي:

... ... ـ العبودية.

... ... ـ القصر.

... ... ـ الخبل العقلي.

... ... ـ السفه.

... ... ـ الإفلاس.

... ... ـ الخطر العمومي.

... الحالات الأكثر أهمية هي رعاية القصر والتي تكون احتياطية، ولا يلجأ إليها إلا في حالة عدم وجود الوصي

الشرعي: الأب أو الجد أو وصي موصى به. وحتى في حالة وجود الوصي، فالقاضي له سلطة الرقابة على الأوصياء(1)

---

(1) أحمد توفيق المدني ، محمد عثمان باشا، داي الجزائر 1766 ـ 1791، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص. 172.

(1/6682)

للتأكُّد من قيامهم بتنفيذ ما أوصوا به.

... 2 ـ ب ـ الموافقة على الهبات

... وهي عطايا تقدم للمؤسسات الخيرية من أجل تحسين أوضاع الفقراء والتخفيف من معاناتهم. ووفقاً لمبادئ المذهب المالكي، فإن الذي يهب ملكاً ما لا يعتبر مقبولاً إلا إذا كان التمتع به حالاً ودون أية قيود (1).

... أما المذهب الحنفي، فيرى أن إرادة الواهب ورغبته في الهبة يكفي للاعتداد بهذه الهبة شرعاً وقانوناً (2)، استناداً لما جاء في الأثر: »نوايا المرء الحسنة أبلغ من أفعاله«؛

---

(1) المرآة، المرجع السابق، ص. 270.

(2) المرجع نفسه.

(6683/1)

وكذلك القاعدة المعتمدة في هذه الفترة والقائلة إن «العوائد المتداولة تتحول إلى قانون».

... فمثلاً، هناك رجل له دار يسكنها ثم يريد أن يقوم بعمل خيري لصالح مؤسسة خيرية: فهذه الهبة لا يعتد بها شرعاً ولا قانوناً حسب القضاء المالكي. أما القضاء الحنفي، فيرى أن صاحب المسكن يواصل التمتع بمسكنه طوال حياته، وبعد ذلك تنفذ الهبة بانتقال الدار إلى الجهة الموهوب لها. هذه المرونة في القضاء الحنفي تضبطها شروط وقواعد صارمة: فالمحكمة لا تصدر حكمها إلا بعد أن يدرس المفتون الحنفيون شروط العقد دراسة دقيقة، وذلك

(6684/1)

منعاً لأي التباس أو تأويل لدى عموم الناس. ولتوضيح ذلك، نورد ما يلي(1):

... .إذا كان سيستفاد من الهبة خارج الإطار الجغرافي للواهب، فإن إرادته لا تنفذ إلاّ بعد التأكد من عدم وجود فقراء في بلدة الواهب أكثر احتياجاً من غيرهم.

... .إذا كان الواهب يرغب في أن يعطي حق استثمار أملاكه للفقراء مدة 10 أعوام أو 15 عاماً، تعاد له أملاكه كاملة بعد انقضاء الفترة، فإن ذلك لن يكون شرعياً ولا يستطيع الواهب أو ورثته أن يتصرفوا فيه بعد تلك المدة. ويصبح حق الانتفاع هبة أبدية. ...

---

(1) المرجع نفسه، ص. 269.

(6685/1)

... وبناء على ما تقدم، يكاد يكون هناك شبه إجماع بين مفتي المذهبين على تطبيق القضاء الحنفي على كل الهبات المشروطة، خدمة للصالح العام ورفع الموارد الخاصة بالطبقة المحتاجة من أبناء الأمة. وعليه، فقد أصبح على كل من يريد أن يهب شيئاً ما بعد وفاته أن يتوجه إلى القاضي الحنفي.

... غير أن هناك حالات تستدعي اتفاقاً بين المحكمتين قبل إصدار حكمها، كما سنرى ذلك فيما يلي(1):

... .إذا كان رب أسرة قد قدم هبة تنقل بعد وفاته إلى

مؤسسة خيرية ما، وكانت أسرة الواهب نفسها محتاجة، فإن الهبة

---

(1) المرجع نفسه، ص. 272.

(1/6686)

تعتبر لاغية، بالرغم من إجازة المذهب الحنفي لها. ذلك لأنه ليس من العدل في شيء أن نساعد الأجانب على حساب أفراد الأسرة المحتاجة بناء على ما جاء في الأثر: »حاولوا أن تقطعوا جذور الشر قبل البحث عن الخير«، وأيضاً في مورثنا الشعبي: »لا تجوز الصدقات حتى يكتفي العيال«.

... .إذا كان الواهب غنياً ثم مات ولم يترك وارثاً، فإن تركته تذهب إلى بيت مال المسلمين. غير أنه إذا كان قد أوصى بشيء من ماله، فإن المحكمة تنظر أولاً إلى الوضع الذي يكون عليه صندوق بيت المال لإقرار الوصية أو إلغائها؛ فإذا كانت حسابات

(1/6687)

الصندوق مدينة، ألغيت الوصية.

... لنر الآن موقف المذهبيين إذا كان الواهب غير مسلم (1):

... .إذا أراد أحد المسيحيين أن يهب أملاكه للكنيسة أو لفقراء المسيحيين(2)، فإن القاضي يثبت العقد ويعتبره شرعياً ويكون للواهب المسيحي ما للواهب المسلم. أما إذا أوصى بالهبة نفسها لمسجد أو لفقراء المسلمين، فإن القاضي لا يستطيع أن يثبت بنفسه ذلك العقد الذي يعتبر غير شرعي. ومن ثمة لا يعترف بصحته مهما كانت المبررات، ويظل الواهب حائزاً على أملاكه يتصرف فيها كيفما يشاء.

---

(1) المرجع نفسه، ص. 273.

(2) المرجع نفسه.

(6688/1)

والسبب في رفض هذه الهبة من طرف القاضي كون هذا المسيحي لم يقدم على ذلك الفعل الخيري إلا مجاملة أو بدافع له ارتباطات سياسية. غير أنه من الناحية المعاملاتية البحتة تكون هذه الهبة صحيحة ما دامت نية الواهب لم تتغير. وإذا أراد إلغاءها لسبب من

الأسباب، كان له ذلك

... مما سبق يتضح أن هذه الثنائية المذهبية وبالتالي القضائبية كانت عامل تكامل عاد بالنفع على جميع أفراد المجتمع.

... وبما أن هذه الثنائية القضائية لم تخدم سياسة »فرق تسد« الاستعمارية، فقد أقدم الجنرال الفرنسي بارتراند كلوزيل (Bertrand

(6689/1)

(1Clauzel)(

---

(1) حاكم عام للجزائر، ثم قائد بجيش أفريقيا عامي 1835 ـ 1836. وأثناء حكم هذا الجنرال، الذي لا ذمة له ولا ضمير والعديم الإنسانية، ألحقت المؤسسات الخيرية بأملاك الدولة، وحرم الفقراء من الاستفادة منها؛ كما تعرضت المساجد للتخريب مثل ما حدث بمسجد السيدة، الذي بناه الداي عثمان باشا من ماله الخاص، ويعتبر آية في الفن والعمارة، حيث بيعت محتوياته في مدينة تلوز الفرنسية. لقد تعرض هذا المسجد، الذي يقع قبالة قصر الجنينة، للهدم لكونه المسجد الذي يؤدي فيه أعضاء الحكومة الجزائرية وسلطاتها العليا صلواتهم. ومن ثمة

فهو بهذه الصفة يعتبر أحد رموز الدولة الجزائرية؛ كما تم تحويل بعض المساجد الأخرى إلى مستشفيات لجند الاحتلال ومراكز لتجمعات جيوشه.

(1/6690)

على إلغاء القضاء الحنفي، لأنه رأى في بقائه عاملاً يشجع الواهبين على تقديم الهبات لدعم جسور التضامن والتآزر بين الجزائريين.

... 2 .ج .اختصاصات أخرى

... من مهام القاضي أيضاً التصديق على الوثائق في جميع المعاملات التي يحررها ويختمها العدول، حيث يضع عليها طابعه الضابط ومن مهامه أيضاً الإشراف على مصلحة الجنائز عند غياب رئيسها، فإن القاضي الخاص يقوم صحبة أحد المسؤولين السامين بتعيين وكيل يمثل أهل المتوفى وأوصياء للقاصرين. كما أن وكلاء الأيتام والقصر لا يحق لهم فتح الودائع إلا أمام القاضي، وهو

(1/6691)

الذي يتولى بنفسه صرف المبلغ المطلوب ثم يضع ختمه على الباقي (1) ويرسله على الفور إلى وكيل (2)

---

(1) محمد عثمان باشا، المرجع السابق، ص. 272.

(2) هو مسؤول مصلحة الودائع العمومية. وهذه المصلحة مخصصة لوضع الودائع العمومية: فالمسافرون والواقفون على أموال اليتامى وحتى الذين يخافون أن يعتدي اللصوص على ممتلكاتهم الخاص يمكنهم وضع أموالهم في هذه المصلحة على سبيل الأمانة أو الوديعة، ويكتبون أسماءهم فوق ودائعهم. تفتح هذه المصلحة أبوابها يومين في الأسبوع ليتمكن المودعون من سحب ما أودعوه أو زيادة شيء فيه. هذه المصلحة تقوم مقام البنك في وقتنا الحالي. (انظر: محمد بن عثمان باشا داي الجزائر، المرجع السابق، ص. 172).

(6692/1)

أملاك المسجد.

... والظاهر أن هؤلاء القضاة، على الرغم من كونهم موظفين، لم تكن لهم مرتبات شهرية ثابتة (1)، وكل ما كان يحصل عليه هؤلاء هو عبارة عن مكافآت وتشجيعات موسمية تقدم لهم. وربما يعود ذلك إلى

الرسوم الإضافية التي كان يحصل عليها القضاة عن أعمالهم القضائية خارج المحاكم: فالقاضي كان يحصل على موزونة (2) واحدة مقابل تصديقه على كل وثيقة يوقعها (3). أما حينما يتعلق الأمر ببيع الأملاك العقارية،

---

(1) سعيدوني، المرجع السابق، ص. 49.

(2) عملة جزائرية تساوي درهماً.

(3) محمد عثمان باشا، المرجع السابق.

(6693/1)

حيث تنعقد الإجراءات ويستوجب التحري في مراجعة وثائق الملكية، فإن الرسوم تكون معتبرة(1). وفي قسمة المواريث يأخذ القاضي 10 0 ٪(2).

... وفي رأينا أن هذه التشجيعات والرسوم المختلفة التي كان يحصل عليها القاضي كفيلة بأن توفر له دخلاً محترماً.

2 ـ العدول ودورهم

... يعتبر العدل أو الشاهد العدل شخصية مهمة في النظام العدلي الجزائري. ومن ثمة كان القضاة لا يختارون

العدول إلا بعد التأكد من أخلاقياتهم ونزاهتهم، بمعنى أن يكونوا أشخاصاً لا تقبل شهادتهم التجريح، هؤلاء العدول

---

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه.

بعد انتقائهم يصبحون عدولاً مثبتين ورسميين. وكان كل قاضٍ يحيط به اثنا عشر عدلاً (1).

... والدور الأساسي للعدل هو الشهادة أثناء الجلسات. زيادة على ذلك، يقوم هؤلاء بتحرير جميع المعاملات الخاصة، وكل وثيقة يجب أن تكون ممضية ومختومة من طرف عدلين، قبل أن يضع القاضي ختمه الضابط (2)؛ كما أن الوثيقة لا تعد صحيحة ومعترفاً بها قانوناً إلا إذا كان تحريرها على يد عدلين رسميين (3).

---

(1) المرجع نفسه. ص. 171.

(2) المرجع نفسه.

(3) المرجع نفسه.

... يستلم العدل أجرة عمله حسب أهمية الوثيقة: فقد تكون بطاقة شيك(1) أو نصفها أو أكثر قليلاً، على أن لا تتعدى الأجرة في جميع الحالات سكة جزائرية (2). غير أن الوثائق والمعاملات المتعلقة بالعقارات تكون أجرتها أكثر لما يترتب على ذلك من مراجعة للرسوم وتحرٍّ في الملكية، كما سبق أن ذكرنا.

... ومن مهام العدل أيضاً الذهاب إلى سكن المتوفى لإحصاء الأشياء التي تركها وتقديم جرد لها إلى رئيس

---

(1) عملة جزائرية تعادل ريالاً أو درهماً. والريال فضة يساوي 13 فرنكاً في 1937.

(2) محمد عثمان باشا، المرجع السابق.

(6696/1)

مصلحة الجنائز الذي يسمى بيت المالجي(1). كما يقوم العدول بالإشراف على نقل الأشياء الثمينة، التي يخشى ضياعها أو اختفاؤها، إلى وكالة الودائع لحفظها، حتى يجتمع الورثة وغيرهم من ذوي الحقوق.

... 2 ـ د ـ سير محاكمتها

... لقد كانت المحاكم تعقد جلساتها يومياً، باستثناء

يوم الجمعة. وكان المتحاكمون يعرضون قضاياهم بأنفسهم (2)، لأن استعمال المحامين لم يكن مطلوباً(3)، ولكنه كان مسموحاً لهم باستعمال الشهود لتدعيم حججهم أمام القاضي(4)

---

(1) المرآة، المرجع السابق، ص. 134.

(2) Caid, op. cit.

(3) Ibid.

(4) سعيدوني، المرجع السابق.

(6697/1)

. ولا يمكن هذا الأخير أن يرفض الشهادة مهما كان صاحبها مالكياً أو حنفياً (1)، لأن إشكالية الاختلاف المذهبي تزول بأداء القسم.

... ولم تكن المحاكمات تستمر أكثر من بضع ساعات إلا نادراً (2). بعدها يصدر القاضي حكمه إما بالبراءة أو الإدانة. وفي حالة عدم توافر الحجج، تبرأ ساحة المتهم أو تؤجل محاكمته شهراً (3). وفي بعض القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية، كان القاضي يؤجل إصدار الحكم في القضية لمدة سنة (4)

---

(1) المرجع نفسه.

(2) Venture de Paradis, op. cit., p. 114.

(3) Ibid.

(4) سجل محكمة المدية قبيل الاحتلال الفرنسي.

. وقد كانت المحاكمات تتم إما بالعربية أو التركية (1)، حسب الظروف وطبيعة الأطراف المتخاصمة. لقد كان القانون يطبق على الجميع بالتساوي، إلا إذا كانت حقيقة الذنب بادية للعيان والجريمة واضحة؛ كما أن حياد المحكمة كان مضموناً للجميع.

... لقد كان جهاز العدالة الجزائري، كما سبق أن ذكرنا، يمتاز بالسرعة والحياد. ولتوضيح ذلك، نورد أمثلة على بعض القضايا التي عرضت على القضاة وفصلوا فيها أو فصل فيها الرئيس مباشرة.

1. القضايا التي فصل فيها القاضي

---

(1) Venture de Paradis, op. cit.

... .القضية الأولى(1): هذه القضية أوردها رونودور (Renaudort)، ومفادها أنه كان أحد المسيحيين مسجوناً، لأنه ضبط في بيت سَيِّء السمعة مع مسلم كان قد صادفه وأخذه هناك ولما عرضت القضية على المحكمة، صدر فيها الحكم التالي: المسيحي والمسلم مذنبان بالتساوي: فالأول قد خرق القانون الجاري به العمل بخصوص بيوت الدعارة والتي يمنع على المسيحيين التردد عليها؛ أما الثاني، فلأنه وفر الوسيلة؛ وأما المومسات، فقد حكم عليهن بالسجن والغرامة.

(1) الجزائر في عهد رياس البحر، المرجع السابق.

(6700/1)

... .القضية الثانية(1): هذه القضية أوردها أندر هيل (Under Hill) في مذكراته "الأسير الجزائري" والتي تعطي هي أيضاً مثلاً جيداً عن سير العدالة الجزائرية والتي يقول فيها:

... جلس القاضي على وسادة متربعاً وبمعيته عبدان، يحمل الأول منهما كرباجاً وعصاً، والآخر بيده سيفٌ شرقيٌّ جيد الصنع والزركشة. وقد أحضر المدعي بغلاً كان

يبدو صحيحاً، ولكنه أثبت أنه أعمى ومكسور القائمة. وهنا دعي الشهود الذي أثبتوا التعاقد بين الرجلين وشهدوا بعيوب البغل. وقد أقر المدعى عليه بالذنب، ولكنه قال: "إن

---

(1) المرجع نفسه.

(6701/1)

المدعى كان قد باعه قبل أربع سنوات جملاً مهشماً مكسوراً، وبقي كل هذا الوقت ينتظر ليأخذ بالثأر". بعدها تم استدعاء الشهود الذين أثبتوا صحة هذا الادعاء.

... وكان حكم القاضي كالتالي: يجلد المدعى عليه خمسين جلدة بالكرباج، ويجلد المدعي خمسين جلدة أيضاً لغشه الأول. وأطلق سراح الاثنين دون دفع التعويضات للمحكمة. أمر القاضي أحد الأعوان ببيع البغل عن طريق المزايدة وتوزيع المبلغ على الفقراء. وبما أن أحد الشهود كان يعتقد أنه أدلى بشهادة زور، فقد تلقى خمسين جلدة وأركب على بغل باتجاه المؤخرة ليطاف به في

المدينة، حيث كان يؤمر بالوقوف عند كل زاوية ويردد العبارة التالية: »لقد حدث هذا أمام المستنير العدل الرءوف القاضي مير كارسان، وذلك أثناء محاكمة عثمان بكر وأبو أيسول، وإني أبلغ بهذا وأنا راكب«.

... .القضية الثالثة(1): تخاصم اثنان، ثم تصالحا أمام المحكمة. وكان ثمن الصلح، كما حدده القاضي، يتمثل في أن يدفع المعتدي شاة ونصف الشاة إلى المجني عليه.

2 .القضايا التي فصل فيها الرئيس (الداي)

---

(1) سجل محكمة المدية، المرجع السابق.

... كان رئيس الدولة يعتبر القاضي الأول في البلاد، يسهر شخصياً على نشر العدل وإنصاف المظلومين ومعاقبة المخالفين. ولتوضيح ذلك، نورد القضيتين التاليتين.

... .القضية الأولى (1): لاحظ الداي شعبان ذات مرة أن أحد الأشخاص في الديوان كان يخفي شيئاً ما تحت برنوسه. ولما سأله الداي، أظهر له حبات برقوق قال له إنه اشتراها من تاجر مرسيلي. فقال له الداي: »إذا كنت تتوفر على مثل هذه الفاكهة الجيدة جداً، فإنك تكون قد سرقتها. ولو لم يكن هذا، فالأفضل أن تشتري الخبز لعائلتك إنك تستحق

---

(1) سعيدوني، المرجع السابق.

(6704/1)

مائة جلدة بالكرباج، لأنك جعلت عائلتك تعاني لمجرد إشباع جشعك الخاص«. وحينئذ أرسل في إحضار التاجر صاحب البرقوق، الذي تعرف السلة وأكد أنها قد سرقت منه. وهنا أضيفت إلى عقوبة الكذب عقوبة السرقة.

... .القضية الثانية(1): ذهب الداي إبراهيم ذات مرة إلى دكان متنكراً في هيئة خادم. وهذا، ليتأكد بنفسه من مدى صحة ما كان يشاع من أن صاحب الدكان كان يبيع الخبز والأرز بأسعار تفوق

---

(1) ... سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص. 54.

(1/6705)

السعر المحدد. ولما تأكد له ذلك، أحيل التاجر على العدالة فوراً ليأخذ جزاءه.

... يضاف إلى دور رجال العدالة ويقظة المسؤولين دور مختلف أجهزة الشرطة التي كانت تقوم بدوريات دون انقطاع لتراقب التجاوزات القانونية والسلوك الأخلاقي.

... ونتيجة لجهود الجميع، سيطر القانون والنظام وعم الأمن والاستقرار في ربوع الوطن، حتى »أصبحت مدينة الجزائر أكثر موانئ البحر الأبيض المتوسط من حيث النظام وحسن التسيير تقصدها السفن المسيحية المتعددة الجنسيات، لأنها تجد فيها سلامة الإرساء أكثر مما يتوفر لها في موانئها الأصلية«

(1/6706)

---

(1).

هـ. أشكال عقابها

... يحرص الجهاز العدلي الجزائري، كغيره من الأجهزة العدلية، على حماية حقوق الأفراد ومنع الاعتداء عليها. ويؤدي الاعتداء على هذه الحقوق إلى العقاب بطبيعة الحال. ويختلف هذا الأخير باختلاف الجريمة المرتكبة، كما سنوضح ذلك في ما يلي:

... 1. السرقة

... كان عقابها قطع يد السارق اليمنى وتعليقها على كتفه. وبعدها، يُرْكَب حماراً ويُطَاف به في المدينة ووجهه إلى الخلف يسبقه ممثل للعدالة ينادي: »هؤلاء لصوص عوقبوا«(2)

---

(1) وليام سبينسر، نقلاً عن المرجع نفسه.

(2) فليبو بنانتي، المرجع السابق.

(6707/1)

. والعقوبة عَيْنُهَا كان يتعرض لها المزورون (1).

... 2 ـ الزنا

... كانت عقوبة الزنا تتمثل في جلد كل من الطرفين. وكانت عقوبة الجلد تتم بتمديد المخالف وضربه ضرباً خفيفاً بانتظام على مواقع قدميه أو على بطنه بعصا صغيرة في حجم وسمك الإصبع. أما عدد الضربات، فكان يتراوح ما بين 50 و 1000 جلدة حسب طبيعة الجريمة. وبعدها يصب الخل على جروح المخالف حسب ما رواه دافيس ()(2Davis).

3 ـ التمرد والتآمر والتهريب والغش وعدم احترام القوانين الاقتصادية

---

(1) المرجع نفسه.

(2) دافيس، نقلاً عن المرجع نفسه.

(6708/1)

... هذه الجرائم كانت عقوبة مرتكبيها الشنق والخنق حتى الموت والحرق: فاليهود المتلبسون في المخالفات ذات الطابع الاقتصادي غالباً ما يحرقون، حسب ما أورده شو () (1Shaw).

4 ـ القتل: كان يحكم على القاتل بالقتل. غير أنه في

المناطق القروية حينما تقع جريمة قتل، فغالباً ما يلجأون إلى صلح الجماعة والذي ينتهي بالصلح الذي يترتب عليه دفع الدية (2) لأهل الضحية.

---

(1) شو، نقلاً عن سعيدوني، المرجع السابق، ص. 250.

(2) هي عبارة عن مبلغ مالي قد تدفعه عائلة الجاني أو يُجمع من أفراد القبيلة.

(6709/1)

... ومن أشكال العقاب أيضاً التغريم، حيث كان الغرماء يسجنون حتى تباع كل ممتلكاتهم. فإذا كان ثمنها يفوق قيمة الدين، عاد المبلغ المتبقي إلى السجين؛ وإذا كان العكس، أطلق سراحه(1). وفي كلتا الحالتين، كان يتلقى مائة جلدة ويعمل مائة يوم. وكان التغريم يشمل كبار المسؤولين في الدولة على الخصوص(2): فقد تم تغريم محمد شاوش، صهر الوزناجي باي قسنطينة، وكذلك تم تغريم الباش سايس ولد عمار.

---

(1) سعيدوني، المرجع السابق.

(2) المرجع نفسه.

(6710/1)

... وكان الحكم بالإعدام - حسب دافيس - ينفذ بإحدى الطرق الثلاث (1): القتل بالسفود، والجلد حتى الموت، والارتماء القسريّ.

... الإعدام عن طريق السفود: يتم بالطريقة التالية: تؤخذ قطعة دائرية من الخشب طولها ثلاثة أذرع وعرضها في حجم ساق الرجل، أحد طرفيها حاد، ثم تدخل في جسم المحكوم عليه بين الكتفين وتخرج. وهكذا يتركونه حتى الموت.

... الجلد حتى الموت: يتم الجلد على النحو التالي: يجلد المخالف، ويوضع مضطجعاً على ظهره وهو عار. ويقوم خادمان بجلده

---

(1) الجزائر في عهد رياس البحر، المرجع السابق، ص. 109.

بحبلين مضاعفين على بطنه وأمعائه حتى الموت.

... الارتماء القسريّ: يتم على الطريقة التالية: يجلس المحكوم عليه على حائط طوله خمسة أقدام. وتحت المكان

الذي يجلس فيه توجد قلنسوة حديدية حادة جداً.

وعندئذ يرمى من على الحائط، فيقع على القلنسوة الحديدية.

... ونظراً لقساوة هذه العقوبات، فإنه قلما كان يقع استعمالها (1)، لأنها كانت مفزعة جدّاً للمخالفين ورادعة لكل من تسول له نفسه المساس بأمن البلاد والعباد.

II ـ المجالس

... أنواعها: في هذا الصدد، يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من المجالس:

---

(1) المرجع نفسه.

(6712/1)

---

1 ـ المجلس الخاص (1):

... هذا المجلس، الذي يشبه في وقتنا الحاضر المجلس القضائي، يوجد على مستوى كل بايلك من أجل إعادة النظر في الأحكام التي أصدرها قضاة المحاكم الابتدائية. يضم هذا المجلس قاضيين ومفتيين وعدولاً وناظراً وعلماء. ويجتمع كل يوم جمعة للنظر في الأمور التي تم

استئنافها، ويترأس هذا المجلس الباي أو قائد الدار.

... وتكون الفتوى الصادرة عن هذا المجلس غير ملزمة للقاضي الذي بإمكانه التمسك بقراره الأول. وأمام إصرار القاضي على حكمه، لم يبق من وسيلة أمام

---

(1) الجيلالي، المرجع السابق، ص. 513.

(6713/1)

الطرف الذي يرى أنه متضرر إلا اللجوء، في إجراء أخير، إلى طلب الالتماس الذي في حالة قبوله، يتداول بشأنه مجلس المناظرة الذي يسمى أيضاً المجلس الشريف أو المجلس العلمي ـ الشرعي.

2 ـ مجلس المناظرة

... يتشكل هذا المجلس، الذي يعتبر بمثابة محكمة عليا، من(1) قاضيين ومفتيين وكاتبين برتبة باش وعَدْل وعلماء.

... يعقد هذا المجلس جلساته يوم الخميس من كل أسبوع للنظر في القضايا التي أحيلت إليه من المحاكم الابتدائية وقبل التداول بشأنها(2): ففيما يخص المذهب المالكي،

---

(1) Venture de Paradis, op. cit.

(2) Ibid.

(1/6714)

تعقد الجلسات في الجامع الكبير(1). وفيما يتعلق بالمذهب الحنفي، تعقد الجلسات في جامع كتشاوة. ... وتتمثل مهام هذا المجلس، الذي قد يحضر جلساته الحاكم وقد يترأسها أحياناً بنفسه، في (2):

... الفصل في القضايا الكبرى؛

---

(1) فيما يخص المذهب المالكي، كانت الجلسات تعقد في الجامع الكبير: فإذا كان المتقاضون من المسلمين، دخلوا كلهم المسجد، وإن كان فيهم غير المسلمين، عقدت الجلسات خارجاً في أحد صحون الجامع. (انظر: محمد بن عثمان باشا داي الجزائر، المرجع السابق، ص. 74 ـ 75).

(2) الجيلالي، المرجع السابق.

(1/6715)

... . مراجعة الأحكام التي أصدرها القضاة في المحاكم الابتدائية؛

... . الاستماع إلى تظلمات كبار المسؤولين في الدولة، من حكام وولاة وغيرهم؛

... . تعين ناظر الأوقاف؛

... . تعين ناظر المعارف، وهو المشرف على شؤون التعليم.

... ويعتبر الحكم الصادر عن هذا المجلس غير قابل للنقض. ويكون القاضي الذي أصدر الحكم الابتدائي ملزماً بإعادة النظر في حكمه وفق الفتوى الصادرة عن المجلس المذكور.

... لقد ظل مجلس المناظرة يباشر مهامه بعد 1830، وضمت إليه السلطات الفرنسية الاستعمارية شخصية فرنسية. فبدأ بذلك يفقد هيبته

(1/6716)

ووقاره إلى أن انتهى الأمر بحله بموجب قرار استعماري عام 1848. وترتب على ذلك إلزام الجزائريين برفع قضاياهم أمام مجلس الاستئناف الفرنسي.

3 ـ مجلس الإفتاء

... تعتبر هذه المؤسسة أسمى هيئة في النظام العدلي الجزائري، وتعد بمثابة المجلس الأعلى للقضاء حالياً، وتضم فرعين للإفتاء: مالكي وحنفي. والدّاي هو الذي يختار المفتِيَيْن بدقة، ويشترط فيهما أن يكونا من ذوي التقوى والعلم الواسع. وبالإضافة إلى مهمة الإفتاء، يقوم المفتيان باقتراح القضاة والموافقة على تعيينهم (1) وحضور

---

(1) ... المرآة، المرجع السابق.

(6717/1)

جلسات الديوان؛ كما يقوم المفتي الحنفي بترأس مجلس الإفتاء (1) وقراءة نص اليمين (2) لدى تنصيب حاكم جديد للدولة.

... يتقاضى المفتيان رواتب شهرية محددة تليق بنفوذهم ومكانتهم في المجتمع وفي الحياة السياسية: فدفتر تشريفات (3)

---

(1) ... الجيلالي، المرجع السابق، ص. 110.

(2) ... الجزائر في عهد رياس البحر، المرجع السابق.

(3) ... هو السجل الرسمي للحكومة، الذي كانت تسجل فيه جميع أعمالها ومذكراتها العامة وما تقرره من نظم وقوانين. ومن ثمة فهو في ـ رأينا ـ بمثابة "الجريدة الرسمية". ويعد هذا السجل من أهم وأثرى الوثائق المتعلقة بتاريخ الدولة الجزائرية الأولى. بعد الاحتلال وضع المستعمر يده على هذا السجل وغيره من سجلات الحكومة وحفظ في خزينة أملاك الدولة. ونظراً للقيمة التاريخية العظيمة، أولاه حافظ هذه الخزينة ألبير دي فولكس أهمية كبيرة، فقام بترجمته في 15 ديسمبر 1853 وأمر بطبعه بمطابع الحكومة العامة بالجزائر.

(1/6718)

قد بين في إحدى فقراته رواتب المفتيين(1).

... ـ المفتي الحنفي: راتبه الشهري 80 صائمة.

... ـ المفتي المالكي: راتبه الشهري 50 صائمة.

... وتعتبر الرواتب مقياساً عملياً لترتيب الموظفين من حيث النفوذ والمكانة الاجتماعية.

استنتاج

... مما سبق يتضح أن العدالة في عهد الدولة الجزائرية الأولى لم تكن شعاراً يرفع فحسب ، بل كانت نظاماً

مؤسساتياً يتمتع بخصائص ومميزات

---

(1) ... Albert Devoulx, Tachrifat. Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, Imp. du GG, 1853, 51p.

(1/6719)

تفتقر إليها، دون شك، الأنظمة العدلية المعاصرة له محلياً، بل وأوروبياً: فقد كان نظاماً عدلياً تطبعه السرعة في التنفيذ والاستقلالية في الأداء والاختصار في الشكليات الإجرائية. وقد أضفت عليه هذه الخصائص فاعلية ونجاعة جسدها السهر الدائم على تدعيمه وتطبيق المسؤولية الجماعية فيه؛ فكان الجميع مسوؤلاً ومطالباً بتقديم يد المساعدة للسلطة القضائية على ما رآه وشاهده. كما كانت كل مقاطعة مسؤولة عما يقع على ترابها من حوادث. هذا كله ساهم في خلق ثقافة عدلية راسخة: فقد كان أوّل ما يسأل عنه المسؤولون السامون لدى

(1/6720)

تنصيبهم ويوجهون له اهتمامهم هو نشر العدل والأمن بين الناس في حلهم وترحالهم. استقلالية هذه المؤسسة وقيامها بواجبها جعلها تؤدّي دوراً رئيساً في استتباب الأمن وإرساء دعائم دولة القانون التي لا أثر فيها لعمليات التعذيب والاضطهاد المنظم (1)، طوال فترة قيامها التي تجاوزت الثلاثة القرون. رأينا هذا تؤكده هذه الشهادة لبنانتي والتي يقول فيها: »أعتقد أن النظام

---

(1) كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510 ـ 1541، ترجمة جمال حمدانه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص. 85.

(6721/1)

الجزائري يبدو مفضلاً لأولئك الذين خيب القانون ظنهم في بلداننا المتحضرة. هذا النظام كان فعلاً جديراً بالشهرة «(1).

---

(1) F. Pananti, Relation d'un séjour à Alger, Paris, le Normant 1838, cité par Kaddache, op. cit, p. 114.

النمطي في الأساس الصوتي للعربية

... ... الدكتور محمد الأوراغي

... ... كلية الآداب ـ الرباط

... ثبت أن جهاز التصويت الإنساني مهيأٌ خلقةً لأن ينتج كل الأصوات اللغوية المستخدمة في جميع اللغات البشرية؛ كانت منقرضة أو مستعملة حالياً أو يمكن استعمالها استقبالاً. لكن أي لغة بشرية ليس لها أن تستخدم جميع الممكن المقدور عليه، وإنما تضطر كل واحدة إلى استرفاد العون من »مبدإ الخفة« (1)

---

(1) انظر الفارابي، كتاب الحروف، ص. 136. فيما يتعلق بدور المبدإ المذكور في انتقاء اللغات لعينة من التصويتات.

لاختيار عدد محصور من العناصر الصوتية وإهمال الباقي.

... وكل عنصر صوتي اختارته اللغة ل 1، من مجموع الممكن المقدور عليه، فلوظيفة التغاير الدلالي المسندة إليه في ل 1. ولا تكون لذاك العنصر تلك الوظيفة في اللغة ل 2 إذا كانت ل 2 قد أهملته. كما يُحتمَل أن توظف اللغة ل 2 عناصر تهملها اللغة ل 1 جميعاً أو تهمل بعضها.

... يترتب على ما سبق أن ليس من طبع أي عنصر صوتي صادر عن جهاز التصويت البشري أن يكون مهملاً أو مستعملاً. وإنما يصير كذلك بالجعل. وما تجعله لغة في مستعمَلِها يحتمل أن يشكل مهملَ غيرها

(1/6724)

وبالعكس. وليس للغة أن تفضل أخرى بالنظر إلى ما تستعمل من عناصر صوتية أو تهمل.

... يراعى في انتقاء عنصر صوتي، فضلاً عن الاستجابة لمبدإ الخفة، أن يكون له في النسق الرمزي قيمةٌ صوتية ليست لمثله ولا لضدّه، وأن يكون لتلك القيمة الصوتية، في النسق الرمزي المستعمل للتواصل، وظيفة التغاير الدلالي. وما يجمع بين القيمة الصوتية والوظيفة الدلالية فهو »تصويتة«؛ كما في الأَثْناء (أ، ب) التالية:

... (1) ... (أ) . ثالِمٌ، حَثٌّ، حَثيرَةٌ.

... ... (ب) . ظالِمٌ، حَظٌّ، حَظِيرَةٌ.

(6725/1)

... وما عَدِمَ الوظيفةَ، وإن توفر على القيمة الصوتية، فهو «بديل». كما في الثُّنى (2) الموضح بالكتابة الصوتية في الطرة (1) أسفله.

... (2) (أ) . سِجارٌ.

... (ب) . سِجارٌ

... ولا يعني اللغات من أسسها الصوتية سوى التصويتات التي يناط بها التغاير الدلالي، وما عداها فحشو لا وظيفة له؛ كـ«البدائل المركبة»(2)

---

(1) أ) sij?run

... (ب) sig?run

(2) نطلق مصطلح البدائل المركبة على الوحدة الصوتية المؤلفة من تصويتتين متجاورتين والتي تستعمل بديلاً لإحداهما أو بديلاً لتصويتة مغايرة لهما. من الضرب الأول

التاء المنطوقة في المغرب مشربة بالسين، حيث تُتَلَفَّظ (الفتاة) بمثل (الفتساتس). ومن الثاني التاء المشربة بالشين المكونة لوحدة صوتية تستعمل في الكويت وجنوب العراق بديلاً لكاف المخاطبة، فيكون تلفظ (كتابُكِ) بمثل (كتابتش). أما مصطلح التصويتات المفترضة، فيصدق على أصوات لغوية تأخذه لغة من غيرها وتستعملها خاصة في المقترض من المفردات المعجمية. من هذا القبيل تصويتات /V/، و /P/، و/g/، التي أدخلتها بعض الأقطار في الأساس الصوتي لعربيتها. وبذلك حافظت على النطق الأصلي للألفاظ الدخيلة عليها مثل (تلفزيون، وبونابارت، وكارودي) بدل اللجوء إلى تعريبها. وكان معهد الدراسات والأبحاث للتعريب من بين المؤسسات التي ابتدعت هذه الظاهرة الصوتية وعملت على نشرها بكافة الوسائل.

(1/6726)

و»التصويتات المقترضة«. وكل تصويتة لغوية، من حيث وظيفتها في النسق الرمزي المستعمل للتواصل، يجب حسبانُها مادةً صوتية لا تتجزأ. لكنها بالنظر لذاتها فهي متجَزِّئة إلى أجزاء متناهية. إذن باعتبار وظيفة التغاير الدلالي تُعاملُ التصويتتان (/ ص / ، / ث)

الفارقتان في الثُنَى (3أ، ب) معاملة صُوَيْت (التفخيم) الفارق في الرُّباع (4أ ـ د). لكن من حيث القيمة الصوتية لا يتجزأ صويت التفخيم، بينما /ص/ تتجزأ إلى صُوَيْتات (الصفير والهمس والتفخيم) تجزؤ /ث/ إلى (النفث والجهر والترقيق).

(6727/1)

... (3) ... (أ) . صَلْمُ (الأنف أو الأذن؛ أي قطعهما).

... ... (ب) . ثَلْمُ (السيف؛ أي إحداث كسور بحده).

... (4) ... (أ) . دَ رْ سُ (القرآن؛ أي إمعان النظر فيه لفهم مقاصده) (1)

---

(1) تغليظ الراء هكذا » ر « في (درس القرآن) و (مسرح العرائس)، دال على أن التفخيم قيمة صوتية تضطلع بوظيفة التغاير الدلالي في مقابل الترقيق المصور هكذا » ر « ـ كما في (درس القمح) و(مسرح الأغنام). يعني هذا أن من بين التصويتات ما لا تتجزأ قيمته الصوتية كالتفخيم في مقابل الترقيق، إذ هما الصويتان المتعاقبان على (الترويز + الجهر). ومنها ما يتجزأ إلى أجزاء متناهية. /ص/((صفير + همس = تفخيم)، و/ث/ ((نفث + جهر + ترقيق). إذن قول اتْروبِتسكوي إن

التصويتة (أي le phonème) لا تتجزأ يصدق باعتبار وظيفة التغاير الدلالي كما أسلفنا. أما من حيث القيمة الصوتية، فمنها ما يكون مؤلفاً خلافاً لما ذكره في كتابه : "مبادئ النَّصْغ". (Troubezskoy, Principes de phonologie, p. 44).

(1/6728)

.

... ... (ب) . د رْ سُ (القمح؛ أي تهشيمه لفصل الحب عن التبن).

... ... (ج) . دَ رْ صُ (الأرنب؛ أي ابنها).

... ... (د) . ضَرْسُ (الكلب؛ أي عضه بالأضراس).

... اتضح مما سبق أن ليس لقالب النَّطق أن يهتم بالتمثيل للبدائل اللهجية ولا للتصويتات المفترضة، إذ المطلوب إقامة نموذج شبيه بنسق التصويتات النمطية المستعملة في العربية.

...

1. 1 . قيم تصويتات العربية

... تتناقل كتب النَّطْق في اللسانيات الغربية أن التصويتات المستعملة في اللغات البشرية يتراوح

عددها ما بين عشرين وخمسين تصويتة. يهمنا أن نعرف عدد

(1/6729)

ما في العربية، خاصة وأن دارسي هذه اللغة لم يجمعوا على رقم معيَّن (1)

_____

(1) ذكر سيبويه أن العربية تستعمل تسعاً وعشرين تصويتة. قال: »حروف العربية تسع وعشرون حرفاً: الهمزة والألف والهاء والعين والحاء والغين والخاء والكاف والقاف والضاد والجيم والشين والياء واللام والراء والنون والطاء والدال والتاء والصاد والزاي والسين والظاء والذال والثاء والفاء والباء والواو والميم«. (الكتاب، ج 2، ص. 404)؛ والعدد نفسه يكرره المبرد في المقتضب، ج 1، ص. 328، وإن نسب إليه ابن جني خلاف ذلك (انظر: سر صناعة الإعراب، ج 1، ص. 46)؛ أما تمام حسان من المحدثين، فقد أوصلها إلى إحدى وثلاثين (انظر: مناهج البحث في اللغة، ص. 90).

(1/6730)

، وأن نحدد بدقة القيمة الصوتية لكل منها. كما يعنينا أن نكشف أيضاً عن »وظيفية الحركون« وعددها بالقياس إلى المستعملة فارقاً في العربية.

... إدراك المطالب المذكورة لا يتأتى دون تحديد منهجية للعمل. وهذه تعني تأسيس مقدمات أولية من شأنها أن تعيِّن ما يجب قوله في وصف تصويتات العربية وما يمتنع. وهي تتفرع إلى:

... 1) أوليات تعم كل فصوص اللغة وقوالب النحو. من هذا الضرب مبدأ البيان الذي منه الفصل بين التصويتات النمطية والبدائل اللهجية. ومبدأ الخفة الفارق، داخل الممكن المقدور عليه، بين الأساس الصوتي

(6731/1)

المستعمل وغيره المهمل.

... 2) أوليات تخص قالب النَّطْق. وهذه تضم علاقة المجانسة أساس »مبدإ التساند« الذي يرتِّب التصويتات في »محور عمودي«، فترقى في سلمية يرتكز فيها اللاحق على السابق. وعلاقة المخالفة التي تنظم بدورها تلك التصويتات في محور أفقي، وينتج عن ذلك نسق هرمي.

... الوصف الذي أنجزه قدماء اللسانيين العرب لتصويتات

لغتهم إذا قيدناه بما سبق من الضوابط صار في الإمكان الانتهاء إلى القيمة الصوتية النسقية التي يمكن إدراكها آليّاً. ولارتباط تلك القيم بأبنية أحيازها، تعين التمهيد لها بوصف مناسب

(1/6732)

لجهاز التلفظ

1. 2 .التشريح اللساني لجهاز التصويت البشري

... يعنينا في هذا المبحث أن نتعرَّف أولاً طريقة اللغات في »تشريح« جهاز التصويت البشري، لأن هذه لا تسير وفق منهجية علم التشريح الذي يرتكز على تحليل العضو من أجل تجديد بنية أجزائه وشكل كل جزء وكذا العلاقات القائمة بين مختلف الأجزاء. كما تؤجِّل عمل المشرِّح لجهاز التصويت، وهو يربط الأبنية العضوية التي ينتهي إليها تحليلُه بوظائفها الإنتاجية لأصوات لغوية(1)

---

(1) يدخل في هذا الصنف من العمل ما فعله ابن سينا في كتابه "أسباب حدوث الحروف"، حيث بدأ بتشريح الحنجرة واللسان، فكشف عن سائر الأعضاء المكونة لهذا

الجهاز. ثم انتقل إلى إفراد أعضاء مخصوصة بقيمة صوتية متميزة.

(1/6733)

.

... إن اللغات، كغيرها من المجالات، تتدرج بالقياس إلى مستعملها من الأعم نحو الأخص (1). فتقطِّع جهاز التصويت بالقسمة الأولى إلى ثلاث مناطق: أمامية ووسطى وخلفية. وبالقسمة الثانية تتجزأ كل منطقة إلى شعبتين؛ إذ تتفرع المنطقة الأمامية إلى خيشومية و»أسنافية« (2)

---

(1) في تدرج المعرفة يقول ابن سينا: »إن العقل أول شيء إنما يعقل المعنى العام الكلي، وثانياً يتوصل إلى ما هو مفصل. فلهذا نجد الناس كلهم مشتركين في معرفة الأشياء بنوع أعم. أما نوعية الأشياء، فإنما يعرفها أكثر من بحثه أكثر«. (البرهان، ص. 56).

(2) أسنافي مركب مزجي من أسناني وشفوي.

(1/6734)

، والوسطى إلى مستعلية ومستفلة، والخلفية إلى لهوية وحلقية. وبالقسمة الثالثة تنحل كل شعبة إلى عدد محصور من الأحياز كما سيأتي. وسوف نقتفي نهج اللغة في تحليل جهاز التصويت كما يمكن أن نعبر عن ذلك من جديد بالمبيان (5) الآتي:

(5) .

منطقة خلفية ... ... منطقة وسطى ... ... منطقة أمامية

لهوية ... ... مستعلية ... خيشومية

حلقية ... مستفلة ... أسنافية

... قبل الشروع في تفصيل محتوى المبيان (5)، ينبغي تسجيل ما يلي من النتائج:

(6735/1)

... 1) . جهاز التصويت البشري مهيَّأ خلقة لأن ينحل تدريجياً إلى المناطق الثلاث، فتجزيء كل منطقة إلى الشعبتين، ثم توزيع كل شعبة إلى عدد محصور من الأحياز.

... 2) . استناداً إلى مبدإ الخفة، ينتفي كل ما من شأنه

أن يُجبِر اللغات البشرية على توظيف أعضاء الشعب الستة لإنتاج التصويتات التي يحتاج إليه نسقها النَّصْغي. وبعبارة أخرى، للغات البشرية الخيرة في توظيف أعضاء جميع الشعب المذكورة أو توظيف ما يخف عليها منها.

(6736/1)

... 3) .باعتبار الموظف من أعضاء جهاز التصويت، يلزم أن تتفرع اللغات بَدْءاً إلى نمطين: (أ). »لغات إمكانية« كالعربية المتميزة باستغلال جميع الإمكانات الستة، فتوفر لها الخيشومي /ن، م/ والأسنافي /ف، ب/ والمستعلي /ض، ظ/ والمستفل/ ل، د/ واللهوي/ ق، ك/ والحلقي/ ع، ح/. (ب). »لغات اقتصارية« كالفرنسية ونحوها الإنجليزية المتميزتين بالاقتصار على استغلال بعض الشعب، وإهمال بعضها الآخر، فخلا نسقهما النصغي من المستعلي وأغلب الحلقي.

(6737/1)

... 4) . درجة تمايز القيم الصوتية تحددها علاقتا المخالفة والمجانسة. فهي مرتفعة في اللغات الإمكانية نتيجة علاقة المخالفة المناسبة للغات تستثمر جميع المناطق وشعبها الموضحة بالمبيان (5)، وتنخفض في اللغات الاقتصادية بحسب عدد المناطق الصوتية التي يوظفها النمط الأخير. إذ من لغات السودان الإفريقي ما يقتصر على المنطقة الأمامية، وشعبة المستفل من المنطقة الوسطى. كما تركز لغات آسياوية على شعبتي الحلقي والمستعلي. وفي مثل هذه الأضرب تقوى علاقة المشابهة بين تصويتاتها، وتضعف القيم التي تميز كل تصويتة عن

(6738/1)

مثيلاتها.

... 5) . ارتفاع درجة تمايز القيم الصوتية يترتب عليه، من جهة، انخفاض »عتبة الانتظام« في سلمية التساند، كما سنوضحه بعد قليل؛ ويلزم عنه، من جهة ثانية، زيادة نسبة المفردات الفصيحة. ويحصل عكس ذلك إذا انخفضت درجة التمايز، بحيث تصعد »عتبة الانتظام«، في سلمية التساند، وتنزل نسبة المفردات الفصيحة(1)

---

(1) الفصاحة في مستوى المفردات تقاس بالمسافة التي تفصل بين مخارج التصويتات الداخلة في تكوين الألفاظ المفردة. إذا تباعدت المخارج، فصحت اللفظة؛ وإذا تقاربت، ثقلت. (انظر ابن جني، المنصف، ج 1، ص. 75؛ وما أورده السيوطي، المزهر، ج 1، ص. 185؛ وكذلك ما نقله عنه تمام حسان في كتابه مناهج البحث في اللغة، ص. 135).

(1/6739)

.

1. 3 . تنميط الأصوات اللغوية

... تتناقل كتب النصغ أن الأنساق النصغية لجملة من الثوابت العامة، منها »المبدأ التصنيفي« الذي يجبر كل اللغات البشرية على تصنيف تصويتاتها تصنيفاً أولياً إلى صنفين اثنين:

... (أ). صوامت؛ وهي المتمايزة، في النسق النصغي، بقيمها الصوتية وبوظيفة التغاير الدلالي، فضلاً عن تشكلها في الكتابة بصورة الحرف. وكل عنصر ينتمي إلى هذا الصنف يختص بمباشرته لوظيفة التغاير الدلالي

في جميع اللغات. وهذا الضرب يمكن توضيحه بالمثال التالي:

(6740/1)

---

(6) (أ) . { صفير + جهر + ترقيق } (/ ز / ((زَيْف) ([غِشٌّ و تمويه]

(ب) . { صفير + همس + ترقيق } (/ س/ ((سَيْف) ([ضَرْبٌ بالسيف]

(ج) . { صفير + همس + تفخيم } (/ ص/ ((صَيْف) ([اشتداد الحر]

... وكل مَنْ أو ما يسمع التصويتة المتكونة من اجتماع الصُّوَيْتات بين الحاضنتين { ... } يلزمه إذا كتب أن يخط الصورة بين المائلين /.../ بحيث ينتج عن حلول أحدها محل الآخر في القَوِلات بين القوسين (...) اختلاف المعنى الوارد بين المعقوفين [...]. وكذلك شأن سائر التصويتات النمطية في أي لغة.

(6741/1)

... (ب). صوائت؛ وهي أيضاً تتمايز، في النسق النصغي، بقيمها الصوتية، وتُخَطُّ في الكتابة بصور الحركون. وهي، من حيث وظيفة التغاير الدلالي، تختلف من نمط لغوي إلى آخر. ففي لغات جذعية كالفرنسية تكون الصوائت كالصوامت في مباشرة وظيفة التغاير الدلالي(1)

---

(1) الفرنسية تأتلف وغيرها من اللغات الجذعية في مباشرة كلا الصنفين من التصويتات لوظيفة التغاير، كما يظهر من المقارنة بين (أ) و (ب) في المثال (01). وتتميز من جهة أخرى بكثرة الصوائت التي تصل فيها إلى ستة عشر صائتاً. وهو عدد يكاد يقترب من صوامتها (19).

(01)

(أ) .pale / male .

par / pire / père / paire / pour / port / peur / . pure /. (ب)

(6742/1)

. لكنها في العربية من اللغات الجذرية ليس للصوائت سوى دور التمييز بين صيغ القَوِلات. إذ لا دخل للمد، بوصفه من الصوائت، في مباشرة التغيير الدلالي بين (مَطَر) و (مَطَار). وإنما يباشر بناء الصيغة الصرفية لإخراج الأولى على هيأة (فَعَلَ) والثانية على هيأة (مَفْعَل). من جملة ما يدل على انتفاء التأثير المباشر للصوائت ثباتُ قَوِلات المثال (7) الآتي على معناها وإن تغيرت الصوائت العارضة لبعض صوامتها (1).

---

(1) للوقوف على المزيد من أمثلة النماذج المذكورة أعلاه، راجع: ابن السكيت، إصلاح المنطق.

(6743/1)

---

(7) (أ) . وُجْدٌ ، وَجْدٌ ، وِجْدٌ.

(ب) . عَدْمٌ ، عَدَمٌ ، سُقْمٌ ، سَقَمٌ.

(ج) . قِمْعٌ ، قِمَعٌ . شِبْهٌ ، شَبَهٌ.

... وتمثِّل ظواهر الاختلاس والإمالة وكل تغيير بالحركة والسكون أدلة قوية على انحصار دور الصوائت في تشكيل أوزان صرفية، بها يناط التغاير الدلالي بين ما اتفقت صوامته؛ كما في (خَلٌّ) و (خِلٌّ)، باعتبار الأول يدل على (سائل شديد الحموضة) والثاني على (الصديق الوفي).

ونحوه (اللَّبْس: اختلاط الأمر) و (اللِّبْس: الكسوة)، ومنه (الحُزْن: الغَمّ) و(الحَزَن: غليظ الأرض المرتفع).

(1/6744)

... ثبت أن اللغات يسمح لها مبدأ الخفة باختيار أصواتها النمطية، ويضطرُّها مبدأ التصنيف إلى توزيع تصويتاتها المنتقاة إلى مجموعتين: فئة الصوامت المتميزة في كل لغة بقيمها الصوتية وبمباشرة جميعها لوظيفة التغاير الدلالي، وفئة الصوائت التي يكون لها في اللغات الجذعية وظيفة الصوامت، بينما دورها في العربية من اللغات الجذرية لا يتجاوز إقامة بنيات وزنية مخصوصة. ويهمنا الآن أن ندرس من خلال علاقتي المخالفة والمجانسة كل تصويتة مما تستعمله العربية.

...

1. 4 . مبدأ التساند النصغي

(1/6745)

... مبدأ التساند يتأسس داخل فص النصغ على علاقة المجانسة القائمة بين متوالية من التصويتات. موحِّد عناصر هذه المتوالية »نواة صوتية« تسري في الجميع، وفارقها انفراد كل عنصر في المتوالية بصُوَيْت واحد على الأقل يمثِّل القيمة الصوتية لذاك العنصر داخل مجموعته التي تضمه. لكن قيمته، بالقياس إلى عنصر منتم إلى مجموعة أخرى، تتشكل من النواة الصوتية فقط، إذ يمكن لعناصر المجموعتين الاشتراك في »الصُّوَيْتات الهامشية« المنضمَّة إلى الصُّوَيْتَيْن النَّوويَّين: »الصفير« و»النفث«. كما يتضح من ملاحظة عناصر

(6746/1)

المجموعة (7) ومقارنتها بعناصر مِثْلِها (8) بعدها.

(7) (أ) { صفير + جهر + ترقيق } (/ ز /.

{ صفير + همس + ترقيق } (/ س/.

{ صفير + همس + تفخيم } (/ ص/.

(8) (ب) { نفث + همس + ترقيق } (/ ث /.

{ نفث + جهر + ترقيق } (/ ذ/.

{ نفث + همس + تفخيم } (/ ظ/.

... يُستدَلُّ من هذا المثال على أن »التأليف« مبدأ عام يستغرق جميع فصوص اللغة، ويمس كل مستوياتها. فالجملة تنحلُّ تركيبياً إلى »مركبات«؛ مثل »المركب الإضافي« و»المركب التَّبَعي« و»المركب الحرفي« و»المركب الإشاري« و»المركب الموصولي« و»المركب الاسمي«

(6747/1)

---

(1).

... وكل واحد من تلك المركبات ونحوها يتألف من »عناصر« قابلة لأن تنحلَّ »معجمياً« إلى »مداخل«، يقبل أغلبُها الانفكاك إما إلى »الجذر« و»الصيغة«؛ كما

---

(1) كل مركب مما سردنا أعلاه يستغرق أمثلة متعددة إذ يصدق المركب الإضافي على نحو »كتاب سيبويه« و»سيارة الإسعاف« و»عصير فاكهة«. ويشمل المركب التبعي ما كان من قبيل »القمر الأحمر« و»ياسر عرفات« و»الإنسان عينه« و»الفاكهة لبُّها«. والمركب

الحرفي يعم مثل »إلى القدس« و»سوف يعود«. والباقي يتناول بذاك التوالي الأمثلة: »ذلك الكتاب« و»الرجل الذي« و»الرجل«.

(1/6748)

هو حالها في اللغات الجذرية كالعربية، وإما إلى »الجذع« و»اللواصق« كما في الفرنسية ونحوها الإنجليزية من اللغات الجذعية.

... والجذر أو الجذع كلاهما قابل لأن يتجزأ »نَصْغِيّاً« إلى بضع تصويتات: كالزاي /ز/ ونحوها /س/، /ص/، /ث/، /ذ/، /ظ/. وكل تصويتة تقبل بدورها أن تنحلَّ إلى صُوَيْتات؛ كالصفير أو النفث، والجهر أو الهمس، والتفخيم أو الترقيق، والشِّدَّة أو الرَّخاوة.

... (أ) . جهاز التصويت البشري مستعد خلقة لأن ينتج »صُوَيْتات أولية«، قد لا يتجاوز عددُها بضعةً وعشرين. من هذا العدد القليل من الأوليات،

(1/6749)

وبفضل »مبدإ التركيب«، تشكِّل كلُّ لغة نسقَها النصغيَّ الذي يضم في بعضها ما يناهز الخمسين تصويتةً مؤلفةً من الصويتات الأولية. وهذه النتيجة تدعم خاصية سبق أن أثبتناها للتصويتة في أي لغة؛ وهي إمكان تجزيئها باعتبار القيمة الصوتية إلى صُوَيْتات، وعدم إمكان ذلك بالنظر إلى وظيفة التغاير الدلالي.

... (ب) . الصُّوَيْتَات الأولية (وهي الماثلة قبل السهم ... (والداخلة في تكوين التصويتات المؤلفة والواقعة بعده (... في المثالين »7، 8«)، صنفان:

(6750/1)

... 1) »صويتات نووية«، كالصفير والنفث ونحوهما؛ يضطلع كلُّ واحد منها أولاً بدور التجميع لتصويتات معينة في مجموعة واحدة، وهو فعل صويت الصفير مثلاً بالنسبة إلى { /ز/،/س/،/ص/ } في المثال (7)، وكذلك شأن صويت النفث الذي يقوم أولاً بإدراج التصويتات { /ث/،/ذ/،/ظ/ } في مجموعة (8) من المثال نفسه. ويقوم هو وصويت الصفير ثانياً بدور »التمييز الخارجي«. إذ يُمَثِّل كلٌّ منهما جهة اختلاف عناصر المجموعة (7) عن عناصر المجموعة (8).

(6751/1)

... 2) »صُوَيْتات هامشية«، كالجهر والتفخيم والشدة ومقابلاتها الهمس والترقيق والرخاوة. وهذا الصنف يضم عناصر صوتية أقل مما يضمه الصنف الأول. ومع ذلك، يأتلفان باعتبار قيام كلٍّ منهما بدَوْرين في النسق النصغي. أول تأثير الصُّوَيْت الهامشي يظهر في »التمييز الداخلي«، حيث يدل التقابل بين التفخيم والترقيق على جِهَتَي اختلاف /س/،/ص/ الواقعين في المجموعة (7). كما يمثل الجهر ومقابله الهمس جهَتَي اختلاف /ث/،/ذ/ داخل المجموعة (8). أما تأثيره الثاني، فيتجلى في تنظيم التصويتات المنتمية إلى المجموعة نفسها في

(6752/1)

»سلمية تساند« كما تتمثَّل في العبارة (9) التالية:

... (9) . (أ) ز – س – ص

... (ب) ث – ذ – ظ

... سبق أن أثبتنا في موضع آخر (1) أنّ العنصر الأخير في السلمية، كالصاد في (9أ) أو الظاء في (9ب)، يتعلق

وجوده في اللغة بوجود الذي يتقدمه مباشرة، كالسين والذال في المثال نفسه. كما أن مثول أحد هذين الأخيرين مرتبط بالذي سبق،

---

(1) للمزيد من التفصيل، انظر: محمد الأوراغي، «التصويتات النمطية وبدائلها اللهجية»،ضمن مجلة التاريخ العربي، العدد الثامن، ص ص. 171 ـ 181؛ اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، ص. 139.

(6753/1)

وكذلك يستمر إلى أول عنصر في السلمية، وبينا أيضاً أن أي لغة تستعمل التصويتة اللاحقة يلزمها أن تستعمل السابقة ولا ينعكس.

... (ج) . اتخاذ مبدإ التساند أساساً لتنظيم التصويتات يلغي تجميعها المؤسس على الانتساب إلى «المخرج» نفسه (1)

---

(1) جمَع اللغويون العرب القدماء والمحدثون تصويتات العربية في مجموعات، نسبة إلى الموضع الذي تخرج منه عناصر كل مجموعة. للتوسع في الموضوع، انظر من القدماء :سيبويه، الكتاب، ج 2، ص. 404؛ والمبرد،

المقتضب، ج 1، ص. 328؛ وابن جني، سر صناعة الإعراب، ج 1، ص. 52؛ وابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج 1، ص. 199؛ ومن المحدثين راجع: تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص. 124؛ واللغة العربية معناها ومبناها، ص. 59.

(1/6754)

، لأن الانتظام القائم على سريان الجرس نفسه في متوالية من العناصر الصوتية المتمايزة بصويتات هامشية أورد من الانضمام الذي يراعي انتساب عناصر مخصوصة إلى منطقة معينة من جهاز التصويت البشري، لأنه قد لا يستفاد من اتخاذ مخرج ما بين الشفتين أساساً لإدراج العناصر { /ب/ ، /م/ ،/و/ } في مجموعة واحدة؛ لأن مثل هذه العناصر، وإن اتحدت (مخرجاً)، لا يُوحِّدها صويتٌ نووي. وسوف نرى أن ما وحَّده صُوَيْتٌ نووي، توحَّد مخرجاً أيضاً؛ لأن أي صويت فهو وليد بنية عضوية متشكلة في جهة من جهاز التصويت.

(1/6755)

... وكذلك، لا يستفاد من التجميع القائم على صُوَيْت هامشي: كاتخاذ الجهر ومقابله الهمس منطلقاً لتوزيع تصويتات اللغة على مجموعتين. وإذا تغير المنطلق،كالتفخيم ومقابله الترقيق، توزعت تلك التصويتات من جديد على مجموعتين أخريين. ويستمر التقسيم على هذا المنوال حتى تنقضي الصُّوَيْتات الهامشية المتقابلة أساسُ إمكان التفريع الثنائي لتصويتات العربية (1)

---

(1) للاطلاع على التقسيمات الثنائية المستندة إلى تقابل الصويتات الحاشوية، انظر: المبرد (المقتضب، ج 1، ص. 330)، تجده يقول: »ومن الحروف حروف تجري على النفس، وهي التي تسمى الرخوة؛ ومنها حروف تمنع النفس، وهي التي تسمى الشدية؛ ومنها حروف إذا رددتها في اللسان جرى معها الصوت، وهي المهموسة؛ ومنها حروف إذا رددتها ارتدع الصوت فيها، وهي المجهورة؛ ومنها حروف تسمع في الوقف عند نبرة بعدها، وهي حروف القلقلة... ومنها المطبقة والمنفتحة. ونحن ذاكرو جميع ذلك بأوصافه إن شاء الله«؛(انظر أيضاً مبحث »أقسام الحروف« في: ابن جني، سر صناعة الإعراب، ص. 68؛ ومبحث »صفات الحروف «في: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج 1، ص. 202؛ ومبحث

»تقسيم الحروف« في: تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، ص. 121؛ ومن الغربيين، انظر المبحث الخامس من كتاب يَكُبْسون، ستة دروس في الصوت والمعنى، ص. 79. [Roman Jakobson, Six leçons sur le son et le sens]).

(1/6756)

. يترتب على المثبت في الفقرة الأخيرة أن »مبدأ التساند« أنسب الأسس لتصنيفٍ أورد للعناصر الصوتية في أي لغة.

2. انتظام التصويتات

... لن نطيل في سرد جوانب الضعف في مختلف التصنيفات السابقة التي ارتكز أصحابها على اشتراك العناصر الصوتية في المخرج والصفة، لأن اتباع هذا التقليد لا يسنجم مع اللسانيات النسبية التي أقمناها للتنبؤ بالأنحاء النمطية؛ ولأن اتخاذ هذه النظرية إطاراً يلزم عنه تنظيم »مجموع المقدور عليه« في سلاسل من العناصر الصوتية المتوالية، بحيث يتوافر للغات البشرية إمكانات الخيرة في تبني بعض تلك

(1/6757)

السلاسل واقتطاع حلاقات منها، وهو ما سيؤدي إلى تكوُّن أنساق نصغية نمطية، كما سيتضح بعد قليل من المبحثين التاليين.

2. 1 . تنميط الصوائت

... تقدم أن هذا الضرب من العناصر الصوتية يتميز بكونه يُخَطُّ في كتابة كل اللغات بصورة الحركون، وبكونه يباشر وظيفة التغاير الدلالي في لغات جذعية كالفرنسية، وليس له، في لغات جذرية كالعربية، سوى دور التمييز بين صيغ القَوِلات التي تباشر الوظيفة المذكورة.

... وتبيّن أيضاً أن الانتظام أساسه العلاقتان: 1) علاقة المخالفة بين صويتات نووية محصورة العدد؛ 2) علاقة المجانسة

(1/6758)

بين تصويتات يجمعها صويتٌ نووي ويفرق بينها صُوَيْتاتٌ هامشية، وهي أقل عدداً. وبواسطة مبدأ التساند تنظم تلك التصويتات في سلمية، وهو ما

سنتحقق منه الآن.

... استناداً إلى علاقة المخالفة، وبإدخال «الصُّوَيْت العدمي» الذي يأخذ في كتابة اللغة العربية شكل الصفر ويسميه نحاتها السكون، يلزم أن يَضم «المقدور عليه» أربعة صوائت نووية ليس غير، وهي:

... (أ) . الفتحة: اسم يصدق على صويت «الأَ» النووي الذي يتكون في المنطقة الخلفية من جهاز التصويت البشري، ويتولد بنقرة واحدة للأوتار تحدثها كمية من النفس تدفع الصوت

(6759/1)

الناتج في فتحة الفم من غير أن يعترض مجراه شيءٌ يغيِّر من جرسه.

... (ب) . الضمة: اسم يطلق على صُوَيْتِ «الأُ» النووي الذي ينشأ بالمنطقة الأمامية. ويتولد «الأُ» هو أيضاً بنقرة واحدة للأوتار تحدثها كمية من النفس تدفع الصوت الناتج إلى بنية عضوية يشكلها ضمُّ الشفتين مع نتوئهما إلى الأمام لتكوين فوهة ضيقة.

... (ج) . الكسرة: اسم لصويت «الإِ» النووي الذي ينشأ بالمنطقة الوسطى. ويتولد بالكيفيَّة نفسها، لكن

الصوت الناتج يدفعه النفس هذه المرة إلى بنية عضوية مغايرة تتشكل في وسط الفم بشد اللسان إلى الطبق

(1/6760)

وإلصاق حافتيه بالأضراس العليا، حتى إذا ضاق المجرى لم يسمع غير »الإٍ«.

... (د) . السكون: اسم أطلقه نحاة العربية خاصة على »الصويت العدمي« الناتج عن تسكين الأوتار وحبس النفس والكف عن تحريك أعضاء التصويت. ومن مجموع هذه الخصائص تتكوَّن قيمة السكون (ْ) العدمية التي قابلها الواضع بالقيمة العددية صفر (0). وبما أن الصفر يعد ضمن مجموعة (N)، أي الأعداد الطبيعية الصحيحة، فلا مبرر لإخراج السكون من مجموعة الحركون، وقد شخَّصت العربيةُ عناصرَها، تباعاً، بالصور الماثلة في المبيان (10) الآتي.

(1/6761)

... (10) . { ـَ، ـُ، ـِ، ـْ }

... بموجب علاقة المخالفة الصوائتُ الأربعة { ـَ، ـُ، ـِ، ـْ} نووية. وكونها كذلك لا تخلو لغةٌ بشرية من أحدها.

وبمقتضى علاقة المجانسة يمكن الحصول على صوائت أخرى من جنس الصوائت الثلاثة الأولى. وليس أمام اللغات عندئذ سوى أن تسلك أحد الطريقين: إما »التضعيف«؛ بمعنى إضافة صائت نووي إلى نفسه فينتج صائت مولَّد هو ضعف أصله، وإما »التطفيف«؛ وهو تلوين الصائت النووي بجرس مغاير سواء كان من جنسه أو من جنس صائت نووي آخر. وكل لغة أنشأت صوائت لمكوِّنها

(1/6762)

النَّطْقي بأحد المسلكين فإن الطريق المهمل قد يشكل »ظواهر موضعية« في كونها النَّصْتي، كما سيأتي في الفصل الثاني.

... العربية من اللغات التي اختارت طريق التضعيف لإنشاء صوائت مولِّدة. فحصلت بتضعيف الفتحة (ـَ)، كما في التمثيل (ـَ + ـَ)، على الفتحة الطويلة (ـَا). وبجمع ضمة إلى مثلها (ـُ + ـُ) ولَّدت الضمة الطويلة (ـُو). كما أنتجت، بإجراء العملية نفسها (ـِ + ـِ)، الكسرةَ الطويلة (ـِي). أما السكون (ـْ) بوصفه صويتاً عدمياً، فإنه لا يَنْتُج من تضعيفه غيرُه؛ إذ نحصل من (ـْ + ـْ) على (ـْ)

ليس غير.

... استدل ابن جني على أن المدود الثلاثة }ـَا، ـُو ، ـِي { أضعافٌ، تباعاً، للحركات الثلاث } ـَ، ـُ، ـِ{ . وقد ختم مبحث »الحركات أبعاض حروف المد« بقوله: »فلولا أن الحركات أبعاض لهذه الحروف وأوائل لها، لما نشأت عنها، ولا كانت تابعة لها« (1). وفي تنصيص ابن جني على »الصوائت الأوائل والصوائت التوابع« تصريح واضح بالانتظام السلمي الناتج عن مبدإ التساند وإن لم يذكر هذا المبدأ باسمه.

---

(1) سر صناعة الإعراب، ج 1، ص. 20.

... نخلص مما تقدم إلى أن العربية من النمط اللغوي الذي يضم نسقُه النَّطْقي سبعة صوائت: (أ) الفتحة والفتحة الطويلة، (ب) الضمة والضمة الطويلة، (ج) الكسرة والكسرة الطويلة، (د) السكون. وجميع هذه الصوائت تنتظمها سلمية التساند (11) التالية:

... (11) . (أ) ـَ – ـَا .

... ... (ب) ـُ – ـُو .

... ... (ج) ـِ – ـِي .

... ... (د) ـْ – (.

... وتفيد هذه السلمية أن أي لغة استعملت الصائت اللاحق، وهو الواقع بعد رمز الأقل (–) يلزمها أن تستعمل أيضاً الصائت السابق الواقع قبل الرمز نفسه (–

(6765/1)

) ولا ينعكس؛ وأن للصوائت التوابع، باعتبار وظيفة التغاير الدلالي، دور الصوائت الأوائل في اللغات الجذعية. لكن دورها في اللغات الجذرية ينحصر في التفريق بين الصيغ الصرفية. فلا يؤدي إحلال أحد التوابع محل أحد الأوائل في قَوِلَة إلى تغيير الكلمة، وهو ما تكشف عنه المقارنة بين الأزواج القَوِليَّة في مجموعة المداخل المعجمية التالية.

... (12) . (أ) زمَن / زمان.

... ... (ب) مفاتِح / مفاتيح.

... ... (ج) بُرصة / بورصة.

(6766/1)

... بدل التضعيف اختارت لغات كالفرنسية أن تنتهج مسلك التطفيف؛ ويتلخص هذا الإجراء في إدخال تعديلات بسيطة على مخارج الصوائت الأوائل، بحيث ينشأ عن كل تغيير في مخرج الضمة مثلاً أحدُ الصوائت التوابع لها. وتوابع كل صائت تزيد أو تنقص بالقياس إلى عدد التغييرات الممكن إجراؤها على مخرج هذا الأخير مع المحافظة على جرسه النووي. وبالنظر إلى ما يتصف به مخرج الفتحة من الاستطالة، لا يقبل هذا الأخير إدخال تعديل عليه، وبالتالي لا توابع لصائت »الأ« في الفرنسية ونحوها من اللغات(1)

---

(1) ذكر نَصْغَيُّون أن لبعض الصوائت في اللغات الأوروبية توابع كالضمة والكسرة بخلاف الفتحة. للتثبت من ذلك، انظر »خصائص الصوائت« في: اتْروبِتْسكويْ، مبادئ النَّصْت، ص. 100 (Toubetzkoy, Principes de phonologie)؛ وانظر أيضاً: مالَنْبِرْج، مجالات النَّطْق، ص.

30)) B. Malmberg, Les domaines de la phonétique.

(1/6767)

.

... وقد كشفت أمثلة الطرة (9) من المبحث (1. 3) عن نماذج من »الأُوات« التابعة للضمة ونماذج أخرى من »الإيات« التابعة للكسرة، ولم نهتد إلى إشارات تدل على وجود توابع للفتحة، كما تعبر من جديد أمثلة (02) من الطرة (1)

---

(1) يستشف من التدرج العددي للأمثلة المسرودة هنا من اللغة الفرنسية أن التحكم في تصريف الشفتين أبلغ منه في باقي الأعضاء. فمخرج الضمة أكثر قابلية للتغيير؛ لذا تفرع عنه من الصوائت التوابع للضمة أكثر من توابع الكسرة. وإذ لم يتولد عن الفتحة صائت، فلأن مخرجها لا يتحمل تغييراً مع المحافظة على جرس »الأ«.

(02) – pour - port - peur - pure...

– pire - père - paire...

– par **–** ...

(1/6768)

أسفله.

... نخلص مما سبق إلى أن اللغات البشرية مجبرة على توظيف الصوائت الأوائل الأربعة { الضمة، والكسرة، والفتحة، والسكون } ، لكنها مخيرة في سلوك أحد المنهجين؛ التضعيف أو التطفيف، لتوليد صوائت توابع. وتبيّن أن العربية من اللغات التي اختارت المسلك الأول المرتكز على عملية الجمع، والمتميز بكون الصائت الأَصل يتولد عنه صائت تابع واحد ليس غير، إلا السكون فلا تابع له. وبذلك تشكل العربية مثالاً لنمط لغوي لا يضم نسقه التصويتي سوى سبعة صوائت؛ كما تنتظمها السلمية (10) المذكَّر بها هنا.

(1/6769)

... (11) . (أ) ـَ – ـَا .

... ... (ب) ـُ – ـُو .

... ... (ج) ـِ – ـِي .

... ... (د) ـْ – (.

... وفي المقابل، اختار نمط آخر من اللغات مسلك التطفيف القائم على إدخال تعديلات تخص مخرجَيْ الضمة

والكسرة خاصةً، فتولَّدت لهما توابعُ يختلف عددها تبعاً للتغييرات التي يقبلها مخرجا ذينكم الصائتين.

2.2 ـ تنميط الصوامت

... الصوامت عبارة عن تصويتات متمايزة في النسق النصغي بقيمها الصوتية، وبمباشرة وظيفة التغاير الدلالي، وبخطها في الكتابة بالحروف. وهي، بالقياس إلى الصوائت، أكثر عدداً

(6770/1)

وقابلية للتراكب. وعناصر الصوامت تنتظمها كالصوائت علاقتان:

... (أ) علاقة المخالفة بها يحصل التمايز الخارجي بين الصويتات النووية التي تدخل في تكوين مجموع المقدور عليه، وكل صويت نووي، من المقدور عليه، يلزمه أن يجمع بين الاختصاص بقيمة صوتية خلافية مرتبطة بمخرجه، وبين سريانه في عدد من التصويتات.

... (ب) علاقة المجانسة بواسطتها يتأتى تكوين مجموعات من التصويتات. كل مجموعة تضم عدداً من العناصر التي يسري فيها الصُّوَيْت النووي نفسُه ؛

ويحصل تمايزها داخلياً بواسطة الصُّوَيْتات الهامشية.

وبالصويت النووي

(6771/1)

تكون لمجموعة معينة جهة خلافية بالنسبة إلى باقي المجموعات التصويتية، وبالصويت الهامشي تكون للتصويتة جهة خلافية داخل مجموعتها.

... اتضح أن راسمة الصامت تتناول كل تصويتة تباشر وظيفة التغاير الدلالي بواسطة قيمتها الصوتية المركبة من صُوَيْت نووي يمثل جهة خلافية بين مجموعات من العناصر الصوتية، ومن صويتات هامشية تمثل جهة خلافية بين عناصر صوتية تنتمي إلى المجموعة نفسها. وظهر أن الصويتات الهامشية، بالقياس إلى الصويتات النووية، قليلة العدد متقابلة إلى درجة التضاد، كما يكشف عن ذلك تقابل الثنائيات في

(6772/1)

الثُّلاث (11) التالي:

... (13) . (أ) جهر ∨ همس

... ... (ب) شدة ∨ رخاوة

... ... (ج) تفخيم ∨ ترقيق

... بخفقة النفس للوترين في الحنجرة يهتزان، فيتولد عن تذبذبهما جرسٌ مرتفع قوي هو الجهر المدرك بحاسة السمع عند التلفظ بتصويته /ع/ ونحوها. وفي المقابل يأتي الهمس؛ أي الصدى المنخفض الضعيف الناشئ عن مرور النفس في مجراه من غير أن يصطدم بالوترين؛ فيتكوَّنُ مثل الجرس المسموع عند إصدار /هـ/ أو نحوها.

... أما الشدة، فصفة لصدى الفرقعة المصاحبة للانفجار الناجم عن انعتاق مباغت لمقدار من النفس المحبوس حبساً

(6773/1)

تاماً خلف نقطة إصدار الجرس المسموع عند التلفظ بمثل /ق/. وإذا اندفع النفس محتكاً بحافّات ممرِّه الضيق نسبياً وجرى الصوت معه، تولد الجرس الموصوف بالرخْو المسموع إذا تُلُفِّظ بمثل /ث/.

... ومن المحتمل أن ينشأ تقابل آخر يرتبط بنوع

التغيير الذي يمكن إحداثه بحجرة الرنين، لأن إطلاق الجرس من حيّزه يحتمل أحد الأمرين: إما أن يكون ترديده في حجرة رنين مقعرة؛ يحدها سقفُ الحنَك وإطباق اللسانِ عليه؛ برفع مؤخره نحو اللهاة ومد أسلته إلى اللثة، فيولد شكلُ هذه الحجرة جرسَ التفخيم المسموع عند إصدار /ض/ ونحوها /ط/

(6774/1)

أو /ظ/ أو /ص/. وإما أن يكون الترديد في حجرة رنين مسطحة، يتبعه نشوء جرس الترقيق الذي يجامع تصويتات /س/ ونحوها /ت/ أو /د/ وهلم جرّاً.

... اتضح أن التقابلات الثلاثة يمكن إجمالها في: 1) إعمال الوترين أو عدم إعمالهما. و2) إحكام سد مجرى النفس أو تضييقه ليجري الصوت فيه. و3) تقعير حجرة الرنين أو تسطيحها، وليس بين المتقابلين حالة وسطى ينشأ عنها »صُوَيْتٌ بيني«(1)

---

(1) تحدث نصْغيون عن التوسط، وهو الصويت البيني الذي يقع في الوسط بين طرفي النقيض. وضبطوا موقعه بين ثنائية الشدة والرخاوة خاصة. وبناء على التقابلات الصريحة الموصوفة أعلاه لا يُتصور وجود صويت بيني

خلافاً لما جاء في سيبويه. (الكتاب، ج 2، ص. 406). ورددده بعده نصغيون كثير منهم :المبرد، المقتضب، ج 1، ص. 320؛ وابن جني، سر صناعة الإعراب، ج 1، ص. 69؛ والزمخشري، المفصل، ج 2، ص. 290؛ وابن يعيش، شرح المفصل، ج 10، ص. 128. التصور نفسه انتقل إلى القراء، كما في: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج 1، ص. 203؛ والشاطبي، حرز الأماني؛ وابن القاصح، سراج القارئ المبتدئ، ص. 409. وكرر ذكره من اللغويين المحدثين بغير اختبار أو تمحيص تمام حسان في اللغة العربية معناها ومبناها، ص. 59؛ وأعاده من جديد في مناهج البحث في اللغة، ص. 87.

(6775/1)

.

... قائمة الصويتات الهامشية المتقابلة، وإن ضمّت بضع ثنائيات كما في الثُّلاث (13)، فإنها توفر ثُمانية من «القيم الخلافية» التي يمكن استثمارها للتمييز الداخلي بين التصويتات المكونة لمجموعة واحدة يسري في كل منها الصويت النووي نفسه. العدد المذكور من القيم الخلافية يمكن صوغه كما يلي:

... (14) ... (أ) جهر + شدة + تفخيم.

... ... (ب) همس + رخاوة + ترقيق.

... ... (ج) جهر + شدة + ترقيق.

... ... (د) همس + رخاوة + تفخيم.

... ... (هـ) جهر + رخاوة + تفخيم.

... ... (و) همس + شدة + ترقيق.

(6776/1)

... ... (ز) جهر + رخاوة + ترقيق.

... ... (ح) همس + شدة + تفخيم.

... التقابل الثنائي بين الصويتات الهامشية في الثُّلاث (11) يوفر من القيم الخلافية المحصورة في المسرد (12) أكثر مما يفتقر إليه النسق النصفي في أي لغة من اللغات. وعد الافتقار إذا أضيف إلى رهن القيمة الخلافية بالتقابل الصريح تكوَّن من الجميع مبرر قوي على انتفاء الصويت البيني.

... وإن توظيف كل هذه القيم الصوتية سيؤدي لا محالة إلى رفع »عتبة الانتظام« في سلمية تساند إلى الثمانية، وهو مستبعد لمبرِّر مهم؛ وهو تجنب الإكثار في النسق

(6777/1)

النَّصْغي من التَّصويتات المتجانسة التي تصدر من الحيز الواحد. إذن يعنينا الآن الوقوف على كيفية استخدام اللغات للتقابلات الثنائية في الثُّلاث (13).

...

2.2.1 ـ نَوَيات الصوامت وهوامشُها

... بموجب علاقة المخالفة يُفترض أن يستقل كل صامت بصويت نووي استقلالَ هذا الأخير بحيِّز منشئه الخاص. فلا يصدر من الحيز الواحد أكثر من صُوَيْت نووي واحد، ولا يكون الصويت النووي الواحد لأكثر من صامت واحد. إذا صحت »الأحادية النَّطْقية«؛ (من الحيز الواحد يتولد صويتٌ نووي واحد يقوِّم تصويتةً واحدة سواءٌ كانت صامتاً أو

(6778/1)

صائتاً)، استغنى النسق النصغي عن القيم الخلافية التي توفرها الصويتات الهامشية. لكن هذه الأحادية مكلفة، إذ تجبر المتكلم، أيّاً كانت بنيةُ أعضائه النُّطقية، على استغلال كل الأحياز في جميع الشعب المكونة لمختلف

مناطق جهاز التصويت البشري، كما يوضحه المبيان (5) من المبحث (2.1)، وفي ذلك نقض لمبدإ الخفة والاقتصاد في الجهد (1)

---

(1) بنية جهاز التصويت البشري وإن كانت واحدة لكن أعضاءها متغايرة الأحجام والأشكال، وهو ما يحمل ناطقين على استغلال ما يخف من المناطق النطقية وإهمال ما يثقل عليهم، ويتكرر ذلك مع غيرهم، فاختلفت اللغات من حيث التصويتات المستعملة في كل منها. للمزيد من التفصيل، انظر: الفارابي، كتاب الحروف، ص. 136.

(1/6779)

.

... يلزم عن المثبت في آخر الفقرة السابقة أن يصدق الشق الأول من الأحادية النَّطقية؛ فلا يتولد عن الحيز الواحد سوى صويت نووي واحد، ولا يصح شقها الثاني لأن مبدأ الخفة يستوجب إعمال أعضاء نُطقية وإهمال أخرى، فكان المحصول أقل من الحاجة، واشتركت تصويتات، من اللغة الواحدة أو من لغات مختلفة، في صويت نووي.

وإذاك تتدخل الصويتات الهامشية لإحداث جهة خلافية، كما يتبين مما يلي:

... (15) (أ). الحفيف: صُوَيْتٌ نووي يتولد عن حيِّز متشكل من إلصاق الشفة السفلى بالثِّنْتَيْن العُلويين من غير حبس تام للنفس المدفوع

(1/6780)

إليه. وصُوَيْتُ الحفيف يسري في أكثر من صامت واحد في نسق نَصْغِي واحد أو في نسقين متغايرين. فهو الجامع بين الصامتين الواقعين ثالثاً في القَوِلَتين الأعجميتين؛ (تلفون/ تلفِزْيُون). والمسموع ثالثاً أيضاً عند التلفظ بمثل القَوِلات العربية؛ (سلَفَ/ علَفَ/ تلَفَ). اشتراك صامتين من النسق الواحد في صويت الحفيف النووي يستوجب:

... أولاً: إحداث جهة خلافية، فيُضْطَرُّ إلى إدخال احتمال واحد على الأقل من التقابلات الثنائية بين الصويتات الهامشية الماثلة في الثلاث (13)، وبه يحصل التغاير كما يوضح المثال (15 ب ج)

(1/6781)

التالي:

... (15) . (ب) حفيف + همس (ف (تلفون)

... (ج) حفيف + جهر (ف (تلفزيون)

... ويدعو ثانياً إلى إدراج ذينك الصامتين في سلمية تساند الشرط الرئيس لقيام نسقية نصغية نمطية. ونحصل بذلك على المثال (15 د) التوضيحي ونحوه (03) في الطرة (1) من الهامش أسفله.

... (15) . (د) ف – V ...

---

(1) بالسلمية (03) ينتظم الصامتان (/ V / , / F **/) المسموعان من تلفظ القولتين، الإنجليزية (**five**)، والفرنسية (**vif**) كالآتي: ...** F >) 03V**).**

(6782/1)

... هذه السلمية تعبر، كغيرها من سلميات التساند، عن ضوابط ثابتة لا تتخلف، وإنما يتغير في كل منها ما يخص العناصر الصوتية الماثلة فيها. إذ تنص هذه على ما يلي:

... 1) سريان الصويت الحفيف النووي في الصامتين (/ف/ ، V **/).**

... 2) جهة الخلاف يحدثها تقابلُ صويتَي الجهر والهمس الهامشيين.

... 3) كل لغة تستعمل الصامت اللاحق / V /، كالفرنسية، يلزمها استعمال الصامت السابق /ف/ ، ولا ينعكس.

... 4) كل لغة اكتفت كالعربية بالصامت السابق /ف/ لا يلزمها اللاحق /V/ ، لكن نسقها النصغي مجبر على ملاحظة صويت الجهر

(1/6783)

المميز للصامت المهمل، لأن الهمس لا يميّز الصامت /ف/ في نسقه إلا إذا قوبل بالجهر المميز لصامت آخر في النسق نفسه أو في نسق نصغي آخر. وبهذا المعنى ينبغي فهم التقابلات الثنائية بين الصويتات الهامشية. والذي أوردناه هنا لا يتخلف في الباقي.

... (16). (أ). الغنّة: صويت نووي ينشأ في الخيشوم إذا انفتح المجرى الأنفي بإبعاد الصفاق الحنكي، وانغلق طريق الفم مطلقاً بإطباق الشفتين أو نسبياً بإلصاق محيط اللسان بمغرس الأسنان العليا. وهو الجامع بين الصامتين المسموعين أولاً عند التلفظ بالقَولَتين: (نَجْدٌ /

(1/6784)

مَجْدٌ)، وثانياً عند إصدار مثل: (عَنيدٌ / عَميدٌ)، وأخيراً في نحو (إِعْلاَنٌ / إِعْلاَمٌ).

... اشتراك الصامتين / ن / . / م / في صويت الغنة يستوجب، فضلاً عن صوغهما في سلمية، إحداث جهة خلافية. ويحصل تغايرهما بتقابل ثنائية الشدة (الناجمة عن فتح مفاجئ للشفتين المطبقتين، وانعتاق مباغت للنفس المحبوس في الفم خلفهما)، والرخاوة (وهي الصويت الذي يجري متصلاً في المجرى الأنفي من جراء الانسداد النسبي لطريق الفم). ويكون تمايز ذينك الصامتين، كما في (16ب ج)، وانتظامهما النسقي كما في (17).

(6785/1)

... (16). (ب) غنة + رخاوة (/ ن /.

... (ج) غنة + شدة (/ م /.

... (د) ن – م ...

... العبارة (16) تدل بمحتواها على سريان صويت الغنة النووي في الصامتين /ن/ ./ م/، فأُدخِل تقابلُ »رخاوة/

شدة « لإحداث جهة فارقة، فحصل التمايز واستُغني عن باقي الصويتات الهامشية، حتى صار ذكرها من قبيل الحشو. كما تنص على أن اللغة التي تستعمل / م / يلزمها أن تستعمل / ن / أيضاً، ولا ينعكس(1)

---

(1) من خلال تزجية سيمون ديك للكليات اللزومية ذكر هذه العلاقة بين الصامتين: / N / - / M / ونص على محتوى السلمية (16 د) أعلاه. للمزيد من التفصيل، انظر كتابه نظرية النحو الوظيفي (S. Dijk, The Theory of FG).

(6786/1)

.

... (17). (أ). الصفير: راسمة لوصف الصويت النووي المتولد عن جريان النفس بين الثنايا المطبقة، وبغير أحد هذين السببين لا ينشأ الصفير الحسيسي. يدل على ذلك انتفاؤه عند العض ولو على قطعة من ورق دقيق. وهو الجامع بين الصوامت المسموعة أولاً عند النطق بالقَوِلات (زاد، ساد، صاد) والمسماة في اللسانيات العربية القديمة كذلك بحروف الصفير لصدور جميعها من حيز أسناني(1).

---

(1) راجع ابن سينا، أسباب حدوث الحروف، والمصادر المسرودة في الطرة (17).

(1/6787)

... اشتراك الصوامت / ز / . / س / . / ص / في الصويت النووي نفسه يستوجب إدخال ثنائية الجهر والهمس لإحداث جهة فارقة بين / ز / ، / س /. ثم إعمال ثنائية الترقيق والتفخيم لإيجاد قيمة خلافية يحصل بها تغاير / ص / ، / س /. وهو ما يمكن التعبير عنه بما يلي:

... (17) (ب) صفير + ترقيق + جهر (/ ز /.

... (ج) صفير + ترقيق + همس (/ س /.

... (د) صفير + همس + ترقيق (/ س /.

... (هـ) صفير + همس + تفخيم (/ ص /.

...

(1/6788)

... أثبتنا في موضع آخر (1) أن لغات كالفرنسية ونحوها الإنجليزية لا توظف صويتَ التفخيم في التغاير الدلالي. لكن نسقها النَّصْغي مجبر على ملاحظته، وإلا انتفى مقابل الترقيق، وعندئذ يفقد كلاهما القدرة على إحداث الجهة الخلافية المطلوبة.

... إعمال الثنائيتين: »الجهر v الهمس« و»الترقيق v التفخيم« سيرفع عتبة الانتظام؛ في اللغات التي توظفهما كالعربية (2)، إلى الثلاثي كما في السلمية (17و). بخلاف

---

(1) انظر: محمد الأوراغي، الوسائط اللغوية، ج 2، الفصل السابع منه.

(2) راجع الطرة 4 في الفصل الأول من هذا العمل.

(6789/1)

اللغات التي تكتفي كالفرنسية بالترقيق وبملاحظة مقابله التفخيم الذي أهملته، فإن نسقها النصغي سيضطر إلى التخلي عن الصامت الثالث في السلمية المذكورة.

... (17) (و). ز – س – ص ...

... يعتبر التقابل المحصور بين إعمال لغات لثنائية

»الترقيق v التفخيم« وإهمال غيرها لها من الأسباب المباشرة في تنميط الأنساق النصغية(1)

---

(1) التنميط اللغوي ربطناه بالوسائط اللغوية. وهذه كما نتصورها عبارة عن إمكانات متقابلة تجبر اللغات جميعاً على اختيار بعضها لإمكان وإهمال مقابله المنتقى من بعضها الآخر، فتحصل اللغات بدءاً في أنساق نمطية. للمزيد من التفصيل، انظر: الأوراغي، الوسائط اللغوية، ج 1، الفصل 3 منه.

(6790/1)

، لأنه بالإضافة إلى ارتفاع عتبة الانتظام، في المكون النطقي، بدرجة فإن الإبدال مثلاً، في المكون النَّصْتي، سيتسع هو أيضاً بالنسبة نفسها، كما سنوضح ذلك لاحقاً إن شاء الله.

(6791/1)

النهضة الفقهية في ظلال الدولة الموحدية

الدكتور فاروق حمادة

كلية الآداب –الرباط

... لقد امتد عمر الدولة الموحدية، قرنا ونيفا من الزمان، من نحو 540ه، لإلى محو 650ه وخفقت أعلامها الإسلامية من حدود مصر والسودان شرقا، إلى المحيط الأطلسي غربا ومن قمم جبال البرينية في قلب أوربا شمالا إلى ما شاء الله في قلب لإفريقيا جنوبا، ولولا البحر والمحيط الذي حجز امتداد في آسفي وما والاها ، لكان لها في مغرب الشمس قراع وصراع واتساع ، وقد بلغت كل هذه السعة في زمن يسير ، ودهر قصير ، عم في أغلب أيامها الرخاء، وطاولت

(6792/1)

قوتها الجوزاء، ونالت ولا زالت تنال من الباحثين أبلغ المدح والثناء ، لشواهدها الدالة عليها ، من مكارم وعظائم ،وفي مقدمة آيات فخارها ومجدها عن المعمار والبناء ،وقديما ردد الخليفة الأموي الناصر وهو يشيد ويبني في الأندلس:

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها

إن البناء إذا تعاظم قدره

من بعدها فبألسن البنيان

أضحى يدل على عظيم الشان

... ... لقد ترك الموحدون ، ويعقوب المنصور منهم على الخصوص الذس سنقف عنده ، منائر للإسلام شامخة ،يشق صوت مناديها أجواز الفضاء ، ويدعو الخليفة إلى رب السماء عنوانا لهذه الدولة السنية

(1/6793)

السنية ، فالكتبية في مراكش رمز لإفريقيا كلها، وصومعة حسان في رباط الفتح رمز للجهاد وأهله في الإسلام على مدى الأيام، والخيرالدا في إشبيلية قمة حضارة إنسانية معطاء لاتنال منها تشويهات الحاقدين ، وعبث العابثين على مر القرون ، شاهد حق للناس على أن المسلم يبني الخير أينما حل، وينتشر الرقى في كل الأنحاء .

... لقد توجهت هذه الدولة بالفكر الإسلامي توجها جديدا يكن آنئد، وبهذا التوجيه حصل إبداع وابتكار ، وحفظت لهذه الأمة كثير من مصادر المعرفة والآثار ، ونتاج أعلامها الأخبار الأبرار.

(1/6794)

... لقد أرادت هذه الدولة أن تعيد أمر الحياة الإسلامية جذعا، وتعود بالمسلمين إلى عصور الخير والازدهار، إلى القرون الثلاث الأولى ، في الفكر والسلوك ونمط الحياة.

... وقد كان القرن الرابع والخامس الهجريين مرحلة استقرار الفقه الإسلامي بمدارسه المعروفة، ومذاهبه السنية خاصة، الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية، وتبلورت هذه المدارس الاربعة من خلال قواعد وأصول بنيت عليها، وأغصان وفروع انطلقت منها، وتميزت كل مدرسة بأصولها الخاصة التي تختلف بها عن المدارس الأخرى، مع اشتراك جميع هذه المدارس بجزء عظيم.

(6795/1)

ودونت هذه القواعد والأصول، وكتبت كتب الفروع ،ولا ضير في ذلك ، إلا أن المعركة التي استمرت في بناء الفقه الإسلامي في طليعة القرون الثلاثة الأولى، وعرفت فيها تقارع الأفكار وتدافع الحجج وابتكار الأساليب ، بما بهر العقول، وحير الأفكار، فأين مطارحات ابن أبي ليلى وأبي حنيفة ؟ وأين مناقشات الشافعي مع محمد بن الحسن الشسباني، وأين المراسلات التي كان ترد وتصدر بين مالك والليث بن سعد ،وأين ندوات الأوزاعي وغيره

؟ وأين حلقات أحمد بن حنبل وأبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي ثور الفهمي ؟ وأين، وأين...؟

(6796/1)

... لقد همد هذا في القرن الرابع والخامس، وألفت في كل مذهب كتبه الخاصة، وتعدى الأمر إلى تأليف المختصرات والعكوف عليها والتعصب للمذاهب والدفاع عنها .
فللحنفية مختصر الطحاوي ثم تلاه مختصر القدوري وهم عمدة هذا المذهب إلى اليوم، وللشافعي مختصر المزني زتلاه ما تلاه وإلى يومنا هذا ،وللمالكية مختصر بن عبد الحكم وغيره ، وللحنابلة مثل هذا، وبالأمس كان منزع الفقهاء من القرآن الكريم والسنة، واليوم عكوفهم على هذه المختصرات وكتب المذهب خاصة. فحصل بذلك نوع من الهمود والركود، وما كانت المناظرات بعد إلا دفاعا

(6797/1)

عما هو موجود ، وانتصارا لما هو قائم، وعرى دولة المسلمين نوع من التفكك وتقطيع الأوصال، مما قطع

الأفكار وحير العقول، فالدولة البوهية في بغداد والمشرق، والسلجوقية في الشمال والفاطمية بمصر، والطوائف في الأندلس ، والمرابطية في أفريقيا والمغرب ... وهذا له ماله من أثر في دفع حركة الفقه، وعجلة التشريع، وتشذما وتشتتا .

... وكانت أفريقيا والأندلس مقرا لأتباع مالك بوجه عام من أيام مالك رحمه الله في نهاية القرن الثاني ، ولكنها كانت إلى جانب الفقه المالكي تعج وتموج بالمحدثين الوارجين إلى مدارس الحديث

(1/6798)

بالمشرق، والصادرين عنها، فكان الفقهاء محدثين، والمحدثون فقهاء في الأعلم الأغلب .

... واستمرت الأمور علة ذلك مدة حتى جاءت الدولة المرابطية من منتصف القرن الخامس 465ه تقريبا فعملت على ترسيخ الفقه المالكي المجرد عن الدليل، وذلك في أيام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وابنه علي الذي امتد حكمه إلى سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وكان كأبيه، ومما جاء في وصفه : أنه شجاع مجاهد، عادل دين، ورع صالح ، معظم للعلماء، مشاور لهم نفق في زمانه الفقه وكتب الفروع، حتى تكاسلوا عن الحديث

والآثار، وأهينت الفلسفة ...(1)

---

(1) انظر : الذهبي، سير الأعلام النبلاء، ج 20، ص. 124؛ الناصري، الاستقصاء، ج 2، ص. 69.

(1/6799)

واستمرت سطوة الفروع، والكتب الفروعية مدة بقاء المرابطين ، ومن يرجع إلى تاريخ العلماء في هذه الفترة يجد أن عمل العلماء كان حول مدونة الإمام سحنون بن سعيد، اختصارا وتهذيبا، وشرحا وتعليقا ...

... حتى جاءت دولة الموحدين التي انبثقت على هدي أفكار محمد بن تومرت الذي كان قد جال في المشرق، ورأى صراع المدارس الفقهية الاتجاهات العقائدية، ولمس محاولات النهوض بالفقه الإسلامي والبحث عن الدليل من القرآن والسنة، ودرس على الغزالي الشافعي، كما درس على مالكية المشرق، وعاد إلى المغرب ، وشارك بأعمال علمية منها

(1/6800)

اختصاره لموطأالإمام مالك وله المكانة العليا عند المحدثين والفقهاء، وحرر رسائل في العقائد وغيرها، ودرب أتباعه على قراءة القرآن حزب فيالصباح وحزب فيالمساء ليختم كل شهر ، وحاول إبعاد الناس عن الفروع الفقهية وكتبها (1) .

... ولما آل الأمر إلى عبد المؤمن بن علي، وأقام الدولة الموحدية، ومد رواقها، وأصغى له الدهر كما قال الوزير أبو جعفر بن سعيد العنسي، مخاطبا له في قصيدة بجبل الفتح – جبل طارق(2)

---

(1) انظر : عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت : حياته وآراؤه، ص. 362.

(2) انظر : الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، ص.

(6801/1)

– :

تكلم فقد أصغى إلى قولك الدهر

ورم كل ما قد شئته فهو كائن

فما لسواك اليوم نهي ولا أمر

وحاول فلا بر يفوت ولا بحر

... وعمق عبد المؤمن اتجاه شيخه المهدي بن تومرت في

دفع كتب الفروع وإعلاء شأن الأصول، والرجوع إلى القرآن والحديث ، قال الناصري : لما كانت سنة خمسين وخمسمائة، أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي بإصلاح المساجد وبنائها في جميع ممالكه ، وبتغيير المنكرات ما كانت، وأمر مع ذلك بتحريق كتب الفروع، ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث، واستنباط الأحكام منها وكتب بذلك إلى جميع طلبة العلم من بلاد

(6802/1)

الأندلس والعدوة (1) .

... وكان عبد المؤمن كما يصفه بن خلكان وغيره : فصيحا مفوها فقيها عالما بالأصول والجدل والحديث، مشاركا في كثير من العلوم الدينية والدنيوية .

... وأقبل طلبة العلم منذ ئذ على الأصول، ودفع عبد المؤمن بن علي أولاده إلى أهل الحديث ، ليحفظوه مع كتاب الله ،وقد جاء ترجمة ابنه يوسف في المعجم للمراكشي، وهو قريب العهد به(2) : صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين، وأظنه صحيح البخاري .

---

(1) انظر : الناصري، الاستقصاء، ج 2، ص. 126

(2) انظر : المعجب، ص. 347.

(6803/1)

... وقال : لما تجهز لغزو الروم، أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث في الجهاد تملى على الجند، وكان هو يملي بنفسه، وكبار الموحدين يكتبون في ألواحهم، وكان فقيها يتكلم في المذاهب ويقول : قول فلان صواب، ودليله من الكتاب والسنة كذا وكذا ...

... ولما استسلم ابنه يعقوب بن يوسف الملقب بالمنصور سنة 580ه ، كان هذا الإتجاه قد استقر وتوضح، وبلغ يعقوب المنصور من العلم بالكتاب والسنة و الفقه مبلغا عظيما، قال تاج الدين بن حمويه السرخسي، وقد زار المغرب سنة 593ه أي قبل وفاة المنصور بسنتين، وكان على صلة بالمنصور، واطلع

(6804/1)

على أحوال دولته(1) : كانت الدنيا بسيادته مجملة، يقصد بفضله، ولعدله ولبذله، ولحسن معتقده ... وكانت مجالسه مزينة بحضور العلماء والفضلاء، تفتتح بالتلاوة، ثم الحديث، ثم يدعوا هو، وكان يجيد حفظ القرآن، ويحفظ الحديث، ويتكلم في الفقه، ويناظر، وينسبونه

إلى مذهب الظاهر، وكان فصيحا مهيبا ... بزي العلماء وعليه جلالة الملوك، صنف في العبادات، وله فتاو، وبلغني السودان قدموا له فيلا فوصلهم، ورده وقال ما نريد أن نكون من أصحاب الفيل، وكان يجمع الزكاة ويفرقها بنفسه، وعمل مكتبا

---

(1) انظر : سير النبلاء، ج 21، ص. 316.

(6805/1)

للأيتام فيه نحو ألف صبي وعشرة معلمين .

... وقد صح عنه أنه أراد جمع صحيح السنة من مصادرها الأصلية، وأمر بذلك الحفاظ في عصره. قال الحافظ أبو الحسن بن القطان دولتهم ورأس طلبتهم : حرص رحمه الله على تدوين كتاب يشمل على عجب عجاب من صحيح آثار السنة، وتمحيص السنن الثابتة المثورة وتمييزها عن سقيمات الآثار المسطورة، وجعل ذلك لمهر طلبته الناهضين بخدمته...(1) وجمع كتاب الصلاة من الكتب الخمسة الأصول، والموطأ، ومسندي

---

(1) من مخطوط الإقناع لابن القطاع الورقة الأخيرة، وانظر : عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص. 401

البزار وابن شبيه، وسنن الدرقطني، والبيهقي(1) .

... وأراد المنصور رحمه الله أن يؤصل للاجتهاد، وينفخ فيه روحا جديدا في ربوع مملكته، وروع أهل العلم من حوله ، فأضاف إلى السنة المطهرة بعد القرآن أن أمر بجمع كتال في الإجماع ، يضم المسائل التي أجمع عليها المسلمون من قبل حتى لايتخطاها أهل العلم لما للإجماع من مكانة، وأمر بجمع كتب الفقه المدهبي على اختلافها، واعتنى بالكتب التي تبسط المسائل مع أدلتها من القرآن والسنة ، وكأني به رحمه الله أراد أن يحيي فقه

(1) انظر : عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص. 401.

الكتاب والسنة كما كان غضا طريا في القرون الثلاثة الأولى ، وجمعت كتب الفقه في هذا الباب وما اتهم به من ظاهرية (1) ينفيها ما ثبت عنها من رواج لكتب الفقه في عصره ، واعتماد الدولة ، لجميع الذاهب السنية ومنها المالكية،والظاهرية، وبما أن الظاهرية دائما يناقشون

ويحتجون بالآثار فكتبهم محشوة بها ، وحظيت عندهم بهذا الإعتبار، وقد ثبت عندنا نفاق سوق كتب جليلة ذات شأن مما لم قرع اسمها إلا أسماع خاصة الخاصة منذ مدة طويلة، وهذا مادعانا إلى بيانها، وإشاعة ذكرها، وتغيير النظرو التي وجهت

---

(1) المصدر السابق، ص. 401.

(6808/1)

الدولة الموحدية وعدها في صف الظاهرية ، وتعصبها لها ، والأمر ليس كذلك ، لتكون هذه الكتب محل البحث والإهتمام، والبعث والدرس، عنوانا ليقظة فقهية كما أرادت الدولة الموحدية وواسطة عقدها يعقوب من قبل، معتمدا في ذلك على كتب أبي الحسن القطان الفاسي المتوفي 628 وقد عاش في كنف هذه الدولة وسلك خطتها العلمية، وترك وراءه عديدا من الآثار الجليلة العلمية، واعتمادنا في هذا البحث على كتابه الإقناع في مسائل الإجماع، ولازال مخطوطا، وكتابه أحكام النظر في أحكام النظر بحاسة البصر، وهو مطبوع(1)

---

(1) طبع الكتاب سنة 1416م بدار إحياء العلوم

ببيروت، والشركة الجديدة دار الثقافة بالدار البيضاء بتحقيق الأستاذ الصمدي ومراجعتنا.

(6809/1)

، وكان هذا الإمام قيما على الخزانة الموحدية مسؤولا عنها، ولهذا فكتبه مستقاة منها معرفة بمظمون خزانة الموحدين، مرتبا الكتب الفقهية حسب المذاهب ومعرفا بها وبقيمتها.

... 1- أما المالكية فلم تحارثها الدولة الموحدية بإطلاق كما هو شائع بين كثير من الباحثين بل كانت كتب المالكية سائرة رائجة، ولكنها الكتب النقاوة، التي كانت قبل الدولة وبعدها محط اهتمام العلماء، وحازت قصب السبق في جميع الأعصار، وفي مقدمتها الموطأ للإمام مالك أصل الأصول ، فكان له شأن لدءا من محمد بن تومرت الذي اختصره إلى يعقوب المنصور.

(6810/1)

والمدونة، التي نقل فيها سحنون آراء مالك وابن القاسم.

... * ومن أعلام المالمية وأصحاب المصنفات الذين استمر أثرهم الفقهي ولقي قبولا في الدولة الموحدية، القاسم بن محمد بن سيار القرطبي المتوفي 278ه ، وهو المحدث الكبير تلميذ المزني حام لعلم الشافعي، وتلميذ يونس بن عبد الأعلى، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم، والحارث بن مسكين، وكان يعرف بصاحب الوثائق لشهرته بها، قال بن حزم : وإذا ذكرنا قاسم بن محمد لم نباه به إلا القفال، ومحمد بن عقيل الفريابي ، وله تآليف جليلة، ومنها كتاب الإيضاح في الرد على

(6811/1)

المقلدين، ومصنف جليل في خبر الواحد(1) .

... * ومنهم محمد بن إبراهيم بن زياد الإسكندراني المعروف بابن المواز المتوفي 281ه أو نحوها، كان راسخا في الفقه والفتيا علما في ذلك، وكان المعول بمصر على قوله .

... قال القاضي عياض(2) : وله كتابه الكبير المشهور، وهو أجل كتاب ألفه قدماء المالكيين وأصحه مسائل وأبسطه كلاما وأوعبه، وذكره أبو الحسن القابسي، ورجحه على سائر الأمهات، وقال :

---

(1) انظر ترجمته في : القاضي عياض، ترتيب المدارك لمعرفة أعيان مذهب مالك، ج4، ص. 446.

(2) انظر : ترتيب المدارك، ج4، ص. 167– 169.

(6812/1)

لأن صاحبه قصد إلى بناء فروع أصحاب المذهب على أصولهم في تصنيفه، وغيره وإنما قصد إلى جمع الروايات ونقل منصوص السماعات ... إلا ابن حبيب فإنه قصد بناء المذهب على معان تأدية إليه .... ويسمى كتابه هذا بالموازية، وكان له حضور قوي في الغرب إبان العهد الموحدي وقد اقتبس منه ابن رشد الحفيد في بداية المجتهد، وابن قطان في كتابه إحكام النظر وأكثر عنه(1) .

---

(1) انظر : إحكام النظر، ص. 185، 313، 316، 345 وغيرها وانظر 318 حيث يذكر أنه نقل النص من كتابه.

(6813/1)

... * ومنهم كذلك إسماعيل بن إسحق القاضي المتوفى 282ه(1) أحد الرؤساء الكبار، وإمام المدرسة المالكية ببغداد جمع القرآن، وعلوم القرآن، والحديث، وآثار

العلماء والفقه والكلام والمعرفة بعلم اللسان صنف في مذهب مالك ورد على أصحاب الشافعي وأبي حنيفة، وولي القضاء، وكان لكتبه وزن كبير، وكانت عمدة في فقه المالكية ومنها المبسوط الذي اقتبس منه فقهاء المالكية كثيرا وأحكام القرآن

---

(1) انظر ترجمة في ، تاريخ بغداد، ج 6، ص. 284؛ ومعجم الأدباء، ج 6، ص. 129؛ والدبياج المذهب،ج 1، ص. 282؛ وسير النبلاء، ج 13، ص. 339.

(6814/1)

والأموال، والشفاعة، والصلاة على النبي عليه الصلاة و مسند حديث يحيى بن سعيد الأنصاري، وأيوب السختياني، وهذه الكتب هب من مرويات محمد بن خير الأشبيلي في فهرسته والمتوفي سنة 575ه أي في عصر الدولة الموحدية(1) .

... * ومنهم ابن الجهم المالكي، محمد بن أحمد، يعرف بابن الوراق المروزي، صحب إسماعيل القاضي، وتفقه به ومعه، ومع كبار أصحاب ابن بكير وغيره وتوفي سنة تسع وعشرين وثلاثمائة .

---

(1) انظر المقياسات عنه في : إحكام النظر، ص. 145، 292 وغيرها.

(6815/1)

... ألف كتابا جليلة على مذهب مالك، وشرح مختصر ابن عبد الحكم الصغير، وله معرفة تامة بالحديث، قال الخطيب : له مصنفات حسان محشوة بالآثار، يحتج المذهب مالك، ويرد على مخالفيه، وقد انتشرت مؤلفاته في الدولة الموحدية واقتبس منها العلماء (1) ولانعلم عنها شيئا الآن .

---

(1) انظر : الاقتباس في إحكام النظر : ص. 99، 144، 385، 299، 303؛ وانظر ترجمته وهي عزيزة نادرة في ترتيب المدارك، ج5، ص. 19، 20؛ والديباج المذهب، ص. 185.

(6816/1)

... * ومنهم المنذر بن سعيد البلوطي، أبو الحسن الأندلسي المتوفي 355ه سمع بالأندلس من عبيد الله بن يحيى ونظرائه، ثم رحل حاجا سنة 308ه فسمع بمكة

من محمد بن المنذر النيسابوري المتوفي 318ه كتابه الإشراف على اختلاف العلماء، وهو من أعظم كتب الإسلام في الفقه وروى بمصر كتاب العين للخليل بن أحمد، وكان متفننا في ضروب العلم، ولي القضاء الجماعة بقرطبة من سنة 339إلى سنة 355ه حتى موته وكان يقضي بمذهب مالك بن أنس لايخرج عنه ، وكان له احتفالا بكتب الأدلة وخاصة كتب داود الظاهري، مما أكسبه معرفة بالمناظرة واختلاف

(6817/1)

العلماء، قال خشمي في قضاة قرطبة : وكان من أهل النفاذ والتحصيل، متدربا للمناظرة متخلقا بالإنصاف جيد الفهم، طويل العلم؛ بليغا موجزا يميل إلى طرق الفضائل، ويوالي أهلها، ويلهج بأخبار الصالحين .

... وله تصانيف حسان جدا كما يقول ابن بشكوال، وقال ابن الفرضي : له كتب مشهورة كثيرة في القرآن والفقه، والرد، أخذها الناس عنه، وقرؤوها عليه .

... ومن كتبه التي راجت وكان لها شأن في الدولة الموحدية : الإنباه عن الأحكام من كتاب الله، والإبانة عن حقائق أصول الديانة، وناسخ القرأن ومنسوخه، وقد اقتبس العلماء من كتبه

(6818/1)

وخاصة الأول منهم ابن القطان في الإقناع وهو من مرويات ابن خير الإشبيلي في فهرسته(1) .

... * ومنهم الإمام الأبهيري ، أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن صالح المتوفي 375 جمع بين القراءات، وعلوم الإسناد في الحديث، والفقه الجيد، وشرح مختصر ابن عبد الحكم، وعنه انتشرت مذهب مالك في المشرق قال الإمام الدرقطيني : هو إمام

---

(1) انظر : ابن خير، فهرسته، ص. 53؛ وامظر : الاقتباس في الإقناع، الفقرات : 257، 262، 279، 323، 330، 333 وغيرهاكثير؛ وترجمته مطولة في غير مصدر ومنها سيرا علام النبلاء، ج16، ص. 173.

(6819/1)

المالكية، وإليه الرحلة من أقطار الدنيا، رأيت جماعة من الأندلس والمغرب على بابه، ورأيته يذاكر بالأحاديث الفقهية، ويذاكر بحديث مالك، ثقة مؤمون زاهد ورع .

... قال الخطيب البغدادي : وله التصانيف في شرح مذهب

مالك بن أنس والاحتجاج له والرد على من خالفه وقال القاضي عياض : لأبي بكر من التواليف سوى شرحي المختصرين : الرد على المزني، وكتاب الأصول، وكتاب إجماع أهل المدينة، ومسألة إثبات حكم القافة، وكتاب فضل المدينة على مكة ومسألة الجواب، والدلائل والعلل.

(6820/1)

... وقد حمل علمه وكتبه جمع من المغاربة والأندلسيين وشاعت كتبه فيهم واقتبسوا منها في العهد الموحدي، ولم يبق منها أثر اليوم(1) .

... * ومنهم أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد المعروف بابن القصار المتوفي 398ه، قال القاضي عبد الوهاب المالكي : تذاكرت مع أبي حامد الأسفرايني الشافعي في العلم، وجرى ذكر أبي الحسن القصار وكتابه في الحجة المذهب مالك فقال لي : ماترك صاحبكم لقائل ما يقول .

---

(1) انظر ترجمة في : تاريخ بغداد، ج 5، ص. 466؛ والسيرازي، طبقات الفقهاء، ص. 167؛ وترتيب المدارك، ج6، ص. 183 وغيرها.

(6821/1)

... وقال الشيرازي : وله مسائل الخلاف كتاب كبير ، لاأعرف لهم في الخلاف كتابا أحسن منه(1) . وقد اختصر كتابه في عيون المسائل،واختصر بدوره نكت العيون، وأكثر ابن القطاب النقل منه كتابه الإقناع.

... * ومنهم : ابن بطال سليمان بن محمد بن بطال البطليوسي، أبو أيوب المتوفى نحو 400ه وهو فقيه مقدم، وشاعر محسن كثير الشعر ، ترجمه غير واحد كالحمدي والضبي، وذكر له في نفح الطيب : الأحكام فيما لا يستغني عنه الحكام، وله شرح على البخاري،وهو غير ابن بطال علي بن خلف الآتي ذكره

(1) انظر الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص. 168.

(6822/1)

، فأين كتابه الأحكام ؟!

... * ومنهم الباقلاني؛ سيف السنة زلسان الأمة ، المتكلم على لسان أهل الحديث، وطريقة أبي الحسن الأشعري المتوفى 403ه إليه انتهت رئاسة المالكية في عصره، وكان له في جامع البصرة حلقة عظيمة، وذكر له القاضي في المدارك كتبا كثيرة، منها البيان عن

فرائض الدين وشرائع الاسلام ووصف ما يلزم من جرت عليه الأقلام من معرفة الأحكام، وكتاب الانتصار وقد حمل المغاربة والأندلسيون كتبه وآراءه عن تلميذه الحافظ أبي ذر الهروي من مكة، وكان لها رواج في العهد الموحدي لأنهم قفوا طريقته في العقائد

(6823/1)

الأشعرية. وقد نقل ابن القطان في كتابه أحكام النظر نصوصا عديدة عنه(1) .

... * ومنهم أبو القاسم بن الجلاب، عبيد الله بن الحسن، وقيل : الحسين المتوفى 398ه تفقه بالأبهري وغيره وله كتاب في مسائل الخلاف، وكتاب التفريع في المذهب وهو مشهور، وقد اقتبس منه الحافظ ابن القطان(2) .

---

(1) انظر : الاقباس في إحكام النظر، ص. 128، 386، 402، 407، وقد أكثر عنه أما ترجمته فمشهورة متداولة.

(2) انظر ترجمته في : المدارك، ج 7، ص.76؛ والشيرازي، طبقات الفقهاء، ص. 168؛ وانظر: الاقباس في لأحكام النظر، ص. 261.

(6824/1)

... * ومنهم القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر، المتولى 422 ه الفقيه الشاعر المتأدب له كتب كثيرة في كل فن من الفقه، ومنها الإشراف، والتلقين وهو من أجود المختصرات، والممونة في شرح الرسالة، وغير ذلك، وقد اقتبس ابن القطان وغيره من شرحه الرسالة(1) .

... * ومنهم أبو عمر والطلمينكي، الإمام المقرئ المحدث الحافظ المتوفى 429 ه، من شيوخ الحافظ ابن عبدالبر، وابن حزم، وكان من بحور العلم، رحل، وأدخل الأندلس علما جما نافعا قال الذهبي(2) : صنف كتبا

---

(1) انظر : إحكام النظر، ص. 287.

(2) انظر : سير النبلاء، ج 17، ص.567.

(6825/1)

كثيرة في السنة يلوح فيها فضله، وحفظه وإمامته، واتباعه للأثر .

... وقال القاضي عياض(1) اتسعت روايته، وتفنن في علوم الشريعة، وغلب عليه القرآن والحديث وألف تآليف نافعة كثيرة كبارا وصغارا، مختصرة، احتسابا، ككتاب الدليل إلى المعرفة الجليل، ونحومائة جزء،

وكتابه في تفسير القرآن نحو هذا، والبيان في إعراب القرآن، وفضل مالك، ورجال الموطأ، والرد على ابن مسرة، والوصول إلى معرفة الأصول، وغير ذلك، وكان هذا الأخير متداولا في العصر الموحدي، واقتبس منه الحافظ ابن القطان في

---

(1) انظر ، ترتيب المدارك، ج8، ص. 32.

(6826/1)

كتابه الإقناع، كما اقتبس منه معاصره في المشرق الحافظ ابن تيمية الحراني وتلميذه ابن قيم الجوزية(1) .وهو من مرويات ابن خير الأشبيلي في فهرسته.

... * ومنهم ابن بطال، علي بن خلف العلامة الفقيه المشهور المتوفي 444 ه أو 49، صاحب شرح البخاري الذي اكثر النقل عنه ابن حجر في فتح الباري، وقال القاضي عياض(2) كبير يتنافس

---

(1) انظر : الإقناع، الفقرات : 2، 8، 13، 70، 72، 76 وغيرها، انظر : بن تيمية، درء تعارض العقل مع النقل، ج2، ص.35، ج6، ص. 250؛ وانظر : ابن خير، فهرسته، ص.

.259

(2) انظر :ترتيب المدارك، ج8، ص. 160.

(6827/1)

فيه كثير الفائدة، وله الزهد والرقائق، والاعتصام في الحديث، وقد أكثر النقل عنه ابن القطان في كتابه الإقناع بشكل واضح فيما يتعلق بمسائل الأجماع(1) .

... * ومنهم حافظ المغرب الإمام الحجة أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي المتوفى 463 ه صاحب المؤلفات الجليلة النافعة زمنها التمهيد، والاستنكار في شرح الموطأ، وعد الإمام الذهبي كتاب التمهيد رابع أربعة كتب هي أمهات كتب الإسلام، وكانت كتبه من مفاخر الغرب الإسلامي، ولهذا علا شأنها في الدولة

---

(1) انظر عن سبيل المثال الفقرات : 354، 407، 417، 599، 673، 696، 827.

(6828/1)

الموحدية، ورجح ميزانها في هذه الفترة لأنها مملوءة بالأدلة مترعة بنفس الاجتهاد عمدة في نقل مذاهب

الماضي الموافقين للمالكية والمخالفين.

... وقد أكثر عنها جدا ابن القطان في جميع كتبه الحديثية والفقيهية ووصفه بأنه أحد أشياخ المذهب المالكية وما كتاب بداية المجتهد لابن رشد إلا اختصار لكتاب الاستذكار كما صرح هو بنفسه(1) .

---

(1) انظر : بداية المجتهد، ج2، ص. 241؛ وانظر ترجمته في المدارك، ج8، ص.127؛ وانظر : حكام النظر، ص. 222.

(6829/1)

... * ومنهم الباجي، الوليد سليمان بن خلف المتوفى 474 ه القاضي العلامة صاحب التصانيف(1) ، ورافع راية المالكية في وجه ظاهرية ابن حزم، وله كتب كثيرة ومنها المنتقى في شرح الموطأ، وغيره. وكان لكتبه استمرار وحضور، واقتبس منها الحافظ ابت القطان في إحكان النظر(2) ووصفه بأنه أحد أشياخ المذهب المالكيين، ونقل ابن خير في فهرسته رواية عن الباجي في عديد من كتبه بلغت اثني عشر كتابا(3)

---

(1) ترجمته في : عياض، ترتيب المدارك، ج8، ص. 117، فقد بسط ترجمته وذكر مصنفاته.

(2) انظر : إحكام النظر، ص. 143، 222.

(3) انظر : ص. 552.

(6830/1)

... * ومنهم الإمام اللخمي، أبو الحسن علي بن محمد الربعي المتوفى بصفاقس سنة 478 ه هو شيخ الإمام المازري، ورئيس فقهاء إفريقية كان متفننا في علوم الأدب والحديث،والفقه، وحسن الفهم جيد النظر، له التعليق على المدونة المشتور باسم التبصير. وله اختيارات خرجت عم قواعد مذهب مالك، وضرب به المثل حتى قيل :

لقد هتكت قلبي سهام جفونها

كما هتك اللخمي مذهب مالك

... ومع هذا فهو أحد الأئمة الأربعة المالكية المعتمدة ترجيحهم عند خليل ابن إسحق في مختصره المشهور .وكانت كتبه حاصرة في العهد الموحدي، واقتبس منها الحافظ

(6831/1)

ابن القطان(1) .

... * ومنهم إمام المالكية في عصره بلا منازع أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد المتوفى 520 ه صاحب البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل، شرح فيه المستخرجة من أسمعة مالك للعتبي، ووجه أقوالها، ومهد بين يدي هذا الكتاب الموسوعة وبين يدي كتاب المدونة للإمام سحنون بالمقدمات الممهدات، لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات الممكنات، لأمهات مسائلها المشكلات والبيان والتحصيل

---

(1) انظر : إحكام النظر، ص. 213؛ وانظر ترجمته في : ترتيب المدارك، ج8، ص. 109.

(6832/1)

جمع فيه ما تفرق من أقوال المالكية وكتبهم، ومحص ذلك أفضل تمحيص.

... وقد وصف ابن رشد الجد بأنه أوحد زمانه في طريقة الفقهاء، وقرب مذهب مالك تقريبا لم يسبق إليه(1) .

... وقد كان لكتب إمام المالكية وهو من رجال الدولة

المرابطية التي قامت على أنقاضها دولة الموحدية، حضور واستمرار، فقد نقل عنها حفيده أبو الوليد بن رشد الفيلسوف كثيرا، ومثله الحافظ ابن القطان في أحكام النظر وغيره (2)

---

(1) انظر : بغية الملتمس، ص. 51، ترجمة رقم 24؛ والصلة، ج2، ص. 576؛ ونفح الطيب، ج5، ص. 346

(2) انظر إحكام النظر عن سبيل المثال، ص. 228، 292، 303، 268، 355، 386، 410 وغيرها.

(6833/1)

وينقل نصوصا من البيان والتحصيل كما هي كما اقتبس من المقدمات الممهدات عدة نصوص مع تسمية الكتاب(1) .

... وقد كان لأمهات كتب المالكية قبل الدولة الموحدية ورجال الفقه حضور أثناء هذا العهد في آرائهم ونصوصهم، فمن ذلك العتبية لمحمد بن أحمد بن عبد العزيز المعروف بالعتبي (ت 255ه) وسمى المستخرجة، وهي التي شرحها ووجهها ابن رشد الجد ، واقتبس منها بن القطان وابن رشد (2) .

---

(1) انظر : ص. 144، 322.

(2) انظر إحكام النظر، ص. 122؛ وانظر : ابن رشيد، بداية المجتهد، ج8، ص. 82.

... والمجموعة لابن عبدوس، محمد بن إبراهيم بن بشير (ت 260هـ) الإمام الزاهد الثقة. وقد وصفها الخشني بقوله(1) وألف كتابا شريفا سماه المجموعة على مذهب مالك وأصحابه، وهي نحو خمسين كتابا وقد اقتبس منها الحافظ ابن القطان في إحكام النظر(2) .

... وكانت غير هذه الكتب من أمهات المالكية تذكر وآراؤهم تتداولها حلقات الدرس بدءا من ابن القاسم إلى حبيب الأندلس وكتابه الواضحة وغيرهم، وأشهب، وأصبغ بن الفرج، وبن دينار وعبد الله بن وهب بن كنالة ... وغيرهم .

---

(1) انظر : ترتيب المدارك، ج4، ص. 223.

(2) انظر : ص. 306.

(6835/1)

... وإن تدقيقا وتفحصا في تطور المذهب المالكي ومصنفاته يؤكد لنا أن هؤلاء هم بناة المذهب فما كان العهد الموحدي عهد خمول للمذهب المالكي كما هو شائع، بل عهد تجديد وتمحيص ودعم بالأدلة والحجج ببعث أمهات كتبه وإحياء مصنفات روادة، وقد أكدنا ذلك في بحث آخر لنا يتمم هذا البحث(1) ، ولهذا نستطيع القول

بأن الفقه المالكي قد جدد شبابه خلال العهد الموحدي .

---

(1) تحت عنوان المذهبية في فكر أبي الوليد بن رشد، ضمن ندوة ابن رشد في حاضرة مراكش، سنة 1997.

(1/6836)

... وإذا كان للفقه المالكي رسوخ في المجتمع المغربي والأندلسي قبل العهد الموحدي وأثناءه، فإن المذهب الشافعي كان له حضور أثناء العهد الموحدي ولكتبه سوق نافقة، وسأذكر طائفة الأئمة الذين وقع الاقتباس من كتبهم؛

... * فمنهم الإمام محمد بن إدريس الشافعي صاحب المذهب المتوفى 204 ه، وكان عديد من كتبه حاضرا واقتبس ابن القطان في كتابه الإقناع من كتابيه الرسالة، واختلاف الحديث نصوصا عديدة(1) .

---

(1) انظر : الإقناع، الأرقام التالية : 182، 256، 508، 537/ 758.

(1/6837)

... * ومنهم محمد بن نصر المروزي شيخ الإسلام المتوفى 294 ه، وهو أحد أئمة الدنيا ممن جمع وصنف في فنون العلم، وبرع في الحديث وفقهه، واختلاف العلماء والأحكام، وله كتب جليلة مطبوعة، منها : اختلاف العلماء، وقد اقتبس الحافظ لبن القطان نصوصا كثيرة في كتاب الإقناع(1) .

... * ومنهم الإمام محمد بن المنذر النيسابوري شيخ الحرم المتوفي 318ه صاحب المصنفات التي يحتاجها الموافق والمخالف، كالإشراف على كذاهب العلماء، والإجماع، والأوسط، والتفسير وغيرهاو من كتابه الإشراف على مذاهب العلماء أكثر

---

(1) انظر منها رقم 384.

(6838/1)

الاقتباس ابن القطان في كتابه الإقناع وإحكام النظر(1) .

... * ومنهم الإمام أحمد بن محمد الأسفيرايني المتوفى 408ه أبو حامد، انتهت إليه في عصره ببغداد رئاسة الدين والدنيا ، قال السبكي : ما جاء بعد أبي العباس بن سريج من اشتهرت كتبه، وكثرت تلاميذته

واتسعت أقواله وبعد عن القرين في زمانه وله كتب منها التعليقة، وهي شرح مختصر المزني، وكتاب في أصول الفقه، ومختصر يسمى : الرونق(2)

---

(1) انظر : إحكام النظر، ص. 145؛ وفي الأقناع كثير جدا من نصوصه.

(2) انظر : الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص. 126؛ وطبقات الشافعية، ج4، ص. 61.

(6839/1)

.وقد اقتبس الحافظ ابن القطان في إحكام النظر كثيرا من الأسفيرايني مما يدل على انتشار كتبه(1) .

... * الإمام الجليل أبو سعيد الإصطخري الحسن ين أحمد القاضي المتوفى 328ه قال الخطيب البغدادي أحد الأئمة المذكورين، ومن شيوخ الشافعيين،ولي قضاء قم، وحسبهة بغداد، وله آراء ومواقف فقهية، ومن أصحاب الوجوه في المذهب الشافعي قال الشيرازي : صنف كتابا حسنا في أدب القضاء وقد اقتبس منه الحافظ ابن القطان في إحكام النظر(2)

---

(1) انظر : إحكام النظر، ص. 381، 386، 393، 205.

(2) انظر : إحكام النظر، ص. 380؛ وانظر ترجمة في : تاريخ بغداد، ج 7، ص. 268؛ وطبقات الشافعية الكبرى، ج 3، ص.230؛ والشيرازي، طبقات الفقهاء، ص. 111.

(6840/1)

.

... * زمنهم الإمام الزاهد شيخ الخراسانيين عبد الله بن أحمد بن عبد الله يعرف بالفقال الصغير المروزي (ت 417ه) قال السبكي : ليس هو بالقفال الكبير، هذا أكثر ذكرا في الكتب، أي كتب الفقه، ولا يذكر غالبا إلا مطلقا، وذاك أطلق فيه بالشاشي، وكان من أعظم محاسن الدنيا، إماما كبيرا وبحرا عميقا، غواصا على المعاني الدقيقة، نقي القريحة، وثاقب الفهم، عظيم المحل كبير الشأن ... له في فقه الشافعي وغيره من الآثار ما ليس لغيره من أهل عصره(1) وقد اقتبس منه الحافظ ابن

---

(1) انظر : طبقات الشافعية الكبرى، ج 5، ص. 53.

(6841/1)

القطان(1) .

... * ومنهم الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي المتوفى 505ه الذي طبقت شهرته الآفاق وملأت القماطر في ضروب العلم وفنون المعرفة. أما في جانب الفقه والأصول، وكان شافعي المذهب، فله فيها الباع الطولي، والقدم الراسخة وكتاباه المستصفى، والمنخول في الأصول عمدة في هذا العلم، أما كتبه الفقهية فمنها الوجيز وهو عمدة في المذهب الشافعي وصفه أبو القاسم الرافعي بقوله : غزير الفوائد، جم العوائد، وله القدم المعلى والحظ الأوفى من استيفاء أقسام الحسن والكمال، واستحقاق صرف

---

(1) انظر : إحكام النظر، ص. 231.

الهمة إليه، والاعتناء بالأكباب عليه والإقبال ، وله كذلك في الفقه: الوسيط ،والبسيط، والخلاصة.

... ومن كتب الفائقة إحياء علوم الدين، وكان له شأن في الغرب الإسلامي في دولة المرابطين ونظرا لأن الغزالي كان شيخ المهدي بن تومرت إمام الدولة الموحدية فقد كان لكتبه انتشار وحضور في العهد الموحدي، مع ما لها من قوة وريادة في ذاتها، وقد وقع الاقتباس من كتبه

الفقهية كثيرا كما في أحكام النظر لابن القطان(1)

---

(1) انظر عن سبيل المثال في الاقتباس : إحكام النظر، ص. 185، 231، 233، 279، 290، 321، وغيرها؛ وانظر ترجمة مطولة مفصلة للإمام الغزالي في : السبكي، طبقات الشافعية، ج6، ص. 191 وما بعدها.

(6843/1)

.

... وهؤلاء الأعلام من المذهب الشافعي، وكتبهم الفائقة تعطي خلاصة المذهب الشافعي وأدلته ونظرته للقضايا والأحكام .

... أما الفقه الحنفي وأعلامه، فقد ثبت عندي أن عددا منهم كان لهم حضورفي العهد الموحدي ولكتبهم مجال واسع في الحركة الفقهية الموحدية لما لكتبهم وآثارهم من مكانة وقوة فمنهم :

... * ناصر المذهب الحنفي بالحجة والدليل، وناشره بالبيان والتأصيل الإمام الحافظ الحجة أبو الطحاوي المتوفى 321ه ، وكتب هذا الإمام زينة المذهب الحنفي وركيزته ، وهي كثيرة وعديدة، أقبل عليها علماء المذاهب كلها من عصر

(6844/1)

مؤلفها إلى يومنا هذا ، ومنها : مشكل الآثار واقد اختصره عدد من المالكية المغاربة، ومنهم أبوالوليد بن رشد الجد المتقدم ذكره ،واختصاره مشهور، وله بقية في المكتبات حري أن يبحث عنها، وتنشر، ومنهم الإمام أبو الوليد الباجي المتوفى 474ه المتقدم ذكره، وله بقية في المتحف البريطاني. ومن كتب الإمام الطحاوي، كتابه العجيب : شرح معاني الآثار، وهو مطبوع.

... وله اختلاف العلماء، ويقع في نحو مائة وثلاثين جزءا حديثيا أي في نحو ألفين ومائتين وثمانين ورقة، ويذكر فيه المسألة الفقهية، وأقوال الأئمة الأربعة وأصحابهم،

(6845/1)

والإمام النخعي، والبتي، والأوزاغي، والثوري، والليث بن سعد، وابن شبرمة، وابن أبي ليلى والحسن بن حي، وغيرهم من الأقدمين الذين صعب علينا اليوم الاطلاع على آرائهم في المسائل الفقهية، وقد اختصره غير واحد، وله كذلك بقية حري بالباحثين أن يبحثوا عنها. وله كذلك

أحكام القرآن، وقال القاضي عياض : للطحاوي في تفسير القرآن ألف ورقة ، وهو الأحكام.

... وله المختصر في الفقه كمختصر خاله الإمام المزني، وهو مطبوع متداول وعليه شروح كثيرة . وله كتب أخرى جليلة في الفقه والحديث والعقيدة، ومنها عقيدته التي تداولها

(1/6846)

المسلمون شرقا وغربا وأجمعوا عليها.

... ونظرا لأن كتب الطحاوي تنافح عن المذهب الحنفي بالأدالة والأصول فقد حظيت بالمكانة والتداول والاعتبار في العصر الموحدي، واقتبس منها الحافظ ابن قطان كثيرا(1) .

... * ومنهم : الإمام القدوري أبو الحسين أحمد بن محمد المتوفى 428ه نسبته إلى بيع القدور أو صنعها(2)

---

(1) انظر الاقناع ، الفقرة : 420، 458، 507، 511، 415، 649ومواطن أخرى كثيرة وترجنته مشهورة انظر : الكنوي، الفوائد النهية في تراجم الحنفية، ص. 31؛ والشيرازي، طبقات الفقرة، ص. 142.

(2) انظر ترجمة في : تاريخ بغداد، ج 4، ص. 377؛
والفوائد البهية في تراجم الحنفية، ص. 30.

(6847/1)

، وهو من شيوخ الخطيب البغدادي ، قال عنه : كتبت عنه وكان صدوقا، وانتهت إليه بالعراق رئاسة الحنفية وعظم وارتفع جاهه ...ومصنفاته في المذهب الحنفي جليلة معتمدة وعلى رأسها المختصر الذي أصبح اسم (الكتاب) علما عليه عند الفقهاء الحنفية، كما أصبح اسم الكتاب عند النحويين علما على كتاب سيبويه وله من الكتب التجريد في سبعه أسفار يشمل على الخلاف بين الشافعي وأبي حنيفة وله التقريب الأول والتقريب الثاني، وقد اقتبس منه الحافظ ابن القطان كثيرا مؤكدا على أنه يأخذ نصه(1)

---

(1) انظر : إحكام النظر، ص. 287، 303، 313، 322، 355، 381، 448 وغيرها في مواضع كثيرة.

(6848/1)

.

... أما أعلام الحنابلة في الفقه، فلم أجد لهم ذكرا سوى ما كان في جانب الحديث والتصنيف فيه، ولم أعثر على كتاب فقهي مبسوطا كان أو مختصرا ينسب للحنابلة، وذلك راجع والله أعلم إلى أن الفقه الحنبلي لم ينتشر ويتقعد وتمم مؤلفاته إلا مع المقادسة في نهاية القرن الخامس الهجري .

... وأما أئمة الظاهرية وكتبهم فقد كان لها رواج في الدولة الموحدية، ووجدنا نصوصا نادرة ولها شأن كبير مما يدل على غضمة المؤلفات التي أخذت منها، وجلالة مؤلفيها وقد وجدت الحافظ ابن القطان ينقل مسائل الظاهرية من كتبهم، ويفتش عن آرائهم

(1/6849)

من مصادرهم فمن ذلك قوله : وما يحكي عن داود من إباحة النظر إلى الفرج، لم أره عنه في كتب أصحابه ...(1) . ومن أعلام الظاهرية الذين تردد صداهم في حقبة الموحدين في المغرب الإسلامي:

... * محمد ابن داود بن علي بن خلف الظاهري المتوفى 274ه وعمره إثنتان وأربعون سنة وأبوه مؤسس المذهب الظاهري، وكان محمد هذا فقيها كبيرا، وأديبا

مناظرا، يناظر أبا العباس بن سريج الشافعي، أمثاله من الكبار، وكان يضرب به المثل في ذكائه، وكان ذا بصر تام بالحديث، وأقوال الصحابة، وكان يجتهد ولا يقلد

---

(1) إحكام النظر، ص. 392، 393.

(6850/1)

أحدا، وأثنى عليه الأئمة في دينه، وورعه وعلمه، وله مؤلفات جليلة منها : الإعذار، والإنذار، والتقصي في الفقه، والإيجاز والانتصار من محمد بن جرير الطبري ، والوصول إلى معرفة الأصول، واختلاف مصاحف الصحابة، وغير ذلك

... وقد نقل الحافظ ابن القطان في كتابه الإقناع نصوصا كثيرة من كتابه الإيجاز(1) ، وهذا الكتاب أي الإيجاز لم يتممه محمد بن داود، وتممه من بعده يوسف بن عمر المتوفى 356 ه وكان مالكيا ثم

---

(1) انظر الفقرات، 226، 638، 737، 808، 825، وغيرها وانظر ترجمته في : الشيرازي طبقات الفقهاء، ص. 175، 176.

انتقل إلى مذهب أهل الظاهر، ولم نسمع بأثر لهذا الكتاب اليوم.

... * منهم أبو الحسن عبد الله بن أحمد بن المفسر المتوفى 324 تلميذ أبي بكر محمد بن داود، وكان إماما في مذهب أهل الظاهر وعنه انتشر في البلاد وله فيه كتاب جليل كما يقول الشرازي أبو إسحاق، يعرف بالموضح على شاكلة كتاب المزني(1) وقد شرحه قاضي القضاة أبو سعيد بشر بن حسين، وقال الذهبي : وله من التصانيف : أحكام القرآن، والمبهج، والدافع في الرد على من خالفه وغير ذلك(2)

_____

(1) انظر : الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص. 177.

(2) انظر : سير أعلام النبلاء، ج 17، ص. 77

.

... ولجلالة كتابه الموضح، فقد اختصره أبو محمد بن حزم في مجلد(1) وقد اقتبس الحافظ بن القطان في كتابه

الإقناع من هذا الكتاب كثيرا(2) .

... * ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد بن صالح المنصوري القاضي، قال ابن النديم في الفهرست : من أفاضل الداوديين، وله كتب جليلة حسنة كبار منها : المصباح، كبير، وكتاب الهادي، وكتاب النير(3)

---

(1) انظر : سير النبلاء، ج18، ص. 194.

(2) انظر الفقرات : 679، 719، 246، 303، 340، 349، 679، 719 وغيرها كثير.

(3) انظر الفهرست، ص. 273؛ وانزر ترجمته في الشيرازي، طبقات الفقهاء، ص. 178؛ واللباب في تهذيب الأنساب، ج3، ص.263.

(6853/1)

ووصفه الشرازي بأنه صاحب كتاب النير، وسمع من الأثرم وهم من شيوخ الحاكم النيسابوري كما يقول السمعاني .

... ومن كتابه النير اقتبس ابن القطان كثيرا في كتابه الإقناع(1) .

... * ومنهم حامل راية هذا المذهب وجامع أشتات كتبه وأفكاره، ومجدده بعد مؤسسه أبو محمد علي بن أحمد

بن حزم الأندلسي المتوفي 465ه وكان لكتبه حضور من عصره واستمر وعلا في العهد الموحدي، ومنها : مراتب الإجماع، والمحلي، وإحكام الأحكام وغيرها، وقد اعتمدها الموافق والمخالف، فقد كان أبو محمد

---

(1) انظر : الفقرات : 263، 284، 351، 643، 813، 242.

(6854/1)

في نقله لمذاهب الفقهاء أمينا دقيقا، وفي اجتهاده يعلوا تارة ويهبط أخرى لكنه مدافع عنيد عن السنة خاصة والنصوص عامة، يرفض القياس، ويحارب التعصب المذهبي ، وقد اقتبس الحافظ ابن القطان كثيرا من كتبه، وكذلك أبو الوليد بن رشد في بداية المجتهد نقل نصوصا كثيرة منها(1) .

... لقد كانت جميع هذه الكتب والمصنفات بتعدد مذهبيتها، واختلاف مشارب مؤلفيها محل استمداد واستلهام في العصر الموحدي، مما يؤكد لنا أن البحث عن الدليل الصحيح، والقول الرجيح كان غاية مقصودة،

---

(1) انظر ترجمة مطولة له في : سير النبلاء، ج 18، ص. 184.

(6855/1)

وخطة منشودة مما جعل الفكر الفقهي في المغرب يدخل مشاركا بنوع من التجديد، وبروز أئمة مجتهدين يحظون بالتقدير والإحترام، لأن توجه الدولة يسير في ضد الاتجاه، قال ابن خلكان في وصف يعقوب المنصور بعد أن أثنى وأطرى : وأمر برفض فرع الفقه، وأن العلماء لايفتون إلا بالكتاب والسنة النبوية، ولايقلدون أحدا بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من القرآن والحديث والإجماع والقياس، ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا، وهم على ذلك الطريق، كأبي الخطاب بن دحية، وأخيه أبي عمر، ومحي

(6856/1)

الدين بن عربي وغيرهم(1) .

... ولو راى ابن خلكان مؤلفات الحافظ ابن القطان وأمثاله لدهش من ذلك واهتبل بها ومنها الكتاب الفقهي الذي اعتمدناه إحكام النظر في أحكام النظر بحاسة البصر.

... وفي هذا العصر بدواعي التجديد الفقهي والازدهار

التشريعي بدأت المشاركات الجادة للمغاربة في علم أصول الفقه الذي لابد منه في توجيه حركة الإجتهاد، واستمر مزدهرا خلال القرن السادس والسابع حتى بلغ القمة على يد الشاطبي في القرن الثامن الهجري ، وهذا يحتاج لتفصيل وبيان .

---

(1) وفيات أبو عيان، ج 7، ص. 11.

(6857/1)

... وخلاصة القول : مما تقدم يتأكد لنا العصر الموحدي كان فترة ازدهار فقهي عظيم خلد أرفع المصنفات وأحيى خطة الاجتهاد الأولى، وترك بصماته الفكرية في تاريخ الفقه الإسلامي على الدوام .

(6858/1)

الهجرات اليمينية إلى المغرب الكبير عربته قبل الإسلام بسبعة عشر قرنا

... ... عبد العزيز بنعبد الله

... ... عضو أكاديمية المملكة المغربية والمجامع

العربية

إن الجزيرة العربية انطلاقا من الربع الخالي اليميني إلى الشام هي منبثق الحضارات السامية التي كيفت أقاليم الهلال الخصيب وما وراءه اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ولذلك يمكن القول بأن العرب البائدة الأرامية التي ترجع إلى إرم بن سام بن نوح ومنهم قبائل إبراهيم الخليل هم العرب الأصليون الذين وضعوا لجميع الشعوب السامية لغتهم العربية الأم وقد

(1/6859)

نزحوا حوالي أوائل الألف الثانية قبل الميلاد إلى جنوب العراق واستقروا في المناطق بابل وارتباط الخليل بجزيرة العرب وبالحجاز (أي بيت الله العتيق) لم يرد في القرآن وحده بل أبرزته الكشوف الأثرية واللسانيات المقارنة حول الهجرات السامية.

وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على المصادر الإنجليزية خاصة والعربية عامة. ويرى المؤرخون العرب أن الأراميين من أصل واحد مع العرب البائدة أو العرب العاربة ويؤكد ذلك ما ورد من أن الملك الأشوري أسرحدون (668–625

ق.م.) يشير في كتاباته إلى أن حزائيل ملك العريبي أي العرب جاء

(6860/1)

خاضعا إلى نينوي(1) وحزائل اسم أرامي وقد ذكر الدكتور هوميل أن الأراميين والعرب من عنصر واحد(2).

وبخصوص اللغة الكنعانية (الفينيقية) ذكر ابن خلدون ج 1 , ص. 58 ط مصر 1936) أن إبراهيم الخليل عليه السلام تزوج بعد سارة بقنطورة بنت يقطان الكنغانية فولدت له ستة

---

(1) Rogers, Cuneiform Parallels ..., p. 353

(2) كتاب التقاليد العربية القديمة، F. Hommel, The Ancien Hebrew Tradition, p. 202 ولاحظ كروهمان أيضا في بحثه عن تاريخ العرب أن الأراميين هم أسلاف العرب (دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة الجديدة، ص. 524).

(6861/1)

أولاد منهم يقشان الذي من نسله جيل البربر وقد انتقل البربر من جنوب فلسطين عن طريق مصر حوالي 1300 ق.م. ثم تتابعت الجاليات التي منها الفراعنة من الاستيطان بمصر حسب يوسف بن عبد البر القرطبي وفي عام 1095 ق.م. أجلى طالوت (وهو شاوول الذي باركه نبي الله صمويل كأول ملك لبني إسرائيل بعد عصر القضاة) الكنعانيين عن فلسطين وأخرج من بقي منهم بها نبي الله داود عام 1055 ق.م. وفي عام 1215 ق.م. انتصر الإسرائيليون على الكنعانيين بفلسطين زأجلوهم فانتقل بعضهم إلى فينيقسة ومنها إلى إفريقية حيث التحقوا بإخوانهم

(6862/1)

الأقدمين عن طريق برزج السوس صحبة مصريين فروا من الاضطرابات السياسية بمصر آنذاك فكونوا الجيل الفينيقي العربي ومنهم فريق كنعاني مر بإيطاليا وصقلية فصحبهم إلى إفريقيا "الإتروسك" (Etrusques) والصقليون ويرى المؤرخون أن سكان الشمال الإفريقي من سلالة الجنس الأبيض هاجروا إلى أوربا وهم حسب ابن خلدون (ج 1، ص. 15) من السلالة الآرية ولعل تأثر الحضارة الإيجية في إفريقيا المتجلية في تقارب اللغة القديمة

والبناء وصناعة الخزف واقتباس زراعة التين والزيتون والكرم وصناعة التعدين والتصوير على الخزف المقتبسة من

(6863/1)

الإيجيين حوالي الألف الثالثة قبل الميلاد كل ذلك يدل على وحدة الأصل بين البربر والإيجيين المنتسبين إلى شعب أبيض ممتاز ذكي فلهذا قال العلماء بأن الإيجيين أصلهم من شمال إفريقيا وإليهم يرجع العنصر الأشقر اليوم في المغرب الكبير وهناك من يقول بأن قدماء المصريين هم من سلالة المغاربة ويقول بروكلمان بأن اليهود علموا على إقصاء الكنغانيين عن جدول بني سام وإلحاقهم بجدول بني حام الذي كان بزعمهم عاقا لوالده ويعم دوبرا (Duprat) أن البربر آريون هاجروا من نواحي الكنج بالهند.

(6864/1)

وقد تغلغلت اللغة الآرامية فيما بين النهرين وفارس ووادي النيل وآسيا الصغرى

وشمال جزيرة العرب حتى الحجاز وبقيت اللغة الرسمية
طوال قرون قبل الميلاد في بابل
وآشور وفارس ومصر والشام وبها كتب الإنجيل على
الأرجح وقد قامت الآرامية محل
الكنعانية وظلت اللغة السائدة في القرن السابع ق.م.
حيث أخذت العربية تحل
محلها وعزز الأستاذ دايرنجر(1) هذه النظرية مؤكدا
سيادة اللغة الآرامية من مصر إلى آسيا الصغرى إلى الهند
وقد أبرز كروهمان علاقة الأراميين وقبائل "العبيرو"
بالعرب

---

(1) D. Diringer, The Alphabet, 1943, p. 253

(1/6865)

قائلا :

ومن المؤكد أن العنصر البدوي في شبه جزيرة العرب هو
على الأرجح مصطلح مرادف مع تسمية آرام وعبيرو
وخبيرو وجد في الأصل في المنطقة التي تمتد بين
سورية وبلاد ما بين النهرين والتي تعد أقدم مركز
للساميين(1) .
وكانت القبائل العربية التي نزحت من الجزيرة العربية

تتكلم كلها لغة واحدة هي العربية الأصلية التي تفرعت إلى لهجات احتفظت بخصائصها وسميت باللهجات أو اللغات السامية تمييزا لها عن اللغات الآرية والطورانية ومن مميزات اللغة

---

(1) Grohmann, « The Arabs », The Encyclopedia of ISLAM, New Ed, p. 525

(1/6866)

السامية أصولها الثلاثية الأحرف واشتقاقها الناتج عن مجرد تغيير الحركات.

ولم يعد هنالك ريب بعد الحفريات والكشوف الأثرية أن عنصر إبراهيم الخليل وهو بداية الألاف الرابعة قبل العصر الحاضر (القرن التاسع عشر قبل الميلاد) هو عصر عربي لغتة هي السامية العربية الأم فقد انبثق الجفاف الشديد الذي اكتسح شبه جزيرة العرب عن سلسة من الهجرات نقلت الكنعانيين والفنيقيين والعمورين العمالقة منذ أزيد من ألف عام قبل عصر الخليل وقد لخص الدكتور أحمد سوسة(1)

---

(1) وفي كتابه العرب واليهود في التاريخ (طبعة وزارة الإعلام العراقية، 1972)

(6867/1)

هذه المعطيات مبرزا تفرعات اللغة السامية العربية الأم إلى لهجات قسمها السنيون إلى مجموعات هي السامية الغربية بعناصرها الكنغانية والفينيقية والمؤابية والعبرانية والسامية الغربية الشمالية (العمورية والأرامية) والسامية الشرقية (الأكدية البابلية والأشورية) وأخيرا لهجات جنوبي الجزيرة العربية وهي المعينية والسيئة والأثيوبية والعربية والأمهرية والذي يدل دلالة واضحة في نظر الكثير من خبراء اللغة واللسانيات على أن العربية هي اللغة الأصلية أي لغة بدو الجزيرة العربية مازالت إلى الآن أقرب كل اللهجات

(6868/1)

المذكورة إلى اللغة السامية الأم.

وتعتبر هجرة الأكديين نحو الفرات في العراق أقدم هجرة من هجرات الساميين العرب الذين انتقلوا من الجزيرة العربية إلى ضفاف الفرات وقد نزحت جماعات أخرى من جزيرة العرب إلى وادي النيل في حدود الألف

الرابعة قبل الميلاد ويقال بأنها حملت معها حضارة أرقى من حضارة مصر وهي التي جاءت بفن التحنيط والكتابة الهروغليفية(1) التي يكون أصلها أيضا عربيا مثل الكتابة الكنعانية وعمموا لغتهم مطبوعة بالطابع العربي كما يتجلى ذلك من

---

(1) الدكتور محمد عزة دروزة، تاريخ الجنس العربي، ج. 1، ص. 26.

(6869/1)

النقوش المصرية القديمة(1) منها صورة ملونة لأسرة عربية مهاجرة من جزيرة العرب والعموريون العمالقة هم الذين أسسوا الإنبراطورية البابلية القديمة (وهي ثاني إمبراطورية سامية وقبلها الأكدية) بعد أن نزحوا من جزيرة العرب منتشرين في الشام ومن بينهم ملوكهم 42 سنة بين 1792، 1750 ق.م. وهو صاحب التشريع المشهور الذي يقال بأنه وضع أصالة باللغة العربية.

---

(1) تاريخ مصر لبريستد؛ والحضارة المصرية لغوستاف لوبون؛ وتاريخ المدينة المصرية لغوستاف بيكي إلخ.

(6870/1)

وأقام الأشوريون ثاني إمبراطورية سامية حيث اتجه الكنغانيون والعموريون والأراميون والأكديون والهكسوس والأدريون نحو الشام والعراق ومصر مستهدفا بعضهم الفرات واتجهت إلى دجلة قبائل أخرى حوالي أواخر الألف الرابعة أو أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد شمالي العراق على يمين دجلة فأسست مدينة أشور وهي عاصمة إمارة صغيرة على نسق المدن المدن الأكدية جنوبي العراق وقد تكلم الأشوريون بلغة سامية قريبة من لغة الأكدين جنوبا وكتبوا بالخط المسماري (Cuneiforme) لغتهم الأشورية وينتهي حكم أشور القديمة في نهاية مملكة بابل

(6871/1)

القديمة عام 1595 ق.م. وامتد العهد الأشوري الوسيط من 1595 إلى 911 ق.م. والعهد الحديث من 911 إلى 612 ق.م. (تكونت خلال هذه الفترة إمبراطورية سامية ضمت مجموع الشرق الأوسط ومن ضمنه آسيا الصغرى وسواحل إيجة ومصر والخليج العربي وعيلام وقد سقطت نينوي عام 612 ق.م. وقد اهتم الأشوريون بالفنون الجميلة

والأدب وتركوا في خزانة الكتب أواح الطين التي أنشأها الملك أشور بانيال (669–626 ق.م.) الذي أخضع مصر كلها لحكمه، وقد عثر على نحو 25 ألف رقيم حضاري في الحفائر حفظت في المتحف البريطاني.

(6872/1)

أما الكلدانيون (الأراميون) فيرجع أصلهم إلى شواطئ الخليج العربي جنوبي العراق وقد أسسوا رابع إمبراطورية سامية دامت 73 سنة بعد سقوط نينوى وسميت سلالة بابل الحادية عشرة وكان له مضلغ في تقوية علم الفلك وهم أول من جزأ الواحد الصحيح إلى ستين وقسموا اليوم إلى 24 ساعة والساعة إلى ستين دقيقة والدقيقة إلى ستين ثانية ووضعوا أول التقاويم الفلكية العالمية وعنهم أخذ فيثاغورس كما برعوا في فن التطريز ورسم الصور عليه.

(6873/1)

وأعظم ملوكهم بنو ختنصر (605–562 ق.م.) الذي قضى على مملكة يهودا وسبى اليهود إلى بابل وفي هذا العصر

بالذات بدأ التأثير العربي على بابل وما وراءها(1) .

والكنعانيون العرب هو مخترعو الحروف الهجائية الألفبائية وعنهم نقلها الفينيقيون ثم اقتبسها من هؤلاء منذ منتصف القرن الميلادي الإغريقيون واللاتين وكتابات اللهجة الكنعانية القديمة هي حلقة الوصل بين الهيروغليفية (المكونة من خمسمائة صورة تكتب من الجهات الأربع) وبين

---

(1) راجع بحثنا "الفكر الصوفي وأصوله" في العدد الثالث من اللسان العربي (1385 هـ / 1965 م)

(6874/1)

المسمارية والأبجدية السينائية وهي التي تفرعت عنها أبجديات منها الفينيقية والقرطاجية والبونية والليبية والأرامية والنبطية والعبرية ويندرج الشمال الإفريقي في هذه المجموعة العربية لأن اللغنة البونية (Langue Punique) هي اللهجة الدارجة إلى اليوم في المغرب العربي وقد عثر على رخامة في البرازيل تحمل تاريخ 125 ق.م. أشار إليها الدكتور البرازيلي إديلونيتو وضمنها كتابه "الأنطروبولوجية"(1)

---

(1) أشار إليها الأستاذ توفيق المدين في مجلة تقويم المنصور (العدد الثالث عام 1348 هـ) راجع بحثنا في مجلة اللسان العربي،

عدد 3، 1384 هـ / 1965 م.

(1/6875)

وهي مكتوبة باللغة البونية التي قورنت مع ترجمتها العربية فلوحظ أنها لا تختلف عن لهجة تونس خاصة ودارجة إفريقيا الشمالية عامة وعندما دخل الموسويون أرض كنعان وجدوا قبيلة كنعانية يتزعمها نبي كنعاني يدعى بلعام ينشر فكرة التوحيد ويتمتع بمكانة روحية سامية(1) .

وقد ألف مارينوس الصوري (Marinus of Tyre) كتابا في الجغرافيا ووضع

خارطة للعالم عام 120 للميلاد كانت تستند إلى معلومات جغرافية فينيقية ويرى

---

(1) الأصحاح، ص. 22

(1/6876)

رولنسون(1) لأنه كان أول كاتب في الجغرافيا اتخذ الطريقة العلمية الرياضية في صنع الخرائط المستندة إلى خطوط الطول والعرض وعليه ارتكز بطليموس.

وكان القرطاجيون مثل الفينيقيين يتسمون بالكنعانيين(2) .

وآخر من هاجر من الجزيرة العربية الأنباط وهم قبائل بدوية انتشرت منذ القرن السادس قبل الميلاد شرقي مملكة الأردن الحالية واقتبسوا من الآراميين ثقافتهم وتأثروا بلغتهم حتى غلبت الأرامية عليهم ولهجتهم هي التي تطورت منها لغة القرآن

---

(1) Rawlinson, Phoenicia, pp. 404, 548

(2) Univ. Jewih, Encyclopedia, vol. 2, p. 651

(1/6877)

كما أن خطهم هو خط كتبة الوحي وهو القلم النبطي المقتبس من القلم الأرامي القديم.

وهكذا يمكن القول بأن الساميين عرب ولغتهم التي هي اللغة الأم اللغة العربية والنصوص كلها مجمعة على هذه الحقيقة، أما العبرية فهي لهجة سامية متأخرة.

وقد تأكد من جهة أخرى أن اليهود هم بقايا يهودا الذين نقلهم نبوختنصر إلى بابل قبل الميلاد بستة قرون وقد تكلم الموسوريون في الأصول الهيروغليفية التي دونت بها شريعة موسى ووصاياه العشر لأنها كانت لغة بلاط فرعون حيث تربى موسى ولم يعثر لحد الآن على أي أثر لهذه الشريعة الموسوية

(6878/1)

الأصلية لأن التوراة المتداولة اليوم ليست سوى ترجمة عبرية مشوهة مقتبسة من الآرامية يرجع تاريخ هذه التوراة اليهودية التي لا علاقة لها بتوراة موسى إلى عهد الأسر البابلي بعد ظهور موسى بثمانمائة سنة على أن يونس أرسل إلى مائة ألف أو يزيدون من أهل نينوى في القرن التاسع قبل الميلاد فكان ذلك انطلاقة أولى للموسوية في أرض الأشوريين.

ويرى العالم اليهودي يسلفر(1)

---

(1) A. H. Silver, Moses and the original Torath 1961N.V, وقد أشار الدكتور أحمد سوسة أيضا إلى مرجع آخر هو الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية، 1969، ص. 8

(6879/1)

في كتابه "موسى والتوراة الأصلية" أن التوراة الحالية لا تمثل توراة موسى وحتى الوصايا العشر التي يكاد يجمع العلماء أنها الشيء الوحيد المتبقى من التوراة الأصلية لم يكن بكاملها وعلى هيئتها الحالية كالتي أتى بها موسى.

وظاهرة التشويه في هذه التوراة المزيفة اشتمالها على شرائع وتقاليد وطقوس دينية مقتبسة من الشرائع الكنعانية والبابلية وهاصة شريعة حمورابي كما أبرز ذلك البروفسور (ووتر من) استنادا إلى تحقيقات أركيولوجية على أن مزامير داود نفسها مشوهة وكذلك كل ما ورد في العهد القديم لغلبة الطابع الكنعاني

(6880/1)

العربي عليه حتى من حيث اللغة إذ لم تترجم إلى العبرية مدرجة في التوراة إلا في عصور لاحقة فاللغة العبرية لم تكن إذن من أصول اللهجات السامية بل ليست هي نفسها سوى اقتباس من الأرامية حفظت لنا كثيرا من

مظاهر الحضارة الكنعانية العربية.

وقد أكد الكاتب الفرنسي جان لوي برنار (J. L. Bernard) أن الأحبار عبرنوا كل ما اقتبسوه من تواريخ الأقطار التي جاسوا خلالها ومنها سليمان الذي لم يكن يهوديا وإنما كان أشوريا وهو (شلما نصر) ولو كان سليمان يهوديا لاستحالت – كما يؤكد برنار – الصداقة مع ملكة سبأ العربية بل أكد

(1/6881)

بروكلمن أن هؤلاء اليهود قد تعمدوا لإقصاء الكنعانيين من جدول أنساب سام أي من السلالة السامية.

ويرى بعضهم أن اسم يهوه إله اليهود نفسه هو اسم أحد آلهة البدو الشماليين في جزيرة العرب وكان الكنعالي ملك أورشليم يدين بالتوحيد كما كانت لغة داود وسليمان هي الكنعانية العربية التي اقتبسها الموسويون من بني كنعان بعد كنعان بعد دخولهم أرض فلسطين فكانت هذه المعطيات الكنعانية لغة وحضارة هي قوام التراث العربي وفي ضمنه التوراة الجديدة وقد سمى

(1/6882)

النبي أشعيا في القرن الثامن قبل الميلاد اللغة كلها
وفي ضمنها العبرية شفة كنعان أي لسان
كنعان كما يقول (مندنهول) أستاذ جامعة ميسيسغان
المريكية بنقل الدكتور سوسة
على أن كلمة "عبرى" نفسها ومثلها "عبيرو" أو
"خبيرو" قد وردت في الكتابات القديمة
وكان يراد بالعبريين القبائل البدوية العربية وبذلك
يوجه وصف إبراهيم الخليل في
التوراة بالعبراني ويؤكد هذه الحقيقة ما ورد في دائرة
المعارف البريطانية(1) من أن استعمال كلمة عبري
بمعنى يهودي يرجع إلى الحاخامين بفلسطين في عهد
متأخر على أنه

(1) طبعة 1965، ج 11، ص. 279

(6883/1)

تم العثور على كتابة من عهد (رعمسيس الثاني) وهو
فرعون الذي رقع الخرجون (Exode) في عهده سميت
فيها بقايا الهكسوس بـ "العبريو" والمقصود هنا
القبائل العربية البدوية وهي التسمية التي

عرف بها الهكسوس عند المصريين وإسرائيل نفسها كلمة كنعانية عربية أطلقت على موضع في فلسطين وأشارت إليها في هذا السياق كتابات مصرية قبل بعثة سيدنا إبراهيم وأرض فلسطين الكنعانية العربية هي مهجر لحفدة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم اغتربوا إليها نازحين من حاران أو حران الحالية.

(1/6884)

وكثيرا من التعابير والأسماء التي يظن أنها عبرية الأصل هي في الحقيقة عربية نذكر منها على سبيل المثال فقط تسمية أورشليم (أي القدس) التي وردت في الكتابات لكنعانية أي رسائل العمارنة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد (أي قبل عصر موسى بنحو مائتي سنة) وقبل ظهور العبرية ومودناتها ومنها توراة اليهود (لا توراة موسى) بأزيد من ألف عام وقد ورد ذكرها عبر الشعر الجاهلي في شكل أورشليم كما اعترفت التوراة نفسها في نص صريح بعدم وجود أية صلة بين اليهود وهذه الميدنة(1) .

---

(1) الدكتور أحمد سوسة، مقدمة كتابه المذكور

(1/6885)

و"موسى" اسم مصري قديم لا صلة له بالعبرية ولا العبريين وقد ورد ذلك بخصوص أحد فراعنة مصر باسم "آح – موسى" وهو مؤسس السلالة الثانية عشرة (1580–1546 ق.م.) كما أن الكاهن الأعلى لمدينة (ممفيس) عاصمة مصر المشهورة في عهد (تحوطمس الثالث) (1479–1447 ق.م.) كان يدعى "بتاح موسى"(1) .

وننشر فيما يلي بعض النصوص التي تشهد بعروبة الساميين :

---

(1) أودلف أرمان، ديانة مصر القديمة، الترجمة العربية، ص. 29–314، عن كتاب العرب واليهود في التاريخ "المقدمة".

(6886/1)

فقد أكد سبرنجر (Sprenger) أن جميع الساميين عرب(1) :

وقال الأستاذ أولمستيد في كتابه "تاريخ فلسطين" (ص. 36) : "إن البدو العرب

كانوا أول من تكلم باللغة السامية وإذا أردنا أن نتفهم الخصائص الأصلية لهذه

المجموعة من اللغات السامية على حقيقتها فعلينا أن نتجه إلى العربي ابن البادية السورية الذي يجوب شمال جزيرة العرب لأن هؤلاء وحدهم حافظوا على العادات والتقاليد القديمة دون أن يطرأ عليها أي تغيير" وقد أيده المستشرق عبد الله فيلبي في

---

(1) الدكتور علي حسني الخربوطي، العرب والحضارة، ص. 13

(6887/1)

كتابه "تاريخ العرب قبيل الإسلام" حيث قال : "إن اللغة العربية التي يعترف الخبراء في كونها أقرب من جميع اللغات السامية إلى اللغة الأم الأصلية التي اشتقت منها جميع اللغات هي على أغلب الاحتمالات أقدم لغة في العالم ما زالت حية حتى يومنا هذا".

وقد لاحظ الدكتور جواد علي في كتابه "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام" (ج 1، ص. 255) أن جماعة من المستشرقين ترى أن اللغة العربية على حداثة عهدها بالنسبة إلى اللغات السامية الأخرى هي أنسب اللغات

السامية الباقية للدراسة لأنها لغة لم تختلط كثيرا باللغات الأخرى

(1/6888)

فبقيت في موطنها المعزولة أصفى من غيرها محافظة على خواص السامية القديمة.

وقال (فيلبي) في كتابه "تاريخ العرب قبيل الإسلام" (الإسكندرية، 1947، ص. 9): "إنني أعتبر بلاد العرب الجنوبية (ومن ضمنها اليمن) هي الوطن الأصلي لهذا الجنس من البشر المعروف الآن باسم الساميين وهو يمتاز عن سائر الشعوب بلغته المعروفة باسم العربية" ثم لاحظ أنهم هاجروا بسبب الجفاف الذي ظهرت بوادره بعد العصر الباليوليثي وهو العصر الحجري القديم الذي يبدأ قبل 35 ألف سنة نحة الشمال إلى أطراف الهلال الخصيب. العزيز 2

(1/6889)

وأيد الأستاذ فيلبي خبير أنثروبولوجي آخر هو الدكتور (هنري فيلد) ملاحظا "أن اليمن وعدن كانتا مأهولين

بالسكان في العصر النيولوثي (وهو العصر الحجري الحديث المحدد بين 7000 و 5000 ق.م.) هاجر منهم إلى عمان والخليج وآخر إلى الصومال وكينيا وتنجانيقا وفريق ثالث إلى نجران وسيناء وفلسطين.

وقد لاحظ الرحالة الألماني (شوينفرت) أن القمح والشعير والجاموس والمعز والضأن والماشية وجدت في حالتها لابدة في اليمن وبلاد العرب القديمة قبل أن تستأنس في مصر والعراق(1)

---

(1) العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوروبية، القاهرة، 1960، ص. 11.

.

وقد انطلق الإنسان الأول من اليمن لينتقل بعد نحو سبعة آلاف سنة قبل

الميلاد إلى الخليج ومنه إلى الشام في مراحل ثلاث إحداها عبر مصر حيث انتقل من (دلتا

النيل إلى الفيافي الليبية ومنها إلى المغرب الأقصى بعد عبور المغربين الأدنى والأوسط وفي مرحلة أخرى انتقل اليمنيون مع إفريقس الحميري عبر بحر القلزم إلى

الصحراء الإفريقية الكبرى مرورا بالسودان والتشاد وهو ما أنكره ابن خلدون اعتمادا على أن الهجرات الأخرى كانت عن طريق النيل.

(6891/1)

وهذا المسار قد تأكد لدينا بعد اللجوء إلى الدراسات الجيولوجية التي حللت الطرق التي يمكن أن يكون قد قطعها هذا الإنسان الأول وقد تم الكشف عن المناطق التي قطعها وهي تونس والمغرب الشرقي (تافوغالت) ثم ناحية فاس والقبيبات بالرباط وسيدي عبد الرحمن بأنفا (الدارالبيضاء الحالية) وآسفي ولكن العنصر الجيولوجي في هذه الجماجم المستحجرة التي عثر عليها قد تعزز بصنف فلسطيني يؤكد منطلق الإنسان الأول عبر الشام الكبرى ومنها فلسطين على أن أصناف من هذه المستحجرات دخلت إلى إفريقيا الجنوبية آتية من اليمن أيضا عبر المحيط

(6892/1)

الهندي وقد عثر في جنوب إفريقيا على ما يعزز هذه الأطروحة ومعنى ذلك أن الصنهاجية اليمنية ومنها (الزنهاجية والزنجية) قد انتشرت في طول إفريقيا وعرضها لعدم الوجود اليمني في مجموع القارة وهذه الحقيقة تحسم من الأساس فكرة الزنجية التي يدعو إليها بعض الأفارقة ويظهر من كشوف تمت في إفريقيا الجنوبية هذه السنة (1997) أن العنصر الحديث من الإنسان الأول قد عثر على بقاياه في شكل بصمات رجلية في ناحية كاب (Cap) يرجع تاريخه إلى (117.000) سنة حسب تحديد عالمين من إفريقيا الجنوبية(1)

---

(1) انعقد في الثمانينات مؤتمر في داكار بإشراف رئيس الجمهورية آنذاك سنغفور (Senghor) وكان القصد هو إثبات السلالة الزنجية وقد عينت آنذاك لحضور المؤتمر من طرف صاحب الجلالة الحسن الثاني صحبة وزير الشؤون الإسلامية الشيخ المكي الناصري، ففندت هذه النظرية وأوضحت بحجج تاريخية اجتماعية أن الزنجية أصلها الزنهاجية اليمنية.

(6893/1)

.

كان للشام دور كبير في تعريب المغرب الكبير منذ أوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد أي منذ أزيد من ثلاثة آلاف سنة حيث دخل الكنعانيون العرب إلى القسم الشمالي الغربي من القارة الإفريقية وأسسوا عام 1101 قبل الميلاد مدينة Leptis Magne (وهي لمطة الحالية، في ليبيا) ثم عتيقة (Ultique) في تونس أعقبها عام 814 ق.م. تأسيس حضارة قرطاج (Carthage).

وقد فسح الوجود القرطجي (الكنعاني العربي) المجال بعد ذلك لانتشار اللغة البونية (Langue Punique) في آفاق شاسعة من الشمال الإفريقي ضمن مصطلحية شاملة مع العامة

(6894/1)

الدارجة في المنطقة ويتجلى ذلك بصورة واضحة في الرخامة التي كشف عنها الدكتور البرازيلي الأديزلو نيتو وضمنها الجزء الأول من كتابه "الأنطروبولوجية" وهي تحمل تاريخ 125 ق.م.(أي بعد أن استولى الرومان على قرطاج بنحو العشرين سنة) حيث توجد عشرات الألفاظ والتراكيب مفرغة في قالب عربي مع تحريف لا

يخفى حتى على غير الاختصاصيين في فقه اللغة وعلم الاشتقاق(1).

ففي الفقرة الأولى جملة حررت بالبونية هي :

---

(1) راجع مجلة تقويم المنصور، توفيق المدني عام 1343 هـ

(6895/1)

"هنا أحنا بني كنعان فرنم حقرة حمل" يمكن أن تقلبها إلى عامية الشمال الإفريقي وخاصة التونسية فنقول :

"هنا احنا بني كنعان من فرانم حملنا الحقرة" معناها بالفصحى :

(هنا نحن بني كنعان من فرانم تحملنا الإحتقار) ففي هذه الفقرة وحدها سبع كلمات لا يوجد فيها أي دخيل وإنما هو انحراف بسيط عن الفصحى بسبب الاستعمال العامي المتداول على أن البونية قد بدأت تتسرب إلى المغرب الأقصى مواكبة دخول القرطاجنيين الرسمي حوالي 480 ق.م. وأكد القديس غسطين (St. Augustin) أنها ظلت متغلغلة في أنحاء البادية المغربية إلى نهاية

(6896/1)

عهد الواندال أي إلى عهد الفتح الإسلامي في حين اندرست لغة الرومان باندراس معالم الحضارة اللاتينية التي تطورت في نطاق محدود لم يتجاوز مثلثا تمتد حدوده من طنجة إلى وليلي إلى شالة عاشت جاليته الرومانية في قفص مقفل بعيدة عن المحيط البربري الذي كان يلفها وقد اعترف بهذه الظاهرة مؤرخون طالما دعوا إلى "غربية" البربر ولكنهم أدهشوا أمام هذا التجاوب العميق الذي مهد المغاور والأوعار البربرية أمام الفتح الإسلامي بانتشار "لغة قريبة من العربية" فكلمة قرطاج نفسها معناها قرية حداش أي القرية الحديثة صحفت إلى

(6897/1)

قرتاش بتعطيش الجين كما نطق بها الرومان وكذلك حنبعل (Hannibal) أصله حني بعل أي نعمة الله وكان اسم أبيه هاملكار (Hamilcar) أي حامي القرية الذي حارب الرومان في صقلية.

وكانت منطقة الخليج العربي أول ساحة ترعرع فيها

الإنسان الأول الذي عاش حول "خط الاستواء" في الربع الخالي من القارتين الأسيوية والإفريقية ومن هذه المنطقة انطلقت الهجرات (الأشوريين والبابليين والكنعانيين الذين أسسوا ممالك حول (ميزوبوطامي) (Mesopotamie) أو بلاد الرافدين (دجلة والفرات) ثم (آسيا الصغرى) (Asie Mineure) من حيث هاجرت قبيلتان

(6898/1)

هما الآخيون والدوريون لبحر (إيجي) حيث تم تأسيس مملكة الإغريق أو اليونان وقد توثقت هذه المعلومات من طرف علماء غربيين لاحظوا أن الأغارقة كانوا يكتبون من اليمين إلى اليسار وأن حروفهم مقتبسة من الألفبائية العربية وهي B et C Alfa (أي الألف والباء) ويرى بعض هؤلاء المؤرخين أن العرب الكنعانيين وهم الفينيقيون كانوا قد استقروا فترة من الزمن في شواطئ الخليج قبل أن ينتقلوا إلى سواحل الشام وأنهم سموا مدينة "صور" على شاطئ البحر المتوسط تيمنا باسم مدينتهم الأولى بالخليج ولعل الآثار التي تم الكشف عنها في

(6899/1)

المنطقتين تضفي على هذه الرواية سمة من الحقيقة التي أكدها مؤرخون محدثون أمثال (جان كاك بيريبي) في كتابه حول الخليج وبذلك يكون الكنعانيون قد هاجروا من الخليج إلى البحر المتوسط عبر الشام منذ خمسة آلاف سنة كما يقول المؤرخون (رولنسون) وعندما وسع الفينيقيون مراكزهم التجارية على شواطئ البحر المتوسط أسسوا حوالي عام (1100 قبل الميلاد) مدن ليكس (Lixus) (قرب العرائش بالمغرب الأقصى) ولمطة بليبيا (Leptis Magne) (على وزن مكة وبكة) وعتيقة (Utique) ثم قرطاج (Cartage) (قرية حداش أو القرية الحديثة) بتونس ومالقة

(6900/1)

وقادس بالأندلس وهيبو (عنابة) وبنزرت.

وهناك هجرات أخرى من الخليج إلى المغرب عبر فارس أشار إليها سالوست

(Salluste) المتوفى عام 35 قبل الميلاد في كتابه حول (حرب يوغورتا) ملك نوميديا

عام (154 ق.م.) ملاحظا أن الفرس انتقلوا ضمن غاراتهم على (الجزيرة الإيبيرية)
(إسبانيا والبرتغال) في عهد هيراكلس (Herecluis)
575 هـ–641 م) فتجولت أشرعة
مراكبهم بشدة الريح إلى المحيط الأطلنطيقي فوصلوا
إلى جنوب المغرب حيث اتصلوا
بالجيتول (Gétules) (وهم أهل جزولة الحالية على ما
يظهر، فتصاهروا معهم

(6901/1)

وسميت (سوس) (وكذلك كل من مدينتي سوسة
التونسية (التي عرفت بحضرموت)
والليبية) اقتباسا من كلمة سوسيانة (Susiane) (أو
أرض عيلام) الواقعة بمنطقة الأهواز على أن الفرس
اشتهروا قديما بالنوميديين.
وإذا رجعنا إلى الحفريات الجيولوجية لاحظنا أن عناصر
مستحجرة قرب الدار البيضاء هي أقدم ما وجد في الشمال
الإفريقي وقد عثر على عناصر مستحجرة قرب
الدارالبيضاء هي أقدم ما وجد في الشمال الإفريقي مما
يدل على أن الإنسان ظهر في المغرب في عهد سحيق مثله

في أوربا الغربية أي في "عتبة العهد الجيولوجي الرابع".

(6902/1)

كما يدل التوزيع الجغرافي لهذه العناصر على أن المغرب لم يحتله الإنسان الأول ولكن عبره في جميع الجهات منذ أعرق عصور ما قبل التاريخ ففي بعض المناطق كالمنحدر الأطلنطكي ونواحي الشرق بوادي ملوية يلاحظ نوع من الموصولية والاستمرارية في مواقع السكن خلال العثر الرابع في حين أن الأطلسبن الأوسط والأكبر بم يعرفا تسربا بشريا جزئيا أو موسميا إلا ابتداء من العصر الجيولوجي الأعلى وهكذا يمكن القول بأن دراسة أقدم البقايا التي خلفها الإنسان تفتح أمامنا آفاقا جديدة عن ماضي المغرب في سحيق ما قبل التاريخ قد تشمل مئات

(6903/1)

الآلاف من السنين وقد تأكد وجود الإنسان الأول في المغرب عندما تم الكشف في أبواب الرباط (القبيبات)

عن شظايا جمجمية بشرية كما يظهر بقايا إنسان ما قبل التاريخ من نفس الفصيلة أي إنسان (النياندرتال) (Homo Neandertal(Neandertalensis) قد عثر عليها في مغامرة قرب أشقار بإقليم طنجة وتوجد نماذج من ذلك في أمريكا (Peabody museum of American Archaeology and Ethnology - Harvard University, Cambridge, Mass..., USA).

(6904/1)

ويلوح أن المعطيات المستخلصة من "منجم القبيبات" تسمح بتحديد ميقات دقيق نسبيا لإنسان الرباط هو نفس تاريخ إنسان النياندرتال بل إن ما عثر عليه في مناجم فلسطين يرجع لنفس التاريخ وهذا الثالوث المستحجر هو الوحيد الذي وقع الكشف عنه لحد الآن ومناجم فلسطين هذه هي مستحجرات جبل كرمل وجبل كفزه قرب الناصرة فإنسان جبل كفزه شبيه في فكه وحنكه بإنسان الرباط ("هسيريس"، ص. 35 عام 1945). وقد عثر في الصين على قحف أو جمجمة يظهر أنه هو أقدم نموذج لإنسان ما قبل التاريخ وذلك في Kung Wangling

(6905/1)

بإقليم Chensi وهو عبارة عن قحف الرأس بعظم الأنف والجبهة اليمنى وبعض الفك الأعلى وسنين وعمره يقدر بستمائة ألف عام (600.000) حسب حسابات العالم الصيني Wu Yu Kang وهذا هو رابع نموذج لإنسان ما قبل التاريخ عثر عليه بعد ما وجد في جاوا و Cro-Magho, وبيكن (عن وكالة الصين الجديدة – يناير 1965) وكان يظن فيما قبل أن الإنسان الأول عاش في خط الاستواء قبل ثلاثمائة ألف عام ثم عثر في جزر المحيط الهادي على تلك الجماجم البشرية فتأكد بعد تحليلها أن تاريخها يرتفع إلى ستمائة ألف عام ثم عثر مرتين في بلاد التشاد

(6906/1)

وكينيا على جماجم يقال إنها ترجع لمليون بل ملايين السنين. ومهما يكن فإن الإنسان ربما عاش في الصحراء الإفريقية كما تؤكد ذلك النماذج التي عثر عليها بشمال المغرب والقبيبات بالرباط وسيدي عبد الرحمن بالدار البيضاء أما جمجمة إنسان النياندرتال

المكتشفة في دوسالدورف بألمانيا عام 1857 وتاريخها 40.000 عام قبل الميلاد فقد صور العلماء عصرا بأسره عنها ساد أوربا منذ 60.000 عام وكان هؤلاء الناس قصاوًا لهم جماجم تزيد على جماجمنا 200 سنتمر مكعب. (26Lull, The Evolution of Man, p.؛ "قصة الحضارة"، ص. 158) (ول

(6907/1)

ديورانت) حيث أكد المؤلف أن جنسا آخر حل بأوربا حول 20.000 عام ق.م. كما تدل الآثار المكشوفة عام 1868 في مغامرة Cro-Magnon بالدور ودني بفرنسا ويقول بعض العلماء بأن هذه الفصيلة جاءت من آسيا الوسطى بإفريقيا والآثار التي وجدت في تونس والجزائر مما يشبه آثار العصر الأورجناسي (Aurignacian) (حول عام 25.000 ق.م.) تدل على أن إفريقيا هي الأصل في الثقافات التي شهدها العصر الحجري القديم.

وقد لاحظ العالم الباكستاني مولانا قوصر نيازي (Causer Niazi) في

(6908/1)

كتابه ""خلق الإنسان" Création of Man (ص. 6) أن العالم (كارلطون) أكد
أن العالم خلق قبل الميلاد بسبعة آلاف سنة وقد ورد ذلك مفصلا في كتاب
"تاريخ الإنسان" (63The History of Man, p.) كما لاحظ ويلز (H. G. Wells)
في كتابه "الخطوط الكبرى للتاريخ" (Oultime of History) أن هذه المدة يمكن
رفعها إلى إثني عشر ألف سنة بل وحتى عشرين ألفا على الأكثر ولم يقل أحد من
العلماء قبل قولة داروين عام 14958 م أن عمر الإنسان سبعمائة ألف سنة وقد فند العالم

(6909/1)

الباكستاني هذه الدعوى بالحجج العلمية في جزء كبير من كتابه مستندا إلى نصوص المؤرخين والفلاسفة والنسابين العرب والمسلمين.
والنشوء والارتقاء مذهب كان معروفا ومنقودا عند العرب قبل داروين فقد قال الخازن : "إن الجهلة حينما يسمعون بتحول بعض الأجسام بطريق التكامل التي ذهب أنه مر بصور الأجسام المعدنية الأخرى أي انه كان

رصاصا قصديرا ... إلى أن صار على الحالة التي هو فيما الآن بالانقلاب السريع بل بالتدريج كأن مر بصورة العجل فالحمار فالفرس فالفرد إلى أن انتهى إنسانا" ("العالم الإسلامي"، شكيب أرسلان، ج 1،

(6910/1)

ث. 1563) ويظهر أن منطقة (أنفا) أقدم جهة في المغرب عرفت حياة الإنسان الأول في القارة الإفريقية بعد امتدادها إلى العدوة الجنوبية من نهر أبي رقراق والقبيبات قرب رباط الفتح (بعضها (قبل 7.000 عام) فقد عثر في المنجم الحجري المعروف بمنجم (سيدي عبد الرحمن) بالقرب من (عين الذياب) بالدار البيضاء على أحفور (Fossile) إنسان مغربي ينتمي لما يعرف عند علماء المستحجرات بالأطلانطروب (Atla,thrope) (وهو الإنسان المستحفر المعثور على بقاياه في (الأطلس) ويرتفع تاريخه – حسب تقديرات العلماء إلى ما بين 30.000 و 100.000

(6911/1)

سنة قبل الميلاد وقد يرتبط بالصنف الأقدم الذي وقع الكشف عنه في أندونيسيا والصين وقد تم ذلك خلال عصر الحجارة المنحوتة أي العصر الحجري الأدنى أو القديم (Paléolitique inférieur) الذي أعقبه العصر الحجري الأوسط حيث ظهر رجل (جبل الرهود) قرب أسفي أو (رجل فاس) الذي عثر على نموذج هيكله الكامل أوائل (عام 1985) يرجع تاريخه إلى نحو الخمسين ألف (50.000) عام وهو معاصر لرجل (النياندرتال) (Néanderthal) وهنا ظهرت في المغرب سلالة قبصية ()(1Capsien)

---

(1) نسبة إلى مدينة (قصبة) التونسية حيث عثر على أول نموذج منه في (المقطع) بالقرب منها.

(6912/1)

وانحدرت من أقصى شرق المغرب الكبير خلال نفس الفترة فبلغت نماذج منها إلى (تيط مليل) وتوقف معظمها في المغرب الشرقي (بتاقوغالت) حيث انضافت إليها فلول من الصحراء الكبرى فارة من جفافها منذ حوالي عشرة آلاف (10.000) عام قبل الميلاد وذلك انتجاعا للماء والمرعى وهذا الثالوث هو الذي أطلق عليه وصف (أمازيغ) أي الأحرار الذين امتلكوا البلاد كمجموعة

خلفت

السكان الأصليين من غير هؤلاء البربر وهي نظرية يقول بها غالب البحاثين لأنها مدعمة بدراسة نقدية مقارنة لجماجم سلالة (اليمن) التي انحدرت إلى (ليبيا) عبر (مصر)

(6913/1)

أعقبها رجال (كنعان) من الفنيقيين الذين أسسوا مدينة ليكسوس (Lixos) قرب العرائش حوالي عام 1001 ق.م. وكذلك عتيقة (Utique) بتونس و (لمطة) (Leptis Magna) على مسافة (60 كلم) من (طرابلس الغرب) وقد أكد هذه النظرية المؤرخ (بوسكي (Bousquet) الذي أورد حججا دامغة تشهد بأن البرابرة لم يكونوا سكان المغرب الأصليين لأن الكتابة الليبيكية البربرية التي عثر عليها في المغارب الأربعة قد وجدت أيضا في مصر وبلاد النوبة وسيناء بالإضافة إلى تشابه هذه الكتابة بكتابات الجزيرة العربية.

(6914/1)

وقد تنتسائل لماذا انتقل الإنسان الأول من (تافوغالت) إلى (فاس) عبر الأطلس دون أن يمر على السهول بينما رأيناه يحاذي المتوسط بين الجزائر والمغرب الشرقي ليعود إلى محاذاة الشواطئ بالرباط إلى منجم سيدي عبد الرحمن بعين الذياب بأنفا إلى جبل الرهود بأسفي والجواب عن ذلك أن السهول كانت مغمورة بالمياه إلى ممر تازة لأن البحر كان يغطي في العصر الأكاديمي (Acadien) مجموع بلاد الهبط ولم تنحسر إلا خلال العصر الكمبري الأعلى وسيدي بوقنادل الواقع على بعد نحو (15 كلم) شمال شرقي الرباط تحتوي مناجمه على حصيات متنوعة

(6915/1)

الحجم يرجع تاريخها إلى العصر الحجري الرابع (Jacques Boucart, « Notice sur un essai de carte géologique du Dictionnaire de la zone Congrés 1931atlantique du Maroc », Paris, 3intern de Géographie, p.).

ومهما يكن فإن الإنسان الأول الإفريقي، استقر وترعرع بمنطقة (أنفا)

في (تيط مليل) واردا من الشرق إلى ما قبل الميلاد ببضعة آلاف من السنين ثم

توالت الهجرات الشرقية اكتمل بها التزواج بين الشقين (المشرق والمغرب)

(6916/1)

بمرور (حانون القرطجي)(1) بخمسة أو ستة قرون بعد الميلاد والماركز الأثرية العتيقة

مازالت تبرز من حين لآخر في المنطقة فقد عثر في منجم حجري بالدارالبيضاء في

العقد الأخير على بقايا أثرية (ربما كانت مركز صيد وقنص) يرتفع تاريخها حسب لجنة

من الخبراء المغاربة والفرنسيين إلى ما بين 480.000 و 400.000 سنة قبل الميلاد وتدل كشوفات أخرى على

مدى ترابط مناطق إفريقية بعضها ببعض مثل العثور

في (عين جمعة) قرب الدارالبيضاء عام 1926 على حجارة

تشهد بأن حروف (تيفيناغ) الليبيكية

---

(1) Perpime d'Hannon عرف بترجمة إغريقية

(6917/1)

استعملت في المنطقة وأن هنالك علاقة وثيقة من خلالها مع (الخكار) (Coissac de Chaverliére, Hisoire du 21Maroc, p.).

ويستخلص من كشوف أخرى وجود عنصرين أساسين في تاريخ المنطقة هما أولا امتدادها من الأطلس إلى المحيط وثانيها وجود عناصر شرقية انحدرت من اليمن مع إفريقش الحميري ولعل للعثور من جهة أخرى في (أزيلال) (وهو امتداد شرقي لمنطقة تامسنا، على الديناصور (وهو حيوان عاش منذ 150.000 سنة بأمريكا) شاهدا على ارتباط هذه المنطقة بمآوي الحضارة شرقا وغربا منذ أعرق العصور وربما يؤيد ذلك تقارب القارتين

(6918/1)

الأمريكية والإفريقية عبر مجال محيطي أطلسي ضيق.

A. Breuil - Faits nouveaux reculant considérablement l'antiquité de l'homme du Maroc - C.R. des séances de l'Ac. des Inscription et Belles Lettres, 30oct. 1942.

- Cheryniers, L'homme au temps des cavernes, Ed. du Scorpion, 1965.
- G. Choubert et Jean Marçais, Le Quatenaire

de senviron de Rabat et l'âge de l'Homme de
.1947Rabat, Académie des Sciences,

(6919/1)

- Lionel Balout, Les hommes fossiles du Maghreb et du Sahara Inventaire descriptif et .214critique, p.
- J. Marçais, « Découvertes de restes humaines fossiles dans les grés quaternaire de Rabat, .1934l'entropologie, t; XLIV,
- R. Neuville at A. Ruhlman, La palce du paléolithique ancien dans le quartenaire . Publ. 91–49, pp. 1941marocain, Casablanca, , 6du Service des Antiquitées du Maroc fas., .35–15, pp. 1941Rabat,

(6920/1)

- Henri V. Vallois, l'homme fos. de R.C.R. des (la 1945nov. 26Séances de l'Ac. des Sc. .(1946avril 15nature,
- R. Neuville et A. Ruhlmann, L'Age de

l'homme fossile de Rabat, R.V. l'Anthropologie, T.S.I., n° 1–2 (1949).

– A. Ruhlmann, l'homme f. de R., Liste de la faune malacologique des différents niveaux marins du gisment de Kébibat, Hespéris, XXXII, 1945.

وهكذا فالقارة الإفريقية وحدة متراصة في أبعادها الطبيعية، ومن مظاهر

(1/ 6921)

وحدتها أن لشقي القارة في أقصى جنوبها وأقصى شمالها أسيسة مشتركة المعالم يطبعها المناخ المتوسطي بأصناف مزروعاته ومختلف أطرزة مجالية الاقتصادية والاجتماعية –

يفصلها في قلب القارة خط الإستواء بصحرائين أحدهما صحراء المغرب الكبرى شمالا وثانيهما صحراء (كالا هاري) في بحبوحة وديان وأنهار أعظمها الكزنغو والنيجر والنيل والملوية وقد امتزج النيلان (نيل مصر ونيل السنغال) ضمن السودان الموحد في طرفيه الشرقي والغربي تحت راية الإسلام التي شكلت منذ القرن الأول للهجرة المحرك الجوهري في تاريخ إفرقيا السوداء

(6922/1)

بإمبراطوريتها الشاسعة (غانا وسونغاي وبرونووكانم ومالي ويوروبا وأويو وأشانتي والهوسة وبونان)(1) .

وقد كان المؤرخون القدامى يعتبرون إفرقيا مأوة الضواري من فيلة وأسود وفهود ولمط ونعام وهو وصف للقارة التي أكد كزيل

---

(1) كانم إقليم سوداني يلي صعيد مصر شاعره إبراهيم بن محمد بن فارس من بن ثاكلة توفي بمراكش عام 608 هـ (أو 609 هـ) مدح يعقوب المنصور بعد انتصاره في موقعة الأرك، وكانم من بني عمومة تكرور (معجم البلدان، ج 4، ص. 432، طبعة القاهرة، 1957، ص. 2؛ الاستقصا، ج 1، ص. 181؛ صبح الأعشى، ج 5، ص. 280.

(6923/1)

(Gsell) أنه منذ أوائل القرن الثالث الميلادي قامت الخضرة اليانعة مقام الصحراء والحقول المزروعة مكان الغابات وقطعان الماشية بدل الحيوانات المفترسة(1) .

والمحيط الأطلنطيكي (أو اقيانوس) يستمد اسمه من كونه يحيط من جميع الجهات بالعالم المسكون في عرف الأقدمين(2) ، أو على الأقل من جهات ثلاث لأن خط الاستواء كان هو الخط الجنوبي للعالم الآهل بالسكان.

---

(1) كوتيبي، العصور الغامضة في المغرب، ص. 157

(2) المسعودي، التنبيه، ص. 26

(6924/1)

وكان اليونان والرومان يطلقون كلمة بربر على كل ما ليس بيوناني أو روماني خارج عن الإمبراكوريتين مثل مدينة بربرة بالصومال والبحر البربري على المحيط الهندي.

والواقع أمن الجنوب الإفريقي الذي يفصله عن شماله خط الإستواء كان أقرب

إلى جزء آخر هو البحر البربري في المحيط الهندي من حيث انحدر عرب بيمنيون منذ

أعرق العصور لنشر العمران في المهامه المتوسطية من جنوب القارة، وقد استشف الأثريون

معالم الحضارة اليمنية في عاديات هذه المنطقة وبذلك يكون العرب والبربر وخاصة

اليمنيين وصنهاجة وهما من حمير هو الذين وصلوا جنوب القارة بشمالها

الممتدين على طول المحيط الأطلسي غربا والمحيط الهندي جنوبا وبحر القلزم أو البحر الأحمر شرقا.

وقد تحدث المؤرحون العرب عن أمة بربرية في آخر بلاد اليمن بين أرض الجوش الزنج وهو سودان ويقال لأرضهم بربره كما توجد سوق وهي من أوساط الفسطاط(1) .

وتطلق كلمة بربر على إقليم ميرفاب وهي قبيلة عربية اللهجة على صفتي النيل من الشلال الخامس إلى عطبراء ومعظمهم في بلاد النوبة

(1) ياقوت الحموي، المشترك وضعا والمفتري صقعا، ص. 31، طبعة كونتجن، 1946.

والصومال(1) .

والبربر اسم كان يطلق على جيل يسكن النواحي الممتدة من سيوا بحدود مصر إلى المحيط وإلى نهر النيجر

بالسنغال ويرى المؤرخون القدامى قبل الإسلام أن أصلهم إما من إفريقيا بنفسها وهو عرب حميريون انحدروا من اليمن ليعمروا القارة الإفريقية شمالا وجنوبا وقد تعززت نظرية عروبة البرابرة الأفارقة بأدلة ذات قيمة علمية أبرز بعضها هلفريبز(2) (Helphritz).

---

(1) تاريخ السودان، القاهرة، ج 1، ص. 37، عام 1903.

(2) الموسوعة الإسلامية، الطبعة الفرنسية، 1960، ج 1، ص. 1208

(6927/1)

وقد اعتمد ابن خلدون في نفيه ليمينه البربر على "جمهرة" ابن حزم إلا أنه وهم عندما حصر طريق اليمن إلى المغرب في "السويس" مع أن أقرب الطرق المعقولة هي الصحراء المغربية ومنها إلى أقصى جنوب القارة الإفريقيةة عن طريق بحر القلزم (البحر الأحمر) في جهته المقابلة لليمن لا سيما وأن مؤرخي القرن الثالث وغيرهم كالأصطخري وابن خرداذبة أشاروا إلى القوافل التجارية التي كانت تنطلق من المغرب مارة بسجلماسة خلال الساحل الإفرقي للبحر الأحمر للوصول إلى اليمين ومنه إلى

الخليج والعراق وكذلك يقال بأن كلمة إفريقش أصل لاسم

(1/6928)

الأفارقة والقارة الإفريقية وقد سمى ابن خرداذبة (المتوفى عام 272 هـ / 885 م) هذه القارة كلها ليبيا وفيها مصر والحبشة وبلاد البربر(1) .

ومهما يكن فإن ابن خلدون، ج 1، ص. 58 طبعة مصر، 1936 ذكر أن البربر

انتقلوا من جنوب فلسطين عن طريق مصر حوالي 1300 ق.م. ثم تتابعت

الجاليات التي منها الفراعنة من الاستيطان بمصر حسب يوسف بن عبد البر القرطبي وفي عام 1095 ق.م. أجلى طالوت (وهو شاوول الذي باركه نبي الله صمويل كأول ملك لبني إسرائيل بعد عصر القضاة) الكنعانيين عن فلسطين وأخرج من بقي منهم بها

---

(1) المسالك، ص. 24

(1/6929)

نبي الله داود عام 1055 ق.م.

والمعالقة (عرب معقل) من أصل يمني أيضا حسب ابن خلدون(1) فهم عرب حميريون يلتقون في النسب مع صنهاجة وكتامة وكانوا يستوطنون الخليج قرب البحرين فهاجم نحو المائتين منهم إلى المغرب انحازوا إلى بني هلال وانتشروا في الصحراء إلى السودان.

وإمارة البراكنة التي تأسست عام 1042 هـ ممتدة من تبريس إلى نهر السنغال تنتمي هي أيضا لعرب معقل أضف إلى ذلك أن الملثمين الصنهاجيين موطنهم الأصلي أرض الصحراء إلى السودان وهي أكبر

---

(1) تاريخ ابن خلدون، ج. 1، ص. 519؛ ج 6، ص. 58؛ الاستقصا، ج 4، ص. 24

(6930/1)

صحراء في العالم قام بأمرهم محمد بن تيفاوت ثم يحيى بن إبراهيم الكدالي إلى عام (427 هـ) وهو الذي ابتنى رابطة في بحر النيجر تجمع فيها ألف رجل ساهم المرابطين تجندوا لنشر الإسلام في قبائل صنهاجة(1) .

وقد تعززت الرابطة العربية والإفريقية بعد الإسلام بتوغل عقبة بن نافع وخلفه في قلب القارة إلى غانا

حسب بعض الروايات.

والرحالون العرب هم الذين اتخذوا المبادرة للكشف عن مجاهل إفريقيا والمحيط الهندي مما فتح الطريق للحالين الغربيين بعد القرن الخامس عشر الميلادي.

---

(1) الإستقصا، ج 1، ص. 98.

(6931/1)

وقد أدرج الشريف الإدريسي في خريطته كمنابع لنهر النيل البحيرات الكبرى الاستوائية عن هذه الينابيع من طرف الأوروبيين لم يتم إلا منذ عصور حديثة(1) .

وللمولى إدريس الأكبر عقب كثير ببلاد السودان منهم فرق في برنو وهوسة وبولان وفزان وتنبكتو(2) تعززت بها الرابطة العربية في مجموع القارة الإفريقية الصنهاجية اليمنية (ومنها زنهاجة : زنزج) فالعرب والبربر من جنس واحد وكلمة بربر لا تشير حسب أندري جوليان

---

(1) كوستان لوبون، حضارة العرب، الطبعة الفرنسية،

ص. 507، الفرنسية.

(2) الفيضيلي، الضرر البهية، ج 2، ص. 200

(6932/1)

("تاريخ إفريقيا الشمالية" ص. 46) إلى معنى سلالي لأن فيه إخلاصا من عرب وبربر وهو يعني في الحقيقة شعبا أصبح يتكلم لهجات مشتركة تخلت عنها بعض القبائل لصالح اللغة العربية – حسب تعبير جوليان.

ونضرب أمثلة للعرب الأقحاح الذين انتظموا في سلك البربر وهو في حين أن أصبهم من قبائل عربية مختلفة أو من العرب المستعربة ومنهم:

– أولاد أبو سرغين: شرفاء أدارسة يوجد بعضهم بالصحراء وكلوان من ناحية تازة وبني يازغة وبني ليث والمغارة من غزوان قرب آسفي وزمور الشلح والسوس الأقصى، ("الدرر البهية"، ج 2، ص. 58).

(6933/1)

إداو كنسوس في الأطلس الصغير: لعل الكنسوسيين من الحجاز استقروا بتامدولت ومنها مراكز (إغرم)

(1941Lumale, Ida ou Kensous, Arch. SHA,).

أولاد سيدي هاشم أمراء معلاكة تحمل اسم هاشم شرفاء سملاليون في آيت باعمران بسوس وهم من حفدة سيدي أحمد وموسى.

وسملالة قبيلة بالأطلس الصغير (راجع الأشراف السملاليون لمحمد بن علي السوسي السملالي). ومن السملاليين إبراهيم بن أبي القاسم السملالي توجد نسخة من كتابه "أجنحة الرغاب" مع شرح أحمد بن سليمان الرسموكي في خع 2035 ونسخة من الأصل في خم (9222 – 6634).

(1/6934)

وكذلك المجاهد بآيت عطا موحا حمو نيفروض، الشريف السملالي الذي كافح ضد الاستعمار الفرنسي من عام 12 م إلى 1929.

والشبانات :

من عرب معقل ويذكرون أيضا بين قبائل خوارة التي هي بني جرار الذين تفرقوا بن الصحراء مسقط رأسهم وبين سوس حيث الحدود في عهد السعدين (راجع أولاد جرار) فهو إذن هوراة اليوم وهم شرفاء علميون يعرفون

بالجعفريين قديما (الدرر البهية، الفضيلي، ج 1، ص. 142).

ينتمون إلى مكان بقبيلة المنابهة إزاء تارودانت ويوجد جعافرة في سوس بنواحي (أقا) و (إيربن) و (أزاغار) و (ماسة) و (تيلكات) وردوا كلهم من

(1/6935)

مساكن اخوانهم الصحراويين الذين يكثرون بين قبائل الصحراء وقد أطال سيدي أحمد بن خالد الناصري في "طلعة المشتري في النسب الجعفري" في تعقيبه على ما زعمه ابن خلدون من عدم وجود الجعفريين في المغرب صحراء وحضرا (راجع المعسول للمختار السوسي، ج 16، ص. 151.

والطاهريون أشرف من ذرية علي الرضى أصلهم من مصمودة بناحية فاس الدرر البهية ج 2، ص. 211.

العروسيون أشراف علميون أدارسة جعدة المرابطين الذي استقروا عام 552 هـ / 1157 م في الساقية الحمراء لاجئيين إليها من شمال المملكة (كتاب دومينيخ لافوانتي، ص. 26).

(1/6936)

وهم جزء من أولاد دليم يقطنون الساحل الجنوبي وخاصة حول الدهلة بوادي الذهبي وهم عرب أقحاح نقلوا إلى الصحراء لغة الضاد وشيم النجدة والشجاعة والكرم وهم كعرب الجزيرة ينتجعون الكلأ ويبرون الإبل وينتقلون في أنحاء الصحراء للتجارة ويتبارزون في الفروسية وروح الإيثار والسخاء.

وأصل دايم من القبائل التي كانت تقطن صحراء سوس ثم نقل بعضها إلى حوز مراكش أيام السعديين منهم الشيخ علي الدليمي الهشتوكي (1332 هـ / 1913م)، (المعسول، 14، ص. 108).

والمناليون أشراف يعرفون بالزياديين يوجدون بسوس والصحراء وفاس وهم

(1/6937)

من منالة بالأطلس ومن الأدارسة فريق يقطن (تاماسين) إحدة قبائل وزكيته

قرب مركز تازناخت ينتمي إلى إحدى قراها وهي قرية انزال عبد الله بن محمد البولماني الإدريسي المتوفي عام 1334 هـ (المعسول، ج 14، ص. 201).

وآخر يسكن (الحفونية) وهي قرية تقع على بعد 120 كلم شرقي قرية الأوكرشي توجد فيها أضرحة آل السيد بن سيدي أبو بكر من الأسرة العلوية وهو مزار مقصود فيه دار ضيافة وملجأ اللاستشفاء.

والزكراويون شرفاء أدراسة في (حاحة) ودرعة من حفدة سيدي محمد بن المولى إدريس الأزهر أمير أصيلا والبصرة وما والاهما من قرى

(1/6938)

ومداشر.

وزعير قبيلة عرب السوس استقروا في رباط الفتح عاصمة المغرب الأقصى الاستقصا، ج 3، ص. 108 (الإعلام، للمراكشي، ج 2، ص. 86).

توريج الرباط – كايبيي Caillé، ج 1، ص. 331 وألف لوبينياك Loubignac "نصوص عربية لزعير" (طبعة باريس 1952) حيث ذكر أن زعير من عرب معقل ناقلا عن نزهة الحادي للأفراني (ترجمة هوداس، ص. 329) وأنهم انتقلوا عبر الأطلسين الأكبر والأوسط

وقصر مجار :

بفيلالة وقيل بسوس فيه ولد السلطان مولاي اسماعيل

عام 1056 هـ وتوفي عام 1139 هـ وقد أشار الحسين الوزان إلى وجودهم قرب حنيفرة كما أكد أن

(1/6939)

ابن خلدون يعتبرهم برابرة لكنهم تبربروا فقط من وجهة القانون الخاص والحياة الاجتماعية والأوضاع السلالية أما لغتهم فهي عريقة في العروبة (راجع كتابنا نحو تفصيح العامية) – مطبعة فضالة – المحمدية، 1392 هـ / 1972 م.

– Victorien Loubignac - Textes arabes des Zaêr - Publicat. de l'I.H.E.M., t. XLVI, Paris, Max Besson, 1952.

والبربرية يتكلم بها البربر في جزء كبير من افريقيا وخاصة الشمالية ويجهل

تاريخها نظرا بعدم وجود وثائق مكتوبة عدا ما كتب بحروف عربية حول الإسلام

(1/6940)

أو العادات والأعراف في جنوب المغرب أو ما سجل من أسماء بربرية وتعتبر بربرية

كذلك بعض بقايا الكزانش Guanche في جزر كباريا الإفريقية إلى القرن السابع

عشر الميلادي وقد بدأ الموحدون يترجمون بعض كتب الدين إلى البربرية تسهيلا على المؤمنين من الناطقين بتشلحيت أو تمازيغت ولحد الآن لم تكشف رموز اللهجة الليبيكية حتى ندرك مدى علاقتها بالبربرية إلا أن التنظير بين الكتابات الليبيكية والكتابات التوارقة أي حروف تيفناع لابما يبرز نوها من الشبه لا وحدة الأصل وعلاه الاستقاق ر يبدر منهم ما يوذن بالاتفاق على عنصر

(6941/1)

موجب في الموضوع وإن كان البعض يحاول التقريب بين حروف سامية أخرى (راجع الجدول في مادة تيفناغ).

موسوعة الإسلام م1، ص. 1220 عام 1960 وقد حاول البعض المقارنة بين كلمتي Puniva وتفنك

أما لاحضارة البربرية بما تنطوي عليه من شعر ورسوم ونسيج وفلكلور علاوة على الكتابات فالظاهر أنها كانت وعاء وبوتقة انصهرت فيها معطبات مختلف الحضارات التي تعاقبت عليها كالرومانية وخاصة الفينيقية والعربية وخاصة الصنهاجية العربية

اليمنية التي اتخذت أسماء مكتعددة في الأطلس الصغير

في الأنكاضيون السوسيون هم من أزكاض قرب طاطة

(6942/1)

نسبة إلى التي تسمى تزناخت أو ثزكنت وزناكة.

A. Basset, Les études Linguistinques berbéres
), 1954–1948depuis le Congrés de Paris (

.1954Congress of Orientalists, Cambridge,

Ch. Pellat, Textes berbéres dans le parler des
1955Aït Seghrouchen de la moulouya, Paris,
J.D. Wolfel, « Le probléme des rapports du
.1953gaunche er du bérbere », Hespéris,

J.D. Wolfel, « Le probléme des rapports du J.D.
Février, Que savons-nous du lybique ? » R. Afr.,
.(73–263(p. 1956

(6943/1)

P. de Foucauld, Dictionnaire toureg-français
, 52–1951vol., Paris, 4(Dialecte de l'Ahaggar),
.(.p 2028XIII +

Abbé Chabot, Receuil des inscriptions libyques,

.1940Paris,

M. Reygasse, Contribution à l’étude des gravures rupestres et inscriptions du sahara .1932central, Alger,

(p. 1932Th. Monod, L ’Adrar Ahnet, Paris, .(135

Th. Monod, Gravures, peintures et inscriptions .1938rupestres, Paris,

G. Marcy, Les Inscriptions libyques bilingues de .1936l’Af. du Nord, Paris,

---

Le même, « Introd. à un déchifferement méthodiques des inscriptions du Sahara .(2–1Centrale », Hespéris (

E. Brémond, Berbéres et Arabesn La Berbérie est un pays euripéen : C.R. des séances de) E.M., Af., 9–218(1943avr. 2l’Arc. des Sc. c.,

.1951Madrid, nov.

E. Garcia Gomez, Al-Hakam il y los berbéres, Segun in texto inedito de Al-Andalus, XIII., I, .(26–209(1948

E. Laoust, Mots et choses berbéres, notes de

linguistiques et d’ethnographie, Dialetes du
.1920Maroc, Paris

(6945/1)

Quedenfled, Répartition de la population
berbére au Maroc, Tard. par Simon, Alger,
.1904

Mtouggui Lhaoussine, Vue générale de
.(.p 200l’histoire berbére, Larose (

ans avec les Berbéres, 3.000St-Quentin,
(.p 220(1949Delagrave,

1928P. Curcy, « En pays berbére), in Europe,
(.oct 15sep. et 15(

H. Raynaud, Les Berbéres sont-ils des barbares
1946, 4? R.G. m. n°

D.P. Barrows, Berbers and Blocks, impressions
of Marocco, Timbuktu and western Sudan,
(.p 251(1927New-York and London,

(6946/1)

.(vol 2(81–1875Fournel, Les Berbéres, Paris

Ch. de Foucauld, Poésies touarégues, Paris,

30–1925

2–1941F. Nicolas, Pémes touareg, ETI,

G. de Gironcourt, « l'Art chez les Touareg »,

.1914Rev. d'Eth. et de Sociol., Jan.-Fév.,

P. Ricard, « Tissages berbéres des Aït Aissi »,

; « Les Tissages sur métier de 1925Hespéris,

haute laine à Aït Hicham et dans le Haut Sebou

.2–1941», in R. Afr.,

Les Tissages décorés chez les Béni Mghild », »

.1945in Hespéris,

(6947/1)

.H. Balfet, La poterie des Aït Smaïl de Jarjora

.1956G. Marçais, L'Art des Berbéres, Alger,

ولهذا فنحن نعتز كمغاربة – مهما يكن أصلنا – باللغة البربرية (بفروعها الأمازيغية والريفية والشلحية) كأنها جزء من تراثنا الوطني فاللغة البربرية واللغة العربية – لغة القرآن – صنواه في حضارة المغرب الخالدة.

(6948/1)

الوجود الإسلامي في الممالك النصرانية بشبه الجزيرة الإبيرية قبل سقوط غرناطة

الدكتور على الكتاني
رئيس جامعة ابن رشد الإسلامية قرطبة – الأندلس

1–مقدمة: كان الوجود الإسلامي في الممالك النصرانية خارج حدود دولة الأندلس الإسلامية قائما وكثيفا ومتواصلا لمدة قرون ، أي منذ احتلال الممالك"نية لأرض إسلامية ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي إلى القرن السادس عشر بعد سقوط غرناطة. ولا شك أن قرار فرناند وإيزبيلا (الملكين الكاثوليكيين) ومن تبعهما من الملوك في القرنين التاليين القضاء على الإسلام نهائيا

(6949/1)

جريمة شنيعة ضد الإنسانية وذنب لا يغتفر ليس في حق ضحاياهم فقط ، ولكن كذلك في حق إسبانيا.

صحيح أن المسلمين لم يكونوا في الممالك النصر"نية في أحسن الأحوال ، ولكن كان لهم وضع قانوني ووجود

معترف به ، كما كانت لهم مساجدهم ومدارسهم وعلماؤهم وفقهاؤهم . وهؤلاء المسلمون يعرفون بالمدجنين . وهم رغم معرفتهم باللغة العربية في بعض المناطق كبلنسية، كانوا يتعاملون باللغة العجمية، فكتبوا بها المؤلفات حتى أصبحت اللغة العجمية (أي الإسبانية المكتوبة بالحروف العربية(لغة إسلامية مثلها مثل الفارسية والتركية وغيرها

(6950/1)

من لغات المسلمين المكتوبة بالحروف العربية.

ولنرى الآن كيف كان وضع المسمين عبر القرون المختلفة في كل مملكة من ممالك الجزيرة الإيبرية النصرانية.

II–المسلمون في البرتغال :

تأسست البرتغال كإمارة صغيرة على حدود الدولة الإسلامية الشمالية الغربية. وقد استولى على هذه الإمارة المنصور ابن أبي عامر، لكنها اغتنمت فرصة سقوط الدولة الأموية فاحتلت براغة سنة 1040م ، وهى بلدة مجاورة لعاصمتها الأولى "أبوزلو" أو "بورتوغال " التي

أعطت أسمها للبلاد. وتجزأ غرب الأندلس إلى عدة ممالك أيام الطوائف . فأصبح الجنوب تحت

(1/6951)

سلطة بني هارون سنة 1026م ، وعاصمتهم شنتمرية الغرب (الفارو اليوم)، وسقط وسط البلاد في يد بني الأفطس سنة 1022 ، وعاصمتهم بطليوس (بإسبانيا اليوم).

وتابع البرتغاليون غزوهم للأراضي الإسلامية على حساب بني الأفطس . فاحتلوا مدينة قلمرية سنة 1064م ونقلوا إليها عاصمتهم . وتجزأت دولة بني هارون في شنتمرية الغرب ، إذ نشأت دولة بني مزين وعاصمتها حلب سنة 1068 م، وانضم الباقي إلى دولة بني عباد وعاصمتهم إشبيلية (بإسبانيا اليوم). ثم قضى المرابطون على بني الأفطس وبني عباد ووحدوا البلاد واستقرت الحدود لمائة

(1/6952)

وخمسين سنة بعد أن احتل البرتغاليون مدينة الأشبونة سنة 1093م.

وحلت الدولة الموحدية. محل الدولة المرابية فاحتل البرتغاليون مدينة يابورة سنة 1166م. ولما ضعفت الدولة الموحدية، سيطهر البرتغاليون على مدن إسلامية أخرى، فغزوا قصر بني دنيس سنة 1249م ، ثم باجة وشنتمرية وشلب وجميع غرب الأندلس سنة 1217م، فنقلوا عاصمتهم من قلمرية إلى الأشبونة واستقرت حدود البرتغال على ما هي عليه اليوم.

وعند احتلال الأراضي الإسلامية، صادر البرتغاليون جميع أراض المسلمين وبيوتهم ووزعوها على نبلاء النصارى. فهاجر عدد كبير من

(6953/1)

المسلمين إلى ما تبقى من الأراضي الإسلامية بينما استقر معظم الباقين كمدجنين بنسب عالية في الجنوب . ولما أرغمت إسبانيا المسلمين على التنصير، تبعتها البرتغال سنة 1502م بتنصير المدجنين . فهاجر منهم عدد كبير إلى شمال المغرب وكحت لهم إسبانيا بعبور

أراضيها بينما استقر الباقون كنصارى ظاهرا ومسلمين سرا. وبقيت هذه الجاليات إلى سنة

1540م عندما تزوج ملك البرتغال بأخت ملك إسبانيا. وكان شرط الزواج طرد المسلمين . فهاجر عدد كبير منهم إلى العرائش والقصر الكبير والمناطق المجاورة لهما بشمال المغرب . بينما بقى

(6954/1)

الباقون كنصارى في البرتغال . وينتمي اليوم معظم سكان البرتغال بجنوب الأشبونة إلى أصول إسلامية وهم لا يختلفون في سماتهم عن ا لأندلسيين.

III – المسلمون في قشتالة :

عند سقوط طليطلة سنة 1085م هاجر إلى باقي الأراضي الإسلامية عدد كبير من المسلمين ، بينما بقى الآخرون تحت حكم النصارى كمدجنين . وكثرت أعداد هؤلاء بعد سقوط أراض إسلامية ر(دحة في القرن الثالث عشر في يد قشتالة، كمرسية وقرطبة وإشبيلية. وكان القشتاليون يوقعون عقودا مع المسلمين المنهزمين

يضمنون لهم فيها حقوقهم الدينية، ولكن سرعان ما كانوا

(1/6955)

ينكرونها بعد استتباب أمرهم ، ويعاملونهم معاملة ظالمة.

في سنة 1258م وضع ألفونسو العاشر قانونا عاما لمملكته سماه "الأقسام السبعة، صنف فيها المسلمين إلى أربع فئات وجي حل لكل فئة منها معاملة خاصة، وهم المتنصرون والعبيد والمعتقون والمدجنون . أما المتنصرون ، فكانوا موضع احتقار من طرف النصارى القدامى، فوحد القانون بين الفئتين ، وأعطى ميراث الأب المسلم لأولاده المتنصرين دون غيرهم من الأبناء. وكانت عقوبة من يرتد منهم الموت وفقدان الحقوق ومصادرة الأموال . أما الأرقاء المسلمون ، فكانوا معرضين لكل أنواع

(1/6956)

الظلم والإيذاء، وكان لسيدهم عليهم حق الموت والحياة والتعذيب والاغتصاب والتفريق بين الأقارب وبيع من شاء منهم . ولم يكن حال المعتقلات أفضل بكثير من حال الرقيق . أما المدجنون ، فكانت حريتهم الدينية تحترم لحد ما، وكانوا يعيشون في أحياء خاصة بهم لهم شرائعهم وقضاتهم وتقاليدهم ومساجدهم وأعيادهم ، وإن كانوا دائما عرضة للاضطهاد حسب أهواء طاغية الوقت وسياسته الخارجية.

نتيجة هذه العاملة السيئة، ثار المدجنون سنة 1261م وانقضوا على جميع الحصون الممتدة بين شريش غربا ومرسية شرقا، ورفعوا علم مملكة غرناطة

(1/6957)

وأعلنوا

انضمامهم لها. وساند ابن الأحمر هذه الثورة بادئ الأمر. كان ألفونسو العاشر في شقوبية، فطلب من ابن الأحمر مساعدته على القضاء على الثورة حسب الاتفاق الذي بينهما، فاعتذر، وسانده خايمي الأول ، ملك أراغون . وضرب ملك قشتالة الحصار على شريش في مايو سنة

1264م، فاستسلمت بعد ستة شهور فطرد أهلها. ثم احتل ألفونسو من جديد شلوقة وشذونة والبربجة وأركش وأخيرا قادس سنة 1266م. واحتل ملك أراغون لقنت سنة 1263م ، ثم قرطاجنة. ثم فرض الحصار على لمرية مع جيش قشتالي برئاسة ابن ملك قشتالة، فاستسلمت المدينة في

(6958/1)

1266/2/13م. وفي 1266/6/5م فرق ملك قشتالة بين مسلمي ونصارى مرسية في حيين وبنى بينهما سورا. وكان الحي الإسلامي يسمى الرشاقة، وبقيت إدارته بيد بني هود المسلمين إلى سنة 1308م حيث انتقلت الإدارة إلى يد القشتاليين.

ثم توالت القرارات التي تحد من حقوق المسلمين ، وكل ملك تولى الحكم يشرع تشريعات جديدة ضد المسلمين . ففي سنة 41348م أصدر ألفونسو الحادي عشر أمرا من قلعة النهر يحرم فيه على المسلمين أن تعاملوا بالمال أو يقرضوا بالفائدة، ثم حرم عليهم في قرار من مجريط أن يشغلوا وظيفة مالية مع الحكومة أو مع

(6959/1)

النبلاء، ومنعهم من المحاماة في القضايا القائمة بين النصارى. وحدد عقوبة من يخالف بمصادرة جميع الأموال والتعذيب الجسدي . وجدد الملك أنريكى الثاني في برغش سنة 1368م التحريمات السابقة وأصدر أمرا آخر سنة 1371م يحرم فيه على المسلمين التسمي بأسماء نصرانية ويفرض عليهم وضع إشارة مميزة في ثيابهم . وأصدر خوان الأول في شورية مرسوما سنة 1387م يجدد فيه منع المسلمين من الوظائف المالية ويمنع شتم المتنصرين وإهانتهم بتسميتهم 3 بالكلاب والخنازير، ويعاقب من يخالف ذلك بغرامة قدرها 300 مرابطي أو الحبس 15 يوما. كما

(6960/1)

يحرم على النصارى تربية أولاد المسلمين ويعاقب المخالفين بغرامة قدرها 55 مرابطي وسمح للمزارعين النصارى بالعمل لدى المسلمين وحمايتهم في أسفارهم . وينص المرسوم بألا يعتق الرق المسلم من اليهودي إذا اعتنق اليهودية بل يسترق سيده .

وأصدر خوان الأول مرسوما آخر سنة 1387م يمنع فيه المسلمين من العيش مع النصارى أو العكس ، ويعاقب المخالف بالتعذيب ومصادرة الأموال . ويحرم على النصارى استعمال المسلمين إلا إذا كانوا عبيدا لديهم ، ويعاقب من يخالف بغرامة قدرها 555، مرابطي إلا إذا كان المسلم طبيبا. ويحرم على

(6961/1)

المسلمين العمل يوم الأحد علنا، ويعاقب المخالف بغرامة قدرها 30 مرابطي . ويجبر المرسوم المسلمين على إخلاء الطريق التي يمر بها الصليب . وإذا تعذر عليهم ذلك وجب عليهم الركوع للصليب، وعقوبة المخالف مصادرة ثيابه وإعطائها للنصراني الذي يقبض عليه ويسلمه للقاضي .

ثم أصدر خوان الأول مرسوما ثالثا سنة 1388م في بلد الوليد يجدد منع النصارى من معايشة المسلمين أو تربية أبنائهم ، ويعاقب من يخالف بالجلد. ويمنع المرسوم المسلمين مرة أخرى من دخول الوظائف العامة، خاصة المالية منها.

(6962/1)

وأصدر خوان الثاني مرسوما في بلد الوليد سنة 1308م يكرر فيه منع المسلمين من دخول الوظائف المالية، ويعاقب كلا من المسلم المخالف ومستخدمه النصراني بغرامة قدرها 2000 مرابطي . كما يمنع المرسوم المسلمين من الأكل أو الشرب مع النصارى ويعاقب من يخالف بالجلد مائة جلدة. وإذا تكررت المخالفة في هذه الحالة والحالة السابقة، يدفع المخالف ألف مرابطي ، يمنح ثلثها للمخبر النصراني . ويمنع المرسوم المسلمين من الحضور في أعياد النصارى كما يمنعهم من أن يكونوا عرابين في حفلات التعميد، يعاقب من يخالف بغرامة قدرها 2000

(6963/1)

مرابطي ويمنع المرسوم المسلمين من زيارة المرضى النصارى، ويعاقب من يخالف بغرامة قدرها 300 مرابطي . ويمنع المسلمين من مزاولة مهنة الجراحة أو العطارة أو الصيدلة أو بيع المواد الغذائية أو الأدوية، يعاقب من يخالف بدفع غرامة قدرها 2000 مرابطي وبالجلد. ويجبر

المرسوم المسلمين على السكن في أحياء خاصة، ويلغي المحاكم الشرعية الإسلامية ويوصى القضاة النصارى بأن يقضوا بين المسلمين وفقا للحقوق التي منحتهم إياها امتيازاتهم . ويمنع المرسوم النبلاء من قبول المسلمين الذين يغيرون محل إقامتهم ، ويعاقب المخالف بغرامة

(1/6964)

قدرها 200 مرابطي ، ولمن يكرر المخالفة غرامة قدرها 100.000 مرابطي ، وتصادر كل أملاك وإقطاعات من يخالف للمرة الثالثة. ويقضي المرسوم على المدجن

المسلم الذي يقبض عليه وهو هارب إلى مملكة غرناطة بأن يسترقه النصراني القاضي عليه .
وتصادر أملاكه لصا، النصرافي المذكور.
ثم أصدر خوان الثاني مرسوما ثانيا في نفس السنة أجبر فيه المدجنين في طليطلة وغيرها من المدن على ترك منازلهم وأموالهم والانتقال إلى قشتالة القديمة.

(1/6965)

وأصدر خوان الثاني مرسوما سنة 1422م يقضي فيه بالإعدام على كل مسلم يمنع آخر من اعتناق النصرانية ولو كان ابنه ، ويقضي باسترقاق المسلم القادم من مملكة غرناطة لصالح النصراني القابض عليه. ثم أصدر أمرا سنة 1435م. يعتبر فيه على النصارى توقيع كتب التزام وإقرار بدين لمسلم إلا إذا كان خاليا من شرط دفع فائدة عن هذا الدين . وأصدر أمرا سنة 1438 م يعتبر فيه بطلان يمين النصراني أمام القاضي بالاعتراف بدين لمسلم إلا إذا كان المقر له مزارعا.

(6966/1)

ثم أصدرت الملكة إيسابيلا في مجريط سنة 1476م مرسوما تلغي فيه ما تبقى من المحاكم الشرعية الإسلامية، وتمنع فيه المسلمين من لبس الثوب أو الحرير أو الذهب أو الفضة. كما حرمت عليهم أن يكون ذلك في جهاز خيولهم، ويعاقب من يخالف بمصادرة ذلك. ويجبر المرسوم المسلمين على وضع قطعة ثوب حمراء على أكتافهم ، وقلنسوة أو فبعة خضراء على رؤوسهم ، والمسلمات على حمل قطعة ثوب أزرق عرضها أربعة أصابع.

ثم أصدرت الملكة إسبابيلا في طليطلة أمرا آخر سنة 1480م أكدت فيه على عزل المسلمين عن النصارى في السكن ، وكررت فيه الأمر

(1/6967)

باسترقاق المسلمين الهاربين إلى غرناطة لحساب القابض عليهم . وكحت للمسلمين ببناء مساجد جديدة في أحيائهم (1).

هذه هي الأوضاع التي كان يعيشها المسلمون المدجنون في مملكة قشتالة قبل سقوط غرناطة. أما بعد سقوطها، فقد أخذت الدولة الإسبانية ف حاملهم بكيفية أسوأ بكثير على غرار معاملتها لمسلمي غرناطة، إلى أن قرر المكان الكاثوليكيان إرسال

(1) Luis del Marmol Caravajal, Historia del Rebelion y Castigo de los Moriscos de Granada. Biblioteca de Antores Espanoles t.XXI, p, 123 y so.

(1/6968)

أمر إلى حاكم قرطبة سنة 1502م يطلبان منه فيه اتخاذ قرار حازم يقضي بقتل المسلمين الرافضين للتنصير أو طردهم خارج البلاد. كما أصدرا أمرا يحرمان فيه على مسلمي قشتالة الاتصال بمسلمي غرناطة أو الاختلاط بهم. ثم صدر قرار ملكي بتاريخ 1502/2/12 م نعثر بإشبيلية يأمر بتنصير جميع مسلمي قشتالة وليون وإخراج من يرفض التنصير. فتنصر ظاهرا معظمهم (1).

1 – وضع المدجنين في سكة أواغون :

كانت مملكة أراغون تنقسم إلى أربع مناطق إدارية : أراغون القديمة وقطلونية ومملكة بلنسية والجزر الشرقية. وقد تكونت مجموعات كبيرة من

(6969/1)

المدجنين في كل هذه المناطق بعد أخذها من يد المسلمين . ونجد في القرن السادس عشر مجموعات إسلامية على مصب ش أبره في منطقة طرقونة وطرطوشة التابعين لقطلونية، بقيت هنا منذ سقوط الأولى من يد المسلمين سنة 960م والثانية سنة 1200 م. كما

بقيت مجموعة كبيرة من المدجنين في منطقة أراغون القديمة منذ سقوط سرقسطة سنة 1118م، حتى أصبحوا يكونون في القرن السادس عشر خمس السكان ، وكانت نسبهم أعلى خارج المدن وفي السهول . وسقطت مملكة بلنسية في يد النصارى سنة 1238م، ما ورغم الهجرة والطرد فقد بقي ثلث سكانها مسلمين في

(6970/1)

القرن السادس عشر، بينما كونوا أكثرية في كثير من مناطقها. واحتل النصارى اكبر الجزر الشرقية، ميورقة، سنة 1220م ويابسة سنة 1235م ، ومنورقة سنة 1286م ، وبقي بها عدد من المدجنين . وكان معظم مدجني مملكة أراغون مزارعين يعملون في أراض يملكها نبلاء نصارى يعيشون عالة عليهم. ولذا عمل النبلاء على حمايتهم دفاعا عن مصالحهم.

احتل خايمي الأول ملك أراغون بلنسية سنة 1238م، بعد أن عقد مع أهلها معاهدة يتعهد فيها بصيانة المسلمين وأموالهم وعقيدتهم ولغتهم والشريعة الإسلامية وأن يهادن ما تبقى من منطقة بلنسية في يد

(6971/1)

المسلمين لمدة ثمان سنين. لكن خايمي تنكر لعهوده فور تملكه المدينة، فلاحق المسلمين داخلها وخارجها، وحول أجمل المساجد

(2) Comte de Circourt, Histoire des Arabes d'Espagne, Paris 1846

وأكبرها إلى كناش ، وأتى بمهاجرين نصارى من الشمال ، وأسكن المسلمين في أحياء خاصة بهم . وأخذ النصارى القادمون يزعجون المسلمين دون ردع من الدولة. ثم صادر خايمي الأول أموال المسلمين وأقطعها للنبلاء من النصارى الوافدين حتى أصبح جميع المسلمين شبه أرقاء يعملون لساداتهم من النصارى . وفى سنة 1248 م، نشر خايمي الأول تشريع خاصة

(6972/1)

بالمسلمين لا تختلف عن مثيلاتها المطبقة في قشتالة، وكانت معارضة تماما لمعاهدات الاستسلام .

وفى سنة 1251 م احتل خايمي الأول مدينة شاطبة فأصدر منشورا بتاريخ 1251/11/23 م يتضمن شروطا سخية لهم مماثلة لتلك التي وقعها مع بلنسية عند استسلامها.

ثم أخذ بابا روما يضغط على خايمي الأول لإبادة العنصر الإسلامي الموجود في مملكته . فحاول ملك أراغون إطاعته في ذلك، لكنه واجه معارضة من الإقطاعيين النبلاء الذين رأوا في المسلمين عنصرا لإغنائهم، كما تعرضت أوامر البابا مع سياسة أراغون المتظاهرة بمعاملة أفضل

(6973/1)

للمسلمين من قشتالة لتنافسهما على غزو ما تبقى من الأراضي الإسلامية، كما أن العنصر الإسلامي كان يكون أكثرية السكان والطبقة العاملة. وكان يصعب ملء الفراغ الذي يتركونه إذا طردوا.

وأمام هذه المعاملة السيئة والتنكر الصريح للمعاهدات ، ثار المسلمون سنة 1254م تحت زعامة رجل اسمه الأزرق واستولوا على عدد من الحصون بين شاطبة ودانية ولقنت ، وسيطروا على الجبال الواقعة جنوب نهر شقر.

فتوجه خايمي الأول على رأس جيش إلى بلنسية، وعقد فيها مجلس النواب (الكورتس) الذين قرروا طرد المسلمين من مملكة أراغون ، وسمحوا لهم

(1/6974)

أن يحملوا ما يستطيعون حمله من أموالهم و أمتعتهم . فشجع ذلك المترددين من المسلمين على الانضمام إلى الثورة. فاندلعت الثورة شمال نهر شقر، وانضم المطرودون إلى الثوار واستولوا على ا حصنا، لكن مسلمي مدينة بلنسية وضواحيها فضلوا النزوح إلى مرسية على الثورة. ودامت الثورة بمساعدة مملكة غرناطة بين مد وجزر إلى سنة 1257م حيث اضطر الأزرق وباقي المسلمين إلى الاستسلام ، ونزح من أراد من قواد الثورة إلى غرناطة وبقي من أراد البقاء في أرضه دون أن يشمله الطرد.

(1/6975)

واستغل البابا كليمانت الرابع مساعدته للملك خايمي الأول في إخماد ثورة بلنسية بالمال لفرض شروطه ، وأعلن أن الكنيسة مي حدة أن تتنازل عن حصتها في

الضرائب المسماة بال حشر شرط أن يقسم الملك أمام مذبح العذراء في كنيسة بلنسية بأن يبيد المسلمين الموجودين في مملكته برحا. فأقسم الملك على ذلك والتزم به علنا، لكنه تردد في تطبيق ذلك خوفا من أن تقلص مملكته ، وتوصل إلى حل إجرامي وهو رفع حماية الدولة عن المسلمين نهائيا. فأصبح المسلمون عرضة للاعتداءات وهجوم الجنود النظاميين لأخذ أبنائهم وبناتهم وبيعهم كعبيد. ولم

(1/6976)

يرد الملك على شكاوي المسلمين بل زاد على ذالك بقوانين تعسفية سنة 1268م حدد فيها حق اللجوء إلى الكنائس بثلاثة أيام ، وكان كثير من مستضعفي المسلمين يهربون إلى الكنائس من ظلم المعتدين عليهم فيحصلون مقابل التنصير على حماية دائمة.

وعندما يشر المسلمون من إنصاف الملك خايمي الأول قرروا الثورة مرة ثانية في شهر مارس عام 1276 م، جنوب نهر شقر، واحتل الثوار أربعين حصنا واستغاثوا بسلطان غرناطة، أبي عبد الله. فعامل خايمي أولا الثوار

بالحيلة، إذ هادن الحصون التي لا ترفع علم غرناطة وحارب الحصون الأخرى، بهذا شجع

(1/6977)

النزاعات الداخلية بين المسلمين . ثم حاصر الملك خايمي مدينة شاطبة عاصمة الثوار، فاختار الثوار الأزرق رئيسا لها مرة ثانية.، ولما استشهد أمام حصن الكيل ، تسلم ابنه القيادة فاستشهد بدوره. ورغم ذلك ،لم يستطع النصارى احتلال شاطبة ونجح الثوار في تحرير حصن الكيل .

ومرض خايمي الأول إبان الثورة، فنشر عند احتضاره منشورا في 1276/7/18م ، ضمن فيه وصيته لابنه وخليفته بدور الثالث جاء فيها : "لقد تقدمنا بالوعد أما العذراء في بلنسية بأن نخرج المسلمين من أيخمنا، وذلك مقابل تنازل البابا عن العشر، فإننا نرجو من

(1/6978)

ولي العهد دون بدرو أن يطرد جميع المسلمين من مملكة بلنسية وأن لا يبقي منهم فيها أحدا لأي سبب كان ، حتى ولو دفعوا ما عليهم كم ". وحينما قربت وفاته ، سلم أبنه سيفه وأوصاه بأن يستعمله ضد المسلمين دون توقف ولا هوادة إلى أن يقضي عليهم جميعا ويطردهم من المملكة. ومات خايمي الأول في 627/7/1276 م وثورة المسلمين في أوجها.

وعندما تسلم السلطة بدر الثالث تفاوض مع الثوار، واتفق معهم ا على هدنة مدتها ثلاثة شهور، باستثناء ستة حصون نجح في احتلالها في شهر أبريل سنة 1277م. ثم احتل مويلة في 29/9/1277م ، وأخيرا

(6979/1)

استسلمت له منتيسة، فتلاشت الثورة. فأمر الملك بنزع سلاح الثوار دون معاقبتهم ، ووزعهم على أنحاء المملكه لإعمارها دون أن يأبه بوصية أبيه .

وفي سنة 1283م أصدر الملك بدرو الثالث قانونا يسمح ، فيه للمسلمين بالانتقال والإقامة حيثما شاؤوا في مملكته والتجارة بحرية، لكنه حرم عليهم وظائف القضاء والشرطة المال، وألزمهم بأن يقسموا يمينا أن لا

يقرضوا أحدا بأكثر من 20 في المائة سنويا، يعاقب المخالف بغرامة قدرها خمس دوقات ذهبية، ومنع قبول شهادة المسلم إلا بشروط حددها، وقضى بسقوط الدين غير العقود أمام القضاء بعد

(1/6980)

ست سنين إن كان المقرض مسلما.

وفي سنة 1301م أصدر الملك خايمي الثاني قانونا ينص فيه على أنه تكفي شهادة نصرانيين بحق المسلم دون حاجة لشهادة مسلم معها كما كان معمولا به من قبل وفي عام 1311م ، أيام هذا الملك ، دعا البابا كليمنت الخامس إلى عقد مجمع كنسي في فيينا طالب فيه ملوك أراغون وقشتالة والبرتغال بإخلاء ممالكهم من الإسلام ، وإن لم يفعلوا أوعدهم بنزول غضب الله عليهم.

وفي سنة 1328م أصدر الملك ألفونسو الرابع قانونا في بلنسية يعطي فيه السلطة المطلقة للسيد الإقطاعي أن يقضي بين المسلمين الذين تحت

(1/6981)

حكمه، وأن يعاقب ويبتر الأعضاء ويجلد ويقتل ويصادر ويحتفظ بما يصادره لنفسه أو يقتسمه مع أشخاص في أحيان محددة.أما ابنه بدرو الرابع ، فقد سن عام 1342 م، قانونا يؤكد فيه القانون السابق . وفي سنة 1370 م ،سن قانونا يمنع فيه المسلمين من الهجرة إلى غرناطة أو إلى المغرب حتى لو دفعوا خمس ممتلكاتهم كما كانوا يفعلون من قبل . وسن قانونا ثالثا سنة 461 م يمنع فيه فرض مراقب نصراني على المسلمين كما كان من قبل . وفي سنة 1389م أصدر الملك خوان الأول قانونا يحرم فيه على الأسرى المسلمين أن يفتدوا بأموال من مملكة

(1/6982)

بلنسية إن كانوا خارجها وإن فعلوا، تعرضوا لعقوبة الاسترقاق .

وفي سنة 1403م أصدر الملك مارتين الأول قانونا يؤكد فيه ما شرع من قبل حول فدية أسرى المسلمين ، يقضي بمصادرة أموال كل من هاجر من المسلمين ، واسترقاق من

يقبض عليه منهم ، وتوزيع أموالهم ثلاثة أثلاث : للملك ، وللإقطاعي الذي كان يسكن عنده المهاجر، وللإقطاعي الذي قبض على أرضه . ويمنع القانون المسلمين من الانتقال من أرض إقطاعي إلى أرض غيره إلا بشروط ، ويوجب على الإقطاعي الذي يلجأ عنده مسلم بأن يسلمه خلال ثمانين يوما من الإنذار النهائي لتسليمه

(1/6983)

وإلا غرم 1000 فلوران .

وفي سنة ،2151 أصدر الملك فراندو الأول قانونا يحرم فيه على المسلمين الخروج من مملكة أراغون إلا لخدمة سيدهم النصراني ودون اصطحاب أبنائهم . وقرر القانون بأن المسلمة المسترقة التي تحمل من سيدها لا تصبح حرة إلا إذا اعترف السيد النصراني بأنه منها. وإذا حملت من غير سيدها، إن كان نصر"نيا تظل مسترقة ويجبر النصراني على أخذ ابنه ، وإن ماتت المرأة عند الولادة، دفع ثمنها لسيدها. وأمر القانون أن توضع أحياء المسلمين تحت إشراف مراقب نصراني ، وحرم على المسلمين الأذان تحت طائلة الإعدام ،

(1/6984)

وفرض عقوبة الموت على المسلم الذي يجرح نصرانيا في غير الدفاع المشروع ، وغرامة تعادل ضعفي الغرامة التي يدفعها النصراني في حالة الدفاع المشروع .

وأصدر الملك ألفونسو الخامس قانونا يمنع فيه هجرة المسلم حتى لو حصل على موافقة سيده الإقطاعي . وأصدر سنة 1428م. قانونا أكد فيه حق السادة الإقطاعيين في القضاء بين جميع أتباعهم بمن فيم كم المسلمين ، وأصدر أمرا يقضي بأنه لا يحق للمسلم أن يدعي الفقر ليتخلص من لمضاء سيده وليطالب بمحاكمته أمام عام الدولة كما هو الوضع بالنسبة للفقراء. وقرر أن المسلم إذا بدل مقر

(1/6985)

سكناه من إقطاع إلى إقطاع آخر دون تصفية حساباته ، صودرت كل أملاكه المنقولة وغير المنقولة! وإذا بدل مقره دون موافقة سيده الإقطاعي ، فرض عليه الرق وعلى زوجته وأولاد ه .

E.Ciscar y R. Garcia Carcel Moriscos I (3)

.32–31pp 1974Agermanats, Valencia,

هذا هو الوضع الذي كان عليه المسلمون في مملكة أراغون قبل سقوط غرناطة. وكانوا يعيشون كمسلمين تحت حكم النصارى لمدة تتراوح بين القرنين والثلاثة قرون يعملون كمزارعين لساداتهم النصارى لهم عليهم سيطرة تشبه سيطرة السادة على العبيد. ونظموا أنفسهم دينيا في

(6986/1)

جماعات تعيش حول مساجدها، لها فقهاؤها وعلماؤها. لكن هذا التوازن الذي تعود عليه المدجنون في مملكة أراغون سيختل إلى الأسوإ بعد سقوط غرناطة .

أصبحت مخاوف مسلمي أراغون تتزايد مغذ صدور الأمر بتنصير مسلمي غرناطة ثم مسلمي قشتالة سنة 1502**م. فتدخل السادة الإقطاعيون الذين يعمل المسلمون في أراضيهم أمام مجلس الكورتش في برشلونة سنة** 1502**م لحمايتهم من التنصير الإجباري**

أو الطرد. ولقد جاءت هذه الحماية بعض النتائج في أول الأمر حتى أن الملك كارلوس الأول اضطر سنة 1517م إلى أن يكذب الشائعات التي تنسب إليه نية طرد

(1/6987)

المسلمين من مملكة أراغون (3). لكن عداوة الكنيسة وعامة النصارى للمسلفين كانت قوية، كما أن الدولة سلحت عامة النصارى سنة 1509م لرد هجوم المجاهدين الأتراك على السواحل ومنعت المسلمين من سكنى السواحل .

وأصبح هذا العداء يظهر بشكل واضح ودموي بعد حادث قتل عبدين من طرف مسلمين في 1521/5/20م، فهاجم النصارى قرى إسلامية في منطقة بلنسية في شهر يونيو سنة 1521م، وفي 1521/7/15م هاجمت قوة من النصارى قوامها 400 شخص بلدة مربيط الإسلامية. وفي شهر غشت من نفس السنة أجبر النصارى 15000.مسلم على التنصر بالقوة خاصة في

(1/6988)

بلدة بولوب وضواحيها. وفي مارس سنة 1522م قامت قوة من النصارى بالإغارة على قريتين مسلمتين هما البركة والكوثر(4).

ومنذ مارس سنة 1523م أخذت محاكم التفتيش، تناقش موضوع تشبث الموريسكيين (وهو الاسم الذي أطلق على المسلمين المنصرين عنوة) بالإسلام، فقام المفتش العام دون ألونسو منريكى بعقد اجتماع لمحاكم التفتيش في شهر يناير عام

(4) Ref. 3pp.122–125.

1524م لدراسة موضوع رجوع الذين تنصروا منذ عام 1521م إلى الإسلام. وتأجل الاجتماع عدة مرات، ثم عقد أولى جلساته في 1525/2/19م ودامت الاجتماعات إلى 1525/6/22م

(1/6989)

. فقرر الجيم بأن المسلمين الذين أجبروا على التنصر هم نصارى وجب عليهم أن يعيشوا حياة النصارى، وعلى "محاكم التفتيش " أن تعاملهم معاملة المرتدين إذا رفضوا ذلك.

وفي نفس الوقت طلب كارلوس الخامس رأي البابا في الأمر. فأصدر البابا كليمنت السابع أمرا بتاريخ 1524/5/12م يتضمن تبرئة الملك من قسمه في المحافظة على حقوق المسلمين ومطالبته بتحويل المسلمين إلى النصرانية بالقوة ومنحه حق فرض الرق على من رفض ونصحه باستعمال محام التفتيش لإرهاب المسلمين وإجبارهم على التنصر. وفي 1525/11/16م أصدر الملك أمرا بتنفيذ

(6990/1)

مضمون الأمر البابوي وقضى بتنصير المسلمين ونزع السلاح منهم وتحويل جميع المساجد إلى كنائس تحت طائلة إيقاع المعارضين في الرق بعد 1525/12/8 . وفي 1525/12/10 م طلب مفوض ديوان التفتيش من المسلمين الرافضين التنصر الاستعداد لترك بيوتهم والخروج من المملكة في موعد أقصاه 1526/1/21م (5).

V-خاتمة:

إن أوضاع المسلمين في الممالك النصرانية الإيبيرلية لم يكن بالجيد، كما رأينا سابقا. ولكن بالمقارنة مع ما

كانت عليه في أوروبا النصرانية آنذاك، كفرنسا وإيطاليا وألمانيا وغيرها، فعلى الأقل كان مسموحا بوجود جاليات

(6991/1)

إسلامية جيلا بعد جيل في الدولة الإيبيرلية. ولم ينته هذا الوضع إلا بسقوط غرناطة الذي أدى إلى اكبر جريمة في تاريخ إسبانيا، وهذه قصة أخرى.

(5) A.Redondo,Fray antonio de Guerera de son temps, Paris 1976section 2, chapitre 5.

(6992/1)

انتقال العلوم الطبية عند المسلمين إلى أوروباوأثر ذلك في تطور علم الطب عند الأوربيين

الدكتور إبراهيم بن محمد الحمد المزيني
كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض

... حظي علم الطب باهتمام بالغ من المسلمين في ظل الحضارة الإسلامية، ولقي تشجيعا كبيرا وعناية واسعة من خلفاء المسلمين وسلاطينهم على مر العصور الإسلامية. تجلى ذلك في الاهتمام الكبير في هذا العلم تعلما وتعليما وعناية بتعريب الآثار السابقة لهم وتطوير هذا العلم بمدارسه وفروعه وتشجيع المنتمين له. وقد برع المسلمضون

(6993/1)

في الانفتاح على مآثر الطب عند الأمم السابقة، وبخاصة الطب اليوناني، وعملوا على نقل مجموعات كبيرة من المؤلفات الطبية اليونانية إلى اللغة العربية في مختلف فروع العلم. ولم يقفوا عند هذا الحد، بل أضافوا إليها الكثير من بحوثهم وابتكاراتهم وتجاربهم الشخصية، فكثرت شروحاتهم لها من واقع مشاهداتهم، وازدادت عناية المسلمين في هذا العلم حتى بلغ درجة عالية من التطور وسار به العلماء شوطا كبيرا، فوضعوا له أصولا ومناهج نظرية، وألفوا فيه كتبا كثيرة في مختلف التخصصات الطبية بجانب التجارب العملية التي كانت تجرى في

(1/6994)

المستشفيات حيث كان طلبة الطب يمرون على المرضى مع أساتذتهم ويقابلون ما درسوه نظريا بما يشاهدونه واقعا، مما كان له الأثر الواضح في تطور العملية التعليمية للطب عند المسلمين. وقد أدى ذلك بدوره إلى إنتاج كم هائل من الآثار والدراسات الطبية المبتكرة التي كان لها الأثر الواسع في إثراء الدراسات الطبية وارتقائها حتى بلغ المسلمون بهذا العلم موقع الريادة بين الأمم، وكان لهم الفضل الكبير في تقدم الإنسانية ورقي الأمم في هذا العلم.

(1/6995)

... وكان من مظاهر تشجيع المسلمين لهذا العلم ذلك الاهتمام الكبير بإنشاء دور التعليم التي تعنى بتدريس العلوم الطبية، وفي اختيار الأطباء المبرزين للتدريس في هذه المراكز والإشراف عليها حيث تعددت تلك المراكز وتنوعت. فدرس علم الطب في المساجد ومنازل العلماء ومجالس طبية عامة والبيمارستانات. وفوق هذا كله، تميزت الحضارة الإسلامية بظهور مدارس

أنشئت خصيصا لتدريس هذا العلم، لم يكن لها غرض آخر غير تدريس الطب يشرف عليها أساتذة متخصصون ويدرس فيها رؤساء الطب المتميزون ويطبق فيها نظام تعليمي دقيق، مما كان له

(1/6996)

الأثر الواضح في تطور الدراسات الطبية وارتقائها. ... وبتعدد تلك المراكز الطبية وتنوعها عند المسلمين اشتهر فيها عدد كبير من الأطباء المتميزين الذين خلفوا تراثا طبيا رائعا ودراسات رائدة أثرت هذا العلم بصورة كبيرة. ليس هذا فحسب، بل إن من هؤلاء الأطباء من بلغ بروزه في هذا العلم درجة جعلته منشد طلبة العلم في كل موقع سواء بالحضور إليه أو بدراسة آثاره ومؤلفاته بلغاتها العربية أو ترجمتها إلى لغات أخرى، الأمر الذي أكد فضل علماء المسلمين في تطور الطب الحديث وأثرهم على غيرهم من الأمم في معرفة هذا العلم

(1/6997)

والارتقاء به، وهو أمر واضح وجلي لمعظم المشتغلين في حقل الطب وتاريخه في مختلف دول العالم. وقد جسد ذلك الأثر عدد من العلماء والكتاب في الحضارة. من ذلك ما كتبه خوسيه لويس بارسلو في بحث ألقاه في المؤتمر العالمي الأول عن الطب الإسلامي، المعقود في دولة الكويت تحت عنوان: "أثر العلوم الإسلامية في تطور الطب" :

إن الأهمية الحقيقية والحاسمة للعلوم الإسلامية في الماضي تكمن في أثرها في تطور الطب في المستقبل. فبفضل الإسلام، وجدت القواعد الحالية لعلوم الطب. ولقد حان الوقت لنعرف مثل هذه الحقائق، وأن يحتل العالم

(1/ 6998)

الإسلامي مكانته الصحيحة في حقل العلم إحقاقا للحق. ففي عام 953م أرسل أوتو العظيم ملك الألمان سفيرا من لدنه إلى قرطبة، إلى راهب يدعى جون الذي عاش ما يقرب ثلاث سنوات في عاصمة الخلافة الأندلسية. وقد تعلم العربية بإتقان. وعند عودته إلى موطنه، حمل معه مئات المخطوطات الطبية والعلمية القيمة، والتي ساعدت على نشر جوهر علوم العرب العظيمة في أوربا الغربية بصورة سريعة ومدهشة(1).

---

(1) الفاضل عبيد عمر، "الطب الإسلامي عبر القرون"، الرياض، دار الشواف، جده، دار المطبوعات الحديثة، 1410هـ/1989م، ص.82.

(1/6999)

... وفي احتفال أقيم في جامعة برلين بألمانيا، أشار الدكتور غريسيب رئيس فرع الطب فيها إلى فضل العلماء المسلمين على الإنسانية في علم الطب فقال: أيها الطلاب المسلمون، والآن قد انعكس الأمر، فنحن الأوربيين يجب أن نؤدي ما علينا تجاهكم. فما هذه العلوم إلا امتدادا لعلوم آبائكم، وشرحا لمعارفهم ونظرياتهم، فلا تنسوا أيها الطلبة تاريخكم، وعليكم بالعمل المتواصل لتعيدوا مجدكم الغابر، طالما أن كتابكم المقدس، عنوان نهضتكم، ما زال موجودا بينكم وتعاليم نبيكم محفوظة عندكم، فارجعوا إلى الماضي لتؤسسوا للمستقبل. ففي

(1/7000)

قرآنكم علم وثقافة، ونور ومعرفة، وسلام عليكم يا طلابنا إن كنا في الماضي طلابكم(1).

... ويضيف الأستاذ جلال مظهر في كتابه: "حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي" قائلا:

كان المسلمون في خلال القرن التاسع الميلادي قد تمثلوا واستوعبوا استيعابا تاما المعارف الطبية التي خلفها القدماء، وخاصة اليونان، واستطاع الأطباء المسلمون في أقصر وقت ممكن أن يجلسوا على عرش الطب وحدهم، ويميزوا أنفسهم باعتبارهم حاملين لواء هذا العلم

---

(1) جلال مظهر، "أثر العرب في الحضارة الأوربية"، بيروت، دار الرائد، 1967م، ص.192.

(7001/1)

والمسؤولين عن تقدمه وارتقائه في خلال العصور الوسطى برمتها. ولقد بقي تأثيرهم في بعض الحالات إلى عصر النهضة وبعده أيضا. والحق أنهم تفرقوا على اليونان. وتدلنا جميع الوثائق التاريخية على أن جميع الأطباء والمؤلفين الأوربيين في الطب في القرون الوسطى استقوا معظم كتاباتهم وأهمها عن العرب لا عن اليونان(1).

... ويذكر الدكتور علي عبد الله الدفاع في كتابه "لمحات من تاريخ الطب عند المسلمين الأوائل" أن هناك إجماعا

---

(1) جلال مظهر، "حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي"، القاهرة، مكتبة الخانجي، صص.320–321.

(7002/1)

بين مؤرخي العلوم على أن ما قدمه العلماء المسلمون الأوائل في حقل الطب يعتبر الأساس المتين للطب الحديث. ويؤكد ذلك الأستاذ قالدستون الذي أورد في مقالته "مكتشف الطب في بلاد العرب" أنه مما لا يقبل الجدل أن المعلومات التي وصلت إلينا من أطباء العرب هي في الحقيقة الحجر الأساسي للطب الحديث؛ ولولا هذه الإسهامات العظيمة، لما وصل الطب الحديث إلى المستوى الذي وصل إليه(1).

---

(1) علي عبد الله الدفاع، "لمحات من تاريخ الطب عند المسلمين الأوائل"، الرياض، دار الرفاعي، 1983م، ص.27.

(7003/1)

... ويضيف الأستاذ روم لاندو في كتابه "الإسلام والعرب" :

لم يوسع المسلمون في دراستهم وبحوثهم الطبية آفاق الطب فحسب، بل وسعوا المفاهيم الإنسانية على وجه العموم. وإذا كان من واجبنا أن نعتبر فلق الذرة والقنبلة الذرية رمزا لأروع المنجزات العلمية في منتصف القرن العشرين، فلن يبدو من مجرد المسافة أيضا أن تكون جهود المسلمين الطبية المبكرة قد قادتهم إلى اكتشاف لا يقل عن هذا الكشف الذري ثورية.

... وهكذا يتضح لنا جليا المجهود الذي بذله الأطباء المسلمون الأوائل في سبيل تقدم الطب وازدهاره. ويظهر لنا الأثر

(7004/1)

الذي تركته هذه المجهودات في تثبيت قواعد الطب الحديث في العالم على أساس سليم قائم على العلم(1).

... أما "انتقال العلوم الطبية عند المسلمين إلى أوربا وأثر ذلك في تطور علم الطب عند الأوربيين"، وهو موضوع حديثنا في هذه الورقة، فقد سجل في تاريخ الإنسانية بمداد من نور وتواترت شهادات المنصفين

في تجسيد ذلك إذ أنه في الوقت الذي ازدهر فيه علم الطب عند المسلمين وبلغ درجة عالية من التطور بالاكتشافات الطبية الرائدة والمؤلفات العلمية المهمة، وبما اشتهر

---

(1) الفاضل عمر، "الطب الإسلامي عبر العصور"، صص. 83-84.

(7005/1)

به المسلمون من طرق مبتكرة في تشخيص الأمراض وطرق العلاج وصنع العقاقير والمركبات الطبية المتنوعة، وتطوير مجالي الجراحة والتشريح، والتوسع في بناء المستشفيات (البيمارستانات) والتفنن بها، فقد بقيت أوربا -وخاصة بين القرنين الأول والخامس الهجري (أي بين القرنين السابع والحادي عشر الميلادي)- في ظلام دامس يعتبر ما وصل إليه العلماء المسلمون في الطب خرافة ووهما لا فائدة منهما. ولم يتغير ذلك الاعتقاد إلا في عصر النهضة الأوربية، أي نصف القرن الخامس عشر الميلادي. لذا اعتمدت معظم جامعات ومستشفيات أوربا اعتمادا

(7006/1)

كليا على إنتاج علماء المسلمين(1).

... وقد نشرت مجلة "العالم الإسلامي" الطبية الصادرة في لندن مقالا للدكتور عبد العزيز عاشور تحدث فيه عن أوربا في العصور المظلمة ودخول الطب الإسلامي إليها، ودور الأندلس في نشر الوعي الطبي بين الأوربيين.

فذكر الكاتب أنه في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية الإسلامية في عصرها الذهبي، كانت أوربا الغربية تعيش في ظلام وبربرية؛ وكانت الكنيسة تتحكم في الطب؛ وكان الدجالون والمشعوذون هو

(1) علي عبد الله الدفاع، "أعلام العرب والمسلمين في الطب"، دار الرسالة، 1983م، 2، ص.21.

(7007/1)

الذين يعتمد عليهم المرضى في العلاج. فقد أصاب سقوط الإمبراطورية الرومانية أوربا كلها بالشلل، واختفت المدارس الرومانية الوحيدة في أوربا، وحلت محلها مدارس كنسية لم تهتم كثيرا بالعلوم الطبية.

... ومما بلغ حدا واسعا في التأثير هو تلك المؤلفات الطبية الإسلامية التي لقيت اهتماما كبيرا من

الأوربيين وترجمت إلى مختلف اللغات الأوربية. واستمرت تلك المؤلفات قرونا عدة كانت خلالها هي المصادر الأساسية التي يعتمد عليها الأوربيون في تعلم الطب سواء بأصولها العربية أو بترجماتها. يقول رونلد كامبل في كتابه "الطب

(1/7008)

العربي" : "لقد بقيت جامعات أوربا تستند تماما على إسهامات علماء العرب في الطب، بل إن مقرراتهم في كليات الطب بقيت تستعمل "القانون" لابن سينا و"الحاوي" للرازي وغيرهما حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي"(1).

... كما طغى تأثير أطباء المسلمين على العالم الغربي عبر القرون اللاحقة، وبالأخص خلال الفترة من القرن الخامس إلى الثامن الهجري (الموافق الحادي عشر إلى الرابع عشر الميلادي). فقد بقي علماء أوربا يتعلمون في مدارس وجامعات الأمة الإسلامية في الأندلس وصقلية وغيرها،

---

(1) الفاضل عمر، المرجع السابق، ص.80.

(1/7009)

حتى تمكنوا من اللغة العربية. ثم قاموا بترجمة علوم المسلمين في الطب وغيره. يقول كل من ج. قراتان وشارلز سنجر في كتابهما "السحر والطب عند الأنجلوسكسوني" :

ومما لا يقبل الشك أن تأثير علماء العرب والمسلمين في الطب على أطباء أوربا خلال القرن الحادي عشر الميلادي إلى القرن الرابع عشر الميلادي، لا يحتاج إلى برهان.

والجدير بالذكر أن كثيرا من المنصفين من علماء أوربا الغربية، يعترفون بما قدمه علماء العرب والمسلمين في العلوم، كما أن النظريات والأفكار الطبية صارت تدرس في جميع أنحاء المعمورة. ومن يحب أن يتفنن

(7010/1)

في حقل الطب بفروعه المختلفة، يلزمه إجادة اللغة العربية(1).

ويقول العلامة دريبر، المدرس بجامعة هارفارد بأمريكا:

إن جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الأوربيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم، وكان ملوك أوربا وأمراؤها يفدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها.

وأول مدرسة أنشئت للطب في أوربا هي المدرسة التي أسسها العرب في "باليرم" من إيطاليا(2).

---

(1) المرجع نفسه، صص.81–82.

(2) أحمد عبد الرحيم السايح، "أضواء على الحضارة الإسلامية"، الرياض، دار اللواء، 1401هـ/1981م، ص.106.

(7011/1)

... ويشار هنا إلى أن أوربا قد استمدت معارفها وعلومها من الحضارة الإسلامية، من خلال ثلاثة طرق رئيسة هي: بلاد الأندلس في الغرب الإسلامي، وجزيرة صقلية، والحروب الصليبية في الشرق الإسلامي.

... وهناك طرق أخرى أقل تأثيرا من الطرق السابقة، تتمثل في الرحلات التي قام بها الأوربيون إلى العالم الإسلامي والبعثات العلمية المرسلة من قبل ملوك أوربا إلى الديار الإسلامية. وقد انتقل علم الطب شأنه شأن العلوم الأخرى إلى أوربا عبر هذه الطرق جميعها. ويمكن إيضاح ذلك وفق التفصيل الآتي:

أولا: طريق الأندلس:

(7012/1)

... استمر وجود المسلمين في الأندلس مدة تزيد على ثمانية قرون (12–897هـ) عاشت فيها بلاد الأندلس في مجمل عصور الحكم الإسلامي فيها نهضة علمية مزدهرة شهدت خلالها الأندلس قمة التفوق العلمي والتطور الفكري الذي شمل مختلف أوجه المعرفة وفروعها، شجع على ذلك التشجيع المطلق الذي لقيه التعليم في تلك البلاد والتنافس بين الحكام في رعاية العلم والعلماء.

... وكان من بين العلوم التي بلغت حدا كبيرا في نشاطها علم الطب الذي حقق فيه المسلمون في تلك البلاد إنجازات رائعة، فأضافوا إلى المعارف الطبية اكتشافات ومعارف

(7013/1)

جديدة رفعت من مكانة المسلمين في هذا العلم.

... وقد اشتهرت الأندلس بتعدد المراكز العلمية المنتشرة في جميع أنحاء مدنها مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة وبلنسية وغيرها من المدن التي كان يفد إليها طلبة العلم من مختلف بلاد العالم الإسلامي بالإضافة إلي طلاب أوربا، وكانوا يلتحقون بمعاهدها العليا

ينهلون من معين الحضارة وينبوع المعارف العامة ومنها الطب. وكان ممن وصف الأثر العلمي لبلاد الأندلس على أوربا الدكتور محمد الصديقي حيث قال:

(7014/1)

وارتحل كثير من تلامذة الإفرنج إلى مدارس الأندلس، ودخلوا في جامعاتها أفواجا، وكانت الأندلس في ذلك العصر في أسمى منزلة من منازل العلوم والآداب، ثم رجعوا إلى أوطانهم متنورين متبحرين في العلوم والفنون(1).

... أما عن انتقال العلوم الحضارية بعمومها إلى أوربا عبر هذا الطريق، فقد أفاق الأوربيون من سباتهم على نور الحضارة الإسلامية في الأندلس وبهرهم شعاعها ولفت نظرهم تألقها، فاتجهوا نحوها ينهلون من معين تلك الحضارة. ويمكن أن

---

(1) "انتشار العرب وعلومهم في فرنسا"، الهند، مطبعة أسرار كريمي، 1941م، ص.14.

(7015/1)

نشير إلى أن طور التأثير الحضاري للأندلس في أوربا قد بدأ تقريبا من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي. ففي هذا القرن، وهو عصر الخلافة الأموية في الأندلس، ارتقت الأندلس في مدارج المعرفة درجة عالية فاجتذبت إليها الأنظار وشدت إليها القلوب من أقطار أوربا كإيطاليا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا لدراسة علوم العرب ومعارفهم المختلفة، واقتباس ألوان الحضارة والتمدن. وكان بعض هؤلاء الطلبة الأوربيين من أبناء الأمراء والنبلاء، وكانوا يقصدون بلاطات خلفاء وأمراء المسلمين ليتلقوا ألوان الأدب والفروسية(1)

---

(1) زيغرد هونكه، "شمس العرب تسطع على الغرب"، تعريب فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت، المكتب التجاري، ط2، 1969م، ص.50.

(7016/1)

.

... وفي الوقت نفسه استقدمت إنجلترا عددا من العلماء والمهندسين العرب الذين شيدوا أكبر جسر على نهر التايمز في بريطانيا. وقد عرف باسم جسر هليشم (Helichem)، وهو تحريف لكلمة هشام خليفة الأندلس

عرفانا بفضله عليهم ومساعدته لهم. وكذلك كان للمهندسين العرب فضل في إنشاء قباب الكنائس في بافاريا، ولا تزال توجد بمدينة شتوتغارت الألمانية حتى اليوم سقاية ماء تدعى أميديو (Amedeo)، وهو تحريف لاسم أحمد. ويبدو أنه اسم المهندس العربي الذي بناها(1)

---

(1) خليل السامرائي وآخرون، "تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس"، جامعة الموصل، ص.376.

(7017/1)

.

... كما أن التأثير العلمي للأندلس في أوربا كان يتم عن طريق ترجمة الكتب العربية إلى اللغات الأوربية المختلفة منها، بل أهمها آنذاك اللاتينية والعبرية. وكانت الترجمة أهم وسائل الاتصال العلمي بين الأندلس وأوربا وأكثرها أثرا. يقول الدميلي حول ذلك:

... في شبه جزيرة الأندلس كانت حركة نقل العلم العربي إلى العالم المسيحي أعمق تغلغلا وأشد قوة، ودامت مدة أطول عهدا من كل مكان آخر(1)

---

(1) "العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي"، ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى، دمشق، دار القلم، 1962م، ص.453.

(7018/1)

.

... ويضيف ولز في أثر الترجمة قائلا: "وازدادت معرفة الناس –يقصد أوربا– بواسطة الترجمات اللاتينية المنقولة عن النسخ العربية"(1).

... ويمكن ربط بدايات التأثير الطبي للأندلس في أوربا في وجود نسخة لاتينية من "حكم" أبقراط كانت تدرس في مدينة شارتر بفرنسا سنة 381هـ/991م. وهذا يعني افتراضا وجود تأثير ثقافي عربي مبكر في فرنسا، لأن مثل هذه الترجمة كانت عن أصل عربي. فالغرب اللاتيني

---

(1) "معالم تاريخ الإنسانية"، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1950م، ج3، ص.802.

(7019/1)

كان جاهلا جهلا تاما بالأصول اليونانية لآثار اليونان العلمية(1).

... وكان الملوك والأمراء المسيحيون في شمال إسبانيا وفرنسا وغيرها إذا أصاب أحدهم وعكة أو ألم به مرض رمى ببصره إلى الأندلس وسعى إلى استقدام ذائعي الصيت من أطبائها وحكمائها، لما يأنسه فيهم من اقتدار في الطب وعلاج الأمراض.

... وكانت معظم الكتب تترجم في طليطلة التي أصبحت مركزا علميا هاما يشع ألوان المعرفة إلى جميع أنحاء أوربا. ولم يكن

(1) جلال مظهر، "الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث"، القاهرة، مركز كتب الشرق الأوسط، ص.129.

(7020/1)

هذا الإشعاع إلا نتاج قرائح علماء المسلمين في الأندلس وغيرها. واستمرت طليطلة على دورها في ترجمة عيون المصنفات العربية في فروع العلم المختلفة.

... وفي عهد ألفونسو السابع تولى أسقفية طليطلة الأسقف ريموند (526–547هـ/ 1131–1152م). فقام

هذا الأسقف بدور كبير في ازدهار الترجمة نقل كثيرا من الآثار العربية إلى اللاتينية، وتولى بعنايته طائفة من المترجمين والكتاب عرفت في التاريخ بمدرسة المترجمين الطليطليين، وكان كثيرا ما يحفزهم على العمل ويشجعهم على الترجمة ويبذل لهم على ذلك الصلات والعطايا الجزيلة. فتم عن

(7021/1)

طريق هؤلاء المترجمين ترجمة مقدار ضخم من التراث العلمي الإسلامي في الفلك والطب والكيمياء والطبيعة والمنطق والرياضيات والأدب وغيرها(1).

... وقد ساعدت هذه الجمعية على دفع عجلة الترجمة، وتركت أثرا واضحا للطب الإسلامي في أوربا اللاتينية، وبدأت تظهر جامعات أوربية تعنى بالطب الإسلامي مثل جامعة نابولي وباريس وبولونيا وغيرها. وفي هذه الجامعات لمعت

---

(1) سعد بن عبد الله البشري، "الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس"، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1414هـ/1993م، ص.540-541.

(7022/1)

أسماء الأطباء المسلمين الرازي وابن سينا والزهراوي، وأصبحت كتبهم مراجع أساسية لطلاب هذه الجامعات وأساتذتها. وصارت الأدوية والوصفات الطبية وأدوات الجراحة الإسلامية متداولة في أروقة هذه الجامعات حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي.

... وفي القرن الثاني عشر الميلادي بلغت حركة الترجمة من العربية غايتها من النشاط، فترجم عدد كبير من الكتب الطبية المشهورة، أو أعيد ترجمة الكتب التي كان ترجمها قسطنطين الإفريقي ترجمة رديئة أو ناقصة. وكانت معظمها على يد أشهر المترجمين الأوربيين وأكثرهم نشاطا وهو جيرارد

(7023/1)

الكريموني (1114–1187م) الإيطالي الذي جاء إلى طليطلة وانضم إلى مجموعة المترجمين الذين كانوا تحت رعاية رئيس أساقفتها ريموند. ومن هؤلاء المترجمين ماركوس الطليطلي، وغنديسلاوي، ويوحنا الإشبيلي؛ ومن الأجانب روبرت الرتيني، وأديلارد الباثي، وألبرت،

ودانيال مورلي وهرمان الدلماشي، وكانت طليطلة قد سقطت في أيدي النصارى الإسبان في سنة 1085م، فنشطت فيها حركة الترجمة المنظمة. وعرفت هذه الحركة بمدرسة طليطلة. وجاء إليها بعض العلماء الإنجليز والطليان والألمان، ليتعلموا العربية وينهلوا من منهل الثقافة العربية

(7024/1)

فيها.

... فمما ترجم جيرارد الكريموني من كتب الطب، "القانون في الطب" لابن سينا، وكتاب "التصريف لمن عجز عن التأليف" (قسم الجراحة) للطبيب الجراح الأندلسي أبي القاسم الزهراوي، وكان كتابا تعليميا زهاء خمسة قرون في أوربا، وكتاب "التذكرة في طب العيون وجراحتها" لعلي ابن عيسى الكحال الدمشقي، وعرف هذا المؤلف في أوربا اللاتينية باسم Haly، وترجم معه كتاب عمار الموصلي في طب العيون أيضا، وقد استخدما معا في جامعات أوربا حتى القرن الثامن عشر، وكتاب "المنصوري" للرازي، وقد ذاعت المقالة العاشرة منه عن الحميات

(7025/1)

ذيوعا كبيرا في أوربا، وطبعت عدة مرات(1). وقد بلغ ما ترجمه جيرارد زهاء مائة كتاب ويقال بأن بعضها من نتاج تلاميذه، وبعضها بالاشتراك مع غيره خاصة غالب ()(2Gallipus)، وهو مستغرب وكان نزيها وذا كفاءة عالية في الترجمة وحسن الاختيار للكتب التي ترجمها. وكان موسوعيا في الترجمة حيث قام أيضا بترجمة كتب في الطب كالفلك والرياضيات والأدب.

---

(1) سيد رضوان علي، "العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية"، الرياض، دار المريخ 1407هـ/1987، صص.111–112.

(2) سعد البشري، المرجع السابق، صص.542–543.

(7026/1)

... وظل حال الترجمة في طليطلة على هذا الوضع حتى القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي)، حيث ظهر الملك ألفونسو الحكيم (650–683هـ/1252–1284م) الذي قام بجهود جبارة في الترجمة والاقتباس عن العلوم

والمعارف العربية إلى اللغتين اللاتينية والقشتالية.

... وكان يعمل لديه عدد من العلماء المسلمين والمسيحيين واليهود. وقد أنشأ ألفونسو الحكيم معهدا للدراسات اللاتينية العربية سنة 652هـ/1254م في إشبيلية؛ كما اتجه اهتمام ألفونسو الحكيم إلى تدوين واسع للأحداث العامة تحت نظره، وكان اعتماده في ذلك على

(7027/1)

مصادر التاريخ العربي ووثائقه، كما ركز جهده على ترجمة المصنفات والآثار العلمية في الفلك(1).

... وفي القرن الثالث عشر الميلادي ترجم فرج بن سالم أشهر الكتب الطبية العربية وأوسعها بعد "القانون" لابن سينا، وهو كتاب "الحاوي" لأبي بكر الرازي، كما ترجم في هذا القرن كتاب "التيسير في المداواة والتدبير" لابن زهر الأندلسي الذي كان أحد أعلام الطب البارزين في الأندلس، وبالتحديد في العصر الموحدي الذي شهد نهضة طبية رائدة؛ وهو الطبيب أبو مروان عبد الملك بن زهر المتوفى سنة 557هـ والذي

---

(1) المرجع نفسه، ص.543.

(7028/1)

تركلنا مؤلفات جليلة مشهورة كان من أبرزها هذا الكتاب الذي ركز فيه على فكرة أن التجربة خير وسيلة لاكتشاف الأمراض وعلاجها، مما قاده إلى الخروج بآراء مبتكرة تقوم على الحقائق الثابتة. وقد تنبه الأوربيون لأهمية هذا الكتاب منذ القرن الثالث عشر الميلادي، حيث ترجم إلى العبرية أولا ثم إلى اللاتينية. وصار هذا الكتاب أحد المصادر المهمة التي كانت تدرس في المراكز الطبية المشهورة في أوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادي(1)

---

(1) يوسف بن علي العريني، "الحياة العلمية في الأندلس في العصر الموحدي"، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1416هـ، صص.332–335.

(7029/1)

، وكان قد ترجمه جون الكابوني (John of Capoa). ومن أهم الكتب الطبية العربية التي ترجمت خارج إسبانيا كتاب "الكليات" لابن رشد الفيلسوف الطبيب الأندلسي

المشهور، وقد ترجمه أحد المترجمين غير المشهورين، بوناكوسا (Bonacosa) من بادوا (Padua) بإيطاليا سنة 1255م بعنوان (Colliget) وفصوله عن التنفس تمتاز بالنقد الأصيل لنظرية جالينوس(1).

... ولم يكد القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي يؤذن بالزوال حتى انتهى العصر الذهبي للترجمة من العربية إلى اللاتينية، وإن

---

(1) سيد رضوان علي، المرجع السابق، صص.112–113.

(7030/1)

بقيت الترجمة حتى القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي قائمة. غير أن ما ترجم حتى نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي يعتبر بحق مفتاح النهضة الحضارية والازدهار العلمي والفكري لأوربا(1).

... وجدير بنا أن نتحدث هنا عن تلك المدرسة الطبية التي أدت دورا مهما في نقل ألوان التراث الطبي العربي الإسلامي إلى أوربا. وهذه المدرسة هي مدرسة مونبيليه بجنوب فرنسا. وقد ذاعت شهرتها في دراسة الطب منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وكان يعيش بهذه

(1) سعد البشري، المرجع السابق، ص.543.

(7031/1)

المدينة التي تنتسب إليها المدرسة طوائف كبيرة من العرب واليهود بالإضافة إلى المسيحيين الذين يجيدون اللغة العربية. وفي ظل شيء من التسامح الديني، عاشت تلك الطوائف معا في خدمة العلم وترجمة كتب الطب العربية وتدريسها. وكان لهذه المدرسة في أوائل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي روابط وصلات متينة مع مراكز الطب العربية في جنوب الأندلس، وهو ما يؤكد عظم المهمة التي تولتها هذه المدرسة في نشر المعارف الطبية العربية في أوربا(1).

(1) المرجع السابق، ص.546.

(7032/1)

... وقد قام بتأسيس هذه المدرسة الكاردينال كونراد سنة 1220م ونظمها على شبه مدارس الطب الإسلامية. واحتل الطب الإسلامي مركز الصدارة في برنامج التدريس

فيها طيلة القرن الثالث عشر والرابع عشر، فكان الأساتذة يشرحون كتب ابن سينا والرازي وأبي القاسم الزهراوي. وكانت هذه المدرسة على اتصال دائم بالمدارس العربية في جنوب إسبانيا، الأمر الذي يؤكد التأثير الفاعل لمدرسة مونبليه على تطور الطب الأوربي على الطريقة العربية(1)

---

(1) محمود الحاج قاسم محمد، "الطب عند العرب والمسلمين: تاريخ ومساهمات"، جدة، الدار السعودية، 1407هـ/1987، ص.383.

(7033/1)

.

... ولعل أهم ما تميزت به هذه المدرسة الطبية الشهيرة ما ضمته من مخطوطات طبية عربية كثيرة في الوقت الذي لم يكن في مكتبة جامعة باريس سوى تسعة كتب طبية أهمها "الحاوي" للطبيب المشرقي الرازي.

... وكان لما صنفه بعض أطباء الأندلس أثر عظيم في ازدهار الدراسات الطبية في أوربا. فمنهم الطبيب والصيدلي عبد الرحمن بن وافد (كان حيا سنة 460هـ/1067م) والذي عرف عند الأوربيين بابن ويفيت

(Eben Guefith) وبأسماء أخرى مشابهة. وكان من أعظم الأطباء والصيادلة الذين أثروا حقل الطب بدراساتهم العلمية القيمة. فكتابه الشهير

(7034/1)

عن الأدوية المفردة لقي إقبالا عظيما من أهل عصره ومن بعدهم من مسلمين وأوربيين في القرن السادس والسابع الهجريين/الثاني عشر الميلادي، وترجم إلى اللاتينية والعبرية والقطلانية وأفادوا منه في علم الصيدلة وتركيب الأدوية وصناعة العقاقير(1).

ثانيا: طريق جزيرة صقلية

... وهي الطريق الثاني لانتقال العلوم الإسلامية إلى أوربا حيث كانت تلك الجزيرة تنعم بالرقي والتقدم العلمي في ظل الحضارة الإسلامية، وكانت مركزا من مراكز الثقافة الإسلامية.

---

(1) سعيد البشري، المرجع السابق، ص.547.

(7035/1)

... وكانت قبلها صقلية تعيش حالة من التأخر والجهل إلى أن افتتحها المسلمون سنة 212هـ/877م على يد الأغالبة بقيادة القائد المسلم أسد بن الفرات، فوفدوا إليها بعقلياتهم وثقافاتهم ومذاهبهم وحملوا معهم إليها طائفة من الكتب العربية أو المنقولة إلى العربية متنوعة في ثقافاتها. ومن هنا بدأ التلاقح الفكري. فما هي إلا فترة قصيرة استراحت فيها بعض الراحة من الحروب والفتن حتى أنتجت إنتاجا متنوعا في الفقه والحديث واللغة والفلسفة والطبيعة والطب والهندسة والنجوم، وكان ذلك في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس

(7036/1)

للهجرة.

... وقد استمر الحكم الإسلامي في صقلية إلى سنة 848هـ عندما سقطت في أيدي النورمان الذين ساروا على نهج المسلمين في التسامح وتنشيط الحركة العقلية في الجزيرة، فأبقوا المسلمين على عاداتهم ودينهم ولسانهم، واستعملوا فريقا كبيرا منهم في حروبهم وحاشيتهم. فكان منهم القواد والعظماء والعلماء في الدولة الجديدة؛ وظلت اللغة العربية لغة رسمية في

الجزيرة طوال حكم النورمان، بل لقد تعلم هؤلاء العربية؛ ومنهم من برز فيها ونظم الأشعار. وتخلق النورمان بأخلاق رعاياهم وعاملوهم معاملة نادرة في التسامح الديني

(7037/1)

والسياسي، حتى اتهم البابوات أمراء النورمان بالإسلام، وما زالوا حتى قضوا عليهم بهذه التهمة الكاذبة التي لا أساس لها من الصحة(1).

... وكان للموقع الجغرافي الفريد الذي تتمتع به جزيرة صقلية عظيم الأثر في قيامها في مهمة نقل التراث الإسلامي إلى أوربا، حيث كانت صقلية وعلى الأخص عاصمتها "بالرمو" أكثر مدنها ازدهارا وتألقا ونقلا للعلوم الإسلامية وخاصة إلى جنوب أوربا (إيطاليا وفرنسا).

---

(1) محمد عبد الرحمن مرحبا، "الموجز في تاريخ العلوم عند العرب"، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1970، ص.238.

(7038/1)

... وفي بالرم (Palerme) التي اتخذها المسلمون عاصمة لهم في صقلية أنشأوا مدرسة للطب لم يعد مثلها في العالم اللاتيني آنذاك وعلى غرار هذه المدرسة، أنشئت مدارس للطب في بلاد إيطاليا(1).

... في القرن الثاني عشر الميلادي أسس روجر في جزيرة صقلية أول كلية طب في أوربا قامت بتدريس طلاب الطب ومنحهم شهادات بعد التخرج تؤهلهم لممارسة مهنة الطب.

... وقد تركز أثر صقلية على أوربا في الترجمة والنقل من اللغة العربية إلى اللغات الأوربية باختلافها حيث تصدت طائفة من المترجمين في صقلية لنقل التراث

---

(1) المرجع نفسه.

(7039/1)

الإسلامي إلى أوربا في مقدمة هؤلاء قسطنطين الإفريقي الذي كان رائدا من رواد نقل التراث في القرن الحادي عشر، وقسطنطين الإفريقي (1020–1087م) عربي الأصل ولد في قرطاجة بتونس وساح في البلاد العربية حيث أتقن اللغة العربية بجانب معرفته اللغة اللاتينية

واليونانية. وانتقل إلى إيطاليا حيث اتصل بجيزوفلو، أمير مدينة سالرنو، وبأخيه الطيب. ثم أمضى معظم حياته في دير مونت كاسينو حيث قام بترجمة الكتب العربية وبالتأليف. عمل بعض الوقت في مدرسة سالرنو الطبية، فأثر فيها تأثيرا بالغا بترجمته عددا من الكتب الطبية

(7040/1)

اللاتينية، وإدخاله التعليم الطبي العربي فيها كما أنه كان يكتب أيضا في القانون الصحي الذي كان يحرره عدد من أساتذة مدرسة سالرنو. ويذهب البعض إلى أنه كان قد أسلم ولكنه كتم دينه خوفا من الاضطهاد الذي كان سائدا ضد الإسلام والمدنية العربية خلال الحروب الصليبية. وظهرت أول طبعة من كتبه في بازل سنة 1537م في سبعة أجزاء. كما ترجم قسطنطين الإفريقي عددا من الكتب الطبية العربية التي كان قد أتى بها من الشمال الإفريقي والشرق العربي إلى الحكام النورمان الجدد في سالرنو. فتفرغ لترجمة هذه الكتب في دير بإيطاليا،

(7041/1)

ومنها "كتاب كامل الصناعة" لعلي بن العباس المجوسي طبيب عضد الدولة البويهي (كان حيا قبل سنة 384هـ/994م)(1)

---

(1) كتاب "الملكي"، أو "كامل الصناعة الطبية"، كتاب جليل في الطب كان أساسا لتدريب الطب إلى أن ظهر "القانون" لابن سينا. وهو يفرق عن "القانون" في أن مؤلفه علي بن عباس "اعتمد فيه على مشاهداته العلمية في المستشفيات لا على مجرد الدراسة النظرية. لذا يقول العلماء إن "الملكي" في العمل أبلغ؛ و"القانون" في العلم أثبت. ويتميز هذا الكتاب بمقالتيه الأولى والثانية والمشتملتين على فصول رائعة في التشريح كانت مرجعا لعلم التشريح في سالرنو بإيطاليا مدة من الزمن" (الماحي، "مقدمة في تاريخ الطب العربي"، ص. 83).

(7042/1)

. وقد عرف هذا الكتاب في أوربا باسم "الكتاب الملكي". وقد قام قسطنطين بتدريس هذا الكتاب في ترجمته اللاتينية بالجامعة الطبية في سالرنو التي تخرج منها(1). كما ترجم كتاب "زاد المسافر" لابن الجزار

القيرواني (ت395هـ/1004م) وعرف الكتاب باللاتينية "Liber Regius"(2).

---

(1) عبد الحليم منتصر، "تاريخ العلوم ودور العلماء في تقدمه"، القاهرة، دار المعارف، 1980، ص.230.

(2) توفيق الطويل، "الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية. دراسة مقارنة"، القاهرة، مكتبة التراث الإسلامي، ص.157.

(7043/1)

... وترجم أيضا كتب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي في البول والحميات وكتب الرازي وكتاب "طب العيون" لحنين بن إسحاق وغيرها، وقيل إنه ترجم ما يقرب من سبعين كتابا طبيا من العربية، نسب بعضها إلى أطباء يونانيين. كما أصبحت بعد ذلك من الكتب التي كانت تدرس في جامعة مونبليه المشهورة بدراساتها الطبية بالإضافة إلى كتب طبية عربية أخرى مهمة ترجمت في القرن التالي(1). وكان قسطنطين أول وسيط لنقل العلوم الإسلامية إلى أوربا عن هذا الطريق، وظل تأثير قسطنين يتزايد

---

(1) سيد رضوان علي، "العلوم والفنون عند العرب"، ص.111.

(7044/1)

-بفعل تلامذته- وبتأثير مدرسة سالرنو بوجه أخص - لأن تأثيرها سرعان ما امتد إلى أنحاء أوربا كلها(1).

... كما نبغ عدد من المترجمين في صقلية، منهم فرج بن سليم اليهودي المعروف عند الغرب باسم فراجوت أو فراريوس الذي ترجم كتاب "الحاوي" للرازي ترجمة رائعة انتهى منها سنة 1289م(2) وترجم أيضا "تقويم الأبدان" لابن جزلة

---

(1) توفيق الطويل، المرجع السابق، ص.157.

(2) ماكس مايرهوف، "العلوم والطب"، ضمن مجلد "تراث الإسلام"، إشراف، توماس أرنولد، تعريب وتعليق جرجيس فتح الله، ط3، بيروت، دار الطليعة، 1978، ص.499.

(7045/1)

البغدادي. كما ترجم كتاب "الطب التجريبي" لجالينوس.

... وعن هذه الجهود جميعا نشأت مدرسة سالرنو في جنوب إيطاليا التي ركزت على دراسة الطب، وكانت مركز إشعاع لعلم الطب في جنوب إيطاليا حيث ازدهر الطب العربي على يد أساتذة من العرب وغيرهم في أواخر القرن الحادي عشر. وبفضل عدد من المترجمين الأكفاء أمست هذه المدرسة معينا لا ينضب للثقافة والعلوم العربية ودعامة صلبة للنهضة العلمية الأوربية وبرزت مدرستها الطبية سنة 985م.

(7046/1)

وألفت كتب طبية في سالرنو أظهرت أن أطباءها لم يمتصوا المعلومات الحديثة العربية فقط، بل تمكنوا من توسيعها. وأهم مؤلفات مدرسة سالرنو هو "الموجز السالرني" و"النظام الصحي السالرني" (Regimen Satiates Salenitonum) الذي يبدو أنه ألف حوالي سنة 1100م، وهو قصيدة من 352 بيتا في الأصل. وأشهر شرح لها هو شرح أرنولد فلانوفا (Arnold of Villanova) (1235–1312م)، وهو طبيب وأديب من كاتلونيا أتقن العربية وترجم منها وألف باللاتينية.

واشتهر من طلاب سالرنو مايكل سكوت [Michael Scot] (1175–1236م) الذي تضمنت إحدى وصفاته

(7047/1)

التخدير بالاستنشاق(1).

... من شواهد التأثير الفاعل للثقافة العربية في إيطاليا في تلك الحقبة إنشاء مدرسة لتعليم اللغة العربية في جنوا وإدخال كثير من الألفاظ والاصطلاحات العربية إلى اللغة الإيطالية. وكان تسامح الحكام المسلمين في صقلية كعادتهم في كل مكان حلوا فيه، عاملا مباشرا في ازدهار الثقافة والفنون والعلوم فيها، حيث شملت لغات العالم العلمية الثلاث في ذلك الزمان وهي اللاتينية واليونانية والعربية. وتم نقل المؤلفات من لغة إلى

---

(1) محمود الحاج قاسم محمد، "الطب عند العرب والمسلمين"، صص.385–388.

(7048/1)

أخرى، وبذلك أصبحت صقلية خير نموذج لامتزاج الثقافات وصاحبة مدنية لاتينية يونانية عربية فريدة.

... وهكذا كانت صقلية تحت الحكم الإسلامي مسرحا لنقل الحضارة الإسلامية بعامة، وعلم الطب على الأخص إلى أوربا.

ثالثا: طريق الحروب الصليبية في الشرق

... بالقدر الذي بلغ فيه علم الطب عند المسلمين درجة عالية من التطور والرقي، وخاصة في بلاد الشام ومصر زمن الحروب الصليبية، كان الصليبيون وقتها في مستوى متدن للغاية حتى أن الطب كان عبارة عن خرافات وشعوذة. وما رواه أسامة بن منقذ يظهر لنا مدى التدني الذي كان عليه طب

(7049/1)

الصليبيين. فمن المعروف أن أسامة كان شاهد عيان اختلط بالصليبيين، ولذلك يعد حديثه عنهم حجة لها أهميتها. فقد روى أن جيلوم بوبور أخبره أثناء رحلة من عكا إلى طبرية برفقة معين الدين أنر عن فارس في أوربا مرض مرضا شديدا، فجيء إليه بقس كبير فوضع عليه يديه، وكان الحاضرون يتوقعون شفاءه فور قدوم القس. غير أن القس طلب شمعا ولينه، وعمله مثل عقد الإصبع ووضع كل واحدة في جانب أنفه فمات. وما كان من القس إلا أن التفت إليهم وقال سددت أنفه حتى يموت فيستريح(1)

---

(1) أبو المظفر أسامة بن مرشد الشيرازي (ت 584هـ-1188م)، "الاعتبار" حرره فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، 1930، صص.137-138.

(7050/1)

.

... ومثل هذا الموقف الذي يحدث من جانب الصليبيين جعلهم يقدرون الطب عند أهل الشام ومصر، ويفضلون أطباء المسلمين على أطبائهم، على الرغم من معارضة رجال الكنيسة وعلى رأسهم برنار دي كليرفو الذي كان أحد معاصري أسامة بن منقذ وكان يؤمن بالمعجزات الشفائية، لذلك حرم على رهبانه الذين يداهمه المرض أن يتناولوا أي نوه من أنواع الأدوية، أو أن يتصلوا بالأطباء؛ لأنه يجدر بهم حسب رأيه أن يموتوا دون أن تعبث بهم العقاقير.

(7051/1)

... ولم تكن هذه المعتقدات نابعة من برنار وأمثاله، بل كانت متأصلة في الزعي الديني عند النصارى آنذاك،

الذين يعتبرون المرض نوعا من الجزاء والعقاب الإلهي لا يصح للإنسان أن يتسبب في علاجه والبرء منه(1).

... وعلى الرغم من هذا الاعتقاد، فقد كان تقدير الصليبيين لأطباء مصر والشام كبيرا. وخير مثل على هذا ما حدث عندما أصيب بودوان بن عموري ملك بيت المقدس بالجذام. فقد استقدم عموري طبيبا من الديار المصرية هو داود بن

---

(1) عبد الله الربيعي، "أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي"، الرياض، 1415هـ/1994م، ص.118.

(7052/1)

أبي المنى لمعالجة ابنه. وكان الأمراء الصليبيون يلجأون إلى أطباء المسلمين عندما يصاب أحد منهم بمرض، مما جعل وليم الصوري يقول بشيء من الأسى: "إن أمراءنا الشرقيين، تحت تأثير نسائهم، يزرون بالأدوية وبالوسائل الطبية اللاتينية ولا يؤمنون إلا بالأطباء اليهود والسامريين والسوريين والعرب"(1).

... وكان بعض الطلاب الأوربيين المحبين للمعرفة يفدون إلى الشام لدراسة الطب في مدرسة طرابلس. وكانوا يبدأون دراستهم بعد تعلمهم وإتقانهم اللغة

العربية(2)

---

(1) عبد الله الربيعي، المرجع السابق، ص.122.

(2) عمر عبد السلام تدمري، "الحياة الثقافية في طرابلس خلال العصور الوسطى"، بيروت، دار فلسطين، 1973، ص.69.

(7053/1)

. وكان هؤلاء الطلاب يمارسون الطب بعد عودتهم بالمستوى الرفيع الذي وصلوا إليه. وقد طلب بعضهم من البابا إنوسنت الثالث أن يعمل على إقامة عدد من المشافي، فبادر في سنة 1204م بإنشاء مستشفى في روما سماه مستشفى الروح القدس. وأعقب هذا إنشاء عدد من المستشفيات على غراره في مختلف أنحاء أوربا. وقد وصل عدد هذه المستشفيات في القرن الثالث عشر الميلادي في ألمانيا وحدها إلى أكثر من مائة مستشفى. وفي فرنسا كثرت المستشفيات التي تعنى برعاية العجزة والفقراء. وفي عام 1260م أنشأ لويس التاسع في باريس ملجأ الثلاثمائة،

(7054/1)

وكان في بداية الأمر مأوى للمكفوفين، ثم أصبح مستشفى للرمد، والآن يعتبر من أهم المراكز الطبية في باريس. ومن المعروف أن الملك لويس كان قد قاد حملة إلى الشرق في عام 1249م. ولا شك أنه رأى في الشرق نماذج من المستشفيات، فعمد إلى إقامة مثيل لها في بلاده. أما في إنجلترا، فقد أنشئ مستشفى القديس بورثولميو في لندن في سنة 1123م، ويعتبر أقدم مستشفى في هذه البلاد. وفي عام 1215م أسس مستشفى القديس توماس في لندن(1).

---

(1) عبد الله الربيعي، "أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأدبي"، صص.123–124.

(7055/1)

... وإضافة إلى الطلاب الذين كانوا يفدون إلى الشرق للدراسة، كان هناك أطباء يرافقون الحملات الحربية ويجدون في هذا فرصة للتزود من معارف الشرق، ولا سيما في مجال الطب من الناحيتين العلمية والعملية. وكان من هؤلاء جراح إيطالي يدعى هوج البولوني قدم إلى الشرق في عام 1218م ومكث ثلاث سنوات اطلع خلالها على طرق

العلاج، واتصل بالأطباء ليكتسب الخبرة. وكم كانت دهشته عظيمة عندما رأى المستشفى العسكري المتنقل الذي يحمله أكثر من ثلاثين جملا. وأثناء حصار دمياط تعرف هوج على الطريقة التي يضمد بها المصابون؛ فقد تعلم

(7056/1)

كيف تلف الجروح بخرق نظيفة ساخنة مبلولة بالخمر ثم تترك مدة أسبوع حتى تندمل(1).

... وقد أبدى هوج إعجابه بصفة خاصة بطريقة التخدير التي كان يتبعها الأطباء المسلمون قبل إجراء العمليات. وكان الأطباء المصريون يستعملون نبات الخشخاش والشوكران لتخدير المرضى. ورأى عملية تجبير الكسور التي تتم بطرق علمية لا تستخدم فيها آلات التعليب التي كانت متبعة في أوربا. وعندما عاد هوج إلى أوربا في عام 1221م، اهتم بنشر هذه الطرق والأساليب. وقد ترك بعد وفاته مدرسة

---

(1) زيغريد هونكه، "شمس العرب تسطع على الغرب"، صص.300–301.

(7057/1)

للجراحة في بولونيا، تولاها ابنه ثيودريك، الذي كان أبوه قد أوصاه بالاهتمام بتضميد الجروح على نحو ما تعلمه من العرب، واتباع طريقتهم في التخدير. وقد أثبت ثيودريك أنه خير خلف لأبيه؛ فلقد زاول مهنة الطب وألف كتابا في الجراحة ضمنه تعاليم أبيه الطبية، وبخاصة في هذا الحقل(1).

... وكانت الكنيسة قد حرمت ممارسة الجراحة بموجب مرسوم صدر في سنة 1163م. ولكن بعد أن أخذت الكتب الطبية المترجمة عن العربية تنتشر في أوربا وتأسست عدة مراكز

(1) عبد الله الربيعي، "أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي"، صص.124–126.

(7058/1)

طبية على غرار مراكز الشرق، بدأ الاهتمام بالجراحة. وقد جاء في سجلات شارك دانجو، ملك صقلية، ذكر الكثير من المؤلفات اللاتينية المترجمة عن اللغة العربية. وقد رافق سَارْك أخاه لويس التاسع ملك فرنسا في حملته على مصر، وتسنى له الاتصال بالعلماء العرب، وقد عرف

عنه أنه أسس مدرسة للترجمة(1).

... هذا، وقد تمت في الشرق ترجمة بعض الكتب العربية إلى اللاتينية. ومن أشهر هذه الترجمات ترجمة الكتاب الملكي "كامل الصناعة الطبية" الذي ألفه علي بن عباس المجوسي. وهذه الترجمة قام بها ستيفن

---

(1) المرجع نفسه، صص.125–126.

(7059/1)

الأنطاكي ستيفانو دبيزا أثناء وجوده في أنطاكية في سنة 1127م وسماه "الكتاب الملكي"، وهو العنوان الذي عرف به الكتاب في أوربا وقد ترجم هذا الكتاب تحت اسم "Liber Pantegni". الواقع أن هذه الترجمة إعادة للترجمة التي قام بها قسطنطين الإفريقي في دير مونتي كاسينو في إيطاليا في القرن الحادي عشر الميلادي، وقد قوى الأثر العربي في هذه جامعة سالرنو بإيطاليا بالمعلومات الطبية التي كان الصليبيون العائدون من الشرق يحملونها معهم، فكانت إلى جانب الكتب العربية رافدا من روافد التعليم الطبي في هذه الجامعة. وظلت

(7060/1)

المقالتان الأولى والثالثة مرجعا لطلاب هذه الجامعة في علم التشريح مدة قرن من الزمان(1).

... وممن برز في نقل الطب إلى أوربا عبر هذا الطريق أدلار باث الذي اشتهر بنشاطه العلمي بين 1115 و1142م، حيث عاش في الشرق لسنوات عديدة وألف كتبا عديدة فيها الكثير من الآراء العلمية العربية؛ كما قام بترجمة عدد آخر من الكتب العربية إلى اللاتينية.

وساهم المرضى والأطباء من المحاربين العائدين أيضا في نقل كثير من الوصفات الطبية العربية إلى الغرب، وكان المحيط الرئيس لهم لدى العودة مدينة

(1) المرجع نفسه، صص.126-127.

سالرنو حيث أفاد في دفع الحركة الطبية في مدرستها.

وعلى الرغم من كون تأثير الحروب الصليبية على الثقافة والطب لم يكن بحجم المعابر، فإن ذلك التأثير ظهر جليا في أوربا بعد القرن الثاني عشر بظهور المستشفيات والملاجئ التي أخذوها عن المشرق الإسلامي(1). إذ أنه يمكن أن نجزم بأن من أبرز الآثر

الملموسة للطب الإسلامي في أوربا عن هذا الطريق هو تلك المستشفيات التي أخذت تنتشر في العواصم الأوربية بداية من القرن الثالث عشر الميلادي حيث كان الشرق

---

(1) محمود الحاج قاسم محمد، "الطب عند العرب والمسلمين"، صص.390–391.

(7062/1)

الإسلامي ميدانا لمشاهدة الأوربيين لتلك البيمارستانات المنتشرة عند المسلمين والتي بلغت حدا من الرقي والتقدم كالبيمارستان النوري والمنصوري بالقاهرة.

... ومن المعابر الثانوية:

... 1– الرحلات:

... كان من بين المعابر الثانوية للحضارة الإسلامية بعامة، وعلم الطب بخاصة، إلى أوربا تلك الرحلات التي قام بها الأوربيون إلى عدد من مناطق العالم الإسلامي وبلاده. وكان الغرض الأساسي من هذه الرحلات هو التجارة والسياحة وتلقي العلوم. فعلى سبيل المثال ماركو بولو صاحب الرحلة السياحية المشهورة، وليوناردو دافنشي الذي

(7063/1)

ولد في بيزا عام 1180م؛ وخلال عمله في التجارة في بجاية في الجزائر تعلم الحساب وزار طوروس وسبتة وتونس، وتردد على مكتبات الإسكندرية ودمشق، وناقش كبار العلماء في القاهرة، ودرس كل ما حوته مخطوطات كبار الرياضيين من الإغريق والهنود والعرب، فنبغ في ذلك؛ وبعد أن عاد إلى إيطاليا تنبه إليه القيصر فردريك الثاني وضمه إلى خلصائه من العلماء. فهناك ألف الكتب وعلم الغربيين الأرقام العربية والصفر العربي(1).

---

(1) محمود الحاج قاسم محمد، "الطب عند العرب والمسلمين"، صص.393.

(7064/1)

... وقد أدرك كثير من الأوربيين أهمية الطب عند المسلمين ومدى ما وصلوا إليه من تطور في هذا المجال، فشرعوا في الرحلة إلى عدد من بلدان العالم الإسلامي والإقامة بها سنوات طويلة تعلموا خلالها اللغة العربية

ودرسوا ما احتاجوا إليه من علوم ومنها علم الطب. وكان ممن رحل لهذا الغرض الطبيب الأنطاكي أندرياس ألباكوس () (Andreas Alpaqus1450–1523م) الذي قضى أكثر من ثلاثين سنة في سوريا حيث ذهب خصيصا لدراسة اللغة العربية وللاطلاع على النصوص والمخطوطات العربية في أصولها، ثم عاد إلى بادوا وعين أستاذا للطب في

(7065/1)

جامعتها، فترجم عددا من الكتب العربية إلى اللاتينية مع شروح على بعضها. وقد نشر قسم منها بعد وفاته، منها ترجمة شرح ابن النفيس للقسم الخامس من "قانون" ابن سينا طبع سنة 1527م، ونقح ترجمة جرارد الكريموني لـ"قانون" ابن سينا طبع سنة 1527م، وأعيد طبعه بعد ذلك مرات متعددة وبلغت طبعات "القانون" 36 طبعة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وطبعت ترجمته لكتاب "الأدوية" لابن البيطار سنة 1602م. "ولكن من المؤكد أنه لم تطبع كل الكتب التي ترجمها ألباكوس لغرض النشر"(1).

---

(1) المرجع نفسه، صص.392–393.

(7066/1)

... وقد أصبحت نسخته من "شرح التشريح" لابن النفيس في مكتبة أسرة ناني (Nani) في البندقية. وقد اطلعت على فهرس المكتبة الذي أعده أستاذ اللغات الشرقية في جامعة بادوا سيموني أسماني (Simon Assemani)، ونشر سنة 1792م في بادوا. فإذا هو يحتوي على وصف النسخة التي كتبت سنة 734هـ/1333م، أي خمس وخمسين سنة بعد وفاة المؤلف ابن النفيس. وتقع في 306 صفحات. إن لوجود هذه النسخة أهمية كبرى في تاريخ اكتشاف الدورة الدموية(1).

... 2- البعثات العلمية:

---

(1) محمود الجليلي، "تأثير الطب الغربي في الطب الأوربي"، صص.200-201.

(7067/1)

... كما أن من ضمن المعابر الثانوية للحضارة الإسلامية بعامة وعلم الطب بخاصة إلى أوربا، تلك البعثات العلمية التي يقوم بإرسالها بين الحين والآخر ملوك أوربا إلى

الديار الإسلامية لدراسة علوم المسلمين ونقلها إلى اللغات الأوربية، ومنها علم الطب.

... ومن البعثات العلمية المبكرة التي أرسلت إلى العالم الإسلامي من أوربا تلك البعثات المتواصلة التي كانت تفد إلى الأندلس من الأقطار الأوربية كإيطاليا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا حتى بلغت سنة 312هـ في عهد الخليفة الناصر زهاء سبعمائة طالب وطالبة. وكان من بين تلك

(7068/1)

البعثات بعثة علمية فرنسية برئاسة الأمير إليزابث ابنة خال الملك لويس السادس ملك فرنسا آنذاك(1).

... كما أن فيليب ملك بافاريا بعث إلى الخليفة الأموي هاشم الثالث (حوالي سنة 403هـ) برسالة يستأذنه فيها أن يرسل بعثة من الطلاب والطالبات للاطلاع على النهضة العلمية التي تعيشها الأندلس للاستفادة منها والاقتباس عن حضارة الأندلس الراقية. وكان على رأس هذه البعثة وزير الملك المدعو ويلمبين الذي سماه العرب "وليم الأمين"، وكانت هذه

---

(1) سعد البشري، "الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس"، صص.532–533.

(7069/1)

البعثة تتألف من 215 طالبا وطالبة تم توزيعهم على حواضر العلم في الأندلس. وتذكر الروايات التاريخية أن ثمانية من أفراد هذه البعثة اعتنقوا الإسلام ومكثوا في الأندلس، ومن هؤلاء الثمانية ثلاث فتيات تزوجن بعدد من مشاهير رجال الأندلس(1).

... ويذكر التاريخ أن ملك إنجلترا جورج الثاني أرسل بعثة من بنات النبلاء والأشراف، وفي مقدمتهن الأميرة دوبانت ابنة أخيه، إلى الأندلس ووجه معهن خطابا إلى الخليفة الأموي يقول فيه: "أردنا لزبنائنا اقتباس

---

(1) خليل السامرائي وآخرون، "تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس"، ص.376.

(7070/1)

حضارتكم لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر نور العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل"(1). كما

يشير فؤاد سزكين إلى طريق آخر لنقل العلوم الإسلامية ومنها الطب إلى أوربا. ذلك هو الطريق الشفوي. إذ عمد عدد من الأوربيين منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وبخاصة الذين لا يفهمون العربية، إلى الترجمة الشفوية لإنتاج العلماء المسلمين حيث كانوا يستفيدون من مؤلفات المسلمين دون أن تكون قد ترجمت إلى اللغات الأوربية أو أنها كتب ترجمت ثم خفيت ترجماتها على الناس(2)

---

(1) سعد البشري، المرجع السابق، صص.533–534.

(2) "محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية"، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ألمانيا، 1404هـ/1984م، صص.128–129.

(7071/1)

.

... هذا وقد تعددت مجالات التأثير في الطب الإسلامي على أوربا وشملت مختلف فروع الطب وجوانبه. إلا أنه يمكن الإشارة إلى عدد من الجوانب التي يمكن تلمس ذلك الأثر عن طريقها بصفة واضحة، ومنها:

... – الصيدلة:

... نشأت الصيدلة منذ زمن قديم وارتبطت ارتباطا وثيقا بعلم الطب، إذ كان الطبيب هو الذي يعد الدواء ويركبه للمرضى. ومع مرور الزمن وتشعب العقاقير وطرق تركيبها، ظهر التخصص في هذا العلم مع اتصاله الملح مع الطب. فالأسس والاحتياجات والمقادير يصنعها الطبيب، والصيدلي هو الذي يعمل على جمعها وتركيبها واختيار

(7072/1)

الأجود من أنواعها.

... وقد برع المسلمون في تحضير وضع الضمادات والمساحيق والمراهم وتركيباتها، واكتشفوا أدوية جديدة منها: الكافور والصندل واللاوند والمسك والتمر هندي والحنظل، كما اخترعوا الكحول والمستحلبات والخلاصات العطرية، وهم أول من ابتكر الشراب الحلو المستخرج من نبات الكرنب مع السكر. وما زال الغرب يطلقون عليه كلمة (Syrop) وهي مأخوذة من كلمة "شراب" التي تردد في المصادر العربية.

... ولذا، فإن من المسلم به لدى المختصين في تاريخ العلوم أن المسلمين هم أول من جعل الصيدلة علما مستقلا، وعملوا على

تقدمه تقدما ملحوظا. وبذا تقول زيغريد هونكه حول مكانة الصيدلاني عند المسلمين:

لقد نقل العرب حقل محضر الدواء عن حقل واصفه وأوجدوا مهنة الصيدلاني الذي ارتفع إلى مركز عال بفضل علومه ومسؤولياته الخاصة. وكانوا أول من افتتح الصيدليات العامة، وذلك في العام الثمانين من القرن الثامن في ظل حكم الخليفة المنصور؛ كما أنهم ألحقوا بكل بيمارستان صيدلية خاصة به(1).

... ونما تبعا لذلك علم العقاقير أو الأقراباذين (Materia Medica) عند المسلمين نموا كبيرا حيث أكثروا من التأليف

---

(1) "شمس العرب تسطع على الغرب"، ص.329.

في الأدوية المفردة من الأعشاب وغيرها، وفي الأدوية المركبة في صور مختلفة. وتضرب زيغريد هونكه مثالا من عمل ابن سينا في كتابه المشهور "القانون في

الطب" الذي ذكر فيه ما ينوف على سبعمائة عقار أدخلت كلها في علم النبات وعلم الصيدلة للأوربيين. وظل الكثير منها بأسمائها العربية في اللغات العربية في اللغات الأجنبية كالعنبر والزعفران والكافور والمسك وعود الند والصندل والتمر هندي وغيرها(1).

---

(1) جلال مظهر، "أثر الحضارة العربية على أوربا"، ص.272.

(7075/1)

... واشتهر عدد من صيادلة العرب شهرة واسعة ونالت أعمالهم استحسانا كبيرا في أوربا. ومن هؤلاء ماسويه المارديني (المتوفى سنة 406هـ/1015م) الذي عاش في بغداد والقاهرة، وعرف في أوربا بماسويه الصغير أيضا، وله مؤلف ضخم في العقاقير في اثني عشر جزءا ترجم إلى اللاتينية وشاع واشتهر اشتهارا واسعا في أوربا اللاتينية، واستمر مدة قرون عديدة الكتاب المدرسي الأول في الصيدلة في أوربا(1).

---

(1) أحمد علي الملا، "أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية"، دمشق، دار الفكر، 1981، ص.144.

(7076/1)

... وكان ممن برز في علم الصيدلة عند المسلمين الطبيب عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكريم الملقب بابن وافد الطليطلي المتوفي سنة (467هـ/1074م). وكانت اهتماماته في الأدوية المفردة، وألف فيها كتابا ضاع أصله العربي، بينما هو موجود في ترجمته اللاتينية بعنوان Meineralibus Simplicibus. ويقدر تأثيره بأن طبع منه حوالي خمسين طبعة ملحقا بمؤلف ماسويه الصغير المذكور آنفا وانتشرت في مختلف أنحاء أوربا(1).

---

(1) جلال مظهر، "أثر الحضارة العربية على أوربا"، ص.272.

(7077/1)

... ومن أشهر وأوسع الكتب في الموضوع كتاب "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" لابن البيطار (ت698هـ/1298م). وقد ترجمت أجزاء من هذا الكتاب إلى اللاتينية وطبعت منذ 1598م في البندقية، ثم في

باريس 1606م. والترجمة الكاملة ظهرت في ألمانيا، وطبعت في شتوتجارت في سنة 1842م(1).

... وكان تأثير علم الصيدلة عند المسلمين كبيرا جدا في أوربا. ويظهر ذلك من ترجمة المصادر العربية من الصيدلة إلى اللاتينية منذ عهد مبكر وطبعها وتداولها أو الاستفادة منها حتى أوائل القرن التاسع

---

(1) سيد رضوان علي، المرجع السابق، ص.67.

(7078/1)

عشر. كما يظهر هذا الأثر من خلال اطلاع الأوربيين على أسماء وأوصاف عقاقير أسيوية وإفريقية لم يعرفها اليونانيون من قبل(1).

... وقد امتد أثر علماء المسلمين على غيرهم من الأمم في علم الصيدلة أن أخذ العلماء في كل من أوربا وأمريكا، قبيل عهد قريب وبالتحديد سنة 1964م، بإعادة قراءة

---

(1) محمد زهير البابا، "مصادر الأدوية المفردة أو العقاقير في الطب العربي"، مجلد أبحاث المؤتمر السنوي الثاني للجمعية السورية لتاريخ العلوم المنعقدة

بجامعة حلب في أبريل 1977م، معهد التراث العلمي العربي جامعة حلب 1979م، ص.198.

(7079/1)

كتاب ابن داود "تذكرة أولي الألباب" في محاولة للكشف عن أدوية جديدة للأمراض(1).

... – الجراحة:

... أما عن الجراحة وفنونها، فقد تقدمت عند المسلمين تقدما كبيرا وقدموا فيها أروع الإنجازات واشتهر منهم عدد من أعلام الجراحة في التاريخ كان من أبرزهم رائد الجراحة في قرطبة أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المتوفى سنة 427هـ/1035م الذي ألف كتاب "التصريف لمن عجز عن التأليف"، وجعل للجراحة بابا خاصا مهما من هذا

---

(1) أحمد علي الملا، "أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية"، ط2، دمشق، دار الفكر، 1981، ص.144.

(7080/1)

الكتاب. وكان هذا الباب شرطا في ممارسة الجراحة. وقد نشر باللغة اللاتينية باسم Chirurgia. وقال عنه الدميلي إنه أعظم الجراحين العرب على وجه الخصوص(1).

... ويمتاز كتاب "التصريف" بكثرة الرسوم التوضيحية للآلات الجراحية التي كان يستخدمها في عمله. ولقد استمر هذا الكتاب مدة خمسة قرون عمدة في الأمور الجراحية في أوربا وترجم مرات عديدة إلى اللغة العبرية واللاتينية.

... وقد استمر تطور علم الجراحة عند المسلمين في القرون اللاحقة، مما حدا بالمؤرخ الإنجليزي كامبل إلى أن يصف

---

(1) "العلم عند العرب"، ص.353.

(7081/1)

الجراحة في الأندلس بقوله:

فكانت الجراحة في إسبانيا المسلمة في القرن الثالث عشر تتمتع بسمعة أعظم من سمعتها في باريس ولندن وأدنبره. ذلك أن ممارسي مهنة الطب في سرقسطة كانوا يمنحون لقب طبيب جراح، بينما كان لقبهم في أوربا حلاق جراح. وظل هذا التقليد ساريا في إسبانيا

حتى القرن السادس عشر(1).

... وقد أخذ الأوربيون معارفهم في الجراحة من علماء المسلمين. فكان باب الجراحة من كتاب "التصريف" للزهراوي مرجعا لكل من مارس الجراحة في أوربا آنذاك

---

(1) سيد رضوان علي، "العلوم والفنون عند العرب"، ص.63–64.

(7082/1)

... وكان من أبرز العلماء المسلمين الذين كثرت تآليفهم في علم الطب وازداد أثرهم وذاع صيتهم في الغرب:

– الرازي (240–320هـ/854–932م)

... هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي من أشهر الأطباء الكبار وأنبغهم وأكثرهم تأليفا وابتكارا، طبقت شهرته الآفاق عبر العصور، وقد عرف في أوربا منذ العصور الوسطى بـ Rhazes، وانتشرت مؤلفاته بها مترجمة إلى اللاتينية.

... ولد الرازي بالري في سنة 240هـ/854م، وتوفي في حدود سنة 320هـ/932م بعد عمر مديد أصيب بالعمى في آخره. وعلى ذلك، فإنه عاش في النصف الثاني من القرن الثاني والربع

(7083/1)

الأول من القرن الثالث للهجرة، أي أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر للميلادي.

... والرازي غزير الإنتاج. كتب في موضوعات شتى من الفلسفة والكيمياء والطب وغيرها، وبلغ عددها 13 كتابا و24 رسالة أو بحثا، ونصفها في الطب. وأشهر وأوسع مؤلفاته في الطب كتاب "الحاوي". وهو موسوعة طبية حافلة، حوى جميع المعارف الطبية لدى اليونان والعرب والهند، كما ضمنه المؤلف تجاربه الشخصية من المداواة وهي مهمة، وآراءه المبتكرة في هذا المجال. وكان تأثيره كبيرا في تقدم الطب في الشرق والغرب فأصبح من الكتب المدرسية الذي كان

(7084/1)

يرجع إليه الأطباء دائما. وقد طبع منه 23 جزءا حتى الآن.

... أما تأثيره في أوربا، فيذكر أنه ترجم إلى اللاتينية لأول مرة في سنة 1279م برعاية الملك شارل أنجو ملك صقلية. ترجمه الطبيب اليهودي فرج بن سالم، وعرف في اللاتينية باسم Continens، وانتشر في نسخ خطية

كثيرة. ثم عندما اخترعت الطباعة، طبع لأول مرة في سنة 1468م، ثم أعيد طبعه مرارا وأصبح من الكتب المعتمدة في دراسة الطب في جامعات أوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادي. وهو من الكتب التسعة التي كانت تتكون منها مكتبة الكلية الطبية في باريس سنة 1395م.

(7085/1)

وتكررت طباعته في أوربا بترجمته اللاتينية، وبقي القسم الخاص بالصيدلة المرجع المهم في التداوي زمنا طويلا(1).

... وكانت رسالة أبي بكر الرازي المشهورة في الجدري والحصبة أول بحث علمي متقن في الأمراض المعدية.

ويمكن تقدير شهرتها وتأثيرها بأنها طبعت أربعين طبعة باللغة الإنجليزية بين سنتي 1498 و1866م.

وكانت هذه الترجمة الإنجليزية من ترجمة الكتاب باللاتينية التي تمت في عصر مبكر في القرن الحادي عشر الميلادي(2).

---

(1) سيد رضوان علي، المرجع السابق، ص.74.

(2) المرجع نفسه، ص.60.

(7086/1)

... وقد اعترف به الغربيون عموما؛ كما أن علماء أمريكا وجامعاتها وضعوا له اعتبارا خاصا في جامعة برنستون الأمريكية بتخصيص ناحية فخمة من بنائها لمآثر الرازي، وأنشأوا دارا لتدريس العلوم العربية والبحث عن المخطوطات الطبية وإخراجها(1).

... ومن كتبه المشهورة المهمة ذات التأثير العظيم في معارف أوربا الطبية كتاب "المنصوري" الذي ألفه للأمير منصور بن إسحاق أمير سجستان وهو في عشرة أجزاء، وقد نقل هذا الكتاب إلى اللاتينية أيضا في القرن

---

(1) أحمد عمر الملا، "أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية"، ص.138.

(7087/1)

الثاني عشر الميلادي وعرف باسم Liber Almansoris. وطبع لأول مرة في ميلانو بين 480 و1489م. وظلت تدرس في جامعات أوربا بجانب كتب الرازي الأخرى حتى القرن السابع عشر للميلاد.

... وكان من تقدير أوربا وأمريكا لهذا العالم الطبيب العبقري الفذ أن علقت صورته في القاعة الكبرى بكلية الطب بجامعة باريس كما سميت قاعة من أفخم قاعات جامعة برنستون الأمريكية باسمه.

– علي بن العباس المجوسي (كان حيا قبل سنة 384هـ/994م)

... طبيب عضد الدولة البويهي وأحد تلامذة الطبيب الرازي. اشتهر في ممارسة الطب وتعليمه وألف كتاب "كامل

(7088/1)

الصناعات الطبية"، وهو أول كتاب عربي كبير يترجم إلى اللاتينية ترجمه قسطنطين الإفريقي وعرف بالكتاب الملكي "Liber Regius"؛ وقيل فيه إنه:

... كتاب جليل وكناش نبيل اشتمل على علم الطب وعمله. وكانت أفضل أقسامه القسم الذي يبحث في علم الأغذية الصحية وعلم العقاقير الطبية. ومن الأمور المبتكرة فيه إشارته إلى وجود الحركة الدموية الشعرية، وبرهانه على أن الطفل في الولادة لا يخرج من نفسه، بل بفعل تقلصات عضلية داخل الرحم إلى غير ذلك من الإضافات الطبية المهمة(1)

---

(1) فيليب حتي وآخرون، "تاريخ العرب"، الجزء الثاني، ط4، بيروت، 1965، ص.685.

(7089/1)

.

– ابن سينا (370–428هـ/980–1037م)

... أما الطبيب ابن سينا، فهو أشهر الأطباء في تاريخ الطب العربي على الإطلاق، وفاق في الشهرة والتأثير سلفه الرازي، وإن كان أقل منه ابتكارا عند البعض، وكان بجانب نبوغه في الطب فيلسوفا بارعا، بل هو عالم موسوعي درس جميع العلوم الفلسفية القديمة عند اليونان من الطبيعيات والرياضيات والفلك والمنطق والفلسفة حتى عرف بلقب "الشيخ الرئيس". ولا شك أنه أحد كبار عباقرة العلوم في تاريخ الإسلام، بل على المستوى العالمي.

(7090/1)

... واسمه الكامل أبو علي الحسين بن عبد الله، واشتهر بابن سينا. وقد ولد في إحدى قرى مدينة بخارى في سنة

370هـ/980م، وتوفي بهمذان في سنة 428هـ/1037م.

... وكان من أعظم وأشهر كتبه في موضوع بحثنا "القانون في الطب"، ويعرف بـ"القانون". وقد اشتهر اشتهارا كبيرا في الشرق والغرب على السواء. والذي دفع أحد العلماء الأمريكيين أن يقول: "إن كتاب "القانون" ظل الحجة والمرجع في الطب مدة أطول من أي مدة بلغها كتاب طبي آخر". وأصبح هذا الكتاب كتابا مدرسيا في المعاهد الطبية في الشرق وكذلك في كليات الطب وجامعات أوربا

(7091/1)

بعد ترجمته إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي، وظل يدرس فيها حتى نهاية القرن السابع عشر للميلاد(1).

... ويقدر مدى انتشار هذا الكتاب في العالم الغربي في العصور الوسطى أنه طبع خلال ست وعشرين سنة (1174–1500م). وقد طبع في بولاق بمصر في أواخر القرن التاسع عشر في ثلاثة مجلدات كبار. وهو كتاب ضخم شامل في جميع المعارف الطبية، ويفوق في دقة التنظيم والتنسيق كتاب "الحاوي" للرازي، وفيه ذكر ستين وسبعمائة دواء.

(1) سيد رضوان علي، "العلوم والفنون عند العرب"، ص.76.

(7092/1)

... ومن الجدير بالذكر أن كتابه "القانون في الطب" لا يزال يدرس ويستعان به في كليات الطب العربي والهند والباكستان، كما يمارس هذا الطب الذي يسمى في تلك البلاد بالطب اليوناني على مدى واسع. وهذا العلاج أرخص وأقل ضررا من الطب الأوربي، وله أطباء مشهورين منتشرون في جميع أنحاء شبه القارة الهندية. وتزين صورة ابن سينا القاعة الكبرى بكلية الطب بجامعة باريس بجانب صورة الرازي الطبيب(1).

– الزهراوي:

(1) المرجع نفسه، ص.78.

(7093/1)

... خلف بن عباس الزهراوي المتوفى سنة 427هـ/1035م، وهو أشهر أطباء الأندلس ورائد الجراحة في قرطبة. وقد

اشتهر بتأليف كتابه المشهور "التصريف لمن عجز عن التأليف" والذي قال بالنثيا صاحب كتاب تاريخ الفكر الأندلسي:

... إنه أهم وأذيع كتاب في تاريخ الطب كله، وإن الزهراوي قد ارتفع به في أعين الناس إلى طبقة أبقراط وجالينوس، وإنه يحوي رسوم الآلات الجراحية. وهو أول مؤلف جعل الجراحة علما قائما بذاته مستقلا عن الطب وأقامها على أساس من العلم بالتشريح(1)

---

(1) أنخل جنثالث بالنثيا، "تاريخ الفكر الأندلسي"، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ص.466. وقد جعل وفاته سنة 403هـ/1013م.

(7094/1)

.

... وقد نشر ضمن هذا الكتاب 200 شكل عن آلات الجراحة واستعمالاتها. وقد نقل جزءا من هذا المؤلف المترجم جيراد الكرموني، وصدرت منه طبعات مختلفة: واحدة في البندقية عام 1497م وأخرى في بلسل عام 1541م وثالثة في أكسفورد عام 1778م، وظل في مدرستي

سالرنو ومونبلييه وغيرهما من مدارس الطب المتقدمة(1).

... ويذكر الدميلي أن الزهراوي أشهر أطباء الأندلس في ذلك العصر، بل من أعظم أطباء المسلمين أيضا... وربما كان الزهراوي أعظم الجراحين

---

(1) فيليب حتي وآخرون، "تاريخ العرب"، الجزء الثاني، ط4، بيروت، 1965، ص.685.

(7095/1)

العرب على وجه الخصوص(1). ويذكر العالم الشهير هالو أن كتب أبي القاسم الزهراوي كانت المصدر العام الذي استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر، وترانا مدينين لأبي القاسم بكثير من الآلات الجراحية التي تظهر صورها في كتبه.

– ابن زهر:

... أبو مروان عبد الملك بن زهر (ت 557هـ/1162م)، وهو أحد أعلام الطب البارزين في الأندلس، وبالتحديد في عصر الموحدين، وكان أحد أفراد أسرة ابن زهر التي تفرع منها ستة من الأطباء المرموقين. وقد اشتهر ابن زهر بمؤلفه الطبي كتاب

(1) "العلم عند العرب"، ص.353.

(7096/1)

"التيسير في المداواة والتدبير" الذي جعل محور اكتشاف الأمراض هو التجربة، مما أوصله إلى آراء مبتكرة. وقد ترجم هذا الكتاب إلى العبرية، ثم إلى اللاتينية، وصار أحد المصادر المهمة التي كانت تدرس في المراكز الطبية المشهورة في أوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادي(1). وكان ابن زهر قد ألف هذا الكتاب استجابة لطلب صديقه ابن رشد الذي كان من أشد المعجبين به، وقد أثنى عليه كثيرا في "كلياته"، واعتبره أعظم طبيب عرفه العالم بعد

(1) يوسف العريني، "الحياة العلمية في الأندلس في العصر الموحدي"، صص.334–335.

(7097/1)

جالينوس. وأقل ما يقال عنه أنه أعظم طبيب سريري في الإسلام بعد الرازي(1).

... ومع مرور الزمن، آتت تلك الجهود ثمارها؛ وظهر تأثير الأوربيين في المعرفة الطبية بالطب الإسلامي، وظهر جيل من مشاهير الأساتذة في الطب في عدد من العواصم الأوربية، وأظهر علم وظائف الأعضاء بعض النشاط والانتعاش، وصدرت كتب في علم التشريح بأقلام

---

(1) صالح رمضان محمود، "أهم المبدعين في مجالات الفكر والعلم التي أغنت بها الحضارة الإسلامية المسيرة الإنسانية"، مجلة "المؤرخ العربي"، العدد الثامن عشر، بغداد، 1401هـ/1981م، ص.29.

(7098/1)

الأوربيين أنفسهم، وأصبحت أمراض النساء وعوارض الحمل والولادة موضوعا للدراسة العلمية بعدما كانت من اختصاص القوابل والمولدات، وانتقلت أمراض العين من أيدي القداحين الجوالين إلى أيدي الأطباء المدركين لمهنتهم. وأسس في البلاد الأوربية أعدادا من الجامعات والمعاهد التي تعنى بتدريس الطب حيث يتأكد أنه من ضمن آثار انتقال العلوم الطبية عند المسلمين إلى أوربا أن نشأت المدارس الخاصة بتعليم الطب في كل من مونبيلييه ونابولي وبولونيا وبادوا وأورليانز

وأكسفورد وبكريدج وغيرها، وهذه المدارس جميعها كانت تستخدم كتب

(7099/1)

الطب الإسلامية بلغاتها العربية أو المترجمة إلى اللغة اللاتينية، وكانت الأساس في تقدم المعارف الطبية عند الأوربيين قرونا عديدة. وأصبحت مصادر الطب على اختلافها ميسورة باللغة اللاتينية، وازداد التقدم في ميداني الصحة والجراحة وإدارة المستشفيات أيضا. فاضطلع كي دي شولياك كبير جراحي مونبيلييه (ت1368م) بعمليات الفتق، كما برز لانفراشي الميلاني الذي زاول الطب في فرنسا بطرق محسنة لربط الأوعية الدموية وخياطة الجروح إلى غير ذلك من الآثار الطبية(1).

---

(1) ماكس مايرهوف، "تراث الإسلام"، صص.502-503.

(7100/1)

... ويشار هنا إلى أن من مظاهر التأثر الأوربي بالطب الإسلامي وجود عدد كبير من الألفاظ والمصطلحات العلمية

العربية في مجالي الطب والصيدلة تستخدم في اللغات الأوربية الحديثة برسمها أو ببعض التحوير الذي لا يخفي أصلها ومصدرها، ومن ذلك:

... الكلمات الطبية المستخدمة في اللغة الإنجليزية والتي اشتقت من العربية(1):

الإكسير

Elixir

حكيم

Hakeem

حشيش

Hasheesh

معجون

Majoon

مرئً

Meri

موميا

Mummy

نخاع

Nucha

صداع

---

(1) **جلال مظهر، "مآثر العرب على الحضارة الأوربية"، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية،** 1960، **ص**.413.

(7101/1)

Soda

سبات

Subeth

سنبل

Sumbul

طباشير

Tabashee

... أما في مجال الصيدلة والنبات، فمنها:

كمون

Cumin

أبو المسك

Abelmosk

الحناء

Alcanna

الحنظل

Alhandal

البرقوق

Apricot

أرجان

Argan

الخرشوف

Artichoke

الباذنجان

Aubergine

بندق

Bonduc

كافور

Caphor

قهوة

Coffee

قطن

Cotton

كركم

Corcus

كبابة

Cubeb

كمون

Alcanna

... وأشير ختاما لهذا البحث إلى أن ترجمة الكتب الطبية العربية إلى اللغات الأوربية كانت أساسا للمعرفة الطبية عند الأوربيين، ثم هي سبب رئيس فيتطور الطب الأوربي حيث ترجم في أوربا من

(7102/1)

العربية إلى اللاتينية أكثر من ثلاثمائة كتاب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين. وهذا العدد كبير جدا بالنسبة لهذه الفترة. ومن هذا المنطلق بدأت الصحوة الأوربية بعد أن عرف الأوربيون الحضارة الإسلامية عن كثب، فعملوا على صنع حضارة خاصة بهم مستفيدين من الأفكار والنظريات التي انتهى إليها العلماء المسلمون، فواصلوا المسيرة العلمية حتى استطاعوا أن يشيدوا صرح الحضارة الحديثة(1).

---

(1) أحمد الملا، "أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية"، ص.143.

(7103/1)

... ثم إنه يحسن بنا أن نشير هنا إلى أن اللغة العربية كانت هي لغة الطب ممارسة وتعليما في أروقة المستشفيات ومراكز الطب على اختلافها. وقد أغنت هذه اللغة كل الثقافات التي نقلت إليها ولم تعجز عن حمل هذه الرسالة الواسعة. ولا تزال لغتنا العريقة قادرة على الاستيعاب وقبول كل ما ينقل إليها من علوم ومعارف وأن تسير في مواكبة الرقي والتقدم الحضاري في هذا

الزمان.

... وربما يأتي اليوم الذي يعود فيه المسلمون إلى أسباب تلك الحضارة المجيدة السابقة ويعملون على استعادة ماضيهم المشرف وتقوى معارفهم العلمية

(7104/1)

واكتشافاتهم، فتعود الأمم تتطلع إلى نتاج المسلمين كما كانت سابقا وليس ذلك على الله ببعيد.

المصادر والمراجع

أحمد عبد الرحيم السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، الرياض، دار اللواء، 1401هـ/1981م.

أحمد علي الملا، "أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية"، ط2، دمشق، دار الفكر، 1981.

الدميلي، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى، دمشق، دار القلم، 1962م.

(7105/1)

أنخل جنثالث بالنشيا، تاريخ الفكر الإسلامي، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ص.466، وقد جعل وفاته سنة 403هـ/1013م.
توفيق الطويل، "الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية. دراسة مقارنة، القاهرة، مكتبة التراث الإسلامي.
جلال مظهر، حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العلمي، القاهرة، مكتبة الخانجي.
جلال مظهر، الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث، القاهرة، مركز كتب الشرق الأوسط
جلال مظهر، مآثر العرب على الحضارة الأوربية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1960م.

(7106/1)

جلال مظهر، مآثر العرب على الحضارة الأوربية، بيروت، دار الرائد، 1967م.
خليل السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، جامعة الموصل.
زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، تعريب فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت، المكتب التجاري، ط2، 1969م.
سعد بن عبد الله البشري، الحياة العلمية في عصر ملوك

الطوائف في الأندلس، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1414هـ/1993م.

سيد رضوان علي، العلوم والفنون عند العرب ودورهم في الحضارة العالمية، الرياض، دار المريخ، 1407هـ/1987م.

(7107/1)

صالح رمضان محمود، "أهم المبدعين في مجالات الفكر والعلم التي أغنت بها الحضارة العربية الإسلامية المسيرة الإنسانية، مجلة المؤرخ العربي، العدد الثامن عشرة، بغداد، 1401هـ/1981م، ص.29.

الشيرزي أبو المظفر أسامة بن منقذ (ت 584هـ/1188م)، الاعتبار، حرره فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون، 1930م.

عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي، أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي، الرياض، 1415هـ/1994.

عبد الحليم منتصر، تاريخ العلوم ودور العلماء في تقدمه، القاهرة، دار المعارف، 1980، ص.230.

(7108/1)

علي عبد الله الدفاع، لمحات من تاريخ الطب عند المسلمين الأوائل، الرياض، دار الرفاعي، 1983م.

علي عبد الله الدفاع، أعلام العرب والمسلمين في الطب، بيروت، دار الرسالة، 1983م.

عمر عبد السلام تدمري، الحياة الثقافية في طرابلس خلال العصور الوسطى، بيروت، دار فلسطين، 1973م.

الفاضل عبيد عمر، الطب الإسلامي عبر القرون، الرياض، دار الشواف –جدة، المطبوعات الحديثة، 1410هـ/1989م.

فؤاد سزكين، محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، فرانكفورت، ألمانيا، 1404هـ/1984م.

(7109/1)

فيليب حتي وآخرون، تاريخ العرب، الجزء الثاني، ط4، بيروت، 1965، ص.685.

ماكس مايرهوف، العلوم والطب، ضمن مجلد تراث الإسلام، إشراف توماس أرنولد، تعريب وتعليق جرجيس فتح الله، ط3، بيروت، دار الطليعة، 1978، ص.499.

محمد زهير البابا، "مصادر الأدوية المفردة أو العقاقير في الطب العربي"، مجلد أبحاث المؤتمر السنوي الثاني للجمعية السورية لتاريخ العلوم المنعقدة بجامعة حلب

في أبريل 1977، معهد التراث العلمي العربي جامعة حلب 1979م.

محمد الصديقي، انتشار العرب وعلومهم في فرنسا، الهند، مطبعة أسرار كريمي، 1941م.

(7110/1)

محمد عبد الرحمن مرحبا، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1970م.

محمود الجليلي، "تأثير الطب العربي في الطب الأوربي"، مقال بمجلة المجمع العلمي العراقي، ذو الحجة، 1401هـ، ج32.

محمود الحاج قاسم محمد، الطب عند العرب والمسلمين: تاريخ ومساهمات، جدة الدار السعودية، 1407هـ/1987م.

ولز، معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1950م.

(7111/1)

يوسف بن علي العريني، الحياة العلمية في الأندلس في العصر الموحدي، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، 1416هـ

(7112/1)

بريطانيا وتجارة الرقيق في الخليج

... ...

... ... الدكتور محمد مرسي عبد الله

... ... المجمع الثقافي – أبو ظبي

في اتفاقية السلام عام 1820 استطاع كابتن تومبسون وهو من المتحمسين لمنع تجارة الرقيق، إقناع ماجور جنرال كير وضع بند فيها يقول إن نقل العبيد من إفريقيا في السفن يعتبر عملا من أعمال القرصنة. وقد أهملت السلطات البريطانية في الخليج تنفيذ هذا البند. وتركزت محاولات بريطانيا في منع تجارة الرقيق في الخليج مع السيد سعيد بن سلطان، وذلك لوقف هذه التجارة

(7113/1)

في مهدها مع زنجبار في ممتلكاته بشرق إفريقيا منذ عام 1822. وبعد جهود طويلة نجحت بريطانيا في أن تعقد مع السيد سعيد بن سلطان اتفاقية عام 1845 لمنع تجارة الرقيق من ممتلكاته في شرق إفريقيا إلى الخليج وإلى المستعمرات الفرنسية والبرتغالية في المحيط الهندي. كما نجحت المحاولات البريطانية في إسطمبول وصدر فرمان في يناير 1847 يمنع السفن التركية من الاتجار في رقيق شرق إفريقيا ويحذر من بمصادرة السفن المتعاملة في الرقيق. وسمحت الدولة العثمانية للسفن الحربية البريطانية بتفتيش السفن التركية وهذا هو ما تحرص عليه

(7114/1)

بريطانيا. وأخطر والي بغداد نجيب باشا بفحوى هذا الفرمان(1) .

وصل خبر هذا الفرمان التركي إلى المقيم هينيل في أبريل عام 1847. وكان يستعد للجولة السنوية لساحل الإمارات. وما أن وصل إلى الإمارات في 30 أبريل حتى فاتح الحكام في مسألة اتفاقية منع تجارة الرقيق وأخطرهم أن السيد سعيد بن سلطان قد وقع اتفاقية منذ عامين بذلك كما أخبرهم أن الباب العالي قد أصدر في

إسطمبول حديثاً فرماناً بهذا الخصوص. وفي

---

(1) J.B. kell, Britian and the Persian Gulf, London968, p.587.

(7115/1)

اليوم نفسه وقع الشيخ سلطان بن صقر القاسمي اتفاقية بمنع استيراد العبيد في سفنه الخاصة وسفن رعاياه. ووافق الشيخ سلطان بن صقر على تفتيش السفن البريطانية لسفنه وسفن رعاياه. ويبدأ تنفيذ هذه الاتفاقية اعتبارا من 9 ديسمبر 1847 الموافق أول السنة الهجرية عام 1264. ووقع أيضا على هذه الاتفاقية الشيوخ في إمارة أبو ظبي وإمارة دبي وإمارة العجمان وإمارة أم القيوين. ويذكر هينيل أن الشيوخ جميعاً وقعوا على هذه الاِتفاقية دون اقتناع منهم ولكن إرضاء للحكومة البريطانية(1) .

---

(1) Kelly, ibid., p. 589.

(7116/1)

إن دراسة موضوع الرقيق ووضعه في الإمارات لا يمكن فهمه بصورة جيدة بمجرد ذكر الاِتفاقيات التي عقدها الحكام مع الحكومة البريطانية، لأن ذلك يعطي انطباعاً تاريخياً غير سليم عن هذه المسألة. لابد أن يدرس هذا الموضوع في أبعاد ثلاثة حتى تتضح حقائقه ويوضع في إطاره التاريخي الصحيح. وهذه الأبعاد الثلاثة هي:

1-تجارة الرقيق التي قام بها البرتغاليون والبريطانيون وبقية الأوروبيين في غرب إفريقيا خلال القرون الثلاثة السادس والسابع والثامن عشر. وقد قدم لنا إحصاءات دقيقة عن حجمها الضخم الباحث الدكتور الأمريكي فيليب

(7117/1)

كرتين (Philip Curtin) في كتابه » تجارة الرقيق عبر الأطلنطي، دراسة إحصائية «. لابد أن نعرف ما هي المكاسب المادية التي جنتها بريطانيا وأوروبا من هذه التجارة اللاإنسانية والتي قاموا بها بالرغم ممَّا رافقها من أعمال بشعة. وأين كان ضمير بريطانيا وأوروبا خلال ثلاثة قرون. وما هي الأسباب المادية الجديدة وراء الاِستجابة فجأة لرجال المال والسياسة في بريطانيا

لنداءات الكتاب الأحرار ورجال الكنيسة بتحريم تجارة الرقيق.

(7118/1)

2- البعد الثاني: نظام الرقيق في المجتمع الإسلامي والخليج واختلاف وضع العبيد والنظرة إليهم ومعاملتهم في هذا المجتمع. وكذلك تجارة الرقيق في شرق إفريقيا وهي المصدر الرئيسي لهذه التجارة في الخليج واختلافها تماماً عن تلك التجارة الأوربية في غرب إفريقيا في أسلوبها وأهدافها ونتائجها.

3- البعد الثالث: جهود بريطانيا وأسلوبها لإلغاء تجارة الرقيق في الخليج والإمارات خلال القرن التاسع عشر والمكاسب التي جنتها من وراء ذلك.

(7119/1)

في العالم الجديد من جلب للأفارقة كأيد عاملة في المزارع الجديدة والمعاملة غير الآدمية التي لقيها الأفارقة من جلد وسوء تغذية وقتل يختلف عن الرقيق

الذي عرفه الخليج واستقدمه العرب من شرق إفريقيا.
ولهذا يجب أن نغفل ونحن نقرأ نصوص الاِتفاقيات بين بريطانيا والإمارات لمنع تجارة الرقيق حقيقة تاريخ ثلاثة قرون من تاريخ بريطانيا المتهم بأبشع تجارة عرفتها الإنسانية وهي التجارة في البشر جريا وراء الكسب والمال، مع ارتكاب أعمال بشعة أثناء نقل الرقيق من غرب إفريقيا إلى المستعمرات في العالم الجديد أيام كانت

(7120/1)

السفن والشركات المتخصصة البريطانية في نقل العبيد تقوم بنقل نصف عدد هذه التجارة وحدها. ويقدر عددهم الباحثون بأربعين ألف عبد إفريقي سنوياً.
وكان يموت يومها 10٪ من هؤلاء العبيد أثناء نقلهم لعدم الاِهتمام بطعامهم أو صحتهم. ولا ننسى أيضا كيف كان وقتذاك ميناء ليفربول أكبر ميناء يتعامل في تجارة الرقيق في أوروبا. ولم يكن يستخدم وقتذاك النقود في هذه التجارة. لقد شجعت بريطانيا والأوروبيين الزعماء والحكماء في غرب إفريقيا على الحروب مع جيرانهم. وقدمت لهم مقابل الرقيق الذين يجلبونه لهم إلى سفنهم الراسية على

(7121/1)

الشواطئ في غرب إفريقيا البنادق والذخيرة والخمور لمتابعة الحروب وأسر أعداد ضخمة من أعدائهم. وعاش غرب إفريقيا ثلاثة قرون في حروب وقتال من أجل تدبير هذا المورد البشري المتدفق من الرقيق للتجار الأوربيين(1) .

ولم تخل حركة تحرير الرقيق التي انبعثت في أوروبا بوحي من مبادئ المساواة التي نادت بها الثورة الفرنسية، والتي رفعت شعارها بريطانيا في بداية القرن التاسع عشر من تحقيق مكاسب استعمارية حينما صدر قانون عام 1807 **يمنع تجارة**

---

(1) Philip D. Curtin, The Atlantic Slave Trade, Wisconsin, 1996, pp. 130–134.

(7122/1)

الرقيق في بريطانيا والمستعمرات ومحاربته في العالم. كانت بريطانيا آنذاك غاضبة على المستعمرات الأمريكية التي استقلت عنها وتريد حصارها وحربها

اقتصادياً بمنع مورد اليد العاملة عنها وهم رقيق غرب إفريقيا.

ويشرح لنا عن هذه الأسباب أيضا باسيل دافيدسون (Basil Davidson) في كتابه «تجارة الرقيق في إفريقيا«: »إن بريطانيا اكتشفوا أن جلب زيت النخيل من غرب إفريقيا والتجارة فيه لسد حاجة المصانع البريطانية أمرٌ مربحٌ. كما أن التجارة مع داخل إفريقيا يعوض الكثير من خسارة تجارة الرقيق. وهنا وجد الساسة ورجال المال أن

(7123/1)

الاستجابة لمطالب الكتاب الأحرار والكنيسة بتحرير الرقيق أمر يحقق آنذاك الكثير من المنافع. وظهرت الآراء التي تنادي ببقاء الأفارقة في بلادهم وفتح القارة السوداء أبوابها لاستقبال استثمارات الرجل الأبيض وبدء حركة الاستعمار. واحتلت بريطانيا والدول الأوروبية مدنا على ساحل إفريقيا الغربي تمهيداً للغزو والتدخل العسكري. وظهرت المحميات الأوروبية.

وانتهى القرن التاسع عشر بتقسيم قارة إفريقيا إلى مستعمرات بين الدول الأوروبية ولبريطانيا بطبيعة الحال نصيب الأسد فيها(1)

(1) Basil Davidson, The African Slave Trade, Boston, 1961p. 71–75.

(1/7124)

هذا إلى جانب أن بريطانيا وجدت في محاربة الرقيق ستاراً تفرض به سيطرتها البحرية على البحار وهي تمتلك وقتذاك أقوى أسطول في العالم بعد استخدام البخار في مراكبها. كان حق تفتيش السفن في البحار الذي حصلت عليه من الدول الضعيفة التي وقعت معها اتفاقيات تحرير الرقيق فرصة مواتية لفرض سيادة بريطانيا ونفوذها في العالم. وهكذا رافق تبني بريطانيا لمبدأ محاربة الرقيق حركة الدخول إلى داخل القارة الإفريقية وإنشاء مستعمرات زراعية وصناعية فيها تحت شعار مسؤولية الرجل الأبيض في تنوير إفريقيا ونشر التجارة والمسيحية

(1/7125)

فيها.

والسؤال هنا: هل تحرر الفرد الإفريقي في فترة

الاستعمار؟ لقد عاملت أوروبا الشعوب الإفريقية أسوأ معاملة بفرض السخرة عليهم للعمل في مزارعهم وتهجير للقرى لاستثمار أراضيهم. لقد استبدلوا تجارة الرقيق والأفراد باستبعاد الشعوب الإفريقية واستغلال ثرواتها.

أما البعد الثاني في هذا الموضوع، فهو وضع الرقيق في مجتمع الإمارات والمجتمعات العربية الإسلامية. عرفت المجتمعات نظام الرق في العصور والحضارات القديمة قبل ظهور الإسلام. وظهرت في المدن القديمة طبقة السادة الأحرار وطبقة العبيد ويقوم نظام الرق على

(7126/1)

فكرة عدم المساواة بين الناس وغلبة القوي على الضعيف واسترقاقه. وقد حارب الإسلام واستنكر فكرة الرق حين أعلن أن البشر جميعاً متساوون، فهم أبناء آدم وحواء. ومن وحي هذا الفكر الإسلامي قال الخليفة عمر بن الخطاب قولته الشهيرة وهو يعاقب في موسم الحج ابن عمرو بن العاص بسبب اعتدائه على قبطي مصري. قال عمر بن الخطاب موجهاً الكلام لابن عمرو بن العاص: »متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً« .

مع محاربة الإسلام لفكرة الرق، وتمهيده بذلك للقضاء

عليه، وجد أن نظامه من القوة إلى درجة أنه يحتاج إلى الوقت

(7127/1)

لعلاجه. ولكنه اتخذ خطوات متقدمة للقضاء على هذا النظام. كان للرق مصادر عديدة منها الأسر في الحروب ومنها الوراثة للأرقاء، ومنها الاسترقاق لغلبة دين، ومنها الخطف والبيع والشراء. حصر الإسلام للرقيق مصدراً واحداً فقط وهو أسرى الحرب. وإلى جانب ذلك يسر القضاء على رقيق هذا المصدر الوحيد حينما ترك للإمام أو القائد أن يمن على الأسرى بالحرية أو يسمح لهم بافتداء أنفسهم. أعطى الأسرى هاتين الفرصتين. وكثيراً ما منح قادة الجيوش الإسلامية الأسرى حريتهم(1)

---

(1) علي عبد الواحد وافي، حقوق الإنسان في الإسلام، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1979، ص.312.

(7128/1)

. وقد حرم الرسول عليه الصلاة والسلام بشدة مصدر خطف الأحرار وبيعهم. جاء في البخاري في الحديث القدسي عن

أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: »قال الله تعالى ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدره ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره«(1)

أما ما بقي من نظام الرق قائماً في المجتمع الإسلامي، فقد فتح الإسلام له الأبواب الواسعة لتحريره. لقد جعل من القربى إلى الله فك رقبة لتجاوز عقبة يوم

---

(1) عز الدين إبراهيم، الأحاديث القدسية.

(7129/1)

القيامة، وجعل من تحرير العبد نيل الثواب عند الله، كما جعلها كفارة في الإفطار في شهر رمضان، وجعلها تكفيراً لحلف اليمين أو طمعاً في غفران السيئات، ورصد الإسلام سهما في مال الزكاة لفك الرقاب وتحرير العبيد. يقول الله سبحانه وتعالى: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب}. وخلاصة القول أن الإسلام أقر فكرة المساواة بين الناس التي لا يقبل معها الرق، ويصبح في نظر المسلمين أمراً غير طبيعي. وحدد باباً واحداً شرعياً

لقبول نظام الرق فقط بعد ظهور الإسلام وهو أسرى الحرب.

(7130/1)

وفتح الباب على مصراعيه للتخلص من هذا الرقيق. وفي الطريق إلى إلغاء هذا النظام وضع أسسا للمعاملة الحسنة الإنسانية التي لم تعرفها البشرية من قبل. وقد جمعها قول الرسول عليه الصلاة والسلام: »إخوانكم خولكم. فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يطعم ويلبسه مما يلبس. ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي بل يقل فتاي وفتاتي«(1).

ولكن نظام الرق لم يختف من المجتمع الإسلامي حتى القرن التاسع عشر لظروف تاريخية عديدة. ومع ذلك، شهد العالم الإسلامي أن عدداً كبيراً من الإماء نبغن في

---

(1) علي عبد الواحد وافي، المصدر السابق، ص.315.

(7131/1)

العلوم والفنون، إذ كانت أبوابه ميسرة أمامهن. كما أن الطريق إلى النفوذ والسلطان كانت مفتوحة لذوي

المواهب والكفاءة وقصة كافور الأخشيدي الذي سيطر على الحكم في مصر وصيا على أبناء الأخشيد مع المتنبي الشاعر العربي المرموق حكاية معروفة. كما أن الأمة حين تلد، تصبح أما للولد حسب تعاليم الشريعة وترفع بذلك إلى مصاف الأحرار. ويرث ابنها أباه. وكم حفل التاريخ الإسلامي بهذه الظاهرة الفريدة في التاريخ بأسماء خلفاء وقواد هم أبناء إماء. وتاريخ بني العباس في بغداد وحكام المسلمين في الأندلس وسلاطين آل عثمان شاهد

(7132/1)

على ذلك بل إن بعض الخدمات العسكرية التي قدمتها بعض جماعات المماليك في الدول الإسلامية رفعتهم في المجتمع وجعلت منهم سلاطين وحكاماً لهم مكانتهم في التاريخ مثل دولة المماليك في مصر الذين استطاعوا رد جماعات المغول في معركة عين جالوت عام 1261. كما حرر المماليك ساحل الشام من بقايا الجيوش الصليبية. وفي منطقة الخليج، رفع العلم عدداً كبيراً من الإماء ليصبحوا أوصياء على أبناء الحكام. بل ومن المعروف في منطقة الخليج أيضا أنه إذا قتل السيد، فإن من بين من يطالب أدبياً بأخذ الثأر له هو العبد لوطيد علاقته

(7133/1)

بسيده أكثر من أبنائه. والمتتبع لأسماء كثير من الشخصيات التجارية أو السياسية في إمارات الخليج يجد أن بعضها يعود إلى أبناء إماء.

لقد كان نظام الرق في المجتمع الإسلامي رقيقاً عائلياً يختلف تماما عن نظام الرق الذي عرفه الأوروبيون في صورة جماعية من نقل للأفارقة من غرب أوروبا في ظروف صعبة لتسخيرهم وعملهم للكسب المادي في مستعمراتهم في العالم الجديد تحت ظروف سيئة ومعاملة قاسية تحت ضربات السياط وليس أبلغ في الرد على النظرة لنظام الرق ووضع العبيد في المجتمع الغربي من مهانة وسوء معاملة وفصل عن المجتمع

(7134/1)

الأبيض وفكرة ضرورة منع تجارته وطبيعة رؤية هذا النظام ووضع العبيد في المجتمع الإسلامي من حسن معاملة وفرص متاحة للوصول لدرجات من النفوذ والمكانة الاِجتماعية خلال بداية القرن التاسع عشر من رد الصدر الأعظم على السفير البريطاني في ديسمبر عام 1840

حينما فاتحه في موضوع إصدار فرمان يمنع الرقيق في الدولة العثمانية. كتب السفير البريطاني برونزوى إلى حكومته يقول:

ذكرت الموضوع لفخامته، ولكني أحسست باستغرابه الشديد له وأجابني بابتسامة أن هذا الاقتراح يحطم نظاما في صلب نسيج المجتمع بهذا البلد ويرتبط وثيقا

(7135/1)

بالقانون والعادات ويصل إلى عقيدة كل الطبقات من السلطان حتى أقل الفلاحين. إن السلاطين لقرون لم يتزوجوا زواجا عاديا والعرق الإمبراطوري جاء من أمهات إماء. وفي أغلب العائلات الأرستقراطية الإماء هن أمهات الأولاد الشرعيين. وهؤلاء الأولاد محل الاحترام مثل الأبناء من الزوجات الشرعيات. إن القباطنة وقادة الجيش والوزراء في كل أنحاء الدولة هم في الأصل من نسل إماء. وفي كل العائلات ينعم العبيد بأعلى درجات الثقة والنفوذ من رب العائلة. ولتنفيذ ما يريده سعادتكم فإن هذا يغير قانون وراثة العرش والسياسة التي سار

(7136/1)

عليها السلاطين. ويغير بصورة أساسية النظام السياسي والمدني وتنظيمات الحياة العائلية للشعب. ولسوف يؤدي هذا التغيير الثوري إلى فوضى عامة. وإن العبيد الذين تتوقع سعادتكم أنهم سوف يستفيدون من ذلك سيكونون هم أكثر من سيقاسي من هذا التغيير.

وختم السفير رسالته بقوله:

إن الترك يعتقدون أننا أكثر منهم تقدماً في العلم والفن والسلاح. ولكنهم يعتقدون أنهم أرفع منا في الحكمة والأخلاق والحياة الاِجتماعية(1) .

---

(1) Kelly, op, cit., p. 586.

(7137/1)

إن الرقيق الذي جاء إلى الخليج عاش في الأسرة العربية فردا فيها وعومل حسب قواعد الشريعة الإسلامية ولم يستغل في عمل قاس فهو لا يشتغل فعلا في عمل اقتصادي لا يقوم به سيده فهم يشتركون معاً في الغوص والملاحة معاً وهم أهم المهن في الخليج وقتذاك وسنأخذ أقوال المسؤولين البريطانيين خلال مائة عام منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن

العشرين حول الرقيق في هذه المنطقة وكلها تتفق في الرأي. ولنبدأ بتقرير ستانس المقيم البريطاني في الخليج في 20 مارس 1823 حول أوضاع الرقيق في الخليج:

(7138/1)

وإنه لمن المهم أن نعرف أن الرقيق لا يعامل فقط بصورة إنسانية حسنة جداً ويتمتعون بحماية سادتهم العرب بل إنهم أيضا يتمتعون بدرجة كبيرة من القوة والنفوذ. وقد لاحظت في كل مكان أنهم الأكثر قوة بدنية وتغذيتهم جيدة ويبدون في سعادة وراحة. ويجب أن نعترف أن التوبيخ لسوء معاملة الرقيق يجب أن توجه إلينا نحن الإنجليز وليس إلى الشعوب الشرقية الإسلامية(1) .

كما يكتب المقيم البريطاني في الخليج كمبول في تقرير له عام 1842:

---

(1) R. Coupland, East Africa and Its Invaders, Oxford, 1938, p.514.

(7139/1)

إن معاملة الرقيق لدى عرب الخليج ليست قاسية. ومنذ شرائهم تتحول حياتهم إلى الأحسن. فهم يطعمون مثل طعام سادتهم ويعاملون كأفراد في العائلة. وهم يعملون بجد ويشعرون بالسعادة(1) .

كما يذكر المعتمد همرتون لدى السيد سعيد بن سلطان في زنجبار بشرق إفريقيا عام 1844 أن الرقيق لدى العرب يعاملون بالحسنى ويهتم بإطعامهم وأنهم نادراً ما يجلدون. وكتب الكثير من الموفدين البريطانيين إلى زنجبار أنه لا يوجد طبقة في المجتمع سعيدة ومتحررة من المسؤولية وتعامل جيدا مثل الرقيق لدى المسلمين.

---

(1) Kelly, op, cit., p. 411.

(7140/1)

كما قال نائب المقيم البريطاني في الخليج ارنولد ويلسون:

مع أن طريقة نقل العبيد في السفن مفزعة وقاسية أيضا طريقة الحصول عليهم، ولكنهم حال وصولهم أراضي المسلمين فهم يعيشون أحسن حالاً مما كانوا عليه في بلادهم. ورغم أن حياتهم قاسية في الجزيرة العربية

ولكنها مثل قسوة الحياة التي يشاركهم فيها الأحرار العرب. وهي على كل حال ليست أصعب من حياة رجل قبلي في إفريقيا. لا يعرف العبد المهانة بين العرب ويصل إلى أعلى درجات الثقة وخاصة حينما يعتنق الإسلام وغالبيتهم أسلم وحصل على حريته(1)

---

(1) A. Wilson, The Persian Gulf, Oxford, 1928, p.214.

(7141/1)

.

ويذكر برترام توماس وقد عاش فترة طويلة في عمان وحضرموت في النصف الأول من القرن العشرين:

إن موقف العرب من العبيد يزيل العار الذي يصم العبد في بلاد أخرى، لأن طبيعة الرق في البلاد العربية خالية من نظرة المذلة له. وبينما يعمل الرقيق في أعمال البيت والزراعة أو في صيد السمك والغوص في الخليج فإن بعضهم وصل إلى درجات من السلطة والثراء. وفي حالات من تاريخ مصر والعراق كونوا دولا حاكمة(1) .

---

(1) B. Thomas, The Arabs, London, 1937, p.149.

(7142/1)

وبسبب هذا الاختلاف الجوهري بين وضع الرقيق في الغرب ووضعه لدينا في الخليج حينما نجحت الحملة ضد الرقيق في الغرب وفي المجتمعات الإسلامية لا يزال الأفارقة يعيشون في الغرب والولايات المتحدة مضطهدين وفي مجتمعات مغلقة. وأمكن للباحث جونافان ديريك في كتابه »رقيق إفريقيا اليوم« الذي صدر عام 1975 أن يسجل من إحصاء للأفارقة السود خارج بلادهم بمائة مليون نسمة من الأفارقة السود خارج القارة منهم 22 مليوناً في الولايات المتحدة وهم يمثلون 10٪ من عدد السكان. وأكثر هؤلاء الأفارقة اليوم في البرازيل إذ يوجد بها ما

(7143/1)

يقرب من خمسين مليونا. أما الهند الغربية، ففيها حوالي عشرين مليونا. ولا يزال يعيش بقايا تجارة الرقيق في الغرب اليوم بعد تحريرهم من الجانب القانوني، مجتمعات متميزة لهم أحياؤهم المنعزلة في مدن الغرب وتمتلئ الأحياء بمآسي معاملتهم والتفريق العنصري حيالهم. أما في المجتمع العربي والإسلامي،

يذكر أيضا الباحث جونافان ديريك أن عددهم قليل، كما أنه لا يمكن حصر عددهم لأنهم ذابوا في المجتمع.

ويعيش أحفادهم ونسلهم اليوم في مساواة تامة في المجتمع العربي الإِسلامي إذ يتزاوجون مع العرب والمسلمين دون أي مشكلة عرقية

(7144/1)

أو تعصب ضد اللون.(1)

ولقد استخدمت بريطانيا قضية منع تجارة الرقيق في الخليج سببا لتفتيش السفن العربية. وتحت ستار محاربة الرقيق قضت على النشاط العربي الملاحي في الخليج.

وكان اختلاف الرأي والنظرة نحو تجارة الرقيق بين البريطانيين من ناحية وأهالي الخليج من ناحية أخرى.

هذا، إلى جانب أسلوب القمع والشدة الذي اتبعه قباطنة السفن البريطانية في منع هذه التجارة، سببا لانتشار شعور الاستياء والتذمر وازدياد فقد الثقة بين سكان

---

(1) Jonathan Derrick, Africa's Slavery Today, London, 1975, pp. 110, 137–140, 144.

(7145/1)

الإمارات والبريطانيين في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. واعتبر الأهالي أعمال قباطنة البحر البريطانيين من حرق ومصادرة الرقيق إجراءات ظالمة، وأنها تدخل غير مستساغ ولا مبرر له في الشؤون الداخلية للإمارات.

وفي أواخر القرن التاسع عشر انتعشت تجارة الرقيق في الخليج مرة أخرى، حينما قدم الفرنسيون أعلامهم لربابنة السفن في ميناء صور لحمايتهم من التعديات البريطانية. ولقد كان من النتائج القريبة المتوقعة من معاهدة 1892 مع شيوخ الإمارات منعهم من تقبل العلم الفرنسي مثل بقية بحارة سلطنة عمان. وفي

(7146/1)

---

31 أغسطس 1892 كتب عبد اللطيف الوكيل السياسي في الشارقة في تقرير له بعض الملاحظات التي أبداها شيخ دبي حول رفض بريطانيا السماح بتجارة الرقيق للمواطنين العرب، بينما هي تترك هذه التجارة في الوقت نفسه حرة تحت راية العلم الفرنسي في عمان.

وفي هذا التقرير يبدي الشيخ دهشته لأن سفينة حربية

بريطانية قد جاءت إلى ساحل عمان ترفع العلم الفرنسي، وأفرغت حمولتها من رقيق في رأس الخيمة دون أن تتعرض لها السفينة الحربية البريطانية الراسية قريبا منها. وهنا اقترح الشيخ في حديثه أنه من الأجدر به وبعَرب الساحل أن يقبلوا

(7147/1)

العلم الفرنسي وبهذه الطريقة يأمنون شرور البريطانيين.(1)

وهنالك خطاب كتبه أوتافي (Ottavi) القنصل الفرنسي في مسقط يوم 26 فبراير 1896، ذكر فيه رغبة الشيخ زايد بن خليفة حاكم أبو ظبي في قبول الحماية الفرنسية، بسبب الغرامة التي فرضها عليه المقيم السياسي البريطاني تحت التهديد بقصف قصره بالمدافع. وشكا الشيخ زايد بن خليفة هذه الحادثة للسطان فيصل بن تركي الذي ساعده في دفع هذه الغرامة. ويفسر أوتافي سبب هذه الحادثة بأن

---

(1) I.O.R.R/15/1/0 to Residency Agent, Sharjah, Political Resident, August 13, 1892.

(7148/1)

الوكيل السياسي عبد اللطيف، الذي كان يمثل بريطانيا في الساحل كان يفرض على الشيوخ والأهالي مبلغا من المال على كل واحد من الرقيق يصل إلى الساحل، وأنهم إذا لم يدفعوا له قام بإبلاغ السلطات البريطانية التي سرعان ما تستخدم القوة دون دراية بحقيقة دوافع وكيلها السياسي. ووصف أوتافي الوكيل السياسي عبد اللطيف بأنه أكبر تاجر رقيق في منطقة الخليج. ولكن الشيخ زايد بن خليفة اعتزازا منه بمكانته، رفض أن يدفع هذه الإتاوة عن أهالي أبو ظبي للوكيل عبد اللطيف الذي سرعان ما أثار السلطات البريطانية ضده.(1)

---

(1) Archives Françaises, Asie Océanie, N.S. 3Mascate, Ottavi à Ministre des Affaires Etrangères, 26 Février 1896.

(7149/1)

ولكن بالرغم من أن البريطانيين قد استخدموا محاربة تجارة الرقيق لتحقيق أهدافهم السياسية من فرض سيطرتهم على المحيط الهندي والخليج، وتحطيم الملاحة

والتجارة العربية في هذه المنطقة، ونجحت بريطانيا في تحقيق أهدافها السياسية في تقسيم إمبراطورية عمان إلى دولة في عمان ودولة أخرى في زنجبار، وتدخلت في شؤون الإمارات الداخلية وهددت الحكام تحت ستار هذه الحملة الإنسانية بعدم الاتصال بأيّ دولة أوروبية في نهاية القرن التاسع عشر. كما أنها عادت واستخدمت هذا الشعار لفرض اتفاقية توقيع امتياز البترول مع الشركة

(7150/1)

البريطانية عام 1936 وأرسلت تعليماتها للوكيل السياسي باتهام الإمارات بالتجارة في الرقيق والسلاح وفرضت إعادة غواصي الإمارات من العمل في المغاصات وسحبت من تجارهم وثائق السفر، بالرغم من كل هذا تبرز حقيقة واضحة، وهي أن للبريطانيين فضلا كبيراً في وضع حد لهذه التجارة في منطقة الخليج. ولعل أحد أسباب نجاح البريطانيين في منع هذه التجارة بالرغم من ضيق الأهالي بها هو أن منع تجارة الرقيق وتحريمه أصل من المبادئ الإسلامية التي عمل الإسلام على تحقيقها. وكان انتعاش تجارة الرقيق لا يتمشى أبدا مع التعاليم

(7151/1)

الإسلامية. ونحن نرى كيف عملت حكومة الكويت وحكومة قطر بعد الحرب العالمية الثانية على شراء كل من العبيد الموجودين وقتذاك في بلدهما وكان قليلا، وذلك حين دفع الشيخ عبد الله الجابر الصباح والشيخ علي بن عبد الله آل ثاني قيمة تحرير من بقي من الرقيق لديهما لمن طلبوا مبالغ لذلك من أوليائهم، بينما أطلق الكثير من أولياء الرقيق عن رضا فتيانهم. وتثبت هذه القضية أن اتصال البلاد الإسلامية مع الغرب، وتأثر هذه البلاد بكثير من عناصر الحضارة الأوروبية الحديثة لم يكن بالضرورة شرا كله أو منافيا كله لتعاليم الإسلام.

(7152/1)

ونحن نرى في موضوع الرقيق كيف أن البريطانيين قد ساعدوا المسلمين بمنعهم هذه التجارة على تحقيق مبدإ من الأصول الإسلامية التي غفلوا عنها لظروف تاريخية.

(7153/1)

بسمارك والمغرب

... ... الدكتور محمد خير فارس

... ... كلية الآداب – دمشق

سياسة بسمارك العامة

تسلم بسمارك السلطة في بروسيا عام 1862. وكان قد شغل قبل ذلك مناصب دبلوماسية رفيعة ممثلا لبروسيا في الدييت الجرماني، وسفيرا في سانت بطرسبورغ وفي باريس. وقد ساعده ذلك على اكتساب خبرة كبيرة في المسائل الألمانية وفي السياسة الروسية والفرنسية، فعرف نقاط القوة كما عرف نقاط الضعف. وساعده هذا كله في تحقيق الاتحاد الألماني، بعد خوضه ثلاث حروب ناجحة ضد الدانمارك ثم النمسا ثم روسيا، وقد ساعدته

(7154/1)

خبرته الدبلوماسية على الانفراد بكل من النمسا وفرنسا دون أي تدخل خارجي من دولة أخرى. و ما من شك

في أن هذا النجاح الضخم وقيام هذه الدولة القوية في وسط أوربا سبب القلق والخوف لدى جيرانها المباشرين، كذلك لدى انكلترا الحريصة على المحافظة على توازن القوى في القارة، والمعارضة لهيمنة أي دولة فيها.

وقد أدرك بسمارك ذلك، فسعى لإزالة هذا القلق وهذه المخاوف. كان يدرك أن هذه الإمبراطورية التي كانت ثمرة الحرب يمكن أن تنهار للسبب نفسه. ولذلك كان حريصا على اتباع سياسة سلم ومداراة، وتجنب كل ما يثير الخلاف مع

(7155/1)

الدول الأخرى. كان يرى أن السلام ضروري لألمانيا، لأنه يسمح بتوجيه الرساميل نحو التنمية الاقتصادية التي سترسخ الوحدة الألمانية(1) .

وقد استفاد بسمارك من اختلاف المصالح بين الدول الكبرى للاحتفاظ بالتفوق القاري. وكان يسعى لأن تكون ألمانيا أقوى دولة في أوربا بما تملكه من قوى عسكرية وسياسية واقتصادية، وأن يلعب بهذا دور الحكم الذي يسعى الجميع إليه.

---

(1) . Pierre Renouven, Histoire des relaations internationales, Tome 5, P. 383

(7156/1)

كان أكثر ما يخشاه بسمارك نهوض فرنسا وسعيها للانتقام من ألماني واسترجاع الألزاس واللورين. وكان يدرك أن فرنسا التي سعت أكثر من مرة لفرض الهيمنة على القارة، والتي كانت في أغلب الأحيان تعتبر نفسها القوة الرئيسية في أوربا، لن تستكين لهده الهزيمة المنكرة التي لحقتها في "سيدان" والتي حولتها إلى دولة من الدرجة الثانية. كان واثقا أن فرنسا ترغب في حرب انتقامية، وأنها لن تقبل خسارة الألزاس واللورين. وكان هذا يبدو له منطقيا ومحتما. قال هذا بصراحة للقائم بالأعمال الفرنسي في برلين في آب 1871:

"سأقول لك

(7157/1)

بصراحة ما أفكر فيه: لا أعتقد أنكم ترغبون الآن في خرق الهدنة القائمة. إنكم ستدفعون لنا المليارين، ولكن في 1874 حيث عليكم تسديد المليارات الثلاثة

الباقية ستعلنون الحرب"(1). وكان تيير من جهته، يرى أن سنة 1872 أنه "إذا حدث اضطراب في أوربا، فسيكون من الطبيعي جدا أن نرغب في استغلال الفرصة التي تتاح لنا"(2). وبانتظار اللحظة المناسبة، فإن على فرنسا – حسب رأي تيير – أن تعيد تكوين جيشها، وأن تهيئ الجو لتحالفات

---

(1) . Ibid., Tome 6, P. 28

(2) Histoire de la diplomatie, Kvostov et Mintz, Tome 2, PP. 13–14.

(1/7158)

مقبلة(1) . وكان تيير وخلفاؤه في جمهورية الدوقات "يرون أن حلفاءهم في المستقبل: النمسا وإنكلترا، وبخاصة روسيا. وقد كتب جول فافر وزير خارجية تيير: "نحن نعرف إلى أي درجة كانت العلاقات بين سانت بطرسبورغ وبرلين وثيقة، ونحن لا نستطيع – دون أن نتعرض لخيبات أكيدة – أن نطلب من روسيا خدمة ما، يمكن أن تجر إلى برود حاد بين الدولتين... إن بذرة الشقاق الحاد في المستقبل موجود بالتأكيد"(2).

---

(1) Ibid., p. 14.

(2) Ibid..

(1/7159)

كان بسمارك يسعى إلى إبقاء فرنسا على حالة من الضعف لا تسمح لها بالتفكير في حرب انتقامية. فرض عليها في معاهدة فرانكفورت 1871 – عدا سلخ الألزاس واللورين – غرامة حربية باهضة (خمس مليارات) سيؤدي سدادها إلى الإضرار بالاقتصاد الفرنسي. كما فرض بقاء القوات الألمانية في الأراضي الفرنسية المحتلة حتى سداد الغرامة. وعند أي محاولة فرنسية لإعادة تنظيم قوتها العسكرية، كان يلجأ إلى التهديد بحرب وقائية. ولكنه بالرغم من أنه لم يهمل التخطيط لحرب وقائية، فإنه لم يكن يرغب بعد علم 1871 في اللجوء إلى السلاح. فقد كان

(1/7160)

يرى أن ألمانيا قد أصبحت مكتفية ووصلت إلى حد الإشباع، وأنه ليس هناك ما تكسبه من حرب أخرى.

وكان يعتقد أن حربا فرنسية ألمانية جديدة تهدد هذه المرة بألا تبقى محصورة بين الدولتين(1) . ولكن فشل سياسة التهديد وإسراع فرنسا في تسديد الغرامة قبل موعدها، واتخاذ التدابير لاستعادة قوتها العسكرية – قوانين 1872 و 1875 العسكرية – جعل بسمارك يعتمد على السلاح الدبلوماسي، أي عزل فرنسا وإحاطة ألمانيا بسور من التحالفات. كان يدرك أن فرنسا لن تفكر في حرب انتقامية لوحدها، إذ قال

---

(1) . Renouvin; op. cit., Tome 28, p. 6

لسفيره في باريس : "نحن بحاجة لمنع فرنسا من إيجاد حلفاء إذا كانت لا ترغب في السلام؛ ومادام ليس لها حلفاء، فلن تكون خطرة علينا"(1) .

سعى بسمارك لجذب النمسا وروسيا اللتين كان موقفهما أكثر أهمية في نظر بسمارك من بريطانيا، ذلك لأنه ليس لبريطانيا جيش؛ ولأنه كان يخشى أن تجد فرنسا – التي كان يحكمها في هذه الفترة أكثرية ملكية تدعمها أقلية ليبرالية محافظة أبعدتها ثورة الكومون عن الجمهورية – بسبب نظامها تعاطفا من

النمسا التي لا تزال

_____

(1) . Maurice Baumont, L’essor Industriel et Limpériaalisme colonial, P. 67

(7162/1)

متأثرة بجرام عام 1866، أو روسيا القيصرية التي أزعجها قيام ألمانيا القوية على حدودها.

نجح بسمارك في جذب هاتين الدولتين إلى فلكه وإبعادهما عن فرنسا، وذلك باتفاق الأباطرة الثلاثة عام 1873. وقد ظهرت بدايات هذا الاتفاق في صيف سنة 1872 بلقاء الأباطرة الثلاثة في برلين، أي في الوقت الذي أظهر تيير رئيس الدولة الفرنسي رغبته في دفع الغرامة

الحربية بأسرع مما نصت معاهدة فرانكفورت. وقد رافق توقيع هذا الاتفاق تغيير حصل في فرنسا لصالح اليمين الملكي في أيار 1873 : فقد حل مكماهون الملكي محل تيير و بدأ في فرنسا

(7163/1)

ما عرف بـ»جمهورية الدوقات". وقد وصف جاك بيرين هذا الاتفاق بأنه "حلف مقدس جديد" للمحافظة على السلم والنظام القائم تحت رعاية الدول الثلاث الموقعة على الاتفاق(1). كان هناك تضارب مصالح بين روسيا والنمسا في البلقان يضعف هذا الاتفاق، ولكن بسمارك عرف كيف يربط الدولتين بعربته. فقد كانت النمسا بحاجة إلى ألمانيا لدعم سياستها التوسعية في البلقان.

وكانت روسيا التي تواجه مشاكل كبيرة مع إنكلترا في الشرق الأسيوي، ومع النمسا في

---

(1) Jacques Pirenne, Les grands courants de l'histoire universselle, Tome 1, P5..

(1/7164)

البلقان بحاجة إلى ألمانيا أيضا.

وكان بقاء هذا الاتفاق مرتبطا بعدم قيام أزمة بلقانية تهدد بتغيير الوضع الراهن وتفجر الخلاف بين النمسا وروسيا كما سيحدث في أزمة 1875 – 1878.

وكانت أوربا تمر الآن بمرحلة الإمبريالية، وكان هناك تسابق بين الدول للسيطرة على آسيا وإفريقيا. وقد سبب هذا توترا في علاقات الدولة المتنافسة. كان

بسمارك يدرك مخاطر السياسة الاستعمارية على ألمانيا، وفي الوقت نفسه فوائدها عليها. ولهذا اتبع بسمارك سياسة قارية، وكان يرى أن المسائل الاستعمارية التي بقيت ألمانيا بعيدة عنها، وبخاصة تلك

(7165/1)

التي تستدعي المواجهة بين الدول الأخرى، ليس لها أي قيمة إلا من جهة أنه يمكن أن تتيح له الفرص لتعزيز نظامه القاري.

ولم يكن بسمارك يرى أنه من المفيد لألمانيا الحصول على ممتلكات ما وراء البحار. فهذا يحتاج لأسطول قوي، كما سيزج بألمانيا في مشاكل مع الدول المتنافسة؛ مما يتيح لفرنسا العثور على حلفاء. وترك لفرنسا أن تبدد قواها وأموالها في حملات بعيدة، مما يزج بها في مشاكل مع إنكلترا ويحقق لألمانيا أمنا على "الرين".

سياسة بسمارك المغربية

(7166/1)

لم يكن لألمانيا حتى السبعينيات من القرن التاسع عشر سوى علاقات بسيطة وغير منتظمة مع الغرب. ولم تعر الدول الألمانية، حتى عام 1869، المغرب سوى اهتمام بسيط

كان لمدن الهانس نشاط تجاري في البحر المتوسط وقد جرت محاولة لعقد معاهدات مع المغرب في أواخر القرن الثامن عشر، ولكن ضآلة المبادلات لم تكن تبرر دفع جزية كبيرة. وكذلك فعلت بروسيا في آخر القرن الثامن عشر.

وفي سنة 1805، اضطرت هامبورغ إلى عقد معاهدة مع المغرب، وتبعتها مدن الهانس الأخرى. ولكن سريان المعاهدات توقف على أثر استيلاء نابليون على مدن

الهانس. وبعد فشل المحاولة الدولية للقضاء على القرصنة، استؤنفت المفاوضات لعقد معاهدات جديدة لم يعد لها مبرر بعد نزول الحملة الفرنسية في الجزائر.

كانت المبادلات التجارية بين ألمانيا والمغرب شبه منعدمة، ولم تجد أي دولة من دول الاتحاد الجرماني من حاجة لإقامة علاقات دبلوماسية مباشرة ومستمرة.

واعتمدت مدن الهانس على بريطانيا للدفاع عن مصالحها

متى تطلب الأمر ذلك واكتفت بروسيا بدءا من 1838 باعتماد قنصل السويد ممثلا لها في المغرب(1) . وفي 1852، زار

---

(1) 6Pierre Guillen, L'Allemagne et Maroc, P ..

"مينوتالي"، قنصل بروسيا في برشلونة، طنجة ووضع تقريرا يبين فيه المزايا التجارية والسياسية، وذكر فيه أنه سيكون من الممكن استخدام المغرب للحصول من فرنسا وإنجلترا على تنازلات مفيدة للسياسة البروسية في أوربا(1) . وبهذا يكون "مينوتالي" أول من طرح فكرة ستكون فيما بعد دليلا في أغلب الأحيان للسياسة الألمانية المغربية، وهي استخدام المغرب ورقة في لعبتها الدبلوماسية.

وفي 1852، تعرضت سفن بروسيا لهجوم على شواطئ الريف وقتل عدد من بحارتها. فشلت بروسيا في الحصول على تعويض أو على ترضية. وفي

---

(1) 7Ibid., p. .

1856، وبمناسبة رحلة تدريب في المتوسط، مر الأميرال البروسي أدالبرت ابن عم الإمبراطور أمام المكان الذي تم فيه الهجوم الريفي، ونزل على رأس قوة لمعاقبة الريفيين. فأجبر الريفيون الحملة على الانسحاب بعد أن خسرت عددا من القتلى بينهم الأميرال وأمير ألماني آخر. ورفض السلطان طلب الغرامة الذي تقدم به قنصل السويد باسم بروسيا. وحينئذ، توجهت برلين نحو باريس ولندن ومدريد. وأعلن نابليون الثالث رغبته في اتخذ تدابير بالاتفاق مع إنكلترا وإسبانيا لمنع تجدُّد هذه الحوادث، ولكن لم يتخذ أي قرار في هذا الصدد(1)

(1) . 8Ibid., p.

(7170/1)

. وردا على موقف المغرب، أعلنت بروسيا تأييدها لإسبانيا في الحرب التي شنتها على المغرب 1859 – 1860، وحضرت بعثة روسية عسكرية هذه الحرب. وقد كتب أفراد هذه البعثة مذكراتهم التي أسهمت في تعريف الألمان بالمغرب(1) . وقام عدد من المستكشفين الألمان بزيارة المغرب، شكا أن الزولفراين لم يفعل

شيئًا حتى الآن لفتح سوق له في المغرب، وأبدى أسفه على عدم وجود قنصل هناك وفي العام نفسه، استطلع هنريخ بارت موانئ الشمال وأبرز أهمية طنجة في السياسة

---

(1) انظر . Boudet et poulier, Une mission pprussienne au Maroc :

(7171/1)

الأوربية. وفي 1858، استطلع كارل فون مالتزن الريف ووصل إلى مراكش وقابل السلطان عبد الرحمن. وكان جرهار رولفس أهم المستكشفين الألمان. إذ قام رولفس بعدة رحلات شملت شمالي المغرب وجنوبه، حيث وصل في الرحلة الأولى إلى أغادير ومراكش ثم الجزائر عبر تارودانت وواحات درعة وتافيلالت وفجيج. وفي الرحلة الثانية عبر الأطلس ووصل إلى واحة توات وتيديكلت وانتقل إلى طرابلس عبر عين صلاح وغدامس. ومول ملك بروسيا الرحلة الثالثة إلى لاجوس عبر الهجار. وهكذا أصبح رولفس شخصية أوربية بارزة. فاستقبله ملك بروسيا وبسمارك، ودعاه

(7172/1)

قيصر روسيا إلى سانت بطرسبورغ، ومنحته الجمعية الجغرافية في باريس ميدالية ذهبية، ومنح دكتوراه شرف من عدة جامعات. أصبح رولفس حجة في كل ما يمس إفريقيا؛ وسيكلف بمهمة خاصة في شمالي إفريقيا خلال حرب 1870. ولقيت مؤلفات رولفس نجاحا كبيرا، وكان لا يفتأ يثير في مقالاته الاهتمام بالسلطة المغربية التي وصفها بأنها جنة حقيقية للاستعمار الأوربي؛ وكان متعطشا لرؤية المغرب من نصيب ألمانيا(1) .

(1) . 22P. Guillen, op. cit., p.

(7173/1)

لم يكن رجال الأعمال البروسيون يعيرون المغرب اهتماما باستثناء هامبورغ التي طالبت فيها غرفة التجارة ومجلس الشيوخ بافتتاح قنصلية في المغرب عام 1869. ولكن بسمارك لم ير ضرورة لذلك في ذلك الوقت، لأن اهتمامه كان منصبا آنذاك على إتمام الوحدة الألمانية وإعداد العدة للحرب مع فرنسا.

كشفت الحرب البروسية – الفرنسية سنة 1870 عن الأهمية السياسية والاستراتيجية لبلد مجاور للجزائر.

فمنذ بداية الحرب، رغبت الحكومة الألمانية في تجنب إمكان استدعاء جيش إفريقيا الفرنسي إلى أوربا، وذلك بإثارة الاضطراب في الجزائر. وقد

(7174/1)

أرسل لاجئون جزائريون في إستنبول اقتراحات بهذا المعنى إلى المفوضية الألمانية.
جذب المشروع اهتمام مولتكه، رئيس الأركان العامة الألماني. عرض رولفس خدماته لإثارة الجزائر، وقبل بسمارك العرض. وحاول رولفس بمرافقة أستاذ اللغة العربية وتيزشتاين ومحي الدين عبد القادر الجزائري إثارة القبائل الجزائرية القريبة من الحدود التونسية. ولكن المحاولة فشلت، لأن الباي أسرع بإبعادهم بضغط من الحكومة الفرنسية. أرسل بسمارك بعد ذلك وتيزشتاين إلى جبل طارق للقيام بمحاولة جديدة من المغرب.

(7175/1)

وبالرغم من فشل المحاولتين في إثارة الاضطرابات في الجزائر، فإنهما حققتا جزئيا الهدف الذي اقترحته الأركان العامة الألمانية. ذلك بأن الحكومة الفرنسية، بسبب قلقها من هذه المحاولات، قررت أن تترك في الجزائر قوات كانت تفكر في نقلها إلى فرنسا. كذلك أدت هذه المحاولة إلى إدراك بسمارك أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه المغرب في العلاقات الفرنسية الألمانية. إذ سيكون من الممكن، انطلاقا من المغرب، تهديد الجزائر والحصول على أداة ضغط على فرنسا. وهذه الفكرة ستقود معظم الجهود الألمانية لمد نفوذها في المغرب(1)

---

(1) . Ibid., pp. 18- 19

.

سياسة بسمارك المغربية الفرنسية

ترتبط سياسة بسمارك المغربية بعلاقته مع فرنسا. فتوتر العلاقات أو تحسنها ينعكس على سياسته المغربية. وفي الواقع، لم يكن المغرب غاية في حد ذاته؛ بل كان وسيلة ضغط أو إغراء تخدم سياسته

الأوربية بعامة والفرنسية بخاصة. فقد كان المغرب أحيانا قاعدة يستطيع منها إثارة اضطرابات في الجزائر ليجمد القوات الفرنسية الموجودة هناك، ويحول دون نقلها إلى ميدان الحرب الأوربية، إذا ما نشبت حرب ألمانية فرنسية. وفي أحيان أخرى، كان المغرب وسيلة إغراء لتحويل أنظار فرنسا عن الراين، كما كان

(7177/1)

أيضا ورقة يلعبها الساسة الألمان في المنافسات الاستعمارية للحصول على تعويض ثمنا للتخلي عن المغرب(1) .

مرت العلاقات الألمانية الفرنسية في عهد بسمارك بثلاث مراحل:

1– مرحلة التوتر في العلاقات (1871 – 1878)؛

2– مرحلة التحسن في العلاقات (1878 – 1884)؛

3– مرحلة عودة التوتر (1885 – 1890)؛

1 – مرحلة التوتر (1871 – 1878):

كان الخوف يسيطر على بسمارك من سرعة نهوض فرنسا، كما بدا من القوانين العسكرية التي أقرها البرلمان الفرنسي (1872 و 1875) والهادفة إلى

---

(1) . Jean Brignon et autres, Histoire du Maroc, 297p.

(7178/1)

إعادة تنظيم الجيش وزيادة عدد أفراده؛ ومن دفعها الغرامة قبل موعدها المحدد في معاهدة فرنكفورت، مما أجبر بسمارك على سحب قواته من الأراضي الفرنسية المحتلة، وفقد بذلك ميزة إستراتيجية هامة. كما كان يخشى أن تستطيع فرنسا، في ظل حكومة محافظة تعتمد على أكثرية ملكية، أن تجد لها حلفاء من بعض الدول الملكية المحافظة، أو على الأقل تعاطفا من قبل هذه الدول. وفشل أسلوب التهديد بحرب وقائية 1875 بسبب تدخل إنجلترا(1)

---

(1) كان دزرائيلي الذي خلف جلاد ستون سنة 1874 قلقا من طرف السياسة الألمانية وأهدافه. كتب إلى الملكة فيكتوريا أن بسمارك هو نموذج من نابليون. ولكن الحكومة الانجليزية كعادتها تجنبت إعطاء فرنسا وعدا بالدعم. كل ما هنالك أنه إذا حاولت ألمانيا القيام بحرب وقائية ضد فرنسا، فإن انجلترا ستعلن استنكارها. وبالمقابل، أطلعت الحكومة الانجليزية

بسمارك على وجهة نظرها. وبالرغم من أنها عرضت ذلك بصورة ودية، فقد كان مسعاها صريحا. إن الحكومة الألمانية مدعوة لتهدئة قلق أوربا. (6op. cit., Tome Renouvin 55P.,).

(7179/1)

وروسيا(1)

---

(1) كان عمل روسيا مشابها لعمل انجلترا، ولكن كان له مدلول أكبر، لأن روسيا قد وقعت سنة 1873 اتفاقا عسكريا مع ألمانيا. تدخل القيصر الروسي شخصيا وقرر الذهاب بنفسه إلى برلين يصحبه المستشار غوتشاكوف، بقصد واحد وهو إبداء ملاحظات لبسمارك لتهدئة الموقف. وكان القيصر قد قال للسفير الفرنسي إنه يرغب في تهدئة التوتر الألماني الفرنسي دون اللجوء إلى التهديد و "سنصل إل ذلك". (56, p. 6Renouvin, op. cit., Tome). وقال غورتشاكوف لبسمارك: "قلقكم يمنع أوربا من النوم".

Henri Hawser et autres, du libéralisme à). (355l'impérialisme, p.

(7180/1)

. ومن هنا برزت أهمية المغرب بما هو قاعدة لإثارة الاضطرابات في الجزائر تؤثر في قرار فرنسا في موضوع حرب انتقامية، أو على الأقل يضعف قدرتها العسكرية بتجميده القوات الفرنسية في الجزائر والحيلولة دون نقلها إلى ميدان الحرب الأوربية. في سنة 1872، أعلن تيودور ويبر – قنصل ألمانيا في بيروت – أن القبائل الثائرة في الجزائر تأمل في مساعدة ألمانيا لها بالسلاح. وعد بسمارك بتزويد هذه القبائل بثلاثين ألف (30.000) بندقية لو استؤنف النزاع بين فرنسا وألمانيا(1)

---

(1). Jean-Louis Miège , Le Maroc et l'Europe , Tome 4, p. 19

(7181/1)

وفكر بسمارك في كسب نفوذ عدة شخصيات متنفذة في الغرب كشريف وزان، أو أعيان جزائريين لاجئين إلى المغرب عند الحاجة للتحرك ضد الجزائر أو إجبار فرنسا

بهذه التوقعات على التخلي عن فكرة الحرب الانتقامية(1)

كل هذا أقنع بسمارك بالإسراع إلى إقامة تمثيل دبلوماسي في المغرب. صرح بسمارك بقوله: "إن إيجاد مركز طنجة الذي هدفه خدمة المصالح التجارية الألمانية له أهمية سياسية لدى احتمال حرب جديدة مع فرنسا". وكان الفرنسيون يدركون هدف بسمارك هذا : "إن إنشاء بعثة دبلوماسية ألمانية لا يمكن أن

---

(1) 28Guillen, op. cit. , p..

يفسر إلا فكرة كامنة. لقد أقامت ألمانيا على الجنب الأيسر من مستعمرتنا الإفريقية وبدأت تهيئ يدا طويلة لتجميد قسم من القوات التي يسمح لنا الهدوء على حدودنا الغربية باستخدامها في حالة نشوب حرب أوربية". وأكدت الصحف الألمانية هذا التفسير قائلة: "إن إرسال وزير ألمانيا معركة حقيقية من أجل التأثير في الحكومة المغربية، معركة بين ألمانيا وفرنسا، وسيصبح المغرب قريبا مسرح حرب. فإما أن نضع حدا للسيطرة الفرنسية في إفريقيا وإما أن تتوسع هذه

السيطرة حتى الأطلنطي"(1)

---

(1) Ibid.

كان الجو ملائما للوجود الدبلوماسي الألماني. فقد أثار الانتصار الألماني دهشة المغاربة وإعجابهم، وأعطى ألمانيا سمعة كبيرة لديهم. وقد وجد الرحالان الألمانيان فريتشن ورين سنة 1872 ترحيبا من المسؤولين المغاربة وسمعا منهم: "لقد ابتهج كل الشعب أن الله أعطى السلطان غليوم النصر على فرنسا، تلك الأمة التي تسعى لفرض قانونها على جيرانها"(1)أبدى السلطان الحسن اهتماما شديدا بالجيش الألماني، وسعى للاستعلام عن أسباب تفوقه، ورأى أنه يمكن أن يستفيد من دعم ألمانيا ضد مطامع الدول الأخرى. وكان هناك

---

(1) Ibid., p. 33.

اعتقاد في المغرب بأن الدعم الألماني سيكون نزيها، لأن ألمانيا لم تكن دولة استعمارية، وليس لها ماض تاريخي في شمال إفريقيا، ولا حدود مع المغرب كفرنسا، ولا تملك مركزا تستطيع تهديد المغرب منه كإنجلترا في جبل طارق؛ كما أنه ليس لها مطالب لصالح مواطنيها – وعددهم كان لا يزال بضعة أفراد – وليس لها محميون. كان بسمارك يريد من ممثليه أن يتعاونوا تعاونا كاملا مع ممثلي إنكلترا التي كانت لها أهداف ألمانيا نفسها في معارضة فرنسا. وكان هذا يتجاوب مع محاولات بسمارك التي استمرت حتى عام 1880 في جذب إنكلترا إلى حلف

(7185/1)

أو اتفاق مع ألمانيا. ويرى مييج أن هذا الحلف كان قائما عمليا في المغرب: فقد كان ممثلو ألمانيا حتى عام 1880 يقفون صفا واحدا مع ممثل إنكلترا. وفي فترة غياب ممثل ألمانيا، كان ينوب عنه في تمثيل المصالح الألمانية الوزير المفوض الإنجليزي(1)

طلب بسمارك من جوليش، ممثل ألمانيا الأول، دراسة إمكان جر السلطان إلى مهاجمة الجزائر في حالة نشوب حرب في أوربا. وطلب منه أن يقدر إمكانات المغرب

العسكرية قائلا : "إن لعلاقاتنا مع المغرب أهمية عسكرية في حالة حرب مع فرنسا؛ إنها كذلك عام

---

(1) J.L.Miège, op. cit., p.. 21–22

(1/7186)

1874"(1).

كان اختيار جوليش، الوزير المفوض، غير موفق. فقد كانت تنقصه الخبرة بالعالم الإسلامي. فوقع الاختيار على تيودور ويبر قنصل ألمانيا في بيروت. وكان ويبر قد أمضى سنوات طوالا في البلاد العربي، وكان يتقن جيدا اللغة العربية، وصحب معه ترجمانا سوريا مسلما، هو منصور ملحم، مما كان له وقع طيب لدى المغاربة الذين كانوا يرون فيه واحدا منهم. وكان لهذا الترجمان فضل كبير في نجاح مهمة ويبر في المغرب.

---

(1) Guillen, op. cit., pp.. 32

(1/7187)

أكد بسمارك لويبر أهمية إقامة علاقات وثيقة مع الحكومة المغربية. وكان بسمارك يعتقد أنه بفضل مساعدة ألمانيا للمغرب في تطوير قوته الاقتصادية والعسكرية يمكن أن يصبح حليفا ثمينا لألمانيا مخيفا لفرنسا. وطلب من ويبر أن يدرس بعناية هذا الاحتمال وأن يجيبه بدقة على مسألة "هل الدولة المغربية في تنظيمها الحالي قادرة على التحسن، وما أهمية مواردها إذا نجحت في تطويرها، وهل بالإمكان أن تكون حليفا محتملا؟".

كانت العادة المألوفة أن يذهب الوزراء المفوضون المعينون حديثا إلى البلاط المغربي ليقدموا أوراق اعتمادهم.

(7188/1)

لكن لم يتم لجوليش أن يقوم بهذه المهمة. وكان من المفروض أن يقوم بها ويبر عام 1875؛ ألا أن الأزمة الفرنسية الألمانية في هذا العام، وما أثارته من مشاعر في أوربا دعت بسمارك إلى تأجيلها. تمت السفارة سنة 1877، وكان تشكيلها يعكس الأهمية المعلقة على هذا الاتصال الأول. فقد اصطحب ويبر سبعة ضباط اختبروا من أحسن عائلات النبلاء الألمان، وصحافيين اثنين ومصورا

وسكرتيرا وترجمانين واثنين من صف الضباط وفي تقرير إلى الإمبراطور، بين بسمارك: "أن نفوذنا سيصبح كبيرا، إذا نحن أقمنا مع السلطان علاقات مباشرة. إن هذا

لموكب الرائع والهدايا الثمينة التي يحملها ويبر لابد من أن تؤثر في المخزن، وأن تقنع السلطان الحسن بأن ليس له من حليف أفضل من الإمبراطور غليوم، وتجعله يقبل عقد معاهدة تجارية ومساعدة ألمانيا له في إعادة تنظيم جيشه"(1) .

و في أيار، وصلت سفارة مغربية وعلى رأسها حاكم آسفي الطيب بن هيمة إلى برلين. قوبلت هذه السفارة بحفاوة وسعى بسمارك إلى إبهارها بفخامة البلاط الإمبراطوري. قابل الإمبراطور بن هيمة كما قابله بلوف، سكرتير الدولة للشؤون الخارجية. صرح بن هيمة بأن سيده "لديه ثقة كبيرة بألمانيا

---

(1) . .Ibid ,71

أكثر من أي دولة أخرى". وإذا كانت هذه السفارات قد وثقت العلاقات، فإنها لم تحقق ما كان بسمارك يسعى إليه: عقد معاهدة تجارية وإرسال بعثة عسكرية ألمانية. ويرى مييج أن الاهتمامات السياسية والاستراتيجية لم تكن غائبة، ولكن الهدف الرئيس هو وضع أسس النفوذ الألماني في المغرب وتهيئة السبل لهجوم اقتصادي لمؤسسة "كروب" الذي كان يرغب في أن يكون له موطئ قدم في المغرب(1). وقد حصل ذلك

(1) J. L. Miège, op . cit., p 24.

فشل ويبر في الحصول على موافقة السلطان على عقد معاهدة تجارية، لأنه لم يكتف بطلب الحصول على منافع المعاهدات القائمة مع الدول الأخرى، بل قدم مطالب أكثر لم يكن السلطان مستعدا للموافقة عليها، لأنه كان يفكر في أن يستخدم هذه التنازلات – وخاصة مل يتعلق بتصدير الحبوب والمواشي وتحديد رسوم التصدير – في مجالات التجارة عملة تبادل مقابل تنازلات في مجالات

أخرى، كمسألة الحماية التي كان يسعى للتخلص منها أو للحد منها وإزالة مفاسدها.

(7192/1)

وكان على ويبر أن يقترح تزويد المغرب بالسلاح وبمدربين ألمان لتدريب الجيش المغربي. وكانت فرنسا قد قدمت عروضا مماثلة ونجحت في الحصول على موافقة السلطان على مجيء بعثة تدريب عسكرية فرنسية، وستكتفي ألمانيا ببيع كمية من الأسلحة. جاء هذا الفشل عشية التغيير الذي طرأ على سياسة بسمارك نتيجة التغيير الذي حدث في فرنسا بعد فوز الجمهوريين المعتدلين في انتخابات 1877.

2 – المرحلة الثانية: مرحلة السعي للتقارب مع فرنسا (1878 – 1884):

(7193/1)

رحب بسمارك بانتصار الجمهوريين المعتدلين والليبراليين الذين يمثلون البورجوازية المحافظة التي كانت أكثر اهتماما بالمحافظة على النظام العام وحسن

الإدارة المالية من المغامرات الخارجية. قال للسفير الفرنسي الجديد دوساتت فالييه: "قيل كثيرا إنني مؤيد للجمهورية في فرنسا لأني أرى فيها سببا لضعف بلادكم. والحقيقة أن الجمهورية الحكيمة والمعتدلة كجمهوريتكم الآن هي – في نظري – ضمانة للسلام، للأسر المالكة التي لا جذور لها كما هو حال تلك التي كانت لديكم"(1)

---

(1) . Jean Ganiage, Les origines du protectorat français en tunisie, pp. 408- 409

(7194/1)

.

وكان بسمارك يرى في نجاح الجمهوريين أن فرنسا لن تجد تعاطفا في سانت بطرسبورغ أو في فيينا. وكان يرى أن الجمهورية هي ضمانة السلام؛ ذلك لأن هذا النظام عاجز عن الإيحاء بالثقة للدول الأخرى(1). وعمل بسمارك على تشجيع الحكومة الفرنسية على المشاريع الاستعمارية التي ستحول – في رأيه – أنظار فرنسا عن الألزاس واللورين وتعطيها ترضيات في حقل عمل ليس

لألمانيا مصالح مباشرة فيه(2) . وكان يأمل في أن تصطدم فرنسا بهذه المبادرات مع مصالح بريطانيا أو مصالح إيطاليا،

---

(1) . Pierre Renouvin, op . cit., p. 57

(2) .Ibid.

(7195/1)

مما يجعل هاتين الدولتين تشعران بالحاجة إلى التقارب مع ألمانيا(1). كان بسمارك يفكر على هذا النحو منذ سنة 1875. فقد قال للسفير الألماني في باريس في بداية 1875: "أن تسعى السياسة الفرنسية لتجد في إفريقيا الشمالية أو في المشرق التركي مجالا لنشاطها، ليس بأمر أو ميل يحارَب في نظرنا"(2).

وليبدد بسمارك الشكوك التي كانت تخامر السياسيين الفرنسيين الذين كانوا يعيشون في خوف من ألمانيا، ويخشون أن يكون هناك فخ تنصبه مكيافيلية بسمارك، أكد للسفير الفرنسي

---

(1) . Ibid., pp. 57–58

(2) . J. Ganiage , opp. cit., pp. 409

(7196/1)

في برلين في بداية 1879 أن رغبته هي:

... ... إعطاؤكم برهانا على حسن نيتي من المسائل التي تخصكم، والتي ليس فيها ... ... مصلحة ألمانية متعارضة مع مصالحكم. إن مصلحة سياستي تدفعني إلى هذا ... ... السلوك، لأني كالإمبراطور الذي يرغب في أن يموت بعظمة وهدوء. أنا لا أكترث ... ... أن أرى في حياتي حربا أخرى، إني لا أرغب في ضم... وأرفض ... ... المغامرات وأتمسك بالهدوء وبالأمن المضمون بالعلاقات الودية مع جيراننا، وبخاصة ... ... معكم. هذا هو سبب كوني

(7197/1)

مستعدا لدعمكم في مشاريعكم غير المعاكسة لمصالحنا ... ... الخاصة. ولكني أكرر أني أعتقد أنه يلزم للشعب الفرنسي ترضية لكرامته. وأنا ... ... أرغب بإخلاص في أن أراها تحصل على تلك التي تسعى إليها في حوض المتوسط، ... ... مجال توسعها الطبيعي. فكل نجاح في هذه الناحية يقلل من الصعوبات

بيننا والآلام ... ... التي لا أناقش شرعيتها، ولكن لدينا إمكان تهدئتها...(1)

وعاد بسمارك في تشرين الثاني 1880، فكرر قائلا:

---

(1) . Ibid., p. 410

(1/7198)

... ... بدعمكم في تونس وفي حوض المتوسط، ليس لدي مقصد خفي لتشجيعكم على مغامرات ... ... اغتنمها لمهاجمتكم واقتطاع جزء آخر من أرضكم؛ ليس لدي أفكار مكيافيلية تعزى إلى هدفي ... ... البسيط، ومصلحتي ليست معقدة. لدي الاعتقاد أن بلدا عظيما كفرنسا بحاجة لأن يحصل ... ... على إرضاءات في سياسته ... الخارجية. وبما أني – مع الأسف – لا أستطيع إرضاءها في مجال ... ... الألزاس واللورين، فإني أرغب في أن أرضيكم في أي مكان لا تكون فيه مصلحة ألمانيا ... ... متعارضة مع مصلحة فرنسا. وأعتقد أنكم

(1/7199)

إذا وجدتم في المتوسط ما يتجاوب مع حاجيتكم ... ... الطبيعية والمشروعة في التوسع، فإن أفكاركم ستتحول مع قليل من المرارة نحو أقاليمكم ... ... المفقودة، وسيصبح السلام والعلاقات الطيبة بيننا وبينكم أكثر أمنا وأكثر سهولة. هذا هو ... ... سر حسن النية الذي أظهره لكم دوما سواء في تونس أو في المغرب أو في مصر أو في اليونان. ... ... لا تبحثوا إذن عن أسبابي الخفية، أحب أن أقول لكم بصراحة إني أرغب وآمل في أن أتوصل ... ... إلى تحويل أنظاركم عن متز وستراسبورغ، وذلك بمساعدتكم على أن

(7200/1)

تجددوا ترضيات في ... ... مكان آخر.(1)

و بالرغم من أن تصريحات بسمارك للسفير الفرنسي كانت تقصد تونس وأنه لم يثر موضوع المغرب إلا عرضا، فمن المؤكد مع ذلك أن السلطة المغربية بدأت تظهر له منذ الآن مجالا خاصا بالنشاط الاستعماري. وبالرغم من أنه وصف المغرب بأنه "هند ممكن أن تصبح أكثر غنى ومجالا أكثر ربحا من الهند الإنكليزية"، فإنه قرر أن يطلق يد فرنسا هناك وذكر شارل رو أن بسمارك كان يفكر سنة 1879 – 1880 في مشروع تقسيم شمالي إفريقيا:

مصر لإنكلترا وليبيا لإيطاليا وتونس

---

(1) Ibid., pp. 410-411

(1/7201)

والمغرب لفرنسا(1) . وفي موضوع إطلاق يد فرنسا في المغرب، حدث خلاف بين القادة العسكريين وبسمارك كان القادة العسكريون، وعلى رأسهم مولتكه، يرغبون في تعزيز قدرات المقاومة المغربية لشغل فرنسا أطول مدة ممكنة. أما بسمارك فقد كان – على العكس – يريد أن يساعد فرنسا على تحقيق أهدافها: "لا يمكننا إلا أن نكون مسرورين إذا امتلكت فرنسا المغرب؛ فعليها الكثير مما يمكن أن تفعله هناك، وسيكون في وسعنا منحها توسعا في مجالها تعويضا عن كونها خسرت الألزاس واللورين". وكان يرى في ذلك تحويلا

---

(1) Guillen, op. cit., p. 98 .

(1/7202)

لاتجاهاتها

العدوانية ضد ألمانيا. واتفق الطرفان أخيرا على حل وسط: ألا تعارض ألمانيا السياسة الفرنسية، ولكنها تعمل على تقوية المغرب سرا. فإذا ما شرعت فرنسا في احتلال المغرب، فستنشغل فيه لمدة طويلة؛ وإذا تخلت عن ذلك، فإنه ستضطر – في حالة قيام حرب أوربية – إلى الاحتفاظ بقوات كبيرة في الجزائر لحماية مستعمرتها من هجوم محتمل من قبل الجيش المغربي الحديث(1) .

بالغ بسمارك في محاولة التقريب من فرنسا، ووصل إلى حد التحالف: إذا رأى أن على الدولتين الاتفاق لمجابهة إنكلترا أو تحطيم سيطرتها

---

(1) . Ibid. , p. 99

(7203/1)

على البحار. وبلغ به الأمر سنة 1882 إلى حد أنه تلفظ بكلمة "التحالف"، وذلك في مقابلة مع السفير الفرنسي بين له ضرورة إقامة ما يوازن الهيمنة البحرية الأنكليزية: "على بريطانيا العظمى أن تعتاد فكرة أن

التحالف الفرنسي الألماني ليس أمرا مستحيلا"(1). كان هنالك شك لدى بعض السياسيين الفرنسيين في أن أهداف بسمارك هي الإيقاع بين فرنسا وانكلترا. وفي الحقيقة لم يتوقف بسمارك لحظة عن الاتصال بإنكلترا. وقد وجد مؤرخ ألماني في أوراق بسمارك في 2 آب 1884 أنه "ينبغي أن نسعى إلى زرع

---

(1) .. 59P. Renouvin, op. cit., p

(7204/1)

الشقاق بين فرنسا وانكلترا"، وأن بسمارك "حين كان يقدم عروضه لفرنسا، كان لا يأمل في نجاحها، بل كان يرغب في أن يثير قلق إنكلترا لدفعها للسعي للتقارب مع ألمانيا"(1) .

شجع بسمارك في مؤتمر برلين سنة 1878 وزير الخارجية الفرنسي وارينجتون على احتلال تونس، ولكنه في الوقت نفسه عرضها على وزير الخارجية الإيطالي كورتي الذي كان حاضرا في مؤتمر برلين. كان هذا يعني أن بسمارك يريد الاستفادة من الخلف الفرنسي الإيطالي(2) . وفي حين رفضت إيطاليا العرض، استغلت فرنسا التأييد

(1) .Ibid.

(2) . 67Baumont, op. cit., p.

(7205/1)

الألماني المقرون بالتشجيع الإنكليزي، فذهبت إلى تونس واضطرت إيطاليا إلى أن تذهب إلى برلين. ويبدو أن بسمارك أراد للمغرب أن يلعب

بين فرنسا وإنكلترا الدور الذي لعبته تونس بين فرنسا وإيطاليا (1) .

انعكس موقف بسمارك من فرنسا في أوربا على المغرب. هذا، بعد أن كانت الصلاة حميمة بين ويبر، ممثل ألمانيا، وهاي، ممثل إنكلترا، بحيث أنه حين كان ويبر يغيب عن المغرب، كان يعهد لهاي بتمثيل المصالح الألمانية. وفي موضوع الحماية، كان التعاون بين الرجلين وثيقا ضد تطرف فرنسا. ولوحظ أن

(1) . 22J. L. Miège, op. cit., p.

(7206/1)

ألمانيا لم تعط إسبانيا وإنكلترا جوابا عما إذا كانت ستشترك في مؤتمر مدريد حتى أعلنت فرنسا قبولها الاشتراك في هذا المؤتمر؛ وحينئذ أعلنت ألمانيا موافقتها.

وقد صرح بسمارك للسفير الفرنسي في برلين "أن لدى المندوب الألماني تعليمات بالاتفاق مع زميله الفرنسي ودعمه في المؤتمر"(1).

ولكن المندوب الألماني في المؤتمر لم يقدم المساندة التي وعدت بها فرنسا دون تحفظ ذلك بأنه لم يؤيد توسعا ضخما في حق الحماية، وكان هذا التحفظ نتيجة تحذير ويبر الذي كان يخشى أن يؤدي التأييد الألماني

---

(1) . 100Guillen, op . cit., p.

الكامل لوجهة النظر الفرنسية إلى تدمير الجهود التي بذلها لإقامة علاقات جيدة مع المغرب، كما وقف المندوب الألماني إلى جانب الدول التي عارضت فرنسا في مسألة الوسطاء. ولكن تعليمات بسمارك الحازمة أعادته إلى صف المندوب الفرنسي وقدم له دعما مطلقا.

وغداة المؤتمر، استمر الدعم الألماني لفرنسا في المغرب

بشكل واضح. فقد أكد بسمارك أكثر من مرة أنه ينظر إلى هذه المناطق وكأنها واقعة في المجال الطبيعي لنفوذها الشرعي. ودعت الصحافة الألمانية بإيعاز من بسمارك الفرنسيين إلى مد سيطرتهم على مجموع شمالي إفريقيا، وأشارت

(7208/1)

إلى أن ألمانيا لا يمكنها إلا أن تقف شاهدا مؤيدا لهذا العمل الحضاري العظيم(1)

وإبان ثورة بوعمامة في الجنوب الجزائري، حرص ويبر على البقاء بعيدا عن زعماء القبائل الذين جاءوا إلى المغرب يطلبون مساعدة السلطان. بل إنه نقل المعلومات التي أمكنه الحصول عليها عن خطط الثوار وقواتهم إلى وزارة الخارجية الفرنسية(2) .

وفي أواخر سنة 1881، وصل لاديسلاس أورديجا وزيرا مفوضا لفرنسا في المغرب، وكان صديقا لأوجين إيتيين أحد أبرز زعماء الاستعماريين الفرنسيين، كما كان صديقا لغامبيتا،

---

(1) . Ibid, p. 103

(2) . Ibid., p. 104

وكان يريد أن يلعب في المغرب دور "روستان" في تونس، وكان يسمي نفسه "روستان المغرب"(1). كان فرنسيو الجزائر يطمحون دوما إلى مد الحدود الجزائرية حتى ملوية، وجاءت ثورة بوعمامة لتعطيهم الفرصة للتحرك نحو ملوية. وفي بداية 1882، طالبت جرائد وهران باحتلال واحة فجيج. كما نشط الحديث عن مشروع سكة حديدية عبر الصحراء تصل الجزائر بمستعمرات فرنسا في غربي إفريقيا، وذلك عبر توات. كان أورديجا متحمسا لهذه المشاريع، ولكن خروج صديقه غامبيتا من الوزارة، وتوقف الحكومة الفرنسية عن متابعة

(1). Ganiage, op. cit., p. 367

هذه المشاريع، دفعت أورديجا إلى الاندفاع في "سياسة الطرق" الصوفية التي ستسرع في تفكيك السلطة المغربية. منح شريف وزان سنة 1884 حق الحماية،

مخالفا بذلك مقررات مؤتمر مدريد. كانت الطريقة الوزانية منتشرة في مناطق عديدة في المغرب. وبهذا العمل الذي أقبل عليه أورديجا، صار بإمكان فرنسا أن تجعل من هذه الطريقة دولة ضمن الدولة، وأن تغدي مطامع شريف وزان ليطالب بالعرش. وصار هناك – حسب تعبير صحافي في طنجة – "خطر تفجير السلطة". كتب أورديجا إلى جول فري يقول: "إنهم بانتظارنا في المغرب، وسيستقبلوننا بأذرع

(7211/1)

مفتوحة"(1). وفي حين وقفت إنكلترا وإسبانيا وإيطاليا ضد هذا النشاط الذي يبديه أورديجا، وضد منحه حق الحماية لشريف وزان، ظل بسمارك على تأييده لفرنسا، بل اقترح على فرنسا التفاهم مع إسبانيا لتحديد
مناطق نفوذ كل من الدولتين، وعرض خدماته لهذا الغرض. وهكذا وصل بسمارك إلى طرح فكرة تقسيم المغرب(2). ولكن انشغال فرنسا في التونكين، واحتمال الحرب مع الصين دعياها إلى الهدوء في المغرب، وإبعاد أورديجا من المغرب إلى بوخارست، وعادت إلى سياسة المحافظة على الوضع الراهن.

---

(1) . Ibid., p. 364

(2) . Ibid., p. 365

(1/7212)

كانت إيطاليا قد انضمت إلى الحلف الألماني النمساوي سنة 1882 لتحصل على دعم الدولتين ضد فرنسا. ولكنها لم تستطع أن تضمن المعاهدة شرطا حول المحافظة على الوضع الراهن في شمالي إفريقيا. ومع ذلك، شرعت في العمل على عرقلة النشاط الفرنسي في المغرب. لكن بسمارك لم يجارها في هذا العمل، بل كان يؤيد فرنسا تأييدا كاملا، ويتدخل في روما للضغط على إيطاليا للحد من نشاطها في المغرب. وكان ويبر متحفظا مع زميله الإيطالي. خاب أمل إيطاليا التي كانت تعتمد على دعم ألمانيا لمنع توسع فرنسي جديد في شمالي إفريقيا، كما كانت تأمل

(1/7213)

في أن يدعم الوزير الألماني المفوض زميله الإيطالي في جهوده لتقوية وضع ألمانيا في السلطة المغربية. وقد

شكا الوزير الإيطالي المفوض أن التحالف الثلاثي غير موجود في المغرب(1) . وحين اشتكت إيطاليا من سلبية ألمانيا تجاهها في المغرب وحذرت بالقول: "سيكون لإيطاليا خيبة مرة إذا حصل في المغرب تغيير لغير صالحها ودون أن تعمل شيئا لمقاومته"، لم يكترث بسمارك

ووقف بسمارك من إسبانيا الموقف نفسه الذي وقفه من إيطاليا. كانت إسبانيا تسعى إلى تقارب مع ألمانيا، وكانت تأمل في الحصول على

---

(1) . Miège, op. cit., p. 29

تأييد بسمارك لسياستها المغربية. وحين قامت ثورة بوعمامة، خشيت إسبانيا أن تستغل فرنسا هذه الثورة للاندفاع نحو ملوية. ففكرت في الاستيلاء على العرائش وطنجة وطلبت مساعي بسمارك للحصول على موافقة إنكلترا وإيطاليا؛ ولكن بسمارك رفض، "لأن تدخل ألمانيا سيثير شكوك فرنسا ويؤذي مشاريع إسبانيا"(1) . عمل السفير الألماني في مدريد على تهدئة مخاوف الحكومة الإسبانية وفقا لتعليمات

بسمارك، وكرر

---

(1) . 105Guillen, op. cit., p.

(7215/1)

أن مصالح ألمانيا لن يؤذيها عمل محتمل تقوم به فرنسا، وأن ألمانيا تأمل في رؤية فرنسا "تفطن إلى التعقيدات الكبيرة في إفريقيا"(1) . ورفض بسمارك تأييد إسبانيا التي رغبت في الدعوة لعقد مؤتمر دولي يعلن سلامة الدولة المغربية، وأعلن "أن المغرب يقع خارج المصالح الألمانية السياسية".

3 – عودة التوتر في العلاقات الفرنسية الألمانية (1885 – 1890)

شهدت أوربا منذ العام 1885 أحداثا هامة كان لها تأثير كبير في العلاقات الدولية:

---

(1) .Ibid.

(7216/1)

أ – انفجرت الأزمة البلقانية بسبب أحداث بلغارية أحدثت توترا في العلاقات النمساوية الروسية أدى إلى إنهاء اتفاق الأباطرة الثلاثة، وكاد أن يؤدي إلى تقارب روسي فرنسي لولا مهارة بسمارك

ب – وتعكرت العلاقات الفرنسية الألمانية بعد سقوط وزارة جول فري، عقب هزيمة فرنسية في التونكين أمام الصين. وأسفرت الانتخابات عن فوز الملكيين والرادكاليين الذين علت صرختهم: "يسقط البروسيون"! . ودخل الجينرال بولانجيه في وزارة فرينية وزيرا للحرب في آذار 1886، وذلك بدعم من كليمنصو. كان بولانجيه طموحا دون وازع، وقد انساق وراء

(7217/1)

دعايتين كانتا تلهبان الرأي العام الفرنسي: إحداهما موجهة ضد النظام الذي فقد مصداقيته بسبب الفضائح السياسية والمالية التي وصلت حتى أسرة رئيس الجمهورية، والأخرى لصالح الانتقام من ألمانيا(1) . كان بولانجيه يصرح بأن ليس على فرنسا أن تخشى سيدان ثانية، وبدأ في تقوية الجيش، وأصبح يسمى "جنرال الانتقام" و "معبود باريس"(2) .

ساد الاعتقاد في برلين أن فكرة الانتقام تتقدم في فرنسا بالقوة نفسها التي تتقدم بها شعبية الجنرال. فأدى هذا إلى توتر

---

(1). Pirenne, op. cit., Tome 5, p. 516

(2). Baumont, op. cit., p. 199

(1/7218)

العلاقات الفرنسية الألمانية. ومنذ ربيع 1886، بدأ الحديث عن حرب في الصيف.

سارع بسمارك إلى اتخاذ إجراءات مضادة بسرعة. ففي ألمانيا طلب من الرايخشتاغ الموافقة على اعتمادات لتقوية الجيش. رفض الرايخشتاغ؛ فحله بسمارك، واعتمد على دعاية شوفينية أدت إلى فوز أكثرية موالية له في الانتخابات صوتت على الاعتمادات. وفي الوقت نفسه، بدأ حملة دبلوماسية سنة 1887 أسفرت عن تجديد التحالف الثلاثي الألماني النمساوي الإيطالي، بعد أن قدم تنازلات لإيطاليا في شمالي إفريقيا وفي البلقان. وشجع على قيام اتفاقات المتوسط: اتفاق

(1/7219)

إنكليزي – إيطالي موجه ضد فرنسا روسيا وانضمت إليه النمسا، ثم اتفاق إيطالي إسباني موجه ضد فرنسا.

وسعى بسمارك لإبقاء روسيا بعيدة عن فرنسا بعد انهيار اتفاق الأباطرة الثلاثة بسبب الأزمة البلقانية. وكان قد ظهر له بوادر بين الدولتين. فقد أعلن قيصر روسيا في ربيع 11887 أنه لن يترك ألمانيا تشوش أوربا. فإذا هوجمت فرنسا وضعفت، فإن روسيا ستعدل الميزان(1) . نجح بسمارك في عقد معاهدة سرية مع روسيا ("معاهدة إعادة الضمان") اعترف لها مقابل حيادها في حرب دفاعية مع فرنسا

---

(1) . Renouvin, op. cit., pp. 110- 111

بتنازلات هامة في البلقان والمضايق، وبهذا حقق بسمارك عزل فرنسا.

ج – حتى منتصف الثمانينيات، كانت دوافع بسمارك في المغرب سياسة، ولم يكن اهتمامه بتنشيط الوجود الاقتصادي الألماني في المغرب إلا لخدمة هذه السياسة. وكانت سياسة بسمارك العامة قارية وتعارض أن

تباشر ألمانيا سياسة استعمارية، لأن هذا سيخلق لها مشاكل وأعداء جددا، ويتيح لعدوته فرنسا أن تجد لها حلفاء ضد ألمانيا. ولكن ألمانيا كانت قد انقلبت بعد= وحدتها إلى آلة صناعية جبارة، واتجهت نحو الإنتاج الضخم لتخفض أسعار منتجاتها إلى أقصى حد كي تستطيع أن

تجد لها مكانا في الأسواق العالمية. وقد ارتفع رقم تجارتها بين سنتي 1881 و 1885 من 6 ملايير مارك إلى 190 مليار مارك(1) . وبدأ قسم هام من الرأي العام الألماني تدركه حمى الاستعمار، وبدأ الضغط على بسمارك كانت حجة الاستعماريين الألمان أن أقوى الدول سياسيا وعسكريا والأكثر نموا ديمغرافيا واقتصاديا، ينبغي أن تنال نصيبها في عمل تمديني؛ وأنه على الإمبراطورية الألمانية الحصول على مستعمرات يهاجر إليها أبناؤها الذين كانوا حتى الآن مكرهين على الاتجاه نحو مناطق

---

(1) . 34Bulow, La oliitique d'Allemagne, p.

أجنبية. وبدلا من الضياع بالآلاف عبر العالم، سيذهبون لإعمار أراض ألمانية(1) . ولم يعد بإمكان بسمارك أن يقاوم هذا الضغط، ولكنه عمل جاهدا للابتعاد عما سماه "أعشاش الدبابير" كالبلقان والمتوسط والخليج العربي ومبدأ موثرو(2).

بدأ النشاط الألماني الاقتصادي في المغرب يتزايد بوثيرة متسارعة بعد مؤتمر مدريد. ففي هذا المؤتمر، حصلت ألمانيا على حقوق مماثلة لبقية الدول التي كان لها علاقات قديمة. وقد أشار بسمارك في

---

(1) . F.W. Foester, L'Europe et la question d'Allemagne, p. 172

(2) . Renouvin, op. cit., p. 94

مفكرته سنة 1883 إلى فوائد "سياسية إفريقية اقتصادية تتابع بحذر". وأعلن ما يمكن تسميته البرنامج المغربي. فقد كتب يقول: "كل خط ملاحة تجارية جديد يحمل راية الإمبراطورية لا يمكن إلا أن ينمي التجارة، حتى لو عانى من عجز في بداية الأمر"(1) .

لقد سمحت الفترة الأولى (1873 – 1884) لألمانيا بأن تحصل سياسيا وتجاريا على موطئ قدم لها في المغرب، وبأن تتقن المعطيات الدبلوماسية للعبة المغربية، وبأن تقيم نقاط الضعف في موقعها والتدابير اللازمة لتحسين هذا الموقع.

---

(1) . 29Miège, op. cit., p.

(7224/1)

بدأت ألمانيا نشاطا واسعا، تجاوبا مع تحريض المستكشفين الألمان كرولفس وباناخ وأصحاب السفن (سلومان) والتجار والصناعيين (كروب). وفي بادئ الأمر، باركت حكومة الأحرار البريطانية هذا التوجه، وصرح جلادستون في مجلس العموم قائلة: "إذا أصبحت ألمانيا دولة مستعمرة، قلت لها بارك الله جهودها. إنها ستكون حليفتنا لخير الإنسانية، وسأُسرُّ بأن تصبح شريكتنا في حمل مشعل الحضارة إلى البلاد الأقل حضارة، وسنبذل لها في هذا العمل عواطفنا الطيبة وكل التشجيع الذي بإمكاننا تقديمه"(1) .

---

(1) . 94Baumont, op. cit., p.

وانعكس هذا التوجه على تعون إنكلترا مع حلفاء ألمانيا في اتفاقات المتوسط وفي المغرب. وكان هناك تعاون وثيق بين وزراء الدولتين المفوضين وبخاصة في عهد "تستا"، الوزير المفوض. التحق "تستا" بمنصبه في طنجة بعد مروره بلندن، وحصل في طنجة على مساعدة هاي، الوزير المفوض الأنكليزي في طنجة، بتوصية من الخارجية الإنكليزية(1) . وكان هي، أمام تزايد نشاط الوزير الفرنسي أورديجا، يفضل – كما كتب في 1885/16 – أن تستولي ألمانيا على المغرب بدلا من أن تستولي عليه فرنسا(2) . واستمر

(1) . Miège, op. cit.,, p. 171

(2) .Ibid.

هذا التعاون بين الوزيرين بعد ذهاب هاي ومجيء وزير مفوض بريطاني جديد هو "كيربي غرين". ولدعم النشاط الألماني في المغرب، أرسلت النمسا – التي كان الوزير

المفوض البريطاني – إلى طنجة قائما بالأعمال؛ قد أعطى هذا ل"تستا" صوتا إضافيا في المجلس الدبلوماسي في طنجة. ومن الطبيعي أن يطابق ممثل النمسا موقفه مع موقف "تستا".

تميزت هذه الفترة باستئناف المفاوضات من أجل عقد معاهدة تجارية. ففي أيلول 1885، حل البارون "شارل تستا" محل ويبر. وقد فسر هذا التعيين في طنجة بأنه علامة على توجه جديد في السياسة الألمانية. خدم

(1/7227)

تستا قبل ذلك ترجمانا في السفارة الألمانية في إستمبول، وكان يتقن اللغة العربية، ويملك خبرة جيدة بسياسة الدول الإسلامية، كما كان يملك رصيدا طيبا وعلاقات حميمة مع البلاط العثماني . وقبل أن يلتحق بعمله، أجرى مباحثات طويلة مع بسمارك كانت مهمة "تستا" الرئيسية الحصول بسرعة على عقد معاهدة تجارية مع المغرب. وقد أعطاه بسمارك صلاحيات كاملة للعمل، واستدعى ويبر، بالرغم من تقاعده، للذهاب إلى طنجة وتقديم خبراته ل"تستا".

(1/7228)

أبلغت الخارجية الألمانية الخارجية الإنكليزية رغبتها في الشروع فورا في المحادثات، ورغبتها في أن يتم التعاقد بسرعة. وأبدت الخارجية الألمانية رغبتها في أن تعمل الحكومتان والمفوضيتان معا. وافق سولسبري، وذهب تستا و وبر إلى لندن لوضع مشروع معاهدة مشترك كان بسمارك يرغب في توسيع المبادلات الجرمانية المغربية لأسباب اقتصادية وسياسية في آن واحد. فبعد أن خاب أمله في التقارب مع فرنسا، عاد المغرب – في نظره – وسيلة ضغط على السياسة الفرنسية بعد أن كان في الفترة السابقة وسيلة إغراء.

(7229/1)

عمل "تستا" بالتعاون مع هاي في طنجة. وخوفا من أن تدرس فرنسا ضدهما لدى السلطان، حاولا إشراك الوزير المفوض الفرنسي معهما. لم يكن بسمارك موافقا، لأنه كان يخشى دسائس فرنسا، وطلب مسبقا موافقة الحكومة الفرنسية على المشروع الألماني الإنكليزي. لم توافق الحكومة الفرنسية التي كانت ترى أن نجاح

المفاوضات سيشجع على خلق مصالح ألمانية في المغرب سيكون توسعها ضد مصالح فرنسا(1) .

---

(1) . Guillen, op. cit., pp. 1167-1169

(7230/1)

اصطدم "تستا" بمماطلة الحكومة المغربية ومحاولتها التفريق بين المفوضيتين الألمانية والإنكليزية، وذلك بأجراء مفاوضات منفصلة بدلا من مفاوضات مشتركة. وقد تنبه الوزيران وقدما احتجاجا مشتركا، واضطر السلطان إلى التخلي عن هذه المحاولة. حاول السلطان التذرع برغبته في إرسال سفارة إلى برلين مكلفة بتأكيد صداقة المغرب لألمانيا، ولكن "تستا" رفض هذا الطلب بموافقة بسمارك: "لا يبدو أن هذه السفارة ملائمة، ما دام توقيع المعاهدة لم يحصل". انتهت المفاوضات دون نتيجة، ووجهت ألمانيا وإنكلترا وفرنسا رسالة موحدة إلى

(7231/1)

الوزير الأعظم؛ فطالبه بالموافقة على الاتفاق التجاري المقدم. (كان مشروع المعاهدة يتضمن مكاسب للتجارة الأوربية أوسع مما كان في المعاهدات السابقة؛ وإذا ما وقع السلطان المعاهدة، فستستفيد مما جاء فيها كل الدول التي تملك حق الأمة الأكثر رعاية).

وقبل أن يجيب السلطان، أجرى استشارات واسعة مع أعيان فاس والتجار والفقهاء ورجال الدين: هل يوافق على مطالب دولة أجنبية بالسماح بتصدير الحبوب والمواشي؟ وكانت هذه أبرز نقاط الخلاف. وكان الجواب على العموم سلبيا. والحق أن السلطان كان يرفض التنازل عن الامتيازات

(1/7232)

التجارية التي كانت تطالب بها ألماني مدعومة من إنجلترا أو فرنسا دون مقابل، في الوقت الذي كان يسعى فيه لعقد مؤتمر لمراجعة ميثاق مدريد بخصوص الحماية.كان يريد تقديم تنازلات في التجارة مقابل تنازلات في مسألة الحماية.

وبالرغم من أن الحكومة الألمانية كانت ترغب في الوصول إلى اتفاق، فإنها لم تخرج عن تحفظها طيلة المباحثات, ولم تغير مصلحة التجار الألمان المتزايدة في

عقد معاهدة تجارة مع المغرب في موقف بسمارك كان هدفه الحصول على النفوذ وتوثيق العلاقات مع الحكومة المغربية. وهذا يتطلب تجنب أي ضغط من شأنه أن

(7233/1)

يستفز السلطان.

سبب سلوك تستا المتعالي ولهجته المتغطرسة استياء المخزن. وجاء حادث السفينة الألمانية غوتروب ليزيد في هذا الاستياء. فقد قامت هذه السفينة، وعليها نماذج من البضائع الألمانية، برحلة إلى المغرب بصفتها معرضا متنقلا وزارت عددا من الموانئ المغربية المفتوحة للتجارة. لكنها فشلت في النزول في وادي نون وهي منطقة محرمة، وهبت عاصفة وأسر المغاربة قادة المشروع وعلى رأسهم الدكتور ياناخ وقادوهم إلى السلطان. أرسل السلطان مذكرة احتجاج إلى السلك الدبلوماسي ضد روسو سفن أجنبية في غير الموانئ المفتوحة

(7234/1)

للتجارة. وزاد في استياء السلطان رسائل تستا التي تطالب بتحرير يانا خ بأسلوب فظ أسرع بسمارك بعزل تستا.

ظل بسمارك حريصا على موضوع المعاهدة. وكي يظهر للسلطان خيبة أمله المريرة، دعا الإمبراطور إلى الرد على طلب السلطان في 15 آيار 1887 إرسال سفارة مغربية إلى ألمانيا، بأن لن يستقبل إلا سفارة مكلفة بعقد معاهدة تجارة. وحين اقترح السلطان في آب 1887 عقد مؤتمر دولي لوضع حد لمفاسد الحماية، أبدى بسمارك على الفور موافقته من حيث المبدأ. ولكنه أعلم السلطان أن إقرار نتائج المؤتمر لا يمكن أن تتم إلا بعد منح

(7235/1)

الحكومة المغربية فوائد تجارية.

لوحظ في هذه الفترة أنه بالرغم من حاجة الطرفين إلى بعضهما، فإن كليهما كان متحفظا في علاقاته بالآخر. فالسلطان لم يستجب لمطلب ألمانيا بعقد معاهدة تجارية، وبسمارك لم يندفع في تأييده للسلطان أمام تحرشات الفرنسيين على الحدود الجزائرية المغربية وفي الواحات. وبالرغم من حالة التوتر في العلاقات الفرنسية الألمانية، فإن بسمارك كان حريصا جدا في

سياسته

المغربية. ففي صيف 1886 ، لقي فاجنر مندوب كروب استقبالا حارا، وأسر له آل بركاش، وهم من الميالين للتعاون مع ألمانيا وعلاقتهم جيدة

(7236/1)

مع المفوضية الألمانية، أن السلطان يملأ صدره الشك من فرنسا و إسبانيا، وهو يرغب في توثيق علاقات الصداقة مع الإمبراطور غليوم، وأن تعاونا عسكريا يمكن أن يقوم بين الدولتين: تعيد ألمانيا تنظيم الجيش المغربي وتزوده بالسلاح، ويتعهد المغرب بجعل الفرنسيين عبر هجوميين في الجزائر إذا نشبت حرب في أوربا.

و في مقابلات فاجنر في الخارجية الألمانية، ثم في رسالة تلتها مذكرة وجهها إلى بسمارك ومولتكه، طور فاجنر هذا الإمكان، فقال: "إن جيشا مغربيا حسن التنظيم يحيط بالحدود الجزائرية سيكون أهم لنا من فرقة إسبانية وراء

(7237/1)

البيرنية. وسيجمع السلطان قواته ليهاجم المستعمرة الفرنسية، وسيثير نفوذه الديني كل شمالي إفريقيا: "ثورة في الجزائر وأخرى في تونس". ولما كان السلطان سيصل قريبا إلى الرباط، نصح فاجنر إرسال "تستا" إلى الرباط بكل سرعة مع أسطول لتحية السلطان بطلقات مدفعية : "إن ضجيج المدافع الألمانية سيسمع في الجزائر وتونس". ولكن بسمارك رفض سلوك هذا الطريق ولم يكترث لعروض بركاش. ففي رأيه أن التوتر مع فرنسا لم يكن يتطلب تعاونا عسكريا وثيقا ولا استعراضيا، بل يتطلب حذرا شديدا(1).

---

(1) . Ibid., pp. 197- 198

(7238/1)

أيد بسمارك عقد مؤتمر مدريد ثان لإعادة النظر في مسألة الحماية دعت إليه إسبانيا، ولكن المحاولة فشلت بسبب رفض فرنسا واختلاف وجهات نظر إنكلترا وإسبانيا وإيطاليا. وقد سبب هذا خيبة أمل شديدة للسلطان الحسن، وبدا له أن توثيق العلاقات مع ألمانيا بات ضروريا. توجهت بعثة مغربية وعلى رأسها حاكم الشاوية بن رشيد لتهنئة الإمبراطور غليوم الثاني على

جلوسه على العرش. وصلت البعثة إلى ألمانيا في 29 كانون الثاني 1889 واستقبلت رسميا في 6 شباط، وكانت موضع تكريم خاص. فقد زارت شخصيات ألمانية كبيرة رئيس السفارة ، كما كان

(7239/1)

استقبال الإمبراطور لها رائعا. مهد ذلك للوزير المفوض الألماني تاتنباخ ليستأنف المفاوضات
من أجل معاهدة تجارة ونجح في عقد المعاهدة سنة 1890 تضمنت شروطا أفضل من معاهدة سنة 1856 مع إنكلترا. محاولة ألمانيا إقامة علاقات دبلوماسية تركية مغربية كان النفوذ الألماني في الثمانينيات في تركية، وكان ل"تستا" علاقات وثيقة مع المسؤولين الأتراك، سعى لاستخدامها في إقامة علاقات دبلوماسية بين الحكومتين الإسلاميتين. لم يكن "تستا" أول من فكر في هذا المشروع: فقد كانت هناك محاولات سابقة لإقامة هذه العلاقات بمبادرة من

(7240/1)

الباب العالي سنة 1877 كما يقول مييج(1) ، ومن السلطان الحسن كما يدعي إسماعيل سرهنك(2) . ثم جدد السلطان عبد الحميد المحاولة بوساطة بريطانية سنة 1879 ، وكانت علاقته بها آنذاك جيدة بسبب وقوفها إلى جانبه في صد التقدم الروسي نحو المضايق، وفي تحجيم مكاسب روسيا في معاهدة سان استفانو. قام الوزير المفوض الإنكليزي "هاي" بمساع لدى المخزن، وكان يرى في هذا التقارب ضربة لمحاولة ألمانيا إرسال بعثة عسكرية إلى

---

(1) . Miège , op. cit., pp. 173- 174

(2) انظر: محمد المنوني، مظاهر يقضة المغرب الحديث، ج1 ض. 68.

المغرب كان ويبر يسعى إليها، وفي الوقت نفسه ليحول دون تنفيذ السلطان الحسن وعده للوزير الفرنسي بقبول بعثة عسكرية فرنسية لتدريب جيشه. لكن مساعي هاي لم تنجح. فقد امتنع السلطان عن الاستجابة لأسباب مالية لم يقتنع بها هاي، بل عزاها لأسباب تتعلق بالجفاء التقليدي بين الدولتين، وادعاء كل من

السلطانين بأحقيته بالخلافة(1)

---

(1) عبد الرؤوف ستو، "فكرة الجامعة الإسلامية بين السلطنة العثمانية والمغرب الأقصى" ، مجلة الاجتهاد، ع 27 – 26، شتاء وربيع 1995، ص. 338

(7242/1)

. وتجددت المحاولة بعد احتلال فرنسا تونس، إذ لعب الوزير المفوض الإيطالي سكوفاسو دور المحرض سنة 1881. كتب سكوفاسو إلى الكونت جريبي وزير إيطاليا المفوض في مدريد قائلا: "بإمكاني أن أسأل الوزير الأعظم لمعرفة هل السلطان مستعد لإرسال سفارة فوق العادة إلى إستنبول... إني أعتقد أن حدوث تعاون بين الدولتين المسلمتين سيكون سياسة جيدة إلى حد ما، ذلك لأنه يجب تجربة كل الوسائل الممكنة لمنع هذه السلطة من الانهيار أو من السقوط تحت حماية فرنسا كما في تونس(1)

---

(1) . Miège, op. cit., p. 174

(7243/1)

وكرر سكوفاسو المحاولة سنة 1882 وسنة 1883، وشجعت إسبانيا هذه المحاولات كذلك سنة 1884(1) . حتى سنة 1885، كان مشروع إقامة علاقات بين الدولة العثمانية والمغرب يمر عبر قنوات دبلوماسية بريطانية وإيطالية وإسبانية. ولكن منذ العام 1885، تسلم الألمان زمام المبادرة لتحقيق هذا المشروع. ولم يكن دور بسمارك واضحا في هذا الموضوع. قيل إنه كان حريصا على ألا يضعف مركز عبد الحميد بعد سقوط تونس ومصر بأيدي فرنسا وإنكلترا. كما كان يريد

(1) مفاتحة بين وزير الدولة الإسباني وممثل تركيا في مدريد سرمد أفندي (Ibid).

(7244/1)

استخدام نفوذ عبد الحميد بصفته خليفا وزعيما للجامعة الإسلامية لصالح مشاريعه الاستعمارية في إفريقيا. وكان الاعتقاد سائدا أن وزير مفوضا عثمانيا في طنجة سيديم السياسة الألمانية في المغرب، وسيكون عميلا طيعا لسياستها. فبصفته مسلما، سيكون موضع ثقة المخزن وسيحصل على موافقة المخزن على الاقتراحات التي

توجهها الحكومة الألمانية: " إن وزيرا عثمانيا يساوي وزيرين"(1) . لعبت ألمانيا دور الوسيط بين تركيا والمغرب. ففي بداية 1886، أثار الصدر الأعظم أمام "رادويتز"، السفير الألماني في

---

(1) . 182Guillen, op. cit., p.

(7245/1)

إستنبول، مشروع افتتاح مفوضية تركية في طنجة، وتساءل هل بإمكان الوزير الألماني أن يكون وسيطا. حين أعلم رادويتز بسمارك برغبة الباب العالي، أعطى موافقته وكلف تستا بأن يجس نبض الحكومة المغربية. ولكن المحاولة لم تثمر. كرر الصدر الأعظم المحاولة مع السفير الألماني، وبين لهه أن الحكومة التركية تعلق أهمية كبيرة على إقامة علاقات مع المغرب. نصح بسمارك الحكومة التركية بالقيام بالخطوة الأولى وإرسال رسالة إلى وزير الخارجية المغربية يطلب فيها إقامة مفوضية تركية، وسينقل ممثل ألمانيا الرسالة إلى الحكومة

(7246/1)

المغربية. وبالفعل، قام "سالديرن"، القائم بالأعمال الألماني في طنجة، والذي حل محل تستنا، بنقل الرسالة التركية إلى الجانب المغربي. يورد ابن زيدان(1) نص الرسالة وفيها وصف الحكومة المغربية بـ «حكومة فاس" والسلطان المغربي بـ «حكمدار فاس". وكان هذا كافيا لأن يرفض السلطان الحسن الطلب العثماني.

اكتفت الحكومة المغربية في بادئ الأمر بتجاهل الرسالة والامتناع عن الرد. اتصل الوزير الألماني الجديد ترافرس بوزير الخارجية المغربي: "إن صمت

---

(1) ابن زيدان، اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ج2 ص. 359 – 360.

(7247/1)

الحكومة الطويل هذا لا يتجاوب مع حسن العلاقات بي بلدينا". تحجج الوزير المغربي تارة بمرض السلطان، وتارة بانشغال السلطان بحملة على السوس. قرر بسمارك إرسال منصور ملحم إلى مكناس ليتصل مباشرة بالسلطان. أكد منصور ملحم للسلطان أنه إذا قبل وجود مفوضية تركية، فإن تركيا ستساند المغرب في

المؤتمر. لم تثمر هذه المحاولة وجاء الرد المغربي رفضا مهذبا(1)

---

(1) جاء في جواب الخارجية المغربية أنه رأت "من ملاحظة حق الأخوة في الدين ألا تفتقر الأحداث وسيلة من جانب الوداد، ورأت من اعتبار مرحم الإسلام في الوصلة إجراءها مجرى الاتحاد يقينا بأن نعمة هذه الأخوة لا يقبل حكمها التشكيك ولا يطرق من مركبه تفكيك فلا داعي لتنزيل جانبها منزلة ملل الاختلاف. حتى تحتاج لنصب وسائط تمهيدا لائتلاف، ولتفهيم القواعد والقوانين والأعراف؛ لأن من المقرر المعلوم أن المقتضي لذلك هو ضرورة المعاملات المتوقفة على المفاوضة بين الأجناس المحتاجة لبيان الاصطلاحات واللغات. وذلك منتف في أهل الملة الإسلامية والأخوة الإيمانية لاتحاد جميعهم في أصول الأحكام والأعراف الشرعية واتفاقهم في سلوك المساعي الصالحة على متابعة اللسيرة" (ابن زيدان، مرجع مذكور، ج2، ص. 360).

(7248/1)

.

ويعزى هذا الرفض إلى الخلاف التقليدي بين حكام تركيا

والمغرب في موضوع الخلافة، وتعالي السلطان العثماني في مخاطبة السلطان المغربي بـ «حكمدار فاس". كما لعب الوزير المفوض الفرنسي دورا هاما في تحريض السلطان الحسن على الرفض. شارك الوزير الفرنسي وزراء إنكلترا وإيطاليا وإسبانيا المفوضين، بالرغم من أن حكوماتهم كانت تؤيد المشروع. كان هؤلاء الوزراء المفوضون يخشون أن يؤدي وجود مفوضية تركية بواسطة ألمانيا إلى تعزيز مركز ألمانيا. وحين علم بسمارك أن الوزير الأنكليزي المفوض كيربي غرين يؤيد الوزير الفرنسي، كلف

(7249/1)

سفيره في لندن بأن يعرب عن دهشة الحكومة الألمانية. استنكر سولسبري موقف وزيره المفوض قائلا: "إن لإنكلترا مصلحة تامة في دعم مشروع الباب العالي"(1) . ولا شك أن في تردد السلطان الحسن وتأخره في الجواب يعود إلى خشيته إغضاب ألمانيا التي لا غنى عن تأييدها لتحقيق مشروع المؤتمر الدولي. وبرر الوزير المغربي سبب رفض العلاقات مع تركيا قائلا: "إن الوقت والحال لم يقتضيا ما أشرتم إليه لعلل شرحت للترجمان المذكور (منصور ملحم)

(1) . Guillen, op. cit., pp. 180- 181

(7250/1)

وبينت له تبيانا كافيا؛ وأهل مكة أدرى بشعابها"(1).

ويرى جيلين أن بسماركل م يكن متحمسا لهذا المشروع، لأنه كان يعلم عداء المغاربة لتركيا، وأن أغلب الحكومات الأوربية لا تشجع هذا المشروع.

كما أن بسماركلم يكن يرغب – في هذه الظروف الحرجة التي تمر بها العلاقات الفرنسية الألمانية منذ صعود الحركة البولانجية * في أن يتخذ مواقف تزيد التوتر بين البلدين. كما أنه من أجل نجاح سياسة الاتفاقات المتوسطية، كان عليه أن يتجنب كل ما يمكن أن يثير شكوك إنكلترا وإسبانيا وإيطاليا.

(1) عبد الرؤوف ستو، مرجع مذكور، ص. 351.

(7251/1)

وتفسر هذه الاعتبارات – دون شك – الحذر الذي أظهره في هذه القضية كلها. وإذا كان قد أظهر بعض الإصرار،

فينبغي أن نفتش عن السبب في صراع النفوذ بين فرنسا وألمانيا لدى عبد الحميد. كان بسمارك يخشى أن تستغل فرنسا نجاحها برفض الطلب التركي وتضخيم هذا النجاح في إستمبول، وتصويره نصرا دبلوماسيا على ألمانيا، وعلى النفوذ الكبير الذي تملكه في البلاد الإسلامية. وستكون نتيجة ذلك محزنة، لمركز ألمانيا في تركية(1) . ومنذ أن رفض السلطان الحسن طلب عبد الحميد، لم يعد بسمارك يكترث لهذه

---

(1) . 188Guillen, op. Cit., p.

المسألة. وتلقت الحكومة العثمانية نصيحة بالتوجه إلى لندن وروما: "على الحكومة التركية التوجه نحو هاتين الدولتين التين لهما في المتوسط مصالح أكثر أهمية وأكثر مباشرة مما لنا". وحين كررت تركية المحاولة، لم ترغب ألمانيا في أن تزج بنفسها في هذه المسألة قبل التأكد من مساندة أنكلترا وإيطاليا. سأل بسمارك سولسبري هل يرغب في إقامة علاقات بين تركية والمغرب، وهل ستدعم المفوضية الإنكليزية سلبا: "إن مولاي الحسن يظهر عداء لتركية، ومبادرات

الباب العالي لا يمكن إلا أن تدفعه إلى أحضان فرنسا أو إسبانيا". وبرر

(7253/1)

الوزير المفوض الإنكليزي معارضته بأن فرنسا ستسعى حينئذ لفتح مفوضية روسية... كما أنه ليس هناك أي تركي في المغرب، ولن يفعل ممثل تركية سوى المتاجرة بالحماية. وبررت إيطاليا رفضها بالحجج نفسها. وبعد ذلك، أخطر بسمارك عبد الحميد بأن مشاريعه ليس لها أي حظ في النجاح، ورفض التوسط(1). حين استقال بسمارك سنة 1890 كان مركز ألمانيا في المغرب قد ترسخ اقتصاديا وسياسيا. فقد حصلت في مؤتمر مدريد على حقوق مماثلة للدول الأخرى كفرنسا وإنكلترا وإسبانيا، وأعطى المؤتمر ألمانيا – منذ الآن –

---

(1) Guillen, op. cit., p. 188.

(7254/1)

الحق في أن تكون لها كلمة في المسألة المغربية. كما نجح بسمارك في تمهيد الطريق أمام التجارة والصناعة

الألمانية، واكتسب لألمانيا مركزا متفوقا في البلاط المغربي. وفي الأزمات اللاحقة، كأزمة توات سنة 1899 والأزمة المغربية سنة 1905، كانت أنظار المغاربة تتجه نحو ألمانيا منتظرين الخلاص على أيديها.

وستستمر الدبلوماسية الألمانية – بالرغم من اندفاع ألمانيا في السياسة الاستعمارية – في اعتبار المغرب ورقة ضغط وإغراء ومساومة.

(7255/1)

بلاد الحجاز في المخطوطات المغربية المدونة خلال القرنين الحادي عشر الثاني عشر للهجرة

الدكتور عبد الكريم كريم
كلية الآداب – الرباط

طبوغرافية المنطقة :

فرضت طبيعة المنطقة الواقعة ما بين (خليج العقبة) و (مكة المكرمة) على القوافل سلوك طريق خاص يضيق شمالا لاقتراب السلاسل الجبلية من البحار، ويتسع كلما اتجهنا نحو الجنوب.

وهذا الطريق ينقسم الى مناطق متباينة من حيث البيئة

والمناخ وصلاحيته للحياة البشرية وقد عكست (مخطوطاتنا) جميع هذه المظاهر الطبية الى حد يمكن معه القول بأنها تعد دراسة طوبوغرافية

(7256/1)

للمنطقة.

وأهم ما تتصف به الطريق :

1 – من (خليج العقبة) الى (عش الغراب) :

الطريق ساحلي تكثر به المرتفعات والوهاد وعبره القوافل في عدة ممرات ولا تخلو بعض نواحيه من وجود إحساء ونخيل.

والمخطوطات تكاد تجمع على أن العقبة هي (أول أرض الحجاز ... فإن من هنالك تخالف الأرض ما قبلها وتباين الجبال ما سواها ويشتد شبهها بجبال الحجاز السود ويتقوى الحر وتسترمل الأرض) (العياشي. ص. 176).

والطريق بعد العقبة (ثم ارتحلنا من العقبة وسرنا في مسلك ضيق بين البحر والجبل لايمر به إلا جمل إثر جمل كأنه متن الصراط إلا أنه

(7257/1)

غير مستقيم (الدرعي، ص. 91).

2- من (عش الغراب) إلى (عيون القصب) :

تصبح الطريق داخلية بوجه عام، تكتنفها مرتفعات جبلية (ومن هنا لا يرى البحر إلى عيون القصب بعد ثلاث مراحل بين جبلين في أرض كثيرة الغبار تسمى وادي القر لبرودته وهو طويل متصل إلى مغارة شعيب وليس به ماء) (الناصري. ص. 203).

وأهم مناطق هذه المرحلة مغارة شعيب التي توجد (بها مياه جارية عذبة طيبة خفيفة وفيها مرعى للإبل والبغال) (الدرعي الصغير، ص. 108).

أما مدين فهي (بلدة بساحل البحر كثيرة الفواكه والمياه الغزيرة) (الصغير، ص. 108).

(7258/1)

3- من (المويلح) إلى (الوجه) :

الطريق ساحلية تتدفق في بعضها المياه الغزيرة كما تنتشر أشجار النخيل ولا تخلو بعض مناطقها من زراعة وبعض الحبوب.

وتتوفر هذه المرحلة على أربعة موانئ هي بالتوالي :

المويلح والأزلم واصطبل وعنتر والوجه.

4- من (امره) إلى (الينبوع) :

تصبح الطريق داخلية وتشتد حرارتها ولا توجد فيها عمارة.

ويمكن تسمية هذه المرحلة بطريق الأدوية لوجود ست أودية أهمها :

وادي واكره والعقيق والنبط والنار (هبت على الناس ريح السموم وتسقيم من نضيج اليحموم واشتد الحر وتوالى الكر بعلى الناس واشتد العطش

(7259/1)

على الرجال فبركت الإبل وفرت لظلال الأشجار) (الدرعي، ص. 95).

والطريق بين المويلح والينبوع يعد من أهم المراحل (فلا عمدة للحجاج في طعام ولا في علسفوي الماء عند الحاجة إليه وجله قبيح فلا ينزلون في المفاوز إلا النزول المعتاد الذي لا يحصل بدونه المراد ويسمونها اليوم العاشرية لأنها عشر مراحل متوالية لا إقامة فيها)

(الزبادي،ص.66).

5- من (الينبوع) إلى (مكة المكرمة) :

الطريق داخلي، آهل بالسكان وتعزر به الينابيع وتكثر به الأراضي الزراعية (الينبوع أول بلاد الحجاز العامرة فيها قرى كثيرة ومزارع ونخيل وعيون

(7260/1)

جارية ... وهذا العمران متصل نحو ثلاثة أيام) (العياشي، ص. 176).

ومن أشهر أودية هذه المرحلة : رابغ ووادي العميان ووالزاهر.

ومن الملاحظ أن الطريق الذي تعبره قوافل الحجاج بين العقبة ومكة لم يتغير طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة كما تؤكد ذلك دراستنا لهذه المخطوطات. وإذا كانت مسافة هذا الطريق نحو 1150 كم فإن القوافل تقطعها (خلال شهر تقريبا بعد أن ترحل 25 رحلة، وأهم المراحل :

بعد خليج العقبة، حفائر النخل وظهر الحمار وعش الغراب ومغاير شعيب ومدين والمويلح وبندر والأزلم واصطبل عنتر وبندر الوجه

(7261/1)

واكره والعقبة الزرقاء والحوراء والعقيق والنبط والنار
والينبوع والسقائف وبدر ومستورة ورابغ وقديد
وخليد وعسفان ووادي العميان ووادي الشريف ومكة
المكرمة.
ومن مكة نحو المدينة تعود القوافل من نفس الطريق
حتى بدر ومنها تتجه نحو
الجديدة والنازية والعريش فالمدينة المنورة. وهذا
الطريق يعرف : (بالطريق السلطاني).
وتقطعه القوافل خلال إحدى عشرة مرحلة. ومن المدينة
المنورة تتجه القوافل نحو الينبوع
فخليج العقبة. أما الطريق بين مكة وجدة فتقطعه
القوافل في مرحلة واحدة.

(7262/1)

وما بين مكة والطائف فخلال يومين لوجود المرتفعات
الجبلية : (والطريق فمن مكة
إلى الطائف فيها قهاوي ويستريح المارة بالنزول فيها
واشتراء ما يحتاج من طعام
وعلف ... أخذنا في صعود الجبل العظيم . وغالب الطريق
في هذا الجبل قد نقر من
الصخور العظام وتصدت الحجارة فيها ببنا، رشيق مصفح

... وفي هذا الجبل أشجار

عظيمة من العرعار وغيره ... ورأينا القرود تصيح وتثب

في أعالي تلك الصخور فتعجبنا من ذلك ... ثم سلكنا في

شعاب ذات مياه غزيرة ... إلى أن وصلنا إلى قرن الثعالب

وبإزائه قرية ذات مزارع وأشجار من أنواع

(7263/1)

الفواكه... إلى أن وصلنا بلد الطائف) (العياشي،

ص.116،ج2).

اقتصاديات المنطقة :

تعكس مخطوطات الأوضاع المختلفة للحياة الاقتصادية

في هذه المنطقة من زراعة ورعي وتجارة ومواصلات،

ومهما قيل عن قساوة الطبيعة فإن سقوط الأمطار في

بعض الفصول ووجود ينابيع المياه بالإضافة إلى سهولة

استخراج الماء من الآبار تساعد جميعا على إنتاج أنواع

مختلفة من المزروعات وعلى تربية أعداد مهمة من

الماشية (وهذه البلاد الحجازية مطرها قليل وإن نزل كان

طوفانا في لحظة لكثرة الجبال والأودية والشعاب

المتطاولة بها). (الناصري، ص. 210).

(7264/1)

يضاف إلى ذلك وجود أراضي خصبة صالحة للزراعة (وعادة أهلها كغالب أودية الحجاز يزرعون ماء المطر في الأماكن التي يستنقع فيها الماء) (الناصري، ص. 230).

ومن الأمثلة التي ساقها رحالتنا عن خصب بعض المناطق ومنتوجاتها :

مزارع مدين (فعادة أعراب مدين أي تتسوق الحجاج هناك بأحمال كثيرة من أنواع العنب وغيرها من الفواكه) (الدرعي الصغير، ص. 108).

وتبوك حيث توجد (بساتين وكان أهلها يأتون بالرمان والعنب ويبيعونه للحجاج) (رحلة ابن عثمان).

(7265/1)

والينبوع وبدر ورابغ (الذي تزرع فيه مقاتي كثية ودخن وذرة وهو من أخصب أودية الحجاز) (العياشي، ص. 185).

أما اراضي القديد فتنتج الفواكه المختلفة وبه (دلاع جيد رخيص ويسمونه بلغتهم حبحب ولا يكاد ينقطع شتاء ولا صيفا إلا في السنة الجدبة) العياشي، ص. 186).

وفي وادي الشريف (قرى متعددة ذات نخيل وبساتين وعيون تجري وأعظمها القرية التي ينزل فيها الحاج وفيها سوق وعين كبيرة وبساتين مؤنقة) (العياشي، ص. 187).

وفي وادي الزهر (جنان مكة آبار وأشجار وخضروات) (العياشي، ص. 189).

(1/7266)

أما في ضواحي المدينة المنورة فتوجد (فواكه في غاية الجودة خصوصا عنبها ورطبها وأما الخضر فأكثرها وجودا الجزر والباقلا والملوخية والبامية والبصل واللفت) (العياشي، ص. 301).

وفي المنطقة آبار علي توجد (أبار كثيرة عذبة باردة تسقى بها نخيل عليها وخضر كثيرة سيما الباذنجال الكثيرة والقرع بأنواعه الجيد) (الناصري، ص. 289).

ثم (نمشي في أرض متسعة خصبة تجتمع إليها سيول كثيرة وتزرع فيها مقاتي متنوعة تسمى برقة) (الناصري، ص. 232).

(1/7267)

أما الظهران (فهو واد كبير به قرى ونخيل وبساتين وفواكه وخضر وعيون عذبة ... تقام به سوق عظيمة ... ومنه يحمل لمكة أودية من الوفاكه والخضر) (الناصري، ص. 232).

وبوجه عام (أكثر المقاتي في بلاد الحجاز إنما تزرع على ماء المطر في الأماكن التي يستنقع فيها الماء) (العياشي، ص. 186).

وفي الطريق من مكة إلى الطائف تتعدد المناطق الخصبة التي تنبت أنواعا مختلفة من الفلفل والفواكه (وادي نعمان ... واد عظيم أفيح ... به أدواح يانعة وقد كساه الخصب ألوانا ... وبإزاء قرن الثعالب القرية ذات مزارع وأشجار من أنواع

(7268/1)

الفواكه) (العياشي، ص. 116، ج 2).

ومن نماذج الري التي أثارت انتباه بعضهم خليص حيث (سيق الماء في قنوات محكمات من العين ينفجر في مواضع للسقي ... إلى أن خرج الماء إلى بركة عظيمة تحت القرية ... ثم يخرج الماء من البركة إلى مزارع قرية من البلد) (العياشي، ص. 186).

أما تربية الماشية فتقوم بها مجموعة من القبائل التي تنتقل في البادية إلى حيث الكلأ والعشب وقد سجل بعض رحالنا حالات مختلفة لمتاجرة هذه القبائل مع قوافل الحجاج بأنواع الماشية ومنتوجاتها :

(1/7269)

(ونزلنا بندر الازلم ووجدنا شردمة من الأعراب يبيعون الحشيش والغنم ... ولما بلغنا العقبة السوداء ... تلقت الأعراب الركب بكثرة السمن واللبن والخرفان للبيع) (الدرعي، ص. 96).

وكثيرا ما تستعد هذه القبائل لمواسم الحج (وأخبرت أن العرب يستعدون لذلك في أول السنة فيحصدون في البادية أيام الربيع ويبيبسونه وينقلونه إلى قرب الأمطار حتى تأتي الركبان فيجتمع لهم من ذلك ما يقوم بكفاية سنتهم)(العياشي، ص. 300).

كما أن متاجرة أعراب البادية مع المدن لا تنقطع (ومن عادتهم في الشراء من الأعراب الذين يجلبون اللبن والجبن

(1/7270)

والسمن والغنم أن يشتري منهم قوم من الأعراب الساكنون بالمدينة وأطرافها ... فيدخلونه الأسواق ويشتري منهم أهل المدينة) (العياشي، ص. 300).
كانت للتجارة الأهمية الكبرى في النشاط الإقتصادي بهذه المنطقة ويمكن القول بأن جميع المراكز التي كانت تحيط بها الرحال هي أسواق تجارية بالدرجة الأولى : (أعراب مدين ... تسويق الحجاج هناك بأحمال كثيرة من أنواع العنب وغيرها من الفواكه) (الصغير، ص. 108).
وأهل تبوك (يأتون بالرمان والعنب ويبيعونه للحجاج) (ابن عثمان).

(7271/1)

وفي الينبوع يوجد أهم سوق في (القرية التي ينزل بها الحاج ... وتعمر هناك سوق كبيرة يوجد فيها غالب المحتاج) (العياشي، ص. 178).

وفي بدر (أسعارها في الغالب أرخص من غيرها مع صغرها وانقطاعها عن البلاد) (العياشي، ص. 183).
وفي الفروع قرى متعددة متفرقة ذات نخيل وذات ظل ظليل وعيون جارية عذبة ... وقامت بين أهله وبين الركب سوق عظيمة في المحتاج من زرع وغنم وعنز)

(الناصري، ص. 287).

وإلى جانب تجارة المزروعات والغلل هناك تجارة الأسماك والجواهر (وسرنا فنزلنا الحوارء ... وبها الجبل المنقطع في البحر يسكنه أعراب

(7272/1)

كثيرة عيشهم صيد السمك وقد باعوا في الركب منه كثيرا ... وهم يغوضون في بعض الأحيان بمكان قريب منهم في البحر فيقعون على جواهر نفسية يشتريها منهم بعض من مر بهم من الحجاج بثمن بخس) (الناصري، 212).

وأعظم المراكز التجارة المدن الأربعة : مكة والمدينة وجدة والطائف، ومن أهم أسواق مكة : المروة (ثم أتينا المروة في زخام كثير في السعي لأنه من أسواق البلد العظيمة) (العياشي، ص. 192).

وفي جدة (أسواق ممتدة مع جانب البحر وغالبها أخصاص واسعة متفتحة إلى البحر) (الدرعي، ص. 132).

(7273/1)

أما الطائف ففيها (أسواق حافلة يحضرها الناس من أطراف نجد ويجلب إليها الحبوب والثمار والزبيب والعسل ما قضينا العجب من كثرته بحيث يخيل إلينا أننا لم نر مثل ذلك في الكثرة في الأسواق العظيمة) (العياشي، ص. 116، ج 2).

وعن وسائل المواصلات هناك الرواحل من القوافل، وقد كانت (من عاداتهم في أكرية الرواحل من القوافل الذاهبة إلى مكة والينبوع أن بالمدينة رجالا يعرفهم غالب الجمالين فمن احتاج الكراء من أرباب الدواب أو أرباب السلع أتى إليهم فيعقدون له الكراء مع صاحبه ويتكلفون بما عسى أن يصدر من الجمال من غدر في

الطريق بهروب أو مكر ... ويأخذون بذلك حلاوة من الجمال ومن المكري وذلك دأبهم بمكة أ]ضا) (العياشي، ص. 300).

أما كيفية السير (فصرنا نرحل عند الزوال وننزل عند الفجر والشروق على حساب ما اقتضاه الحال) (الزيادي، ص. 55).

وكثيرا ما كانت بعض مراحل الطريق والوعرة منها تنظم بشكل خاص (فسلكنا طريق المصانع ... والمصانع

سواري مبنية في سبخة لا يظهر فيها أثر الطريق فجعلوا تلك الأعلام البنية دليلا عليها وجعلوا في رؤوس الأبنية حجرا طويلا خارجا إلى ناحية الطريق ليستدل به الماشي ليلا وربما علقوا على بعض الأعلام

(7275/1)

مصابيح بليل وبين كل علم وعلم نحو فرسخ أو أقل حتى انتهوا إلى راس وادي الرمل) (الزيادي، ص. 56).

ولا تخلو بعض المراحل من أماكن خاصة يستريح بها الحاج (والطريق من مكة إلى الطائف فيها قهاوي ويستريح المارة بالنزول فيها واشتراء ما يحتاج من طعام وعلف كما ذلك بطريق جدة ... وقد آوانا الحر إلى قهوة بأصل الجبل بين صخور عظام حولها ماء صاف عذب بارد سهل التناول للصادر والوارد) (العياشي، ص. 116، ج2).

وفي الموانئ توجد السفن التي تربط بلاد الحجاز بالمناطق المجاورة لها، كميناء المويلح (وبه مرسى حسنة تنزل بها السفن

(7276/1)

القادمة من سويس واولقادمة من جدة) (الدرعي، ص. 93).

وميناء الحوراء (مرفأ سفن مصر) (الناصري، ص. 212).

ترسو بينبوع البحر ما كان منها للمدينة)(الناصري، ص. 215).

ويعد ميناء جدة الأول في بلاد الحجاز (فهي من أعظم البقاع وهي مدينة ممتدة مع ساحل البحر نحو ميلين وفي مرساها سفن كثيرة كبار وصغار وغالبها معمول بالشريط بصنعة عجيبة ليس فيها مسمار وهي مع ذلك كبيرة المقدرا واسعة الأنحاء تحمل أضعاف ما يحمل غيرها في السفن) (العياشي، ص. 104، ج 2).

(7277/1)

وإلى جانب ما تقوم به الموانئ من دور في المواصلات يتوفر كل منها على (حصن كبير فيه عسكر وأمين ويخزن فيه الميره) (الدرعي، ص. 93).

(وشأن هذه البنادر أن يخزن فيها الطعام على الدوام ليجده الركب في الذهاب والإياب ويترك الناس فيها ما استثقلوه من الأزودة والأطعمة إلى الرجوع ولولا لطف الله بالعباد بوجود هذه البنادر لما قدر أحد على سلوك هذه الطرق لكثرة مخاوفها وقلة مرافقها) (الزيادي، ص. 56).

والحديث عن التجارة يجرنا إلى ذكر ما أوردته

مخطوطاتنا عن الأسعار والعملة وأنواع المكاييل، ففي موسم الحج تعيش البلاد

(7278/1)

ظروفا خاصة (فلا سعر معلوما ولا مكيال وافيا ولا ميزان صحيحا كل يفعل ما يشاء ولا يتكلم الولاة في شيء من ذلك) (العياشي، ص. 285).

وبعد انقضاء أيام الموسم (رجعوا إلى معتاد حالهم في الأمور الدنيوية من الفلاحة والتعسير في الأسواق وتصحيح المكاييل والموازيين) (العياشي، ص. 285).

وترتفع الأسعار أيضا في الفصول الغير الممطرة (ولم تزل الأسعار على ما تقدم من الغلاء إلى أن هجم الشتاء وقرب زمن الربيع فلانت الأسعار وكثر اللبن والجبن في الأسواق) (العياشي، ص. 302).

(7279/1)

وعن أثمان بعض الحاجيات (كان القمح ثلاثة اصاع بريال ... أما الثمر فنحو أربعة اصاع بالريال والشعير ليس بينه وبين القمح إلا يسير تفاوت ... والعسل اشتريت

رطلا منه بقريب من ثلث الريال ... وأما الفواكه ... العنب بثلاثة مائدية للرطل ... واللبن يباع بمائدتين للرطل) (العياشي، ص. 302).

أما لاعملة المستعملة فنجد :

– الدينار الذهبي

– الريال الفضي

– القيراط المسكوك من الفضة

– القرش

– المائدية

وقد كان الريال يساوب 50 قيراطا. وعن المكاييل هناك : الصاع أو الربعي وأجزاؤه الركيله.

الناحية الإجتماعية :

(7280/1)

رغم الأحوال الصعبة للحياة في المنطقة ما بين خليج العقبة والطائف فإن الطابع المميز للسكان بها يكاد يكون الاستقرار بوجه عام، وذبك في الواحات التي تتوفر علىالمياه وبعض الأراضي الصالحة للزراعة وتربية الماشية. والمراكز التي تحط بها الرواحل على طول الطريق جميعها قرى تتوفر على الكثير من الشروط التي

يتطلبها نزول الحجاج من طعام وشراب وإقامة وعلف للدواب وغير ذلك، وحسب مخطوطاتنا هذه، يوجد ما بين خليج العقبة ومكة وهي مسافة تقدر بنحو 1150 كم، أزيد من 25 قرية تختلف عن بعضها من حيث الأهمية والسعة وتجمع السكان

(7281/1)

:

ففي الينبوع مثلا (قرى كثيرة ... وهذا العمران متصل ثلاثة أيام ... وغالب أهل القرى يأتون إلى هذه القرية التي ينزل بها الحاج للتسوق وتعمر سوق كبيرة يوجد فيها غالب المحتاج) (العياشي، ص. 878).

وفي خليص حيث عين ماء تجري، أبنية وقهاوي وسوق) (العياشي، ص. 187).

ويتجلى طابع الإستقرار في المدن الأربع الرئيسية : مكة والمدينة وجدة والطائف ولكل منها طابعها المميز بحكم موقعها وأهميتها وظروفها العامة :

(فأهل المدينة أهل رفاهية وتوسع في المعيشة في زماننا هذا وتغال في الملابس الفاخرة وتزينوا بزي الأعاجم في

(7282/1)

مآكلهم ومشاربهم وملابسهم لكثرة سكنى الأعاجم بها فإن بها طائفة كبيرة من عسكر الترك ... خلاف أهل مكة فإنهم لم يزالوا على أعرابيتهم واستعمال البداوة وعدم المبالاة والاعتناء في الملابس والمآكل قد غلبت عليهم البداوة وكثرة مخالطتهم لأهل البادية وسكناهم بها حتى امراؤها من الإشراف فإن غالب سكناهم بالبادية وإن كانت لهم منازل بمكة ... ولباسهم على زي لباس العرب) (العياشي، ص. 303).

أما جدة (فمن أعظم البقاع وهي مدينة كبيرة ممتدة على ساحل البحر نحو ميلين ... فيها قهاوي ومجالس حسنة يبالغ أصحابها في كنسها

(7283/1)

وتنظيفها ورشها بالماء وفيها جلوس غالب أهل البلد وقد اتخذوا فيها اسرة كبيرة منسوجة بصفة محكمة) (العياشي، ص. 104، ج 2).

وفي الطائف (قصور تحيط بها جنان من نخيل قليل وأعناب كثيرة وفواكه مما يشتهون) (العياشي، ص.

116، ج 2).

لقد كان من نتيجة تعامل أعراب هذه المناطق مع الوفود المختلفة للحجاج أن تأثروا وآثروا وظهرت لديهم مع الأيام عادات وتقاليد لم يغفل رحالتنا عن تدوين بعضها (لا زالت معهم في كلامهم بعض فصاحة ونطق بلغة قديمة منهم عرب برقة لقلة مرور الناس بهم وعدم مخالطتهم لغيرهم وقلة جولاتهم وعدم دخولهم

(1/7284)

الأمصار عكس الحجاز) (الناصري، ص. 288).

وإذا كان الحجاج يفدون على الحرمين من جميع بقاع العالم الإسلامي فـ ُن أهم الوفود الإسلامية كما دونتها بعض مصادرنا هذه، كانت تتكون من (الركب الفاسي ثم الجزيري ثم المصري الشامي ثم اليمني ثم الإصطنبولي ثم العراقي ثم الكوفي ثم البصري ثم الهندي ثم العجمي ثم الكنكي السرتي ثم القرماني ثم البنكلي والبعض من هذه القبائل الرحل هي التي كانت تقوم بأعمال النهب وقطع الطريق على قوافل الحجاج وعند استقصاء عوامل خروج هذه الجماعات كما جاء في مخطوطاتنا، نجد :

(7285/1)

1- جدب مناطقها أو اشتداد القحط في بعض المواسم.

2- جهالتها الجهلاء.

3- انعدام السلطان.

4- طغيان نفوذ بعض القبائل.

5- عمليات انتقام وثأر.

وكثيرا ما كانت تستغل التضاريس الوعرة للتربص بها كأن ترابط في بعض الممرات والأودية وعند المرتفعات :

(ثم ارتحلنا من العقبة وسرنا في مسلك ضيق بين البحر والجبل لا يمر به إلا جمل إثر جمل كأنه متن الصراط إلا أنه غير مستقيم وقلما يخلو هذا المحل من لصوص يتعرضون للركب فتشتد إذايتهم وتعظهم نكايتهم لا سيما عند البرج قرب بنذر العقبة) (الدرعي، ص. 91).

(7286/1)

(ثم سرنا إلى مرحلة تنتهي عند اصطبل عنتر وقد اختفى العربان للأذى وتستروا) (الصغير، ص. 110).

وعن طغيان بعض القبائل هناك (حرب التي عمرت من

البلاد الحجازية مسافة اثنى عشر مرحلة ... ينيفون على مائة ألف رجل لا يقيمون وزنا لقبيلة من قبائل الحجاز) (النصاري، ص. 223).

وغالبا ما كانت عمليات قطع الطريق تستهدف الحصول على أموال ومؤن وذخائر ولم تكن للقتل وسفك الدماء أي لسد الحاجة بالدرجة الأولى : (وكانوا لقوا من الحرامية شدة في الطريق ... ودفعوا للأعراب مالا كثيرا نحو مائة ألف بعدما انتهب من ركبهم وقتل أناس)

(1/7287)

(العياشي، ص. 190).

وقد كان لانعدام السلطان أثره الكبير في هذه العمليات (فالسراق يهجمون على الناس هجوما ويعظم أذاهم في أيام الموسم لقلة الحكم بتهاوي الحكام وإرخاء العنان لهم) (العياشي، ص. 192).

كما أن هذه العمليات كانت تتم لانتقام الثأر (عند عسفان وجدنا الأعراب هناك تهيئوا لمحاربة المصري، لشنآن بينهم وبعثوا إلينا لما نزلنا رسولا وهم بالجبل بذكر للشيخ أن المغاربة ليس بيننا وبينكم إلا الخير وأردناكم أن ترحلوا وتخلوا بيننا وبين المصري إنه تعدى علينا) (الصغير، ص. 138).

(7288/1)

وبالمقابل هناك قبائل كثيرة في بوادي هذه المناطق كانت تقوم بالإضافة إلى خدمة الحجاج، بحمايتهم والتعهد بشؤونهم مقابل أموالهم معلومة (وبعث لهم عشرة آلاف ريال مرتب سنة فامتنعوا عن قبولها وردوها وقالوا لا نقبل شيئا إلا إذا دفعت لنا مرتب أربع سنين السالفة) (الناصري، ص. 309).

وإذا ما داهمت القافلة المحمية أخطار، هب حماتها من أفراد القبيلة عنها (فأخرج الشيخ خزانة البارود وأمر بتفريقه على المراة في المحلة ... وعند ما حط الركب في فضاء متسع وخلع على الأعراب ما رآه من الخلع عادوا بسلام) (ابن مليح، ص. 860).

(7289/1)

ومن جهة أخرى أن دراستنا لهذه المصادر تكشف لنا عن حقيقة هامة وهي أن ما كان يلاقيه الحجاج من أهوال ومحن ناشئة بالدرجة الأولى عن قساوة الطبيعة ووعورة التضاريس وأخطار السيول وشدة البرد إلى جانب عمليات النهب وقطع الطريق :

(وفي وادي النار هبت علينا ريح غريبة كانت أول النهار باردة ووسطه وآخره سموما لقي منها شدة ولم يروا أشد منه قبله) (العياشي، ص. 177).

(وقع به سيل عرم بعث الحجاج فذهبت بسببه رقاب ودواب وأموال عريضة ولم ينج إلا من كان على التلول والكرى) (الناصري، ص. 209).

(7290/1)

(وما رأينا قط مثل هذه الرحلة في درب الحجاز طولا وبردا حتى مات بها خلق كثير من الجوع والبرد) (الناصري، ص. 311).

(وربما نزل البرد بهذه البلاد يحاكي في الكبر بيض الدجاج فيهلك الناس والدواب) (الناصري، ص. 210).

وفي بنذر الوجه (هب على الناس ريح السموم وتسقيهم من نضيج اليحوم واشتد الحر وتوالى الكرب على الناس واشتد العطش على الرجال فبركت الإبل وفرت لضلال الأشجار ... مات من المغاربة زهاء الستين ... نساء وصبيانا ورجالا وولدانا هو ما رأينا عيانا) (الدرعي، ص. 91).

(7291/1)

ووادي النبط (واد كبير بين جبلين لاسعة فيه في النبط إلى الخضيرة فإذا طلع النهار واشتد الحر حجبت الجبال عنه الهواء فينعكس غربيا أو شرقيا صاعدا مع الوادي أو منهبطا فيصير سموما محروقا ولا ماء هناك من النبط إلى الينبوع فربما اتلف الناس فيه العطش فتموت المئات بل الآلف في أسرع مدة (الدرعي، ص. 97). وعمليات قطع الطريق وما ينشأ من مضاعفات خطيرة لم تكن تخلو منها بلد من البلدان، فالرحالة المغربي الدرعي الصغير الذي حج عام 1152 هـ، أثبت في مذكراته عن هذه الرحلة) مقارنة عجيبة، فقد قطع المسافة ما بين فاس

(7292/1)

وإيمنتانوت (بسوس) خلال ثلاثة أشهر وسبعة أيام وهي نفس المدة التي قطع خلالها المسافة ما بين طرابلس الغرب ومكة (وهذه مسافة عشرة أيام بيننا وبين فاس قطعناها في ثلاثة أشهر وسبعة أيام مع مالقينا فيها من الأهوال والأمور المفزعة وما ذلك إلى لقلة الأحكام وكثرة الفساد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)

(الصغير، ص. 272).

وعن أسماء بعض القبائل التي ورد ذكرها في المخطوطات، هناك:

– عرب بن عطية عند خليج العقبة.

– أعراب مدين عند بلدة مدين ويدعون العمريات.

– عند المويلح أعراب بني عقبة ومغارة.

(7293/1)

– عند اكره أعراب هيثم.

– عند الجوراء أعراب جهينة.

– قرب بدر عرب صبح.

– قبائل حرب بلادهم في الدهناء إلى الطائف إلى المدينة المنورة.

– أعراب عنزة عند منطقة هدية.

– قرب الينبووع أرعاب الاحويطات وبنو سعد.

المظهر الفكري :

أبرزت مخطوطاتنا في هذا الجانب :

1– دور مكة والمدينة كمركزين ثقافين رئيسين في بلاد الحجاز لمكانتهما الدينية.

2– حلقات العلم في بيت الله الحرام والمسجد النبوي

الشريف لمختلف العلوم، ولكل منها كراسي خاصة وأماكن معينة وأوقات محدودة.

(7294/1)

3- العلماء ينتمون إلى مناطق مختلفة من العالم الإسلامي شرقا وغربا، وتتضمن هذه الخطوطات قوائم طويلة لهؤلاء العلماء خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة.

4- لكل عالم اختصاص ومؤلفات عديدة في ميادين اختصاصه وتتوفر مكتباتهم الخاصة على مؤلفات لا حصر لها، وكثيرا ما كانوا يطلعون عليها طلبتهم ويسمحون لهم بالنقل عنها، أي أن حلقات العلم لا تقتصر على المسجد وحده وإنما تنعقد في منازل العلماء أيضا (فكانت بيني وبينه محبة وقال لي كلما تحتاج من الكتب للنظر فعندي) (الصغير، ص. 176).

(7295/1)

(ذاكرنا في مسائل من لاعلم واطلعنا على جملة مؤلفاته ومصنفاته وهي كثيرة) (الاسحاقي، ص. 287).

ولما كان قسم هام من المصادر التي اطلع عليها حجاجنا قد ضاع أو وقع به تحريف وغيره فإن مخطوطاتنا قد أصبحت مصدرنا الأول حسب القاعدة المعروفة (إذا ضاع الأصل حل الفرع محله).

5- لقد أجاز هؤلاء العلماء طلبتهم المغاربة في شتى أنواع المعرفة، وكل إجازة تتضمن التعريف بالعالم وموطنه وشيوخه الذين درس عليهم، وموضع الإجازة. كما تحمل اسم طالب العلم المجاز وتوقيع العالم وخاتمه وتاريخ الإجازة.

(باسم الله الرحمن الرحيم

(7296/1)

الحمد لله المنفرد بصفتي الجمال والجلال وشرع الحرام والحلال

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي من الضلال وعلى آله وأصحابه الذي خصهم الله بأعظم الأعمال ومن تبعهم من ورثة الأنبياء على أحسن حال مستديمين إلى يوم ظهور محامد الصفات ومحاسن الجلال.

أما بعد فإن إجازة من سنن العلماء ومن طريقة الناسكين والعاملين ولهذا طلبني ذلك وإن أكن أهلا

لذلك من هو بالعلم موصوف والكمال معروف الشيخ عبد الله أبو مدين ابن أحمد الصغير الدرعي فأجبته كذلك فأقول : قد أخذت فقه الحنابلة عن مولانا مفتي الحنابلة في المدينة

(1/7297)

المنورة الشيخ إبراهيم بن محمد سنده المعروف وعن السيد مصطفى القادوي البغدادي سنده المعروف أيضا وأجرته بذلك حسبما أجازاني وأسأله أن لا ينساني في دعواته.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجميعن وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين حرر يوم الخميس الثالث من شهر ذي الحجة عام ثلاثة وخمسين ومائة وألف ... كتبه الفقير إلى الله تعالى محمد حديدي الحنبلي بن الشيخ محمد سنبل الفقيه بالمروة) (الصغير، ص. 193–194).

6– إلى جانب التدريس يتولى العلماء أيضا مناصب القضاء والفتوى والإمامة والخطابة والشهادة، وإن رغبوا عنها لما

(1/7298)

أصبح عليه الأمر من التزام وبيع وشراء لهذه المناصب (وأما الخطبة فهي كالإمامة موزعة بين فقهاء المدينة لكل واحد مقدار معلوم من الأيام على قدر حصته التي يأخذها من جامكية الخطباء) (العياشي، ص. 288).

7- وقف مدونو مخطوطاتنا طيلا عند تسجيل الأحداث التي عرفتها الأماكن المختلفة التي مروا بها ما بين العقبة والطائف، دون أن يغفلوا عن ذكر الأوضاع اقائمة، وقد رجعوا في ذلك إلى مصادر ومراجع عديدة في المشرق والمغرب ونقلوا عنها الكثير من المعلومات، مما جعل مذكراتهم أشبه بدائرة المعارف بالنسبة لكل منطقة أو

(7299/1)

مدينة، أو قرية.

8- في الحرمين الشريفين مكتبات عمومية تتوفر على العدد العظيم من المؤلفات الهامة في مختلف العلوم والفنون، وقد رجع إليها رحالتنا ونقلوا عنها :

(... خزائن الكتب العلمية الموقوفة بالحرم الشريف يستعير منها الناس للقراءة) (العياشي، ص. 284) (فصل في ذكر ما شاهدته بمكة من الكتب مما لم أكن رأيته

إلا نادرا في خصوص خزانتها) (الناصري، ص. 281).

(انتهى كلام ابن رشيد رحمه الله حسبما نقلته من نسخة عليها خطه وإجازته لتلميذه وصاحبه عبد المهيمن الحضرمي رحمه الله تعالى رأيت هذه النسخة بمكة المشرفة

(7300/1)

عذة أسفار) (العياشي، ص. 228).

9- قيام بعض علمائنا الحجاج بالتدريس في الحرمين الشريفين :

(لما كان أول شهر صفر ألجاني أصحابنا المالكية بالمدينة المنورة أن أقرأ لهم مختصر الشيخ خليل في فقه مالك... فابتدأت قراءته في مؤخر المسجد بالجانب الغربي منه وكانت قراءتنا من بعد صلاة العصر إلى قرب المغرب) (العياشي، ص. 286).

10- من عادات علماء الحرمين انقطاعهم عن التدريس يومي الثلاثاء والجمعة (ومن عادة المدرسين بالمدينة تعطيل القراءة في المكاتب والتدريس يوم الثلاثاء والجمعة) (العياشي، ص. 289).

(7301/1)

11- وكما نقل حجاجنا الكثير عن علمائهم في الحرمين الشريفين ودونوا ذلك في مخطوطاتهم، قام البعض منهم بشراء العديد من المؤلفات في الموضوعات المختلف. وفي مكتباتنا اليوم عدد من هذه المخطوطات إنما لا يوجد بها ما يؤكد بأن نقلها إلى المغرب قد تم في هذه الفترة المتحدث عنها، ومن ذلك على سبيل المثال :

- أخبار مكة، محمد بن عبد الله الازرقي، الخزانة العامة بالرباط، ق. 43.
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، الخزانة العامة بالرباط، ك 2356.

(7302/1)

- النبذة اللطيفة، شهاب الدين أحمد القليوبي، الخزانة العامة بالرباط، ك 1411.
- الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها والبيت الشريف، لمحمد جار الله بن القاضي القرشي، الخزانة العامة بالرباط، ك 245.

الأحوال السياسية :

أهم ما دونته مخطوطاتنا في المجال السياسي لبلاد الحجاز خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة :

1- التعرض لأوضاعها العامة المتمثلة في :

أ- انحصار مناطق نفوذ الثمانيين وشريف مكة.

ب- التزام المناصب الشرعية.

الأمر الذي نتج عنه مضاعفات خطيرة أبرزها :

(7303/1)

... 1- انعدام الأمن بوجه عام في البوادي والمدن.

... 2- الجهالة الجهلاء التي أصبحت عليها الأغلبية العظمى من الناس.

... 3- انتشار البدع المختلفة.

2- الدعوة إلى إصلاح العباد والبلاد :

أ- بمحاربة البدع.

ب- بالعودة بالناس إلى الدين الإسلامي القويم.

ج- بإقرار الأمن في ربوع البلاد.

3- وعندما قامت حركة الإصلاح بقيادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في منتصف القرن الثاني عشر للهجرة وتزعم جيوش الموحدين حفيد الشيخ الأمير عبد العزيز، تردد صدى الحركة في بعض مخطوطاتنا هذه.

(7304/1)

لقد لاحظ حجاجنا انحصار النفوذ العثماني في مراكز محدودة :

– في بندر المويلح (هناك حصن كبير فيه عسكر) (الدرعي، 93).

– في بندر الوجه (حصن حصين في جرف واد كبير) (الدرعي، ص. 94).

– في جدة (في كلا طرفيها حصار متقن البناء فيه مدافع كثيرة وعسكر لا يفارقه وقد رأيت في الحصار متقن البناء فيه مدافع كثيرة وعسكر لا يفارقه وقد رأيت في الحصار القريب منها ما يستغرب وصفه من المواقع طولا وكبرا ورأيت بها مدفعا له خمسة أفواه بصنعة غريبة) (العياشي، ص. 104).

– وفي المدينة (كبير العسكر الساكن بالقلعة) (العياشي، 309).

(7305/1)

كما أن نفوذ شريف مكة لم يكن يتجاوز أحيانا ربضها (عمالتها اليوم من خارج جدة والطائف والظهران وما كان

بالقرب منها هو الذي في إيالة أميرها وقد كانت إيالتها من قبل أوسع من هذا) (الناصري، ص. 253).

ومما زاد في اضطراب الأوضاع بالبلاد التزام المناصب الشرعية :

(والحاصل أن المناصب الشرعية كلها في البلاد الشرقية حجازا أو مصرا أو شاما من أمامة وخطابة وأذان وإقامة وقضاء وفتوى وشهادة بل ووقيد المساجد إنما تنال بالشراء من الولاة فإذا مات صاحب خطة أو عزل دفع الراغب فيها مالا للولاة فيولونه مكانه على أي حال كان

(7306/1)

من صلاحيته لذلك أم لا، فعظم الخطب على المسلمين والإسلام في ذلك خصوصا مناصب القضاء) (العياشي، ص. 288).

وهكذا كان من مضاعفات الأوضاع السياسة السيئة أن مهد الإسلام لم يعد يعرف طمعا للسلام بسبب :

1- انعدام الأمن بوجه عام :

(وأعراب الحجاز اليوم لا تنالهم الأحكام الشرعية من ناحية من ولي الحرمين) (النصاري، ص. 253).

وقبائل حرب (التي عمرت في البلاد الحجازية مسافة اثنى عشر مرحلة ... ينيفون على مائة ألف رجل لا يقيمون وزنا

لقبيلة من قبائل الحجاز أصلا مع ما هم عليه من الظلم والحرابة والتوغل في الفحش والجهل)

(7307/1)

(الناصري، ص. 221).

الأمر الذي يخشى معه حدوث ما لا تحمد عقباه (وأخشى إن طال هذا الأمر أن يتعطل الحج) (الناصري، ص. 310).

وحتى في الحرمين الشريفين لا يأمن الإنسان على نفسه وماله :

ففي مكة (السراق يهجمون على الناس هجوما ويعظم أذاهم في أيام الموسم لقلة الحكم بتهاون الحكام وإرخاء العنان لهم) (العياشي، ص. 191).

وفي المدينة (وعلى طول إقامتي بالمدينة لم أدر كيفية تصرف الولاة فيها ولا من له التصرف التام بها) (العياشي، ص. 191).

(7308/1)

فلا عجب والحال كما ذكرنا أن يثير انتباههم وجود الأمن في نواح من الحجاز (وقد شاهدنا في هذه الحضرة من

العافية التي بسطها الله في الطرق والقرى والأمان التام ما قضينا منه العجب) (العياشي، ص. 132).

2- وللجهالة الجهلاء التي أصبحت عليها أغلبية المسلمين :

(قدم كثير من الأعراب ... وأكثرهم عرب جفاة ليس لهم من دين ولا مذهب جلهم لا يعرف صلاة وصوما ... وبالجملة فعرب الدرب والحجاز وتهامة ونجد أجهل العرب وأكثرهم جفاء قلما تجد أحدهم يحسن شيئا من رسوم الشريعة الظاهرة من صلاة وصيام إلا القليل) (العياشي، ص. 312).

(7309/1)

3- ثم انتشار البدع الضالة التي أثرت في عادات الناس وأخلاقهم، من ذلك تصرف الحجاج في موضع (يسمى السقائق ويقال له دار الوقدة يقدون فيها الشمع الكبير ... وشاع عندهم أن الصحابة في غزوة بدر أوقدوا هنا نارا ... وكم مثلها من بدعة محدثة يرى الناس أنها من أعظم القربات) (العياشي، ص. 181).

وفي بدر (هضبة في الجبل ... والحجاج يتمسحون به ويتطارحون عليه ... رأيت هناك حجرا مخروقا شبه مغارة ينزل الناس متبركين بها ... ويؤثرون في ذلك خرافات لا أصل لها) (الناصري، ص. 221).

(7310/1)

وقد بلغت الجرأة والتطاول بالبعض ممن التقى بهم الشيخ العياشي في المدينة حدا جعل شيخنا يدون بصريح العبارة (وهذه جرأة عظيمة منه قاتله الله ... إلا أن الاهتمام بمثل هذا في هذه الأوطان أغرب من غريب) (العياشي، ص. 284).

ونتيجة للأوضاع السيئة التي آلت إليها احوال العباد والبلاد توجه حجاجنا بالدعوة إلى الله أن يهيئ لمهد الإسلام من يحارب البدع ويعود بالناس إلى مبادئ دينهم القويم حتى يعم الأمن وتصلح أحوال المسلمين :

(7311/1)

(فعرب الدرب والحجاز وتهامة ونجد أجهل العرب وأكثرهم جفاء قلما تجد أحدهم يحسن شيئا من رسوم الشريعة ... فمتى يعرف هؤلاء صلاة أو صياما أو حدا من حدود الشريعة ؟) (العياشي، ص. 312).

(وكم مثلها من بدعة محدثة يرى الناس أنها من أعظم القربات نسأل الله أن يميتنا على سنة النبي المستقيمة لا نرى فيها عوجا ولا أمتا) (العياشي، ص.

181).

(والسراق يهجمون على الناس هجوما ... لقلة الحكم بتهاون الحكام) (العياشي، 192).

(فلو قيض الله الأمراء لمنع الناس من التسوق فيه أيام الموسم لكان في ذلك نفع كبير) (العياشي، ص. 192).

(7312/1)

(ولو قيض الله لذلك الموضع من يعمره لكانت فيه أي إعانة للحجاج، ولكن الله يفعل ما يريد) (العياشي، ص. 231).

فالأوضاع التي استنكرها بعض حجاجنا ممن زاروا البلاد خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر للهجرة والنصف الأول من الذي يليه، والأماني التي عبروا عنها لإنقاذ البلاد والعباد هي نفس المبادئ التي ستقوم عليها حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عند منتصف القرن الثاني عشر للهجرة والمتمثلة خاصة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعودة إلى مبادئ الدين القويم.

(7313/1)

وعندما انطلقت حركة الإصلاح الوهابية بزعامة الأمير عبد العزيز بن سعود، رددت بعض مخطوطاتنا صدى ذلك :

1- التأكيد على أن الإصلاح ليس وقفا على جهود الحاكم وحده :

و(عهدتهم على الأمير وعلى كل من له على ذلك طاقة) (النصاري، ص. 211).

وهذا تأييد صريح للحركة الإصلاحية بعد أن عجزت السلطة القائمة عن تحقيق ذلك

2- تفصيل القول في القبائل التي تجاوبت مع الحركة الإصلاحية وعمليات الانتقام التي تعرضت لها من قبل شريف مكة.

(7314/1)

(وأعراب الحجاز اليوم "عام 1196 هـ" غالبهم لا تنالهم الأحكام الشرعية من ناحية من ولي الحرمين ... وفي سنتنا هذه وقعت دائرة بينه وبينهم ... ومع ذلك لم ينقادوا له ولا أقاموا له وزنا وحجة الأمير عليهم أنهم يتحزبون عليه ممن والاهم من الأعراب فنكثوا بيعته بعد أن دخلوا فيها) (الناصري، ص. 253).

ومن أهم المناطق التي انضمت للحركة الإصلاحية التي تعرضت لنقمة شريف مكة :

(وقد وصلناها "أي الجديدة" ووجدناها مخربة خربها سلطان مكة سرور عند توجهها إلى المدينة) (ابن عثمان).

(7315/1)

(ووجدنا أهل رابغ فارين من بيوتهم خوفا من الشريف سلطان مكة) (ابن عثمان).

(وحتى قديد خربها سلطان مكة في وجهته هذه إلى المدينة) (ابن عثمان).

(الوجه ... داثر من العمارة في هذا الزمان (1196 هـ) (الناصري، ص. 209).

(قديد ليس به الآن عمارة ولا نخل ولا بستان) (الناصري، ص. 203).

(خليص اليوم خالية ما بقي بها إلا أثر انقاضها) (الناصري، ص. 231).

وعندما قامت الحركة الإصلاحية وتمكنت من القضاء على بعض البدع كبدعة دار الوقدة سجلت مصادرنا ذلك:

(7316/1)

(دار الوقدة كانت من قبل دار الحاج وبها يوقدون الشمع ... والآن (عام 1196 هـ) لا ينزلها الراكب غالبا) (الناصري، ص. 217).

مصادر البحث

– محمد بن أحمد الملقب بابن المليح، أنس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب، الخزانة العامة، دار الوثائق، الرباط، ك 2341، حج عام 1040 هـ

– أبو سالم العياشي، الرحلة العياشية، المكتبة الملكية بالرباط رقم 156، حج عام 1074هـ

– أحمد الهشتوكي، هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام، الخزانة العامة بالرباط، ق. 190، حج عام 1096 هـ

(7317/1)

– أحمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الكبرى، الخزانة العامة بالرباط، د. 1291، حج عام 1121 هـ

– عبد الرحمن بن أبي القاسم الشاوي، رحلة القاصدين

ورغبة الزائرين، المكتبة الملكية بالرباط، 5606، حج عام 1141 هـ

– أبو محمد الشرقي الإسحاقي، رحلة الوزير الاسحاقي، المكتبة الملكية بالرباط، 1428، حج عام 1148 هـ

– عبد المجيد بن علي الملقب بالزبادي، بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام، الخزانة العامة بالرباط، ك 398، حج عام 1148 هـ

(7318/1)

– أحمد اللكوسي الحضيكي، رحلة إلى الحرمين الشريفين، الخزانة العامة بالرباط، د. 896، حج عام 1152 هـ

– أبو مدين أحمد بن الصغير الدرعي، الرحلة الحجازية، الخزانة العامة بالرباط، ق. 297، حج عام 1152 هـ

– محمد بن عبد السلام الناصري، الرحلة الكبرى، الخزانة العامة بالرباط، د. 2651، حج عام 1196 هـ

– محمد بن عبد الوهاب بن عثمان، احراز المعلى والرقيب في حج بين الله الحرام، المكتبة الملكية بالرباط، 5264، حج عام 1200 هـ

(7319/1)

بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الهجري

... ... الدكتور علي أحمد

... ... دمشق - سوريا

مقدمة

... في مستهل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي أو قبل ذلك بقليل، هاجرت مجموعات مغربية وأندلسية بلاد المغرب والأندلس، وتوجهت إلى أقطار عربية إسلامية كان في طليعتها بلاد الشام، التي ظل يقصدها المغاربة والأندلسيون حتى نهاية العصور الوسطى. فما سبب ذلك وما أهم العوامل التي شجعت المغاربة والأندلسيين على هذا

(7320/1)

التحرك الذي تطور من عملية نزوح انفرادية في البداية إلى عملية نزوح جماعية اتسمت بالغزارة والنشاط؟

... في سياق الجواب عن هذا الأمر، نقول إن السبب في ذلك كان موجوداً في الساحتين الشامية والمغربية الأندلسية على حد سواء. فالأسباب التي كانت موجودة

على الساحة المغربية (الأندلسية) في تلك الفترة اتسمت بالسلبية في مجموعها، مما أجبر الكثيرين من السكان على النزوح عن وطنهم نهائياً بعد أن غدا أمر بقائهم مستحيلاً فيه لعدة عوامل يمكن أن نسمها بعوامل الطرد، التي تجسدت في الاضطرابات والتبدلات السياسية في المغرب

(7321/1)

والأندلس، وكذلك في الأخطار التي أحدقت بشكل خاص بالأندلس وسكانها بفعل الهجمات الإسبانية الفاعلة. أما الأسباب التي تجسدت في بلاد الشام، فيمكن أن نسميها عوامل الجذب والاستقطاب؛ فهي عوامل إيجابية يمكن حصرها بأنها كانت فكرية واقتصادية وسياسية وطبيعية ونفسية، وكلها توافقت مع تطلعات القادمين من المغرب والأندلس إلى بلاد الشام، وأصبح هؤلاء القادمون يُستقبلون ويُعاملون على قدم المساواة مع إخوتهم أهل الشام، وربما عوملوا بعناية واهتمام واحترام في بعض الأحيان أكثر من أهل الشام أنفسهم، كما حدث على سبيل

(7322/1)

المثال في عصر صلاح الدين الأيوبي وقبله نور الدين محمد زنكي الشهيد. فقد روى ابن جبير الأندلسي الذي زار الشام في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي عن نور الدين محمود زنكي الشهيد، أنه اهتم بفك الأسرى من المغاربة والأندلسيين قبل أسرى الشام بقوله:

... وقد كان نور الدين ـ رحمه الله ـ نذر في مرض أصابه تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة. فلما أبلَّ من مرضه، أرسل في فدائهم فسيق فيهم نفر ليسوا من المغاربة وكانوا من حماة من جملة عمالته، فأمر بصرفهم وإخراج عوض عنهم من المغاربة وقال:

(7323/1)

هؤلاء يفتكهم أهلوهم وجيرانهم والمغاربة غرباء لا أهل لهم (1).

... نتيجة هذه العوامل الإيجابية المشجعة، شكل المغاربة والأندلسيون جالية كبيرة العدد متنوعة الاختصاصات، شاركوا من خلالها في جميع شؤون الحياة

العامة ووجوهها؛ وعبروا في كثير من الأحيان عن عميق صدقهم وتفانيهم في الأعمال التي أوكلت إليهم، وغدوا في أحيان كثيرة أيضاً رواداً ومعلمين في ميادين اختصاصاتهم، وترك بعضهم آثاراً علمية خالدة في عدد من العلوم. كما عبّرت مجموعة منهم عن حس عربي

---

(1) ابن جبير الأندلسي، الرحلة، طبعة بيروت، 1959، ص. 280.

(7324/1)

إسلامي، ترجموه إلى حقيقة وفعل حينما وقفوا مدافعين عن مصالح بلاد الشام، مضحين بأنفسهم وحياتهم أحياناً وبأموالهم وثرواتهم أحياناً أخرى.

... فقد شغلوا في ميدان العلوم عامة دوراً رائداً، ظهرت آثاره الإيجابية في مختلف الظروف. وهذا ليس غريباً عليهم، لأنهم أبناء بيئة حضارية عالية المستوى. فقد حملوا لواء المشاركة في كل فرع من فروع العلوم العقلية والنقلية المعروفة والمسموح بها في تلك الفترة من الزمن موضوع هذا البحث. فظهر منهم عدد من المرموقين نذروا حياتهم للعمل والعطاء بلا حدود.

(7325/1)

... ففي ميدان العلوم العقلية التطبيقية، اشتهروا بشكل فعال في ميدان علم الطب والصيدلة، إضافة إلى معرفة بعضهم في علم الهندسة والفلك والكيمياء.

ففي مجال الطب الذي اشتغلوا فيه بكثافة، لم يكونوا مجددين، أي أنهم لم يأتوا باكتشاف يمكن اعتباره جديداً في بلاد الشام، على الرغم من أن معظمهم كانوا على درجة عالية من العلم والمعرفة الطبية، التي لم تكن في الوقت نفسه غريبة على الأطباء الشاميين.

وتأتي أهمية الدور الذي شغلوه في هذا الميدان من خلال الخدمات الجليلة، التي قدموها للمجتمع الشامي في أصعب الظروف

(7326/1)

وأحوجها إلى خدماتهم ورعايتهم في عصر صلاح الدين الأيوبي، حينما كان يخوض حربه المقدسة من أجل تحرير بيت المقدس وغيرها من مناطق الساحل الشامي من دنس الاحتلال الفرنجي. فقد قُدِّر لبلاد الشام في فترات مختلفة، أن تحتضن أنماطاً رفيعة المستوى من الأطباء المغاربة والأندلسيين وأعظمهم في تلك الفترة. وتأتي

عظمة هؤلاء الأطباء من أنه شغلوا مراكز، كان لها أكبر الأثر في رفد المجتمع الشامي بالأطر الطبية المؤهلة، هذا بالإضافة إلى اشتراكهم في الحرب أطباء في جيش صلاح الدين الأيوبي، وأطباء بمدينة دمشق التي كانت

(7327/1)

حينذاك محور استقطاب كل الفعاليات باعتبارها قاعدة التحرير.

... ويمكن التفصيل بشكل أكثر من ذلك بالقول إن أكثر من اثنين من الأطباء المغاربة والأندلسيين، توصلوا إلى رئاسة المستشفيات بمدينة دمشق، وإن أكثر من اثنين منهم عملوا أطباء معتمدين عند الحكام والسلاطين، نذكر منهم الطبيب عبد المنعم الجليائي(1) الذي خدم صلاح الدين

---

(1) ولد سنة 531 هـ ومات بدمشق سنة 603 هـ انظر عنه ابن سعيد المغربي، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الأبياري، طبعة مصر، دون تاريخ، ص ص. 104 ـ 106.

(7328/1)

الأيوبي فترة طويلة من الزمن، كان مُعظمها في ساحات الحرب والمعارك، التي دارت رحاها بين المسلمين والفرنجة على أرض فلسطين في الربع الأخير من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وهو يشبه في عمله هذا إلى حد كبير رئيس المجموعة الطبية، التي ترافق في العادة أية فرقة أو قطعة من الجيش في أيامنا هذه.

... من جهة ثانية، فقد عمل قسم من الأطباء المغاربة والأندلسيين في المستشفيات التي شكلوا فيها إطاراً مؤهلاً للقيام بعملية التدريب في كثير من المدن الشامية على غرار ما يحدث في المستشفيات المركزية. فكانوا

(7329/1)

يخصصون وقتاً معيناً لهذه الغاية، على الرغم من كثرة مشاغل بعضهم وضيق وقتهم. وقد تخرج على يدهم عدد كبير من طلاب العلم، استطاع بعضهم أن يصل إلى مستوى عالٍ من المهارة في صناعة الطب. نذكر من هؤلاء على سبيل المثال واحداً من تلامذة الطبيب الأندلسي أبي

المجد محمد بن أبي الحكم(1)، وهو مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الحارثي الدمشقي المولد والنشأة، وكان يُعرف

---

(1) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، تحقيق محمد بن عبد الله ومحمد بن محمود، باعتناء س. ديورينغ، طبعة دمشق، 1959، ص. 24.

(7330/1)

بالمهندس لمعرفته بعلم الهندسة قبل أن يتحول إلى الاشتغال بالطب. درس هذا المهندس علم الطب على أبي المجد الأندلسي سابق الذكر حتى برع فيه، الأمر الذي مكنه من أن يصبح أحد الأطباء المرموقين في البيمارستان النوري بدمشق، والذي بقي يعمل فيه حتى وافته المنية سنة 599 هـ/ 1203 م. ومما يدل على براعته في علم الطب مؤلفه الموسوم بـ "كتاب الأدوية المفردة" المرتب بحسب تسلسل الحروف الأبجدية(1).

---

(1) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط1، المطبعة البهية، 1882، ج 2، ص. 190.

(7331/1)

... أما في ميدان العلوم الصيدلانية، فقد كان الأمر أكثر جدة وحداثة على صعيد المجتمع الشامي. فقد وجد من بين الصيادلة المغاربة والأندلسيين من كان له فضل السبق في اكتشاف العديد من المواد الدوائية، التي لم تكن معروفة في بلاد الشام ولا حتى في غيرها من البلدان، والتي لم يذكرها أحد من الصيادلة من قبل. مثال ذلك الصيدلاني ابن البيطار، الذي ألف كتاباً سماه "الجامع في الأدوية المفردة". وقد عدّه البعض من أكمل ما صنفه العرب في هذا المضمار، فقد احتوى على اسم 300 مادة دوائية جديدة. وكان أبرز الذين استفادوا منه

(7332/1)

بمدينة دمشق الطبيب الدمشقي ابن أبي أصيبعة صاحب كتاب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، الذي حرص على مرافقته في البحث على نوعية الأعشاب الدوائية في غوطة دمشق وما حولها حتى توفي على حين غرة في سنة 646 هـ/ 1249 م بمدينة دمشق(1). مثال آخر يتجلى بالطبيب الأندلسي عمر بن علي البذوخ الذي(2)

---

(1) انظر عنه ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج 2، ص.

133؛ وابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج 1، عني بنشره عزت العطار الحسيني، طبعة القاهرة، 1956، ص. 121.

(2) انظر عنه ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج 2، ص ص. 155 ـ 157.

(7333/1)

أسدى خدمات جليلة للمجتمع الدمشقي خلال فترة وجوده بدمشق. فقد اقتصر نشاطه الطبي على خدمة عامة الناس، بعكس العديدين من زملائه المغاربة؛ فكانت له دكان خاصة (عيادة) بمحلة اللبادين بدمشق القديمة، يرتادها الناس للاستشارة الطبية. فكان إضافة إلى أنه يقوم بتشخيص المرض وتعيين أسبابه ومواضعه، فإنه كان يعطي الدواء المناسب للمرض، الذي كان من صنع يده في معظم الأحيان.

... وبخصوص بقية الفروع الأخرى من العلوم العقلية البحتة، كالكيمياء والهندسة والفلك وغيرها، فإن المغاربة والأندلسيين ـ نزلاء بلاد الشام ـ لم

(7334/1)

يشتهروا . ويا للأسف! . بشكل يسمح للمرء أن يسجل الخدمات والفوائد التي قدموها للمجتمع الشامي كله. وهذا الأمر لا يعود إلى قصورهم العقلي على هذا الصعيد بقدر ما يعود إلى عدم الاهتمام بها، خاصة وأن بعضها لم يكد يُرحب بها كالكيمياء على سبيل المثال في بلاد الشام. ذلك لأن الفقهاء اعتبروها في هذه البلاد من أعمال السحر والشعوذة التي لا يسمح بها الشرع الإسلامي. ومع ذلك، فقد ظهرت عند بعضهم بوادر طيبة، أسفرت عن بعض الابتكارات الجديدة التي لم يُقدر لها أن تتطور وتنتشر، مما جعل الفائدة منها معدومة في حياة بلاد

الشام العلمية العامة. نذكر من هذه الابتكارات تلك التي تجسدت بصنع عدة آلات هندسية صممها الطبيب المغربي المتفوق نزيل دمشق يحيى البياسي، وأهداها لأستاذه الدمشقي ابن النقاش(1). مثال آخر يتجلى في المتصوف الشهير ابن عربي الأندلسي المتوفى بدمشق سنة 638 هـ/ 1351 م، الذي كان يعرف الكيمياء على حد قوله بالفطرة. فقد ذكر في غير موضع من مؤلفاته العبارة الآتية: »أعرف الاسم الأعظم وأعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب« (2)

---

(1) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ج 2، ص. 163.

(2) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة بيروت، د. ت.، ج 5، ص. 200.

(7336/1)

.

... لكن دور المغاربة والأندلسيين في مجال العلوم النظرية كان أوسع انتشاراً وأعمق أثراً لما لاقته هذه العلوم من رعاية واهتمام بالقياس إلى العلوم التطبيقية التي تحدثنا عنها. فقد اشتغل العدد الأكبر من العلماء المغاربة والأندلسيين، الذين حلوا بالشام في هذا الميدان. وتشمل هذه العلوم العلوم الدينية كالحديث والفقه والتفسير والقراءات، وعلوم اللغة العربية كالنحو والأدب والبديع والعروض، والعلوم الاجتماعية كالجغرافية والتاريخ والتصوف والفلسفة وعلم الاجتماع، إلى غير ذلك

(7337/1)

... ففي مجال العلوم الدينية، اشتهر المغاربة والأندلسيون بشكل خاص على صعيد علم الحديث، هذا العلم الذي لم يكن جديداً على بلاد الشام، كأن يقال إن الأندلسيين هم الذين وجدوه وشجعوه على سبيل المثال أو المغاربة. لكن الشيء الجديد على الشاميين ينحصر في أنهم لم يعرفوا قبل هذه الفترة حفاظاً كباراً ومحدثين مؤهلين من أصل مغربي عملوا في هذا الشأن. فقد كان المغاربة في فترة ما قبل القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي يأخذون عن المحدثين الشاميين، ثم يعودون بعد ذلك إلى بلدانهم. أما بعد هذه الفترة، فإن الصورة

(7338/1)

تغيرت بشكل جذري، وأصبح المغاربة يرتادون بلاد الشام بقصد العمل الذي كان يعني للبعض الدراسة والحفظ والمتابعة.

... ومهما يكن من أمر، فقد استطاع عدد من المغاربة أن يصلوا إلى أعلى مستويات العلم والأهلية والجدارة، وغدوا في أحيان متعددة معلمين بارعين وأساتذة كباراً في هذا العلم. وظهرت مكانتهم العلمية بوضوح في المدارس الشامية التي ترأسوها أو درَّسوا بها، حتى غدوا

مقصداً للمهتمين من شتى الأقطار العربية الإسلامية.

فتخرج على يدهم تلامذة كثر. والحق يقال، إنه

باستثناء علم الطب، فلم يشتهروا المغاربة في ميدان

(7339/1)

علمي آخر كما اشتهروا في علم الحديث.

... فعلى الرغم من أن عدد هؤلاء المحدثين لا يتجاوز

العشرة، فإن الذين حازوا على لقب »الحافظ« بلغ اثنين،

هما: زكي الدين البرزالي المغربي(1) نزيل مدينة دمشق

وشيخ الحديث بمشهد ابن عروة بالمسجد الأموي

الكبير. هذا، بالإضافة إلى عمله في حقل التدريس حتى

وفاته سنة 626 هـ/1239 م في مدينة حماه، حينما كان

قادماً من مدينة حلب فدفن

---

(1) أبو شامة، الذيل على الروضين، عني بنشره عزت

العطار الحسيني، ط 1، 1947، ص. 168؛ ابن كثير،

البداية والنهاية، طبعة بيروت، 1966، ج 13، ص. 153.

(7340/1)

فيها؛ وعلم الدين البرزالي الذي كان من أهم علماء دمشق في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، والذي توفي أثناء تأديته فريضة الحج في سنة 739 هـ/ 1339 م(1).

... وعلى الرغم من قلة عدد هؤلاء المحدثين، فإن معظمهم تسلم مناصب تدريسية عالية من أمثال محمد بن علي الجياني، الذي اشتغل أمين خزانة الكتب بالمدرسة النورية بحلب سنة 563 هـ/1168 م، ومحمد بن سراقة الشاطبي الذي شغل مشيخة الحديث

---

(1) النعيمي الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، طبعة دمشق، 1948، ج 1، ص ص. 86 ـ 87.

(7341/1)

بالمدرسة البهائية بمدينة حلب سنة 642 هـ/ 1245 م(1).

... وقد اشتهر المغاربة والأندلسيون في ميدان آخر غير علم الحديث هو علم القراءات. ويمكن القول إنهم كانوا مجددين على هذا الصعيد. وتجلى التجديد عندهم في أنهم نقلوا إلى بلاد الشام عدداً من الطرق في القراءات، لم

تكن معروفة فيها قبل هذه الفترة، كطريقة المقرئ الأندلسي الشهير أبي عمرو بن العلاء الداني، الذي نقلها إلى الشام ونشرها عن طريق التعليم المقرئ الأندلسي أحمد بن محمد الأنصاري الشاطبي، الذي حلّ بمدينة دمشق

---

(1) الصفدي، المصدر السابق، ج 4، ص. 162.

(7342/1)

منذ سنة 504 هـ/ 1111 م. وكان قد جسّد هذه الطريقة في كتاب سماه "قراءة أبي عمرو الداني". هذا، بالإضافة إلى بعض المؤلفات الأخرى التي وضعها ككتاب "المقنع في القراءات السبع" و"التنبيه على قراءة نافع"(1). ... كما حمل لواء التجديد في القراءات مقرئ أندلسي آخر هو ابن الطحان، الذي قيل فيه إنه لا يوجد بالمغرب أعلم منه. وقد تجلى التجديد عنده في عدد من الكتب التي ألفها مثل كتاب "نظام الأداء في الوقف والابتداء"

---

(1) المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت، 1968، ج 2، ص. 135.

(7343/1)

وكتاب "مخارج الحروف" الذي هو عبارة عن مقدمة في علم القراءات(1).

... وبلغ الابتكار أوجه عند بعض المغاربة والأندلسيين في هذا العلم، إذ أقدم المقرئ أبو القاسم الشاطبي على وضع مؤلف في القراءات بقالب شعري جميل، حتى يُسهّل على المهتمين حفظ القراءات وإتقانها بطرقها المختلفة. واسم هذا الكتاب "حرز الأماني" الذي قيل فيه إنه لم يسبقه أحد في أسلوبه، وهو اختصار لكتاب "التسيير" لأبي عمرو الداني، ويسمى أيضاً "الشاطبية". فسهل بذلك على الناس استذكار قواعد

(1) المقري، المصدر السابق، ج 3، ص ص. 389 ـ 390.

القراءات وحفظها. وعدد أبيات هذا الكتاب ثلاثة وسبعون ومئة وألف بيت شعريّ، أبدع فيها كل الإبداع. ونظم قصيدة دالية أخرى من خمسمئة بيت، لخص فيها مضمون كتاب "التمهيد" لابن عبد البر في القراءات(1).

... خلاصة القول إن الذين اشتغلوا بعلم الحديث والقراءات

من المغاربة في بلاد الشام استطاعوا أن يتركوا ذكراً طيباً وخالداً. ذلك لأنهم برعوا في هذا الميدان وأجادوه حفظاً وتدريساً وإنتاجاً، وأضفوا على مؤسساته هالة رائعة من النشاط والحيوية.

---

(1) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص. 406.

(7345/1)

... أما في مجال علوم اللغة العربية، فقد كان للمغاربة فيه شأنهم البارز، وبخاصة في علم النحو والصرف، الذي كانوا فيه أقطاباً لا يقلون شأناً عن أمثالهم من علماء الحديث، الذين أتينا على ذكرهم. فكما ظهر منهم حفَّاظٌ ومحدّثُون كبار، فقد ظهر منهم نحويون عظامٌ، كان لهم بالغ الأثر في خدمة علم النحو والمهتمين به. واستطاع كثيرون منهم أن يتصدوا بجدارة لمهمة تدريس هذا العلم في العديد من مدارس بلاد الشام ومساجدها وزواياها، وعبروا في الكثير من الأوقات عن براعتهم وأهليتهم الكاملة في التصدي لهذه المهمة النبيلة،

(7346/1)

مما أضفى على بعضهم سمة الخلود والبقاء، وذلك من خلال المؤلفات التي خلفوها. ولعل أروع الأمثلة على ذلك ابن مالك النحوي المتوفى بدمشق سنة 672 هـ/ 1274 م، الذي لقب بشيخ النحاة، انطلاقاً من سعة علمه وإطلاعه وخبرته الواسعة في هذا العلم، الأمر الذي أهله لأن يتسلم رئاسة المدرسة العادلية الكبرى وشيخ النحو والنحويين فيها ولفترة طويلة من الزمن.

... ولا تنحصر أهميته بصفته شخصيّة نحوية مرموقة، بقدر ما تنحصر وتتجسد في أنه كان صاحب مدرسة كُتب لها الخلود لزمن طويل بعد رحيله، إلى درجة وصلت إلى أن جميع النحويين

(1/7347)

الذين خلفوه من المغاربة والشاميين لم يتمكنوا من التأليف والإنتاج بالشكل الذي يجاريه. وتوقف الأمر بأن أقدم كثير من مشاهير النحويين على شرح مؤلفاته.

وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل حقاً على المستوى الرفيع والمتقدم الذي بلغه ابن مالك في حقل النحو.

وربما لم تعرف بلاد الشام نحوياً طوال فترة العصور الوسطى كابن مالك النحوي، من ناحية سعة علمه واطلاعه أو من ناحية مؤلفاته الكثيرة التي تبحث في

مجاهيل علم النحو وقواعده والتي بلغت أكثر من عشرين مؤلفاً(1)

---

(1) الصفدي، المصدر السابق، ج 2، ص. 359؛ الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج 2، عني بنشره ج. برحستراير، ط 1، القاهرة، 1962، ص. 180؛ الفيروزآبادي، البلغة في تاريخ أئمة اللغة، تحقيق محمد المصري، طبعة دمشق، 1972، ص. 229؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ط 1، حيدر آباد الدكن، 1960، ج 3، ص. 76.

(7348/1)

.

... وقد تخرج على ابن مالك النحوي عدد كبير من طلبة العلم، كان لهم شأن عظيم فيما بعد على صعيد العلم وعلى صعيد الإدارة. نذكر منهم على سبيل المثال: المزي، والعلم الفارقي، والشمس البعلي، والشيخ النووي(1)، وكذلك المدرس محمد بن عبد الرحمن السلمي المعروف بابن النويرة المتوفى سنة 675 هـ/ 1277 م(2) وزين الدين أبو البركات المنجا بن عثمان بن أسعد الدمشقي المتوفى سنة 695 هـ/ 1296 م، الذي برع في علم النحو على حياة

(1) المقري، المصدر السابق، ج 2، ص ص. 427 ـ 428.

(2) اليونيني، المصدر السابق، ج 3، ص. 203.

(7349/1)

أستاذه ابن مالك، الذي قال عنه حينما سئل عن شرح "الألفية" : »شرحها لكم ابن المنجا«(1)، ومحمد ابن إبراهيم الأزرعي الذي ولي قضاء مدينة دمشق سنة 715 هـ/ 1306 م(2)، ومحمد بن محمد شمس الدين الأنصاري الشافعي الذي يعد من أفضل من تخرج على ابن مالك في النحو والعربية، وتوفي بعد أستاذه بسنوات، أي في سنة 682 هـ/ 1284 م(3)

(1) النعيمي، المصدر السابق، ج 3، ص ص. 120 ـ 121.

(2) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط 1، حيدر آباد الدكن، 1249 هـ، ص. 278.

(3) اليونيني، المصدر السابق، ج 4، ص. 197.

(7350/1)

، ومحمود بن سليمان بن فهد الحلبي المتوفى سنة 725 هـ/ 1325 م، الذي تسلم وظيفة كتابة السر، ووصفه بعضهم بأنه لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله، وبقي في ديوان الإنشاء نحواً من خمسين سنة بدمشق ومصر(1) وغير هؤلاء كثيرون.

... من ناحية أخرى، فإن ابن مالك النحوي استحوذ على الاهتمام بعد وفاته ما لم يستحوذ عليه أحد من قبله أو من بعده على صعيد بلاد الشام في العصور الوسطى، فأثنى عليه كثيرون من المهتمين بالنحو، ووصفوه بالكمال، والمعرفة التامة بعلم النحو. فقد ذكر

---

(1) النعيمي الدمشقي، المصدر السابق، ج 2، ص. 236.

أحدهم، وهو ركن الدين ابن القوبع، أن ابن مالك النحوي وضع حدّاً لعملية الابتكار والتجديد في ميدان علم النحو لا يمكن تجاوزه، فكان يقول دوماً: »إن ابن مالك ما خلّى للنحو حرمة... «، وقال شرف الدين الحصني يرثيه مبيناً سمو منزلته وتميز شخصيته في ميدان علمه، كما عكس ضخامة الفاجعة التي ألمت بعلم النحو من بعده يقول:

يا شتات الأسماء والأفعال بعد موت ابن مالك المفضال

وانحراف الحروف بعد ضبط ... بعد موت ابن مالك المفضال

(1/7352)

ومصدراً كان للعلوم بإذن الله من غير شبهة ومجال(1)

... مهما يكن من أمر، فإنه بالرغم من تفاوت النحويين المغاربة والأندلسيين في المستوى والأهلية، فإنهم أسهموا جميعاً من خلال التدريس في مدارس بلاد الشام، أو من خلال المؤلفات التي تركوها، أسهموا في إحياء علم النحو والصرف في كثير من الأحيان. ساعدهم على ذلك تمكنهم من علم النحو، الذي ظهر من خلال المناصب التدريسية العالية، التي شغلوها في المدارس الشامية. فقد تسلم ثلاثة أو أربعة مشيخة علم النحو في عدة

---

(1) الصفدي، المصدر السابق، ج 2، ص ص. 362 ـ 363.

(1/7353)

مدارس شامية من أصل اثني عشر نحوياً مغربياً، وتسلم أربعة منهم رؤساء مدارس ودور علم شهيرة في بلاد

الشام(1).

... وتأتي قيمة وعظمة الدور الذي شغله هؤلاء المغاربة أيضاً، إضافة إلى ما تقدم، من الكتب المختصة التي ألفوها، والتي كان بعضها غير معروف على صعيد بلاد الشام، وبخاصة من ناحية الأسلوب والمنهج الذي

---

(1) من هؤلاء: أبو عبد الله الطليطلي مدير دار العلم في طرابلس الشام، ومحمد بن عبد الله شيخ المدرسة العادلية بدمشق، وابن معطي شيخ النحو بالمسجد الأموي، والقاسم بن أحمد المرسي شيخ النحو بالعادلية بدمشق.

(7354/1)

جاء جديداً مبتكراً. مثال ذلك "ألفية" ابن معطي المغربي، التي تُعد أول مؤلف في النحو صيغ بقالب شعري. وكان التجديد أقل من ذلك عند بعضهم كما هو حال القاسم بن أحمد اللورقي، الذي ألف عدداً من الكتب شرح فيها مؤلفات غيره ككتاب "شرح الجزولية" الذي يعد من أمهات الكتب النحوية المغربية الأندلسية، الذي لا يستبعد أن يكون نزلاء الشام من المغاربة والأندلسيين هم الذين نقلوه معهم إلى هذه البلاد.

... وفي العلوم الاجتماعية سنركز على آثار المغاربة في ميدان الجغرافية والتصوف. ففي ميدان الجغرافية خلفوا آثاراً واسعة

(7355/1)

ذات فائدة جمة. وقد تجلى ذلك في المعلومات القيمة التي دونها الرحالة المغاربة، كابن العربي وأبي حامد الغرناطي الذي جاءت معلوماته أكثر فائدة من غيرها، على اعتبار أنه زار مناطق من إيران وروسيا الحاليتين، فدلّ على أشياء جديدة لم تكن معروفة من قبل الشاميين وبخاصة في ميدان العجائب، التي شاهدها في البلدين المذكورين، والتي كان منها ما يتعلق ببقايا الإنسان القديم أو علم المومياء. وقد أثارت عليه اهتماماته في هذا الشأن وغيره ثائرة بعض علماء مدينة دمشق، فاتهموه بالكذب والشعوذة. وكان في طليعتهم ابن عساكر

(7356/1)

صاحب "تاريخ مدينة دمشق"، الذي

لم يستطع أن يتمثل المعاني والأهداف السامية ذات

القيمة العالية لمثل هذه الاهتمامات، لكونها تختلف عن

ميدان اهتمامه الذي اقتصر على علم الحديث(1).

... يأتي بعد أبي حامد الغرناطي من حيث الأهمية العلمية

ابن جبير الأندلسي، الذي زار مناطق شتى من بلاد الشام.

وبغض النظر عن كبر الرقعة التي زارها هذا الرحالة

وكتب عنها أو صغرها، فإنه اتفق مع جميع الرحالة

الذين سبقوه أو الذين جاءوا بعده في ناحية واحدة،

---

(1) انظر عن أبي حامد الغرناطي: المقري، المصدر

السابق، ج 1، ص. 235 وما بعدها.

(7357/1)

تجلت في أن اهتمامهم ما عدا أبا حامد الغرناطي، كان

واحداً تقريباً. وتأتي قيمة هؤلاء الرحالة من الملاحظات

الذكية التي دونوها في أثناء زيارتهم لبلاد الشام. فقد

ركزوا على وصف المواقع الأثرية والأماكن الدينية

المشهورة، وتثوير ورصد الحالة الاقتصادية التي كانت

سائدة في المناطق التي حلوا بها. كما وقفوا على جوانب

عديدة من الحياة الاجتماعية كالعادات والتقاليد

والنهضة العلمية والعلاقات بين السكان الأصليين من جهة، وبينهم وبين الفرنجة من جهة أخرى. ويشغل ابن جبير الأندلسي مركز الريادة في ذلك، لأنه تميز في

(1/7358)

كتاباته عن الشام بالدقة العلمية والتركيز على نواح في غاية الأهمية، ما زالت تؤخذ بعين الاعتبار عند إجراء أي دراسة اجتماعية أو اقتصادية، وبخاصة عن مدينة دمشق ومدن الساحل اللبناني والفلسطيني(1).

---

(1) انظر عن هذه الأمور تفاصيل واسعة: ابن جبير، الرحلة، طبعة بيروت، 1959، ص. 223 وما بعدها؛ الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين المنجد، طبعة الكويت، 1966، ج 5، ص.51؛ المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت، 1965، سفر 5، قسم 2، ص. 596.

(1/7359)

... وفي مجال آخر هو مجال التصوف، كان الأمر جيداً وأحسن حالاً من الفلسفة التي حوربت على كل صعيد. ففي مجال

التصوف، انقسم المتصوفة المغاربة إلى قسمين متباينين: اقتصر نشاط القسم الأول على الزهد والتعبد وتقديم النصائح إلى غيرهم، إلى غير ذلك من أنشطة لا فائدة تُرجى منها. فقد شكل رجال هذا القسم عبئاً ثقيلاً على المجتمع، لأن هؤلاء الرجال عاشوا على هامش الحياة دون عمل مفيد ومنتج، وهو الأمر الذي دعا إليه الإسلام وأكَّده حتى جعله محور بقاء الحياة واستمرارها وتطورها. وهذا النوع من التصوف لم يكن جديداً على

(7360/1)

المجتمع الشامي، إنما كان معروفاً منذ فترة طويلة قبل حلول المغاربة في الشام، الذين وجدوا فيها بيئة صالحة لمثل هذا الاتجاه، الذي يمكن أن يكون سببه زهد صاحبه وعدم اكتراثه في الحياة الدنيا نتيجة تحولات مدمرة ومؤلمة على ساحة المجتمع الذي ينتمي إليه، بحيث يكون في هذا المجتمع مقهوراً لا قاهراً وعبداً لا سيداً. ... أما القسم الثاني من المتصوفة المغاربة، فقد مثله بوضوح المتصوف المغربي الأندلسي محيي الدين بن عربي، صاحب فكرة مذهب وحدة الوجود، الذي عُدَّ من المفاهيم الجديدة والغريبة على المجتمع الشامي في

حينه. ويُعد ابن عربي هذا أعظم شخصية مغربية سكنت بلاد الشام في العصور الوسطى موضوع هذا البحث، من حيث تأثير أفكاره وإنتاجه. فقد كانت أفكاره مثار جدل ونقاش دام عدة قرون بعد وفاته وما زالت حتى أيامنا هذه. والجديد في مؤلفاته كما ذكرنا هو مذهبه في وحدة الوجود، الذي لم يكن له وجود في الإسلام في صورته الكاملة قبل ابن عربي. فهو الواضع الحقيقي لدعائمه، والمؤسس لمدرسته، والمفصل لمعانيه ومراميه، والمصدر له بتلك الصورة النهائية، التي أخذ بها كل من تكلم في هذا المذهب من العلماء المسلمين من بعده(1)

(1) ابن عربي، فصوص الحكم، تحقيق أبو العلا عفيفي، طبعة بيروت، 1946، ج 1، ص. 25.

. فهو بذلك صاحب أول مذهب فكري جديد ومبتكر، انفرد وتميز به عن كل المغاربة الذين احتضنتهم بلاد الشام.

وتأتي عظمة وقيمة مؤلفاته، وبخاصة تلك التي جسد فيها مذهبه، من أنها لم تعتمد على مصادر مكتوبة، الأمر الذي جعل من ابن عربي شخصية مجتهدة، ذات فكر استقلالي ذاتي. وقد عبر عن هذه السمة في عدة مواضع. ففي رسالة كان أرسلها إلى فخر الدين الرازي، الذي عُرف بسعة علمه واطلاعه نقلها الشعراني في "طبقاته"، جاء فيها قوله:

(7363/1)

... اعلم - يا أخي، وفقنا الله وإياك! - أن الرجل لا يكمل عندنا في مقام العلم حتى يكون علمه عن الله عز وجل بلا واسطة من نقل أو شيخ، فإن من كان علمه مستفاداً من نقل أو شيخ فما برح عن الأخذ عن المحدثات، وذلك معلول عند الله عز وجل... (1).

وعبّر في موضع آخر عن الفكرة ذاتها بقوله شعراً:

لقد حرّم الرحمن تقليد مالك ... وأحمد والنعمان والكل ما غدروا

وقال أيضاً:

(1) الشعراني، الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار، طبعة مصر، 1305 هـ، ج 1، ص. 5.

(7364/1)

لست ممن يقول قال ابن حزم ... ولا أحمد ولا النعمان(1).

... ويعلق المفكر الإسباني أنخل خنثالث بالنثيا على أقواله هذه »بأن ابن عربي يريد بذلك أن يمنع قارئه بهذه الحقيقة دونما شك، وذلك على الرغم من وجود أفكاره هذه بحرفيتها تقريباً في كتب سابقة عليه كأرسطو وغيره« (2).

... وأهم مؤلفاته من الناحية الفكرية والجديدة كتاباه "فصوص الحكم" و"الفتوحات المكية"، مع أنه ألف أكثر من عشرين كتاباً تُعد كلها جديدة على المجتمع

(1) ابن العماد الحنبلي، المصدر السابق، ج 5، ص. 200

(2) بالنثيا، المرجع السابق، ص. 383.

(7365/1)

الشامي في ذلك الوقت. ومهما يكن من أمر، فإن ابن عربي يُعد بحق من عظام المغاربة نزلاء الشام، الذين استطاعوا أن يتركوا بصمات خالدة على جبين الحضارة الإنسانية، وذلك بغض النظر عن أقوال الحاقدين والشناع، الذين لم ينصفوه بشيء فأساءوا له وللعلم ولأنفسهم على حدٍّ سواء.

... يظهر من كل ما تقدم أن الجالية العلمية المغربية الأندلسية ساهمت إلى حدٍ كبير في استمرار الزخم العلمي الحضاري على مختلف فروعه، وذلك من خلال التدريس والتأليف ونقل الكتب المغربية والأندلسية ذات الشهرة الكبيرة. فقد بلغ عدد الكتب التي ألفها

(1/7366)

رجال هذه الفئة من المغاربة، مضافاً إليهم ما وضعه هو وغيرهم من العاملين في المساجد والزوايا المالكية الخاصة، بلغ أكثر من مئة وخمسين كتاباً، كان بعضها جديداً ومبتكراً كما في القراءات والنحو والصرف والصيدلة والتصوف. أضف إلى ذلك أن عدداً كبيراً من المؤلفات المغربية(1)

---

(1) من هذه المؤلفات: "الجزولية" و"الشاطبية" وكتاب

"الشفاء" للقاضي عياض وكتاب "سراج الملوك" للطرطوشي، وبعض الكتب اليونانية التي نقلها بعض الأطباء المغاربة كابن البيطار الذي جاء بكتب جالينوس وديسقوريدس إلى دمشق. ونقل غيره كتب ابن زهر؛ كما أن بعضهم جاء بكتبه كابن الرومية النباتي، إضافة إلى كتب في المذهب المالكي كـ"الموطإ" وغيره.

(7367/1)

كان قد نقلها إلى الشام بعض العلماء المغاربة، فتلاقت بذلك الخبرة المغربية مع الخبرة الشامية، واتحدتا لتؤلفا ذخراً علمياً بديعاً، ما زال بعضه يشغل أهمية خاصة حتى أيامنا هذه. كما أن عدد التلاميذ الذين تخرجوا على العلماء المغاربة في مختلف الاختصاصات بلغ اكثر من ثلاثين تلميذاً ـ حسب معطيات المصادر ـ من الذين شغلوا مراكز قيادية عالية في مجال العلم والإدارة وغير ذلك ووصل الأمر ببعض هؤلاء إلى أنهم تفوقوا على أساتذتهم في كثير من الأحيان، هذا عدا التلاميذ الآخرين الذين لم يشتهروا إلى الحد الذي وصل إليه

(7368/1)

أولئك الذين ذكرتهم كتب التراجم.

... ومن الأنشطة المغربية في الشام يمكن أن نتحدث عن مساهمات أهل المغرب في مجال الإدارة العامة، التي لم تكن كبيرة، باستثناء منصب القضاء على المذهبين المالكي والشافعي، على الرغم من أنهم أبناء بيئة خبيرة بهذه الشؤون. فلم يُعرف أن أحداً منهم تسلم نائباً في الحكم في أيّ منطقة شامية أو أصبح وزيراً، أو غير ذلك من المناصب الإدارية الكبيرة التي كان لها مساس بالحياة السياسية. وكانت أفضل المراكز التي شغلوها في هذا الميدان مراكز عادية، لم تتعد كاتباً صغيراً في ديوان الإنشاء

(1/7369)

أو في أي مركز مماثل، مع وجود بعض الاستثناءات النادرة. مثال ذلك أن أربعة منهم توصلوا إلى مناصب رفيعة إلى حد ما، وهي مناصب تلي منصب القضاء مباشرة. فقد تسلم واحد من هؤلاء المغاربة الأربعة ناظر الدواوين بدمشق، وتسلم الثاني وكالة بيت المال بمدينة الكرك، وتسلم الثالث مدير أمن السجن المركزي بدمشق.

أما الرابع(1)، فلم يتسلم أي منصب إداري معين، وهو رجب الدين الرجيحي التونسي؛ ومع ذلك، فإنه كان من المقربين جداً إلى الحكام بمدينة دمشق، فكانوا

---

(1) انظر عنهم: الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج 5، ص. 348 و 383.

(7370/1)

يعتمدون عليه في كثير من الأمور كما يبدو من حديث الصفاعي صاحب كتاب "تأليف وفيات الأعيان" عنه، ولا أدل على قيمته الكبيرة ومكانته المرموقة عند الحكام، من أنه أُقطع إحدى قرى غوطة دمشق، الأمر الذي كان لا يحصل إلا للشخصيات الكبيرة المتنفذة في الحكم من الولاة والنواب والأمراء في فترة حكم المماليك في مصر والشام(1).

---

(1) الصفاعي، تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق جاكلين سوبلة، طبعة دمشق، 1974، ص. 135؛ ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج 2، ص. 108.

(7371/1)

... وربما تعود ظاهرة غياب المغاربة عن المراكز الإدارية العالية بالشام، إلى أن هذه المناصب كانت على ما يبدو حكراً على أهل البلاد الأصليين، وبخاصة منهم أولئك الذين يمتون بصلة القرابة والدم إلى الحكام، كما كان معروفاً ويحدث في فترة حكم المماليك، الذين استأثروا بكل المناصب الإدارية القيادية. ويمكن ذكر سبب آخر ربما لا يبتعد كثيراً عن الواقع، هو أن المغاربة الذين كانت لديهم رغبة في الحصول على مثل هذه المناصب، نزعوا عن هذه الرغبة حينما وجدوا في بلاد الشام شخصيات إدارية لا تجارى في مجال عملها. مثال ذلك

(7372/1)

ما حدث لبعضهم أيام حكم صلاح الدين الأيوبي بمصر، وهو أبو عبد الله محمد بن محرز بن محمد الوهراني الملقب بركن الدين أو جمال الدين. فقد قدم إلى مصر وكله أمل في التوصل إلى منصب إداري في ميدان الكتابة والإنشاء، على اعتبار أنها كانت محور اختصاصه الرئيس، لكنه عدل عن ذلك حينما وجد نفسه لا شيء بالمقارنة مع القاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني الكاتب كاتبي صلاح الدين الأيوبي(1). لكن هذه الاقتناعات لم تكن

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، طبعة بيروت، 1970، ج 4، ص. 385.

(7373/1)

ثابتة، بحيث يمكن اعتمادها أو القياس عليها بشكل لا يقبل الجدل. فقد انتهز المغاربة وتحينوا الفرص في كثير من الأحيان، لكن محاولاتهم باءت بالفشل لسبب أو لآخر، على الرغم مما عُرف عنهم من أمانة وإخلاص وإقدام. وخير مثال على ذلك ما حدث سنة 688 هـ/ 1270 م، حينما قدم علم الدين سنجر الشجاعي أحد نواب السلطنة المملوكية من مدينة طرابلس إلى دمشق، وتعرض لأهلها بالظلم والمصادرة مدحه شمس الدين محمد بن سليمان بن علي المعروف بالتلمساني المتوفى سنة 688 هـ/ 1270 م بدمشق بقصيدة نالت منه كل تقدير وإعجاب. لكن المذكور

(7374/1)

توفي بعد فترة وجيزة، فقال الشجاعي ما معناه: »لو كان التلمساني حياً، لكان نقله إلى وظيفة عالية« (1).

... أما في مجال القضاء، فقد كان دورهم أكبر وأكثر ظهوراً من غيره، إضافة إلى أنه من المناصب الإدارية العالية الجديدة على المجتمع الشامي، بحيث يمكن القول إن استحداثه في كثير من المدن الشامية كدمشق وبيت المقدس وحلب وحماه وغيرها، كان منوطاً بوجود جالية مغربية تستحق استحداث منصب كهذا. وقد بدأ دورهم جلياً بارزاً منذ أن أحدث منصب قاضي قضاة المالكية بمدينة دمشق لأول مرة

---

(1) الصفاعي، المصدر السابق، ص. 82.

سنة 664 هـ/ 1266 م. وقد شكل القضاة المغاربة مجموعة هامة في التشكيلة الإدارية الشامية، ذلك لأنهم شغلوا منصب القضاء المالكي طوال فترة حكم المماليك، وكانت معظم الجرائم الكبرى والخطيرة تُحال إليهم كجريمة شتم الدين الإسلامي أو الارتداد عن الإسلام أو التقليل من شأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – وبقية الأنبياء وما يشابه ذلك من أمور. كما أنهم تأثروا بالجو

الذي كان سائداً في عصر المماليك، وبخاصة في ميدان القضاء، الذي لم يكن قضاء عادلاً ولا نقياً، ذلك لأن الكثيرين من القضاة على جميع المذاهب شغلوا منصب

القضاء من خلال شرائه من أكبر السلطات المملوكية، وكان العديد من المغاربة قد جاء إلى القضاء من خلال هذا الأسلوب غير السوي على اعتبار أن المغاربة كانوا جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الشامي الذي عانى من هذه المسألة كثيراً(1). وإذا أردنا التحدث بتفصيل عن ممارسات المغاربة في مجال القضاء، لاحتاج الأمر إلى عدد كبير من الصفحات. وهذا ما

---

(1) انظر أمثلة عن القضاة المغاربة الذين جاءوا عن طريق الرشوة إلى القضاء: ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج 3، ص. 167، و ج 2، ص. 343؛ وتاريخ ابن قاضي شهبة، ص ص. 495 ـ 496.

يخرجنا عن مضمون هذا البحث وتوجهه. وسوف أبحث إن شاء الله وضع القضاة المغاربة في بلاد الشام في بحث مستقل ومستفيض.

... وقد كان للمغاربة دورهم الرائع في مجال الاقتصاد الشامي، فلم يكن بأقل من دورهم في أي مجال آخر. فقد حدث أن نقلوا أموراً جديدة كانت غير معروفة في بلاد الشام، وبخاصة في الميدان الصناعي الذي كان دورهم فيه كبيراً ومميزاً لكونهم ورثة مجتمع صناعي متقدم. فقد نقلوا إلى الشام صناعة الحرير وصباغته وتلوينه، الأمر الذي ساعد على انتشار هذه الصناعة في معظم مدن بلاد الشام(1)

---

(1) ابن حجر العسقلاني، المصدر السابق، ج 3، ص. 206؛ الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص. 197؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ص. 583.

(7378/1)

. كما نقلوا إلى الشام صناعة بعض الأواني والصحون التي تستخدم للطعام عُرفت في بلاد الشام بـ »المالقي«، نسبة إلى مالقة في جنوب الأندلس. وجدير بالذكر أن هذه التسمية ما زالت معروفة ومتداولة في سائر أنحاء

بلاد الشام تقريباً.

... وإذا ما أردنا أن ننتقل إلى الزراعة والتجارة، نرى أن دور المغاربة في مجال الزراعة كان دوراً باهتاً في بلاد الشام. أما في التجارة، فكانت الصورة أفضل بكثير، إذ قام عدد هام من المغاربة بالعمل في مجال التجارة، وقدموا للمجتمع الشامي خدمات جليلة في كل فروع التجارة تقريباً. فقد قام

الطبيب المغربي يوسف بن يحيى بن إسحق السبتي منذ وصوله إلى مدينة حلب بعمليات تجارية خارجية، وصل فيها إلى العراق وفارس والهند، وجمع أموالاً طائلة خصص قسماً منها لبناء صرح طبي بمدينة حلب(1)، وكذلك فعل الطبيب المغربي المعروف بالكلي، الذي ترك مهنة الطب وتحول إلى التجارة، واقتصر عمله الرئيس على شراء حاجيات المماليك من أهل السلطة بأرخص الأثمان وأوفرها(2).

---

(1) القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص. 257.

(2) اليونيني، المصدر السابق، ج 3، ص ص. 193 ـ 194.

... كما أن مجموعة كبيرة العدد من المغاربة يمكن أن نسميها المجموعة العمالية، تمحور وجودها بشكل خاص في المدن الكبرى الشامية، ولا سيما مدينة دمشق، وقدمت للمجتمع الشامي خدمات جليلة في القطاعات الاقتصادية وغير الاقتصادية. وتميز أفراد هذه المجموعة بأجورهم الضئيلة، التي كانوا يحصلون عليها من حراسة الطواحين أو من حراسة البساتين أو من خلال اشتغالهم طباخين ومجهزي حمامات مرافقين لفرق الجيش. لذلك علت شهرتهم بصفتهم عمّالاً يرضون بأقل الأجور وأرخصها، مثلما علت شهرتهم وطارت على صعيد الأمانة والجد والإخلاص في

(7381/1)

العمل. وهذا ما جعل الطلب عليهم شديداً في معظم الأحيان، وبخاصة من قبل المسؤولين في الحكم والإدارة في الدولة. وإن دلت ظاهرة كهذه على شيء، فإنما تدل على إنجاز الأعمال مهما كانت بأقل مقدار من المال، الأمر الذي ينعكس إيجاباً في نهاية المطاف على الاقتصاد العام. ولعل أوضح الأمثلة على هذا الواقع ما حدث بمدينة

دمشق سنة 823 هـ/ 1420 م، حينما جاء نائب دمشق إلى الجامع الأموي، وأخذ يفند مرتبات العاملين بالعمارة والبناء وفي النواحي الأخرى المتفرقة، فوجد أن المبلغ المخصص للعمارة وغيرها كبير جداً فقال للناظر

(7382/1)

والمباشرين: »باشروا ذلك بأنفسكم؛ وإن احتجتم إلى أمين على آلات العمارة، هاتوا مغربياً كل يوم بدرهمين؛ فإذا فرغت حاجتكم فيه، يروح«(1). وهذا يدل أيضاً على أن العمال المغاربة في بلاد الشام كانوا يشكلون قاعدة واسعة لها دورها الرائد في دعم الاقتصاد الشامي في كل المجالات في فترة هذا البحث.

... وبالجملة، فقد وجد المغاربة في بلاد الشام أرضاً صالحة، تقيهم شر العوز والحاجة وتخفف عنهم مرارة الشوق والبعد عن الوطن الأم، مما ساعدهم على الاستقرار يحدوهم إلى ذلك

---

(1) النعيمي الدمشقي، المصدر السابق، ج 2، ص. 404.

(7383/1)

شعور عارم بالطمأنينة والهدوء. فلقد أحبهم شعب الشام وحكامها، وأكرموا مثواهم وأحسنوا منزلتهم وأعلوا قدرهم، واختصوهم بكل عناية ورعاية على مختلف فئاتهم. فمن أجلهم ابتنوا عدداً من المدارس والخوانق والزوايا، وبخاصة في مدينة دمشق وحلب وبيت المقدس. ففي مدينة دمشق خُصصت زاوية للمالكية بدمشق في الجامع الأموي الكبير، وبقيت وقفاً على المغاربة حتى نهاية العصور الوسطى، وكان يتولاها في أكثر الأحيان فقيه مالكي مغربي. وأسهم بعض أغنياء مدينة دمشق ببناء زاوية أخرى للمغاربة في أوائل القرن التاسع الهجري الخامس عشر

(7384/1)

الميلادي. وهذا الغني هو علاء المشهور بابن وطية. وهذه الزاوية عُرفت بزاوية ابن وطية. التي تقع على الشمال من جامع جراح بدمشق القديمة. وكان شرطها الرئيس أن تكون برسم المغاربة على اختلاف فئاتهم، وأن لا يكون النازل بها شريراً أو مبتدعاً، وأن لا يكون شيخها من القضاة أو الحكام. ويقول عنها النعيمي الدمشقي صاحب كتاب "الدارس في تاريخ المدارس" : »وقفت على كتاب وقفها في أواخر جمادى الآخرة سنة واحد وتسعمئة،

وتعرف الآن بزاوية المغاربة». وخصص ابن وطية واقف هذه الزاوية عدة حوانيت بالقرب منها من أجل الصرف على

المغاربة الموجودين فيها(1). وخصصت للمغاربة زاوية ثالثة عُرفت بالخانقاه الأندلسية بدمشق، وزاوية رابعة عرفت بالخانقاه السمياطية.

... وبلغ من اهتمام الشاميين بالمغاربة أن وقفوا على موتاهم مقابر خاصة بهم كمقبرة خليل بن زويزان، التي تقع إلى الجنوب من مقابر الصوفية، والتي وقفها على ما يبدو على الصالحين من الصوفية وغيرهم من العلماء المغاربة المشاهير. وكان أول الذين دفنوا بها من المغاربة أبو الحسن علي المراكشي(2)، والمقبرة التي تعرف

---

(1) المصدر نفسه، ص. 204.

(2) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص. 153.

بـ»مقبرة فقراء المغاربة«، وتقع في سفح جبل قاسيون في مغارة الدم في شمال دمشق(1).

... ومن ناحية أخرى، وجد من أهل دمشق من وقف جزءاً من ثروته على فقهاء المغاربة بعد وفاته، مثل أحمد بن عبد الله الذهبي الكتبي المتوفى سنة 663 هـ/ 1265 م الذي يقول عنه رفيقه أبو شامة المقدسي في كتابه "الذيل على الروضتين" : »...ثم بقي عندنا مدة عمره وخلف كتباً كثيرة وثروة ووقف داره على فقهاء المالكية(2) وأوصى لهم بثلث ماله وحَرَّضْتُه أن يقف شيئاً من أصول كتبه فلم

---

(1) المصدر نفسه، ص. 173.

(2) المالكية هنا تعني المغاربة.

(7387/1)

يفعل« (1). هذا، بالإضافة إلى الأراضي والبساتين التي خصصت للصرف عليهم منذ الفترة الأولى لحكم نور الدين زنكي الشهيد. وكذلك كان الأمر في بيت المقدس، إذ خصصت لهم زاوية واحدة في المسجد الأقصى تشبه تلك التي خصصت لهم في الجامع الأموي بدمشق، وخانقاه واحدة دعيت الخانقاه الفخرية(2).

... في الجهة المقابلة شكل المغاربة والأندلسيون جالية كبيرة العدد إلى حدٍ ما، لكن غياب الإحصائيات والأرقام الخاصة بهذه الجالية تجعل المرء

---

(1) أبو شامة، المصدر السابق، ص. 235.

(2) التميمي، الأنس الجليل، ج 2، ص. 580 وما بعدها.

(7388/1)

يلجأ إلى التقدير التقريبي. وبهذا يمكن القول بشيء من المجازفة إن عدد المغاربة والأندلسيين في بلاد الشام بلغ عشرات الآلاف من مختلف الفئات، التي كانت فئة العمال والفقراء تشكل الغالبية العظمى منهم، وذلك بالاعتماد على بعض الإشارات التي وردت في بعض المصادر وبخاصة عن رجال الخدمة في الجيش الشامي، كالمقريزي، والقطاعات الاقتصادية الأخرى كما عند غيره. ومما يدل أيضاً على ضخامة عدد الجالية المغربية في الشام ظهور مناصب إدارية كبيرة خاصة بالمالكية من المغرب والأندلس كمنصب القضاء، الذي يشير بوضوح إلى العدد

(7389/1)

الهائل الذي شكله المغاربة في الشام، وبخاصة في فترة حكم المماليك التي شهدت هجرة مغربية وأندلسية كبيرة، حينما سقطت أكثر معاقل العرب والمسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية، ذلك لأن منصباً كبيراً كالقضاء لا يمكن أن يستحوذ في مدينة لا تحتوي على عدد كبير من أتباع المذهب المالكي. والدليل على ذلك أن مدينة حمصٍ بوسط سورية، التي لم تذكر المصادر رغم كثرتها وتنوعها، أن مغربياً أو أندلسياً سكنها أو صل بها بشكل دائم، الأمر الذي جعل الحكام لا يعتمدون فيها قاضياً مالكياً طوال فترة هذا البحث.

(7390/1)

... اتسم رجال الجالية المغربية في الشام بالحيوية والنشاط، يحفزهم في تنفيذ أعمالهم الإخلاص والوفاء لأرض أعطتهم بسخاء وكرم. فلم يُعرف أنهم تخاذلوا في عمل أو تأخروا عن أداء مهمة أوكلت إليهم في أي ميدان وجدوا فيه. ولولا شذوذ بعض القضاة منهم واندفاعهم وراء مآربهم الشخصية والمادية، لكان بالإمكان القول إنهم جميعاً عُرفوا بالاستقامة وتحلوا بالأخلاق الفاضلة.

فقد غدت عبارات الصدق والأمانة عناوين بارزة ميزتهم عن غيرهم، وجعلتهم في المقدمة على هذا الجانب الإنساني البحت.

(7391/1)

... بقي أن ننوه أنه، حتى يومنا هذا، ما زالت الأسر والعائلات في مختلف بلاد الشام، تعرف بكنى وأسماء مغربية، كعائلة الزواوي والبكري والتونسي والمغربي والمالقي. فعائلة البكري تكاد تنحصر في مدينة دمشق، وهي من العائلات المعروفة، وإن كان الأمر لا يخلو من وجود أقرباء لهم في مدينة حلب. وينحصر وجود عائلة الزواوي بدمشق وفلسطين. أما عائلة المالقي، فلها وجود قليل من مدينة دمشق. أما عائلة المغربي، فأغلب الظن أنها لا تعود إلى أرومة واحدة، على اعتبار أن كل من جاء من الأندلس أو المغرب على حد سواء عُرف بتسمية

(7392/1)

»المغربي«. أما عائلة التونسي، فهي منتشرة بدمشق.

(7393/1)

بلدان البحر المتوسط الغربي : آفاق اقتصادية وبيئية

الدكتور عبد الله العوينة ... ...
... ... الأستاذة جوهرة الوزاني التهامي
كلية الآداب – الرباط والمعهد الجامعي للبحث العلمي – الرباط

معروف أن حالة البيئة محددة أساسا بنوعية الأنشطة الاقتصادية والمنشآت البشرية. ذلك أن التأثير يبلغ من العمق ما يجعل النشاط الحالي للصناعة يحول جذريا كيمياء وديناميةة الغلاف الجوي وبالتالي يؤدي إلى تغيرات شاملة قد تكون لها نتائج غير متوقعة.
وبالنسبة لنوعية الأوساط البيئية والنظم الإحيائية يمكن أن يقال بأن التحولات

(7394/1)

الاصطناعية صارت منذ الآن جد متقدمة وهي في المستقبل تؤذن بالوصول إلى حالة تدهور، كما ستخلق تطورات تمس جوهر الإنسان على الأرض.

ولذا فإن محاولة ترقب التطورات البيئية يلزمنا بأن نتمعن الاختيارات الاقتصادية والتكنولوجية واستراتيجيات التنمية في البلدان المتوسطة. وابتداء من هنا محاولة تخيل النزاعات البيئية فيما يخص توفر الموارد وإطار العيش وجودة المحيط البيئي.

والإطار المجالي الذي نهتم به هو إطار البحر المتوسط الغربي؛ ذاك البحر المشترك بين الدول المطلة عليه والتي تتميز ببيئة طبيعية مبنية على تواتر

(1/7395)

أحيائي متشابه رغم أهمية الفروق والاختلافات الجزئية. كما تشترك في تاريخها القديم والمعاصر.

وتتميز حاليا وضعية الاقتصاد والمجتمع والبيئة على ضفتي البحر المتوسط الغربي بالتناقض :

– من جهة نجد دولا صناعية مجهزة حيث مشاكل البيئة نتاج للتقدم

الاقتصادي يرافقه على الخصوص مقدار مرتفع للإرسالات الغازية الملوثة، تدهور

متقدم للجو في التجمعات الحضرية، مجال اصطناعي في أغلبه، تلويثات متنوعة مرتبطة بامتداد المدن، وأخيرا

تهميش مجال الأرياف الذي تحول قبل كل شيء إلى مجال للاستجمام.

(7396/1)

– على الضفة الأخرى، بلدان في طريق النمو، ضعيفة التصنيع والتجهيز، تنتج فيها مشاكل البيئة، أولا عن الاحتياج الذي يتمثل في اقتلاع جائر للمواد يترتب عنه تدهور الأراضي، كما يبرز عدم توازن أنظمة الإنتاج والاستهلاك وتدبير المجال، في غياب لتجهيزات فعالة ومؤسسات تدبير كافية. ونعيش حاليا إطارا اقتصاديا يدعو إلى الانفتاح على العالم وإلى التعاون الأورو – متوسطي.

وفي هذا الإطار فإنه من الطبيعي أن نتساءل عن الافاق الإكولوجية للبلدان المطلة على البحر المتوسط تبعا للاختيارات الاقتصادية والاجتماعية لكل من هذه

(7397/1)

الدول.

ومنهاجنا سوف يدفعنا إلى تتبع مختلف القطاعات

والأنشطة كما سيتم ذلك على مقياس البحر المتوسطي الغربي كافة، ثم على مستوى المغرب على وجه التحديد.

وفيما يخص بلادنا سوف نقوم بمقارنة اختيارين أساسين :

– سيناريو الانفتاح على أوربا الذي تقضي به المعاهدات الموقعة والذي سوف يتم في أفق سنة 2010.

– سيناريو يتوخى التنمية المستديمة أولا وقبل كل شيء ويسعى إلى تطوير بطاقات والمواد الذاتية وخاصة منها المواد البشرية.

1– الفلاحة وآثارها البيئة :

(7398/1)

لا تمثل الفلاحة في بلدان البحر المتوسطي الغربي سوى نسبة محدودة من المنتوج الداخلي الخام، بينما نراها تقريبا في كل البلدان مازالت تلعب دور المحرك بالنسبة للاقتصاد. ويعتبر الري في هذه البلدان – التي تشكو من جفاف الصيف – العامل الأساسي والوسيلة المثلى لتحقيق تكثيف الزراعة والرفع من الإنتاج، وهذا ما يجعل هذا القطاع يستهلك أكثر من 80٪ من المياه المتوفرة.

كما أن الزراعة في تناقس دائم مع الأنشطة الأخرى فيما يخص الماء والمجال. وإذا اعتبرنا بلدان الجنوب المتوسطي فإننا نجد أنها صارت تعرف نزعة نحو الخصاص

(7399/1)

في الإنتاج الغذائي. بل صارت تستورد المواد الغذائية الأساسية (قمح – أرز – سكر – زيوت) في وقت نجدها فيه تصدر الفواكه والخضر.

وهذا الخصاص في الإنتاج يميل إلى التفاقم باعتبار استمرار النمو الديموغرافي.

أما إذا قارنا الآثار البيئية للفلاحة في بلدان الشمال والجنوب المتوسطي فإننا نلاحظ:

– في الشمال : تعرف المساحة المزروعة الإجمالية تراجعا عاما، بينما تمتد المساحات المسقية، وهذا يعني مجموعة من الآثار على مستوى البيئة. أولها الحاجة إلى المزيد من الماء في وقت تطغى فيه الاستعمالات الحضرية والصناعية،

(7400/1)

الشيء الذي يلزم كثيرا من البلدان إلى إعادة مياه الواد الحار بعد تصفيتها للاستجابة لهذا الخصاص.

ثانيا : إن الإنتاج الفلاحي يتمركز في المواقع الأكثر صلاحية أي في السهول المتوسطية المعتدلة والمسقية والتي تتلقى فلاحات متخصصة، بينما تعرف المجالات الهامشية إفراغا بشريا وفي النشاط الفلاحي، وقد يؤدي هذا التخلي إلى نزعة نحو استرجاع هذه الأراضي المتدهورة لبعض من خصوبتها، وتوازنها.

وآخر مظهر تعرفها الفلاحة في بلدان الشمال التطور التقني المفرط والتطور السريع في المردودية، وهذا يعني قوة الارتباط بين الفلاحة

(7401/1)

من جهة، والأنشطة الأخرى الواقعة في عاليتها وسافلتها وخاصة الصناعة التي تمدها بالمعدات والموارد، وشبكات التجارة التي تتكفل بتسويق المنتوج الفلاحي.

– في بلدان الجنوب المتوسطي : في شمال افريقيا مازالت افريقيا الرقعة الزراعية تمتد كما يعرف الري التوسع والتقدم التقني، وهذا يعني ازدواجية القطاع الفلاحي الذي يضم إلى جانب المجالات المزروعة شديدة التطور إلى حد احتسابها لمظاهر صناعية – وجود قطاع

منالفلاحة الهامشية التي تخص الأراضي الرديئة والمتدهورة. وقد صارت بعض جهات المغرب العربي وخاصة الجبال تسجل

(7402/1)

بوادر ظاهرة التخلي البشري عن طريق الهجرة. أما في عموم الأراضي الفلاحية فإن الخصاص في المكننة والتطوير التقني يساهم في تفسير التغايرات السنوية التي تطرأ على المردود.

ولذا فإن بلدان الجنوب المتوسطي توجد الآن أمام تحديات عدة تخص القطاع الفلاحي وتتجلى في ضرورة الانفتاح على السوق الخارجية في إطار من العولمة دون التخلي عن سياسة التدبير المستديم للمواد.

ويمكن أن نوجز النتائج البيئية للتطورات الطاعية المرتقبة في بلدان شمال افريقيا فيما يلي :

(7403/1)

– الرقعة الزراعية وصلت في هذه البلدان إلى حدود امتدادها المعقولة. وتوضح الدراسات بأن التوسعات

التي تقع في المناطق الهامشة على حساب المراعي والتي تتطلب اجتثاث الغطاء النباتي الطبيعي، كلها تؤدي إلى ارتفاع خطورة آليات السيل والتذرية الريحية، وبالتالي إلى ظهور بوادر للتصحر.

- يظهر كذلك بأن السقي يقترب من حدوده القصوى ارتباطا بمحدودية الثروات، وبالتالي لم يبق ينتظر سوى ما سينتج عن مجهود التكثيف الزراعي. هذه المحدودية تعني بروز تنافس حول الماء فيما بين الاستعمالات المتعددة (الري - الماء الشروب -

(7404/1)

الصناعة - السياحة ...). كما أن تمليح الأراضي يمثل ظاهرة تهدد المجالات المسقة، وخاصة منها تلك التي تتلقى مقادير مفرطة من مياه الري.

أما تهديد التوحل الذي يكون أخطر ظاهرة تصيب الموارد المائية السطحية، والتي تتجلى في تناقض حقينات السدود على إثر تراكم الأوحال بسبب ارتفاع منسوب الانحراف في أعالي أحواض التصريف، فإنها قد تتسبب في تهديد أحد الاختيارات الأساسية التي تقوم عليه الفلاحة في هذه البلدان وخاصة منها المغرب الأقصى والذي يتمثل في توجيه جل المجهود للقطاع السقوي.

(7405/1)

– أصبح نظام التبادل في بلدان الجنوب يرتكز على ظاهرة استيراد المواد الغذائية الأساسية التي تصل إلى شمال افريقيا بأثمان السوق الدولية وتصدير الفواكه والخضر وهذا يعني القضاء على الزراعة التقليدية للمواد الغذائية الأساسية التي لن تتمكن من مجابهة منافسة المواد المستوردة وبالتالي ستعرف مزيدا من التهميش ومزيدا من الهجرة القروية، وفي وقت تعرف فيه المدن التضخم والتوسع. أما تصدير الفواكه والخضر فهو كثيرا ما يعني في المناطق التي تشكو من الخصاص المائي تسويقا للماء الذي يتطلب توفيره مجهودات ضخمة ومصاريف

(7406/1)

عالية.

– من أجل الحصول على تكثيف فلاحي لابد من إدماج الزراعة داخل نظام فلاحي صناعي متكامل وهذا يطرح مشكلين بيئيين :

أولهما أن استعمال المزيد من المخصبات والمواد الكيماوية يتسبب في مشاكل عظمى. التلوث يصيب في نفس الوقت مياه الفرشات الباطنية ومياه حقينات يمنع استعمال بعضها في حالة بلوغ مرحلة تهديد الصحة البشرية. ثانيهما أن المكننة المتفوقة والتي كانت الأساس في الثورة الزراعية في أوربا غالبا مالا تتكيف مع ظروف وطبيعة بيئة بلدان الجنوب وخاصة مع أتربتها الهشة.

(7407/1)

– يعرف القطاع العصري تطورا واضحا يتمثل في تكثيف أساليبه وارتفاع مردوده، ويتمثل هذا خصوصا في ارتفاع نسبة التدخين على حساب الرعي المتنقل. وفي هذا ولا شك آفاق لانخفاض الضغط على المراعي الطبيعية وخاصة منها مراعي المناطق الجافة. كما أن انتاج وتنويع الغذاء الحيواني من شأنه أن يعوض الخصاص الملحوظ في إنتاجية المراعي الطبيعية إلا أن التطور الذي تعرفه أساليب رعي الدواجن والتي ولا شك، قد كانت السبب في الاستجابة للطلبات المتزايدة للمواد البروتينية، يخلق في نفس الوقت مظاهر تلوث خطيرة بسبب تراكم أزبال هذه

(7408/1)

المصانع الحيوانية.

لكل هذه الأسباب كان من اللازم أن نحاول القيام بمقارنة بين أفقين ممكنين للتطور الزراعي : أفق الانفتاح المفرط على السوق الخارجية دون مراعاة التدبير المستديم للموارد، وأفق ثان أكثر حكمة يراعي هدف التنمية الذاتية ويحاول ضمان تجدد الموارد واحترام التوازنات الطبيعية.

1- اختيار الانفتاح على أوربا :

هذا الاختيار حتمي ولا يمكن التكشيك فيه، ولكنه كما يمكن أن يتخذ صبغة العقلانية بغية الوصول إلى مصلحة مشتركة، فإنه يمكن أن يؤول تأويلا سالبا. وذلك في حالة اختيار الانفتاح الكامل والمفرط دون

(7409/1)

مراعاة إشكالية استمرارية ودوام الموارد المحلية، سوف نقدم آثارها هذا الاختيار المفرط المستبعد على القطاع الفلاحي في بلدان شمال إفريقيا.

لا شك أن هذا الاختيار سوف يؤدي إلى تنمية القطاع الفلاحي وذلك لأنه سيفتح إمكانيتين أساسيتين :

– سهولة استقدام العناصر المساعدة للإنتاج والمتمثلة في الآليات والموارد الكيماوية المختلفة وذلك بأثمان منخفضة بعدما تكون واجبات الجمارك قد ألغيت.

– سهولة بيع المنتوج المغاربي في أوربا بعد أن تكون الاتفاقيات التجارية قد دخلت إلى حيز التنفيذ، خاصة وأن تكلفة إنتاج هذه

(7410/1)

المواد ستكون قد عرفت انخفاضا محسوسا، الشيء الذي سيسهل تسويقها في الخارج.

من جهة أخرى سيمكن هذا الاختيار من تحويل جل الموارد البشرية والمالية في اتجاه القطاعات الفلاحية المنتجة لمواد التصدير الأكثر مردودية، وهذا سيجعل هذه القطاعات تعرف زيادة في الإنتاجية بعدما تخصص لها أجود الأراضي وأحسن الظروف الطبيعية.

كما أن تصدير المنتوجات الفلاحية المغاربية إلى أوربا والذي سيخضع لمجموعة من الشروط مثل الجودة وعدم الإراط في استعمال المبيدات والمواد الكيماوية المختلفة ذات الآثار السلبية على الصحة البشرية، سوف

(7411/1)

يلزم المنتجين بتبني طرق زراعية أقل خطورة على سلامة الوسط البيئي.

إلا أن هذا الاختيار ستكون له مجموعة من النتائج السلبية :

+ ستعرف المداخيل الضريبية، ومداخيل الجمارك انخفاضا محسوسا، وفي هذا تقليص ضمني لإمكانيات الاستثمار الفلاحي وهكذا سينجد القطاعات الهامشية في البوادي مثل أراضي البور ضعيفة الإنتاج، والأراضي الغابوية ومراعي المناطق الجافة، تفتقر إلى تلك المساعدات التي كانت تقدمها الدولة من أجل الحفاظ عليها ومن أجل تنميتها. وهكذا وفي وقت نجد فيه قطاعات التصدير تنمو وتتقدم، سنجد هذه القطاعات

(7412/1)

الهامشية تتأزم فيهجرها السكان وتعرف ظاهرة التصحر البشري.

+ تنمية القطاعات المربحة لن تمنع من ظهور تنافس حاد بين المنتجين سيأتي بالتدريج على المنتجين

الصغار ويضعف إنتاجهم.

وهكذا سيحصل بالفعل هذا التنافس تهميش للمناطق الهشة وضعيفة الإنتاج، كما سيحدث تفقيرا متزايدا لصغار الفلاحين. من الناحية البيئية يمكن تصور أن يكون لكل هذا بعض النتائج الإيجابية مثل التخفيف من الوطأة البشرية على الأراضي والموارد الهشة (المراعي – الغابات – أتربة فقيرة إلخ ...) إلا ان هجرة السكان وما قد ينتج عنها من تخل عن منشآت

(7413/1)

وتجهيزات غايتها تدبير الماء والتربة، وتلعب محليا دور الوقاية، كل هذا قد يؤدي في بعض المواقع إلى تفاقم الوضع البيئي وإلى تدهورات غير منتظرة.

2– اختيار الانفتاح مع مراعاة ضرورة التنمية المستديمة :

في هذا الإختيار سوف تعطى الأسبقية لتنمية الموارد الوطنية بهدف بلوغ الإكتفاء الذاتي، مع سن سياسة توجيه من طرف الدولة، وهذا يعني البحث عن تزويد منتظم للسوق الداخلي بالمواد الأساسية للاستهلاك ويعني كذلك أن التصدير لن يكون إلا ثانويا، كما لن

يتم طلب تدخل البلدان الأجنبية إلا من أجل البحث عن الخبرة الخاصة

(7414/1)

في ميادين محدودة أو بحثا عن تمويل يهدف إلى تنشيط الإستثمار.

يقوم هذا الاختيار كذلك على تشجيع التكامل بين قطاعات فلاحية مختلفة دون التخلي عن أي منهما. وهكذا سوف يتم تعميم تقنيات الفلاحة العصرية بشكل تدريجي، وفي نفس الوقت سوف يتم تحديث عدد من التقنيات التقليدية المتكيفة مع البيئة المحلية، بحثا عن تخفيف الكلفة عن القطاع الزراعي. أما اختيار تنمية المواد الغذائية الأساسية (قمح – قطاني – مواد علفية – زيوت – سكر ...) فإنه سوف يؤدي إلى الحد من الاستيراد مع تشجيع الصناعات المحلية الغذائية والتي سوف

(7415/1)

تستعمل تقنيات عصرية محلية ومتكيفة. وبإعطاء كل الهمية لمختلف القطاعات سوف يحدث مجهود من أجل استثمار المنتوجات المحلية بهدف تهيئة إقليمية متزنة، ولا شك أن هذا سيثبت للمزارعين رغبة الدولة والمسؤولين في الرفع من مستواهم الاقتصادي،وبالتالي سوف يحثهم على المساهمة الفعالة في البرامج افنمائية وعلى الاستمرار في رعاية التجهيزات التي تقيمها الدولة، والمنشآت الخاصة، وهكذا فإن الحس البيئي، سستنمى لدى المزارعين لأنه سوف ينتج عن إرادة عميقة في استمرارية النشاط الفلاحي، واستدامة الموارد، وهذا يعني اقتصادا في

(7416/1)

استعمال المخصبات والمبيدات واقتصادا في المجال والماء.

2– الصناعة وآثارها البيئية :

قطاع الصناعة محوري في الاقتصاد العصري لبلدان البحر المتوسط فالصناعة صارت تنتج مواد متنوعة، وتساهم بقسط وافر في المنتوج الوطني الخام وتستقبل استثمارات هائلة، ويواكبها مجهود ضخم في البحث

التكنولوجي. وأحسن مثال على التطور الصناعي السريع، مثال اسبانيا التي عرفت تطورات عميقة في بعض عقود جعلتها تمر من وضعية الدولة المتخلفة إلى وضعية دولة عرفت نموا مطردا.

(7417/1)

أما فيما يخص علاقات الصناعة والبيئة، فيمكن القول بأن الصناعة هي القطاع الذي ينتج أكبر كمية من الملوثات وعلى مستويات عدة (تلويث الغلاف الجوي، والمياه القارية، ومياه البحر ...).

ولذا قامت كثير من الدول بالبحث عن مناهج صناعية تسمح بتصور استمرارية الموارد مع تقليص مقدار التلويث. وتخص هذه الأبحاث التكنولوجية ميدان الطاقة (اقتصاد في الطاقة – بحث عن موارد طاقة أقل إضرارا بالجو) وبإعادة استعمال النفايات قصد تقليص تراكمها بل الاستفادة منها. ويتضح بأن هذه الأبحاث تمثل هدفا حيويا لما تمثله الغازات

(7418/1)

والنفايات من أضرار على التوازن المناخي للكرة الأرضية، ولما ينتج عنها من آثار سلبية على صحة السكان وخاصة في التجمعات الحضرية، تلك النتائج التي تقدر تكلفتها الاقتصادية بأموال طائلة. إلا أنه مازال يلاحظ تفاوت واضح ما بين شمال وجنوب البحر المتوسط، ذلك أن فرنسا وإيطاليا واسبانيا تمثل لوحدها ما يساوي 85٪ من المنتوج الصناعي للحوض المتوسطي، بينما منتوج الجنوب مازال في مستوى متأخر.

وإذا قمنا بمقارنة ما بين نزعة التطور الصناعي وآثاره في الشمال والجنوب فإننا نلاحظ التالي :

(7419/1)

1– في الشمال : يعرف قطاع الصناعة المعهودة (قطاع الصناعة الثقيلة مثلا) تراجعا واضحا في عدد الوحدات واليد العاملة التي تشتغل بها الشيء الذي يتسبب في تضاؤل التلويث الناجم عنها.

على عكس ذلك تنمو بسرعة، قطاعات صناعية حديثة تتميز بالتكنولوجية

العالية والدقيقة وهي صناعات ضعيفة التلويث في الظروف العادية لأنها محاطة بوقاية

كبيرة. وكمثال عليها إنتاج الطاقة النووية. إلا أن

الأخطار الناجمة عن حوادث غير منتظرة تهدد البيئة وصحة السكان، بكارثة حقيقية قد تكون لها عواقب على الأمد الطويل.

(7420/1)

وتنمو كذلك في الوقت الراهن، الصناعات القائمة على التكنولوجيات الحيوية، ولها دور أساسي في تقليص التلوث، بل تساهم هذه الصناعات في تصفية الأوساط المختلفة والمائية خاصة.

إلا أنه على المستوى المجالي مازالت تعرف الصناعة الأوروبية نزعة نحو التركز خاصة على خط الساحل وذلك لارتباطها بالتسويق الخارجي. وفي هذا التركز آثار سلبية على البيئة من جهة بسبب تنافس الصناعة مع أنشطة أخرى مثل التمدن والسياحة، وثانيا بسبب تركز النفايات الصناعية في هذا المجال الحيوي.

(7421/1)

2- في دول الجنوب : تعرف الصناعة في شمال افريقيا تطورا كذلك، وذلك بسبب النمو السريع الذي يعرفه

السوق الداخلي لهذه البلدان وكذلك بسبب ضعف تكلفة الإنتاج وبالتالي سهولة إمكانية التصدير.

إلا أن عدة عوائق داخلية وخارجية تقف في وجه التصنع، أولها اشتداد المنافسة الأجنبية، وثانيا جمود مستوى الدخل وبالتالي جمود الاستهلاك الوطني، ولذا وبسبب تفاقم هذه العوائق يمكن اعتبار أن التكلفة الإكولوجية الرامية إلى تقليص التلوث والنفايات تمثل عائقا يصعب تجاوزه.

(7422/1)

فاستعمال التكنولوجية المتقدمة مثلا رهين بأن يحد من التهديد البيئي الذي يمثله التلوث، إلا أن نفقات هذه التكنولوجية باهضة وقابلة بأن تجعل تكلفة المنتوج عالية بالمقارنة مع مستوى عيش السكان. كما يطرح بإلحاح مشكل التمكن من هذه التكنولوجيات في بلدان تستوردها ومازالت لم تتمكن من إنتاجها.

على المستوى المجالي يلاحظ تركز الصناعات في المنطقة الساحلية مثلها يقع في

بلدان الشمال. الشيء الذي تحد من النفايات. ولذا فإن التعاون شمال – جنوب

يمكنه أن يمثل حظا بالنسبة لبلدان الجنوب، لما قد يحتمه من معايير الجودة

(7423/1)

تخص في نفس الوقت المنتوج وموقع الإنتاج. وهذا التعاون يجب أن يوجه نحو مساعدة دول الجنوب من أجل الوصول إلى تنمية صناعية مستديمة وذلك عن طريق المزيد من المساعدات المالية والتكنولوجية.

الصناعة المغربية ووضعها البيئي : منذ سنين اقترحت وزارة الصناعة بالمغرب أن تسن سياسة للتصنيع، تسعى إلى التنمية في إطار إيكولوجي مستديم. وهذا يعني تنمية الأدوات والوسائل من أجل نماء معقول المقدار، دون ان تكون له نتائج وخيمة على البيئة. وللوصول إلى هذه الغاية تقترح وزارة الصناعة استغلال الموارد الفعالة والمنتجة والأقل

(7424/1)

تلويثا.

تنبني الصناعة المغربية أولا على اللبرالية والتفتح

على الخارج، إلا أن الانفتاح المفرط قد تكون له بعض النتائج السلبية :

فهو يعني أولا أن كل الموارد قابلة للتنافسية مع الموارد الأجنبية، ستصبح محكوما عليها بتوقف التشغيل والاستعمال، وذلك بهدف تركيز النماء على القطاعات المصدرة، بينما القطاعات المنتجة للسوق الداخلية لن تعرف نفس التطور.

والقطاع الخاص هو المحرك الأساسي لهذا النجاح. وهذا يعني تنافسية داخلية قد يذهب بعض الصناع ضحيتها. في حين تتضمن هذه التنافسية عدة جوانب إيجابية منها التسارع من

(7425/1)

أجل الرفع من المردود، ولزوم إعادة تشكيل الجهاز الصناعي.

من الجوانب السالبة للتصنيع في غطار الانفتاح المفرط كذلك تركز النشاط الصناعي كله في المحور الشمالي الغربي للبلاد في وقت تعرف فيه المناطق الأخرى تأزما لقطاعاتها الصناعية. ويستدعي هذا التركيز في المنطقة الشمالية الغربية، عصرنة الموانئ والمطارات الموجودة فيها، وتحسين التجهيز الأساسي والتجهيزات

المساعدة مثل تحضير المناطق الصناعية وطرق
المواصلات السلكية واللاسلكية من هاتف وأنترنيت.

(7426/1)

أما اختيار التصنيع الذي يراعي البيئة، وينبني على
الموارد الوطنية، والهادف إلى
التنمية مستديمة فإن إيجابيته أكثر من سلبياته.
فهو يدعو إلى استعمال أفضل
للموارد الوطنية، وإلى استثمار الثروات المحلية. وهو
يدعو كذلك إلى التوازن بين مختلف
القطاعات حيث يسمح بتنمية قطاع عصري فائق التقدم
يتعايش إلى جانبه قطاع
آخر يستجيب لحاجيات السكان، ينبني على عصرنة
الحرف التقليدية، وعلى عقلنة جهاز التصنيع باستعمال
تكنولوجيات متكيفة.

(7427/1)

يدعو هذا الإختيار كذلك إلى استمرار الدور الذي تلعبه
السلطات العمومية على مستوى سن سياسة للتهيئة

المجالية، وعلى مستوى التنمية المحلية، وأخيرا على مستوى تشجيع القطاعات الصناعية المتأزمة. وهكذا نحصل على توازن مجالي بين مختلف مناطق الوطن.

وتعرف المناطق الداخلية والجنوبية تجهيزات لا تقل عن تلك التي تتلقاها أقاليم الشمال الغربي، في وقت يتم فيه الحد من التلويث الذي قد ينجم عن التركز المفرط

3– قطاع الطاقة :

(7428/1)

تشير المقارنة بين بلدان الشمال المتوسطي والجنوب إلى اختلافات هامة على مستوى هذا القطاع الحيوي للاقتصاد. ففي الشمال تستعمل موارد طاقة متنوعة، بينما يطغى البترول كمصدر أساسي للطاقة في الجنوب. والمنتظر من هذه الدول ان توسع استعمالها للطاقات المتجددة التي تزخر بها بيئتها كالطاقة الشمسية والريحية على الخصوص. ويصبح هذا الاختيار حتميا بالنسبة للبلدان غير منتجة للبترول. إلا أن عدم التمكن التكنولوجي لم يسمح إلى الآن بالحصول على هذا التطور النوعي الذي سوف يسمح بالحفاظ على البيئة.

(7429/1)

أما قطاع الطاقة النووية فهو يلعب دورا أساسيا في بلدان الشمال وهو يحظى بوقاية وتقنين جد حرصين مخافة حصول حوادث قد تكون لها آثار وخيمة. إلا أن احتمال وقوع هذه الأحداث يبقى واردا رغم كل هذه الاحتياطات.

وهذا ما يجعل إمكانية تطوير هذه الطاقة في بلدان الجنوب شيئا مستبعدا رغم الفوائد الكبرى التي يمكن ان تجني منها خاصة في ميدان غنتاج الماء الشروب ابتداء من تحلية مياه البحر. ضعف التمكن التكنولوجي والنقص في تدبير المؤسسات كل هذا يرفع من احتمال تلك الحوادث الخطيرة.

(7430/1)

أما على مستوى الاستهلاك فإننا نلاحظ أن بلدان الشمال صارت تعرف نزعة

نحو استقرار الاستهلاك بسبب توقف نموها الديمغرافي وتوسعها الحضاري، وكذلك

بسبب انطلاق سياسة تسعى إلى تحسين مردود الطاقة وإلى الاقتصاد في استعمالها.

أما دول الجنوب فهي تعرف العكس بسبب التوسع المفرط لمدنها والحاجة الملحة للتجهيز بالكهرباء وكذا بسبب الخلل الحاصل في تدبير الاستهلاك

وفيما يخص النتائج البيئية لقطاع الطاقة فعدم التوازن واضح بين بلدان الشمال والجنوب. فبلدان الشمال تساهم بقسط وافر في تلويث الغلاف الجوي المسؤول عن التغيير

(7431/1)

المناخي، بينما مساهمة دول الجنوب محدودة جدا.

والاتفاقيات الدولية الخاصة بالتغير المناخي لها هدف أساسي هو الحصول على استقرار في مقدار الإرسالات الغازية وذلك بسن قوانين تحث على ذلك وتلزم المصنعين على استعمال تكنولوجيات تقلل منها. كما أنه يتم تشجيع البحث العلمي القادر وحده على اختراع تقنيات وأساليب للحصول على هذه النتيجة. وما دامت مسؤولية بلدان الشمال تفوق بكثير مسؤولية دول الجنوب فيما يحصل من تغيرات مناخية ذات العواقب المختلفة فإن دول الجنوب اعتبرت التوقيع على هذه المعاهدات الدولية حظا بالنسبة

(7432/1)

لها وذلك من اجل حصولها على مساعدات مادية وتكنولوجية تجعل مساهمتها في الإرسال الغازي تبقى متواضعة. وتحويل الإمكانات المادية هو من قبيل جعل دول الجنوب تسعى إلى سن طرق صناعية تتحاشى إطلاق الغازات المفرطة والاقتصاد في استعمال الطاقة.

ويبقى العالم القروي في دول الجنوب يشكو من ضعف تزويده بموارد الطاقة العصرية. وهذا ما يفسر استمرار الاستهلاك المفرط للخشب والفحم الخشبي كموارد أساسية للطاقة في البوادي. وهو ما يتسبب في ضغط مفرط على التشكيلات الغابوية ويفسر تدهورها. لذا يمكن القول أن البديل للوضع الراهن

(7433/1)

في دول الجنوب يكمن في تشجيع استعمال الطاقات المتجددة وخاصة منها الطاقة الشمسية التي تتكيف مع السكن المتفرق في الأرياف.

4– قطاع النقل :

يمثل قطاع النقل أساس انفتاح الاقتصاد حيث يربط

بين المناطق القريبة والنائية

وهو قطاع يترك آثاره واضحة في المجال بشكل دائم

ويوجه تهيئة التارب. تقنيات

هذا القطاع مازالت من إنتاج بلدان الشمال، وبالتالي

مازالت دول الجنوب

تستوردها الشيء الذي يمثل بالنسبة لها كلفة

مرتفعة. لكن الوضع الاجتماعي يحتم استعمال هذه

الوسائل العصرية وذلك نظرا لشيوع حق الفرد في

التحرك والنقل في

(7434/1)

ظروف من السهولة النسبية.

وللنقل آثار بيئية متعددة. أولها الضجيج الذي تنتجه

الطرق والمطارات وخطوط السكة الحديدية.

ثانيها الاستهلاك المهم للطاقة وبالتالي إطلاق غازات

مسؤولة عن التسخين الذي يعرفه الغلاف الجوي، وكذلك

عن التلويث المفرط للتجمعات الحضرية الذي يسبب في

أضرار ومشاكل صحية. كما أن وسائل النقل مسؤولة

كذلك عن استهلاك متزايد للمجال كاتساع الطرق

وخاصة منها السيارة. وفي هذا يدخل النقل في تنافس

مع انشطة أخرى منتجة مثل النشاط الزراعي. كما يحدث

انقطاعات مجالية قد تتسبب في فصل مجموعات بشرية بعضها

(7435/1)

عن بعض. إلا أن أهم أخطار ناجمة عن النقل هي تلك التي تحدث خلال نقل مواد خطيرة أو سامة وما يرافقها من كوارث غير منتظرة كمثلا التلوث البترولي للبحار من جراء غرق السفن الناقلة لهذه المادة.

ويمكننا أن نقارن بين أفقي الانفتاح على أوربا والتنيمة المستديمة وما ينتج عن كل منهما من آثار على البيئة.

اختيار الانفتاح على الخارج لم يكسب قطاع النقل تطورات هامة جدا على الأقل في مرحلة أولى تدوم حوالي 10 إلى 15 سنة وذلك لما يستطلبه من إعادة هيكلة تستهلك الكثير من الموارد فقطاع الطرق وحده سينمو وخاصة الطرق الكبرى

(7436/1)

المنفتحة على أوربا أي المحور شمال. جنوب الأطلنتي. أما السكك الحديدية فستعرف في هذا التوجه تطورا محدودا جدا وخاصة في المناطق الداخلية والجنوبية من المغرب. والسبب في هذا التطور المتناقض يكمن في أهمية الشاحنات الكبرى القادمة من اوربا من أجل استيراد وتصدير المواد وتتطلب هذه الحركة التجارية على الطرقات تحسين الربط بين مختلف ضفتي المضيق أو إنشاء ربط قار عليه.

وأخيرا ستعرف وسائل النقل الجوية الخارجية تطورا مهما، بينما تعرف الاتصالات الداخلية نوعا من الجمود.

(7437/1)

خلاصة القول إن هذا الاختيار سينجم عنه تفاوتات إقليمية من جهة، وبين قطاعات النقل المختلفة من جهة أخرى.

اختيار التنمية المستديمة :

إن البحث عن تنمية تنبني على الموارد الذاتية قد ينتج عنه ركود في وتيرة نمو قطاع النقل، خاصة الخارجي منه.

فقطاع النقل على الطرقات سيتوقف نموه على تطوير الاتصالات الداخلية المحلية من طرق ثلاثية وممرات غير

معبدة. تسمح بتعميم الربط بين القوى والجهات النائية.

وسيعرف قطاع النقل الحضري العمومي تحسينا وتنويعا سوف يحد من استعمال السيارات الخاصة وبالتالي يقلل من إطلاق الغازات

(7438/1)

الملوثة.

أما السكك الحديدية فستعرف تطويرات هامة على مستوى نقل المسافرين والبضاعات وذلك لما سيستقبله من تشجيعات تهدف إلى الاقتصاد في المساحة والاقتصاد في الطاقة، خدمة للبيئة. ومن القطاعات التي ستنمو خطوط السكة الحديدية الحضرية، (خطوط المترو) وخطوط جديدة للبضائع الداخلية والمجالات الهامشية، وتحسين لوتيرة الربط ما بين المدن الكبرى مثلا ما بين مراكش وفاس وطنجة. وأخيرا تحسين للخدمات المقدمة.

أما قطاع النقل الجوي فسيتسم بالموازنة بين تشجيع النقل الداخلي الذي يتطلب مطارات صغيرة في المدن الوسطى وتطوير

(7439/1)

النقل الخارجي. خلاصة القول إن هذا الاختيار سوف يؤدي إلى توازن في التهيئة المجالية وإلى تشجيع متساوي لمختلف قطاعات النقل.

خاتمة :

تنتج بلدان الشمال المتوسطي ملوثات بمقادير عالية لها تأثير شمولي على

النظام الأرضي، بينما استطاعت على المستوى المحلي التحكم في البيئة فأنتجت محيط

عيش سليم من مظاهره المجهودات الكبيرة من اجل تصفية الجو، وجمع النفايات

وتحسين إطار العيش. هذا لا يمنع من وجود العديد من المعطيات المجهولة أو الخفية والتي هي من نتاج الأضرار البيئية مثلا الأمراض الخطيرة التي ينسبب فيها التلوث

(7440/1)

وبعض مظاهر النماء غير محكم.

أما دول الجنوب المتوسطي فإنتاجها محدود جدا على المستوى الشمولي ولا تأثير لها في الوقت الراهن على الأنظمة الكبرى، بينما محيط العيش على المستوى

المحلي يتميز بالتلوث وعدم الصلاحية وبخلاف بلدان الشمال، هذا التلوث واضح للعيان محسوس بصفة مباشرة وله آثار آنية مثل أمراض المياه، وهي أضرار وقع التغلب عليها منذ القديم في أوربا.

وأفق انفتاح بلدان الجنوب لا يعني أبدا التوجه نحو نظام عيش موحد. فمجتمع بلدان الجنوب يجب أن يشجع اسمررية طرق تدبير المجال وأساليب العيش التي تحمل شحنة

(7441/1)

ثقافية وظاهرة التنوع، لأن هذه الأساليب تضم تقنيات وقاية وتهيئة متكيفة مع موارد المجال. تلك النوارد التي يحسن الإنسان بالانتماء إليها وبتملكها، والحفاظ على هذا التنوع سوف ينتج عنه اسمرار لحياة البوادي وللمناطق الهامشية حاليا، وسوف يحد من أخطار التراكم البشري في المدن المفقرة والملوثة.

تدبير البيئة لا يمكن ان يكون محكما في إطار السياسة اللبرالية المطلقة، وبدون تدخلات مهمة للدولة والجماعات المحلية عن طريق التشجيعات التي يمكن ان تقدمها للقطاعات المهمشة وعن طريق الاستثمار العمومي، مثلا للوقاية ضد

(7442/1)

الفقر والاحتياج، ومن أجل تنمية اجتماعية حقيقية، عن طريق سن قوانين متكيفة، وأخيرا عن طريق التعليم والتحسيس والتوعية وستسعى إلى تعميم أساليب إنتاج واستهلاك معقولة.

وفي دول الجنوب المتوسطي ذات الوسائل المادية المحدودة تعني التنمية المستديمة :

– أولا إعطاء الأولوية للوصفات البدائل التي تقترح حلولا ضعيفة التكلفة على حساب المشاريع ثقيلة التمويل وفي هذا الإطار تدخل عملية بحث وتطوير التقنيات والتقليدية لتدبير المجال القروي.

(7443/1)

– ثانيا إعطاء الأولوية للمورد البشري كعنصر محرك في عملية استنباط الوسائل على حساب التكنولوجية المستوردة غير المتحكم فيها.

أما التعاون شمال – جنوب فهو رهين بضمان نتائج إيجابية، ذلك لأن بلدان الجنوب المتوسطي وبدون المساعدات المادية الإضافية تبقى غير قادرة على وضع

البيئة في المرتبة الأولى من بين اهتماماتها. كما انها بدون مساعدة تكنولوجية ومساعدة على نقل التحكم فيها، تبقى البيئة مهملة وبالتالي ستتقلص آفاق الشراكة المبنية على تبادل المنتوجات وخاصة منها الغذائية بين ضفتي البحر المتوسط

(7444/1)

بيت المقدس بين الفاطميين والسلاجقة

... ... الدكتور عبد المنعم ماجد
... ... كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ـ القاهرة

... لا شك في أن من أسباب ... تحرك الفاطميين من المغرب إلى مصر هو استنقاذ بيت المقدس من تطلعات بيزنطة، أو ما سماه العرب بالروم؛ لأنهم وإن كانوا يونان في الأصل، فإنهم اعتبروا ورثة الرومان في الشرق.
وبيزنطة دولة نصرانية أصابها الضعف بعد أن نفاها العرب في أيام الخلفاء الراشدين والأمويين إلى أقصى بلادها في آسيا الصغرى وسيطروا على ممتلكاتها، وكادت تمحى من الوجود تماماً على

أيديهم ثلاث مرات على الأقل. ولكن الروم قويت لما حكمتها الأسرة المقدونية النشيطة، وبضعف العباسيين المجاورين لهم(1)

(1) ... لدينا نص مكتوب بالعربية يعرب بـ "القصيدة الأرمينية"، لأنه على شكل قصيدة، أو ربما كان كاتبه أرمنياً يعرف العربية، موجه من أمبراطور الروم نقفور فوقاس إلى الخليفة العباسي المطيع، يأمر فيه الخليفة بالرجوع إلى الحجاز وأرض صنعاء، وإخلاء البلاد التي استولى عليها من الروم (ابن كثير، البداية والنهاية"، ج 11، صص. 224 ـ 247). ومن ناحية أخرى، رد ابن حزم الأندلسي (ت. 456 هـ/ 1064 م) على هذه القصيدة بقصيدة إسلامية، عُرفت باسم "الفريدة الإسلامية"، بين فيها مثابرة المسلمين أمام الروم (المصدر نفسه، ص. 247).

والذين حكموا المسلمين بعد الأمويين. فشرعت الروم تغزو بلاد الشام بدءاً من حكم نقفور فوقاس (Nicephorus Phocas) (963 ـ 969 م/ 352 ـ 359 هـ) الذي سماه العرب نقفور الفقاس والذي غزاها غزوات متتالية من 352 هـ/ 962 م(1)، واقترب في إحداها من بيت المقدس. فقد اعتبرت الروم المسيح إمبراطورها(2) (Christos Basilieus) وأنها حامية للمسيحية في الشرق، وكانت قد أقامت على

---

(1) ... ابن الشحنة، الدر المنتخب في ترسيخ مملكة حلب، دمشق، ص. 32.

(2) ... انظر: Vie, grandeurs et misères de Baysance, Paris, 1954, p. 3 sq.

"قبره" في القدس كنيسة القيامة المبجلة، مزار النصارى، والتي بناها الأسقف ماكسيموس (Maximus) (1) بأمر من قسطنطيس (Constantinus)، الأكبر، أول إمبراطور لدولة الروم.

... فعلى حسب قول المؤرخ المصري ابن تغري بردي(2)، فإن من أسباب مجيء الفاطميين إلى الشرق هو استيلاء

الروم على الشام. وكان المعزّ لدين الله (341 ـ 365 هـ/ 952 ـ 975 م)، أول خليفة فاطمي لمصر، لما جاء إلى الأسكندرية كان يلمح مع جماعة من

---

(1) ... وليام (وليم) الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة حبشي، ج 1، ص 70

(2) ... النجوم، 4، ص. 72، س. 7.

(7448/1)

سكان الفسطاط أتت لاستقباله عن الحرب المقدسة، وأنه لم يسر لازدياد في مُلك ولا رجال، وإنما سار للجهاد ضد الروم؛ فقد اعتبر الفاطميون مبدأ الجهاد، الذي يراه أهل السنة ضرورة، دعامة من دعائم الإسلام، وركناً من أركانه(1).

... وما أن أسس الفاطميون خلافتهم في مصر، وكانت أعظم دولة إسلامية في وقتها تستند إلى أيديولوجية مذهبية تختلف عن مذهب العباسيين (فهم شيعة، والعباسيون سنة) وإلى قوة عسكرية ضاربة، وإلى اقتصاد متين، حتى قاتلوا الروم

---

(1) ... النعمان، دعائم الإسلام، تحقيق فيضي، القاهرة، 1951، 1، ص. 399.

(7449/1)

بشدة في الشام، ومارسوا عليهم حرب الثغور بحماس شديد لم يحدث مثله منذ فترة طويلة. وقد لجأوا إلى وسائل متعددة في حربهم مع الروم، وكان أغلبها بالمجابهة بسبب تكرار غزو الروم للشام في عهدي تزيمسكس (Tzimiskes) الذي سماه العرب ابن الشميشقيق في 363 هـ/ 973 م، وباسيل الثاني (Basilios) الذي سماه العرب عظيم الروم، واشتهر بقاتل البُلغار (Bulgaroktnos)، والذي دخل الشام بمساعدة أسطول كبير في 375 هـ/ 985 م.

... فظهر لأول مرة في مصر التجنيد الإجباري (La levée en masse)، وهو ما سمي بالنفير أو النفير العام(1)

---

(1) ... النجوم، 4، ص. 121، ص. 5.

(7450/1)

في المصريين "الناس"، فيأتي المصريون من أسوان إلى الإسكندرية، فيجمع منهم أعداد هائلة، ويكون ذلك بالمناداة بالسجلات أو الكتب(1) في مصر وسائر بلاد الشام إلى صد العدو والسير نحو ملك الروم؛ فاجتمع منهم بدمشق ما لم يجمع من قبل من العسكر. ولكن في بعض الأحايين لجأ الفاطميون إلى السلام مع الروم(2). فعقدت أول هدنة في عهد الحاكم بأمر الله لمدة عشر سنوات في 391 هـ/ 1001 م، تلتها هدنات أخرى في عهدي الظاهر

---

(1) ... يحيى الأنطاكي، تاريخ، تحقيق شيخو، ص. 254 وما بعدها، ص. 268.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 184.

والمستنصر.

... ولما أراد الروم نقض الهدنة، أمر الحاكم بهدم كنيسة القيامة المقدسة في 400 هـ/ 1009 م، حتى لا تُتخذ حجة من جديد يتحرك الروم بسببها إلى بيت المقدس بقصد حمايته وحماية ذكرياته المسيحية الأخرى؛ إذ أصبحت أمنية الروم الأولى الوصول إليه. ولدينا

نص الأمر بذلك فقد أصدر الحاكم سجلاً(1) إلى واليه على القدس، كتبه أحد أقباط مصر جاء فيه: »أمر ال N مامة إليك بهدم

(1) ... المصدر نفسه (P.O)، صص. 491 ـ 492 (283 ـ 284)؛ الكامل، ج 7، ص. 240؛ انظر: عنان، الحاكم، ص. 69؛ ماجد، الحاكم، صص. 99 ـ 100.

(7452/1)

قمامة .تسمية عربية لكنيسة القيامة .فاجعل سماءها أرضاً وطولها عرضاً«؛ وعُرفت باسم القمامة، لأن الخشبة التي صُلب عليها المسيح في رأيهم ألقيت عليها القمامة(1). ويقول المؤرخ الأوربي وليام (وليم) الصوري (2) (Willemero Terensi) عن هدم هذه الكنيسة: إنه سوى البناء بالأرض. كذلك أوقف الحاكم في بيت المقدس الاحتفال بالأعياد النصرانية (3)، وأجبر الروم فيه

(1) ... ابن خلدون، المقدمة، ص. 282.

(2) ... وليم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة، 1، ص. 70.

(3) ... يحيى الأنطاكي (P.O)، المصدر نفسه، ص. 487 (279).

(7453/1)

على لبس علامات مميزة، بلبس ثياب سوداء، وتعليق الصليب وإبرازه. وفي الوقت ذاته، أرغم الحاكم جالية الروم في مصر على الخروج منها (1)، وكانت لهم حارة خاصة بهم في القاهرة(2). ولكن الروم تراجعت عن أطماعها، وجددت الهدنة، وأرسلت مهندسيها لإصلاح كنيسة القيامة، وعادت الزيارات التي توقفت إلى بيت المقدس. ويشيد وليام الصوري(3) بحسن مقابلة

---

(1) ... المصدر نفسه (P.O)، ص. 519 (311)؛ انظر: أسد رستم، الروم، 2، ص. 64

(2) ... الخطط، 3، ص. 12.

(3) ... وليم (وليام) الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة، 1، ص. 75.

(7454/1)

الفاطميين لزوار بيت المقدس، مثلما كانت الحال في أيام عمر بن الخطاب؛ فمن قبل صاهر العزيز بالله الفاطمي (360 ـ 386 هـ/ 970 ـ 996 م) بطريرك المقدس(1)، ولم يكن العزيز بالله متسامحاً مع النصارى وحدهم، ولكن مع اليهود؛ وكانوا يزورون المقدس أيضاً. ... ومن اليقين أن الفاطميين قدروا تماماً ضرورة وحدة مصر والشام لوقف خطر الروم على بيت المقدس، وبدأوا تجربتهم الرائدة والفريدة في توحيد القطرين، لتكوين جبهة واحدة منهما، وذلك على الرغم من دسائس أعداء

---

(1) ... يحيى الأنطاكي (P. O)، المصدر نفسه، ص. 415 (707).

(7455/1)

هذه الوحدة، ولا سيما من قبل العباسيين في العراق، الذين كانوا أقوى أعدائهم، حتى أنهم أخرجوهم من دين الإسلام، وأطلقوا عليهم "الرافضة"، أي أنهم رفضوه، وسموهم المجوس واليهود. وفي الواقع إن جميع خلفاء الفاطميين في مصر قاتلوا بشدة في سبيل الإبقاء على وحدة مصر والشام، والدليل على ذلك تمسك الفاطميين

بتوحيد عملة القطرين، وجعل ميزانيتهما واحدة، وتوحيد القضاء، وغيره من نظم الدولة. وأكثر من ذلك، نشر الفاطميون دعوتهم في الشام على نطاق واسع، وهي الدعوة التي لا تزال باقية فيه حتى الآن على الرغم من زوالها

(1/7456)

نهائياً من مصر. فقد كانت وحدة مصر والشام الأساس لما يجب أن يكون عليه الحال كلما دق أعداء الإسلام ناقوس الخطر.

... ومن المؤكد أن الفاطميين منذ أن ظهرت دولتهم في مصر كانوا ملتزمين بإحساس قويّ بقضايا العرب، الذين نشأت عندهم في وقتهم إحساسات قومية، نتيجة للتراكمات التاريخية، ولعيشهم في دار الإسلام في إطار حدودي محدد واحد. فقد اعتبر الفاطميون قضايا العرب رسالة لهم، ولم يحاولوا الهروب من أثقالها ونكساتها ونكباتها. فأدركوا أهمية وحدة مصر والشام وتطبيقها عملياً؛ مما كان سبباً في إبعاد خطر الروم عن بيت

(1/7457)

المقدس. يُضاف إلى ذلك أن ثورة التعريب التي حدثت بين المصريين في وقتهم جعلت مصر جزءاً لا يتجزأ من العالم العربي، بحيث أصبحت رأساً في سياسة وحدة العرب، وعليها مسؤولية الدفاع عن قضاياهم.

... ولكن حدثت متغيرات في العالم الإسلامي بظهور المارد السلجوقي التركي الأصل(1) والذي جاء من أعماق القارة الأسيوية، وهم أبناء عم الغُزّ، نزحوا من شمالي قزوين إلى جنوبي روسيا، وأنشأوا لهم دولة دائبة الحركة، واشتهروا بالاسم الفارسي "تركمان"، أي أنهم مسلمون بإيمان، مما

---

(1) ... ناصر خسرو، سفر نامه، ترجمة عربية، ص. 20.

(7458/1)

أوجد خطراً جديداً على وحدة مصر والشام، ولا سيما على بيت المقدس في فلسطين، حيث سعوا إلى السيطرة عليه، وهو البقعة المقدسة عند المسلمين جميعاً(1). لم تكن المقدس في يوم من الأيام مركزاً صناعياً ولا مركزاً حربياً على عكس حلب ودمشق،

---

(1) ... صدر الدين، أخبار الدولة السلجوقية، لاهور، 1933؛

عماد الدين محمد، تاريخ دولة آل سلجوق، مصر، 1318 **هـ/** 1900 **م، انظر:** Cahen Slju-, Le Malik et l'Histoire des Origines kuides des Oriens, p. 1949, OE, 2 31 sq.; Encyclopédie de l'Islam (art. « Seljukides », T 4, 216.

(1/7459)

بل كانت بقعة مقدسة، ترتبط أشد الارتباط بالإسلام، بسبب أن إبراهيم أقام فيها المسجد الأقصى، مثلما أقام المسجد الحرام أو الكعبة المشرفة في مكة، ليكون هو أيضاً مقراً لعبادة الله الواحد، أو ما عرف بدين الحنيفة أو الحنيفية السمحة التي جاء الإسلام ليحميها، وكان قبلة المسلمين قبل أن تُحول القبلة إلى الكعبة، وبسبب وجود الصخرة المقدسة، وهي حجر أزرق مسته أقدام إسماعيل بن إبراهيم، أبي العرب العدنانية، وكانت معراج نبي الإسلام. ولذلك اعتبر المسلمون بيت المقدس ثالث الحرمين بعد مكة والمدينة، وسمى بالقدس وإيلياء

(1/7460)

وأورشليم(1)؛ وكلها أسماء تعني القداسة، والطهارة، وبيت الله.

... فبسبب ظهور السلاجقة المسلمين، عادت المشاعر الإسلامية قوية، وأصبح الدين عندهم هو كل شيء، بينما لم يكن وحده عند الفاطميين، وإنما كان البشر أيضاً، متمثلاً في الإمام الفاطمي. لذلك انكمشت القوميات والعصبيات، ومنها القومية العربية؛ فلم يتعصب السلاجقة لجنسهم، على عكس الفاطميين الذين ركزوا على الهوية المصرية، بحيث

---

(1) ... توجد بالأردن مدينة قدس، وهي ليست من جند فلسطين. انظر: اليعقوبي، كتاب البلدان، بيروت، 1408 هـ/ 1988 م، صص. 88 ـ 89.

(7461/1)

اشتهر الخليفة الفاطمي بالخليفة المصري، ودولته بدولة المصريين. بل كان السلاجقة يرون أن الدين الإسلامي يجب أن يكون سنِّيّاً ـ وهو مذهب الخلافة العباسية ـ وأن يلتف حوله بصفته وسيلة تسير بها الشعوب الإسلامية جميعها في طريق واحد، خصوصاً وأنهم أظهروا لها احتراماً كبيراً. فعلى أيديهم ظهرت المدرسة الفقهية،

التي بلورت فكر السلاجقة السني، في القرن الرابع الهجري، واشتهرت باسم المدرسة النظامية، وهي أول مدرسة بنيت في الإسلام نسبة إلى المفكر والوزير السلجوقي نظام الملك (ت 485 هـ/ 1092 م)، الذي كانت المساجد

(1/7462)

إلى عهده معاهد للعلم تعقد فيها حلقاته ودروسه.
وكان نظام الملك أول من أنشأ معاهد مستقلة للتعليم يتفرغ فيها الطلاب للتعلم والمدرسون للتدريس. وقد أوقفت الأوقاف الكثيرة عليها وأسماها مدارس، بحيث عُممت في القرنين الخامس والسادس الهجريين،
وانتشرت في مدن العراق وفارس وخراسان، وبخاصة في بغداد عاصمة الخلاف. وكانت نحو الثلاثين كما ذكر الرحالة ابن جبير (540 ـ 614 هـ/ 1145 ـ 1217 م). فكان تعيين مدرسيها من صلاحية الوزير، وأهمها المدرسة الشافعية التي كانت في حرب مع المذهب الشيعي. فقد اعتبر هذا الوزير

(1/7463)

والمعلِّم أن التعليم في المدرسة من الوسائل في حربه، ولنشر المذهب الشافعي في مصر تولّى التدريس في المدرسة النظامية عدد من كبار الفقهاء الشافعية وأشهرهم الغزالي، كما تحولت المساجد هي أيضاً إلى خدمة المذهب السني، واعتبرت امتداداً للمدرسة. بل أحرقت أجزاء من كتاب إخوان الصفا ببغداد، ونُهي الناس عن قراءته، وقُتل من الإسماعيلية جماعة منهم(1)

---

(1) ... ابن أيبك الداوداري، كنز الدرر وجامع الغزر، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، 1961، 6، ص. 453. أنشئت المدرسة النظامية سنة 457 هـ/ 1064 م؛ وانظر كذلك: ابن جبير، رحلة، ص. 114؛ حسين أمين، تاريخ العراق في العصر السلجوقي، بغداد، 1965، ص. 218 وما بعدها.

(7464/1)

.

... كذلك كان من أهداف السلاجقة الثابتة في عهد ألب أرسلان(1) سلطانهم الثاني، الذي خلف زعيمهم طغرلبك، الاستحواذ على ثقة المسلمين؛ إذ نجحوا في القضاء على أكبر عدو للمسلمين في وقتهم، وهو الروم،

بالانتصار عليهم في موقعة منزيكَرت(2)

---

(1) ... وفيات، ص. 442؛ انظر: Encyclopédie de l'Islam, (art. « Alp Arslân », I. p. 420–421; Tl, pp. 324.

(2) ... آل سلجوقن ص. 35 وما بعدها؛ الكامل، 8ن صص. 109 ـ 110؛ Psellos Chron. 11, 161–162; Dolger, Regesten, 972., انظر: أسد رستم، الروم، 2، ص. 110 وما بعدها؛ Cahen, La Campagne de Mantzikert d'après les sources musulmanes. Ext de Byzantion. T. IX, Fasc. 1, 1934 de Encyclopédie; l'Islam, (art. « Malazgerd », T. 3, pp. 214–215.

(1/7465)

(ملازكَرد أو منازكَرد)، على الفرات الأعلى في مدخل آسيا الصغرى في 463 هـ/ 1071 م، وهو انتصار لا يدانيه أي انتصار فاطمي سابق على الروم. فقد أبيد الجيش الرومي، وأسر إمبراطور بيزنطي لأول مرة، وهو رومانوس الرابع ديوجانس (Romanus IV Diogenes) . ويُسميه العرب أرمانوس . الذي تولى مهمة صَدِّ الأتراك السلاجقة، وقاد إلى الميدان كل رجل استطاع أن يجنده في أوربا وآسيا، مما قضى نهائياً على طموحات الروم وتطلعاتهم

إلى استرداد بيت المقدس. فبعد ذلك، انتشر جنس الترك في آسيا الصغرى، وما يزالون فيها إلى وقتنا

(1/7466)

الحاضر. فكان ما قام به السلاجقة بانتصاراتهم المتواترة على الروم رد فعل لما حدث في العالم الإسلامي من تمزق وضعف، وتجديداً للنشاط الإسلامي؛ إذ اعتبروا أنفسهم امتداداً للعباسيين.

... وقد اضطربت دولة الفاطميين في مصر لوصول السلاجقة في عهد ألف أرسلان إلى حدود الشام(1)، ثم انتشارهم في الشام الفوقاني في عهد ابنه ملكشاه(2)، الذي أقطع أخاه تاج الدولة تُتش بن ألف أرسلان أملاك الفاطميين، وقرر له فتح الشام وديار

---

(1) ... آل سلجوق، ص. 65؛ الكامل، ج 8، ص. 126.

(2) ... وفيات، ج 2، ص. 586 وما بعدها (بتفصيل).

(1/7467)

مصر وبلاد المغرب(1) ؛ فقرر تُتش لقائده أتسز بن أوق الخوارزمي المعروف بالأقسيس التحرك في جنوب الشام.

ويعتبر المؤرخ سبط بن الجوزي المصدر التاريخي(2) الذي انفرد بأخبار مفصلة عن تحركات السلاجقة نحو بيت المقدس، الذي كان في أيدي الفاطميين منذ مجيئهم إلى مصر، ولهم نائب فيه سماه السلاجقة نائب المصري، ويقصدون به الخليفة الفاطمي، ومعه حامية فاطمية من سودان مصر والمصامدة

---

(1) ... آل سلجوق، ص. 65؛ الكامل، ج 8، ص. 126.

(2) ... مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الثامن، القسم الأول، نشر حيدر آباد، 1951.

(7468/1)

البربر؛ فقد قال أتسز: »حرم الله، لا أقاتله، وإنما أريد إقامة الدعوة الإمامية والسلطانية«. فدخل أتسز بيت المقدس في شوال 465 هـ/ 1073 م، ولم تُرق فيه دماء لحرمته، ونودي بالأمان لأهله؛ فأقام الدعوة للقائم العباسي والسلطان. كذلك جعل أتسز بيت المقدس قاعدة للانطلاق لاستكمال سيطرته على بلاد جنوب الشام.

... ولكن هزيمة أتسز في مصر على يد بدر الجمالي، وزير الفاطميين القوي الذي فرضه الخليفة المستنصر أمور

مصر والشام وجميع ممالكه، جعلت بيت المقدس يخرج من نفوذ السلاجقة. فقد أعلن(1)

---

(1) ... المصدر نفسه، صص. 184 ـ 185.

(7469/1)

القاضي والشهود فيه الخروج عن طاعة أتسز، واستولوا على أمواله وأولاده، مما جعل أتسز يعود إلى بيت المقدس، ويقتل في أهله. حتى الذين اجتمعوا بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة فإنهم لم يسلموا من عقابه؛ مما أغضب عليه تُتش لهزيمته في مصر ولقسوته وكثرة من قتل على يديه في بيت المقدس وقتله بذلك؛ وولى بدله سكمان أو سقمان بن أرتق وأخاه أبلغازي(1) في بيت المقدس. ولكن الوزير الفاطمي أمير الجيوش الأفضل ـ وهو لقبه الوزاري(2) ـ أبا القاسم شاهنشاه الذي

---

(1) ... النجوم، ص. 159.

(2) ... السجلات المستنصرية، سجل رقم 15.

(7470/1)

تقلّد مثل أبيه بدر الجمالي تدبير مملكة مصر، سار على رأس حملة عسكرية لاستنقاذ بيت المقدس من أيدي السلاجقة؛ فاستولى عليه هو أيضاً بالأمان بمعاونة أهله، بعد حصار دام أربعين يوماً، في 489 هـ/ 1096 م(1)، وأناب فيه رجلاً عُرف بافتخار(2) الدولة، وأقام معه حامية مصرية.

... وقد بقى بيت المقدس بأيدي الفاطميين إلى وقت مجيء الفرنجة، حيث وقف الفاطميون السلاجقة بالمرصاد لمنعهم من العودة

---

(1) ... النجوم، ج 5، ص. 591؛ الكامل، 8، ص. 189؛ ابن أبيك، الدرة، 6، ص. 447. يقول في 491 هـ

(2) ... الكامل، 8، ص. 189.

إليه، تارة بإثارة أهل الشام عليهم، وتارة بالدس بين قوادهم؛ كما وجدت بالشام فرقة شيعية منشقة عليهم عرفت بالإسماعيلية الشرقية أو الباطنية واشتهرت بالفداوية، كانت ذات تنظيم دقيق، وامتد نشاطها الأكبر في الشام، فعملت على قتل كبار السلاجقة؛ هكذا قتلوا منهم وزير ملكشاه والمتكلم في الدولة(1) نظام

الملك وغيره؛ مما كان سبباً في إضعاف السلاجقة في الشام.

---

(1) ... آل سلجوق، ص. 68؛ الكامل، 10، صص. 204 ـ 206؛ النجوم، 5، ص. 136/ 69؛ كذلك قتلوا آقسنقر (ابن أيبك، الدرة، 6، ص. 497).

(7472/1)

... ومهما يكن، فإن الصراع بين الفاطميين والسلاجقة على بيت المقدس أوقف الزيارات (Passagium) إليه، بحيث اتخذت ذريعة لحرب المسلمين من قبل الفرنجة أو الإفرنج أو فرنج (Frankos)، نسبة إلى أمة عُرفت بهذا الاسم في أوربا، فأطلق على كل أمم أروبا، وكانت تحولت إلى المسيحية، وأصبحت لها كنيسة قائمة بذاتها غير كنيسة الروم الأرثوذكسية. ويؤكد مؤرخو الفرنجة وحدهم أن هارون الرشيد جعل لأمبراطور الفرنجة شارلمان (Charlemagne) حق الإشراف المعنوي على بيت المقدس، وأرسل له جملة هدايا منها مفاتيح كنيسة القيامة المجيدة،

(7473/1)

مزار النصارى. ...

... فكان شعار الفرنجة في حرب المسلمين: »الله يريد ذلك« (Dieux le volt)، ويعلقون على الكتف الأيمن أو على الكتفين صليباً (Crux) من قماش أحمر زاهي اللون، فعرفت حروبهم ضد المسلمين بالحروب الصليبية (Cruzada) واعتبروا أنفسهم امتداداً للروم في حماية المسيحية. أما المؤرخون العرب، فسموا حروبهم بحركة الفرنج(1).

... وقد تحركت موجات الفرنجة المكثفة والشرسة إلى الشرق الإسلامي بمساعدة أوربا كلها، ليس بهدف تأمين سبل الحجاج فقط، بل بهدف تخليص بيت المقدس

---

(1) ... النجوم، 5، ص. 146، ص. 3.

(7474/1)

نهائياً من سيطرة المسلمين وعودة الزيارات إليه، وبمشروع مبيت للاستيطان على الشام، ولا سيما في فلسطين، التي تعتبر واسطة العقد من المنطقة العربية، ولتحقيق رجحان أوربا في الميزان السكاني لصالحهم، مما أوجد ما عُرف في أوربا من يومئذ بالمسألة

الشرقية (La Question d'Orient).

... وقد تحمل بنو سلجوق الضربات الأولى من الفرنجة وعجزوا عن صدهم، لأن دولتهم كانت تحمل في أساس نشأتها جرثومة الانحلال، إذ جرى سلاطين السلاجقة على عادة توزيع أملاكهم بين أبنائهم، على أن يكفلوا تربيتهم إلى قوادهم الذين يسمونهم

(7475/1)

بالأتابكة(1)، وهي لفظة تركية مفردها »أتابك«، مركبة من كلمة »أتا« بمعنى أب وكلمة »بك« بمعنى السيد أو الأمير، الذي يربي أولاد الملوك فكان الأتابكة أشبه بالوزراء المستبدين. فلما توفي ملكشاه وترك من الأولاد أربعة(2)، قسّمت دولته بينهم في العراق والجزيرة وإيران وخراسان، فضلاً عن أنهم ومن بعدهم أبناؤهم كانوا يتنافسون على السيطرة على الخليفة العباسي الضعيف في بغداد. وكان من يسيطر عليه منهم يتخذ لقب سلطان، كما أن

---

(1) ... انظر: حسن الباشا، الألقاب الإسلامية، ص. 122 وما بعدها.

(2) ... آل سلجوق، ص. 76.

(7476/1)

أقاربهم كانوا يستقلون ببلاد صغيرة أو كبيرة مبعثرة مثل جبله أو صُور، يتخذ الواحد منهم لقب أتابك، بحيث تحولت الدولة السلجوقية الواحدة إلى دويلات متحاسدة، تغمرها حروب داخلية.

... حقاً إن الفاطميين لم يتعاونوا مع الأتراك السلاجقة في صد الفرنجة، الذين استولوا على نيقية أو أنيقية(1) أو قونية .التي هي بلدة في آسيا الصغرى . وعلى

---

(1) ... انظر: Gesta. English Transl, pp. 21–24.

النجوم، 5، ص. 147. (يقول:» ما أدري ما كان السبب في عدم إخراج عساكر مصر، مع قدرته على المال والرجال« (معجم البلدان، 8، ص. 360),

(7477/1)

أنطاكية(1) في شمال الشام، وهي مدينة عظيمة، على الرغم مما بذله السلاجقة والعرب في الدفاع عنها. ومع ذلك، لا نصدق ما قيل من أن الفاطميين خانوا المسلمين،

وأنهم هم الذين استدعوا الصليبيين إلى الشام ليستعينوا بهم على السلاجقة، أعدائهم، أو أنهم اتفقوا على اقتسام ممتلكات السلاجقة في الشام؛ فهم يحكمون شماله والفاطميون جنوبه. ومن الغريب أن بعض المؤرخين الحديثين يؤيدون ذلك(2)

---

(1) ... sq 34Gesta, p.؛ "الكامل"، 8، صص. 185 ـ 186؛ معجم البلدان، 2، ص. 44.

(2) ... انظر: نور الدين محمود مؤنس، صص. 98 ـ 99؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج 1، ص. 197.

(1/7478)

. ولكن ينفي هذا الرأي أنا رأينا كيف كان الفاطميون دائماً حماة الإسلام؛ فاستماتوا في الدفاع عنه، حينما هاجم الروم في الشام. ثم إن ابن الأثير صاحب هذه الرواية القديمة، وهو من بلاد الجزيرة في شمال العراق، هو نفسه يُشكِّك فيها، ويقول: »والله أعلم«(1). وعلى العكس، فإن السلاجقة كانوا هم الذين اتفقوا مع بيزنطة، في عهد أول زعيم سلجوقي وهو طغرلبك، على أخذ دولة الفاطميين(2). وأكبر الظن أنه لو أيدت المصادر الأوربية وقوع

(1) ... الكامل، 8، ص. 186، س. 3 ـ 4.

(2) ... السيرة المؤيدية، صص. 94 ـ 95 وهامش.

(1/7479)

مفاوضات مع الفاطميين، لكانت مع الروم، وليس مع الفرنجة، وهي عادية في سياسة الفاطميين الذين عقدوا معهم معاهدات من قبل؛ إذ هادنوهم في زمن الحاكم بأمر الله كما ذكرنا. وعلى كل حال، كانت مفاوضات الفاطميين مع الروم ـ حتى إذا صحت في أثناء حملات الفرنجة ـ في مصلحة الإسلام، لأنها جعلت المعسكر المسيحي ينقسم على نفسه. والدليل على ذلك أنه لما احتل الفرنجة أنطاكية، ولوا عليها بطريكاً أرثوذكسيّاً، أي أنه تابع للروم ـ البيزنطيين ـ، وذلك بناء على الاتفاق السابق بين الفرنجة وألكسيوس الأول، ولكنهمْ عزلوه بسبب

(1/7480)

تفاوض الروم مع الفاطميين، واتهموا الروم بالخيانة (1)، وأجبروا الروم على الرجوع إلى القسطنطينية.

فالأفضل كان قد أرسل سفارة إلى ألكسيوس الأول كومنينوس () (Alexis Comnenus1081 ـ 1118 م)، يستوضحه عن حقيقة نوايا الفرنجة، وأنكر ألكسيوس أن تكون له بهم علاقة(2).

... ولما كان الفرنجة عازمين على الوصول إلى بيت المقدس، فإن مؤرخي الفرنجة وحدهم يذكرون أنه لما وصلوا إلى أطراف الشام في أنطاكية، أرسل إليهم

---

(1) ... انظر: Gesta, pp. 71–74.

(2) ... انظر: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة، ج 1، ص. 406.

الوزير الأفضل الفاطمي سفارة(1)، أقامت عندهم لبضعة أسابيع، حيث يذكرون أن الأفضل عرض عليهم أن يسمح لهم بزيارة الأماكن المقدسة، وأن يتمتعوا بحرية أداء شعائرهم الدينية، على أن لا تزيد مدة إقامتهم على شهر واحد، وأن يدخلوها دون سيوفهم. ولكن الفرنجة ردوا على الأفضل ردّاً شديداً بأنهم سوف يستمرون في الوصول إلى بيت المقدس(2)، ولكن ينفي وقوع هذه المفاوضات بين الفاطميين والفرنجة

(1) ... أعمال الفرنجةن ترجمة عربية، ص. 459؛ وليم الصوري، ترجمة، ص. 305.

(2) ... انظر: حبشي، الحروب الصليبية الأولى، 1، ص. 171.

(1/7482)

استعداد الفاطميين لمجابهة الفرنجة أيّاً كان الثمن؛ ذلك بأن الوالي الفاطمي في بيت المقدس افتخار الدولة(1) اتخذ استعدادات لمجابهة الفرنجة، فطمس الآبار المحيطة بالقدس ووضع السم فيها، وأخفى الماشية، وقام بتقوية التحصينات، وطرد النصارى من المدينة خوفاً من أن يتعاونوا مع الفرنجة، وطلب النجدة من مصر.

(1) ... أعمال الفرنجة، ترجمة عربية، صص. 114 ـ 119؛ ذيل، ص. 222؛ انظر: غوانمه، "الأفضل بن بدر الجمالي وموقفه من الحملة الصليبية الأولى"، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود، 1983، ص. 80.

(1/7483)

... وعلى كل حال، ظهرت نيات الفرنجة في الوصول إلى بيت المقدس بحصاره وضربه بالنار والحجر من المنجنيقات. وقد دافع عنه عسكر مصر بشجاعة نادرة مدة أربعين يوماً، وكانوا يفضلون الانتحار - بإلقاء أنفسهم من بروج الجدران - على التسليم(1). فلما استولوا عليه في »يوم الجمعة« من شعبان 492 هـ/ 5 يونيه 1099 م(2)، ذبحوا كل من وجدوه فيه من المسلمين من شيوخ ونساء وأطفال، وأحرقوا من هرب منهم إلى مسجدي قبة الصخرة

---

(1) ... انظر: Gesta, p. 55 sq.

(2) ... ابن ميسر، أخبار مصر، ص. 66؛ ابن الأثير، الكامل، 10، ص. 283.

(1/7484)

والأقصى بمن فيهم العلماء والفقهاء، وجمعوا اليهود وأحرقوهم أيضاً(1)، وإن سمحوا لافتخار الدولة بالخروج(2). وتقول المصادر النصرانية ذاتها: لم نر مثل هذا الذبح من قبل في المسلمين(3). فقد استمر القتل ثمانية أيام، إذ كانوا يعتقدون أن المسيح عانى كثيراً من العذاب(4)؛ ولذلك يجب أن يشفى غليل

المسيحية من المسلمين لما حدث له. وقد فرح

---

(1) ... النجوم، 5، ص. 150، س. 7.

(2) ... أعمال الفرنجة، ترجمة عربية، ص. 118؛ الكامل، 10، ص. 283.

(3) ... انظر: Gesta, p. 88.

(4) ... انظر: Calmette, Le Moyen Age, p. 428.

(1/7485)

الفرنجة بالوصول إلى مقبرة المسيح ربهم، وكانوا يبكون من شدة الفرح، ودقت نواقيس روما، وأعلنت انتصار الصليب على الهلال. وهكذا سقط بيت المقدس في يد الفرنجة بعد أن ظل في أيدي المسلمين منذ فتحه في عهد عمر بن الخطاب سنة 17 هـ/ 638 م.

... ومع ذلك، لم يقف الفاطميون من سقوط بيت المقدس في أيدي الفرنجة مكتوفي الأيدي. فالوزير الأفضل لما بلغه وصول الفرنجة إلى بيت المقدس، حشد العساكر المصرية وسار بهم لاستنقاذه. وقبل أن يتحرك، أرسل إلى الفرنجة يهددهم ويطلب منهم الرحيل. وقد أقام الأفضل خارج عَسْقلان بالشام

(1/7486)

منتظراً وصول النجدات التي يحملها الأسطول المصري.

ولكن الفرنجة أنفسهم بعد سقوط بيت المقدس بيومين، باغتوا العسكر الفاطمي خارج عَسْقَلَان وأوقعوا بهم وهزموهم(1) وذبحوا من التجأ منهم إلى الغابات المجاورة، فدخل الأفضل عسقلان وتحصن بها، ولم يعد الفرنجة إلى القدس إلا حينما عاد الأفضل إلى مصر.

... وعلى العكس، حينما وصل نبأ سقوط بيت المقدس في يد الفرنجة، أرسل الخليفة العباسي المستظهر بالله إلى السلطان السلجوقي بركيا ورق بن ملكشاه يخبره بما تعرض له

---

(1) ... ابن ميسر، أخبار مصر، ص. 67؛ الكامل، 8، ص. 190.

(7487/1)

المسلمون فيه، ويدعوه لنصرتهم. إلا أنه لم يقم بأي عمل، ولا بمساعدة الفاطميين لاستنقاذه. ويذكر المؤرخ ابن الجوزي (أبو الفرج) حدث »التقاعد«(1) عن إنجاد الفاطميين. ولكن حدث تغيير في موقف السلاجقة بعد ذلك، نتيجة لضياع ثالث الحرمين من أيدي المسلمين، ودق إسفين الفرنجة الاستيطاني في فلسطين؛ فقد

حدث منهم تقارب مع الفاطميين، وهو التقارب الذي أخذ يتسع رويداً رويداً، ووجد قبولاً تاماً من الفاطميين، الذين كانوا أول من سعوا إليه،

---

(1) ... ابن الجوزي (أبو افرج)، المنتظم، 9؛ ص. 108؛ آل سلجوقن ص. 86 وما بعدها.

(7488/1)

وذلك على الرغم من الاختلاف المذهبي بينهما. فقد كان الخطر داهماً عليهما معاً، وعلى أملاكهما، التي كانت لا تزال بأيديهما في الشام.

... ولوقف المد الصليبي في الشام، زاد الفاطميون من استعداداتهم الحربية بالاهتمام بطائفة الحجرية(1)، من أولاد الناس، أي المصريين. وكان إنشاؤها في وقت المعز لدين الله أول خليفة فاطميّ لمصر، وتتألف من جند كبار وصغار، وتكون مستعدة للعمل الحربي في أي لحظة؛ فطلب الأفضل أن تكون الحجرية الصغار من أولاد الأجناد، فجمع

---

(1) ... انظر: ماجد، نظم الفاطميين، ط 3، ج 1، صص. 187 ـ 189.

له منهم ثلاثة آلاف. ولدينا سجلات(1) عديدة بتقليد أمراء مصر ـ أي القواد ـ وتوليهم أمر الجهاد ضد الصليبيين؛ فلم يكن بد من إرسال تجريدات من العسكر المصري من حين إلى حين نحو الشام، وظهر لها قواد عظام نعرفهم بأسمائهم وألقابهم، منهم اثنان من أبناء الوزير الأفضل، وذلك مثلما حدث في 495 هـ/ 1102 م و496 هـ/ 1103 م، و499 هـ/ 1105 م(2). إلا أن أغلبها لم تكن تحرز انتصارات ذات قيمة؛ وحتى لو استردت شيئاً، فإنه لا

(1) ... صبح الأعشى، 10، ص. 406.

(2) ... بتفصيل، انظر: Ency, de l'Isl. (art « al Afdal «éd 2»),.

يلبث أن يسترده الصليبيون منهم. كذلك اهتم الفاطميون بالأسطول، ولا سيما قطعة الكبيرة من الشواني وهي أقواها وأطولها، وهي مزودة بالأبراج

والقلاع للدفاع والهجوم. فكانت سفن الأسطول المصري تحمل إلى مدن الساحل التي في أيديهم في الشام الرجال والذخائر والأسلحة والأموال، لتساعدها على الصمود، حيث كانوا يرسلون جنداً في كل عام إلى عَسْقلان، كما أصبح كل من فيها مجنداً حتى الأطفال.

... والأهم تعاون الفاطميين والسلاجقة في المجال الحربي، لوقف المد الصليبي؛ فقد كتب الأفضل إلى طُغتكين . طغدكين .السلجوقي أمير دمشق

(7491/1)

من جمادى الأولى سنة 498 هـ/ 1104 م(1)، الذي أسس له أتابكية فيها، برعايته لدقاق بن تتش أخي ملكشاه، وانفرد بالسلطة بعد ذلك؛ لإرسال حملة سلجوقية مشتركة لقتال الفرنجة في جبهة واحدة. وبالفعل التقى الجيشان السلجوقي والفاطمي في جانب، والجيش الفرنجي في الجانب الآخر وكان بقيادة بلدوين (Balswin) .أو بخدوين أو برديُل .أول ملك لبيت المقدس، الذي استظهر عليهما. ومن قبل، حدث تعاون فاطمي مع دقاق أو قماق بن تتش تاج الدولة، حينما أرسل الأفضل تجريدة إلى الشام بقيادة ابنه شرف

(1) ... ابن ميسر، أخبار مصر، ص. 74.

(7492/1)

المعالي في 496 هـ/ 1102 م(1). كذلك كان الأفضل يرسل الأسطول المصري إلى مدن الشام سواء كانت فاطمية أو سلجوقية، ويقبل تعيين ولاة سلاجقة في مدن فاطمية، وأصبح تبادل السفارات(2) والهدايا شيئاً عادياً بين الفاطميين والسلاجقة.

... والحاصل أن الفاطميين استطاعوا استنقاذ بيت المقدس ثالث الحرمين من الروم، ولكن انشغالهم بالصراع مع السلاجقة كان

(1) ... المصدر نفسه، ص. 75.

(2) ... ذيل، ص. 235، صص. 240 ـ 241؛ انظر: عاشور، "شخصية الدولة الفاطمية في الركة الصليبية"، كتاب بحوث ودراسات، بيروت، 1977، ص. 170.

(7493/1)

سبباً في ضياعه من أيدي المسلمين، ليقع في أيدي الفرنجة، الذين أصبحوا حماة العالم المسيحي، بدلاً من الروم؛ مما اعتبر فترة حرجة للمسلمين جميعاً. حقاً، حدث تقارب بين الفاطميين والسلاجقة بعد سقوط بيت المقدس؛ إلا أنه لم تكن له نتائج حاسمة في استنقاذه، لأن وزراء الفاطميين من ناحية شغلوا بالاستئثار بالسلطة التي أصبحت غرضهم الأسمى الذي يتنافسون عليه، فلم يتحمسوا لطرد الصليبيين. وأما من ناحية السلاجقة، فعلى الرغم من تفتت دولتهم وكثرة رؤوسها، فقد اعتبروا المخفر الأمامي لحماية المسلمين من المد الصليبي؛

(1/7494)

فبهم بدأ الصمود الإسلامي التدريجي أمام أوربا، مما مهد ليقظة المسلمين في استعادة بيت المقدس في عهد صلاح الدين الأيوبي.

(1/7495)

بين يوسف بن تاشفين وصلاح الدين الأيوبي

... ... الدكتور علي القاسمي

... ... إيسيسكو ـ الرباط

مقدمة

... أنبأنا تاريخ الأمم والحضارات أن العبقرية لا تتفتق إلا لماماً ولا تختار من الرجال والنساء إلا القادة الأفذاذ، فتهبهم القدرة على تغيير مسار التاريخ وترقية أوطانهم وحفر ذكراهم في قلوب الناس جيلاً بعد جيل. ونحن لا ندري متى تتفتق تلك العبقرية فتبلغ ذروتها، ولا نعرف بالضبط العوامل التي تساعد على تفعيلها وتأجيجها. ولكننا ندرك أن لهؤلاء القادة العباقرة سمات مشتركة لا تخفى على الباحث،

(7496/1)

وصفات متماثلة لا تخطئها عين الدارس. وفي مقدمة تلك السمات وهذه الصفات إيمان صادق بمثل إنسانية عليا، وموهبة فكرية عالية تمكنهم من تحليل المواقف وتمحيص الاختيارات واتخاذ القرارات الموفقة.

... ومن هؤلاء الأبطال العظام في تاريخ أمتنا الإسلامية

يوسف بن تاشفين في الغرب الإسلامي وصلاح الدين الأيوبي في المشرق. وقد سمعت أحد أصدقائي المغاربة يقول ذات يوم إن يوسف بن تاشفين هو صلاح الدين الأيوبي في المغرب. وعلى الرغم من اطلاعي على مثل هذه التشبيهات اعتزازاً من المغاربة بالمشرق وأهله، كإطلاق أبي العباس

(7497/1)

المقري في "نفح الطيب" على مدينة مراكش التي أنشأها يوسف بن تاشفين لقب »بغداد المغرب«. فقد قلت لصديقي مداعباً إن صلاح الدين الأيوبي هو يوسف بن تاشفين المشرق، لأن ابن تاشفين سبق الأيوبي بحوالي قرن من الزمن، وقولي هذا يقتضيه فضل السابق على اللاحق.

... وطرأت لي فكرة القيام بدراسة تاريخية مقارنة للظروف التي عاشها القائدان، والمثل والأفكار التي اعتنقاها، والصفات والأخلاق التي تحليا بها، والسياسات والطرائق التي اتبعاها، والوسائل التي توسلا بها؛ لعلنا نعتبر بهما في حاضرنا، إن كان ثمة تشابه بين أوضاعنا

(1/7498)

وأوضاعهما، فالتاريخ يعيد نفسه، كما يقولون. ولقد عثرت في دراستي على تشابه كبير بين البطلين، ترصّعه مصادفات غريبة وموافقات عجيبة. وتعود بعض أوجه هذا التشابه إلى الأمور الخارجية كالاسم، والصفات الجسدية، وظروف تولي السلطة، في حين تنتمي أوجه أخرى منه إلى العمق المشتمل على القيم والمثل والأفكار والاستراتيجيات. ولهذا قسمت عرضي هذا إلى قسمين: أ ـ الموافقات الخارجية؛ ب ـ التوافقات الداخلية.

أولاً ـ الموافقات السطحية

1 ـ المولد والاسم

(1/7499)

... ولد يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن وارتقطين، وكنيته أبو يعقوب، حوالي عام 410 هـ (وفي هذا التاريخ خلاف)، في بيت بني وارتقطين زعماء قبيلة لمتونة، وهي إحدى قبائل ثلاث (لمتونة وجدالة ومسوفة) اختصت بالسيادة على قبائل صنهاجة التي يبلغ تعدادها

حوالي سبعين قبيلة، وتعرف بـ »صنهاجة اللثام« وعرف رجالها بـ »الملثمين«، وفي فترة لاحقة بـ »المرابطين«. (ابن خلدون، ج 6، ص. 181). وكانت مضارب لمتونة تمتد على المحيط الأطلسي من »وادي نون« جنوب مدينة تارودانت حتى رأس بوجدور. ولا يحدثنا المؤرخون عن مكان مولد يوسف

(7500/1)

بن تاشفين أو ملاعب طفولته.

... ومن المصادفات العجيبة أن اسم صلاح الدين الأيوبي هو يوسف وكنيته أبو المظفر، وما صلاح الدين إلا لقبه. فهو يوسف بن أيوب بن شادي (أو شاذي). وقد ولد سنة 532 هـ في قلعة تكريت على نهر دجلة شمالي سامراء بالعراق. وكان جده شادي، وهو أحد زعماء الأكراد في بلدة »دُوين« التي تقع في أطراف إذربيجان القريبة من إيران، قد قدم إلى بغداد، يصحبه ولداه أيوب وشيركوه، لصداقة قديمة تربطه بـ »مجاهد الدين بهروز«، شحنة »حاكم« بغداد، فبعثه هذا إلى قلعة تكريت محافظاً عليها. وعندما توفي شادي،

(7501/1)

عهد بالقلعة إلى ابنه أيوب، وهناك ولد يوسف بن أيوب.

... وعلى الرغم من أن اسم »يوسف« من الأسماء

المستعملة في العراق؛ إلا أنه قليل إن لم يكن نادراً.

ونسمح لخيالنا بأن يتصور أن نجم الدين أيوب ـ وهو قائد

عسكري في وقت كان الصليبيون يحتلون الأراضي

المقدسة ويهددون بحملاتهم المتتالية الشرق الإسلامي ـ

قد بلغته أنباء انتصارات يوسف بن تاشفين في الغرب

الإسلامي، فأعجب به وخلع اسمه على ولده صلاح الدين.

...

2 ـ النسب

(7502/1)

... على الرغم من أننا ندرك ـ كما سنوضح ذلك فيما بعد ـ

أن البطلين يوسف بن تاشفين ويوسف بن أيوب صلاح

الدين لم يأبها مطلقاً لنسب الفرد وحسبه بقدر

اهتمامهما بعظيم علمه وسمو خلقه وكريم فعله، فإننا

سنعرض لهذه المسألة لتطرق كتب التاريخ إليها،

وللشبه الكبير فيها بين البطلين.

... فيوسف بن تاشفين ينتمي ـ كما ذكرنا ـ إلى قبائل

صنهاجة، وهي قبائل غير عربية على الرغم من أنها تعود في أصولها إلى جزيرة العرب. ولكن كتب التاريخ المقربة من المرابطين تقول عنه »إنه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت بن

(7503/1)

وارتقطين بن منصور بن أمية بن واتملي بن تليث الحميري الصنهاجي اللمتوني من ولد شمس بن وائل بن حمير «. ويعلق الأستاذ عبد الحق حموش، أحد كتاب سيرة ابن تاشفين، على هذا النسب قائلاً: »نتجاوز هذا التعريف، لأنه مجال نقاش، مقتصرين على أن يوسف بربري لمتوني من بني وارتقطين، لأن هذا الثبت يعرض مزيجاً من الأسماء لا يتفق والسياق التاريخي عند كل من العرب والبربر «. ويضيف معلقاً في الهامش: »إن عوامل سياسية تعاونت على إيراد مثل هذه الأنساب، فالأمراء شجعوا عليها إدراكاً منهم بأن القوة والواقع لا يكفيان وحدهما في

(7504/1)

نظر شعوبهم، أو على الأقل رأوا أن انتسابهم إلى أصل عربي يزيد في تشبث هذه الشعوب بحكمهم«. (حموش، صص. 25 ـ 26).

... ونجد شيئاً مماثلاً عند صلاح الدين الأيوبي. فقد ذكرنا أن جده من زعماء الأكراد. ولكن بعض المؤرخين ممن عاصروه وأبناءه السلاطين أوردوا له نسباً عربياً يرفعه إلى قيس غيلان بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. ويقول قاضي القضاة ابن خلكان ـ وهو كردي كذلك من مدينة أربيل بالعراق ـ إنه وقف على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب، فلم ير فيها سوى شيركوه بن شاذي وأيوب بن شاذي، ليس غير

(7505/1)

(ابن خلكان، ج 7، ص. 140). ويرى المقريزي في كتابه "السلوك لمعرفة دول الملوك" أن نسبة صلاح الدين إلى أصل عربي هو من أقوال الفقهاء الذين أرادوا التقرب منه والحظوة لديه (قلعجي، ص. 152).

...

3 ـ التعليم واللغة

... كان كل من يوسف ابن تاشفين ويوسف بن أيوب

متفقهاً متضلعاً من دراسة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وأصول الدين متمكناً من اللغة العربية. فقد تلقيا تعليماً إسلامياً متكاملاً.

... ولكن بعض المؤرخين شككوا في معرفة يوسف بن تاشفين باللغة العربية وسردوا حكايات ـ من خيالهم على الأرجح، وكثير من

(1/7506)

التاريخ نتاج تصور المؤرخين ـ للدلالة على جهل يوسف بن تاشفين باللغة العربية. وبلغ الأمر بابن خلكان أن ذكر في ترجمته ليوسف بن تاشفين التي اعتمد في صياغتها على كتاب "المعرب في سيرة ملك المغرب" أن «يوسف بن تاشفين لا يعرف اللسان العربي لكنه يجيد فهم المقاصد». (ابن خلكان، ج 7، ص. 114).

... ونحسب أن كثيراً من أولئك المؤرخين كانوا يصدرون عن نزعات سياسية أو عنصرية أو عقدية. (انظر على سبيل المثال موقف عبد الواحد المراكشي من ابن تاشفين في دراسة الأستاذ محمد ولد بنعزوز بعنوان "يوسف بن تاشفين من خلال كتاب

(1/7507)

المعجب"). وقد حصل لنا الاقتناع بأن يوسف بن تاشفين كان يجيد اللغة العربية إجادة تامة للأسباب التالية:

... أ .لقد ترعرع يوسف بن تاشفين في بيت زعامة من قبيلة لمتونة التي اختصت بالسيادة في قبائل صنهاجة. ونحن نعلم أن قبائل صنهاجة قد حسن إسلامها في القرن الثالث الهجري حتى أخذت تنشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، فسيطرت على منطقة »السنغال« الذي اشتق اسمه فيما بعد بالبرتغالية منها .صنهاجة غال . أي نهر صنهاجة. ولاشك أن ابناء البيوتات الميسورة هم أسبق إلى التعلم الذي هو فريضة على كل مسلم ومسلمة.

(7508/1)

واللغة العربية هي لغة القرآن ولغة التعليم آنذاك

... ب .إن قبيلة يوسف بن تاشفين (لمتونة) كانت تزاول التجارة بين شمال الصحراء وجنوبها، وكانت العربية هي اللغة المشتركة في المعاملات التجارية بين القبائل الإفريقية التي تتحدث بلغات مختلفة.

... ج .إن زعماء حركة المرابطين)ويوسف بن تاشفين في طليعتهم(تلقوا إعدادهم العلمي والجهادي سنوات

عديدة في الرباط الذي أنشأه عبد الله بن ياسين المعلم الروحي للمرابطين. وكانوا في الرباط يعكفون على دراسة العلوم الإسلامية والتدرب على الجهاد. وترتبط مكانة المرابط بمدى

(7509/1)

تضلعه من العلوم الإسلامية، خاصة القرآن والحديث. وهذا ما مكّن أبا بكر بن عمر -أميرهم- من جمع السلطتين الدينية والدنيوية بيده بعد وفاة عبد الله بن ياسين، وقد جمعهما كذلك ابن تاشفين. ولو كان يجهل العربية، لما استطاع أن يفعل ذلك

... د -إن الملكة اللغوية والقدرة على تعلم لغة ثانية من مكونات ذكاء الفرد كما يخبرنا علم النفس اللغوي الحديث. ولهذا، فإن من يتوفر على قدر معين من الذكاء يسهل عليه اكتساب لغة ثانية. ويشهد جميع المؤرخين بذكاء ابن تاشفين المتوقد.

(7510/1)

... أما صلاح الدين، فقد أجمعت المصادر التي أوردت سيرته أنه كان من المتفقهين في الدين إذ كان يحفظ عن ظهر قلب القرآن الكريم، والتنبيه في الفقه، والحماسة في الشعر. وكان قد تلقى علومه على أيدي كبار الأساتذة، كما تصدر للتدريس وتتلمذ عليه ثلة من الطلبة (الموسوعة العربية، ج 15، ص. 120).

...

4 ـ تولي السلطة

... ومن المصادفات العجيبة أن كلاًّ من يوسف بن تاشفين ويوسف بن أيوب لم يطلب السلطة ولم يسع إليها، وإنما جاءته منقادة بصورة غير متوقعة. فهما لم يرثا الإمارة عن أبويهما، ولم يتم انتخابهما من قبل مجلس

(7511/1)

من المجالس، وإنما كانا يعملان مساعدين لقريبين لهما فحصل عارض ما لهذين القريبين وآلت الإمارة لليوسفين.

... تحدثنا كتب التاريخ أن زعيم الملثمين المغاربة يحيى بن إبراهيم الجدالي كانت تحدوه نزعة إصلاحية، فتوجه إلى القيروان وطلب من شيخ الفقهاء عمران الفاسي أن يبعث معه أحد تلامذته ليفقه الملثمين في دينهم، وذلك حوالي عام 428 هـ، فرأى الشيخ أن يبعث

معه خطاباً إلى تلميذه وجاج بن زللو اللمطي الذي ابتنى له رباطاً في قلب الصحراء الكبرى في نفيس، اعتكف فيه هو وتلامذته للعلم والمعرفة والتعبد. وجاء في الخطاب:

(7512/1)

»ابعث إلى بلده من تثق بدينه وورعه وكثرة علمه وسياسته ليعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويفقههم في الدين، ولك وله في ذلك الثواب والأجر العظيم. والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً«. (ابن أبي زرع، ص. 123؛ والناصري، ج 7، ص. 2)؛ فانتدب وجاج الفقيه عبد الله بن ياسين الذي رافق يحيى بن إبراهيم إلى بلاده، وابتنى فيها رباطاً يعلم فيه أصحابه يفقههم في الدين ويدربهم على الجهاد وسموا بالمرابطين »للزومهم رابطته«. فكانت لعبد الله بن ياسين الزعامة الدينية وليحيى بن إبراهيم الزعامة الدنيوية. فقد »كان يتولى النظر في أمر

(7513/1)

حربهم وعبد الله بن ياسين ينظر في ديانتهم وأحكامهم« (ابن أبي زرع، ص. 127). وعندما توفي يحيى بن إبراهيم، جمع عبد الله بن ياسين رؤساء قبائل صنهاجة وتشاور معهم وولى عليهم يحيى بن عمر اللمتوني. وعندما توفي هذا عام 447، تم اختيار أخيه أبي بكر بن عمر أميراً للمرابطين. وحدث أن توفي عبد الله بن ياسين متأثراً بجراحه في إحدى المعارك، فجمع أبو بكر بن عمر الزعامتين الدينية والدنيوية في يديه. وكان المرابطون آنذاك يستعدون لغزو بلاد السوس، فعهد الأمير الجديد، أبو بكر بن عمر، إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين بقيادة

(7514/1)

الجيش. فأظهر بن تاشفين من الحنكة والشجاعة والحكمة ما مكنه من فتح مدينة تارودانت، قاعدة بلاد السوس، ثم توجه إلى مدينة أغمات ففتحها.

... وتذكر المصادر التاريخية أن أمير المرابطين أبا بكر بن عمر عزم عام 453 هـ على السفر إلى الصحراء للجهاد ونشر الدعوة الإسلامية. فعقد لابن عمه يوسف بن تاشفين وأقر ذلك أشياخ المرابطين. وعندما عاد أبو بكر بن عمر من الصحراء بعد بضع سنين ورأى النجاح

الكبير الذي حققه ابن عمه، ارتأى أن يدعه يواصل العمل الجيد الذي هو فيه. وبعد أن استتب الأمر لابن تاشفين، استدعى أمراء المغرب

(1/7515)

وأشياخ القبائل عام 464 هـ لمبايعته ولقب بأمير المسلمين، وقد اجتمعت له الزعامتان الدينيّة والدنيوية.

... وإذا نظرنا إلى الظروف التي وصل فيها صلاح الدين إلى السلطة، وجدناها مماثلة لما ذكرنا. فعندما أرسل نور الدين زنكي أمير حلب والموصل جيشاً إلى مصر للمساعدة على صد هجمات الصليبيين، جعل أسد الدين شيركوه بن شاذي قائداً لذلك الجيش. واختار هذا ابن أخيه صلاح الدين مساعداً له، فأظهر صلاح الدين من المهارة والكفاءة، ما جعل عمه يصطحبه معه في المرتين التاليتين اللتين توجه فيهما إلى مصر للغرض نفسه. وفي المرة

(1/7516)

الأخيرة صار واضحاً لأسد الدين أن من الضروري التخلص من الوزير الفاطمي شادر وتسلم السلطة بنفسه. وهكذا فعل واعتلى منصب الوزارة في مصر. ولكنه توفي بعد شهرين وخمسة أيام فقط فتولى قائد الجيش ومساعده وابن أخيه صلاح الدين منصب الوزارة ولقب بالملك الناصر سنة 564 هـ (أي بعد مائة سنة من تولي يوسف بن تاشفين السلطة رسمياً في المغرب). (ابن خلكان، ج 7، ص. 154).

...

5 ـ علي بن يوسف بن تاشفين وعلي بن يوسف بن أيوب

(7517/1)

... ومن المصادفات الطريفة أن يوسف بن تاشفين قد خلف سبعة أبناء من عدد من النساء، وقد اختار لخلافته ابنه »علياً« الذي كان قد ولد له من جارية إسبانية مسيحية تدعى »قمر« وتكنى بـ »أم الحسن« أو »فاض الحسن«، على الرغم من أن »علياً« هذا لم يكن أكبر أولاده، ولكنه توسم فيه الخير. وهكذا تولى إمارة المسلمين في المغرب والأندلس بعد وفاة والده يوسف بن تاشفين عام 500 هـ

... أما صلاح الدين الأيوبي، فقد خلف سبعة عشر ولداً

أكبرهم أسماه »عليّاً« ويكنى بنور الدين. وقد خلف أباه صلاح الدين عند وفاته سنة 589 هـ وحمل

(7518/1)

لقب الملك الفاضل.

... ولنا أن نتساءل هل كان صلاح الدين الأيوبي هو أيضاً معجباً بيوسف بن تاشفين وابنه علي، لمقارعتهما الصليبيين في الغرب الإسلامي، فسمى ابنه البكر »عليّاً«.

ثانياً ـ الموافقات العميقة

6 ـ الصفات الخلقية

... يشترك يوسف بن تاشفين ويوسف بن أيوب صلاح الدين في التحلي بالأخلاق الإسلامية الفاضلة، وفي مقدمتها الإيمان الصادق والنية الخالصة لله والعمل الدائب لصالح المسلمين. فقد نُقل عن ابن تاشفين دعاؤه عند عبوره إلى الأندلس: »اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيراً وصلاحاً للمسلمين فسهّل

(7519/1)

علي جوز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعّبه حتى لا أجوزه«. (ابن أبي زرع، ص. 145؛ والناصري، ج 2، ص. 34).

... أما صلاح الدين الأيوبي، فقد »كان كثيراً ما يقصد لقاء العدو في يوم الجمعة عند الصلاة تبركاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر«. (ابن خلكان، ج 7، ص. 174)، وكان يصلي قبل المعركة داعياً الله تعالى أن ينصره على الكافرين ويصلي بعدها شاكراً الله نعمة النصر. ومن الأمثلة على إيمان صلاح الدين العميق بقضيته وتفضيله المصلحة العامة على مصلحته الشخصية ما روي إبان استعداده لفتح القدس. فقد قال له

(7520/1)

المنجمون: »تفتح القدس وتذهب عينك الواحدة«، فقال: »رضيت أن أفتحه وأعمى«. (عبد الكريم كريم، ج 1، ص. 36).

... وهذا الإيمان الصادق بالله هو من أسباب شجاعتهما وإقدامهما طلباً للشهادة، وهو مصداق مقولة الخليفة أبي بكر الصديق لخالد بن الوليد: »اطلب الموت، توهب لك الحياة«.

... وقد وصفت جميع المصادر التاريخية اليوسفين بالعدل. و»العدل أساس الملك«، في ظله يطمئن الناس

على حقوقهم وممتلكاتهم، فتنمو التجارة وتزدهر المعاملات وتتقدم البلاد.

(7521/1)

... والصفة الثالثة التي يشترك فيها اليوسفان هي التسامح والعفو. ويقول ابن الأثير عن يوسف بن تاشفين:»كان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام« (ابن الأثير، ص. 113). وكان من تسامح يوسف بن أيوب صلاح الدين أنه لما آلت إليه السلطة في مصر، احترم عقائد الناس شيعيين فاطميين كانوا أم سنيين، مسيحيين أقباطاً أم مسلمين، وأخلص لهم العمل، وعدل بينهم، فأحبه الشعب حتى إن الأقباط المصريين وضعوا صورته في كنائسهم، ما استدعى دهشة الشاعر عبد المنعم الأندلسي فسجل مشاعره في قصيدة ورد فيها:

فحطوا بأرجاء الهياكل صورة

(7522/1)

لكاعتقدوها كاعتقاد الأقانم

...

(قدري قلعجي، ص. 201).

... وقد طار صيت يوسف بن أيوب صلاح الدين في أوربا بوصفه مثالاً للشجاعة والشهامة، والحلم والرحمة، والوفاء والكرم، وذلك لعفوه عن أعدائه من ملوك الصليبيين ومقاتليهم بعد أن ظفر بهم في موقعة حطين الشهيرة، وحرصه على عدم إراقة الدماء، ومساعدته لفقراء الصليبيين ونسائهم وشيوخهم وأطفالهم، حتى حسبوا أن أخلاقه تفوقت على أخلاق الفروسية في صورتها المثالية، ولم يعلموا أن أفعاله إنما كانت تصدر عن الخلق الإسلامي ليس غير.

(7523/1)

... والمؤمن يكون وسطياً في الإنفاق، فلا يبذر ولا يجعل يده مغلولة. ولهذا يقول ابن خلكان: »كان يوسف بن تاشفين مقتصداً في أموره غير متطاول ولا مبذر«. (ابن خلكان، ج 7، ص. 120).

... والتعفف من صفات اليوسفين. فعندما جمعت الغنائم بعد معركة الزلاقة وقدمت إلى يوسف بن تاشفين، عف

عنها وآثر بها المسلمين من أبناء الأندلس مؤكداً أن مقصوده الجهاد والثواب عند الله (الناصري، ج 2، صص. 52 ـ 54).

... ويلخص الناصري أخلاق ابن تاشفين، حينما يقول إن أشياخ المرابطين أقروا ولاية ابن تاشفين »لما يعلمون من فضله ودينه

(7524/1)

وشجاعته ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته«. (الناصري، ج 2، ص. 23).

...

7 ـ وحدة الأمة

... إن استقراء فكر اليوسفين المتمثل في القرارات التي كانا يتخذانها والأعمال التي يقومان بها يدل دلالة قاطعة على إيمان الرجلين العميق بوحدة الأمة الإسلامية ووحدة مصيرها.

... ومن أجمل ما قيل في التطور الذي أصاب حركة المرابطين قول الدكتور مصطفى الزباخ عنها إنها تحولت من كائن صحراوي إلى كائن سماوي عبر منعطفات أبرزها منعطف التحول من الكائن القبلي إلى الكائن الوحدوي، ومن الكائن المادي إلى الكائن الروحي، ومن

(7525/1)

الشعور برابطة الدولة إلى رابطة الأمة. (الزباخ، صص. 23 ـ 28). فقد كان الرباط الأول الذي أقامه عبد الله بن ياسين خاصاً بالملثمين الذين تربط بينهم رابطة العصبية القبلية، ولكنهم عندما تمثلوا مبادئ الإسلام وتشربت نفوسهم بمثله وقيمه السامية تحولت مشاعرهم من القبيلة إلى الأمة، وتخلوا عن العصبية القبلية القائمة على الدم وتمسكوا برابطة الإيمان القائم على وحدة الخالق ووحدة الإنسان ووحدة العقيدة. ... وهذا ما يفسر لنا إرسال يوسف بن تاشفين بسفارة إلى الخليفة العباسي ببغداد. فقد بعث بوفد يضم عبد الله بن محمد

(7526/1)

المعافري الإشبيلي وابنه القاضي أبي بكر، اللذين أطلعا الخليفة العباسي المستنصر بالله على أحوال المغرب وجهاد يوسف بن تاشفين من أجل رفع راية الإسلام خفاقة، وطلبا منه أن يعقد له بما تحت نظره من الأقطار والأقاليم، وعاد الوفد بتقليد الخليفة وعهده

لابن تاشفين. ومعلوم أن سلطة الخليفة العباسي كانت رمزية فقط، ولم يكن يوسف بن تاشفين بحاجة لعهد من الخليفة العباسي لممارسة سلطاته. ولكنها مسألة مبدإ عند يوسف بن تاشفين الذي كان يؤمن بوحدة الأمة ووحدة الشرعية فيها. وكان يريد لإيمانه هذا أن يشيع بين الناس ويؤثر

(1/7527)

في سلوكهم. ولهذا اختار لقب أمير المسلمين لنفسه (وليس الخليفة أو أمير المؤمنين). وأمر يوسف بن تاشفين أن يذكر اسم الخليفة العباسي في خطبة الجمعة ويذكر اسم ابن تاشفين بعده، ويضرب اسمه على صفحة من النقود التي تضربها دور السكة المغربية، ويضرب اسم ابن تاشفين على الصفحة الثانية.

... ويتجلى الفكر الوحدوي لدى يوسف بن أيوب صلاح الدين كذلك فعندما انتهى إليه منصب الوزارة (السلطة الحقيقية) في مصر في ظل الخلافة الفاطمية التي كانت تنافس الخلافة العباسية، كتب سنة 567 هـ إلى سائر البلاد المصرية بالخطبة للخليفة

(7528/1)

العباسي المستضيء بالله بدلاً من الخليفة الفاطمي العاضد بالله. وكان سقوط الخلافة الفاطمية في مصر بعد قرنين من الزمن حدثاً عظيماً له دلالته الكبيرة، إذ أصبح العالم الإسلامي موحداً من الناحية الروحيّة، يدين بالولاء لخلافة واحدة (كاشف، ص. 68). كما دأب صلاح الدين على السعي إلى الحصول على تفويض الخليفة في كل ما يقدم عليه من الأعمال ضماناً للشرعية وتأكيداً للوحدة الإسلامية.

...

8 ـ منهجية اليوسفين في مجابهة الصليبيين

(7529/1)

... لقد تولى اليوسفان السلطة في ظروف تاريخية وسياسية واجتماعية متشابهة تقريباً على الرغم من الفارقين الزماني والمكاني بينهما. وملخص تلك الظروف هو تدهور العالم الإسلامي وتفرق كلمته في وقت كان الصليبيون يحتلون كثيراً من أراضيه ويتجمعون للانقضاض عليه. فما المنهجية التي تبناها كل من

اليوسفين؟ إن دراسة السياسات التي اتبعاها تدلنا على تشابهها وتقاربها. ولا غرو في ذلك، فالعقول الكبيرة تلتقي والأفكار العظيمة تتوافق.

(7530/1)

... تعتمد منهجية (أو استراتيجية) كل من اليوسفين على تحقيق أمور أساسية قبل التوجه لمحاربة العدو. وهذه الأمور هي:

... أ ـ نشر التعليم في الأمة وتقريب العلماء والإفادة من مشورتهم؛

... ب ـ الإصلاح الاجتماعي والعمران الاقتصادي؛

... ج ـ توحيد الأمة وحشد طاقاتها.

8. 1 ـ نشر التعليم وتقريب العلماء والإفادة من مشورتهم

... كان تقدم الأمة الإسلامية وازدهار حضارتها قائمين على العلم والمعرفة والبحث، فهي أمة «اقرأ»، وكان التعليم والتعلم فيها «إجبارياً أو إلزامياً»، بالمصطلح المعاصر، لأن «طلب العلم فريضة

(7531/1)

على كل مسلم ومسلمة «. ومن هنا نجد أن قيام حركة المرابطين ووصول يوسف بن تاشفين إلى سدة الحكم كان أساسه العلم والمعرفة. فعبد الله بن ياسين، مؤسس حركة المرابطين، كان يعدّ نفسه معلماً روحياً قبل كل شيء، يعلم أصحابه القرآن ويفقههم في أصول دينهم وأحكامه؛ وعندما شرعوا في الجهاد، فإنهم كانوا يجاهدون القبائل التي حرفت تعاليم الإسلام وتفشى فيها الجهل.

... ولهذا كان أول شيء بناه يوسف بن تاشفين في مدينة مراكش التي أسسها »مسجداً للصلاة، وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه« (ابن أبي زرع، ص. 138).

وعندما أخذ

(7532/1)

يفتح المدن المغربية واحدة تلو الأخرى، كان أول شيء يفعله بناء المساجد. ويقول الناصري إن يوسف بن تاشفين، بعد أن دخل مدينة فاس: »أمر ببنيان المساجد في شوارعها وأزقتها، وأي زقاق لم يجد فيه

مسجداً عاقب أهله«، (الناصري، ج 2، ص. 29).

... ومعروف أن المساجد في تلك الفترة تقوم بدور المدارس القرآنية التي يتعلم فيها الأطفال القراءة والكتابة والحساب وأمور دينهم. ولهذا تسمى هذه المدارس القرآنية في المغرب بـ »المسيد«، وهي كلمة محرفة من »المسجد«. فإقامة المساجد بصورة إجبارية يعني يوم ذاك تعميم التعليم

(7533/1)

الإلزامي.

... وهذا ما كان يفعله يوسف بن أيوب صلاح الدين في جميع المدن التي دخلها، وما زالت آثار بعض ما بناه من مساجد ومدارس باقياً حتى يومنا هذا.

... ويتبع نشر التعليم وتعميمه، تقريب العلماء وتوقيرهم والإكثار من مشورتهم والأخذ بها. فكان من عادة يوسف بن تاشفين أن يحصل على فتاوى الفقهاء قبل كل عمل كبير يقدم عليه. يقول ابن عذارى المراكشي عنه في كتابه "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب": »كان يفضّل الفقهاء ويعظم العلماء ويصرف الأمور إليهم، ويأخذ فيها برأيهم، ويقضي على نفسه بفتياهم« (المراكشي، ج

4، ص. 46). أما يوسف بن أيوب صلاح الدين، فقد اشتهرت مقولته: »لم أفتح البلاد بسيفي، وإنما برأي القاضي الفاضل«. وكان اليوسفان يؤمنان، بل يعملان كذلك، بالحكمة التي لخصها المتنبي بقوله:

الرأي قبل شجاعة الشجعان

هو أول وهي المحل الثاني

(القاسمي، ص. 10).

8. 2 .التنمية الاقتصادية

... لابد من تنمية البلاد اجتماعياً واقتصادياً لتصبح قوية قادرة على مقارعة الأعداء. ولهذا فإن اليوسفين كانا يبادران إلى إصلاح المدن التي يفتحونها، فيرممان أسوارها، ويشقان طرقها، ويرتبان أسواقها، ويصلحان أحياءها، ويعمران

صناعاتها. وقد استرعت تلك الأعمال العمرانية انتباه المؤرخين فذكروها. يقول الناصري:

... فلما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس، أمر بهدم الأسوار التي كانت فاصلة بين المدينتين، عدوة القرويين وعدوة الأندلس، وصيرهما مصراً واحداً، وحصنها، وأمر ببنيان المساجد في شوارعها وأزقتها، وأي زقاق لم يجد فيه مسجداً عاقب أهله، وأمر ببناء الحمامات والفنادق والأرحاء وأصلح بناءها ورتب أسواقها....

ويقول في موضع آخر من كتابه: »ودخل يوسف سبتة فنظر في أمرها وأصلح سفنها«. (الناصري، ج 2، ص. 29 و34).

(7536/1)

... وليس أدل على حُبّ يوسف بن تاشفين للعمران من بنائه مدينة مراكش عام 454 هـ مباشرة بعد أن عقد له ابن عمه أبو بكر بن عمر. أما صلاح الدين الأيوبي، فما زالت آثاره العمرانية باقية حتى يومنا هذا في أنحاء الديار الشامية والمصرية، ومنها قلعته الشهيرة في

القاهرة.

... ومن مشروعات يوسف بن تاشفين الرامية إلى تنمية اقتصاد البلاد قيامه بوضع سياسة مالية وضريبية جديدة عادلة. فألغى الضرائب الفادحة التي كان يفرضها الحكام قبله في المغرب والأندلس بحيث خفف العبء على الناس. فأحل الزكاة محل المكوس، وحط الخراج عن

(7537/1)

الأراضي التي أسلم أهلها، واقتضى الأعشار من أهل الذمة وألغى ما سوى ذلك من المغارم التي فرضها الحكام قبله. وأسس يوسف بن تاشفين دور السكة في مراكش وفاس لضرب الدينار الذهبي المرابطي الذي أصبح في ذلك الزمان بمثابة العملة الصعبة العالمية (حموش، ص. 23 و47)، وطور نظام الري في البلاد لتزدهر الزراعة ويعم الرخاء.

8. 3 ـ توحيد الأمة وحشد طاقاتها

... على الرغم من أن الغاية التي سعى إلى تحقيقها كل من يوسف بن تاشفين ويوسف بن أيوب واحدة، وهي محاربة الصليبيين وإبعادهم عن ديار المسلمين، فإنهما لم يبادرا إلى

(7538/1)

ذلك، وإنما عملا على توحيد الجبهة الداخلية أولاً قبل التوجه إلى العدو ومقارعته. وقد استغرق التوحيد حوالي ستة وعشرين عاماً من جهود يوسف بن تاشفين وسبعة عشر عاماً من يوسف بن أيوب. والسبب في قصر المدة بالنسبة للثاني هو أن عملية التوحيد كانت قد بدأها في المشرق قبله عماد الدين زنكي أتابك الموصل وبعده ابنه نور الدين زنكي. »وهذا الأخير هو الذي أمر بصنع منبر المسجد الأقصى الشهير، تمهيداً لنقله إلى القدس عند تحريرها من قبضة الصليبيين، وهو ما فعله صلاح الدين الأيوبي«.

(7539/1)

... ويوسف بن تاشفين جاهد قبل كل شيء من أجل توحيد المغرب الذي كانت قبائل البرغواطيين والمغراويين والزناتيين واليفرينيين تتقاسمه، فراح يفتح مدنه واحدة واحدة: تارودانت، أغمات، فاس، تلمسان، وهران، طنجة، سبتة، محولاً البلاد من حكم القبيلة إلى حكم الدولة. وبعد أن تأتى له ذلك، انتقل

إلى الخطوة التالية في منهجيته القاضية إلى التحول من وحدة البلاد إلى وحدة الأمة. فاتجه إلى الأندلس.

... ولم تكن حال الأندلس بأفضل من حال المغرب حين وصل يوسف بن تاشفين إلى سدة الحكم. فبعد انقراض الخلافة الأموية في الأندلس في

(7540/1)

صدر المائة الخامسة الهجرية، استقل الحكام بمدنهم وتقسمت البلاد إلى دول وإمارات. فكانت هناك إمارة بني جهور في قرطبة وإمارة بني حمود في الجزيرة الخضراء ومالقة ودولة بني عباد في إشبيلية ودولة بني زيري في غرناطة، وهكذا. وهذا ما أطلق عليه اسم عصر ملوك الطوائف الذي ينطبق عليه قول ابن الخطيب:

حتى إذا سلك الخلافة انتثر
قام بكل بقعة مليك

وذهب العين جميعاً والأثر
وصام فوق كل غصن ديك

... وكان ملوك الطوائف منغمسين في ترفهم، يسعى

بعضهم إلى توسيع أملاكه على حساب بعضهم الآخر،
وانشغلوا عن مجاهدة العدو

(7541/1)

بخلافاتهم المستمرة وبمحاربة بعضهم بعضا، بل كان كثير منهم يتحالف مع العدو على إخوانه المسلمين، أو يذعن للعدو فيدفع له الجزية. وهكذا فإن ملوك الطوائف كانوا يحملون الألقاب الرنانة الطنانة دون أن تكون لهم القوة أو السلطة التي قد توحي بها تلك الألقاب.
ولهذا قال الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس
ألقاب مملكة في غير موضعها

ألقاب معتضد فيها ومعتمد
كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

...
... ونتيجة لهذه الأوضاع المزرية المتدهورة، أقدم ألفونس السادس صاحب قشتالة على شق الأندلس شقاً حتى وصل جزيرة طريف واحتل في

(7542/1)

طريقه مدينة طليطلة وحاصر مدينة سرقسطة (الناصري، ج 2، ص. 31). فكتب المعتمد بن عباد ملك إشبيلية إلى يوسف بن تاشفين »يستدعيه للحوز برسم الجهاد ونصر البلاد. فأجابه يوسف بن تاشفين بقوله لا يمكنني ذلك إلا إذا ملكت طنجة وسبتة« (الناصري، ج 2، ص. 31). وهذا مصداق قولنا إن الرجل يسير على منهجية مرسومة ولا يصدر عن رغبات أو نزوات عابرة وقتية، فقد كان يريد توحيد الجبهة الداخلية أولاً. ... وعلى الرغم من كثرة رسل أهل الأندلس وكتبها ترجوه النجدة والنصرة، فإنه لم يتوجه إلى الأندلس إلا بعد أن تمكن من توحيد البلاد

(7543/1)

وتحسين أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية. وقد تحقق له ذلك بعد حوالي ربع قرن تقريباً من توليه السلطة؛ إذ ذاك عبر إلى الأندلس والتحم مع جيوش الإسبان، التي تدعمها قوات إيطالية وفرنسية بمباركة البابا، في معركة الزلاقة الشهيرة عام 479 التي كُتب له فيها

النصر المؤزر.

... وكانت الأوضاع التي واجهت صلاح الدين الأيوبي في المشرق مشابهة لتلك الأوضاع التي عاشها يوسف بن تاشفين في المغرب. فعندما ضعفت الخلافة العباسية، استقل الأمراء بما تحت أيديهم من البلاد. وأمست سلطة الخليفة الفعلية لا تتعدى أسوار قصره حتى يكاد

(1/7544)

ينطبق عليه قول الشاعر:

خليفة في قفص

يقول ما قالا له

بين وصيف وبغا

كما تقول الببغا

... وقد عمل عماد الدين زنكي أتابك الموصل وولده نور الدين على توحيد البلاد قبل الشروع في محاربة الصليبيين. وواصل صلاح الدين هذه المنهجية بعد أن ولي الأمر في مصر عام 564 هـ فهو لم يبادر إلى مهاجمة الصليبيين الذين كانوا يحتلون القدس وجميع الساحل

في بلاد الشام، وإنما أخذ يعمل على توحيد الجبهة العربية الإسلامية أولاً. فقام بفتح بلاد النوبة في جنوبي مصر سنة 568 هـ وفي العام نفسه أرسل حملة إلى برقة وطرابلس الغرب

(1/7545)

وأطراف من تونس. وفي عام 569 هـ، بعث بجيش لفتح اليمن التي كانت تتقاسمها دويلات متصارعة فأعاد الخطبة فيها للخليفة العباسي. وعندما توفي نور الدين زنكي سنة 569 هـ، هدد النزاع بين ورثته تلك الوحدة التي سادت الشام قبل وفاته، وعاد الأمراء إلى منازعتهم وخلافاتهم وتحالفاتهم مع الصليبيين، وآلت الأمور إلى «تشعب الآراء وتوزعها، وتشتت الأمور وتقطعها، وإن كل قلعة حصل فيها صاحب، وكل جانب طمع إليه طالب» كما يقول صلاح الدين في رسالته التي وجهها إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله طالباً منه تقليداً جامعاً بمصر

(1/7546)

والمغرب (أي غرب مصر) واليمن والشام ليتمكن من مجابهة الصليبيين. وقد وصله هذا التقليد عام 570 هـ (القلقشندي، ج 13، ص. 81).

... وقد استغرق توحيد الجبهة الإسلامية سبعة عشر عاماً منذ أن أصبح صلاح الدين وزيراً في مصر عام 564 هـ حتى أصبح مستعداً لمنازلة الصليبيين. وفي خلال تلك الفترة كان صلاح الدين يناوش الصليبيين حيناً، ويهادنهم حيناً آخر، ويرد اعتداءاتهم أحياناً أخرى، ولكنه لم يبادر إلى مهاجمتهم، لكي تتاح له فرصة استكمال توحيد الجبهة الإسلامية وإصلاح الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وإتمام الاستعدادات

(7547/1)

العسكرية. وقد توجت جهوده المضنية تلك بانتصاره على الصليبيين في معرفة حطين الشهيرة التي دارت رحاها سنة 583 هـ (1187/7/4).

8. 4 ـ لماذا التخلص من ملوك الطوائف في الأندلس وأمراء المدن في المشرق

... عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس بدعوة من أهلها، ملوكاً وفقهاء ورعايا. وهكذا قام بالجهاد وانتصر في

موقعة الزلاقة الشهيرة عام 479 هـ كما ذكرنا، وقفل راجعاً إلى المغرب، ولم يدر بخلده أن يعزل ملوك الطوائف أو يضم الأندلس إلى ملكه. ولكن الأوضاع سرعان ما تدهورت، لأن ملوك الطوائف عادوا إلى سابق عهدهم من

(1/7548)

الخصومات والمناكفات والتآمر بعضهم على بعض والتحالف مع العدو. فاضطر يوسف ابن تاشفين إلى أن يعود ثانية إلى الأندلس مجاهداً سنة 481 هـ وثالثة عام 483 هـ، وأخيراً، تأكد له أن لا مناص من عزل ملوك الطوائف وتوحيد الأندلس داخلياً ومع المغرب. ويمكن تلخيص الأسباب التي دعته إلى اتخاذ قراره بما يلي:

... أ ـ كتب يوسف بن تاشفين إلى ملوك الطوائف يدعوهم إلى الجهاد سنة 481 هـ، فلم يستجيبوا إلا عبد العزيز صاحب مرسية. فقد كتب القائد المرابطي سير بن أبي بكر، الذي بقي في الأندلس على رأس جيش لحماية بلاد المسلمين،

(1/7549)

إلى ابن تاشفين يقول: »إن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابدة العدو وملازمة الحرب والقتال في أضيق العيش وأنكده، وملوك الأندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد عيش وأطيبه«. (المقري، ج 6، ص. 151).

... ب ـ كانت الخلافات مستعرة بين ملوك الطوائف، مما كان يفت في عضدهم ويضعف شوكتهم. وكان بعضهم يصالح ألفونس السادس، ويدفع له الجزية، ويظاهره على المسلمين، كما فعل عبد الله بن بلكين بن باديس صاحب غرناطة؛ وكما فعل المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وقرطبة بعد أن طلب منه سير بن أبي بكر قائد المرابطين في الأندلس تسليم البلاد.

(7550/1)

(الناصري، ج 2، صص. 52 ـ 54).

... ج ـ كان ملوك الطوائف يسيئون معاملة الرعية بما يفرضونه عليهم من مكوس ومغارم كثيرة، فتشكى الناس والفقهاء في الأندلس إلى يوسف بن تاشفين. فطلب هذا من ملوك الطوائف الرفق بالناس ومعاملتهم بالإنصاف. فوعدوه بذلك، ولكنهم لم يفوا بالعهد.

... ومن المصادفات العجيبة أن قرار نور الدين زنكي بتوجيه جيشه، الذي كان يقوده شيركوه ويضم صلاح

الدين، من الشام إلى مصر سنة 558 هـ، جاء استجابة لطلب من الوزير الفاطمي شاور الذي كان في صراع مع منافسه في الوزارة الضرغام. وكان شاور يعتزم

(1/7551)

الاستعانة بنور الدين زنكي للتخلص من الضرغام. وعندما يتم له ذلك، يستعين بالصليبيين في الشام للتخلص من جيش نور الدين. (ابن خلكان، ج 7، صص. 146 - 147). وعاد شيركوه وجيشه إلى مصر مرة ثانية عام 562 هـ بعد أن علم نور الدين وقائده شيركوه أن شاور كاتب الإفرنج. فاصطدم الجيش بجيش الصليبيين في مصر، وتم الاتفاق على أن يعود كلا الجيشين من حيث أتيا. ثم عاد شيركوه وجيشه إلى مصر عام 564 هـ بعد وصول الصليبيين إليها. وبعد أن تغلب على الصليبيين، رأى ضرورة التخلص من شاور واستلام الوزاة بنفسه. وهذا يذكرنا بعبور

(1/7552)

يوسف بن تاشفين المتكرر إلى الأندلس لنصرة المسلمين ومحاربة العدو ثم اقتناعه بضرورة اجتثاث الداء من الجذور والتخلص من ملوك الطوائف.

...

8. 5 ـ موقف المسلمين من خلع ملوك الطوائف وأمراء المدن

... ذكرنا أن فقهاء الأندلس وأعيانها هم الذين كتبوا إلى يوسف بن تاشفين يرجونه التخلص من ملوك الطوائف، بل جاءته فتاوى أعلام أهل المشرق مثل الإمام الغزالي والطرطوشي بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم. وعندما كان الجيش المرابطي يتوجه لخلع أحد ملوك الطوائف، فإنه لم يكن يدافع عنه رعاياه. وقد لاحظ ذلك المعتمد بن عباد،

(7553/1)

ملك إشبيلية، وذكره في شعره:

إن تستلب مني الدنى

فالقلب بين ضلوعه

ملكي وتسلمني الجموع

لم تسلم القلب الضلوع

... وقد تكررت هذه الظاهرة عندما قرر صلاح الدين الخطبة للخليفة العباسي بدلاً من الخليفة الفاطمي؛ فقد تلقى الناس الأمر بالقبول، »ولم ينتطح فيه عنزان« كما يقول ابن الأثير.

... ويمكن أن نفسر الأمر بعدم اهتمام الناس بما يجري على مستوى السلطة لانشغالهم باليومي والملموس. كما يمكننا أن نعلل موقف الناس ذاك برغبتهم في قيام جبهة إسلامية موحدة تستطيع مجابهة العدو والتغلب عليه. ولكن الأمر المؤكد الذي

(7554/1)

حفظته لنا كتب التاريخ هو أن المسلمين تلقوا توحيد السلطة بالرضى والقبول.

... بيد أن هذا لا يعني عدم وجود بعض الأفراد، خاصة بعض الشعراء، الذين أحزنهم ذهاب ملوك الطوائف وأمراء المدن الذين كانوا يرعونهم ويغدقون عليهم الهبات.

ومعروف أن ابن اللبانة كان في طليعة شعراء بني عباد في إشبيلية، وقد رثاهم بقصائد عديدة منها تلك القصيدة التي مطلعها:

تبكي السماء بجمع رائح غادي

وكعبة كانت الآمال تعمرها

على البهاليل من أبناء عباد

فاليوم لا عاكف فيها ولا باد

(7555/1)

كما رثى عبد المجيد بن عبدون بني المظفر أصحاب بطليوس بقصيدته التي مطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر

فما البكاء على الأطلال والصور؟

... ونجد وضعاً مماثلاً في المشرق. فعندما وضع صلاح الدين الأيوبي نهاية للخلافة الفاطمية، رثاها شاعرها عمارة اليمني. وعلى الرغم من أن عمارة اليمني لم يكن فاطمياً وإنما شافعياً من زبيد في اليمن، فإنه أعجب بمنجزات الدولة الفاطمية في العلوم والآداب، فرحل إلى القاهرة واتصل بالخلفاء الفاطميين الذين قربوه وأحسنوا إليه. ولهذا فإنه رثى الدولة الفاطمية بقصيدة يقول فيها:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل

هدمت قاعدة المعروف عن عجل

لهفي ولهف بني الآمال قاطبة

وجيده بعد حسن الحلي بالعطل

شقيت، مهلاً، أما تمشي على مهل

على فجيعتها في أكرم الدول

... ولكن صلاح الدين الأيوبي لم يقتل الشاعر بسبب هذه القصيدة، ولم يقتل بسبب انتمائه الطائفي (فقد كان مثله شافعياً). وإنما قتله، لأنه اتهم بالتآمر للتخلص من صلاح الدين الأيوبي وإعادة الخلافة الفاطمية.

9 ـ الخلاصة

... إن الظروف السياسية التي واجهت المسلمين في المشرق خلال القرن السادس الهجري كانت شبيهة إلى حد ما بتلك الظروف التي أحاقت

بإخوانهم في الغرب الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري.

فبعد أن ضعفت الخلافة العباسية في القرن الرابع الهجري، استقل العمال والولاة بما تحت إيديهم من المدن والأراضي، وانشغلوا بانقساماتهم الداخلية وتدنت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البلاد، ما شجع الأوربيين على شن حملات صليبية متلاحقة تحت ذريعة تحرير الأراضي المقدسة. فاحتلوا شواطئ الشام، وأسسوا ممالك متحالفة في بيت المقدس وبقية المدن الساحلية، وأخذت حملاتهم تهدد مصر التي كانت فيها الخلافة الفاطمية في أضعف أطوارها. وكان لابد من إصلاح الأوضاع

(1/7558)

الاجتماعية والاقتصادية في البلاد وتوحيد الجبهة الداخلية قبل التمكن من مقارعة الصليبيين والتغلب عليهم وتحرير القدس. وهذا ما خطط له عماد الدين زنكي وابنه نور الدين الذي أرسل جيشاً إلى مصر ثلاث مرات للدفاع عنها في وجه الحملات الصليبية. وشاءت القدرة الإلهية أن يكون صلاح الدين الأيوبي في ذلك الجيش، ويؤول الأمر إليه في مصر، فيعمل على توحيد الخلافة في العالم الإسلامي ويسير على النهج المرسوم في توحيد

مصر والشام والسودان وليبيا واليمن والحجاز، ويصلح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية استعداداً لمنازلة

(7559/1)

الصليبيين والتغلب عليهم في معركة حطين الشهيرة سنة 583 هـ

... وسيرة هذا البطل الإسلامي ومنهجيته في مجابهة العدو تذكرنا بسيرة بطل إسلامي آخر سطع نجمه في الغرب الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري (قبل قرن تقريباً من صلاح الدين الأيوبي) هو أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذي كان يؤمن بوحدة الأمة الإسلامية.

فحرص على تلقي تفويض الخليفة العباسي والخطبة له وضرب النقود باسمه، ثم توحيد مناطق المغرب المختلفة في دولة واحدة، وإصلاح الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وبناء جيش قوي قبل أن يلبي دعوة مسلمي الأندلس

(7560/1)

ويهب لنجدتهم ويوقف خطر الصليبيين هناك في انتصاره عليهم في معركة الزلاقة الشهيرة سنة 479

هـ وعندما بقى خطرهم ماثلاً بعد ذلك بسبب الخلافات المستمرة بين ملوك الطوائف في الأندلس وتحالف بعضهم مع العدو وتقاعس بعضهم الآخر عن الجهاد، تأكد ليوسف بن تاشفين أن الحل الأساسي يتمثل في التخلص من ملوك الطوائف وتوحيد الأندلس والمغرب في دولة قوية واحدة قادرة على درء خطر الصليبيين.

المراجع التي ورد ذكرها في الدراسة

(7561/1)

إبراهيم محمد حسن الجمل، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قاهر الصليبيين في الغرب وموحد المغرب والأندلس، مطبوعات الشعب، القاهرة، 1976.

ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، 1973.

ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت، 1980.

أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954.

(7562/1)

أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الفكر، بيروت، 1987.

أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1968.

أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار الفكر، بيروت، 1986.

سيدة إسماعيل كاشف، صلاح الدين الأيوبي بطل وحدة الصف العربي الإسلامي وبطل الجهاد في سبيل الله، عالم الكتب، بيروت، 1986.

عبد الحق حموش، ابن تاشفين، دار الكتاب، الدار البيضاء، د. ت.

(7563/1)

عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت.

عبد الكريم كريم، »رضيت أن أفتح القدس وأعمى«، في

مجلة التاريخ العربي، ج 1، 1996، صص. 31 ـ 38.
علي القاسمي، »أخطاء شائعة عن صلاح الدين«، في جريدة العلم، العدد 18033، 1999، ص. 10.
علي بن محمد ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

(7564/1)

علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، بيروت، 1978.
قدري قلعجي، صلاح الدين الأيوبي، دار الكاتب العربي، دمشق، 1979.
مصطفى الزباخ، بنية الخطاب في فن الرسالة المرابطية بالأندلس: قراءة في المشروع الحضاري المغربي بالغرب الإسلامي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1988.
الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة العربية للنشر والتوزيع، الرياض، 1996.

(7565/1)

... تاريخ الحرف العربي المطبوع

... ... الدكتور محمد سديد

... ... كلية الآداب – الرباط

1– نشأة الحرف العربي

ولد الحرف العربي في الجزيرة العربية، وشب في الشام، وبلغ سن الرشد في المغرب والأندلس. ولما أخذ طريق العودة إلى مسقط رأسه، كان يئن تحت وطأة تقنيات الطبع الغربية : هاجر مخطوطا، ورجع مطبوعا. وإذا كانت مراحل تطوره قد حظيت بدراسات عدة، فإن التاريخ سكت عن زمان ولادته ولم يف بأدلة مادية متعددة تمكن الباحث من معرفة الظروف التي ظهرت فيها أول النقوش

(7566/1)

وكيف صارت عربية بعد أن كانت نبطية.

يرجع الفضل في اكتشاف الأدلة المادية على أصل الخط العربي إلى بعثات علمية أجنبية نقبت في بعض أرجاء ميلاد الحضارة العربية والدين الإسلامي

(1) . وتأتينا الإنتاجات العلمية بانتظام عن اكتشافات جديدة حول أصل الكتابات. أما أصل الكتابة العربية، فإنه لم يعرف تقدما ملحوظا منذ استنتاجات ب. موريتز

(2B. Moritz) ( )

_____

(1) خليل يحي نامي، أصل الخط العربي وتطوره إلى ما قبل الإسلام، مطبعة بول باربيي، القاهرة، 1935.

(2) B. Moritz, « Arabie », in Encyclopédie de l'islam, 1ére édition.

(1/7567)

. فكأن التاريخ اكتفى بما أتى به المنقبين الذين رسموا معالم تأريخ الحرف العربي وجعلوه يرتكز على أدلة مادية وعلمية بعد أن كانت كل الآراء مجمعة على أنه اصطلاح. وهنا يجدر بنا أن نتساءل : كيف يمكن تعليل هذا العجز ؟ أيرجع ذلك إلى فقر تاريخنا من الأدلة المادية ؟ أم إلى انصارفنا عنه ؟ أم إلى إعطائنا الأهمية إلى أشياء أخرى ؟ أم إلى عدم وجود كفاءات علمية عربية في هذا المجال ؟ أم أن البحث جار ونجهل نتائجه ؟ أود ترجيح الافتراض الأخير لما لقبله من سلبيات.

(1/7568)

اختلفت الشعوب والحضارات التي استعملت الحرف العربي عبر التاريخ. ونظرا لاتساع خريطتها الجغرافية، فإنه يصعب تتبع خطوات تطور الحرف العربي عن قرب عبر الأمصار والأقاليم ؟ (1)

تزامن ميلاد الكتابة العربية مع ميلاد الدين الإسلامي. هذا ما أجمع عليه الباحثون (2) . إلا أنه أغفل أن الإسلام أعطى الكتابة العربية رسالة مكنتها من التطور والانتشار.

---

(1) عبد الفتاح عبادة، انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والغربي، القاهرة ، 1915.

(2) سهيلة ياسين الجابوري، أصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الأموي، بغداد ، 1977.

(7569/1)

نشأت في كنفه إلى أن صارت كتابة دين، وهاجرت في ظله لتصبح كتابة دين ودولة. وهكذا التصق تطور الحرف العربي بتطور الدولة الإسلامية لكونه لم يقتصر، منذ بداية أمره، على كتابة اللغة العربية.

ولما كان على رأس الدولة الإسلامية في غالبية الأمر خليفة عالم طالما اقترن اسمه بالحركة العلمية ونشرها

ووزير كاتب يهتم بالحركة الخطية وإصلاحها، فقد حظي الحرف العربي باهتمامه جعله يتخطى أولى العقبات التي اعترضت مسيرته.

2- تطور الحرف العربي

(7570/1)

قبل التطرق للحرف العربي المطبوع والمشاكل التي عرفها عبر تاريخه، يجدر بنا أن نتعرض - ولو بإيجاز - لمراحل تطوره، وذلك منذ نشأته إلى اكتمال بنيته.

خضع الحرف العربي المخطوط عبر تاريخه لعمليتين إصلاحيتين أساسيتين :

- العملية الأولى : إصلاح في المضمون نتج عنه زيادة التنقيط والحركات لضبط اللغة العربية في لسان الأعاجم على أثر الفتوحات الإسلامية.
- العملية الثانية : إصلاح في الشكل أدى إلى تقنين رسم الحرف العربي وتنسيق تركيبته وتوازنه الشكلي وضبطه (1)

---

(1) عثمان بن سعيد الداني ، المحكم في نقط المصاحف، دمشق ، 1960.

(7571/1)

.

وتعرب هاتان العلميتان عن مدى اهتمام علماء العرب الأوائل بكتاباتهم. كما تترجم أهمية الحرف في مسار التنمية الثقافية والفكرية. والتاريخ الحديث حافل بمثل هذه المواقف الإصلاحية (1) . إذ التقدم الصناعي مرهون بالتقدم العلمي والفكري. ولا يمكن إنجاز تقدم فكري دون كتابة مواكبة للتكنولوجيا الحديثة (شكل 1) (2).

لما نادى المصلحون بتجديد الفكر العربي، أنشئت المعاهد والمجامع لإيجاد الحلول الكفيلة بالنهوض بالحركة

---

(1) M. Sadid, L'alphabet arabe et la technologie, Issesco , 1991.

(2) راجع الأشكال في آخر النص.

الثقافية العربية. ارتأت المؤسسات العلمية آنذاك أن النهضة العربية ترتكز أساسا على حرف عربي يمكنه نشر العلم والمعرفة بين كل طبقات الأمة العربية.

فنظمت هذه المؤسسات حركة تسيير الكتابة العربية. إلا أن هذه الحملة لم تتمخض إلا عن تجسم محنة الحرف العربي أمام التطور التكنولوجي. وهذه المحنة لم تكن بالفعل محنة الحرف العربي نفسه، وإنما كانت محنة الفكر العربي الذي عجز عن تلبية متطلبات كتابته وخلق تقنيات تلائمها (1).

---

(1) حول تسيير الكتابة العربية، يرجع إلى محاضر مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

(7573/1)

ويمكن تعليل نجاح المراحل الإصلاحية الأولى للخط العربي بأنها كانت ناتجة عن إرادة سياسية مركزية قوية وموحدة. أما فشل مساعي المؤسسات العلمية العربية على اختلاف أنواعها، فإنه كان فشلا جماعيا : إذ عجزت عن تشخيص العلة ورصد تقنية مجدية تنبئ بأن الحرف العربي يمكنه مواكبة العلم والتكنولوجيا كباقي الحروف الأخرى. لكن قضية الحرف ليست مسألة فردية.

3– ظهور الحرف العربي المطبوع

ظهر الحرف العربي المطبوع في أوربا والفكر العربي

في شبه سبات. كانت بواكير طباعة الحرف العربي في ألمانيا بمدينة ماينس (Mayence) سنة

(7574/1)

1489. إذ أراد أحد رجال الدين الدومينيكين، يدعى برنار ده بريدنباخ (Bernaed de Berydenbach) ، وصف مدينة القدس على أثر رجوعه من رحلة إلى الشرق. فكانت رحلته أول كتاب أوروبي مطبوع تضمن حروفا عربية (1) . وكانت هذه البداية انطلاقا لاستعمال الحرف العربي في مستهل الكتب اللاتينية التي تتحدث عن العرب أو العربية لتبسيط قراءة الأسماء

---

(1) الكتاب بعنوان - Voyage et pièrinage d'outre mer au saint sépiucre de la cité نشره راهب دومينيكي يدعى مارتان روث (Martin Roth) بمطبعة إيراز رويش (Erhard Reuwich) سنة 1486.

(7575/1)

والمصطلحات. وصارت هذه الكتب تحتوي على نصوص عربية كاملة كما هو الشأن في الكتب التي أصدرها

بيدرو ده ألكالا (Pedro de Alcala) بمدينة غرناطة سنة 1505 من الملك فيرديناند (Ferdinand) والملكة إيزابيل (Isabelle) لتنصير مسلمي الأندلس (1).

تعددت المبادرات والمقاربات التي لم يحتفظ التاريخ إلا بأسماء بعضها، وتعددت الإشارات إلى جلها في الكتب المختصة. ويجهل ما آلت إليه الحروف التي استعملت في طباعة هذه النماذج كما يجهل

---

(1) صدر الكتابان في غرناطة سنة 1505 : الأول بعنوان " وسائل تعلم اللغة العربية ومعرفتها"

(7576/1)

والظروف التي صممت فيه وأسماء صانعيها. لقد أغفل التاريخ أسماء هاجرت لأسباب متعددة وعملت في الخفاء طوعا أو كرها في بناء صرح الحضارة الأوروبية.

إن جل المعالم الخطية تؤكد أن مهد الحرف العربي المطبوع كان بإيطاليا، بالفاتيكان، وأن مصممي الحروف كانوا مغاربة أو أن الكتابة التي اتخذت نموذجا لحفر الحروف المطبعية وصبها كانت بخط مغربي أندلسي (1) . ويرجح هذا الاحتمال أسباب عدة نذكر منها :

(1) محمد سديد، "حفريات حول الطباعة بالمغرب" ، مجلة التايخ العربي، عدد 2، صص.253–265.

(7577/1)

أ– اهتمام الكنيسة المسيحية بالحضارة الإسلامية بالأندلس واستقطاب علمائها ومفكريها إلى إيطاليا للاستفادة من خبرتهم، وخاصة في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي؛

ب – صدور مؤلفات عربية عديدة بحروف مطبعية ذات نسق مغربي

(الفاء والقاف)(1) .

ج – وجود بعثات علمية مسيحية بمدارس الأندلس، وخاصة بطليطلة. وكان من بين هؤلاء الطلبة البابا جربير (2)

---

(1) سليم نزهت، تاريخ الطباعة في تركيا، الرياض ، 1993، ص.40.

(2) هو البابا رقك 146، ويدعى سلفستر الثاني (930–1003 م) . رحل من فرنسا إلى الأندلس، فدرس الهندسة والميكانيك والفلك، وأدخل الارقام العربية والساعة

إلى فرنسا. (ارجع ع. بدوي، موسوعة المستشرقين) ، بيروت ، 1984 ص.107

(7578/1)

؛

د – مقام عدة علماء بروما، كالإدريسي (1100 م– 1165 م) والحسن الوزان ( ) (Léon l'Africain1483 م – 1555 م) وغيرهم؛

هـ – اختيار السفير الفرنسي فرانسوا ده سفري ده بريف (F. de Savary Brèves)، على أثر رجوعه م سفارته بالباب العالي سنة 1611، إيطاليا لحفر روفه المطبعية العربية قد يبرره خبرة كافية في صناعة الحروف العربية لم يجدها في فرنسا بالرغم من مهارة الصانع الفرنسي وقتذاك

لم تكن غاية بداية الحرف العربي في بداية أمره نشر العلم والمعرفة، كما هو شأن الحرف اللاتيني، وإنما تطورت صناعته استجابة لمطالب

(7579/1)

عدة أهمها :

أ – الدعاية الدينية :

يعتبر أول كتاب عربي مطبوع وصل إلينا كاملا هو كتاب " صلاة السواعي " (شكل 2). طبع هذا الكتاب على نفقة البابا بولس الثاني سنة 1415 م بمدينة فانو (إيطاليا) قصد دعم الطقس الملكي بالشرق الأوسط ويحتمل أن تكون الحروف المطبعية العربية التي استعملت في طبعه قد دمرت مباشرة بعد صدوره: إذ لا يوجد أثر مطبوع عربي في أوروبا أو في باقي البلدان العربية. والمرجح أن البابا الذي ساعد على نشر الكتاب قد أمر بإتلافها خوفا من أن تستعمل في نشر الكتب الإسلامية. كما أمر البابا بول

(7580/1)

الثالث بإحراق أول مصحف طبعه باكانينو (Paganino) بالبندقية (إيطاليا) سنة 1500 م خوفا من أن ينتشر القرآن بين الأوربيين (1) .

إن صدور كتاب " صلاة السواعي " ، بالرغم من قلة انتشاره وإتلاف النسقة العربية التي استعملت في طبعه، رسم معالم الطريق وحث عرب المشرق على الاهتمام بفن صناعة الحرف العربي وتعلمه. فكانت

مبادرة يوسف الشماس، الذي اقترنت عزيمته بأطماع الكنيسة في الغزو الديني للمشرق، بداية الطباعة العربية في البلاد

---

(1) J. Balagna, L'imprimerie arabe en Occident , Larose, & Maisonneuve 1984, P : 23.

(1/7581)

العربية حيث صدر أول كتاب عربي في بلاد الشام سنة 1610 م (1) .

بقدر ما نعرف المسالك التي سلكتها الحروف العربية في طريقها إلى البلاد العربية، نجهل مصمميها وصانعيها في البلدان الغربية. وهكذا يبدو أن قنوات المعرفة التي صبت في المجتمع الأوروبي لم تكن ذات اتجاهين.

كان لزاما أن يظل نشر المعرفة في البلاد العربية مرهونا بالحظر الباباوي، إلى أن ظهرت مهارات عربية محلية تمكنت من تصميم حرف عربي وطني. ويعتبر عبد الله زاخر أول من تمكن من حفر وصب نسقة

---

(1) P.J.Nasrallh, L'imprimerie au Liban, Harissa, 1949 : P, 4.

(1/7582)

عربية ببلاد عربية. كان ذلك بدير شعير بالشام سنة 1731 م(1).

(شكل 3)

طبع الشام بحروف عربية والطباعة محظورة على مسلمي تركيا بأمر من السلطان بايزيد الثاني منذ سنة 1485 م (2) . ولم يسبق الشام إلى معرفة فن الطباعة إلا المغرب (3).

ب – التعليم :

---

(1) عبد الله زاخر : هو عبد الله بن الصايغ. أب يسوعي، ولد سنة 1680 م بالشام، وتوفي بها سنة 1748م (P.J.nasrallah, Op-cit ., P : 26

(2) خليل صابات، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، مصر، 1966، ص.23.

(3) م. سديد ، "حفريات...."، مرجع مذكور.

(1/7583)

بالرغم من الحظر البابوي لاستعمال الحروف العربية، فإن تقدم تعليم اللغة العربية بأوروبا حتم على أول المستعمرين استعمال الحروف العربية لأغراض غير دينية.

ويعتبر كتاب "النحو" لكيوم بوستيل (Guillaume Postel) أول إنتاج علمي للحرف العربي (1) .

يشكل كتاب بوستيل (postel) بداية الحرف العربي المطبوع. وهي محنة رسختها إنتاجات إيربينيوس (2) (Erpeuis) ودو ساسي (3)

---

(1) G.Postel, Grammaire arabe, Paris, 1538.

(2) توماس إرييوس (1584–1624) . أصدر أول كتاب منهجي للغة العربية الفصحى بليدن سنة 1613 م.

(3) مستشرق فرنسي (1758 – 1838 م) نشر كتابا في نحو اللغة العربية بباريس سنة 1810 م.

(1/7584)

(De Sacy) ومن تلاخم ممن حاولوا إخضاع الحرف العربي إلى مقاييس الحرف اللاتيني، جاهلين أن لكل خط منطقا

وفلسفة خاصة.

تحمل الحرف العربي المطبوع أوزار المستعمرين وأثقال أغلال التقنيات زهاء خمسة قرون ولم ينزعها إلا بخضوعه لمقاييس مصممي برامج مكروسوفت (Microsoft) التي بسطت الحرف العربي وجعلته في مستوى الكتابات التكنولوجية، إذ أسندت اختيار الحرف حسب موضعه من الكلمة إلى برنامج محكم، وهو الشيء الذي كان يشكل عقبة أمام الطابع العربي.

(1/7585)

وهكذا، ما كاد يتحرر الحرف العربي من رقابة الكنيسة حتى أسرعت خطاه وتعددت نماذجه ونسقاته. اختلف الصانعون في تصميمه، فكان اختلافهم رحمة على اللغة العربية. وتعددت أطماع الأوربيين، فكان ذلك سبب انتشار الطباعة العربية في مراكز تعليمهم.

ونظرا لما كان يوليه القادة الأوربيون للحرف العربي، فقد حرص نابليون (Napoléon) ، وهو في طريقه إلى غزو مصر سنة 1798م، على أخذ نسقات الحروف العربية التي كانت موجودة في مطبعة الفاتيكان (1)

---

(1) François Charles - Roux, Bonaparte gouverneur d'Egypte, Paris, 1936, P . 12 et 13.

(1/7586)

. حملها معه وسيلة غزو فكري. وقد تكررت العلمية نفسها أثناء غزو فرنسا للجزائر، حيث حمل الجيش الفرنسي بين معداته الحربية حروفا مطبعية عربية استعملها في طبع الجرائد والمنشورات وهو محاصر للجزائر سنة 1830 م.

4– رحلة الحرف العربي المطبوع إلى البلدان العربية

ظلت جل البلدان العربية تطبع بحروف عربية مستوردة حتى منتصف القرن العشرين. وقد رأينا أن تصميم الحروف العربية المطبوعة حمل في طياته جهل الأوروبيين لفكر اللغة العربية. إذ حاولوا ترجمية جمالية الخط العربي بحروف معدنية، فتعددت التقويسات والتعريجات كما

(1/7587)

تعددت أشكال الحرف الواحد حتى فاقت العشرة، مما جعل التصفيف البدوي للحرف العربي مكلفا ومضنيا (شكل 5). استورد العرب الحرف العربي المطبوع بعلاته. وفي غياب الدواء، يزداد الداء حدة مع الزمان.

فترى لماذا لم يكن للعرب إقبال على الطباعة بصفتها فنا بالرغم من شغفهم بالكتب ؟ لعل ذلك راجع إلى سببين أساسين. لم تكن العقلية العربية قد استوعبت بعد أهمية الطباعة، مما كان يجعلها تشعر بامتعاض من الحرف العربي المطبوع.

(7588/1)

أثبتت الحملة الإصلاحية التي نظمتها المجامع العلمية العربية بين سنتي 1938 م و 1944 م أن علماء العرب أنفسهم كانوا يجهلون تركيبة الحرف العربي المطبوع وتقنياته (1) . فلم تتضمن المشاريع الإصلاحية التي درست في مختلف جلسات المجامع المذكورة دراسة علمية تطرقت إلى مرفلوجية الحرف العربي. كما لم يناد أحد بضرورة دراسة تكنولوجية الطبع بدل استبدال الحرف أو تغيير معالمه. ولم تتوصل المجامع العربية إلا لحلول جزئية لم تكن في المستوى المطلوب.

---

(1) M. Saif, La éforme de l'écriture arabe et l'imprimenrie, P . 210.

(7589/1)

كاد يعصف العجز الفكري لقادة مفكرينا العرب بأحد مقومات الحضارة العربية لما استبدلت تركيا سنة 1925 م الحرف العربي بالحرف اللاتيني، وتلا ذلك اقتراح قاضي القاهرة عبد العزيز فهمي سنة 1942 م في الصدد نفسه. إلا أن قلاع الحرف العربي كانت متينة أمام هشاشة آراء المجددين وضعف حججهم.

5– واقع الحرف العربي المطبوع

يبدو أن المفكرين والقادة العرب لا يجعلون الحرف العربي في مقدمة أولوياتهم بصفته وسيلة لتقدم فكري وحضاري. وتتجلى هذا في تطور الحرف العربي الآلي الذي لا يواكب الحروف التكنولوجية. إذ لا يوجد ولو مصنع

(7590/1)

واحد للحرف العربي في بلاد عربية. وهكذا يعيد التاريخ نفسه.

يحتوي مخزن المطبعة الوطنية (Cabinet des Ponçons) على ذخيرة كبيرة من الحروف المطبعية العربية تمثل جل الإنجازات الأوروبية في صناعة المحارف والنسقات العربية (شكل 6).

وهذا التعدد كما وكيفا يؤكد مدى اهتمام الأوروبيين بالحرف العربي ومدى مرونة هذا الأخير وطواعيته للإستجابة للمتطلبات التقينة. كما يؤكد عدم وجود مثل هذا التراث في بلاد عربية قلة اكتراثنا بأحد أهم مقومات حضارتنا في عصر تتطور فيه تكنولوجية المعرفة بخطى سريعة. إذ لم تفلح أمة يوما

(7591/1)

أهملت كتابتها. ويخشى أن يؤدي هذا إلى انصراف أبنائنا عن الحرف العربي.

العصر

الحركة الإصلاحية

ملاحظات

الجاهلية (328 م)

عصر الرسول – صلى الله عليه وسلم –والخلفاء الراشدين

10 (632 م) – 40 هـ (661 م)

العصر الأموي الأول 40 هـ (661 م) – 129 هـ (747 م)

العصر الأموي الثاني نهاية القرن الأول الهجري (القرن 8 م)

العصر العباسي 132 هـ (754 م) 254 هـ (876 م)

تكون الأبجدية العربية

تطور بنية الحرف العربي

الحركة الإصلاحية الأولى

(الحركات)

الحركة الإصلاحية الثالثة

(الإعجام)

(7592/1)

الحركة الإصلاحية الثالثة

(تبديل الحركات)

حروف بلا نقط ولا حركات

رسم أبو الأسود الدؤلي الحركات على شكل نقط ملونة مخصصا لكل حركة لونا

وضع الإعجام نصر بن عاصم ويحيى ابن يعمر وأدما النقطة في أصل الحرف باللون نفسه.

وضع الخليل بن أحمد الحركات الحالية لرفع الخلط الذي وقع بين نقط الإعجام ونقط الحركات

شكل 1 – مراحل إصلاح الخط العربي

(7593/1)

تاريخ العلم عند المسلمين

... ... الدكتور محمد السيد علي بلاسي

... ... عضو هيئة التدريس بجامعة الأزهر

... ... والخبير الدولي لمنظمة الإيسيسكو ـ القاهرة

... لقد فجر الإسلام تاريخاً نسب إليه في العصر الوسيط، واهتم المؤرخون بتتبع حركات الفتوح الإسلامية التي وصلت إلى حدود الهند شرقاً وإلى جنوب فرنسا غرباَ ...

على أن التاريخ الإسلامي ليس فتحاً عسكرياً فحسب بل هو إلى جانب ذلك حضارة متسعة باتساع الفتوح فيما بين الشرق والغرب(1)

---

(1) أحمد صبحي منصور، تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية (كتاب مقرر على طلاب السنة النهائية لكلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر)، (المقدمة، ص أ)، دون ذكر الطباعة والتاريخ.

(1/7594)

.

... فالإسلام الذي نادى بالتوحيد استطاع أن يشعر ذلك العالم المشتت الأطراف بوحدته، وأن يجعل هذه البيئة المترامية الأطراف تشعر بأنها تكون حضارة واحدة يربطها سمط واحد؛ وعن الإسلام نشأت الحضارة العربية؛ ومن الحضارة العربية تولد العلم العربي الذي ساهم في تكوينه مفكرون من مختلف القوميات والجنسيات: سريانيون وفرس وصابئة ومسيحيون ونساطرة ويونانيون وأقباط وعبرانيون وأتراك وذميون، ولكن بلسان عربي وفي ظل الدين الحنيف(1)

---

(1) أحمد سعيد الدمرداش، »مسيرة الفكر العلمي عبر التاريخ«، مجلة المنهل السعودية، الحلقة الأولى، العدد 450، جمادى الأولى، سنة 1407 هـ، ص. 123.

(1/7595)

.

... ومن هذا المزيج الإنساني كان الفكر الإسلامي إنسانياً أكثر منه إسلامياً !

... والحقيقة أن نسبة هذا الفكر للإسلام نسبة تفتقر للدقة العلمية. فالإسلام منهج إلهي محدد بكتاب سماوي معجز. ومطلوب من المسلمين جميعاً أن يسيروا في حياتهم الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية وفق ذلك التوجيه القرآني. إلا أن المفروض شيء، والواقع شيء آخر. وكما حدث بعض الانحراف عن المنهج الإسلامي السياسي بحيث وقعت حروب بين المسلمين، فقد كان الفكر الإسلامي مرتبطاً بتراثهم القومي قبل الفتح، أكثر منه ارتباطاً بالقرآن

(1/7596)

والسنة.

... وساعد على هذه السقطة أن المسلمين نظروا للقرآن بصفته معجزة موجهة للعرب فقط، فهو معجز للعرب فقط، ونسوا أن القرآن معجز للإنس والجن في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة، وأن نهايات العلوم قد ورد ذكر بعضها في القرآن الكريم، كما أن منهجه العلمي التجريبي لم ترق إلى نظيره أي اجتهادات إنسانية؛ ولا أدل على ذلك من أن عصرنا العلمي الراهن لا يستطيع أن يخالف ما جاء في القرآن الكريم من حقائق علمية ! ولو اتخذ المفكرون الأوائل من القرآن الكريم رائداً، لوفروا على أنفسهم وعلى الإنسانية قروناً من البحث

(7597/1)

والرقص على أنغام السابقين من اليونان والهنود.

...

إسلامنا دين العلم والمعرفة

... لقد كان أول أثر من آثار القرآن في الفكر الإنساني اهتمامه الواسع بالعلم. قال الله تعالى {إقرأ باسم ربك الذي خلق}. (العلق: 1). فهذا هو أول خطاب إلهي إلى النبي – صلى الله عليه وسلم –، وفيه دعوة إلى القراءة والكتابة والعلم(1)، لأنه شعار دين الإسلام؛ ذلك بأن

العلم أساس التقدم والتعاون، وتبادل الخبرات والمنفعة. وقد كانت عناية القرآن بالعلم تفوق حد الوصف !

---

(1) المرجع نفسه (المقدمة: ص أ، ب بتصرف).

(7598/1)

... تأمل القرآن الكريم وتدبر آياته، تجده يدعو إلى تحكيم العقل والمنطق في مظاهر الكون وأحداث الماضي.

... ولقد اشتمل القرآن على ست وثلاثين ومئتين وستة آلاف آية، منها خمسون وسبعمائة آية كونية وعلمية احتوت أصولاً وحقائق تتصل بعلوم الفلك والطبيعة وما وراء الطبيعة والأحياء والنبات والحيوان وطبقات الأرض، والأجنة والوراثة والصحة الوقائية والتعدين والصناعة والتجارة والمال والاقتصاد، إلى غير ذلك من أمور الحياة، واحتوت باقي الآيات على الأصول والأحكام في المعاملات وعلاقات الأمم والشعوب، في السلم والحرب وفي

(7599/1)

سياسة الحكم وإقامة العدل والعدالة الاجتماعية وكل ما يتصل ببناء المجتمع. ذلك بأن القرآن من العمق والاتساع والعموم والشمول بما يقبل تفهم البشر له، أياً كان مبلغهم من العلم، وبما يفي بحاجاتهم في كل عصر، ويتجاوب مع أهل البداوة في يسر، ويبهر في عمقه أهل الحضارة الذين صعدوا في سلم الرقيّ وبرعوا في فنون العلم والمعرفة !(1)

---

(1) الشيخ الصابوني، صفوة التفاسير، من أعلام المفسرين، دار الرشيد، سوريا، ج 20، ص. 581.

(7600/1)

... ولقد حث الإسلام المسلمين على طلب العلم، والتفقه في الدين، والبحث الدقيق في كل مجالاته وفنونه وفروعه، وأن يتحملوا المشاق في سبيل تحصيله وتعلمه، وأن يبذلوا كل طاقاتهم وقدراتهم في طلب المزيد منه.

الحض على العلم

... لقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يشجع طلاب العلم ويرحب بهم، فرحاً بهم وبما يراه – صلى الله عليه وسلم – من حفاوة الملائكة بهم وحبهم لهم، ويعلن ذلك

في صراحة حينما أتاه صفوان بن عال المرادي ـ رضي الله عنه. قال: أتيت النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو في المسجد متكئ على برد له أحمر،

(7601/1)

فقلت له: يا رسول الله! جئت أطلب العلم. فقال: »مرحباً بطالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضاً حتى يبلغوا السماء الدنيا من حبهم لما يطلب«. (رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد).

... ويؤكد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على المسلمين طلب العلم بأسلوب آخر من أساليب الترغيب المحبب الذي اختص به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو لا يقول إلا حقاً، فيقول لأبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه: »يا أبا ذر! لأن تغدو، فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي ألف ركعة«(1)

---

(1) أحمد عبد الرحيم السايح، »دعوة الإسلام إلى العلم«، مجلة المنهل، العدد 453، شعبان 1407 هـ، ص ص. 18 ـ 19 بتصرف.

(7602/1)

. (رواه ابن ماجة بإسناد حسن)(1).

... لذا، فإن من أعظم الواجبات على المسلمين أن يكلفوا جماعة منهم للتفقه في الدين. قال تعالى: {... فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون}. (براءة، من الآية 122).

... يقول المراغي:

---

(1) لمزيد من التفصيل، راجع: لطفي نصر، »كيف يحض الإسلام على طلب العلم؟ «، مجلة الهداية البحرينيّة، العدد 113، رجب 1407 هـ، ص ص. 38 ـ 41.

(7603/1)

... وفي الآية إشارة إلى وجوب التفقه في الدين والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذي تصلح به حالهم، فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التي يجب على كل مؤمن أن يتعرفها. والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد لهم عند الله من سامي المراتب ما لا يقل في الدرجة عن المجاهد بالمال والنفس في سبيل إعلاء كلمة الله والذود عن

الدين والملة، بل هم أفضل منهم في غير الحال التي يكون فيها الدفاع واجباً عينياً على كل شخص(1).

---

(1) تفسير المراغي، ج 11، ص. 48.

(7604/1)

... وإذا كان نشر العلم من أهم الفروض الإسلامية، فإن من كتم علماً أوجب الله سبحانه وتعالى بيانه للناس فإنه يستحق الطرد من رحمة الله ويلجم يوم القيامة بلجام من نار. ففي الأثر: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – »من علم علماً فكتمه: ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار«. (رواه أبو داود والترمذي وغيرهما).

... أرأيت إلى هذه الدعوة الصريحة الملحة لإزالة »الأمية« من المسلمين بواسطة المتعلمين حيال إخوانهم في الدين، فما تجد ديناً دعا إلى العلم والتعلم بكل الأساليب كما

(7605/1)

دعا الإسلام أبناءه ومريديه؛ ذلك لأن العلم هو سبيل الخير والرشاد والسعادة في الدنيا والآخرة ...(1).

ممّا أفاد الإسلام به العلم

... لم يكن الإسلام ديناً بالمعنى التقليدي للدين، وإنما هو نظام جديد لا يكتفي بمعالجة القضايا التي عالجتها الأديان من قبله من تنظيم العلاقة بين الفرد وربه فحسب أو تنظيم العلاقة بين الإنسان وأخيه في داخل مجموعة صغيرة، وإنما نراه يلجأ إلى العقل ليحرك به الوعي الذاتي للفرد

---

(1) لطفي نصر، »كيف يحض الإسلام على طلب العلم؟ «، مجلة الهداية، العدد 113، رجب 1407 هـ، ص. 41 وما بعدها.

(1/7606)

ويدفع به إلى الاستقلال في الرأي(1)؛ لذا نجد أن الإسلام قد سلك في دعوته إلى الإيمان بالله وصفاته مسلكاً يثير العقل، وهو الدعوة إلى النظر إلى ما في العالم من ظواهر.

... قال تعالى: {فلينظر الإنسان ممّ خلق}. (الطارق: 5).

... وقال: {أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء}. (الأعراف من الآية 185).

---

(1) أحمد الدمرداش، »مسيرة الفكر العلمي العربي عبر التاريخ«، مجلة المنهل، العدد، 450، جمادى الأولى 1407 هـ (الحلقة الأولى)، ص ص. 123 ـ 124. بتصرف.

(7607/1)

... وقال: {لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون}. (يس: 40).

... وقال: {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب}. (آل عمران: 190).

... هذا الضرب من الآيات الكريمة فيه بعث العقل على النظر في الكون؛ وقد كان لذلك أثره في نمو الحياة العقلية(1)؛ حيث إن مجال استعمال العقل في الإسلام فسيح وعميق عمق الآيات

---

(1) عبد الرحمن البهلول، »الإسلام دين العلم والمعرفة«، مجلة منبر الإسلام القاهرية، العدد 27، السنة 45، رجب 1407 هـ، ص ص. 72 ـ 73. بتصرف.

(7608/1)

التي خلقها الله في الأرض وفي السماء ودعا الإنسان إلى التفكير فيها ! (1).

مواكبة التعليم للدعوة الإسلامية

... ولقد بدأت الحركة التعليمية مع بداية الدعوة الإسلامية بصورة متواضعة تتفق وبداية الدعوة في مكة المكرمة، حيث كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يجتمع بأصحابه والمؤمنين بدعوته في دار الأرقم بن أبي الأرقم أو في بيته ليعلمهم ويرشدهم ويدعم إيمانهم بالله وبمستقبل الدعوة. وحينما انتقل الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى مهاجره

(1) أحمد صبحي، تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية، ص. 8. بتصرف يسير.

الشريف في المدينة المنورة، وأخذت دعوته – صلى الله عليه وسلم – في الذيوع والانتشار، شهد مسجد قباء، ثم المسجد النبوي الشريف .بعد أن بناه – صلى الله عليه وسلم –؛ كما شهدت مرابع هذا البلد الطيب دوحة

العلم والمعرفة وهي تنمو بسرعة، فتمتد أغصانها الخضراء الظليلة في كل اتجاه وهي محملة بأشهى الثمار.

... ولحق الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالرفيق الأعلى بعد أن ضرب أروع الأمثال وأنبل الأهداف بكلماته الحية، وأعماله الخالدة لكل الأجيال القادمة.

(7610/1)

... وتوالت الأيام، وتتابعت السنون ومراكز الثقافة والمعرفة في المجتمعات الإسلامية تتعدد منابعها وتتنوع روافدها. فانتشرت حلقات التدريس في المساجد والجوامع وفي منازل الأئمة والعلماء ودورهم، وكان المسجد النبوي أول جامعة إسلامية يلتقي المئات والألوف من الطلاب فيها حول حلقات التدريس التي يتصدر كل حلقة منها أحد كبار العلماء الذين عرفوا باطلاعهم الواسع وثقافتهم العميقة وقدرتهم على اجتذاب المتعلمين والتأثير فيهم. وهي الطريقة التي كانت متبعة في كافة أنحاء العالم الإسلامي إلى عهد قريب. وقد ساعدت هذه

(7611/1)

الحلقات مع امتداد الأيام سواء ما كان منها في المساجد أو في دور العلماء، ساعدت الكثيرين من الأميين الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة وأرباب المهن والصناعات على أن يصبحوا مع مرور الزمن على درجة كبيرة من العلم والمعرفة. ولقد أصبح هؤلاء العصاميون من طلبة العلم الذين كانوا بالرغم من أميتهم وكفاحهم يملأون المجالس التي يحضرونها علماً وأدباً وثقافة واسعة ومتعددة الجوانب بطريقة تدعو إلى الإعجاب والإكبار ! (1)

---

(1) عبد الرحمن البهلول، «الإسلام دين العلم والمعرفة»، مجلة منبر الإسلام، عدد رجب 1407 هـ، ص. 75.

(7612/1)

مسيرة العلم عند المسلمين عبر التاريخ

... لقد ظلت العناية بالعلم والعلماء هكذا منذ فجر الدعوة الإسلامية، حتى كان عصر الدولة الأموية. فقد كان خلفاء هذه الدولة يعدون أنفسهم حماة للعلم ويرون أن قصورهم يجب أن تكون مركزاً تشع منه الثقافة والعرفان... بدأت بعصر معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول ثم خالد بن يزيد بن معاوية المؤسس الأول

لعلم الكيمياء عند العرب، وازدهرت في عصر عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك

(7613/1)

... ونشطت حركة الترجمة نشاطاً واسعاً في عصر الرشيد والمأمون، وراسل المأمون ملك الروم وأرسل إليه جماعة من العلماء للحصول على الكتب النادرة من علوم الأوائل. واجتمعت في عاصمة الخلافة العباسية أهم كتب الفلاسفة والعلماء من الأغارقة في مختلف الفروع من طب ورياضيات وفلكيات ... وطائفة من الكتب العلمية والحكمية الفارسية والهندية والسريانية ... فتسنى لطلاب المعرفة والعلم في العالم العربي أن يهضموا في سنوات قليلة ما أنفق اليونان وسواهم القرون في إنشائه...

(7614/1)

... وقد كانت الكتب تهدى إلى الخلفاء على سبيل الاسترضاء. ولكن هارون الرشيد لما فتح عمورية وأنقرة، حمل معه إلى بغداد كل ما وجد فيها من المخطوطات

واقتدى به ابنه المأمون.

... وكان العلماء ـ آنئذ ـ يلحُّون في طلب المخطوطات بلا هوادة. وقد حدثنا حنين بن إسحاق عن مخطوط عرف باسم "في البرهان" بقوله: »إنني بحثت عنه بحثاً دقيقاً وجبت في طلبه أرجاء العراق وفلسطين ومصر ... إلى أن وصلت إلى الإسكندرية، لكني لم أظفر إلا بما يقرب من نصفه في دمشق«.

(7615/1)

... وفي غضون حكم المأمون (813 ـ 833 م)، وصلت الجهود الثقافية الجديدة قمتها. فلقد كان المأمون من مفاخر الدولة العباسية علماً وأدباً وفضلاً ونبلاً. ولقد وجه عنايته للعلم وأكرم العلماء وأعلى مجالسهم، وانصرفت همته أيما انصراف إلى نقل العلوم والصناعات من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، حيث عد ذلك من آكد أعماله وأنبل أغراضه، رغبة في رفع شأن أمته وإعزاز جانبها. كما أنشأ الخليفة المأمون في بغداد سنة 830 هـ معهداً رسمياً للترجمة مجهزاً بمكتبة أطلق عليه اسم »بيت الحكمة«. فكان هذا المعهد ـ من وجوه كثيرة

(7616/1)

.أعظم المعاهد الثقافية التي نشأت بعد الفتح الإسكندري والتي أسست في القرن الثالث قبل الميلاد(1).

... وفي عهد المأمون نبغ علماء كثيرون وحكماء وبلغاء وكتاب، ممن كانوا فخر الزمان وحلية الدهر، وعلى كتبهم ومؤلفاتهم .في مختلف العلوم والفنون .شيد الأوربيون حضارتهم الماثلة أمامنا الآن ...(2).

---

(1) الدمرداش، »مسيرة الفكر العلمي«، مجلة المنهل، عدد رجب 1407 هـ (الحلقة الثالثة)، ص ص. 138 ـ 139. بتصرف.

(2) عبد الرحمن البهلول، »الإسلام دين العلم والمعرفة«، مجلة منبر الإسلام، عدد رجب 1407 هـ، ص. 75. بتصرف.

(7617/1)

... وفي حدود سنة 856 م جدد المتوكل مدرسة الترجمة ومكتبتها في بغداد.

... وقد استفادت مجالس العلم من التطور العلمي والترجمة اللذين كانا طابع ذلك العصر. ولما ضعفت الخلافة العباسية في بغداد، انتقل مركز الثقل إلى

الممالك والدويلات الشبيهة بالمستقلة. فالديلم كانت لهم مجالس علم، ثم السلاجقة، ثم الغزنويون والساسانيون.

... ومن هذه المجالس مجلس الوزير ابن الفرات أبي الفضل جعفر في عشرينيّات القرن الرابع الهجري، ومجلس أبي عبد الله الحسين بن سعدان في سبعينيات القرن نفسه. وكان مجلسه حافلاً بجلّة العلماء

(7618/1)

والأدباء، وكان يباهي بمجسله بأمثال أبي حيان وابن مسكويه وأبي الوفاء، ثم مجلس السلاجقة وكان يتصدره الوزير الطغراني العالم الشاعر، ومجلس رابع كان يزدان بأمثال البيروني والفردوسي.

... وقد بدأت هذه »الصالونات« أو الجمعيات العلمية في القصور المصرية منذ ظهرت الدولة الطولونية. وكانت دار الحكمة قد أنشئت بالقاهرة في عهد الحاكم بأمر الله عام 395 هـ على غرار بيت الحكمة في بغداد. وقد حملت إليه الكتب من خزائن القصور وحمل إليها من خزائن الحاكم من الكتب ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد الملوك قط، وأجريت الأرزاق على

(7619/1)

من فيها من العلماء والفقهاء والأطباء! ...

... ومن أشهر العلماء في العصر الفاطمي الطبيب ابن بطلان وعالم البصريات ابن الهيثم: استدعى الحاكم بأمر الله الأول من سوريا، والآخر من العراق.

... وفي تاريخ العلم عند المسلمين ستة يوضعون على القمة في قيادة الحركة العلمية وريادتها هم: المأمون، ونظام الملك، ونور الدين زنكي، والحاكم بأمر الله، وصلاح الدين الأيوبي، والسلطان أولغ بيك في سمرقند.

... ارتبطت هذه الأسماء ارتباطاً وثيقاً. فالأول أنشأ بيت الحكمة، والثاني أسس المدارس النظامية، والثالث كان راعياً

(7620/1)

للعلوم في سوريا، والرابع أنشأ دار الحكمة في القاهرة وجلب العلماء والمخطوطات لها من الأرجاء كافة وأنشأ مرصد المقطم بإشراف ابن يونس الفلكي، والخامس حمى التراث العلمي من غوغاء التتار، والسادس هو مؤسس النهضة العلمية في الدولة التيمورية ونبغ في عصره

جمشيد غياث الدين الكاشي وقاضي زادة رمى وشرع في تأسيس مرصد المراغة.

...

مسارات العلم في الأندلس

... وفي الأندلس أصبحت قرطبة في ظل عبد الرحمن الثاني (821 ـ 852 م) مركزاً هاماً للرخاء الاقتصادي والنشاط الفكري جميعاً وتبوأت مقاماً عالمياً في عهد الخليفة

(7621/1)

الأول عبد الرحمن الثالث (912 ـ 961 م) حامي العلوم والآداب، وبفضل تشجيع مطرد النمو أيضاً تزايدت هذه النهضة في حكم ابنه إلى جميع أصقاع العالم الإسلامي لابتياع الكتب واستنساخها، ووفق في جمع مكتبة غاية في الثراء تقدر محتوياتها بأربعمائة ألف كتاب، كما كانت فهارس كتبها تملأ أربعة وأربعين جزءاً. وكان يساعد الخليفة في هذا النشاط العلمي وزيره محمد بن أبي عامر المتوفى عام 1002 م، وأخيراً كان حكم هشام (976 م ـ 1009 م) الذي ازدهرت العلوم على يديه ...(1)

---

(1) الدمرداش، »مسيرة الفكر العلمي«، مجلة المنهل، العدد 452، رجب 1407 هـ (الحلقة الثالثة)، ص ص. 139 - 141. بتصرف.

(1/7622)

.

...

وحمل الأزهر الشعلة

... وليت شعري أن يظل الحال ظل على ما هو عليه. فلقد انقسم المسلمون على أنفسهم في الأندلس، ومن قبل دهم التتار بغداد - حاضرة العلوم -، بل وأحرقوا ما فيها من كتب وألقوها في دجلة حتى غدت جسراً يعبرون عليه؛ كما قتلوا العلماء، وعطلوا المدارس، وأصبح المسلمون محكومين بقوم من غير جنسهم، كل هذا كوّن غيوماً في سماء المعرفة عند المسلمين. ولكن الله الذي تكفل بحفظ دينه والإبقاء على قرآنه هيأ الأزهر ليكون المكان الذي يشع منه نور العلم والمعرفة. فلقد لجأ العلماء الفارون إليه من وجه

(1/7623)

التتار؛ كما لجأ إليه العلماء المهاجرون من الأندلس، كلهم وجد فيه محطاً لرحاله، ومكاناً صالحاً لأداء رسالته.

... وقد حبب الله إلى سلاطين المماليك أن يميلوا إلى العلم، وأن يقربوا العلماء ويغدقوا عليهم، فتخرج في الأزهر علماء أجلاء لا نزال ننعم بما خلفوه من دراسات واسعة شاملة في شتى ميادين المعرفة، كالسيوطي وابن منظور وابن هشام والسبكي وابن حجر ...

... وقد بقي الأزهر ـ كذلك ـ منارة هادية حين أطبقت الظلمات في العصر العثماني. ولعل شوقي قصد إلى هذه الفترة من تاريخ الأزهر حين قال فيه:

(7624/1)

ظلمات لا ترى في جنحها
قسماً لولاه لم يبق بها
حفظ الدين مليّاً ومضى

غير هذا الأزهر السمح شهابا
رجل يقرأ أو يدري الكتابا
ينقذ الدنيا فلم يملك ذهابا.. ! (1)

... وثمة أسباب أخرى لضعف المسلمين بعد حياة الازدهار

العلمي الذي لم تعرف الدنيا له مثيلاً في وقتها؛ ونحن نرى أن من أعظم هذه الأسباب: أن المسلمين لم يعد يستفيدون من مواقفهم، ولم يعتبروا من ماضيهم،

---

(1) علي محمد حسن العماري، التاريخ الأدبي للعصرين العثماني والحديث، الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية، 1399 هـ، ص ص. 28 ـ 31. فراجعه تجد تفصيلاً.

(7625/1)

فالأمور عندهم أصبحت وقتية تنتهي بانتهاء وقوعها دون عبرة واستفادة !

... ولو قبلنا صفحات ماضينا التليد، لوجدنا أن المسلمين الأوائل كانوا يطبقون مبدأ الاستفادة خير تطبيق.

... ففي غزوة حنين ـ مثلاً ـ على الرغم من كثرة الغنائم التي تركها العدو في انسحابه، فإن المسلمين لم ينشغلوا بالاسيتلاء على غنائم العدو، بل أوغلوا في تعقبه، مستفيدين في ذلك من درس غزوة أحد.

... لذلك وجدناهم في سنين قلائل يفتحون العالم وينشرون الإسلام على ربوعه، ويقيمون حضارة فريدة في وقتها دانت لها جميع الحضارات.

(7626/1)

... أما حين ترك المسلمون مبدأ الاستفادة، فقد ماتت فيهم روح الطموح، وأسلموا راية حضارتهم إلى أعدائهم.

... فالمسلمون في أثناء الحروب الصليبية كانوا يتمتعون بحضارة منقطعة النظير ومتكاملة الجوانب، مزجت تراث اليونان والإغريق والمصريين بأعظم تقدم وابتكار أضافه الإسلام إلى هذه الحضارة .وقت أن كانت أوربا تحيا في ظلام الجهل، وتعيش في محيط التخلف. إلا أن المسلمين حين لاقوا الصليبيين في حروبهم وانتصروا عليهم، راضوا الخمول والكسل، وفترت همتهم وعزائمهم، ولم يستفيدوا من موقفهم مع أعدائهم.

(7627/1)

... أما في الغرب، فقد كان الأثر عكسياً. فقد عرف الأوربيون كيف يعبرون من الهزيمة إلى النصر، ومن الجهل إلى العلم، ومن التأخر إلى التقدم، ومن حياة الدَّعة والخمول والكسل إلى حياة الجد والعمل، ومن حالة اليأس إلى حالة الطموح، فالتهموا الحضارة الإسلامية كالجائع المحروم من الطعام عندما يقدم إليه الطعام الشهي لا يبقي منه شيئاً !

... بهذا أقاموا حضارة من لا شيء!! ذلك لأنهم عرفوا الاستفادة ولو في أحلك الظروف!!(1)

---

(1) محمد السيد علي بلاسي، »لابد أن نستفيد «!، مجلة البريد الإسلامي (وهي مجلة فصلية تصدر عن دار تبليغ الإسلام بمصر)، العدد 7 ـ 9، سنة 1404 هـ، ص ص. 13 ـ 14.

(7628/1)

الأصل والنقل

... الأصالة قدر مشترك بين جميع الحضارات: فكل حضارة أبدعت ونقلت وكانت لها سمة تميزها بين الحضارات العالمية. ولم توجد قط حضارة تفردت بالإبداع أو تفردت بالنقل أو خلت من السمة التي تميزها بين سمات الحضارة.

... إلا أن البدعة الحديثة التي نشأت حول الآرية والسامية قد جنحت بالأوربيين منذ ظهرت فيهم إلى اختصاص الحضارة الإسلامية بالنقل دون الإبداع، وحببت إليهم أن يميزوا عليها حضارات الأمم الآرية ـ ولو كانت شرقية ـ بملكة الإبداع والتفكير الحر، ولا سيما في المباحث النظرية التي يراد بها العلم

(7629/1)

للعلم ولا يراد بها العلم للتطبيق أو للانتفاع به في مرافق المعيشة؛ لأن تمييز الشرقيين الآريين ينتهي إلى تمييز العنصر الأوربي في أصوله الأولى، وهي الدعوى التي يسوغ بها سيادته على أمم العالمين !

... وقال منهم قائلون: إن حضارة العرب التي ظهرت بعد الإسلام كانت حضارة منقولة على أيدي الأعاجم الذين دخلوا الإسلام ! (1)

---

(1) عباس محمود العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ط 2، دار المعارف، 1963، ص ص. 28 ـ 29. بتصرف

(7630/1)

... وأول ما يوجب التشكيك في هذه الدعوى أن نسأل: أين هي الحضارة التي أبدعت ولم تنقل؟ وأين هي الحضارة التي يقال عن جميع علمائها إنهم من عنصر محض خالص ينتمون إليه ولا يمتزج بالعناصر الأخرى؟

... والحقيقة التي لا يشوبها شك أن كل حضارة مبدعة ناقلة، والحضارة الإسلامية ليست بدعاً في هذا المجال، وإنما أطلعت على فكر السابقين من يونان وإغريق

وهنود وفرس وغيرهم من الأمم؛ إلا أن هذه الحضارة تميزت بهضم هذا التراث وأضافت إليه الكثير. فما من أمة تستطيع استيعاب التراث العلمي لغيرها من الأمم التي تفوقها حضارة،

(7631/1)

إلا إذا كانت قد وصلت إلى هذا المستوى من التراث. وقد كانت الأمة الإسلامية جديرة بذلك في وقت قصير. ذلك لأن مظلة العلوم الفقهية وعلوم القرآن والسنة قد أمدتها بإشعاعات أسرعت في تكوين الفيتامينات للفكر العلمي الجديد (1).

... أما عن الفرية القائلة بأن الحضارة الإسلامية ظهرت على أيدي غير العرب، فنقول مجيبين عليهم: إن الإسلام لا يفرق بين جنس وآخر، ما دام الجميع قد دخل تحت مظلته، والحضارة الإسلامية قد اشترك في

---

(1) الدمرداش، »مسيرة الفكر العلمي«، مجلة المنهل، عدد رجب 1407 هـ (الحلقة الثالثة)، ص. 138.

(7632/1)

تكوينها المسلمون من جميع الأجناس، وكان للأمم الأعجمية ـ حقاً ـ قسط كبير في بناء صرحها في مختلف العلوم والدراسات(1). إلا أنه ينبغي أن يعلم أن هذه الأمم الأعجمية لم تنهض هذه النهضة إلا بعد ظهور الإسلام فيها، ولم تكن لها في إبان مجدها القديم فضيلة على العنصر العربي في الدراسات النظرية التي يراد بها العلم للعلم ولا يراد بها العلم للتطبيق أو للانتفاع به في مرافق المعيشة . . .

---

(1) محمد السيد علي بلاسي، »دولة العلماء إلى أين؟ «، جريدة أخبار العالم الإسلامي، العدد 956، ص. 12. فراجعه، تجد تفصيلاً.

(7633/1)

... ومن الثابت أنه ليس كل ما انتقل على أيدي الحضارة الإسلامية عربياً محضاً في الأصول والفروع، ولكن حسبها أنه لم ينقطع على أيديها. فاتصلت بفضلها وشائجه بالتاريخ القديم والحديث، فحفظت تراث الإنسانية كلها وزادت عليه ونقلته إلى من تلاها. وكل حضارة صنعت ذلك فقد صنعت خير ما يطلب من الحضارات(1). كما أن ابتكارات الحضارة الإسلامية في شتى مجالات

المعرفة ـ مما لا يتطرق الشك إليه ـ دليل على أن حضارة الإسلام مبدعة وليست

---

(1) العقاد، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ط 2، دار المعارف، 1963، ص ص. 30 ـ 33. بتصرف.

(7634/1)

ناقلة فحسب، كما يزعم المغرضون الحاقدون !

...

ومضات من ابتكارات المسلمين(1)

أولاً: في الرياضيات

... أ ـ الجبر: اخترعه العرب اختراعاً، ونقلته أوربا باسمه. والخوارزمي هو أول من ألف فيه بطريقة منظمة، واعتمدت أوربا على كتابه "الجبر والمقابلة".

... ب ـ الحساب: ابتكر العرب النظام العشري والصفر، ونقلته أوربا باسمه العربي، ووضع العرب مؤلفات كثيرة في الحساب والنسب العددية والهندسية

---

(1) لمزيد من التفصيل، راجع: المرجع نفسه، ص ص. 34 ـ 129؛ وصبحي منصور، تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية، ص ص. 88 ـ 105.

(7635/1)

والتناسب واستخراج المجهول والجذور.

... ج ـ المثلثات والفلك: وهم واضعو علم حساب المثلثات، وسهلوا حل كثير من المسائل، وربطوا بين الفلك والرياضة، ونبغ في ذلك الطوسي والبيروني والخازن . . .

... د ـ الطبيعة والميكانيكا: عالج ابن سينا سرعة الضوء والصوت. ويعتبر ابن الهيثم في مقدمة علماء الطبيعة في جميع العصور، وهو من أئمة علم الضوء . . .

ثانياً: الكيمياء

... بطلها جابر بن حيان. فقد عرف عمليات التبخير والتقطير والترشيح والتكليس والتبلور، وحضَّر كثيراً من المواد الكيمائية مثل نترات الفضة وكبريتور الزئبق، وقد

(7636/1)

ترجمت كتبه إلى اللاتينية. واشتهر الرازي بالطب والكيمياء. وقد ابتكر أجهزة ووصف أخرى، وكان لمعرفته بالكيمياء أثر في طبه، وقد حضر الأحماض

كحامض الكبريتيك والكحول . . .

ثالثاً: الطب

... لقد عرف العرب المستشفيات، وعنوا بالطب عناية فائقة، ويحدثنا التاريخ: أنه قد دعي إلى الامتحان في بغداد نحو تسعمائة طبيب على عهد المقتدر بالله، وهم غير الأساتذة الثقاة الذين تجاوزوا مرتبة الامتحان، وهي عناية بالطب والصحة لم تشهدها قط حاضرة من حواضر التاريخ القديم. هذا في الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الغربية في أوربا تحرم

(7637/1)

صناعة الطب، لأن المرض - في زعمهم - عقاب من الله لا ينبغي للإنسان أن يصرفه عمن استحقه، وظل الطب محجوراً عليه بهذه الحجة إلى ما بعد انقضاء العهد المسمى بعد الإيمان، عند استهلال القرن الثاني عشر للميلاد، وهو إبان الحضارة الأندلسية . . .

... وكانت مؤلفات العرب في الطب هي عمدة المؤلفات التي اعتمدت عليها أوربا وما زالت في مجال الطب كمؤلفات ابن سينا والرازي وابن الهيثم وغيرهم . . .

... فهذا قبس من ابتكارات المسلمين في بعض العلوم،

وهناك ابتكارات وابتكارات للمسلمين .في شتى مجالات العلوم .لا يكفي لحصرها مجلدات

(7638/1)

ومجلدات، تلك التي بنت عليها أوربا حاضرها بعد ثباتها العميق !

... ولعل هذا كله يلغي تلك الفرية القائلة بأن حضارة الإسلام كانت حضارة ناقلة وليست مبدعة.

... ولا يسعنا أخيراً إلا أن نسوق قول المستشرقة الألمانية المنصفة زيغريد هونكه:

... وإننا لندين .والتاريخ شاهد على ذلك .في كثير من أسباب الحياة الحاضرة للعرب. وكم أخذنا عنهم من حاجات وأشياء زينت حياتنا بزخرفة محببة إلى النفوس، وألقت أضواء باهرة جميلة على عالمنا الرتيب، الذي كان يوماً من الأيام قاتماً كالحاً باهتاً، وزركشته بالتوابل الطيبة النكهة،

(7639/1)

وطيبة بالعبير العابق، وأحياناً باللون الساحر، وزادته صحة وجمالاً وأناقة وروعة . . . (1).

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المراجع

أحمد صبحي منصور، تاريخ الفكر في الحضارة الإسلامية، كتاب مقرر على طلاب السنة النهائية لكلية اللغة العربية ـ جامعة الأزهر، دون ذكر الطباعة والتاريخ.

---

(1) زيغريد هونكه، شمس الدنيا تسطع على أوربا، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقي، ط 6، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1401 هـ، ص. 20.

(7640/1)

هونكه، زيغريد، شمس الدنيا تسطع على أوربا، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقي، ط 6، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1401 هـ

المراغي، تفسير المراغي، الجزء الحادي عشر.

العماري، علي محمد حسن، التاريخ الأدبي للعصرين العثماني والحديث، الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية، 1399 هـ

العقاد، عباس محمود، أثر العرب في الحضارة الأوربية، ط 2، دار المعارف، 1963.

الصابوني، محمد علي، صفوة التفاسير، دار الرشيد، سوريا.

ثالثاً: الدوريات

(7641/1)

أخبار العالم الإسلامي، جريدة أسبوعية تصدر عن إدارة الصحافة والنشر برابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

البريد الإسلامي، مجلة فصلية تصدر عن دار تبليغ الإسلام بمصر.

منبر الإسلام، مجلة شهرية تصدرها وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة.

المنهل، المجلة السعودية الأم، تصدر شهرياً عن دار المنهل للصحافة والنشر بجدة (أعداد متفرقة).

الهداية، مجلة شهرية تصدر عن وزارة العدل والشؤون الإسلامية بدولة البحرين.

...

(1/7642)

تحالف ملوك أرمينيا الصغرى وأنطاكيا الصليبية مع المغول لاحتلال بلاد الشام وتصدي المماليك لهم (644 ـ 723 هـ/ 1246 ـ 1323 م)

... ... الدكتور علاء محمود خليل قداوي

... ... كلية الآداب / جامعة الموصل ـ العراق

... واجهت الأمة العربية الإسلامية في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي (491 هـ/ 1096 م) أشرس غزو استعماري استهدف احتلال أراضيها وتدمير كيانها وحضارتها. ذلك هو الغزو الذي أطلق عليه مؤرخو الغرب اسم الحروب الصليبية أو الحملات الصليبية التي امتدت إلى ما يقرب من قرنين من

(1/7643)

الزمن.

... وتمكنت أولى الحملات من أن تقيم لها في المشرق العربي عدة إمارات صليبية كالرها وأنطاكيا وبيت المقدس وطرابلس. وقد تنبه المسلمون لمخاطر هذه الحركة فوحدوا جهودهم على عهد صلاح الدين الأيوبي الذي أنزل بهم هزيمة قاسية في معركة حطين سنة 583 هـ/ 1187 م، واسترد منهم معظم المناطق التي كانوا قد استولوا عليها بما فيها بيت المقدس(1)،

---

(1) ... بهاء الدين ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، تحقيق جمال الدين الشيال، ط 1، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1964، صص. 75 ـ 96.

(7644/1)

ولم يبق لهم إلا أنطاكيا وطرابلس وبعض الحصون على الساحل الشامي.

... وفي أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي ترافق مع استمرار الخطر الصليبي خطر المغول. والمغول أقوام بدوية اندفعوا من موطنهم الأصلي منغوليا ـ الواقعة في أواسط آسيا ـ بزعامة جنكيز خان وخلفائه

ليغزو بلاد المسلمين ويقضوا على الدولة الخوارزمية والإسماعيلية وليوطنوا بعدها سلطانهم في إيران تمهيداً للقضاء على الدولة العربية الإسلامية ممثلة في الخلافة العباسية(1)

---

(1) ... عن ظهور المغول واحتلالهم إيران، انظر التفاصيل ضمن: القزاز، محمد صالح داود، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، مطبعة النجب، 1970، صص. 3 ـ 17؛ علاء محمود خليل، المغول في الموصل والجزيرة، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى عمادة كلية الآداب ـ جامعة الموصل، 1985، صص. 40 ـ 47.

(7645/1)

. وفي الوقت نفسه، حاول الصليبيون الذين كانت قد فشلت حملتهم السادسة على بلاد الشام في استرداد المسلمين بيت المقدس ثانية منهم سنة 642 هـ/ 1244 م(1)، حاولوا أن يتصلوا بالمغول أعداء المسلمين عن طريق توجيه الدعوات لخاناتهم لإقناعهم باعتناق المسيحية، ومن ثم التحالف معهم لشن حملة صليبية مغولية لتطويق المشرق

---

(1) ... سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ط 3، مكتبة الأنجلو المصرية، 1971، ج 2، ص. 1045؛ ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، 1986، صص. 300 ـ 303.

(7646/1)

العربي الإسلامي وتحطيمه ومن ثم اقتسامه، مثلما حاولت من قبل الإمبراطورية البيزنطية أن تعقد حلفاً بينها وبين الصين لغرض تقويض الدولة العربية الإسلامية التي كانت في بداية نشأتها(1).

... وقد استندت آمال الصليبيين في إمكان تحقيق هذا التحالف على ما وصل إليهم من أخبار عن اعتناق قبيلة الكرايت المغولية الديانة المسيحية(2)

---

(1) ... نظير إحسان سعداوي، الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي، منشورات مكتبة النهضة المصرية، 1961، ص. 116.

(2) ... غريغوريوس الملطي ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص. 226، 230؛ توماس آرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين، مكتبة النهضة المصرية، 1970، ص. 253.

، وعلى ما كان قد أظهره بعض خانات المغول وأمرائهم من تعاطف مع المسيحية. فكيوك خان (644 ـ 646 هـ/ 1246 ـ 1248 م) كانت والدته تدين بالمسيحية، وتولى تربيته الأمير قداق المسيحي. ولما تولى عشر المغول، قرب إليه جينقاق المسيحي وأسند إليه منصب الوزارة. وقد ترك كيوك أمر الحل والعقد في الدولة لهذين الأميرين اللذين اضطهدا المسلمين وأحسنا للمسيحيين(1)

---

(1) ... فاسيلي فلاديميروفتش بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ط 1، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1918، ص. 678 ، 694.

.

... وارتفع كذلك شأن النصارى في عهد منكو خان(1) (646 ـ 655 هـ/ 1248 ـ 1257 م) الذي كانت والدته

سيورقوقيتي، ومربي ولده باتو وكبير وزرائه بلغاي مسيحيين(2). ويعد سرناق الذي منحه منكوخان حق إصدار القرارات الملكية

---

(1) ... ابن العبري، "تاريخ الدول السرياني"، نشر في مجلة الشرق اللبنانية بإدارة آباء جامعة القدس، بيروت، العدد 50، السنة 1956، ص. 10.

(2) ... رشيد الدين فضل الله الهمذاني، جامع التواريخ (خلفاء جنكيز خان)، ترجمة فؤاد عبد المعطي الصياد، ط 1، دار النهضة العربية، بيروت، 1983، صص. 197 ـ 198.

(7649/1)

من ألدِّ أعداء المسلمين(1). وجعل منه المؤرخ السرياني ابن العبري شماساً، وأدخل هذا جماعة كبيرة من المغول في المسيحية(2).

... وإزاء موقف خانات المغول هذه من المسيحية، أرسل البابا إينوسنت الرابع بعثة إلى منغوليا برئاسة الراهب يوحنا بيان دل كاربيني الذي حمل رسالة من البابا بعنوان »إلى إمبراطور التتار وشعبه«، كتبت بأسلوب مليء بالصداقة وبدعوة إلى اعتناق المسيحية. وقد وصل

---

(1) ... بارتولد، تركستان، صص. 691 ـ 692.

(2) ... ابن العبري، "تاريخ الدول السرياني"، مجلة المشرق، العدد 49، السنة 1955، ص. 738.

(7650/1)

كاربيني قراقورم عاصمة المغول سنة 644 هـ/ 1246 م، حيث حظي بحسن استقبال كيوك خان له. غير أن كاربيني فشل في الحصول على موافقة كيوك لتحقيق أهدافه بسبب اشتراط الخان اعتراف البابا وملوك أوربا بسيادته العليا والتبعية له. وحذر كيوك كاربيني من أن البابا يتحمل جميع النتائج المترتبة في حال رفضه الاستجابة لمطالبه(1)

---

(1) ... ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ج 3، ص. 446؛ أرنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة الباز العريني، ط 2، دار النهضة العربية، بيروت، ص. 26؛ M; Cbem, Three Travellers, Moscow, 1968, pp. 12–14.

(7651/1)

.

... عاد كاربيني إلى المقر البابوي في روما فاشلاً سنة 645 هـ/ 1247 م؛ إذ قدم للبابا تقريراً مفصلاً أشار فيه إلى أن المغول لم يخرجوا إلا للغزو. ومع ذلك، لم تخب آمال البابا إينوسنت الرابع الذي أرسل بعثة ثانية برئاسة الراهب اسكلين الذي التقى في تبريز القائد المغولي بايجو في أواخر سنة 645 هـ/ 1247 م، إذ أبدى بايجو الاستعداد لعقد تحالف لمناهضة الخلافة العباسية في بغداد والأيوبيين في بلاد الشام؛ وخطته تهدف إلى مهاجمة بغداد، على أن يتكفل الغرب المسيحي بالقيام بحملة صليبية تصرف مسلمي الشام عنه(1)

---

(1) ... رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 3، ص. 446 ـ 447؛ زابوروف، الصليبيون في الشرق، ص. 313.

(7652/1)

.

... ولتحقيق هذا الهدف، أوفد بايجو رسولين هما إيبك وسركيس النسطوري ليرفقا اسكلين في عودته إلى روما. ومع أنه لم يكن لهذين الرسولين سلطان السفراء

المفوضين، فإن آمال الغرب انتعشت من جديد، إن أقاما في روما نحو سنة، ثم أرسل بايجو إبان سنة 646 هـ/ 1248 م مَنِ استدعاهما، فحملهما البابا رسالة أعرب فيها عن أسفه لما جرى من تعطيل التحالف المغولي المسيحي(1)

---

(1) ... السيد الباز العريني، المغول، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ص. 190؛ جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على بلاد الشام (هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989، ص. 261.

(7653/1)

.

... لقد أثارت هاتان البعثتان اللتان بعثهما البابا إينوسنت الرابع قلق العرب المسلمين في بلاد الشام ومصر. لذلك حاول بعض أمراء الأيوبيين ثَنْيَ البابا عن محاولته التحالف مع المغول ضدهم، فأرسلوا إليه عدة رسائل، منها رسالة أمير حمص المؤرخة في سنة 644 هـ/ 1246 م يطلب فيها باسمه ونيابة عن سلطان الأيوبيين الملك الصالح أيوب عدم وضع ثقته في المغول

ويذكره بأن هؤلاء أشد المعادين للمسيح وأكثر الناس همجية وتخريباً(1). ولعل أمير حمص استند في رسالته هذه إلى ما كانت جيوش المغول

---

(1) ... 13Cbem, op. cit., p.

(7654/1)

قد اقترفته على عهد أوكتاي خان من مذابح وخراب وتدمير لمناطق شاسعة من أوربا سنة 639 هـ/ 1241 م حيث وصلت غزواتهم إلى بولندا(1).

... لم يفقد الغرب المسيحيُّ الأمل في إمكان كسب المغول إلى جانبهم، وهكذا أبقوا باب التفاوض مفتوحاً معهم ولم يأخذوا بتحذيرات أمراء الأيوبيين لهم. إذ أرسل

---

(1) ... ابن العبري، "تاريخ الدول السرياني"، مجلة الشرق، العدد 49، السنة 1955، ص. 738؛ إدوارد براون كَرانفيل، تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، مطبعة السعادة بمصر، 1954، د 3، ص. 573.

(7655/1)

إيلجداي نائب الخان في القوقاز وفارس في أواخر سنة 646 هـ/ 1248 م رسالة إلى لويس التاسع ملك فرنسا الذي كان موجوداً في قبرص على رأس الحملة الصليبية السابعة لغزو مصر، أعرب له فيها عما يكنه المغول من عطف وميل للمسيحية؛ فأفرحت هذه الرسالة لويس التاسع الذي بادر بإرسال سفارة من الرهبان الدومنيكان برئاسة أندريا وأخيه ومعهما هدية هي عبارة عن نموذج لكنيسة صغيرة. وعندما وصلت البعثة إلى قراقورم عاصمة المغول، تبين لها أن كيوك قد توفي، فاضطرت البعثة إلى العودة بسبب تأخر انتخاب خان جديد(1)

---

(1) ... العريني، المغول، صص. 190 ـ 191؛ يوسف، العدوان الصليبي، صص. 262 ـ 270؛ زابوروف، الصليبيون في الشرق، صص. 313 ـ 314.

(7656/1)

. ومع فشل هذه البعثة في تحقيق أهدافها، أرسل لويس بعثة ثانية في أوائل السنة 651 هـ/ 1253 م برئاسة الراهب وليم روبروق إلى الخان الجديد منكو يطلب فيها

مساعدته لضرب المسلمين في بلاد الشام ومصر(1). وقد قدم رانسيمان تفصيلات عن هذه البعثة، فذكر أن سفارة روبروق لم تظفر بنجاح كبير، إذ اجتاز في سفره نهر الفولكَا والتقى بالأمير سرتاق باتو الذي اشتهر بميله

---

(1) ... عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، صص. 1100 ـ 1101؛ جوزيف نسيم يوسف، لويس التاسع في الشرق الأوسط، ط 2، مؤسسة المطبوعات الحديثة، 1959، صص. 227 ـ 234.

(7657/1)

للمسيحيين، فبعثه هذا الأخير إلى منغوليا وتولى الإنفاق عليه في سفره على امتداد الطريق التجاري الكبير وتهيأت له أسباب الراحة والأمن على الرغم من أن أياماً بكاملها كانت تنقضي دون أن يشهد في طريقه داراً واحدة، ثم وصل إلى قراقروم، فمثل بين يدي منكوخان في أوائل السنة 652 هـ/ 1254 م وأعلمه فيها منكو بعزمه على مهاجمة المسلمين في غرب آسيا، وبأنه على استعداد لمناقشة ما يصح اتخاذه من إجراء مشترك، على أنه اعترض ذلك عقبة لم يتيسر التغلب

عليها؛ وملخصها أن يعلن لويس تبعيته لمنكو لقاء مساعدته. وهذا ما لم يقبله

(1/7658)

ملك فرنسا. ولهذا غادر وليم روبروق قراقورم في سنة 652 هـ/ 1254 م دون أن يحقق ما كان يحلم به لويس من أن المغول سوف يصبحون أبناء أوفياء لكنيسة روما ويحققون للصليبيين ما كانوا يحلمون به في المشرق العربي الإسلامي، ولا سيما في بلاد الشام وبيت المقدس(1).

تحالف ملوك أرمينيا الصغرى وأنطاكيا الصليبية مع المغول

---

(1) ... تاريخ الحروب الصليبية، ج 3، صص. 510 ـ 511. وعن هذه الرحلة، انظر كذلك: يوسف، العدوان الصليبي، صص. 271 ـ 283.

(1/7659)

... إذا كان الغرب المسيحي قد فشل في تحقيق أهدافه مع المغول، فإن ملوك غرب آسيا المسيحية قد نجحوا في ذلك، بعد أن رضخوا لمطالب خان المغول. فقد ارتأى هيثيوم ملك أرمينيا الصغرى الواقعة بلاده في إقليم قليقية جنوب شرق الأناضول، أن يرسل أخاه كوني تابل سطبل إلى قراقورم سنة 644 هـ/ 1246 م للمشاركة في احتفال تنصيب كيوك للخانية(1)

---

(1) ... ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، مرجع مذكور، ص. 625.

Glubb, J. The Lost Centuries, 1967, p. 248.

... ويلاحظ أن المصادر العربية تطلق اسم "تكفور" على ملوك أرمينيا الصغرى. (انظر: أحمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، 1970، ج 3، ق 1، هامش 3، ص. 237).

(7660/1)

. وقد حصل كوني سطبل على براءة من كيوك تضمن لأخيه وحدة مملكته وحق الاستيلاء على الكثير من القلاع

والحصون التابعة للقوى الإسلامية المجاورة له(1).

... وعلى أثر ذلك، وجد هيثيوم أن الوقت أصبح ملائماً للاستفادة من قوة المغول لضرب الخلافة العباسية واسترجاع بيت المقدس. فقام في السنة 651 هـ/ 1253 م بزيارة منكوخان

---

(1) ... ابن العبري، "تاريخ الدول السرياني"، مجلة المشرق، العدد 50، السنة 1956، ص. 10؛ فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، 1980، م 1، ص. 291؛ العريني، المغول، ص. 199.

(7661/1)

في قراقورم. ويعد هيثيوم أول ملك يقدم من تلقاء نفسه إلى قراقورم، إذ أن الزائرين الآخرين كانوا إما أتباعاً للإيلخان وإما ممثلين لملوك، فاستقبله الخان بكل حفاوة وتكريم. وذكر المؤرخ الأرمني فارتوكرات أن هيثيوم عرض في أثناء لقائه سبعة مطالب، منها دعوة منكو لاعتناق المسيحية، ومساعدة المسيحيين في استعادة الأراضي المقدسة، وطرد الخليفة من بغداد، وتمكين الأرمن من بسط هيمنتهم على كل الأراضي التي

اقتطعت من مملكته. وقد وعد منكوخان بتحقيق هذه المطالب عندما قال لهيثيوم:

(1/7662)

... لولا انشغالنا في أراضي منغوليا، لتوجهت بنفسي إلى الأراضي المقدسة منطلقاً من احترامنا الشديد للسيد المسيح. لذلك سنوكل هذا الأمر لأخينا هولاكو ليقوم بتحقيق هذه المهمة، وسوف يحرر المقدس ويعيدها للمسيحيين. ونتمنى أن يقضي هولاكو على الخليفة باعتباره العدو الأول لنا(1).

... وبعد عدة لقاءات، خرج هيثيوم من هذه الزيارة باتفاق يتضمن:

---

(1) ... 20Cbem, op. cit., p.؛ وانظر كذلك: هارولد لامب، شعلة الإسلام (قصة الحروب الصليبية)، ترجمة محمود عبد الله يعقوب، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، 1967، ص. 564.

(1/7663)

... 1 ـ تبعية هيثيوم للخان الكبير، مقابل ضمان مملكته؛

... 2 ـ تعهد هيثيوم بالمشاركة بكافة قواته مع جيش هولاكو في حملته على ديار بكر وبلاد الشام لقاء تعهد الخان بمنحه بعض المقاطعات ومساعدته في استعادة بيت المقدس؛

... 3 ـ إعفاء كل الكنائس والأديرة المسيحية الخاضعة لحكم المغول من الضرائب؛

... 4 ـ منحه صفة كبير مستشاري الخان في شؤون المسيحيين في غرب آسيا(1).

---

(1) ... رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 3، ص. 512؛ .2Cbem, op. cit., p.

(7664/1)

... وهكذا بدا هذا الاتفاق وكأنه تحالف مغولي صليبي، لأن هيثيوم كان قد أقام تحالفات مع بعض أمراء الصليبيين الذين كانوا قد أعطوه حق التحدث نيابة عنهم في علاقاته بالمغول، ومنهم بوهمند السادس أمير أنطاكية الذي دخل هو أيضاً في التحالف(1).

... وقد باركت كل من فرنسا وروما هذا الاتفاق

واعتبرته إنجازاً كبيراً لتعويض فشل حملتها الصليبية على المنطقة العربية(2)

---

(1) ... لامب، شعلة الإسلام، ص. 564؛ الصياد، المغول في التاريخ، ص. 291؛ R. Grousset, Histoire des Croisades, Paris, 1936, Vol. 3, p. 576.

(2) ... Cbem, op. cit., p. 18.

(1/7665)

، والتي كان يقودها لويس التاسع الذي أنزل به الأيوبيون هزيمة ساحقة في معركة المنصورة في مصر سنة 648هـ/ 1250 م(1).

اشتراك القوات الأرمينية والأنطاكية في حملة هولاكو على ديار بكر وبلاد الشام

... بعد أن تكللت جهود هيثيوم بالنجاح مع منكوخان في عقد تحالف معه، لم يغب عن باله أن يقوم بزيارة لهولاكا والتفاهم

---

(1) ... عن معركة المنصورة وهزيمة لويس التاسع، انظر: جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على مصر (هزيمة

لويس التاسع في المنصورة وفاسكور)، منشورات مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1984، صص. 149 - 195.

(1/7666)

معه على ما يجب أن يتخذه من إجراءات عسكرية لتنفيذ خطة الحملة المغولية على ديار بكر وبلاد الشام، والتي بدأ بتنفيذها بعد أن فرغ هولاكو من احتلاله بغداد سنة 656 هـ/ 1258 م، حيث طلب منه هولاكو أن يسير بجيشه الأرمني ليشارك في حملته على ديار بكر. وأدَّى هيثيوم دوراً بارزاً في إسقاط إمارة ميافارقين الأيوبية فيها وأنزل مع القوات المغولية مذبحة بالمسلمين فيها، بينما جرى الإبقاء على حياة المسيحيين(1)

---

(1) ... ابن العبري رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 3، ص. 524؛ العريني، المغول، ص. 242؛ Grousset, op. cit., Vol. 3, p. 580.

(1/7667)

. كما شارك مع الجيش المغولي في الاستيلاء على نصيبين وحران والرها والبيرة وسروج(1)، ومنها توجه مع هولاكو للاستيلاء على حلب التي أطبق عليها الغزاة في أوائل صفر سنة 658 هـ/ 1260 م. وبالرغم من استبسال صاحبها تورانشاه، فإنه ما لبث أن انهارت قواته ليقتحمها المغول وحلفاؤهم حيث دارت المذابح بالسكان المسلمين دون المسيحيين(2)

---

(1) ... ابن العبري، "تاريخ الدول السرياني"، مجلة المشرق، العدد 50، السنة 1956، 136؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، صص. 1123 ـ 1124.

(2) ... عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ط 1، المطبعة الحسينية المصرية، ج 3، صص. 200 ـ 201؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص. 422؛ جمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، ج 7، صص. 75 ـ 76.

(7668/1)

، وأشعل هيثيوم الجامع الكبير ومساجد المدينة فيها(1). وقد كافأ هولاكو هيثيوم على مشاركته هذه

بأن منحه قدراً من الغنائم التي حازها في حلب، فضلاً عن إضافة بعض أملاك الأيوبيين لإمارته؛ كما جرى بيع أسرى المسلمين في أسواق سيس عاصمة مملكة هيثيوم. وحصل بوهمند أمير أنطاكية الذي قاتل إلى جانب هولاكو على مكافأة مجزية تتمثل في اللاذقية وبعض حصون الأيوبيين التي تقع على الساحل إلى إمارته(2).

---

(1) ... عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص. 1125.

(2) ... رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 3، ص. 526.

(7669/1)

... وصاحب هيثيوم وبوهمند القائد المغولي المسيحي كتبغا على رأس الجيش المغولي إلى دمشق التي أذعنت لهم. ولأول مرة منذ ستة قرون يدخلها ثلاثة أمراء مسيحيين يشقون بموكبهم شوارع المدينة. وقد اغتنم المسيحيون هذه الفرصة للتشفي والانتقام من المسلمين، فنظموا مواكب عامة أنشدوا فيها الأناشيد وحملوا الصلبان وأجبروا المسلمين على أن يقفوا احتراماً لهم؛ ومن امتنع تعرض للسلب والإهانة. وبلغ بهم التحدي أقصاه فدقوا النواقيس وجاهروا بالخمر في

رمضان ورشوه على ثياب المسلمين في الطرقات كما صبوه على أبواب المساجد، ولم

(7670/1)

يستثنوا حتى الجامع الأموي. فضجر المسلمون من تلك الأفعال، ورفعوا شكواهم إلى كتبغا، ولكنه لم يفلح بهم، بل أهانهم وضرب بعضهم، وأخذته موجة من التقوى فجعل يزور الكنائس ويعظم رجالها(1).

... وأتم المغول، في الأسابيع الثلاثة التي أعقبت احتلالهم دمشق، فتح مدن الشام الأخرى، فقتلوا حامية الكرم التي كانت قد

---

(1) ... محمد بن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر ونبيه عبد المنعم، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980، ج 20، ص. 228؛ الصياد، المغول في التاريخ، ص. 296؛ .589, P; 3Grousset, op. cit., vol.

(7671/1)

قاومتهم؛ واستسلمت لهم حامية نابلس وعجلون، وتقدموا نحو غزة التي دخلت في حوزتهم(1). غير أن

قوات المغول وحلفاءهم لم تصل إلى بيت المقدس على الرغم من أن هدف هيثيوم من مشاركته في هذه العمليات كان احتلالها، ولكن انشغال كتبغا بتصفية جيوب المقاومة واستعدادات المماليك في مصر لمواجهته شغلته عن احتلال بيت المقدس.

تصدي الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام للتحالف وإفشاله

---

(1) ... رشيد الدين، جامع التواريخ (الإيلخانيين)، م. 2، ج 1، ص. 313؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، ص. 77.

(7672/1)

... كان هولاكو بعد احتلاله دمشق، قد تلقى خبر استدعائه من قبل أخيه قوبلاي خان لمواجهة تمرد أخيهما الأخر اريق بوكا. ولهذا السبب اضطر العودة إلى قراقورم سنة 658 هـ/ 1260 م(1). وكان في نيته أن يكتفي بما تم له من احتلال، ولا يترك خلفاً له يكمل برنامجه في الاستيلاء على فلسطين ومصر. غير أن إلحاح هيثيوم جعل هولاكو يوافق على أن يترك كتبغا وتحت إمرته

(1) ... رشيد الدين، جامع التواريخ (خلفاء جنكيز خان)، صص. 249 ـ 251؛ جامع التواريخ (الإيلخانيين)، م 2، ج 1، ص. 308؛ Grousset, op. cit., vol. 3, pp. 592–593.

(1/7673)

عشرة آلاف مقاتل لإتمام هذا المشروع(1). وكما ذكرنا آنفاً، فإن كتبغا واصل عملياته العسكرية باحتلال المدن الفلسطينية(2)، ووصل إلى الحدود المصرية باحتلاله غزة(3) وبقي عليه أن يتغلب على قوة إسلامية عظيمة هي قوة المماليك في مصر.

(1) ... ابن العبري، "تاريخ الدول السرياني"، مجلة المشرق، العدد 50، السنة 1956، ص. 137؛ لامب، شعلة الإسلام، ص. 568؛ Grousset, op. cit., vol. 3, p. 593.

(2) ... الكتبي، عيون التواريخ، ج 20، ص. 224.

(3) ... رشيد الدين، جامع التواريخ (خلفاء جنكيز خان)، ص. 313.

(1/7674)

... والمماليك هم في الأصل أتراك غالباً؛ وهم غرباء عن البلاد وأهلها، اضطر الأيوبيون إلى الاستعانة بهم، فكانوا يشترونهم بالأموال ويجعلونهم نواة لجيشهم. وما هي إلا مدة وجيزة حتى نشأ بين زعماء هؤلاء جيل جديد استطاع أن يستأثر بملك البلاد في السنة 548 هـ/ 1250 م. وفي الفترة التي نتحدث عنها كان السلطان قطز ثالث هؤلاء المماليك الذي يحكم في القاهرة(1)

---

(1) ... عن أصل المماليك وتكوين دولتهم، انظر: ستانلي لين بول، طبقات سلاطين الإسلام، ترجمه عن الفارسية مكي طاهر الكعبي، دار منشورات البصري، 1968، صص. 78 ـ 80؛ زابوروف، الصليبيون في الشرق، صص. 316 ـ 317.

(7675/1)

.

... وقبل أن يبرح هولاكو الشام، كان قد أرسل في السنة 658 هـ/ 1259 م رسله إلى السلطان قطز تتضمن كل معاني التهديد والوعيد، ويدعوه فيها إلى الاستسلام وتقديم فروض الطاعة. أما قطز، فإنه رفض الاستسلام(1). وكان قد أعد خطة بعد أن سارعت البقية

الباقية من أمراء الشام ممن أبت عليهم وطنيتهم أن يستسلموا للمغول، إلى التوجه لمصر. وأبدوا استعدادهم للوقوف معاً صفّاً

---

(1) ... عن هذا التهديد ورد قطز، انظر: رشيد الدين، جامع التواريخ (الإيلخانيين)، م 2، ج 1، ص. 311، 313؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ق. 2، صص. 427 ـ 429.

(7676/1)

واحداً في وجه العدو المشترك لإنقاذ الشرق العربي من خطرهم(1). وكانت خطته تقوم على أساس ترك سياسة الدفاع والتحصن في المدن إلى سياسة الهجوم المنظم؛ فقاد جيشه على الطريق الساحلي واسترد غزة بعد أن أوقع بالحامية المغولية فيها(2)

---

(1) ... من أمراء الشام الذين التحقوا بالسلطان قطز صاحب حماه الملك المنصور ابن المظفر الذي كان له دور مشرف في معركة عين جالوت. (انظر: المقريزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص. 423؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، صص. 78 ـ 79).

(2) ... رشيد الدين، جامع التواريخ (الإيلخانيين)، م 2، ج 1، ص. 313.

(7677/1)

. ثم اجتاز عكا بعد أن حصل على وعد من حاميتها الصليبية التي كانت قد ضاقت ذرعاً بتعرضات المغول لأملاكها، مفاده إلا تتعرض لجيشه في أثناء مروره بها(1). فاتجه نحو الأردن. وعندما علم كتبغا بما وقع لحاميته في غزة، استشاط غضباً؛ فأسرع بقواته ومعه النجدات الأرمينية حيث التقى بالقوات المصرية في 15 رمضان سنة 656 هـ/ 1260 م في موقعة عين

---

(1) ... رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 3، صص. 534 ـ 535.

Henry. H, Howorth, History of the mongols ,th Century 19th to 9from the

.202–201, pp. 3, vol. 1888Modon,

(7678/1)

جالوت فدارت الدائرة على القوات المغولية التي سحقت ووقع كتبغا في الأسر ثم قتل بأمر من قطز(1)، وتحطمت الأسطورة التي ذاعت بأن المغول قوة لا تقهر. وجرى بعد ذلك تطهير دمشق وحمص وحماة وحلب وباقي مدن الشام من بقايا المغول والأرمن(2) وعوقب المسيحيون الذين دفعوا الثمن غالياً بسبب عطفهم السابق على المغول، وما اقترفوه من آثام ضد

---

(1) ... رشيد الدين، جامع التواريخ (الإيلخانيين)، م 2، ج 1، صص. 313 ـ 316؛ الكتبي، عيون التواريخ، ج 20، صص. 226 ـ 227؛ تبن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، صص. 78 ـ 80.

(2) ...

(7679/1)

الأهالي المسلمين زمن الاحتلال(1).

... سارت سياسة المماليك بعد عين جالوت وتحرير الشام من المغول على التخلص من بقايا الصليبيين في الشام وإنزال العقاب بمملكة أرمينيا الصغرى ثم المضي في قتال المغول. وبخصوص الأرمن وملكهم هيثيوم، لم ينس سلاطين المماليك زيارته لخان المغول منكو وتحالفه

معه وتحريضه على غزو الشام وما ارتكبه من جرائم مع جند هولاكو سنة 658 هـ/ 1260 م، وهي أمور لا يمكن أن يغفرها له المسلمون. فاستغل السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (658 ـ 676 هـ/ 1260 ـ 1277 م) انشغال ايقاخان ـ ابن

(1) ...

(7680/1)

هولاكو وخليفته في حكم مغول فارس والعراق (667 ـ 680 هـ/ 1265 ـ 1281 م) بالحرب ضد مغول القفجاق المسلمين في جنوب روسيا(1)، لينفرد بهيثيوم وينزل به الجيش المملوكي الذي كان يقوده الأمير سيف الدين قلاوون والملك المنصور صاحب حماة هزيمة ساحقة عند الدربند قرب أنطاكيا، وذلك في ذي القعدة سنة 466 هـ/ 1266 م. وقتل في المعركة أحد أبناء الملك هيثيوم وأسر الابن الثاني، في حين كان هيثيوم نفسه متغيباً عن بلاده في تبريز يستجدي مساعدة المغول. واستثمر المماليك هذا الانتصار، فأغار الأمير قلاوون على عدة مدن

(1) ...

أرمينية هي المصيصة وأذنة وطرطوس وميناء أياس. أما الملك المنصور، فقد اتجه إلى سيس عاصمة أرمينية الصغرى واستولى عليها(1)؛ »فجعل عاليها سافلها«، وأشعل النار فيها فدمرتها وأتت على كنائسها ومقابر ملوكها. وبعد عشرين يوماً من الغارات، عاد الجيش المملوكي ومعه أربعون ألف أسير، ومن الغنائم ما لا يعد ولا يحصى »حتى بيع رأس البقر بدرهمين ولم يوجد من يشتريه«(2). وأخيراً، عاد هيثيوم إلى مملكته ومعه جماعة صغيرة من المغول بعد

(1) ...

(2) ... أبو الفداء، المختصر، ج 4، ص. 3؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ق 2، ص. 551.

أن وقعت الواقعة. وحاول أن يسترد ابنه الأسير من بيبرس، ولكنه لم يستطع ذلك إلا بعد أن تخلى المماليك عن عدة مراكز هامة مثل دربساك التي تتحكم

في طرق المواصلات بين أرمينيا وأنطاكيا ومرزبان ورعبان وشيخ الحديد وكلها تتحكم في الطريق بين الجزيرة الفراتية حيث المغول حلفاء هيثيوم وأرمينيا الصغرى(1). والواقع أن مملكة أرمينيا الصغرى لم تفق

---

(1) ... ابن العبري، "تاريخ الدول السرياني"، مجلة المشرق، العدد 50، السنة 1956، ص. 146 و148؛ أبو الفداء، المختصر، ج 4، ص. 50؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ق 2، صص. 568 ـ 569.

(7683/1)

مطلقاً من تلك الكارثة وصار دورها سلبيّاً بعد ذلك في الأحداث الجارية على مسرح الشرق الأدنى. أما الملك هيثيوم، فإن الصدمة جعلته يترك العرش سنة 667 هـ/ 1269 م لابنه ليون الثالث(1).

... أما إمارة أنطاكية، فدفعت هي أيضاً ثمن تحالفها مع المغول وهيثيوم. إذ قاد بيبرس بنفسه الجيش المملوكي الذي شن هجوماً عاماً على مدينة أنطاكيا في مستهل شهر رمضان سنة 666 هـ/ 1268 م، ولم تلبث أن سقطت فدخلها المماليك وقدموا منها بغنائم

---

(1) ... ابن العبري، "تاريخ الدول السرياني"، مجلة المشرق، العدد 50، السنة 1956، ص. 148.

(7684/1)

طائلة تثير الدهشة: إذ قسمت النقود بالطاسات. أما عدد الأسرى، فكان بالغ الضخامة: فما من جندي في جيش السلطان إلا وحاز مملوكاً وبلغ الفائض من الوفرة ما جعل ثمن الغلام الصبي ينخفض إلى اثني عشر درهماً، في حين لم يتجاوز ثمن الجارية خمسة دراهم(1). ولم تنهض أنطاكيا بعدما حل بها من عقاب مطلقاً(2).

---

(1) ... أبو الفداء، المختصر، ج 4، صص. 4 ـ 5؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ق 2، صص. 567 ـ 568.

(2) ... ابن العبري، "تاريخ الدول السرياني"، مجلة المشرق، العدد 50، السنة 1956، ص. 147.

(7685/1)

... وإذا ضعفت أرمينيا ودمرت أنطاكيا، أصبح بوسع بيبرس أن ينتقم من المغول وغزوهم لبلاد الشام. فأغار على بلاد سلاجقة الأناضول التي كانت مشمولة بالحماية

المغولية، واستطاع أن يمزق الجيش المغولي في الأناضول عند مدينة أبلسنين في ذي القعدة 657 هـ/ 1277 م(1)،

---

(1) ... أبو الفداء، المختصر، ج 4، ص. 9؛ الحافظ شمس الدين الذهبي، دول الإسلام، تحقيق فهيم محمد شلتوت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974، ج 2، صص. 175 ـ 176؛ الكتبي، عيون التواريخ، ج 21، صص. 100 ـ 101؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، ص. 168.

(7686/1)

حيث بلغ عدد قتلاهم ستين وسبعمائة وستة آلاف(1). وعندما سمع أيقاخان بما فعله بيبرس في الأناضول، أسرع إلى أبلستين حيث شاهد قتلاه. وعلى حد قول رشيد الدين الهمداني، فإن إيقا بكى عندما شاهد قتلى المغول مكدسين وحزن على رجاله حزناً شديداً وصب جام غضبه على مسلمي الأناضول ثم عاد إلى بلاده(2) ليتجهز للقيام بحملة كبيرة على بلاد الشام. وبهدف تقوية جبهته، رغب في مشاركة ليون الثالث ملك أرمينية الصغرى في حملته

---

(1) ... المقريزي، السلوك، ج 1، ق 2، صص. 631 ـ 632.

(2) ... جامع التواريخ، م 2، ج 2، صص. 62 ـ 63.

(7687/1)

لطرد المماليك من بلاد الشام واستخلاص بيت المقدس؛ واتفقا على إرسال الرسل إلى البابا إدوارد الأول ملك إنكَلترا لمساعدتهما في إنجاح الحملة. غير أنهما لم يحصلا إلا على وعود فضفاضة(1).

... وبعد أن أكمل إيقاخان استعداداته، خرج بنفسه على رأس حملته ومعه ليون الثالث(2)

---

(1) ... مصطفى طه بدر، مغول إيران بين المسيحية والإسلام، دار الفكر العربي، ص. 25؛ القزاز، الحياة السياسية، صص. 429 ـ 430؛ Howorth, op. cit., vo. 3, pp. 278–281.

(2) ... ابن العبري، "تاريخ الدول السرياني"، مجلة المشرق، العدد 50، السنة 1956، ص. 266.

(7688/1)

. وقد قدر عدد قواتهما بمائة ألف مقاتل(1)، منها ثلاثون ألف نصراني(2)، زحفا بها على وادي نهر العاص، فوصلا أمام حمص، حيث كان جيش المماليك مرابطاً تحت قيادة السلطان الجديد المنصور سيد الدين قلاوون (678 ـ 689 هـ/ 1279 ـ 1290 م). وفي موقعة حمص التي دارت بين

---

(1) ... الذهبي، دول الإسلام، ج 2، ص. 182؛ الكتبي، عيون التواريخ، ج 21، ص. 279؛ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت، 1942، م 7، ص. 216.

(2) ... لامب، شعلة الإسلام، ص. 604.

(7689/1)

الجيشين في 14 رجب سنة 680 هـ/ 1281 م حلت الهزيمة بالمغول الذين قتل منهم خلق كثير. أما ليون الثالث، فقد حلت بجيشه كارثة عندما أوقعه المماليك في كمين في أثناء انسحابه إلى بلادهم. فقد قتل وأسر معظم عسكره(1)،»... بحيث لم يفلت

---

(1) ... ابن العبري، "تاريخ الدول السرياني"، مجلة المشرق، العدد 50، السنة 1956، صص. 266ـ 267؛ رشيد الدين، جامع التواريخ (الإيلخانيين)، م 2، ج 2، صص. 83 ـ 84؛ أبو الفداء، المختصر، ج 4، ص. 15؛ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م 7، صص. 212 ـ 219؛ لامب، شعلة الإسلام، صص. 604 ـ 605.

(7690/1)

منهم إلا دون العشرين «(1).

... وبعد هذه الهزيمة ما لبث أن مات ايقاخان كمداً، وذلك في 20 ذي الحجة سنة 680 هـ/ 1282 م(2)، فخلفه في الحكم أخوه تكودار الذي قلب سياسة معاداة المغول للمماليك رأساً على عقب: إذ أعلن إسلامه، وتسمى باسم أحمد، واتخذ لنفسه لقب سلطان، وأرسل سفارة إلى

---

(1) ... المقريزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص. 698.

(2) ... ابن العبري، "تاريخ الدول السرياني"، مجلة المشرق، العدد 50، السنة 1956، ص. 268؛ رشيد الدين، جامع التواريخ (الإيلخانيين)، م 2، ج 2، ص. 85؛ الذهبي، دول الإسلام، ج 2، ص. 183.

(7691/1)

سلطان قلاوون في شعبان سنة 681 هـ/ 1282 م يعلمه فيها بأنه »مسلم وأنه أمر ببناء المساجد والمدارس والأوقاف وأمر بتجهيز الحجاج، وسأل اجتماع الكلمة وإخماد الفتنة والحرب...«(1). وعندئذ، رد السلطان قلاوون على رسل المغول بتهنئته بالإسلام وطلب أن يكون التحالف بين المماليك والمغول على العدو المشترك (2)

(1) ... المقريزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص. 707.

(2) ... عن النصوص الكاملة للرسائل المتبادلة بين أحمد تكودار وقلاوون، انظر: محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقق مراد كامل، ط 1، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1961، صص. 6 ـ16؛ ص. 69 ـ 71.

(7692/1)

، وهو الصليبيون. ولكن تكودار لم يبق في الحكم طويلاً لينفذ سياسته هذه: إذ ثار عليه بعض قواده وقتلوه في جمادى الأولى 683 هـ/ 1284 م، وأحلوا محله ابن أخيه أرغون في حكم دولة المغول الإيلخانيِّين (1).

... اتبع أرغون سياسة تفيض حماسة لخدمة المسيحيين، فاتفق مع ملك أرمينية ليون الثالث على استرداد الأراضي المقدسة من المسلمين؛ وأرسل أربع سفارات إلى البابوية وإلى ملكي إنكَلترا وفرنسا في السنوات

---

(1) ... رشيد الدين، جامع التواريخ (الإيلخانيين)، م 2، ج 2، صص. 120 ـ 121؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص. 722.

(7693/1)

---

684 هـ/ 1285 م، 686 هـ/ 1287م، 688 هـ/ 1289 م، 690 هـ/ 1291 م، يقترح فيها استعداده للقيام بحملة عسكرية مشتركة لغزو بلاد الشام ومصر. ولكن أرغون لم يلق استجابة صادقة من قادة أوربا الذين كانوا منشغلين بمشاغلهم الخاصة عن الاستجابة والتحرك؛ كما أن حماسهم الديني لاسترجاع الأراضي المقدسة قد ضعف بعد أن بلغتهم أنباء توالي سقوط قلاع الصليبية بيد المسلمين، وآخرها عكا التي حررها السلطان أشرف خليل سنة 690 هـ/ 1291 م (1)

---

(1) ... رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 3، صص.

672 ـ 697؛ **عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص.** 1169؛ .354–348, pp. 3Howorth, op. cit., vol.

(7694/1)

.

... استثمر المماليك حالة الفوضى التي عمت دولة المغول الإيلخانية بسبب الصراع على السلطة في أعقاب وفاة أرغون سنة 690 **هـ/** 1291 **م، استثمرتها بالاستعداد لشن حملة عسكرية تعاقبها الأرمن الذين كان ملكهم قد جدد تحالفه مع المغول. ففي ربيع سنة** 691 **هـ/** 1292 **م، خرج السلطان الأشرف خليل من حلب قاصداً قلعة الروم الواقعة على نهر الفرات، والتي كانت مقر جاثليق الأرمن. وبعد حصار ثلاثين يوماً، تمكن من فتحها وسماها قلعة المسلمين** (1)

---

(1) ... **أبو الفداء، المختصر، ج** 4، **صص.** 26 ـ 27؛ **الكتبي، عيون التاريخ، ج** 23، **صص.** 106 ـ 107؛ **ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م** 8، **صص.** 136 ـ 137.

(7695/1)

. وفي شهر رجب سنة 692 هـ/ 1293 م، تلقى الجيش المملوكي المرابط في دمشق الأوامر من السلطان الأشرف خليل بالزحف على عاصمة الأرمن سيس، فأنفذ هيثيوم الثاني الذي خلف أباه ليون الثالث في حكم أرمينيا الصغرى سنة 688 هـ/ 1289 م الرسل إلى السلطان يعرضون التنازل عن كل ما تبقى من الحصون الشرقية، وهي بهنسا وعرش وتل حمدون فضلاً عن دفع مبلغ كبير من المال لقاء عدم التعرض لبلادهم؛ فقبلها السلطان وأرجأ تحركاته (1).

---

(1) ... المقريزي، السلوك، ج 1، ق 3، ص. 784.

(7696/1)

... ولما وردت الأنباء بمصرع السلطان الأشرف خليل في محرم سنة 693 هـ/ 1293 م وما أعقب ذلك من وقوع اضطرابات داخلية (1)، حمل هيثيوم الثاني على زيارة الإيلخان بايدو (حكم سنة واحدة فقط 694 هـ/ 1295 م) بهدف تجديد التحالف مع المغول. وحدث في أثناء مقامه في مراغه عاصمة المغول أن انتزاع غازان السلطة من بايدو في ذي الحجة سنة 694 هـ/ 1295 م، فتوجه إلى هيثيوم، فبذل له

(1) ... أبو الفداء، المختصر، ج 4، صص. 29 ـ 31؛ الكتبي، عيون التاريخ، ج 23، صص. 149 ـ 155؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، صص. 18 ـ 20.

(1/7697)

يمين التبعية (1) وحصل منه على وعد بمساعدته على استرجاع الأراضي المقدسة حيث أنفذ ثلاث حملات مغولية اشترك فيها الأرمن على بلاد الشام في السنوات 699 هـ/ 1300 م و700 هـ/ 1301 م. وقد كانت الحملة الثالثة سنة 702 هـ/ 1303 م آخر الحملات الكبرى التي قام بها إيلخانات المغول بقصد احتلال بلاد الشام. وبفشلها (2)

(1) ... ابن العبري، "تاريخ الدول السرياني"، مجلة المشرق، العدد 50، السنة 1956، صص. 411 ـ 412.

(2) ... عن الحملات الثلاث، انظر التفاصيل: المقريزي، السلوك، ج 1، ق 3، صص. 886 ـ 888، 908 ـ 909، 930 ـ 937.

(1/7698)

، فشلت جهود إيلخانات المغول والأرمن في انتزاع الأراضي المقدسة من المسلمين. ومع أن أولجاينو "خربندا" الذي خلف غازان على الإيلخانية سنة 703 هـ/ 1304 م كان قد عاضد هيثيوم الثاني ومكنه من الإيقاع بالقوات المملوكية التي كان يقودها نائب حلب سيف الدين قشتمر في أثناء إغارته على سيس في المحرم سنة 705 هـ/ 1306 م حيث قتلوا وأسروا معظم القوة ولم يرجع إلى حلب منهم إلا القليل (1)، فإنه لم يقم بحملات كبرى على بلاد الشام على الرغم من تحريض ليون الرابع ملك

---

(1) ... أبو الفداء، المختصر، ج 4، صص. 51 ـ 52.

(7699/1)

أرمينيا والبابوية وملوك أوربالة(1). وعلى ما يبدو، فإن انصرافه لتسوية مشكلاته الداخلية وحروبه مع مغول القفجاق كانت سبباً لعدم استجابته لهم (2).

... وقد تخلى أبو سعيد الذي خلف أباه أولجاينو سنة 716 هـ/ 1316 م على الإيلخانية، بدافع من إسلامه، عن السياسة القديمة للإيلخانات

---

(1) ... Howorth, op. cit., vol. 3, pp. 575–577.

(2) ... أبو الفداء، المختصر، ج 4، ص. 52؛ حياة ناصر الحجي، العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، حوليات كلية الآداب ـ جامعة الكويت، الحولية الثانية، 1981، ص. 22 ـ 23.

(1/7700)

المغول والتي كانت تقوم على التعاون مع الأرمن والصليبيين الأوربيين ضد المماليك المسلمين إلى سياسة المصالحة والتسامح وإزالة روح العداء والجفاء معهم. وبدأت أول مساعي الصلح من قبل أبي سعيد سنة 717 هـ/ 1317 م(1)، وقابلها المماليك بالود، وأخذت الرسل بين المملكتين يتنقلون أكثر من مرة في السنة بهدف توثيق أواصر المحبة بين الطرفين وإضعاف عوامل النفرة والجفاء بينهما(2)

---

(1) ... المقريزي، السلوك، ج 2، ق 1، ص. 175.

(2) ... أبو الفداء، المختصر، ج 4، ص. 92 ـ 96.

Howorth, op. cit., vol. 3, p. 601.

(1/7701)

. وأسفرت هذه المراسلات في النهاية عن توقيع معاهدة صلح وسلام سنة 723 هـ/ 1323 م فتحت بموجبها الحدود بين الدولتين للتجارة(1) وساد السلام بينهما إلى أن انهارت دولة الإيلخانيين سنة 736 هـ/ 1335 م.

... وهكذا يكون المماليك بهذا الصلح قد حطموا التحالف المغولي الصليبي الأرمني عليهم ومنحهم الفرصة للانتقام من الأرمن بعد تخلي الإيلخانيين عن مساندتهم. ومع أن ملك أرمينيا حاول تجنب

(1) ... أورد المقريزي بعض نصوص اتفاق الصلح بين أبي سعيد والناصر محمد قلاوون سنة 723 هـ (انظر: السلوك، ج 2، ق 1، صص. 209 ـ 210).

هذا الانتقام من خلال التعهد بدفع إتاوة سنوية منتظمة للمماليك وهدايا في حال عدم تعرضهم لبلاده، فإن السلطان الناصر أصر على تنازلهم عن عدد كبير من الحصون والقلاع له. وهذا ما دفع ملك أرمينيا ليون الخامس إلى الاستنجاد بالبابا حنا الثاني والعشرين الذي لم يكن بوسعه سوى أن يرسل بعض الأموال

لمساعدة الأرمن للتصدي لغارات المماليك التي توالت عاماً بعد عام(1)، الأمر الذي دفع ملك الأرمن ليون الخامس إلى إعلان تبعيته للمماليك والاعتذار عما قام به من أعمال ضدهم

---

(1) ... Howorth, op. cit., vol. 3, p. 602–604.

(1/7703)

والوعد بأن »يحمل في كل سنة مائة ألف درهم«(1)، فقبل السلطان الناصر محمد هذه التبعية. وأرسل في سنة 729 هـ/ 1329 م خلعة إلى ليون الخامس الذي لبسها وقبل الأرض بين يدي مبعوث السلطان(2).

... غير أن هذه التبعية سرعان ما نقضها ليون الخامس عندما وصلت إليه أخبار استعداد فيليب السادس ملك فرنسا للقيام بحملة صليبية على الشرق الإسلامي، فأغار ليون على بلاد الشام(3)

---

(1) ... المقريزي، السلوك، ج 2، ق 1، ص. 246.

(2) ... أبو الفداء، المختصر، ج 4، ص. 99.

(3) ... محمد جمال سرور، دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، ص. 231.

(7704/1)

. الأمر الذي دفع السلطان الناصر محمد سنة 735 هـ/ 1335 م على إرسال حملة تعدادها عشرة آلاف فارس بقيادة نائب حلب علاء الدين الطنبغا الذي أنزل الدمار والقتل والأسر في سيس وأذنة وطرطوس وأحرق الزروع وساق المواشي. وفي سنة 737 هـ/ 1337 م، كرر نائب حلب الهجوم ثانية وظل يعمل في الأراضي الأرمينية حتى وافق ملك الأرمن على التنازل عن جزء كبير من بلادهم(1)

---

(1) ... أبو الفداء، المختصر، ج 4، ص. 115، 119؛ أبو بكر بن عبد الله بن إيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق هانس روبرت رويمر، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1960، صص. 397 - 399.

(7705/1)

.

... ومع ذلك، لم يتوقف المماليك عن غاراتهم وضغطهم على الأرمن بقية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر

الميلادي(1) حتى استطاع الأشرف شعبان أن يقضي قضاء مبرماً على دولة أرمينيا الصغرى عندما أمر نائبه في حلب الأمير شقتمر المارديني بغزو أرمينيا سنة 776 هـ/ 1374 م؛ فحاصر عاصمتها سيس، واستطاع فتحها بعد حصار دام ثلاثة أشهر. أما ليون السادس ـ آخر ملوك أرمينيا ـ فقد سيق أسيراً إلى القاهرة(2)، وبقي

(1) ... رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 3، ص. 752.

(2) ... المقريزي، السلوك، ج 3، ق 1، صص. 237 ـ 238.

(7706/1)

فيها حتى أطلق سراحه لقاء فدية قدمها البابا كلمنت السادس وبعض ملوك أوربا، فقضى بقية حياته في باريس(1). وبذلك انتهت دولة أرمينيا الصغرى، وأصبحت جزءاً من نيابة حلب التابعة لسلطنة المماليك في مصر والشام(2).

(1) ... رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 3، ص. 752؛ عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص. 1221.

(2) ... المقريزي، السلوك، ج 3، ق 1، ص. 238.

(7707/1)

تحول التجارة العالمية عن عالم البحر المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح وأثره في العلاقات التجارية بين الإسكندرية والبندقية في مطلع العصر العثماني (923 هـ/ 1517 م)

... ... الدكتور فاروق عثمان أباظه

... ... كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

... تعتبر مدينتا الإسكندرية والبندقية (فينسيا) في مقدمة المدن الواقعة على طريق التجارة العالمية بين جنوبي شمالي حوض البحر المتوسط التي تأثرت ـ إيجاباً أو سلباً ـ باستمرار تدفق تيار هذه التجارة طوال العصور الوسطى، أو تعرضه للتوقف على نحو ما

(7708/1)

الكتاب : مجلة التاريخ العربي

حدث في مطلع العصور الحديثة، عقب اكتشاف البرتغاليين للطريق البحري المباشر الواصل بين غرب أوربا والمحيط الهندي خارج نطاق الطريق البحري القديم. وكان لهذا التحول أبلغ الأثر في النشاط الاقتصادي والحركة التجارية في مدينتي الإسكندرية والبندقية، وخاصة في سنة 923 هـ/ 1517 م عندما انتقلت السلطة في مصر من أيدي المماليك إلى أيدي الأتراك العثمانيين، الذين وقع على عاتقهم إيجاد الحلول الممكنة لمواجهة هذا الموقف الصعب الذي كانت تعاني منه الإسكندرية ومصر كلها بوجه خاص، بل والمشرق العربي كله بوجه عام. وكان حجم

(7709/1)

تلك التجارة العابرة كبيراً، وسلعها متعددة متنوعة، وعائداتها كثيرة مجزية، والعاملون عليها أعداداً كبيرة في مختلف المجالات، ومن مختلف العناصر والأجناس، مما يظهر مدى أهميتها لشعوب كثيرة في مقدمتها سكان مدينتي الإسكندرية والبندقية،

باعتبارهما محطتين هامتين لهذه التجارة، ومركزين أساسيين في استقبالها وتسويقها.

... والإسكندرية كما هو معروف ـ من أعرق مدن العالم وأقدمها. ولم يكن القرار الذي اتخذه الإسكندر الأكبر في عام 331 ق. م. ببناء هذه المدينة عند موقع « راقودة" في الشمال الغربي لدلتا وادي النيل

(7710/1)

العظيم وعلى ساحل مصر الشمالي الغربي المطل على البحر الموسط، نابعاً من فكرة مثالية استهوت الإسكندر عند رؤيته لهذا الموقع الفريد فقط، بل كان فكرة امتزجت فيها المثالية بالنفعية في آن واحد. فقد كان هذا القائد الفاتح يبحث عن عاصمة لمملكته المصرية الجديدة، تكون على اتصال بمقدونيا. ولهذا ينبغي أن تكون هذه العاصمة في مدينة ساحلية تطل على البحر المتوسط الذي يربط مصر بأوربا، وتختص بموقع جميل وجو مثالي تتوافر فيه المياه العذبة والمحاجر الجيرية، فضلاً عن مدخل سهل إلى النيل.

واكتسبت الإسكندرية شهرتها من

(7711/1)

جامعتها العريقة ومكتبتها التي تعتبر أول معهد أبحاث حقيقي التاريخ بحيث أصبحت هذه المدينة قبلة الباحثين(1). وظلت الإسكندرية قرابة ألف عام، أي منذ إنشائها حتى الفتح العربي، عاصمة لمصر، إلى أن اتخذ العرب من مدينة الفسطاط عاصمة للبلاد. وعلى الرغم من ذلك، فقد بقي للإسكندرية دورها الحضاري المؤثر، ليس في تاريخ مصر العام فقط، بل في تاريخ حوض البحر المتوسط بأكمله. وساعدها حينذاك موقعها المتميز على

(1) ... Mostafa El-Abbadi, The Life and Fate of the Ancient Library of Alexxandria (UNESCO, 1990), p. 8.

(7712/1)

أداة هذا الدور؛ كما مكنتها إمكاناتها الاقتصادية من مواصلة القيام بدورها بكفاءة واقتدار، طوال العصور الوسطى وحتى مطلع العصور الحديثة.

... أما مدينة البندقية، فقد تأسست في القرن الخامس الميلادي على شواطئ الأدرياتي الشمالية، وأسسها بعض سكان أوربا الفارين من غارات الهون أثناء اكتساحهم

لوسط القارة الأوربية وشمال شرقي إيطاليا. وأصبحت مدينة البندقية في القرن الحادي عشر الميلادي تتكون من سبع عشرة ومئة جزيرة تربط بعضها ببعض الجسور والقناطر، وأصبح لها أسطول تجاري وحربي ضخم؛ وكما اهتمت جنوة بتجارة غربي

(7713/1)

البحر المتوسط، كذلك اهتمت البندقية بالتجارة الشرقية، تشاركها في هذا جنوة وبيزا. وكان للبندقية مدرستها الفنية الممتازة في الرسم والتصوير الخاصة بها.

... وبدت جمهورية البندقية منذ القرن الحادي عشر الميلادي جمهورية أرستقراطية تركزت السلطة والحكومة فيها في يد فئة من السكان حرصت على المحافظة على حقوقها، حيث تميزت البنية السكانية بنمو الطبقة الوسطى البرجوازية على عكس ما كانت عليه البنية السكانية في معظم أوربا التي خضعت للنمط الإقطاعي، بل إن هذه المدينة احتفظت بدستورها الجمهوري قرابة سبعمائة عام من

(7714/1)

العصور الوسطى، واستطاعت البندقية أثناءها، وهي "ملكة الإدرياتي" كما كان يطلق عليها، أن تشيد عظمتها وقوتها المادية والاقتصادية على التجارة، وتمتعت بنفوذ عظيم في حوض البحر المتوسط، ولها محطاتها التجارية منبثة على شواطئه، وكانت لها علاقات تجارية ومالية قوية بوسط أوربا حيث تقوم بتسويق تجارتها في هذا النطاق، كما توطد فيها نظام البنوك، وكانت لها علاقاتها المتينة مع مصر وشرقي البحر المتوسط ومع العالم الإسلامي تركزت على تجارة الشرقين الأقصى والأدنى، وكانت مركز اتصال حضاري بعيد المدى بين الشرق الإسلامي

(7715/1)

والغرب المسيحي الأوربي.

... وكان دستور جمهورية البندقية فريداً في نوعه، حيث »كانت جمهورية البندقية مثلاً لسلطان الجمهورية الرومانية وعظمتها«، واستطاع دستور هذه المدينة أن يحافظ على سلامها وأمنها الداخلي وأن يرفع ذكرها في العالم. فهو دستور استطاع في ظله كل فرد أن يؤدي

عمله بنجاح، وهو دستور نُظمت فيه السلطات، وكانت فيه كل هيئة أو سلطة رقيبة قوية على الأخرى. ويتكون دستور البندقية من مجلس كبير (480 عضو) من الأشراف، وينتخب أعضاؤه لمدة عام واحد، وهذا المجلس هو حاكم البلاد الفعلي، وبيده السلطة

(7716/1)

التشريعية، وله حق مناقشة أمور الدولة والبلاد؛ كما له الحق في اختيار رجالات الدولة جميعهم من رئيس الدولة وهو "الدُّوج" (Doge) إلى أعضاء مجلس الشيوخ ومجلس العشرة والموظفين المدنيين. وبعد إنشاء المجلس الكبير، أنشئ مجلس صغير ومحكمة الأربعين؛ كما أنشئت هيئة سياسية هدفها تحديد سلطة الحاكم، ووضع أساس مجلس الشيوخ البندقي الذي أخذ شكله النهائي في القرن الثالث عشر وأصبح عدد أعضائه حوالي ثلاثمائة شخص. ومجلس الشيوخ هو أساس الاطمئنان والاستقرار في جمهورية البندقية، فهو يتولى أمور الإشراف على الإدارة

(7717/1)

والضرائب والأمور المالية بصفة عامة؛ كما له حق توجيه السياسة الخارجية. وأما "الدوج"، فهو رئيس الجمهورية ورمز الدولة؛ وهو يرأس جميع المجالس. وقد عاشت جمهورية البندقية ما يزيد على سبعمائة عام، ولم يزعزع قوتها إلاَّ تحول طريق التجارة العالمية عنها وعن حوض البحر المتوسط إلى طريق رأس الرجاء الصالح عبر المحيط الأطلنطي في نهاية القرن الخامس عشر على أيدي البرتغاليين(1).

---

(1) ... محمد مصطفى صفوت، الجمهورية الحديثة، منشأة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 1958، صص. 4 ـ 5.

(7718/1)

... وكانت التجارة العالمية الآتية من بلاد الشرق إلى أسواق أوربا طوال العصور القديمة والوسطى تظفر برواج واسع وتحقق أرباحاً خيالية للمشتغلين بها منذ شحنها في موانئ التصدير الآسيوية والأفريقية المطلة على المحيط الهندي. وكانت هذه التجارة تعبر مصر والشام لتصل إلى عالم البحر المتوسط حيث تستقبلها الموانئ الأوربية التي تقوم بتوزيعها في أسواق أوربا. وكانت مدينتا الإسكندرية والبندقية بحكم موقعهما

المتميز تشكلان محطتين هامتين على هذا الطريق.

وكانت هذه السلع متعددة ومتنوعة، ويتشكل قوامها من البخور والعطور

(7719/1)

والتوابل(1) التي عُرفت تجارتها باسم تجارة الكارم(2)، والعقاقير، والبن، والأقمشة الحريرية، والسَّجاد، والعاج، والأحجار الكريمة، والأخشاب النادرة التي يصنع منها أرقى أنواع الأثاث الفاخر والتحف الثمينة. فالتوابل كان في مقدمتها القرفة والزنجبيل والفلفل وجوز الطيب، واستخدمت في إعداد ألوان الطعام وحفظ

---

(1) ... نعيم زكي فهمي، طرق التجارة ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، ص 192.

(2) ... توفيق إسكندر، بحوث في التاريخ الاقتصادي (مترجم)، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، 1961، ص. 140.

(7720/1)

اللحوم، وأصبح علية القوم من الأوربيين لا يُقبلون على طعام لم يمزج بالتوابل الشرقية(1)؛ كما أقبلت النساء الأوربيات على المسك والعنبر وماء الورد وأنواع العطور والبخور والمنسوجات الحريرية الراقية، وكانت تشاركهم في ذلك أيضاً الكنائس في أوربا. أما العقاقير المتعددة الأنواع مثل الأفيون والكافور والصمغ وغيرها، فكان الأوربيون يستخدمونها في إعداد الدواء ويكتبون عليها ما يدل على استيرادها من بلاد الهند أو بلاد العرب تأكيداً لجودتها(2)

---

(1) ... Sonia Howe, In Quest of Spices, pp. 13– 14.

(2) ... **عبد العزيز محمد الشناوي، أوربا في مطلع العصور الحديثة، ج 1، ص.** 160.

(7721/1)

.

... وكان البن من أهم السلع الشرقية التي انفردت بلاد اليمن في العصور الوسطى بإنتاجه، وأقبل عليه الأوربيون إقبالاً متزايداً، حتى كان هذا المحصول في القرون التالية موضع تنافس حاد بين الشركات

الاحتكارية الأوربية الهولندية (1594) والإنجليزية (1600) والفرنسية (1664)، وبين شركة الهند الشرقية الإنجليزية بوجه خاص وطلائع التجار الأمريكيين الذين حاولوا احتكاره في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مما جعل بريطانيا تعمل على كسر احتكار الأمريكيين لهذه التجارة وتحويلها من ميناء مخا اليمني إلى ميناء عدن الذي

(7722/1)

قامت باحتلاله في 19 يناير 1839(1).

... أما تجارة الأقمشة الحريرية، فقد عُرفت في ديار الشام ومصر منذ القرن الأول قبل الميلاد حيث كان الرومان يحتلون تلك البلاد. وكان الحرير هو المادة الرئيسة في التجارة بين العالم الروماني والصين، إذ كان

---

(1) ... فاروق عثمان أباظة، "التنافس الدولي في جنوب البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر"، ندوة "البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة" التي أقامها سمنار الدراسات العليا للتاريخ

الحديث بكلية الآداب بجامعة عين شمس، 10 ـ 15 مارس 1979، ص. 377.

(7723/1)

الحرير يشكل تسعة أعشار ما يستورده الرومان منها، وكان يصل إلى موانئ صور وصيدا وأنطاكيا والإسكندرية. وفي الموانئ الفينيقية كان يعالج بالأصباغ المختلفة، وأشهرها الأرجوان، حتى يُصبح لباس الأباطرة؛ وفيما بعد أصبح لباس كبار رجال الكنيسة في العصور الوسطى. وكان الحجاج البنادقة والجنويُّون وغيرهم يعودون من الأراضي المقدسة في فلسطين حاملين معهم النسائج الحريرية التي كان الطلب يتكاثر عليها من قبل مراكب البندقية حيث ينشط طلبها من الشرق نشاطاً ملحوظاً(1)

---

(1) ... نقولا زيادة، "الطرق التجارية في العصور الوسطى"، مقال نشر بمجلة تاريخ العرب والعالم، بيروت، السنة السادسة، العددان 71، 72، أكتوبر 1984، صص. 38 ـ 40.

(7724/1)

.

... وكانت التجارة العالمية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى تسلك عدة طرق برية وبحرية من مصادرها الأصلية في بلاد الشرق التي يُطل معظمها على المحيط الهندي حتى تصل إلى الأسواق الأوربية. وكان الحجم الأكبر من هذه التجارة يسير في طرقين، أولهما: طريق البحر الأحمر إلى السويس ثم إلى القاهرة بالقوافل، ومنها على ظهر السفن في فرع رشيد إلى قرب مدينة الرحمانية، ومن هناك إلى الإسكندرية إما بالملاحة في ترعة كانت تصل ما بين النيل والإسكندرية أو على ظهر الدواب(1)؛

(1) ... نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص. 24.

وثانيهما: طريق الخليج العربي ونهر الفرات، ثم إلى حلب ومنها إلى الموانئ الواقعة شرقي البحر المتوسط وإلى موانئ مصر والشام كانت تأتي سفن البنادقة والجنويِّين وغيرهم فتنقل سلع التجارة إلى أوربا. ولما كان سلاطين المماليك يحكمون مصر والشام في نهاية

العصور الوسطى حتى مطلع القرن السادس عشر، فقد كان الطريقان في قبضتهم، وبذلك جنوا فوائد مادية عظيمة من الضرائب الكثيرة التي كانوا يفرضونها على هذه التجارة عند مرورها بالأراضي المصرية والشامية، فضلاً عن احتكارهم لكثير من سلعها المختلفة(1)

---

(1) ... A. T. Wilson, The Persian Gulf, pp. 10–13.

(7726/1)

.

... ومنذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي بدأ ملوك أرغونة يحرصون على إقامة علاقات ودية قوية مع سلاطين المماليك في مصر والشام من أجل رعاية شؤون كاثوليكيّي الشرق وفتح أسواق جديدة لأرغونة في مصر. وقد أثبتت المصالح التجارية والاقتصادية تفوقها على المصالح الدينية في علاقات الأوربيين بالمماليك ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادي، بحيث كان لكل من البندقية وجنوه وأرغونة تجارة نامية مع مصر. وساعدتهم علاقاتهم الطيبة بالمماليك على التدخل لصالح المسيحيين الكاثوليك المقيمين في أراضي الدولة المملوكية

(7727/1)

آنذاك(1).

... وكانت مدينة الإسكندرية تحظى بأهمية بالغة على طريق التجارة الدولية عبر مصر وعالم البحر المتوسط في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. فقد كانت بحكم موقعها على هذا البحر تفوق القاهرة في اتصالها بأوربا مباشرة. وكانت المدينة تزدحم طوال العام بالأجانب الوافدين إليها للتجارة أو للعبور للحج للأماكن المقدسة في سيناء وفلسطين(2). وكان لدول أوربا وعالم

---

(1) ... قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، صص. 97 ـ 98.

(2) ... محمد بن أحمد ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 2، ص. 347.

(7728/1)

البحر المتوسط بصفة خاصة قناصل وسفراء ووكالات وأحياء كاملة وفنادق بالإسكندرية يمارسون فيها حياتهم الخاصة في حرية، وكان السلاطين المماليك قد

سمحوا للحجاج العابرين بدخول الفنادق منذ أواخر القرن الرابع عشر الميلادي بعد دفع رسم سنوي للسلطان. ومن أشهر الفنادق التي كانت تقوم بهذا النوع من الخدمات فندق أهالي مدينة ناربون، وفندق البنادقة، وفندق القطالونيين(1). وكانت الإسكندرية قد خَلَفَتْ مدينة دمياط كميناء مصر الأول على

---

(1) ... W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, T. 2, pp. 434–435.

(1/7729)

البحر المتوسط منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر بعد أن هدم المماليك جزءاً من الميناء وردموا فم بحر دمياط حتى يأمنوا أي غزو أوربي منه. لذا لم يعد في استطاعة السفن الأوربية الكبيرة الوصول إليها، وأصبحت ترسو بالبحر قريباً من مصب فرع دمياط وتستخدم القوارب النيلية بينها وبين الميناء(1). ... ولهذا شهدت مدينة الإسكندرية نشاطاً تجارياً ملحوظاً من النصف الثاني من القرن الخامس عشر وخاصة بعد عام 1453 حتى أن إيرادات الحكومة المملوكية كان معظمها من جمرك

(1) ... نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص. 129.

(7730/1)

الإسكندرية التي كانت تتراوح يومياً ما بين ألف وألفي دينار عدا رسوم السفن والسياح والحجاج. ولا تقل المدينة اتساعاً وأهمية عن أكبر مدن البحر المتوسط التجارية مثل البندقية وجنوه ومرسيليا، ولها عدة أبواب يُفتح أحدُها إلى الميناء حيث يوجد به مرسى البرج للسفن الوافدة من أوربا، ومرسى السلسلة للسفن الوافدة من شمال إفريقيا، وتقِلُّ فيه رسوم الجمارك عن المرسى الأول. وإلى الشرق من ميناء الإسكندرية يقع ميناء "أبو قير" عند بحيرة تعرف باسم "رأس المعدية". ويتصل الميناء بقناة تصل إلى البحيرة ويبعد ميناء " أبو

(7731/1)

قير" حوالي ثمانية أميال شرقي الإسكندرية ويعد مرفأ للسفن السورية القادمة للإسكندرية وتدخله السفن الصغيرة. أما السفن الكبيرة، فتتصل به من البحر

بواسطة القوارب(1).

... وكانت الإسكندرية ترتبط في نشاطها البحري بحركة الملاحة في الموانئ الأخرى سواء بالبحر المتوسط أو البحر الأحمر، خصوصاً ما كان منها يشكل المحط الرئيس للحجاج المسيحيين الوافدين لمصر كميناء الطور في خليج السويس الذي كان المحط الرئيس للحجاج المسيحيين الوافدين لمصر من دير سانت كاترين

---

(1) ... نعيم زكي فهمي، المرجع نفسه، ص. 130 ـ 131.

(7732/1)

بسيناء، وللحجاج المسلمين المتوجهين إلى الحرمين الشريفين بالحجاز أو العائدين منهما. إذ كان الحجاج المسيحيون يهتمون خاصة بمواعيد وصول سفن التجار إلى الطور، نظراً لأن البندقية كانت تضع توقيتاً لسفنها التجارية بالإسكندرية يتفق مع حساب فرق الوقت والتوزيع عن الطور للقاهرة ثم للإسكندرية، وحتى يستطيع الحجاج المسيحيون القاصدون أوربا اللحاق بقوافل التجارة إلى القاهرة والرحيل إلى أوربا على سفن البندقية التي تنتظر المتاجر في الإسكندرية(1)

---

(1) ... J. Hammer, Histoire de l'Empire Ottomane, T. 5, pp. 301–302.

(1/7733)

.

... وتجدر الإشارة إلى أن مدينة الإسكندرية كانت للمغاربة محطة أساسية لهم(1) حيث كانت تقع على طريق الحج والتجارة. ولهذا أنشأوا واستأجروا بها الوكالات والمخازن لتخزين السلع التي يجلبونها من الهند والشرق الأقصى، وموانئ شبه الجزيرة العربية، والموانئ الواقعة في الجانب الشرقي من البحر المتوسط كما كَوَّن المغاربة تنظيماتهم الاجتماعية في الإسكندرية وأخذوا يؤدون دورهم في بيئتها الحضارية في العصور الوسطى(2)

---

(1) ... عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المغاربة في مصر في العصر العثماني، ص. 58.

(2) ... سعد زغلول عبد الحميد، الأثر المغربي والأندلسي في المجتمع السكندري في العصور الإسلامية الوسطى، ص. 207.

(1/7734)

والحديثة. وينطلق اهتمام المغاربة بالإسكندرية على موانئ مصر الأخرى الواقعة على البحر المتوسط مثل رشيد ودمياط، أو تلك الواقعة على البحر الأحمر مثل السويس والقصير. بل إنهم ربطوا هذه الموانئ عن طريق عمليات الاستيراد والتصدير بالموانئ التجارية العربية الأخرى والموانئ الأوربية التي كان لهم فيها وكالات تجارية، كما كان لهم وكلاء يقيمون بهذه الموانئ(1).

(1) ... عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المغاربة في مصر في العصر العثماني، ص. 58.

(7735/1)

... وتجدر الإشارة كذلك إلى الجاليات الأجنبية الأخرى التي كان لها نشاط تجاريّ ملحوظٌ في الموانئ المصرية المطلة على البحر المتوسط والتي لقيت عناية كبيرة من قبل المماليك في نهاية العصور الوسطى والعثمانيين في العصور الحديثة وخاصة مدينة الإسكندرية. فقد أنشأت السلطات المملوكية على نفقتها فنادق خصصتها للتجار الأجانب. وكانت الإسكندرية تضم عدة فنادق لجاليات أجنبية مختلفة، أولاها وأهمها جالية البنادقة،

ولهم فندقان، على حين فندق واحد لكل من أهل جنوه، وبيزا، وفلورنسا، وانكونا، وبالرمو. وكان لأهل نابلي فندق

(7736/1)

بالاشتراك مع آخرين من الإيطاليين. أما الفرنجة، فكان لهم فنادق خاصة بهم، ولا سيما أهل مرسيليا وناربون وقطالونيه وراجوزة. وبالرغم من أن جزيرة كانديا كانت إحدى مستعمرات البندقية، فإنه وجد لها فندق خاص. وكان لمملكة قبرص قبل غزوة بطرس لوزينان، وليونان الإسكندرية فندق، وللأتراك فندق، وكذلك فندق لكل من المغاربة، والتتار. والمعروف أن التتار بصفة خاصة كانوا يجلبون الرقيق للمتاجرة فيهم. ولذا كان فندقهم عبارة عن سوق للرقيق(1)

---

(1) ... إبراهيم علي طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة 1382 ـ 1517، صص. 283 ـ 284.

(7737/1)

.

... وحرصت السلطات المملوكية كذلك على رعاية الشؤون الروحية للجاليات الأجنبية، فسمح لهذه الجاليات ببناء الكنائس في نطاق الفنادق المشار إليها، فكان لكل فندق كنيسة، ولكل جالية قساوستها، بينما كان للجاليات الكبرى كنائس كبرى مثل كنيسة القديس نيقولا لأهل بيزا، وكنيسة القديسة مارياك للجنويِّين، وكنيسة القديس مشيل للبنادقة(1). وقد ظل هذا الحال على ما هو عليه في عهد العثمانيين في العصور الحديثة.

---

(1) ... W. Heyd, op. cit., p. 433.

(1/7738)

... وكانت سفن البنادقة والجنويين تنقل المتاجر من مصر والشام إلى أوربا في العصور الوسطى، وكانت سفن البنادقة بصفة خاصة تحمل الجزء الأكبر من تجارة الشرق إلى ميناء البندقية(1)، حيث تعرض في سوق ريالتو (Rialto) هناك، لتباع في المزاد العلني للتجار الألمان والإنجليز وغيرهم. وكان سوق "ريالتو" الكبير في البندقية من أشهر الأسواق التجارية في حوض البحر المتوسط، حيث كانت المتاجر الشرقية توضع في عربات

وتزحف بها من هذا السوق متجهة إلى أنحاء أوربا عن طريق سهل

---

(1) ... نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص. 50.

(7739/1)

لومبارديا وممرات جبال الألب، وطريق الراين، لتصل أخيراً إلى تجار التجزئة في شتى البلاد الأوربية ليتلقفها المستهلكون هناك(1). واستطاعت جمهورية البندقية أن توطد علاقتها بسلاطين المماليك.الذين كانوا يحكمون مصر والشام والحجاز .وأن تحتكر معظم المتاجر الشرقية الواردة إلى مصر عن طريق البحر الأحمر أو الواردة إلى موانئ الشام عن طريق الخليج العربي والعراق(2)

---

(1) ... عبد العزيز الشناوي، أوربا في مطلع العصور الحديثة، ج 1، ط 2، ص. 107.

(2) ... محمد رفعت، تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية، صص. 60.

(7740/1)

.

... وقد أنشأت جمهورية البندقية ستة أساطيل بحرية من طراز واحد كانت تمخر عباب البحر المتوسط في نهاية القرن الخامس عشر، وعينت لكل منها الموانئ التي يتردد عليها. واستهدفت من توحيد طراز سفنها أن يكون في استطاعة قناصلها ووكلائها في موانئ البحر المتوسط إمداد السفن بما تحتاج إليه من قطع غيار ذات طراز واحد. وجنت البندقية أرباحاً خيالية من نقل التجارة الشرقية إلى أوربا ومن تصريفها هناك وأصبح الالتحاق بالبحرية مطمحاً ترنو إليه أنظار الشباب أهل البندقية الذين رأوا في البحرية المجال الطبيعي للمال والشهرة

(7741/1)

والمجد.

... ولقيت البندقية منافسة شديدة من جمهورية جنوه في ميادين التجارة الشرقية، وتطورت هذه المنافسة التجارية إلى صراع سياسي حاد أدى فيه البحر المتوسط دوراً حاسماً. وتراءت لهاتين الجمهوريتين الضرورة السياسية في إخضاع البحر المتوسط أو على الأقل الجزء الهام منه لنشاطهما ـ لسيطرة أي منهما. وكانت نتيجة

ذلك أن طالبت البندقية بتقرير سيادتها على البحر الأدرياتيكي، كما ادعت جنوه حقَّ السيادة على بحر ليجوريا. وقد قبلت أوربا ادعاءات هاتين الجمهوريتين لحاجتها الملحَّة إلى التجارة الشرقية، وبخاصة التوابل

(7742/1)

والعطور والعقاقير، وبذلك ظهرت في تاريخ العلاقات السياسية الدولية لأول مرة فكرة سيادة الدولة على البحار(1). ولم يقف التنافس السياسي بين البندقية وجنوه عند هذا الحد، بل قام بينهما صراع حربي بالغ العنف انتهى بهزيمة أهالي جنوه في معركة "كيوجا" (Chioggia). وعلى أثرها عقد صلح "تورينو" سنة 1381 م. ولكن جنوه أخذت تفكر في وسيلة أخرى لحرمان البندقية من مصادر قوتها وثروتها، وذلك بإيجاد طريق بحري متصل تأتي منه السلع الشرقية إلى أوربا(2)

---

(1) ... حامد سلطان، القانون الدولي العام في وقت السلم، ص. 567 ـ 568.

(2) ... عبد العزيز محمد الشناوي، أوربا في مطلع العصور الحديثة، ج 1، ص. 109.

(7743/1)

. وهو ما سيفسر التقارب الذي تم بينهم وبين البرتغاليين في مطلع العصور الحديثة.

... وتجدر الإشارة كذلك إلى دور فلورنسا في النشاط التجاري مع مصر والشام، خاصة وأن أسرة "ميدتشي" الحاكمة في فلورنسا في نهاية العصور الوسطى عملت على توثيق صلاتها التجارية مع السلطات المملوكية(1).

أما أهالي فرنسا وإسبانيا، فقد كانوا

(1) ... نعيم فهمي، المرجع السابق، أشار إلى الامتيازات التجارية التي منحتها السلطنة المملوكية لطائفة الفرنتيين (أهالي فلورنسا) في مصر والشام في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، صص. 439 ـ 381).

(7744/1)

يحصلون على حاجتهم من المتاجر الشرقية من أسواق مصر وشرق البحر المتوسط عن طريق الوسطاء البنادقة والجنويّين(1).

... ونظراً لاشتغال البنادقة بالحجم الأكبر من التجارة الشرقية سواء من ناحيتي النقل أو التسويق، فقد شكلوا أكبر جالية في مدينة الإسكندرية في نهاية

العصور الوسطى؛ كما كان لهم حي خاص. وكان يشرف على مصالحهم قنصل تعيِّنُه جمهورية البندقية. وكان حي البنادقة بالإسكندرية يضم فندقين وحمَّاماً ومخبزاً وكنيسة، كما كانت حكومة المماليك قد أعفتهم من عدة

(1) ... نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص. 20.

(7745/1)

ضرائب وسمحت لهم بالتجارة في اللآلئ والأحجار الكريمة والفراء. ولهذا لم يتردد البنادقة في جلب كل ما تحتاج إليه مصر من السلع الخارجية، حتى الأدوات الحربية التي حرمت البابوية التجارة فيها، كالأسلحة والحديد والأخشاب والرقيق والكبريت والقار، وكذلك بعض المواد الغذائية كالحبوب والزيت، وذلك بالرغم من تشدد البابوات وتكليفهم فرسان الإسبتارية والداوية بمراقبة البحار ومنع وصول هذه المواد إلى المسلمين(1). وقد زادت نسبة اهتمام

(1) ... سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص. 294 ـ 295.

(7746/1)

البنادقة بالتجارة الشرقية بعد فتح الأتراك العثمانيين لمدينة القسطنطينية عام 1453 م حين أضحت التجارة في البلقان وموانئ البحر الأسود صعبة ومحفوفة بالمخاطر. ولذلك وجه البنادقة عنايتهم إلى حوض البحر المتوسط الشرقي، ونشطت أعمالهم التجارية في موانيه ومدنه كالإسكندرية وبيروت وحلب ودمشق(1). وكانت قوافل البندقية التجارية

---

(1) ... نعيم زكي فهمي، المرجع السابق. وقد أشار إلى الاتفاقيات التي عقدها البنادقة مع السلطات المملوكية في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين، صص. 373 ـ 480.

(7747/1)

البحرية تصل إلى مصر مرتين في كل عام في الخريف والشتاء. وكانت القافلة تتكون في العادة ما بين ثمان سفن وثلاث عشرة سفينة، وتقدر حمولتها بمليوني بندقي على أقل تقدير. ولهذا تمتع البنادقة بالمكانة

الأولى بين الجاليات الأوربية في الإسكندرية طوال العصر المملوكي في نهاية العصور الوسطى وأثناء العهد العثماني في مطلع العصور الحديثة(1).

... وتجدر الإشارة إلى أن العملة الأجنبية كانت متداولة في أسواق الإسكندرية في نهاية القرن الخامس عشر وبداية

---

(1) ... شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية، صص. 141 ـ 142.

(7748/1)

القرن السادس عشر. ومن أمثلة هذه العملة عملة البندقية التي تعرف باسم "دوكات" (Ducat) نسبة إلى "الدوج" (Doge). وكانت العملة الخاصة ببلاد الفرنجة في فرنسا وإيطاليا والأراضي المنخفضة المسماة الأفرنتية (جمع أفرنتي)، وهي التي تعرف بالفلورين (Florino)، وإن عرفت العملة الأجنبية بوجه عام باسم "مشخصة"، وذلك بسبب صور القديسين وملوك الفرنجة المنقوشة على وجهيها(1).

---

(1) ... عبد المنعم ماجد، عصر السيوطي، ص. 27.

(7749/1)

... وبعد أن تمكن البرتغاليون من الوصول إلى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح في سنة 1498 م. فقد أخذت التجارة الشرقية التي كانت تصل من المحيط الهندي . الذي كان أشبه بوعاء العسل، بما فيه من خيرات . تتحول إلى طريق رأس الرجاء الصالح، بحيث لم تعد الإسكندرية المركز الرئيس الذي تتجمع فيه السلع الشرقية، فيشتريها البنادقة وغيرهم. ولما أصبح البرتغاليون يتحكمون في منابع هذه السلع من أرجاء المحيط الهندي بعد حركة الكشوف، لم تعد هناك حاجة إلى وساطة الإسكندرية أو البندقية . تلك الوساطة التي أدت إلى ارتفاع

(7750/1)

أثمانها في الأسواق الأوربية. إذ كان ثمن قنطار الفلفل على سبيل المثال يتراوح بين 2,5 و3 بندقيات في قاليوقوط، ويصبح ثمنه بعد وصوله إلى الإسكندرية 80 بندقياً، في حين صار يباع في لشبونه البرتغالية بعد الكشوف الجغرافية بسعر يتراوح بين 20 و40 بندقيّاً،

أي أن أسعار السلع انخفضت بواقع نصف قيمتها على أكثر تقدير. كما أن السفن البرتغالية وفرت على المستهلك الأوربي مشقة الوصول على السلع الشرقية حتى من لشبونه التي أصبحت مركزاً لتجميع هذه السلع وتسويقها، إذ صارت السفن البرتغالية تنقل السلع الشرقية مباشرة إلى

(7751/1)

مناطق الاستهلاك مثل إنجلترا والأراضي المنخفضة وغيرها من الدول الأوربية(1).

... وهكذا ذبلت مدينة الإسكندرية وغيرها من ثغور الدولة المملوكية في مصر والشام والحجاز وأقفرت أسواقها بعد أن انصرف عنها التجار الأوربيون نتيجة لتحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين. ويقول ابن إياس عن مدينة الإسكندرية في حوادث سنة 920 هـ/ 1514 م، عندما زارها السلطان الغوري، إنها أصبحت:

---

(1) ... إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص. 293.

(7752/1)

... في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض. فإنهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال. فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر، فتلاشى أمر المدينة، وآل أمرُها إلى الخراب، حتى قيل طُلب الخبز، فلم يوجد بها، ولا الأكل، ووجد بعض الدكاكين مفتحة والبقية لم تفتح(1).

... وواضح من كل ما تقدم أن تدهور الأحوال الاقتصادية في مدينة الإسكندرية وفي مصر كلها في نهاية عهد الدولة المملوكية لم يكن نتيجة عامل واحد أو سبب بعينه، بل جاء نتيجة أسباب

(1) ... ابن إياس، المصدر السابق، ج 4، ص. 424.

(7753/1)

وعوامل عدة تضافرت لتهز قواعد الدولة هزّاً عنيفاً، حتى فقدت أسباب رخائها وثروتها(1). وكان تحول التجارة العالمية عن مصر وعالم البحر المتوسط عقب وصول البرتغاليين إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في سنة 1498 من أبرز عوامل التدهور الاقتصادي وفي

نهايتها من ناحية التوقيت الزمني، مما جعل هذا الحدث الهام أشبه بالقشة التي قصمت ظهر البعير.

---

(1) ... سعيد عبد الفتاح عاشور، التدهور الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك، ص. 88.

(7754/1)

... ولا شك في أن البنادقة بوجه خاص قد أحسوا بمدى خطورة تحول التجارة عن مصر وعالم البحر المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح على أيدي البرتغاليين في سنة 1498 م، والذي أدى إلى فقدانهم لمصدر هام من مصادر ثروتهم الناتجة عن اشتغالهم بالتجارة العالمية آنذاك لهذا، فإن البنادقة أخذوا يراقبون مشروعات البرتغاليين وتحركات سفنهم، ويحاولون من جانبهم إقناع سفراء ملوك الهند في لشبونه بعدم مقدرة البرتغاليين على نقل السلع الشرقية دون مساعدة مالية من البندقية. كما حرص البنادقة على تكوين تحالف مع المماليك لمواجهة

(7755/1)

النشاط التجاري البرتغالي الذي سيطر على طريق رأس الرجاء الصالح وحوّل التجارة العالمية إليه. ولهذا جاءت سفارات البندقية الدبلوماسية المتكررة إلى بلاط السلطان المملوكي قونصوه الغوري، وأشهرها سفارة "باندتو سانوتو" (Benedotto Sanuto) إلى الغوري في سنة 1503 م. وأشار هذا السفير على السلطان الغوري بأن يبعث برسله إلى أمراء الهند لحملهم على قطع علاقاتهم بالبرتغاليين وإقفال موانئهم في وجه السفن البرتغالية. كذلك طلب السفير من الغوري أن يعمل على تخفيض الأثمان الباهظة التي تباع بها التوابل في الإسكندرية حتى

(7756/1)

يستطيع البنادقة منافسة خصومهم في الأسواق الأوربية(1).

... غير أن السلطان الغوري رأى أن يبعث برسالة إلى بعض الدول الأوربية، لتعمل هذه الدول على وقف حملات البرتغال على الهند، وهدد باتخاذ إجراءات عنيفة ضد المسيحيين في بلاده، ولا سيما بالقدس. بل إنه هدد كذلك بإغلاق الأماكن المقدسة، وقام بحمل هذه الرسالة راهب إسباني فرانسسكاني في بيت المقدس اسمه الأخ

مورو (Moro)، وكلفه الغوري بالمرور في طريقه بالبندقية. فقصد هذا الراهب إلى روما حيث التقى بالبابا يوليوس

---

(1) ... نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، ص. 378.

(7757/1)

الثاني في ربيع عام 1504 وأحسن البابا لقاءه ووعده بالكتابة إلى ملك البرتغال لوقف إرسال الحملات الحربية إلى الهند. وقد أتم هذا الراهب جولته في بلاط كل من إسبانيا والبرتغال دون أن يكون لمهمته الدبلوماسية أي جدوى. وعندما زاد إحساس البندقية بخطورة الموقف، أرسلت سفارة دبلوماسية أخرى إلى الغوري في سنة 1504 م، وتركزت مهمتها حول تقديم عروض أحسن وأقوى للسلطان نظراً لاطراد عجز البنادقة عن مقاومة البرتغاليين الذين غمروا أسواق أوربا بالمنتجات الشرقية، لدرجة أن قام حزب كبير في البندقية يطالب الحكومة بالشراء

(7758/1)

من لشبونه وليس من الإسكندرية. ولذا اقترحت سفارة عام 1504 **م من جديد أن يُغرق السلطان الغوري الأسواق بالتوابل حتى يستطيع منافسة البرتغال، وأن يستخدم نفوذه لدى أمراء الهند لقطع صلاتهم بالبرتغاليين. ثم إنها اقترحت كذلك شق قناة في برزخ السويس. ونظراً لأنها أهملت موالاة المشروع، فقد تُرك دون تنفيذ**(1).

... وقد اتجه السلطان قونصوه الغوري إلى مواجهة النشاط البرتغالي بالقوة عندما أصدر أمره في سبتمبر سنة 1505 **بإعداد حملة حربية بقيادة**

---

(1) ... Roux. J. Charles, L'isthme et le Canal de Suez, T. I, p. 45.

(7759/1)

الأمير حسين الكردي نائب جدة. وتكونت من خمسين سفينة من نوع "الأغربه"، وتحركت الحملة من القاهرة وسارت في النيل عن طيق القناة (خليج أمير المؤمنين) في شرق الدلتا إلى البحيرات المرة إلى السويس، ومنها إلى ينبع فجدة، ثم غادرت جدة واستولت في طريقها على سواكن عام 1506.

... غير أنه يهمنا أن نشير في هذا الصدد إلى أن الغوري قد أرسل سفيره الترجمان تغري بردي الإسباني بنداء إلى أوربا في أبريل سنة 1506 م. واستغرقت رحلة هذا الترجمان ثمانية عشر شهراً، زار فيها قبرص التابعة للسلطنة المملوكية آنذاك، واصطحب منها من

(7760/1)

أرشده إلى رودس حيث استقبله الرئيس "أمري دامبواز" (Aimery D'amboise)، ثم خرج تغري بردي من رودس إلى البندقية حيث وقّع اتفاقية تجارية جديدة معها. ولم تحقق هذه السفارة كسابقتها أي جدوى كما حدث مع سفارة الراهب مورو من قبل، وعاد تغري إلى مصر في سبتمبر عام 1507 م(1).

... وعندما يئست البندقية من مقدرة المماليك على التغلب على البرتغاليين واستعادة التجارة العالمية إلى طريقها التقليدي القديم، فإنها لجأت إلى التعاون مع الصفويّين علَّهم ينجحون فيما فشل

---

(1) ... إبراهيم علي طرخان، المرجع السابق، ص. 296.

(7761/1)

المماليك في تحقيقه، مما أدى إلى تدهور العلاقة بين السلطنة المملوكية والبندقية. إذ حدث أن قبض السلطان الغوري على بعض البنادقة ومعهم خطابٌ من الشاه إسماعيل الصفوي للاستعانة بدولة أوربية للقيام بهجوم بحري على سواحل مصر، في حين يقوم الصفوي بمهاجمتها براًّ، ولم يذكر ابن إياس اسم هذه الدولة. ولكن المصادر الأوربية أشارت إلى أن هذه الدولة هي جمهورية البندقية. وهذا ما جعل السلطان الغوري يقبض على قنصل البندقية في دمشق، وجيء به مكبلاً إلى القاهرة؛ كما قبض على زملائه الآخرين في طرابلس والإسكندرية، وحقق

(1/7762)

معهم، وحينئذ لم يسع الغوري إلا أن يُنفذ ما سبق أن هدد به وهو إغلاق الأماكن المقدسة في القدس، فقبض على جميع مسيحيي القدس وأغلق كنيسة القيامة وصادر محتوياتها في يناير سنة 1511 م. وفي الوقت نفسه علم بخيانة الترجمان تغري بردي، إذ كاتب الدول الأوربية بضعف المماليك الحربي وعدم تحصين السواحل

المصرية التحصين الكافي، فقبض عليه في مارس 1511 **م**(1).

... وقد توالت احتجاجات الدول الأوربية على تصرف الغوري. وجاءت إلى مصر سفارة فرنسية من قبل الملك لويس الثاني عشر ملك فرنسا في مارس

---

(1) ... **المرجع نفسه، ص.** 297.

(7763/1)

سنة 1512 **م. وكان هدف هذه السفارة عقد اتفاق تجاري مع مصر وإطلاق حرية التجارة في موانئ مصر والشام والسماح للحجاج بزيارة الأماكن المقدسة كالمعتاد، ووعدت السفارة بمساعدة فرنسا ضد بلاد البرتغال. غير أن السفير الفرنسي لم ينجح إلا في إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين. ولما انتشرت أنباء السفارة، أسرعت البندقية وأوفدت بعثة دبلوماسية على رأسها "دومينكو تريفزاني"** (Domenico Trevsani)، **واستطاع هذا السفير أن يعقد أول اجتماع مع السلطان الغوري في مايو سنة** 1512 **م، وبدأت البعثة عملها وفق برنامج مفصل محدد في لين وسلامة**

(7764/1)

مع شيء من العناد والصلابة يحمل على الإعجاب. وكان يظاهر البعثة بعض قطع من الأسطول التجاري البندقي الذي مر بكريت وقبرص والإسكندرية، فسر السلطان الغوري، مما أظهره البنادقة .أصدقاؤه القدماء .من إخلاص، ونجحت مهمة السفير في إطلاق سراح المسجونين، وأعيدت الصداقة والصلة بين السلطنة المملوكية والبندقية، وتعهد البنادقة بتزويد المماليك بالأسلحة والأخشاب لمواصلة نضالهم ضد البرتغاليين؛ ثم غادر "تريفزاني" مصر في أغسطس سنة 1512(1). ومن الواضح أن الغوري كان يهدف آنذاك إلى تجديد

(1) ... المرجع نفسه، ص. 298.

(7765/1)

علاقاته مع البندقية حتى يحصل على مساعداتهم له في مواجهة النشاط البرتغالي المتزايد في البحار الشرقية. ... وعندما تم للعثمانيين السيطرة على مصر بدخول السلطان سليم الأول مدينة القاهرة في اليوم الثالث من شهر المحرم عام 923 هـ الموافق للسادس والعشرين من شهر يناير عام 1517 م، وامتدت إقامته فيها ثمانية

أشهر، أدرك العثمانيون أن مصر معبَرٌ مهمٌّ للتجارة العالمية، ومدى ما أصابها من تدهور اقتصادي نتيجة لتحول هذه التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح على أيدي البرتغاليين منذ وصولهم إلى الهند في سنة 1498.

(7766/1)

ولهذا حرص السلطان سليم الأول على إنعاش حركة التجارة، التي كان يرد إلى مصر آنذاك جزء منها عبر الطرق البرية، ومن المناطق المطلة على البحر الأحمر والخليج العربي الداخلية، أي من النواحي الواقعة شرقي مصر وجنوبها وغربها، والتي كان من دواعي استمرار الحركة التجارية فيها رحلة الحج إلى الأراضي المقدسة في الحجاز حيث كان الحجاج يحضرون معهم الكثير من المتاجر الشرقية لتغطية تكاليف رحلتهم، ولممارسة النشاط التجاري عبر الطرق المذكورة. ولهذا أراد السلطان سليم أن يضمن تسويق ما يصل إلى مصر من هذه التجارة عن طريق

(7767/1)

البنادقة الذين يقومون بتوزيعها في أوربا، وذلك بعقد معاهدة تجارية معهم لهذا الغرض. وكان للعثمانيين خبرة سابقة في هذا المجال حيث عقد السلطان محمد الثاني الفاتح اتفاقية مع الجنويّين في الحادي عشر من مارس عام 1454، واتفاقية أخرى مع البنادقة في الثامن عشر من أبريل من السنة نفسها، أي في العام الثاني مباشرة لفتح العثمانيين للقسطنطينيّة(1).

... وهكذا عقد السلطان سليم الأول معاهدة مع البندقية في الثاني والعشرين من شهر المحرم عام 923 هـ الموافق للرابع

---

(1) ... نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، صص. 435 ـ 438.

(7768/1)

عشر من فبراير عام 1517 م لتشجيع البنادقة على القدوم إلى الإسكندرية بسفنهم وبضائعهم ومباشرة نشاطهم التجاري في جو من الطمأنينة والعدالة والأمن. وقد نشر الأستاذ "إتين كومب" (Etienne Combe) نصوص هذه المعاهدة باللغة الفرنسية(1)، ونشرت بعد

ذلك مترجمة إلى العربية(2)

---

(1) ... E. Combe, Précis de l'Histoire d'Egypte, T. 6III, p. sq. (Wiet. G) La Traite: veneto-Turc. de 1517.

(2) ... نعيم زكي فهمي، المرجع السابق، صص. 429 ـ 436؛ عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الثاني، صص. 700 ـ 706.

(7769/1)

. وجاءت في ديباجتها ملاحظة تفيد بأن التعليمات التي أوردتها موجهة بصفة خاصة إلى حاكم مدينة الإسكندرية وموظفيها العموميين ومفتشي الشرطة وضباطها كي يحاطوا علماً بما تم الاتفاق عليه بين المتعاقدين على الامتيازات السابق منحها لهم أيام المماليك بعد موافقة السلطان سليم الأول عليها.

وأشارت المادة الأولى من هذه المعاهدة إلى أن جميع البراءات الممنوحة للبنادقة من قبل صار الموافقة والتصديق عليها، وأن رعايا البندقية يعاملون بالعدل ويقابلون بترحاب من الجميع. ولا يحق لأي فرد أن يهينهم أو يتكبر عليهم في

(7770/1)

الموانئ المصرية عامة، وأن من حقهم البيع والأخذ والعطاء، ولا يدانوا لخطإٍ ارتكبه غيرهم من أبناء الأمم الأخرى بالمدن المصرية، وأن يُعلن هذا لجميع القضاة والهيئات المسؤولة. وليس من حق أي فرد الخروج على هذه القوانين كما يجب معاملتهم حسب الأصول والعادات المرعية دون أي تغيير أو تعديل.

... وأوردت المادة الثانية من هذه المعاهدة بين العثمانيين والبنادقة الالتزام بعد تكدير البنادقة أو الاستيلاء على ممتلكاتهم أو متاجرهم بالقوة أو على مراكبهم أو ما في داخل مخازنهم، كما لا يحق لأيّ فرد أن يجبرهم على البيع

(7771/1)

إذا لم يوافقوا على ذلك، كما لا يجبرون على دفع عوائد غير عادة أو لا لزوم لها. بينما أشارت المادة الثالثة إلى أن بإمكان قنصل البندقية أن يبيع ويشتري بالنقد بلا حدود. وحددت المادة الرابعة أن القنصل يحصل على مرتبه مجمداً كل أربعة أشهر. وأشارت المادة الخامسة

إلى أن القنصل دون سواه هو الذي يباشر الشؤون القانونية والقضائية لمواطنيه ويبت في الأمور لصالحهم. أما من يرفض الانصياع لحكم القنصل ويلجأ إلى القضاء الوطني الإسلامي لينقض قانوناً أو حكماً أصدره القنصل، فلا يُستمع له ولا يحق للقاضي استقباله أو نظر

(7772/1)

شكواه، وعليه أن يعيده إلى قنصله؛ وإذا رغب القنصل في طرد أحد البنادقة، فعلى القاضي أن يُعينه على ذلك كما منح القنصل حق إبداء الرأي في سفر الأفراد على سفن بلاده، ولا يحق لأي فرد أن يغادر الإسكندرية على ظهر إحدى سفن البندقية ليعود إلى وطنه أو يبارحها إلى أي قطر شاء إلا بعد الحصول على تأشيرة خروج من القنصل نفسه.

... وحددت المادة السادسة من المعاهدة الإجراءات المسموح باتخاذها إزاء سفن البنادقة عند وصولها إلى الإسكندرية، فأشارت إلى أنه إذا وصلت أي سفينة من البندقية إلى الإسكندرية فأشارت إلى أنه إذا

(7773/1)

وصلت أي سفينة من البندقية إلى الإسكندرية أو باسم البنادقة، فلا يحق لأيّ موظف أن يرتقيها ويحصل منها على ما يريد من معلومات أو بيانات، ولا أن يحتك بأي فرد من أفرادها ويسمح لهم بصعود السفينة في حالة الشراء فقط، ويدخل ضمن السلع المشتراة السلع التي تحملها السفن "كالعسل والفاكهة". وحرّمت المادة السابعة على أي فرد من أفراد الشعب أو لقبطانها على سفن الميناء أن يستولوا على أي سفينة للبنادقة تصل إلى الميناء، أو على حمولتها أو قلوعها أو مجاديفها لأي سبب سواء كان قرضاً أو شراء. وأشارت المادة الثامنة إلى

(7774/1)

أنه يصير تنفيذ كل التجديدات أو المباني اللازمة أو الأعمال الضرورية في فندق البنادقة. وإذا رغب القنصل في بناء مبنى جميل خاص به، فله ما يشاء، ويُمنَعُ منعاً باتاً التعرض له أو دفع أجور العمال أو أسعار المواد اللازمة للبناء، وممنوع على أي فرد مضايقتهم أو التعرض لهم إذا رغبوا في استخدام صناع من البندقية أو من الأجانب دون الوطنيين. ونصت المادة التاسعة على أنه إذا رغب قنصل البندقية في مقابلة أي فرد من الحكومة

في دواوينهم، وامتطى صهوة جواده أو رغب في الخروج إلى الحدائق العامة أو أي مكان في أطراف

(7775/1)

الإسكندرية، فله أن يفعل ما يشاء وليس لأي فرد أن يعترضه.

... وقد أشارت المادة العاشرة إلى أن السلع الخاصة بالبنادقة والتي تتعرض للغرق يصير إنقاذها وتُردّ لأصحابها. أما السلع التي تقذفها الأمواج إلى الشاطئ نتيجة الغرق لإحدى السفن، فهي تُرَدُّ لأصحابها إن عُرفوا أو أثبتوا شخصياتهم وملكياتهم لهذه السلع أو تردُّ لقناصل البندقية. أما السفن التي تصل إلى الشاطئ سليمة بعد إنقاذها، فيجب صيانتها. وجاء في المادة الحادية عشرة أن سفن البنادقة التي تلجأ لميناء الإسكندرية لسوء الأحوال الجوية ولا ترغب في تفريغ

(7776/1)

حمولتها لها أن تتم رحلتها إذا لم يكن عليها سلع للإسكندرية، وإذا كان عليها سلع خاصة بالإسكندرية،

فلا يحق لها أن تفرغها في أي ميناء إلا في الإسكندرية نفسها. وإذا كانت هذه السفن تحمل سلعاً لم يُنَصّ عليها في المعاهدات ولا يُتاجر فيها إلا في الإسكندرية، فتُمْنَع من التعامل أو الملاحة على طول سواحل مصر.

... أما العلاقات السياسية، فقد أوردت المادة الثانية عشرة من المعاهدة المعقودة بين البندقية والسلطان سليم الأول عام 1517 أنه إن حدث أيٌّ حدث لأحد رعايا السلطان في البندقية أو الجزر التي تقع تحت

(1/7777)

سيطرتها، فلا يُسأل القنصل عن هذا؛ كما أنه لا يحتمل النتائج المترتبة على الحادث. أما من يكون مديناً لأحد رعايا السلطان، فإنه يُحجز حتى يُوفَّى الدِّين ويسْرِي ذلك على الضامن، ويجب أن يكون جميع رعايا السلطان في أمان تام في موانئ البندقية والبلاد الخاضعة لها. كما أعفت المادة الثالثة عشرة القنصل البندقي من دفع ضريبة الإيراد أو ضرائب أخرى ما عدا في حالات صدور أوامر خاصة بذلك من السلطان أو من القضاء. واشترطت المادة الرابعة عشرة أنه إذا أصر القراصنة على أسر سفن للبنادقة، ثم جاؤوا لبيعها في موانئ

(7778/1)

السلطان يُحْظَر على أي فرد شراؤها أو التعامل مع القراصنة ويجب تحرير السفينة وما عليها من متاجر وردها للتجار. ونصت المادة الخامسة عشرة من المعاهدة أنه إذا حدث خلاف بين عربي وأجنبيّ سواء كان من البنادقة أو من غيرهم أو القنصل أو تاجر أو أي مواطن عادي أو عضو في وكالتهم، فلا يحق لأيّ فرد إهانته أو إلحاق الضرر به. واشترطت المادة السادسة عشرة أن كل هذه المنح والشروط والامتيازات الممنوحة للبنادقة تُسجل في سجل خاص ويتعرفها كل مسؤول بالولاية وكل من له علاقات بالأجانب أو بالحكم في مصر. وبموجب المادة

(7779/1)

السابعة عشرة، يكون لقنصل البندقية السلطة التامة إذا رغب في أن يقيم نائباً عنه (قنصل بالنيابة) أو نائب قنصل في البرلس، وله أن يفعل ذلك كلما شاء دون استئذان السلطان.

... وقد قررت المادة الثامنة عشرة أن قنصل البنادقة قد

عرض أنه ـ حسب المعتاد آنذاك ـ كانت تصل بعض السفن من كريت أو أقطار تابعة للبندقية تجلب كميات من الزيت اللازم للسفن؛ وكان المعتاد بيعها على السفن، ولكن سلطات الإسكندرية كانت ترفض هذا البيع لكي تبيع ما لديها في مستودعاتها. هذا الأمر ـ كما أشارت تلك المادة ـ كان ينبغي أن يتدارك فسفن

(7780/1)

البندقية كانت تستطيع منذ عقْد المعاهدة فصاعداً بيع هذا الزيت دون إنزاله للساحل ولا يعترضها أيٌّ فرد. وفي حالة وصول هذه السفن إلى بولاق تتبع القواعد المرسومة في هذا الميناء. وقد أشار قنصل البندقية في المادة التاسعة عشرة إلى العبيد والفقراء الأجانب الذين يعيشون في الإسكندرية واعتادوا الورود إلى فندق البنادقة لكي يأكلوا. وكان إذا مات أحد العبيد بالفنادق، فالقنصل مطالب بدفع ثمنه؛ وكان الثمن يُفرض مرتفعاً. وقد اشترطت هذه المادة أن يُمنع هذا من ذلك الحين؛ كذلك حظرت المادة العشرون على موظفي الجمرك

(7781/1)

والحمّالين والكشافين مضايقة البنادقة في حالة إعادة تسليمهم الفواكه أو سلعاً أخرى تحملها سفنهم. وفيما يتعلق برسوم الحمالين والكشافين وأجورهم، نصت المادة الحادية والعشرون على أن يدفع دينار واحد عن كل سلة توابل مملوءة ويحملها الكشاف البحريّ ويحصُل الحمال على دينار واحد عن كل سلة يحملها. وقررت المادة الثانية والعشرون إنقاص وتخفيض الضرائب التي تُدفع عمن يموت من الأجانب في بلاد السلطان. كما قررت المادة الثالثة والعشرون أن الإفرنجي الذي يرد للقاهرة من الإسكندرية أو شيد أو دمياط لا تحصل منه ضرائب لا في

(1/7782)

حلِّه ولا في ترحاله. واختصت المادة الرابعة والعشرون من المعاهدة المعقودة بين السلطان سليم الأول والبندقية عام 1517 بالإشارة إلى أن السماسرة الذين يعملون لدى الوسطاء التجاريين لهم حق استخدام تراجمه ولا يمنع عنهم معاونة التراجمة الرسميين لقاء رسوم معينة. كما قررت المادة الخامسة والعشرون أنه في حالة نقل

البضائع المستوردة أو المصدرة من الجمرك للسفن.
وبالعكس لا يطالب القنصل ولا التاجر بشيء ما، كما لا
يحق منع التجار من توزيع الفواكه المحفوظة والمسكرة
والطازجة وبيعها للمسافرين. هذا، بينما حددت المادة

(7783/1)

السادسة والعشرون أنه لا يجوز إطلاقاً مضايقة القنصل
أو التجار أثناء تجوالهم وتنزههم في حدائق
الإسكندرية وعلى ضفاف القناة أو في أي مكان آخر.
وأكدت المادة السابعة والعشرون على حق التجار
البنادقة في شحن سلعهم وتوزيعها وتفريغها في
قواربهم وسفنهم الخاصة. كما سوغت المادة التاسعة
والعشرون للكشافين القيام بعملهم في حالات الشحن
والتفريغ يكون بموافقة البنادقة، وما يُفسده أو
يستهلكه الحمالون يجب أن يعوض عنه البنادقة.

(7784/1)

... واشترطت المادة الثلاثون أن لا يتصدى أي فرد للقنصل
أو للتجار البنادقة إلا عن طريق القضاء وأمام المحاكم،

ويراعى ألا يؤخذ الابن بجريرة الأب، ولا الأب بجريرة الابن، إلا إذا كان أحدهما ضامناً للآخر شخصيّاً ومالياً. أما الديون، فتكون استعادتها حسب الشريعة. كما اشترطت المادة الحادية والثلاثون أن يُعاملَ جميع التجار ومرافقوهم الذين يصلون إلى موانئ مصر بكل احترام واعتبار من الجميع. وفي خاتمة المعاهدة، نصت المادة الثانية والثلاثون على أن قنصل البندقية في الإسكندرية قد قدم مذكرة قرر فيها أن البنادقة

(7785/1)

كانوا يتمتعون أيام دولة المماليك الشراكسة بالإعفاء من ضريبة البهار. ولكن حدث أن فرضت حكومة السلطان قونصوه الغوري رسوماً جديدة بلغت خمسة آلاف دينار سنويّاً. وطالب القنصل بإعادة تقرير هذا الإعفاء الضريبي وتقرر الاستجابة لهذا الطلب.

... كانت هذه هي البنود الثانية والثلاثون للمعاهدة التي عقدن بين السلطان سليم الأول والبنادقة عقب فتح العثمانيين لمصر في سنة 1517. وهي تشكل دليلاً تاريخياً على حرص الأتراك العثمانيين على تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجاري والاقتصادي مع مصر التي غدت

(7786/1)

ولاية عثمانية حتى تعود الحركة التجارية .بقدر الإمكان .إلى نشاطها المعهود قُبيل تحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح. ولا شك في أن هذه المعاهدة تعد أبلغ رد على الفردية التي يرددها بعض المؤرخين والباحثين المتحاملين على الدولة العثمانية والذين يدعون أنها فرضت على ولاياتها العربية العزلة عن أوربا. كما أن هذه المعاهدة تميزت بوجود فارق بينها وبين المعاهدات التي عقدها السلطان سليمان القانوني وخلفاؤه تباعاً مع الدول الأوربية في هذا الصدد. فبينما كان الهدف من المعاهدات الأخيرة هو تشجيع

(7787/1)

رعايا الدول الأوربية على توثيق صلاتهم التجارية مع ممتلكات الدولة العثمانية بوجه عام، كانت معاهدة البندقية تستهدف تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجاري في مصر والإسكندرية بوجه خاصّ. كذلك ترجع أهمية معاهدة البندقية إلى أن

كثيراً من نصوصها، أو نصوصاً على غرارها، قد أُدرِجَت بعد ذلك في المعاهدات اللاحقة التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوربية، إذ كان هناك تنافس بين الدول على الحصول على أكبر قدر من الامتيازات لرعاياها آنذاك، فكانت كل دولة أوربية تحرص على أن تجيء المعاهدة التي

(1/7788)

تعقدها مع الدولة العثمانية جامعة شاملة لكل الامتيازات التي سبق تقريرها لغيرها(1).

... على أن هذه المعاهدات التي عقدتها الدولة العثمانية مع دول البحر المتوسط والتي بدأت بمعاهدتها مع البندقية في سنة 1517 قد أدت إلى تنشيط حركة التجارة العالمية التي كان يدعمها فتح العثمانيين للطرق البرية المؤدية إلى مصر والشام سواء من ناحية الشرق من المناطق الآسيوية، أو من ناحية الجنوب من أواسط القارة الأفريقية، أو من ناحية الغرب من أرجاء المغرب العربي، والتي كانت تحركها رحلة

---

(1) ... المرجع نفسه، صص. 706 ـ 707.

(1/7789)

الحج السنوية إلى الأماكن المقدسة في الحجاز وفلسطين ذهاباً وعودة، أثناء قيام البرتغاليين بإحكام حصارهم للمنافذ البحرية المؤدية للمحيط الهندي أثناء القرن السادس عشر الميلادي. وتوضح الوثائق المحفوظة بأرشيف الشهر العقاري بالإسكندرية والتي تخص محكمة الإسكندرية الشرعية والعائدة إلى منتصف القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي استمرار النشاط التجاري النسبي في مصر بوجه عام وفي الإسكندرية بوجه خاص وامتداده منها إلى البندقية وغيرها من مدن البحر المتوسط في ذلك الحين. وقد شملت هذه التجارة نوعيات عديدة من

(7790/1)

سلع التجارة الشرقية التي تبادلها سكان مدينة الإسكندرية والمدن الساحلية المصرية الأخرى مع الأوربيين الذين وفدوا إليها آنذاك وخاصة البنادقة، بالإضافة إلى تأجير وكالات تجارية لهم ومراكب ودواب لنقل التجارة، مع استخدامهم للعملات المعاصرة في أوربا وبلاد الشرق. هذا، فضلاً عما صاحب ذلك من نمو للعلاقات

الاجتماعية المتمثلة في العديد من عقود الزواج ومختلف المعاملات الأخرى. غير أن هذا القدر من التجارة العالمية، وهذا النشاط التجاري النسبي الذي تبادلته موانئ مصر وخاصة الإسكندرية مع موانئ جنوب أوربا المطلة

(1/7791)

على البحر المتوسط وفي مقدمتها البندقية، لم يوفر لشعوب البحر المتوسط المستوى نفسه من الازدهار الاقتصادي الذي عاشوا في ظلاله الوارفة قروناً عديدة قبل تحول التجارة العالمية عن حوض البحر المتوسط إلى طريق رأس الرجاء الصالح(1)

---

(1) ... أرشيف الشهر العقاري بالإسكندرية، محكمة الإسكندرية الشرعية، دفتر سجل مبايعات رقم 1، ويعود للفترة من 24 شعبان سنة 957 هـ/ 1550 م إلى 17 شعبان سنة 958 هـ/ 1551 م، ص. 92، مادة 435، ص. 96، مادة 456، ص. 114، مادة 540، ص. 328، مادة 1394، وهي وثائق تتعلق بالنشاط التجاري للجاليات الأجنبية بالبحر المتوسط وخاصة البنادقة في مدينة الإسكندرية في ذلك الحين.

(1/7792)

.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: باللغة العربية

... أرشيف الشهر العقاري بالإسكندرية، محكمة الإسكندرية الشرعية، سجل مبايعات رقم (1)، من 24 شعبان 957 هـ/ 1550 م إلى شعبان 958 هـ/ 1551 م.

... ابن إياس، محمد بن أحمد، بدائع الزهور في وقائع الدهور، خمسة أجزاء، حققها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984.

... توفيق إسكندر، نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية في العهد الوسيط، بحث مستخرج من المجلد السادس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة،

1957.

... حامد سلطان، القانون الدولي العام في وقت السلم، القاهرة، 1962.

... إبراهيم علي طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (1382 هـ/ 1517 م)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1960 م.

... سعد زغلول عبد الحميد، »الأثر المغربي والأندلسي في المجتمع السكندري في العصور الإسلامية الوسطى«، ضمن أبحاث مجتمع الإسكندرية عبر العصور، جامعة الإسكندرية، 1975.

... سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية، القاهرة، 1959.

... ...، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، 1962.

(1/ 7794)

... ...، »صور من مجتمع القاهرة في العصور الوسطى«، ... محاضرة ألقيت بالجمعة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد 18، 1971.

... ...، التدهور الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك (872 ـ 923 هـ/ 1468 ـ 1517 م) في ضوء كتابات ابن إياس،

الندوة التي نظمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الإجتماعية، 16 ـ 21 ديسمبر 1973.

... ..، العصر المماليكي في مصر والشام، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976.

(1/7795)

... شارل ديل، البندقية جمهورية الأرستقراطية، تعريب أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر، القاهرة، 1948.

... عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، »المغاربة في مصر في العصر العثماني 1517 ـ 1798، دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم المصرية«، المجلة التاريخية المغربية، تونس، 1982.

... عبد العزيز محمد الشناوي، أوربا في مطلع العصور الحديثة، مكتبة الأنجلو المصرية، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1977.

(1/7796)

... الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ثلاثة أجزاء، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1983.

... عبد المنعم ماجد، عصر السيوطي، بحوث ألقيت في الندوة التي أقامها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ونشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976.

... فاروق عثمان أباظة، »التنافس الدولي في جنوب البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر«، ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، أبحاث الأسبوع العلمي الثالث، 10 ـ 15 مارس 1979، سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس، القاهرة، 1980.

... قاسم عبده قاسم، أهل الذمة في مصر العصور الوسطى: دراسة وثائقية، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1979.

... محمد رفعت، تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1959. ...

... محمد مصطفى صفوت، الجمهورية الحديثة، منشأة المعارف، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 1958.

... نعيم زكي فهمي، طرق التجارة ومحطاتها بين الشرق والغرب، أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973.

(1/7798)

... نقولا زيادة، »الطرق التجارية في العصور الوسطى«، مقال نشر بمجلة تاريخ العرب والعالم، السنة السادسة، العددان 71 ـ 72، سبتمبر ـ أكتوبر، بيروت، 1984.

...

ثانياً: باللغات الأجنبية

... Charles, Roux, F., Autour d'une route, L'Angleterre, L'isthme de Suez, T. 1–2, Paris, 1901.

... Combe, E., Précis de l'Histoire d'Egypte, T. 3, L'Egypte, Ottoman de la Conquest par Selim I. 1517 à l'Arrivée de Bonaparte 1798.

... El-Abbadi, M., The Life and Fate of the Ancient Library of Alexandria. (UNESCO, 1990).

(1/7799)

... Hammer, J., Histoire de L'Empire Ottoman
, 18depuis son Origine jusqu'à nos jours, T.
.1936Paris,

... Heyd, W., Histoire du commerce du Levant
.1925, Leipzig, 2, 1au Moyen Age, T.

... Howe, Sonia, E., In Quest of Spices, London,
.1946

... Wilson, A. T., The persian Gulf, London,
.1954

... ...

الجامع الأموي الكبير بحلب (جامع زكريا)

... ... الدكتور شوقي شعث

... ... ذمار ـ اليمن

(7800/1)

... جامع بني أمية الكبير، من أكبر الجوامع التي أقيمت في حلب. أقيم في قلب المدينة، وقيل إن بانيه هو الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك؛ وهناك من قال إن بانيه الوليد بن عبد الملك، بُني هذا الجامع على نمط الجامع الأموي الكبير بدمشق ومضاهاة له. فعلى الرغم من

أن دمشق عاصمة الدولة الأموية، فإن حلب لا تقل شأناً عنها: فهي عاصمة الثغور التي كانت بمثابة خط المواجهة مع البيزنطيين، وكثيراً ما كان الخلفاء يوجدون في خط المواجهة إلى جانب الجند ومنهم سليمان بن عبد الملك، الذي مات ودفن في شمال حلب وهو يرابط مع

(7801/1)

جنده في مواجهة البيزنطيين. ومن هنا برزت الحاجة إلى مسجد جامع يصلي فيه الخليفة صلاة الجمعة ليحث الناس على الجهاد ضد الأعداء، وليفهم الأصدقاء والأعداء أن الدولة قادرة على إقامة المنشآت المعمارية الدينية الكبيرة التي يفخر بها على الأعداء. فقد سبقه إلى ذلك أخوه الوليد بن عبد الملك في بناء الجامع الأموي بدمشق، وجامع قبة الصخرة المشرفة، والمسجد الأقصى التي كانت كلها تحفاً معمارية لا يماثلها في روعتها وعظمتها أي بناء آخر في العالم الإسلامي كله.

(7802/1)

... ترجع أهمية الجامع الأموي بحلب، إضافة إلى كونه عملاً معمارياً اعتنى بإضافات كثيرة عبر العصور التاريخية التي مرت عليه (فلا يكاد يمر عصر من العصور التاريخية الإسلامية إلا وله شاهد في المسجد الجامع المعروف بالأموي بحلب) .إضافة إلى ذلك، فإن القرارات المصيرية الهامة والأحداث التي ارتبطت بالجامع قد أكسبته أهمية خاصة، فظلت صلوات الجُمَع تقام فيه، والاحتفالات والاجتماعات وغيرها من المناسبات الدينية والوطنية الهامة تعقد فيه إلى يومنا هذا. وإن انتقلت فترة قصيرة إلى جامع الأطروش بحلب، فإنها ما لبثت أن

(7803/1)

عادت إلى الجامع الأموي الكبير بحلب؛ لأنه يقع في قلب المدنية الحافل بالنشاطات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

... تعرض الجامع الأموي بحلب إلى محن قاسية عبر تاريخه الطويل منها الحريق والتدمير والإهمال، إلاّ أنه كان يجابه تلك المحن ولا يلبث أن يعود إلى سيرته الأولى مركزاً دينياً واقتصادياً وسياسياً هامّاً. ففي أوائل العهد العباسي انتقلت عاصمة الدولة إلى بغداد، فقل شأن سورية عموماً ودمشق وحلب خصوصاً، فلحق الخراب

والإهمال الجامع الأموي بحلب، وقام البعض بنقض حجارته ورسومه ونقولها إلى جامع الأنبار

(7804/1)

بالعراق على حد قول بعض المؤرخين. إلا أن الأمور سرعان ما عادت سيرتها الأولى، فاستقر الأمن وعادت إلى حلب أهميتها الأولى وعاد الجامع إلى عمارته وأهميته التي كان عليها، عندما أصبحت حلب عاصمة للإمارة الحمدانية عام 333 هـ إلا أن الحرب الضروس التي دارت رحاها بين البيزنطيين والحمدانيين والتي كانت بمثابة الكر والفر بين الطرفين، جلبت الخراب في إحدى المرات إلى الجامع حين تمكن الإمبراطور البيزنطي نقفور فوقاس عام 251 هـ/ 962 م من دخول مدينة حلب وأحرق جامعها الكبير وذبح الكثير من أهلها كما ساق العديد منهم

(7805/1)

أسرى انتقاماً من الأمير الحمداني سيف الدولة الذي أقضّ مضاجع الإمبراطورية البيزنطية ردحاً طويلاً من الزمن. غير أن الأمير الحمداني سرعان ما تمكن من العودة إلى

عاصمته حلب وأصلح جامعها الكبير، وأكمل المهمة ابنه أبو المعالي سعد الدولة ومولاه قرعويه من بعده.

... وعندما اخترق الجامع من جديد عام 564 هـ/ 1169 م، قام الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بترميمه؛ وزاد في توسعته، ونقل إليه الأعمدة الحجرية التي اقتطعها من قرية بعاذين، كما نقل إليه بعض العمد من مسجد قنّسرين الخرب يومذاك، وأدخل إليه سوقاً كان

(1/7806)

موقوفاً على الجامع ليصبح الجامع واسعاً على التربيع. ومن أجل ذلك، استفتى الفقهاء، ومنهم الفقيه الجامع واسعاً على التربيع. ومن أجل ذلك، استفتى الفقهاء، ومنهم الفقيه علاء الدين أبو الفتح عبد الرحمن بن محمود الغزنوي الذي أفتاه بجواز ذلك.

... تعرض العالم الإسلامي عام 656 هـ/ 1258 م إلى غزوة مدمّرة قادها هولاكو التتاري الذي أسقط بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية العباسية. بعد ذلك، قاد التتار نحو الغرب، فاستولى عام 658 هـ/ 1260 م على حلب، ودخل معه صاحب سيس الأرمني إليها وتوجها إلى الجامع الأموي، فقتل فيه

(7807/1)

خلقاً كثيراً ثم أحرقه. فتضرر من ذلك الحريق الحائط القبلي للجامع كما تضررت المدرسة الحلوية وتضرر سوق البزازين. إلا أن هولاكو عندما علم أن صاحب سيس وأتباعه استهدفوا جوامع المسلمين وممتلكاتهم فقط، أخذته الغيرة الإسلامية، وهو المسلم، فأمر بوقف الاعتداءات وإطفاء الحرائق، والتفت إليهم، أي إلى أصحاب سيس، فقاتلهم وقتل منهم خلقاً كثيراً. إلا أن ذلك لم يغفر لهولاكو المذابح والدمار الذي أوقعه بالمسلمين وممتلكاتهم بحلب وغيرها من المدن الإسلامية. ومع ذلك، فقد قضت إرادة الله بالانتقام لحلب وللعالم الإسلامي

(7808/1)

من التتار في وقعة عين جالوت بفلسطين عام 663 هـ/ 1260 م، فعاد التتار مدحورين خائبين إلى بلادهم يجرون أذيال الخيبة والهزيمة. وعلى الرغم من الأعمال الانتقامية التي قاموا بها في حلب وفي غيرها من البلاد أثناء التحامهم، فإن خطرهم زال على يد المماليك ولو إلى حين.

... دخلت حلب بعد ذلك تحت الحكم المملوكي، فأعيد إعمارها وإعمار جامعها الكبير. وفي عام 679 هـ/ 1280 م، عاد صاحب سيس ـ وفي غفلة من أهل المدينة ـ إلى مهاجمتها وإحراق الجامع الأموي، فأعاد نائب حلب المملوكي قرا سنقر الجوكندار عمارة الجامع وترميمه،

(7809/1)

وأكمل البناء والترميم عام 648 هـ/ 1285 م الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي العلائي الصالحي، ومن جاء بعده من السلاطين المماليك ويذكر القلقشندي (صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج 4، ص. 220) أن المماليك اهتموا بالجامع الكبير بحلب، وجعلوا له وظيفة خاصة للنظر في شؤونه هي وظيفة "نظر الجامع الكبير" ويتولاها أحد أرباب السيوف ويكون رفيقاً لنائب المدينة، وولايتها من الناس بتوقيع كريم.

... وتابع العثمانيون اهتمامهم بالجامع الكبير بحلب، فقاموا بكثير من الترميمات والإصلاحات كان منها: واجهة القبلية والأروقة

(7810/1)

والصحن وغيرها. ولا تزال أعمال الصيانة والترميم مستمرة حتى يومنا هذا؛ ونتحدث عن ذلك بإسهاب في حينه.

عمارة الجامع وأقسامه

... سبق أن ذكرنا أن الجامع أقيم في الأصل على بستان للمدرسة الحلاوية التي كانت أصلاً كنيسة للروم بنتها هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين بعد أن صالح المسلمون على المكان منذ يوم الفتح. ويقوم الجامع اليوم على مساحة من الأرض يبلغ طولها 105 متر من الشرق إلى الغرب ويبلغ عرضه نحو 77,75 متراً من الجنوب إلى الشمال؛ وهو يشبه إلى حد كبير في مخططه وطرازه جامع دمشق. وقد سبق أن أشرنا إلى أنه

(7811/1)

بني على نمط جامع دمشق. يتألف جامع حلب من عدة عناصر سنتحدث عنها تباعاً. وأول هذه العناصر:

.الأبواب (المداخل والمخارج)

... يدخل إلى الجامع ويخرج منه عبر أربعة أبواب هي:

... الباب الشمالي: ويقع إلى جوار المئذنة ويعرف أحياناً

بباب الجراكه. وقد أقيم هذا الباب حديثاً مكان باب قديم بعد أن قامت البلدية بتنظيم المنطقة عندما أزيلت الأبنية الواقعة أمام واجهة الجامع القديم، وذلك لإبراز واجهة الجامع وليسهل الوصول إليه.

... الباب الغربي: وينفذ منه إلى الجامع من شارع المساميرية نسبة إلى صانعي المسامير.

(7812/1)

... الباب الشرقي: وينفذ منه إلى الجامع من أمام سوق المناديل، ويعرف أحياناً بباب الطيبية.

... الباب الجنوبي: ويدخل منه أو يخرج منه إلى سوق النحاسين؛ ومن هنا جاء اسمه أحياناً باسم "باب النحاسين". ويذكر أبو ذر سبط بن العجمي في كتابه "كنوز الذهب" أن لهذا المدخل باباً خشبياً في غاية الروعة مكتوباً عليه: »نجر في شعبان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة«. إلا أن هذا الباب الخشبي ذهبت به الأيام واستُعيض عنه بالباب الحالي.

.الصحن

(7813/1)

... للجامع صحن واسع تبلغ أبعاده 79 متراً طولاً، وعرضه 47 متراً. تزين أرض الصحن حجارة ملونة مصقولة ومرصوفة تتوزع على شكل وحدات وتقسيمات تتخذ أشكالاً مختلفة تتناوب فيها الحجارة السوداء والصفراء والبيضاء والمرمرية والسماقية. وتبدو هذه التشكيلات لمن ينظر إليها من شرفة المئذنة منظراً ساحراً في تشكيلاته الهندسية. ويذكر المرحوم محمد فارس في كتابه "الجامع الأموي الكبير بحلب" أن حجارة صحنه السابقة استبدلت بالحجارة الحالية نظراً لتكسرها بسبب الغارات والحرائق والعوامل الأخرى، وذلك عام 1042 هـ/ 1632م؛

(7814/1)

ويُعتقد أن الحجارة القديمة بقيت تحت الحجارة الحديثة، وأنه يمكن تعرُّفها إذا ما أجريت تنقيبات أثرية هادفة.

.المئذنة

... تقول المصادر التاريخية إن المئذنة الأساسية للجامع

لم تكن في هذا المكان، وإنما كانت في الحائط الغربي للجامع ملاصقة لحائط القبلية الملاصق للصحن. أما المئذنة الحالية، فهي مربعة المسقط ويبلغ ارتفاعها نحو خمسة وأربعين متراً حتى شرفة المؤذن. أما طول ضلعها، فيبلغ نحو 4,95 م. ويزين المئذنة عدد من الكتابات والعناصر الزخرفية والتيجان الكورنتية والعقود المقصصة والنوافذ. ويستدعي الاختصار

(7815/1)

عدم الخوض في التفاصيل؛ إلا أنه يمكن القول إن بناء أساس المئذنة قد تم في عهد سابق محمود بن صالح المرداسي بين سنتي 468 ـ 472 هـ/ 1075 ـ 1079 م. أما البناء التالي، فقد تم على مرحلتين: الأولى في عهد قيم الدولة آق سنقر عام 479 هـ/ 1087 م عندما تسلم المدينة نائباً عن السلطان السلجوقي ملكشاه؛ أما الثانية، فقد بدأت عام 485 هـ في عهد السلطان تُتُش حتى عام 487 هـ/ 1094 م حيث اكتملت المئذنة أيامه.

...

.القبلية (بيت الصلاة)

(7816/1)

... هي واسعة رحبة، تتألف من ثلاثة أروقة تقوم على دعائم حجرية ضخمة بنيت بطريقة المغمس. ويبلغ عدد تلك الدعائم ثمانين دعامة ويعتقد أنها حلت محل الأعمدة الرخامية البعاذينية التي مر ذكرها والتي تخربت وتفتتت بسبب الحرائق التي لحقت بالمسجد عبر تاريخه الطويل. وفوق القبلية قبة عالية تجاه المدخل الأوسط للقبلية. ويذكر بعض مؤرخي حلب أن في قبلية هذا الجامع كانت تعقد حلقات الدرس والعلم في كافة علوم المعرفة.

... تضم قبلية هذا الجامع عدداً من المعالم الهامة التي تعتبر من الأساسيات ليقوم الجامع بوظيفة كاملة. من

(7817/1)

تلك المعالم: المنبر المحاريب وحجرة الخطيب والحجرة النبوية والسدة والمقصورات. وسنتحدث عن كل منها باختصار يتناسب وطبيعة النص:

.المنبر

... يقع منبر الجامع الكبير بحلب إلى اليمين من المحراب

الأوسط، وهو من القطع الفنية الثمينة ليس له مثيل في مساجد حلب. بدت فيه الصناعة الخشبية غاية في الإتقان، صنع من أخشاب الأرز الحلبي والأبنوس، ورصع بالعاج والصدف، يبلغ ارتفاعه نحو 2,58 م وطوله 2,65 م. أما عرضه، فيبلغ 1.08 م ويرقى إليه بعشر درجات. ويعد اليوم من أقدم المنابر الحلبية بعد إحراق الصهاينة للمنبر الحلبي

(7818/1)

في المسجد الأقصى بالقدس الشريف عام 1969 م.

ويتكون هذا المنبر من عدة أقسام منها:

... 1 .المدخل: ويتألف من باب ذي مصراعين يعلوه ساكف متوج بمقرنص من حطة واحدة فوقه تاج زخرفي مورق، تحت المقرنص وعلى حشوة بارزة نص كتابي يقول: »عمل في أيام مولانا السلطان الملك الناصر أبي الفتح محمد عز نصره«. وتحت هذا النص نص كتابيّ آخر أصغر حجماً يقول: »عمل العبد الفقير إلى الله محمد بن علي الموصلي«. وهناك نص قرآني على مصراعي الباب: {وإذا قلنا ادخلوا} على المصراع الأيمن و {هذه القرية فكلوا منها} على المصراع الأيسر،

(7819/1)

وتحته النص الكتابي الثاني: »بتولي العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن عثمان الحداد«.

... 2 ـ مجلس الخطيب: مستطيل الشكل يأخذ تلك المنصة، تبلغ أبعاده 104 × 98,5 سم، وعلى طرفي المجلس حاجز يرتفع حتى قاعدة القبة (قبة المحراب) بنحو 1,72 م ينتهي بعقد زخرفي مقرنص، ويبدو المجلس بتشكيله كأنه الجوسق الصغير.

... 3 ـ المعبر: يقع تحت مجلس الخطيب ويرتفع إلى علو 2,82 م، وفتحة مدخله 84 سم. يضم هذا المعبر واجهة زخرفية داخلية جميلة التصقت بجدار القبلية وعليها كتابة من الأعلى بالخط الثلث المملوكي تشير إلى من أمر

(7820/1)

بعمله.

... 4 ـ المجنّبتان: وهما تقومان يميناً وشمالاً على مثلث قائم الزاوية ارتفاعه 2,82 م وطول وتره 2,90 م وفوق خط هذا الوتر حاجز خشبي جعل على شكل متوازي المستطيلات يبلغ عرضه 60,5 سم يحيط به إطار بعرض

11,5 سم، زين بزخارف نباتية منفذة بطريقة فنية عالية مع العارضتين اللتين قسمنا الحاجز إلى ثلاثة أقسام. وهذه النقوش تماثل النقوش السائدة في العهدين الأتابكي والأيوبي.

.المحاريب

... تضم القبلية ثلاثة محاريب، أكبرها وأوسعها هو المحراب الأوسط وكان هذا المحراب فيما مضى مكرّساً للشافعية؛ أما المحراب

(7821/1)

الذي يقع على اليمين، فهو مكرس للحنفية؛ والمحراب الثالث الواقع إلى الجهة اليسرى، فهو مكرس للحنابلة. كان المحراب الأوسط محراباً جميلاً مصنوعاً من الخشب النفيس، ولم تبق منه عوادي الأيام إلاّ بقايا قليلة يمكن أن تساعد على دراسته الفنية. والمحراب الحالي أقيم من الحجر البعاذيني المصقول، أقامه كافل حلب قرا سنقر الجوكندار عام 684 هـ/ 1285 م، بدلاً من المحراب الخشبي الذي أحرقه الأرمن السيسيون أحلاف التتار. يتخذ تجويف المحراب شكل نصف دائرة ويتميز بالدقة والإتقان. يقع المحراب الأيمن إلى الغرب من المحراب

(7822/1)

الأوسط، ويعرف أحياناً باسم "محراب العلمين" لوجود علمين من أعلام الطرق الصوفية على جانبيه، وهو بسيط في بنائه الحميري، عميق التجويف وعقده مدبب، ليست عليه نقوش أو كتابات. وأخيراً يقع المحراب الأيسر إلى الشرق من المحراب الأوسط، وقد بني من الرخام الأصفر البعاذيني شأنه في ذلك شأن المحراب الأوسط، وتجويفه عميق لا يحمل أي كتابة أو زخرفة.

... ـ حجرة الخطيب: تقوم هذه الحجرة إلى الغرب من المنبر، وهي صغيرة الحجم مربعة الشكل طول ضلعها 1,6 م ومخصصة لخطيب الجامع يخرج منها ليصعد المنبر ليلقي خطبته. صفحة الحجرة

(7823/1)

الخارجية مزينة بزخارف وكتابات، لها باب خشبي ذو مصراع واحد مزين بزخارف نجمية بطريقة التداخل. وقد أحيط الباب من طرفه العلوي وجانبيه بشريط كتابي بطريقة الحفر البارز وبالخط الثلث المملوكي.

... ـ الحجرة النبوية: تقع إلى يسار المحراب، وهي مربعة

الشكل كسيت جدرانها الداخلية بأنواع القاشاني الجميلة، كما شبك المغلاق الخاص بالغرفة تشبيكاً جميلاً من النحاس الأصفر تعود هذه الحجرة تاريخياً إلى العصر العثماني وهي تتساوق مع باقي نواحي القبلية روعة وفنّاً. هناك دفين في الحجرة تضاربت الآراء حوله: فهناك من يقول

(7824/1)

إن الدفين هو رأس النبي يحيى بن زكريا؛ وهناك من يعتقد أن الدفين هو النبي زكريا نفسه.

... .المقصورات: كانت توجد في قبلية الجامع الأموي بحلب ثلاث مقصورات: اثنتان منها تعودان إلى العصر المملوكي؛ وتعود الثالثة إلى العهد العثماني؛ ذكرها هرتزفيلد وعدّد أسماءها، وذكر مواقعها وهي: مقصورة الوالي ومكانها بين العضادتين الرابعة والخامسة من الصفين الأول والثاني؛ ومقصورة قرا سنقر، وتقع بين العضادتين السادسة والسابعة من الصف الأول؛

والمقصورة الثالثة هي مقصورة القاضي، وكانت تقوم على الطرف الغربي للباب الجنوبي

(7825/1)

في قبلية الجامع إلى جانب الدرج. من المؤسف أن تلك المقاصير لم يعد لها وجود في قبلية الجامع بعد أن أزيلت نتيجة للأعمال التي تمت بالمسجد مؤخراً.

... .السدّة: كانت في قبلية الجامع. ذكرها الشيخ كامل الغزي في كتاب "نهر الذهب". ويقول إنها كانت موجودة فيما بين العضادة التاسعة والعاشرة من الصف الثالث؛ وكانت مجموعة على أربعة أعمدة من الخشب على بابها كتابة تدشينية، إلا أنها أزيلت واستبدلت بالسدة الحالية. وترتفع هذه السدة فوق المدخل الأوسط للقبلية بين الدعامتين التاسعة والعاشرة من الدعامات التي التصقت

(7826/1)

بالجدار الشمالي للقبيلة أمام المحراب الأوسط الكبير.

وفي الصف الرابع من الدعامات يؤدي درج حلزوني إلى السدة، وتبلغ أطوالها 5,75 م × 4,20 م. ويبدو أن هذه السدة تعود إلى مطلع هذا القرن بعد عام 1242 هـ/ 1923 م، أي بعد طباعة الغزي لكتابه "نهر الذهب"، خاصة الجزء الثاني.

... .الحجاوية: تقوم هذه الحجازية في الركن الشمالي الشرقي للجامع. ويمكن الوصول إليها من الصحن في الزاوية الشمالية الشرقية، ومن باب آخر في الباب الشمالي. ويذكر أبو ذر سبط بن العجمي في كتابه "كنوز الذهب" أنها سميت بالحجازية، لأنها كانت

(7827/1)

منزل أهل الحجاز. وهناك رأي آخر مفاده أن امرأة حجازية أقامتها من مالها لتكون خاصة بالنساء لأداء الصلاة.

... .الأروقة: للجامع ثلاثة أروقة في جهاته الشمالية والشرقية والغربية نفذت بطريقة الغمس محمولة على دعائم حجرية ضخمة وكلها تطل على الصحن. ويضم الرواق الشمالي الميضأة التي تستمد من القسطل ماءها، وفوق القسطل نص كتابي يتألف من ثلاثة أسطر تشير إلى منشئه. وكان يضم مدخل المدرسة العشائرية أو دار القرآن العشائرية التي لم يبق منها غير الباب. أما الرواق الغربي المحيط بالصحن، فيتألف من عشرة عقود: أحدهما

(7828/1)

هو مدخل الباب الغربي، وهو حديث البناء، بني مع الباب الشمالي استكمالاً لطرازه. ويظن أنه جاء بديلاً عن باب يعود إلى أواخر العهد العثماني نحو عام 1200 هـ/ 1882 م في عهد جميل باشا والي حلب بعد أن حصل على إذن من الأستانه بنقض الرواق القديم لتوهنه؛ وهناك صفراء عثمانية تعلو الباب من الخارج.

... يضم هذا الرواق سبيل الماء الحمري ليشرب فيه المصلون. وقد أقيم هذا السبيل بسعي مدير الأوقاف الإسلامية بحلب السيد يحيى الكيالي. في عام 1241 هـ/ 1922 م. ويتألف الرواق الشرقي من رواقين متتاليين، تضم غرفاً صغيرة

(7829/1)

لسدنة الجامع والمشرفين عليه؛ ويقوم على ستة عقود. وهناك عقد سابع اتخذ مدخلاً لباب الجامع الشرقي. واجهة القبلية: إلى الجنوب من صحن الجامع، تظهر القبلية بواجهتها الجميلة وبزخارفها ونقوشها وقد توزعتها أقواس متتالية مؤلفة من خمسة عشر عقداً. في وسط تلك العقود مدخل القبلية، وهو غاية في دقة الصنعة. ويقوم على جانبي المدخل عقدان قد سدّا ليكونا نافذتين تستمد القبلية نورها منهما. وتوجد كثير من

النصوص الكتابية فوق ساكف المدخل نفذت بطريقة الحفر النافر.

(7830/1)

... يقول محمد فارس بأن المدخل الأوسط للقبلية يعود إلى الفترة المملوكية، على الرغم من وجود الكتابات العثمانية، معتمداً على أن ما جرى في العهد العثماني إنما هو ترميم لجدار القبلية وصيانة له، وليس إحداثاً جديداً كما يرد في عبارة على مخطوط أبي ذر صاحب "كنوز الذهب".

... نجد في صحن الجامع حوضاً كبيراً سداسيّ الشكل تحت الظلة التي فوقها قبة تستند إلى أعمدة رخامية. ويستخدم هذا الحوض للوضوء. وقد أقيم عام 1203هـ/ 1884 ـ 1885 م تجديداً لحوض سابق، يتوسط الحوض جرن صغير حديث الصنع انبثقت عنه نافورة. ويبدو أن

(7831/1)

الجرن الصغير قد ذهب عندما استبدل بالجرن الحالي. وفي الطرف الجنوبي يوجد سبيل ماء يخرج منه الماء. وشيد

هذا السبيل عام 1242 هـ/ 1924 م تجديداً لسابق قديم؛ وهناك مصطبة حجرية ترتفع قليلاً عن أرضية الصحن يحيط بها حاجز حجري ويستخدمها المؤذنون والمنشدون عندما تضيق القبلية بالمصلين؛ كذلك هناك مزولة تعرف بالبسيط تقوم على عمود حجري، وفي أعلاه فوهة يثبت عليها البسيط أو المزولة. وفي الرواق الشمالي توجد مزولة شمسية، وهي على لوحة مرمرية منفذة بطريقة الحفر، وقد علقت على جدار الرواق، تحدد ساعات النهار وأوقات

(7832/1)

الصلاة.

... . مظاهر الجامع: هناك عدد من المظاهر يصل عددها إلى أربعة مظاهر، بعضها يقع في الأسواق المجاورة؛ وبعضها داخل الجامع ذهب بمضي هذه المظاهر الآن وأقيم في بعض أمكنتها مساجد صغيرة أو إضافات ضرورية للجامع.

. صيانة الجامع وترميمه

... إن الصيانة والترميم والزيادة كانت تحدث بالجامع الأموي الكبير باستمرار، فهو أهم معلم ديني بالمدينة خاصة وفي سوريا عامة. وقد حرص الخلفاء والسلاطين

والنواب والولاة، كل في زمانه، على أن يظل هذا الجامع مسجداً جامعاً عامراً في كل العصور؛ كذلك كانت صيانة الجامع

(7833/1)

والعناية به تمتد إليه كلما دعت الحاجة إلى ذلك فبعد كل حريق أو تدمير أو هجر .كما لاحظنا .كانت النفوس الحرة تسارع إلى التعاضد مع السلطة أو مع نفسها لترميم الجامع أو صيانته أو تعميره، كيف لا وهو أهم بناء أثري يزهو به المسلمون على جيرانهم البيزنطيين. فبعد حريق الجامع زمن نور الدين محمود، سارع إلى ترميم الجامع وتوسعته كما مر معنا. وكذلك بعد الحريق الذي ألحقه هولاكو وأنصاره من السيسيّين الأرمن، سارع المماليك إلى تعمير الجامع وترميمه وجعله جامعاً فخماً يتناسب وغنى الدولة المملوكية وعظمتها. ولم

(7834/1)

يتوان العثمانيون عن الاهتمام بالمسجد الجامع حتى آخر أيامهم، حيث ظلوا يباشرون أعمال الترميم والصيانة والقيام بالإضافات التي تتناسب مع أهمية المدينة وتطورها الاقتصادي والاجتماعي. كما لم تتقاعس دائرة الأوقاف الإسلامية، إبان الانتداب الفرنسي، عن مباشرة الإصلاحات الضرورية فيه. وإبان الحكم الوطني، قامت أعمال صيانيّة كثيرة توخت المحافظة على الجامع كي يستطيع أن يقوم بوظيفته خير قيام. آخر تلك المحاولات جرت مؤخراً عندما حاولت تقوية الجامع من الداخل رغبة في تقوية البناء وتلقيحه بالرخام. إلا أن الجهات

(7835/1)

الأخرى بالمدينة التي تعنى بالتراث الإسلامي، وخاصة الجامعة وكليتي الهندسة المعمارية والمدنية ومديرية الآثار والمتاحف ونقابة المهندسين وجمعية العاديات تدخلت، محاولة تصحيح العمل وتنهيج مساره ضماناً للمحافظة على تراث الجامع الإسلامي المعماري وتقويته. وهذا ما رحبت به مديرية الأوقاف الإسلامية. ورغبة في تنسيق الجهود وتأطيرها، قام السيد محافظ حلب بإصدار عدة قرارات بتأليف لجان فنية وإدارية

لدراسة وضع الجامع بشكل شامل، فقامت لجان بدراسة البنية التحتية تتعلق بمجاري المياه المالحة وتمديدات مياه الشرب وأثر

(7836/1)

دخلة العبارات الموجودة تحت أقبية الجامع، كما درست اللجان الفنية الأخرى أهمية الجامع التاريخية والأثرية والمعمارية والتراثية ووضعت تقارير الجدوى والتكلفة، توطئةً للقيام بعمل فني متقن ومفيد. وقد قام السيد المحافظ بعقد عدة اجتماعات لتلك اللجان ووقف على سير أعمالها والنتائج التي آلت إليها تلك الأعمال لمتابعة تنفيذها. كذلك استقدمت مديرية الأوقاف بالاتفاق مع السيد المحافظ أحد الخبراء الدوليين في ترميم المباني التاريخية من جمهورية مصر العربية الذي اطلع على بناء الجامع التاريخي وشخص أسباب التآكل فيه

(7837/1)

وقدم الاقتراحات اللازمة، كما قام خبراء جامعة حلب بالتعاون مع أحد الخبراء الفرنسيين بتقديم مشورتهم

حول الميل الحاصل في مئذنة الجامع (40 ـ 50 م)؛ وكذلك شخصت الأمراض التي لحقت بحجارة بناء الجامع ونسبة الرطوبة والميل الحاصل في بعض جدرانه وصنعت التقارير مشخصة الداء ومقترحة الدواء.

... من المتوقع أن يباشر المعنيون بترميم الجامع وصيانته الأعمال التنفيذية في وقت قصير، حالما تكتمل هيكلة الجهاز الفني والإداري الذي سيشرف على المشروع وتتوافر الاعتمادات المالية اللازمة.

(7838/1)

... وهكذا، فإن هذه الآبدة الخالدة خلود مدينة حلب، والتي تتمثل فيها عمارة وفنون كل العصور التي مرت عليها منذ العهد السلجوقي حتى وقتنا الحاضر، وربما قبل ذلك فلكل عصر من العصور التي مرت منذ ذلك الزمن شاهد معماري أو فني يتمثل في إضافة أو ترميم أو صيانة أو نص كتابي ـ تلك الشواهد الهامة مجتمعة مع الأهمية التاريخية للجامع والمتمثلة في الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية شكلت أهمية هذا الجامع وأمدته بعناصر استمرار الحياة وأكسبته تقدير واحترام الأجيال المتعاقبة جيلاً بعد جيل، ومنها جيلنا الحالي

(7839/1)

وبكل تأكيد الأجيال المقبلة بإذن الله.

المصادر والمراجع

... ابن جبير، الرحلة، دار صادر ودار بيروت، 1384 هـ/ 1964 م.

... ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق دومنيك سورويل، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1952. القسم الأول، الجزء الأول.

... ابن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تحقيق يوسف بن الباب سركيس، بيروت، 1909.

... ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق الدكتور سامي الدهان، المعهد الإفرنسي، دمشق، 1951.

(7840/1)

... أبو ذر سبط بن العجمي، كنوز الذهب في تاريخ حلب، مجلدان، تحقيق الدكتور شوقي شعث والمهندس فالح

بكور، نشر دار العلم العربي، حلب، 1998.

... الريحاوي، عبد القادر، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، وزارة الثقافة، دمشق 1989.

... شعث، شوقي، حلب تاريخها ومعالمها التاريخية، جامعة حلب، ط 1، 1971؛ **وط**. 2، 1991.

... طلمس، أسعد، الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، منشورات مديرية الآثار العامة، مطبعة الشرقي، 1956.

(7841/1)

... الطباخ، محمد راغب، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ط 1، **المطبعة العلمية،** 1929؛ **وط** 2، **دار العلم العربي بحلب في ثمانية مجلدات.**

... الغزي، الشيخ كامل، نهر الذهب في تاريخ حلب، مجلدان، طبع ونشر دار العلم العربي؛ وطبع للمرة الأولى في المطبعة المارونية بحلب عام 1342 **هـ**

.Herzfeld, E. Inscriptions et monuments d'Alep

.1948Sauvager, J., Alep, Text et albut, Paris,

(7842/1)

تطور المذهب الحنفي بالقيروان خلال القرون الوسطى

الأستاذ نجم الدين الهنتاتي

المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية جامعة الزيتونة – تونس

تقديم

... بالرغم من أن المذهب الحنفي بالقيروان لم يكن محل دراسة علمية مستقلة، فقد كان تاريخه محل اختلاف بين الباحثين. اختلفوا في أول من أدخله إلى إفريقية، وبالتالي في تاريخ دخوله إليها؛ اختلفوا في مدى سيطرته عليها؛ اختلفوا كذلك في أسباب تراجعه وبالتالي تلاشيه أمام توسع انتشار المذهب المالكي.

(7843/1)

... يعود هذا الاختلاف أساسا إلى نوعية المصادر التي اعتمد عليها هؤلاء الباحثون، نعني أساسا كتب طبقات علماء المالكية. فهي تتناول المذهب الحنفي بصفة عرضية، ومن زاوية تريد من خلالها تمجيد المذهب المالكي، وبالتالي استنقاص الحنفية بصفتهم منافسين للمالكية. فالحنفية، كما تصورهم تلك

الكتب، يمثلون الأرستقراطية المتعاملة مع السلطان، سواء كان ذلك في العهد الأغلبي أو في العهد الفاطمي، وبالتالي هم صنائعه، تبنوا دون صعوبة تعاليم المذاهب "المبتدعة" سواء معتزلية كانت أو شيعية. هم أيضا قليلو العلم. كل هذا طبعا

(7844/1)

بخلاف المالكية.

... ما مدى صحة هذه التهم؟ هل عرف انتشار المذهب الحنفي بالقيروان توسعا؟ وإن كان هذا، ما حدوده الزمنية؟ ثم ما أسباب انتشاره بها وفي الأخير بماذا نفسر تراجعه أمام المذهب المالكي؟

ا – دخول المذهب الحنفي إلى القيروان وسيطرته بها إلى منتصف القرن 3هـ/9م.

... دخول المذهب الحنفي إلى إفريقية

... تنسب بعض المصادر إدخال المذهب الحنفي إلى إفريقية إلى أسد بن الفرات (ت 213هـ/828م)(1)

---

(1) المقدسي، "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، تحقيق دي خويه، ليدن، مطبعة بريل، 1906، ط2،

ص.237؛ على أن المصادر تخلط أحيانا بين عبارتي القيروان وإفريقية.

(7845/1)

. وقد سلم بعض الباحثين بذلك مثل أحمد بكير والحبيب الجنحاني(1)، بالرغم من وجود من سبق أسد في هذا الشأن. أما فندرهايدن، فقد انفرد بإرجاع ذلك إلى أحد المشارقة وهو عبد الله بن المغيرة الكوفي(2)، الذي قدم إلى إفريقية في تاريخ مجهول. في حين أن جل

---

(1) A. Békir, Histoire de l'école malikite en Orient..., Tunis, 1962, p.31؛ **الحبيب الجنحاني، "القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية ..."، تونس، 1968، ص.158–159.**

(2) M. Vonderheyden, La Berbérie orientale sous les Banu'l Arlab 800–909, Paris, 1927, 140p.

(7846/1)

المصادر تنسب ذلك إلى عالمين إفريقيين هما عبد الله بن فروخ الفارسي (ت حوالي 185هـ/801م) تلميذ أبي حنيفة (ت150هـ/767م)، وعبد الله بن غانم (ت190هـ/805م)؛ وهو الرأي الأصوب. وقد قدمه كل من حسن حسني عبد الوهاب وهند شلبي(1).

... أما القاضي عياض، فقد أكد أن المذهب الحنفي غلب على إفريقية إلى أن دخل إليها علي بن زياد (ت183هـ/799م) وابن أشرس والبهلول بن راشد بمذهب

---

(1) حسن حسني عبد الوهاب، "الإمام المازري"، تونس، د.ت.، صص.22-23؛ هند شلبي، "القراءات بإفريقية"، ليبيا-تونس، الدار العربية للكتاب، 1983، ص.213.

(7847/1)

مالك بن أنس (ت179هـ/795م) (1). وهذا يعني أن المذهب الحنفي سيطر بإفريقية، ولا سيما القيروان في فترة ما، ثم تراجع ذلك المذهب حوالي سنة 150هـ/767م تاريخ دخول ابن زياد بـ"موطإ" مالك إلى إفريقية. ولئن صح هذا الخبر في جزئه الأول، فهو قابل للنقاش في جزئه الثاني.

... فمن المعروف أن ابن زياد استقر بمدينة تونس،

وهناك أخذ في التعريف بفقه مالك، مما جعل أهل هذه المدينة يبادرون بصفة مبكرة بتقديم تعاليم مالك(2)

---

(1) القاضي عياض، "ترتيب المدارك..."، تحقيق أحمد بكير، بيروت، طرابلس، 1387هـ/1967م، ج1، ص.54.

(2) اظر مقالنا "تاريخ المذهب المالكي بمدينة تونس في القرون الوسطى". ورد هذا تحت مادة "مذهب" في "موسوعة مدينة تونس" التي نسبها توفيق البشروش إلى نفسه وأصدرتها المطبعة الرسمية بتونس سنة 1999.

(7848/1)

. أما القيروان فيبدو أن أهلها آنذاك ظلوا يعيشون نوعا من التشتت المذهبي.

... فالعالمان المشهوران بها آنذاك هما عبد الله بن فروخ وعبد الله بن غانم. كلاهما أخذ العلم عن أئمة المذهب الحنفي بالكوفة، كما سمعا من مالك بن أنس. وعندما اجتمع حولهما الطلبة بالقيروان، درسا المذهبين الحنفي والمالكي؛ وعندما أفتيا، كانت فتاويهما على هذين المذهبين. وهذا يعني أن القيروان مرت آنذاك بمرحلة من

التعايش المذهبي: تعايش بين المذهب الحنفي والمذهب المالكي.

(1/7849)

... إلا أنه يبدو أن المذهب الحنفي بالقيروان، دخل منعرجا جديدا على أثر وفاة هذين العالمين. وقد كان لأسد بن الفرات دور حاسم في هذا التحول.

سيطرة المذهب الحنفي بالقيروان إلى منتصف القرن 3هـ/9م: الأسباب والمظاهر:

... بعد اتصال أسد بمالك في المدينة، تفرغ للسماع من محمد بن الحسن الشيباني (ت 189هـ/804م) بالكوفة، ثم ساءل عبد الرحمان بن القاسم بالفسطاط حول مسائل "المدونة" التي أصبحت تعرف فيما بعد بـ"الأسدية".

وبهذه الموسوعة الفقهية عاد إلى القيروان سنة 181هـ/797م، فنال بفضلها هناك شهرة واسعة.

وبسبب خلافه

(1/7850)

مع سحنون بن سعيد (ت 240هـ/854م) وابن القاسم حول تلك الموسوعة، انتهى بالتحيز للمذهب الحنفي بصفة نهائية.

... ساهمت هذه المعطيات في ارتقائه إلى وظيفة القضاء بالقيروان سنة 203هـ/818م، فتوافرت الحظوظ لمزيد انتشار المذهب الحنفي. فقد نسب المقدسي فشو ذلك المذهب بالمغرب إلى أسد(1). أما المقريزي، فقد ربط بين ولاية أسد القضاء وتغليب المذهب الحنفي بإفريقية(2). وهذا يعني أن ذلك المذهب بدأ في السيطرة هناك منذ أوائل القرن

---

(1) المقدسي، المصدر نفسه، ص.237.

(2) المقريزي، "الخط"، مصر، 24–1325هـ/1907م، ج4، ص.144.

(7851/1)

3هـ/9م. وإذا علمنا من جهة أخرى أنه كانت لأسد مساهمة حيوية في تدوين المذهب الحنفي، وفي إدخال كتب الشيباني إلى القيروان، يمكن أن نفهم مدى خطورة الدور الذي لعبه أسد في تاريخ المذهب الحنفي بالقيروان.

... فقد ذكر القاضي عياض أن ابن فروخ أدخل إلى إفريقية حوالي 10.000 **مسألة غير مدونة عن أبي حنيفة، وأتى أسد ليدون جزءا منها في "مدونته"ه.**

... ساعدت عوامل أخرى على انتشار المذهب الحنفي بالقيروان، نذكر منها تقديم الأغالبة لذلك المذهب منذ عهد زيادة الله الأول (201–223**هـ/**817–838**م)، مقلدين في ذلك أسيادهم**

(7852/1)

العباسيين. فقد ميز العباسيون هذا المذهب منذ ولاية أبي يوسف القضاء ببغداد بعد سنة 170**هـ/**786**م. وكان أبو يوسف "لا يولي قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال إفريقية إلا أصحابه المتهيئين إلى مذهبه"(**1**). وقد عين عبد الله بن غانم قاضيا على القيروان سنة** 171**هـ/**787**م بإشارة من أبي يوسف، مما ساهم في نشر المذهب الحنفي بإفريقية، بالرغم من أن ابن غانم يدخل في إطار مرحلة التعايش بين المذهبين الحنفي والمالكي.**

(2)

_____

(1) السيوطي، "تزيين الممالك..."، المطبعة الخيرية، 1325هـ/1097م، ط1، ص.56.

(7853/1)

المصادر والمراجع

أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة، تأليف د.محمد ابن شريفة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
الإحاطة في اخبار غرناطة (مج 1)، لابن الخطيب، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه محمد بن عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1393هـ-1973م.
الإحاطة في اخبار غرناطة (مج 2،3،4)، لابن الخطيب، تحقق محمد بن عبد الله عنان، ط1، الشركة المصرية للطباعة والنشر، 1394، 1396، 1397هـ/1974، 1975، 1977م.

(7854/1)

إحكام صنعة الكلام، لأبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية،

دار الثقافة، بيروت، 1966م.

إحكام الفصول في أحكام الأصول، لأبي الوليد الباجي، حققه وقدم له ووضع فهارسه عبد المجيد تركي، ط1، دار الغرب الإسلامس، بيروت، 1407هـ/1986م.

أحكام القرآن، لأبي بكر ابن العربي، تحقيق علي محمد البجاوي، ط3، دار المعرفة، بيروت، 1392هـ/1972م.

أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تأليف أبي بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، حققه عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة

(7855/1)

والوراقة، الرباط، 1971م.

اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تأليف محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط2، الرباط، 1403هـ/1983م.

ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان، تحقيق وتعليق د.مصطفى أحمد النماس، ط1، 1404هـ/1984م.

أزهار الرياض في أخبار عياض، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني حقق الأجزاء الثلاثة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، وحقق الجزء

الرابع سعيد أعراب ومحمد بن تاويت، والجزء الخامس د.اعبد السلام الهراس وسعيد أعراب، مطبعة فضالة،

(7856/1)

1399هـ/1978م.

الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.

الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تأليف العباس ابن إبراهيم السملالي، راجعه عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1413هـ/1993م.

إفادة النصيح بالتعريف بسند الجامع الصحيح، لابن رشد السبتي الفهري الأندلسي، تحقيق د.محمد الحبيب ابن الخوجة، د.ت.

الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا

(7857/1)

ود.حامد عبد المجيد، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1981.

الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، لأبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، تحقيق مصطفى عبد الواحد، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، ومكتبة الهلال، بيروت، 1387هـ/1968م.

الإكسير في فكاك الأسير، لمحمد بن عثمان المكناسي، حققه وعلق عليه الأستاذ محمد الفاسي، مطبعة أكدال، الرباط، 1965.

الإلماع إلى معرفة أحوال الرواية وتقييد السماع، للقاضي عياض، تحقيق السيد أحمد صقر، ط2، دار التراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس، د.ت.

(7858/1)

الإملاء المختصر في شرح غريب السير، لأبي ذر مصعب بن أبي بكر محمد بن مسعود الخشني، تحقيق ودراسة د.عبد الكريم خليفة، ط1، دار البشير، عمان، 1412هـ/1991م.

انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك، لشمس الدين محمد بن محمد الراعي الأندلسي، تحقيق محمد أبو الأجفان، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.

أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، لأبي محمد بن أحمد القيسي السراج، حققه وقدم له وعلق عليه محمد الفاسي، فاس، 1388هـ/1968م.

(7859/1)

أنس الفقير وعز الحقير، لابن قنفذ القسنطيني، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965.

أوصاف الناس في التواريخ والصلات، لابن الخطيب، تحقيق ودراسة د.كمال شبانة، صندوق إحياء التراث الإسلامي، مطبعة فضالة، 1977م.

إيضاح شواهد الإيضاح، لأبي علي الحسن بن عبد الله القيسي، دراسة وتحقيق د.محمد بن محمود الدعجاني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ/1987م.

البحث الأدبي، للدكتور شوقي ضيف، ط4، دار المعارف، 1979م.

(7860/1)

بدائع السلك في طبائع الملك، لأبي عبد الله محمد بن الأزرق الأندلسي:
أ-تحقيق وتعليق د.علي سامي النشار، 1975م-1976م.
ب- دراسة وتحقيق د.محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1976م.
برنامج الوادي آشي، محمد بن جابر، تحقيق محمد محفوظ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1400هـ/1980م.
البسيط في شرح جمل الزجاجي، لابن أبي الربيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشي الإشبيلي السبتي. تحقيق ودراسة د.عياد بن عيد الثبيتي، ط1، دا الغرب الإسلامي، 1407هـ/1986م.

(7861/1)

بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، للقاضي عياض، تحقيق صلاح الدين بن أحمد الإدلبي وصاحبيه، ط2، مطبعة فضالة، المحمدية، 1982م.
بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تأليف أبي زكريا يحيى ابن خلدون، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1400هـ/1980م.
بقي بن مخلد القرطبي ومقدمة مسنده (عدد ما لكل واحد من الصحابة من الحديث)، دراسة وتحقيق د.أكرم ضياء

العمري، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1404هـ/1984م.

بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب، لمؤلف مجهول، تحقيق

(7862/1)

عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1404هـ/1984م.

بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، وتأليف أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي، تحقيق محمد مرسي الخولي، ومراجعة د.عبد القادر القط، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دار الجيل للطباعة، القاهرة، 1967م.

البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، لأبي الوليد ابن رشد القرطبي، تحقيق د.محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، 1404هـ/1984م.

(7863/1)

تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تأليف خالد بن عيسى البلوي الأندلسي، نشر وتحقيق الحسن السائح، 1964م.

تاريخ افتتاح الأندلي، لابن القوطية القرطبي:

أ – حققه وشرحه وعلق عليه وقابله عى مخطوطتي باريس ومدريد وقدم له عبد الله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1958م.

ب – حققه وقدم له ووضع فهارسه إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1400هـ/1980م.

تاريخ الضعيف الرباطي، لمحمد بن عبد السلام بن أحمد بن محمد الرباطي:

(7864/1)

أ – تحقيق وتعليق وتقديم الأستاذ أحمد العماري، ط1، دار المأثورات، 1406هـ/1986م.

ب – دراسة وتحقيق، الأستاذ محمد البوزيدي الشيخي، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1408هـ/1988م.

تحرير الكلام في مسائل الالتزام، للإمام أبي عبد الله محمد بن محمد الحطاب، تحقيق عبد السلام محمد الشريف، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1404هـ/1984م.

تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، لأبي حامد الأندلسي

الغرناطي، تحقيق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.

(7865/1)

تحقيق النصوص ونشرها، تأليف عبد السلام هارون، ط5، مكتبة السنة، 1410هـ

تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والمعاملات الشرعية، لعلي بن محمد ابن مسعود الخزاعي، تحقيق د.إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1405هـ/1985م.

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض:

أ – عارضه بأصوله وعلق حواشيه وقدم له محمد بن تاويت الطنجي، الرباط، 1965م.

(7866/1)

ب – تحقيق د.أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، ودار مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا،

1387هـ/1967م.

تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر، لابن رشد:

أ – تحقيق وتعليق د.محمد سليم سالم، القاهرة، 1361هـ/1971م.

ب – تحقيق د.تشارلس بترورث ود.أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م.

تلخيص منطق أرسطو، لابن رشد، تحقيق جيرار جهامي، المكتبة الشرقية، بيروت، 1982م.

التمهيد لما في الموطإ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر النمري الأندلسي، حققه وعلق حواشيه وصححه مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد

(7867/1)

الكبير البكري، ط2، 1402هـ/1982م.

التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات، لأبي المطرف أحمد ابن عميرة، تقديم وتحقيق محمد ابن شريفة، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1412هـ/1991م.

ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، دراسة وتحقيق د.عبد الله العمراني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1403هـ/1983م.

جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، لعلي الجزنائي، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1411هـ/1991م.

(1/7868)

حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار، للوزير أبي القاسم بن محمد بن إبراهيم الغساني، حققه وعلق حواشيه ووضع فهارسه محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1405هـ/1985م.

الحلل السندسية في الأخبار التونسية، لمحمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج، بتحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الكتب الشرقية، 1973، ودار الغرب الإسلامي، 1984م.

درة الحجال في أسماء الرجال، لأبي العباس أحمد بن محمد المكناسي (ابن القاضي)، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، والمكتبة العتيقة، تونس، 1390هـ/1970م.

(1/7869)

درة الغواص في محاضرة الخواص، لبرهان الدين ابراهيم بن فرحون المالكي، تقديم وتحقيق وتعليق محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، دار التراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس، 1979م.

درر السمط في خبر السبط، لابن الأبار الأندلسي:

أ – تحقيق وتقديم د.عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، تطوان، 1972م.

ب – تحقيق عز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، 1407هـ/1987م.

ديوان أبي إسحاق الألبيري الأندلسي، حققه وقدم له د.محمد رضوان الداية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1396هـ/1976م.

(7870/1)

ديوان الأمي التطيلي، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963م.

ديوان الأمير أبي الربيع سليمان بن عبد الله الموحد، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ومحمد بن العباس القباج، وسعيد أعراب، ومحمد بن تاويت التطواني، المركز الجامعي للبحث العلمي، د.ت.

ديوان حازم القرطاجني، تحقيق عثمان الكعاك، دار

الثقافة، بيروت، د.ت.

ديوان ابن حمديس، صححه وقدم له د.إحسان عباس، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1379هـ/1960م.

ديوان ابن خاتمة الأنصاري، حققه وقدم له د.محمد رضوان الداية، 1399هـ/1978م.

(7871/1)

ديوان ابن خفاجة، تحقيق د.سيد غازي، ط2، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت.

ديوان ابن دراج القسطلي، حققه وعلق له د.محمود علي مكي، ط2، المكتب الإسلامي، 1389هـ

ديوان الرصافي البلنسي، لأبي عبد الله محمد بن غالب، جمعه وقدم له د.إحسان عباس، ط2، دار الشروق، بيروت والقاهرة، 1403هـ/1983م.

ديوان ابن الزقاق البلنسي، تحقيق عفيفة محمود ديراني، دار الثقافة، بيروت، 1964م.

ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق علي عبد العظيم، دار نهضة مصر، القاهرة، 1374هـ/1955م.

(7872/1)

ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمعه وحققه يعقوب زكي وراجعه د.محمود علي مكي، دار الكاتب العربي، القاهرة، د.ت.

ديوان ابن عبد ربه، جمعه وحققه وشرحه د.محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979م.

ديوان ابن فركون، تقديم وتعليق محمد بن شريفة، ط1، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1407هـ/1987م.

ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني، صنعه وحققه وقدم له د.محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1988م.

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1979م.

(7873/1)

الرحلة الحجازية، لمحمد السنوسي، تحقيق علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، 1396هـ/1976م.

الرحلة الحجازية، للفقيه الحافظ محمد بن محمد المختار الولاتي، تخريج وتعليق د.محمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.

رحلة العبدري (الرحلة المغربية)، لأبي عبد الله محمد بن

محمد العبدري الحيحي، حققه وقدم له وعلق عليه محمد الفاسي، الرباط، 1968م.

رحلة القلصادي، لأبي حسن علي القلصادي الأندلسي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، 1978م.

(7874/1)

رسائل أبي علي اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، ط1، دار الثقافة، البيضاء، 1401هـ/1981م.

الرسالة الفقهية، للشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، إعداد د.الهادي حمو ود.محمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.

روضة التعريف بالحب الشريف، لابن الخطيب، عارضه بأصوله وعلق حواشيه وقدم له محمد الكتاني، ط1، دار الثقافة، البيضاء، 1970م.

روضة النسرين في دولة بني مرين، لاسماعيل ابن الأحمر، بتحقيق عبد الوهاب ابن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1411هـ/1991م.

(7875/1)

الروض المريع في صناعة البديع، لابن البناء المراكشي، تحقيق رضوان بنشقرون، ط1، دار النشر المغربية، البيضاء، 1985م.

ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لابن الخطيب، حققه ووضع مقدمته وشواهده محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980م.

زهرة الأكم في الأمثال والجكم، للحسن اليوسي، حققه د.محمد حجي ود. محمد الأخضر، ط1، دار الثقافة، البيضاء، 1401هـ/1981م.

شرح عيون كتاب سيبويه، لأبي نصر هارون بن موسى القيسي المجريطي القرطبي، دراسة وتحقيق د.عبد ربه اللطيف عبد ربه، ط1، مطبعة حسان، القاهرة، 1404هـ/1984م.

(7876/1)

شرح المشكل من شعر المتنبي، لعلي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ود. حامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976م.

شرف الطالب في أسنى المطالب، لأحمد ابن قنفذ، تحقيق محمد حجي (ضمن كتاب "ألف سنة من الوفيات")، الرباط،

1396هـ/1976م.

شفاء السائل لتهذيب المسائل، أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، نشره وعلق عليه الأب أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1959م.

(7877/1)

الشهب اللامعة في السياسة النافعة، لأبي القاسم ابن رضوان المالقي، تحقيق د.علي سامي النشار، ط1، دار الثقافة، بيروت، 1404هـ/1984م.

صلة الخلف بموصول السلف، لمحمد بن سليمان الروداني، تحقيق د.محمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1408هـ/1988م.

ضرائر الشعر، لابن عصفور الإشبيلي، 1980م.

طبقات الأطباء والحكماء، لأبي داود سليمان بن حسان الأندلسي (ابن جلجل)، تحقيق فؤاد سيد، ط2، مؤسسة الرسالة، 1405هـ/1985م.

طبقات الأمم، لصاعد الأندلسي، تحقيق حياة بوعلوان، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1985م.

(7878/1)

طوق الحمامة في الألفة والألاف، لابن حزم الأندلسي:

أ – ضبط نصه وحرر هوامشه د.الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، 1975م.

ب – حققه وقدم له صلاح الدين القاسمي، ط3، الدار التونسية للنشر، 1988م.

عمدة الطبيب في معرفة النبات، لأبي الخير الإشبيلي، قدم له وحققه وأعاد ترتيبه محمد العربي الخطابي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1990م.

العمدة في غريب القرآن، لأبي مكي بن أبي طالب القيسي، حققه وعلق عليه وخرج نصه د.يوسف عبد الرحمان المرعشلي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1404هـ/1984م.

(7879/1)

العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد قرقزان، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1408هـ/1977م.

الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، لابن سعيد الأندلسي، تحقيق إبراهيم الإبياري، ط3، دار

المعارف، 1977م.

الغنية: فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1402هـ/1982م.

فتاوى ابن رشد، لأبي الوليد ابن رشد القرطبي، تقديم وتحقيق وجمع وتعليق د.المختار بن الطاهر التليلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1407هـ/1987م.

(7880/1)

فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، لأبي عبد الله البرتلي الولاتي، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ/1981م.

فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، لابن رزين التجيبي، حققه وقدم له محمد بن شقرون، وأشرف على إعداده د.إحسان عباس، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984م.

فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، لابن الحاج النميري، دراسة وإعداد د.محمد ابن شقرون، 1984م.

(7881/1)

قصائد ومقطعات، صنعة أبي الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق د.محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار التونسية للنشر، د.ت.

كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري، نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، البيضاء، 1985م.

كتاب التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، لمحمد بن الطيب القادري، دراسة وتحقيق هاشم العلوي القاسمي، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1401هـ/1981م.

(7882/1)

كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، لابن سعيد المغربي، تحقيق د.خوان قرنيط خينيس، تطوان، معهد مولاي الحسن، 1958م.

كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، لأبي عبد الله محمد بن الكتاني الطيب، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1966م.

كتاب الجامع، لأبي عبد الله بن أبي زيد القيرواني، صححه وقدم له وعلق عليه محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، والمكتبة العتيقة، تونس، 1982م.
كتاب جامع العبارات في تحقيق الاستعارات، لأحمد مصطفى الطرودي التونسي، دراسة وتحقيق د.محمد رمضان الجربي، ط1، الدار

(7883/1)

الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، 1986م.
كتاب الحدود في الأصول، لأبي الوليد الباجي الأندلسي، تحقيق نزيه حماد، ط1، مؤسسة الزعبي للطباعة والنشر، بيروت وحمص، 1392هـ/1973م.
كتاب الحلة السيراء، لابن الأبار، حققه وعلق جوانبه د.حسين مؤنس، الشركة للطباعة، القاهرة، د.ت.
كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لمؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري، حققه د.سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة، ط1، دار الرشاد الحديثة، البيضاء، 1399هـ/1979م.

(7884/1)

كتاب الخيل مطلع اليمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال، لعبد الله بن محمد بن جزي الكلبي الغرناطي، حققه وقدم له محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1406هـ/1986م.

كتاب الرد على النحاة، لابن مضاء القرطبي، تحقيق د.شوقي ضيف، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1982م.

كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، لمحمد بن عبد المنعم الحميري، حققه د.إحسان عباس، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، 1980.

كتاب العنوان في القراءات السبع، لأبي طاهر إسماعيل بن خلف المقرئ الأنصاري الأندلسي، حققه وقدم له د.زهير زاهد ود.خليل

(7885/1)

العطية، ط2، عالم الكتب، بيروت، 1406هـ/1986م.

كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق محيي الدين رمضان، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1404هـ/1984م.

كتاب لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول، لأبي الحجاج يوسف بن محمد المكلاتي، تقديم وتحقيق وتعليق د.فوقية حسين محمود، ط1، دار الأنصار، القاهرة، 1977م.

كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، لابن الخطيب، تحقيق د.محمد كمال شبانة، الرباط

(7886/1)

كناسة الدكان بعد انتقال السكان، لابن الخطيب، تحقيق د.محمد كمال شبانة، ومراجعة د.حسن محمود، دار الكاتب العربي، 1966م.

لحن العامة، لأبي بكر محمد بن الحسين الزبيدي، تحقيق د.عبد العزيز مطر، دار المعارف ومطابع سجل العرب، 1981م.

لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد، لأحمد ابن القاضي، تحقيق محمد حجي (ضمن كتاب "ألف سنة من الوفيات")، الرباط، 1396هـ/1976م.

المثلث، لابن السيد البكليوسي. تحقيق ودراسة د.صلاح مهدي الفرطوسي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1401هـ/1981م.

(7887/1)

المحاضرات، لأبي علي اليوسي، تحقيق محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م.

المختار من شعر بشار وشرحه، لأبي طاهر التجيبي البرقي، اعتنى بنسخه وتصحيحه وتعليق الفوائد عليه وتخريج أبياته ووضع فهارسه السيد محمد بدر الدين العلوي، دار المدينة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.

مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، للقاضي عياض وولده محمد، تقديم وتحقيق وتعليق د.محمد ابن شريفة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.

(7888/1)

مستفاد الرحلة والاغتراب، للقاسم بن يوسف التجيبي السبتي، تحقيق وإعداد عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس –ليبيا، 1975م.

مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب، لعبد الرحمن بن محمد ابن الدباغ الأنصاري، تحقيق هـ ريتر، دار صادر ودار بيروت، 1379هـ/1959م.

مشاهير الشعراء والكتاب (وهو كتاب "نثير فرائد

الجمان")، لابن الأحمر، حققه وقدم له د.محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، 1406هـ/1986م.
"مصطلح التحقيق في استعمال محققي التراث المغربي الأندلسي"، لمصطفى اليعقوبي، ضمن أعمال ندوة "تحقيق التراث

(7889/1)

المغربي الأندلسي: حصيلة وآفاق"، صص.65–139، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، 1997م.
المطرب من أشعار أهل المغرب، لابن دحية، تحقيق إبراهيم الأبياري وصاحبيه، راجعه د.طه حسين، دار العلم للجميع، بيروت، 1954م.
مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، للفتح بن خاقان الإشبيلي، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة، ط1، دار عمار ومؤسسة الرسالة، 1403هـ/1983م.
المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد المراكشي، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط1، مطبعة

(7890/1)

الاستقامة، القاهرة، 1368هـ/1949م.

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، للبكري، عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه مصطفى السقا، ط3، عالم الكتب، 1403هـ/1983م.

المعيار المعرب والجامع عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، لأحمد بن يحيى الونشريسي، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف د.محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، 1401هـ/1981م.

المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد الأندلسي، حققه وعلق عليه د.شوقي ضيف، ط3، دار المعارف، 1978-1980م.

(7891/1)

مفردات ابن الخطيب، لابن الخطيب، تحقيق وتقديم د.عبد العلي الودغيري، منشورات عكاظ، الرباط، 1988م.

المقتبس من أنباء أهل الأندلس، لابن حيان القرطبي:

أ – تحقيق عبد الرحمن حجي، دار الثقافة، بيروت، 1965.

("بلد الأندلس" عوض "أهل الأندلس").

ب – حققه وقدم له وعلق عليه د.محمود علي مكي، القاهرة، 1390هـ/1971م.

المقتطف من أزاهر الطرف، لابن سعيد الأندلسي، تقديم وتحقيق ودراسة د.سيد حنفي حسنين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983م.

(1/7892)

المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، لأبي الوليد ابن رشد، تحقيق د.محمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ/1988م.

مقدمة ابن خلدون، للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مهد لها ونشر الفصول والفقرات الناقصة من طبعاتها وحققها وضبط كلماتها وشرحها وعلق عليها وعمل فهارسها د.علي عبد الواحد وافي، ط2، لجنة البيان العربي، 1384هـ/1965م.

(1/7893)

المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تأليف عبد الحق بن إسماعيل البادسي، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، 1402هـ/1982م.

ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تقييد ابن رشيد الفهري السبتي، تقديم وتحقيق د.محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار التونسية للنشر، ج2: 1402هـ/1982م؛ ودار الغرب الإسلامي، ج5: 1408هـ/1988م.

ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تأليف أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغاصمي

(7894/1)

الغرناطي:

أ – تحقيق سعيد الفلاح، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1403هـ/1983م.

ب – تحقيق د.محمود أحمد كامل، دار النهضة العربية، بيروت، 1405هـ/1985م.

ملتقط الرحلة من المغرب إلى حضرموت، للفقيه يوسف بن عابد الإدريسي الحسني الفاسي، حقق المخطوط وقدم له

وعلق عليه د.أمين توفيق الطيبي، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1988م.
الممتع في التصريف، لابن عصفور الإشبيلي، تحقيق د.فخر الدين قباوة، ط3، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1970م.

(7895/1)

مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، تأليف د.رمضان عبد التواب، ط1، مكتبة الخانجي ومطبعة المدني، القاهرة، 1406هـ/1985م.
مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا، لأبي فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي، حققه وقدم له ووضع فهارسه عبد الله كنون، 1964م.
المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، لأبي محمد القاسم السجلماسي، تقديم وتحقيق د.علال الغازي، ط1، مكتبة المعارف، الرباط، 1401هـ/1980م.
المن بالإمامة، لعبد الملك بن صاحب الصلاة، تحقيق د.عبد الهادي التازي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.

(7896/1)

منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.

الموافقات في أصول الأحكام، لأبي إسحاق ابراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشاطبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، د.ت.

نتيجة الاجتهاد في المهانة والجهاد، لأحمد بن المهدي الغزال، حققه وقدم له إسماعيل العربي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1980م.

(7897/1)

نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، لابن الأحمر، دراسة وتحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، 1967م.

نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، لمحمد بن الطيب القادري، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط، 1397هـ/1977م.

نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، لابن القطان المراكشي، درسه وقدم له وحققه د.محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.

النكت الحسان في شرح غاية الإحسان، لأبي حيان النحوي الأندلسي الغرناطي، تحقيق ودراسة د.عبد الحسين الفتلي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت،

(7898/1)

1405هـ/1985م.

وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام، لابن قنفذ القسنطيني، تقديم وتعليق سليمان الصيد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984م.

وفيات الونشريسي، لأحمد الونشريسي (ضمن "ألف سنة من الوفيات")، تحقيق محمد حجي، الرباط،

1396هـ/1976م.

... وقبل شهرة هذين المذهبين، عرف مذهب سفيان الثوري ومذهب عبد الرحمان الأوزاعي شيئًا من الانتشار بإفريقية.

فقد دخلت إليها "جوامع" سفيان الثوري، وتم إسماعها للطلبة إلي جانب "الموطإ" مثلا. ومذهب الثوري كوفي مثل مذهب أبي حنيفة، أي أنهما استقيا تعاليمهما من الوسط

(7899/1)

نفسه؛ بل أكثر من ذلك فقد أثر عن أبي يوسف أنه قال: "سفيان الثوري أكثر متابعة لأبي حنيفة مني"(1). إن صح هذا أمكن القول إن مذهب الثوري مهد السبيل لانتشار المذهب الحنفي بالقيروان.

... كل هذه المعطيات ساهمت في نتشار هذا المذهب بالقيروان وفي سيطرته بها انطلاقا من بداية القرن 3هـ/9م، وبذلك يمكن رد ما أوحى به نص المقدسي من انتشار ذلك المذهب هناك أتى نتيجة لعامل الصدفة(2)

---

(1) ابن عبد البر، "الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء..."، القاهرة، 1350هـ/1931م، ص.128.

(2) المقدسي، المصدر نفسه، ص.237. ويبدو أن المرحوم سعد غراب قد ساند المقدسي في ذلك النوع من التفسير ("العامل الديني والهوية التونسية"، تونس، 1990، ص.41).

(7900/1)

.

... ومن أهم الحجج على سيطرة ذلك المذهب آنذاك، خبر ذكره المالكي يخص نوعية طلبة أسد بن الفرات. فقد سأل هذا الأخير شابا كان يختلف إليه عن صناعته، فسمى له الشاب صناعته، فأمره أسد بالقيام إلى عمله قائلا:

... صاحب الحانوت إنما بالحرفاء، فإذا جاءك حريفك اليوم ولم يجدك وغدا ولم يجدك وبعد غد مثل ذلك، استبدل بك غيرك، فضررت بنفسك وبمن تعوله"، ثم أضاف أسد: "انظر إلى هؤلاء الذين يأتوننا، إنما هم أهل حرث وحصاد؛ فإذا كان حرثهم وحصادهم، لم تر منهم أحدا يجيء إلينا؛ فإذا انقضى حرثهم أو حصادهم، عادوا إلى ما

(7901/1)

كانوا فيه(1).

... فالمهتمون بفقه أبي حنيفة لم يكونوا من الأثرياء فحسب، إنما وجد في إطارهم أيضا متواضعون اجتماعيا من صنف الحرفيين وحتى المزارعين. وضمن هؤلاء المتواضعين تخرجت نسبة من الجيل الأول من فقهاء الحنفية، مثل معمر بن منصور هذا الذي كان يطلب المساعدة المالية من كبار علماء المالكية أمثال سحنون

وعبد الله بن طالب (ت 275هـ/888م) (2)

---

(1) المالكي، "كتاب رياض النفوس"، تحقيق بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983، ج1، ص.269.

(2) الخنشي، "كتاب طبقات علماء إفريقية"، نشر الشيخ محمد بن أبي شنب، الجزائر، 1332هـ/1914م، ص.113؛ "تراجم أغلبية مستخرجة من "مدارك القاضي عياض""، تحقيق محمد الطالبي، تونس، 1968، صص.215–217.

(7902/1)

. ولا ننسى من جهة أخرى أن أسدا كان من أصل اجتماعي متواضع. فقد وصف نفسه خلال رحلته إلى الشرق بـ"ابن السبيل"(1).

... وعلى يدي أسد تخرج الجيل الأول من علماء الحنفيين مثل عمر المذكور أعلاه وابن قادم سليمان بن عمران (ت 270هـ/884م) الملقب بخروفه لشدة ملازمته الأسد. فقد غمرت شهرة

---

(1) ابن ناجي، "معالم الإيمان..."، أصله للدباغ، تونس،

1320هـ/2-1903م، ج2، صص.5-7. وبذلك يمكن رد ما ذهب إليه عبد العزيز المجدوب. فقد ذكر أن أسدا ينتسب إلى أسرة أرستقراطية ("الصراع المذهبي بإفريقية"، تونس، 1395هـ/1975م، ص.50).

(7903/1)

هؤلاء العلماء النصف الأول من القرن 3هـ/9م. وقد اعترف القاضي عياض، في إطار حديثه عن ظروف تعيين سحنون على القضاء، حوالي سنة 233هـ/847م، بأن عدد الأحناف آنذاك كان أكثر من عدد المالكية(1).

... كل هذه المعطيات تبرهن على مدى توسع انتشار المذهب الحنفي بالقيروان خلال النصف الأول من القرن 3هـ/9م. ونتيجة لذلك، ظهرت آنذاك عائلات حنفية قيروانية شهيرة، مثل عائلة بني وهب وعائلة بني قادم وعائلة بني الثوام.

---

(1) "تراجم أغلبية"، ص.99.

(7904/1)

... إلا أنه ابتداء من النصف الثاني من القرن 3هـ/9م، أخذت الكفة ترجح لفائدة المذهب المالكي.

II – أسباب تراجع المذهب الحنفي بالقيروان ابتداء من النصف الثاني من القرن 3هـ/9م:

... وفر خروج أسد بن الفرات إلى صقلية سنة 212هـ/827م، مرفقا ببعض شيوخ الحنفية ومن بينهم ابن قادم، فرصة سانحة لسحنون كي يعرف بالمذهب المالكي بالقيروان. وهذا لا يعني أن المذهب الحنفي أخذ في الانحسار منذ ذلك الحين. كل ما في الأمر أن زعامته انتقلت إلى سليمان بن عمران. إلا أننا لن نجانب الحقيقة عندما نقول إن ابن عمران ألحق بصفة غير

(7905/1)

مباشرة ضررا بالمذهب الحنفي. تم ذلك عندما أشار على الأمير بتعيين سحنون على قضاء القيروان، مقدما إياه على نفسه. فما كان من سحنون إلا أن أحسن استغلال الفرصة. فقد حيد المذهب الحنفي، بتعيين زعيمه قاضيا على الأربس وباجة، وسمح له بالقضاء حسب فقه أبي حنيفة(1). وهذا يعني أن سحنون أبعد زعيم الحنفية عن أصحابه بالقيروان، فتسبب ذلك في إضعاف الحنفيين. وبهذه الطريقة أيضا، أمكن له أن يكون حلفا

سنيا ضد المذاهب "المبتدعة" من

---

(1) "تراجم الأغلبية"، ص.120. ويأتي هذا خلافا لما ذكره الخنشي (المصدر نفسه، ص.180).

(7906/1)

معتزلة وخوارج، فألحق بها ضريبة قاسمة، وركز في الوقت نفسه موقع المذهب المالكي.

... ولئن تولى سليمان بن عمران القضاء القيرواني مباشرة بعد سحنون، فقد تم ذلك بعد فوات الأوان على المذهب الحنفي.

... لم يسع الأحناف من جهة أخرى إلى تكوين جبهة موحدة لمواجهة المالكية، على ما يبدو. فقد ذكر المالكي أن أبا عبد الله محمد بن زرزر (ت 291هـ/903م) الفقيه الحنفي، كان كثير السخرية من سليمان بن عمران ومن أبي المنهال(1)، في حين أن سحنون مثلا تجنب تخطئة صاحبيه أمام القاضي أسد في

---

(1) المالكي، المصدر نفسه، ج1، ص.514.

(7907/1)

مسألة تسرعا في الإجابة عنها. وقد برز تصرفه قائلا:

"كرهت أن أخالفكما، فندخل عليه إخوانا ونخرج أعداء"(1).

... لم يظهر الحنفية استعدادا للتكافل الاجتماعي فيما بينهم، في حين لاحظنا عكس ذلك بين المالكية.

فعندما طلب حنفي متحمس لمذهبه مساعدة مالية من أصحابه، خذلوه، فمكنه منها عبد الله بن طالب(2)

---

(1) ابن ناجي، المصدر نفسه، ج2، ص.63. وهذا لم يمنع، فيما بعد، ظهور خلافات بين المالكية ذاتهم.

(2) "تراجم الأغلبية"، صص.216-217، مع التنبيه إلى أن مثل هذه الأخبار لا تخلو من مجاملة للمالكية واستنقاص للحنفية. فهؤلاء بخلاء، وأولئك كرماء.

.

... تنوعت من جهة أخرى مواقف الحنفية من الاعتزال. فقد أخذت بعض عناصرهم ببعض مبادئه، مثل ابن حبيب السدري، بينما خير جلهم مذهب السنة، مثل أسد بن الفرات وسليمان بن عمران وعبد الله بن هارون الكوفي السوداني كاتب سليمان بن عمران أيام قضائه ومحمد

بن عثمان الخراساني الفقيه (ت 318هـ/930م).

... إذا علمنا أيضا أن علماء المالكية اتفقوا بالإجماع على مقاومة الاعتزال، فمن الراجح أنهم تعمدوا اتهام الأحناف ككل بالاعتزال، حتى ينفروا العامة من المذهب الحنفي. وربما ساعدت على ذلك نوعية عقلية أهل إفريقية التي لم

(7909/1)

تتفاعل مع الاعتزال. لذلك من الطبيعي أن هؤلاء سينتهون بالتخلي عن المذهب الحنفي لفائدة المذهب المالكي. وقد وصلنا صدى تهمة الحنفيين بالاعتزال في إطار طبقات المالكية، فصدقها عدد من الباحثين، بل إن أحمد بكير ذهب إلى القول إن سليمان بن عمران كان على سنة عندما كان متعاونا مع القاضي سحنون، ثم "اعتزل" على أثر وفاة هذا الأخير(1)

---

(1) اتفق الخشني وابن ناجي على أن ابن عمران لم يقل بالاعتزال. (الخشني، المصدر نفسه، ص.181؛ ابن ناجي، المصدر نفسه، ج2، ص.103). فيما يتعلق بأحمد بكير، انظر "الجدل حول العقيدة"، في ملتقى الإمام المازري المنستير، 1975، تونس، 1978، ص.32.

(7910/1)

.

... وقد أتى اعتزال بعض الحنفية نتيجة لأسباب منها مجاراتهم للأغالبة الذين قدموا الاعتزال مذهبا عقائديا، والحنفية مذهبا فقهيا. فاختلطت الأوراق على أهل القيروان، وتخلوا عن المذهب الحنفي في إطار معارضتهم للأغالبة، مما ساهم في تراجع انتشاره بينهم. فأصبح المذهب الحنفي خلال النصف الثاني من القرن 3هـ/9م مذهب الخاصة، ومذهب الأرستقراطية، وهو أمر استنتجه كل الباحثين. إلا أنهم طبقوا هذا الاستنتاج على العهد الأغلبي كله، في حين كان من الأولى تطبيقه على النصف الثاني من القرن 3هـ/9م، وهي الفترة التي تراجعت

(7911/1)

خلالها شعبية المذهب الحنفي.

... وفي سياق التهم الموجهة إلى الأحناف، سعت كتب طبقات المالكية إلى إقناعنا بأن المذهب الحنفي هو مذهب الرخص. فهو يجوز شرب النبيذ إلى حد الإسكار، ويبيح الربا عن طريق التحيل على النصوص الشرعية.

فكان لهذا تأثير على الباحثين، بل إن أحدهم ذكر أن الذين تولوا نشر المذهب الحنفي بإفريقية بعد أسد "تجاوزوا أصوله وقدموه في صورة التيسير، فتعلق به الخاصة وأصحاب السلطة"(1).

---

(1) عبد المجيد بن حميدة، "المدارس الكلامية بإفريقية..."، تونس، 1986، ص.40.

(7912/1)

... ومن المعلوم أن أسدا، ناشر المذهب الحنفي بإفريقية، كان من الموالي الفرس. وقد أخذ هذا المذهب عن مولى مثله وهو محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة الفارسي الأصل أيضا. فالنسبة غير العربية لدى زعماء هذا المذهب كان لها دور لا يستهان به في تراجع عدد من أهل إفريقية عن ذلك المذهب. ولتأكيد هذا، ذكر الغزي أن "من جملة ما يشنع به الحساد على أبي حنيفة (رضه) أنه من جملة الموالي، وليس هو من العرب، وأن من كان مجتهدا من العرب أولى بالتقديم من غيره"(1)

---

(1) تقي الدين الغزي، "الطبقات السنية في تراجم

الحنفية"، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، الرياض، 1983، ط1، ج1، ص.134.

(7913/1)

. وبالفعل، فقد انتهى أهل إفريقية بتقديم المذهب المالكي لأسباب منها انتساب صاحبه مالك، وناشره هناك، نعني سحنون، إلى العرب(1).

... إذا أضفنا إلى هذا أن المذهب الحنفي لم يلق عموما رواجا بمصر، وذلك انطلاقا من تجربة أهلها مع القاضي الحنفي إسماعيل بن اليسع الكوفي، ابتداء من سنة 164هـ/780م، أمكن لنا أن

---

(1) انظر بحثنا "المذهب المالكي بإفريقية من منتصف القرن 2هـ/8م إلى منتصف القرن 5هـ/11م"، شهادة التعمق في البحث، تحت إشراف الأستاذة منيرة شابوطو، نص مرقون، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، 1990–1991.

(7914/1)

نضيف سببا آخر لتراجع أهمية ذلك المذهب بإفريقية.

... فإفريقية فتح مصري، بما أن الفاتحين دخلوا إليها انطلاقا من مصر. كما ظلت تلك المنطقة تابعة لمصر من الناحية الثقافية خلال فترة طويلة. وقد انتشر بهذه البلاد مذهب مالك، ثم مذهب الشافعي، وبصفة أقل مذهب أبي حنيفة. والراجح أن وضعية هذا المذهب بمصر كان لها تأثير على مصير المذهب الحنفي بإفريقية، في حين أن المذهب المالكي الغفريقي ظل مدة يتغذى بمالكية مصر.

... كان من الممكن للمذهب الحنفي الإفريقي أن يتغذى بحنفية بغداد عاصمة العباسيين. إلا أن العراق ليست

(7915/1)

على طريق الحجاج كما ذكر ابن خلدون. لذلك ظل المذهب الحنفي الإفريقي معزولا عن نقطة ارتكازه الأولى وهي العراق، مما جعله يعرف تقوقعا وبالتالي ذبولا على المدى الطويل.

... لاحظ أبو زهرة من ناحية أخرى أن المذهب الحنفي يقوى بمصر كلما قوي سلطان العباسيين عليها، دون أن تكون له مكانة لدى أهل مصر(1). وإذا علمنا أن نفوذ العباسيين تدرج نحو التراجع بإفريقية نتيجة لسعي الأغالبة إلى إثبات استقلاليتهم عنهم، أمكن أن نجد

تفسيرا آخر لتراجع

---

(1) أبو زهرة، "أبو حنيفة. حياته..."، دار الفكر العربي، 1955، ط2، ص.464.

(7916/1)

الحنفية بإفرقية. على أن ذلك التراجع سيبلغ مداه بعد سقوط الدولة الأغلبية سنة 296هـ/909م، بما أن علاقات إفريقية بالعباسيين ستنقطع تماما في العهد الفاطمي.

... ومن أهم مظاهر ذلك التراجع، أن عددا من الحنفية تحولوا إلى المذهب المالكي. وأشهر مثال على ذلك يقدمه جبلة بن حمود (ت 299هـ/911م)، هذا الذي كان ينتسب إلى عائلة حنفية ثرية تتعامل مع السلطان(1). تحول كذلك جعفر بن الثوام إلى مذهب مالك بعد أن "كان أجداده كلهم ينتحلون مذهب أهل الكوفة". لهذا السبب كان شيخه أبو بكر بن

---

(1) "تراجم أغلبية"، صص.279–280.

(7917/1)

اللباد (ت333هـ/944م) يسميه "مؤمن آل فرعون"(1)، وكأننا بأجداده كانوا من الكفار.

... ويبدو أن أحد أعوان القاضي سليمان بن عمران قد تفطن لذلك التطور، فحاول عرقلته. فقد سعى إلى إقناع أهل المنستير باتباع تعاليم المذهب الحنفي، "فأغلظوا له في ذلك اتباعا منهم لمذهب مالك". فأراد القاضي سليمان بن عمران معاقبة جماعة منهم، "فارتجت القيروان... وامتلأت السقيفة" عليه... لذلك سارع بالعفو عنهم(2).

---

(1) المالكي، المصدر نفسه، ج2، ص.284.

(2) المصدر نفسه، ج1، ص.453.

(7918/1)

... ومع قيام الدولة الفاطمية، زاد المذهب الحنفي تراجعا.

... فعندما فر زيادة الله الثالث إلى الشرق، اصطحبه عدد من خاصته، وهم من الحنفية أساسا. أما من بقي منهم بالقصر القديم، فقد منحهم السلطان الأمان. إلا أن المخاوف سرعان ما راودتهم على أثر مقتل أبي عبد الله الصنعاني وأخيه، فثاروا على الخليفة المهدي. فما كان منه إلا أن قتل جماعة منهم وحبس باقيهم وشردهم(1)

(1) القاضي النعمان، "كتاب افتتاح الدعوة"، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس، 1975، صص.320–322؛ ابن الأثير، "الكامل في التاريخ"، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، ج8، صص.52–53.

(7919/1)

. وقد أدى هذا إلى مزيد تناقص عدد الحنفية بالقيروان.

... هناك من الحنفية من احتفظ بوظيفته في الإدارة، بعد سقوط دولة الأغالبة، مثل أبي اليسر إبراهيم بن محمد الشيباني البغدادي المعروف بالرياضي (ت298هـ/910م) (1).

... على أن هذا الأخير كان من جملة من خرج مع أبي عبد الله الصنعاني إلى سجلماسة لاستنقاذ الإمام المهدي، وهذا يعني أنه "تشرق"، أي انتقل إلى المذهب الإسماعيلي. أما أحمد بن محمد بن

(1) ابن عذاري، "البيان المغرب..."، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وليفي بروفنسال، ليبيا–تونس، 1983، ط3، ج1، ص.163.

(7920/1)

سيرين، فقد خرج "راجلا" للغرض نفسه، وهو "يرى أنه محتسب للثواب في طلب الإمام"(1). بينما "تشرق" أبو ربده بن خلاد في "أول دخول القوم طائعا"، ثم أوصى "بكل ماله للسلطان وأخرج منه ولده"(2).

... كل هذا يعني أن عددا من الأحناف بادروا بـ"التشريق" بسرعة وبسهولة وعن اقتناع. وإلى هؤلاء يمكن أن نضيف القاضي النعمان الذي كان على الأرجح حنفيا.

(1) ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص.153.

(2) الخشني، المصدر نفسه، ص.224.

... ولئن سارع هؤلاء بـ"التشريق"، فإن ذلك أتى نتيجة لأسباب منها اتفاق الحنفية مع الشيعة في قضية التفضيل على ما يبدو، وفي بعض المسائل الفقهية(1). فميول أبي حنيفة الشيعية لا يمكن الشك فيها. أما مهمر بن منصور، فقد كان يتولى عليا ويتعمد

(1) "تراجم أغلبية"، ص.391؛ ابن عذاري، المصدر نفسه،

ج1، ص.155. انظر أيضا أبا المهلب هيثم بن سليمان، "أدب القاضي والقضاء"، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس، 1970، ص.17، 23، 29، حيث يعتمد الأحناف على أقوال علي بن أبي طالب لأسباب منها أنه كان اتخذ الكوفة عاصمة له أيام خلافته.

(7922/1)

ثلب معاوية بن أبي سفيان(1)؛ بينما كان القاضي النعمان يجامل الحنفية ويتحامل على المالكية في مؤلفاته(2).

... هناك من الحنفية من "تشرق" لمصلحة ما مثل خلف بن معمر بن منصور (ت303هـ/915م)، تشرق حتى لا يطالب الشيعة ابنه في مال "غمس يده فيه عند هروب زيادة الله

---

(1) الخشني، المصدر نفسه، ص.113–114.

(2) R. Brunschvig, « Fiqh fatimide... », dans Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman, Alger, 1957p.1962, T.II, p.734 ; H. R. Idris, La berbérie orientale sous les Zirides..., Paris, 15, p.734.

(7923/1)

من رقادة"(1)؛ أو قاسم بن خلاد الواسطي الذي "دعوه إلى التشريق ووعدوه بقضاء باجة"، ففعل؛ أو أحمد بن وهب الذي تشرق، فولي مظالم القيروان(2).

... كل هذا أدى إلى زيادة تراجع شعبية الأحناف. ولئن بدا عدد "المتشرقين" من الحنفية مرتفعا نسبيا وهو أحد عشر على ما ذكر الخشني، فقد ذهب فرحات الدشراوي إلى أن العدد الحقيقي يتجاوز ذلك(3)

---

(1) **ابن عذاري، المصدر نفسه، ج1، ص.**173.

(2) **الخشني، المصدر نفسه، ص.**194–224.

(3) F. Dachraoui, Le califat fatimide au Maghreb, Tunis, 1981, p.400، **على أنه من الممكن أن عددا ممن تشرقوا انتقلوا من القيروان إلى عاصمة الفاطميين "المهدية".**

(7924/1)

. وفعلا، فقد عرفنا ابن عذاري بأمثلة أخرى لأحناف "تشرقوا".

... إلا أن هذا لا يعني أن كل الأحناف قد "تشرقوا".

فعندما أراد القاضي محمد بن عمر المروذي

(ت 303هـ/915م) فرض المذهب الإسماعيلي، أصدر أمرا بأن

"لا يظهر أحد من كتب مالك وأبي حنيفة شيئا"(1).

وعندما أراد مناظرة فقهاء القيروان في مسألة صلاة

التراويح، أرسل إلى "مدنيهم وعراقيهم"(2)

---

(1) إدريس الداعي، "عيون الأخبار وفنون الآثار"، الجزء الخامس، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس، 1979، ص.20.

(2) المالكي، المصدر نفسه، ج2، ص.60؛ ابن ناجي، المصدر نفسه، ج2، ص.206.

(7925/1)

.

... هناك من الأحناف من لقي القتل، مثل أحمد بن يحيى بن طيب المتطبب، قتل سنة 297هـ/909م، هذا إلى جانب من حبس منهم أو قتل بالقصر القديم. فالراجح أن نواة حنفية احتفظت آنذاك بذاتيتها بالقيروان، ورفضت الذوبان في دعوة الفاطميين. والدليل على استمرار تلك النواة في العهد الفاطمي، أن عددا منها شارك المالكية في التحالف مع أبي يزيد أيام ثورته على الفاطميين

(332–336هـ/943–947م) (1).

---

(1) المالكي، المصدر نفسه، ج2، ص.339.

(7926/1)

... وتحالف المالكية وتلك النواة من الحنفية مع أبي يزيد، يعني أنه ظهر تقارب بين هؤلاء في العهد الفاطمي. لم لا وقد جمعت بينهم معارضة الفاطميين. ويبدو أن ذلك التقارب قد تواصل مداه، حتى أن المقدسي (ت380هـ/990م) شهد عليه فقال: "من أهلها ليس غير حنفي ومالكي مع ألفة عجيبة، لا شغب بينهم ولا عصبية... وارتفع الغل من قلوبهم، فهي مفخرة المغرب"(1).

... كل هذا يسمح لنا بمناقشة المرحوم حسن حسني عبد الوهاب الذي ذهب إلى أن المذهب الحنفي انقطع في آخر عهد المعز وقبل انتقاله إلى

---

(1) المقدسي، المصدر نفسه، ص.225.

(7927/1)

مصر(1)، كما يسمح لنا برد مبالغة أخرى وقع فيها القاضي عياض. فقد ذكر أن "الظهور في دولة بني عبيد كان لمذهب الكوفيين"(2).

... فالراجح أن عدد الحنفية تراجع كثيرا في العهد الفاطمي، دون أن يؤدي ذلك إلى اختفائهم تماما آنذاك على أن اندثار مذهبهم تم بصفة رسمية في إفريقية مع إعلان القطيعة عن الفاطميين في منتصف القرن 5هـ/11م، ربما إذا استثنينا بعض الحالات مثل ذلك العالم الحنفي الذي تحدث عنه التجاني؛ إلا

---

(1) حسن حسني عبد الوهاب، "الإمام المازري"، تونس، د.ت.، ص.24.

(2) القاضي عياض، المصدر نفسه، ج1، ص.54.

(7928/1)

أنه لم يكن مقيما بالقيروان(1)

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزناتي المعروف بالحنفي (ت655هـ/1257م). (التجاني، "الرحلة"، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، ليبيا-تونس، الدار العربية للكتاب، 1981، ص.369). وهو من مواليد المهدية، لزم

سكنى المنستير بعد رحلته إلى الشرق. ولا ندري هل يمكن ربط انتسابه إلى ذلك المذهب بكونه عقبا للأحناف الذين كانوا تشرقوا في العهد الفاطمي وانتقل بعضهم –على ما يبدو– نتيجة لذلك من القيروان إلى المهدية. يؤيد هذا أن هـ.ر. إدريس أشار إلى أن تشرق الحنفية لا يعني بالضرورة تخليهم تماما عن تعاليم مذهبهم. انظر مقاله: « Essai sur la diffusion de l'ascarisme en Ifriqiya », Les cahiers de Tunisie, .139, p.1953

(7929/1)

. ومن المؤكد أن هذا الاندثار تم أساسا عن طريق تحول الحنفية إلى المذهب المالكي. وبذلك يمكن رد ما ذهب إليه ابن خلكان وابن الأثير. فقد ذكرا أن المذهب الحنفي ظل مسيطرا بإفريقية إلى أن أتى المعز بن باديس (406–454هـ/1016–1062م) وحمل الناس على التمسك بمذهب مالك، عند إعلانه القطيعة(1).

... فالمذهب المالكي سيطر بصفة موسعة على البلاد منذ منتصف القرن 3هـ/9م.

خاتمة

---

(1) شمس الدين بن خلكان، "وفيات الأعيان"، تحقيق إحسان عباس، بيروت، د.ت. ج5، صص.233–234؛ ابن الأثير، المصدر نفسه، ج9، ص.257.

(7930/1)

... الراجح أن دخول المذهب الحنفي إلى القيروان تم في بداية النصف الثاني من القرن 2هـ/8م، على أيدي عبد الله بن فروخ وعبد الله بن غانم. ولئن جمع هذان العالمان بين الفقه الحنفي والفقه المالكي في الوقت نفسه، فقد رجحنا أن القيروان مرت بمرحلة تعايش بين المذهبين الحنفي والمالكي إلى حد أواخر القرن 2هـ/8م. وببروز أسد على الساحة العلمية القيروانية، ولا سيما بعد توليه القضاء، رجحت الكفة لفائدة المذهب الحنفي. ساعدته في ذلك عوامل أخرى منها تبني الأغالبة للحنفية مذهبا رسميا وانتشار مذهب سفيان الثوري هناك في

(7931/1)

مرحلة سابقة.

... إلا أن سوء تقدير سليمان بن عمران للمواقف، بما أنه قدم على نفسه سجنون في خطة القضاء، مثل عاملا لا يستهان به في إضعاف المذهب الحنفي وبالتالي في تنامي شهرة المذهب المالكي.

... ساهمت عوامل أخرى في تراجع المذهب الحنفي ذكرنا منها قلة سعي الأحناف إلى تكوين جبهة موحدة لمواجهة المخالفين، وتبني أقلية منهم لبعض المبادئ المعتزلية. هذه المبادئ التي رفضها أهل إفريقية واعتبروها "بدعة"، فاستغلها المالكية للدعاية ضد الأحناف، مما ساعد في تراجع الأفارقة عن مناصرة المذهب الحنفي.

(1/7932)

... ساعد على ذلك التراجع أيضا تعامل الحنفية مع الأغالبة، فكان رفض العامة للحنفية شكلا من أشكال المعارضة السياسية. ساهم في ذلك التراجع كذلك التقوقع الذي وقع فيه المذهب الحنفي نتيجة لضعف اتصاله بالشرق، ولا سيما بغداد حيث العباسيون الذين ضعف نفوذهم بإفريقية. لهذه الأسباب انتقل عدد من الأحناف إلى المذهب المالكي.

... زاد في تراجع ذلك المذهب قيام الدولة الفاطمية. فقد

فر بعض الأحناف نحو الشرق، وقتل آخرون ولا سيما بالقصر القديم، و"تشرق" جل بقيتهم، وربما انتقلوا نتيجة لذلك إلى المهدية. فاستفحل تراجع

(7933/1)

المذهب الحنفي بالقيروان، بالرغم من التقارب الذي تم بين بعض الحنفية والمالكية خاصة أيام ثورة أبي يزيد.

... على أن التجربة الحنفية بالقيروان خلال النصف الأول من القرن 3هـ/9م، قدمت فرصة سانحة للتأسيس لحركة فكرية متميزة، عرفت خلالها هذه المدينة ازدهارا ثقافيا. فقد ساد هناك في أيام الأحناف نوع من الحرية الفكرية، إذ كان من الممكن لأصحاب مختلف المذاهب أن يحلقوا بجامع عقبة، مما هيأ الجو لتلاقح فكري مثمر. وقد كان هذا من بين أسباب انفتاح بعض الحنفية على أصناف مختلفة من العلوم وعلى ما أطلق عليه المذاهب

(7934/1)

"المبتدعة"، نعني الاعتزال والإرجاء والتشيع.

والانفتاح يعني إمكان إدخال الجانب العقلاني في بعض المسائل الدينية، ويعني أيضا الإيمان بوجوب تنويع مصادر التكوين العلمي.

... وفعلا، فإن عددا من الأحناف الذين وصلتنا أخبار حول نوعية تكوينهم، كانوا يتميزون بتبحرهم في أصناف مختلفة من العلوم وخاصة بنزعتهم الموسوعية. كل هذا، بخلاف جل علماء المالكية(1)

---

(1) بخصوص علماء المالكية، انظر مقالنا "مدرسة الحديث وعلاقتها بمدرسة الفقه بإفريقية من بداية القرن 3هـ/9م إلى أواخر القرن 4هـ/10م"، الكراسات التونسية، ص.159–160، الثلاثة أشهر الأولى والثانية لسنة 1992، ص.196.

(7935/1)

.

... فأبو عبد الله محمد بن زرزر (ت 291هـ/903م) "كان حافظا للغريب، بصيرا باللغة، راوية للأشعار يحسن الصنعة لها، وشعره كثير جدا وأكثره في توحيد الله".

وقد كان يقول: "إني أحفظ تفسير يحيى بن سلام كما

أحفظ القرآن، وأحفظ فقه أبي حنيفة كما أحفظ التفسير، وأحفظ "الموطأ" وفقه مالك كما أحفظ فقه أبي حنيفة، وأحفظ بعد ذلك كثيرا من دواوين العرب وأشعارها وأخبارها"(1).

... أما إبراهيم بن عثمان أبو القاسم بن الوزان القيرواني اللغوي الحنفي (ت 346هـ/957م)، فقد قال فيه عبد

---

(1) ابن ناجي، المصدر نفسه، ج 1، صص.166–167.

(7936/1)

الله المكفوف النحوي: "ولو قال قائل إنه أعلم من المبرد وثعلب، لصدقه من وقف على علمه"(1).

... هذان المثالان يكفيان لرد بعض التهم التي نسبتها كتب طبقات المالكية إلى الحنفية. فهي تتهمهم بقلة العلم والجهل. كل ذلك، بالرغم من التقوقع الذي عرفه المذهب الحنفي بالقيروان في فترة ما بحكم ضعف اتصاله بالشرق.

(7937/1)

تعامل العربي مع المعرفة الصوت والصدى، الصورة والانعكاس

... ... الأستاذ محمد الصادق عبد اللطيف

... ... تونس

1 . تساؤل

... كيف يمكن تناول موضوع في هذا الاتساع، وهل يمكن الإتيان بجديد بالنسبة إلى ما يزخر به عالم المطبوعات من المؤلفات التي تهتم بهذه الحقيقة بشكل أو بآخر في مختلف اللغات؟

... هل من سبيل إلى إثبات جدوى البحث العلمي والمقاربة العقلانية في ميدان يرى كل كاتب نفسه مؤهلاً للخوض فيه ولو كان نصيبه من الثقافة المتخصصة محدوداً بشكل أو بآخر؟

(7938/1)

... إن الإجابة عن هذه التساؤلات تفرض توضيح الإشكالية المطروحة ووضع بعض المعالم المنهجية التي من شأنها أن تعيننا على رفع ما عسى أن يكتنف القضية من لبس(1).

2 ـ مدخل عام: عصر العلم والاستفاقة

... كان التعلم ـ كتابة وقراءة ـ من أهم الوسائل العلمية التي ساعدت العرب على إقامة نهضتهم الباهرة بعد اعتناقهم الدين الإسلامي. وهي نهضة ـ كما نعلم ـ مستوحاة من القرآن والسنة، بحيث كان مجيء الإسلام فاتحة عصر العلم العالمي والإنساني وعهد ارتقاء

---

(1) عبد المجيد الشّرفي، دروس تقوية في الجامعة التونسية، 1988.

(1/7939)

العقل البشري (علم الحساب والجبر والهندسة والفيزياء والطب والصيدلة ثم الميكانيكا وعلم الفضاء). ذلك بأن الإسلام شجع أبناءه على العلم والتعلم والتأمل والتأويل والنظر. قال تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات} (المجادلة، الآية 11)، وقال تعالى: {هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون} (الزمر، الآية 10)؛ وكما قال رسول الله: »من خرج في طلب العلم، فهو في سبيل الله حتى يرجع«(1). هنا يتناسب الاهتمام بالعلم مع

(1) عبد الرحمان الكبلوطي، ملتقى ابن أبي الضيّاف (ندوة)، نشرية سليانة، 1989.

(7940/1)

مدى تقدير دوره في تقدم البشرية. لذلك، فإن قياس هذه الموازنة الدقيقة في مجتمع ما يكون دوماً بمعرفة مكانة العلماء في هذا المجتمع ومستوى الوعي السائد بين أفراده بدور التفكير المبدع في النهوض بالأمم وتقدمها في مضمار الحضارة.

... إن أهم القواسم المشتركة بين الحضارات هو مبلغ اعتنائها بالعلماء وإذْكاء التنافس بينهم لمصلحة المعرفة.

... والمجتمع العربي قبل الإسلام، بالرغم من انتشار ألوان الجهل المختلفة، توصل إلى مبدإ أهمية المعرفة وضرورتها والأخذ بها. وعندما شع الإسلام، أبقى على هذه العلاقة وحث على طلب

(7941/1)

العلم. وحين انتشر وامتد إلى أمم وشعوب مختلفة وتلاقت الحضارات، أضفى المنظور القيمي الإسلامي أبعاداً جديدة على الأمم الأخرى وإبداعها الفكري. فكان من نتائج ذلك التلاقي والتفاعل بروز الحضارة الإسلامية التي صهرت عطاءات الأمم والشعوب وصاغتها في بوتقة منهج الإسلام ومفهومه القائم على تأكيد «سَعَةِ العلم وشموله».

... لقد أكّدت آيات قرآنية عديدة أهمية العقل والفكر والحكمة والبرهان والنظر إلى الكون والتفكير في خلق السماوات والأرض والأنفس، وأشارت الآيات إلى أولي الألباب والحكمة والعلم.

(1/7942)

... بهذا المنظور الراقي، فتح الإسلام للإنسانية آفاقاً جديدة للتقدم في شتى مجالات العلوم والفنون والآداب. وقد تعهّد المسلمون عبر عصور طويلة بالاهتمام بالمعرفة لصوغ حضارة متوهجة وصولاً إلى تأسيس مناهج البحث العلمي وأخلاقياته(1).

3 ـ الصوت والصدى

... أ ـ الطرح الأول: لما ازدهرت المعرفة، تغيرت صورة

الحياة، بل تلاشت الحدود أمام زحف العلوم والمعارف.
وكانت الترجمة أحد المفاتيح الأساسية للتعاون
وتمهيد الطريق بمعارف جديدة ومزايا حضارية

---

(1) زيد بن عبد المحسن، جائزة الملك فيصل ودلالاتها الحضارية، 1996.

(7943/1)

متنوعة. وعلى امتداد تاريخ الحضارة وتعاقب دورانها وانتقال مشاعلها من أمة إلى أخرى، كانت الترجمة إحدى السبل لبلوغ الرقي الحضاري بوصفها الوسيلة المثلى لكشف مكنون حضارات أخرى واعتناء المعرفة الإنسانية بجديد الفكر والعلم.
... إن التعلق بالمعرفة لم يعد انعكاساً لطور حضاري، بل تعبيراً عن إرادة متنامية للوجود في موقع القلب من الحضارة الإنسانية. كان الرواد في طليعة هذه الحقيقة انطلاقاً مما أوجده فيهم الإسلام من اقتناع بقيمة العلم والمعرفة معاً. ولتبليغ هذه الرسالة، انكب العرب ـ في عصر الفتوحات ـ على

(7944/1)

التراث المعرفي لمختلف الأمم التي لها السبق في مضمار الحضارة، فترجموا إلى اللغة العربية أمهات تراث الآخرين وأنعموا النظر في ذلك الإرث المعرفي (من فكر وثقافة وعلم)، وهي اليقظة الفكرية التي تعامل فيها العربي مع المعرفة، والتي منها انطلقت إشعاعاتها من مدائن العلوم في دولة الخلافة الإسلامية، وانتشرت في أرجاء الدولة؛ كما تمثلت في الحضارة الإسلامية التي شمخت وبلغت شأواً عظيماً إلى حد أن تجاوزت حضارات كانت يومئذ ملء الأسماع والأبصار. وهذا ما أدى إلى النهوض بنشاط مماثل في حركة التأليف، وهي عملية إبداعية

(7945/1)

ونمط متقدم من التفكير، ولا سيما حين يعبر عنه باللغة الأم. وكانت مراكز مفاتيح هذه المعرفة (بيت الحكمة البغدادي، مكتبة الإسكندرية، وجنديسابور وحران، وبيت الحكمة في القيروان)(1). إن تعامل العربي مع المعرفة قديماً قد زاوج بين ما نقله من تجارب الأمم الأخرى وبين مضامين الرسالة التي يحملها بصفتها مسؤولية لإبلاغها، ومن ثم الإبداع فيها باللغة

الأم، حتى غدت تلك اللغة لغة الحضارة والمعرفة والتبليغ.

---

(1) زيد بن عبد المحسن، الترجمة في ظل الحضارة الإسلامية وأثرها في الآداب والعلوم، الرياض، ص. 19.

(1/7946)

... لقد أكسب الإسلام هذه الشريحة قوة الدفع الإيجابية بصفتها سبباً موضوعيّاً للكل، تنقّل قيادة الحضارة الإنسانية للغير بعد أن عمّر قلوبهم إيمان عميق بشمولية الرسالة التي يضطلع بها العربي لاعتقاده أن العلم النافع أحد أسباب التمكين في الأرض. وكان من الطبيعي أن يكون الغرب وارثاً للجوانب العظيمة من حضارة العرب التي صنعها الإنسان العربي في تعامله مع المعرفة والعلم.

... من خلال المراكز التي انتشرت في شتى أمصار العالم وفي الأندلس وصقلية، كانت تلك المراكز وأمثالها أبرز المنافذ التي تسلّلت منها تأثيرات

(1/7947)

الحضارة الإسلامية إلى أوروبا. وحين بدأت الأمة الإسلامية تتقهقر متيحة المجال لحضارة الغرب كي تتبوأ الصدارة، خبت أضواء المشاعل التي كانت لا تنطفئ (حركة الترجمة خاصة)، وانكفأ العربي على نفسه غير مكترث بالتغييرات التي تتحكم في العالم حوله، فتضاءل قدره وذهبت هيبته، مما أدى بالعقل العربي إلى أن يكون مطمعاً للطامعين وهدفاً لترويضه بحجة أو بأخرى (غسل فكريّ ـ تعليم غربي ـ عشق الآخرين ـ خلق عدم الثقة في أمته ـ الميل لكل ما هو غربي ـ الإعجاب به من منطلق ثقافي وتكويني ـ زعزعة العقيدة ـ بلبلة التفكير ـ خلق

(7948/1)

عقلية السخط على العروبة والإسلام من منطلق التخلف والإعجاب بحضارة الغرب، إلخ).

... لقد تعامل العربي مع تراث الإغريق، فنقله للعربية. وقد أغناها بالشرح والتعليق (مؤلفات بطليموس وأرسطو وأقليدس وغيرهم) نتيجة ازدهار الثقافة الإسلامية. وعنه ـ أي العربي ـ استطاع المسيحيون أن يحيطوا علماً بما في كتب عرب طليطلة ووجدوا مجال معارفهم يتصل بقدر هائل بجهد هذا العربي الذي تعامل

مع المعرفة بمحبة وعشق وإخلاص.

... إن اكتشاف الفكر العربي أحدث اضطراباً في العقلية المسيحية الوسيطية (حسب نظرية دينية خالصة). إن

(1/7949)

المسلمين يملكون ثقافة بالغة العمق ويجب أن يتحاربوا بالعقل بدل قتالهم بالسيف، وذلك لدراسة عقيدتهم وعلومهم. وهذا ما قامت به فرق التنصير والاستشراق مع بداية الحرب الصليبية في حملات الاستعمار الحديثة، وفيما بعد خلال القرن 19 (النصف الثاني) حين بلغ الاستعمار الأوروبي غايته. وفي الوقت نفسه، كان العالم العربي والإسلامي يعاني تدهوراً سريعاً. وهكذا عاد المنصِّرون يتدفقون عليه من جديد: يردون نجاح الأمم الأوروبية إلى المسيحية وإخفاق العالم الإسلامي إلى الإسلام، ويقرنون المسيحية بالتقدم والإسلام بالتخلف.

(1/7950)

فاشتد الهجوم من جديد(1).

... إن الجيل الثاني من المثقفين العرب المسلمين الذي قام بعملية التدوين (تدوين العلوم وتبويبها) .وهو جيل واسع عريض .يضم فئات مختلفة:

... 1) فئة تصدّت لبناء التراث الديني الإسلامي، جمعاً وتبويباً. وفي مقدمة هؤلاء جامعو الحديث والمفسرون وأصحاب المغازي. وقد قضى كثير من الأئمة الذين كانوا قد اعتزلوا الانخراط في الصراعات السياسية وفضّلوا الاشتغال بالعلم والعبادة.

---

(1) الطاهر المكي، »الترجمة من العربية إلى اللغات الأجنبية في المجالات الأدبية والإنسانية«، الفيصل.

(7951/1)

... 2) فئة تصدّت لجمع التراث اللغوي والأدب العربي وتبويبه والتأليف فيه نحواً وبلاغة وأخباراً وقصصاً. وقد قضى كثير من هؤلاء جلّ أعمارهم في جمع اللغة من أفواه الأعراب طلباً للفصيح الذي لم تشبه شائبة الاختلاط وجعلوا منه ومنه وحده مادة المعاجم اللغوية التي صنفوها في الألفاظ والمعاني والنوادر والأخبار.

... 3) فئة تجنّدت للدفاع عن العرب والإسلام وردّ هجمات

الشعوبية والمانوية خاصة. وهذه الفئة هي التي ارتفعت (بالكلام) من مجرد ممارسة للسياسة بواسطة الدين (قضايا الإيمان والجبر وخلق القرآن نظرية ذات أبعاد

(1/7952)

فلسفية تمحورت حول العقيدة الإسلامية، عقيدة التوحيد أمام انبعاث العقائد القديمة من مانوية وحشوية وتجسيم، إلخ).

... 4) فئة انقطعت ... لدراسة علوم الأوائل وترجمتها والتأليف فيها. فوضعوا بذلك الأساس للنهضة العلمية التي جعلت من الحضارة العربية الإسلامية وريثة الحضارات السابقة ومرجعية ومهمازاً للحضارة الإنسانية المعاصرة التي عرفت ميلادها في أوروبا انطلاقاً من قاعدتين إسلاميتين: طليطلة وصقلّية(1).

---

(1) محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية.

(1/7953)

... ذلك هو جيل التدوين والترجمة والبناء الثقافي العام.

...

ب ـ الطرح الثاني

... لما نضجت عمليّة التزاوج الفكري بين المسلمين والعرب وشعوب البلدان التي افتتحوها وأقاموا في ربوعها قواعد العدل والمساواة، أخذت تعطي ثمارها الطيبة، وذلك لسعة ما ولجه من الفكر الإسلاميّ من آفاق وما برز فيه من علوم وفنون وما تهيّأ له من تراث الأمم الغابرة. كانت حركة الترجمة والنقل من اللغات الأخرى الشهيرة في ذلك العهد (الإغريقية، السريانية، الهندية، الفارسية، النّبطية، العبريّة) إلى اللغة العربية من العوامل الأساسية التي

(7954/1)

مهدت لتلك النهضة العربية الإسلامية الفريدة التي بهرت العالم وأفاضت عليه أنوار المعرفة والعلم.

... إن التأثير الذي أحدثه »بيت الحكمة« في الفكر العربي الإسلامي من السّعة بحيث لا يستطيع أحد أن يحدد مداه ويعين أبعاده، بالإضافة إلى فتح آفاق جديدة من التفكير في ميادين شتى من العلوم والمعارف. فقد هيأت »بيت الحكمة« مجالات جديدة وواسعة أمام الفكر العربي الإسلامي حيث:

... 1 ـ كانت الفلسفة من الميادين الجديدة التي فتحها

»بيت الحكمة« أمام المفكرين المسلمين، وذلك بما أتاحته لهم من وسائل الاطلاع على جميع

(7955/1)

النظريات والآراء التي جاء بها فلاسفة الإغريق واستيعابه والإضافة إليه والإتيان بنظريات جديدة، بعضها يتمم ما جاء به فلاسفة اليونان وبعضها الآخر يعارضه ويظهر بطلانه. وهكذا برزت طائفة جديدة من الفلاسفة المسلمين في المشرق والمغرب، مما لعب دوراً خطيراً في تاريخ الفلسفة وتطوير نظرياتها.

... 2 .أما في ميدان الطب، فقد هيأت بيت الحكمة تربة خصبة أمام العقل العربي لأن يقتحم هذا الميدان وتجوّد فيه)ترجمة كتب الطب لدى اليونان والهند والفرس).

(7956/1)

... لقد واكب طلاب العلوم الطبية المؤلفات يقتلونها بحثاً وتمحيصاً وترجمة، لأن التجربة الطبية هي الأساس الأول الذي بنى عليه الأطباء المسلمون والعرب أبحاثهم. كما أنهم كانوا أول من اتّبع طريقة التخصص في الطب

وأول من وضع المؤلفات الطبية المصورة التي تشرح مراحل العملية الجراحية.

... 3 ـ كذلك في العلوم الرياضية، فإن العرب هم الذين ابتدعوا علم الجبر ووضعوا العديد من المعادلات الهندسية واكتشفوا قانون حل المثلثات الكروية.

(1/7957)

... 4 ـ استنبط العرب آلات دقيقة لاحتساب الثقل النّوعي للسوائل والجوامد وضغط الهواء والماء.

... 5 ـ أنشأ العرب علم الضوء، وأبدعوا علم الميكانيكا، وبرعوا في صناعة الساعات، واستنبطوا آلة القانون، وزادوا في الموسيقى.

... 6 ـ حسب العرب الاعتدال الصيفي والشتوي بصورة دقيقة، وقاسوا محيط الكرة الأرضية وحساب الميل في فلك الأبراج والخلل في حركة القمر.

... 7 ـ كانت حلقات الدروس والمناظرات تعقد جهاراً، ويشترك فيها مختلف العلماء والحكماء يتناظرون ويناقشون بكل حرية وصراحة.

(1/7958)

... 8 ـ كان النصارى يجادلون المسلمين في قضايا أمورهم الدينية.

... 9 ـ كانت المناقشات التي يخوضها أصحاب الرأي من معتزلة وخوارج ومتصوفين وغلاة الشيعة تتم بكل تسامح ومن دون أدنى ضغط أو إنكار(1).

... تلك هي الصورة التي تعامل بها العربي مع المعرفة، فأعطى الفكرَ العربيَّ والإنسانيَّ عموماً عصارة جهد لوجه الله ولوجه المعرفة ولوجه العلم.

4 ـ موازنة عصر: انحلال أم إمدادات جديدة؟ (الغرب نموذجاً)

---

(1) سليم طه التكريتي، »بيت الحكمة وأثرها في تطوير الفكر الإسلامي«، مجلة الأقلام، 1997.

(7959/1)

... نسمّي عصرنا الحالي عصر العلم، عملاً بقوله تعالى: {وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً} (الإسراء، الآية 85)، والدين يأمرنا بالنظر في ملكوت السماوات والأرض في محاولة لقراءة الأفكار (الحيوانات، الأفلاك، البحار، الفضاء). والحضارة هي عطاء الإنسان (عقله وروحه

ووجدانه ...) وقف عقله وراء تجاربه، يدرك الأشياء ويربط بينها، ويحلل ويستنتج ويستشف، يصل إلى جوانب السؤال الذي طرحه عليه واقعه. ذلك بأن الفكر الإسلامي، ومنه العربي، انتشر لا انتشار العمود الإغريقي في أنحاء الأرض كما هو دون تغيير. ولكن الفكر العربي

(7960/1)

والفن الإسلامي والإبداع العربي انتشر الانتشار الديمقراطي الذي يتيح لكل إنسان أن يشارك ويضيف(1).

... ما يميز الحضارة الإسلامية أنها نجت من داء الحضارات، وهو الانحلال والاضمحلال، لأن أساسها ليس عنصراً بشرياً، ولأن حضارة الإسلام والعربية قامت بالإسلام وتدهورت بالمسلمين، عرباً وعجماً، دون الإسلام. فالإسلام قيم ونظم وتشريعات وإنسانيات(2).

---

(1) نعمات أحمد فؤاد، من عبقرية الإسلام، دار المعارف، مصر، 1983.

(2) المرجع نفسه.

(7961/1)

... إن الحضارة الغربية الحديثة الآن تنسب أصولاً - باستثناء المنصفين منهم - إلى الحضارة الإغريقية، أي الهيلينية، وهي قامت على الحضارة المصرية؛ كما أن الحضارة الإسلامية قامت بترجمة الحضارة الإغريقية، فوفرت على أوروبا ألف عام على الأقل(1).

... خلال القرن العشرين، اشتهر من العلماء من أغنى الحضارة الحديثة بالبحوث والإبداعات والاختراعات والصناعات. نقرأ أسماءهم فنندهش لما حققوه في الغرب لمّا تعامل العالم الغربي مع المعرفة بتشجيع، فأثرى الساحة وأبدع. وفيما يلي جرد لعلماء القرن الماضي

(1) المرجع نفسه.

(7962/1)

قياساً بالغير (31 غربيّاً/ 1 عربي).

... 1 - سيغموند فرويد (1865 - 1939): عالم النفس الشهير الذي أرسى قواعد التحليل النفسي (كمعالجة المعافين وتفسير الأحلام).

... 2 - ماكس بلانك (1858 - 1947): عالم الفيزياء الذي وضع نظرية الكمّ التي تؤكد أن الطاقة لا تصدر بشكل

متواصل من الأجسام المشعّة، بل بكميات خفيفة.

وظهرت هذه النظرية عام 1900.

... 3 ـ هانز شيمان (1896 ـ 1941**): عالم الأجنّة الألماني الذي أثبت خلال سنة** 1900 **أن خلايا الجنين تحمل كل المعلومات الوراثية اللازمة لنمو أعضاء جديدة. ...**

(7963/1)

... 4 ـ جويلمو ماركوني (1874 ـ 1937**): عالم الفيزياء الإيطالي الذي أجرى أول اتصال لا سلكي عام** 1901 **عبر المحيط الأطلنطي؛ كما اكتشف الموجات القصيرة واستعان بشفرة »مورس« لوضع النظام اللاّسلكي. حصل على جائزة نوبل في الفيزياء سنة** 1909.

... 5 ـ إيلي إيميل فون بيرنغ (1917 ـ 1954**): طبيب ألماني منح جائزة نوبل للمرة الأولى في مجال الطب لجهوده في تطوير العلاج بالمصل وخصوصاً لمرض الدفتريا سنة** 1901.

... 6 ـ فيلهيلم كونوادرو نتجن (1845 ـ 1923**): طبيب ألماني حصل على جائزة نوبل في الفيزياء سنة** 1901، **تقديراً**

(7964/1)

لاكتشافه أشعة »روتنجن« التي تعرف بـ»أشعة إكس«.

... 7 ـ هنري بيكريل (1852 ـ 1908): عالم الفيزياء الفرنسي. يحدد مصدر الإشعاعات الغامض (ذرّات اليورانيوم). وهذا الاكتشاف (1901) أول دليل على أن الذّرّة هي أصغر وحدة للأشياء لها بنية داخلية.

... 8 ـ إيميل فيشر (1852 ـ 1919): عالم الكيمياء الألماني الذي اكتشف عام 1902 تركيبة للأدوية المهدئة للأعصاب (بتعرُّف السّكّر في الأنسجة والبروتينات). منح جائزة نوبل في الكيمياء عام 1902.

(1/7965)

... 9 ـ ماكس تيلر (1899 ـ 1972): طبيب باحث نجح في إعداد لقاح لمرض الحمّى الصفراء (1937). وكان أول مواطن من جنوب أفريقيا يحصل على جائزة نوبل في الطب سنة 1951.

... 10 ـ كاري سكلودورفسكا كوري (1867 ـ 1934): عالمة فرنسية بولونية الأصل. زوجها هو الفرنسي بيار كوري (1859 ـ 1906). منحت جائزة نوبل في الفيزياء

سنة 1903، لاكتشافها عنصري الرّاديوم والبلوتونيوم. وقد مهّد اكتشافها للأبحاث الحديثة في مجال الفيزياء النّوويّة.

(1/7966)

... 11 ـ إيفان بياروفيتش بافلول (1849 ـ 1936): طبيب روسي اكتشف من خلال أبحاثه مدى تأثير الجهاز العصبي على إفرازات المعدة والبنكرياس. وقد منح جائزة نوبل في الطب عن أعماله عام 1904.

... 12 ـ ألبرت أينشتاين (1879 ـ 1955): عالم ألماني وأحد عظماء القرن العشرين. وضع نظرية النّسبيّة التي تحدد الأفكار الأساسية (الزمان، المكان، الكتلة، الحركة، الجاذبية) التي نعتمد عليها لوصف الأحداث الطبيعية. وقد أدت نظريته هذه عام 1905 إلى إعادة النّظر في نظرية الفيزياء والرياضيات والفلك

(1/7967)

... 13 ـ روبرت كوخ (1843 ـ 1910): طبيب ألماني مكتشف مسببات مرض السّلّ. منح جائزة نوبل للطب

سنة 1905.

... 14 ـ أوغيست فون فاسرمان (1866 ـ 1925): عالم الجراثيم والمناعة الألماني. قام بتطوير تحليل للدم للكشف عن الإصابة بمرض الزّهري سنة 1908.

... 15 ـ بول إيريش (1854 ـ 1915): طبيب ألماني اخترع مادة الأرسينوبترول أول دواء كيميائي في تاريخ الطب يستخدم في علاج مرض الزّهري سنة 1909 (منح عن اكتشافه هذا جائزة نوبل في الطب سنة 1908).

(1/7968)

... 16 ـ برتراند راسل (1832 ـ 1913): وألفريد نورث وايتهد (1861 ـ 1947): الفيلسوفان وعالما الرياضيات البريطانيّان. وضعا مبادئ منطق الحساب سنة 1910 والتي طبّقت بعد ذلك في علم الاجتماع والتعليم والسياسة.

... 17 ـ ألكسي كاريل (1873 ـ 1944): جرّاح فرنسي أثبت عام 1912 أن الأنسجة يمكن أن تعيش بعيداً عن الأعضاء التي اقتطعت منها إذا تمّت تغذيتها بشكل سليم. حصل على جائزة نوبل في الطب سنة 1912، تقديراً لأبحاثه في مجال جراحة الأوعية الدّموية وزرع الأعضاء والأنسجة.

(7969/1)

... 18 ـ توماس ألفا إديسون (1847 ـ 1931): المخترع الأمريكي لأول مصباح كهربائي يتّسم بالأمان لاستخدامه في المناجم (1914). وكان قد اخترع الفوتوغراف والتلغراف والآلة الكاتبة والبطّارية والميكروفون وطوّر آلة السينما.

... 19 ـ أدين هابل (1889 ـ 1935): عالم الفلك الأمريكي يكتشف عام 1919 وجود نجوم لا يبقى لمعانها ثابتاً على مر الزمان. وقد أدّى هذا الاكتشاف إلى تحديد المسافات بين المجرّات. وفي سنة 1923 أثبت وجود مجرّات أخرى غير مجرّاتنا في الكون.

(7970/1)

... 20 ـ روبرت أندروز ميليكيان (1868 ـ 1953): عالم الفيزياء الأمريكي. اكتشف الأشعة الكونيّة عام 1925، وهو من أبرز العلماء الأمريكيين الذين ساهموا في دراسة الشحنات الكهربائية للإلكترونيات الذّرية ونجح في قياس كثافة الأشعة الكونية.

... 21 ـ ألكسندر فلمنغ (1881 ـ 1955): عالم البكتيريا

البريطاني الذي اكتشف البنسلين بمحض الصدفة عام 1929. رأى الفطر ينمو في طبق نسيه في معمله ويدمّر البكتيريا من حوله.

... 22 ـ غراهم بيل (1847 ـ 1922): اخترع التلفون، أشهر وسيلة اتصال.

(7971/1)

... 23 ـ جيمس تشار دويك (1891 ـ 1974): عالم الفيزياء البريطاني. اكتشف النيترون وإحدى الجزئيات التي تتألف منها نواة الذّرة (1932). منح جائزة نوبل للفيزياء عام 1935.

... 24 ـ فريدريك جوليو (1900 ـ 1958) وزوجته إيرين جوليو كوري (1897 ـ 1956): عالما الفيزياء الفرنسيان اكتشفا العناصر المشعّة، وحصلا على جائزة نوبل في الكيمياء عام 1935.

... 25 ـ روبرت أتسون وات: عالم بريطاني وضع تصميماً لجهاز يكشف وجود طائرة من صدى الصوت. وقد أدّى هذا الاختراع إلى إنتاج محطات الرادار التي أقيم أربع منها سنة 1936.

(7972/1)

... 26 ـ بول مولر (1899 ـ 1956): عالم الكيمياء السويسري اكتشف خواص »دي دي تي« بما هو مبيد للحشرات وفاعليتها. منح جائزة نوبل عام 1948.

... 27 ـ أنريكو فيرمي (1901 ـ 1954): عالم الفيزياء الأمريكي الإيطالي الأصل. نجح في توليد أول مفاعل نووي مسلسل سنة 1942. حصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1938.

... 28 ـ ويلارد ليبي (1908 ـ 1980): عالم الكيمياء الأمريكي. استطاع مع مجموعة من الباحثين (1946) تطوير طريقة تحديد التاريخ باستخدام اشعة الكربون، وذلك لتعرُّف عمر بعض الأشياء. منح جائزة نوبل في الكيمياء سنة

(7973/1)

1960.

... 29 ـ جيمس واتسون: عالم الأحياء الأمريكي (1928) وفرانسيس كريك (1916) عالم الفيزياء الحيوية البريطاني يتوصلان لتركيبة الحامض النووي الريبي سنة 1953، ويضعان تصوراً لرموز كيميائية حيوية

يمكن أن تنقل معلومات وراثية متنوعة.

... 30 ـ كريستيان برنار: طبيب فرنسي قام بأول عملية ناجحة لزرع قلب بشري في جنوب أفريقيا.

... 31 ـ أحمد زويل (1974): العالم المصري العربي الوحيد (الأمريكي الجنسية). توصل إلى إنجاز خطير سيحدث ثورة علمية ـ توصل لوسيلة لرصد سلوك الجزئيات أثناء التفاعلات الكيميائية؛ وكان هذا

(7974/1)

مستحيلاً من قبل، لأن سلوك الذّرّات أثناء التفاعلات يحدث بسرعة فائقة تصل إلى جزء من مليون ميل، أي 1210 من الثانية.

... وقد تمكن من استخدام اللّيزر في رصد الأحداث في عالم الذّرّات، وهو ما سيؤثر في العلوم البيولوجية في القرن العشرين(1).

... وهكذا كان القرن الماضي حافلاً بالإنجازات والاكتشافات والاختراعات، لأنه قفز بالإنسان خطوة هائلة نحو عالم تحكمه التكنولوجيا. وهي محطات هامة في تطور العلوم وتقدّمها وطفرة علمية غيرت حياة الإنسان.

---

(1) مقال تفصيلي في جريدة البيان، تونس، يناير، 2001.

(7975/1)

---

5) الانعكاس والتأويل

... إذا كان العلم الحديث قد قام بدافع السيطرة وليس بدافع الحب (نشأ من تطلع الغرب إلى استعمار الشّرق)، فإنه أثمر القوة ولم يثمر الرحمة، اهتم بالسرعة ولم يهتم بالكينونة. وهذا، بالرغم من أن حضارة الغرب أضافت إلى تراث الإنسان (التنظيم الذي يتطلبه العلم الحديث بالفهرسة والتصنيف حتى لا يضيّع وقته في جهد مكرّر (التصنيف يعني تكنولوجيا)، أي تطبيق العلم بالتصنيع، وأن التحرر المعنوي مع استيعاب التراث يعين على إعادة بناء الشخصية وحمل أمانة التاريخ.

(7976/1)

... إن الكساء الخارجي (عارية) لا يصنع شخصية ولا يكسب جنسية إلا إذا كان نابعاً منها، منسوجاً من خيوطها. ونريد من العربي أن يكون قادراً على العطاء

دون تبعية ولا رجعية ولا انعزال، بلا نزعة عدائية للشرق أو للغرب، بلا استعلاء أو استخذاء، بلا تعصّب.

... ولعل من أهم مقتضيات إحياء الفكر العربي وتفعيل حضوره المعرفي ووضعه في السياق الصحيح الذي يتناسب والإرث الحضاري التليد للأمة أن يعاد النظر في مراكز البحث الجامعي في العلوم الإنسانية والرياضية والفيزيائية، وفي ما يلقي من دروس نظرية وأشغال تطبيقية

(7977/1)

بالجامعات العربية مشرقاً ومغرباً، ممّا يؤدي إلى التمكّن من خلق عقلية منتجة تتعامل مع المعرفة ووسائلها المتعددة بعيداً عن »الأنا« والاستهلاك والوظيفة فيما بعد ولا شيء بعد ذلك وبهذا يمكن صياغة الإنسان العربي من جديد في ضوء القيم القديمة التي تعامل معها العربي في البحث عن المعرفة وتوظيفها لفائدة الغير والتاريخ، وحتى تعود للعلم وللمعرفة بصفتهما كلاًّ قيمتهما في ذاكرته ووعيه، لأنه لا وجود ولا مستقبل لأمة بلا عقيدة تجمع عليها وتتجمع حولها اعتناقاً وتمضي بها سلوكاً لا يعرف الازدواج. وذلك يتم:

(7978/1)

... 1) بالعودة لأصولنا العقيدية عودة تتجاوز المناداة بالشعار إلى النهج الذي بنى عليه رواد هذه الحضارة الشامخة أنفسهم أولاً، فبنوا مع ذلك دولاً عظمى حفظت لإنسانها علماً رفيعاً في الخارج؛ كما تمتّع في ظلال تلك الأعلام الكبرى بكرامته وأمته ورخائه.

... 2) لا وجود ولا مستقبل لأمة بلا تاريخ تحبه وتعتز به أجيالها.

... 3) لا وجود ولا مستقبل لأمة بلا لغة واحدة تفهم بها عقيدتها وتزن بها تاريخها وتتفاهم بها أجيالها بعيداً عن استفحال الشتات تركيزاً في القلب، حيث نشأت اللغة وانطلقت العقيدة(1)

---

(1) مجلة رسالة الخليج، س 8، 1988.

(7979/1)

.

... يجب أن نتصرف في الأزمة الثقافية العميقة برؤية حضارية توضح كافة مواردنا المتاحة للخروج من القطيعة

المعرفية. ويشمل هذه المواد أساساً في الإيمان بقيمة العلم والتشجيع على البحث والإضافة العلمية للإنسانية والتفتح على الثقافات واللغات الأخرى.

... العربي اليوم يهزه التقدم العلمي والتكنولوجي وقد فرض عليه:

... 1 .الاعتقاد بوجود الأسرة البشرية وحق الجميع في حياة كريمة.

... 2 .الأخذ بعقلانية الثقافة مهما اختلفت أصولها وأهدافها ومصادرها.

... 3 .بروز بيروقراطية وسيطرتها على العمل الثقافي.

(7980/1)

ولذلك، فالعربي اليوم:

1 .فكره غير متناسق وغير منسجم بصفة واضحة، صفته الاستقلالية والمصلحيّة. وهو مهمش أمام الغزو الثقافي والعلمي .الغربي .في ظل العولمة الحائزة.

2 .مستسلم، لأنه يشعر بضعف دائم من منطلق إرادة استعمارية سابقة (لغة، اقتصاد).

... 3 .تباعد سياسي وتربوي يسبب في تعطل الفكر من منطلق الخلق والإبداع والمبادرة. وهذا التباعد خلق تأخراً

في التوحد الجغرافي الذي أدى إلى تعطل الفكر عن تلاقحه عربيّاً فدوليّاً.

(7981/1)

... إن إشكالية الثنائية (الحداثة والتراث) قد تؤدي بهذا العربي اليوم إلى التباعد والذوبان، مع وجود عدم فهم للدور الفكري الذي يجب أن يؤديه في الوقت الحاضر أمام التحديات الأخرى، وأن يتميز سلوكه المعرفي بالجرأة والفاعلية في اقتحام النظريات العلمية والتعامل معها وتطويعها لخدمة مجتمعه ووطنه، وذلك بلغته، دون تهميش أو ذوبان، جاعلاً نصب عينيه مبدأ «التفكير لأنفسنا وأن لا يفكر الغير لنا».

...

6 ـ **المعوقات**

... إن ما يعاني منه العربي اليوم في محيطه وفي مجتمعه وفي كيانه أيّاً كان، هو:

(7982/1)

... 1) التبعية الثقافية: فبالرغم من تخلص الأوطان العربية من الاستعمار السياسي المباشر، فإنها ما تزال تعاني من مخلَّفات التبعية والاستلاب الثقافي. ويتمثل ذلك في إغراق المجتمع العربي بمواد مناهضة تعمل على انفصام شخصيته بمواد تكنولوجية غالباً ما تكون غير ملائمة وصار يعتبرها ضرورية. فكفّ عن الإنتاج والإبداع. وهذه هي المأساة.

... 2) التغريب وهجرة الكفاءات: لا يتحقق استقرار العربي في وطنه إلا بتوفير العمل المناسب حتى يسهم في التنمية الثقافية والفعل الثقافي.

(7983/1)

... 3) وجود العوائق التي يصنعها الآخر ويُساعد على تبنيها، وهي عوائق تحول دون تبادل الأفكار والآراء ووسائل نشر الثقافة المنقولة، وأخصها الكتاب والصحيفة. وهكذا يعيش العربي في محيطه مجهولاً، لأن إنتاجه الفكري محدود الحضور، وبالتالي غير ميسور لتقديمه للباحثين خارج وطنه وفي محيطه العربي خاصة.

... 4) تحرص النخبة في المجتمع على أن يدرس أبناؤها في المدارس الخاصة، وفي الجامعات الحرة، وفي الجامعات الغربية والأمريكية بالخصوص.

(7984/1)

... 5) عامل الفقر الذي يصنع التخلف المعرفي والاجتماعي والتربوي. وهو من العوامل التي ركز عليها المستعمر، مما جعل العربي يقلّل من حظوظ التعامل مع قنوات المعرفة أيّاً كان نوعها، ولأن التفكير اليوم في العيش والخبز يجعل هذا الإنسان يقصر تفكيره المعرفي على توفير القوت وضمان العيش والحياة له ولمحيطه ليس غير.

7 .التّحدَّيّات

... تتمثل التحديات المطروحة على المجتمعات العربية وفي مقدمتها النخبة المنتجة للفكر في أن على هذه المجتمعات أن تعمل بقواها الثقافية الفاعلة على بلورة شخصية جديدة لتغيير مقولة إن

(7985/1)

المفكرين المعاصرين استعادوا أجهزتهم المعرفية من مفكري عصر النهضة من جهة ومن مفكري الغرب من جهة ثانية. لهذا كانوا عاجزين عن تقديم نظرية للعقل

العربي متكاملة، وكان فكرهم فكراً تراكمياً، مما جعلهم سجناء العقل الغربي ومفاهيمه. فالمفكرون العرب لم يسائلوا العقل العربي ولم ينقدوه، وظلوا بذلك أسرى تصور للعقل الواحد(1).

... إن أبرز معالم التحدي لدى العربي اليوم وغداً هو أن يعمل في محيطه على:

---

(1) الشاذلي الساكر، مجلة الإذاعة والتلفزة التونسية (ندوة)، 1994/1/24.

(7986/1)

---

1 .بناء قدرته حتى يشحن الفعالية الروحية في الأمم كلها.

... 2 .استيعاب ثقافة العصر استيعاباً كاملاً.

... 3 .تبني أساليب الحضارة المعاصرة أو إبداع البدائل.

...

... 4 .حماية المنجزات الحضارية للأمة.

وإن العناصر البارزة لجوانب التحدي الحضاري تكمن في:

... أ .العقيدة بصفتها عنصراً بارزاً في معركة التحدي

والبقاء.

... ب ـ الرصيد الإنساني والاجتماعي.

... ج ـ القيم والمثل والمبادئ.

... وبالنظر للموضوع وجوانبه المتشعّبة، نجد أنه مكتوب فيه، والمؤلفات التي مست أحد جوانبه متوافرة بدءاً بـ"القرآن"،

(1/7987)

وكيف تعامل العرب مع ما فيه من أخبار تاريخية للأمم الخالدة، وكيف أن العرب الجاهليين ردوها إلى أساطير الأولين، وكيف أعطاها المؤمنون ما تستحقه من أهمية، خصوصاً تلك التي لم يأت ذكرها في "التّوراة" و"الإنجيل"، ثم كيف تعامل العرب مع المعرفة خلال القرون الوسطى الإسلامية الأولى وما تبع ذلك من إشعاع الثقافة العربية وازدهار المعرفة وأسباب انحطاطها.

8 ـ الأماني

... ما أتمنى ان يكون أمام العربي في تعامله مع المعرفة:

... 1 ـ أن يخرج من الفردية إلى الجماعية (تشخيص الداء ووضع الحلول).

(7988/1)

... 2 ـ المنطلق من التراث العربي والإسلامي قراءة ودارسة وتحليلاً وإنتاجاً باعتباره أكبر إنجاز للثقافة العربية والإسلامية معاً.

... 3 ـ بناء شخصية عربية متمثلة في:

... أ ـ اقتصاد متين.

... ب ـ مجتمع سليم.

... ج ـ فكر حر.

... د ـ حب مفتوح للإبداع والإضافة.

... 4 ـ العمل على أن يقترن الفكر الحديث في ذهن الآخرين بالعلم.

... 5 ـ اقتران العمل اليدوي بالعمل الفكري. وإذا انعزل أحدهما عن الآخر، تجبر الذّهن. وهذه هي المأساة (الذهن في ناحية بلا قلب، واليد في ناحية بلا فكر، بلا روح. وساءت النتيجتان).

(7989/1)

... 6 .العمل على أن تترجم اليد عن نفس واعية وحساسية مثقفة متدينة لتعد قوة خالقة وطاقة حيوية.

... إذا كان الهدف من العلم هو إيجاد القانون، فهدف الصنعة تيسير الوسيلة، وهدف الفكر تحقيق القيمة. والقيمة معنى جامع لاستئناف العلم والعمل.

... ما يستنتج من كل هذا:

... 1) قديماً، كان دور طلبة العلم جاداً من أجل البحث والمعرفة (جمع اللغة، تدوين الحديث، تلقّي أصول الشعر العربي، البحث عن نظريات علمية، الجري و.... للظفر بمعلومة ما، قراءة مخطوط أو نقله، أو إنجاز التجارب الكيميائية). يظهر حرصهم على تسخير

(7990/1)

طاقاتهم ووقتهم من أجل المعلومة من خلال السّفر وتعرّضهم للمتاعب والجوع والمخاطر دون مقابل من أجل الغير. وبذلك أبدعوا وأفادوا الإنسانية، والأمة العربية

بالخصوص، بما حصلوا عليه وأشاعوه.

... 2) اليوم، أصبحت المعلومة أداة ووسيلة للذّات وفي المجتمع العربي والإسلامي صارت المعلومة من أجل »الأنا« »مادية بحتة« للحصول على الرفاهية وبناء علاقات وظائفية في أنانية صرف.

... 3) النتيجة:

... أ ـ التعامل مع المعرفة في بعض الأوطان العربية أوجد أناساً عاجزين عن الإبداع (الطلبة يتلقون معلومات في مجال معين).

(7991/1)

... أي نعم! الطالب يتلقّى المعلومة ولا يبدع ولا يساهم في إيجادها (مستهلِك). وهذه القصية التربوية والحضارية معاً من شأنها أن تخلق إشكالية أخرى عند التخرج ومباشرة الحياة. والكثير منهم يندمج في المجتمع ويصير فيه مستهلِكاً إلا قلّة قليلة تحاول أن تكون طرفاً في العملية الإبداعية (كالعلوم الإنسانية وغيرها).

... تبقى إشكالية أخرى جديرة بالاهتمام والدرس، وهي التساؤل عن كيفية الاستفادة من التراث والإضافة إليه،

وهو تساؤل يتضمن في صلبه إشكالية »رتق تعامل العربي مع المعرفة«.

(7992/1)

... ب . بخصوص هجرة الكفاءات العربية للغرب مثلاً:

... لا يتوفر للعربي في بلده مجال المشاركة والإبداع (مراكز البحوث محدودة الفاعليّة، المخابر القاصرة على أداء ما يمكن أن يحتاجه غداً، المعارف في مستوى الجامعات محددة بشكل لا يجعلها وظيفية عند التخرج.

... . غياب رؤية واضحة للبحث في سياق التنمية بمفهومها الواسع.

... . الركض وراء الآخر بحجة أو بأخرى.

... . إن مثل هذه الإشكالات تجعل العربي يتعامل مع المعرفة خارج الوطن، لأن:

1) الكفاءات العلمية متوافرة عند الطلب وبلا معوقات.

(7993/1)

---

2) مراكز البحوث مفتوحة للتكوين والاستفادة فالإبداع.

3) المغريات المالية التي تقدمها الحكومات الغربية (منح دراسية، منح بحث، منح تأطير، تشغيل).

4) الحضور العلمي الذي يضمن الإشعاع والاستمرار والفاعلية.

5) وضوح الرؤيا العلمية من منطلق إيمان الغرب بالعلم والمعرفة.

... علينا إذن أن نقرأ تاريخنا العلمي والمعرفي بصدق ونعلّم أبناءنا بموضوعية كاملة وندربهم على البحث والتعامل مع المعلومة بأن نغرس فيهم الثقة والقدرة على التعامل مع المعرفة كالآخر، وأن ندرس بصدق وبعلم وبحكمة كل فجوات في التكوين المعرفي لنضمن

(1/7994)

استمرارنا ومساهمتنا من جديد في التراث الإنساني.

...

...

المراجع والمصادر

الكتب:

تاريخ العلوم عند العرب، إعداد مجموعة من الأساتذة، بيت الحكمة، تونس، 1990.

الأدباء العرب في مواجهة التحديات (ندوة)، منشورات الاتحاد العام للأدباء العرب، عمان ـ الأردن، 1992.

ملتقى أحمد بن أبي الضياف للفكر السياسي والاجتماعي الحديث (ندوة)، سليانة، تونس، 1989.

إبراهيم زيدان، في الفكر والثقافة والعلوم، عمان، 1992.

الأمير علي، مختصر تاريخ العرب، بغداد، 1928.

أحمد أمين، ضحى الإسلام.

جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي.

(7995/1)

مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب.

ـــ ـــ ـــ، وحي القلم.

حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي.

أندريه ميكال، الإسلام وحضارته، ترجمة الدكتورة زينب عبد العزيز.

الأمير شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟

محمد كرد علي، غرائب الغرب.

ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران.

محمد مفيد الشّوباجي، العرب والحضارة الأوروبية، مصر،

1961.

محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية.

(7996/1)

محمد عبد المولى، تطور الفكر الاقتصادي والاجتماعي عبر العصور. بحث سوسيولوجي. (موقف الفكر العلمي من ظواهر التخلف في الوطن العربي)، تونس، 1986.

حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، القاهرة، 1964.

محمد القاضي وعبد الله حولة، الفكر الإصلاحي عند العرب في عصر النهضة، تونس، 1992.

علي أومليل، الإصلاحية العربية والدولة الوطنية، لبنان، 1985.

مفرح بن سليمان القوسي، الشيخ مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، السعودية .الرياض، 1997.

(7997/1)

أنور الجندي، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي الاجتماعي والثقافي، لبنان، 1979.

الحبيب الجنحاني، »الثقافة العربية المعاصرة«، من قضايا الفكر، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس)، تونس، 1975.

لبيب عبد الستار، الحضارات، لبنان، 1974.

ـــ، أحداث القرن العشرين، لبنان، 1977.

أحمد بهاء الدين، المثقفون والسلطة في عالمنا العربي، سلسلة كتاب العربي 38، الكويت، 1999.

توني أ. هف، فجر العلم الحديث، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2000.

(7998/1)

وحدة الثقافة العربية (ندوة)، منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، عمان، 1993.

محمد السويسي، أدب العلماء إلى نهاية القرن الرابع هجرية.

محيي الدين صبحي، قضايا الثقافة العربية المعاصرة.

عبد الكريم غلاب، الفكر العربي بين الاستلاب وتأكيد الذات، تونس.

المجلات:

مجلة الأقلام، بغداد.

التاريخ العربي، الرباط (المغرب).

الحياة الثقافية، تونس.

مجلة 7 نوفمبر، تونس.

الإتحاف، سليانة، تونس.

الدوحة، قطر.

الفيصل، الرياض (السعودية).

الهداية، تونس (المجلس الإسلامي الأعلى).

الرّافد، الشّارقة (الإمارات).

(7999/1)

المؤرخ العربي، بغداد.

الفكر العربي، لبنان.

الوحدة، الرباط (المغرب).

التنوير، تونس (معهد أصول الدين).

أفاق عربية، بغداد.

الصحف:

القدس، لندن.

العرب، لندن.

الصّباح، تونس.

البيان، تونس.

الشروق، تونس.

(8000/1)

تقييد جديد حول النقود والأوزان والمكاييل المغربية في القرن السابع الهجري (تقديم وتحقيق)

... ... الأستاذ محمد الشريف

... ... كلية الآداب ـ تطوان

... تظل عملية »تحديد الأوزان والمكاييل والنقود من أصعب المهام المنوطة بالتاريخ الاقتصادي للغرب الإسلامي وأولى الخطوات التي ينبغي القيام بها لتتجاوز أي دراسة حول الاقتصاد المغربي الطابع الوصفي الكيفي إلى التدقيق العلمي الإحصائي الدقيق«(1)

---

(1) ... انظر الدراسة التي أفردناها لكتاب أحمد العزفي، "إثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد" (تحت الطبع ضمن منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي ـ الإمارات العربية المتحدة).

(8001/1)

. فالمؤرخ يجد نفسه داخل مشاكل أساسية، لأن عدم فهم النقود وآليات الوزن والكيل داخل الوظيفة الاقتصادية لمجتمع القرون الوسطى في الغرب الإسلامي يؤدي إلى خلل داخل المفاهيم الأساسية في المنظومة الاقتصادية(1). ونعتقد أنه إلى جانب المسكوكات الموجودة في المتاحف وفي

---

(1) ... Chalmeta Pedro, «Monnaie de compte, monnais fiscale et monnaie réélle en Andalus », in Documents de l'Islam médiéval. Nouvelles perspectives de recherche, Institut français d'archéologie orientale du Caire, 1991, p. 65 sq.

(8002/1)

الكاتالوغات المختلفة. هناك نصوص كتابية حول العملة والأوزان والمكاييل لا يجب إغفالها أو التقليل من أهميتها في أي مشروع يروم كتابة تاريخ اقتصادي علمي دقيق للغرب الإسلامي. وعدم أخذ تلك النصوص

بعين الاعتبار قد يدفع بنا إلى مزالق منهجية ويوصلنا إلى خلاصات غير دقيقة(1)

---

(1) ... مثل تلك التي وصل إليها عز الدين أحمد موسى، أحد الباحثين في التاريخ الاقتصادي للغرب الإسلامي في العصر الوسيط، من أن دول المغرب لم تبذل جهداً لتوحيد الموازين والمكاييل المستعملة في العمليات التجارية (انظر كتابه: النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي، دار الشروق، بيروت، 1983، صص. 297 ـ 298).

(8003/1)

.

... لقد عمل فقهاء المغرب والأندلس وعلماؤها على حل المشاكل التي تطرحها عملية الصرف والمعادلات انطلاقاً من الدرهم الفضي والدينار الذهبي وتقسيماتهما الفرعية، وذلك بهدف الوصول إلى نظام موحد للأوزان والنقود. لذلك لا غرابة إن كثر ما سماهم صاحب "الدوحة المشتبكة" «أصحاب المقادير»(1)، أي العلماء الذين اجتهدوا في تدقيق وزن النقود والمكيلات والأوزان بهدف تقديم إطار واضح لدفع الضرر وفق مصادر التشريع الإسلامي وأعراف كل بلد؛ لأن أنظمة الكيل

والوزن

---

(1) ... أبو الحسن المديوني، الدوحة المشتبكة، ص. 140.

(8004/1)

المستعملة كانت تختلف باختلاف الفترات الزمنية وباختلاف المناطق، بل وداخل المنطقة الواحدة؛ كما كانت تحدد في أغلب الأحيان بالاستناد إلى العرف. وإلى ذلك يشير ابن خلدون قائلاً »صار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق الشرعية من سكتهم، بمعرفة النسبة التي بينها وبين مقاديرها الشرعية«(1). وبغض النظر عما تتضمنه كتب الحسبة والمؤلفات الفقهية النظرية الكلاسيكية وغيرها من تدقيقات في هذا الموضوع، فإن التآليف في هذا الميدان قليلة جداً. وجلها لم يصلنا

---

(1) ... ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص. 277.

(8005/1)

وما وصلنا ما يزال مخطوطاً وأقله هو المطبوع المتداول.

... نشير في هذا الصّدد إلى بعض التصانيف التي وصلتنا من الغرب الإسلامي، وعلى رأسها:

... ."مقالات وتنبيهات في المكاييل والأوزان" لأبي بكر بن خلف المواق، قاضي فاس (ت, 559 هجرية/ 1202 م) (1).

... ."ذكر مقدار النصاب الذي تجب فيه الزكاة من الذهب والفضة" لأبي محمد عبد الواحد بن محمد الباهلي الغافقي(2)

---

(1) ... نشرها R. Brunschvig, «Esquisse d'histoire monétaire almohado-hafside », in Etudes d'Islamologie, T. 1, Paris, 1976, pp. 97–98.

(2) ... مخطوط الخزانة العامة (الرباط) ضمن مجموع رقمه 1586، د، ص. 40 ق ـ 43 ق.

(1/8006)

.

... ."الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة" لأبي الحسن علي بن يوسف الحكيم(1).

... ـ "فتوى" لأبي محمد عبد الحق بن عطيّة أصدرها سنة 616 هـ احتفظ بها ابن الجياب في كتابه "التقريب والتيسير لإفادة المبتدين [أو المبتدئة] بصناعة مساحة السطوح"(2)

---

(1) ... نشر حسين مؤنس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد 6، 1958، العدد 1 ـ 2.

(2) ... أبو طاهر محمد ابن الجياب المرادي (حوالي 680 هـ)، التقريب والتيسير لإفادة المبتدين بصناعة مساحة السطوح، مخطوط الإسكوريال، رقم 929؛ وينقل عنها الخزاعي (تخريج الدلالات السمعية، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، صص. 599، 602، 604).

(8007/1)

.

... ـ "إثبات ما ليس منه بُدّ لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمُدّ" لأبي العباس أحمد العزفي السبتي. أما تلك التي لم تصلنا منها سوى شذرات في المؤلفات الأخرى، فنذكر منها:

... ـ "مقالة في الأوزان" لعلي بن محمد بن القطان الفاسي

(ت. 628 هـ/ 1230 م) (1).

---

(1) ... انظر ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، السفر الثامن، الرباط، 1984، ص. 168؛ أحمد بن القاضي، جذوة الاقتباس، الرباط، 1973، ج 2، ص. 106.

(8008/1)

... ـ "مقالة" لولده حسن بن علي بن محمد(1).

... ـ "مقالة في المكاييل الشرعية" لابن البناء المراكشي (ت. 721 هـ/ 1321 م)(2).

... ـ "النكت العلمية في مشاكل الغوامض الوزنية" لأبي بكر القللوسي الملقب بالفار، وهي أرجوزة عروضية كان يقرؤها بمراكش على عهد الموحدين(3).

المخطوط وصاحبه

---

(1) ... ينقل عنها علي الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، ص. 614، 616، 793.

(2) ... ينقل عنها علي الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، صص. 603 ـ 616؛ وانظر كذلك جذوة الاقتباس، ج 1، ص. 151.

(3) ... انظر جذوة الاقتباس، ج 1، ص. 150.

(8009/1)

... ونود في هذه الدراسة الوقوف عند تأليف فريد خصصه صاحبه كما يدل على ذلك عنوانه .لـ"تلخيص القول في الأكيال والأوزان والنصب الشرعية وتبيين مقاديرها من أقوال العلماء المعتنين بتحقيق ذلك"(1). يضم التقييد مقدمة مقتضبة تعلن عن محتويات التأليف واثني عشر فصلاً متباينة الطول، حتى أن بعضها عبارة عن فقرات مقتضبة.

... .يبتدئ المؤلف كلامه بالوقوف على حقيقة الدرهم الكيل الذي »تُركب منه الأوقية والرطل والمد والصاع ويُحقق قدر كل واحد منها به«، أي

---

(1) ... مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 416 ق، ص. 434، 449.

(8010/1)

»الذي تحققت به المكاييل في الشرع وعرفت مقاديرها منه«. ثم يتعرض لمسألة أصل تركيب الدرهم وما قام به الخليفة الأموي عبد المالك بن مروان بهذا الصدد (الفصل

الأول) ليتطرق إلى العملة الموحديّة، وبالضبط »الدرهم الذي ضربه عبد المومن بن علي بالمغرب« ومقداره من حب الشعير، ومقداره بالنسبة للدرهم الكيل (الفصل الثاني)؛ وذلك ليتسنى له معرفة »العدد الذي تجب فيه الزكاة من الدراهم المومنية« ومبلغ الواجب فيها. ثم يتطرق في السياق نفسه للعدد الذي يخرج منه الزكاة من الدراهم الجارية ببلاد إفريقية، والدنانير اليوسفية،

(8011/1)

والدينار اليعقوبي، والدنانير المعروفة بالأميرية الجارية بإفريقية. ونجد المؤلف في كل معطياته يستند إلى عمليات حسابية دقيقة وواضحة تتخللها تفسيرات مختلفة وكأني به يتوجه بذلك إلى عامة الناس وخاصتهم (الفصلان الثالث والرابع).

... وبعد أن يوضح مقدار الصداق عند مالك، يحسب مقداره بالدراهم المومنية، والدراهم الجارية والدينار اليوسفي والدينار الأميري (الفصل الخامس). ويفعل مثل ذلك في حساب قدر الدية. فبعد وقوفه على حكم الشرع فيها، يوضح مقدارها بالعملات نفسها (الفصل السادس). ولا يفوته أن يشير إلى أن

(8012/1)

»الدينار عند مالك ـ رحمه الله ـ على نوعين: نوع للزكاة والجزية، وهو من صرف عشرة دراهم شرعية؛ ونوع ثان للديات والنكاح، وهو من صرف اثني عشر درهماً من الشرعية أيضاً« (الفصل السابع).

... ـ أما في الفصل الثامن، فيعرفنا بالفرق بين »الدرهم المصطلح عليه ودرهم الكيل الأصلي الذي عليه العلماء«.

وفي الفصل التاسع يلخص المؤلف »ما تقدم ذكره من الأعداد والنصب مرسوماً بالوضع المعروف بالرومي«.

ويخصص الفصول الثلاثة المتبقية لتحقيق الأوزان والأكيال الشرعية، معتمداً في ذلك على بعض الكلاسيكيات في الموضوع مثل كتاب

(8013/1)

"الأموال" لأبي عبد القاسم بن سلام، و"إكمال" القاضي عياض وعلى كتّاب اللغة ومحققيها كالأزهري والفراء والجواليقي...

... توجد النسخة المخطوطة بالزاوية الناصرية بتامكَروت، ضمن مجموع رقمه ق 416 في سبع ورقات،

خطها مغربي جلي واضح خال تقريباً من الأخطاء. تم نسخها يوم الأحد 7 شعبان المبارك عام 904 هـ (1498 م).

فرضيات حول مؤلف التقييد

... .لا يتضمن التقييد أيّ إشارة إلى هويّة الكاتب. فباستثناء معرفته الدقيقة بالحساب والطابع التّعليمي لتأليفه وإلمامه الواسع بمبادئ المذهب المالكي، فإننا لا نعرف شيئاً عن

(8014/1)

مؤلِّف هذا التقييد. إن بعض معطيات التالي قد تفيد للوهلة الأولى أن صاحبه من إفريقية. فهو يتحدث مثلاً عن »الدنانير المعروفة بالأميرية الجارية بإفريقية« ويستعمل عبارة »دينارنا الأميري« أو »المسماة عندنا بالأميرية«، لكنه يستعمل في الوقت نفسه عبارة »دينارنا اليوسفي« و»دراهمنا المومنية«، مما يدل على أن »نا« ليس لها أيُّ إحالة جغرافية في ذهن المؤلف. ... وفي الفصل الحادي عشر ما يوحي للوهلة الأولى بأن مؤلف التقييد هو ابن القطان. يقول: »ولكن من وجه

النظر السديد أن تكون أوقيتنا بدراهمنا عشرين بزيادة هذا

(8015/1)

القدر اليسير الذي يوجبه الاحتياط لكون العادة جرت بنقصها لطول استخدامها في المدة القريبة. هكذا قال أبو الحسن علي بن محمد بن عبد المالك، وهو ممن حضر لتحقيق ذلك بمراكش «(1).

... .لذلك هناك من يُرجِّح أن يكون صاحبه هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامي الحميري الفاسي المعروف بابن القطان، صاحب "مقالة في الأوزان والمكاييل"(2) أملاها سنة 642 هـ على أن

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 6.

(2) ... ابن عبد المالك المراكشي، الذيل والتكملة، ج 8، الرباط، 1985، ص. 158. (والمصادر المثبتة هناك).

(8016/1)

التقييد يتضمن معطيات قطعيّة تنفي هذه النسبة.

... .أولاً: في معرض حديث صاحب التقييد عن وزن الأوقية

المغربية يحيل على ما قاله »أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك«، موضحاً أن هذا الأخير كان »ممن حضر لتحقيق ذلك بمراكش«... ولا نعتقد أن هذه الإحالة من زيادة الناسخ.

... ـ ثانياً: لا يمكن أن يكون ابن القطان مؤلف "التقييد" لعدم معاصرته له، فصاحب المجموع ينص صراحة على أن »التاريخ الذي قُيِّد فيه ما حقق من هذه الأوزان والأكيال... هو عام خمسة وثمانين وستمائة« [1286 م]، ونحن نعلم أن ابن القطان الفاسي توفي

(8017/1)

سنة 628 هـ (1230 م).

... ـ ثالثاً: ينقل أبو الحسن علي ابن يوسف الحكيم صاحب "الدوحة المشتبكة" كثيراً من نصوص مقالة ابن القطان الفاسي لا يتضمنها التقييد الذي بين أيدينا(1).

... فهل يمكن نسب التقييد إلى ابن البناء المراكشي؟ نعلم أن لهذا الأخير »مقالة في المكاييل الشرعية«(2) ينقل عنها صاحب "الدوحة المشتبكة" بعدما فرغ من النقل عن ابن القطان الفاسي. ونحن نعلم أن مقالة ابن البناء المراكشي (ت. 721 هـ/ 1321 م) تتضمن

---

(1) ... انظر مثلاً الدوحة، ص. 101، 102، 105

(2) ... انظر: جذوة الاقتباس، ج 1، ص. 151.

(8018/1)

تفاصيل عن النقود وأسمائها وأوزانها في عصر الموحدين والمرينيين حسبما تدلّ على ذلك بعض الشروحات على بعض مؤلفاته(1). لكن في غيبة معطيات موثوقة، لا نستطيع الجزم بأن التأليف لابن البناء المراكشي.

... لكن ألا يمكن أن يكون التقييد »مقالة« هو حسن بن علي بن محمد ابن القطان الابن الذي نقل عنها الخزاعي صاحب "تخريج الدلالات

---

(1) ... أبو القاسم محمد كرو، التعريف بمخطوط أندلسي نادر ونفيس، ضمن كتاب التراث المغربي والأندلسي، التوثيق والقراءة، منشورات كلية الآداب بتطوان، ندوات، د. ت، 4، ص. 183 ـ 190.

(8019/1)

السمعية"(1) أكثر من مرة؟ الوقع أننا لا نبرح ميدان الفرضيات في غيبة معطيات صريحة حول هوية مؤلف التقييد.

... أما عن سنة تأليف هذا التقييد، فقد صادفت وفاة السلطان أبي يوسف المريني (656 ـ 685 هـ/ 1258 ـ 1286 م). ونرجح أن يكون التأليف قد تمَّ في نهاية عهد السلطان أبي يوسف الذي اهتم اهتماماً خاصاً بالتنظيم النقدي وبأدوات الوزن والكيل في دولته، وهو الذي »عمل على تنظيم السكة المغربية تنظيماً جديداً«

---

(1) ... علي الخزاعي، تخريج الدلالات السمعية، تحقيق د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، 1985، ص. 793.

(8020/1)

بعدما كانت النقود بالمغرب عند قيام المرينيين مختلفة السكة والوزن. مما أدى إلى حدوث »فوضى في قيمة النقود وفي المعاملات«(1). وصاحب "الدوحة" يخبرنا بهذا الصدد قائلاً:

... لما اشتدت واستوثقت خلافة مولانا أمير المسلمين [...]

أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق [...] سمت همته إلى ما يُصلح ملكه، ويُعْلي دينه ونُسْكه، أن نظر فيما ليس منه بدّ من تحقيق الدينار والدرهم والقنطار والرطل والأوقية والوسق والصاع والمد(2)

---

(1) ... محمد المنوني، ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط، 1979، ص. 97.

(2) ... الدوحة، ص. 107.

(8021/1)

.

وبعد هذه الفقرة مباشرة، يخبرنا المديوني بأن السلطان المريني

... قدم أميناً وناظراً عليها بدار سكته بفاس جدنا الحكيم علي بن محمد الكومي المديوني لمعرفته بالنقود وسائر ما يتعلق بها [...] وما زالت سكته كذلك وعلى مذهبه، وذلك في سنة أربع وسبعين وستمائة [...] وأقام فيها نحواً من خمسين عاماً(1).

فالتقييد تم تأليفه بعد عشر سنوات فقط من تولية الحكيم المديوني. فهل يمكن أن يكون هو مؤلف التقييد الذي بين أيدينا؟

بعض مميزات التقييد

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 150.

(8022/1)

... يمكن القول إن هذا التقييد، على الرغم من صغر حجمه وقلة أوراقه، اجتمع فيه من التدقيقات ما يبرر نشره وعرضه على الناس.

... 1 . ولو أن المؤلف يصرح في عنوان تقييده بأنه سيلخص القول في الأكيال والأوزان والنصب الشرعيّة ويبين مقاديرها »من أقوال العلماء المعتنين بذلك«، فإنه يجاوز ذلك ليقدم لنا تقويماته الخاصة للوضعية التي عاصرها.

... 2 . يتناول الكتاب الموضوع معتمداً على أهم ما جاء في أبواب الزكاة والديّة والصداق من كتب الفقه النظرية ليرتبط بالموضوع المعاشي المغربي. فهو يعالج قضايا في عصره من الجانب

(8023/1)

النظري لكي يعتمد عليها في الجانب العملي.

... 3 ـ بعد الفصل النظري، عقد فصلاً للدرهم والدينار في المغرب. وهو بذلك يعطينا معلومات في غاية الأهمية عن العملات المغربية وأوزانها وقيمتها...، متحرياً الدقة في ما يورده من تقديرات. فأهميته لا تقدر من هذه الناحية من النظم المغربية. فهو مثلاً يخبرنا بأن »الدينار اليعقوبي كان من القلة بحيث لا يوجد منه نصاب« زمن المؤلف. ويتحدث عن »الدرهم المصطلح عليه ودرهم الكيل الأصلي الذي عليه العلماء«، قائلاً: »إن اعتبار ما قدر به درهم الكيل والمثقال الشرعي بحب الشعير

(8024/1)

المتوسط هو عمل العلماء قديماً وتبعهم فيه من أراد تحقيق ما ركب من ذلك من النقود والمكيلات والموزونات، واستعمل الناس بعد ذلك حب القمح. فلا تجد اليوم أحداً من الصاغة وغيرهم يقدر إلا بالقمح«.

... 4 ـ يظهر المؤلف أكثر تفصيلاً وبيداغوجية من صاحب "الدوحة المشتبكة" ومن كثير من المؤلّفين في

»المقادير« كالمواق والباهلي وابن باق مثلاً. وأسلوب شرحه يتميز بالسلاسة والوضوح بالرغم من موضوعه العلمي الجاف. ويظهر الطابع التعليمي للتقييد في كثرة إيراده لتعابير تفيد أنه كان يتوجه لعامة الناس مثل: »إذا أردت معرفة

(8025/1)

كذا...، فاعلم أن...«.

... 5 ـ في التقييد معلومات تاريخية وملاحظات اجتماعية من الطراز الذي نجده في كتب الحسبة وأحكام السوق. فبعد أن يدقق المؤلف مقدار مختلف النقود بحب القمح، يعطينا ملاحظة دقيقة عن وزن الدرهم المومني الذي جرت العادة بنقص وزنه: »الأصل في وزن الدرهم المومني من اثنتين وثلاثين حبة قمحاً. إلا أنه لا يوجد اليوم إلا ما ينقص عن ذلك«.

... 6 ـ ومن خلال تدقيقات التقييد، نقف على بعض المعطيات الدفينة المهمة للتاريخ الاقتصادي المغربي؛ كما يقدم بيانات هامة عن المقادير. من ذلك أن وزن الأوقية على

(8026/1)

عهد الموحدين كانت في زمن المؤلف »تسعة عشر درهماً وخُمُس درهم«. ويتحرى صاحب التقييد الدقة ويستدرك قائلاً: »لكن من وجهة النظر السديد أن تكون أوقيتنا بدراهمنا عشرين بزيادة هذا القدر اليسير الذي يوجبه الاحتياط لكون العادة جرت بنقصها لطول استخدامها في المدة القريبة«.

... 7 . يتوسع المؤلِّف في بعض القضايا العلمية ويخرج بها من نطاقها الرياضي المحدود إلى آفاق أخرى تتصل باللغة والمصطلح. فيخبرنا مثلاً أن »بالمغرب صاعـ[ا]ً هو أربعة أمداد من مدِّ أبي حفص يسمى في مراكش السطل، وعندهم صحفة فيها ثلاثة أصوع من

(8027/1)

هذا الصاع«، وبإفريقية مد يعرف بالقروي، إلى غير ذلك من المعلومات المتصلة بالمصطلحات الاقتصادية والحضارية للغرب الإسلامي.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تلخيص القول في الأكيال والأوزان والنصب الشرعية وتبيين
مقاديرها من أقوال العلماء المعتنين بتحقيق ذلك

... وهذا يثبت الأسماء المبينة في هذا الجزء.
... الدرهم الشرعي . المثقال الشرعي . الدانق . الدرهم المومني . الدرهم القرطبي . الدرهم الجاري بإفريقية . الدينار اليوسفي . الدينار الشّرعيّ . الدينار الأميري . دينار

(8028/1)

الزكوات والدّيات . نصاب النكاح . نصاب القطع . الدرهم الذي تسميه الصاغة درهم الكيل . القيراط . الخروبة . الأواقي . النش . النّواة . الأرطل . المُدّ والصاع . مد أبي حفص . السطل . الصحفة . المدي والقفيز . المد القروي . الويبة . الوسق . المنّ . القنطار . البهار . الكرّ . الأردب . المكُوك . الكيلجة(1)

---

(1) ... لن يتطرق إليها مؤلف التقييد. وقد أورد العزفي في كتاب "إثبات ما ليس منه بد لمن أراد الوقوف على حقيقة الدينار والدرهم والصاع والمد"، ورقة 117 . 118،

تحقيق محمد الشريف (تحت الطبع)، أن »الكليجة نصف الصاع. ذكره الأزهري. وقال إسماعيل بن إسحاق القاضي: ليمتد ربع الصاع يعني مد النبي . والصاع مقدار كليجة بغدادية يزيد الصاع عليها شيئاً يسيراً. وما قاله الأزهري هو الكليجة بالبصرة. وهذا الاسم أعجمي«.

(8029/1)

.الفرق .القسط.الويبة أيضاً .مد مروان .مد هشام.

نفعهم الله ونفع بهم وجعل العلم لنا ولهم حجّة ونوراً يهدينا إليه بمنّه وفضله.

... اعلم .وفقنا الله وأرشدنا .أن الدرهم الكيل(1) هو الذي تركب منه الأوقية والرطل والمدّ والصاع ويحقق قدر كل واحد منها به. ولذلك قيل درهم الكيْل، أي الذي تحققت به المكاييل في الشرع وعرفت مقاديرها

---

(1) ... الدرهم الكيل: ويسمى درهم السنة والدرهم الشرعي. وهو من حيث الاستعمال يعتبر أصلاً وكزكاة الحبوب، التي يحدد نصابها بهذا الدرهم ولذلك سمي كيليّاً، أي: درهم الكيل.

(8030/1)

منه. وصحّ بالنقل أن وزنه من حب الشعير خمسون حبة وخمسا حبة، لا خلاف عندهم في ذلك(1)، تكون الحبة المقدر بها ذلك متوسِّطة غير مقشورة قد قطع من طرفيْها ما امتد وخرج عن حلقتها.

... وفي هذا الدرهم ستة دوانق، كل دانق سُدس. وقدْر هذا الدانق من حبّ الشعير ثمان حبّات وخُمسا الحبة.

والمثقال الشرعي يعدل من دراهم الكيل درهماً واحداً وثلاثة أسْباع الدرهم؛ وذلك من حبّ الشعير اثنان وسبعون لا خلاف بينهم

---

(1) ... من المعروف أن قيمة الدرهم بالنسبة للدينار لم تكن قارّة وقد اختلفت اختلافاً كبيراً (I. II, 329E.).

(8031/1)

فيه. وفي المثقال أربعة وعشرون قيراطاً. كل قيراط ثلاث حبوب من الشعير. هكذا يقولون. والتحقيق يوجب أن يكون في كل قيراط ثلاث حبات وثلاثة أرباع خُمُس الحبة. ولتقدر تحقيق ذلك بالفعل، جعلوا ذلك ثلاثاً وأسقطوا الكسر، واعتبروا درهم الكيل بثمانية وأربعين حبة. والمثقال منه درهم ونصف. وعلى هذا جرى

عملهم. ولكن الذي أوجب أن قدر درهم الكيل بخمسين وخُمُسيْ حبة هو اتفاق الجميع من غير خلاف. يعلم في ذلك أن سبعة دنانير تزن من دراهم الكيل عشرة(1)

---

(1) ... أساس نظام الأوزان الإسلامية عامة هو الدرهم والمثقال. ونسبة وزن المثقال إلى الدرهم من الوجهة الشرعية هي كنسبة 7/1020، بينما هي من الوجهة العملية 2/3. وعلى التحديد الوثيق لهاتين الوحدتين يتوقف تحديد جميع الأوزان الأخرى. وهذه العملية صعبة للغاية. فقد نشأت في البلدان الإسلامية أوزان عديدة متأرجحة حسب المكان والزمان لكل من الدرهم والمثقال. (انظر: فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمه عن الألمانية الدكتور كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، 1970، ص. 9). كما أن نسبة 10/7 كانت سائدة قبل الإسلام (الريس، 342), ومن المعروف أن قيمة الدرهم بالنسبة للدينار لم تكن قارة، وقد اختلفت اختلافاً كبيراً: (E. I. 2, 329).

(8032/1)

. وبيانه أنك إذا أخذت اثنين وسبعين التي هي عدد حبوب الدينار الشرعي المتفق أيضاً، وضربتها في سبعة، عدد الدينار، اجتمع لك خمسمائة وأربعة، ثم قسمتها على أيمة العشرة وتلك اثنان وخمسة خرج لك خمسون وخُمُسان واتضح لك بذلك أن كل دينار من هذه يعدل درهماً واحداً وثلاثة أسباع درهم، لأن سبع خمسين وخُمُسَيْن فثلاثة بأحد وعشرين وثلاثة أخماس. فإذا أضفتها إلى خمسين وخُمُسيْن، كان المجتمع اثنين وسبعين.

... فصل: كان الأصل في تركيب الدرهم من هذا المقدار ما فعله عبد المالك بن مروان بموافقة من حضره من العلماء رضي

(8033/1)

الله عنهم على ما حُكي أنه(1) كانت الدراهم التجارية بين الناس قديماً نوعين: نوع منها عليه نقش الروم يقال لها الدراهم السّود والوافية(2) وكانت زُيوفاً(3)

---

(1) ... ينقل عن أبي الحسن بن القطان الذي ينقل عنه المديوني في الدوحة المشتبكة، صص. 140 ـ 142).

(2) ... هي دراهم فارس. والبغليّة نسبة إلى « بغل"، وهو

اسم يهودي ضرب تلك الدراهم وسميت باسمه. وكان يعرف بـ"رأس البغل". (أنستاس الكرملي، النقود العربية وعلم النميات، ط 2 منقحة، القاهرة، 1987، ص. 27، هامش 1).

(3) ... هي الدراهم التي خُلط بها نحاس وغيره ففات صفة الجودة. (الكرملين م. س، 75، هامش 4).

(8034/1)

، وزن كل درهم منها ثمانية دوانق(1). ونوع ثان (عليه نقش الروم) (2) يقال لها العُنق والطبريّة(3)

---

(1) ... تقي الدين المقريزي، شذور العقود في ذكر النقود، نشرها وترجمها للفرنسية:

D. Eustache, « Etude de numismatique et de métrologie musulmanes », II,

Hespéris-Tamuda, vol. X, fasc?1–2, 1969, p. 97.

(2) ... ما بين معقوفتين زيادة من "الدوحة المشتبكة"، ص. 89.

(3) ... من الدراهم المضروبة في طبرستان. ويعتقد أن الطبرية من الدراهم المنسوبة إلى طبرية، وهي قصبة

بالأردن؛ ولكن المنسوب إلى هذه المدينة يقال فيه طبراني... وظن آخرون أنها منسوب إلى طبرية: قرية بواسطة التي يقال في النسبة إليها طبرس وطبرك، لكن لم يضرب فيها دينار (انظر الكرملي، م. س.، ص. 29، هامش 6).

(8035/1)

كانت جياداً كل درهم منها فيه أربعة دوانق. وكان الناس تبعاً يتعاملون بها مجموعة، شطر من هذه وشطر من هذه. وكذلك كانوا يؤدون زكواتهم منها. فجمع عبد المالك حين أراد ضرب الدرهم (بنقوش الإسلام) بين درهم من ثمانية دوانق ودرهم من أربعة دوانق فكان ذلك اثني عشر دانقاً، ثم قسّمها بنصفين وضرب الدرهم من ستة دوانق فجاء مقدراً بنصفها على حدِّ تعامل الناس بها(1) ووافق ذلك ما اجتمع عليه الناس من أمر الدينار الذي

---

(1) ... أبو عبيد القاسم بن سلام؛ كتاب الأموال؛ ابن خلدون، المقدمة، صص. 275 ـ 276؛ العزفي، ص. 93.

(8036/1)

لم يختلف فيه أنه من أربعة وعشرين قيراطاً (والقيراط ثلاث حبات). ففي الدينار على ما تقدّر اثنان حبة شعيراً(1)

(1) ... إن المحاولة الأولى لإدخال تغيير جزئي على العملة المتداولة في العصر الراشدي هو ضرب عمر بن الخطاب الدراهم على الطراز الساساني في السنة الثامنة من خلافته، أي سنة 20 للهجرة... والدراهم التي ضربها عمر هي الدراهم التي أطلق عليها اسم الوافية لاستيفائها الوزن الأساسي للدرهم، وسميت كذلك بالدراهم البغلية وتزن مثقالاً، أي وزن الدينار الذهب، 8 دوانق، هي 20 قيراطاً. (انظر الحبيب الجنحاني، التحول الاقتصادي والاجتماعي في مجتمع صدر الإسلام، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص. 42؛ الريس، م. س، 344).

(8037/1)

.

... فصل: اعلم أن الدرهم الذي ضربه عبد المومن بن علي بالمغرب(1)

(1) ... لقد امتازت الفترة الموحدية بكثرة إصداراتها من الدراهم حتى فاقت كل إصدارات من سبقها أو أتى من الدول في الغرب الإسلامي. هناك إحصائيات تفيد أن نسبة الدراهم المضروبة بدول الغرب الإسلامي كانت على الشكل التالي: عصر الإمارة: 442 درهم (نسبة 6 ٪) 108 سنة؛ عصر الخلافة 826 درهم (نسبة 11 ٪) 122 سنة؛ عصر الطوائف 266 درهم (نسبة 3,5 ٪) 79 سنة؛ عصر المرابطين 89 قيراط (نسبة 1,2 ٪) 62 سنة؛ عصر الطوائف الثاني 17؛ عصر الموحدين 5103 درهم (نسبة 69,5 ٪) 144 سنة؛ عصر الطوائف الثالث 604 درهم (نسبة 8,2٪) 269 سنة. (انظر: محمد الشريف، "تدقيقات جديدة حول المسكوكات الموحدية"، مجلة مواسم (طنجة)، العدد 6/5، ص. 52).

(8038/1)

وزنه من حب الشعير المتوسط ثمان وعشرون حبة(1). صحّ ذلك باختيار

---

(1) ... انظر المديوني، 102: "قال أبو الحسن بن القطان في مقالته إنه وجد... في درهم الموحدين... ثماناً وعشرين حبة". واشتهر الدرهم الموحدي بشكله المربع.

وهناك نوعان من الدراهم الموحدية: الدرهم الكامل ونصف الدرهم الذي يعرف بالدرهم المومني. بل إن الموحدين ضربوا على عهد عبد المومن ربع الدرهم وثمنه وسُدس عشره (انظر A. Bel, « Contribution à l'étude de dirhams almohades », Hespéris, 1933 Fasc. 1, 2et 1, 68–1؛ **وعبد الواحد المراكشي، المعجب).**

(8039/1)

أهل المعرفة(1). ففي درهم الكيل المتفق عليه من هذه المومنية درهم واحد وأربعة أخماس درهم. بيان ذلك أنك إذا أخذت ثمانية وعشرين من خمسين وخُمُسين، بقي اثنتان وعشرون وخُمُسان. فإذا قسمت ثمانياً وعشرين على خمسة، كان كل خُمس من خمس حبات وثلاثة أخماس حبة. وكانت اثنتان وعشرون. خُمسا الحبة أربعة أمثال هذا الخمس. واتضح ذلك أن في المائة درهم كيلاً، مائة وثمانون

---

(1) ... انظر كذلك أبو بكر بن خلف المواق، ص. 97؛ **ويعتقد عبد الواحد المراكشي أن الدينار المومني = ... هو "نصف دينار النصيب"، أي أن نصف درهم الكيل (**

(8040/1)

درهماً مومنية. وتحقيقه أنك تزيد على المائة المومنية أربع مائة خمس، مع كل درهم منها أربعة أخماس وتقسم الأخماس المجتمعة على خمسة يخرج لك من الصحاح ثمانون، فيقال في هذه: يدخل أربعين(1)

---

(1) ... نعلم أن درهم الكيل الشرعي يساوي 50 **حبة و**2/5 **حبة شعير، أو** 0.4 **حبة أو** 50.4 **حبة شعير.**

... درهم الكيل تزن ما تزنه 140 **درهم من السكة القرطبية:**

... وزن الدرهم القرطبي عادة هو: 36 **حبة. كما أن:**

... درهم الكيل يزن دائماً: 50 **حبة و**2/5 **حبة شعير متوسطة إذن:**

140 × 36 **حبة** = 100 ×

= 5040

يشرح ابن القطان الدرهم القرطبي الدخلي قائلاً: "إذا زدت عليه خُمسيه، كان كيلاً وإذا أنقصت منه 2/5 **كان دخلاً. ويسمى دخلاً بإدخالك عليه خمسيه الناقصين من الكيل فصار كيلاً بهذه المداخيل".** (Joaquin Valve, op. Cit, El dirham arba ini, duhl. " ,; P. Chalmeta149p.

Acta ,"Qurtubi, andalusi, su valors

.1986Numismatica,

المديوني، الدرحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، م. س، صص. 85 ـ 86.

(8041/1)

، أي أن زنة الدرهم القرطبي ست وثلاثون حبة، فيفضله درهم الكيل بأربع عشرة حبة وخُمسيْ حبة(1). فإذا كان معك من القرطبية مائة وزدت على كل درهم مثل خُمُسيْه، صار ذلك من الأخماس مائتي خُمس أقسمها على خمسة مقام الخمس يخرج لك من الصحاح أربعون، أضفها إلى المائة التي معك وقابل بالمجموع مائة من دراهم الكيل تجدها سواء.

... فصل: إذا أردت معرفة العدد الذي تجب فيه الزكاة من الدراهم المومنية، فاعلم أن ذلك ثلاثة مائة وستون درهماً(2)

---

(1) ... **الدوحة، ص.** 147.

(2) ... **العزفي، ص.** 69: **"الزكاة تجب عندنا من الدراهم الجارية الآن في ثلاث مائة وستين درهماً".**

(8042/1)

. ومبلغ الواجب فيها تسعة دراهم أدنى ربع العشر منها. وبيانه أن الزكاة تجب في مائتي من دراهم الكيل(1) وقد تقدم أن مائة منها تعادل مائة وثمانين مومنية. فالذي يعادل المائتين هو ثلاثمائة وستون بلا شك ووجه آخر هو أنا قد علمت أن كل درهم من دراهم الكيل يزيد على المومني بمثل أربعة أخماسه. فإذا أخذت مائتين مومنية وزدت على كل درهم منها أربعة أخماسه لتعادل به درهم الكيل اجتمع لك من الأخماس ثمانمائة، لأن ضرب أربعة أخماس في مائتين ثمان مائة أقسمها على خمسة

(1) ... أبو عبيد، كتاب الأموال، صص. 392 ـ 393.

(8043/1)

يخرج لك مائة وستون صحاحاً، أضفها إلى المائتين يجتمع لك ثلاث مائة وستون. وذلك عدل مائتي درهم كيلاً. وإن شئت، جمعت حبوب مائتين كيلاً، وذلك عشرة آلاف وثمانون حبة وقابلت بها مجموع حبوب الثلاثمائة والستين المومنية، كانت مثلها. وإن شئت، قسمت ذلك على أيمة ثمان وعشرين التي هي سبعة وأربعة يخرج لك ثلاثمائة وستون. وأما العدد الذي تخرج منه الزكاة من

الدراهم الجارية ببلاد إفريقية في حين التاريخ الذي قُيِّد فيه ما حُقِّق من هذه الأوزان والأكيال في هذا المجموع، وهو عام خمسة وثمانين وستمائة، فإن ذلك ثلاثمائة

(8044/1)

درهم وسبعة وثمانون درهماً وتسعة أجزاء من ثلاثة عشر، لأن كل درهم منها وزنه من حب الشعير المعتدل ست وعشرون. فإذا ضربت خمسين وخُمُسين في مائتين، اجتمع لك عشرة آلاف وثمانون، أقسمها على أيمة ستة وعشرين، وذلك ثلاثة عشر واثنان، يكون الخارج ثلاثمائة وسبعة وثمانين وتسعة أجزاء من ثلاثة عشر. وعلى حسب اعتنائك بتعديل حب الشعير، يكون العدد الذي يعادل الدرهم المذكور مثل الذي ذكرت لك والله الموفق.

... فصل: الدينار الذي تجب الزكوات في عشرين منه هو عدل اثنين وسبعين حبة شعيراً حسبما تقدم تبيينه. فإن أردت معرفة

(8045/1)

ما تجب فيه الزكاة من الدنانير اليوسفية التي وزن كل دينار منها اثنتان وأربعون حبة شعيراً(1)

---

(1) ... إن عيار الدينار الموحدي يختلف عن الدينار المرابطي. فهذا الأخير كان يزن 72 حبة شعير، بينما كان الدينار الموحدي من 42 حبّة. إن الرجوع إلى المعطيات النميّة يؤكد هذه الفكرة (Ben Romdhane, 1979, p. 146**)، ولكن سكوت المصادر التاريخية المعاصرة للموحدين لا يسمح بالوقوف عند الدواعي الحقيقية لهذا النقص من وزن المثقال. فهل هو نقص في المعادن القابلة للسك أو أن الاتساع الكبير للإمبراطورية هو الدافع إلى اختيار دينار من 42 حبة شعير؟ (انظر: محمد الشريف، "تدقيقات جديدة حول المسكوكات الموحدية"، م. س. ص. 50 ـ 51).**

(8046/1)

، ويعدل ذلك من الدراهم المومنية درهم ونصف، وذلك ثلاثة قراريط، وزن كل قيراط أربع عشرة حبة. ويقابل الدينار الشرعي منه دينار واحد وخمسة أسباع دينار؛ فاعلم أنها تجب في أربعة وثلاثين ديناراً يوسفية، وسُبُعيْن دينار منه(1)

(1) ... المواق، ص. 98: "فالزكاة تجب عندنا من الدنانير الجارية الآن في أربعة وثلاثين ديناراً وسُبعيْ دينار. وبيان ذلك أن الدينار الجاري عندنا زنته اثنتان وأربعون حبة، ودينار الزكاة اثنتان وسبعون حبّة، فبينهما ثلاثون حبّة. فدينار وخمسة أسباع الدينار الجاري عندنا بدينار من دنانير الزكاة. والزكاة تجب عندنا من الدراهم الجارية الآن في ثلاث مائة درهم وستين درهماً، لأن وزنه درهم الزكاة خمسون حبّة وخُمسا حبّة، ووزن هذه الدراهم الجارية عندنا ثمان وعشرون حبّة وخُمسا حبة. قدرهم من دراهم الزكاة وزنه درهم وأربعة أخماس درهم من الجارية الآن عندنا" (العزفي، إثبات، ورقة 87ـ88).

(8047/1)

. ويتضح لك ذلك إذا قسمت اثنين وأربعين على سبعة. فإن كل سبع يكون ست حبات. وفي الثلاثين الزائدة في الشرعي على اليوسفي خمسة أسباع، كل سبع من ست حبات. وإن شئت، جمعت حبوب العشرين الشرعية وذلك ألف وأربعمائة وأربعون حبة، وقابلت به حبوب اليوسفية المذكورة فتجدهما سواء، وقسمت ذلك على

اثنين وأربعين عدد حبوب الدينار اليوسفي صح لكما ذكرته. والقدر الواجب في ذلك من الزكاة ستة أسباع دينار يوسفي، وهو ربع العشر من العدد المذكور.

(8048/1)

... وأما من الدينار اليعقوبي(1)

---

(1) ... نسبة لأبي يوسف يعقوب المنصور (580 ـ 595 هـ/ 1184 ـ 1199 م). ويبدو أن الشهرة التي اكتساها الدينار اليعقوبي غطت على ما سواها من الدنانير. بل حتى دور السكة بالقاهرة في هذه الفترة اعتبرت الدنانير اليعقوبية أحسن عملة متداولة في حوض البحر المتوسط (انظر: منصور بن بعرة الذهبي الكاملي، كتاب كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق وتقديم عبد الرحمان فهمي، القاهرة، 1385 هـ/ 1966 م، ص. 43).

... وقد امتاز هذا الدينار بالإضافة إلى وزنه، بارتفاع نسبة الذهب الخالص فيه حيث كانت تتراوح ما بين 98 ٪ و7.98 66 ٪ وأطلق على الدينار اليعقوبي اسم "الدبلون"، أي المضعف. وهذه التسمية غير دقيقة. فهي

توحي بأن "الدبلون" كان يزن ضعف الدينار الشرعي (2×4.25). والواقع أن هذا الدينار كان يزن ضعف الدينار المومني (أو اليوسفي) الذي كان وزنه 2 غراماً تقريباً. (انظر: Ben R. Benhain Mesmoudi, Approche quantitative de l'or monnayé en Occident musulman (450–1058 à 830–1426 9–27, Paris I, Thèse. (1944).

(8049/1)

الذي يعدل كل دينار منها اثنين من اليوسفية(1)

---

(1) ... يفترض الأستاذ خالد بن رمضان ـ بكثير من الحذر ـ أن البتّ في مرجعية وزن الدينار عند الموحدين يرجع لأسباب شرعية... ويربط ذلك بالحظوة التي كانت Les almohades, (op. cit., p. 50–167 Monnaies) للمذهب الظاهري في الدولة الموحدية، وبالأخص لدى أبي يوسف يعقوب الذي كان يضع ابن حزم في أعلى مرتبة بين العلماء. إن ابن حزم يتميز برأي منفرد مفاده أن الوزن الشرعي للدينار هو 84 حبة من الشعير لا 70.72 حبة. ومهما يكن، فإن قرار يعقوب المنصور سك ذلك الدينار الكبير الذي سمي في المصادر "الدينار

اليعقوبي" يدل على مبلغ طموحه إلى أن يكون في مستوي الخلفاء الكبار للدولة الإسلامية، باعثاً لجانب من أمجادها القديمة. (انظر: محمد الشريف، "تدقيقات جديدة..."، م. س، صص. 51 ـ 52).

(8050/1)

، فإن الزكاة تخرج من سبعة عشر ديناراً يعقوبية، وسبع دينار. إلا أنه من القلة بحيث لا يوجد منه نصاب عند أحد اليوم.

... وأما من الدنانير المعروفة بالأميرية الجارية بإفريقية حين التاريخ المذكور، ففي ثمانية عشر [ديناراً]. وبيان ذلك أن في دينارنا الأميري من حب الشعير المتوسط ثمانين حبة. فإذا قسمت ما اجتمع من ضرب عشرين في اثنين وسبعين عدد حبوب الدينار الشرعي وذلك ألف وأربعمائة وأربعون على ثمانية عشرة أيمة الثمانين، خرج لك ثمانية عشر. اضرب هذه الثمانية عشر في ثمانين يخرج لك العدد المقسوم. وربع العشر من

(8051/1)

هذا العدد أقل من نصف دينار منه بشيء يسير. وإخراج النصف منه كاملاً أربح وأصلح إن شاء الله تعالى.

... فصل: أقل الصداق عند مالك ـ رحمه الله ـ محدود بربع دينار من الذهب أو ثلاثة دراهم من الورق(1). فإذا أردت معرفة قدر ذلك بالدراهم المومنية، فقد تقدم أن درهم الكيل يزيد على المومني

---

(1) ... الورق والورْق هي الدراهم المضروبة. ولا يقال... لما عداها من النُّقر والمسبوك والمصوغ ورق ولا رقة وإنما يقال لها فضة. والفضة اسم جامع لهذه الأنواع كلها. ذكر ذلك نقلة اللغة ومفسرو الأغربة، (العزفي، صص. 102 ـ 103).

(8052/1)

أربعة أخماس. فاجمع أربعة أخماس ثلاث مرات تكون اثنا عشر خُمُساً واقسمها على خمسة، يخرج لك اثنا وخُمُسان. أضفها إلى ثلاثة مومنية، يصير الجميع خمسة دراهم وخُمسين. وذلك عدل ثلاثة دراهم كيلا. وقدر ذلك بالدراهم الجارية حين التاريخ عندنا خمسة دراهم وأربعة أخماس درهم بتقريب يسير. وربع الدينار الشرعي يعدل ثلاثة أسباع دينارنا اليوسفي حسبما

تقدم بيانه. وإن شئت، قلت: زنة اليوسفي اثنتان وأربعون حبة كل سبع منها ست حبات. فمجموع ثلاثة أسباع ثمان عشرة حبة. والدينار الشرعي من اثنين وسبعين حبة، ربعها ثمان عشرة

(8053/1)

فتعادلا. ويعدل أيضاً من ربع الدينار الشرعي من دينارنا الأميري الربع بتقريب يسير. وبيانه أن ثمانية عشر التي هي ربع الشرعي تقصر عن عشرين ربع دينار المذكور بحبتين.

... فصل: وإن أردت معرفة قدر الديّة بالدنانير اليوسفية، فاعلم أنها على أهل الذهب ألف دينار شرعية. وتقدم لك أن كل دينار منها يزيد على اليوسفي بثلاثين حبة، وذلك عدل خمسة أسباع اليوسفي. فإذا أخذت ألفاً يوسفية وزدت على كل دينار منها خمسة أسباعه، اجتمع لك خمسة آلاف سبع. اقسمها على سبعة، يخرج لك من الصحاح سبع مائة وأربعة عشر ويبقى من الكسور

(8054/1)

اثنان هما سُبعان. فيكون الذي يعدل ألف دينار شرعية من اليوسفية، ألف دينار وسبعمائة وأربعة عشر وسُبعا دينار. وأما بالمسماة عندنا بالأميرية، فتسعمائة دينار، وذلك بيّن إذا ضربت اثنين وسبعين في ألف وقسمت على ثمانية وعشرة أيمة الثمانين التي هي عدد حبوب الدينار الأميري المذكور.

... وأما قدر الديّة بالدراهم المومنية والجارية عندنا، فقد تقرر أن الديّة على أهل الورق في الشرع إثنا عشر ألفا درهم. وتقدم أن درهم الكيل يزيد على درهمنا المومني أربعة أخماس. فإذا أخذت من المومنية اثنا عشر ألفاً وزدت مع كل درهم

(8055/1)

منها أربعة أخماسه كي يعادل بها درهم الكيل، اجتمع لك من الأخماس ثمانية وأربعون ألفاً اقسمها على مقام الخمس، يخرج لك من الصحاح تسعة آلاف وستمائة. أضفها إلى الاثني عشر ألفاً، يكون الجميع أحد وعشرون ألفاً درهم وستمائة درهم مومنية.

... والديّة من الجارية عندنا ثلاثة وعشرون ألفاً درهم ومائتا درهم وأحد وستون درهماً وسبعة أجزاء من ثلاثة

عشر، هي نصف درهم بتقريب يسير. وهذا على ما قدمت لك أن درهمنا المذكور وزنه ست وعشرون حبة.

(8056/1)

... فصل: الدينار عند مالك ـ رحمه الله ـ على نوعين: نوع للزكاة والجزية وهو من صرف عشرة دراهم شرعية، ونوع ثان للديات والنكاح وهو من صرف اثنا عشر درهماً من الشرعية أيضاً. وقال في "المدونة" : »مضى أن صرف دينار الزكاة عشرة دراهم لقول النبي – صلى الله عليه وسلم – "ليس في أقل من مائتي درهم زكاة. وفي المائتين خمسة دراهم. وفي العشرين نصف دينار". فقرن العشرين ديناراً بمائتي الدرهم فعلم أن الدينار بعشرة دراهم. وذلك سنة ماضية. ولا تقطع يد السارق في أقل من ربع دينار من الذهب. وإن كان ذلك أكثر من ثلاثة دراهم

(8057/1)

ولا في أقل من ثلاثة دراهم كيلاً. وإن كان ذلك أكثر من ربع دينار. ومن سرق ما سوى الفضة والذهب لم يقطع أن

تكن قيمته ثلاثة دراهم. ولا تقوّم السرقة إلا بالدراهم لا بالدنانير. كذلك فعل عثمان ـ رحمة الله عليه ـ في الأترجة، قوّمها بالدراهم فبلغت قيمتها ثلاثة دراهم من صرف اثنا عشر بدينار فقطع يد سارقها». هذا كله مذهب مالك رحمه الله.

... فصل: اعتبار ما قدر به درهم الكيل والمثقال الشرعي بحب الشعير المتوسط هو عمل العلماء قديماً وتبعهم فيه من أراد تحقيق ما رُكِّب من ذلك من [النقود] والمكيلات والموزونات،

(8058/1)

واستعمل الناس بعد ذلك حب القمح. فلا تجد اليوم أحداً من الصاغة وغيرهم يقدر إلا بالقمح. ودرهم الكيل عندهم من أربعة وستين حبة قمحاً لا خلاف بينهم فيه. ومن نوى الخروب ستة عشر نواة معتدلة، وزن كل نواة أربع حبات من القمح، ويسمون هذه النواة خروبة وقيراطاً. وأربعاً وعشرين منها مثقالاً. وذلك ستة وتسعون حبة قمحاً درهم ونصف من درهم الكيل عندهم. وعلى هذا وزن الدينار المسمى بالأميري. والدرهم الجاري اليوم بيننا من ثمانية وعشرين حبة قمحاً. وعلى ذلك ركبوا الأوقية من اثنين وعشرين درهماً وجزء من درهم، هو على

(8059/1)

التحقيق ستة أسباع الدرهم. وهم لا يحققونه، إلا أنهم لا يختلفون أن الأوقية من تلك الدراهم أزيد من اثنين وعشرين، وأقل من ثلاثة وعشرين. كما أنه لا خلاف أن درهم الكيل عندهم وزنه من حب القمح أربع وستون، فيعادله من دراهمنا المذكورة درهمان وثمان حبات. والأصل في وزن الدرهم المومني من اثنين وثلاثين حبة قمحاً. إلا أنه لا يوجد اليوم إلا ما ينقص عن ذلك فاعرف هذا الدرهم المصطلح عليه ودرهم الكيل الأصلي الذي عليه العلماء رحمة الله عليهم يتضح لك السبيل إلى ما تريد معرفة تحقيقه إن شاء الله.

(8060/1)

... فصل: وبتلخيص ما تقدم ذكره من الأعداد والنصب مرسوماً بالوضع المعروف بالروميّ(1) على ما تراه الدرهم الشرعي من حب الشعير (5/ 2 50)، الدرهم المومني من حب الشعير(28). فالدرهم المومني ومثل أربعة أخماسه عدل درهم شرعي. والدرهم الجاري بإفريقية من حب الشعير (26)، الدينار الشرعي (72)، الدينار اليوسفي

الصغير (42) فالدينار اليوسفي

---

(1) ... انظر J. A., Sanchez Péres, « Sobre las cifras Rûmies », Al Andalus, vol. III, 1935–97, pp. 125.

... وقد أعرضنا عن إثبات الأرقام بهذا الرسم لعدم توفر الحاسوب عليها.

(1/8061)

ومثل خمسة أسباعه عدل دينار شرعي. والدينار الأميري من حب الشعير (80).

... الديّة من الذهب بالشرعي ألف دينار. الدية من الدنانير اليوسفية (7/2 1714). الدية من الدنانير الأميرية (900). الدية بالدرهم الشرعي (12000). والدية بالدرهم المومني (21600). والدية بالدراهم الجارية بإفريقية (13/7 23261).

... نصاب الزكوات من الذهب بالشرعي (20) وباليوسفي (7/2 34) باليعقوبية (7/1 17) وبالأميرية الجارية بإفريقية (18). نصاب الزكاة بالدرهم الشرعي (200)، وبالدرهم المومني (360) وبالدرهم الجاري (13/9 387).

(1/8062)

... نصاب النكاح والقطع من الذهب الشرعي ربع دينار، ومن الدينار اليوسفي ثلاثة أسباعه، ومن الدينار الأميري الربع بتقريب، ومن الورق بالشرعي (3 دراهم) ومن الورق بالمومني (5 2/5)؛ ومن الدرهم الجاري بإفريقية (5 4/5).

... الدرهم الذي تسميه الصاغة درهم الكيل وزنه من حب القمح (64) والدرهم الجاري من القمح (28) والدينار الأميري من القمح (96).

... فصل: في تحقيق الأوزان والأكيال الشرعية ونسبة ما عمل بعدها إليها. من ذلك الأوقية: والجمع أواقيّ (بتشديد الياء) [فيها] وأواق تخفيفها في الجمع. وحكى اللحياني وَقية

(8063/1)

(بفتح الواو). وجمعها وقايا. وقال هي لغة قليلة.

... قال أبو عبيد: الأوقية اسم لوزن(1)، مبلغه أربعون درهماً كيلاً والنش نصفها. والنواة زنة خمسة دراهم كيلاً. هذا قول أكثر أهل العلم. وقال أحمد بن حنبل: النواة ثلاثة دراهم وثلث درهم. وقد قيل المراد بها وزن

نواة الثمر من ذهب وعلى قدر هذه الأوقية اعتبر صدقات أزواج النبي – صلى الله عليه وسلم –، كما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها حين سألها أبو سلمة عن ذلك كان صداقه لأزواجه اثنتي عشرة أوقية ونش. ثم قالت له: أتدري ما النش؟ قال:

---

(1) ... في الأَّصل: لون.

(8064/1)

لا. قالت: نصف أوقية. فتلك خمسمائة درهم بخمسة أواق من هذه التي فيها أربعون درهماً مائتا درهم. وذلك نصاب الزكاة. قال القاضي عياض في إكماله(1)

---

(1) ... كتاب "الإكمال" من "أنفس وأعظم الكتب التي ألفها عياض. ولقد أصبح عمدة لدى كل المحدثين، خصوصاً منهم شراح صحيح مسلم وعلى رأسهم الإمام النووي. سمي بـ"الإكمال"، لأنه كمل به شرح شيخه وأستاذه أبي عبد الله محمد بن علي المازري المسمى بـ"المعلم بفوائد مسلم". ويقع الإكمال في عدة مجلدات. ذكر ولد عياض أنه يشتمل 29 مجلداً، وما يزال مخطوطاً بالخزانة العامة

(رقم 560 و4037 و6411) بالرباط وخزانة القرويين والخزانة الملكية".

(8065/1)

: لا يصح أن تكون الأوقية والدراهم مجهولة القدر في زمان النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو يوجب الزكاة في أعداد منها، وتقع بها البيوعات والأنكحة كما جاء في الأحاديث الصحيحة وهذا كله يبين أن قول من ذكر أن الدراهم لم تكن معلومة إلى زمان عبد المالك [وهْمٌ]. وأنه جمعها برأي العلماء وجعل كل عشرة وزن سبعة مثاقيل ووزن الدرهم ستة دوانق درهم، وإنما معنى ما ذكر من ذلك أنه لم يكن منها شيء من ضرب [أهل] الإسلام على صفة لا تختلف. وإنما كانت مجموعة من ضرب فارس والروم، وصغاراً وكباراً وقطع فضة غير مضروبة ولا

(8066/1)

منقوشة [ويمنية ومغربية]، فرأى ردّها إلى ضرب الإسلام ونقشه وتصييرها وزناً [واحداً] لا يختلف وأعياناً يستغنى فيها(1) عن الموازين، [فجمعوا] أكبرها

وأصغرها وضربوه على وزنهم الكيل. ولعله كان الوزن الذي يتعاملون به كيلاً حينئذ بالمجموع. ولهذا سمى كيلاً. وإن كانت قائمة مفردة غير مجموعة، فلا شك أن الدراهم كانت حينئذ معلومة. وإلا فكيف تتعلق بها حقوق الله في الزكاة وغيرها وكانت الأوقية معلومة(2)

---

(1) ... في الأصل: فيهما.

(2) ... التصحيح والزيادات من الريس، 346 ـ 347 نقلاً عن المقريزي. ونجد صدى لهذا الرأي عند ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص. 277.

(8067/1)

.

... فصل: أما الأوقية التي في الرطل العراقي منها اثنتا عشرة، فزنتها عشرة دراهم وثلثان من درهم الكيل. فيكون في ذلك الرطل من الدراهم المذكورة مائة وثمانية وعشرون درهماً. وذلك بين إذا ضربت اثني عشر في عشرة وثلثين. وهذه الأوقية هي على التقريب قدر الأوقية التي في زماننا التي رطلنا منها ستة عشر أوقية. وتحقيقها يوجب أن يكون فيها من دراهمنا المومنية تسعة عشر درهماً وخمس درهم؛ لأن الدراهم

المومني من ثمانية وعشرين حبة شعيراً ودرهم الكيل منه درهم وأربعة أخماس فعشرة دراهم معها أربعون خُمساً، وذلك ثمانية

(1/8068)

صحاحاً فتجتمع لك ثمانية عشر ويبقى ثلثا درهم الكيل الثلث الواحد منه ستة عشر حبة وأربعة أخماس.
فالثلثان ثلاثة وثلاثون حبة وثلاثة أخماس. وذلك من دراهمنا درهم واحد وخمس درهم، أضفه إلى الثمانية عشر يكن الجميع تسعة عشر درهماً وخُمس درهم. فهذا وزنة وقيتنا على التحقيق. ولكن من وجهة النظر السديد أن تكون أوقيتنا بدراهمنا عشرين بزيادة هذا القدر اليسير الذي يوجبه الاحتياط لكون العاجة جرت بنقصها لطول استخدامها في المدة القريبة. هكذا قال أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك وهو ممن حضر لتحقيق ذلك بمراكش. قلت

(1/8069)

والأوقية عندنا اليوم، وقد تقدم ذكر التاريخ، هي من دراهمنا الجارية من اثنين وعشرين درهماً وستة أسباع الدرهم حسبما سبق تبيينه بحول الله سبحانه. وأعلم بعد هذا أن رطلنا الذي هو ستة عشرة أوقية، معادل لرطل وثلث عراقي. إذ هو اثنتا عشرة أوقية. فإذاً مدّ النبي – صلى الله عليه وسلم – برطلنا رطل واحد، لأنه رطل وثلث بالعراقي. فمد النبي – صلى الله عليه وسلم – قدر نصف مد أبي حفص، ومد أبي حفص هو نصف صاع النبي – صلى الله عليه وسلم –. وفي هذا الصاع خمسة أرطال وثلث. وإلى هذا راجع أبو يوسف القاضي(1)

---

(1) ... أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي: صاحب أبو حنيفة، توفي سنة 218 هـ (الوفيات، ج 5، ص. 421).

(8070/1)

حين ناظره مالك رحمه الله بين يدي الرشيد. وقد كان يقول إن في الصاع ثمانية أرطال. والصحيح في ذلك ما عليه أهل الحجاز(1). وقد اختلف في مائة بوزن المد الذي وزنه رطل وثلث. فقيل بالماء، وقيل بالبر المتوسط ويسع مد أبي حفص من وسط حب الشعير ما زنته رطلان برطلنا الذي هو ستة عشر أوقية. وقال أبو محمد بن أبي

زيد ـ رحمه الله ـ قد عُبّر المد في غير ما بلد وغير ما زمان فاختلف في ذلك على حسب اختلاف الموازين. فلم أجد لها عياراً أقوى ولا أصح أن يعرف ولا يختلف في زمان

(1) ... انظر: الداودي، كتاب الأموال، ص. 149.

(8071/1)

ولا بلد زادت الموازين أو نقصت من أن الصاع أربع حفنات بكف الرجل الذي ليس عظيم الكفين(1) ولا صغيرهما. إذ ليس كل مكان يوجد فيه صاع النبي – صلى الله عليه وسلم –. وذكره غيره عن عبد المالك بن حبيب أنه صح عنده أن مدي النبي حفنة باليدين جمعياً من كفي(2) وسط الرجال وذكر مثل قول ابن أبي زيد سواء.

... فصل: بالمغرب صاع هو أربعة أمداد من مد أبي حفص يسمى في مراكش السطل. وعندهم صحفة فيها ثلاثة أصوع من هذا الصاع، وذلك اثني عشر مداً من مد أبي حفص، وعشر صحاف

(1) ... في الأصل: الكفتين.

(2) ... في الأصل: كيفى.

(8072/1)

من هذه هو المدي، وذلك مائة وعشرون مدّاً منه. ويقال القفيز أيضاً. وبإفريقية مد يعرف بالقروي [و] هو قدر ثلثي الحفصي بتقريب، وعلى التحقيق يكون مد قروي ومثل ستة أعشاره عدل مدّ واحد حفصي، واثنا عشر مداً من هذا القروي هي الويبة. وستة عشر من هذه الويبات هو القفيز. والمدي أيضاً وفيه من الأمداد القروية مائة وإثنان وتسعون، وذلك عدل مائة وعشرين مداً حفصية. وهذا هو قدر الوسق الشرعي. ففي خمسة أقفزة من هذه تجب الزكاة. بيان ذلك أن الزكاة واجبة في خمسة أوسق. والوسق بلا خلاف ستون صاعاً بصاع النبي – صلى الله عليه

(8073/1)

وسلم –، وتقدم لك أنه مثلاً مد أبي حفص فخمسة أمداد مثل خمسة أوسق سواء ثلاثمائة صاع شرعية التي هي ألف مد ومد بمده – صلى الله عليه وسلم –، وهو عدل مائة مدّ [حفصية].

... [والوسق] من قولك وهو يجوز فيها الفتح والكسر. قالوا هو حمل بعير، وقيل هو الحمل عامة. ومنه وسق

النخلة، أي وقرها. وفي الوسق من الأرطال على ما تقرر أن كل صاع خمسة أرطال وثلث ثلاثمائة رطل وعشرون رطلاً، وذلك مائة وستون مناً؛ لأن المن مقداره عندهم رطلان، وهو اسم لصنجة يوزن بها، جمعه آمنا بالمد والواحد مقصور. ويقال أيضاً منّ (بالتشديد).

(8074/1)

والجمع أمنان. ذكروا أنها لغة بني تميم.

... والقنطار اسم لجملة من المال. جاء في التفسير أنه ملء مسك ثور ذهباً. وقال معاذ هو ثمانون ألفاً. ويروى عنه أنه قال إنه ألف ومائة أوقية. وعن غيره هو سبعون ألف دينار. وقال الجواليقي وغيره: القنطار مائة رطل.

... والبُهار (بضم الباء) ثلاثمائة رطل. قال أبو عبيد: أرى هذه الكلمة قبطية عربتها العرب. وقال الفراء [والأزهري البُهار]. وهو ما يحمل على البعير بلغة أهل الشام، عربي صحيح. وفي حديث عمرو بن العاص أن ابن الصعبة، يعني طلحة بن عبد الله، ترك مائة بُهار في كل

(8075/1)

بُهار ثلاثة قناطير ذهباً وفضة.

... والكرّ (بالضم) ستون قفيزاً بالعراقي، وأربعون إردباً بالمصري. والإردب ست ويبات. والقفيز ثمانية مكاكي. والمكوك صاع ونصف وهو ثلاث كيلجات. فيكون الكرّ على هذا اثني عشر وسقاً كل وسق كما تقدم. والكر بفتح الراء وسكونها. والفتح فيه [أكثر] وأفصح. قيل هو اثنا عشر مداً. وقال أبو الهيثم(1) هو إناء يأخذ ستة عشر رطلاً التي هي ستة أقساط، لأن القسط رطلان وثلثان لا خلاف عندهم فيه، وذلك نصف

---

(1) ... أبو الهيثم مالك بن التيهان الأنصاري: صحابي، ت 20 هـ (الأعلام، ج 5، ص. 258).

(8076/1)

صاع لأن الصاع خمسة أرطال وثلث. وهو، أعني الصاع، ثلث الفرق.

... والويبة أربعة وعشرون مداً. والمكوك نصفها.

والأمداد الشرعية ثلاثة: مد النبي – صلى الله عليه وسلم – للزكوات والكفارات. والثاني مد مروان بن الحكم للنفقات خاصة، وفيه مدّ وثلث

بمد النبي – صلى الله عليه وسلم –، وقيل مدّ وربع.

والثالث مدّ هشام بن إسماعيل المخزومي(1)

---

(1) ... مد هشام الحادث الذي أخذ به أهل المدينة في كفارة الظهار لتغليظها على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم إنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً. ومد هشام أكبر من مد النبي – صلى الله عليه وسلم – بثلثي مد. (العزفي، ص. 24 ـ –25).

(8077/1)

لكفارات الظهار خاصة. وفيه مدان إلا ثلثاً. قاله ابن القاسم(1) في المدونة. وذكر البغداديون عن مدّ ابن عيسى أنه مدان بمدّ النبي – صلى الله عليه وسلم –. وقال ابن حبيب هو مدّ وثلث. وكان هشام بن إسماعيل أمير المدينة(2) في خلافة هشام بن عبد الملك فكانت [المرأة] (3) تسأله أن يفرض لها النفقة على بعلها فكان

---

(1) ... أبو عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن خالد العتقي: تلميذ مالك، ت. 191 هـ (الأعلام، ص. 323).

(2) ... في الأَّصل: المدونة. والتصحيح من عند العزفي (ص.

.(53

(3) ... في الأَصل: المسألة.

(8078/1)

يستقل أن يفرض لها مدّاً في كل يوم بمدّ النبي – صلى الله عليه وسلم –، فرأى أن يزيدها على المد ثلث مدّ، فجمعه وجعله مدّاً واحداً. فيه مد وثلث. قال واستحسنه مالك رحمه الله. حكى ذلك ابن حبيب. وقال أتينا على ما تيسر لنا تبيينه من ذلك والحمد لله حق حمده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

... كان يوم الأحد 7 شعبان المبارك عام 907 للهجرة المحمدية. ونختم بالصلاة على سيدنا محمد خاتم النبيين ونتوضأ على آله وصحبه الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً مؤبداً.

(8079/1)

تكهنات بشأن حضور عربي في أمريكا

الأستاذ محمد العربي المساري

الربا ط – المغرب

كتب محمد عزيزة، المسرحي التونسي المعروف ، قصة بعنوان "العالم الجديد" صاغها في شكل مذكرات سفر، على غرار تلك التي كتبها كريصطوبال كولون (*)، و جعلها على لسان أميرال ، قاد نحو القارة الأمريكية رحلة جرت في 1442، أي خمسين سنة قبل رحلة كولون . وفي هذه المذكرات نجد الأميرال مقتنعا، نتيجة لما قرأه في الكتب العربية، بأن المحيط يشتمل على جزر عديدة بل و"حتى على قارة شاسعة وعميقة". وصحب الأميرال في تلك الرحلة رجل عربي اسمه جابر

(8080/1)

يصفه بأنه "أكبر عالم جغرافي في وقته ". وكان هو مساعده الأول في تلك الرحلة. وكان جابر يصطحب دائما بوصلته ، وأسطرلابه ، وعدة أدوات لا بد منها. ويقول الأميرال إنه كثيرا ما كان يهتدي بإيضاحاته الثمينة (أي العربي جابر).

ويرمز وجود هذه الشخصية في الرواية إلى تلك الحصيلة الهامة من المعارف التي تكونت للعرب من خلال البيروني ، وياقوت ، والإدريسي ، والمسعودي ، وابن بطوطة، وابن حوقل ، وعلماء عرب آخرون ، تمثلت فيهم

خلاصة المعرفة العربية في الخرائط والملاحة البحرية، والفلك أي قمة ما كان في متناول البشرية إذ

(8081/1)

ذاك.

(*) مكتشف القارة الأمريكية، المعروف في النصوص المشرقية بكريستوفر كولومبوس، نقلا عن النطق الإنجليزي . أما نحن ، فنعتمد على النطق الإسباني .

و لعل محمد عزيزة قد أراد، بإلحاحه على ما سبق ، أن يوحي إلينا بأن العلم العربي هو الذي مهد بكيفية مباشرة لرحلة كولون الاستكشافية، وبالتالي فإنه إذا لم يكن العرب هم الذين أنجزوا اكتشاف أمريكا، فإن المسألة ترجع إلى سوء الحظ أو إلى مزيج من الظروف المعاكسة التي أدت إلى حرمانهم من مكافأة كانوا يستحقونها نظرا لمعارفهم ومركزهم وقدرتهم . بعبارة أخرى، كان يجب

(8082/1)

أن يكون العرب هم الذين يكتشفون العالم الجديد.
لكن هناك من يقول إن العرب لم يكونوا غائبين عن الحدث ، وهناك من يضيف أن العرب وصلوا فعلا إلى أمريكا قبل كولون . وبالطبع كتب أدب غزير عن التأثير المباشر وغير المباشر للعرب في صياغة أمريكا ما بعد كولون في الثقافة والمعمار والإدارة، إلخ . وقد ظهرت تكهنات عديدة في هذا السياق ، بانتظام ، في محافل علمية عربية وغير عربية .
في 1991 نشر في لبنان كتاب بعنوان "الفينقيون وأمريكا، فصول شغلت العالم ، لعبد الله الحلو، دار كله حول فكرة رئيسية مؤداها أن الفينقيين

(8083/1)

اتصلوا بأمريكا قبل كولون .و تابع المؤلف ، فيما يبدو(1) الجدل الذي قام حول آثار اكتشفت في ولاية باريايبا في البرازيل ، وفي نيويورك ، وفي أمريكا الوسطى. ويتعرض المؤلف لأبحاث أنجزها علماء ألمانيون وأمريكيون حول تلك الآثار. ويذكر أنها تتوافق مع ما أورده زيليا نوطال في كتابه "المبادئ الأساسية لحضارات العالم القديم والجديد" المنشور في 1901 حيث يقول : "إن الدور الذي قام به الفينقيون في نقل

الحضارة القديمة كان أكبر مما كنا نتوقع ، ويجب أن تكون أمريكا قد استعمرت خلال فترات منقطعة من قبل وسطاء مسافرين

(8084/1)

أتوا من البحر المتوسط ".

والآثار التي أثارت هذا الجدل منذ القرن الماضي هي تمثال اكتشف في نيويورك في 1869**، ونص مكتوب بالفينيقية اكتشف في ياريابيا (البرازيل) في** 1873**. وقد تجدد فضول الباحثين بشأن الآثار المذكورة في منتصف الستينات من هذا القرن ، ثم انبعث الآن .**

ففي 1968 **انبرى الأمريكي سيروس غوردن ليؤكد أن نص ياريابيا، المنقوش في صخرة هو بالفعل مكتوب بالفينيقية.**

(1) **مقال في الشرق الأوسط** 29/8/1991

وجاء باحث مكسيكي هو خوصي إيبزاير لامارنيا(2)

ليردد بدوره ، وذلك في مقال بجريدة "اكسيلسيور" المكسيكية

(8085/1)

(91-12-2) : إن الفينيقيين عرفوا أمريكا قبل كولون ، وإنهم مثله وصلوا إليها بطريق الصدفة . وقد ظلوا فيها بعض الوقت ثم قفلوا عائدين . وقبل رحلة العودة، أمر رئيسهم أحد الكتاب بأن ينقش على حجر العبارات التالية :

"نحن أبناء كنعان من صيدا، مدينة الملك، التجارة جاءت بنا إلى هذا الساحل النائي من أرض الجبال . لقد ركبنا البحر في البحر الأحمر، وأبحرنا في عشر سفن ، ومكثنا في البحر مدة سنتين ندور حول أرض حام إفريقيا. إلا أننا فرقنا على يد بعل بواسطة عاصفة، فافترقنا عن أصدقائنا. وهكذا وصلنا إلى هنا 12 رجلا و3

(8086/1)

نساء".

ويقول الباحث المكسيكي إن هيرودوت قد تحدث عن مغامرة قام بها فريق من الفينيقيين برئاسة أمير البحر كودمو، مؤسس أثينا، وإن هؤلاء ركبوا في عشرة مراكب ، وإن العاصفة ذهبت بهم بعيدا.

وهذه اللوحة الحجرية لم تعترف بها الأكاديمية البرازيلية لشكها في أن تكون مكتوبة بالفينيقية. غير أن سيروس غوردن المتقدم الذكر قال إن المخطوطات التي اكتشفت في البحر الأحمر تمكننا، بمقارنتها مع صخرة البرازيل ، من أن نتبين أن الأسلوب متشابه ، وأن الأكاديمية البرازيلية حينما شكت في أمرها لم تكن في 1872 متمكنة من أداة

(8087/1)

المقارنة.

هذا وكان الدكتور عبد الهادي التازي الذي طالما طرح السؤال وقلب مختلف الآراء عن سوابق مغربية في أمريكا، قد وافاني بقصد التحقيق ، بالنص المنقوش في اللوحة الحجرية المذكورة كما نشره الأستاذ أحمد توفيق المدني الذي ذكر أن تلك اللوحة تحمل تاريخ 125 قبل الميلاد. وقد دون الأستاذ المدني بالحروف العربية منطوق المفردات الفينيقية ولاحظ وجود تشابه كبير بين العربية ومفردات تلك اللوحة الحجرية، ولم يذكر ما إذا كان هذا النص مضمنا في اللوحة الحجرية التي عثر عليها في

(2) **الشرق الأوسط**، 21/1/1992

(8088/1)

يارياييا (في الشمال الشرقي للبرازيل) أم تلك التي عثر عليها في غافيا، أحد مرتفعات مدينة ريو دو جانيرو. ولكن اشتهر أن ينسب النص المذكور إلى لوحة غافيا.

وفيما يلي نبذة عن لوحة غافيا، استقيها من مقال نشره Gustavo Barroco **في مجلة** (3Etapas).

تم في الدورة الثامنة الاستثنائية للمعهد التاريخي والجغرافي التي انعقدت في 23/3/1839 **عرض مسألة اللوحة الحجرية التي تم العثور عليها في ضواحي ريو دو جانيرو، باعتبار أنها تتضمن كتابة بالفينيقية.**

وعين المعهد لجنة لفحص اللوحة المذكورة، و توجهت اللجنة إلى عين المكان

(8089/1)

وعاينتها ونسخت ما هو منقوش فيها، وأبلغت المعهد تقريرا يتضمن وصفا دقيقا للوحة ومكان العثور عليها. وسجلت اللجنة ثلاث ملاحظات ، منها أنه كما دفعت الرياح سفينة كابرال(مكتشف البرازيل) إلى الساحل الأمريكي، فإنه جائز أن تكون شعوب قديمة، مدفوعة بالحرص على توسيع التجارة، قد وصلت إلى بلادنا وتركت هذا النقش . ومن جهة أخرى، لاحظت اللجنة أن الأشكال التي تتضمنها اللوحة لا تشبه الأشكال التى تستعملها شعوب العالم القديم . إلا أنها لاحظت أن تلك النقوش لا تشبه الكتابة الفينيقية أو الكنعانية أو القرطاجية أو

(8090/1)

اليونانية، وأن تلك الأشكال ربما تكون من فعل التعرية الطبيعية، وأن مثل تلك الأشكال حفرتها الرياح في صخور أخرى توجد في نفس المكان .

هذا، وقد نشرت مجلة Libras، وهى نشرة عربية تصدر في صاو باولو في عدة أعداد منها من 1986 إلى 1990 صورا ومقالات عن اللوحة الحجرية المشار إليها، استنادا إلى الأعمال التي قام بها (Bernardo Azevedo de lima ramosالمعروف بتشامبوليون البرازيلي، لأنه فك رموز

اللوحة المذكورة)، وخرج منها جازما بأنها فينيقية.

ولهذا العالم البرازيلي كتاب عن النقوش ما قبل التاريخية في البرازيل(4).

(8091/1)

ولا يضيف ما نشرته "ليبراس " شيئا حاسما، وإنما يدور حول الأصل الفينيقي للنص المنقوش على اللوحة الحجرية .

(3) Ano 12/339Etapas,Sao paulo,n°.
1985.Maio/junho 31
Inscipçoes et tradiçoes de America
(4prehistorica.)

ووقفت في مكتبة جامعة برزيليا على تقرير مركز عن المنقوشات الصخرية في البرازيل (5) نشر في 1924، هو حصيلة تمحيص للمعلومات المتوفرة عن صخريات الشمال الشرقي للبرازيل . وينص هذا التقرير الذي تغلب عليه الصرامة العلمية على أن ما نسب إلى أمم شرقية شتى (فينيقيين ، يهود، يونان ، إلخ) ليس سوى آثار

(8092/1)

لأمم قديمة عمرت البلاد قبل الاكتشاف ، وهي في الأغلب نتيجة أعمال عدة أجيال من الأمم الأهلية . وفي ص . 51 يقول هذا التقرير : "ليس هناك شيء حاسم بالنسبة لرحلات قام بها فينيقيون ويهود أو يونانيون إلى البرازيل ، ولا عن مجيء سكان الأطلانطيدا الأسطورية. فكل هذا يجب أن يعتبر ثمرة خالصة للتخيل ،)(*).

وهذا الإلحاح على السوابق الفينيقية يكتسي أهمية كبرى من جانبين الأول هو القول بأنه إذا كانت الصدفة هي التي أدت بالأوربيين إلى اكتشاف أمريكا، فإنه لا يستبعد منطقيا أن يكون الفينيقيون قد توغلوا في المحيط وهم

(8093/1)

المعروفون بارتيادهم الإرادي للموانئ في كل المعمور.

والجانب الثاني هو أنه إذا سلمنا بفرضية وصول الفينيقيين إلى أمريكا، فلا يبقى مبرر لكي نستبعد قيام أحفادهم العرب بنفس المسعى.

أما لويس فلسطين ، فقد تناول في مقال له نشر في مجلة "القلم " (calamo) التي كان يصدرها المعهد

العربي الإسباني للثقافة، افتراضا بإمكانية وصول العرب إلى أمريكا قبل كولون (6). وينسب إلى كتب عربية محفوظة في الأسكوريال أن عرب الأندلس عرفوا السواحل الأمريكية قبل 1492 . "فهم كانوا يأخذون بكروية الأرض ". ويستند إلى مخطوط عربي للإشارة

(8094/1)

إلى بحار اسمه "خشخاش البحري " ركب

(5) Inscripçoes rupestres no brasil.luciano Jacques de Moraes

(*) إن فكرة الوجود الفينيقي في أمريكا قبل كولون تثير حماسا كبيرا. وقد تشكلت في لبنان لجنة لتحضير احتفالات عالمية بذكرى وصول الفينيقيين والعرب إلى القارة ونزولهم بها. ونشرت مجلة "الصياد" اللبنانية تحقيقا موسعا في العدد الصادر في 20/10/1995حول الاقتراح الذي قدم إلى الحكومة اللبنانية بشأن الاحتفال المذكور. ونشرت المجلة في 2/2/1996 نبذة عن الموضوع للدكتور إلياس القطار رئيس قسم التاريخ بالجامعة

(8095/1)

اللبنانية تناول فيها المتناقضات التي تكتنف الفرضية الفينيقية . وفي نفس المجلة عدد 26/4/1996 والذي بعده نشر رد طويل للدكتور يوسف مروة باسم اللجنة المذكورة آنفا جزم فيها بأن الفينيقيين وصلوا إلى أمريكا قبل كولون .

(6) 1986,julio 10calamo,n°

من لشبونة سفينة شقت به عباب "بحر الظلمات " في سنة 850في اتجاه الجنوب ، حيث اكتشف جزيرة يسكنها بشر عاد منها بهدايا لعبد الرحمن الثاني ، واستمر في مغامراته البحرية إلى أن لقي حتفه في صدام مع الفيكينغ .

(8096/1)

ويذكر ل . فلسطين أن هناك إشارة ثانية إلى رحلة قام بها بحارة مغاربة في القرن العاشر لم يعرف شيء عنهم بعد أن توغلوا في المحيط الأطلسي . ثم يشير إلى مغامرة "الفتية المغررين " التي يتعرض لها المسعودي والإدريسي . وكان المغررون – وعددهم ثمانية –قد

ركبوا من لشبونة في اقتفاء آثار من سبقوهم ممن لم يعرف شيء عن مصيرهم. لكن المغررين وصلوا إلى جزيرة تعرفوا فيها على شخص واحد بقي على قيد الحياة من جماعة خرجت من لشبونة قبلهم. وعاد المغررون إلى لشبونة واستقبلوا بحفاوة وأطلق اسمهم على شارع تخليدا لمغامرتهم.

(8097/1)

ونقل ل. فلسطين ما قاله الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله من أن كولون عاد من أمريكا بكمية من الذهب مسبوكا بنفس النسب التي كان يعتمدها العرب. ومن جهة أخرى. فإن الأب أنسطاس الكرملي كتب مستدلا على وجود العرب في أمريكا قبل كولون بتداول كلمات عربية لتسمية بعض الظواهر مثل الطوفان والموسمية، كما يذكر ل. فلسطين خريطة الزيات المتوفى سنة 1198 وفيها تظهر أجزاء مأهولة في المحيط الأطلسي، وهي الخريطة التي نشرها خوان فارطيط من جامعة برشلونة.

(8098/1)

ويذكر لويس فلسطين أيضا خريطة للأميرال التركي بيري رايس المتوفى 1513 والذي ترك خريطة تتضمن بيانات وتفاصيل – قال ل . فلسطين – لم يكن كولون يعرفها. والواقع أن الأميرال التركي لم يتوف في تلك السنة، بل إنه قدم خريطته للملك سليم الأول سنة 1517 وهو في مصر.

وهذه الخريطة وقفت عليها شخصيا في المتحف البحري من ريو دو جانيروا، وهى مكتوبة بالحروف العربية التي كان يستعملها الأتراك حينئذ. و تتضمن فعلا بيانات عن سواحل تقع إلى الجنوب من المنطقة التي عرفها كولون ، وهى بالذات السواحل الشرقية الشمالية للبرازيل .

(8099/1)

ولابد من القول إن هذه الخريطة أنجزت حتما بعد وصول كابرال إلى البرازيل في 1500، وبالتالي بعد رحلتي كولون . ولم يزد الأميرال

التركي على أن دون في خريطة المعطيات التي أفرزتها رحلتا كولون وكابرال ، خاصة وأن أسماء المواقع واردة

فيها باللسان البرتغالي ، أي نفس الأسماء التي أعطاها البرتغاليون للمواقع التي اكتشفوها، وهي أسماء القديسين المسيحيين . ووقع الأميرال بيري رايس في خطإ حينما سمى ريو دو جانيرو (سان ريو) على غرار سان سالفاضور وغيرها من المدن المسبوقة بكلمة "سان " ومعناها "قديس ". فهذه الخريطة

(8100/1)

إذن ليست سابقة لعهد كولون . بل إن بيري رايس يذكر أنه استفاد من خريطة كولون وأخرى برتغالية كما نجد في كتاب عن خريطة رايس ألفه المؤرخ التركي يوسف أقصورة. وقد نشر في اسطمبول سنة 1985.

وفي بحث أمريكي عربته مجلة "البحث العلمي "(7) المغربية ترد تكهنات مركزة بشأن حضور مجموعة مغربية مسيحية في القرن الثامن الميلادي بأمريكا الشمالية . وجاء في ذلك البحث أن هؤلاء أقاموا في ما يسمى اليوم بولاية كونيكتيكوت. وأيضا يتعلق الأمر بنقوش على الصخر فحصت لمدة عامين أدت إلى الظن بأن مجموعة من المسيحيين الأوائل هربوا

(8101/1)

من الاضطهاد ووصلوا إلى المغرب ، وأنه حينما هجم الواندال على المنطقة أبحر أفراد من هذه المجموعة إلى الطرف الآخر من المحيط الأطلسي بحكم أن الريح يسرت لهم العبور. وتحكى نقوش على الصخر وجدت بواحة في فكيك بالمغرب قصة هذه الطائفة التي أفلتت من الواندال و كيف أنها اتجهت "نحو مغرب الشمس" وهو ما تدل عليه نقوش كونيكتيكوت .

شغلت مسألة تعرف العرب على أمريكا قبل كولون الباحثين العرب بإلحاح ، وأورد الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله في بحث له نشر في 1985(8) عن الأسطول المغربي ما ذكره توفيق المدني – مما تقدم

(8102/1)

ذكره – عن "الرخامة البرازيلية"، وأشار إلى كتاب عن وصول الفينيقيين إلى كولومبيا لإبراهم هاجر صدر في أخنتينا (مجلة المعرفة، عدد10، دمشق). وذكر أن ابن الوردي سجل في جغرافيته أنه يوجد وراء الجزر الخالدات

جزائر عظيمة وصفها وصفا ينطبق على بلاد أمريكا.

وعاش ابن الوردي في القرن الرابع عشر (عبد القادر المغربي ، محاضرات الجمع العلمي ، دمشق ،

(7) عدد 32 **سنة** 17، **نوفمبر** 1981

(8) المناهل ، العدد 32، **س** 12، **مارس** 1985 .

(8103/1)

ج .م .،ص .33). **ويضيف الأستاذ بن عبد الله أن ابن عربي لاحظ أن وراء المحيط الأطلسي أمما من بني أدم وعمرانا. وقد عاش ابن عربي قبل كوأءت بثلاثة قرون . وتحدث صاحب "مسالك الأبصار" نقلا عن شيخه الأصفهاني ، قبل كولون بخمسين سنة، عن احتمال وجود أرض وراء المحيط ، وتساءل الأستاذ بن عبد الله مسايرا لتوفيق المدني : "وهل يرجع اسم "برازيل " إلى اسم القبيلة البربرية المسيلية "بني برزل " أو "البرازلة" الذين هاجروا من الجزائر في القرن العاشر الميلادي إلى الأندلس ومنه أيام ملوك الطوائف إلى أمريكا ؟**

(8104/1)

إن ما يقوله البرازيليون عن أنفسهم هم أن اسم بلادهم مشتق من "ياوبرازيل ". وهو خشب كان يستعمل للصباغة اشتهرت به بلادهم .

لكن السيد أنطونيوليتي بيصوا، وهو باحث برازيلي عضو في أكاديمية بياوى، ألف كتابين ليثبت أن اسم البرازيل عربي و أن الكلمة محرفة عن "برالج ابن " التي قال إنها اسم أمير مغربي قام برحلتين إلى البرازيل في 705 م و719 م ، وينسب الباحث المذكور لهذ الرجل (برالج ابن) أعمالا قام بما فيما بين 695م و742م تختلط فيها ملامح كل من موسى بن نصير وعبد الرحمن الداخل على ما بين الرجلين من تباعد.

(8105/1)

ويورد كلاما عن أحداث وقعت طيلة حوالي مائتي سنة يضغطها جميعا ليطنب في مناقب الحاكم المغربي المزعوم الذي يذكر بصيغة القطع أنه قام برحلتين إلى البرازيل دون أن يذكر مصدرا لروايته تلك. ولما دخلت معه في سلسلة مراسلات مستفسرا وموضحا بعض التناقضات الواردة في كتابه ، لم أخرج بنتيجة تدلني على أن العمل ليس مجرد تمرين طريف لتشغيل الخيال .

وكان الثمن الذي أديته هو تعب في عملية معقدة

لاستقصاء كل حدث أتى على ذكره منسوبا للقائد "برالج ابن "، وعملت على إرجاعه إلى سياقه في التاريخ ، كما حدث ، ومتى حدث فعلا،

(8106/1)

وليس كما ذكره السيد بصيوا الذي شاب كلامه كثير من الخلط.

وفي البرازيل بالذات وجدت لدى الرعيل الأول من أدباء المهجر ولعا دفينا بالتساؤل عما إذا كان العرب قد وطئوا الأمريكتين قبلهم وقبل كولون وكابرال . وفي هذا السياق تدخل مقالة منشورة في مجلة "العصبة" الشهيرة، عام 1910 للدكتور رزق خوري .

(9) ع 2 ، س 1، فبراير 1935 .

ولم يفت هذا العالم أن يبدأ من حيث يبدأ جميع من دار ولف حول هذا الموضوع ، وهو أن النهضة الأوروبية قامت على أنقاض المدنية العربية التي أخذ منها الأوروبيون . ثم يمضي فورا إلى الجزم بأن

(8107/1)

العرب هم الذين اكتشفوا البرازيل . ويعتبر ذلك من الحقائق التي طمسها الأوروبيون . وينطلق الدكتور خوري في معتقده هذا من أن ضوم مانويل الأول ملك البرتغال كان قد جهز عام 1500 أسطولا مؤلفا من عشر سفن كبيرة فضلا عن غيرها من السفن التجارية، وزودها بما تحتاج إليه لثمانية عشر شهرا وسلم قيادتها لأمير البحر بيدور الفاريس كابرال ، وأرسلها إلى الهند عن طريق الشاطئ الإفريقي وهو الطريق الذي سلكه فاسكو دي غاما. وحدث أن تقاذفت الرياح والأمواج هذا الأسطول إلى الشواطئ البرازيلية بعد44يوما. لكن المؤرخ البرازيلي

(8108/1)

روشا بومبو يكذب أمر اكتشاف البرازيل بالصدفة، بل يقول إن موكب كابرل اتجه في منتصف أبريل (مغادرة البرتغال كانت في 9 مارس) إلى عرض البحر وكان في الدرجة 17، بعيدا عن الشاطئ الإفريقي ب 300 ميل . ومن ثم سار نحو الجنوب على خط مستقيم كأنه يقصد نقطة معينة. وحينما وصل إلى الشاطئ، رفع الصليب وأقام

نصبا يرمز إلى التاج البرتغالي . وترك المكتشفون الأرض الجديدة ذاهبين إلى الهند، دون أقل دهشة، فكأنهم قاموا بأمر منتظر. وعن وصول السفينة التي حملت الخبر إلى لشبونة لم يكن رد الفعل هو الاندهاش ، بل إبلاغ الدول

(8109/1)

الأوروبية أن البرتغاليين اكتشفوا جزيرة في عرض الأوقيانوس. وهذا ما يؤكده البحاثة البرتغالي ريكار دو سيفيرو الذي يقول إن كابرال أخذ طريقه عملا بتعليمات سرية من الملك، وقام برحلته دونما عطب . ويذكر المؤرخ البرازيلي فيرياتو كواريا أن كابرال صحب معه 1200 ملاح و 300من الأشراف والكهنة والتجار والتراجمة والجنود والمغامرين وربابنة عربا سبق أن قادوا فاسكو دي غاما من مالندي إلى كاليكوتا. ثم إن كابرال قائد هذا الأسطول لم يكن قد مخر عباب البحر من قبل. وقد قام بأطول رحلة حتى ذلك الوقت دون أن يعرف أسرار

(8110/1)

الملاحة.

وبعد أن يعرض الدكتور خوري هذه البيانات ، يستنتج أن البرتغاليين إنما اعتمدوا على الربابنة العرب الذين كانوا من خدمتهم بـ حد أن عملوا مع فاسكو دي غاما.

ومن أبرزهم شهاب الدين أحمد بن ماجد، الذي ظلت تعاليمه سارية حتى

القرن التاسع عشر، وبالتالي فإن اكتشاف البرازيل لم يكن صدفة بل أمرا مؤكدا، سره عند الربابنة العرب الذين عرفوا البرازيل بأنفسهم أو سمعوا عنها من رفاقهم ، ثم يتساءل : إذا كان أسطول كابرال قد ضل الطريق بسبب العواصف ، فكيف اهتدى إلى إرسال إحدى السفن عائدة رأسا إلى البرتغال لتحمل

(8111/1)

البشرى ؟ وما السر في أن رحلة كابرال دامت 44 يوما ورحلة كولون قبله 68 يوما ؟ ويتساءل الكاتب أيضا : لماذا وقد عرف العرب أمريكا قبل كولون وكابرال ، لم يستقروا بها ويعلنوها مفتوحة ؟ ويجيب بأن السبب هو أنهم كانوا يغزون البلدان المتحضرة العامرة والقريبة، وأنهم لم يكترثوا بالأرض الجديدة وعادوا أدراجهم.

ويذكر هذا الكاتب ما رواه الإدريسي في "نزهة المشتاق " عن الفتية المغررين ، وما ذكر عن السلطان محمد قاو ملك السودان الغربي الذي أرسل تباعا أسطولين للتوغل في المحيط الأطلسي. غير أن من فصل القول في هذا هو

(8112/1)

الأستاذ المهدي البرجالي الذي كتب عدة مقالات عما وراء المحيط الأطلسي أورد فيها بيانات وملاحظات طريفة مؤداها أن المحيط الأطلسي لم يكن مجالا مجهولا كما دلت على ذلك تجربة "رع " التي تمت في أواخر الستينات انطلاقا من مدينة آسفي بالمغرب .

ويورد البرجالي قصة السلطان محمد بن قو ملك مالي القديمة الذي تذكر المصادر الإفريقية أنه قام برحلة في الأطلس غربا في أسطول كثيف . وقد تحدث عنه خلفه السلطان منسى موسى (10) لدى توقفه بمصر في طريقه للحج . وقد نقل عنه القلقشندي في "صبح الأعشى" إن سلفه جهز أسطولا في مائة

(8113/1)

سفينة ضاعت جميعها إلا واحدة روى قائدها لدى عودته ، الأهوال التي صادفها الأسطول . فتجهز السلطان بنفسه ليعلم الحقيقة، وكان ذلك آخر العهد به وبمن معه . ويستنتج الكاتب أنه إما أن الأسطولين لم يصادفا طقسا ملائما مثل الذي أتاح رحلة العودة للفتية المغررين ، وإما أنهما توغلا إلى حد لم يتجاوزه المغامرون الذين توجهوا إلى الأصور والخالدات وقفلوا راجعين إلى لشبونة. يشير الكاتب في مقاله عن رحلة الفتية المغررين إلى أن بعضهم ذهب به الاعتقاد إلى احتمال كونهم أدركوا منطقة الأنتيل وحلوا بجزيرة

(8114/1)

((10 حكم قيما بين 1312 و1337 .م.

من جزره ، إلا أنه – يقول في الختام – ليس من اليسير، على ما يلوح ، توفير الإثبات العلمي الكافي لهذا الاعتقاد. والآن ان لنا أن نختم هذه الجولة بما دونه الأستاذ العربي الصقلي عن وجود المغاربة في أمريكا ألف سنة قبل كولون (11) الذي بعد أن يستثمر الصخرة المكتشفة في أمريكا الشمالية والأبحاث التي أجراها كل من Norman Totten K Barry fellK John

Gallager ، وبعد أن يضع تجربة "رع 2 " في سياق إثبات تواصل عبر الأطلسي ، يشير إلى تأملات الباحث الفرنسي الكومندان couvert الذي لاحظ

(8115/1)

وجود أسماء قبائل من هوندوراس وغوايان ونيكاراغوا تثير الانتباه بشكل خاص مثل الماميس ، ومرابطين ، ومارابيطا نا س .

كل ما مضى كان ينقلنا إلى فترات ما قبل كولون . لنقل كلمات سريعة الآن عما بعد كولون.

يجزم غوي مازلينى(12) أن مغربيا من أزمور شاركي جلة استكشافية توغلت في خليج مكسيكو ضمت 300 فرد توجهوا إلى فلوريدا. ويقول هذا الباحث إن تلك البعثة لم يبق منها إلا ثلاثة أفراد هم المغربي واثنان من الإسبانيين قطعوا 7000 كلم حتى وصلوا إلى الشاطئ الباسيفيكي ، واستغرقت الرحلة تسعة أعوام . وقد عرف هذا المغربي

(8116/1)

فلوريدا و ألاباما وميسيسيبي ولويزيانا و تكساس .
وكان أول من دخل قرية "بويبلو". وكان من بقايا
ضحايا جفاف شديد القسوة ضرب المغرب ، مما أدى به ،
ألف مغربي إلى الوقوع في الرق حيث حملوا من أزمور إلى
البرتغال وإسبانيا. وكان صاحبنا من نصيب ملاح
إسباني هو أندريس ضورانطي الذي اصطحبه معه في
1527 إلى العالم الجديد. وهناك يخوض سلسلة مغامرات
خلال عامين عرف فيهما الأسر لدى قبيلة هندية إلى أن
تمكن هو ورفيقاه من الهروب والهيمان في الأراضي
الأمريكية. وعادوا من مسيرتهم الطويلة في يوليو
1536، حيث أدلوا بمعلوماتهم

(8117/1)

لنائب الملك في صانطو ضومينغو. وعلى إثر ذلك، عاد
الإسبانيان إلى بلدهما بينما بقي الأزموري في بيئته
الجديدة في شمال غرب مكسيكو، حيث نجده يشارك من
جديد

(1(270p 1Mémoirial du Maroc, Tom

(2guy Martinet (87/12/20Le Matin magagin

في جلة استكشافية أخرى في 1539 . وإليه يرجع الفضل في الاهتداء إلى عدد من المواقع ومنها "cibola" التي يصفها الراهب الفرانسيسكاني ماركو بأنها أفضل من مدينة مكسيكو.

ودون أن نتوغل أكثر ي فترة ما بعد كولون ، نكتفي بالإشارة إلى ما يورده لويس كارديناك في بحثه "الموريسيكون في

(8118/1)

أمريكا،(13)، حيث يستعرض قضايا درست في محام التفتيش في ليما ومكسيكو وكارطاخينا، أبانت أن الموريسكيين كانوا موجودين في ركاب الجيوش الإسبانية في العالم الجديد لفترات طويلة، رغم أن ذ حليمات صارمة كانت قد صدرت عدة مرات تمنع السماح بنقلهم إلى العالم الجديد الذي كان يجب أن يبقى خالصا لحملة الصليب . فمعلوم أن الموريسمكيين حتى ولو أدعوا اعتناق المسيحية لم يكونوا يوحون بالثقة إلى سلامة تنصرهم . ورغم ذلك ، فإنهم تسللوا إلى أمريكا، وإليهم

يعزى نقل المزروعات الجديدة مثل الذرة الصفراء والطماطم وبعض أنواع

(8119/1)

اللوبيا الخضراء والفلفل الأحمر والهندية (التين الشوكي) التي نقلوها بعد طردهم من إسبانيا إلى المغرب . وكانت الأوامر مشددة بعدم السماح باستعمالهم في أمريكا حتى لا يحولوا دون نشر المسيحية فيما بين الهنود الحمر. ولكن تكرار صدور مراسيم ملكية إسبانية بهدا الصدد، وكذا إيقاع العقاب بمخالفين لها في فترات زمنية متباعدة، يدل على أن الأوامر كانت تخالف . ويتبين من محاضر محاكم التفتيش أن من دواعي مثول موريسكيين أمام هذه الهيئات كان رغبة المتهم في أن يجتمع بالعرب وخاصة أثناء أعيادهم ، أو ممارسة تقاليدهم في

(8120/1)

الأكل والشرب واستعمال آلات الغناء. وحتى سنة 1732، لدى إنشاء مدينة جديدة في جزيرة كوبا، ظولب أكابر

المسؤولين والضباط الملكيون وعدد من الشخصيات بإثبات نقاء دمهم من العرب واليم كود والهنود والسود، وبالتالي فإن الموريسكيين وجدوا دائما وفي أماكن متعددة من العالم الجديد.

وهل كان هناك مفر من ذلك؟

(13) ترجمه إلى العربية د. عبد الجليل التميمي ونشهر بعنوان "الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون ".

إن هذه الإطلالة التي تدل على أن التاريخ ليس إنتاجا تام الصنع ، وأن الماضي ما فتئ يغري باستكناه خباياه . وهذه

(8121/1)

التساؤلات والمحاولات المتكررة لاستقراء بـ حض التفاصيل والعلامات ، هي في حد ذاتها تعبير عن استنكار مبطن لكون التاريخ لم يكن منصفا للعرب حينما حرمهم من أن يحققوا هم ذلك الإنجاز المتمثل في تحطيم حاجز المحيط الأطلسي وجعله ممرا مائيا مطروقا كما أصبح فعلا بعد 1492. بشكل من الأشكال ، لم يكن العرب غائبين عن هذا الإنجاز. إن الاستكشافات العلمية

ليست عمليات مستقلة بذاتها عما سبقها. فإن أحدث الإنجازات العلمية ما هي إلا ثمرة حلقات من البحث والابتكار تمتد في عمق الزمن . وبترام العارف التي أفرزتها مختلف

(8122/1)

التجارب ، أتيح للإنسانية أن تقطع الطريق الطويل من ابتكار العجلة إلى صنع المحطات الفضائية. فالحضارة فهر كبير صبت فيه كثير من الجداول .وإذا كنا قد قمنا بجولة عبر تكهنات وافتراضات بعضها ليس منطلقا من عدم ، وبعضها، وهو قليل ، إنما يدخل في صنف التخيل ، فإننا اقتربنا في أغلب الأحيان من حقيقة لا يمكن جحودها، وهى أن العرب لم يكونوا غائبين عن جلة كولون إلى العالم الجديد.

(8123/1)

تميز المنظور الإسلامي لحقوق الإنسان (خصوصيات)

الدكتور عباس الجراري

عضو أكاديمية المملكة المغربية

محاور العرض

مقدمة : مفاهيم ومنطلقات

الخصوصية الأولى : حقوق الإنسان جزء من حقوق ثلاثة:

1 – حقوق الله

2 – حقوق العباد

3 – حقوق النفس

الخصوصية الثانية : حقوق الإنسان نابعة من تكريم الله له

1 – أهم مظاهر هذا التكريم

2 – نعمة العلم (السبيل إلى خلافة الله)

3 – نعمة الحرية : أبرز تجلياتها (حرية التعبير)

أ – حكم المرتد

ب – حماية الحرية من العبث وربطها بحقوق أخرى (المساواة)

ج – مسألة الرق

(8124/1)

الخصوصية الثالثة : تحول حقوق الإنسان إلى واجبات

1 – الحرية : شرط في التكليف ومسؤولية

2 – العلم : طلبه فريضة لارتباط الإيمان ولأن العبادة لا تكون بجهل

3 – العمل : واجب بحكم الدعوة الى السعي والكسب

4 – الأمن : شرط للعبادة

خاتمة : ضرورة مراجعة مسألة حقوق الإنسان في ضوء منظور الإسلام

إن موضوع (حقوق الإنسان) قديم جديد، شغل به المفكرون على امتداد العصور، واهتمت به الإنسانية جمعاء في كل زمان ومكان.

والسبب في هذه العناية أن الإنسان بطبيعته متطلع للحياة الحرة الكريمة، وأن البشرية تعاني باستمرار مواقف

(8125/1)

القهر والاضطهاد، سواء بين شعب وآخر أو بين فئةوأخرى داخل الشعب الواحد بحكم التفاوت الطبقي أو غيره من الإختلالات الاجتماعية والرغبة نتيجة ذلك في التسلط والاستبداد.

ومن ثم كان الناس في مقاومة دائمة للإحراز على الحقوق، ولا سيما على الحقوق الأولية والبسيطة التي يمكن وصفها بالطبيعية. وبعد ذلك جاءت الحروب لتعمق هذه المشاعر والمواقف.

وإن الفرد المسلم ليتساءل في خضم هذه القضية – قضية حقوق الإنسان – عن رأي الإسلام فيها والموقف منها، خاصة وأن المسلمين اليوم هم من أكثر سكان الأرض مقاساة منها ومعاناة، ومن

(8126/1)

أكثر الشعوب المتهمة بإغفال هذه الحقوق وتجاهلها والتعمل معها بالخرق والانتهاك

ولعل هذا العرض الذي يسعدني أن أشارك به في هذه الندوة العلمية القيمة أن يلقي الضوء على بعض جوانب المنظور الإسلامي لحقوق الإنسان، بدءا من المدلول اللغوي لكلمة "الحق" التي وردت في القرآن الكريم أربعا ومائة مرة الى جانب ألفاظ أخرى مشتقة منها جاءت ست وسبعين آية.

ويمكن إجمال هذا المدلول في كل مايظهر ويثبت ومطابقة ووضوح. وهو بهذا يدل على الصدق والعدل والعلم والحكمة، وعلى ذات الله وكتبه وشرائعه، وعلى كل ما ينافي الباطل

(8127/1)

والضلال، كما يدل على الواقع الموجود الذي لا يرتفع، وعلى ما يعبر به عن هذا الواقع، ثم يدل على ما يجب للناس أن يتمتعوا به ويستفيدوا منه ويفعلوه في إطار ما تتيحه فطرة الإنسان وطبيعته البشرية، وفي نطاق ضوابط دينية أو قوانين وضعية أو عادات متبعة، وفي تقابل مع الواجب الملزم لغيرهم.

من هذا الجانب يلتقي مفهوم الحق مع ما جاء به "الآعلان العالي لحقوق الإنسان"؛ وهو الإعلان الذي صادقت عليه هيئة الأمم المتحدة يوم عاشر دسمبر سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وألف، نتيجة شعور جديد بمبادئ وما يتبعها من حقوق فردية

(8128/1)

وجماعية، مما جعله يدعو إلى إعادة النظر في العلاقات بين شعوب العالم وضمان حقوقها في حدود يتفق عليها الجميع.

ثم عزز هذا الإعلان بمواثيق ومعاهدات تأكيدية، على غرار الاتفاقية الأروبية لحقوق الإنسان عام خمسين وتسعمائة وألف، والاتفاقية الأمريكية لحقوق الإنسان سنة تسع وستين وتسعمائة وألف.

وتجدر الإشارة إلى أن الإعلان العالي كان مسبوقا، بل

مستوحى من "نداء حقوق الإنسان والمواطن"؛ وهو النداء الذي أقرته الجمعية التأسيسية الفرنسية يوم السادس والعشرين من غشت سنة تسع وثمانين وسبعمائة وألف، والذي أبرز الحقوق

(8129/1)

الطبيعية والمقدسة للإنسان، في ضوء تطبيق شمولي لمبادئ الحرية والإخاء والمساواة، وكذا مبدأ فصل السلطات.

وكتب المفكرون الغربيون عن هذه المبادئ ما بين مؤيد ومعارض. وكان معظم المعترضين من رجال الكنيسة، مما قاد الصراع على امتداد عقود نحو تركيز العلمانية، مرورا بإعمال سلطة الطبيعة الإنسانية وما تفرض من حقوق.

كما أن الإعلان العالمي لم يلبث – بعد تحرر عدد من الدول الأسيوية والإفريقية – أن وجه انتقاداتها، إذ لم يراع ما عندها في هذا المجال وما لها فيه من مقتضيات، بحكم غيابها يوم صياغته؛ مما أثار ويثير

(8130/1)

الآن وبإلحاح ضرورة مراجعة هذا الميثاق في ضوء ثقافات جميع الشعوب وما لها من خصوصيات، إذ تشكل مرجعيات مختلفة في سياق التعدد والتنوع، بعيدا عن الأحادية القائمة الآن باسم "عالمية حقوق الإنسان"، والمتخذة – بحق أو بباطل – سوطا يلهب ظهر المخالفين، في حين أن القصد من أي إعلان أو ميثاق عالمي أن يضبط متعلقات حقوق الإنسان أينما كان وكيفما كان، في منظومة قانونية خلقية قادرة على مرافقة حياته، مع ما في سير هذه الحياة من مد وجزر أو سلب وإيجاب.

(8131/1)

من هنا وسعيا إلى إغناء هذه المنضومة إن لم أقل إلى إعادة تشكيلها، كان البحث في النظور الإسلامي لهذه الحقوق.

وليس المقصود استعراض جميع الحقوق وتتبعها في شموليتها واستجابتها لمختلف متطلبات الحياة الفردية والجماعية، ولا تتبع ما لها من حرمة وقداسة في التنظير والممارسة، مما لا يتسع له مثل هذا العرض المحدود والمحدد وإن كان بعض ذلك يتضح من خلاله. وإنه ليكفي الوقوف عند فقرات مختزلة نقتبسها من نص واحد هو خطبة حجة الوداع، لتتأكد مدى تلك الشمولية

والقداسة. يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في هذه

(8132/1)

الخطبة التي جاءت ميثاقا مبكرا لحقوق الإنسان، كان – صلى الله عليه وسلم – يلح على تبليغه والإشهاد عليه : "... أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته ... أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد. فمن كانت له أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن ربا الجاهلية موضوع ... وإن دماء الجاهلية موضوعة ... أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق ... أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله

(8133/1)

في النساء واستوصوا بهن خيرا. ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد. أيها الناس إنما المومنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه. ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد.

فلا ترجعن بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ...
أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم،
وآدم من تراب، أكرمكم عن الله أتقاكم. وليس لعربي
على عجمي فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ...
أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من
الميراث، ولا يجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر
من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعى

(8134/1)

إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنه الله
والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا
عدل"(1).
كما أن المقصود لا يرمي إلى إقامة مقارنة لإثبات سبق
الإسلام إلى إقرارها
والمناداة بها وتطبيقها؛ إذ لو كان الأمر كذلك لوقع
الإكتفاء ببعض مواد الإعلان
العالمي، ليتضح أن الإسلام سبق إليها ليس في مضمونها
فحسب، ولكن حتى في أسلوب التعبير عنها، ولتكن
هاتين المادتين :

---

(1) انظر أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في

العصور العربية الزاهرة، ج 1، ص. 57–49، المصادر المذكورة، (ط الأولى، مصر، 1352 هـ / 1933 م).

(8135/1)

الأولى تتعلق بالحرية وتنص على أنه "يولد جميع الناس أحرارا متساويين في الكرامة، وفي الحقوق". وفي غير حاجة إلى الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الكثيرة التي تركز على هذا الحق، تكفي الإشارة إلى قول عمر بن الخطبا رضي الله عنه : "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟" إن النص يكاد أن يكون هو في لفظه ومعناه، مع قوة في قولة ابن الخطاب مردها إلى استنكار الإستعباد.
الثانية تتعلق بالمساواة وتنص على أن "لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان ودون أي تمييز،

(8136/1)

كالتمييز بين العنصر أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر، أو الأصل الوطني أو

الاجتماعي أو الثروة أو الميلاد أو أي وضع آخر". والشواهد الإسلامية في هذا الباب أكثر من أن تحصى، سواء من القرآن الكريم أو السنة النبوية التي منها ما جاء في الخطبة المشار إليها حول المساواة والتي أعطى فيها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مفهوما بعيدا لهذا الحق وعلل له. على أن الموقف الإسلامي في هذا الصدد – وشواهده أكثر من أن تحصى عددا – لا يكتفي بتثبيت مبدأ المساواة، ولكنه يتجاوز مجرد التثبيت إلى

(8137/1)

جعله مجالا للتعارف والتعاون لتحقيق التعايش والتسامح وفق قول الله عز وجل : {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم}(1).

لو حاولنا – بعيدا عن مثل هذه المقارنات الدالة – أن نتأمل الخصوصيات التي تميز منظور الإسلام للحقوق، لوجدنا بإجمال نابعة من القيمة التي منحها الله للإنسان وما نتج عنها من انعدام وتكريم، ونابعة كذلك من كون الإسلام دين رحمة وهداية وتكليف موجها للناس كافة، إضافة إلى كونها مرتبطة بالفطرة السليمة

(1) سورة الحجرات (الآية 13).

(8138/1)

والطبيعة السوية. يقول تعالى : {فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله طلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون }(1).

من هذه الخصوصيات :

أولا : أن حقوق الإنسان من حقوق أخرى متعددة مردها إلى رؤية الإسلام للإنسان في نطاق علاقاته مع الكون وما فيه، رؤيته كذلك للإيمان باعبتاره اعتقادا وعملا وسلوكا، إذ جعل لكل من هذه المحاور الثلاثة وجودا أساسيا في حياة المومن مع ما يمثله هذا الوجود من حقوق يمكن حصرها في أنماط ثلاثة تتصل بالله وبالعباد والنفس :

(1) سورة الروم (الآية 29).

(8139/1)

1- حقوق الله : وتقتضي الإسلام لله، أي الانقياد له وتوحيده والثقة به، وطاعته وعبادته، وإحسان هذه العبادة بإقامة شرائعه لتتم بصدق وإتقان وضمير حي يقظ، سواء في السر أو العلن. يقول تعالى : {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه}(1)، ويقول : {بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}(2). ويشرح القرآن الكريم هذا الإحسان في قوله عز وجل ينبه إلى مدى علمه بما يفعله الإنسان : {وهو معكم أينما كنتم}(3) ،

---

(1) سورة الإسراء (الآية 23).

(2) سورة البقرة (الآية 111).

(3) سورة الحديد (الآية 4).

(8140/1)

{ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء}(1) ، {يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور}(2) . كما يشرحه الحديث النبوي الشريف في قوله – صلى الله عليه وسلم – يجيب عن سؤال جبريل : "... قال : أخبرني عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"(3)

. وهذه لا شك مرتبة الإيمان الكامل أو أفضل الإيمان الكامل أو أفضل الإيمان لقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم :

---

(1) سورة إبراهيم (الآية 40).

(2) سورة غافر (الآية 19).

(3) أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب.

(8141/1)

"أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت"(1) .

وقد لخص النبي الكريم هذا الجانب من الحقوق وما لها من مقابل عند الله

في الحديث الذي رواه معاذ بن جبل قال : "كنت ردف النبي – صلى الله عليه وسلم – على حمار فقال :

يا معاذ هل تدري ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم. قال : فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئا. قلت : يا رسول الله أفلا أبشر الناس ؟ قال : لا

---

(1) رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية.

(8142/1)

تبشرهم فيتكلوا"(1).

2- حقوق العباد : وهي تابعة ونتيجة تلقائية لحقوق الله. وتتمثل في التعامل بالقسط والعدل وعدم الظلم والإعتداء والغش. يقول تعالى : {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوان وإن تلووا او تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا}(2).

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم، وسنعود إليه.

(2) سورة النساء (الآية 134).

(8143/1)

وفي الحديث القدسي ينقل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مما يرويه عن الله أنه قال : "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا"(1). ومر صلوات الله وسلامه عليه بطعام وقد حسنه صاحبه فأدخل يده فيه فإذا هو طعام رديء فقال

له : "بعد هذا على حدة وهذا على حدة، فمن غشنا فليس فليس منا"(2).

---

(1) رواه مسلم وابن حنبل عن سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر جندب بن جنادة.

(2) أخرجه أحمد وغيره عن ابن عمر.

(8144/1)

وتتجلى حقوق العباد كذلك في حسن السلوك ومعاملتهم بالخلق الحميد. يقول سبحانه : {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر }(1). ويقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "أكمل المومنين إيمانا أحسنهم خلقا"(2).

وتشمل هذه الحقوق أيضا الحرص والمحافظة على ما جعله الله منفعة عامة

ومصلحة مشاعة بين الناس، كالماء والكلأوما يرمزان إليه، مما يدخل فيما يسمة اليوم

---

(1) سورة آل عمران (الآية 159).

(2) رواه الترمذي عن أبي هريرة، وتتمته "وخياركم خياركم لنسائهم"

(8145/1)

بالمرافق العامة والموارد الحيوية وشتى المظاهر البيئية التي ينبغي صونها، ليفيد منها الجميع في غير إضاعة لها أو إفساد. يقول الحق سبحانه : {وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد}(1).

ويدخل في هذا الباب كل ما يتعلق به الصالح العام، وجميع ما يترتب على خرقه وخلل في المجتمع، كالعناية باللقطاء والمعتوهين، ومنع ما يثير الفوضى والاضطراب، كإعلان السكر والفحش وما إليهما مما يصدم الضمير ويزعج سير الحياة.

---

(1) سورة البقرة (الآية 203).

(8146/1)

وفي جانب مهم من هذه الحقوق يتصل بعلاقة الحاكم والمحكوم، يبرز الله عز و جل ما ينبغي أن تقوم عليه

هذه العلاقة من تعاقد إذ يقول : {إن الله يأمركم أن تودوا الأمانات إلى أهلها وإذ حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا. يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تومنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا}(1)، وهو قول كريم ينبه إلى ثلاثة أمور(2)

---

(1) سورة النساء (الآيتان 57 و 58).

(2) انظر المسؤولية في الإسلام لصاحب هذا العرض، ص. 20–21، منشورات النادي الجراري، رقم 10، ط الأولى 1417 – 1996.

(8147/1)

:

أ– تحديد العلاقة بين الراعي والرعية أي بين الحاكم والمحكوم.

ب– البدء بذكر ما يجب على الراعي من عدل وأداء للأمانة قبل الحديث عما يجب على الرعية من سمع وطاعة.

ج– دعوة المونين في حال وقوع الاختلاف بينهم في أمر

ما أن يردوه إلى الله والرسول ليحتكموا إليهما، أي أن يرجعوا إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم –. والرجوع إليه يتضمن الرجوع إلى الله عز وجل. أما بعد مماته عليه الصلاة والسلام فالاحتكام يكون إلى من يتحمل الأمانة العظمى من ولاة الأمور.

(8148/1)

ولعله لا حاجة إلى الحديث – في مثل هذا العرض الوجيز – عما يترتب على خرق حقوق العباد من جراء فصله الفقه الإسلامي فيما يتعلق بالحدود والعقوبات.

3– حقوق النفس : وتتطلب المحافظة عليها – أي على النفس – وضبطها بالقيم السامية الرفيعة، والابتعاد بها عن مواطن الذل والهوان، يقول تعالى : {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مومنين }(1). ويقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "إن الله يحب معالي الأمور وأشرفها ويكره سفاسفها"(2)

---

(1) سورة آل عمران (الآية 139).

(2) أخرجه الطبراني في الكبير عن الحسين بن علي.

(8149/1)

.

وفي هذا الإطار تدخل جميع الحقوق التي تضاف للإنسان، والتي سنرى في أثناء العرض كيف ساقها الإسلام ونظمها في سلك محكم دقيق ومتميز كما تدخل مسؤولية الإنسان عن جسمه وعقله لحمايتها من التخريب والإفساد وكل ما ينتج عن تناول المحرمات وما يؤدي إلى الهلاك، يقول تعالى : {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة}(1)، ويقول : {ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما، ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا}(2). وهو نهي قائم على اعتبار النفس ذات حرمة لا يجوز

(1) سورة البقرة (الآية 194)

(2) سورة النساء (الآيتان 29 و 30).

(8150/1)

انتهاكها، وكذا على اعتبارها ملكا لله؛ والفرد إنما هو مؤتمن عليها، ومن ثم عليه أن يصونها ويحفظها، فلا يغامر بإتلافها، كأن ينتحر مثلا ليضع حدا لحياته ما لم يتعلق الأمر بالاستشهاد.

وليس يخفي ما يكون للمنتحر من مصير أخبر عنه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في قوله : "الذي يخنق نفسه يخنقها في النار والذي يطعن نفسه يطعنها في النار"(1) ، وقوله : "من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تحسى فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا

(1) أخرجه البخاري عن أبيه هريرة.

(8151/1)

مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأبها بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا"(1).

على أن صيانة النفس لا تكون فقط بالمحافظة على حياتها فحسب، ولكن تكون

كذلك بحفظ التوازن بين الجسم والروح، لأن من شان هذا التوازن أن يحميها

من الآفات الجسدية والعلل النفسية، ولا سيما هاته التس شاعت في المجتمعات المعاصرة، كالقلق والشك والضياع والحيرة واليأس، وربما الانقياد للتخدير والسرقة والجريمة. وهذا ما جعل الإسلام يدعو إلى العناية بالنفس

حتى تتحقق لها السلامة

---

(1) أخرجه البخاري كذلك عن أبي هريرة.

(8152/1)

والقوة عن طريق التغذية والتربية والتعليم والنظافة المادية والروحية، دون إهمال أي من هذين الجانبين – كما مر – طالما أن الإنسان خلق من مادة وروح. يقول تعالى : {إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعول له ساجدين}(1).

ونظرا لأن هذه الحقوق عائدة بطبيعتها إلى الفطرة، فإنها تتجاوز العناية بالذات إلى من يرتبط بها، كعناية الواليدن بالأطفال، ورعاية حقوقهم، بدءا من حق الحياة الذي ينهى عز وجل عن مسه بسبب الفقر والحاجة. ويقول سبحانه : {ولا

---

(1) سورة ص (الآيتان 70 و 71).

(8153/1)

تقتلوا أولادكم من إملاق }(1) ويقول : {ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق }(2).

وإضافة إلى كون هذا النهي نابعا من تحريم قتل النفس على العموم، فإنه ينم مع معنى آخر عميق، باعتبار الأطفال جزءا من الوالدين، ومن الأم بصفة خاصة، إذ في أحشائها تكونوا وبدأوا الحياة. وليست تخفى في هذا المجال وغيره عناية الإسلام بحقوق الزوجة والمرأة عامة، وقد سبقت الإشارة إلى بعض ذلك

---

(1) سورة الأنعام (الآية 152).

(2) سورة الإسراء (الآية 31).

(8154/1)

هذا، ولا يمكن لحقوق النفس أن تأخذ مجراها الطبيعي إلا إذا أديت حقوق الله والعباد. ومدار هذا الأداء على التقوى والورع، يقول تعالى : {إن أكرمكم عند الله أتقاكم }(1). والله وحده هو العارف المتقي، وليس لأحد ان يزعم ذلك، يقول عز وجل : {فلا تزكوا انفسكم هو أعلم بمن اتقى }(2). ومن أهم مظاهر التقوى ترك مواطن الشهة والابتعاد عن الشك إلى ما يبعث في النفس الطمأنينة، يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم- :

"دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"(3)

---

(1) سورة الحجرات (الآية 13).

(2) سورة النجم (الآية 31).

(3) رواه الترمذي وغيره عن الحسن بن علي بن أبي طالب.

(8155/1)

.

وتكميلا للحديث عن هذه الأنماط الثلاثة من الحقوق المتصلة بالله والعباد والنفس، تجدر الإشارة إلى المحاسبة التي أناطها الله بها جميعا وما يتبعها من جزاء، مما أبرزه تعالى حين جعل كلا منها شاهدا على الإنسان عبر ما يراه الله، ثم ما يراه الرسول والمومنون، وبعد ذلك ما تراه النفس. يقول تعالى : {وسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون }(1)، ويقول : {وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة

---

(1) سورة التوبة (الآية 95).

(8156/1)

فينبئكم بما كنتم تعملون }(1)

فإذا كانت رؤية الله للعمل معروفة، فإنها بالنسبة للرسول – صلى الله عليه وسلم –. قائمة وثابتة، لأنه هو الذي بلغ الرسالة. أما المومنون فإنهم شهداء الله في الرض. وأما النفس فإن رؤيتها تتم بعد أن تنبأ بما كانت تعمل، وبعد أن تشهد عليها مختلف الحواس، وفق قوله عز وجل {يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون }(2).

---

(1) سورة التوبة (الآية 106).

(2) سورة النور (الآية 24).

(8157/1)

ثانيا : إن حقوق الإنسان ثابتة بحكم إنعام الله عليه وتكريمه له، وليست ناتجة عن صراع أو مطالبة لنيلها، والفرق واضح بين الأمرين. يقول تعالى : {ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير خلقنا تفضيلا }(1).

1- وإن هذا التكريم ليتجلى في جملة مظاهر بدءا من الخلق على أحسن تقويم

إلى إسباغ الأفضال عليه بل خلق بقية الكائنات من أجله.

يقول عز وجل : {لقد

خلقنا الإنسان في أحسن تقويم}(2)، ويقول : {هو الذي خلق لكم ما في

---

(1) سورة الإسراء (الآية 70).

(2) سورة التين (الآية 4).

(8158/1)

الأرض جميعا}(1)، ويقول : {وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله

لا تحصوها}(2)، ويقول : {ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة}(3).

2- وبالآضافة إلى هذه المظاهر التي تمس صورة الإنسان وخلقه وما أفاض الله عليه من نعم، فإنه عز وجل فضله بأن جعله عالما متحضرا قابلا لاكتساب المعارف وتحقيق التطور لنفسه وللحياة من حول.

---

(1) سورة البقرة (الآية 28).

(2) سورة إبراهيم (الآية 36).

(3) سورة لقمان (الآية 19).

(8159/1)

وليس يخفى أنه بالعلم لخلافة الأرض وحمل الأمانة، ويقول تعالى : {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويفسك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون }(1)

---

(1) سورة البقرة (الآيتان 29 – 33).

(8160/1)

. هذا الوقت الذي صعب على أعظم المخلوقات حمل هذه الأمانة، فامتنعت عنها معتذرة بعجزها عن ذلك يقول سبحانه : {إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان}(1). وقد استحق الإنسان بذلك وبعده ان تسجد له الملائكة تجلة واحتراما، يقول تعالى : {وغذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين}(2).

---

(1) سورة الأحزاب (الآية 72).

(2) سورة البقرة (الآية 33).

(8161/1)

3- وما كان للإنسان أن تبوأ هذه المكانة فضلا عن أن يتمتع بمختلف النعم التي كرمه الله بها وأكرمه، لولا نعمة الحرية التي هي في الإسلام قيمة كبرى وأساسية، لارتباطها بطبيعة الإنسان وفطرته وغريزته وفق قولة عمر السابقة، ولتأثيرها في تكوين شخصيته إذ بها تقوم الحياة ويتحقق الإنتاج وينهض المجتمع المتعارف والمتعاون.

وإن دعوة الإسلام للحرية لتبدأ بالتوحيد الذي حرر

الإنسان من الشرك، أي
من عبادة غير الله. وهذا جعله يقاوم تقديس الأصنام
والوثان ويحارب الخضوع للأهواء والنزوات ويمنع
الإنسياق لطغيان المال ويدحض

(8162/1)

استعباد الإنسان للأنسان. وهي كلها ظواهر عرفها
البشر وما زالوا يعرفونها في صيغ متعددة وأشكال
متنوعة.
وقد أقضى التحرير من الشرك في الإسلام إلى عملية أخرى
لتحرير الإنسان من كل سيطرة تستبد به أو نفوذ
يتحكم فيه، باعتباره ينبغي ان يتمتع بالحرية في
نطاق الإنضباط واحترام القوانين والتشريعات التي
تهدف إلى تنظيم الحياة والمجتمع، إذ من حقه أن يكون
في مأمن من كل عدوان او بغي أو تسلط أو ما إلى ذلك مما
يخرق حريته أو يصيب حياته أو دينه او ماله أو أهله
وجميع حرماته التي لا يمكن أن يراجع فيها إلا بالحق، أي

(8163/1)

بالقانون.

والإسلام بهذا قد سبق جميع الدساتير والوقانين والمواثيق التي تحدثت عن حقوق الإنسان وأبرزت حرياته الخاصة والعامة. وإنه لمن الصعب استعراض كل ما يكيزه في سياق هذا العرض المحدود، وتكفي الإشارة إلى بعض جوانب الحرية التي نادى بها الدين الحنيف والتي يظن أنها من الحقوق التي أقرتها التشريعات الحديثة.

منها حرية العمل، وتتجلى في قوله تعالى : {هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه}(1).

---

(1) سورة الملك (الآية 15).

(8164/1)

ومنها حرية المسكن والمراسلة وما إليهما مما ينتهك بالتجسس واتباع ما خفي من أمور الناس الخاصة. يقول سبحانه : {ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا}(1)، ويقول : {يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها}(2).

ومن هذه الحريات بل في طليعتها حرية التعبير. وهي

تعد في الإسلام نعمى تأتي مباشرة بعد نعمة الوجود، وبها فضل الله الإنسان على غيره من الذين لا ينطقون ولا يبينون. يقول عز وجل : {الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه

---

(1) سورة الحجرات (الآية 12).

(2) سورة النور (الآية 27).

(8165/1)

البيان}(1).

وفي نطاق هذه الحرية دعا الإسلام إلى النظر في الكون لتأمله وتدبره والتفكير فيه. يقول تعالى : {قل انظروا ماذا في السماوات والأرض}(2). وهي آية تعني أن الإسلام دعا إلى النظر في كل ما خلق الله، ولم يمنع إلا شيئا واحدا لا يدركه التفكير فضلا عن البصر، وهو ذات العلي القدير.

ومن ثم أدان الله كل تحجير على التعبير وجميع أحاديات الفكر والرأي إذ يقول : {قال فرعون ما رأيكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد}(3). وقد بلغ

---

(1) سورة الرحمن (الآية 1).

(2) سورة يونس (الآية 101).

(3) سورة غافر (الآية 29).

(8166/1)

هذا التحجير عند الذين لا يعرفون الحرية ولا يومنون بها إلى حد القتل. يقول تعالى : {أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله}(1).

ويكفي الإسلام حرصا على الحرية التعبيرية إقراره بحرية العقيدة(2) مع كل ما تقتضي من احترام ممارستها وعدم الإجبار على تعطيلها او تغييرها. يقول تعالى : {لا إكراه في الدين}(3). ويقول : {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس

---

(1) سورة غافر (الآية 28).

(2) انظر صاحب هذا العرض، مفهوم التعايش في الإسلام، منشورات الإيسيسكو الرباط، 1417 هـ / 1996 م.

(3) سورة البقرة (الآية 255).

(8167/1)

حتى يكونوا مومنين}(1).

أ- هنا تثار مسألة المرتد وحكم الدين بقتله، وهو أمر لا مجال لإنكاره، وإن كان في حاجة إلى توضيح يزيل ما فيه من لبس. ومعروف أن المرتد هو الذي يعلن خروجه من الإسلام بعد أن يكون دخل فيه. وقد يتخذ بهذا الخروج شكلين : شكلا عاما بالطعن في الدين كله، وشكلا خاصا برفض أحد أركانه.

وعقوبة المرتد - ما لم يتب - منصوص عليها في القرآن الكريم ةمحددة بالسنة النبوية الشريفة. يقول تعالى معقبا على الارتداد والموت عليه : {ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت

---

(1) سورة يونس (الآية 99).

(8168/1)

أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}(1). ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم : "من بدل دينه فاقتلوه"(2).

وليس السبب في هذه العقوبة راجعا إلى كون المرتد اعتنق دينا آخر أو كفر بالإسلام، بدليل معاملة المسلمين لغيرهم داخل المجتمع الإسلامي أو خارجه من

المنتمين لبقية المعتقدات، ولكنه راجع إلى ما يعنيه الارتداد في مفهوم الدين وسياق المجتمع من تآمر على المسلمين وخيانة لهم بكل ما في ذلك من كيد ومكر، وسعي إلى زرع

---

(1) سورة البقرة (الآية 215).

(2) أخرجه البخاري وابن حنبل عن ابن عباس.

(8169/1)

الشك في صفوفهم وبث الفرقة بينهم وردهم عن دينهم وهدم بناء مجتمعهم.

ب – إن الإسلام حين أعطى الحرية ومنحها، فإنه في نفس الوقت حماها من كل عبث، إذ ربطها بحقوق تجعل الإنسان متمتعا بخصائص ذاتية يشعر من خلالها بالسيادة والكرامة، ولكن في نطاق الضوابط والقوانين العامة التي تنظم أمر هذه الحقوق وتحفظ لها رحمتها بوعي وحرص من جميع الأطراف، في غير محاولة لاستحلالها بالتحايل أو التأويل، مما نبه إليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين قال : "إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من

(8170/1)

بعض فأقضي له بنحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار"(1).

إن هذا الإنضباط بالتشريعات والقوانين هو الذي يجعل الحرية لا تنقلب إلى فوضى فتضر بصاحبها قبل أن تضر بغيره، وحتى تكون حرية الفرد عامل خير ونفع للآخرين. وبذلك – كما يقال – تنتهي حرية الفرد عندما تبدأ حرية الآخرين.

لقد أرد الله للإنسان بهذه الحرية أن يعيش حياة أساسها التكريم الذي يتيح له ليس فقط أن يتمتع بها هنيئة وسعيدة، ولكن أن يحيا ضمن مجتمع صغير أو كبير بناء على روابط وضوابط تضمن

(1) أخرجه البخاري ومسلم عن أم سلمة.

(8171/1)

سير الحياة الخاصة والعامة على النحو الذي يمكنه – أي الإنسان – من حمل الرسالة وأداء الأمانة، كل في دائرة عمله واختصاصه وفي نطاق مسؤوليته.

وهنا قيمة كبرى تجعل الحرية في الإسلام مرتبطة بالمساواة، أي بالمساواة في

الحرية وفي جميع الحقوق، ولا أدل على هذه المساواة في الحقوق من قول أبي بكر
الصديق في أول خطبة له بعد أن ولى الخلافة : "ألا إن إقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه"(1). وكان عمر بن الخطاب قد كتب لأبي موسى

(1) انظر جمهرة الخطب، ج 1، ص. 67، والمصادر المذكورة.

(8172/1)

الأشعري في رسالته المشهورة التي بعثها له متعلقة بشؤون القضاء : "آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف في عدلك"(1).
وهنا تجرد الإشارة إلى أن المسلمين – بحكم هذه المساواة – كانوا يأنفون من أن يعظموا أو يميزوا عن غيرهم حين يكونون معه في موقف التقاضي، على حد ما حدث لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكان يتقاضى مع يهودي أمام عمر، إذ وقف ابن أبي طالب – هو وخصمه

(1) انظها في كتاب أبي الحسن علي بن محمد الماوردي،

الأحكام السلطانية، ص. 58، ط الأولى، مصر 1327 هـ/ 1909م.

(8173/1)

اليهودي – أمام الخليفة، وأحس علي ببعض الضيق فخاطبه في ذلك عمر ظانا أنه كره أن يقف إلى جانب خصم يهودي، فأجاب علي معربا أن غضبه راجع إلى كون عمر خاطب اليهودي باسمه وخاطبه هو بكنيته (أبي الحسن)، وكان من مظاهر تعظيم الرجل وإكرامه أن يخاطب بكنيته وليس باسمه.

إن السبب في جعل الإسلام الحرية مقننة كامن في الحاجة إلى ضبطها حتى لا تنقلب إلى فوضى، والحاجة كذلك إلى نعيمها بعدل ومساواة – كما مر – وكامن كذلك في الأمانة التي يحملها الإنسان. ولا يمكن لهذا الحمل إلا ان يكون منضبطا لهذا الحمل إلا أن يكون منضبطا

(8174/1)

ومقننا، طالما أن الكون الذي يتحمل الإنسان هذه المانة في نطاقه محكوم ومسخر بقوانين دقيقة تحفظ له

توازنه، يقول تعالى : {والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان}(1).

ج- قد يأتي معترض ويقول : إذ كان الإسلام أعطى هذه الحريات فلماذا يسمح بالرق ؟.

والجواب أن هذا غير صحيح، لأن الإسلام لا يسمح بالرق، بل إنه لم يذكر أمره إلا مقرونا بالتحرير، في تشجيع على هذا التحرير وإغراء به وبفتح شتى المجالات له، وفي مقدمتها الكفارات. ويكفي

---

(1) سورة الرحمن (الآيتان 4 و 5).

(8175/1)

للدلالة على أهمية تحرير الرقبة قوله عز وجل : {فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة}(1). فقد جعل الإسلام منح الحرية للعبد أو الأسير سبيلا لتجاوز العقبة الكأداء التي استعير التعبير بها للدلالة على ما يشق عمله على النفس.

وهذا منحى سام لا يمكن إدراكه إلا إذا عرف أنه حين ظهر

الإسلام كان الرق يشكل ظاهرة اجتماعية منتشرة، بل كان مظهرا اقتصاديا رائجا، فأغلق الإسلام جميع أبوابه ولم يبق منها إلا باب الأسر الذي يكون في الحرب، وفيه يقول تعالى : {فإذا لقيتم الذين كفروا

(1) سورة البلد (الآيتان 12 و 13).

(8176/1)

فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضهم ببعض }(1)، وهما آيتان تتحدثان عن الأسرى وتثيران حالتين إحداهما مقدمة للأخرى :

الأولى : إطلاق سراح الأسرى منا بلا فداء أي بغير تعويض.

والثانية : إطلاق سراحهم بفداء.

واستمر الأمر في الدولة الإسلامية على هذا النحو، إلى أن انمحى الرق من الإسلام، في وقت مازال العالم المتقدم يمارسه بشتى الوسائل والأساليب فرديا وجماعيا، وما التمييز

(1) سورة القتال (الآيتان 4 و 5).

(8177/1)

العنصري إلا أحد المظاهر الصارخة لذلك.

ثالثا : إن حقوق الإنسان مقترنة بالواجبات، إن لم نقل إنها تتحول إلى واجبات، مما يجعلها جميعا – أي الحقوق والواجبات – خاضعة لما يضمن المحافظة عليها في تنظيم للحياة يقوم على علاقات يقوم على علاقات متوازنة، بها تتحقق المصالح وتحمى من كل خرق او عبث، سواء أكانت تلك الحقوق سياسية او مدنية، خاصة ام عامة، مادية أم معنوية، موقتة أم دائمة.

ولتأكيد هذه الخصوصية نمثل بحقوق أربعة.

1– الحرية :

(8178/1)

لقد جعل الإسلام حرية شرطا لكل تكليف، بدونها لا يكون مطالبا بأدائه مهما تكن أوجه حرمانه منها، لا سيما في حال الإكراه.

هذا في الوقت الذي حمله مسؤولية التعبير وأدان سكوته عن الحقن يقول تعالى : {ولا تلبسوا الحق

بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون }(1).

وإن حرية التعبير هاته لتقود في المجتمع الإسلامي إلى مظهرين يبدوان متضادين ولكنهما في الحقيقة متكاملان :

أولهما : المشاركة في تسيير شؤون الأمة بالشورى، إذ يقول الحق سبحانه حاثا رسوله الكريم عليها : {فبما رحمة من الله لنت لهم ولو

---

(1) سورة البقرة (الآية 41).

(8179/1)

كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إم الله يحب المتوكلين }(1).

وثانيهما : الإعلان عن المعارضة في الرأي بشأن هذا التسيير.

على أن اكثر ما يتجلى فيه الأعراب عن الرأي هو مجال التوجيه والانتقاد في حدود النصيحة التي جعلها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أساس الدين ومظهرا له في كماله حين قال : "إن الدين النصيحة إن الدين النصيحة إن الدين النصيحة" قالوا : "لمن يا رسول الله ؟" قال :

"لله ولكتابه ورسوله وأيمة

---

(1) سورة آل عمران (الآية 159).

(8180/1)

المسلمين وعامتهم"(1).

وليست تخفى في هذا السياق أهمية الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر. وقد ركز

عليها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، على نحو

قوله عز وجل : {ولتكن

منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون

عن المنكر أولئك هم

المفلحون}(2)، وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

"من رأى منكم منكرا

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما؛ والترمذي في

جامعه؛ والنسائي في مجتباه عن أبي رقية تميم بن

أوس الداري، انظر شرحه وبعض متعلقاته في المسؤولية

في الإسلام، من ص. 35.

(2) سورة آل عمران (الآية 104).

(8181/1)

فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان"(1).

في ضوء هذه التوجيهات قال رجل لعمر بن الخطاب (ض) : "اتق الله يا أمير المومنين" فاعترضه بعض من كان في المجلس وقال له : "كيف تقول لأمير المومنين : اتق الله ؟" ورد عمر : "دعه فليقلها فإنه لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم".

وفي هذا المجال لا تستغرب الدعوة إلى أن يكون للفرد رأي خاص ومستقبل، وأن تكون له القدرة على إبدائه، ولقد

(1) أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري، كما رواه ابن ماجة والنسائي وأبو داود.

(8182/1)

نهى الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن أن يكون الإنسان مجرد تابع ومقلد وإمعة، حاثا على أن تكون له شخصيته وذاتيته وحريته في التفكير والتعبير، إذ قال : "لا تكونوا إمعة تقولون إن احسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا،ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس

أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا"(1).

2- العلم :

إن الحق في اكتساب العلم واجب، كما بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. في حديث : "طلب العلم فريضة على كل مسلم"(2). وهو مطلب يسعى المسلم إليه ولو بشد

---

(1) رواه الترمذي عن حذيفة.

(2) رواه ابن ماجة عن أنس بن مالك

(8183/1)

الرحلة وتحمل المشاق، على حد قوله - صلى الله عليه وسلم - : "اطلبوا العلم ولو بالصين"(1)، مع الحث على ذلك في كل مرحلة من مراحل العمر، إذ يقول صلوات الله وسلامه عليه : "من جاء أجله وهو يطلب علما ليحيى به الإسلام لم تفضله النبيون إلا بدرجة"(2)؛ في حين توعد - صلى الله عليه وسلم - الذين لا يتعلمون، إذ كرر مرتين : "ويل ثم يول لمن لا يعلم ولا يتعلم"(3)

---

(1) أخرجه البهيقي والخطيب وابن عبد البر عن أنس.

(2) رواه ابن عبد البر عن عبد الله بن عباس.

(3) أخرجه ابن عبد البر في الجامع عن الفريابي عن الثوري. وأول الحديث : "ويل لمن يعلم ولم يعمل".

(8184/1)

.

والسبب في هذا الوجوب راجع إلى أمرين :

أولهما : أن العلم مرتبط بالإيمان، يقول تعالى : {يرفع الله الذين أمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}(1)، ويقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "فأما طبقتي وطبقة أصحابي فأهل علم وإيمان"(2). ولا يتم هذا الإيمان عن طريق التقليد ولكن بواسطة النظر والتأمل، غذ يقول الحق سبحانه : {قل انظروا ماذا في السماوات والأرض}(3). ويقول : {ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء

---

(1) سورة المجادلة (الآية 14).

(2) من حديث رواه ابن ماجة عن أنس بن مالك

(3) سورة يونس (الآية 101).

(8185/1)

ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يومنون }(1).

ويقول : {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلىالجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت }(2).

ثانيهما : أن الله لا يعبد بجهل، وأن الإسلام قائم على العلم، يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم"(3)، "لكل شيء عماد، وعماد هذا الدين الفقه"(4)، "خير دينك

---

(1) سورة النحل (الآية 79).

(2) سورة الغاشية (الآيات 17–20).

(3) رواه مسلم عن ابن سيرين.

(4) رواه ابن عبد البر عن أبي هريرة في جامع بيان العلم وفضله.

(8186/1)

أيسره، وخير العبادة الفقه"(1).

ومن ثم فالإنسان يحاسب يوم القيامة على عمله، وفق ما أخبر الرسول – صلى الله عليه وسلم – حين قال : "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه وعن عمله فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه

وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه"(2). وفي هذا السياق توعد – صلى الله عليه وسلم – الذين يكتمون العلم: "من كتم علما يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار"(3)

---

(1) أخرجه ابن عبد البر في جامع عن أنس.

(2) أخرجه الترمذي عن أبي برزه نضلة بن عبيد الأسلمي.

(3) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة.

(8187/1)

.

وهي محاسبة تقترن بالثواب العظيم الذي خصه الله لطلبة العلم الصادقين الجادين في اكتسابه، يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "من سلك طريقا يلتمس فيه علما سلك الله له به طريقا إلى الجنة"(1)، يقول: "من خرج في طلب العلم كان في سبيل الله حتى يرجع"(2).

ولا عجب بعد هذا أن يكبر الإسلام شأن العلماء ويعظمهم، يقول عز وجل: {قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون}(3)، ويقول: {شهد الله أنه لا

---

(1) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة.

(2) أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك

(3) سورة الزمر، (الآية 5).

(8188/1)

إله إلا هو الملائكة أولوا العلم}(1)، ويقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "العلماء ورثة الأنبياء"(2)، ويقول : "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم"(3)، ويقول : "يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء"(4).

3– العمل :

إن العمل في الرؤية الإسلامية يتجاوز كونه حقا ليصبح واجبا بحكم دعوة الإسلام إلى السعي والكسب، يقول تعالى : {هو الذي جعل

---

(1) سورة آل عمران، (الآية 18).

(2) من حديث أخرجه الترمذي عن أبي الدرداء.

(3) رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي.

(4) أخرجه ابن ماجة عن عثمان بن عفان.

(8189/1)

لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه }(1) أي سهلها لكم ويسرها وطوعها لتسيروا فيها وتبحثوا عن الرزق، لأن العمل في هذه الرؤية عبادة، وهو يدخل في نطاق أمانة الاستخلاف التي حملها الإنسان، وفي نطاق المحافظة على مقومات الحياة التي بها يستمر الكائن ويقوم المجتمع. فيه تتحقق العدالة، وبه يكون الصلاح. وبه توجد السعادة، وبه في النهاية يحارب الظلم والفساد ويكون الجزاء، أي أنه – العمل – هو الغاية من الوجود. يقول عز وجل : {إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن

(1) سورة الملك، (الآية 15).

(8190/1)

عملا }(1). ويقول : {تبارك الذي بيده وهو على كل شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور }(2).

إن العمل مقرون في الإسلام إلى القول لإدراك درجة الإيمان الصحيح الذي يقضي إلى اليقين، يقول سبحانه : {يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون }(3) .

والسبب أن الإيمان ليس بالتمني ولا بتزيين القول كما يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم : "ليس الإيمان بالتمني

---

(1) سورة الكهف، (الآية 7).

(2) أول سورة الملك

(3) سورة الصف، (الآيتان 2 و 3).

(8191/1)

ولا بالتحلي ولكن هو ما وقر في القلب وصدقة العمل"(1)، ويقول تعالى : {ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مومن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا}(2).

وتبدو هنا ركيزتان أساسيتان في الإسلام هما : الإيمان والعمل الصالح، وقد قرنهما القرآن الكريم في آيات كثيرة لعلها تتجاوز الخمسين.

---

(1) رواه الترمذي عن أنس.

(2) سورة النساء، (الآيتان 122 و 123).

(8192/1)

ومن ثم حث الرسول – صلى الله عليه وسلم – على العمل ودعا إلى عدم الاتكال على حسب أو نسب، كما في قوله لأم سلمة هند زوجته : "اعملي ولا تتكلي"(1)، وقوله : "من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه"(2).

وإن هذا الموقف الإسلامي من العمل هو الذي جعل الرسول – صلى الله عليه وسلم – يبرز قيمة الكسب باليد وينوه بإتقان العمل، ويدين التواكل والتسول، مما لا حاجة إلى الإطالة به. على أن سياق وجوب العمل في مداولة الواسع يقتضي المحاسبة عليه، يقول

(1) رواه عبد الله بن عدي في كتاب الكامل عن أم سلمة.

(2) أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

(8193/1)

تعالى : {يوم تجد كل نفس ما علمت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا}(1)، ويقول : {من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها}(2).

ويكفي التذكير بأن الإنسان لا ينجو من خسران الدنيا والآخرة إلا بالعمل المقترن بالإيمان، غذ يقول عز وجل : {والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا

الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر}(3).

4– الأمن :

---

(1) سورة آل عمران،(الآية 30).

(2) سورة فصلت، (الآية 45).

(3) سورة العصر.

(8194/1)

إذا كان الإنسان يسعة إلى ان يعيش في أمن، سواء باعتباره فردا أم باعتباره منضما إلى جماعة، فلأن الأمن هو قوام الحياة.

والأمن حالة نفسية تتجلى في الرضا والاطمئنان والهدوء والسكون والثبات والثقة والراحة، نتيجة وقوع خير أو شيء جميل، أو نتيجة توقع حدوث ذلك وعكسه الخوف الذي يترتب عن معايشة الشر أو توقعه، بدءا من القلق والاضطراب إلى الخشية والحذر فالهلع والذعر.

وهو يتجلى في مظاهر متعددة أبرزها الأمن النفسي والغذائي، وكان مطلب الأنبياء منذ إبراهيم عليه السلام : {وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا

(8195/1)

وارزق أهله من الثمرات }(1).

وقد جعل الإسلام هذا الأمن أساسا بل شرطا لعبادته إذ يقول تعالى : {فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف }(2).

ولا غرابة في هذا الربط، طالما أن الإسلام دين أمن، وما يوفر الأمن وينتج عنه من رحمة وألفة ونصر. يقول تعالى : {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين }(3). ويقول :

{واذكروا نعمة الله عليكم غذ كنتم أعداؤ فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا }(4)

---

(1) سورة البقرة، (الآية 125).

(2) سورة قريش، (الآيات 3 – 4 – 5).

(3) سورة الأنبياء، (الآية 106).

(4) سورة آل عمران، (الآية 103).

(8196/1)

. ويقول : {واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون }(1).

لهذا كله، كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – :

كثيرا ما يسأل الأمن إلى جانب الإيمان، على حد قوله يوم أحد ضمن دعاء : "اللهم إني أسألك الأمن يوم الخوف"(2)، وقوله حين يرى الهلال : "اللهم أهله علينا باليمن والإيمان والسلامة والسلام" وفي رواية : "الأمن والإيمان"(3).

---

(1) سورة الأنفال، (الآية 26).

(2) روان ابن حنبل، عن ابن رفاعة.

(3) أخرجه الترمذي عن طلحة بن عبيد الله.

(8197/1)

ويشمل الأمن من هذا البعد الإسلامي أمن الدنيا والآخرة، يقول تعالى : {إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل، غخوانا على سرر متقابلين، لا يمسهم فيها نصب وما هم عنها بمخرجين}(1) ويقول : {إن المتقين في مقام أمين}(2).

هذه بعض الخصوصيات التي تميز حقوق الإنسان في الإسلام وتحدد إطارها وتوضح فلسفتها، انطلاقا من منظور شمولي ومتكامل ومتفتح.

وقد حاول البحث إجمال عرضها وتحليلها بغض النظر عن أمرين :

---

(1) سورة الحجر، (الآيات 45–48).

(2) سورة الدخان، (الآية 48).

(8198/1)

الأول : ما تجتازه هذه الحقوق في كثير من البلاد النامية – ومنها الإسلامية – من ظروف قاسية تفضي بها إلى الخرق والانتهاك، مما يقتضي التوعية بها وبالمبادئ والقيم المؤسسة لها، وكذا نشر ثقافة جديدة في هذا الاتجاه تكون قادرة ليس فقط على حماية الحقوق من العبث والضياع، ولكن على التحسيس بضرورة إقرارها في التعامل موازاة مع الواجبات، بما يحقق الصالح العام في النهاية.

الثاني : ما قد يكون من توافق او تباين بين المنظور الإسلامي لهذه الحقوق

(8199/1)

والمنظور الغربي لها، سواء من حيث صيغتها المعلنة، أو من حيث الدعائم التي أقيمت

عليها؛ مما لا ينبغي أن يثير أي تناقض بين ما هو

خصوصي وما هو (عالمي)، وأضع
عالمي بن قوسين، من غير أن ننسى البعد الشمولي
للإسلام في هذا الموضوع وسواه،
ومن غير أن ننسى كذلك المنطق الفطري الذي انبعث
منه في نطاق ما وهب الله
للإنسان من طبيعة سوية وعقل سليم. وهو ما جعل
الإسلام ويجعله قادرا على
احتواء كل الخصوصيات وامتصاص جميع الاختلافات. ولعله
كان في ظن الغرب – منذ المراحل الأولى للنهضة – أنه
باعتماده الطبيعة أساسا لحقوق

(8200/1)

الإنسان يستطيع أن يمتلك الآخرين ويخضعهم، باعتبار
الطبيعة معيارا سلوكيا متأصلا في النفس البشرية،
ونظاما محكما قائما على الفطرة. وهذا هو التوجه الذي
أكدته حركة التنوير في أوربا – ولا سيما انجلترا
وفرنسا – عبر الاهتمام بالدرس الاجتماعي والنظر إلى
الإنسان ضمن منظومة الطبيعة، مع التدرج بفهم وجوده
وحقوقه من الفردية إلى الجماعية، بما تتطلبه هذه
الجماعية من انسلاك في عقد منظم تحكمه قواعد
وقوانين في نطاقها يتمتع الفرد بحقوقه.

(8201/1)

وبعيدا عن هذا التوجه وربما تحفزا منه، لا يخفى وجود واقع يرمي إلى عالمية تعتمد النفوذ العسكري والاقتصادي للغرب، بل تتجاوز هذا النفوذ إلى الرغبة في هيمنة ثقافته، بما فيها من مفاهيم ومنطلقات، ومن بينها متعلقات حقوق الإنسان.

إن في طليعة الحقوق التي يجب على الغرب أن يعترف بها حقا أساسيا هو الحق في الاختلاف معه، أعني حق الشعوب الأخرى، ولا سيما المستضعفة سياسيا وعسكريا واقتصاديا وثقافيا – أي المتخلفة عن ركب آلته المتقدمة – في أن تكون لها عقيدتها ولغتها وثقافتها ومختلف مقومات هويتها الذاتية والكيانية.

(8202/1)

يأتي بعد ذلك حقها في التقدم الذي بلغه العصر في شتى المجالات، والذي يضع الغرب عراقيل حتى لا تدرك هذه الشعوب شأوا مناسبا منه، وحتى تبقى رهينة تبعية مقيتة تتحكم في صيرورتها، وتجردها من أدنى الحقوق وأبسطها، معاشا وتعليما وعلاجا وأمنا. وهي

حقوق أولية وأساسية بدونها لا مدلول لوجود شعب أو دولة، فضلا عن أن يقرن هذا الوجود بالسيادة.

ولو أن المسليمن انطلقوا من ذاتهم ومن مفاهيم ثقافتهم ودينهم وما فيه من منظور للحقوق، لسهل عليهم هضم هذه الحقوق والتفاعل معها والعمل بها واحترامها، حتى في صيغتها الغربية. وهو

(8203/1)

ما يعسر تحقيقه والوصول إليه عند مجرد النقل والاقتباس من الغير، لا سيما وأن هذا الغير يقدم إسوة سيئة ويعطي صورة مشوهة، إذ يحترم حقوقه هو، ويستهين بحقوق الآخرين ويخرقها.

وإن من أوليات هذه الانطلاقة أن يقفوا على ما يتميز به المنظور الإسلامي لحقوق الإنسان، وما يرتبط بها من مبادئ وقيم، ليدركوا الحاجة الماسة إلى إعادة النظر في المنظومة الحالية، وينبهوا غيرهم إلى ضرورة هذه الإعادة حتى تتناسق هذه الحقوق وتتكامل وتستحق الوصف بالعالمية.

(8204/1)

وإن للمسلمين في ذلك دورا يقتضي ما جاء به الدين الحنيف في هذا المجال، والسعي بهذا التطبيق إلى ريادة تكون خير رد على اهتمام لهم بخرق تلك الحقوق، وتكون أفضل وسيلة للإقتناع بها وفق منظور الإسلام.

(8205/1)

تنظيم النحو العربي

محمد الأوراغي

كلية الآداب الرباط

تقديم :

... 1– نفترض أن دراسة أي ظاهرة، كانت لغوية أو غير لغوية تمر بطورين اثنين.أولهما متميز باتخاذ الاستقرار منهجا، وتحليل الظاهرة المعنية إلى عناصرها غاية. بينما ثاني الطورين يتميز بالسعي إلىتجريد الخصائص العامة الملحوظ أثرها في الظاهرة موضوع الدراسة ونحوها المتوقع.

و إذا ثبت أن كان الغالب على أعمال نحاة قدماء الوقوف عند الطور الأول من دراستهم للغة العربية فإن المنتظر

من نحاة العربية الجدد أن يتوجهوا بأنظارهم نحو الخصائص الجامعة بين ما سبق

(8206/1)

تناوله متفرقا. وغاية هذا الدرس أن يكشف عن الوجه العملي لهذه الإمكانية.

–2. نسلم أن نحو اللغات البشرية يتفرع، بناء على مبدء التركيب المتدرج، إلى 1) نحو الجملة؛ يهتم بالعلاقات القائمة بين عناصر تتراكب لتكوين وحدة لغوية تسمى"الجملة". 2) نحو الخطاب؛ وهو االذي يتولى في مستوى على من التركيب، دراسة العلاقات التي تنتظم بها الجمل فتكون وحدة لغوية أكبر نسميها هنا "الخطاب". بحيث ينحل الخطاب مباشرة إلى، جمل، والجملة تنحل بدورها إلى مركبات تنحل إلىعناصر تقبل التجزئة إلى أن يتوقف التحليل عند عناصر نووية. إذا

(8207/1)

وقع التسليم بهذا التدرج صار بالإمكان التقيد في المرحلة الأولى بقضايا لغوية تنتمي إلى نحو الجملة، على

أن يكون تناولها في مستوى من المعالجة واحدا. وذلك بمقتضى المثبت في الفقرة الأولى.

... 3- يهتدي كل ناظر في النحو العربي الذي بين أيدينا إلى ظاهرة استقراره، مع ابن مالك وشروح ألفيته، على أبواب ثابتة لا تتغير. ثبوت النحو العربي على أبوابه المألوفة قد يعكسه أيضا سرد المفردات التي يكون مقررات مادة النحو في مدارسنا وجامعاتنا.

(8208/1)

... بعد أبواب المقدمة؛ حيث يتوجه الاهتمام إلى أقسام الكلم وإلى تفريعات كل قسم وضوابط كل فرع، تأتي المرفوعات وقد اقترن ذكر، بعض النواسخ بالمبتدأ وخبره، والفعل المبني للمفعول بالفاعل. فالمنصوبات بعدها المجرورات والتوابع. وقد ينجر الحديث إلى تناول ظواهر صرفية كصيغ التفضيل وأخرى صوتية كالترخيم. ولا يستعبد أن يتعذر حصر القضايا المتناولة مع المنصوبات في كل كتاب من كتب النحو العربي. وتكفي المقارنة بين بعضها للوقوف على صحة المثبت هنا.

(8209/1)

... 4 –كل ما سرد في الفقرة الثالثة من أبواب النحو وغيرها مما لم يذكر وهو كثير يمكن تجميعه في باب عام لتناوله تناولا واحدا. بمعنى يمكن أن نتحدث عنها في مستوى أعلى من التعميم بعدد قليل من الرواسم، بحيث تستغرق كل راسمة ؟ أبوابا تصلح أن تنتمي إلى تلك الراسمة.

... هب أنك ترغب في تكوين تصور عن المقصود براسمة الجملة. عندئذ لا يخلو الامر من أن تردد مع ابن جني والزمخشري وابن هشام كون الجملة مرادفة للقول أو الكلام؛ وهي "عبارة عن الفعل وفاعله كقام زيد،والمبتدأ وخبره كزيد قائم، وماكان بمنزلة أحدهما نحو ضرب

(8210/1)

اللص، وأقائم الزيدان وكان زيد قائما وظننته قائما"(1) . أو أن تتخلى عن وصف الجملة؛ بالمصادق كما عرفها ابن هشام بالامثلة في عبارته السابقة وعند اختيار الاحتمال الثاني كان له الدور الاتي في تجميع أبواب نحو الجملة.

1.الجملة؛ مكوناتها

... تشترك جمل اللغات البشرية في تكونها من «إسناد» مع «الصدور» و «الفضلات» أو بدونها. بمعنى للجملة في كل اللغات نواة لا بد منها تتمثل في علاقة الإسناد (سند). وقد تسبقها صدور (صد) وتلحقها

---

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص. 419. انظر أيضا خصائص ابن جني. ومفصل الزمخشري.

(8211/1)

فضلات(فض). يمكن صوغ ذلك دفعة واحدة بالعبارة (1) التالية.

(1) ج ((صد (سند) (فض.

... وإذا كان فصل الصرف عن النحو محكما، وكذلك باقي فصوص اللغة العربية، تعين ألا يخرج شيء من أبواب النحو عن إحدى الرواسم الثلاثة التي تكون الجملة. إذ لو جئنا بجملة من أية لغة لوجدناها قابلة لأن تنحل إلى المكونات المذكورة بقطع النظر عن موقع كل منها تبعا لاختيار كل لغة.وفي مستوى أدون من التحليل تجد مكون الإسناد يتألف، تبعا لسيبويه(1)

---

(1) انظر "باب الإسناد" من "كتاب سيبويه "، و"باب المجاز العقلي" من لأسرار البلاغة للجرجاني.

(8212/1)

، من مسند إليه (م) ومسند (م) وعلاقة تركيبية (ع) لها صور متغايرة في مختلف اللغات. ما ذكرناه هنا يمكن صوغه من جديد في العبارة (2)التالية.

(2) سند (م ع م، أو، م ع م.

... وبدمج محتوى العبارتين (1و2) السابقتين نحصل على مكونات للجملة في أي لغة، كما تعبر عنها الشجرة (3) الممثل لها بالجملة (كان عبده منشرحا البارحة). ... ...

ج

(صد (فض

سند

م ع م

كان عبده (2ض) منشرحا البارحة

... وإذا عكسنا اتجاه مكونات الجملة لمسايرة لغة تكتب من اليسارنحو اليمين، كالهوسا ونحوها الفرنسية، صار بالإمكان تشجير جملة من

(8213/1)

إحدى اللغتين كما في مثل(4).

... (4)

ج

(صد (فض

سند

م ع م

Puorauoi Abdouh était triste hier matin

... بعد أن بينا إمكان التعبير برواسم عامة عن مكونات الجملة الأساس يهمنا الآن أن نكشف عن كيفية انضواء الأبواب التي تشكل نحو الجملة إلى المكون الذي يصلح لها ولنبدأ بأول باب في المقدمة تناول كلم العربية.

1.1 **الكلم الأصول وفروعها.**

... قبل الشروع في تناول مجمل لمسألة الكلم، أو غيرها، ينبغي التقيد حاليا بمبدأين؛

1) **مبدأ السبر في التصنيف باعتباره الضامن لعدم الخلط بين مستويات الاقسام.**

(8214/1)

---

2) مبدأ الإناطة الذي يقضي بتعيين الخاصية التي تعلق موضوع أي باب نحوي بأحد مكونات الجملة المشخصة بالمثال(3) أعلاه.

... عملا بمبدأ السبر المذكور يكون الكلم جمعا لثلاث مقولات أصول:

1) فعل تام؛ يتميز بكونه حدثا (ح) مقترنا بزمان محصل (ز)، ويعبر عنه كالتالي (+ح+ز) من أمثلته جمع، وقفز، وسقط

2) اسم محض متميز بخصائصه ((ح (ز). مثاله جبل، يوم.

3) أداة : لهذه المقولة خصائصها الفارقة المتمثلة في (– ح –م–ز) من بين ما تضم الأداة نذكر (هل، إلا، لن، في).

(8215/1)

... وعملا بمبدأ الإناطة تستقل الأداة بالدخول الى الجملة عن طريق (صد) لاغير، أو أن نقترن بغيرها مما يدخل إليها من مسلك آخر. ويستقل الفعل التام بطريق (م) فلا يسمح لمقولة من مستواه أن تشاركه هذه الطريق. أما الاسم المحض فهو مخير بين طريقي (م) و(فض)، ومجبر

على ولوج الجملة من أحدهما. وكل مخالفة، بأن تأتي الجملة مقولة من غير طريقها، فإنها تسبب في نشوء جملة فاسدة.

... وبالعودة إلى مبدأ السبر يمكن، في مستوى أدون، الحصول على مقولات فروع؛ بوصفها تتركب من أبعاد خصائص المقولات الأصول. كأن نأخذ (+م) من الفعل

(8216/1)

التام، و(–ز) من الاسم لمحض لنحصل على (+م–ز). وهي الخاصية المميزة لمقولة الاسم القلب الفرعية التي تضم لمصادر وكل الأسماء المشتقة. ونركب للفعل الناقص الخاصية (–م+ز) المميزة له، بأن نأخذ

(–م) من الأداة و(+ز) من الفعل التام. وإذا أخذنا من الأداة (–م–ز) ومن الاسم المحض (+م) نكون قد كونا خاصية جديدة (+م–ز) نميز بها الاسم الناقص، مثل، (هذا، والذي، وهو).

... وبالعودة أيضا إلى مبدأ الإناطة نجد الفعل الناقص (–م+ز) يجمع بين سلوك الأداة إذ لا يدخل إلىالجملة إلاعن طريق (صد)، وبين سلوك الفعل إذ يتصرف تصرفه.

(8217/1)

كما يجمع الاسم القلب (+م-ز) بين سلوك الفعل التام وسلوك الاسم المحض. فيدخل إلى الجملة من جميع الطرق خلا (صد). وكذلك حال الاسم الناقص؛ إذ يجمع بين سلوك الاسم المحض، بوصفه يدخل إلى الجملة من طريقيه (م) و(فض)، وبين سلوك الأ داة بوصفه لا يتمكن من معناه ولا يثبت عليه، فصار لفظه مبنيا كالأداة. وهو الشبه الذي لاحظه نحاة متأخرون وسموه شبها افتقاريا (1)

... مما تقدم تحصل لدينا من الكلم الأقسام التالية :

(1) انظر ما قدمته شروح "الألفية" من علل بناء الأسم.

(8218/1)

... -(1) كلم أصول؛ تتميز باستقلال كل ضرب بخصائصه الفارقة له عن غيره من نفس المستوى. وهي ثلاثة أضرب.

... (1) *اسم محض يتكون من خصائص ((م (ز [ويتفرع إلى]+م-ز [مثل جبل، وشجرة، وفرس ونحو ذلك، وإلى]-م+ز [مثل يوم، وثانية، وقرن، وهلم جرا.

... * (2) فعل تام؛ وهو المتكون من عنصر الحدث والزمان. كما تقدم التعبير عنهما في]+م+ز [. والفعل باعتبار عنصر الزمان]+ز [ثلاث أضرب : فعل مستقبل فحاضر

فماض. وهو باعتبار عنصر الحدث]+م[إما فعل قاصر؛ وهو الفعل الذي يراكب اسما إعرابه الرفع ووظيفته النحوية المفعولية.

(8219/1)

من أمثلته (سقطت التفاحة)، و(هلك القوم)، و(حمض اللبن) و(جملت البنت) و(سعد الفائز) و (فرح الأب). وإما فعل لازم؛ وهوالفعل الذي يعلمه الاسم المرفوع الذي يراكبه بنفسه، بحيث يكون الفاعل حاملا لأثر فعله. من هذا القبيل (أقلعت الطائرة)و
(هرب السنور) . وإما فعل متعد؛ وهو كل فعل يعلمه مراكبه بغيره. مثل (جمع الراعي قطيعة)، و(أهدى خالد الكتاب لأخيه)(1) . وعند حدف حرف الإضافة من المفعول الثاني

---

(1) للتوسع في تصنيف الفعل القاصر والازم والمتعدي انظر محمد الأوراغي، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم.

(8220/1)

(لأخيه) تحول هذا الأخير إلى موقع المفعول الأول، فتكون صنف الفعل المتخطى ، كما في مثل (أعطى زيد عمرا كتابا). وأصل هذه الجملة (أعطى زيد كتابا لعمرو).

... (3) *الأداة ؛ لهذا الضرب الخصائص المقولية [-ز-م-م] التي خولت لهاالدخول إلى الجملة عن طريق (صد) ما لم ترافق ما تقترن به . كما سيتضح بعد قليل . والأداة ، باعتبارما تراكب، صنفان؛ أداة اقترانية، وهي المختصة التي تلازم إحدى المقولتين السابقتين. والاقتران هنا تجاوز أو تجانس كما سيتضح. وأداة افتراقية ؛ وهي التي لا تختص بملازمة أي من الصنفين السابقين،

(8221/1)

وعدم الاختصاص سمة العاطل، فلا تكون الأداة الافتراقية عاملة. من هذا الصنف نذكر على سبيل التمثيل (هل ، إلا، و). والاداة الاقترانية ضربان : أداة اقترانية دامجة وهي المعتبرة عند النحاة جزءا مما اقترنت به فلا تعمل فيه . من هذا القبيل ذكروا (قد، سوف ، ال) ونحوها. وليس لصنف الدامج من الأدوات سوى مرافقة ما اقترنت به فتدخل معه إلى الجملة من طريقه.. أما الضرب الاخر من الأدوات الاقترانية فهو الأداة الخارجة. وهذه تتميز

بالعمل فيما تقترن به. وقد تقدم أن الاقتران إما أن يقوم على التجاور؛ من هذا القبيل

(8222/1)

حروف الإضافة التي تعمل الجر فيما اقترنت به من الأسماء. وكذلك الحروف العاملة في الفعل المضارع، وإما أن يقوم الإقتران على التجانس . فتكون الأداة مقترنة بما يجانسها عاملة فيه وإن لم يجاورها. من هذا القبيل (ليس) ونحوها من الأفعال الناقصة التي سيأتي ذكرها ضمن أقسام الكلم الفروع .

... (1.1) كلم فروع؛ تتميز بكون خصائصها الفارقة مركبة من بعض خصائص الكلم الأصول. وهي ثلاثة أضرب كما تقدم :

... (1) فعل ناقص [+ز –م] يدخل إلى الجملة عن طريق (صد) كالأداة الاقترانية الخارجة التي تعمل فيها يجانسها. من هذا القبيل

(8223/1)

(كان) في قوله تعالى {كان الناس أمة واحدة }. حيث لا تعمل (كان) إلا في الخبر(1). لأن مدلولها زمان يقترن بالحدث أو المحمول الذي هوخبر المبتدأ وسوف نعود إلى (كان) ونحوها في موضوع الإعراب .

... (2). اسم ناقص [+م–ز] يتميز بالدخول إلى الجملة من طريقي الإسم المحض، وبالافتقار إلى مضمر يعينه على تحديد معناه. إذ كل ضمير يدل على معنى مدلول عليه باسم محض آخر، وكذلك الموصول والإشارة .وهو كالاسم المحض

---

(1) للتوسع في الموضوع انظر محمد الأوراغي، "إعراب الناسخ الحرفي"، ضمن العدد التاسع من مجلة كلية الآداب الرباط

قابل لأثر العامل ولا يعمل. إلاأن المحض قابل معرب وضعا وموضعا، إذ تتعاقب على حرفه الإعرابي علامات الإعراب الثلاثة : الضم والفتح والكسر، مالم يمنع الصرف الأخيرة . بينما الاسم الناقص يكون مبينا وضعا كالأداة لكنه معرب موضعا كالاسم المحض .

... (3). الاسم القلب [+م–ز]، هذا الصنف يتميزبخاصية

التقلب التي تتمثل أولا في دخوله إلى الجملة من طريقي الفعل والاسم المحض. وثانيا في كونه عاملا كالفعل وقابلا كالاسم. وخاصية التقلب هذه تتوفر في المصادر والأسماء المشتقة . إذ جميعها تكون قابلة وعاملة عمل أفعالها .

(8225/1)

... نجمل بعض التفريعات المقدمة كالتالي.

... (5) ... ... 1.اسم محض. (1.1)

... ... 1.أصول ... ... 2. فعل تام. (2.1)

... ... 3. أداة. (3.1)

... كلم

... ... 1. اسم ناقص. (1.2)

... ... 2.فروع ... ... 2. اسم قلب. (2.2)

... ... 3. فعل ناقص. (3.2)

... ويمكن الاستمرار في الكشف عن الخصائص الفارقة للمقولات المسرودة في المبيان (5) انطلاقا من مكون الجملة النووي الذي هو الإسناد (سند). وهكذا يمكن أن نلاحظ أن أي

(8226/1)

مقولة من الكلم الأصول لا تراكب مثلها. فلا يجوز شيء من التراكيب الاتية

... (6)(1.1 ع 1.1)* = الباخرة هلال*–السراب غصن*.

... فساد الإسناد (1.1ع1.1) تنبه إليه النحاة قديما إذ قالوا اسم الجثة يخبر عنه ولا يخبر به. وإذ وقع فإن الامر لا يخلو؛ إما أن يجوزه علم البيان في مثل ((خالد بحر) علما)، و((بكر أسد) شجاعة)، وأما أن يجوزه تركيب التقييد(1) المحقق بعلاقة الانتماء (–)

---

(1) تركيب التقليد استعمله المناطقة العرب والنحاة بعدهم فيما يطلق عليه حاليا الجملة التحليلية ترجمة للمصطلح الأجنلب phrase analytique

(8227/1)

كما في مثل (المرجان حيوان)، و(الحاسوب الة)، وبغير أحد هذين المسوغين؛ علم البيان وتركيب التقييد، يظل تركيب الإسناد (1.1ع 1.1) فاسدا

... (7) (2.1 ع2.1)*= وقف يهرب* – سمع هلك* – يفوز

يعمل *.

... وفي فساد التركيب (2.1ع 2.1) ذكر قدماء النحاة ؛ أن الفعل يخبر به ولا يخبر عنه. وقالوا أيضا لا يدخل الفعل على مثله. وإذا توالى فعلان، كما هوحال أفعال الشروع والمقاربة في مثل (كاد يسقط الولد) و(همت تخرج ليلى)، فإن علاقة الإسناد (ع) لا تقوم بين الفعلين المتواليين، وإنما تقوم بين المسند إليه (مَ) وكلا الفعلين

(8228/1)

على النحو التالي (كاد ع الولد ع يسقط)، و(كادت ع ليلى ع تخرج). يدل على ذلك علامة المطابقة بين المتساندين، إذ هي الشاهد الحسي على (ع) المجردة(1) . وعندما يكون أحد الفعلين المتوالين ناقصا كما في مثل (كان يلعب الطفل)، فإن علاقة الإسناد (ع) تقوم بين المسند إليه (م) و الفعل التام على النحو التالي (كان(يلعب ع الطفل)).

---

(1) إذا توالى فعلان بعسر الشرط المذكور أعلاه انقلب الأول حرفا. قال ابن هشام "قل في قلم يقوم زيد لما

استعملت استعمال ما النافية لم تحتج لفاعل"، المغني، ص. 756.

(8229/1)

... وإذا اتضح أن الاداة (3.1) **لا تدخل أصلا إلى الجملة من مكونها النووي (سند) وكذلك الافعال الناقصة**(3.2) **لعلة سبق ذكرها، فإن هاتين المقولتين لا تراكبان مثليهما ولا غيرهما بواسطة (ع). وعليه بقي النظر في الاسمين الناقص** (1.2) **والقلب**(2.2)

... (8) (2.1**ع** 2.1**)*= حيث هو*–الذي هذا*–من كيف*.**

... الاسم الناقص كالاسم المحض لا يراكب مثله. لأنهما لا يدخلان الى الجملة من طريق المسند (م). وإذا راكب اسم ناقص مثله، كما في الاستفهام خاصة من نحو (منذ متى)، و

(8230/1)

(أين هو)، و(مَن هذا) و(كيف أنت)، فإن في الجملة حذفا يشهد عليه ظهوره في قوله تعالى {أنّى لك هذا} حيث يكون حرف الجر (ل) متعلقا بفعل أو مشتق منه. وعليه

فإن أصل الجمل السابقة على التوالي يكون كما يلي (كان منذ متى)، و(أين يوجد) و(من يكون هذا)، و(كيف حالك).

... وإذا كان الاسم الناقص كالاسم المحض يراكبان بواسطة (ع) الفعل التام فإن كلاهما يراكب الاخر بمسوغ الحذف في الاستفهام؛ كما في مثل (أين الضيف) و(من الرجل)، و(كيف الجو)، و(أيان يوم الدين)، أو بأحد مسوغي ماركبة الاسم المحض لمثله. كما في مثل (هو بحر)،

(8231/1)

و(هذارجل).

... (9) (2.2ع 2.2) = الصبر محمود – القادم عدل – العرّاف ضال –

... من صحة الامثلة يظهر أن الاسم القلب يتميز عن باقي المقولات الاصول والفروع بأمكان مراكبته لمثله بواسطة (ع). ولا يشذ منه سوى المصدر الذي لا يراكب مثله إلا بمسوغ؛ كتركيب التقييد في مثل (السلب ظلم)، أو بمسوغ بياني في نحو (التكليف تشريف).

... يتبين من الامثلة السابقة أن الاسم القلب مخير في الدخول إلى الجملة من المسند إليه (م) أو من المسند (م)

إذا راكب مثله. لكنه مراكبته لغيره يجبره عل إحدى الطريقين. فإذا راكب فعلا تاما أجبره

(8232/1)

هذا الأخير على طريق المسند إليه (م) ويكون مجبرا على سلوك طريق المسند(م)إن راكبه الاسمان المحض أو الناقص.

... وإذا اتضح التصنيف العلاقي لأقسام الكلم المرصود من مكونات الجملة الثلاث أمكن الآن المرور إلى باب آخر في المقدمة، من جملة ما يتناول فيه مسألة المعرب والمبنى.

2.1. **عوامل الإعراب ونواسخه.**

... من بين ما ينبغي الاهتمام به في هذا البحث أيضا أن نبين، بالنسبة إلى كل المسائل المتناولة فيه، كيف يكون إجراء مبدأ السبر للمحافظة على تقريع متجانس، وإجراء مبدأ الإناطة لإرجاع أي خاصية تميز الموصوق إلى أحد

(8233/1)

مكونات الجملة الأساس؛ ((صد (سند) (فض).

... يظهر من العنوان المقترح؛ (عوامل الإعراب ونواسخه)، أن هذا المبحث يرادف بمسائله العاملية بوصفها جهازا مفهوميا يتألف من العامل والأثر والقابل. ولننظر بأيجاز في كل واحد على حدة.

1.2.1. العامل .

... العامل هنا عبارة عن شرط ضروري لإسناد إعراب معين إلى قابل. وقد انقسم نحاة اللغة العربية حول العامل من الإعراب. فرأى بعضهم أن العامل يجلب أكثر من إعراب واحد، كالفعل الذي يجلب إعراب الرفع للفاعل وإعراب النصب للمفعول، ورأى غيرهم أن العامل يجلب إعرابا واحدا لاغير

(8234/1)

كأن يجلب الفعل الرفع للفاعل، والمركب من الفعل والفاعل عامل يجلب النصب للمفعول.وسوف نأخذ بالرأي الثاني. لأنه لايجوز أن يعلق بنفس الشرط أثرا ن متغايران. وعليه نتبنى أصلا إعرابيا يفيد أن العامل يجلب نوعا واحدا من الإعراب للقابل أو القوابل الواقعة في حيزه.

... وإذا سايرنا الزمخشري(1) الذي اعتبر علاقة الإسناد

(ع) عاملا يجلب إعراب الرفع للمتساندين إذا كانا قابلين أو لأحدهما إذا كان الآخر غير قابل صار بالأمكان اعتبار علاقة الإفضال (–

---

(1) انظر باب المبتدأ والخبر من كتاب الزمخشري، المفصل في علم العربية.

(8235/1)

) القائمة بين (سند) و((فض) عاملا يجلب إعراب النصب للقوابل الفضلات. وبذلك نكون قد حصلنا على عامل (–) للنصب من جنس (ع) العامل للرفع .وعملا بميدأ الإناطة يتعين إظهار عامل النصب ضمن مكونات الجملة المعبر عنها من جديد بالصيغة (10) الموالية.

... (10) ج(((صد (م ع م) – (فض).

... ومما تقدم يظهر أن الإعراب نوعان لا غير. 1) رفع؛ وهو الإعراب الذي تعمله علاقة الإسناد (ع) وعلامته الضمة (ي) أو ما ينوب عنها كالواو في الأسماء الخمسة وجمع المذكر السالم، والألف في المثنى، وثبوت النون في الأفعال الخمسة. و2) نصب

(8236/1)

؛ وهو الإعراب الذي تعمله علاقة الإفضال (–)، وتكون علامته الفتحة (ي) أو ماينوب عنها كالألف في الأسماء الخمسة والياء في المثنى وجمع المذكر السالم وحذف النون في الأفعال الخمسة.

... وفي مستوى ثان من تفريع العوامل نحصل على جنس مغاير للعامل العلاقة.

إنها العوامل المفردات التي تنتمي إلى الصدور أو إلى الاقتران الخارج من الأدوات كما سبق تحديدها. ولهذه خصائص مميزة تفصلها عن العامل العلاقة كما سيتضح.

2.2.1. نواسخ الرفع والنصب.

(8237/1)

... سبق أن أثبتنا في موضع آخر(1) أن الناسخ عنصر لا يدخل تركيب الإسناد، وإنما يلحق الجملة فينسخ إعراب أحد مكونيها، وكنا حينئذ نتحدث عن نواسخ الرفع العاملة مباشرة في أحد المتساندين إذ يبقى الآخر محتفظا بإعرابه الأصلي. وبإضافتنا في هذا الموضع لنواسخ النصب تأتى تناول الصنفين من خصائصها الجامعة.

... النواسخ، مقوليا تنتمي إلى الأداة؛ مثل (ءن) و(إلى) ونحوهما. أو إلى ما دخلت الأداة في تركيبه؛ مثل (كان) ونحوها (ليس) أو ما جرى مجراهما. وهي عامليا تجلب للقابل علامة تطمس به

---

(1) انظر إعراب الناسخ الحرفي .

(8238/1)

إعرابه السابق، وتركيب تشكل مع معمولها المنسوخ إعرابه الأصلي مركبا واحدا يقع في مجال العامل العلاقة. وهي باعتبار الإعراب الذي تطمسه بعملها نوعان.

1) ناسخ الرفع :

... نواسخ الرفع الذي تعمله علاقة الإسناد (ع). وهذه النواسخ، باعتبار المنسوخ إعرابه، صنفان؛ أحدهما ينسخ إعراب المبتدأ فقط أما الخبر فيظل محتفظا بإعرابه الأصلي. من هذا لصنف الناسخ الحرفي (ءن) الذي يكون مع معموله مركبا واقعا في مجال عامل الرفع (ع) الذي يظهر أثره على المعطوف (رسوله) في الآية (11) الموالية :

(8239/1)

(11) (إن الله بريء من المشركين ورسوله).

... والآخر ماينسخ إعراب الخبر. أما المبتدأ فمحتفظ بإعرابه الذي كان له قبل دخول النساخ. ومن هذا الصنف الناسخ الفعلي أو الفعل الناقص (كان) ونظائره في مثل قوله تعالى : {كان الناس أمة واحدة }. وبالعطف على محل المركب من الناسخ معموله تصير الجملة (12) الموالية جائزة(1).

(12) ليت الجو بات حارا وممطر.

---

(1) انظر سيبويه حيث يتناول القطع، الكتاب، ج. 1،ص. 24، وج. 2، ص. 224.

(8240/1)

وبصحة العطف على المحل، كما في مثل العبارتين (11، 12) ونحوهما الكثير، يكون ناسخ الرفع ومعموله واقعين في مجال عامل هو (ع)، إذ تحول إلى جزء من مركب يستلم إعراب العامل الأصلي، يعني هذا أن الناسخ يعمل عملا داخليا لأنه يتسلط على قابل يراقبه عامل آخر. وهذه خاصية الناسخ بصفة عامة تلاحظ أيضا في نواسخ النصب في المبحث الموالي.

2) ناسخ النصب.

... مثل الأدوات (إلى، عن، في) يسميها سيبويه(1)حروف الإضافة. مستندا في هذه التسمية إلى وظيفتها التركيبية التي هي إضافة معاني الأفعال

---

(1) سيبويه ، الكتاب، ج. 1،ص. 209.

(8241/1)

قبلها إلى الأسماء بعدها فعلقتها بها. وتسمى في النحو المتأخر، باعتبار الأثر الذي تحدثه في الاسم الذي يراكبها، بحروف الجر. لأنها، كما يقول ابن يعيش " تجر ما بعدها من الأسماء أي تخفضها. وهي متساوية في إيصال الأفعال إلى ما بعدها وعمل الخفض وإن اختلفت معانيها " (1) .

... وعملا بأصل النصب على نزع الخافض المستثمر في مقتضب المبرد على أوسع نطاق تعين أن يكون لحوق حرف الجر ناسخا لإعراب النصب الذي تعمله علاقة الإفضال التركيبية(–) إذ بعمله للجر في الاسم يكون قد طمس

---

(1) ابن يعيش شرح المفصل، ج. 8، ص. 7.

(8242/1)

الفتحة المعربة عن إعراب النصب. وعليه فإن حرف الإضافة (إلى)ونحوه في مثل الجملة (دخل الهارب إلى المسجد) يكون عاملا عملا داخليا. أي أن حروف الجر، كما سبق، يتسلط عملها على اسم معمول بغير الحرف فيطمس أثر العامل (–) القديم ولكنه لايلغيه. إذ يستلمه من جديد المركب من حرف الإضافة والاسم المجرور، كما يتضح من المقارنة بين جمل المجموعة (13) التالية.

(13) (أ) دخلت القوارض مخبزة.

(ب) دخلت القوارض إلى مخبزة.

(ج) دخلت القوارض إلى مخبزة ودكانا.

(8243/1)

... يستفاد من الجملة (13 أ) أن المركب الفعلي (دخلت القوارض) تنتظمه علاقة الإفضال (–) التركيبية بالسم الفضلة (مخبزة) الذي تلقى إعراب النصب والفتحة المعربة عن ذلك الإعراب وبما أن حروف الإضافة تستمد من " مبدأ الجوار" القدرة على أن تطمس بعملها للجر إعرابا سابقا، وهو النصب، من غير أن تقوى على إلغائه

لوقوعها بدورها في مجال عامل سابق وجب أن يتولد عن إقتران (إلى) بالاسم (مخبزة) في الجملة(13 ب) عمل داخلي؛ يتمثل في نسخ الفتحة التي هي علامة لحالة النصب المسندة عندئذ إلى المركب الحرفي (إلى مخبزة) لوقوعه

(8244/1)

في مجال عامل سابق (–). ويشهد على استلام المركب الحرفي لحالة النصب ظهور الفتحة علامة هذه الحالة على المعطوف (دكانا) في الجملة (13 ج).

... كون المركب الحرفي يستلم حالة النصب ذكره أكثر من نحوي وعبر عنه ابن يعيش بقوله : "قد تنصب ما عطفته على الجار والمجرور نحو قولك : مررت بزيد وعمرا، وإن شئت (وعمروا) بالخفض على اللفظ والنصب على الموضع... فهذا يؤذن بأن الجار والمجرور في موضع نصب ولذلك قال سيبويه : إنك قلت : مررت بزيد فكأنك قلت مررت زيدا. يريد أنه لو كان مما يجوز أن يستعمل بغيرحرف جر لكان منصوبا.

(8245/1)

وجملة الأمر أن حرف الجر منزل جزء من الاسم من حيث كان وما بعده في موضع نصب"(1) . وقد ينسخ حرف الإضافة بعمله للجر إعراب الرفع ويطمس الضمة المعربة عنه، كما تكشف الجملة(2) التالية :

(14) كفى بالكتاب مؤنسا.

... لكن حرف الباء ونحوه ليس له في مثل الجملة (14) سوى عمل الجر، أما وظيفة الإضافة التي يطلع بها كل جار فملغاة إن اقترن الحرف باسم إعرابه الرفع ووظيفته النحوية الفاعلية. ولذلك وصف النحاة

---

(1) ابن يعسش ، شرح المفصل،ج. 8، ص. 10.

(2) للتوسع في مواضع زيادة حروف الجر انظر ابن هشام، مغني البيب، ص. 112.

(8246/1)

بالزيادة كل حرف جر داخل على الفاعل. لأن الأصل في وضع حروف الإضافة أن تساعد أفعالا ضعيفة لا تقوى بمفردها على تجاوز المرفوع. وقد تحدث ابن يعيش في الموضع المشار إليه في الطرة (13) بإسهاب عن الأفعال الضعيفة التي لا تتجاوز المرفوع إلا باسترناد العون من حروف الجر.

... ومما أوردناه حول وظيفة حرف الإضافة عمله الداخلي نستخلص فرضيات من أهمها :

... أولا : من عوامل الإعراب ما يكون داخليا، كأن يجلب لمعموله علامة ينسخ بها إعرابه السابق، فيشكل معه مركبا يتلقى الإعراب المطموس علامته. وكل عامل يطمس بعمله

(8247/1)

إعراباسابقا، فهو ناسخ لإعراب أصلي.

... ثانيا : نواسخ الإعراب الأصلي قسمان. أحدهما يضم نواسخ تجلب فتحه لمعمولاتها فتطمس بها إعراب الرفع الذي كان لها. والآخر يضم نواسخ تجلب الكسرة لمعمولاتها فتطمس بها إعراب النصب الذي كان لها.

... نخلص مما أوردناه أن المؤثر الذي يجلب الإعراب للقابل صنفان، وذلك باعتبار طبيعته. الصنف الأول ذو طبيعة علاقية، وهذا يتفرع إلى ضربين ؛ عامل الرفع المتمثل في علاقة الإسناد (ع) وعامل النصب الذي هو علاقة الإفضال (3) أما الصنف الثاني فذو طبيعة المفردات المنتمي إلى مقولة الأداة

(8248/1)

أو ما تركب من بعض عناصرها، وله عمل نسخ إعراب سابق، وهذا الصنف ضربان أيضا. إما ناسخ للرفع كالنواسخ الحرفية والفعلية، وإما ناسخ للنصب كحروف الجر. يلخص كل ذلك دفعة واحدة كما في العبارة(15) الموالية.

رفع (ع)

... ... عامل

... ... نصب (3)

... جالب الإعراب

... ... 1رفع (إن، كان...)

... ... ناسخ ... ...

... ... نصب (على، إلى...)

(8249/1)

... ويكشف محتوى العبارة (15) أعلاه عن الكيفية التي يضمن بها مبدأ السير الانسجام في تصنيف جالب الإعراب، وعن كيف يعلق مبدأ الإناطة أي صنف من العوامل والنواسخ بمكونات الجملة الأساس المعبر عنها

من جديد في العبارة (10) السابقة والمعادة هنا للتذكير بها.

... (10) ج (((صد(م ع م) – (فض).

3.1. قابل الآثار وجالب الأحوال .

... بإعادة النظر في المبحث (2.1) المخصص لعوامل الإعراب ونواسخه سيتبين أن مبدأ الإناطة لم يعلق عاملا أو ناسخا بأي من مكونات الجملة التالية (م،م،فض) وإنما ربطهما بالمكونات الأخرى التي

(8250/1)

هي (صد، ع، –). يعني هذا أن مبدأ الإناطة يلزمه أن يعلق قابل الآثار ببعض (م، م،فض) وجالب الأحوال ببعضه الآخر.

... جاء في خصائص ابن جني أنه " بسبب الأفعال تدخل الأسماء في المعانيوالأحوال "(1). وذكر السكاكي في مفتاح العلوم، ولعله أول من استخدم مصطلح القابل، ان هذا الأخير يضم ما توفر على خاصية تهيئه لاستلام أحوال تعرض له. يترتب عن هاتين الفكرتين؛ أولا انتماء قابل الآثار وجالب الأحوال إلى المقلولتين الآتيتين :

---

(1) **ابن جني، الخصائص، ج. 2، ص.** 33

(8251/1)

... 1) الاسم بفروعه الثلاثة المحض والناقص والقلب. 2) الفعل التام بفروعه الثلاثة أيضا القاصر واللازم والمتعدي كما سيتضح. وثانيا دخول قابل الآثار وجالب الأحوال إلى الجملة من أحد مكوناتها (م، م، فض) لاغير. لأن باقي المكونات (صد، ع، –) طرق للعامل أو الناسخ .

وثالثا إمكان تصنيف قابل الأثار وجالب الأحوال إلى مايلي من الأصناف.

... 1) قابل للأحوال غير جالب غير جالب لها. هذا الصنف يضم ما يدخل إلى الجملة من أحد مكونيها (م، فض) لاغير. ولايدخل من ذينكم الطريقين سوى (أ) الاسم المحض، وهو المعرب وضعا وموضعا،

(8252/1)

لأنه يتوفر على حرف إعرابي يسمح بظهور علامة الإعراب أو تقديرها عليها لإذا امتنع ظهورها أو تعذر. (ب) الاسم الناقص، وهو المبني وضعا المعرب موضعا بمعنى لايتوفر على حرف إعرابي فيسند إلى موضعه.

... 2) جالب للأحوال غير قابل لها. يضم هذا الصنف ما يدخل إلى الجملة من مكونها (م) لاغير. وبما أنه لايقبل

العوارض لم يكن محتاجا إلى حرف إعرابي فكان مبيا وضعا وموضعها. يشمل هذا الصنف الفعل الماضي، وفعل الأمر، وأسماء الأفعال.

(8253/1)

... 3) قابل للأحوال وجالب لها. بحكم قبول هذا الصنف للعوارض وجب أن يكون معربا وضعا وموضعا، لكنه باعتبار نوع العوارض التي تلحقه فهو ضربان : (أ) فعل مضارع ؛ وهذا العنصر تعتريه معان شبيهة بالأحوال العارضة للاسم المحض ونحوه الناقص والقلب يقول السيوطي:، " ولما كان الفقل المضارع قد تعتوره معان مختلفة كالاسم دخل فيه الإعراب ليزيل اللبس عند اعتوارها"(1). أما المعاني التي تعتور المضارع فقد حصرها نحاة في تعاقب الأزمنة الثلاثة عليه. فتحلق رويه ضمة دلالة على

---

(1) السيوطي، الأشباه والنظائر، ج. 1، ص. 337.

(8254/1)

الحضور أو الاسقبل مع التسويف. ويلحقه سكون بالأداة (لم)دلالة على المضي، وفتحة بالأداة (لن) للدلالة على الاستقبال. وذكر ابن يعيش معاني أخرى إذ قال : " إذا قلت : ستكلم زيدا أ و يقضي حاجتك، فتنصب (يقضي) على معنى (إلا أن يقضي فقد جعلت قضاء حاجتك سببا لكلامه. وإذا عطفت فإنما تخبر بإنه سيقع أحد الامرين من غير أن يدخله هذا المعنى"(1). وهذا الضرب من القابل والجالب الذي هو الفعل المضارع يدخل إلى الجملة عن طريق المسند (م) لاغير.

---

(1) لبن يعيش شرح المفصل، ج. 7، ص. 22. انظر أيضا ابن هشام، مغني اللبيب، ص. 624.

(8255/1)

وبجانبه نجد (ب) الاسم القلب الذي يضم المصدر، والأسماء المشتقة كاسم الفاعل والمفعول والصفة المشبهة، وصيغ المبالغ، والتفضيل. ويمكن أن يستشهد بإعراب النحاة لمثل الجملة (16) الآتية على كون اسم القلب قابلا للأثر وجالبا للأحوال.

(16) أقائم الطالبان.

... إذ يتلقى الاسمان (قائم)، و (الزيدان) إعراب الرفع من

عامله الذي هو علاقة الإسناد (ع) في حين يجلب (قائم) لمراكبة (الطالبان) حالة الفاعلية. وبذلك يكون (أقائم) قابلا للأثر جالبا للأحوال وكذلك مثله. ومن الجملة (16) ونحوها (رجع الشاتم أخاه)، و(يقلق بكرا

(8256/1)

إزعاج خالد السائق) يتبين أن الاسم القلب يدخل الجملة من أحد مكوناتها (م، م، فض).

نخلص مما تقدم أن الأفعال تعتبر هنا شرطا لإسناد الأحوال من فاعلية أو مفعولية إلى الأسماء، وكذلك حال ما يعمل عملها في جلب تلك الأحوال من المصدر واسم الفاعل ونحوهما. كما سبق أن اعتبرنا في المبحث (1.2.1) أن إعراب الرفع تعمله العلاقة (ع)، وأن إعراب النصب تعمله علاقة(–) . وجاء في المبحث (2.2.1) أن ناسخ لرفع تعمله أدوات صدور، وناسخ النصب تعمله حروف إضافة. وبقي من مباحث المقدمة أن ننظر في الأفعال بوصفها تجلب الأحوال

(8257/1)

لغيرها.

4.1. الأفعال وعمل الأحوال.

... سبق أن بينا في توافق تام مع نحاة العربية المجمعين (1) ، أن الفعل التام خاصة يتألف من عنصري الحدث والزمان المصوغين في العبارة (17) الموالية.

... (17) ف ({ +م+ز } .

---

(1) ربط النحاة تكون ماهية الفعل باجتماع عنصري الحدث والزمان. وهذا القيد صاغة ابن يعيش وهو يقارن بين الفعلين التام والناقص في قوله "لو قدرنا انتفاء الحدث أو الزمان لبطلت حقيقة الفعل... ولما كانت "كان" تدل على مامضى م الزمان فقط.. بم تكن أفعالا إلا من جهة اللفظ ةالتصرف" شرح المفصل، ج، 7، ص. 89.

(8258/1)

... يلزم عن أئتلاف الفعل التام من دينكم العنصري أن تكون بنيته اللفظية أو القولية مؤلفة أيضا من "مادة" تقترن بعنصر الحدث و "صيغة" تقترن بعنصر الزمان. أما المادة فهي عبارة عن الأحرف الأصول، كما يستعملها ابن فارس في معجم مقاييس اللغة، وهي الدالة دلالة لفظية عند ابن جني (1) . بينما الصيغة تعبر عن

الهيئة أو القالب الذي سكبت فيه تلك المتقطعة، فتكون دلالة صناعية.

---

(1) في مسألة دلالات الفعل ابن جني، الخصائص، ج. 3، ص. 98.

(8259/1)

... يهمنا من عزل بعض العنصرين المكونين للفعل عن بعض إظهار إمكان تفريع الفعل باعتبار { +م } أو { +ز } ، ومن جهة ثانية، إثبات أن هذين العنصرين أساس أي تفريع. لأنه بالعدول عن أحدهما إلى ما يقترن به من المادة الصوتية أو الصيغة الصرفية لاضامن لعدم الخلط بين مستويات الأقسام، كما حدث في النحو المتأخر.

... في الباب الأول من الكتاب اتخذ سيبويه الزمان أساسا لتصنيف الفعل، حتى جعل في القسم الواحد أكثر من صيغة؛ (يفعل وافعل) من قسم ما لم يقع وهو المستقبل، وجعل الصيغة الواحدة في أكثر من قسم؛ (يفعل) لما هو

(8260/1)

واقع لم ينقطع وهو الحاضر؛ وقد سبق إدراجها في قسم ما لم يقع. ولكنه كان شدسد الحرص على إبراز الخصائص الفارقة، والسمات المميزة لأن (يفعل وافعل)، وإن كانا من نفس القسم ، إلا أن الأول للإخبار والآخر للأمر. كما أن انتماء (يفعل) إلى القسمين (الحاضروالمستقبل) سببه سمة مميزة؛ وهي اقتران صيغة (يفعل) بزمان غير محصل. فصار مسرحا لايتقيد بأحد الأزمنة إلا بما ينضم إليه.

... غير النحاة بع سيبويه منطلق التفريع، فاتخذوا صيغة الفعل أساسا لتقسيمه إلى (أ) ماض؛ من هذه التسمية يظهر أن المعتبر هو عنصر الزمان المقترن

(8261/1)

بالصيغة (فعل).

(ب) مضارع؛ لم يلتفت في تسمية هذا القسم لغير صيغة الفعل، بدليل إطلاق المضارع على ما يسبقه من الأحرف؛ (أ، ن، ي، ت)، التي تلتصق به. (ج) الأمر؛ تعاريف المختلفة تأتلف في أتخاذ (الطلب)، بوصفه فعلا لغويا أو أحد أقسام الكلام الثلاثة(1) ، أساسا في تسمية هذا القسم وليس يخفي ما في هذا التفريع من خلط في

---

(1) أصح التقسيمات ما جعل الكلام خبلرا؛ وهو ما لفظه متأخرا عن معناه المحقق أو المتوقع، وطلبا؛ وهو ما كان معناه متأخرا عن لفظه، وإنشاء؛ وهو ما كان لفظه مصاحبا لتحقق معناه في العقود خاصة.

(8262/1)

المستويات المتيثل في انتماء كل قسم إلى مفهوم لا يتلائم الآخر ولا يوافقه لأنه ليس من جنسه.

... يعضد تفريع سيبويه للفعل المؤسس على عنصر + { ز } إجماع النحاة في اتخاذ عنصر الحدث { +م } اساسا لإتحاد قسمي اللازم والمتعدي. وعليه لا يجوز أن يلتفت، عند أي تفريع للفعل، سوى إلى أحد هذين العنصرين { +م } أو { +ز } . وبما أن الأحوال التي يسببها الفعل للأسماء ويجلبها له لا تتعلق بغير الحدث منه لا مندوحة من اتخاذ هذا العنصر { +م } اساسا في تفريع آخر للفعل ينظر إلى أضرب الأحوال التي يجلبها لغيره وعدد كل ضرب.

(8263/1)

مقولة الفعل، كما سبق تفريعها في موضع آخر(1) ،

تتناول الأصناف الثلاثة الآتية :

... 1) الفعل القاصر يختزل إلى (فق)؛ يضم هذا الصنف كل فعل يراكب بعلاقة الإستناد اسما إعرابه الرفع، ويجلب له حالة المفعولية. ولهذا الصنف أكثر من خاصية فارقة نعيد بعضها هنا. منها أنه لايسمح ألبته باشتقاق المبني للمجهول، لأنه أصلا مبني للمفعول، وبالتالي لا يؤخذ منه اسم المفعول كما ذكره المبرد أيضا في مقتضبه إذ قال "وأنت لا تقول مرض ولا

---

(1) انظر محمد الأوراغي، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، الباب الأول من القسم الثاني.

(8264/1)

ممروض". ولا يئخذ منه (انفعل) للمطاوعة، ولا اسم الفاعل أو ما ينفرع عنه، لأن يرخص باشتقاق الصفة المشبهة لا غير. ومصدره المتميز ببنائه لا يضاف قطعا إلى الفاعل، وإنما يضاف إلى المفعول لا غير. كما في مثل (سقوط الفاكهة) و(رسوب المتهاون)، و(هلك الظالم). وأفعال هذا الضرب تتميز معجميا بخاصية كونها من الأفعال التي قال عنها الجرجاني إن الإنسان لا يقوى على فعلها

وعملها (1) . وتتميز صرفيا بانفراد بعضها بصيغة (فعل) ويكثر في بعضها الآخر (فعل) وقد يأتي القليل

---

(1) انظر علد القهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص. 413.

(8265/1)

من أفعال القاصر على هيئة (فعل)، كما يتضح من مجموعة الجمل (18) التالية :

... (18) (أ) حمض البن.

... (ب) مرض الولد .

... (ج) هلك المريض.

... الأسماء؛ (البن، والولد، والمريض) في الجمل (18) تلقت إعراب الرفع من عامله (ع) الذي هو علاقة الإسناد، وحالة المفعولية عما يراكبها من الأفعال؛ (حمض، ومرض، وهلك)، المنتمية إلى صنف الفعل القاصر. قديما قال نحاة العربية في وصف مثل الأسماء الواردة في الجمل (18) المذكورة : إنه فاعل في اللفظ والصناعة مفعول في المعنى.

(8266/1)

... 2) الفعل اللازم (فل)؛ يضم هذا الصنف كل فعل متميز معجميا بقدرة المسند إليه على عمل ذلك الفعل بنفسه. إذن، كل فعل يعمله الاسم الذي يراكبه بنفسه فهو فعل لازم. من خصائص مصدره أنه لا يضاف قطعا إلى المفعول، كما تكشف الأمثلة (رجوع المغترب)، و(قفز العداء)، و(قدوم الحاج).

... صنف الفعل اللازم يتميز اشتقاقيا بكونه لا يسمح بتفريع مجموعة من الأفعال مطلقا أو بشرط من ذلك أنه لا يسمح بتفريع (فُعل) إلا وهو مركب إلى حرف الإضافة المختزل في (ح إ) كما تكتشف عنه أمثلة الجمل الفعلية في المجموعة(19) الآتية. وكذلك

(8267/1)

شأن اسم المفعول المأخوذ من المبني له، بحيث يصير حرف الإضافة (حإ) المركب إلى اسم المفعول جزءا منه فيتحمل عنه أمارة المطابقة. أما هو فيظل محتفظا بصيغة (1) مجردة من كل أمارة. وهو ما توضحه أمثلة الجمل الاسمية في المجموعة (20).

---

(1) كون حرف الإضافة يتحمل أمارة المطابقة ذكره صرفيون منهم البيجوري لإذ قال : "وإن تصغ إسم مفعول

من لازم كفعل مر... ألزمه صيغة ذكر في سائر الأحوال ... تقول ممرور به إذا وصفت مفردا مذكرا وممرور بها إذا وصفت مفردة مؤنثة. ممرور بهم إذا وصفت جمع الذكور...". الشرح الترصيفي، ص. 38.

(8268/1)

... (19) (أ) عِيم في البركة.

... (ب) نُزل على القمر.

... (ج) صُعد إلى الجبل.

... (د) تُعلق بالثدي.

... (20) (أ) الفضاء مسبوح فيه.

... (ب) الضيوف مسلم عليهم.

... (ج) النجمان منظور إليهما.

(د) الشاعرة محتفى بها.

... وإذا كان الفعل اللازم يسمح باشتقاق (فعل م إ) والمفرع عنه (مفعول م إ) بشرط ألصاق حرف الإضافة (م إ) به أو ضمة إليه فإنه لايسمح مطلقا بتفريع (انفعل) وإن كان فعلا علاجيا. لأن (انفعل) يطابق (فَعل) من صنف اللازم. يقول المبرد : « ويكون للفاعل بالزوائد فعلا على الحقيقة نحو قولك انطلق عبد

(8269/1)

الله "(1) ولايسمح أيضا بتفريع (فاعَل) ولا (تفاعَل) المأخوذين منه لمعنى المغالبة والمشاركة في الفعل.

... أما الخاصية التركيبية المميزة لصنف الفعل اللازم فنستخلصها من خاصيته المعجمية المشار إليها في بداية تناوله؛ وهي انتقاؤه لاسم واحد يجمع بين إيجاد الفعل وتحمل أثره. فهو الموجد للفعل والمحل الذي يتحيز به؛ فلم يحتج لأن يتجاوزه إلى غيره للحول به.

يعني هذا أن الفعل اللازم يراكبه، بعلاقة الإسناد (ع) العاملة الرفع، اسم (أو

---

(1) المبرد، المقتضب، ج. 1، ص. 124، انظر أيضا سيبويه، الكتاب، ج. 2، ص. 242.

(8270/1)

موضوع) واحد، وقد جلب لمراكبه حالة الفاعلية. كما يتبين من الجمل (21) الموالية .

... (21) (أ) ثار البركان.

... (ب) أزهرت الأشجار.

... (ج) طار الخفاش.

... (د) هرب الجبان.

... يظهر من هذه المجموعة أن كل جملة فيها تتكون من 1) قابل متمثل في الأسماء الداخلة إلى الجملة عن طريق المسند إليه (م)، و2) عاملين؛ يتمثل أحدهما في علاقة الأسناد (ع) الجالبة لإعراب الرفع الظاهر علامته على القابل، والأخر في الفعل اللازم الداخل إلى الجملة عن طريق المسند (م)، والجالب لحالة الفاعلية للاسم الذي يراكبه.

(8271/1)

... 3) الفعل المتعدي (فع)؛ أهم خاصية تميز صنف المتعدي لدى النحاة ما عبر عنه ابن يعيش بقوله : "المتعدي ما يفتقر وجوده إلى محل غير الفاعل ... فكل ما أنبأ لفظه عن حلوله في حيز غير الفاعل فهو متعد"(1) . محتوى هذه العبارة منسجم مع مبدأ عقلي لايتخلف أبدا عبر عنه ابن برهان العكبري بقوله : "الفاعل يخرج المصدر من العدم إلى الوجود، والمفعول به حافظ لوجوده. فلا يستقيم تجدد المصدرإذا فرضنا انتقاء أحدهما"(2) . قصد

---

(1) ابن يعسش، شرح المفصل، ج. 7، ص. 62.

(2) ابن برهان العكبري، شرح اللمع لابن جني ج. 1، ص. 46.

(8272/1)

العبكري من وراء استعماله لمصطلح المصدرأن تتناول عبارته كل فعل أيا كان صنفه. إذ يلزم كل فعل أن ينتقي موضعين (أو اسمين) هما (س 1، س 2). أحدهما، وليكن (س1)، يخرج عنصر الحدث من العدم إلى الوجود، يكتب هكذا (س1 (م) ويقرأ الموضوع(س1) هو السبب (() في وجود عنصر الحدث(م)، والآخر؛ وهو باقي أي (س2)، يحفظ وجود الحدث، يكتب هكذا (م – س2) ويقرأ الموضوع (س2) هو الحافظ (–) لعنصر الحدث (م). وما ذكرناه متفرقا يمكن إعادته مؤلفا في العبارة (22) الموالية(1)

---

(1) للتوسع في الموضوع انظر كتابنا، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، الباب الأول من القسم الثاني.

(8273/1)

.

... (22) س1 (م – س2.

... وبما أن كل فعل في أية لغة يلزم أن ينتقي موضوعين، ولا تحصل الاستجابة إلا مع الفعل المتعدي، تعين اعتبار هذا الصنف أعدل الأفعال وأكثرها توازنا. وهذه خاصية تميز المتعدي. لأن الفعل القاصر ينقصه الموضوع (س1) الذي يتسبب في إيجاد العنصر (م)، فبقي موقعه فارغا كما توضحه العبارة (23أ). ولأن صنف الفعل اللازم يفتقر إلى الموضوع (س2) ليحفظ وجود العنصر (م) منه فلم يجد بدا من التحيز في موضوعه (س1) الذي أوجده. كما تكشف العبارة (23 ب). في المقابل ينتقي المتعدي ويستجاب له، كما هو مبين

(8274/1)

بالعبارة (23 ج) فيما يلي :

... (23) (أ) ((م – س2.

... (ب) س1 (م – س1.

... (ج) س1 (م – س2.

... أما عاميا فإن الفعل المتعدي (فع) يجلب حالة الفاعلية (فا) لموضوعه الداخل إلى الجملة عن طريق المسند إليه (م)، فيتألف منهما مركب (فع س1) يجلب حالة

المفعولية (مف) لموضوعه (س2) الداخل عن طريق الفضلة (فض) إلى الجملة وهو ما توضحه العبارة (24) الموالية.

... (24) ((فع (س1 فا) – س2 مف).

... وللفعل المتعدي خصائص صرفية تخص القياسي من صيغة وصيغ ما يشاكله من الاسم القلب أجملها سيبويه في قوله : "باب بناء الأفعال

(8275/1)

التي هي أعمال تعداك إلى غيرك وتوقعها به ومصادرها. فالأفعال تكون من هذا على ثلاثة أبنية، على فَعل يفعِل، وفعل يفعُل وفعِل يفعَل، ويكون المصدر فَعلا، والاسم فاعلا"(1) . وفي مصدره القياسي قال ابن يعيش "فَعل هو الأصل وعليه القياس" (2) . وقد بينا في موضع آخر(3) ما عرض لمصادر المتعدي المبنية على غير صيغة (فَعْل)، فلتؤخذ من هناك

---

(1) **سيبويه، الكتاب، ج. 2، ص.** 214.

(2) **ابن يعيش شرح المفصل ج.** 6، **ص.** 44.

(3) **اكتساب اللغة، ص.** 155.

(8276/1)

... ويتميز الفعل المتعدي بخصائص اشتقاقية. منها كونه يسمح مطلقا باشتقاق (فُعِل) كما يسمح بتفريع (انفعل) الذي يكون للمطاوعة، بشرط أن يكون (فَعَل) منه مدركا بالقوى الحسية، وهو الفعل العلاجي في اصطلاح النحويين. كما يسمح بتفريع (فاعل) شريط أن يصح الفعل منهما. ومن (فاعل) بذلك الشرط يجوز تفريع (تفاعل). وكل هذه الأبنية لايسمح القاصر بتفريعها ولا اللازم إلا بتقييد بعضها كما تقدم.

... 4) الفعل المتخطي. يتميز هذا الصنف معجميا بكونه فعلا مشحونا دلاليا كما هو الحال في الإشراب أو التضمين(1)

---

(1) الإشراب ذكره ابن هشام في القاعدة الثالثة إذ قال : " قد يشربون لفظا معنى لفظ آخر فيعطونه حكمه، ويسمى ذلك تضنينا، وفائدته أن تأدي كلمة مؤدى كلمتين"، المغني، ص. 762. انظر أيضا باب التضنينفي كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي.

.إذ يلزم عن وقوعه نشوء فعل آخر يسند ضمنيا إلى أحد موضوعات الفعل المشرَب. ولتوضيح علاقة اللزوم بين الفعلين المشرب والضمني يمكن التمثيل لها بالفعل (أعطى) الذي يتطلب تحققه الوجود الضمني للفعل (أخذ) إذ يلزم عن وجود معط وجود آخذ يكون المستفيد من تحقق فعل (الإعطاء). بحيث يكون فعل (الأخذ) مسندا ضمنيا إلى المفعول الأول لفعل (أعطى) في مثل الجملة (24) الآتية :

... (24) أعطى خالد بكرا كتابا.

... ولذلك اعتبر نحاة العربية المفعول الأول، في مثل الجملة (24)، فاعلا في المعنى للفعل (أخذ) الضمني.

وبسبب تجاوز

(8278/1)

الفعل (أعطى) ونحوه (منع) للمفعول أيضا جاز أن يطلق عليه اسم الفعل المتخطي. ولا يجوز أن يعد من هذا الصنف أفعال القلوب أو الذهن مثل (علم، وحسب، وظن). لأن هذه من قبيل الأفعال المتعدية لكنها تتعدى إلى جملة، ولذلك لا يجوز الاقتصار على أحد منصوبي الفعل القلبي، بخلافه الفعل المتخطي الذي يجوز أن يقتصر على المفعول الذي لا يكون فاعلا للفعل الضمي (أخذ). كما يظهر في

الجملة (25) الموالية .

... (25) أعطى خالد كتابا.

(8279/1)

... ويجوز ذكر المفعول الآخذ في آخر الجملة وهو مقترن بحرف الإضافة (ل) الدال على التمليك مما يكون مع الفعل (أهدى) و(منح) المرادفين للفعل (أعطى) في مثل الجملتين (26).

... (26) (أ) أهدى بكر سيارة أبيه لصديقه.

... (ب) منح خالد دينارا لبكر.

... ولا يستبعد، في جميع الأفعال المتخطية وعددها قليل، التوسع الذي حصل في مثل (دخل) اللازم فعدي إلى الظرف بغير حرف الإضافة في مثل (دخل) اللازم فعدي إلى الظرف بغير حرف الإضافة في مثل (دخلت الدار). والأصل (دخلت إلى الدار). ومثله أيضا (مر، وصعد). في (تمرون الديار)

(8280/1)

و(تصعدون الجبال). ويحصل التوسع في الفعل المتخطي عن طريق نقل المفعول الآخذ إلى موقع بين الفاعل والمفعول بعد نصبه بنزع الخافض منه. وهو ما توضحه المجموعة (27) بعد إجراء مبدأ التوسع على جملتي المجموعة (26) السابقة.

... (27) (أ) أهدى بكر صديقه سيارة أبيه.

... (ب) منح بكر خالدا دينارا.

... وللفعل المتخطي خاصية المحافظة على "مبدأ التناظر" الذي يضمن الانتظام لأصناف الفعل التام. مبدأ التناظر هذا يمكن توضيحه بالعبارة (28) التالية :

... (28) 3+2+1+0−1−2−3.

(1/8281)

... وإذا كان الفعل المتعدي يمثل أعدل الأصناف وأكثرها توازنا تعين أن نحتل الوسط في مبدأ التناظر المصوغ في العبارة (28) أعلاه. ليقع القاصر واللازم عن يساره إذ ينقصها موضوع كما توصح العبارة (23) السابقة، ويقع المتخطي عن يمينه. لأن هذا الصنف يزيد بنفس العدد (+1) الذي ينقص في الطرف المقابل (−1).

خلاصة

... بينا في جميع مراحل هذا البحث إمكان تنظيم النحو.

ويحصل ذلك عن طريق إجراء سلسلة من المبادئ. في المقدمة يأتي مبدأ التعميم الذي يضمن استعمال القليل من المصطلحات الواصفكل منها لعدد غير قليل من أبواب

(8282/1)

النحو. وعدم إغفال مبدأ السبر في التصنيف الذي يحافظ على تجانس الأصناف بالمحافظة على وحدة مستوياتها. ولضمان الانسجام الضروري في المعرفة العلمية يلزم ملاحظة مبدأ الإناطة في جميع أبواب النحو موضوع البحث والتحليل، فتعلق مصطلحات الوصف في كل باب بمصطلحات الانطلاق المحددة بمبدأ التعميم.

... وإذا صحت هذه المنهجية كما طبقت في أبواب مقدمة النحو المتناولة في هذا البحث من المتوقع أن تصح نتائجها عند إجرائها في دراسة باقي الأبواب المكونة لنحو الجملة. ويكفي الشروع في مبحث المرفوعات لتجد إعرابها مفسرا بعلاقة

(8283/1)

الإسناد (ع). ولنرى أيضا أن ما يكون للمرفوعات من الأحوال العارضة لها لايجلبها سوى ما يراكب المرفوع بإحدى العلاقتين؛ ((–)

من أصناف الأفعال القاصر واللازم والمتعدي والمتخطي.

... ... والله الموفق.

مصادر البحث

ابن برهان العكبري،– "شرح اللمع"، القاهرة 1986.

ابن جني، –"الخصائص"، القاهرة دار الكتب 1371**هـ**

... – "سر صناعة الإعراب"، القاهرة، الباب الحلبي 1374**ه.**

ابن سينا،– "البرهان من كتاب الشفا"، القاهرة، دار النهضة العربية 1966.

(8284/1)

... – "الإشارات والتنبيهات"، القاهرة دارالمعارف 1971.

ابن الناظم،– "شرح ألفية ابن مالك"، بيروت، بدون تاريخ.

ابن هشام،– "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب"، دمشق، دار الفكر 1384**هـ**

ابن يعسش،– "شرح المفصل"، بيروت، عالم الكتب، بدون تاريخ.

الأوراغي،– "اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم"، الرباط، دار الكلام 1990.

... – "إعراب الناسخ الحرفي" ضمن مجلة كلية الآداب الرباط عدد 19.

البيجوري،– "فتح الخبير اللطيف شرح على متن الترصيف في علم التصريف" القاهرة البابي الحلبي 1359**هـ**

(8285/1)

التفتازاني،– "شرح مختصر التصريف العربي "، القاهرة البابي الحلبي 1383**ه.**

الجرجاني،– "أسرار البلاغة"، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى 1351**ه.**

الزركشي،– "البرهان في علوم القرآن" القاهرة البابي الحلبي 1391**ه.**

الزمخرشي،– "المفصل في علم العربية"، القاهرة، مطبعة حجازي، بدون تاريخ.

السيوطي،– "الأشباه والنظائر في النحو"، بيروت، دار الكتب العلمية 1405**ه.**

... –"المزهر في علوم اللغة وأنواعها"، بدون تاريخ.

المبرد، – "المقتضب"، القاهرة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1399ه.

(8286/1)

تونس في كتابات بعض الرحال المغاربة

... ... الدكتور عبد الكريم كريم

... ... كلية الآداب –الرباط

زار القطر التونسي الشقيق في العصور الحديثة عدد من الرحالة المغاربة ودونوا معلومات هامة عن الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية وغيرها،ومن هؤلاء :

–علي التامكروتي : التحفة المسكية في السفارة التركية ،عام997 (((((((

–أحمد الصغير الدرعي: الرحلة الكبرى، عام 119ه (

–أحمد بن عبد السلام الناصري :رحلة الفاسي ،1121ه

–عمر بن الحسن الحجوي، زار تونس عام 1342ه

(8287/1)

1-طبيعة البلاد التونسية :

"سافرنا إلى بنزرت وفيها حقل ينفذ منه البحر إلى بحيرة هناك واسعة يدخل منها ماء البحر عند المد آخر النهار إلى البحيرة ويخرج منها عند أول النهار ويسمونه الوادي اكتنفته الديار والبنيان على عدوتيه فتدخل فيه السفن وتكون كأنها في داخل البلد بين الديار ويأمن أهلها عليها ...

ثم سافرنا من تونس وجزنا على رأس ادار ثم ارسينا بميناء سوسة وأقمنا مها يومين ...وعلى مقربة من صفاقس جزيرة فيها رياضهم وأشجارهم وثمارهم وخيلهم يقطعون إليها بالصنادل والصنادل هي المراكب الصغار التي تسع من

(8288/1)

العشرة إلى العشري في بحر قصير وقريب من الأرض لاتجري فيه السفن الكبار وذلك من الأسباب التي منع الله بها بلادهم وبلاد جزيرتهم من النصارى ... ثم توجهنا إلى قابس ...وساحل قابس مرسى للسفن من كل مكان ...وقابس دمشق المغرب فبغابتها أشجار وجنات وكروم وزيتون كثير وبها نخيل ملتف ورطب" (التامكروتي ص 45) .

أما الرحالة الآخرون فقد اجتازوا المنطقة الوسطى من تونس مرورا بتوزر والسبخة الكبيرة إلى مدينة قابس :

"ما رأيت ببلاد الجزيرة أكثر من توزر مياهها غزيرة وجناتها كثيرة ينساب فيها واد كبير" (الدرعي، ص 52).

(1/8289)

"السبخة الكبيرة الهائلة التي لم يسمع مثلها في الأرض في الطول والعرض والتي توجد بها آبار كثيرة الماء إلا أنها لا تصلح إلا لضرورة شرب الدواب للملوحة مائه ومرارته" (الدرعي، ص100).

"وماء حامة قابس حار جدا كأنها على النار ولا يستطيع الإنسان الجلوس فيه إلا تكلفا وكرها"(الدرعي، ص 119).

2-الأوضاع الاقتصادية :

من الجوانب التي أثارت اهتمام الرحالة المغاربة عناية أهالي توزر بصفة خاصة الزراعة وطرق توزيع المياه للرعي والسقي :"بعد اجتماع المياه بوضع يسمى وادي الجمال تنقسم على ستة جداول ويتشعب من تلك الجداول

(8290/1)

سواقي لاتحصى كثرة تجري في قنوات مبنية من الصخر على قسمة عادلة لايزيد بعضها على بعض شيئا كل ساقية سعة شبرين ويلزم كل من يسقي منها أربعة أقراص مثقال في العام ،ويلزم من يسقي نهارا أربعة أسداس المثقال في العام ويعمد الذي يكون له دور السقي إلى قادوس، والقادوس هي عبارة عن آنية تسع اللتر وبها ثقب صغير بترك أو يعلق والماء ينبع فيه وخلال الربع ساعة يكون اللتر من الماء قد نفذ ثم يملأ من جديد ،ويعتمد الذي يكون له دور السقي إلى سقي حائطه أو بستانه من تلك الجداول ... وقد علموا أن سقي اليوم الكامل هو قدما"

(8291/1)

(الناصري، ص 101).

وعن الإنتاج الفلاحي ذكر (الراعي، ص 119):

"ما رأيت كبلاد الجريد نخلا بها من الثمار مالا يحصى عدده إلا الله يرد عليها من الأعراب الآلاف المتالفة ويملأ كل واحد إبله بما شاء من الثمار وبهذه البلاد يرخص

غالبا سعر السمن واللحم وأما التمر فيها فرخيص جدا يكون كبلاد درعة" .

أما التجارة الداخلية فتعد توزر من أهم مراكزها "وبموضع في توزر يعرف بباب المنشر ينشر التجار هناك من الثياب الملونة والأمتعة الموشية ما يعمله على كبره فيتخيل لناظره أنه روض تفتحت أزهاره " (الدرعي، ص 104).

(8292/1)

أ- عامل الأمن "من الألطاف الخفية أن جميع إيالة تونس في غاية ما يكون من الأمان من شر الغارات كما هي عادة الأعراب ولايقدر أحد أن يمد يده جهارا على جهة بالتعدي خوفا من الفعل الواصل إليهم من الولادة" (الدرعي، ص 54).

ب- نظام الجباية : "نزلنا توزر ضحى يوم الأربعاء رابع شعبان عام 1121ه فوافينا بها أمير تونس رمضان باي جاء لقبض الخراج الموظف على البلاد وأخبرني بعضهم أنهم يعطون ستة نواصر على كل نخلة وأربعة على كل زيتونة وأخبرني آخر أن خراج الجريد من نفطة إلى قابس خمسمائة ألف ريال بكل عام وخراج دربة وحدها

(8293/1)

ستون ألفا" (الدرعي، ص120) .

غير أن اضطراب الأمن والتعسف في الجباية كثيرا ما تسبب في مضاعفات خطيرة :

"ذكر الدرعي أن جميع إيالة تونس في غاية ما يكون من الأمن ... لعل ذلك اتفق في زمنه أما اليوم فقد عز الأمان وشنت الغارات في كل مكان " (الناصري، ص 111).

وزاد من اضطراب الأوضاع تعسف بعض الجباة:

"نزلنا توزر... فوافينا بها رمضان باي جاء لقبض الخراج كما سنتهم قطعها الله من سنة ... لقد أضرجور بعض العمال بهذه البلاد وشاع حتى كاد الخراب يستولي عليها الضعف أهاليها بالجبايات" (الدرعي، ص 123).

(8294/1)

وخراج جربة وحدها ستون ألفا ومؤونة مائتي صاحب من القمح والأرز والسمن والزيت واللحم"(الدرعي، ص 54).

3– الناحية الأجتماعية:

أكد الرحالة المغاربة اتساع العمران وتعدد مراكز التجمع البشري في السواحل التونسية وفي المناطق

الداخلية من البلاد وأبرزوا الكثير من الصفات المتميزة للشعب التونسي وبصفة خاصة حسن الاستقبال وكرم الضيافة :

"تونس مدينة عظيمة آهلة دار علم وعمل" التامكروتي، ص 34).

"والقيروان مدينة طيبة لم أر بلدة أحسن منها ولا من أهلها بعد الحرمين الشريفين ذات بناء متقن و

(8295/1)

أسواق...وهي من المدن التي لاينبغي أن تهمل زيارتها ،ومن جملة مزاياها أنه لا يدخلها يهودي ولا غيره من الكفار ولا يخلو أهلها من مكارم الأخلاق" الفاسي، ص 70).

أما مدينة توزر " فكثير من أهلها يسكنون الغابة في مبان ضخمة حسنة بخلاف المباني داخل المدينة وليس بتوزر أحسن من هذا المنظر" (الدرعي، ص104).

"دخلنا السبخة الكبيرة الهائلة ونزلنا غرب زاوية الرمل وقبل هذه مررنا على أولاد الحاج فوجدناهم تعرضوا للحجاج بخيامهم وسط الطريق وفرحوا بهم غاية الفرح وصبوا عليهم أودية من الأطعمة واللبن تفضلا منهم وإحسانا ...

(8296/1)

وهؤلاء الناس لهم محبة تامة في الركب النبوي يطعمونه كل ما مر بهم ولهم في ذلك أحباس فقد أدخلونا دارهم في جماعة وافدة من الركب فأطعمونا قصعة كسكس ولحم ما رأيت في عمري أعظم منها وكأنها معدة لذلك وأردفوها بفواكه من عنب وغيره" (الدرعي، ص. 154).

4-الحياة الفكرية :

حرص الرحالة المغاربة على زيارة المساجد والزوايا التي توجد في المدن والمناطق التونسية التي مروا بها وسعوا إلى الالتقاء بالعلماء والفقهاء وطلبة العلم والتباحث معهم في المجالات العلمية المختلفة كما دونوا الكثير من المعلومات المتعلقة بالأماكن

(8297/1)

التي زاروها :

"تونس مدينة عظيمة آهلة دار علم وعمل فيها مساجد عامرة بذكر الله... زرنا جامع الزيتونة وما أدراك ما الجامع ،جامع عظيم البركة يعلوه نور ومهابة وانشرح

من أثر من سلك من العلماء والصالحين ينبسط فيه القلب وينشرح فيه الخاطر ولا يحب داخله أن يخرج منه . مرفوع كله من أساطين وأعمدة من رخام ملون عديم النظير بديع الصنعة مبني كله بحجر منحوت له صحن فسيح بديع الحسن بهيج المنظر وفيه إمام خطيب هو محمد الأندلسي فقيه عليه سمة أهل الخير ووقار أهل العلم يتعاطى دراسة فنون كثيرة من تفسير وفقه ونحو وبيان

(8298/1)

وغير ذلك" (التامكروتي، ص 54).

وفي سوسة (جامع مليح فسيح) وفي المنستير "رباط منعزل لأهل العلم كهيئة المدرسة مثمن البناء فيه بيوت للطلبة" (التامكروتي، ص 57).

أما مسجد القيروان الكبير فهو في غاية الإتقان وعليه أثر الرحمة والبركة وله ثمان بلاطات في غاية الكبر والضخامة وسواريها كلها من رخام وصحنها مفروش بالرخام الأبيض وله صومعة أدراجها مفروشة بالرخام يصعد إليها بمائة درجة وعشرين درجة، وبوسط بلاطها الأول عند المحراب والمنبر موضع مقطوع عن المسجد

وضعت في بعض الآلات الحربية من بقية آثار الصحابة رضي الله

(8299/1)

عنهم أجمعين" (الفاسي ، ص 77).

"وتوزر الجديدة اليوم مدينة كبيرة عامرة كل العمارة تحتوي على مساجد كثيرة تقام في الأربع منها الجمعة " (الناصري، ص 105).

"من الذين اجتمعت بهم في توزر من طلبة العلم الفقيه أبوعبد الله محمد بن أحمد بن منصور له دراية بالفقه والنحو أو قفني على ما لديه من الكتب وطلب مني أن أجزيه بما لدي بعد أن أوقفني على مالديه من الكتب وطلب مني أن أجيره بما لدي بعد أن أوقفني على إجازات لبعض من مر به من علماء أهل فاس فأجبته ،وممن اجتمعت به في توزر قاضي البلد محمد بن عيد وكانت لي معه معرفة

(8300/1)

أيام غربتي بفاس يجمعني وإياه درس شيخنا أبي عبد الله محمد ابن عبد الحي القاسي" (الدرعي، ص 105).

" ونقطة قريبة من توزر وهي عامرة بها جامع ومساجد وحمامات وجميع أهلها شيعة وتسمى الكوفة الصغرى" (الدرعي، ص 104).

من الصفات المتميزة للشعب التونسي :أصالة التدين وحبهم للجهاد والتصدي لكل غزو خارجي، ومن شواهد الإثبات على ذلك القلاع والحصون والرباطات الممتدة على طول السواحل الشمالية والشرقية التي أفسدت على الغزاة النورمانديين والإسبان وغيرهم كل محاولة للغزو وبسط النفوذ.

*** * * ***

(8301/1)

في التاريخ الحديث زار العلامة عمر بن الحسن الحجوي تونس عام 1923 ومما جاء في مذكراته عن هذه الرحلة وخاصة في الجانب الثقافي :

"لما وصلت إلى تونس ... وجدت بها ما ملأ قلبي سرورا من النظام بسبب المدرسين الذين كانوا تخرجوا من مدرسة خصوصية أهلتهم لتربية الشبان ... وهي مع كثرتها ضاقت على أولادهم لأنهم عرفوا حلاوة

العلم "(ص 16).

ويضيف "من جملة ما يسر به كل مسلم تنظيم الزيتونة وماأدراك ما الزيتونة قد جمعت هذه الكلية ما يزيد عن ألفي طالب وما يقرب من ثمانين مدرسا كلهم علماء جامعون بين العلوم الدينية

(8302/1)

والإطلاع على الأحوال الوقتية ومحصلون على عدة علوم الأسلاف" (ص 18).

"وأما الفنون التي تدرس فهي معينة على حسب المراتب وكذلك العلوم العصرية كعلم الحساب والجبر والجغرافية والهيأة والفلك والتاريخ وغير ذلك، ومن جملة الأمور التي أعانت الزيتونة على الوصول إلى هذه النتيجة هو إعطاء المدرسين المرتبات التي كفتهم مؤونة التخمين عن دقيق العليا حالة الدرس واللحم حالة المطالعة " (ص 18).

ويضيف "ومما زادني طربا وابتهجت به جوارحي احترام سادتنا العلماء عند جميع الأهالي على اختلاف طبقاتهم " (ص 20).

(8303/1)

ومن الملاحظات التي سجلها الحجوي : "ومما زاد في علو رتبه التونسيين انتشار الجرائد بين طبقات الأمة ... ومما أخذ بلبي اعتناء متخرجي المدارس... بدروس الكليات في أوربا ... للتحصيل على الشهادات العليا كشهادة الطب والهندسة وغيرها" ويختم مذكراته "لما أفاق السادات التونسيون من غفلتهم القديمة لم يكتفوا بالمبادرة إلى تربية الأولاد بل صاروا يطلبون الدواء حتى لمن اشتعل رأسه شيبا ولذلك نظموا دروسا ليلية للتعليم " (ص 28).

المصادر :

(8304/1)

– علي تامكروتي : النفحة المسكية في السفارة التركية ، مخطوط بدار الوثائق التابعة للخزانة العامة بالرباط، ك 2829 .

–أحمد بن ناصر الدرعي : الرحلة الكبرى، مخطوط بدار الوثائق بالرباط، د 1291.

–محمد بن عبد السلام الناصري : الرحلة الكبرى ،مخطوط بدار الوثائق بالرباط، د 2651

–أحمد بن عبد القادر الفاسي : رحلة الفاسي مخطوط بدار الوثائق بالرباط، ج 88 .

عمر بن الحسن الحجوي الفاسي : مسامرة أخلاقية ، فاس ،مطبعة أندري ،1923.

(8305/1)

ثلاثة قرون بين الشام والمغرب عبر الأندلس

... ... الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

... ... أكاديمية المملكة المغربية .الرباط

... كان للشام دور كبير في تعريب المغرب الكبير منذ أوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد، أي منذ أزيد من ثلاثة آلاف سنة حيث دخل الكنعانيون العرب إلى القسم الشمالي .الغربي من القارة الإفريقية وأسسوا عام 1101 قبل الميلاد مدن Leptis Magus **(لبدة الحالية في ليبيا) وعتيقة** (Utique) **في تونس وليكسو (في المغرب الأقصى)، عقبها عام 814 ق. م. تأسيس حاضرة قرطاج** (Carthage).

(8306/1)

... وقد فسح الوجود القرطجي (الكنعاني العربي) المجال بعد ذلك لانتشار اللغة البونية (Langue punique) في آفاق شاسعة من الشمال الإفريقي ضمن مصطلحية شاملة مع العامية الدارجة في المنطقة. ويتجلى ذلك بصورة واضحة على الرخامة(1) التي كشفها الدكتور البرازيلي السيد ألأديزلو نيتو وضمنها الجزء الأول من كتابه "الأنطروبولوجية"، وهي تحمل تاريخ 125 ق. م. (أي بعد أن استولى الرومان على قرطاجنة بنحو العشرين سنة) حيث توجد عشرات الألفاظ والتراكيب مفرغة في

---

(1) راجع "تقويم المنصور" للأستاذ توفيق المدني (عام 1343 هـ).

(8307/1)

قالب عربي مع تحريف لا يخفى حتى على غير الاختصاصيين في فقه اللغة وعلم الاشتقاق.

... ففي الفقرة الأولى جملة حررت بالبونية هي: "هنا احنا بنى كنعان فرنم حقرة حمل" يمكن أن نقلبها إلى عامية الشمال الإفريقي، وخاصة التونسية فنقول: "هنا احنا بنى كنعان من فرانم حملنا الحقرة". ومعناها بالفصحى: "هنا نحن بني كنعان من فرانم تحملنا

الاحتقار". ففي هذه الفقرة وحدها سبع كلمات لا يوجد فيها أي دخيل، وإنما هو انحراف بسيط عن الفصحى بسبب الاستعمال العامي المتداول. على أن البونية بدأت تتسرب إلى المغرب الأقصى مواكبة

(8308/1)

دخول القرطاجنيين الرسمي حوالي 480 ق. م. وأكد القديس أغسطين (St. Augustin) أنها ظلت متغلغلة في أنحاء البادية المغربية إلى نهاية عهد الوندال، أي إلى عهد الفتح الإسلامي؛ في حين اندرست لغة الرومان باندراس معالم الحضارة اللاتينية التي تطورت في نطاق محدود لم يتجاوز مثلثاً تمتد حدوده من طنجة إلى وليلي إلى شالة، عاشت جاليته الرومانية في قفص مقفل بعيدة عن المحيط البربري الذي كان يلفها. وقد اعترف بهذه الظاهرة مؤرخون طالما دعوا إلى "غربية" البربر(1)

---

(1) مثل كَوتيي (Gautier) مؤلف "العصور الغامضة في تاريخ المغرب".

(8309/1)

، ولكنهم اندهشوا أما هذا التجاوب العميق الذي مهد المغاور والأوعار البربرية أمام الفتح الإسلامي بانتشار "لغة قريبة من العربية". فكلمة (1)"قرطاج" نفسها معناها قرية حداش، أي القرية الحديثة. صحفت إلى "قرثاش" بتعطيش الجيم كما نطق بها الرومان.

وكذلك حنبعل (Hannibal) أصله حنى بعل، أي نعمة الله وكان اسم أبيه هو هاملكار (Hamilcar)، أي حامي القرية الذي حارب الرومان في صقلية.

---

(1) كوتيي، إفريقيا الشمالية، ص. 148.

(8310/1)

... ومنذ الفتح الإسلامي كان الخليفة الأموي في دمشق هو الذي حشد الجند بقيادة موسى بن نصير وخليفته طارق بن زياد لغزو الأندلس. وقد عبر المضيق عام 93 هـ/ 712 م في جيش قوامه عشرة آلاف رجل معظمهم عرب فيهم القيسيون واليمنيون الذين نقلوا إلى الأندلس منذ الفترة الأولى المجاذبات والنزاعات القبلية الشرقية.

... وقد انضاف إليهم اثنا عشر ألف سوري وردوا من الشام بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك بعد غزوة

الأشراف (123 هـ/ 740 م) التي تزعمها فيهم خالد بن حميد الزناتي البربري ضد الجيوش العربية.

(8311/1)

... وقبل ذلك بربع قرن، أوفد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية والمغرب قيسياً والكاتب خزرجياً.

... وهنالك انبرى المد الشامي بطريق غير مباشر في المغرب حيث تركزت لأول مرة في تاريخ العدوتين مجموعات كبيرة تمثل مختلف طبقات المجتمع الأندلسي.

... ويبلغ عدد الأسر الأندلسية التي هاجرت إلى فاس عام 202 **هـ/** 818 **م بعد وقعة الربض أربعة آلاف حسب عبد الملك الوراق وثمانية آلاف (روض القرطاس، ص.** 25**) ودوزي (تاريخ مسلمي الأندلس، ج** 1**، عام** 1932**، ص.** 301**) أو ثمانمائة فقط (هنري طيراس، تاريخ المغرب، ج** 1**، ص.**

(8312/1)

108**). وقد تحدث المقري في "نفح الطيب" (ج** 1**، ص.** 318**) عن الوقعة التي أدت إلى طرد الأندلسيين؛ فذكر أن**

الحكم بن عبد الرحمن الداخل انهمك في لذاته، فخلعه العلماء بقرطبة، فأجلاهم عن الأندلس ولحقوا بفاس والإسكندرية. ومن هذه إلى جزيرة اقريطش حيث ظلوا مدة طويلة شوكة في حلق الأسطول البيزنطي معززة بأسطولي مصر والشام.

... فإذا حاولنا التنظير بين عناصر الحضارة الأموية من نشأتها في الشام إلى امتدادها بالأندلس، لاحظنا وحدة مقومات العمران والبناء الزخرفة والنقش والثقافة والاجتماع والتراتيب الإدارية والسياسية

(8313/1)

والقضائية في هياكلها ومصطلحاتها. إلا أن الأندلس لم تتصل بهذه المعطيات مجموعة قبل وصول عبد الرحمن الداخل عام 137 هـ حيث قضى خمس سنوات بالمغرب الشمالي. ولم تكد الدولة الأموية الجديدة تستقر حتى وضع الأدارسة بفاس أسساً عمرانية كانت وفرة مياهها وبساتينها وفنادقها وقيساريتها ومساجدها مظهراً خافتاً لعاصمة دمشق.

... وقد كان لدخول أمير أموي شامي إلى المغرب ضلع قوي في بلورة الوحدة الفكرية بين شقي العروبة. ذلك بأن

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام فر مع مولاه بدر إلى مصر ثم القيروان للالتجاء إلى قبيلة نفزة

(8314/1)

وأخواله في سبتة، ثم انطلق بعد خمس سنوات نحو الأندلس حيث استغل الشقاق القائم على الطريقة الشرقية بين القيسية واليمنية؛ كما استغل الموالي الأمويين الخمسمائة الذين كانوا يرابطون بين جند دمشق والبيرة وقنسرين وجيان بالأندلس.

... وقد ظلت الأندلس تابعة معنوياً لدمشق ثم بغداد إلى عام 316 هـ/ 929 م، حيث تلقب عبد الرحمن الثالث الأموي بأمير المؤمنين بصفته خليفة(1). فكان ملكه بقرطبة امتداداً لملك الأمويين بدمشق. وقد كان لهذه الظاهرة أثر رجعي حيث لاحظ المسعودي(2)

---

(1) ابن الأبار، الحلة السيراء، ص. 33.

(2) مروج الذهب، الطبعة الفرنسية، باريز، 1961، م 1، ص. 362.

(8315/1)

عام 327 هـ أن أمويي الأندلس كانوا يلقبون أنفسهم ببني الخلائف. ولم يجرؤ المرابطون والموحدون بعد ذلك على التسمي بأكثر من أمراء المسلمين. وقد عرف البلاط الأموي في قرطبة لأول مرة في عهد عبد الرحمن الثالث أبهة خاصة بمناسبة استقبال السفراء(1)، فرشت الأرض خلالها بالحصر الأنيقة من باب قرطبة إلى مدينة الزهراء مسافة فرسخ (وهو أربعة أميال تقريباً) مع سياج من الجند على جانبي

---

(1) وصفها محيي الدين بن عربي في "محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار"، طبعة القاهرة، 1305 هـ، م 2، ص. 195.

(8316/1)

الطريق. وكان الخليفة جالساً في آخر المطاف بين أفراد الشعب في ثياب خشنة وأمامه المصحف والسيف. وهكذا انتقلت بعض هذه العادات التشريفية عن طريق الشام من البلاط الساساني إلى بلاط مراكش في عهد المرابطين والموحدين، وتوافر الحشم والخدم في البلاط مع ظهور الصقالبة في مدينة الزهراء أواخر عهد الناصر حيث يصل أفراد الحريم السلطاني (3750) مع الإماء إلى 6300 امرأة.

... أما الألقاب السلطاني، فإن عبد الرحمن الثالث هو الأموي الأول الذي تلقب بها بالأندلس. فدعي الناصر لدين الله(1)

---

(1) **ابن عذاري، البيان المعرب، ج 2، ص.** 162.

(8317/1)

، ثم تلقب بعده الحكم الثاني بالمستنصر وهشام الثاني بالمؤيد. والدمشق قصر بقرطبة (النفح، ج 1، **ص.** 324) **فيه قال ابن عمار:**

كل قصر بعد الدمشق يذم فيه طاب الجنى وفاح المشم

... وقد استبدل بعضهم البديع بالدمشق لمدح قصر البديع بمراكش. (المراكشي، الإعلام، طبعة 1974، **ج** 1، **ص** 69).

... وقد أجاز الناصر بالإسبانية صدر بيت ارتجله شاعر هجاء من بطانته(1)، **ولم يعرف هذا في المغرب إلا فيما يخص عبد الملك المعتصم الذي انتصر على البرتغاليين في معركة وادي المخازن.**

(1) المصدر نفسه، ص. 243، 376؛ النفح، ج 2، ص. 417.

(8318/1)

... وشملت التأثيرات الشامية شتى مجالات الحضارة والفكر. فقد دخلت في بناء جامع القرويين عام 245 هـ عناصر من فنون دمشق. وأضاف الناصر الأموي عام 345 هـ، أي بعد مرور قرن كامل على بناء الجامع، اثني عشر بلاطاً جديداً؛ وحول المنارة إلى مكانها الحالي مغشياً بابها بصفائح النحاس الأصفر مع قبة صغيرة محلاة بتفافيح مموهة بالذهب (زهرة الآس، ص 37). وبذلك انبثقت النواة الأولى للفن الأندلسي المغربي البارز في مسجد قرطبة الأموي ومدينتي الزهراء والزاهرة. ولعل عهد الناصر الأموي الذي ازدهرت فيه الفلاحة والصناعة

(8319/1)

والتجارة والفنون والعلوم(1) بالأندلس كان عهد تحول وانقلاب في تاريخ الحضارة المغربية.

... وقد ظل النظام السوري نفسه أسيسة الدائريات العسكريات طوال الحكم الأموي، وظلت العناصر

الجوهرية في الجيش متشخصة في الحاميات المنبثقة من دمشق (في ألبيرة) والأردن (في مالقة) وفلسطين (في سيدونة) وحماة (في إشبيلية) وقنسرين (في جيان).

... وكان لملوك بني أمية الشاميين أبهة خاصة يوم البروز، أي خروج الجيش للعرض أمام الخليفة في فحص السرادق حيث يصل في موكب فخم يمتد من قصره

---

(1) ابن حوقل، طبعة كوج (Goeje)، ج 2، ص. 27.

(8320/1)

بقرطبة أو مدينة الزهراء لاستعراض الكتائب والأشراف شخصياً طوال أيام عديدة على أدق التنظيمات. وفي يوم الجمعة التي تسبق انطلاق الحملة تقام حفلة عقد الألوية في جامع قرطبة وتسلم الرايات لقواد الكتائب لتعلق على الرماح، وتعاد إلى مستودعها في الجامع بعد العودة المظفرة من الجهاد. وهكذا ظل المغرب إلى عهد الحسن الأول في بداية القرن الهجري الماضي مجالاً لكثير من الظواهر الحضارية بعد ذبولها أو تقلصها في الشرق العربي.

(8321/1)

... فقد أقيمت الحصون والأبراج والمراصد والمباني العمرانية والمجمعات الاقتصادية، ونظمت الخطط والحرف والمهن، وشكلت بنيات الاستثمار الزراعي والصناعي على غرار نجد له إلى اليوم مجالي بارزة ربما امتاز بها المغرب في مسار التطور الحضاري العربي والإسلامي.

... وكان للطابع الشامي ضلعه في بلورة هذه الصورة.

... ففي الحقل العسكري بلغ السوريون أسمى مرتبة حيث انفردوا في العهد الأموي بالدور الطلائعي في الديوان.

... فالرتبة أو المرصد: مراكز عسكرية تشرف على الممرات التي تؤدى فيها رسوم الأبواب، أي المكوس؛ وتوجد

(8322/1)

بجانبها منازل، أي فنادق شبيهة بخانات المشرق، وهي النزالة بالمغرب.

... وأول برج بني بالأندلس في عهد الخليفة الحكم الثاني عام 357 هـ/ 968 م(1) هو حصن ما زالت أنقاضه تشرف إلى اليوم على قرية Baٌos de la Encina شمالي

إقليم جيان في الطريق التي تصل قرطبة بقطاع فحص البلوط (Castilla del Vacar)، أي عقبة البقر.

... وكانت القصبة تبنى بالأندلس على غرار الهندسة المغربية على شفا شاهق من الجهة الوعرة حتى يصعب تسلقها على المغيرين. وكانت محاطة بسور من حجر أو نطاق، أي عارضة من

(1) ابن عذاري، البيان، م 2، ص. 257.

(8323/1)

خشب (Langrine)، يُحْدِق بحرم الحصن المشرف على الساحة التي تتفتح فيها الربض حيث تقطن الحامية مع عدد قليل من تجار المواد الضرورية(1).

... وعرفت العدوتان المجانيق والطرادات لإطلاق القذائف. وكان النقابون عبارة عن هيئة متخصصة في نقب الأسوار تحت إشراف عرفاء، وكانوا يستعملون أيضاً الكبش في الحروب. وقد احتفظت اللغة الإسبانية إلى اليوم بكلمات القصبة والدرب (أي ممر دورية الحراسة في القلعة) والسور والبرج البراني، إلخ.

(1) المصدر نفسه، ص. 190، 214.

(8324/1)

... وبلغت قطع الأسطول الأندلسي في عهد عبد الرحمن الناصر مائتين ومثلها في إفريقية على رأسها قائد الأساطيل. وكان على كل سفينة قائد يسهر على السلاح والمجاهدين ومعدات الحرب، بينما يسير الرايس دفة المركب بالشراع أو المجاذيف؛ كما يشرف على عمليات الإرساء في المرفإ. وظلت ألمرية أعظم دار للصناعة بالأندلس منذ عهد الناصر. وقد تعددت هذه الدور بالاسم نفسه في حواضر مغربية وأخرى أندلسية كالجزيرة الخضراء وشلب ومالقة وطرطوشة.

(8325/1)

... وقد ظهرت في البلاط الأموي بالأندلس منذ القرن الرابع الهجري خطط تردد معظمها بالاسم والاختصاص نفسهما بالمغرب مثل أصحاب المطبخ والمواريث والخيل والبريد (الرقاص) والصاغة والشرطة والصناعة والبيازرة مع مصطلحات أخرى كالطراز والخلع وخزانة السلاح والقهرمان ، وخاصة الخليفة، والبيعة لولي العهد وباب السدة وأم الولد وحجابة الولد والحرائر.

... وظهرت في المغرب على نسق قرطبة الأموية خطط أخرى في المجتمع الأندلسي مثل الحاجب وقاضي الجماعة والمشاورة والعمَّال والوزراء ونواب الخليفة وكاتب الزمام وصاحب الرسائل

(8326/1)

وكاتب التنفيذ والتوقيعات (أي تنجيز التوقيعات) والأوقاف وبيت المال والصدقة والأعشار والخراجات والجوالي والجبايات والضمانات والرسوم على بيوع الأسواق والقطوع والمغارم والقبالات والمكس والمشرف والأمين والنازلة (النزالة في المغرب) ودار السكة والمستخلص (المستفاد بالمغرب) وخاصيات بيت المال (خاصة بالسلطان) والضياع وغلاتها.

... أما في خصوص المصالح القضائية ودوائر الشرطة، فقد احتفظ المغرب بالأسماء الأموية نفسها إبان المرابطين والموحدين والمرينيين واستمر ذلك إلى اليوم. من ذلك قاضي الجماعة وقاضي الجند

(8327/1)

وصاحب السوق (وهو قاض) وقاضي القضاة وفقهاء الشورى (أو أصحاب الرأي) والمسدد (قاضي السداد وهو حديث بالمغرب) وصاحب الصلاة وقاضي العسكر. وللقاضي الاختصاصات نفسها حول الوصايا والأحباس والطلاق والتحجير والخصام والمواريث والوكالات وتوقيع الشهادات والوثائق والعدول وديوان العدول (أي سجلهم) ومقصورة القاضي (تكون بأحد الجوامع، وخاصة الجامع الكبير في الحواضر الكبرى).

... ومن الخطط المنقولة إلى المغرب عبر العصور خطط أبي المواريث وصاحب العرض (المكلف بالجيش) وصاحب الشرطة وصاحب المدينة أو متقلد المدينة وخليفته

(8328/1)

(الحاكم في تونس والقائد في المغرب أو الباشا في عهد السعديين اقتباساً من الأتراك) والمحتسب (شبه صاحب السوق) وصاحب الرد أو المظالم(1) (صاحب الشكايات بالمغرب). وقد تقلد أواخر العهد العلوي منصب وزارة الشكايات.

... وقد كان للزهراء والزاهرة في عهد عبد الرحمن الرابع المستنصر بالله (414 هـ/ 1023 م) حسب ابن حيان(2) مكلفون بخدمة المدينتين وآخرون للتعقب والمحاسبة

والإشراف على الحشم ومواريث الخاصة

---

(1) كان صاحب الرد بالأندلس يختص أحياناً في الشرعيات وصاحب المظالم في المدنيات.

(2) البيان، م 3، ص. 135.

(8329/1)

والمباني وخزانة القبض والنفقة وخزانة الطب والحكمة والإنزال والنزائل(1).

... وقد عرف المغرب والأندلس الحرف نفسها حيث اتحدت أسماؤها مثل: العجان والرفاد (الذي يدخل الخبز في الفرن أو يحمله إلى المنازل كما في المغرب) والخباز والجزار والشواء والفلاء والسفاج والقطان والقصار والطراز والحشاء (لتحشية المضارب) والقلاس (صانع القلنسوات) والصباغ والقراق (الإسكافي) والخياط والرقاء والصيدلاني والعطار والصباغ

---

(1) هذه الخطط والتراتيب كلها بارزة في الحضارة المغربية. راجع كتابنا "الإمارة والأمراء بالمغرب"، مخطوط

(8330/1)

(بائع الجواهر) والرقاق (بائع الرق) والكغاد (بائع الورق) والحلفاوي (بائع أو صانع نسج الحلفاء) والوزان والصيرفي والقاص والبناء والفخار والزجاج والصفار والحداد والنجار والدلال.

... وبرزت السمات نفسها في هندسة الفنادق وبنائها (1)ثم البازارات والقيساريات.

... وقد ذكر ليفي بروفنصال أن الأندلسيين نقلوا معهم إلى المغرب فن البستنة وتجربتهم في الحياة الحضرية التقليدية(2)

---

(1) الفندق: عبارة عن الخان يستقبل المسافرين والتجار والأجانب.

(2) فاس قبل الحماية (ص. 47) بقلم لوطورنو ((Le Tourneau **الذي لاحظ (ص. 205) أن العرب نقلوا إلى فاس مظاهر نبلهم، بينما نقل الأندلسيون رقتهم.**

(8331/1)

.

... ونقل المقري عن ابن غالب (النفح، ج 2، ص. 764) أن أهل الأندلس تفرقوا في المغرب الأقصى مع إفريقية.

فمال أهل البادية إلى ما اعتادوه، فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرحي الطاحنة بالماء، وعلموا أهل البادية أشياء جديدة.

... ومعلوم أن الأندلسيين قد أثروا من ناحية أخرى في إخوانهم المغاربة حيث كانوا يحتكرون ببلادهم (حسب سرفانطيس مؤلف "دون كيشوط") تجارة الأغذية، ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها. وهم لا يشترون العقارات حفاظاً على حرية رواج أموالهم.

(8332/1)

... ولم يكن السوريون العسكريون مستأنسين بالحياة الفلاحية. لذلك نزحوا عن البادية واستوطنوا المدن والحواضر، في حين أن الجاليات البربرية تجمعت خارج السهول وحواضر الأندلس الكبرى(1). ولذلك كانت اللغة العربية سائدة بفضل التأثير السوري في السهول خاصة فيما يتعلق بالأسماء الجغرافية. ويلاحظ ذلك شرقي الأندلس في إقليم Levante حيث لم يسبق للبربر أن استوطنوا قبل الموحدين في

---

(1) راجع الإصطخري المتوفى عام 322 هـ/ 934 م في

كتابه "مسالك الممالك"، (م 1، ص. 44). وهؤلاء البرابرة من نفزة ومكناسة وهوارة ومديونة.

(8333/1)

القرن السادس الهجري. ومن جملة هذه الأسماء العربية بنو حيون في بلنسية، وبنو قاسم وبنو غانم قرب شاطبة.

... وكانت طواحين الهواء أو الماء موفورة على ضفاف الوادي الكبير بين قرطبة وإشبيلية ومثلها بالمغرب عدا نوع انفردت به الأندلس، وهو الطواحين المحمولة على الأطواف تنقل حسب مجرى المياه في إقليم مرسية.

... وقد عرفت العدوتان نظام الساقية الذي تشرف عليه محكمة المياه بحيث يجري توزيعها تحت المراقبة المباشرة لوكالة المياه(1).

---

(1) ابن عذاري، البيان، م 3، ص. 158، نقلاً عن: ابن بسام، الذخيرة.

(8334/1)

... ولم يكن مستغل الأرض يمنح لمالكها أكثر من أربعة أخماس المحصول. لذلك سمي في المغرب بالخماس مع أسماء أخرى أندلسية مثل العامر والشريك والمناصف. إلا أن نوع الزراعة التي تواكبت فيها التجهيزات والعادات هو زراعة الزيتون في منطقة واسعة جنوباً وشمالاً، سماها الإدريسي بإقليم الزيتون استعملت في العدوتين مصطلحاتها الموحدة التي اقتبست منها الإسبانية كلمات الزيتون والزيت والزبوج (الزيتون البري أو الوحشي) (acebule).

(8335/1)

... وقد عنيت العدوتان بزراعة الأرز وقصب السكر مع إقامة الأجهزة نفسها للري تحمل أسماء واحدة حتى في الإسبانية مثل البركة (الحوض) والسد والجب (الصهريج) والناعورة والسانية والقادوس (القناة) والطنور (أنبوب العين أو السبيل) والقبة (مجمع أنابيب السقي). (راجع: A. Conzalez Palencia, El Islam y Occidente, p.27).

... وقد تزاوجت زراعة قصب السكر في البلدين مع أشجار الموز بجنوب المغرب وأسفل الوادي الكبير بالأندلس

(إشبيلية ومالقة وألمرية) كما توافرت في المناطق نفسها زراعة الزعفران والقطن والكتان وشجر التوت

(8336/1)

لتغذية دود القز حيث اختصت بالأندلس ثلاثة آلاف قرية بصناعة الحرير وصل تأثيرها إلى ناحية فازاز بالأطلس.

... وقد حفلت الرياض في العدوتين بأزهار . ظلت موضوع قصائد (النوريات) . منذ القرن الرابع الهجري وتوازت فيها الأسماء بين العربية والإسبانية مثل الحبق والسوسان والخزامى والياسمين والخيرى (المنثور) والرتم (retamc) والدفلى (الحبن) والريحان والزهر (زهر البرتغال).

... ونظام المهرجان الفارسي الذي يرمز إلى الاعتدال الخريفي قد عرف في كل من الأندلس والمغرب باسم العنصر التي تقع يوم 24 يونيه من كل سنة. هذا،

(8337/1)

بينما انفردت الأندلس بالاحتفاء بعيد النيروز لدى اعتدال الربيع وهي تتسم بطابع فلاحي صرف.

... أما الحسبة، فنظامها واحد في شقي البحر المتوسط، المغرب والأندلس . ومسارد مصنفات الحسبة عبارة عن مدونة اقتصادية واجتماعية تغطي جانباً كبيراً من مجالات اختصاص المؤسسات الاقتصادية المعاصرة.

... فقد تواكبت منذ العهد الموحدي بين العدوتين صناعة الورق في شاطبة وسبتة وفاس حيث تجمعت في مصانع الورق في العاصمة الإدريسية وحدها في القرن السابع الهجري أربعمائة رحى.

(8338/1)

... وكانت العدوتان تهتمان بالإحصاءات العمرانية والتجارية حيث أحصى ابن أبي عامر عن قرطبة وأرباضها 213.077 **دار شعبية و** 60.300 **دار لرجال المخزن أو البلاط و** 80.455 **دكانٍ دون المصاري (العليات) والحمامات والحانات. كما أحصى الناصر والمنتصر الموحديان في فاس اثني عشر معملاً لتذويب الحديد والنحاس وأحد عشر مصنعاً للزجاج بالإضافة إلى** 3094 **دار للنسيج و** 47 **مصنعاً**

للصابون و86 **مدبغة و**116 **مصبغة و**1170 **مخبزة و**180 **معملٍ للخزف و** 12 **مصنعاً للحدائد والنحاسيات و** 135 **فرنٍ للجير، إلخ**(1).

(1) روض القرطاس، ص. 81.

(8339/1)

... وهذه الفسيفساء، من المجالي الحضارية المتواكبة، قد ازدادت رونقاً وجاذبية في أصالتها العربية بفضل تنوع النماذج واختلاف بعضها في الجهات المختلفة في العدوتين. فقد استعمل الأندلسيون مثلاً في المناطق الحضرية والسهلية القلنسوة العربية، في حين غلبت العمامة البربرية في الجبال(1).

... كما كانت المباراة الشعرية تنظم بأسواق فاس آخر أيام المرينيين حسبما شهد بذلك رحالة أجنبي زار المغرب في ذلك العهد. وكان هذا النوع من المباراة شيئاً مألوفاً معتاداً

(1) نفح الطيب، ج 1، ص. 137، نقلاً عن ابن سعيد المغربي.

(8340/1)

في الأندلس. وقد أشرنا في كتابنا "موسوعة الأعلام الحضارية والبشرية في المغرب الأقصى" إلى العديد من كتب الأدب والعلوم الإسلامية الأصيلة التي دخلت من المشرق إلى المغرب عن طريق الأندلس.

... فقد اصطبغت معظم كبريات المدن المغربية بالميسم الشرقي حتى شبه المؤرخون فاساً بدمشق والرباط بالإسكندرية ومراكش ببغداد. ومدينة حمص، أحد أرباض فاس الجديد، هي عبارة عن قصبة أسست للرماة الغز الواردين من مدينة حمص السورية.

(8341/1)

... وظل التبادل المباشر بين الشام والمغرب موصولاً من القرن الهجري الأول إلى القرن الحادي العاشر الهجري.

... ففي الوقت الذي كان الأسطول المرابطي في القرن الخامس الهجري يمخر عباب مياه الشام دفاعاً عن حوزة فلسطين (كما يؤكد ذلك ألفونس السابع ملك قشتالة، كانت مآت الأسر المغربية قد انتقلت إلى جوار بيت المقدس لمقاومة الصليبية المعززة بوقف أبي مدين الغوث. وقد تزايدت هذه الأعداد عبر العصور إلى أن وصلت هذا القرن إلى خمسة آلاف عائلة هاجرت إلى الشام أرض الله وبيت المقدس.

(8342/1)

... ولما توحدت مصر والشام والقدس تحت راية الأيوبيين عام 583 هـ، انقض عليها المسيحيون من كل جهة؛ وتتابعت أساطيلهم لاعتراض الأسطول الأيوبي الرابض بالإسكندرية. واستصرخ صلاح الدين بالمنصور الموحدي طالباً إعانته بالأسطول المغربي الذي كان آنذاك أول أسطول في البحر المتوسط. بمنازلة عكا وصور وطرابلس ودمشق. وأوفد إلى مراكش أبا الحرث عبد الرحمن ابن منقذ الشامي، فأمدَّه السلطان بمائة وثمانين قطعة من الأسطول المغربي.

(8343/1)

... وكان ليوسف بن عبد المومن ولع بجمع الكتب. فأسس مكتبة(1) ضاهت مكتبة الخليفة الأموي الحكم الثاني التي احتوت على ستمائة ألف مجلد. وقد لاحظ المؤرخ جيبون أن الإفرنج نهبوا مكتبة طرابلس الشام أثناء الحروب الصليبية، وكان فيها ثلاثة ملايين مجلد. ... وقد تواردت على المغرب في مختلف العصور أفواج من علماء الشام مثل محمد بن عبد الوهاب الدمشقي الحنبلي

تلميذ ابن الجوزي (المتوفى عام 657 هـ) (2)

---

(1) المراكشي، المعجب، ص. 145؛ كوستاف لوبون، حضارة العرب، ص. 468.

(2) عباس بن إبراهيم المراكشي، الإعلام، ج 3، ص. 148؛ سلوة الأنفاس، ج 3، ص. 267.

(8344/1)

، ومحمد بن عامر الحمصي الذي تنقل بين حلب والشام وفاس حيث توفي عام 570 هـ، وأحمد الحلبي الذي استوطن فاسا وهو صاحب "الدر النفيس في مناقب الإمام إدريس بن إدريس".

... كما هاجر إلى الشام فلول من علماء المغرب أمثال ابن رشيد الذي أخذ بدمشق عن الحراني وابن عساكر (توفي بفاس عام 721 هـ)، ومحمد بن قاسم التميمي الفاسي (المتوفى عام 604 هـ)، وجمال الدين محمد بن أبي بكر البغدادي وأصله من القصر الكبير بالمغرب (توفي عام 663 هـ)، ومحمد بن المنذر المراكشي نزيل حلب (ت 628 هـ)، ومحمد بن الخضار السبتي الذي تتلمذ على

(8345/1)

ابن الصلاح بدمشق عام 634 هـ(1)، وعلي بن ميمون الحسني الفاسي الذي توفي بالشام(2)، وعلي الحراني الذي ولد بمراكش وتوفي بالشام عام 637 هـ، ومحمد بن علي المراكشي السلوي الذي درس بحماه ودمشق وتوفي بمراكش عام 671 هـ (3)، وتاج الدين محمد بن إبراهيم المراكشي الذي ولي تدريس "المسرورية" بدمشق (ت 752 هـ)، وسالم بن إبراهيم الصنهاجي الدمشقي شيخ المدرسة الشرابيشية المولود عام

(1) درة الحجال، ص. 282.

(2) ابن عساكر، دوحة الناشر، ص. 25؛ السوداني، نيل الابتهاج، ص. 187.

(3) عباس المراكشي، الإعلام، ج 3، ص. 248.

(8346/1)

---

777 هـ، وقاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن المريني، وشمس الدين السلاوي دفين الصالحية(1)، وأحمد بن محمد بن أحمد بن عمر بن رضوان الدمشقي وقيل بن أحمد بن محمد بن عمر السلاوي الذي توفي بدمشق عام (813 هـ/ 1410 م)، وهو آخر من بقي من طلبة الشافعية. وإبراهيم

بن محمد بن علي التادلي برهان الدين الدمشقي المتوفى عام 803 هـ/ 1451 م قاضي المالكية بدمشق وقاضي حلب، أصله من تادلة المغرب. (شذرات الذهب، ج 7، ص 22).

---

(1) عبد القادر النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج 1، ص. 23 و 109.

(8347/1)

... وقد أتحفنا أحمد بن محمد بكتاب قيم هو "عرف النشق في أخبار دمشق" (المقري، نفح الطيب). وقد ذكر محمد بن عبد الرحمن الفاسي في "فهرست"ه أنه دفن بدمشق ("نشر المثاني"). ويقول غيره أنه دفين مصر.

... وقد ذكر ابن جبير في "رحلت"ه لدى زيارته عام 581 هـ لدمشق (نشرة حسين نصار، القاهرة، 1955) حب أهل دمشق للمغاربة. فكانت للطلبة زاوية في الجامع الأموي يتعلمون فيها وتجرى عليهم الأموال (ص. 274)، وأنه شاهد رجلاً من بقية المرابطين أميناً للربوة، وهي ضاحية جميلة من ضواحي دمشق له مكانة عند السلطان يؤوي أهل

(8348/1)

المغرب ويسبب لهم وجوه المعايش (ص. 266). وأحسن الدماشقة الظن بالمغاربة "لأنه علا لهم بهذا البلد صيت في الأمانة وطار لهم فيها ذكر". وذكر أن نور الدين عين للمغاربة الغرباء زاوية المالكية بالجامع، ووقف عليها أوقافاً. وكان هذا الوقف يغل في العام 500 دينار (ص. 274). ويلم ابن جبير في هذا الإكرام الذي هو ضد ما اعتدنا في المغرب (ص. 275). وكان المشارقة ينسبون المغاربة للبخل والحمق، حتى أن الذهبي عندما ترجم لابن مالك النحوي قال فيه: "خالف المغاربة في حسن الخلق والسخاء والمذهب" (شذرات الذهب، ج 5، ص. 339)،

(8349/1)

وكان ابن مالك شافعياً. وذكر عنهم ابن سعيد: "وهم أهل احتياط وتدبير في المعاش وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال". فلذلك قد ينسبون للبخل (المقري، ج 1، ص. 208).

... ووصف ابن بطوطة حسن ظن الدماشقة بالمغاربة، فقال:

... ‘‘وأهل دمشق يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد... وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لابد أن يأتي له وجه من المعاش من إمامة مسجد أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد يجيء إليه فيه رزقه أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون كجملة الصوفية ‘‘أو حراسة بستان أو أمانة

(8350/1)

طاحون أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح. ومن أراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة، وجد الإعانة التامة على ذلك.’’.

... ... (الرحلة، ص. 63).

... وقد كتب ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري وصفاً مقتضباً لما شاهده في دمشق حيث توافرت الملاجئ والهيآت الخيرية. فكانت هنالك أوقاف لتجهيز الفتيات المعوزات إلى أزواجهن وأخرى لفكاك الأسرى وإسعاف أبناء السبيل وأوقاف لرصف الطرق لأن أزقة دمشق كان لكل منها آنذاك رصيفان في جنبيها يمر عليهما الراجلون ويمر الركبان بين ذلك وكان بدمشق أيضاً وقف

(8351/1)

الأواني المكسرة. وقد عرف المغرب كل تلك الأنواع من الأوقاف، بالإضافة إلى وقف آخر خاص بإطعام الطيور.

... كما أشار ابن بطوطة إلى نماذج من الصناعات الرقيقة في بعلبك كالملاعق والصحاف التي يتداخل بعضها في جوف بعض في عشاريات تغشى في خروز من جلد وقاية لها.

... ذكر المحبي في "خلاصة الأثر" (ج 1، طبعة مصر، 1284 **هـ، ص.** 302**)، في ترجمة المقري الذي زار دمشق عام** 1037 **وأملى "صحيح البخاري" بجامعها الأموي تحت قبة النسر بعد الصبح قال: "ولم يتفق لغيره من العلماء الواردين على دمشق ما اتفق له من الحظوة وإقبال**

(8352/1)

الناس".

... ولعل ما لاحظه المقري وقبله ابن خلدون من فروق بين المشرق والمغرب في الاتجاهات الفكرية والمناهج العقلية قد ظل على ما كان عليه؛ إذ بينما كان الشرق

مطبوعاً بالعمق في ملكة العلوم النظرية طفق المغرب يوغل في البحث اللفظي مع تحقيق مناط ما احتوت عليه بواطن الأبواب وتصحيح الروايات وبيان وجوه الاحتمالات والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب واختلاف المقالات مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار. وبينما غلب على تآليف المشارقة الإيجاز (عدا البعض كالغزالي والفخر الرازي) مع انحصار في الموضوع

(8353/1)

سواء في التصنيف أو في التدريس، نجد المغاربة من القيروان إلى القرويين يوغلون في الاستطراد. إلا أن الأمر لم يبلغ الحد الذي زعمه ابن خلدون في المائة الثامنة من انقطاع ملكة التعليم على طريق النظار.

... إذ ذلك يناقض ما ذكره علي بن ميمون الحسني الذي عاش فترة طويلة في دمشق حيث قال في خصوص فاس:

... ما رأيت مثلها ومثل علمائها في حفظ ظاهر الشرع العزيز بالقول والفعل، وغزارة الحفظ لنصوص إمامهم الإمام مالك، وحفظ سائر العلوم الظاهرة من الفقه والحديث والتفسير، وحفظ نصوص كل علم مثل النحو والفرائض والحساب...

(8354/1)

والمنطق والطب وسائر العلوم العقلية ... ما رأيت مثل علمائها في سائر مدن المغرب ... ولا إقليم الشام(1).

... ومهما يكن، فإن احتكاك الشاميين والمغاربة طوال أزيد من ألف عام بالأندلس بالإضافة إلى التبادل الحضاري القديم جعل لهجتي الشام والمغرب من أفصح اللهجات العربية. وقد تحدث الأستاذ كرد علي عن "عجائب اللهجات"(2) فقال: "لعل الدخيل كان نادراً في أرض الأندلس لأن الأمويين توخوا الوحدة في كل شيء" إلى أن قال: "وكانت اللهجة

---

(1) سلوة الأنفاس، ج 1، ص. 74.

(2) مجلة مجمع اللغة العربية، ج 7، عام 1953، ص. 128

(8355/1)

الأندلسية من أجمل اللهجات نقلها أهلها بعد الجلاء إلى البلاد التي نزلوها: مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام". ولعلها كانت لقربها من الفصحى أشبه بلهجات

اليمن والحجاز والأندلس استعملت ألفاظاً فصيحة ما استعملها العراق ومصر والشام. وقد لاحظ "لوري برونو" (Brunot) في تحليله لكتاب حول اللهجة العامية في طرابلس الشام(1) أن اللهجة الطرابلسية الشامية أقرب إلى الفصحى من المغربية، لأنها تترك باب القياس مفتوحاً على مصراعيه ولها نزوع إلى التسهيل والتبسيط وحذف ما ليس له فائدة محققة في

---

(1) صدر بباريس عام 1954.

(8356/1)

التعبير عن الفكر والعاطفة. وهي نظرية لها ما يؤيدها، وإن كان في العامية المغربية ـ كما أبرزنا ذلك في كتابنا" نحو تفصيح العامية"(1) ـ ما يشهد لهذه أيضاً بهذه الأصالة. وقد استعرضنا في بحث بعنوان "مظاهر الوحدة والاختلاف في عاميتي المغرب والشام" مثل سقوط الهمزة في الأفعال "ضرب" بدل "أضرب" و"راس" بدل "رأس" و"وضو" بدل "وضوء"، وإضافة ياء في مثل "دواة" (دوايا) وإسقاط تاء التأنيث في "مكتبه" بدل "مكتبة"، وقلب الواو المتطرفة إلى ضمة بعد حرف ساكن،

---

(1) طبعة مكتب تنسيق التعريب، مطبعة فضالة، المحمدية، 1972.

(8357/1)

وتحويل الواو الساكنة بعد فتحة إلى حرف مثل "تُوفيق" (بضم التاء) بدل "تَوفيق"، وكذلك قلب الياء المتطرفة في اللفظ إلى كسرة بعد حرف ساكن مثل "مشى" تلفظ "مْشَ"، مع تسكين الحرف الأول. أضف إلى ذلك عملية قلب الحركات أو إلغائها، إلخ.

... وقد انتقلت إلى المغرب من الشام مصطلحات رومية قليلة كالبستان والقسطاس والبطاقة والأسطرلاب والقنطار والقرمود والترياق والقنطرة والقيطون.

... وختاماً، كان لمهاجري الشام والأندلس والمغرب إلى أمريكا الجنوبية أثر مشترك يتجلى في الشبه الوثيق بين الطرفين في ميدان الهندسة

(8358/1)

المعمارية ووحدة أساليب البناء في الكنائس والأديرة والمنازل والحمامات، بالإضافة إلى تأثر المصطلح اللغوي الأمريكي بالمفردات العربية خاصة في المياه والسقي والري وأسماء الأزهار والنباتات العطرية، بل وحتى موضة النساء في الحلي والمصوغات.

... وهكذا يتجلى من هذه العجالة تواكب الحضارتين الشامية والمغربية منذ آلاف السنين حيث تطعمت عبر العصور بسمات جديدة بلورت وحدتها.

... ...

(8359/1)

جامع الزيتونة أهمّ معالم مدينة تونس الأثرية والتاريخية

... ... الدكتور محمد الباجي بن مامي

... ... المعهد الوطني للتراث ـ تونس

... "وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأتقنها وأكثرها إشراقاً" (العبدري الحيحي (688 هـ/ 1289 م))

... ارتبط تاريخ جامع الزيتونة بمدينة تونس ارتباطاً عضوياً، وهو ثاني جوامع المغرب الإسلامي. فبعد مدينة

القيران وجامعها الذي أسسه عقبة بن نافع سنة 50 للهجرة، أتى دور مدينة تونس سنة 79 هـ/ 698 م.

(8360/1)

... فبسقوط قرطاجة العظيمة، ومسح القائد حسّان بن النعمان لرسومها، ظهرت للوجود بالقرب منها مدينة جديدة كتب لها أن تخلف جارتها نهائياً، وأن تصبح عاصمة للبلاد التونسية. وكان اختيار حسّان ابن النعمان لموقعها ناتجاً عن عوامل استراتيجية مرتبطة بالحضور البيزنطي في مياه البحر الأبيض المتوسط، خاصّة وأن أطماعهم في منطقة دحروا عنها منذ عهد قريب ما زالت متأججة.

... وبالرغم من أن المصادر التي سبقت الفترة الإسلامية تذكر أن تونس كانت قرية بربرية ليس لها أهمية تذكر لوجود قرطاج بقرب منها، فإن الحفريات أثبتت عكس

(8361/1)

ذلك

... ومع الفتح الإسلامي، تغيرت المعطيات، وأصبح من الضروري أن يكون خط المواجهة من الداخل، خاصة وأن البحرية لم تكن تضاهي آنذاك الأسطول البيزنطي.

... هكذا إذن أسّس حسان بن النعمان تونس بين سنتي 79 **هـ/** 698 **م و** 84 **هـ/** 704 **م، فاختطّ هذا القائد الفاتح المدينة الجديدة، بطريقة ذكية. إذ جعل فيها إضافة إلى الصناعة، مسجداً ذكره البكري، إلا أنه لا يفيدنا إن كان هو الجامع الأعظم الحالي. ويؤكد ابن الشباط والرقيق القيرواني أن عبيد الله بن الحبحاب هو المؤسس للجامع سنة** 114 **هـ/** 732 **م. أما ابن عذاري، فيذهب إلى**

(1/8362)

أن تاريخ التأسيس يعود إلى سنة 116 **هـ/** 734 **م. لكن هل يمكن الاعتقاد أن المسلمين بقوا طوال ثلاثين سنة من غير جامع يؤمّونه ويصلون فيه؟ وهكذا من الممكن تصور أن عبيد الله بن الحبحاب قام بتوسيع الجامع وإضافة بعض الزيادات فيه، لكن من الراجح أن حسان بن النعمان لم يبن جامعاً؛ بل استعمل معلماً قديماً وجعل منه مسجده.**

... إذ أن بعض العناصر المعمارية تجعلنا نفترض أن جامع الزيتونة ببعض مكوناته الحالية يرجع إلى الفترات التي سبقت دخول المسلمين الفاتحين، وهذا اعتماداً على بعض النقاط، خاصة منها:

(8363/1)

... 1) أولاً وبالذات نلاحظ أن لأقسام من الجدران السميكة التي تحيط بالجامع من الخارج نمطاً يختلف تماماً عما عهدناه في العمارة الإسلامية بصفة عامة لا في مدينة تونس فقط، بل في البلاد التونسية وما جاورها.
فتتكون هذه الأقسام من حجارة ضخمة استعملت في المعالم الراجعة للفترة الرومانية ثم البيزنطية، لكن يمكن الافتراض أن حساناً أو ابن الحبحاب أعاد استعمال حجارة كانت موجودة في بعض المعالم الرومانية أو البيزنطية؟ وهذا النمط من العمارة نفسه نلاحظه في جامع القصر: فقبل أن يستغل آل خراسان هذا المعلم ليصبح

(8364/1)

جامعاً، أمكن التأكد من أنه كان معلماً دفاعياً يرجع حسب ما توصلنا إليه إلى الفترة البيزنطية، إذ رمم المعهد القومي للآثار والفنون هذا الجامع في بداية الثمانينيّات ولاحظنا آنذاك ضخامة سمك جدار القبلة الذي يبلغ 2,20 م. لذلك أجري سبر أول أمام المحراب، مما أثبت أنه محفور مباشرة في جدار القبلة، مما دفع لمواصلة فتح أسبار أخرى (عددها سبعة) في كامل أنحاء المعلم. ووضحت هذه الأسبار عن طريق اللّقى الأثرية وكذلك عن طريق وجود جدران ما زالت قائمة الذات وبعض الأسس والأرضيات، إلخ. أن المعلم يرجع إلى الفترات

(8365/1)

السابقة لدخول المسلمين الفاتحين، وتيقّنا من أن الخراسانيين استغنوا عن السقف الأصلي للمعلم، وعن عقوده التي عثرنا على أقسام منها تحت سطح الأرض. وبعد إعادة بناء السقف، بقيت الجدران على حالها بمكوناتها وبسمكها الذي كانت عليه خلال الفترة البيزنطية، وهي مشابهة في نمطها وفي ضخامتها لبعض الأقسام التي ذكرناها بعد بالجامع الأعظم. وهكذا تكاد تستقل الجدران الخارجية عن بقية عناصر المعلم، وهي تبدو للناظر كأنها "أسوار قلعة".

(8366/1)

... 2) يبعث تصميم بيت الصلاة نفسه على الاستغراب. فالبلاطات تأخذ اتجاهاً منحرفاً بالنسبة إلى الجدارين الشرقي والغربي اللذين يحددان هذه البلاطات. فلو بني بيت الصلاة خلال الفترة المتراوحة بين 248 هـ/ 863 م و250 هـ/ 864 م، لاختير تصميم مخالف يجعل من البلاطات والمسكبات تأخذ اتجاهاً موازياً للجدارين الخارجيين، وهو ما يجعلنا نرجح أن هذه الجدران كانت موجودة قبل اتخاذ المعلم جامعاً لمدينة تونس، وأن المسكبات والبلاطات أضيفت خلال الأعمال الأغلبية بالجامع، وهي المنسوبة للمستعين بالله العباسي والراجعة لسنة

(8367/1)

---

250 هـ/ 864 م والتي أخذ خلالها الجامع شكله ومساحته الحاليين.

... وهكذا تبدو العناصر الداخلية الموجودة بقاعة الصلاة كأنها محشورة حشراً داخل الجدران الخارجية؛ كما أن انحراف اتجاه القبلة يعتبر انحرافاً هاماً بالنسبة إلى بقية الجوامع الأخرى، وربما يمكن تفسيره بوجود جدار

القبلة قبل تأسيس الجامع؟ ومن الأكيد أن الأغالبة عند إعادتهم بناء الجامع لم يحاولوا تغيير اتجاه القبلة بالرغم من علمهم بانحرافه الهام عن الاتجاه الصحيح، إذ أن إدخالهم أي تغيير كان من الممكن أن ينتج عنه تحويرات هامة في طبيعة البناء.

(8368/1)

... إضافة إلى هذا، فقد وصلتنا العديد من الروايات والأساطير حول تأسيس الجامع وإقامته في هذا المكان، من بينها خاصة تلك الرواية التي وردت في "المؤنس" لابن أبي دينار والتي تخص الراهب ترشيش الذي كان مقيماً في المكان الذي أقيمت عليه الزيتونة، وهو الذي دلّ المسلمين الفاتحين ليقيموا عليه جامعهم بعد أن حماه قبل وصولهم من أيّ تدنيس، هذا إضافة إلى اكتشافات المعهد الوطني للتراث بإشراف الأستاذ حامد العجابي التي تعود إلى سنة 1972، والتي حصلت في القسم الشرقي للجامع، حيث عثر على مقبرة مسيحية ترجع إلى القرن

(8369/1)

الرابع الميلادي. كما يؤكد عالم الآثار الفرنسي كوكلر (P. Gauckler) أنه شاهد بقايا كنيسة رومانية توجد تحت مكان المئذنة الحالية. وقد توصل إلى ذلك عندما حصل تهديم صومعة الجامع الراجعة للفترة المرادية. وقد تم ذلك خلال سنة 1312 هـ/ 1894 م، وهي ربما أدلة على ارتباط هذا الجامع بأحد البناءات القديمة التي نرجح أنها كانت مبنى دفاعياً، إذ أن الجامع مرتفع وكان مطلاًّ على البحر من قسمه الشرقي، فيؤكد أبو عبيد الله البكري في مؤلفه "المسالك والممالك" أن الجالس داخل الجامع كان بإمكانه مشاهدة السفن بالبحر. لهذا

(8370/1)

كان الجدار الشرقي للجامع أهم النقاط التي يمكن عن طريقها مراقبة حركات أساطيل الأعداء، ويمكن الافتراض أن حسانا بن النعمان نفسه هو الذي بنى برجي المراقبة الموجودين حالياً بكل من الزاويتين: الشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية. كما يذكّر قسم من الجدار الشرقي بجدران الحصون والأربطة بصفة عامة؛ فحجارته السميكة تؤكد هذا الدور الدفاعي، وربما يمكن تفسير استغناء الجامع عن المئذنة حتى نهاية العهد الحفصي بوجود هذين البرجين اللذين كان يتم

الأذان انطلاقاً منهما. وهكذا، فإنه يمكن اعتبار الزيتونة معلماً محصّناً

(8371/1)

ومدعماً ببرجي المراقبة، مما يدل على أن الجامع كان يحمي المدينة من هجمات الأعداء، ويضم المصلين والمدافعين على حد سواء.

... لذلك من الراجح أن حسانا بن النعمان لم يبن جامعاً، بل استعمل معلماً قديماً، وجعل منه مسجده، مثلما حصل في بعض الجوامع الأخرى كجامع دمشق وجامع قرطبة.

وهكذا من الممكن أنه استغل معلماً دفاعياً أو كنيسة، ولم يشيد جامعاً، وأن بن الحبحاب وسّع بيت الصلاة؟

... يكوّن إذن تأسيس جامع الزيتونة نقطة استفهام أساسية لمعرفة تاريخ إنشاء المدينة وتاريخها، ويبقى الرد .مثلما أكده الدكتور محمد

(8372/1)

العزيز بن عاشور في كتابه: "جامع الزيتونة. المعلم ورجاله" .مرتبطاً باكتشافات أثرية جديدة يمكن أن

توضح ما غمض من هذه الناحية. وقد أكدت أهمية هذا المعلم، لأنه بقي على مر التاريخ العنصر الأساسي المؤثر في بقية جوامع المدينة.

... وعلى الرغم من هذه الافتراضات، فإننا نجهل كل الجهل ما قام به حسان بن النعمان أو ما بناه عبيد الله بن الحبحاب، إذ لم تصلنا أية معلومات أو أي أثر عنها.

... من أول المؤرخين الذين اهتموا بهذا المعلم: الدكتور أحمد فكري في كتابه "مسجد الزيتونة الجامع في تونس" (القاهرة، دار المعارف

(8373/1)

بمصر، سنة 1953). وقد أكد في بحثه أهمية الجامع وأنه من أثرى المعالم العربية الإسلامية على الإطلاق، فهو يعد من بين الأربعة الجوامع الأكثر قدماً في العالم الإسلامي، أي جامع القيروان وجامع دمشق وجامع قرطبة. أما المعالم الإسلامية التي سبقتها زمنياً، فإما اندثرت (كجامع سامراء المشهور بصومتعه "الملوية" وجامع أبي دلف) أو أعيد بناؤها: ونذكر على سبيل المثال جامع عمرو بالفسطاط وجامع الكوفة وجامع المدينة.

... كما درس هذا الجامع لوسيان قولفان في كتابه حول العمارة الدينية الإسلامية. هذا، إضافة إلى أعمال

(8374/1)

الأستاذ سليمان مصطفى زبيس وجورج مارسيه وألكسندر ليزين...

... أما آخر الأعمال حول الزيتونة، فهي للأستاذ محمد العزيز بن عاشور والأستاذ عبد العزيز الدولاتلي.

... وهكذا، فإن الجامع يعد من المعالم التي تم الاهتمام بها اهتماماً خاصاً.

... وبالطبع، فقد حظي الجامع على مر التاريخ باحترام وإجلال سكان مدينة تونس وأهل البلاد بصفة عامة، مما دفع بكل الحكام والسلاطين إلى الاعتناء بالزيتونة أكثر من اهتمامهم بأي معلم آخر.

(8375/1)

... ومن الواضح أن القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي مثل فترة ازدهار وانتعاش اقتصادي وتطور عمراني لمدينة تونس. ولعل هذه الأسباب هي التي دفعت بأبي إبراهيم أحمد أمير الدولة الأغلبية إلى إعادة بناء الجامع. ويفيدنا النويري أنه بدأ الأشغال سنة 248 هـ/ 863 م، لكن أدركته المنية قبل الانتهاء منها سنة 249 هـ/

864 م. فواصل هذه الأعمال أخوه زيادة الله الثاني الذي مات هو أيضاً قبل نهاية البناء سنة 250 هـ/ 864 م، وهو ربما السبب الذي دفع إلى نسبة هذه الأعمال إلى الخليفة المستعين بالله العباسي.

(1/8376)

... وهكذا اتخذ الجامع انطلاقاً من تلك الأشغال شكله ومساحته الحاليين واحتوت الزيتونة خلال تلك الفترة ستة أبواب فقط ومن الملاحظ أنه تم بناء الجامع آنذاك بالحجارة الضخمة، بينما يرى بعض المؤرخين أن هذه الحجارة تعود إلى الفترة التي سبقت دخول المسلمين الفاتحين، وهي ربما مثلت قسماً من المعلم القديم الذي أشرنا إليه من قبل.

... وقد احتفظ الجامع بالعديد من عناصره المعمارية والزخرفية الأولى الراجعة إلى تاريخ تأسيسه، لكن لم يمنع هذا من وجود بعض أعمال الترميم والإضافات في مختلف الفترات.

(1/8377)

... ونلاحظ أن المؤسس لم يحتج إلى صنع الأعمدة (السواري) وتيجانها التي ترتكز عليها سقوف بيت الصلاة. فقد كانت المواقع الرومانية والبيزنطية تزخر بها. لهذا تم جلبها خاصة من قرطاج، وأعيد استعمالها في الجامع. وهكذا يُمثل بيت الصلاة متحفاً ثرياً جداً لتيجان الأعمدة التي يبلغ عددها ثمانين ومئة تاج. وأهم هذه التيجان المستعملة في الجامع الأعظم هي من النمط الكورنتي المعروف باستعماله لورقة الاقنثة؛ هذا، إضافة إلى النمط البيزنطي وكذلك المزدوج (الكورنتي والأيوني في آن واحد). وقد احتوت هذه القطع على أشكال

(8378/1)

حيوانية تمثل نسوراً، لكن تم محو بعض أقسامها خاصة الرؤوس والأجنحة لتنافيها مع مبادئ المذاهب السنية المحرمة لتجسيم الكائنات الحية. ومع هذه التيجان، نجد بالجامع عدداً من التيجان الإسلامية وهي تلك التي تظهر في قبتي الجامع، الأولى وهي قبة المحراب الراجعة إلى العهد الأغلبي، والثانية قبة البهو ذات النمط الزيري والمتأثرة بالفن العباسي، وكذلك التيجان ذات النمط الأندلسي بواجهة المحراب وأخرى من العهد الخراساني

والحفصي ويوجد كل منهما في زاوية المحراب. كما تم الاهتمام بتوزيع الأعمدة، بصفة متناظرة، مما أضفى

(8379/1)

على بيت الصلاة الكثير من الأناقة والجمال.

... ويعتبر الجامع من أثرى المعالم الإسلامية من حيث احتواؤه على العديد من النقائش التي تمدنا بمعلومات ضافية حول مختلف أقسام المعلم.

... أول هذه النقائش تلك التي تبرز على الإفريز المحيط بقاعدة قبة المحراب والتي تمدنا بتاريخ بناء الجامع، وهي ذات خط كوفي، ونصها:

... بسم الله الرحمن الرحيم. مما أمر بعمله الإمام المستعين بالله أمير المؤمنين العباسي طلب ثواب الله وابتغاء مرضاته على يدي نصير مولاه سنة خمسين ومائتين. {يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط

(8380/1)

شهداء الله}. صنعه فتح الله.

... أقيمت هذه القبة على نمط قبة محراب جامع القيروان، إذ تعد هذه الأنموذج المحتذى، لكن تمثل قبة جامع الزيتونة تطوراً للعناصر الجديدة التي ظهرت أول الأمر بجامع عقبة، وهي المتمثلة في الضلوع البارزة والمقرنصات، كما نلاحظ فيها تفوقاً في البناء وتقدماً في الزخرفة، وعرفت هنا أول مرة فكرة استقلال الضلوع البارزة عن الخوذة المفصّصة، وهي تعتبر المؤثّرة في نوعية القباب ذات الضلوع المتقاطعة التي عرفناها لأول مرة بجامع قرطبة الأموي.

(8381/1)

... ونلاحظ أن طاقية القبة تستند إلى اثنين وثلاثين عموداً، كما تتخلل الأعمدة طاقات مفتوحة ومغلقة متعاقبة في المحيط الدائري لرقبة القبة. ولقاعدتها شكل مربع، تقوم على أركانه مقرنصات أربعة معقودة، تتخذ كل منها شكل قوقعة. وتنقسم القبة من الداخل إلى ثلاثة طوابق، هي صورة مطابقة للأصل لما يوجد في الخارج.

... أما قبة البهو والمجنّبات، فترجع إلى الفترة الفاطمية وهي التي أكد الدكتور أحمد فكري أنها متأثرة في زخارفها الداخلية بتأثيرات عباسية. وتمدنا نقيشة

ذات خط كوفي ثبتت على إفريز بقاعدة القبة بمعلومات حول

(8382/1)

المؤسس وتاريخ البناء، ونصها:

... بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين. مما أذن الله برفعه فيسر عمله/ وأعان عليه بتوفيق على يد (فراغ) مبتغياً فيه رضى الله الكريم/ محتسباً ثوابه فتم بعون الله وتأييده في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة في بيوت آذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبّح فيه بالغدوّ والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامة الصلاة.

... إلا أننا نلاحظ محو اسم صاحب القبة. ومن الواضح أن ذلك كان رد فعل أتباع المالكية .المذهب السائد آنذاك

(8383/1)

بالبلاد . على الشيعة الذين حكموا البلاد مدة زمنية تواصلت من أواخر القرن الثالث الهجري إلى أواسط القرن الرابع. وبعد تحولهم إلى مصر، حاول المالكية فسخ كل ما يمكن أن يذكر بحضورهم، خاصة بعد أن خرج المعز بن باديس الصنهاجي عن طاعة الدولة الفاطمية. ومن المعلوم أن أبا المنصور العزيز بالله الفاطمي تولى الحكم ابتداء من سنة 365 هـ/ 975 م إلى 386 هـ/ 996 م، وهو ما يدفعنا إلى نسبة قبة البهو إلى هذا الخليفة الفاطمي، ومن الراجح أن منصور بن بلكين بن زيري أمير صنهاجة آنذاك (373 هـ/ 983 م/ 386 هـ/ 996 م) هو الذي

(1/8384)

قام بأعمال البناء بأمر من العزيز بالله.

... كما نعثر على نقيشة تؤرخ الأعمال نفسها وتوجد على وسادتين يعلو كلاًّ منهما تاج عمود تستند إليه القبة من ناحية باب البهو.

... نص النقيشة الأولى:

... بسم الله الرحمن الرحيم/ صنعه أحمد البرجيني وأبو الثنا/ أبو عبد الله ابن القفاص وبشر بن البرجيني/ وصلى الله على محمد خاتم النبيين.

... أما نص النقيشة الثانية، فهو:

... بسم الله الرحمن الرحيم/ كان ابتداء العمل في المجنبات/ والداموس والقبة/ في شهر ربيع الأول من سنة ثمانين وثلاثمائة وتم/ جميع ذلك في جمادى

(1/8385)

الأول من سنة خمس وثمانين وثلاثمائة.

وتعتبر قبة البهو أجمل القباب بالبلاد التونسية: لتناسق تخطيطها، ودقة تفاصيلها المعمارية، وتناسق نسبها وثراء زخارفها؛ وهي تتميز بظهور عنصر زخرفي جديد يتمثل في تناوب اللونين الأبيض والأحمر خاصة في العقود التي طغت على قسم من الجدران نفسها، وهي ربما من التأثيرات المصرية التي وردت على إفريقية عند انتقال الفواطم إلى القاهرة المعزّية.

... وتواصل الاهتمام بالجامع أيام دويلة بني خراسان التي حكمت مدينة تونس مدة قرن كامل (451 هـ/ 1059 م إلى 555 هـ/ 1160 م)، فأضافوا ستة

(1/8386)

أبواب جديدة للجامع وهم الذين بنوا مقصورة الإمام التي تروي الأسطورة: "أن امرأة يهودية أسلمت، وكان مسكنها ملاصقاً المحراب، فحبّسته على الجامع، مما سمح بإضافة المقصورة". وترجع كتابة هذه المقصورة إلى فترة أبي محمد عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان، كما تثبت نقيشة ذات خط كوفي متميز أن المقصورة الشرقية أضيفت في بداية الفترة الخراسانية وأمر ببنائها القاضي عبد الرحمن بن محمد بن الولي الصالح سيدي محرز وذلك سنة 457 هـ/ 1064 م، وأضيفت أيضاً البوابة الغربية للجامع في آخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر

(8387/1)

الميلادي.

... أما الأبواب الخشبية المطلة من بيت الصلاة على الصحن، فقد أمر بصنعها السلطان أبو يحيى زكرياء المشهور باللحياني، وذلك سنة 716 هـ/ 1316 م، وهي التي تؤرخها النقيشة ذات الخط الكوفي المتأخر التي تعلو باب البهو المواجه للمحراب. ونصها:

... بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليما. هذا مما أمر به الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبو يحيى زكرياء ابن الأمراء الراشدين في شهر رمضان المعظم عام ستة عشر وسبعمائة.

(1/8388)

... ويبدو أن أول مئذنة تم بناؤها بالجامع كانت خلال الفترة الحفصية. فيذكر الزركشي في كتابه "تاريخ الدولتين" أن السلطان (أبا فارس عبد العزيز) "أمر بعمل بيت المكتب بمجنبة الهلال جوفي جامع الزيتونة تحت الصومعة"، وتم بناء بيت الكتب سنة 822 هـ/ 1419 **م. لهذا يمكن التأكد من أن الصومعة ترجع إلى فترة سبقت هذا التاريخ. ثم أمر محمد باي المرادي ببناء مئذنة أخرى سنة 1063 هـ/** 1655 **م (وهو المشهور بحمودة باشا). وقد أرّخ الشريف الإدريسي هذه المنارة بقصيدة ما زلنا نعثر على نقيشتها بالجامع، لكن تداعت هذه المئذنة**

(1/8389)

للسقوط فعوضت بالمئذنة الحالية خلال سنة 1312 هـ/ 1894 م، وهي متأثرة في نمطها بالمآذن الموحدية التي ما زالت بعض أمثلة منها قائمة الذات، خاصة منها "الكتبية" بمراكش وصومعة "جامع حسان" بالرباط، وكذلك "الخيرالدا" بإشبيلية. وأول من أدخل هذا النمط للبلاد التونسية هو أبو زكرياء الأول في جامع الحفصيين بالقصبة، وذلك خلال سنة 631 هـ/ 1233 م. وهنا من واجبنا التساؤل عن سبب عدم وجود مئذنة بالجامع خلال الفترات الإسلامية الأولى وحتى خلال العهد الحفصي الأول، وبالرغم من أنه ليس لدينا أي إجابة مقنعة، فإنه من

(8390/1)

الراجح أن وجود برجي المراقبة جعل الذين شيدوا الجامع يستغنون عن إقامة الصومعة التي تعتبر من العناصر القارة بكل جوامع الخطبة، ومن الممكن أن الآذان كان يتم انطلاقاً من فوق أحد هذين البرجين؟

... بالطبع، لم يكن دور الجامع مقتصراً على الأمور الدينية فقط، بل لعب أيضاً دوراً عملياً أساسياً. فقد كان أيضاً جامعة علمية طبقت شهرتها الآفاق.

... وقد ساد الاعتقاد عند الخاصة والعامة أن جامع الزيتونة كان مقر علم وتدريس منذ أول تأسيسه، إذ

يقول حسن حسني عبد الوهاب "إن جامع الزيتونة هو أسبق المعاهد التعليمية

(8391/1)

للعروبة مولداً وأقدمها في التاريخ عهداً، وذلك منذ سنة 120 هـ/ 737 م. وذهب مذهبه العديد من المؤرخين: فيرى محمد العنابي في تحقيقه لـ "فهرست الرصّاع" بأن علياً بن زياد وابن أشرس درّسا بجامع الزيتونة في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلاديّ وربما اعتمد في هذا على نص لأبي العرب، حيث يذكر أنه "كان بتونس علي بن زياد وابن أشرس وابن أبي كريمة"، لكن دون التأكيد أنهم درسوا بالجامع، ولا يوجد مصدر آخر يبين بوضوح أن ابن زياد قد جلس مدرساً بالزيتونة بل كل ما نعرفه أنه كان يدرّس بمنزله، ولعله قام أيضاً بمهمة

(8392/1)

الإفتاء بالجامع؟ والراجح أن بعض المؤلفين اعتبروا أنه درّس بجامع الزيتونة، نظراً لمستواه العلمي الهام.

... نحن لا نعلم إذن بالضبط تاريخ بداية التعليم في هذا

الجامع، ولا نعلم أيضاً متى أصبح فيه التعليم منظّماً.
وأول نص يشير إلى التدريس بجامع الزيتونة يعود إلى سنة 603 هـ/ 1206 م. وخلاصة القول فيما يخص الدراسة بجامع الزيتونة أن هذا المعلم يرجح أن يكون قد لعب دوراً تعليمياً منذ تأسيسه، كما كان الشأن بالنسبة للمساجد الجامعة بالمدن الأخرى في المغرب العربي وفي المشرق الإسلامي، فقد جرت العدة من الأيام

(8393/1)

الأولى في الإسلام أن يتخذ من أهم جوامع المدينة مركزاً للتعليم.
... ومما يبعث على هذا الاحتمال تواجد علماء أجلاء بمدينة تونس، بداية من القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي، فيذكر أبو العرب تسعة من بينهم أهم أهل العلم والفضل والفقهاء بها، غير أن إشارات المصادر تعوزنا بالنسبة للقرون الخمسة الأولى من تاريخه. ومهما يكن من أمر، فلم تكن لجامع الزيتونة الأهمية التي أصبح عليها مع بداية العهد الحفصي. فانطلاقاً من الربع الثاني للقرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلاديّ، ازدهر التعليم بالجامع وأصبح له شأن

(8394/1)

عظيم وعرف بصفته معهداً علميّاً طبقت شهرته الآفاق وجاءه الطلبة كذلك من الناحية الغربية للبلاد ـ المغرب الأقصى والجزائر حالياً وحتى السودان. ولهذا أصبح جامع الزيتونة من أهم الجامعات العلمية بالمغرب الإسلامي.

... إلا أن الجامع عرف في القرن العاشر الهجريّ/ السادس عشر الميلاديّ، تقهقراً وانكماشاً في نشاطه العلمي نتيجة ضعف ثم سقوط الدولة الحفصية ودخول الإسبان إلى تونس، ثم أتى العثمانيون فأهملوا الجامع خلال الفترة الأولى لحكمهم. وكان ذلك ربما نتيجة لاعتماده المذهب المالكي، وهو ما يخالف المذهب الرسمي

(8395/1)

للحكام الجدد الحنفيين.

... لكن هذه الحالة لم تدم طويلاً، إذ استعاد الجامع مكانته الأولى في تونس بداية من النصف الثاني للقرن الحادي عشر الهجريّ/ السابع عشر الميلاديّ، نظراً للأهمية التي يتمتع بها المذهب المالكي، وما يتمتع به الجامع من مكانة لدى مختلف الطبقات وخاصة منها العلماء. وفي

أواسط القرن الثالث عشر الهجريّ/ التاسع عشر الميلاديّ، فقدت المدارس نهائياً دورها في ميدان التعليم، ما عدا دراسة الحديث. واستقل الجامع الأعظم بكل مواد الدراسة، وتواصل التعليم فيه حتى بداية النصف الثاني للقرن العشرين.

(8396/1)

... ويبدو أنه كان للتعليم بالجامع الأعظم انطلاقاً من الفترة الحفصية حرية شبه مطلقة. فالطالب ليس مرغماً على الحضور أو الانصراف في موعد معين، وهو غير مقيد بالحضور لأستاذ دون آخر؛ فهو يحضر للشيخ الذي يعتبره أفضل من غيره، فيستطيع أن يلازمه أو أن ينتقل إلى حلقة شيخ آخر (ومن الأمثلة ملازمة البرزلي لشيخه ابن عرفة مدة أربعين سنة).

... ونتج عن هذا تكاثر عدد الطلبة في الجامع الأعظم. فعددهم فيه غير محدود، إذ كان الجامع مفتوحاً للجميع، بينما كان عدد الطلبة في المدارس محدوداً لا يمكن أن يتجاوز رقماً معيناً.

(8397/1)

ففي أكثر الأحيان يحدد منشئ المدرسة عدد الطلاب الذين يسمح بهم بالإقامة فيها، وهو يكون في أكثر الأحيان موافقاً لعدد غرفها.

... وهنا سنحاول تعرّف محتوى برامج التعليم. وأول ما يتبادر إلى الذهن هو التساؤل هل حصل تطور في محتوى هذه البرامج؟ وهل وقع تغيير في موادها عبر العصور؟

... في الحقيقة، يبدو من العسير أن نتتبَّع تطور مواد التدريس في الجامع الأعظم لقلة المصادر (التي يبرز من بينها خاصة "السنن الأبين" لابن رشيد الفهري، وكذلك "فهرست" الرصّاع، هذا إضافة لـ "مقدمة" ابن خلدون ورحلة ابن خلدون شرقاً

(8398/1)

وغرباً، وبعض الرحلات الأخرى للعبدري والقلصادي والبلوي...)، وإنما أهم ما يمكن معرفته هو برامج التعليم عامة لا تفصيلاً. لا يمكن بالطبع سرد كل المصنفات التي درست، لأنها تتفاوت في الأهمية. فمنها ما درّس باستمرار أو على الأقل خلال فترة زمنية طويلة نوعاً ما، ومنها ما لم يدرّس إلا عرضاً، حسب ما يمكن استنتاجه في المصادر.

... والملاحظ أن جل الشيوخ الذين درّسوا في الجامع الأعظم

درّسوا مصنفاتهم، إلا أنها في غالب الأحيان لا تدرّس بعدهم إلا في بعض الحالات الشاذّة خاصة منها "مصنّف" ابن عرفة.

(8399/1)

... ومما نستنتجه أن جل مواد التدريس شملت المدارس والجامع الأعظم على حد سواء. فالطالب الذي يحصل على مشيخة مدرسة، بعد دراسته بالزيتونة كثيراً ما يهتم بإعادة تدريس ما قرأه من قبل. فالعديد من شيوخ المدارس كانوا يقومون بالخطة نفسها في الزيتونة أو بغيرها من الجوامع. ولهذا لا نجد ذكراً لمكان تدريس أحد المصنفات في بعض الأحيان، وإنما نستنتج أنه حصل تدريسه وشرحه بالجامع الأعظم وبغالب المدارس.

... وبالطبع، لم تكن كل المصنفات على الأهمية نفسها. فمنها التي تواصل تدريسها من غير انقطاع إلى عصرنا هذا، ومنها

(8400/1)

التي حصل فتور في تدريسها، أو انقطاع تام عن الالتجاء إليها أو النظر فيها. ويبدو أن السبب في ذلك وجود كتب لا يمكن الاستغناء عنها لأهميتها القصوى، وبقيت متداولة من غير انقطاع، وأخرى كان لها حظوة وقتيّة فقط ما فتئت أن تعدتها الأحداث، أو ظهور مؤلفات جديدة أخذت مكانها. ففي بعض الأحيان، مثلاً، يذهب طالب إلى المشرق، وعند رجوعه يدرس بدوره ما قرأه. إلا أنه في الكثير من الأحيان لا يتواصل بعده تدريس هذا المصنف. وهنا نشعر أنه كان هناك نوع من "الموضة". فمحتوى التعليم أيضاً يؤثر فيه مرور الزمن ويتجدد من وقت

(8401/1)

إلى آخر.

... ومن أهم ما نستطيع أن نلفت النظر إليه، أنه بداية من الفترة الحفصية، اتسمت الدراسة بالاعتناء بالشروح والحواشي والتلاخيص والمختصرات، بينما حصل إهمال جزئي للمراجع الأصلية، وهو ما يمكن استنتاجه من مجموع مصنفات المدرسة خلال هذه الفترة. وقد انتقد ابن خلدون هذه الطريقة المتّبعة في التدريس، قال:

... ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء والعلوم، يولعون بها، ويدونون منها برنامجاً مختصراً

في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة في

(8402/1)

ذلك الفن. وصار ذلك مخلاًّ بالبلاغة وعسراً على الفهم، وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطوّلة في الفنون للتفسير والبيان، فاختصروها تقريباً للحفظ، كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه، وابن مالك في العربية والخونجي في المنطق . . . وهو فساد التعليم، وفيه إخلال بالتحصيل.

ويوافق النص المعلومات التي أتت بها المصادر الأخرى. ... وفي أوائل العهد الحفصي، نلاحظ أن علوم القرآن من القراءات والتفاسير. وكذلك علوم الحديث كانت أهم ما يحصل درسه بالزيتونة، إذ اعتمد المذهب الموحدي على هذين العلمين في الدراسة؛ لكن

(8403/1)

عند رجوع المالكية إلى سيطرتها المطلقة، أي أواخر القرن السابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ، أعطيت أهمية لمادة الفقه، فروعاً وأصولاً. وإلى جانب المحدثين والفقهاء، وجد أصحاب علم الكلام، كما اهتم الأساتذة بعلمي النحو والصرف. هذا، إضافة لعلم الفرائض والأدب والتاريخ والبلاغة والجدل والمنطق، وبعض العلوم الأخرى.

... ونتيجة لاستقطاب الجامع لعدد هام من الطلبة والشيوخ، ونظراً لأنه كان قبلة الجميع، أسست فيه العديد من المكتبات. فبأمر من السلطان أبي فارس عبد العزيز بنيت المقصورة الغربية قرب الصومعة، وذلك في

(8404/1)

بداية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي (822 هـ/ 1419 م)، وفي مقصورة محمد حفيد الولي الصالح سيدي محرز نفسها أمر أبو عمرو عثمان بإنشاء مكتبة سنة 854 هـ/ 1450 م، وهو السلطان نفسه الذي بنى ميضأة السلطان التابعة للجامع، ونص النقيشة التي تعلو النافذة المثناة هي: "مما أمر به الخليفة الإمام أبو عمرو عثمان أيده الله ونصره في عام أربع وخمسين وثمان مائة في رجب".

... وبنيت مكتبة العبدلية المنسوبة للأمير أبي عبد

الله محمد في الناحية الشرقية للجامع، وتولى هذا السلطان الحكم من 899 **هـ/** 1492 **م إلى** 932

(8405/1)

هـ/ 1525 **م. إلا أن هذه المقصورة انقرضت منذ مدة قصيرة. وتعود خزائن المكتبة إلى سنة** 1256 **هـ/** 1840 **م، التي حبّسها على الجامع أحمد باشا باي الحسيني. ووردت الختمة العظيمة التي ما زال يقرأ فيها القرآن، من الأندلس، وذلك سنة** 868 **هـ/** 1463 **م. وقد تم ترميمها على يدي محمد باي بن حمودة باشا صاحب جامع سيدي محرز، وذلك حسب النقيشة المحلية للصندوق سنة** 1084 **هـ/** 1673 **هـ**

... أما أحلك الفترات التي مرت بها مدينة تونس والجامع الأعظم، فقد كانت خلال الحرب الإسبانية ـ التركية؛ إذ دخل الإسبان إلى تونس سنة 941 **هـ/** 1535

(8406/1)

م، وكذلك في سنة 980 **هـ/** 1573 **م، فنهبت خزائن الكتب ومزقت المخطوطات وحرقت، وداستها الخيل**

بأرجلها وأزال الجند الإسباني الخشب المكون للسقوف، للتدفئة؛ كما اقتلع هؤلاء الأعمدة المرمرية وتيجانها، وبقيت هذه الفترة في الذاكرة الشعبية كأسوإ ما حدث للجامع الأعظم، ولم ترجع الأمور إلى نصابها إلا بعد هزيمة الإسبان النهائية سنة 981 هـ/ 1574 م، فأعيدت للجامع حرمته ورمم من جديد وساهم في هذه الأعمال الشيخ صالح أبو الغيث القشاش الذي أعاد بناء السقوف سنة 1031 هـ/ 1621 هـ وتبدو هذه الأعمال بالنسبة إلى الفترة

(8407/1)

العثمانية الأولى واضحة في بعض أقسام الجامع، خاصة بالمنبر، الذي تم ترميمه سنة 991 هـ/ 1581 م، وذلك حسب النقيشة التي تعلوه والتي تمدنا بهذا التاريخ، كما نعثر على نقيشة بمقصورة حفيد سيدي محرز نفسها التي ترجع لسنة 1005 هـ/ 1596 م، والتي تؤرخ لإنشاء الشباك المطل على داخل بيت الصلاة على يدي القائد التركي: حسين باشا.

... كما تعود النقوش الجصّية التي تحيط بالمحراب وتحلي كذلك الحدائر الموجودة فوق التيجان إلى فترة الإمام تاج العارفين البكري، وذلك سنة 1047 هـ/ 1637 م. وهو ما تفيدنا به النقيشة المطلية

(8408/1)

باللون الأخضر والمثبتة على إفريز محيط بعقود قاعدة قبّة المحراب من الداخل والخارج والتي تمدنا باسم هذه الشخصية الهامة في تاريخ الجامع. هذا، إضافة إلى أعمال الترميم التي أرختها النقيشة التي تعلو الباب الرئيس للقسم الشرقي للجامع. ونص هذه النقيشة:

... بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله الطاهرين الطيبين وأصحابه أنجم المهتدين. مما أذن الله سبحانه وتعالى برفعه فسر عمله وأعان عليه بتوفيقه وهديه فتم بحوله وتأييده إنشاء هذه المجنبة الشرقية والزيادة

(8409/1)

المقبولة المستحسنة المرضية المحدثة بصحن الجنائز من أولها إلى آخرها وسقفها وكذلك الدّرج الطالع الكبير الملاصق للساقية والدرج الطالع الملاصق للمقصورة المولوية العثمانية وتبليط الصحن المذكور، كل ذلك بأمر الشيخ الإمام الهمام شيخ مشائخ الإسلام عمدة

العلماء الأعلام وحيد دهره وفريد عصره العالم الرباني أبي عبد الله محمد تاج العارفين العثماني ونظره السديد أيّد الله ذكره وخلا ستره وكذلك أمر ـ حفظه الله تعالى ـ بإحياء السقاية المذكورة وتجديدها وتسديدها بعد إندراسها وهي التي أنشأها المرحوم برحمة الله تعالى

(8410/1)

أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز عام ثمانية وأربعين وستمائة (؟) ثم أحياها بعد ذلك المرحوم برحمة الله تعالى أمير المؤمنين أبو عمرو عثمان سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وردها لأصلها السابق سينتفع منها الفقراء والمساكين بالشرب والاستسقاء وقفاً مؤبداً جارياً كما كان حالها سابقاً. قال الله العظيم على لسان نبيه الكريم {فمن بدّله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم}. كل ذلك ابتغاء ثواب الله سبحانه وتعالى للمتصرفين من عباده المخلصين في جمادى الأول عام سبعة وأربعين وألف عرف الله

(8411/1)

بركته المنفق والمتسبب والساعي في شيء منه، صنعه محمد الأندلسي بن غالب.

... ومما ثبت لنا خلال أعمال سنة 1989، أن المحراب الأول للجامع يوجد خلف المحراب الحالي الذي أضيف حسب ما يبدو خلال فترة أعمال "النّقشة حديدة" نفسها. كما أنه من الممكن أنها ترجع إلى الفترة الخراسانية. أما اللوحة الرخامية المتصدرة لجوف المحراب، فهي ترجع للقرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وذلك عند تفاقم أمر المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن، وهذه اللوحة الرخامية التي كتب عليها: "بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول

(8412/1)

الله والقرآن كلام الله" تثبت موقف أهل السنة والجماعة من أزليّة القرآن.

... ومن أبرز عناصر الجامع: منبره الذي يعد ثاني أقدم المنابر في العالم الإسلامي، وهو يرجع إلى عام 250 هـ/ 864 م. وبالرغم من أنه يشبه في أغلب تفاصيله منبر

جامع القيروان المؤرخ بسنة 248 هـ/ 863 م، فإنه أصغر منه حجماً، ولم يتبق من حشواته سوى ست وأربعين (23 من كل ناحية)، وهي تبرز باختلاف زخارف كل واحدة عن الأخرى والتي تتمثل في أشكال هندسية محفورة ذات مربعات ودوائر ومعيّنات، كما تحتوي على زخارف نباتية على شكل أزهار ذات أربعة فصوص

(8413/1)

وتوريقات تحيط بها، ويمثل مجموعها زخرف رشيق ومتناسق. كما لهذه الزخارف تشابه مع الزخارف الجصيّة الموجودة على لوحات مثبتة في أعلى البلاطة الرئيسة وكذلك بأعلى الرّواق الجنوبي الشرقي لبيت الصلاة.

... ويبدو تصميم الجامع متأثراً بجامع القيروان.

فتخطيط هذا الجامع كان أنموذجاً محتذى لبيوت الصلاة في الكثير من المساجد سواء كان ذلك في إفريقية أو المغرب وكذلك الجزائر والأندلس. فهو شبه مربع، وتتجه العقود الحدوية الشكل في اتجاهين: فهي متعامدة مع جدار القبلة من جهة، وموازية له من جهة أخرى. وأعرض المسكبات السبع

(8414/1)

هي الممتدّة بمحاذاة جدار القبلة، كما أن بلاطة المحراب هي أعرض من بقية الأربع عشرة بلاطة التي يبلغ طول كل منها 26 متراً. وهي تكون مع أعراض المسكبات: التخطيط المتعارف عليه بشكل T اللاتينية، وهو التصميم الأكثر انتشارا بالبلاد التونسية والمتأتية أبعاده من أبعاد قبة المحراب نفسها.

... ويحتوي صحن الجامع الفسيح على مزولة شمسية تعود إلى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.

... كما اشتهر الجامع بمنشآته المائية التي توفر الماء الصالح للشراب لسكان مدينة تونس بصفة عامة، وخاصة منها المواجل المبنية تحت

(8415/1)

سطح الجامع في قسمه الشرقي، والتي درسها الدكتور عبد العزيز الدولاتلي في مؤلفه "الزيتونة. عشرة قرون من الفن المعماري التونسي"؛ كما نعلم أن السلطان المستنصر الحفصي حوّل قسماً من الماء الوارد عن طريق حنايا هادريان إلى القصبة، ومنها يتم إيصال كمية من الماء إلى الجامع الأعظم التي تزود بعض الأسبلة

والسقايات المنتشرة بالجدران الخارجية للجامع. وقد بقي أثر سبيلين، الأول عن يسار المدخل الرئيس المواجه لسوق الفكّة، والثاني بالجدار الغربي، وهو مواجه مباشرة لمدخل المدرسة المرادية.

(8416/1)

... هكذا اعتبر أغلب المؤرخين للفن والعمارة الإسلاميين، الزيتونة، نتيجة لثرائها واحتفاظها بالعديد من عناصرها، من أقدم المعالم الإسلامية القائمة الذات، ومن أثراها فنّاً ومعماراً.

المصادر والمراجع

المصادر العربية

ابن أبي دينار، المونس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، تونس، 1967.

ابن أبي الضياف، أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس، 1963 ـ 1966.

ابن خلدون، عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، بيروت، 1992.

(8417/1)

ابن الشماع، أحمد، الأدلّة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق عثمان الكعّاك، تونس، 1936.

ابن فضل الله العمري، مقتطف من كتاب مسالك الأمصار في ممالك الأنصار: إفريقية والمغرب والأندلس، نشر ح. ح. عبد الوهاب، مطبعة النهضة، تونس، دون تاريخ.

ابن قنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، تونس، 1968.

البكري، أبو عبيد الله، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء مستخرج من كتاب المسالك والممالك)، تونس، 1992.

(8418/1)

خوجة، حسين، ذيل بشائر الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، تونس، 1975.

الرصّاع، أبو عبد الله محمد، فهرست الرصّاع، تحقيق وتعليق محمد العنّابي، تونس، 1967.

الزركشي، محمد، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية،

تحقيق وتقديم الحسين اليعقوبي، تونس، 1998.

السراج، أبو عبد الله محمد، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس، 1970 ـ 1978.

المراجع العربية

ابن الخوجة، محمد، تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد، تحقيق وتقديم الجيلاني بن الحاج يحيى وحمّادي

(8419/1)

الساحلي، بيروت، 1986.

ابن عاشور، محمد العزيز، جامع الزيتونة. المعلم ورجاله، دار سراس للنشر، تونس، 1991.

ابن محمود، المختار، "جامع الزيتونة من أقدم الكليات العلمية في العالم وأكثرها إنتاجاً"، المجلة الزيتونية، ج 2، نوفمبر 1937.

الحشايشي، محمد بن عثمان، تاريخ جامع الزيتونة، تقديم الجيلاني بن الحاج يحيى، تونس، 1974.

الدولاتلي، عبد العزيز، الزيتونة عشرة قرون من الفن المعماري التونسي، تونس، 1966.

..، مدينة تونس في العهد الحفصي، تونس، 1981.

زبيس، سليمان مصطفى، بيوت آذن الله أن ترفع، تونس، 1963.

(8420/1)

..، ديوان النقائش التونسية، تونس، 1955.

..، تحقيقات عن جامع الزيتونة في مدينة تونس العتيقة، تونس، 1981.

سلامة، الطيب، "نظام التعليم الزيتوني"، ملتقى ذكرى ثلاثة عشر قرناً على تأسيس الزيتونة، تونس، 1979.

عبد الوهاب، ح. ح.، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، تونس، 1965 ـ 1966.

العجابي، حامد، "اكتشافات جديدة بجامع الزيتونة"، مجلة إفريقية، عدد 7 و8.

فكري، أحمد، آثار تونس الإسلامية ومصادر الفن الإسلامي، تونس، 1949.

..، مسجد الزيتونة الجامع في تونس، القاهرة، 1953.

(8421/1)

المعموري، الطاهر، جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي، تونس، 1980.

النيفر، الشاذلي، "الزيتونة في ماضيها وحاضرها"، ملتقى ذكرى ثلاثة عشر قرناً على تأسيس الزيتونة، 1979.

المراجع الفرنسية

Brunchvig, R., La Berberie orientale sous les Hafsides, des origines à la fin du XVe , Paris, 1940–1947.

Ferchiou, N., " Rinceaux antiques remployés dans la Grande Mosquée de Tunis; parenté de leur style avec certains monuments de Carthage", dans Antiquités Africaines, T. 17, 1981.

(1/8422)

Golvin, L., Essai sur l'architecture religieuse musulmane, Paris, 1970.

– –, " Notes sur les coupoles de la grande Mosquée Az-Zaytuna de Tunis ", dans Revue de l'Occident

.1966Musulman et de la Méditerranée,

La Mosquée.,Ses origines, sa morphologie, , – –

.1960ses diverses fonctions, Alger,

Lezine, A., Architecture de l'Ifriquiya,
recherches sur les monuments Aghlabides,
.1966Paris,

Marçais, G., L'architecture Musulmane
.1952d'Occident, Paris,

(8423/1)

Solignac, H., " Travaux hydrauliques Hafsides à
ème Congrès de la 2Tunis ", extrait du
Fédération des sociétés d'A. N.,Tlemcen, T. II,
.1936

(8424/1)

جامعة القرويين والمستقبل (نظرات في مستقبل الجامعة الإسلامية في عالم الغد)

الدكتور سعيد بنسعيد العلوي

كلية الآداب – الرباط

من الطبيعي، لا بل من الضروري، أن تعقد اليوم ندوة موضوعها "جامعة القرويين في أفق القرن الحادي والعشرين". من الضروري لأسباب تتعلق بجامعة القرويين ومستقبلها، اليوم والقرن العشرون على مشارف نهايته واليوم والبشرية منشغلة بآفاق المستقبل القريب الذي يعني الدخول في قرن جديد. ذلك أن جملة من المستلزمات والمقتضيات تجابه البشرية، فيما هي تطل على القرن الحادي والعشرين، أو لنقل إنها

(8425/1)

جملة من التحديات التي نرى إجمالها في أربع كبرى :

أ – اهتمام دول الشمال خاصة (إذ الشأن في غيرها ضعيف جدا، قليل الأثر والجدوى). بالانتظام في كيانات ومجموعات كبرى (مجموعة السبعة الكبار أو الدول الأكثر غنى من غيرها، مجموعة أوروبا العظمى، الولايات المتحدة المريكية وهي تبحث عن حلفاء أقوياء من دول جوارها، مجموعة دول جنوب شرق آسيا، سعى الصين الكبرى للخروج إلى عالم السوق والمنافسة في صيغة

جديدة قوية وقادرة على المنافسة ...) فالسمة الكبرى للعصر الجديد هي سمة الكيانات والتجمعات العظمى القائمة على أسس

(8426/1)

اقتصاد السوق ومنطق القدرة على المنافسة التجارية والتفوق التكنولوجي.

ب – اتجاه إلى إحداث انقلاب تام، أو تحول كيفي شامل، في وظيفة المدرسة والجامعة والتكوين الفعال والمأمول من كل منهما (موجهاته الكبرى أو الأساس : الثورة الإعلامية، والعولمة والمنافسة الاقتصادية، والاقتراب من نموذج ثقافي شمولي).

ج – تحول في إدراك وظيفة المجتمع والمسؤوليات الموكول إليه القيام بها في الصورة الجديدة للوجود الإنساني، تحول منطقي وتغير طبيعي بل وضروري، نتيجة للتغير الحاصل في تصور الدولة (معنى ووظيفة) : وإنه من الجلي بذاته

(8427/1)

أن كل ما تتجه الدولة "المسهل" إلى التخلي عنه من وظائف وأدوار يصبح من المسؤوليات المباشرة (والعسيرة، بطبيعة الأمر) للمجتمع المدني. إنه تحول كيفي شامل، لا بل إنه انقلاب كامل في تمثل طبيعة العلاقة التي تقوم بين الدولة وبين المجتمع.

د – تغير في تصور معنى الدولة ووظيفتها المأمولة. وقد يجوز لنا إجمال ذلك المعنى وتلك الوظيفة في قولنا : إنها الدولة التي تقوم بعمل التسهيل (L'Etat facilitateur). هو عمل يتجاوز، من وجوه شتى، ما كانت الليبيرالية تحمله من شعار الدولة التي تقوم بدور الحارس الليلي (L'Etat

(1/8428)

Veilleur de nuit)، تلك التي تجعل غاية وجودها حراسة المؤسسات القانونية والاقتصادية والاجتماعية (فهي النقيض المطلق للدولة الشيوعية، بل وللدولة الاشتراكية أيضا). أما الدولة التسهيل (أو الدولة "المسهل" – مع كسر الهاء والتشديد عليها) فهي تذهب إلى أبعد مدى في التخلي عن الكثير من الوظائف "التقليدية" للدولة حتى تكون أكثر توافقا واستجابة لمنطق اقتصاد السوق والقدرة على التنافس العالمي.

هذه التحديات الأربع مترابطة فيما بينها فهي أشبه ما تكون بالشكل الهندسي الواحد أو السلسلة الواحدة المتداخلة الأطراف. في

(8429/1)

هذه السلسلة يكون لمسألة التعليم وقضية البحث العلمي ودور الجامعة مكانة خطيرة الشأن (الغاية من التكوين، كيف التكوين، آفاق التكوين، صلة الجامعة بالهوية الوطنية من جانب أول وبمقتضيات العولمة والاقتراب من النموذج الثقافي الشمولي والمهيمن من جانب ثان ...) وبإزاء كل هذه القضايا والمشكلات يعترضنا السؤال المتعلق بالمغرب : ما الشأن بالنسبة للمغرب ؟.

نترك جانبا القضايا الثلاث (الكيانات العظمى ووجوب الانتظام فيها، التغير في معنى الدولة ووظيفتها، التحول في إدراك وظيفة المجتمع)، رغم الترابط الموجود بينها

(8430/1)

وبالرغم من الصلة التي تشهدها إلى موضوعنا، ونتساءل عن الشأن بالنسبة للجامعة المغربية ومستقبل جامعة القرويين تحديدا. فأما لماذا خصصنا جامعة القرويين بالسؤال فإن ذلك لا يرجع إلى صلة الجامعة بموضوع ندوتنا فحسب بل يعود إلى الصلة الفعلية – كما يقول المناطقة – بين الجامعة العتيدة وبين والمكونات الأساس للهوية المغربية وثوابتها (الإسلام، الملكية، النسيج الاجتماعي المتماسك). وإسهامنا المتواضع في أعمال هذه الندوة المباركة نريده نظرات وأفكارا طليقة في مستقبل جامعة القرويين ومن خلاله في مستقبل الجامعة

(8431/1)

الإسلامية أو التعليم الجامعي العالي في العالم في العالم الإسلامي.

القرويين في تاريخنا السياسي والاجتماعي وفي حياتنا الروحية والثقافية :

في التاريخ المغربي، السياسي والاجتماعي والثقافي، لعبت جامعة القرويين ادوارا كبيرة حاسمة فكانت من دعامات هذه المكونات الثلاث ومما أكسبها مضامينها وأبعادها.

أ – ظلت القرويين، قرونا عديدة متصلة، المصدر الوحيد (مع استثناءات قليلة، بالنسبة لبعض المناطق في جنوب البلاد) الذي يعد المغرب بما كان في حاجة إليه من كتاب، عدول، ومحتسبين، وقضاة، وعاملين في السلك المخزني بصفة

(8432/1)

عامة. الحق أيضا أنها كانت المصدر الوحيد لتكوين "الأطر" الصغرى والمتوسطة بالنسبة للطلبة الوافدين إليها من الجزائر كما يذكر ذلك بول مارتي (Paul Marty**) في دراسته الجيدة عن "جامعة القرويين"(1).**

ب – مثلما كانت الجامعة العتيقة مركزا "لتكوين الأطر" الإدارية والقانونية للبلاد، كانت مصدرا لإمدادها بما تحتاجه الحياة الدينية والروحية من العلماء والمفتين كما كانت دائرة علمية

---

(1) Paul Marty, « L'Université de Quaraouiyne », in Le Maroc de demain, Publication du Comité de l'Afrique Française, Paris1925.

(8433/1)

مفتوحة في وجه عموم طلاب المعرفة وعشاق الأدب ومحبي الثقافة العربية الإسلامية الرفيعة. ومن بين الكتابات والشهادات العديدة المتوافرة في هذا المضووع نقف عند محمد ابن الحسن الحجوي في فهرسته "مختصر العروة الوثقى" فنقرأ له :

"لا ريب أن انتشار العرفان في الأمة، حتى ينال حظه منها التاجر والصانع وغيرهما، عنوان ذكاء الأمة ورقي فكرها وحسن مجتمعها. ومن المعلوم أن عوام فاس أحسن فكرا

وأجود تصورا وأتم ذكاء من بعض علماء بقية المغرب لوجود نبراس عظيم يستضيئون به

(8434/1)

وهو معهد القرويين الذي طما بحر معارفه فتدفق على منتدياتها ودورها

وبساتينها – فقلما تجد مجتمعا لا يوجد فيه عالم يجتمعون عليه ويقتبسون من معلوماته"(1).

وملاحظات الحجوي هذه تجده تأكيدا لها في دراسات علماء اجتماع اشتهروا بحسن معرفتهم للمجتمع المغربي،

ونذكر من بينهم جاك بيرك (Jacques Berque) في الكثير من مؤلفاته (وقد نشير من بينها إلى مجموع دراساته المنشورة تحت عنوان "المغارب بين الحربين الكبيرتين". ونذكر من بينهم أيضا باحثا إتنوغرافيا شغل منصب مدير ثانوية

---

(1) محمد الحجوي، مختصر العروة الوثقى، ص. 19.

(8435/1)

مولاي إدريس في فاس، ثم شغل منصب مدير التعليم وكان أحد كبار منظري السياسة الاستعمارية الفرنسية في ميدان التعليم في المغرب وهو بول مارتي في دراسته التي تقدمت الإشارة إليها سابقا.

م – أما في المجال السياسي فقد كانت لجامعة القرويين وظيفة تقليدية ودور خطير فاعل. فأولا كانت القرويين مكانا "رمزيا" لإمضاء بيعة الملوك والسلاطين، إذ بخروج البيعة ممهورة بتوقيعات علماء القرويين يكتسب السلطان المبايع لها هيبة جليلة الوقع في النفوس ويستشعر تأييدا يوازي في تأثيره وقوته تأثير جهات أخرى عديدة مجتمعة. وثانيا

(8436/1)

كانت القرويين هي المجال الطبيعي الذي يكون فيه البت في الخطير في العديد من الأمور والقضايا التي تتعلق بالمعاهدات والعقود التي تمضيها الدولة مع دول وأجناس شتى، في شؤون تتصل بالتجارة والمبادلات الاقتصادية مع تلك الدول. ولو شئنا الاقتصار على بعض الأمثلة التي ترجع إلى التاريخ المعاصر، منذ منتصف القرن الماضي خاصة، فنحن نشير إلى استشارة الملك سيدي محمد بن عبد الرحمن لعلماء القرويين
واستفتائهم من أجل معرفة رأي الشرع عندهم فيما إذا كان من الممكن قبول الصلح – بناء على شروط معروفة – الذي عرضه الإسبان من

(8437/1)

اجل الخروج من مدينة تطوان وإخلاء سبيلها سنة 1860 بعدما امتد احتلالهم لها لفترة قاربت السنة كاملة(1). كما نشير إلى استيفتاء الحسن الأول للعلماء فيما عرف بمسألة "الوسق" أو إمداد دول أوروبا بالمنتوجات الفلاحية والحيوانات في ثمانينات القرن الماضي(2)

(1) انظر : نص "الاستشفاء وأجوبة العلماء المختلفة" في :

محمد داود، تاريخ تطوان.

ومن أجل معرفة أفضل لكيفية الاستشارة (استشارة العلماء، والوجهاء، والأشراف، ونقباء الحرف، والتجار ...).

انظر : محمد المنوني، مظاهر يقظة المغرب الحديث.

(2) للمزيد من الاطلاع، توضيحا لمعنى"الوسق" (=التصدير) والجدل الذي قام بين العلماء المغاربة، انظر : عبد الرحمن ابن يزيد، إتحاف أعلام الناس، مطبعة الأمنية، 1929، الرباط (الجزء الثاني).

– أبو العباس أحمد الناصري، الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، 1954، الدار البيضاء (الجزء التاسع).

(8438/1)

.

2– دور القرويين في العمل الوطني التحرري :

لم يعد الحديث عن عمل القرويين في مكافحة الاستعمار الفرنسي في حاجة إلى مزيد تأكيد، فمسألة "الظهير البربري" ودور علماء القرويين المتنورين في مقاومته قضية مشهورة معلومة اليوم. يكفي المرء أن يرجع في ذلك إلى كتابات رجال الحركة الوطنية ومذكراتهم (نذكر منها، على سبيل المثال، المرحوم إبراهيم

الكتاني في كتابه : "مذكرات سجين مكافح" – حيث افاض في الحديق عن حوادث 1937 خاصة؛ والأستاذ أبا بكر القادري في كتابه "مذكراتي في الحركة الوطنية" – الجزء الأول) فضلا عن

(8439/1)

كتابات الزعيمين علال الفاسي "الحركات الاستقلالية في المغرب العربي" ومحمد بن الحسن الوزاني "عقيدة جهاد". عدا ما عرض له عدد من الذين أرخو للحركة الوطنية المغربية، سواء في بعض الرسائل الجامعية أو في بعض المؤلفات أو المساهمات في لقاءات علمية. غير أننا نريد، في هذا اللقاء، أن نعرض لذلك الدور كما تكشف عنه بعض النصوص التنظيمية أو التشريعية التي تتعلق بالكيفية التي كانت الإدارة الاستعمارية ترى تدبير شؤون جامعة القرويين بواسطتها.

(8440/1)

عقب أحداث 16 ماي 1930 – أو التي أعقبت هذا التاريخ بالأحرى، تاريخ صدور ما عرف بـ "الظهير البربري"،

أصدرت السلطات الاستعمارية الفرنسية عددا من النصوص "التنظيمية" في الفترة الممتدة بين سنة 1930، 1934، **من بين تلك النصوص التي تحمل "هما أمنيا" صريحا فلا تخفي قلقها من اتصال القرويين والمنتسبين إليها بالعمل الوطني المقاوم للاستعمار نقف عند النص الصادر في سنة** 1933 **المتعلق، جملة وتفصيلا بتأديب المدرسين والموظفين من جهة أولى، و"تأديب" الطلبة من جهة ثانية. فنحن نقرأ من الجهة الأولى :**

(8441/1)

"كل مدرس أو موظف بمسجد القرويين أو بمعهد من المعاهد العلمية المغربية
يشتغل داخل مسجد من المساجد أو زاوية من الزوايا أو خارجا عنها بإلقاء دروس أو
خطب أو تحرير مقالات أو توزيع أوراق أو منشورات من شأنها أن تهيج أفكار الطلبة
أو تلهيهم عن التعليم أو تشوش الفكر العام أو تمس بحرمة المساجد وبوقار العلم يعرض على مجلس تأديبي
يمكنه أن يصدر عليه إحدى العقوبات الآتية : 1– **الإنذار.** 2 – **تثقيف مرتبة لمدة لا تتجاوز نصف شهر.** 3–

تثقيفه عن وظيفة مع إسقاط مرتبه لمدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر. 4- تنقيص مرتبه. 5- إسقاطه

(8442/1)

من مرتبته إلى أسفل منها. 6- عزله"(1).

وفي الجهة الثانية، المتعلق بالحياة الطلابية داخل الجامعة العتيقة، وبحق الطلبة في العمل السياسي خارجها نقرأ في الفصل الثاني من القانون التنظيمي المتقدم ذكره :

"كل طالب مقيد بزمام طلبة القرويين أو غيره من المعاهد المغربية يصدر منه ما ذكر في الفصل الأول من المخالفات، سواء كان ذلك داخل مسجد القرويين أو غيره من المساجد أو الزوايا أو خارجا عنها أو ينخرط في

---

(1) انظر مجموع النصوص المشار إليها في :

عبد الرحمن ابن زيدان، الدرر الفاخرة (المطبعة الاقتصادية، 1937، الرباط)

(8443/1)

حزب من الأحزاب السياسية يعرض على امجلس التأديبي ويمكن معاقبته بإحدى العقوبات الآتية : أولا، الإنذار – ثانيا، منعه من الدخول في أي امتحان من الامتحانات عاما كاملا – ثالثا، إخراجه من القرويين أو غيره من المعاهد العلمية المغربية لمدة لا تتجاوز سنتين – رابعا، إسقاطه إسقاطا نهائيا من زمام الطلبة".

لاشك أن جامعة القرويين، شأنها في ذلك كل جامعات الدنيا ومعاهد التكوين في العهود السابقة، قد عرفت نظما وتنظيمات يكون بواسطتها البت في المنازعات بين الطلبة، وخاصة متى كانوا قاطنين بالجماعة أو قرويين منها

(1/8444)

ومتى كانت أعدادهم مرتفعة كما يكون بواسطتها تقرير وسائل الزجر المختلفة. كما أن من الضروري لتلك الجامعات أن تقنن كيفيات النظر في الأحوال التي يكون فيها من المدرسين أو من المراقبين الإدراريين شطط في حق طالب أو مجموعة من الطلاب ... ومن المعروف أن أعرافا جامعية معلومة وآدابا في السلوك والتعامل كان يتم الرجوع إليها في تلك الأحوال. غير أن الأمر بالنسبة لجامعة القرويين في المرحلة التي نتحدث

عنها قد اتصف بخاصية مزدوجة وقع فيها تداخل شديد بين الإصلاح البيداغوجي وبين القهر الاستعماري. وبقدر ما كانت النصوص

(8445/1)

التي نتحدث عنها شديدة الانتباه إلى كيفية سير الدروس ونظام الدراسة المراقبة البيداغوجية (وهذه إصلاحات لم تكن موضع اعتراض عليها من قبل الأساتذة "المجديدن" أو القابلين لرفض إسار التقليد وقصورات عهود الانحطاط والتأخر)، بقدر ما كانت وسائل القهر الاستعماري تعمل عملها وقد بلغ الوضوح في تلك النصوص، كما أتينا بها عارية دون تعليق عليها، حد اعتبار كل خروج عن إلقاء الدروس "التقنية" عملا يدخل في باب تهييج أفكار الطلبة، وتشويش الفكر العام، والمساس بحرمة المساجد. وبنية القرويين، في المرحلة موضوع حديثنا مثلما

(8446/1)

كانت في الفترة السابقة، تجعل الدرس مفتوحا في وجه المستمعين الذين يقصدون السماع من مختلف أرجاء مدينة فاس، بل ومن خارجها. وبعض الساعات من أول الليل خاصة، كانت تجعل من القرويين أشبه شيء بالنوادي العلمية والملتقيات الأدبية ومجالس الوعظ والتهيئة كما تفيد ذلك شهادة محمد الحجوي في إحدى الفقرات المتقدمة من القسم الأول من عرضنا هذا. وفي القرويين ظهر علماء أساتذة ووعاظ كان لهم تأثيرهم القوي المباشر في إذكاء الروح الوطنية وإعلان الدعوة إلى معارضة "الظهير البربري" وتكوين ثلة من الشباب الذين سيصحبون، لاحقا،

(8447/1)

من زعماء الحركة الوطنية والرجال العاملين فيها. ففي التقاليد الثقافية المغربية لم يعرف هناك وجود حدود وفواصل بين القرويين، وما تحمله من رموز دينية وثقافية، وبين الحياة الاجتماعية والسياسية بل إن ماكان بين الجامعة العتيقة وبين تلك الحياة تكامل وتعاضد. وإذن فإن العمل الاستعماري كان شديد الاهتمام بوجوب قطع أواصر تلك الصلة وأسباب ذلك الاتصال ولذلك كان الانشغال بمسألة "إصلاح القرويين"

في مقدمة انشغالات رجال الإدارة الاستعمارية والمخططين الدهاة لها. وغني عن القول إن الاستعمار الفرنسي للمغرب قد تم

(8448/1)

التمهيد له بوفرة كثيرة من الدراسات الميدانية التي تتعلق بنظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ومؤسسة جامعة القرويين في مقدمتها. ونحن أن بول مارتي (Paul Marty) الذي أشرنا أعلاه إلى دراسته عن جامعة القرويين والصادرة سنوات خمس قبل إعلان "الظهير البربري" تعرض لنقاش مستفيض وجدل حاد قام (واتصل، سنوات كثيرة ترقى إلى الفترة السابقة على إعلان الحماية على المغرب سنة 1912) بين مفكري الإدارة الاستعمارية الفرنسية حول ما إذا كان الأنسب، للسياسة الفرنسية والاستعمارية في المغرب أن يتم القضاء على جامعة

(8449/1)

القرويين أو تكون مساعدتها على "الموت الذاتي"، أو العمل، بالأحرى، على إدخال إصلاحات يتم التخطيط لها بدقة وتكون مراقبتها بكيفية دائمة وصارمة(1).

لكل هذه الأسباب يجد الدارس أن صراعا قويا، خفيا حينا وصريحا مكشوفا أحايين أخرى عديدة، قام واتصل بين السلطات الاستعمارية من جهة أولى وبين الملك المرحوم محمد الخامس في تنسيق وتضافر تأمين مع رجالها.

والمهتمون بتاريخ المغرب المعاصر وبتاريخ الحركة الوطنية خاصة يعلمون أن محمد الخامس قد قطع زيارة رسمية

---

(1) Paul Marty, L'Université de Quaraouiyne, pp. 66–81.

(8450/1)

كان يقوم بها لمدينة فاس وأنه ارتحل عنها، فجأة ليعود إلى عاصمة المملكة يوم 10 ماي 1934 احتجاجا على تحايل الإدارة الاستعمارية ومنع جلالته من الصلاة، صلاة الجمعة، في جامعة القرويين احتجاجا بالخوف على أمن جلالة الملك وسلامته من شغب المشاغبين كما ادعت ذلك تلك الإدارة. والمهتمون يعلمون كذلك أن محمد الخامس

كان يكثر من زيارة جامعة القرويين ومن الاتصال بطلبتها والاجتماع بأساتذتها تعاطفا مع العمل الوطني. من تلك الزيارات ما يتحدث عنها أبو بكر القادري في الجزء الثاني من كتابه "مذكراتي في الحركة الوطنية"

(8451/1)

حيث تستوقفنا الفقرة التالية : "... حيث طاف أرجاء القرويين وأنصت إلى علمائها في حلقات دروسهم المختلفة. فاستمع إلى درس الفقيه العالم السيد محمد العلمي في "علم التوقيت" والتنجيم (=الفلك) وإلى درس العلامة سيدي الجواد الصقلي في "مختصر خليل"، وإلى درس العلامة السيد العباس بناني في "علم الأصول". وكان جلالته – كما تحدثت عن ذلك صحيفة "المغرب" اليومية – يهتم كل الاهتمام بما يلقيه الأستاذ ويتابع طريقة إلقاء الدروس ويستفسر عن المواد المدروسة إلى غير ذلك من الملاحظات التي كان يتابعها بكامل الاهتمام. ولقد

(8452/1)

استدعى جلالته، رحمه الله، العلماء للحضور في الدار العالية ليراجع ويتباحث معهم حول النظام العلمي الجاري به العمل وضرورة مراجعته وإصلاح ما يجب إصلاحه فيه"(1).

ومن مظاهر ذلك الصراع الخفي بين محمد الخامس، رحمه الله، وبين الإدارة الفرنسية تعيينه على رأس إدارة القرويين رجلا من شباب الحركة الوطنية المغربية هو محمد الفاسي. فالمرحوم، فضلا عن انتسابه إلى التنظيم الوطني كان من الجيل الأول

---

(1) أبو بكر القادري، مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية، مطبعة النجاح الجديدة، 1997، الدارالبيضاء، الجزء الثاني، ص. 62.

(8453/1)

من خريج جامعة الصوربون المغاربة ومن النشيطين في العمل الطلابي في جمعية طلبة شمال إفريقيا. ثم إنه، فضلا عن ذلك أيضا، كان مديرا للمدرسة المولوية الفتية التي أنشأها محمد الخامس بجوار قصره في الرباط وألحق بها ولي العهد الأمير مولاي الحسن (= جلالة الملك الحسن

الثاني) وهذا يعني أنه كان مقربا منه أشد القرب، إذ كان الفاسي من أساتذة ولي العهد ورفاقه وكان محمد الخامس يكثر الذهاب إلى المدرسة المولوية وحضور العديد من الدروس فيها مطمئنا على جودة التعليم الذي يتلقاه من كان يريده رجلا للمرحلة الصعبة التي

(1/8454)

تنتظره. وإذن فقد كانت القرويين، في سياسة محمد الخامس رحمه الله، ترتبط بسياسة الإصلاح العميقة التي كان ينشدها، مثلما كانت تنتمي إلى دائرة المقاومة الوطنية للاستعمار الفرنسي في مستوى التعليم والتكوين، وتؤكد طابع الهوية الوطنية المغربية.

3- جامعة القرويين في عهد الاستقلال :

جابهت المغرب غداة الاستقلال، شأنه الدول التي رزحت تحت نير الاستعمار، مشكلة إمداد البلاد بما يلزم من الأطر الضرورية لبناء الاستقلال وتأمينه في مختلف مناحي الحياة الاقتصادية والإدارية والتعليمية والاجتماعية. كانت الحاجة إلى

(1/8455)

المهندسيين والأطباء والقضاة ورجال الإدارة، في مختلف أسلاكها، ورجال التعليم، في مختلف مستويات التعليم وفي ميادينه المتعددة، إضافة إلى الإمكانيات البشرية الصغرى ... كانت الحاجة كبيرة وملحة. لذلك جعلت الحكومات المتعاقبة على الحكم في المغرب في السنوات الأولى بعد استرجاع الاستقلال من المغربة وتكوين الأطر، مع الدعوة إلى توحيد التعليم (فلا يبقى متشتتا ومتعددا ومختلفا في

برامجه وتوجيهه كان الأمر يتعلق بتعدد في الدولة الواحدة) وتعريب التعليم ... جعلت من هذه شعارلها. فكانت فكرة الجامعة المغربية وميلادها

(8456/1)

وتطورها ابتداء من السنة الموالية على

استعادة الاستقلال، أي في سنة 1957. وإذن فقد شهدت البلاد ظهورا لعدد من

المعاهد المتوسطة الصغرى والمتوسطة، ولكليات الآداب والحقوق والعلوم والطب، ثم

لمجموعة من المدارس العليا المتخصصة في تكوين الأساتذة والمهندسين (في مختلف

المجالات) والإداريين، فأخرى فعداد تقنيين ومساعدين

... وإذا كان هذا الأمر محمودا إيجابيا من اجل صيانة استقلال الدولة الحديثة العهد بالاستقلال وضروريا من أجل رفع التحدي الآخر الذي طرحه وجوب خوض معركة التنمية ومحاربة التخلف، وإذا كانت له آثاره

(8457/1)

الملموسة في إتاحة الفرص المواتية لدينامية التطور والتغيير الاجتماعي فإن انعكاساته على جامعة القرويين لم تكن كذلك، بل إن الأنسب هو الحديث عن انعكاسات سلبية على الجامعة العتيقة وعلى الأدوار التقليدية الثلاث التي رأينا، أعلاه، انها كانت لها. فأولا، لم تعد القرويين المجال الوحيد – أو يكاد – لإمداد البلاد بما تكون في حاجة إليه من العاملين في سلك المخزن (= الدولة المغربية، في التنمية التقليدية لها – قبل الاستقلال) وإنما أصبح كل "مراكز التكوين" المتخصصة تزاحمها في ذلك، بل إن مجالات عمل القرويين أخذ

(8458/1)

يضيق ويتقلص في اضطراد مع تنامي المعاهد والمدارس العليا والكليات ليصبح القضاة الشرعيون (= أي المتخصصون في قضايا الشرع الإسلامي، أو العلماء المسلمون وقد أوكل إليهم أمر القضاء) بل والعدول أيضا من خريجي هذه المعاهد "العصرية" المشار إليها. وفي كلمة واحدة فإن جامعة القرويين فقدت الكثير في الوظيفة الأولى التي كانت لها – حسب ما رأيناه في الفقرات المتقدمة –.

وثانيا، لم تعد القرويين المصدر الوحيد كذلك لتكوين العلماء القادرين على الافتاء في الأمور الشرعية، بل إن "دار الحديث الحسنية" أخذت، بدورها، بنصيب من

(1/8459)

المسؤولية في هذا المجال الكبير ولربما كانت قدرة هذه المؤسسة الأخيرة على متابعة بعض مناحي التطور في تدريس المواد الشرعية وفي مناهجها خاصة، في مقابل عجز عن تلك المجازاة من قبل القرويين احيانا كثيرة، ربما كان لهذا الأمر تأثيره السلبي على القرويين من حيث التقليل من شأن السلطة الوحيدة المطلقة التي كانت تتمتع بها. صحيح أن هنالك كليات الشريعة، وكلية أصول الدين، وكلية اللغة العربية –

وهذه المعاهد جميعها تابعة للقرويين وفروع لها ولكن "المركز" – أي الجامعة في مقرها التقليدي في مدينة فاس قد أصابه ما لم

(8460/1)

يعرض لجامعة الأزهر، على سبيل المثال، من قدرة على الحفاظ على "سلطة المركز" وأثره الحاسم في الحياة الدينية والروحية للبلاد.

وثالثا، فإن ما تحدثنا عنه من الوظيفة التقليدية لجامعة القرويين، في المجال

السياسي للبلاد، من حيث البث في الخطير من القضايا بواسطة استفتاء العلماء، فإن

التجديد الشامل في بنية الدولة، الناتج عن استعادة الاستقلال واسترجاع الحرية، والسعي الحثيث المتصل الذي أخذ به المغفور له، محمد الخامس، ومضى في أثره مع تطوير كبير له، ابنه الملك الحسن الثاني حفظه ونصره وقد أفرغ تلك الوظيفة

(8461/1)

"التقليدية" من معناها. ذلك أن إعلان الدستور والأخذ بنظام الملكية الدستورية من جهة أولى، وما كان عنه من جعل الاستيفتاء أو الاستشارة السياسية، استفتاء شعبيا مباشرا من جهة ثانية، ... كلاهما قد جعل الوظيفة التقليدية (أو الرمزية) التي تحملتها القرويين في العصور المتقدمة وظيفة خالية من المعنى وغير ذات موضوع.

جماع القول إذن إن جامعة القرويين، في ضوء ماذكرنا وبالمقارنة مع ما تحدثنا عنه من الوظائف التقليدية الثلاث التي عددنا، بين أمرين اثنين لا ثالث لهما : إما التقرير بأنها قد استوفت ما كان موكولا إليها

(8462/1)

من مهام ووظائف حاسمة، خطيرة ومباشرة في حياة الدولة والمجتمع في المغرب، قرونا عديدة ومتصلة والقول بأن استرجاع الاستقلال، ومقتضيات بناء الدولة الحديثة في المغرب، وميلاد الجامعة العصرية وما كان من غنى وتنوع وفعالية في تكوين الأطر وإعدادها في مختلف مجالات الحياة الاقتصادية، والتعليمية، والثقافية، والدينية، والاجتماعية ... إن هذه الأمور كلها قد نزعت من القرويين كل الوظائف التقليدية الثلاث

مجتمعة وأن وجودها، وبالتالي، لم تعد له تلك الأهمية العظيمة التي كانت له عبر التاريخ الطويل والمجيد للجامعة

(8463/1)

العتيقة. وإما القول، على العكس من ذلك، بأن على المؤسسة العريقة أن تنضو عنها أثوابها القديمة كلها وأن تنهض في حلة جديدة، مناسبة لماضيها وتاريخها، وملائمة لما تقتضيه سنة التطور وتتطلبه روح العصر. وبالتالي فإن على جامعة القرويين أن تبعث بعثا جديدا يكون به التجديد في مهامها ووظائفها وفي ما تروم بلوغه من أهداف.

4- جامعة القرويين والمستقبل :

عندما يرتبط التاريخ الثقافي والحياة الروحية لأمة من الأمم بمؤسسة علمية عتيقة، على النحو الذي يجد فيه الدارس والملاحظ الارتباط والالتحام بين المغرب وبين جامعة

(8464/1)

القرويين فإنه يكون من العبث الحكم على المؤسسة العلمية، في أحوال العسر ومراحل الأزمات ووسط الأعاصير بأن الفناء يتهددها أو إن الزمن قد فعل فعله فيها فهي آيلة إلى الزوال. وإذا صح القول عن أمة من الأمم العريقة إن ما تتلقاه من صدمات وما تعترضها من سقطات وتعثرات إنما هو بمثابة المهماز الذي ينبهها وشبه الأهوال التي توقظ فيها نوازع الدفاع عن النفس وإظهار الهوية في ثوب جديد ... إذا صح هذا القول، وهو قول لا شك صحيح بشهادة التاريخ البشري ذاته، فإنه يكون صادقا في حق مؤسسة علمية لها من المعنى والدلالة

(8465/1)

بالنسبة للهوية الذاتية وللعماد الثقافي في تاريخ الأمة التي تنتسب إليها ما لجامعة القرويين من الدلالة والمعنى بالنسبة للهوية المغربية – ولا أحسب أن هذا القول في حاجة إلى مزيد تأكيل وفضل بيان.

صفوة القول إن جامعة القرويين في حاجة إلى إعادة نظر شاملة وإلى مراجعة كاملة في نظمها وبرامجها حتى يكون في وسعها أن تسترجع الصورة المشرقة التي هي جديرة بها وحتى تظل، في بنية الحضارة المغربية وفي

مكونات العماد الثقافي العربي الإسلامي في المغرب، منارة شامخة لامعة وقلعة صامدة تحمل الإشعاع وتلقيه على من حولها

(8466/1)

أضواء بهية أساسها الدعوة إلى الحوار والتواصل بين الثقافات والحضارات والأديان. وبعبارة أخرى فإن الجامعة الإسلامية مطالبة، بل مضطرة، إلى أن تلعب دورا ليس يكون لغيرها من الكليات والمعاهد والمدارس العليا في الجامعات المغربية العصرية. ذلك هو دور الوصل والاتصال الروحي بين الأديان والثقافات، وهو دور العمل الجهدي الشاق في تصحيح ما أصابه المسخ والتشويه من صورة الإسلام عند "الغير" وعند أهل ملة الإسلام أيضا.

(8467/1)

قد يجوز إجمال القول في التنبيه إلى وجوب التفكير في إعداد أطر عليا، ومتوسطة، تملك القرويين وحدها إعدادها ... أطر يكون إعدادها، من جهتي التكوين

والتدريب، باللغات الأجنبية الحية. وهكذا يكون المتخرج من الجامعة العتيقة، في صورتها المستقبلية المأمولة، متمكنا تمكنا كاملا من إحدى اللغات الأجنبية فهو خريج قسم من أقسامها (الإنجليزية، الإسبانية، الإيطالية، الفرنسية، ...) وهو قادر، بدوره على التدريس في تلك اللغة وعلى التحدث والمناظرة، بل والكتابة بها، فضلا عن اللغة العربية الأم.

(8468/1)

إنها، ولا ريب، جرأة في النظر عظيمة، بل دعوة إلى إحداث نقلة كيفية عنيفة ... ولكننا، والإيمان بجامعة القرويين ونظرنا الذي به المعول عليها في إسهام حضاري راق في عصر الاتصال وزمان العولمة واختراق الحدود التجارية والثقافية، نرى أن جرأة القول ومراجعة عاداتنا في النظر والتفكير سبيلان ناجعان من أجل العمل على إعادة الشباب واسترجاع القوة، في صورة جديدة، لجامعة عريقة يرتبط بها معنى الهوية الحضارية المغربية ويقترن بها إشعاع الحضارة الإسلامية في اجمل ألوانها وأبهى حللها وأشكالها.

(8469/1)

جذور الهيمنة على الثقافة العربية الإسلامية

... ...

الأستاذ سمير أحمد الشريف

الجامعة الأردنية –عمان

ليس وليد اللحظة ما يصيبنا من تراجع وانكسار وانهيار قيمي، وإنما يمتد إلى الماضي القريب، أيام لم نفهم كيف نواجه الآخر ونعد العدة لتهيئة أنفسنا ونضع الآليات التي تمكننا من الوقوف أمامه دونما ذوبان فيه أو تنكر لذاتنا.

منذ عام 1096م بدأ الانهيار عندما بدأ مدّ الحروب الصليبية بالانتشار على أثر ظهور الدولة الإِسلامية واتساعها المضطرد حتى حدود الهند والأندلس وإفريقيا، مؤسسا دولة ذات

(8470/1)

حضارة إنسانية عالمية كبرى بمعطيات عسكرية وفكرية وعددية، لم يستطع الغرب الانتظار أمامها حتى لا تضيع بلدانه وشعوبه التي لم تصلها الفتوحات

الإسلامية بعد، فاتجه (الغرب) إلى الناس يجمعهم لخوض معركة حضارية كبرى مع الإسلام الذي »يمتد بالسيف« ! ويحمله »قساوة قلوب لا يعرفون الرحمة« –حسب ادعائهم–.

حمل لواء تشويه صورة الفتوحات الإسلامية رجال الدين في بلاد الغرب وهم مصدقون فيما قالوا وافتروا. سارت جيوش السكسون والنورمانديين وغيرهم من الأشتات الذين سفحوا دماء إخوانهم في الدين دون رحمة! دون تحقيق هدف مادي

(8471/1)

يذكر، لكن إرادة الله غالبة وحكمته بالغة. فما أن انتهت سنة 1291م حتى اكتشف المقاتلون كذب ما ادعاه رهبانهم، ذلك أن اختلاطهم بالمسلمين أفرادا ومجتمعات أنار بصائرهم بوعي جديد وشك فيما يقال لهم عن قسوة المسلمين وتخلفهم. واحتاج الطرفان إلى هدنة زمنية يعيدون حساباتهم ليمر قرن ونصف القرن حتى سقوط القسطنطينية سنة 1453م بيد المسلمين بقيادة محمد الفاتح –هذا الزلزال الأكبر الذي أسبب خوف الغرب وحقده وغضبه وتحديه السافر لهذا القادم الجديد.

(8472/1)

1453 كانت نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة أخرى في علاقة الغرب بنا إسلاما وفكرا ودولة وأمة بعد أن اكتشف برجال دينه وقادته من أهل السياسة أن السلاح قد ثبت فشله في مواجهة الإسلام.

الوعي... المعرفة... العلم، مفاتيح اضطر الغرب إلى استخدامها للتصدي لهذا الجبار الذي انتصر بسرعة قياسية.

بدأ السؤال لدى الغرب: لماذا وكيف كان زحف الإسلام على ديارنا سريعا وسقوط أراضينا وتقبل الأعداد الغفيرة من مواطنينا لهذا الدين لدرجة أصبح معها أهل البلاد الأصليون من أشد المدافعين عن الإسلام ومن جند الإسلام المخلصين!

(8473/1)

الأمر الذي قوض سلطات المنتفعين بالسيطرة على رقاب المساكين وجعلهم يلحون في معرفة أسباب ذلك في الوقت الذي يزداد وعي الغرب أفرادا ورؤساء بالإسلام حضارة ودينا وأخلاقا ومعاملات، سواء من خلال الذين غزوا

ديار الإسلام وأقاموا فيها ممالك وشاهدوا محاسن الإسلام عن قرب أم من خلال المحاربين الذين عادوا إلى ديارهم في نهاية كل حملة، يحدثون أهليهم بما شاهدوا.
من ركام هذا القلق الذي أصاب الغرب، ومن حلكة الظلمة التي فيها يحيا خرج رواده أمثال روجرز بيكون في إنجلترا وتوما الإكويني في إيطاليا ومارتن لوثر في

(8474/1)

ألمانيا. درس هؤلاء أعلام النهضة والثقافة العربية الإسلامية كابن رشد وابن سينا وغيرهم، فعملوا على إيجاد لغة أوروبية واحدة تجمع شتات لهجاتهم الكثيرة التي تحول دون نشر التعليم على نطاق واسع.
دخول محمد الفاتح عاصمة الغرب الدينية كان الخطوة التي اضطرت معها أوروبا لإعادة حساباتها والتعلم من أخطائها ومراجعة أهدافها ووسائلها. من هنا يمكننا اعتبار عام 1453 بدء النهضة الأوروبية الحديثة وبداية تراجع المد الثقافي الإسلامي الذي استنام أصحابه لأحلام النصر وركنوا إلى الدعة والكسل وحب الدنيا حتى ركبهم

(8475/1)

الغرور.

راية محمد الفاتح إشارة من جهة أوروبا لبناء نهضتها علما وفكرا وإعادة بناء تعوض وتتجاوز ما عاشت فيه خلال عصورها المظلمة، متجهة بذلك إلى دار الإسلام، تنهل مما فيها من علوم. وكان طريقهم لذلك لغتنا العربية التي كانت لغة العالم ولغة الحضارة والمخطوطات والكتب والقوانين العلمية، ذلك من أجل ألا يكون بينهم وبين مناهل العلم العربي الإسلامي فلكا وطبا وكيمياء وغيرها أي وسيط وليكونوا على اِطلاع مباشر عليه واحتكاك لصيق به.

(8476/1)

لتحقيق ذلك أوفد عشرات الأفراد في جنبات مدننا لشراء الكتب والتلقي من العلماء ومعاشرة العامة، يدونون ما يشاهدون، ساعدهم في ذلك سماحة الإسلام وأهله وغفلة المسلمين عن تتبع خطوات الغربيين بسبب عقدة النصر فكان أولئك طلائع الاستشراق / المصباح الذي أضاء طريق أوروبا لفهم سر تخلفها ونجاحنا وانتصاراتنا

حتى تمكنوا من وضع الخطط وإعداد العدد لانطلاقة جديدة وبسلاح غير السلاح حتى تمكنوا من استعمار بلادنا بجيوشهم بعد أن دخلها مستشرقوهم فنهبوا الثروات وشتتوا العقول بالتبشير الذي اصطبغ بالعلم أحيانا والعلاج الصحي

(8477/1)

آونة والمساعدات الإنسانية في أوقات كثيرة.

أهل الاستشراق الذين ساحوا في جنبات بلادنا، لم يكن من هم لهم غير أن يدرسوا القرآن والحديث والتفسير والجغرافيا والتاريخ ليعيدوا كتابة كل ذلك بطريقة جديدة ينخدع بها أهل الغرب أنفسهم ممن بدأوا يرون في الإسلام شيئا جديدا مخالفا لما عرفوه بوساطة أعلامهم وأقوال رجال الدين منهم.

أولئك المستشرقون عكفوا لياليَ وأياما حتى يكتسبوا صيغة الموضوعية والتجرد والعلمية وبالتالي يكون إقناع أبناء جلدتهم بسلبية الإسلام والتاريخ العربي بعد أن يعلموا فيهما الخراب والتشويه، ولا

(8478/1)

يغرنك ما يقال عن أكاديميتهم وحيادهم. فمن كان يتصف بذلك ونظر إلى الإسلام بعين العالم، فعليه أن يترك ما هو عليه وينضم لركب الخالدين باعتناق هذا الدين كما فعل جارودي.

كان إجماع المستشرقين جميعا على أن يضعوا أمام الشعوب الغربية صورة مشوهة للإسلام وعلى أن أهل هذا الدين مجرد أعراب جهلة لا يجدون قوت يومهم، ما فتحوا الأمصار إلا بالسيف ودافع الجوع. أما حضارتهم، فخليط مشوه من حضارة روما وأثينا. أليس ذلك ما نجده في دراساتهم التي يدَّعون أنها موضوعية؟

(8479/1)

أهل الاستشراق لا ولن يستطيعوا خلال عشرة أعوام تعلم لغتنا وفهمنا والفهم بها. المؤسف أن أمثال هؤلاء عكفوا على تشويه صورتنا أمام الآخر فكوفئوا ليس بطباعة كتبهم المليئة بالسموم، ولكن عُينوا أعضاء في مجامعنا اللغوية وأصبحوا أساتذة يشرفون على أطروحات طلبتنا، يوجهونهم ويلقون عليهم محاضراتهم. أليس أهل الاستشراق وتلاميذهم من طلبتنا من جعلوا كتاب »الأغاني« مرجعا لفكرنا وآدابنا؟ أو ليس على أيديهم خرجت »دائرة المعارف الإسلامية«

وغيرها من الموسوعات التي ما زالت طباعتها الجديدة تكرر نفس الإساءات وتبث في

(8480/1)

أذهان تلاميذنا حرية توحيد الأديان وضرورتها؟ أليست ثمار الاستشراق هي التي أوحت للمطبلين باعتبار الحملة الفرنسية على معقل الإسلام نعمة ويؤرخ بها تباشير نهضتها الحقيقية؟

طلائع الاستشراق هم الذين عبّدوا الطريق للاستعمار حتى بدأت الاختلافات تظهر بينهم طمعا في قضم دولة، ورغبةً في مد نفوذ أخرى. وكانت الهند آنذاك بؤرة الصراع، فأوجدت بريطانيا ذراعها لتمتد إلى الإسلام هناك عبر ما يسمى بشركة الهند الشرقية. وقد أدركت فرنسا اللعبة البريطانية ونيتها بالاستئثار بخيرات بلاد المسلمين فأقامت لها شركة مشابهة

(8481/1)

ظاهرها الاقتصاد وباطنها تخريب الدولة الإسلامية المشغولة بضعفها وتصديها لموجات التفتت الداخلي من

أطرافها عن قصد من أجل أن تكون بعيدة عن ردع الدولة الأم وحتى يفسح المجال أمام المستعمرين ليشرِّقوا ويغرِّبوا ولتكتب الغلبَة أخيرا لبريطانيا التي استأثرت بخيرات الهند، ليبدأ امتداد أذرع الأخطبوط البريطاني في محاولة لإسكات أصوات نهضة إسلامية جديدة بدأت بالظهور في جزيرة العرب على يد محمد بن عبد الوهاب. وحتى تعوض فرنسا خسارتها في الهند، التفت إلى دول شمال إفريقيا، لتجد لها موطئ قدم ورأس حربة للتسلل إلى

(8482/1)

القلب الإسلامي، تتمركز فيه وتحول دون امتداد النور الإسلامي وإشعاعات نهضته إلى الأمصار الأخرى. وهكذا تحرك نابليون الذي حمل طموح القادة العظام فاخترق أوروبا مستهديا بإرشادات وتقارير المستشرقين يداعبه حلم القائد الذي سيكتب على يديه مأثرة إطفاء الشعلة الفكرية والحضارية التي أضاءها الإسلام الذي أقض مضجع نابليون والأوروبيين جميعا ومعوض لبعض ما لحق فرنسا من هزيمة أمام بريطانيا في الهند.

هكذا اجتاح نابليون الإسكندرية عام 1798م ثم

القاهرة متقربا من المشايخ الذين أدركوا حيله فرفضوا مطالبه وما لبث أن دخل

(8483/1)

الأزهر بخيله فربطها في قبلة المسجد وكسر القناديل وحطم خزائن الطلبة وطرح المصاحف أرضا حتى عروا كل من صادفوه من ثيابه(1).

بعد أن عاث نابليون سبعة أشهر في قاهرة المعز ذعرا وتحطيما توجه إلى سوريا ثم حاصر عكا التي ردته خاسئا مضطرا إلى رفع الحصار الظالم عنها ليعود إلى القاهرة التي كانت أوضاعها الداخلية تغلي. فلم يجد أمامه إلى الهرب تاركا قائده كليبر يواجه مصيره بعد انفجار الثورة المصرية سنة 1800م. ولمدة شهر كامل جعلت كليبر يستخدم مدفعيته لإسكات الناس بتهديم

---

(1) تأريخ الجبرتي، ج 3، أحداث 1798، ص. 26.

(8484/1)

بيوتهم ومساجدهم. وما أن هدأت أنفاسه وظن أنه انتصر على الشعب المسلم وأسكته إلى الأبد حتى لقي مصرعه

على يد سليمان الحلبي في 14 حزيران سنة 1800م.

وهكذا أيقن الأوروبيون عقم التحدي والمواجهة فاتخذوا لهم أساليب جديدة تناسب المرحلة فبدأ مينو خليفة كليبر يتقرب للمسلمين بإشهار إسلامه والزواج من عائلة البواب...

خرجت جيوش فرنسا من مصر حاملة جواهر المخطوطات ونفائس الكتب، يعكفون عليها لوضع خطط جديدة للهيمنة على بلاد المسلمين، وها هو القائد الفرنسي يصدر أمره بقتل خمسة من المسلمين يوميا يطاف برؤوسهم في

(8485/1)

الشوارع مخوفا الناس، ناشرا بينهم الذعر! من هم أولئك الخمسة وكيف تم اختيارهم ولماذا؟

صاحب الرأي في الاختيار كان صاحب نابليون فانتور الذي قضى أربعين عاما متجولا في بلاد المسلمين من قبل أن ينضم للحملة الفرنسية فعرف وأعوانُه علماءَ المسلمين ومناهضي حملته، فقرر أن يتخلص منهم يوميا وحسب برنامج أعد سلفا!

فانتور هذا هو الذي كتب إلى كليبر يوصيه أن يخدِّر روح

التعصب وأن يحاول إسكاتها واستئصالها من خلال كسب ثقة كبار المشايخ في القاهرة وبذلك وحده يجمع كليبر حوله أفكار مصر بأجمعها، فلا شيء أقل خطرا من

(1/8486)

المشايخ وكعادة الشعوب دائما فقد رفض الشعب الاستماع لنصائح بعض العلماء الذين طالبوا بالركون للفرنسيين وأشعلوا تحت أقدامهم نيران الثورة والغضب(1). وأعاد نابليون حساباته بعد فشل سياسة استمالة رجال الدين، وها هو يشدد على كليبر في خطاب أرسله له في أن يجتهد بجمع خمسمائة شخص من المماليك ليسفَّروا إلى فرنسا في السفن التي ستظهر أمام شط الإسكندرية. فإذا لم يجد هذا العدد من المماليك، يكمل العدد من العرب والمشايخ ليحجزوا سنة أو أكثر في فرنسا يشاهدون عظمة الأمة الفرنسية

---

(1) فتح مصر، أحمد حافظ عوض، ص. 409.

(1/8487)

ويعتادون لغتها ثم يعودون إلى مصر ويكون لفرنسا منهم حزب، وسأرسل لك فرقة فنية تمثيلية، لأنها ضرورية للجيش والبدء في تغيير تقاليد البلاد(1).

تمر أيام ليهيئ الفرنسيون مصر بمستشرقيهم وعيونهم دراسة للمجتمع لتعاود فرنسا سنة 1776م وبتحريض من تقرير دبلوماسي ألماني عمل في السلك الدبلوماسي الفرنسي، لنعرف أن الغرب هدفه واحد في النظر إلى حضارتنا، ينحصر هذا الهدف في التأكيد على أهمية اختراق مصر لأن فرنسا إن فعلت ذلك ضمنت بسط سيطرتها على دار الإسلام فتكسب بذلك عطف المسيحية وتنال إعجابها فتكون

---

(1) المصدر نفسه.

(8488/1)

فرنسا بذلك موضع احترام كل أوروبا(1).

وجاءت سنة 1776م ليقدم لنا موفد الحكومة الفرنسية البارون دي توت تقريره إلى حكومة فرنسا يطالبها باحتلال مصر لأن تركيا في سبيلها إلى الانحلال، فأرسلته فرنسا في رحلة سنة 1777م ليدرس سواحل مصر ومواقعها ليرسل تقريرا موضحا أهمية احتلال مصر

وسهولة ذلك وما ستكسبه فرنسا من حصولها على مركز مرموق في العالم أجمع.

في هذه الأثناء يقدم قنصل فرنسا في الإسكندرية تقريرا يتضمن وجهة نظره قرب انهيار تركيا، مشيرا إلى أهمية

---

(1) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، ص. 115.

(8489/1)

اجتياح مصر ثم تحريض القنصل العام لفرنسا بعد قيام الثورة الفرنسية. وهذه التحريضات جميعا هيأت المناخ لإنقاذ الحملة الفرنسية التي رسم الاستشراق خطوطها لمجابهة الصحوة الإسلامية سواء كانت علمية أو فكرية أو لغوية أو دينية.

أرأيت عمق الهوة بين تخطيط الغربيين لاحتلالنا وبين ما يقوله الآخرون من أن الثورة الفرنسية كانت خيراً كلها وما جاءت إلا لبث الوعي فينا! كم تحتاج الأمة لشطب ما في عقول بعض تلاميذها من صور مغلوطة؟ هل

محض صدفة أن يختلف الفرنسيون والإنجليز على مصالح خاصة وينطلق كل منهما لحصاد اليقظة

(8490/1)

الإسلامية في شمال إفريقيا والجزيرة العربية؟ هل محض صدفة أن يختار قادة نابليون كل يوم خمسة يعلقونهم على المشانق ويأسرون خمسمائة مملوكي ليتعلموا عادات الفرنسيين ويكونوا عيونا لفرنسا على أهلهم بعد أن يعودوا إلى مصر! وإرسال البعثات العلمية إلى فرنسا وعلى رأسها رفاعة الطهطاوي؟!...

وذهبت فرنسا وجاء محمد علي الذي وضعته الأقلام في مكانه أكبر مما يستحق وكان أميا تاجرا ذكيا ذا طموح ميكيافيلي، قادر على ركوب الموجات، وما زال يصانع المشايخ والمماليك حتى وضعوا فيه ثقتهم ورضوا به وليا، لكن عيون الاستعمار

(8491/1)

وذراع الاستشراق لم تكن بعيدة عنه، فما زالوا به حتى أوغروا صدره على المشايخ وأوقعوا بينه وبين عمر

مكرم، صاحب اليد الطولى على محمد علي وبذلك كسب الاستعمار إيجاد شرخ بين ما يمكن أن يهدده لو اجتمعت الأطراف على رأي واحد.

بدأ محمد علي يستفرد بالمعارضين ويهيئ التربة بالتعاون مع الاستشراق لفصل الأزهر عن قيادة المجتمع لهدم منارات الصحوة الإسلامية على يد قائد أمي. ويكفي أن يكون الوسيلة التي أطفأ بها شعلة من شعل الصحوة في الجزيرة العرب/ دعوة محمد بن عبد الوهاب/ عندما لم تدرك تركيا حقيقة ما يريده الغربيون

(8492/1)

الذين خوفوها من المارد الذي صوروه مهددا لكيانها فتم له النصر سنة 1819م بعد أن خسرت الأمة جيشا مسلما من مصر ويقظة إسلامية كانت ستغير خارطة العالم العربي لو ظلت دعوة ابن الوهاب بعيدة عن السياسة.

بهذا نجح الاستعمار وكسب رهان فصم عرى الصحوة في مصر والجزيرة العربية اللتين سيكون لاتفاقهما معنى كبير في حسابات الغرب.

أما حكاية الاهتمام بالعلم والبعثات العلمية والتي أعطاها بعض الكتبة حيزا كبيراً، فأغلب الظن أنهم لم

يقرأوا ما بين السطور ويصلوا إلى الأهداف الغربية وراء ذلك مما لم يكن لصالح الإسلام أو

(8493/1)

المسلمين. ذلك أن الغرب أراد لمحمد علي أن يكون جيشا قويا ولكن للوقوف في وجه تركيا/ عنوان المسلمين/ وأملهم والشوكة في حلق أوروبا ليصبح محمد علي شوكة في حلق الخلافة الإسلامية ووسيلة الضغط عليها بجيشه القوي المدرب.

لو كان هدف الغرب غير ذلك ولو أدرك محمد علي أبعاد المؤامرة لوظف العلم والبعثات في بناء المصانع وفتح الجامعات ولم يجعلها فقط مربوطة بالجيش. فهل التقدم العلمي يرتبط بالجيش فقط والدولة تحتاج للعلم في كل مرفق!

(8494/1)

ها هو جومار بعد أن تحقق ما أرادته فرنسا يطالب محمد علي بالسماح بإيفاد بعثات إلى فرنسا وبأعداد كبيرة حتى تدربهم وتضع عقولهم ما تريد ليكونوا حزبا لها

في مصر بعد عودتهم ويمتدوا في أقطار العالم العربي.
ورفاعة الطهطاوي كان واحدا ممن انبهروا بفرنسا
وتدربوا على يد المستشرق دي ساسي وما أن عاد إلى
مصر حتى طالب بضرورة إنشاء المسارح واختلاط البنين
والبنات في التعليم واستخدام العامية في الكتابة.
رفاعة الطهطاوي الذي قال في كتابه »أنوار الجليل في
أخبار مصر وتوفيق بن إسماعيل« فضل اللغة العربية
ووجوب إحيائها

(8495/1)

مشيرا إلى العامية بقوله إن اللغة المتداولة في بلدة من
البلاد المسماة باللغة الدارجة التي يقع فيها التفاهم
في المعاملات السائرة لا مانع لأن تكون لها قواعد
تضبطها وأصول على حسب الإمكانات تربطها ليتعارفها
أهل الإقليم حيث نفعها بالنسبة إليه عميم وتصنف
فيها كتب المنافع العمومية والمصالح البلدية...
وهو يعرض في كتابه »تلخيص الإبريز« ولأول مرة
الوطنية البعيدة عن الفكر الإسلامي ويربطها بالأرض
قائلا: »وهي تكون بين أهل الوطن على السوية،
لانتفاعهم جميعا بميزة النخوة

(8496/1)

الوطنية «، ثم يشيد بالفراعنة ذاكرا فضلهم في الهمة والعمل والعلم واتساع العمران بقوله: »فمنه يعلم أنه كان بمصر إذ ذاك أحكام عادلة وقوانين مرتبة وحدود مشروعة خالية من الأغراض والنفسانيات وهي نتيجة التمدن العام حيث يستشهد بإنجازات الملك رمسيس متناسيا ربما عن عمد أية أمثلة يمكن الاستشهاد بها من التاريخ الإسلامي معتبرا هذا الرمسيس فخر الدولة المصرية في الأزمان الجاهلية ويمضي في الدعوة إلى الحرية محتذيا النموذج الفرنسي الذي ترجم دستوره وإن أدرك أن الحرية الفكرية تجيز لمعتنقيها أن يخضع الدين للنقاش وما

(8497/1)

يستوجبه ذلك من إعادة النظر بعلاقة الحاكم بالمحكوم حسب إيحاءات الثورة الفرنسية وإن شدد على إيجاد تشريعات تلبي حاجة العصر وعلى رأسها الحد من تعدد الزوجات! هذه الثورة التي حج إليها الطهطاوي رفضت قبول العمال المصريين في مصانعها وأظن السبب حرص

الفرنسيين الزائد على المساواة والعدل والحرية!! وذلك عندما تقدم مينو باقتراح مصنع للجوخ في القاهرة، لكن اللجنة المشرفة عارضت قبول العمالة المصرية بحجة الضرر الذي يلحق بالبضاعة الفرنسية إذا عرف المصريون أسرارها، ثم تقدم ثورة الحرية والعدل والمساواة دليلا آخر

(8498/1)

بتعذيبها سليمان الحلبي بأبشع وسائل التمثيل حيث حرقوا يده اليمنى وخوزق في الصحراء حتى أكله الطير! كيف يمكن أن نقتنع بنوايا محمد علي الذي أوفد الطهطاوي إلى فرنسا فقال ما قال. ومحمد علي يُعتبر في نظر المُؤرخين المُنصفين ممهدا لقبول الاستعمار بأساليبه التغريبية ا لتي قام بها بمباركة من تلك الفئة القليلة الذين اعتبروه باني النهضة الحديثة. هذه الروح التغريبية والتخريبية لم يتقبلها الذوق العام ولم تنطل أساليبها على الواعين من أمة ذلك الزمان. فلم يقبلوا بالاستعمار الغربي بالرغم من المهدئات التي حاول

(8499/1)

محمد علي أن يمدهم بها فسجل الشعب المسلم صفحة من تاريخ المقاومة تليق بالمستعمرين وكان على رأسهم الأزهر وشيوخه مفندين بذلك رأي من قال إن الثورة الفرنسية هي التي صدَّرت الحرية للشعوب من خلال إطلاقها حرية الرأي.

شيوخ الأزهر أدركوا خطورة الخطوات التي يتبعها محمد علي الذي ضرب، باسم التحديث، النهضة الحقيقية لرفعة الأمة بإيجاد المدارس العصرية التي تعد ضربة موجعة ضد الأزهر والأمة والنهوض الفكري. أدرك الأزهريون ذلك فتصدوا للطغاة من قبل أن تصلهم حرية الرأي والعدالة المصدرة من فرنسا. هذا الوعي من جانب

(8500/1)

المشايخ في الأزهر حدث لأنهم أدركوا أن وراء خطوات محمد علي ما وراءها من اقتسام الإمبراطورية العثمانية وفصل مصر عن تركيا.

أما رفاعة الطهطاوي، فقد أوحى له الفرنسيون بإنشاء مدرسة الألسن التي كانت مركزا لبث الحضارة الغربية

بين طلبتنا باسم العلم والثقافة عندما استقدمت مصر أساتذة من فرنسا لتدريس المواد في تلك المدرسة التي شوهت حضارة الإسلام وبذلك حقق الفصل بين الأزهر من جهة وعلوم العصر من جهة ثانية وأحدث انقساما بين النخبة التي يرى أطرافها نقائض لبعضهما...

(8501/1)

دالت دولة محمد علي وجاء الإنجليز وتسلم الراية بعد جومار الفرنسي دنلوب الإنجليزي الذي أصبح سكرتيرا للمعارف واللورد كرومر وأعضاء فريقه الذين تكالبوا على فسخ حلقات الثقافة العربية الإسلامية بهدوء حلقة حلقة.

ولم ينته صراعنا بعد وإن ظن بعض الغافلين أن تلك صفحة طويت. صراعنا الذي لا يريد البعض الاعتراف به، صراع حضاري مع الآخر الذي لا يرضى إلا أن ينهب ثرواتنا ويلغي هويتنا ويجعلنا تابعين بلا حول ولا قوة.

(8502/1)

ها هو هنتجتون أستاذ العلوم السياسية ومدير مؤسسة جون واين للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفارد يضمن محاضرته »صراع الحضارات...« ما يحاول تلاميذ المدرسة الاستشراقية إقناعنا بنسيانه، مؤكدا أن الغرب يرى في الديمقراطية نعمة لا يحق للمسلمين استثمارها. فذلك يمكِّن سيطرة الأصولية المتطرفة. والسلام الدولي يجب أن ينحصر في الغرب، لأن وصوله للمسلمين يوقف تدفق السلاح والإِتجار به، وهو يؤكد على الإِسراع في عمليات تحديد النسل لدى المسلمين لإِحداث التوازن الديمغرافي في الغرب، مشيرا إلى ضرورة دعم وتأييد الجماعات

(8503/1)

الموالية للمصالح الغربية داخل المجتمع الإِسلامي.

أستاذ العلوم السياسية في أشهر جامعة أمريكية يستقرئ الماضي والحاضر ويتنبأ بالمستقبل لصالح الأمن الأمريكي، معلنا أن العالم منذور لصراع حضاري ولا إمكانية البتة لامتزاج الحضارات أو تخطي حدودها وأن الحرب القادمة حرب أوروبية ضد الإِسلام.

(8504/1)

جوامع مدينة تونس في العهد العثماني

دراسة تاريخية وفنية ومعمارية

... ... الدكتور محمد الباجي بن مامي

... ... تونس

... مرّت مدينة تونس بعدّة فترات. فامتازت كل فترة منها بقدوم ممثلين لحضارات مختلفة. وهكذا تنوعت مصادر التأثيرات في الناحية الفنية والمعمارية بتنوع منابعها، واتسم كل عصر بطابعه الذي يميزه عن العصور السابقة. إلا أنه لم يوجد أي انقطاع في سلسلة الحلقات التي تربط بين مختلف هذه الحقبات التاريخية(1)

---

(1) **انظر:** H. H. Abdelwahab, « Coup d'oeil général sur les apports ethniques étrangers en Tunisie », in Rev. Tun. XXIV, 1917, pp. 305–316 et 371–379.

(1/8505)

.

... اختلف مجيء الأتراك العثمانيين اختلافاً تاماً عن الهجرات الأخرى خاصة منها الهجرة الأندلسية، إذ أن قدومهم كان متصلاً بحضور عسكري وسياسي قِوامه الجند. وقد حاول الحكام الجدد بثّ المذهب الحنفي عن طريق العلم، فبدأوا بتأسيس الجوامع والمدارس لهذا الغرض، وأحيوا ما هرم منها، وحبّست على المذهب المتّبعين له(1).

---

(1) وهو ما حصل للمدرسة الشماعية والمدرسة العنقية، كما تم ترميم جامع القصبة وجامع القصر وذلك في أواخر القرن 9 هـ/ 16 م وحبّس كل منهما على المذهب الحنفي.

(8506/1)

... كما كان لتأثيرهم الفني والمعماري أهمية لا تقل عن تأثيرهم الثقافي والمذهبي، مما أعطى صبغة جديدة لفن البلاد ومعمارها. وهكذا أدّى الوجود العثماني إلى ظهور خصائص واتجاهات فنية جديدة(1). ومن الأكيد أن الحديث عن كل التأثيرات التركية التي عرفتها مدينة تونس، سيحملنا للحديث على أربعة قرون متواصلة من الحضور العثماني ببلادنا. لذلك سنهتم في هذا البحث بالعمارة

الدينية المتمثلة في الجوامع، والتي تعتبر أحد العناصر الهامة لهذا

---

(1) **انظر:** L. Golvin, Essai sur l'architecture religieuse musulmane, p.59.

(8507/1)

الحضور والتي تعطينا فكرة واضحة عن التأثيرات التركية بمدينة تونس.

... بالطبع، احتاج الدايات الأوائل الذين حكموا البلاد إلى إيجاد جوامع خطبة تتسع للجنود العثمانيين الذين استقروا في تونس بداية من سنة 1574 م. وتفيدنا المصادر بأن عددهم كان آنذاك حوالي أربعة آلاف(1). لهذا الغرض رمّم الجامع الموحدي بالقصبة سنة 992 هـ/ 1584 م. كما رمّم جامع بني خرسان المعروف بجامع القصر سنة 1008 هـ/ 1599 م(2)

---

(1) **أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تونس، 1963، ج 2، ص. 26.**

(2) **الباجي بن مامي، »جامع يوسف داي أوّل المعالم**

العثمانية بالبلاد التونسية «، مجلة إفريقية، تونس، 1998، عدد 16، ص. 107.

(8508/1)

. وأدخل العثمانيون بعض العناصر الجديدة على هذين المعلمين؛ من ذلك كسوهم محراب جامع القصبة بالرخام، وإضافتهم المنبر المبني. وحبّس الجامعان على المذهب الحنفي، مما سمح لهؤلاء الجنود بأداء مناسكهم في جوامع خاصة بهم.

... بلغ عدد الجوامع المؤسسة بمدينة تونس خلال الفترة العثمانية خمسة، أسس حاكم البلاد يوسف داي أولها، وهو الجامع المشهور باسمه والذي كان يعرف أيضاً بجامع البشامقية (1)

---

(1) البشامقية: هم صنعة البشمق، وهو الحذاء الذي يلبسه الفقهاء ورجال الدين، كما لبست النسوة هذا النوع من الأحذية، وحرّف مصطلح البشمق من الكلمة التركية »البشماق« التي ورد مفهومها في كتاب محمد بن الخوجة: معالم التوحيد، ص. 177.

(8509/1)

، وتمّ بناؤه سنة 1021 هـ/ 1612 م.

... أما ثاني الجوامع، فهو الذي أسسه الباي حمودة باشا المرادي سنة 1066 هـ/ 1655 م. وثالث الجوامع زمنياً هو جامع محمد باي المرادي المعروف بجامع سيدي محرز الذي بدأ هذا الباي في بنائه سنة 1104 هـ/ 1692 م، لكنه توفي قبل إتمامه فأكمله أخوه رمضان باي سنة 1110 هـ/ 1699 م، قبل بناء المئذنة.

... كما بنى حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية الجامع الرابع سنة 1139 هـ/ 1727 م.

... وآخر هذه الجوامع هو جامع الوزير يوسف صاحب الطابع الذي انتهى من بنائه سنة 1230 هـ/ 1814 م.

...

(8510/1)

جامع يوسف داي

... أسس إذن يوسف داي أوّل الجوامع العثمانية بالبلاد التونسية، وهو الذي تولى الحكم انطلاقاً من سنة 1019 هـ/ 1610 م (1). طالت مدة هذا الداي في الحكم، إذ بلغت حوالي ثمان وعشرين سنة، استطاع أن يوجه عنايته

خلالها إلى إعطاء نفس جديد للحياة الاقتصادية والعلمية بعد فترة الركود والتراجع التي شهدتها البلاد خلال القرن 10 هـ/ 16 م. وقد تمكن من ذلك بفضل عدة عوامل، من بينها خاصة قدوم نخبة من كبار التجار وأصحاب الحرف الأندلسيين الذين

---

(1) حسين خوجة، ذيل بشائر الإيمان بفتوحات آل عثمان، ص. 92.

(8511/1)

توافدوا على تونس في عدد كبير قبل توليه الحكم بثلاث سنين (1). وقد حرص على إيوائهم وتسهيل إدماجهم في الحياة الاقتصادية للبلاد.

---

(1) انظر: H. H. Abdelwahab, « Coup d'œil général sur les apports ethniques étrangers en Tunisien », dans Etudes sur les Moriscos ; et J. D. Latham, 16Andalous en Tunisie, p. Contribution à l'étude de l'emigration andalouse et sa place dans l'histoire de la 21Tunisie, p.

(8512/1)

... هذا، ولم يكن إنجاز الجامع نتيجة لتلك الظروف الاقتصادية السانحة، إذ تم بناؤه بعد سنة فقط من تولّي هذا الداي الحكم بتونس، بل يغلب على الظن أنه كان نتيجة لضغوط سياسية واجتماعية. ذلك بأنه قد مر على وجود العثمانيين المتبعين للمذهب الحنفي بتونس أكثر من ثلث قرن لم يحصل خلالها تشييد ولو جامع واحد، بل اقتصر الولاة ـ كما أشرنا إلى ذلك ـ على تحويل جامعين مالكيين إلى المذهب الحنفي. ولاشك في أن الحاجة كانت في أوائل عهد يوسف داي ملّحة إلى حدّ أن الداي المذكور أسرع على أثر توليه الحكم للأمر ببناء هذا

(8513/1)

الجامع. فلم تدم الأشغال أكثر من أحد عشر شهراً (من شوال 1020 هـ/ ديسمبر 1611 م ـ جانفي 1612 م إلى رمضان 1021 هـ/ 1612 م) مثلما تدل على ذلك النقيشة ذات الخط النسخي الموجودة بالجامع(1).

---

(1) يعتبر الجامع الأعظم بتونس أثرى المعالم الدينية من حيث وجود نقائش تمدنا بتاريخ المعلم على مرّ

العصور، لكننا نلاحظ أن النقائش الموجودة في الجوامع الراجعة للفترة العثمانية ليست بالعديدة ولا يمكن أن تعرّفنا بالأطوار التي مرت بها كل من هذه الجوامع.

(8514/1)

... هذا، ولا يخفى أنه كان للجند دور أساسي في إدارة البلاد، وحتى في تسمية الحكام عليها. ولربما قد ازداد عددهم بصفة جعلت من المتأكد إضافة جامع جديد لم يفتأ أن أصبح جامع الخطبة الحادية عشر في مدينة تونس(1)، فيكون

---

(1) يستفاد من وقفية المؤسس أن الجامع كان في البداية مسجداً للخمس، ثم حوله مؤسسه جامعاً للخطبة في سنة 1041 هـ/ 1631 م ورتب به إماماً وراوياً لـ"صحيح البخاري"، ورتّب فيه خمسة مؤذنين من أبناء الأتراك واثني عشر من أهل البلاد. وهذا حسب وثيقة حبس الجامع الموجودة بأرشيف الدولة. (كارتون "د").

(8515/1)

الداي يوسف قد جلب بهذا العمل عطف وتأييد هؤلاء القوم الذين كانوا دوماً مصدر شغب وفتنة.

... وقام ببناء هذا المعلم المهندس ابن غالب الأندلسي الأصل(1). لكن بغضّ الطرف عن هذا الجامع، شيّد يوسف داي مدرسة(2)

---

(1) لهذا المهندس أهمية بالغة في حركة البناء والتعمير خلال النصف الأول من القرن 11 هـ/ 17 م، ولدينا نقيشة بالجامع الأعظم (جامع الزيتونة) تدل على قيامه بأعمال بهذا الجامع؛ كما أنه أشرف على بناء المدرسة الموجودة بمقام السيد الصاحب بالقيروان.

(2) أدمجت هذه المدرسة خلال عهد الصادق باي في المستشفى الصادقي، وذلك في سنة 1291 هـ/ 1874 م، لكن ما زال هذا القسم على التصميم نفسه الذي كان عليه من قبل.

(8516/1)

مجاورة له وميضأة فوقها مقهى(1)، وكذلك كتاباً.

وأضاف إليها سوق البشامقية الملاصقة للجامع، وسوق الترك وسوق البركة. وهكذا كوّنت في جملتها كتلة متكاملة، تذكرنا بـ»الكولوليا« التركية.

---

(1) يجب أن يربط إنشاء المقاهي في ذلك العصر بالمسائل التابعة للعبادات، وبطرق التصوف والذكر التي كانت منتشرة بكثرة في القرن 11 هـ/ 17 م. حول هذا الموضوع يمكن الرجول إلى مقال:

Kahwa », in Encyclopédie de l'Islam, T. IV, pp. » 469–475.

(8517/1)

... ولما توفي يوسف داي سنة 1047 هـ/ 1637 م، دفنه ابنه أبو العباس أحمد في التربة التي أقامها في مدخل الجامع بسوق البشامقية.

... يقع الجامع اليوسفي في مدخل المدينة العتيقة من ناحية القصبة بنهج سيدي علي بن زياد، ومما يجلب الانتباه أن المؤسس اختار موقع جامعه على مقربة من الجامع الأعظم. ويمكن تفسير هذه العملية بأن الجند الذين بني من أجلهم هذا الجامع كانوا يقطنون بقرب من هذا الموقع. فإضافة إلى وجود العديد منهم بقلعة القصبة، فإن البعض الآخر كان يقطن في المكان الذي تحتله حالياً المدرسة المرادية(1)

---

(1) وهي كانت تدعى أيضاً مدرسة التوبة. ويفسر ذلك ابن أبي دينار بأنها كانت »مسكناً للجند قبل بنائها، ويقع فيها الفجور، فغيّر (الباي) رسمها وجعلت لتلاوة كتاب الله والعلم«. (ابن أبي دينار، المونس، ص. 248).

(8518/1)

. كما أنه من الممكن أن وجود جامع محبّس على المذهب الحنفي بقرب الجامع الأعظم ساهم في جلب عدد من كبار القوم الذين كانوا يقطنون في هذا الحي للاستماع لدروس الشيوخ المتفقهين على مذهب الإمام أبي حنيفة، وبالتالي يعتبر هذا تقوية لصفوف المتبعين لهذا المذهب في بلاد ما زال سكّانها متشبّثين بالمذهب المالكي.

... مما يجلب الانتباه أن أول جامع أسس بالبلاد على يد العثمانيين هو جامع يوسف داي، الذي تأثر في بعض مكوناته وفي قسم من تصميمه بالمساجد العثمانية. وهكذا يبدو الصحن الذي يحيط ببيت الصلاة من الجهات الثلاث .

(8519/1)

الشرقية والشمالية والغربية .من المميزات النادرة التي قلما نجدها في الجوامع التونسية، وهي في الحقيقة ظاهرة اختصت بها بعض الجوامع التركية .خاصة منها جامع بيالي باشا (Piali Pacha) الذي أسس بإسطنبول سنة 992 هـ/ 1585 م، وجامع ياني فاليدي (Yani Validé). أما بتونس، فنجد الشكل نفسه، وهو المشابه لحرب U اللاتينية في ثلاثة جوامع أخرى فقط(1)

---

(1) وهي جوامع: حمودة باشا المرادي، ومحمد باي المرادي، المؤسس كل منهما خلال النصف الثاني للقرن 11 هـ/ 17 م. وكذلك جامع صاحب الطابع المؤسس خلال الربع الأول للقرن 13 هـ/ 19 م.

(8520/1)

، وهو ما لا نجده في الجوامع التي سبقت زمنياً تأسيس الجامع اليوسفي(1). ويتمثل هنا أهم الصحون الثلاثة في الصحن الشمالي، بينما يتسم الصحن الشرقي بمساحته المحدودة جداً، لكنه يمتاز باحتوائه على محراب يستعمله

---

(1) اعتقد ج. مارسيه أن شكل هذا الصحن قد استعمل

قبل ذلك في جامع المهدية الفاطمي: إلا أن عملية الاسبار التي قام بها ليزين عند إعادة بناء الجامع، أثبتت أن الجامع الفاطمي كان على نمط الجوامع الإفريقية الأخرى ذات الصحن المستطيل الشكل، والذي يتقدم بيت الصلاة في ناحيتها الشمالية، وتحيط به الأروقة.

(8521/1)

المصلون خلال فصل الصيف(1).

... لكن ما يجلب الانتباه هو أنه بالرغم من بناء هذا الجامع في بداية القرن 11 هـ/ 17 م، فقد صممت بيت الصلاة حسب النماذج المستعملة من قبل في البلاد. فأغلب عناصرها تمثل بعض التأثيرات والتقاليد المعمارية المحلية. وهكذا حصل اختلاف أساسي بين ما يوجد بالصحن ونمط الصومعة والتربة من جهة، وبين العديد من عناصر بيت الصلاة من جهة أخرى، التي تم تسقيفها عن طريق أقبية متقاطعة(2)

---

(1) وهو القاسم المشترك بين الجوامع الخمسة موضوع بحثنا هذا.

(2) هي طريقة مألوفة في سقوف معالم مدينة تونس الدينية منها أو المدنية.

(8522/1)

. وربطت الجدارات ببعضها عن طريق عوارض خشبية.
وتختلف بيت الصلاة هذه اختلافاً تاماً عما نجده بجامع محمد باي المرادي (المعروف بجامع سيدي محرز) المسقوف عن طريق القباب المعتمدة على أربع دعامات، بينما اعتمد سقف الجامع اليوسفي على غابة الأعمدة التي تعودنا وجودها بأغلب جوامع البلاد.
... لبيت الصلاة هذا شكل مستطيل: فعرضها أقل من عمقها، إذ يساوي عرضها 7/6 من عمقها. ونحن نعلم أن شكل بيت الصلاة بصفة عامة يكون العرض فيها أكثر من العمق(1)

---

(1) مثلما هو شأن جامع عقبة بالقيروان وجامع الزيتونة والجامع الأعظم بسوسة وغيرها.

(8523/1)

. وبما أننا نعثر في بيت الصلاة هذه على الكثير من المعطيات التي نجدها في الجوامع الأفريقية الأخرى، فقد كنا ننتظر أن يمثل عرض بيت الصلاة أكثر من هذه

النسبة بالمقارنة مع العمق. إلا أن الأبعاد تكاد تكون متوازية (أي شكل مربع) مثلما هو حال جامع سيدي محرز(1).

---

(1) من المؤكد أن المهندس اضطر اضطراراً إلى اختيار هذا التصميم، لضيق قطعة الأرض التي تصرّف فيها لبناء المعلم. لكن من الملاحظ أن الجوامع الأخرى الراجعة إلى الفترة العثمانية، لها التصميم نفسه، خاصة جامع حمودة باشا المرادي.

(8524/1)

... تتكون بيت الصلاة من تسع بلاطات .أهمّها البلاطة الوسطى المواجهة للمحراب .وسبع مسكبات، أكثرها عرضاً المسكبة الموازية لجدار القبلة. وهكذا تكون بمعيّة البلاطة الوسطى التصميم المعروف حسب شكل T اللاتينية. ويتكون السقف .كما لاحظنا .من أقبية متقاطعة تتسم بالجمال. وهكذا تضفي على بيت الصلاة شيئاً من الأناقة أنقذها من الرتابة التي كان من الممكن أن تتردّى فيها. ذلك، إضافة إلى القبة ذات عقود الزوايا التي تعلو المحراب(1)

---

(1) يفسر هذا الفقر المعماري بالفترة الزمنية الوجيزة جداً والتي أنجز خلالها الجامع. فهي لم تسمح بإثرائه بعناصر أخرى. هذا، إضافة إلى أن الإيالة التونسية لم تسترجع قواها بعد من جرّاء المصائب التي لحقتها خلال الحرب التركية التي انتهت بانتصار الأتراك سنة 981 هـ/ 1574 م.

(1/8525)

. بينما لا يجلب الانتباه في واجهة المحراب، إلا المحراب نفسه والزخرفة الجصية التي تعلوه. وكسي القسم الأسفل لجوف المحراب الذي يتوسط هذه الواجهة باللوحات الرخامية، وزخرفت الطاقية بنقوش جصية ذات تأثير أندلسي، كما يتكون العقد الحدوي الذي يحيط بالقسم الأعلى للمحراب من فقرات رخامية متناوبة، بيضاء وسوداء، ويحيط به إفريز مقعّر. ويستند هذا القسم على عضادتين يحدّ كلاًّ منهما من الداخل عمود رخامي يعلوه تاج من الطراز الحفصي. ونمط هذا المحراب جديد بالنسبة إلى جوامع البلاد، فلم يكس جوف المحراب بالرخام، ولم

(1/8526)

ينتشر هذا النمط إلا مع دخول الأتراك العثمانيين. أما قبة المحراب، فهي مرتكزة على أربعة عقود، مشكّلة بذلك قاعدة مربعة للقبة التي تتكون من ثلاثة أقسام. ويتم الانتقال من القاعدة المربعة إلى الطابق الأوسط المثمّن الشكل عن طريق أربعة عقود زوايا يحتل كل منها إحدى زواياها الأربع(1). ويحد

---

(1) إلا أنه وجدت قباب يتم فيها الانتقال من المربع الأسفل إلى القبة عن طريق عنصر المثلثات الكروية، كما حصل ذلك في جامع محمد باي، وتربة البايات، وزاوية سيدي إبراهيم الرياحي. هذا، إضافة إلى قبة قصر دار حسين وغيرها.

(8527/1)

المحراب شرقاً باب مقصورة الأمام، وغرباً المنبر، وهو منبر قار بني بالحجارة وكسي بلوحات المرمر المتعدّدة الألوان(1)، وهو يذكرنا بمنابر جامع القصبة وجامع حمودة باشا وجامع محمد باي المرادي والجامع الجديد وجامع صاحب الطابع. أما أجمل العناصر التي تحتوي عليها بيت الصلاة، فهي الختمة القرآنية التي أثريت في واجهاتها الأربع بنقوش جميلة وبنقيشة تثبت

تحبيسها على الجامع سنة خمس وأربعين وألف للهجرة (1045 هـ/ 1635 م).

---

(1) هذا، على عكس المنابر التي عرفتها أفريقية في السابق وكانت منابر خشبية متحولة.

(8528/1)

... من بين العناصر المعمارية التي تلفت الانتباه المئذنة، وهي أولى الصومعات المثمنة الشكل التي تم بناؤها بالبلاد، إذ أن جميع الصومعات التي سبقتها زمنياً كانت في أغلبها ذات نمط موحدي، ولها قاعدة مربعة الشكل؛ كما أن لجامع حمودة باشا المرادي والجامع الجديد وجامع صاحب الطابع مآذن لها هي أيضاً النمط نفسه.

... اختلف المؤرخون في مصدر هذا النمط من المآذن. فأغلبهم يرون أنها من تأثير تركي، أو ينعتونها بـ«النمط الحنفي». ويرى البعض الآخر أنها من تأثير أندلسي. ويستدل الأستاذ ميكال دي إيبلزا (Mickel de

(8529/1)

Epalza) على ذلك بوجود صومعة بألمرية تتشابه نوعاً ما مع هذا النوع من الصومعات التونسية. لكن المؤكد أن المآذن المثمنة الشكل وجدت بتركيا وبمصر وببعض المناطق التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية.

وبالرغم من أن المآذن الموجودة بتركيا أكثر رشاقة وطولاً من التي نجدها بمدينة تونس، فمن الواضح أن هذه متأثرة بطريقة غير مباشرة بتلك، وهي ربما تأثرت بصفة مباشرة بالصومعات المثمنة الشكل الموجودة ببعض مناطق سوريا ولبنان، خاصة منها بحلب. لكن نلاحظ أن الفنان التونسي قد أضفى عليها شيئاً من شخصيته وتقاليده، مما أعطاها

(8530/1)

بعداً مميزاً.

... من بين العناصر الأخرى الهامة: التربة. فانطلاقاً من هذه الفترة العثمانية، أصبح كل مؤسس لجامع خطبة بمدينة تونس يضيف تربة إلى الجامع، وهو ما حصل فعلاً بجامع حمودة باشا، وكذلك بالجامع الجديد وبجامع صاحب الطابع. وقد حاول محمد باي المرادي إضافة تربة

إلى جامعه؛ إلا أنه توفي قبل إنجازها، فدفن في تربة أبيه حمودة باشا. ومفهوم إضافة التربة إلى الجامع مشرقي بحت ولم يعرف لدينا خلال العهد الحفصي إلا في بعض المدارس (كمدرسة ابن تافراقين ومدرسة القائد نبيل أبو قطاية).

(8531/1)

... وقد لاحظنا بعد أن المهندس الذي أشرف على بناء هذا المعلم أندلسي الأصل. إلا أنه بالرغم من ذلك، فإن التأثيرات التي سيطرت على نمط هذا المبنى فيها امتزاج بين الفن والهندسة المعمارية المحلية والعثمانية. لهذا نستغرب من عدم محاولة هذا المهندس استعمال الأنماط الهندسية التي تعودها بالأندلس.

... وهكذا احتوى هذا الجامع بالرغم من بساطته على عناصر جديدة أدخلها معهم العثمانيون، كالصحن الذي يمثل شكل U اللاتينية، والمئذنة المثمنة الشكل، والمنبر القار والمكسو بالمرمر، وكذلك التربة المضافة للجامع، هذا إضافة

(8532/1)

إلى المحراب الخارجي الواقع في الصحن الشرقي، وهو قاسم مشترك بين الخمسة الجوامع المؤسسة خلال فترة الأتراك العثمانيين. وهذه المعطيات تعدّ من الأهمية بمكان، إذ تعرفنا عمارة الدايات الأوائل بتونس، والتطور الحاصل مع قدوم الحكام الجدد للبلاد.

جامع حمودة باشا

... أما ثاني الجوامع المؤسسة خلال هذه الفترة، فعمارته تشابه في أغلب النقاط الجامع الأول. ويوجد هذا الجامع وسط الأسواق المحيطة بالجامع الأعظم. ومن أهم أسباب اختيار موقعه هذا هو قربه من جامع الزيتونة؛ إذ لا يفصل بينهما إلا بضعة أمتار، وهو ناتج عن

(8533/1)

إرادة الحكام الجدد المتبّعين للمذهب الحنفي نشر مذهبهم بين العامة. وكانوا يعتبرون أن الحل الوحيد لنشر الحنفية هو إنشاء جوامع ومدارس تحبّس على مذهبهم. وبما أن الزيتونة مثلت على مر التاريخ معقل العلماء والشيوخ المالكية، فإن إنشاء جامع قريب منهم يحبّس على المذهب الحنفي كان يشكل في نظرهم أهم الطرق لدعم وجودهم المذهبي وبالتالي السياسي.

... من أهم ما يمكن إذن ملاحظته هو تأثر مهندس هذا الجامع بنمط جامع يوسف داي، وهو ما تصفه المراجع بالنمط التركي. كما تجلب الانتباه بعض الاختلافات الجزئية بين مئذنة جامع

(8534/1)

حمودة باشا وتلك التي ذكرناها في جامع يوسف داي: فمنارة جامع حمودة باشا أكثر رشاقة وطولاً من الأخرى. ... وبالرغم من احتواء هذا الجامع على بعض العناصر الجديدة التي لا حظناها بعد في جامع يوسف داي، ومن بينها خاصة الصحون الثلاثة المحيطة ببيت الصلاة، والمحراب المكسو جوفه بلوحات المرمر وكذلك بروز العناصر النباتية في تزويق قاعدة أطر الأبواب؛ كما أن للمنبر أيضاً طابع المنابر الراجعة للفترة التركية، وكذلك التربة المشابهة لتربة يوسف داي .بالرغم من وجود هذه العناصر الجديدة، فإن الطابع العام يدل على بقاء

(8535/1)

التاثيرات المحلية قائمة الذات. فأطر الأبواب والنوافذ التي تفتح على بيت الصلاة تذكرنا بما يوجد في أغلب معالم مدينة تونس، خاصة منها الفقرات الرخامية المشعّة والمتناوبة البيضاء والسوداء، وطبيعة البناء نفسه، وكذلك السقوف المتمثلة في أقبية متقاطعة، كل هذا دليل على أن التأثير التركي تمثل في بعض الأجزاء فقط، بينما بقي التأثير المحلّي (خاصة طابع بيت الصلاة نفسه) موجوداً في النمط العام للجامع وفي شكله وكذلك في زخارفه.

جامع محمد باي المرادي

(8536/1)

... ثالث الجوامع، ولعله أهمها على الإطلاق. وبالرغم من إطلاق العامة على هذا الجامع اسم »جامع سيدي محرز«، فهو لا ينتمي بأيّ صلة إلى هذا الولي. فقد أسسه محمد باي المرادي في نهاية القرن 17 م، وأطلق عليه اسم »جامع سيدي محرز« لوقوعه أمام زاوية الولي (1).
وأهمية هذا الجامع متأتية من أنه انفرد بالنمط المتأثر بالجوامع التركية، وهو ما لا نجده إلا في عدد قليل جداً من الجوامع بالبلاد العربية. وبالرغم من هذا، فإن

---

(1) حسين خوجة، ذيل بشائر الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق الطاهر المعموري، تونس، 1976، ص. 95.

(8537/1)

جامع محمد باي، في شكله العام وفي نواحيه الفنية، يختلف في العديد من النقاط عن الجوامع التركية عكس جامع محمد علي بقلعة صلاح الدين المعتبر الجامع الوحيد في البلاد العربية الذي يشكل نسخة مطابقة للأصل لجوامع إسطنبول، كجامع السليمانية وبايازيت وغيرها، المتأثرة مباشرة بآيا صوفية، والتي أبدع في تصميمها المعماري سنان. أما جامع محمد باي، فيبدو أنه تأثر في أغلب نواحيه المعمارية وفي هيكله الخارجي بجامع ياني فاليدي (Yeni Validé).

(8538/1)

... امتاز هذا الجامع عن غيره إذن ببعض الخاصيات، أهمها اعتماد السقف المتكون من قباب متفاوتة الحجم، على أربع دعامات ضخمة. لذلك لا نجد في بيت الصلاة الأعمدة التي اعتدنا وجودها في كل المساجد التونسية، فلا

تحتوي بيت الصلاة هذه على البلاطات والمسكبات المعهودة.

... تبدو بيت الصلاة من الخارج على شكل هيكل مكعب تتدرج في فضائه المساحات الكروية الشكل، فتبدو القبة الوسطى مرفوعة على رقبته تتخللها ثماني نوافذ وتعلوها طاقية ذات شكل نصف كروي، في حين أن القبيبات الأقل ارتفاعاً لا تتخللها إلا أربع نوافذ، وتنتهي

(8539/1)

كلها برمانة من ثلاثة عناصر كروية يعلوها هلال.

... أول ما يجلب نظر الداخل إلى بيت الصلاة الفاتحة على الأروقة الخارجية بتسعة أبواب، الدعامات الأربع الضخمة الحاملة للسقف والمتشابهة تقريباً(1). وتحتل الدعامات مكاناً ممتازاً في وسط القاعة الفسيحة الأرجاء، وتجمع بينهما عقود أربعة في شكل

---

(1) إلا أنه إذا أمعنا النظر جيداً في هندسة هذه الدعامات، وفي كيفية تغطيتها بالألواح المرمرية، فإننا نلاحظ بعض الفوارق الجزئية التي تبين نوعاً من

الارتجال في إثبات هذه الحلية الرخامية، وما احتوت عليه من لوحات خزفية.

(8540/1)

نصف دائرة تكون القاعدة المربعة التي تحمل القبة الوسطى الرئيسة. ويتم الانتقال من المربع إلى القسم الأوسط بواسطة عنصر المثلثات الكروية. أما بقية المساحة المسقوفة، فتحتوي على أربعة أنصاف قباب، تساند القبة الرئيسة من جهاتها الأربع، في حين أن قبيبات أربع أخرى تحتل زوايا القاعة. وتستند كل من أنصاف القباب والقبيبات إلى عقود معترضة تنطلق من الدعامات الوسطى لترتكز على العضادات المتكئة على الجدران.

... تتقدم بيت الصلاة أروقة تتمادى في الزاويتين الشرقية والغربية مكونة سلسلة متواصلة من البائكات المرفوعة عن

(8541/1)

طريق أعمدة مرمرية تعلوها تيجان من الطراز التركي المتأثر بالنوع الكورنتي الجديد (1)

---

(1) يحتوي هذا التاج في كل من زواياه الأربع على ورقة أقنثة ذات ثلاث شحمات، وتنتهي كل شخمة بشكل حلزوني بارز، ويتوسط كل ورقتين حزّ يتوسطه بدوره (في غالب الأحيان) هلال.

... وأول من وصف هذا النمط بالطراز التركي، هو المستشرق الفرنسي جورج مارسيه، لأنه أدخل إلى البلاد في أوائل الفتح العثماني، لكن مأتاه غير معروف، وقد صنعت الكثير من هذه التيجان بالبلاد الإيطالية، وبدأ انتشارها انطلاقاً من القرن 11 هـ/ 17 م.

G. Marçais, Manuel d'art Musulman, T. II, p.) .(904

(8542/1)

. ويتألف الرواق الجنوبي الغربي المساند لجدار القبلة من ثلاثة عقود، في حين أن الرواق الجنوبي الشرقي يتكون من أربعة عقود (1). أما الواجهة الشمالية، فتعتبر أهم الواجهات الثلاث، إذ تشتمل على رواق

متكون من بائكة ذات سبعة عقود. والملاحظ أن المناطق العليا لكل الأروقة قد كسيت بغشاء من حجارة الهوارية الصفراء اللون، بينما اختصت الزوايا بكسوة من

---

(1) تواصل استعمال نمط العقود نفسه الذي تعودته البلاد التونسية منذ قرون عدة، ولم يغيّر القدوم العثماني في نمط هذه العقود. وهكذا بقيت مدينة تونس وفية للعقد الحدوي.

(8543/1)

حجارة الكذال الوردي اللون، والذي يعتبر الرخام المحلي، والمجلوب من منطقتين قريبتين من المدينة العتيقة، أولاها بضاحية حمام الأنف والثانية بالوطن القبلي وبالتحديد قريباً من القرية الأندلسية: سليمان.

... أما المئذنة، فقد جرت العادة في مثل هذه الجوامع على أن تتحلى بمئذنة شديدة الارتفاع ومثمنة الأضلاع. غير أن هذا الجامع لم يساعده الحظ على استكمال الصومعة؛ إذ أن المنارة الحالية الموجودة في الركن الجنوبي الشرقي والمشرفة على سوق سيدي محرز لم تشيد خصيصاً للجامع الجديد، بل هي من توابع المسجد الصغير القديم

(8544/1)

المعروف بمسجد الفلاري(1). وهي صومعة مربعة الشكل صغيرة القاعدة لا تتناسق من حيث حجمها وشكلها مع نمط الجامع وفخامة الهيكل. والسبب في فقدان صومعة تتماشى والنمط المعماري الخاص بالجامع هو موت محمد باي قبل إتمام المئذنة. ثم تبعه أخوه رمضان باي الذي مات قبل اكتمال البناء، وقد امتنع الخلف من إتمام الصومعة تشاؤماً بمصير السلف.

---

(1) المؤسس سنة 1039 هـ/ 1629 م حسب محمد بن الخوجة (معالم التوحيد، ص. 114). غير أننا نرجح أنه يرجع إلى الفترة الحفصية.

(8545/1)

... بالطبع، أثرى أقسام بيت الصلاة هي واجهة جدار القبلة، التي تتألف من قسمات أفقية وقسمات عمودية. أما القسمات الأفقية، فهي ثلاث: منطقة سفلى تحتوي على إطارات رخامية وألواح القشاني، ثم منطقة مغشاة بزخارف الجص المحفور والتي تدعى لدينا بـ »النقشة

الحديدة «. وأخيراً ينتهي الجدار بقسم خال من الزخارف، وفوق ذلك نجد القباب وأنصاف القباب(1) تعلو بيت الصلاة والتي كانت خالية من كل زخارف على عكس ما هي عليه الآن.

---

(1) تمّت أعمال النقوش الجصية خلال سنة 1980، عند ترميم المعلم.

(8546/1)

... تتشكل الزخارف السفلية من عدة مجموعات عمودية يتوسطها المحراب المكسو تماماً بالمرمر المتعدد الألوان، والذي تحيط به من الجانبين نوافذ تعلوها كسوة من القشاني (أو مربعات الخزف) (1) المجلوب من مدينة أزنيك(2)

---

(1) يدعى القشاني بالبلاد التونسية:» زليز «. والمصطلح في الأصل هو »الزلّيج «، إلا أن الجيم حرفت إلى الزاي لثقل نطقها.

(2) لا نجد هذا النمط من القشاني إلا في معلم آخر فقط، وهو الجامع الجديد الذي كسيت جدران بيت الصلاة فيه

بعدد من أنماط مربعات الخزف التركية والمتشابهة مع ما يوجد في جامع محمد باي.

(8547/1)

والمتميز بنصاعة ألوانه وأناقة الأشكال الزخرفية المستوحاة في أغلبها من العناصر النباتية الطبيعية، وهو الطراز الطاغي من حيث الاستعمال(1). وفي أطراف الجدار يتمادى النظام نفسه مع استعمال زخارف خزفية من الطراز الأندلسي المتمثلة في أطباق الفسيفساء التي تتخذ أشكالاً هندسية والتي تسيطر عليها الأطباق النجمية البسيطة التركيب.

---

(1) تدخل في زخارف هذا القشاني العناصر النباتية كالزهور والأوراق القريبة جداً إلى الطبيعة، ويدخل في ألوانها اللون الأحمر المشهورة به مدينة أزنيك وكذلك الأزرق والأخضر.

(8548/1)

... والجدير بالذكر أن مجموع الدعامات والعضادات قد رتبت فيها ألواح من المرمر والقشاني والنقشة حديدة

حسب نظام مشابه للذي لاحظناه بخصوص جدار القبلة مع تداخل بعض العناصر المميزة. أما بقية جدران القاعة، فتتمادى في زخرفتها المواد نفسها ونسب الترتيب الأفقي، مع نظام خاص عمودي في المنطقة السفلى.

... من بين أهم عناصر بيت الصلاة المنبر المبني بالحجارة والمزوق بالمرمر مثلما هو حال بعض الجوامع الأخرى(1)

---

(1) ذكرنا بعدُ منبر جامع يوسف داي وكذلك منبر جامع حمودة باشا، هذا إضافة إلى المنبر المضاف بجامع القصبة...

(8549/1)

. أما تيجان الأعمدة، فجلها من النوع المسمى بـ»التركي« (22 تاجاً على 25) وثلاثة من الطراز الحفصي. كما نلاحظ نوعاً ثالثاً يعرف بالأندلسي(1)، وهو المستعمل في عمودي المحراب والمنبر.

... وفيما يتعلق بالنقش على الجص، فقد استعمل في هذا المعلم طراز أول، وهو من تأثير أندلسي يتسم باستعمال العناصر الهندسية المتمثلة

---

(1) يتميز هذا التاج بزخارف الخطوط المنعرجة، ونجده

في بعض المعالم الراجعة إلى الفترة الحفصية، كزاوية سيدي قاسم الجليزي وميضة السلطان، كما استعمل في بداية القرن 11 هـ/ 17 م بدار عثمان داي...

(8550/1)

خاصة في أطباق النجوم. أما الطراز الثاني، فهو من تأثير تركي، ويتمثل في ألواح يطغى عليها الشكل المنفرد (خاصة المزهريات والنجوم وكوز الصنوبر...).

الجامع الجديد

... أما رابع الجوامع، فهو الذي أمر ببنائه حسين بن علي تركي مؤسس الدولة الحسينية الذي تولى مقاليد الحكم سنة 1117 هـ/ 1705 م(1)

---

(1) تذكر المصادر أن أصله من جزيرة كريت (حسين خوجة، ذيل بشائر أهل الإيمان، مصدر سابق، ص. 115؛ محمد سعادة، قرّة العين، مخطوط ورقة 5. ب، بينما يرى عزيز سامح (في كتابه الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية) أن ذلك غير صحيح (صص. 232 ـ 233).

(8551/1)

. أسّس هذا الباي ثلاث مدارس خلال الفترة الأولى لحكمه، وآخر مدرسة أنجزها الباي حسين تمّ بناؤها سنة 1139 هـ/ 1727 م، قبل سنة فقط من اندلاع الحرب الأهلية التي انقسمت فيها البلاد بين حسينية وباشية(1).

(1) حول حياة هذا الباي وتأسيسه لعدد هام من المعالم وترميمه لعدد آخر، راجع: حسين خوجة، المصدر السابق، ص. 115 ـ 153؛ السراج، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ج 3، ص. 55 ـ 76؛ محمد سعادة، قرّة العين، المصدر السابق، ورقة 92 أ وب؛ ابن الضياف، إتحاف...، مصدر سابق، ج 2، ص. 100 وما بعدها.

(8552/1)

... الجامع الجديد هو أول جامع شيّد في الفترة الحسينية(1). وباستثناء هذا الجامع لا نملك مثالاً آخر لجامع استعمل صحنه مدرسة، لأنه في صورة بناء جامع ومدرسة في المكان نفسه: كجامع ومدرسة التوفيق ثم الجامع اليوسفي والمدرسة، وكذلك جامع ومدرسة صاحب الطابع. فإن كلاًّ من المعلمين يكون مستقلاً بذاته، وربما نتج هذا الاختيار عن ضيق المكان الذي تمّ

استغلاله. وهو على كل حال تطور لمفهوم المدرسة ولتخطيطها، فالمسجد الذي تحويه كل مدرسة كان يمثل المكان الذي

---

(1) ابن الخوجة، معالم التوحيد، مصدر سابق، ص. 132 ـ 133.

(8553/1)

استغله الطلبة والشيخ للتدريس والصلاة، وهنا من الممكن جداً إن اضطر هؤلاء لاستعمال بيت الصلاة الجامع. ... تعلمنا المصادر أن الأشغال انطلقت سنة 1136 هـ/ 1723 م، وأن الباي حسين أزال ثلاث خمارات كانت توجد قرب مسجد المسدوري وبنى عوضها دوراً للسكنى. أما بقية المساحة، فقد أنجز عليها الجامع والمدرسة وتربة أعدّها لنفسه(1) وكتّاباً. وأول صلاة أقيمت بالجامع كانت ظهر يوم الأحد 14 شعبان 1139 هـ/ 16 أفريل 1727 م(2)

---

(1) لاحظنا بعده أن التربة أضيفت في جلّ الحالات إلى الجامع خلال الفترة العثمانية بمدينة تونس.

(2) محمد سعادة، المصدر السابق، ورقة 44 أ؛ حسين

خوجة، المصدر السابق، ص. 161؛ الصغير بن يوسف، المشرع الملكي، المصدر السابق، ص. 15.

(1/8554)

. ويفيدنا الصغير بن يوسف أن الباي حسين أنفق أموالاً طائلة في بناء الجامع والمدرسة، وأنه جلب أعمدة الرخام من إيطاليا، بينما أتى بالزليج من إسطنبول.

... مما يبرهن على أهمية هذا المكان إحاطة العديد من المعالم الدينية والمدنية بهذه المجموعة التي توجد المدرسة في شمالها. ويبدو أن العثمانيين اهتموا بهذا الحي اهتماماً خاصاً منذ بداية القرن 11 هـ/ 17 م، فقد بنى به الداي عثمان قصره الراجع إلى حوالي سنة 1605 م.

(1/8555)

... أول ما يجذب الانتباه بالجامع الصومعة المثمنة التي تطل على الصحن الشرقي للجامع وعلى سوق الصبّاغين من الخارج. وتشدّ بيت الصلاة اهتمام المصلين نتيجة لثرائها الفني والزخرفي والمعماري. وأول ما يلفت الانتباه هو التصميم المتّسم بالطابع المحلي الذي تعودناه في

بيوت الصلاة المنشأة خلال الفترة الحفصية، والتي استعملت أيضاً في الجوامع العثمانية بمدينة تونس كجامع يوسف داي وجامع حمودة باشا المرادي، والمختلف عن تصميم جامع محمد باي، وهو التخطيط المتمثل في قاعة مستطيلة الشكل، عرضها أكثر من طولها: فلها في هذا

(1/8556)

الجامع من الطول 17.20 م ولها من العرض 19.20 م. لهذا، فإن مساحة بيت الصلاة بالجامع الجديد متواضعة نسبياً. ... قسّمت بيت الصلاة بالجامع الجديد إلى خمسة أروقة لها الأبعاد نفسها، وهو ما نلاحظه أيضاً بخصوص المسكبات الأربع الموازية لجدار القبلة. وهي تختلف في هذه الناحية عن تصميم الجامع الأعظم وغيره من الجوامع التي تتميز ببلاطة المحراب الأعرض من بقية البلاطات؛ وقس على ذلك المسكبة الممتدة بطول جدار القبلة، والتي تمثل أعرض المسكبات، مما سمح بتكوين التخطيط المتعارف عليه بشكل T اللاتينية، وهو التصميم

(1/8557)

الأكثر انتشاراً بالبلاد التونسية.

... يختلف سقف هذا الجامع عن أغلب الجوامع الأخرى بما فيها الجوامع المؤسسة خلال القرن 11 هـ/ 17 م. فهو متكون في كل من طرفيه الأيمن والأيسر من أقبية طولية، وتتوسطها بالرواق المواجه للمحراب أشكال مقبّبة. وهي طريقة سيحصل اعتمادها فيما بعد في جامع صاحب الطابع الذي أثريت فيه هذه الأقبية الطولية بالنقوش الجصية. حملت هذه الأقبية الطولية بالجامع الجديد عن طريق عقود متقاطعة تستند بدورها إلى جدارات تتكون كل منها من حجارة متناوبة بيضاء وسوداء، وهي محمولة على أعمدة من الرخام

(8558/1)

الأبيض المستورد من كرارة، وهي المادة نفسها المستعملة في تيجانها ذات النمط الخليط الذي نلاحظ وجوده في صحن الجامع، وهو يحتوي على تأثيرين متداخلين: كورنتي من حيث عنصر الأوراق، وايوني من حيث الشكل الحلزوني. وقد استمده الرومان من هذين الطرازين، بينما للأربعة الأعمدة الحاملة لقبة المحراب

تيجان من النمط المعروف بـ»التركيّ« والذي نجده في الجوامع التي يطلق عليها »الجوامع الحنفية« لتأسيسها في الفترة العثمانية وتحبيسها على هذا المذهب. وبعكس أغلب الجوامع الأخرى، ونتيجة لضيق المساحة، تمت إضافة طابق علوي في

(8559/1)

جزء من أقسام الجامع، إذ خلا وسط بيت الصلاة من هذا القسم المضاف، وهو مصنوع من الخشب، ذلك ما يسمح بمضاعفة طاقة استيعاب الجامع. ولم تحصل هذه الإضافة إلا خلال القرن الفارط فمن الواضح أن عدد سكان الحي ازداد بصفة جعلت الجامع يضيق بالمصلين، وهو ما دفع إلى إضافة السدّة وهي نفسها المستعملة من قبل الخوجات لتلاوة القرآن.

... يتسم إذن تصميم بيت الصلاة هذه بتواصل الأنماط الموجودة بالبلاد منذ عصور الإسلام الأولى. غير أن الإطار العام مختلف عن أغلب هذه الجوامع، خاصة فيما يتعلق باستعمال مربعات الخزف الكاسية

(8560/1)

للنصف الأسفل لجدار المعلم؛ وهو ما نلاحظه أيضاً في جامع صاحب الطابع. وبالرغم من تشابه هذه المربعات مع تلك التي لاحظناها بعد في جامع سيدي محرز، فإنها تختلف عنها في أشكالها، وهي تتسم في الجامع الجديد بوجود العديد من أنماط المربعات الخزفية، وهي التي اشتهرت بها جوامع مدينة إسطنبول كجامع الأحمدية وجامع السليمانية وبايزيت، إلخ.

... وإن كان النصف الأسفل للجدران مكسواً بمربعات الخزف، فإن النصف الأعلى مكسو بالنقوش الجصية، وهي أيضاً متأثرة بالنمط التركي.

(8561/1)

... وبالرغم من ثراء جميع جدران الجامع بشتى أنواع المربعات الخزفية والنقوش الجصية، فإن واجهة جدار القبلة تلفت الانتباه بصفة خاصة. فأول العناصر هو المنبر القار المبني بالحجارة، وهو يتشابه في نمطه مع الخمسة المنابر الأخرى الموجودة بالجوامع الحنفية.

... أما المحراب، فلا يختلف في نمطه عن بقية المحاريب الموجودة انطلاقاً من القرن 11 هـ/ 17 م، والتي تواصل العمل بها إلى اليوم. فالنصف الأسفل لهذا المحراب مكسو بسبع لوحات رخامية، متناوبة سوداء وبيضاء.

ويعلو كل لوحة شكل معقود على هيأة محراب. كما خرّمت طاقية

(8562/1)

المحراب بالنقوش الجصية

المتمثلة في أشكال هندسية متداخلة، تتوسط كلاًّ منها أشكال عديدة متأثرة في جملتها بالفن التركي.

... آخر العناصر الهامة ببيت الصلاة هو قبة المحراب المحمولة على أربعة أعمدة ذات تاج عمود »تركي«، وهي التي لا تختلف في شكلها أو في مضمونها عن أغلب القباب التي لاحظناها في بيوت الصلاة بالمساجد ومساجد المدارس وبعض الأضرحة(1)

---

(1) تتكون القبة من ثلاثة أجزاء: أولها مربع الشكل وأثريت أقسامه بنقوش جصية دقيقة الصنع تشبه في شكلها خلايا النحل، ويتم الانتقال إلى الطاقية عن طريق قسم ثان متكون من عقود زوايا تذكر بشكل المحارات. ونجد في الرقبة عميدات ثمانية (فقدت منها خمسة سيتم وضع أخرى مشابهة لها) بينما كسي أعلى قسم من القبة (الطاقية) بنقوش جصّية متمثلة في نجمة

مثمّنة وسطى، وينطلق من كل واحد من أجزائها فرع، وهي تحصر فيما بينها مثلثات ثريّة.

(8563/1)

.

... لكن مقارنة مع ختمة جامع الزيتونة أو جامع يوسف داي، فإن الختمة القرآنية الموجودة بهذا الجامع تعدّ بسيطة في شكلها ومكوناتها.

جامع صاحب الطابع

... آخر جامع هو جامع صاحب الطابع الذي يعد آخر المنشآت الدينية العظمى التي أسّست خلال الفترة العثمانية بمدينة تونس. فهو سابع الجوامع الحنفية وآخرها زمناً. وإن كانت الجوامع الأخرى التي ذكرناها بعد قد أسست من قبل دايات وبايات، فمؤسس هذا الجامع، الوزير يوسف صاحب الطابع لا ينقص عن هؤلاء في الأهمية؛ إذ أدّى دوراً هاماً جداً في حياة البلاد كاد يضاهي به دور

(8564/1)

البايات أنفسهم(1). فقد بلغ أعلى المناصب وأصبح الساعد الأيمن لحمودة باشا، باي الإيالة التونسية، حتى وصل به الأمر إلى أن أوكلت إليه كل الأمور. وكان هذا الوزير يعد أثرى شخص في الدولة، وتأتّت ثروته خاصة من التجارة مع البلاد الأوروبية، وكذلك من استعمال سفنه العديدة في القرصنة؛ كما أدّى هذا الوزير دور البنوك، إذ كان يقرض الكثير من وجهاء المملكة مع فائدة طائلة. كل هذا سمح له بأن يكوّن ثروة طائلة وازت جباية الدولة آنذاك(2)

---

(1) أحمد بن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان...، مصدر سابق، ج 7، صص. 89 ـ 100.

(2) أحمد بن أبي الضياف، المصدر نفسه، ج 7، ص. 98.

(8565/1)

.

... كان الابتداء في بناء الجامع يوم الأحد أول محرم 1223 هـ/ 1808 م، وأقيمت أول صلاة في الجامع يوم الجمعة 12 ربيع الأول 1229 هـ/ 4 مارس 1814 م. وهي تعتبر من أحسن الفترات الحسينية .وبنى صاحب الطابع مع الجامع مدرسته المشهورة باسمه. ويوجد الجامع

بقرب من منزل المؤسس، كما بنى عدة منجزات أخرى في الحيّ نفسه(1). وتوجد شمالي الجامع والمدرسة الزاوية البكرية، وغربيها زاوية سيدي شيحة، وجنوبيها زاوية وسبيل

(1) خصوصاً منها الحمّام، الذي يعتبر متأثراً مباشرة بالنمط التركي والذي تم ترتيبه في سنة 1928 م.

(8566/1)

سيدي عبد السلام(1). وهو دليل على أهمية الموقع.

... باشر بناء الجامع وملحقاته(2) المهندس الحاج ساسي بن فريجة(3). ومن المؤكد أن بعض الأسرى الأوروبيين ساهموا في البناء. فيفيدنا محمد بن الخوجة »بوجود أسارى كثيرين بدهاليز أبراج غار الملح ومعامل ترسخانه حلق الوادي وسجون تونس« (4)

(1) كما نجد قصر مصطفى خزندار على مقربة من مسكن يوسف صاحب الطابع. هذا، إضافة إلى عدد من المعالم الهامة الأخرى.

(2) خاصة المدرسة الطابعية والكتاب.

(3) وهو المدفون بقبّة سيدي مصطفى الجزيري داخل

الباب الجوفي للجامع.

(4) محمد بن الخوجة، معالم التوحيد، مصدر سابق، ص.

140.

(8567/1)

. لهذا أذن الباي حمودة باشا بجعل سبعة وعشرين أسيراً من أصيلي مدينة نابولي الواقعة جنوبي إيطاليا(1) في تصرف وزيره لاستخدامهم في البناء. أما النقش على الجصّ والزخرفة وغيرها من الأعمال الفنية، فقد قام بها تونسيون(2).

... تذكر بعض المصادر أنه أتى بالرخام المستعمل في أطر الأبواب والنوافذ وفي صنع الأعمدة وتيجانها وفي تبليط الأرضية من

---

(1) وهي ربما من الأسباب التي جعلت نمط الجامع متأثراً في بعض أجزائه بالفن والعمارة الإيطالية، خاصة منها أطر الأبواب والنوافذ.

(2) ابن الخوجة، المصدر السابق، ص. 140.

(8568/1)

جنوب إيطاليا (حسب محمد بن الخوجة) (1). أما ابن أبي الضياف، فيذكر أن أبا محمد حسين الموراليي: »وكان من رؤساء شقوف يوسف (صاحب الطابع)، أنه خصه بنقل الرخام لجامعه من القرنة« (2). إلا أنه من الواضح أن الرخام وارد من كرّارة. فقد كانت الإيالة التونسية قد اشترت مقاطع رخام بها، واعتمدت عليها في جل ما بني انطلاقاً من القرن 12 هـ/ 18 م والقرن 13 هـ/ 19 م. وقد جازى الوزير هذا القبطان بأن ملّكه السفينة بجميع مدافعها وما يوجد عليها من آلات.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج 7، ص. 97.

(8569/1)

ويبدو أن حسونة الموراليي نفسه هو الذي تبرع برخام قبر يوسف صاحب الطابع. كما احتفظ هذا الأخير بكمية هامة من الرخام والآجر ومربعات الخزف وآلات الردم في مخازنه: »ما يبني جامعاً آخر«(1)، إلا أنها سرقت كلها بعد موته.

... لكن حسنات صاحب الطابع لم تمنعه من أن يموت مقتولاً. فبعد موت حمودة باشا، اغتنم الفرصة أعداء

الوزير وعلى رأسهم الوزير أبو عبد الله محمد زروق، ففتكوا به، وذلك قبل أن يتمّ صومعة جامعه سنة 1230 هـ/ 1814 م، ولم يقدم أحد بعد المؤسس على إتمامها، ولم تكمل

(1) راجع ابن أبي الضياف، المصدر نفسه.

(8570/1)

نهائياً إلا منذ حوالي ربع قرن. ودفن المؤسس بتربته في الجامع الذي تعلوه قبّة بديعة الصنع تذكرنا في نمطها بقبّة التربة الباشية، خاصة في شكلها وفي حجمها وفي طريقة إثرائها بالنقشة حديدة.

... يتم الصعود إلى الجامع عن طريق مدرج أول رئيس يفتح على ساحة الحلفاوين، وعن طريق مدرج خلفي يذكرنا في نمطه بالمدرج الخلفي لجامع حمودة باشا. هذا، إضافة إلى مدرج ثالث قريباً من مدخل زاوية سيدي شيحة، يشبه في نمطه مداخل زاوية سيدي عبد القادر وزاوية سيدي قاسم الجليزي وكذلك دار لصرم... (1)

(1) وهي كلها معالم مرتبة موجودة داخل مدينة تونس العتيقة.

(8571/1)

.

... لا يختلف الجامع في تصميمه وفي عناصره المعمارية عن بقية الجوامع المؤسسة خلال الفترة التي تلت انتصاب الأتراك العثمانيين بالبلاد. فللصحن شكل U اللاتينية، وهو يحيط ببيت الصلاة من ثلاث جهات: الأقسام الشرقية والشمالية والغربية، كما تظل بيت الصلاة هذه ثلاثة أروقة أهمها على الإطلاق ذلك الذي يوجد في الناحية الشمالية للصحن؛ وهو متكون من بائكة ذات تسعة عقود لها شكل حدوي، وهي محمولة عن طريق أعمدة مجزّعة. أما التيجان، فهي من النمط التركي الذي انتشر آنذاك غير أن الصدفة المحلية للقسم الأسفل للتاج تعتبر

(8572/1)

من العناصر الجديدة بالنسبة إلى تيجان الأعمدة بصفة عامة، كما تعلوها زئبقة طويلة تنتهي في الأعلى بهلال. وإن كان الهلال من العناصر التي نعثر عليها في الكثير من تيجان تلك الفترة، فإن الزئبقة تعتبر من العناصر

المضافة والمتميِّزة على تيجان هذا الجامع. كما أن زرقة الأقنثة التي تنحدر انطلاقاً من الشكل الحلزوني الموجود في كل من الزوايا الأربع للتاج، لها شكل قلّما نعثر عليه في تيجان الأعمدة الأخرى.

... نلاحظ في قصر دار حسين أن يوسف صاحب الطابع هو الذي أضاف فيه القسم الثاني للطابق العلوي بما فيها الصدفات

(8573/1)

البحرية التي تعلو النوافذ المحيطة بهذا الصحن، ونجد في الجامع النمط نفسه الذي يميِّز هذه الصدفات التي تعلو هي أيضاً النوافذ والأبواب المنفتحة على بيت الصلاة والمظلِّلَة للأروقة. لكن تلك التي توجد بالجامع تعتبر أثرى وأجمل من الموجودة بدار حسين؛ فقد زخرفت من الداخل بأشكال تضفي عليها جمالاً فتاناً.

... كما أن المئذنة هي من النمط نفسه الذي منه المنارات الأخرى التي نلاحظها في جوامع يوسف داي وحمودة باشا والجامع الجديد، لكن يمكن اعتبار مئذنة صاحب الطابع أكثر رشاقة وأناقة وارتفاعاً من الأخريات. وفي

(8574/1)

المكان نفسه الذي أشرنا إليه في جامع محمد باي المرادي وجامع حمودة باشا والجامع الجديد، نجد أيضاً محراباً خارجياً بجامع صاحب الطابع، أي في الصحن الشرقي، وهو يشبه في نمطه وفي زخارفه المحاريب الراجعة إلى النصف الثاني للقرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي وبداية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. فإن كان القسم الأسفل مكسوّاً بلوحات من الخزف ذات التأثير المغربي، فقد حلّيت الطاقية بنقوش جصيّة مقسّمة إلى خمسة أجزاء متأثرة بالنمط الأندلسي والتركي على حد سواء.

(8575/1)

... أما بيت الصلاة نفسها فهي تتكون من سبع مسكبات لها كلها الأبعاد نفسها. وهي منفصلة بعضها عن بعض عن طريق أروقة يبلغ عددها تسعة، لها هي أيضاً الأبعاد نفسها. ويمتاز جامع صاحب الطابع بسقفه المتكون من أقبية طولية يبلغ عددها سبعة، لها اتجاه شرق ـ غرب ويحدّها يمنة ويسرة قبوان طوليان آخران لكل منهما اتجاه شمال ـ جنوب، وهي كلها مزخرفة بنقوش جصّية

بديعة. إلا أننا نلاحظ اختلافاً في أنماط الزخارف بين القبو والآخر، وتمثل في مجملها تأثيرات تركية؛ وهي تتكون من مزهريات وغصون وأوراق وزهور، ثم نجد في البعض

(8576/1)

الآخر أطباق نجوم صغيرة تتوسط مربعات متكونة من أشكال هندسية، إلخ. مما يضفي على هذه السقوف الكثير من الجمال والبهجة، وهي تذكرنا في شكلها وفي نمط نقوشها بقبو طولي موجود بإحدى قاعات تربة البايات، فهي ترجع هي أيضاً إلى بداية القرن الماضي. وإضافة إلى القباب السبع، توجد أربع منها بزوايا بيت الصلاة، وتتشابه كل اثنتين في زخارفها. إذ توجد بالناحية الجنوبية (شرق المحراب وغربه) قبّتان لهما الشكل نفسه. فقاعدة كل قبّة مربعة الشكل، ولها في زواياها الأربع عقد زاوية محلّى هو أيضاً بنقوش جصّية. ويتم الانتقال إلى

(8577/1)

الطاقية عن طريق رقبة مستديرة الشكل. أما القسم الأخير لكل من هذين القبتين، فقد حلّي في وسطه عن طريق نجمة تنطلق نحو أطباق نجمية ذات تأثير تركي، وإن كان للقبّتين الأخريين الموجودتين بالزاوية الشمالية الشرقية والشمالية الغربية شكل القبتين الأوليين نفسه، فتختلف زخارف طاقيتهما عن القبّتين الأخريين. فلهذه نجمة مثمّنة تتفرع عنها ثمانية ضلوع، تتوسط كلاًّ منها مزهرية. كما توجد قبّة خامسة تواجه قبّة المحراب من الناحية الشمالية، وهي تعلو الباب الأوسط الذي يفتح على بيت الصلاة من ناحيتها الشمالية. وبالطبع،

(8578/1)

فإن وجود أربع قباب بزوايا بيت الصلاة، إضافة إلى قبّة المحراب وقبتين أخريين، يشكل نمطاً فريداً من نوعه بمدينة تونس.

... أما الأعمدة المجزّعة والتيجان التي تعلوها، فلها الشكل نفسه الذي لاحظناه بخصوص الأعمدة الحاملة للأروقة الخارجية. كما أن العقود لها شكل عقود بائكات الصحن نفسه، وهي تشابه في نمطها الأعمدة الموجودة بدار البارون درلنجي وكذلك أعمدة دار باش حامبة...

... يظهر ثراء الجامع بارزاً للعيان في الواجهات الداخلية لبيت الصلاة التي كسيت بلوحات الرخام المستورد من كرارة والتي تعلوها مربعات الخزف،

(8579/1)

وينتهي الجدار في قسمه الأعلى بنقوش جصيّة بديعة الصنع. أما جدار القبلة، فيتوسطه المحراب، وهو يعتبر تطوراً بالنسبة إلى محاريب الجوامع الأخرى الراجعة إلى القرن 11 هـ/ 17 م و12 هـ/ 18 م. فجوف المحراب مكسو بلوحات رخام تذكرنا بتلك التي نجدها في تربة البايات وكذلك بدار البارون درلنجي وبقصر باردو... وهو الرخام نفسه الذي كسيت به طاقية المحراب(1)

---

(1) ... صنع هذا المرمر الأبيض من قطعة واحدة. أما الأقسام المجوّفة، فقد وضع داخلها مستطيلات من الرخام الملون المكون من قطع صغيرة الحجم، ويبلغ سمكها سنتمتراً واحداً.

(8580/1)

، كما يستند العقد الحدوي للمحراب على عمودين مجزعين لهما لون أسود.

... تعتبر قبّة المحراب هي أيضاً فريدة من نوعها، إذ كسيت كل أقسامها السفلى انطلاقاً من المربع، ثم

الرقبة التي تتلوه والتي تتخذ شكلاً مثمّناً، بلوحات من المرمر يحدّ كل واحدة منها إفريز من الرخام الأسود. أما الطاقية، فكسيت بعشرة صفوف أفقية من النقوش الجصيّة المخرّمة التي تذكّر بخلية النحل، وهو نمط نادر ليس في تونس فقط، بل خارجها أيضاً.

(1/8581)

... كما أن المنبر يشبه في نمطه بقية المنابر التي لاحظناها في الجوامع المؤسسة خلال القرنين الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي والثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. لكن الصانع تفنّن هنا في تزويقه بالرخام، مما جعل منه أجمل المنابر القارة والمبنية بالبلاد التونسية.

... للجامع إذن طابع خاص به. وهو من أكثر الجوامع تأثراً بالنمط التركي. فبالرغم من وجود العناصر المستوحاة من الطابع الإيطالي والمحلي، فإن الشكل العام يبرهن على أن الفن والعمارة التركية كان لهما حضور متميز في بداية القرن الماضي.

(1/8582)

... هكذا نرى أن الحضور العثماني في الخمسة الجوامع هذه كان متميزاً. فبالرغم من مواصلة اعتماد الأنماط المحلية في بعض عناصرها، اتجه البناة والمؤسسون إلى الأخذ عن الفن والعمارة التركية بالرغم من تساؤلات العديد من المؤرخين والمستشرقين عن إمكان تأكيد وجود فن ومعمار عثماني بالبلاد التونسية وبمدينة تونس بالذات؛ كما أن بعضهم حاول التقليل من شأن هذا الحضور أو مسحه تماماً. لكن جامع محمد باي المرادي، وكذلك تربة الباي يفنّدان هذه الآراء؛ كما أن الجوامع الأخرى تعتبر دليلاً قاطعاً على الحضور العثماني:

(8583/1)

... 1 ـ وبالذات عنصر الصّحن ذي النمط الجديد الذي يحيط ببيت الصلاة من ثلاث جهات (الشرق والغرب والشمال) والذي عوّض الصحن المستطيل الشكل.

... 2 ـ المنبر المبني والمثرى بلوحات المرمر.

... 3 ـ المحراب المغشى بالمرمر.

... 4 ـ ظهور تيجان أعمدة جديدة في بداية الفترة العثمانية، والتي ليس لها أي علاقة بالتأثيرات التركية. لكن نتيجة لظهورها خلال تلك الفترة، أصبح يطلق عليها: »تاج العمود التركي«.

... 5 ـ وجود محراب بالصحن الشرقي لكل جامع، وهو ما لا نجده قبل وصول الأتراك العثمانيين.

(1/8584)

... 6 ـ من بين أهم العناصر الجديدة، المئذنة المثمنة الشكل. فهذا النمط من المآذن أدخله يوسف داي، وتبناه فيما بعد الدايات المراديّون والبايات الحسينيّون. أما الصومعة الموحدية الشكل، فاستغني عنها لفائدة المآذن الجديدة.

... 7 ـ تربة المؤسس التي انطلقت مع جامع يوسف داي.

... 8 ـ بعض هذه الجوامع ـ خاصة منها الجامع الأول (يوسف داي) والأخير، جامع صاحب الطابع ـ حصل إلحاقها بمجمّع اجتماعي واقتصادي وثقافي.

... تلك بعض نماذج التأثيرات العثمانية بمدينة تونس، إلا أنها لا تمثل إلا قسماً من هذا الحضور الثري

(1/8585)

الذي نشاهده في العديد من المعالم الأخرى، خاصة منها الترب والقصور وغيرها. غير أن هذه الجوامع الخمسة

حافظت على معمارها وعلى عناصرها الأولى، بينما فقدت جل المعالم الأخرى الراجعة إلى الفترة نفسها، وخاصة منها القصور والدور الفخمة والمقامات، طابعها الأول والعديد من عناصرها المميزة. وهذا، نتيجة لعدة عوامل، من بينها على الخصوص تقسيمها وتجزئتها أو إعادة بنائها.

المصادر والمراجع

أولاً: بالعربية:

المصادر المخطوطة

(8586/1)

ابن يوسف، محمد الصغير، تاريخ المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، عدد 18688.

برناز، أحمد، الشهب المخرقة لمن ادعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة، مخطوط بالمكتبة الوطنية، رقم 18198.

سعادة، أبو عبد الله، قرة العين بنشر فضائل آل حسين، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، رقم 21730.

المصادر المطبوعة

ابن أبي دينار، أبو عبد الله، المونس في أخبار إفريقيا وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمّام، المكتبة العتيقة، تونس، 1967.

(1/8587)

ابن أبي الضياف، أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، نشر وزارة الثقافة، 8 مجلدات، تونس، 1963 ـ 1966.

ابن عبد العزيز، حمودة، الكتاب الباشي، تحقيق محمد ماظور، تونس، 1970.

خوجة، حسين، ذيل بشائر الإيمان بفتوحات آل عثمان، تحقيق وتقديم الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1975.

السراج، أبو عبد الله محمد، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1970 ـ 1985.

المسعودي، الباجي، الخلاصة النقية في عمارة أفريقية، تونس، 1323 هـ

(8588/1)

المراجع

ابن الخوجة، محمد، تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد، تونس، 1939.

ابن مامي، محمد باجي، »جامع يوسف داي أوّل المعالم العثمانية بالبلاد التونسية«، مجلة أفريقية، تونس، عدد 1998.

زبيس، سليمان مصطفى، الأثار الحسينية بالقطر التونسي، تونس، 1955.

..، بيوت آذن الله أن ترفع، تونس، 1968.

سامح، عزيز، الأتراك العثمانيّون في أفريقيا الشمالية، بيروت، 1969.

ثانياً: بالفرنسية:

Abdelwahab (Hassn Hosni), « Coup d'œil général sur les apports ethniques étrangers en Tunisie », in Rev. Tun., XXIV,

(8589/1)

.1917

Gabriel (A), Monuments Turcs d'Anatolie, .34, p. 1931Paris,

Golvin (Lucien), Essai sur l'architecture .1970religieuse musulmane, Paris,

La Mosquée, ses origines, sa morphologie, , – –

,ses diverses fonctions

.1960Alger,

Latham (J. K), « Contribution à l'étude de l'émigration andalouse et se place dans l'histoire de la Tunisie » , dans Etudes sur les Moriscos andalous en Tunis, Madrid-Tunis, .1983

Lezine (Alexandre), Deux villes d'Ifriqiya, Paris, .1971

(8590/1)

Marçais (Georges), « L'Architecture musulmane d'Occident (AMO) », Arts et .1955métiers graphiques, Paris,

Tomes, Paris, 2Manuel d'art musulman, , – –

.1927–1926

Revault (Jacques), « L'habitation Tunisoise », Pierre, marbre et fer dans la construction et le décor , C.N.R.S, Paris, 1978.

Raymond (André), Grandes villes arabes à l'époque ottomane, Paris, 1985.

(1/ 8591)

جوانب من الحياة الاِجتماعية في دمشق المملوكية (1382–1516م)

الدكتور أنطوان ضومط

الجامعة اللبنانية – بيروت

يتكون المجتمع من أعداد من الناس تعيش على رقعة جغرافية محددة لها عاداتها وتقاليدها ونظمها التي تشكل القواسم المشتركة في كل مجتمع، ويتفرع أناس المجتمع إلى فئات متميزة من حيث العمل الذي يؤدونه، وأنماط العيش التي يمارسونها.

إن هذه الخاصات على أهميتها، لا تؤمن آلية دراسة التاريخ الاِجتماعي، لأن دراسة البنية الاِجتماعية تؤمن هذه الآلية(1)

---

(1) Albert Soboul, L'histoire sociale: Sources et Méthodes, Colloque de l'Ecole Normale Supérieure de Saint-Cloud, 15–16 Mai 1965, Paris, 1963, p. 10.

(1/8592)

، ولاسيما أن كل مجتمع يتألف من عدد من البنى الاِجتماعية قد نجد بينها قواسم مشتركة وتباينا. وتتبدى صعوبة دراسة التاريخ الاِجتماعي، في العصور الوسطى، إذا أدركنا أن البنية الاِجتماعية هي مجموعة عضوية من التقارير الشديدة التماسك، في آن، اجتماعيا واقتصاديا ونفسيا، وأقل ما يمكن قوله فيها، إنها تتكامل في تقليد، وفي نظام خلقي، وهي تحدث إعادات ولا تتجدد، لأن الحدث التاريخي هو الذي يحدث التجديد والإِبداع، إذ يحول بعض البنى ولا يقضي كليا على تماسكها الداخلي(1).

---

(1) Ibid, p. 15.

(1/8593)

على هذا، تصعب كثيرا دراسة التاريخ الاِجتماعي في العصور الوسطى، لافتقارنا، في الشرق العربي والإِسلامي، للتقارير الاِقتصادية الدقيقة، ولاقتصار الحوليات على لمحات اجتماعية

لأن أصحابها اعتادوا التأريخ للخاصة من دون إيلاء العامة ما يستحق دورها من أهمية في تطور الأحداث. وقد ذللت بعض هذه العقبات بالاِعتماد على يوميات المؤرخ الدمشقي أحمد بن طولون الغنية بأخبار العامة والأعيان والخاصة على حد سواء. هذا، فضلا عن مؤلفات أخرى، وإن كانت أقل غنى، سيرد ذكرها في البحث.

(1/ 8594)

وترتبط دراسة التاريخ الاِجتماعي بالتطور المدني أو انحطاطه، ذلك أن انتشار الأبنية الحكومية، أو تلك التي تتم بأمر منها، وإن كانت غايتها اجتماعية أو دينية صرفة على نطاق واسع، فضلا عن الأبنية الخاصة التي تشيدها فئات المجتمع. إن كل ذلك يحدد مستوى التطور. ويصب في الغاية عينها ازدحام المدينة بالسكان، وازدهار الحركتين الصناعية والتجارية. أضف إلى ذلك مستوى الثقافة من حيث المدارس والمؤسسات الدينية المرتبطة بشكل ما بالثقافة.

(8595/1)

ولابد في دراسة التاريخ الاِجتماعي من تحديد الفئات السكانية من حيث مستوياتها، وإلقاء الضوء على نظام الحكم ودراسة بنية العلاقة بين الحكام وفئات الشعب.

أولا – خطط دمشق وأبرز أبنيتها المملوكية

1 – خطط دمشق وأسواقها: إن مدينة دمشق تمثل تراكما حضاريا بنائيا وسكانيا لا يمكننا تحديد تاريخ بداياته بالضبط، ويصعب في الوقت عينه إعطاء فكرة واضحة عن تطور خططها عبر العصور. وسأكتفي في هذا البحث بذكر خططها تبعا للمصادر المملوكية.

(8596/1)

تمركزت أحياء دمشق على شارع رئيسي مستقيم في وسطها يربط بين بابي: شرقي شرقا والجابية غربا، ومنه تفرعت شوارع أخرى رئيسية مستقيمة ينتهي كل واحد منها بباب(1)

---

(1) هذه الأبواب هي بالتسلسل من الجنوب إلى الشرق

فالشمال فالغرب: الباب الصغير، باب كيسان، الشرقي، توما، السلامة، الفراديس، الفرج، الجديد، الجناز، والجابية (محمد بن علي ابن طولون، الشمعة المضية في أخبار القلعة الدمشقية، مطبعة الترقي، دمشق، ص. 17؛ محمد بن إبراهيم ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، 1960، ص. 97؛ أبو البقاء عبد الله البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام، القاهرة، 1341هـ، صص. 25–28؛ أكرم حسن العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، صص. 49–50).

(8597/1)

.

وانتشرت على طرفي الشارع الرئيسي الأسواق المركزية، والمساجد الكبرى والحمامات العامة الرئيسية(1). في حين توزعت على أطراف الشوارع الرئيسية المنطلقة من الشارع المركزي الأنشطة التجارية والحرفية لكل حي، إضافة إلى حماماته ومساجده(2). وتوزعت من هذه الشوارع –وهي بوجه

---

(1) خالد عزب، «الأحياء السكنية»، مجلة الوعي الإسلامي،

العدد 327، السنة 30، ص. 86–91.

(2) المكان نفسه، أندريه طانيوس نصار، العامة بدمشق المملوكية، رسالة دراسات عليا غير منشورة، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، الفرع الثاني–الفنار، ص. ص. 22.

(8598/1)

عام شوارع ضيقة نسبيا – لأنها رافقت المدينة منذ نشأتها ولم تتطور، خصص وسطها للفرسان وأطرافها للمشاة، أحياء متلاصقة انتشرت فيها المحلات(1)، ومنها توزعت الحارات الشعبية المكتظة بالسكان(2).

وانتشرت في كل حارة أزقة شيدت عليها أبنية شعبية تفتقر إلى أبسط الشروط الصحية. انطلقت جميعها من شارع الحارة الرئيسي المعروف بالسويقة الذي يحوي الحمام

---

(1) مفردها محلة وهي حي ينفتح على أزقة ضيقة تعرف بالحارات.

(2) إيرا مارفين لابيدوس، مدن الشام في عصر المماليك، نقله إلى العربي سهيل زكار، دار حسان، دمشق، 1985، ص. 81.

العام، الفرن، والمسجد، والحوانيت التجارية والحرفية(1).

لقد شكل الحي وحدة إدارية مستقلة على مستويين حكومي ومحلي، أي شعبي. فمن حيث التصميم الهندسي، بعضها ترتفع جدرانه إلى أكثر من طبقة والبعض الآخر يشبه الأكواخ إن لم يكن عبارة مجموعة من الأكواخ مظلمة يتسرب إليها الهواء عبر الأزقة وممرات منخفضة معتمة(2). وتميزت أزقة دمشق بأنها كانت مرصوفة ولكل واحد منها رصيفان خصصا للمشاة،

(1) لابيدوس، المرجع نفسه، ص. 142؛ شالميتا بدرو، «الأسواق»، مجلة المدينة الإسلامية، صص. 109–119.

(2) نصار، المرجع السابق، ص. 22.

ويمر بينهما الراكبون(1).

أما على الصعيد الإداري المحلي، فقد ترأس الحي شيخ يعينه نائب السلطان المملوكي في نيابة دمشق من أجل

حسن سير الأعمال المنوطة بالحي: حفظ النظام، تمثيل الحي في المناسبات

العامة التي تقتضيها الدواعي السياسية والاِجتماعية في المدينة، مساعدة الشرطة في تنفيذ مهامها، أو تولي هذه المهام بنفسه، كجمع الضرائب القانونية وغير القانونية مثل الرمي أو الطرح(2)

---

(1) ابن جبير، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، 1961، ص. 238.

(2) الرمي هو أن ترمى على حارة معينة مبالغ من المال لصالح السلطان أو نائب دمشق أو لاقتراف أحد أبناء الحي جرماً أو جريمة أو اتهامه بإحداهما، وذلك بعدما تمكن الحكام المماليك من انتزاع فتاوى شرعية بشأن الرمي والطرح وما شابههما (انظر حول هذه المواضيع: ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، نشر محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1962–1964، ج 1، ص. 227، 249، 309، 363، 366 وغيرها). أما بالنسبة لتنظيم الأحياء، فانظر أيضا ابن طولون، المرجع السابق، ج 1، ص. 213، 274، 282، 289، 330، 374؛ وأيضا لابيدوس، مدن الشام، ص. 152.

(8601/1)

؛ لأن الأحياء قد انتظمت في مناطق منعزلة ومنطوية على ذاتها لا يتمكن الغرباء من الدخول إليها، ولا سيما أنها كانت متداخلة فيما بينها في حياتها العادية، كما أنها تتآزر إبان الاِضطرابات العسكرية، وتدافع جميعها بعضها عن البعض الآخر إذا تعرض أحدها لأي اعتداء خارجي(1). وكل حي انغلق اجتماعيا وسكانيا على نفسه فقط إبان الاِضطرابات العسكرية والفتن الداخلية(2).

---

(1) ابن طولون، المصدر السابق، صص. 227، 234، 267، 287، 363، 366 و377.

(2) لابيدوس، المرجع السابق، ص. 145 فما بعد.

(8602/1)

2- تطور حركة البناء: شهدت دمشق المملوكية تطورا ملحوظا على هذه المستويات. فعلى صعيد الأبنية الحكومية تم بأمر من السلطان بيبرس بناء القصر الأبلق غربي المدينة سنة 1260م(1)

---

(1) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي

للبحوث، بيروت، 1986، صص. 181–182؛ وانظر أيضا ابن طولون، إعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، 1984، ص. 89؛ وأيضا ابن طولون، »ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر«، مجلة المشرق، بيروت، 1937، ص. 33.

(8603/1)

، وشيد نائب دمشق عز الدين إيدمر بناء على رغبة السلطان السعيد بركة خان المدرسة الظاهرية بالقرب من الجامع الأموي(1). كما شيد نائبها تنكز سنة 739/1339م خارج سور المدينة لتعليم الحديث النبوي الشريف، ومسجدا(2). وكان الأمراء يتقربون من الناس

---

(1) تقي الدين أحمد المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1934–1936، ج 1، القسم الثاني، ص. 162.

(2) العمري، المصدر السابق، صص. 181–182؛ N. Elissef, Dimashk, E vol12, p. 2, 286–293؛ ونصار، المرجع السابق، ص. 9.

(8604/1)

بتشييد المباني الدينية كبناء الأمير مكي بن حيوط مسجدا شرقي الشويكة في وسط بستان وأوقف عليه »جهات عديدة «(1). وانتشرت أسماء السلاطين المماليك ونوابهم في دمشق منقوشة على عدد كبير من الأبنية خصوصا خارج أسوار المدينة(2). مما يدل على ازدياد في عدد السكان، وعلى انتشار الأبنية الخاصة والحكومية خارج أسوار المدينة وفي داخلها.

---

(1) مفاكهة، ص. 20.

(2) خليل بن إيبك الصفدي، تحفة ذوي الألباب فيمن حكم من بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، وزارة الثقافة، دمشق، 1991، صص. 170–171؛ Elissef, Ibid, 294p.؛ ونصار، ص. 10.

(8605/1)

إن هذه الأمور توضح بدون أدنى لبس أن دمشق تطورت سكانيا وعمرانيا بشكل ملحوظ، ويزيد في قناعتنا هذه ما أورده العمري عن ازدياد عدد الأجناد بدمشق، وقد أدت حاجاتهم للوازم الخيل وغير ذلك إلى نشوء الأسواق المتخصصة، فاتسعت الأسواق وما عادت قادرة على

استيعاب الطلب، فانتقل المختصون ببيع لوازم الخيل إلى خارج المدينة حيث أقيم سوق الخيل، وتبعهم أصحاب بعض حوانيت الخضار والمواد الغذائية الأخرى فصار يقام بقرب السوق المذكور سوق خاصة عرفت باسم »دار البطيخ«(1)

---

(1) العمري، مسالك الأبصار، ص. 181؛ وجان سوفاجيه، دمشق، نقله إلى العربية فؤاد أفرام البستاني، حققه أحمد العلبي، دار الوارف، دمشق، 1989، صص. 93–94؛ ونصار، العامة الدمشقية، ص. 11.

(8606/1)

. ومما يعزز الرأي بتطور المدينة السكاني والبنائي ما أورده كل من »سوفاجيه« وابن بطوطة، فيتحدث الأول عن إنشاء ضاحيتين جديدتين: السويقة في الجنوب الغربي، وسويقة ساروجا في الشمال(1). ويصف ابن بطوطة ضاحيتين جديدتين شيدتا في العصر المملوكي: الربوة الواقعة في أسفل جبل قاسيون »وبها القصور المشيدة والمباني الشريفة«(2). وتعبير »المباني الشريفة« هو

---

(1) سوفاجيه، المرجع السابق، ص. 94–95.

(2) محمد بن عبد الله بن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة الأهلية، باريس، 1874–1879، ج 1، ص. 235.

(1/8607)

صفة المباني السلطانية مما يدفعنا للِاعتقاد إما أن السلاطين ساهموا بإنشائها أو أنها أوقفت لصالحهم على غرار الأراضي الإِقطاعية. والضاحية الثانية هي الصالحية التي شيدت خارج »باب شرقي« بدمشق وهي مدينة »عظيمة« على حد تعبير ابن بطوطة فيها سكك واسعة ومدرستان(1)، وصار فيها في أواخر العهد المملوكي سبع دور للحديث، وستة عشر رباطا، وثمان وثلاثون حارة وواحد وسبعون مسجدا(2).

---

(1) نفسه، ج 1، ص. 229–230.

(2) نقولا زيادة، دمشق في عصر المماليك، مؤسسة فرانكلن للطباعة والنشر، بيروت، نيويورك، 1966، ص. 117–118.

(1/8608)

إن هذا التطور الملحوظ لم يرافق دمشق المملوكية عبر كل تاريخها. فهي تعرضت لأزمات متعددة أحيانا متسارعة وأحيانا أخرى متباعدة، نتيجة التكوين الاِجتماعي من جهة، أو بسبب اعتداء خارجي من جهة ثانية. فالحالة الأولى تكررت مرات عديدة وفي ظروف متقاربة من حيث علاقة الحكام بأفراد الشعب على مختلف فئاتهم، أو من حيث علاقة هذه الفئات بعضها بالبعض الآخر. أما الحالة الثانية، فليست سوى تغيير شبه جذري نتج من تعرض المدينة لغزوات المغول خصوصا غزوة تيمور سنة 1400م التي أدت إلى تهديم للبنى الاِجتماعية

(8609/1)

والاِقتصادية(1)

ثانيا – البنى الاِجتماعية

إن التاريخ الاِجتماعي يأخذ بالاِعتبار المجموعة الكلية للتكوين الاِجتماعي، ومن الصعب تحديد أطره ومعناه التام إلا بدراسة، أو التطرق إلى جميع الأطر المعنوية

المتعلقة بمختلف المجموعات، إضافة إلى دراسة علاقة الفرد بالجماعة. وبما أنه يتعذر

---

(1) جمال الدين أبو المحاسن ابن تغزي بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب، القاهرة، 1930–1956، ج 12، ص. 239 فما بعد؛ ومحمد بن أحمد بن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، بولاق، 1311هـ، ج 1، ص. 232 فما بعد.

(8610/1)

علينا دراسة علاقة الفرد بالجماعة، بسبب قلة الوثائق، سأتناول في هذه الدراسة، حركية كل فئة اجتماعية وبنياتها وعلاقة الفئات الاِجتماعية بعضها بالبعض الآخر بحسب ما توفره المصادر التاريخية.

إن من المبادئ الأساسية في التاريخ الاِجتماعي تحديد المبدإ المنظم للمجتمع، وبالتالي تحديد الفئات في التفرع الطبقي التي منها نحصل على المبدإ المنظم للمجتمع، الذي منه تنتج البنى، وكذلك العلائق بين الفئات الاِجتماعية التي ستكون جد مختلفة(1).

واعتمدت، بعد البحث

L’histoire Sociale - Sources et Méthodes, **(1)**

.28, 19pp.

(8611/1)

والتدقيق، على الوظيفة التي قد تكون المبدأ الأفضل للتفريع الطبقي أو ما يمكن تسميته المبدأ المنظم.

وسيتوضح الأمر بما يلي:

كان المجتمع المملوكي طبقيا –إن جاز التعبير، لكون الموضوع يرتبط بالعصور الوسطى ولأن »طبقة« مصطلح حديث –جامدا إلى حد بعيد، وغالبا مغلقا، بحيث لم ينظر لحقوق الفرد فيه إلا من خلال انتمائه الوظيفي –وظيفي بمعناها الواسع–. وكانت هذه الفئات (الطبقات) متفاوتة من حيث الدخل، والطمأنينة، والاِستقرار وشغل المناصب الحكومية والدينية والاِقتصادية والاِجتماعية.

(8612/1)

وعلى هذا، قسم المقريزي المجتمع المملوكي، بوجه عام، إلى سبع فئات:

*** أرباب الدولة،**

* مياسير الناس من التجار والفقهاء والمعممين،

* متوسطو الحال من التجار والباعة وأصحاب المعاش والسوقة،

* الفلاحون من أهل الزراعة،

* سكان الأرياف والقرى،

* أرباب الصناعات والحرف البسيطة،

* والمعدمون(1)،

إن هذا التوزيع العام الذي أورده المقريزي يشمل كل المجتمع المملوكي. أما في المدن، وخصوصا في بلاد

---

(1) تقي الدين أحمد المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة، 1940، صص. 72–73.

(8613/1)

الشام، فيمكن اعتماد تفريع آخر ينبثق من توزيع المقريزي يأخذ بالِاعتبار خصوصية المدينة والتجانس الِاجتماعي الأكثر شمولا، وهو، باعتقادي، على الشكل التالي: الطبقة العسكرية الحاكمة، الأعيان الذين يضمون رجال الدين، والتجار وأرباب الصناعة، أو ما يطلق عليه بياض العامة، وسواد العامة، إضافة إلى الزعر

والأرذال والأوباش...

1- الطبقة العسكرية الحاكمة: شكل السلطان وأمراؤه وأجناده طبقة عسكرية حاكمة مغلقة عن الشعب. وحدد الاِنتماء إليها بشروط لم تتوفر بالسكان الأصليين: كالعِرق، أي أن يكون مولودا خارج الأراضي

(8614/1)

المملوكية في الشرق العربي والإِسلامي وبالتحديد في السهوب الآسيوية الأوروبية الممتدة من آسيا الوسطى حتى البلقان والبحر الأدرياتيكي(1)، والرق(2)

---

(1) أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1913، ج 4، ص. 472.

(2) لم يعتبر الرق شرطا لدخول الفرد إلى الطبقة العسكرية الحاكمة إلا في أحيان نادرة مثل إنعام السلاطين على أولادهم أحيانا أو على أولاد الأمراء الكبار أحيانا أخرى (انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 9، صص. 99-100؛ وابن إياس، بدائع الزهور، ج 1، ص. 227،

وج 2، ص. 5).

(1/8615)

، وإجادة اللغة التركية لأن المماليك كانوا يتحدثون بالتركية في اجتماعاتهم ومجتمعاتهم(1). وقليلون منهم من أتقنوا العربية، لا بل إن بعضهم لم يفقه منها شيئًا(2). والتربية في الطباق (الثكنة العسكرية)، والعتق، والتدرج بالإمرة(3)

---

(1) David Ayalon, «The Muslim City and the Mamluk Aristocracy», Proceeding of the Israel 2Academy of Sciences and Humanities, (Jerusalem 1968, p. 323).

(2) النجوم الزاهرة، ج 9، صص. 51–52.

(3) أنطوان ضومط، الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاِقتصادي والعسكري، دار الحداثة، بيروت، ط 2، 1981، ص. 86.

(1/8616)

. وانحصر تزاوج أمراء المماليك إما من نساء تركيات جيء بهن خصيصا لهذه الغاية، أو من بنات أمراء المماليك، وقليلون منهم من تزوجوا من بنات مياسير التجار أو بنات المتعممين(1). وكانت جميع أسماء الأمراء تركية، ولم يجرؤ أحدهم على الخروج على هذه القاعدة مخافة القتل أو العزل. فالسلطان جقمق (1438–1453م) أراد أن يسمى محمد تيمنا بالرسول – صلى الله عليه وسلم – ولكنه خاف العزل فتسمى جقمق محمد(2). إنما حق لهم بالألقاب الدينية مثل ركن الدين أو عز الدين... وانفرد المماليك بلبس ثياب مميزة

---

(1) Ayalon, Ibid.

(2) Ibid.

(1/8617)

مطرزة الكمين تمييزا لهم من أفراد ا لشعب(1). وارتدوا قباء طويلا ينتهي بأكمام ضيقة، واعتمروا كلوتة صفراء من دون عمامة، وشدوا على خصورهم أحزمة من القطن البعلبكي، وتميزت أيضا

ثياب الأمراء من ثياب الجند(2).

ومن مميزات الطبقة العسكرية الحاكمة اقتناء الرقيق

وركوب الخيل الذي لم يجز ركوبها(3) لغيرهم. وعلى رغم أسلافهم، فلم يقض

---

(1) القلقشندي، ج 4، صص. 40–41.

(2) المصدر نفسه، ج 4، ص. 6، 10 و40؛ وانظر المقريزي، المواعظ والاِعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق، 1270هـ، ج 2، ص. 98.

(3) ضومط، الدولة المملوكية، ص. 88.

(8618/1)

الأمراء ما بينهم بالشرع الإسلامي بل بـ«الياسة أو اليسق» وهي مجموعة القوانين المغولية(1). وحاز المماليك وحدهم، سلطانا وأمراء وأجنادا، الإِقطاعات الزراعية وشاركهم بقسم ضئيل نسبيا بعض المتعممين ممن أشرفوا على المؤسسات الدينية والتربوية والاِجتماعية(2)

---

(1) القلقشندي، ج 4، صص. 310–312. وقد أورد المقريزي في كتابه المواعظ والاِعتبار بذكر الخطط والآثار –المعروف بالخطط–، مطبعة الساحل، بيروت، 1959، ج 3، صص. 357–358.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، صص. 50–51؛ وج 4، ص. 485؛ وج 6، ص. 185؛ المقريزي، خطط، بولاق، ج 1، ص. 87 و90؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص. 52؛ ابن إياس، بدائع، ج 1، ص. 90.

(1/8619)

.

إن هذه المميزات تشمل كل المماليك خصوصا في القاهرة وحتى تنسحب على تواجدهم في كل المدن، لأن نائب السلطان في نيابته شكل سلطانا مصغرا، وتميز بخاصيات السلطان من حيث الصلاحيات وبيوت الخدمة، إنما على مستوى أدنى. فالأول كانت تنعت بيوت خدمته بالشريفة، والثاني بالكريمة.

1.1– وظائف الطبقة العسكرية الحاكمة في دمشق:

عاش بدمشق عدد كبير من أرباب السيوف كان نائب السلطان أعلاهم رتبة، يعينه السلطان بمرسوم شريف ويعبر عنه، لأهميته، بكافل السلطان ويخصص ألقاب ونعوت لم يسمح بها لغيره(1)

---

(1) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف،

مطبعة العاصمة بمصر، 1894، ص. 84؛ القلقشندي، ج 3، ص. 184؛ الخالدي (مجهول الاِسم الأول)، المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإِنشا، مخطوط حققه خليل شحادة، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، 1988، ص. 272. وهو مؤلف في الإِدارة على غرار التعريف بالمصطلح الشريف للعمري، وصبح الأعشى للقلقشندي. وهو يعتبر أصغر المصادر المملوكية في هذا الشأن.

(8620/1)

، كانت تزين كل أحياء المدينة وحاراتها لدخوله إليها، بحيث يطوف حول قلعتها

سبع مرات، ويصلي ركعتين عند باب السر(1). ومن ثم يتوجه إلى مقره في دار السعادة(2). وللدور الديني أهمية أساسية في تولية النائب لكون الدولة الإسلامية، خصوصا أن السلطان يستمد شرعية حكمه من الخليفة وقضاة القضاة والعلماء والفقهاء، لذلك كان النائب يخلع

---

(1) المقريزي، السلوك، تحقيق سعيد عاشور، دار الكتب، القاهرة، 1972–1973، ج 4، القسم الأول، ص. 174؛ ابن طولون، إعلام الورى، صص. 73–75، 92، 99،

121، 186 وغيرها.

(2) إعلام الورى، ص. 82، 186.

(8621/1)

الخلع على قضاة القضاة الأربعة بدمشق في دار العدل(1) تعبيرا عن إقراره بدورهم في الحياتين الدينية والاِجتماعية وإن نظريا.

تمتع نائب دمشق بصلاحيات واسعة جدا إن من حيث التوظيف أو العزل، أو منح الإِقطاعات(2).

---

(1) ابن طولون، مفاكهة، ج 1، ص. 224. كان بدمشق أربع قضاة قضاة للمذاهب السنية الأربعة (الخالدي، المصدر السابق، ص. 273).

(2) لن أدخل في تفاصيل صلاحيات نائب دمشق لأن موضوعي ينحصر في التاريخ الاِجتماعي. ولمزيد من الاِطلاع على صلاحياته، انظر: العمري، مسالك الأبصار، ص. 115؛ والقلقشندي، ج 9، صص. 253–259.

(8622/1)

كما توجب عليه أداء مهام إدارية وأمنية وسياسية واجتماعية ودينية(1).

وعاش في دمشق إلى جانب نائبها ثمانية أمراء مائة ومقدمو ألوف(2)

---

(1) لمزيد من الإطلاع انظر: تاج الدين عبد الوهاب السبكي، معيد النعم مبيد النقم، دار الحداثة، بيروت، 1983، ص. 23؛ والقلقشندي، ج 13، صص. 124، 194–197؛ وابن طولون، إعلام، صص. 59، 61، 70، 83، 115–116، 122، 153، 165–166، 200، 203، 220 وغيرها؛ والسلوك، ج 4، ق 1، صص. 136–137.

(2) الخالدي، ا لمصدر السابق، ص. 272. بلغ عدد أمراء المئة في الدولة المملوكية 24 أميرا بوجه عام، وكان ينقص عددهم أحيانا إلى 18 ويزيد إلى 26 أو 28 أميرا؛ انظر خليل بن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، 1891، ص. 113؛ والقلقشندي، ج 4، صص. 13–14؛ وإبراهيم علي الطرخان، مصر في عهد دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، 1960، ص. 229.

(8623/1)

، وأحد وعشرون من أمراء الأربعين أو الطبلخانة(1)، واثنان وعشرون من أمراء العشريينات، وواحد وخمسون من

---

(1) الخالدي، ص. 272. كان من حق أمير المئة اقتناء مئة مملوك يشتريهم من ماله الخاص، وحق لأمير أربعين اقتناء أربعين مملوكا؛ وسمي »طبلخاناه«، لأنه حق له قرع الطبول على بابه كل يوم. أما تسمية الأمراء الآخرين، فتنبع من عدد المماليك الذين سمح لكل واحد منهم باقتنائهم. لمزيد من الإطلاع على هذا الموضوع، انظر: ضومط، الدولة المملوكية، صص. 63–65.

(8624/1)

أمراء العشرات، وثلاثة وعشرون من أمراء الخمسات، عدا مقدمي الحلقة وأجنادهم وهم عدد كبير إضافة إلى عدد آخر من الموظفين لا يسعنا ذكرهم جميعهم بحيث يغدو الموضوع دراسة في الإدارة المملوكية(1). نخص منهم نائب القلعة الذي لم يكن لنائب دمشق سلطة عليه(2)، وأتابك العسكر (قائد الجيش). وتوزع هؤلاء جميعهم، إلى جانب الوظائف الأساسية، الأراضي الزراعية بنيابة دمشق إقطاعات كل على قدر الوظيفة التي

---

(1) الخالدي، ص. 272.

(2) الصفدي، ق 2، ص. 182؛ القلقشندي، ج 9، ص. 253؛ السلوك، ج 4، ق 1، ص. 425، 442؛ والخالدي، ص. 272.

(1/8625)

يشغلها، فضلا عن المعاصر المتنوعة والطواحين وما إلى ذلك وبالتالي فقد ارتبطت بهم فئات المجتمع بطريقة مباشرة، وأحيانا أخرى غير مباشرة، وكانت تلك العلائق فوقية لصالح الطبقة العسكرية الحاكمة، حتى أن الصراع بين أفراد هذه الطبقة أو جماعاتها أثر سلبا على تطور الحياة الاِجتماعية الدمشقية، ناهيك عن نهمها للمال المنقطع النظير وغير المرتوي وهو اقتضى من الفئات الشعبية على مختلف مستوياتها تلبيته.

1.2 – ثراء الطبقة العسكرية: وقد يجد الباحث عذرا لهذه الطبقة في ذلك لو لم تكن إمكاناتها المادية هائلة. فالمصادر

(1/8626)

المملوكية تحدثنا عن ثراء الأمراء بما يعيد إلى الأذهان أساطير »ألف ليلة وليلة«. وإليك بعض النماذج: عندما توفي الأمير سلار ترك كنوزا مذهلة ذكر ابن إياس بعضا منه: خمسة وعشرين رطلا أحجار كريمة من زمرد وياقوت، وثلاث مئة قطعة ألماس، ومئة وخمسين حبة لؤلؤ كبيرة زنة الواحدة منها مثقالا، ومئتي ألف دينار ذهب عين، وأربع مئة ألف دينار من الفضة، وأربعة قناطير من المصاغ الذهبي، عدا الخيل وغيرها من الماشية؛ ويزعم ابن إياس أن دخله بلغ من إقطاعاته وحماياته مئة ألف دينار(1).

---

(1) ابن إياس، بدائع، ج 1، صص. 155–156.

(1/8627)

وبلغت قيمة أموال نائب الشام التي صادرها السلطان الناصر محمد بن قلاوون (1309–1340م) حوالي المليون ونصف المليون من الدنانير الذهبية(1). ووزع الأمير قوصون، الذي عين نائبا على الشام، النفقة على غرار السلاطين، منها ثمانين جارية، واثني عشر ألف إردب(2) غلة، وكثيرا من الذهب والجواهر. ولكثرة عطاءاته توجس السلطان منه خيفة فأوقع به، فصادر له العامة

أربع

---

(1) ابن تغري بردي، نجوم، ج 9، ص. 153؛ ابن إياس، بدائع، ص. 156.

(2) الإردب: وحدة كيل مصرية، تساوي 311 غرارة أو 24 مدا (القلقشندي، ج 3، ص. 441، وج 4، ص. 181).

(8628/1)

مئة ألف دينار ذهب عين، وعددا كبيرا من الكلفتاه المزركش والأواني الفضية والذهبية، فضلا عن ثلاثة أكياس أطلس كبيرة مليئة بالجواهر قدرت بمئة ألف دينار(1). وقد أحصي ما تركه »تنكز« الذي حكم الشام بضع سنوات فبلغ مليونين وسبع مئة ألف دينار، وسبع مئة وثلاثين ألف درهم فضي فضلا عن المجوهرات(2).

قد تكون هذه الأرقام مبالغاً بها، علما أنها استقيت من مؤرخين مملوكيين يتحدران من الطبقة العسكرية الحاكمة(3)

---

(1) نجوم، ج 10، صص. 6–8، 44.

(2) دمشق في عهد المماليك، ص. 145.

(3) كان والد ابن تغرى بردي أمير مئة ومقدم ألف، وتولى نيابة دمشق، وكذلك ابن إياس.

(1/8629)

، ولكنها تدل على مدى الثراء الفاحش الذي أصابته الطبقة العسكرية المملوكية الحاكمة، التي لم يكن لها مبرر لظلم الفئات الشعبية، أو أنها أصابت بعض ثرائها من أعمال الظلم.

وقد انصب اهتمام المماليك على تنظيم الجيش وتأمين رفاهيته، وبالتالي الحصول على الضرائب لتحقيق هذه الغاية. وبما أن الحكومة المركزية ما كانت مسؤولة عن الخدمات المدنية التي أضحت، عرفا، على عاتق نائب المدينة بشكل رئيسي، وبدرجة أقل على عاتق الأمراء الكبار المتواجدين فيها. وبما أن هذا الأمر لم يكن ملزما قانونيا، فإن هذه الخدمات ارتبطت

(1/8630)

بهمتهم وبقدر حاجتهم للتقرب من الشعب، وبقدر الضغط الذي مارسه عليهم الشعب من خلال رجال الدين، أو

بأعمال الشغب المشروعة –إن جاز التعبير– كالتكبير في المساجد، أو التظاهر مكبِّرين أيضا في الشوارع الرئيسية(1).

وتطلب تأمين هذه الخدمات، وإدارة أملاك نائب دمشق وأمرائها وأجنادها عدداً كبيراً من الموظفين على أكثر من مستوى: فكان بعضهم من بياض العامة، والبعض الآخر من سوادها، إضافة إلى رجال الدين.

2– الأعيان:

---

(1) ابن طولون، مفاكهة، ج 1، ص. 8–9، 240، 245.

(8631/1)

1.2– رجال الدين المسلمون: شكل رجال الدين، بوجه عام، صمام أمان في المجتمع الإسلامي لأنهم احتلوا المنزلة الأرفع فيه، وظل الناس ينظرون إليهم بإكبار حتى في فترات الاِنحطاط، لممارستهم شؤونا مدنية اجتماعية مثلت دور الرقابة على ممارسة الجهاز العسكري الحاكم. حتى أن رجال الدين الذين تسرب إليهم الفساد، وجروا وراء مصالحهم الذاتية، بخضوعهم لرغبات الطبقة العسكرية وتنفيذهم مآربها على حساب

الشعب، وحتى أيضا الذين تندر بهم الناس ظلوا يحتلون منزلة مهمة، ليس على الصعيد الشخصي، إنما على مستوى الوظيفة الجليلة التي

شغلوها بما كان لها من تقدير عند مختلف فئات المجتمع. أما أبرز الوظائف الدينية، فكانت:

* قضاة القضاة: عرفت دمشق أربعة قضاة قضاة تبعا للمذاهب الإسلامية الأربعة، كان أهمهم الشافعي الذي أشرف على دور الأيتام والأوقاف التابعة لها، والمدارس التي إما يتولى التدريس فيها أو يشرف عليها، وهو الذي يقيم النائب في نيابة الشام أي يثبته فيها، وله أوقاف خاصة يعتاش منها(1). ويليه أهمية الحنفي، ثم الحنبلي، وأخيرا المالكي، ولكل واحد أوقافه ومدارسه واختصاصاته الاِجتماعية والسياسية(2)

---

(1) الخالدي، ص. 273.

(2) المكان نفسه.

. ويعتبر قاضي القضاة رئيس الإدارة القضائية من حيث تعيين القضاة وعزلهم، وتعيين نواب له، والفصل بين الخصوم، وتنفيذ الأوامر الشرعية(1). كما توجب عليه إفهام نائب دمشق الصحة بالأحكام، وأصول الشريعة كي لا يقع في الخطإ، لأن النائب صاحب ولاية المظالم(2) ويجهل أحيانا كثيرة اللغة العربية قراءة وكتابة وبالتالي القواعد الشرعية

---

(1) القلقشندي، ج 4، صص. 34–36.

(2) السبكي، ص. 56؛ القلقشندي، ج 11، صص. 408–414؛ ابن طولون، نقد الطالب لزغل المناصب، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1992، ص. 46؛ ونصار، العامة، صص. 356–357.

(8634/1)

وأحكامها.

وكان من المفترض أن يختار أهل كل مذهب قاضي قضاتهم بعد موافقة السلطان(1)، لكن هذا الأمر لم يراع باستمرار خصوصا على عهد الدولة الجركسية(2)، ولاسيما بعد أن صارت المناصب القضائية تشرى بالرشوة، وبالتالي فسد معها، بوجه عام، معظم النظام

القضائي المملوكي، وغدت تصدر

---

(1) علي بن يوسف الدمشقي البصروي، تاريخ البصروي: صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك من سنة 871هـ لغاية 904هـ، تحقيق أكرم العلبي، دار المأمون للتراث، دمشق، 1988، ص. 136.

(2) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج 1، ص. 36، 37، و50 وغيرها.

(8635/1)

بعض الأحكام بالرشوة(1). وتمكن بعض القضاة من جمع أموال طائلة بطرق مشبوهة، من دون أن يخجلوا لا بل إن بعضهم راح يتباهى بسطوته ونفوذه غير آبه بتهكم الناس، وغير مكترث بأحكام الشريعة،

---

(1) شمس الدين محمد الصالحي الدمشقي ابن طولون، الثغر البسام في ذكر من تولى قضاء الشام، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق 1956، ص. 130، 165، 219، 255؛ وابن طولون ، نقد الطالب لزغل المناصب، حققه محمد أحمد دهمان وخالد محمد دهمان، دار الفكر المعاصر، بيروت،

1992، ص. 45؛ والمقريزي، السلوك، ج 3، ق 3، 1073 و1168؛ والبصروي، ص. 174.

(8636/1)

فاحتقره زملاؤه والناس كلهم(1). خصوصا أن بعض هؤلاء كان جاهلا أصول القضاء وأحكام الشريعة، والعلوم الدينية الأخرى التي هي في أساس التربية في الإسلام ومنارة السلوك الاجتماعي(2).

ولم تكن حال جميع القضاة على هذا النحو، إذ أثر عن بعضهم الصلاح وأعمال الخير والاجتهاد بتلاوة كتاب الله والإكثار من الصلاة والتفقه بالأحاديث النبوية الشريفة(3)

---

(1) ابن طولون، الثغر البسام، صص. 128–130.

(2) ابن طولون، الثغر البسام، ص. 155. ولمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر أندريه نصار، العامة، صص. 354–355.

(3) البصروي، تاريخ البصروي، صص. 41، 43، 85، 86؛ وابن طولون، الثغر البسام، صص. 124–125، 160، 164، 180 وغيرها.

(8637/1)

. كما مارس قضاة القضاة والقضاة ضغوطا على الطبقة العسكرية الحاكمة بدمشق لإطلاق من اعتقل ظلما وعدوانا، أو للشفاعة بمن اعتقل أثناء الصراع بين الأجناد المماليك والسكان، وما شبه هذه الحالات(1).

* مفتو دار العدل: ومن مهامهم حسن تطبيق الشريعة الإسلامية، وكان عددهم، بوجه عام، اثنين: شافعياً وحنفياً(2).

* وكيل بيت المال، وهو مؤتمن على أموال النيابة، والمحتسب الذي يراقب الأسعار والمكاييل والموازين والأخلاق العامة(3).

---

(1) مفاكهة، ص. 115، 158، 160، 162 وغيرها كثير.

(2) الخالدي، ص. 273.

(3) الخالدي، ص. 273.

(8638/1)

قام رجال الدين، إضافة إلى وظائفهم الشرعية، بدور مهم جدا على صعيد الحياة اليومية والدينية، إذ كان لبعضهم أنصار في توجههم الديني خصوصا من سلك

طريق الصوفية، بحيث كثر هؤلاء الأنصار وانصاعوا إلى تدابير رجال الدين، الذين مارسوا ضغوطا كبيرة على أهل السلطة لإحقاق الحق، الذي كان يتنافى أحيانا مع مصالح السلطة، وبالتالي شكلوا إزعاجا حقيقيا لها(1).

دور رجال الدين التعليمي:

---

(1) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع، انظر: أندريه نصار، العامة في دمشق، ص. 360–364.

(8639/1)

بما أن موضوع التفريع الطبقي يتعلق بالوظيفة، فلابد من أن نتحدث عن دور العلم في دمشق التي عمل فيها قسم مهم من رجال الدين علماء وفقهاء وغيرهم إضافة إلى عدد من الموظفين المدنيين.

أ– تأسيس المدرسة: كانت تؤسس المدارس لبعض الأئمة الكبار ممن تعمقوا وتفقهوا بالعلوم الدينية لكي يمارسوا دورهم التعليمي بأمان واحترام، وبالتالي تمكين الطلاب من الحصول على الثقافة الضرورية من أجل تطوير المجتمع ليس على الصعيد الديني فقط إنما أيضا في مختلف أنواع العلوم الأخرى وإن لم تلق الِاهتمام الذي حَظيت به المدارس الدينية.

كانت المدارس في دمشق على نوعين:

– ما يشاد خصيصا للتدريس، وفي هذه الحال جاء تصميمها على الشكل التالي: صحن مكشوف غير مسقوف تتوسطه نافورة محفورة من الرخام، تحيط به أروقة من جهاته الأربعة، أحدها يؤدي إلى الجامع الملاصق لها، وآخر إلى قبر من أسس المدرسة وهو عبارة عن مقصورة تعلوها قبة. أما الرواقان الآخران، فيحاذيان الإِيوانات المعدة للتدريس، التي تعلوها غرف أعدت لمنامة الطلاب(1)؛

(1) ابن طولون، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق، 1980، ج 1، ص. 110.

هامش 1 ضومط

– أو أن تكون منزلا وتحول إلى مدرسة فيأخذ في هذه الحالة طابعا خاصا(1). ويذكر النعيمي أن عدد المدارس قد جاوز المئة وثلاثين مدرسة، إنما يجب الأخذ بالاِعتبار أنه كان يذكر المدرسة أكثر من مرة أحيانا(2)

(1) عماد الدين إسماعيل ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، مكتبة المعارف، بيروت، 1966، ج 13، ص. 351؛ ومحيي الدين عبد القادر محمد (النعيمي)، الدارس في تاريخ المدارس، مطبعة الترقي، دمشق، 1948–1951، ج 1، ص. 56.

(2) النعيمي، المصدر السابق، في أماكن متعددة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، ج 1، صص. 131، 159، 215، 255، 229، 301، 353، 277، 326، 373، 429، 431، 438، 455، 459، 467، 474، 488، 496، 498، 537، 542، 555، 560، 569، 588، 592، 594، 599، 600، 604، 607، وج 2، ص. 59.

(8642/1)

.

كانت معظم المدارس المذكورة ذات اختصاصات دينية وأدبية باستثناء ثلاث اختصت بتدريس الطب وهي: الدنسرية، الدخوارية، واللبودية النجمية(1)، وهي مدارس خاصة. وإلى جانبها اختصت البيمارستانات بتدريس الطب نظريا وعمليا لأن المدارس الخاصة اقتصر عملها على الدروس النظرية فقط(2)، وكان في دمشق

المملوكية أربعة

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 13، ص. 262؛ والنعيمي، الدارس، ج 2، صص. 129–133 و135.

(2) أحمد بن القاسم ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق أوغست ملر، القاهرة، 1822، ج 2، ص. 155.

(8643/1)

بيمارستانات هي: الصغير أو العتيق، باب البريد أو الدقاقي، النوري الكبير، والقيمري(1).

وكي نتمكن من إعطاء فكرة عن الوظائف في المدرسة سأدرس الاختصاصات في مدرسة واحدة هي العادلية(2)، بما في ذلك أقسامها والمدرسون فيها. قسم

---

(1) محمد كرد علي، خطط الشام، مطبعة الترقي، دمشق، 1927. أما ج 2، فطبع في مطبعة المفيد، دمشق، 1928، ج 6، ص. 161. لن أتوسع في دراسة البيمارستانات لأنها لا تتعلق إجمالا بالوظائف الدينية.

(2) أسسها نور الدين زنكي (ابن كثير، البداية

والنهاية، ج 13، ص. 58؛ والنعيمي، الدارس، ج 1، ص. 359).

(1/8644)

الفقه: درس فيه أشهر فقهاء دمشق وقضاتها من أمثال: ابن خلكان، والقزويني، وتاج الدين السبكي... وكان يؤمها العلماء واللغويون ويتناقشون بكل ما له علاقة بالفقه واللغة(1). وقسم اللغة العربية والقراءات الذي اعتنى بلهجات القبائل العربية، ومذاهب النحاة واللغويين. وسكن في هذه المدرسة المدرس المختص هو وعائلته. وكانت لها أيضا مشيخة كبرى(2).

حظيت كل مدرسة بهيئة تدريس تألفت من: رأس المدرسة وهو من كبار المدرسين، يتولاها بتوقيع إما من السلطان أو من

---

(1) النعيمي، ج 1، صص. 365–367.

(2) المصدر السابق، ج 2، صص. 261–270.

(1/8645)

نائبه في دمشق لأنه ضم أحيانا، إلى جانب مشيخة المدرسة، مشيخة اختصاصها (الحديث أو الفقه أو اللغة العربية)(1)، وتعنى المشيخة بتأمين حسن سير التدريس فيها من حيث الإشراف وتأمين الأساتذة ودفع المرتبات. وتألف الجهاز التعليمي في المدرسة، إلى جانب شيخها، من ناظرها، ومدرسيها، ومعيديها(2)

---

(1) البداية والنهاية، ج 13، ص. 339؛ والقلقشندي، ج 4، ص. 192

(2) كان المدرسون بوجه عام من القضاة والفقهاء، والمعيدون من القضاة أحيانا ومن العلماء (انظر حول هذا الموضوع: ابن جماعة، تذكرة السامع، صص. 15، 201، 204؛ والسبكي، معيد النعم، ص. 108؛ والنعيمي، الدارس، ج 1، ص. 297).

(8646/1)

-وتفاوت عددهم نسبة إلى اتساع المدرسة وعدد طلابها ومساحة أوقافها - ومن إمامها، ومؤذنها، وقيمها(1).

ب - الأوضاع المادية للجهاز التعليمي:

تقاضى مدرسو المدارس والخوانق والربط رواتب جيدة

عموما أمنت لهم مستوى لائقاً من العيش، خصوصا إذا كان ناظر المدرسة كريما صالحا ومتقيدا بشروط الواقف(2).

أما مدرسو المساجد، فكانوا لا يطلبون أجرا إجمالا سوى الثواب عند الله وما أوقفه بعض الأمراء وأهل الخير من أوقاف على التعليم في المساجد(3)

---

(1) القلقشندي، ج 5، ص. 465.

(2) البداية والنهاية، ج 14، ص. 84، 321.

(3) ابن كثير، المصدر السابق، ج 14، ص. 71، 321.

(8647/1)

. وكانت رواتب مدرسي الكتاتيب زهيدة وتكاد لا تقوم بأودهم.

وإلى جانب المدرسة اختصت مؤسسات أخرى بالتعليم سأكتفي بذكرها فقط كي لا أدخل في كامل تفاصيل النظام التعليمي الدمشقي المملوكي، وهي الجوامع ودور القرآن الكريم والكتاتيب والخوانق والربط، وبعض الترب التي نص صاحبها بوقفه على هذا الأمر.

2.2– رجال الدين المسيحيون: إن الكنيسة المسيحية هرمية، تتدرج الرتب فيها من أعلى إلى أسفل كما يلي: البطريك(1) وهو صاحب أعلى سلطة يأتمر به أصحاب

الرتب الأخرى وعامة المسيحيين،

---

(1) الخالدي، ص. 275؛ القلقشندي، ج 5، ص. 473.

(8648/1)

وهو المسؤول عن رعاياه بدمشق أمام النائب. يليه نائبه الملقب بالأسقف، ثم المطران المسؤول عن المسيحيين في ناحية جغرافية محددة، ويمارس فيها سلطة قضائية، ثم الكهنة الذين يرتبهم القلقشندي كالآتي:

القسيس، والجاثليق والشماس(1). إن هذا الترتيب الكنسي ينطبق على طائفتي اليعاقبة والملكيين معا.

* رئيس اليهود: وهو المسؤول، بوجه عام عن طائفتي اليهود القرائيين والربانيين معا(2). أما السامرة، فقد كان لهم نائب رئيس بدمشق وهو المتحدث باسمهم(3)

---

(1) القلقشندي، ج 5، صص. 473–474.

(2) الخالدي، ص. 275.

(3) القلقشندي، ج 4، ص. 194؛ الخالدي، ص. 275.

(8649/1)

.

على أن دور رجال الدين خصوصا المسلمين لم ينحصر فقط فيما ذكرت، بل مارسوا مهمات أخرى كالتدريس والإفتاء وإرشاد الناس والخطابة في دور العبادة مما قربهم من العامة، كما مارسوا ضغوطا على الطبقة العسكرية الحاكمة بدمشق لحل المشاكل الناجمة عن سوء أداء أفرادها تجاه مختلف الفئات الشعبية.

3.2– الأعيان الآخرون: لتحديد التفريع الاِجتماعي ضمن فئة الأعيان لابد من اعتماد المبدأ المنظم وهو مبني في هذه الحالة على المستويين الاِقتصادي والمنزلة الوظيفية. إن خلو مصادرنا العربية من الأرقام تدفع بالباحث لاعتماد الصفة

(8650/1)

فقط بالنسبة للحالة الاِقتصادية التي تعتمدها هذه المصادر كأن تقول فلانا من مياسير التجار أو من كبار التجار، كتجار الخانات

والقيساريات، وأرباب القوافل وتجار الجملة والسماسرة أو الوسطاء التجاريين.

لقد ضاهى هؤلاء كبار الأمراء من حيث الأهمية وشاركوا بحضور الاِحتفالات الرسمية، ونالوا احتراما مميزا من

السلطات ومن الشعب على حد سواء(1)، لأن التجارة تحتل مركزا مرموقا في الإسلام(2)

---

(1) لابيدوس، المصدر السابق، ص. 136.

(2) فهمي عبد الرزاق سعد، العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع الهجريين، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1983، ص. 121.

(8651/1)

. ويدرج في هذه الفئة أصحاب الصناعات المهمة وهم غير الحرفيين الصغار. ويصعب علينا إعطاء فكرة واضحة عن هؤلاء حتى وإن اعتمدنا على دراسة المصادرات التي كانت تقوم بها السلطات الحاكمة بدمشق لسد عجز موازناتها أو لزيادة مداخيلها، لأن المصادر الدمشقية تحجم، غالبا، على خلاف المصادر المصرية التي تعطي أرقاما عن غنى بعض التجار وغيرهم من المياسير(1)

---

(1) الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص. 41. فهو يقول إن أحد تجار الكارم استطاع بناء مدرسة من مدخول يوم واحد. ويقول القلقشندي إن بعض التجار دين السلطان مئة ألف درهم فضة، ج 4، ص. 32 وما بعد؛ ابن تغري

بردي، نجوم، ج 10، ص. 279؛ وابن إياس، ج 1، ص. 197؛ وانظر أيضا: Ashtor Zliahu, Histoire des Prix et Salaires dans l'Orient Médiéval, Ecole Pratique des Hautes Etudes, Paris, 1959, p. 271.

(8652/1)

. وهناك صعوبة أخرى تتمثل في تحديد نسبتهم إلى مجموع تجار دمشق من جهة، وإلى مجموع سكان دمشق من جهة ثانية.

أما المبدأ الآخر المنظم للتفريع الطبقي للأعيان، فهو السلم الوظيفي: فإلى جانب الجهاز القضائي كان هناك العلماء، والمحتسب، وشيوخ الأسواق (النقباء)(1)، والأطباء، والمهندسون، وجباة الضرائب.

إن بياض العامة ممن ذكرنا شكلوا الطبقة البرجوازية بالِاصطلاح الحاضر، لأن الأبناء توارثوا عمل الآباء، وجنى بعضهم ثروات مهمة جعلتهم عرضة إما للمصادرات أو للطرح(2)

---

(1) مفاكهة، ج 1، ص. 100 وغيرها.

(2) مفاكهة، ج 1، صص. 41، 44–45، 78، 89، 91، 119، 231، 164 وغيرها؛ أعلام، صص. 194، 203، 222.

، ما دفع بعضهم لإخفاء ثرواتهم وما أدى لتقهقر نسبي في الحركة الاِقتصادية عامة.

3- العامة(1):

من الواضح جدا أن الإسلام دعا إلى المساواة بين المؤمنين بهدف إلغاء التفاوت في المجتمعات الإسلامية وتحقيق العدالة على المستويات كافة. إنما سير الفتوحات السريعة وما نتج عنها من غنائم مذهلة مادية وبشرية، وخضوع مساحات جغرافية شاسعة للسلطة الإسلامية بسقوط الإمبراطورية الساسانية، وانحصار رقعة

(1) لن أتحدث عن بياض العامة، أي مياسير التجار وأصحاب الحرف الكبرى بتفصيل، لأن هذا الموضوع يتطلب دراسة قائمة بذاتها.

الدولة البيزنطية، واعتناق بعض سكانها الإسلام دينا والبعض الآخر ظل على ديانته السابقة وفق مفهوم

الذمة، فترتب على كل ذلك ظهور أول ترتيب اجتماعي عفوي يصنفه عبد العزيز الدوري كما يلي: الفاتحون العرب، المسلمون من غير العرب، الذميون والأرقاء (العبيد)(1). ضومط4

وزاد برسوخ هذا الترتيب جنوح الإِنسان بطبعه إلى السلطة وما أفرزه من صراعات لم تترك آثارا سلبية على المستوى السياسي فقط، إنما أيضا على

---

(1) عبد العزيز الدوري، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1960، في صفحات متعددة منها.

المستوى الاِقتصادي، بالإضافة إلى نشوء المذاهب في الإسلام الذي أدى إلى تحولات اجتماعية استمرت تتراكم عبر العصور حتى أربكت التوازن الاِجتماعي، وبالتالي نجم منها تمزق شديد.

ولم يحاول القيمون على دول الخلافة رأب صدعه، ولا سيما عندما تصدَّر السلطة السياسية الأَغرابُ عن المجتمع العربي بدءا بالأَتراك خلال العصر العباسي الثاني وصولا إلى العهد المملوكي، فازدادت الهوة بين الحكام

والمحكومين، ونشأ فراغ في الولاء، حتى باتت شرائح كبيرة تعيش على هامش الحياة، خصوصا في المدن.

(1/8656)

وأشد ما نلاحظ ذلك في العهد المملوكي بحيث تقاسم السلطان وأمراؤه الخيرات الاِقتصادية في الدولة، وهي وفيرة جدا. ونشأ نوع من العداء بين الحكام والرعية، على الرغم من محاولة الحكام التقرب من الشعب عن طريق بناء المؤسسات الدينية والاِجتماعية كالمساجد، والبيمارستانات (المستشفيات) والمدارس. إنما الضرائب الفادحة وغير المنتظمة، إضافة إلى السخرة، ومختلف أنواع المصادرات، أفرغت كل محاولات التقرب من مضمونها. وراح بعض أفراد الطبقات الاِجتماعية (الفئات) ينحدرون من طبقة إلى أخرى. وبتعبير أوضح، كان تحولهم ينحدر

(1/8657)

باستمرار نحو القاعدة، حتى تفرع على عهد الدولة المملوكية الثانية فئة اصطلح على تسميتها بـ»الزعر«،

وهي عرفت في ما مضى بالعيارين والأرذال والأوباش، وتحديدا في العصور العباسية(1)، ولكنها لم تنح إلى التطرف في الفساد كما أصبح عليه الحال مع الزعر.

---

(1) محمد بن يحيى الصولي، أخبار الراضي لله والمتقي بالله، مطبعة الصاوي، مصر، دون تاريخ، صص. 202–211 وغيرها؛ أبو الحسن المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل بلا، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1973، ج 2، صص. 307–308 وغيرها.

(8658/1)

وتعبير »العامة« أو اصطلاحه قديم جدا في المجتمع الإِسلامي، تناوله الأدباء والفقهاء والمؤرخون للدور البالغ الأهمية الذي مارسته العامة في المجتمع على الصعيدين الاِجتماعي والسياسي: فهم عند الدينوري: »أصحاب الإهانات، وأبناء الأنذال... ومنهم الرعاع والهمج والغوغاء، وأهل السفه والخفة... والدهماء«(1). وهم عند الطبري: »النطاف وباعة الطريق في محتقرات البيوع، وبائعو

---

(1) أبو سعد نصر بن يعقوب الدينوري، التعبير في

الرؤية، أو القادر في التعبير، مخطوط متحف بغداد رقم 598، نقلا عن فهمي سعد، العامة في بغداد، ص. 66.

(8659/1)

البطيخ والدجاج، والقصابون، والبقالون، والكناس(1) والعامة عند الصفدي خلاف الخاصة «(2).

وعلى هذا، يمكن تعريف العامة في العهد المملوكي بأنها الفئات الشعبية التي لم تتلق تعليما، ولا حققت ثروة، ولم تشغل منصبا حكوميا، بل هي جماعات دفعت الضرائب من دون أن تفيد منها إجمالا، وسميت العامة أو عامة الناس لإضفاء صبغة

---

(1) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، القاهرة، 1960–1969، ج 8، صص. 448–468.

(2) خليل بن إيبك الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، ص. 10، نقلا عن فهمي سعد، العامة في بغداد، ص. 66.

(8660/1)

من الاِحترام عليها وتمييزا لها من الزعر والأرذال(1).

وتألف العامة في العهد المملوكي من أصحاب الحوانيت، والباعة المتجولين، وباعة المفرق، والعمال كالنجارين والبنائين، والحرفيين(2)، وضمت أيضا أصحاب الصفقات التجارية المشبوهة، والمخادعين، والسماسرة، والصيارفة(3)، وتجار النخاسة، وبائعي الخمور، والمغنين، والنادبين(4). وأضاف إليهم المقريزي القصابين، وضامني

---

(1) لابيدوس، مدن الشام، ص. 137

(2) خطط، ج 1، ص. 89؛ لابيدوس، المصدر السابق، صص. 137-138

(3) السبكي، معيد النعم، صص. 9-10

(4) لابيدوس، مدن الشام، ص. 138.

(8661/1)

الأفراح والمآتم، والمشاعلية، أي منظفي الأقنية والبيوت(1). ويضاف إلى هؤلاء عمال الدباغة وضاربو الرمل لكشف الغيب، وسائقو البغال والحمير وغيرهم(2). وشمل هذا التصنيف مختلف الطوائف الإِسلامية من سنة

وشيعة، والمسيحية من نساطرة ويعاقبة، ويهود قرائيين وربانيين وسامرة.

لقد تجانس جميع العامة من حيث طبيعة العمل: فمثلا لم يكن ممنوعا على الذميين ممارسة أي مهنة يمارسها المسلمون، فامتلك المسيحيون محلات كثيرة غصت بمختلف أنواع الملابس، والأواني النحاسية

---

(1) المقريزي، خطط، ج 1، ص. 89.

(2) لابيدوس، مدن الشام، ص. 138.

(8662/1)

وغيرها(1). ويعتبر أندريه نصار أن تجارة الأقمشة شكلت واحدا من القطاعات التجارية الرئيسية للنشاط التجاري اليهودي في القرون الوسطى، وتاجر يهود دمشق بالألبسة، ومارسوا أيضا بعض الحرف(2). واشتهروا بأعمال الصيرفة وبالربا عن طريق إقراض الناس الأموال(3). كما تولوا وظائف كتابة

---

(1) ابن طولون، مفاكهة، ج 1، ص. 35، 68، 100؛ نصار، العامة، ص. 88؛ S.D. Goitein, «Artisants en Méditerrannée orientale au Haut Moyen-Age», in annales E.S.C., n° 5 (1964), pp. 847–868, p.

.852

(2) نصار، المكان نفسه.

(3) مفاكهة، ج 2، ص. 10.

(8663/1)

السر ودار الضرب(1).

واختلفت أوضاع اليهود والمسيحيين عن المسلمين بدفع ضريبة الخمر، والجزية أو الجوالي عملا بأحكام أهل الذمة، وأجحف جباة الضرائب أحيانا بحق الذميين، فكانت تصدر بسبب

ذلك، ووفقا لهوى السلطان، مراسيم سلطانية شريفة تأمر النائب بجباية الجزية وغيرها بالمعروف، وتطلب ممن ظلم من الذميين التوجه إلى الأبواب الشريفة، أي السلطانية(2). كما طبقت عليهم أحيانا شروط الذمة(3). وعوقبوا جماعيا مرات أخرى بسبب

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 115.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص. 16 و198.

(3) ابن طولون، إعلام الورى، ص. 118.

(8664/1)

استيلاء القراصنة الأوروبيين على السفن التجارية المملوكية في المتوسط، أو اعتداء دولة أوروبية أو أكثر على دولة إسلامية(1).

واختلفت أيضا أوضاع المسيحيين واليهود عن أوضاع المسلمين من حيث السكن، بحيث كان للمسيحيين حيهم الخاص في الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة بالقرب من باب توما، وسكن اليهود بالمحلة التي عرفت باسمهم(2)

---

(1) المقريزي، السلوك، ج 3، ق 1، صص. 106–107؛ W. Heyd, Histoire du commerce du Levant au Moyen-Age, T 2, Leipzig, 1885–1886, p. 52.

(2) عبد القادر بن محمد (النعيمي)، الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، ج 2، ص. 244؛ وابن طولون، مفاكهة، ج 1، ص. 124.

(1/8665)

. وكانت للطائفتين مقابر خاصة معروفة باسمها على مقربة من أسوار المدينة(1). ويصعب اعتبار ذلك اختلافا دقيقا أو مهما، لأن الأحياء عموما، والحارات خصوصا

انتظمت وفق ترتيب عائلي، فكان لكل عائلة حيها إجمالا على حد تعبير لابيدوس(2)، الذي يصنف الأحياء وحدات اجتماعية قائمة على التجانس الديني – من دون أن يحدد الطائفة – والعرق. وهي، في رأيه، مماثلة للوحدات القروية داخل التكتل الديني(3).

---

(1) نقولا زيادة، دمشق في عصر المماليك، مؤسسة فرانكلن، بيروت–نيويورك، 1966، صص. 131–133.

(2) مدن الشام، ص. 157.

(3) المكان نفسه.

(8666/1)

4– الزعر:

إن نشوء المعدمين في مختلف المجتمعات الإنسانية نتج من الصراع على الثروة أو على السلطة، أو على الاِثنين معا لتلازمهما في غائية جنوح الإِنسان إلى العظمة. وفي خضم يأس المعدمين، انبرت جماعات تدعي الدفاع عن مصالحهم، ونصبت نفسها قادة عليهم باسم الإنسانية. وهذه القيادات، في الغالب، تكونت من إفرازات أوضاعهم البائسة المنبثقة من رفض الواقع المظلم والمرير، ومن جنوحها بدورها للاِستغلال، ولشراسة في أخلاقها

وطبائعها. فتكونت إذ ذاك أحزاب عفوية أخذت على عاتقها تغيير الواقع المشكو منه، وفق أساليبها

(8667/1)

الخاصة، وأقنعت المعدمين بأن ما تصبو وتسعى إليه، وفق وسائلها الخاصة، يمثل أنجع السبل لتطوير أحوالهم البائسة، وبالتالي نشأت منظمات الزعر.

ولنا أمثلة في التاريخ العربي والإسلامي الوسيط على انتظار الشطار أو العيارين في ما يشبه الأحزاب، فضلا عن انتظامهم العسكري. فقد حفظ لنا المسعودي هذا التراتب(1).

---

(1) المسعودي، مروج الذهب، ج 2، ص. 318؛ وانظر أيضا: أنطوان ضومط، بالإشتراك مع آخرين، الشرق العربي في العصور الوسطى، الدار الجامعية للنشر، بيروت، 1995، ص. 208–209.

(8668/1)

وقد تألف الزعر إجمالا من الشطار (سليلي العيارين على الأرجح)، والبلاصين، والغوغاء، والأوباش، والحرامية (وهم

غير اللصوص)، والأوغاد ومن شابهم(1). ولم ينتج هؤلاء من الإفراز الاِجتماعي الدمشقي فقط، بل إن بعضهم كانوا دخلاء عليها: إذ لجأوا إليها على أثر الغزو المغولي للعراق وما جاوره(2). وأنشأوا حارات خاصة بهم في عدد من

---

(1) ابن طولون، مفاكهة، ج 1، صص. 3، 166، 168، 186، 191، 195، 204، 261–262؛ وإعلام الورى، ص. 108، 127، 183 وغيرها

(2) ابن طولون، مفاكهة، ج 1، ص. 212؛ وأعلام، ص. 51؛ ونصار، العامة، ص. 97.

(8669/1)

أحياء المدينة من أشهرها: الغوطة، الشاغور، ا لقبيبات، ميدان الحصى، القراونة، حارة المزابل، الشويكة، زقاق البركة، باب السريجة وغيرها. وهي عبارة عن أحزمة بؤس في طفرات المدن الحالية(1)، ساهمت بزيادة التدهور الاِجتماعي والاِقتصادي الدمشقي، لأن الزعر ومن شابههم عزفوا، بوجه العموم، عن القيام بأعمال شريفة.

---

(1) ابن طولون، مفاكهة، ج 1، صص. 27، 92، 137، 153، 160، 179–185، 212–214، 224–225، 250–252 وغيرها؛ وأعلام، صص. 101–102، 121–122 وغيرها.

(8670/1)

لقد كون الزعر خلايا خاصة بهم تمركزت كل خلية في حارة من الحارات التي ذكرتها أعلاه يتزعمها قائد عرف بكبير زعر محلته، ولقب نفسه أحيانا بلقب يستشف منه المنزلة العالية أو النبيلة تدليلا على كرم في المحتد: مثل »قريش« أو ابن »الأستاذ«، وأيضا لكي يجعل من

تنظيمه تنظيما محترما ظنا منه أن التسمية تمحو الصفات السيئة التي طالما اتصفت بها منظمات الزعر(1)

---

(1) ابن طولون، مفاكهة، ج 1، صص. 65–66، 196، 224–225، 258–259، 295 وغيرها؛ وإعلام الورى، صص. 121–122، 167، 196–197 وغيرها. الأستاذ في الاصطلاح المملوكي هو من يشتري المماليك، وتعني أيضا من اشترى المماليك وتربوا بعهدته، ومن ثم أعتقهم وظلوا أبدا يرتبطون به برباط الولاء والطاعة عموما. من

هنا تأتي أهمية لقب ابن الأستاذ. أما لقب قريش، فهو ادعاء نسبي للدلالة على أن صاحبه يتحدر من آل قريش.

(1/8671)

، أو مثلا للتدليل على القوة والمهابة لإخافة الأعداء فتسمى بعضهم الآخر بـ»أبي طاقية «(1) ، أو »الجاموس «(2) للدلالة على ضخامة الجثة والقوة البدنية. وتمييزا لهم من بقية الناس، تزيَّا الزعر بلباس خاص هو كناية عن »فرعاني« يلفونه على رؤوسهم، وثياب يقلبونها على أكتافهم، وارتدوا أيضا الأبشات بأكمامها الطويلة والعريضة لتخفي سلاح الواحد منهم(3). وبما أن تنظيمهم يقوم على القتال إما للدفاع عن

---

(1) مفاكهة، ج 1، ص. 283

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص. 247.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص. 268؛ وإعلام الورى، ص. 174، 195، 199، 203.

(1/8672)

أنفسهم أو مهاجمة الآخرين كالاِعتداء على الناس بأموالهم، أو مهاجمة الأسواق(1)، فقد اشترطوا على المريد الذي ينوي الاِنخراط في تنظيمهم حسن استعمال الخناجر والسيوف غير ذلك من الأسلحة التي كانوا يقتنونها(2).

– موارد رزقهم: اعتاش الزعر من موارد متعددة: فقد امتلك بعضهم الحوانيت. وفي هذه الحال فرضوا سطوتهم على

---

(1) إن مؤلفي ابن طولون: مفاكهة الخلان وإعلام الورى مليئة بهذه الأخبار وسأكتفي فقط بذكر بعض الصفحات (مفاكهة، ج 1، صص. 179، 180، 182، 183، 247، 283).

(2) مفاكهة، ج 1، صص. 238–239، 292–293، و314.

(8673/1)

الحوانيت المجاورة وأحيانا على معظم حوانيت السوق أو المحلة، بأن أقاموا، في بعضها، من يبيع لحسابهم أو بأسعار مرتفع نسبيا فينصرف المشترون إلى محلات الزعر فتزدهر محلاتهم، أو أنهم فرضوا الأتاوة («الخوة») على بعض الحوانيت؛ وإذا رفض أصحابها الاِنصياع تعرضت حوانيتهم إما للسرقة أو لاعتداءات أخرى. وكان

تواجد حوانيتهم في محلة ما يشكل كارثة على أصحاب الحوانيت الأخرى، ليس بسبب ما ذكرت فقط، بل لأن المحلة إذا تعرضت للرمي أو الطرح فرضوا، بقوة السلاح أو السطوة، المال المتوجب لتلك الضرائب على الحوانيت الأخرى،

(1/8674)

وبالتالي ينجون هم من دفع الضرائب(1). وإذا أرادوا الاِحتفال –وكانت احتفالاتهم باذخة – بسبب إقامة الهدنة العسكرية بين منظماتهم، جمعوا الأموال من »المستورين أو المحتاجين على وجه الحياء والقهر« على حد تعبير ابن طولون(2).

* تمادي الزعر: إن من المفارقات الغريبة تشجيع السلطة الحاكمة الزعر على التمادي في غيهم، ولاسيما عندما كانت تحتاج إلى خدماتهم: فأحيانا كان

---

(1) مفاكهة، ج 1، صص. 292–293؛ وإعلام، ص. 195؛ ونصار، العامة، ص. 101.

(2) ابن طولون، مفاكهة، ج 1، ص. 180. ويقول: كانت بالغة، ولم يسعدوا بها لأنها نهبت.

(1/8675)

نائب دمشق وبعض كبار الموظفين العسكريين يحضرون العرض العسكري الذي يقيمه الزعر، ومن ثم يخلع الخلع على أكابرهم(1). وكان الزعر يستقبلون نائب دمشق الجديد، كبقية السكان، إنما بِعُدَّتِهم الكاملة(2)، وهذا يعني اعترافا ضمنيا بسلطتهم. وإذا أعلم نائب دمشق إحدى منظماتهم أنه سيمر بموكبه في محلتهم، أخذوا أموال الناس قهرا وزينوا له عند زاوية المحلة(3)، وكأني به يشجع ممارساتهم، وبالتالي يشجع

(1) نفسه، ج 1، ص. 185 ويستهجن ابن طولون، وكان قاضيا بدمشق، هذا الأمر.

(2) مفاكهة، ج 1، ص. 247.

(3) نفسه، ج 1، ص. 225.

(8676/1)

الجريمة.

ومن المؤسف أيضا أن بعض الفقهاء ساهموا بطريقة غير مباشرة بازدياد أعمال الزعر الشائنة حينما أجازوا لهم قتل أعوان الظلم والمجرمين من البلاصين واللصوص

وغيرهم من دون أن يدروا أو أنهم كانوا يدركون أنهم حاولوا استئصال الجريمة بجريمة أخرى قد تكون أبشع، لأن الزعر استندوا لتبرير جرائمهم على فتوى دينية وعلى مساندة بعض رجال الدين إذا أراد نائب المدينة أو غيره من المسؤولين الإِقتصاص منهم(1)

---

(1) عندما قتل الزعر أحد الظالمين غرمهم نائب دمشق بخمس مئة دينار فتدخل لصلحهم قاضي القضاة ابن الفرفور لدى النائب فعفا عنهم (مفاكهة، ج 1، ص. 160).

(1/8677)

. وأفدح من ذلك كله أنهم صاروا يخرجون بأسلحتهم ويسطون على أموال الناس، ومن امتنع عليهم قتلوه باسم الدفاع عن مساوئ المجتمع(1). ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل صار الناس يدفعون لهم الأموال لقاء القضاء على أعدائهم(2). وإذا تجرأ أحد وشكا أمرهم للسلطات، دفع حياته ثمنا بحيث انتشرت كمائن الزعر وكثرت الإِغتيالات(3).

---

(1) إعلام الورى، صص. 118–119، 127؛ ومفاكهة، ج 1، صص. 177، 204، 213–214، 238–239 و181.

(2) مفاكهة، ج 1، صص. 181، 207، 278–279، 293؛

وإعلام، ص. 175 و181؛ ونصار، ص. 102.

(3) مفاكهة، ج 1، ص. 204.

(1/8678)

وأغرب من كل ذلك أنه جرت العادة إذا وجد قتيل في محلة ما، مجهول قاتله، غرم أصحاب حوانيت المحلة أو سكانها بديته، وتختم حوانيتهم ريثما يتم تسديد الدية(1).

* العلاقة بين فئات المجتمع الدمشقي: دخل معظم المماليك إلى مصر وبلاد الشام صغارا، وتربوا تربية إسلامية من حيث اعتناق الدين فقط لأنهم عاشوا الطباق(2)، وأشرف على تربيتهم الطواشية،

---

(1) نفسه، صص. 238–239.

(2) القلقشندي، ج 3، صص. 375–376؛ Précis de l'Histoire d'Egypte, par divers historiens et archéologues, t 2, Institut Français de Damas, 1932, p. 240.

(1/8679)

ومقدموهم(1)، الذين هم بدورهم يتحدرون من المماليك، فضلا عن بعض رجال الدين. وقد جهدوا كي يتخرج طلابهم منضبطين طائعين لرؤسائهم، ومنعوا في بداية العهد المملوكي من التزاوج من بنات البلاد والاِختلاط بالسكان، فانعكس الأمر سلبا على الاِنصهار الاِجتماعي. وشعر المماليك باستمرار بأنفة واستعلاء بما حظوا به على مختلف الأصعدة المادية والاِجتماعية والحظوة عند أمرائهم وعند السلاطين أيضا.

---

(1) الظاهري، زبدة، ص. 122.

(8680/1)

وازداد الوضع سوءا عندما جيء بالمماليك كبار السن، أي »الجلبان« ممن ثقل عليهم العيش في بلادهم، أو كانوا قد امتهنوا حرفة أو مهنة، فانخفض مستوى تعليم المماليك في الدين والتدريب على حد تعبير المقريزي(1).

لقد أدى كل ذلك إلى انفصام بين الحكام والأغراب وجهازهم العسكري من جهة، والسكان من جهة ثانية. فلم يدرك السلاطين أهمية السكان في منعة الدولة

وتطور المجتمع، ولم يشذ نائب دمشق عن هذه

---

(1) بولاق، خطط، ج 3، صص. 347–348. ولمزيد من التفاصيل حول تربية المماليك ومميزاتهم، انظر: ضومط، الدولة المملوكية، صص. 28–38.

(8681/1)

القاعدة، وحذا الجهاز العسكري الدمشقي الخطى عينها. فاعتبروا السكان –كل السكان– مصدرا ماليا لا ينضب، وخدما لرفاهيتهم، فاعتمدوا أساليب لا يقرها الشرع الإسلامي ولا أي شرع آخر، ولعل أبرز تلك الأساليب الملتوية:

* الرمي: وأصله أن تفرض على حارة أو حي بأكمله مبالغ من المال دية لقتيل وجد فيها لم يعرف قاتله عملا بالمذهب الحنفي(1)، ولكن المذهب المذكور أجاز دفع الدية لأهل القتيل إنما بدمشق صار النائب أو من ينوب عنه يستوفي مبالغ طائلة يدفع –إن دفع– قسما

---

(1) البصروي، ص. 198، هامش رقم 1؛ ونصار، العامة، ص. 320.

ضئيلا منها دية ويحتفظ ببقية المال. حتى غدا الأمر سياسة مالية اجتماعية انتهجتها الطبقة العسكرية وافتن المماليك باختلاق الذرائع تبريرا لهذه الأسباب الملتوية. فتذرع نائب دمشق بفقدان الأشخاص بمحلة ما من دون التثبت من أن الغائب قتل أو أنه غاب من المحلة موضوع الرمية ليفرض الرمي على سكانها(1). وغدا الرمي آفة مادية اجتماعية بحيث تذرع نائب دمشق بمختلف الاِجتهادات ليفرض المال على أهل دمشق مثل ملاقاة قافلة الحج(2)، أو ليسدد من تولى وظيفة برشوة مالا للنائب الذي كان يشترط

(1) البصروي، ص. 179.

(2) إعلام، ص. 157.

عليه لقبوله في المنصب الجديد الرمي على الحارات والأحياء(1)، أو بسبب الصراع بين مملوك وأحد الأهالي(2)، وبات الرمي مصدرا ماليا شبه ثابت إذ فرض

لتسديد نفقات الحملات العسكرية وغير ذلك من أنماط الاِحتيال التي ابتدعها نائب دمشق ومعاونوه(3).

---

(1) مفاكهة، ج 1، ص. 247

(2) نفسه، ص. 249

(3) انظر ابن طولون في أماكن متعددة في كتابيه: مفاكهة، ج 1، صص. 275، 289، 316، 342–343 وغيرها؛ وإعلام، 171، 178، 205، 208، 222 وغيرها.

(8684/1)

---

* الطرح: وهو بيع قسري يفرضه نائب دمشق على التجار وبأسعار يرتئيها كأن يملك سلعا يريد التخلص منها أو أن يشتري سلعا من الأسواق بالسعر الذي يرتئيه ثم يعيد بيعها قسرا بثمن

أغلى، أو نهب سلع ما يمكن أن تكون فاسدة ويلزم التجار بشرائها(1).

* المصادرة: وهي مصادرة أموال الناس من دون حجة شرعية. وقد بررها السلاطين ونواب دمشق كيفيا، حينا من دون سبب وجيه كحاجة السلطان إلى المال فيرسل قاصدا من عنده ويحدد قيمة المبلغ الذي تجب مصادرته(2)

(1) **البصروي، ص.** 110؛ **مفاكهة، ج** 1، **صص.** 41، 44–45، 119، 231، 292.

(2) **مفاكهة، ج** 1، **ص.** 78، 91.

(1/8685)

، أو لسبب لا يمكن الركون إلى صوابيته وهو تسديد نفقات الحملات العسكرية للدفاع عن الأطراف الشمالية لبلاد الشام، أو حملات تخدم النائب نفسه خصوصا عندما يثور على السلطان بقصد احتلال منصبه(1). والمصادر المملوكية عامة والدمشقية خاصة مليئة بأسباب المصادرات وأنواعها، التي غدت عادة يلجأ إليها الحكام للحصول على الأموال من دون مشقة، وكأنهم لم يكفهم استيلاؤهم على معظم الدخل في دمشق.

(1) **المقريزي، السلوك، ج** 3، **ق** 3، **ص.** 1145؛ **مفاكهة، ج** 1، **ص.** 108، 209، 291.

(1/8686)

---

* المشاهرة والمجامعة: وهي كناية عن مال شهري يفرض على الأسواق لصالح السلطان أو نائب دمشق. فعمد التجار إلى رفع أسعار سلعهم كي يتمكنوا من تسديد المتوجب عليهم، واستغلوا الأمر لزيادة الأسعار أكثر مما تقتضيه المشاهرة، وبالتالي وقع سكان دمشق ضحية للتجار والحكام معا(1)

* تعديات متنوعة: مارس المماليك تعديات متنوعة، لا يمكن دراستها كلها في هذا البحث لأنها وحدها تشكل بحثا قائما بذاته. وسأكتفي بذكر أبرزها أو عناوينها: كالنهب الذي طالما تعرضت

---

(1) مفاكهة، ج 1، ص. 287، 374؛ إعلام، ص. 187؛ ونصار، العامة، ص. 326.

(8687/1)

له دمشق في مناسبات عديدة من دون أن يلقى المنكوبون إنصافا في أكثر الأحيان(1).

* تجاوزات الأجناد: تعرضت دمشق لأنواع رهيبة من التعديات الناتجة عن ممارسة الجند سواء منهم الذين أقاموا فيها أو الذين قدموا إليها لأكثر من سبب. وفي الحالين معا سام الجند الدمشقيين

أنواع الاِعتداءات في أملاكهم وأرزاقهم ونسائهم، إضافة إلى زهق الأنفس(2)

---

(1) البصروي، ص. 125، 176؛ مفاكهة، ج 1، ص. 132، 167، 158، 199، 222؛ إعلام الورى، ص. 79، 99، 119، 187، 209

(2) مفاكهة، ج 1، ص. 17، 92، 100، 101، 127، 208، 214، 222، 260، 286 وغيرها؛ إعلام الورى، ص. 79، 119؛ وانظر: نصار، العامة، صص. 327–331.

(8688/1)

.

* موقف الدمشقيين: لم يتقبل الدمشقيون الواقع المرير بسهولة، وأدركوا أنهم مغلوبون على أمرهم، وأن إصلاح الحكام إصلاحا جذريا غير ممكن، فحاولوا جاهدين تغيير المعادلات باللجوء إلى الوسائل الدينية في معظم الأحيان، وعبروا عن مواقفهم بما أوتوا من إمكانات محدودة.

هرعوا إلى رجال الدين الذين ينطقون باسمهم إن لم نقل أنهم ممثلوهم، وعلى اعتبار أن لهم منزلة مهمة قد يقدرها الحكام؛ وقد نجحوا أحيانا في رفع الحيف عن

المظلومين(1). وفي حال فشلت

---

(1) مفاكهة، ج 1، ص. 6، 64، 79، 160، 215؛ إعلام الورى، صص. 96، 97.

(1/8689)

الوساطة، اعتمدوا بدائل أخرى كالِاحتجاج السلمي وهو المعروف بالتكبير –النزول إلى الأسواق هاتفين: الله أكبر– وهو تدليل على أن الله ينصر المظلومين وبالتالي دعوة إلى أهل الظلم إلى الثوب لرشدهم. وتم التكبير في الشوارع باعتراض مواكب النائب أو أحد مساعديه، وفي الجوامع، وكان القضاة والعلماء يتقدمون تأكيدا على استرجاع حق سليب ولإضفاء الصفة الشرعية على المظاهرة علَّ الحكام يرعوون. وكانت تلك المظاهرات تخيف المماليك بوجه عام، بما تخلق من حالات عدم الِاستقرار التي قد ينفذ من خلالها المصطادون في الماء العكر

(1/8690)

للإخلال بالأمن أو للتعدي على من يجدون من المماليك منفردين(1).

وكان لفشل تلك المساعي آثار سيئة على الوضع العام في دمشق أدى إلى يأس العديد من متوسطي الحال، إذ أن التعديات المتكررة حولتهم إلى ما دون الوسط، وعجزوا، بالتالي عن تأمين أود الحياة فسلكوا دروب الجريمة المتنوعة، فازدهرت أعمال اللصوصية والحرامية، وكثرت الجرائم، ومناسر الليل، والسرقات(2)

---

(1) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج 1، صص. 8–9، 41، 65، 79، 124، 125، 227، 299، 234.

(2) البصروي، صص. 183، 207، 219، 239. أما مفاكهة الخلان، فهو مليء بأخبار الجرائم واللصوصية وغيرها من المفاسد؛ سأكتفي بذكر بعض الصفحات فقط (ج 1، ص. 17، 92، 153، 164، 177، 204، 225، 234، 257)؛ وإعلام، ص. 122، 136، 164، 181، وغيرها كثير.

(8691/1)

. وانخرط بعضهم في منظمات الزعر، ممَّا زاد الطين بلة، وساءت، بوجه عام، أحوال الدمشقيين. كما حفل المجتمع بأنواع المفاسد الأخلاقية نتيجة لممارسات الحكام

الجائرة وبسبب الفقر واليأس والكفر إن جاز التعبير.

ولعل أبرز تلك المفاسد الدعارة على أنواعها(1) والتحشيش(2) وما إلى ذلك

---

(1) سلوك، ج 4، ق 3، صص. 1066–1067؛ السبكي، معيد النعم، صص. 35–36؛ ومفاكهة، ج 1، صص. 93–94، 142–143، 204–205، 297.

(2) البصروي، صص. 101–102؛ ومفاكهة، ج 1، صص. 7–9، 65.

(1/8692)

من المؤسف حقا أن تنتهك القيم المشرقية عامة والإسلامية خاصة في المجتمع الدمشقي. فالمماليك هم في واقع الأمر أغراب اكتسبوا حديثا الإسلام دينا ولم يتثقفوا بعمق بمبادئه وقيمه الأخلاقية، ولا هم انخرطوا اجتماعيا في مظاهر الحياة التي عاشها كل الدمشقيين المدنيين أو تحسسوا روعتها وإنسانيتها، وبالتالي لم ينظروا إلى الدمشقيين على أنهم في أساس الحياة المرفهة التي عاشها المماليك ولم يقدروا الإنسان فيهم، إنما نظروا إليهم دائما بامتهان واستعلاء. وقد

تأتت كل تلك العلل من سوء تدبير القادة لتأصل عاداتهم الأصلية

(1/8693)

في نفوسهم، ولامتناعهم عن فرض عقوبات صارمة على من يعتدي، ولاعتمادهم »الياسة« قانونا عوضا عن الشرع. ويعوزني التعبير الصحيح لشرح تلك المعادلة بين الأغراب والأهلين ولا يمكنني في هذه العجالة دراسة كل الممارسات التي عاشها المجتمع المملوكي الدمشقي، كما لا يمكن الإِحاطة بكل الجوانب الاِجتماعية لدمشق المملوكية، إنما هذا نموذج عن بعض جوانب الحياة الاِجتماعية في المدن المشرقية والإِسلامية في العصور الوسطى، قد يلقي أضواء على الحركية الاِجتماعية نأمل أن تتبعه دراسات أخرى لما فيه إفادة للمكتبة العربية.

(1/8694)

مصادر البحث ومراجعه

أولا – المصادر العربية:

ابن أبي صبيعة (أحمد بن القاسم)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق أوغست مللر، القاهرة، 1822.

ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، بولاق، 1311هجري.

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة الأهلية، باريس، 1874–1879.

ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، طبعة دار الكتب، القاهرة، 1930–1956.

ابن جبير (حسين)، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، 1961.

(1/8695)

ابن جماعة (بدر الدين محمد)، تذكرة السامع والمتكلم في آداب العلم والمتعلم، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، 1353هـ

ابن طولون (شمس الدين محمد)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، نشر محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1962–1964

إعلام الورى بمن ولي من الأتراك بدمشق الشام الكبرى،

تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، 1984.
»ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر«، مجلة المشرق، بيروت، 1937.
نقد الطالب لزغل المناصب، حققه محمد أحمد دهمان وخالد محمد دهمان، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1992.

(1/8696)

الثغر البسام في ذكر من تولى قضاء الشام، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، 1956.
القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق، 198.

ابن كثير (عماد الدين إسماعيل)، البداية والنهاية في التاريخ، مكتبة المعارف، بيروت، 1966.
البدري (أبو البقاء عبد الله)، نزهة الأنام في محاسن الشام، القاهرة، 1341هـ
البصروي (علي بن يوسف الدمشقي)، تاريخ البصروي، تحقيق أكرم العلبي، دار المامون للتراث، دمشق، 1988.

(1/8697)

الخالدي (مجهول الاِسم الأول)، المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإِنشا، مخطوط حققه خليل شحادة، أطروحة دكتوراه بإشراف الأب الدكتور جان فييه غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، 1988.

الدينوري (نصر بن يعقوب)، التعبير في الرؤية، مخطوط في متحف بغداد، رقم 598.

السبكي (تاج الدين)، معيد النعم ومبيد النقم، دار الحداثة، بيروت، 1983.

الصفدي (خليل بن إيبك)، تحفة ذوي الألباب، وزارة الثقافة، دمشق، 1991.

الصولي (محمد بن يحيى)، أخبار الراضي بالله والمتقي بالله، مطبعة الصاوي، مصر، دون تاريخ.

(1/8698)

الطبري (محمد بن جرير)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1960–1969.

الظاهري (خليل بن شاهين)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، 1891.

العمري (ابن فضل الله)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،

تحقيق دوروتيا كراوفولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت، 1986.

المسعودي (أبو الحسن)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل بلا، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، 1973.

(1/8699)

المقريزي (تقي الدين أحمد)، المواعظ والإِعتبار بذكر الخطط والآثار، بولاق، 1270هـ؛

السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار الكتب، القاهرة، 1934–1936.

النعيمي (محيي الدين عبد القادر محمد)، الدارس في تاريخ المدارس، مطبعة الترقي، دمشق، 1948.

المراجع العربية

الدوري (عبد العزيز)، مقدمة في تاريخ صدر الإِسلام، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1960.

العلبي (أكرم)، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، 1986.

(1/8700)

سوفاجيه (جان)، دمشق، نقله إلى العربية فؤاد أفرام البستاني، حققه أكرم العلبي، دار الوارف، دمشق، 1989.

زيادة (نقولا)، دمشق في عصر المماليك، مؤسسة فرانكلن للطباعة والنشر، بيروت–نيويورك، 1966.

سعد (فهمي)، العامة في بغداد في القرنين 3 و4 الهجريين، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1983.

ضومط (أنطوان)، الدولة المملوكية: التاريخ السياسي والإِقتصادي والعسكري، دار الحداثة، ط 2، بيروت، 1981.

كرد علي (محمد)، خطط الشام، مطبعة الترقي، دمشق، 1927.

(8701/1)

عزب (خالد)، »الأحياء السكنية«، مجلة الوعي الإسلامي، العدد 327، السنة 30.

لابيدوس (إيرا مارفين)، مدن الشام في عصر المماليك، نقله إلى العربية سهيل زكار، دار حسان، دمشق، 1985؛ وترجمة الدكتور أنطوان ضومط (غير منشورة). الجامعة اللبنانية، كلية الآداب الفرع الثاني– الفنار، 1997.

نصار (أندريه)، العامة بدمشق المملوكية، رسالة دبلوم

دراسات عليا بإشراف الدكتور أنطوان ضومط، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، الفرع الثاني – الفنار، 1997.

Bibliographie

(8702/1)

Ashtor, E, Histoire des Prix et des Salaires dans l'Orient Médiéval, Ecole Pratique des Hautes Etudes, Paris, 1959.

Ayalon, D, «The Muslim City and the Mamluk Aristocracy », Proceeding of the Israel Academy of Sciences and Humanities, 2(Jerusalem 1968), pp. 311–329.

(8703/1)

حركات المقاومة للدولة الموحدية (حركة بني غانية نموذجاً)

... ... الدكتور عبد القادر عثمان محمد جاد الرب

... جامعة أمدرمان الإسلامية ـ السودان

... ينتمي بنو غانية إلى قبيلة مسوفة البربرية.

وسلفاهم هما يحيى ومحمد ابنا علي بن يحيى المسوفي، اشتهرا بابني غانية نسبة إلى أمهما غانية. حظي والدهما بمنزلة رفيعة في الدولة المرابطية، الأمر الذي مهد لهما الطريق لتسلق سلم المجد بخطى سريعة وثابتة. عُيِّن يحيى، وهو أكبرهما ويجمع بين السيف والقلم، والياً على غرب الأندلس عام 520 هـ/ 1126 م من قبل الخليفة

(1/ 8704)

المرابطي علي بن يوسف (ت 537 هـ/ 1142 م)، وظل في منصبه حتى وفاته بمدينة غرناطة (Granada) عام 543 هـ/ 1148 م.

... تميزت فترة يحيى باستتباب الأمن، نسبيّاً، في منطقة حكمه، والاهتمام بإصلاح حال الرعية. وقد كان يعاونه في ذلك أخوه محمد، الذي كان والياً من قبله على قرطبة (Gordova). لم يخلف يحيى عقباً يحل مكانه. وقد بدأت أحوال الأندلس تضطرب بعد وفاته، وتسير في غير صالح المرابطين(1)

---

(1) ... عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار

المغرب، ضبط وتحقيق وتعليق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط 7، الدار البيضاء، 1978، صص. 385 ـ 386؛ دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد ثابت وأحمد الشنتناوي وزكي خورشيد ويونس عبد الحميد، ج 1، ص. 246؛ Terrasse, Histoire du Maroc, des origines à l'établissement du protectorat français, Casablanca, sans date, vol. 1, p. 328.

(8705/1)

.

... أما عن مصير محمد بعد وفاة أخيه يحيى، فقد تضاربت حوله الروايات. فهناك رواية تقول إنه قد درس أحوال الأندلس بتمعن وتبصر، فخلص إلى نتيجة مفادها أن الرياح ستهب في غير اتجاهه في نهاية المطاف، وأن الحكمة تقتضي البحث عن مكان آمن، والقيام بالتحركات اللازمة التي من شأنها ضمان أمنه وأمن أسرته وخاصته وممتلكاته، واستمرار مصالحه. فوقع اختياره على جزيرة ميورقة (Mallorca)، فارتحل إليها وملكها؛ كما ملك الجزيرتين المجاورتين لها: مِنُورقة (Ménorca) ويابسة. وهذه الجزر الثلاث من جزر البحر الأبيض المتوسط أما

عن الكيفية التي ملك بها هذه الجزر، فيشير المراكشي إلى أن الخليفة علي بن يوسف قد نفاه إليها(1)، دون أن يوضح أسباب النفي، في حين يقول ابن خلدون إن النصارى حينما استولوا على ميورقة وقتلوا عاملها، ثم استعادها المرابطون، وعينوا عليها وانور بن أبي بكر اللمتوني، فكر هذا الأخير في ترحيل أهلها إلى مكان بريٍّ آمن .ويبدو أن صعوبة وصول الإمدادات العسكرية إلى الجزيرة، وتحرش الأعداء بها هما اللذان دفعاه إلى ذلك. فشاور أهلها، فلم يستحسنوا الفكرة، وعارضوه بقوة،

(1) المراكشي، المصدر السابق، صص. 386 ـ 387.

ثم راسلوا الخليفة علي بن يوسف وشرحوا له الأمر، فعزله، وعين عوضاً عنه محمد بن علي بن غانية، وكتب لأخيه يحيى بن علي غانية ليخلي سبيله، وقد كان. وبعد وصول محمد إلى ميورقة، وضع الأغلال على وانور، وأرسله إلى مراكش(1).

... رزق محمد بن علي من الأبناء: عبد الله وإسحاق والزبير وطلحة وعدداً من البنات. أما أخوه يحيى، فقد كان عقيماً. لذلك بعد وفاته، عُيِّن على غرناطة

---

(1) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدإ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، 1959، ج 6، ص. 505 ـ 506.

(8708/1)

(Granada) وقرمونة(1) (Carmona) اثنان من أبناء أخيه محمد، ولكن الأخير استدعاهما للالتحاق به بميورقة بعد وفاة الأمير علي بن يوسف سنة 537 هـ/ 1142 م، واضطراب الأحوال بالأندلس. وبرحيلهما انطوى مُلْكُ لمتونة(2) بالأندلس(3)

---

(1) قرمونة ((Carmona: تقع على بعد 20 ميلاً إلى الشرق من مدينة إشبيلية (Sevilla) (الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1975، ص. 461). وانظر الخريطة المرفقة في نهاية الدراسة.

(2) لمتونة: هي إحدى القبائل الصنهاجية التي تعمر

صحاري المغرب الأقصى.

(3) المراكشي، المعجب . . .، ص. 387؛ وابن خلدون، العبر . . .، ج 6، ص. 506؛ Terrasse, op. cit., p. 328.

(1/8709)

. وفي ميورقة استمر بنو غانية في الدعوة للعباسيين جرياً على عادة أسلافهم المرابطين.

... حاول محمد بن علي حسم مسألة الولاية من بعده في حياته، فاختار ابنه عبد الله خليفة له. لكن ابنه إسحاق لم يرضه الاختيار، فنفس على أخيه عبد الله، ثم اغتاله هو ووالده بمساعدة بعض اللمتونيين الموالين له، واستبد بالحكم، وذلك في عام 546 هـ/ 1151 م.

... قام إسحاق بتنظيم الإدارة، وضبط الأمن، كما اهتم بتهيئة الظروف الملائمة للمحتمين به. لذلك أصبحت ميورقة (Mallorca) في عهده قبلة للمتونيين الفارين من بطش الموحدين،

(1/8710)

والرافضين للخضوع لسلطة الأخيرين. كان إسحاق مهتمّاً بالجهاد، ويظهر ذلك من غزوه لبلاد الروم مرتين في العام. وقد كان هذا الغزو يعود عليه بغنائم كثيرة؛ لذلك كثر ماله وتشبه بالملوك(1).

... خلف إسحاق ابنه محمد، الذي خلعه إخوته بعدما اطلعوا على مبايعته للموحدين، وعينوا أخاه عليّاً مكانه(2)

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 506؛ المراكشي، المعجب...، صص. 387 ـ 388؛ Terrasse, Ibidem, p. 328.

(2) ابن خلدون، المصدر نفسه، ص. 507؛ وابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق الكتاني وآخرين، ط 8، بيروت، 1985، ص. 175.

(8711/1)

.

... أدّى الاختلاف في الانتماء القبلي بين الموحدين والمرابطين (حيث ينتمي مؤسس الدولة الموحدية إلى قبيلة هرغة(1) ـ أحد فروع مصمودة ـ وخليفته عبد المؤمن بن علي، الذي استمر حكم الدولة حكراً على عقبه،

إلى قبيلة كومية(2)؛

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، 1966، ج 10، ص. 569.

(2) للمزيد عن عبد المؤمن، انظر: عبد القادر عثمان محمد جاد الرب، الموحدون بإفريقية، رسالة قدمت لنيل دبلوم الدراسات العليا في كلية الآداب بالرباط، 1991، وموجودة بخزانة الرسائل بالكلية تحت الرقم 956,05/ جاد، صص. 47 ـ 52.

(8712/1)

بينما ينتمي بنو غانية والمرابطون إلى قبيلة لمتونة) والاختلاف في الانتماء المذهبي (حيث يتبنى الموحدون مذهباً يعتمد على الكتاب والسنة ويرفض ما عداهما، بينما يتبنى المرابطون وبنو غانية المذهب المالكي) ورغبة بني غانية في الثأر لبني عمومتهم حكام الدولة المرابطية، ولأنفسهم، واستعادة مجدهم المسلوب، أدى ذلك كله دوراً بارزاً في تحديد نوعية العلاقات السياسية بين بني غانية والموحدين، وتوجيهها وتغذيتها.

... اتسمت العلاقات السياسية بين إسحاق بن محمد بن

علي بن غانية والموحدين بتبادل الود والاحترام، حيث اعترف

(8713/1)

الأول بسلطة الأخيرين على إمارته منمنياً عن طريق الهدايا التي كان يرسلها إليهم، والتي كانت تتضمن التحف والعلوج. أما الموحدون، فقد اكتفوا بهذا القدر من العلاقة مع إسحاق في هذه المرحلة الأولى، منتظرين اللحظة المناسبة لمطالبته باعتراف مباشر بسلطتهم عليه. وبالفعل، فقد راسلوه في عام 578 هـ/ 1182 م، مطالبين منه المبايعة والدعوة لهم في إمارته. فجمع إسحاق وجهاء قومه وعليتهم وخاصته، وشاورهم في الأمر، فتفرقت كلمتهم أيدي سبا. فاضطر إلى تأجيل الأمر إلى أن تأتي اللحظة المناسبة. غير أن المنية اختطفته في عام

(8714/1)

---

579 هـ/ 1183 م في إحدى غزواته للروم(1).

... خلف إسحاق ابنه محمد، فراسل الموحدين مبايعاً، من

غير أن يعلم إخوته، أو يستشيرهم في ذلك فبعث إليه الموحدون وفداً برئاسة القائد أبي الحسن علي بن الربرتير(2)

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 506؛ المراكشي، المعجب...، صص. 387 ـ 388؛ Terrasse, op. cit., p. 328.

(2) أبو الحسن علي بن الربرتير: ورد ابن الربرتير، وهو قائد رومي كانت له مكانة مرموقة في الأندلس بين القواد الذين كانوا يحاربون إلى جانب تاشفين بن علي المرابطي ضد الموحدين، وقد قتل أثناء ذلك ولذلك، فإننا نرجح أن علياً هو ابنه، دخل دعوة الموحدين بعد انتصارها، فأكرموا مثواه. ولما تبين لهم صدق نواياه، وما يتوفر عليه من صفات القيادة جعلوه قائداً من قوادهم. (ابن عذاري، البيان المعرب...، قسم الموحدين، صص. 18 ـ 20؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة...، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، 1964، ط 1، ص. 78).

(8715/1)

، للتأكد من حسن نواياه. فلما علم إخوة إسحاق بالأمر، جردوه من السلطة، وعينوا أخاه علياً عوضاً عنه. ولما

علموا بوفاة الأمير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في 18 ربيع الآخر 580 هـ/ 29 يوليوز 1184 م، وضعوا ابن الربرتير في الحبس(1).

... يشكل اختيار بني غانية لأخيهم علي للولاية بميورقة البداية الحقيقية لتوتر العلاقات بينهم وبين الموحدين وتحولها إلى نزاع مسلح. فقد انتهز علي فرصة انشغال الموحدين بوفاة الأمير يوسف بن عبد

---

(1) ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 507؛ ابن عذاري، البيان المغرب...، تحقيق الكتاني، ص. 175.

(8716/1)

المؤمن، والبيعة لابنه يعقوب المنصور ووجود معظم جيوشهم بالأندلس، فهاجم مدينة بجاية(1)

---

(1) بجاية: مدينة تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وتتميز بالحصانة حيث تحيط بها الجبال من ثلاث جهات، وميناؤها جيد، ويوجد بالقرب منها. اختارها الناصر بن علناس بن حماد لتكون عاصمة لملكه عوضاً عن مدينة القلعة بعد اشتداد ضغط عرب بني هلال على إمارته، وشرع في بناء المرافق اللازمة لدولته في عام

457 هـ/ 1064 م. الحميري، الروض المعطار ...، صص. 80 ـ 82؛ الإدريسي، نزهة المشتاق ...، ص. 91؛ مجهول المؤلف، الاستبصار ...، نشر سعد زغلول، الإسكندرية، 1958، صص. 128 ـ 130؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج 3، صص. 350 ـ 353؛ وانظر الخريطة المرفقة.

(8717/1)

واستولى عليها، ثم وضع كل من وجده بها من الموحدين في الحبس، وذلك في عام 581 هـ/ 1185 م. فهل كان اختياره لبجاية خبط عشواء؟

... اعتبرت بعض المصادر المعاصرة للفترة موضع الدراسة، والتي يتميز كتابها بالانحياز للدولة الموحدية، بأن احتلال ابن غانية لبجاية مؤامرة ساهم في تدبيرها وتنفيذها معه بقايا بني حماد(1)

---

(1) بنو حماد: نسبة إلى حماد بن بلقين مؤسس دولتهم، التي استمرت حتى ضمها عبد المؤمن بن علي إلى ملكه 547 هـ/ 1152 م، وكان آخر من حكمها يحيى بن العزيز الذي توفي بمدينة سلا عام 558 هـ/ 1162 م؛ ابن عذاري، البيان المغرب ...، تحقيق الكتاني وآخرين، صص. 46 ـ 47؛ وابن خلدون، مصدر سابق، صص. 363 ـ 364؛ الناصري،

الاستقصا ...، تحقيق ولديه: جعفر ومحمد، الدار البيضاء، 1954، ج 2، ص. 121؛ المراكشي، المعجب ...، صص. 298 ـ 300.

(8718/1)

الكائنين بالمدينة؛ ثم تبنّت وجهة نظرهم هذه بعض المصادر التي جاءت بعدها(1). يرى الدكتور عبد الهادي التازي أن ملك صقلية (Sicilia) كان طرفاً في هذه المؤامرة، التي كان يرجو من خلالها استعادة هيمنته على المدن الساحلية الإفريقية، وبسط سيطرته على طرق التجارة المارة بها(2)

---

(1) المراكشي، مصدر سابق، صص. 389 ـ 390؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 11، ص. 507؛ الزركشي، تاريخ الدولتين، تونس، 1298 هـ، ص. 15؛ ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 507.

(2) عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب ...، المحمدية، 1987، ص. 19.

(8719/1)

. ويؤيد وجهة النظر هذه ما أورده ابن جبير في رحلته، والذي مفاده أن ملك صقلية غليام أصدر أوامره بمنع جميع السفن الراسية بمملكته من التحرك، إلا بعد تحرك أسطوله الذي أعده، والذي يريد توجيهه إلى منطقة ما قيل إنها إفريقية. وكذلك تزامن هذا المنع مع ورود أنباء من المغرب مفادها استيلاء ابن غانية على مدينة بجاية(1).

... بعد أن ثبت ابن غانية أقدامه ببجاية، وأعاد الدعوة للعباسيين بها(2)، جرياً على نهج أسلافه المرابطين، فكر

---

(1) ابن جبير، رحلة ابن جبير، بيروت، 1964، ص. 310.

(2) المراكشي، المعجب ...، ص. 391.

(8720/1)

في الاستيلاء على مدن المغرب الأوسط: فتحرك بجيوشه، واستطاع الاستيلاء على مدينة الجزائر، ومليانة(1) وقلعة بني حماد(2). وبهذا يكون قد امتلك كل

---

(1) مليانة: مدينة في أحواز أشير من أرض المغرب بين مدينة تنس والمسيلة، وبقرب نهر سلف. وهي تدخل

ضمن منطقة الزاب. (الحميري، الروض المعطار ...، ص. 547)، وهي اليوم تمثل جزءاً من دولة الجزائر. (وانظر كذلك الخريطة المرفقة).

(2) المراكشي، المعجب ...، ص. 391؛ Unesco, General History of Africa, Edited by D. T. Niane, vol. IV, University of Calefornia Press, 1984, p. 46.

(8721/1)

أعمال بجاية إلا مدينة قسطنطينة(1) الهوى، التي استعصت عليه، فضرب عليها حصاراً(2).

... نجم ابن غانية في اقتطاع أجزاء من دولة الموحدين وضمها لملكه، وفي الوقت نفسه شغلهم عن مهاجمة ميورقة . دار

---

(1) قسطنطينة: أوردها الحميري. قسنطينة: تبعد عن بجاية ستة أيام (150 ميلاً تقريباً)، وهي مدينة حصينة. (الحميري، الروض المعطار ...، صص. 480 ـ 481).

وقسطنطينة اليوم مدينة بالجزائر. (وانظر الخريطة المرفقة).

(2) ابن الأثير، مصدر سابق، ج 11، ص. 507؛ رسائل

موحدية، إصدار إ. ليفي بروفنسال، الرباط، 1941، صص. 173 ـ 174.

(1/8722)

ملكه ـ مهتدياً بالمثل القائل: الهجوم خير وسيلة للدفاع(1). ولكن هل دام نجاحه؟

... كان يعقوب المنصور بسبتة (Seuta) حينما كان ابن غانية يصول ويجول بالمغرب الأوسط فأتته الأخبار هنالك فأعد جيشاً أسند قيادته إلى السيد أبي زيد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن. كما أعد أسطولاً بحرياً بقيادة أبي إسحاق بن جامع، ومعاونة أبي محمد بن عطوش، وأحمد الصقلي، وأمر الجميع بالتوجه للمغرب الأوسط لكسر

---

(1) Cambridge History of Africa, Prepared by a number of writers, vol. III, Cambridge University Press, 1977, p. 246

(1/8723)

شوكة ابن غانية.

... نزل الأسطول بالجزائر فامتلكها بسهولة ويسر؛ ثم تحرك نحو بجاية فاستردها، ولم يكن أمام عاملها يحيى بن غانية إلا اللحاق بأخيه علي الذي كان محاصراً لمدينة قسطنطينة (قسنطينة).

... أما السيد أبو زيد، فقد حطت رحاله بمدينة تلمسان(1)، التي كانت تحت ولاية أخيه أبي الحسن. وربما يكون ذلك للتشاور معه في الاستراتيجية التي

---

(1) تلمسان: تبعد عن مدينة وهران بمرحلتين (50 ميلاً تقريباً(. (الحميري، الروض المعطار ...، ص. 135). وهي اليوم ضمن أراضي دولة الجزائر. (وانظر الخريطة المرفقة لمعرفة الموقع).

(8724/1)

سيتخذها لمواجهة الأعداء، بحكم أنه أقرب إلى مسرح الأحداث، وأعلم بجغرافية المنطقة ومشاعر أهلها اتجاه الموحدين وخصومهم. ثم تحرك من تلمسان معلناً العفو عن كل من ثاب إلى رشده، وجدد ولاءه للدولة من المتمردين، بصفة ذلك استراتيجية لشق صفوف الأعداء وتفريق كلمتهم، فنزل بقسطنطينة، وفك حصارها. فلم

يكن أمام ابن غانية من سبيل إلا اللوذ بالصحراء.

فتبعته الجيوش الموحدية إلى مدينة مقرة(1)

---

(1) مقرة: مدينة صغيرة بينها وبين المسيلة من بلاد الزاب مرحلة (25 ميلاً)، وبينها وبين طينة مرحلة، وبين طينة وبجاية ست مراحل (150 ميل). (الحميري، الروض المعطار ...، ص. 555؛ وانظر الخريطة المرفقة لتكوين فكرة تقديرية عن الموقع).

(8725/1)

ونقاوس(1)، ثم رجعت إلى بجاية واستقرت بها، ومنها استطاعت استرجاع أشير(2)، التي استولى عليها غزي الصنهاجي،

---

(1) نقاوس: من بلاد الزاب، وهي مدينة صغيرة كانت تمون قلعة بني حماد وبجاية بالجوز، ومنها إلى المسيلة أربع مراحل، وقيل ثلاث، ومنها إلى بسكرة مرحلتان. (الحميري، الروض المعطار ...، ص. 579؛ وانظر الخريطة المرفقة لتكوين فكرة تقديرية عن الموقع).

(2) أشير: بلدة أو حصن، بينها وبين المسيلة مرحلة. وهي من بلاد الزاب، بنى سورها زيري بن مناد الصنهاجي،

وهي تقع بين جبال شامخة. (الحميري، مصدر سابق، ص. 60).

(1/8726)

أحد قواد ابن غانية، وقتله(1).

... بعد نجاح الموحدين في استرداد بجاية ونواحيها، رأى يعقوب المنصور بثاقب فكره، ضرورة القيام ببعض التغييرات الإدارية والسياسية في إفريقية من أجل ضمان استتباب الأمن بها، وإخماد نار الفتنة في مهدها إذا اشتعلت من جديد، فاستدعى أبا زيد لمراكش، وعين في مكانه أخاه عبد الله، كما أجبر بني حمدون على بيع ديارهم وأملاكهم ببجاية بثمن بخس، ثم رحّلهم

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب ...، مصدر سابق، صص. 177 ـ 181؛ الزركشي، تاريخ الدولتين ...، ص. 16؛ ابن خلدون، العبر ...، ج 6، صص. 507 ـ 508.

(1/8727)

إلى مدينة سلا، وذلك لاشتباهه في ولائهم لدولته، وتعاطفهم مع بني غانية. أما ميورقة، فقد استطاع

ابن الربرتير أن يفلت من معتقله بها بمساعدة بعض الميورقيين، ثم توجه نحو مراكش. ولما علم علي بن غانية بذلك، أرسل أخاه عبد الله إلى ميورقة، فاستطاع تهدئة الأحوال بها وإعادة المياه إلى مجاريها(1).

... وضع الموحدون خططهم وتدابيرهم ـ كما رأينا ـ لإحكام قبضتهم على إفريقية وتوابعها. فهل وضعت هذه التدابير حدّاً لأطماع ابن غانية

---

(1) ابن عذاري، مصدر سابق، صص. 181 ـ 182؛ ابن خلدون، مصدر سابق، صص, 507 ـ 508.

(8728/1)

وحلفائه في المنطقة؟

... لم تثن الهزائم التي لحقت بابن غانية من عزمه على الثأر من الموحدين، بل زادته إصراراً. لكنه لما رأى استحالة استعادة سيطرته على بجاية ونواحيها، لتمركز جيوش الموحدين بها، نقل مسرح عملياته إلى إفريقية وطرابلس، ليبقى بعيداً عن مراكز قوة الموحدين، ولينظم صفوفه. فاستطاع الاستيلاء على مدينة قفصة(1)

---

(1) قفصة: مدينة من مدن بلاد الجريد، وهي تقع في موقع وسط بين القيروان وقابس. (الحميري، الروض المعطار ...، صص. 477 ـ 479). وهي اليوم مدينة كبيرة وعاصمة الجنوب الغربي التونسي. وانظر الخريطة المرفقة للوقوف على موقعها.

(1/8729)

، لكن مدينة توزر استعصت عليه، فتركها وانتقل إلى طرابلس(1).

... وجدت حركة ابن غانية في إفريقية تربة خصبة، حيث انضاف إليها الترك الذين جاءوا من مصر مع قائد يسمى قراقوش. أما عن سبب مجيئهم إلى إفريقية، فيقال إن صلاح الدين الأيوبي بعدما انتزع مصر من الفاطميين عام 567 هـ/ 1171 م، فكر في احتلال إفريقية لتكون ملجأً له في حالة سير الأوضاع في مصر في غير صالحه. وقد استطاع هؤلاء الأتراك الاستيلاء

---

(1) ابن خلدون، مصدر سابق، صص. 507، 508؛ الزركشي، تاريخ الدولتين ...، ص. 16؛ ابن عذاري، مصدر سابق، صص. 177 ـ 181.

(1/8730)

على زويلة(1) وفزان(2) وودان(3)

---

(1) زويلة: توجد في الصحراء قرب بلاد كانم من بلاد السودان، وهي بلدة صغيرة، تعد المدخل إلى بلاد السودان. (الحميري، مصدر سابق، صص. 295 ـ 296). انظر الخريطة المرفقة للوقوف على موقعها.

(2) فزان: كان اسم فزان يطلق على المنطقة الواقعة بين طرابلس شمالاً وتبستي جنوباً، وهي منطقة تتناثر فيها الواحات. (الحميري، مصدر سابق، من كلام المحقق، الهامش الأيسر، رقم 2، ص. 440). وفزان اليوم واحة جنوب ليبيا مشهورة بالتمر.

(3) ودان: هي واحة، وتوجد اليوم جنوب ليبيا. للوقوف على موقعها، انظر الخريطة المرفقة.

(8731/1)

وطرابلس. أما انضمامهم إلى ابن غانية، فقد قيل إنه تم بتوجيه من صلاح الدين الأيوبي، الذي راسله الخليفة العباسي راجياً مد يد العون والمساعدة لابن غانية، الذي يعتبر انتصاره انتصاراً للدولة العباسية، لأنه يدين لها بالولاء والطاعة(1).

... انضم إلى ابن غانية، أيضاً، بنو سليم(2)

---

(1) السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، بيروت، 1981، ج 2، ص. 803.

(2) بنو سليم: كانوا يقطنون المنطقة التي تلي المدينة المنورة بالحجاز، وكانوا حرباً على الدولة العباسية. ولما ظهرت فتنة القرامطة بالبحرين وعمان، انضافوا إليها، فرحلهم الفاطميون بعد إخماد الفتنة إلى جنوب مصر، ثم أذنوا لهم بعبور النيل والتوجه إلى إفريقية بعدما توترت العلاقة بينهم وبين المعز بن باديس، وقطعه الخطبة لهم، وإباحته للعن أئمتهم في المساجد. (ابن الأثير، مصدر سابق، ج 9، ص. 566؛ ابن خلدون، العبر...، ج 6، صص. 27 ـ 40؛ Terrasse, op. cit., pp. 294- 295).

(1/8732)

، وجملة من أعيان الأندلس القاطنين بإفريقية، من بينهم مالك بن محمد بن سعيد العنسي(1). هذا، إضافة إلى استمرار دعم النورمانديين حكام صقلية له(2)، والمعونات التي تصله من ميورقة، التي كانت مركزاً لمعارضي الموحِّدين، ومقرّاً للمعونات والتنسيق بين ابن

غانية وحلفائه من الأوروبيين.

... شعر ابن غانية في إفريقية بقوة مركزه، فتلقب بأمير المؤمنين(3)

---

(1) المقري، نفح الطيب ...، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968، ج 3، ص. 568.

(2) التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب ...، ج 6، ص. 19.

(3) ... ابن الأثير، مصدر سابق، ج 11، ص. 520؛ Unesco, op. cit..., p. 47.

(8733/1)

، ليعطي سلطته السند الديني والشرعية لمقاتلة من يمتنع عن مبايعته. ثم زحف بجيوشه نحو بلاد الجريد(1)، فاستولى على كثير منها(2)، ودخل جزيرة باشرا، التي توجد بالقرب من تونس، فخربها، ونهب أموال أهلها، على الرغم مما أعطاه إيّاهم من أمان. وفي 582 هـ/ 1186 م، توجه نحو قفصة، فأحكم حصارها، ثم دخلها فأخلاها من أهلها ومن جنود

---

(1) ... بلاد الجريد: تضم عدداً من المدن والمواقع كقفصة وصفاقس، وهي اليوم جنوب الجمهورية التونسية. (انظر

الخريطة المرفقة للوقوف على موقعها).

(2) ... ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 509.

(8734/1)

الموحدين، وعمرها بجند من الأتراك واللمتونيين وحصنها بالرجال(1). وبذلك تكون كل مواضع إفريقية قد خضعت له إلا مدينتا تونس والمهدية(2). فما موقف الموحدين من ذلك؟

... لم تكن إفريقية في وضع عسكري يسمح لها بالتصدي لابن غانية، خاصة بعد التأييد والدعم العسكري الذي وجده من الأتراك الموجودين بطرابلس وعرب بني

---

(1) ... ابن الأثير، مصدر سابق، ج 11، صص. 520 ـ 521؛ ابن عذاري، مصدر سابق، صص. 186، 188، 189.

(2) Encyclopaedia of Islam, Prepared by a number of leading orientalists, vol. 165, p. 1960, London, 1.

(8735/1)

سليم وغيرهم، والنجاحات التي حققها على الأرض. لذلك كتب عاملها إلى الأمير يعقوب المنصور مخبراً بما أحدثه ابن غانية من فوضى ودمار بإفريقية. فأعد المنصور، على الفور، جيشاً، وقاده بنفسه، وتحرك من مراكش في شوال 582 هـ/ ديسمبر 1186 م، وقيل صفر 583 هـ/ 1187 م. وحينما وصل إلى مدينة فاس، استراح بها قليلاً، ثم توجه إلى رباط تازا(1)، فتونس. أما ابن غانية، فلما علم بزحف المنصور نحوه، قام بتنظيم أتباعه، وتمكن بكل سهولة من

---

(1) رباط تازا: يوجد شمال شرق مدينة فاس. وهو اليوم تابع لإقليم تازا بالمملكة المغربية.

(8736/1)

إلحاق الهزيمة بالجيش الموحدي الذي أرسله المنصور إليه بقيادة السيد أبي يوسف يعقوب بن السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن في وقعة عمرة، من نظر قفصة. فامتلأت أيديه بالغنائم، وأسر وقتل كثيراً من وجهاء الموحدين وعامتهم، ورجع الناجون إلى تونس(1).

... لما وصلت أنباء الهزيمة إلى يعقوب المنصور، قام باستجماع أنفاسه وتنظيم صفوف جيشه، ثم توجه

مسرعاً نحو ابن غانية، ليتلافى الأمر قبل أن ينفلت الزمام من بين يديه. فحل

---

(1) الناصري، الاستقصا . . .، ج 2، صص. 160 ـ 161؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 11، صص. 520 ـ 521.

(8737/1)

بالقيروان، ثم توجه منها نحو ابن غانية، فالتقى به في مكان يقال له حامة دُقبوس، فهزمه وأصحابه شر هزيمة، ولم يكن أمامه هو وصاحبه قراقوش إلا الفرار. ثم توفي بعد فترة قصيرة متأثراً بجراحه. فقدم إخوته أخاهم يحيى خلفاً له، ثم لاذوا بالفرار إلى الصحراء. أما المنصور، فقد استطاع استرداد قابس وتوزر وقفصة، ثم رجع إلى تونس، وعقد على إفريقية للسيد أبي زيد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن، الذي له معرفة سابقة بأحوال إفريقية، ثم رجع إلى المغرب في عام 584 هـ/ 1188 م ماراً بمدينة المهدية(1)

---

(1) المراكشي، المعجب . . .، صص. 393 ـ 399؛ وابن خلدون، العبر . . .، ج 6، ص. 510؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج

11، **صص.** 521 ـ 522؛ **الناصري، الاستقصا** ...، **ج** 2، **ص.** 161.

(8738/1)

.

... أخذ بعض المؤرخين على يعقوب المنصور عدم متابعته لابن غانية في الصحراء، لأن ذلك ـ في رأيهم ـ كان سيمكنه من القضاء عليه وعلى حركته نهائياً(1). **ولكن يبدو أن هذه الفكرة لم تكن غائبة عن ذهنه، وإنما كان يعلم صعوبة تنفيذها، لتمرس أنصار ابن غانية من بني سليم وغيرهم بأساليب العيش والسير في الصحراء، ومعرفتهم لدروبها وأسرارها.**

... وفي عام 585 **هـ/** 1189 **م، عبر المنصور إلى الأندلس مجاهداً لما علم بتدهور الأحوال هناك وبعد التمكن من إصلاح الأحوال،**

---

(1) Unesco, General History of Africa, vol. IV, p. 47.

(8739/1)

رجع إلى المغرب، حيث أتته الأخبار في العام نفسه بظهور يحيى بن إسحاق بن محمد بن علي بن غانية وأعوانه بإفريقية، فزحف نحوها. ولما دخل تونس، وجد إفريقية هادئة، لهروب ابن غانية إلى الصحراء بعدما سمع بخبر قدومه وتأكد من ضعفه أمامه(1). ولكن الأوضاع تأزمت مرة أخرى في عام 589 هـ/ 1193 م بإفريقية والأندلس. فقرر يعقوب المنصور التوجه نحو الأندلس، لأن الصراع هناك صراع عقديٌّ، بينما هو في إفريقية سياسي(2)

---

(1) الناصري، الاستقصا ...، ج 2، صص. 183 ـ 184.

(2) ابن خلدون، العبر ...، ج 6، صص. 511 ـ 512؛ Unesco, General History of Africa, vol. IV, p. 49.

(8740/1)

.

... فانتهز ابن غانية وأعوانه الفرصة، فعاثوا في إفريقية فساداً، بل ذهبوا أبعد من ذلك فأعلنوا أن وجهتهم بجاية؛ وإذا سقطت في أيديهم، فسيتجهون صوب المغرب. ولما وصلت هذه الأنباء إلى يعقوب المنصور، تنازل عن تشدده مع نصارى الأندلس، وتصالح معهم على

شروط معينة، ثم غذَّ السير نحو المغرب، فعاجلته المنية في 18 ربيع الآخر 595 هـ/ 17 فبراير 1199 م، وقيل 18 جمادى الأولى 595 هـ/ 18 مارس 1199، قبل أن يصطدم بابن غانية(1). وهنالك من يرى أنه أعد العدة

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 12، ص. 116 ـ 145.

(8741/1)

للتوجه نحو إفريقية، إلا أن جنده توسلوا له أن يمهلهم حتى العام القادم، ليتمكنوا من الالتقاء بأسرهم وإصلاح أحوالها. فاستجاب لطلبهم، لعلمه بطول مرابطتهم بالأندلس. وفي هذه الأثناء وافته المنية، فترك حسم المسألة الإفريقية لخلفه ابنه الناصر محمد(1).

... كثر شغب الميورقيين بإفريقية في بداية عهد الناصر، مستفيدين في ذلك من انشغال الموحدين بوفاة المنصور. إلا أن عهد الناصر يعتبر من الناحية العملية العهد الذي شهد ميلاد سياسة حكيمة، كانت ثمارها تقليم أظافر الميورقيين،

(1) الناصري، الاستقصا ...، ج 2، ص. 203.

(8742/1)

وكسر شوكتهم، وتشتيت شملهم، وتوزيع جهودهم.
وتتمثل هذه السياسة في مهاجمة معقلهم ومقر دولتهم
بميورقة، وفي الوقت نفسه تتبّعهم ومطاردتهم
عسكرياً بإفريقية، واختيار والٍ ذي كفاءات عسكرية
وسياسية عالية، وبصلاحيات واسعة لحكم إفريقية.
... ذكرنا في ما سبق الدور السياسيّ والاقتصاديّ
والنفسيّ الذي كانت تؤديه ميورقة، بصفتها قاعدة
لملك أبناء غانية، وحلقة اتصال وتنسيق بينهم وبين
مؤيديهم وحلفائهم من المسلمين والنصارى، في دعم
حركتهم المناهضة للموحدين بإفريقية والمغرب الأوسط
ونضيف إلى ذلك أن ميورقة، بحكم موقعها

(8743/1)

الجغرافي، كانت تؤدي دوراً هاماً في حركة التجارة بين
الشمال والجنوب. هذا، إضافة إلى قربها من الأندلس، الأمر
الذي يجعل منها خطراً حقيقيّاً على الوجود الموحدي لهذا
الأخير، والمصالح التجارية للموحدين بحوض البحر الأبيض
المتوسط

... كان الموحدون على وعي تام بأهمية ميورقة وخطورتها على مستقبلهم السياسي. لذلك تكررت مساعيهم، وتعددت وسائلهم للاستيلاء عليها. ولكن هل كللت بالنجاح؟

... حكى ابن خلدون أن علي بن غانية وأخاه يحيى لما استقرا بإفريقية، تركا على ميورقة أخاهما طلحة. وفي عهد هذا الأخير، استطاع أخوه

(8744/1)

محمد وعلي بن الربرتير الخروج من معتقلهما بمساعدة بعض موالي بني غانية. فاستطاع محمد الاستيلاء على السلطة بميورقة، ثم راسل يعقوب المنصور طالباً منه المجيء لاستلام الجزيرة. لكن لما جاء أسطول المنصور بصحبة ابن الربرتير، رفض محمد الوفاء بوعده، واستعان بملك برشلونة (Barcelona) فأعانه، فأغضب فعله هذا رعيته، فثاروا في وجهه، وطردوه، وولوا تاشفين بن غانية مكانه(1). واضح هنا أن ابن خلدون يتحدث عن مؤامرة دبّر فصولها الموحدون، ونفذها عملاؤهم بميورقة. أما

---

(1) ابن خلدون، العبر...، ج 6، ص. 515 ـ 516.

(8745/1)

المراكشي، فقد أورد رواية مخالفة لذلك، تقول إن عبد الله بن غانية قد رحل إلى ميورقة لما آلت قيادة الميورقيين إلى أخيه يحيى، فوجدها قد دخلت في نطاق دولة الموحدين، باعتراف أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن غانية بسلطتهم عليها. ولكن عبد الله استطاع انتزاع السلطة من أخيه محمد بمساعدة نجاح، أحد علوج والده، ونفيه إلى الأندلس، فأكرمه الموحدون هنالك وولوه مدينة دانية()(1Daٌa)، وهي مدينة ساحلية من مدن شرق الأندلس، وميناؤها جيد(2)

---

(1) المراكشي، المعجب...، ص. 377.

(2) الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، صص. 231 ـ 232.

(8746/1)

.

... تواصلت محاولات المنصور للاستيلاء على ميورقة، لكنها لم تحقق هدفها. أما ابنه وخليفته محمد الناصر،

فقد سار على نهج أبيه تجاه ميورقة؛ إلا أنه أحاط غزوته لها في عام 599 هـ/ 1202 م بالسرية التامة. فتوجه نحو فاس. وللتمويه، فقد أشاع أن قبلته هي إفريقية، لتخليص واليها الذي وقع في قبضة ابن غانية، لكنه أصدر أوامره من هنالك بإرسال جيش وأسطول لفتح ميورقة، وأسند قيادة الأول إلى أبي سعيد عثمان بن أبي حفص، أحد كبار شيوخ الموحدين، والثاني إلى عمه أبي العلاء، إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن، فاستطاعا فتحها،

(8747/1)

وقتل واليها عبد الله بن إسحاق في ذي الحجة 599 هـ/ أغسطس 1203 م، فولى عليها عبد الله بن طاع الله الكَومي(1)، فظلت في يد الموحدين إلى أن انتزعها منهم الملك جيم (Jaime)، ملك أرغون (Arragon)، في عام 628 هـ/ 1230 م، وكان واليها وقتذاك أبو يحيى بن علي بن أبي عمران، وقيل في 11 صفر 627 هـ/ 31 ديسمبر 1229 م(2).

---

(1) ابن خلدون، العبر...، ج 6، ص. 516؛ الناصري،

الاستقصا...، ج 2، ص. 18؛ Terrasse, op. cit..., p. 218.

(2) José Luis Asi للn Peُa, op. cit., pp. 68–69.

(1/8748)

... ظهرت في إفريقية في عهد الناصر بوادر الخلاف بين الموحدين. فوفقاً لما أورده ابن الأثير، فإن محمد بن عبد الكريم، قائد جيش الموحدين بالمهدية، قد اختلف مع أبي سعيد عثمان، عامل تونس، واعتقل أخاه أبا علي والي المهدية ولم يطلق سراحه إلا بعد أن فدى نفسه بمبلغ من المال. ولما علم بعزم أبي سعيد على حربه، بايع ابن غانية، فتراجع أبو سعيد عن قراره. ولما آلت الخلافة للناصر، أرسل أسطولاً وجيشاً لحرب ابن عبد الكريم. فاعتذر الأخير وألقى اللوم على عامل تونس، فتقبله الناصر(1)

---

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 12، ص. 146 - 167.

(1/8749)

، وأكرمه كعادة الموحدين في معاملة خصومهم. وإذا كان ابن عبد الكريم لم يحقق أي مكاسب سياسية من وراء حركته، فإنه ساهم في إضعاف موقف الموحدين بإفريقية والتمكين لابن غانية بها(1).

... أما يحيى بن إسحاق بن محمد بن علي بن غانية، فلما تغلب على المهدية وعلى قراقش الغزي، صاحب عمل طرابلس، وعلى بلاد الجريد نازل تونس عام 599 هـ/ 1202 م، وفتحها عنوة، وتقبض على واليها السيد أبي زيد، وطالب أهلها بالنفقة، وترك كاتبه ابن عصفور لجمعها. فعلا صيته في الآفاق

---

(1) Unesco, General History of Africa, vol. IV, p. 49.

(8750/1)

وتسارعت المدن في الانضمام إلى دعوته، فبايعه أهل الأربض(1) وشقبنارية(2) وتبسة(3)

---

(1) الأربض: لعلها الأَرْبُس. وهي مدينة بينها وبين القيروان ثلاثة أيام (75 ميلاً)، وبينها وبين باجة مرحلتان (50 ميلاً). (الحميري، مصدر سابق، ص. 24).

والأربُس اليوم قرية صغيرة بالجمهورية التونسية.

(2) شقبنارية: توجد بالقرب من مدينة الأربس.

(الحميري، مصدر سابق، صص. 348 ـ 349).

(3) تبسة أو تبسّا: توجد بالقرب من وادي علاق الذي يوجد بالقرب من بلدة مجانة. (الحميري، مصدر سابق، صص. 129، 545). وهي اليوم مدينة متوسطة بالجمهورية التونسية. لموقعها، انظر: الخريطة المرفقة في نهاية الدراسة.

(8751/1)

إضافة إلى ما بيده من مواقع. وبذلك تكون كل أعمال إفريقية قد انتظمت في يديه. فاستقر بتونس، وبايع للخليفة العباسي(1).

... أثارت أفعال ابن غانية حفيظة الناصر، وأقضت مضاجعه، فاستشار خاصته في الأمر، فأشاروا عليه بمهادنة ابن غانية إلا الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر(2)

---

(1) ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 518؛ الناصري، مصدر سابق، صص. 214 ـ 215.

(2) الشيخ أبو محمد بن أبي حفص عمر: ينتمي إلى قبيلة

هنتاتة من قبائل المصامدة التي تسكن أعداد كبيرة منها جبل درن وما حوله. كان والده من السابقين لمبايعة المهدي، وكان يلي عبد المؤمن في الرتبة. وكانت له ولاية العهد من بعده، لكنه تنازل عنها لأبناء عبد المؤمن. بقيت ولاية إفريقية في بني عبد الواحد إلا فترة قصيرة، ثم استبدوا بها في عهد أبي زكريا ابن أبي محمد 626 هـ/ 1228 م.

(1/8752)

، الذي أشار عليه بحربه، فانتصح له، فأعد العدة للحرب، ثم تحرك من مراكش بجيوشه نحو إفريقية، وأعطى أوامره لأسطوله بالتحرك أيضاً، وكان ذلك في عام 601 هـ/ 1204 م(1).

... لما علم ابن غانية بتحرك الناصر نحوه أرسل أمواله وممتلكاته وحرمه مع علي بن غازي بن محمد بن علي إلى المهدية وولاه عليها. وقد كان اختياره لها لحصانتها. بدأت سلطة ابن غانية تسير نحو التضعضع والانحلال: فقد انتفض عليه أهل طرابلس لما سمعوا بقدوم

---

(1) ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 518؛ الناصري، مصدر سابق، ص. 215؛ Terrasse, op. cit..., p. 338.

الموحدين، فقصدهم وخرب ديارهم. أما أسطول الموحدين، فقد نزل تونس، فخرج منها ابن غانية إلى القيروان، ثم إلى قفصة، حيث اجتمع حوله العرب وعاهدوه على الطاعة والمناصرة. فسار بهم نحو حمَّة مطماطة(1)، فجبل بني دمر الذي تحصن به. أما الناصر، فقد احتل تونس، وقتل من بها من أشياع بني غانية، ثم تتبع ابن غانية في قفصة وقابس، ثم عاد إلى المهدية، فأحكم

(1) حمة مطماطة: مدينة تقع بالقرب من مدينة قابس. (الحميري، مصدر سابق، ص. 200 ـ 202). وهي اليوم معتمدية بالجمهورية التونسية. ولموقعها، انظر الخريطة المرفقة.

حصارها، وأرسل جيشاً من أربعة آلاف مقاتل بقيادة الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عام 602 هـ/ 1205 م لمتابعة ابن غانية. فالتقى به عند جبل تاجورة من نواحي قابس، فأوقع به، وقتل أخاه جبارة،

وكاتبه ابن اللمطي، وعامله الفتح بن محمد، وفك السيد أبا زيد بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن من الحبس.

ولقد غنم الموحدون كثيراً في هذه المعركة؛ فقد قيل إن حجم الغنائم قد بلغ ثمانية عشر ألفاً من أحمال المال والمتاع... (1)

---

(1) الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص. 17؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ص. 245؛ ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 519؛ الناصري، مصدر سابق، ص. 215.

(1/8755)

... أما الناصر، فقد استمر في حصاره للمهدية، التي أبدى عاملها علي بن الغازي الملقب بالحاجّ مقاومة شديدة حتى لقبه الموحدون بالحاجّ الكافر، لكنه في نهاية المطاف استسلم لهم لما رأى أن المستقبل لهم، فأكرموه. فظل جندياً مخلصاً

لدولتهم إلى أن استشهد بمعركة العقاب(1) ((Las Navas de Tolosa عام 609 هـ/ 1212 م. كان استرجاع المهدية في 27 جمادى الأولى 602 هـ/ 9 يناير 1206 م، فولى الناصر

---

(1) العقاب Las Navas de Tolosa: موقع بالأندلس يقع بين جيان (Jéan) وقلعة رباح (Galtarav). (الحميري، مصدر سابق، ص. 416).

(8756/1)

عليها محمد بن يغمور الهرغي، ثم رجع إلى تونس، ومكث بها حتى عام 603 هـ/ 1206 م، ومنها أرسل أخاه السيد أبا إسحاق لمطاردة ابن غانية، فتمكن من تدويخ ما وراء طرابلس، واستئصال شأفة بني دمر ومطماطة، وجبل نفوسة(1)، وسويقة بني مذكور(2)،

---

(1) جبل نفوسة: يبعد عن قفصة حوالي ستة أيام (150 ميل)، وهو جبل عال. (الحميري، الروض المعطار، ص. 578). وهو اليوم في شمال غرب الجماهيرية العربية الليبية...

(2) سويقة بني مذكور: لعلها سويقة ابن مثكود التي تبعد عن زويلة ست عشرة مرحلة (400 ميل). (الحميري، مصدر سابق، ص. 295).

(8757/1)

ثم رجع إلى أخيه بتونس(1).

... بعد إسكات صوت الفتنة بإفريقية، واستقرار أوضاعها، نظر الناصر إلى ما بذل لأجل ذلك من جهود، ووضع في الحسبان أن ابن غانية لابد أن يعيد الكرة وأن وصول الإمدادات لإفريقية بصورة عاجلة سيكون أمراً صعباً، لبعد إفريقية من المغرب، ولظهور الفتن بالأندلس من حين لآخر، الشيء الذي سيشتت جهود الدولة، بل ربما يضطرها إلى

---

(1) المراكشي، المعجب...، صص. 451 ـ 452؛ الزركشي، تاريخ الدولتين...، ص. 18؛ ابن خلدون، العبر...، ج 6، صص. 519 ـ 520؛ الناصري، الاستقصا...، ج 2، صص. 215 ـ 216.

(8758/1)

التركيز على جهة، وترك الأخرى حتى ينجلي أمر الأولى، مما يتيح الفرصة للثوار بالجهة المهملة للتمكين لأنفسهم بها، ويضطر الجهات المحاصرة للاستسلام لهم.

... وأمام هذه المصاعب، وجد الناصر نفسه، وهو المتمسك بالوحدة المغاربية، بل الإسلامية لأسلافه، أمام خيارين: التخلي عن إفريقية، أو إسناد إدارتها لوال كفؤ. فاختار الخيار الأخير، فأجال النظر والفكر للحصول على رجل يجمع

بين فن الإدارة وحكمة السياسة ومكر الحرب وحيلها وخدعها والولاء للدولة، فوقع اختياره على الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر. فهل كان

(1/8759)

عبد الواحد وخلفاؤه عند حسن الظن بهم؟

... اعتذر الشيخ أبو محمد للناصر في بادئ الأمر لما عرض عليه ولاية إفريقية، لكنه اضطر إلى الموافقة أمام إصرار الأخير وموافقته على جميع شروطه التي تتلخص في العودة إلى المغرب بعد ثلاث سنوات وترك الحرية له في اختيار من يخلفه من رجال الموحدين وعدم تدخل الدولة المركزية في عملية التولية والعزل داخل ولايته وأن تكون له السلطة على من معه من العسكر(1)

---

(1) الزركشي، المصدر السابق، ص. 19؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 520، 583؛ الناصري، المصدر السابق، ص. 216؛ بطرس البستاني، "عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص"، دائرة المعارف، بيروت، د. ت، ج 11.

(1/8760)

.

... بعد تعيين الناصر للشيخ أبي محمد، تحرك نحو المغرب. فرافقه الشيخ أبو محمد إلى باجة(1)، ثم ودعه. وكان ذلك في يوم السبت 10 شوال 603 هـ/ 10 مايو 1207 م(2).

... أما ابن غانية، فقد ظهر بنواحي طرابلس، وبدأ ينظم صفوف أتباعه من عرب وغيرهم. فلما علم أبو محمد به، اتجه نحوه، والتقى به عند

---

(1) باجة: المقصود باجة إفريقية. وهي مدينة أزلية كبيرة محصنة، وعلى قمة جبل شديد البياض، وبينها وبين طبرقة أقل من مرحلتين. (الحميري، مصدر سابق، ص. 74).

(2) ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 584؛ الناصري، مصدر سابق، ص. 216.

(8761/1)

شبرو عام 604 هـ/ 1207 م، فهزمه هزيمة نكراء وغنم كثيراً من أمواله ومتاعه، ثم كاتب الناصر مبشراً بالفتح ومذكراً إيّاه بالوعد فيما شخص الفترة الزمنية للولاية. فرد عليه الناصر شاكراً ومعتذراً عن الوفاء،

لانشغاله بالفتن بالأندلس. وتطييباً لخاطره، أرسل له مبالغ كبيرة من المال وكميات من العتاد الحربي والخيل والأكسية، لتكون عوناً له في مهمته، وكان ذلك في عام 605 هـ/ 1208 م(1).

---

(1) ... ابن خلدون، المصدر السابق، ص. 534؛ بطرس البستاني، "عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص"، دائرة المعارف.

(1/ 8762)

... عاد ابن غانية مرة أخرى مصحوباً بأتباعه من العرب والملثمين، فدخل مدينة تاهرت(1)، فاستباحها، وغنم أهلها. لكن الشيخ أبا محمد اعترضه، وغنم ما عنده وفك سراح من اعتقلهم، فلاذ ابن غانية وأصحابه بالفرار إلى طرابلس، واعلن عزمه على معاودة الكرة نحو إفريقية، فتوجه إليه أبو محمد، والتقى به عند جبل نفوسة، فألحق به هزيمة نكراء، وقتل كثيراً من زعماء زناتة ولمتونة والعرب الذين كانوا

---

(1) ... تاهرت: مدينة على سفح جبل. وهي من مدن الغرب

الأوسط على طريق المسيلة من تلمسان. (الحميري، مصدر سابق، صص. 126 ـ 127).

(1/8763)

في صفوف ابن غانية. فانصرف الأخير يجر أذيال الخيبة والهزيمة، وعلت رايات أبي محمد في الآفاق(1).

... توفي أبو محمد سنة 618 هـ/ 1221 م، فجُعِلَ أبو العلاء الكبير إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن خليفة له.

فظهر ابن غانية في عهده ببسكرة(2)، فأرسل إليه ابن أبي زيد مصحوباً بالعرب وهوارة بظعائنهم ومواشيهم. فالتقى الجمعان بمجدول(3)

---

(1) ... ابن خلدون، مصدر سابق، صص. 585 ـ 587

(2) ... بسكرة: هي قاعدة بلاد الزاب. (الحميري، مصدر سابق، ص. 113). ولموقعها، انظر الخريطة السابقة، وهي اليوم بالجمهورية الجزائرية.

(3) ... مجدول: موقع على نحو 20 ميلاً من القيروان. (الحميري، مصدر سابق، ص. 524).

(1/8764)

في بداية عام 621 هـ/ 1224 م، فهُزِم ابن غانية. وفي هذه الأثناء، توفي أبو العلاء فرجع ابنه إلى تونس(1).

... وحينما آلت ولاية إفريقية إلى أبي محمد عبد الله بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص، ظهر ابن غانية ببجاية، ثم تدلس(2). فتوجه أبو محمد إليه، لكنه رجع إلى تونس، بعد أن أعاد الأماكن التي احتلها ابن غانية، لسماعه بتوجه ابن غانية إلى سجلماسة(3)

---

(1) ... ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 590.

(2) ... تدلس: مدينة بحرية كبيرة بين بجاية والجزائر. (الحميري، مصدر سابق، ص. 132).

(3) سجلماسة: توجد في صحراء المغرب، وبينها وبين البحر، أي المحيط الأطلسي، خمس عشرة مرحلة (375 ميل)، وهي على نهر يقال له زيز، وليس بها عين ولا بئر، وزرع أهلها الدخن والذرة، وبها نخل كثير، وهي مدينة محدثة أسسها المُحَدِّث مدرار بن عبد الله (140 هـ/ 757 م). (الحميري، مصدر سابق، صص. 305 ـ 306). ولمعاينة موقعها، انظر الخريطة المرفقة، وهي اليوم جنوب المملكة المغربية.

(8765/1)

. وفي تونس غلبه أخوه أبو زكريا على الإمارة(1)، على أثر خلاف نشأ بينهما، سببه مطالبة الأخير الأول بنبذ طاعة الموحدين لقتل المأمون(2) شيوخ الموحدين، ومحو اسم المهدي من العملة، وإنكاره عصمته(3)

---

(1) ابن خلدون، مصدر سابق، صص. 592 ـ 593.

(2) المأمون: هو أبو العلاء الأصغر إدريس بن يعقوب المنصور. للمزيد عنه، انظر: عبد القادر عثمان محمد جاد الرب، الموحدون بإفريقية إلى 627 هـ، رسالة قدمت لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب بالرباط، 1991، صص. 62 ـ 63.

(3) ابن عذاري، مصدر سابق، صص. 292 ـ 293.

(8766/1)

.

... كرس أبو زكريا جهده لاجتثاث حركة ابن غانية. فتتبع أنصاره من العرب من أفارق سليم وهلال وغيرهم في جهات طرابلس والزاب وواركَلا(1)، فشردهم من هنالك، فظل ابن غانية مشرداً لا يهنأ به مقام إلى أن هلك في عام 631 هـ/ 1233 م(2)، وبذلك أسدل الستار على حركة بني غانية، وهدأت الأحوال بإفريقية.

... هذا وتعتبر حركة بني غانية من أقوى الحركات الاستقلالية التي وقفت بقوة في وجه الموحدين بإفريقية. فقد استطاعت الاستمرار ما يقرب نصف

---

(1) واركَلة: واحة في جنوب الجزائر.

(2) ابن خلدون، مصدر سابق، ص. 596 ـ 597.

(8767/1)

قرن من الزمان. وهي فترة طويلة، إذا قيست بعمر الدول وقتذاك وقد كان السر وراء ذلك تمتع قادتها بخبرة واسعة في شؤون الحرب والإدارة والسياسة، وقدرة على السرعة في التصرف، واتخاذ القرار وبجودة أسلوبهم الحربي. ويعرف الأسلوب الحربي الذي استخدمه بنو غانية في العرف الحربي اليوم بحرب العصابات. وهي حرب وقفت أمامها كثير من الدول اليوم عاجزة حائرة، على الرغم من التقدم التقني والعلمي في مجال صناعة الأسلحة وتدريب الجيوش الذي شهده هذا القرن. وقد كان اختيار بني غانية لهذا الأسلوب الحربي موفّقاً، لأنه جاء منسجماً

(8768/1)

مع تركيبة جيشهم، التي كان معظمها من العرب الذين لهم خبرة واسعة بطرق الصحراء والعيش فيها، وكيفية مواجهة الأعداء بها، والبربر الذين جمعوا بين حياة الجبال والسهول والصحراء.

... وعلاوة على ما سبق، فقد كان للشعار الذي وظفه قادة الحركة ـ وهو الثأر للمرابطين وإعادة دولتهم، والدعوة للعباسيين ـ دوره في إعطاء الشرعية للحركة واستقطابها لمعارضي الدولة الموحدية. زد على ذلك العلاقات التجارية الواسعة والجيدة التي كانت تربط بين الحركة والعالم الخارجي، وسيطرتها على مناطق غنية بالواحات، وتمر بها طرق التجارة

(8769/1)

الذاهبة إلى إفريقيا جنوب الصحراء والآتية منها(1).

وفوق هذا وذاك، انشغال الدولة الموحدية بإطفاء الفتن بالأندلس، ومواجهة حركة الاسترداد الإسبانية المسيحية.

... أما عن العوامل التي أدت إلى إضعاف الحركة وزوالها، فيمكن القول إن استيلاء الناصر على جزيرة ميورقة

التي كانت لها أهميتها الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية في ما يخصّ دعم الحركة اقتصادياً وحربياً ومعنوياً كانت له انعكاساته السلبية على حاضر هذه الأخيرة ومستقبلها. هذا، إضافة إلى

---

(1) Unesco, General History of Africa, vol. IV, pp.52–53.

(1/8770)

التركيز العسكري، والإصرار الموحدي المتواصل على إبعاد بني غانية وأعوانهم عن إفريقية وأعمالها، مهما كان الثمن، وتعيين الشيخ أبي محمد عبد الواحد الحفصي بسلطات واسعة، وتوفير الدعم المادي والعسكري والأدبي له.

... وإذا كان الموحدون قد استطاعوا في نهاية المطاف القضاء على هذه الحركة، فإنهم لم يعمروا كثيراً بعدها. فقد كان لهذه الحركة والحركات المماثلة لها بالأندلس آثارها السيئة على اقتصاد دولتهم: جيشها وعلاقاتها بالمشرق ووحدتها الترابية ووجودها.

أولاً: الاقتصاد

(8771/1)

... الثقل الاقتصادي هو قلب الدولة النابض وشريان حياتها. ومن دونه تصبح الدولة كالقشة في مهب الريح، وبه تكتسب قوتها، ويعلو صيتها، ويهابها أعداؤها، ويتودد إليها أندادها.

... كان الموحدون على وعي تام بأهمية الاقتصاد، منذ المراحل الأولى لتكوين دولتهم(1)، ولكن حركة بنيغانية والفتن بالأندلس قد خلقت لهم نوعاً من عدم الاستقرار في كل أرجاء دولتهم. ولإعادة النظام وإخماد الفتن، اضطرت الدولة

---

(1) علي بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، 1973، ص. 198 ـ 199.

(8772/1)

إلى استنفار الشباب من رعاياها بالمغرب. وطبيعي أن يكون ذلك قد انعكس سلباً على الاقتصاد، الذي كانت الفلاحة وتربية المواشي تشكلان عموده الفقري، لعدم

وجود الأيدي العاملة الكافية للنهوض بهما. أما في إفريقية، فإن حالة الذعر والفوضى التي أحدثتها حركة بني غانية أفقدت الدولة جزءاً كبيراً من مواردها الاقتصادية الأساسية وأصبحت تعتمد على ما عندها من مخزون وما تحصل عليه من غنائم، وعلى القليل الذي يصل إليها من أولئك الذين سمحت لهم الظروف بممارسة نشاطهم الاقتصادي.

(1/8773)

... وعلى الرغم من الظروف السابقة، فإن الدولة كان مفروضاً عليها إعداد الجيوش وتزويدها بالزاد والعتاد والمؤن، وتوفير الظروف الملائمة لنقلها لمواجهة الثوار بإفريقية والأندلس. هذا، إضافة إلى الوفاء بالتزاماتها المالية تجاه جندها وقوادها وموظفيها وعمالها(1)، وكذلك تحفيز عمالها في بؤر التوتر مادياً، ودعمهم عسكرياً، ليتمكنوا من

---

(1) المراكشي، المعجب ...، ص. 475؛ يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تعريب محمد عبد الله عنان، ط 2، القاهرة، ص. 475؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة...، ص. 437.

النهوض بالمهمة الصعبة الملقاة على عاتقهم. وفضلاً عن ذلك، فإن الحركة قد منعت الموحدين من الاستفادة من خيرات إفريقية ومن الاتجار مع بعض مناطق إفريقيا جنوب الصحراء، ودول شمال البحر الأبيض المتوسط والمشرق.

... ومما لا شك فيه أن العوامل السابقة قد أضعفت اقتصاد الدولة، وبالتالي أجهزتها المختلفة، وجعلتها هشة.

...

ثانياً: الجيش

... الجيش هو سند الدولة، ودرعها الواقي، وحامي حماها، ورمز قوتها وعزتها، وضامن وحدتها الترابية. ولذلك، فقد حظي بعناية خاصة من قبل الموحدين(1)؛

---

(1) ... المصادر والمراجع نفسها.

ولكن بالرغم من ذلك، تكبد الجيش الموحدي كثيراً من العناء والمشقة في محاولاته للقضاء على حركة بني غانية، وتقصي آثارها، وذلك لبعد المسافة بين المغرب وإفريقية، ورداءة سبل المواصلات، ولفراق الجند لأسرهم فترة طويلة من الزمن، ولما قاساه من آلام في مطاردته للعدو وترصُّد حركاته وفي أماكن وعرة أو صحراوية.

وعلاوة على ذلك، فإن الحرب لم تكن متصلة، ولم ترجح فيها كفة طرف على الطرف الآخر بصورة حاسمة، الأمر الذي شجع حركات المقاومة للإسلام بالأندلس على استثمار الفرصة، أي انشغال الموحدين بإفريقية، لاستعادة مجدهم

(8776/1)

ومجد آبائهم، وأضاف للجيش الموحدي مسؤولية أخرى، وهي الدفاع عن الإسلام بالأندلس، وجعله في حركة دائبة بين إفريقية والأندلس. وقد كانت لذلك انعكاسات سلبية على الجند، حيث أضعفت روحهم المعنوية، فأصبحوا مهيئين للتمرد. وبدا ذلك جليّاً قبيل وفاة الأمير يعقوب المنصور، فنتج عن ذلك تمزق الدولة وزوالها.

...

ثالثاً: العلاقات السياسية مع المشرق

... في الوقت الذي كان يعقوب المنصور مشغولاً بالجهاد بالأندلس، وردع بني غانية وتتبعهم بإفريقية، جاءته رسل صلاح الدين الأيوبي (توفيّ في ذي الحجة 543 هـ/ شباط/ [فبراير]

(1/8777)

1197 م) (1)، راجية منه مد يد العون والمساعدة، لتحرير بيت المقدس من قبضة الصليبيين. وقد ذكرت بعض المصادر أن المنصور قد اعتذر له، مبرراً ذلك بانشغاله بجهاد النصارى بالأندلس وملاحقة بني غانية بإفريقية، وذكر البعض الآخر أنه قد أمده بأسطول بحري.

...

رابعاً: الوحدة الترابية والوجود

---

(1) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط 11، بيروت، 1988، ص. 350 ـ 361. انظره للمزيد عن الدولة الأيوبية.

(1/8778)

... أدت حركة ابن غانية بإفريقية والثورات بالأندلس إلى تماسك الجبهة الداخلية للدولة الموحدية بالمغرب، وتوحيد الكلمة، وإسهام الرعايا، وحماس في الحملات التي وجهتها الدولة لردع الثوار، واستعادة المناطق المغتصبة. ولكن تفرق بؤر التوتر، وبعدها عن حاضرة الدولة، وطول نفس قادتها، وإلمامهم بمكائد الحرب، وتنوع أساليبهم القتالية والدفاعية، وصعوبة الاتصال والنقل... ـ كلٌّ ذلك استنفد إمكانات الدولة الموحدية الاقتصادية، وأضعف من روح جندها القتالية، وهيأ الفرصة لأعدائها والمتربصين بها لاقتطاع ما شاءوا من

(1/8779)

أراضيها، بل القضاء عليها نهائياً، وإلى الأبد.

... وفيما يخص الأندلس، فقد كانت هزيمة محمد الناصر في معركة العقاب (Las Navas de Tolosa) عام 609 هـ/ 1212 م بداية النهاية للوجود الموحدي هنالك؛ فقد ظهر أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجذامي منافساً للموحدين بمُرْسِيَة ((Murcia عام 625 هـ/ 1227 م، ومنافحاً عن الأندلس من الأطماع التوسعية لفرناندو

الثالث (Fernando III) ملك قشتالة (Castilla) ووالده ألفونسو التاسع (Alfonso IX) ملك ليون (Léon)، فدخلت في طاعته مدن كثيرة كقرطبة (Cordoba) وإشبيلية

(1/8780)

(Sevilla) وغرناطة (Granada) ومالقة (Malaga)...؛ كما ظهر أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر منافساً لابن هود، الذي توفي 635 هـ/ 1237 م، واستطاع تكوين دولة قاعدتها مدينة غرناطة، وامتد نفوذها في عهده وعهد خلفائه ليشمل ثلاث ولايات كبيرة: غرناطة في الوسط، وألمرية (Almeria) في الشرق، وولاية مالقة في الجنوب والغرب. وبقيت رئاستها وقفاً على أفراد أسرته إلى أن قضى عليها الملكان الكاثوليكيان: فيرناندو الخامس (Fernando V) ملك ليون وزوجته إزابل الأولى (Izabel I) ملكة قشتالة في 2 ربيع الأول

(1/8781)

---

897 هـ/ 2 ديسمبر 1492 م(1).

... أما عن حركة المقاومة المسيحية، فقد استطاعت الاستيلاء على ميورقة (Mallorca) في 11 صفر 627 هـ/ 31 ديسمبر 1229 م، ثم بقية جزر أرخبيل الباليار (Archipièlago Balear) بعد فترة قصيرة، وبلنسية (Valencia) عام 636 هـ/ 1238 م، وإشبيلية في 646 هـ/ 1238 م... (2)، ثم توجت

---

(1) عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي، من الفتح إلى سقوط غرناطة 92 ـ 897 هـ (711 ـ 1492 م)، بيروت، 1976، صص. 513 ـ 518.

(2) الحجي، المرجع نفسه، ص. 518؛ José Luis Asi للn Peُa, op. cit..., pp. 68–69.

(8782/1)

انتصاراتها بالاستيلاء على غرناطة وطرد العرب من الأندلس.

... وفيما يتعلق بإفريقية، فبالنظر إلى السلطات الواسعة التي خُوِّلت للشيخ أبي محمد عبد الواحد الحفصي، عامل إفريقية، ومقارنتها بالصلاحيات التي وضعها فقهاء السياسة الإسلامية للأمراء والعمال، وفي ضوئها

وضعوا تقنيناتهم للإمارة على البلدان، نجد أن إفريقية قد تحولت إلى إمارة استكفاء(1)، تلك الإمارة التي كانت سبباً في تمزق الدولة العباسية، وذلك لاستقلال أمراء

---

(1) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط 3، القاهرة، 1973، صص. 31 ـ 32.

(8783/1)

الاستكفاء بإماراتهم: إما نظير اعتراف اسمي بالسلطة المركزية وجعْل من المال، وإما استقلالاً تامّاً(1)، وكأن التاريخ يعيد نفسه: فقد ظهرت نوايا الحفصيين الانفصالية منذ إمارة أبي محمد عبد الواحد، ثم أصبحت واقعاً في عهد ابنه أبي زكريا في عام 626 هـ/ 1228 م، حيث أوقف الدعوة للخليفة الموحدي، وتلقّب بلقب أمير، وأمر بذكر اسمه بعد المهدي في الخطبة والدعاء(2)

---

(1) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، دون مكان النشر، 1910، ج 1، ص. 155.

(2) ابن خلدون، مصدر سابق، صص. 593 ـ 595؛ الزركشي، مصدر سابق، صص. 16 ـ 18.

(8784/1)

.

... أما في المغرب، فقد استغل بنو مرين ضعف السلطة المركزية، فظهروا على مسرح الأحداث السياسية واستطاعوا إلحاق الهزيمة بالجيش الذي أعده والي فاس لحربهم في أول صدام لهم مع الموحدين(1)، ثم تفاقم خطرهم، وازدادت قوتهم، فاستطاعوا القضاء على الدولة الموحدية والجلوس في مكانها عام 668 هـ/ 1269 م(2).

---

(1) الناصري، مصدر سابق، صص. 226 ـ 227.

(2) ابن خلدون، مصدر سابق، صص. 542 ـ 551؛ المراكشي، مصدر سابق، صص. 476 ـ 477.

(1/8785)

حفريات حول الطباعة بالمغرب

... ...

... ... الدكتورمحمد سديد

... ... كلية الآداب – الرباط

... أجمع المؤرخون المغاربة الذين أرخوا للكتاب أن المغرب لم يعرف الطباعة إلا في عصر السلطان سيدي

محمد بن عبد الرحمان، أي بعد أن عرفتها أوروبا بنحو أربعة قرون. إلا أن المؤشرات التاريخية تدل كلها، وبقوة، أن المغاربة كانوا على علم بوجود فن الطباعة قبل هذا العصر وبكثير وعلى كل المستويات.

على المستوى العالي

(1/8786)

... خصص السفير إدريس بن محمد بن إدريس العمراوي الذي بعثه السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان إلى فرنسا سنة 1276 هـ ما يزيد عن أربع صفحات ل "دار الطباعة" واصفا آلاتها وحروفها وطريقة يبكها. وأثنى على حسنات المطبعة في ترويج الكتاب مع قلة ثمنه إذ أن الكتب المطبوعة بها "تباع بنصف ثمن النسخ المحرفة" (بتشديد الراء) وأنها "عامة النفع معينة على تكثير الكتب والعلوم وأثرها في ذلك ظاهر معلوم" (1) .

...

---

(1) إدريس بن محمد بن إدريس العمراوي، تحفة الملك العزيز بمملكة باريز، ص.54.

(1/8787)

إلا أن السفير ، وهو يصف المطبعة الملكية بفرنسا، ذكر أنه وقف في خزانة السلطان سيدي محمد بن عبد لرحمان على "كناش كبير مجلوب من هذا المحل فيه جميع أمثلة الخطوط التي تطبع في هذه المطبعة " (1)

... إن لهذه الإشارة أهمية تاريخية قصوى بالنسبة للموضوع الذي نحن بصدده وذلك لسببين :

... أولا : إنها تؤكد علم ملوك المغرب بوجود فن الطباعة.

... ثانيا : لم يكن السلطان وحده على علم بذلك

... ثم إن وجود هذا الكناش بخزانة السلطان يدل على أنه ربما كانت فكرة استيراد فن الطباعة واردة وأجلت لأن

---

(1) المصدر نفسه، ص.51.

الظروف التي كان يعرفها المغرب آنذاك لم تسمح بذلك ومما يؤكد هذا الاحتمال هو أن الطباعة ما كادت تصل إلى المغرب بمبادرة فردية حتى أممتها وتحملت أعباءها وذلك بأمر سلطاني (1) .

على مستوى العلماء

... دأب الحجاج المغاربة وخاصة العلماء منهم على العودة

من سفرهم محملين بالكتب. في شتى العلوم والفنون المطبوعة في مصر. ونظرا لعلمهم بالطباعة وتقنياتها فقد كان بعضهم يحمل معه الكتب المحفوظة، يسلمها إلى المطابع المصرية وهو ذاهب

(1) محمد المنوني، تاريخ الورقاة المغربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1993.

(1/8789)

إلى الديار المقدسة على أن يعود بها مطبوعة أثناء عودته. وقد كان بعضهم يعدها للطبع في المغرب ولا يقوم في مصر إلا بالسحب (1). وربما أدى هذا إلى استيطان بعضهم في مصر ومارسوا الطباعة بها زمنا. إننا نجد بالقاهرة سنة 1861 مطبعيا مغربيا يدعى محمد المغربي يحظى بامتياز خاص إذ سمح له بفتح مطبعة دون استئذان ودون احترام الشروط المنصوص عليها في القانون رغم احتجاج السلطات المحلية (2)

(1) ذلك ما يتضح من كتاب مجموع المتون الذي قام بطبعه الحاج أحمد القادري صاحب المكتبة السنية بطالعة فاس.

(2) أبو الفتوح رضوان، تاريخ مطبعة بولاق، المطبعة الأميرية، القاهرة ، 1953،ص.389.

(8790/1)

. كان ذلك قبل دخول الطباعة إلى المغرب عن طريق مصر بأربع سنوات.

فهل كان هؤلاء المغاربة وكلاء للكتاب المغربي بالشرق ؟ وهل كان لهم دور في إدخال الطباعة إلى المغرب عبر مصر ؟

... إننا لا نجد أثرا لفن الطباعة في كتابات المؤرخين المغاربة للحركة العلمية والثقافية بالمغرب وذلك رغم علم بعضهم بها. فقد أغلفها الونشريسي في معياره. ولم يقل أبدا صاحب "سلوة الأنفاس" إن كان أحد المترجم لهم قد مارس الطباعة أو ملكها أو وقف عليها. وهذا يفرض تساؤلات عديدة :

(8791/1)

... هل كانت الطباعة في عهد الونشيريسي متداولة بين الناس ؟ وإن كانت فلماذا لم يبد رأيه فيها وهو

الذي تطرق لأشياء أقل منها أهمية ؟ أم أنه، رغم وجودها، أغفلها لأنها لم تكن متداولة بين المسلمين ؟

... إن الاحتمال الأخير يفسر ، جزئيا "سلوة الأنفاس" من ذكر الطباعة إذ أن المعاملات التجارية كانت قائمة بين المسلمين وغير المسلمين في فاس وسائر المدن المغربية. أم ترى كان فن الطباعة محتكرا من قبل طائفة معينة ؟ أم كان المسلمون ينفرون منه لأسباب معينة ؟ أم كان محرما عليهم على غرار مسلمي تركيا ؟

(1/ 8792)

... إن هذه التساؤلات الأولية التي قد تتولد عنها تساؤلات أخرى أكثر عمقا تتطلب مزيدا من البحث والتنقيب لإلقاء الأضواء على حلقة مهمة من تاريخ الفكر المغربي طالما أهملت. وهذه التساؤلات يجدر بها أن تتوسع لتشمل العرب والطباعة ككل. ويمكن هنا ؟أن نتطرق للموضوع، ولو بعجالة. لنبين، إن كان ذلك يحتاج لدليل، أن الموضوع ذو أهمية ولا زال لم يحظ بالاهتمام الذي يستحقه.

العرب والطباعة

... كان العرب في بداية الدولة الإسلامية على صلة بالحضارة الصينية حيث كانت الطباعة متداولة (1)

---

(1) Bulletin de L'institut Egyptien , 57 série , T. III , 1er fascicule , déc . 1909 , P : 83 . أشار كالدي – ناجي إلى طباعة كتب دينية وأدعية و أوراق اللعب بقواليب خشبية ، كما أكد وجود مصاحف مطبوعة . ونظرا لأهمية الموضوع فإنه يحتاج إلى مزيد من البحث (انظر : Gy Kaldy - Nagy , " beginninngs of the Arabic -letter Printing in the Muslim word" in The East;studiesin Honour or Julius Germanus , Budapest, 1974 ,PP 201–211

===كما وصف رشيد الدين (فضل الله بن عماد) وكان طبيبا ووزيرا أيام المغول في إيران وصفا دقيقا للطباعة في بداية القرن الرابع عشر في كتابه جامع التواريخ. ترجم طبيبا ووزيرا أيام المغول في إيران وصفا دقيقا للطباعة في بداية القرن الرابع عشر في كتابه جامع التواريخ .ترجم النص من الفارسية إلى الفرنسية المستشرق كلابروت في : J.V.Klaproth , Lettre à M.Le Baron De Humboldt sur l'invention de la bourse de la boussole , Paris , Bondey - Dupré , 1834 .PP , 131–132 . وقد استعملت الطباعة في إيران ابتداء من سنة 693 هـ (1294 م) . انظر : (G.W.Shaw , " Matba'a " , in

Encyclopédie de l'Islam , nouvelle
.742édition,P.

(8793/1)

. وقد نتج عن هذا الاحتكاك اقتباس علوم وصناعات
شتى . إلا أننا نجد
العرب أغفلوا الطباعة ولم يطوروها أو لم يستعملوها إلا
في أغراض خاصة (شكل 1) . فهل كان الأمر كذلك أم أن
التاريخ سكت عن هذا ؟ أم أن إتلاف وإحراق خزائن بغداد
ودمشق وغيرها من طرف المغول والصليبيين ومن تلاهم
يكون أحد أسباب هذا الصمت المهول ؟ أم أن المجتمعات
العربية القديمة رأت الطباعة كما رأتها الكنيسة في
القرن الخامس عشر فحاربتها بقوة صارمة ؟ فإن صحت
الإشارات التاريخية حول وجود الطباعة على القماش أيام
الفاطميين بمصر لصح هذا التأويل

(8794/1)

إذ لا نجد كتبا عربية مطبوعة في هذا التاريخ رغم
تداول الورق عند العرب في هذا الوقت (6)
ظهرت الطباعة في أوروبا والعالم الإسلامي يعيش مرحلة

حاسمة . في الغرب الإسلامي كان مسلمو الأندلس يحاربون ، وهم متفرقون ، الجيوش المسيحية محاربة مستميتة لكن دون تكافؤ في القوة والعدد . وانتهى صمودهم بسقوط غرناطة ، آخر معقل للإسلام ، سنة 1492 م، فاقترن خروجهم بدخول الطباعة الأوربية إلى الأندلس . وفي المشرق تزامن تطور الطباعة في أوربا مع حملات العثمانيين لغزو العالم الإسلامي فلم يكترثوا بها . أما دولة المماليك في

(1/ 8795)

مصر والشام فقد كانت تلفظ آخر أنفاسها أمام زحف جيوش الأتراك . وهنا وجب أن نتساءل
مع ف . بارتولد ، كيف " أخذ المسلمون الأسلحة النارية بدون تردد، ولكن وجب استفتاء علماء الدين في قبول فن الطباعة وهي أحد مخترعات الكفار " ؟ (1) .
... وهكذا تطورت الطباعة أما م باب العالم الإسلامي دون أن يكون له حول أو قوة للاستفادة منها . بل أن السلطان العثماني بابزيد الثاني لما أدخلت الجالية اليهويدة أول مطبعة إلى تركيا

---

(1) ف . بارتولد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، دار النعارف بمصر ، 1966 ، ص . 149 .

(8796/1)

سنة 1493 م أصدر فرمانا يقضي بتحريم الطباعة على رعاياه المسلمين (1) .

المغرب والطباعة

... رأينا أن دخول أول طبعة أوربية إلى الأندلس غرناطة . وهكذا عرف آخر مسلمي الأندلس فن الطباعة . وقد امتهنه قطعا بعضهم إذ أن كتب تبشير كثيرة موجهة إلى المسلمين قصد تعليمهم الذين المسيحي قد طبعت

---

(1) خليل صابات ، تاريخ الطباعة في الشرق الأوسط ، دار المعارف بمصر ، 1958 ، ص . 23 – 24 ؛ A. Thevet , Hisoire des plus illustres et seavans hommes de leur siècle , Paris , tome 1671,) و . P, VII111 , matière : gute,berg.)

(8797/1)

بعد سقوط غرناطة بأمر من الكنيسة بحروف عربية (شكل 2) . وقد نزح عدد كثير من هؤلاء المسلمين إلى المغرب خوفا من نيران محاكم التفتيش . ترى هل كان من بين هؤلاء المهاجرين من مارس الطباعة من قبل وهل أتى بعضهم في أمتعته بآلة طباعة أو بحروف مسبوكة ؟

... ظهرت الحروف العربية المطبوعة بالأندلس سنة 1505 أي مباشرة بعد سقوطها فهل كانت الفترة الفاصلة بين 1592 و1505 كافية لاستيعاب تقنيات الطباعة العربية وحفر وسبك نسقات عربية ؟

(1/8798)

... هناك دلائل عدة تبشر بوجود طباعة عربية ببلاد الأندلس . تعتبر رحلة برنارد ده برايدنباخ (Bernard de Breydenbach) إلى بلاد الشام أول كتاب ظهر في أوربا بحروف عربية سنة 1486 . إلا أن الحروف المطبعية كانت وفق الخط المغربي (شكل 3) . وطبع الكتاب في مدينة ماينس((Mayence.فترى كيف هاجرت هذه الحروف المغربية إلى ألمانيا وأي طريق سلكت ؟

... كما أن الحروف التي استعملها بدوره ده ألكالا (

Pedro Alcala) فس كتابه حول " فن تعلم اللغة العربية بسهولة " (Arte pera legeramannte saber la lenga arravige)

(1/8799)

صُمِّمَّت وفقا للأبجدية المغربية (شكل 2) .

... ونفس التساؤل وضعته الباحثة الإيطالية أولغا بينتو (Olga Pinto) حول وجود حروف مطبعة مغربية استعملت في مقدمة كتاب " المزامير في ثلاث لغات " (Pasalterium trilingue) في جنوى (Génova) سنة 1516 والتي تجهل الظروف التي صنعت ووصلت فيها إيطاليا (1) . إنها لا تعني حروف "ابن سينا " التي صممت سنة 1586 على نفقة

---

(1) مركز العلاقات الإيطالية – العربية ، روما ، الدراسات العربية وفن الطباعة العربية في إيطاليا من القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين ، ص . 6 .

(1/8800)

الكاردينال فيرديناند ده ميديسيس (Cardinal Fernand de Médicis) صاحب المطبعة الشرقية الشهيرة في روما أو الحروف المغربية التي أتى بها نابليون من مطبعة الفاتيكان إلى المطبعة الوطنية الفرنسية (1) .

... أشار صاحب " الإحاطة " مترجما لأبي بكر القللوسي أنه " ...رفع للوزير الحكيم كتابا في الخواص وصنعة الأمدة وآلة طبع الكتاب غريب في معناه " (2) .

---

(1) Les caratères de l'Imprimerie Nationale , I , 1990N , Paris, PP. 189 -214

(2) ابن الخطيب الإحاطة في أخبار غرناطة ، الجزء الأول ، ص . 135 .

(8801/1)

كما تبث عند ابن الأبار أنه في القرن الرابع للهجرة كان لعبد الرحمان بن بدر ، أحد وزراء الناصر، وصيف كاتب " اعتاد أن ينشئ الرسائل الرسمية في منزله ، ثم ينفذها إلى ديوان خاص يصير فيها إظهارها على الورق ، فتصدر في نسخ متعددة توزع على عمال الدولة " (1) .

... ولعل ابن بدر هذا هو الذي أشار إلأيه كيانكوس (

Cayangos) في رده على هامر بوركستال (Hammer Purgastall) مستفسرا إياه عن مقطع من " الإحاطة "

---

(1) ابن الأبار ، الحالة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1966 ، ص . 253 .

(8802/1)

، محدثا في ذلك خلطا وتناقضا . إلا أن استشهاده بنص من " الحلة السيراء " كان أوضح وأنفع . فلعله رجع إلى نسخة خطية بأكاديمية إسطانبول حيث كان يعمل وهذا نص استشهاده متحدثا عن ابن بدر ، خادم الأمير عبد الله ، كما ورد في كتاب ابن العطار " فكتب السجلات في داره ثم يبعثها للمطبع فتطبع وتخرج إلأيه فيبعث في العمال وينفذون على يديه " (1) . كان هذا في القرن الرابع للهجرة الموافق للقرن الحادي عشر للميلاد . أي قبل ظهور الطباعة في أوربا بنحو ثلاثة

---

(1) Journal Asiatique , 4éme série , tome XX , 1852, P. 255.

(8803/1)

قرون .

... فبعد أن تطرقنا بعجالة إلى الموضوع من الناحية الأندلسية يجب أن نعبر مضيق جبل طارق لنرى القاعدة الخلفية لمسلمي الأندلس .

... لم تقتصر الهجرة إلى المغرب على المسلمين وحدهم بل رافقهم عدد كبير من اليهود الذين رفضوا التنكر لدينهم أو اعتنقوا المسيحية في الظاهر خوفا من محاكم التفتيش . نزل معظم المهاجرين بفاس نظرا لمكانتها العلمية والسياسية آنذاك .

... إن وجود مطبعيين بين المهاجرين إلى المغرب خوفا من نيران محاكم التفتيش تبرره عوامل عدة :

(8804/1)

... 1 – ابتداء الحملة ضد اليهود سنة 1490 بإحراق ما يزيد عن ستة آلاف كتاب عبري من طرف محاكم التفتيش .

... 2 – إصدار الملكة إيزابيل سنة 1502 لمرسوم يقضي بمنع الطباعة على اليهود أو استيراد الكتب العبرية دون ترخيص .

3 – إعدام كل يهودي رجع إلى إسبانيا بعد طرده (1) .

... استوطن معظم اللاجئين اليهود مدينة فاس حيث كانت تقطن جالية يهودية مهمة وحظوا برعاية الملوك المرينيين وتقلدوا أعلى مناصب الحكم مما ساعد على متابعة الهجرة اليهودية من

---

(1) عادل سعيد بشتاوي ، الأندلسيون المواركة ، دمشق ، 1985 ، ص . 213 .

(8805/1)

الأندلس حيث كان قتل اليهودي لا يعتبر جريمة (1) .

والاستقرار المعنوي كفيل بالخلق والإبداع .

... فإذا كان من اللاجئين إلى فاس مطبعيون فيحتمل أن تكون هجرتهم قد وقعت بعد منع الطباعة على اليهود من طرف ملكة إسبانيا وأن يكون وصولهم إلى المغرب قد حصل حوالي سنة 1498 (2)

---

(1) M.Kenbib , " Juifs dans une cité de L'Islam " , in Fès médiévale ,Côté cour , Côté rue , Autrement, Paris ,1988, P.174.

(2) L.Febere et H.J . Martin , L'apparition du livre , Albin Michel , Paris , 1958, P. 376 .

, Bloch

, 1938in Spain and Portugal , " Early Printing "

.35- 32PP .

(8806/1)

إذ تؤكد المصدر أن البرتغاليين اليهود حملوا معهم مطابعهم (1) **.ولما استقروا بالمغرب " استمروا في إنتاج كتب جميلة "** (2) **.**

... صدر أول كتاب عن المطبعة الفاسية سنة 1516 **لدافيد بن يوسف أبو درهم تحت عنوان (** Perush ha - berkhot ve ha -tefillot **) (شكل** 4 **) بمطبعة كان يديرها سمويل بن إسحاق نيفدوت (** Samuel b . Isaac Nivadot **) وابنه إسحاق ، واستمرت هذه المطبعة في العمل إلى سنة** 1524 **أنتجت خلال هذه**

---

(1) **المصدر السابق ، الهامش** 364 **، ص .** 474 **.**

(2) , 1975Encyclopedia Judaïca , Jérusalem ,

.303tome II , colome

(8807/1)

المدة خمسة عشر كتابا على الأقل (1) . ويجهل مصير مطبعة نيفيدوت إذ لا نجد أثرا لها بعد هذا التاريخ . كما تجهل الأسباب التي دعتها إلى التوقف . فربما كان ذلك بموت صاحبها أو إفلاسه أو بعدم توفر المواد الضرورية للاستمرار في الإنتاج . وربما مات نيفيدوت هذا ولم يخلف ولدا إذ لا نجد له أثرا في قائمة أسماء يهودي المغرب (2) وبهذا يكون المغرب

---

(1) Encyclopedia Judaïca , Jérusalem , 1975 , colome 6tome 1056.

(2) I.Abraham , Laredo , Les noms des jiufs du Maroc , Institut B . Arias Montaano , Madrid , 1978.

(8808/1)

أول بلد عربي وإفريقي عرف الطباعة وثاني بلد إسلامي ، بعد تركيا سنة 1493 م (1) . ونحن لا يهمنا أكان إنتاجها عربيا أم لا بقدر ما يهمنا الحدث العلمي ذاته. كما أن الطباعة كانت

---

(1) Encyclopedia Judaïca , Jérusalem , 1975 , 9tome colonne 1097) . يشير برونـي في معجم علوم الكتاب إلى أن " كتبا قد طبعت في المغرب من طرف أوربيين " (أنظر : Chevallier , Origine de L'imprimerie , 1964 , cité par Brunet (L'abbé) , Dictionnaire de Bibliologie catholique , J-P , Migne Edit . Paris , 1860 colonne 943 .

(1/8809)

رائجة في شمال المغرب المحتل قبل دخولها إلى فاس سنة 1865م.(شكل 5).

... تتضارب المعطيات حول وجود الطباعة في المغرب قبل القرن السابع عشر . فسفير فرنسا بالمغرب بيدو ده سانت أولن (Pidou de Saint Olon) يؤكد في وصفه الدقيق لحالة المغرب الاجتماعية والفكرية والاقتصادية سنة 1693 م قائلا : " ...إن الكتب (بالمغرب) غريبة وقليلة لأن المطابع كادت تنقرض من بلادهم " (1) " lES LIVRES)Y sont d'autant plus curieux et rares qu'il

---

(1) Pidou de Saint-Olon , Etat présent de l'Empire du Maroc , Paris , 1694 , P. 79 .

(8810/1)

---

n’y a presque plus « d’imprimeries dans leurs pays) **هذه الشهادة الدقيقة تؤكد أن المغرب كانت به مطابع عديدة وكادت تنقرض في نهاية القرن السابع عشر حسب شهادة السفير الفرنسي (** il n’y a presque plus d’imprimeries) **الشيء الذي يفتح أمامنا آفاقا جديدة في البحث .**

(8811/1)

حملة لويس التاسع على تونس (فصل من الحروب الصليبية)

... ... الدكتور محمد الباجي بن مامي

... ... المعهد الوطني للتراث – تونس

اعتبر كلّ المؤرخين حملة لويس التاسع على تونس، حلقة من حلقات المواجهة التي فرضت على قسم من العالم الإسلامي خلال فترة طويلة من الزمن والتي درست أغلب تفاصيلها بطريقة دقيقة(1)

(1) تحدثت الكثير عن المصادر والمراجع عن كل جزئيات الحملة الأولى وعن أسبابها وعن دور البابا أوربان الثاني (Urbain II) ودور «Pierre l'Ermite» فيها ، إلخ كما درست الحملة الثانية ودور البابا «Eugène II» فيها، سنة 1146م. ومن بين أهم الحملات: الثالثة سنة 1187م، تلك التي ساهم فيها ريتشارد قلب الأسد وفريديريك «Frédéric Barberousse» . حول هذه الحملات والتي تلتها انظر: Encyclopaedia Universalis, Vol. 5, pp. 146–152 ; Encyclopédie de l'Islam, «Croisades».

كما يمكن الاطلاع على:

– إرنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، 1967؛ زابوروف ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، دار التقدّم، موسكو، 1986؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية في العصور الوسطى، القاهرة، 1982؛ شارتري فوشيه، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلي، عمان، 1991.

(8812/1)

في العديد من الملتقيات العلمية(1)

أما عن أسباب الحملات الصليبية بصفة عامة، فقد خاض فيها العديد من المؤرخين، ولكلّ منهم آراؤه وتحاليله. فمنهم من يرى أن هذه الدوافع اقتصادية بحتة ومنهم من يضيف

العامل الديمغرافي، ومنهم من يصدّر في المقدمة العامل الدّيني قبل أي سبب آخر(2)

---

(1) نذكر من بين هؤلاء المصنفين: ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق؛ وابن الأثير، الكامل في التاريخ؛ وابن شدّاد، النوادر السلطانية؛ وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وغيرهم كثير...

(2) انظر خاصة أعمال المؤتمر: »الأسبوع التاريخي الأول بمناسبة مرور سبعة قرون على خروج الصليبيين (الفرنجة) من بلاد الشام«، تصدير الجمعية التاريخية في حمص، سنة 1992. وبها عدة مقالات هامة من بينها خاصة مقال للدكتور صالح حمارنة »الحملات الصليبية – التسمية والدوافع«، ومقال الدكتور سهيل زكار، »كيف جاءت نهاية الحروب الصليبية ونتائجها«. كما ساهم الدكتور شاكر مصطفى، بمقال بعنوان: »حكاية الصليبيات«. وانظر أمين معلوف، »الحروب الصليبية كما رآها العرب«، ترجمة دار الفارابي، بيروت، 1989.

P. Alphandrie et A. Dupônt, La chrétienté et l'idée de Croisade, 2Vol, Paris, 1954–1959.

(8813/1)

.

إلاّ أنه من المؤكّد أن هذه العوامل كلّها في مجملها لها نصيب الأسد في اندلاع وتواصل هذه الحملات الصليبية(1)

---

(1) فقد رأى أغلب المحللين للموضوع أن الحروب الصليبية كانت في معناها الواسع حلقة من الصراع ومواجهة مباشرة بين المشرق والمغرب. وأكد أغلبهم على أن أسباب قدوم الصليبيين متعددة، ومن بينها الأسباب المباشرة، فقبل الحملة الأولى وبعد تهديد السلاجقة للقسطنطينية واستنجاد الإمبراطور البيزنطي ألكسيس كومان (Alexis Commène) بالبابا، وما من شك أن أوربان الثاني كان يعد هذه المدينة آخر خط دفاعي أمام توغل المسلمين في أوربا. أما الناحية الأخرى التي نسجلها، فهي الوضع الذي كان عليه المجتمع الأوروبي. فجميع المصادر تتحدث عن الفاقة والاحتياج اللذين كانا منتشرين هنالك، كما أن طبقة الإقطاعيين والنبلاء كانت تسلط ضرائب ضخمة على الفلاحين فمثلت

هذه الحروب الفرصة السانحة لهم للتخلص من قمع أسيادهم والهروب من اضطهادهم. لهذا اندفعوا في أعداد كبيرة للقيام بالواجب المقدّس. أما الطبقات العليا، فكانت ترمي من وراء هذا إلى تحقيق مطامح شخصية، خاصة الحلم بتكوين ثروات طائلة واقتطاع إمارات جديدة بالمشرق، كما اعتبروا أن الوازع الديني سيكون غطاء لأهدافهم الدنيوية. ونلاحظ أن الجمهوريات الإيطالية كانت تطمح إلى الحصول على أرباح طائلة من جراء هذه الحملات خاصة جمهوريات البندقية وجنوة وبيزا ونابولي التي ساهمت فيها مباشرة. لكن لا يعني هذا أن الناحية الدينية فقدت لدى هؤلاء، إذ أنّ أغلبهم –وخاصة العامة، أي الجنود– كان وازعهم الأساسي دينيا، إذ أن دفع رجالات الدين لهم كان متواصلا للحج إلى بيت المقدس والاستيلاء عليها. (يمكن الاطلاع على ما أورده سيد علي الحريري في كتابه: »الأخبار السنية في الحروب الصليبية« (1329هـ) حول خطاب البابا أوربان الثاني في Clérmont Ferrand وعن إعلانه لغفران الذنوب والتكفير عن المعاصي لكلّ مشارك في الحملة، وهي ليست أول مرة يحصل فيها هذا. فالبابا جون الثامن وعد هو الآخر بمحو ذنوب المحاربين الذين يدافعون عن دينهم ضدّ المسلمين في صقلية (خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع ميلادي) كما أن

ألكسندر الثاني وعد بنفس الشيء بالنسبة للمقاتلين المسيحيين بإسبانيا سنة 1063م.

(8814/1)

.

ولقد اخترت الحديث عن الحملة الصليبية الأخيرة التي دارت رحاها بتونس، نظرا لعدم توفّر دراسة معمّقة إلى حدّ الآن حول هذا الموضوع، خاصة وأنّه لا يمكن الاعتماد إلاّ على
مصادر عربية قليلة جدّا، أولها زمنيا وأهمّها »كتاب العبر« لابن خلدون، الذي اعتمد عليه ابن قنفذ في مصنفه »الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية« (القرن الثامن هجري/ الرابع عشر ميلادي)، ونفس الشيء بالنسبة لابن الشماع صاحب »الأدلّة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية« (القرن التاسع هجري/ الخامس عشر ميلادي).

(8815/1)

أما بالنسبة للمصادر العربية، فقد لاحظت أنّها متحيزة وحاولت تحريف الواقع، خاصة وأن الكثير منها اعتمدت فيما أتت به على بعض رجالات الدين الذين رافقوا الحملة. ومن اللاّفت للانتباه أن سكرتير لويس التاسع دوّن كل أحداث الحملة السابعة، يوما بعد يوم، وهو ما يمكن عده وثيقة هامة جدا، بينما لم نحصل على أي وثيقة من هذا النمط بالنّسبة للحملة الثامنة، وهو ما كان يمكن أن يسهل لنا الأمور.

ويجدر بنا في مقدمة هذا البحث أن نتساءل عن أسباب قيام هذه الحملة الصليبية الثامنة وأسباب تحويل وجهتها إلى تونس.

(8816/1)

أول ما يلفت النظر هو الحالة الداخلية للبلاد التونسية خلال القرنين اللذين سبقا تاريخ الحملة. فمن المؤكد أن الأفرنجة لم يشعروا البتة بأي خطر يمكن أن يتأتى من افريقية خلال القرنين الخامس والسادس للهجرة (XI و XIIم)(1)

---

(1) تولّى المعز بن باديس الحكم على إفريقية (من سنة 406هـ إلى 453هـ). فكانت تعد مدته في البداية فترة

رخاء نسبي ثم أصبحت مليئة بالاضطرابات خاصة مع زحف قبائل بني هلال وسليم التي سادت خلالها الفوضى في البلاد. ومثل النصف الثاني للقرن الخامس أحلك الفترات. فقد اعتبرها المؤرخون فترة »ملوك الطوائف«. وهكذا عرفت عدة مدن استقلالية ذاتية مثل ما حدث في مدينة تونس (بنو خرسان).

(8817/1)

.

فقد عرفت هذه الأصقاع آنذاك فترة من الاضطرابات والتشتت إثر الزحفة الهلالية في منتصف القرن الخامس هجري/ الحادي عشر ميلادي، ونتج عن ذلك تقسيم افريقية إلى دويلات متصارعة لا تمثل خطرا على بلاد »الافرنجة والنصارى«، مما يسر لهم استرجاع صقلية بشيء من السهولة. وتواصل الأمر على هذا الحال حتى قدوم عبد المؤمن بن علي سنة الأخماس (555هـ) حيث استتبت الأمور نسبيا، ولم تعرف افريقية بعض القوة إلا عند قيام الدولة الحفصية.

(8818/1)

ثم تطورت الأمور خلال حكم المستنصر بن أبي زكرياء الأول، مؤسس الدولة الحفصية، حيث أصبحت تونس لمدة وجيزة مقر الخلافة. فمن الناحية الغربية للبلاد، أتته البيعة من الأندلس: خاصة من الناصريين بغرناطة، وكذلك من بني عبد الواد بتلمسان، والمرينيين بفاس (سنة 652هـ/ 1254م). ويفيدنا ابن خلدون أن أبا يحيى بن عبد الحق بعث سنة 652هـ/1254م بسفارة إلى المستنصر الحفصي للتأكيد على مبايعته له. وإثر وفاة أبي يحيى سنة 656هـ/1258م، واصل أبو يوسف يعقوب نفس سياسة أخيه في هذا المجال(1)

---

(1) أعلن بنو مرين مبايعتهم للمستنصر وتشبثوا بها لمدة طويلة نتيجة مواجهتهم للموحدين حيث طلبوا من الحفصيين المعونة والمساعدة ضد خصومهم. انظر كتاب الاستقصا، لأحمد الناصري الذي يفيدنا بأنه: »لما لم يكن لبني مرين أن يدعوا إلى بني عبد المؤمن لأنهم أقتالهم وإياهم يتنازعون... دعوا إلى طاعة الحفصيين الذين هم فرع منهم، والدعوة إلى فرع كالدعوة إلى أصله، فلم تنفر نفوس أهل المغرب عنها« (ج. 3، ص. 28. انظر ابن خلدون، العبر، ج. 6، ص. 651).

(8819/1)

، كما وفد أمير بني توجين (من زناتة) على المستنصر مجددا طاعته(1).

أما في الناحية الشرقية، فإن انقراض الخلافة العباسية سنة 656هـ/1258م (تحت ضربات المغول) أحدثت تصدعا خطيرا في صلب العالم الإسلامي نتيجة لانفصام العروة الوثقى والرابطة الروحية التي كانت تشده لبعضه.

ولتدارك هذا الوضع، ومن جراء هذا الفراغ، وردت بيعة مكة المكرمة على المستنصر، ويبدو أن أحد الأندلسيين أصيل مرسيه الذي استوطن سابقا تونس وهو أبو محمد عبد الحق بن سبعين(2)

---

(1) ابن خلدون، العبر، ج 6، ص. 660.

(2) حول هذه الشخصية المرسية، انظر ابن خلدون، المصدر السابق، ج.6، صص. 634–635. كما أورد نفس المصدر نص المبايعة بأكمله

(ص. 651)؛ وكذلك ابن أبي الضياف في إتحاف... الذي مدنا بمعلومات عن هذه المبايعة (ج. 1، ص. 160)

كان له تأثير على شريف مكة أبي نمي بن قتادة، وهو الذي حثه على بعث مبايعته إلى الأمير الحفصي، وذلك

سنة 657هـ/1259م(1).

وبعد حوالي سنة ونصف من هذا التاريخ وإثر انتصار المماليك على المغول في فلسطين (رمضان 658هـ/1260م)، وصلت رسالة

---

(1) أتى بهذه الرسالة أبو محمد بن برطلة وهو الآخر أصيل مرسيه (انظر: ابن قنفذ الفارسية، ص. 120؛ والزركشي، تاريخ الدولتين، ص. 37؛ والغبريني عنوان الدراية، صص. 191–192. ويذكر ابن الشماع في الأدلة، أن أبا القاسم بن البرّاء التنوخي هو الذي قرأ هاته الرسالة بين يدي المستنصر.

(8821/1)

مبايعة مصر إلى المستنصر (بداية 659هـ/1260م) والتي لقب فيها بأمير المؤمنين(1).

---

(1) إلا أنه قبل وصول الرسالة، استولى السلطان المملوكي بيبرس البندقداري على الحكم بعد قتله للمظفر، وذلك في ذي القعدة 658هـ/أكتوبر 1260م وجدد أسس الخلافة العباسية في مصر، لكن بالطبع ما هذه العملية إلا مكيدة استمد منها المماليك شرعية

سلطانهم وسمحت لهم بإرساخ قواعد حكمهم من دون الاعتراف بالخلافة الحفصية (انظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص. 477).

(8822/1)

قبل وصول الحملة الصليبية إلى تونس، أصبح المستنصر إذن رمزا هاما في العالم الإسلامي. فهو مع لقب الخليفة الذي تسمى به سنة 650هـ/1252م، اتخذ أيضا لقب أمير المؤمنين، ولا يستبعد أن يكون هذا العامل من الأسباب التي دفعت لويس التاسع إلى تغيير اتجاه الحملة الصليبية الثامنة إلى تونس. ومن البديهي أن مهاجمة هذا الرمز الذي أصبح له كثير من الدلالات ستشكل هزيمته انتصارا روحيا ومعنويا على بقية العالم الإسلامي.

(8823/1)

ومن الممكن جدا أن لويس التاسع أراد أيضا من وراء حملته هذه إضعاف المستنصر وبالتالي منعه من إغاثة الأندلس، التي مثلت هي الأخرى حلقة من حلقات صراع

المسلمين مع القوى المسيحية، وبالتالي يمكن تصور موقف الملك الفرنسي من قضية إخوانه في الدين، الذين كانوا بصدد الاستيلاء على البقية المتبقية من الإمارات الإسلامية في الأندلس. وهكذا، فإن الهجوم على تونس ساعد بصفة فعلية في وقف أي مساعدة يمكن أن تصل إلى مسلمي الأندلس، وهو بالطبع ما كان يصبو إليه كل المسيحيين، بمن فيهم لويس التاسع.

(8824/1)

أما ابن خلدون، فيفسر مبادرة لويس التاسع، برجوعه إلى الفترات القديمة من تاريخ افريقية التي كانت من أول البلاد التي دخلت الدين المسيحي وساندته إلى أن جاء الإسلام، وكان الفتح. فيوضح صاحب »المقدمة« أن ذلك هو ما يفسر »أنه لم تزل في نفوسهم (أي المسيحيين) من ذلك ضغائن، فكان يخالجهم الطمع في ارتجاع ما غلبوا عليه«.

وهو –لعمري غير– مستبعد. فخلال فترة الحماية الفرنسية لتونس لاحظنا الكثير من المستشرقين الذين يميلون إلى هذا النوع من التفكير. وقد وجدت هذه الحملة هي الأخرى مساندة البابا أوربان الرابع (Urbain

(8825/1)

IV) ادذين رفع بالمسيحيين للاتجاه إلى مصر والشام، لنجدة إخوانهم المسيحيين هناك وحمايتهم من أعدائهم المسلمين.

ويدعم هذا البعد الديني ما ذهب إليه برونشفيك من أن البعض من الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان أوهموا لويس التاسع بإمكانية تنصير السلطان الحفصي . ويؤكد نفس المؤلف أن هذا السبب يبدو له منطقيا، إذ أن إيمان لويس التاسع كان عميقا جدا. وبالطبع، فإن إمكانية تنصير أمير المؤمنين تعد عملية بالغة الأهمية، وهي حسب رأيه من الدوافع التي ساهمت في تغيير وجهته إلى تونس. وبالرغم من أنه لا يمكننا الاقتناع

(8826/1)

بهذه النظرية، فإن هذا التصرف يتماشى وعقلية العصر، خاصة بالنسبة للملك لويس التاسع الذي تصفه المصادر الفرنسية بأنه كان متطرفا دينيا(1)

_____

(1) كما يذكر الوزير السرّاج أنه »قيل إن السبب هو أن الفرنصيص انجرَّ ذكرهم بين يدي المستنصر فقال: هم الذين أسر هؤلاء طاغيتهم ثم أطلقوه، يشير إلى الأتراك الذين كانوا بين يديه فبلغ الفرنسيس (لويس التاسع) مقالته: »فحشد إليه أهل ملته بسبب ذلك« (الحلل السندسية، دار المغرب الإسلامي، 1984، ج.1، ص. 153؛ إلا أن هذا المصدر متأخر (القرن الثامن عشر). ولا يمكن أخذ ما ورد فيه بعين الاعتبار.

(1/8827)

.

وقد تساعدنا نشأة وشخصية لويس التاسع على فهم أسباب تنظيمه ومساهمته في هذه الحملات الصليبية من حيث تجمع مختلف المصادر والدراسات على أن شخصيته كانت معقدة(1)، وكانت قراراته ومواقفه تبعث على الحيرة؛ إلا أن الشيء الذي لا يمكن الشك فيه البتة هو إيمانه العميق.

ولد لويس التاسع في عام 1214، وتولى السلطة وسنه لم تتجاوز الثانية عشر، وكانت آنذاك الوصية على العرش بلونش دي كاستيل (Blanche de Castille) التي تصفها المصادر الغربية بالتقى، مما

(1) **انظر:** Encyclopaedia Universaliy: «Saint Louis », Vol. 14, p. 615.

(1/8828)

أثر تأثيرا عميقا على بقية حياة الملك، كما اهتمت بلونش بتعليم لويس التاسع وخاصة تمرينه على ركوب الجياد وعلى فنون الحرب؛ مما جعل منه فارسا بارعا مولعا بقيادة الجند، وفي آن واحد رجل دين جمع حوله القساوسة(1)

إلا أنه انطلاقا من تاريخ حملته الأولى على مصر تغير مجرى حياته، وأصبح يميل أكثر للاختلاء بنفسه والعبادة. ومن المؤكد أنه بالرغم من استماعه لنصائح النبلاء المحيطين

(1) F. Cognasso, «Storia Delle Crociate, Milano, 1967 ; P. Alchandery et A. Dupront: La chrétienté et l'idée de Croisade, Paris 2Vol.

(1/8829)

به، فإنه لم يكن يطبقها، بعكس تعامله مع رجالات الدين الذين أصبح لهم تأثير عميق على تصرفاته وعلى سياسته؛ لكن بالرغم من ذلك، فقد أبدى –حسب كل المصادر– الكثير من الحنكة ومن التبصر، مما حمل الأوروبيين على احترامه. فلا غرابة إذن في قرار سان لويس أن يقود حملتين صليبيتين، وهو ما يدفعنا إلى الاحتمال إلى أن دوافعه كانت في مرتبة أولى دينية، نقول هذا بكل احتراز لأن الدوافع الأخرى لها وزنها ولا يمكن تجاهلها.

غير أن هذه الناحية لا يمكن أن تفسر بمفردها خلفيات هذه الحملة، إذ أن العامل الاقتصادي من جهة والعامل

(8830/1)

الاجتماعي من جهة أخرى كان لهما دور لا يستهان به.

فإضافة إلى الأبعاد الدينية التي تفسر قسطا من أسباب الحملات الصليبية بصفة عامة، توجد نواحٍ أخرى لها قيمتها خاصة منها الأسباب الاقتصادية؛ إذ مثل هذين العنصرين القاسم المشترك بين جميع الحملات الصليبية.

ومن بين الأسباب التي ركزت عليها الكثير من المراجع: النمو الديمغرافي الذي عرفه الغرب، من ذلك دراسات

المستشرقين التي تؤكد على نمو عدد الإقطاعيين والنبلاء والفرسان، خاصة بفرنسا(1)

---

(1) يذكر الدكتور صالح الحمارنة أن هذه الحملات مثّلت »متنفسا لطبقة الفرسان التي كان عددها ينمو باستمرار، كما أن الزيادة السكانية أيضا في غرب أروبا في القرن الحادي عشر قد حفزت أبناء الغرب على البحث على أراض جديدة خارج أروبا، فجاءت الدعوة إلى التوسع في الشرق العربي« (انظر: الحملات الصليبية: التمسية والدوافع، ص. 14. من الأسبوع التاريخي الأول بمناسبة مرور سبعة قرون على خروج الصليبيين. (الجمعية التاريخية في حمص).

(8831/1)

. ولا ينطبق هذا الوضع على القرن الحادي عشر فقط، بل تواصوا إلى القرن السابع هجري/الثالث عشر ميلادي. أمّا بالنسبة للناحية الاقتصادية، فمما يمكن أن يفسر اتجاه لويس التاسع إلى تونس، هو أن افريقية كانت تتحكم آنذاك في أهم ممرات سوق الذهب السوداني، وهي التي كانت تزود أروبا به. ومن الأكيد أن هذا العامل له أهمية قصوى بالنسبة للجمهوريات التجارية الإيطالية،

وخاصة منها البندقية وجنوة، وقد ساهمت هذه الأخيرة بسفنها لتأمين نقل جنود القديس التاسع. كما أنه من المؤكد أن للإطار السياسي الذي عرفته صقلية في ذلك

التاريخ دورا لا يستهان به في تحويل وجهة القديس لويس إلى تونس.

ففي سنة 1266 م ساند البابا كليمون (Clément IV) شارل دنجو (Charles d'Anjou) أخو لويس التاسع في الحصول على صقلية(1). فقد سبقه فيها فريديريك الثامن النرمندي الذي كان يعتبر صديقا للمسلمين، مما جعل

---

(1) كان لويس التاسع معترضا في البداية على تسمية أخيه ملكا على صقلية لكن تحت إلحاح البابا أوربان الرابع (Urbain IV). وأمام إصرار أخيه شارل، تراجع ووافق أخيرا على تقليد أخيه مقاليد الحكم في هذه الجزيرة الهامة بالبحر المتوسط خلال هذا التاريخ الوسيط

البابا يحقد عليه، ثم أتى دور منفرد (Manfred) سنة 1258م. وكان أبو زكرياء الحفصي يدفع أتاوة سنوية إلى فريديريك، إلا أنه بعد موته ساء حال مسلمي صقلية نتيجة للسياسة التي اتبعتها الكنيسة من تهجير لهم واستحواذ على أملاكهم، إلخ(1). وانطلاقا من هذا

(1) عثرت على العديد من وثائق الأرشيف بصقلية التي تؤكد هذا الموضوع خاصة سياسة شراء الكنيسة لا ملك المسلمين ثم إدخالهم في صف العبيد أو تنصيرهم ثم آخر الحلول تهجير بعضهم إلى تونس. وانظر كذلك: Cusa Salvatore, Diplomi Greci et Arabi de Sicili, Palerme, 1968.

الموقف، وكذلك اعتبارا لمساهمة شارل إلى جانب أخيه لويس في الحملة الصليبية السابعة، فقد قبل المستنصر الحفصي بعض خصوم شارل دنجو كلاجئين لديه، ثم ساندهم ماديا وعسكريا على التحول إلى صقلية لمحاربة شارل الأول. وكان من بين هؤلاء خاصة كونرادان (Conradin) حفيد الملك السابق، وكذلك هنري

وفريدريك (Henri et Frédéric) المغامرين اللذين هربا من مملكة أخيهما الفونس العاشر (Alphonse X) ملك قشتيلية ()(1Castille)

---

(1) من بين من تحول إلى تونس للاحتماء بالمستنصر Nicolas Maletta و Frédéric Lancia صديقي الملك السابق لصقلية، ثم وصول Conrad Capece.

(1/8835)

، لكن خلال شهر أكتوبر 1268 تخلص شارل الأول من عدوه (Conradin). وبعد سنة، من ذلك وحد تحت سلطته كامل صقلية(1).

انطلاقا من هذا التاريخ، بدأ ملك صقلية يطالب المستنصر الحفصي بدفع نفس الأداءات التي كان يدفعها أبو زكرياء لفريديريك الثاني. وهكذا طالب من مبعوثي الملك الحفصي سنة 1269م دفع ما تخلد بذمته انطلاقا من تاريخ وفاة فريديريك الثاني، أي من سنة 1258م. أمام هذه المطالب المجحفة، رفض المستنصر

---

(1) حول هذه الأحداث، راجع: Mas-Latrie Traité...,

; Brunschvig, La Berberie 159–158pp.

.54Orientale..., T.I, p.

(8836/1)

دفع أبي أتاوة بالرغم من إرسال شارل دنجو بعدة مبعوثين إلى سلطان تونس لإيجاد حل لهذه المسألة(1). فمن الممكن جدا إذن أن موقف المستنصر من شارل ومساندة أعدائه، ثم فيما بعد رفضه دفع أداءات لحاكم صقلية، جعلت هذا الأخير يحاول الانتقام في مرحلة أولى من هذا الخصم المسلم، ثم الحصول على الأموال المتخلدة بذمته، وهي في حد ذاتها عوامل ربما دفعت شارل دنجو لتحريض أخيه لويس التاسع على تحويل وجهته إلى تونس.

---

(1) **من بين هؤلاء الرسل، القسيس برنجير (** LeFrère Prêcheur Brenger**)، انظر:** Brunschvig, idem, p. .55

(8837/1)

وقد أكد بعض المؤلفين الغربيين على أن شارل هو المسؤول عن الغلطة الفادحة التي ارتكبها لويس التاسع في تحوله إلى تونس، وحسبما ذهبوا إليه، فقد كان يأمل في الحصول على منافع تجارية واقتصادية من وراء هذه الحملة(1)، خاصة وأن تونس كانت تعرف آنذاك مجاعة نتج عنها موت العديد من السكان. وهكذا أصبحت في نظرهم لا تمتلك القوة الكافية لرد غزواتهم. إلا أن برونشفيك يرى أنه لم يكن من مصلحة شارل دنجو

---

(1) من بين من يحبذون هذا الرأي:

1285Diagard, Philipe le Bel et le Saint siège de

., T.I, p. XXXV1936, Paris, 1305à

(8838/1)

تحويل وجهة الحملة إلى تونس، إذ كان ينوي الحصول إلى حل سلمي مع المستنصر للحصول على الأداءات التي يطالب بها. إلا أن هذا الرأي لا يستند على أي معلومات تاريخية ثابتة.

ومن بين العوامل الأخرى التي ربما تمثل أقل أهمية ما يذكره ابن خلدون حول اعتزام لويس التاسع »على الحركة إلى تونس متجنيا عليهم فيما زعموا بمال ادعاه

تجار أرضهم وأنهم

أقرضوا الليانـي «(1)

---

(1) يذكر الزركشي (في تاريخ الدولتين) أنه »أول يوم من فاتح سنة تسع وخمسين وستمائة أمر السلطان بالقبض على أبي العباس أحمد الليانـي...« وسعى به ابن أبي الحسين وغيره، زعموا أنه اختزن لنفسه مالا جليلا... وطولب بمال كبير فأحضره، ثم أمر السلطان بالقبض على الليانـي، فقبض عليه، فحمل إلى دار السكة وعذب إلى أن مات سنة 659هـ/1261م (ص. 25).

(8839/1)

. »فلما نكبه السلطان، طالبوه بذلك المال وهو نحو ثلاثمائة دينار بغير موجب يستندون إليه، فغضبوا لذلك واشتكوا إلى طاغيتهم (أي لويس التاسع) فامتعض لهم، ورغبوه في غزو تونس لما كان فيها من المجاعة والموتان...«(1).

اِدّعى بعض التجار الفرنسيين إذن أن لهم دينا على أحمد الليانـي، وهو أحد كبار رجالات الدولة، وذلك بعد مقتله تحت طائلة التعذيب بأمر من المستنصر. ويفيدنا ابن خلدون أن المستنصر أرسل بمبعوثين إلى لويس التاسع

لإيجاد حلّ لهذا المشكل(2). وقد رفض لويس التاسع

---

(1) العبر، ج. 6، ص. 665.

(2) نفس المصدر.

التصالح، بالرغم من أن المستنصر قبل أن يدفع مبلغا ضخما له، ويعلمنا صاحب »العبر« أنه »أوفد السلطان إلى الفرنسيس لاختبار حاله ومشارطته على ما يكف عزمه، وحملوا ثمانين ألفا من الذهب لاستتمام شروطهم فيما زعموا، فأخذ المال من أيديهم وأخبرهم أن غزوه إلى أرضهم. فلما طلبوا المال، اعتل عليهم بأنه لم يباشر قبضه...«(1). هكذا يعد مؤرخنا سبب الحملة، هذه المشكلة، لكن هل يمكن أن تكون سبب الحملة الرئيسي في وجهة لويس التاسع إلى تونس؟

الحالة الداخلية في إفريقية قبل بداية حملة لويس التاسع

---

(1) نفس المصدر.

لا يستبعد أن تكون الحالة الداخلية التي عرفتها البلاد انطلاقا من سنة 659هـ/1261م قد شجعت لويس التاسع على الاتجاه إلى تونس، إذ عرفت إفريقية انطلاقا من هذا التاريخ العديد من المشاكل والاضطرابات الداخلية. فقد انتشر الوباء حتى أن المستنصر نفسه أصيب به، لكنه لم يدم طويلا، فلا نجد أي أثر له بعد فترة قصيرة من ذلك، كما ضرب عملة من النحاس سنة 660هـ/1262م أثارت بعض القلاقل لدى العامة. لكن أهم الاضطرابات التي عرفتها افريقية هي الثورات الداخلية وخاصة منها بالمنطقة الغربية، فتفيدنا المصادر أن أبا علي بن

(1/8842)

العباس صاحب مليانة ثار سنة 659هـ/1261م، فاضطر المستنصر إلى البعث بأخيه أبي حفص لقمع هذه الثورة. كما ثارت قبيلة الذواودة بقسطنطينة تحت إمرة شيخهم شبل بن موسى، لكن هزمهم السلطان سنة 664هـ/1266م، ثم أعاد الكرة بعد سنتين بإعانة قبائل الكعوب ودباب وبربر سدويكش، وكان له النصر مرة أخرى(1).

_____

(1) حول هذه الثورات، انظر: العبر، ج. 1، صص. 73–74؛ كما تحدث عنها الزركشي في تاريخ الدولتين، صص. 23–25 وانظر كذلك:

G. Marçais, «La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen-Age», pp. 414–423, Paris, 1946.

(1/8843)

ومن ناحية أخرى، فإن بعض أقرباء السلطان أقضوا مضجعه. فقد هرب عدد منهم إلى خارج البلاد في انتظار حلول دورهم للثورة والفوز بالسلطة(1). لهذا نرى المستنصر يجابه الثورات والمؤامرات الداخلية طيلة العشر سنوات

---

(1) مثال ذلك ابن عم السلطان أبو القاسم بن زيد الذي هرب إلى الأندلس، كما حاول ابن عمه محمد اللحياني الثورة؛ لكن أخمدت الثورة في مهدها قبل اندلاعها، فبعث السلطان قائده ظافر الذي قتل ابن اللحياني وجميع أقربائه (انظر: ابن خلدون، العبر، ج.6، ص. 632). وهو ما يؤكده أيضا الزركشي في تاريخ الدولتين، ص. 118.

التي سبقت حلول الجيوش الصليبية، كما نلاحظ صراعاً على السلطة بين الشق الموحدي والقادمين الجدد من الأندلسيين الذين أصبحوا يزاحمونهم على المناصب السياسية العليا(1).

كما عرفت البلاد مجاعة أشرنا إلينا بعد، إذ يعلمنا ابن خلدون أن التجار الفرنسيين الذين اشتكوا المستنصر إلى سان لويس: »رغبوه في غزو تونس لما كان

(1) راجع: العبر، ج. 6، ص. 627. ونجد الكثير من الأمثلة التي أوردها نفس المصنف حول هذا الصراع، والذي انتهى في أغلب الأوقات لصالح الأندلسيين. إلا أنه كان مآل كثير منهم القتل نتيجة لتكالبهم على الحكم.

فيها من المجاعة والموتان«(1).

هكذا إذن، رغم القوّة التي كانت تبنى عليها السلطة الحفصية، فإن الاستقرار والأمن لم يكونا منتشرين في البلاد بصفة قطعية، لكن رغم هذه الثورات والانشقاقات

الداخلية يمكن القول

إن الدولة الحفصية كانت تعرف انتعاشا نسبيا. ومن الممكن جدا أنه تم إيهام لويس التاسع بضعف القوى الحفصية، مما جعله يطمع في الاستحواذ على تونس بسهولة.

أطوار الحملة

ومن المؤكد أن الملك الفرنسي كان ما زال آنذاك يتذكر ما حصل له في مصر فبعد النداء الذي توجه به البابا

---

(1) المصدر السابق، ص. 665، ج. 6.

(8846/1)

«Innocent IV» ، خرج لويس التاسع من فرنسا متجها إلى المشرق الإسلامي يوم 28 أوت 1248م. إلا أن حملته هذه ختمت بهزيمة نكراء سنة 1250م أدّت إلى أسره(1). وحفظ التاريخ اسم القاضي ابن لقمان الذي سجن سان لويس في داره بالمنصورة وكلف به خصياً اسمه صبيح(2)

---

(1) نازل لويس التاسع مصر في عهد الملك الصالح صاحب مصر والشام الذي مات خلال هذه الفترة، فتولى بعده ابنه المعظم.

(2) لذلك قال أحد الشعراء عند نزول لويس التاسع بتونس:

فتأهب لما إليه تصير

يا فرنصيص هذه أخت مصر

وطواشيك منكر ونكير

لك فيها دار لقمان قبر

(8847/1)

. ويفيدنا المقريزي أن ملك فرنسا افتدى نفسه بمبلغ مالي قدره 400 ألف دينار(1) وتعهد بعدم محاربة المسلمين، ولم يغادر المنطقة إذ لم يرجع إلى فرنسا إلا سنة 1254م، إلا أن هزيمته وأسره لم يمنعانه من تنظيم صفوفه واقتياد حملة جديدة، لكن يجب علينا التساؤل هل كان من أول وهلة ينوي لويس التاسع الاتجاه مباشرة إلى تونس؟ إذ يذهب بعض المؤرخين إلى أن قراره تنظيم حملة صليبية أخرى نتج عن انتصارات الظاهر بيبرس، وهو ما دفعه –رغم تعهده بعدم محاربة

المسلمين – إلى التحول إلى

---

(1) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ص. 365.

(8848/1)

مصر والشام. وتم خروجه من فرنسا يوم 15 مارس 1270م والتحق به أتباعه في «Aigues-Mortes». وبعد إتمام عدته، اتجه يوم 2 جويليه إلى مدينة كاغلياري وذلك على متن سفن جنوبية.

وفي هذه المدينة السردينيَّة اكتمل النصاب بوصول بقية المساهمين في الحملة. ومن الملاحظ إلى حد الآن أن جميع أعضاء الحملة كانوا متأكدين من تحولهم إلى المشرق الإسلامي نحو

مصر أو فلسطين، لكن لويس التاسع جمع قادته ومرافقيه على متن سفينته، وطلب منهم الموافقة على تحويل وجهتهم نحو تونس. ولا تذكر المصادر ما هي المعطيات والعناصر التي اعتمد

(8849/1)

عليها الملك لإقناعهم، لكن يبدو أن جميعهم بما فيهم رجال الدين وافقوا على مطلبه، لكن كيف تم له ذلك؟ بينما يعلمنا ابن خلدون أن لويس التاسع كان عازما على غزو تونس قبل خروجه من فرنسا، وأن المستنصر الحفصي كان عالما بذلك: »إذ أمر السلطان في سائر عمالاته بالاستكثار من العدة وأرسل في الثغور لذلك بإصلاح الأسوار واختزان الحبوب «(1). وبالرغم من ذلك، فقد بعث »برسل إلى لويس التاسع لاختبار حاله ومشارطته على ما يكف عزمه «(2).

---

(1) ابن خلدون، نفس المصدر، ج. 6، ص. 665.

(2) نفس المصدر.

(8850/1)

ومن الممكن جدا أن عزمه على الاتجاه إلى تونس من الأول هو الأرجح. فعند اتجاهه المرة الأولى إلى المشرق سنة 1248م تحول مباشرة عن طريق قبرص إلى دمياط أما بالنسبة لهذه الحملة الثانية، فقد قدم عن طريق سردينيا، كما يفيدنا ابن خلدون أن »الطاغية جمع حشده وركب أساطيله إلى تونس آخر ذي القعدة سنة ثمان وستين بسردانيا وقيل بصقلية «(1). إلا أن

المصادر الغربية تؤكد أن العملية تمت بسردانيا. هكذا يمكن إذن الاستنتاج أن لويس التاسع كان مقرا العزم على الاتجاه إلى تونس قبل خروجه من فرنسا، لكن من الممكن

---

(1) نفس المصدر.

أيضا أنه لم يعلن ذلك من الأول حتى يتجنب انسلاخ القادة الآخرين عنه ولم يتم إعلامهم باتجاههم إلى تونس إلا في آخر لحظة حتى وضعهم أمام الأمر المقضي. كان عدد المساهمين في الحملة حسب ما ذكر ابن خلدون: »ستة آلاف فارس وثلاثين ألف من الرجالة فيما حدثني أبي عن أبيه(1). وكانت أساطيلهم ثلاثمائة بين كبار وصغار وكانوا سبعة يعاسيب (وهي سفن كبيرة) إلا أن هذه الجموع الصليبية لم تبق على هذا العدد فقط، فقد وصلت الإمدادات عن طريق السفن من صقلية وسردانيا وغيرها(2)

---

(1) نفس المصدر.

(2) يذكر ابن خلدون أن »المدد تأتيه (أي لويس

التاسع) في أساطيله من البحر، من صقلية والعدوة، والرجل والأسلحة والأقوات« (انظر: العبر، ج. 6، ص. 665).

(1/8852)

.

واصطحب لويس التاسع خلال هذه الحملة أبناءه: فيليب وبطرس (Philippe et Pierre) وجون تريستان (Jean Tristan)؛ كما وجد مع الملك أخاه ألفنس وصهره تيبو (Thibaut) وابنته ايزابال (Isabelle) وكذلك بعض النبلاء ككنت اللوكستنبور وكونت بريطانيا (Le Conte de Bretagne)، إلخ. كما مثل الكنيسة الكاردينال رودولف دالبانو (Rodolphe d'Albano).

هذا ما أوردته المصادر الغربية. أما ابن خلدون، فهو يمدنا بأسماء أخرى يبدو أن ليس لها أي صلة بالأسماء الحقيقية للذين ساهموا فعلا في هذه الحملة. أما إذا حاولنا الاطلاع على مختلف

(1/8853)

الشرائح الاجتماعية الأخرى التي ساهمت في هذه الحملة، فنلاحظ أنها متألفة من جميع الطبقات بما فيها رجالات الدين والفلاحين، إلخ.

إلا أنه بعكس ما حصل بالنسبة لكل الحروب الصليبية، من مرافقة النساء والأطفال للمقاتلين، فإنه من الصعب تصور أنهم قدموا بأعداد وافرة إلى تونس. والأقرب إلى الظن أن مرافقة ايزابال لأبيها تعدّ حالة شاذة. فالحملة كانت متكونة من الرجال فقط ومن المعقول أنهم كانوا ينتظرون تبلور العملية حتى يتم جلب النّسوة والأطفال. أما بالنسبة للمستنصر الحفصي، فيؤكد ابن خلدون –كما سبق ذكرنا– أنه

(8854/1)

كان على علم تام بمقاصد لويس التاسع. غير أن الأحداث تبرز عكس ذلك؛ فالمستنصر لم يكن قد عبّأ كل طاقاته للمواجهة وكأن وصول لويس التاسع كون مفاجأة له، وهو يبدو مترددا في مجابهة العدو، إذ لم يتخذ القرار الأخير في كيفية مجابهته، إذ كانت القوى الحفصية مشتتة، فنراه إثر توالي الأساطيل بمرسى قرطاج يجمع »أهل الشورى من الأندلسيين والموحدين« ويتفاوض معهم في هذا الموضوع، وكان موقف هؤلاء

أنفسهم متضاربا. فبعضهم نصحه بمقاومة الصليبيين ومنعهم من النزول إلى اليابسة: »فإذا ما فرغ ماؤهم وطعامهم اضطروا إلى الإقلاع«؛

(1/8855)

أما البعض الآخر، فكان يخشى حالةَ إقلاعهم أن يتحولوا إلى ثغور أخرى أقل عدة وعددا، فيمكن لهم آنذاك أن ينزلوا بسهولة من دون أن يجدوا فيها أي مقاومة، خاصة وأن الأسطول الحفصي كان يعد من بين الأساطيل ذات الأهمية. فإذا ما نزلت السفن الصليبية في عرض البحر كان بإمكانها الاتجاه إلى شواطئ تونسية أخرى. وربّما مثل هذا أهم الأسباب التي من أجلها لم يحاول المستنصر الحفصي استعمال بحريته لمباغتة جنود الإفرنجة من خلف. لكن مما يستوقفنا أنه لم يستعمل الأسطول الحفصي البتة طيلة وجود الصليبيين، فكان بإمكانه على الأقل

(1/8856)

مداهمة السفن القادمة لتزويد الإفرنجة بالمدد من رجال وطعام. إلا أن المصادر لم تحدثنا عن أية عملية من هذا القبيل، لكن المصادر الغربية تفيدنا أن الجيش المسيحي كان ينقصه الطعام طوال فترات وجوده بقرطاج، وذلك رغم عثوره على كميات هامة من الحبوب بها. فهل كان للسفن الحفصية دور في منع وصل المدد للإفرنجة؟ وبالطبع لا يمكننا التأكد من ذلك في غياب المعلومات الدقيقة(1). ولعل الرأي الثاني القائل بعدم التعرض للإفرنجة في البحر كان رأي الأغلبية، وقد استحسنه الخليفة الحفصي.

---

(1) ابن خلدون، نفس المصدر، ج. 6، ص. 665.

(8857/1)

وهكذا أمكن لأعضاء الحملة النزول بساحل قرطاج على أن تتم المنازلة هنالك، ولكن قبل نزولهم أرسل المستنصر قبالة قرطاج بمدينة رادس الحالية: حوالي أربعة آلاف فارس متكونين من المرابطة المتطوعين وجند من الأندلس(1)

---

(1) إن ذكر ابن خلدون لوجود كتيبة من جند الأندلس

تعد بالنسبة للدارس في تاريخ حضور الأندلسيين بتونس من الأهمية بمكان، إذ أن المصادر التي تحدثت عن قدوم الأندلسيين بتونس لم تذكر إلا أسماء العلماء أو بعض الأطباء وممن تعاطوا مهنة السياسة، ولم تمدنا قط بمعلومات عن شرائح المجتمع الأخرى. وهنا نجد أنفسنا أمام الإشارة الوحيدة لوجود عدد هام من الجند الأندلسي الذين استوطنوا تونس، كما هي أول إشارة لوجود عناصر أخرى لا تمت بأي صلة للطبقات الراقية للمجتمع الأندلسي، وهو دليل على كثرة عددهم آنذاك ه.الباجي1

(8858/1)

وكان هؤلاء تحت إمرة أهم رجالات الدولة: محمد بن الحسين رئيس الدولة. ولم يكن اختيار رادس بحكم الصدفة، فهي كانت قريبة من تونس وأقلّ حماية من بقية الأماكن...

كما يفيدنا ابن خلدون بأن المستنصر الحفصي لم يخرج بنفسه لمقاومة الأعداء، بل التزم بالقعود بإيوانه مع بطانته وأهل اختصاصه(1)

---

(1) من بينهم أبو سعيد المعروف بالعود الرطب وأبو

القاسم بن البراء وابن أبي الحسين، لكن نرى هنا تضاربا في أقوال ابن خلدون. فهو يذكر في ص. 668 من ج. 6 أن ابن أبي الحسن هو قائد القوات الموجودة برادس، بينما هنا (ج. 6، ص. 670) أنه كان ملازما السلطان بإيوانه.

(8859/1)

. إلاّ أن هذا عكس ما عهدناه في المستنصر الذي تولى قيادة جيشه بنفسه في العديد من المناسبات، لهذا يرى الأستاذ العروسي المطوي في كتابه «السلطنة الحفصية»(1) أن هذا يعني قلة حزمه وقصر نظره، وأنه لم يكن مؤمنا بالنصر، وأنه كان متهيئا للفرار عندما يحين وقته، كما يصف موقفه بالمائع، وهو عكس ما يذهب إليه برونشفيك، فهو يرى أن موقفه كان يتصف بالرّصانة وببرودة الدم(2).

---

(1) العروسي المطوي، السلطنة الحفصية: تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، تونس، 1986.

(2) Brunschvig, idem, Tome I, p. 63.

(8860/1)

فما هو إذن الموقف الأقرب إلى الحقيقة؟ أعتقد أولا وبالذات أنه ليس لدينا معطيات للحكم على موقف المستنصر، لكن من الراجح أن لويس التاسع استطاع – مثلما ذكرت سابقا – التمويه على الجميع بما فيهم المستنصر، الذي لم يكن مستعدا لهذا الهجوم. وخاصة أنّ الحالة التي كانت عليها البلاد من مجاعة ومن كثرة عدد الموتى، أضف إلى ذلك بعض الثورات الداخلية، ساهم في صرف اهتمامات الخليفة إلى مشاكله الداخلية. وقدوم هذه الحملة الصليبية على غرّة لم تترك له المجال للتعبئة في الوقت اللاّزم.

(8861/1)

كما نعلم أيضا أن الخليفة الحفصي لم يبعث في طلب المدد إلاّ بعد نزول النصارى، فيذكر صاحب كتاب »العبر« أنه إثر نزولهم »بعث (أي المستنصر) في ممالكه حاشدا، فوافته الامداد من كل ناحية«. فإذا كان على علم مسبق بقدومهم لطلب النجدة قبل ذلك وهذا التأخر في جمع العدد والعدة، ووصول الجنود والمتطوعين بعد الوقت المناسب لربما دليل آخر على

وصول الإفرنجة كان فعلا مفاجأة للمستنصر، وربما هذا ما يفند الرأي القائل بأن المستنصر الحفصي كان على علم مسبق بقدوم لويس التاسع.

(8862/1)

ولم تتوصل الدولة الحفصية إلى تنظيم صفوفها إلا نتيجة لعدم تحرك الجيوش الصليبية في الإبان، مما سهل على المستنصر طلب النجدة من كل أصقاع البلاد فوافاه المدد، وكان من أهم الوافدين على الحاضرة كما عددهم ابن خلدون: أبو هلال عياد صاحب بجاية، وجموع القبائل العربية، وكذلك البربرية كسدويكش التي كانت موجودة بجنوب البلاد، وكذلك قبائل ولهاصة وهوارة، كما وفدت عليه جمع زناتة من المغرب، وقدمت أيضا جنود من بني تومين بقيادة زيان

(8863/1)

ابن رئيسهم محمد بن عبد القوي، وعيّن المستنصر على رأسهم يحيى بن صالح الهنتاتي ويحيى بن أبي بكر(1). إلا أننا لا نملك عدد هؤلاء الجنود، لكن يؤكد ابن خلدون

»أن عددهم لا يحصى«(2)

---

(1) يفيدنا ابن خلدون بأسماء قادة الجند، وهم: 1) اسماعيل بن أبي كلداسن، 2) عيسى بن داود، 3) يحيى بن أبي بكر، 4) يحيى بن صالح الهنتاتي، 5) أبو هلال عياد، 6) محمد بن عبو، (انظر: العبر، ج. 6، ص. 670).

(2) كما يفيدنا المقريزي أن الظاهر بيبرس أعلم المستنصر بأنه سيبعث بالنجدة في أقرب الأوقات. وفعلا، فقد أمر أعراب برقة بنجدة تونس، ويبدو أن التهيؤ لإرسال النجدة كان قد شرع فيه عند وصول الأخبار عن رحيل الجيش الإفرنجي (انظر: السلوك، ج. 1، ص. 601).

(8864/1)

.

كما أسهمت الجموع الشعبية بصفة مباشرة في المعركة لا عن طريق تحمل النفقات وتأمين قوات الجند فقط، بل عن طريق المساهمة المباشرة في محاربة الإفرنجة –مثلما حصل ذلك بالمشرق – وهذه المساهمة الشعبية دليل قاطع على أنهم اعتبروا مساهمتهم في هذه الحرب جهادا في سبيل الله. فقد خرج الصلحاء

والفقهاء والمرابطون لمباشرة الجهاد بأنفسهم وتبعتهم أعداد وافرة من أتباعهم، خاصّة منهم أهالي القيروان وسوسة، فيمدنا ابن ناجي التنوخي باسمي أبي علي سالم القديدي الذي قدم وأتباعه من القيروان وأبي علي عمار المعروفي الذي قدم من

الساحل التونسي(1). كما يذكر ابن خلدون الشيخ أبا سعيد الذي شارك في حفر الخنادق بنفسه. وقد نزل هؤلاء بضاحية أريانة التي جعلوا منها منطلقهم نحو قرطاج. وهكذا، فإن أغلب الجموع كانت مكونة من المتطوعين الذين قدموا للجهاد ولم تكن مكونة من جنود نظامية تعودت الحرب والكرّ والفرّ، بل ساهم عدد وافر من المرابطين وأتباع الصلحاء في تكوين الجيش الحفصي... لذلك لم تكن جموعاً منظمة تستطيع قلب الأوضاع العسكرية لفائدتها؛ فرغم حماسها وإيمانها بمفهوم الجهاد وبضرورة

---

(1) ابن ناجي التنوخي، معالم الإيمان، ج. 4، صص. 25–26.

الانتصار على العدوّ، ورغم عددها الضخم، فلا يمكن أن نتصور أن دورها كان فعالا بمقدار ما كان عليه دور الجنود المتمرّسين على الحرب.

كما ذكرنا، لم يستطع المستنصر تجميع الجيوش إلا نتيجة لتردد لويس التاسع في بدء الحرب، رغم أنه حسب ما يبدو لم يلق أي مقاومة عند نزوله على اليابسة، وهو ما يدفعنا مرة أخرى لترجيح أن قدومه إلى تونس باغت أهل البلد....

كان نزول الجيوش الصليبية بقرطاج يوم ستة وعشرين من ذي القعدة 668هـ/18 جويليه 1270م، إلا أن قرطاج كانت خربة وكانت كما يذكر ابن خلدون: »مائلة الجدران، فوصل الجند

(8867/1)

ما فصله الخراب من أسوارها بألواح الخشب ونضدوا شرفاتها وأداروا على السور خندقا بعيد المهوى وتحصّنوا«. ويبدو أن المستنصر ندم على عدم تخريب قرطاج عند نزول المسيحيين.

وقد وصلتهم رسالة من شارل دنجو يوم 24 من نفس شهر جويليه تحثهم على انتظاره وعدم شنّ الغارات قبل قدومه(1). وهذا على ما يبدو ما دفع بلويس التاسع إلى عدم الخروج من وراء تحصيناته لمجابهة أعدائه، فقد كان بالفعل ينتظر المدد من صقلية عن طريق أخيه شارل، خاصة وأن الجند الإسلامي كان يفوق عددا. ولقد

---

(1) أتى بهذه الرسالة الراهب Amouri de la Roche.

(8868/1)

عدها الجميع غلطة فادحة ارتكبها رئيس القوات الإفرنجية. فعدم مباشرته الحرب سمح للمستنصر أن يجهز نفسه لخوض غمار هذه الحرب، ثم وصلت رسالة ثانية من شارل دنجو يعلم فيها لويس بقرب قدومه وقد أتى بها «Olivier de Ternes» يوم 29 جويليه.

وتجمع المصادر على أن لويس التاسع قبع في تحصيناته بقرطاج. إلا أن سكان البلاد الذين يعرفون بطريقة جيدة الطرقات المؤدية إلى قرطاج، استطاعوا في العديد من المرات التسلل عن طريق البحيرة ومباغتة جيوش

العدو، إلاّ أن المصادر الغربية نسبت ذلك إلى تظاهر الأعراب بالدخول في الدين

(8869/1)

المسيحي. وعند اقترابهم من صفوف الإفرنجة غدروا بهم وطعنوا البعض منهم. على كل هذه المناوشات لم تأت بأي نتيجة تذكر، إذ عرف المسيحيون الأماكن التي يصل منها المسلمون فحصنوها ووضعوا حراسا في البحيرة.

طوال المدة التي بقيها الصليبيون بقرطاج، وهي أربعة أشهر من 18 جويليه إلى 18 نوفمبر –وليست ستة أشهر مثلما ذكر ذلك ابن خلدون– لم تدر –حسبما يبدو– حرب طاحنة، بل كل ما يمكن قوله أن المسلمين كانوا يهاجمون باستمرار أماكن الإفرنجة، وخاصة المتطوعين وأتباع الأولياء والصالحين، الذين كانوا يخرجون كل يوم من أريانة

(8870/1)

للتحول إلى قرطاج، وهو ما يعرف عندنا اليوم بحرب الاستنزاف.

ومن واجبنا التساؤل هل أن السبب الوحيد لعدم خروج الصليبيّين من قرطاج هو انتظار المدد، أم كان يوجد سبب آخر؟ فمن المؤكد أن جلّ المساهمين في هذه الحملة كانوا ينتظرون التحول إلى المشرق الإسلامي، أين يوجد بيت المقدس؟ وأين توجد الخيرات الكثيرة التي وعدوا بها، إلا أن تحويل وجهتهم إلى تونس ربما انجرَّ عنه شيء من التململ ومن التخاذل في صفوفهم، أو بالأحرى لم يكونوا مؤمنين بأهداف هذه الحملة، وهو ما يمكن تفسير عدم التحامهم مع صفوف المسلمين في معركة

(8871/1)

حاسمة؟

وتذكر المصادر الغربية أن الصليبيين قاموا ببعض الهجمات المعاكسة من يوم 17 أوت إلى يوم 22 من نفس الشهر، لكنها حسب نفس المصادر لم تأت بأي نتيجة تذكر، وتعلل ذلك بحلول الوباء داخل معسكر الصليبيين الذي نتج عنه موت العديد من الجند. وهكذا، فإن الابن الأصغر لملك فرنسا مات يوم 3 أوت ثم تبعه يوم 7 أوت الكردينال رودولف دالبانو.

ثم يؤكد الجميع على موت لويس التاسع نفسه في شهر محرم من عام تسع وستين وستمائة /يوم 25 أوت 1270م(1)

---

(1) يؤكد هذا الدكتور Charle Nicole في دراسة موجودة في:

Archives de l'Institut Pasteur de Tunis, T. XIX .67, p. 1930Février

(8872/1)

. إلا أن ابن خلدون يبدي شكه في سبب موت القائد الفرنسي، فيذكر أن: »الله أهلك عدوهم (أي لويس التاسع) وأصبح ملك الفرنجة ميتا، يقال حتف أنفه، ويقال أصابه سهم عرب في بعض المواقف، ويقال أصابه مرض الوباء، ويقال وهو بعيد أن السلطان بعث به إليه مع ابن حزم الدلامي بسيف مسموم وكان فيه مهلكه«.

إلا أن المصادر والمراجع على حد سواء لا تذكر وجود وباء خلال تلك السنة بالبلاد التونسية.

إذن فالمعاصرون للويس التاسع أنفسهم يؤكدون على

موته من جراء الوباء، لكن يمكن الإشارة إلى أن تحاليل طبية حصلت سنة 1965 على بقايا

(8873/1)

جمجمة لويس التاسع بيّنت أن موته حاصل من جراء سهم أصابه في فكه الأيمن(1).

وهذه المصادر نفسها تؤكد أن شارل دنجو الذي وصل يوم موت أخيه خرج في جنده يوم 4 سبتمبر وألحق بالمسلمين خسائر فادحة، كما يذكرون أن المسلمين ردوا بالفعل يوم أول محرم 669/2 أكتوبر 1270، إلا أن الهزيمة لاحقتهم هذه المرة أيضا(2).

---

(1) انظر: Claude Cahen, Cahier de l'Occident Musulman, 1965.

(2) مات حسب ابن خلدون خمسمائة نصراني خلال هذه الواقعة (نفس المصدر، ج. 6، ص. 670).

(8874/1)

ويمدنا ابن خلدون ببعض التفاصيل الوافية التي تؤكد أنه ابتلي المسلمون بتونس وظنوا الظنون واتهم السلطان بالتحول عن تونس إلى القيروان(1).

لكن الحقيقة التي يمكن تأكيدها هي أن معلومات ابن خلدون مشوشة جدا حول هذه النقاط فهو يرجع هذه الواقعة قبل موت لويس التاسع، ويذكر مساهمة شارل دنجو فيها، إلا أنها حصلت بعد شهر من موت الملك، كما أن الكثير من معلومات ابن خلدون بالنسبة لبقية الحملة الصليبية مشوشة، وهي في بعض الأحيان خاطئة (مثلا أسماء المشاركين في الحملة، فالعديد

---

(1) ابن خلدون، نفس المصدر، ج. 6، ص. 670.

منهم لم يتحول البتة إلى تونس مدة إقامة ا لإفرنجة)، لذلك لا يمكن الجزم في مصير هذه المعركة، وقد حاولت المصادر والمراجع الغربية إبراز النتائج العسكرية على أساس أنه لم يكن يوجد منتصر من الفريقين، إلاّ أنّنا لاحظنا أن العديد من المعلومات حول هذه الحملة وصلتنا مغلوطة عن قصد، لذلك لا يمكن ا لتأكد من مآل المعارك كما أنه لا يمكن التصوّر أن معسكرا منغلقا على نفسه،

اكتفى في غالب الوقت بالدفاع فقط، هو الذي يكون المنتصر، خاصة وأن أغلب الجنود المكونة لصفوفه لم يكونوا مؤمنين بأهداف الحملة.

(8876/1)

ولا شك أن هذا العنصر كان من الدوافع الحقيقية لرغبة شارل دنجو والملك الجديد لفرنسا فيليب الثالث(1) في مغادرة إفريقية. ولهذا تم الاتصال بالسلطة الحفصية لوجود مخرج للفريقين يتم فيه حفظ ماء الوجه (بينما يذكر ابن خلدون أن زوجة لويس التاسع هي التي راسلت المستنصر؟) إلا أنها لم تكن موجودة ضمن الحملة مثلما لاحظنا.

على كل حال، فإن المستنصر قبل العرض، وهو أن يدفع مبلغا ماليا معينا للقوات المتحالفة. فما السبب في ذلك؟ ابن خلدون يؤكد على قرب فصل الشتاء، ممّا جعل

---

(1) ذكر ابن خلدون أن اسمه دمياط لميلاده بها.

(8877/1)

المستنصر يخشى تخلّي الأعراب عنه ورحيلهم إلى مشاتيهم، لكن من الممكن أن المستنصر لاحظ أيضا أنه رغم تفوق جنده عددا وعدة لم يحصل الانتصار المنشود. لذلك تم قبول العرض وبعث بوفد لعقد الصلح في ربيع الأول سنة تسع وستين وستمائة/ نوفمبر 1270م، ذلك رغم معارضة رجالات الدولة وخواصه، لذلك فإنه لم يبعث ضمن هذا الوفد أي واحد من الشخصيات الهامة للدولة، إذ ترأس الوفد أبو زيان محمد عبد القوي رئيس قوة بني توجين(1)

---

(1) رافقه في هذه المهمة عبد الحميد بن أبي الدنيا الصدفي (ويوجد توقيعه على الوثيقة)، وليس أحمد الغماز كما ذكر ابن خلدون. (المصدر السابق، ج. 6، ص. 670). وعلي بن أبي عمر التميمي. ومن الواضح أن المستنصر وجد معارضة كبيرة لدى خواصه وأهل دولته الذين مانعوا في حصول مثل هذه الاتفاقية. ويعلمنا الغبريني أنه عرض على الفقيه ابن عجلان أن يكون ضمن أعضاء الوفد فرفض (انظر: عنوان الدراية، ص. 58). لذلك لا نجد أي شخصية هامة ضمن الوفد.

(8878/1)

، بينما عقد الصلح باسم الملك الفرنسي الجديد وكان شارل دنجو وتيبو ملك نفارا.

أمّا الذي تولّى صياغة نص العقد، فهو القاضي ابن زيتون(1)

---

(1) هو أبو الفضل أبو القاسم بن أبي بكر بن مسافر بن أبي بكر بن أحمد بن عبد الرفيع اليمني المعروف بابن زيتون. ولد سنة 621هـ/1224م. تولى قضاء الجماعة على كرتين، وتولى منصب الفتيا. وهو الذي أدخل مصنفات الفخر الرازي، ومثل الحركة الفكرية المالكية التي واجهت المذهب الموحدي. توفي سنة 691هـ/1291م. توجد ترجمته في أغلب المصادر. راجع الزركشي، صص. 44–52 وابن قنفذ ص. 132، 150؛ وابن خلدون، المقدمة، ص. 397 وص. 772.

(8879/1)

؛ ولم يتوصل الوفدان إلى الاتفاقية إلا بعد بضعة أسابيع من المفاوضات.

إن أهم ما ورد في فصول الاتفاقية هو أن تدوم الهدنة خمسة عشر عاما ابتداء من أول نوفمبر 1270م، ويدفع المستنصر غرامة مالية قدرها مائتان وعشرة آلاف أوقية

ذهبا، تدفع أقساطا، وأن تؤدى إلى شارل دنجو الأداءات التي كانت تدفع سابقا لفريديريك الثاني بما في ذلك الخمس سنوات التي سبقت ذلك التاريخ(1)

---

(1) يذكر ابن ضياف أن الصلح عقد باللغة العربية، ويذكر أنه اطلع عليه، إذ كان محفوظا خلال أواسط القرن 19م بوزارة الخارجية الفرنسية، وهو بخط القاضي ابن زيتون بتاريخ 5 ربيع الآخر سنة 669هـ (انظر: إتحاف أهل الزمان...، ج.1).

(8880/1)

. إلا أن المستنصر الحفصي حمل الرعايا على دفع كل هذه الغرامة التي يقدرها ابن خلدون بدوره بعشرة أحمال من المال(1). غير أنه رغم أن المستنصر لاقى معارضة من كبار القوم في إجراء هذه الاتفاقية،

---

(1) بينما يذكر الوزير السراج أن المستنصر الحفصي صالح الافرنج على الانصراف إلى بلادهم... على أن يدفع لهم ألف قنطار ومائة قنطار وعشرة قناطير فضة خاصة على مدة خمسة عشرة عاما (الحلل السندسية، ص. 152).
ويذكر أيضا أن نزول الافرنجة على تونس كان سببا في

إتلاف الأموال التي تركها المولى أبو زكرياء (نفس المصدر، ص. 153).

(8881/1)

فإنه يبدو أن عامة الشعب تنفست الصعداء برحيل الغزاة. إذ يؤكد ابن خلدون أن الرعاية دفعوا الأموال عن طواعية.

الخاتمة

لقد مثلت هذه الحملة الصليبية الثامنة إذن إحدى الحلقات المترابطة في الصراع الذي فرضه الغرب على بلاد الإسلام لمدة قرنين، بالرغم من أن البلاد التونسية لم تعرف هذه الحروب إلا فترة زمنية قصيرة نسبيا (أربعة أشهر)، فإن النتائج كانت سلبية من الناحية المادية، وقد أثرت على سلطة الخليفة الحفصي المستنصر بالله.

(8882/1)

وبالرغم من رحيل الصليبيين نهائيا من المشرق سنة 1291م، فإنه علينا التساؤل إن كانت قد انتهت هذه

الهجمات المسيحية خلال هذا التاريخ وبصفة نهائية.

فنحن نلاحظ أنه حصل الهجوم فيما بعد على العديد من أقسام العالم الإسلامي على مرّ القرون، وذلك مباشرة إثر هذا التاريخ، لكن علينا أيضا أن لا نتناسى أن غزاة الغرب واصلوا نفس هذه السياسة.

لذلك، فنحن نتساءل هل هذه الحملات كانت من قبيل الصدفة أو هي كانت مخططة ومدروسة؟

(8883/1)

الباب الآن مفتوح لكل الباحثين العرب لتعميق هذا الموضوع ودراسته من خلال الوثائق الغربية التي تعج بها العديد من الأرشيفات، وأرشيف الفاتكان يمثل أحد أهم المصادر التي يمكن الاهتمام بها لا لتوضيح ما فات من تاريخنا، بل حتى نعرف ما يخبّئه المستقبل من مخطّطات.

(8884/1)

خطاب التاريخ في لبنان قراءة نقدية

... ... الدكتور أحمد حطيط

... كلية الآداب ـ الجامعة اللبنانية ـ بيروت

مدخل

... قلما حازت مسألة تربوية ـ وطنية في لبنان بهذا القدر من المناقشات والتجاذبات، التي لم تخل من الحدة والانفعال، كمثل ما حاز عليه خطاب التاريخ، حيث طغت هواجس التطيف والتمذهب والتوجهات الأيديولوجية على أعمال كتبة تاريخ لبنان، ما انعكس سلباً على النظر إلى حقب التاريخ اللبناني كافة. فلائحة الخلافات طويلة، وتكاد تشمل كل قضايانا التاريخية والوطنية، كقضية الكيان، والوحدة،

(8885/1)

والاستقلال، والهوية والانتماء، والثقافة، ووحدة المصير...، وبات يخشى، إذا ما استطالت التجاذبات حولها، أن تؤسس لحالة من التوتر تهدد بالإطاحة بمسيرة السلم الأهلي التي ما تزال طرية العود، وتستدعي المزيد من الرعاية لجعلها أكثر مناعة في مواجهة الاستحقاقات المتصلة بحاضر اللبنانيين ومستقبل »عيشهم المشترك«.

... في غمرة هذا الجدال تتداعى في خاطري التساؤلات

التالية: هل ثمة حيّز وافر للحقيقة العلمية في اهتمامات المؤرخين اللبنانيين، أو أن سعي هؤلاء، أو سعي معظمهم على أبعد تقدير، في التزام الموضوعية والتجرد

(1/8886)

في ما كتبوه، ويكتبونه، يصطدم بأعماق مشاعرهم الفردية والجماعية، وبحساسية قضايا تاريخ لبنان، ما يجعل واحدهم في حالة تفاعل واع أو غير واع مع الأثر التاريخي على حساب الحقيقة؟ ثم إذا كان من واجب المؤرخ الكشف عن الماضي، فهل يكون الغرض من ذلك ربط الماضي بالحاضر وبالمستقبل لإدراك الثاني وحسن الإعداد للثالث؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما الموقف الذي يجب أن يقفه المؤرخ من الماضي: أيسعى لبعثه والعودة إليه والتمسك به كما هو، أم يقدم على تقويمه والتمييز بين إيجابياته وسلبياته؟ أيتقيّد به أم يتجاوزه أم يسعى

(1/8887)

للتوفيق بين الأمانة للتراث ومراعاة حاجات الحاضر واستشراف آفاق المستقبل؟

... تستدعي الإجابة على هذه التساؤلات المشروعة، أن نطرح السؤال التالي: هل من توجّه حقيقي لدى المؤرخين إلى العلميَّة في كتابة تاريخ لبنان، أو أن دون ذلك صعوبات تجعلهم قاصرين عن إدراك حقائق لبنان التاريخية، وتدفعهم إلى الاكتفاء بتلطيف المقاربات والحواجز؟

معوقات الكتابة العلمية لتاريخ لبنان

... يفترض ما تقدم أن ثمة معوقات جدّية لكتابة علمية لتاريخ لبنان، وأن جملة هذه المعوقات هي وليدة الظروف التاريخية التي رافقت تطور المناطق

(8888/1)

اللبنانية، تاركة بصماتها على البنية المجتمعية والمعتقدية للجماعات السكانية في هذه المناطق(1)، ما أفسح المجال واسعاً لكتابات تاريخية لا تعبأ بقواعد العلم والموضوعية، ولا تراعي الحقيقة العلمية. من هذه الكتابات: الكتابات التاريخية الطوائفية، والكتابات التاريخية الأيديولوجية.

– الكتابة التاريخية الطوائفية

... نقر بداية أن تاريخ لبنان، ومثله تواريخ البلدان المسماة بـ »العالم النامي«، أمر يصعب الإمساك به وإخضاعه

---

(1) إيليا حريق، »مشاغل الإصلاح السياسي والديموقراطي«، جريدة النهار، عدد 1995/10/7.

(8889/1)

للضوابط العلمية، كونه يتأثر إلى حد بعيد بالأيديولوجيات السائدة، فضلاً عن تأثره بركام الأساطير والخرافات التي حاكتها .ولا تزال .كل طائفة من الطوائف اللبنانية كي تستولد أو تعيد إنتاج نصها التاريخي ذي السمات الحضارية والثقافية التي تميزها عن الطوائف اللبنانية الأخرى.

... ولعل ما يفسر حالة الانقطاع بين الطوائف اللبنانية وتواريخها أن المناطق اللبنانية، حيث تمركزت هذه الطوائف، التي جُمعت في دولة مركزية واحدة (دولة لبنان الكبير)، قلما عرفت التلاقي أو الوحدة فيما بينها، وبخاصة في تاريخها الحديث(1)

(1) المرجع نفسه.

(8890/1)

، فيما تؤكد المصادر التاريخية أن هذه المناطق قد أقامت علاقات وطيدة مع جوارها الجغرافي المباشر في بلاد الشام (دمشق، والجليل، وعكا، وحلب...)، وأضحى، بالتالي، لكل من الجماعات الطوائفية اللبنانية ذاكرتها المخصوصة المستمدة من تاريخها الطائفي/ المناطقي، المختلف ـ وربما المنفصل ـ إلى حد بعيد عن تواريخ الجماعات الطوائفية الأخرى، باستثناء ما يتصل منها بحالات النزاع والصدام الناتجة عن طموحات بعض الحكام المحليين لتوسيع دوائر نفوذهم، في هذا الاتجاه أو ذاك، على حساب أقرانهم من حكام المناطق المتاخمة.

(8891/1)

... لذا، فإن ما حدث في الأول من أيلول عام 1920 لم يكن جمعاً قسرياً لمناطق جغرافية ـ طوائفية فحسب، بل كان أيضاً إلحاقاً لتواريخ بعض المناطق اللبنانية بتاريخ جبل لبنان على قاعدة التبعية والهيمنة، حيث وفّر

عرابو الكيان السياسي الجديد لتاريخ الجبل حضوراً مميزاً في »تا ريخ وحدة المناطق« التي تشكل منها التركيب الحديث التكوين على حساب تواريخ »الملحقات«. فأسقطت مصطلحاته ومضامينه على هذه التواريخ، وبات على القارئ التنبه إلى ما تعنيه في تاريخ الوحدة مصطلحات مثل: لبنان، والاستقلال، واللبنانيون، وأمير

(1/ 8892)

لبنان، وحكام لبنان. كما حرص أولئك العرابون على إضفاء هوية لهذا التركيب »موهومة الديمومة« (1) تستمد قدرتها على الثبات في مجابهة هويات ماضي المناطق الملحقة وحاضرها ومستقبلها، ما أدى إلى تكريس التنافر والتنابذ بين الجماعات الطوائفية اللبنانية الحديثة العهد بـ »الوحدة«، ولم يستطع تاريخ هذه »الوحدة« أن يظهر تماسكاً عند أول اختبار له. فكان يتشظّى عشية الأزمات التي تعصف بالكيان، لتعاود الحياة تواريخ

---

(1) أحمد بيضون، »هوية اللبنانيين. سعي في إجمال

الإشكال»، لبنان في تاريخه وتراثه، بيروت، 1988، ص. 930.

(8893/1)

الطوائف/ المناطق بأكثر ما يكون من الحيوية والحضور. ... والجدير ذكره، في هذا السياق، أن الكتابة عن تاريخ طائفة ما كان، ولا يزال، محصوراً في أبنائها، وقلما يتصدى باحث لكتابة تاريخ طائفة من الطوائف اللبنانية من خارج المنتسبين إليها. ولعل السبب في ذلك يعود إلى انغلاق هذه الطوائف على نفسها، وحجب وثائقها وسجلاتها عن الباحثين، باستثناء قلة محظوظة من أبنائها معروفة بالحماس للطائفة ولدورها التاريخي والحضاري(1)

---

(1) مسعود ضاهر، «الطائفية والمنهج في دراسة تاريخ لبنان الحديث والمعاصر»، مجلة الفكر العربي، العدد الثاني، بيروت، 1988، ص, 93.

(8894/1)

. فبتفحّصنا لكتابات المؤرخ الطائفي، نجد أنه لا يفوت فرصة للتباهي بطائفته وبتمايزها الحضاري والثقافي، مؤكداً قدرية الطائفية واستحالة زوالها من لبنان(1). وبات من المحتم أن تكون منهجية الكتابات الطوائفية طائفية أيضاً، وبعيدة كل البعد عن العلم والموضوعية، بالرغم من ادعاءات معظم كتَبَة التواريخ الطوائفية. ... فالخطاب التاريخي الطائفي نص في التاريخ، لكنه ليس نصاً تاريخياً. واستطراداً، فإن كل محاولة لكتابة تاريخية طوائفية تطرح على نفسها مهمة

---

(1) كمال الحاج، فلسفة الميثاق الوطني، بيروت، 1961، ص. 128.

(8895/1)

إعادة كتابة تاريخ لبنان ستؤدي بالضرورة إلى شكل من أشكال الكتابة التاريخية التوفيقية يغلب على منهجيتها الطابع الطائفي البحت(1). وهي بذلك تبتعد كلياً عن المنهجية العلمية القائمة على التحليل والتعليل والنقد والاستدلال والتوليف والتقويم ومراعاة الشمولية في النظر إلى الأحداث، وتجنب التعميم وإصدار الأحكام المسبقة، إلا بقدر ما تدعم هذه

المنهجية أطروحاتها الطائفية لإظهار تمايزها عن الطوائف الأخرى.

---

(1) محمد حسين دكروب، »الخطاب التاريخي ـ وجهة نظر نقدية«، كتابة تاريخ لبنان إلى أين؟، بيروت، د. ت، ص. 545.

(8896/1)

بمعنى آخر، فإن المهمة الرئيسة للخطاب التاريخي الطائفي تنحصر، أساساً، في إعادة إنتاج المعطيات »العمليّة« للحشد التعبوي على أساس طائفي، وذلك بتوفير العناصر المنعشة للذاكرة الجماعية، كتمجيد الآباء والأجداد، وتعزيز التحفز لجبه الأعداء المفترضين في الذاكرة وفي التاريخ الطائفيين على قاعدة النبذ والنفي أو الإلحاق.

– الكتابة التاريخية الأيديولوجية

... تمثل الكتابة التاريخية الأيديولوجية الوجه الآخر للكتابة التاريخية الطائفية. وهي بهذا المعنى بمثابة معينها الفكري والعقدي. فالأيديولوجية، بوصفها نظاماً

(8897/1)

من التصورات والأفكار، تتمتع بوجودٍ ودورٍ تاريخيين ضمن مجتمع معين؛ وهي كالأسطورة حقيقة تاريخية نسبية تنطلق من الواقع إلى التصور الذهني، تُدخل عليها الذاكرة التاريخية الجماعية أبعاداً رمزية(1). وهي تنظر إلى الماضي بصفته بعداً مستقبلياًّ، وتقرأه في ضوء الحاضر. فالحاضر، في نظر الأيديولوجية، قادر وحده على إعطاء معنى للماضي، ما يفقد الماضي صفته الزمنية، ويُمسي الإنسان فيه معاصراً

---

(1) جورج دوبي، »التاريخ الاجتماعي وإيديولوجيات المجتمعات« (معرّب)، مجلة الفكر العربي، بيروت، العدد الثاني، ص. 130 و140.

(8898/1)

لكل حادث وطارئ(1). وفات المؤرخ الأيديولوجي أن التأريخ علم يُعنى بإدراك ما حدث في الماضي، وتوظيف هذا الإدراك لمعرفة الواقع الحاضر واستشراف المستقبل، كما فاته أن الزمان هو ماض وحاضر ومستقبل،

وأن لكل منها حضوره في الوعي التاريخي، فلا يستغني أحد منها عن الآخر، وأن العلاقة جدلية بينها. فاستحضار الأزمنة، حسب تعبير فوكو، لا يعني التأريخ للماضي بلغة الحاضر، بل العمل على تأريخ الحاضر بالاستفادة من الماضي الذي لا يجوز استحضاره في

---

(1) سمير أمين، الطبقة والأمة، ترجمة هنرييت عبودي، بيروت، 1980، ص. 9.

(1/8899)

أزمنتنا ومعاناتنا.

... يعمد المؤرخ الأيديولوجي إلى قراءة انتقائية للوقائع التاريخية، معيداً تكييف ما انتقاه وفق رؤيته المنهجية، نافياً شرعية أي منهج آخر في قراءة التاريخ. وهو في سبيل ذلك يتخذ مواقف مسبقة من الأحداث، ويفصّل الوقائع على قياس مقولاته، مسلّطاً أطروحاته العقائدية على معطيات التاريخ لصياغة بناء توليفي، يسخره لتسويغ اقتناعاته التي يُراد لها أن تقدّم لـ »جمهور« ه بصفتها حقائق ثابتة وأهدافاً سامية. وهو لذلك يتسلح ببعض المصطلحات كي تكون بمثابة الأقنعة »العلمية«، و»الموضوعية«، و»التجرد«،

(8900/1)

و»التاريخية«، و»التحليل الملموس للواقع الملموس«...، ما يترك المجال رحباً للتدخل الأيديولوجي المبني على حد هزيل من المعلومات التاريخية التي يختارها المؤرخ بثقة. وفي هذه الحال، تغدو قراءة التاريخ قراءة أيديولوجية سياسية، وأداة لتسويغ التسلط والنفي، علماً بأن المسلمات التي ينطلق منها المؤرخ الأيديولوجي غالباً ما تفتقر إلى البرهان، كما أن النتائج التي يتوصل إليها هي أيضاً عرضة للاهتزاز والتهاوي إزاء النقاش العلمي الرصين.

(8901/1)

... وإذا كان سعي المؤرخين لتطوير مناهج البحث التاريخي يستدعي الاستعانة بالعلوم الأخرى بصفتها علوماً مساعدة (علم الاجتماع، والفلسفة، وعلم الأنساب، والأنتروبولوجيا، وعلم النفس، وعلم الجغرافيا، وعلم الآثار، والجيولوجيا...) قد عزَّز علمية التأريخ وموضوعيته، وجعله أكثر قدرة على مقاربة حقائقه. بيد أن هذا السعي، من جانب آخر، قد استغل لفرض وتكريس

هيمنة بعض الأيديولوجيات، التوتاليتارية منها على وجه الخصوص. فتحت شعار »الموضوعية«، عمد بعض كتبة التاريخ إلى تفسير ما تقدمه العلوم المساعدة بما يخدم

(1/8902)

الأيديولوجية التي يروجون لها، وباتت الموضوعية مظلة ينضوي تحت سقفها »البحث العلمي الجاد«، وستاراً لملفقي التواريخ ومزوّريها. كما عمدت الجماعات الطوائفية إلى إخضاع التأريخ لأيديولوجيتها الدينية أو العرقية أو الثقافية، مرسخة في ذاكرتها الجماعية، من خلال البيئة الاجتماعية الضيقة، والمدرسة الفئوية، والحي السكني ذي اللون الواحد، وما تمدها به صور بطولات بعض رموزها مروية من وجهة نظر الجماعة وفي خدمة أيديولوجيتها، لتركيب تاريخ طائفي هو سندها الفعلي لتسويغ تباينها وتمايزها، كي يكون ذلك أساس تماسكها

(1/8903)

الداخلي الاجتماعي والثقافي، وسلاحها في مقاومة الاندماج بالآخر، أو القبول باندماج تاريخها بتاريخ هذا الآخر وصولاً إلى تاريخ موحد.

... وفيما تحتفظ ذاكرة هذه الجماعة أو تلك بما تعتقده أنه تاريخها الحقيقي، فإنها تتعامل مع التاريخ الآخر بما يتلاءم وظروف الحالة التي تعيشها وضروراتها.

وتظهر المسألة في أوج تجلياتها عند تلامذة المدارس حيث لا يتردد هؤلاء عن التصريح بأن ما يدرسونه في كتب التاريخ إنما هو تلبية متطلبات الامتحانات الرسمية والحصول على الشهادة، فيما قناعاتهم وأفكارهم ومحركات أفعالهم محكومة بما

(8904/1)

تختزنه ذاكرتهم الجماعية. ذلك بأن ذاكرات الجماعات ترفض السماع والنقاش والتدقيق في ما له صلة بالاهتمامات المعرفية والموروثات التاريخية للجماعات الأخرى، وبخاصة ما لا يتناسب منها مع ذاكرتها التاريخية ووجدانها الجماعي.

... وكان من الطبيعي، والحالة تلك، أن تظل التواريخ الطوائفية والأيديولوجية قاصرة عن الارتقاء إلى مستوى الكتابة العلمية. وعليه، فإن التأريخ العلمي للبنان،

الكيان السياسي الذي أبصر النور بحدوده الجغرافية الحالية سنة 1920، لم ينجز بعد.

الخطاب التاريخي العلمي

(1/8905)

... أما الخطاب التاريخي العلمي الذي اتخذ لنفسه حيزاً في الدراسات الأكاديمية من خلال الأطاريح والرسائل الجامعية، بالإضافة إلى بحوث ومؤلفات الأكاديميين اللبنانيين، ... فإنه ما يزال حديث العهد وقاصراً عن ردع الخطابين التاريخيين الطائفي والأيديولوجي.

... تتصف الكتابة التاريخية ذات الطابع الأكاديمي (أطروحة كانت أم رسالة) بأنها تتجه نحو التضييق المحدود (منطقة أو جماعة أو مدينة أو طائفة... أو قضية معينة)، متناولة جوانب مختلفة من التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والتربوي في لبنان، تشجعها على ذلك

(1/8906)

اتجاهات معرفية ظهرت في الغرب منذ عقود من الزمن، وتشجعها أيضاً وثائق تتعلق بمنطقة أو بمرفق ما، بالإضافة إلى الدور المؤثر للعلوم الحديثة مثل: السوسيولوجيا، والأنتربولوجيا، والإتنولوجيا، وعلم الإحصاء، وأن هذه الكتابة، في الإجمال، قد تجاوزت السرد الحوادثي والإخباري، باكتسابها منهجية الغرب العلمية وأدواته المعرفية ذات السمات الأكاديمية الدقيقة، أسلوباً ونقداً وتحليلاً وتوليفاً وإسناداً، وغير ذلك من قواعد البحث العلمي الرصين.

(8907/1)

... ومع ذلك، فالخطاب التاريخي الأكاديمي في لبنان ليس موحداً في نظرته إلى الكثير من قضايا لبنان الأساسية، وبخاصة ما يتصل منها بمسألتي الهوية والانتماء. فثمة دراسات أكاديمية تصرّ على وجود هوية وانتماء لبنانيّين بموازاة هوية وانتماء عربيين، وتؤسس لخطاب يدعو إلى فصل لبنان عن محيطه العربي، خطاب يروج لقومية مخصوصة تختلف ثقافياً وحضارياً عن الجوار العربي. وسواء اختلفت خطابات أصحاب هذه الدراسات حول ماهية تلك الخصوصية، أو كانت هذه

الأخيرة في نظر بعضهم تعود إلى أصول عرفية أو دينية أو إثنية وحضارية، أو

تمثلت في نظرية «لبنان الفينيقي»(1) أو في «لبنان الملجإ»(2)

---

(1) تركز هذه النظرية على تاريخ لبنان القديم، ولا سيما التاريخ الفينيقي. ويهدف أصحابها إلى فصل تاريخ لبنان عن محيطه العربي. لمزيد من الاطلاع، انظر: عباس أبو صالح، «نقد المدرسة التأريخية القائلة بفصل تاريخ لبنان عن محيطه»، كتابة تاريخ لبنان إلى أين؟، ص. 194 ـ 195.

(2) ابتدع هذه النظرية الأب هنري لامنس، وهي تقول بأن جبال لبنان الغربية أضحت، خلال العصور الإسلامية، ملجأً لكل مضطهد وهارب من جور الحكام المسلمين في بلاد الشام. وقد تأثر بها عدد من المؤرخين اللبنانيين المحدثين. حول نظرية «لبنان الملجأ»، انظر: H. Lammens, La Syrie, Précis histotique, Beyrouth, vol. II, 1921, p. 63.

، أو غير ذلك مما روج له أولئك الدارسون، فإن الخطابات الآنفة تتفق فيما بينها على أن للبنان تاريخاً خاصاً أسوة بسائر الكيانات السياسية التي نشأت في المشرق العربي في الحرب الكونية الأولى، على قاعدة التمايز والقطع مع المحيط العربي. وإذا كان من صلة ما للبنان/ جبل لبنان مع ذاك المحيط، في المراحل التاريخية الممتدة من الفتح العربي ـ الإسلامي حتى فترة متقدمة من النصف الثاني من القرن التاسع عشر (قيام نظام المتصرفية في جبل لبنان)، فإن هذه الصلة قامت على أساس القهر والغلبة. ولكي تبرر الدراسات المنشئة لتلك

(8910/1)

الخطابات مقولتها، تعتمد على وثائق محلية وأجنبية دبجها أو تركها أناس معاصرون للأحداث، أو دونوا ما سمعوا عنها، هي، في كلتا الحالتين، مصادر لا يمكن الركون إليها دون التحقق من صحة محتوياتها، وهو أمر قلما نقع عليه في مثل تلك الدراسات.

... وثمة خطاب أكاديمي ثان يحرص على ربط الكيان

اللبناني بمحيطه العربي المشرقي، دون الاعتراف له بأيّ خصوصية، لأنه قام حين جرت تجزئة المنطقة إلى دول وكيانات سياسية خاضعة للاستعمارين الفرنسي والبريطاني، في إطار اتفاقيتي »سايكس ـ بيكو« (عام 1916) و»سان ريمو« (عام 1920).

(8911/1)

... يرى أصحاب الخطاب المذكور في لبنان كياناً مصطنعاً لا تاريخ له بمعزل عن تاريخ بلاد الشام، لأنه كان، عبر قرون مديدة، متواصلاً معها تاريخياً وحضارياً، معتبرين أن القول بوجود تاريخ للبنان منفصل عن تاريخ بلاد الشام، إنما هو »بعيد كل البعد عن الموضوعية والعلمية والتجرد«(1)، ولا يراد منه إلا التماهي مع أهداف الاستعمار الغربي عموماً والفرنسي منه على وجه الخصوص، وصب في خانة تكريس »تقسيم الوطن العربي إلى

---

(1) ياسين سويد، »لبنان والمسألة التاريخية«، كتابة تاريخ لبنان إلى أين؟، المرجع السابق، ص. 525.

(8912/1)

دويلات ضعيفة وعاجزة ومغلوبة على أمرها، كي تظل تابعة للدول المهيمنة على مقدراتها«(1).

... ويتسع المجال في هذا السياق لخطاب أكاديمي ثالث ينظر إلى تاريخ لبنان من منظور الشرعية السياسية للدولة الإسلامية، منذ الخلافة الراشدة حتى سقوط الدولة العثمانية، ويتعامل معه على أنه جزء من التاريخ الحضاري للدولة الإسلامية بما هي إطار شرعي عام لتعايش التنوع العرقي واللغوي والديني تحت السيادة السياسية للشرعية الإسلامية، على قاعدة أن رحابة الإسلام، شريعة وسلطة، اتسعت، وما تزال تتسع، لأهل الكتاب،

---

(1) المرجع نفسه.

يهوداً ونصارى، للعيش بسلام وطمأنينة في المجتمع الإسلامي، وممارسة حقوقهم وشعائرهم بحرية تامة.

... ويرى القائلون بذاك الخطاب أن ما يسمى بـ »مسألة الأقليات الدينية« في الدولة الإسلامية قد طرحت بصفتها مشكلة سياسية، في مطلع القرن التاسع عشر،

بسبب تدخل الغرب الأوروبي المباشر في شؤون الدولة العثمانية، وإظهار دوله تعاطفاً مع غير المسلمين، مما أحدث خللاً في العلاقات بين الجماعات الدينية في المجتمع الإسلامي، كان للبعثات الأجنبية فيه دور مؤثر تمظهر في الميادين الثقافية والاقتصادية والسياسية.

(1/8914)

... وإذا كان من الخطإ أن يبقى الخطاب التاريخي العروبي والإسلامي أسير النزوع إلى القول بأن »الأقليات الدينية« شكلت على مدى العصور التاريخية الوسيطة والحديثة »نقاط ارتكاز استراتيجية في سياسات الدول الاستعمارية« موفرة عوامل جاهزة الحضور لخلق مناخ مؤات للتجزئة والتشظي، فإن على المؤرخ العروبي والإسلامي إرجاع »مسألة الأقليات« هذه إلى بعدها التاريخي ـ الحضاري المحلي بوصفها مسألة » تنوع ثقافي « داخل النسيج العربي ـ الإسلامي العريض، والإقرار بشرعية خصوصيتها في التعبير عن ذاتها اجتماعياً وثقافياً على

(1/8915)

قاعدة التنوع في إطار الوحدة.

... في مقابل الخطابات التاريخية الآنفة، ثمة خطاب تاريخي آخر ما انفك يشق طريقه بثبات في فضاء البحث الأكاديمي في لبنان، مستفيداً من المناخ الإيجابي الذي عكسته »وثيقة الوفاق الوطني« التي أقرها النواب اللبنانيون في الطائف، عام 1989، من أجل إنهاء الحرب الأهلية، والتأسيس لحياة وطنية جديدة، والتي أضحت الدستور اللبناني الجديد(1). وأضحى للخطاب التاريخي المذكور مرتكزاته الثابتة وأسسه العلمية الرصينة، ومنها:

---

(1) أقر الدستور اللبناني الحالي في 3 أيلول/ سبتمبر 1990.

(8916/1)

(الحوار بين ذاكرات الطوائف اللبنانية

... ثمة ثابتة في الواقع اللبناني، مفادها أن الطوائف في لبنان هي حقائق اجتماعية وتاريخية لها دورها المؤثر في تركيبة الكيان اللبناني الحديث، وأن لهذه الطوائف تواريخ مستمدة من ذاكرتها الجماعية وموروثاتها الثقافية. لذا، فإن توفير المناخ الملائم

لفتح حوار هادئ ورصين بين ذاكرات الطوائف، لبناء قواعد مشتركة بين هذه الذاكرات وترسيخها، يدفع باتجاه تشكّل ذاكرة وطنية جامعة تؤسس لتأريخ موضوعي وشمولي يسهم في إعداد كتاب علمي لتاريخ لبنان. وفي هذه الحال فقط يمكن أن توفر

(8917/1)

تواريخ المناطق والجماعات الأهلية/ الطوائف، المستندة إلى العلم والموضوعية، معطيات مفيدة لكتابة تاريخية لكل لبنان.

(الاهتمام بالنص الحضاري المعيش

... إذا كانت التواريخ الطوائفية المكتوبة قد أسهمت في ترسيخ الفواصل الجغرافية والاجتماعية والثقافية بين الجماعات الأهلية اللبنانية، وأعاقت، بالتالي، الكتابة العلمية لتاريخ لبنان، فإن العودة إلى التاريخ غير المكتوب للجماعات اللبنانية، بما هو نص صادق وأمين عن واقع حضاري معيش ـ أي العودة إلى مجمل التقاليد والعادات والأعراف والمعتقدات والطقوس والفنون، وإلى

(8918/1)

نظام القيم الذي يختزنه اللاوعي الجماعي للذاكرة الشعبية .تطلعنا على الكثير مما يجمع بين اللبنانيين أكثر مما يفرق بينهم. إن جولة سريعة في مختلف المناطق اللبنانية، ساحلاً وجبلاً، بقاعاً وجنوباً، ترينا بما لا يحتمل الشك مدى تداخل النسيج المجتمعي والحضاري والثقافي لسكان هذه المناطق، وهو ما تعكسه مجمل القيم الأخلاقية والاجتماعية، تظهرها جلية البيئة الاجتماعية، والتربية الأسرية، ومناسبات الأعراس والزواج والأعياد والوفيات، والطقوس الدينية، ونظام السكن، والأزياء، والمأكل...، بحيث يعجز المرء عن التمييز

(8919/1)

بين سلوكات الناس، أفراداً وجماعات، على اختلاف معتقداتهم الدينية والمذهبية.

... وعليه، فإنه لا يجوز حصر الاهتمام في الوثائق المحلية والمصادر المكتوبة، والأرشيف الدبلوماسي للدول الكبرى، لكتابة تاريخ لبنان، بل لابد من الاعتماد أيضاً

على التواريخ غير المكتوبة للجماعات الأهلية اللبنانية لما توفره من عناصر تقارب بين اللبنانيين. وبذلك يمكننا الإسهام في بناء ذاكرة اجتماعية لتاريخ حضاري علمي واحد ننتمي إليه جميعاً، تاريخ يُبطل الحاجة إلى تعدد التواريخ، مهما اختلفت وتنوعت روافده العرقية والثقافية

(8920/1)

والدينية.

(الموازنة بين التاريخ السياسي والتاريخ الحضاري ... تكمن أهمية التاريخ السياسي، أو التاريخ الحدثي، في ما يُستخلص منه من دروس وعِبَر. وهو تاريخ خلافي بطبيعته، يستحضر رموز الذاكرة والمخيلة، من حكام وشخصيات تنتمي إلى هذه الجماعة أو تلك ولأنه قابل للتأويل والتفسيرات المتناقضة، فهو لا يمد الذاكرة التاريخية بعناصر التقارب والتوحيد إلا إذا تمّ ذلك قسراً، وعلى حساب البحث العلمي. لذلك، وجب الاهتمام بالتاريخ الحضاري بوصفه خبراً عن الاجتماع الإنساني الذي هو علم العمران حسب مصطلح ابن خلدون(1)

(1) ابن خلدون، المقدمة، بيروت، 1982، ص. 35.

(8921/1)

، وإعطاؤه الأولوية التي يستحق. إنه تاريخ يُعنى بدراسة البنى الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للجماعات، كدراسة البداوة والانتجاع، والهجرات، والإقطاع، وأشكال استثمار الأرض، ونظم التراتب الاجتماعي، والمدينة والريف، وأنماط الحياة اليومية في الأسرة، والبيئة الاجتماعية، والتجارة، والنقل، وشبكات المواصلات، والنقد، والسوق، والمسجد، والكنيسة، والحرف، وغيرها من الموضوعات التي تثري الوعي التاريخي.

...

(اللبنانيون ورثة تراثهم التاريخي

(8922/1)

... إن تراث لبنان التاريخي هو ملك لجميع اللبنانيين المنتمين إلى الكيان اللبناني الحالي، بوقائعه وأحداثه الحافلة بالصراع والوحدة، ما يحتّم على اللبنانيين أن

يتعاملوا مع هذا التراث على أنه من الماضي، بحسناته وسيئاته، بعيداً عن كل أشكال التعصب والأهواء، وأن يرفضوا الإسقاطات التاريخية على الحاضر لأي سبب أو دافع، ويقرُّوا بأن المتغيرات الجغرافية والأحداث التاريخية إنما هي نتيجة لظروف وأحوال ذلك الزمن، وأن الحاضر هو ما يبنيه كل أبناء الوطن دونما استثناء، عبر التجارب المشتركة، والمعاناة المشتركة،

(1/8923)

والمصير المشترك، بصرف النظر عن أصولهم الدينية أو العرقية.

...

(وحدة جغرافية لبنان وشمولية تاريخه

... ولكي تتحول وحدة لبنان إلى حقيقة في الإدراك والذاكرة، يقتضي العمل على توفير هذه الوحدة في التاريخ على قاعدة العلاقة السببية بين الأحداث التي جرت على كامل الجغرافية التي تشكّل منها لبنان الحالي، وإظهار انعكاساتها على امتداد مختلف أجزاء هذه الجغرافية في التاريخ، وتبيان أثرها في البنى التحتية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لهذه

الأجزاء، سلباً وإيجاباً، وتتبع تطور تعرجاتها التاريخية وصولاً إلى

(1/8924)

تكريس انضمام المناطق اللبنانية إلى دولة لبنان الكبير، ومن ثم إلى الدولة اللبنانية بعد إقرار دستورها ونيلها الاستقلال.

... يستتبع ما تقدم أن كتابة تاريخ لبنان يجب أن تنطلق من جغرافية لبنان الموحد، بحدوده الحالية، المعترف بها دولياً. لا كتابة تاريخ جزء من جغرافية لبنان. حيث يُدرس الحدث المؤثر في تاريخ لبنان على امتداد هذه الجغرافية الموحدة. فلا يجوز الخلط بين لبنان بصفته تعبيراً جغرافيّاً عن قسم من سلسلة جبال لبنان الغربية، والذي يعود تاريخ نشوئه، من الناحية الجيولوجية، إلى زمن مُوغل في القدم،

(1/8925)

وبين لبنان الشعب والدولة الحديثة العهد. فلبنان الأول لا يعني سوى منطقة جبل لبنان، فيما الوطن

اللبناني الحديث يحتضن كل اللبنانيين، في الجبل، وبيروت، والبقاع، والجنوب، والشمال، بحيث يشعر كل لبناني، في أيّ منطقة من مناطق لبنان، بأن تاريخ لبنان هو تاريخه أيضاً، في مكان مولده، وإقامته، ومكان عمله، وأنه ينتمي إلى هذا التاريخ الشامل، وأنه، بالتالي، متضامن بالضرورة والواقع مع مواطنيه الآخرين، أيّاً كان موقعهم الجغرافي.

...

(مسألة هوية لبنان وانتمائه

(8926/1)

... على الرغم من أن الدستور اللبناني قد حسم بصورة قاطعة مسألة هوية لبنان وانتمائه، ونص على صفتهما العربية، فإن تفسير العروبة لا يزال موضع خلاف بين اللبنانيين. فيرى فريق من اللبنانيين أن العروبة هي الوجه الآخر للإسلام، وأنها ذريعة مموّهة لتحقيق وحدة إسلامية تحت غطاء الوحدة العربية، وأنها، استطراداً، الوسيلة الخفية لإعادة المسيحيّ إلى وضع »الذمّي«، فيما يرى فيها فريق آخر عامل استقواء في الداخل باستحضار عوامل القوة من خارج الحدود لتعزيز وجوده في لبنان، ما سيّس العروبة وشوهها ونفّر الكثيرين منها،

(8927/1)

إلى حد اتخاذهم مواقف عدائية منها.

... إن العروبة ليست هوية دينية أو طائفية، كما أنها ليست مذهباً سياسياً توظف شعاراته ومبادئه لصالح هذا المنحى السياسي أو ذاك، إنما العروبة هي رابطة حضارية وواقع ثقافي متجذر في التاريخ، كما هي أيضاً عقيدة تنطوي على هوية وانتماء سياسيين يعتنقها من يشاء ويبتعد عنها من يشاء(1). فثمة بون شاسع بين العرب والعروبة. أن تكون عربياً، فذلك يعني أنك تنتمي إلى شعب معين هم العرب. وقد تكون

---

(1) محمد المجذوب، »لبنان في محيطه العربي«، لبنان في تاريخه وتراثه، بيروت، 1993، ص. 803.

(8928/1)

عربياً دون أن تكون عروبياً، بل تؤمن بعقيدة أخرى أممية كانت أم إقليمية أم محلية. كما أن لفظة عربي لا تعني فقط عرب الجزيرة أو المتحدّرين من أصل عربي، بل تشمل أيضاً أقواماً وجماعات آخرين، كان لهم دور ريادي

في مجال الإبداع الفكري واللغوي منذ الجاهلية حتى اليوم، فضلاً عن دورهم الطليعي في حركة القومية العربية في عصر النهضة والعصر الحديث(1).

... إن العلاقة بين العروبة والإسلام لا تخضع لمفهوم ديني محض، بل هي علاقة مرتبطة بتراث حضاري متواصل، بدأ قبل ظهور الإسلام، وأسهم

---

(1) المرجع نفسه، صص. 806 ـ 807.

(1/ 8929)

فيه جميع سكان المنطقة العربية على اختلاف مللهم ونحلهم. ولا يضير الحضارة العربية الإسلامية أن تكون قد رفدت بمنجزات حضارية مختلفة، كالفارسية واليونانية والهندية والصينية وغيرها، وصلت إليها ثقافاتها من طرائق عدة، عبر حركة النقل والترجمة، والتفاعل الحضاري بين العرب والشعوب التي انضوت تحت لواء دولتهم بفعل الفتح، أو عبر علاقات الجوار وحركة التجارة، ما يعني أن ثمة ما يُعرف بالعروبة الثقافية لا الدينية، ذات المنشإ العربي والمتواصلة إنسانياً مع الشعوب الأخرى، وإن يكن الإسلام معينها الثقافي الأساسي.

(8930/1)

... إن الالتزام بالمفهوم الثقافي للعروبة .إذا ما تم إدراكه .من شأنه أن يفضي إلى إزالة التحفظات لدى قسم من اللبنانيين، فتسقط من نفوسهم عقدة القلق والخوف على المستقبل، بحيث تُفهم العروبة على أنها إطار يتسع لاحتضان الخصوصيات المتنوعة والمتعددة ويرعاها، بما يؤمن التلاقح الحضاري والإبداع العلمي والفكري، ما يسهم في تلاقي اللبنانيين حول هويتهم وانتمائهم العربيين.

...

(التواصل التاريخي بين لبنان وبيئته العربية

(8931/1)

... إن هوية لبنان، كهوية أي بلد آخر، مرتبطة بنظرة بنيه، ولو بشكل عريض، إلى تراثهم المشترك بما هو حصيلة التواصل منذ القدم مع الحيز الجغرافي .التاريخي والحضاري الذي ينتمي إليه. ذلك بأن لبنان الحالي بمناطقه التي تشكل منها كان جزءاً من بلاد كنعان(1) (بلاد فينيقيا حسب التسمية الإغريقية)، ثم جزءاً من

إقليم سورية في العهد الروماني، لينتمي مع الفتح العربي إلى بلاد الشام، وليستمر كذلك حتى بدايات النصف

---

(1) فيليب حتي، تاريخ لبنان من أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر، ترجمة أنيس فريحة، بيروت، 1978، ص. 81.

(8932/1)

الثاني من القرن التاسع عشر، كما هو اليوم جزء من العالم العربي(1).

... لقد تم باستمرار، ولأسباب أيديولوجية، إغفال تاريخ العرب القديم، أي تاريخ العرب قبل الإسلام، وجرى تسويق فكرة أن الفينيقيين هم أجداد اللبنانيين دون العودة إلى أصول الفينيقيين أنفسهم، حيث تشير بعض النظريات العلمية(2) إلى أن هؤلاء واحدة من الهجرات السامية الأساسية التي خرجت من شبه الجزيرة العربية، واستقرت على الساحل الغربي للبحر المتوسط، في ما سُمي لاحقاً بهم، أي الساحل

---

(1) المرجع نفسه، ص. 227 و294.

(2) المرجع نفسه، صص. 81 ـ 82.

(8933/1)

الكنعاني .الفينيقي الذي شمل ساحل سورية ولبنان وفلسطين. إن التعامل مع تاريخ لبنان القديم، ومن ضمنه تاريخه الفينيقي، في سياق ارتباطه بتاريخ المنطقة التي ينتمي إليها، ومن ثم تتبع مسار هذا التاريخ بتشعباته وتداخلاته مع تاريخ هذه المنطقة، بوصفها جزءاً من الدولة العربية التي نشأت عقب الفتح، وتشكله الاجتماعي والحضاري والثقافي في إطار الكيانات السياسية التي عرفتها بلاد الشام في العصور الإسلامية المتعاقبة حتى نشوء الكيان السياسي اللبناني الحديث، إن تتبع هذا المسار، بهدي من العلم، لقادر على أن يحوّل

(8934/1)

النص الدستوري حول لبنان الوطن النهائي ذي الهوية العربية إلى فعل إيمان حقيقي واقعي، يعززه عيش اللبنانيين المشترك الذي نسجته آلامهم ومنجزاتهم المشتركة، فتسقط، بذلك، الطروحات الأيديولوجية التي لا ترى في الوطن اللبناني سوى حيز جغرافيّ تتعياش

على أرضه طوائف مختلفة، لكل منها تاريخها المستقل وحضارتها الفريدة وثقافتها المخصوصة.

...

(التزام الموضوعية والحياد والأمانة

... ولا بأس في أن نختتم المنطلقات التي نقترحها لكتابة علمية لتاريخ لبنان، بذكر بعض ضوابط البحث التاريخي المعروفة، من سعي المؤرخ الدؤوب

(8935/1)

وراء الحقيقة، والابتعاد عن كل أشكال الانحياز الذاتي والعقدي والأيديولوجي والعنصري والسياسي، المستتر أو المؤوّل أو المبرر، وعدم إسقاط الحاضر على الماضي، والماضي على الحاضر، والعمل على تحرير المرويات اللبنانية من الخرافات والأخبار الملفقة والمزورة.

فعلمية كتابة تاريخ لبنان، كعلمية الكتابة التاريخية عموماً، تكمن في موضوعيتها التي لا تحتمل اللبس أو التشكيك، وفي شموليتها التي لا تعني جمعاً لتواريخ المناطق اللبنانية، بل تعني تفاعل هذه المناطق وتداخل مستويات اجتماعها البشري وتكاملها، فضلاً عن تمتعها

(8936/1)

بقسط وافر من الحياد، واعتصامها بالأمانة في عرض الأحداث ونقدها وتحليلها، في ضوء المعطيات المتوافرة في المصادر الموثوقة، المكتوبة منها وغير المكتوبة، مظهرة الحسنات والسيئات، والخطأ والصواب، مميزة بين الغايات الشخصية والمصالح العامة. فلا يحوّل المؤرخ الهزائم إلى انتصارات، ولا يجعل من الانتصارات عامل تهييج عنصري، بل يروي الأحداث بما لها وما عليها، محاذراً إطلاق الأحكام المسبقة والتعميم، تاركاً المجال، في هذا السبيل، رحباً أمام القارئ.

(8937/1)

... وفي المحصلة الأخيرة، وبصرف النظر عن المواقف المتباينة من تاريخ لبنان، فإننا نعتقد أن خطاب تاريخ لبنان لن يستقيم علمياً إلا إذا توصلنا - نحن اللبنانيين، على اختلاف ميولنا ورغباتها - إلى صوغ فهم متقارب لقضايانا المصيرية، وذلك بالحوار الفكري المسؤول على قاعدة إيماننا بلبنان الوطن والمواطن والمؤسسات.

(8938/1)

دخول المصحف الشريف لإفريقية (تونس) وانتشار الخط العربي حتى القرن 5هـ

... ... الأستاذ محمد الصادق عبد اللطيف

... ... قليبية ـ تونس

منزلة المصحف:

... لقد حرص النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – منذ اللحظة الأولى على حفظ القرآن واستظهاره؛ كما حرص في الوقت نفسه على تدوينه فور نزول الآيات تحت إشرافه ورقابته، وأن يحفظه لأتباعه. وبذلك أصبح القرآن منذ لحظات الوحي الأولى لنزوله صورتين بارزتين: صورة صوتية وصورة خطيّة مكتوبة. أما الصورة المكتوبة، فتتمثّل في أن النبي – صلى الله

(8939/1)

عليه وسلم – اتخذ كتّاباً يدوّنون الآيات فور نزولها. وكان هؤلاء الكتّاب يلازمونه لتأدية هذا الدور. وتبدو

عناية المسلمين بكتابة القرآن الشريف بأنواع الخطوط المختلفة ورسموه بها وبأجملها في عناية فائقة(1). نعم! خرج الحرف العربي إلى الآفاق مع مصحف الخليفة عثمان بن عفان بعد أن اقترنت الرابطة بين القرآن وكتابته اقتراناً يسر الإشعاع باللغة العربية وحروفها. وكان القرآن مرتكزاً

---

(1) عبد المجيد والي، "الذكر الحكيم وأربعة عشر قرناً من الزمان"، مجلة منار الإسلام، العدد الأول، السنة الخامسة، ديسمبر 1979.

(8940/1)

على حضارة جديدة قوامها القرآن. ولم يشارف القرن 2 هـ نهايته حتى كانت حركة التدوين والتأليف والنقل تحدد مصير الكتاب وتضبط مواد الكتابة وتوسع من دائرة الخطاطة والوراقة(1). وهكذا نلمس أن المصحف الشريف هو الكتاب الأول الذي حرك المسلمين وشوقهم وبعث فيهم الهمّة لحب القلم وتأليف الكتب. فالقرآن أقسم بالقلم وما يسطرون، تنويهاً لشأنه وتعظيماً لما يسطره للناس من هداية وحق وإيمان. وهذا القلم تسابق المسلمون إلى مسكه وتعلموا الخط

(1) البهلي النيال،" الكتب تتحدث عن مجدها"، مجلة القيروان، تونس، بلا تاريخ.

(8941/1)

وكتبوا المصحف الجامع حتى لا يختلف فيه من بعد(1).

دخول المصحف واهتمام الأفارقة بالقرآن:

... بدأ الاهتمام بالقرآن ـ حفظاً وتلاوة ـ بإفريقية المسلمة مبكراً ولم يمض على الفتح الحقيقي إلا القليل. ورسخت قدمه خلال القرن 2 هـ وكان أول لقاء بالأفارقة (سكان تونس اليوم) ضمن الفاتحين الذين كانوا يحملون معهم القرآن الكريم إما محفوظاً في الصدور أو مكتوباً في أجزاء. جاء في "معالم الإيمان" للدباغ هذا الدعاء

(1) المصدر السابق؛ وكذلك الدكتور محمد سعيد الشريفي، خطوط المصاحف، أطروحة جامعية، الجزائر، 1975.

(8942/1)

»اللهم إني أسألك باسمك العظيم الأعظم أن توجب لنا رضوانك الأكبر وتمنّ علينا بحفظ كتابك حتى نتلوه على الوجه الذي يرضيك عنا«(1).

... لقد دخل الصحابة في أول غزوة لإفريقية مع القائد عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة 27 هـ/ 647 م، وكان من بين الصحابة الداخلين لإفريقية من له اختصاص معيّن في القرآن، وكان كل واحد يملك مصحفاً خاصاً به وهم من أصحاب رسول – صلى الله عليه وسلم – الله جاءوا متطوعين في

---

(1) من دعاء البهلول بن راشد. (الدباغ، معالم الإيمان؛ وكذا شلبي، القراءات بإفريقية، أطروحة دكتوراه، تونس، 1983).

(1/ 8943)

الجيش الإسلامي رضي الله عنهم.

من أمهات المصاحف وأثر ذلك في الحياة الاجتماعية بالقيروان:

... من أمهات المصاحف لهاته الفترة وما بعدها بالقيروان "المصحف العقباني" أو "مصحف عقبة بن نافع"(1)، وهو

مصحف كبير محلّى بالذهب والياقوت، كتبه له أحد التابعين له بالقيروان الأولى، وهو "حديج بن معاوية بن سلمة الأنصاري"(2)

---

(1) الشيخ محمد المنوني، "لمحات عن تاريخ الخط في الغرب الإسلامي"، بحث ألقي في مهرجان بغداد للخط والزخرفة 88، نشر ضمن المجلة التاريخية.

(2) من مداخلة الشيخ محمد المنوني في ملتقى السيرة النبوية، مجلة دعوة الحق، الرباط، مارس 1990.

(1/ 8944)

. وممن دخل إفريقية لتفقيه أهلها وتحفيظ القرآن "التابعون العشرة" أو "الفقهاء العشرة" الذين أرسلهم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز 99 هـ/ 717 م، وهم الذين أقبلوا على إفريقية فأشاعوا الرشد وبثّوا العلم وعلموا الحلال والحرام، وحرصوا على الأمن والتآخي والمواساة، وبثوا دعوة الإسلام بين البربر وضربوا لهم مُثل العدل والحق والرحمة والسيرة الصالحة(1) فكان إسلام البربر نهائياً. وعليهم ترتكز إسلامية البلاد المغربية،

---

(1) الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، تونس، 1960.

(8945/1)

وهم من أنساب مختلفة، من المهاجرين والأنصار، من العدنانية والقحطانية، من الصريح والموالي، من العرب والعجم، لم يجمعهم إلاّ وصف "الفقه في الدين".

... ومن نتائج جهودهم أنّه:

أ ـ انتشرت المساجد في القيروان وعمّ تغيير المنكر.

ب ـ شاع القرآن والحديث والفقه.

ج ـ استقامت سيرة الناس على الآداب الشرعية.

د ـ أصبح الذين يدخلون القيروان من البربر ينقلبون بمُثلٍ عالية ومعلومات واضحة عن الإسلام ونُظمه وآدابه.

هـ ـ أصبح البربر "دعاة وهداة" بين قبائلهم مستقرين ومتنقلين. لقد أقبل البربر على الإسلام واهتموا بصفة

(8946/1)

خاصة "بالقرآن وعلومه". ذلك بأنهم أكّدوا أن إسلام الشخص يقتضي منه أن يتعلم نصيباً من القرآن يتلوه في صلاته(1). ومن أجل ذلك كان حرص الفاتحين على تعليم الأفارقة كبيراً، ويظهر ذلك جلياً فيما يلي:

1 ـ أن عقبة ـ فاتح إفريقية وناشر الإسلام بها ـ ترك بالمغرب الأقصى صاحبه شاكراً يعلم هناك البرابرة القرآن (62 هـ/ 681 م).

2 ـ أن موسى بن نصير خلف طارق بن زياد في طنجة يعلم البرابرة القرآن (83 هـ/ 702 م).

---

(1) هند شلبي، القراءات بإفريقية.

(1/8947)

... ومن المصاحف الأم بالقيروان إلى القرن 5 هـ المكتوبة على الرّق وهي مجموعة فريدة في الدنيا:

... ـ مصحف على الرق الأبيض.

... ـ مصحف فضل (294 هـ)(1).

---

(1) هي حاضنة الأمير باديس. أصلها من سبايا الروم، أسلمت وعظم شأنها بين الأمراء والأميرات. كانت وفاتها سنة 402 هـ قياس هذا المصحف 32 × 46، وهو

يمتاز بخطه الخاص بمدينة القيروان، وهو من الأقلام الخلابة مع الجمال والعظمة، جعلت المحتسبة المصحف المشار إليه في صندوق من الخشب الثمين مستطيل الشكل.

(1/8948)

... . مصحف الحاضنة(1).

اهتمام المرأة القيروانية بالمصحف:

... ذلك بأن فتيات القيروان كن يكتبن المصاحف ويزخرفنها ويحبسن على الجامع الأعظم. فازدهرت صناعة الخط والتزويق والتشجير والتهذيب والزخرفة والتجليد. إن المصحف كان يكتب في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة بالقلم الكوفي؛ ومحفوظات المكتبة العتيقة بالقيروان تحوي مصاحف وكتب تفسير وفقه وأسفار في العلوم الدينية، كلها مكتوبة بالخط الكوفي على الرق، ومنها ما كتب بالذهب على الرق الملوّن، وهي بقية باقية بعد

---

(1) الشيخ محمد البهلي النيال، المصدر السابق.

(1/8949)

التدمير الذي تعرضت له القيروان أيام هجوم الخوارج عليها. ويمكن اعتبار الرق الأزرق، وما كتب عليه بماء الذهب الخالص كتابة كوفية. أما الرّق الأبيض، فقد كتب عليه مصحف فضل (295 هـ) بالخط الكوفي أيضاً؛ وكذا مصحف المعز بن باديس خطه كوفي قيرواني (410 هـ).

وصف المصاحف من خلال خطوطها:

... في أواخر المائة الثانية والمائة الخامسة للهجرة وُجدت مصاحف مكتوبة بالقلم الكوفي لها أوضاع مختلفة في التخطيط والزخرف والخط النسخي ظهر في أول المائة السابعة للهجرة، ومعظم الخطوط على الرق بالخط النسخي المشرقي قبل أن يتحول

(8950/1)

الخط في إفريقية إلى الخط الأندلسي.

... ومصاحف جامع الزيتونة مكتوبة على الرّق بخطوط منفرجة لا تستغرق الصفحة منها أكثر من آيتين أو ثلاث؛ فيتكون منها أجزاء كثيرة يتناولها القراء من المصلين في أيام الجمعة. وعند استفحال أمر الشيعة

بتونس، مدّوا يد الفساد لبعض النقوش المكتوبة حول سقوف صحن باب البهو وبجامع الزيتونة لمحو آثار السنة(1). لقد تمكن النسّاخ من القيام بعملهم في مناخ علمي ممتاز فضلاً عن العناية بأساليب الكتابة والتفنن فيها؛ فأصبح الزخرف والتنميق سمة بارزة في

---

(1) البهلي النيال، المصدر السابق.

(8951/1)

تاريخ الحركة النسخية بالقيروان، وأخذ الخط أشكالاً زخرفية متعددة وأنماطاً جمالية مختلفة أفرزت الخط الكوفي القيرواني الذي جاء ليحاكي الكوفي المشرقي في جماله وروعته(1).

... إن ازدهار أدوات العلم المساعدة، كصناعة الرّق بالقيروان وانتقال صناعة الكاغد إليها من بغداد ومصر وكذلك صناعة الحبر والتفنّن في أنواع الخط الكوفي والنسخي .كل هذه العناصر المادية تكاملت لتعطي مدداً للحضارة العلمية في مختلف فروعها

---

(1) ملتقى يحيى بن عمر للتراث والحضارة حول التراث

ودوره في البناء الحضاري المعاصر، تونس، أكتوبر 1976.

(8952/1)

وتجعلها من أبرز وأوضح ما بقي وما وصلنا منها. وما بقي من المكتبة العتيقة بالقيروان. وأكْثَرُه كتب بماء الذهب الخالص. يحكي (دون باقي المخطوطات في العالم كلِّه). بصناعته وجمال تذهيبه ودقة خطه قمّة ما وصل إليه الاعتناء وتوافر الإمكانات(1). وحالياً يحتفظ مركز الحضارة الإسلامية برقادة في القيروان بمصاحف تتفرد بالخصائص التالية:

1. مصحف على الرّق الأزرق مكتوب بالذهب قياسه 32 × 43 كتابته خالية من الحركات وعامرة بنقط المتأكد نقطه.

---

(1) عثمان الكعاك، "مكتبة الجامع الأعظم"، مجلة ولاية القيروان.

(8953/1)

---

2 ـ مصحف على الرّق الأبيض. وقد كتب بالذهب، وفيه علامات النقط والحركات.

3 ـ مصحف قياسه 42 × 43 فيه علامات النقط

4 ـ مصحف على الرّق أسماء السّور فيه والزخارف مكتوبة بالذهب وفيه علامات الحركات ليس غير.

5 ـ مصحف آخر طوالع سوره وزخارفه بالذهب.

6 ـ صفحة من مصحف خطّه كوفي. وقد تأثر بالفن الفارسي، طوالع السور فيه مكتوبة بالذهب وتحمل حروفه علامات الحركة.

ميزة الخط الكوفي بمصاحف القيروان:

... إن الخطوط التي كتبت بها المصاحف الإفريقية "القيروانية" كلها بالكوفي البديع(1)

---

(1) فتحي العبيدي، الجمع بالقراءات، أطروحة دكتوراه، مرقونة بكلية الشريعة.

(8954/1)

، وأطوار هذا الخط القيرواني يمكن حصرها في الأزمنة التالية:

1 ـ عهد الولاة (51 هـ ـ 184 هـ)، وهو كوفي بسيط خال من الزخرف ومن التوفية والاستيفاء والتأطير.

2 ـ عهد الأغالبة (184 هـ ـ 296 هـ)، استقام الكوفي بالتوفية والاستيفاء والتأطير ودخله التذهيب والتزويق وبعض الزخرف (يمثل ذلك مصحف فضل 294 هـ).

3 ـ الكوفي الفاطمي (296 هـ ـ 361 هـ)، وهو محقّق خال من التخنّث.

4 ـ الكوفي الصنهاجي (361 هـ ـ 555 هـ)، وهو كوفي كثير الزخرف مستدق ومستغلظ بالكوفي إلى البساطة أو الاعتدال في آخر أيام صنهاجة. وفي الخط نجد

(1/8955)

المستغلظ والمستدق وهذا نادر في خط القيروان إلا أنه عمها ابتداء من القرن 5 هـ

... ويمتاز الخط الكوفي بأنه خط مستقيم أبداً، منتصب أو مسطح أو منكب أو مستلق؛ فلا يدخله التعريق أو الانعراج، ولا يكون فيه الخط المنحني، فلا تجده إلاّ زوايا قائمة وحادة ومنفرجة، ولا يدخله تنقيط الإعجام، ولا ينحدر تحت السطر مطلقاً. وأهم خصائص الخط الكوفي أنه كان محفوراً في الأول وما كان منه منقوشاً في الحجر أو

الرخام أو الجصّ أو الخشب، ثم صار بارزاً في أواخر الدولة الأغلبيّة (جامع الزيتونة وجامع سوسة 249 هـ) ودخلته على

(1/8956)

التوالي الزخارف التي هي التوريق والتشجير والتفريع. ذلك بأن الكوفي لما كان مجموعة خطوط هي منتصبة ومسطّحة ومائلة، ففراغه كثير وزخارفه لا تدرك بالوصف بل بالمشاهدة. ونحن نجد نماذج من أبسط الكوفي إلى أكثره زخرفاً في مصاحف القيروان. فالمصاحف الأولى خالية من كل زخرف، بل إن فيها انحراف السطر واختلال مجموعة السطور وانعدام التأطير حول الصحيفة لحصر الكتابة ، وفيها تزويق الإطار؛ ثم كانت التوفية (وهي استقامة السطر الواحد)، ثم الاستيفاء (وهو استقامة جميع السطور) بالإضافة إلى بعضها، ثم التأطير، ثم التكريش، ثم

(1/8957)

التوريق، ثم التزهير، ثم التفريع، ثم التذهيب، ثم التكحيل (وهو تخطيط التذهيب بأسواد لإظهاره بارزاً). وآخر مراحل الكوفي هو "البديع"، وهو كوفي دخله الاستدقاق والاستغلاظ، غليظه غليظ جداً ودقيقه دقيق جداً فتتألف من الضدين صورة جمالية تسمى "المقابلة أو الطباق". ومن هذا الكوفي الذي نشأ في القرن 5 هـ وهو آية الفن الإسلامي(1).

أثر القرآن في تطوير الخط وتجويده:

... إن أبرز ما تظهره الحركة الخطية أثر القرآن فيها وعليها، وهو ما طوّر الخط العربي بإفريقية. ونظراً لأن القرآن

---

(1) عثمان الكعاك، المصدر السابق.

حرص على الكتابة، فقد حرص الخطاطون المسلمون على تجويد كتابة القرآن وبذلوا في ذلك غاية جهدهم وتباروا فيه حتى عدّ الخط العربي من أقدم العصور لليوم فناً متميزاً أصيلاً حائزاً مكانة عالية بين الفنون التشكيلية والفنون الزخرفية. وقد ارتقت بهذا الفن

البواعث التي حملت الكتاب ("القرآن") على زخرفة المصاحف وتزيينها بشرائط زخرفية وأطر تمييزاً للسور والآيات. وكان انتشار الإسلام قد ساعد على إشاعة الخط، فقلّد أجوده بل وتنافس الكتّاب في تجويده وإثرائه. وكلما انقرضت دولة، لم ينقرض الخط ولا غيض معين كتابة

(1/8959)

المصاحف، لأن كل الأقطار الإسلامية كان بها مجيدون وكتبة، وتلك هي منّة الله، ولأن الاهتمام بالمصحف طوّر الخط فخدم أحدهما الآخر: إذ طوّر الخط نص القرآن وحفظ الخط آيات الله، عبر الأزمان وسائر الأوطان من حسن إلى أحسن. فكان ثراء لهذا الفن بلغ تأثيره إلى عديد من فنون الكتاب في العالم، ولا يزال المصحف الشريف إلى اليوم يكتب في كل الأقطار الإسلامية وإن اختلفت أحجام المصحف وتنوعت أشكاله(1).

---

(1) الدكتور الشريفي، المصدر السابق.

(1/8960)

... إن الخط عند رجل الفن المسلم "عبادة"، لإيمانه بأن صنعته ليست مجرد تحكم الأصابع في القلم وتدريبها. فهناك وراء ذلك الفكر الذي يسيطر على الجوارح، وأن عمله هو نسخ القرآن وآيات الله أو نشر فضيلة أو إشاعة علم نافع. في هذا الإطار، يقول "باول بارتس" إن الوازع الديني في الإسلام يؤدّي دوراً أساسياً في عمل الخطّاط الذي يعبر عن التسليم لله والتوكل عليه، وإن الشرط الأساسي لقدرة فنان الخط على الإنتاج هو درجة عالية من الشفافية والصفاء الروحي(1)

---

(1) "الفن الحديث وفنون الخط"، مجلة فكر وفن، ومجلة الثقافة العربية، أيلول 1982.

(1/8961)

. إن الخطاط يكتب تقرباً لله وطلباً لثوابه، يخطّ في إجلال وتقديس، وهو ما تشفّ عنه خطوط المجيدين. فنشعر عند تأملها بالقدسية والرهبة والسحر الحلال وأسرار الجمال.

... إن المصحف الشريف هو أول وأهم مجال طوّر الخط العربي، وكان السبب في انتشار الخط وتجويده، فحفظ الله بالخط كلامه العزيز، فخدم المصحف والخط كل منهما

الآخر. ونسخت عبر القرون الآلاف المؤلفة من النسخ.

وكانت أمنية كل خطاط أن ينسخ المصحف مراراً وتكراراً. وتصدّى لذلك كل أيمّة الخط العربي بلا استثناء(1). وجمال

---

(1) خطوط المصاحف، المصدر السابق.

(8962/1)

الحروف العربية يأخذ شكلاً سحرياً رمزيّاً، والتفنن في كتابة الحروف أو ابتداع تشكيلات جمالية من الحروف ما هو إلاّ عمل مقدس؛ ولذلك أخذ سمة مقدسة عندما شرع العرب يدونون كتابهم المقدس، القرآن الكريم(1).

... ما يستنتج من هذه القدسية في الأمانات التالية:

1 ـ وحدة النص القرآني. فهو الكتاب الوحيد بين الكتب المنزلة والموضوعة، محفوظ من التبديل والتحريف. فلا يوجد أي مصحف على الإطلاق موصوم بالنقص أو الزيادة أو التقديم أو التأخير

---

(1) تاريخ الكتاب، عالم المعرفة، الكويت، كانون الثاني، 1993، عدد 169، ج 1.

(8963/1)

لسورة أو آية في كل مصحف عند أوله أو آخره أو وسطه.

2 ـ استمرار كتابة المصاحف من لدن نزوله إلى عصرنا الحاضر ـ عصر المطابع ـ بل إلى ما شاء الله، فجادت علينا كل العصور بنماذج منه في كل مكان.

3 ـ وحدة الأدوات المستعملة في الكتابة من حبر وأقلام وورق وجمْع هذه بين دفتي كتاب، فوقفنا في ذلك الوقت على تطور فن "الكتاب الإسلامي عامة". وهذه الأدوات تمثل أصالة الابتكار والتصميم الخطي.

4 ـ تصدّي أبرز الخطاطين لكتابة المصحف وتدوينه بأرقى الخطوط، فاطلعنا على أبدع إنتاج عبقرياتهم.

(8964/1)

---

5 ـ طور النص القرآني الذي يفرض على الخطّاط إرادة قوية وصبراً دءوباً للفراغ من نسخه وإخراجه على نهج متحد في الجودة وتنسيق منظم. وذلك من نصيب قدرة المجودين(1). وفي رقوق القيروان التي تعتبر من أشهر وأكبر المجموعات المتبقية نجد مصاحفها تمثل المصاحف الباذخة الأنيقة. مثال ذلك مصحف فضل ومصحف الحاضنة.

وخاصية هذا الخط أنه مكتوب بقلم غليظ القطة، يوضع في هيئة ثابتة بحيث تتحرك اليد لترسم هيئة الحرف دون أن تتغير زاوية القلم. وبذلك تصبح أجزاء الحرف الواقعة تحت السطر غليظة

---

(1) خطوط المصاحف، المصدر السابق.

هندسية الهيئة، وما تحته دقيقاً دون أن يخلّ ذلك بالجمالية والتناسب(1).

... وبالرغم من تطور الكتابة العربية ودقة ضبطها، فقد ظلت المصاحف تكتب على الطريقة القديمة ولم تستمر جهود الإصلاح التي تمت أواخر القرن الأول للهجرة وأثناء القرن 2 هـ فلم يفرّق فيها بين الحروف المتشابهة، ولم تستعمل الحركات التي تتصل بالنحو، وإنما استخدم الشكل القديم المتمثل في نقط دالة تمثل أكثر النماذج المعروضة وهي طريقة تعود إلى القرن الأول الهجري. ولم تتحرر كتابة

---

(1) مقدمة كتاب المخطوط؛ وكذلك كتاب ثلاثون سنة في خدمة التراث.

(8966/1)

المصحف من استعمالها رسمياً إلا أواخر القرن الخامس للهجرة.

الشكل والإعجام في المصاحف الإفريقية:

... تعد المصاحف الإفريقية صغيرة الأحجام، ولكن فيها كتابة كبيرة لرسم كل الحروف بوضوح. وأحجام المصاحف لطيفة وكتابتها واضحة، وهي ميزة تنفرد بها المصاحف العتيقة. وأصغر مصحف لا يكتب في الورقة الواحدة سوى ستة أسطر ولا يجعل في السطر الواحد سوى أربع كلمات "ذات حجم كبير مثل مصحف الحاضنة الذي يجعل في الورقة خمسة أسطر ولا يكتب في السطر الواحد أحياناً سوى كلمة واحدة".

(8967/1)

... إن المقصود بالشكل ضبط الحروف بالحركات، والمقصود بالإعجام ذلك النوع من النقط التي تميز الحروف المتشابهة بعضها عن بعض، والنقط دلالة على الشكل والإعراب والنحو، بعض المتأخرين يميزون بين

اللفظين فاستعملوا الشكل للدلالة على النقط بالعربية، والأعجام والنقط للإدلالة على ما يميز بين أشكال الحروف. ... المصاحف القيروانية القديمة يغلب عليها الخلو من الإعجام. وقد وقع فيها الشكل والإعجام بصورة مغايرة عموماً لما هو متعارف عند المتأخرين؛ فهي مشكولة على طريقة أبي الأسود الدؤلي. وتتمثل هذه الطريقة في جعل

(8968/1)

نقطة فوق الحرف للدلالة على الفتح والنصب ونقطة أمامه للدلالة على الضم والرفع ونقطة تحته للدلالة على الكسر. والسكون لا علامة له والتنوين يشار إليه بزيادة نقطة توضع بجانب أختها. لقد ورد الإعجام في المصاحف القيروانية على صورتين:

1 ـ النقط والجرّات (النقط: الشكل المستدير والشكل المربع).

2 ـ الإعجام يكون بالسواد في مصاحف أهل القيروان، وإن كان قد ورد فيها كذلك بلون المداد المستعمل لكتابة النص. وهو بني في العادة. وصورة النقط التي عليها أهل

المغرب أسوة بأهل البصرة وأهل المدينة "مبسوطة".

وتتمثل هذه

(1/8969)

الصورة في نقط توضع فوق الحرف أو بجانبه أو تحته إذا كان الحرف منصوباً أو مضموماً أو مجروراً(1).

... أما الألوان المستعملة في شكل المصاحف الذي عليه أهل المدينة وأهل الأندلس، فهي اللون الأحمر للحركات والسكون والتشديد والتخفيف؛ واتخذوا اللون الأصفر للهمزات خاصية هذا التنوع في الألوان المستعملة وفي صور الشكل وفي مدى اقتفاء إفريقية لآثار الأمصار في طرق شكلهم للمصاحف (وقد احتفظت القيروان ببعض المصاحف الخالية من الشكل). والمثال فيما يلي:

... 1 ـ مصحف فضل:

---

(1) هند شلبي، القراءات بإفريقية.

(1/8970)

... من أقدم المصاحف القيروانية. فهو يعود للقرن 3 هـ كما ورد في "التحسين". وهو مكتوب بالخط الكوفي على الرّق الأبيض، غير معجم. وإطلاق الشكل عند المتأخرين هو انصراف إلى ضبط الحروف بالحركات؛ وإذا أطلق الإعجام عندهم، انصرف إلى وضع النقط على الحروف المتشابهة لتمييز بعضها عن بعض. وكان أبو عمر الدّاني وغيره يعبرون عن الشكل والإعجام بالنقط

... بمصحف فضل عند الإشارة للسكون جاء في بعض المواضع في شكل "دائرة" مثل ما وقع في قوله تعالى: {فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء} (البقرة). فقد وضعت دائرة باللون الأخضر

(1/8971)

على الرّاء من {فيغفر} وعلى الباء من {ويعذّب}. وهذا مخالف لطريقة أبي الأسود في النقط؛ ذلك بأن السكون لا علامة له عنده، والظاهر أن الإشارة إلى السكون بشكل "دائرة" أضيفت بعد كتابة المصحف(1).

... 2 ـ مصحف أم ملال والحاضنة وابن البطاط (من القرن 5 هـ) غير معجمة إلا ما ندر بالنسبة لمصحف أم ملال.

... إن زخرفة المصاحف العتيقة بالقيروان لهاته الفترة اعتباراً لمصاحف عثمان المجردة من النقط والشكل والتحلية وفواصل الآي وعلامات التخميس والتعشير وأسماء السور وعدد آياتها والتذهيب. وقد

---

(1) المصدر السابق.

(8972/1)

توافرت المصاحف على صورتها هاته في إفريقية:

... 1 ـ فواتح السور: إنها لم تتخلف في أي مصحف من مصاحف المكتبة العتيقة بالقيروان، وهو تأخر طوال القرن الأول للهجرة حيث كانت المصاحف خالية من فواتح السور.

... 2 ـ كُتبت فواتح السّور في المصاحف بالخط الكوفي اليابس خلافاً للخط الذي كتب به النص القرآني، وقد خلت من النقط والشكل وكتبت في الأغلب بالذهب، ويصادف أن نجدها مكتوبة بالأحمر أو الأزرق كما وضعت في الأغلب أيضاً داخل إطار مذهب مزخرف. وقد تفنّن المزوقون في رسم دوائر، ومنهم من يعطي علامات التخميس أشكالاً

(8973/1)

هندسية.

... إن الاهتمام بمشكلة الخط قد أقرّ الإعجام وعوَّض النقطة الدالة على الحركات بما هو معروف في وقتنا الحاضر بالفتحة والكسرة والضمة على معنى أنها أحرف مصغرة (الألف والياء والنون)، وهو ضبط حفظ النص القرآني من اللحن عندما جاء علم النحو والبلاغة.

تطور الكتابة الخطية على شواهد القبور:

... وخلال هاته الفترة ظهرت نقائش على الشواهد القبرية خاصة (بمقابر القيروان وبمقابر سيدي بوخريصان ومقابر القرجاني). وقد حوت تلك النقائش أنواعاً من الخط الكوفي المتعدد العناصر الزخرفية التي تبرهن على مدى موهبة

(8974/1)

النقاشين في الابتكار وسعة الخيال وثراء السجل الذي اقتبسوا منه أشكال الحروف والزخارف التي كست الخط الكوفي بآيات الجمال والتأنق والفن.

... إن التطور الذي عرفه الخط الكوفي منذ أواخر القرن 3

هـ وأوائل القرن 4 هـ والمتمثل في استبدال النحت الغائر بالخط الكوفي، أي النحت البارز، وهو تطور عرفته قبريات إفريقية. ومن خصائص هذا الخط ما يلي:

1 ـ اتسمت الكتابة ببساطتها وقلة زخرفها.

2 ـ ما أفضى على هذا الخط طابعاً رصيناً هادئاً.

(1/8975)

---

3 ـ خلال النصف الأول من القرن 4 هـ، عرف الخط تطوراً ملحوظاً على المستوى العلمي والفني (تناول أشكال الحروف نفسها وطريقة نحتها ـ ظهور الكوفي ذي النحت البارز).

4 ـ حلول الكتابة الغائرة.

5 ـ بقيت الحروف خالية من الدقة والإتقان.

... في مستهل القرن 5 هـ بلغت كتابة النقائش درجة عالية في دقة رسم الحروف وجودة نحتها، حيث أطلق النقاشون موهبتهم في رسم أشكال الحروف. ثم انبثقت من أواخر هذه الحروف عدة زخارف نباتية لملء الفراغ وبرز الاهتمام بتغطية جل مساحة حقل الكلمة (الكتابة) وإيجاد تناسق بديع بين الحروف

(8976/1)

والزخرفة، فبلغ الخط درجة عالية من التعقيد الفني وأصبحت الحروف تستمد غناها من ذاتها فاشتعلت الحروف المزهرة والمتعانقة وكثرت الالتواءات.

وبانتهاء القرن 5 هـ عرفت كتابة شواهد القبور تحوّلاً جذرياً يتمثل في ظهور الخط المستدير أو اللين لم يؤد إلى اختفاء الكوفي(1). ولوضع إطار كتابات النقائش في إطارها الزمني وخصائص الكوفي خاصة. نقرأ ما يلي:

1) مرحلة الكوفي البسيط (في الفترة الأغلبية) :

---

(1) خالد مودود، النقائش في الكتابات القديمة في الوطن العربي، ندوة.

(8977/1)

... عرف القرن 3 هـ النقائش الكوفية ذات الجزء الغارق مع أحرف متناسقة قليلة الزخارف والتمدد وظهور اتجاهين مختلفين:

... أ ـ ظهور زخارف هندسية مرتبطة بآخر الحروف.

... ب ـ ظهور زخارف نباتية تنتهي بها هذه الحروف.

2) نشوء الكوفي المزهر والمورّق (في الفترة الفاطمية والصنهاجية):

... يمتاز بتنوع الزخارف النباتية التي تنتهي بها، وكتابة الحرف الواحد بأشكال مختلفة. هذا الكوفي المورّق لم ينتشر في بقية مدن إفريقية والمغرب إلا بعد فترة (تنوع كثافة الزخارف النباتية والهندسية)، والتوريق لم ينتشر بالمغرب إلاّ

(8978/1)

في الفترة الفاطمية. وفيما يخص الزخارف الهندسية، فقد تمددت الحروف أكثر من قبل وأصبحت أكثر تعقيداً، كما كثر استعمال الأقواس في تمديد الحروف واتخذت الأطر التي أحاطت بالنقائش أشكالاً هندسية مرتبطة بالعناصر المعمارية المتداولة.

... لقد تطور خط الشواهد القبريّة عن طريق مواز لتطور أنماط الهندسة المعمارية والتوريق منذ العصر الأغلبي، وأصبحت الكتابة نفسها تشكّل زخرفاً بديعاً مع خلط

من الزخارف النباتية والرقش العربي، والتصقت الكتابة بالنباتات إلى درجة أنه بات من الصعب فصلهما عن بعضهما(1)

---

(1) محسن حسن، مجلة الحياة الثقافية، "القيمة الفنية".

(1/8979)

.

... لهذا كان الخط القيرواني في بدايته خطاً كوفياً، ثم تطور بفضل جهود خطاطي القيروان الذين بلغوا به درجة عالية من الجودة والإتقان حتى غدا الناس يطلقون على الجيّد مصطلح "الخط القيرواني" (1). واستمر في شهرته إلى حدود القرن 7 هـ عندما ضعف أمر أهل إفريقية وتراجع عمرانهم، فتراجع خطهم وفقد الجودة والإتقان اللذين عرف بهما سابقاً(2).

تطور الخط العربي على عهد الدولة الصنهاجية:

---

(1) حسن حسني عبد الوهاب، الورقات.

(2) المصدر نفسه.

(1/8980)

... ازدهرت العلوم في عهد المعز بن باديس وبلغت الحركة الأدبية من الأوج ما لم تبلغه في أي عهد من عصور التمدن العربي الإفريقي. وكان بلاط المعز من أزهى قصور ملوك الإسلام. وقد بلغت العناية آنذاك بالكتب ونسخها وتنسيقها وزخرفتها أوجاً لم تدركه من قبل، وهو ما تشهد به المصاحف المحبسة من لدن عمته "أم ملال" وحاضنة أبيه "فاطمة" وأخته "أم الحلو" وزوجته "زليخا". وتُعَدُّ هذه المصاحف بحق آية من جمال الخط ورونق التذهيب والزركشة والتزويق مع كبر الحجم ومتانة الرقوق، بما لا يتسنى صنعه وتدبيجه، إلاّ في بلاط بلغ

(1/8981)

الذروة في الذوق والتفنن.

شجرة الخطّاطين:

... حفظت الآثار أسماء الخطاطين الذين كانوا يتداولون النسخ في بلاط المعز بن باديس أيام الدولة الصنهاجية، ومنهم:

1 ـ "الحارث بن مروان" وابنه "يحيى" من أبناء القيروان. كان خطّهما بقلم النسخ وكذا بالقلم الكوفي في طوالع الكتب من أمتع الخطوط وأوضحها وأمتنها قاعدة، وكانا ينسخان الكتب دوماً للخزانة الأميرية (وآثار قلمهما موجودة في ما بقي من الرقوق المحفوظة بمكتبة القيروان).

(1/8982)

---

2 ـ "علي بن أحمد الورّاق" من نساخ القصر الصنهاجي. كان يميل بخطه إلى أوضاع الكتابة البغدادية الراقية في عصره مع إتقانه البديع للرسم والتذهيب والتجليد.

3 ـ "درة" الكتابة كانت تعاصره وتلازمه في الكتابة، وقد وصل من آثارها (مصحف الحاضنة) منقطع النظير.

4 ـ "إبراهيم بن سوس المازدني" من كتاب ديوان الرسائل في دولة المعز، عرّف به معاصره "ابن رشيق" في كتابه "الأنموذج" بقوله: »أخذ بأطراف العلوم«. غير أن الغالب عليه الخط وتزويقه، كان عنده من ذلك أمر عجيب، وقد انفرد في مغربنا بالقلم الرياسي الخافي انفراداً

(1/8983)

كلياً لا يدانى فيه ولا ينازع.

5 ـ "عبد العزيز بن محمد القرشي الطارقي"، وكان اشتهاره أيضاً بالنثر دون النظم، إذ كان فيه فارس الفرسان وواحد الزمان، ما بين تزويق مقامة مبتدعة، وخطبة غير مفترعة، ورسائل سلطانية وكتابات إخوانية، وله من الخط البارع خط المحلى من قدّام الميسر.

6 ـ "أحمد بن محمد القصري" المتوفى سنة 322 هـ كان فقيراً جمّاعاً للكتب حافظاً لها، كتب بيده ما لم يكتبه أحد من أهل عصره، حتى أنه كان يقول: »منذ أربعين عاماً ما جفّ لي قلم«. قال المالكي:

(1/8984)

... وصل مرة إلى سوسة ليزور شيخه "يحيى بن عمر" فوجده ألف كتاباً، فلم يجد "القصري " ما يشتري به رقوقاً ينسخه عليها، فمضى إلى السوق وباع قميصه واشترى بثمنه رقّاً ونسخ الكتاب وقابله وأتى به للقيروان.

7 ـ "أبو العرب محمد بن أحمد التميمي" حامل لواء تاريخ

القيروان، مات سنة 333 هـ وكان كثير الكتب جداً، حسن الخط والتقييد.

العناية بالكتب ونسخها:

... مضى قرن ونصف قبل أن يستقر العرب بإفريقية، وكانت الثورات الداخلية تشغل بال الولاَة الذين تداولوا على الحكم. فلم يهتموا بالكتب التي كانت قليلة جداً ما عدا

(1/ 8985)

المصحف الشريف؛ إذ كان العصر عصر فتح وعصر جمع اللغة وإحصاء كلام العرب ونقل العلوم من لغاتها الأصلية إلى العربية. وعندما استتب الأمن، اتجهت عناية الأمراء إلى العلم والعلماء وإلى الكتب والفنون والصنائع، وخاصة أيام حكم بن زيري، وبالأخص أيام حكم المعز بن باديس الذي ازدهرت في مدته العلوم وبلغت الحركة الأدبية والعلمية أرقى مظاهر الرقي والمجد حيث كان بلاطه من أزهى قصور ملوك الإسلام. وقد بلغت العناية بالكتب ونسخها وتنسيقها وزخرفتها أوجاً لم تدركه من قبل كما شهدت بذلك المصاحف المحبّسة التي تقدر بحق آيةً

في جمال الخط ورونق التذهيب والزركشة والتزويق مع كبر الحجم ومتانة الرقوق مما لا يتسنى صنعه وتدبيجه إلاّ في بلاط بلغ الذروة في الذوق والتفنّن(1). والعناية بالكتب تقتضي القيام بجرد للخطاطين والنسّاخ والوراقين وأدوات الكتابة وإعداد الحبر للتخطيط ... ما أن استوفت الكتابة العربية معظم مقوماتها وتكاملت صور حروفها، حتى اتجه بعض المسلمين ممن لهم حاسة فنيّة إلى أن ينظروا نظرة جديدة من زاوية أخرى هدفها "تهذيب الحروف وتحسينها " والتمعن فيها من الناحية

---

(1) عثمان الكعاك، ملتقى يحيى بن عمر؛ الورقات.

الجمالية متصلة ومنفصلة. فنشأت بذلك مدرسة فنية قام عليها طراز جديد من العلماء الفنانين هم "الخطاطون" الذين تولوا العناية بالكتابة العربية حتى بلغوا في ذلك على توالي القرون شأواً بعيداً. وبهذا

استوحى الخطاطون من الكتابة فناً هو "فن الخط".

إعداد الحبر للكتابة والتخطيط:

... لقد استغل الخطاطون أنواعاً عديدة من الأمدّة والأحبار كانوا يقومون بإعدادها وتجهيز موادها من تجاربهم. فالحبر له دور كبير في إظهار الحروف وجودة الخط وخلوده، واحتفظ الخطاطون الأقدمون بأسرار هذه الأحبار لأنفسهم لا يبوحون بها لأحد

(1/8988)

أبداً، وانتسبت الأحبار للمدائن التي تكتب بها كالخطوط تماماً: فهناك الحبر البغدادي والحبر الكوفي والشامي والمصري والقيرواني. وقد أدّى هذا إلى تنوع في المواد: فهناك المداد المذهب، والحبر بماء التوت والرمان، والصمغ العربي المستخرج من عَرَقْ الخرفان. ولابد من التمييز بين الحبر العربي القديم والحبر الإفرنجي. فأما الحبر العربي القديم، فلا تمحوه الحرارة، وذلك لمتانة المواد التي يتركب منها، ومنها الصمغ العربي والعفص والزاج وما إلى ذلك؛ وأما الحبر الإفرنجي ، فلا يطيق الحرارة ويمَّحي بمجرد اتصاله بالماء

(8989/1)

الحار وكذا بالندى المحيط به.

...

أدوات الكتابة والمواد التي تستعمل فيها قبل ظهور الورق:

... كثرت بإفريقية المستعربة مصاحف القرآن (النصف الأول من القرن الثاني للهجرة) المجلوبة من المشرق أو المنتسخة في البلاد بعد أن أتقن السكان الخط العربي وبرعوا فيه، ولا سيما "الخط الكوفي" العتيق. قلدوا فيه أوضاع المشرق وتمسّكوا برسومه المتبعة في العراق "بالكوفة وواسط والبصرة". بواسطة الأجناد وأرباب الوظائف وأصحاب التجارة وبواسطة الراحلين من شبابهم إلى المشرق لطلب العلم. وقد نقل الراحلون الأولون من أبناء

(8990/1)

المغرب العربي إلى بلادهم ما تحتاج إليه الكتابة من معدات وأدوات، فجلبوا من المشرق:

... . أقلام الكتابة بأنواعها.

... . طريقة صنع المواد.

... . طريقة تحضير جلود الحيوانات لتكون صالحة لأن يكتب عليها (يلاحظ ذلك جيداً بالقيروان أواخر القرن الثاني للهجرة على عهد الأمراء المهلبيين عند التجوّل في سوق الورّاقين).

المادة المكتوب بها:

... هي بلا شك الحبر بألوانه. وهو ثبوت وغير ثبوت. فما كان ثبوتاً لا ينفسخ؛ وما كان غير ثبوت انفسخ مع طول الزمن. ومنها "الليقة" و"اللك والتذهيب والتكحيل والتجوين والتزويق".

(1/8991)

وكل هذه الصناعات موجودة. خذ مثلاً مصحف "فضل"، تجد به جميع هذه الفنون الجميلة الراقية: فأرضيته فرشت مثلاً بأزهار التفاح اللطيفة ونثرت عليها أشكال الإجاص الملون اللطيف، وتذهيبه قد كحل حتى يبدو بارزاً، ووردياته آية من إبداع الفن القيرواني. وهذه الفنون انتقلت إلى صقلية فأخذها النصارى وزخرفوا بها كتبهم.

الرّقوق:

... الرّق هو الجلد المعد للكتابة والنسخ. وقد كانت الرقوق تستعمل في نسخ المصاحف والدواوين العلمية وسائر المكتبات قبل ظهور الكاغد وانتشاره.

(1/8992)

... ودامت صناعة الرّق في القيروان وإفريقية عموماً في نمو وازدهار. وقد كتب عليه المصاحف والصكوك والعقود إلى آخر القرن 9 هـ، بينما نرى الرّق انقطع استعماله في المشرق. وقد قام مقامه الكاغد من أول القرن 4 هـ حتى لم يبق للرق بعد ذلك التاريخ من يكتب عليه. وإن وجود الرّق واستعماله في كتابات معينة لم يمنع الأفارقة من اتخاذ الكاغد والكتابة عليه، فقد كانا مستعملين معاً في وقت واحد(1).

---

(1) عثمان الكعاك، مكتبة الجامع الأعظم، المصدر السابق.

(1/8993)

... وقد حافظت إفريقية التونسية وما تلاها من بلاد المغرب والسودان على أشكال الحروف العربية في نقطها وترتيبها الأبجدي على النمط الذي وضعت فيه بمدائن الحجاز وبأرض العراق (الفاء نقطة من أسفل، وأختها القاف بواحدة من فوق). يظهر آخر القرن 3 هـ تغيير نقطها في المشرق، فتصير الفاء بنقطة واحدة من فوق؛ والقاف باثنين من فوق أيضاً، لكن المغرب يحافظ على استعمال الطريقة القديمة.

... أما ترتيب حروف الهجاء، فإنه كان ولا يزال في المغرب والسودان الموالي به على الوضع التالي: (أ. ب. ت. ث. ج. ح. خ. د. ذ. ر

(8994/1)

. ز. ط. ظ. ك. ل. م. ن. ص. ض. ع. غ. ف. ق. س. ش. هـ. و. ي). هذا الترتيب هو ما جرى به العمل في الممالك الشرقية والمغرب معاً إلى حد القرن 3 هـ قبل التغيير الحادث في المشرق.

الكاغد:

... هو صناعة صينية انتقلت إلى بغداد على عهد هارون الرشيد لما انتصر على الصين، فأسر جماعة من أهلها استعملهم في تعليم الصناعات. وقد انتقل الكاغد إلى

تونس في أوائل القرن 3 هـ، فصنعه التونسيون من حرير قابس ومن قطن قمودة ومن كتّان الوطن القبلي، كان منه الأبيض الناصع والأصفر التبني اللطيف. وبعد مدة، اختصّت

(1/8995)

القيروان بالقطع الإفريقي القيرواني. وتوجد من جميع هذه الأحجام نماذج بمكتبة القيروان.

... ترك المعز بن باديس كتاباً قيماً في صناعة الكاغد والحبر واللبقة واللك وصنوف التجليد نعلم منه كيف كان يصنع الكاغد بالقيروان. هذا الكاغد مظهر عظيم من مظاهر الحضارة القيروانية الخالدة. وبهذه المكتبة القيروانية نماذج كثيرة من كاغد الحرير القيرواني وكاغد القطن وكاغد الكتان محفوظة أحسن حفظ ومصنوعة أبدع صنعة منها مصاحف وكتب فقه وتحابيس.

الفن القيرواني:

(1/8996)

... الفن القيرواني يستمد أصوله من الفنون الإسلامية التي سبقته في الوجود خلال القرنين الأول والثاني للهجرة. فقد استطاع أن يتميز بوضوح ويستقل بطابع خاص وأصبح حلقة ممتازة في تاريخ الفن الإسلامي. وهذا الفن القيرواني نجده مثلاً في جامع "عقبة" سواء من ناحية البناء أو الهندسة أو من ناحية النحت والتخريم والنقش والزخرفة. وجامع عقبة أثر أغلبي وشاهد من شواهد ازدهار الفنون في عصرهم. فشكله الحالي وزخارفه ونقوشه يرجع أغلبها إلى العهد الأغلبي. ومن عجائب الفن القيرواني تلك التيجان التي على رؤوس الأسطوانات؛ فهي

(1/8997)

ذات أشكال عديدة تغلب فيها ورقة الكرم في زخارف مختلفة تارة يانعة ممتدة، وتارة منكمشة ضيقة، وأحياناً مستقيمة، وأحياناً أخرى ملفوفة. وربما كان زخرف التاج مكوناً من زهرة أو من نخيل أو ربما امتزج بإحداها عنقود من العنب أو من الرمّان. وقد تطور شكل التيجان في مسجد القيروان، فشمل بلاد المغرب والأندلس وتعداهما إلى أوروبا. ذلك بأن الكنائس استقلت أصول تيجانها وعناصرها وشكلها من التيجان

الإسلامية في الأندلس. ونحن نعلم أن الفن الأندلسي يدين بالشيء الكثير للقيروان.

التجليد:

(1/8998)

... ومن الزخارف "التجليد". ذلك بأن القدماء لم يعرفوا الكتاب المبسوط المجلّد، بل عرفوا "الدرج" وهو رقة تلف لفاً وتوضع في أنبوب قصب أو معدن. ثم ابتدع الأغالبة "التجليد"، وربما اقتبسوه من جالية "الأقباط" التي جلبها حسان بن نعمان لبناء دار الصناعة.

... التجليد الأغلبي له دفتان من خشب وتصافيح من معدن. ويعلق الكتاب بـ "قفل". وتوجد بالقيروان مئات من التجاليد الأغلبية عثر عليها بمقصورة في الجامع، ثم انتقل التجليد من القيروان إلى أوروبا. ونجد التجليد القيرواني في الكتب القيمة بديار الكتب في إيطاليا،

(1/8999)

ولاسيما بصقلية.

الورّاقون:

... الورّاق هو ذلك الشخص الذي يشتغل بالورق والكتابة وصناعة الكتب والنسخ وبيع المخطوطات (ما يشبه في زماننا دور النشر اليوم). ولذلك كان للوراقين أهمية لا تقل عن تلك الأهمية في نشر الثقافة الإسلامية وخاصة في العصر الذهبي. وقد قامت لذلك أسواق بكاملها اختصت بهذه الصناعة.

... ومن شروط النسّاخ أن يكون خطه جيداً وصحيحاً وواضحاً، وهو ما ينعكس على أجور النسخ التي تحسب غالباً على أساس عدد الأوراق.

الوراقون بإفريقية (إلى ق 4 هـ):

(1/9000)

... كانت صناعة الورق رائجة بالقيروان وفي رقادة بالذات. وقد نقلت إليها طريقة عمل الورق (الكاغد) من بغداد ومن الفسطاط ق 3 هـ ومن القيروان تحولت إلى إيطاليا (باليرمو) ثم إلى بقية المدن الإفرنجية؛ مما ساعد على اختراع فن الطباعة. ومن وراقي إفريقية

نـذكر:

إبـراهيم بـن سالم التونـسي أشهر ورّاق (3 و 4 و 5 هـ).
ويعرف بـالورّاق الإفريقي. »ولد بـتونـس ودرس في القيروان وأتقن صناعة الوراقة حتى لقب بـها. بـاشر مهنته للأمراء الأغالبة في رقادة. وبـعد سقوطهم، تحول للأندلس واستقر بـقرطبة«.

(9001/1)

محمد بـن يوسف التاريخي المشهور بـالورّاق الذي تحول بـعد إتقانه للعلوم والفنون في إفريقية إلى بـلاط الأندلس وانخرط في سلك العلماء المؤلفين لحاشية الحكم الثاني بـقرطبة. اشتغل بـالوراقة الرفيعة.
عثمان بـن سعيد الصيقل. من موالي الأغالبة. نشأ في بـلاط رقادة وتتلمذ لأبي اليسر الشياني رئيس "بيت الحكمة". مهر في صناعة الوراقة الرفيعة.
محمد بـن حارث الحسيني من أبناء القيروان ومن علمائها العاملين بـالوراقة والتزويق وتركيب الأَصباغ والأَدهان وحل الذهب والفضّة.

النساخون:

(9002/1)

عبد الله بن أبي هاشم بن مسرور التجيبي. مات سنة 346 هـ كان حسن التقييد، صحيح الكتب، وكانت كتبه كلها بخطه.

أبو الفضل أحمد بن الوزير الأغلبي علي بن حميد التميمي. تخلى عن المناصب وانقطع للعلم والعناية بجمْع الكتب ونسخها وتصحيحها. وهو من تلاميذ أسد بن الفرات وسحنون.

عيسى بن مسكين المتوفى سنة 290 هـ

محمد بن بسطام بن رجاء الضبي المتوفى سنة 313 هـ كتب كتباً كثيرة بخطه وكان قد اشترى وصيفاً لإصلاح "المصباح"، في حين نسخه بالليل حسب قول المالكي من "رياض النفوس".

(9003/1)

حمدون بن مجاهد الكلي المتوفى سنة 221 هـ من أهل جزيرة شريك، استوطن رباط المنستير ونسخ هناك أكثر دواوين العلم، وكان حسن النقل والضبط قال

القاضي عياض في "المدارك : »كان لا يكتب إلا عن فهم ويضبط الشكل ويحب نشر العلم وإذاعته«.

(9004/1)

دور الحركة الصهيونية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (1876 ـ 1919 م)

... ... الدكتور تيسير جبارة

... ... جامعة النجاح الوطنية ـ نابلس ـ فلسطين

مقدمة

... تولى اللورد بالمرستون وزارة الخارجية البريطانية عام 1830 م أول مرة. وكان ضعف الإمبراطورية العثمانية واضحاً، خاصة عندما احتل محمد علي باشا منطقة بلاد الشام عام 1830 م. لذا حاول بالمرستون أن تبقى الدولة العثمانية سليمة وحية، في حين كانت روسيا وفرنسا تتلهفان على موت الدولة العثمانية أملاً في الحصول على نصيبهما من تركة

(9005/1)

الإمبراطورية. لذا كان بالمرستون يبحث عمّن يحمي مصالح بريطانيا في الشرق العربي، فوجد ضالته في اليهود، وذلك بتأسيس كيان لهم في المستقبل.

... وقد بحث بالمرستون الموضوع مع اللورد شافتسبري؛ لكن شافتسبري أفصح عن مشروع أعده منذ زمن وأطلع بالمرستون عليه، وهو الاستيطان اليهودي في فلسطين وتكثيفه. ولم ينجح مشروع شافتسبري، لكن صاحبه لم يعرف اليأس، وهو صاحب الجملة المأثورة: "فلسطين أرض بلا شعب إلى شعب بلا أرض، أي اليهود". وقد تبنى الصهاينة فيما بعد هذه الجملة وأصبحت من أوّل الشعارات الصهيونية: "أرض بلا شعب

(9006/1)

لشعب بلا أرض".

... كان بالمرستون في مقدمة الساسة الإنجليز الذين نفخوا في الصهيونية قبل أن تولد عام 1897 م والتي تتبع الروح العنصرية الاستعلائية، وشدد على ربط تركيا بالغرب، وذلك عن طريق مشروع الاستيطان الصهيوني، وكان يقول إن تركيا بلد متأخر وبحاجة إلى اللحاق بركب الحضارة الغربية.

... وتم افتتاح أول قنصلية بريطانية في القدس عام

1834 م، وذلك لحماية المصالح البريطانية في الشرق أولاً، والاهتمام بتشجيع اليهود للهجرة إلى فلسطين ثانياً. وكانت التعليمات البريطانية للقنصلية في القدس الاهتمام بشؤون اليهود

(9007/1)

وتسجيلهم في القنصلية بقصد حمايتهم. وقد كتب القنصل الإنجليزي في القدس المستر ديكسون بتاريخ 1893/7/11 م إلى المستر آرثر نيكلسون مسؤول وزارة الخارجية البريطانية ما يلي: "يحصل لي الشرف أن أكتب لك قائمة بأسماء اليهود الروس الذين سجلوا أسماءهم في القنصلية البريطانية لحمايتهم إلى الأبد، وأذكر لك أنني بعثت بقائمة مماثلة إلى السلطات العثمانية في القدس"(1). وكان القنصل الإنجليزي يقدم هذه الكشوفات إلى بلاده أيضاً. وقد ساعد الإنجليز عدداً

---

(1) أرشيف وزارة الخارجية البريطانية، ملف رقم 38. ./ No1806/ 195Fo

(9008/1)

من اليهود على شراء الأراضي في فلسطين وبناء مستعمرات يهودية عليها، ولا سيما في مناطق زمارين وملبس وعيون قارة والخضيرة وتل أبيب (تل الربيع) (1) وغيرها.

... وكانت تعليمات بالمرستون إلى القنصل البريطاني في القدس تقديم تقارير عن وضع اليهود في فلسطين وضرورة حمايتهم، وكانت رسائله تنص على اعترافه باليهود أُمَّةً وارتباطهم بفلسطين. وفي أيار عام 1839 م وتنفيذاً لتعليمات بالمرستون أرسل ينغ ـ نائب القنصل في القدس ـ إلى وزارة الخارجية تقريراً

---

(1) محمد عزة دروزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، ص. 16.

(9009/1)

يقول فيه: "إن عدد اليهود المقيمين في فلسطين 9690 شخصاً، وإن وضعهم بائس، وإنهم يعتمدون اعتماداً كاملاً على المساعدة الخارجية"(1). ومن المعروف أن الحماية البريطانية كانت لليهود الذين يحملون جنسيات أجنبية. أما يهود الإمبراطورية العثمانية (يهود الراية)، فكانوا يعتبرون رعايا للإمبراطورية

خاضعين لتشريعات السلطان.

... وكان دعم بالمرستون للاستيطان اليهودي في فلسطين جزءاً متمماً لنزعاته الصهيونية. وهذا دعم لخطة سافتسبري الداعية

---

(1) ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ترجمة أحمد عبد الله، ص. 119.

(9010/1)

لإعادة اليهود بشكل جماعي إلى فلسطين.

... وهكذا نلاحظ أن بريطانيا قد خططت لضرورة التكلم مع السلطان العثماني لتجميع اليهود في فلسطين تحت الحماية البريطانية وبموافقة السلطان، ولكن هذا التخطيط كان الهدف الأول منه المصلحة البريطانية تجارياً، وذلك بسبب موقع فلسطين على الطريق بين بريطانيا والهند. وقد صرح بذلك توماس كلارك في كتابه "الهند وفلسطين" عام 1861 م فقال:

... إن بعث الأمة اليهودية سوف ينعش بني إسرائيل ويعود علينا بأفضل المنافع قاطبة. ومن المؤكد أن احتلال اليهود لفلسطين تحت حماية بريطانيا يجب أن

(9011/1)

يكون بمثابة الضرورة القصوى على الإطلاق. وإذا كانت بريطانيا تعتمد من جديد على تجارتها كحجر الزاوية في عظمتها، وإذا كان أقرب مجرى للتجارة وأفضله يمر عبر القارات الثلاث الكبرى، وبما أن اليهود يؤلفون شعباً تجارياً في الجوهر، فهل توجد بادرة أكثر طبيعية ومنطقية من زرعهم على طول ذلك الطريق القديم العظيم للتجارة القديمة؟ (1).

وتركزت مصلحة بريطانيا في الشرق في تأمين المواصلات إلى الهند عبر سوريا وفي المحافظة على أمن الهند الذي كان مهدداً من

(1) علي محمد علي، ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية، ص. 34.

قبل روسيا وفرنسا. لذا وجدت بريطانيا أنه لابد من التحالف بين بريطانيا الاستعمارية والصهيونية الدينية.

... وهكذا كانت بريطانيا تخطط للمحافظة على إمبراطوريتها الممتدة من كندا في الغرب إلى الهند في

الشرق وأستراليا في الجنوب الشرقي، هذه الإمبراطورية التي لا تغرب عن مستعمراتها الشمس.

...

الحركة الصهيونية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني ... سميت الحركة الصهيونية بهذا الاسم نسبة إلى جبل صهيون في القدس، وقامت بين يهود روسيا في أواسط القرن 19 "حركة أحباء صهيون" أو الصهيونية. إن كلمة "صهيون" في أصلها

(9013/1)

كلمة كنعانية أطلقت على الجبل الشرقي في مدينة القدس. وقد وردت كلمة "صهيون" في التوراة خمسين ومائة واثنتين مرة على أنها المدينة المقدسة كما وردت سبع مرات بالمعنى نفسه في العهد الجديد(1).

... إن الحركة الصهيونية الحديثة ما كان ممكناً أن يكون لها دور، أو أن تقوم لها قائمة، لولا الجذر الديني الذي اعتمدت عليه جسراً أو إلى حد لا بديل عنه بين الشتات والدولة. فهذا الجسر هو صلة الوصل بين اليهود أينما كانوا وبين الهدف الرئيس للحركة الصهيونية وهو

---

(1) بيان الحوت، فلسطين. القضية، الشعب، الحضارة، ص. 272.

(9014/1)

تجميع اليهود وإقامة دولة خاصة بهم في فلسطين، علماً بأن عدداً منهم أراد دولة لليهود في أي مكان في العالم، وتطورت حركة أحباء صهيون على يد ليوبنسكر في كتابه "التحرير الذاتي". نشر بالألمانية عام 1882 م. ليؤكد أن اليهود ليسوا جماعة دينية فقط، بل هم أمة مستقلة بذاتها وخلاصهم من حياة الاضطهاد لا يكون إلا بتحرير أنفسهم باستقلالهم في أرض يعيشون فيها عيشة قومية حرة، ولم تكن هذه الأرض بالضرورة فلسطين(1)

---

(1) خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908 ـ 1918 م، م. ت. ف.، مركز الأبحاث، بيروت، 1973، ص. 17.

(9015/1)

.

... وهناك نوعان من الصهيونية السياسية هما:

الصهيونية غير اليهودية، وهي الصهيونية التي خطط لها زعماء الاستعمار، والصهيونية اليهودية وهي التي خطط لها زعماء اليهود. لذا فالصهيونية غير اليهودية هي تلك التي نادى بها الغرب لدوافع استعمارية، وذلك بقصد احتلال بلاد المشرق العربي عن طريق المناداة بضرورة تجميع اليهود في فلسطين. وأصبح للحركة الصهيونية أنصار من اليهود يدافعون عنها ويؤيدونها، وهدفها تجميع اليهود في فلسطين وإقامة دولة لهم فيها، وهناك جمعيات وحركات أخرى يهودية في أوروبا كان الهدف من تشكيلها

(9016/1)

تشجيع اليهود على الهجرة إلى فلسطين وشراء الأراضي وتوزيعها على اليهود(1).

... كان لورنس أوليفانت عضو البرلمان البريطاني من الشخصيات القوية الداعمة للصهيونية، وهو صاحب نظرية إعادة إحياء الإمبراطورية العثمانية لمواجهة الإمبراطورية الروسية، وقام لورنس بزيارة فلسطين

حيث درس ظروف الاستيطان والاستعمار الزراعي فيها ونشر كتابه "أرض جلعاد" الذي اقترح فيه إقامة مستوطنة يهودية شرقي نهر الأردن تكون تحت السيادة العثمانية والحماية البريطانية،

---

(1) عيسى السفري، فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، ص. 9.

(9017/1)

وقدم توصيات بشأن السكان العرب في فلسطين. فمثلاً، قال: يجب طرد البدو لأنهم مولعون بالحرب. أما الفلاحون، فيجب وضعهم في أراضٍ خاصة بهم كالهنود الحمر في أمريكا الشمالية(1). وأقام لورنس اتصالات بين الصهيونيين اليهود وغير اليهود. وكان أوَّل اتصال له مع "حركة أحباء صهيون" التي تشكلت من الأوربيين الشرقيين، والذين كان همهم الأكبر هو الفرار من موجة المذابح التي أعقبت اغتيال القيصر الإسكندر الثاني عام 1881 م. وفي خلال سنتي 1881 ـ 1882 م بدأت تتشكل جمعيات

---

(1) ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص. 141.

(9018/1)

في روسيا هدفها تحقيق هجرة اليهود إلى فلسطين. وقد عرفت هذه الجمعيات باسم "حب صهيون"، ثم اشتهرت باسم "أحباء صهيون". وقد عقد "أحباء صهيون"، أول مؤتمر لهم عام 1884 م، ويعتبر هذا المؤتمر أول محطة بارزة في تاريخ هذه الحركة. وقد انتشرت فروع لأحباء صهيون في أوروبا الشرقية. وحصلت "جمعية أحباء صهيون"، عام 1890 م على ترخيص رسمي من السلطات الروسية معرفة عن نسها بأنها "جمعية لمساعدة اليهود الزراعيين والحرفيين في فلسطين وسوريا". وبسبب النزاعات الداخلية في الحركة، فشلت وأخذ أفرادها يعمل كل واحد بمفرده.

(9019/1)

... إن الانتقال بالمشروع الصهيوني من الساحة الأوروبية المسيحية إلى الساحة الأوروبية اليهودية

كان واضحاً. وقد أفصح هيرتسل في مؤتمر بال عام 1897 م عندما قال إن النداءات والدعوات الفكرية لتجميع اليهود لم تجد أذناً صاغية حتى بين اليهود أنفسهم في الثلاثينيّات من القرن التاسع عشر، ولكن في الستينيّات من القرن نفسه بدأت هذه الدعوة تلقى نجاحاً. ومن أبرز الرواد لهذه الحركة في هذه المرحلة ثلاثة يهود هم يهودا الكلعي وكاليشر وهس، ثم جاء بنسكر متأخراً عن هذه المرحلة. ولد يهود الكلعي في يوغوسلافيا، وكان حاخام

(9020/1)

الطائفة اليهودية في سراجيفو .في البوسنة. نشر كتاباً في تعليم اللغة العبرية، وكتاباً آخر عام 1840 م عنوانه "شلوم يروشالايم" حث فيه اليهود على دفع 10/1 من مدخولهم لمساعدة يهود القدس، وسكن فيها في أواخر عمره ومات فيها عام 1878 م. وكان الكلعي أول الداعين إلى تحديث اللغة العبرية وأول من نشر فكرة إنشاء جمعية ليهود العالم لتوحيدهم(1).

... وأما تسفي هيرش كاليشر، فهو من روسيا. كان حاخاماً للطائفة اليهودية في مدينة ثورن، وتقع هذه المدينة حالياً في بولونيا. نشر كتاباً عام

(1) بيان الحوت، فلسطين، ص. 312.

(9021/1)

1862م بعنوان "البحث عن صهيون"، وكان أول كتاب يصدر بالعبرية في أوربا الشرقية بشأن المستعمرات الزراعية في فلسطين. وبمبادرة منه، أنشأت المدرسة الزراعية في ملبس: "بتاح تكفاح" (مفتاح الأمل) قرب يافا.

... وأما موشي هيس، فهو يهودي ألماني وكان صديقاً لماركس، وقد أصدر كتاباً بعنوان "روما والقدس". قال هس إنه من الممكن استرداد فلسطين عن طريق إغراء السلطان العثماني بالمال، لكنه لم يعتقد أن الأغنياء اليهود سيذهبون لفلسطين. أطلق هس على الشعب اليهودي "الشعب الممتاز". أما المساواة بين البشر، فيناقضها هس كل

(9022/1)

المناقضة. وأما ليوبنسكر، فكان من رواد الحركة الصهيونية في روسيا، ولد في بولونيا ودرس في

أوديسا، تجول في أوروبا داعياً اليهود للتجمع في أي مكان، أصدر كتابه "التحرر الذاتي" بالألمانية. وأبرز ما جاء في كتابه عدم التركيز على فلسطين.

... وكانت أهداف الصهيونية متوافقة مع الاستعمار البريطاني حتى إنها أصبحت فرعاً له، وأصبح أشد أنصار الصهيونية هم أولئك الذين يشغلون مناصب هامة في الدوائر الحكومية في إنجلترا. وأخيراً، ترأس بعض اليهود الدعوة الصهيونية وعبروا عن اهتمامهم بالعمل السياسي من أجل توطين اليهود

(9023/1)

في فلسطين. وكان من هؤلاء ليوبنسكر صاحب كتاب "التحرر الذاتي". لقد تأثر هذا بمذابح عام 1881 م في بلاده، فهاجر إلى وسط وغرب أوروبا داعياً إلى إحياء القومية اليهودية وإقامة دولة يهودية، وذكر في كتابه أن هذه الدولة ليست بالضرورة في صهيون في فلسطين وإن كان يفضل هذا، وقال:

... يجب أن نجد وطناً لهذا الشعب حتى نكف عن التجوال في العالم وحتى نعيد إقامة الأمة اليهودية ... إن هدفنا في الوقت الحاضر ينبغي ألا يكون استعادة الأرض

المقدسة إنما نطالب بأرض لنا... أية أرض... إننا لا نريد قطعة من الأرض ذات اتساع يستطيع أن

(9024/1)

يأوي إخواننا البؤساء، قطعة من الأرض تظل ملكاً لنا ولا يستطيع أحد أن يطردنا منها(1).

... وفي هذه المرحلة بالذات، وفي إثر المذابح القيصرية ضد اليهود في روسيا، ابتدأت الهجرة الجماعية الأولى إلى فلسطين، وهي الهجرة التي كانت الشعارات الدينية عنواناً لها، والفقر والاضطهاد من مبرراتها. ومن أبرز نتائج الهجرة من روسيا أن اليهود توجهوا في أغلبيتهم إلى الولايات المتحدة وكذلك إلى فلسطين. فكانوا في أمريكا نواة الجالية اليهودية الضخمة، وكانوا في

---

(1) علي محمد علي، ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية، ص. 39.

(9025/1)

فلسطين نواة الصهيونية. كان شبح الاضطهاد الذريعة الكبرى للهجرة الصهيونية نحو فلسطين، لذلك أصبح من هموم الدعاية الصهيونية التركيز على سيرة الاضطهاد.

... وزادت الهجرة الصهيونية إلى أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر، مما أدى بأمريكا عام 1890 م إلى بعث مندوبين اثنين إلى أوروبا الشرقية لدراسة أسباب الارتفاع المفاجئ في الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة، وذكر المندوبان الأميركيان في تقريرهما: "إن أغلبية يهود روسيا يعيشون في ظروف أشد سوءاً من الفلاحين والعمال الروس "(1)

---

(1) استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة، منشورات الطلائع بإشراف حبيب قهوجي، ص. 61، هامش 20.

(9026/1)

. لذلك فضل كثير من اليهود الروس الهجرة إلى أمريكا البلد الجديد بدلاً من الهجرة إلى فلسطين. وذكر هرتسل في كتابه "الدولة اليهودية" : "سيذهب أولاً أولئك الذين هم في حالة بؤس ثم يتبعهم الفقراء" (1).

... وأقيمت مستعمرات في فلسطين عام 1882 م وهاجر

عدد من اليهود الروس إليها، ولكن بسبب صعوبة العيش في فلسطين وصعوبة التأقلم وقلة الخبرة الزراعية عاد بعض المستوطنين إلى روسيا وذهب قسم منهم إلى أمريكا وقليل منهم بقي في القدس. وكانت البعثات المسيحية قد أنفقت على عودتهم إلى

---

(1) هرتزل، الدولة اليهودية، ص. 110.

(9027/1)

أوروبا(1). وأما يهود فلسطين، فلم يعجبهم قدوم الهجرات اليهودية من الخارج والإقامة في فلسطين، لأن المهاجرين يزاحمونهم اقتصادياً في فلسطين. وقد أثبت هرتزل في يومياته هذه الحقيقية التاريخية التي كشفت عن المعارضة اليهودية الفلسطينية للصهيونية(2). كما واجهت عملية الاستيطان في فلسطين مقاومة عنيفة ومسلحة من العرب في هجومهم على المستوطنات في وقت مبكر من إقامة تلك المستوطنات

---

(1) Walter Laquer, A Short History of Zionism, 78p.

(2) استراتيجية الاستيطان، منشورات الطلائع بإشراف حبيب قهوجي، ص. 79.

(9028/1)

اليهودية. وفي عام 1870 م، أنشأ يهود فرنسا مدرسة زراعية قرب يافا تدعى بالمكفية؛ وتقوم المدرسة على أراضي قرية يازور العربية. كما أنشأ اليهود الإنجليز أول مستعمرة لهم في أراضي قرية ملبس العربية قرب يافا، وهي مستعمرة بتاح تكفا، أي مفتاح الأمل. وكانت هذه المستعمرة تعيش على المساعدات التي قدمها اليهودي روتشيلد، وذلك لتشجيع اليهود على البقاء في فلسطين. ووصل عدد من الطلاب اليهود من روسيا من جمعية "بيلو" التابعة لحركة "أحباء صهيون" إلى فلسطين في 1882/8/5 م وأسسوا مستوطنة ريشون ليتسيون (الأول في صهيون)

(9029/1)

بين القدس ويافا. وقد تأسست بين عام 1882 ـ 1884م تسع مستوطنات وضعت أساس الاستيطان الحديث في

فلسطين(1).

... وتأسست بين عام 1889 و1908 م ثماني مستوطنات جديدة. ولم يتوقف إنشاء المستوطنات أو شراء الأراضي حتى خلال الحرب العالمية الأولى. فقد حصلت المنظمة الصهيونية خلال الثلاث السنوات الأولى من الحرب على 40 ألف هكتار من أجود الأراضي، وذكر كالفاريسكي أن هناك أربع مستوطنات في الجليل تأسست في فترة الحرب العالمية الأولى(2)

---

(1) خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908 ـ 1918 م، ص. 18.

(2) المصدر نفسه، ص. 276.

(9030/1)

.

... وتذكر الكتب التاريخية أن الهجرة الصهيونية إلى فلسطين مرت في مرحلتين هما: الهجرة الأولى (1882 ـ 1904 م) والهجرة الثانية (1905 ـ 1914 م). أما قبل ذلك التاريخ، فكانت الهجرة إلى الولايات المتحدة من روسيا ورومانيا. لقد شهدت الهجرة الأولى موجتين: تسمى موجة الهجرة الأولى بالعبرية "عالياه" كانت عام

1881 ـ 1884 م، ولم يصل فلسطين منها سوى 2 ٪ فقط من هذه الموجة والباقي توجه إلى أمريكا. وتم إنشاء مستعمرات في هذه المرحلة مثل ريشون ليتسيون (عيون قاره) وروش بيناه (الجاعونه) وزخرون يعقوف (زمارين) وبتاح

(9031/1)

تكفا (ملبس). أما الموجة الثانية من (عالياه الأولى) فكانت خلال سنتي 1890 ـ 1891 م من روسيا. ومن أهم المستعمرات التي قامت آنذاك هي رحفوت (ديران) وحواره (الخضيرة) ومشمار هايرون ويئير طوفياه والمطله(1). وكان الممول لهذه المستعمرات روتشيلد أحد أغنياء اليهود. وهناك مشكلات داخلية واجهت هذه الهجرة الأولى، وهي الأمراض التي تفشت بينهم مثل الملاريا وقلة الخبرة الزراعية واختلاف الجو الذي جاءوا منه. لذا هاجر بعضهم من فلسطين لأمريكا، ورجع بعضهم الآخر لروسيا، وترك آخرون

---

(1) بيان الحوت، فلسطين، ص. 394.

(9032/1)

المستوطنات إلى القدس. وفي مواقع لم تستقطب المستعمرات إلا عدداً ضئيلاً بسبب سكناهم في المدن، وكان عدد الذين سكنوا في هذه المستوطنات ستة آلاف مستوطن فقط.

... وكانت الهجرة الثانية (عالياه الثانية) في فترة 1905 ـ 1914 م حيث تأسس مكتب فلسطين في هذه الفترة على يد آرثر روبن عام 1908 م، وكان مسؤولاً عن الاستيطان، واستطاع إقامة 9 مستوطنات في ستة أعوام وقد شيدت في هذه المرحلة مستعمرة تل أبيب عام 1909 م. ثم أُنْشِئَتْ منظمة هاشومير في هذه الفترة ومعناها الحارس عام 1909 م ولم يبلغ عدد الحراس اليهود أكثر من

(9033/1)

مئة شخص لحراسة المستعمرات. وقد كان هؤلاء نواة لمنظمة الهاجاناه العسكرية فيما بعد. ويقول المؤرخ اليهودي والتر لاكور إن أبرز نتائج الهجرة الثانية كانت:

1) برهان اليهود على قدرتهم أن يكونوا مزارعين

وقدرتهم على تطوير وسائل حديثة في المستعمرات.

2) إحياء اللغة العبرية.

3) تصميم عدد من اليهود على البقاء في فلسطين، بالرغم من كل الصعوبات(1).

اليهودي الصهيوني ثيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية

---

(1) المصدر نفسه، ص. 399.

(1/9034)

... كان ثيودور هرتزل أول من خطط لإنشاء دولة يهودية، حيث شرح في كتابه الذي صدر عام 1895 م بعنوان "الدولة اليهودية" فكرة إيجاد دولة لليهود. وتناول في كتابه نقطاً عن كيفية إنشاء الدولة اليهودية وشرح فيه أحوال اليهود في أوروبا فقال:

... إننا شعب واحد، ولقد حاولنا بشرف وفي كل مكان أن نندمج في الجماعات التي نعيش فيها. إننا نعامل في الدول التي نعيش فيها على أننا غرباء. إن إقامة دولة جديدة ليست بالشيء المستحيل. وستكلف وكالتان

متخصصتان بالقيام بهذا العمل هما "جمعية اليهود" و"الشركة اليهودية"، وستخول

(9035/1)

الجمعية السلطات للتفاوض مع الحكومات بكونها ممثلة للشعب اليهودي، وسيكون هدفها خلق الدولة اليهودية. أما الشركة، فهي لتمويل هذه العمليات(1).

وذكر في كتابه أن الأرجنتين مناسبة لإيجاد دولة يهودية فيها، لأنها أرض واسعة وفيها عدد قليل من السكان. أما عن فلسطين، فقال إنها مناسبة أيضاً لأن فيها ذكريات تاريخية، وأضاف قائلاً: "وإذا وافق السلطان على إعطائنا فلسطين، فإننا في مقابل ذلك سنتعهد بتنظيم الأموال المالية لتركيا، وسنعمل على أن نظل

---

(1) علي محمد علي، ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية، ج 1، ص. 53.

(9036/1)

مرتبطين بكل أوروبا التي ستضمن بقاءنا" (1).

... كيف سيتم تأسيس الدولة اليهودية في فلسطين؟

لقد وضح هرتزل ذلك عندما شرح المشروع الصهيوني في يومياته عام 1895 م قائلاً إن جوهر المشروع الصهيوني هو انتزاع الأرض العربية من أصحابها وإعطاؤها مستوطنين أو مهاجرين يهود من الخارج، ولن يتم الاستيطان إلا على حساب العرب، وأضاف هرتزل قائلاً:

... يجب أن نستخلص ملكية الأرض التي ستعطى لنا ولكن باللطف والتدريج، وسنحاول أن نشجع فقراء السكان على النزوح إلى البلدان المجاورة، وذلك بتأمين أشغال

---

(1) المصدر نفسه، ص. 55.

(9037/1)

لهم هناك ورفض إعطائهم أي عمل في بلادنا ... على أننا يجب أن نقوم بكلتا العمليتين، استخلاص الأرض وإبعاد الفقراء بتعقل وحذر(1).

... وفي 1897/8/29 م عقد أول مؤتمر صهيوني في مدينة بال بسويسرا. وكانت أبرز القضايا في هذا المؤتمر بعث اليهودية في يهود أوروبا الغربية وتعليم اللغة العبرية لليهود. أما القضية الأساسية

للمؤتمر، فهي توجيه أنظار اليهود ومشاعرهم نحو فلسطين وتحويلها عن أمريكا أو أي مكان آخر.

---

(1) استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة، منشورات الطلائع، ص. 89.

(9038/1)

... وكان مؤتمر بال نقطة هامة في تاريخ الحركة الصهيونية، لأن الأعضاء الذين شاركوا فيه درسوا الوسائل الكفيلة لنجاح خطتهم في تأسيس وطن أو كيان ليهود العالم. وقد التقى في هذا المؤتمر الصهيوني تياران، الأول منهما يمثل جماعة "محبي صهيون" الذين ركزوا حديثهم على تأسيس مركز لليهود في فلسطين، بينما الثاني يمثل أنصار "الدولة اليهودية" الذين أرادوا تأسيس دولة يهودية في أي مكان، لكن اتفق الطرفان وقررا إنشاء وطن قومي لليهود(1). كما تم في هذا المؤتمر وضع برنامج الحركة الصهيونية

---

(1) المصدر نفسه، ص. 55.

(9039/1)

السياسي وجاء فيه:

... تكافح الصهيونية من أجل إنشاء وطن للشعب اليهودي في فلسطين يحميه القانون، ويرى المؤتمر أن الوسائل التالية تؤدي إلى الغاية المنشودة. وهذه هي قرارات مؤتمر بال:

1 ـ تشجيع العمال اليهود الصناعيين والزراعيين استعمار فلسطين على أسس مناسبة.

2 ـ تنظيم وربط جميع اليهود عن طريق المؤسسات المحلية أو الدولية طبقاً لقانون "كل أمة".

3 ـ تعزيز وتشجيع الإحساس والشعور القومي اليهودي، أي إيقاظ الوعي اليهودي.

(9040/1)

---

4 ـ اتخاذ الخطوات التمهيدية لدى مختلف الحكومات للحصول على موافقتها على أهداف الحركة الصهيونية(1).

... وأضاف المؤتمر أن كل شخص يهودي يعتنق المبادئ التي وضعت في مؤتمر بال يكون صهيونياً وعليه دفع

شلن واحد في السنة، والشلن هو عملة نقدية تساوي 20/1 من الجنيه.

... ألقى هرتزل خطاباً في مؤتمر بال قائلاً:

... إننا نريد أن نرسم أسس البناء الذي سيأوي يوماً الشعب اليهودي. إن الواجب كبير جداً ... سنستمع إلى

---

(1) ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص. 149؛ وانظر جمال عبد الناصر، هذه هي الصهيونية، ص. 47.

(9041/1)

تقارير عن وضع اليهود في مختلف الأقطار ... إن الوضع باستثناء حالات نادرة لا يدعو للارتياح ... إن الشتات المبعثر للشعب اليهودي قد تحمل في كل مكان اضطهاداً ... ومنذ التاريخ السحيق والعالم يسيء فهمنا ... إن الصهيونية هي العودة إلى الحياة اليهودية قبل أن تكون عودة إلى الأرض اليهودية ... سيكون من أول نتائج حركتنا تحويل المسألة اليهودية إلى مسألة خاصة بصهيون ... إن هجرة اليهود ستبدأ إنعاشاً للأرض الفقيرة، بل في الحقيقة فهو إنعاش للإمبراطورية العثمانية بأكملها(1)

(1) علي محمد علي، ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية، ج 1، ص. 77. وثيقة رقم 35.

.

... دام عقد المؤتمر ثلاثة أيام حضره أكثر من مائتي مندوب يمثلون سائر الهيئات اليهودية وخرج بتوصيات هامة وخطيرة(1).

... وعندما رجع هرتزل من بال إلى فيينا، كتب في جريدته، بقصد الدعاية لتأييد الصهيونية، قائلاً:

... لو طلب مني تلخيص أعمال مؤتمر بال، فإني أقول، بل أنادي على رؤوس الأشهاد أنني أسست الدولة الصهيونية. وقد يثير هذا القول عاصفة من الضحك هنا وهناك، ولكن العالم قد يشهد بعد خمسة أعوام أو بعد خمسين عاماً قيام الدولة اليهودية حسبما تمليه إرادة

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 94. وثيقة رقم 37.

اليهود بأن تنشأ لهم دولة(1).

... وعقدت مؤتمرات صهيونية أخرى بعد المؤتمر الأول، حيث عقدت عدة مؤتمرات صهيونية معظمها عقد في بال. وقد قرر المؤتمر الصهيوني الثاني إنشاء بنك لتمويل المشاريع الصهيونية برأس مال قدره مليونا جنيه إسترليني. وعقد المؤتمر الثالث بتاريخ 1899 م أكد قرارات المؤتمرات السابقة. وعقد المؤتمر الصهيوني الرابع في لندن، وذلك بقصد استثارة عطف الرأي العام الإنجليزي على الصهاينة. أما المؤتمر الخامس، فقد تقرر فيه التخطيط لإنشاء جامعة عبرية

(1) جمال عبد الناصر، هذه هي الصهيونية، ص. 48.

(9044/1)

وإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين، وعقد مؤتمر صهيوني سادس بتاريخ 1903 م وهو آخر مؤتمر يشهده هرتزل لأنه توفي عام 1904 م. وفي هذا المؤتمر ثار عليه الأعضاء الصهاينة، لأنه قبل اقتراح الإنجليز بتأسيس وطن قومي لليهود في أوغندا بإفريقيا(1). ...

... واتخذ مؤتمر بال الصهيوني قرارات علنية وأخرى سرية. أما العلنية، فخلاصتها تأسيس دولة لليهود في فلسطين، وعهد لذلك بتقوية الحركة الزراعية وشراء الأراضي في فلسطين. وأما السرية، فهي تلك التي سميت بـ"قرارات حكماء صهيون".

---

(1) تيسير جبارة، تاريخ فلسطين الحديث، ص. 32.

(1/9045)

وقد تسربت منها نسخة إلى مراسل جريدة "المورننج بوست" اللندنية في روسيا وقام بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية، و"البروتوكولات الصهيونية" هي الخطة التي وضعت للسيطرة على العالم(1).

... وكان قد صدر كتاب الإنجليزية بعنوان "بروتوكولات حكماء صهيون" عام 1919 م في لندن وصدرت الطبعة الحادية والثمانون سنة 1958 م بالإنجليزية أكثر من مليون

---

(1) عبد الله التل، خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية، ص. 165. وذكر التل أن أول ترجمة للعربية

قام بها محمد خليفة التونسي عام 1951 م، ونشرتها دار الكتاب العربي عام 1951 م.

(9046/1)

نسخة وبلغ عدد البروتوكولات أربعة وعشرين بروتوكولاً، "هو مخطط شامل لتقويض كل ما هو قائم في هذا العالم، ولا سيما أوروبا المسيحية وروسيا الأورثوذكسية والبابوية والإسلام وإقامة ملكٍ يهوديٍّ لنسل داود على هذا العالم المنهار" (1).

مقابلة هرتزل للسلطان عبد الحميد الثاني

... كان هرتزل نشيطاً في اتصالاته مع الشخصيات الهامة في أوروبا وتركيا، وكان أحياناً يطلب منهم الاتصال بالسلطان عبد الحميد لإقناعه بإعطائه فلسطين.

---

(1) بيان الحوت، فلسطين، ص. 349؛ انظر أيضاً إبراهيم خليل أحمد، إسرائيل والتلمود، ص. 106.

(9047/1)

فطلب مثلاً من ليونسكي ـ صديق السلطان ومفوض الشؤون الأرمنية ـ أن يقنع السلطان بهجرة اليهود لفلسطين. فقال ليونسكي لهرتزل إن السلطان قال له إنه لن يتخلى أبداً عن القدس. قال هرتزل: "سندبر هذا الأمر... سنجعل القدس خارج حدود الدولة اليهودية ـ المكان المقدس يمتلكه كل المؤمنين"(1). وقد نقل ليونسكي رأي السلطان عبد الحميد إلى هرتزل في 1896/6/19 م بشأن بيع فلسطين لليهود، فذكر ليونسكي لهرتزل:

---

(1) علي محمد علي، ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية، ج 1، ص. 62. وثيقة رقم 25.

(9048/1)

... قال السلطان لي: إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أنت صديقي، فانصحه ألا يسير أبداً في هذا الأمر. لا أقدر أن أبيع ولو قدماً واحدة من البلاد، لأنها ليست لي بل لشعبي... لا أستطيع أبداً أن أعطي أحداً أي جزء منها، ليحتفظ اليهود ببلايينهم. فإذا قسمت الإمبراطورية، فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل. إنما لن تقسم إلا جثتنا ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان(1).

ثم بعث هرتزل رسالة للسلطان عبد الحميد بتاريخ 1896/8/25 م عرض فيها دفع مبلغ عشرين مليون جنيه إسترليني ضريبة

---

(1) المصدر نفسه، ص. 66. وثيقة رقم 28.

(9049/1)

يدفعها اليهود الذين سيقيمون بفلسطين للسلطان العثماني، تكون في السنة الأولى مئة ألف جنيه وتزداد إلى مليون جنيه سنوياً، ويزداد دفع الضريبة على مقدار ازدياد الهجرة اليهودية التدريجية إلى فلسطين غير المحدودة ثم يعطى المهاجرون الاستقلال الذاتي(1).

وعندما زار القيصر الألماني فلسطين، وكان صديقاً للسلطان، تقدم هرتزل لمقابلة القيصر وألقى خطاباً أمامه في 1898/11/2 م، يستشف منه أن يتدخل القيصر لإقناع السلطان العثماني بإعطاء فلسطين وطناً قومياً لليهود. قال هرتزل:

---

(1) المصدر نفسه، ص. 69. وثيقة رقم 30.

(9050/1)

... نحن نطلب من جلالتكم مساعدتكم السامية من أجل المشروع في "إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين"، ولكنا ما كنا نقدم على مثل هذا الطلب لو كان في خطتنا أدنى أذيّة أو تعد على حاكم هذا البلد (السلطان عبد الحميد)... نحن نخطط لقيام شركة يهودية لأراضي سوريا وفلسطين والتي ستحمل على عاتقها مهمة القيام بهذا المشروع (الوطن القومي) ونطلب لها أن تكون تحت حماية القيصر الألماني... (1).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 106. وثيقة رقم 43.

(9051/1)

... كان هرتزل قد قابل القيصر الألماني غليوم قبل هذه المرة مرتين سابقتين: الأولى في إستامبول في 1898/10/18 م، والثانية في فلسطين في 1898/10/29 م. وفي كل مرة كان هرتزل يضرب على وتر الحماية الألمانية للوطن القومي اليهودي الذي يخطط له. وذكر أن الاستعمار الصهيوني في فلسطين برعاية ألمانيا وحمايتها سيفتح الطرق البري لآسيا من البحر المتوسط إلى الخليج الفارسي. بعد أن تيقن هرتزل أن هذه المساعي في إقناع القيصر الألماني لم تثمر، ركز

جهوده على كسب تأييد بريطانيا التي عرضت عليه استعمار أوغنده عام 1903 م(1)

---

(1) إميل توما، جذور القضية الفلسطينية، ص. 59.

(9052/1)

.

... بعد هذه الرسائل المرسلة للسلطان عبد الحميد الثاني، وبعد هذه الوساطات الأوروبية والتركية والألمانية ورفض السلطان عبد الحميد التنازل عن فلسطين، قرر هرتزل مقابلة السلطان لإقناعه. وقد كتب هرتزل في مذكراته عن مقابلته للسلطان عبد الحميد الثاني في 1901/5/18 م أنه بحث مع السلطان مسألة الديون العثمانية بأنها شوكة في حلق السلطان وعلى اليهود مساعدته، فرفض السلطان عبد الحميد العرض. وفي أثناء اجتماع هرتزل مع السلطان عبد الحميد عام 1901 م لأول مرة، طلب منه هرتزل فتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين بدلاً

(9053/1)

من أوروبا والعمل على إنشاء حكومة يهودية تابعة للسلطان العثماني. ولكن السلطان رفض هذا الطلب بشدة أيضاً وأصدر قانوناً يقضي بمنع اليهود المهاجرين من الإقامة في فلسطين أكثر من ثلاثة أشهر(1).

... وقد منحت الدولة العثمانية المهاجرين اليهود بطاقات حمراء ليسهل عليها مراقبتهم وطردهم من البلاد لو مكثوا فيها أكثر من ثلاثة أشهر، على أن يتم ترحيل اليهودي عن طريق القنصلية ذات العلاقة التي ينتمي إليها، وكانت البطاقة التي يحملها اليهودي من

---

(1) ناجي علوش، المقاومة العربية في فلسطين (1917 ـ 1948 م)، ص. 37.

(9054/1)

السلطات التركية مكتوب عليها الجنسية والمهنة وسبب الرحلة لفلسطين(1).

... ويعزو لوثر (السفير البريطاني في الأستانة) أن سبب تشدد عبد الحميد في رفض الهجرة الصهيونية لفلسطين هو الصدر الأعظم كامل باشا (1886 ـ 1891 م)، لأنه شرح للسلطان النتائج الخطيرة لمثل هذه السياسة على الدولة العثمانية. ولم يستطع هرتزل الذي قابل

السلطان مرتين بواسطة الأستاذ Armenius Vambery

أن يقنع السلطان عبد الحميد بالتخلي عن معارضته(2)

---

(1) خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908 ـ 1918 م، ص. 24.

(2) المصدر نفسه، ص. 42.

(9055/1)

.

... ثم بعث هرتزل رسالة أخرى للسلطان في 1901/6/17 م طلب فيها تأسيس شركة يهودية في الدولة العثمانية تدعى الشركة العثمانية اليهودية يبلغ رأسمالها خمسة ملايين جنيه تركي هدفها تنمية الزراعة والصناعة والتجارة في آسيا الصغرى وفلسطين وسوريا، وأن تقوم هذه الشركة بدفع ستين ألف جنيه سنوياً للدولة العثمانية مقابل الامتيازات التي يمنحها السلطان للشركة بالإقامة، وذكر هرتزل في رسالته قائلاً للسلطان العثماني:

... إن خدماتي الخالية من أية مصلحة في هذه المشروعات هي تحت تصرف جلالتكم حتى وإن كنتم لا تعتقدون أن

(9056/1)

من المناسب البدء الآن ... لا أسأل في عملي لجلالتكم إلا شرف استعادة ثقة جلالتكم فيّ ... سيكون لمشروع الشركة "العثمانية ـ اليهودية" فائدة أخرى وهي أن دافعي الضرائب بشراً وممتلكات سيزدادون في كل المناطق التي ستعمل الشركة فيها، وستدفع الشركة المزيد من الضرائب بنمو عملها. وسيتدفق رأس المال اليهودي من كل زاوية ليوطد نفسه هناك وليبقى في الإمبراطورية (1).

(1) علي محمد علي، ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية، ص. 121. وثيقة رقم 48.

(9057/1)

... إن كل هذه الإغراءات المادية من هرتزل لسداد ديوان الدولة العثمانية قد رفضها السلطان عبد الحميد الثاني. وقد بلغت الديون على الدولة العثمانية حوالي 85 مليون جنيه إسترليني كان قد استدانها السلاطين العثمانيون السابقون من الدول الأوروبية بفوائد عالية. حاول هرتزل الحصول على فلسطين من السلطان عبد الحميد بعدة طرق، منها: أولاً، الإغراءات المادية،

وذلك بسداد ديون الدولة العثمانية؛ وثانياً، إنشاء شركة يهودية عثمانية؛ وثالثاً، الوساطات الأوروبية والتركية لدى السلطان لإقناعه. وقد فشل فيها هرتزل كلها. ثم

(9058/1)

قرر هرتزل أخيراً الحصول على فلسطين عن طريق إنشاء جامعة عبرية في القدس، حيث قدم هرتزل اقتراحاً بهذا المشروع للسلطان العثماني في 1902/5/3 م قال فيه : "إننا معشر اليهود نلعب دوراً هاماً في الحياة الجامعية في جميع أنحاء العالم، والأساتذة اليهود يملأون جامعات البلدان... إننا نستطيع أن نقيم جامعة يهودية في إمبراطوريتكم ولتكن في القدس مثلاً. عندها لن يضطر الطلاب العثمانيون الذهاب إلى الخارج"...(1). ولقي مشروعه هذا الرفض من السلطان أيضاً.

---

(1) المصدر نفسه، ص. 128. وثيقة رقم 50.

(9059/1)

... كان السلطان عبد الحميد الثاني يتصدى للمخططات الصهيونية التي تريد ابتلاع فلسطين والقدس خاصة. لذا أصدر قوانين وتشريعات لمنع هذه المخططات. ومن أهم خطواته ربط سنجق القدس مباشرة بالصدر الأعظم في إستنبول حتى يشرف بنفسه على منع تغلغل النفوذ الاستعماري والصهيوني في فلسطين عامة والقدس خاصة. وأشار هوجارت ـ وهو أحد البريطانيين المتخصصين في أمور الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الأولى ـ إلى أن الاستيطان هو الذي دفع السلطان عبد الحميد عام 1887 م إلى جعل القدس سنجقاً مستقلاً عن ولاية دمشق ومتصرفيَّة لها

(9060/1)

اتصال مباشر بالصدر الأعظم(1). وكانت متصرفيّة القدس تضم أقضية القدس ويافا وغزة والخليل وبئر السبع، وذلك حسب التقسيمات الإدارية العثمانية.

... وعندما علم السلطان أن سيل الهجرة الصهيونية من روسيا قد يتدفق إلى فلسطين بسبب ما جرى ضد اليهود من قبل الحكومة القيصرية أرسل في 1882/6/29 م رسالة إلى متصرف القدس طلب فيها منع اليهود الذين يحملون الجنسيات الروسية والرومانية والبلغارية من

الدخول إلى القدس، وكانت

---

(1) خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني وصداه (1908 - 1918 م)، م. ت. ف.، مركز الأبحاث، بيروت، ص. 24.

(1/9061)

قوانين عام 1882 م التي أصدرها السلطان لا تسمح لليهود بدخول فلسطين إلا في حالة واحدة وهي الحج ولمدة ثلاثة أشهر، على أن يحجز جواز سفر الزائر ويودع في مركز البوليس التركي حيث يستبدله مؤقتاً بـ"الجواز الأحمر"؛ ولكن ظلت تلك الأوامر حبراً على ورق، لأن اليهود استطاعوا خرقها "بفضل البخشيش" (1).

... كان السلطان على معرفة بفساد الإدارة الحكومية وانتشار الرشوة والمحسوبية عند كبار الموظفين، لذلك كان يحرص على تعيين موظفين أكفاء مخلصين على

---

(1) حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ص. 97.

(1/9062)

سنجق القدس حتى لا يقعوا فريسة إغراءات قناصل الدول الأجنبية واليهود. ومن هؤلاء الموظفين رءوف باشا الذي كان متصرفاً للقدس بين عام 1876 وعام 1888 م. لكن سعى سفير الولايات المتحدة الأميركية (أوسكار شتراوس) اليهودي الأصل إلى طرد رءوف من منصبه، وذلك بالضغط على السلطات التركية، ووافقت السلطة التركية على استبدال هذا الوالي بوالٍ آخر أقل عداءً للصهيونية، لأن مواقف وأعمال رءوف باشا أدت إلى تجميد النشاط الصهيوني في متصرفية القدس خلال فترة ولايته(1).

---

(1) صبري جريس، تاريخ الصهيونية، ج 1، ص. 110.

(9063/1)

... وفي عام 1890 م قدم وجهاء القدس عريضة احتجاج للصدر الأعظم ضد رشاد باشا متصرف القدس الجديد الذي أبدى محاباة وتحيزاً للصهاينة، بخلاف سلفه رءوف باشا؛ وكذلك قدموا عريضة أخرى عام 1891 م طالبوا فيها بإصدار فرمان سلطاني يمنع هجرة اليهود إلى فلسطين، لأنهم لاحظوا بداية النشاط الصهيوني لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين(1). لذا أصدر السلطان فرماناً عام

1900 م جدد فيه إقامة

---

(1) إسماعيل أحمد ياغي، "موقف عرب فلسطين من الهجرة اليهودية والصهيونية"، بحث مقدم إلى المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، ص. 5.

(9064/1)

اليهود الزائرين لفلسطين بمدة لا تتجاوز ثلاثة أشهر. فاحتج الصهاينة وطلبوا من الدول الأوروبية الاحتجاج على هذا القانون، فاحتجت إيطاليا وأمريكا وبريطانيا. وكان رد الصدر الأعظم أن ذلك الفرمان ليس جديداً، بل هو تجديد لفرمان صدر منذ عشرين عاماً. ولكي يخفف السلطان من حدة هذه الاحتجاجات، وافق على مقابلة هرتزل عام 1901 م(1).

---

(1) حسن صبري الخولي، سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، ص. 7.

(9065/1)

... وفي عام 1898 م أصدر السلطان عبد الحميد قوانين جديدة منع فيها اليهود من دخول القدس. وقد بلغ من تشدد السلطات العثمانية في تنفيذ هذه القوانين أنها منعت القنصل البريطاني في أنطاكيا من الدخول ما لم يقدم التعهد المطلوب باعتباره يهودياً، ذلك التعهد الذي يقضي بأن يغادر البلاد خلال المدة التي حددها القانون.

... وبالرغم من هذه الإجراءات العثمانية المشددة للحفاظ على فلسطين، استطاع اليهود الصهاينة التسلل إلى فلسطين بمساعدة بعض القناصل الأوربيين في فلسطين، وقبول بعض الموظفين العثمانيين الرشاوي. لكن

(9066/1)

أعيان القدس طالبوا الصدر الأعظم باتخاذ إجراءات فعالة وكفيلة بمنع تدفق اليهود إلى فلسطين وشرائهم الأراضي.

... علم هرتزل أنه من المستحيل إقناع السلطان عبد الحميد أو شراء ذمّته بالمال؛ لذلك دبر الصهاينة مؤامرة لخلعه أو زج تركيا في حرب عالمية(1). وبما أن تركيا ضعيفة، فهي لابد من أن تخسر الحرب. وهذا ما حصل فعلاً

فيما بعد. ومن الغرابة أنه أثناء خلع السلطان عبد الحميد عام 1908 م والثورة عليه، جاء موظف عثماني يهودي كان يعرفه السلطان وسلمه رسالة

---

(1) جريدة فلسطين، عدد رقم 408 ـ 41، بتاريخ 1921/8/24 م.

(9067/1)

الخلع عن الحكم. وكان هذا اليهودي مندوباً عن حركة "تركيا الفتاة"، فاستغرب السلطان عبد الحميد لهذه المكيدة المدبرة(1). لقد التقت مصلحة اليهود مع مصلحة "تركيا الفتاة" للإحاطة بالسلطان عبد الحميد وأوضحت رسائل السفارة البريطانية في الأستانة إلى الخارجية البريطانية عن الدور الذي لعبه اليهود وجماعة يهود الدونمة في مجالس "تركيا الفتاة" في مدينة سالونيك ويقول لوثر (السفير البريطاني) في تركيا أن عمانويل (قره صو) المحامي

---

(1) مذكرات السلطان عبد الحميد السياسية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1979 م، ص. 34.

(9068/1)

الماسوني اليهودي من سالونيك كان قد أسس محفلاً فيها له صلة بالماسونية الإيطالية. وأضاف لوثر أن قره صو، النائب اليهودي في سالونيك، قد أظهر حماساً شديداً في تأييد التقدم نحو العاصمة لخلع السلطان، وأن قائد الفرق الأربع المتجهة إلى العاصمة من سالونيك هو الكولونيل رمزي بيه الذي عين رئيساً لمعاوني السلطان محمد الخامس (محمد رشاد) وأن قره صو هو أحد أعضاء الوفد الذي أبلغ عبد الحميد بقرار خلعه في 1909/4/24 م(1). وبعد أن رضخ عبد الحميد لقرار خلعه عن العرش، أشار

(1) خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني، ص. 43.

إلى قره صو وقال بغضب: "..... ما هو عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة ... بأي قصد جئتم بهذا الرجل أمامي ...؟ " (1).

... وكان السلطان عبد الحميد يعلم أهداف اليهود من محاولة تملك فلسطين. وقد قام عدد من الفلسطينيين والعرب في البرلمان العثماني بشرح خطورة الحركة

الصهيونية وأهدافها للسلطان العثماني. وقد كتب السلطان في مذكراته عن خطر اليهود قائلاً:

... لدينا عدد كاف من اليهود. فإذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربي متفوقاً (في فلسطين)، علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين المهاجرين في

---

(1) المصدر نفسه، ص. 44.

(9070/1)

فلسطين؛ وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضاً، تملكوا كافة قدراتها خلال وقت قصير. وبذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم (1).

بعد إعلان الدستور العثماني عام 1908 م وإعطاء الحرية السياسية للأجانب، نشط الصهاينة في السيطرة على الصحافة في تركيا. فوصل الأستانة د. فيكتور جاكبسون (صهيوني روسي)، وأشرف على الدعاية في الأستانة، أو ما سموه حملة "تنوير سياسية منظمة". وجاء جابوتنسكي ممثلاً للصحيفة الروسية الصهيونية وأوكلت إليه مهمة

---

(1) مذكرات السلطان عبد الحميد السياسية، مؤسسة الرسالة، ص. 34.

(9071/1)

الإشراف على شبكة من الصحافة تديرها الصهيونية(1). وهذه الصحف كثيرة وبلغات أجنبية وتركية ولا داعي لتعدادها.

... نتيجة للمواقف الصلبة للسلطان عبد الحميد ضد مخططات الاستعمار والصهيونية، أصبح من المؤكد لدى زعماء الدول الاستعمارية أنه لا مجال لتنفيذ المشروع الصهيوني وتهويد فلسطين ما دام السلطان على العرش.

... لقد ضحى السلطان عبد الحميد بعرشه من أجل فلسطين. والذي يؤكد ذلك وثيقة تاريخية بخط السلطان تبين سبب خلعه، وهي رسالة وجهها بعد خلعه إلى شيخه في الطريقة

---

(1) خيرية قاسمية، المصدر السابق، ص. 50.

(9072/1)

الشاذلية الشيخ محمود أبي الشامات شيخ الطريقة الشاذلية في دمشق. وقد نشر هذه الرسالة الأستاذ سعيد الأفغاني الدمشقي في مجلة "العربي" الكويتية في عددها الصادر كانون أول عام 1972 م ضمن مقالة بعنوان "سبب خلع السلطان عبد الحميد"، جاء فيها:

... إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما، سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم "جون تورك" وتهديدهم، اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة. إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا علي بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة فلسطين. ورغم إصرارهم،

(9073/1)

فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيراً وعدوا بتقديم 150 مليون ليرة إنجليزية ذهباً فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتي: "إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً فضلاً عن 150 ليرة ذهباً، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي. لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة، فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين. لهذا لن أقبل

تكليفكم بوجه قطعي أيضاً. وبعد جوابي القطعي، اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيعيدونني إلى سلانيك فقبلت

بهذا التكليف الأخير" (1).

وبعد خلع السلطان عبد الحميد ازداد النشاط الصهيوني المنظم على شتى المستويات، وكانت فرحتهم ظاهرة بسبب خلع السلطان عبد الحميد. فقد كتب الصهيوني الأمريكي ريتشارد غوتهايل - رئيس الفرع الأمريكي للمنظمة الصهيونية قائلاً: "ما من أحد يخفق قلبه فرحاً وابتهاجاً مثلما يخفق قلب الصهيونيين على انقلاب تركيا الفتاة" (2).

---

(1) السلطان عبد الحميد الثاني: مذكراتي السياسية، ص. 35.

(2) رفيق شاكر النتشه، السلطان عبد الحميد وفلسطين، ص. 184.

... بعد أن فشل هرتزل في إقناع السلطان عبد الحميد، وبعد أن فشل في إقناع القيصر الألماني، اتجه إلى بريطانيا. فبدأت مفاوضات بين هرتزل وجوزيف تشمبرلين (سكرتير وزير المستعمرات البريطانية) بشأن استيطان اليهود في عدد من الأقطار، فقدم هرتزل في 1902/10/22 م مشروعاً لاستعمار جزيرة قبرص وشبه جزيرة سينا حتى العريش. لكن تشمبرلين استبعد مشروع جزيرة قبرص بسبب رفض اليونانيين المسلمين في الجزيرة. وأبدى تشمبرلين نظرة إيجابية نحو سينا، وعرف هذا بمشروع العريش(1). وقد

(1) إميل توما، جذور القضية الفلسطينية، ص. 54.

(9076/1)

طلب تشمبرلين من هرتزل أن يتكلم مع لاندسون في وزارة الخارجية ويبحث معه مشروع العريش، وعندئذ بعث هرتزل إلى لاندسون مذكرة بتاريخ 1902/10/24 م ذكر فيها أهمية المنطقة واستفادة بريطانيا مع تجمع اليهود في سينا. فقال في مذكرته: "... هناك حوالي عشرة ملايين يهودي في العالم لا يستطيعون في

جميع البلدان أن ينتموا إلى إنجلترا علناً إنما سينتمون إليها بقلوبهم إذا هي قامت بعمل مثل هذا فأصبحت حامية للشعب اليهودي..."(1).

---

(1) علي محمد علي، ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية، ص. 133. وثيقة رقم 52.

(9077/1)

... ولكن اللورد كرومر المندوب السامي البريطاني في مصر رفض اقتراح هرتزل بالاستيطان في سينا، ففشل المشروع. ثم اقترح تشمبرلن منح أوغندا في كينيا للاستعمار الصهيوني، واقتنع هرتزل بهذا العرض الإنجليزي. وبحث هرتزل هذا الاقتراح في المؤتمر الصهيوني السادس الذي عقد أيضاً في بال في الفترة ما بين 23 و28 آب عام 1903 م. ونجح هرتزل في أخذ موافقة أكثرية المندوبين على قبول العرض وإقامة "فلسطين جديدة" في أوغندا.

... لكن مشروع أوغندا فشل أيضاً لأكثر من سبب، منها: معارضة المستوطنين الإنجليز في أوغندا لأي استيطان

(9078/1)

يهودي يهدد مواقعهم، ومعارضة قسم من الصهيونية اختيار أوغندا اعتقاداً منهم أنها لن تحرك عواطف اليهود كما تحركها فلسطين التي ترتبط حسب اعتقادهم بتقاليدهم وطقوسهم الدينية، ومنها أن المؤتمر السابع الذي عقد في بال في 1905/7/27 م رفض مشروع أوغندا.

... عقد المؤتمر السابع الصهيوني بعد وفاة هرتزل - زعيم الحركة الصهيونية - عام 1904 م. وفي هذا المؤتمر السابع انشق الصهاينة إلى قسمين: قسم منهم أراد العودة إلى البرنامج الصهيوني الأصلي وهو استعمار فلسطين، وقسم منهم أراد استيطان اليهود في أي جزء ملائم من

(9079/1)

العالم، وتزعم هذا الفريق إسرائيل زانغويل من كبار الصهيونيين البريطانيين الذي شكّل "الاتحاد الإقليمي اليهودي"(1). لقد وضع زانغويل معادلة لتنفيذ المشروع الصهيوني، فقال: يجب أن تكون إسرائيل "نظيفة كلياً من السكان العرب، وإما لا إسرائيل" (2).

... وقد قرر المؤتمر السابع الصهيوني التخلي عن فكرة استعمار أوغندا والتمسك بفلسطين. وبالرغم من هذا القرار، فإن الهجرة اليهودية استمرت

---

(1) أميل توما، جذور القضية الفلسطينية، ص. 61.

(2) استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة، منشورات الطلائع، ص. 90.

(9080/1)

إلى أمريكا وفلسطين. لكن اليهود في فلسطين رفضوا استقبال الصهاينة القادمين من أوروبا، وأيدوا مشروع استيطان أوغندا ورفضوا استيطان فلسطين، حتى إن يهود فلسطين شكوا إلى السلطات التركية من قدوم المستوطنين من أوروبا(1). وكان سبب تأييد يهود فلسطين لمشروع أوغندا يكمن في كونهم ينظرون بارتياب وازدراء للصهيونية السياسية، ويخشون أن يؤدي تدفق المهاجرين اليهود بأعداد كبيرة إلى تهديد علاقات حسن الجوار مع العرب. وكان وايزمن يصنف يهود فلسطين ضمن فئة "عديمي الجدوى والفائدة"(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 78.

(2) المصدر نفسه، ص. 80.

(9081/1)

.

... حل وايزمن محل هرتزل في زعامته الصهيونية(1) بسبب وفاة الأخير، وكان وايزمن صديقاً لبلفور صاحب الوعد المشؤوم الذي صدر عام 1917 م. وقد أنشأ مكتباً تنفيذياً للحركة الصهيونية في لندن لكسب تأييد الحكومة البريطانية.

... أقر المؤتمر الصهيوني الثامن استئناف النشاط الصهيوني العملي في فلسطين، وقامت شخصيات صهيونية بزيارات استطلاعية إلى فلسطين لدراسة إمكاناتها، بدأها وايزمن بحجة إنشاء مشاريع صناعية في

---

(1) كانت المنظمة الصهيونية قد قام بإدارتها بعد وفاة هرتزل لجنة مركزية برئاسة ولفسون صديق هرتزل.

(9082/1)

فلسطين، واستغرقت رحلته ثلاثة أسابيع، توصل إلى انطباع أثناء مشاهداته أن الصهاينة في فلسطين يعتمدون على مساعدات خارجية وأن أبناءهم يتركون المستوطنات ويذهبون إلى المدن أو يعودون من حيث أتوا من أوروبا. والتقى وايزمن أثناء وجوده في فلسطين بآرثر روبن (الألماني الروسي) الذي جاء لفلسطين عام 1907 م مكلفاً من المؤتمر الصهيوني، وتوصل إلى انطباع كما توصل وايزمن من هجرة الصهاينة من الريف للمدينة. وقد عينت اللجنة التنفيذية الصهيونية آرثر روبين بتولي منصب ممثل المنظمة الصهيونية في فلسطين مديراً للدائرة التي

(9083/1)

عرفت باسم "مكتب فلسطين"، ومقره في يافا، ومهمته تقديم معلومات عن فلسطين والإشراف على النشاط العملي فيها تساعده شركة تطوير أراضي فلسطين (Palestine Development Company1) ().

... كانت الأهداف والغايات الصهيونية واضحة، وهي تهجير أكبر عدد ممكن من اليهود المضطهدين في

الدول الأوروبية إلى فلسطين للعمل بالزراعة والصناعة، واعتقد الصهاينة أن الدولة العثمانية ترغب في إعمار البلاد وأن الدول الأوروبية لا تمنع فقراء اليهود من ترك بلادهم والانتقال إلى البلاد

---

(1) خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني ص. 27، هامش 79.

(9084/1)

الشرقية، وخطط الصهاينة لأن يشكلوا وطناً قومياً يهودياً في فلسطين بعد أن يكثر العنصر اليهودي فيها.

من أهم المؤسسات التي أنشأتها المنظمة الصهيونية من أجل تحقيق أهدافها ما يلي:

... 1 . البنك الاستيطاني اليهودي ((The Jewish Colonial Trust برأس مال قدره مليونا جنيه إسترليني. وهو شركة مسجلة في لندن عام 1899 م من أجل تطوير فلسطين والبلاد المجاورة صناعياً وتجارياً.

... 2 . بنك أنجلو فلسطين Anglo Palestine Bank))، وهو فرع للبنك الأول. وله فروع في يافا والقدس وحيفا وصفد وبيروت والخليل وطبريه وغزة. وهو

(9085/1)

شركة مسجلة برأس مال قدره 100,000 جنيه تأسس عام 1903 م، هدفه منح القروض للأغراض الصناعية والتجارية.

... 3 ـ الصندوق القومي اليهودي Jewish National Fund))، ويعمل تحت منظمة البنك الأول. ويطلق عليه بالعبرية "كيرين كايمت". وهو شركة إنجليزية برأس مال قدره 300,000 جنيه إسترليني. هدفه جمع الأموال بشتى الطرق للحصول على أرض في فلسطين للشعب اليهودي. تأسس عام 1907 م واشترى حتى نهاية الانتداب 758,000 دونمٍ(1).

---

(1) حبيب قهوجي، استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة، ص. 129.

(9086/1)

... 4 ـ شركة تطوير الأراضي (Palestine Land Development)، وهي شركة إنجليزية سجلت في عام 1909 م في لندن برأس مال قدره 17,500 جنيه

إسترليني هدفها الحصول على الأراضي للصندوق القومي اليهودي وشركات الاستيطان وبيعها للمستوطنين في المستقبل.

الخاتمة

... لقد وضعت الحكومة العثمانية صعوبات أمام المنظمة الصهيونية في الحصول على صفقات بيع الأراضي:

فالسلطة العثمانية زمن السلطان عبد الحميد هي التي وقفت ضد شراء الأراضي. أما بعد عام 1908 م، فالعرب وقفوا بشكل فردي ضد الصهاينة ومشاريعهم. وبالرغم من ذلك، فقد استطاع

(9087/1)

الصهاينة بأساليب عدة الحصول على الأراضي وإنشاء المستوطنات، حتى أنه حين انتهت الحرب العالمية الأولى عام 1918 م كان في فلسطين 40 مستوطنة معظمها في الجليل ومرج بن عامر وسهل سارونة، بلغ عدد سكانها حوالي 12,000 نسمة وتملك 400,000 دونم وهي من أحسن أراضي فلسطين(1). واعترفت المنظمة الصهيونية والقنصل البريطاني في القدس بالمعارضة العربية للاستيطان اليهودي في فلسطين وحوادث الاشتباكات

بين العرب والمستوطنين خاصة في يافا وطبريا وحيفا،

---

(1) كاميليا بدر، نظرة على الأحزاب والحركات السياسية الإسرائيلية، ص. 58.

(9088/1)

وكذلك اعترفت المنظمة الصهيونية بشعور الاستيلاء والهياج لدى المستوطنين واتهمت الجريدة اليهودية "جويش كرونيكل" السلطات المحلية بعجزها عن إعادة الأمن إلى المنطقة. كما أن الجرائد العربية التي صدرت في فلسطين أواخر عام 1908 م قد نبهت إلى الخطر الصهيوني(1).

المصادر والمراجع

---

(1) الجرائد العربية التي صدرت في فلسطين أواخر عام 1908 م هي: "الأصمعي" في يافا لصاحبها حنا عبد الله عيسى، و"القدس" لصاحبها جرجي حنانيا، و"الكرمل" في حيفا لصاحبها نجيب نصار.

(9089/1)

الحوت، بيان، فلسطين. القضية، الشعب، الحضارة، دار الاستقلال، بيروت، 1991.

أرشيف وزارة الخارجية البريطانية.

أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية.

السفري، عيسى، فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، يافا، 1937.

الشريف، ريجينا، الصهيونية غير اليهودية. جذورها في التاريخ، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1985.

النتشة، رفيق شاكر، السلطان عبد الحميد وفلسطين.

التل، عبد الله، خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية، دار القلم، 1964.

(9090/1)

بدر، كاميليا، نظرة على الأحزاب والحركات السياسية الإسرائيلية، ط 3، جمعية الدراسات العربية، القدس، 1985.

توما، إميل، جذور القضية الفلسطينية، المكتبة الشعبية، الناصرة.

جبارة، تيسير، تاريخ فلسطين الحديث، ط 2، البيادر، القدس، 1986.

حلاق، حسان، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية.

دروزة، محمد عزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، بيروت، 1959.

عبد الناصر، جمال، هذه هي الصهيونية.

علي، علي محمد، ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية، ج 1، مركز دراسات الشرق الأوسط

(9091/1)

علوش، ناجي، المقاومة العربية في فلسطين (1917 ـ 1948 م)، بيروت، 1967

مذكرات السلطان عبد الحميد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1979

منشورات الطلائع، بالتعاون مع مؤسسة الأراضي للدراسات الفلسطينية بإشراف حبيب قهوجي، استراتيجية الاستيطان الصهيوني في فلسطين المحتلة، ط 1، 1978.

قاسمية خيرية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه (1908 ـ 1918 م)، م. ت. ف.، مركز الأبحاث، بيروت، 1973.

يا غي، إسماعيل أحمد، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية.

(9092/1)

دور الدين في التوجه السياسي للدولة العثمانية

... ... الدكتور عبد المنعم إبراهيم الجميعي
أستاذ التاريخ الحديث بكلية التربية بجامعة القاهرة - فرع الفيوم

... اتخذت الدولة العثمانية من الدين الإسلامي غطاء لتوجهاتها السياسية لدرجة يمكن معها القول إن تاريخ آل عثمان، بما فيه من حسنات وسيئات، يعد في الواقع إحدى الحلقات الهامة من تاريخ المسلمين. ونظراً لأن الوطنية حتى بدايات القرن الماضي كانت مرتبطة بالدين، فلم ينظر العرب إلى الدولة العثمانية في ذلك الوقت على أنها دولة مغتصبة أو مستعمرة لبلادهم كما

(9093/1)

يتردد ذلك لدى بعض الباحثين في الوقت الحالي، خاصة وأن العاطفة الدينية الإسلامية كانت أكثر تأثيراً في نفوس رعايا الدولة من العاطفة القومية. وبهذه الواجهة الشرعية فرض الأتراك أنفسهم على العرب، واعتبرهم العرب أصحاب أياد بيضاء في رفع شأن الإسلام في أوربا ونشره في العديد من البلدان لدرجة أن الأفراح والزينات كانت تقام في العديد من العواصم الإسلامية عقب كل انتصار يحرزه العثمانيون. وكان المسلمون في شتى البلدان يعتبرون السلطان العثماني خليفة رسول الله(1)

---

(1) حول انتقال الخلافة إلى عثمان، انظر: محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي (1514 ـ 1914)، ص. 12.

والأب الروحي للمسلمين الذي يجب عليهم طاعته، ويرون المحافظة على الدولة العثمانية ثالث العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله. ونتيجة لذلك، أطلق السكان العرب على القوات العثمانية المرابطة في بلادهم اسم الحامية العثمانية ولم يطلقوا عليها جيش الاحتلال

العثماني؛ كما أن أحد المفكرين المسلمين وهو الشيخ محمد عبده وصفها بأنها الحافظة لسلطان الدين، وأن المحافظة عليها يعد ثالث العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله(1).

---

(1) محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ج 1، ص. 909.

(1/9095)

... وفي ظل هذا الشعور، وجهت الدولة العثمانية سياستها. فنظر العثمانيون إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شيء، لدرجة أن قال عنهم المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرتي إنهم اهتموا »بإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية، وتعظيم العلماء وأهل الدين، وخدمة الحرمين الشريفين، والتمسك في الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع«(1).

... وإلى جانب ذلك، نظرت أوربا إلى توسعاتهم على أنها فتوح إسلامية(2)

---

(1) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج 1، ص. 21.

(2) **للتفاصيل، انظر:** Bernard Lewis, The Emergence of Modern Turkey, London, 1968.

(1/9096)

. وحتى تتضح الصورة، ينبغي أن نقسم أدوار الحكم العثماني إلى مرحلتين أساسيتين: مرحلة القوة وهي المرحلة التي شيد فيها العثمانيون دولتهم في ظل روح الجهاد الديني التي كانت غالبة عليهم والتي مكنتهم من فرض سيطرتهم على مناطق كبيرة في آسيا وأوربا وأفريقية؛ ومرحلة الضعف التي تميزت بالتخبط السياسي وبالهزائم العسكرية المتلاحقة والتي استمرت حتى سقوط الخلافة.

... أما في المرحلة الأولى، فقد كان ولاء الدولة العثمانية يتجه ناحية الدين الإسلامي شكلاً ومظهراً. فاهتم السلاطين بإضفاء الألقاب الدينية بجانب أسمائهم

(1/9097)

مثل لقب حامي حمى الحرمين الشريفين، ولقب خليفة، كما حرصوا على تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً صارماً(1)

وأخضعوا رعاياهم غير المسلمين لنظام الملل(2). وكان الدين والدولة عندهم أمراً واحداً، والقرآن والسنة هما المصدران الأصيلان لسياستهم، وكان الطابع الديني الإسلامي بمثابة السمة الواضحة في تشريعات الدولة وفتوحاتها. ويؤكد ذلك

---

(1) أكد ذلك "قانون نامه" الذي وضعه السلطان سليمان القانوني.

(2) نظام يقوم على تصنيف رعايا الدولة غير المسلمين تصنيفاً يقوم على أساس الدين، وكان يطلق على كل مذهب ديني »ملة«.

(1/9098)

"قانون نامـ"ه الذي وضعه السلطان سليمان القانوني، والذي التزم بمبادئ الشريعة الإسلامية، كما يؤكده ما كان للهيئة الإسلامية من مركز مرموق. فكان يطلق على رئيسها المفتي أو مفتي إستانبول، ثم أطلق عليه شيخ الإسلام. وكان المفتي يصدر فتوى تجيز الحرب التي خاضتها الدولة دفاعاً أو هجوماً وعقداً للصلح(1).

... ومن هنا فتح العثمانيون، باسم الإسلام، العديد من الأمصار التي لم تطأها قدم مسلم من قبل(2)

(1) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية، ج 1، ص. 74.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج 4، المجلد السادس، ص. 109.

(9099/1)

. فباسم الإسلام واصل عثمان مؤسس الدولة العثمانية جهوده في نشر الإسلام في مناطق الثغور، وواصل عمليات الجهاد الإسلامي المنظم ضد الكيانات المسيحية المجاورة له. وباسم الإسلام تمكن مراد الأول ثالث أمراء آل عثمان من دخول البلقان، وتحقيق العديد من الانتصارات التي توجت بفتح مدينة »أدرنة« سنة 1361 م(1)، وهزيمة القوى النصرانية ونقل العاصمة من بروسه إلى أدرنة التي عمرت بالمساجد والمدارس وأصبحت نقطة انطلاق لمواصلة الفتوحات الإسلامية في أوربا(2)

(1) أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، ج 2، ص. 187.

(2) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، صص. 48 ـ 50.

(9100/1)

.

... وباسم الإسلام، استولى الجيش العثماني على العديد من مدن شرق أوربا، ومن أبرزها صوفيا عاصمة بلغاريا التي تم الاستيلاء عليها في عام 787 هـ/ 1385 م(1).

... وباسم الإسلام، استمرت الفتوحات العثمانية في البلقان وتساقطت مدنها أمام ضربات العثمانيين، ووصل العثمانيون إلى المورة وأخضعوها لحكمهم وأصبحت معظم بلاد البلقان تحت الحكم العثماني(2).

---

(1) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون (1516 ـ 1916 م)، ص. 34.

(2) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، صص. 427 ـ 428.

(9101/1)

... وباسم الإسلام، فتح محمد الثاني القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية في عام 857 هـ/ 1453 م، مصداقاً للحديث الشريف: »لتفتحن القسطنطينية. فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش«(1). وهو ذلك الفتح الذي يعد نقطة تحول فاصلة ليس فقط في

تاريخ العثمانيين»(2)، بل في تايخ الصراع بين

---

(1) ورد في "مسند أحمد"، وفي "مستدرك الحاكم" (حديث صحيح)؛ وانظر أيضاً جلال الدين السيوطي، الجامع في أحاديث البشير النذير، المجلد الثاني، ص. 402، رقم 7227.

(2) سيد مصطفى، الإصلاح العثماني في القرن الثامن عشر، ص. 11.

(9102/1)

النصرانية والإسلام. فبعد هذا الفتح المبين، أمر محمد الفاتح أن يؤذن فيها، واتجه إلى القبلة وصلى؛ كما حول كاتدرائية آيا صوفيا إلى مسجد وأطلق على القسطنطينية اسماً إسلامياً جديداً هو إسلامبول(1)، بمعنى عاصمة الإسلام. وبنى محمد الفاتح مسجداً كبيراً يحمل اسمه، كما بنى عشرة مساجد أخرى(2)، ألحق بها مدارس للتعليم ومستشفيات

---

(1) حملت القسطنطينية على مر تاريخها أسماء عديدة منها استامبول واستانبول ودار السعادة ودار الخلافة والآستانة.

(2) ... منها مسجد »أبو أيوب الأنصاري«. (انظر: دليل الآستانة، ص. 3).

(9103/1)

للفقراء. ولم تتوقف جهود الفاتح على ذلك، بل استطاع القضاء على الإمارات المسيحية في الأناضول وتحويل آسيا الصغرى كلها إلى مناطق عثمانية.

... وباسم الإسلام، شرع هذا السلطان ينفذ مشروعاً خطيراً وهو الاستيلاء على روما مقر البابوية مقسماً على أن يقدم الطعام بيده إلى حصانه وهو واقف على مذبح الكنيسة البابوية في روما، مما أزعج العالم المسيحي كله الذي لم يتنفس الصعداء إلا بعد وفاة هذا القائد المسلم في عام 886 هـ/ 1481 م.

(9104/1)

... وباسم الإسلام، تعددت مظاهر الطابع الإسلامي في السياسة العامة للدولة العثمانية بدءاً بالمراسيم التي كانت تتخذ عند تقليد السلاطين العثمانيين عرش السلطنة، حيث كان السلطان الجديد يتسلم عرش

السلطنة في موكب رسمي يتجه إلى مسجد أبي أيوب الأنصاري، ويتسلم في جو ديني سيف الجد الأكبر للسلاطين العثمانيين السلطان عثمان الأول(1).

... وباسم الإسلام، تردد في القوانين العامة التي أصدرها السلاطين، وفي مراسيم التنظيمات العثمانية ما يؤكد حرص الدولة على الظهور

---

(1) كارل بروكلمان، الأتراك العثمانيون وحضارتهم.

(9105/1)

بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية والمتبني لأحكامها(1).

... وباسم الإسلام، استولى السلطان سليمان القانوني على بلجراد ورودس وبودابست ووصلت قواته إلى فيينا آخر نقطة وصل إليها العثمانيون في فتوحاتهم بأوربا(2).

... وباسم الإسلام، قدم السلطان العثماني بايزيد الثاني (1480 ـ 1511 م) المعاونة للسلطان المملوكي قانصوه الغوري بعد تحطيم أسطوله في موقعة ديو البحرية، فأمده بالأسلحة

---

(1) أحمد فهد الشوابكة، حركة الجامعة الإسلامية، ص. 14.

(2) أحمد محمود الساداتي، تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، ص. 255.

(9106/1)

والأخشاب اللازمة لبناء أسطول جديد، وتجهيز حملة أخرى لمواجهة البرتغاليين استنقاذاً للأماكن الإسلامية المقدسة(1)؛ كما انضم إلى الأسطول المملوكي بعض البحارة والضباط من الأسطول العثماني للوقوف معاً ضد البرتغاليين(2).

... وباسم الإسلام، أوقفت الدولة العثمانية المخطط الصليبي الذي كان يستهدف دخول البرتغاليين البحر الأحمر، والاستيلاء على جدة، والزحف

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 4، صص. 201 ـ 203.

(2) محمد عبد المنعم الراقد، الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي، صص. 123 ـ 125.

(9107/1)

على مكة المكرمة لهدم الكعبة المشرفة، ثم مواصلة الزحف منها على المدينة المنورة لنبش قبر الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومواصلة الزحف إلى تبوك وصولاً إلى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى وقبة الصخرة.

فقامت الدولة العثمانية بوضع خطة جديدة تمثلت في اتخاذ الموانئ اليمنية ـ خصوصاً عدن ـ خط دفاع لمهاجمة المراكز البرتغالية في الهند، والدفاع عن سواحل البحر الأحمر؛ كما استطاعت دحر الأسطول البرتغالي بالقرب من جدة عام 923 هـ، وتحطيم كل المحاولات التي بذلها البرتغاليون لتكوين جبهة مسيحية، وذلك بالتحالف مع

(9108/1)

الأحباش ضد القوى الإسلامية في البحر الأحمر وشرقي أفريقية(1).

... وباسم الإسلام، قامت الدولة العثمانية بتوحيد أقطار العالم الإسلامي في إطار سياسي واحد، وتأليف جبهة إسلامية واحدة بعد أن كانت كيانات متنافرة، وتكاد تكون متباعدة بين بعضها منذ أن تلاشت الوحدة

الإسلامية نتيجة ضعف الخلافة وسقوطها في عام 656 هـ على يد المغول(2)، وأصبحت رابطة الدين هي الرابطة الأساسية فيما بين البلاد العربية بمن جهة وبينها وبين الدولة

---

(1) الشناوي، المرجع السابق، ج 1، ص. 21.

(2) رأفت الشيخ، تاريخ العرب الحديث، ص. 31.

(9109/1)

العثمانية من جهة أخرى.

... وباسم الإسلام، اهتمت الدولة العثمانية بأمور الحجاز - وكان من أبرز مظاهر ذلك اهتمامها بالأماكن الإسلامية المقدسة - إذ به قبلة المسلمين، مهبط الرسالة ومنزل الوحي، وملتقى قلوب المسلمين. فقد أمر السلطان سليم الأول بوضع ثلث ما كان يجبى من مصر للإنفاق على خدمة الحرمين الشريفين؛ كما أضاف لهذه المهمة أيضاً خراج اليونان، مما جعل من بلاد الحجاز مركزاً دينياً مرموقاً؛ كذلك أولت الدولة العثمانية قوافل الحج والإشراف عليها، وتيسير الحج أمام الراغبين فيه، اهتماماً خاصاً: فاهتمت

(9110/1)

بالطرق، وحفرت الآبار بمحاذاة طرق الحج، وأقامت المخافر، وكانت تشرف على قواعد الحج الرئيسة التي كانت تخرج من كافة أنحاء الدولة في مواعيد محددة(1).

... وباسم الإسلام، تدخلت الدولة العثمانية لنجدة أهالي الخليج العربي الذين طلبوا منها المعاونة في عام 857 هـ/ 1550 م لمواجهة الخطر البرتغالي على بلادهم. فبعث السلطان سليمان القانوني بحملات منظمة من السويس إلى الخليج

---

(1) ... الصفصافي المرسي، »قوافل الحج في الدولة العثمانية«، قدسية الحرمين الشريفين، مركز البحوث والدراسات العربية الإسلامية، صص. 63 ـ 64.

(9111/1)

العربي لمعاونة إخوانه في الإسلام، وسار على نهجه بقية السلاطين من بني عثمان حتى عام 989 هـ/ 1581 م. واستطاعت هذه الحملات أن تنزل العديد من الهزائم بالبرتغاليين(1).

... وباسم الإسلام، وقفت الدولة العثمانية ضد الأطماع البرتغالية وحالت دون تحقيقها في أرض الإسلام، وذلك

بعد أن عجز المماليك وغيرهم من الوقوف أمام تهديدات البرتغاليين، خصوصاً بعد معركة ديو البحرية (1509 م). فقامت بإغلاق البحر الأحمر في وجه السفن النصرانية، ولم يسمح لها

---

(1) نوال الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، ص. 144 ـ 145.

(9112/1)

بتسيير سفنها في القسم الشمالي من البحر الأحمر، أو بالإبحار في هذا البحر فيما وراء ثغر المخا جنوبي الحديدة في اليمن. وكانت ذريعتها في ذلك أن أهم الأماكن الإسلامية في العالم على الإطلاق تقع في الحجاز، ويطل ساحل هذا الإقليم على البحر الأحمر؛ لذلك يجب ألا تبحر منه غير السفن الإسلامية(1). وظلت الدولة العثمانية متمسكة بذلك الموقف حتى أواخر القرن الثامن عشر(2). ومعنى ذلك أن الدولة العثمانية قدمت

---

(1) الشناوي، المرجع السابق، ج 4، ص. 698 ـ 699.

(2) محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي، ص. 128.

أعظم خدمة للإسلام، حيث وقفت في وجه الزحف الصليبي البرتغالي للبحر الأحمر والأماكن الإسلامية المقدسة، وكانت الملجأ للعالم الإسلامي وقت الملمّات.

... وباسم الإسلام، تقدم العثمانيون لمساعدة عرب شمالي أفريقية في الصراع الصليبي مع الإسبان والبرتغاليين الذين حاولوا احتلال هذه الأقاليم وتحويلها إلى المسيحية. فأعلن السلطان سليم الدعوة إلى الجهاد في شمالي أفريقية، وأمر بتكوين كتائب المجاهدين(1) حتى استقرت الأمور للإسلام والمسلمين هناك

---

(1) عبد الكريم رافق، المرجع السابق، ص. 76 ـ 77.

... وباسم الإسلام، ساندت الدولة العثمانية أهالي طرابلس في مقاومة الخطر الصليبي على بلادهم، بعد أن أرسلوا إلى السلطان سليمان القانوني يلتمسون منه التدخل لإنقاذهم لتحرير بلادهم من الإسبان الذين

استولوا عليها(1) وفرسان القديس يوحنا الذين استهدفوا تغيير الوجه الإسلامي لبلادهم. وقد أرسل السلطان سليمان قواته للمحافظة على هذه البلاد العربية الإسلامية(2)

---

(1) الشناوي، المرجع السابق، ج 2، صص. 928 ـ 929.

(2) ... ناصر سعيدوني، »طبيعة الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر«، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس والعشرون، 1978 صص. 149 ـ 150.

(9115/1)

حتى استقرت الأمور هناك.

... وباسم الإسلام، قام العثمانيون بملاحقة فرسان القديس يوحنا وطردهم من رودس(1) ثم من ليبيا عام 1551 م، وكذلك قاموا بكسر شوكة الإسبان في حوض البحر المتوسط الغربي(2).

... وباسم الإسلام، وقفت الدولة العثمانية أمام زحف الصفويين الشيعة الذين تمكنوا من الاستيلاء على العراق، ونشر المذهب الشيعي في الأناضول، وراحوا يحملون الناس قسراً على الدخول في مذهبهم، ولا

يترددون في إفناء مدن

---

(1) ول ديورانت، المرجع السابق، ج 4، م 6، ص. 127.

(2) رأفت الشيخ، المرجع السابق، صص. 32 ـ 33.

(9116/1)

باسرها، والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحداناً حين يرفضون الاستجابة لدعوتهم، ويتمسكون بالمذهب السُّنِّيّ(1).

... وكان من نتيجة ذلك قيام السلطان العثماني سليم الأول بغزو فارس والالتقاء مع الصفويين بوادي جالديران(2) في أواخر عام 920 هـ/ 1514 م في معركة رهيبة استطاع فيها العثمانيون هزيمة الصفويين في جالديران ودخول عاصمتهم تبريز(3) في 14 من رجب 920 هـ وضم ولايتي ديار

---

(1) أحمد الساداتي، المرجع السابق، ص. 152.

(2) يقع بين بحيرة أرمية وتبريز بآذربيجان.

(3) الشناوي، المرجع السابق، ج 2، ص. 964.

(9117/1)

بكر وكردستان إلى بلاده والاستيلاء على خزائن الشاه، والقضاء على المد الشيعي في الأناضول(1) والعمل على انحساره في العراق. وبذلك استطاع العثمانيون حماية المذهب السني من خطر الزحف الشيعي الذي كان الشاه إسماعيل الصفوي يأمل في نشره في كافة أنحاء المشرق العربي والقضاء على المذهب السني. ولم يكتف العثمانيون بذلك، بل خاضوا العديد من المعارك مع الفرس دفاعاً عن العراق الذي كان الفرس

---

(1) مما يذكر أن السلطان سليم قتل نحو الأربعين ألفاً من الشيعة. (انظر: محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص. 189).

(9118/1)

يتطلعون إليه دائماً، ويرغبون في صبغته بالصبغة الشيعية ولو بحد السيف(1). وبالرغم من أن ذلك كلفهم العديد من الرجال والعتاد(2)، فقد تمكنوا من حصر المذهب الشيعي في فارس، ولم يسمحوا بتسربه إلى البلدان العربية الواقعة تحت سيطرتهم(3). وبذلك ظهر سلاطين الدولة العثمانية أمام العالم الإسلامي بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية، والحماة

(1) عبد العزيز نوار، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية مدحت باشا، ص. 5.

(2) الساداتي، المرجع السابق، ص. 255.

(3) الشناوي، المرجع السابق، ج 2، ص. 965.

(9119/1)

التقليديين للمذهب السني.

... وباسم الإسلام، عدّ الأتراك أنفسهم حراساً لدولة الإسلام. وقد دفعهم ذلك إلى الاحتفاظ بحاميات في الأقاليم العربية التابعة لهم. وإذا كان الجندي العثماني لا يتميز بسرعة اندماجه مع الأهالي، فإن طول مدة إقامة الحاميات العثمانية في عدد من الأقاليم البعيدة عن عاصمة الدولة، وخاصة في شمالي أفريقية كان يسمح بنوع من الاندماج والمصاهرة(1).

(1) جلال يحيى، المغرب الكبير، ج 3، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، ص. 700.

(9120/1)

... وباسم الإسلام، أصدرت الدولة العثمانية بعد فتحها لمصر فرماناً بمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء على أساس أنها تضم الوادي المقدس طوى الذي كلم فيه الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام. فقال تعالى: {وكلم الله موسى تكليما}(1)، وقال أيضاً: {جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه}(2).

... وسار سلاطين الدولة العثمانية على هذا المنوال حتى جاء الإنجليز وسيطروا على مصر في عام 1882 م، فتغيرت الأوضاع(3) هناك.

---

(1) النسا، الآية 164.

(2) الأعراف، الآية 143.

(3) الشناوي، المرجع السابق، ج 2، ص. 966.

(9121/1)

... وباسم الإسلام، استولى العثمانيون على قسم كبير من الحبشة (1529 ـ 1542) في المعركة التي دارت رحاها بينهم وبين القوات البرتغالية، والتي قاتلت فيها القوات العثمانية إلى جانب المسلمين، بينما قاتل البرتغاليون إلى جانب الأحباش. وقد خرجت الحبشة من القتال وقد أصابها الدمار ونقص سكانها(1).

... وباسم الإسلام، قام السلطان عبد الحميد الثاني بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية، خصوصاً وأن مبعث ولاء المسلمين للدولة العثمانية كان دينياً، حيث كانوا مكلفين شرعاً بطاعة

---

(1) توينبي، المرجع السابق، ج 2، ص. 189.

(9122/1)

السلطان باعتباره الخليفة والأب الروحي للمسلمين، ونائب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وعليهم أن يسمعوا له ويطيعوا(1). ومن هنا رأى السلطان عبد الحميد الثاني استخدام هذا الولاء في حماية البلدان الإسلامية من الأخطار التي تحيط بها، وإنقاذها من حالة التفسخ والركود الذي تغلغل بين أفرادها. فدعا إلى جامعة إسلامية تجمع بين المسلمين مهما اختلفت لغاتهم وبلادهم.

---

(1) محمد شفيق غربال، تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية، ج 1، ص. 20.

(9123/1)

... وباسم الإسلام، قام السلطان عبد الحميد الثاني بإنشاء سكة حديد الحجاز التي تصل دمشق بالمدينة المنورة. وبذلك شهدت الأراضي الإسلامية المقدسة لأول مرة في التاريخ »خطّاً حديدياً« يخدم حجيج بيت الله الحرام، ويوفر لهم الأمن والسرعة والراحة بعد أن كانوا يستخدمون قوافل الجمال ويتعرضون للعديد من المخاطر. فكان ذلك أعظم هدية قدمها السلطان عبد الحميد للمسلمين(1).

---

(1) الشناوي، المرجع السابق، ج 3، صص. 1325 ـ 1326.

(9124/1)

... وباسم الإسلام، وقف السلطان عبد الحميد الثاني ضد استيطان اليهود في فلسطين. فعندما عرض عليه هرتزل حل أزمته المالية نظير السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين(1)، رفض طلبه وحسم الموقف معه بقوله: »إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض؛ فهي ليست ملك يميني، بل ملك شعبي. لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه، فليحتفظ اليهود بملايينهم«(2).

---

(1) المرجع نفسه، ج 2، ص. 988.

(2) عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية، ص. 24 وما بعدها.

(9125/1)

... ولإحساس السلطان عبد الحميد بعدم توقف الضغوط اليهودية عليه، بدأ يهتم بالأوضاع الإدارية في بيت المقدس، فجعلها متصرفية تابعة للباب العالي مباشرة بعد أن كانت تابعة لباشا دمشق؛ كما عين محمد شريف رؤوف باشا المشهور بشدته متصرفاً على القدس (1).

ويضاف إلى ذلك أن الدولة العثمانية حافظت على تقاليد الخلافة السابقة في اعتمادها على القرآن مصدراً للتشريع، وإن كانت تحيد عن بنوده في بعض الأحيان (2).

---

(1) سيدي مصطفى، المرجع السابق، ص. 10.

(2) الشناوي، المرجع السابق، ج 2، صص. 975 ـ 979.

(9126/1)

... كل ذلك جعل العالم الإسلامي ينظر إلى أعمال العثمانيين على أنها مفخرة للإسلام والمسلمين، وأن زعامتهم للعالم الإسلامي أدّت إلى إعلاء شأن الشريعة الإسلامية وإعلاء شأن المسلمين. هذا عن المرحلة الأولى.

... أما في المرحلة الثانية وهي فترة ضعف الدولة العثمانية ومحاولاتها استغلال الوازع الديني في نفوس المسلمين لصالح سياستها، فقد استغل الأتراك الخلافة واجهة شرعية وحاولوا باسم الدين فرض هيمنتهم ومصالحهم. وفي ما يلي نضرب بعض الأمثلة على ذلك:

(9127/1)

... 1 .استغلال السلطان العثماني لتأثيره الديني في إضعاف صورة محمد علي أمام المسلمين أثناء حروب الشام. فبعد نجاح قوات محمد علي في اقتحام أسوار عكا، أعلن السلطان خيانة محمد علي للدولة ومروقه عن الدين؛ كما قام بتجريده من منصبه وإباحة دمه، مما جعل بعض علماء المسلمين يصبون لعناتهم على محمد علي ويتهمونه بالخروج على طاعة السلطان؛ كذلك استصدر عبد الله باشا والي عكا من العلماء ورجال الدين فتوى تتضمن أن

من يمت من عساكر محمد علي مصيره النار، ومن يمت من عساكره مصيره الجنة. وقد استند علماء عكا في إصدار هذه

الفتوى على ما أصدرته الدولة العثمانية من أن محمد علي وإبراهيم قد خانا الدولة، ومرقا عن دين الله (1).

... 2 ـ استغلال الدول الأوربية، خصوصاً إنجلترا وفرنسا، ضعف الدولة العثمانية ومدى تأثير السلطان الديني في نفوس المصريين. فأوعزت إلى السلطان العثماني بعزل الخديوي إسماعيل بعد أن رفض النزول عن العرش وفقاً لمشيئة الإنجليز. ووافق السلطان على طلبهم. وبذلك انتهى حكم إسماعيل، وتولى توفيق الحكم مكانه في 26 يونيو 1879 (2)

---

(1) محافظ عابدين، محفظة 235، صورة المرفق العربي للوثيقة 140.

(2) جورج يانج، تاريخ مصر في عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل، ص. 568.

.

... 3 .استغلت إنجلترا التأثير الديني للسلطان العثماني في نفوس المصريين، ونجحت في إجباره على إصدار منشور بعصيان عرابي (1) أثناء ثورته، مما كان له أسوأ الأثر في النفوس، وتسبب في قلب ميزان الحماس الشعبي وأضاع التأييد الإسلامي والعربي للثورة العرابية، خاصة وأن عرابي كان يعتمد في حربه ضد الإنجليز على أنه يدافع عن حقوق

---

(1) نشر هذا المنشور في جريدة " الجوائب". (انظر: العدد 1105 في 15 سبتمبر 1882؛ للتفاصيل، انظر: ملف ثابت باشا، محفظة 164؛ وأيضاً محمد مهري كركوكي، رحلة مصر والسودان حتى 282).

(9130/1)

السلطان. وقد استغلت إنجلترا هذا المنشور في إضعاف الروح المعنوية لدى العثمانيين، فبادرت القوات الإنجليزية إلى إذاعة إعلان السلطان بعصيان عرابي أثناء زحفها على مصر، مما أضعف من مركزه، وأدى إلى تغيير ميزان المعركة في غير صالحه (1).

... 4 ـ في مواجهة للتدخل الأجنبي في شؤون العالم الإسلامي وإزاء الموقف المتدهور الذي عانى منه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تبنى السلطان عبد الحميد فكرة الجامعة الإسلامية التي

---

(1) لتفاصيل ذلك، انظر: عبد المنعم الجميعي، الثورة العرابية. بحوث ودراسات، صص. 89 ـ 90.

(9131/1)

نادى بها نامق كمال(1) وجمال الدين الأفغاني(2) بهدف جمع شمل البلاد الإسلامية في مشارق الأرض وفي مغاربها؛ كما قرب

---

(1) نادى نامق كمال (1840 ـ 1888) بأن تأخذ الدولة العثمانية زمام المبادرة لحماية العالم الإسلامي بصفتها أعظم الدول الإسلامية مكانة، وبها مقر الخلافة، وذلك عن طريق قيام وحدة إسلامية تحت قيادة الدولة العثمانية. (الشناوي، مرجع سابق، ج 3، ص. 1183).

(2) دعا الأفغاني إلى قيام وحدة بين الدول الإسلامية وتخليص المسلمين من شرور الدول الاستعمارية عن طريق توحيد صفوفهم والالتفاف حول الخلافة.

العرب إليه وعمل على جمع كلمة رعاياه حول هدف واحد هو الإسلام(1).

... 5 ـ رغبة السلطان العثماني في جذب قلوب المسلمين إليه، وفي أن يظهر أمام العالم الإسلامي بمظهر الخليفة القائم برعاية مصالحهم، فدعا إلى مشروع ديني تم تغليفه بإطار سياسي وهو إنشاء سكة حديد الحجاز. وكان الهدف الديني من هذا المشروع هو إيجاد وسيلة سفر أكثر أماناً لحجاج بيت الله الحرام، بينما كان الهدف السياسي منه هو إحكام قبضة القوات العثمانية على الحجاز عن طريق إمدادها بالنجدات العسكرية للقضاء

(1) محمد فريد، المرجع السابق، ص. 746.

على الاضطرابات هناك في أقصر وقت.

... وعلى الرغم من أن الاتحاديين ابتعدوا عن الخط الإسلامي إلى حد كبير، فإنهم ظلوا في بعض الأحيان

يرفعون شعار الجامعة الإسلامية ابتغاء الحصول على تأييد الشعوب الإسلامية، واستثارة عاطفتهم الدينية. فقد تمسحوا بحركة الجامعة الإسلامية خلال الحرب العثمانية .الإيطالية (1911) أثناء هجوم القوات الإيطالية على طرابلس بهدف تأليب الولايات الإسلامية على إيطاليا؛ كما تمسحوا بها خلال الحرب العالمية الأولى، فاستصدروا ثلاث فتاوى من الخليفة، ومن شيخ الإسلام، ومن كبار علماء الدين

(9134/1)

قالوا فيها إن الحرب التي تخوضها الدولة إنما هي حرب دينية تستهدف تحرير المسلمين المستعبدين والدفاع عن الدولة، وإنه ينبغي على المسلمين الوقوف بجانب مقر الخلافة ودرع الإسلام، وإن الجهاد الديني فرض عين على كل مسلم بالغ وقادر(1). ولاستثارة الشعور الديني لدى المسلمين، صدرت فتوى من شيخ الإسلام في استنبول، ثم لحقت بها فتوى أصدرها السلطان محمد رشاد الخامس بصفته خليفة؛ ثم أعقبتها فتوى ثالثة وقع عليها شيخ الإسلام وثمانية وعشرون من كبار العلماء من ذوي المناصب

(1) الشناوي، المرجع السابق، ج 3، ص. 1226.

(9135/1)

الدينية الكبرى(1) لدعوة جميع المسلمين إلى الجهاد والاشتراك في الدفاع عن الإسلام(2)؛ كما صدرت الأوامر إلى أئمة المساجد في بلاد الشام بأن تتضمن خطبهم الدعوة إلى الجهاد ضد بريطانيا وحلفائها أعداء الدين والملة. وإلى جانب ذلك، فقد تمسح رجال «الاتحاد والترقي» بالإسلام خلال حملة جمال باشا على قناة السويس في فبراير 1915، فأطلقوا على هذه الحملة «الخطة الحربية الإسلامية» بدلاً من أن يطلقوا عليها «الخطة الحربية

(1) انظر جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ص. 222.

(2) الشناوي، المرجع السابق، ج 1، ص. 76.

(9136/1)

العثمانية» (1). والواقع أن الاحتلال العثماني للوطن العربي، كان احتلالاً مقنعاً باسم الدين، وأنهم اتخذوا

من الوشيجة الدينية التي كانت تربط المسلمين ستاراً لتنفيذ أغراضهم السياسية.

... وظلت الأمور على هذا المنوال حتى قام كمال أتاتورك باتخاذ الإجراءات التي باعدت بين الدولة والإسلام والتي كان أبرزها الفصل بين السلطنة والخلافة في أول نوفمبر 1922. وأعقب ذلك إلغاء منصب شيخ الإسلام، ثم إلغاء الخلافة في الثالث من مارس 1924

الوثائق

---

(1) المرجع نفسه، ج 3، ص. 1317.

(9137/1)

موضوع الوثيقة: فتوى فحواها أن من يموت من عساكر عكا يدخل الجنة، ومن يموت من عساكر محمد علي يدخل النار.

تاريخها: ... بلا تاريخ.

مصدرها: ... محافظ عابدين. محفظة رقم 235. صورة المرفق العربي للوثيقة 140.

... ما قول الأعلام عفا عنهم الملك السلام في خارجي خرج

عن طاعة الإمام السلطان الأعظم وجمع له أقواماً كثيرة وخرج من موضعه يريد سبي أبناء الإسلام وسفك دمائهم واستباحة أموالهم وأعراضهم وجهز عدة الحرب والقتال للإسلام، وصدر الأمر المملوكي الخاقاني بالنفير العام لرده وزجره وردعه عما هو عليه. فهل يجب على

(9138/1)

الخاص والعام من كافة ديار الإسلام قتاله ورده وردعه عما هو عليه قاصد له؟ وهل إذا هلك أحد منهم يكون إلى النار؟ وإذا مات أحد من أبناء الإسلام الرادين له في الجهاد يكون شهيداً ومثواه دار النعيم؟ أفيدوا بالجواب ولكم الأجر والثواب من الملك الوهاب.

... الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده؛

... حيث الحال كما هو مقرر في السؤال، وصدر الأمر الملوكي بالنفير العام لقتال هذا الباغي الخارج عن طاعة الإمام، يجب على كل مسلم قتاله ومن كان موافقاً له فيما قصدوا إن مات أحد من المجاهدين يكون في الجنة ولا

(9139/1)

كلام، وإذا هلك أحد منهم وممن وافقه على ما يريد، في النار دار الجحيم. والله أعلم.

... الفقير إليه عز شأنه الشيخ محمد أفندي الشافعي عفا عنه

... الفقير إليه عز شأنه السيد محمد أفندي المغربي الحسبي المالكي عفا عنه

... الفقير إليه عز شأنه السيد الحاج محمود أبو الهدى قاضي عكا عفا عنه

... الفقير إليه عز شأنه السيد سعد أبو الهدى الناجي مفتي عكا عفا عنه.

يستخلص من هذه الوثيقة

أن علماء عكا استندوا في فتواهم بدخول من يموت من مدافعيهم الجنة، ودخول من يموت من قوات محمد علي النار، على أن السلطان كان قد

(9140/1)

أعلن خيانة محمد علي للدولة ومروقه من دين الله، وعزله.

...

المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق

... دار الوثائق القومية، محافظ عابدين، محفظة رقم 164.

ثانياً: المصادر العربية

ابن إياس، محمد بن أحمد (ت 930 هـ)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطبعة بولاق، القاهرة، ج 2، 1311 هـ

عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، المطبعة الشرفية، القاهرة، ج 1، 1322 هـ

ثالثاً: المراجع العربية

أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، بيروت، دار الشروق، ط 1، 1982.

(9141/1)

أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة، الأهلية للنشر، بيروت، ج 2، 1988.

أحمد فهد الشوابكة، حركة الجامعة الإسلامية، الزرقاء،

الأردن، 1984.

أحمد محمود الساداتي، تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، دار الثقافة، القاهرة، 1979.

جلال الدين السيوطي، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، ط 1، دار الفكر، بيروت، م 2، 1981.

جلال يحيى، المغرب الكبير، ج 3، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

(9142/1)

جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ترجمة أحمد حيدر الركابي، مطبعة الترقي، دمشق، د. ت.

جورج يانج، تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل، ترجمة علي شكري، القاهرة، 1934.

رأفت الشيخ، تاريخ العرب الحديث، دار المعارف، القاهرة، 1975.

سيد مصطفى، الإصلاح العثماني في القرن الثامن عشر. نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في القسطنطينية، تحقيق خالد زيادة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1979.

عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1980.

(9143/1)

عبد العزيز نوار، الشعوب الإسلامية، بيروت، 1973

عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون (1516 ـ 1916)، دمشق، ط 1، 1973.

عبد المنعم الجميعي، الثورة العرابية بحوث ودراسات وثائقية، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، 1982.

كارل بروكلمان، أ ـ الأتراك العثمانيون وحضارتهم، بيروت، 1949.

... ب ـ تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين ومنير ... ... البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1979.

محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي (1514 ـ 1914)، الأنجلو المصرية، القاهرة، 1985.

(9144/1)

محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، مطبعة المنار، القاهرة، ج 1، 1350 هـ

محمد شفيق غربال، تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية، النهضة المصرية، القاهرة، ج 1، 1952.

محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل،

بيروت، 1977.

محمد عبد المنعم الراقد، الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، د. ت.

محمد مهري كركوكي، رحلة مصر والسودان، مطبعة الهلال، القاهرة، 1914.

(9145/1)

مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، قدسية الحرمين الشريفين، هجر للطباعة والنشر، القاهرة.

نوال الصيرفي، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي، دار الملك عبد العزيز، الرياض، 1403 هـ/ 1983 م.

ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة عبد الحميد يونس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج 4 من المجلد 6.

رابعاً: المراجع الإنجليزية

Lewis, Bernard, The Emergence of Modern Turkey, London, 1968.

خامساً: المذكرات

السلطان عبد الحميد الثاني، مذكراتي السياسية،

مؤسسة الرسالة، بيروت، 1402 هـ

سادساً: الدوريات

(9146/1)

الجوائب، العدد 1105، 15 سبتمبر 1882.

المجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس والعشرون، 1978.

(9147/1)

دور الرحالة الأوربيين في رسم خريطة الجزيرة العربية في ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر الميلاديين(1)

... ... الدكتور خالد بن محمد العنقري

(وزير التعليم العالي ـ المملكة العربية السعودية)

الرياض

---

(1) هذه محاضرة للدكتور خالد بن محمد العنقري وزير التعليم العالي في المملكة العربية السعودية كان قد

افتتح بها ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية التي نظمتها دارة الملك عبد العزيز في مدينة الرياض في الفترة من 24 إلى 27 رجب 1421 هـ الموافق 21 إلى 24 أكتوبر 2000 م.

(9148/1)

... لقد استهواني موضوع البحث والكتابة حول الرحلات والخرائط القديمة عن الجزيرة العربية منذ أعوام عديدة. وقد ساند هذه الرغبة ... وأغراني على ذلك عديد من الأمور الإيجابية يأتي في مقدمتها حبي لجزيرة العرب. فأنا ابن من أبنائها، وهي مهد عقيدتي، ووطني الغالي يمتد على معظم أرضها. وثاني هذه الإيجابيات التي ألحَّت علي للبحث في هذا الموضوع تخصصي في علم الجغرافيا الذي يرتبط بمثل هذه البحوث ويُثريها. وقد دعَّم هذه الرغبة كذلك هوايتي لجمع الخرائط القديمة، وشغفي بالاطلاع على الرحلات الأوروبية إلى الجزيرة

(9149/1)

العربية، وما كُتب عن خرائطها القديمة. هذه الأمور وغيرها أوجدت لديَّ الرغبة في الإسهام في ما تسعى دارة الملك عبد العزيز لتحقيقه من توفير معلومات تُفيد الباحثين والدارسين لتاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها، وتُضيف إلى رصيد المعلومات عن تاريخ هذه المنطقة ما نقص أو ندر عن بعض مراحله.

... وفي ضوء ما ذكرت أتيت اليوم لأخوض هذا الميدان الذي يكتنفه الكثير من الغموض والعقبات والشراسة بصورة لا تقل عن شراسة وغموض صحاري وجبال الجزيرة العربية عندما حاول الرواد الأوائل اقتحامها أو الكتابة عنها.

(9150/1)

... ومع ذلك كله، فإنني أقول لمن تكرم بالحضور هذه الليلة، واضعاً ثقته في شخصي الضعيف الذي مُنح شرف تقديم الورقة الأولى في هذا اللقاء: ترفق في طموحك وحكمك، فقد آثر هذا العاشق للجزيرة العربية وتاريخها وجغرافيتها أن يخوض هذا اللقاء بالرغم مما تكتنفه من صعاب يدركها جيداً المتخصصون في تاريخ الجزيرة العربية، وما أمتعه من لقاء بكل ما فيه من صعاب وتقصير إذا كانت النية صادقة والجهد سخياً والهدف

نبيلاً.

* * *

(9151/1)

... إن موضوع هذا البحث يتعلق بالخريطة وعلاقتها بالرحلة الأوروبية. لذلك فربما يكون من المستحسن أولاً تحديد مفهوم كل منهما قبل التفصيل عن تلك العلاقة. فمفهوم "الرحلة" اختلف من وقت لآخر بحسب الظروف السائدة وطبيعة الأهداف التي كانت تسعى لتحقيقها. وإذا كان استخدام لفظ "الرحلة" اليوم مرتبطاً بشكل كبير بالترفيه والتسلية، فإنها لم تكن كذلك في أي من الرحلات التي أسهمت بشكل مباشر أو غير مباشر في دعم جهود الكشف الجغرافي للجزيرة العربية ورسم خرائطها. ويكفي أن نشير هنا إلى شاهد أو مثال واحد على ذلك، إنها

(9152/1)

الرحلة المشهورة باسم "رحلة نيبور"، التي قادها العالم الدنمركي "كارستن نيبور" وضمت خمسة علماء، لم يعد

منهم حياً سوى "نيبور" وحده، بينما هُلكت البقية بسبب الأمراض التي أصابتهم. ومن الظريف، إن صح هذا الوصف، أن نذكر هنا أن كثيراً من المعلومات التي وصلت أوربا عن الجزيرة العربية منذ بدء الاهتمام الأوروبي بها في عصر القوة البرتغالية في القرن الخامس عشر الميلادي وحتى القرن الثامن عشر الميلادي، كانت تأتي عن طريق أسرى قضوا سنوات طويلة، حسب إفاداتهم، في السجون ومعاناة الرق إلى أن أتيحت لهم العودة إلى

(9153/1)

بلادهم ليكتبوا عن مشاهداتهم خلال فترة وجودهم في الجزيرة العربية، ويُسهموا بالتالي في رسم خريطتها الجغرافية وتحديثها. وهؤلاء يُعدون من الرحالة، وإن كانت الظروف التي وجدوا أنفسهم فيها هي التي أجبرتهم على تلك المهمة. وتنظر هذه الورقة إلى تعريف "الرحلة" بمفهومها الواسع باختلاف أهدافها وتنوع الطرق التي تمت بها.

... أما "الخريطة" أو "الخارطة"، فهي كلمة ذات أصل لاتيني جاءت من الكلمة اللاتينية (Carta (e أو Charta (e))، بمعنى لوحة من الورق أو المعدن الرقيق عليها مادة مكتوبة أو مرسومة(1)

---

(1) (Glare (ed), P. G. W. (1996 Oxford Latin Dictionary, Oxford, Clarendon Press, p. 309).

(1/9154)

. وتهتم هذه الورقة بالخرائط التي ظهرت منذ نشرت الطبعة الأولى من خريطة بطليميوس عن الجزيرة العربية عام 1477 م وحتى نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، باختلاف موضوعاتها، وتنوع طباعتها، وتعدد أشكالها.

... ويمكن القول بأن دور "الرحلة" الأوروبية وعلاقتها برسم خريطة الجزيرة العربية جاء بصورتين أساسيتين:

... أولاً: الرحلات التي دونت مشاهداتها كتابة أو شفاهة دون أي رُسوم، واستخدم الخرائطيون في أوروبا هذه المعلومات الوصفية فيما بعد لتحديد المواقع ومسمياتها، ورسم الظاهرات الطبيعية المختلفة.

(1/9155)

... ثانياً: الرحلات التي تضمنت خرائط للجزيرة العربية بعض أجزائها أو مدنها، إضافة إلى المعلومات الوصفية المكتوبة. ويأتي معظم هذه الرحلات في فترة لاحقة بدأت بشكل أساسي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي حتى مطلع القرن العشرين.

... كذلك يمكن تصنيف الكتابات التي جاءت عن طريق الأوروبيين حول الجزيرة العربية وأثرت في رسم خريطتها في أربعة أنواع أساسية:

أعمال الرحالة الذين خططوا لزيارة الجزيرة العربية والكتابة عنها قبل التوجه إليها، فزاروها وأقاموا فيها وتجولوا في بعض مناطقها، وكتبوا عن

(9156/1)

الأماكن التي سمحت لهم الظروف التي أحاطت بهم بزيارتها. وغالباً ما احتوت كتابات هؤلاء الرحالة على معلومات جيدة ودقيقة إلى حد كبير عن الظاهرات الطبيعة والبشرية المختلفة، وإن كانت تميل إلى الوصف العام، وليس إلى الدراسة العلمية.

أعمال الرحالة الذين وجدوا أنفسهم يتجولون في بعض مناطقها، أو كما يُطلق عليهم "رحالة المصادفة"، وهم

في الغالب أشخاص يقعون في الأسر، أو بحارة السفن الذين توقفوا في أحد موانئ الجزيرة العربية وتطلب الأمر ذهابهم إلى مقر الحاكم البعيد عن الميناء من أجل بحث أمر معين أو تصفية مشكلة

(9157/1)

ما. وهؤلاء في غالب الأمر لم يكونوا متخصصين، أو ربما ليس لديهم الصفات الشخصية التي يجب أن تتوافر في الرحالة المتخصص، مثل دقة الملاحظة، ومعرفة تاريخ المنطقة التي يزورها وعادات أهلها، وفهم الأحداث التي تجري فيها. فجاءت كتاباتهم عامة أو سطحية، وفي كثير من الأحيان غير دقيقة؛ إلا أنها لم تخل من بعض المعلومات التي استفاد منها صُناع الخرائط في أوروبا. أعمال الباحثين الذين كتبوا عن الجزيرة العربية بناء على معلومات حصلوا عليها من تقارير رحالة سابقين زاروا المنطقة ولم يكتبوا مذكراتهم وإنما تحدثوا عنها، أو

(9158/1)

من البحارة والمبعوثين الذين قدموا إليها في مهام معينة. كما تشمل هذه المعلومات أيضاً الروايات التي ينقلها الحجاج أو أهالي المناطق الداخلية عند وجودهم في الموانئ أو نقاط الاتصال.

أعمال المستكشفين، وهم الرواد الذين استخدموا الأسلوب العلمي في التخطيط لرحلاتهم وتنفيذها ونشر نتائجها. وغالباً ما احتوت كتبهم على معلومات تفصيلية ودقيقة، وخرائط متنوعة، تُعبر عنها بشكل أمثل أولى تلك الرحلات الاستكشافية العلمية وهي "رحلة نيبور".

(9159/1)

... وسوف تُذكر بعض الأمثلة عن كل نوع من تلك الأعمال مواضع مختلفة من هذه الورقة.

دوافع الرحلة إلى جزيرة العرب وعلاقتها برسم خريطتها

... لقد تعددت دوافع "الرحلة" التي أثرت في رسم خريطة جزيرة العرب وتطويرها، واختلفت تلك الدوافع من فترة إلى أخرى بحسب الظروف السياسية والتجارية والعلمية السائدة، كما أنها تداخلت مع بعضها بشكل يصعب معه في كثير من الأحيان تخصيص دافع واحد فقط

لأي رحلة من الرحلات.

... فنجد أن الحملات العسكرية تحتوي ضمناً على أهداف علمية جغرافية أسهمت في تطوير المعرفة الجغرافية عن جزيرة

(9160/1)

العرب، حيث كان يشترك فيها جغرافيون وعلماء من تخصصات مختلفة قاموا بجمع المعلومات الجغرافية المتنوعة عن الأرض والسكان ونشرها في كتب وخرائط ورسوم بعد انتهاء تلك الحملات. ومن الأمثلة على ذلك الدورُ الذي قام به الجغرافي الروماني المشهور سترابو (Strabo) الذي رافق الحملة العسكرية الرومانية إلى الجزيرة العربية عام 25 قبل الميلاد، وكذلك ما قام به بعض العلماء والمهتمون بمثل هذه المعلومات الذين رافقوا حملتي إبراهيم باشا وأحمد باشا إلى نجد وعسير، على التوالي، من تدوين كثير من المعلومات الجغرافية عن المناطق

(9161/1)

التي وصلوا إليها. بالإضافة إلى ذلك، كان التخطيط العسكري يتطلب جمع المعلومات الجغرافية بشكل مكثف قبل الحملات وأثناءها، ثم يتم انتشارها وتداولها بعد انتهاء المهمة الأساسية.

... ويدخل ضمن هذه الرحلات أيضاً تلك المهمات التي قام بها مبعوثون أو دبلوماسيون وضعتهم وظائفهم في ظروف جعلتهم يكتبون عن المناطق التي زاروها للقيام بمهمتهم الرسمية. فهذا هو سادلير الذي أوفدته حكومة الهند البريطانية عام 1819 م لتهنئة إبراهيم باشا على نتائج حملته إلى نجد، وتقديم عرض حكومته للتعاون معه من أجل القضاء على نفوذ الدولة

(9162/1)

السعودية المتبقي في الخليج العربي، وكان يتوقع اللقاء بالقائد المصري على ساحل الخليج العربي؛ إلا أنه اضطر إلى أن يذهب إليه ويلتقيه في ينبع، وبذلك سجل التاريخ اسمه رغماً عنه ليكون أول أوروبي يعبر وسط الجزيرة العربية من الشرق إلى الغرب. ورسم سادلير خريطة تُبين المناطق التي سار فيها، كما كتب عن القرى والمدن والأماكن التي مر بها؛ إلا أن معظم الأسماء التي ذكرها لم تكن واضحة أو مفهومة لجهله

السابق بالمنطقة وسكانها وباديتها(1)

---

(1) حمد الجاسر، رحالة غربيون في بلادنا، الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، 1417 هـ، ص ص. 30 ـ 31.

(9163/1)

. وهذا يُبين طبيعة المعلومات التي يمكن أن يقدمها غير المتخصص الذي تضعه الظروف في وضع مثل ما حدث في رحلة سادلير، وإن كانت هذه ليست قاعدة دائماً.

... وأسهمت التجارة بأعظم الأثر في تشجيع الرحلات الأوروبية للجزيرة العربية، إما للرغبة في الوصول إليها أو من أجل السيطرة عليها. وتأتي الأهمية التجارية للجزيرة العربية من عاملين رئيسين: الأول، أن الجزيرة العربية كانت مركزاً لإنتاج بعض السلع التي كانت أوروبا تستهلكها بكثرة، مثل العُطور والطيب، ثم أضيفت إليها القهوة في القرن الثامن عشر الميلادي. أما العامل

(9164/1)

التجاري الثاني، الذي ربما كان أكثر أهمية من سابقه في ظهور اهتمام القوى الأوروبية بالجزيرة العربية وإسهامهم في تطوير خريطتها، فهو موقعها من الطرق التجارية البحرية التي تصل أوروبا والبحر المتوسط بالهند وشرق آسيا، إما عبر البحر الأحمر أو باستخدام الخليج العربي. لذلك كان لابد من معرفة تلك المياه وأعماقها والطرق الملاحية والعوائق التي تعترض أو تُهدد الملاحة فيها والمضايق التي تقع في طريقها، وكذلك مواقع الجزر والشعاب المرجانية وحركة الرياح والتيارات المائية، وتحديد مواقع الموانئ التي تتوقف فيها السفن

(9165/1)

للطوارئ أو للتجارة أو للتزود بالمؤن، ومعرفة مداخلها وخصائص مياهها، وغير ذلك من المعلومات. وكانت الخرائط البحرية التي عُرفت باسم "خرائط البورتولان" تؤدي هذه الأغراض، وهي خرائط مخطوطة تُرسم على جلود الحيوانات وتُستخدم فيها عدة ألوان. وبالرغم من أن تلك الخرائط ارتبطت بالملاحة في البحر المتوسط بشكل أساسي، فإنه تظهر على بعضها أجزاء من المناطق الساحلية للجزيرة العربية. وبعد معرفة الطباعة،

أصبحت الخرائط الملاحية تُطبع على الورق، وإن ظلَّ هذان النمطان يُستخدمان معاً حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي.

(9166/1)

... وكانت المنافسة التجارية بين مختلف الدول الأوروبية منذ القرن الخامس عشر الميلادي سبباً أساسياً في تمويل الكثير من الرحلات إلى الجزيرة العربية، واستُخدمت معلوماتها في تطوير خريطتها. ولم تخل الكثير من تلك الرحلات من استخدام القوة العسكرية لفرض الهيمنة التجارية.

... وقامت الدوافع الدينية بدور كبير في "الرحلة" التي أسهمت في تطوير خريطة الجزيرة العربية، ويمكن تتبع تأثيرها في أربعة أشكال:

... أولاً: رحلة الحج السنوية التي جذبت كثيراً من المؤرخين والجغرافيين المسلمين، إضافة إلى عدد من الأوربيين

(9167/1)

الذين أسلموا أو ادعوا اعتناق الإسلام من أجل دخول المناطق المقدسة الإسلامية في الجزيرة العربية. ولاشك في أن رحلة الحج والتجمعات المرتبطة به في المدن الرئيسة مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة التي يجتمع فيها الحجاج القادمون من كافة أنحاء الجزيرة العربية وخارجها، تتيح ظروفاً مهمة لجمع المعلومات الجغرافية والتاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية عن الأجزاء الداخلية من الجزيرة العربية، مع ما لهذا الأسلوب من مخاطر وسلبيات في نقل معلومات خاطئة.

(9168/1)

... ثانياً: لم يخل كثير من الرحلات الأوروبية من روح التنصير، أو بعبارة أدق استكشاف فرص التنصير الممكنة في مناطق مجهولة للغرب، ومتاخمة للمناطق الدينية المسيحية، وتُعد في الوقت نفسه قلب الإسلام الذي وقفت منه أوروبا موقفاً عدائياً، خصوصاً بعد المواجهات العسكرية المباشرة، في الأندلس أثناء ما يُطلق عليها "حروب الاسترداد" في القرن الخامس عشر الميلادي وقبلها ، وفي فلسطين خلال الحروب الصليبية. وقد كان البرتغاليون يرون أن محاربة الإسلام واجبٌ

مقدَّسٌ؛ وكان الفاتيكان يعمل على تنمية هذا الموقف العدواني.

(9169/1)

فنجد أن البابا نيكولاس (1447 ـ 1455 م) يقول صراحة: "إنه من واجب البرتغاليين أن يقضوا على الطاعون أينما وجدوه"، وكان يقصد بالطاعون الإسلام والمسلمين(1). وقد زاد من ذلك الشعور العدائي فتحُ القسطنطينية، العاصمة الثانية عند النصارى ومركز الكنيسة الأرثوذكسية، عام 1453 م على يد السلطان العثماني محمد الفاتح، وتغيير اسمها إلى إسلامبول، أو دار الإسلام. وبذلك أصبحت طرق التجارة البرية والبحرية بين أوروبا وجنوب

---

(1) محمد حسن العيدروس، دراسات في الخليج العربي، الكويت، دار الكتاب الحديث، 1999، ج 2، ص. 44.

(9170/1)

آسيا وشرقها في أيدي المسلمين. ولم يُخفِ أبرز رواد هذه الرحلات، وهو القائد البرتغالي "البوكيرك"، الذي

قاد الأسطول البرتغالي في المحيط الهندي والبحار العربية بين عامي 1503 م و1551 م، هذه الروح العدائية تجاه الإسلام، وإعلانه عن أمنيته بتدمير مكة وقبر الرسول في المدينة والقضاء على الإسلام(1). كما أنه تلقى تعليمات بهذا الخصوص من الملك البرتغالي "دوم مانويل" في فبراير عام 1513 م تُعلمه بالتوجه إلى

---

(1) جلال يحيى، التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، د. ت.، ج 1، ص. 436.

عدن ومنها إلى البحر الأحمر لتدمير مكة. إلا أنه فشل في تنفيذ هدفه بعد هبوب عواصف عند مدخل البحر الأحمر أعاقته عن المضي في مهمته، وعاد إلى مركزه في جوا بالهند(1).

... ثالثاً: وردت أسماء مواقع في الجزيرة العربية في الكتب الدينية النصرانية، فكانت هناك رغبة من بعض المختصين للوصول إلى تلك المواقع وتوثيقها والكتابة عنها والبحث في آثارها بما يمكن أن يُساعد

في الكشف عن غموض بعض المواقع والأحداث التي ورد ذكرها في التراث الديني النصراني.

---

(1) محمد حسن العيدروس، مرجع سابق، ج 2، ص. 61 ـ 62.

(9172/1)

... رابعاً: إن الدعوة الإصلاحية التي ظهرت في الجزيرة العربية في نجد، تلك الأرض المجهولة لأوروبا مقارنة بالمناطق الساحلية، وهي دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التي حققت نجاحاً مذهلاً لطبيعتها الإصلاحية من جهة، والدعم السياسي والعسكري الذي لقيته من الإمام محمد بن سعود وأبنائه من بعده من جهة أخرى – لاشك أن هذه الدعوة أثارت انتباه أوروبا وانزعاجها. فقد كانت أوروبا ترى أن نجاح تلك الدعوة واتساع نطاق تأثيرها سوف يعملان على إعادة توحيد المسلمين الذين كانت تفرقهم الاختلافات المذهبية والعقدية والفكرية في

(9173/1)

ذلك

الوقت، وأوروبا النصرانية لا تريد أن تعيش رعب

استعادة المسلمين لقوتهم، ومن ثم عودة الإسلام إلى أراضيها.

... أما الرحلة العلمية المنظمة، فتعود إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، حيث كانت المراكز العلمية في أوروبا تتلقى تباعاً نتائج الكشوف الجغرافية في آسيا وإفريقيا والعالم الجديد. وكانت مراكز إنتاج الخرائط تتلقى تلك المعلومات أيضاً. فأخذت الفراغات والمعلومات غير الدقيقة على خريطة العالم تتقلص بشكل كبير، باستثناء قسم كبير من الجزيرة العربية بقي خالياً من المعلومات أو وُضعت عليه

(9174/1)

معلومات خاطئة. وقد أثار ذلك انتباه بعض العلماء والمهتمين بشؤون الجزيرة العربية في تلك المراكز والجامعات الأوروبية، فبدأت مرحلة الرحلة العلمية المنظمة إليها، والتي يُعد "كارستن نيبور" ورفاقه، مرة أخرى، رواداً لها.

... وكما سنرى من العرض الآتي أن البحث في تأثير الرحلة الأوروبية على رسم خريطة الجزيرة العربية يعتمد على كتابات وردت في ثلاثة مجالات أو تخصصات هي: علم التاريخ، وعلم الجغرافيا، وعلم الخرائط (أو

الكارتوجرافيا). وقد اجتهدت قدر الإمكان في الربط بين المعلومات والأحداث ذات العلاقة بموضوع هذه

(9175/1)

الورقة في تلك العلوم.

...

الرومان يضعون المسودة الأولى لخريطة الجزيرة العربية

... إن بداية رسم خريطة الجزيرة العربية على أسس علمية وبشكل يشبه إلى حد ما الشكل الحقيقي لها كان في القرن الثاني الميلادي، وبالتحديد خريطة الجغرافي الإسكندري المشهور "كلاوديوس بطليميوس". لذلك ستكون البداية بتلك الخريطة، التي ذكرنا أنها طُبعت لأول مرة عام 1477 م.

... إن الرغبة في السيطرة السياسية والعسكرية كانت في يوم من الأيام هدفاً سعت إلى تحقيقه الدولة الرومانية، التي كانت قد تمكنت من إيجاد فروع لها حول الجزيرة

(9176/1)

العربية، ولكنها اكتفت في البداية بالوصول إلى بعض موانئ الجزيرة نفسها فقط، كما تُشير إلى ذلك بعض المصادر. وسبق أن أشرنا إلى الحملة الرومانية المشهورة التي دخلت الجزيرة العربية براً من شمال الحجاز، وبحراً عبر البحر الأحمر، وتوغلت جنوباً حتى نجران وبعض أجزاء اليمن، كانت بقيادة "أوليوس جالوس" في عام 25 ق. م.، وذلك بهدف السيطرة على تجارة القوافل، ومراكز التجارة في جنوبي الجزيرة العربية الواقعة على الطرق البحرية التي كانت تربط أوروبا بالهند، مصدر الكثير من المنتجات التي كانت تستوردها أسواق أوروبا

(9177/1)

وأديرتها. وقد رافق تلك الحملة الجغرافي الروماني المعروف "سترابو" (Strabo). وهو يُعد، مع "بطليميوس"، الذي جاء بعده بأقل من قرنين، أبرز الجغرافيين الذين ظهروا في العصر الروماني. وقد دون "سترابو" تلك الحملة في القسم الخاص بإفريقيا، وهو الجزء السابع عشر من كتابه الجغرافي المعروف.

وبالرغم من فشل الهدف العسكري من تلك الحملة، فإن الفائدة العلمية منها كانت كبيرة نسبياً. فقد عرف الأوروبيون في ذلك الوقت أن الجزيرة العربية تتكون

من قسم غني ومزدهر أطلقوا عليه اسم بلاد العرب السعيدة، والقسم الثاني جاف وقاحل

(9178/1)

وفقير أطلقوا عليه اسم بلاد العرب الصحراوية(1).

---

(1) قسم الرومان الجزيرة العربية، بما فيها بادية الشام وجنوب فلسطين وسيناء، إلى بلاد العرب الصخرية وتشمل منطقة شبه جزيرة سيناء، وبلاد العرب الصحراوية وتشمل بادية الشام، وبلاد العرب السعيدة وتشمل أراضي شبه الجزيرة العربية. وقد ظهر هذا التقسيم في خرائط بطليميوس واستمر استخدامه في خرائط عصر النهضة حتى القرن الثامن عشر الميلادي، وإن كانت حدود هذه المناطق التي عُرفت بالتقسيمات الكلاسيّة، اختلفت بين المدارس الخرائطية المختلفة.

(9179/1)

... وعلى الرغم من أن جغرافية "سترابو" احتوت على خريطة العالم المعروف آنذاك وظهرت عليها الجزيرة العربية، فإن أساس أول خريطة مطبوعة عن الجزيرة

العربية، والتي طُبعت في الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادي، وما تلاها من خرائط خلال ثلاثة عُقود، يرجع إلى القرن الثاني الميلادي، أي إلى كتاب "الجغرافيا" للعالم الجغرافي كلاوديوس بطليميوس. فهذا الكتاب احتوى ـ حسبما يؤكد الباحثون ـ على نص مكتوب وملحق به 27 خريطة. إلا أن خرائط بطليميوس الأصلية فُقدت، ولم يُعثر على أي منها حتى الوقت الحاضر(1)

---

(1) رنيه كلوزييه، تطور الفكر الجغرافي، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دمشق، دار الفكر، 1985، ص. 37.

(9180/1)

. أما النص المكتوب، فقد فقدته أوروبا لعدة قرون، ثم عُرف مرة أخرى عن طريق المسلمين، الذين يعود إليهم فضل ترجمته في البداية في عهد الخليفة العباسي المأمون في القرن الثاني الهجري. وهناك ترجمتان باللغة العربية لكتاب "الجغرافيا" تُرجمتا في عهد المأمون بعنوان "جغرافيا في المعمور وصفة الأرض"، إحداهما للكندي وهي ترجمة لم تكن جيدة، والأخرى لثابت بن قرة وهي ترجمة جيدة أفضل منها(1). ولا يُعرف وجود أي منهما في الوقت الحاضر، وإنما ترجع أقدم

(1) أحمد سوسة، الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية، 1974، ص. 118.

(9181/1)

نسخة معروفة من كتاب "الجغرافيا" باللغة العربية إلى القرن الثاني عشر الميلادي. وكما هو الحال في كثير من الأعمال العلمية الأخرى من العصور الإغريقية والرومانية، لم يكن كتاب "الجغرافيا" معروفاً للأوروبيين حتى نهاية العصور الوسطى. ولكن تم حفظه ودراسته بواسطة العلماء المسلمين، الذين قدموه إلى أوروبا فيما بعد. وقد تُرجم كتاب "الجغرافيا" من اللغة العربية إلى اللغة اليونانية في القرن الثالث عشر الميلادي، وإلى اللغة اللاتينية في القرن الخامس عشر الميلادي (عام 1409 م)، قبل أن تعرفه أوروبا بلغته الأصلية.

(9182/1)

واعتماداً على المعلومات، وإحداثيات الطول والعرض لأكثر من 8000 موقع احتواها كتاب "الجغرافيا"، تمت إعادة رسم الخرائط، التي يُعتقد أنها لا تختلف كثيراً

عن خرائط بطليميوس الأصلية.

... باختصار، فإن خريطة الجزيرة العربية التي أعدها "بطليميوس" تُعد الأساس الذي تطورت منه خرائط الجزيرة العربية فيما بعد اعتماداً على تزايد المعلومات التي كانت ترد من خلال "الرحلة" إلى الجزيرة العربية. وقد اعتمد بطليميوس على معلومات متراكمة جُمعت من مشاهدات البحارة الذين كانوا يسلكون البحر الأحمر في طريقهم من الهند وإليها،

(9183/1)

ويتوقفون في موانئ جنوب الجزيرة العربية والخليج العربي، إضافة إلى المعلومات التي جاءت بواسطة التجار السبئيين الذين كانوا واسطة نقل السلع القادمة من الهند براً عبر الجزيرة العربية بين موانئ الخليج العربي والبحر الأحمر. فبحلول القرن الثاني الميلادي، كان التجار الرومان يقومون برحلات بحرية عبر البحر الأحمر إلى الهند وماليزيا والصين. ولاشك في أن تلك الرحلات استدعت التوقف في موانئ الجزيرة العربية المطلة على البحر الأحمر والخليج العربي، وكذلك في الموانئ الواقعة على طول سواحل جنوبي الجزيرة العربية.

(9184/1)

يُضاف إلى ذلك المعلومات التي سُجلت أثناء الحملة المهمة التي قادها أوليوس جالوس وسبقت الإشارة إليها، وشارك فيها الجغرافيا المعروف سترابو.

... لقد وضع بطليميوس الهيكل العام لخريطة الجزيرة العربية اعتماداً على حسابات رياضية، وإن كانت تحتوي على أخطاء تركزت حول استخدام بطليميوس محيط الأرض الصحيح، ولكن دون حساب وجود الأمريكتين اللتين لم تكونا معروفتين، مما أدى إلى اتساع قارة آسيا في المحور الشرقي ـ الغربي، فظهرت خريطة الجزيرة العربية أعرض مما هي عليه في الواقع. هذا العرض يظهر في القسم الجنوبي منها.

(9185/1)

أما القسم الشمالي الذي كان معروفاً بشكل أكبر، فقد أخذه بطليميوس بعين الاعتبار؛ إلا أنه أضاف المساحة الزائدة إلى الخليج العربي الذي ظهر بشكل مستطيل محوره الأطول يمتد من الشرق إلى الغرب.

... واستمرت إعادة طباعة خرائط بطليميوس وتداولها

حتى عام 1730 م، مع إجراء تعديلات وإضافات مستمرة نُشرت في معظم المدن الرئيسة في أوروبا، وبأحجام مختلفة، مع استمرار تعديلها والإضافة إليها بحسب تطور المعرفة الجغرافية، وبقاء الشكل العام للخريطة دونما تعديل رئيس. وربما تكون الطبعة التي نشرها جيرارد ميركيتور عام 1578 م

(9186/1)

هي آخر الطبعات التي استخدمت ألواحاً نحاسية جديدة، ثم تمت إعادة طباعتها خلال فترة القرن والنصف التالية باستخدام الألواح النحاسية نفسها في طبعات مختلفة في عدة مدن من هولندا وبلجيكا(1).

القرنان الخامس عشر والسادس عشر: دور البرتغاليين في تطوير خريطة الجزيرة العربية

... لقد كانت الاستكشافات الجغرافية البرتغالية خارج أوروبا مدفوعة بروح التجارة، لذلك حرص البرتغاليون على تأمين سلامة طرق

---

(1) Jonathan Potter, Collecting Antique Maps:

An Introduction t o the History of
.34, p. 1999Cartography, Dubazi,

(9187/1)

الملاحة التي أنشأوها، ومن أهمها الطريق الذي يمر عبر مصر والبحر الأحمر إلى الهند وشرق آسيا، ثم الطريق الذي يدور حول رأس الرجاء الصالح، بعد اكتشافه بواسطة فاسكو دي جاما، ووصوله إلى سواحل جنوب الجزيرة العربية عام 1498 **م. ومن أجل ذلك قام البرتغاليون بعمليات استكشاف واسعة لسواحل الجزيرة العربية على البحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي، وتمكن البرتغاليون من السيطرة على عدد من الجزر الاستراتيجية والأراضي الساحلية، وأسسوا مراكز عسكرية فيها خصوصاً في هرمز وعُمان وحضرموت، وأصبح أحد ألقاب ملك البرتغال**

(9188/1)

هو "سيد الفتح والملاحة والتجارة في الهند والحبشة وجزيرة العرب وفارس".

... ويمكن القول بأن التطوير الحقيقي لخريطة الجزيرة

العربية بدأ مع الرحلات البرتغالية ذات الطابع العسكري، وإن كان يصعب فصلها عن الأهداف التجارية. فعن طريقها لم يتم جمع كثير من المعلومات عن سواحلها ومناطقها الساحلية فقط، بل كانت هناك مراكز في البرتغال نفسها تابعت تلك المعلومات واهتمت بها، وحافظت عليها لتحقيق الأهداف التجارية والعسكرية التي كانت البرتغال تعمل من أجلها. فكان مكتب دار الهند الحكومي (Casa da India) هو الذي ينظم

(9189/1)

البعثات الاستكشافية البرتغالية البحرية، ويتحكم بالتجارة مع الهند والمناطق الأخرى في آسيا. وخلال العصور الذهبية للحملات البحرية البرتغالية الاستكشافية والاستعمارية في القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر الميلاديين، استخدم "دار الهند" قواته لحماية طرق التجارة، والخرائط الملاحية، وأي معلومات أخرى قد تكون مفيدة تجارياً. وكان على قادة السفن والملاحين تسليم خرائطهم وسجلاتهم للدار، التي تحفظها في مكان مغلق، مع أن الاستكشافات

الحديثة أصبحت معروفة من خلال الحديث الشفهي أو التسريب. واحتوى أرشيف "دار

(9190/1)

الهند "على خرائط وتقارير وسجلات أخرى كثيرة لا تقدر بثمن للعلماء الحاليين، ولكن ـ ويا للأسف !ـ فقد الكثير من هذه الوثائق عندما أصاب زلزال قوي مدينة لشبونة، عاصمة البرتغال، عام 1755 م ودمر أرشيف المستعمرات.

... لقد اعتمد البرتغاليون في جمع المعلومات الجغرافية عن سواحل الجزيرة العربية على عدد من المصادر المختلفة، أهمها الاتصال المباشر بواسطة السفن البرتغالية التي كانت تجوب البحار المحيطة بالجزيرة العربية للتجارة أو للأغراض العسكرية، والتي كانت تتوقف في موانئ الجزيرة العربية لما تمليه ضرورات

(9191/1)

الملاحة البحرية أو التجارة. وساعد الصراع البرتغالي ـ العثماني على التعريف بعدد من المدن والمناطق

الواقعة على الخليج العربي ورد اسمها على الخرائط الأوروبية في القرن السادس عشر الميلادي، مثل القطيف التي خضعت للاحتلال البرتغالي، وبنوا فيها قلعة ذكر "نيبور" في القرن الثامن عشر الميلادي أنه شاهد آثاراً لها. وكانت القطيف مركزاً برتغالياً مهماً في شمال الخليج العربي استخدموه في السيطرة على سواحله. لذلك نجد أن اسم القطيف يرد في معظم الخرائط المبكرة، حيث كان الخليج العربي يُسمى "بحر القطيف" لفترة طويلة؛

(9192/1)

كما كانت الأراضي الواقعة على طول الخليج العربي الشمالي تُسمى "منطقة القطيف". ومن المواقع الأخرى التي عرفها البرتغاليون الأحساء التي كانت تابعة لنفوذ الدولة العثمانية، والبحرين التي احتلها البرتغاليون أيضاً، والقرنة (الكويت) التي خضعت للبرتغاليين. وذكر "نيبور" وجود آثار قلعة برتغالية فيها أيضاً، ومسقط التي كانت تُعد القاعدة الثانية للبرتغاليين في الخليج العربي بعد جزيرة هرمز، وخورفكان في إمارة رأس الخيمة الحالية التي كانت

تُسمى "جلفار"، كما وصل البرتغاليون إلى جدة وعدن والشحر وغيرها. وتظهر هذه

(9193/1)

الأسماء على معظم خرائط الجزيرة العربية المطبوعة في أوروبا منذ وقت مبكر.

... وأرسل البرتغاليون كذلك رحلات فردية إلى الجزيرة العربية حظيت باهتمام من قمة القيادة في لشبونة، وكان ملوك البرتغال يُنعمون على الرحالة بعد عودتهم بنجاح بمكافأة كبيرة. ومن الرحلات الفردية التي تذكرها أدبيات هذا الموضوع رحلة "بدرو دي كوفيلها" عام 1487 ـ 1488 م الذي كان أول برتغالي يصل إلى الهند عبر مصر والبحر الأحمر، وربما يكون أيضاً أول أوروبي يدخل مكة المكرمة والمدينة المنورة، إذا صح ادعاؤه. وهي رحلة وجه بها الملك حنا

(9194/1)

الثاني (Jean II) من أجل متابعة المهمة التي كان قد بدأها "بارثولوميو دياز" (Parthelomy Diaz) بهدف البحث عن طريق بحري إلى الهند يدور حول القارة الأفريقية. وقد جاءت أخبار رحلته عن طريق طرف ثان هو ممثل البرتغال في الحبشة التي مات بها "كوفيلها"(1).

... ومن المحتمل أن يكون هناك رحالة برتغاليون آخرون وصلوا إلى الجزيرة العربية، ولكنهم لم ينشروا أو يُعلنوا عن رحلاتهم ومشاهداتهم للسرية الشديدة

---

(1) عبد العزيز سالم، البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1993، ص ص. 107 .108.

(9195/1)

التي أحاط بها ملوك البرتغال هذه المعلومات، وحرصهم على عدم حصول القوى الأوروبية المنافسة لهم عليها، لدرجة أن أحد ملوكهم فرض عقوبة الإعدام على من يقوم بتسريبها خارج البرتغال. لذلك نلاحظ أن المعلومات التي جمعها البرتغاليون لم تظهر على خرائط تلك الفترة التي صدرت في إيطاليا، رائدة صناعة الخرائط في ذلك

الوقت. وربما يُساعد الرجوع إلى أرشيف المكتبات الوطنية في البرتغال وإسبانيا على الكشف عن كتابات وخرائط مخطوطة أو مطبوعة تتعلق بتلك الرحلات الفردية، أو تلك التي جاءت من حملاتهم الاستكشافية والعسكرية

(9196/1)

الكبيرة، خصوصاً وأن وجود مركز برتغالي في إثيوبيا في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي جعلهم قريبين من سواحل الجزيرة العربية.

... أما أول رحلة فردية مطبوعة خلال الكشوف البرتغالية، فقد قام بها رحالة إيطالي هو "لودفيكو (لويس) دي فارثيما"، الذي زار مكة المكرمة والمدينة المنورة، ووصل إلى اليمن عن طريق البحر الأحمر عام 1503 م، وهي الفترة نفسها التي تمت فيها رحلة "فاسكو دي جاما". ونشر "دي فارثيما" رحلته في إيطاليا عام 1510 م، ونالت شهرة واسعة لثلاثة أسباب رئيسة هي كالتالي:

(9197/1)

إنها أول رحلة تصف مشاهدات شخصية لمنطقة اتصفت بالغموض وانتشار الأساطير حولها، فقام كاتبها بتصحيح الكثير من المعلومات الخاطئة عنها والتي كانت منتشرة في أوروبا.

تُعد هذه الرحلة من الرحلات العلمية المبكرة التي حاول صاحبها قدر الإمكان أن يكون صادقاً ودقيقاً في وصفه لمشاهداته وكتابته عن الأحداث التي واجهته، مما شجع على الاعتماد عليها مصدراً من مصادر المعلومات عن الجزيرة العربية في وقت كانت الكتابات الأوروبية عن تلك المنطقة نادرة.

(9198/1)

احتواء كتاب "دي فارثيما"، بالرغم من صغر حجمه، على معلومات كثيرة عن المدن والجبال والصحاري والسواحل. ولاشك في أن تلك المعلومات أسهمت في تطوير خريطة الجزيرة العربية. وقد احتوى الكتاب على خريطة للجزيرة العربية وفقاً للنمط البطليميوسي.

... ومن الرحالة البرتغاليين الآخرين الذين وصلوا إلى الجزيرة العربية "جريجوريو دا كودرا" (Gregorio Da Qudra) الذي كان قبطاناً لإحدى السفن البرتغالية،

جنحت سفينته إلى شواطئ مقديشو ثم سُلم إلى حاكم عدن، وبقي سجيناً فيها حتى عام 1516 م، فأشهر إسلامه بعد إطلاق سراحه،

(9199/1)

ورافق حاكم عدن لأداء فريضة الحج فزار مكة المكرمة والمدينة المنورة. ومن هذه الأخيرة أراد التوجه إلى دمشق، إلا أن الأمر انتهى به في البصرة. فيكون "دا كودرا" بذلك أول أوروبي يقطع شمالي الجزيرة العربية من غربها إلى شرقها. وعاد بعد ذلك إلى البرتغال التي وصلها عام 1520 م، وكتب قصته التي احتوت على معلومات دقيقة وبعيدة إلى حد كبير عن المبالغة والخيال (1).

---

(1) بيتر برنت، بلاد العرب القاصية: رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب، ترجمة خالد أسعد عيسى وأحمد غسان سبانو، بيروت، دار قتيبة، 1990، ص ص. 68 ـ 69.

(9200/1)

... ولم تنقطع الرحلات التي تُنسب للبرتغاليين إلى الجزيرة العربية في القرن السابع عشر الميلادي. ومن تلك الرحلات رحلة المطران "ماثيو دي كاسترو"، وهو من أصل هندي ترك جوا وذهب إلى مصر عبر جنوبي الجزيرة العربية براً في طريقه إلى إيطاليا. ويبدو أن الهدف الأساسي من رحلة "دي كاسترو" لم يكن استكشاف الجزيرة العربية، وإنما أراد تجنب الطريق البحري خوفاً من السفن البرتغالية. وقد زار المدينة المنورة عام 1643 م، وهو بذلك يكون أول راهب يدخل المدن المقدسة الإسلامية. ولكنه لم يكتب عن تلك الزيارة.

(9201/1)

... وعلى الرغم من الجهود التي بذلها البرتغاليون في الرحلات التجارية والعسكرية والتنصيرية والفردية، فإن لشبونة أو أيّاً من مدن البرتغال الأخرى لم تعرف إنتاج الخرائط، إنما كان رسم وطباعة الخرائط في أوروبا منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي وحتى النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي متركزاً في إيطاليا التي كانت تسيطر على الملاحة والتجارة في البحر المتوسط عبر القوى البحرية الإيطالية في جنوا وفلورنسا والبندقية، وبدأ إحياء نظرة بطليميوس

للعالم فيها. وظهرت الطبعات الأولى من بطليميوس "الجغرافيا"

(9202/1)

في إيطاليا بين 1477 و1490 م. فأول طبعة كانت في بولونيا عام 1477 م، ثم طبعت في فلورنسا عام 1480 م، وفي روما ظهرت في طبعتين: الأولى عام 1487 م والثانية عام 1490 م. إلا أن هذا الدور الإيطالي المبكر في صناعة الخرائط لم يستمر لانتقال خطوط الملاحة من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي.

... إن الكم الكبير من المعلومات والذي كان يحصل عليه صانعو الخرائط الأوروبيون في القرن السادس عشر الميلادي عن الجزيرة العربية جمع بين الصحيح منها، المبني على المشاهدة، وربما القياس أحياناً، وبين المعلومات الخاطئة. فنلاحظ

(9203/1)

أن المعلومات على هذه الخرائط كثيرة للغاية مقارنة بخرائط أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، إلا أنها

تحتوي على أخطاء كثيرة في تفاصيل السواحل والظاهرات التضاريسية وأسماء المراكز العمرانية.

... ويمكن تصنيف خرائط الجزيرة العربية التي طُبعت في هذه المرحلة في نمطين مختلفين:

... النمط الأول: النموذج البطليميوسي. وقد ساد هذا النمط من الخرائط منذ طباعة أول خريطة للجزيرة العربية عام 1477 م حتى قبيل حلول منتصف القرن السادس عشر الميلادي بعامين، وهو الأساس الذي تطورت منه الخريطة اعتماداً على المعلومات التي

(9204/1)

كانت توفرها "الرحلة" الأوروبية إلى سواحل الجزيرة العربية، والتي كانت تقوم بها في أعمال الاستكشاف والاحتلال البرتغال في منطقة المحيط الهندي. وتتصف خريطة الجزيرة العربية التي طبعت خلال هذه الفترة وفقاً للنمط البطليميوسي بتميز شكلها العام وثباته دون تعديل فيما عدا بعض التفاصيل الثانوية.

... النمط الثاني: نموذج خريطة جاستالدي، الذي يُنسب إلى الخرائطي الإيطالي "جياكومو جاستالدي" (عاش ما بين 1500 و1565 م تقريباً). وهو يُعد أحد الأسماء

المهمة التي يجب أن تُذكر عند الحديث عن خريطة الجزيرة العربية، وذلك

(9205/1)

لكونه صاحب أول منعطف في تاريخ رسم خريطتها، فأخرجها من إطار النمط البطليميوسي الذي ساد لأكثر من نصف قرن منذ بداية طباعة الخرائط، وإن كانت مصادر "جاستالدي" بشكل عام ضعيفة كما يظهر من المعلومات والتفاصيل التي احتوتها خريطته. وقد وضح تأثير خريطة "جاستالدي" سريعاً خلال الفترة الممتدة من تاريخ نشر خريطته عام 1548 م حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي، والتي شهدت ظهور أعمال مميزة لخرائطيين مرموقين أمثال "أورتيليوس" و"ميركيتور" وغيرهما من واضعي أساس العصر الذهبي للخرائط الهولندية. ويُمكن تلخيص الخصائص

(9206/1)

العامة لخريطة "جاستالدي" الحديثة بما يأتي:

... 1) تغير الشكل التقليدي المميز للبحر الأحمر والخليج

العربي حسب النموذج البطليموسي، فأخذ البحر الأحمر يتخذ شكله الحقيقي، فقل عرضه نسبياً خصوصاً كلما اتجهنا شمالاً، وظهرت الجزر فيه أقرب إلى الواقع، ووُضعت عليها مسميات معاصرة، مثل جزيرة كمران المواجهة لليمن، وجزيرة "الفاس" وهي "فرسان" المواجهة لميناء جيزان، الذي يُذكر لأول مرة، ثم يختفي هذا الاسم من الخرائط لفترة طويلة قبل أن يعود مرة أخرى في القرن الثامن عشر الميلادي. وأطلق على البحر الأحمر هذا الاسم

(9207/1)

لأول مرة في هذه الخريطة إلى جانب الاسم التقليدي "الخليج العربي".

... وحدث تغيير جذري في شكل الخليج العربي. فبعد أن كان مستطيلاً يمتد محوره الأطول من الشرق إلى الغرب، أصبح يأخذ شكله المألوف مع اتجاه شمالي - جنوبي. وتظهر جزيرة البحرين باسمها الحالي، كما تظهر شبه جزيرة قطر إلى الجنوب منها. ووُضعت جزيرة هرمز في المضيق الذي يحمل الاسم نفسه ، مع وجود بحر ضيق نسبياً يقع بين مضيق هرمز وبحر الهند يُطابق ما يُعرف

حالياً باسم بحر عُمان. أما المياه المواجهة للساحل الجنوبي للجزيرة العربية والتي تُعرف في

(1/9208)

الوقت الحاضر باسم بحر العرب، فكانت تُعد جزءاً من بحر الهند (المحيط الهندي) ولم تُعط اسماً خاصاً.

... 2) استخدم "جاستالدي" الأسماء المعاصرة لكثير من المدن الرئيسة مثل مكة المكرمة (Lamech) وجدة (Alzidem) وجيزان (Gezen) وزبيد (Zibit) وظفار (Diufar) وعدن (Adem) وكلبا (Calba). كما شملت الخريطة عدداً آخر من المدن استُخدمت في تعريفها الأسماء القديمة.

... واستمر تطوير خريطة "جاستالدي" في إيطاليا، ويُمثل ذلك التطوير الخريطة التي أصدرها "جاستالدي" أيضاً في البندقية عام 1561 م، وهي خريطة مكبرة لخريطته

(1/9209)

السابقة، وذات شكل أفضل ولكن بتفاصيل أقل. إلا أن النصف الثاني من القرن السادس عشر شهد بداية العصر الذهبي لإنتاج الخرائط في هولندا، وبالتأكيد شمل ذلك خريطة الجزيرة العربية، وكان ذلك بقيادة "أبراهام أورتيليوس" و"جيرارد ميركيتور" وابنه الذي حمل الاسم نفسه أيضاً.

... ويرجع إلى أورتيليوس، أحد أبرز أقطاب المدارس الخرائطية الهولندية، الفضل في ترسيخ التحول الذي شهده رسم خريطة الجزيرة العربية والذي كان قد بدأه "جاستالدي"، حيث استخدم المعلومات الحديثة التي كانت ترد إلى مراكز إنتاج الخرائط في أنتويرب ثم في

(9210/1)

أمستردام، واستفاد من التطور الذي شهدته صناعة الخرائط في أوروبا، إن لم يكن قد شارك في ذلك التطوير. وقد ظهر ذلك على خرائطه التي أصدرها خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي حيث يظهر عليها كثير من المعلومات والأسماء المهمة لأول مرة على خريطة الجزيرة العربية. ومن الملاحظ أنه لم تصدر بعد خريطة "جاستالدي" خرائط خاصة بالجزيرة وحدها، سواء في خرائط "أورتيليوس" أو غيره من

خرائطيي أوروبا من أمثال "ميركيتور" أو "هونديياس" حتى حوالي منتصف القرن السابع عشر الميلادي. إذ كانت الجزيرة العربية تظهر

(9211/1)

بأكملها على الخرائط القارية، قارة آسيا، أو خرائط الإمبراطورية العثمانية. وفي هذه الأخيرة كانت تظهر الجزيرة العربية بحجم لا بأس به.

... ومن أعلام الخرائطيين في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي الخرائطي الهولندي "جيرارد ميركيتور" الذي يُنسب إليه تأسيس أول مدرسة خرائطية علمية نتج عنها مجموعة خرائط ذات مستوى عال، سواء من الناحية العلمية أو من الناحية الفنية، بما في ذلك تحديث خريطة الجزيرة العربية.

(9212/1)

... وفي أواخر القرن السادس عشر الميلادي ظهرت خريطة "هوبن فان لينشوتين" (Hubben Van Linschoten) التي تُمثل مدرسة خرائطية أخرى استفادت من معلومات

"الرحلة" على اختلاف أهدافها. ويبرز ذلك من خلال التعديلات التي ظهرت على تلك الخريطة في شكل الجزيرة العربية وبعض المعلومات التي ظهرت عليها لأول مرة. إذ إنه في عام 1596 م نشر "لينشوتين" كتاباً بعنوان Itinirario ("دليل الرحالة")، وكان مليئاً بالمعلومات عن التجارة والرحلة في آسيا. وتضمن الكتاب عدداً كبيراً من الخرائط حفرها "بيتر بلانسيوس" (Peter Plancieus)

(9213/1)

وغيره. هذه الخرائط التي اعتمدت على أبحاث "لينشوتين" الخرائطية في الهند وغيرها كانت مفيدة للغاية للملاحين، لأنها احتوت على ثروة من البيانات نقلت عن الخرائط الملاحية البرتغالية التي لم يسبق نشرها. وبصورة عامة، يمكن أن نلخص دور "لينشوتين" في تطوير رسم خريطة الجزيرة العربية بالآتي:

تعد خريطة "لانجرين" (Langren) المنشورة عام 1596 م والتي تشرح رحلات "لينشوتين" مثالاً لخريطة اعتمدت على خريطة "جاستالدي" فيما يتعلق بالمناطق الداخلية، واستُخدمت خرائط البورتولانو للتفاصيل الساحلية.

(9214/1)

اعتمد "لينشوتين" في إعداد خريطته بشكل كبير على خبرته الطويلة التي اكتسبها خلال الثلاث عشرة سنة التي قضاها في الهند وحصوله على معلومات مباشرة عن المنطقة، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك سابقاً. وقد ظهر ذلك بشكل جلي على خريطته في شكل الجزيرة العربية وبعض المعلومات التي ظهرت عليها لأول مرة. يبدو الشكل العام للجزيرة العربية أفضل مما هو عليه في خرائط "أورتيليوس" و"ميركيتور". ولا تزال المناطق الداخلية، خصوصاً في الوسط، خالية من المعلومات أو تحتوي على معلومات قليلة أو خاطئة.

(9215/1)

اعتنى "لينشوتين" بذكر الموانئ على السواحل العربية، فنلاحظ أنه يذكر ثلاثة أنماط لكتابة اسم مدينة جده: Gidda، Ziden، Juda. كما تُذكر لأول مرة "جلفار" (رأس الخيمة حالياً). أما ينبع، فقد كُتبت Oybo، ولكنه وضع موقع المدينة المنورة في مكان خاطئ يقترب كثيراً من البحر، وإلى الشمال من موقعها

الحقيقي. وبصورة عامة، استخدم "لينشوتين" الأسماء القديمة لكثير من المدن.

... ومن بين الأسماء التي برزت أيضاً في نهاية هذه الفترة وجمعت ما بين العمل في الملاحة وإنتاج الخرائط يظهر اسم "بيتر بلانسيوس" الذي بدأ حياته

(9216/1)

قسيساً في كنيسة الإصلاح الهولندية. ولكن اهتماماته في الجغرافيا والاستكشاف جعلته يصبح خبيراً في الملاحة الهولندية، فترك العمل الديني وأصبح خرائطياً لشركة الهند الشرقية الهولندية، وهي الشركة التي رعت الاستكشافات والتجارة الهولندية في إفريقيا وآسيا. وساعده موقعه هناك على الوصول إلى مصادر للمعرفة الجغرافية، وأن يُسهم في رسم خريطة الجزيرة العربية؛ وسبقت الإشارة إلى أن "لينشوتين" استعان به في رسم خرائط كتابه.

...

الرحلة الأوروبية والخرائط في القرن السابع عشر

(9217/1)

... عندما حل القرن السابع عشر الميلادي كانت صناعة الخرائط قد حققت تطوراً كبيراً في عدة جوانب. أولاً، من الناحية الفنية انتهى عهد النحت على القوالب الخشبية (woodcut) وحل مكانه الحفر على الألواح النحاسية (Copper engraving)، فسهّل ذلك على صانعي الخرائط إنتاج خرائط دقيقة وبكميات أكبر، وتزيينها بألوان ورسوم وأشكال جذابة جعلتها أكثر توزيعاً وانتشاراً. ثانياً، ظهور مراكز متخصصة وكبيرة لصناعة الخرائط على أسس علمية، وإنشاء مدارس خرائطية ارتبطت بأسر معينة توارثت السيطرة على صناعة الخرائط لأجيال عديدة،

(9218/1)

مثل أسرتي "ميركيتور" و"هونديياس" في هولندا، وأسرة "سانسون" في فرنسا، وأسرة "سبيد" في إنجلترا، وغيرهم من الأسر الخرائطية التي تركت بصمات قوية في تاريخ الخرائط

... من ناحية أخرى، تميز القرن السابع عشر الميلادي بظهور خمس قوى سعت إلى السيطرة على الملاحة في

البحار المحيطة بالجزيرة العربية، وعلى الموانئ الرئيسة المطلة عليها. هذه القوى هي البرتغال، التي أخذ نفوذها يضعُف خلال القرن السابع عشر بعد سيطرته المطلقة على الملاحة في المنطقة خلال القرن السادس عشر، ثم خرجت من المنافسة نهائياً في النصف الثاني من

(9219/1)

القرن السابع عشر الميلادي. أما القوة الثانية، فهي هولندا التي استطاعت أن تفرض نفوذها على الخليج العربي والمحيط الهندي خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي. وبالرغم من وجود النشاط الإنجليزي والفرنسي، فإنه كان في أغلب الأحيان في ظل هيمنة الأساطيل التجارية والحربية الهولندية على تلك المياه، حيث كانت هولندا تتدخل دائماً بأساليب مختلفة لمنع تنفيذ الاتفاقات التي تبرمها أنجلترا عبر شركتها للهند الشرقية لإقامة مراكز تجارية، مثلما حدث مع صحار (عام 1645م)، ومسقط (عام 1658م). ولم يمنع التنافس

(9220/1)

بين هذه القوى الأوروبية الثلاث من تحالفها على القوة البحرية الخامسة في هذا القرن، وهي في هذه المرة قوة عربية من المنطقة نفسها. فقد وصلت القوة البحرية العمانية في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي إلى درجة جعلت شركة الهند الشرقية الإنجليزية تتراجع عن مواجهتها(1). لذلك قامت القوى الأوروبية الثلاث: هولندا وإنجلترا وفرنسا عام 1700 م بالاتفاق على توزيع

(1) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي: دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول، القاهرة، دار الفكر العربي، 1985، ص. 113.

(9221/1)

حماية الملاحة في البحار المحيطة بالجزيرة العربية والواقعة على طريق الملاحة الذي يربط أوروبا بالهند عبر رأس الرجاء الصالح فيما بينها. وطبقاً لذلك الاتفاق، تولى الهولنديون مهمة سلامة الملاحة في سواحل جنوبي البحر الأحمر، وتولى الفرنسيون مسؤولية حماية سواحل الخليج العربي، بينما تولى الإنجليز مسؤولية حماية

بحار الهند الجنوبية(1). إن تعدد القوى البحرية التي اهتمت بفرض نفوذها أو إيجاد موطئ قدم لها في البحار المحاذية للجزيرة العربية، أثَّر إيجابياً في رسم خريطتها التي أخذت

---

(1) المصدر نفسه، ص. 115.

(9222/1)

تتغير سريعاً خلال القرن السابع عشر الميلادي اعتماداً على تزايد المعلومات الواردة من رحلات سفن تلك الدول.

...

الدور الهولندي

... ولم يكن الدور الهولندي مقتصراً على طباعة الخرائط فقط، بل امتدّ إلى جمع المعلومات من مصادرها وتزويد مراكز إنتاج الخرائط بها، على العكس من الموقف المتحفظ الذي اتخذه البرتغاليون. وهذا الدور الثاني يستحق وقفة وتعليقاً.

... لقد تمكن الهولنديون في البداية من اختراق السرية التي فرضها البرتغاليون على معلوماتهم الجغرافية والتجارية عن الهند والسواحل العربية. حدث ذلك عن طريق زرع

(9223/1)

عميل لهم استطاع الالتحاق بأسقفية مدينة جوا بالهند، مركز البرتغاليين في الشرق، وذلك عام 1583 م، وأمضى ثلاث عشرة سنة حتى وصل إلى رتبة أمين سر كبير الأساقفة. إنه الهولندي "هوبن فان لينشوتن"، الذي سبق الحديث عنه، حيث استطاع أن يضع يده على معلومات قيمة عن التجارة وطرقها في المحيط الهندي وخرائط الطرق إلى الهند، ونشر كتابه الذي أشرنا إليه سابقاً، والذي احتوى على مشاهداته هناك، والمعلومات الجغرافية والاقتصادية التي حصل عليها، إضافة إلى خريطة ملاحية مهمة ونادرة عن جنوب آسيا والمحيط الهندي تظهر عليها

(9224/1)

الجزيرة العربية، وصدر الكتاب وخرائطه في هولندا عام 1592 م. وقد ساعدت دراسات "لينشوتن" على تفادي صعوبات كثيرة كان يمكن أن تواجه الهولنديين في رحلاتهم التالية للهند والمحيط الهندي، بما في ذلك الجزيرة العربية.

... أما الجزيرة العربية، فقد وصلها الهولنديون من بوابة التجارة والرحلات التجارية. ومن الرحالة الأوائل في القرن السادس عشر الميلادي الذين كان لهم دور في توجيه اهتمام الهولنديين إلى منطقة الخليج العربي هو "جان هوتين" (J. Hotein)، حيث قدم تقريراً عن رحلاته إلى الشرق أبرز فيها أهمية الخليج العربي

(9225/1)

في التجارة مع الهند. فسعت هولندا في وقت مبكر، عام 1595 م، إلى الحصول على مراكز فيها (1). ومثلما كان الحال في زمن السيطرة البرتغالية، بقي البحر الأحمر بحيرة إسلامية خارج تأثيرهم، مقارنة بنفوذهم السياسي ونشاطهم التجاري في الخليج العربي والساحل الجنوبي للجزيرة العربية.

... وكان اعتماد التجارة الهولندية في المنطقة على نشاط الشركة الهولندية للهند الشرقية التي تأسست عام 1602 م، وجمعت بين الاحتكار التجاري والدعم الحكومي ومهمة الدفاع العسكري عن سلامة السفن وحركة التجارة. فقد

---

(1) المصدر نفسه، ص. 162.

(9226/1)

تمكن الهولنديون، عبر شركة الهند الشرقية الهولندية، من تحقيق تفوق واضح في المياه العربية والفارسية على الرغم من وجود شركتين أخريين للهدف نفسه تتبعان إنجلترا وفرنسا. ويرجع السبب الأساسي في ذلك إلى الدعم المالي الضخم الذي وفرته الحكومة الهولندية للشركة في مواجهة أعمال الشركتين المنافستين، مما جعل الشركة الهولندية تحصل على امتيازات كبيرة لم يتمكن منافسوها من تحقيقها لعدم حصولهم على الدعم المالي المشابه. وكانت الشركة الإنجليزية تعتمد على الأرباح التجارية التي تحققها في دعم أعمالها والوصول إلى

(9227/1)

أهدافها، لذلك نجد أن محاولات الإنجليز المستمرة لتوطيد مركزهم في عُمان أو بندر عباس كانت تُمنى دائماً بالفشل.

... وقد استدعى هذا التفوّق الهولندي تأسيس محطات بحرية ومخازن للتموين وقواعد عسكرية. ومن هذه

المهام جاء الدور الأكبر للرحلة الهولندية في تطوير رسم خريطة الجزيرة العربية. فوصل الهولنديون إلى جنوب الجزيرة العربية عام 1614 م، ودرسوا الأحوال الاقتصادية بها وجمعوا المعلومات عن مدنها الساحلية مثل عدن وشحر ومنحا وقشن. ففي ذلك العام (1614 م) وصل القبطان الهولندي بيتر فان دي بروكه (Peter Van De

(9228/1)

Broecke) إلى عدن قادماً من الهند بناء على توجيه من الحاكم العام الهولندي فيها. ثم عاد إلى الجزيرة العربية مرة ثانية عام 1616 م حيث زار المخا وأنشأ فيها مركزاً هولندياً؛ كما زار تعز وإب وذمار وصنعاء ثم عاد إلى المخا. وقام دي بروكه برحلة ثالثة حوالي عام 1618 م زار فيها عدن وسقطرى. وفي هذه الرحلة جاء معه هولندي آخر هو "فان جيل" الذي ذهب من عدن إلى صنعاء والمخا. وتوصل الهولنديون إلى تفاهم مع حكام حضرموت واليمن على التعاون التجاري واستخدام موانئهم في التجارة الهولندية، ولكن هذا الاتفاق فشل في

(9229/1)

الاستمرار بعد فترة قصيرة. فوجه الهولنديون أنظارهم نحو الخليج العربي، وبالذات تجاه الجانب الفارسي منه.

... وأنشأ الهولنديون أول مركز لهم في جزيرة هرمز العربية عام 1622 م بعد خروج البرتغاليين منها. ثم نتيجة للتسهيلات الكبيرة التي عرضها الفرس على الهولنديين لنقل نشاطهم إلى مدينة بندر عباس الواقعة على الجانب الفارسي من الخليج، استجاب الهولنديون للعرض المغري، فانحسر النشاط التجاري في هرمز، وهجرها سكانها إلى بندر عباس. ووضع الهولنديون لهم أيضاً قاعدة أصغر في جزيرة خرج "الفارسية" بالقرب من رأس الخليج

(9230/1)

العربي. ثم أخذت المعلومات عن جغرافية الجزيرة العربية تصل إلى مراكز إعداد الخرائط في أمستردام بشكل منتظم.

... ويُلاحظ أن المعلومات الدقيقة في الخرائط الهولندية في القرن السابع عشر تركزت على المناطق الساحلية،

وبالذات على الجزر والموانئ الرئيسة والمدن القريبة منها، بينما لم تظهر الدقة في المعلومات عن التفاصيل الساحلية الأخرى والظاهرات التضاريسية التي تتطلب رحلات ميدانية وقياسات دقيقة. كما أن المناطق الداخلية من الجزيرة العربية بقيت خالية أو شبه خالية من المعلومات، بل إنه حتى تلك المعلومات القليلة

(9231/1)

التي توضع أحياناً في الخرائط لا تخلو من الأخطاء الفادحة. ونجد أن أكثر المعلومات تفصيلاً كانت عن اليمن، حيث تمكنت الشركة الهولندية للهند الشرقية من الحصول على "فرمان" تركي عام 1618 م يقضي بالسماح لها بالتجارة السلمية في موانئ اليمن، مع التحذير من ذهاب رجالها إلى ميناءي ينبع وجدة لكونهما ميناءي مكة المكرمة. فقام الهولنديون برحلات إلى موانئ اليمن المطلة على البحر الأحمر وبحر العرب، وكذلك إلى موانئ هرمز أو عمان. وفي مناسبات كثيرة توغلوا في بلاد اليمن، ووصلت معلومات من بحارة هولنديين عن كثير من

(9232/1)

المدن، ووصف مفصل عن خصائص اليمن الطبيعية.

... وإذا كانت التفاصيل عن الموانئ والمياه على طول السواحل اليمنية الغربية والجنوبية جاءت من ربابنة السفن وبحارتها أثناء زياراتهم وتعاملهم العادي، فإن تفاصيل المناطق الداخلية جاءت من هؤلاء الذين وقعوا في الأسر أو احتُجزوا لمقابلة الباشا التركي في صنعاء.

ويمكن ملاحظة تأثير هذه المعلومات في الخرائط الهولندية في القرن السابع عشر الميلادي مقارنة بخرائط "أورتوليوس" وغيره من الخرائطيين الهولنديين المعروفين في القرن السادس عشر الميلادي. وتُلخص جاكلين بيرين هذا

(9233/1)

الوضع فتقول: "صفوة القول، لقد توافرت لدى الغربيين في نهاية القرن السابع عشر معلومات أساسية في جميع الأبواب عن: العربية السعيدة، والمدن المقدسة، وعالم البادية. ولكن باستثناء "دي فارثيما" الذي كان وحده رائداً مطلعاً، نزيهاً، كان الآخرون رواد مصادفة" (1).

... وبينما كانت السفن الهولندية وبحارتها يجوبون البحار المحيطة بالجزيرة العربية ويرسلون التقارير والمعلومات إلى أمستردام، كان الخرائطيون الهولنديون

---

(1) جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة قدري قلعجي، بيروت، دار الكاتب العربي، د. ت.، ص. 129.

(9234/1)

مشغولين بتضمين خرائطهم أحدث الاكتشافات الجديدة. وكان لتدفق المعلومات التي قد يتعارض بعضها مع البعض الآخر على مراكز صناعة الخرائط في أوروبا من مصادر مختلفة أن وُضع الخرائطيون في موقف لا يُحسدون عليه من ناحية اختيار المعلومة الصحيحة وتحديد موقعها الدقيق. ولكن بسبب عوامل الوقت وبُعد المسافة وصُعوبة الحصول على المراجع، التي ربما لم تكن موجودة أصلاً، كل ذلك أدى إلى اختيار أسلوب يلائم تلك الظروف ويتمثل في وَضْع أكثر من معلومة عن الموقع الواحد. وعلى سبيل المثال، بينما كان البحر الأحمر يُسمى الخليج

(9235/1)

العربي في خرائط "بطليميوس"، وأصبح يُطلق عليه في الخرائط بحر مكة أو الخليج العربي أو البحر الأحمر أو بحر القلزم أو جمع بعض تلك الأسماء في خريطة واحدة في خرائط "أورتيليوس"، نجد أن "هونديياس" يستخدم الأسماء الأربعة في خريطة واحدة. ويُلاحظ الشيء نفسه في الخليج العربي الذي كان يُسمى "الخليج الفارسي" في جميع خرائط "بطليميوس"، ثم أضيف إليه اسم "بحر القطيف" في خرائط "أورتيليوس"، ثم حل اسم "الخليج العربي" مكان "الخليج الفارسي" في معظم خرائط "هونديياس". ومن المحتمل أن يكون هذا هو أول ظهور لهذا الاسم في

(9236/1)

خريطة أوروبية مطبوعة.

... كذلك لم يكن الخرائطيون ثابتين دائماً في المعلومات التي يضعونها على خرائطهم، فنراهم تارة يستخدمون اسماً ما لمدينة أو منطقة أو مسطح مائي في إحدى خرائطه، ثم يستخدمون اسماً مغايراً في خريطة ثانية، ويعودون مرة أخرى للاسم القديم في خريطة

ثالثة. وعلى سبيل المثال، كان يُطلق على المضيق الذي يربط الخليج العربي بخليج عُمان اسم مضيق البصرة، ثم سُمي مضيق هرمز في خريطة أخرى بعدها، وبعد ذلك أطلق عليه اسم مضيق البصرة في خريطة لاحقة. كما أنه أطلق على الصحراء التي تُسمى في الوقت الحاضر

(9237/1)

بصحراء الدهناء اسمين آخرين في خرائط مختلفة للخرائطي نفسه، وهما صحراء الأحساء وصحراء القطيف.

... وبانتقال صناعة الخرائط في القرن الثامن عشر الميلادي إلى فرنسا وإنجلترا، وسيطرتهما على الملاحة في البحار المحيطة بالجزيرة العربية، بدأت مرحلة جديدة في رسم خريطة الجزيرة العربية.

...

الدور الإنجليزي

... لقد وصل الإنجليز إلى الخليج العربي قبل الهولنديين وبالتحديد منذ القرن السادس عشر الميلادي، أي منذ فترة السيطرة البرتغالية. وكانت سفنهم تزور الخليج باستمرار، فعرفوا المنطقة وأهميتها الاستراتيجية وفائدتها

(9238/1)

التجارية. فتم تأسيس شركة الهند الشرقية عام 1600 م للتجارة بين بريطانيا وبقية أوروبا من جهة، والهند وجنوب شرق آسيا من جهة أخرى. وأصبح ميناء بندر عباس هو المقر الرئيس للشركة.

... وسبق أن رأينا أن الهولنديين لم يكونوا وحدهم في المنطقة، بل شاركهم فيها الإنجليز الذين كانوا منافساً دائماً لهم، غير أن الهولنديين تمكنوا من ترجيح الكفة لصالحهم في وقت مبكر من القرن السابع عشر الميلادي حتى نهاية وجودهم في البحار العربية عام 1765 م على يد الفرنسيين. وعلى الرغم من الوضع السيء الذي وصلت إليه الأوضاع في شركة

(9239/1)

الهند الشرقية الإنجليزية نتيجة لتلك المنافسة، فإن الإنجليز أبقوا على وكالاتهم في الخليج العربي للحفاظ على موطئ قدم لهم في المنطقة حتى وإن كانت وكالات الشركة في حالة إفلاس. وقد أثمرت تلك السياسة فيما بعد عندما وصلت القوة الإنجليزية إلى ذروتها في نهاية

القرن السابع عشر الميلادي، وخروج هولندا من المنافسة، فأصبحت شركة الهند الشرقية الإنجليزية صاحبة الهيمنة في المنطقة.

... وتأثرت السواحل اليمنية والعمانية بنشاط هذه الشركة ورحلات سفنها التي كانت تجوب شواطئ شمال المحيط الهندي والخليج العربي وتتوقف في

(9240/1)

موانئهما للتجارة وغيرها. وكما حدث مع الهولنديين، أدى ذلك إلى اتصال مباشر مع أراضي الجزيرة العربية وسكانها، وجمع الكثير من المعلومات عن خصائصها الطبيعية والعمرانية والبشرية، وبالتالي إلى تطوير رسم خريطتها وتحديثه. ومن الرحلات الإنجليزية المعروفة في بدايات ذلك القرن رحلة "جون جورديان"، الذي كان وكيلاً تجارياً وصل إلى عدن عام 1609 م ثم توجه إلى صنعاء من أجل إقناع الباشا التركي بتخفيض الرسوم الجمركية، ومر أيضاً على إب، وذمار، وتعز، والمخا، وكتب وصفاً لملاحظاته ومشاهداته عن خصائص المنطقة الطبيعية

(9241/1)

والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية. وفي العام التالي لرحلة "جورديان"، أي في عام 1610 م، أرسلت شركة الهند الإنجليزية الشرقية "هنري ميديلتن" إلى عدن، وذهب منها إلى صنعاء ثم عاد إلى المخا عن طريق ذمار وتعز. وقد كتب "ميديلتن" مذكراته عن رحلته معتمداً على ذاكرته.

... واستمرت الرحلات الإنجليزية خلال القرن السابع عشر الميلادي إلى المنطقة. ومن تلك الرحلات التي تمت في العقد الأخير منه رحلة "جوزيف بيتس داكستر" الذي زار مكة المكرمة والمدينة المنورة وأدى مناسك الحج. ولم تُعرف تفاصيل رحلته إلا في عام 1704 م

(9242/1)

في إنجلترا.

... كان "جون سبيد" أبرز الأسماء في صناعة الخرائط الإنجليزية في القرن السابع عشر الميلادي؛ إلا أنه اعتمد في إعداد خرائطه بصفة عامة على أعمال الخرائطيين الهولنديين، بما في ذلك رسم خريطة الجزيرة العربية. فنجده على سبيل المثال يعتمد على خريطة "بلاو" في

معلومات خريطة آسيا، وعلى خريطة "هونديياس" في معلومات خريطة الإمبراطورية التركية، وهما خريطتان صدرتا لأول مرة عام 1626 م، وسبق أن أشرنا إليهما.

(9243/1)

... ومن خرائطيِّي المدرسة الإنجليزية في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي "ريتشارد بلوم" الذي تظهر الجزيرة العربية على خرائطه بشكل يختلف بعض الاختلاف عن الخرائط السابقة، مع بعض الإضافات الجديدة، مثل إطلاق اسم اليمامة على وسط الجزيرة العربية، ربما لأول مرة، وكذلك استخدام اسم عُمان بدلاً من هرمز لمنطقة عُمان الحالية. ويُعد "جون سيللر" أحد الجغرافيين والخرائطيين الإنجليز الذين اشتُهروا في أواخر القرن السابع عشر الميلادي؛ إلا أن خرائطه اعتمدت على أعمال الهولندي "دو ويت" من حيث الشكل العام

(9244/1)

للجزيرة العربية، وأعمال الإنجليزيين "جون سبيد" و"ريتشارد بلوم" وغيرهما. ومما تميزت به خرائط

"سيللر" وجود تقسيم واضح ومحدد للأقاليم الفرعية لشبه الجزيرة العربية وهي: الحجاز، وتهامة، وحضرموت، والشحر، وعُمان، والبحرين، واليمامة، إضافة إلى الأقسام الكلاسيَّة. ويُمكن القول بشكل عام إن المعلومات عن الجزيرة العربية في الخرائط الإنجليزية اعتمدت على الخرائط الهولندية أكثر من اعتمادها على الرحلات الإنجليزية إلى المنطقة على الرغم من الحضور الإنجليزي في منطقة المحيط الهندي والخليج العربي.

الدور الفرنسي

(9245/1)

... من المعروف أن الوجود الفرنسي في البحار العربية جاء متأخراً نسبياً مقارنة بالقوى الأوروبية الأخرى. وقد بدأ الحضور الفرنسي رسمياً عام 1664 م بعد تأسيس شركة الهند الشرقية الفرنسية. ومع ذلك، لم يكن لفرنسا نفوذ تجاري يُذكر في المنطقة خلال القرن السابع عشر الميلادي باستثناء بعض الاتصال التجاري المحدود مع بلاد فارس، كما صاحب ذلك أيضاً ندرة الرحلات الفردية الفرنسية. ونرى أن هذا الوضع انعكس على التأثير المحدود للرحلة الفرنسية في رسم خريطة

الجزيرة العربية. وكما هو حال الخرائط الإنجليزية، سيكون للرحلة

(9246/1)

الفرنسية دور أكبر في صناعة الخرائط بصورة عامة، وفي رسم خريطة الجزيرة العربية بصفة خاصة، خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

... ومع ذلك، ربما تكون خريطة "سانسون" التي نشرها عام 1654 م بعنوان "خريطة بلاد العرب الثلاث" هي أول خريطة كبيرة مخصصة للجزيرة العربية وحدها، وفيها الكثير من المعلومات الحديثة التي تعكس التطور في المعرفة عن الجزيرة العربية. ويُلاحظ أن أكثر المعلومات تغيراً عن الخرائط السابقة كان في تحديد مواقع المراكز العمرانية وأسمائها، حيث تظهر كثير من المدن في كافة أنحاء مناطق الجزيرة

(9247/1)

العربية، بما في ذلك المناطق الوسطى، وانتشر استخدام الأسماء المعاصرة. فنجد ذكراً مفصلاً للأماكن

الواقعة على طرق الحج مثل: مدينة النبي، وبدر حنين، والجار، والجحفة، وقديد، وعسفان، وخيبر، ودومة الجندل، وغيرها. أما أهم الإضافات التي جاءت في الخريطة، فكانت في ذكر عدد من المدن في وسط الجزيرة العربية، مثل: حجر، وخضرمة، واليمامة، والسلمية.

... واستمر تأثير خريطة "سانسون" في خرائط الجزيرة العربية خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي. فإضافة إلى إعادة نشر خريطة عام 1654 م من قبل أبنائه الذين

(9248/1)

خلفوه في إنتاج الخرائط، أعاد بعض الخرائطيين الفرنسيين مثل "أليكسس هيوبرت جيلوت" (Alixis Hubert Jailot) (1632 ـ 1712 م) طباعة بعض خرائطه مع تعديلات طفيفة. قام أيضاً بالحصول على الألواح النحاسية الخاصة بعائلة "سانسون". وبتجميع الخرائط من هذه المصادر وغيرها، بدأ إنتاج أطالس في عام 1681 م. وكانت خرائطه مزينة بصور مرسومة باليد؛ واستخدم الرسم بالذهب للزبائن المرموقين. واستمرت أسرة "جيلوت" في نشر الخرائط حتى عام 1780 م.

(9249/1)

... إلا أنه مع نهاية هذا القرن ظهر نمط جديد في رسم خريطة الجزيرة العربية بدأته المدرسة الخرائطية الفرنسية، وارتبط بها طوال القرن التالي الذي كان لفرنسا خلاله الدور الأكبر في تطوير رسم خريطتها، وأقصد بذلك إنتاج خرائط كبيرة وتفصيلية عن أجزاء من الجزيرة العربية. وربما تكون خريطة "روبرت مورتيير" لعام 1700 م بعنوان "خريطة خاصة بالبحر الأحمر"، من أوائل هذا النوع من الخرائط وهي خريطة تعتمد على أعمال الخرائطي الفرنسي "هيربرت جيلوت"، الذي اعتمد بدوره كثيراً على خرائط "سانسون".

(9250/1)

الرحلة الأوروبية والخرائط في القرن الثامن عشر

... حدث خلال القرن الثامن عشر الميلادي تطور كبير في رسم خريطة الجزيرة العربية اعتماداً على المعلومات الغزيرة التي كانت ترد إلى مراكز صناعة الخرائط في أوروبا، وبالذات في فرنسا. ويُمكن تلخيص أهم خصائص الرحلة الأوروبية إلى الجزيرة العربية بما يأتي:

... 1 .استمرار الرحلات التجارية الأوروبية إلى المنطقة، مع استمرار التنافس بين القوى التجارية والعسكرية الأوروبية الثلاث: إنجلترا وفرنسا وهولندا. وقد أدى ذلك إلى التنافس فيما بينها من أجل إيجاد قواعد عسكرية،

(9251/1)

أو وكالات تجارية في مختلف الموانئ العربية والفارسية على البحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي، من أهمها: المخا وعدن ومسقط وبندر عباس والبصرة وبوشهر وجزيرة خرج.

... وبالرغم من أن هولندا كانت موجودة في الخليج العربي خلال القرن الثامن عشر الميلادي، فإنه كان وجوداً محدوداً مقارنة بما كان لهم من قوة وسيطرة خلال القرن السابع عشر الميلادي. ولكن الذي يهمنا هو أن سفنهم استمرت في الوصول إلى موانئ الجزيرة العربية، وبالتالي كانت وسيلة من وسائل نقل المعلومات الجغرافية عن سواحلها إلى صُناع الخرائط في

(9252/1)

هولندا، وربما إلى غيرها من مراكز صناعة الخرائط في أوروبا. وكان الوجود الهولندي قائماً في بوشهر وبندر عباس والبصرة حتى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، ثم اضطروا إلى تركها بسبب تزايد المنافسة مع فرنسا وإنجلترا، والخلاف مع العثمانيين والفرس، وانتقلوا إلى آخر معقل لهم وهو جزيرة خرج التي أرادوا تحويلها إلى أرض هولندية، فنقلوا إليها بعض الزنوج للعمل في ظروفها الطبيعية القاسية، كما نقلوا إليها بعض الأسر الهولندية لاستيطانها. إلا أن ذلك المشروع لقي مقاومة كبيرة من سكان الجزيرة العرب، وخرج الهولنديون

(9253/1)

من الجزيرة والخليج العربي بأسره عام 1765 م. وكانت السفن الهولندية تصل أيضاً إلى سواحل الجزيرة العربية في القسم الجنوبي من البحر الأحمر، خصوصاً إلى ميناء المخا الذي اشتهر بتجارة البن.

... أما أنجلترا، فقد ورثت النفوذ الهولندي في الخليج العربي في القرن الثامن عشر الميلادي. فسيطر البريطانيون عليه وأقاموا مراكز رئيسة وثانوية لهم في بندر عباس وشيراز والبصرة وبوشهر ومسقط وغيرها، وتناوبوا السيطرة على هذه المناطق مع

الفرنسيين أو اشتركوا معهم في بعض الفترات في بسط النفوذ التجاري والسياسي فيها؛ كما عقدوا

(1/9254)

الاتفاقات مع حكام فارس والساحل العربي حصلوا بموجبها على كثير من الامتيازات التي ساعدتهم في ترسيخ وجودهم في المنطقة. وقد كان ذلك الوجود يتخذ في البداية الطابع التجاري، ثم يتحول إلى طابع سياسي، وأخيراً إلى سلطة سياسية، تمكنت في نهاية القرن من السيطرة على قسط كبير من الخليج العربي، وأجزاء من سواحل جنوبي الجزيرة العربية. وأدى ذلك كله إلى انتظام رحلات السفن الإنجليزية إلى موانئ الجزيرة العربية، وزيادة الاهتمام بجمع المعلومات الجغرافية التفصيلية عن أراضيها وسواحلها وجزرها. وكانت التقارير الرسمية أو

(1/9255)

تلك التي يكتبها البحارة تصل إلى مراكز صناعة الخرائط في لندن، التي كانت تأتي في المرتبة الثانية

بعد باريس في إنتاج الخرائط والأطالس خلال القرن الثامن عشر الميلادي.

... وكانت فرنسا هي القوة الأوروبية المنافسة للإنجليز طوال هذا القرن. ومع ذلك كان دورها في البحار العربية ضئيلاً نسبياً، وإن كانت لها محاولات عديدة لإيجاد نفوذ دائم لها في مسقط والموانئ الفارسية والمخا. وبالرغم من فشل فرنسا في إنشاء قواعد بحرية لها في مسقط وغيرها من الموانئ العربية والفارسية، فإنها استطاعت استخدام قاعدتها القوية في

(9256/1)

جزيرة فرنسا (التي تُسمى أيضاً جزيرة موريس) في المحيط الهندي لتكون مركزاً لشركة الهند الشرقية الفرنسية. وأصبحت تلك الجزيرة نقطة انطلاق للسفن الفرنسية باتجاه موانئ الجزيرة العربية. وكان حجم رحلات تلك السفن يختلف بزيادة أو نقص النفوذ الفرنسي على الإمارات الساحلية العربية والبلاط الفارسي، الذي اتخذ شكل تحالفات أو اتفاقات، كان الإنجليز يعملون دائماً على إفشالها أو إضعافها حفاظاً على مصالحهم التجارية والسياسية في المنطقة. وعلى أي

حال، سنجد أن هذا الوضع أدى إلى إسهام كبير للبحرية الفرنسية في رسم خرائط

(9257/1)

تفصيلية لسواحل الجزيرة العربية وبحارها، خصوصاً في الربع الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي.

... 2 ـ لم تتوقف الرحلات الفردية خلال هذا القرن. ففي سنواته الأولى، وبالتحديد في ما بين عامي 1708 م و1713 م، قام بحارة مرسيليا برحلات إلى اليمن من أجل تجارة البن، وكانت تلك الرحلات تضم أيضاً أفراداً من غير البحارة، كالأطبّاء وغيرهم أمثال "لاجرولوديير" و"باربيه". وقد كتب هؤلاء تقارير عديدة عن المناطق التي زاروها ومشاهداتهم فيها، جمعها ونشرها الفرنسي دو لاروك في كتابه المشهور: "رحلة إلى بلاد العرب

(9258/1)

السعيدة"، والذي نشره في أمستردام عام 1716 م واحتوى على خريطة لجنوب الجزيرة العربية رسمها الخرائطي الفرنسي المعروف "دو ليل"، كانت مليئة

بالأخطاء الجغرافية.

... إلا أن أهم تطور في الرحلات إلى الجزيرة العربية تمَّ خلال بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، وأقصد بذلك ظهور الرحلات العلمية المنظمة والتي كان رائدها الجغرافي الألماني المولد "كارستن نيبور".

وتُعد هذه الرحلة من حيث الإعداد لها، وتنوع اختصاصات المشاركين فيها وجنسياتهم، والنتائج التي تمخضت عنها، بلا ريب، نقطة تحول رئيسة في

(1/9259)

أسلوب دراسة الجزيرة العربية ورسم خريطتها. فقد أدركت المراكز العلمية الأوروبية في منتصف القرن أن أراضي الجزيرة العربية فيما يلي السواحل إما أنها مجهولة للأوروبيين أو أنها تحتوي على معلومات غير صحيحة، الأمر الذي أوحى بفكرة إرسال بعثة استكشافية علمية للجزيرة العربية لتصحيح هذه الأوضاع تقدم بها "جون ميخائيليس" لملك الدانمارك آنذاك "فريدريك الخامس" الذي أعجب بالفكرة وقام بتشكيل فريق من خمسة علماء في تخصصات مختلفة أحدهم "نيبور" الذي رأس الفريق، وكان هو الناجي الوحيد من بينهم، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً.

(9260/1)

وإضافة إلى المعلومات الغزيرة والمتنوعة التي جاءت بها تلك الرحلة، فقد احتوت على خرائط تفصيلية لأجزاء من الأراضي في جنوب غرب الجزيرة العربية، وخرائط دقيقة لكثير من مدنها والمناطق المحيطة بها، إضافة إلى خرائط بحرية لأجزاء واسعة من البحر الأحمر والخليج العربي. وبالرغم من أن "نيبور" اعتمد على خريطة "دانفيل"، فإنه صحح كثيراً من الأخطاء التي وردت فيها؛ كما أضاف إليها الكثير من المعلومات الحديثة.

... إن أهم نتائج الرحلة التي عُرفت فيما بعد باسم "رحلة نيبور" كانت في وضع الأسس العلمية للرحلات الفردية

(9261/1)

المنظمة التي جاءت إلى الجزيرة العربية خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، ومن أهمها رحلة الإسبانيّ الذي اتخذ اسم "علي بك العباسي" عام 1807 م، والسويسري "بوركهارت" عام 1814 م، وما تلاهما من رحلات حتى نهاية القرن.

... لقد أثرت تلك الرحلات على اختلاف أهدافها وأشكالها في رسم خريطة الجزيرة العربية وتطويرها، ولكن يمكن القول على الرغم من ذلك إنه إذا كان القرن السابع عشر الميلادي مرحلة تكوين خريطة الجزيرة العربية، فإن النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي كان اجتراراً لتلك الخرائط من قبل

(9262/1)

خرائطيين مختلفين في هولندا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا، بينما شهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي تطوراً جذرياً في رسم خريطة الجزيرة العربية وكثرة المعلومات فيها ودقتها. ويمكن تتبع ذلك على النحو التالي:

استمرار إعادة نشر خرائط القرن السابع عشر الميلادي بما احتوته من أخطاء جغرافية. وخير مثال على ذلك خرائط الهولندي "فان در آ" الذي ظهرت خرائطه عن الجزيرة العربية مرسومة بشكل سيء، فاهتم كثيراً بالتزيين الذي كان سمة مصاحبة للمدارس الخرائطية الهولندية في القرنين السابقين. لذلك يمكن وصف خرائطه

(9263/1)

بأنها ضعيفة من حيث الدقة الجغرافية، سواء في الرسم أو في المعلومة.

شهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر ظهور خرائط دقيقة نسبياً اتصفت بالمعرفة شبه الكاملة بالشكل العام للجزيرة العربية والبحار المحيطة بها، والظاهرات الساحلية الرئيسة، والجزر المجاورة لها. ويمثل ذلك خير تمثيل خرائط "دانفيل" و"نيبور" وغيرهما. وكان التغير في البداية في الشكل العام للجزيرة العربية وتفاصيل سواحلها، ثم حدث تغير في طبيعة المعلومات ودقتها، خصوصاً في المناطق الداخلية التي كانت بعيدة عن اهتمام الرحلات السابقة التي اتصفت

(9264/1)

بطبيعتها التجارية وتعاملها مع المناطق الساحلية أو القريبة منها. وأسهمت الرحلات العلمية المنظمة بشكل كبير في دعم ذلك التغير النوعي الذي نراه، على سبيل المثال، في التخلص من التأثير الكلاسيّ في تقسيم الجزيرة العربية إلى أقاليم فرعية، فلم نعد

نرى أسماء مثل بلاد العرب السعيدة أو بلاد العرب الصحراوية إلا فيما ندر، بينما ظهرت تقسيمات اعتمدت على مسميات معاصرة مثل تقسيم الجزيرة العربية إلى: نجد واليمامة في الوسط، الأول في الشمال والثاني إلى الجنوب منه، والحجاز على طول الساحل الغربي، وحضرموت والشحر

(9265/1)

والمهرة وعُمان والبحرين على طول السواحل الجنوبية والشرقية للجزيرة العربية.

يُلاحظ تناقص المعلومات والمسميات في كثير من الخرائط التي ظهرت في منتصف القرن، وذلك في وسط الجزيرة العربية وفي المنطقة التي يغطيها الربع الخالي أو غيره من الصحاري الكبيرة، والتي كانت مليئة بالظاهرات التضاريسية والمائية والمواقع العمرانية منذ ظهور الخرائط البطليميوسية إلى أوائل القرن الثامن عشر الميلادي. هذا الاتجاه ربما يرجع إلى الدقة التي كان يسعى إليها الخرائطيون في خرائطهم.

(9266/1)

من أهم ما تميّزت به العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادي هو ظهور خرائط بحرية تفصيلية دقيقة وبمقاييس رسم كبيرة للبحار المحيطة بالجزيرة العربية، وبالأخص البحر الأحمر ومداخله وجزره وموانئه، وكذلك بحر العرب المتصل به. وقد اشتهر الخرائطيون الفرنسيون بإنتاج سلسلة كبيرة من تلك الخرائط، خصوصاً في العقدين الأخيرين من القرن، اللذين شهدا نشاطاً بحرياً فرنسياً كبيراً في شمال المحيط الهندي والبحار العربية.

(9267/1)

لم تتغير المعلومات التضاريسية والمائية الخاطئة أو المحدودة في خرائط الجزيرة العربية إلا بعد الرحلات العلمية المنظمة، ولكن هذا التغيير لم يتضح بشكل كامل إلا في خرائط القرن التاسع عشر.

... هذا ملخص عام للمراحل التي مر بها رسم خريطة الجزيرة العربية من خلال تأثير الرحلة الأوروبية إلى المنطقة. ومما سبق أود التركيز في ختام حديثي على نقطتين رئيستين:

... أولاً: قد يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي: ما القيمة

العلمية لهذه الوثائق التاريخية التي تعاون في إعدادها وإخراجها مجموعة من الأفراد والشركات التجارية

(9268/1)

والمؤسسات العسكرية التي تنتمي لعدد من الدول الأوروبية المختلفة؟

... لاشك في أن الخرائط القديمة تُعد وثائق علمية مهمة، حيث تحتوي على معلومات غزيرة عن الجزيرة العربية، بعضها صحيح، وإن اختلف عن المألوف أو المتداول في الوقت الحاضر؛ كما أن بعض تلك المعلومات تعرض للتصحيف أو التعديل أو الاجتهاد خلال نقل المعلومة من مصادرها الأولى حتى وصلت إلى مراكز صنع الخرائط في أوروبا. فالباحث الذي يُقارن أي مجموعة من الخرائط صدرت في فترة زمنية واحدة يقع في حيرة من أمره بسبب التباين الكبير في المعلومات عن الظاهرة

(9269/1)

الواحدة بين تلك الخرائط لذلك، فإن الأمر يتطلب الحذر الشديد عند استخدام تلك المعلومات، خصوصاً حول

المناطق التي كانت قريبة من آذان الرحلة وبعيدة عن أعينهم.

... ثانياً: تتعلق النقطة الأخرى بالتقارير والرسائل والخطابات التي اعتُمد عليها عند إعداد الكثير من الخرائط الأوروبية القديمة. فلا شك في أن أرشيفات كثير من المكتبات الوطنية ومراكز الوثائق في بعض الدول مثل البرتغال وإسبانيا وهولندا وإيطاليا مليئة بالوثائق التاريخية عن الجزيرة العربية، ولاشك في أن مسح تلك المراكز والبحث فيها عن هذه الوثائق

(9270/1)

وترجمتها، سوف يسهم بإضافات مهمة عن تاريخ الجزيرة العربية وجغرافيتها تُغطي فترة زمنية طويلة.

(9271/1)

دور بعض المدن الإيطالية في الصراع العثماني – الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط وأثره في المغرب العربي خلال القرن

العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي

... ... الدكتور محمد أحمد محمد دار

... ... كلية الآداب ـ الإسكندرية

مقدمة

... اكتسب الدور الذي لعبته بعض المدن الإيطالية في الصراع العثماني الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط أهمية بالغة استوجبت البحث والدراسة، نظراً لتأثير تلك المدن المباشر على سيرورة ذلك الصراع واستفادتها الجمة من النتائج التي تمخضت عنها

(9272/1)

المراحل المختلفة للصدام العثماني الإسباني.

... ومن النتائج التي عادت على المدن الإيطالية المشارِكة في الصراع العثماني الإسباني تثبيت أقدامها في الحوض الغربي للبحر المتوسط وتكوين مراكز تجارية بمحاذاة ساحل المغرب العربي واحتكار التجارة في داخل إسبانيا ذاتها، حتى أن بعض تلك المدن قامت بالتحكم في التجارة التي كانت قائمة بين إسبانيا والعالم

الجديد مستغلة انهماك ملوك إسبانيا، خاصة "شارل كان" (أو "شارل الخامس") ملك إسبانيا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في الصراع ضد العثمانيين، كما أنها تمكنت من

(9273/1)

الاستحواذ على ثقة حكام بلاد المغرب العربي الذين خضع بعضهم للحكم العثماني المباشر مثل الجزائر، وغير المباشر مثل تونس، بالقدر الذي سمح لهم بالتنقل بين مدن المغرب العربي الساحلية بحرية كبيرة، بل بلغ الأمر حداً جعلهم يتوسطون بين المجاهدين البحريين وبعض البلاد الأوربية بقصد افتداء الأسرى من أيدي القائمين على ذلك النشاط العسكري البحري.

... ومن خلال ما تم عرضه من حيث المكاسب الكبرى التي حصلت عليها بعض المدن الإيطالية من جراء احتدام الصراع العثماني الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط، يتبين بوضوح

(9274/1)

حرص قادة هذه المدن على استمرار ذلك الصراع مدة طويلة، وذلك باستخدام سياسة الازدواجية التي مارستها البندقية (فينسيا) - على سبيل المثال - الأمر الذي جعلها عرضة للكراهية التي نتج عنها تعرضها لخوض حرب ضارية مع العثمانيين، وذلك عندما يتكشف لأطراف الصراع طبيعة ذلك الدور، حتى أن البابوية أطلقت عليها صفة الهرطقة لتعاونها مع العثمانيين في بعض الأحيان.

... أما جنوة، فقد لوحظ ميلها الشديد لمساندة إسبانيا في صراعها ضد العثمانيين وتقديم كافة الوسائل الممكنة لاستمرار ذلك الصراع، لما كان يعود على جنوة من مكاسب

(9275/1)

عظيمة القيمة.

... غير أن الأمر الأكثر أهمية يتمثل في ما عاد على جنوة والبندقية، وغيرها من المدن الإيطالية، من فوائد كبيرة، تمثلت في استمرار الوجود الإيطالي المؤثر في الحوض الغربي للبحر المتوسط بعد أفول نجم القوتين العظيمتين المتمثلتين في العثمانيين والإسبان منذ أواخر القرن السادس عشر على أثر الهزيمة التي

تكبدتها إسبانيا على يد إنجلترا، وما نتج عنها من تحطيم الأسطول الإسباني، وكذلك قيام الحركات الانفصالية ضد السيطرة العثمانية المباشرة في تونس. كل ذلك أدى إلى فتح المجال وإتاحة الفرصة كاملة أمام

(9276/1)

جنوة وفينسيا للإسهام بنصيب كبير من أجل تحقيق نهضة حضارية شاملة في بلاد المغرب العربي في جل الميادين والمجالات، ولا سيما المجال الاقتصادي والعمراني والثقافي.

... ولكي يمكن تفهم طبيعة ذلك الدور الذي لعبته بعض المدن الإيطالية في الصراع العثماني الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط، كان من الضروري إعطاء خلفية موجزة عن علاقات العثمانيين بالمدن الإيطالية منذ القرن الرابع عشر الميلادي حتى سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين عام 1453 م، حتى يتبين بوضوح كيفية انتقال المنافسة من البحر الأسود والبلقان

(9277/1)

وآسيا الصغرى إلى حوض البحر المتوسط بشقيه الشرقي والغربي، ومن ثم يتضح كيفية انتقال الصراع إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط، ثم نقوم بإماطة اللثام عن دور بعض المدن الإيطالية في ذلك الصراع، ثم نستعرض أثر ذلك الدور على المغرب العربي من خلال عرضنا المتواضع في ثنايا البحث.

ا . علاقات العثمانيين ببعض المدن الإيطالية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين

... لكي يمكن تفهم حقيقة الدور الذي أدته بعض المدن الإيطالية في الصراع العثماني الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن العاشر الهجري /

(9278/1)

السادس عشر الميلادي، يكون من الضروري أن نتعرض لطبيعة ما كانت عليه علاقات العثمانيين بهذه المدن الإيطالية في الفترة التي سبقت القرن السادس عشرة الميلادي، ولا سيما البندقية وجنوة، وذلك لتأثُّر هاتين المدينتين بظهور العثمانيين قوَّةً أخذت في الازدياد منذ ولاية عثمان بك الذي حكم في الفترة الممتدة بين عامي 1281 و 1324 م(1)

(1) يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، جزءان، ترجمة عدنان محمود سليمان، مراجعة د. محمود الأنصاري، الطبعة الأولى، تركيا، استانبول، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، 1408 هـ/ 1988 م، ج 1، ص. 89.

(9279/1)

، وذلك على اعتبار امتلاك تلك المدينتين لمراكز تجارية متعددة ومتناثرة في آسيا الصغرى والبلقان وشبه جزيرة المورة، حتى أنه يطلق على دوق البندقية لقب "صاحب ربع ونصف ربع الإمبراطورية البيزنطية"(1).

... ونظراً لظهور العثمانيين في تلك المنطقة الحيوية، جاء توسعهم على حساب تلك المراكز التجارية. فقد نتج عن ذلك ـ بطبيعة الحال ـ وجود احتكاكات وصدامات مباشرة بين العثمانيين

(1) شارل ديل، البندقية جمهورية أرستقراطية، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر، القاهرة، دار المعارف، 1948، صفحات متفرقة.

(9280/1)

وجمهوريتي البندقية وجنوة(1). ومما ساعد على حتمية قيام تلك الصراعات ذلك الضعف الذي أخذ يدب في كيان الإمبراطورية البيزنطية نتيجة لنجاح الحملة الصليبية الرابعة في تكوين مملكة لاتينية بالقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية (1204 ـ 1261 م) في محاولة من بابا روما للتوحيد بين الكنيستين الشرقية والغربية(2)

---

(1) و. هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، أربعة أجزاء، ترجمة: أحمد رضا محمد رضا، مراجعة د. عز الدين فودة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994، ج 3، ص. 116.

(2) يوسف بن علي بن رابع الثقفي، دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب على مر العصور، جدة، جامعة الملك عبد العزيز، 1411 هـ/ 1990 م، ص ص. 45 ـ 46.

(9281/1)

. وانطلاقاً من العوامل التي أدت إلى ضعف الإمبراطورية البيزنطية، اضطرت البندقية وجنوة للدخول في مواجهات مباشرة ضد العثمانيين للدفاع عن مصالحهما

وقد استتبع ذلك عقد معاهدات واتفاقيات خاصة بعد أن أدركت تلك المدن عدم قدرتها على وقف التوسع العثماني في ربوع تلك المنطقة(1).

... ومما تجدر الإشارة إليه عقد أولى المعاهدات بين العثمانيين والبنادقة في أغسطس 1305 م بعد خوض حروب طويلة بينهما. وبموجب تلك المعاهدة، تم تقديم عدة تنازلات متبادلة بين الطرفين. فبينما

---

(1) و. هايد، مرجع سابق، ج 3، ص ص. 116 ـ 117.

(9282/1)

تنازلت البندقية عن أحد مراكزها التجارية في سانتا مورا ((Saint Maure نجح المفاوض والدبلوماسي البندقي أندريا جريتي Andrea Gritti)) في إقناع الأمير العثماني عثمان بن بأخذ الجزية من الرعايا البنادقة المقيمين داخل حدود مملكته في فترة لا تقل عن 3 سنوات، كما نجح في إقناعه بزيادة مدة إقامة الممثل البندقي من عام إلى 3 أعوام(1).

... غير أن ثمة عوامل أخرى أدت إلى احتدام الصراع بين العثمانيين والبنادقة، يكمن أهمها في وجود تنافس كبير بين البندقية وجنوة، الأمر الذي ساعد على إتاحة

(1) المرجع السابق، ص. 193.

(9283/1)

الفرصة الكاملة أمام العثمانيين للتوسع. ففي الوقت الذي اندلع فيه القتال بين السلطان العثماني أورخان والبندقية بين عامي 1351 و 1352 م، نجح الجنويون في كسب ود السلطان العثماني حتى أن مطالبهم كانت تحظى باهتمام بالغ من السلطان العثماني أورخان. ولعل ذلك التقارب العثماني الجنوي أثار حفيظة البنادقة الذين أخذوا يروجون لدى بابا روما جريجوار الحادي عشر للقيام بحملة صليبية على الإمبراطورية البيزنطية ومن ثم يمكن للبنادقة السيطرة على مراكز جنوة التجارية ووقف التوسع العثماني، مما حمل الجنويين على عقد معاهدة

(9284/1)

دفاع مشترك بين جنوة والإمبراطور البيزنطي يوحنا وابنه أندرونيقوس في 2 نوفمبر 1382 م. وقد تضمنت تلك المعاهدة بعض البنود لصالح السلطان العثماني مراد

الأول. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تعداه إلى نجاح جنوة في إبرام أول اتفاق مباشر بينهما وبين السلطان العثماني مراد الأول في 8 يونيو 1387(1).

... ومما يجدر ذكره أن المنافسة البندقية الجنوية التي كانت في أوجها طيلة القرن الرابع عشر الميلادي تقريباً، ساهمت بنصيب كبير في تعاظم نفوذ العثمانيين، على اعتبار ما لتلك المنافسة من

---

(1) المرجع السابق، ص. 117.

(1/9285)

آثار سلبية على هاتين الجمهوريتين تمثلت في إنفاقهما لأموال طائلة وخوضها لحروب شرسة كانت نتيجتها ما بين هزيمة وانتصار. وقد أدى كل ذلك في النهاية إلى ضعف أساطيلهما البحرية وتقويض سيادتهما على البحار كالبحر الأسود والأدرياتي والمتوسط؛ كما أن البندقية استطاعت أن تنهي الصراع الدائر بينها وبين جنوة لصالحها، وذلك عندما تلقت جنوة هزيمة منكرة على يد البنادقة في معركة كيوجا، الأمر الذي دفع الجنويين لعقد صلح تورينو في عام 1381 م(1)

(1) عبد العزيز الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، الطبعة الرابعة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1982، ص. 109.

(9286/1)

.

... وعلى الرغم من الانتصار الحاسم الذي حققه البنادقة على جنوة، فإن البندقية وجدت نفسها مضطرة إلى انتهاج سياسة تقاربية مع العثمانيين من جهة والإمبراطور البيزنطي من جهة أخرى، كتلك التي كانت تنتهجها جنوة. ففي عام 1368 م دخلت البندقية في مفاوضات مع السلطان العثماني مراد الأول بقصد الحصول على مراكز تجارية داخل حدود السلطنة العثمانية، ثم عادت البندقية واستكملت تلك المفاوضات في عام 1384 م(1). ومن الراجح أن عودة المفاوضات بين البندقية والعثمانيين منذ 1368 م ترجع

(1) و. هايد، المرجع السابق، ص. 118.

(9287/1)

إلى العداء الشديد الذي كان يجمع بين دوق البندقية والسلطان العثماني أورخان.

... على أي حال، حاولت البندقية مراراً الدخول في مفاوضات مع الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس منذ عام 1324 م حتى عام 1390 م على يد الدبلوماسي ماريو مالبيرو (Mario Malbiro)) الذي بدأ مفاوضات مع يوحنا الخامس في عام 1386 م. ولكن كان مآل تلك المفاوضات الفشل؛ ولعل ذلك يرجع إلى قدم العداء بين البنادقة وأباطرة بيزنطية مذ قامت البندقية بإقناع بابا روما بتوجيه الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية بدلاً من القاهرة. إلا أن الأمر

(1/9288)

سرعان ما تغير عقب تولي السلطان العثماني بايزيد الأول حكم السلطنة العثمانية في عام 1389 م، حيث أخذ على عاتقه تضييق الخناق على الإمبراطور البيزنطي يوحنا. وقد ساهم ذلك مساهمة فعالة في تغير موقف الإمبراطور من البندقية عندما حاولت من جديد الدخول في مفاوضات معه على يد فرانشيسكو فوسكولو ((Francesco Foscolo الذي تمكن من تحقيق تقدم كبير، وذلك في عام 1390 م.

... ومن الراجح أن السلطان العثماني مراد الأول وبايزيد الأول، لم يكن لدى كليهما أي علم بازدواجية سياسة دوق البندقية، حتى أن مراد الأول منح البنادقة

(9289/1)

حرية التنقل داخل حدود مملكته(1)؛ كما أن الأوربيين أرسلوا بسفرائهم إلى دوق البندقية يطلبون منه التدخل لدى السلطان العثماني بايزيد الأول لإطلاق سراح أسراهم الذين وقعوا في يد العثمانيين في معركة نيقوبوليس (1396 م) والتي انتهت بتحقيق نصر كبير لصالح بايزيد الأول(2). وكان من الممكن أن تتفادى أوربا هذه الهزيمة إذا ما امتثلت لرأي دوق البندقية الذي كان

---

(1) المرجع السابق، ص. 120.

(2) بول كولز، العثمانيون في أوروبا، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993، ص. 211.

(9290/1)

يقضي باستخدام ما للبنادقة من حظوة لدى السلطان العثماني وإنهاء حصاره للقسطنطينية دبلوماسياً. ومما يدل على رغبة البندقية في استمرار سياسة التقارب مع العثمانيين أنه على الرغم من الحشد الأوربي للقضاء على بايزيد الأول تمثلت مساهمة البندقية في أسطول صغير استخدم قائده توماسو منتشنجو أسلوب المراوغة والخداع كي لا يتعرف العثمانيون على هويته؛ كما اشتركت جنوة أيضاً في التحالف الأوروبي ضد العثمانيين في معركة نيقوبوليس(1).

---

(1) و. هايد، مرجع سابق، ص. 120.

(9291/1)

... على أي حال، تمكن العثمانيون من تحقيق العديد من الإنجازات الحربية طيلة القرن الرابع عشر منذ حكم عثمان بك حتى بايزيد الأول. وقد ترتب على ذلك اعتراف الإمبراطورية البيزنطية وحلفائها المتمثلين في بعض المدن الإيطالية بواقعية الوجود العثماني. تجلى ذلك بوضوح في تسابق كل من جنوة والبندقية على كسب ود العثمانيين وإبرام المعاهدات والاتفاقيات التي تضمن لهم حرية التجارة داخل حدود

الإمبراطورية العثمانية في طور نشأتها. ويمكننا القول إن العثمانيين لم يتمكنوا من جني الثمار المرجوة على أثر انتصارهم على

(9292/1)

التحالف الأوروبي في معركة نيقوبوليس 1396 م، وذلك لتعرض تلك المنطقة لمتغيرات كبيرة تمثلت في هجمة تيمورلنك الشرسة التي استهدفت سائر القوى على مختلف انتماءاتها وهوياتها، الأمر الذي تطلب حتمية دخول هذه القوى في تحالف مشترك كي يكون من اليسير مواجهة هذا الخطر للقضاء عليه. وقد ضم هذا التحالف الدولة العثمانية والإمبراطورية البيزنطية وجنوة والبندقية. وسرعان ما انهار هذا التحالف عقب وفاة تيمورلنك(1).

---

(1) جلال يحيى، العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، 1989، ص. 66.

(9293/1)

... وطبيعي أن يكون قد نتج عن تعرض منطقة آسيا الصغرى والأناضول لتلك المتغيرات أوضاع جديدة يمكننا أن نعتبرها أسباباً لتميز القرن الخامس عشر الميلادي عن سابقه. تمثلت تلك الأوضاع في الانهيار السريع الذي تعرضت له الإمبراطورية البيزنطية؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى ظهور الفوضى والانقسامات وما استتبع ذلك من نشوب حروب أهلية بين المتنازعين على الحكم من العثمانيين والقوى المحلية الأخرى، مما دفع بالبندقية إلى الدخول في مواجهات مباشرة مع السلطان العثماني محمد الأول الذي تولى الحكم في الفترة الممتدة بين عامي

(9294/1)

1413 م و 1421 م؛ كما استطاع أن يبرم عدة اتفاقيات مع البندقية لحسم هذه الصدامات(1). هذا، بينما اختلف الأمر مع جنوة التي رغبت في الاحتفاظ بسياستها التهادنية مع السلطان العثماني محمد الأول وإمبراطورية بيزنطة على السواء(2)، ولعل ذلك يعود إلى عدم استقرار الأوضاع الداخلية لجنوة ذاتها.

---

(1) عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب

الحديث (1) الشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر، الإسكندرية، دار الثغر، 1971، ص. 57.

(2) و. هايد، المرجع السابق، ص. 144.

(1/9295)

... وعندما تولى مراد الثاني حكم الدولة العثمانية في الفترة الممتدة بين عامي 1421 و 1451 م، لم تتوقف البندقية عن استخدام السياسة العدائية تجاه العثمانيين نظراً لتلاحق الانتصارات التي كان يحققها كل من محمد الأول ومراد الثاني على حساب الإمبراطورية البيزنطية والمراكز التجارية لجنوة والبندقية، حيث دخلت الأخيرة في حروب متواصلة استمرت خمسة أعوام (1425 ـ 1430 م) انتهت بإحراز مراد الثاني لنصر كبير على البندقية واستطاع بموجب هذا النصر الكبير إحكام سيطرته على سالونيك في عام 1430 م، الأمر الذي حمل البندقية

(1/9296)

على عقد الصلح مع العثمانيين وإبرام معاهدة غاليبولي في عام 1431 م(1). ومع ذلك، لم تخف البندقية سياستها التقاربية مع يوحنا السادس إمبراطور الدولة البيزنطية الذي حكم في الفترة الممتدة بين عامي 1425 و 1448 م حيث دعا إلى ضرورة تقديم كل العون والتأييد والمساعدة من أجل قطع الطريق على مراد الثاني الذي حاول فرض الحصار على القسطنطينية، الأمر الذي دفع بابا روما أوجين الرابع لعقد مؤتمرات عديدة لهذا الغرض في الفترة ما بين 1437 و 1440 م. وقد ترتب على ذلك إرسال

---

(1) يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ج 1، ص. 122.

(9297/1)

البندقية بثلاث سفن حربية كبيرة إلى القسطنطينية في عام 1438 م؛ وبعد ذلك التاريخ بستة أعوام أرسلت البندقية بعشر سفن حربية للدفاع عن القسطنطينية، كما قدمت جنوة العون للغرض نفسه(1).

... سبق أن أشرنا إلى سياسة جنوة التهادنية مع العثمانيين والإمبراطور البيزنطي. ومما يجدر ذكره أنه على الرغم من دخول جنوة في تحالف مع إمبراطور

بيزنطة للدفاع عن القسطنطينية، بدا لنا بوضوح أن التقارب الجنوي العثماني لم يكن إلا من قبيل الحصول على امتيازات تجارية أكثر بدافع من تحقيق نوع من

---

(1) و. هايد، المرجع السابق، ص. 144.

التفوق على البندقية، حتى لو كان ذلك على حساب استخدام سياسة التقارب مع السلطان العثماني مراد الثاني. فعندما أغارت البندقية على أحد مراكز جنوة التجارية في عام 1430 م، بادرت جنوة بالكتابة إلى مراد الثاني لطلب العون والمساعدة لصد الهجوم البندقي(1)، انطلاقاً من استمرار جنوة في استخدام سياسة التقارب مع العثمانيين. وما أن تولى السلطان العثماني محمد الثاني الملقب بمحمد الفاتح حكم الإمبراطورية العثمانية في الفترة الممتدة بين عامي 1451 و1481 م، حتى قام بتحديد الاتفاقيات مع

---

(1) المرجع والصفحة نفسهما.

جنوة التي كانت مبرمة سلفاً مع والده مراد الثاني(1).

... إلا أن علاقات العثمانيين في النصف الثاني من القرن الخامس عشر مع جنوة والبندقية وغيرهما من المدن الإيطالية قد اختلفت تماماً من حيث الكون والكيف على الفترة السابقة، وذلك على أثر تحقيق السلطان العثماني محمد الفاتح وابنه بايزيد الثاني لانتصارات حاسمة ترتب عليها اتساع دائرة نفوذ العثمانيين في آسيا الصغرى والبلقان. كما سيطر العثمانيون على المضايق المتحكمة في البحر الأسود وبحر إيجة والبحر الأدرياتي، حيث كان

---

(1) جلال يحيى، المرجع السابق، ص. 73.

(9300/1)

لسقوط القسطنطينية في يد محمد الفاتح أبلغ الأثر في تحقيق هذه الإنجازات. وعلى أثر سقوط القسطنطينية، أصبحت جنوة والبندقية وجهاً لوجه أمام السلطان العثماني محمد الثاني. وكان من الممكن أن تحتفظ جنوة والبندقية بمكانتهما التجارية في منطقة الشرق الأدنى لولا مساهمتهما الفعالة البرية والبحرية بقصد الدفاع عن القسطنطينية ضد أي هجوم عثماني؛ فعلى

الرغم من الاتفاقيات المبرمة بين السلطان وجنوة، فإن الأول استطاع أن يكشف المخططات الجنوية التي استهدفت الوقوف جنباً إلى جنب مع اليونانيين ضد العثمانيين تحت جنح

(9301/1)

الظلام، على الرغم من تظاهر جنوة برغبتها في الاحتفاظ بعلاقات ودية مع السلطان محمد الثاني(1). وعلى ذلك أخذ السلطان العثماني على عاتقه القضاء على جُل المراكز التجارية لجنوة على البحر الأسود وبحر إيجة منذ عام 1454 م. عقب سقوط القسطنطينية مباشرة. حتى 1475 م. وقد ساعده على ذلك تعرض جنوة لمنازعات وانقسامات

---

(1) عبد الجليل التميمي، دراسات في التاريخ العربي العثماني من 1453 إلى 1918 م، سيرميدي زغوان، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات، مارس 1994، ص ص. 33 ـ 37.

(9302/1)

داخلية نتيجة للصراع على الحكم، كما خضعت جنوة للسيطرة الفرنسية، ومن ثم دخلت جنوة ذاتها في حوزة دوق ميلانو؛ كل هذه العوامل مجتمعة جعلت من اليسير تصفية الوجود الجنوي في الشرق الأدنى(1).

... أما البندقية، فقد كان لموقفها العدائي المعلن والصريح من السلطان العثماني محمد الثاني ـ خاصة عندما بذلت كل الجهود للحيلولة دون نجاح هذا الأخير في بسط هيمنته على القسطنطينية، حيث قاد ممثل البندقية بنفسه أعداداً كبيرة من البنادقة لتشكيل خط دفاع عن القلعة ضد العثمانيين(2)

(1) و. هايد، المرجع السابق، ص. 183.

(2) المرجع نفسه، ص. 165.

(9303/1)

ـ الأثر البالغ والفعال في تشكيل القاعدة التي انطلق منها السلطان لتحديد سياسته المستخدمة ضد البنادقة حتى وفاته في عام 1481م. فعلى الرغم من محاولات البندقية المتكررة للتعبير عن رغبتها في الاحتفاظ بعلاقات سليمة مع السلطان، حيث كانت تمتنع عن

حضور الاجتماعات المتعلقة بتكوين حملة صليبية كبرى لطرد العثمانيين من القسطنطينية وغيرها والتي كان يدعو لعقدها باباوات روما أمثال نيقولا الخامس وبيوس الثاني بين عامي 1454 و1463 م. وفي بعض الأحيان كان يحضر سفراء البندقية تلك الاجتماعات قبيل نهايتها دون الاكتراث

(9304/1)

بما دار من مناقشات خلالها(1). إلا أن ذلك. فيما يبدو. لم يسفر عن نتيجة تذكر فيما يتعلق بحجم التقارب بين العثمانيين والبنادقة في ذلك الوقت.

... ويظهر أن ثمة عوامل حالت دون التقارب البندقي العثماني، منها ما قد يتعلق باعتبار أن البندقية وجدت نفسها مضطرة إلى ملء الفراغ الذي تركه سقوط القسطنطينية. مقر الإمبراطور البيزنطي. في يد العثمانيين، وما استتبع ذلك من سقوط الممالك التابعة لآخر الأباطرة البيزنطيين، هذا الأمر الذي يتطلب جهوداً مضنية من أجل سد هذا الفراغ خاصة في شبه

---

(1) المرجع نفسه، ص. 179.

(9305/1)

جزيرة المورة؛ كما أسرعت بعض المدن لوضع نفسها تحت السيطرة البندقية باعتبارها القوة الوحيدة التي يمكن أن تكفل لهم الحماية. وفي الوقت نفسه كانت تلك المناطق تعد أكثر ثراء بحكم استراتيجية موقعها خاصة من الناحية الاقتصادية، مما دفع البندقية دفعاً - دونما تريث ولا تفكير - إلى بسط سيطرتها عليها؛ بل أخذت في ضم الجزر المحيطة الواحدة تلو الأخرى مستغلة انشغال السلطان العثماني في حروبه في البلقان.

... بيد أن هذا التوسع البندقي أدى إلى اعتبار البندقية المنافس الوحيد للسلطان العثماني في تلك المنطقة. وعلى ذلك

(9306/1)

اضطرت البندقية للدخول في مواجهات حربية طويلة الأمد ضد السلطان العثماني، ولا سيما بعد نجاحه في مد نفوذه إلى البوسنة في عام 1463 م وما تمخض عن ذلك من نتائج تمثلت في تحكم السلطان العثماني في المضايق، الأمر الذي أقلق البندقية. وقد حملها ذلك على

الاشتراك في التحالف المشترك بقيادة بابا روما "بيوس الثاني" ضد العثمانيين؛ إلا أن الحلف سرعان ما انهار بفشل الحملة الصليبية عندما توفي بابا روما في العام التالي وهو في طريقه إلى القسطنطينية، ومن ثم تراجع دوق البندقية عن استكمال سير الحملة(1)

---

(1) يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص. 154، 158.

(9307/1)

. وما أن فرغ السلطان من تأكيد سيطرته على البوسنة، حتى قام بإرسال أسطول قوي لوقف الزحف البندقي في المورة. وعندما علم بالتكتل الأوروبي ضده بقيادة ملك المجر، استخدم استراتيجية تدل على دهاء ذلك الرجل قضت بالإعلان عن رغبته في التفاوض مع البندقية. وفي الوقت ذاته استطاع أن يمنح لفلورنسا -إحدى المدن الإيطالية- امتيازات ذات قيمة عالية كي يضمن عدم اشتراكها في التكتل المذكور. وعلى أثر ذلك تفرغ لقتال ملك المجر، حيث تمكن من إحراز نصر حاسم عليه، ثم ما لبث أن فرض على البندقية شروطاً قاسية رفضها البنادقة .

(9308/1)

بطبيعة الحال ـ مما جعله يعلن أن المفاوضات سارت في طريق مسدود.

... وفي ضوء الانتصار الذي حققه محمد الثاني على ملك المجر، تفرغ لقتال البنادقة. وخاضت البندقية حروباً ضارية ضد السلطان لمدة ستة عشر عاماً من عام 1463 حتى عام 1479 م، استخدمت خلالها كل الوسائل التي تمكنها من تحقيق بعض المكاسب ولكن دون جدوى، بل على العكس خضعت في النهاية للسلطان العثماني وقبلت جميع الشروط التي فرضها مقابل عقد الصلح معه في عام 1479 م. ومن تلك الوسائل التي اتبعتها البندقية في حربها ضد السلطان تقديم العون والمساعدة لأعدائه

(9309/1)

من أمثال أوزون حسن (حسن الطويل) زعيم الآقيونولو بتبريز والذي وجدت فيه حليفاً قوياً يمكنها من تشتيت جهود السلطان؛ إلا أنه قد توفى في عام 1478 م(1). كما قدمت العون والتأييد للمتمردين على السلطان من أمثال قره مان أوغلو إبراهيم بك، وكذلك قامت

البندقية بأربع عشرة محاولة لاغتيال السلطان العثماني محمد الثاني، ولكن باءت جميعها بالفشل حتى عام 1479 م. ولكنها استطاعت أن تنجح في المحاولة الخامسة عشر بقصد اغتيال السلطان في مايو 1481 م على يد طبيبه الخاص اليهودي البندقي الذي اعتنق

---

(1) المرجع نفسه، ص. 167.

(9310/1)

الإسلام وتسمى باسم يعقوب باشا الذي دس السم له أثناء حصاره للبندقية في إيطاليا بعد أن أعلنت له البندقية عن مكافأة قدرها ما يوازي 17 مليون دولار حالياً؛ إلا أنه لم يتمكن من تسلمها بعدما قبض عليه الجنود العثمانيون وقاموا بإعدامه(1).

... وحريٌّ بنا أن نشير إلى حرص بعض المؤرخين - خاصة الأجانب منهم - على إلصاق التهم وتوجيه اللوم المصحوب بالنقد لسياسة السلطان العثماني محمد الثاني، ولا سيما مع الرعايا البنادقة، حيث ذكر البعض روايات متعددة عن شدة قسوته في التعامل مع

---

(1) المرجع نفسه، ص. 136، 159، 177.

(9311/1)

الأسرى بأنه كان يقذف بهم من أعلى البرج؛ كما ذكر البعض أنه أمر بسجن جميع الرعايا البنادقة المقيمين داخل حدود مملكته لصالح الفلورنسيين. وعليه، فإنهم يرجعون قلة البنادقة الموجودين بالإمبراطورية العثمانية إلى قسوة الوسائل المستخدمة إزاءهم؛ بينما تفيد بعض الروايات أنه انطلاقاً من طول فترة الحروب والصدامات بين البنادقة والعثمانيين، ونتيجة لكثرة ما تكبدته البندقية من خسائر، قامت بإصدار الأوامر إلى مواطنيها بعدم الذهاب إلى القسطنطينية وبرجوع المواطنين المقيمين داخل حدود الإمبراطورية العثمانية فوراً إلى

(9312/1)

الوطن الأم. ويمكننا الاستدلال بذلك على تعمد بعض المؤرخين النَّيْلَ من شخص السلطان العثماني محمد الثاني، خصوصاً فيما يتعلق بسياسته مع الأجانب وغير المسلمين. ومما يؤكد زيف ما ذهب إليه هؤلاء المؤرخون طبيعة ما كانت عليه علاقات السلطان العثماني

بفلورنسا وأنقونا، حيث منحهما امتيازات تجارية كبيرة جعلت فلورنسا ترفض الاستجابة لنداء بابا روما من أجل الاشتراك في التحالف المنعقد ضد العثمانيين؛ كما ذهب بعض المؤرخين إلى ما هو أبعد من ذلك حيث تناولوا سياسة السلطان محمد الثاني بالذم والقدح. فقد ذكر البعض أن

(9313/1)

السبب المباشر في وقف المفاوضات بين السلطان والبنادقة بعد انتصاره على التكتل الأوروبي بقيادة ملك المجر إلى جانب دوق فلورنسا الذي حاول بث الكراهية والوقيعة لإيغار صدر السلطان على البنادقة(1). إلا أننا نميل إلى ترجيح رواية أخرى مفادها أن السلطان لم يدخل في مفاوضات مع البندقية إلا من قبيل التفرغ لمحاربة ملك المجر(2). وما أن انتهى من قتاله، حتى فرض شروطاً قاسية بقصد حمل البندقية على رفضها.

---

(1) و. هايد، المرجع السابق، ص. 190، 191، 203.

(2) يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص. 158.

(9314/1)

... وعندما تولى السلطان العثماني بايزيد الثاني الحكم في الفترة الممتدة بين 1481 و 1512 م، شهدت هذه السنوات تغيراً ملحوظاً في حجم ونوعية علاقات الدولة العثمانية الخارجية، خاصة علاقاتها مع بعض المدن الإيطالية وعلى رأسها البندقية وفلورنسا. ومن ذلك ما حدث في 16 يناير 1482 م، عندما أضاف السلطان العثماني بعض الملاحق إلى المعاهدة المبرمة بين والده محمد الثاني والبندقية، حيث قام بإدخال تعديلات جوهرية على بنودها: ففيما يتعلق بمائة وخمسين ألف من الدوكات (عملة بندقية) التي تعهد البنادقة بدفعها على ثلاثة

(9315/1)

أقساط، أمر السلطان العثماني بايزيد الثاني بإلغاء هذا البند؛ كما خفض الرسوم الجمركية على البضائع التابعة لرعايا البندقية من 5٪ إلى 4٪؛ كما قام بخفض الجزية السنوية التي تعهد البنادقة بدفعها وقدرها عشرة آلاف من الدوكات؛ ثم أمر بعودة الممثل البندقي إلى القسطنطينية للفصل في القضايا المتعلقة بالبنادقة

المقيمين بإستانبول(1)؛ كذلك عمل السلطان على تأكيد حسن العلاقات بين العثمانيين وفلورنسا مثلما كانت عليه طبيعة تلك العلاقة خلال فترة حكم والده(2)

---

(1) و. هايد، المرجع السابق، ص. 191.

(2) المرجع نفسه، ص ص. 205، 206.

(9316/1)

. إلا أن ثمة رواية تفيد بدور دوقية ميلانو في العمل على تدهور علاقة السلطان بايزيد الثاني بالبندقية، الأمر الذي جعله يعلن الحرب عليها في عام 1499 م. وبعد إحراز عدة انتصارات، تمَّ الصلح مع البندقية في عام 1503 م(1). ونرى أنه من الراجح أن بايزيد الثاني كان قد استخدم سياسة السلم والمهادنة مع الإيطاليين حتى يفوت الفرصة على أخيه "جيم" المقيم لديهم تفادياً لعدم تقديم العون والمساعدة له للاستيلاء على الحكم من أخيه السلطان بايزيد الثاني(2)

---

(1) جلال يحيى، المرجع السابق، ص ص. 99 ـ 103.

(2) عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص. 41.

، إلا أن لدينا تبريراً آخر مفاده أن "جيم" توفي في عام 1495 م؛ كذلك كانت إيطاليا تعاني ـ في تلك الفترة ـ من محاولات فرنسا لغزوها، كما أن هناك بعض الروايات التي تفيد بتقديم السلطان بايزيد الثاني العون والمساعدة المادية لبعض الحكام الإيطاليين(1).

... مما سبق تبين أن علاقات العثمانيين ببعض المدن الإيطالية، ولا سيما جنوة والبندقية، اتسمت بكونها غير مستقرة نتيجة للأحداث الجسام التي تخللت القرن الخامس عشر الميلادي، حيث تم القضاء على الإمبراطورية البيزنطية عقب

---

(1) يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص. 212.

سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين سنة 1453 م؛ كما تم القضاء على جميع مراكز جنوة التجارية الكائنة على البحر الأسود وفي البلقان؛ وكذلك خاضت البندقية غمار الحرب مع العثمانيين لفترات طويلة استمرت أكثر

من نصف قرن تقريباً تكبدت خلالها خسائر كبيرة على كل الأصعدة، مما جعلها ـ في الأخير ـ تبدي موافقتها على جميع شروط الصلح التي فرضها السلطان محمد الفاتح في عام 1479 م. غير أن هذه الأوضاع سرعان ما تغيرت وتبدلت باعتلاء السلطان العثماني بايزيد الثاني عرش السلطنة سنة 1481 م، حيث شهدت علاقاته مع البندقية

(1/9319)

تطوراً ملحوظاً اعتبرناه أساساً قوياً ومتيناً استندت إليه طبيعة علاقات البندقية مع العثمانيين بعد ذلك على الرغم من بعض الأحداث التي أدت إلى تدهور هذه العلاقة في فترات قليلة من القرن السادس عشر الميلادي. ومما دفعنا إلى تبيُّن ذلك الرأي أنه بمجرد تولي السلطان سليم الأول الحكم، قام بتجديد المعاهدات مع البندقية؛ كما استجاب لطلبها الذي تمثل في تقديم العون والمساعدة لها ضد الإمبراطور مكسيمليان(1). وعندما نجح في مد نفوذه إلى الشام ومصر (1516 ـ 1517 م)، طلبت البندقية

---

(1) و. هايد، المرجع السابق، ص. 194.

(9320/1)

من قنصلها التفاوض معه حول تجديد المعاهدات التي كانت مبرمة بينها وبين المماليك وقد اختلفت الروايات حول تاريخ عقد هذه المعاهدات التي وافق السلطان العثماني سليم الأول على تجديدها. فمنهم من يرى أن المعاهدة تم عقدها في فبراير 1517 **م**(1)

---

(1) Etienne Compe, L'Egypte Ottomane de la conquête par Sélome 1517 à l'arrivée de Bonaparte 1798, extrait du Précis de l'histoire d'Egypte, Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, Tome III, s. d., p. 6؛

... **عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج** 2، **طبعة ثانية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،** 1986، **ص.** 700.

(9321/1)

، ومنهم من يذهب إلى أن إبرام المعاهدة كان في سبتمبر 1517 م. وقد سار خلفه على النهج نفسه، حيث تم تجديد هذه المعاهدات مع البندقية منذ أوائل حكم السلطان العثماني سليمان القانوني الذي تولى الحكم في الفترة الممتدة بين عامي 1520 و 1566 م. وكان تجديد هذه المعاهدة في عام 1521 م(1)؛ كما تم الاتفاق على إبرام معاهدة أخرى في عام 1528(2)؛ كما أعلنت البندقية للسلطان سليم الأول عن رغبتها في دفع 8000 ليرة

---

(1) عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص. 58.

(2) عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ج 2، ص. 708.

(9322/1)

ذهبية إلى العثمانيين جزية سنوية عن جزيرة قبرص التي كانت تدفعها للمماليك في السابق(1).

II. دور بعض المدن الإيطالية في الصراع العثماني الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي

... بعد إلقاء الضوء على علاقات العثمانيين مع بعض المدن الإيطالية مثل جنوة والبندقية وغيرهما منذ القرن الرابع عشر حتى النصف الأول من القرن السادس عشر تقريباً، يجدر بنا أن نميط اللثام عن دور هذه المدن الإيطالية في الصراع العثماني

---

(1) يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص. 233.

(9323/1)

الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط أثناء القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، على اعتبار ما له من أهمية كبيرة في احتدام ذلك الصراع تارة وفي هبوط حدته تارة أخرى. ولكي يمكن تفهم هذا الدور بوضوح، كان من الضروري معالجة أهم الدوافع التي ساهمت في حتمية انتقال مسرح الأحداث من الشرق الأدنى إلى البحر المتوسط بشقيه الشرقي والغربي. وتتمثل أبرز تلك الدوافع في الآثار التي نجمت عن سقوط القسطنطينية في يد العثمانيين وما ترتب على ذلك من تقلص الوجود الجنوي والبندقي(1)

---

(1) نعيم زكي فهيم، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، المكتبة العربية، وزارة الثقافة، القاهرة، 1393 هـ/ 1973 م، ص. 132.

(1/9324)

: فقد عادت البندقية إلى تقوية علاقاتها القديمة مع المماليك؛ كما حاولت جنوة تنشيط تجارتها والعمل على تثبيت أقدامها في المناطق الواقعة غرب البحر المتوسط منتهزة في ذلك السماح الذي أبداه لها باباوات روما بالاتجار مع المسلمين شريطة أن لا تشتمل السلع المتبادلة على الأسلحة؛ تعويضاً لهما عما فقدتاه على يد العثمانيين(1).

---

(1) Marcel Clerget, Le Caire: étude de géographie urbaine et d'histoire, T. II, Le Caire, 1939, p. 303.

(1/9325)

... أما عن ظهور الدور البندقي والجنوي في الحوض الغربي للبحر المتوسط، فقد كانت ثمة عوامل ساعدت على إبرازه، منها ما تعلق بتعرض علاقات البندقية مع المماليك لفترات من التوتر مثلما حدث في عهد السلطان المملوكي إينال، عندما قام بتضييق الخناق على التجار الأجانب بمن فيهم البنادقة، وذلك عقب سقوط القسطنطينية مباشرة خشية من تزايد أعدادهم؛ كما بلغ حد التدهور بينهما منذ عام 1511 م عندما تم القبض على اثنين من البنادقة، كانا يحملان في جعبتهما خطابين من الشاه الصفوي: أولهما إلى قنصل البندقية في الشام، والثاني

(9326/1)

إلى قنصلها بالإسكندرية. حينها تأكد السلطان الغوري من وجود اتصالات بين البندقية والصفويين الذين كانت علاقاتهم بالمماليك قد اتسمت بالتوتر، وكان رد فعل السلطان الغوري على ذلك عنيفاً تمثل في التضييق على البنادقة بعد الزج بالرجلين في السجن(1)؛ أيضاً كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح على يد البرتغاليين في عام 1497 م من أكبر العوامل التي أدت إلى الاعتماد على البحر المتوسط شرياناً حيوياً للتجارة

بعدما انصرفت الأنظار عن

---

(1) Thenaud, Voyage d'Outre-Mer de Jean Thenaud, Paris, 1888, pp. LXIII, LXIV.

البحر الأحمر نتيجة من نتائج تحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح(1).

... ومهما يكن من أمر، نجح البنادقة في كسب ثقة العثمانيين والأوربيين على السواء، حيث رأى العثمانيون أنه من الضروري المحافظة على التعايش السلمي مع البنادقة كي يمكنهم مواجهة الخطر الشيعي الذي شكل تهديداً مباشراً لممتلكاتهم(2)؛ كما رأى الأوروبيون أنه لا غنى

---

(1) A. H. Lybyer, « The Ottoman Turks and the Routes of Oriental Trade », in: English Historical Review, 1915, pp. 30, 577–588.

(2) يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص. 236.

عن البنادقة على اعتبار ما لهم من خبرات واسعة في ارتياد البحار وقدرتهم على ممارسة دور الوساطة التجارية ببراعة عن طريق نقل السلع الشرقية من الإسكندرية إلى شمال غرب أوربا (إنجلترا والبلاد المنخفضة) منتهزين في ذلك قدم علاقاتهم بالمغرب العربي مما أدى إلى قلة تعرض مجاهدي البحر لسفنهم. وإمعاناً من البنادقة في تجنب هجوم مجاهدي البحر على سفنهم، كانوا يؤجرون سفنهم لبعض التجار العرب كي يضمنوا سلامة بضائعهم والمحافظة على مكاسبهم. وقد أثار نجاح البنادقة حفيظة بعض البلاد الأوروبية الذين رأوا في البندقية

(1/9329)

منافساً كبيراً لهم، الأمر الذي حملهم على ممارسة هذه البلاد للقرصنة ضد السفن التابعة للبندقية(1). ونتيجة لاستخدام البندقية لتلك السياسة، تبنى بعض المؤرخين عدة أراء تبين منها مدى تحاملهم على البندقية: فالبعض وصف سياستها بـ "اللعب على الحبلين"، والبعض ذكر أن البندقية في حاجة

للعثمانيين وليس للعثمانيين حاجة إليها(2)

---

(1) نعيم زكي فهيم، المرجع السابق، ص. 105، 112 ـ 113.

(2) عبد الرحمن عبد الله الشيخ، »دور المسلمين في تشكيل اقتصاد إمبراطوريتي جنوة والبندقية في القرنين السادس عشر والسابع عشر«، المجلة التاريخية المغاربية (للعهد الحديث والمعاصر)، العدد 43 ـ 44، تونس، نوفمبر، 1986، ص. 159.

(9330/1)

.

... ويمكننا الرد على ذلك التحامل الذي أبداه هؤلاء المؤرخون من خلال ذكر النص الكامل للبنود الاثنين والثلاثين التي تضمنتها معاهدة العثمانيين مع البنادقة عقب دخول السلطان سليم الأول مصر والتي أبرمها معهم في فبراير 1517 م، حيث نصت المادة الأولى على أن رعايا جمهورية البندقية يقابلون من الجميع بترحاب وعدالة وسلوك اجتماعي ممتاز. ولا يجوز لأحد أن يوجه لهم إهانة أو يظهر استعلاء عليهم في جميع الموانئ المصرية. ومن حقهم البيع والشراء، والأخذ

والعطاء. ولا تجوز مساءلتهم عن خطإ ارتكبه غيرهم من رعايا الدول

(9331/1)

الأخرى في المدن المصرية أو شخص آخر من البنادقة. ويجب إعلان هذا المبدإ القانوني بين جميع القضاة وأعضاء الهيئات المسؤولة. كما يجب معاملتهم طبقاً للأصول والتقاليد والعادات المتبعة دون أي تعديل. ونصت المادة الثانية على تجنب إلحاق أي ضرر أو أذى أو مضايقة للبنادقة أو الاستيلاء بالقوة على ممتلكاتهم أو متاجرهم أو سفنهم أو ما تحويه مخازنهم؛ ولا يحق لأيٍّ فرد أن يجبرهم على البيع إذا لم يوافقوا على هذا البيع؛ كما لا يجبرون على دفع عوائد غير عادية وتعسفية(1)

---

(1) عبد العزيز محمد الشناوي، المرجع السابق، ص ص. 700 ـ 701.

(9332/1)

. بينما أشارت المادة الثالثة إلى أنه بإمكان قنصل البندقية أن يبيع ويشتري بالنقد بلا حدود. وحددت

المادة الرابعة أن القنصل يحصل على مرتبه مجمداً كل أربعة أشهر. وأشارت المادة الخامسة إلى أن القنصل دون سواه هو الذي يباشر الشؤون القانونية والقضائية لمواطنيه ويبت في الأمور لصالحهم. أما من يرفض الانصياع لحكم القنصل ويلجأ إلى القضاء الوطني الإسلامي ينقض قانوناً أو حكماً أصدره القنصل، فلا يستمع له ولا يحق للقاضي استقباله أو نظر شكواه، وعليه أن يعيده إلى قنصله؛ وإذا رغب القنصل في طرد أحد البنادقة، فعلى

(9333/1)

القاضي أن يعينه في ذلك كما منح القنصل حق إبداء الرأي في سفر الأفراد على سفن بلاده، ولا يحق لأي فرد كان أن يغادر الإسكندرية على ظهر إحدى سفن البندقية ليعود إلى وطنه أو يبارحها لأي قطر شاء إلا بعد الحصول على تأشيرة خروج من القنصل نفسه. وحددت المادة السادسة من المعاهدة الإجراءات المسموح باتخاذها إزاء سفن البنادقة عند وصولها إلى الإسكندرية، فأشارت إلى أنه إذا وصلت أي سفينة من البندقية إلى الإسكندرية أو باسم البنادقة، فلا يحق

لأي موظف أن يرتقيها ويحصل منها على ما يريد من معلومات أو بيانات، ولا أن

(9334/1)

يحتك بأي فرد من أفرادها؛ ويسمح لهم بصعود السفينة في حالة الشراء فقط، ويدخل ضمن السلع المشتراة التي تحملها السفن "العسل والفاكهة". وحرمت المادة السابعة على أي فرد، سواء كان حاكم الإسكندرية أو أحد أعيانها أو تجارها أو أي فرد من أفراد الشعب أو قبطانها على سفن الميناء، أن يستولوا على أي سفينة للبنادقة تصل للميناء، أو على حمولتها أو قلوعها أو مجاديفها لأي سبب سواء كان قرضاً أو شراء. وأشارت المادة الثامنة إلى أنه يصير تنفيذ كل التجديدات أو المباني اللازمة أو الأعمال الضرورية في فندق البنادقة. وإذا

(9335/1)

رغب القنصل في بناء مبنى جميل خاص به، فله ما يشاء، وممنوع منعاً باتاً التعرض له أو رفع أجور العمال أو

أسعار المواد اللازمة للبناء، وممنوع على أي فرد مضايقتهم أو التعرض لهم إذا رغبوا في استخدام صناع من البندقية أو من الأجانب دون الوطنيين. ونصت المادة التاسعة على أنه إذا رغب قنصل البندقية في مقابلة أي فرد من الحكومة في دواوينهم وامتطى صهوة جواده أو رغب في الخروج إلى الحدائق العامة أو أي مكان في أطراف الإسكندرية، فله أن يفعل ما يشاء وليس لأي فرد أن يعترضه. وقد أشارت المادة العاشرة إلى أن السلع

(1/9336)

الخاصة بالبنادقة والتي تتعرض للغرق يصير إنقاذها وترد لأصحابها. أما السلع التي تقذفها الأمواج إلى الشاطئ نتيجة الغرق لإحدى السفن، فهي ترد لأصحابها إن عرفوا أو أثبتوا شخصياتهم وملكياتهم لهذه السلع، أو ترد لقنصل البندقية. أما السفن التي تصل للشاطئ سليمة بعد إنقاذها، فيجب صيانتها. وجاء في المادة الحادية عشر أن سفن البنادقة التي تلجأ لميناء الإسكندرية لسوء الأحوال الجوية ولا ترغب في تفريغ حمولتها لها أن تتم رحلتها إذا لم يكن على متنها سلع للإسكندرية. وإذا كان عليها سلع خاصة بالإسكندرية، فلا يحق لها

(9337/1)

أن تفرغها في أي ميناء إلا في الإسكندرية نفسها. وإذا كانت هذه السفن تحمل سلعاً لم ينص عليها في المعاهدات ولا يتاجر فيها إلا في الإسكندرية، منعت من التعامل أو الملاحة بمحاذاة سواحل مصر. أما العلاقات السياسية، فقد أوردت المادة الثانية عشرة من المعاهدة المعقودة بين البندقية والسلطان سليم عام 1517 م أنه إذا حدث أي حادث لأحد رعايا السلطان من البندقية أو الجزر التي تقع تحت سيطرتها، لم يسأل القنصل عن هذا، ولم يتحمل النتائج المترتبة على الحادث. أما من يكون مديناً لأحد رعايا السلطان، فإنه يحجز حتى يوفي

(9338/1)

الدين ويسري ذلك على الضامن. ويجب أن يكون جميع رعايا السلطان في أمان تام في موانئ البندقية والبلاد الخاضعة لها. كما أعفت المادة الثالثة عشرة القنصل البندقي من دفع ضريبة الإيراد أو ضرائب أخرى ما عدا في حالات صدور أوامر خاصة بذلك من السلطان أو من القضاء.

واشترطت المادة الرابعة عشرة أنه إذا أصر القراصنة على أسر سفن للبنادقة ثم جاءوا لبيعها في موانئ السلطان، فمحظور على أي فرد شراؤها أو التعامل مع القراصنة ويجب تحرير السفينة وما عليها من متاجر وردها للتجار. ونصت المادة الخامسة عشرة من المعاهدة أنه

(9339/1)

إذا حدث خلاف بين عربي وأجنبي سواء كان من البندقية أو من غيرها أو قنصل أو تاجر أو أي مواطن عادي أو عضو في وكالتهم، لم يحق لأي فرد إهانته أو إلحاق الضرر به. واشترطت المادة السادسة عشرة أن كلاًّ من هذه المنح والشروط والامتيازات الممنوحة للبنادقة تسجل في سجل خاص ويتعرف عليها كل مسؤول بالولاية وكل من له علاقة بالأجانب أو بالحكم في مصر. وبموجب المادة السابعة عشرة، يكون لقنصل البندقية السلطة التامة إذا رغب في أن يقيم نائباً عنه "قنصلاً بالنيابة" أو نائب قنصل في البرلس وله أن يفعل ذلك كلما شاء دون

(9340/1)

استئذان السلطان. وقد قررت المادة الثامنة عشرة أن قنصل البنادقة قد عرض أنه حسب المعتاد آنذاك كانت تصل بعض السفن من كريت أو أقطار تابعة للبندقية تجلب كميات من الزيت اللازم للسفن وكان المعتاد بيعها على ظهر السفن، ولكن سلطات الإسكندرية كانت ترفض هذا البيع لكي تبيع ما لديها في مستودعاتها. هذا الأمر ـ كما أشارت تلك المادة ـ كان ينبغي أن يتدارك؛ فسفن البندقية كانت تستطيع منذ عقد المعاهدة فصاعدا بيع هذا الزيت دون إنزاله للساحل ولا يعترضها أي فرد. وفي حالة وصول هذه السفن إلى بولاق، تتبع القواعد المرسومة

(9341/1)

في هذا الميناء. وقد أشار قنصل البندقية ـ في المادة التاسعة عشرة ـ إلى العبيد والفقراء الأجانب الذين يعيشون في الإسكندرية واعتادوا الورود إلى فندق البنادقة لكي يأكلوا. وكان إذا مات أحد العبيد بالفندق، طولب القنصل بدفع ثمنه، وكان الثمن يفرض مرتفعاً. وقد اشترطت هذه المادة أن يمنع هذا منذ ذلك الحين. كذلك حظرت المادة العشرون على موظفي الجمرك والحمالين والكشافين مضايقة البنادقة في حالة إعادة

تسليمهم الفواكه أو سلع أخرى تحملها سفنهم(1).

وفيما يتعلق

---

(1) Etienne Compe, op. cit., T. III, pp. 99, 91.

برسوم الحمالين والكشافين وأجورهم، فقد نصت المادة الحادية والعشرون على أن يدفع دينار واحد من كل سلة توابل مملوءة ويحملها الكشاف البحري ويحصل الحمال على دينار واحد عن كل سلة يحملها. وقررت المادة الثانية والعشرون إنقاص وتخفيض الضرائب التي تدفع عمن يموت من الأجانب في بلاد السلطان. كما قررت المادة الثالثة والعشرون أن الإفرنجي الذي يرد القاهرة من الإسكندرية أو رشيد أو دمياط لا تحصل منه ضرائب لا في حله ولا في ترحاله. واختصت المادة الرابعة والعشرون من المعاهدة المعقودة بين السلطان سليم الأول والبندقية

عام 1517 م بالإشارة إلى أن السماسرة الذين يعملون لدى الوسطاء التجاريين لهم حق استخدام تراجمة، ولا

يمنع عنهم معاونة التراجمة الرسميين لقاء رسوم معينة. كما قررت المادة الخامسة والعشرون أنه في حالة نقل البضائع المستوردة أو المصدرة من الجمرك للسفن وبالعكس لا يطلب القنصل ولا التاجر بشيء ما كما لا يحق منع التجار من توزيع الفواكه المحفوظة والمسكرة والطازجة على المسافرين وبيعها لهم. هذا، بينما حددت المادة السادسة والعشرون أنه لا يجوز إطلاقاً مضايقة القنصل أو التجار أثناء تجوالهم وتنزههم في حدائق

(9344/1)

الإسكندرية وعلى ضفاف القناة أو في أي مكان آخر. وأكدت المادة السابعة والعشرون حق التجار البنادقة في شحن سلعهم وتوزيعها وتفريغها في قواربهم وسفنهم الخاصة، كما أكدت المادة الثامنة والعشرون أن للبنادقة حق شحن سلعهم وتفريغها وتوزيعها في قواربهم وسفنهم الخاصة. وسوغت المادة التاسعة والعشرون للكشافين القيام بعملهم في حالات الشحن والتفريغ والذي يكون بموافقة البنادقة ومرافقتهم، وما يفسده أو يستهلكه الحمالون يجب أن يعوض عنه

البنادقة. واشترطت المادة الثلاثون أن لا يتصدى أي فرد للقنصل أو لتجار البنادقة إلا

(1/9345)

عن طريق القضاء وأمام المحاكم، ويراعى ألاّ يؤخذ الابن بجريرة الأب، ولا الأب بجريرة الابن، إلا إذا كان أحدهما جنى من الآخر شخصياً أو مالياً. أما الديون، فتكون استعادتها حسب الشريعة. كما اشترطت المادة الحادية والثلاثون، أن جميع التجار ومرافقوهم الذين يصلون إلى موانئ مصر يعاملون بكل احترام واعتبار من الجميع. وفي خاتمة المعاهدة نصت المادة الثانية والثلاثون على أن قنصل البندقية في الإسكندرية قدم مذكرة قرر فيها أن البنادقة كانوا يتمتعون أيام دولة المماليك الشراكسة بالإعفاء من ضريبة البهار، ولكن حدث أن

(1/9346)

فرضت حكومة السلطان قنصوه الغوري رسوماً جديدة بلغت خمسة آلاف دينار سنوياً، ويطالب القنصل بإعادة تقرير هذا الإعفاء الضريبي وتقرر الاستجابة لهذا

الطلب(1).

... يتضح من مواد هذه المعاهدة مدى الاستفادة التي عادت على البندقية. فبمقارنة ما عاد عليها من فوائد عظيمة القيمة مع حقيقة ما كان عليه وضع البندقية في أوروبا، يتبين أن

---

(1) فاروق عثمان أباظة، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، 1994، ص ص. 73 ـ 79.

(9347/1)

هناك بوناً شاسعاً؛ حيث أنه على الرغم من الدور الهام الذي لعبته البندقية في أوروبا والذي تمثل في إنشاء وكالات تجارية على طول الطريق حتى شمال غرب أوربا، فقد اتضح لنا بجلاء مدى ما تكبدته البندقية من معاناة تمثلت في تعرض سفنها التجارية لهجمات القراصنة من البرتغاليين الإسبان ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك سلفاً. وقد عُد ذلك أكبر مبرر للبندقية لتدعيم علاقاتها بالعثمانيين. ويمكننا إماطة اللثام عن الدور الحقيقي

للبندقية في الصراع العثماني الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط عندما شرع السلطان العثماني

(9348/1)

سليمان القانوني في توجيه ضربات قوية إلى السواحل الإيطالية الخاضعة للملك الإسباني شارل الخامس. ففي عام 1533 م استدعى الصدر الأعظم سفير البندقية في استانبول وطلب منه الكتابة إلى السلطان العثماني: «اكتب لسيدك عن تحركات السمك في قاع البحر وكيفية تجهيز ملك إسبانيا لسفنه في السواحل الإيطالية». يتبين لنا من ذلك النص قدر التعاون الذي كان قائماً بين البندقية والعثمانيين مقابل إطلاق يد البنادقة في ممارسة التجارة داخل الأراضي التابعة للسلطان بحرية كاملة(1)

---

(1) Paul Coles, The Ottoman Impact on Europe, 1968London, Thames Hadsan, 133–139pp.

(9349/1)

.

... أما عن سياسة البندقية المزدوجة ـ وفقاً لما ذكره بعض المؤرخين ـ فإننا لا نتفق مع ذلك الرأي. وقد استندنا في ذلك على تلك العداوة بين إسبانيا والبرتغال من جهة، والبندقية من جهة أخرى باعتبار أنهما كانتا تنظران لها على أنها منافس قوي يجب الخلاص منه. وكذلك كانت جنوة تسهم بنصيب كبير في تدعيم تلك السياسة. وكانت جنوة تعد منافساً رئيساً للبندقية منذ قرون عديدة مضت. ولعل الذي دفع بعض المؤرخين للقول باستخدام البندقية لسياسة مزدوجة في الصراع العثماني الإسباني يرجع في منشئه إلى انضمام البندقية في الحلف

(9350/1)

المبرم ضد العثمانيين بين عامي 1570 م و 1573 م. وكان هذا الحلف يضم عدداً كبيراً من البلاد الأوروبية بقيادة بابا روما؛ إلا أنه يمكننا تفنيد ذلك الرأي. فمن الأرجح أن انضمام البندقية للتحالف المبرم ضد العثمانيين كان يعود إلى وجود بعض المحاولات الجادة والناجحة من قبل العثمانيين لمد نفوذهم على الجزر الكائنة بشرق البحر المتوسط، حيث قام العثمانيون

بمهاجمة مالطة في 1565 م، ومن ثم قامت بمهاجمة قبرص في عام 1570 م(1).

---

(1) بول كولز، المرجع السابق، ص. 97، 99 ـ 100.

(9351/1)

... وعلى الرغم من هزيمة العثمانيين في موقعة لبانتو عام 1571 م على يد التحالف الأوروبي، فإن البندقية لم ترغب في الزج بنفسها في حرب طويلة مع العثمانيين؛ وعليه فقد انسحبت البندقية من الحلف المذكور في 1573 م. وقد أدى تفكك الحلف الأوروبي إلى نجاح العثمانيين في مد نفوذهم إلى تونس عام 1574 م(1). كما اعترفت البندقية بتبعية قبرص

---

(1) عبد الجليل التميمي، «الخلفية الدينية للصراع الإسباني ـ العثماني على الولايات المغربية في القرن السادس عشر »، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 10 ـ 11، يناير 1978 م، ص. 24.

(9352/1)

للعثمانيين ودفع مبلغ 300 ألف دوقة تعويضاً للعثمانيين، فضلاً عن تعهد البندقية بدفع جزية سنوية لهم مقابل امتلاكها لبعض الجزر في البحر المتوسط واستمر التعاون البندقي العثماني لفترة طويلة لا يشوبه أي توتر إلا في القرن السابع عشر(1).

... بعد هذه المعالجة لدور البندقية في الصراع العثماني الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط، يجدر بنا أن نشير إلى دور جنوة في احتدام ذلك الصراع، حيث أن الأمر كان يختلف تماماً عن دور البندقية. فقد أحجمت جنوة عن

---

(1) عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المرجع السابق، ص. 159.

(9353/1)

تدعيم علاقاتها مع المماليك، ومن ثم أخذت تبذل جهوداً لتدعيم علاقاتها مع العثمانيين. ولكن كان لنجاح السلطان العثماني محمد الثاني في القضاء على مراكزها التجارية بالشرق الأدنى أكبر الأثر على مكانتها التجارية. ولم تجد جنوة أي مبرر للعمل على عودة علاقاتها مع المماليك وأبرز أسباب ذلك يعود إلى نجاح

البنادقة في تقوية علاقاتهم مع المماليك، وأن أية محاولة كانت تستهدف دخولهما في علاقات قوية مع المماليك كان من شأنها أن يعرض جنوة لمواجهات مباشرة مع البندقية، خاصة وأن جنوة لم يكن في مقدورها أن تصمد أمام

(1/9354)

البندقية نظراً لتفشي الفوضى نتيجة للانقسامات والمنازعات الداخلية، مما عرضها لسيطرة إحدى المدن الإيطالية عليها .وهي ميلانو .لفترة طويلة(1).

... يضاف إلى تلك الأسباب مدى ما كانت تتمتع به جنوة من حظوة كبيرة ومكانة متميزة في الحوض الغربي للبحر المتوسط منذ العصور الوسطى، حيث كانت تربطها مع بلاد المغرب العربي معاهدات واتفاقيات مكنتها من ممارسة التجارة البحرية(2). الأمر

---

(1) المرجع نفسه، ص ص. 160 ـ 161.

(2) J. Abun-Nasr, A History of the Maghrib, London, Cambridge University Press, 1971, p. 212.

(1/9355)

الذي جعلها تقوم بإنشاء مراكز تجارية لها على طول الساحل الغربي، ولاسيما في بلاد المغرب الأقصى. وعندما تطلع البرتغاليون إلى السيطرة على الطرق التجارية تمهيداً لاحتكارها، كان عليها أن تصطدم مباشرة بالجنويين. وما من شك في أنه بعد استيلاء البرتغال على سبتة المغربية 1415 م نجحت في زعزعة الاستقرار الجنوي في تلك المنطقة، حيث كان التجار الجنويون يتنقلون بين طنجة وأصيلة والعرائش بحرية كاملة. كما كان ميناء قادش الإسباني هو خير مستقبل للسفن الجنوية المحملة بالسلع المغربية. وقد بلغ الأمر حداً جعل

(9356/1)

البرتغاليين يلجأون إلى استخدام القوة للقضاء على مكانة جنوة التجارية في تلك المنطقة، حيث قاموا بتوجيه حملات عسكرية على مراكز جنوة التجارية. ففي عام 1514 م هاجم البرتغاليون السفن الجنوية في ميناء حاحة (جنوب المغرب)، وقاموا بالاستيلاء على بعضها. وفي عام 1517 م وجه البرتغاليون حملتين عسكريتين على

الميناء نفسه، الأمر الذي حمل الجنويين على ضرورة إخلاء تلك المراكز التجارية(1)، وذلك بعد أن لجأ بعض

---

(1) Damios de Gais, Les portugais au Maroc de 1495 à 1521, pp. 1947, trad. R. Ricard, Rabat, 215 -216.

(1/9357)

الجنويين إلى ملك البرتغال لإقناعه بالتوقف عن ملاحقة البرتغاليين لهم(1).

... ونتيجة لتلك الأسباب مجتمعة، رأى الجنويون أنفسهم مضطرين إلى الارتماء في أحضان إسبانيا بقصد الحماية وإتاحة الفرص أمامهم لممارسة التجارة، مستغلين في ذلك الفراغ الكبير الذي تركه مسلمو الأندلس عقب طردهم من إسبانيا منذ عام 1492 م حتى عام 1609 م، حيث

---

(1) R. Ricard, « Contribution à l'étude du commerce génois au Maroc durant la période portugaise (1415- 1550)», in Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, T. III, 1937, p. 59.

(9358/1)

كانوا يمارسون حرفة تربية الأغنام والماشية. وكان ذلك يعد مصدراً أساسياً لإنتاج الصوف الذي كان إحدى ركائز الاقتصاد الإسباني(1). وعلى ذلك، يمكن القول إن الظروف كانت ممهدة لاستيعاب الإسبان للتجار الجنويين، فضلاً عن استمرار إسبانيا في مخططها التوسعي الذي هدفت من خلاله إلى بسط سيطرتها على بلاد المغرب العربي باعتبار أن ذلك يعد امتداداً لحرب الاسترداد التي تبنتها إسبانيا منذ

---

(1) Corla Rahn Philips, « The Spanish Wool trade 1700- 1780 », in The journal of Economic History, 1982, IV, pp. 770 -775.

(9359/1)

فترة طويلة. ومن أهم هذه الأسباب التي حملت إسبانيا على قبول التجار الجنويين واستيعابهم، الاحتياج الشديد لامتلاك أساطيل بحرية تمكنها من تحقيق هيمنتها، وكانت جنوة تمتلك أساطيل بحرية قوية

ساهمت -بقدر كبير- في إثراء حركة الكشوف الجغرافية، فضلاً عن اعتبارها أمة بحرية لها ماض وتاريخ.

... وبالفعل، لم يجد الإسبان بداً من استيعاب التجار الجنويين والسماح لهم باستخدام موانئهم عوضاً لهم عما فقدوه على يد البرتغال، نظراً لأن حاجتهم إلى الجنويين كانت ملحة وضرورية، ولا سيما أن ما حققه الإسبان من كشوف جغرافية

(9360/1)

في العالم الجديد فتح مجالات عديدة كان لابد من توفير كل الفرص المتاحة لشغلها. وعلى اعتبار تبني الجنويين لجل هذه العمليات، كان لهم الأولوية والسبق في القيام بنشاط تجاري كبير للربط بين إسبانيا والعالم الجديد. ولا ريب في أن الجنويين تمكنوا من تحقيق أرباح طائلة نتيجة احتكارهم للتجارة، خاصة تجارة الذهب، حتى أن البرلمان الإسباني في 1528 م أبدى اعتراضه على الدور الجنوي الاحتكاري لتجارة الذهب لأن إسبانيا كان لا يعود عليها إلا القليل من الربح(1)

---

(1) عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المرجع السابق، ص ص. 165 ـ 166.

(9361/1)

. ومن الراجح لدينا أن الجنويين انتهزوا فرصة استمرار إسبانيا في مخططها التوسعي، مما جعلنا نتبنى رأياً مفاده أنهم لم يألوا جهداً في تشجيع الإسبان على الاستمرار في صراعهم ضد العثمانيين في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وذلك بتقديم كل العون والمساعدة كي يضمنوا لأنفسهم الاستمرار في تحقيق المكاسب الكبيرة التي كانت تعود عليهم من جراء ممارسة التجارة، خاصة تجارة الذهب.

... ومن الراجح أن الملك الإسباني شارل الخامس لم يعبأ بمطالب البرلمان، حيث أنه كان من غير الممكن اتخاذ أي موقف عدائي من الجنويين، لتحمله

(9362/1)

مسؤولية الاستمرار في الصراع ضد العثمانيين

باعتباره إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة دون

الاكتراث بمدى ما يتكبده من خسائر فادحة على الصعيدين الداخلي والخارجي. ومما زاد في أهمية اعتماد الملك الإسباني على جنوة، أن مسرح الأحداث الذي كان يدور عليه الصراع ضد العثمانيين وكان يقتضي ضرورة امتلاكه لأسطول ضخم كان الجنويّون يشكلون العمود الفقري لبناء هذا الأسطول، إذ أمدوه بالفنيين المهرة في صناعة السفن وأصحاب الخبرة في هذا المجال، مما ساعده على إنشاء عدد كبير من السفن الحربية الكبيرة(1)

---

(1) المرجع السابق، ص. 168، 170 ـ 171.

(9363/1)

.

... وبمقارنة دور جنوة في الصراع العثماني الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي بالدور الذي لعبته البندقية في الصراع نفسه، يلاحظ بوضوح تميز الدور الجنوي عن الدور البندقي من حيث المساهمات الفعلية التي قدمها الجنويون لصالح الإسبان والتي كانت ذات تأثير فعال في حسم الصراع لصالح إسبانيا في بعض الأحيان، بينما

لا تدلنا أي من الروايات على وجود أية مساهمات عملية قدمتها البندقية للعثمانيين ضد إسبانيا. ويجدر بنا قبل إبراز مساهمات الجنويين التي قدموها لصالح إسبانيا، أن نعطي

(9364/1)

لمحة سريعة وموجزة عن مراحل الصراع العثماني الإسباني للحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن السادس عشر الميلادي حتى الربع الأخير منه. وقد يبدو للمؤرخين والباحثين أن عروجاً وأخاه خير الدين بربروسا هما أول من حملا راية الجهاد ضد الوجود الإسباني في الشمال الإفريقي باسم السلطان العثماني سليم الأول؛ إلا أنه من الثابت تاريخياً إرسال السلطان العثماني بايزيد الأول حملة عسكرية بقيادة كمال رايس سنة 1487 م، جابت السواحل الإيطالية والإسبانية وقامت بتوجيه عدة ضربات خاطفة إلى السفن الإسبانية التي كانت راسية في

(9365/1)

بعض الموانئ، وذلك بناء على استغاثة بعث بها آخر ملوك غرناطة من بني الأحمر(1).

... توالت الاستغاثات بالسلطان العثماني سليم الأول إلا أن حربه ضد الصفويين حالت دون الاستجابة الفورية، بل اكتفى بتقديم بعض العتاد الحربي للأخوين عروج وخير الدين. ومما يجدر ذكره أن موقف العثمانيين في صراعهم ضد الإسبان كان يتسم بالموقف الدفاعي على أثر الاعتداءات الإسبانية المتلاحقة على المدن المساحلة للبحر المتوسط، عقب سقوط غرناطة في أيديهم سنة 1492 م، مستغلين الفوضى

---

(1) يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص ص. 194 ـ 195.

(9366/1)

السياسية التي كانت تعيشها بلاد المغرب العربي نتيجة للانقسامات والمنازعات الداخلية التي تمخض عنها تفتيت وحدتها إلى كيانات مستقلة سمتها التناحر والتنافس بغرض السيطرة ومد النفوذ(1). وقد بدأت إسبانيا باحتلال بعض المدن الساحلية التابعة للمغرب الأقصى مثل جاسة ومليلة(2). ومنذ عام 1505 م، قامت بتوجيه حملاتها على

(1) جلال يحيى، المرجع السابق، ص. 169 فما بعدها.

(2) شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي في العصر الحديث (ليبيا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب)، ط 1، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1977، ص. 81.

(9367/1)

سواحل المغرب الأوسط، وبخاصة ميناء "المرسى الكبير" في غرب الجزائر، ثم أخذ نطاق العمليات الإسبانية يتسع منذ عام 1508 م حين تولى قيادة الأساطيل الإسبانية "بدرو نافار" (Pedro Navarre) الذي تمكن من الاستيلاء على حجر باديس ووهران وبجاية عام 1509 م؛ كما تمكن من تدمير ميناء طرابلس في السنة التالية. وتحت هذا الضغط الإسباني اضطرت الجزائر إلى دفع جزية لإسبانيا، لأن الزيانيين أثبتوا عجزهم عن حماية هذه الموانئ نتيجة للتفكك السياسي الذي أصاب دولتهم، ونتيجة للثورات الداخلية التي نشبت ضدهم بسبب كثرة الضرائب

(9368/1)

التي فرضوها على الأهالي بحجة مواجهة الغزو الخارجي، مما أثر تأثيراً سيئاً في الوضع الداخلي، واضطرت السلطات الزيانية ذاتها إلى عقد صلح مع إسبانيا في سنة 1512 م، اعترفوا فيه باستيلاء إسبانيا على عدة موانئ في غرب الجزائر(1).

... ويبدو أن حركة الجهاد البحري للمغاربة في الحوض الغربي للبحر المتوسط قد اشتد ساعدها من جديد في العقد الثاني من القرن السادس عشر ولمعت قيادات جديدة من بين رؤساء البحر؛ كما أصبح لها تأثيرها الواضح في بلاد المغرب العربي أمثال بابا عروج وأخيه خير

---

(1) المرجع نفسه، ص ص. 26 ـ 36.

(9369/1)

الدين بربروسا، وكانا من البحارة العثمانيين الذين شاركوا في عمليات الجهاد البحري ضد المحاولات الإسبانية العدوانية، وكونوا قوة إسلامية جديدة كانت بمثابة الخيط الذي ربط المغرب العربي بعلاقات مع العثمانيين والتي كانت تهدف إلى إنقاذ مسلمي الأندلس من اضطهاد الكاثوليك المتعصبين، وحماية

سواحل المغرب العربي من الغزو الإسباني. وقد تعددت خيوط علاقات العثمانيين بالمغرب العربي مع تحول هذه القوة إلى باشوية سياسية في الجزائر ناهضت المعاقل الإسبانية على السواحل الجزائرية والتونسية والليبية، ووصلت بحكمها في

(9370/1)

اتجاه المغرب إلى تلمسان ووجدة ودبدو وبادس(1).

... وتمكن عروج، بالتعاون مع أخيه خير الدين، من تكوين إمارة مستقلة في جزيرة جربة واتخذاها قاعدة بحرية لنشاطهما منذ عام 1504 م. وبدأ عروج نشاطه البحري من هذه القاعدة سنة 1510 م، وذاعت شهرته في الجهاد ضد غارات الإسبان حتى أن رجال القبائل في الجزائر طلبوا منه تقديم العون لهم لاسترداد ميناء بجاية من يد

---

(1) إبراهيم شحاته حسن، أطوار العلاقات المغربية والعثمانية، قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (1510 ـ 1947 م)، الإسكندرية، منشأة المعارف، ص. 119.

(9371/1)

الإسبان، فأجابهم إلى طلبهم ونجح في استرداد هذا الميناء، وقام بعد ذلك بنقل قاعدة نشاطه من جزيرة جربة إلى ميناء جيجل في الجزائر، وتمكن من صد هجوم إسباني على ميناء الجزائر وهدد الحصون التي أقامها الإسبان أمام الساحل وشدد هجماته عليها، وتمكن من بسط نفوذه على أقاليم المغرب الأوسط، الإقليم تلو الآخر، ونجح في مد نفوذه على "تلمسان" عاصمة بني زيان سنة 1517 م. وقام بوضع حاميات في ميريا ومليانه بعد قضائه على حكم بني زيان، وامتد نفوذه إلى حدود المغرب الأقصى. وجاءت الفرصة مواتية لإسبانيا حينما استنجد بها

(9372/1)

آخر حكام بني زيان لاسترداد عرشه الضائع ووجد الإسبان في هذا الاستنجاد وسيلة للتدخل في شؤون الجزائر. وبالفعل، وصلت حملة إسبانية إلى سواحل الجزائر وتوغلت في أرض الجزائر، كما تمكنت من محاصرة تلمسان وأحدثت فوضى في البلاد كانت سبباً في قيام ثورة على حكم بابا عروج وانتهى الأمر بقتله سنة

1518 م(1).

... وخلف خير الدين بربروسا أخاه عروجاً، وتمكن من السيطرة على الموقف باتصاله بالدولة العثمانية التي غدت القوة الإسلامية الكبرى المسيطرة على مصر والشام والحجاز. وفي سنة

---

(1) جلال يحيى، المرجع السابق، ص. 307.

(9373/1)

1517 م طلب خير الدين من السلطان سليم الأول مد يد العون له في جهاده ضد الخطر الإسباني(1) . وبناء على طلبه للعون، أرسل له السلطان سليم في عام 1518 م ألفين من الجنود الانكشارية، كما سمح له بتجنيد أبناء الأناضول. ويمثل هذا الاتصال بداية انضمام المغرب الأوسط إلى الدولة العثمانية. وقد أزعج هذا التقارب القيادات المغربية القديمة التي كانت قائمة في

---

(1) صلاح العقاد، المغرب العربي. دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة، الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، 1980، ص ص. 9 ـ 15.

المناطق المغربية الأخرى، خوفاً من القضاء على ما تبقى لها من نفوذ وسلطان. وتطلب ذلك الأمر أن يضاعف خير الدين جهوده لمواجهة الخطر الإسباني من ناحية والتصدي للقوى الداخلية من ناحية أخرى، خاصة وأن هذه القوى حاولت أن توحد جهودها مع جهود الإسبان للقضاء على قوة خير الدين، الذي نجح في مجابهة هذه الأخطار ووحد أقطار المغرب العربي، وأصبحت دولته بمثابة خط الدفاع الأمامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط(1)

(1) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، ج 3، دون تاريخ، ص. 113.

. وقد منحه السلطان سليمان المشرع لقب "بيلرباي إفريقية" (Beylerbey) ثم لقب "قبودان باشا" (Kapudan Pasha). وقد ازداد نفوذ الدولة العثمانية قوة في بلاد المغرب بعد أن تمكن مراد أغا من تخليص

طرابلس الغرب من يد الإسبان سنة 1551 م، وأصبحت طرابلس قاعدة من قواعد الجهاد البحري في المغرب العربي(1).

... تلك هي الصورة السياسية التي كان يمر بها المغرب الإسلامي والتي رجحت فيها كفة إسبانيا، ولا سيما بعد انتصارها على العثمانيين في معركة "ليبانتو" (1571 م)، حيث ساهم

---

(1) صلاح العقاد، المرجع السابق، ص ص. 19 ـ 25.

(9376/1)

هذا الانتصار في وقف المد العثماني في الحوض الغربي للبحر المتوسط ولذلك نجحت إسبانيا في شل قدرة العثمانيين على تحرير الجيوب التي احتلتها إسبانيا والبرتغال على سواحل إقليم المغرب الأقصى عن طريق نجاحاتهم في استمالة الحكام السعديين إليهم وإيغار صدورهم على العثمانيين؛ كما أن وهران في المغرب الأوسط بقيت تحت الحكم الإسباني حتى قرب نهاية القرن الثامن عشر. وقد حاولت إسبانيا بعد معركة "ليبانتو" بعامين احتلال تونس وإعادة حلفائها

الحفصيين. غير أن المسلمين بقيادة "العلج علي" تمكنوا في العام التالي من إخراج

(9377/1)

الإسبان وحلفائهم الحفصيين بصورة نهائية من تونس في سنة 1574 م(1).

... بعد عرض لمراحل الصراع العثماني الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي، يمكننا إبراز الدور الجنوي في هذا الصراع. فمن الملاحظ أنه ارتبط ارتباطاً وثيقاً بشخصية أندريا دوريا الجنوي الذي كان جندياً مرتزقاً يجيد القتال، ولكنه ما فتئ أن دخل في معترك البحر منذ عام 1512 م بامتلاك

---

(1) جلال يحيى، المغرب الكبير. العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1966، ص ص. 19 ـ 25.

(9378/1)

سفينتين حربيتين، وكان يعمل لحساب فرنسا. وفي عام 1528 م، زاد عدد السفن التي كان يمتلكها إلى 12 سفينة؛ كما انحاز إلى جانب ملك إسبانيا شارل الخامس بعد أن ذاع صيته وتم تعيينه في رتبة أمير البحر (أدميرال) (1). كانت الظروف مواتية تماماً في الحوض الغربي للبحر المتوسط حيث المجال الخصب المتمثل في استمرار الصدامات المباشرة بين بعض المجاهدين البحريين التابعين للعثمانيين وبعض المجاهدين البحريين المستقلين الذين تحركوا بدافع من الأخذ بالثأر نظير طردهم من الأندلس. هذا من

---

(1) بول كولز، المرجع السابق، ص. 90.

(9379/1)

جهة، وبين الإسبان الذين شكلوا خطاً دفاعياً قوياً عما حققوه من انتصارات. وفي الوقت نفسه كانوا بحاجة لزيادة عددهم وعتادهم لمهاجمة سواحل المغرب العربي انطلاقاً من "خير وسيلة للدفاع الهجوم". ولتحقيق تلك الغاية، كان على شارل الخامس إتاحة الفرصة الكاملة لأندريا دوريا ليصول ويجول في البحر المتوسط؛ كما كان من أهم العوامل التي دفعت بشارل الخامس لانتهاج

هذا النهج تلك الأموال التي تدفقت عليه من البابوية والبلاد الأوروبية الأخرى لصرفها على بناء السفن وتسليحها كي يمكنه الاستمرار في مواجهة العثمانيين.

(9380/1)

... وعلى الرغم من الامتيازات المتعددة التي منحها العثمانيون للبنادقة، فإن الشواهد التاريخية أثبتت وجود مساهمات فعالة للبندقية في الصراع العثماني الإسباني لجانب الإسبان؛ إذ دلتنا إحدى الروايات التاريخية على قيادة أندريا دوريا الجنوي لأسطول مكون من 45 سفينة إسبانية و80 سفينة بندقية و26 سفينة بابوية لمهاجمة سواحل المغرب العربي في 1537 م(1). ومما يؤكد فعالية دور بعض المدن الإيطالية في الصراع العثماني الإسباني خلال القرن السادس عشر أنه على الرغم من وجود فترة سلم

---

(1) المرجع نفسه، ص ص. 90 ـ 91.

(9381/1)

استمرت من عام 1545 م حتى عام 1550 م بين العثمانيين والإسبان نتيجة لعقد الهدنة بينهما في عام 1545 م(1)، فإنه ـ فيما يبدو ـ استمرت العمليات الحربية، حتى أن أحد المؤرخين أشار إلى ارتفاع عدد السفن التابع لأسطول أندريا دوريا إلى 39 سفينة في عام 1552 م(2)، مما يوضح استمرار العمليات الحربية التي تطلبت زيادة الأسطول التابع لأندريا دوريا الجنوي.

---

(1) جلال يحيى، العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، ص. 360.

(2) عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المرجع السابق، ص. 150.

(9382/1)

... على أي حال، لم يقتصر دور أندريا دوريا الجنوي على المساهمة المباشرة في العمليات الحربية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، بل كان يمارس مهامَّ متعددة تمثلت في القيام بنقل الجنود الإسبان إلى ميادين الحرب والصراع. ومن ذلك تلك العملية التي قام بها في عام 1550 م، حيث نقل 20 ألف جندي إسباني من سواحل

نابولي لمهاجمة مدينة المهدية التونسية؛ كما لم تقتصر مساهمات جنوة على أسطول أندريا دوريا فحسب، بل لوحظ وجود سفن تابعة لبعض الأسر الجنوية تقوم بممارسة الدور نفسه مثل أسرة تجرون وجرمالدي، إلخ. حتى أنه كان من

بين أفراد عائلة دوريا من له دور كبير في الصراع الإسباني العثماني مثل جيان دوريا ابن أخي أندريا دوريا الذي كان يمتلك 13 سفينة وشارك في نقل عدد كبير من الجنود الألمان والإيطاليين للقتال تحت اللواء الإسباني ضد القائد العثماني الشهير درغوث باشا للسيطرة على مدينة جربة التونسية بين عامي 1559 م و1560 م(1).

... ومن الملاحظ أنه كما كان للمدن الإيطالية دور بارز فعال في احتدام الصراع العثماني الإسباني، كان لها أيضاً دور كبير في هبوط حدة هذا الصراع منذ الربع الأخير من

---

(1) بول كولز، المرجع السابق، ص. 131.

القرن السادس عشر، حيث كان لانسحاب البندقية من الحلف المعقود ضد العثمانيين أثره البالغ في حسم الصراع لصالح العثمانيين(1). ومن ثم كان لصقلية ونابولي دور كبير في حمل الملك الإسباني فيليب الثاني على التفكير الجدي في إنهاء ذلك الصراع، حيث كان عليه أن يقوم بفرض ضرائب باهظة على بعض المدن الإيطالية التابعة له كي يتمكن من الاستمرار في مواجهة المد العثماني، وكذلك الحد من فعالية المجاهدين البحريين. وقد ضج سكان صقلية ونابولي من إجبارهم على دفع الضرائب

(1) عبد الرحمن عبد الله، المرجع السابق، ص. 150.

الباهظة؛ لذا أعلنوا عن استيائهم الشديد ورفضهم الإذعان لمطالب الملك الإسباني فيليب الثاني(1)، فضلاً عن ظهور الانقسامات والمنازعات في أوربا، و إدراك الإسبان للقدر الكبير من الفائدة الذي عاد على الجنويين من جراء ممارسة التجارة بين إسبانيا والعالم الجديد خاصة تجارة الذهب وأثر ذلك ـ سلباً ـ في الاقتصاد

الإسباني ورغبة إسبانيا في التضييق على الجنويين للاستئثار بالأرباح الكبيرة التي تجنيها من التحكم في تجارتها مع العالم الجديد.

---

(1) بول كولز، المرجع السابق، ص. 131.

(9386/1)

... أما عن العثمانيين، فبالإضافة إلى دور البندقية في حسم الصراع لصالحهم، لاحظنا بجلاء أنه كان لانتهاجهم سياسة التسامح الديني أكبر الأثر في كسب ود عدد كبير من أنصار المذاهب المسيحية المختلفة، حيث راسل السلطان سليمان القانوني أصحاب المذهب البروتستانتي في ألمانيا؛ وكذلك سمح لأصحاب مذهب كالفن (Calvin) بالتبشير في هنغاريا التابعة للسيطرة العثمانية؛ كما دخل العثمانيون في علاقات مع الهجنوت في فرنسا(1)؛ كما

---

(1) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون 1516 ـ 1916، الطبعة الأولى، دمشق، 1974، ص ص. 81 ـ 82.

(9387/1)

أبدوا معاملة حسنة لأصحاب المذهب الأرثوذكسي في شرق البحر المتوسط ولمعتنقي هذا المذهب من ورثة الإمبراطورية البيزنطية؛ وكذلك كان لأحداث أخرى ظهرت على المسرح السياسي في أوروبا والشرق الأدنى أكبر الأثر في ضرورة التفكير لعقد هدنة بين العثمانيين والإسبان. وعليه دخل الطرفان في مفاوضات حول عقد الهدنة منذ عام 1577 م حتى عام 1581 م، حيث تم عقد الهدنة بين الطرفين وتجديدها في 1584 م و1587 م.

...

III ـ أثر دور بعض المدن الإيطالية في الصراع العثماني الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن السادس عشر

(9388/1)

الميلادي على بلاد المغرب العربي

... بعد معالجة دور جنوة والبندقية في الصراع الإسباني العثماني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي، يجدر بنا أن نتناول أثر ذلك الدور الجنوي والبندقي في المغرب العربي. ولكي يمكن

فهم أثر ذلك الدور في المغرب العربي، ينبغي أن نضع في اعتبارنا حقيقة هامة تتعلق بوجود فارق كبير بين التأثيرات الجنوية والبندقية .في رأينا .إلى أسبقية الوجود الجنوي في الحوض الغربي للبحر المتوسط منذ قرون عديدة مضت قبل القرن السادس عشر الميلادي، أي منذ عهد المرابطين،

(9389/1)

حيث تم عقد معاهدة بينهم وبين الجنويين في عام 1137 م . 1138 م(1). وما أن أتم الموحدون سيطرتهم على بلاد المغرب الأقصى حتى بعث حاكم جنوة بوفد على رأسه أوتو بونودي البيرتيشي في الفترة ما بين عامي 1160 و1161 م. وقد تمكن الوفد الجنوي من عقد معاهدة مع الموحدين لمدة خمسة عشر عاماً تم تجديدها عدة مرات(2)

---

(1) Maslatrie, Traités de paix et de commerce concernant les relations des chrétiens avec l'Afrique septentrional au Moyen-Age, Paris, 1866, p. 37.

(2) محمد زروق، »بعض مظاهر التعاون التجاري بين المغرب وجنوة خلال العصر الحديث«، المجلة التاريخية

المغاربية (العهد الحديث والمعاصر)، العدد 65 ـ 66، سيرميدي ـ زعوان، 1992، ص. 188.

(9390/1)

.

... أما في عهد الأسرة المرينية، فقد أصبحت علاقات الجنويين مع المغاربة أكثر تقارباً من قبل، مما يؤكد وجود آثار إيجابية في كثير من المجالات أحدثها الوجود الجنوي بالمغرب. هذا، في مقابل ما عاد على جنوة من ثمار ربما يفوق قدر استفادة المغاربة حتى أنهم نجحوا في السيطرة على سجلماسة والتحكم في طريق التجارة المؤدي إلى بلاد السودان الغربي (موطن الذهب)، الأمر الذي مكنهم من ضرب عملة ذهبية في أوربا بدلاً من الفضية عام 1252 م(1)

---

(1) M. Malowist, «Quelques observations sur le commerce de l'or dans le Soudan Occidental au Moyen-Age », in Annales, Economies, Sociétés, Civilisations, 1970, p. 1630.

(1/9391)

.

... يتبين مما سبق مدى قوة الصلة وعمق العلاقة بين الجنويين وبلاد المغرب العربي، ولاسيما الغرب الأقصى وما استتبع ذلك من وجود بصمات واضحة ناتجة عن استمرارية التأثير الجنوي في تلك المنطقة منذ زمن المرابطين، أي منذ القرن السادس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، على عكس ما ذهب إليه أحد المؤرخين من أن الوجود الجنوي في بلاد المغرب العربي كان نتيجة لفقد الجنويين مراكزهم التجارية على يد العثمانيين(1).

---

(1) عبد الرحمن عبد الله الشيخ، المرجع السابق، ص ص. 161ـ162.

(1/9392)

... ولعل قدم العلاقة بين الجنويين وبلاد المغرب العربي وما نتج عن تلك العلاقة من تأثيرات مباشرة وفاضحة كان المنطلق الذي استندنا إليه في الحكم على وجود فارق كبير بين تأثيرات جنوة في غرب البحر المتوسط

وتأثيرات البندقية في المنطقة نفسها. ولكن هذا لا يعني عدم وجود أية تأثيرات للبندقية بالكلية، وليس كما ذهب أحد المؤرخين في حكمه على تأثيرات البندقية في شمال بلاد إفريقيا. في كونها غير مباشرة؛ إلا أنه يمكن الحكم على هذه التأثيرات بكونها محدودة. ومن الراجح أن يعود ذلك إلى عدم رغبة البندقية في الاحتكاك

(9393/1)

بالأسطول الجنوي. ومن ثم، فإن قدر ما تحصل عليه البندقية من امتيازات نتيجة لعلاقتها مع العثمانيين دون الدخول في منافسة مع جنوة كان يفوق قدر استفادتها من تقوية علاقاتها مع بلاد المغرب العربي، وما كان يمكنها تحقيقه كانت ستفقد جانباً منه من خلال المواجهات والصدامات التي قد نشأت من تضارب مصالحها مع مصلحة جنوة، وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

... على أي حال، كانت هناك عدة عوامل رئيسة ساهمت بشكل فعال في فتح المجال أمام جنوة للتأثير في بلاد المغرب العربي، من أهمها تلك الفوضى السياسية التي انتابت

(9394/1)

المنطقة بأسرها من طرابلس الغرب حتى المغرب الأقصى، وأيضاً تعرض هذه المنطقة لمتغيرات عديدة نتيجة لطرد المسلمين من الأندلس بعد سقوط غرناطة عام 1492 م، مما ترتب عليه تبني إسبانيا لمخططها التوسعي على حساب بلاد المغرب العربي بحجة ملاحقة المهاجرين الأندلسيين وقيامها باحتلال جزء كبير من الحوض الغربي للبحر المتوسط كل هذه الظروف شكلت مجالاً خصباً للجنويين لتحقيق أكبر قدر من الفائدة، إذ فضل سكان تلك المنطقة وحكامهم التعامل مع الجنويين وغيرهم من أهالي المدن الإيطالية على التعامل مع البرتغاليين والإسبان

(9395/1)

الذين كانوا يتذرعون بالتجارة في الوقت نفسه الذي كانوا يمارسون فيه أنشطة سياسية مثل الجاسوسية وغيرها. وقد اقتضت الضرورة أن تتأثر الحياة الاقتصادية لبلاد المغرب العربي، مما دفع الجنويين لتقديم القروض إلى حكام تلك البلاد وتوفير ما يلزمهم

من أسلحة وعتاد حربي. وفي مقابل ذلك تركوا لهم حرية التنقل والاتجار بين الموانئ(1)

---

(1) R. Ricard, « Contribution à l'étude du commerce génois au Maroc durant la période portugaise (1415- 1550), in Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, T. III, 1937, p. 70.

(1/9396)

. ولما دعت الحاجة إلى بناء أسطول كبير لمواجهة السفن البرتغالية والإسبانية، استأثر الجنويون بهذا الأمر باعتبارهم متضلِّعين منه؛ فقدموا ما لديهم من خبرات في بناء السفن. وقد دلتنا الروايات التاريخية على وجود مهندسين جنويين ـ لبناء السفن ـ في خدمة أحد الحكام الوطاسيين، ويدعى "أبو حسون" حاكم بادس في ذلك الوقت. وما أن نجح "محمد الشيخ السعدي" في القضاء على الوطاسيين ، حتى دخل هؤلاء الجنويون في خدمته؛ كما نجح أحد الجنويين في شق قناة مائية في فاس خلال الفترة الأخيرة من الحكم الوطاسي. وقد ترتب على ذلك

تحقيق نهضة في مجال الري، الأمر الذي ساعد المغاربة على استصلاح مساحات من الأراضي لزراعتها(1).

... ومن خلال بعض مظاهر أثر الدور الجنوي في الصراع العثماني الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي على المغرب العربي، يتضح وجود نهضة شملت مختلف نواحي الحياة، الأمر الذي اعتبره أحد المؤرخين بمثابة رد فعل للأثر الذي أحدثه المسلمون في الحياة الأوربية بمختلف مظاهرها ومجالاتها(2)

---

(1) Ibid, pp. 60- 70.

(2) عبد الجليل التميمي، »مع أصول الحوار العربي - الأوربي: الاتصالات الثقافية الأولى بين أوروبا والعالم العربي في العصر الحديث«، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 65 ـ 66، 1992 م.

. وكان من البديهي أن تتوقف تلك الإسهامات مع المتغيرات التي تعرض لها العالم الإسلامي إبان عصر النهضة الأوربية وظهور روح التعصب الديني لدى بعض الأوربيين. ومع ذلك التوقف، استمرت التأثيرات الجنوية في المغرب العربي حتى شملت كل المجالات من بينها المجال العمراني؛ إذ اهتم حكام المغرب العربي منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر بتشييد القصور، مستخدمين أجود أنواع الرخام الجنوي والبندقي حتى أن أحد الحكام السعديين، ويدعى "أبو العباس أحمد المنصور" (حكم في الفترة الممتدة بين 1578 و1603 م)، استورد كمية من

(1/9399)

الرخام الجنوي والبندقي مقابل وزن هذه الكمية بالسكر المغربي(1).

... الجدير بالذكر أن تأثيرات جنوة الشاملة وتأثيرات البندقية المحدودة على بلاد المغرب الأقصى تعدتها إلى عموم منطقة المغرب العربي. فأما تونس، فكانت التأثيرات الإيطالية فيها أكثر منها بالمغرب الأقصى على اعتبار كونها أقرب نقطة اتصال بجنوب إيطاليا. وقد نجحت جنوة في

(1) محمد أحمد محمد دار، علاقات المغرب الخارجية في عهد الأسرة السعدية 915 ـ 1050 هـ/ 1509 ـ 1640 م، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف أ. د. فاروق عثمان أباظة، 1997، ص. 151.

(9400/1)

تكوين علاقات مباشرة وقديمة مع البلاد التونسية منذ العصور الوسطى؛ كما ازدادت هذه العلاقات قوة منذ القرن السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، حيث كانت لجنوة مراكز تجارية بتونس مثل تباركة؛ كما استطاعت أن تكسب التونسيين خيرات كبيرة في مجال التجارة، نظراً لاحتكاك التونسيين بأهلها. وقد كان لجنوة أكبر الأثر في ذلك(1)

(1) E. Plantei, Correspondances des deys d'Alger avec la cour de France 1579–1833, recueillie dans les dépôt d'archives des Affaires Etrangères, de la Marine, des Colonies et de la Chambre de Commerce de Marseille, 2vols,

, p. LXVII. 1, T. 1889Paris, Librairie Balliere,

Introduction))؛

... رشاد الإمام، سياسة حموده باشا في تونس 1782 ـ 1814، منشورات الجامعة التونسية، 1980، المجلد XX، ص. 80.

(1/9401)

. هذا، فضلاً عن وجود تأثيرات أخرى في مجالات مختلفة للجنويين في تونس نتيجة لهجرة عدد كبير من الإيطاليين، منهم الأطباء والمعلمون والتجار والفنيون، إلخ(1). الأمر الذي أدى إلى حدوث نهضة شاملة بتونس.

... وقد بلغ التأثير مداه إلى حد كانت معه اللغة الإيطالية هي المستخدمة في مراسلات بايات تونس وحكوماتهم إلى قناصل البلاد الأوروبية(2)

---

(1) أنا بوزو، »المثقفون الإيطاليون في تونس في القرن الثامن عشر. أعمال المستعرب لويدجي كليكرس (1808 ـ 1870) «، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 59 ـ 60، ص. 687.

(2) انظر الملحق رقم (1).

(1/9402)

. وكان معظم بايات تونس يعتمدون على أطباء من جنوة والبندقية مثل الباي حموده باشا الحسيني الذي حكم في الفترة الممتدة بين عامي 1782 م و 1814 م، حيث كان له طبيب خاص من البندقية فضلاً على قيامه بمهام أخرى ويدعى س. جازو (S. Gazzo). فعندما تدهورت علاقاته بالبندقية، أمر بترحيل جميع البنادقة من تونس؛ إلا أنه أبقى على طبيبه ومستشاره "س. جازو" البندقي، وذلك من عام 1784 م. كما كان لحموده باشا طبيب آخر من جنوة في عام 1797 م، وكان يعمل مستشاراً له أيضاً ويدعى مندريسي ()(1Mendrici)

---

(1) E. Plantei, Correspondances des deys de Tunis et des consuls de France avec la Cour 1577- 1830, 4 vols, Paris, Alacon, 1893- 1899, T. III, p. 257؛

A. Rousseau, Annales Tunisiennes, ou aperçu historique sur la régence de Tunis, Alger, Bastide, 1864, p. 203.

. وقد أدت الصحافة الإيطالية دوراً بارزاً في تنمية الوعي بتونس في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي حتى أن رجال الدين الكاثوليك بتونس الممثلين في جمعية "الآباء البيض (الكبوشيين)" كانوا حكراً على الإيطاليين فقط دون غيرهم. واستمر هذا الحال حتى إعلان الحماية الفرنسية على تونس في 1881 م(1).

---

(1) الحكيم فرانسوا أرنولاي إكس أون بروفنس، «الكردينال لافيجيري والإكليروس الإيطالي بالبلاد التونسية (1881 ـ 1891)»، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 71 ـ 72، مايو 1933، ص. 673.

(9404/1)

... أما تأثيرات جنوة والبندقية في المغرب الأوسط (الجزائر)، فإنها لا تقل أهمية عن تلك التأثيرات التي سبق أن أشرنا إلى بعضها، سواء كانت بالمغرب الأقصى أو تونس؛ إذ أشارت بعض الروايات التاريخية إلى وجود علاقات قديمة وعميقة بين جنوة والبندقية وبين بلاد المغرب الأوسط منذ القرن الثالث عشر الميلادي. ففي عام 1236 م، عقدت جنوة بعض المعاهدات التجارية مع أمراء بعض المدن بالمغرب الأوسط مثل بوجي Bougie))

ومدينة عنابة (Bone). كما نجح البنادقة في عقد معاهدات مماثلة مع أمراء بعض المدن بالمغرب الأوسط كتلك التي

(1/9405)

كانت عام 1251 م(1). وبموجب هذه المعاهدات، تم فتح الطريق أمام الجنويين والبنادقة لممارسة أعمال التجارة، ومن ثم اختلطوا بسكان البلاد الأصليين. وقد نتج عن ذلك سهولة تأثير أهالي البلاد بهؤلاء التجار في ميادين مختلفة. ومن الطبيعي أن يتأثر التجار الإيطاليون بعادات أهل البلاد الوافدين عليها حتى أن أحد المؤرخين أورد رواية مفادها أن بعض التجار الجنويين والبنادقة كانوا يفدون

---

(1) E. Plantei, Correspondances des deys d'Alger avec la cour de France 1579 – 1833, T. 1(Introduction), pp. XIII, XXI - XXII.

(1/9406)

إلى بلاد المغرب العربي لتعلم اللغة العربية كي يمكنهم استخدامها في المشرق العربي(1).

... ولا يمكننا أن نغفل ـ ونحن بصدد الحديث عن الأثر الجنوي والبندقي في المغرب العربي ـ أن هناك مدناً إيطالية أخرى كان لها أثر كبير على المغرب العربي. من هذه المدن بيزا (أو بيجة) التي دخلت في علاقات قوية مع المغرب الأوسط (الجزائر) والمغرب الأقصى منذ العصور الوسطى، حيث ذكر أحد المؤرخين ما يفيد بعقد أول معاهدة بين بيزا والمغرب الأوسط في عام 1186 م(2)

---

(1) عبد الجليل التميمي، المرجع السابق، ص. 335.

(2) E. Plantei, op.cit, T. 1(Introduction, p. XXII.).

(9407/1)

. كما أفادت إحدى الروايات التاريخية أن الحاكم السعدي "أحمد المنصور" الملقب بالذهبي، والذي حكم بلاد المغرب الأقصى في الفترة الممتدة بين عامي 1578 و1603 م قد استعان بعدد من الفنيين لبناء مسرح بالمغرب الأقصى، مما يدل على وجود تأثيرات فنية لبيزا في مجالات متعددة في ذلك الوقت(1). هذا، فضلاً عن مدينة "توسكانا" التي ساهمت في إثراء الحياة العمرانية

بالمغرب الأقصى، حيث استورد أحد الحكام المغاربة المرمر من بيزا

---

(1) إبراهيم حركات، السياسة والمجتمع في العصر السعدي، الدار البيضاء، 1408 هـ/ 1987 م، ص. 318.

(9408/1)

لاستخدامه في تزيين قصره(1). لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل تعدى إلى تأثير "توسكانا" في الحياة السياسية في المغرب الأقصى، وذلك عندما أرسل دوق "توسكانا" إلى أبي فارس أحد أبناء المنصور المتنازعين على الحكم يخبره بتجهيز سفينة لنقله إلى أوروبا في حال هزيمته على يد إخوته(2)

---

(1) عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط، المغرب، 1397 هـ/ 1977 م، ص. 264.

(2) Henri de Castries, Les sources inédites de l'histoire du Maroc, (Angleterre), 1917volumes, Paris, Londres, 1925, 1935 p. II, T. 301, 1sr. 3,.

(9409/1)

.

... أما مدينتا نابولي وصقلية، فعلى الرغم من تعرضهما لهجمات مكثفة من المجاهدين البحريين من قبيل خضوعهما لإسبانيا(1)**، فإنهما دخلتا في علاقات مباشرة مع تونس وتمكنتا من إبرام معاهدة مع حموده باشا الحسيني في عام** 1797 **م**(2)**. ومما يجعلنا نرجح وجود تأثيرات كبيرة من قبل دوق نابولي**

---

(1) (Lettre de 48- 47, pp. 1E. Plantei, op.cit., T. MGR de Sourdis, Archevêque de Bordeaux à Yousef Pacha d'Alger en rade de 13Porto - Vecchio, le octobre 1640; Ibid., pp. 48–49).

(2) **رشاد الإمام، المرجع السابق، ص.** 416.

(9410/1)

في الجزائر رواية أحد المؤرخين البارزين ومفادها أن حسين، داي الجزائر، قد لجأ إلى نابولي عقب الاحتلال الفرنسي لبلاده في عام 1830 **م**(1)**. ولا يفوتنا أن ننوه**

بالدور الكبير الفعال الذي أداه أحد الضباط الإيطاليين . ويدعى لويدجي كليكرس من إقليم أبيمو . في إحداث نهضة شاملة بتونس منذ عام 1833 م حتى عام 1861 م، حيث قام بتأسيس أول مدرسة حربية بتونس في عهد المشير أحمد باي الذي حكم تونس في الفترة الممتدة بين عامي 1837 و1855 م، وتمكن من تطبيق أحدث النظم

---

(1) (E. Plantei, op. cit., T. I, p. LIV. (Introduction.

(1/9411)

في تعليم فنون الحرب للطلبة التونسيين، كما قام بترجمة العديد من المؤلفات الأوربية في أحدث التقنيات العسكرية في ذلك الوقت من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية(1).

... مما سبق، يتبين الأثر الكبير لكل من جنوة والبندقية وبعض المدن الإيطالية الأخرى على المغرب العربي. فمن الواضح أن ذلك الأثر كان نتيجة للعلاقات المبكرة التي نمت بين تلك المدن وبلاد المغرب العربي؛ إلا أن الشيء الذي لا يمكن تجاهله، بأي

---

(1) حمادي الساحلي، أعلام تونسيون، الطبعة الأولى، بيروت، 1986، ص. 63؛ أنابوزو، المرجع السابق، ص. 687.

(9412/1)

حال من الأحوال، مدى ما كان للصراع العثماني الإسباني في الحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي من دخل كبير في تثبيت أقدام الإيطاليين باعتبارهم قوة محايدة بين طرفي الصراع. وعلى الرغم من أن استفادة جنوة والبندقية وغيرهما من اختلاطهم ببلاد المغرب العربي كان يفوق قدر استفادة أهل بلاد المغرب العربي، فإننا تمكَّنَّا من إثبات فعالية التأثيرات الإيطالية على بلاد المغرب العربي أثناء الصراع العثماني الإسباني، واستمرت تلك التأثيرات في التزايد حتى القرن التاسع عشر، حيث أخذت

(9413/1)

في التلاشي على أثر ظهور القوى الأوربية الأخرى التي ما فتئت تتنافس فيما بينها من أجل السيطرة على تلك البلاد والحيلولة دون وجود أية قوى أخرى، ولاسيما المدن الإيطالية. وقد نجحت كل من إنجلترا وفرنسا في تحجيم الأثر الجنوي والبندقي على المغرب العربي، خاصة فرنسا التي تمكنت من إحكام قبضتها على الجزائر عام 1830 م وتونس في عام 1831 م والمغرب الأقصى في عام 1912 م. ومما هو جدير بالإشارة إليه أن التأثيرات الإيطالية ما كانت إلا بمثابة رد فعل طبيعي على النصيب الكبير الذي ساهمت به الحضارة الإسلامية في إنقاذ

(9414/1)

أوربا من ظلمات الجهل ووضعها في الطريق الصحيح حتى اعتورتها نهضة شاملة، في الوقت الذي انشغل المسلمون في التصدي للمحاولات الهادفة إلى إحكام سيطرتهم عليهم.

... والخلاصة أن علاقات المدن الإيطالية .ولاسيما جنوة والبندقية .مع العثمانيين في الفترة السابقة على القرن السادس عشر، شكلت المنطلق الأساسي والمحور الرئيس الذي ارتكز عليه دور كل من جنوة والبندقية وغيرهما في الصراع العثماني الإسباني في الحوض

الغربي للبحر المتوسط خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. ومن ثم أتاح ذلك الدور الفرصة كاملة

(1/9415)

أمام الإيطاليين للتأثير في بلاد المغرب العربي تأثيراً مباشراً شمل جُل مناحي الحياة. لذا كان من الجدير بنا أن نلقي الضوء على علاقات جنوة والبندقية مع العثمانيين والتي بدأت منذ نشأة الدولة العثمانية، حيث اصطدم العثمانيون - عند توسعهم - بالمراكز التجارية التابعة لكلتا الجمهوريتين في آسيا الصغرى والبلقان. وقد تمخض عن ذلك حدوث عدة مواجهات حربية ترتب عليها تقلص الهيمنة الجنوية والبندقية، مما جعل جنوة والبندقية تبحثان عن طرق تجارية أخرى تعوضهما عما فقدتاه. ولم يكن أمامهما إلا أن تعملا على تقوية

(1/9416)

علاقتهما بالبلاد المطلة على البحر المتوسط شرقه وغربه. وعقب سيطرة العثمانيين على المشرق العربي،

لم يجد البنادقة بداً من الدخول في علاقات مباشرة مع العثمانيين.

... والأمر يختلف بالنسبة لجنوة التي حاولت تدعيم علاقاتها وتقوية صلاتها ببلاد المغرب العربي في غرب البحر المتوسط بعيداً عن منافسة البندقية. وعندما بدأت المواجهات الحربية بين العثمانيين والإسبان في مطلع القرن السادس عشر، وجد الجنويون أنفسهم مضطرين إلى الانضواء تحت اللواء الإسباني في الوقت نفسه الذي حرصوا فيه على تثبيت أقدامهم في بلاد المغرب

(9417/1)

العربي للاستفادة من انعكاسات ذلك الصراع. ومما لاشك فيه أن الجنويين وغيرهم من الإيطاليين تمكنوا من التأثير في أوجه الحياة المختلفة لبلاد المغرب العربي لكونهم محايدين. وعلى الرغم من العلاقات المبكرة التي ربطت بعض المدن الإيطالية ببلاد المغرب العربي، فإن الدور الذي أدته جنوة في الصراع العثماني الإسباني عُد دافعاً كبيراً لفعالية التأثيرات الجنوية خصوصاً، والإيطالية عموماً في بلاد المغرب العربي. ولا

يزال ذلك الموضوع يحتاج إلى مزيد من الجهد لإماطة اللثام عن جوانب أخرى من التأثيرات الإيطالية في بلاد

(9418/1)

المغرب العربي.

(9419/1)

دور قبرص في العلاقات بين المماليك والغرب الأوروبي في أواخر القرون الوسطى

... ... الدكتور أحمد حطيط

... ... الجامعة اللبنانية .بيروت

مدخل

... لعل سائلاً يسأل عن جدوى البحث في دور قبرص في العلاقات بين المماليك والغرب الأوروبي في أواخر العصور الوسطى، أي في مرحلة ما بعد تصفية الكيانات اللاتينية في الشرق. نجيب هذا السائل بأن جزيرة قبرص التي أقيمت فيها مملكة على صورة مملكة بيت المقدس

ومثالها، أريد لها أن تكون، بعد سقوط عكا وتردي أوضاع مملكة الأرمن في آسيا الصغرى، مرتكزاً وقاعدة

(9420/1)

انطلاق للغرب الأوروبي باتجاه الشرق، حيث كرس الأخير قدراته الاقتصادية والسياسية والعسكرية لتعزيز حضور الجزيرة على مساحة الحدث في حوض البحر المتوسط، لتكون الدولة المسيحية المتقدمة في مواجهة مسلمي الشرق. فهل توافرت الظروف الذاتية الملائمة لقبرص كي تنهض بمثل هذا الدور؟

... نسارع إلى الإجابة بنعم. لماذا؟

... لأن جزيرة قبرص احتلت، ولا تزال، موقعاً ممتازاً في شرق المتوسط، وكان لها دور مؤثر في العلاقات السياسية والاقتصادية بين الشرق والغرب في أواخر القرون الوسطى. فعلى الرغم من مناخها الحار، ونقص المياه

(9421/1)

فيها، وتعرض معظم أراضيها لاجتياح الجراد بين الآونة والأخرى، فإن ثمة عناصر إيجابية عديدة توافرت للجزيرة.

... فجزيرة قبرص، بحكم موقعها الجغرافي، تصلها جزيرة قبرص، من كل حدب وصوب، منتجات المناطق التي منَّت عليها الطبيعة بالعطاء. فهي على مسافة يومين بحراً من مصر، وعلى عدة ساعات من سواحل الشام وآسيا الصغرى. ومع ذلك، فإن البحر يفصلها عن هذه المناطق، مما يحفظ لها استقلالها. على أن الجبال العالية والوعرة المسالك المحيطة بها من الشمال والشرق تقيها خطر الهجمات المحتملة من جهة آسيا الصغرى وبلاد الشام(1)

---

(1) M. L. De Mas Latrie, Histoire de l'Ile de Chypre sous le règne des princes de la maison de Lusignan, Paris MDCCCLXI. Vol. I, p. 511.

(1/9422)

.

... ومع أننا لا نعرف الكثير عن تاريخ الجزيرة قبل نهاية القرن الثاني عشر، فإنه لمن المرجح أن يكون التغلغل اللاتيني فيها بدأ مبكراً مع الحملة الصليبية

الأولى، حين لجأ إليها بعض الفرنج إبان حصار أنطاكية، وبخاصة فرسان الداوية، واستقروا فيها؛ كما ارتادت مرافئها سفن التجار اللاتين، منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر، وهي في طريقها إلى القسطنطينية أو إلى الإسكندرية، وكذلك سفن الحجاج الأوروبيين القاصدين زيارة الديار المقدسة في فلسطين(1)

---

(1) كلود كوهين، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، بيروت، 1990، ص. 191؛ J. Richard, « Le peuplement latin et syrien en chypre au XIIIè siècle (VII) », dans: Croisés, missionaires et voyageurs , London, 1983, p. 158.

(1/9423)

.

... ولعل الصلات بين اللاتين وجزيرة قبرص حصلت قبل ذلك بقليل، أي منذ العام 1082، حين منح الإمبراطور البيزنطي ألكسيس الأول (Aléxis I) البنادقة تسهيلات تجارية في مرافئه كافة، ومنها مرافئ قبرص، وسمح لهم بإقامة مستعمرة صغيرة في مدينة ليماسول المرفأ الرئيس في الجزيرة وقتذاك

... بعد تحرير صلاح الدين لبيت المقدس على أثر معركة

حطين عام 1187، نزحت أعداد غفيرة من اللاتين عن الشرق قاصدة قبرص، لتقع الجزيرة البيزنطية الطابع في قبضة اللاتين، عام 1191، حين انتزعها ريتشارد قلب الأسد (Richard Cœur de Lion)،

(1/9424)

ملك أنكَلترا، من إسحق كومنين (Isaac Comnène) المتمرد على السيادة البيزنطية، وباعها لفرسان الداوية ثم انتقلت بالشراء، بعد أقل من سنة، إلى أسرة لوزينيان (Lusignan) اللاتينية، بعد أن ثار السكان على الداوية وبطل البيع، فأقامت فيها مملكة استمرت نحو ثلاثة قرون(1).

... بتوحيد عموري الأول (Aimery I) مملكتي قبرص وبيت المقدس طيلة حياته، بزواجه من أرملة هنري دي شمباني (Henri de Champagne)، ليتم، في

---

(1) كلود كوهين، المرجع نفسه، ص. 193؛ R. Ristelkueber, Traditions françaises au Liban, Paris, 1918, p. 63.

(1/9425)

عام 1268، توحيد التاجين في عهد هوغ الثالث(1) (Hugues III). وفي عهد هنري الثاني (Henri II)، اتخذت في مملكة قبرص وظائف مماثلة للوظائف المعتمدة في مملكة بيت المقدس، واستمر الأمر كذلك في عهد خلفائه، حيث منح هؤلاء أتباعهم وأبناء العائلة المالكة ألقاب أمراء أنطاكية والجليل والرها وطرابلس ويافا وبيروت وصيدا.

أولاً ـ مجتمع مملكة قبرص اللاتينية

(1) J. Richard, « Le droit et les institutions franques dans le Royaume de Chypre (IX) », dans Croisés, missionnaires et voyageurs, op. cit., p. 8.

(1/9426)

... في نهاية القرن الثاني عشر، كان المجتمع القبرصي متنوع السكان يغلب الطابع البيزنطي واللغة اليونانية والمذهب المالكي على مظاهر الحياة فيه(1). فبالإضافة إلى السكان المحليين من القبارصة اليونان

الذين يشكلون الأكثرية العددية، ارتادت الجزيرة جماعات عرقيّة متعددة المناحي والاتجاهات، مهاجرة من مواطنها الأصلية أو من أماكن سكناها في الشرق والغرب. ومن أبرز هذه الجماعات اللاتين والسوريون.

1 ـ اللاتين

---

(1) J. Richard, « Le peuplement... », op. cit., p. 157.

(1/9427)

... ترافقت هجرة اللاتين، فعلياً، إلى الجزيرة مع تمركز غي دي لوزينيان (Guy de Lusignan) فيها عام 1192. وتذكر الأدبيات اللاتينية أن غي المذكور، بعيد تسلمه عرش قبرص، نظم حملة دعائية كبيرة في أرجاء أوروبا، وبخاصة في فرنسا، لاستجلاب اللاتين إلى قبرص، ولا سيما الفرسان منهم، مقدماً لهم إغراءات عديدة، منها ما هو ديني يعود إلى ما في الجزيرة من مقدسات مسيحية ورفاة بعض القديسين، ومنها ما هو دنيوي يتمثل بوعد قطعه ملك قبرص على نفسه بمنح الأراضي المنتزعة من

إلى الجزيرة في مقابل التزامهم بالدفاع عن أسوار المدن الرئيسة، كنيقوسيا وليماسول وفماغوستا وبافوس (Paphos) وكرباس (Carpas) بالإضافة إلى مهام عسكرية أخرى(1).

... توزع اللاتين الواصلين إلى قبرص في فئتين اثنتين:

... فئة الآتين مباشرة من الغرب، وفئة اللاجئين من الشرق، وبخاصة من بيت المقدس وأنطاكية وطرابلس وأرمينية الصغرى. ويضاف إلى هؤلاء وأولئك دفعات من البولان(2)

---

(1) L. Makhairas, Recital concerning the Sweetland of Cyprus, Oxford, 1932, T. I, pp. 8–9; De Mas Latrie, op. cit., T. II, pp. 24–25.

(2) البولان: جماعة عرفت في الشرق خلال فترة الحروب الصليبية، وهم من زواج مختلط بين إفرنج ونساء شرقيات. لمزيد من المعلومات عن هؤلاء، راجع: R.

.Ristelkueber, op. cit., pp

.61–16662J. Richard, op. cit., p. ؛

(9429/1)

(Les poulains) التحقت بالجزيرة تحت ضغط المسلمين، وفرسان من الأرمن وصلوا قبرص من أرمينية، وكانوا أكثر الجماعات الشرقية الوافدة قابلية للاندماج في الوسط الاجتماعي اللاتيني في قبرص؛ كما كانوا في الشام، نظراً لقدم علاقات القربى بينهم وبين اللاتين بفعل الزواج(1).

... ومع تقلص سلطة السنيوريات الفرنجية في الشام، تعزز الوجود اللاتيني في قبرص. إن نظرة في كتاب "أنساب الأسر الحاكمة فيما وراء البحار"(2)

---

(1) Les lignages d'Outre-mer », dans: Rec. **»** Hist. des Croisades, T. II, éd. Beugnot, Paris, .1833

(2) ... Du Cange, Les familles d'Outre-mer, éd. E. .1869G, Rey, Paris,

(9430/1)

الموضوع في بداية القرن الرابع عشر، تفصح عن سلسلة مطولة لعائلات قبرصية لها صلات قرابة في الدويلات اللاتينية في الشرق. فثمة أسماء يونانية وأرمنية في شجرات الأنساب القبرصية تعود في أصولها إلى لاتين فرنج دون أن تكون جميعها فرنسية، حيث نقع من بينها على أسماء نبلاء إيطاليين وغيرهم، مما يعني أن نخباً كثيرة خرجت مباشرة من الغرب إلى قبرص واستقرت فيها، ولم تتابع طريقها إلى المملكة اللاتينية في المقدس.

... وتشكلت في الجزيرة طبقة بورجوازية تجارية كثيرة العدد من أصول لاتينية آتية من الأراضي المقدسة، ومن

(9431/1)

تجار غربيين متوسطين، من جنوا والبندقية وبيزا وأرغون (Aragon) وكتلونيا الإسبانية وصقلية وغيرها، استقروا في قبرص، وحصلوا، في وقت مبكر، على امتيازات تجارية وقنصليات وأحياء وفنادق خاصة بهم في فماغوستا وفي المدن القبرصية الساحلية الأخرى،

لتتعزز هذه الامتيازات لاحقاً، وبخاصة في مطلع القرن الرابع عشر في عهد الملك هنري الثاني(1). كما قدمت إلى المدن القبرصية، في ذلك الحين، جموع غفيرة من العسكريين ورجال القانون وكتاب العدول والأطباء والفنانين وغيرهم من الحرفيين

---

(1) J. Richard, op. cit., p. 163.

(1/9432)

والمثقفين ووضعوا إمكاناتهم تحت تصرف مملكة قبرص(1).

... لم يقتصر الوجود اللاتيني في مملكة قبرص على الأسياد الذين تمركزوا في المدن الرئيسة، بل أمست الجزيرة، منذ عهد غي دي لوزينيان، جماعات من العامة أيضاً، حيث وزعت على أفرادها بيوت وأراض لقاء خدمتهم العسكرية في جيش المملكة(2).

... وبسقوط الكيانات الصليبية في الشرق، لجأ جمع من رجال الدين اللاتين إلى قبرص، فاستقر بعضهم فيها، منتظراً استعادة الأراضي المقدسة. ومن هؤلاء: الأخوة

---

(1) Ibid, p. 165.

(2) De Mas-Latrie, op. cit., T. II, pp. 8–9.

(1/9433)

الدومينيكان (Les Frères Prêcheurs) **والأخوة الفرنسيسكان** (Les Frères Mineurs) **الذين أقاموا لهم أديرة في عدة مدن قبرصية، فيما غادرها بعضهم الآخر إلى أوروبا، كالكرمليين** (Les Carmes) **والسيسترسيين** (Les Cisterciens de Belmont ou de Jubin) **والبنيديكت** (Les Bénédictins de Saint-Paul d'Antioche). **وحصل فرسان المعبد، بالشراء، على مقر لهم في ليماسول وعلى قصر في غاستري** (Gastrie)، **ثم التحق بهم، بعد حين، فرسان الأسبتار وفرسان التوتون وفرسان القديس توماس الإنكليز**(1) (Les

---

(1) J. Richard, op. cit., pp. 164–165.

(1/9434)

Chevaliers de Saint-Thomas).

2 ـ السوريون

... يقصد بالسوريين المسيحيون التابعون للطقس اليوناني والناطقون باللغة العربية، ويطلق عليهم عموماً اسم »الملكيّين«. أما في الاستخدام القانوني، فيراد بهذا المصطلح، بالإضافة إلى الملكيين، طوائف النساطرة واليعاقبة والموارنة.

... يذكر المؤرخ اليوناني مكيراس (1Makhairas) أنه بعيد إقامته المملكة اللاتينية في قبرص، أرسل الملك غي دي لوزينيان دعوة إلى السوريين للالتحاق بمملكته، واعداً إياهم بامتيازات

---

(1) L. Makhairas, op. cit., I, pp. 24–25 et II, p. 153.

(1/9435)

شبيهة بتلك التي حصلوا عليها في مملكة بيت المقدس اللاتينية، ومن أهمها: إعفاؤهم من ضريبة الرؤوس (الجزية) ومن نصف الرسوم المتوجبة على صفقاتهم التجارية.

... لم يكثر السوريون الوافدون إلى قبرص من الاختلاط بالسكان المحليين، وفضلوا، إجمالاً، ارتياد الرتفعات الجبلية، الواقعة شمال نيقوسيا، وانتشروا في اثنتين وسبعين قرية، محتفظين بتقاليدهم وعاداتهم وعلاقاتهم الأسرية(1). وكان من الطبيعي أن يغلب الطابع الفلاحي على السوريين، فعملوا بالزراعة،

---

(1) La Terre Sainte (Revue), années 1875–76, 79pp. 111 et 118.

(1/9436)

وخصوصاً زراعة قصب السكر التي يعود إليهم الفضل في إدخالها إلى قبرص(1).

... إلا أن ذلك لا يعني أن السوريين أنفوا العيش في

المدن القبرصية. فثمة ما يشير إلى إقامة السوريين في بعض المدن القبرصية، وبخاصة في فماغوستا التي بدت، لكثافة سكانها السوريين، وكأنها مدينة سورية حسب تعبير جان ريشار(2). ويؤكد ذلك حجم المعاملات العائدة لهؤلاء السوريين المنجزة لدى كتّاب العدول الجنوبيين في المدينة، والمتعلقة بأوضاعهم وعلاقاتهم القانونية. فمن السوريين من عمل في

---

(1) J. Richard, op. cit., p. 168.

(2) Ibid., p. 168.

(1/9437)

التجارة، ولا سيما النساطرة، وحصلوا على ثروات طائلة، ومنهم من تعاطى الحرف المختلفة(1).

... ومما يلفت الانتباه إلى مكانة السوريين المرموقة في قبرص أن بعضهم توصل في القرن الخامس عشر إلى تولي مناصب رفيعة في المملكة. من هؤلاء أفراد من «آل صلاح» (Les Salah) تولوا رئاسة الديوان الملكي، كما تولى قيادة الحرس الوطني سوريون آخرون من «آل البيبي» (Les Bibi) و«آل الغول» (Les Goul) و«آل دانيال» (Les Daniel)(2). ويذكر مكيراس(3)

(1) Op. cit., p. 168.

(2) De Mas-Latrie, op. cit., T. III, pp. 184–306.

(3) L. Makhairas, op. cit., T. II, p. 355.

(1/9438)

أن العائلات المذكورة كانت موضع رعاية خاصة من البنادقة والجنوية، بوصفها عائلات إيطالية من أصل سوري (بنادقة بيض وجنويون بيض (des Vénitiens blancs et des Gênois blancs)). وعرفت نيقوسيا مقرّاً لـ »رَيِّس السوريين« (1)، وكان فيها، كما في فماغوستا، محكمة خاصة بالسوريين، أطلق عليها اسم »محكمة الريِّس«. إلا أنه ليس لدينا ما يدل على استخدام مصطلح »الريِّس« في قبرص. وهو مصطلح شاع في الشام في عهد الفرنج. قبل القرن الرابع عشر.

(1) J. Richard, op. cit., p. 171.

(1/9439)

... وبالإضافة إلى السوريين الوافدين إلى قبرص، فإن ثمة جماعة من التركوبول ()(1Les Tircopoles)، وهم مقاتلون سوريون مرتزقة ينتمون إلى فئة الفرسان الخفيفي الحركة في جيش الفرنج، بعضهم من المسلمين أو من المسلمين المتنصرين، انتقلوا إلى الجزيرة وانخرطوا في عداد جيشها، وأقطعوا أراضي في مقابل تأدية الخدمة العسكرية.

---

(1) Delaville le Roulx, Cartulaire général de l'ordre des hospitaliers, T. I, Paris, 1897, pp. 275–276; H. Lammens, La Syrie, précis historique, Beyrouth, 1994, T. I, p. 256.

(1/9440)

... ليس لدينا معلومات يركن إليها حول النشاط الديني للجماعات السورية المقيمة في قبرص تعود إلى ما قبل القرن الرابع عشر. فابتداء من هذا القرن، نجد كنائس نسطورية وأرمنية وملكية ويعقوبية ومارونية، وبعض الأديرة، منها دير في كوتزوفندي (Koutzovendi) تابع للبطريركية المارونية، فضلاً عن أماكن تحمل أسماؤها دلالات شرقية، مثل سريانوخوري

(Syrianokhori) وأرمينوخوري ()(1Armenokhori).

---

(1) J. Richard, « Le peuplement... », op. cit., pp. 157 et169.

(1/9441)

... ويبدو أن السوريين، على اختلاف مذاهبهم، كانوا عرضة لضغوطات المرجعيات الدينية اللاتينية كي يغادروا معتقداتهم ويعتنقوا مذهب السلطة الديني. من ذلك ما جرى عام 1338، حين دعا رئيس أساقفة نيقوسيا الجماعات الشرقية إلى التخلي عن معتقداتها واعتناق الكثلكة، وعُقد لذلك مجمع كنسي، عام 1340، حضره المطارنة اللاتين واليونان والموارنة والأرمن ورؤساء اليعاقبة والنساطرة للتداول بهذه المسألة الهامة، دون أن يسفر المجمع عن نتائج حاسمة(1)

---

(1) J. Richard, La papauté et les missions d'Orient au moyen-âge, Rome et Paris, 1977, 196p. 199 et370.

(1/9442)

.

... يبقى أن نشير في هذا السياق إلى أنه بعد مضي حوالي قرن من الزمن على استقرار الجاليات الأجنبية في جزيرة قبرص، فإن هذه الجاليات لم تظهر أي ميل للاندماج بالسكان المحليين، بالرغم من اعتماد معظمها اللغة اليونانية، وبخاصة اللاتين والسوريين. ولم يتجاوز الأمر حد التجاور أو التعايش، على غرار ما كان قائماً في المملكة اللاتينية في الأراضي المقدسة. بيد أن ملامح الاندماج بين الطرفين أخذت تلوح في الأفق بدءاً من النصف الثاني من القرن الرابع عشر، أي بعد أكثر من قرن ونصف على إقامة اللوزينيان في قبرص، وذلك

(9443/1)

على قاعدة التحوُّل الإرادي باتجاه معتقدات الأكثرية اليونانية، على الرغم من ممانعة البابوية انتقال اللاتين في قبرص إلى الطقس اليوناني(1).

ثانيا: مكانة قبرص الاقتصادية في عصر المماليك

... أفقد استيلاء المماليك على عكا التجار الغربيين بعض الأسواق الآسيوية، فانعكس ذلك إيجاباً على التجارة القبرصية. فبعد تصفية الوجود الصليبي في

الشرق، عام 1291، سارع تجار مدن البحر المتوسط الرئيسة، كالبندقية وجنوا وبيزا ومرسيليا وبرشلونة، بالذهاب إلى

---

(1) J. Richard, « Le peuplement... », op. cit., pp. 172–173.

(1/9444)

القاهرة، وتوسلوا السلطان المملوكي كي يجدد امتيازاتهم التجارية في مدن الشام ومصر مع احتفاظهم بعلاقاتهم التجارية النشطة مع جزيرة قبرص حيث حملوا إلى موانئها كميات كبيرة من السلع التجارية المختلفة، وأقاموا لهم فيها قنصليات وامتلكوا مباني ومؤسسات تجارية ومخازن لبضائعهم. فكانوا في قبرص يشعرون بالاطمئنان على بضائعهم وهي بمنأى عن أنظار المماليك؛ كما أن أصحاب سفن المدن المتوسطية الصغيرة حاذروا التعامل التجاري المباشر مع المماليك، وفضلوا ارتياد الموانئ القبرصية في فماغوستا وليماسول وبافوس التي كانت

(1/9445)

مخازنها تعج بما يحتاجون إليه من سلع(1).

... وفي أقل من نصف قرن من سقوط عكا، غدت فماغوستا أحد أهم المراكز التجارية في البحر المتوسط، تبز القسطنطينية والإسكندرية، وأضحى تجارها من أغنى تجار حوض المتوسط، مثلهم مثل كبار تجار البندقية وجنوا؛ كما كانت قبرص تضم، بالإضافة إلى القنصليات الأجنبية، مخازن كبيرة للقمح والسكر والقطن والجلد والتوابل، فضلاً عن مصانع كبيرة للنسيج وللدباغة(2).

---

(1) De Mas-Latrie, L'Ile de Chypre, sa situation présente et ses souverains du moyen-âge, p. 225.

(2) Ibid., p. 259.

(1/9446)

... تشير بعض المصادر اللاتينية(1) إلى أن أحد رجال الدين الألمان انتابه شعور بالدهشة حين هبط جزيرة قبرص، وهو في طريقه إلى فلسطين، عام 1341، لما شاهده من مظاهر غنى القبارصة وما اطلع عليه من حال التقدم التي عرفتها بلادهم، وذكر أنه رأى حشوداً

كبيرة من أجناس مختلفة في مرفإ فماغوستا وفي طرقاتها وأزقتها، وتعرّف من بينهم إلى تجار بنادقة وصقليين ويونان وأرمن وأتراك وأحباش وسوريين ويهود وغيرهم، وكتب إلى مطران بادربورن

---

(1) Cf. Assises de Jérusalem, T. II, pp. 53–237; Mas-Latrie, ibid., pp. 237–238; De sq.

(1/9447)

يخبره:

... أن قبرص هي أكثر السنيوريات المسيحية شهرة وغنى... وأن القبارصة ينفقون ثرواتهم في الصيد والمبارزات والملذات.... وهذا ليس بمستغرب، لأن جزيرتهم هي آخر أرض للمسيحية باتجاه الشرق، ولأن على جميع السفن وجميع السلع التجارية، ومن أي سواحل غربية انطلقت، التوقف في قبرص، قبل أن تعاود حركتها شرقاً إلى الوجهة التي تقصدها؛ وكذلك الحجاج المتجهون إلى ما وراء البحار لزيارة الأراضي المقدسة....

ثم يردف رجل الدين الألماني قائلاً:

(1/9448)

... أما مدينة فماغوستا، فإنها إحدى أكبر المدن الغنية المعروفة، وسكانها يعيشون في رخاء. إن أحد سكان المدينة قدم لابنته، بمناسبة زفافها، جواهر لزينة شعرها تفوق قيمتها كل زينة ملكة فرنسا، وفق ما ذكره لي الفرسان الفرنسيون الذين رافقونا إلى قبرص... (1).

... وكان من الطبيعي أن تحصل المدن الإيطالية على امتيازات تجارية هامة في الجزيرة. فيذكر جان ريشار(2) أن البيازنة كانوا من أوائل التجار المتوسطيين الذين

---

(1) De Mas-Latrie, ibid., pp. 238–239.

(2) J. Richard, « Le peuplement... », op. cit., p. 163.

حصلوا على امتيازات تجارية في قبرص منذ العام 1192، مشيراً إلى أن ذلك كان في أيام عموري وغي دي لوزينيان، فيما لم يفز الجنويون بامتيازات مماثلة قبل

العام 1231، ولم يحصلوا على أحياء تجارية في مدن الجزيرة قبل مطلع القرن الرابع عشر، وذلك عندما منح هنري الثاني دي لوزينيان الجنويين والبنادقة ورعايا ملك أرغون وكتلونيا وصقلية حق امتلاك قنصليات لهم في مملكته.

...

ثالثاً: دور قبرص في الصراع بين المماليك والغرب الأوروبي

(1/9450)

... لم يقتصر دور قبرص على النشاط التجاري في حوض المتوسط، بل اعتمدها الغرب الأوروبي رأسَ حربة لعملياته العسكرية ضد المسلمين على طول الشريط الساحلي، من شواطئ آسيا الصغرى شمالاً إلى الشواطئ المصرية جنوباً مروراً بشواطئ الشام وفلسطين.

... أولى العلاقات الجدية بين المماليك ومملكة قبرص قامت بعيد استيلاء السلطان بيبرس على أنطاكية(1)

---

(1) استولى الظاهر بيبرس على أنطاكية في 13 رمضان 666/ 27 أيار (ماي) 1268 م. (ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز

الخويطر، الرياض، 1976، صص. 307 ـ 327؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، بيروت، د. ت، م 4، صص. 4 ـ 5).

(1/9451)

. فقد سارع هوغ الثالث ملك قبرص إلى عقد هدنة مع بيبرس نصت على ضمان السلطان لسلامة أراضي الجزيرة مع احتفاظ عاهلها بحق نقض الهدنة في حال وصول صليبية جديدة إلى الشام.

... وفي عام 669/ 1270، أرسل الظاهر بيبرس حملة بحرية لغزو قبرص(1). وكان السبب في ذلك إلقاء القبض على رسل السلطان المملوكي في الجزيرة، وهم في طريقهم، عبرها، إلى بلاد الروم في آسيا الصغرى. وتذكر المصادر أن الحملة باءت بالفشل، إذ

---

(1) راجع تفاصيل غزوة قبرص في: ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، صص. 386 ـ 387؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ص. 6.

(1/9452)

تحطمت معظم سفنها قبالة شواطئ ليماسول على الساحل الجنوبي للجزيرة، بسبب العواصف الهوجاء التي داهمتها، ووقع عدد كبير من بحارتها في الأسر.

... وعلى الرغم من حرص بيبرس على إعادة بناء أسطوله، وقد تم إنجازه، بالفعل، في أقل من سنتين، فإن السلطان بيبرس لم يعاود غزو قبرص لانشغاله بمواجهة الخطر المغولي، ولتيقنه من تفوق الأسطول القبرصي. وهو ما صرح به في رسالة بعث بها إلى الملك هوغ الثالث، على أثر انتزاعه حصن القرين المنيع من الفرنج عام 669/ 1271(1)

---

(1) استولى بيبرس على حصن القرين بالأمان، ثم هدمه. (ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص. 389؛ أبو الفداء، المصدر السابق، ص. 6).

(1/ 9453)

، بقوله: »وأنتم خيولكم المراكب، ونحن مراكبنا الخيول« (1).

... بعد ذلك، تجددت الهدنة بين بيبرس وهوغ الثالث في إطار اتفاقية عامة، عرفت بـ »اتفاقية قيصرية« عام 671/ 1272، كان ملك قبرص طرفاً فيها إلى جانب

أسياد عكا، ولم يكن بعد قد ارتقى عرش المملكة اللاتينية في بيت المقدس(2). وفي عهد السلطان المنصور قلاوون، جددت الهدن مع

---

(1) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص. 388.

(2) المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1957، ج 1، ق. 2، ؛ De Mas-Latrie, Histoire, I, p. 443.

(9454/1)

اللاتين في الشام وفي قبرص، لتنقض في عهد ابنه الأشرف خليل الذي تم على يديه إخراج الفرنج من الشرق(1).

... وكان أمراً محتماً أن يحظى الدور العسكري لجزيرة قبرص بتعاطف البابوية التي رأت فيه فرصة جديدة لمعاودة الاستيلاء على بيت المقدس، وخاصة بعد أن أحسن القبارصة استقبال فلول الاسبتار الهاربين من الشام، وساعدوهم على

---

(1) حول تجديد الهدن بين المماليك والفرنج في عهد قلاوون وإخراج الصليبيين من الشرق، راجع: أحمد حطيط،

تاريخ لبنان الوسيط/ دراسة في مرحلة الصراع المملوكي .الصليبي، بيروت، 1986، صص. 71 ـ 103.

(9455/1)

انتزاع رودوس من السيادة البيزنطية عام 1309 م، فاتخذها هؤلاء قاعدة صليبية شاركت قبرص في سياستها الحربية والاقتصادية ضد المسلمين.

... ففي 8 آذار 1333 م، تشكل في مدينة أفينيون (Avignon)، مقر البابوية، حلف جمع البابوية وملك قبرص وفرسان رودوس لتعزيز الوجود الأوروبي في الشرق. عرف هذا الحلف باسم «الاتحاد» (L'Union) أو «الاتحاد المقدس» ()(La Sainte Union1).

... وفي ربيع 1344 م، تجمعت قوات الصليبيين الجدد في جزيرة نغريبون (Négrepont) الواقعة في بحر إيجه، ثم

---

(1) De Mas-Latrie, Histoire, T. II, p. 217.

(9456/1)

أبحرت منها باتجاه سواحل آسيا الصغرى، فهاجمت إمارتي آيدين وصاروخان في الأناضول، وألحقت الهزيمة بالأسطول التركي في خليج سميرن (Smyrne) (ازمير حالياً)، واستولت على المدينة، واحتفظت بها أكثر من نصف قرن من الزمن، كما دمر فرسان رودوس أسطولاً تركياً في مرفإ جزيرة إمبروس (Impros) مقابل مضيق الدردنيل في 24 حزيران 1347 م(1)، لتستمر بعد ذلك هجمات »الاتحاد المقدس« على آسيا الصغرى، حتى بلغت أوجها في نيسان 1361، حين انطلق أسطول مؤلف من 119 سفينة حربية من مرفإ فماغوستا،

---

(1) De Mas-Latrie, L'Ile, pp. 253–254.

(9457/1)

وهاجم بلاد القرمان (أرمناك)، ثم قام بسلسلة هجمات على السواحل التركية الجنوبية في البحر المتوسط، وانتزع غوريغوس (Gorhigos) (Corycus) مجدداً من القرمان، بعد أن استعادها هؤلاء من القبارصة، فارضاً هيبته على شواطئ آسيا الصغرى(1).

... وإذا كانت حالة السلم القائمة بين المماليك والقبارصة قد عززت التبادل التجاري بينهما، وسهلت

التواصل التجاري بين القبارصة وحلفاء المماليك في سواحل آسيا الصغرى، موفرة لرعايا قبرص إقامة علاقات مباشرة مع أمراء قونية وأمورية وسيفاس وأرزروم، وتمتين

---

(1) Ibid., pp. 260–262.

(1/9458)

صلاتهم التجارية مع أسواق الأناضول الكبرى التي كانت تصلها القوافل التجارية من أعالي آسيا(1)، وشجعت الملك القبرصي بطرس الأول ابن هوغ الرابع على إنشاء مركزين تجاريين في آسيا الصغرى، استمر أحدهما حوالي مائة عام تحت سيطرة القبارصة، وإقامة قنصليات لمملكة قبرص في بلاد الشام ومصر(2)، فإن روح الكراهية التي رسختها الحروب الطويلة بين المسلمين واللاتين لم تكن قد همدت بعد، ولم يكن في وسع المماليك، بالتالي، أن يتناسوا الخسائر الجسيمة التي ألحقها القراصنة

---

(1) Ibid., p. 259.

(2) Ibid., p. 260 et 283.

(1/9459)

القبارصة بالسفن التجارية الإسلامية، الأمر الذي دفعهم مبكراً لإرسال أسطولهم لغزو الجزيرة. كما كان المماليك لا ينظرون بعين الرضا لسيطرة القبارصة على سواحل آسيا الصغرى الجنوبية بتشجيع واضح من ملوك أوروبا وبمباركة من كنيستها، وما استتبع ذلك من تحريض الأرمن على القيام بنشاطات معادية للمماليك لهذه الأسباب جميعاً، حضَّ المماليك القرمان سرّاً، ودعموا جهودهم العسكرية لإخراج القبارصة من بلادهم(1).

---

(1) Ibid., p. 275.

(1/9460)

... استتبعت حالة انعدام الثقة بين المماليك والقبارصة حالة توتر في العلاقات بين الطرفين وصلت إلى حد قيام الملك بطرس الأول دي لوزينيان (Pierre I) ابن هوغ الرابع (1350 ـ 1369 م) بخطوة عسكرية جريئة ضد المماليك، في 10 تشرين الأول 1365 م/ 22 محرم 767 هـ، تمثلت بإرساله حملة بحرية إلى

الإسكندرية، المحطة التجارية الهامة لسلع الشرق الأقصى المتجهة إلى أوروبا، واستولى عليها. إلا أن بطرس الأول وجد نفسه مرغماً على إخلاء المدينة، بعد ثلاثة أيام من نهبها، بضغط من الفرسان الأوروبيين المشاركين في الحملة، وذلك

(1/9461)

بعدما ترامت إليهم أخبار سد المنافذ الموصلة إلى القاهرة، والحشود العسكرية التي هبت لنجدة الإسكندرية، وأن طلائعها قد وصلت، بالفعل، إلى ضواحيها، فعاد الملك القبرصي إلى بلاده على عجل محملاً بالأسلاب والغنائم والأسرى(1)

---

(1) عن احتلال الإسكندرية ونهبها على يد بطرس الأول، راجع: النويري الإسكندري، الإلمام بالأعلام لما جرت به الأحكام المقضية في وقعة الإسكندرية وما أضيف إلى ذلك من الاستطرادات المستحسنات، صورة شمسية بمكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، رقم 738؛ G. Michaud, La prise d'Alexandrie, Genève, 1877.

(1/9462)

.

... وعلى الرغم من التبريرات التي ساقها بعض المؤرخين المسلمين المعاصرين لما جرى في الإسكندرية، ومنها ما كان في حوزة ملك قبرص من معلومات وإخبارات عن أحوالها وحصونها ونقاط القوة والضعف فيها، من خلال عيونه وجواسيسه، الذين ارتادوا المدينة تجاراً، حتى ذهب النويري الإسكندري إلى القول بأن ملك قبرص حضر بنفسه إلى الإسكندرية عشية غزوها متخفياً، فاستطلع أحوالها، ثم قام بغزوها مستغلاً غياب واليها صلاح الدين بن عرام عنها لأداء فريضة الحج، وصغر سن السلطان المملوكي الأشرف شعبان، وأن توقيت الحملة كان في موسم

(9463/1)

فيضان النيل، بحيث تكون الطريق بين القاهرة والإسكندرية، عبر الدلتا، مغمورة بالمياه، مما يعيق الحركة عليها(1)، فإن احتلال القبارصة للإسكندرية كان حدثاً مؤثراً لم يخفف من وطأته ردة فعل السلطان الانتقامية اتجاه أفراد الجاليات الأوروبية والتجار

الغربيين الذين صادف وجودهم في بلاده، حيث اعتقلهم جميعاً دون تمييز بين جنسياتهم، وصادر أملاكهم وبضائعهم، وأخضعهم للتعذيب؛ وأمر بالاستيلاء على ربع أموالهم النقدية من أجل إصلاح ما خرب من الإسكندرية، وفداء الأسرى، وإعداد

---

(1) المصدر نفسه، الورقتان 221أ ـ 222 ب.

(9464/1)

أسطول لغزو قبرص، ثم طردهم من بلاده، واشترط على رسل الجمهوريات الإيطالية وكتلونيا الإسبانية، حين زاروه في الإسكندرية للتعبير عن تضامنهم معه واستنكارهم للعدوان على الإسكندرية، بأنه لن يسمح لدولهم بمعاودة نشاطها التجاري في مصر والشام إلا بعد أن يضغطوا على ملك قبرص لإطلاق سراح أسرى المسلمين. وهكذا كان(1)

---

(1) يتهم ده ماس ـ لاتري (De Mas-Latrie, L'Ile..., op. cit., pp. 279–280) البنادقة بأنهم قدموا مصالحهم التجارية على المصالح العامة للمسيحيين، مشيراً إلى أنهم نجحوا في إلقاء الظلال على مشاركة

البنادقة في حملة الإسكندرية، وأنهم توصلوا إلى إقناع السلطان بعدم إسهامهم فيها، ثم استغلوا فرصة جلاء القوات الأوروبية عن الإسكندرية لإعادة وصل ما انقطع من علاقات ودية مع السلطان. حول هذا الموضوع، راجع أيضاً: Michaud, op. cit., p. 180.

(1/9465)

. على أن السلطان لم يستثن من إجراءاته القاسية المسيحيين المحليين في مصر والشام، مما أثار حفيظة بعض الفقهاء المسلمين(1).

... أحدث استيلاء القبارصة على الإسكندرية صدى واسعاً في أوروبا. فهلل البابا أوربان الخامس (Urbain V) للحدث، وأصدر براءات تهنئة وجهها إلى ملك قبرص وملوك أوروبا، وحث هؤلاء على مساعدة بطرس الأول واصفاً إياه بـ»العظيم الشأن«، و»الأسد الشجاع«، منبهاً إلى الخطر الحتمي المحدق بمسيحيي الشرق إذا لم يبادروا إلى تقديم العون إليه،

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، مصر، د. ت، ج 12.

(1/9466)

وأنهم سيحظون بشرف الجهاد إذا ما أسهموا بتعزيز القدرات العسكرية لجزيرتي قبرص ورودوس بوصفهما خط الدفاع الرئيس على الطريق الموصلة إلى قبر السيد المسيح(1).

... استجاب عدد من الفرسان لدعوة البابا وغادروا بلادهم على وجه السرعة إلى الشرق واضعين أنفسهم وقواتهم تحت تصرف ملك قبرص. إلا أن ملوك أوروبا ونبلاءها لم يبدوا حماساً لمثل هذه الدعوة بسبب انشغالهم بمجريات الأحداث في شبه الجزيرة الإيبيرية، مما أرغم البابا على الإذعان لضغوط المدن البحرية، فنصح ملك قبرص بالعدول عن

---

(1) De Mas-Matrie, op. cit., p. 281.

القتال والسعي إلى عقد سلام مع المماليك فانصاع بطرس الأول للأمر، وأعطى الإذن لأعيان تجار البندقية وجنوا والكتلون بالسفر إلى القاهرة، وحثهم على المبادرة إلى اتخاذ الخطوات الأولى الممهدة لإجراء المفاوضات المنظمة مع السلطان(1).

... لم يمض وقت طويل على بدء المفاوضات حتى سارع ملك قبرص إلى إرسال قواته لمحاربة القرمان في آسيا الصغرى (1367 م). وذلك لأن ملك قبرص شعر بنية السلطان الأشرف شعبان للالتفاف عليه وإرغامه على الإذعان لشروطه، من خلال تشجيع الأخير زعيم القرمان على احتلال

---

(1) Ibid., p. 281.

(1/ 9468)

غوريغوس القاعدة الأساسية للقبارصة على الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى(1). وكان الأشرف شعبان يأمل من ذلك أن يخفّ بطرس الأول للإبحار بنفسه على رأس قواته لإنقاذ غوريغوس، مما يعطيه فرصة إطالة أمد المفاوضات، فيعيد تحصين ما تهدم من أسوار الإسكندرية وتحصيناتها، ويعدّ خطة محكمة لغزو قبرص في حال فشل المباحثات السلمية(2).

---

(1) Michaud, op. cit., p. 135.

(2) النويري الإسكندري، المصدر السابق، الأوراق: 205 أ - 210 ب.

(9469/1)

... وخلافاً لتوقعات السلطان، لم يغادر بطرس الأول جزيرته، بل أوكل إلى أخيه جان أمير أنطاكية (Jean d'Antioche) قيادة ست سفن حربية كبيرة مشحونة بالمقاتلين القبارصة والأوروبيين، انطلقت من مرفإ فماغوستا باتجاه غوريغوس في 26 شباط 1367 م(1).

... نجح الأمير جان في فك الحصار عن غوريغوس، ولاحق فلول القرمان إلى ما وراء جبال طوروس وألحق بهم خسائر فادحة، وأرغم القرمان على توقيع معاهدة سلام معه، تعهدوا فيها بعدم تهديد سلامة

---

(1) راجع: Michaud, op. cit., pp. 138–142، حيث تجد تفصيلات دقيقة عن هذه الحملة.

(9470/1)

القبارصة، سواء في جزيرتهم أو في ممتلكاتهم في آسيا الصغرى(1). وكان من النتائج المباشرة لذلك أن ازدهرت «هذه الممتلكات»، وبخاصة غوريغوس، فعمرت بالسكان، وأفادت من تسهيل علاقاتها التجارية مع

الأتراك في آسيا الصغرى ومع تجار المتوسط الأوروبيين(2).

... لم يكتف ملك قبرص بهذا الانتصار، بل تذرّع بعدم مصادقة الأشرف شعبان على مشروع الاتفاق الذي توصل إليه المتفاوضون المماليك والقبارصة في نيقوسيا، ورفض استقبال مبعوثي السلطان حين التقوه في رودوس

---

(1) Ibid., p. 168.

(2) De Mas-Latrie, op. cit., pp. 293–295.

(1/9471)

حاملين معهم عرضاً جديداً لاستئناف المفاوضات(1)، وجهّز قواته بالتعاون مع فرسان الاسبتار وبعض الفرسان الغربيين، وجمع أسطولاً مؤلفاً من حوالي أربعين ومئة سفينة، وأمره بالإبحار من مرفإ فماغوستا باتجاه الإسكندرية. إلا أن حملته تلك اضطرت إلى الانعطاف نحو سواحل الشام، بعد أن وصلته أنباء الإجراءات العسكرية التي اتخذها السلطان على طول الساحل المصري، فهاجم الأسطول القبرصي طرابلس الشام وطرطوس، واستولى عليهما ونقل أبواب طرابلس الحديدية إلى غوريغوس،

ثم عاد إلى فماغوستا قبل أن يدركه

---

(1) Ibid., p. 298.

(1/9472)

الشتاء، فوصلها في 5 تشرين الأول 1367 م، بعد أن ألقى مراسيه لبعض الوقت على شواطئ جزيرة صقلية(1).

... ظلت فكرة معاودة غزو الإسكندرية تراود مخيلة الملك بطرس الأول، فحاول إقناع البابا مجدداً كي يدعو لصليبية جديدة إلى الشرق، وتأمين التمويل اللازم لها، وذلك خلال زيارته إلى روما في ربيع عام 1368 م. بيد أن رغبة ملك قبرص تلك لم تلق حماساً من الحبر الأعظم، بسبب الظروف السياسية والاقتصادية الصعبة القائمة في البلاد الأوروبية آنذاك، وخصوصاً في إسبانيا التي كان يمزقها النزاع

---

(1) Michaud, op. cit., p. 217.

(1/9473)

الدامي بين هنري دي ترانستماري (Henri de Transtamari) وبطرس كرويل (Pierre Le Cruel)، فعاد أدراجه خالي الوفاض، وتهاوى حلمه الكبير بإحياء مملكة بيت المقدس اللاتينية. واضطر إلى أن يستجيب لمشيئة البابا الذي طلب إليه إرسال مبعوثيه على وجه السرعة إلى القاهرة كي يعاودوا المفاوضات التي توقفت مع ممثلي السلطان، وذلك للفوز بهدنة تضع حدّاً لحالة العداء مع المسلمين، وتهيء الأجواء لعقد اتفاقية سلام معهم سعى من أجلها حثيثاً منذ ما يقارب السنتين(1)

---

(1) Michaud, ibid., p. 221; De Mas-Latrie, op. cit., pp. 301–302.

(1/9474)

.

... كادت الأمور أن تسير في اتجاهها المطلوب لولا اغتيال بطرس الأول المفاجئ في ليلة 16 ـ 17 كانون الثاني 1369 م، مما جعل قبرص تعاني من أوضاع صعبة للغاية. فقد نشب النزاع داخل الأسرة الحاكمة، وسادت حالة انعدام الثقة بين أبنائها، ولا سيما بعد أن اعتلى العرش ابنه القاصر بطرس الثاني (Pierre II)(1).

... حاول السلطان المملوكي الإفادة من الظروف المستجدة في جزيرة قبرص للتملص من التصديق على المعاهدة معها. إلا أن رسل أمير أنطاكية، الوصي على العرش، إلى القاهرة ومساعي

---

(1) De Mas-Latrie, ibid., pp. 305–306.

(1/9475)

قادة الاسبتارية والبنادقة والكتلون نجحت في إقناع السلطان بالتوقيع على معاهدة سلام مع القبارصة، في عام 1370 م/ 771 هـ، قضت بتسهيل عودة قناصلهم إلى بلاده، وإعادة السماح للحجاج الغربيين بزيارة الديار المقدسة في فلسطين(1).

... وبالرغم من الإيجابيات السالفة، شهدت السنوات القادمة توالي النكبات على قبرص: من غزو الجنوية للجزيرة واستيلائهم على نيقوسيا، في حزيران (يونيو) عام 1373 م، وفماغوستا، في تشرين الأول (أكتوبر) من السنة نفسها، وتدمير الأسطول القبرصي،

---

(1) Dre Mas-Latrie, Histoire, T. II, p. 347.

(1/9476)

واعتقال قادة الجيش وسجنهم، وفرض جزية كبيرة على الجزيرة. ومن ذلك أيضاً: اندفاع القرمان باتجاه السواحل الشرقية والشمالية لآسيا الصغرى، وتصفية النفوذ القبرصي فيها. ولم يبق تحت سلطة القبارصة، في أواخر عهد بطرس الثاني، من المناطق التي استولى عليها هوغ الرابع وابنه بطرس الأول سوى قلعة غوريغوس، لاستبسال القبارصة في الدفاع عنها، نظراً لأهميتها التجارية(1).

(1) De Mas-Latrie, L'Ile, op. cit., pp. 309–312.

(1/9477)

... وفي عام 829 هـ/ 1426 م، وجه السلطان المملوكي الأشرف برسباي حملة بحرية إلى قبرص، وكان قد أرسل قبلها حملتين إلى الجزيرة(1)، إحداهما عام 827 هـ/ 1424 م، والأخرى عام 828 هـ/ 1425 م، فاجتاح المسلمون أراضيها واستولوا عليها، وأسروا ملكها يانوس (Janos)، بعد إلحاق الهزيمة به في معركة خيروشيتيا (Chierochitia) إلى الجنوب من أولمب (Olympe)، وحملوه إلى

(1) عن هاتين الحملتين، راجع: صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال الصليبي، بيروت، 1969. ص. 242، 243، 245 ـ 247 و250 ـ 253.

(1/9478)

القاهرة، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن وافق على شروط السلطان، ومنها التزامه دفع جزية سنوية باهظة، وتسريح الفرسان الغربيين من جيشه، وتجريد أسطوله من السلاح، وعدم معاودة الحرب ضد المسلمين(1).

... بعد ذلك، شهدت جزيرة قبرص مزيداً من التدهور في أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولا سيما في عهد الملك جان الثاني بن يانوس (Jean II). فعلى الرغم من تمكن الملك جان من تدعيم حالة السلم مع صاحب قونية ومع السلطان العثماني مراد الأول، فإن هذا الواقع لم يستمر

---

(1) De Mas-Latrie, op. cit., pp. 328–329.

(1/9479)

طويلاً. ذلك لأن مملكة قبرص، وقتذاك، كانت غير قادرة على إلزام الآخرين احترام مضامين المعاهدات التي عقدتها معهم، ولا سيّما أن حلفاءها من الأسبتار أضحوا في وضع لا يحسدون عليه، وباتوا، بالتالي، عاجزين عن ضمان تنفيذ بنود المعاهدات الآنفة بالقوة، بعد أن عزز إبراهيم بك، زعيم القرمان، أوضاعه السياسية والعسكرية في آسيا الصغرى على أثر اتفاقيتي الصلح اللتين عقدهما مع سلطان المماليك ومع سيد أرمينية، فاستشعر في نفسه القوة، وجاهر بنيته لمهاجمة قبرص(1). وفي صيف عام 1448 م، حشد إبراهيم

---

(1) Ibid., pp. 330–334.

(9480/1)

بك قواته في مدينة أنامور (Anamour) الواقعة على الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى، في مقابل جزيرة قبرص، منتظراً الفرصة المناسبة للإبحار إلى قبرص. بيد أن رسالة عاجلة وصلت إلى إبراهيم بك من حليفه جان دي لاستيك (Jean de Lastic)، كبير أسياد جزيرة رودس، يطالبه فيها بالعدول عن غزو قبرص، واعتماد الطرق السلمية لحل النزاع مع الملك القبرصي، لقيت استجابة

فورية من زعيم القرمان. إلا أن المفاوضات بين الطرفين لم تمنع إبراهيم بك من إرسال بعض قواته، خفية، إلى غوريغوس والاستيلاء عليها في منتصف تشرين الثاني 1448 م، بعد

(1/9481)

أن سيطر عليها القبارصة مدة زادت على ثمانين عاماً(1).

... وبوفاة الملك جان الثاني، أضحت قبرص فريسة للنزاع بين أولاده واستعرت فيها حرب أهلية مزقت أوصالها. ومما زاد الوضع سوءاً في الجزيرة استيلاء البنادقة عليها عام 1489 م، واتخذوا منها نقطة ارتكاز لمشاريعهم السياسية والتجارية في آسيا الصغرى بالتعاون مع الصفويين وأمراء قرمان(2). واستمر الحال في قبرص على هذا المنوال إلى حين زوال دولة المماليك على يد

---

(1) De Mas-Latrie, ibid., p. 334; Karamania, p. 203.

(2) De Mas-Latrie, ibid., pp. 337–338.

(1/9482)

العثمانيين عام 923 هـ/ 1517 م، فاستولى عليها العثمانيون عام 1571 م(1)، لتخضع، بعد حين، لحكم الولاة العثمانيين المباشر في عام 1577 م.

خاتمة

... ومنذ ذلك الحين، فقدت جزيرة قبرص حضورها الفاعل في الحوض الشرقي للمتوسط، لتستمر نقطة ساخنة فيه بسبب التنافس الدولي والإقليمي للاستيلاء عليها: ففي عام 1878 م، بسطت بريطانيا سيادتها على الجزيرة، ثم ضمتها إليها عام 1925 م، لتنال قبرص استقلالها عام 1959 م، وتعلن فيها الجمهورية عام 1960 م،

(1) Nouveau Larousse Encyclopédique, art « Chypre », vol. I, p. 330.

(1/ 9483)

برئاسة المطران مكاريوس. بيد أن أعمال الشغب التي عمت الجزيرة بسبب النزاع بين الأكثرية اليونانية المدعومة من دولة اليونان والأقلية التركية المدعومة من تركيا، كادت أن تؤدي إلى مواجهة عسكرية مباشرة

بين الدولتين، مما استدعى تدخلاً عاجلاً من الأمم المتحدة لوضع حد للصراع الذي بات يشكل استمراره خطراً على الأمن والسلم الدوليين. وفي ظل هذه الأجواء المحمومة، فاجأت تركيا العالم بغزوها شمال قبرص، عام 1974 م، واحتلته. وبعد مضي تسع سنوات (1983 م)، أعلنت في شمال الجزيرة دولة للقبارصة والأتراك، وانقسمت قبرص،

(1/9484)

بحكم الواقع إلى دولتين: دولة قبرصية تركية في الشمال، ودولة قبرصيّة يونانية في الجنوب(1). ولا يزال هذا الوضع قائماً إلى اليوم، بالرغم من الضغوطات الدولية التي يتعرض لها الأتراك لإعادة توحيد الجزيرة، مما يستدعي تساؤلاً كبيراً عمّا سيؤول إليه مصير جزيرة قبرص في الألفية الثالثة؟

---

(1) Ibid., p. 330.

(1/9485)

دولة لحيان: وجهة نظر جديدة

... ... الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري

... ... عضو مجلس الشورى بالمملكة العربية السعودية - الرياض

... كثيراً ما فكرت الكتابة عن حضارة لحيان بمنظور جديد مبني على حقائق ورؤى جديدة نتيجة للتأمل والتفكير فيها، ذلك لأن الحضارة بمفهومها الواسع تشمل نواحي دينية وسياسية وفنية وثقافية؛ وعندما يكتب عن حضارة أمة، فإنه يفهم من ذلك أنها قد وصلت إلى مرحلة من النضج والوعي الفائقين، مما يؤهلها لأن يكتب عنها من هذا المنطلق. فهل وصلت دولة لحيان إلى تلك المرحلة؟

(1/9486)

... هناك آراء كثيرة بدت عندما صورت ونقلت النقوش التي اكتشفت في شمال غرب المملكة العربية السعودية، ثم نشرت على الأخص في منطقة العلا. والعلا هي تلك المدينة الخصبة التي كانت وما زالت تتمتع بوفرة في المياه وعيون ناضحة ثرة، تسمح لزراعة نخيل مثمر له ظلال، وكثافة في أشجار الحمضيات المتنوعة

ومزروعات أخرى مختلفة، جعلتها متميِّزة عن غيرها من مدن شمال غرب الجزيرة العربية، وكانت تسمى »ددن« ارتباطاً واشتقاقاً من اسم المعبود »ود« الذي كان له مركز وقداسة خاصة في هذه المنطقة منذ النصف الأول من الألف الأول قبل

(1/9487)

الميلاد، فاسمه يعني المحبة؛ فارتبط هذا الحب لدى سراة القوافل بالقمر، صديقهم، بل ومعبودهم؛ وأصبحت العلا مدينة ذلك الحب.

... ولعل أقدم تكوين سياسي نشأ في هذه المنطقة وتحدثت عنه النصوص المكتشفة حتى الآن مملكة سميت خطأً »مملكة ددن« أو »مملكة ديدان« من جملة الممالك العربية الوسيطة في الجزيرة العربية. وهم عندما سموها بهذا الاسم، فإنما اتبعوا صيغة وردت في نص واحد بلفظ »متع إلى كبير ددن«، أي شيخ المدينة أو حاكمها، ووضعوها من الناحية التاريخية في حوالي القرن السادس قبل الميلاد. ثم وجدوا نصوصاً أخرى كثيرة

(1/9488)

تذكر مملكة أخرى أطلقوا عليها اسم »مملكة لحيان«، لأنها تتحدث عن ملوك لحيان، ووضعوا بداية تاريخها بين القرن الخامس والقرن الرابع قبل الميلاد، ولكن نهاية هذه الدولة كانت محل خلاف بين المؤرخين مما لا يجدر بنا أن نناقشه هنا.

... وإذا ما نظرنا إلى تلك الفترة التي نشأت فيها »مملكة ديدان« أو كما أسميها »مشيخة ديدان«، نجد أن النمط الشائع في بلاد الشام كان نمط ممالك المدن ضمن إطار الممالك الآرامية المنتشرة هناك ومن هنا، فإننا نتصور أن تكون »مشيخة ديدان« مرحلة أولى من مراحل مملكة لحيان عندما كانت المشيخة

(1/ 9489)

تنسب نفسها إلى المدينة أو المنطقة، والبذرة الأولى في بناء القوة السياسية لدولة كبرى إذا ما قدر لها البقاء والنماء والاستمرار.

... ومن هنا، فإنني أزعم أن مملكة لحيان كانت بدايتها الأولى في نهاية القرن السابع قبل الميلاد، أي أنها بدأت بمشيخة »ددن«، ثم تحولت إلى مملكة قبيلة »لحيان«، وهي المرحلة التي ظهرت بعدئذ في جميع ممالك الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً وما بينهما. ونحن

بذلك نعتقد أن بداية المشيخة كانت أيضاً بداية لتكوّن الخط اللحياني الذي بدأ بسيطاً في المرحلة اللحيانيّة الأولى (الددنية)، ثم

(1/9490)

تطور إلى المرحلة اللحيانية الثانية (المرحلة اللحيانية الأولى في التسلسل التاريخي السائد حالياً)، ثم إلى مرحلة لحيانيّة ثالثة (المرحلة اللحيانية الثانية في التسلسل التاريخي السائد حالياً).

... وهكذا يمكن أن نقول إن الدولة اللحيانية مرت بمراحل ثلاث:

... .المرحلة الأولى: من القرن السابع حتى نهاية القرن السادس، ثم

... .المرحلة الثانية: وهي مرحلة الخروج من قوقعة المدينة إلى مجال أوسع، وكانت هذه المرحلة هي أوج حضارة لحيان وقمتها، ثم

(1/9491)

... .المرحلة الثالثة: التي نستطيع أن نقول إنها كانت في بداية القرن الثالث قبل الميلاد، وهي المرحلة التي خرجت فيها لحيان إلى آفاق جديدة تتناسب مع النشاط الاقتصادي في الجنوب والشمال. وهكذا أصبح للحيان مدى واسع يتناسب مع مركزها الاستراتيجي بصفتها دولة قوية بين الجنوب والشمال عاصمتها مدينة »ددن« وحكامها قبيلة لحيان.

... حتى عهد قريب كنا لا نعرف الكثير عن مملكة لحيان، وكنا نأخذ معلوماتنا عنها عن طريق دراستنا لنقوشها المحدودة التي نقلها لنا كل من جوسين وسافيناك في مطلع القرن العشرين الميلادي. واستمر

(1/ 9492)

اجترارنا لمعلومات هذه النصوص حتى بدأ النشاط الأثري في المملكة العربية السعودية منذ أكثر من عقدين من الزمن. وكان أول ما لفت نظري إلى الوجود اللحياني خارج نطاق »ددن« المدينة هو النص الذي يتحدث عن وصول قوافل إلى أرك، وهي مدينة عراقية؛ ثم بعد ذلك رأيت التماثيل اللحيانية الضخمة الحجم في الحفرية التي تسمى حفرية السعيدي في تيماء، فعرفت أن لحيان كانت هنا، لأن التماثيل اللحيانية الضخمة لا يمكن أن

توجد في مكان كهذا إلا في إطار دور سياسي للحيان، ثم كنت أرى النقوش المنتشرة على طريق التجارة بين دومة الجندل

(1/9493)

وتيماء، وما حولها حتى حائل جنوباً بشرق، وحتى الحجر جنوباً بغرب، ومنطقة تبوك وحسمي، وأرى الحروف والنصوص اللحيانية تتراقص وتبرز بشكل واضح ومتميز بين أنماط الكتابات والنقوش العربية الأخرى، فازداد يقيناً بأن لحيان لم تكن محجورة بين جبلي »ددن«.

... وعندما كنت أدرس تاريخ الجزيرة العربية القديم في كلية الآداب وآتي إلى ذكر قبيلتي »طسم« و»جديس« في وسط الجزيرة العربية وتتطاول أعناق الطلاب ليسمعوا ما عساني أن أقول عنهما، أدخل في تحليل للنصوص التي وردت في كتب التاريخ فلا أجد إلا تضارباً في الأخبار، وضعفاً

(1/9494)

في الرواية، وافتعال أحداث وربطها بشخصيات لم يكتشف لها دور في تاريخ المنطقة حتى الآن. يسقط في يدي وأيدي الطلاب، وأجد أنه من الأفضل الإبقاء على أمل لمستقبل الأيام. فقد تكشف التنقيبات عمَّا يدلل على صحة الرواية العربية عن »طسم« و»جديس« وعن »زرقاء اليمامة«. ولذا ربطت عندئذ بين لفظ »طسم« واسم شبيه به ورد في التوراة هو »ليتشيم« على أنها اسم لإحدى القبائل في »ددن«، وقلت أيامها لطلابي: لعل هذه القبيلة نزحت من العلا إلى وسط الجزيرة لكي تضبط أمر قوافل التجارة بين جنوبي الجزيرة العربية وبين شرقها وشمالها

(1/9495)

الغربي عبر هضبة نجد. كما اقترحت آنذاك تاريخاً لقبيلة »طسم« في القرن السادس قبل الميلاد ومعها »جديس« اعتماداً على التاريخ الذي وضعه المؤرخون آنذاك لدولة »ددن« (مشيخة »ددن«) أو المرحلة الأولى لمملكة لحيان كما أعتقد.

... وقبل هذا الرأي من قبل، ولم يهتم به من قبلوا ما جاء في الكتب التاريخية. وتمر الأيام والسنون وإذا نحن نواجه وجوداً واضحاً وقوياً وفعالاً لمواطنين لحيانيين في

قرية »الفاو«. لقد وجدنا نصباً تذكارياً وضع في حرم معبد »ود« قدم للمعبود »ذي غابة«، وهو المعبود الذي سيطرت عبادته في »ددن« ما

(1/9496)

يقرب من خمسمائة عام وكان هو والمعبود »ود« في العلا كفرسي رهان؛ ولكن الغلبة كانت لـ »ذي غابة« بصفته المعبود الرسمي للدولة اللحيانية. كما وجدنا مقابر عائلية تأكدنا من أنها لحيانية، ووجدنا كثيراً من النصوص التي تحمل أسماء قبائل لحيانية. إذن نحن أمام ربط حضاري بين قرية في جنوب نجد وبين »ددن العلا« في أعالي الحجاز عبر هضبة نجد.

... خلال قراءتي مع إحدى الطالبات، التي أشرفت على رسالتها للدراسات العليا في مرحلة الدكتوراه، لبعض نصوص جنوب الجزيرة العربية، فوجئت بنص يتحدث عن مجموعة من اللحيانيين والأنباط

(1/9497)

وغيرهم ـ ولعلهم من التجار ـ اتفقوا على شراء قطعة أرض لبناء مقابر لموتاهم. وهذا وجود آخر للحيان وأحلافها في جنوب الجزيرة العربية.

... وعندما قام أحد طلابي الذي أشرفت على رسالته لمرحلة الماجستير بدراسة مجموعة من النصوص كان قد جمعها من جنوب غربي تيماء في الطريق إلى مدائن صالح فالعلا، أذهلتنا كمية النصوص التي كتبت بحروف متأثرة بالكتابة اللحيانية وبصيغ لغوية لحيانية تتكرر فيها جملة مهمة هي: »حل بددن«، وهي جملة لها دلالتها: إذا أصبحت »ددن« مكاناً يذكر على بعد مئات الكيلومترات. وهذه النصوص ما هي إلاّ

(1/9498)

إشارات تفرض نفسها على الباحثين والمؤرخين ومن قبلهم الآثاريين لكي يعيدوا النظر في تاريخ لحيان وحضارة لحيان.

... إن نظرة فاحصة في النصوص اللحيانية التي جمعت ودرست مؤخراً من جبل عكمة بمنطقة العلا تكشف عن معلومات جديدة كانت مجهولة عن لحيان الاقتصاد والتجارة والخراج والزكوات، وهذا ما استطعنا أن نستنبطه من نصوص عكمة؛ إذ أن عبدة »ددن« كانوا

يأتون إليه من عمان عاصمة الأردن شمالاً حتى بدر جنوباً ومن مدن أخرى لم نستطع تعرفها بعد ليقدموا زكواتهم وخراجهم »ددن« باعتبار أن ولاءهم الديني كان لـ »ددن«. أما

(1/9499)

الولاء السياسي، فربما كان للحيان. وكانت هذه الزكوات من أنواع مختلفة من الممتلكات: الجمال، النوق، الأراضي، الأغنام، الثمار، الحبوب، وكل ما يمتلكه المتعبدون. كما قدمت لنا هذه النصوص وظائف لم نعهدها أو نعرفها من قبل؛ إذ كان كهنة »ذي غابة« يقومون في بعض الأحيان برحلات لجمع هذه الضرائب أو الزكوات. وكان الرجل منهم يسمى »سلحاً« وتسمى المرأة »سلحة«. ... وهكذا نجد أن المرأة في مجتمع لحيان قد لعبت دوراً تعبدياً من جملة أدوارها الأخرى؛ إذ لا نستبعد أن تكشف لنا الأيام عن وظائف أخرى كانت تقوم بها المرأة إلى

(1/9500)

جانب الرجل، مما نجده في الحضارة النبطية وفيما خلفته لنا الوثائق الآشورية عن ملكات دومة الجندال وتيماء منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وكما ظهر ذلك واضحاً في دولة تدمر وبالأخص زنوبيا تلك المرأة العربية التي حكمت ما بين الفرات والنيل في القرن الثالث الميلادي.

... وإلى جانب ذلك، فقد أظهرت لنا مجموعة عكمة أنماطاً من اللهجات العربية من بلاد الشام ومن غيرها في أسلوب كأننا نسمعهم ونراهم في غدوهم ورواحهم؛ كما أننا تعرفنا مفردات عربية ثرة سوف تثري المعجم العربي.

(1/9501)

... والحضارة اللحيانية تستحق أن يبذل من أجلها الكثير وأن يتفرغ لها الباحثون وأن يجند لها المنقبون. ونحمد الله على أن المملكة العربية السعودية هي حاضنة هذه الدراسة وأن الحضارة اللحيانية هي جذر من جذور حضارة هذه الدولة، أسهمت بقدر وافر في حركة الفنون والكتابة والتجارة والمعمار، ولذا استحقت في فترة من فتراتها أن يطلق اسمها على خليج العقبة فأصبح يسمى على مدى لا يقل عن ثلاثة قرون بـ »بخليج لحيان«. ولعل النمط المعماري الذي شهدناه في قرية الفاو وأتوقع أن نشهده في مواقع أثرية أخرى هو تجاذب حضاري بين

(9502/1)

الجنوب والشمال فنقل اللحيانيون إلى الجنوب والشرق تراثهم وثقافتهم وضمنوا للمناطق الأخرى أمن التجارة، وحرية الحركة، ونماء المجتمعات.

... وبعد دخول الرومان إلى المنطقة فيما سمي بـ »المقاطعة العربية« أو ما يعرف لدى العرب بـ »قرى عربية«، انفرط عقد القبائل العربية التي كانت تسكن وادي القرى وما حوله واتجه بعضها إلى مكان آمن هو بيت الله الحرام »مكة المكرمة« وما حولها بُعداً عن بطش الغزاة من خارج الجزيرة العربية.

(9503/1)

... وهناك في بيت الله الحرام نشأت حضارة عربية جديدة هي مزيج من الحضارات السابقة. وكان اللحيانيون والأنباط من أولئك الذين أسهموا في هذه الحضارة حتى جاءت البعثة المحمديّة فأضاء نورها الجزيرة العربية.

... ومن هنا انبلج الحق وزهق الباطل، وكان اللحيانيون من المناهضين في بادئ الأمر، ولكنهم دخلوا كغيرهم في دين الله أفواجاً واستمروا يحملون الاسم القديم حتى

العصر الحاضر حول مكة من الشمال والشرق.

...

(9504/1)

رباط الفتح عاصمة المملكة المغربية في ذكراها الثمانمائة

... الدكتور عبد الكريم كريم

... كلية الآداب – الرباط

من المناطق الأولى التي سكنها الإنسان المغربي القديم: الضفتان الشمالية والجنوبية لمصب وادي أبي رقراق في المحيط الأطلسي: فقد أثبتت دراسة جمجمة «إنسان الرباط» التي عثر عليها في يبراير 1933 بأن الحياة البشرية قد ظهرت في هذه المنطقة منذ أن كان الإنسان لا يزال في مرحلة جمع الطعام في العصر الحجري(1). ومع الأيام ازدادت أهمية بعض المراكز مثل

---

(1) رشيد الناضوري، تاريخ المغرب الكبير، ج 1، ص. 58.

(9505/1)

»شالة« التي تجمع المصادر على أنها من بناء سكان البلاد القدماء، و»القصبة« التي بناها الرومان كقاعدة عسكرية حصينة. وعندما أشرقت شمس الإسلام على الكون وانطلقت الفتوحات الإسلامية في المغرب، كان للفاتح عقبة بن نافع فضل نشر الدعوة الجديدة في هذه الربوع وازداد مع الأيام رسوخ الدين الحنيف بعبد أن استقر المولى إدريس بـ»شالة« واتخذ قاعدة لتدعيم أسس الإسلام بالمنطقة(1).

ومما يؤكد التمسك بسيرة السلف الصالح أن شالة والقصبة وسلا أصبحت قواعد للمجاهدين الذين وقفوا في وجه طغيان

---

(1) محمد بوجندار، الإِغتباط، ص. 67.

(9506/1)

إمارة بورغواطة ببلاد تامسنا حقبة طويلة من الزمن »لم تزل بورغواطة في بلادهم معلنة بدينها وبنو صالح بن طريف ملوكها إلى أن قام فيهم الأمير تميم اليفرني، وذلك بعد عشرين وأربعمائة فغلبهم على بلادهم ولم يبق لضلالتهم باقية«(1). ويبدوأن القضاء النهائي على إمارة بورغواطة بتامسنا قد تم على يد

المرابطين حيث استشهد في إحدى هذه المعارك الإمام عبد الله بن ياسين عام 451هـ »وقتل ببرغواطة سنة إحدى وخمسين بموضع يسمى كريفلت «(2) فأصبحت »جميع بلاد بورغواطة

---

(1) البكري، المسالك والممالك، ص. 125

(2) الاِغتباط، ص. 280.

(9507/1)

اليوم على ملة الإسلام«(1).

* * *

خلال القرن الخامس للهجرة كانت بالضفة الجنوبية لمصب أبي رقراق »آثار للأوائل معروفة بضفة الوادي«(2) هي شالة »قصبة صغيرة تعزى لبني ترغه رهط صنهاجة«(3). وفي منتصف هذا القرن لم يكن في المنطقة غير »برج للسكنى وما حواليه أرض محرث ومسرح«(4).

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المؤلف المجهول، الاستبصار، ص. 45.

(3) محمد بوجندار، قصبة الرباط، مخطوط بدار الوثائق (د

1047)، ص. 5.

(4) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 475.

(1/9508)

وعندما وصل الخليفة عبد المومن بن علي عام 545هـ إلى »سلا لاستطلاع أحوال جزيرة الأندلس... أمر ببناء قصبة حصينة في ذلك الموضع على فم البحر الداخل إلى سلا«(1):

* للإقامة بها كباقي المنازل الموجودة في الطريق من مراكش إلى قصر مصمودة في بوغاز جبل طارق.

* لاستراتيجية المنطقة التي تسمح بالتحرك نحو جميع الجهات براً وبحراً.

* لاتخاذها معسكراً لتجمع القوات المجاهدة في الأندلس.

ولما تولى الخليفة يوسف بن عبد المومن، قام بإصلاحات ساعدت على تطور المنطقة من ذلك:

---

(1) المن بالإمامة، ص. 475.

(1/9509)

---

* تنظيم مواردها المائية »ألغى الماء الجاري المسرب الذي جلبه أبوه... فسد جريه... فأمر بإعادته إلى حالته

الأولى وزاد فيه بناء صهريج عظيم... حيث شرب خيل العساكر ومواشيهم ومواشي الناس وشربهم«(1).

* بناء جسر على نهر أبي رقراق »ألفى الجسر الذي كان قد نصبه أبوه ما بين سلا وبين المهدية على البحر لإجازة الناس عليه قد خرقته البحور.. فأمر بنصب جسر آخر إلى جانبه أعظم منه بناء وأساساً«(2).

* التخطيط لبناء مدينة بعد اتساع العمران في المنطقة:

---

(1) المن بالإمامة، ص. 446.

(2) المصدر السابق.

(9510/1)

– »أمر الخليفة أبو يعقوب رضي الله عنه ببناء مدينة كبيرة متصلة بالقصبة التي أحدثها أمير المؤمنين«(1).

– »كان أبو يعقوب رحمه الله هو الذي اختطفها ورسم حدودها وابتدأ في بنيانها فعاقه الموت المحتوم على إتمامها«(2).

وعندما بويع الخليفة يعقوب، نقل جثمان والده إلى قصبة المهدية »ودفن أمير المؤمنين أبو يعقوب

بالرباط بدار الخليفة «(3).

* * *

---

(1) الإِستبصار، ص. 46.

(2) ابن عذارى، البيان المعرب، الموحدون، ص. 172.

(3) ابن عذارى، البيان المعرب، ص. 172.

(9511/1)

حتى مطلع التسعينات من القرن السادس للهجرة »كان أهل الأثر يقولون في ذلك التاريخ: سيكون في هذا الموضع مدينة عظيمة لخليفة «(1).

– من المراحل الأساسية لبناء المدينة:

* تجديد قصبة المهدية: »أمر بتجديد القصبة المسماة بالمهدية المشبهة بمهدية بني عبيد بإفريقية لإحاطة البحر بها من جميع جهاتها «(2).

* وبنقش آيات قرآنية على بابي الساباط »يوجد على بابي الساباط من الآيات القرآنية المؤذنة بالجهاد والفتح: {إنا فتحنا لك فتحا مبين} إلى قوله: {وكان الله غفوراً

---

(1) المن بالإمامة، ص. 447.

(2) البيان المعرب، ص. 214.

(9512/1)

رحيماً}، كذا على باب القصبة القبلي مكتوب بالخط الكوفي. وكتب على بابها الشرقي: {يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم} إلى قوله: {وبشر المؤمنين}«(1).

* الشروع في بناء المدينة:

»شرع في بنيان المدينة العظمى التي على ساحل البحر من النهر والعدوة«(2)

»هذه المدينة المسماة الآن ... برباط الفتح ... وأمير المؤمنين ... هذا هو الذي مصرها ومهدها وابتدأ بناء أسوارها...«(3)

---

(1) قصبة الرباط، صص. 4-6.

(2) عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص. 384.

(3) المن بالإمامة، ص. 447.

(9513/1)

»كان المنصور لما جاز إلى الأندلس لغزاة الأرك ... أمر ببناء مدينة رباط الفتح ... وببناء جامع حسان ومنارة «(1).

»لما كان في سنة 590 انتقض ما بين أمير المؤمنين وبين الإذفونش من العهد فخرجت خيل الإذفونش تدوس البلاد ... وتجهز أمير المؤمنين وأخذ في العبور فعبر البحر في جمادى الآخرة من سنة 591«(2).

»كنت بمدينة فاس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وعساكر الموحدين قد عبرت إلى الأندلس «(3)

---

(1) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص. 43.

(2) المعجب، ص. 383.

(3) ابن العربي، الفتوحات المكية، ص. 167.

(9514/1)

»فلما وصل أمير المؤمنين وهزم إذفونش الطاغية ... أمر في مدة إقامته بإشبيلية ... وذلك في يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر من عام أربعة وتسعين وخمسمائة «(1).

»ولما كمل جامع إشبيلية وصلى فيه ... ارتحل إلى العدوة ... فوجد كل ما أمر به من البناء قد تم«(2).

»أما المدينة فقد تمت في حياة أبي يوسف وكملت أسوارها وأبوابها ... وبنى فيها مسجداً عظيما كبير المساحة واسع الفناء جداً لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه وعمل له مئذنة في نهاية العلو على هيأة الإسكندرية يصعد

---

(1) المن بالإمامة، ص. 484.

(2) روض القرطاس، ص. 67.

(9515/1)

فيها بغير درج ... والمدينة ... كبيرة جداً تجيء في طولها نحواً من فرسخ وهي قليلة العرض«(1).

»كان قد بنى مدينة محاذية لسلا ... من أحسن البلاد وأنزهها«(2).

»كان قد بنى بالقرب من سلا مدينة عظيمة سماها رباط الفتح على هيأة الإسكندرية في الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحصينه وتحسينه«(3).

»ثم خرج بعد أن رتب أشغال هذه المدينة وجعل عليها من أبناء المصامدة من ينظر في أمر نفقاتها وما يصلحها«(4).

---

(1) المعجب، ص. 384.

(2) ابن الأثير، الكامل، ج 12، ص. 145.

(3) ابن خلكان، وفيات الأعيان.

(4) المعجب، ص. 385.

(9516/1)

– يشكل المنخفض المجاور لجامع حسان والمشرف على مصب نهر أبي رقراق في المحيط الأطلسي:

* ميناء طبيعيا للمدينة »ميناء طوله نحو الميلين وعرضه نحو الميل مملوء بالبشر والزوارق في الوادي بركابها ويقابله في مراسي الأندلس وادي شلب وبينهما في البحر يوم وليلة«. أما نهر أبي رقراق، فيستغله الأهالي »لصيد أنواع السمك والشابل«(1).

* قاعدة لصنع السفن »وكان لهم بالقرب من جامع حسان معمل خاص لصنع المراكب... والآلات الحربية«(2).

---

(1) الإِستبصار، ص. 46.

(2) قصبة الرباط، ص. 9.

(9517/1)

---

* منطقة لإقامة الجسور »على هذه المعبرة قنطرة مركبة على ثلاث وعشرين معدية... تجوز عليها العساكر والمسافرون«(1).

– والموقع العام للمدينة جعلها »خير البلاد هي... فإنها مناخ التاجر والفلاح وملتقى الحادي والملاح والمرافق من بره وبحره في فصول السنة مؤذنة لقاطنه بالعيشة الهنية والحال الحسنة«(2)

– »اتصل الأمر العزيز بسكناها بالناس وببناء الديار حواليها والأسواق... حتى غدت عراقا وتلاحق الناس بها لحاقا وأشرقت الآمال فيها إشراقا«(3)

---

(1) الإِستبصار، ص. 127.

(2) عبد الكريم كريّم، رباط الفتح، صص. 12–14.

(3) المن بالإمامة، ص. 446.

(9518/1)

.

– »رحل الخليفة إلى رباط الفتح... فاغتبط بسكناه وعزم على الإِنتقال الكلي إليه«(1)..

– »كان قد بنى مدينة محاذية لسلا... فسار إليها يشاهدها فتوفي بها« وذلك في »ثامن عشر ربيع الآخر

وقيل في جمادى الأولى «(2) لعام 595هـ ودُفِن إلى جوار والده »أبو يعقوب بالرباط بدار الخليفة «(3).

– »لم يزل الخلفاء يخصونها بالِاهتمام. وإذا خرجوا في الغزوات يلمون بها غاية الإلمام ويجعلون لها حظا وافراً من التشريفات لها بالِاختصاص فيها

(1) البيان المعرب، ص. 172.

(2) الكامل، ج 12، ص. 145.

(3) البيان المعرب، ص. 172.

والمقام«(1).

– »لم يتم هذا المسجد إلى اليوم (عام 621هـ) لأن العمل ارتفع بموت أبي يوسف «(2).

* * *

وإذا كان بناء مدينة الرباط مرتبطا بالجهاد في الأندلس، فإن عمرانها قد تطور منذ أن أصدر الخليفة الموحدي الرشيد يوم 21 شعبان عام 637هـ ظهيراً يأذن للمهاجرين الأندلسيين بسكنى المدينة واستثمار الأراضي المحيطة بها:

(هذا ظهير كريم أمر به أمير المؤمنين بن أمير

المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله تعالى بنصره وأمدهم بمعونته ويسره،

---

(1) المن بالإمامة، ص. 447.

(2) المعجب، ص. 384.

(9520/1)

للمنتقلين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة، ومن جرى من سائر بلاد الشرق مجراهم وعراه من غير الأيام ما عراهم، حين أنهى ذو الوزارتين الشيخ الأجل الأثير الأكرم الأغر الأفضل أبو علي بن الشيخ الأجل الأكرم أبي جعفر بن خلاص أدام الله أثره وكرامته، ما أصابهم من الجلاء ودهاهم من أمر الأعداء وسعى لهم سعي من يقضي فيهم بالجوار ويلتمس لهم مكانا للقرار ومنزلا لإلقاء عصا التسيار، وعند ذلك أذن لهم أعلى الله تعالى إذنه وجدد مجده ويمنه في النقلة إلى رباط الفتح عمره الله تعالى بقضيضهم وقضهم وأن يتخذوا مساكنه وأرضه

(9521/1)

بدلا عن مساكنهم وأرضهم، ويعمروا منه بلدا يقبل أولى من قبل ويحملهم إن شاء الله تعالى، وخير البلاد ما حمل فإنه مناخ التاجر والفلاح وملتقى الحادي والملاح والمرافق من بره وبحره موجودة في فصول السنة مؤذنة لقاطنه بالعيشة الهنية والحال الحسنة ولهم أفضل ما عهده رعايا هذا الأمر العزيز أدامه الله تعالى من التوسعة على قويهم كي يزداد قوة، والرفق بضعيفهم حتى ينال يسرا وثروة، وأن يتوسعوا في الحرث ففي أرضه هنالك متسع، ويتبسطوا في كل ما لهم منه معاش وبه منتفع ويغرسوا الكروم وأنواع الشجر على عادتهم ببلادهم

(1/9522)

ويتأثلوا الأملاك لأنفسهم وأولادهم وأولاد أولادهم، وكل ما يعمرون من الضياع ويقتنون من الأصول والرباع فله حكم التسويغ على الإطلاق والدوام لا يلزمون فيه شيئا من وجوه الإلزام ولا يطلبون بغير حقوق الشرع التي جعلها الله تعالى في أموال أهل الإسلام وأقوالهم في مقاديرها مصدقة وأمانيهم كلها لهم وللاّحقين بهم محققة والولاة والعمال حفظهم الله تعالى مأمرون بأن يحفظوهم من كل أذى يلم بجانب من جوانبهم أو يعوق

عن مأرب صغير أو كبير من مآربهم وأن يكرموا غاية الإكرام نبهاءهم وأعيانهم ويولوهم من حسن الجوار ما

(1/9523)

ينسيهم أوطانهم حتى تدفع عنهم كل شبهة من شبه الحيف ويجمع لهم بين الرعاية لحرمة البلدي والعناية بحق الضيف إحسانا منه أعلى الله تعالى أمره وأوزع شكره، ينسحب على جماعتهم وأفذاذهم ويحملهم على موجب اعتلاقهم بهذا الأمر العلي أدامه الله تعالى وملاذهم فمن وقف عليه من الطلبة والعمال أكرمهم الله تعالى فليعمل بحسبه ولا يعدل عن كريم مذهبه إن شاء الله تعالى، وهو تعالى المستعان لا رب سواه.

كتب في الحادي والعشرين لشعبان المكرم من سنة سبع وثلاثين وستمائة)(1).

---

(1) مجلة تطوان، العدد العاشر، 1965، ص. 121.

(1/9524)

رحلة إلى المشرق والحرمين سنة 1933

ولد الفقيه الحاج الحسن بن الطاهر وعزيز بأسفي عام 1314 هـ، موافق سنة 1987. ودرس على عدد من فقهاء أسفي مثل سيدي محمد مولاي الحاج الإدريسي والسيد إدريس بنهيمة والسيد أحمد الصويري والسيد عبد الرحمن المطاعي والسيد محمد التريكي. ثم انتقل إلى فاس حيث أخذ عن بعض علماء القرويين أمثال السيد أحمد بن محمد القادري ومولاي أحمد الفضيلي والسيد عبد العزيز بناني.

وتقلد منصب العدالة، ثم عين نائبا لقاضي أسفي سنة 1941 ونائبا خصوصيا سنة 1963؛ كما كان إمام وخطيب المسجد الكبير بأسفي.

(1/9525)

ويحمل وسام العرش من درجة فارس. وتوفي سنة 1969.

وله من التآليف :

– "فتح العليم في الرد على منكر حسن التعليم"؛

– "إزالة اللبس عما يتوهم لراكب السيارة في إقامة الصلوات الخمس"؛

– "ختان الصبيان"؛

- "رحلة إلى المشرق والحرمين"؛

- "مجموعة من الفتاوي والخطب".

... ... * ... * ... *

كان وقع في قلبي شوق عظيم للحج عام 1346 هـ (1927 - 1928) بسبب أني سمعت مناديا ينادي وسط السوق بأن من أراد الحج فعليه بفلان نائب الكمبانية الفلانية فليتخابر معه في شأن ذلك فذهبت حين سمعت ذلك مسرعا إلى منزل ذلك

(9526/1)

النائب، وليس في علمي إذ ذاك ما يلقاه الإنسان من الصعوبات بين يديه حينما يفوه بمراده. ومن قدر الله أني لم أجده السفر فوجدت أمامي عقبة كؤودا لا قدرة لي على قطعها في ذلك الوقت، لاسيما مع

ضيق الزمن وعدم تيسر المحتاج إليه من الزاد، فبقي قلبي معلقا بذلك

وفي عام 1347 وطدت نفسي على ذلك وعزمت عليه وشرعت في أسبابه مع بعض الناس من أهل بلدي وغيرهم، رحمة الله على من مات منهم وقبل له ذلك وخضنا جميعا في المأموريات المخزنية إلى أن أتممناها

وتمكنا من جواز السفر ولم يبق لنا إلا تعيين وقته. فأرسلت لنا الحكومة

(1/9527)

وأبرزت لنا قوانين يلزم من أراد السفر اتباعها، فلم نجد سبيلا إلى دفعها ولا قدرة على تحملها. فأخذت منا جوازات السفر ومنعنا من السفر. ثم بقي الأمر على ما عليه من التعسير لأمور يعلمها اللطيف الخبير إلى أن انتقل لدار البقاء بعض أولئك الرفقاء جدد الله عليهم رحماته.

وفي هذه السنة المباركة، سنة 1351 (1932–1933)، رجع العزم إلى ما عليه كان. ومن أسباب التيسير تهيئة رفقة من أحبابنا وعومهم على ما عزمت عليه، منهم المقدم الفقيه السيد محمد (فتحا) بن عمر بوقفطان حفيد الشيخ أبي محمد صالح، والطالب السيد

(1/9528)

التهامي بن محمد البخاري، والطالب التاجر السيد عبد الله بن أحمد الكراوي، والسيد المختار بن العربي قارة. فشرعنا جميعا في سبب الحصول على جواز السفر. فأشير علينا أولا بتلقيح الجدري والتيفوس والريح الأصفر وباشر لنا ذلك رئيس مستشفى أسفي، الدكتور مير. وأخذنا منه شهادة بذلك ثم دفعنا له ثمانية ريال لكل واحد. وإن مريد الحج مطالب كذلك بأمور أخرى : أولها شهادة من الباشا تتضمن التعريف به ويجب أن يترجمها له ترجمان رسمي. وثانيها ثلاث صور فوتوغرافية. وثالثها يكتب طلبا لإدارة البلدية بين فيه مقصوده بالسفر وعلى

(1/9529)

أي طريق يكون ذهابه وإيابه، ويقدمه مع الشهادة المذكورة والصور وخمسة فرانك ورابعها أخذ شهادة من إرادة الضريبة ببراءة الذمة من أنواع الضرائب. وخامسها شهادة أخرى من الباشا بقدر المال الذي تصحبه معك، وأنك تركت أهلك مستغنين عن الغير حتى ترجع. وسادسها وضع خمسة آلاف فرنك بالبنك المخزني حتى ترجع أو ضامن بالقدر المذكور. وتكون هذه الضمانة برسم عدلي. ولا يحتاج هذا الرسم وكذلك شهادة الباشا

الأخيرة إلى ترجمة.

ولما دفعنا كل ذلك، قال لنا المكلف بجوازات السفر إنه يلزم كل من أراد أن يسافر مع الناس الذين تحملهم

(9530/1)

الباخرة التي يأتي بها المخزن أن يضع في البنك المخزني ألفي فرنك ضمانة حتى يرجع، ومن أراد أن يسافر على طريق أخرى في حرية يلزمه وضع خمسة آلاف فرنك للغرض المذكور، فكان ذلك علينا أشد شيء. واقتضى النظر أن نقص ذلك على جناب الباشا الحاج الطاهر المقري فوعدنا خيرا. وهكذا رخص لنا في الإتيان بضامن مقبول في القدر المذكور مشهود عليه بذلك بعدلين. وأعطانا الباشا شهادة بأن كل واحد منا سيصحب معه شعرة آلاف فرنك لذهابه وإيابه وأنه ترك لعياله وأولاده ما يكفيهم مدة غيبته لقضاء المناسك

(9531/1)

ثم ذهبنا إلى قنصل الإنجليز بأسفي من أجل أن نضع بالبنك الإنجليزي الضمانة التي تطلبها الحكومة

المصرية. فأجابنا بأن نضع ذلك في المحل المذكور؛ ولكن الطبع يكون بالدار البيضاء. وذهبنا للبنك وسألنا عن صرف الإبرة في ذلك اليوم، فوجدناه بفرانيك 7.25 ف. إلا أنه قيل لنا لا بد من 90 فرنكا لما يكلفهم ذلك من خدمة كثيرة. ولما عرفنا أن القول ما قالت حذام، دفعنا واجب واحد وعشرين إبرة إنجليزية. ثم عينا وقت السفر في يوم الاثنين 11 شوال (6 فبراير 1933) . وفي صبيحة ذلك اليوم وقرب فجره توضأت وصليت الركعتين

(9532/1)

المطلوبتين قبل السفر وقرأت الدعاء الوارد في ذلك، وهو : "اللهم زودني التقوى واغفر لي ذنبي ووجهني للخير أينما توجهت". وذلك بعد قراءة الفاتحة وآية الكرسي. ثم بعد طلوع الفجر صليت الفجر والصبح، وبقيت إلى أن قرب وقت السفر فكتبت بجدار منزلي قوله تعالى : { إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد }، وأنا لا أنظر إليها حين كتابتها، لأن من خصائصها أن يرجع الإنسان إلى منزله سالما. كما كتبت في بطاقة : "لا إله إلا الله"، وتركتها عند أهلي. وكتبت في أخرى :

"محمد رسول الله"، وصحبتها معي، لأن من خصائصهما لا بد أن

(9533/1)

يجتمعا. ولما قرب وقت السفر، ودعت أهلي وأولادي بقولي : " أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه". وخرجت ومعي شيخنا وصهرنا الفقيه العلامة الشريف البركة محمد مولاي الحاج بن الشريف الأسعد سيدي الحاج إدريس وبعض الإخوان والتلاميذ إلى أن وصلنا للمحل الذي أردنا الركوب منه، وهو بطحاء رباط أسفي فوجدناها غاصة ببعض الأقارب وطلبة العلم والأهالي. وركبت أنا والسيد محمد بن عمر المذكور مع السيد عبد الله المذكور في سيارته ومعنا أخوه الخليفة الأرضى السيد محمد والطالب التاجر السيد عبد الرحمن بن عزوز. ولما ودعنا الأقارب

(9534/1)

ومن معهم، كانت ألسنة الجميع ما بين طالب للتسليم على مولانا رسول الله و – صلى الله عليه وسلم – وطالب الشفاعة وغير ذلك وكل من تكلم معنا نسمع لصدره

أزيزا ولجوفه غليانا من الاشتياق.

وفي الساعة السابعة والربع، ذهبنا قاصدين الدار البيضاء ممتعين النظر فيما كسا الأرض من خضرة وأزهار، فوصلنا إلى الجديدة في الساعة التاسعة والربع. وكان الضباب كثيرا لما قربنا من الجديدة بحيث لا يرى الإنسان من أمامه إلا بشق الأنفس. فذهب رفيقنا السيد عبد الله الكراوي لمحل قنصل إسبانيا بقصد الختم على جوازات السفر لأننا كنا

(1/9535)

قاصدين طنجة. فقال له تدفع عن كل جواز عشرة فرانيك فقبل ذلك وأراد أن يمكنه من الدراهم فتراجع القنصل وقال له لا بد من خمسين فرنكا عن كل جواز. فرفض ورجع إلينا فركبنا وقصدنا الدار البيضاء، وذلك في الساعة العاشرة، فوصلنا إليها في الساعة الحادية عشر والنصف. وبعد أن أخذنا راحتنا وتغذيتنا وصلينا الظهر، ذهبنا إلى قنصل إسبانيا ليطبع لنا على جوازات السفر فأعطانا أوراقا نضع فيها اسمنا وسننا، إلخ. وفي غده دفعناها له، فمكننا من جوازاتنا وطلب منا خمسة فرانيك عن كل جواز. فتأمل الفرق الذي بين هذا القنصل وبين

(9536/1)

قنصل الجديدة؛ فإنه أكثر من المسافة التي بينهما.
كما ذهبنا إلى قنصل الإنجليز، وهو يهودي أصله من
الصويرة فتلقانا بوجه بشوش وكلام لين. واعترض
علينا وضع الزائد على العشرين إبرة المذكورة. قال إن
الواجب إنما هو عشرون فقط فقلنا له الأمر سهل. ثم بعد
هذا الاعتراض الذي لا فائدة منه، طلب منا الجوازات وأن
نضع خمسمائة فرنك عن جميع الجوازات حتى يحمل
الحساب المتعين في ذلك، لأن الجوازات التي دفعناها له
ثمانية. فمكناه منها وواعدنا بأن يمكننا من مطلبنا
غداة يومه ما بين الساعة العاشرة والثانية عشر.
وذهبنا عنده

(9537/1)

قبل الوقت بنحو عشر دقائق. فلم يصلح به الحال، فقلنا
له نمكث هنا حتى يصل الوقت، فأجاب أن ذلك موكول إلى
اختيارنا. فمكثنا نحو الساعتين. ثم مكننا من
ذلك ورد لنا من الخمسمائة فرنك ثمانين فرنكا. فوجدنا
على كل جواز طابعين فيهما معا اثنا عشر شلينا.

الرباط

وفي الساعة التاسعة صباحا من يوم الأربعاء 13شهره (8 فبراير)، توجهنا لرباط الفتح مع السيد عبد الله والسيد محمد المذكورين. والرفقاء الآخرون ركبوا الستيام إلى طنجة بـ 10 ريالات. فوصلنا للرباط في 25 : 10. ولما وصلنا، أخذنا في لعلو بيتين، واحد فيه ناموسيتان

(9538/1)

بفرانيك 22؛ والآخر فيه ناموسية واحدة بفرانيك 16. ثم خرجنا النظر في عظيم تلك البلدة عاصمة المملكة المغربية ومقر العلماء والأدباء. فمررنا في طريقنا على متاجر صغيرة وأخرى كبيرة يدير البعض منها بعض المسلمين يسر الله لهم. والكساد مخيم على الجميع مع ما طرق سمعهم من انخفاض الأثمان، جبر الله كسرهم. وفي وقت الغذاء استدعانا بعض أحبة الرفيق السيد عبد الله المذكور لتناول الغذاء عنده. فإذا به منزل نعم المنزل ونعم أهله، يرقى إليه بدرج وله إشراف على البحر وعلى بعض أبنية البلد، وفيه كرسيان عليهما بعض كتب

(9539/1)

التاريخ والأدب والمجلات. ومن جملة الأضياف به الفقيه سيدي محمد بن بومدين الفضيلي أحد المدرسين بالدار البيضاء وقد تخلى عن العدالة. وأخبرني عن شيخنا سيدي الرضي وأنه ساكن وقته بالدار البيضاء وأكرمه أهلها فاكتروا له منزلا للسكنى وجمعوا له أربعمائة ريال يدفعونها له كل شهر علاوة على ما يكرمونه به مما لا يدخل تحت الضبط فأسفت لعدم اللقاء به لأني لم أبحث عنه لما سمعته من انتقاله من الدار البيضاء إلى غيرها بسبب ما وقع له من شحناء مع بعض الطلبة هناك فأعلمني الفقيه المذكور بخيبة ذلك الإنسان.

(9540/1)

وكان من جملة الأضياف أيضا الأجل المتواضع صاحب مولانا الإمام، سيدي محمد ولد المعلم، وهو أحد حجاج هذه السنة وكان لنا به اجتماع وإيناس في تلك البقاع المكرمة. وبعد الحفلة، ذهبنا مع السيد محمد الحفيد للمكتبة العلمية التي جادت بها همة مولانا الإمام أيده الله. وتحتوي على ما يقرب من ثمانين ألف مجلد من التآليف

المطبوعة وعلى أكثر من ألفي مجلد بخط اليد، كما أخبرني بذلك بعض المكلفين بها. وقد عثرت أثناء البحث على كتاب سماه مؤلفه " مفتاح الصحيحين" ؛ فإذا هو تأليف صغير الحجم فيه برنامج لجميع الأحاديث التي في

(1/9541)

" الصحيحين" وفرحت به غاية الفرح لأني لم يسبق لي رؤيته بل ولا السماع به. وقيدت عندي اسمه لعلي أجده.وقد من الله به علي والحمد لله. وفي المكتبة أناس كثيرون أروباويون ما بين نساء ورجال مشتغلين بالمطالعة والتقييد، وليس بينهم من المسلمين إلا نحو ثلاثة ينقلون من كتب عجمية بخط عجمي، حتى أني شككت في المحل هل هو المقصود أو غيره. فوا أسفاه! ثم لما خرجت منها، ذهبت مع الرفيق المذكور للمدرسة اليوسفية لصلة الرحم مع بعض تلامذتها. فاستقبلنا القيم بأمورها – وهو السيد الطيب الصديكي – ببشر وكلام لطيف، وأمر بإحضار

(1/9542)

التلميذ الذي طلبناه فحضر حينا وطاف بنا في تلك المدرسة البهية.

ثم خرجنا قاصدين المدينة فدخلنا المسجد المجاور للمدرسة بقصد التبرك بآثاره . وبتنا بالمدينة بعد أن أكرمنا بعض أحبة السيد عبد الله المذكور. وفي ذلك الوقت تحرك الشوق في قلب الشاب السيد محمد بن السيد أحمد بوهلال. وتركناه في غاية الشوق.

وقد كنت سألت عن الدروس العلمية بعض الشبان لما دخلت بعض المساجد لمشاهدة المدرسين وسماع حسان دروسهم والتبرك بهم. فأجابني أن المدرسين ما زالوا في راحة فسحة عيد الفطر. فأسفت لعدم الاجتماع بعلماء تلك العاصمة ومن

(9543/1)

بها من الأحبة.

وفي صباح يوم الخميس 14 شوال (9 فبراير) في الساعة السابعة، توجهنا قاصدين طنجة فمررنا في طريقنا بمدينة الأدباء سلا متأسفا لعدم ملاقاة من بها من الأحبة. ومررنا أيضا في وسط المدينة الجديدة المحدثة بين سلا ومكناس، وهي المسماة القنيطرة ذات البناءات من الطراز الجديد. وقطعنا الطريق إليها في نصف ساعة.

ومررنا من عرباوة بدون تفتيش كثير.

العرائش :

ثم مررنا أيضا بمدينة القصر وهي بلدة صغيرة لم تسمها يد الإصلاح. ووقع بصري على خمس منارات. ولم يمكن النزول إليها ولا التمتع بمشاهدة آثارها. ثم

(1/9544)

دخلنا مدينة العرائش، وهي بلدة باشرتها يد الإصلاح على ما ينبغي كثيرة الأشجار على الطريق فطفنا في بعض أزقتها، وهي غاية في النظافة والإصلاح بالترصيف. ومن أحسن ما يرى فيها "مكانة" ذات أربعة أوجه على منار لطيف الشكل حسن المنظر.

ولم أر في بلدة أن أذانها الأول للظهر يتأخر عن الساعة الثانية عشر والربع إلا هي. وليس بين هذا الأذان والأذان الثاني للظهر إلا نصف ساعة. فسألنا عن وقت الأذان فقال لنا بعض الناس إنه يقع في الساعة الواحدة والنصف الإسبانية وفي الساعة الثانية يكون الأذان الثاني. ووقت غذائهم في

(1/9545)

الساعة الواحدة والنصف، وعليها أيضا شيد محال التجارة. ومما أعجبني فيها غاية روضة المسلمين، فلا يظن الغريب عند رئيتها إلا أنها متنزه لكثرة الأشجار ومتانة سورها. وفي وسطها طريق يمر الداخلون من بابها إلى ضريح الولية الصالحة السيدة منانة المصباحية.

وسألنا عن السكة التي يتعاملون بها، فوجدناها حسنية فضية مغربية. فاضطررنا لتبديل شيء من الفرنك، فدخلنا للبنك وسألناهم عن الحسنية، فلم نجد عندهم إلا السكة الإسبانية. فباعوا لنا مائة وخمسين بسيطة إسبانية بثلاثمائة وخمسة عشر فرنكا وثلاثة قروش (خمسة وسبعين

(9546/1)

سنيتما) . ثم سألنا عن المحال المعدة لأكل المسافرين، فأشار علينا غير واحد بمحل خاص. فبحثنا عنه، فإذا هو من آخر درجة. فتغذينا فيه لعدم تيسر غيره إما حسا وإما شرعا. وأدينا له ريالين إسبانيين.

ثم ذهبنا لبعض المساجد بقصد الوضوء وصلاة الظهر، فإذا هو من أحسن المساجد بناء ونظافة. و صلينا الظهر جماعة وخرجنا حامدين الله تعالى. وركبنا بعد الساعة الواحدة

قاصدين طنجة، فوصلنا إليها بعد الساعة الثالثة فتلقانا رفقاؤنا الذين سبقونا إليها كما ذكرناه فاجتمع شملنا والحمد لله. وأما الطريق من الرباط إلى طنجة، فلا

(1/9547)

تسأل عن خضرتها وأشجارها وأنهارها.

طنجة :

ولما وصلنا إلى طنجة، وجدنا رفقاءنا أعدوا لنا بيتا فيه فراشان بريال 3 وآخر فيه فراش واحد بريالين، ثم خرجت مع بعض الرفقاء وصلينا العصر في ضريح الشريف سيدي الحاج عبد السلام الوزاني الذي كان متزوجا بإسبانية، وهو ضريح صغير في غاية النظافة والزخرفة والقبر فيه منعزل في قبة صغيرة داخل الضريح. وعلى باب القبة المذكورة باب من زجاج لا يدخله إلا من كان مريضا كما أخبرني به المكلف بذلك (وهو غلام صغير يبدو أنه دون البلوغ). وبعد هنيهة دخلنا المسجد الكبير بها، فإذا به

(1/9548)

من أرفع المساجد، وفي صحنه ثلاثة مواضع للمتوضئين، ثم خرجنا منه وذهبنا لمسجد آخر يقال له مسجد أبي عبيد ، وهو مسجد في غاية الحسن واللطافة والنظافة وفراشه بالحصر الرباطية كذلك، وفي وسطه صحن صغير يظن الظان أنه مسجد آخر فاستحسنا ذلك وفيه صومعة لطيفة مبلطة حيطانها الأربعة بالزليج من أسفلها إلى أعلاها لم أر مثلها. فصليت به المغرب، ثم ذهبنا لزيارة الولي الصالح سيدي محمد الحاج الملقب ببوعراقية، فمررنا في طريقنا على روضتين فدخلنا لإحداهما التي بها ضريح الصالح المذكور فزرنا صاحبه وقرأنا ما تيسر من القرآن

(1/9549)

والصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم – ووهبنا ثوابه له ودعونا الله تبارك وتعالى وخرجنا. وهو ضريح متوسط نظيف. والروضة المذكورة بتمامها في غاية النظافة. فإنا لله وإليه راجعون، وبكل أسف على حال روضات بلدنا.

وفي طنجة اشترينا الحسنية بسبعة فرانك غير قرش

لكل ريال عدا الريال الحسني المؤرخ بـ 1399 ؛ فإنه بفرانك 7.25.

وفي هذا اليوم سألت بعض الشبان، لما رأيته عليه من سمة العلم، عن الفقيه السيد عبد الصمد كنون.

فأجابني ببيان محل سكناه وقال بالاستقراء تصله، فتيقن لي ما فهمته منه وشكرته على جوابه الحسن.

وفي

(9550/1)

يوم الجمعة (10 فبراير) ذهبت قرب تبديل علم الجمعة إلى دار الفقيه سيدي عبد الصمد كنون واستأذنت عليه فخرج إلي بعد هنيئة وعليه هيئة الاستعداد لصلاة الجمعة، فسلمت عليه أنا ومن معي من الرفقاء، وتساؤلنا عن الأحوال. فلامني على المجيء في هذا الوقت، فاعتذرت له بما شغلنا في صباح ذلك اليوم من البحث عن باخرة للسفر إلى بور سعيد في نفس اليوم أو الغد، وأنني خشيت عدم الملاقاة معه. فقبل عذري. وسألته عن ولده الشاب السيد عبد الله ، فلم أجده هناك ثم ودعني على شرط أن نجتمع به إذا كانت فسحة. وهكذا كان اجتماع من لم

(9551/1)

يسلم حتى ودع.

لقد بحثنا صباح ذلك بحثا كثيرا عن باخرة، فلم نجد ما يوافق. ومع كثرة خدمة شركات البواخر، لا نجد من تحسن به الظن لكثرة تحليلاتهم وعدم أمانتهم وقلة صدقهم. فليحذر الإنسان منهم وليترك حسن الظن إلى أهله. ثم عثرنا على وكيل بعض الشركات الإنجليزية، قرب الجامع الكبير على يمين الصاعد في محل يقال له "أبلان". فوجدنا أن قدوم الباخرة المعهودة إلى طنجة متأخر. وبعد المذاكرة معه، ساعدنا على أن يطير إلى لندرة تلغراما يعلمهم فيه بما عنده من الحجاج ويطلب منهم أن يساعدوه على مجيء الباخرة الذاهبة إلى

(9552/1)

بورسعيد وإلى الهند، لكي تحملنا مع غيرنا من الحجاج، وفي عشية يومه، أجيب من قبلهم بالمساعدة. وأعلمنا بذلك، فهرعنا إليه؛ وأخبرنا بقدوم الباخرة في يوم الثلاثاء 19 شوال (14 فبراير).

وصلينا الجمعة في المسجد الكبير. كما خرجنا في

العشية إلى محل خارج البلد على طرف البحر وأمامنا بوغاز جبل طارق وجبال إسبانيا. وبعد صلاة المغرب، اجتمعت بالشاب المنور الأديب السيد عبد الله كنون المذكور. فوجدته على علم بسؤالي عنه وتواعدنا بالاجتماع.

(1/9553)

وفي صبيحة يوم السبت (11 فبراير)، اشتغلنا بتتميم أمر الكراء في الباخرة فتعاقدنا مع الوكيل على السفر من طنجة إلى بورسعيد؛ لأن الباخرة المذكورة لا تذهب إلى الإسكندرية، وذلك بخمس عشرة إبرة إنجليزية ورقا لا ذهبا لكل واحد في الدرجة الثانية. غير أنه لما كنا أكثر من أربعة أشخاص، وعددنا ثمانية، أسقط لنا من الكراء عشرة في المائة. فصار الكراء ثلاثة عشرة إبرة ونصف. وذهبنا في هذا اليوم أيضا إلى المندوبية التي بها نائب مولانا الإمام ومن معه من المستشارين، من أجل طلب الإذن بالسفر إلى مدينة تطوان. فأجابونا

(1/9554)

بأن ذلك لا يمكن لأن الجوازات التي بين أيدينا ليس فيها التنصيص على الذهاب إلى تطوان، وأن سبب ذلك هو الواقعة البربرية وما وقع من بعض الشبان في ذلك فقلت لهم إن الذهاب إلى تطوان لو أراده أحد لذهب إليها من مدينة العرائش، لأنها من قسم ما استحوذت عليه إسبانيا. فأجابونا بأن هذا أمر صدر به قرار من جناب المخزن ولا يمكن تعديه.

وفي يوم الأحد (12 فبراير)، ذهبت مع بعض الرفقاء لزيارة سيدي محمد بن الصديق فاستأذنا عليه. فأمرنا بالرجوع إليه بعد ساعة ونصف. ولما رجعنا إليه ودققنا عليه الباب، خرجت إلينا بنت ذات

(9555/1)

أدب فسألنا عن الشيخ فأجابت بجواب حسن وابت عنا هنيئة ثم خرجت وأمرتنا بالدخول ، وبعد هنيئة يسيرة دخل علينا الشيخ المذكور ولحيته مخضوبة، ففرح بنا وتساءلنا عن الأحوال. ثم أخرجنا إلى مكان آخر، فوجدنا عنده بعض طلبة العرائش وبعض طلبة العلم من قرابته. فجلسنا ما شاء الله. ثم أرسل إلينا قرى الضيف. وبعد فراغنا من ذلك، أتى إلينا فطلبنا منه دعاء الخير ثم ودعناه.

وقبل أن نعود إليه كما ذكرت، ذهبنا لدار سلطان المغرب سالفا مولاي إسماعيل التي بها الآثار القديمة. وفي القبة الأولى منسج تنسج فيه الزرابي، وللعاملين

(1/9556)

به من الأولاد راتب شهري على قدر عمله. وفي قبة أخرة المنسوجات التامة. والثالثة مثل الخامسة أواني من الفخار من فاس وأسفي ورباط الفتح والريف وبعض المصنوعات من اللوح وغير ذلك من المطرزات والمحفظات. وفي السادسة بعض حجارة من رخام وجبص عتيقة جدار امحى غالب كتابتها. وخوخة باب جامع من جوامع الأندلس تلاشى تزويقه أيضا وأوان صغيرة على شكل "الفتاش عندنا، كان الرومان يوقدون فيها الضوء. وفي هذه الدار أيضا صناديق كانت توضع فيها أموال المسلمين. ودخلنا إلى قبة هائلة كانت توضع فيها الصناديق المذكورة. ولما أردنا

(1/9557)

الخروج من هذا القصر، إذا بسيدي محمد بن الطاهر الفاسي ببابه؛ فسلم علينا وسلمنا عليه. وهو المكلف بهذا القصر.

وفي عشية هذا اليوم، ذهبنا إلى منتزه لبعض الأهالين أبدأ فيه وأعاد بناء وتزويقا وتنميقا وأراد به أن يجعله محلا للنوم والأكل والشرب. ومن أراد الدخول إليه يدفع فرنكين ونصف. وقد جعل فيه مصنوعات مغربية بقصد بيعها لمن يطلبها. وبعد ذلك ذهبنا لدار مولاي عبد الحفيظ سلطان المغرب سالفا. وقد صارت ملكا لبعض الإيطاليين الذي جعل فيها مدرسة لأبناء جنسه وغير ذلك مما اشتهت نفسه.

(1/9558)

وفي ليلة 18 شوال (12 فبراير)، استدعاني الطالب النجيب السيد عبد الله بن الفقيه المسن المدرس البركة سيدي أحمد السميحي، فذهبت معه لمنزل الفقيه المدرس صاحب التقاليد الجليلة المفيدة سيدي محمد بن العياشي سكيرج الفاسي أصلا الطنجاوي استيطانا. و هو من أبهج المنازل وألطفها وأظرفها. ومن أهله أكثر منه. وكان من الأضياف الفقيه السيد أحمد السميحي المذكور وفقيهان آخران. فلم يقصروا في إكرامي جزاهم الله خيرا.

وكانت هذه الليلة من الليالي الغراء لما اشتملت عليه من المذاكرة في موضوعات مختلفة. وأطلعني على تاريخه

(1/9559)

الحفيل الذي سماه " رياض النهجة في أخبار طنجة". وهو الآن في جزء متوسط ويؤمل أن يخرجه في ثلاثة أجزاء وبين في مقدمته أن طنجة قديمة جدا بنحو أربعة آلاف سنة. كما أنه أطلعني على تقييد له سماه "كشف الغصة بتقريب الحصة" ، وهو شرح منظومة له فيها نحو أربعين بيتا. وفي الشرح نحو الثلاثين ورقة. فطلبت منه نسخة منها ومن شرحها. وطلبت منه أيضا أن يجيزني فأجابني للأمرين معا، وقال لي في ثانيهما إنه يفعله بشرط أن أجيزه أيضا. فامتنعت لعلمي بأن ذلك إنما كان منه تواضعا.

(1/9560)

ومن جملة ما تذاكرنا فيه جهة القبلة. وكان يرى أنها سعة المشرق لا تتعدها.

فذكرت له القولين في جهة القبلة : الأول نصف الدائرة

وهو ضعيف، والثاني ربعها. وتواعدنا على إحضار حاشية الفقيه العلامة الموقت سيدي محمد العلمي، فاجتمعنا بحانوته العدلية بمحضر رفيقه الفقيه سيدي محمد بن محيي الدين الطنجي وله إلمام بعلم التوقيت. فتحقق إذ ذاك أن الصحيح الذي به العمل هو أن الجهة ربع الدائرة، أي تسعون درجة تلفق بأن يؤخذ نصفها من ناحية اليمين ونصفها من ناحية الشمال. كما تذاكرنا في تحقيق أمر الإبرة.

(1/9561)

وذلك أني لما أردت هذا السفر المبارك، لم يشغلني شيء عن أمور عبادتي التي يجب على كل مسافر اعتبارها، كمسألة قصر الصلاة والصلاة بالسفينة عند دورانها وغير ذلك مما أذكره هنا مفرقا بحسب المناسبات. ومن ذلك مسألة تحقيق بيت الإبرة وجهة القبلة. وكثيرا ما رأيت

في طريقنا إخواننا المغاربة يصلون لغير القبلة، لأن غاية ما يعرفون أن يضعوا بيت الإبرة ويستخرجوا مطلع الشمس ويصلوا إليه اعتمادا على ما في مغربهم. فكأن الكعبة إلى مطلع الشمي في أي قطر كان الإنسان. ومن

أكبر ما يسهل على الإنسان ذلك الجدول الذي في "حاشية

(1/9562)

العلامة سيدي محمد العلمي على رسالة الماردينيي" ؛ فإن فيه غالب سموت التواضع التي يمر عليها الحاج الآمر سبيلنا. وسمتها على رأس خمس وأربعين درجة.
وفي اليوم 18 (14 فبراير)، خرجت مع بعض الرفقاء للمحل المعروف بالجبل الأخضر، وهو خارج البلد واسع جدا كثير الأشجار، ومتعنا فيه النظر نصف ساعة. وفي هذا المحل صخرة ضخمة مرتفعة يصعد إليها بدرج نحتت فيها حديثا. ويقال إنها متعبد يوسف ابن تاشفين رحمه الله. والله أعلم.

(1/9563)

وفي يوم الأربعاء 20 شوال (15 فبراير) صباحا، أخبرنا صاحب الشركة المذكور، بأن الباخرة ستقدم يومه، لأنها تأخرت في الطريق لعارض. وذلك بعدما طالت مدة مكثنا في طنجة ولم نحصل على ما أردناه بها. وصلى

بعض الرفقاء صباح يوم الأربعاء في المسجد مع الجماعة.
ولما أراد الإمام ابتداء الحزب، قال في نفسه إنه
سيتفاءل بأول آية. فلما تعوذ الإمام، قال : { فما كان
جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم }، إلخ.
فكان الأمر كذلك، وسافرنا في اليوم المذكور. ومع قرب
العصر، وصلت الباخرة وأرست بالمرسى. وفي الساعة

(1/9564)

الثالثة إلا عشر دقائق عشية، غادرنا ثغر طنجة فركبنا
سفينة صغيرة توصل لباخرة السفر وركب معنا بعض
الناس أيضا من مكناس والدار البيضاء وأصيلا فكان
عددنا سبعة عشر. وصعدنا للباخرة فوجدناها من أعلى
درجة.
ولما استوينا على ظهرها، أرسل نائب قائدها لأحد رفقائنا
الذي عيناه نائبا عن جميعنا، فأراه محل الأكل وأوقاته
ومحل الصلاة (وهو خزانة نصبوها فوق عنبر من عنابر
الباخرة). وأراه أوقات الصلاة، فوجدناها موافقة لما عندنا
باحتياط وأراه بيوت النوم والجلوس الخصوصي. وذلك
بيتان، حيث أننا ثمانية أشخاص. وفي كل بيت

(1/9565)

أربعة فرش، في كل جانب اثنان واحد فوق الآخر وبينهما نحو المتر. وقال له إن الباخرة بتمامها مباحة للمرور وتمتيع النظر. وفي الباخرة مما يناسب من الدجاج الذي توليناذكاته، واللحم الذي اشتروه من طنجة وأخذوا عليه بطاقة من المحتسب، والسمك المنزوعة عظامه، وغير ذلك غير أن غالب الرفقاء حرموا من هذا النعيم بسبب الميد من هيجان البحر، لأنه لم يسكن عن الهيجان من ركوبنا من طنجة إلى وصولنا إلى بور سعيد إلا نحو ثلاثة أيام فقط، بعضها في أول الركوب وبعضها عند انتهائه.فليختر الإنسان عند إرادة الكراء بيتا وسط

(9566/1)

الباخرة غير قريب من آلات الباخرة وإياه ثم إياه من البيوت التي في مقدم الباخرة أو في مؤخرها. وقائد الباخرة إنجليزي. وأما الخدمة، فهم هنود مسلمون، وكلهم ذوو لطافة وأدب؛ إلا أنهم لا يحسنون من العربية إلا قراءة القرآن والتحية. وأخبرنا غير واحد منهم أنهم على المذهب الحنفي. وكنا نجلس في غرفة الاستراحة

لأجل قراءة المناسك، لأن مما صحبته معي مناسك شيخنا الفقيه العلامة سيدي محمد مولاي الحاج. وربما سردنا في بعض الأوقات شيئا من " خلاصة الوفا في التعريف بدار المصطفى". وفي بعض الأوقات للاستئناس بآلة البيانو.

(1/9567)

ومما يتعين على الإنسان معرفته كيفية الصلاة بالسفينة عند دورانها. وحكم الله في ذلك أنه يتوجه للقبلة عند الإحرام بالصلاة. فإذا دارت بعد إحرامه، فيدور هو لجهة القبلة إن أمكنه الدوران ولو كان يصلي إيماء. فإن لم يمكنه الدوران، صلى حيث توجهت.
وفي يوم السبت 23 شوال (18 فبراير)، وصلنا إلى مرسى مرسيليا على الساعة الواحدة ونصف بعد الزوال، فنزل بعض الرفقاء إلى مرسيليا وبقيت أنا وأحد الرفقاء في المرسى. وفي الساعة الخامسة مساء، غادرنا المدينة المذكورة مع شدة الهيجان وكثرة الريح).

(1/9568)

... ... (يتبع)

رحلة ابن رشيد

... ... الدكتورة نجاح صلاح الدين القابسي
الجمعية التاريخية العربية الليبية – طرابلس

مؤلف هذه الرحلة، هو محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد(1) بن إدريس بن سعيد بن مسعود ابن حسن(2) بن محمد بن عمر بن رشيد(3)

---

(1) اسقط الصفدي في مؤلفه، الوافي بالوفيات، ج 4، ص. 495، اسم ابن محمد، في حين أضاف ابن القاضي، في ذيل وفيات الأعيان، ج 2، ص. 96 بعد اسم بن محمد اسم بن عمر.

(2) في ذيل الوفيات الأعيان (حسين) وذكر عمر كحالة في معجم المؤلفين، أنه قد ورد في بعض المصادر باسم حسين.

(3) ويعرف بابن رشد كأنه تصغير اسم رشد، اُنظر: ابن القاضي، المصدر السابق؛ وانظر: ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، تحقيق محمد ابن

تاويت الطنجي، ص. 172. فقد ضبط ابن خلدون اسم رُشَيْد بضم الراء، وفتح الشين وسكون الياء.

(9570/1)

أبو عبد الله الفهدي(1) السبتي(2) ، يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن رشد، وقد اتفقت الآراء على أن مولده، كان في جمادى الأولى سنة 657/ 1258، في مدينة سبتة، وأن وفاته كانت في شهر محرم من سنة 761/1321 في مدينة فاس.

---

(1) الفهري، نسبة إلى فهر، بطن من بطون قريش، اُنظر: حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، ج 2، ص. 48.

(2) السبتي، نسبة إلى مدينة سبتة، التي تقع على مضيق جبل طارق، اُنظر: المقري، أزهار الرياض، ج 2، ص. 352 – 356.

(9571/1)

وقد كانت النشأة العلمية الأولى لابن رشيد، في مسقط رأسه في مدينة سبتة، التي كانت تمثل في ذلك العصر، ركيزة من ركائز العلم في المغرب بما تضمنه من

مشاهير رجالات العلم، سواء من أبنائها، أم من الوافدين عليها من أنحاء متفرقة من المغرب والأندلس، وكان من أوائل رجالات العلم فيها آنذاك، أبو الحسن بن أبي الربيع، الذي برع في علوم اللسان وكانت شهرته في ذلك الميدان، مجال تقريظ علماء المغرب والمشرق(1) ، وقد أخذ عنه ابن رشيد ثقافته في علوم اللغة العربية، فآخذ عنه

(1) انظر: ابن رشيد، الرحلة، ج 1739، الورقة 12 أ.

القراءات السبع، كما قرأ عليه كتاب سيبويه، وكتاب إيضاح الفارسي، المسمى بالكافي في الإصلاح.

وبعد أن تلقى ابن رشيد علوم اللغة العربية في مدينة سبتة انتقل بعدها إلى مدينة فاس طالبا لعلم الحديث، الذي مهر فيه ابن رشيد، إثر ذلك عاد إلى مسقط رأسه وتصدر لإقراء الفقه في سبتة.

ورجل عالم طموح مثل ابن رشد لن يكفيه ما تحصل عليه من ثقافة محلية في بلاده بل كان عليه أن يتوج اجتهاده العلمي برحلة إلى المشرق وإيمانا منه بالتضحية(1) القائلة:

(1) ابن رشيد، الرحلة، ج 1737، الورقة 13 أ.

علم الحديث فضيلة ... ... تحصيلها بالسعي والتطواف

فإذا أردت حصولها إجازة ... ... فقد استعضت الصفر بالدينار

لذا فقد كانت العلوم الدينية تستقطب جل اهتمامه، فكان عليه لقاء رجالاتها في المشرق أينما وجدوا، ورغم أن ابن رشد كان مالكي المذهب(1)

(1) ذكر ابن حجر في الدرر الكامنة، ج 3، ص. 111 – 113، نقلا عن الذهبي في سير النبلاء، أن ابن رشيد كان على مذهب أصحاب الحديث في الصفات، يمرها ولا يتأول، ومكان يسكت لدعاء ابن الاستفتاح، ويسر بالبسملة، فأنكروا عليه ذلك وكتبوا عليه محضرا بأنه ليس مالكيا، فاتفق أن القاضي الذي شرع في المحضر مات وبطل المحضر.

، إلا أنه لم يكن متعصبا، لأن العلم في حد ذاته كان بغيته ومقصده، فاغترف من روافده الأربعة، دون تمييز بين مذهب وآخر، فاهتم بالحديث والمحدثين وبعد أن صقلت شخصيته العلمية، ووضع مؤلفات(1)

---

(1) من مؤلفاته:

– ترجمان التراجم على أبواب البخاري.

– إيفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح.

وقد قام بتحقيقه محمد الحبيب الخوجة، الدار التونسية للنشر.

= – فهرست مشايخه.

– الصراط السوي في اتصال سماع جامع الترمذي.

– جزء في مسألة العنعنة.

– المحاكمة بين البخاري ومسلم.

– جزء في رؤية هلال شهر رمضان .

ومن مؤلفاته في علم اللغة ومؤلفاتها:

الإيضاءات والإنارات في البديع، المسماة بإيراد المرتع لرائد التشجيع والترصيع، كتاب القوانين في النحو، وصل القوادم باخوافي، شرح فيه كتاب القوافي لشيخه ظابي الحزم حازم القرطاجني، حكم الاستعارة جزء في مختصر العروض وتقييد على كتاب سيبويه.

– الرحلة – المسماة "ملء العيبة، بما جمع في طول الغيبة في الوجهة الوجيهة مكة وطيبة".

(1/9575)

قيمة أثرت المكتبة العربية الإسلامية منها المؤلف الذي نتناوله بالدراسة والذي عرف برحلة ابن رشيد، أما عنوانه الأصلي فهو "ملء العيبة بما جمع في طول الغيبة في الوجهة الوجيهة مكة وطيبة"

أما رحلة ابن رشيد من ناحية الزمان والمكان، فقد استغرقت من عمره ثلاث ... سنوات من 683 – 686 / 1278 – 1284، قضاها في ربوع الديار المصرية، والحجازية والشامية، عاد لإثرها إلى المغرب، على أنه لم يتوجه إلى مسقط رأسه في سبتة، بل عرج على الأندلس، واتجه إلى رندة للقاء صديقه ابن الحكيم الرندي وفي أثناء إقامته في رندة، لقي

(1/9576)

خلالها علماء رندة. ثم ودع ابن الحكيم في طريقه إلى مسقط رأسه في سبتة فوصلها في يوم الإثنين الثاني

والعشرين لشهر جمادى سنة 686 / 1287 فرحا بالتئام شمله بعائلته، وأقام في موطنه سبتة لمدة خمس سنين، غادرها بعدها إلى مدينة إلى مدينة غرناطة بناء على دعوة مجددة من صديقه ابن الحكيم الذي تبوأ مكانة سامية فيها سياسية وعلمية بوصفه ذا الوزارتين في بلاط بني الأحمر. فوصل غرناطة سنة 692 / 1292 (9) بصحبة أسرته، وكانت إقامته فيها معززة مكرمة في ظل صديقه الوزير ابن الحكيم فولاه الإمامة والخطابة في الجامع الأعظم

(1/9577)

في غرناطة، وأقام ابن رشيد في غرناطة "منصبا للإقراء ومركزا لدائرة القراء" إلى أن دارت الدائرة على صديقه ابن الحكيم الذي قتل في انقلاب سياسي في غرناطة سنة 708 / 1308، فغادر غرناطة إلى المغرب ودخل مدينة فاس ورحب به في بلاطها سلطانها المريني أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني وقد خيره في إقامته بأرض المغرب، فاختار مراكش، فأنيطت به الإمامة والخطابة في جامعها وأقام بها سنين يهدي العلم إلى طلابه ولا أمر يشغله غير التدريس(1) والتحقيق، إلى أن استدعاه السلطان

(1) المقري، أزهار الرياض، ج 2، ص.306.

(9578/1)

المريني إلى بلاطه في فاس فانتقل إليها تحبوه الرعاية والإيثار وأصبح من أقرب المقربين إلى السلطان بل و في عداد خواصه وآل مجلسه (10)، إلى أن توفي في فاس في الثالث والعشرين من الشهر المحرم سنة إحدى وعشرين وسبعمائة ودفن(1) خارج باب الفتوح، بالروضة المباركة، المعروفة بمطرح الجنة، حيث يدفن العلماء والصلحاء الواردون على فاس من الغرباء.

أما بالنسبة لمؤلف ابن رشيد الذي نحن بصدد دراسته فإن الخصوصية الفنية والعلمية التي تميز بها تقتضي منا الرجوع إلى تطور معنى لفظة الرحلة

(1) انظر، الفيروزبادي، ج 13، ص. 394.

(9579/1)

---

(11) التي تطور مفهومها ومضمونها بتطور أغراضها، فهي تعني لغويا، الرحلة بالكسر، الارتجال، والرُّحلة

بالضم، الوجه الذي يقصده المسافر، والسفرة الواحدة، والرحلة قصة المسافر عما جرى له في سفره.

وقد ظلت الرحلة مهما اختلفت دوافعها وأغراضها تمثل رابطا قويا، يربط بين أنحاء العالم الإسلامي، سواء أكانت تلك الدوافع، سياسية أم تجارية، أو ثقافية، وقد حفظت آنا مؤلفات الرحل صورا نابضة بالحياة لأحوال عالم المسلمين في عصوره المختلفة من جوانب شتى ثقافية وسياسية، واقتصادية وجغرافية وسياسية.

(9580/1)

أما بالنسبة لمفهوم الرحلة في مؤلف ابن رشيد ومثيله من كتب الرحلات التي صنفها مؤلفوها في ذكر شيوخهم ومصنفاتهم، فنجد أنها ترادف لفظة فهرسة، أو برنامج. وتعتبر رحلة ابن رشيد من أقدم ما صنف في هذا المجال(1)

---

(1) يرى محمد الفاسي بأن هناك رحلات مغربية سبقت في هذا المجال، ولا يمكن بهذا أن تكون رحلة ابن رشيد أول رحلة ألفت في المغرب، إذ أنها من النوع المتكامل في هذا الموضوع، لذا لا بد أن تكون هناك محاولات في القرنين الخامس والسادس / الحادي عشر والثاني عشر.

انظر، محمد الفاسي، الرحالة المغاربة وآثارهم"، مجلة دعوة الحق، العدد الثاني، نوفمبر، 1958، ص. 25.

(1/9581)

. وهذا النوع من التأليف لقي صدى لدى الرحالة المغاربة، فوضعوا مؤلفات على نسق مؤلف ابن رشيد، فكان منها رحلة أبي القاسم التجيبي المتوفى سنة 730 / 1329.
وكانت رحلته سنة 696 / 1296 وقد ذكرها ابن حجر بقوله: "وهي ثلاث مجلدات ضخمة، وقد حذا فيها حذو ابن رشيد بتضمين رحلته مشيخه له مستوعبة". وقد ضمن التجيبي رحلته، المشائخ الذين لقيهم في المغرب والأندلس والمشرق وذكر مؤلفاتهم.
ومن أمثلة رحلة ابن رشيد، رحلة البلوي، القاضي أبو البقاء خالد ابن عيسى بن محمد بن إبراهيم بن خالد البلوي، وقد وصفه ابن فرحون بالأدب

(1/9582)

والعلم والفضل، وحسن الأخلاق والعشرة، حج وقيد رحلته ووصف فيها البلاد التي زارها، ومن لقي فيها العلماء كما

كتب بتونس عن أميرها، وقال إنه كان يتشبه بالمشارقة شكلا ولسانا. وقد ذكر ابن فرحون أنه اطلع على رحلته هذه المسماة تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ونقل عن تراجمها وتاريخ رحلة البلوي من الناحية العلمية تكمن في ذكره لشيوخه الذين لقيهم في تونس والإسكندرية والقاهرة وبيت المقدس والحجاز.

وبما أن الرحلة كانت في الأصل، في طلب الحديث الشريف، فمن الطبيعي أن نتوقع بداية ذلك في عهد الصحابة الأوائل،

(1/ 9583)

ويحدثنا ابن عبد البر القرطبي، المتوفى سنة 463 / 1070، عن رحلة أبي أيوب الأنصاري الصحابي إلى مصر حيث كان عقبة بن عامر، ملتمسا منه أن يسمعه ما سمعه من حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – بشأن ستر المسلم، إجابة إلى طلبه. فامتطى راحلته وضرب وجه دابته، إلى المدينة المنورة دون أن "يحل رحله"(1) .

ومعنى هذا أن أبا أيوب الأنصاري ، تجشم ما تجشم من عناء الرحلة في مثل ذلك الزمن البعيد، وصعوبة المواصلات وخطورة الطريق، من أجل حديث

(1) ابن عبد البر القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، المطبعة الميزية، ج 1، ص. 93.

(9584/1)

واحد، فلما سمعه وهو على رحلته، لم يسمح لنفسه بالراحة، بل عاد من حيث جاء.

وهذا يفسر لنا، ما قاله سعيد بن المسيب المتوفى سنة 94 / 712 من أنه كان يسير في طلب الحديث، مسيرة(1) الليالي، وذكر أبو محمد عبد الرحمن(2) بن بهرام في سننه، ما قاله أبو العالية الرياحي، من أنه كان ومن على شاكلته من رواة الحديث الشريف، يسمعون الرواية لحديث ما وهم في البصرة، عن أصحاب الرسول – صلى

(1) المصدر نفسه، ص. 94 – 95.

(2) الدارمي (أبو محمد بن عبد الرحمن بن بهرام) سنن الدارمي، نشره محمد أحمد دهان، دمشق، 1494هـ، ج 1، ص. 136.

(9585/1)

الله عليه وسلم -، فلا يرضون حتى يأتوا المدينة، فيسمعون من أفواه هؤلاء الصحابة.

والكتب المتعلقة بهذا الموضوع، زاخرة بالصورة الحية، التي تمثل حرص الأوائل من الصحابة ومن تلاهم من التابعين، وتابعي التابعين، وهلم جرا، على أخذ الحديث الصحيح، حملهم على الرحلة دون نظر إلى مشقتها وإلى عدد الأحاديث التي يسمعها الواحد منهم.

وبذلك كان للرحلة فضل، بارز في جميع الأحاديث وبيان صحيحها من زائفها، وصادقها من دخيلها، كما تعددت طرقها، وكانوا لا يطمئنون إلى من لا يقوم بالرحلة، وإنما يكتفي بسماع الحديث، وينحونه

(1/9586)

جانبا رغم صحة الحديث، ويحدثنا الزين العراقي(1) المتوفى سنة 806 / 1403 في كتابه "فتح القدير بشرح ألفية الحديث" من أنه روى عن يحيى بن معين قوله: "أربعة لا تؤنس منهم رشدا منهم رجل يكتب في بلدة، ولا يرحل إليه في طلب الحديث"(2) .

---

(1) العراقي (زين الدين عبد الرحيم بن الحسيني العراقي) ، فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، تأليف

شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان؟، القاهرة، سنة 1968، ج 1، ص. 78.

(2) المصدر نفسه.

(9587/1)

وبمضي الأيام وتطور العلوم الإسلامية، وتعدد وجهات الرحلة ومقاصدها ظهرت الألقاب المركبة، التي يدخل في تكوينها لفظة الرحلة. فوجدت رحلة الحفاظ ورحلة القاصدين، وهي من ألقاب العلماء الذين يرحل إليهم لتحصيل العلم. وقد يكون – وهذا كثير – في بعض الجهات، رجال يتحلق حولهم طلاب المعرفة، في الفن الذي يتقنه الشيخ، فيرحل إليه هؤلاء الطلاب في غير مصره، ويسمى هذا برحلة الوقت، أي شيخ العلماء في عصره. أما بالنسبة لتحدد مفهوم رحلة ابن رشيد، فيمكننا القول بأنه يمثل نوعا من التأليف برع فيه العلماء المغاربة، واقتبسه

(9588/1)

منه بعض المشارقة، وأطلقوا عليه في المغرب اسم "برنامج"(1) وهو أقرب ما يكون إلى الفهرسة، أو الكتاب الذي يسجل فيه صاحبه ما قرأه من شتى المؤلفات، في مختلف العلوم والفنون السائدة في عصره، والتي يحسن هو نفسه بإقباله عليها، إقبالا كاملا أو مجزأ، وتقتصر هذه الفنون في العادة على الفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب، ويتخلل ذلك بعض الأحداث التاريخية التي يكون لها اتصال مباشر بالفن أو للمترجم.

---

(1) عبد العزيز الأهواني، كتب برامج العلماء، فصله من مجلة معهد المخطوطات، القاهرة، 1955، ص. 2.

(9589/1)

ومؤلف البرنامج يذكر عنوان الكتاب، واسم مؤلفه، والشيخ الذي قرأ عليه أو أخذ عنه، وسنده إلى المؤلف الأول، ذاكرا المكان الذي كان موضوعا للدرس، ونحن نعلم شغف العلماء الأندلسيين والمغاربة، بلقاء الشيوخ، كان أكبر من حرصهم على اقتناء الكتب أحيانا، لذلك كانت بعض هذه الكتب تعنى بالشيوخ، وتفرد لهم جانبا فيه حديث عنهم وعن حياتهم

ومنزلتهم دون أن تتجاوز في ذلك القصد والاعتدال.

وأصل هذه الكتب يعود إلى أصول علم الحديث، وقد أطلق المحدثون عليها لفظ معجم أو مشيخة، وقد شرح معناه محمد بن جعفر الكتاني بقوله: "وهو في

غير ذلك والغالب أن يكونوا مرتبين على حروف الهجاء، كمعجم الطبراني الكبير، المؤلف في أسماء الصحابة على حروف المعجم"(1) .

على أن صعوبة، تبدو في بعض هذه المعاجم، أو البرامج ، أو الفهارس، أو المشيخات، ذلك أن الكاتب قد يكتفي بذكر اللقب أو الكنية، أو هما معا في بعض الأحيان، وقد تتشابه هذه الألقاب والكنى في أكثر من اسم. فلا يؤمن حينذاك الزلل ولا تقال العثرة التي قد تكون مميتة.

ومن ثم ظهرت على مر الأزمان، ولكن في وقت متأخر نسبيا لجمع الأحاديث الأول كتب المتفق والمفترق، والمؤتلف

---

(1) المرجع نفسه.

والمختلف، في الأول ما اتفق فيه الاسم كتابة وإن تباين النطق وعلة(1) الترقيم وعلاماته.

وقد حفل التراث التاريخي بعشرات من الكتب الأصلية في هذه المواضيع وما شابهها، مما لا تترك دراتها شبهة أو راو أو محدث ولقد ألف من المتأخرين نسبيا في هذا المجال الخطيب البغدادي المتوفى سنة 463 / 70 في كتابه الذي طبعته دائرة المعارف العثمانية بالهند سنة 1959 وهو المعنون باسم موضع أوهام الجمع والتفريق.

---

(1) ابن الصلاح (أبو عمر وعثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري) تحقيق عائشة عبد الرحمن، المقدمة، ص. 149 – 250.

(1/9592)

كذلك كان من هذه البرامج كتب الوفيات، ومن أقدم من كتب في هذا الموضوع عبد الغني بن قانع البغدادي المتوفى سنة 351 / 962، الذي ذكره السخاوي(1) بأنه وضع كتابا في الوفيات، أنهى فيه إلى ذكر من ماتوا، حتى قبل خمس سنوات من وفاته هو نفسه وإلى جانب

هذا، نجد أن كتب البرامج ويدخل في نطاق هذه الناحية برنامج ابن رشيد الاهتمام بالانتساب والتي وإن أخر الإسلام مكانتها

---

(1) السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، تحقيق عبد الرحمن بن عثمان، القاهرة، 1388 / 1968، ج 1، ص. 701.

(1/9593)

وقدم عليها التقوى في الأخلاق، إلا أنه لم يكن في استطاعة العرب التخلي عنها، فقد جرت في عروقهم مجرى الدم، على أن هذا لم يمنع الرسول نفسه – صلى الله عليه وسلم – من أن يشير إلى وجوب الاهتمام بالأنساب لصلة الرحم. حتى لقد أثر عليه أفضل الصلاة أنه قال: "من ادعى قوما ليس له فيهم نسب فليتبوأ مقعده من النار"(1) .

ذلك لأن الكذب في النسب ادعى إلى تغيير وجهة التاريخ في بعض النواحي وظهرت هذه الناحية عند الجماعات الشعوبية حتى ليذكر ابن النديم(2)

---

(1) انظر، النجاري، صحيح البخاري، الجامع الصحيح، ج 2،

ص. 382.

(2) انظر، بن النديم، الفهرست، ليبرج، 1871، ص. 105، وانظر أيضا، ياقوت، معجم الأدباء، ج 11، ص. 180.

(9594/1)

، أن علانا الشعوبي الفارسي، وضع للبرامكة كتابا أظهر فيه مثالب العرب، ولم يترك من قبائلهم قبيلة إلا غمزها غمزا شديدا، أو جرحها تجريحا بالغا، ورمى سهمه ولكن سهمه وسهم أمثاله، ردت إليهم في نحورهم، ومن أقدم الكتب التي وصلتنا في هذا الموضوع كتاب العرب لابن قتيبة الذي نشره محمد كرد علي(1) ، وهو صريح في إجلال العرب من جهة النسب، الذي كان في البداية قاصرا على النسبة إلى قبيلة آو أخرى من العرب وأصبحت هذه النسبة مجال فخر، حتى لقد انتسب إليهم من ليس له فيهم

---

(1) محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ص. 344 – 381.

(9595/1)

عرق ولا وشيجة صلة فسخر بعضهم، وقال آخر منددا أرجع أصله إلى العرب دون صحة:

عربي عربي ... ... ليس في ذاك كلام

شعر فخذيك ... ... عاري وخزام

على أن بعض المؤرخين بل كبارهم، قد نسبوا للعرب من ليس منهم، كالمقريزي الذي رغم جلالة قدره في التاريخ لم يسلم من هذا الاتجاه، الذي أريد به عنده غيره بطبيعة الحال، التقرب إلى ذوي السلطان(1) والحكم، وإذا ثبت في الأذهان ذلك، وطالعنا من ذكر ابن رشيد في برنامجه لوجدناه حريصا كل الحرص، على آلا ينسب رجلا لغير قبيلته أو

---

(1) انظر، مقدمة حسن حبشي لأبناء العمر، حج 1، ص. 12

مدينته أو بلده أو شيخه.

ونعود فنقول إنه تلي النسبة للعرب النسبة للرسول – – صلى الله عليه وسلم – – خاصة ولآل الرسول عامة، وكان ذلك شرف لا يرقى إليه شرف آخر، حتى أصبح (1) لفظ الشريف، يقتصر على من كان من أولاد علي و فاطمة(رضي الله عنهما). وقد صار لهؤلاء الأشراف نقابة

بلغت مبلغ الكوادر السياسية في الدولة الإسلامية العامة، وكان لها نقيب، وأصبحت النقابة في القرن التاسع الهجري (الخامس

---

(1) القلقشندي، (أبو العباس أحمد بن علي) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبعة دار الكتب المصرية 1913 / 1920، ج 11، ص. 1162.

(9597/1)

عشر الميلادي) بمصر، وهي إذ ذاك مركز العالم الإسلامي و الجبهة القوية الخطيرة أمام أوربا الناشئة، أقول أصبحت نقابة الأشراف هذه من الوظائف الدينية، والتي لا مجلس لها في الحضرة السلطانية "(1) وكان لنقيب الأشراف آن يحفظ مواليد الأشراف، ويحرر أسانيدهم، ويضبط أوقاتهم(2)

---

(1) المصدر نفسه، ج 4، ص. 37.

(2) وذكر في المصدر السابق، ج 11، ص. 165، أن نقابة الأشراف وظيفة شريفة ومرتبة نفسية، وموضوعها التحدث عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهم المراد

بالأشراف في الفحص عن أنسابهم، والتحدث عن أقاربهم، والأخذ على يدي المعتدي منهم ونحو ذلك

(1/9598)

، ويثمر متحصلاتهم. وقد حاول البعض الانتساب دون وجه حق إلى أولئك الأشراف، مما حمل الدولة المملوكة في مصر على تمييز الأشراف بعصابة خضراء وذلك في سنة 773 / 1371 فاستنكر ذلك البعض وقال(1)

جعلوا لأبناء الرسول عمامة ... إن العلامة شأن من لم يشهر

نور النبوة في كريم وجوههم ... يغني الشريف عن الطراز الأخضر

---

(1) انظر، ابن حجر (الحافظ أحمد بن علي العسقلاني) ، أنباء العمر بأبناء العمر، تحقيق، حسن حبشي، القاهرة، 1969، الحاشية رقم 2 ج 1، ص. 11.

(1/9599)

كما أن هناك النسبة إلى المدن، أو البلاد، أو بعض الصناعات، وذلك بعد اتساع رقعة العالم الإسلامي.

على أنه بعد ظهور لفظتي معجم وفهرس، استطاع ابن حجر أن يجمع بينهما، في فهرسة مروياته فسماه المعجم المفهرس، وقد بين طريقته في المقدمة القصيرة التي ذكر فيها بأنه قام بوضع مؤلفه ذلك بناء، على طلب إخوانه لتجريد أسانيده "في الكتب المشهورة والأجزاء المنثورة"(1).

وإذا كان المحدث يذكر الأحاديث مسندة إلى الرواة الذين نقل عنهم فكتب البرامج تذكر المرويات مسندة إلى العلماء

---

(1) عبد العزيز الأهواني، المرجع نفسه، ص. 12.

وهذا هو الفرق في أسلوب التأليفين.

وعليه فيمكننا القول بأن البرامج المغربية(1)

---

(1) في مقدمة الغبريني(أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي)، في مؤلفه عنوان الدراية، صورة لمنهج تأليف المناهج المغربية.

انظر: الغبريني، عنوان الدراية في علماء بجاية، تحقيق عادل نويهيقي، بيروت، 1969، المقدمة.

وانظر، أيضا، برنامج الوادياشي(آبو عبد الله بن جابر الوادياشي) قام برحلتين إلى المشرق ضمنها برنامجه، وقد ذكر عبد العزيز الأهواني، أن برنامج الوادياشي مخطوط في دير الإسكوريال تحت رقم 1726، وهو نسخة جيدة في أكثر من مائة صفحة.

انظر: المرجع نفسه، ص. 18.

(9601/1)

نتاج فكري لفترة زمنية محدودة بالقرن السابع (الثالث عشر، ومنتصف القرن الرابع عشر للميلاد) وهو العصر الذي عاشه ابن رشيد لذا كان مؤلفه صدى لما هو سائد في المجتمعات والبيئات الفكرية والثقافية المشرقية عامة، والمغربية خاصة في عصره، ومن تم كانت رحلته كمؤلف في نطاق المعنى الذي عرفناه في لفظة برنامج وقد أكد تلميذ ابن رشيد عبد المهيمن(1)

---

(1) عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد الحضرمي السبتي، أصله من مدينة سبتة، من أسرة

عريقة في العلم، وكان أبوه قاضيا أيام أبي العزفي حكام سبتة، وعندما انتقلوا إلى غرناطة، استكمل عبد المهيمن تحصيله العلمي على يد أعلام غرناطة، وبرز عبد المهيمن في إتقانه لكتاب سيبويه. وعينه وزير غرناطة أبو عبد الله بن الحكيم الرندي كاتبا لديه. وكتب له أهل المغرب، والأندلس والمشرق، ونظمه الوزير ابن الحكيم في طبقة علماء مجلسه الذي كان في مقدمتهم ابن رشيد، وعندما قتل الوزير ابن الحكيم، انتقل عبد المهيمن من غرناطة إلى المغرب برفقة أستاذه ابن رشيد.

انظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، ج 1، ص. 844. وانظر: المقري، أزهار الرياض، ج 2، ص. 253.

(9602/1)

الحضرمي ذلك عندما كتب بخطه ما نصه:

"أكملت قراءة(1) هذا البرنامج في يوم الأحد الحادي عشر لرجب من عام عشرين وسبعمائة في مدينة فاس".

وإذا كان ثمة اختلاف بين برنامج ابن رشيد والبرامج الأخرى فإنما تبدو في أسلوب التصنيف المرتب، على شكل أبواب أو أجزاء أو حلقات، وقد أشار ابن رشيد في بداية خاتمة برنامجه إلى ذلك بقوله: "لم أكن قد

قصدت(2) مقصد التصانيف المهذبة، ولا التآليف

---

(1) السفر الأخير في رحلة ابن رشيد والذي يحمل الرقم 1735، من أجزاء النسخة الموجودة في دبر الإسكوريال.

(2) المصدر نفسه، الورقة، 89 ب.

(9603/1)

المرتبة" ومع ذلك فإن مضمون برنامج ابن رشيد، لا يخرج عن نطاق الاهتمامات، التي عينت بها البرامج دائما من مسائل حديثة وأدبية ومشيخات.

أما عن القيمة العلمية لبرنامج ابن رشيد، فقد اهتم علماء مشارقة ومغاربة بمؤلف ابن رشيد المسمى ملء العيبة بما جمع في طول الغيبة، في الوجهة الوجيهة مكة وطيبة وقد أشار العلماء بقيمته العلمية ومنهم السيوطي(1)

---

(1) السيوطي، (جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر محمد السيوطي) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، مطبعة القاهرة 1381 / 19611، ج 1 ص. 285.

(9604/1)

، وابن حجر(1) ، وحاجي(2) خليفة، والكتاني(3) ،

والشوكاني(4) ، وابن الخطيب(5) ، والعياشي(6)

---

(1) ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق 5 أجزاء، طبع دار الكتب الحديثة بمصر، ج 4، ص.111– 113.

(2) جاجي خليفة، كشف الظنون، ص. 209 – 551 – 836.

(3) الكتاني، فهرس الفهارس، ج 1 ص. 332 – 333.

(4) الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع، ج 2 ص. 2234.

(5) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة ص. 7113 – 776.

(6) العياشي (أبو سالم عبد الله بن أبي بكر) ماء الموائد، نسخة الخزانة العامة، الرباط، تحت رقم 406، ج2، الورقة 9 أب.

(9605/1)

، واليعمري(1) ، وابن القاضي(2) ومن المحدثين:

الصفدي(3) ، وابن سودة(4) ، والفاسي(5) .

أما عن عدد أجزاء رحلة ابن رشي دفي الأصل، فهناك

تضارب في أقوال الذين عنوا، فبينما يذكر ابن حجر أنها تقع في ست مجلدات،

---

(1) ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ص. 323.

(2) ابن القاضي، درة الحجال في أخبار الرجال، ص. 86.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج 4، ص. 495.

(4) ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج 1، ص. 345

(5) محمد الفاسي، "الرحالة المغاربة وآثارهم" ، مجلة دعوة الحق، العدد الثاني، نوفمبر، 1958، ص. 25.

(9606/1)

ويؤيده في ذلك الشوكاني، يرى المقري أنها تقع في أربعة أسفار فقط، ويؤكد ذلك الصفدي، ولو انتقلنا إلى رأي رحالة مغربي وهو العياشي، فرغم أنه يذكر في رحلته، أنه اطلع على رحلة ابن رشيد، التي وجدها عند شيخه في مكة أبي مهدي عيسى الثعالبي، بل ويحدد المكان الذي قرأه فيها وهو وقف المغاربة في مكة، إلا أنه لا يحدد لنا عدد أجزاء الرحلة، واكتفى بقوله: "إنه رأى منها عدة أجزاء، وهذا يجعلنا نستشف بأنها لم تكن نسخة كاملة تلك التي اطلع عليها الرحالة العياشي،

وقد ذكر العياشي أيضا أنه وجد خط ابن رشيد في أماكن متعددة

(9607/1)

من صفحات تلك الأجزاء بالإضافة إلى خط تلميذه عبد المهيمن الحضرمي، ويفيدنا العياشي من خلال ملاحظاته، أن تلك النسخة التي وجدها في مكة كانت ملكا لتلميذ ابن رشيد عبد المهيمن الحضرمي.

ولا يعرف في الوقت الحاضر من هذا المصنف سوى النسخة الوحيدة الموجودة في مكتبة دير الإسكوريال وهي تتألف من خمسة أجزاء:

الجزء الثاني من الرحلة ويحمل رقم (1737) في أعلى الصفحة الأولى منه يوجد تنبيه، بأن هذا الجزء هو الثاني من رحلة ابن رشيد (ومعنى هذا أن الجزء الأول مفقود، وهو الذي يتضمن الرحلة من سبتة إلى ألمرية).

(9608/1)

وقد كتب على ورق يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي، حسب بيانات فهرسة الإسكوريال وخطة مغربي، وعدد

أوراقه (66) ورقة، في كل منها (27) سطرا وحجم الورقة 24 × 16 سم.

وهذا الجزء خاص بإقامة ابن رشيد في تونس وترجمته لعلمائها، ويبدأ بترجمة ابن حبيش بقوله: "وممن لقيناه بتونس..." وآخر صفحة من هذا الجزء تتضمن أبياتا من شعر أبي العباس الأشعري يودع فيها ابن رشيد بقوله:

بقيتم للجمال بدور تم ... ... وبالإحسان حسنكم يشاد

(9609/1)

وفي نهاية هذا الجزء، التنبيه بخط ابن رشيد بقوله: "يتصل هذا السفر في الذي يتلوه وكان سفرنا من تونس كلأها الله تعالى".

الجزء الثالث، ويحمل رقم (1739) وعدد أوراقه (123) ورقة في كل منها (25) سطرا بحجم 23 × 5,15 سم والخط مغربي وموضوع هذا الجزء إقامة ابن رشيد في الإسكندرية والقاهرة، ويضم أيضا تراجم علماء مصر. في الورقة الأولى توجد ملاحظة (بخط حديث) وهي الثالث من رحلة ابن رشيد وهذا الجزء مبتور البداية والنهاية، والصفحة الأولى منه تبدأ بعد البسملة بـ» ومما لقيناه بثغر الإسكندرية" والصفحة الأخيرة منه

(9610/1)

ترجمة للشيخ عز الدين الحراني، ولكنها غير تامة، تنتهي بقوله:

"أخبركم أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر بن معاد الداوودي، قراءة عليه وأنت تسمع".

الجزء الرابع، أيضا مفقود وموضوعه الرحلة من مصر إلى دمشق وتراجم لعلمائها، لأن الجزء الذي يليه هو:

الجزء الخامس، ويحمل الرقم (1630) وأوله: "ذكر توجهنا من دمشق حمامها الله تعالى إلى مدينة النبي – صلى الله عليه وسلم –".

وآخره ترجمة للأديب جمال الدين محمد بن محمد بن الجاني البزاز، قال:

أنشدنا الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري لنفسه:

(9611/1)

اعمل لنفسك صالحا تحفل ... ... بظهور قيل في الأنام

وقال

فالنس لا يرجى اجتماع قلوبهم ... ... لا بد من مثين عليك

وقال ...

وعدد ورقات هذا الجزء (80) ورقة، وعدد أسطره في كل ورقة (27) سطرا بحجم الورقة 25 × 17 سم والخط مغربي.

وتوجد ملاحظة على الورقة الأخيرة منه، وهي: «تملكه بصحيح الشراء العبد الفقير لله، محمد بن عبد الرحمن بن يحيى الونشريسي".

وهذا الاسم سبب التباسنا(1) لدى بعض المستشرقين مثل غزيري (Gasiri) و بونس (Pons)

---

(1) مكتبة معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية، تحت رقم، الفيلم 43، الكتاب 238.

(9612/1)

فنسبا تأليف هذا الجزء إلى الونشريسي، في حين أنه من تأليف ابن رشيد، وليس الونشريسي فيه سوى حق الملكية عن طريق الشراء كما ذكر.

الجزء السادس، ويحمل الرقم(1737) وبه (188) ورقة، وعدد أسطره (27) سطرا في كل ورقة، وبحجم 21× 16 سم.

وموضوعه، تونس في طريق العودة ويبدأ بـ" كان

سفرنا على بركة الله تعالى ورجاء صنيعه الجميل، وحفظه الكفيل، يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الأول، عرف الله بركاته".

ويختمه بترجمة لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن القريع، وهو من رجالات العلم والأدب، وينهي هذه الترجمة بقوله:

(9613/1)

"وبالجملة فكنت أنتفع به وبمجالسته إخواننا التونسيين، تولى الله شكرهم وأطاب ذكرهم وأسعد بهم عصرهم وخطه مغربي.

الجزء السابع ويحمل الرقم(1735) وبه (67) ورقة في كل ورقة (27) سطرا بحجم 24×16 والخط مغربي.

وموضوعه: بقية الكلام عن تونس، وعودة ابن رشيد إلى سبتة، أوله ناقص، ويبدأ بإنشاد لأبي حفص التيجاني :

ونرى الماء راكدا فإذا ... حرك ثارت من قعره الأقذار

* * * * * * * * * * * * * * * * * *

إن كنت تسعى للسيادة فاستقم ... تنل المراد ولو سموت إلى السما

(9614/1)

ألف الكتابة وهو بعض حروفها ... لما استقام على الحروف تقدما

وينهي ابن رشيد هذا الجزء، بقصيدتين حجازيتين، نظمهما بعد وصوله إلى مسقط رأسه بسبتة، بثهما شوقه إلى تلك الأراضي المقدسة، وأولاهما نظمها في مطلع سنة ست وثمانين وستمائة، أي في الموسم الذي حج فيه ومطلعها:

أقول إذا هب النسيم المعطر ... لعل بشير اللقاء فيبشر

وعلى الصبا مرت على ربع جيرتي ... فمن طيبهم عرف العبير يعبر

واذكر أوقاتي بسلع وبالحمى ... ... فتذكي لظى في أضلعي حين أذكر

(9615/1)

أما القصيدة الثانية، فقد نظمها في موسم الحج العام سبعة وثمانين، وقد هيج شوقه للأراضي المقدسة، خبر سماعه بسفر مراكب الحجاج المغاربة إلى المشرق فقال:

هاج إذا كاري تنعامي بنعمان ... ... فبت ينحدني وجدي وتحناني

يا وقفة نلتها والسعد يسعدني ... كانت كليل سري في طرف وسناني

جديد تذكارها في القلب أن يليت ... ... معاهد ليس يبليه الجديدان

أهوى الحجاز وإن لم يمس لي وطنا ... ولم يكن أهله أهلي و جيراني

وقد اختتم ابن رشيد هاتين القصيدتين بقوله: "– صلى الله عليه وسلم – وعلى آله الطيبين صلاة وتسليما، يتجددان

(9616/1)

إلى يوم الدين، وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين". وفي الورقة 663 ملاحظة مفادها، قاله وخطه العبد المستغفر الشاكر محمد ابن عمر بن محمد بن عمر بن محمد رشيد الفهدي".

وبعد دراستي للأجزاء السابقة، اتضح لي بأنها من الأرجح أن تكون مسودات للمؤلف، عدا الجزء الثالث فهو منسق جميل الخط وربما كانت محاولة من ابن رشيد لإعادة تبييضه. والمعروف عن ابن رشيد أن خطه كان جميلا، أو ربما نسخة تلميذه عبد المهيمن الحضرمي. إذ أن الخط

الذي كتب به هذا الجزء مطابق لخط الهوامش المكتوبة في حواشي بقية الأجزاء، وأحيانا إضافات

(9617/1)

في صلب المتن.

هذا وصف للأجزاء المكونة للمخطوطة رحلة ابن رشيد السبتي الفهري المعنونة: "ملء العيبة بما جمع في طول الغيبة في الوجهة الوجيهة مكة وطيبة" وهي من ذخائر مخطوطات دير الإسكوريال ووفق كل البيانات الواردة في توضيفها تجمع بأنها نسخة وحيدة.

وفي خلال بحثي عما يتعلق بهذا المخطوط في الأماكن المتخصصة اطلعت على تقرير معهد المخطوطات بالجامعة العربية عن بعثته العلمية إلى الجمهورية العربية اليمنية سنة 1974 فلفت نظري مخطوط(1) برقم مسلسل 452 وصف كالآتي (رحلة إلى

---

(1) ابن رشيد، الرحلة، ج1730، الورقة 63 ب.

(9618/1)

الديار المصرية – مجهولة المؤلف – ولكنه كان حيا سنة 684، والموجود منها أوراق بقلم مغربي جميل) فطلبت الاطلاع على ميكرو فيلم المخطوط وبفحصه اتضح لي أن هذه الأوراق قطعة من رحلة ابن رشيد من الجزء الثالث وبمقابلتها بمخطوط الإسكوريال كما تبين لي أنه حوى بعضا من نصوص رحلة ابن رشيد في القاهرة، وقطعة بعد رحيله منها – أي من القاهرة إلى بلبيس في طريقه إلى بلاد الشام لزيارة المسجد الأقصى ولقاء من بها من العلماء ثم التوجه إلى الحج، والميزة التي تميزت بها هذه القطعة أنها تترجم لأربعة من علماء بلبيس لم تتضمنهم

(9619/1)

نسخة الإسكوريال التي تتناول علماء الإسكندرية والقاهرة والفسطاط

أهداف برنامج ابن رشيد

بعودتنا لنماذج البرامج المغربية، يتضح لنا اعتياد مؤلفيها على وضع مقدمة يضمنها كل مؤلف، الفوائد التي يتوخاها من وراء وضع برنامجه، أما بالنسبة لابن رشيد فإن مقدمة برنامجه قد فقدت بفقدان الجزء الأول منه، على أننا يمكننا أن نلم بقصد المؤلف وبأهداف برنامجه

من الملاحظات التي سجلها ابن رشيد في خاتمة برنامجه وفي الصفحة الأخيرة من الجزء السابع.

(9620/1)

"ولما انعم الله سبحانه، بتيسير الغرض من هذا التقييد... سنح ببالي أن بعض ما ذكر فيه، قد يعترضه من اعترض ممن لا يقرن بين الجوهر والعرض، فرأيت أن أبين كيف وقع الحال، فيما اشتمل عليه بين الحل والترحال، فأقول والله في العفو والصفح المسؤول، أني لم أكن قد قصدت، مقصد التصانيف المهذبة ولا التآليف المرتبة، وإنما قيدته بحسب ما تيسر لي، مما كنت كتبته على ظهور الكتب، وفي بطون البطاني، مما قيد للتذكار بتلك المعاهد اللائحة الأنوار، فقصدت أن أضم بدده، وأجمع عدده، وأكثره وقع على غير روية، بل وفق ما سمحت به

(9621/1)

السجية فحسب، وربما وقع فيه من أئمة الشيوخ، من غيره أحق بالتقديم منه، ومؤخرا من حقه أن يؤخر عليه

أو سمعت منه، أو أخذت عنه، وكل ذلك حسب ما تيسر من غير روية ولا تنقيح".

وبقراءتنا لهذه السطور يتضح لنا أن ابن رشيد كان يدرك تمام الإدراك أن برنامجه أو رحلته أو مؤلفه ولنسمه مالا نشاء من هذه الأسماء لا يمكن أن يوضع في مرتبة واحدة مع كتب العصر التي سماها المهذبة أو المرتبة – وهو يعترف في الوقت نفسه – بأن ما تضمنه هذا التأليف أو ذاك مما تركه لنا إنما هو "ضمم" وقد كان اهتمامه خلال ذلك منصبا على تضمين مؤلفه

(9622/1)

أسماء العلماء الذين لقيهم في رحلته وضبط سنين مولدهم، وبعض ما وضعوه من أجزاء ورسائل ومصنفات وقد لا يكون للبعض منهم مثل هذا الأمر ومن تم أبقى ابن رشيد اسمه مجردا، والتجريد في التراجم معروف ولكنه كتبه مثلما هو وارد في كتب الطبقات، ثم في مؤلفين هامين لأبي المحاسن يوسف تغري بدري، ولإبراهيم البقاعي من مؤرخي القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي. ورغم اعتذار ابن رشيد عن عدم ترتيب هذا البرنامج، إلا أنه ينتقل بكل إعزاز في عرض مضمون برنامجه، فهو يمتدح ما أودعه من نفائس علمية من

فوائد(1)

---

(1) المصدر نفسه.

" ما لعله لا يحصره ديوان، ويعز وجوده على ذي البحث والتقييد والاقتباس من مسائل حديثة وأصولية وأدبية، مما هي (1) في ظني لم يسبق إليها و لا زوحم فيها والحمد والشكر لله".

وهكذا استطاع ابن رشيد أن يجعل برنامجه، زاخرا بتراجم لمشاهير علماء عصره الذين قابلهم، أو أخذ عنهم، أو سمع منهم، وعددهم في تونس خمس وأربعون مفرقة بين الجزء الثاني والسادس والسابع، وأربع وخمسون شيخا ممن التقى بهم في الإسكندرية، والقاهرة، والفسطاط يضاف إليهم أربعة شيوخ التقاهم في بلبيس، مفرقة بين الجزئين الثاني

---

(1) المصدر نفسه.

والخامس، وخمس عشرة ترجمة ممن لقيهم في الحرمين الشريفين في أول الجزء الخامس.

أما سماعات ابن رشيد فهي كثيرة جدا وموزعة على جميع من لقيهم من العلماء من أئمة العلوم الشرعية من تفسير وحديث وأصول وفقه، والعلوم الآلية، كالنحو، والصرف، واللغة، والبيان، والعروض، والشعر، والنثر.

ويمكننا أن نستخلص أهم الفوائد من برنامج ابن رشيد فيما يلي:

1 – دراسة للحياة الفكرية ومراكزها في المدن التي قصدها ابن رشيد في تونس، طرابلس، الإسكندرية، القاهرة، بلبيس، الفسطاط، دمشق، الحرمين الشريفين، بونة، مالقا، رندة، سبتة.

(1/9625)

---

2 – تضمينه تراجم للشيوخ والعلماء الذين يمثلون منارات للعلم في بيئاتهم الفكرية السابقة.

3 – طرحه لأهم المسائل العلمية التي كانت مثار اهتمام أعلام عصره.

4 – ذكره للإجازات والأسانيد عن طريق الرواية، أو السماع أو المراسلات.

5 – أهم الكتب المعروفة في عصره والتي شغف المثقفون باقتنائها.

(9626/1)

رسالة العالِم من خلال شعر علال الفاسي

... ... الدكتور محمد الروكَي

... ... كلية الآداب ـ الرباط

... يمتاز الأستاذ علال الفاسي(1)

---

(1) هو محمد علال الفاسي، ينتمي إلى أسرة آل الجد، التي هاجرت من الأندلس إلى المغرب زمان المحنة. ولد سنة 1326 هـ/ 1910 م في أسرة محافظة وبيت علم وصلاح، حفظ القرآن مبكراً، وتلقى تعليمه الأول في مدرسة حرة، ثم التحق بجامع القرويين، فتخرج منه عام 1936 م. بدأ يشتغل بالتدريس وهو طالب بالقرويين، فأنشأ مدرسة الناصرية (مدرسة حرة)، ثم عين أستاذاً لتاريخ الإسلام بجامع القرويين.

... نشأ منذ فتوته على حب الإصلاح والتغيير وخدمة الوطن والأمة الإسلامية، وخوض المعركة والجهاد ضد المحتل.

... اهتم منذ شبابه بإصلاح التعليم ومناهجه وهياكله

وطرائقه... وإصلاح الإدارة ومراكز التوجيه والتسيير...

كما اهتم ـ في نضاله ودفاعه ـ بالفئات المستضعفة، مثل المرأة والفلاح وغيرهما، وركز في عمله النضالي والجهادي على فئة الشباب وعلق عليه آماله في إصلاح المجتمع وبنائه من جديد...

... جال في كثير من البلدان العربية والأوروبية، وله مؤلفات كثيرة ومقالات متعددة إلى جانب مجموعات شعرية حافلة بشعره النضالي الذي سخره للدفاع عن وطنه وأمته ودينه... .

... توفي رحمه الله عام 1974 م. ...

(1/9627)

ـ رحمه الله ـ في مجال عطائه الشعري، بعمق شاعريته وصدقها، وطول نفسه الشعري، يدل على ذلك ويصدقه: كثرة شعره وغزارته، واستمرار إنتاجه من صباه إلى آخر حياته.

... والمتأمل في شعر علال ـ على اختلاف أبنيته ومعانيه ومضامينه ـ يجد أنه من حيث المضمون لا يخرج عن المجال الديني والسياسي والاجتماعي إلا قليلاً. وتبعاً لذلك، فإنه من حيث الشكل، لا يكاد يجد فيه أثراً للجمال الفني ورونق الشعر وبهائه، إلا في قصائد معدودة،

معظمها -أو كلها- من قبيل ما خرج عن شعره الديني والسياسي والاجتماعي. وسبب ذلك أن الرجل لم

(1/9628)

يستخدم شعره لذات الشعر، ولم يجعل منتهى شاعريته أن تخدم الجمال الفني وتبدع فيه، بل إنه جعل غايته فيه خدمة المبدإ الذي يومن به والفكرة التي يعتقد صوابها، والمعنى الذي ينقدح في قلبه وعقله. فهو إذاً شاعر المبدإ، وشاعر الفكرة، وشاعر المضمون، يهمه أن يبلغ غايته -في شعره- بعبارة واضحة مباشرة، يدركها الجميع، ويعيها الجميع، ويستجيب لها الكثير. وبعبارة جامعة: إنه شاعر رسالة.

... إن العالم الحقيقي الذي يرث سر النبوة وتركتها، هو الذي يجاهد بعلمه ويسهم به في إصلاح المجتمع وبنائه على أساس قيم الإسلام

(1/9629)

ومبادئه وفضائله ومكارمه، باذلاً في سبيل ذلك فكره ووقته وماله ونفسه. وكذلك كان الأستاذ علال مجاهداً

بعلمه على جبهات متعددة، وأشكال مختلفة؛ بنضاله السياسي، وإصلاحه الاجتماعي، وتدريسه، وتأليفه، وخطابته، وشعره. فالشعر -إذاً- جبهة من جبهات جهاده العلمي، وأداة من الأدوات التي اعتمدها في أداء رسالة العالم، ومن ثم لم يهتم بمظاهر الجمال الفني، والرونق الأدبي، إلا ما جاء من ذلك عفواً وسجية، وكأنه أحس ذلك واستعد له منذ طفولته حين قال في إحدى قصائده المبكرة(1)

---

(1) انظر محمد بن العباس القباج، الأدب العربي في المغرب الأقصى ، المطبعة الوطنية، الرباط، 1347 هـ/ 1929 م، ج 2، الصفحة ما قبل الأولى. (وهي التي تحمل صورة علال الفاسي).

(9630/1)

:

وما أنا ذو الشعر الذي طار صيته

فآتي بالسحر الحلال تحديا

ولكنني طفل تسيل دموعه

ورده من لا يزال مناغيا

وأنظم من شعري عقوداً غواليا

فينظمها للقارئين قوافيا

... ولقد كان الشعر أول وسيلة سلكها علال الفاسي في طريقه الجهادي والحركي والنضالي، وكان الشعر أول وسيلة اشتهر بها في مجتمعه وبين قومه، شاباً يحب الإصلاح والتغيير والبناء والتجديد لوطنه وأمته، واستمر يعتمد هذه الوسيلة إلى آخر حياته... خمسون عاماً .إذاً .كانت مملوءة بالعطاء الشعري الذي وقفه على خدمة دينه ووطنه وأمته.

(9631/1)

... ومنذ أن فتح عينيه في الدنيا، وجد نفسه في مجتمع يعبث به الاستعمار، وينعم بخيراته، ويستنزف دماء أبنائه ويستعبدهم، فأدرك خطورة الوضع ومرارة الواقع، فأعد نفسه وجندها لخوض المعركة وأداء الرسالة، وكانت صرخته الأولى هي تلك القصيدة التي بث فيها لوعته وتحسره على أمته المنكودة، وأمله في تحريرها من سلطة الاستعمار، واستعداده لإنقاذها بما يملك من نظر بعيد، ونفس لا تقبل الضيم ولا ترضى

الظلم. يقول(1)

---

(1) المصدر نفسه، ص ص. 2 ـ 4؛ وانظر: المختار من شعر علال الفاسي، ص ص. 87 ـ 88 (إعداد اللجنة الثقافية لحزب الاستقلال، ط 1، 1976).

(1/9632)

في مطلع هذه القصيدة وهو حينئذ ابن سبع عشرة سنة:

أبعد مرور الخمس عشرة ألعب
ولي نظر عال ونفس أبية
وعندي آمال أريد بلوغها
ولي أمة منكودة الحظ لم تجد
قضيت عليها زهر عمري تحسرا
ولا راق لي نوم وإن نمت ساعة

وألهو بلذات الحياة وأطرب
مقاماً على هام المجرة تطلب
تضيع إذا لاعبت دهري وتذهب
سبيلاً إلى العيش الذي تتطلب
فما ساغ لي طعم ولا لذ مشرب

فإني على جمر الغضا أتقلب

... وإلى جانب تحسره على أمته المنكودة المنكوبة، فهو يتألم ويتضجر من أصحاب النفوس الصغيرة الذين يشغلهم متاع الدنيا عن أن يفكروا لتخليص

(9633/1)

البلاد من حكم المستعمر، ويجاهدوا في سبيل ذلك ومن ثم فهو يتوجه إلى الشباب مثله ويعقد آماله عليهم في تحرير البلاد والعقول وردها إلى قوتها ومجدها. يقول في القصيدة نفسها (1):

وما ساءني في القوم إلا عقولهم
وكنت أرى تحت العمائم حاجة
بلوت بني أمي سنين عديدة

وظنهم أن المعالي تذهب
فما هي إلا أن يروم المرتب
فألفيت أن النشء للخير أقرب

... ولما كان الشباب هو البديل المرتقب، والمادة الصالحة

لحمل راية الجهاد، والمعول عليه في الشدائد والصعاب،

راح الشاعر علال يشحذ عزائمهم وينهض

---

(1) المصدر السابق نفسه.

هممهم ويذكي فيهم روح الجهاد ويعدهم ليوم الكريهة

بالتكوين العلمي والثقافي من جهة، والتحميس

العاطفي من جهة ثانية. يقول في قصيدة أخرى مبكرة

يخاطب بها الشباب وهو دون العشرين من عمره(1):

كل صعب على الشباب يهون

قدم في الثرى وفوق الثريا

قد حسبناهم رجالاً فكانوا

مثلوا ما مضى لهم من فخار

ليرى كيف ضاع عزم وعز

هكذا همة الرجال تكون

همة قدرها هناك مكين

ولهم في الحياة مغزى ثمين

ليرى ما أتاه دهر خؤون

(1) انظر المختار من شعر علال الفاسي، ص ص. 116 ـ 117؛ والأدب العربي في المغرب الأقصى، ج 2، ص ص. 8 ـ 9.

(9635/1)

وعرا بعده فتور وهون

... وفي سياق هذه الروح الحماسية التي يزرعها في الشباب، يذكرهم بجهاد الآباء وقوتهم وجرأتهم على الأعداء فيقول(1):

أين ضاعت عزائم ونفوس
أين آباؤنا وأين حماهم
أين من دوخوا الفرنج ودالت
لتسل عنهم الفرنجة تخبر

أين ضاعت معارف وفنون
أين ساحاتهم وأين الحصون
لهم الهند عن رضى والصين
كإذا اشتدت الحروب الزبون

... ثم يمضي في قصيدته مخاطباً الشباب(2):

يا شباب البلاد أحييتمونا

قد بعثتم رجاءنا فأديموا

فلنا فيكم رجاء متين

---

(1) المصدران نفسهما.

(2) المصدر نفسه.

(1/9636)

سيركم واعملوا ولا تستكينوا

يا شباب البلاد فيكم أحيي

يا شباب البلاد فيكم أحيي

هماً علقت عليها الظنون

كل شهم بما يفيد يدين

... ويقول في صرخة حماسية مبكرة يبث فيها توجهاته النضالية وطموحه الجهادي، معولاً فيها على الشباب،

معبراً فيها عن عقيدته التي يجاهد من أجلها ومبدئه الذي لا يتزحزح عنه، وهو ابن سبع عشرة سنة(1):

ولي أمة غصبت حقها

---

(1) انظر المختار من شعر علال الفاسي، ص. 140؛ والأدب العربي في المغرب الأقصى، ج 2، ص ص. 5 ـ 6. وقد ورد فيه البيت الأول هكذا: ولي أمة فقدت مجدها...

(9637/1)

وأنفخ في نفسها نهضة

وألقي على نشئها نظرة

فتبلغ ما أبتغيه لها

فلي مبدأ سوف أخدمه

وليس علي إذا غضبوا

سيكفيني الله شرهم

وإني على مبدئي سائر

سأخدمها بسنا الخدمات

تروق على سائر النهضات

ترقي البنين وتعلي البنات

وما يرتجيه جميع الحماة

وأبلغه رغم أنف العداة

وكانوا الوشاة وأردى الوشاة

وهل مثلهم يرد العزمات

فإما حياة وإما ممات

... وفعلاً، فقد ظل علال الفاسي سائراً على مبدئه، مستمسكاً بعقيدته ومدافعاً عنها، مجاهداً في سبيل دينه إلى آخر حياته، لم يغير من ذلك ولم يبدل، ولم تؤثر فيه التهديدات ولا

(9638/1)

الإغراءات، يصدق هذه الاستمرارية والثبات على المبدإ قصائده وصرخاته التي جادت بها قريحته في آخر حياته، من ذلك قوله في قصيدته التي نظمها قبل وفاته بنحو عام (1):

بني العرب الكرام ألا رجوعاً

كفى استبدادكم في الحكم نهجاً

عن الطغيان والنظم الشديده

على ما سنت الدول العتيده

على نهج اليمين بما لديه

وفي نهج اليسار لقد قبلتم

ألا عودوا إلى الإسلام إنا

نجدد أمرنا منه ونحيي

فمنه نعيد للإنسان طرا

ونبني منه حكماً مستقيماً

ديمقراطية الإسلام أسمى

---

(1) انظر المختار من شعر علال الفاسي، ص ص. 225 ـ 226.

(9639/1)

يراقبها الضمير وروح شعب

فلا ترضى بغير العدل حكماً

وليس لها سوى تدبير عيش

وصون الدين والدنيا جميعاً

بني قومي نصحتكم هلموا

وجدوا في نضالكم تجدوا

من التأييد للفكر البليده

جحوداً منه واخترتم جموده

نراه حل أزمتنا المبيده

معالمه المنيرة والمشيده

كرامته وعزته المريده

على أسس منظمة جهيدة

حكومات بما التزمت عهوده

عليها في تصرفها شهيده

توطد من شرائعه قيوده

وحفظ مصالح الشعب الأكيده

وحفظ كياننا بيد حديده

إلى الإسلام والتزموا بنوده

حياتكم كما بدأت سعيده

(9640/1)

... فانظر إلى هذه الصرخة التي أسمعها قومه وهو في آخر عهده بالدنيا، وقارنها بصرخاته الأولى المبكرة التي دوى بها في مجتمعه وهو فتى ابن سبع عشرة سنة، تجد أنها متكاملة متناغمة، ينظمها نسق واحد وعقد واحد ويستوعبها وعاء واحد ومعدن واحد أصيل.

... لقد شب علال وتربى على الإيمان بالمبدإ والثبات عليه، وربى الشباب على الثبات والصبر، وظل في شعره

يدعو إلى ذلك من ذلك مثلاً قوله في قصيدته التي قالها وهو ابن 23 سنة(1):

ثق يا بلادي أني ما أزال على

---

(1) انظر المختار من شعر علال الفاسي، ص.ص 20 ـ 21.

(9641/1)

أنا الأبيّ الذي لا يستكين إلى

ما أن تلين قناتي عند معضلةٍ

ما كان عندي من عزم وإيقان

ضيم ولا يختشي من كيد إنسان

ولا يضعضع ركني عند بهتان

أنا الوفيُّ لشعبي والمدافع عن

لا يحسب القوم أن النفي يرجعني

أو أن عزمي يهوي في مؤامرة

ما النفي ما السجن بل ما الموت في وطنٍ

وطدت نفسي على ما كان من زمنٍ

قومي بكل يد عندي وعرفان

عن مبدإ حل في روحي وجسماني

قد دبرت من فرنسي وإسباني

ما زلت أرعاه إخلاصاً ويرعاني

فلست أخشى على عزمي وإيماني

(1/9642)

... وبهذه الثقة والثبات والرسوخ على المبدإ يخاطب قومه وأبناء وطنه من منفاه وهو ابن 28 سنة في قصيدة أخرى قائلاً(1):

ويا وطني إن صرت عنك مغربا

لقيت بك الآلام لكنني على

وحسبي هناءً أن أكون معذبا

فحبك في قلبي يقيم على المدى

هواك مقام مخلص لك في الفدا

لتنعم بالعيش الهنيء وتسعدا

... ولا يفوته في هذه القصيدة أن يذكر أبناء قومه بما تحملوه من أمانة، وأنه متأكد من ثباتهم على المبدإ،

وله يقين وثقة بالله أنه سيحقق آماله:

ولي ثقة في الشعب لابد أنه

---

(1) المرجع نفسه، ص ص. 77 ـ 78.

(1/9643)

سيبقى على ما قد رفعنا أساسه
وَعِنْدِيَ في الله اليقينُ بأنَّهُ

سيعمل للمبدا الذي قد تقلدا
ويسلك في النهج الذي قد تعبدا
يحقق أمالاً ويبلغ مقصدا

... وإلى جانب رسوخه وثباته على القيم والمبادئ، وصبره وتحمله من أجل ذلك، فهو عزيز النفس، أبيّ، لا يقبل الضيم ولا يرضى بالدّنية، مستعد لتحمل الشدائد والمحن المادية والمعنوية دون أن يرضى بأن يكون محل إشفاق وعطف ولا أن يشمله جميل أحد أو صنيعه:

إني لأقبل موت الجوع معتزماً

ولست أقبل في اللأْوَاءِ أحملها

كي لا أكون محل البذل والصدقة

(9644/1)

أني أكون محل العطف والشفقة

... وهو يوطن نفسه للدفاع عن وطنه وبذل ما يملك في
سبيل حمايته وجلب كرامته حتى ولو تخلى عنه الجميع.
فهو مستعد ليفدي بلاده بنفسه وروحه ولا يقبل أن
يشاركه في هذه المكرمة أحد:
...
إني لأقبل بذل النفس في وطني
ولست أقبل فيبذلي مشاركة
أموت للمغرب الأقصى على ثقة

كي ما يتم به كوني فنتحد
بل أبتغي بفداه الدهر أنفرد
أن لن يموت معي من موطني أحد

... فهو ـ إذاً ـ لا يسمح لنفسه أن تكون دون منزلة العزة

والإباء والاستعلاء في الحق والقوة والثقة بالنفس التي مأتاها الثقة بالله عز وجل.

(1/9645)

وقد أدرك برسوخه في هذه المنزلة واستقراره في هذا المقام، أنه لم يخلق لنفسه، وإنما خلق لدينه ووطنه، خلق من أجل الجهاد والتضحية لترسيخ القيم الإسلامية في مجتمعه وبنائه عليها بناء محكماً مرصوصاً لا تمتد إليه الأيدي ولا تؤثر فيه المعاول. وقد بث هذه المعاني السامية في كثير من قصائده، منها قوله في قصيدة : "نموت ويحيى الوطن"(1):

لذة الموت حياة الوطن
هو بغيابي التي أطلبها
أنا لم أخلق لنفسي إنما

وفداه من صروف الزمن
وهو لي كل فخار أبتني

---

(1) أحمد قبش، تاريخ الشعر العربي الحديث، لبنان، 1971، ص. 172

(9646/1)

أنا مخلوق لأجل الوطن

... وهي معان كبيرة وقيم سامية استقاها من معدن الإسلام ورضع لبانها من ينابيعه، واستخلصها من قيمه وفضائله ومكارمه، واستوعبها من مادته ومضامينه، فصاغ نفسه منها، وبنى ذاته على أساسها، وراح يبثها في قومه ويبني نفوسهم عليها، إعداداً لأمة الجهاد التي تدافع عن دينها ووطنها، وتحمي دماءها وأعراضها وأموالها من يد العدو الغاشم، والمستعمر الظالم، ونظمه وقوانينه وقيمه التي ميع بها الأخلاق وأفسد بها المبادئ والمثل، وعلمانيته التي مزق بها شمل الدين والأمة، وحال بها بين الدين والدنيا، وبين

(9647/1)

الشريعة وحكم الحاكمين، فأصابها بذلك وهن وضعف وخور عميق راحت تلتمس جبره في الحلول الغربية الملفقة، وترجو ضماد جراحها في الاستسلام لهيمنة الغرب والانحناء أمام سوطه وقضيبه! فأدرك علال أن من

لوازم رسالته ورسالة غيره من العلماء: تحريك الأمة المنكودة المستعمرة، وتحريضها على الجهاد والدفاع عن كرامتها وسيادتها، ودفعها بقوة إلى التحرر من سلطة الاستعمار وطغيانه المادي والمعنوي.

... لقد أدرك علال أن أمته غزيت غزوين خطيرين: غزواً مادياً عسكرياً سياسياً، وغزواً فكرياً عقدياً ثقافياً إعلامياً؛ وأن التخلص من

(9648/1)

الغزو الأول رهين بقومة الأمة، وجمع شملها، ووحدة بنائها، وترصيص صفها، لأن في ذلك قوتها وصلابتها، ولأنها بذلك عزَّت وانتصرت في سابق مجدها. ومن ثم ركز السيد علال في تخطيطه لتحرير بلاده من هذا الغزو العسكري والسياسي على الدعوة إلى الوحدة والتعاون والانصهار في قيم الإسلام ومبادئه، والتجند الجماعي لحماية الإسلام وتحقيق مصالحه. يقول مقرراً هذه المعاني في قصيدته الملحمية التي نظمها بمناسبة ذكرى معركة وادي المخازن(1):

بني وطني ماذا دهاكم فصرتم

(1) المختار من شعر علال الفاسي، ص ص. 50 ـ 51.

(1/9649)

أعيدوا لهذا الشعب ماضي مجد

ولا تدعوا الأعداء تعبث بيننا

إلى فرقة مبغوضة وتطاحن

وكونوا لنصر الحق خير مثابن

وتخلق فينا موجبات التباين

فمغربنا في حاجة لاتحادنا

ألسنا بني الإسلام والوطن الذي

لنكسب حقاً ضائعاً في التشاحن

توحد بالإسلام بين الأماكن؟

... وهذه الوحدة التي يدعو إليها مشروطة عنده بتوحيد العقيدة والتوجهات الكبرى، وتوحيد الأغراض الكبيرة التي تتطلع إليها النفوس. وفي ذلك يقول ضمن ملحمته السابقة(1):

إذا نحن وحدنا العقيدة واستوَتْ

أصيخوا بني قومي لدعوة ناصح

---

(1) المصدر نفسه، ص ص. 50 ـ 51.

(9650/1)

فهذا نداء الحق من كل جانب

مطامحنا نلنا السها بالميامن

حريص على الإصلاح بالحق آمن

يردده أبطال وادي المخازن

... وأما التحرر من الغزو الفكري والثقافي والعقدي فطريقه أشق، ومصاعبه أشد. لذلك جاءت صرخاته فيه أعمق وأعلى صوتاً، لأن الأمة قد تحقق التحرر والاستقلال السياسي، لكنها تبقى مستعمرة فكرياً مشدودة إلى جهة المستعمر منبهرة به منصهرة في بوتقته ذائبة في شخصيته وذاته! وهذا أشد وأنكى من الغزو الأول. لذلك دعا الشاعر علال إلى التخلص من ضواغط الغرب وكسر قيوده، والتحرر الكامل من التبعة له. ونعى على

(9651/1)

أذنابه الذين ورثوا مخلفاته واستحفظوا على تركته ومتابعة سبيله التي سلكها بيده. وشنع على النابتة التي نبتت في أحضان الاستعمار وشبت على عينه ونُشِّئَتْ في حجره ويده! في مثل هؤلاء يطلق شاعرنا صرخته الشعرية، وأغرودته الشعورية الوجدانية التي سماها: "أغنية من الباطن" نفث فيها زفراته التي انبعثت من أعماقه وأطلق فيها ثورة بركانية على نفر من أبناء المغرب وَالوا الأجنبي المحتل، واستمرأوا الذل والهوان، وعقدوا أنفسهم على الهزيمة، ورضوا بالفشل، واستسلموا لليأس، وقبلوا أن يكونوا من الأتباع الأذلة الذين لا

(9652/1)

يرون إلا ما يراه السادة الحاكمون حقاً كان أو باطلاً، هذه الفئة التي يوجه إليها صرخته وثورته هجرت لغتها، وانبهرت بلغة المحتل، فأصبح لسانها غريباً في وطنها وعن أمتها، وهي أيضاً رضيت بحكم الأجنبي، وتخلت عن فكرة التحرير، فانساقت وراء ما يريده المحتل، مبررة

ذلك بأسماء براقة من التقنية والتحرر والتقدمية ....

وأكثر من ذلك فهي قد رضيت أن تكون حرباً على كل ما من شأنه أن يؤكد شخصية الأمة ويبعث فيها روح المقاومة للمعتدين والمحتلين، فحاربت بذلك دين الأمة الذي تؤمن به وتحتكم إليه، وزرعت في البلاد مقابل ذلك

(9653/1)

قوانين المستعمرين وأحكامهم ونظمهم، وقاومت المعاهد الإسلامية وخصوصاً جامعة القرويين التي كانت رمز الحفاظ على كيان الأمة، ونشرت مقابل ذلك مدارس التبشير وشجعت المذاهب المنحرفة التي تدين بالولاء للمحتلين كالبهائية والصهيونية. وفي الأخير، ينفي الشاعر علال أن تكون هذه الفئة ذات انتماء قومي مغربي وديني إسلامي، ويصفها بالخروج عن الأمة، ويعتبرها عدواً مع الأعداء، ويدعو إلى نبذها ومقاطعتها. يقول الشاعر علال في أغرودته هذه(1):

... قولوا لنا:

... هل أنتم من قومنا؟

---

(1) المصدر نفسه، ص. 41 وما بعدها.

(9654/1)

... من شعبنا، من أرضنا؟

... قولوا لنا:

... هل أنتم من ديننا؟

... من جنسنا من أهلنا؟

... أم أنتم الإفرنج من أبناء غال؟

... وتراثكم من غيرنا؟

... قولوا لنا:

... إن كنتم من قومنا، فعلام لا ترضون أن تتكلموا بلساننا؟

... وعلام في كل المجالس تنطقون

... تتحدثون وتدرسون وتكتبون

... كأعاجم لا يعرفون من الكلام

... سوى لغات الفاتحين؟

... وتفرنسون شبابنا وبرامج التعليم

... ومناهج التفكير والأبحاث والتدوين

... وعلام لا ترضون بالعربية الفصحى

... لغة الإدارة والدراسة والشؤون

... قولوا لنا:

(9655/1)

... مع ذلك هل أنتم لنا

... من قومنا

... قولوا لنا.

* * * ...

... إن كنتم من شعبنا فعلام لا تتحررون

... تتحالفون مع الأجانب في ابتزاز متاعنا، أموالنا، خيراتنا

... وتدافعون عن الرواسب، رأس مال الأجنبي

... وتفضلون تراثه ورجاله ومعلميه

... وتخلدون الهيمنات الأجنبية والتسلط باسم ما تدعونه بالتقنيه

... تتحالفون لأنكم تخشون شعباً أنتم منه؟ كذلك تدعون

... قولوا لنا. مع ذاك هل أنتم لنا، من شعبنا قولوا لنا.

* * *

... إن كنتم من أرضنا فعلام لا تستعجلون

... رد الأراضي من يد المستعمرين

(9656/1)

... وإلى يد الفلاح مزدرع الحقول

... بفتات ما يرضى به المستعمرون

... وذوو الحمى من قومنا، والغاصبون الأرض للفلاح باسم الحوز، حوز الظالمين

... وعلام لا تستعجلون خروج جيش الأجنبي

... وتحررون قواعد الوطن العزيز

... قولوا لنا: إن كنتم من أرضنا فَعَلَامَ لا تتقدمون، وتنظمون نضالنا

... لنرد ما أخذوه، من أقطارنا، صحرائنا

... ولنخرج الإسبان من تلك المدائن سبتة ومليلية ومن العيون

... ولنسترد لأرضنا وادي الذهب

... ومن الجيوب لدى الشمال وفي الجنوب

... مع ذاك هل أنتم لنا؟

... من أرضنا

... * * *

(9657/1)

... قولوا لنا: إن كنتم من ديننا فعلام لا تتحاكمون إلى شريعة ديننا

... وتفضلون الأجنبي إذا تشرع أو حكم؟

... وتقاومون معاهد الإسلام

... وعلومه وثقافة الإسلام في أسمى أصالة

... وتراثنا السامي وجامعة بناها الأولون

... وتتابعت في رفع رايتها القرون

... وتفجرت منها العلوم وكل شيخ قائم بالدرس،

بالتفكير والإبداع

... والتنوير والتبشير بالدين الحنيف

... ويرفع ألوية الحضارة في أفريقيا

... وينقل معرفة الجدود إلى أوربا الجاحدة

... وتشجعون مدارس التبشير والتنصير

... ومعاهد المتهودين

... ومراكز البعثات

(9658/1)

... وتسامحون مبشري الزيغ الجديد

... زيغ البهائية الحقود

... حلف الصهاينة الكنود

... ودعاة كل الهرطقات وكل تحريف وهدم

... والريب والتجريد والعدمية

... مع ذاك هل أنتم لنا؟ من ديننا؟

... قولوا لنا: هل أنتم من ديننا؟ من قومنا؟ من شعبنا؟

من أرضنا؟ قولوا لنا!

* * * ...

... وقد أدرك شاعرنا علال بوعيه السياسي والاجتماعي والثقافي أن العدو المحتل بات مؤكداً عنده أن مأتى الاحتلال ومدخل الغزو في الأمة الإسلامية كافة هو ضربها في دينها وقرآنها ولغتها، وإحداث قطيعة بينها وبين هذه الأصول التي بها ترتبط حضارتها

(1/9659)

وقوتها وكيانها. فراح يصرفها عن ذلك ويربطها بنواقضه، مستعملاً في ذلك كل ما يملك من الوسائل والإمكانات، ومجنداً له كل طاقاته. ومن ثم فإن شاعرنا لم يفته أن يعي بهذا المخطط الرهيب، ويتفطن لهذه المؤامرات المرعبة، فجعل ضمن صرخاته الجهادية الثورية: الدعوة إلى الحفاظ على القرآن واللغة العربية، لأن حفظ اللغة العربية يضمن حفظ القرآن، وحفظ القرآن يضمن حفظ الدين، وحفظ الدين يضمن حفظ شخصيتنا وهويتنا الحضارية وكياننا الآدمي وسيادتنا الإسلامية العليا. يقول ـ رحمه الله ـ في قصيدته "اضطهاد لغة القرآن"(1)

---

(1) انظر المختار من شعر علال الفاسي، ص. 133 وما بعدها؛ وانظر أحمد عبد اللطيف الجدع وحسني أدهم جرار، شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، ج 7، ص. 52 وما بعدها.

(9660/1)

:

إلى متى لغة القرآن تضطهدُ
أما دروا أنها في الدهر عُدَّتُهم
ولن تقوم لهم في الناس قائمة
إن لم تتم لهم بالضاد معرفة
إن العقيدة في الأوطان ناقصة
وكيف يصغون للأعداء تذكرها
تآمروا وأعدوا كل مدرسة

ويستبيح حماها الأهل والولد
وما لهم دونها في الكون ملتحد
أو يستقيم لهم في العيش ما نشدوا
أو يكتمل لهم في الضاد معتقد
ما لم تكن للسان الشعب تستند

وأصل ما وصفوه الحقد والحسد

بها قواعد الاستعمار تقتعد

تعلم الجهل بالماضي الذي صنعت

وتنكر اللغة الفصحى وما نظمت

يد العروبة والآتي الذي تعد

(1/9661)

من المعاني وفيها العلم والرشد

... ويستمر في صرخته هذه منددا بالعدو الكائد، موعياً بمخططاته ومؤامراته على لغة الإسلام، ناعياً على المتقاعسين العاجزين الذين ماتت فيهم الغيرة على دينهم ومقدساتهم، ثم يوجه فيها خطابه إلى الحكومة ويحملها مسؤولية حماية اللغة العربية والدفاع عنها من ضربات العدو وأتباع العدو(1):

قل للحكومة والأيام شاهدة

عودي إلى خطة ترضى البلاد بها

وحرري الضاد حتى يستبين لها

عار رواسب الاستعمار نكلأها

عار قد استعجمت أقوالنا وغدت

---

(1) المصدر نفسه، ص ص. 135 ـ 136.

(1/ 9662)

عودي إلى الحق لا يصددك منتقد

ويستقيم بها للملة الأود

مجالها الحر لا قيد ولا صفد

وعندها الجهل والإذلال والكمد

أفكارنا بمعاني الخصم تتحد

... ولم يكن يغيب عن شاعرنا أن مسؤولية حماية اللغة والدفاع عنها، وجعلها لغة التعليم والتدريس والإدارة، غير مقصورة على الحكومة بل هي مسؤولية الشعب أيضاً وأمانة في عنق أبنائه عليهم أن ينهضوا بها ويطالبوا بحقوقهم فيها ويقوموا لها قومة رجل واحد(1):

الأمر للشعب فليعلن إرادته

إنا بني الوطن الأسمى الأُساةُ له

من لا يؤدي إلى الأوطان واجبه

(1) المصدر نفسه، ص. 136.

هبوا بني الوطن الأسمى إلى عمل

وناصروا الضاد في كل المواقف إذ

وكلنا طاعة للأمر يعتمد

والجند للضاد نحميها ونجتهد

فهو العدو فما ترضى به البلد

من شأنه الفوز للأوطان والرَّغَدُ

من فوزها غاية التحرير تمتهد

... وبهذه الروح نفسها يطلق صرخاته دفاعاً عن القرآن، ودعوة إلى الاستمساك به والحفاظ عليه، لأن في ذلك حفظ الدين وإقامة شرائعه وأحكامه. فالقرآن دستور المسلمين، وأصل تشريعهم الرباني. يقول ـ رحمه الله ـ ضمن قصيدته الطويلة التي نظمها بمناسبة مرور أربعة عشر قرناً على نزول القرآن الكريم(1)

(1) المختار من شعر علال الفاسي، ص. 179.

(9664/1)

:

يا أمة قرآنها دستورها

عودي إلى الدين الحنيف عقيدة

ما في سوى القرآن خير يجتبى

الله خَارَكَ للرسالة فانهضي

ميراث أحمد دينه وكتابه

قل للذين رضوا ثقافة غيرهم

أيليق أن تبقى العروبة بيننا

جربتم دعوات غير محمد

وزعيمها كان النبيَّ المرسلا

وشيعة وتخلقاً وتعقلا

أو في سوى الإسلام نهج يبتلى

لتواصلي عمل الجدود الأولا

لك عدة تغنيك عما أعملا

وتصوروا الإسلام عهداً قد خلا

جسدا بلا روح ولفظاً عطلا

ماذا جنيتم هل عقدتم موصلا؟

... وفي أجيج هذه الصرخات الشعرية المحركة، لم يفت شاعرنا علالاً أن يخص بعطفه وحنانه الفئات المستضعفة في مجتمعه، فيطالب بحقوقها ورفع الحيف عنها، وصرف الاهتمام والعناية إليها مسوية بينها وبين سائر فئات المجتمع حتى يكتمل البناء وتلتحم الصياغة. وينصب اهتمامه على الفلاح والمرأة بوجه خاص:

... أما الفلاح، فلأنه العنصر الذي قاسى كثيراً، وظلم كثيراً، وأعطى كثيراً، وأخذ قليلاً. يقول رحمه الله ضمن قصيدته "الفلاح المغربي" (1):

ويح حال الفلاح أصبح عبدا

نزعوا أرضه وغلوا يديه

---

(1) المرجع نفسه، ص. 164.

وغدا عيشه عناء ونكدا

سلبوه العيش السعيد الأودا

كل يوم تصيبه نكبات

صار مرمى استغلال كل قوي

يطلب الحاكم الضيافة منه

ويرى القائد "التويزة" شرطا

جعلته إلى النوائب قصدا

ومجالاً للنهب من يتصدى

وهو للضيف لم يكن مستعدا

لحياة الفلاح لا يتعدى

... ويمضي في صرخته إلى أن يقول مخاطباً المستنزفين والمستغلين والغاصبين، مذكياً في نفوس الفلاحين روح الغيرة على الكرامة والدفاع عن النفس وحقوقها:

أيها الآكلون من عرق الفلاح أنى ترون في العيش رغدا

أيها السالبون نوم بنيه

أيها الهازئون من دمعة الشا

(9667/1)

اهجعوا سوف يبدل النوم سهدا

كي ستغدو الدموع حقداً وكيدا

إلى أن يقول:

أرجعوا أرضه التي قد نزعتم

نحن قوم تعودوا الصبر أحيا

وامنحوه الحياة ذلك أهدى

نا ويغدون في الوقائع أسدا

... وأما المرأة، فقد دعا إلى تعليمها وتربيتها وإعدادها لوظيفتها الاجتماعية إلى جانب أخيها، وتحريرها من رواسب الجاهلية ومخلفات الاستعمار. ولعله بذلك أول من دعا إلى ذلك ونادى به في المغرب؛ يقول ضمن دعوته هذه (1):

يا قوم ما هاتي الجهالة منكم

البنت مثل الطفل إن أصلحتها

---

(1) أحمد قبش، تاريخ الشعر العربي الحديث، ص. 172.

ربوا الفتاة على المعالي إنها

البيت عمدته الفتاة فإن تدم

إني أرى سيل التعصب مفعما

صلحت، وإلا كنت أنت المجرما

إن هذبت تلج السبيل الأقوما

في الجهل أضحى ذا العماد مهدما

... هكذا إذاً عاش الشاعر علال مجاهداً بشعره كما جاهد بعلمه ونضاله، وجعل من شعره الصادق الواضح أداة من أدوات رسالته التي عرف وزنها وقيمتها وقدرها حق قدرها. إنها رسالة العالم في حياته وواقعه ومجتمعه وأمته، إنها أمانة الجهاد والإصلاح والتغيير والبناء الحضاري، التي أناطها الله بالعلماء ورثة الأنبياء. ولقد أدى الرسالة وبلغ الأمانة ما

(9669/1)

وسعه ذلك، وجاءت رسالة العالم في شعره ـ كما رأينا ـ مشتملة على الأصول الآتية:

... 1 ـ الدعوة إلى الحفاظ على الإسلام والاستمساك به والالتزام به عقيدة وشريعة؛

... 2 ـ الدعوة إلى الحفاظ على القرآن واللُّغة العربية؛

... 3 ـ الدعوة إلى الاستقلال والتحرر من التبعية والغزو الغربي المادي والمعنوي؛

... 4 ـ الدعوة إلى وحدة الأمة الإسلامية وترصيص صفها؛

... 5 ـ الدعوة إلى الصبر والثبات والرسوخ على قيم الإسلام ومبادئه؛

... 6 ـ الدعوة إلى شحذ العزائم، والتربية على العزة الإيمانية والاستعلاء في الحق؛

(9670/1)

... 7 ـ الدعوة إلى رد الحقوق إلى أصحابها المهضومين المستضعفين؛

... وقد جمع هذا كله في مقطع من قصيدته الطويلة:

"توقيعات الذكرى" (1):

... كفاحاً إلى أن تنال البلاد، وشعب البلاد، جميع الحقوق

... يميناً بحق الشرف

... لنجلي الأجانب عن أرضنا

... ونسترجع المغتصب

... نعيد إلى الشعب سلطته

... نـعيد إلى الفرد حريتـه

... نـعيد لعاملنـا رزقه

... نـجدد للفكر قيمتـه

... نـعيد إلى الدين حرمتـه

... نـعيد إلى الضاد مركزها

... ونـخلص للأمة العربـية

... ونـعمل للوحدة العربـية

---

(1) المختار من شعر علال الفاسي، ص. 65.

(9671/1)

... عليكم بـنـي وطنـي أملي ... فسيروا معي إنـنـي معكم

... بـنـي وطنـي وبـنـي أمتي ... إلى ساحة العمل الملتقى

... وإذا كان الأستاذ علال الفاسي قد تواعد بـنـي وطنـه وأمتـه ساحة العمل، في قصيدتـه هذه التي نـظمها قبل وفاتـه بـنـحو ثلاث سنـين، فإنـي أقول محيياً إياه ومكبـراً جهاده ونـضاله وبـطولتـه(1):

صَرَخْتَ... فَأَسْمَعْتَ كُلَّ بَعِيدٍ

وَغَذَّيْتَ بِالفِكْرِ مَنْ قَدْ أَتَى

وَأَعْدَدْتَ جِيلاً سَوَاعِدُهُ

فَنَمْ آمِناً بِدِيَارِ البِلَى

ويُبْصِرُ كُلٌّ نِهَايَتَهُ

---

(1) الأبيات لصاحب المقال، محمد الروكَي.

(1/9672)

وَنَادَيْتَ بِالقِيَمِ السَّامِيَه

يُجَلْجِلُهَا صَرْخَةً عَالِيَه

تُلَوِّحُ بِالرَّايَةِ الْقَانِيَه

غَداً نَلْتَقِي الفِئَةَ البَاغِيَه

وَتَرْجِعُ أَنْفُسُنا رَاضِيَه

(1/9673)

رسالة »شكاية الدين المحمدي إلى رعاية الموكلين به«

نموذج من التواصل الثقافي بين السودان الغربي

والمغرب

في مسألة محاربة البدع في بداية القرن التاسع عشر

... ... الدكتور عبد الحفيظ حَمّان

... كلية الآداب ـ تطوان

الرسالة السودانية وإطارها العام

... هذه الرسالة عبارة عن مخطوط صغير الحجم، توجد بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 6831، وتشتمل على ثمان عشرة صفحة. وهي رسالة مطولة قدمها المؤلف شكاية للسلطان المولى سليمان، كما نلمس ذلك من خلال عنوانها. وقد ركز فيها على البدع الشنيعة التي يقترفها البحارة

(9674/1)

في شمال إفريقيا، وعلى بعض البدع التي يرتكبها الحمالون والحمّارون بالمغرب في القرن التاسع عشر الميلادي.

... أما مؤلف هذه الرسالة السودانية، فيقدم نفسه في مطلعها تحت اسم: أحمد بن القاضي أبي بكر بن يوسف بن إبراهيم، الفوتي أصلاً، الدوجقيّ(1) مولداً، التنبكتاوي أفقاً، الجناوي قرارة. كان على قيد الحياة سنة 1809 م، وهي السنة التي وافقت تاريخ انتهائه من كتابة رسالته حيث أشار في ختامها إلى أنه انتهى من

---

(1) ... الدوجقي: نسبة إلى قبيلة دَوْسَهاكُ، وتعني أولاد إسحاق. وهي قبيلة موجودة حالياً في مالي والنيجر.

(1/9675)

كتابتها بعد صلاة العصر يوم الأحد 15 رجب سنة 1224 هـ بعد أن بدأ كتابتها على ظهر السفينة قرب جبل طارق قاصداً مدينة فاس.

... وجاءت كتابته لهذه الرسالة بعد ذهابه إلى الحج عن طريق البحر. فكان الدافع الذي حفزه إلى إصدار هذه الشكاية هو معاينته للبدع التي يقترفها رؤساء المراكب على سفنهم، حيث نجده يعبر عن ذلك بقوله: »رأيت في تلك السفن مناكر ضاق بها صدري واحترق بها سلطان بدني«. وكان مقصوده من تأليف هذه الرسالة هو كما يقول عنه: »المقصود في هذا الكتاب تبليغ المناكر إلى من وُكّل بتغييرها«.

(1/9676)

... ويدلنا قوله كذلك على أنه بالرغم من تجواله في كثير من الأقطار وبلدان العالم الإسلامي أثناء الحج، لم

يجد من يبث له شكواه: »ولم أجد طبيباً في كل قطر من الأقطار«. وبعد توجهه إلى مدينة فاس، ارتأى أن يوجه هذه الرسالة إلى السلطان سليمان: »فأردت أن أبلغ ذلك لسلطان السلاطين الإمام الأبر الأمير الأسعد سيدنا سليمان«.

... ومن ناحية المحتوى العام لهذه الرسالة السودانية، فقد قسمها مؤلفها إلى بابين وخاتمة: تطرق في الباب الأول إلى البدع والعادات الجديدة غير الشرعية التي يقترفها البحارة ورؤساء المراكب في

(1/9677)

سفنهم.

... والباب الثاني حاول فيه إثبات كفرهم بعد الإتيان بأدلة شرعية تخص هذه المسألة.

... وفي الخاتمة يوجه خطابه إلى السلطان سليمان ليحثّه على محاربة هذه البدع التي يقترفها رؤساء المراكب في شمال إفريقيا ويطلب منه مراسلة باشا الجزائر وتونس وطرابلس في هذا الشأن. كما يطلب منه زجر الحمالين والحمارين في المغرب عن بعض البدع التي ظهرت فيهم.

... والأسلوب الذي كتبت به الرسالة أسلوب بسيط تتخلله في بعض الأحيان أخطاء نحوية. وهذا يرجع إلى أصل

المؤلف الذي لا يتقن اللغة العربية كما بيّن ذلك بنفسه في مطلع

(9678/1)

الرسالة وفي خاتمتها بقوله: »وذلك لا يمكن، لقصور درجتي عن ذلك مع غلبة الجهل على القلب والعُجْمة على اللسان..«. ويضيف: »ومن وجد فيها من الخطإ، فليصلحه من ذلك؛ لأن المؤلف رجل جاهل عجمي سيّء الحفظ.. «.

...

مضمون الرسالة السودانية والتعليق عليه

... من خلال الرسالة المذكورة يتبين لنا بصفة أساسية نقطتان ارتكز عليهما صاحب الرسالة: النقطة الأولى تتعلق بإبرازه .بصفة نقدية .للبدع والمظاهر الجديدة التي تفشت في مراكب البحارة وسفنهم، وكذلك عند الحمالين بالمغرب، مع إصداره الحكم الشرعي تجاه هؤلاء. وفي هذا

(9679/1)

السياق، ركزت الرسالة الحديث على هذه القضية في ثلاثة مظاهر يمكن استخلاصها كالتالي:

... – المظهر الأول يتحدث عنه بنوع من التفصيل، لشدة امتعاضه وسخطه. ويتجلى في التشاؤم بالقرآن عند رؤساء المراكب. فهؤلاء ـ حسب ما يخبرنا به المؤلف ـ كرهوا قراءة القرآن وهجروه، ومنعوا قراءته والصلاة والأذان في المركب، معتقدين أن ذلك يسبب هيجان البحر وامتناع هبوب الرياح. وفي هذا الصدد، لا يتوارى عن إصدار الحكم الشرعي تجاههم وذلك بقوله: »ولا يختلف أهل البصرة بكفر هؤلاء الناس«. ويؤكد ذلك في موضع آخر قائلاً: »وكفروا بذلك،

(1/9680)

لأنهم لا يعملون بما في القرآن«. ...

... – المظهر الثاني يبرزه المؤلف بصفته نتيجة للأول. ففي نظره أن هؤلاء البحارة عوضوا سلوكهم المشار إليه، بعادات تنافي الشريعة الإسلامية فيقول عنهم: »هم لا يؤذّنون في المركب ولا يصلّون ولا يذكرون، بل أذانهم شرب الخمر وصلاتهم اللواط وذكرهم سبّ الدين«. ويعتبر هذه الأفعال والسلوكات الجديدة اقتداء بالنصارى.

... – المظهر الثالث يتجلى في الاعتقاد السائد آنذاك في تأثير الكائنات. وهذه المسألة تحاول الرسالة السودانية إبرازها من جانبين:

(1/9681)

... الجانب الأول في كون هؤلاء البحارة ورؤساء المركب، بعد تشاؤمهم من قراءة القرآن، اعتقدوا أن البحر والريح قادران على أن يتصرف كل منهما بنفسه. وبذلك ـ حسب المؤلف ـ صار البحر والريح معبودين عندهم. وفي هذا الصدد، يبادر إلى إصدار فتوى يحرم فيها على كل حاكم إرسال هؤلاء في عمل جهادي ضد النصارى، ما داموا قد خرجوا بهذه العادات وهذه الاعتقادات عن الملة والدين وأصبحوا في عداد المشركين. وهنا يظهر الحكم الشرعي بحرمة استعانة المسلمين بالمشركين في الجهاد.

(1/9682)

... الجانب الثاني يتمثل في اعتقادهم ببركة الصلحاء والأولياء والمناداة عليهم لمنع الشدة عنهم إذا حصلت

لهم حادثة في البحر. وكان اعتقادهم موجهاً بالخصوص للولي أبي العباس السبتي، حيث تقول الرسالة: »أن ما يفعله أهل المراكب من رمي الفلوس أو الزيت أو الكبش المذبوح في البحر لأبي العباس ونداءهم بيا أبا العباس ثلاث مرات«.

... وهنا كذلك يبرز صاحب الرسالة موقفه من هذه الظاهرة، وذلك بإبطاله لهذا العمل وتحريمه ووصفه بالشناعة. إلا أن أهم ما نلاحظه في ختام مناقشته لهذه المسألة هو عدم تحريمه لهذا الفعل. ومن

(9683/1)

خلال ذلك نستخلص جانباً من اتجاهه الفكري. فبالرغم من محاربته لهذه البدع، وخصوصاً التبرك بالأولياء والصالحين، فإن ذلك لا يدفعه إلى الاتفاق مع مذهب الوهابيين في تكفيرهم لكل من يعمل عملاً في هذا الشأن، حيث نجده يقول: »والمؤمن لا يكفر بالبدعة الخالصة من الشرك وقد ذكرنا جملة من إبطال أقوال الوهابيين المكفرين الناس بمثل هذا التسول في رسالتنا: "هتك الستر..." «(1).

---

(1) هذا تأليف كتبه في شأن عبيد تونس والعادات

والبدع التي يقترفونها سماه "هتك الستر عمّا عليه سودان تونس من الكفر".

(1/9684)

... ومن جانب آخر، وفي صدد حديثه عن الظواهر التي تفشت في صفوف البحارة، يذكر كذلك بعض العادات الشنيعة التي برزت عند الحمالين والحمارين بالمغرب. فهؤلاء كانوا، على شاكلة رؤساء المراكب، يتشاءمون بقراءة القرآن فوق راحلتهم، ويعتقدون أن ذلك يكون سبباً في هلاك هذه الرّاحلة. ولكن صاحب الرسالة يبطل هذا الزعم وهذا الاعتقاد، وذلك باستناده وذكره لأمور فعلها الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصحابته.

... وبعد انتهاء صاحب الرسالة السودانية من إبراز هذه البدع والعادات والظواهر، يحاول إثبات كفر هؤلاء البحارة ورؤساء

(1/9685)

المراكب، وذلك بالإتيان بأدلة من القرآن والسنة والإجماع. ولكن الملاحظة التي يمكن تسجيلها عليه هي

أننا في هذا الباب لا نجده يتعمق في مناقشته لهذه المسألة، بل يحاول استخلاصها بكيفية مقتضبة.

ونفهم من خلال ذلك أنه لم يكن عالماً متضلعاً من علوم الفقه حتى يتمكن من إحاطة هذه المسألة من جميع جوانبها. وأكد ذلك بنفسه في بعض فقرات الرسالة، فنجده يقول في مقدمتها: »والمقصود في هذا الكتاب الانتفاع بمعناها دون لفظها؛ ومن أراد الاعتراض فعليه بكتب فحول أهل العلم«.

(1/9686)

... ولإبراز هدفه من كتابة هذه الرسالة، وهو الجانب العملي المتمثل في فضح هذه البدع وتبليغ هذه المناكر للمسؤولين، نجده يذكر أن سبب تفشي هذه الظواهر والسلوكات غير الشرعية راجع لسكوت العلماء عن ذلك وعدم قيامهم بواجبهم في تغيير هذه المناكر وعدم تحمل مسؤولياتهم كما ينبغي. وهذا في رأيه ما جعل هؤلاء الناس، ويعني البحارة ورؤساء المراكب وغيرهم، يعتبرون أعمالهم لا تدخل في دائرة الحرام. وفي هذا الصدد، نجده يصف سكوت العلماء بكل أسف قائلاً: »تالله ما ذهب الدين إلا لسكوت دعاته وهم العلماء، جعل أهل الضلالة

(9687/1)

سكوتهم دليلاً يدل على جواز أفعالهم«. كما لا ينسى تسجيل التصرفات اللامسؤولة لبعض العلماء الذين لم يقتصروا على السكوت فقط، بل كذلك قاموا بدورهم بمحاربة كل من ينادي بتغيير هذه العادات وإنكار هذه البدع والوقوف في وجهه. ولذلك يختتم صاحبنا رسالته بكل امتعاض، مظهراً تأسفه على هذه الفترة التي يعيش فيها، حيث يرتكب هذه البدع الشنيعة دون أن تجد من يحاربها سواء من جانب العلماء أو من جانب الحكام. ويعلن سخطه قائلاً: »يا ليتني لم تلدني أمي في هذا الزمان«. ومن خلال هذا الموقف نستشف أن صاحب رسالة الدين المحمدي

(9688/1)

رجل يحب إصلاح هذه الأوضاع وغيور على الدين الإسلامي، بحيث يريد المحافظة على نقائه وصفائه من كل الشوائب.

... وفي خاتمة الرسالة السودانية، نجد التوجه المقصود من المؤلف إلى السلطان المغربي المولى سليمان. فهو

يوجه خطابه مباشرة إلى السلطان ويعتبر ذلك فرضاً
وواجباً على هذا الأخير في محاربة البحارة بشمال إفريقيا
ومنعهم من ارتكاب البدع الشنيعة. كما ينبغي عليه
منع أصحاب المراكب في المغرب من اقتراف هذه المناكر.
ويسترسل في دعوة السلطان إلى منع الحمالين
والحمارين في كل المدن المغربية من البدع التي ظهرت

(1/9689)

عندهم كذلك والتي سبق أن وضحها في قلب الرسالة.
كما يحث السلطان على الكتابة ومراسلة حكام تونس
والجزائر وطرابلس وتنبيههم لهذا الأمر ومطالبتهم
بمحاربته ومنعه.
... وتوجيه هذا الخطاب إلى السلطان أبي الربيع يراه
صاحب الرسالة من ثلاث زوايا:
... الأولى: كون السلطان راعياً يتحمل بذلك مسؤولية
محاربة المنكر والأمر بالمعروف في رعيته.
... الثانية: أن محاربته للبحارة وعاداتهم في مناطق
شمال إفريقيا إما بالسيف أو باللسان أو بالقلب يدخل
في باب التبليغ الواجب على كل عالم وسلطان. ويوضح
ذلك بخطابه المباشر للمولى

(9690/1)

سليمان: »لأنك سلطان وهؤلاء تحتك ولو كانوا تحت العثماني، لأن هذا تبليغ والتبليغ واجب على كل من قدر عليه «.

... الثالثة: إضافة إلى ذلك، كون السلطان ينتمي إلى سلالة الرسول، وبذلك يتحتم عليه أن يقتدي بجده.

... والملاحظة التي يمكن تسجيلها على أسلوب هذا الخطاب الموجه إلى السلطان هو أنه ليس أسلوب رجاء وطلب، بل هو أسلوب تعمد فيه المؤلف السوداني مخاطبة السلطان أبي الربيع بهذه الألفاظ التي يكررها عدة مرات: »ينبغي عليك.. «، »يجب عليك.. «، »واجب عليك.. «. ونفهم من ذلك أن المؤلف كان يضع نفسه في موقف عالم

(9691/1)

يتوجب عليه أن ينصح السلطان ويبلغ له هذا الأمر ويظهر له وجوبه وفرضه.

... غير أننا، من جانب آخر، نتساءل عن الأسباب التي دفعت المؤلف السوداني إلى توجيه هذه الرسالة/ الشكاية مباشرة إلى سلطان المغرب المولى سليمان؟

... كما سلف أن ذكرنا، وكما أكد المؤلف في بداية رسالته، فإنه بالرغم من مروره بعديد من الأقطار الإسلامية أثناء رحلته للحج، لم يجد من يوجه إليه هذه الشكاية سواء في صفوف الحكام أو العلماء. ولكنه عندما توجه إلى المغرب، ارتأى أن يبلغ هذا الأمر للسلطان المغربي المولى سليمان. ويمكن أن نرجع ذلك إلى

(1/9692)

أن المؤلف السوداني وجد تناسقاً وتوافقاً في اتجاهه الفكري الإصلاحي مع السلطان أبي الربيع الذي اشتهر في كل البقاع الإسلامية بحمله لواء عملية الإصلاح، وخصوصاً محاربة البدع التي تفشت عند المسلمين. وبما أن صاحب الرسالة كان رجلاً غيوراً يحاول المحافظة على نقاء الدين الإسلامي، وجد ضالته في السلطان المغربي فأبى إلا أن يوجه شكايته إلى هذا المصلح الكبير.

... ومن المعروف أن السلطان سليمان تأثر بالتربية الدينية التي تلقاها على يد ثلة من العلماء ؛كما تأثر بثقافتهم المبنية على المذهب المالكي. وطبقاً لذلك،

(1/9693)

أقدم على العديد من الإجراءات المرتبطة بمحاربة البدع. هذا من جانب. ومن جانب آخر، تزامن اتجاهه الإصلاحي مع ظروف خاصة تميزت بانتشار المذهب الوهابي في العديد من الأقطار الإسلامية. وبالرغم من التحفظات المتعددة التي كانت لدى السلطان سليمان من بعض مبادئ الحركة الوهابية، فإنه كان مع هذا المذهب في جوانبه الإيجابية من حيث محاربة البدع المرتبطة بتعظيم الأولياء وإقامة الموسم لهم والبناء على قبورهم، ممّا يخرج عن الشريعة. وذلك كله بغية الرجوع بالدين الإسلامي إلى نقائه الأصلي.

(1/9694)

... وفي هذا الاتجاه الإصلاحي يسير المؤلف السوداني كما نفهم ذلك من خلال رسالته. ونظراً لهذا التوافق، وجه شكايته إلى السلطان سليمان حيث يمدحه على بعض الإجراءات الخاصة بميدان الإصلاح وبالأخص تحريمه لشرب الدخان واستعماله. ولكنه يلح دائماً على السلطان بأن محاربة البدع والمحرمات التي يقترفها البحارة والحمالون أعظم درجة وأكثر ثواباً من ذلك

...

خلاصة واستنتاج

... في خلاصة هذا الموضوع، يمكن القول إن هذه الرسالة السودانية ساهمت في إعطائنا لمحة مهمة عن الأوضاع الاجتماعية في مناطق شمال إفريقيا في بداية

(9695/1)

القرن التاسع عشر، والمتمثلة في تفشي عادات وتقاليد في صفوف البحارة والحمالين بالمغرب كما حددت ذلك الرسالة. وهذا الأمر استدعى مناهضة واستنكاراً من طرف المصلحين الذين رأوا في هذه العادات بدعاً لا تمت إلى الدين بصلة. وفي إطار الأجواء الفكرية الإصلاحية السائدة آنذاك في شرق العالم الإسلامي وغربه، برزت حركات وتيارات تحارب هذه البدع، حمل لواءها المذهب الوهابي في المشرق والسلطان سليمان في المغرب. وانطلاقاً من ذلك، فإن الرسالة السودانية ـ موضوع دراستنا ـ والتي جاء مؤلفها من منطقة السودان الغربي جنوب

(9696/1)

الصحراء ووجهها إلى السلطان المغربي أبي الربيع، لدليل على التناسق والانسجام في المواقف الفكرية بين

المؤلف والسلطان، وبرهان كذلك على وجود التواصل الفكري الثقافي في هذه الفترة بين الضفة الجنوبية والضفة الشمالية للصحراء الكبرى.

)))

نص الرسالة السودانية

... بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد المصطفى الكريم.

... قال عبد ربّه الفقير الضليل الذليل الحقير كثير الجهل، الإنسان المتكلف بما ليس له، الراجي الغفران عند ربه الغفار، أحمد بن القاضي أبي بكر بن يوسف بن إبراهيم الفوتي أصلاً،

(9697/1)

الدوجقي مولداً، التنبكتاوي أفقاً، الجناوي قرارة، غفر الله له ولوالديه ولمن علمه ولمن أحبه في الله ولمن دعا له بالرحمة. آمين يا رب العالمين.

... الحمد لله الذي خصّ أهل البصائر بحفظ دينه عن التبديل والتغيير، ولم يزل كل واحد منهم محسوداً مبغوضاً مطروداً في كل عصر من الأعصار. ولذلك صاروا

اليوم معدودين كبيض الأنوق، وذهب بذلك الدين المحمدي في كل كنف من الأكناف، وانتشر بذلك جناح الكفر والإشراك في كل بلد من البلدان، وأخذ ركز البدعة يعتمر ويزيد في كل قرن من القرون والصلاة والسلام على من خُصَّ بالمقام

(9698/1)

المحمود في اليوم الموعود وعلى آله وأصحابه المجاهدين في قطع عرق الكفر والارتداد وعلى من تبعهم بغيرة دين الإسلام إلى يوم البعث والنشور. وبعد؛ فلما خرجت إلى الحج وانتهيت إلى البحر، ألزمت ركوب السفن لقصور يدي ورجلي مصاحبة القفول في البرّ، رأيت في تلك السفن مناكر ضاق بها صدري واحترق بها سلطان بدني ولم أجد طبيباً في كل قطر من الأقطار. ولم أزل كذلك حتى توجهت إلى محروسة فاس، ولا زال الله تعالى يفتح كل باب من أبواب رحمته ويؤلف بين قلوب أهله في كل دهر من دهوره ويسترها عن كل عيب في كل وقت من أوقاته ويجعل

(9699/1)

حجاباً مستوراً بينهما وبين كل كفار عنيد وظالم حسود. وكان أمير المؤمنين بها في الوقت السراج المنير، الكوكب الوضاء، القطب الربّاني، الوابل الدائم، البحر الزاخر، الشهاب الثاقب، البدر التام، شمس الضحى، ظل الله فوق أرضه، تاج العلماء، أفصح الفصحاء، روح سلاطين العرب وعمدة السلاطين العجم، الذي لولاه لكان أهل المغرب كبني إسرائيل من ظلم البربر، ولكانوا تحت الذمة من تحت بني الأصفر. الجوهر الفرد وحيد عصره وفريد دهره، نفال اليتامى والمساكين، حاتم الجود، الجامع ما افترق من الدرجات والمكارم، سليل من سلالة بني

(9700/1)

هاشم، معدن الكرم والفضل، الوارث الجود والعدل، العالم العلامة، البحر الفهامة، القائم بوظائف المسلمين، المشمر ساعده لنصر الدين المحمدي أبو العباس زين دين العابدين أمير الأمراء، ختام السلاطين، آخر علماء السنة الذي ستر الله عيوب المغرب بسترة سينه، وألطف عليهم بلطف لامه، وأفاض عليهم بركات يمن يائه، ومنّ عليهم بمنن ميمه، وألف بين قلوبهم بألف ألفه الثابتة بين الميم والنون، ونور أرضهم بنور نونه، السلطان

الأعظم بن السلطان سيدنا سليمان بن أبي المكارم،
الشريف المعظم محمد نصره الله نصراً يعزّ به دين

(9701/1)

الإسلام ويذل به رقاب أهل الفسق والأصنام. اللهم بك
إليك نسأل أن تجعل أجسام الكافرين والباغين
والمنافقين أغماداً لسيوف أجناده وأقذف في قلوب
الضالين روعة صلصلة سلسلة آبائه وأجداده وكن له يا
مجيب السائلين معيناً وظهيراً ونصيراً على أعدائه
الكافرين آمين يا ربّ العالمين. فأردت أن أبلغ ذلك
لسلطان السلاطين الإمام الأبر الأمير الأسعد سيدنا
سليمان زاده الله عزّاً وشرفاً وديناً، وعلمت أنه لا يتم
ذلك إلا بطول الكلام، وذلك لا يمكن لقصور درجتي عن
ذلك مع غلبة الجهل على القلب والعُجمة على اللسان.
فألفت في ذلك

(9702/1)

رسالة وسميتها: "شكاية الدين المحمدي إلى رعاية
الموكلين به". اللهم يا مجيب السائلين بك إليك أسأل

أن تحفظنا من الرياء والخطإ المبعد عن الصواب وأن تغفر لنا ولآبائنا إلى منتهى الإسلام وأشياخنا وأحبابنا وإخواننا ولمن قرأ هذه الرسالة أو نسخها ولو بأجرة أو نقلها من بلد إلى بلد وبلغها للحكام أو أصلح ما فيها من الفساد والخطإ واللحن، بالعلم والإعانة لا بالجهل والرياء. ولقد أذنت لكل ذي قدم رفيع من العلم أن يصلح ما فيها من الفساد لفرط جهلي عن شروط التأليف التي هي علم النحو واللغة والتفسير والحديث والإجماع

(1/9703)

إلى غير ذلك من الشروط والمقصود في هذا الكتاب الانتفاع بمعناها دون لفظها، ومن أراد الاعتراض فعليه بكتوب فحول أهل العلم. والمقصود في هذا الكتاب تبليغ المناكر إلى من وُكّل بتغييرها، وذلك يحصل بمعرفة معنى الألفاظ ولو مع الخطإ واللحن. ثم حصرت تلك الرسالة في بابين وتتمة، وبالله نستعين وبه نستخبر لا ربّ غيره.

... باب: في بيان ما أشرك به أهل المراكب من إثبات التأثير للكائنات والتشاؤم بالقرآن الذي تنزل البركة بقراءته واقتداؤهم بالنصارى عند غروب الشمس.

ومقصودنا الآن النصيحة، لكن لا ينتفع بالنصيحة إلا

(9704/1)

لمن أراد بهم الله الإيمان والذين أرادهم الله بهم الكفر لا يؤمنون ولا ينتفعون بالنصيحة. وذلك قوله تعالى: {إنّ الذين كفروا سواء عليهم آنذرتهم أم لم تنذرهم لا يومنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة. ولهم عذاب عظيم}. ولا يختلف أهل البصيرة على كفر هؤلاء الناس. وأما قولهم وأمثالهم من الجهال أن المؤمن لا يكفر. ويقول هؤلاء كيف نكفر ونقول لا إله إلا الله؛ فذلك باطل، لأن النصارى وكثيراً من الفرق يقول لا إله إلا الله، والمنافقون يقولون ذلك أما سمعت يا مسكين قول عزّ من قائل: {ومن الناس

(9705/1)

من يقول ءامنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمومنين * يخادعون الله والذين ءامنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً. ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون}. لا جرم أن هؤلاء قد قالوا آمنا بالله وباليوم الآخر بمجرد قولهم لا إله إلا الله وخدعوا بذلك ربهم والمؤمنين حيث كذبوا قول ربنا: {أفغير

الله تتقون وما بكم من نعمة فمن الله }. ربّا هو الريح الذي يجيء من وراء السفينة وسرعة الوصول نعمة من فعل الله. وهؤلاء جعلوا ذلك من ترك قراءة القرآن والأذان وترك الجماع الحلال والبول والغائط

(9706/1)

عند غروب الشمس. وقد جهل الزعانف أن النعمة من عند الله وطاعته وتصديق كتابه وذلك قوله عزّ من قائل: {ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون }. والريح مقهور مغلوب مهلوك بالقدرة الأزلية ولا يتحرك إلا بإذنه. لكن هؤلاء عكسوا الأمر وجعلوا الريح يتصرف بنفسه ولا بجعل القرآن. وبذلك الاعتقاد كرهوا قراءة القرآن وهجروا ما جاء به من التوحيد والصلاة والاستعانة وبدّلوا دين الله تبديلا وكفروا بذلك لأنهم لا يعملون بما في القرآن وإنما عملوا بما جاءهم

(9707/1)

من عند شيخهم اللعين إبليس وبهذا قال علام الغيوب: {يا أهل الكتاب لستم على شيء...}. وهؤلاء ضيعوا قرآنهم كما ضيع اليهود والنصارى توراتهم وإنجيلهم. حيث بدّلوا أحكام القرآن وتشاءموا به وتطيّروا به وكيف لا يكفرون بتطيّرهم بالقرآن وقد ذمّ الله قوماً تطيّروا بمخلوق، فضلاً عن كلامه القديم كما قال خالقنا في حقهم: {فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه. وإن تصبهم سيئة يطيّروا بموسى ومن معه. ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون}. وهؤلاء إن جاءهم الريح ليّا، قالوا هذا من تركهم قراءة القرآن والأذان

(1/9708)

ونحوهما. وإن جاءهم الريح من مهر، قالوا هذا من قراءة القرآن وما أشبهها مما أمر الله به عباده. وهؤلاء هاجروا القرآن وحاربوا من قرأه وتركوا الصلاة والأذان وأنزلوا المصلي منزلة اليهودي والنصراني. صدق الله وصدق رسوله الكريم وصدق أصحابه الكرام. وقال عزّ من قائل في حق أمثال هؤلاء: {وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفوراً}. وقد أورد مثل هذا الكلام جلال الدين السيوطي رحمه الله في بعض تآليفه ما نصّه:

»وقالت جماعة من الصحابة سيكون من بعدنا زمان يظل القرآن وتفسيره مهجوراً ممنوعاً. وبعضهم

(9709/1)

يقولون لا يجوز تفسير القرآن أصلاً ولا يكون لهم نص إلا بزعمهم. وبعضهم يقولون إن تفسيره سبب المحن والفتن. لعن الله من قال هذا القول ومن اعتقد هذا فهو كافر مرتد عن دين الإسلام يستتاب ولا يؤخر له طرفة عين فهو علامة المشركين والكافرين«. ثم قال بعد كلامي هذا عادة الكافرين في الزمان الأول وكل من كان عروق الكفر في آبائه لا يحب القرآن. وهؤلاء كذلك جعلوا قراءة القرآن والصلاة والأذان التي هي عمدة الإسلام سبباً لعدم مجيئه ليّا وسبباً لهلاك المركب. والله ما علمت فرقاً بين هؤلاء وبين الذين ذكرهم السيوطي، بل

(9710/1)

هؤلاء أشد؛ لأنهم منعوا القرآن جملة قراءته وتفسيره. لا جرم أن من فرق بينهم أن يفرق بين الماء واللبن، وبين الرومي والنصراني، وبين الكافر والمجوسي. والعجب مما

قال هؤلاء الزعانف. وقالوا إن البحر ملك وسلطان والمركب بيت الله ولا يجامع فيها أحد أهله. ومع ذلك، لا يؤذنون فيها ولا يصلون ولا يذكرون، بل أذانهم فيها شرب الخمر وصلاتهم اللواط وذكرهم سبّ دين الإسلام. وقالوا إن المركب والبحر والريح لا يحب القرآن والأذان والصلاة وتمنع المركب من السير ويفور البحر ويمتنع الريح أن يعبئ من وراء المركب لفعل ذلك

(9711/1)

الأمور. وهذا تناقض ظاهر، حيث قالوا مرّة: المركب بيت الله. والعجب من بيت لا يحب كلام ربّه والملك الذي يغضب إذا قرأ القرآن. بل إنما المركب ألواح ومسامر وأحبال والبحر ماء وتحته تراب والريح مخلوق ضعيف كأمثالنا، رسول من عند ربّنا ليس له مشيئة كما قال رب العزّة: {وهو الذي يرسل الرياح نشراً بين يدي رحمته}. الحاصل لا يتحرك شيء من هؤلاء المذكور إلا بإذن الذي لا تتحرك ذرة ولا عرش ولا كرسي ولا سماوات ولا أرض ولا ما فيهما ولا ما بينهما إلا بإذنه وإرادته وقدرته. يا ويل هؤلاء حيث جمعوا في دينهم أمرين هما

(9712/1)

الشرك والكذب اللذان هما أعظم مصيبة في الدنيا والآخرة. صدق الله ورسوله وصدق العلماء العاملون حيث قالوا: العلم نور، وقد جعل الله ذلك النور الآن في قلبي حتى علمت مقصود هؤلاء بقولهم إن المركب بيت الله والبحر ملك وسلطان، هذا كلامهم على وجه التدليس، وليس ذلك مقصودهم بل مقصودهم أن المركب صنم والبحر والريح إلهان قادران أن يتصرفا كل منهما بنفسه. وبيان أن ذلك مقصودهم قولهم إن المركب هلك بقراءة القرآن، وذلك ظاهر لأن القرآن هو أعظم المعجزات والصنم لا يثبت مع أعظم المعجزات الذي هو القرآن المنزل على خير

(9713/1)

المرسلين. وقد شوهد من معجزاته – صلى الله عليه وسلم – سقوط الأوثان من بيت الله الحرام، لأن القرآن حق والصنم باطل. وقال تعالى: {وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا}. والبحر والريح صارا معبودين عندهم وكل معبود لابد له من رسول يعلم عباده عبادة. ورسول هؤلاء، اللعين إبليس. فمعلوم ضرورة أن

السلاطين لا يحب بعضهم بعضا، لا جرم أن يكون رسلهم كذلك وأن يكره كل رسول ما خالف أمر مرسله ونهيه. فواجب إذاً أن يكره أليس ما جاء به رسول رب العالمين وهو القرآن والصلاة والأذان ونحوهما، ويحب ترك القرآن الذي

(9714/1)

يصرح بلعنه وتوبيخ مرسله الذي هو الأصنام اللاتي عبدن من دون الله، ويحب ترك القرآن والصلاة والأذان ونحوها، ويحب الزنا وشرب الخمر واللواط وكل ما خالف ما جاء في القرآن مما خالف أمر رسوله ونهيه. وإن أردت تصديق ما قلت، فانظر ما يفعلون عند غروب الشمس من الدعوات التي لم يرد به كتاب ولا سنة، ومنعهم الناس البول والغائط عند ذلك تجد ذلك كله عبادة لإبليس اللعين كما يعبده النصارى عند غروب الشمس حين يضع قرنه في الشمس. ولذلك منع سيد الكونين الصلاة عند ذلك صوناً لتوحيد ربّه. وهؤلاء ما منعوا البول والغائط عند

(9715/1)

ذلك إلا لإكرام اللعين المرجوم إبليس، لأنه لو كان دعاؤهم بل استهزاؤهم لربنا المعبود بالحق لما منعوا عند ذلك من أراد البول أو الغائط أن يبول أو يغوط لأنه ما ورد في كتاب ولا سنة ولا إجماع منع بول ولا غائط عند صلاة ولا أذان بل ولا عند قراءة القرآن ولا يوم عرفة بل ولا وقت الوقوف. آه، آه، آه، قد بدأ الدين كما بدأ. صدق الله وصدق رسوله الكريم، حيث قال: »بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً«. وكان الفعل في هذا الحديث عند قوله: سيعود، مضارعاً في زمانه – صلى الله عليه وسلم – وبعده في زمن خلفائه. وأما يومنا

(9716/1)

هذا، فالفعل صار ماضياً باتفاق غرباء الدين الذين يعرفون الإسلام وحقيقته. وأما غيرهم، فالفعل عندهم دائماً ماضياً، لأن الإسلام المجاز أهله كثير إلى يوم القيامة، وما يعلم جنود ربّك إلا هو. وإنما الذليل الغرباء المذكورين في الحديث المتمسكين بالعروة الوثقى جعلنا الله وإياكم منهم بوجه الكريم وصفت ذاته وأسمائها يا أرحم الراحمين يا رب العالمين آمين.

وكثيرهم قد ذهبوا زماناً طويلاً. وقد صدق الشاعر حيث قال ما معناه:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم

ذهب الذين إذ قالوا صدقوا

ذهب الذين هم الغياث المسبل

(9717/1)

بقي الذين حياتهم لا تنفع

بقي الذين إذا يقولوا كذبوا

بقي الذين هم العذاب المنزل

...

... وإذا كان هذا هو شأن المراكب، فحرام على أمير أن يرسلهم لمجاهدة النصارى لحرمة استعانة المسلمين بالمشركين في الجهاد على مذهب إمام الأئمة مالك رحمه الله تعالى، لأنهم هم وعلى من يجاهدون هؤلاء في المشركين إن كان جهادهم لأجل المال والأجرة التي يأخذونها عند الأمير لذلك ليس بجهاد اتفاقاً وإن كان لأجل الإعلاء لكلمة الإسلام والأمر بالصلاة والزكاة والصوم والحج وترك الزنا واللواط وشرب الخمر فذلك مشكل لسعيهم إلى هدم كلمة

(9718/1)

الإسلام وليس لهم عمل إلا ترك الصلاة والزكاة والصوم والحج وفعل اللواط والزنا وشرب الخمر وسبّ الدين المحمدي والتشاؤم بالقرآن وكراهة أهله. وليس عند النصارى أعظم من هذا. وإن قاتلوا النصارى على هذا، فقد دخلوا في قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون }. ويدخل في سلك هؤلاء العبيد المعتوقون في كل بلد من بلاد العرب والعجم كمحروسة فاس وما حولها والجزائر وما حولها وتونس وما حولها وطرابلس كما بلغنا وقسطنطينية كما بلغنا. وأشد منهم كفراً وفساداً

(9719/1)

فيما علمت عبيد تونس، ولكن كلهم كفار إلا ما قل منهم. ومن أراد أن يعرف الوجه الذي كفروا به، فعليه برسالتنا المسماة: "هتك الستر عمّا عليه سودان تونس من الكفر". لكن هؤلاء العبيد مذاهب، وتختلف أعمالهم وأسماء عبادتهم وأسماء آلهتهم باختلاف البلدان واللغة ومعبودهم واحد هو الشيطان. كمذاهب أهل السنة وصفة

عبادتهم قد تختلف باختلاف روايتهم شيخهم اللعين كما أن صفة عبادة مذاهب أهل السنة يختلف باختلاف الروايات، ومنهم من يقرأ البسملة، ومنهم من يضع يمناه على يسراه، ومنهم من يقنت بعد الركوع في الصلاة، ومنهم من

(9720/1)

خالف ذلك، وقد يختلف في بعض أسماء بعض الأمور وكذلك هؤلاء العبيد. ومنهم يسمي شياطينهم: »هُدَكُنْ، إسَكُنْ وَبَلَمُسْ، كُرجين كمشرط بلاء ثكيت«. ومرادهم: بـ»هُدَكُنْ«: شياطين البر، و»إسَكُنْ«: شياطين البحر، و»بَلَمُسْ«: أيضاً من شياطين البر كما بلغني عنهم. والذي في علمي أنه من كبراء آلهتهم ومرادهم بـ»كُرْجين«: الآلة التي يضربونها ويعظمونها كتعظيم المؤمنين المصحف أو أشد ويسمون عبادتهم للشياطين »دِرْدِبْ«. وهؤلاء العبيد يذبحون للشياطين في كل سنة البقرة والدجاجة ولا يُقضى لأحد حاجة إلا لمن هبتهم كما

(9721/1)

في زعمهم ولا يقع خير ولا شر إلا منهم ولا يسألون حاجة إلا من جهلهم. كما كان كثير من نساء المؤمنين يمشين إلى العبيد ليطلبوا لهن حوائجهن عند الشياطين. وعبيد تونس يسمون شياطينهم: »بور«، ويسمون عبادتهم »سَعْبَاني« وتفصيل أسماء آلهتهم وصفة عبادتهم قد بيّناه في رسالتنا: "هتك الستر ...". فالحاصل أن عبيد كل بلد من هذه البلدان يعبدون الشياطين. وذلك كفر صريح كما بيناه في تلك الرسالة. ويدخل في سلكهم أيضاً بعض الحمارين الذي يتشاءمون بالقرآن ويمنعون قراءة القرآن فوق الجمل أو البغلة ونحوهما ويقولون إن الدابّة

(1/9722)

تهلك بذلك كزعم أهل المراكب. ولو كان الأمر كما زعموا، لما عاش لصحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – دابة. وكيف يكون الأمر كما زعموا وقد ثبت أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قرأ وهو راكب الناقة والجمل؟! والحاصل أن كل من تشاءم بالقرآن فهو كافر لما تقدم.

... فائدة: فاعلم أيضاً أن ما يفعلونه أهل المراكب من رمي الفلوس أو الزيت أو الكبش المذبوح في البحر لأبي

العباس السبتي وندائهم »بيا أبا العباس ثلاث مرات، وقّف هيجان الريح«. وإن سلم من الكفر، فلا يسلم من الحرمة؛ لأنه من باب إتلاف المال. وزعمهم أن

(1/9723)

ذلك يصل إلى خدام أبي العباس. فهو ممكن في قدرة الباري أن يجعل مثل هذه الكرامة لمثل هذا القطب الرباني. إلا أنه افتراء ظاهر وبهتان عظيم وفرع لا أصل له. ولا يبعد إن سمع الجاهل هذا القول أن يقول لقائل هذا القول منكر، لكرامات الأولياء ولا يعرف المسكين بأن إنكار ما يخالف الشرع ليس بإنكار كراماتهم ولا إهانتهم، بل المنكر البدائع والكفر والشرك هو الذي أثبت كراماتهم وأكرمهم الله وأحيا شبههم واتبع آثارهم. ولو كان أبو العباس السبتي وأمثاله أحياء، لسعى في منع هذا ولقائل من فعل ذلك وكيف يرضى أبو العباس ضياع

(1/9724)

المال الذي حرمه الله ورسوله وأئمة المذاهب؟ وكيف يرضى أبو العباس بأن ينادى عند الشدة بأن يا أبا العباس سلّمنا من هذه الشدة وأعطنا ريح كذا؟ هيهات هيهات ما بين هذا الفعل ورضا أبا العباس. أيرضى أبو العباس أن يكون صمداً فرداً معبوداً من دون الله؟ ولا يمكن لأحد أن يقول هذا ليس بعبادة، لأن مشركي العرب وكفار أهل الكتاب ما عبدوا آلهتهم بأعظم من هذا. وأما ما يقوله الصوفية عند مشاهدتهم جل جلاله كقول سيدنا أحمد زرّوق وأمثاله رحمهم الله:

إذا كنت في كرب وهم وشدّة

وناديت يا زرّوق آت بسرعة

(9725/1)

... فليس فيه دليل يدل على جواز نداء الأولياء بيا فلان اقض حاجتي أو أسلمني من الشدة، لأنهم حينئذ في وقت الفناء وذلك الوقت لا يرون أنفسهم ولا غيرهم من الملك والملكوت حيواناً كان أو عباداً موجوداً سوى الله تبارك وتعالى ولا يعدّون ما خرج من أفواههم بذلك الوقت أقوالهم بل إنما يعدون كلام الله كأنما قال الله تبارك

وتعالى لعبده: إذا كنت في كرب وناديتني أجيبك بسرعة. كما قال عزّ من قائل: {وهو الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه}. وليس لهم حينئذ فضل حتى يقصدوا بذلك أنفسهم، وكيف يمكنوا أن يزكوا أنفسهم إذ ذاك

(9726/1)

وهم مشتغلون بأمر ممن فيه موسى وعرف فيه سيد الكونين – صلى الله عليه وسلم – وعلى جميع الأنبياء مع حرمة تزكية النفس كما قال الله سبحانه: {ولا تزكوا أنفسكم}. هذا المعنى جهل كثير من الطلبة وجميع العوام وهلكوا من حيث لا يشعرون. وكنت يوماً في السفينة بين محروسة تونس ومحروسة الجزائر ومعي أناس من هذه الفرقة وجرى الكلام بيني وبينهم وقالوا إن أبا العباس هو الذي ينجي المراكب في البحر وقلت لهم اتقوا الله! ولا ينجي في البحر ولا في البر أحد إلا الله الواحد القهار الذي أحيا أبا العباس وأماته. وقام رجل منهم

(9727/1)

وقال: والله وقع كذا وكذا من الشدة في البحر حتى كاد المركب أن تنقلب على أهلها وفعلوا أهل المركب كذا وكذا لأبي العباس، ولولاه لهلك المركب. انظر هذا الجواب يا أخا العقل السليم، هل هو كفر أم لا، حيث بقينا الحول والقوة لغير الله ثم أثبته هذا القائل لغير الله ولا محيد له أبداً في كفر من قال مثل هذا الأمر ذهب بنور العلم والإيمان عن قلبه، لأنه لا ينادي أحد يا فلان نجّني من كذا وكذا إلا إذا كان المطلوب شيء من مال وهو في يده وكيف ينادي أحد بمثل هذا بعد أن قال الله تبارك وتعالى: {إن الذين تدعون من دون

(1/9728)

الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين}. وأما قول القائل: اللهم أعطني كذا وكذا بحرمة نبي أو ملك أو ولي لست أكفر أحداً بذلك وغاية ذلك أن يكون بدعة، والمومن لا يكفر بالبدعة الخالصة من الشرك وقد ذكرنا جملة من إبطال أقوال الوهابين المكفرين الناس بمثل هذا التوسل في رسالتنا: "هتك الستر...". والله أسأل أن يوجهنا بما فيه صلاح ديننا ودنيانا وأن يحفظ إيماننا من التبديل والتغيير

الواقعين في زماننا وأن يرزقنا وسلاطيننا القيام بحقوق ربّنا يا مجيب السائلين، آمين.

(9729/1)

... باب في إثبات كفرهم: اعلم وفقنا الله وإياك لأحسن الأعمال، ولا يخفى على أحد بمن في قلبه رائحة معرفة العقائد الشرعية أن كل ما ذكرت من أول الباب الأول إلى آخره كفر صريح لا يحتاج إلى إقامة الدليل. وإن احتاج، فقد كفى ما في الباب من الآيات البينات وقول الصحابة وفحول أهل العلم؛ ومن نفى كفر هؤلاء، فقد خالف كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وإجماع أهل السنة. وأما الكتاب، فكل ما شرح من الآيات لا نأخذ ذكر أمر كل مسألة؟ آية في الكتاب تدل على صحتها. وأما السنة، فقد ورد في "الصحيحين" عن زيد بن

(9730/1)

خالد ما معناه أنه قال: صلى بنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – صلاة الفجر بالحديبية في أثر بينما هدأ الليل فقال: أتدرون ما قال ربكم الليلة، قلنا الله

ورسوله أعلم. قال: قال إنه أصبح من عبادي مؤمن بي كافر بالكواكب ومؤمن بالكواكب كافر بي. فمن قال مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بالله كافر بالكواكب؛ ومن قال مطرنا بقوة كذا وكذا، فذلك كافر بالله مؤمن بالكواكب. وأما الإجماع، فقد اتفق السلف والخلف أن كل من أثبت الحول والقوة والنفع والضر حقيقة لغير الله فهو كافر بالله ورسوله وإن نشأ ذلك من مؤمن فهو

(1/9731)

مرتد يجب استتابته، فإن تاب فنعم وحسن، وإن أبى قتل كفراً لا حدّاً. وإن قال قائل: فإن كان الأمر كما قلت، فما وجه قول النبي – صلى الله عليه وسلم – ما معناه: إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عيب عند نفيه قلت الفرق بين النخل والنحل ظاهر، لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – يمكن أن يكون قوله في ذلك وحي من الله بأنه يكون الأمر كذلك في غالب الأحوال من فضل الله وقدرته وإنعامه لا لكونه نشأت من قدرة وإرادة وقوة تلك الجهة. وهؤلاء ليس ذلك حالهم بل إنهم جعلوا هذه الأمور هي التي تتصرف لأنفسهن ويقع الضر والنفع من

(9732/1)

إرادتهن وقدرتهن وقوتهن. وكيف لا يكفر هؤلاء وقد كفر اليهود والنصارى بتنكرهم للتوراة والإنجيل ولا يخفى على كل ذي عمل أن التشاؤم والتطير أشد من التبديل، أعوذ بالله من ذهاب الدين وأهله. تالله ما ذهب الدين إلا لسكوت دعاته وهم العلماء، جعل أهل الضلال سكوتهم دليلاً يدل على جواز أفعالهم لأنه إن نهيت أحداً منهم عن منكر يقول قد رآني فلان أفعل هذا، ما ذمني ولا نهاني وهو أعلم منك وأفقه منك ولا يعرف المسكين أن كثرة الروايات والفروع ليس بعلم إنما المعمول به. وذلك فضل الله يوتيه من يشاء. وبهذا يعرف أن علماء

(9733/1)

زماننا علماء الدنيا؛ لأنهم لو كانوا علماء الآخرة، لما سكتوا عن ما فيه ضرر ولا تعب في كلامه. يا ليتهم اقتصروا على السكوت فقط، هيهات هيهات، بل سكتوا وحاربوا وأنكروا على من قام بالإنكار أهل البدع. يا ليتني لم تلدني أمي في هذا الزمان الذي ليس فيه

سلطان عادل ولا عالم عامل بعلمه ولا غني منفق ولا فقير صابر إلا ما قلّ جداً كالكبريت الأحمر، لو وافق زماننا هذا الحجاج بن يوسف لنُزِّل منزلة عمر بن عبد العزيز؛ ولو عاش منافق زمن الأول إلى يومنا هذا، لزاره الناس ولنزّلوه منزلة الفخر؛ ولو بعث جاهلهم من القبر،

(9734/1)

لأحيا ما مات من علوم السنة المحمدية. وأفضل الكلام ما أفاد وقلّ. والله أسأل أن يجعلنا ممن علم وعمل وأخلص ووافق السنة المحمدية آمين آمين.

... تتمة: فاعلم يا أيها القائم بمصالح العباد المقلد بحقوقهم أن الله تبارك وتعالى يسأل كل إنسان بما كلفه ويسأل السلطان عن رعيته كيف أمرهم هل بالمعروف أو بالمنكر، هل نهاهم عن المعصية أو لا.

ويسأل العلماء هل بلغوا المناكر إلى أرباب الحكم أم لا، هل علموا به أم لا إلى غير ذلك فإذا عرفت هذا، علمت أنه يجب عليك وجوباً، فرضاً، حتماً أن تأمر أهل مراكبك أن يتوبوا من هذا

(9735/1)

العمل إن كان عندهم وأن تأمرهم بالأذان والصلاة عند كل وقت وأن يقرأوا ما تيسر من القرآن في مراكبهم وأن لا يتعرض أحد منهم لمن سافر مع أهله معهم من منعهم من الجماع ونحوه وأن لا يمنعوا أحداً البول والغائط عند غروب الشمس وعند طلوعها وأن لا يتشاءموا بالقرآن العظيم والأذان والصلاة وأن لا يقتدوا بالمنافقين في سبّ الدين والآباء. وإن لم يكن شيء من هذه الأمور عندهم، فواجب عليك أن توجههم أن لا يقتدوا بكل شيء من هذه الأمور لئلا يوافقوا اليهود والنصارى في دينهم وأن ترسل إلى باشا الجزائر وتونس وطرابلس كتاباً

(9736/1)

من هذا الشأن وتنبههم وتحذرهم عن ذلك بأن تأمرهم أن يأمروا أهل مراكبهم بالتوبة وترك كل ما ذكرت من أفعالهم وأن يأمرهم أن يفعلوا كل ما ذكرت الآن، لأنك سلطان وهؤلاء تحتك ولو كانوا تحت العثماني، لأن هذا تبليغ والتبليغ واجب على كل من قدر عليه. وأيضاً ليس فوق الأرض أحد يليق بالتبليغ مثلك، لأن ذلك صفة جدّك وحرمته – صلى الله عليه وسلم – ويجب على الحفيد أن يقتدي بجده ويقف عن أثره ويمشي على آثار قدمه

خطوة خطوة لكي يلحقه في الطريق ويسافر معه إلى دار البقاء من غير حساب. جعلنا الله وإياكم ممّن سافر مع جدك إلى

(9737/1)

الجنة إلى دار السلام يا رب العالمين، وإنما أمرتك أن ترسل إليهم هذا الكلام لظني الإفادة لأنهم راضين بك ولا قدرة لهم إلى مخالفتك أمرك ونهيك ومن أشنع عن ذلك، فواجب عليك محاربته بقدر طاقتك إما بالسيف لمن قرب دارك منهم أو باللسان والقلب إن بعد. ويجب عليك أن تأمر الحمارين والحمالين أن لا يمنعوا أحداً ممن اكترى عندهم قراءة كتاب الله فوق دابته وأن تقول لهم إن قراءة القرآن فوق الدابة سنة وإنها يورث بركة للدابة. فواجب أيضاً وجوب فرض أن تمنع من محروسة فاس ومراكش ومكناس وتطوان والرباط وسلا والعرائش وتفلت

(9738/1)

ودرعة وجميع مملكتك من »دِرْدِبْ«، لأنه كفر كما تقدم وعن ذبح الثور الذي يذبحونه كل عام، لأن ذلك ذات عبادتهم للشيطان، شركهم اعتقادهم على ذلك وأن تأمرهم بالتوبة فإن فعلوا فنعم وإلا فاقتلهم كفراً لا حدّاً، لأن ما يفعلونه من »دِرْدِبْ« ونحوه فعل أجدادهم وآباءهم. وذلك الفعل هو الأصل الذي أجاز لنا ملكهم وأن تجعل لهم حاكماً ليعظهم عن ذلك الفعل، لأنهم لا يتركون هذا الفعل إلا بمعاينة صلاة الفرض عندنا. وإن قالوا لك إنه ليس بكفر عندنا وإنه ليس لهم اعتقاد في ذلك غير اللعب، فاعلم أن الله الذي لا يخفى عليه

(1/9739)

خافية سيشهد أنهم كاذبون ودليل كذبهم يبين عند أمرك بتركهم ذلك وإن تركوه جملة بلا تأخير ولا عجز ولا عملوها سراً ولا علانية، فذلك دليل على صدقهم وما أبعد من ذلك ولا يتركونه حتى يترك المؤمن المسلم الموقن الصلاة الفرض؛ وإن أكثروا الجدال وطلبوا التسريح في ذلك وعملوا بالسر بعد العجز عن العلانية، فذلك دليل قاطع على كذبهم؛ لأنه لو كان لعباً مجرداً، لامتثلوا الأمر بلا خيار لكونه ليس لهم فيه فائدة سوى ضياعة المال والتكليف فوق الطاقة. ويجب عليك أن

تمنع أهل فاس وأعمالها أن تنادي الخدم في ديارهم ليعملوا لهم

(9740/1)

»دِرْدِبْ«، لأن المسلم إن فعل ذلك يخاف عليه من الكفر، لأنه يُعد راض بذلك، وقد تحرم حكم الرضى بالكفر. فواجب عليك أيضاً أن ترسل إلى باشا الجزائر وطرابلس ونحوهما أن يمنعوا عبيدهم في ذلك وأما تونس، فقد كفاك عن عبيده حمودة باشا أعوذ بالله وإياه بقوة براءة الإيمان. لكن إرسالك إليه زيادة توكيداً وتشديداً لهذا الشأن أحسن وألين وأفضى، لأنه ما قام أحد معهم من تونس إلى تغيير هذا المنكر غيره ونحوه شيخ الإسلام محمد بيرم الحنفي جزاك الله وإياه خيراً، بل كثير منهم مع العبيد في ذلك المنكر حتى بعض من ينتسبون

(9741/1)

للعلم بل أدهى من الكهانة. وإذا رأى أن ترسل إليه كتاباً في ذلك وتمدحه على ما فعل من الخير لكي يجتهد

إلى إبطال ذلك ويحصل لك في ذلك أجراً عظيماً، لأنك حامل إلى الخير. والدال إلى الخير كفاعله. ودليل ذلك مبسوط في كتب السنة. وإياك أن تسمع قول من يقول لك مالك حاجة إلى هؤلاء ومالك حاجة إلى العبيد. فاسمع قولي ،لأني حبيب طبيب سترى محبتي ودوائي يوم الجمع ويوم الفزع الأكبر. لكن إذا أردت أن تسمع قوله، فاسأله هل يسألك الله تبارك وتعالى عنهم يوم القيامة أم لا. إن قال لك لا تسأل عنهم يوم القيامة، فليأت لك

(1/9742)

بدليل قاطع في ذلك بالله. وأيم الله وها الله ما يأتيه لك بمثل بيت العنكبوت من الدليل وإن أتى به فما للمسكين من قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا}. وقول خير خلق الله: »كلكم راعٍ وكل راعٍ مسؤول عن رعيته«. واجتماع السلف والخلف متفقين على وجوب حفظ السلطان رعيته من المناكر التي دون الكفر، فما بالك بالكفر. وإن قال لك تُسأل عنهم، فقد بان لك أنه شيطان يأمرك بالمنكر وينهاك عن الخير. فاجتنبه لكي لا يوقعك في أعظم الحفرات. وقال عزّ من قال: {يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان

(9743/1)

ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر}. وإن أمرتهم كما قلت فإن انتهوا فنعم وحسن، وإن أبوا فالله محاسبهم وسائلهم عن ذلك يوم الجزاء ومجزيك أحسن الجزاء لأنك بلغت وما عليك إلا البلاغ كما قال تعالى: {وقُل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءاسلمتهم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد}. فواجب عليك هو هجرانهم وبغضهم وقطع المحبة بينك وبينهم. وقال عزّ من قائل: {لا يتّخذ المومنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة

(9744/1)

ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير}. وأقرب إلى ذلك من الأدلة قوله تعالى: {كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز}. لأن من لم يمنع الكفر والشرك عن رعيته، فقد حادّ الله ورسوله؛ لأن ذلك لا ينشأ إلا عن الرضى، والرضى بالكفر كفر. ولذلك جعلت قوله تعالى: {لا

يتخذ المؤمنون الكافرين }... الآية، دليلاً. فاعلم يا أيها الأمير الأسعد أني سمعت ما حكمت على الدخان من التحريم ومن استعماله. تالله ما عملت إلا خيراً سيجزيك الله جزاء الشاكرين حيث حرمت حرام الله وسيصل إليك دعاء المؤمنين. لكن لابدّ لك من الاجتهاد

(9745/1)

وتفقّد أمر الناس عن ذلك، لأن توبة شارب الدخان كتوبة الذئب من الخروف. فاعلم يا سيدي أن منعك »دِرْدِبْ« ونحوه أكثر من الدخان، لأن الدخان معصية سلم شاربه من التحليل حيث ما قطعنا النظر عن القول بحليته، و»دِرْدِبْ« كفر وشرك وهذا كلامي وهذه قدرتي. فلما عرفت من العبيد الكفر، ناديت بلساني من ذا الذي ينصرني كما قال تعالى في حكاية عيسى بن مريم: {فلمّا أحسّ عيسى منهمُ الكفر قال مَن أَنْصَاري إلى الله. قال الحَوارِيُّون نحن أَنْصَارُ الله }. وأظن أن يكون أمير المؤمنين من الذين نصروا الله وجدّه. والله أسأل

(9746/1)

أن لا يخيب ظني، وأن لا يبطل عملي بالرياء والعجب، وأن يكفني من شر جاهل القلب والله هو المجيب لمن دعاه والناصر لمن نصره والرحيم لمن لا رحم له. وما رأيت أحداً أشد كفراً وظلماً من أهل المراكب مثل مركب كلب العقول فرعون هذه الأمة، رئيس كليب الطرابلسي يا أيها الأمير الميمون، وما رأيت الناس يكتبون على ما يهدون إليك من السلطان نصره الله ينبغي أن تمنعهم من ذلك لأنه إهانة لاسم الله الأعظم، لأنهم يطأون ذلك الاسم بنعال غير طاهرة وهي مثوى ذلك وربّما يبولون عليها. فاعلم يا سيدي أنه واجب عليك أن تمنع ذلك ألا

(9747/1)

ترى أن النبي سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام لما خاف أن تعتل بلقيس رضي الله عنهما على اسم الله الأعظم قدم اسمه على اسم الله، وقال تعالى في حكاية ما فعل: {إنه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم}. وكذلك ينبغي لك أن تأمرهم أن يكتبوا شيئاً آخر عليها. والله هو الموفق للصواب. نعم المولى ونعم النصير ونعم المعطي.

... فقد كمل تأليف هذه الرسالة بعد صلاة العصر يوم الأحد خامس عشر من شهر الله الأحب رجب العزّة عام

أربعة وعشرين ومائتين وألف. أثرنا الله خيرها، وكان ابتداؤها في السفينة قرب جبل طارق

(1/9748)

قاصدين محروسة فاس وأكبر علمائها في ذلك الوقت البحر الزاخر العالم الأعلم القطب الرباني سليل من سلالة عبد الله بن عبد الله المطلب أكرم الناس أصلاً وجاهاً الإمام أبو الربيع السلطان بن السلطان سيدنا سليمان بن محمد أدام الله صولته ما دامت الأرض تحت السماء آمين. والجوهر الفرد عديم المثل رئيس المجتهدين والمفسرين ذو التآليف العديدة شيخ الجماعة، عمدة علماء مذهب مالك إمامنا عبد الله محمد الطيب بن كيران أسقاه الله شآبيب الغفران. وشيخنا وأستاذنا تاج الشرفاء ركن العلماء أكرم الناس نسباً، سيبويه زمانه إمامنا

(1/9749)

إدريس العمراني. وسيدنا الفاضل العالم العلامة، إمام أهل الأصول الفقيه النبيه أبا عبد الله محمد الزروالي. وقاضي القضاة الأكرم الأمجد الأعز الأمثل سليل من سلالة

الكرام سيدنا أحمد الشيخ التاودي نفعنا الله به، وإمام الفقهاء المحقق المرفق سيدنا عبد السلام اليازمي وأمثالهم من علماء أعمالها كالبدر المنير المعتمد الأدفر فريد دهره ووحيد عصره الإمام أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الزرعي. وهذا كله مع ضيق الحال من إذاية المنافقين واشتغال القلب بهموم الدنيا التي لا يشبع طالبها ولا يملأ بطنه إلا التراب كما

(9750/1)

جاء معنى ذلك في الحديث. وما وجد فيها من الخطإ فليصلحه من ذلك، لأن المؤلف رجل جاهل عجمي سيء الحفظ جداً ولا يكاد أن يحفظ فاتحة الكتاب. وليس هذا من التواضع، بل حقيقة كما يدل عليه عبارته، بل ذلك خلقة جبلية. والله أسأل أن يزيله عنه بوجهه الكريم وإليه أسأل وإياهم، العلماء المذكورون، وأن يرزقنا وإياهم حسن الخاتمة والقيام/.../ رب الأرباب وأن يغفر لنا ولوالدينا وأشياخنا وأحبابنا ولمن أحسن إلينا ولمن أسأنا إليه من المؤمنين والمؤمنات آمين يا رب العالمين يا مجيب السائلين يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام

(9751/1)

يا أرحم الراحمين والحمد لله رب العالمين. اللهم صل على سيدنا محمد ونبينا ومولانا محمد المصطفى الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما. كملت بحمد الله تعالى وحسن عونه.

(9752/1)

رسالة يعقوب الكندي في اللثغة

... ... الدكتور محمد حسان الطيان

... ... جامعة دمشق

ملخص البحث .

... اللثغة مرض من أمراض الكلام (Trouble de la parole) التي عنيت بها الدراسات الطبية والغوية والصوتية الحديثة ، ولعل رسالة الكندي (260 هـ) هذه هي الأقدام فيما وضع في هذا الباب وقد قدم لها صاحبها (فيلسوف العرب المشهور) ببيان واف لآلية النطق وعلاقتها بالحروف، وما تحتاجه كل لغة من اللغات السائدة آنذاك واف لآلية النطق وعلاقتها بالحروف، وما تحتاجه كل لغة من اللغات

(9753/1)

السائدة آنذاك من الحروف ، ثم تكلم على أسباب اللثغة وما يعرض للسان من التشنج أو الاسترخاء ، ووصف مخارج حروف العربية أو هيئات النطق بها وصفا تشريحيا فيزيائيا دقيقا على نحو يختلف عما عهدناه عند اللغويين وعلماء التجويد ، ثم حدد الحروف التي تعتريها اللثغة وحصرها في عشرة أحرف وسمى بعض أعراضها ليختم الكلام بذكر عللها .

... إن رسالة الكندي هذه أثر نفيس من آثار عناية العرب بالعلوم الطبية واللغوية وقد حققناها عن نسخة خطية فريدة تحتفظ بها المكتبة السليمانية باصطنبول وسيشتمل البحث على دراسة تحليلية لها ،

(9754/1)

ويختم بمسرد لما ورد فيها من ألقاب اللثغة وأنواعها وبمسرد آخر لأشهر ما ورد فيها من هذه الألقاب مما اشتملت عليه كتب الأدب ومعجمات اللغة والمعاني.

المقدمة :

... أمراض الكلام شعبة من شعب الأمراض التي تصيب الإنسان ، ولكنها شعبة تتصل بأسمى ما يميز الإنسان

من سائر المخلوقات وهو الكلام { الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان } ولذا فقد تضافرت في الكشف عنها ووصفها وتشخيصها وعلاجها جهود الأطباء واللغويين والحكماء والمهندسين ، كل يسهم في جانب من جوانبها ، فالطبيب يشخص ويعالج ، واللغوي (اللساني)

(9755/1)

يصف المرض ويحدد حروفه ومصطلحاته ، والحكيم يحلل ويعلل مبينا الأسباب الداعية إليه ، والمهندس يرفد العلاج بما يساعد على تمامه من أدوات تقنية وحاسوبية حديثة .

... وقديما عرفت الحضارة العربية الإسلامية ضروبا من الكتابة والتصنيف في هذا المجال على أنها تناثرت في بطون الكتب وثنايا الموسوعات ككتاب " سيبويه " ، و "كامل المبرد " و "أدب ابن قتيبة " و " مخصص ابن سيده " (1)

---

(1) **الكتاب** ، ج 4 ، ص . 127 – 453 ؛ **والكامل**، ط الدالي ، ج 3 ،ص . 761 – 765 ؛ **وأدب الكاتب**،ص . 136 – 137 ؛ **والمخصص** ، ج 2 ، ص . 118 – 142 .

ولعل أبرز من توسع فيعرض ظاهر اللثغة وأمراض الكلام الجاحظ في كتابه المشهور " البيان والتبيين " .

... فقد استهله بذكر العي والحصر (1) وهما مما يعتري الكلام من العجز وعدم القدرة على النطق (2) ، ثم بسط الكلام على شواهدهما شعرا ونثرا وقرآنا ، فجره ذلك ’إلى

(1) البيان والتبين ، ج 1 ، ص . 3 .

(2) عيي في المنطق عيا حصر ، والحصر ضرب من العي ، فالكلمتان بمعنى واحد هو العجز وعدم القدرة على الكلام ، وقديما قالوا : نعوذ بالله من العجب والبطر ومن العي والحصر ، انظر لسان العرب ، وأساس البلاغة (حصصر ، عي) .

ذكر ضروب من علل الكلام ، كاللجاج ، والتمتام ، والألثغ ، والفأفاء ، وذي الحبسة والحكلة والرتة ، وذي اللفف والعجلة (1) ثم مثل بلثغة واصل بن عطاء إمام المعتزلة الذي كان يتحرى اجتناب الراء في منطقه على كثرة

دورانها في الكلام ، وعرض لأنواع اللثغة فيها إذ تكون بالغين والذال والياء (2) وزاد في موضع آخر الظاء (3) ، ثم أفرد كلاما لذكر الحروف التي تدخلها اللثغة فحصرها في أربعة هي القاف والسن واللام والراء (4)

---

(1) البيان والتبيين ، ج 1 ،ص . 12 .

(2) البيان ، ج 1 ، ص . 14 – 22 .

(3) البيان ، ج 1 ،ص 37 .

(4) البيان ، ج 1 ، ص . 34 .

(9758/1)

وراح يمثل لكل ذلك بعبارات و أعلام ،وكان من طريف ما مثل به لثغة رجل يدعى " وشوشى ، صاحب عبد الله بن خالد الأموي فإنه كان يجعل اللام ياء والراء ياء قال مرة : موياي ويي ايي .

يريد : مولاي ولي الري " (1) . ثم فصل ألقاب اللثغة وما يدل عليه كل لقب (2)، واستطرد بذكر بعض أخبار الخطباء والشعراء ليرجع به القول إلى الكلام الأول فيما يعتري اللسان من ضروب الآفات (3) ، حيث بين أهمية الأسنان في صحة النطق وتمام الحروف

---

(1) البيان ، ج 1 ، ص . 36 .

(2) البيان ، ج 1 ، ص . 39 – 40 .

(3) البيان ، ج 1 ، ص . 57 – 66 .

(9759/1)

وساق أمثلة على ذلك ، ثم ختم بذكر الأمور التي تعتري اللسان فتمنع من البيان مفصلا ذلك في الشيوخ والصبيان (1) .

... على أن أول من أفرد لهذا كله رسالة برأسها – فيما نعلم – الكندي فيلسوف العرب المشهور في رسالته التي سنعرض لها في بحثنا هذا ، وهي رسالة اللثغة .

... ترجمة الكندي (2)

---

(1) البيان ، ج 1 ، ص 70 .

(2) مصادر ترجمته : الفهرست ، ص . 371 – 379 ؛ طبقات الأطباء والحكماء ، ص . 337 ؛ وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص . 285 – 293 ؛ والقفطي ، أخبار الحكماء ، ص . 240 – 247 ، والبغدادي ، هدية العارفين ، ج 1 ، ص . 537 – 544 ؛ وبروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ج 4 ، ص . 127 – 136 ؛ والزركلي ، الأعلام ، ج 8 ، ص . 195 ؛ والزيات ، " تاريخ الأدب العربي " ، مجلة العربي ، العدد 214 ؛

والأهواني ، الكندي فيلسوف العرب ؛ وكحالة ، معجم المؤلفين ، ج 7 ، ص . 244 – 245 ؛ والدفاع ، نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات ، ص . 88 – 93 .

(9760/1)

:

... يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل الكندي ، أبو يوسف ، ولد بالكوفة، وكان أبوه أميرا عليها في عهد الخليفة العباسي المهدي – والمصادر لا تسعف بذكر سنة مولده (1) – وقد نشأ في البصرة ، وانتقل منها إلى بغداد ، حيث حصل جل علومه ، فبرع بالطب ، والفلسفة ، والحساب ، والمنطق ، والهندسة ، والفلك ، وغيرها من علوم ذلك العصر ، وحاز مكتبة كبيرة سميت بالكندية ، وصفه ابن النديم بأنه " فاضل دهره ، وواحد عصره في معرفة

---

(1) إلا المصدر الأخير من مصادر ترجمته فقد قدر أن ولادته كانت سنة 185 هـ/801 م .

(9761/1)

العلوم القديمة بأسرها ، ويسمى فيلسوف العرب " وبهذا الإسم عرف لدى علماء المشرق والمغرب.

... أصاب الكندي منزلة عظيمة وإكراما بالغا لدى خلفاء بني العباس المأمون والمعتصم وابنه أحمد ، فعهد إليه المأمون بإدارة بيت الحكمة وترجمة مؤلفات أرسطو وغيره من الفلاسفة ، حتى لقد عده أبو معشر الفلكي في كتابه "المذكرات " من حذاق الترجمة في الإسلام ، وعهد إليه المعتصم بتأديب ابنه أحمد . إلا أنه ابتلي بعد ذلك في عهد المتوكل ، إذ وشي به فضرب وصودرت كتبه ، ثم ردت إليه قبيل وفاة الخليفة نحوا من ثلاثمائة مصنف في شتى

(1/ 9762)

صنوف العلم والمعرفة .

... مخطوط الرسالة ونموذج منها (1) :

... تقع رسالة الكندي هذه في مجموع كبير يضم رسائل مختلفة لثابت بن قرة ويعقوب الكندي ، وهو مخطوط في المكتبة السليمانية في إسطنبول تحت رقم (4832) وتبلغ أوراقه : (232) ورقة من القطع المتوسط : (22 × 12) . تشغل

---

(1) نشرت رسالة اللثغة للكندي بتحقيق محمد حسان الطيان في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد 60 ، الجزء 3 ، عام 1985 في الصفحات 515 – 532 منه . ويوجد في آخر هذا المقال نموذج منها يظهر فيه بداية الرسالة وخططها ورسم بعض الأرقام منها .

(9763/1)

هذه الرسالة الأوراق (216 – 218) إلا أن نصف الصفحة الأولى منها ممسوح لم يظهر منه سوى عنوان الرسالة تحت البسملة : "رسالة يعقوب الكندي في اللثغة " . أما الخط الذي كتبت به الرسالة فهو قديم يعود إلى المائة الخامسة على وجه التقريب ، فحروفه يابسة والتنقيط قليل وطريقة كتابة الأعداد توحي بقدمه (1) .

تحليل الرسالة :

... تتبدى لدارس الرسالة الأقسام الرئيسية التالية :

... 1 – تمهيد عن اللغة والكتابة .

---

(1) هذا تقدير الأستاذ الفاضل عدنان جوهرجي وهو صاحب اختصاص لا ينكر في هذا الباب .

(9764/1)

... 2 – وصف مخارج الحروف وأسباب حدوثها .

... 3 – الحروف التي تعرض لها اللثغة .

... 4 – تبيان علل اللثغة .

... 5 – أنواع اللثغة وألقاب من تعزيهم .

... وفيما يلي عرض لكل قسم من هذه الأقسام : ...

... 1 – تمهيد عن اللغة والكتابة :

... بداية هذا التمهيد ساقط من الأصل مما عمى المقصود من الفقرة الأولى منه . أما الفقرة الثانية فيتحدث فيها الكندي عن حاجة اللغة إلى الكتابة ، وتتجلى فيها ثقافة الكندي ومعرفته باللغات المجاورة الهندية والفارسية ولغة الزنج والفراعنة (1) ،

---

(1) رسالة اللثغة ، ص . 521 – 523 .

(9765/1)

ولعل هذا أثر من آثار اشتغاله ببيت الحكمة آنذاك .

... 2 – وصف مخارج الحروف و أسباب حدوثها :

... يستعرض الكندي حروف العربية حرفا ليبين فيكل حرف مسببات نطقه ومكان هذا النطق وما يحتاجه من نغمة أو نفس أو همز ... إلخ يقول مثلا عن الألف : " إن الألف

تحتاج إلى نغمة وفتحة ورد طرف اللسان إلى صدر الحنك ، وإخراج نفس يسير بين الشفة السفلى والأسنان العليا " (1) . ويقول عن السين : " احتاج إلى إلزام طرف اللسان مقاديم الأسنان العليا ، وإخراج نفس من بين الأسنان خفي يسير ، فإن زاد ذلك

---

(1) رسالة اللثغة ، ص . 524 .

(9766/1)

النفس قليلا من المقدار الواجب له لم تجئ منه سين ، ويكون ذلك مع كسرة ورد اللسان إلى الحنك بهمزة " (1) .

... ونلاحظ في وصف الكندي هذا أمرين اثنين :

... الأول : أنه وصف فيزيائي متحرك يختلف عما عهدناه عند سيبويه وخالفيه من النحاة واللغويين الذين يقفون عند حدود الوصف الظاهر والساكن لمخرج الحرف (2)، فهو هنا يدخل إلى جوف الجهاز النطقي ليصف لنا ما يعتري كل عضو من حركات في هذا الجهاز لدى إخراج الحرف مع رصد حركة عملية الهواء المدفع

---

(1) رسالة اللثغة ، ص . 526 .

(2) انظر كتاب سيبويه ، ج 4 ، ص . 433 – 434 .

(9767/1)

وتقلباته في الحروف .

وهذا ما يذكرنا بعمل ابن سينا في رسالته المعروفة " أسباب حدوث الحروف " تناول حروف العربية حرفا مبنيا سبب حدوثها وما يعتري كلا منها من عمليات عضوية تتبدى في دفع الهواء ، وحبسه ، وكيفية هذا الحبس ، والوسط الذي يتردد فيه الهواء المدفوع من رطوبة أو يبوسة أو ما إلى ذلك (1) . ولعل ابن سينا إنما صدر في رسالته تلك عن عمل الكندي في رسالته هذه ، إلا أن وصف ابن سينا كان أقرب

---

(1) انظر الفصل الرابع في الأسباب الجزئية لحرف من حروف العرب من رسالة ابن سينا أسباب حدوث الحروف ، ص . 72 – 85 .

(9768/1)

إلى وصف الطبيب المشرح ، في حين برز في وصف الكندي عمل الفيلسوف الفيزيائي ، وفي كل خير .

... والثاني : أنه مزج الكلام على المخارج بالكلام على صفات كما يصنع علماء الصوت اليوم لا يكاد يفرق بين مخرج الحرف وصفته ، ولعل في مثال (السين) السابق ما يوضح ذلك ، ففي قوله : " تحتاج إلى إلزام طرف اللسان مقاديم الأسنان العليا " بيان لمخرج هذا الحرف وتحديد له بطرف اللسان مع مقاديم الأسنان ، وفي قوله : " و إخراج نفس من بين الأسنان خفي يسير ..." بيان لصفة الهمس في هذا الحرف ...وهكذا .

(1/9769)

... 3 – الحروف لتي تعرض لها اللثغة :

... حصر الكندي الحروف التي تعرض لها اللثغة في عشرة هي : العين والسين والشين والكاف والصاد والجيم والحاء والراء والقاف والزاي (1) .

... وهو عدد يتجاوز ما ذكره الجاحظ من قبل ، وابن الأنباري من بعد . فالأول جعلها في أربعة حروف هي : (القاف والسين واللام والراء) (2) . والثاني جعلها في ستة (السين والقاف والكاف واللام والراء والشين) (3) إلا أن الكندي لم

---

(1) رسالة اللثغة ، ص . 529 .

(2) البيان والتبيين ، ج 1 ، ص . 34 .

(3) الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، ج 1 ، ص . 160 .

(9770/1)

يفصل الكلام فيما ينقلب إليه كل حرف من هذه الحروف العشرة وما يعتريه من أنواع اللثغة إلا ما كان من قوله : "فأما التشنج فمثل القائل في موضع الراء اللام ، ومثال ذلك قول القائل في موضع السين والشين " (1) ، في حين فصل الجاحظ ذلك كما رأينا ، وضرب الأمثلة المتعددة لكل التبدلات التي تطرأ على الحرف الملثوغ به .

...

4 – تبيان علل اللثغة :

... وأما العلل التي تسبب اللثغة فقد عرض لها الكندي في غيرما موضع ، إلا أن أغناها ما ختم به رسالته حيث قال : " نريد أن نبين من أي العلل يعرض

---

(1) رسالة اللثغة ، ص . 523 .

(9771/1)

ذلك .

... إعلم يا أخي أن هذه تعرض من ثلاثة وجوه :

... أحدها : تكون لقوى النفس الناطقة فيزول عن الحال الجاري المجرى الطبيعي .

... الثاني : لضعف النفس الناطقة ، فلا تقدر أن تحرك العضل تحريكا شديدا فيفسد لذلك النطق .

... والوجه الثالث : يكون إما بزيادة آلة النطق و إما بنقصانه . فأما علة زيادة العضو المنطقي فتكون من البرد والرطوبة ، أو من الحرارة والرطوبة مع سعة مجاري العضو فتدغم آلة الطبيعة أكثر مما يجب له من المقدار فيغلظ العضو ويكبر ، ويفسد النطق لذلك ، وذلك أنه يسترخي .

(9772/1)

... وأما نقصان العضو المنطقي فيكون من برد ويبس ، أو من حر وبيس مفرط ، وتعرض هذه العلة أيضا من جهة أخرى وهو أن العضو المنطقي يغلظ أكثر من المقدار ، ويصغر ويزيد أكثر من المقدار ، فلا يقدر العضو المنطقي أن يستريح على الأماكن الواجبة للنطق فيفسد لذلك المنطق .

... وهذه العلة والتي قبلها واحدة في الزيادة والنقصان ،

وذلك أن العلة الأولى تزيد وتنقص في الطول ، والعلة الثانية تزيد وتنقص في العرض " (1) .

---

(1) رسالة اللثغة ، ص . 531 – 532 .

(9773/1)

... ولو تدبرنا هذه العلل لوجدناها تؤول إلى العلتين اللتين يفسر بهما الباحثون المعاصرون أسباب اضطرابات الكلام ؛ إذ هي عندهم أسباب عضوية (Organiques) وأسباب وظيفية ((Fonctionnels1)) .

... فالعوامل العضوية تعني ما كان من عيب في الجهاز الكلامي أو السمعي كالتلف أو التشوه أو سوء التركيب في أي عضو من أعضاء الجهازين ، مما يؤدي إلى خلل في تأدية هذا العضو ، فيحدث نتيجة لذلك عيب في النطق أو احتباس في الكلام ، ويوافق ما ذكره الكندي في الوجه الثالث من زيادة آلة النطق ونقصانها ،

---

(1) أمراض الكلام ،ص . 33 .

(9774/1)

كما يوافق ما أشار إليه في مستهل رسالته بقوله : " إن تعسر اللسان عن الحال الجاري المجرى الطبيعي يكون من عرضين لا زمين إما من تشنج ، و إما لاسترخاء " (1) .

... والعوامل الوظيفية لا يلاحظ فيها وجود أي نقص عضوي في الجهاز الكلامي أو السمعي ، و إنما يرجع الضعف فيها إلى علل نفسية ، وهو عين مراد الكندي من قوله "لقوى النفس الناطقة . وضعف النفس الناطقة " .

... 5 – أنواع اللثغة وألقاب من تعتريهم :

---

(1) رسالة اللثغة ، ص . 523 .

(9775/1)

... ذكر الكندي ضروبا من اللثغة لكل منها لقبه ، وهي تختلف باختلاف الحرف الذي يختص بها أو الآفة التي تصيب جهاز النطق وموضعها فيه ، هذا وقد استغنى الكندي عن ذكر المرض بذكر لقب صاحبه ، على أن هذا اللقب ينبئ غالبا عن المرض فالتأتاء اللاثغ بالتاء ، والفأفاء اللاثغ بالفاء ...وهكذا .

... وسنسرد فيما يلي ما ذكره الكندي من هذه الألقاب مقرونة بشرحها ، ثم نتبع ذلك بما اجتمع لدينا من

ألقاب أخرى لم ينص عليها الكندي ، تداولتها كتب الأدب واللغة والمعاجم :

(9776/1)

... 1 – المتمتم (1) : التأتاء . قال الأصمعي : " إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام"(2)

... 2 – المدموم (3) : اللاثغ بالجيم (4) .

---

(1) رسالة اللثغة ، ص 530 .

(2) البيان والتبيين ، ج 1 ، ص . 37 ؛ وجاء في الكامل ، ج 3 ، ص . 761 : التمتمة التردد في التاء ؛ وانظر أدب الكاتب ، . 137؛ والمخصص ن ج 2 ، ص . 118 ؛ واللسان ، (تمم) .

(3) رسالة اللثغة ، ص . 530 .

(4) لم أعثر على هذا المعنى من معاني المدموم في المعجمات .

(9777/1)

... 3 – ذو العقل : اللاثغ بالراء . هذا ما نص عليه الكندي (1) ، في حين وردت هذه الكلمة في المعجمات وكتب

اللغة بالمعنى المطلق للثغة دون تقييد بالراء أو غيرها .

قال

الجاحظ: " ويقال في لسانه عقلة ، إذا تعقل عليه الكلام " (2) وقال المبرد : " العقلة التواء اللسان عند إرادة الكلام " (3) . ...

---

(1) رسالة اللثغة ، ص . 530 .

(2) البيان والتنبين ، ج 1 ، ص . 39 .

(3) الكامل ، ج 3 ص . 761 ؛ وانظر : اللسان ومتن اللغة (عقل) ؛ والمخصص ، ج 2 ، ص . 118 .

(9778/1)

... 4 – المناغي العي : اللاثغ بالغين (1) . ولم ترد هذه الكلمة أيضا متخصصة بهذا المعنى وإنما هي لمنطق الكلام غير المفهوم . جاء في التهذيب : " أنغى : إذا تكلم بكلام ليفهم" (2) .

... 5 – ذو الجبس : اللاثغ بالقاف (3) . هي كسابقتها من عيوب اللسان غير المقيدة بحرف معين ، قال المبرد : " الحبسة : تعذر الكلام عند إرادته " (4) وقال ابن سيده : " في لسانه حبسة أي تحبس " (5)

---

(1) رسالة اللثغة ، ص . 530 .

(2) تهذيب اللغة ، ج 8 ، ص . 204 .

(3) رسالة اللثغة ، ص . 530 .

(4) الكامل ، ج 3 ، ص . 761 .

(5) المخصص ، ج 2 ، ص . 122 .

(9779/1)

.

... 6 – الفأفاء : اللاثغ بالفاء (1) . ولايكاد أحد يخالف عن هذا المعنى ،قال الجاحظ : " وإذا تتعتع في الفاء فهو فأفاء " (2) .

... 7 – الأخن : من سبقه النفس إلى الخياشم (3) . وجاء في اللسان : " الخنة ضرب من الغنة ، كأن الكلام يرجع إلى الخياشم ، يقال امرأة خناء وغناء وفيها مخنة ، ورجل أخن أي أغن مسدود الخياشم "

---

(1) رسالة اللثغة ، ص . 530 .

(2) البيان والتبيين ،ج 1 ، ص . 37 ؛ وانظر : الكامل ، ج 3 ، ص 761 ؛ وأدب الكاتب ، ص . 137 ؛ و المخصص ، ج 2 ،ص 118 ؛ واللسان (فأفأ) .

(3) رسالة اللثغة ، ص . 530 .

---

(1) .

... 8 – الألكن : العلة في اللكن أن العضل المحركة لعضو النطق لا تطيق حمله وتحركه وتنقله من الأماكن الواجبة للنطق (2) . قال ابن سيده : " والألكن الذي لا يقيم العربية من

عجمة في لسانه والأنثى لكناء وقد لكن لكنا ولكنة ولكونة " (3) . وقال المبرد : " اللكنة أن تعترض على الكلام اللغة الأعجمية " (4)

---

(1) اللسان (ختن) .

(2) رسالة اللثغة ، ص . 530 .

(3) المخصص ، ج 2 ، ص . 118 – 119 .

(4) الكامل ، ج 3 ، ص . 762 .

... هذا ما ذكره الكندي من ألقاب اللثغة ، وفيما يلي مسرد لأشهر ما لم يذكره منسوقا على الترتيب الهجائي

(1) :

... 1 – البكء : قلة الكلام خلقة ، جاء في اللسان : " وبكأ الرجل بكاءة ، فهو بكيء من قوم بكاء ؛ قل كلامه خلقة " (2)

---

(1) . لم نرم هنا إلى حصر ألقاب أواخر الكلام كلها ، فدون ما ذكرنا ، عشرات الألقاب الأخرى ، ومن شاء التوسع فليعد إلى ابن سيده، المخصص ، ج 2 ، ص . 118 – 142 ، حيث حشد المؤلف نحوا من مائة لقب على أن بعضها يتداخل في بعضها الآخر إما لفظا وإما معنى.

(2) اللسان (بكأ) . انظر : عيوب اللسان واللهجات المذمومة ، ص . 245 – 246 .

(9782/1)

.

... 2 – التخيم : حذف صوت من آخر الكلام عده المبرد أحد عيوب الكلام وعرفه بأنه " حذف الكلام " (1) .

... 3 – التعتعة : التعتعة في الكلام أن يعيا بكلامه ويتردد من حصر أو عي ، وقد تتعتع في كلامه وتتعتعه العي ، ومنه الحديث : " الذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه " أي يتردد في قراءته ويتبلد فيها لسانه (2) .

(1) الكامل ، ج 3 ، ص . 762 . وانظر : عيوب اللسان واللهجات المذمومة ، ص . 248 .

(2) اللسان (تعع) ؛ والمخصص ، ج 2 ، ص . 123 ؛ وانظر : عيوب اللسان واللهجات المذمومة ، ص . 249 .

(9783/1)

... 4 – التلعثم : التباطؤ في اللسان ، ومنه الحديث : " ما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت فيه كبوة إلا أن أبا بكر ما تلعثم " أي أجاب من ساعته أول ما دعوته ولم ينتظر ولم يتمكث وصدق بالإسلام ولم يتوقف (1) .

... 5 – الجلع : انقلاب غطاء الشفة إلى الشارب ، وسفة جلعاء وجعلت اللثة جلعا ، وهي جلعاء إذا انقلبت الشفة عنها حتى تبدو ، وقيل الجلع ألا تنضم الشفتان عند المنطق بالباء والميم تقلص العليا فيكون الكلام بالسفلى و أطراف الثنايا

(1) اللسان (لعثم) ؛ وانظر : عيوب اللسان واللهجات المذمومة ، ص . 251 .

(9784/1)

العليا . ورجل أجلع لا تنضم شفتاه على أسنانه (1) .

... 6–الحصر : العي في الكلام (2) .

... 7 – الحكلة : غلظ اللسان وتقبضه ، وفي لسانه حكلة أي عجمة (3) .

---

(1) اللسان (ججلع) ؛ وأدب الكاتب ، ص 149 ؛ وانظر : عيوب اللسان واللهجات المذمومة ، ص . 253 .

(2) اللسان (حصر) ؛ وانظر : البيان والتبيين ، ج 1 ، ص . 3 وما بعدها ؛ والمخصص ، ج 2 ، ص . 123 – 124 ؛ وعيوب اللسان واللهجات المذمومة ، ص . 254 .

(3) المخصص ، ج 2 ، ص . 122 ؛ وانظر : اللسان (حكل) ؛ وعيوب اللسان واللهجات المذمومة ، ص . 255 .

(9785/1)

... 8 – الرتة : عجلة في الكلام وقلة أناة فيه ، وقيل هو قلب اللام ، وفي حديث المسور أنه رأى رجلا أرت يؤم الناس فأخره (1) . وقال المبرد : " الرتة كالريح تمنع أول الكلام ، فإذا جاء منه شيء اتصل " (2) .

... 9 – الضجم : عيب خلقي في الفم ، قال ابن قتيبة : " والضجم ميل يكون في الفم وفيما يليه من الوجه " (3) .

---

(1) اللسان (رتت)

(2) الكامل ، ج 3 ،ص 792 ؛ وانظر : المخصص ، ج 2 ، ص . 118 .

(3) أدب الكاتب ، ص . 137 ؛ وانظر : عيوب اللسان واللهجات المذمومة ، ص . 263 .

(9786/1)

... 10–الضرز : عيب خلقي في تركيب الحنكين ، قال ابن قتيبة : " والضرز: لصوق الحنك الأعلى بالحنك الأسفل ، فإذا تكلم تكاد أضراسه العليا تمس السفلى " (1) .

... 11 – الطمطمة : العجمة . قال المبرد : " والطمطمة أن يكون الكلام مشبها لكلام العجم " (2) . ورجل أعجم طمطم وطمطماني وطماطم (3) .

---

(1) أدب الكاتب ؛ وانظر : عيوب اللسان واللهجات المذمومة ، ص . 263 .

(2) الكامل ، ج 3 ، ص . 762 .

(3) المخصص ، ج 2 ، ص 122 ؛ وانظر : اللسان (طمم) .

(9787/1)

... 12 – العجمة : الأعجم الذي لا يبين الكلام من العرب والعجم ، والإسم العجمة ومنه الحديث : " صلاة النهار عجماء " أي تبين فيها القراءة (1) .

... 13 – العلم : والعملة : الشق في الشفة العليا ، علم علما فهو أعلم والمرأة علماء (2).

14 – الفقم : عيب خلقي في الفم . قال ابن قتيبة : " الفقم في الفم وهو أن تتقدم الثنايا السفلى إذا ضم الرجل فاه فلا تقع عليها العليا " (3)

---

(1) المخصص ، ج 2 ، ص . 119 ؛ وانظر : اللسان (عجم) ؛ وعيوب اللسان ، ص . 269 .

(2) اللسان (علم) .

(3) أدب الكاتب ، ص . 136 – 137 ؛ وانظر : اللسان (فقم) ؛ وعيوب اللسان ، ص . 278 .

(9788/1)

.

... 15 – الفلج : شق في الشفة السفلى ، واسم ذلك الشق الفلجة مثل القطعة ، رجل أفلج فلجاء (1) .

... 16 – الفهه : الفه العي الكليل اللسان ، يقال منه : جئت لحاجة فأفهني عنها حتى فههت أي أنسانيها . وهو

الفهفة والفهيه والأنثى فهة على بناء فه وقد فه يفه فهها وفهاهة وفها وفهة (2) .

... 17– الجلجلة : ثقل اللسان ونقص الكلام وأن لا يخرج بعضه في إثر بعض ورجل لجلاج وقد لجلج وتلجلج (3)

---

(1) اللسان (فلج) .

(2) المخصص ، ج 2 ، ص . 122 ؛ وانظر : اللسان (فهه) ؛ وعيوب اللسان ، ص . 278 – 279 .

(3) اللسان ، (لجلج) ، وانظر : المخصص ، ج 2 ،ص . 122 ؛ وعيوب اللسان ، ص . 284 – 285 ؛ وأمراض الكلام ، ص 330.

(9789/1)

.

... 18 – اللفف : إدخال حرف في حرف (1) .

... 19 – اللیغ : رجوع اللسان إلى الياء (2) ، ويسمى صاحب هذاالعيب الألیغ .

... 20 – المقمقمة : التكلم من أقصى الحلق ، قال ابن سيده : " المقامق المتكلم بأقصى حلقه وفيه مقمقمة " (3) .

---

(1) الكامل ، ص 330 .

(2) الكامل ، ج 3 ، ص . 762 . وانظر : المخصص ، ج 2 ، ص . 118 ؛ واللسان (لفف) ؛ وعيوب اللسان ، ص . 292 – 293

(3) المخصص ، ج 2 ، ص . 119 ؛ وانظر : اللسان (مقق) ؛ وعيوب اللسان ، ص . 295 .

(9790/1)

... 21 – الهتهتة : قال الأزهري : الهتهتة والتهتهة أيضا في التواء اللسان عند الكلام (1)

الخاتمة

... إن ماشهدته العقود الأخيرة من هذا القرن من تطورات هامة في مجالات الإلكترونيات والحواسيب واللسانيات كان له الأثر المباشر في تطور الدراسات حول أمراض الكلام وطرق علاجها وإدخال التقنيات العملية الحديثة في ذلك ، وفي مقدمتها نظم تركيب الكلام Synthése de la parole)) ونظم تعرف الكلام (

---

(1) تهذيب اللغة ، ج 5 ، ص . 358 ؛ وانظر : اللسان (هتت) ؛ وعيوب اللسان ، ص . 296 ؛ وأمراض الكلام ، ص . 323 – 324 .

(9791/1)

reconnaissance de la parole) ونظم التعلم الذاتي بالحاسوب (L'apprentissage assisté par l' ordinateur) التي يمكن أن تسهم في تقويم نطق المصابين ببعض أمراض الكلام وتدريبهم على النطق السليم أو الأدنى إلى السلامة (1) . على أن ذلك كله لا يغض من شأن تراثنا العريق في هذا المجال – وكل مجال – و إنما هو على العكس

(1) انظر البحث الذي قدمه الدكتور محمد مراياتي في الندوة العلمية الخامسة للاتحاد العربي للهيئات العامة في رعاية الصم ، دمشق ، 7– 9 / 11 / 1993 . ، بعنوان تقنيات مستقبلية لتعليم الصم ومساعدتهم .

من ذلك يشعر بمسيس الحاجة إلى تحقيق هذا التراث بغية جمع أكبر قدر ممكن من مصطلحات هذا العلم لنواجه بها ما استجد من مصطلحات ، ولعل ما أشرنا إليه في هذا المبحث من مصطلحات يكون نواة معجم متخصص في أمراض الكلام لا يقتصر فيه على ألقاب هذه الأمراض بل يجمع له كل ما يتعلق بها من كلام على عللها وأسبابها

ووصف لمخارج الحروف وهيئات نطقها وما إلى ذلك. ...

أهم مراجع البحث

1 – ابن قتيبة ، أدب الكتاب ، تحقيق محمد الدالي مؤسسة الرسالة بيروت ، ط 1 ، 1402 هـ/1982 م.

2– ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت .

(1/9793)

---

3 – ابن سيده ، المخصص ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت . 4 – ابن سينا ، رسالة أسباب حدوث الحروف ، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى ميرعلم ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، 1403 هـ/ 1983 م.

5 – محمد بن يزيد المبرد ، الكامل ، تحقيق محمد أحمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط1 ، 1406 هـ/ 1987 م. ...

6 – محمد مراياتي ، تقنيات مستقبلية لتعليم الصم ومساعدتهم ، الندوة العلمية الخامسة للاتحاد العربي للهيئات العامة في رعاية الصم ، دمشق 7 – 9 / 11 1993 .

(1/9794)

7 – مصطفى فهمي ، أمراض الكلام ، مكتبة مصر للطباعة ، ط 5 .

8 – عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، ط 5 ، 1405 هـ/1985 م .

9– رشيد عبد الرحمن العبيدي ، عيوب اللسان واللهجات المذمومة ، مجلة المجمع العراقي،مجلد 56 ، ج 3 ، 1985 م .

10– سيبويه ، الكتاب ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

11 – رسالة يعقوب الكندي في اللثغة ، تحقيق محمد حسان الطيان ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مجلد 60 ، ج 3 ، 1405 هـ/ 1985 م .

(9795/1)

رمضان – قصيدة

الأستاذ محمد الحلوي

تطوان – المغرب

بُشْرَاكَ حَلَّ بِأَرْضِكَ الإِسْعَادُ ... ... وَتَهَلَّلَتْ فِي أُفْقِكَ

الأَعْيَادُ

وَافَاكَ شَهْرٌ مَا كَفَرْحَتِنَا بِهِ ... ... فَرَحٌ وَلاَ كَلِقَائِهِ مِيلاَدُ!

للخَيْرِ وَالأَنْوَارِ فِي أَسْحَارِهِ ... ... فُرصٌ وَللتَّقْوَى بِهِ مِيعَادُ ...

دُقُّوا الطُّبُولَ وَقَدْ أَطَلَّ هِلاَلُهُ ... ... وَتَوَهَّجَ التَّهْلِيلُ وَالإِنْشَادُ

وَتَأَلَّقَتْ فِيهِ الْمَسَاجِدُ وَازْدَهَتْ ... ... أَبْهَاؤُهَا وَتَقَاطَرَ العُبَّادُ ...

(9796/1)

فِي لَيْلَةٍ ضَاقَتْ بِقُدْسِ جَلاَلِها ... ... وَضِيَائِهَا الآفَاقُ وَالأَبْعَادُ

وَتَوَاكَبَ الأَمْلاَكُ فِي أَعْرَاشِهَا ... ... مِثْلَ الحَمَائِمِ رُكَعٌ سُجَّادُ

وَ"الله أَكْبَرُ" فِي المَآذِنِ دَعْوَةٌ ... ... فِي كُلِّ مِحْرَابٍ لَهَا تِرْدَادُ

... ... * ... * ... * *

يَا وَافِدَ الخَيْرِ الَّذِي بِصَفَائِهِ ... ... تَصْفُو القُلُوبُ وَتَخْتَفِي الأَحْقَادُ ...

مَا الصَّوْمُ فِيكَ بِمِحْنَةٍ نَشْقَى بِهَا ... ... مَا الصَّوْمُ إِرْهَاقٌ وَلاَ إِجْهَادُ

(9797/1)

مَا الصَّوْمُ إِلاَّ طُهْرَةٌ نَزْكُو بِهَا ... ... وَحَصَانَةٌ لِمُيُولِنَا إِخْمَادُ

وَالنَّاسُ مَا الْتَزَمُوا هُدَاهُ مَلاَئِكٌ ... ... رُحَمَاءُ فِيمَابَيْنَهُم أَجْوَادُ

صَامُوا نَهَارَكَ وَاسْتَفَاقَتْ أَعْيُنٌ ... ... مِنْهُمْ وَجَافَتْ نَوْمَهَا الرُّقَادُ

وَتَآلَفَتْ بِالصَّوْمِ فِيكَ خَلاَئِقٌ ... ... وَتَعَانَقَتْ فِي طُهْرِكَ الأَضْدَادُ

وَصحَت ضَمَائِرٌ مِنْ عَمِيقِ سُبَاتِهَا ... ... وَتَزَوَّدَتْ وَالصَّوْمُ نِعْمَ الزَّادُ

(9798/1)

وَالدِّينُ يُسْرٌ وَالشَّرِيعَةُ سَمْحَةٌ ... ... لا فَضْلَ يكسبُ مَنْ غَلَوا أَوْ زَادُوا

عَبَقٌ مِنَ الإِيمَانِ فِي أَجْوَائِهِ ... ... نَفَحَاتُهُ القُرْآنُ وَالأَوْرَادُ

وَمَجَالِسُ للعِلْمِ فِيهَا أَنْجُمٌ ... ... كَمْ يَسْتَضِيءُ بِنُورِهَا المرْتَادُ

سُبْحَانَ مَنْ لاَ شَيْءَ يَعْدِلُ ذَاتَهُ ... ... مُتَفَرِّدٌ مِنْ وَصْفِهِ الإِفْرَادُ

أَسْرَى بمرسَلِهِ الكَرِيمِ وَخَصَّهُ ... ... بِفَضِيلَةٍ إِنْكَارُهَا إِلْحَادُ

(9799/1)

بَـهَرَتـ عُقُولَ العَالَمِينَ فَمِثْلُهَا ... ... مَا للعُقُولِ لِفَهْمِهِ اسْتِعْدَادُ

عَبـرتـ بِـهِ نَـحْوَ السَّمَاءِ سَفِينَـةٌ ... ... كَالبَـرْقِ لَيْسَ لِمِثْلِهَا إِرْعَادُ

وَدَنَـا فَـكَانَ مُقَرَّبـاً مِنْ رَبِّـهِ ... ... يُلْقَى إِلَيْهِ خِطَابُـهُ وَيُعَادُ

مَا صَدَّقُوا وَهُوَ الأَمِينُ حَدِيثُهُ ... ... حَتَّى اِسْتَقَامَ لَمَّا رَأَى الإِشْهَادُ

وَصَفَ البَـعِيرَ لَهُمْ وَلِمَا قَدْ شَاهَدَتْ ... ... عَيْنَـاهُ فِي إِسْرَائِهِ فَانْقَادُوا

(9800/1)

وَصحَتـ قُرَيْشٌ عَلَى دُمَاهَا نُـكِسَتْ ... ... عَيْنَـاهُ وَلَمْ تُمِسْكْ لَهَا أَوْثَادُ!

صَلَّى الإِلَهُ عَلَيْـهِ مَا أَفَامَ الشَّذَا ... ... وَاهْتَزّ غُصْنٌ بِـالصِّبَا مَيَّادُ

... ... * ... * ... *

ذَكَّرَتَنَـا بَـدْراً وَنَـصْرُ مُحَمَّدٍ ... ... وَالمسْلِمُونَ وَرَاءَهُ أَجْنَـادُ

لَمْ يُثْنِـهُمْ عَنْـهُ الصِّيَامُ وَلَمْ تَـهِن ... ... هِمَمٌ وَلاَ وَهَنَـتْ لَهُمْ أَجْسَادُ

كَانُوا سُيُوفَ اللَّهِ مُذْ سُلَّتْ لَهُ ... ... لَمْ تَنْكَسِرْ أَوْ تُخْفِهَا أَغْمَادُ!

(9801/1)

وَاسْتَرْخَصُوا أَرْوَاحَهُمْ لَمْ تُلْهِهُمْ ... ... دُنْيَا وَلاَ مُتَعٌ وَلاَ أَمْجَادُ

كَانُوا العَبِيدَ فَأَصْبَحُوا فِي دِينِهِمْ ... ... مُتَحَرِّرِينَ وَهمْ بِهِ أَسْيَادُ!

مَنْ لِي بِسَيْفِ اللَّهِ تَحْتَ لِوَائِهِ ... ... مُسْتَبْسِلُونَ كَأَنَّهُمْ آسَادُ

مَنْ لِي بِبَدْرٍ آخَرَ نَحْيَي بِهِ ... ... مَا مَاتَ أَوْ نُعْلِي بِهِ مَا شَادُوا

... صُمْنَا وَجُرْحُ القُدْسِ فِي أَعْمَاقِنَا ... ... دَامٍ تُدَنِّسُ طُهْرَهُ الأَوْغَادُ

(9802/1)

لَمْ يشقَ يَوْماً قَبْلَ صَهْيونٍ بِمَا ... ... يَشْقَى وَلَمْ يَعْصِفْ بِهِ جَلاَد!

وَالمسْلِمُونَ – وَهُمْ كَثِيرٌ – قِلَّةٌ ... ... لَمْ تُجْدِهُم عَدَدٌ وَلاَ

أَعْدَادُ!

وَهُمْ الالى قَادُوا الشُّعُوبَ وَلَمْ يَكُنْ ... ... للغَرْبِ فِيهِمْ تَابِعٌ يَنْقَادُ!

وَهُمُ الهداةُ لِمَنْ يَضِلُّ عَنِ الهدى ... ... وَهُمُو مَصَابِيحُ الدُّجَى الرُّوَادُ

شَقَّ الخلافُ صُفُوفَهُم وَتَخَاذَلُوا ... ... فَأُلُوفُهُمْ بِشَتَاتِهِمْ آحَادُ!

(9803/1)

لَمْ يُشْفِهُمْ مِنْ دَائِهِمْ طِبٌّ وَلَمْ ... ... يُضَمِّدْ عَمِيقُ جِرَاحِهِمْ عُوَّادُ!

مَجْدٌ أَطَاحَ بِهِ الْخِلَافُ وَكَمْ هَوَتْ ... ... أُمَمٌ بِهِ وَكَأَنَّهَا أَطْوَادُ!

وَلَكَمْ كَبَتْ أُمَمٌ بِهِ ثُمَّ اِسْتَوَتْ ... ... لَكِنْ أَرْجُلُنَا بِهَا أَصْفَادُ!

يَاوَافِدَ الخيراتِ هَلْ يَأْتِي غَدٌ ... ... يَشْقَى بِهِ الأَعْدَاءُ وَالحقّاد!

وَتطل شَمْسُ العَرَبِ بَعْدَ كُسُوفِهَا ... ... وَتُعِيدُ يَعْرِبُ مَا بَنَى الأَجْدَادُ!

(9804/1)

هَذِي أَمَانِي شَاعِرٍ وَلَعَلَّهَا ... ... يَوْماً يُحَقِّقُهَا لَنَا الأَحْفَادُ!

... ... رمضان 1419

(9805/1)

ريادة فكرية بين مصر والمغرب

... ... عبد العزيز بنعبد الله

عضو أكاديمية المملكة المغربية والمجامع العربية والمجمع الهندي

... استقطبت مصر عبر التاريخ رجالات من جهابذة الفكر في المغرب الأقصى منذ أعرق العصور الإسلامية منهم من استقر نهائياً ببلاد الكنانة ومنهم من اهتبل فرصة الحج لينهل من ينابيع جامعة الأزهر التي ارتبطت من القرن الرابع الهجري بجامعة القرويين ارتباطاً عضوياً تبلور في وحدة الفكر الحضاري الإسلامي بين شفتي العروبة وبين مركزين من أبرز المراكز الإسلامية التي تمحور نشاطها

(9806/1)

برصيد قوي من جامعة الزيتونة بالقطر التونسي الشقيق.

... ويرى بعض العلماء أن قدماء المصريين والمغاربة من سلالة واحدة. ولعل الصواب وحدة السلالة بين الأقباط والمغاربة، كما يتضح ذلك من تقارب لهجتي الجانبين. على أن لهجتي القاهرة والرباط مثلاً تنطويان على كثير من أوجه الشبه كما يتجلى من بحث مقارن نشرناه في مجلة "دعوة الحق" ومجلة "اللسان العربي".

... ومهما يكن، فإن كلمة »مصر« أو »كنانة الله« كانت دائماً تثير في نفوس المغاربة ذكريات اتزاز واشتياق إلى التملّي بزيارة ربوعها. ومن مظاهر اهتمام علمائنا بمصر

(9807/1)

أن علياً بن عمر المراكشي (ت 627 هـ) صاحب "جامع المبادئ والغايات من علم الميقات" أدرج بلاد الكنانة في جداوله الإفريقية الشمالية. فقاس ارتفاع القطب لإحدى وأربعين مدينة من المحيط إلى مصر (نسخة غير كاملة في دار الكتب المصرية 1208 ميقات (140 ورقة) 124 ميقات (21 ورقة) كما أحصى الشريف الإدريسي الأطوال بين طنجة والإسكندرية، فلم يغلط إلا في نصف

درجة، في حين غلط بطليموس في 18 درجة. فكان الانطلاق لدى العالمين المغربيين من الإسكندرية وإليها ربطاً بين البلدين. وقد استمد المغرب بعض معمارياته وأثرياته من

(9808/1)

الأساليب الفنية المصرية، خاصة في الأبنية الدينية حيث يعتبر مسجد »الفسطاط« مثار إلهام لبناة جامع »نكور« في منطقة الريف شمالي المغرب منذ القرن الأول الهجري؛ وكذلك الأمر في خصوص أساليب التنفيد العمراني في الدور والقصور. فالمصرية مثلاً هي العلية أو الغرفة العليا. ولعل نسبتها إلى مصر راجعة لتعدد طبقات العمارات في مدن كالفسطاط (غير أن دوزي أكد في "مستدرك"ه أن أصل الكلمة لاتيني وهو Solarum. وكانت »المصرية« بالمغرب عبارة عن غرفة منعزلة في أعلى الدار يصعد إليها أحياناً بدرج في أسطوان المنزل أو من خارج

(9809/1)

الدار، وكان يقصد بها إحدى غرف »قصر البديع« بمراكش في العهد السعدي، أي القرن العاشر الهجري. (مناهل الصفا، مختصر الجزء الثاني، ص. 5). وكانت هذه المصرية البديعية مطلة على الرياض المرتفعة على القبة الخضراء وقد كتب عليها شعر من إنشاء أبي فارس عبد العزيز الفشتالي عام 995 هـ/ 1586 م (المقري، روضة الآس، ص. 134؛ الاستقصا، ج 3، ص. 69). وقد استعمل هذه الكلمة أبو محمد عبد الله نجل القاضي عياض السبتي في كتابه "مذاهب الحكام في نوازل الأحكام" الملحق بـ"التعريف"، ص. 243 من منشورات وزارة الأوقاف المغربية.

(9810/1)

... والكلمة مستعملة في مصر أيضاً (راجع: رفع الإصر عن كلام أهل مصر) ليوسف بن زكرياء المغربي نزيل مصر (1019 هـ/ 1611 م).

... والمصرية (وينطق بها ماصرية) قصائد من الملحون، أي الشعر الشعبي تخلل أخبار الحملة الفرنسية على مصر، ومن جملتها قصيدة الشاعر محمد بن علي الشريف ولد رزين (دعوة الحق، مارس 1974، محمد الفاسي).

... وقد أشار تيمور في تذكرته إلى فنان مغربي عاش

بمصر منذ زهاء قرنين دعم الصناعة التقليدية المصرية بنماذج مغربية أضافت عناصر جديدة لروعة الفن المصري. وقد خلف لنا كثير من العلماء وصفاً رائعاً

(9811/1)

للحركة الفكرية في الشرق الإسلامي عامة ومصر خاصة، مع إبراز مدى وعمق التبادل الثقافي مع المغرب. ومن جملة من صنف في هذا الصدد أصحاب الرحلات الحجازية التي تعد بالعشرات. ومن بينهم أبو سالم العياشي الذي ضمن رحلته كزملائه الرحالين الآخرين مشيختهم من علماء مصر. وتوجد كناشة (وهي ما يسمى بالتذكرة في مصر كـ"تذكرة" الصفدي و"التذكرة التيمورية") لمحمد بن قاسم الرحالي (1072 هـ/ 1662 م) وصف فيها رحلته الدراسية إلى القاهرة (نشر المتاني، للقادري، ج 1، ص. 242). وليوسف بن زكرياء المغربي الشاعر نزيل مصر (1019 هـ)

(9812/1)

كتاب تعرفنا عن مصر من خلاله وهو "رفع الإصر عن كلام أهل مصر" حول العامية المصرية (خلاصة الأثر، ج 4، ص. 501؛ ريحانة الألباب، للخفاجي، ص. 235). ووصف محمد بن علي الرافعي المغربي في رحلته الحجازية عام 1096 هـ/ 1684 م الكنانة وأهلها وآثارها وأسواقها وما تحتوي من كنوز وذخائر والأزهر ورواق المغاربة. وقد حضر فعلاً دروس العلماء، فوصف أساليب التلقين وضلاعة رجالات الفقه والحديث ومختلف ينابيع المعرفة، وخاصة العلوم الإسلامية. كما صنف حازم صاحب "المقصورة" وشيخ ابن رشيد السبتي (الدرة المضية في تاريخ

(9813/1)

الإسكندرية). ولمحمد بن قاسم الزجالي الفاسي المتوفى عام (1072 هـ/ 1662 م) كناشة ذكر فيها شيوخه مع وصف لرحلته إلى القاهرة. (نشر المثاني، ج 1، ص. 242). كما لمحمد بن الحاج الحسن بن مسعود بناني الفاسي (1194 هـ/ 1780 م) رسالة "الأجوبة المصرية" (ضم 4617) وقد طبعت على الحجر بفاس (في 27 ص). (راجع علماء مصر والمنصور السعدي في الاستقصا، ج 3، ص. 55). ... وإعزازاً لمصر وقوامها الإسلامي العربي، كان المغاربة

يهبون حكومة وشعباً لنجدتها كلما حاق بها مكروه أو كاد. إذ لما هاجم نابليون مصر، بعث الخليفة العثماني

(9814/1)

سليمان الثالث للمولى سليمان بتاريخ 1213 هـ/ 1799 م رسالة يخبره فيها بفظائع الجيش وتحالف البابا العالي مع أنجلترا لنقل السلاح عن طريق جبل طارق. فكان للمغاربة دور فعال في الدفاع عن حوزة مصر ضد نابليون. (محمد المنوني، دعوة الحق، عدد 1380، 1970؛ الجبرتي، عجائب الآثار، ا لمطبعة الأميرية، ج 3، ص. 44؛ تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، الإسكندرية، ج 1، ص. 77؛ محمد بن محمد الرهوني، الخطب المنبرية، مطبعة حجازي، القاهرة، ص. 11؛ الحاج محمد النجار، القصيدة المصرية (المنوني أعلاه)؛ خطبة

(9815/1)

لسليمان الحوات (توجد مع خطبة للرهوني في الموضوع، المكتبة الملكية، رقم 4269). ومما أدى إلى اصطدم المولى سليمان بالإمبراطور نابليون الذي هدده

باكتساح المغرب إذا هو لم ينضم إلى الكتلة الغازية (Bloc continenta) ضد إنجلترا فلم يعبأ بتهديداته، ولا سيما أن دفاعه عن المناطق الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط حدته إلى تحدي حتى الولايات المتحدة بنفسها عند مهاجمة أسطولها للقطر الليبي. وقد هب ابن الأحرش من عرب المغرب الأقصى فانضم إلى الجيش المصري ضد جيش نابليون (تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر، ط

(9816/1)

الإسكندرية، ج 1، ص. 77).

... كما انبرى محمد بن أحمد بن المختار السباعي المعروف بالجيلالي الفقيه الصوفي (1212 هـ) الذي خاض غمار الجهاد ضد النصارى ببلد الصعيد حيث استشهد ودفن بقرية »أحكاز«. وقد جاء الجيش من مكة المكرمة للجهاد فخانوه ومات غيظاً (عجائب الآثار للجبرتي، المطبعة الأميرية، ج 3، ص. 44). وفي القرن الثالث عشر الهجري وجه السلطان القائد الرايس إبراهيم التازي مع ثلة من رفاقه الأبطال إلى القاهرة لمساعدة كتائبها البطلة على صَدِّ هجمات القبارصة. وكان إبراهيم هذا من أشاوسة قباطنة البحر، كانت له

(9817/1)

جولات ضد الأساطيل الأوربية في البحر الأبيض المتوسط ... وقد اقتسمت مصر والمغرب منذ القرن السادس الهجري الإشراف العسكري على البحر الأبيض المتوسط، فرابط أسطول مصر في الشق الشرقي والأسطول الموحدي في شقه الغربي. مما حدا الكثير من المؤرخين إلى وصف هذا البحر ببحر العرب في هذه الفترة الزاهرة من العصور الوسطى التي ذكر المؤرخ الفرنسي أندري جوليان عنها في كتابه "تاريخ إفريقية الشمالية" أنها فترة كان فيها الأسطول الموحدي أول أسطول في المتوسط وهذا ما دفع صلاح الدين الأيوبي ، تعزيزاً لوحداته البحرية

(9818/1)

القوية، إلى الاستنجاد بأخيه يعقوب المنصور لصد الغزاة الصليبيين. على أن الأسطول المرابطي نفسه رابط بين الإسكندرية وبيروت دفاعاً عن أرض فلسطين حسب مصادر إسبانية عليمة (وهي مذكرات ألفونس السابع أمير قشتالة).

... وقد واكب هذا التوازي العسكري تواز علمي، فظهر

في هذا العصر علماء أفذاذ في مراكش الحمراء والقاهرة نقتصر من بينهم على ذكر ابن رشد أبي الوليد الأندلسي المغربي الذي اكتشف الدورة الدموية الكبرى قبل ويليام هارفي (William Harvey) وابن النفيس المصري الذي اكتشف بعده الدورة الدموية الصغرى، أي

(9819/1)

الرئوية؛ فأصبح ملوكنا يستفيدون من قوة دولة مصر وعلم رجالاتها.

... ولعل هذا السلام العربي الإسلامي في ربوع البحر المتوسط وعلى شواطئه هو الذي فسح المجال لرحلة كثير من المصريين إلى المغرب. فإذا استثنينا ابن كلس يعقوب بن يوسف وزير العزيز صاحب مصر الذي دخل المغرب وتوفي عام 380 هـ (الشذرات، ج 3، ص. 97)، لاحظنا ورود رحالين كثيرين في هذه الفترة: منهم ابن النفيس عبد المنعم بن يحيى بن خلف الإسكندراني المعروف بابن خلوف الذي نزل مراكش وأكتب بها القرآن وتوفي بالإسكندرية (عام 586 هـ). (صلة الصلة، ص. 16؛

(9820/1)

التكملة، رقم 1813؛ الذيل والتكملة، السفر 5، ق 1، ص. 65؛ الإعلام للمراكشي، ج 6، ص. 134، طبعة 1975)، ورزق الله بن الحسين المصري المتوفى (عام 586 هـ) (الجذوة، ص. 334)، وأسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية ورسول صلاح الدين الأيوبي إلى يعقوب المنصور الموحدي أواخر القرن السادس الهجري، (البيان لابن عذاري، ج 4، ص. 144؛ نفح الطيب، ج 1، ص. 419؛ ابن خلدون، ج 6، ص. 246). أما عبد الله بن عمر تاج الدين السرخسي ابن حمويه، فقد قدم إلى المغرب (عام 593 هـ) بعد أن جال بمصر وبقي بمراكش سبع سنوات إلى عام 600 هـ وكتب

(9821/1)

رحلة وقف عليها صاحب "نفح الطيب" ونقل عنها ما يتعلق بالمغرب.

... ونستعرض بعض بقية من هاجر من بلاد الكنانة إلى المغرب:

... إبراهيم بن محمد بن فارس الذكراني الكانْمي من أهل

كانم مما يلي صعيد مصر. قدم المغرب قبل 600 هـ وسكن مراكش (تكملة الصلة، ص. 215؛ ياقوت الحموي، مادة »كانم«).

... إبراهيم بن خلف السنهوري الرحالة. دخل مراكش (عام 602 هـ) يلقب بالناسك وقد انتحل مذهب ابن حزم الظاهري.

... ابن تامتيت أحمد بن محمد اللواتي الفاسي، حيث ولد وتنقل في إشبيلية وإفريقية ومصر وسائر المشرق حيث اشتهر بصفته

(9822/1)

عالماً محدثاً صوفياً أخذ عنه الحديث ثلة من العلماء. وتوفي بالقاهرة عام 657 هـ/ 1259 م (الجذوة لابن القاضي، طبعة الرباط، ص. 116؛ تكملة ابن الأبار، طبعة مصر، ص. 229؛ أزهار الرياض للمقري، طبعة الرباط، ج 4).

... ابن تويت عبد الله بن الوزان اللمتوني. أصله من بني تاويت الأندلسيين في جبل واد راس بين تطوان وطنجة سمع عنه أبو طاهر أحمد السِّلفي الأندلسي بثغر الإسكندرية واصفاً إياه برجل صالح من أمراء المرابطين قدم الشرق للحج وأخذ العلم هو وأخوه ينتان بن تويت (المتوفى بزبيد) وتلميذ ابن رشد (معلمة المغرب:

(9823/1)

»محمد ابن تاويت التطواني«).

... ابن شقرق السبتي الشاعر. ذكره ابن العماد في "الخريدة" (ص. 345) وذكر أنه عاش بمصر عام 573 هـ

... ابن الصواف أبو القاسم المصري أخو أبي الوفاء الوافد على الموحدين والمستقضى من قبلهم ("برنامج الرعيني")؛ وكذلك أبو الحجاج بن أبي الوفاء إبراهيم بن يحيى المصري المتوفى بمراكش عام 616 هـ

... أبو بكر محمد بن عبد الكافي الحنبلي دخل مراكش عام 652 هـ وتوفي في »بلبيس« بمصر عام 657 هـ (الإعلام للمراكشي، ج 3، ص. 148).

(9824/1)

... ومن وصف بالمصري دون تمييز بين الجنسيتين المصرية والمغربية أبو القاسم المؤمن صاحب "كتاب فضائل المهدي" الذي أشار إليه البيدق في كتاب "أخبار المهدي" (ص. 30)، وهو من أصحاب ابن تومرت. وهكذا أصبح وصف الإنسان المغربي بالرجل المصري عنوان فخر.

... أبو عشرين مصطفى بن ادريس أستاذ بالجامع الأزهر

(بعد عام 1323 هـ/ 1905 م).

... أبو المكارم بن الحسين المصري قد ولاه السلطان أبو يعقوب الموحدي قضاء إشبيلية (عام 579 هـ) في الوقت الذي ولى أبا الوليد بن رشد قضاء قرطبة (البيان المغرب لابن عذاري، ج 3، ص. 129، ط

(9825/1)

الرباط). والعكس صحيح، لأن مكانة المغاربة بمصر لم تكن أقل وجاهة عدا استثناءات لا قيمة لها. فمما رواه صاحب "معجم البلدان" (ج 8، ص. 233) أن ابن النابلسي محمد بن أحمد بن سهل الرملي كان يرى قتال المغاربة وبغضهم، فصلب بمصر بعد اعترافه بقوله: »لو أن معي عشرة أسهم، لرميت تسعة في المغاربة وواحداً في الرومي«. غير أن تأزم الحركة القرصنية بالبحر المتوسط ابتداء من القرن التاسع الهجري وسقوط غرناطة والاحتلال الإيبيري لجيوب إسلامية في ضفاف المتوسط كسبتة وطنجة ومليلية ووهران، كل ذلك قلص من حركة التزاور والتبادل

(9826/1)

بين شقي العروبة. وقد حدثنا الحسن الوزان (ليون الإفريقي) في "جغرافيته" عن هذه الظاهرة ملاحظاً أنه هو نفسه اضطر إلى المرور من الجهة الصحراوية عن طريق سجلماسة والسودان كما كانت تفعل القوافل المنحدرة من قرطبة في القرن الثالث الهجري حسب ابن خرداذبة الإصطخري، أي أن الكثيرين كانوا يفضلون المرور بالفزان للدخول مباشرة إلى مصر كما فعل عقبة بن نافع في استراتيجيته العسكرية عندما سمم أعداؤه آبار الشواطئ البحرية. ومع ذلك، فإن المغاربة الذين كاد الفقهاء يجمعون على سقوط الحج عنهم بسبب هذه المخاطر، أبوا إلا

(9827/1)

أن يواجهوا التحديات المختلفة حتى لا يحرموا من زيارة مصر والجوار (ولو بعض الوقت) في الحرمين الشريفين؛ لذلك لم نلاحظ كبير نقص في تحرك المغاربة إلى المشرق، فكنا ننعم بين الفينة والأخرى بزيارة إخوان مشارقة أمثال ابن المجدي أحمد بن رجب بن طنبغا القاهري الشافعي (ت 850 هـ) وهو شارح "تلخيص ابن البناء المراكشي في الحساب" (الإعلام للمراكشي، ج 1، ص. 383، طبعة الرباط).

... أحمد بن عبد الله الأزدي المراكشي. عالم مشارك، فيلسوف متصوف. عاش في القاهرة ومات بها حوالي 730 هـ/ 1330 م (الدرر الكامنة لابن حجر، ج 1،

(1/9828)

ص. 197).

... أحمد بن محمد بن إدريس القادري اليمني المصري منشأً. توفي بفاس عام 1113 هـ (الصفوة، ج 2، ص. 334).

... البيباني يوسف بن عبد الرحمن بدر الدين المغربي المراكشي مولداً المصري منشأً. اشتهر بالمغربي في دمشق له حلقات دروس في الجامع الأموي، توفي عام 1279 هـ/ 1862 م (فهرس الفهارس، ج 2، ص. 454). ولده هو محمد بن يوسف من ذرية سيدي محمد الجزولي صاحب "دلائل الخيرات". أستاذ في جامع بني أمية، له نحو أربعين كتاباً في الحديث والشمائل والأصول والحساب والنحو والمنطق حسب الزركلي (الإعلام، ج 7، ص. 158).

(1/9829)

توفي بدمشق عام 1935 هـ/ 1332 م بعد أن شارك في الثورة ضد الاحتلال الفرنسي.

... الجيلالي بن أحمد بن المختار السباعي المغربي المدني حلاه صاحب "إتحاف الخل المواطي في مناقب السكياطي" بالمحافظ الذي يرتسم في حفيظته كل ما يسمعه. وكان يقرأ "تفسير القرطبي" من حفظه. وصفه الحضيكي في "فهرست"ه بالمجدد على رأس المائة (الثالثة عشرة) لكثرة ما جمع من العلم. توفي بقرية يقال لها أحقاز بمصر عام 1213 هـ (فهرس الفهارس للكتاني، ج 1، ص. 218).

(9830/1)

... محمد بن أحمد بن سالم الصباغ المصري. توفي في رحلة بالمغرب (عام 1321 هـ). (الإعلام للزركلي، ج 6، ص. 247؛ ملحق بركلمان، ج 2، ص. 815.

... محمد أفروخ. تاجر تطواني بمصر تولى منصب وكيل المغاربة بها عام 1866 م (الرهوني، عمدة الراوين، ج 3، ص. 177).

... محمد الزيكي القاهري (المعسول، ج 15، ص. 193).

... وهكذا استمرت الصلات الحضارية والثقافية وثيقة بلا انقطاع بين رجالات الفكر، تخللتها اتصالات سياسية

بين الملوك والأمراء الأشقاء في المنطقتين. ففي أواخر القرن السابع الهجري أرسل الملك قلاوون (678 هـ - 689

(9831/1)

هـ) إلى سلطان المغرب يطلب منه التوسط لدى ملك الإفرنج حول المشاكل الملاحية في البحر المتوسط وفي عام 704 هـ/ 1304 م ورد مبعوث آخر من عاهل مصر يطلع السلطان على موقف بلاده من شريف مكة الذي اشتكى مما يلقاه منه من عنت. وهكذا لم تكن تقع شاذة ولا فاذة في أحد البلدين دون أن يثير الحدث اهتمام البلد الآخر. وكان لابنه الناصر بن قلاوون محمد الأيوبي علاقة متينة بيوسف بن يعقوب المريني (الاستقصا، ج 2، ص. 40) وبأبي الحسن (ج 2، ص. 61). وفي هذا النطاق، بعث سلطان المغرب أبو الحسن المريني إلى ابن قلاوون سفيره

(9832/1)

فارساً بن ميمون. ولما توفي الملك الناصر محمد بن قلاوون عام 741 هـ وولي بعده ابنه أبو الفداء، أوفد أبو

الحسن المريني لعزائه كاتبه وصاحب ديوان الخراج أبا الفضل بن أبي عبد الله بن أبي مدين وفي صحبته الحرة أخت السلطان أبي الحسن؛ فوصل مصر عام 745 هـ مع كتاب أورد نصّه صاحب "الاستقصا" (ج 2، ص. 68) ضمن نسخة الجواب من إنشاء خليل الصفدي شارح "لامية العجم" (ص. 72) (نفح الطيب، ج 6، ص. 120).

... وبعد ذلك بتسع سنوات، أي عام 754 هـ/ 1353 م، وجه أبو عنان وزيره فارساً بن ميمون بن وردار إلى جبل سكسيوة، واختط

(9833/1)

لمعسكره مدينة بسفح جبل الأطلس سماها »القاهرة« تيمناً بعاصمة الكنانة (الاستقصا، ج 2، ص. 93؛ دوكاستري، السعديون (س. أ)، م 2، ص ص. 258 ـ 309).

... والمنصورية هي القاهرة كما سماها جوهر الصقلي قبل تسمية المعز لها القاهرة (خطط المقريزي، ج 1، ص. 361). وهي من الأسماء المبذولة في المغرب الأقصى مثل المنصورية بين الرباط والدار البيضاء. كما بنى أبو عنان فاس الجديد جامعاً أطلق عليه اسم »الأزهر« عام 769 هـ/ 1357 م).

(9834/1)

... والسلطان الظاهر بيبرس المملوكي هو أول من أمر بطواف المحمل والكسوة بالقاهرة في شوال 775 هـ وكانت حسب السيوطي أربعة محامل (العراق والشام والمغرب ومصر)، وكان ينضم إليه بالقاهرة المحمل المغربي وقد احتفل به بالقاهرة بحضور الركب الفاسي إلى الحج. (ركب الحج المغربي لمحمد المنوني، ص. 21؛ الرحلة العياشية، ج 1، ص. 150؛ تاريخ الجبرتي. توجد قصائد باسم »المحمل« كقصيدة (ج 1، ص. 29) الحاج العربي الفلالي الرحوي يذكر فيها كلاًّ من المحمل المصري والمحمل الشامي (ركب الحج، ص. 22).

(9835/1)

... وإذا كان الاتصال على أعلى المستويات بين الشقيقين قد توقف شيئاً ما في عهد السعديين، أي في القرن العاشر الهجري، فلأن هؤلاء كانوا يخوضون حرباً شعواء ضد المغير البرتغالي الذي كانت حركته الصليبية المعززة من طرف الكنيسة قد بلغ أوارها الخليج العربي وأصبحت شبكتها تحاول الامتداد إلى أرض

الشام عبر البحر الأحمر. ولكن انتصار أحمد المنصور السعدي في معركة وادي المخازن أوقف الزحف البرتغالي، بل إن البرتغال المنهزمة فقدت آنذاك استقلالها طوال اثنتين وستين سنة باندماجها في الملَّة الإسبانية، فانهارت

(9836/1)

إمبراطوريتها وتحررت جيوبها بالمغرب والجزائر والخليج. وقد واصل ملوكنا العلويون الكفاح لتحرير بقية الثغور المحتلة من طرف الكتلة الإيبيرية طوال عهد المولى الرشيد وأخيه المولى إسماعيل والمولى عبد الله. فبدأ نجله محمد بن عبد الله بتطهير البحر الأبيض المتوسط حيث خطبت وده أساطيل السويد والدنمارك لإنقاذها من عيث القرصنة. وكان محمد بن عبد الله قد جدد أسطوله الذي بلغت قطعه أزيد من خمسين وحدة قد جهز بعضها بأكثر من خمسين مدفعاً وستة آلاف ربان وقباطنة، على أن السلطان لم يأل جهداً في ربط حاضر عهده بماضيه ولم

(9837/1)

يكن يكتفي بدعم الرباط مع السلطات المسؤولة في مجموع المشرق العربي من مصر إلى الحجاز مروراً بالشام، بل ربط صلات وثيقة بعلماء أمثال الشيخ أبي بكر مرتضى الزبيدي صاحب "تاج العروس" (1206 هـ)، وهو تلميذ محمد بن الطيب الشركَي الفاسي صاحب "الحاشية على القاموس" (في أربعة مجلدات، ومنها اقتبس الشيخ مرتضى في كتابه "تاج العروس بشرح القاموس").

... وانفتحت منذ ذاك آفاق جديدة بين الشعبين المغربي والمصري، فتعززت الجالية المغربية بوكلاء (أي قناصلة) يرعون مصالحها منذ عهد السلطان المولى سليمان بن المولى محمد بن عبد

(9838/1)

الله، حيث تداول على الوكالة السادة العربي الدمناتي ومحمد الحبابي ومحمد بن قاسم لحلو وعبد الغني التازي وعبد الواحد التازي. ولم تقتصر مهمة هؤلاء على السهر على شؤون الرعايا المغاربة القاطنين بمصر، بل حتى الوافدين عليها في طريق الحج (العز والصولة لابن زيدان، ج 1، ص. 293).

... وكانت الجالية المغربية في مصر من أهم الجاليات العربية. وقد وردت أسماء وكلاء المغرب بمصر في عهد

محمد بن عبد الرحمن في كناشة وزيره أبى عشرين محمد الطيب بن اليماني. وإذا لم تكن المصادر التاريخية قد تحدثت عنها قبل القرون الأخيرة،

(1/9839)

فلعل ذلك راجع لقلة أفرادها. بل إن والده المولى عبد الرحمن بن هشام قد وجه إلى وكيل المغاربة بمصر رسالة أثبتها العربي بن محمد الدمناتي في كناشته (نسخة في الخزانة الحسنية بالرباط). وبعد وفاة السلطان الحسن الأول ببضع سنوات، أصبح السيد ابن شقرون الفاسي قنصلاً بالقاهرة (عام 1316 هـ/ 1898 م). فكان يرعى تركات المغاربة القاطنين بعاصمة الكنانة وغيرها وخاصة الإسكندرية. وقد عرف بهذه المدينة حيان اثنان للمغاربة تقابلهما في بلاد الصعيد ثلة أخرى تتصل بمجمع النيلين قرب الخرطوم بفئة رائعة كثيفة من المغاربة

(1/9840)

الأصلاء في منطقة تعرف بالنيل الأزرق. وقد كان بالقاهرة وحدها ما بين 1200 و 1500 مغربي.

... وقد جلب السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن خبراء مهرة من مصر لتصفية السكر وتكريره في معمل »أكَدال« بمراكش (الإتحاف لابن زيدان، ج 3، ص. 556)؛ كما استقدم ضابطاً مصرياً لتدريب الجيش النظامي. وقد التجأ إلى خبير مسلم، لعدم ثقته آنذاك بالغربيين بعد وقعة إيسلي. ولم ينس محمد الرابع تعزيز الجانب الثقافي بالاستمداد من مصر الرائدة، فأوعز بإقامة مطبعة بفاس جلبت آلاتها من مصر. فقد ورد شخص تقني اسمه محمد بن إبراهيم القباني

(9841/1)

.وهو طباع مصري .إلى المغرب مع المطبعة التي جلبها قاضي تارودانت محمد بن الطيب التملي من مصر (عام 1281 هـ) وأهداها إلى السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن. وقد ورد نص عقد أمضاه القاضي بمصر مع هذا الطباع في كتاب "مظاهر يقظة المغرب" للمنوني.

... على أن هذا التبادل الثقافي والعلمي قد تعززت معالمه منذ القرن السادس الهجري، حيث تولى قضاء مصر أحمد بن عبد الله المعروف بابن الحصيئة (عام 533 هـ) وتوفي

بالقرافة (عام 560 هـ) (حسن المحاضرة للسيوطي، ص. 192؛ الجذوة، ص. 45؛ شذرات الذهب، ج 4، ص. 188).

(9842/1)

... ثم تتابع ذلك، فاستقضي عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ وهو مغاربي ولد في تونس. واستكتب بفاس لدى بني مرين. وصنف كتبه في بجاية. واستقضي بالقاهرة حيث توفي عام 808 هـ (نفح الطيب، ج 8، ص. 277؛ الجذوة، ص. 262؛ شجرة النور، ص. 227.

... وقد تلاه قاضي القضاة إبراهيم بن محمد اللقاحي المغربي المتوفى (عام 896 هـ) (نيل الابتهاج، ص. 29) وأحمد بن محمد الشهاب المريني المتوفى في السنة نفسها (الضوء اللامع للسخاوي، ج 2، ص. 218).

(9843/1)

... وقد استقطبت جامعة الأزهر ومعاهد مصر شيوخاً وطلبة من أقصى المحيط كمدرسة الشيخونية التي كان بها مصامدة من الأطلس وغمارة (النيل، ص. 96).

... وقد تولى التدريس بجوامع مصر ومساجدها، علاوة على

معاهدها، رجالات استقروا بالكنانة أو ولدوا بها. ومن هؤلاء ابن رُشَيِّق القصري عبد الوهاب بن يوسف الذي ولد عام 587 هـ بالقصر الكبير وتوفي عام 650 هـ بسفح جبل المقطم، وكان متصدراً بالجامع العتيق بمصر وأحد العدول المبرزين بها. (تكملة إكمال الإكمال لابن الصابوني، طبعة بغداد، ص. 62).

(1/9844)

... إبراهيم بن محمد السوسي (1077 هـ) دفين المعلاة (الإعلام للمراكشي، ج 6، ص. 368).

... ابن خلف أحمد الشريشي السلاوي استوطن الفيوم، حيث توفي عام 641 هـ (الإعلام للمراكشي، ج 1، ص. 351، طبعة الرباط، 1975).

... ابن سعادة الزاهد عيسى السجلماسي فقيه فاس. توفي بمصر عام 355 هـ (الصلة لابن بشكوال، ص. 434؛ مدارك عياض، ص. 1229؛ الجذوة، ص. 280).

... ابن سليمان محمد بن أحمد المراكشي الإسكندراني إمام مسجد قرام (717 هـ). (شذرات الذهب، ج 6، ص. 46).

(1/9845)

... ابن طربية يونس بن يوسف القصري (من القصر الكبير). تولى قضاء طرابلس الغرب والتدريس بدار الحديث الكاملية بالقاهرة عام 641 هـ (تكملة الصلة لابن الأبار، ج 3، ص. 741).

... ابن الطيب العلمي الفاسي صاحب "الأنيس المطرب فيمن لقيته من علماء المغرب". توفي بمصر عام 1134 هـ (النشر، ج 2، ص. 204؛ بروكلمان، ج 2، ص. 684).

... ابن عطاء الله أحمد بن محمد الإسكندري (يقال إن أصله مغربي). توفي عام 709 هـ وهو صاحب "الحكم". تلميذ أبي محمد صالح دفين أسفي.

(9846/1)

... ابن عمران محمد الشريف الكركي الذي ولد بفاس. وهو شيخ المالكية والشافعية بالدار المصرية والشامية. وقد ذكر تلميذه شهاب الدين القرافي أنه تفرد بمعرفة ثلاثين علماً وحده، وشارك الناس في علومهم (الديباج المذهب لابن فرحون، ص. 286).

... ابن فتح الحسن الغماري المتوفى 712 هـ نوه به ابن حجر وأخذ عنه السبكي والذهبي وهو آخر المسندين من رجال الحديث الذين بلغوا ـ حسب ابن حجر ـ درجة الرسوخ والتمكين (الدرر الكامنة، ج 2، ص. 102).

(9847/1)

... ابن مرزوق شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب. توفي بالقاهرة 781 هـ (الإحاطة، ج 2، ص. 223؛ تاريخ ابن خلدون، ج 7، ص. 314). ولاه السلطان الأشرف الوظائف العلمية بالقاهرة. وكان يقول مشيراً إلى نفسه: »ليس اليوم يوجد من يسند أحاديث الصحاح سماعاً من باب الإسكندرية إلى البرين إلى الأندلس«. وقد توجه مجتهد المغرب عبد الله الوريا غلي القصري ليأخذ العلم عن ابن مرزوق، فقال له ابن مرزوق: »ليس أحد أعلم منك فارجع« (دوحة الناشر لابن عسكر، ص. 26).

(9848/1)

... وقد ألف ابن مرزوق لأمير مصر كتاباً سماه "أشرف الطرف للملك الأشرف"، أكد فيه أن ممالك مصر أفضل المعمورة، وهي شهادة عالم مغربي لأرض الكنانة وله أيضاً تأليف في ملك المغرب أبي الحسن المريني (المسند الصحيح الحسن في مآثر أبي الحسن، الإسكوريال، 1666، نسخة بتمكَروت توجد الورقة الأولى التي تنقص نسخة الأسكوريال؛ خزانة القرويين (خق .ق 111).

... ابن مغانط محمد بن عمر الأنصاري القرطبي. نشأ بفاس وجلس في مصر للإقراء بعد وفاة الشاطبي (631 هـ). ذكر صاحب "الوافي بالوفيات" أنه مات بمصر.

(1/9849)

... ابن المواق أحمد بن محمد الفاسي. استظهر بمصر ("الموطأ")، فضرب شيوخ المالكية الطبول على رأسه إشادة وتنويهاً به. توفي بفاس عام 725 هـ (السلوة، ج 3، ص. 244).

... ابن ناصر الحسين بن محمد الدرعي شقيق سيدي محمد بن ناصر. أخذ عن الشيخ سلطان المصري والشيخ الزعتري وهما من شيوخ الأزهر الشريف (1091 هـ).

... حسن العطار بن محمد بن محمد المصري المغربي. تولى المشيخة عام 1246 هـ وقبلها (جريدة الوقائع المصرية، 1250 هـ؛ تاريخ الأزهر، ص. 138؛ الإعلام للزركلي، ج 2، ص. 236).

(1/9850)

... وقبله يحيى بن محمد بن محمد التايلي المعروف بالشاوي شيخ جامع الأزهر (ت 1096 هـ). ولد بمصر وكان أميراً للحج المغربي مرتين (الرحلة العياشية، ج 2، ص. 368؛ النشر، ج 2، ص. 126). كان يحفظ ستين كتاباً كـ"مختصر" ابن عرفة في سنة أسفار (راجع "ثبت" تلميذه الشهاب أحمد بن قاسم (نزهة دائرة الأنظار في علم التواريخ والأخبار لمحمد بن سعيد مقدين الصفاقسي (ج 2، ص. 173، ط تونس).

... ابن النقاش عبد الرحمن زين الدين الدكالي (من دكالة المغرب) المصري الشافعي. ولد عام 747 هـ بالقاهرة، وتوفي عام 817 (وهي سنة احتلال

(9851/1)

سبتة). (شذرات الذهب، ج 7، ص. 136). ...

... وابن النقاش أبو أمامة محمد بن علي الدكالي المصري (763 هـ). هو والدُ زين الدين المذكور. كان يدرس التفسير في الجامع الأزهر.

... ابن يحيى المصري محمد بن عبد الله بن ابي القسم المحب. يعرف بابن الوجدية نسبة إلى وجدة، كان يكتب بخطة ابن الوجدي. مات عام 903 هـ (الضوء اللامع، ج 10، ص. 73).

... أحمد بن حاتم الفاسي يعرف بين المصريين بِحَاتِم. ولد عام 851 هـ بباب الجيسة بفاس، وتحول إلى القاهرة عام 873 هـ (الضوء اللامع للسخاوي، ج 1، ص. 265).

(9852/1)

... أحمد بن عبد الله المراكشي (730 هـ). نزيل القاهرة. جنح إلى التصوف الفلسفي. فكان أبو حيان يرميه بالزندقة. (الدرر الكامنة لابن حجر، ج 1، ص. 197).

... أحمد بن عبد القادر القادري المدعو علال. عاش سبع سنوات بالقاهرة، وتوفي بفاس عام 1133 هـ (السلوة، ج 2، ص. 35).

... أحمد المعافري الوقاد (المتوفى عام 741 هـ). (السلوة، ج 3، ص. 86). انتقل إلى الإسكندرية ودرس بها العلم، وجده محمد المعافري هو العالم المغربي دفين الإسكندرية.

(9853/1)

... أحمد بن محمد المَقري خطيب جامع القرويين، حافظ المغرب ومفتيه. توفي بمصر (1041 هـ) (شجرة النور، ص.

300؛ خلاصة الأثر، ج 1، ص. 302؛ السلافة، ص. 589؛ ريحانة الألبا، ص. 285).

... وبطلب من أحد أشراف مصر حسين أفندي بن إبراهيم، اختصر ابن الوكيل الميلودي يوسف "نفح الطيب" للمقري (1114 هـ) (يوجد بخزانة محمد المنوني).

... أحمد بن محمد بن إدريس القادري اليمني المصري منشأً. توفي بفاس (1113 هـ). (السلوة، ج 2، ص. 334؛ صفوة من انتشر، ص. 219؛ نشر المثاني، ج 2، ص. 165).

(9854/1)

... أحمد بن محمد السبتي مُحب الدين. عرف بعلم الحرف بمصر (791 هـ). (درة الحجال، ج 1، ص. 13؛ الدرر الكامنة، ج 1، ص. 23).

... سالم بن إبراهيم بن عبد الرحمن السرقسطي الفاسي. توفي بمصر. (معجم الصدفي، ص. 306؛ الذيل والتكملة، ق 4، ص. 2).

... سقين عبد الرحمن. ارتحل عام 909 هـ إلى المشرق، وأخذ عن علماء مصر. هو آخر المحدثين بفاس (السلوة، ج 2، ص. 602).

... الشريف الإدريسي محمد بن محمد السبتي (650 هـ). قال في "رسائل البشري" إنه »طاف بمصر وآسيا

الصغرى»، وهو أول من اكتشف أن النيل ينبع من بحيرات خط الاستواء؛

(1/9855)

في حين أن الأوربيين لم يكتشفوا ذلك إلا منذ عهد قريب (لوبون، حضارة العرب، ص. 508، الطبعة الفرنسية). وقد تُسوئل هل الإدريسي مصري لكثرة عنايته بمصر ولأنه - على ما قيل - من ذرية قوم ملكوا مصر وبلاد النوبة ولذا لقبوه بجغرافي النوبة كما في "النخبة الأزهرية في تخطيط الكرة الأرضية" في 14 جزءاً لإسماعيل علي مدرس تقويم البلدان بالأزهر (ج 1، ص. 140).

... إسماعيل السوسي الطبيب. ذكر العبدري في "رحلته" أنه استقر بقاعدة الديار المصرية ونزل بمدرسة الظاهرية وكان حافظاً للطب والعلاج.

(1/9856)

... عبد الكريم بن حسن المراكشي. ولد بأسيوط وأصل عائلته من مراكش (معجم مرتضى الزبيدي؛ السلوة، ج 3،

ص. 113).

... عبد الله بن عثمان ضياء الدين الخزرجي الإسكندري المعروف بأبي الجيش المغربي (626 هـ). وهو صاحب "الخزرجية" في العروض، ترجمها إلى الفرنسية René Basset (الجزائر، 1902).

... عبد الله بن محمد السوسي المصري. كان أعجوبة الدهر في صناعة الأشياء الدقيقة حتى كان يصنع بيده ورقاً. مات بمصر (903 هـ). ذكره المقريزي في عقوده (الضوء اللامع للسخاوي، ج 5، ص. 57، طبعة القاهرة، 1354).

(9857/1)

... عثمان بن سعيد بن عبد الرحمن بن تولو تقي الدين أبو عمرو التينملي المصري. كان نحوياً لغوياً (605 هـ). ويظهر أنه لم ينل حظوة ونوالاً بمصر، فقال:

يا أهل مصر رأيت أيديكم ... عن بسطها بالنوال منقبضة

فمذ عدمتُ الغذاء عندكم ... أكلت كتبي كأنني أرضة

... عبد الوهاب التازي. رحل إلى المشرق واجتمع بالشيخين محمد بن أبي زيان الغندوسي ومحمد بن سالم الحفناوي الشافعي إمام الصوفية وأستاذ الطريقة الخلوتية

والشيخ محمود الكردي والشيخ البرناوي. توفي عام 1206 هـ (شجرة النور، ص. 372).

(9858/1)

... علي بن عبد الله الششتري الفاسي. توفي بدمياط عام 668 هـ

... علي بن محمد العربي بن علي السقاط نور الدين المصري. ولد بفاس وتوفي بمصر عام 1183 هـ (شجرة النور، ص. 300؛ عجائب الآثار للجبرتي، ج 1، ص. 342).

... علي بن يقظان السبتي الطبيب الشاعر الذي رحل إلى مصر عام 544 هـ، ثم إلى اليمن والعراق (القفطي، ص. 160؛ خريدة القصر للعماد الأصفهاني، ص. 344) حيث أورد له نتفاً من الشعر.

... عمر بن الحسن بن علي السبحي أبو الخطاب ابن دحية. استقر بالقاهرة في كنف الملك الكامل، أخذ بالقاهرة عن عالم مغربي آخر هو

(9859/1)

أبو إسحاق بن أحمد بن الواعظ المراكشي. وكان له عند الكامل جاه عظيم وحظوة عليه حتى هم بنصبه خليفة وبعثه رسولاً إلى الناصر لدين الله ببغداد فبعثه هذا بدوره سفيراً إلى بعض ملوك العجم، وتوفي بالقاهرة 633 هـ

... عمر بن الطوير السوسي المراكشي. اشتهر بمصر والحجاز بأبي الخطاب السوسي. تفقه بمراكش. كان مستبحراً في العلوم. توفي عام 622 هـ (الذيل والتكملة).

... عيسى بن مسعود بن منصور شرف الدين الزواوي. تفقه بالإسكندرية وولي القضاء بفاس وانتقل إلى مصر، فدرس بالأزهر. وتوفي بالقاهرة 743 هـ (الدرر الكامنة، ج

(9860/1)

3، ص. 210).

... عيسى بن يحيى بن أحمد السبتي الشيخ الصوفي نزيل مصر. سمع بالإسكندرية والقاهرة. وصفه أبو حيان بأنه محدث حافظ لقيه ابن رشيد وأخذ عنه بالقاهرة (عام 684 هـ) (ملء العيبة، ج 3، ورقة 95). توفي عام 696 هـ (الصفدي في أعيان العصر، مخطوط الإسكوريال، ص.

1722).

... غالب بن علي بن محمد اللخمي أبو تمام الشقوري الطبيب الغرناطي، قرأ الطب بالقاهرة وزاول العلاج، وولي الحسبة بفاس، وتوفي بسبتة في عهد أبي الحسن المريني (جذوة الاقتباس، ص. 313).

(1/9861)

... قاسم بن علي بن محمد شرف الدين التنملي الفاسي. توفي بالقاهرة (عام 811 هـ). أجازه ابن الخطيب (الضوء اللامع، ج 6، ص. 183، طبعة القاهرة، 1354؛ نيل الابتهاج، ص. 215).

... محمد الأخصاصي الفلكي. كان له صيت بمصر بعد أن انتقل إليها من المغرب، فأصبح مؤقت الجامع الأزهر. له كتاب سماه "الدرة المضية في الأعمال الشمسية" (إنهاض الهمم العلية، مخطوط للعلامة الفلكي الفاسي محمد العلمي).

... محمد بن إبراهيم بن علي الهنتاتي المصري المعروف بابن الحصري المراكشي. ولد بالقاهرة (778 هـ) وتوفي بها (872 هـ). ولي تدريس

(1/9862)

الفقه بجامع الحاكم والقرنسقرية والحسنية. والحديث بالفاضلية، والإعادة بالكاملية والمنصورية.

... محمد بن إبراهيم بن يوسف تاج الدين المراكشي (752 هـ). ذكر ابن الستبي في "طبقاته" أنه نشأ بالقاهرة وأعاد بقبَّة الشافعي وانقطع بدار الحديث الأشرفية إلى أن توفي بدمشق.

... محمد بن أبي بكر بن أحمد الفاسي الصعيدي. ولد (عام 821 هـ) في نواحي الصعيد بمصر وربي في نواحي أسيوط، وارتحل إلى القاهرة عام 843 هـ (الضوء اللامع، ج 7، القاهرة، عام 1354، ص. 154).

(9863/1)

... محمد بن الحاج العبدري الفاسي المصري. درس بفاس وتوفي بالقاهرة (737 هـ) (شجرة النور، ص. 218).

... محمد تقي الدين بن أحمد الفاسي (832 هـ). درس بالأزهر وأخذ عنه ابن حجر. وقد وفد على مصر بعد ابن خلدون (تاريخ جامع الأزهر، 1378، ص. 121؛ درة الحجال، ج 1، ص. 290؛ كشف الظنون، ج 2، ص. 1150؛ الضوء اللامع، ج 7، ص. 18؛ شذرات الذهب، ج 7، ص. 199؛ نيل الابتهاج، ص.

318).

... محمد بن أحمد بن عبد الله الورزازي التمجروتي الدرعي. اشتهر بالصغير وبالقاضي. أقرأ العلم بمصر خاصة الفقه والعلوم الفقهية وتوفي بمصر (1138

(1/9864)

هـ أو 1139 هـ) (الإعلام للمراكشي، ج 5، ص. 38؛ ج 6، ص. 33، ط الرباط).

... محمد شمس الدين بن بدر الدين محمد بن يحيى السلاوي. أستاذ الحافظ ابن حجر. يعرف بابن شقرا (779 هـ) (شذرات الذهب، ج 6، ص. 264).

... محمد بن عبد الرحمن الفاسي رضى الله أبو حامد (824 هـ). أذن له بالإفتاء والتدريس بالقاهرة (الضوء اللامع، ج 8، ص. 41؛ نيل الابتهاج، ص. 301).

... محمد بن قاسم بن عبد الرحمن التميمي الفاسي. أقام بمصر 15 سنة وأخذ عن أعلام القاهرة والصعيد الأعلى والإسكندرية وتتلمذ بمصر للأختين ست الكل وست العلم ابنتي

(1/9865)

عبد الله بن رفاعة السعدي وفاطمة بنت سعد الخير الأنصاري بالقاهرة وتقية بنت الخطيب غيث الأمنازي (السلوة، ج 3، ص. 268؛ الجذوة، ص. 159). وأصبح محدثاً حافظاً أخذ عن نحو مائة شيخ ذكرهم في "برنامج"ه (النجوم المشرقة في ذكر كل من أخذنا عنه من ثبت وثقة). كان ـ حسب ابن عربي في "الفتوحات" ـ يلقي دروسه في المسجد الأزهر (بعين الخيل). وهو غير الجامع الأزهر. وقد عاد إلى فاس حيث أخذ عنه ابن عربي (الفتوحات المكية، ج 4، ص. 541). له كتاب "المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد" في سفرين. وقد نسب

(9866/1)

إلى محمد بن علي الفندلاوي الفاسي الذي عاصر التميمي ووصل إلينا منه جزء يحتوي على 80 ترجمة، منها ترجمة شيوخه أبي يعزى وعلي بن حرزهم وأبي مدين الغوث. كان حياً عام 628 هـ (معلمة المغرب: ابن شريفة).

... محمد بن محمد الغماري المصري. توفي بالقاهرة (802 هـ). ذكر السيوطي في "طبقات النحاة" أنه انفرد بالنحو على رأس الثمانمائة ضمن خمسة علماء تفردوا بخمسة علوم منهم البلقيني بالفقه والعراقي بالحديث

والشيرازي صاحب "القاموس" باللغة (شذرات الذهب، ج 7، ص. 19).

(9867/1)

... محمد بن يحيى بن عبد الرحمن العجيسي (من عجيسة بفاس) القاهري. درس الفقه بجامع طولون والأشرفية (871 هـ) (الضوء اللامع، ج 10، ص. 73).

... محمد بن يوسف شمس الدين الرجراجي. قدم من المغرب ودرس في المنصورة "المعقول"، ثم ولاه نور الدين الأخنائي مدرسة الحجازية وتصدر بجامع الأزهر، ثم درس الفقه بالشيخونية (الدرر الكامنة؛ نيل الابتهاج، ص. 271).

... ناصر بن عبد العزيز بن ناصر الأغماتي أبو الفتوح الإسكندراني. تلميذ الحافظ السلفي (631 هـ) (حسب الشذرات، ج 5، ص. 147).

(9868/1)

... يحيى بن عبد الله شرف الدين الزرهوني (773 هـ). أقرأ الحديث في الصرغتمشية. له تخاريج وتصانيف. تخرج

بها المصريون حسب عبارة ابن العماد في "شذرات الذهب" (ج 6، ص. 230)؛ وورد في "درة الحجال" (ج 2، ص. 489) أنه يحيى بن موسى الحافظ تولى التدريس بالقاهرة في المنصورية والخانقاه الشيخونية (عام 774 هـ).

... يحيى بن يوسف بن علي بن محمد المكناسي. ولد بمكناسة عام 788 هـ وقدم القاهرة حوالي ثمانمائة وبضع عشرة (الضوء اللامع، ج 10، ص. 265).

(9869/1)

... اليسع بن عيسى بن حزم الجياني المحدث الحافظ توفي بمصر (575 هـ). استقر بمصر (عام 560 هـ) وقربه صلاح الدين الأيوبي. عرّف بالمغرب في كتابه "المغرب في أخبار محاسن المغرب". جمعه لصلاح الدين. نقل عنه المقري في "نفح الطيب" (ج 3، ص ص. 140 ـ 244؛ ج 1، ص ص. 125 ـ 248).

... يوسف بن زكرياء المغربي نزيل مصر. شاعر (1019 هـ). عرفنا بمصر في كتابه "رفع الإصر عن كلام أهل مصر" (حول العامية المصرية؛ خلاصة الأثر، ج 4، ص. 501؛ ريحانة الألبا للخفاجي، ص. 235).

(9870/1)

... وممن طلب العلم بمصر وتوفي بها عبد القادر بن عبد الكريم الورديغي الشفشاوني. توفي بمصر عام 1313 هـ وهو طالب وجهه السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن للتخصص في فن الطباعة، عام 1283. وهو عالم صاحب كتاب في "القضاء على المذاهب الأربعة".

... وقد تخرج الطبيب الفاسي مولاي عبد السلام العلمي من »اسبطالية« القاهرة، حيث درس على نحو خمسين طبيباً مصرياً وفتح عيادته بفاس في عهد السلطان الحسن الأول. وقد وصف لنا تجارب المارستان المصري وخبراء القاهرة في شتى فروع الطب، وذلك في كتابه "ضياء النبراس في بيان تذكرة

(9871/1)

الأنطاكي بلغة أهل فاس".

... وممن تولى مشيخة الأزهر:

... حسن العطار بن محمد بن محمود المصري المغربي. تولى المشيخة عام 1246 هـ، وأسس قبلها "جريدة الوقائع المصرية" عام 1250 هـ" (تاريخ الأزهر، ص. 138؛ الإعلام

للزركلي، ج 2، ص. 236).

... وتولى قبله مشيخة جامع الأزهر الشيخ يحيى بن محمد بن محمد النايلي المعروف بالشاوي المتوفى عام 1096 هـ ولد بمصر وكان أميراً للحج المغربي مرتين (الرحلة العياشية، ج 2، ص. 368؛ نشر المثاني، ج 2، ص. 126). وكان يحفظ ستين كتاباً مثل "مختصر ابن عرفة" في ستة أسفار "ثبت" تلميذه

(9872/1)

الشهاب أحمد بن قاسم اليوني "نزهة دائرة الأنظار في علم التواريخ والأخبار" لمحمد بن سعيد الصفاقسي التونسي (ج 2، ص. 173، طبعة تونس).

... وآخر من تولى مشيخة الأزهر الشريف من المغاربيين الشيخ الخضر حسين التونسي.

... أما في الميدان الصوفي الروحي، فقد كان لثلة من شيوخ التصوف المغاربة دور كبير في دعم الروابط بين شقي العروبة، وهم:

... 1) أحمد بن إبراهيم البدوي أبو الفتيان (675 هـ). ولد بفاس عام 596 هـ دخل مصر أيام الملك الظاهر بيبرس، فخرج لاستقباله هو وعسكره. دفن بطنطا. وعرف عند الشعب المصري بالسيد

(9873/1)

وبشيخ العرب لتلثمه كالبدو بالمغرب. وكان القايتباي أمير القلعة من خدامه والمعجبين به. وأصبح ضريحه مهبط الزوار من مصر وخارج مصر منذ القرن السابع الهجري. له »وصايا« ذكرها أتباعه من دراويش الأحمدية التي نافست الرفاعية والقادرية والبرهامية. وتزيا مريدوها بالقمصان والعمائم الحمر (حسن المحاضرة للسيوطي، ص. 295؛ الجواهر السنية في الكرامات الأحمدية لعبد الصمد زين الدين؛ النفحات الأحمدية لحسن راشد المشهدي الخفاجي، القاهرة، 1321 هـ). توجد له تصلية في الخزانة العامة بالرباط عدد 2021 وفي الخزانة الحسنية

(9874/1)

بالرباط أيضاً (عدد 1039). وكان له دور صَدّ الصليبيين في الشام.

... 2) أبو الحسن الشاذلي نور الدين علي بن عبد الرحمن الغماري الزرويلي. ولد في غمارة بالريف شمالي المغرب عام 593 هـ/ 1196 م. وتوفي بصحراء عيذاب ببلاد

الصعيد (عام 656 هـ/ 1196 م) بعد أن أصبح شيخ الصوفية بالشرق وأصبحت طريقته مرجع جميع الحركات الصوفية في العالم الإسلامي. وتوجد عشرات المصنفات في مناقبه لعلماء مصريين ودواوين شعر في مدحه كدالية البوصيري (نسخة بالخزانة العامة بالرباط عدد 1722 د) (لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي

(1/ 9875)

وشيخه أبي الحسن) لابن عطاء الله (توجد سبع نسخ في الخزانة الحسنية بالرباط من رقم 332 إلى 6318). وقد أخذ أبو الحسن الشاذلي عن العالمين المغربيين محمد بن حرزهم وعبد السلام بن مشيش وله أحزاب كثيرة شرح أحدها الشيخ مرتضى الزبيدي (توجد نسخة في أكاديمية فيينا عدد 1333).

... 3) شيخ الصعيد المصري عبد الرحيم القنائي (نسبة لقنا) السبتي أصلاً.

... 4) أبو سعيد المصري المغربي المعروف بأبي سلهامة. كان يعيش عام 344 هـ وقبره شهير قرب مشرع الحضر على ساحل البحر وعليه قبة عجيبة الصنع بالنقش والأصباغ والزليج

(9876/1)

المغربي الملون. (الاستقصا، ج 1، ص. 84).

... 5) أبو محمد صالح الهسكوري دفين أسفي (المتوفى في صدر المائة الثامنة). كان له ركب للحجيج يعرف بالركب الصالحي يتوجه إلى الحجاز من أسفي عن طريق البر، فيمر بالقاهرة حيث كان له أتباع منهم الإمام البوصيري. (السلوة، ج 2، ص. 42؛ الديباج، ص. 132). ومن جملة تلامذته محمد بن حرزهم.

... وقد عرف بالمغرب الأقصى شيوخ مصريون ساهموا في تركيز الفكر الصوفي والسلوك الروحي منهم:

(9877/1)

... محمد الصعيدي دفين تطوان وشيخها الصوفي الكبير. يقول مؤرخ تطوان محمد سكيرج إنه من صعيد مصر. وبهذه الصيغة ذكره الأديب الرافعي التطواني في ديوانه (تاريخ تطوان للأستاذ داود، ج 1، ص. 324).

... أحمد بن محمد (فتحاً) بن أحمد الصقلي العريضي قطب فاس أخذ عن محمد بن سالم الحفناوي المصري الطريقة الخلوتية (1177 هـ) (السلوة، ج 1، ص. 133).

... وقد امتد اقتباس المغرب من مصر إلى آفاق أبعد تبلورت أحياناً في وقوع مساجلات بين رجالات البلدين.

(1/9878)

... وقد وقعت مفاخرة مع أدباء مصر حول الرياض والجنان في كل من القاهرة وتطوان بما تنطوي عليه من »أدواح كيتان« (تاريخ تطوان، ج 1، ص. 393).

... وهكذا نهل علماء المغرب دوماً من معين مصر الصافي الفياض، فسجلوا على ما قرأوه من مئات المصنفات المصرية حواشي وهوامش نذكر منها ما انفرد به علماء رباط الفتح عاصمة المغرب نموذجاً لهذا الفيض من ذلك:

... 1) رجز في اصطلاح "الجامع الصغير" للسيوطي لمحمد المهدي متجنوش الرباطي (1344 هـ)، وهو مطبوع على الحجر بفاس (16 هـ)؛ وكذلك "شرح التثبيت في ليلة المبيت" للسيوطي أيضاً

(1/9879)

(ط على الحجر بفاس في 40 ص).

... 2) "حاشية على بهجة السيوطي" لمحمد بن عبد الله

ملين وزير الأوقاف (1372 هـ).

... 3) كناشة على "هوامش المصباح المنير" للفيومي لمحمد بن عبد السلام الرندة وزير العدلية وقاضي الرباط (1365 هـ).

... 4) "حواش على المزهر" للسيوطي وشرح على "الفريدة" له. وكذلك "حاشية على الإتقان في علوم القرآن" له أيضاً لإبراهيم بن محمد التادلي (1311 هـ).

... 5) "نظم رجال طبقات الشعراني" مع شرح عليه (287 بيتاً. نسخة في الخزانة العامة بالرباط عدد 1302 د) لأحمد بن عبد القادر الزعري التستاوتي

(9880/1)

(1129 هـ).

... وهنالك مئات المصنفات المغربية حول ثلاثة كتب لعلماء مصريين يحفظها المغاربة عن ظهر قلب تقديراً وإعجاباً، وهي:

... الحكم العطائية التي تنيف شروحها على المائة منها نيف وثلاثون شرحاً للشيخ أحمد زروق الفاسي وحده (899 هـ).

... البردة الهمزية للإمام البوصيري.

... المختصر الفقهي للشيخ خليل الإمام المجاهد الذي شرف

جيش مصر بالعمل في حضيرته، بل إن هذا الاقتباس قد تجلى في شتى مظاهر ومجالي الحياة الاجتماعية والفكرية بالمغرب. ...

(1/9881)

... وقراءة ورش للقرآن هي السائدة وحدها بالمغرب إلى اليوم. وورش هذا هو الإمام أبو سعيد عثمان بن سعيد المصري صاحب الإمام نافع وشيخ القراء بالكنانة. لقبه نافع بورش لشدة بياضه. وقد توفي عام 197 هـ/ 812 م. ولعل القراءة الورشية قد دخلت إلى المغرب مع المولى إدريس الأكبر منذ عام 172 هـ (طبقات القراء، ج 1، ص. 502؛ معرفة القراء الكبار، ج 1، ص. 126؛ غاية النهاية، ج 1، ص. 502؛ حسن المحاضرة للسيوطي، ج 1، ص. 209).

(1/9882)

... وقد بدأ علماء مغاربة ينهجون نهج زملائهم المصريين. فاقتبسوا الكنى والألقاب نفسها. ولم يكن المغرب يستعمل الكنى كما هو الحال في مصر، ولكن فريقاً عاشوا ببلاد الكنانة خاصة تأثروا ومنهم نساء

كأم قاسم زهراء جدة الإمام حسن المرادي الأسفي المصري التي عرفت بالشيخة وعرف بها حفيدها أم أبيه. (الإعلام للمراكشي، ج 3، ص. 144، ط 1975).

... وهنالك جزئيات دقيقة تنم عن مدى ارتباط مصر والمغرب، وخاصة تعلق المغرب بمصر عبر العصور. ذلك بأن أهل فاس مثلاً لجأوا عام 1143 هـ إلى مصر خاصة، فراراً من تغريمات علي بن يشو

(1/9883)

(الاستقصا، ج 4، ص. 156)؛ بل إن بطوناً من مصر انتقلت بكاملها إلى المغرب لا أذكر منها إلا أولاد الهريم الرباطيين وهم من بطن بني غياث الذين كان موطنهم بلاد الجوف بمصر الشرقية (نهاية الأرب للقلقشندي، مخطوط، ق. 55 ـ 1).

... والبلغة مداس الرجل، أي حذاؤه مصرية مولدة. عرفت أيضاً بهذا الاسم بالمغرب والأندلس. وقد أشير إليها في مدح المامون أبي العلاء بن المنصور من بني عبد المومن في هذا البيت:

لتبليغها المضطر تدعى بُلغة ... وإن قست بالتشبيه سميتها نعلا

(9884/1)

... والواقع أن الصلات استمرت حتى في بحبوحة الحماية الفرنسية، بالرغم من »الستار الحديدي«. فقد كنا - ونحن شباب من جيل ما قبل الاستقلال - نَلْتَهِم ما يرد علينا من مصر من نتاج فكري. فكانت "رسالة" أحمد حسن الزيات مدرسة لجيلنا تلقينا فيها تدريباً فعلياً حول إبداعات لغة الضاد.

... وكان طلبة المغرب ينسلون جماعات ووحداناً للالتحاق بجامعة القاهرة أو جامعة الأزهر أو كلية أصول الدين وتجمعت منهم بالقاهرة (خاصة من شمال المغرب) ثلة كانت جنداً لمكتب المغرب العربي الذي تأسس بقرار من مؤتمر المغرب العربي الذي

(9885/1)

انعقد بالقاهرة بين 15 و 22 يبراير 1947 م، وضم ممثلي الأقطار الثلاثة. وأصبح هذا المكتب منطلق نشاط غامر ومركزاً للدعوة إلى استقلال المغرب العربي؛ كما أصبح محط آمال شعوب المغرب العربي ومطمح أنظارها، وذلك بقيادة زعماء أفذاذ أمثال محمد علال الفاسي وعبد

الخالق الطريس والحبيب بورقيبة، وانضم إليهم محمد بن عبد الكريم الخطابي عندما اختطفه من الباخرة الفرنسية إخوان عززهم الفيلق المصري الخامس. هنالك بدأ الصراع حاداً ضد الاستعمار الفرنسي بريادة جامعة الدول العربية ومديريها العامين عبد الرحمن عزام وعبد

(9886/1)

الخالق حسونة. ولا ننسى دور مصر آنذاك بقيادة وزير خارجيتها صلاح الدين الذي فضح على منصة هيئة الأمم المتحدة دسائس الاستعمار الغاشم، فتعززت هذه الدعوة بمصادقة علنية من ملك المغرب جلالة محمد الخامس في خطاب طنجة في السنة نفسها. فكانت مصر القاهرة مسرحاً ومنبراً يتوارد عليه من سائر أقطار المغرب العربي وغير المغرب العربي رجالات عرب ومسلمون يعززون كتلة المطالبة بالاستقلال. وأحرز المغرب استقلاله بفضل هذا التعاضد المكثف، فلم تمض ثلاث سنوات على ذلك حتى انبرى جلالة المرحوم محمد الخامس وأمين سره وولي عهده

(9887/1)

جلالة الحسن للدعوة عام 1960 إلى مؤتمر الدار البيضاء واستصدار ميثاق الوحدة الإفريقية تم توجههما إلى مصر وباقي أقطار الشرق العربي للبحث عن وسيلة لتعزيز لغة الضاد ببلدنا. فانعقد مؤتمر للتعريب عام 1961 انبثق عنه مكتب دائم للتعريب أسندت إلينا إدارته العامة .وكان هدفه الاقتباس من تجربة مصر لتعريب المغرب. وهنا انبرت سفارة مصر بالرباط، فعززت مكتب التعريب طوال خمس سنوات قبل اندراجه في سلك جامعة الدول العربية عام 1967 م. فتأسس بريادة سفير مصر مجلس ضم سفراء الدول العربية بالرباط لإرشاد وتوجيه المكتب

(9888/1)

وتعزيزه مادياً وأدبياً وتوفير شروط نشاطه والعمل في الوقت نفسه على التحاقه بجامعة الدول العربية التي أصبح المكتب الدائم بعدها هيئة تابعة لها. فأتيحت له فرصة نادرة قبل الانتماء إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة بعضوية الألكسو وإلقاء محاضرات بالقاهرة نال منها المعهد العالي للدراسات العربية أربعاً وعشرين

محاضرة تبلور بعضها في كتاب باسم "تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث" طبع مرتين بالقاهرة وبيروت. على أن المركز الثقافي المصري لم يأل جهداً منذ أوائل الاستقلال في مساعدة المغرب فكرياً بمختلف الوسائل.

(9889/1)

وما زلت أذكر أنني عندما كنت مديراً عاماً للتعليم العالي والبحث العلمي عام 1959 م ساعدني مدير المركز آنذاك صديقي محمد هبة على استقدام أربعين أستاذاً مصرياً في الرياضيات والكيمياء والفيزياء لتدريس العلوم الدقيقة بجامعة القرويين وروافدها.

... وقد واصل جلالة الحسن الثاني سُنة ملوكنا منذ أزيد من ألف عام. فبعث بكتيبة عسكرية عام 1961 م لتعزيز الجيش المصري في حرب رمضان الذي أحرز خلالها أعظم نصر على الصهاينة، واقتحم معاقلهم وخطهم الاستراتيجي في سيناء الذي لم يكن يضاهيه سوى خط »ماجينو« بفرنسا. وقد زرته

(9890/1)

شخصياً مع أعضاء جامعة الدول العربية، فلمسنا عن كثب مدى قوة كتائب الكنانة التي تمكنت منذ ذلك من تحرير جميع أجزاء ترابها. غير أن العالم العربي مني بفاجعة قضاها طوال عشر سنوات عجاف انقطعت خلالها عراه ببلد رائد هو مصر الشقيقة. فأمسى مهزوزاً قد فتّ في أعضاده، ولكن جلالة الحسن الثاني ما فتئ يواصل الجهد متحدياً كل العقاب لتلتحق مصر بركب الجامعة العربية بعد غياب طويل. فتم ذلك ـ بحول الله ـ في مؤتمر القمة العربي الاستثنائي. ولكن جلالة الحسن لم يكتف بهذا، بل أوعز بإدراج بند في ميثاق مراكش (يوم 17 يبراير

(1/9891)

1989) يسمح بالتحاق أيّ دولة إفريقية بالمغرب العربي الموحد. وكان ذلك يعني مصر بالخصوص بصفتها زعيمة عربية إفريقية رائدة.

...

...

(1/9892)

سعيد بن جبير ومناظرة الحق للباطل(1)

الدكتورة زهراء سعيد محمد الإدريسي

... ... الجامعة الأردنية

قريب فجرنا الزاهي يبشرنا بتمكين

فلا الأرزاء تطفئه ولا نفخ الثعابين

دم الأبرار... والشهداء... يغلي في الشرايين

يبعث خلفهم جيلا من الغر الميامين

من ديوان "الإيمان والتحدي"

... ... للشاعر أحمد محمد صديق.

مقدمة

لقد كان لوقفة هذا الرجل الصلبة والممثلة وقتذاك للحق كله بقوته وصدقه أمام الباطل كله بظلمه وطغيانه، أعمق

---

(1) من رسالة الثبات على الحق (الباحث).

الأثر في نفس كل من يقرأ ويدرس منهجه وسيرته وتفسيره وسائر علومه ويتقرب قليلا لهذا الشيخ الإمام الذي قاد مدرسة التفسير القرآني الأولى نحو دروب من البيان والهدى والنور. ولعلنا اليوم نقدم هذه الصفحات

مجددين تلك الوقفة التي حملت الإباء والصبر والتضحية في سبيل إعلاء كلمة الحق، هذه الوقفة التي ستبقى درسا من دروس العزة والثبات لكل أجيال الدعوة الزاحفة باتجاه زلزلة الكفر والمنكر والباطل وهز جميع عروشها، وأنه

(1/9894)

لابد أن تنتصر دعوة مثل هؤلاء. فها هو صوت الروح النازفة يصرخ في الأعماق ليستثير منابر التضحية وليعلي صولة جموع الهدى والإيمان على كل فلول الكفر والطغيان، داكا صروح الباطل ومجددا لهذا الأمر الحق البعث من جديد بصبر ومصابرة وثبات.

اسمه ونسبه

هو سعيد بن جبير بن هشام، وينسب إلى بني والبة من بني أسد نسبة ولاء، فهو مولى لهم(1)

---

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 6، ص. 256؛ ابن حبان البستي، مشاهير علماء الأمصار، ص. 82؛ المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، ج 10، ص. 358؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 2، ص. 371؛ ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج 4، ص. 12؛ الداودي، طبقات

المفسرين، ج1، ص. 181؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج 1، ص. 108.

(9895/1)

. وواليه هو ابن الحارث بن ثعلبة بن داودان بطن من بني أسد، وأسد: هو ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر.

ولد سنة 45 على القول المشهور الذي أشار إليه النووي(1) ووافقه على ذلك كل من الزركلي وتبعه فؤاد سزكين وغيره. قتل – رحمه الله – سنة 95هـ

عبادته وزهده

جمع سعيد بن جبير بين العلم والعمل والزهد والعبادة والتقوى والورع عن ملذات الدنيا وشواغلها. والناظر إلى سيرته يجده قد فرغ همه للآخرة. وقد أثنى العلماء على عبادته وزهده وورعه وغيرها من صفات أهل

---

(1) تهذيب الأسماء واللغات، ج 1، ط 1، ص. 216.

(9896/1)

الخير(1) .

فكان – رحمه الله – كثير البكاء لشدة خشيته لله تعالى. عن القاسم بن أبي أيوب قال: "كان سعيد بن جبير يبكي بالليل حتى عمش"(2) . وكان كثير القراءة للقرآن، فكان يختم القراءة في كل ليلتين. وقد ذكر نفسه كثرة قراءته للقرآن حيث قال: "ما مضت علي ليلتان منذ قتل الحسين لا أقرأ فيهما القرآن إلا مسافرا أو

---

(1) انظر: ابن حبان: الثقات، ج 3، ص. 81؛ وحلية الأولياء، ج 4، ص. 272؛ وتهذيب الأسماء واللغات، ج 1، ط 1، ص. 216.

(2) الإمام أحمد، الزهد، ص. 370؛ صفوة الصفوة، ج 3، ص. 77؛ تذكرة الحفاظ، ج 1، ص. 76.

مريضا"(1) .

ولقد عرف ابن جبير مربيا وذاكرا وداعيا إلى الله في كل وقت وحين، حيث يخبرنا عنه تلميذه هلال بن خباب قال: "خرجنا مع سعيد بن جبير في جنازة، قال فكان يحدثنا في الطريق ويذكرنا حتى بلغ، فلما جلس فلم

يزل يحدثنا حتى قمنا، فرجعنا وكان كثير الذكر لله عز وجل"(2) .

وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه وتد. روى عبد الله بن مسلم بن هرمز عن سعيد بن جبير أنه كان ينكر أن يتكفأ

---

(1) ابن سعد، الطبقات، ج 6، صص. 257–260؛ سير أعلام النبلاء، ج 4، ص. 336.

(2) الحلية، ج 4، ص. 280؛ سير أعلام النبلاء، ج 4، صص. 326–327.

(1/9898)

الرجل في صلاته قال: "وما رأيته قط يصلي إلا وكأنه وتد"(1) . وكان يخرج إلى مكة في كل سنة مرتين، مرة للعمرة ومرة للحج. وكان هذا حاله حتى في أيام خوفه من الحجاج. ذكر ذلك صاحب "الحلية" وصاحب "تهذيب الكمال". وكان إذا أراد الحج أو العمرة، أهل من الكوفة وكان يفسر تمام الحج والعمرة في قوله تعالى { وَأَتِمُّوا الحَجَّ وَالعُمْرَةَ لِلَّهِ } (سورة البقرة، الآية 196): "هو أن تحرم من دويرة أهلك"(2)

---

(1) ابن سعد، الطبقات، ج 6، ص. 266؛ وانظر: البسوي، المعرفة والتاريخ، ج 1، ص. 713.

(2) الطبري، تفسير...، ط المعارف، ج 4، ص. 11؛ ابن أ]ي حاتم، تفسير... (مخطوط مصور)، ج 1، ص. 129.

(1/9899)

.

وبلغ من زهده – رحمه الله – ما حدث به بكير بن عتيق قال: " أتيت سعيدا بن جبير بقدح فيه شربة عسل، فشربه ثم قال/ لأسألن عن هذه. قلت لِمَه؟ قال: إني شربت واستلذذت به"(1) . وبه فسر قوله تعالى: { ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ } (سورة التكاثر، الآية 8). وكان يروي حديثا عن ابن عباس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: "استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك"(2)

---

(1) الزهد، ص. 371،؛ وانظر : الحلية، ج 4، ص. 281؛ تهذيب الكمال، ج 10، ص. 366.

(2) سير أعلام النبلاء، ج 4، ص. 342. والحديث أخرجه البراز والطبراني في الكبير والبيهقي في شعب

الإيمان (انظر : السيوطي، الجامع الصغير، ج 1، ص. 40 وصححه).

(9900/1)

. وروى عنه أنه قال: "لو فارق ذكر الموت قلبي، لخشيت أن يفسد قلبي، وكذلك قوله عندما سئل عن: الشكر أفضل أم الصبر؟ قال: الصبر والعافية أحب إلي. لذلك نجده قد صبر على أذى الحجاج حتى قتله مع أنه كان مجاب الدعوة(1) . وكان – رحمه الله – إلى جانب ذلك شديد التمسك بالسنة وبالدفاع عنها. ولعلنا نسوق هنا هذه الحادثة التي رواها أبو حصين حيث قال: "رأيت سعيدا بن جبير يصلي في بيته فقلت: يا أبا عبد الله تصلي في بيتك وتدع المسجد؟! قال: إني أكره أن أدع بيتي قبرا". وكان

---

(1) ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ص. 348.

(9901/1)

دافعه إلى هذا رواية كان قد سمعها عن النبي – صلى الله عليه وسلم – عندما قال: "اجعلوا في بيوتكم من

صلاتكم ولا تتخذوها قبورا"(1) .

رحلاته في طلب العلم

كانت أولى رحلات ابن جبير في طلب العلم إلى شيخيه عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر حيث كان يرحل طالبا علمهما في المسائل المهمة. ولقد روى عنه قوله: "آية اختلف فيها أهل الكوفة، فرحلتُ

---

(1) الحديث متفق عليه أخرجه البخاري في "كتاب الصلاة"، ج 1، ص. 118؛ ومسلم، ج 1، ص. 538؛ ونسبه السيوطي في الجامع الصغير إلى أحمد في مسنده، وابن ماجة وأبي داود، ج 1، ص. 10.

فيها إلى ابن عباس، فسألته عنها، فقال: نزلت هذه الآية { وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ } (سورة النساء، الآية 93) في آخر ما نزل وما نسخها شيء"(1).

أما رحلاته إلى بن عمر، فكانت من أجل جمع المسائل المختلف فيها وفتاوي أهل الكوفة. وفي ذلك قال: "كتب إليَّ أهل الكوفة مسائل ألقى فيها ابن عمر، فلقيته، فسألته"(2)

---

(1) البغدادي، الرحلة في طلب الحديث، صص. 138–139.

والحديث متفق عليه. انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج 3، صص. 333–334.

(2) الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ص. 44؛ وانظر: ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج 1، ص. 83.

(9903/1)

.

وكان كثيرا ما يحمل معه الألواح والصحف للكتابة عند ذهابه إلى مجلس ابن عباس العلمي، وكان يغتنم الفرصة بالكتابة عند سؤال وإجابة ابن عباس لهم.

عن سعيد بن جبير قال: "ربما أتيت ابن عباس فكتبت في صحيفتي حتى أملأها وكتبت طي نعلي حتى أملأها وكتبت في كفي. وربما أتيته فلم أكتب حديثا حتى أرجع. لا يسأله أحد عن شيء"(1) .

وكان هذا دأبه في تدوين كل ما يسمع من شيوخه، حيث كان يكتب بكل ما تيسر تحت يده حتى كفُّه ونعله إن لم يجد

_____

(1) ابن سعد، طبقات... ، ج 6، ص. 257؛ وانظر: سير أعلام النبلاء، ج 4، ص. 335 (مختصرا).

ما يكتب عليه. ولعل هذا يدل على مدى حب سعيد بن جبير للعلم وكتابته التي شكلت لديه مصدرا هاما جمع بواسطته علم شيوخه كابن عباس وابن عمر وغيرهما. ولقد أفادتنا هذه الروايات عن بداية مرحلة التدوين في عهد التابعين وعن "كيفية التدوين وطريقة النسخ في ذلك الوقت"(1) .

نشره للعلم

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: "تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم"(2)

---

(1) سزكين، تاريخ التراث العربي، ج 1، ص. 234.

(2) الجرح والتعديل، ج 1، ط 1، ص. 8؛ الحاكم النيسابوري، معرفة علوم الحديث، ص. 27، والحديث نسبه السيوطي في الجامع الصغير لأحمد في مسنده، وأبي داود والحاكم في المستدرك وصححه، ج 1، ص. 130.

. وفي هذا الحديث دلالة على تبليغ العلم ونشره كما قال الخطيب البغدادي. ولعل فهم سعيد لذلك دعاه لعقد الكثير من الحلقات العلمية والدراسية في المسجد الحرام الذي كان يغص بالكثير من طلاب العلم والمعرفة من كل الأمصار الإسلامية. ولقد ذكر الرامهرزي بإسناده إعجاب الخليفة عبد الملك بن مروان بكل حلقات العلم تلك والتي كان لسعيد بن جبير فيها نصيب وافرٌ، حتى بلغ من نشره للحديث أن لامه أصحابه على ذلك عن حبيب بن أبي ثابت قال: "كان أصحاب سعيد بن جبير يعذلونه يحدث فقال: "أن أحدثك وأصحابك أحب إلي من أن أذهب به

(1/9906)

معي إلى حفرتي"(1) . وكان – رحمه الله – يحزن أن لا يأتيه أحد يسأله. قال عطاء بن السائب: "كان سعيد بن جبير بفارس، وكان يتحزن يقول: ليس أحد يسألني عن شيء. وكان يبكينا". وكان يقول أيضا: "إن مما يهمني أني وددت أن الناس قد أخذوا ما معي من العلم"(2) . ولم يكن ذلك منه حرصا على نشر العلم قبل

موته، لأن العلم إن لم ينشر مات مع صاحبه.

مكانته العلمية

---

(1) ابن سعد، طبقات...، ج 6، ص. 258؛ وانظر: سير أعلام النبلاء، ص. 326.

(2) جامع بيان العلم وفضله، ج 1، ص. 140؛ وانظر: البداية والنهاية، ج 9، ص. 98.

(9907/1)

لقد برز ابن جبير في نواح متعددة من العلم في عصره. وهو بذلك يكون قد جمع علم أصحابه من التابعين وألم بما عندهم من النواحي التي برزوا فيها. قال تلميذه خصيف: "كان أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاوس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير"(1) .

ومما يعلى درجته ويزيد في إقبال الناس عليه مكانته عند الصحابة. فيكفيه أن شيخه ابن عباس كان إذا حج "أهل الكوفة وسألوه، يقوله: "أليس فيكم

---

(1) وفيات الأعيان، ج 2، ص. 371؛ الوافي بالوفيات، ج 15، ص. 207.

(9908/1)

سعيد بن جبير؟!"(1) .وكذلك هو رأي ابن عمر الذي كان يحيل عليه بعض المستفتين؛ وما كان ذلك إلا لعلمهم بعلو مكانته العلمية ولثقتهم به.

هذا، ولقد كان سفيان الثوري يُقدم ابن جبير على إبراهيم النخعي في العلم. إذ يقول مغيرة بن النعمان: "ما كان مفتي الناس بالكوفة قبل الجماجم – وهي آخر معركة في فتنة ابن الأشعث سنة 83هـ (انظر: "تاريخ الطبري"، ج 5، ص. 163) – إلا سعيد بن جبير: كان قبل إبراهيم"(2)

---

(1) الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج 1، ص. 76؛ انظر: الداودي، طبقات المفسرين، ج 1، ص. 945.

(2) المعرفة والتاريخ، ج 1، ص. 713.

(9909/1)

.

وذهب بعض العلماء من أمثال علي بن المديني إلى أنه أعلم تلاميذ ابن عباس وأنه أعلم من مجاهد وطاوس(1) . ولعل في اختيار الخليفة عبد الملك بن مروان له عندما طلب منه أن يكتب إليه بتفسير القرآن(2) دون الكثير من مفسري التابعين اعتراف ودليل مضاف لتبحره في علوم الكتاب ولتفرده بحيازة كنوزها الثمينة.

---

(1) تهذيب التهذيب، ج 4، ص. 14؛ وانظر: التفسير والمفسرون، ج 1، ص. 103.

(2) انظر: الجرح والتعديل، ج 3، ط 1، ص. 332.

(9910/1)

قال النووي: "وكان سعيد من كبار أئمة التابعين ومتقدميهم في التفسير والحديث والفقه والعبادة والورع وغيرها من صفات أهل الخير"(1) . وقال فيه الذهبي: "سعيد ين جبير الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد"(2) . وقال عنه أيضا: "وكان من كبار العلماء الزهاد، وكان ابن عباس يعظمه"(3) .

هذا، ولقد وثقه الكثير من علماء الجرح والتعديل. فلقد قال فيه يحيى بن معين: "سعيد بن جبير ثقة"(4)

(1) النووي، تهذيب الأسماء واللغات، ج 1، ط 1، ص. 216.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 4، ص. 321.

(3) النجوم الزاهرة، ج 1، ص. 228.

(4) الجرح والتعديل، ج 2، ط 1، ص. 10.

(9911/1)

. وقال الإمام أحمد: "هؤلاء أصحاب ابن عباس: مجاهد وطاوس وسعيد بن جبير وعطاء وجابر بن زيد. وعكرمة آخر هؤلاء". وقال: "أصحاب ابن عباس هم المحدثون والمفتون"(1) .

وقال علي بن المديني: "وأصحاب ابن عباس الذين يذهبون مذهبه ويسلكون طريقه عطاء وطاوس ومجاهد وجابر بن زيد وعكرمة وسعيد بن جبير. فأعلم هؤلاء سعيد بن جبير وأثبتهم فيه"(2) . وسئل أبو زُرعة عن سعيد بن جبير، فقال: "كوفي ثقة". وقال أبو القاسم الطبري (اللالكائي): "هو

(1) الإمام أحمد، العلل ومعرفة الرجال، ج 1، ص. 82.

(2) الجرح والتعديل، ج 2، ط 1، ص. 10.

(9912/1)

ثقة حجة إمام على المسلمين"(1) . وقال العجلي: "كوفي تابعي ثقة"(2) .

هذا، ولقد ذكره ابن حبان في "الثقات" وقال: كان فقيها عابدا ورعا"(3) . وقال ابن حجر العسقلاني: "ثقة ثبت فقيه"(4) .

وفي هذا إجماع عال من الأمة على ثقته، وجلالة قدره في العلم والضبط والإتقان. ولذلك، فلقد أخرج حديثه أصحاب الكتب الستة وغيرهم من أصحاب

---

(1) تهذيب التهذيب، ج 4، ص. 13؛ وانظر: الخلاصة، ص. 136.

(2) العجلي، تاريخ الثقات، ص. 181.

(3) ابن حبان، الثقات، ج 3، ص. 81؛ تهذيب التهذيب، ج 4، ص. 13.

(4) ابن حجر، تقريب التهذيب، ج 1، ص. 292.

المسانيد والسنن.

موقف ابن جبير من فتنة الأشعث

أما موقفه من فتنة ابن الأشعث وقضية خلع الحجاج، فلقد

كان – رحمه الله – حريصا أشد الحرص على عدم إثارتها؛ وكان يدعو إلى التوقف دونها، لما كان يرى فيها من إراقة لدماء المسلمين واستباحة لمحارمهم. لذلك، كان يقول لهم عندما سألوه عن رأيه فيها: "الرأي أن تكفوا عما تريدون: فإن الخلع فيه الفتنة، والفتنة فيها سفك للدماء واستباحة للمحارم، وذهاب الدين والدنيا"(1) . فقالوا له: إنه الحجاج. وقد

(1) انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج 1، ص. 76؛ وتقريب التهذيب، ج 1، ص. 192.

(9914/1)

فعل ما فعل؛ فذكروا أشياء، ولم يزالوا به حتى سار معهم وهو كاره(1) . ومن هنا يتضح لنا أنه لم يكن موافقا على الخروج مع الجماعات المطالبة بخلع الحجاج في أول أمره؛ إلا أنه في الوقت ذاته ما كان ليقبل بسياسة الحجاج مع أهل العراق. تلك التي كانت تقوم على القسوة والعنف والرهبة والقتل والبطش والتي ابتدأها بخطبته النارية(2) أول قدومه للعراق. ولعل المرء الناظر في

(1) الإمامة والسياسة، ج 2، ص. 33.

(2) علي أدهم، "الحجاج الثقفي وسقوط الدولة الأموية"، بحث منشور في مجلة العربي الكويتية، العدد 178، سنة 1973، ص. 134.

(9915/1)

هذه الخُطبة وأخواتها يمكن أن يحلل معالم سياسته التي كان ينوي اتباعها في العراق وخطوطها العريضة. ولقد ذهب الكثير من المؤرخين في التعليق على خطبته الأولى؛ وها هو الخضري نجده يقول فيها: "من هذه الخطبة وما تلاها، تتبين خطة الحجاج التي أراد أن يسوس بها أهل العراق، وهي خطة العسف والجور التي قدمنا أنها لا تصلح أمة

إصلاحا حقيقيا أبدا، إنما تضع على المرجل غطاء، لا يلبث البخار أن يقتله ويطير به". كما ذهب الدكتور حسن إبراهيم حسن إلى القول فيها: "ومن هذه تتبين السياسة التي رسمها الحجاج للسير عليها مع أهل

(9916/1)

العراق، وهي سياسة حزم ممزوج بالظلم والجبروت. ولا غرو، فقد أخذ الناس بغير هوادة وقتلهم على الريبة والظنة"(1) .

فكانت هذه السياسة داعية لأن يخرج سعيد بن جبير مع من خرج ضد الحجاج. ولقد كان أكثرهم من العلماء والصالحين. وكان يقول في أثناء القتال: "قاتلوهم على جُورِهم في الحكم وخروجهم من الدين وتجبرهم على عباد الله وإماتتهم الصلاة وإذلالهم المسلمين"(2) .

---

(1) تاريخ الإسلام السياسي، ج 1، ص. 296.

(2) ابن سعد، طبقات...، ج 6، ص. 265؛ وانظر : الطبري، تاريخ...، ج 5، ص. 163.

(9917/1)

ويبدو موقف ابن جبير واضحا من سياسة الحجاج فيما ذكر ابن سعد بإسناده عن ابن يونس القزي قوله: "قلت لسعيد بن جبير قول الله تبارك وتعالى: { إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ... } الآية (سورة النساء، الآية 98)". قال: "كان الناس بمكة مظلومين أو مقهورين. قال: قلت: لقد جئتك من عند قوم هكذا. يعني فر من الحجاج. قال: يا ابن أخي! لقد حرصنا

وجهدنا، وأبى الله أن يكون إلا ما أراد"(1) . ومن هنا يظهر جليا موقفه السياسي الواعي والذي احتوى

---

(1) ابن سعد، طبقات... ، ج 6، ص. 262–263.

(9918/1)

جميع أبعاد القضية، فهو مع إدراكه لضرورة وحدة المسلمين ولضرورة إبعادهم عن الفتن والدماء، نجده لا يقر الظلم ولا الظالم على التمادي في غيه وطغيانه.

استشهاد سعيد بن جبير

لم يغفل واحد من المؤرخين عن أن يُفرد لمقتل سعيد بن جبير مبحثا خاصا به، الذي يعكس أهمية هذا الحدث في التاريخ الإسلامي. ولعلنا في هذه الدراسة سنقوم بإعادة تسليط الضوء على هذا الأمر، حيث سنتطرق إلى قضية القبض عليه ومناظرته للحجاج وسبب قتله وأثر ذلك في نفوس العلماء.

– القبض على ابن جبير:

(9919/1)

تنقل سعيد بن جبير في العديد من النواحي بعد أن غلب الحجاج وهزم ابن الأشعث سنة 83هـ(1) وانحاز في أول أمره إلى أصبهان، فكتب الحجاج إلى عاملها أن يبعثه إليه. قال الطبري: "فجاء الأمر إلى رجل تحرج، فأرسل إلى سعيد: تحول عني! فتحول عنه، فأتى أذربيجان وأقام بها مدة. فلما طال عليه المقام، اغتم بها وتوجه إلى مكة المكرمة حرم الله تعالى، فأقام بها. ولعل وجود عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – واليا على مكة المكرمة هو الذي دفع بابن جبير إلى

---

(1) انظر: الطبري، تاريخ...، ج 5، ص. 163؛ والبداية والنهاية، ج 9، ص. 47.

(9920/1)

الرحيل إليها؛ إذ عُرف عمر بن عبد العزيز برحمته وعدله بين الناس. ولذلك نجد أن ابن جبير كان يلجأ إلى مكة والمدينة، كلما خاف من الحجاج فيأمن(1) .

ولقد بقي متخفيا فيها مدة طويلة إلى أن وليها خالد القسري، فكتب إليه الوليد أن يُرسلَ إلى الحجاج أهل العراق الذين خرجوا مع ابن الأشعث ضده،، فأخذ سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر وعمرو بن

دينار وطلق بن حبيب؛ ثم عفا عن عطاء وعمرو، لأنهما من أهل مكة. وأما طلق بن حبيب، فمات في الطريق قبل أن يصل. وأما مجاهد

---

(1) ابن خلدون، تاريخ...، ج 3، ط 1، ص. 142.

(9921/1)

بن جبر، فحبس حتى مات الحجاج، وقتل سعيد بن جبير(1) .

ذكر ابن سعد بأسناده عن هاشم الدستوائي قال: "رأيت سعيدا بن جبير يطوف بالبيت مقيدا، ورأيته دخل الكوفة عاشر عشرة مقيدين". وبأسناده عن عبد الملك بن أبي سليمان قال: "سمع خالد بن عبد الله القسري صوت القيود فقال: ما هذا؟ فقيل له: سعيد بن جبير وطلق بن حبيب وأصحابهما يطوفون بالبيت، فقال: اقطعوا عليهم الطواف"(2) .

---

(1) الكامل في التاريخ، ج 4، ص. 579؛ النجوم الزاهرة، ج 1، ص. 228.

(2) الطبقات الكبرى، ج 6، ص. 264.

(9922/1)

إن خشية سعيد بن جبير لله وصدق إيمانه وتوكله عليه جعلت الحجاج يغض النظر عن طلبه، وكان يود بذلك أن يتخلص من أمره بعدم التعرض له. ولم يكن موقفه هذا إلا خوفا من

الله أن يعاقبه لما يعرف من تقوى سعيد وزهده ومكانته العلمية، حيث أنه كان حسن الإطلاع على سيرة ابن جبير الشخصية، إذ بلغ به الأمر أن أشركه في كثير من أموره الخاصة وقرب منزلته عنده وأقعده للقضاء مع أبي بردة بن أبي موسى الأشعري – رحمه الله – وأمره أن لا يقطع أمرا دون مشورة سعيد بن جبير، وكذلك جعله على عطاء الجند في جيش عبد الرحمن بن

(1/9923)

الأشعث(1) .

ذكر الطبراني وغيره أنه لما جيء بسعيد بن جبير ورآه الحجاج، شتم خالدا القسري على إرساله وقال: "أما كنت تعرف مكانه؟! بلى والله والبيت الذي هو فيه بمكة"(2) .

---

(1) انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص. 446؛ البداية

والنهاية، ج 9، ص. 96.

(2) الطبري، تاريخ...، ج 5، ص. 262. ومما يؤيد هذه الرواية ما ذكره ابن قتيبة في الإمامة والسياسة، ج 2، ص. 51 أنه قيل لخالد القسري: "إن الحجاج قد أنذر به وأشعر قبلك فما عرض له. فلو جعلته فيما بينك وبين الله، لكان أزكى من كل عمل يتقرب به إلى الله تعالى".

(1/9924)

إلا أن ابن جبير كان يتمنى الشهادة في سبيل الله لما يعرف من فضل الشهادة. وكان يفسر قوله تعالى: { فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ الله } (سورة الزمر، الآية 65). قال: "هم الشهداء، هم ثنية الله حول العرش متقلدين السيوف". عن داود بن أبي هند قال: "لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير، قال: ما أراني إلا مقتولا وسأخبركم أني كنت وصاحبان لي دَعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء، ثم سألنا الله الشهادة؛ فكلا صاحبيَّ رزقها، وأنا أنتظرها"، وقال: "فكأنه رأى أن الإجابة عند حلاوة

(1/9925)

الدعاء"(1) .

هذا، ويجدر بنا أن نلفت النظر هنا إلى أن سعيدا بن جبير لم يكن يعتقد بالتقيّة. ولما ذكر له أن الحسن يقول إن التقية في الإسلام، فقال سعيد: "لا تقية في الإسلام". فلذلك لما قيل له إنك قادم على الحجاج، فانظر ما تقول له، لا تقل له ما يستحل به دمك فقال: "إن سألني أكافر أم مؤمن، فوالله ما أشهد على نفسي بالكفر وأنا لا أدري أنجو منه أم لا". قال الذهبي: "ولما علم من فضل الشهادة، ثبت للقتل ولم يكترث ولا عامل عدوه

---

(1) الحلية، ج 4، ص. 274؛ صفوة الصفوة، ج 3، ص. 80؛ سير أعلام النبلاء، ج 4، ص. 340.

(9926/1)

بالتقية المباحة له رحمه الله تعالى".

– مناظرته للحجاج:

لقد استطاع سعيد بن جبير، ذلك الرجل الثابت الجنان والذي كان يسأل الله أن يرزقه الجنة، أن يقف بشموخ إيمان وباستعلاء عقيدة ويقين ودون أدنى تردد ليحاور

الحجاج، ذلك الرجل الذي عُرف بالبطش والفتك وهدر الدماء ولينـاظره تلك المناظرة التي ما أن تذكر حتى تتجدد معها جميع مواطن مواجهة الحق القوي المبين للباطل الزاهق.

ولنترك أمر بيان ذلك لسالم بن أبي حفصة، وهو أحد طلابه ليخبرنا عنها حيث يقول: لما أتى سعيد بن جبير الحجاج قال: "أنت شقي بن كسير؟" قال: "أنا

(1/9927)

سعيد بن جبير"، قال: "لأقتلنك"، قال: "أنا إذن كما سمتني أمي"، ثم قال: "دعوني أصلي ركعتين"، قال: "وجهوه إلى قبلة النصارى"، قال: { فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}، ثم قال: "إني أستعيذ بك بما عاذت به مريم. قال: "وما عاذت به مريم؟" قال: { قُلْتُ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا }. عندها قال الحجاج لسعيد بن جبير: "اختر أي قتلة شئت"، فقال له: "بل اختر أنت، فإن القصاص أمامك"، أي قصاص يوم القيامة(1)

---

(1) ابن قتيبة، المعارف، ص. 446؛ تهذيب الأسماء واللغات، ج 1، ط 1، ص. 217.

(1/9928)

.

وفي رواية أنه لما أراد قتله، استقبل القبلة وقال: { وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين }، فصرف وجهه عن القبلة قال: { فأينما تولوا فثم وجه الله }، قال : "اضرب به الأرض!"، قال: { مِنْهَا خَلَقْنَاكُم وَفِيهَا نُعِيدُكُم وَمِنْهَا نُخْرِجُكُم تَارَةً أُخْرَى }، قال: "اذبح عدو الله، فما أنزعه لآيات القرآن منذ اليوم". وعندما سأله الحجاج عن رأيه فيه وأصر أن يقول ذلك قال: "إني لأعلم أنك مخالفٌ لكتاب الله تعالى، ترى من نفسك أمورا تريد بها الهَيبة وهي تقحمك الهلكة، وسترد

(1/9929)

غدا فتعلم"(1) .

ولعل المرء المتأمل في هذه الكلمات يرى عظم الثبات في الأمر ومنتهى القوة في الدعوة حيث يقف هذا العالم الشجاع ليُعلن مخالفة هذا الوالي صاحب القهر والبطش والجبروت لكتاب الله دون تردد أو خوف.

وتكاد كتب التاريخ تُجمع على أن سبب الذي زاد من غضب الحجاج على سعيد بن جبير في أثناء محاورته وتذكيره بأشياء صنعها به وأياديه عنده واحتجاجه بها عليه، إلى أنه أجاب الحجاج حين قال له: "فما أخرجك علي؟". قال: "كان لابن الأشعث بيعة في عنقي وأنه عزم

---

(1) حلية الأولياء، ج 4، ص. 295؛ العقد الثمين، ص. 552.

(9930/1)

علي"، فغضب الحجاج من ذلك وقال: "فبيعة أمير المؤمنين أولى"، وأمر به فضربت عنقه(1) .

قال الذهبي بعد أن ذكر هذا وقيل له: لو لم يواجه سعيد بن جبير، فإنه قوى نفسه ولم يعتذر إليه(2) .

ذكر أبو نعيم بإسناده عن خلف بن خليفة عن أبيه قال: "شهدت مقتل سعيد بن جبير؛ لم يكترث فلما بان رأسه، قال: لا إله إلا الله، ثم قالها الثالثة فلم يتمها(3)

---

(1) انظر: المعارف، ص. 446؛ تاريخ الطبري، ج 5، ص. 262؛ وفيات الأعيان، ج 2، ص. 373.

(2) الكامل في التاريخ، ج 4، ص. 580؛ البداية والنهاية،

ج 9، ص. 96 وغيرها من المصادر.

(3) الحلية، ج 4، صص. 290–291؛ البداية والنهاية، ج 9، صص. 96–97.

(9931/1)

. وكان ثابت الجنان عند قتله، لم يكترث ولم يخف، وذلك أنه لما قتله الحجاج، سال منه دم كثير، فاستدعى الحجاج الأطباء وسألهم عنه وعمن قتله قبله: فإنه كان يسيل منهم دم قليل. فقالوا له: هذا قتلته ونفسه معه والدم تبع النفس، ومن كنت تقتله قبله كانت نفسه تذهب من الخوف، فلذلك قل دمهم"(1) .

(1) وفيات الأعيان، ج 2، ص. 374؛ الوافي بالوفيات، ج 10، ص. 207؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج 1، ص. 198؛ شذرات الذهب، ج 1، ص. 110؛ سير أعلام النبلاء، ج 4، صص. 340–341.

(9932/1)

هذا ما كان من أمر ابن جبير واستشهاده. أما إذا ذهبنا لنطالع كيف كان أمر قاتله الحجاج، فسنرى بأن عقله

التبس عليه تماما فور رؤيته لدم ابن جبير المتدفق سريعا، مما جعله ينادي كثيرا: "قيودنا... قيودنا". فظنوا أنه قال القيود التي على سعيد ابن جبير، فقطعوا رجليه من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود(1) . ذلك ما كره سالم الأفسطس أحد تلامذة سعيد رحمه الله. كما يذكر صاحب "الحلية" وغيره أن الحجاج كان يردد بعد قتله سعيد ابن جبير: "مالي ولسعيد ابن

---

(1) الطبري، تاريخ... ، ج 5، ص. 262؛ ابن الأثير، الكامل، ج 4، ص. 580.

جبير". كان هذا منه شعورا بعظم الذنب الذي اقترفه. نقل عن كاتب للحجاج أنه قال: "كنت أكتب للحجاج وأنا يومئذ غلام حديث السن يستخفي ويستحسن كتابتي، فأدخل عليه بغير إذن، فدخلت عليه يوما بعدما قتل سعيد بن جبير وهو قبة لها أربعة أبواب فدخلت عليه يوما بعدما قتل سعيد بن جبير وهو في قبة لها أربعة أبواب فدخلت عليه مما يلي ظهره فسمعته يقول: ما لي ولسعيد بن جبير، فخرجت رويدا وعلمت أنه إن علم بي، قتلني"(1). ولم يعش

الحجاج بعده إلا

---

(1) الحلية، ج 4، ص. 291؛ صفوة الصفوة، ج 3، ص. 85؛ تهذيب الكمال، ج 10، ص. 373.

(9934/1)

يسيرا: فقيل إنه عاش بعده أربعين يوما، وقيل خمسة عشر يوما، وقيل غير ذلك(1) .

أما مكان قتله، فكان في واسط قال الذهبي: "استشهد بواسط"(2) ودفن بها. قال ابن خلكان: "ودفن في ظاهرها وقبره يزار بها رضي الله عنه"(3) .

– أثر مقتله في نفوس العلماء:

---

(1) انظر : الطبري، تاريخ...، ج 5، ص. 262؛ الداودي، طبقات المفسرين، ج 1، ص. 182.

(2) انظر : الجزري، طبقات القراء، ج 1، ص. 306.

(3) وفيات الأعيان، ج 2، ص. 373؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج 1، ص. 198.

(9935/1)

كان لمقتله – رحمه الله تعالى – أثر كبير وبالغ ومؤلم في نفوس العلماء، أولئك الذين كانوا يعظمون التقدير لعلم سعيد ابن جبير؛ حيث قال الحسن البصري لما بلغه الخبر: "اللهم أيت على فاس ثقيف. والله لو أن من بين المشرق والمغرب اشتركوا في قتله، لكبهم الله عز وجل في النار"(1) .

وقال إبراهيم النخعي لما قيل له قتل سعيد بن جبير: "يرحمه الله ما خلف مثله". وقال ميمون بن مهران: "لقد مات سعيد بن جبير وما على الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى

---

(1) وفيات الأعيان، ج 2، ص. 374؛ اليافعي، مرآة الجنان، ج 1، ص. 197.

(9936/1)

علمه"(1) . ونسب بعضهم هذا القول إلى الإمام أحمد – رحمه الله – كابن خلكان واليافعي. والصحيح الثابت هو قول ميمون بن مهران.

هذا، ولقد ذهب البعض إلى الوضع في صفة مقتله، حيث ذهبوا للإضافة والمبالغة، وكان دافعهم لذلك أن تكون مضربا للمثل في قوة اليقين والثبات أمام المحن والثقة بالله تعالى. ولو أنهم

(1) الحلية، ج4، ص. 273؛ ابن سعد، طبقات... ، ج 6، ص. 266، تذكرة الحفاظ، ج 1، ص. 77؛ السيوطي، طبقات الحفاظ، ص. 31 وغيرها من المصادر.

(9937/1)

اكتفوا بكلمات سعيد ابن جبير ومناظرته، على قلتها، لكانت تغني عن كل الذي وضعوه من كرامات وأقوال لم تثبت صحتها. فكلمات ابن جبير القليلة كانت خير مثال لتجسيد جميع معاني المرابطة في ميدان مواجهة الحق للظلم والجبروت والطغيان. ولعل في رموزها أفضل تعبير لصدق اختبار اليقين والثبات.

قال ابن كثير : "وقد رويت آثار غريبة في صفة مقتله أكثرها لا يصح"(1) . ومن ذلك الرواية المشهورة، رواية عون بن أبي شداد العبدي. والرواية بإيجاز شديد: أن الحجاج أرسل إليه قائدا يسمى ابن الأحوص ومع

(1) البداية والنهاية، ج 9، ص. 99.

(9938/1)

عشرون رجلا، وأن راهبا قد دلهم على مكانة في أودية مكة. ولما امتنع سعيد بن جبير من دخول صومعة الراهب وبقي خارجها في الليل، جاءت لبؤة ودنت منه وتمسحت به ثم ربضت قريبا منه؛ وفعل الأسد مثل ذلك ولما أصبحوا وكان الراهب قد رأى ذلك فأسلم. ولما أتى به إلى الحجاج، وضع له اللؤلؤ والياقوت وضرب له بالعود والناي وجرت بينهما محاورة طويلة قبل قتله(1) .

---

(1) راجع: مروج الذهب، ج 3، ص. 173 وما بعدها؛ حلية الأولياء، ج 4، صص. 291–294.

(9939/1)

وقد ذكرها أبو نعيم(1) بأسناد فيه حفص أبو مقاتل السمرقندي وهو معروف بالضعف الشديد(2) ، عن عون بن أبي شداد العبدي(3) الذي كان معروفا بالأخبار الطويلة. ومما يدل على تهافت هذه الرواية وضعفها وعدم صحة سماع أبي مقاتل من أبي شداد العبدي ما ذكره الترمذي. قال:

---

(1) حلية الأولياء، ج 4، ص. 291.

(2) انظر: لسان الميزان، ج 2، صص. 322–323؛ الذهبي،

ميزان الاعتدال، ج 1، صص. 557–558 وج 4، ص. 577.

(3) روى عن أنس وأبي عثمان النهدي وثقه ابن معين وضعفه آخرون (تهذيب التهذيب، ج 8، ص. 171؛ ميزان الاعتدال، ج 3، ص. 306).

(9940/1)

أخبرني موسى بن حزام قال: سمعت صالح ابن عبد الله يقول: كنا عند أبي مقاتل السمرقندي، فجعل يروي عن عون بن أبي شداد الأحاديث الطوال التي كان يروي في وصية لقمان وقتل سعيد ابن جبير وما أشبه هذه الأحاديث، فقال لابن أخي أبي مقاتل: يا عم! لا تقل: "حدثنا عون"، فإنك لم تسمع هذه الأشياء، فقال: "يا بني! هو كلام حسن"(1) . فطريقها – كما نرى – واه ولا يجوز الاعتماد عليها. وقد أنكر الذهبي هذه الرواية بعد أن ساقها بتمامها(2) في

---

(1) انظر: ابن حجر، لسان الميزان، ج 2، ص. 323

(2) سير أعلام النبلاء، ج 4، صص. 328–332.

(9941/1)

ترجمة سعيد بن جبير وقال: هذه حكاية منكرة غير صحيحة رواها أبو نعيم في "الحلية" وذكر أسناد ما عنده. ومما يدل أيضا على ضعفها ووضعها أنه أغفلها أكثر المؤرخين المحققين وجميع كتب الرجال التي ترجمت لسعيد ابن جبير.

خاتمة

لعل الشجاعة والفروسية ورباطة الجأش وثبات الجنان كان من أبرز ما تميز به موقف سعيد بن جبير في محنته أمام الحجاج، حيث استطاع أن يتقلد جميع نياشين القوة والعزة والاقتدار في المواجهة وباستعداد عال، وكأن لسان حاله يردد:

بكرت تخوفني المنون كأنني أصبحت عن عرض الحياة بمعزل

(9942/1)

فأجبتها أن المنية منهل ... لا بد أن أسقى بكأس المنهل ... ولعل مثل هذه الصفات لا تظهر إلا عند من وعى وتربى في مدرسة القرآن وعلومه والإسلام وعقيدته.

لقد كان سعيد بن جبير مؤمنا حقا بما كتب الله عليه. وبلغ من شدة إيمانه بقضاء الله وقدره ما ذكره أبو نعيم بإسناده عن أبي حصين قال: "أتيت سعيدا بن

جبير بمكة، فقلت إن هذا الرجل قادم – يعني خالد القسري – ولا آمنة عليك، فأطعني واخرج ! " فقال : "والله لقد فررت حتى استحييت من الله"، قلت: "والله إني لأراك كما سمتك أمك سعيدا".

(1/9943)

ولقد بقي ابن جبير كما كان، بالرغم من الحصار الذي فُرض عليه في أيام محنته. فها هو يفتر عن نشر العلم، فكان يحدث بأصبهان. قال ابن كثير : "وربما دخل الكوفة في بعض الأحيان، فحدث بها. وكان – رحمه الله – يفتي الناس بمكة لما دخلها أيضا وهو في خوفه".

نعم، هكذا ضرب هذا العالم الشاب والمفسر الورع أعظم الأمثال وأعمقها لجميع أجيال الدعوة بعده في إشعال روح المقاومة العنيفة والاستماتة على الحق ومنازلة الباطل والمنكر؛ إذ كان شديدا في الدعوة لدين الله ونشر العلم، مهما تعقدت الظروف والمحن أمام الداعية الذي يجب

(1/9944)

أن يرابط حتى نفسه الأخير في ميادين قهر الظلم والشرك والمنكر وتصحيح عقائد الناس وبكل ما أوتي من قوة إيمان وثبات جنان.

نعم، لقد احتوى سعيد بن جبير جميع المواقف القدرية العصيبة عندما وقف يناظر الحجاج حيث أخذ يصول بالحق ليذود عنه بكل ما يستطيع حتى أدى به الأمر أخيرا إلى استرخاص دمه من أجل الدفاع عن العقيدة وحماية الإيمان واليقين.

...

(1/9945)

سياسة صلاح الدين الدفاعية عن مصر في البر والبحر ضد قوى الصليبيين

الدكتور السيد عبد العزيز سالم
جامعة الإسكندرية – كلية الآداب

... يرجع الفضل الأعظم في تأسيس الدولة الأيوبية بمصر واستمرارها زهاء ثمانين عاما إلى شخصية السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب القوية وحنكته السياسية ، وقدراته العسكرية العالية ، وجهاده

المتواصل ضد قوى الصليبيين عن طريق توحيده للجبهة الإسلامية ، وجمعه لشمل المسلمين في مصر والشام والجزيرة ، ونجد الحجاز واليمين ، وتأليف كلمتهم ، وحسم مادة الفتن بينهم تجنبا لتمزق

(1/9946)

صفوفهم ، وضمانا لموقف موحد أمام حركات الصليبين التوسعية في بلاد الشام و أطماعهم في مصر (1) .

... كان صلاح الدين يدرك تمام الإدراك منذ أن أسند إليه الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله (17 رجب 555 هـ ... / 11 محرم 567 هـ) الوزارة في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة 564 هـ ، أن المواجهة العسكرية مع الصليبيين تحتم عليه النظر في تحصين القاهرة ودعم النظام الدفاعي في هذه المدن أمام أي غزو صليبي محتمل ، فقد

---

(1) محمد مصطفى ، تصدير الكتاب نور الدين والصليبيون للدكتور حسن حبشي ، القاهرة 1984 ، ص . 3 .

(1/9947)

كانت الحملتان اللتان قام بهما عموري ملك بيت المقدس (أملريك الأول) استجابة لدعوة شاور بن مجير السعدي لحمل النوريين على انسحاب من مصر في عامي 559 هـ ، 564 هـ درسا لم ينسه ، ولعل ما كان يعرفه عن النظم الدفاعية القوية للمسلمين في بلاد الشام مثل قلاع حلب وشيزر والدعوة(1)، وما كان للصليبيين في القدس وسواحل الشام من معاقل وحصون منيعة كحصون وقلاع

(1) هي إقلاع الكهف ، ومصياف والمنيقة والعليقة والقدموس والرصافة (ارجع إلى السيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، بيروت 1968 ، ص . 772)

(9948/1)

الأكراد والكرك والمرقب وبانياس وصنجيل وشقيف أرنون وتبنين وغيرها ، وإحاطة مدنها الهامة بأسوار قوية تحميها من أي عدوان خارجي ، ما دفعه إلى التفكير جديا في تدعيم أسوار القاهرة الفاطمية بمزيد من الأسوار والأبراج وتزويد القاهرة بقلعة منيعة تتحكم

في الدفاع عن القاهرة من جهة الشرق إذا ما تعرضت لأي اعتداء صليبي ، هذا بالإضافة إلى إنشاء قلاع أخرى يمكن إقامتها في مدخل مصر الشرقي بسيناء مثل سدر وقلعة أيلة (1) ، وتجديد بنيان أسوار الإسكندرية ودمياط التي تصدعت لا سيما

---

(1) كانت تعرف أيضا بقلعة جزيرة فرعون .

(1/9949)

أسوار الإسكندرية الجنوبية التي تفتحت بحكم التوسع العمراني من تلك الجهة ، فقد كان يخشى أن تتعرض القاهرة لغزو صليبي محتمل كما حدث في الحملتين الصليبيتين سالفتي الذكر ، وكذلك الإسكندرية التي تعرضت للحصار الصليبي في سنة 562 هـ وكذلك لحملة وليام الثاني صاحب صقلية في ذي الحجة من سنة 569هـ ، والحملة الصليبية على دمياط في سنة 566 هـ أما أسوار القاهرة الفاطمية فكانت أجزاء كثيرة منها تخربت ، وتفتحت المدينة في هذه القطاعات للداخلين إليها والخارجين منها بسبب التوسع العمراني خارج النطاق المسور ، مما أدى إلى

(1/9950)

إقدام الأهالي على فتح ثلمات واسعة بهذه الأسوار لتيسر لهم الاتصال المباشر بين الداخل والخارج .

... وهكذا قرر صلاح الدين وهو بعد وزير للخليفة العاضد بناء سور ضخم يحيط بالقاهرة ويطوق الفسطاط ، ويدور بعد ذلك مع مجرى النيل شمالا ليرتبط بالأطراف الغربية من السور الشمالي . وشرع الأمير بهاء الدين قراقوش بن عبد الله المكي الناصري في بناء السور المذكور بالحجارة في سنة 566 هـ / 1170 م ، وبدأ قراقوش بمد السور الشمالي غربا من باب القنطرة إلى باب الشعرية فباب البحر حيث بني برجا عرف ببرج المقس أو قلعة قراقوش.

(1/9951)

وكان مشروع صلاح الدين يقضي بمد السور الشمالي شرقا إلى برج الظفر ومنه جنوبا إلى القلعة التي كان ينوي إنشاؤها ، ثم جنوبا ليحيط بالفسطاط وينتهي عند ضفاف النيل ، ثم يصعد شمالا ليلتقي عند قلعة قراقوش ببرج المقس. ولكن هذا السور الأخير لم يقدر له أن يقام اكتفاء بمجرى النيل ، و

إن كان أحد الباحثين المصريين يؤكد أن صلاح الدين نفذ تأسيسه لهذا القطاع الدائر من النيل إلى النيل مع بناء القلعة منذ عام 572 هـ (1176 م) استنادا إلى نص أورده المقريزي في الخطط و أبو شامة في الروضتين (1)

---

(1) علي محمد سليمان المليجي ، تحصينات صلاح الدين الدفاعية بمصر قبل حطين ، بحث مقبول للنشر بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ص . 13 ومايليها .

(9952/1)

وأياما كان الأمر فالمتفق عليه بين مؤرخي العصر الأيوبي أن هذا المشروع لم يتم في عهد الناصر صلاح الدين أبو بكر وابنه الملك محمد وبدأت أعمال البناء في سور القاهرة كما سبق أن أشرت في عام 566 هـ ، وكان بهاء الدين قراقوش يستخدم في بنائه خمسين ألف أسير من أسرى الفرنج وكان يجلب له الأحجار من أهرامات صغيرة مهدمة بالجيزة ، وأول ما أنجزه قراقوش قيامه بتعمير أسوار القاهرة التي كان قد أسسها أمير الجيوش بدر الجمالي ومد حدودها الشمالية غربا من باب

القنطرة إلى باب الشعرية إلى برج المقدس ، وكذلك مد الأسوار

(1/9953)

الشمالية شرقا إلى برج الظفر فجنوبا إلى القلعة التي شرع في بنائها في سنة 572 هـ (1)

---

(1) عن بناء أسوار القاهرة والقلعة أرجع إلى المقريزي ، كتاب المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة بيروت ،منشورات مكتبة العرفان ، ج 2 ، ص . 200 ، وما يليها ؛ Greswell, " . Some researches in the citadel of cairo ", 23B.J.A.O. , N° . بول كازانوفا ، تاريخ ووصف قلعة القاهرة – ترجمة الدكتور أحمد السيد دارج ، القاهرة ، 1974 ؛ عبد الرحمان زكي ، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ، القاهرة ، 1960 ؛ أحمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها في العصر الأيوبي ، ج 2 ، القاهرة 1969، ص . 22 – 29 علي محمود المليجي ، تحصينات صلاح الدين الدفاعية بمصر قبل حطين ، بحث مقبول للنشر بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية .

(1/9954)

(1176 / 1177 م) وفرغ من بنائها في حدود عام 579 هـ واستكمل السلطان العادل وابنه السلطان الملك الكامل محمد بنيانها . وقد سجل صلاح الدين تواريخ أعماله وما تم منها أولا بأول ومن هذه النقوش لوحة على باب القرافة نطالع فيها النص التالي (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الباب المبارك والسور المتصل به الملك الناصر جامع كلمة الإيمان قامع عبدة الصلبان صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شادي محيي دولة المؤمنين في شهور سنة ست وسبعين وخمسمائة) . وهناك لوحة أخرى

(9955/1)

مثبتة داخل باب المدرج وهو الباب الشمالي المقابل لباب القرافة نطالع فيها ما يلي : (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة بالعزمة التي جمعت نفعا وتحسينا وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصينا مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده الملك العادل

سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المومنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الله المكي الناصري في سنة تسع وسبعين وخمسماية) (1)

---

(1) Wiel G , Combe E et Sauvage J , Répertoire chronologique d'Epigraphie Arabe , Le caire , 1931 -1944.

(1/9956)

... هذا وقد أولى صلاح الدين عناية بتحصين ثغري الإسكندرية ودمياط باعتبارهما مصدر الخطر على مصر ، ومحط أنظار المغيرين الفرنج على وجه الخصوص ، ولمس صلاح الدين هذا الخطر بنفسه عندما هاجم الصليبيون بالاشتراك مع البيزنطيين ثغر دمياط بحرا في عام 565 هـ ، وكان صلاح الدين ما يزال بعد وزيرا للعاضد ، وكذلك عندما هاجم أسطول النورمان بصقلية ثغر الإسكندرية في عام 569 هـ في أعقاب سقوط الخلافة الفاطمية ، ولهذا السبب كان صلاح الدين يتردد على هذين الثغرين معا لتفقد أعمال التحصينات فيهما، فقد زار دمياط في شعبان

(1/9957)

سنة 572 هـ بصحبة ولديه الأفضل علي والعزيز عثمان وكاتبه العماد الأصفهاني فمكث بها أياما أصدر خلالها أمره بتحصين الثغر وإقامة برجين به و إحاطة المدينة بسور وخندق (1) ثم رحل منها إلى الإسكندرية حيث أشرف بنفسه على ترميم أسوارها ، وعزم في سنة 577 هـ قبل خروجه إلى الشام ليبدأ جهاده الأعظم ضد قوى الصليبيين على زيارة دمياط والإسكندرية ليستوثق من مناعة أسوارها كما أرسل رجاله في هذه

(1) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، القسم الأول ، تحقيق د . مصطفى زيادة ، القاهرة ، 1956 ، ص . 111 –138 .

السنة إلى تنيس لعمارة قلعتها و أسوارها (1) وكتب إلى دمياط يأمر واليها بترتيب المقاتلة على برجها الذي كانت تمتد منه سلسلتان أحدهما تتجه على النيل إلى دمياط على الضفة الشرقية ، والأخرى تتجه إلى جيزة دمياط على الشاطئ الغربي المواجه لدمياط ، فإذا ما امتدت السلسلتان امتنع على المراكب العبور من فرع

دمياط، وكان هذا البرج مفتاح دمياط.

... وإلى صلاح الدين ينسب بناء قلعة رأس الجندي بسيناء التي تبعد نحو خمسة كيلومترات إلى الشمال الشرقي من عين سدر ، وهو موقع هام كان

---

(1) المقريزي ، السلوك، ج 1 ، ص . 72 .

(1/9959)

يتحكم في طريق الحج القديم ، و أقيمت هذه القلعة في سنة 583 هـ (1187 م) استنادا إلى نقش كتابي أورده نعوم شقير في كتابه الموسوم بـ " تاريخ سيناء والعرب " ونصه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على محمد خلد الله ملك مولانا الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين يوسف بن...العادلي الناصري في جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة)(1)

---

(1) نعوم شقير ، تاريخ سيناء والعرب ، القاهرة 1916 م ، ص . 533 . وانظر حسان سعداوي ، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الأيوبي ، القاهرة 1957 م ، ص . 34 . وتختلف قراءة مؤلفي كتب : Rep . Chron ., vol IX عن القراءة المذكورة بالمتن ، فقد قرأوه

كمايلي : (بسم الله ةصلى الله على محمد خلد الله ملك مولانا الناصر صلاح الدنيا والجين وسلطان الإسلام والمسلمين أبو ... المظفر يوسف بن أيوب خليل أمير المؤمنين عمر هذين البرجين – الباب المبارك وهذا الجامع لله صنع إبراهيم بن أبي بكر بن سحسكان العادلي الناصري في جمادى الآخرة ثلاث وتمانين وخمس ماية) وانظر أيضا في ذلك :

in , " Salah el Dins fort in Sinai " , Hassan sadik Bulletin de l'institut d'Egypte , T. II , Le Caire , 1919 -1920 : P , 113.

(1/9960)

. كما عثر على نقوش أخرى أحدها بصهريج الجامع المقام بالقلعة ، وفي وجه المحراب نقش كتاني متآكل .

... وعلى أحد بابي الصهريج سد من حجر نقش عليه النص التالي : (بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد خلد الله ملك مولانا الناصر صلاح الدنيا والدين ملك الإسلام والمسلمين خليل أمير المؤمنين عمر هذا الصهريج والجامع على بن الناصري العادل المظفر الملك ...وكان فراغه شهر شعبان تسعين وخمس ماية (1) .

(1) نظير حسان سعداوي ، المرجع السابق ، ص . 36 .

(1/9961)

... أما قلعة إيله (1) المعروفة بقلعة جزيرة فرعون ، أو جزيرة القلعة (2) فتقع بخليج العقبة على مسافة تبلغ نحو 13 كم. جنوبي العقبة . وقد أجريت في موقع القلعة حفريات أثرية أسفرت عن كشف لوحة عليها نقش كتابي بالخط الكوفي البسيط يرجح أنه من العصر الطولوني ، ولوحة نقش عليها نص يحمل تاريخ الإنشاء وإن كان مبتورا ، واسم " الأمير حسام الدين " وشهر " شعبان

(1) ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق دكتور جمال الدين الشيال ، ج 1 ، القاهرة 1953 ، ص . 199 .

(2) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج 2 ، ص . 127 .

(1/9962)

" ، ويعتقد أحد الباحثين الحديثين أن اسم حسام الدين يدعو إلى التفكير في الأمير حسام الدين لؤلؤ قائد أسطول صلاح الدين الذي أنزل بقوات أرناط صاحب إمارة الكرك الصليبية هزيمة نكراء في موقعة الحوراء سنة 578 هـ التي سنعود إلى الحديث عنها (1) .

... ومن الجدير بالذكر أن صلاح الدين خص مدينة الإسكندرية بعنايته واهتمامه إذ كان للمشاعر الطيبة التي عبر عنها أهل الإسكندرية نحو صلاح الدين في سنة 562 هـ أثناء قيام شاور وحلفائه الفرنج بحصاره في

---

(1) علي محمود المليجي ، تحصينات صلاح الدين الدفاعية بمصر قبل حطين .

(9963/1)

الإسكندرية ، وما بذلوه من تضحيات أدبية ومادية وما قدموه إليه من أموال وأسلحة وأقوات أثر عميق في نفسه أكده مرة أخرى تصديهم لحملة النورمان على الإسكندرية في 16 ذي الحجة سنة 569 وتفانيهم في محاربة قوات وليم الثاني النورمندي صاحب صقلية ، هذا بالإضافة إلى ما عرف عنهم من نفورهم من التشيع ومناهضتهم له أيام الفاطميين ، وتأصل المذهب المالكي

بها وتردد كثير من المغاربة عليها للسماع على شيوخها و أشهرهم أبو الطاهر إسماعيل بن عوف الزهدي (ت 581 هـ) ، وأبو علي سند بن عنان (ت 541 هـ) والحافظ السلفي (ت 576

(1/9964)

هـ) وأبو القاسم بن مخلوف المغربي الإسكندري (ت 533 هـ) يضاف إلى ذلك أن الإسكندرية كانت قد سبقت القاهرة والفسطاط في قطع الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد (1) .

... ففي 21 شعبان سنة 566 هـ زارها صلاح الدين ، وأمر أثناء زيارته لها بعمارة أسوارها وأبراجها و أبدانها (2)

---

(1) بو شامة ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ، 1956 ، ج 2 ، ص . 504 .

(2) أبو شامة ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص . 486 ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج 1 ، ص . 199 ؛ المقريزي ، كتاب المواعظ والاعتبار ، ج 2 ، ص . 171 .

(1/9965)

، وعند زيارته الثانية لها في سنة 572 هـ كملت عمارة السور ، وعند زيارته لها في سنة 577 هـ ، خيم عند السواري جنوبي الإسكندرية وشاهد الأسوار التي جددها (1) .

... ولم يكن اهتمام صلاح الدين بالأسطول والدفاع البحري أقل من اهتمامه بالتحصينات والدفاع البري ، بل كان يفوقه ويزيد عليه وذلك لأن صراعه مع قوى الصليبيين على الساحل الشامي واستعانة هؤلاء بالجنوبية حينا والبنادقة والبيازنة حينا آخر كان يتطلب منه الاهتمام

---

(1) أبو شامة ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص . 689 ؛ ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج 2 . ص . 112 .

(9966/1)

الزائد بالأسطول والحرص على إنشاء قوة بحرية ضاربة يمكن أن تصمد وتهاجم. ومن مظاهر هذا الاهتمام أنه أثناء زيارته للإسكندرية في سنة 577 هـ لم يتردد في إصدار أوامره بتعمير الأسطول وتقرير ديوانه الذي تولاه أخوه العادل (1) ، وعين للإنفاق عليه وصناعة

قطعه نواحي عديدة . من الحراج في البهنساوية وسفط ريسين والأشمونين والأسيوطية والأخميمية والقوصية (2)

---

(1) أبو شامة ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص . 689 ؛ ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص . 690 ؛ المقريزي ، السلوك ، ج 1 ، ص . 63 .

(2) المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، ج 3 ، ص . 11 ، وقد أسند صلاح الإشراف على هذا الديوان إلى أخيه العادل أبي بكر فأقام على مباشرته صفي الدين عبد الله بن شكر (المصدر نفسه ، والصفحة نفسها) .

(1/9967)

وفي تعمير الأسطول وتقرير ديوانه يقول أبو شامة نقلا عن أبي طي أن السلطان لما اعتزم المقام بالإسكندرية ليصوم فيها " رأي أنه لا يخلى نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد إلى بلاد الكفار والجهاد في المشركين ، فرأى الأسطول ، وقد أخلفت سفنه ، وتغيرت آلاته ، فأمر بتعمير الأسطول ، وجمع له الأخشاب والصناع أشياء كثيرة ولما عمل المراكب أمر بحمل الآلات ، فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليه، وشحنه

بالرجال ، وولى فيه أحد أصحابه ، وأفراد له إقطاعا مخصوصا وديوانا مفردا ، وكتب إلى سائر البلاد يقول قول صاحب

(1/9968)

الأسطول ،وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج إليه ، وأمر صاحب الأسطول أن لا يبارح البحر ويغزى إلى جزائر البحر (1) . ولم يمض عام واحد على تعمير الأسطول حتى أصبح للإسكندرية أسطول ضخم ، وقد أسهم هذا الأسطول بقيادة الحاجب أمير البحر حسام الدين لؤلؤ في مهاجمة أيلة 578 هـ وتتبع مراكب الفرنج عند عيذاب (2) ، ولعب هذا الأسطول دورا هاما في التصدي لسفن الحملة الصليبية الثالثة التي اشترك فيها ثلاثة من كبار ملوك أوروبا في ذلك

---

(1) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج 1 ، ص . 690 .

(2) المقريزي ، السلوك ، ج 1 ، ص . 79 .

(1/9969)

الوقت هم ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب أوجستوس ملك فرنسا وفريدريك بربروسا إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، فعندما حاصر الصليبيون عكا حصارا محكما من البرو البحر أرسل صلاح الدين خمسين قطعة بحرية من أسطول مصر إلى عكا بقيادة أمير البحر حسام الدين لؤلؤ الحاجب في منتصف ذي القعدة سنة 585 هـ (1189 م) فاستظهر أهل عكا المسلمون بهذه السفن المصرية وأهم بعض السباحين والغواصين من المسلمين في الغطس وسط أساطيل الصليبيين للاتصال بأهل عكا المحاصرين، وحاولت بسطة مصرية اختراق الحصار البحري الصليبي حول

(9970/1)

عكا في سنة 586 هـ وتوصيل بعض الأقوات إلى حامية المدينة ولكن السفن الإنجليزية أحدقت بها ، واضطر البحريون المسلمون وعددهم سبعمائة إلى إغراقها حتى لا تقع غنيمة في أيدي الصليبيين (1) .

... وحاول صلاح الدين أثناء الحصار الصليبي لعكا سنة 586 هـ (1190 م) الاستعانة بالأسطول الموحدي القوي في المغرب ، فأرسل سفارة يرأسها عبد الرحمن بن منقذ إلى الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور يلتمس منه

مساندة بحرية ، ويذكر أحد المؤرخين أن المنصور أمد صلاح الدين بمائة وثمانين

---

(1) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج 1 ، ص . 352 .

(9971/1)

سفينة حربية (1) بينما يذهب أبو شامة إلى القول بأن المنصور رفض طلب صلاح الدين لأنه لم يلقبه في رسالته بلقب أمير المؤمنين (2) . ونميل إلى الاعتقاد بأن المنصور الذي عرف بحبه للجهاد كان يقدر الجهود الهائلة التي يبذلها صلاح الدين في التصدي لقوى الصليبيين في الشرق الأدنى الإسلامي ، وكان هو نفسه أي المنصور يواجه نفس الصراع في المغرب والأندلس ، وأعتقد أنه لم

---

(1) السلاوي الناصري ، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ،الدار البيضاء 1954 ، ج 2 ، ص . 162 ومايليها .

(2) أبو شامة ، الروضتين ، ج 2 ، ص . 175 .

(9972/1)

يضن عليهم ببدل العون ، فقد عرف المغاربة بمهارتهم في قيادة السفن والملاحة في البحر منذ عصر مبكر وذاعت شهرتهم في الجهاد البحري في العصر الأيوبي ، فكان البحريون منهم موضع احترام للناس وتبجيلهم ، فكان يقال لهم المجاهدون في سبيل الله والغزاة في أعداء الله ، ويتبرك الناس بدعائهم (1) وكان قد اشترك منهم عدد كبير في مهاجمة مراكب الصليبيين عند عيذاب (2) وقت تعرضها لعدوان أرناط ، واستعان الحاجب حسام الدين

---

(1) المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، ج 3 ، ص 111 .

(2) ابن جبير ، الرحلة ، تحقيق ويليم رايت ، ص . 59 .

(9973/1)

لؤلؤ بجماعة من أنجادهم في مراكب عمرت من مصر والإسكندرية في مهاجمة مراكب الفرنج وحرقها وأسر من كان بها (1) . وفي تصوري أن المنصور الموحدي أمد صلاح الدين ببعض سفنه ، فلم يكن في إمكانه غير ذلك تلبية لداعي الجهاد واعتذر لصلاح الدين عن عدم إمكانه مساعدته بأكثر من ذلك لتعرض سواحل بلاده هو الآخر لاعتداءات صليبية ضارية لا سيما من القوى الصليبية

الوافدة في السفن من شمال أوروبا وغربها ، في طريقها إلى شرق البحر المتوسط، وكانت مملكة البرتغال أكثر الممالك

---

(1) المقريزي ، السلوك، ج 1 ، قسم 1 ، ص . 59 .

(9974/1)

المسيحية في إسبانيا ضراوة في محاربة الموحدين وأكثر خطرا على الإسلام في الأندلس وكان ألفونسو أنريكث وولده سانشو الأول ملك البرتغال يستعينان بالحملات الصليبية المارة بسواحل غرب الأندلس في محاربة المسلمين (1)، ففي سنة 586 هـ وصل إلى ميناء أشبونة أسطول صليبي ضخم يتألف من خمسين وقيل ستين تحمل عشرة آلاف مقاتل تجمعوا من ولايات الرين واللورين وفريرلاند وانضمت إلى الأسطول

---

(1) سحر السيد عبد العزيز سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية أو غرب الأندلس في العصر الإسلامي، ج 2، التاريخ السياسي، الإسكندرية 1991، ص.191.

(9975/1)

الصليبي الإنجليزي الراسي في مياه أشبونة ولم يجد سانشو الأول فرصة أفضل من هذه لتنفيذ أطماعه، فرحب بالصليبيين وطلب مهم أن يعينوه على فتح المزيد من بلاد الأندلس، وصور لهم أنهم يخدمون بذلك الحركة الصليبية ونجح في إقناعهم بنصرته فطوقوا شلب من كل جهة واستولوا عليها بعد ثلاثة شهور من بدء الحصار (1).

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، القسم الثالث، تحقيق أويني ميراندا ومحمد بن تاويت ومحمد الكتاني، تطوان، 1963، ص.175؛ وانظر Primera Cronica general, de Expana, ed Menendez- Pidal, Madrid, 1977. P 652.

(1/9976)

... أما بالنسبة للبحر الأحمر، فقد كان صلاح الدين يحرص منذ تأسيسه للدولة الأيوبية وربما قبل ذلك عندما كان وزيرا للعاضد، على السيطرة على تأمين الملاحة في هذا البحر للسفن الإسلامية، إذ كان قيام إمارة الكرك الصليبية حافزا على بذل مزيد من الجهود لتنفيذ سياسته في البحر الأحمر سواء ما يتعلق بالتجارة

الشرقية أو بسلامة الحجاج الذين كانوا يسلكون منذ أن سيطر الصليبيون على المناطق الجنوبية من الشام الطريق النهري عبر النيل إلى قوص ومنها في الصحراء الشرقية عبر وادي العلاقي إلى ثغر عيذاب (1)

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن عيذاب ودرب الحج عبر وادي العلاقي، أنظر : السيد عبد العزيز سالم، البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي ، الإسكندرية ، 1993.

(9977/1)

، ومن عيذاب بالسفن المعروفة بالجلاب إلى جدة (1) وتحول درب الحج بذلك من سيناء إلي عيذاب، ولتأمين الملاحة في البحر الأحمر، وقصره على خدمة المصالح الإسلامية كان لزاما عليه التصدي لكل محاولة للعبث في هذا البحر والبطش بأي قوة صليبية تقدم على التسلل إلى عمق هذا المعبر المائي الهام اقتصاديا واستراتيجيا. ولهذا حرص على تحصين مدخل البحر الأحمر

---

(1) استمر طريق قوص – هيذاب الطريق التقليدي لأداء فريضة الحج حتى سنة 666 هـ عاد بعدها إلى سيناء (ابن

إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج أ، القاهرة ، 1982، ص .20.

(9978/1)

الشمالي بالسيطرة على قلعة أيلة التي كان الصليبيون قد اتخذوها لاعتداءاتهم المتكررة منذ أن أسسها بلدوين ملك بيت المقدس في سنة 510 هـ وحصنها وبنى قلعة أخرى منيعة في جزيرة فرعون القريبة من الساحل فأصبحت هي وقلعة أيلة تتحكمان في القوافل المارة بين مصر والشام والحجاز، ولم يتردد صلاح الدين في مهاجمتها والاستيلاء عليها في سنة 566، وكان الفرنج قد بالغوا في تحصينها منفذا لهم على البحر الآخر سنة 566، وكان الفرنج قد بالغوا في تحصينها لتكون منفذا لهم على البحر الأحمر، وشحنوها بحامية منهم، فعمر لها صلاح

(9979/1)

الدين عدة مراكب بالقاهرة، حملت إلى ساحل أيلة على ظهور الجمال، وركبها الصناع هناك، وشحنها بالمقاتلة

،و زحف إلى القلعة، فافتتحها في العشر الأول من ربيع الآخر واستباح أهلها قتلا وأسرا، وملأها بالعدد والعدد (1) كما بسط سلطانه على الحجاز لتأمين سلامة الحجاج الذين يركبون البحر من ثغري عيذاب والقصر إلى الحرمين الشريفين، وبقي المنفذ

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، جأ، القاهرة، 1953، ص.199؛ أبو شامة، الروضتين، ج 2، ص.486؛ المقريزي، المواعظ والإعتبار، جأ، ص.327؛ اتحاظ الحنفا، تحقيق محمد حلمي أحمد، ج3،ص.320.

(9980/1)

الجنوبي للبحر الأحمر في حوزة أهل اليمن إلى أن أغلقوه تماما أمام الصليبيين، وتحول هذا البحر إلى بحيرة إسلامية بعد أن أرسل صلاح الدين من عيذاب حملة بحرية إلى اليمن بقيادة أخيه توران شاه سنة 569 هـ (1174) مكنت صلاح الدين من السيطرة الفعلية على هذا البحر والتحكم في مدخليه الشمالي والجنوبي (1).

---

(1) أبو شامة، الروضتين، ج أ، ص.214–243؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص.486 – 493 ؛ محمد عبد العال، بنو

رسول وبنو طاهر، علاقات اليمن الخارجية في عهدها، الإسكندرية، 1980، ص.377، وما يليها.

(1/9981)

... غير أن البرنس أرناط (Renaud de Chantillon) صاحب حصن الكرك أخذ يسعى منذ تولية بارونية الكرك للترصد للمسلمين والاعتداء عليهم ثم تطلع إلى ما هو أخطر من ذلك وهو مهاجمة الأراضي الإسلامية المقدسة في الحجاز، ففي سنة 598 هـ أعد سفنا تم صنعها في الكرك ثم حملت إلى شاطئ البحر الأحمر وشحنها بالرجال، وأبقى منها مركبين على حرزة قلعة أيلة لمنع أهلها من استقاء الماء، أما بقية السفن الصليبية فقد أقلعت إلى عيذاب، وهاجمت في طريقها إليها سفنا إسلامية، فقتل الصليبيون وأسروا عددا كبيرا من المسلمين، وأحرقوا ستة

(1/9982)

عشر مركبا، ثم حلوا بعيذاب، فاستولوا على مركب كان ينقل حجاجا قادمين من جدة، فوقعوا في أسر

الصليبيين، ولم يكتف أرناط بما اقترف رجاله بل أمعن في عدوانه على عيذاب، فقد تقدم عسكره في عمق بريتها، وسلكوا الطريق المؤدية إلى قوص، فهاجموا قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب، وأبادوا من كان بها منهم، ثم عاودوا مهاجمة عيذاب، فباغتوا أهلها بالهجوم، ولم يكونوا قد شهدوا بهذا البحر فرنجيا فقط لا تاجرا، ولا محاربا وسطوا على مركبين قادمين من اليمن مشحونين بالبضائع، فانتهبوا أسواق المدينة، واستولوا على

(1/9983)

أقوات كانت معدة لميرة الحرمين، ثم أقلعوا بسفنهم شمالا تجاه المدينة يهدفون مهاجمتها وهدم الحرم المدني. فلما بلغت هذه الأنباء مسامع الملك العادل أبي بكر، بادر بإعداد حملة بحرية بقيادة أمير البحر الحاجب حسام الدين لؤلؤ الذي بادر بتعمير عدد من مراكب بمدينة القلزم على وجه السرعة، انضمت إليها بضعة مراكب كانت قد عمرت بمصر وإسكندرية، وقسم حسام الدين لؤلؤ أسطوله إلى قسمين : قسم وجهه لحصار حصن أيلة، تمكن من الظفر بعدد من مراكب الفرنج وأسر

المسلمون من كان فيها من المقاتلة، أما القسم الأعظم من أسطول

(9984/1)

المسلمين فقد أقلع إلى عيذاب وأدركت سفن المسلمين سفن الفرنج بعد أيام عند ساحل الحوراء، فترك المسلمون سفنهم، وركبوا خيول العرب وطاردوا من فر من الفرنج وتم القبض عليهم وساق لؤلؤ اثنين منهم نحرهما في منى كما تنحر البدن، وعاد لؤلؤ ببقية الأسرى إلى عيذاب، ثم ساقهم إلى قوص ومنها إلى القاهرة (1)

---

(1) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج 11، ص.490؛ أبو شامة، الروضتين، ج2، ص.36–37؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص.127–131؛ ابن أبيك الداوداوي، كنز الدرر وجامع الغرر،تحقيق سعيد عاشور، ج7، القاهرة، 1973، ص.71–72؛ المقريزي، السلوك، جأ،ص.79؛ Kamarer, La Mer Rouge, T.I, pp .59–62. ؛ يوسف غوانمة، "رؤية في مفهوم الأمن القومي في عهد صلاح الدين"، مجلة المؤرخ المغربي، العدد 43،1990، ص.93–94.

(9985/1)

وقد شاهد ابن جبير موكب أسرى الفرنج بثغر الإسكندرية إثر نزوله بها في ذي الحجة سنة 578هـ (1).

... وهكذا كانت سياسة صلاح الدين الدفاعية عن مصر خيرا عليها، فقد حفظت لها مكان الصدارة بين دول المواجهة للحركة الصليبية في الشرق الأدنى الإسلامي وقدر لمصر أن تتولى تطهير بلاد الشام من السيطرة الصليبية، وأن تخلص العالم الإسلامي مستقبلا من السيطرة المغولية في عين جالوت

---

(1) ابن جبير، الرحلة،ص.58-60.

(9986/1)

شركة الهند الشرقية: الملامح والسمات

... ... الدكتور مصطفى عبد القادر النجار

... ... بغداد

... تركت شركة الهند الشرقية الإنجليزية عدداً

"ضخماً" للغاية من الوثائق والسجلات منظمة تنظيماً "دقيقاً" يفوق حد التصور.

... وذلك أن الشركة كانت تحرص على تدوين محاضرها بعناية فائقة ولم تترك شاردة أو واردة إلا وقد ثبّتت أحداثها.

... وقد شمل التسجيل الاقتراحات والمناقشات والاحتمالات المختلفة التي يتصورها المشرفون الرسميون على الشركة. وهذا أعطى وثائق شركة الهند الشرقية ميزة مهمة

(9987/1)

انفردت بها عن محاضر الهيئات الأخرى كمجلس العموم ومجلس اللوردات والمجلس الملكي والاجتماعات الوزارية السرية التي بادرت إلى عقدها الدولة البريطانية في أوقات مختلفة(1).

... ولم تقتصر وثائق شركة الهند الشرقية على القضايا التجارية التي هي الطابع المميز للشركة، بل تعدتها إلى الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وهذا ما دفع كرانت دوف ((Grant Duf إلى أن يصف سجلات الهند الشرقية بأنها

---

(1) Joan C. Lancaster, “The India Office Records ”, in Journal of the British Association, Vol. IX, N°. 130, p. 43.

(1/9988)

“أفضل مادة تاريخية في العالم”(1).

... وعليه، يمكن القول إن أية دراسة وثائقية لأي وجه من أوجه الحياة في آسيا خلال الوجود البريطاني لا يمكن أن توصف بأنها دراسة متكاملة وأصيلة ما لم تعتمد على معلومات شركة الهند الشرقية.

... وعلى الرغم من كل هذا، فإن المطلوب من الباحث أن يعي أن تلك المعلومات قد وضعت لخدمة أهداف محددة. فلا يمكنه ـ والحالة هذه ـ من الانسياق معها دون أن يكون حذراً، مضاعفاً الجهد ليتأكد من صحتها وقيمتها العلمية(2)

---

(1) Best Historical Materials in the World.

(2) **لقد نظم تقويماً ممتازاً أصدره في كتاب عام** 1918 **على درجة كبيرة من الدقة والتنظيم لوثائق الشركة مصنفة حسب السنوات بدءاً بعام** 1600 **حتى عام** 1640،

هي بعنوان:

A Supplementary Calendar of Documents in the India Company 1640–100, London, 1928.

(9989/1)

.

... وبغية الوقوف على طبيعة شركة الهند الشرقية، لابد من أن نعرض لها عرضاً عاماً يوضح ماهية أعمالها ونشاطاتها والآثار التي تركتها، ولا سيما أنها أدت دوراً عظيماً في الحياة السياسية والاقتصادية للمنطقة خلال حقبة من الزمن تجاوزت القرنين والنصف وأدت في النهاية إلى تأسيس حكومة الهند البريطانية(1).

... إن تأسيس شركة الهند الشرقية جاء نتيجة للتوسع التجاري الذي شهدته إنجلترا في النصف الأخير من القرن السادس عشر بعد انتصار الإنجليز على الأسطول الإسباني في معركة أرمادا عام 1588، حيث

---

(1) **وذلك عام** 1858.

(9990/1)

اندفع الإنجليز للبحث عن أسواق جديدة لتجارتهم المتنامية. وكانت عمليات الاستغلال الناجحة التي قام بها البرتغاليون في الشرق قد هيأت المزيد من الدوافع والمحفزات للإنجليز لأن يستغلوا فرص توسيع تجارتهم.

... ففي عام 1599 تقدم نفر من التجار الإنجليز بطلب إلى الملكة إليزابيث للموافقة على تخويلهم حق ممارسة التجارة في الشرق.

... وقد صدر مرسوم ملكي بالموافقة عام 1600 عدَّ بمثابة الحجر الأساسيّ لقيام شركة الهند الشرقية تحت اسم "شركة حكام وتجار لندن للعمليات التجارية في الهند والأقطار المجاورة".(The

(1/9991)

Governor and Company of Merchants of London Trading into the East Indies)، وأعطى الحق للشركة في احتكار التجارة في الشرق مدة 15 عاماً(1).

... وكان الهدف الأساسي الذي يرمي إليه مؤسسو شركة الهند الشرقية هو المساهمة في ميدان تجارة التوابل مع الهند والأقطار المجاورة لها. غير أنهم سرعان ما اكتشفوا أن منتوجات الهند وخاصة الشيت (الخام الهندي) والنترات سلع مربحة أكثر بكثير من

(1) K. D. Bhargava, Guide to the Records in the National Archives of India, Part 1 – 1950: Introductory, New Delhi, pp. 7–18.

(1/9992)

التوابل؛ كما أنها ذات نفع أعظم للتجارة الأوروبية.

... وعليه، اندفع تجار شركة الهند الشرقية لاستغلال هذه الميزة. وسرعان ما أسسوا أول مركز في "سورات" على الساحل الغربي من الهند، ثم توالى تأسيسهم للمراكز في مختلف أرجاء الهند بما فيه القسم الشرقي من الهند الذي كانت تشكل فيه هولندا أكبر منافس للشركة.

... ومما تجدر الإشارة إليه أنه تم في هذا الوقت تجديد مرسوم منح الامتياز للشركة الذي كان قد منح لها عام 1600. وقد أصبحت مدّته 15 سنة اعتباراً من عام 1609، على أن تقوم الشركة بكافة العمليات التجارية

(1/9993)

وأعمال النقل في جزر الهند الشرقية بصورة دائمة(1).

... وقد اتجهت أنظار الشركة في هذا التاريخ لتطوير علاقاتها مع منطقة الخليج العربي، وعملت على فتح طرق تجارية جديدة لها. وكان أول اتصال لها مع المنطقة قد تم عن طريق فارس حيث اندفعت الشركة لمبادلة فائض الصوف الإنجليزي بالحرير الفارسي، وبذلت من أجل ذلك جهوداً مكثفة في إقناع البلاط الفارسي بمنحها امتيازات تجارية وتشجيع التجار الإنجليز على التبادل التجاري مع فارس(2).

---

(1) Ibid.

(2) G/ I.O.R. 29 in The East India Company in Persia 1622–1763 ", .

(1/ 9994)

... وقد حصلت الشركة عام 1615 على فرمان شاهنشاهي يقضي بمنح الشركة حق المتاجرة مع فارس. وصارت السفن الإنجليزية تؤم الموانئ الفارسية لنقل بضائعها، وتغطية السوق الفارسية بها. وأسست الشركة بها مراكز تجارية في المدن الفارسية الرئيسة كشيراز وأصفهان(1) وجاسك وغيرها.

... وفي عام 1617 تطورت علاقة الشركة بالشاه واستطاعت أن تحصل منه على فرمان بتبادل التمثيل الدبلوماسي بين فارس وإنجلترا. وقد

---

(1) وهي العاصمة الجديدة التي نقل إليها الشاه مباني مقر حكمه، فصارت أقرب إلى الخليج العربي من العاصمة القديمة تبريز.

(1/ 9995)

تضمن بالإضافة إلى ذلك منح امتيازات خاصة للتجار الإنجليز ووجوب احترام شعائرهم الدينية وحقهم في الدفاع عن النفس وإعطاءهم امتيازات قانونية. وقد أعطي لممثل الشركة صلاحية تعيين الوكلاء التجاريين في فارس.

... وتطورت العلاقات الفارسية .الإنجليزية من خلال شركة الهند الشرقية، مما جعل الحكومة الإنجليزية تساند فارس في صد الهجمات البرتغالية المتكررة على السواحل الفارسية(1)

---

(1) I.O.R. G/ 29 " The East India Company's First Contact with Persia " , 1614 –

.1622

(9996/1)

. وكان هدف الشركة من تقديم مساعداتها لفارس هو الحصول على امتيازات جديدة لها. وقد نجحت في الحصول على نصف عائدات ميناء جمرون (بندر عباس)؛ كما تم تأسيس مقر تجاري رئيس للشركة في ذلك الميناء وأصبحت من خلاله تدور العمليات التجارية في منطقة الخليج العربي. وقد تعدى نشاط الشركة الساحل الشرقي من الخليج العربي ليشمل الساحل الغربي. وتم أول اتصال للشركة بالبصرة عام 1635 **حيث أخذت البواخر تؤم هذا الميناء بصورة مستمرة؛ كما عملت بعد فترة قصيرة على إقامة مركز تجاري لها ليصبح مقراً لنشاط الشركة في المنطقة ابتداء**

(9997/1)

من عام 1643(1).

... وقد ازدهر مركز الشركة هذا حيث أصبحت تدار جميع العمليات التجارية من خلاله، ولا سيما في فترة انتقال مركز الشركة من بندر عباس للبصرة بصورة مؤقتة على أثر التهديد الهولندي للشركة. ولكن شركة الهند الشرقية التي احتكرت تجارة الشرق لهذه الفترة جوبهت بمنافسة لم تكن متوقعة من قبل شركة إنجليزية جديدة برئاسة وليم كورتين (William Curteen) الذي أفلح في الحصول على ترخيص من الملك تشارلس الأول للقيام بالعمليات التجارية في الشرق.

---

(1) I.O.R. G/ 29 " The East India Company in Turkish Arabia ".

(1/9998)

... وعليه، قامت الشركة الجديدة بتأسيس عدة مراكز تجارية في الهند. وكان لابد من احتدام الصراع بين الشركتين البريطانيتين، مما أرهق كاهلهما. وأخيراً توصلتا إلى دمج أعمالهما عام 1649 ليصبحا شركة موحدة تتقاسمان الأرباح مناصفة(1).

... أما انعكاسات تلك التطورات على منطقة الخليج العربي، فقد هيأت الظروف للشركة الموحدة مناخاً

"إيجابياً" لتوسيع نشاطها لا على فارس وحدها، بل على

---

(1) J. G. Lorimer "Oman and Central Arabia ", Gazetteer of the Persian Gulf, Vol. 1Part Historical: 1, p. 35, (Calcuta, 1915).

(1/9999)

معظم السواحل العربية في الخليج العربي.

... وعلى الرغم من مقاومة التجار الفرس لشركة الهند الشرقية ومنافسة الهولنديين ثم الفرنسيين لها، فإنها استطاعت أن تحصل على الأرجحية وقوة النفوذ في المنطقة، وذلك بفضل الدعم الذي حصلت عليه الشركة خلال فترة حكم كرومويل في إنجلترا، حيث أصدر عام 1657 مرسوماً أعطاها الحق في التجارة مع الشرق. وبعد كرومويل وعودة الملكية إلى إنجلترا، استمر دعم الحكومة البريطانية للشركة وأصدر الملك شارلس الثاني مرسوماً عام 1661 أعطى الشركة امتيازاً أعظم بكثير مما كانت قد حصلت عليه في

(1/10000)

الفترات السابقة.

... وعندئذ استطاعت الشركة أن تتخذ مواقف جدية مع كل من شركة الهند الهولندية الشرقية (The Dutch East India Company) وشركة الهند الفرنسية الشرقية (The French East India Company) وتعمل على مضايقتهما وتقليص مناطق نفوذهما(1).

... وفي عام 1668 استطاعت شركة الهند الشرقية الإنجليزية الحصول على شبه جزيرة بومباي من الملك شارلس الثاني لقاء إيجار سنوي قدره عشرة جنيهات فقط(2)

---

(1) Ibid.

(2) كان الملك تشارلس الثاني قد حصلها من زوجته كاترين عام 1661، وكان شديد الرغبة في التخلص منها لوضعها غير الصحي.

(10001/1)

.

... ونظراً لموقع بومباي البحري بصفته مرفأً طبيعيّاً، فقد تحولت هذه المدينة إلى مركز هام للشركة. وأصبحت فيما بعد مقراً لرئاسة بومباي. وصارت أعمال الشركة

في الخليج العربي تدار من ذلك المقر الجديد.

... وقد تميزت للشركة منذ ذلك الحين ثلاثة مراكز رئيسة هي كلكتا ومدراس وبومباي استطاعت بواسطتها أن تنشر سلطانها تدريجياً على كافة أرجاء جنوب غرب آسيا.

... ولكن هذه المكانة التي حصلت عليها الشركة لم تسلم من المناوءة المستمرة من التجار الإنجليز الذين كانوا يتحينون الفرصة للانقضاض على الشركة ومقاسمتها

(10002/1)

الأرباح الخيالية مع بلدان الشرق.

... فقد اتفق نفر من هؤلاء التجار على تأسيس شركة لهم باسم "الشركة الإنجليزية للتجارة في الهند والمناطق المجاورة لها". (The English Company Trading to the East Indies)، حيث استطاع أصحابها الحصول على امتياز تأسيسها عن طريق تقديمهم قرضاً للحكومة البريطانية التي كانت تعاني من صعوبات مالية كبيرة(1).

... وهكذا صدر مرسوم "ملكي" بتأسيسها عام 1698.

وقد دخلت الشركة الجديدة ميدان المنافسة العنيفة

مع الشركة الأولى. واستمرت تلك المنافسة حتى عام 1702،

---

(1) قدره مليونا جنيه.

(10003/1)

حيث تدخلت الحكومة البريطانية للحد منها بعد أن وجدت أن الشركتين مهددتان بالخطر.

... وفي عام 1708 اتحدت الشركتان لتشكلا مؤسسة واحدة باسم "شركة التجار المتحدة للتجارة الإنجليزية لجزر الهند الشرقية". (The United Company of Merchants of England to the East Indies) أو تعرف باسم "شركة الهند الشرقية الشهيرة" (The Honourable East India Company). ومن ذلك التاريخ أخذ النفوذ التجاري والسياسي للشركة يتعاظم، وأخذت تتوسع في استحداث مراكز جديدة لها(1).

---

(1) Lorimer, Op. cit.

(10004/1)

... وقد جاءت الفرصة سانحة للشركة لتزيد من نفوذها في أعقاب سقوط إمبراطورية المغول (Mughal Empire)، وبعد وفاة إمبراطورها أورانكزب (Aurangzeb) عام 1707.

... فأصبح العديد من الأمراء الهنود ألعوبة بيد الشركة، وصارت الشركة تتمتع بنفوذ كبير في معظم المقاطعات الهندية. وأخذت تجبي الواردات الضخمة من تلك المقاطعات. وبذلك تبوأت الشركة نتيجة تلك الأرباح الهائلة مكانة لم يسبق أن احتلتها من قبل.

... ولم تقتصر أرباح الشركة على الهند فقط، بل تعدتها لتشمل مراكزها التجارية الأخرى. فكان مركزها التجاري في البصرة

(10005/1)

يدر عليها أرباحاً طائلة.

... وكان الأمر "المهم" أن قدم وكيل الشركة للوالي العثماني في البصرة جميع الإمكانات والمساعدات للوقوف بوجه الزحف الفارسي على البصرة ومحاصرتها(1).

... هذا، إضافة إلى أن الشركة قد جعلت البصرة محطة لنقل البريد الذي تتسلّمه عن طريق البحر وترسله غرب الفرات حيث ينقل من حلب إلى أوروبا(2). وقد توسعت

التجارة

---

(1) راجع تفاصيل ذلك في كتاب: الدكتور عبد الأمير محمد أمين، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر، بغداد، 1966.

(2) I.O.R.L. G/29 Missions of the ...“ ”.

(10006/1)

الإنجليزية مع فارس والعراق، وصارت السفن الإنجليزية ترسل إلى موانئ الخليج العربي محملة بالمنتوجات الصوفية والقطنية والسكر والتوابل وغيرها لتغطي أسواق البلاد المحيطة بالخليج العربي.

... وأضعفت الشركة منافستها ـ شركة الهند الشرقية الهولندية ـ التي أخذت تتراجع أمام التوسع البريطاني(1).

... ووصفت هزيمة هولندا عام 1759 أمام الإنجليز بالقرب من ”جنسورا“ بأنها نهاية للوجود الهولندي في غرب آسيا.

---

(1) الدكتور صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة، 1974، ص ص. 30 ـ 35.

(10007/1)

... كذلك استطاعت الشركة القضاء على المنافسة الأخرى لها، وهي المنافسة الفرنسية وذلك بعد اندحار فرنسا أمام إنجلترا عام 1760(1).

... وهكذا أصبح الميزان التجاري في منطقة الخليج العربي لصالح شركة الهند الشرقية الإنجليزية، وأصبحت المناطق المطلة على الخليج العربي من الأسواق الرئيسة للشركة، وصارت العملات الذهبية تخرج من مناطق الخليج العربي دون قيود بما فيها اللؤلؤ.

---

(1) لاستكمال الصورة حول التنافس الإنجليزي ـ الفرنسي، يمكن الرجوع إلى المصدر نفسه، الفصل الرابع، ص ص. 60 ـ 82.

(10008/1)

... وغدت شركة الهند الشرقية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر دون أيّ منافسة أجنبية تذكر في الخليج. وقد حلت البصرة محل "بندر عباس" مركزاً رئيساً للشركة في الخليج العربي اعتباراً من عام 1763. ثم

خفضت إلى مقيمية عام 1778 توازي مقيمية بوشهر واستمرت إدارتها من قبل حكومة بومباي مباشرة(1).

---

(1) Y. M. E. Yapp, "The Establishment of the East India Company Residency at Baghdad, 1708–1806", Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. XXX, Part 2, 1967, pp. 324–336.

(1/10009)

... وعلى الرغم من عدم الاستقرار السياسي في البصرة في تلك الفترة نتيجة للصراع العماني ـ الفارسي عليها واحتلال كريم خان لها، فإن المقر التجاري للشركة استمر يخدم الأهداف التي وجد من أجلها؛ ولم يتأثر بالتغيرات الجديدة إلا في نطاق محدود.

... ولكن حدث في عام 1793 أن قرر المقيم البريطاني نقل المقيمية إلى الكويت حتى عام 1795 لتعود مرة أخرى للبصرة(1).

---

(1) F.O.R. Embassy and Consular Archives:

Factory 602Turkey: Basra, F.O,
.Records Persia and Persian Gulf

(10010/1)

... وقد حدث بعد هذا التاريخ أن أعيد التشكيل الإداري للمقيمية في البصرة حيث دمجت مع مقيمية بغداد لتكون تحت إدارة ريتش (Rich) الذي اتخذ من بغداد مقراً له وأخذ يشرف على البصرة بواسطة مساعده.

... وإذا التفتنا إلى نشاط الشركة في الهند في هذه الفترة، وجدنا أن الشركة قد خاضت عدة معارك مع أمراء المقاطعات الذين دافعوا عن استقلالهم وحاولوا رفض السيطرة البريطانية عليهم. وقد استطاعت أن تلحق بهم هزائم موجعة، لتفرض هيمنتها على عموم الهند شرقاً وغرباً، وأن تكون القوة الفعالة الأولى.

(10011/1)

... وبذلك أصبحت تتمتع بقدر عظيم من الامتيازات والمصالح وأرباح تفوق إلى حد كبير مصالح أهل البلاد.

... وهكذا وقبل أن ينتهي الربع الأول من القرن التاسع عشر، كانت شركة الهند الشرقية قد أصبحت السيد

الفعلي لإمبراطورية شاسعة تمتد عبر الهند المترامية الأطراف حتى الولايات التي لم تكن تحت السيطرة المباشرة للشركة والتي اعترفت بتفوق السيادة البريطانية. وفي معرض تقييمنا لإدارة شركة الهند الشرقية للمناطق التي استحوذت عليها، تؤكد لنا الوثائق ذلك على الوجه الأكمل.

(10012/1)

... فالشركة هي أصلاً هيئة تجارية طاقتها محدودة وأنظار مساهميها متجهة بالدرجة الأولى إلى أرباح سنداتهم؛ وليس للقضايا الإدارية أهمية تذكر لديهم.

... وعليه، فإن العقلية التجارية كانت تسيطر سيطرة تامة على رجالات الشركة. وكان همهم الوحيد استنزاف ثروة الهند والحصول على أكبر ثروة ممكنة.

... وقد أخذت ظاهرة الجشع هذه تظهر جلية في السنوات التالية وأصبح الكسب الذاتي والاندفاع وراء الغنى، ومحاولة استغلال الفرص لجمع الثروات الشخصية هي السمة الغالبة لمعظم وكلاء الشركة، وذلك على حساب ربح الشركة العام

(10013/1)

ومستقبلها السياسي والاقتصادي.

... وقد استغل الضباط الإنجليز كذلك مواقعهم الوظيفية، وتزايدت أعمال الظلم والابتزاز من قبلهم، وصار الربح الجشع اللاإنساني الهم الوحيد لهم(1).

... وكان الشعب الهندي والشعوب الأخرى على امتداد الخليج العربي لا يملكون من أمرهم حولاً ولا قوة، وقد استغلوا استغلالاً لا رحمة فيه ولا شفقة.

... وانعكس ذلك على ميزانية الشركة التي دفعت ثمناً "باهظاً" لتلك الممارسات اللامشروعة والفضائح المالية التي لم تتمكن من معالجتها.

---

(1) Bhargava, op. cit.

(10014/1)

... فأخذت أجهزة الشركة تسير نحو الإفلاس شيئاً فشيئاً. وبعد أن استنزف وكلاؤها معظم ميزانيتها، اضطرت - والحالة هذه - إلى طلب قروض من الحكومة البريطانية زادت على المليون استرليني(1).

... وعندئذ، فكر البرلمان البريطاني في ضرورة فرض سيطرة مباشرة على الشركة. وقد تم في عام 1773

إصدار قانون التنظيم الذي بموجبه أصبح لزاماً على مديري الشركة رفع صور من المخابرات الجارية بينهم وبين السلطات المحلية إلى الحكومة البريطانية بكل ما يتعلق بشؤون تلك المناطق(2).

---

(1) Ibid.

(2) Ibid.

(10015/1)

... كما تم تنصيب الحاكم البريطاني في البنغال حاكماً "عاماً" للهند، واعترف رسمياً بأن كلكتا مركز للحكومة العليا، يساعده في ذلك مجلس إدارة يتكون من أربعة أعضاء، ويقومون بالإشراف والسيطرة على علاقات رئاستي مدراس وبومباي.

... كما تأسست بموجب القانون الجديد محكمة عليا في كلكتا مؤلفة من رئيس وثلاثة مساعدين للفصل في القضايا المستحدثة. وبموجب قانون عام 1773، أصبح للبرلمان البريطاني شيء من الإشراف على أمور شركة الهند الشرقية وأصبح إشراف الوزارة البريطانية إشرافاً مباشراً على الشركة.

(10016/1)

... وبالرغم من ذلك، فإن القانون لم يحدد سلطات الحاكم العام والمجلس التابع له؛ مما اضطر البرلمان إلى إصدار قانون آخر لتلافي سلبيات القانون الأول(1).

... كما أن البرلمان البريطاني أقر عام 1784 لائحة قدمها رئيس الوزراء البريطاني وليم بت تعرف باسم "لائحة بت للهند" ((Pitt's India Act . وبموجبها تم تشكيل مجلس المندوبين الذي عرف باسم "مجلس السيطرة". ومهمته ممارسة الإشراف على كافة الشؤون المدنية والعسكرية والمالية لشركة الهند الشرقية. وقد تألف هذا المجلس من ستة أعضاء يعينهم ملك بريطانيا

(1) Ibid.

(10017/1)

يتألفون من وزير المالية ووزير الخارجية وأربعة أعضاء استشاريين. وبموجبه تم تشكيل لجنة الشؤون السرية، وتتألف من المديرين الثلاثة للشركة.

... كما تم تحديد صلاحيات وسلطات الحاكم العام بوضوح أكثر من القانون الأول. وهكذا أصبحت شركة الهند الشرقية خلال السنوات التي أعقبت ذلك خاضعة لسيطرة

الحكومة البريطانية.

... وعند تجديد امتياز شركة الهند الشرقية عام 1793

فتح الباب على مصراعيه للتجارة البريطانية الحرة.

وبذلك فقدت الشركة احتكارها الذي كانت تتمتع به

لوقت طويل(1)

---

(1) William Foster, A Guide to the India Office

Records 1600–1658 London ,,

1966, pp. 1–2.

(10018/1)

. غير أن الشركة أفلحت في الإبقاء على احتكارها للتجارة

مع الصين. ولكن في عام 1833 ألغي ذلك الاحتكار؛

وبذلك فقدت الشركة مكانتها التجارية المميزة.

... وفي ذلك الوقت وضع البرلمان البريطاني أمر شركة

الهند الشرقية بوجه عام موضع المناقشة.

... وكان هناك اتجاه قوي في الرأي يميل إلى صالح تسلم

الحكومة البريطانية إدارة شؤون الهند مباشرة. ولكن

لم يبت في الأمر بشكل نهائي. وقد صدر في عام 1853

أمر يقضي باستمرار النظام القائم في الهند تاركاً

للبرلمان البريطاني أمر البت النهائي مستقبلاً(1).

---

(1) Ibid. p. 2.

(10019/1)

... واستمر الوضع حتى عام 1857 حيث قامت ثورة سيبري (Sepry) في الهند التي هزت أركان الإمبراطورية البريطانية بأسرها، وكشفت للرأي العام عن فظائع الحكم البريطاني في الهند، مما أثار مشاعر الشعب الإنجليزي نفسه(1).

... وأبانت الثورة عن فشل شركة الهند الشرقية في معالجة مشكلات الهند الدينية والاجتماعية والسياسية. وصار الرأي العام البريطاني يطالب حكومته بوجوب اتخاذ إجراء سريع وحاسم لتحسين أوضاع الهند.

---

(1) Bhargava, op. cit, p. 17.

(10020/1)

... وتمت المصادقة على اللائحة، فانتهت بإصدار قانون عام 1858 المعروف باسم "قانون التنمية الفضلى للهند" (An Act for the Better (Development of India. وبذلك ألغي حكم شركة الهند الشرقية للهند نهائياً وانتقلت سلطاتها إلى ملك بريطانيا.

... وكان إبراز ما نص عليه قانون سنة 1858 إلغاء مجلس السيطرة ومجلس المديرين في لندن ليعهد بصلاحياتهما إلى مكتب وزير الدولة لشؤون الهند.

... وعهد إلى اللورد ستانلي بذلك المنصب. ويساعده في عمله مجلس مؤلف من 15 عضواً يعرف باسم مجلس الهند.

(10021/1)

... وقد عين اللورد كاننك ((Lord Canning الحاكم العام للهند في حينه أول نائب للملك في الهند بعد استحداث هذا المنصب.

... وقد صدر بيان رسمي على أثر ذلك باسم الملكة فكتوريا ملكة بريطانيا حينذاك عرف باسم "بيان الملكة" ((Queen's Proclamation أعلن فيه نقل السلطة من الشركة إلى التاج البريطاني، ووضع الأسس الواجب اتباعها للحكم الجديد في الهند.

... وطمأن البيان الشعب الهندي إلى التزام بريطانيا

بالمحافظة على تقاليده الاجتماعية والدينية واحترامها؛ كما طمأن الأمراء الهنود بالوفاء بتعهدات الشركة لهم، حيث سيتم

(10022/1)

تنفيذها من قبل النظام الجديد بكل دقة وأمانة.

... ووعد البيان بإدخال الإصلاحات الضرورية للهند والعمل على تقدم البلاد وازدهارها.

... وتكشف الوثائق الهندية عن فترة تكاد تكون مظلمة مرت بتاريخ الهند، عندما قدرت أن تكون أمور البلاد بيد شركة الهند الشرقية، تلك الشركة التي كانت بعيدة عن المثل والمبادئ الخيرة. فأرهقت كاهل الشعب الهندي والشعوب الأخرى التي سيطرت عليها. فاستغلتها إلى أبعد حدود الاستغلال، وخلفت وراءها آثاراً مؤلمة من الدمار والتخلف(1).

---

(1) Ibid.

(10023/1)

... وإذا كان ثمة أمر إيجابي خلفته الشركة للهند، فهو لا يتعدى ذلك المعين الزاخر من السجلات والوثائق الذي لا يمكن أن ينضب والذي يحتوي على معلومات ضخمة تشكل مصدراً أساسياً لطلاب البحث العلمي ليدلوا دلاءهم ويستخرجوا أهم وأغرب وأدق التفاصيل لمختلف شؤون الحياة في تلك الفترة(1).

... أما السجلات الأصلية للمقيمية والوكالة في بندر عباس، فقد تم إحراقها عام 1759 من قبل الفرنسيين عند صراعهم التقليدي مع شركة الهند الشرقية

---

(1) List of Factory Records of the East India Company, pp. XXIII- London, 1897.

(10024/1)

البريطانية. وبذلك فقدنا مصدراً هاماً من المصادر الوثائقية الأساسية الهامة التي تخص منطقة الخليج العربي، ولكن بذلت محاولات جادة من قبل المسؤولين الإنجليز لجمع صور من تلك الوثائق تتناول فارس والخليج العربي

كانت موجودة في بعض دوائر لندن لتجميعها في India

Office بلندن غطت إلى حد كبير تلك الفترة من نشاط الشركة(1).

... ووثائق شركة الهند الشرقية عن الخليج العربي هذه يمكن أن يجدها الباحث تحت عنوان /29I.O.R:G، وهي مصنفة في أربع مجموعات.

---

(1) A. J. Arberry, The Library of the India Office, London, 1938.

(10025/1)

يضم الجزء الأول منها معلومات متفرقة لأوليات قديمة من الوثائق خاصة بفارس، وهي تحت عنوان /1/29I.O.R:G.

... أما الجزء الثاني، فيضم اليوميات والمذكرات للفترة من 1708 إلى 1763. والرسائل المسلَّمة من الشركة إلى بندر عباس للفترة من 1704 إلى 1763، وهي تحت عنوان: /2/29I.O.R:G–17. ويحتوي الجزء الثالث على الرسائل المسلَّمة من الشركة إلى البصرة للفترة من 1724 إلى 1811، وهي تحت عنوان: /25/29G 151ff–24–18/29, I.O.R. G:199.

(10026/1)

... وأما الجزء الرابع، فيحتوي على مراسلات متفرقة ومذكرات تغطي زيارة وفود الحكومة البريطانية وحكومة الهند من 1798 إلى 1822. هذا، إضافة إلى أخبار الحملة البريطانية للخليج العربي(1).

...

(1) S. C. Hill, Catalogue of the Home, Miscellaneous Series of the India Office Records, London, 1927.

(10027/1)

صلاح الدين الأيوبي ويعقوب المنصور الموحدي

... ... الدكتور عبد الكريم كريّم

... ... كلية الآداب – الرباط

... بعد انتصار صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين وفتح القدس الشريف (خاطب ...يعقوب ...وأخبره بأنه هزم روم الشام واستأصل شأفتهم وفتح بيت المقدس شرفها الله وجميع تلك البلاد التي كانت بأيدي أعداء الله ...من كتاب وصل من الإسكندرية تاريخه في العشر الوسط من شعبان المكرم سنة 583) (1) .

(1) المؤلف المجهول " الاستبصار " ص . 104 .

(10028/1)

... وإذا كان المغاربة قد اهتزوا فرحا للبشرى (وكان له في النفوس من الفرح والجذل ما لا خفاء فيه) (1) فإن الآلة العسكرية الصليبية قد عاودت هجوماتها شرقا وغربا وجعلت بلاد الشام خاصة تعيش ظروفا صعبة خلال أربعة أعوام متوالية (585 – 588) : (كان قد اجتمع بصور أهل البلاد التي أخذها السلطان فأرسلوا إلى البحر

(1) " الاستبصار " ص . 106 . ...

(وقمت بنصر إله الورى

فسماك بالملك الناصر

فتحت القدس من أرضه

فعادت إلى وصفها الطاهر

فكم لك بالشرق من حامد

وكم لك بالغرب من شاكر

ابن جبير " الرحلة " ص . 193 .

(10029/1)

يستنجون ... ووصل الفرنج في البحر عالم لا يحصى ...

وكانت المراكب في البحر كالجراد المنتشر ونزلوا على

عكا ثامن رجب (585) (1) .

... ولما (دخل رمضان من شهور خمسة وثمانين وخمسمائة

وصل من جانب حلب كتب من ولده الملك الطاهر يخبر فيها

أنه قد صح أن ملك الألمان قد خرج إلى القسطنطينية في

عدة

عظيمة يريد البلاد الإسلامية واشتد ذلك على السلطان

وعظم عليه (2) .

---

(1) أحمد بن إبراهيم الحنبلي ، " شفاء القلوب في

مناقب بني أيوب " ص . 106 .

(2) ابن شداد ، " النوادر السلطانية " ، ص . 214 .

(10030/1)

... التجأ صلاح الدين لواجهة الأحداث إلى (استنفار الناس

للجهاد) (1) و (كتب إلى المسلمين يستنجدهم) (2) ومن

هؤلاء يعقوب المنصور الموحدي (وكتب السلطان إلى

يعقوب أمير المغرب يستنجده) (3) .

... وفي الأندلس (قصد بطر بن الريق مدينة شلب من

جزيرة الأندلس فنزل عليها بعساكره و أعانه من

الفرنج بالبطس والشواني وكان قد وجه إليهم يستدعيهم إلى أن يعينوه ... ونزلوا عليها من البرو البحر فملكوها وسبوا أهلها ... وتجهيز أمير

---

(1) المصدر السابق .

(2) " شفاء القلوب " ، ص . 160 .

(3) المصدر السابق ، ص . 169 .

(10031/1)

المومنين في جيوش عظيمة وسار حتى عبر البحر ولم يكن له هم إلا مدينة شلب المذكورة فنزل عليها فلم تطق الروم دفاعه وخرجوا منها) (1) .

... استقبل النصور بعد عودته من الأندلس بمدينة فاس أوائل شعبان 585ه سفير صلاح الدين (لما قدم المنصور من الأندلس إلى فاس و فرغ من شأن ابن منقذ تواترت إليه الأخبار بأن ابن غانية قد ظهر بإفريقيا فنهض إليها من فاس ثامن شعبان فدخل تونس في أول ذي القعدة منها)(2) .

---

(1) عبد الواحد المراكشي "المعجب"، ص.402 .

(2) الناصري "الاستقصا " ،ج 2 ، ص.184 .

(10032/1)

... فهل كان المنصور يهدف إلى مهاجمة صقلية استجابة لطلب صلاح الدين (ويمكنه أن يكف ... طاغية صقلية ليحصر جناح فلوله أن تطير و يعتقله في جزيرته)(1) الأمر الذي دفع (وليم الثاني) ملك صقلية إلى الاستنجاد بأساطيل (ريتشرد قلب الأسد) الإنجليزي
و (فيليب أوغست) الفرنسي التي رابطت بالجزيرة أواخر عام 1190/586 و ظلت بها إلى مطلع الصيف التالي ؟(2) .

---

(1) القلقشندي ، " صبح الأ عشى " ، ج 2 .ص . 526 – 530 .

(2) ستيفن رنسيمان ، " تاريخ الحروب الصليبية "، ج 3 ، ص.79 و ص .95 .

(10033/1)

... تؤكد دراستنا للمصادر المعاصرة بأن القائدين صلاح الدين و يعقوب المنصور قد تبادلا السفارات زمن الحملة الصليبية الثالثة و أنهما قد حرصا على السرية التامة في علاقاتهما (كان بلغني أن السلطان رحمه الله لما اشتد أمر الفرنج على عكا أرسل إلى ملك المغرب يستنجد به

عليهم ليقطع عنهم مادتهم من جهة البحر و كنت أتطلب حقيقة ذلك و أبحث عن شرح الحال فيه فإن العماد و القاضي لم يتعرضا له في كتبهما غير أن العماد ذكر كتابا كتبه القاضي الفاضل إلى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ما كان أرسله لأجله ... و غرضي كان الإطلاع

(10034/1)

على نفس كتاب الرسالة و مضمونها ثم أراني بعض الشيوخ الصلحاء الثقاة بخطه ما كنت أرومه ... قال : نسخة كتاب القاضي الفاضل ... لابن منقذ يأمره فيه بالسفر إلى الناصر صلاح الدين رحمه اله يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف ... لما حصر الفرنج خذلهم الله عكا)(1) .

... فما الحقائق التاريخية للعلاقات الأيوبية – الموحدية زمن الحملة الصليبية الثالثة ؟ أهم ما تكشف عنه النقاب دراستنا للوثائق المعاصرة :

... أولا – التعرف على أوضاع الشرق العربي :

---

(1) أبو شامة المقدسي ، " كتاب الروضتين " ،ج 2 ، ص 170. – 172 .

(10035/1)

... – توالي الحملات الصليبية عبر (سفائن تميز بل مدن تسير فيها الأكابر من الكفار و الأعيان و التجار و المقاتلة المجهزة و القناطر المقنطرة و الأقوات و الؤن)(1) .

... – أحوال المجاهدين :

... (لو للمسلمين في هذه الجهة أسطولا ... لقطع المادة عما بقي بأيديهم من البلاد)(2) وذلك بعد أن تحطم القسم الأكبر من القوات البحرية في فك الحصار عن عكا (استدعى السلطان أسطول فكان يحاصر عكا في البر والبحر ... ثم خرج أسطول

---

(1) من رسالة لصلاح الدين حملها إلى يعقوب المنصور السفير (مرهف المنقذي) .

(2) المصدر السابق .

(10036/1)

صور فكبس أسطول المسلمين في الليل) (1) .

... ولو أن دربة عساكرنا في البحر كدربتها في البر لجعل الله منهم الانتصاف ...فلا يؤمن على ثغور المسلمين أن يتطرق العدو إليهم وإليها ويفرغ لها ويتسلط

عليها وإذا قسمت القوة على تلقي القادم وتوقي المقيم فربما أضر الإسلام انقسامها) (2) .

... ثانيا – التوجه إلى يعقوب المنصور الموحدي :

... (سلطان الإسلام وقائد المجاهدين إلى دار السلام أولى من توجه إليه الإسلام بشكواه وبثه واستعان به على

---

(1) "شفاء القلوب " ، ص . 151 .

(2) " صبح الأعشى " ج 6 ، ص . 526 – 530 .

(10037/1)

حماية نسله وحرثه) (1) .

... (ما رأينا أهلا العزمة إلا حضرة سيدنا أدام صدق محبة الخير فيه) (2) (وما رأينا أهلا لخطابنا ولا كفؤًا لإنجادنا ...ولا ملبيا بنصرتنا إلا ذلك الجناب " (3) (ولما كانت أساطيله المنصورة فإن عددها واف وشطرها كاف ويمكن أدام الله تمكينه أن يمد الشام منه بعدد كثيف) (4) .

---

(1) كتاب " الروضتين " ، ج 2 ، ص . 170 –172 .

(2) " صبح الأعشى " ج 2 ، ص . 527 .

(3) كتاب " الروضتين " ، ج 2 ، ص .172 .

(4) " صبح الأعشى " ج 6 ، ص . 526 – 530 .

... وإن كانت دون الأسطول موانع ... فالمعونات ما طريقها واحدة ولا سبلها مسدودة ولا أنواعها محصورة ...فلم ندعه إلا لواجب عليه ... فلا ترضى همته أن يعين الكفر الكفر ولا يعين الإسلام وما اختص بالاستعانة إلا لأن العدو جاره والجار أقدر على الجار وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار) (1) . حتى نتمكن من (أن نمسك طرفا من حبل الجهاد يكون بيد حضرة سيدنا العالية طرفه و أن نتجاذب أعداء الله من الجانبين) (2) .

---

(1) كتاب " الروضتين " ، ج 2 ، ص . 170 – 172 .

(2) " صبح الأعشى " ج 6 ، ص . 526 – 530 .

... احتل الصليبيون بقيادة (ريتشرد قلب الأسد) و (فيليب أوغست) مدينة عكا يوم 17 جمادى الثانية عام 587 هـ / 1191 م ونكلوا بأهاليها (فلم يرد على السلطان خبر أشد منه لأنه كان نقل إليها سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر) (1) كما فرضوا سيطرتهم على

مجموع الساحل الفاسطيني حتى غزة والداروم مما أجبر صلاح الدين بأن يفاوض (ريتشرد قلب الأسد) ويترك للفرنج ما كان بيدهم وقتئذ من المدن الساحلية ونصف بيت المقدس.. لكن (ريتشرد) رفض ذلك لما علم بالظروف الصعبة لصلاح الدين(2)

_____

(1) " شفاء القلوب " ، ص . 170 .

(2) ول ديورانت) Will Durant ، " قصة الحضارة " ، ج 15 ، ص . 42 .

(10040/1)

... رابط صلاح الدين أواخر عام 587 بمدينة القدس وشرع في تحصين دفاعاتها (كان هو وأولاده والعلماء ينقلون الحجارة فكان يجتمع عند العمالين في اليوم الواحد ما يكفي لعدة أيام) (1) وازداد حصار (ريتشرد) لصلاح الدين في القدس وقطع عنه كل اتصال خارجي (جاء الأمراء إلى السلطان وطيبوا قلبه فلما جاء الليل اختلفوا وقالوا لا نقيم إلا أن يكون السلطان معنا وإلا جرى علينا كما جرى على أهل عكا وبلغ السلطان ذلك ...وبات ليلة الجمعة ساجدا باكيا) (2) . فهل فكر صلاح

_____

(1) " شفاء القلوب " ، ص . 173 .

(2) نفسه ، ص . 175 .

(10041/1)

الدين في الانسحاب من القدس ؟

... استقبل يعقوب المنصور الموحدي في مطلع عام 588 / 1192 بمدينة فاس سفير صلاح الدين (وهم الآن في مدينة فاس حرسها الله ...ونحن الآن في شهر رمضان من سنة 587 ...وكان اجتماع هذا الرسول وهو عبد الرحمن بن محمد بن منقذ الأزدي سادس محرم 588 بالخليفة الإمام أبي يوسف وخرج من الحضرة بعد ذلك بخمسة أيام) (1) ، كما استقبل بعد فترة السفير عبد الكريم بن منقذ (طالب مدد الأساطيل لتحول بين الأساطيل وبين مراميهم من إمداد الفرنجة بثغور الشام) (2)

---

(1) " الاستبصار " ، ص . 256 .

(2) ابن خلدون " المقدمة " ، ص . 256 .

(10042/1)

.

... استجاب المنصور (وجهز لصلاح الدين مائة وثمانين أسطولا ومنع الغزاة من ساحل الشام) (1) فهل حاولت القوات الصليبية المرابطة بالمشرق العربي قطع الطريق على المساعدات العسكرية المغربية ؟ (وعزم الفرنج على قصد مصر ثم عدلوا إلى القدس ...وجاءهم خلق عظيم ...وكان السلطان بالقدس) (2) .

... ويؤكد خبر التفكير في التوجه من فلسطين ضد مصر المؤرخ الإخباري لحملة (ريتشرد قلب الأسد) : (وعقدوا مجلسا للنظر فيما يجب أن يفعلوه فقرر هذا المجلس أن

---

(1) " الاستقصاء " ، ج 2 ، ص . 182 .

(2) " شفاء القلوب " ، ص . 175 .

(10043/1)

يتخلوا عن بيت المقدس ويزحفوا على القاهرة ...ثم تراجعوا وحاصروا القدس على بعد اثني عشر ميلاد من بيت المقدس) (1) .

... واعتمادا على نفس المصدر (ثم تبدلت الحال في اليوم الثاني وجاءت الإمداد إلى صلاح الدين واستولى الملل على (رتشرد) وحبس عنه فرسان عكا وصور معونتهم فأرسل

يطلب

الصلح) (2) .

... رفض صلاح الدين طلب الصلح (ورأيي أن نتم على الجهاد إلى أن نظهر البلاد منهم فرجعه عن ذلك الأمراء لنفاذ نفقاتهم وطول تعبهم ... وجاء رسل الانكتار

---

(1) " قصة الحضارة " ، ج 15 ، ص . 43 .

(2) نفسه ، ج 15 ، ص . 43 .

(10044/1)

في طلب الصلح ...وعقدت هدنة في البر والبحر مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها سبتمبر الموافق حادي وعشرين شعبان) 588 / 1192 (1) . ومما يعكس الظروف الصعبة (ريتشرد قلب الأسد) رسالة التهديد التي بعثها إلى صلاح الدين قبيل عودته (لما ركب سفينته إلى انجلترا أرسل رسالته الأخيرة إلى صلاح الدين يتحداه ويتوعده بأنه سيعود بعد ثلاث سنين ويستولي على القدس ، وأجابه صلاح الدين بأنه إذا كان لابد أن تقطع يده فإنه يفضل أن يقطعها(ريتشرد)لا أي رجل سواه)(2)

---

(1) " شفاء القلوب " ص . 176 – 177 .

(2) " قصة الحضارة " ، ج 15 ، ص . 44 .

(10045/1)

... اطمأن صلاح الدين على الأوضاع بالشام بعد رحيل (رينشرد)وقواته أوائل رمضان 588 هـ / سبتمبر 1192 م إلى حد التفكير في أداء فريضة الحج (1) .

... كان يعقوب المنصور الموحدي في مستوى الأحداث وتابع حروبه ضد القوات الصليبية بالأندلس وهزمها في معركة الأرك يوم 3 شعبان 591 هـ الموافق 14 يوليوز 1195 م التي جاء النصر فيها متمما لانتصار صلاح الدين في معركة حطين قبل ثمانية أعوام ، وتقديرا منه للبطل صلاح الدين الأيوبي لقب ابنه وولي عهده (بالناصر لدين الله) .

---

(1) " شفاء القلوب " ص . 178 .

(10046/1)

صور من التواصل التاريخي بين دول الخليج العربي والدول المغاربية

... ... الدكتور إبراهيم حركات ... ...

... ... كلية الآداب – الرباط

مفهوم دول الخليج والدول المغاربية

إن المنطق الجغرافي يحدد دول الخليج بمجموع الدول أو الأقطار التي تقع كلا أو جزءا على ساحل ما كان يسمى في الماضي بالخليج الفارسي، وما أصبح يعرف منذ بضع عقود بالخليج العربي، باعتبار أن معظم هذا الخليج يشغل ضفافه تراب عربي ومجتمعات عربي. غير أن العرض يركز بصورة خاصة، على المنطقة التي يضمها حاليا

(10047/1)

مجلس التعاون الخليجي: لا بقصد التنكر لشعوب لا ترتبط بهذا المجلس وهي بجوار دوله، بل لأن الإطار التاريخي قد يتطلب فضاء إضافيا وواسعا ضمن هذا العرض لا تحتمله صفحات معدودة. ثم إن الحديث عن آفاق المستقبل القريب، يظل مرهونا بتوفر الشروط السياسية والنفسية لتقييم خليجي في إطاره الواسع، وهذا غير مهيأ الآن. على أن الضرورة تستدعي بالنسبة للماضي، الوقوف عند بعض صور التواصل التاريخي، في النطاق الخليجي الأوسع.

(10048/1)

وأما الدول المغاربية فمعلوم أنها تضم المغرب والجزائر وتونس وليبيا وموريتانيا: ولكنها إذا كانت تعاني بعض الأزمات المحلية في النطاق السياسي، إما بسبب قضية الصحراء المغربية المختلفة من أصلها، أو بسبب الوضع الداخلي للجزائر، فإن الحدثين معا ليس من شأنهما انقطاع المنطقة المغاربية عن العالم الخارجي، لا سيما العربي الذي تحتل فيه دول الخليج مكانا مرموقا وعزيزا لا سيما لدى المجتمع المغربي.

الاتصالات الأولى

(10049/1)

لو أخذنا ببعض الروايات التي وردت في بعض المصادر المغربية المتأخرة عن قيام وفد من "رجراجة" المغربية بالتوجه إلى المدينة المنورة وإسلامه على يد الرسول – صلى الله عليه وسلم – . لكان هذا أول ما وطئت قدما مغاربي شبه جزيرة العرب في ظل الإسلام. إن هؤلاء الرجال الذين كانوا سبعة، نقشت أسماؤهم داخل ضريح أبي العباس السبتي بمراكش، والذي خرج في القرن

12/6م بنظرية تخلي الأغنياء عما فضل من أموالهم لصالح الفقراء (1)

---

(1) أحمد بن الحاج الرجراجي الرباطي، الشموس المنيرة، ص. 49. وقد أشار إلى مصادره كالمرغيني صاحب المقنع ؛ وسلوة الأنفاس للكتاني ؛ والعيون المرضية إلخ...

(10050/1)

، على غرار نظرية الصحابي أبي الدرداء.

هذا إذا بالنسبة للعصر النبوي، مع التحفظ في هذه الرواية قبل الرجوع إلى مصادرها الأولى، وهي على أي حال متواترة في الأوساط المصمودية بالمغرب. أما إذا رجعنا إلى ما قبل الإسلام بزمن طويل فإن شطرا كبيرا من أمازيغ الشمال الإفريقي تنسبه مصادر عربية وأمازيغية إلى العنصر القحطاني، ولا حاجة إلى إثارة هذا الموضوع بتفصيل في هذا العرض وقد تعددت فيه الكتابات قديما وحديثا.

أما الموجات الخليجية الأولى في ظل الإسلام، فهي التي قدمت في عصر الفتوح الأولى بدءا بخلافة عمر بن

(10051/1)

الخطاب، عندما كان عمرو بن العاص على رأس الإدارة المصرية، وأخذت طلائع الحاميات العربية تتسرب إلى ليبيا. وتتابعت الفتوح بعد ذلك على مراحل عبر الشمال الإفريقي فالسكان العرب في هذه الفترة كانوا من الجيش. لكن النصف الثاني من القرن الأول بدأ يشهد توافد بعض المثقفين والدعاة، خاصة على القسم الشرقي من المنطقة المغاربية.

وتكون المجموعات المنتمية إلى قبيلة بني تميم، جزءا كبيرا من العناصر التي توافدت من جزيرة العرب ضمن الأفواج الأولى، فقد تكاثرت أعدادها وتعذر عليها البقاء بهذه الكثافة في أراض جدباء شمال

(10052/1)

الجزيرة وفي التراب العراقي فكانت فترة مناسبة مواتية لالتحاقها بالجيش الإسلامي. وكما هو معلوم، فإن عناصر منها اعتنقت الفكر الشراتي وتولت ريادته سواء بجزيرة العرب أو بالمناطق العربية المجاورة. ومن بني تميم تكونت دولة الأغالبة بأفريقية، والتي ساهمت بحظ كبير في البناء الحضاري. ولا زال بالقطر

التونسي حتى الآن أعقاب بني تميم والمنتسبون إليهم. كما أن سبتة المغربية حلت بها أسر تميمية. وبين أفرادها من برزوا في الأدب والفنون المعرفة مثل القاضي محمد بن عيسى التميمي السبتي، وعبد الله بن محمد التميمي

(10053/1)

السبتي، وكلاهما من القرن الخامس، والأخير كان محدثا في زمن المرابطين(1).

إن منطقة الخليج بمفهومها الواسع خرج منها ثلاث شخصيات تقاسمت الجزء الأكبر من المغرب العربي المسلم في وقت واحد:

1 –إبراهيم بن الأغلب التميمي من غرب ليبيا إلى النصف الشرقي للجزائر.

2 –عبد الرحمان بن رستم الذي أنشأ دولة إباضية عاصمتها تاهرت بالشطر الغربي للجزائر.

3 –إدريس بن عبد الله الحسني الذي لجأ من ملاحقة العباسيين بالحجاز إلى المغرب، فأنشأ الدولة الإدريسية

_____

(1) حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم (مخطوط)، ج1، فصل 2.

(10054/1)

وجعل من فاس التي أنشأها عاصمة.

كل الثلاثة حكموا في وقت واحد، وكل الأنظمة التي أسسوها قوضتها أو أضعفتها الدولة الفاطمية، وكانت نشأتها متقاربة خلال القرن 8/2م.

كان المغرب المسلم أرض اللاجئين، لكن الحجاز أيضا، ما لبث أن تحول إلى مهجر دولي إسلامي يستقطب العلماء والصلحاء والراغبين في التوبة، وطلاب المعرفة، وعندما نذكر طلب المعرفة لا بد أن نتوقف قليلا عند تأثير الإمام مالك

مؤثرات مالك

وصل المذهب المالكي من طريقين اثنين إلى الشمال الإفريقي:

(10055/1)

---

1 –من طريق التلاميذ الذين تلقوا عن مالك بن أنس مباشرة، وأكثرهم ينتمون إلى ليبيا وإفريقية. والذين ينتمون إلى ليبيا أغلبهم من برقة وطرابلس(1)3) ، بينما أخذ معظم رواد المذهب المالكي من المغرب فقه مالك بالقيروان، وبعضهم بالأندلس وآخرون بمصر.

2 –من طريق كتاب الموطأ برواية علي بن زياد من طرابلس على أن التفاصيل بشأن انتشار المذهب المالكي لا تهم هذا العرض في حد ذاتها، والذي يهم هو هذا الارتباط القوي بين منطقة المغرب العربي والحجاز من حيث

---

(1) عياض اليحصبي، ترتيب المدارك، ج 2، ص. 178 وباقي صفحات الجزء.

(10056/1)

استغلال المغاربيين لوجودهم بالبقاع المقدسة، في الاتصالات الثقافية التي كان مثقفوهم يجرونها كطلاب في الدراسات الحديثية والشرعية بكل من مكة والمدينة، ولا زال للمذهب المالكي حضور ببعض دول الخليج.

إن أثر المدرسة المالكية لم يكن مجرد انتقال معارف

دينية من جهة إلى أخرى، فقد تركت بصماتها في السلوك الأخلاقي لغالبية الفقهاء الذين اغترفوا من معينها، وربطت فقهاء المذهب بالفئات الاجتماعية ربطا وثيقا، لا سيما بالمدن. وعدد كبير منهم حظي باحترام السلطات ونجح في عدة فترات، في توجيه المسؤولين إلى الحلول التي

(10057/1)

تتطلبها الأزمات والأوضاع الاجتماعية، على أن الثقافة العربية الإسلامية في جملتها إنما دخلت المنطقة المغاربية بمحض اختيار أهلها الذين رأوا فيها روح القرآن الكريم ونصوصه، كما أمسوا فيها السنة النبوية التي احترمها الواعون منهم وحتى الأميون. ولقد كان من الشروح الأولى لصحيح البخاري، شرح أحمد بن نصر الداودي في القرن الرابع الهجري، وهو من أهل المغرب الأوسط

أما التعريب البشري فقد ساهمت فيه الموجات العربية خلال الفتوح، وفيها موجات عدنانية وقحطانية، وهذا بالإضافة إلى الاحتكاك بعرب الأندلس، لكن أضخم موجة

(10058/1)

مثلها عرب بني هلال وسليم.

عرب الخليج بالشمال الإفريقي، في أضخم موجة

إن المجموعة الهلالية فرع من هوازن التي وجد الإسلام

مضاربها حول المدينة المنورة. وتكاثر هدا الفرع حتى

أصبح قوة يحسب لها حسابها ضمن الكتل القبلية في

حركة القرامطة، في أوائل القرن الرابع. ثم عملت

السلطات الفاطمية على توطينهم بصعيد مصر وقد أصبح

الحجاز

تابعا لها في أيام الماعز لدين الله منذ سنة 363هـ(1).

وأذن الفاطميون لبني هلال بالتوجه إلى إفريقية بعد

إعلان القطيعة نهائيا في أواسط القرن 11/5م بين

---

(1) المقريزي، خطط، ج3، ص. 22.

(10059/1)

الزيريين حكام هذه البلاد، وبين الفاطميين أولياء

نعمتهم السابقين. وهذه الجموع الحاشدة توزعت بين

المراكز الحضرية والريفية الخصبة ابتداء من ليبيا إلى

المغرب الأوسط، ثم نقل الموحدون في النصف الثاني من

القرن 12/6م شطرا كبيرا منها إلى المغرب الأقصى

انطلاقا من أفريقية. وأحدث انتشارها صدامات كثيرة مع السكان، وتأثر من جحافلها الاقتصاد المحلي، وكانت تعد بعشرات الألوف. غير أنها أثرت كثيرا في التعريب البشري للمنطقة، سواء بأرياف أفريقية أو عدد من أرياف وحتى مدن المغربين الأوسط والأقصى. وكانت في قدومها إلى

(10060/1)

الشمال الإفريقي مصحوبة بمجموعات من قبائل أخرى كسيلم التي استوطنت ليبيا ومعقل التي انتشرت بالصحاري الجنوبية بقرب الواحات والأودية. وعلى سبيل المثال، تعرب الجزء الأكبر من السهول الأطلسية بالمغرب، مثل دكالة والشاوية، كما انتشر اللسان العربي بأجزاء من سوس كما في قبيلة هوارة وضواحي تارودانت. وتسربت معقل إلى موريتانيا حيث لا يزال التأثير العربي أقرب إلى أصله بجزيرة العرب في التقاليد وغطاء الرأس لدى النساء، وفي الذوق الشعري وجملة من العادات العربية العريقة.

(10061/1)

ولولا هذه الموجة الهلالية لبقي التعريب البشري محدودا في بعض المدن، ويمثل أقلية ضئيلة لا سيما بكل من الجزائر والمغرب وموريتانيا، أما في ليبيا والقطر التونسي فإن نسبة هذا التعريب شملت الأغلبية الساحقة من السكان. وكل هذه المناطق مدينة في لغتها الدارجة (العربية) بأكبر شطر من مصطلحاتها للموجة الهلالية، إلى جانب الأثر الأندلسي(1).

الحركة السلفية في القرن 18/12م

---

(1) المصادر عن دخول بني خلال ومن رافقهم من قبائل العرب متعددة، لكن أدقها وأوفاها هو تاريخ ابن خلدون، ج6.

(10062/1)

اقترن ظهور المذهب، الوهابي وانتشاره بجزيرة العرب والعراق خلال الثلث الأخير من

القرن الثامن عشر الميلادي، بحركة سلفية مماثلة بالمغرب على يد السلطان العلوي محمد

بن عبد الله الذي كانت وفاته سنة 1205/1790 فقد شجع هذا العاهل نشر الدراسات الحديثية عبر المساجد وحلقات الدروس، واختار لنفسه المذهب الحنبلي، كما

صرح بذلك في كتابه: الفتوحات الإلهية، لكنه لم يلزم الأمة بهذا المذهب، فقد كان المذهب المالكي متغلغلا في كل جهات المغرب عبر القضاء والإفتاء والمعاهد والمساجد والكتب المتداولة. واستخدم نفوذه في

(10063/1)

التشطيب على مختصر خليل من مصنفات الدراسة دون أن يذهب بعيدا في مسألة الاجتهاد، والرجوع أساسا إلى الكتاب والسنة، فقد جرب الموحدون وبإصرار، فيما سبق، أي خلال القرن السادس الهجري وشطر من السابع أن يلتزم الفقهاء بأصول الشريعة رأسا، وهذا كان عملا ناجحا جزئيا، لأنه لا يمكن أن يعم الاجتهاد مئات الفقهاء في عصر واحد على نفس الرقعة الجغرافية، ولو أن المرحلة الموحدية شهدت فقهاء مقتدرين من المنطقة المغاربية والأندلس.

(10064/1)

وعلى إثر مذكرة وجهها العاهل سعود الأكبر (1218–1230/1803–1814) إلى الأقطار المسلمة، وجه السلطان

المغربي مولاي سليمان الذي خلف والده محمد بن عبد الله بوفد يقوده الفقيه الكبير حمدون بن الحاج إلى السعودية، فتبين للوفد وجود تقارب بين السلطتين في محاربة البدع والانحرافات، لكن موقف الفقهاء بالمغرب، اختلف بين محارب لزيارة الأضرحة ومدافع عنها بالشروط السنية المعروفة، من منع التوسل بغير الرسول – صلى الله عليه وسلم – وعدم تحويل الأضرحة إلى أوثان تعبد من دون الله أو تؤدي إلى الإشراك به.

(10065/1)

أما الوضع بالنسبة لباقي الأقطار المغربية، فقد كانت هذه البلاد تحت نفوذ السلطة العثمانية التي تطبق المذهب الحنفي، وهذه السلطة لم تتقبل المذهب الوهابي بحال، بل حاربته بشتى الوسائل بالمشرق(1).وتبعا لذلك لم تكن لتقبله بالشمال الإفريقي.

التواصل الثقافي

هذا التواصل هو أبرز عناصر الترابط بين منطقة الخليج والمنطقة المغاربية، بعد الرابط الديني الذي يدفع المغاربيين إلى أداء مناسك الحج والعمرة وزيارة المشاهد المعظمة وربما مراكز مختلفة غير مكة

---

(1) حركات، التيارات السياسية والفكرية بالمغرب، صص. 79–88.

(10066/1)

والمدينة وجدة. فهناك الذين يذهبون إلى البصرة أو الكوفة أو بغداد أو عمان وغيرها من مناطق الخليج العربي.

وأهم المعارف التي كان المغاربيون يأخذونها بهذه المراكز عموما هي العلوم الشرعية، وعلوم العربية وأصول الدين. إن الحافز الديني في هذا الاختيار لم يكن منفردا فهناك أيضا عامل التقارب الفكري مع الثقافة الإسلامية انطلاقا من منابعها الأولى، كما أن الخصوصيات المذهبية أيضا، لها دور كبير في اختيار النمط الثقافي المغاربي فقد كان المغرب المسلم يضم بعض المناطق التي أخذت بالمذهب الإباضي قائما. وقد أشار

(10067/1)

الدرجيني في طبقات مشايخ المغرب إلى الاستشارات الفقهية وغيرها ما كان يجريه إباضة الشمال الإفريقي

مع إباضة البصرة وغيرها من مراكز المشرق(1).

وبالنسبة للمذاهب السنية المعروفة، فإن مكة والمدينة استقطبتا اهتمام الدارسين والمدرسين على السواء. فبهما كان يقيم أو يستقر نهائيا، طلاب ومدرسون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ولذلك اجتمع فيهما من علماء الفقه والحديث خصوصا في الأجيال الأولى ما لم يجتمع في غيرهما.

---

(1) الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، صص.49-50.

(10068/1)

وقد يكون هنا من باب التذكير، الإشارة إلى أحد أقدم محدثي المدينة وهو عكرمة البربري مولى عبد الله بن عباس من رجالات القرن الأول الهجري، وتنقل بين أقطار المشرق ثم قضى فترة من أواخر حياته بالقيروان داعيا ومدرسا بجامع عقبة (1).

كما أن أبا الحكم إسماعيل بن إسحاق، الموصوف أيضا بالبربي كان فقيها محدثا بالمدينة، وكان مالك من أساتذته(2).ولا يعرف إلى أية جهة من

---

(1) ترجم لعكرمة كثيرون، كالمالكي، رياض النفوس،

ج1، ص.145 ؛ وابن خلكان، وفيات، ج1، ص.402 ؛ والحافظ الذهبي، تذكرة، ج1، ص.95.

(2) عياض، مدارك، ج4، ص.150.

(10069/1)

المغرب العربي ينتمي عكرمة أو أبو الحكم. وقد سبق ذكر علي بن زياد الذي هو من طرابلس وكان معاصرا لأبي الحكم وتلميذا لمالك وبفضله انتشر الموطأ بأفريقية خاصة. ومن بين الذين تلقوا الفقه أو قاموا بتدريسه الخليج، لا سيما بالحجاز، إلى جانب من سبق ذكرهم:

1 –حماد بن يحيى السجلماسي (1) (قرن 9/3م)

---

(1) أبو العرب، طبقات علماء أفريقية وتونس، صص.203، 208 ؛ مدارك، ج4، ص.97 ؛ الذهبي، تذكرة، ج1، ص. 343؛ ابن فرحون، الديباج، ج1، ص.342.

(10070/1)

من شيوخه في الحديث بالبصرة، عبد الله بن بكر السهمي البصري، وفي الفقه بالمدينة: ابن الماجشون عبد الملكبن عبد العزيز. وإلى حماد هذا يعزى إدخال

كتاب ابن الماجشون في الفقه إلى المغرب العربي، وقد ظلت آراء صاحبه تردد في كتب الفقه المغاربية حتى عهد قريب، لأن بن الماجشون من تلاميذ مالك ومتأثر به.

2 –أسد بن الفرات (1) (ت. 2/3م)

أصله فيما قيل، من خراسان، نشأ بإفريقية ودرس على بن زياد بتونس ثم التحق بالمدينة فصحب مالكا قبل أن يتوجه إلى العراق ليلازم بالكوفة محمد

---

(1) محمد السراج، الحلل السندسية، ص. 741–755.

(10071/1)

بن الحسن الشيباني. وبذلك جمع بين المذهبين المالكي والحنفي. وكانت هذه الظاهرة معتادة في دراسة عدد من طلاب الشمال الإفريقي بالمشرق، وتولى أسد منصب القضاء وفتوح صقلية حيث استشهد حول سرقوسة.

3 –الحسين بن عبد الله الأجدابي (1) (ت. 132)

ينتمي إلى أجدابية الليبية. درس بالحجاز على كثيرين مثل أبي زرعة الجرجاني وأبي نصر النيسابوري، وبعد رحلته تفرغ للتدريس بإفريقية وألف في مناقب عدد من الشخصيات العلمية المعروفة بتقواها.

(1) مدارك، ج 7، ص. 100.

(10072/1)

---

4 – علي بن عبد الله بن مخلوف الطرابلسي(1). من تلاميذه أبو طاهر السلفي. ألف في يتاريخ طرابلس كما قال ياقوت، وتوفي بمكة سنة 522 .

5 – عتيق بن علي الصنهاجي المكناسي.

من مثقفي القرن السادس / 12م. درس بفاس ومكة وبغداد ومصر. وتجلى في الفقه والأدب(2).

6 – محمد بن محمد المقري التلمساني (ت. 758/1357 بتلمسان)

جمع بين الفقه والحديث والعقليات. وكانت له رحلة طويلة إلى المشرق، خصوصا مكة

---

(1) ياقوت، معجم البلدان، مادة طرابلس.

(2) ابن القاضي، جدوة الاقتباس، ج 2، ص.455.

(10073/1)

وبيت المقدس ومصر. وهو أحد أبرز دعاة الاجتهاد في القرن الثامن(1).

7 –محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي (2) (ت. 803 / 1400 بتونس)

من أكبر الفقهاء المغاربيين، وهو عالم مشارك في الحديث والأصول والعقليات والتفسير. وله مؤلفات في مختلف تخصصاته. حج سنة 792 وأقام مدة بالحجاز، وكان له به طلاب كثير. قال عنه

---

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، ج 2، ص. 191–226 ؛ البستان، ص. 154–164 ؛ أحمد المقري، أزهار الرياض، ج 5، ص. 12–78.

(2) ابن فرحون، الديباج، ج 2، ص. 331 ؛ السيوطي، بغية الوعاة، ص. 98 ؛ ابن مريم، البستان، ص. 190.

(10074/1)

تلميذه ابن ظهيرة المكي في معجمه: "لم يكن بالمغرب من يجري مجراه في التحقيق، ولا من اجتمع له من العلوم ما اجتمع له". وقد علق لبن مريم في البستان على ذلك بتعداد جملة من أقرانه في عصره كالمقري السابق ذكره، وأحمد القباب الفاسي.

وقبل الانتقال إلى الحديث النبوي تجدر الإشارة إلى أن عددا كبيرا من الطلاب كانوا يقصدون الحجاز لدراسة علوم القرآن. ومن أبرزهم:

1 –مكي بن أبي طالب القيرواني (1)

---

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، ص.229 ؛ ابن خلكان، وفيات، ج2، ص.157 ؛ ابن الجزري، غاية النهاية، ج2، ص.309 ؛ الداودي، طبقات المفسرين، ج2، ص.337.

(10075/1)

(ت. 437/1045م)

وهو صاحب سلسلة كبيرة من مصنفات علوم القرآن كالضبط والقراءات والتفسير. ومن شيوخه بمكة: أحمد بن فراس العبقسي وأحمد بن إبراهيم المروزي. واستقر بعد عودته بالأندلس حيث كون مدرسة حقيقية في علوم القرآن.

2 –أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي الحرالي (ت. 637هـ بحماة)

مولده ونشأته بمراكش، وأصله همن حرالة، إحدى قرى إقليم مرسية بالأندلس. كان ضليعا في العربية والفقه والكلام والأدب والفلسفة. رحل إلى المشرق، وكان بين

شيوخه بالحجاز، الفقيه المتمرس بعلوم القرآن والعربية أبو عبد الله محمد القرطبي.

(10076/1)

وكتب الحرالي تفسيرا تميز بأصالته، وظف فيه معارفه في العقليات وروحه الصوفية. وانشطر قراؤه بين ناقد كابن تيمية وعز الدين بن عبد السلام، ومحبذ كالغبريني والبقاعي الشامي الذي وضع تفسيرا على منواله(1).

غير أن الحديث النبوي كان يستقطب أعدادا أكبر من المغاربيين بمكة والمدينة، لدورهما الأصيل في هذا الباب من جهة، ولاستغلال فرصة قضاء المناسك التي يقيم الطلاب بعدها أو قبلها شهورا يقضونها في حلقات

---

(1) الغبريني، عنوان الدراية، صص. 143–155؛ السيوطي، طبقات المفسرين، ص. 22؛ القرافي، توشيح الديباج، صص.162–165.

(10077/1)

الدرس إذا لم يستقر بعضهم سنين، أو لبقية عمرهم، ومن بينهم:

1 -موسى بن معاوية الصمادحي من القيروان، اشتهر كمحدث بارز (ت. 225 بالقيروان). درس بالحجاز والبصرة والكوفة وغيرها(1).

2 -يزيد بن محمد الجمحي (ت. 212هـ) درس بالمدينة والعراق والشام، وهو من القيروان. وكان من تلاميذ مالك وربما شايع بعض مذاهب أبي حنيفة(2).

---

(1) أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، ص.190؛ الدباغ، معالم، ج2، ص.51.

(2) أبو العرب، م.س، ص.168؛ المالكي، رياض النفوس. ج1، ص.239.

(10078/1)

---

3 -بكر بن حماد التاهرتي من المغرب الأوسط (ت. 296 بضواحي تاهرت). محدث ولغوي وشاعر. تابع دراسته بالقيروان والبصرة حيث أخذ عن محدثين ولغويين كمسدد البصري وأبي حاتم السجستاني وابن الأعرابي(1).

4 -أبو محمد الأصيلي عبد الله بن إبراهيم (ت. 392هـ

بقرطبة)

من مواليد أصيلا المغربية، قضى سنوات طويلة في الدراسة بالمشرق. ومن بين شيوخه بمكة أبو زيد المروزي، وبالمديمة أبو مروان المالكي. وببغداد أبو بكر الشافعي، وأبو بكر الأبهري الذي كان شيخ المالكية

---

(1) ابن عبد البر، الاستيعاب، ج 3، ص.62 (بهامش الإصابة لابن حجر).

(10079/1)

بها، وتلاميذه كثيرون. ورافق الأصيلي في دراسته أبو الحسن القابيي

القيرواني الذي يلتقي في الكثير من تكوينه مع الأصيلي، ودراس بن إسماعيل الفاسي وكان أكبرهما سنا. جمع الأصيلي بين الحديث والفقه المالكي والخلاف العالي والأصول والجدل. ومن أشهر تلاميذه ابن أبي زيد القيرواني(1).

5 –ابن الضابط الصفاقسي أبو عمرو عثمان الصدفى (ت. بعد 444 في رحلة دبلوماسية إلى القسطنطينية) تابع بأقطار المشرق،

(1) ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة، ج 1، ص.290 ؛ الحميدي، جذوة، ص.311. الحافظ الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج3، ص. 1024.

(10080/1)

خصوصا بالحجاز والعراق. جمع بين الحديث واللغة والأدب، وهو من صفاقس بالقطر التونسي. وكان له تلاميذه كثيرون(1).

6 –عبد الله بن محمد الأشيري، من أشير بالمغرب الأوسط (ت. 561) انتقل إلى الشام فبرز في الحديث ثم قام بتدريس الحديث ببغداد ومكة قبل أن يعود للاستقرار نهائيا بالشام، حيث توفي بالبقاع اللبناني(2).

(1) الحميدي، جذوة، ص.285 ؛ ابن بشكوال، الصلة، ج 1، ص.387 ؛ ابن مخلوف، شجرة النور، ص. 109 .

(2) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة أشير ؛ ابن الآبار، تكملة، ج2، ص. 919.

(10081/1)

---

7 –ميمون بن ياسين اللمتوني (ت.530 باشبيلية)

من صحراء المغرب المرابطي. من أكبر شيوخه بمكة عيسى بن أبي ذر الهروي. ويتردد ذكره كثيرا في المؤلفات الأندلسية حيث كان له إشعاع واسع بالأندلس(1).

8 –ابن رشيد الفهري السبتي محمد بن عمر (ت. 721 بفاس)

أحد كبار محدثي العالم الإسلامي. ولد بسبتة وتلقى بها شطرا من دراسته قبل أن يبدأ رحلة طويلة للدراسة بالمراكز المغاربية والمشرقية. ومن هذه المراكز تونس الإسكندرية والقاهرة ومكة والمدينة ودمشق.

---

(1) ابن الأبار، تكملة، ج 2، ص.718 ؛ عباس المراكشي، الإعلام، ج 7، ص. 308.

(10082/1)

ومن شيوخه بمكة محمد بن أبي بكر بن خليل المكي. وبالمدينة عبد الصمد بن عبد الوهاب الدمشقي، وعفيف الدين عبد السلام البصري. وله عدة مؤلفات من أشهرها رحلته العلمية، ملء العيبة، وهو في عدة أجزاء أغلبها بالاسكوريال. ونشر الجزء الخاص بتونس

بتحقيق د. محمد الحبيب بلخوجة. ويعد هذا الكتاب أضخم ما ألف في الرحلات العلمية، وترجم لابن رشيد عدد من مؤلفي التراجم(1)

---

(1) الإحاطة، ج3، صص.135–143 ؛ ابن الجزري، عناية النهاية، ج2، ص.219 ؛ ابن فهد المكي، لحظ الألحاظ، ص. 97 ؛ المقري، أزهار الرياض، ج2،صص.347–356 ؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج2، ص. 234.

(10083/1)

.

9 –ابن مرزوق العجيسي محمد بن أحمد التلمساني (ت. 781 بالقاهرة) تلقى دراسته بالشمال الإفريقي، وبمصر والشام والحجاز، ومن أساتذته بالمدينة، كل من عز الدين الواسطي، ويحيى المغراوي وابن فرحون التونسي وهو عالم ذو مشارك واسعة، وشرح الشفافي خمسة أجزاء (بوغوطة بألمانيا) دون أن يتممه، وله مؤلفات أخرى في الحديث والفقه. ومن تلاميذه لسان الدين بن الخطيب، وإبراهيم التازي وابن قنفذ القسنطيني(1).

---

(1) الإحاطة، ج3، صص. 103–130 ؛ ابن خلدون، التعريف، ص.842 ؛ المقري، نفح الطيب، ج7، صص. 309–338.

(10084/1)

---

10 –تقي الدين الفاسي محمد بن أحمد (ت. 832 بمكة). من مواليد مكة المكرمة، درس بها وبالمدينة ومصر والشام واليمن، واتجه خصوصا إلى الحديث والتاريخ، وله مؤلفات عن مكة والمدينة ذات أهمية لأنها تتناول وصف الحرمين والمدينتين المقدستين، كما تتناول جوانبها التاريخية والثقافية والمؤسساتية. وصفه ابن فهد المكي بالإمام الحافظ المؤرخ، وختم ترجمته بقوله: لم يخلف بالحجاز مثله(1).

---

(1) ابن فهد المكي، م. س،صص. 291–297.

(10085/1)

---

11 –محمد بن موسى المراكشي (ت.823) هو أيضا من مواليد مكة وتلقى ثقافة واسعة في الحديث والفقه والعربية بمكة والمدينة والشام والإسكندرية. وكان شافعي المذهب. وتوفي بمكة(1). (ت. 1090)

12 –أبو سالم العياشي عبد الله لن محمد (ت. 1090).

... درس بالمغرب ومكة والمدينة. وجمع بين الحديث والفقه والتصوف وكتب في هذه الفنون كما كتب في التراجم، واشتهر خصوصا برحلته القيمة "مائدة الموائد" وكانت له إلى المشرق ثلاث رحلات، وفي ثالثتها ألقى دروسا في الفقه بالمدينة، على مذهب مالك، كما ألقى

---

(1) ابن فهد، لحظ الألحاظ، ص.272.

(10086/1)

بها دروسا في فنون مختلفة كالتوحيد والنحو والبلاغة(1).

وكل هذا الحشد من الشخصيات الثقافية لا يمثل إلا غيضا من فيض، ولكنه يبرز بالتأكيد مدى تعلق المغاربيين بالمشرق، لا سيما بالبقاع المقدسة التي ربطوا بها صلات الدين والفكر وحتى الصهر، ولم يثنهم عن ذلك بعد المسافة ولا مشقة الطريق وأهوال السفر.

---

(1) القادري، التقاط الدرر ؛ وفيات، 1090 ؛ محمد أمحزون، المدينة المنورة في رحلة العياشي. انظر خصوصا: ص.181–185.

(10087/1)

على أن هناك جانبا متميزا بين مجالات التواصل الثقافي كان له دور في توسيع آفاق المعرفة الاقتصادية والاجتماعية والخصوصيات الثقافية المحلية، وهو من مؤلفات الجغرافيا التاريخية والرحلات، وهذا الموضوع تجلى فيه غير واحد من مثقفي المشرق كالمقدسي والهروي وياقوت والبعقوبي. أما في المنطقة المغاربية فأشهر الجغرافيين الذين تناولوا منطقة الخليج في العصور الوسطى هو الشريف الإدريسي من القرن السادس/12م. كما أن أشهر رحالة تناولها هو ابن بطوطة، وكلاهما من المغرب، ولا حاجة إلى التذكير هنا بالعدد الكبير ن الرحلات

(10088/1)

الحجازية التي حرر معظمها مثقفون من المغرب، وتميزت غالبا بالدقة وجمال الأسلوب، وفي كثير من الأحيان بروح المغامرة والجمع بين الوصف الأثري والاجتماعي والاقتصادي والديني والثقافي وحتى الإداري.

هناك شخصان كتبا عن المنطقة المغاربية، في نطاق ما

يعرف بكتب المسالك والممالك، وكلاهما من بغداد، وشخص ثالث من فارس، هو أبو إسحاق الإصطخري.

1 –أحمد بن يعقوب بن واضح (ت. 897/284) وهو صاحب كتاب "البلدان"، وهو أول جغرافي عربي وصلنا كتابه في وصف عدد من الأقطار المشرقية والمغربية وغيرها، وتكتسي معلوماته عن الشمال

(10089/1)

الإفريقي بدءا ببرقة إلى منطقة سوس المغربية أهمية استثنائية بالنظر للفترة

المتقدمة التي تتناولها، ولاستحالة الحصول على معظمها في غير هذا المصدر بالنسبة للفترة التي تعادل النصف الثاني من القرن الثالث، وذلك يتعلق بمحطات السفر والطرق وطرائق المعاش والأسعار والتجارة والتعامل ونمط الحياة الدينية وحتى المذهبية أحيانا. ومن أهم المعلومات التي أدلى بها وصول مراكز الأبلة الخيطية إلى ساحل ماسة من منطقة السوس(1)، وهذا يعني وجود حركة تجارية في هذا العصر

---

(1) أحمد بن يعقوب، البلدان، النجف، 1957/1377، ص.110.

(10090/1)

البعيد بين منطقتي الخليج وأقصى المغرب، وهي أيضا كانت موجودة عبر الطريق البري. وقد سجل اليعقوبي وغيره وجود تجار خليجيين بسجلماسة، مع العلم بأنه وصف مشاهداته الخاصة(1).

2 –أبو القاسم محمد بن حوقل، وقد تنقل بين الأقطار الإسلامية من الهند إلى المغرب، ولكن وصفه للمغرب العربي تميز أيضا بمعلومات نادرة وفريدة عن المنطقة. وهو مثل اليعقوبي، كلاهما شيعي. وهو (أي ابن حوقل) يبدي شيئًا من ميوله الشيعية. وقد عاش ابن حوقل إلى ما بعد الستينات من

---

(1) R.Blachère et H. Darmaun, Géographes Arabe au Moyen-Age, p. 116

(10091/1)

القرن الرابع. وذكر الزركلي(1) وفاته في "الأعلام" سنة 380.

ومن أهم ما ذكره هذا التاجر العالم (2) أن التجار كانوا

يفدون على سجلماسة المغربي، من الكوفة والبصرة وبغداد. ولا ريب أن هؤلاء التجار لم يكونوا كلهم عراقيين بالضرورة، فمن المحتمل أن يكون بينهم حجازيون وأسلاف كويتيين وغيرهم ممن كانوا يقيمون بالعراق. وأشار ابن حوقل إلى تردد القوافل البرية باستمرار بين العراق وأقصى المغرب، مع ما كانت تدره عليهم التجارة من أرباح عظيمة كما

---

(1) الزركلي، الأعلام، ترجمة محمد بن حوقل.

(2) ابن حوقل، صورة الأرض، ص.65.

(10092/1)

قال، لأن سجلماسة كانت مركزا تجاريا عظيما في تسويق الذهب من السودان الغربي (1) إلى مختلف أقطار العالم.

وتتكامل معلومات ابن حوقل عن المحطات التجارية الليبية، مع ما زودنا به اليعقوبي من قبل. وحيث إنه يؤدي الضرائب كغيره من التجار، فإفادته في هذا الباب ذات قيمة خاصة في مجال التاريخ الاقتصادي(2).

ومن أهم ما يثير الانتباه في معلومات ابن حوقل بالنسبة للأقطار المغاربية عموما، خصوبة الجهات التي

سلكها أو وصفها، ووفرة الأنعام والمواشي بعموم المنطقة، وحركة الموانئ حتى الصغرى،

---

(1) ن. م، وص.

(2) ن.م، صص. 69–72.

(10093/1)

ووجود استهلاك ملحوظ بالنظر لكثرة الأرحية على مختلف الأنهار. وهو مع ذلك يتحدث عن المذاهب وممارسة الشعائر الدينية محافظا في غالب الأحيان على روح الاعتدال في النقد والتقييم.

وقد أنصف المستشرق بلاشير(1) في تقييمه للتفاصيل التي قدمها عن المنطقة المغاربية والأندلس، ووصفها بالأصالة، لأن أغلب معلوماته عن الجهات الأخرى كفارس وبحر الخزر ومنطقة الخليج أخذها عن الأصطخري معاصره، وهو ما يمكن الوقوف عليه بالمقارنة بين عمل الإثنين.

3 – الأصطخري إبراهيم بن محمد (ت. 346هـ)

---

(1) Blachère, Op.Cit, pp. 135–136

(10094/1)

يعرف أيضا بالكرخي، وهو من اصطخر الفارسية، وتتميز معلوماته بالاختصار والتركيز. وقد أنجز كتاب "المسالك والممالك" المعروف باسمه، حوالي سنة 307. كما يمكن استخلاصه من بعض إشاراته(1). وهو يقدم بعض المعطيات الاقتصادية والثقافية على قلتها، بالإضافة إلى تحديد المسافات(2)، كما يفعل بالنسبة لمختلف البلدان.

أما إذا انتقلنا إلى الصورة الخليجية في أعمال الجغرافيين فإن خير من يمثلها من المغاربيين، الشريف الإدريسي. وكما يمثلها من الرحالة المغاربيين ابن بطوطة

---

(1) الأصطخري، المسالك والممالك، ص. 34.

(2) م. ن، ص.35.

(10095/1)

اللواتي:

1 –الشريف الإدريسي محمد بن محمد البستي (494–560/1001–1165). ولد بسبتة، ويرجح أن وفاته بصقلية. عاصر فترة ازدهار ثقافي بسبتة والأندلس. التي تجول كثيرا بينها وبين الشمال

الإفريقي. وشملت ثقافته الفلسفة والأدب والطب والنبات، بالإضافة إلى الجغرافيا التي ربما كان أبرز علمائها بين العرب. وقد تنقل بين أقطار المشرق وعدد من الأقطار الأوربية كفرنسا وإنجلترا وإيطاليا. وفي سنة 533/1138 استقدمه عاهل صقلية النرماني روجار الثاني من سبتة، حيث قام بإعداد كرة أرضية وخرائط مسطحة، وأنجز كتابه "نزهة

(1/10096)

المشتاق". وكتب في "الأدوية المفردة" كتابا طبية صيدليا، يعد من أفضل ما كتب في هذا الباب(1) وتناول الإدريسي مختلف مناطق شبه جزيرة العرب. وخص عمان بما يناهز أربع صفحات متوسطة. وقال عن صحار إنها مدن عمان وأكثرها أموالا، وأشار إلى صعوبة الطريق بين عمان ومكة، وكذا بين عمان والبحرين حيث سجل ظاهرة الغارات بين قبائل(2).

---

(1) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج3، ص. 92؛ عباس المراكشي، الإعلام، ج4، ص. 115؛ Blachère, Op.Cit, pp. 190–191

(2) ن.م، صص. 159–161.

وخص اليمامة ببضع فقرات قيمة(1)،لا سيما في توضيح محطات القوافل ومن بينها توضح والمقراة اللتان ذكرهما امرؤ القيس (وهو من نفس المنطقة) في البيت الثاني من معلقته:

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال

وذكر مراحل الطريق فيما بين اليمامة والبصرة(2)، وخص (كاظمة) بوصف مدينة وحصن، وذكر أن هذا الحصن منيع على جبل عالي الذروة، وتفصلها عن البصرة مرحلتان تتوسطهما قرية دهمان، وقد أشار ياقوت إلى وفرة مياه كاظمة(3). وأثار

---

(1) ن.م، صص. 161–162.

(2) ن.م، صص. 161–162.

(3) ياقوت، معجم البلدان، مادة(كاظمة).

ذكرها عدة مرات محمد بن عبد المنعم الحميري السبتي من القرن 14/8 وهو واضع معجم "الروض المعطار" الذي يعد المعجم الجغرافي الوحيد الذي وصلنا من أعمال المغاربيين.

وورد ذكر (كاظمة) في أشهر قصيدة في المديح النبوي، وهي قصيدة البردة لمحمد بن سعيد الصنهاجي البوصيري (ت.696) وهو من أب هاجر إلى مصر من المغرب الأوسط(1).وفي البيت الثاني من البردة يقول:

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم

---

(1) الزركلي، الأعلام، ترجمة محمد بن سعيد البوصيري.

(10099/1)

---

2 –ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (703–779/1303–1377م) هو أشهر رحالة مسلم. لا يعرف شيء يذكر عن دراسته الأولى، ولكنه عاش في بيئة متدينة، ونال قسطا من المعارف الإسلامية كما يدل على ذلك انتدابه للقضاء في بعض جهات الشرق الأقصى. وكانت له رحلات ثلاث، أولاها بدأها سنة 725/1324 واستغرقت ربع قرن قادته إلى مختلف

الأقطار العربية وعدة أقطار آسيوية. والثانية إلى الأندلس سنة 752هـ، والثالثة إلى السودان الغربي سنة 753.

(10100/1)

وأغنى رحلاته بالمعلومات، على غرابة الكثير منها، هي رحلته الطويلة الأولى. وبالنسبة لجزيرة العرب، فقد وصف الأماكن المقدسة واتصالاته العلمية والدينية بمكة والمدينة، كما وصف جهات اليمن ومدنها الرئيسية وصفا جيدا، وحظيت عمان ببضع فقرات تعكس انطباعاته(1). وفيها يجري على عادته من وصف بعض الأطعمة التي تناولها، والعواصف التي صادفت تنقلاته عبر البحر. ونزل بمدينة قلهات الساحلية من عمان، أياما عند واليها الذي أحسن مثواه، وأعجب بنوع من السمك بها قال إنه فضله على كل اللحوم

---

(1) ابن بطوطة، رحلة، ج1، صص. 172–173.

(10101/1)

وأنه لم يكن يتناول سواه. ثم وصف كرم عاهل عمان ابن محمد ابن نبهان، وأشار إلى خصب عدد من مناطقها ومدنها، ولم يتردد في الحديث عن بعض الجوانب المذهبية والأخلاقية بالمنطقة، وهو أمر جرى عليه عموم الرحالة وعدد من الجغرافيين.

وتعددت الصلات الثقافية والحضارية بين أقصى العالم العربي شرقا وأقصاه غربا بشكل يحتاج إلى دراسات متخصصة ودقيقة. وهناك أدب عربي فطري يتغلغل في الأوساط الحسانية المعقلية بكل من موريتانيا والصحراء المغربية، بشكل يذكرنا بنظير هذا الأدب عبر أقطار الخليج عموما. بل إن العادات والتقاليد

(10102/1)

وحتى الطرب والفنون الشعبية تتقارب أو تتشابه في الكثير من وجوهها بين طرفي العالم العربي.

آفاق المستقبل

إذا كان ما تقدم من هذا العرض السريع هو بعض مكونات الماضي، فَبُعْدُ الشُّقة وطد هذا التلاحم القاعدي والسياسي على مدى الزمن، لأنه لا يوجد جوار جغرافي مباشرة يفضي إلى احتكاك أو تعارض مصالح. والغيوم التي سببتها حرب الخليج قد لا تختفي مرارتها على المدى القصير،

ولكنها لابد أن تكون تجربة استثنائية لمن يكون لهم صنع القرار السياسي في المستقبل.

(10103/1)

إن هناك أربعة مجالات على الأقل، لتقوية العلاقات الخليجية المغاربية ثنائيا وجماعيا:

1 – المجال الاجتماعي:

ويتطلب تقوية تبادل وفود الشباب والقطاعات النشيطة على اختلافها، وتنمية التواصل السياحي المنظم، والذي هو في الوقت ذاته، عنصر تنشيط اقتصادي وتكوين ثقافي. ولاريب أن العمل على توحيد التشريعات القضائية في أقصى الجوانب ضرورة على الأقل، من شأنه أن يسهل الكثير من الصعاب في العلاقات العامة، لاسيما العلاقات الاجتماعية.

2 – المجال الثقافي والعلمي:

(10104/1)

لا يحتاج الأمر إلى تأكيد أهمية هذا المجال في ربط العلاقات بين الشعوب الغريبة عن بعضها لغة وفكرا

وحضارة، فكيف إذا وحدت بينها كل هذه الوسائل وغيرها من مقومات التواصل العريقة ؟

ويوجد في هذا المجال من أسس التعاون، الشيء الكثير.

– تبادل الخبرات التربوية والجامعية، وهو ما عليه الحال بين بعض الدول من هذه الجهة أو تلك، وما يمكن تنميته وتوسيعه وتعميمه.

– تبادل المعرفة المكتوبة والمسموعة والمرئية والمصورة. وبهذا الصدد، فإن هذه الأنواع من المعرفة قد آن الأوان لتمتيعها بالتخفيضات الجمركية الضرورية لتسهيل

(10105/1)

تبادلها، لاسيما مع اتساع شبكة التواصل التلفزيوني الدولي والتي تتناقض مجانية التقاط قنواتها مع المبالغ الضخمة التي يتطلبها شحن كمية قليلة من الكتب ؛ وغالبا ما يتجاوز بعث نسخة واحدة ثمن بيعها في سوق الكتب. وهو ما يقال عن الأشرطة والخرائط وغيرها من وسائل المعرفة.

– إنشاء مراكز بحث مشتركة مثل مركز للدراسات المستقبلية، وآخر لرصد التراث الشعبي والتاريخي وثالث للدراسات البحرية الميدانية، ورابع لتطوير آلات

العلاج، وهلم جرا...

3 – المجال الاقتصادي:

(10106/1)

إن المختصين بهذا الميدان أولى من غيرهم بتناول أوضاعه وتطوراته، وبالتالي، فهم على علم بحدود التبادل حاليا، وإمكاناته مستقبلا. غير أن الكل يدرك أن التعاون الاقتصادي بين دول الخليج والدول المغاربية لا زال ضعيفا بالقياس إلى امتداد هذا التعاون مع أطراف أخرى من العالم. وقد يؤخذ على السياسة العربية الاقتصادية عموما أنها تميل إلى استقلال القرار محليا، في أمور كان يمكن أن توفر بها أموالا طائلة من طريق تنسيق متكافئ. وعلى سبيل المثال، ما دام في بلد خليجي جامعة بترول متخصصة ذات قدرات عالية، فلتكن رهن إشارة

(10107/1)

طلاب الدول العربية الأخرى دون حاجة لتكرار المؤسسة نفسها. وإذا توفر ببلد معمل لصيانة الطائرات، فلا

ضرورة لإنشاء مثله بالبلدان العربية المجاورة ما دام يغطي حاجة المنطقة. وفي كل حال، فإن العبرة بأن يحقق العرب اكتفاءهم الذاتي من ناحية، وأن لا يبحثوا من ناحية أخرى عن تنافس داخلي، بل تنافس مشترك، في إطار السوق العالمية. واحتمالات التعاون الخليجي المغاربي لا تمنع من تعاون الجهتين مع سائر الأطراف العربية وغيرها في إطار المعاهدات المتكافئة.

(10108/1)

إننا نتطلع إلى اليوم الذي نرى فيه السفن التجارية الكبرى تمخر عباب البحر يوميا، بين دول الخليج والدول المغاربية في حركة اقتصادية دائبة يتوخى خيرها وتتلافى سلبياتها. وقد تخلى العالم الإسلامي مدة تسعة قرون عن دوره في توجيه الاقتصاد العالمي، فهل آن الأوان ليفكر في استعادة هذا الدور والإعداد له ؟

بيبليوغرافيا

–ابن الأبار القضاعي محمد بن عبد الله، 658/1210م: التكملة لكتاب الصلة، القاهرة 1375/1956م.

–ابن بشكوال خلف بن عبد الملك، 578/1183م: الصلة، القاهرة، 1374/1955م.

(10109/1)

-ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي،

1377/779م: **رحلة ابن بطوطة، القاهرة،** 1955/1377م.

-ابن الجزري شمس الدين محمد بن محمد، 1430/833م:

غاية النهاية في طبقات القراء، بيروت، 1352-

1933-1932/1353م.

-ابن حوقل محمد النصيبي، 990/380: **صورة الأرض،**

بيروت، 1992م.

-ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله،

1374/776م: **الإحاطة،** 3 **أجزاء، تحقيق محمد عبد الله**

عنان، القاهرة، 1393/ 1973م.

-ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد، 1405/808م:

التعريف (بابن خلدون)، ملحق بتاريخ ابن خلدون:

بيروت، 1956م.

(10110/1)

-ابن خلكان أحمد بن محمد، 1281/681: **وفيات الأعيان،**

القاهرة، 1881/1299م.

-ابن عبد البر النمري يوسف بن عبد الله،

1070/463م: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (على هامش الإصابة، لابن حجر)، 1910/1328م.

-ابن فرحون برهان الدين إبراهيم بن علي اليعمري المدني، 1397/799م: الديباج المذهب،جزآن، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة، 1972م.

-ابن الفرضي عبد الله بن محمد الأزدي، 1012/403م: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، القاهرة، 1988/1408م.

-ابن فهد المكي تقي الدين محمد (1466/871م): لحظ الألحاظ، بيروت، 1958م.

(10111/1)

-ابن القاضي المكناسي أحمد بن محمد (1603/1012م): جذوة الاقتباس، الرباط، 1973م.

-ابن مخلوف محمد: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر، بيروت (د.ت).

-ابن مريم التلمساني محمد بن محمد، 1605/1014م: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الجزائر، 1986م.

-ابن يعقوب (انظر اليعقوبي).

-أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم، 944/333م: طبقات

علماء أفريقية، وتونس، تونس 1968م.

-أحمد بن الحاج الرجراجي الرباطي: الشموس المنيرة في أخبار مدينة الصويرة، الرباط، 1354/1935م.

(10112/1)

-الإدريسي (الشريف ـ) محمد بن أحمد، 560/1165م: نزهة المشتاق، جزآن، بيروت، 1409/1989م.

-الاصطخري إ[راهيم بن محمد (القرن الرابع/ العاشر م): المسالك والممالك، القاهرة، 1381/1961م.

-أمحزون (محمد ـ): المدينة المنورة في رحلة العياشي، الكويت، 1408/1988م.

-جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، أربعة أجزاء، دار الهلال، القاهرة (د.ت).

-حركات (إبراهيم ـ): التيارات السياسية والفكرية بالمغرب قبل الحماية، الدار البيضاء، 1415/1994م.

(10113/1)

-الحميدي محمد بن فتوح، 488/ 1095م: جذوة المقتبس، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة،

1952/1372م.

–الداودي محمد بن علي، 1538/945م: طبقات المفسرين، جزآن، القاهرة، 1983/1403م.

–الدرجيني أحمد بن سعيد، 1271/676م: طبقات المشايخ بالمغرب، جزآن، تحقيق إبراهيم قُسَنْطِينة، الجزائر.

–الذهبي (الحافظ ـ) محمد بن أحمد: 1347/748م: تذكرة الحفاظ، نسخة صورة ببيروت، عن الطبعة الهندية لسنة 1958م.

–الزركلي خير الدين: الأعلام، عشرة أجزاء، القاهرة، 1954–1959م.

(10114/1)

–السراج محمد بن محمد، 1736/1149م: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، جزء1، تونس،1970م.

–السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، 1505/911 م : طبقات المفسرين، ليدن، 1839 م ؛ بغية الوعاة ، القاهرة ، 1908/1326 م.

– الشوكاني محمد بن علي، 1834/1250 م : البدر الطالع ، بمحاسن من بعد القرن السابع، جزآن، القاهرة،

1929/1348م.

– عباس بن إبراهيم المراكشي : الإعلام بمن حل بمراكش من الأعلام ، 10 أجزاء ، الرباط، 1974–1983م.

– عياض بن موسى اليحصبي السبتي، 544/1149م : ترتيب المدارك، ثمانية أجزاء، الرباط، 1964–1984م.

(10115/1)

– القادري محمد بن الطيب، 1187/1773م : التقاط الدرر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، بيروت، 1403/1983م.

– القرافي بدر الدين محمد بن يحيى، 946/1533 م : توشيح الديباج وحلية الابتهاج، بيروت، 1403/1983م.

– المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد، 464/1070م : رياض النفوس، جزآن، تحقيق بشير البكوش، بيروت، 1414/1994م.

– المقري التلمساني أحمد بن محمد، 1041/1631م: نفح الطيب، عشرة أجزاء، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، 1369/1249م ؛ أزهار الرياض في أخبار عياض؛ تحقيق لجنة من الباحثين، الرباط، 1398–1399 /

(10116/1)

1978–1979م.

– المقريزي تقي الدين محمد بن علي، 845/1441م : الخطط والآثار،ثلاثة أجزاء، بيروت ، 1376/1956م.

– ياقوت الحموي شهاب الدين بن عبد الله، 626/1228 م : معجم البلدان، بيروت، 1376/1957م.

– اليعقوبي أحمد بن يعقوب بن واضح، 284/897م: البلدان، النجف،العراق، 1377/1957م.

– Blachère (R) et Darmaun, (H) Géographes Arabes du Moyen-Age, Paris, 1376/1957.

(10117/1)

صور من اللقاء العلمي بين المسلمين وأهل الذمة في الأندلس

الدكتور أحمد شحلان

كلية الآداب – الرباط

... نشرنا في العدد الأول من مجلة ا(التاريخ العربي) بحثا في مكونات المجتمع الأندلسي ومكانة أهل الذمة فيه، وأردنا في هذا العدد أن نعرض لصور من اللقاء العلمي

وبعض مناهج التعليم قبل النظر في أمهات التاريخ الأندلسي وبعض الكتابات العربية ذات الصلة.

* * *

... من أهم مجالات اللقاء في مجتمع ما، إذا تعددت أجناسه، لقاء أهل الدنيا في مقعد الدرس أو في مجمع المناظرة. وقد نقلت لنا كثير من الآثار الإسلامية،

(10118/1)

كمؤلفات ابن حزم الأندلسي، صورا من هذا اللقاء. وابن حزم نفسه كان أحد الأعلام الذين يأخذون العلم من أفواه الناس، إذ كان يجالس إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلي في دكانه بالمرية(1) ، وكان يجادل ابن النغريلة في أمور التوراة(2)

---

(1) ابن حزم الأندلسي « طوق الحماية في الألفة والولاف »، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1959، ص. 19.

(2) ابن حزم الأندلسي، « الفصل في الملل والأهوال والنحل »، مكتبة ومطبعة على صبيح، ج. 1، ص. 107، والرد على ابن النغريلة اليهودي] تحقيق إحسان عباس[، دار العروبة، القاهرة ، 1960، ص. 47.

،

كما جادل علماء اليهود في أمور دينية متعددة(1) ، وسمع منهم كثيرا(2) ولقي كثيرا من مذاهبهم المختلفة(3) ، وتحدث مع من سماهم بـ"بعضهم" في كثير من مشكل التوراة(4) .

... وبين لنا ابن حزم في "الفِصَل" كثير علم استقاه من الكتب اليهودية والمسيحية المشهورة في زمانه.

ونعتقد أن ابن حزم كان ينظر إلى أهل الذمة بعين الريبة، إذا ماتعلق الأمر بالجدل والمناظرة الدينية، فحذر المسلمين مما جاء في

---

(1) **الفصل ج.** 1، **صص.** 137، 432.

(2) **الفصل ج.** 1، **ص.** 17.

(3) **الفصل ج.** 1، **ص.** 17.

(4) **الفصل ج.** 1، **ص.** 3، 116، **ج.** 2، **ص.** 18.

كتبهم من تحريف، كما أن له في القسيسين رأبا يتهمهم فيه بالفسق والزنا وحب المال(1) ، وله نفس الرأي في اليهود الذين يتهمهم بالكذب ولا يستثني منهم إلا رجلين لم يذكر اسمهما(2) .

... وهذا الإستثناء يجعلنا، مع أمور غيره، نعتقد أن حكمه هذا في هؤلاء لايخص إلا رجال الدين فيهم، فهو يقول : "فقد يصادف الإنسان المسلم اليهودي والنصراني لمعرفة تقدمت، أو لطلب يعانيه، أو لبعض ما شاء الله عز وجل، فلا يزين له شيئا من أمره، ولا يعينه ولا يمدحه على مالا يجوز، وإن

---

(1) الفصل ج. 2، ص. 20، 12، 77.

(2) الفصل ج. 1، ص. 123.

(10121/1)

أمكنه وعظه فليعظه"(1) بل نفهم من حديثه أنه يفرق اليهودية والباطنية، إذ يقول في ابن النغريلة : " ... المستبطن في مذتهب الدهرية في باطنه، المتكفن بتابوت اليهودية في ظاهره"(2) .

... ومع ذلك فلا نستعبد أن يكون حكم ابن حزم هذا في أهل الذمة صادرا عن تجربته الخاصة به، وعن ظروف

سياسية عاناها، خصوصا ، وأن حكمه عني بالدرجة الأولى رجال الدين وذوي المناصب والجاه دون العامة. وإلا فهذا صاعد الأندلسي الذي كان يعاصره، يستعمل لغة مخالفة تماما للغة ابن جزم. فصاعد،

---

(1) الرد على ابن النغريلة، ص. 174.

(2) نفسه، ص. 47.

(10122/1)

يعد في "طبقاته" بني إسرائيل أمة ثامنة في الخلق، ويذكر بشهرة _أوائلهم بالتشريع وسير الأنبياء ، يقول : " ... وهذه الأمة هي بيت النبوة، ومعدن الرسالة من بني آدم، وجمهور الأنبياء خلوات الله عليهم ومنهم".

وكان أبو الفضل بن حسداي بن يوسف بن حسداي الإسرائيلي صديقا له يحادثه في العلم والعلماء، فهو فريد عصره " ومحله من العلوم النظرية المحل الذي لا يجاري فيه عندنا بالأندلس".

... وظل صاعد مصاحبا لابن حسداي إلى أن فارقه سنة 1065/458. ولمتكن الصداقة صاعد قصرا على ابن حسداي، فهو يقول في إسحق بن قسطار، خادم

(10123/1)

الموفق صداقة صاعد قصرا على ابن حسداي، فهو يقول في إسحق بن قسطار، خادم الموفق مجاهد العامري : " كان بصيرا بأمور الطب مشاركا في علم المنطق مشرفا على آراء الفلاسفة ... جالسته كثيرا فما رأيت يهوديا مثله في رجاحته وصدقه وكمال مروءته"(1) . ولا شك أن صاعدا كان يعرف الكثير من اليهود والنصارى، علماء وعامة غير هؤلاء.

---

(1) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم] حياة بوعلوان[، دار الطليعة والنشر، 1985، صص. 201– 202، 172، 185، 204، 206.

(10124/1)

... وكانت هذه العلاقة الإنسانية العلمية متمكنة حتى في قصور بعض الخلفاء، كما نقل المقري ذلك(1) .

... ولا شك أن ظاهرة هذا اللقاء العلمي غالبة على الحياة العامة في الأندلس، فقد كان الحسين بن بقي يناظر في الإنجيل كما أخبر بذلك صديقه ابن حزم(2) . وناظر ابن رشيق قسيسا في القرآن في كنيسة من كنائس مرسية(3)

(1) أحمد محمد المقري التلمساني، نفح الطيب] محمد محيي الدين عبد المجيد] ، مكتبة السعادة، مصر 1949، ج. 1، صص. 345، 810، 905.

(2) الفصل، ج. 1، ص. 52.

(3) الونشريسي أبو العباس، المعيار المغرب والجامع المغرب في فتاوي أهل افريقيا والأندلس والمغرب] محمد حجي[، دار الغرب الإسلامي،ج. 2، صص. 55، 158، ج. 1، ص. 91

(10125/1)

. وكان القسيسون أيضا يفيدون على الأندلس للتعبد والنظر في علوم المسلمين وترجمتها(1) . وتاريخ طليطلة ومدرستها أثار كثيرا من نالنقاش وأسال الكثير من المدادّ، وتحي اليوم إسبانيا مجد هاتيك المدرسة بإعادة الحياة إليها وإعادتها إلى سالف مجدها. ... واتصلت عادة اللقاء العلمي في مجالس الدرس، إذ لم يكن هناك فصل بين الطوائف في مجال العلم، كما لم يكن في مجال التدبير. وقد اشتهر العالم عبد الله بن سهل الغرناطي (ق/12) بالعلوم النقلية والعقلية، وامتد صيته من أجلها واجمع المسلمون واليهود والنصارى

أن ليس

---

(1) نفسه .

(10126/1)

في زمانه مثله... وكانت النصارى تقصده من طليطلة لتعلم منه أيام كان ببياسة. وله مع قسيسهم مجالس في التناظر"(1) كما كان محمد بن أحمد الرقوطي المرسي متفقها في نفس العلوم " (وكان) يقرئ الأمم بألسنتهم فننهم التي يرغبون في تعلمها ... عرف طاغية الروم حقه لما تغلب على مرسية، فبنى له مدرسة يقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود"(2) .

---

(1) ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة]تحقيق محمد عبد الله عنان[، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973 ج. 3، ص. 405.

(2) نفسه، ج. 3، ص. 68.

(10127/1)

... وكما كان اليهود والنصارى يتلقون العلم عن المسلمين، كان المسلمون أيضا يتلقون عنهم، كما أشار إلى ذلك بن الخطيب عند حديثه عن ابراهيم بن زرزار اليهودي، وكان صديقا له، يقول ابن الخطيب في ترجمته لمحمد بن علي بن سودة المري : " ... قرأ الطب والتعديل على الحبر طبيب الدار السلطانية، فارس دينك الفنين، ابراهيم بن زرزار اليهودي"(1) .

... وكما تم اللقاء في مجلس العلم والمناظرة، تم أيضا في باب الفتوى، فقد كان أهل الذمة يستفتون الفقهاء في أمور علمية غاية في التعقيد(2)

---

(1) نفسه ، ج. 1، ص. 168

(2) المعيار، ج. 1، صص. 154–155

(10128/1)

... وظلت العلاقة الإنسانية الأدبية قائمة في الأندلس، الأمر الذي جعل المقري يخصص في كتابه " نفح الطيب"، حيزا مهما لأشعار اليهود والنصارى. وقد بينت لنا النصوص التي نقلها المقري متانة العلاقات الإنسانية والأدبية التي كانت تجمع بين متأدبة اليهود

والنصارى ورفاقهم المسلمين. من ذلك ما نقله من شعر لابن المراغي النصراني الاشبيلي الذي أهدى كلبة صيد للمعتمد بن عباد وأرفقها بقصيدة جميلة، ونقل أيضا أشعارا لنسيم الاسرائيلي الشاعر الوشام الاشبيلي، وابراهيم بن الفخار اليهودي، وإلياس بن المدور اليهودي وبسام بن

(10129/1)

شمعون الذي راسله أيوب بن سليمان المرواني برسالة نثرية جميلة تصف يوما مطيرا. ونقل أيضا أشعارا للشاعرة اليهودية قسمونة بنت إسماعيل، وكان أبوها جيد القول والشعر كذلك(1) .

... من مميزات المجتمع الأندلسي الذي تعددت فيه هذه المشاهد الفكرية، أن مكن كل طائفة من أن تنهج نهنجها في التعليم الأساسي والعلوم التي تصدر عن كتبها الدينية أو عاداتها وأعرافها أو ما يمت بصلة إلى تواريخها وما تختص به. ومكنها مع كل هذا من عناية بالعلم عامة دون فصل أو حد.

---

(1) .النفح، ج. 5، ص. 65 وما بعدها.

(10130/1)

... كانت العناية بالتعليم كبيرة في الأندلس، " إذ اتخذ الخليفة الحكم مؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن، حوالي المسجد الجامع وفي كل ربض من آباض قرطبة. وأجرى عليهم المرتبات،... وعدد هذه المكاتب (التي يتعلم فيها الأطفال) لاسبعة وعشرون، مكتبا(1) وكان كل مسجد من مساجد الأندلس مدرسة للتعليم، حتى قال المقري : " وليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على

(1) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب] كولان – ليفي بروفسال[، ج. iv ؛] إحسان عباس [، دار الثقافة بيروت، 1967، ج. 2، ص. 240.

(10131/1)

طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة "(1) ونفهم من النصين السابقين أن هناك تعليمات للضعفاء تنظمه الدولة، وتعليما خصوصيا للأغنياء، وكلها في الجامع من التعليم الأولي حتى العالي وترك لنا ابن حزم الأندلسي في كتابه مراتب العلوم، صورة ومنهجها

تعليميا أندلسيا لعله الصورة المثلى التي كان يرجوها(2). فالطفل يبدأ بالدراسة في سن

---

(1) النفح، ج. 1، ص. 205، البيان 1، ج. 2، ص. 240.

(2) رسائل ابن حزم] إحسان عباس[، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج. 4، ص. 61، 90 وذلك من 93، 355 "رسالة لحد المنطق".

(10132/1)

الخامسة "عندما يفهم السؤال ويستطيع الجواب" ويبدأ بتعلم الخط من الحروف وتأليف الكلمات والقراءة في القرآن وكل كتاب بالعربية، ويتعلم طريقة الحديث والنطق، ثم يدرس العدد والهندسة والمنطق والطبيعة والتشريح والتاريخ قديمه وحديثه. والفلسفة ضرورية لأنها تبحث في قضايا الخلق ووجود الله والوحدانية والنبوة. وعلى رأس كل هذه علوم الشريعة. وطلب كل هذه العلوم لذة في ذاته، بالإضافة إلى مكاسبها العقلية والمادية. ولاتتوفر شروط هذه المعارف إلا في مدينة عالمية، ويشمل هذا البرنامج علوم الدين واللغة والتاريخ والفلسفة

(10133/1)

والفلك و الرياضيات و الطب. والظاهر أن المرحلة الأولى تنتهي بحفظ القرآن وبعض كتب النحو واللغة وبعض دواوين الشعراء.

... وهذا تفصيل للبرنامج الذي اختاره ابن حزم في مراتب علومه: من النحو كتاب الواضح للزبيدي، أو الوجيز لابن السراج. والهدف من هذين، القدرة على الخطاب، أما الزيادة في الأحكام فتكون في كتاب سيبويه. ولا فائدة لأكثر من هذا إلا لمن يريد الإشتغال بالعلم.(ص. 67) والذي يجزي من علم اللغة كتابان : القريب المصنف لأبي عبيدة ومختصر العين للزبيدي، وبهذا يكون الوقوف على المستعمل. والإيغال في اللغة

(10134/1)

حسن، ومن ذلك قراءة خلق الإنسان لثابت أبي محمد اللغوي، وكذا قراءة الفرق له. والمذكر والمؤنث لابن الأنباري والممدود والمقصور والمهموز لأبي علي القالي، والنبات لأبي حنيفة أحمد بن داود الديناوري. والتساع في اللغة هو عند ابن حزم اتساع في فهم المعاني (ص. 67).

... والنفس تقوم بالخير من الشعر. ويختار لذلك ابن حزم أشعار حسان ابن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وصالح ابن عبد القدوس. ويوصي بتجنب أربعة أضرب من الشعر هن : شعر الغزل والشعر الرقيق، لأنها نؤدي إلى الخلاعة والتواني، (ص. 67)، وخصوصا تلك

(10135/1)

الأشعار التي تعنى بالمذكر. ووصف الخمر والخلاعة، فأشعار هذه تهون أمر الفسوق والتقرب من المعاصي(68). أشعار التصعلك، فهي تحث على الحرب، وذلك يؤدي إلى هلاك النفس والظلم وسفك الدم. ومنها أشعار التغرب ووصف المفاوز، فهذه لاتحبب الإستقرار وتوقع الإنسان في هذا هلك للدنيا والآخرة وابن حزم لا يخص ولاينهي عن غير هذه من الأشعار. غير أن الواضح من مقاصده أن تعليم الشعر يجب أن يكون من أجل الفضيلة. ... ثم علم العدد من أساسيات العلم عنده، وذلك في الضرب والقسمة والجنع والطرح فالاطلاع على الأرثميطيقا، وهي طبيعة

(10136/1)

علم العدد. وأجل ما ينظر فيها كتاب إقليدس. فيه تعرف الأرض ومساحتها وتركيب الأفلاك ودوران الكوكب ومدارها في البروج. وبهذا العلم يوقف على تناهي جرم العالم وعلى آثار الصانع فيه ويعرف الطالب بكتاب المجسطي الكسوفات وعروض البلاد وأطوالها والأوقات وزيادة الليل والمد والجزر ومنازل الشمس والقمر. وأما الإيغال في المساحة فمنفعته في جلب المياه ورفع الأثقال وهندسة البناء وإقامة الآلات.

... وقسم النجوم من هذا العلم فيه حق وباطل ويقرب إلى الهم بتوقع الحوادث.

(10137/1)

... وبعد هذه المرحلة ينظر الطالب في علم المنطق والعلوم الطبيعية، وبهذا يعرف الحدود والأجناس والأنواع والقضايا. وبالطبيعة ينظر في عوارض الجو والحيوان والنبات والمعادن والتشريح، لوقوف على أحكام صنعة الخالق.

... أما علم الأخبار فهو النظر في التواريخ القديمة والحديثة وتاريخ الممالك الإسلامية، ثم تواريخ بني اسرائيل فأخبار الروم تتلوه أخبار فارس. ويطلب هذا العلم وقت الراحة وبعد السأم من العلوم الأخرى.

... وبعد هذا يخوض الطالب في قضايا الفكر مثل هل العالم محدث أم أزلي؟ هل له محدث؟ وإمكان النبوة فساير

(10138/1)

النبوات ثم نبوة محمد عليه الصلاة والسلام. زمنتهى العلوم عند ابن حزم ، هو علم الشريعة، وفيه ينظر في دقائق القرآن والحديث والفقه والكلام وما لها(1).

... ويختلف هذا البرنامج الذي شغل ابن حزم تأليفا وعملا، اختلافا كبيرا عن البرامج العلمية الأخرى التي وصلتنا، وهي تحمل أو فهرست، مثل برنامج بن أبي الربيع(599–688/1202–1289)، وبرنامج التجيبي (أواخر القرن 13/7–أوائل

---

(1) نجد لأبي الوليد محمد بن رشد في "تلخيصه" لكتاب الشعر لأرشطو وكذا في "اختصاره" له لجمهورية أفلاطون آراء في الشعر لاتبعد عن رأي ابن حزم.

(10139/1)

14/8) وبرنامج الواد آشي، استاذ ابن الخطيب، وبرنامج المجاري (14/8ت 1460/862). فلم تحتو برامج هؤلاء إلا على كتب اللغة وعلوم الأوائل فهي غائبة عنها(1)

---

(1) امظر فهرست ابن خير]فرنشسكة قداره زيدين...[، طبعة جديدة ومنقحة عن الأصل المطبوع في مطبعة قومش بسرقسطة، 1893 وهبر فتح الله) المكتبة التجارية مكتبة المثنى ببغداد – بيروت، 1963.

... – برنامج المجاري (محمد أبو الأجفان(بيروت، 1982.

... انظر كذلك بحثا مدققا في هذا الموضوع في

, universitâ 1996, 14Quaderni di studi arabi degli studi di vennezia.

Khalid chakor alami, formation et savoir dans l'espagne musulmane, an VIIIe- XIVe siécle, pp. 57–31 ,et arrabica tome XV 1968.

le barnama^g d'ibn abi-rabie ,pedro chalmenta pp.183–208.

(10140/1)

. ولم يتمثل البرنامج الذي وضعه ابن حزم إلا في الموسوعة العلمية التي قام بأمرها كل من ابن باجة

وابن طفيل وابن رشد، وبعض أعلام لم تكن لهم شهرة هؤلاء، ومن باب هذه الموسوعة عانى بعض أعلام المسيحيين واليهود العلوم العربية الإسلامية، إطلاعا وتقليدا، ومجادلة، وترجمة أيضا، في شبه الجزيرة الإيبيرية وجنوب فرنسا والمماليك الإيطالية.

... ولعل ثقافة بعض ألام اليهود في الأندلس، مثل بحيا بن بقودة ويهودا اللاوي وموسى بن عزرة لم تمثل إلا هذه الموشوعة، إضافة إلى علوم التواراة والثقافة العبرية. ومدارج هؤلاء

(10141/1)

الأعلام هي آخر الخطو في تربية الطفل النصراني أو اليهودي، الذي سار على نفس النهج البيداغوجي الإسلامي، أو نهج الكنيسة أو البيعة، ويظل نهج التوحد والخصوصية قائما فيما هو عقدي ديني وماله صلة بالعائد العرقي. ويكون ماعدا ذلك حضارة مشتركة يتمثل منتهاها في ذاكم البرنامج أعلاه(1)

... لذلك كانت البيعة بالنسبة لليهودي مكان التعليم الأولي، وكانت الجماعة تؤدي أجرة المعلم. ويبدأ الطفل اليهودي بنفس الطريقة التي يبدأ بها

---

(1) أ. أشتور تاريخ يهود إسبانيا الإسلامية، قريت سفر، القدس، 1960، ج2، ص. 247(بالعربية).

(10142/1)

المسلم باستثناء النصوص التوراتية.

... « وعلى الطفل أن يحرك كل جسمه أثناء الحفظ والتحصيل، وعليه أن ينلفظ بالكلمات ليسهل الحفظ.. وتجلب هذه الطريقة متعة التعلم وتنبه اقوى الروحية وتثهل الإستيعاب وتساعد على الحفظ »(1)، كما قال بروفياط دوران، وهو أندلسي من القرن الرابع عشر.

... وهذا يكسب الطفل آلية قراءة الحروف والحركات والكلمات ويتدرب به على تلاوة التوراة. وتدعو القراءة السليمة للنص التوراتي أن يكون الطفل على إلمام دقيق باللغة والنحو

---

(1) Ha¨m zafram, , maisonneuve et larose, paris, 1983, p. 70.

(10143/1)

النبر، وعليه أن يتدرب على قراءة لفائف التوراة الخالية من النقط وعلامات الشكل، وذلك بالحفظ الجيد ثم يطذلع على كتب التفسير، وتنتهي هذه المرحلة باختفال »بر مصوه »، سن البلوغ الديني. وبعدما تصبح حياته كلها من أجل العلم، إذا كان من الذين اختاروا طريق المعرفة.

وقد خص يهود الأندلس الدرس النحوي واللغوي بكبير عناية، وهم الذين وضعوا الكتب الأولى في علم النحو وعلم اللغة بعد أن كان من قبلهم، في غير أرض الإسلام، لا يزيدون عن وصف المخارج ووضع القواعد التي بها يحفظ اللفظ من التحريف. فبعد أوائل اللغويين كأبي

(10144/1)

زكرياء حيوج وابن لبراط وابن شبروط، يضع أبو الوليد مروان ابن جناح، أول كتاب في النحو كامل، هو كتاب « التنقيح »، وهو جزاءان جزء خاص بالتركيب، وسماه "اللمع"،وجزء خاص باللغة وسماه « الأصول ». ووضع بعده أبو ابراهيم اسحق بن برون كتابه « الموازنة بين اللغتين العبرانية والعربية ».ولابن قريش رسالة إلى يهود فاس. فيها عقد كقارنة بين اللغة العبرانية والعربية والأمازيغية، ولغات عيرها قديمة.

... وولع اليهود الأندلسيون بالشعر وهم أول من نظم في

الأشعار الدنيوية على غرار الشعر العربي مضمونا وشكلا، وهم أول من

(10145/1)

استعمل بحور الخليل في الشعر العبري. وقد شغف يهودا الحريزي، بفن المقامة، فبني اسمه على صورة اسم الحرير، وترجم المقامات العربية، ثم وضع هو نفسه مقامات عنونها بتحكموني (الجلسات = المقامات). بعد نظم كثير من اليهود في فن المقامة.

... إن الناظر في الاثار الباقية مما كتبه أعلام اليهود في الأندلس، يجد الكثير من الثقافة العربية ، وأحيانا من الفكر الإسلامي، بما في ذلك الحديث والقرآن، استشهادات نصية أو تضمينا. ويجد الكثير من الفكر الفلسفي، والمناهج اللغوية النحوية العربية، بل والكثير من أسماء النحاة

(10146/1)

واللغويين والشعراء، في هاتيك المؤلفات التي كتبها أعلام اليهود في الأندلس، بلغة عربية بحرف عبري أو

بلغة عبرية مبدء.

وهذا يدل على وحدة المصار ووحدة المناهج. وقد أكد ما نرى مؤلفات منهجية، شبيه بتلك التي ألمحنا إليها، مثال كتاب الربي يهودا بن شموئل بن عباس (ق 13)، « منير المسالك ». وكتاب يوسف بن عقنيد(ق 12) "طب النفوس"، أولهما بالعبرية، وثانيهما بالعربية. وإذا ركز هذان الكتابان على المعارف اليهودية في الدرجة الأولى، فإن موسى بن عزرة يريد من مؤلفه « المحاضرة والذاكرة » أن يكون الفكر الأدبي منهجا

(10147/1)

ومضمونا، هو مكان اللقاء ومجلس العلم. وهذا ما سنتناوله في موضوع من مواضيعنا المقبلة إن شاء الله .

(10148/1)

صورة الشرق من خلال "المعارج المرقية في الرحلة المشرقية" للرافعي (1096هـ/1686م)

الدكتور مصطفى الغاشي

كلية الآداب – تطوان

تقديم:

ما أكثر المصادر والوثائق المغربية التي ما زالت لم تنل ما يكفي من اهتمام المؤرخين والباحثين المغاربة ! ولا تعود أسباب ذلك إلى ضعف قيمتها بقدر ما تعود إلى عدم الإقبال عليها أو في بعض الأحيان صعوبة الوصول إليها. وتعتبر هذه الظاهرة دون شك أحد معوقات البحث العلمي الذي لم تتخذ بشأنه أي إجراءات في إطار الاهتمام بالتراث المغربي المكتوب والحفاظ عليه. وفي هذا السياق، يمكن اعتبار

(10149/1)

رحلة الرافعي التطواني "المعارج المرقية في الرحلة المشرقية" نموذجا لهذا الوضع الشاذ. ذلك بأنه على الرغم من قيمتها التاريخية والأدبية، فإنها ظلت تقريبا شبه مجهولة، باستثناء بعض الإشارات العارضة أو المواضيع اليتيمة. فقد عرفنا بها مؤرخ تطوان محمد داوود في مؤلفه "تاريخ تطوان" (الجزء الأول، ص.490)، وذكرها محمد المنوني في كتابه الببليوغرافي "المصادر العربية لتاريخ المغرب" (الجزء الأول، ص188). أما الدراسات، فلا نعلم منها إلا بموضوع الدكتور حسن

الوراكلي "أصداء من حياة تطوان العلمية في رحلة تطواني من أهل

(10150/1)

القرن الحادي عشر الهجري" والذي نشر بمجلة "المناهل"، العدد 52، شتنبر 1996، صص.17–29. كما نشر ضمن أعمال ندوة "تطوان خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر"، تطوان 1996، صص.151–163. ومما هو جدير بالملاحظة أن موضوع الدكتور الوراكلي –كما هو بارز من عنوان دراسته– لم يهتم بالرحلة في حد ذاتها، وإنما اهتم بـ"أصداء من حياة تطوان العلمية" فقط إن المعطيات الشحيحة، وهذا الإهمال المتواصل، يدفعنا للقيام بحفريات في ذاكرة هذا الرحالة من خلال رحلته المعروفة بـ"رحلة الرافعي: المعارج المرقية في الرحلة المشرقية".

(10151/1)

إن أحداث هذه الرحلة تتحدد زمانيا في النصف الثاني من القرن السابع عشر، وبالضبط خلال العشر السنوات الأولى

من حكم المولى إسماعيل (1672–1986) على وجه التقريب. وبغض النظر عن خصائص ومميزات بداية الحكم الإسماعيلي للمغرب (ثورات –تمردات، بالإضافة إلى بعض السواحل المحتلة)، فإن علاقته بالشرق العربي الإسلامي، وتحديدا الباب العالي قد تميزت بـ:

أولا: ميراث ثقيل يخص العلاقات المغربية العثمانية تمتد جذوره إلى عهد السلطانين العلويين محمد الشريف والرشيد. وهي مسألة إنما تتعلق برسم الحدود، والشرعية والاستقلال(1)

---

(1) عبد الهادي التازي، التاريخ الديبلوماسي للمغرب، الجزء 9، مطبعة فضالة، المحمدية، 1986، صص.11–13.

(10152/1)

.

ثانيا: مناوشات عسكرية على الحدود مع أتراك الجزائر. هذا، على الرغم من وجود اتفاق مبدئي منذ بداية حكم السلطان إسماعيل يقر ما اتفق عليه الطرفان على عهد محمد والرشيد...(1).

ثالثا: التدخل العثماني التركي (أتراك الجزائر) في الشؤون الداخلية للمغرب، والوقوف وراء الاضطرابات.

ويتجلى ذلك في تمويل أتراك الجزائر لتمرد أحمد محرز بالجنوب المغربي...(2).

رابعا: تحرك الآلة الدبلوماسية المغربية باتجاه الباب العالي، والآلة الدبلوماسية العثمانية باتجاه المغرب بهدف محاصرة

---

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه، ص.13.

(10153/1)

النزاعات، والتي يبدو على أثرها أن العلاقة قد عرفت نوعا من الاستقرار.

خامسا وأخيرا: تدخل طرف أجنبي لتحريك الصراع بين الأتراك والمغاربة لتقويض معاهدة السلم التي اتفق عليها الطرفان. وعلى هذا الأساس، فقد سعت فرنسا تحت حكم لويس الرابع عشر إلى ضرب هذا التقارب من خلال استعمال حرب الإشاعات واختلاق روايات للإيقاع بين المغرب والسلطنة العثمانية(1). ويبدو من خلال الأحداث أن فرنسا لم تكن ترغب في أي تقارب بين المغرب والباب العالي، خاصة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط

(1) المرجع نفسه، ص.14.

(10154/1)

وإذا كان لهذه المعطيات السياسية والعسكرية حضور كبير على مستوى العلاقات الرسمية المغربية العثمانية، فإنها لم تؤثر بشكل جذري عليها في مستوياتها الاجتماعية والدينية والعلمية. إذ استمر التواصل بين المغرب والمشرق ولم يعرف انقطاعا قط، خاصة على المستوى الاجتماعي. ولقد قامت الرحلات المغربية على اختلاف أهدافها، وعلى طول التاريخ الحديث، بدور فعال في الحفاظ على هذه العلاقات المتميزة وتطويرها. وهذا، بخلاف الرحلات الأوربية إلى الشرق والتي كانت تزدهر أو تضمحل حسب مستوى العلاقات الرسمية. مثال ذلك أن الرحلات

(10155/1)

الفرنسية ازدهرت بالمشرق نتيجة لتوقيع معاهدة 1535م بين فرنسا والباب العالي والتي بموجبها منحت الثانية للأولى امتيازات سياسية وتجارية ودينية

وقانونية داخل التراب العثماني(1).

---

(1) Mustapha El Ghachi, L'Empire ottoman à travers les récits de voyages français aux XVIIe-XVIIIe siècles, Thèse de Doctorat, Pau, 1993; « Les relations franco-ottomanes aux XVIe-XVIIIe siècles », Revue historique arabe des études ottomanes, n.11–12, octobre 1995.

(10156/1)

إن الاهتمام المغربي بالشرق كتابة وزيارة هو أكثر من اهتمام المشرق بالمغرب. فهل مرد ذلك إلى وجود الأماكن المقدسة بالشرق؟ أو أن المغاربة –كما هو شأن الأوربيين– كانت "La séduction de l'exotisme" – **أي الافتتان بقيم الآخر وحضارته– تؤطر نظرتهم للمشرق، وإن كانوا ينتمون إلى رابطة واحدة هي الرابطة الإسلامية؟ أو أن المشارقة لم يجدوا في المغرب ما يثير فضولهم وإعجابهم؟**

إن ما هو مؤكد تاريخيا أن الحضور المغربي بالمشرق يشكل ظاهرة خاصة بشريا وسياسيا وتجاريا ودينيا واجتماعيا(1)

---

(1) عبد الرحيم بن عبد الرحمان، "العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية أيام العصر العثماني"، المجلة التاريخية المغربية، ع 29–30، نونبر 1983، صص.399–417؛ "دور الجالية المغربية في تاريخ مصر"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 7–8، 1977، ص.99؛ ليلى الصباغ، "الوجود المغربي في الشرق المتوسطي في العصر الحديث"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 29–30، 1977، صص.79–83.

(10157/1)

. إذ لم تستطع الانتماءات السياسية المتباينة بين المشرق والمغرب الحيلولة دون حركة الانتقال البشري بين الطرفين فقد أقام المغاربة بكل من مصر والشام والحجاز، وما زالت الكثير من الأرشيفات التابعة للمحاكم الشرعية الموجودة بالقاهرة ودمشق ومكة والمدينة المنورة تحفظ لنا أسماء المغاربة الذين أقاموا بها (في المغرب).

إن ما يعرف بأدب الرحلة ما هو في الواقع إلا نتيجة من نتائج الحركة الدائبة والمستمرة بين المغرب وباقي الأقطار والأمصار التي توجه إليها المغاربة باتجاه الشمال أو الجنوب أو الشرق (أو حتى داخل

(10158/1)

المغرب نفسه). غير أن ما عرف بالرحلة الحجازية احتل حيزا أكبر بالمقارنة بباقي أنواع الرحلات الأخرى. فقد ازدهر هذا التراث الأدبي في المغرب على الخصوص منذ فترات قديمة، أي منذ رحلة ابن جبير وابن بطوطة. وعلى الرغم من كون الهدف من الرحلة دينيا، بحكم تنفيذ ركن من أركان الإسلام، أي الحج، فإن هذا الجنس الأدبي ظل مهمشا ومضطهدا "ونصا مساعدا لنص مركزي"(1)، على الرغم من كونه يتضمن معطيات تاريخية قد لا نجدها إلا في المرحلة. هذا، فضلا عن

---

(1) عبد الرحيم المودن، أدبية الرحلة، دار الثقافة، البيضاء، 1996، ص.13.

(10159/1)

كونه أصبح وثيقة أساسية في الدراسات الأنطروبولوجية والجغرافية، إلخ.

وإذا كان الرحالة عادة، وتحديدا في الرحلة الحجية، يؤكد في مطلع رحلته أن الحج هو الذي يؤطر الرحلة كما

هو شأن رحلة الرافعي التي نحن بصددها:

لما أصابني من الشغف وخامرني من الوجد والكلف، صاحب خير الأنام طه، وأعظم الخلق قدرا وجاها، والتلذذ بفروع من ورق وعلاها، والتلذذ عند قبره الشريف، مما ألذ مسمعها والتردد إلى ضريحه، فذلك بغية النفس ومناها، وتشوقني إلى مكة وحماها، وشغفي بالكعبة الباهية سناها...(1)

---

(1) محمد داود، تاريخ تطوان، ج 1، المطبعة المهدية، تطوان، 1995، ص.300.

(10160/1)

.

فإن ذلك، لا ينفي عنها كونها المصدر الوحيد للمشاهد خلال الرحلة، بل لعبت أيضا دورا إعلاميا وتواصليا هاما في نقل أخبار المشرق والمغرب. وأهم من ذلك أنها عملت على تشكيل ذهنية العصر من خلال التركيز على أهمية زيارة المشايخ والأضرحة والأولياء والتبرك بهم، إلخ.

الرافعي ورحلته إلى الشرق:

... مما هو مؤسف أن الكتب التاريخية وكتب التراجم لم تترك لنا معطيات مهمة عن حياة هذه الشخصية

المغربية التطوانية، والتي من شأنها أن تقربنا أكثر منه ومن عصره. ولعل هذا ما حدا بمؤرخ تطوان محمد داود إلى القول: "ثم إن الذي

(10161/1)

يرغب في الإطلاع على ما خلفه رجال تطوان من آثار علمية أو أدبية لا يجد ما يشفي غليله من ذلك، أولا لقلة تلك الآثار، وثانيا لضياع جل ما صدر منها. والواقع أن عدد المؤلفين من علماء تطوان قليل، ومن يقول الشعر من رجالها أقل...". ويبدو من خلال الصمت الذي يحوم حول هذه الشخصية، أنه تجاهله جيل عصره والذين جاءوا بعده. يقول محمد داود: "فلم نقرأ اسمه في كتاب، ولم نسمع به أو بأي شيء عنه من أفواه الشيوخ، إلى أن وقع العثور أخيرا على مجموع خطي كبير له، فكان هو الذي عرفنا به وبآثاره. وكان هذا المجموع هو الذي أخرجه

(10162/1)

من العدم إلى الوجود"(1). اسمه أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي الرافعي الأندلسي

التطواني، ويعرفه المؤرخ داود بالفقيه الأديب الشاعر الناظم الكاتب. فهو إذن من فقهاء تطوان وأدبائها خلال القرن 17؛ لكن بالعودة إلى نص الرحلة، نجد معطيات اجتماعية وثقافية بالغة الأهمية تلقي الأضواء على هذه الشخصية وطريقتها في النظر إلى الأشياء. فالرافعي من خلال الرحلة ينتمي إلى أسرة من مستوى متوسط أو شعبي. وما يدعم هذا الاتجاه المعاناة التي لقيها عند اعتزامه السفر لقضاء فريضة الحج:

---

(1) المرجع نفسه.

(10163/1)

لما عزمت على حج بين الله الحرام، وزيارة قبر نبينا عليه الصلاة والسلام منة من الله وإرشادا، ونعمة منه سبحانه وإسعادا، وشمرت ساعد جدي واتخذت من الحزم والعزم جهدي، ولم أزل أحاول أن أرهن أو أبيع ما كان بيدي من الطارف والتليد السريع، لا تزود في تلك الطريقة، وأتعاون مع الصاحب والرفيق ... فلم يرد أحد من التجار، الذين خصوا في الوقت بالجاه والافتخار، أن يرهن منا شيئا أو يشتري، فسرت في حيرة من أحوال الزمان الذي يصيب بمصائب ويعتري ... فما زلت أخاطبهم

بلين من القول وخضوع وأنا بينهم رهينا مهينا مروع.

فكل منهم

(10164/1)

اعتذر لنا بأعذار واهية اعتل بها فأدبر وسار. فلما عاينت امتناعهم عن المعروف وفعل الطاعة الذي المون بها موصوف، صرت الواله الحيران في الأزقة أطوف وكلهم حاد عن فعل الخيرات، وامتنع لنا عن قضاء الحاجات...(1).

---

(1) علي الرافعي، المعارج المرقية في الرحلة المشرقية، مخطوط بالخزانة الداودية بتطوان، صص.3-4. لقد اعتمدنا في دراستنا هذه على النسخة التي قام المؤرخ داود بتخريجها ورقتها على الآلة، وهي مطابقة تماما لنسخة المخطوط الأصل، وموجودة بالخزانة نفسها.

(10165/1)

... والرافعي أيضا من خلال نص الرحلة شخص متصوف زاهد في متاع الدنيا. ويتأكد ذلك من كثرة النصوص التي يقلل فيها من قيمة الدنيا ومتاعها، ويمدح الآخرة

والطريق الذي يوصل إليها: "أو ما علموا بأن الدنيا دار غرور، صفوها ممزوج بكدر يتقلب بأهلها وتدور، تضع كل سربي شهير، وترفع كل خافض حقير". "ثم اني اعتمدت على الله وركنت إلى زيارة الصالحين، ولجأت إلى جناب أولياء الله الأكرمين، وتشبثت بأذيال أوفياء الأنجبين، ولزمت أبوابهم إلهاما من رب العالمين ..."(1).

---

(1) الرافعي، ص.4.

(10166/1)

... "فلما بلغت البغية والمراد، اعتقدت أي اعتقاد، وتحققت أني فزت بالمطلوب وظفرت بالكنز الذي ليس له نفاد، وعلمت أن التعلق بالمخلوق خيبة وحرمان، والتشبث بأحد سوى الله عبث وخذلان". ومن ذلك أيضا القصيدة التي مطلعها:

جعلت رجائي في إلهي وخالقي ... أيقنت أن الله مغن ورازق(1)

... وتنسجم هذه المعطيات إلى حد بعيد مع البيئة الثقافية، ومن ثم الانتماء الثقافي للرافعي. فقد عاش خلال القرن السابع عشر، حيث عرفت الحياة الثقافية ضعفا كبيرا نتيجة طبيعية للمخاض السياسي الذي

كان يعيشه

---

(1) المرجع نفسه، صص.5-11.

(10167/1)

المغرب بسقوط الدولة السعدية وقيام الدولة العلوية.

وقد تميزت تطوان خلال هذه الفترة، خاصة في الربع الأخير من القرن السابع عشر، بنشاط وحركة ثقافية ملحوظة، خاصة بعد استقرار الشيخ علي بركة فيها وقيامه بتدريس العلوم الدينية واللغوية والأدبية(1).

... وقد كان الرافعي أحد تلاميذه، وكان شديد التعلق به، وهي الظاهرة التي تميز الحياة الثقافية والعلمية والدينية خلال هذه الفترة (الشيخ/التلميذ)، بل تصل إلى حد تقديس الأموات من المشايخ

---

(1) عبد الله المرابط الترغي، الحياة العلمية على الدولة العلوية...، ج1، ص.265.

(10168/1)

والصالحين. وهذا ما زاد في تدعيم ظاهرة الأولياء والصالحين والتبرك بهم.

... وإذا كنا لا نعرف سنة ولادته بشكل مدقق، فقد كان حجه عام 1684م، حيث كان عمره كما يذكر في الرحلة ستا وخمسين سنة. ومن ثم يحتمل أن يكون مولده سنة 1630م. ويتضح من تقاريظ ديوانه أنه كان لا يزال حيا عام 1698م، حيث كان عمره آنذاك 70 سنة(1).

... وفي الأخير، يعتبر الرافعي من رجال تطوان القلائل الذين تركوا لنا تراثا مكتوبا يعرفنا بهم وبعصرهم. فقد ترك مجموعا خطيا غير منشور يضم رحلته المشرقية

---

(1) محمد داود، تاريخ تطوان، ج 1، ص.409.

(10169/1)

وديوانه الشعري وتأليفا في الأدعية والأذكار، وأخيرا تأليفا في الرسائل.

... وإذا كان هدفنا من هذه الدراسة تحديد الصورة التي قدمها الرافعي عن الشرق العربي الإسلامي والكشف عنها من خلال رحلته الحجازية، فإنه لا يمكن التوصل إلى هذه الصورة دون التطرق إلى الظروف العامة التي واكبت الرحلة. ونقصد بذلك الظروف الطبيعية والمناخية

والبشرية والأمنية، بل حتى النفسية، نظرا لانعكاساتها بشكل واضح على المشاهد وطريقة المشاهدة وطريقة السرد والحكاية، خصوصا وأن هدف الرحالة هو الحج. ولذلك، فلن يكون هناك تردد في ركوب

(10170/1)

الأخطار على اختلافها. وهذا ما يمنح الرحلة الحجازية المغربية بعد المغامرة.

... لقد انطلقت هذه الرحلة –كما ذكر الرافعي– يوم الجمعة جمادى الأولى بعد صلاة الظهر من عام 1096هـ/الموافق 1684م، وانتهى من كتابتها بعد عودته من الشرق بشهرين من عام 1685م. وهذا ما يجعل الذاكرة لا تزال حافظة لتفاصيل الأحداث أكثر من تراكم السنين. أما الظروف والأهوال والأخطار، التي واكبت الرحلة، كما سبق أن قلنا، فقد انطلقت مع انطلاق الرحلة بحلق الوادي الذي مكث الرافعي فيه ستة أيام في انتظار قدوم المراكب واستقرار الريح(1)

---

(1) الرافعي.

(10171/1)

. فيستفاد بداية عن ظروف انطلاق الرحلة، كما هو حال باقي المراكز الأخرى التي حط بها الرحالة وأراد إعادة الانطلاق منها سواء بالجزائر أو باقي المناطق الأخرى التي زارها بحوض البحر المتوسط، أن السفر عبر المراكب والسفن لم تكن له مواعيد محددة. وفي كثير من الأحيان يأتي فجأة وبلا سابق إنذار. والسبب في ذلك –في اعتقادنا– هو قلة وسائل النقل البحرية، ثم قلة استعمال المغاربة لها للنقل الداخلي والخارجي، وأيضا – وهذا مهم جدا– خضوع هذا النوع من المواصلات للتقلبات المناخية المفاجئة، دون أن ننسى الظروف السياسية

(10172/1)

المضطربة في الحوض المتوسطي مثل القرصنة.

... إن هذا الظرف التقني –مواعيد السفر غير المضبوطة– مرتبط بشكل مباشر بعامل طبيعي مهم، هو الرياح التي تطرح في الواقع أكثر من إشكال. فمن جهة، يمكننا تعرف طرق الإبحار بحوض البحر الأبيض المتوسط خلال تلك الفترة، وهي طرق تقليدية لا تبتعد السفن فيها كثيرا عن السواحل أو كما سماها F.Braudel

بالـ(1Cabottage). وهذا الإشكال كان مطروحا ليس على السفن الإسلامية وحدها، بل

---

(1) F.Braudel, La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, paris, 1979.

(10173/1)

على السفن الأوربية أيضا؛ وذلك على الرغم من تطور تقنيات الإبحار، خاصة بعد تجربة الإبحار في المحيطات(1). ومن جهة ثانية، إن هذا العامل شكل في الواقع أكبر تحد للسفن والرحالة، خاصة عندما تكون كاسحة وتهب عكس اتجاه السفن التي لم يكن بإمكانها الإبحار في الاتجاه المعاكس للرياح، فهي سفن شراعية تعتمد الريح في إبحارها. ولقد أكثر الرافعي من تعداد المواقع التي هبت عليهم فيها الرياح الشرقية، التي صدت هبوبها عن المراد والبغية.." (2)

---

(1) Mustapha El Ghachi, L'image de l'Empire ottoman..., op. Cit.

(2) الرافعي، ص.13.

(10174/1)

. وفي موقع آخر يقول أيضا: "فتراكمت علينا الأرياح، لكن من الله علينا بالنجاة والنجام؛ وأخذنا في الانفلات إلى أن حصلنا مرسى رجكون والقلب ذات أوصاب من الغرق وشجون . . ."(1).

... ومن العوامل الأخرى المرتبطة بالظروف الطبيعية أو هي ناتجة عنها، تحدث الرافعي عن الخطر من حيث هو معطى طبيعي وسيكولوجي مرافق للرحالة طيلة سفره ناتج عن الخوف وشدة العواصف. يقول الرافعي:

والأرياح تهب، والأمطار تصب، والأنام خاشعة إلى ربها ضارعة تصيح بصوت واحد: العفو يا مالك يا واحد ! فكم من إنسان شاهدته منكمشا

---

(1) المصدر نفسه، ص.14.

(10175/1)

بالطريق كادت نفسه تزهق من شدة البرد، وكم من سائر على قدمه اعتراه أكمام من المطر وشدة البرد وألمه، بقي مطروحا في الطريق . . . هناك كدت أخرج عن

حسي مما عينت من البؤس والنكد، ولا يلوي أحد عن أحد، ولو يكون أبيه، لما هو فيه ...(1).

... والحادثة التي تحدث عنها الرافعي كانت بمنطقة تسمى وادي التيه حيث يذكر أنه مات بتلك الليلة حوالي 185 شخص، وعدد كبير من الدواب. والرحلة مليئة بمثل هذه المشاهد الخطيرة القاطعة للأنفاس. ومن الأخطار الأخرى التي كانت سائدة في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال

---

(1) المصدر نفسه، ص.206.

(10176/1)

القرن السابع عشر، وتنعكس بشكل واضح في رحلة الرافعي، خطر القرصنة (الأعداء أو الكفار حسب اصطلاح الرافعي). فقد ذكر هذا عند اقترابهم من مدينة وهران حيث قصدهم مركبان للأداء للإيقاع بهم، فاستعدوا للقتال ... ولم ينجوا منهم إلا بهبوب الريح ونزول الظلام(1). وقد تكرر هذا المشهد أيضا عند وصولهم إلى جزيرة رودس حيث تعرضوا للاصطدام بمراكب الكفار والتي كانت محاصرة للبلاد. وهذه الصورة التي يقدمها الرافعي تعكس المستوى الذي بلغته القرصنة في هذه

الفترة؛ إذ كان بإمكانها أن تحاصر المدن

---

(1) المصدر نفسه، صص.15-16.

(10177/1)

والجزر. ولا يذكر الرافعي كيف فك الحصار، ويكتفي بالقول "بأن الله نجاهم منهم"(1). وندرة الماء هي أيضا من أخطر المشاكل التي واجهها الرحالة والركب المغربي، نظرا للخطر الذي تشكله على حياة الناس، وأيضا للفتنة والاضطراب الذي سببه للركب. يقول الرافعي: "فما زلنا نطلب الوجه كل الطلب وجل الماء نفد، وعم الناس العطب، إلى أن كنا قريب من موضع يقال له الإكراه، قنطت الناس، وكرهوا بعضهم غاية الإكراه. فلو رأيت الناس في قنط من قلة الماء وعلاهم اللغط"(2). وفي موضع

---

(1) المصدر نفسه، ص.36.

(2) المصدر نفسه، ص.203.

(10178/1)

آخر يقول: "أما الركب المغربي، فهو تبع الركب المصري؛ فإن فض عنه الماء يسرع إليه ويجري، وإن نفد ماؤهم كان للركب اضطراب ويلحق الجميع قنط وبؤس من الظمإ واكتئاب"(1).

... لا تنحصر الظروف المواكبة للرحلة عند الرافعي في الظروف الطبيعية فقط، بل تمتد إلى البشرية والوبائية. ففيما يخص الأولى، يتحدث الرحالة عن ظاهرة اللصوصية ومشكلة قطاع الطرق اللتين تعكسان ظاهرة انعدام الأمن حتى وإن كان الأمر يتعلق بأداء فريضة إسلامية كالحج. وقد حاول الرافعي تقديم نموذج لهذه الظاهرة عند حديثه عن

---

(1) المصدر نفسه، ص.116.

(10179/1)

منطقة "ظهر العقبة" :

... التي كم ضاعت هناك من أموال، وفكت من رقبة، هناك تدهش الفحول من الرجال، وتذهل العقول بين تلك الجبال، فأظهرنا أهمية الحرب عند القدوم وتذرعوا بعلامات الحرب سائر الركب خصوصا وعموما، لأم المقاطعين والمعترضين للركب كانوا ناظرين ...(1)

... أما الثانية، فتتمثل في حالة مرضية أو بشكل أصح في وباء. وقد صادفه ذلك في مصر، وبالتحديد في الإسكندرية، هذا الوباء عن حمى تصيب الإنسان وقد تؤدي به إلى الموت. يقول الرافعي:

---

(1) المصدر نفسه، ص.205.

(10180/1)

هذا الوباء قد أناخ بالإسكندرية ورسا، ورمى بسهمه المصيب واردا وصادرا مما لا يحصى، وفشا في كل البلاد، وعم ببلواه كل العباد، وتنفس العيش وتكدر، ولا محيد للفرار بل تعذر، لكنا لجأنا للتوسل والطلب من المولى العصمة من الوباء لأنه خير رحم وبه الهموم تجلا(1).

الشرق (الآخر) في رحلة الرافعي:

... تجدر الإشارة في البداية إلى أن الشرق الذي يعنيه الرافعي في رحلته لا يتجاوز مصر والحجاز. وتكاد جميع الصور التي نقلها إلينا في هذين البلدين. ومعنى هذا أن الرحالة يقدم لنا مشاهد من خلال مواقع

---

(1) المصدر نفسه، ص.268.

(10181/1)

معينة. من جانب آخر، فإن الرحلة رحلة حجازية. إذن، فإن الشرق له عند الرافعي قيمة روحية بالدرجة الأولى ثم قيمة معرفية بالدرجة الثانية. وهذا ما سنكتشفه من خلال تتبع تنقلات الرافعي بمصر والحجاز ... وتنعكس نظرة الرافعي للأمور على ما سينقله إلينا عن الشرق من خلال رحلته ... وعلى هذا الأساس، فإن خطاب الرافعي يركز على موضوعين أساسيين: الأول اجتماعي، مع إشارة عفوية إلى مظاهر سياسية واقتصادية. والثاني ديني/ثقافي علمي يصعب الفصل بينهما.

(10182/1)

... وليس معنى هذا التدقيق أن الرافعي يقدم تفاصيل دقيقة حول هذه المواضيع بقدر ما يقدم صورة فوقية بانورامية. هذا، بالإضافة إلى سرعته في نقل الصور؛ بمعنى أنه لا يمنح المشاهد الوقت الكافي: فهو لا يكاد يصف شيئا حتى ينتقل إلى شيء آخر، وهذا يؤثر بشكل كبير على ما ينقله إلينا.

* الموضوع الاجتماعي:

... ركز الرافعي في رحلته على وصف مقتضب للعادات الاجتماعية والدينية وبعض القلاع والمدن. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا الوصف لا يمنع من بناء صورة الرافعي للشرق المصري والحجازي:

... – العادات والتقاليد:

(10183/1)

... إن العادات والتقاليد التي يتحدث عنها الرافعي في رحلته هي تلك المرتبطة بالأمور الدينية كعادات المصريين مثلا في الاحتفال بالعيد النبوي الشريف، أو العادات المواكبة لمراقبة هلال شهر رمضان، أو الاحتفال بكسوة الكعبة، أو المواسم والأعياد، وحلول رمضان... ولا حديث عن العادات والتقاليد بما هي ممارسات يومية سواء بشكل فردي أو جماعي، سواء فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية أو دور المرأة واللباس والأكل، إلخ. وقد لا نستغرب هذا من رحالة مثل الرافعي الذي يمثل له الشرق قيمة روحية، مثالية ومعرفية. فالأشياء التي

(10184/1)

تشكل له قيمة هي المرتبطة بكل ما هو ديني وروحي ومعرفي. وما عدا، ذلك فهي أشياء غير ذات قيمة.

... إنه إذا كانت الكثير من الرحلات المغربية أو الأوربية تجعل من المشاهد –أو الآخر– الموضوع المحوري في السفر، فإن رحلة الرافعي –كما هو حال عدد كبير من الرحلات المشرقية المغربية– تجعل من الذات أو الآنا موضوعا محوريا سواء بشكل ضمني أو علني. وهذا ما يفسر قلة المشاهد المشرقي في رحلة الرافعي، خاصة ما تعلق بالمجتمع.

(10185/1)

... ومن العادات والتقاليد التي استعرضها الرحالة عن المجتمع المشرقي مراقبة هلال شهر رمضان من حيث كونه يشكل حدثا ذا قيمة كبيرة، وتعكس في الوقت نفسه تدين المجتمع الشرقي (المصري) واحتفاءهم بحدث من هذا النوع. يقول الرافعي: "فكم من آلاف من الناس يمرون بثياب فاخرة متنوعة الأجناس...، وكم مشاعل تشعل تلك الليلة وتضيء، وكم من الشمع الأبيض يشعل بأزقتها فتستضيء... فقد عادت تلك الليالي نهارا"(1). وتكاد هذه الصورة هي الأكثر تداولا في رحلة الرافعي إلى الشرق. وعند حديثه عن المجتمع

(1) المصدر نفسه، ص.75.

(10186/1)

المشرقي، كما هو الشأن مثلا عند الحديث عن عادات المصريين وتقاليدهم في الاحتفال بالأعياد والمواسم والتي عبر عنها بالمهرجان الذي يدوم أربعة أيام:

... ثم جاءت أيام المواسيم والعيد وأصبح مهرجان البلاد، فكان يوم سعيد، قد تزينوا أهل مصر بكل ثوب فاخر جديد وانتخبوا من الأرزاق بكل صنف من الطعام مفيد. غير أن أكثر لباسهم الحرير. فما من أحد إلا لبسه... كأنهم عندهم مباح يابصير، ولعلهم أخذوا بقول النابغة أو جرير... لم يزالوا في مهرجان، وخير موسم ورفاهية من العيش وفرح مقيم. لهم في كل موضع ومكان أجناس من اللهو

(10187/1)

واللعب بكل وقت وأوان، ومازال ذلك بهم إلى تمام أربعة أيام... (1).

أما احتفال المصريين بالعيد النبوي الشريف، فيراه

الرافعي مختلفا نوعا ما عن الكيفية التي يحتفل بها المغاربة: "ويجعلون للمصابيح حركات في تعليقهم وأمثال تسحر... لهم بذلك تعاند في كل الدروب والحومات"(2). إلى جانب هذه الصورة التي هي دينية، يضيف الرافعي صورا أخرى من الجنس نفسه ينفرد بها المجتمع المصري عن باقي المجتمعات الإسلامية الأخرى. وربما قد يكون هنا بعض الصور للغرابة. وهي مرتبطة

---

(1) المصدر نفسه، صص.86-87.

(2) المصدر نفسه، ص.211.

(10188/1)

باستعدادات خروج الركب المصري حيث يتم إخراج كسوة الكعبة والطواف بها على رؤوس الرجال في كل المدينة. إذ يخرج لمشاهدتها أعيان البلاد وعدد كبير من الخلق. ووراء هؤلاء جاء الفقراء، وتلامذة السادات الكبار حاملين أعلام كل طائفة من الأولياء حيث يزيد عددهم على ثلاثمائة وألف، ويتبعهم العساكر والجنود بطبول ومزامير وارايات وبنود وخيول مسومة عليها الأبطال في هيئة عظيمة(1). وفي مكان آخر من الرحلة، يقول الرافعي:

(1) المصدر نفسه، ص.10.

(10189/1)

وفي اليوم السابع عشر، خرج المحمل؛ فلا يوم أعظم منه ولا أجمل يبرز لرؤيته الخاص والعام، والجليل والحقير، والشريف والمشرف، والكبير والصغير، يظهرون فيه أنواع المفاخر والزينة في المحافل والمحاف، يخرجون لتشييع المحمل... وذلك من أكبر الأمور المهمة عندهم، بحيث يمكن المحمل الباشا بيده لأمير الحاج. وهذا الحكم متداول بينهم، ويخرج معهم العساكر والجنود وطبول ومزامير وراياتٍ وبنود، كل ذلك أمام المحمل يسير والمحمل محفوف بالذهب المنير(1).

(1) المصدر نفسه، ص.109.

(10190/1)

... ويتكرر السيناريو نفسه عند زيارة الرافعي لمنطقة الحجاز الذي تكاد مشاهدته بها تنعدم. فهو لا يقول سوى بضع كلمات عند حديثه عن مكة وعن

المدينة المنورة التي قال الرافعي عن سكانها:

"أخلاقهم مستحسنة، ذات حسن وجمال..." (1).

... – الواقع الحضري: لا شك في أن ضعف حضور الواقع الحضري برحلة الرافعي يعود في أساسه: أولا إلى شخصية الرافعي ومكوناتها الثقافية والدينية. ثانيا، إلى هدفه من الرحلة والذي هو ديني محض: أداء مناسك الحج. ثم ثالثا وهي على علاقة بالأولى والثانية، إلى طريقة نظرته

---

(1) المصدر نفسه، ص.189.

(10191/1)

للأشياء؛ فقد سبق أن قلنا إن الشرق له عند الرافعي قيمة روحية ودينية، ثم معرفية. وهذا ما يجعل صورة الرافعي عن الشرق صورة فضاء روحي، مثالي، ديني (ولم لا صوفي؟). لذلك لا تجد في رحلة الرافعي مجالا أوسع للمجتمع وما يتفرع عنه من علاقات وحركية يومية ومدنية... وعلى الرغم من كون مصر تشكل محورا أساسيا في الشرق –وهذا ما تعكسه كتب الرحلات الغربية إليها خلال القرنين 17 و18–، فإن هذه الأخيرة، خاصة رحلة الرافعي، لا نكاد نرى فيها سوى ملامح مجتمع

مصري لا تسمح بإعطاء صورة متكاملة عنه، وإن كان ما يقوله الرافعي

(10192/1)

يعكس في الواقع مشاهد لحياة مدنية رغدة. يقول الرافعي عند زيارته لمدينة الرشيد:

بلاد لها أسواق عديدة، وشوارع عريضة، وفنادق في كل مكان، ومحل لكل من يأوي إليها في كل وقت وأوان. فلو رأيت أسواقها بالخيرات معمرة، والناس يموجون في أزقتها والفواكه متمرة، ناسها أفاضيل حسان، ما لهم شبيه في المكارم والإحسان، يكرمون من آوى إليهم من كل قطر ومكان، أكثر لباسهم الديباج الملون، ينتخبون أفضل ما يكون من الثياب الفاخرة(1).

---

(1) المصدر نفسه، ص.67.

(10193/1)

أو مثلا عند قوله، بإعجاب كبير: "وجعلت أجول في أسواق مصر وأطوف... فتارة أشوش في أزقتها، وتارة أنزه بصري في سككها الباهرة... وثم جامع جمع أشتات

المكرمات بحسنه الفائق، حاز الغرر الواضحات"(1). أو أيضا عند قوله:

وكم بمصر من وكالة فائقة الحسن والجمال، وحانات في كل الجهات لهم بهجة وكمال، وكم من أسواق عديدة، عريضة مديدة، ودكاكين تراهم بالمتاجر عامرة، بسلوع منوعة الأجناس فاخرة، لا تمر بدرب من الدروب إلا بزحمة من الناس، أكثرهم ركوب على خيول أو أبغال وحمير... وكم من قيسارية بأنواع من

---

(1) المصدر نفسه.

(10194/1)

المتاجر مملية، كأن أربابها بتلك الدكاكين ملوك على الأسرة كأقمار مضيئة(1).

أما الحجاز، فلا ذكر له على هذا المستوى!!

... * الديني والمعرفي: كما هو شأن كل الرحلات الحجازية المعرفية في الفترة الحديثة، فإن تداخل الديني والمعرفي يشكل ظاهرة عامة، إلى درجة يمكن معها القول بأن الديني موضوع للمعرفي... وتلخص المعارف المتداولة في مصر في تلك الفترة هذه الوضعية مثل التفسير، والحديث، وعلم الكلام، والنحو، إلخ. وفي هذا

السياق، تشكل رحلة الرافعي نموذجا واضحا لهذه الظاهرة إلى درجة يصعب

---

(1) المصدر نفسه، ص.70.

(10195/1)

معها وضع فواصل بين الديني والمعرفي... وتعكس هذه الوضعية استمرار اعتماد المغاربة الشرق، خاصة مصر، مركز استقطاب معرفي.

... إن الديني والمعرفي في رحلة الرافعي يستوطنان مواقع كثيرة من الرحلة بشكل مكثف. وسنحاول هنا اختزال بعضها. ولنبدأ بمذهب أهل مصر الذي يتميز – حسب الرافعي – بالتعدد والاختلاف عن المغرب. وهو يصنف على الشكل التالي: المذهب الحنفي الأكثر انتشارا بمصر، ثم الشافعي، ثم المالكي، وأخيرا الحنبلي وهو أضعفها. ومن المعروف أن الاختلاف المذهبي بين المشرق والمغرب يثير بعض الحساسية كما نلاحظه عند

(10196/1)

الرافعي باعتباره مالكيا: "ولم أر بمصر قاطبة جامع لمالكي، مع أن مذهب مالك بمصر، أشهر من شمس النهار وأظهر..." (1). وهذا انتقاد ضمني لتهميش المصريين لمذهب الإمام مالك.

... وإذا ما تجاوزنا موضوع مذهبية الشرق عند الرافعي، تمحور الحديث حول صورة شرق حافل بالمساجد وقبور الصالحين وأضرحتهم، ومجالس العلم... وتشكل هذه الأمور عند الرافعي غاية وقيمة عظيمة قد لا يضاهيها شيء آخر، وربما إلى حد للاستغراق. لقد حرص الرافعي على زيارة مساجد مصر، كالأزهر وجامع الإمام الفاكهاني... ومسجد الإمام

---

(1) المصدر نفسه.

(10197/1)

الحسين... ولم تكن هذه الزيارة للاطلاع على المعمار والآثار بقدر ما كانت بهدف التبرك.. وتتقاطع زيارة المساجد عند الرافعي بزيارة القبور والأضرحة كروضة السيد الحسين، وضريح الشيخ سيدي عبد الوهاب، والإمام شمس الدين... وقبور السادات المالكية: روضة الإمام ابن القاسم... زيارة السيدة نفيسة "ذات الكرامات

الفاخرة"(1)، إلخ.

... وفيما يتعلق بالجانب العلمي، يحدثنا الرافعي عن شرق علمي ومعرفي يمثله الأزهر. يقول: "ثم إني بادرت إلى جامع الأزهر عند حلول السفر... لقيت فيه خمسة وعشرين مجلسا

---

(1) المصدر نفسه، ص.81.

(10198/1)

كلهم يقرأون في العلوم، من العلماء العارفين الذين فخرهم بمصر معلوم كعلم الحديث والتفسير والفقه والأصول والبيان..."(1). ويعزز الرافعي هذه الصورة بما رآه من كتب، كالمصحف الكريم المكتوب بخط الصحابي أسامة بن زيد... وكتاب حول مناقب السادات والشاذلية، إلخ. أو بمن التقاهم بالشرق من علماء، كالفقيه سيدي علي الفياض المعروف بعلمه في الفقه والحديث والنحو واللغة العربية، إلخ.

... وفي مجمل المشاهد المشرقية التي استعرضها الرافعي في رحلته، يقدم لنا هذا الرحالة المغربي من القرن السابع

(1) المصدر نفسه، ص.109.

(10199/1)

عشر صورة للشرق العربي كما رآه، أو بتعبير أصح كما أنتجه من خلال أسلوبه وطريقة نظره لشرق روحي ديني ومعرفي ينسجم مع شخصية الرافعي الدينية وطريقة نظرته للأشياء.

... إن الصورة التي قدمها الرافعي للشرق هي أيضا صورة مجموعة من الرحال المغاربة في الفترة نفسها:

كالعياشي، والإسحاقي، والعامري، والقادري الحسني، وابن مليح السراج، إلخ.

... وأكثر من ذلك هي أيضا صورة "الرأي العام" المغربي خلال القرن السابع عشر. فقد أصبح الشرق يشكل للمغاربة رحلة في الزمان والمجال من حيث كونه يختزن ذاكرة تاريخية جماعية وتضم أرضه

(10200/1)

الأماكن المقدسة الإسلامية.

(1)

(10201/1)

صورة المرأة في الفكر الإصلاحي عند محمد الحجوي

الدكتور سعيد بنسعيد العلوي
كلية الآداب – الرباط

أولا – الحجوي ومشروعه الإصلاحي

... يجد الفكر العربي الإسلامي المعاصر صورة نوعية ، متميزة ، في كتابات المفكرين المغاربة في الفترة التي تمتد بين ثمانينات القرن الماضي وثلاثينات القرن الحاضر (1) . هي صورة سمتها حضور قوي لإشكالات الفكر الإسلامي المعاصر واهتماماته

---

(1) سعيد بنسعيد العلوي ، الاجتهاد والتحديث : دراسة في أصول الفكر السلفي في المغرب ، منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطة ، بيروت ، 1992 .

(10202/1)

مع ما يصح تمثله ، فضلا عن ذلك ، بالتمثل المغربي لها .

وفي كتابه محمد ابن الحسين الحجوي الثعالبي (1874 – 1956) يجد الباحث صورة مثل لما ندعوه بالصياغة العربية النوعية .

... في شخصية الحجوي ثلاثة أبعاد ، لكل بعد منها دلالته على الواقع المغربي ، ولكل بعد منها ما يلقي على فهمنا لحياة الدولة والمجتمع أضواء كاشفة في مرحلة خطيرة من مراحل تشكل التاريخ المعاصر في المغرب : الموظف المخزني ، التاجر ، الفقيه . فهم هذه الأبعاد الثلاثة ، وإدراك الكيفيات التي تتفاعل فيها ، ثم محاولة استخلاص ما كان عنها في بناء

(10203/1)

الشخصية المتميزة للرجل : كل هذه معطيات وعناصر ضرورية للوقوف عند ما نعتبره مشروعا إصلاحيا تحديثيا (معا) عند محمد الحجوي .

... 1 – شغل الحجوي مناصب مخزنية سامية كثيرة خلال مدة تربو على الخمسين سنة تخللتها (في أول عمله خاصة) فترات من الانقطاع عن العمل الرسمي والتفرغ

للتجارة (بين سنة 1902 وسنة 1955) . عرف في هذه الفترة أربعة من الملوك المغاربة (مولاي عبد العزيز ، مولاي عبد الحفيظ ، مولاي يوسف ، محمد الخامس) ، وشهد المغرب في حاله السالفة على توقيع عقد الحماية ، ثم عاصر فترة الحماية مضطربا

(10204/1)

بين الوفاء للدولة المغربية وترضية السلطات الحمائية . وفي سيرته الذاتية تستوقفنا فقرة يتحدث فيها عن سنوات الاضطراب العصبية التي عاشها المغرب بين مطلع القرن وبين حلول الاستعمار الفرنسي في المغرب بموجب " عقد الحماية " وكان شاهدا عليها :

... " بدأ انقلاب الأحوال بالمغرب بثورة أبي حمارة التي سببت فقر مالية المغرب والسلف الأوروبي ، وسقوط المالية بيد إدارة السلف وفناء حماة المغرب و أبطاله في الحروب الداخلية. وقد اختل النظام ، وضاع الأمن وفسدت الأخلاق ، وضاعت الفضيلة والأمانة وتكالبت الناس على الرياسات

(10205/1)

الوهمية وجمع الحطام . وتسلط على مناصب الدولة كل دخيل جاهل ، فجر ذلك إلى تلاشي الدولة العزيزية ، وتتابعت المحن و أظلم جو المغرب . وفي أثناء ذلك وقعت معاهدة 8 أبريل 1908 بين فرنسا والإنجليز ، ثم مؤتمر الجزيرة (1906) . وبإثر المؤتمر بيسير سقطت الدولة العزيزية وقامت الدولة الحفيظية (1908) . ثم وقع إثر ذلك الاحتلال (1911) ، ثم إعلان الحماية (1912) ، هذه إحدى عشرة سنة رأى المغرب فيها من الأهوال والشدائد ما يشيب له الرضيع وتندرك له الجبال " (1)

---

(1) محمد الحجوي ، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ، المطبعة الجديدة (د . ت) فاس ، الجزء الرابع ،ص . 205 – 206 .

(10206/1)

.

... لم يكن الحجوي متفرجا سلبيا على الفترة التي يتحدث عنها ، بل إنه كان ممثلا فاعلا فيها بحكم المناصب العديدة التي شغلها في منطقة المغرب الشرقي أيام " فتنة بوحمارة " (نائبا عن وزيري المالية والجيش ، تكلفا من قبل المكل بسفارة إلى الجزائر

للتفاوض مع السلطات الفرنسية ..) . كما أنه كان ممثلا فاعلا في الفترة اللاحقة على ذلك في عهد الحماية ، إذ شغل مرات متعددة منصب وزير المعارف ومنصب العدلية ، ولم يعد وجوده خارج السلك المخزني سنوات قليلة معدودة – وبالتالي فقد كان الحجوي موظفا مخزنيا ساميا على

(10207/1)

بينة من سير الدولة ودواليبها ، و ذا إطلاع واسع على صعوبات الدولة ومشكلاتها في عصر الحماية وشاهدا على الصراع الطويل بين عمل السيطرة الاستعمارية وإدارة التحرر الوطني (1) .

---

(1) للمزيد من التفاصيل انظر : سعيد العلوي ، الاجتهاد والتحديث ... ، سبقت الإشارة إليه ص . 67 وما بعدها ؛ وانظر كتابنا : أوربا في مرآة الرحلة : صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، 1995 ، ص . 71– 85 .

(10208/1)

... 2 – ينتسب محمد الحجوي إلى بيت اشتهر بمزاولة التجارة وبالنجاح فيها . وفئة التجار الكبار في المغرب في الشطر الأخير من القرن التاسع عرفت الكثير من البلدان الأوروبية و أقامت معها علاقات تجارية كبيرة . و الحجوي يحدثنا أن أباه كان يتردد على بريطانيا وعلى مدينة منشستر خاصة و أنه أقام فيها سنوات عدة ، والحق أن صاحبنا لم يرث عن أبيه تجارة عريضة جعلته يقيم بدوره علاقات مع دور التجارة في مرسيليا وإيطاليا ومنشستر فحسب، بل إنه اكتسب بدوره حسا تجاريا عاليا ونظرا متفتحا على العلم الحديث ومكتسباته . وفي "

(10209/1)

مختصر العروة الوثقى " (وهي " الفهرست " الذي يترجم فيه لأشياخه و أساتذته) يأتي على ذكر " رجال لم يشتهروا بالعلم ولكن لهم فضل على أقرانهم " فيعد في جملتهم تاجرين من التجار الكبار يقول عن أولهما أنه لم يكن " يقع تغيير في الأسواق التجارية أو السكك المتعامل بها إلا قيده في دفتر خصصه لذلك . فما

مضى زمن حتى صار دفتره مرجعا لفصل الدعاوي التي تتعلق بهذا النظام الاقتصادي مما يرجع للنفقات (...) فهو و أن كان أميا ، بمعنى أنه لا يعرف مصطلحات الفنون فقد كان مرجع القضاة والعدول (...) يرجع إليه في مهمات

(10210/1)

عويصة (...) أستفيد من مجالسته فوائد لا تقل عن الفوائد التي أجدها في القرويين . غير أن فوائد القرويين عامة نظرية ، وهذه تمارين عليها وتبين لجزئياتها " . ويقول عن ثاني التاجرين إنه " جال في الشرق واستفاد من جولته المعرفة المؤسسة على المشاهدات (...) أخبرني أنه تلميذ لجمال الدين الأفغاني و أنه كان يحضر دروسه الليلية التي كان يلقيها على الشيخ محمد عبه و أقرانه . وهناك كان رفيقا لعبده ، والمويلحي ، وسعد زغلول ، وعبد الله النديم ، وأمثالهم من أدباء الشرق واستفاد من مجالستهم فوائد لم تكن مع أحد في

(10211/1)

المغرب في وقته " (1) ونحسب أن شهادات مماثلة في القول إن أجواء كبار النجار في فاس ، في نهاية القرن الماضي ومطلع القرن العشرين ، لم تكن بعيدة عن مشاغل التحديث و إدارة الانفتاح على العالم الخارجي : شرقا وغربا – .

... 3 – لا شك أن الفقيه محمد الحجوي كان في طليعة العلماء المغاربة الذين تشهد لهم كتاباتهم الغزيرة بسعة المدارك ، وقوة الاطلاع على مصادر الثقافة الإسلامية الأصلية ، وبالقدرة على القول في الدين بما يبين

---

(1) محمد الحجوي ، مختصر العروة الوثقى ، مطبعة الثقافة ، 1937 ، سلا (المغرب) ،ص 19 – 20

(10212/1)

على قدرات هائلة في ممارسة الاجتهاد الحق سواء ما كان متعلقا منه بفقه العبادات أو بفقه المعاملات . وقد يكفي أن نذكر كتابه الشهير " الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي " ، وأن نستحضر فتاواه في تجويز " التأمين " وفي " الأوراق المالية "، وفي " الاعتماد في ثبوت الهلال على خبر البرق " وغيرها ... لنلمس مظاهر

عظيمة من مظاهر التجديد في الدين ولنقر بسلطته العلمية فقيها مجتهدا من الدرجة الأولى .

... الأبعاد الثلاثة هذه في شخصية الحجوي مفاتيح ضرورية لإدراك المشروع التحديثي كتابه الغريزة والمتنوعة . عند

(10213/1)

الحجوي ، والموظف المخزني ، قراءة للواقع السياسي السيء الذي كان شاهدا عليه وككل قراءة فهي تقدم تشخيصا لأعراض السوء وتقترح في الوقت ذاته ، حلولا علمية : والسوء يرجع إلى ضياع الأمن ، واختلال النظام وسوء الأخلاق – والحلول ليست سوى تساؤل عن الكيفية الملائمة التي تكون بها الاستفادة من البلاد المتقدمة من أوروبا . وعند الحجوي التاجر النابه ، تشخيص لأعراض التأخر الاقتصادي ، علاماته ، ضعف الممارسة التجارية ، ضيق النظر فيها ، الجهل بأساليبها ، ثم الإسراف في النفقات الراجع إلى التشبث بالعادات السيئة

(10214/1)

المتمكنة من المجتمع ، ومن فئات الموسرين فيه – وهم كبار التجار خاصة . أما الحل العملي ومجاوزة واقع هذا التأخر فلا يكون إلا بما تحقق به التقدم في بلاد أوروبا . يتساءل الحجوي في محاضرة له عن " مستقبل تجارة المغرب" : " لماذا تقدم الأوروبيون وتأخر المسلمون ؟ " وجوابه دقيق ، واضح ، وقاطع : " تقدموا لأنهم قدمهم العلم بالتجارة و أخركم الجهل بها " . وينظر الفقيه المجتهد ، وقد استحضر الموظف المخزني ، في نظم التعليم وبرامجه ، وفي نظام الدراسة في القرويين خاصة ، وفي غياب مواد فنون كثيرة ، وفي ضعف على

(10215/1)

الإقبال على التعليم " العصري» ..فيرى في ذلك كله سببا للتأخر مثلما كان حضوره عاملا في التقدم في بلاد الأوروبيين ... ولذلك فهو ينادي بوجوب تطوير أساليب التعليم كلها مع التأكد على عناصر ثلاث خاصة : أولها وجوب الإقبال على دراسة اللغات الأجنبية ، وثانيهما الاهتمام بتعليم التجارة (فنونا، وأساليب ، ومحاسبة إلخ ...) وثالثها : العمل على إفساح المجال للمرأة للدرس والتعليم (1)

_____

(1) انظر الفصل الثالث من الاجتهاد والتحديث (المتقدم الإشارة إليه) ؛ الفصل الرابع من أوروبا في مرآة الرحلة .. (المتقدم الإشارة إليه) . فالأمر يتعلق ، في المرجعين معا ، بشخصية الحجوي ومشروعه .

(10216/1)

.

... تلك هي المكونات الأساسية لمشروع الحجوي ، لم نتحدث فيها عما بذله من جهود عملية ، فنجح أو أخفق فيه وهو في موقع المسؤولية واتخاذ القرار ، ولا عما سكت عنه و أغفله متعمدا . وفي تلك المكونات قراءة تشخيصية للواقع ، وحلول ضمنية أو تدليل على حلول من أجل مجاوزة واقع يستدعي المجاوزة من أجل الإفلات من دائرة الانحطاط والتخلف. وفي القسم الموالي نحاول إلقاء ضوء كاشف على ما كان في ذلك المشروع متعلقا بالمرأة وبالدعوة إلى تحررها عن طريق التعليم والمعرفة .

ثانيا – تعليم المرأة : المقبول والمرفوض

(10217/1)

... سؤالان اثنان توحيهما الآراء والأقوال المتعلقة بتعليم المرأة عند الحجوي : لماذا كان تعليم المرأة ضروريا أو واجبا ؟ ماذا يلزم تعليم المرأة ؟

... 1 . 2 – لماذا كان تعليم المرأة ضروريا ؟

... يذكر الفقيه الحجوي جملة أسباب يعلل بها تلك الضرورة في أول محاضرته عن "تعليم الفتيات لا سفور المرأة " . و أول سبب يورده كونه لم يقف " في الكتاب والسنة على دليل يمنع المرأة من العلم ، أي لعم كان ، أو يوقفها عند حد محدود في التعليم العربي الديني " ثم يحتج ، على عادته ، بأمثلة من سلوك النبي – صلى الله عليه وسلم

(10218/1)

– وصحابته تؤيد ذلك (1) . فهل كان الحجوي يكتفي بالرد على معترض على تعليم المرأة ؟ من الطبيعي أن نقدر وجود تيار قوي متشدد في المغرب ، بين الحربين العظيمين ، يعارض تعلم المرأة . والحجوي نفسه كان قد لقي معارضة عنيفة على دعوته إلى تعلم المرأة في محاضرة سابقة له كان قد ألقاها سنة 1912 ، بضع عشرة سنة قبل محاضرته هذه – وكان فيها أكثر جرأة في القول وأقل تحفظا في إعلان الرأي .

---

(1) محمد الحجوي ، تعليم الفتيات لا سفور المرآة ،ضمن ملاحق كتابنا (المتقدم ذكره) ، الاجتهاد والتحديث ....، ص . 207 .

(10219/1)

ولكن احتجاج الحجوي كان لأمر يعنيه أكثر الاعتراض والمتعرضين ، فقد كان يسعى لتأييد رأي آخر يؤمن به ويشتد حماسه في الدفاع عنه : ذلك هو الاستشهاد بما عليه أوروبا ، من إتاحة الفرص لتعليم ابتدائي إجباري لعموم الأطفال ذكورا و إناثا " فالتعليم عندهم إجباري على الرجال والنساء ، فكل صبي بلغ سن التعليم لا بد أن يدخل المدرسة ويتعلم التعليم الابتدائي : القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والأدب . ثم من كان غنيا و أراد التعلم الثانوي تقدم إليه ، ومن كان فقيرا وليس له داعية للعلم فلابد أن

(10220/1)

يعرف صناعة من صناعات . ولذلك ترى قدرا من العلم اشترك فيه الذكر والأنثى ، والغني والفقير. بذلك

القدر ارتقى مجموع الأمة من الحضيض الذي وقع فيه مجموع الأمم الغير متمدنة التي لا يعرف غالب أفرادها كتابة ولا أدبا ولا حسابا ، ولا ، ولا ..كأهل المغرب الأقصى "(1) . ويتوسع الفقيه الحجوي في تعداد الشواهد والحجج التي تثبت وقوف الإسلام بجانب قضية تعلم المرأة : فيذكر أن " الإسلام ثقافة وعلم وتهذيب أخلاق

---

(1) محمد الحجوي ، الرحلة الأوروبية ، نص الرحلة ضمن ملاحق كتابنا أوروبا في مرآة الرحلة ... انظر : ص . 117 .

(10221/1)

، فكيف يتصور عاقل أن يمنع من تعلم المرأة ويترك نصف المتدينين بع خلوا من الثقافة والفضيلة ؟ " .

ويذكر أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان يجعل للنساء " يوما مخصوصا لتعليمهن ، وكانت تأتيه نسوة الأنصار يسألنه عن الدين ، وهو في جمع من الصحابة ، من غير أن ينكر عليهن (...) وكان إذا خطب الرجال ووعظهم تقدم للنساء فخطبهم ووعظهن وعلمهن " . ثم يحتج لرأيه أخيرا بمشاركة النساء والرجال في الإسلام : دفاعا عنه ، ونشرا له ، ومعرفة به " فما من منبقة سبق

الرجال إليها ، كالهجرة والبيعة والجهاد والنصرة في الدين و

(10222/1)

إعلاء شأنه ونشره والدعاية إليه ، إلا كان للنساء حظهن في ذلك (...) وهل كان إسلام عمر ، الذي هو من أعظم أركان هيكل الإسلام ، إلا على يد أخته التي وجدها تتعلم القرآن خفية في منزلها ؟ " (1) .

... ولكن الحجوي الفقيه ، لا يريد أن يغفل عن سبب آخر ، عميق ، ما يفتأ يذكره في مواطن عدة من كتاباته وهو تأثير التنشئة على إعداد الإنسان الراشد والمفيد في المجتمع . وهو في ترجمته الذاتية لا ينسى ذكر ذلك واستخلاص العبرة منه بعد أن

---

(1) محمد الحجوي ، تعليم الفتيات ... ، مرجع سبقت الإشارة إليه ، ص . 207 – 210 .

(10223/1)

يحدثنا عن أثر تربية جدته في تكوينه واستمرار ذلك الأثر في سلوكه : " تأثير هذه التربية الأولى على حياتي

هي التي أوضحت لي أن تربية الأمهات لها دخل كبير في تهيئة الرجال النافعين و إعداد الأمم للنهوض . لذلك أرى وجوب تعليمهن وتهذيبهن تعليما يليق بديننا ويزين مستقبل أولا دنا ، ويصيرهن عضوا نافعا في هيأتنا الاجتماعية . فلا غني عن إعانتهن في تربية رجال المستقبل الذين عليهم مدار حياة البلاد " (1) .

---

(1) محمد الحجوي ، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ... (سبقت الإشارة إليه) ، ص . 202 .

(10224/1)

... هل تعني هذه الحجج كلها وجوب القول بتعلم المرأة دون تقييد أم أن هنالك حدودا يلزم الوقوف عندها ، فهي خطوط حمراء لا تنبغي

مجاوزتها ؟

... 2.2 – أي تعليم إذن ؟

... هو ذاك الذي يمكنها من تحصيل ما تكون في حاجة إليه بحسبانها ربة بيت وأما . " عن الأم يلقن الولد معرفة الحقائق والعقائد ويعمر قلبه باليقين أو بالأوهام (...) وفي الصغر يأخذ قضايا مسلمة في البيت تنطبع في قراره فكرة " (1) . وهذا يعني أن يكون ما

تتعلمه ، وما ينبغي تعليمه لها ، هو مبادئ الدين "

---

(1) محمد الحجوي ، تعليم الفتيات ... ،ص 211 .

(10225/1)

ضروريات الدين من عقائد وعبادات ومبادئ النحو والآداب العربية" . ثم " تعلم الحساب كذلك ، وعلى الأقل قواعده الأربع ، بحيث إذا مات زوجها و أصبحت وصية على أولادها أو تصرفت لنفسها تعرف ضبط ما هي مضطرة إليه" .وبعد ذلك ينبغي لها أن تتعلم كل ما يمت بصلة إلى تسير شؤون البيت حتى تكون مدركة لها على أسس علمية " تدبير المنزل بمعناه الحقيقي ، والاقتصاد (...) تدبير الصحة والرياضة البدنية، لما في ذلك من حفظ صحتها وصحة أولادها (...) فن التربية لتحسن تربيتهم به (...) تتعلم صنعة أو أكثر ، كالخياطة والطرز

(10226/1)

والفنون الجميلة والطهي وغير ذلك ، استعدادا للطوارئ ولا سيما إذا كانت فقيرة "(1) .

... تعليم لا يكون في حاجة بصاحبته أن تتجاوز المرحلة

الابتدائية دون غيرها : " لنقتصر بهن على التعليم الابتدائي الذي يقتصر عليه سواد الأمم الراقية ، فضلا عن أمة مثلنا لا يحصله منها إلا أقل القليل من الذكور " . أما ما زاد على ذلك فلا حاجة لها به ، أو بالأحرى لا حاجة لنا به " لسنا بحاجة لها أن تكون عدلا ، أو قاضيا ، أو كاتبا ، أو طبيبا ،أو مهندسا ، أو محاميا ، أو مدير مصنع ، أو رئيس

---

(1) المرجع السابق ، ص . 212 – 215 .

(10227/1)

مكتب ، أو دار تجارة إلخ ... " (1) . لسنا بحاجة إلى ذلك لأسباب كثيرة يسوقها الفقيه الحجوي ويراكم بعضها فوق بعض . أولا ، لكيلا تزاحم الرجال في مناصب العمل والحال أن هذه لا تكاد تفي بحاجة الرجال إليها . وثانيا لأنه " تبين أن المرأة ضعيفة في جهازها العصبي ، ليس لها من الاقتدار الذهني ما للرجل إلا قليل منهن –والنادر لا حكم له " (2) . وثالثا لأن مجاوزتها التعليم الابتدائي إلى الثانوي يكون عنه العمل متابعة الدرس العالي" ورحلتها لأوروبا لإتمام

---

(1) المرجع السابق ، ص . 217 .

(2) المرجع السابق ، ص . 218 .

(10228/1)

دراستها " . ورابعا ، لأن هذه الأمور تسوية لها بالرجل " وكل من يريد تسويتها بالرجال في الحقوق فإنما يريد نقض شريعة الإرث الذي قسمه القرآن ونقض سائر أحكام الشرع الإسلامي الذي به حياتنا وعليه مماتنا " (1) .

... نعم في إمكان الفتاة أن تطلب من العلوم والآداب ما شاءت ، لكن ذلك يكون في بيتها من رواء حجاب . هذا يعني بوضوح أن خطا أحمر يخط فلا يجوز تجاوزه ، يخطه السن إذا بلغت منه البنت مبلغا " تكون مطيقة الزواج وتجري فيها دواعي الشهوة والتهييء للولادة".

---

(1) المرجع السابق ، ص . 213 .

(10229/1)

... ثالثا – السفور والفجور :

... يحدد الحجوي هذه السن في التاسعة ، قياسا على فعل النبي – صلى الله عليه وسلم – إذ بنى بعائشة وهي بنت

تسع سنين . والقياس كما نعلم ، هو ممارسة الاجتهاد ، فهو ، لغة علماء أصول الفقه ، الأصل الرابع من أصول أدلة الأحكام يأتي حسب الترتيب الضروري – الواجب بعد الكتاب، والسنة ، والإجماع . فالمسألة اجتهادية أولا و أخيرا . والحجوي يدرك ذلك بطبيعة الأمر و أنت تقرأ كلامه أولا وثانيا وثالثا فلا تجد فيه استنادا إلى حجة قاطعة من الشرع تقول بحجب المرأة عن الخروج فهو لا يجد إلا حجة

(10230/1)

أخرى يلتجئ إليها المجتهد : هي حجة المنع خوفا من وقوع محظور ، أو ارتكاب سلوك يكون مظنة سوء . فالمنع يكون ، في لغة علماء الأصول " سدا للذريعة " أي إقفالا و إغلاقا لما يمكن أن يقع التذرع به أو الاعتذار بواسطته. منع السفور ، في تقدير الفقيه ، يكون تحسبا لما يمكن أن يؤدي إليه من مكروه أو يوقع فيه من خطأ بالنسبة للمرأة نفسها ثم بالنسبة للمجتمع . " و إنما السفور ويل وثبور على المرأة نفسها ذاهب بشرقها وعائق لها عن أداء وظيفتها . فسفور المرأة ناقص من جمالها ، ومفتر لأشواق زوجها إليها وثقته بها ومزر

بقيمتها – بخلاف تحجبها الذي يزيد في شرفها بما لا يكون عند ابتذالها ولو كانت أبدع النساء جمالا وكمالا " (1) .

... أما بالنسبة لأخطار السفور على المجتمع وانعكاساته السلبية عليه فإن الفقه الحجوي يجتهد في الاحتجاج بكل سبيل . فالسفور يفضي إلى الاختلاط ومزاحمة المرأة للرجل كالخروج إلى " مجالس الرقص واللهو وغير ذلك مما يكون محل الريبة والفتنة والابتذال فلا سبيل إليه في الشريعة الإسلامية " (2) . والسفور يفضي إلى إحداث الاختلال في نظام العائلة، من

(1) المرجع السابق ، ص . 225 .

(2) المرجع السابق ،ص 226 .

حيث نتيجته البعيدة، فهو يقول بالتسوية المطلقة بين المرأة والرجل " ثم المساواة في أقل من لمح البصر ، تتحول إلى تفوق المرأة على الرجل " ثم هذه مسألة ،في

أقل من لمح البصر ، تتحول تدريجيا إلى تفوق المرأة على الرجل ثم تؤول إلى صيرورته في قبضتها ، بل ربقتها وتحت رحمتها كما نشاهد في أوروبا ومن سلك مسلكها " (1) . وقارئ " الرحلة الأوربية " يجد كل صور السلبية في أوروبا ، مما لا يسع مسلما قبوله من ذلك التبرج الشديد للمرأة الأوروبية ، وفي

---

(1) محمد الحجوي ، تلرحلة الأوروبية ، ما سبقت الإشارة إليه ، ص . 131 .

(10233/1)

فرنسا خاصة " فقد خلعن ربقة الحياء وتبرجن تبرجا لا يتصور فوقه إلا فساد الحيوانات في الطرق جهارا " (1) . وعلى العكس من ذلك يستحسن سلوك المرأة في المجتمع البريطاني حيث المرأة أقل ميلا إلى التبرج " ومن المعلوم في أخلاق إنجليز شدة الحشمة والوقار وقلة التهتك في نسائهم " (2) . وصورة المرأة الأوروبية عامة ، والفرنسية خاصة ، على نحو ما تسلك به في الشوارع والمنتزهات العامة ، هي ما تخوفه وتحمله على القول

---

(1) المرجع السابق ،ص . 158 .

(2) محمد الحجوي ، تعليم الفتيات ... ، مرجع سبقت الإشارة إليه ، ص . 227 .

(10234/1)

بمنع السفور " سدا للذريعة " . هي ما تجعله لا متشككا في أمر " التمدن " فقط (وهو الذي نعلم حماسه الشديد إليه) بل إنه يدعو إلى رفضه ونبذه إذا كان من مستلزماته رفع الحجاب المانع عن المرأة وقبولها في المجتمع سافرة " نحن لا نرضى إبدال لقب متدين بمتمدن ، ولا ما نحن فيه من هناء العيش وراحة الضمير باسم تحرير المرأة ، وفي الحقيقة استرقاق الرجل وقلب نظام المجتمع الإسلامي ونبذ الشريعة التي كلفت راحتنا وهناءنا منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف " (1).

---

(1) نفس المرجع والصفحة .

(10235/1)

... ثم إن الحجوي يحتج بكيفية أخرى يصح نعتها بالاحتجاج بالسلب : فهو يقول " ما بلغنا أن امرأة انتقدت الحجاب أو تقززت منه أو عدته مهينا أو مشينا

لجنسها ، بل فبلته بطيب خاطر " ." فهي إذن دعوى وهمية لم يطلقها بعد رجال الإسلام "يدعون الإسلام وولدوا في الإسلام ولكنهم حرموا لذته وأشربوا في قلوبهم حب الشهرة " . وقد يقدر القارئ أن المقصود بالإشارة هما الرجلان اللذان اشتهرا (مع الاختلاف في رؤية كل منهما) بالدعوة إلى تحرير المرأة : الطاهر الحداد في تونس (وربما كانت للحجوي معرفة شخصية به ، فقد كان معاصرا

(10236/1)

له ، وكان يكثر من الذهاب إلى تونس) وقاسم أمين في مصر (وكان قد مات في سنة 1908 ، أي بضع وعشرين سنة قبل حديث الحجوي عن المرأة) . وهو على كل حال لا يذكرهما بالإسم إلا في هامشين إثنين (1)

---

(1) يقول في الهامش الأول : " كالطاهر الحداد التونسي وقاسم أمين المصري الذي هتك الحجاب و أزال عن هيبة الشريسعة كل جلباب . ولو أنه عاش ورأى حالة مصر الآن ، وما يتخبط فيه مجتمع قومه من أزمة المرأة السافرة ، بل السافلة ، لقرع سن الندم ولات حين ندم "

ويقول في الهامش الثاني : " كالطاهر الحداد التونسي الذي ألف أخيرا امرأتنا في المجتمع . وكفى في هذا التأليف بشاعة اسمه . يقصد، في سخريته الفقهية : يكفي بشاعة أن جعل المرأة في " المجتمع " ، أي نرسلها طليقة مجردة من العرض .

الحق أن الحجوي ، في منحاه التهكطي هذا ، يحدث في عنوان كتاب الحداد تحريفا له دلالته . ذلك أن عنوان كتاب المفكر التونسي هكذا: امرأتنا في الشريعة والمجتمع – فكأنه يريد أن يلغي ارتباط تفكير الحداد عن الشريعة ما دام يدعو إلى رفع الحجاب عنها ولا يرى اتعليمها حدا نقف عنده .

(10237/1)

ولكن المحور الأساسي عند الحجوي يظل هو قاسم أمين .

... قد يلزم أن نقول كلمة صغيرة لتعليقات الحجوي على قاسم أمين واعتراضاته عليه : يوافق الفقه المغربي المصري في القول إن السبب في انحطاط شأن المرأة في العالم الإسلامي وتفشي الأمية والجهل في أبناء جنسها لا يرجع إلى الإسلام بل المسؤول عنه هم المسلمون " حيث أهملوا تعليم المرأة " . ويوافقه ، تضمينا لا تصريحا (فهو لا يذكر اسمه كما أشرنا إلى ذلك) ، في الربط بين

تأخر المسلمين وتأخر المرأة من جهة أميتها وانعكاس ذلك تربيتها لأولادها . ولكن الحجوي لا يسلم

(10238/1)

من آفة تحوير أراء قاسم أمين بل وتحريفها في معرض الاعتراض عليها .

... يكتب الحجوي " على أن عجبي لا ينقضي من رجل يزعم أنه مسلم يؤلف كتابا إسلاميا (...) ثم يزعم بأن الحجاب لا أصل له في القرآن "

(1) والحق أن قاسم أمين ذكر أن الحديث القرآن الكريم عن حجب المرأة كان خطابا مخصوص به النبي وحده (فهو كما يقول علماء الأصول : خاص يراد به خاص) ولذلك فهو يكتب : " ولما كان الخطاب خاصا بنساء الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكانت

---

(1) سعيد بنسعيد العلوي ، الاجتهاد والتحديث ... (سبقت الإشارة إليه) ، ص . 228 .

(10239/1)

أسباب التنزيل خاصة بهن ، لا تنطبق على غيرهن ، فهذا الحجاب ليس بفرض ولا بموجب على أحد من نساء المسلمين " (1) ويكتب الحجوي " يقولون : إن عهد السلف الصالح لم يكن فيه هذا الحجاب المضيق ويأتون شواذ الحكايات والقصص ..." (2) . ولكن الحق أيضا أن قاسم أمين يلح على داعي التربية إلحاحا بجعل التربية

---

(1) قاسم أمين ، الأعمال الكاملة ، دراسة وتحقيق محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1976 ، بيروت الجزء الثاني ، ص.43 – 44 .

(2) سعيد بنسعيد العلوي ، الإجتهاد والتحديث ، (سبقت الإشارة إليه) ، ص . 229 .

(10240/1)

في كتابه " تحرير المرأة " يتردد ذكرها كثيرا فيكتب ، على سبيل المثال : " سوء التربية هو الذي يخرق كل حجاب ، ويفتح على المرأة من الفساد كل باب " (1) – وبالتالي ، الحق أن قاسم أمين لم يكتف بإيراد الحكايات الشاذة ، ولا هو أول الحكاية على النحو الذي يخم القضية التي يدافع عنها على نحو ما يلزمه به الفقيه الحجوي .

... خاتمة

... في سنة 1912 ألقى الحجوي محاضرة يدعو فيها إلى تعليم المرأة واجتهد فيها في ربط الأسباب بين التقدم وبين حسن

---

(1) قاسم أمين ، الأعمال الكاملة ... ، (سبقت الإشارة إليه) ، ص . 62 .

(10241/1)

تعلم المرأة . وبعد ذلك ببضع عشرة سنة (1935) يبدو موقفه أقل جرأة و أشد تحفظا . هل يرجع ذلك إلى التأثر بما كان لمحاضرته الأولى من ضجة كبيرة أثارت عليه غضب الفئة المحافظة من رجال المخزن واستياء المتشددين من علماء الدين ؟ أم هل موقفه انفعال لما وجده من آراء جريئة في كتاب الطاهر الحداد شعر معها بخدش في دينه فانتصب للدفاع عنه (ولربما كان لأصدقائه من علماء الزيتونة نصيب في تحريك غضبه وشططه في القول على المفكر التونسي) ؟ أم إن الأمر يتعلق بتراجع شخصي ، مصدره حصول تطور في نظرته إلى الأشياء ، أو

(10242/1)

باستدراك على ما قاله في محاضرته الأولى ؟

... ربما جاز القول أن التفسير يكمن في هذه الأسباب كلها مجتمعة ، فالحجوي يستدرك في تأكيده " تعليم الفتيات لا سفور المرأة " ما فاته قوله في محاضرته الأولى ، وهو لا يرى فائدة في إثارة حفيظة العلماء وضده وتألبهم عليه في مجتمع ضده وتألبهم عليه في مجتمع مقاومته لإرادة التغيير والتطوير كانت لا تزال ، بين الحربين العظميين خاصة ، مقاومة شديدة كثيرة – بل ربما حدث تراجع عن عدد من المكتسبات التي كان المغرب قد عرفها قبل ذلك في طريق تعليم المرأة .

والحق أن المطلع على

(10243/1)

مجريات الأحوال في المغرب المعاصر منذ ستينات القرن خاصة ، يلمس من مقاومة المجتمع لمختلف أشكال التغيير أصنافا كثيرة ، ويصادف التقاء عجيبا وتضافرا في الجهود بين قوى المحافظة بدافع أهداف متباينة : قوى المحافظة والتشدد في فهم الشريعة الإسلامية ، وقوى المعارضة لكل عمل في التحديث من شأنه أن ينال

من نظام الأشياء على النحو الذي يحفظ مصالحهم ، وقوى الجهل والأمية وتكلس الذهنية السلبية الانهزامية .

... الحق أن صوت الدعوة إلى تحرير المرأة في خجله وتحفظه ، بل وفي تردده بين الإقبال والإحجام ، بين التقدم وبين

(10244/1)

النكوص – على النحو الذي لمسناه في خطاب محمد الحجوي – يصح اعتباره مؤشرا دالا على صعوبات داعي التحديث والتغيير في نظام اجتماعي – ثقافي وفي بنية ذهنية . الحق أخيرا أن حضور ذلك الصوت ، مجرد الحضور ، ينبه المؤرخ للفكر المغربي المعاصر في العقود الثلاثة الأولى إلى علامات دالة ويحمله على مراجعة العديد من الأحكام والآراء السائدة حول ذلك الفكر .

(10245/1)

صورة الملك عبد العزيز آل سعود من خلال بعض الرحلات المغربية إلى شبه الجزيرة العربية

في الفترة ما بين 1356 و1348 هـ/ 1930 و1938 م

... ... الدكتور عبد الكريم كريم

... ... كلية الآداب .الرباط

... أولت فئات من الشعب المغربي المسيرة الجهادية التي قادها الملك عبد العزيز آل سعود منذ استرجاعه عاصمة أجداده مدينة الرياض اهتماماً خاصاً وتجاوبت مع المجهودات التي بذلها للعودة بالناس إلى الطريق القويم بعد الجهالة الجهلاء التي كانوا عليها، وهلّلت وكبّرت لانتصاراته ونجاحه في توحيد القسم

(10246/1)

الأعظم من شبه الجزيرة العربية والإعلان عن قيام »المملكة العربية السعودية« التي كانت أول تجربة وحدوية عربية ناجحة في التاريخ الحديث، في وقت تقاسم الاستعمار معظم البلاد العربية والإسلامية شرقاً وغرباً.

... والرحلات المغربية إلى شبه الجزيرة العربية في الفترة ما بين 1348 و1356 هـ/ 1930 و1938 م تميزت بما يلي:

أحمد معنينو، حج عام 1348 هـ/ 1930 م وبلاد الحجاز

حديثة العهد بإعلان الطاعة للملك عبد العزيز آل سعود، مذكرات مخطوطة خاصة.

(10247/1)

الحسن بن الطاهر وعزيز، حج عام 1351 هـ/ 1932 م، وهو أول موسم للحج ينظم بعد الإعلان عن قيام المملكة العربية السعودية. مخطوط خاص.

محمد بن إبراهيم، حج عام 1353 هـ/ 1935 م، تشرف بالسلام على الملك عبد العزيز وألقى بين يديه قصيدته الشعرية التي تخلد المسيرة الجهادية للملك عبد العزيز، ديوان مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم 10431.

محمد داود، حج عام 1353 هـ/ 1935 م، أهدى إلى الملك عبد العزيز عشرة أعداد من مجلة "السلام" عندما تشرف بالسلام عليه. وثائق خاصة.

(10248/1)

محمد اليمني الناصري، حج عام 1356 هـ/ 1938 م، ألقى بين يدي الملك عبد العزيز قصيدته الشعرية. ديوان

مخطوط خاص.

أحمد معنينو، حج للمرة الثانية عام 1356 هـ/ 1838 م، رفع إلى الديوان الملكي تقريراً شرح فيه بعض ما يعانيه الشعب المغربي من الاستعمار الفرنسي والإسباني. وثائق خاصة.

الصديق الشدادي، حج عام 1356 هـ/ 1838 م، توجه من المدينة المنورة إلى مدينة بغداد ووصف الطريق التي سلكها مروراً بمدينة »حايل«. مخطوط خاص.

ومن دراستنا لمخطوطات هذه الرحلات ووثائقها، نقف على ما يلي:

أ ـ الجانب السياسي

(10249/1)

أحوال البلاد وأوضاع العباد قبيل قيام الملك عبد العزيز بالدعوة التصحيحية.

إيمانه القوي بما كان يسعى إلى تحقيقه.

مراحل جهاده وأشهر المعارك التي خاضها ضد خصومه.

ضم بلاد الحجاز والإعلان عن قيام المملكة العربية السعودية.

الاستياء الكبير الذي خلفته المناوشات المسلحة على الحدود السعودية ـ اليمنية والدعوة إلى الحل السلمي.

استنكار محاولة اغتيال الملك عبد العزيز وهو يطوف بالكعبة المشرفة.

تحية المغرب وتهنئة الملك عبد العزيز بما يسر الله له من نصر عظيم وفتح مبين.

ب ـ الناحية الحضارية

(10250/1)

التنظيمات الأولى التي أرسى الملك عبد العزيز أسسها في النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية...

عناية الملك عبد العزيز بتكريم العلماء والفقهاء ورجال الصحافة والإعلام.

ج ـ في المجال الدولي

... الملك عبد العزيز وقضايا التحرير في الوطن العربي.

ومن ذلك القضيتان: الليبية والمغربية.

* * *

أولاً: مسيرة جهاد الملك عبد العزيز آل سعود

... الملك عبد العزيز آل سعود (في عام 1348 **هـ/** 1930 **م)**

(10251/1)

... (»كان على رأس المملكة السعودية الملك منظم الدولة ومنشئها من جديد البطل عبد العزيز آل سعود« (1).

... ولد الملك عبد العزيز في شهر ذي الحجة عام 1301 **هـ، واسترد مدينة الرياض في شهر شوال عام** 1319 **هـ، وأعلن عن تأسيس المملكة العربية السعودية في عام** 1351 **هـ وهو في سن الخمسين من عمره:**

ولدت بشهر الحج مغزى إشارة

بدأت طريراً دون عشرين حجة

إليك بتعظيم فعظمته شهرا

_____

(1) أحمد معنينو، الرحلة الحجازية لعام 1348 هـ/ 1930 م.

(10252/1)

وأَتْمَمْتَ للخمسين أعمالك الكبرى(1)

1 ـ أحوال البلاد والعباد قبيل قيام الملك عبد العزيز بالدعوة إلى الطريق القويم:

أتذكر يا عبد العزيز ولم تكن
وإذ عمت الفوضى وعم بلاؤها
وقد نفقت سوق الفجور وشيدت
ومدت يد العدوان تفتك جهدها
وماتت عن الإسلام والدين غيرة

بناس وليل الجهل قد سدل السترا
وعاث فساداً أهلها وارتضوا كفرا
معالمه واستعذبوا طعمه المرا
وسالت دموع الدين من مقلة عبرى

---

(1) ديوان الشاعر محمد بن إبراهيم المراكشي، مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، رقم 10431.

(10253/1)

وطم عليه السيل من بدع كبرى(1)

2. إيمانه القوي بما يسعى إلى تحقيقه

فرد فيك الدين طرف رجائه
وما كنت بالموفور قبل ذخيرة
وما قل من كان بالله اعتصامه

ونادى الرجا سراً فلبيته جهرا
ولكن عون الله أَعْظِمْ به ذخرا
وما كثر الموفور بالخير مغترا(2)

3. مراحل جهاده

فسرت بجيش الأربعين ولم تكن
نعم كان جيش الأربعين وقد طما
فسرت بهم أن يصبروا في نفوسهم

لترهب من أعدائك العدد الكثرا

وفاض على وجه الثرى عسكراً مجرا

فعن نصر دين الله لن يجدوا صبرا

وكم بين من يغزو لدين محمد

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(10254/1)

وبين الذي يغزو ويجهد نفسه

لينصره نصراً وينشره نشرا

ليشبع لذات وينعم بالذكرى(1)

4 ـ أهم المعارك الحربية التي خاضها الملك عبد العزيز في مسيرته الجهادية ضد خصومه:

له الله في يوم عبوس وليلة

«بكيريت» واليوم في القوم يومها

ويوم »سدير« و»الرياض« و»محمل«

ويوم »عسير« و»القصيم« و»حائل«

فأفنيتهم قتلا وأسراً وذلة

وكم مثلها مرت وكم مثلها مرا

يطالب نسر الموت في هامهم وكرا

ويوم »الحسا« و»الوشم« و»الشمر« و»الشقرا«

وبـ»الجوف« و»السرحان« قد حصروا حصرا

---

(1) المصدر نفسه.

(10255/1)

وكان جزاء الظالم القتل والأسرا(1)

5 ـ كانت خاتمة الفتوحات ضم بلاد الحجاز والإعلان عن قيام المملكة العربية السعودية:

بأطراف نجد والقبائل كلها

حباك إله العرش أشرف رتبة

وأولاك ملكاً في جوار نبيه

تبوأته عرش العروش وكيف لا

به من جوار زد سراراً وغبطة

وكيف وقد أحييت سنته وقد

وقمت بما أوصى به الله خلقه

وفتح حجاز كانت الآية الكبرى

وعظم منك الله جاهك والقدرا

وألهمك التوفيق والعدل والبرا

ومن خير خلق الله قد جاور القبرا

فساكنه خير الورى بك قد سرا

أقمت حدوداً من شريعته الغرا

---

(1) المصدر نفسه.

(10256/1)

وجئت إلى الأوثان أفنيتها كسرا

ولولاك لم تبصر من العرب أمة

ولولاك يا من وطد الأمن سيفه

فدم لحمى الإسلام تحمي لواءه

ودم رابضاً حول العرين ولا تنم

وما زال منك الدين يرجو امتداده

غدا نهيهم نهياً وأمرهم أمرا

لما كنت في أرض وأصبحت في أخرى

ودم لبني الإسلام إن تستند ظهرا

فما زالت الأعداء ترمقه شزرا

فلا زلت يا عبد العزيز له ذخرا(1)

الاستياء الكبير الذي خلفته المناوشات المسلحة في الحدود السعودية .اليمنية والمطالبة بالحل السلمي

---

(1) المصدر نفسه.

(10257/1)

... بعد نجاح المسيرة الجهادية التي قادها الملك عبد العزيز وتوجت بالإعلان عن قيام »المملكة العربية السعودية« عام 1351 هـ/ 1932 م، حدث ما لم يكن في الحسبان: فقد جرت اصطدامات مسلحة في الحدود السعودية .اليمنية اتسع نطاقها مع الأيام إلى الحد الذي أصبحت تهدد بانفجار الوضع بين المملكتين:

... كثرت في المدة الأخيرة إشاعات مختلفة المصادر عن احتشاد قوات الإمام يحيى صاحب اليمن من ناحية وقوات

الملك ابن السعود ملك الحجاز ونجد من ناحية أخرى..

لكنا نتساءل: لماذا هذا الاحتشاد على الحدود بين الطرفين؟... وهل

(10258/1)

ينتظر المستعمرون غير ذلك؟ فأين زعماء الإسلام وأين ذوو الغيرة على مستقبل بلاد العرب؟ ألا من داع إلى تأليف وفد من عظماء المسلمين في مختلف الأقطار يسافرون بالفعل إلى جزيرة العرب ويتداخلون بطريقة ودية لإنهاء الخلاف بين العاهلين المسلمين العربيين حتى ترجع الجيوش إلى بلادها والسيوف إلى أغمادها؟(1)

... وبعد المواجهات المسلحة التي جرت بينهما:

---

(1) مجلة السلام، العدد الرابع (رمضان 1352 هـ/ يناير 1934 م)، ص. 57.

(10259/1)

... كم نشعر ونحن من أبعد الناس مسافة بحسرة تقض مضجعنا... كم نخشى نحن الذين ذقنا ألم الاستعمار

وتجرعنا ذل الاستعباد من أن يلحق إخواننا في قلب جزيرة
العرب ضعف أو وهن فتتكالب عليهم ذئاب الاستعمار...
لقد هال الأمر كل من له غيرة على مستقبل الجزيرة العربية خصوصاً، وعلى مصالح العرب والإسلام عموماً، وهبَّ عظماء العالم الإسلامي يفكرون في شتى الوسائل لتدارك هذا الخطب الجسيم...
... لقد أراد الله أن يكون الفضل الكبير للمكتب الدائم للمؤتمر الإسلامي بالقدس... وتم الاتفاق على أن يكون الوفد مؤلفاً من أربعة من

(10260/1)

عظماء العالم الإسلامي:

عالم فلسطين ومفتيها وزعيمها الديني سماحة الحاج أمين الحسيني رئيس المؤتمر الإسلامي العام.
ورجل الإسلام والعروبة ولسانهما الناطق وسيفهما البتار صاحب العطوفة الأمير شكيب أرسلان.
والعالم الحقوقي المتضلع معالي محمد علي علوبة باشا الوزير المصري الشهير.
والسياسي الكبير والزعيم هاشم بك الأتاسي رئيس

الوزارة السورية سابقاً ورئيس الكتلة الوطنية الآن...

... نحن نؤمّل ونرجو من أعماق أفئدتنا أن تكلل بالنجاح مساعي هذا الوفد الإسلامي... المزود بثقة العالم الإسلامي كله(1)

---

(1) مجلة السلام، العدد الثامن، محرم 1353 هـ/ أبريل 1934 م، ص. 64.

(10261/1)

.

... ولما نجحت مساعي الوفد في إصلاح ذات البين، هلّل المسلمون وكبّروا شرقاً وغرباً:

... نجح الوفد الإسلامي الذي قصد جزيرة العرب لإصلاح ما كان بين الملك عبد العزيز بن سعود والإمام يحيى حميد الدين. وقد عقد الصلح بين الطرفين... والحمد لله...

... ومما صرح به سعادة محمد علي علو به باشا أحد أعضاء الوفد الإسلامي عقب رجوعه من الحجاز إلى مصر أن الملك عبد العزيز بن السعود عاوننا في مهمتنا معاونة

كبيرة لوثوقه من إخلاصنا للطرفين وحيادنا ونبل مقاصدنا وأننا مستقلون في آرائنا تمام الاستقلال وأننا نمثل الرأي

(10262/1)

العام الإسلامي... لقد استمرت مفاوضات الصلح... واجتهد الملك عبد العزيز بن السعود في تذليل كل صعوبة تعترض الطريق بلباقة وحكمة (1).

... وعندما وقعت معاهدة الصلح في جدة يوم 6 صفر 1353 هـ:

... إن لجزيرة العرب عموماً وللحجاز خصوصاً منزلة كبرى ومقاماً محترماً في قلوب جميع المسلمين والعرب، وذلك لأنها حصن العروبة الحصين ومركز الدين الإسلامي

---

(1) ... مجلة السلام، العدد التاسع، صفر 1353 هـ/ ماي 1934 م، صص. 63 ـ 65.

(10263/1)

... الحنيف... لقد كان سرورنا عظيماً بنجاح المساعي التي بذلها وفد المؤتمر الإسلامي لإصلاح ما كان بين عاهلي الجزيرة من خلاف... ونحن كجزء من العالم الإسلامي العربي نبتهج كل الابتهاج بتلك النتيجة السارة ونهنئ بها العاهلين المسلمين العربيين، وشعبيهما الكريمين... إن هذه المعاهدة قد قوبلت بالابتهاج العظيم في سائر أنحاء العالم الإسلامي والعربي وأصبحت فكرة توحيد أو على الأقل تحالف الأقطار العربية... والعمل على تحقيقها واجب وطني على كل من يجري في عروقه الدم العربي الطاهر (1)

---

(1) ... مجلة السلام، العدد العاشر، رجب 1353 هـ/ نوفمبر 1934 م، ص. 48.

(10264/1)

.

... شاء القدر أن تكون الرسالة الجوابية التي أرسلها الملك عبد العزيز إلى الملك غازي آخر ما جاء في موضوع الخلاف السعودي ـ اليمني وأن يكون العدد العاشر لمجلة "السلام" أخر أعدادها:

... إن الأخوة الإسلامية والعربية التي حققتها تلك المعاهدة... هي التي سعينا ونسعى إليها على الدوام مع العرب جميعاً لجمع كلمة العرب والتآخي بينهم لما فيه صلاحٌ لهم في دينهم وعزّ لهم في دنياهم، وسترونني على الدوام إن شاء الله عاملاً على كل ما يجمع الله به شمل المسلمين عامة والعرب خاصة وثقتي بالله... أن تتكاثف جهودنا

(10265/1)

لجمع كلمتنا لما فيه كيانُنا وسلامة أوطاننا وعز شعبنا العربي. ونسأل الله أن يوفقنا جميعاً لما فيه حياة الأمة الإسلامية وتوطيد الأخوة العربية (1).

استنكار محاولة اغتيال الملك عبد العزيز

... من الصفات الكريمة التي عرف بها الملك عبد العزيز الحلم والعفو عند المقدرة، ولكن خصومه قابلوها بالإساءة وحاولوا قتله: «بينما كان الملك عبد العزيز آل سعود يطوف بالكعبة، إذ تصدى له أفراد... يحملون الخناجر المسمومة بيدهم ليهجموا عليه ويقتلوه، ولكن حرس الملك أسقطهم قبل أن يصلوا إليه «(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 58.

(2) الحاج أحمد معنينو. وثائق خاصة.

(10266/1)

:

ولم تنس حق الحلم حين أسرتهم

ظفرت بأرباب الحفائظ بعدما

فخانوا وعادوا بالخسار تجارة

لقد نكثوا بالعهد من خبث نفسهم

ومقلتهم عبرى وأنفاسهم حرى

عفوت وبعد العفو أوليتهم برا

وحاق بهم مكر وقد أمنوا المكرا

ألا إن خبث النفس داؤه لن يبرا(1)

تحية الشعب المغربي وتهنئته الملك عبد العزيز على ما أنعم الله عليه من النصر والفتح المبين:

...

جرى آل سعود حيث جرت رداءها المعالي

أفخر ملوك الأرض لا زلت فخرهم

أعدت زمان الراشدين عدالة

وفتحت في نور الشريعة أعينا

---

(1) ديوان الشاعر ابن إبراهيم.

(10267/1)

مليك سرت في العالمين خصاله

وعفواً يا مولاي إن كنت عاجزا

ومن شاعر لم يعرف المدح شعره

وعزة نفس لا تبيح لشاعر

حججنا لَعَمْرِي مرتين: فريضة

من المغرب الأقصى أتتك تحية

وحيث الطفل يقتعد الشعرى

ويكفيهم أن لا تزال لهم فخرا

وأمنا وإحياء لشرعتنا الغرا

وأظلمت من أعدائها المقل الحمرا

بذكر فتيق المسك فاوحه نشرا

على حصر ما الأرقام أعجزها حصرا

فخذها علي استحيائها غادة بكرا

مديحاً ولكن كان مني الثنا شكرا

ورؤية هذي الطلعة الحجة الأخرى

يبلغها عن أهله شاعر الحمرا(1)

---

(1) المصدر نفسه.

(10268/1)

ثانيا: بعض التنظيمات التي أرسى الملك عبد العزيز دعائمها وذلك من خلال الرحلات المغربية السالفة الذكر:

1 .الناحية السياسية

... إقرار دعائم الأمن والاستقرار في جميع المناطق الخاضعة لسلطان الملك عبد العزيز آل سعود. ومن ذلك بلاد الحجاز التي أعلنت بيعته 1344 هـ/ 1925 م.

... ولما زار أحمد معنينو الحرمين الشريفين عام 1348 هـ/ 1930 م، دون في مذكراته مدى الأوضاع الآمنة التي أصبحت عليها بلاد الحجاز:

... (في الفيافي والقفار:

(10269/1)

... أخذنا العدة للتوجه إلى المدينة المنورة التي تبعد عن ينبع بعشرة أيام على ظهر الجمال وأخذنا الطريق الصحراوي القاحل... وطيلة الطريق وكلما حللنا بمكان، ننزل فيه... وليس معنا من يحرسنا أو يحمل سلاحاً... نعم كنا في أمن واطمئنان على الأنفس والأرواح والأعراض... (1).

... (في المدن والقُرى:

... ومما شاهدته عندما ينادى بالأذان »حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح«... يترك أصحاب الدكاكين أمتعتهم وأموالهم والأماكن مفتوحة... ولا أحد يستطيع أن يمد يده إلى الأمتعة والمال

---

(1) أحمد معنينو، رحلة عام 1348 هـ

(10270/1)

المكدس في بساط الأرض دون حراسة...

... والحكومة السعودية بالرغم من قلة المداخيل وعدم استعدادها المالي على تعبيد الطرق وتجهيزها، فهي تعمل جاهدة على الحفاظ على الأمن وسلامة الحجاج برجوعها إلى الشرع الإسلامي وتنفيذ أحكامه وحدوده

المشروعة، ويا ليت الدول الإسلامية تصحو يوماً بعد يوم بعدما غررت بها مظاهر الحضارة الأوربية الزائفة التي جعلتنا نتحاكم إلى الطاغوت (1).

... (وعن مدى حزم رجال الأمن: »اتصلنا بوكيل كراء حافلة نرحل فيها إلى مكة المكرمة، فحصل الاتفاق بيننا على صبيحة يوم

---

(1) المصدر نفسه.

(10271/1)

معين... لكننا قضينا اليوم كله في الانتظار دون جدوى فذهبنا عند رئيس الشرطة نشكو الوكيل فأرسل في طلبه «(1).

... (دار الودائع: »قص علي أخ ما وقع له حيث سقطت من جيبه ورقة خمسة جنيهات. وعند رجوعه للبيت، لم يجدها؛ فتوجه مباشرة إلى دار الودائع، فعرف المسؤولين بما ضاع منه؛ ورجع في المساء، فوجد وديعته تنتظره «(2).

... أكد ظاهرة الأمن والاستقرار كل من الحسن بن الطاهر وعزيز في عام 1351 هـ: »خرجنا من ينبع قاصدين

المدينة المنورة ووصلنا إلى محطة ضريح عبد الرحمن البرغي وبتنا

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(10272/1)

هناك حتى الصباح« (1). (قعدة 1351 هـ).

والصديق الشدادي في عام 1356 هـ:

... غادرنا المدينة المنورة عصر يوم الأحد 11 محرم عام 1357 هـ على متن السيارة قاصدين مدينة النجف، فبتنا بمحطة الحنك وهي محطة بها نخيل وزروع، ثم رحلنا صباح غد فقِلنا بمحطة ذي الحليفة وهي محطة بها نخيل كثير وزرع، ثم بتنا بمحطة يقال لها الغزالة... بتنا ليلة السبت بمكان يقال له بركة العشار بها ماء غزير ظللنا بها وبتنا مقيمين وقتاً... (2).

---

(1) المصدر نفسه.

(2) الصديق الشدادي، مخطوط خاص.

(10273/1)

... وسعى الملك عبد العزيز آل سعود إلى العودة بالناس إلى الطريق القويم:

... (بالوعظ والإرشاد:

... جاء المساء فوجدت نفسي في حلقة عالم كبير هو الشيخ التنبكتي يلقي دروسه في التوعية ودفع الشبه التي تنسب بحق وبباطل... وعندما جاءت المناسبة، توجهت لجنابه بعدة أسئلة عن الوهابية... فأمر أحد التلاميذ بإحضار كتاب "التوسل والوسيلة" (عام 1348 هـ)(1).

... (بحثّ الناس على القيام بالواجبات الدينية وأداء الصلاة بأوقاتها:

---

(1) أحمد معنينو، رحلة عام 1348 هـ، مصدر سابق.

(10274/1)

... ومما شاهدته عندما ينادي »حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح« يظهر بالأسواق رجال بيدهم عصي يتجولون بالأسواق منادين: »الصلاة الصلاة«... وهذا العمل تقوم به جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتوجد بجميع

جهات السعودية(1) (عام 1348 هـ).

... (بمحاربة البدع الضالة: »وفي تجوالنا بالمسجد النبوي، شاهدت منظراً مؤسفاً. ذلك أن بعض الحجاج يتمسحون بحديد نوافذ المسجد والحراس السعوديون يمنعونهم...«(2) (عام 1348 هـ).

2 ـ الناحية الإدارية

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(10275/1)

... دائرة الأمن والجمارك: »وفي يوم الخميس 7 قعدة عام 1351 هـ في الساعة الثانية بعد الزوال، أرست الباخرة في مرسى ينبع. فصعد المكلّف السعودي وعرضت عليه جوازات السفر وأذن للجميع بالنزول ودخلنا الديوانة... ولم يأخذوا منا في الديوانة شيئاً« (1).

... تعيين المسؤولين عن المدن الرئيسة:

... ـ حايل »أميرها من كبار أصحاب الملك عبد العزيز. يقال له عبد العزيز بن مساعد من أكابر الكرماء لا

يجلس للحكم إلا بعد أن يقرأ بين يديه قارئ شيئاً من "البخاري"»(2)

---

(1) الحسن بن الطاهر وعزيز، مخطوط خاص.

(2) الصديق الشدادي، مخطوط خاص.

(10276/1)

. (محرم 1357 هـ).

... .استخدام السيارة لطي المسافات البعيدة واختصار الزمن. فبعد أن كان المسافر يقطع المسافة بين ينبع والمدينة المنورة في عشرة أيام على ظهر الجمال عام 1348 هـ: »نزلنا بمرسى ينبع... وأخذنا العدة للتوجه إلى المدينة المنورة التي تبعد عنها بعشرة أيام على ظهر الجمال...«(1)، أصبحت المسافة نفسها تقطعها السيارة في يومين عام 1351 هـ:

... في يوم الخميس 7 قعدة عام 1351 هـ أرست الباخرة في مرسى ينبع... ثم سألنا عن ثمن كراء السيارة إلى المدينة...

---

(1) أحمد معنينو، رحلة عام 1348 هـ، مصدر سابق.

(10277/1)

وفي يوم السبت 9 قعدة خرجنا من ينبع قاصدين المدينة المنورة ووصلنا إلى محطة ضريح عبد الرحمن البرعي وبتنا هناك إلى الصباح ووصلنا المدينة في عشية يومه (10 قعدة) (1).

... . »وفي زوال يوم الخميس 26 قعدة عام 1315 هـ، قصدنا البلد الأمين مكة المكرمة... وعند غروب يوم الجمعة، دخلنا جدة... وعند زوال يوم السبت 28 قعدة، ركبنا السيارة قاصدين مكة المكرمة...« (2).

... .إقامة المؤسسات الضرورية للحجاج المسافرين وتوفير أسباب الراحة لهم:

---

(1) الحسن بن الطاهر وعزيز، رحلة 1351 هـ، مصدر سابق.

(2) المصدر نفسه.

(10278/1)

... فعندما زار أحمد معنينو جدة في حجة عام 1348 هـ/ 1930 م، »انتقلت من مكة المكرمة إلى مدينة جدة، المرسى الكبير للدولة السعودية. وهي عبارة عن قرية فقيرة لا مساكن ولا دور كبرى ولا فنادق للراحة ولا طرق

معبدة ولا أسواق منظمة...«(1). ...

... وبعد ثلاثة أعوام، بدأت أوضاع جدة تتغير: »وعند غروب يوم الجمعة 27 قعدة عام 1351 هـ دخلنا جدة... وبتنا في لوكاندة...«(2).

---

(1) أحمد معنينو، مصدر سابق.

(2) الحسن بن الطاهر وعزيز، مصدر سابق.

(10279/1)

... .استخدام اللاسلكي في الاتصالات بين مناطق المملكة: »في حايل آلة برقية لا سلكية زرناها هذا الصباح، أسست سنة 1351 هـ يرأسها هاشم خليفة المدني« (1).

...

3 .الناحية الاقتصادية

... العملات المستعملة عام 1351 هـ: »سألنا عن كراء السيارة من ينبع إلى المدينة المنورة، فقيل لنا إنه خمس ابرات ونصف ذهبية«(2).

... . »لما حملت حوائجنا للمنزل، طلبوا منا عشرة قروش سعودية لكل واحد«(3).

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) ... المصدر نفسه.

(10280/1)

... . »وجدنا الريال السعودي ثلاثة عشر ريالاً. ونصف ريال منه هو الجنيه المصري والريال المذكور فيه اثنان وعشرون قرشاً سعودياً في كل قرش أربعة هلالات« (1).

... . »كان كراء المحل المذكور بقرشين ونصف من قروش مصر« (2).

... . »بتنا في لوكاندة بريالين سعوديين لكل ناموسية« (3).

... ومن نتائج استقرار الأمن والطمأنينة اتساع أعمال التجارة وتطورها: »ومما شاهدته في مكة عندما ينادى بالأذان... يترك أصحاب الدكاكين أمتعتهم وأموالهم... والأمتعة

---

(1) ... المصدر نفسه.

(2) ... المصدر نفسه.

(3) ... المصدر نفسه.

(10281/1)

والمال المكدَّس على الأرض« (1).

4 ـ الناحية الاجتماعية

... أولى الملك عبد العزيز الفئات الفقيرة عناية خاصة منذ اليوم الأول:

... »سمعنا أن ما أديناه لحمل أمتعتنا وكذلك كراء المحل يفرق على ضعفاء هذه البلدة (يعني ينبع)... إننا لم نشاهد بلدة أضعف من هذه البلدة ومن أهلها«(2).

(قعدة 1351 هـ).

... ومنذ السنوات الأولى لقيام المملكة، حرص المسؤولون على ضبط وإحصاء عدد الحجاج الوافدين على الديار المقدسة لأداء فريضة الحج: »كان عدد حجاج هذه

---

(1) أحمد معنينو، مصدر سابق.

(2) الحسن بن الطاهر وعزيز، مصدر سابق.

(10282/1)

السنة (عام 1351 هـ) واحداً وعشرين ألفاً ونحو تسعمائة من الواردين عن طريق البحر ونحو هذا العدد من باقي النواحي«(1).

5 ـ الناحية العلمية والثقافية

... بعد استقرار الأمن والطمأنينة، اتسعت مجالس العلم وتعددت:

... 1 ـ في مكة المكرمة: »وصلنا مكة المكرمة... وجلسنا أياماً نتمتع بالتزود الصالح ونلتقط رضوان الله بالصلاة في المسجد الحرام... والاتصال برجال الدين والصلاح والاستماع إلى بعض دروس العلماء المرشدين ببيت الله الحرام« (2) (1348 هـ). ثم:

...

---

(1) المصدر نفسه.

(2) أحمد معنينو، مصدر سابق.

(10283/1)

... انتقلنا من مكة المكرمة إلى مدينة جدة... وفي هذه المدينة قمت بزيارة العالم الشيخ محمد ناصف صاحب المكتبة السلفية. ولقد أهداني كتابين عظيمين: الأول "الصراع بين الإسلام والوثنية" من تأليف العلامة عبد الله القصيمي. والثاني "صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان" لمؤلفه الشيخ المحدّث محمد البشير

السهسواني الهندي.

... كان لهذين الكتابين أثرهما في نفسي، لأنني قرأتهما بإمعان وتفهمت ما فيهما من وضوح للمشاكل التي يتردّد فيها كل ما ينسب للوهابية والرد على تهمتها بالحجة والمنطق وصريح السنة« (1)

---

(1) المصدر نفسه.

(10284/1)

(1348 هـ).

... 2 ـ في المدينة المنورة:

... اجتمعت بالفقيه المحدث سيدي إبراهيم بن عبد القادر بري المديني وسردت عليه أوائل الكتب الستة و"الموطأ". وأجازني في أصولها... واجتمعت أيضاً بالضريح النبوي بالفقيه المحدث المجاور أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد العمري... وتذاكرنا في بعض المسائل وأجازني حفظه الله إجازة عامة...

... ودخلت خزانة الكتب، وهي في قبة رفيعة. والقيم بها أحد الفقهاء المدرسين، فأخبرني بأن المحبس لها هو

شيخ الإسلام بصطمبول السيد أحمد عارف حكمة الحسيني من زمن السلطان

(10285/1)

عبد الحميد خان وأن كتبها كلها بخط اليد وعددها ستة عشر ألف مجلد محتوية على أربعة وخمسين فناً وفيها من الحديث ثلاثمائة واثنان وخمسون نسخة ومن اللغة مائتان وستة عشر ليس فيها مكرر (1).

(في شهر ذي القعدة عام 1351 هـ).

... »وفي يوم الأحد رابع عشر حجة (1351 هـ)، استدعاني السيد محمد عابد الفاسي لأزور معه خزانة لبعض علماء مكة، وهو الفقيه الأديب السيد محمد كامل نجل الشيخ محمد ماجد الكردي... وفي الخزانة المذكورة ما يزيد على عشرين ألف مجلد« (2).

---

(1) الحسن بن الطاهر وعزيز، مصدر سابق.

(2) المصدر نفسه.

(10286/1)

... 3 ـ ومن جهة أخرى، حرص الملك عبد العزيز على تأسيس المدارس في جميع المدن والقرى. ومن ذلك حايل: »دخلنا إلى القرية الكبيرة المسماة بحايل تابعة لحكومة ابن السعود... والبلدة المذكورة تشتمل على مدرسة سعودية حكومية أسست عام 1356 هـ ـ بها نحو 500 تلميذ يقرأ فيها القرآن وتدرس فيها العلوم الابتدائية...«(1). (محرم 1357 هـ).

... 5 ـ العناية بالعلماء والفقهاء العرب والمسلمين واستقبالهم بصفة خاصة أثناء مواسم الحج: تشرف وفد مغربي يرأسه الأستاذ محمد داود التطواني مدير مجلة "السلام"

---

(1) المصدر السابق.

(10287/1)

بالسلام على الملك عبد العزيز أثناء موسم الحج لعام 1353 هـ »وبين يديه مجموعة مجلة "السلام"، فقابله جلالته وسر من هذه البادرة وتفاءل بها خيراً وأصبح يحدث وزراءه وأبناءه عن المغرب والمغاربة... ويرفع من شأن الأستاذ داود وجماعته« (1).

... وتشرف في الموسم نفسه الشاعر المغربي محمد بن

إبراهيم المراكشي بإلقاء قصيدة تضمنت المراحل الرئيسة للمسيرة الجهادية التي قادها الملك عبد العزيز: »حضر لبيت الله الشاعر الشهير محمد بن إبراهيم المراكشي شاعر الحمراء ونظم بدوره قصيدة عظيمة أشاد

---

(1) أحمد معنينو، مصدر سابق.

(10288/1)

فيها بالمملكة العربية السعودية وبالملك عبد العزيز... فزاد حب الملك عبد العزيز حباً على حب «(1).

... وفي موسم الحج لعام 1356 هـ، »اجتمعتُ بمكة المشرفة بالأخ الشاعر محمد اليمني الناصري... فنظم قصيدة عصماء أشاد فيها بالملك عبد العزيز آل سعود الذي طهر الحرمين الشريفين ونشر لواء الأمن والطمأنينة على الحجاز...«(2).

6 ـ تكريم رجال الصحافة والإعلام العرب والمسلمين

... في يوم الثلاثاء 14 ذي الحجة عام 1353 هـ، أقام الملك عبد العزيز آل سعود حفلاً خاصاً بمكة المكرمة حضره

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(10289/1)

عدد من الصحافيين والإعلاميين العرب:

... ـ ظاهر الفتياني ("الجامعة العربية") بمدينة القدس.

... ـ رشدي ملحس ("أم القرى") بمكة المكرمة.

... ـ محيي الدين رضا ("المقطم") بمصر.

... ـ نعمان العاني ("الاستقلال") ببغداد.

... ـ محيي الدين البدوي ("فتى العرب") بدمشق.

... ـ كاظم الحيدري ("العالم العربي") ببغداد.

... ـ محمد صالح نصيف ("صوت الحجاز") بمكة.

... ـ فؤاد شاكر ("كوكب الشرق") بمصر.

... ـ عبد العزيز أديب ("الرابطة الإسلامية") بدمشق.

... ـ محمد شفيق ("الرياض") بمصر.

(10290/1)

... ـ محمد علي صدقي ("البلاد") ببغداد(1).

... ـ محمد داود ("السلام") بتطوان.

... جاء إليَّ ظاهر الفتياني، فذهبت برسالة خاصة إلى رشدي ملحس إلى الخارجية. فوجدت هناك الصحافيين المذكورين... ثم حضر فؤاد حمزة وذكر أنه سيرسل سيارتين فجاءتا فحملتانا إلى قصر الملك في الأبطح وحضر فؤاد حمزة ويوسف ياسين... ثم قابلنا الملك واقفاً... ثم أفضى بتصريح طويل عريض أخذت وحدي نقطهُ وتكلم محيي الدين رضا وطاهر الفتياني ثم شربنا القهوة... ثم حملتنا السيارتان إلى أوتيل مكة، حيث تقام حفلة

---

(1) محمد داود، مصدر سابق.

(10291/1)

لأدباء مكة... فسمعنا قصيدة لعبد الله عمر أبو الخير وهي من أبدع وأعلى مَا يُقال. وكان التصفيق وطلب الإعادة في كل بيت من أبياتها، وخطب فخري البارودي ثم التفتازاني . وكان موفقاً . ثم محمد أبو زيد... (1).

7 . في المجال الدولي

... الملك عبد العزيز وقضايا التحرير في الوطن العربي

والإسلامي. ومن ذلك القضيتان الليبية والمغربية:

... – مساندة المقاومة الليبية ضد الغزو الإيطالي (عام 1348 هـ/ 1930 م):

---

(1) المصدر نفسه.

(10292/1)

... توصلنا بمنشور وزع على المسلمين يدعو الكل لمساندة المجاهدين بطرابلس الغرب ضد العدو الإيطالي والكافر موسوليني. ويطلب المنشور الاتصال بالشريف السنوسي في زاويته بالمعلا. وفعلاً، توجهنا نحن جماعة من الحجاج المغاربة واجتمعنا بالمجاهد السنوسي... (1).

... – تجاوب الملك عبد العزيز مع الحركة الوطنية المغربية ضد الاستعمار الفرنسي والإسباني:

... لما تشرف الأستاذ محمد داود التطواني بالسلام على الملك عبد العزيز يوم عيد الأضحى (1353 هـ)، أهدى إلى جلالته عشرة أعداد من مجلة

(1) أحمد معنينو، مصدر سابق.

(10293/1)

"السلام" التي أصدرها في تطوان والمتضمنة لأهم الأحداث والوقائع التي عرفها المغرب منذ أن فرضت عليه الحماية الفرنسية والإسبانية واتخذت مدينة طنجة منطقة دولية، »فقابله جلالة الملك عبد العزيز... وأصبح يحدث وزراءه عن المغرب والمغاربة «(1). وفي عام 1356 هـ:

... اجتمعتُ بمكة المشرفة بالشاعر محمد اليمني الناصري. واتفقنا أن نقوم بالدعوة للقضية المغربية ونغتنم الاحتفال الذي يقيمه الملك عبد العزيز آل سعود ليلة الرحيل من مِنَى... وقمتُ بتحرير تقرير عما ارتكبته فرنسا من تهجمات على بيوت الله

(1) المصدر نفسه.

(10294/1)

وتمزيق المصاحف وإهانة العلماء... وتوجهتُ لجلالة الملك عبد العزيز بصفته ملك الحرمين... (1).

من الأحداث الهامة في القضية المغربية

... . تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال (11 يناير 1944).

... . زيارة الملك محمد الخامس إلى طنجة (9 أبريل 1947 هـ)، ومما جاء في خطابه التاريخي بها:

... إن أمنية الأمة المغربية . التي ستتحقق بعون الله . هي أمنية جميع الأمم العربية. إذ الشعوب العربية واحدة... إن المغرب بلاد عربية صلتها وثيقة بالشعب العربي. فمن الطبيعي أن يزداد هذا الاتصال متانة وقوة لا

---

(1) المصدر نفسه.

(10295/1)

سيما وقد أصبحت الجامعة العربية تقوم بدور في السياسة العالمية (1).

... وعندما عُرضت القضية المغربية على هيئة الأمم المتحدة، كان مندوب المملكة العربية السعودية (رشاد فرعون) من المدافعين عن استقلال المغرب وحريته. ومما جاء في تدخله:

... من الواجب إيجاد حل سريع عادل نزيه تتحقق فيه مطامح الشعب المغربي المشروعة... إن يقظة الشعوب العربية والشعور بالتضامن صار حقيقة ملموسة إلى حد أنه لا يمكن لأية قوة أن تحول دون توحيد جهود العرب

---

(1) خطاب الملك محمد الخامس في طنجة أثناء زيارته لها في أبريل 1947.

(10296/1)

لاحتلال المكانة التي يستحقونها في الميدان الدولي... إنني أؤكد هنا حسن نوايا حكومتي واستعدادها الأكيد للمساهمة في جميع المجهودات الهادفة إلى تسوية كل خلاف بالطرق السلمية.

(جمادى الأولى عام 1371 هـ/ يبراير 1952 م) (1).

---

(1) مجلة "رسالة الأمة"، عدد ممتاز، جمادى الأولى 1371 هـ/ يبراير 1952 م، صص. 45 ـ 48.

(10297/1)

صورة بيبرس في أعمال المستشرقين الفرنسيّين/ قراءة في كتابات رينيه غروسيه وكلود كاهين

... ... الدكتور أحمد حطيط

... ... الجامعة اللبنانية ـ بيروت

مدخل

... استرعت شخصية الظاهر بيبرس البندقداري، رابع سلاطين المماليك (ت 666 هـ/ 1277 م)، اهتمام المؤرخين المسلمين، فأفرد له بعضهم سيراً(1)

---

(1) لبيبرس سيرتان، الأولى ألفها محيى الدين ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، عام 1976، واختصرها شافع بن علي، المناقب السرية في السيرة الظاهرية؛ والسيرة الثانية لعز الدين ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، وقد قمنا بتحقيقها عام 1983م.

(10298/1)

ودراسات مستقلة، أو عرضوا له في إطار تأريخهم للدولة الإسلامية. كما شغل السلطان بيبرس حيزاً وافراً في دراسات المستشرقين وأبحاثهم، نظراً لدوره المؤثر في العلاقات بين الشرق والغرب في فترة الحروب الصليبية. ... يستدعي السياق الإشارة إلى ما أثاره الاستشراق، ولا يزال يثيره، من التباسات وتساؤلات حول غاياته ومراميه، حتى بلغ الأمر حد اعتبار الاستشراق ملوناً بـ «العرقية المركزية الأوروبية»، حسب تعبير مكسيم رودنسون(1)

---

(1) « Situation, acquis et problèmes de l'orientalisme islamisant», in: Le mal de voir ,. M. Rodenson1976, Paris, 1101N°. ,18/10

(10299/1)

؛ وأنه كان الأداة (أو على الأقل المساعد والحليف) للتغلغل الاستعماري الأوروبي في البلاد الإسلامية، وأن

المستشرقين عملوا غالباً على استكشاف أوضاع الشرق وتراثه ووضعوا حصيلة ما توصلت إليه بحوثهم في خدمة مشاريع دولهم الاستعمارية.

... تنطوي النظرة الآنفة إلى الاستشراق على كثير من الصحة، ولكنها ـ فيما أرى ـ لا تنطبق بالدرجة نفسها على المستشرقين كافة. فالخطابات الغربية ـ أو الصادرة عن الغرب ـ ليست شيئاً واحداً في تعاملها مع الإسلام. (نميز، على سبيل المثال، ولو مع بعض التحفظ، بين الاستشراقين الفرنسي

(10300/1)

والبريطاني من جهة، والاستشراق الألماني من جهة أخرى).

... وإذا كان بين مختلف الخطابات الاستشراقية قواسم مشتركة، فإن ثمة فروقات كائنة فيها، وهي فروقات مهمة أحياناً. صحيح أنها تدافع جميعها عن «المنهجية الغربية»، أو المنهجية العلمية التاريخية، وتدعو إلى تطبيقها على التراث الإسلامي؛ إلا أنها تختلف، فيما عدا ذلك، باختلاف الاتجاهات والتيارات الفكرية التي ينتمي إليها أصحاب هذه الخطابات أفراداً أو جماعات، وبالتالي فإن موقفها من المسلمين والعرب ليس واحداً.

(10301/1)

... وعليه، فإن صورة السلطان الظاهر بيبرس ـ موضوع بحثنا، والتي سنحاول مقاربتها في كتابات المستشرقين الفرنسيين ـ لن تكون واحدة، بل تختلف من مستشرق فرنسي إلى آخر باختلاف التوجهات الفكرية لكل منهم، فضلاً عن صلتهم المعرفية بالتراث الإسلامي.

... وقبل الشروع في قراءة صورة بيبرس في كتابات المستشرقين الفرنسيين، نرى أن نمهد لذلك بتعريف موجز بسيرة السلطان، وفق ما يكاد يجمع عليه المؤرخون القدماء والمحدثون.

الظاهر بيبرس وأبرز إنجازاته

(10302/1)

... ولد بيبرس عام 620 هـ/ 1223 م. وهو تركي الأصل، اشتراه الأمير أيدكين البندقداري، ثم باعه للسلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب (ت. 647 هـ/ 1249 م)، فتدرج في الحلقة، وترقى في سلك الجندية، ليصبح من كبار أمراء المماليك الصالحية (نسبة إلى الصالح نجم

الدين أيوب). ولما مات الملك الصالح، استمر بيبرس في خدمة ولده الملك المعظم توران شاه.

... شهر بيبرس بمهارته العسكرية وببلائه الحسن في ساحات الوغى، وبخاصة في معركة المنصورة، عام 648 **هـ/** 1250 **م، التي هزم فيها الفرنج، وأسر قائدهم الملك الفرنسي لويس**

(1/10303)

التاسع، المعروف بالقديس لويس.

... وبمقتل توران شاه عام 648 هـ/ 1250 م، تولت شجر الدر، زوج أبيه، مقاليد الحكم مكانه، فانتقلت السلطة في مصر، فعلياً، إلى المماليك البحرية. ثم ما عتم المعز أيبك أن أصبح أول سلاطين الدولة الفتية بزواجه من شجر الدر التي تنازلت له عن العرش بسبب احتجاج الخليفة على تولي امرأة تدبير شؤون المسلمين. وبعد مقتل المعز عام 655 هـ/ 1257 م، بتدبير من شجر الدر، خلفه ابنه نور الدين علي، ثم المظفر قطز، فالظاهر بيبرس بعد أن قتل سيده المظفر غداة معركة عين جالوت عام 658 هـ/ 1260 م.

(10304/1)

... يعود الفضل للظاهر بيبرس في ترسيخ دعائم دولة المماليك البحرية وتنظيم شؤونها الداخلية، وإضفاء الشرعية الدينية عليها بإحيائه الخلافة العباسية في القاهرة عام 659 هـ/ 1261 م، بعد أن دك المغول مركز الخلافة الإسلامية في بغداد، وقتلوا الخليفة المستعصم

عام 656 هـ/ 1258 م. ثم ما لبث بيبرس أن بسط سيادته على المدن المقدسة في الحجاز، مما جعل سلاطين المماليك، من بيبرس فصاعداً، يظهرون أمام العالم الإسلامي، المعروف آنذاك، حماة للخلافة ولأشخاص الخلفاء، والمؤتمنين على مقدسات المسلمين.

(10305/1)

... وفي الخارج، فرض السلطان بيبرس هيبة الدولة على أعدائه بكسر شوكة المغول، بعد تسع مواجهات ضارية معهم، بين عامي 670 ـ 675 هـ و 1271 ـ 1276 م، كان آخرها المعركة التي جرت في عقر دارهم، حيث ألحق بهم الهزيمة في سهل هوفي في صحراء البلستين (آسيا الصغرى). ونجح السلطان في زعزعة بنيان الكيانات الإفرنجية، بعد إحدى وعشرين حملة عسكرية عليهم، أدت إلى سقوط إمارة أنطاكية في يده واستيلائه تباعاً على القلاع والحصون الاستراتيجية المحيطة بكونتية طرابلس ومملكة عكا. كما قام بيبرس بخمس حملات على بلاد الأرمن في آسيا

(10306/1)

الصغرى وأخضعها لسيادته.

... وإلى جانب منجزاته العسكرية الهامة، خط الظاهر بيبرس لدولته سياسة خارجية لافتة للانتباه تمثلت في إحاطة حروبه بسياج من المعاهدات والاتفاقيات الدولية لاكتساب الأعوان والحلفاء من جهة، والاستفراد بالأعداء من جهة أخرى. ومن ذلك: سعيه الحثيث للتحالف مع الإمبراطورية البيزنطية العدو التقليدي للاتين، وحرصه على الاحتفاظ بسياسة الود مع الجنوية ومع كل من شارل دانجو ملك صقلية وملك إشبيلية، وكانت له صلات حسنة مع عز الدين كيكاووس سلطان سلاجقة الروم، كما حالف بركة خان زعيم مغول

(10307/1)

القبجاق، وذلك لمواجهة عدوهما المشترك المتمثل بإيلخانات فارس من هولاكو وأولاده.

... ومما زاد في شهرة بيبرس إشادة المصادر الإسلامية بخصاله، وشمائله، وشجاعته، وبمنجزاته في مجال العمارة الدينية وأوقافه المنتشرة في أرجاء سلطنته المترامية الأطراف، الأمر الذي جعل للسلطان منزلة خاصة في مختلف الأوساط العربية والإسلامية على امتداد العصور، فاكتسبت صورته في ذاكرتهم الجماعية

طابعاً أسطورياً جعلته في مصاف أبطالهم الملهمين، مثل عنترة، والمهلهل، والناصر صلاح الدين، والحاكم بأمر الله، والمنصور قلاوون... .

(10308/1)

ويتبدى ذلك بوضوح في سيرته الشعبية التي تناقلها الرواة والقصاصون عبر الزمن.

...

صورة بيبرس في كتابات المستشرقين الفرنسيين

... نشير، بداية، إلى أننا لن نتمكن من أن نستعرض كل ما نشر من الكتب الفرنسية التي تناولت السلطان بيبرس. ولعل من أبرز هذه المصنفات ما قام به ميشو (M. Michaud)، ودي ماس لاتري (De Mas Latrie)، وهنري لامنس (Henri Lammens)، ورينيه غروسيه (René Grousset)، وكلود كاهين (Claude Cahen)، وغاستون فييت (Gaston Wiet)، ودومنيك سورديل (Dominique Sourdel)، وبول ديشان (Paul Deschamps)، وجان

(10309/1)

ريشار (Jean Richard). وقد عكست كتابات هؤلاء المستشرقين صوراً لبيبرس متباينة حيناً ومتناقضة أحياناً، تبعاً لاختلاف أغراضها ومراميها، ولتأرجح قيمتها العلمية، بين الموضوعية الصارمة والانحياز التام.

... لذلك سنحصر اهتمامنا في ما كتبه رينيه غروسيه وكلود كاهين عن الظاهر بيبرس، مشيرين بإيجاز إلى من قارب نظرة كل منهما إلى السلطان المملوكي، وذلك لأن المؤرخَيْن يعتبران من أبرز أعلام الاستشراق الفرنسي في الثلثين الأول والثاني من القرن العشرين، ويمثلان اتجاهين متمايزين في النظر إلى الإسلام والمسلمين،

(10310/1)

ولكونهما الأكثر تأثيراً في المؤرخين المحدثين من أهل الشرق والغرب، ممن أرخوا للظاهر بيبرس. فمنهم من نقل عنهما حرفياً، ومنهم من اقتبس.

صورة بيبرس عند غروسيه

... في كتابه الضخم الموسوم بـ"تاريخ الحروب الصليبية" (Histoire des Croisades)، الذي ظهر في ثلاثة مجلدات بين عامي 1934 و 1936 م، يخصص

غروسيه مساحة وافرة من المجلد الثالث للتأريخ للظاهر بيبرس، متخذاً منه موقفاً يتصف بالعداء. يظهر ذلك بوضوح في مستهل حديثه عنه، فيصفه بـ »الحيوان المفترس« و بـ»الفظ« و»السلطان العبد«، صاباً جام حقده على حكم

(10311/1)

المماليك، معتبراً إياه مظهراً من مظاهر »التقهقر التاريخي«، وذلك في معرض »استنكاره« حادثة مقتل المظفر قطز على يد الظاهر بيبرس، معلقاً على ذلك بقوله: إن »هذا المشهد الوحشي (مقتل قطز) يختصر تاريخ سلطنة المماليك كله«، واصفاً حكم المماليك بـ »النظام الدموي والبربري« في مقابل »الحكم الأيوبي الإنساني والليبرالي«، دون أن يتردد في ذرف دموع الأسى بسبب تحول السلطة من النموذج المتمثل في السلطان صلاح الدين إلى حال الوضاعة المتمثلة في الظاهر بيبرس منحياً باللائمة على أسياد عكا لإسهامهم، بتسهيل حركة المماليك

(10312/1)

إلى فلسطين، في إخفاق ما أسماه »صليبية المغول« في عين جالوت(1).

... ولا يتورع غروسيه عن الخروج عن جادة الدقة العلمية عندما يستخدم مصطلح الحجاج المسيحيين (ويقصد به الحجاج الأوروبيين)، مقتبساً إياه من مؤرخي الحروب الصليبية اللاتين، أمثال: وليم الصوري، وجوانفيل، وروبرت داكس، مما خلق التباساً دلالياً بين هذا المصطلح وبين مصطلح المسيحيين المحليين الذين أطلق عليهم المؤرخون اللاتين اسم

---

(1) R. Grousset, Histoire des Croisades et le Royaume Latin de Jérusalem, Vol. III, Paris, 1936, pp. 605, 628.

(10313/1)

السكان المحليين (Les indigènes)، وكذا فعل مؤرخو الحروب الصليبية المحدثون، في مقابل السكان المسلمين الذين وسموهم بـ »الكفرة« (Les infidèles).

... ويذكر غروسيه أن »الحجاج المسيحيين« كانوا، منذ أيام بيبرس، يتعرضون للاضطهاد والتنكيل والسلب والنهب في أثناء توجههم على الطريق الموصلة من عكا

أو من يافا لزيارة الأراضي المقدسة، فيما سكت عمداً عن الإشارة إلى أن هؤلاء »الحجاج« كانوا بمعظمهم يؤمون الشرق حجاجاً محاربين (1Pélerins guerriers) ()

---

(1) كان عدد وافر من الحجاج الأوروبيين يشترك خلال وجوده في الشرق في القتال الدائر هناك تحت راية الحرب المقدسة. وقد ميز مؤرخو الحروب الصليبية بين مصطلحي الحجاج (Pélerins) والحجاج المسلحين (Pélerins guerriers).

(10314/1)

، مما استدعى اتخاذ الإجراءات الأمنية اللازمة لمنعهم من خلق واقع عسكري مريب أثناء وجودهم في الأماكن المقدسة. ومن ذلك: تنظيم السلطات المملوكية مسألة دخول الحجاج إلى الديار المقدسة وخروجهم منها، بحيث كان لا يسمح للحجاج بالدخول إليها إلا في مجموعات صغيرة لا يتجاوز عدد كل منها عشرة أنفار، لضبط حركتهم وحسن مراقبتهم، وذلك لأسباب أمنية.

... نشير في هذا المقام إلى أن سلاطين المماليك قد التزموا بتوفير الضمانات اللازمة لحركة الحج الأوروبي

إلى الأماكن المقدسة في فلسطين، وترجموا ذلك بتعهدات صريحة لا تحتمل

(10315/1)

اللبس تضمنتها نصوص اتفاقيات الهدن المعقودة بين المماليك والإفرنج. كان أولها اتفاقية الهدنة التي عقدها الظاهر بيبرس مع أسياد عكا عام 670 هـ/ 1272 م، كفل بموجبها السلطان توفير الأمن على الطريق الموصلة من عكا إلى الناصرة(1). ثم ترسخت هذه الكفالة في عهد السلطان المنصور قلاوون (ت. 689 هـ/ 1289 م)، في

---

(1) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، 1976، ص. 398؛ المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 1، ق 2، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1957، ص. 601.

(10316/1)

ما عرف باتفاقية عكا، التي كانت أكثر تفصيلاً من سابقتها لجهة تسهيل أمر الحج الأوروبي إلى الناصرة،

فنصت(1):

... على أن تكون كنيسة الناصرة وأربع بيوت من أقرب البيوت إليها لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب، كبيرهم وصغيرهم على اختلاف أجناسهم وأنفارهم، من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة. ويصلي بالكنيسة الأقساء والرهبان، وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة، ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة... ولا

---

(1) المقريزي، المصدر نفسه، ص. 994.

(10317/1)

يتعرض إلى الأقساء ولا الرهبان، وذلك على وجه الهبة لأجل زوار دين الصليب بغير حق.

... ويثير مصطلح المسيحيين الذي ما انفك غروسيه يستخدمه في مواضع مختلفة من كتابه التباسات عديدة. يذكر غروسيه، خلال حديثه عن حصار بيبرس لعكا عام 665 هـ/ 1267 م، أن السلطان بعد أن عجز عن

أخذ المدينة، عمد إلى قتل المسيحيين الذين التقاهم خارج أسوارهم، دون أن يحدد هوية هؤلاء المسيحيين(1). وبالعودة إلى المصادر الموثوقة، نستطيع أن نرجح أن أولئك المسيحيين كانوا من الفرنج المكلفين

---

(1) R. Grousset, op. cit., pp. 630, 637.

(10318/1)

بتأمين حماية المدينة من الخارج، ومن القادمين من المناطق الصليبية المجاورة لنجدة عكا بعد أن فاجأها السلطان بحيلة حربية كي يأخذها على حين غرة(1). ... ويحاول غروسيه أن يظهر بيبرس بأنه لا يتورع عن قتل رعاياه من المسيحيين الآمنين دون أدنى مسوغ أو سبب موجب إلا لكونهم مسيحيين. ويمثل على ذلك بحادثة هجوم السلطان على قارا، ـ وهي قرية قبلى حمص، غالب أهلها نصارى،

---

(1) راجع في هذا الصدد: ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص. 268؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، 1938، ج 7، ص. 147.

(10319/1)

وكانت، آنذاك، محطة للقوافل التجارية على الطريق بين حمص ودمشق .فيعلن، دون تعليل، عن دهشته للقسوة التي اعتمدها بيبرس مع أهل قارا، حيث قتل العديد منهم بلا رحمة أو شفقة، وسبى أطفالهم وساقهم إلى مصر(1)، بينما الواقع التاريخي يشي بأن السبب في ذلك يعود إلى تعاون سكان قارا مع المغول، حين غزوا البلاد، وأن أولئك السكان اعتدوا على أهل الضياع المجاورة وباعوا من وقع بأيديهم إلى الفرنج(2)، فقصدهم السلطان عام 664 هـ/ 1266 م، وقتل بعض

(1) R. Grousset, op. cit, p. 630.

(2) المقريزي، المصدر السابق، ص. 533.

(10320/1)

سكانها ورهبانها وعفا عن الباقين بعد أن شفع لهم كبير أعيانهم أبو العز النصراني، المعروف بـ«ريس قارا» وفق ما ذكر المؤرخ المعاصر ابن شداد(1)، معللاً استجابة الظاهر بيبرس لشفاعة الأخير بما لقيه منه من حسن الضيافة قبل أن يتسلطن، مشيراً إلى أن السلطان

»أفاض نعمه عليه، وأباح له ما كان محظوراً عليه«، وجعله »شجى في حلق أعاديه« (2).

---

(1) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، فيسبادن (ألمانيا، 1983، ص. 293.

(2) المصدر نفسه، ص. 293.

(10321/1)

... ويصر المستشرق الفرنسي على الإمعان في تشويه صورة بيبرس حين يعتبر مبادرة السلطان إلى إحياء الخلافة العباسية شراً وبلاء على الإنسانية، لأنها ـ في نظره ـ أمنت الشرعية الدينية للـ»القاتل«، و»أضحى العبد القديم سيداً للأمبراطورية الإسلامية«(1). فهل جلب إحياء بيبرس الخلافة »الشر والبلاء على الإنسانية« فعلاً؟

... من نافل القول إن إحياء الخلافة العباسية في القاهرة أفاد منه بيبرس فوائد جمة، ومنها: إضفاء شرعية دينية على دولته ما كانت لتكسبها من أي مصدر آخر، مما عزز

---

(1) R. Grousset, op. cit., p. 610.

مكانته وهيبته في وجه أعدائه الكثر في الداخل وفي الخارج، وأضحى المسلمون، في كل مكان، ينظرون إليه على أنه حامي الإسلام، كما أن وجود الخليفة العباسي في القاهرة، وهو مصدر السلطات في العالم الإسلامي كله، يجعل السلطان بيبرس في مرتبة أعلى من سلاطين البلاد الإسلامية الأخرى(1)، ولا سيما أن الخليفة الجديد الذي أعلن باسم »المستنصر بالله« لم يتردد في تقليد سلطانه الدنيوية »وما سيفتحه من أيدي الكفار« (2)

---

(1) St. Lane Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1936, pp. 264–269.

(2) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ص. 100 ـ 102.

.

... وإذا كان انتقال الخلافة من العراق إلى مصر قد اندرج في مصلحة بيبرس وخلفائه من بعده، فإن هذه الخطوة

بالذات أشاعت جواً من الاطمئنان في أوساط المسلمين كافة بعد أن هالهم سقوط بغداد وتخريبها، وشغور مقام مرجعيتهم الروحية، وهو أمر لم يعتادوه منذ وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم –، مما خلق بلبلة واضطراباً في صفوفهم. وفي ذلك يقول أرنولد (Arnold))1):» من الصعب تقدير الارتباك الذي أحس به المسلمون عندما لم يعد هناك خليفة تستنزل عليه

---

(1) توماس أرنولد، الخلافة، ترجمة جميل معلى، دمشق، 1947، ص. 44.

(10324/1)

بركات الله، ولم يسبق في تاريخ الإسلام حادث مثله «. ... وكان من الطبيعي أن يتسابق الحكام المسلمون على الفوز بشرف نقل الخلافة إلى بلادهم. ومن هؤلاء الملك الناصر يوسف الأيوبي، صاحب حلب ودمشق (ت. 658 هـ/ 1260 م)، الذي سعى جاهداً لإقامة خليفة في بلاد الشام. لكن الأحداث الكبار التي عصفت بالشام، بسبب الهجوم المغولي عليها، أجهضت هذه المحاولة(1)، وظل منصب الخلافة شاغراً ثلاث سنين ونصف سنة إلى حين

---

(1) مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بلوشيه، باريس، 1919 ـ 1929، ص. 93.

(10325/1)

توافرت لبيبرس فرصة إحيائها في القاهرة، ليس لتأمين غطاء ديني تحتاج إليه دولته الفتية فحسب، بل أيضاً استجابة لمشاعر جمهور المسلمين، خاصة وأن هؤلاء كانوا، في ذلك الوقت، لا يزالون متعلقين بأهداب الخلافة، ناظرين إلى هذا المقام الديني الرفيع نظرة اعتبار وإجلال، كما كانوا يترقبون، بفارغ الصبر، بروز من يعمل على تحقيق فكرة إحياء الخلافة وإعادة الشرعية الدينية إلى نصابها، وهو أمر لم يدركه المستشرق الفرنسي.

(10326/1)

... ويشدد غروسيه على إجراء مقارنة بين بيبرس وخلفائه أو »قياصرة المماليك«(1) ـ حسب تعبيره ـ وأسياد الفرنج في الشام. فثمة »حيوانات مفترسة،

ومتوحشة« في مقابل بارونات ينتسبون إلى جماعة حضارية مرهفة المشاعر والأحاسيس. ويصف الأسياد الفرنج بأنهم »لبقون شعراء مولعون بالفنون مشترعون ليبراليون وفصحاء« (2)، مفاضلاً بين نموذجين اثنين: أحدهما هو »بيبرس هذا الحيوان المتوحش«؛ أما الآخر، فهو »بوهيمند السادس كونت طرابلس الوقور العزيز

---

(1) R. Grousset, op. cit., p. 615.

(2) R. Grousset, op. cit., p. 6.

(10327/1)

النفس«(1).

... ويتابع غروسيه حملته على بيبرس، فيأخذ عليه عدم احترامه للعهود والحنث بالإيمان، متهماً إياه بأنه خاض ضد الفرنج »حرب إبادة«(2)، مجارياً بذلك ما سبقه إليه ميشو (Michaud)(3) الذي لم يتردد في قدح بيبرس بسيل من الشتائم أقلها »أنه بربري دعم حكمه بالرذائل، وأنه العدو الأكبر للمسيحيين (الفرنج) «(4)، متجاهلاً أن حرب المسلمين مع هؤلاء كانت حرباً دفاعية

---

(1) Ibid., p. 657.

(2) Ibid., p. 616.

(3) M. Michaud, Histoire des Croisades, Vol., IV, Paris, MDCCCXXII, p. 440.

(4) Ibid., p. 356.

(10328/1)

هدفت إلى إخراج المحتل الأوروبي من بلاد الشام، وأن الفرنج لم يترددوا في ارتكاب المجازر، ليس في حق المسلمين واليهود في بيت المقدس فقط، بل في حق مسيحيي البلقان والقسطنطينية نفسها، مما جعل المؤرخ اللاتيني المعاصر وليم الصوري(1) يبدي استياءه واستنكاره لسياسة «القتل المنظم» التي انتهجها الفرنج، والتي لم ينج منها الأطفال والنساء والعجزة، فوصفها بـ «المذبحة المخيفة». كما أن ما شهر من مجازر رافقت حروب الفرنج في

---

(1) وليم الصوري، تاريخ الحروب الصليبية، تعريب سهيل زكار، بيروت، 1990، ج 1، ص ص. 436 ـ 437.

(10329/1)

الشرق الإسلامي جعل أسامة بن منقذ(1) الذي عرف الفرنج عن كثب، في حالتي الحرب والسلم، ينعتهم بأنهم »بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال ليس غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل«.

صورة بيبرس في ميزان الاستشراق الفرنسي المعتدل، كلود كاهين وآخرون

... في مقابل صورة بيبرس السوداوية عند غروسيه، تحظى صورة السلطان بمزيد من الإنصاف والاعتدال في كتابات كلود كاهين. فقد اتسمت دراساته عن الإسلام بكثير من الاحترام والتقدير من قبل الباحثين في تاريخ العرب

(1) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، بيروت، 1988، ص. 121.

(10330/1)

والمسلمين وتراثهم الحضاري. ومنذ عام 1955 م، أسهمت دراساته في لفت الأنظار إلى ضرورة الاهتمام بدراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للعالم الإسلامي،

بعد أن كان اهتمام الباحثين محصوراً في التاريخ الوقائعي للمسلمين. وكان من نتائج ذلك انعقاد المؤتمر الأول للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي الإسلامي في لندن عام 1967.

... ويعتبر كاهين من أكثر مستشرقي جيله معرفة بالإسلام ديناً ودنيا. فقد انخرط، باكراً في قضاياه المختلفة، طالباً متدرباً، ثم أستاذاً وباحثاً ومشرفاً على رسائل وأطاريح عديدة، ما جعله من أغزر

(10331/1)

المستشرقين إنتاجاً في مجال الدراسات المتصلة بتاريخ العرب والمسلمين وحضارتهم. ولعل ذلك ما يميزه عن معاصره رينيه غروسيه الذي تعامل مع الإسلام وحضارته من خارج مناخه الفكري والفيلولوجي والثقافي.

... لا يكفي كاهين، في كتابه "سوريا الشمالية في عصر الصليبيين وإمارة أنطاكية"، الصادر في باريس عام 1942، برسم صورة بيبرس من خلال مظهرها الخارجي فحسب، بل تراه يحرص على التوغل في كنه شخصية السلطان وخفاياه، والوقوف على الدوافع العميقة لمواقف السلطان من الفرنج، معللاً إصراره على قتالهم، وحقده الكبير عليهم، »لا

(10332/1)

بوصفهم مسيحيين أو أجانب، بل لأنهم مذنبون جذبوا بسياستهم وبوجودهم في الشام جحافل المغول الذين كادوا أن يقضوا على العالم الإسلامي»(1).

... يشيد كاهين بما أظهره بيبرس من شجاعة وبطولة في عين جالوت، متابعاً بإعجاب إنجازاته العسكرية في شمال الشام (الاستيلاء على أنطاكية وإخضاع بلاد الأرمن) (2).

---

(1) Cl. Cahen, La Syrie du Nord à l'époque des Croisades et la principauté d'Antioche, Paris, 1942, p. 709.

(2) Ibid., pp. 710–712.

(10333/1)

... وتبرز موضوعية كاهين ورصانته العلمية بابتعاده عن المحاباة والانحياز عندما يشرع في رسم صورة متكاملة لشخصية الظاهر بيبرس، قلما وقعنا عليها في كتابات المستشرقين عامة والفرنسيين منهم على وجه

الخصوص. فيرى أن بيبرس قد حظي بمكانة مرموقة بين رجالات عصره، على الرغم من اعتلائه سدة الحكم على أثر ارتكابه جريمة في وضح النهار (يقصد قتل السلطان قطز)، و»أنه شخصية نادرة في تاريخ الإسلام المتأخر ارتقت إلى عالم الأسطورة «(1).

---

(1) Ibid., p. 713.

(1/10334)

... وإذن لحظ كاهين جوانب سلبية في شخصية بيبرس، آخذاً عليه شوائب خلقية عديدة، ومنها:

... افتقار إلى الذمة، ووقاحة فظة، وعجرفة لا تعرف الرحمة، وجرأة تكاد تلامس الجنون. فهو يرى أن هذه الشوائب لا تقلل من شأن السلطان، فيقرر أن بيبرس كان حاكماً قل مثيله بين أقرانه، وصاحب قرار سريع وحذر في آن، وحس دبلوماسي حاد، ومعرفة تامة بناء وأحكاماً مما عرفه الإسلام في تاريخه الغابر (1)،

---

(1) Cl. Cahen, op. cit., p. 714.

(1/10335)

مشيداً بإنجازاته وبسياسته الحكيمة في عقد الاتفاقيات وإقامة الأحلاف والاستفراد بالأعداء(1).

... وتبدو نظرة كاهين إلى بيبرس متأثرة، في جوانب أساسية منها، بنظرة سلفه دي ماس لاتري(2)، من مؤرخي القرن التاسع عشر. فدي ماس لاتري كان أكثر إنصافاً لبيبرس من غروسيه ميشو، إنه يقدم لنا صورة ناصعة عن السلطان، فيصفه بالحكيم الذي يعرف كيف يتدبر أموره في الكر والفر، ويعرف متى يعقد الهدن ومتى ينقضها. ولا يخفي دي ماس لاتري

---

(1) Ibid.

(2) M. L. De mas Latrie, Histoire de l'Ile de Chypre, Paris, MDCCCLXI, p. 416.

(10336/1)

إعجابه ببيبرس عندما يتبنى ما ذكره عنه وليم الطرابلسي، أحد رجال الدين الدومنيكان في عكا، قائلاً:

... إن السلطان كان باستطاعته، إذا ما أراد، أن يجعل حالنا أكثر تعاسة مما نحن فيه، والله وحده الذي يرحمنا، قد أمسك يده عنا. ولا أحد قادر على منعه من أن يجتاح، بقليل من الجهد، ما تبقى بأيدينا من مدن

وقلاع، مثل صيدا وبيروت وجبيل والمرقب وحتى صور وطرابلس... (1).

ثم يردف قائلاً بأن بيبرس كان »سيد السلم والحرب في سوريا «(2).

---

(1) Ibid., p. 424.

(2) Ibid., p. 416.

(10337/1)

... لا يتردد المستشرق غاستون فييت (G. Wiet) بالموافقة على معالم الصورة التي رسمها كاهين لشخصية السلطان. فهي مقالته القيمة التي كتبها في دائرة المعارف الإسلامية، تحت بيبرس عنوان "بيبرس الأول"(1)، تمييزاً للسلطان الظاهر بيبرس البندقداري عن سميه السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير (ت. 709 هـ/ 1310 م)، يشيد فييت بتنظيم الظاهر بيبرس للدولة على قاعدتي الأحكام والتوازن، منوهاً بفعلية نظام البريد في أيامه، وهو أمر تنبه إليه أيضاً المستشرق الفرنسي

---

(1) E Wiet, art. «Baybars I», Vol. I, pp. 12G. 1158–1160.

(10338/1)

جان سوفاجيه في كتابه(1) الموسوم بـ La poste aux chevaux dans l'empire des mamelouks. وأفصح عن إعجابه الشديد بقدرة بيبرس على الإمساك بالأحداث بثقة تامة، على الرغم من فداحة الأخطار التي كانت تواجهها دولته، فذكر أن بيبرس قام بثمان وعشرين حملة عسكرية، واجتاز حوالي أربعين ألف كلم متنقلاً بين مصر والشام وفي حركته العسكرية ضد أعدائه في داخل السلطنة وخارجها حوالي أربعين ألف كلم، مقدراً له إقدامه على إحياء الخلافة وتكريس سيادته على الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز.

---

(1) نشر الكتاب في باريس عام 1941.

(10339/1)

وتفرد فييت بالحديث عن خاصيتين تميز بهما السلطان، قلما ورد ذكرهما عند الباحثين العرب والمسلمين ممن

أرخوا لبيبرس، ولم يجتمعا إلا في

شخص صلاح الدين الأيوبي، وهما: تحقيق وحدة قيادة

المسلمين، والحرب الظافرة ضد الفرنج. ويتابع أن

عبقرية بيبرس تجلت بتحقيقه فكرة إحياء الخلافة

بعد سقوطها في بغداد على يد المغول 656 هـ/ 1258 م،

وتكريس سيادته على المدن المقدسة في الحجاز.

ويستخلص قائلاً: »إن الإنجازات الكبيرة التي حققها هذا

المحارب الخارق أدخلته على حياته المليئة بالمغامرات في

عالم الأسطورة «(1)

---

(1) G. Wiet, op. cit., p. 1160.

(10340/1)

.

بعض الملاحظات الختامية

... في ضوء ما تقدم، يمكننا أن نرسم خطاً منحنياً لصورة

بيبرس، يقترب من الموضوعية حيناً، ويبتعد عنها

حيناً آخر، يتراوح بين الاعتراف الصريح بإيجابيات

السلطان وبين الإصرار على طمسها والطعن في شخصيته.

فكفة الموضوعية والإطراء ترجح تارة، فيما ترجح كفة

الاحتواء والاستغلال طوراً، عاكسة مؤثرات الميول والتحيز والأهواء، مما يربك القارئ ويجعله عاجزاً عن مقاربة حقيقة صوة بيبرس، وينفذ من ذلك إلى التساؤل عن مكانة الموضوعية والدقة العلمية، وحظوظ الحياد في الدراسات التي يعقدها

(10341/1)

المستشرقون للإسلام، ديناً وتاريخاً وتراثاً، وعن ماهية الخطاب التاريخي الاستشراقي، وعن دوره الوظيفي، وعن مدى ارتباطه بمشاريع الغرب الاستعمارية، وعما إذا كان هذا الخطاب خطاباً إيديولوجياً في لبوس تاريخي يعتمد »المنهجية الغربية«، أو المنهجية العلمية التاريخية التي يتباهى بها المستشرقون، ويدعون إلى تطبيقها على التراث الإسلامي؟

... وإذا استثنيا الخطابات التاريخية لقلة من المستشرقين الفرنسيين العقلانيين المتفلتين من عقدة الآخر/ المسلم، ككلود كاهين وغاستون فييت ومكسيم رودنسون، يمكننا القول بأن الخطاب

(10342/1)

التاريخي الاستشراقي الأوروبي عموماً، والفرنسي منه خصوصاً، ما يزال متأثراً إلى حد بعيد بعبء الذاكرة التاريخية المثقلة بهواجس الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي منذ العصور الوسطى وبخاصة في فترة »الحروب الصليبية«، و»حركة الاسترداد في إسبانيا« (Reconqista) ـ وصولاً إلى نجاح الاستعمار الأوروبي في الاستيلاء على مناطق شاسعة من العالمين العربي والإسلامي، وما أعقب ذلك من مواجهات دامية ضد الاحتلال، أسفرت عن انكفائه ـ مكرهاً ـ عن معظم تلك البلاد.

(10343/1)

... وعليه، فإن الطابع الإيديولوجي يحتل حيزاً وافراً في الخطاب التاريخي الاستشراقي عموماً، وبشكل خاص في الدول الغربية التي ارتبط تاريخها بحركة الاستعمار في الشرق العربي والإسلامي، وتأتي فرنسا في طليعة هذه الدول. ذلك بأن الخطاب التاريخي الإيديولوجي نص في التاريخ، وليس نصاً تاريخياً. إنه خطاب يعمد فيه المؤرخ الإيديولوجي إلى قراءة انتقائية للوقائع التاريخية، معيداً تكييف ما انتقاه وفق رؤيته المنهجية، ما يترك المجال رحباً للتدخل الإيديولوجي

المبني، غالباً، على حد هزيل من المعلومات التاريخية التي

(10344/1)

يختارها المؤرخ بدقة، بحيث تغدو قراءة التاريخ قراءة إيديولوجية سياسية الطابع، وأداة لتسويغ التسلط والنفي(1).

... من هنا، ولدى معاينتنا لصورة بيبرس المظلمة في خطابات بعض كبار مؤرخي الحروب الصليبية الفرنسيين المحدثين، مثل م. ميشو، ورينيه غروسيه، وبول ديشان، ونيكيتا إليسييف، ودومنيك سورديل، وبدرجة أقل ظلامية لدى كل من دي ماس لاتري، وهنري

---

(1) أحمد حطيط، »علمية كتابة تاريخ لبنان بين أزمة المنهج وهاجس التوحيد«، دراسة منشورة في مجلة المرقب، عدد 2، جامعة البلمند (لبنان)، خريف 1998، ص ص. 242 ـ 243.

(10345/1)

لامنس، وجان ريشار، وبول روسيه، فإننا نقع على نظرة انتقائية مجتزأة ووحيدة الجانب. فالقراءة الأولية للنصوص المتعلقة ببيبرس عند المؤرخين السالف ذكرهم، تنم، بما لا يحتمل اللبس، عن حالة من التحيز الظاهر، بحيث تبدو صورة السلطان في كتاباتهم مشوهة تشويهاً يجعلها أقرب إلى صورة الوحش المفترس منها إلى الوصف الدقيق. وتتبين الغرضية الدعائية لهذه النصوص بإظهار بيبرس في صورة سيئة، ليس بصفته الشخصية وبوصفه أنموذجاً لخلفائه من سلاطين المماليك، أو »قياصرة المماليك« فحسب، بل لتشويه صورته بصفته حاكماً مسلماً لا

(10346/1)

يتورع عن توظيف القيم الدينية والأخلاقية في خدمة مآربه الشخصية، وهو اتهام لم ينج من سهامه صلاح الدين نفسه(1).

... وخلاصة القول إن المقاربة العلمية للقضايا الدقيقة والحساسة المتصلة بوجدان الشعوب وبذاكرتهم الجماعية لأمر شائك حقاً. فهذه القضايا تدخل الباحث، عن قصد منه أو دون قصد، في عالم لم يأنس به. إنه عالم تاريخ الذهنيات، حيث تختلط الميول

(1) لويس بوزيه، »السلطان صلاح الدين الأيوبي في التراث الفرنسي من العصور الوسطى حتى اليوم«، بحث منشور في مجلة دراسات إسلامية، عدد 5، بيروت، 1994 ـ 1995.

(10347/1)

والأهواء بالموروث الإتني والعقدي/ الديني والثقافي المتجذر في ثنايا وجداننا والمشاعر، لتطفو على السطح صورة الآخر مشوهة كما اختزنتها ذاكرتنا الجماعية عبر الزمن، وتعجز أدواتنا المعرفية عن ضبط إيقاع حركة التاريخ الحدثي، وإخضاعها لمقتضياته العلمية الصارمة.

وما ذهبنا إليه ينطبق إلى حد بعيد على الخطاب الاستشراقي الذي يبدو بارداً وهادئاً ومتزناً حيناً، ومتغطرساً ومتعجرفاً أحياناً، كما ينطبق على معظم خطابات »علماء الاستغراب« المتسمة بالغضب، والاحتجاج، والاتهام، والتشكيك، بما فيها تلك المتماهية مع الغرب

(10348/1)

إعجاباً واستلحاقاً واستغراقاً.

... يبقى أن نشير إلى أن صورة بيبرس ـ بما هي نموذج عن صورة الآخر، والتي سعينا إلى مقاربتها في نصوص مختارة من خطابات الاستشراق الفرنسي ـ تكشف عن عورات ثقافة بعينها لا ترى أن لهذا الآخر حيزاً من التقدير والثناء إلا فيما ندر، نقول ذلك دون أن نسحب مقولتنا على عموم المستشرقين.

(10349/1)

صووة مغربية للامبراطووية العثمانية خلال القرن السادس عشر نموذج اشكروتي

الدكتور مصطفى الغاشي
كلية الآداب – تطوان – المغرب

1 – في السياق ال!تاريخي والعلاقات المغربية العثمانية : ترجع وقائع جلة "النفحة المسكية في السفارة التركية" ل حلي الكروتي إلى أواخر النصف الثاني من القرن السادس عشر، وتحديدا عام ر 4 ، 1 ، وهى ا انحترة انتي تتزامن مع اف حطاف الدولة العني حدية باتجاه (لش والقوة، كدولة ذات وزن إقليمى .

سياسيا وعسكريا بمنطقة شمال إفريقيا(ا). ول حل الحدث الكبير الذي يؤرخ لهذا المت حطف هو ص حركة

(10350/1)

وادي الخازن خلال غشت ،رد ا، التي تلخص السياسة التي انتهجها الي حديون منذ وصولهم إلى السلطة بالمغرب ، توحيد البلاد تحت سلطة مركزية واحدة! برحنى اخر، القضاء على الأطراف المناهضة أو المنافسة للحكم الي حدي – مواجهة التدخلات اخارجية سواء كانت من جهة الشمال (الإسبان والبرتغال) أو من جهة الشرق (الأتراك العثمانيون). إن هذه القوى هى التى شكلت أطراف الصراع بحوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر(ء). ولا أحد ينكر القيمة الاستراتيجية لهذه المنطقة على مستوى صراع هذه الأطراف . (1) حسر إبراهيم

(10351/1)

شحاته ، أطوار العلاقات المغربية، الإسكندرية، 1 ،ر ا ، مر. 14 لأ . (4) عبد العزيز اشفشتالي ، مناهل الصفا في

ذكر موالينا ال!ثرفما، نحقيق عبد الكريم كريم ، الرباط، ءرر ا، ص 10.

على مستوى اخر، تميزت هذه المرحلة أيضا بوضع داخلي مطبوع بالصرا على الحكم خاصة بعد إعلان وفاة المولى عبد (لله ، وتولية ابنه المتابهل . غير أن هذه المشكلة لا يمكن تناولها دون إقحام دور الأطراف الخارجية التى كانت تريد الاستفادة من هذا الوضع المتأزم سياسيا واجتماعيا : رغبة البرتغال في التدخل (ل حسكري ، وجهود الأتراك (ل ظ نيين

(10352/1)

لضم المغرب لإمبر"طوريتهم ، خاصة بى حد تحرير تونس من يد الإسبان ، وإبداء الرغبة في تبني قضية المتوكل المطالب بى حرلثر المغرب. إن المسألة هنا ليست مسألة وَحاطف مع المتوكل ، وإنما هى تتجاوز ذللث إلى وضع المغرب كله في استراتيجية الأتر"ك (ل ظ نيين التودحمية. إن ضم المغرب بـ حنى تأمين الحدود الغربية للإمبر"طورية الشاورحة، ورسالة تهديدية إلى الإسبان و"لبرتغال لدف حهم إلى نوع من)ل حمل الدبلومالمي ، أي

التقارب ، وربط (ل حلاقات السياسية، إخ (،). على مستوى الأحداث ، فقد جاء نزول البرتغال بأصيلا وض حا

(10353/1)

استثنائيا سوف يؤدي إلى الالتفاف حول الي مديين ضد البرتغا أ، وحليفهم المتوكل . وقد وصف الإفرايما هذه الحالة بقوله : "ولما سلى حت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من (ل حرب وال حجم . .. حملتهم الغيرة الإسلامية والحمية الإنسانية... وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير والدعاء له بالإسلام والنصهر واشكين ؟) (يقصد عبد الملك)("). وإذا كان الانتصار الذي حققه المغاربة في ص مركة و"دي الخازن قد عزز موقع المغرب بالمنطقة، فقد دشن المغرب عهدا جديدا هو عهد أحمد المنصور الذهبي . وقد أورد الفشتالي نصا يصف فيه ملاح هذا

(10354/1)

(ل حهد الجديد : "لما كانت وف حة وادي الخازن ونصر الله دينه ، يهبت الكفر وأهله ، واستوقف الأمر للمنصور،

كتب إلى صاحب القسطنطينية (ل حظحمى وهو يومئذ مراد بن سليم)ل حثماني ، وإلى سائر مماليك الإسلام المجاورين للمغرب يى حرفهم بما أذحم الله به عليه من إظهار الدين وهلاك عبدة الصليب واستئصال شأفتهم ، فوردت عليه رسل السلطحان مراد (ل حثماني وسائر البلاد الأخرى،)(د). (لأ) عبد اخكر؟)ص ب ، ا!لغرب في عهد الدولة السعدية، فحيصاء، رر ا ، صصم ور. رر–ا ه ا (،) محمد ()زحر(خب محمد، نزهة الحادي لملوك القرن

(10355/1)

الحادي ، خقيق هوداءط، بدزت تارخا، كل ط. ،د ا. (4) ((عشخلالإ، مصدر سالق ، صص ط. 4 ر–ه ء.

وإذا كانت ص حركة وادي الخازن استطلاعت أن تحقق أطمغرب ما حققته على المستوى السياسي وال سسكري والدبلومامي ، فإن غزو السودان والتوسع على حسابه حقق للمغرب الغنى الاقتصادي الضخم : "وها هم سادتنا الأشراف خلد الله ملكهم ب حدما حضنوا أرض المغرب ونفوا عنه رجس الكفر، امتثلواً)أسمنة... فيدخلون بلاد السودان يملكونها ويستولون على سائر أقاليم الأرض ،

ويملكونها منهم بنص حديث المهدي الذي يملك الأرض ويطحهرها من ظلم

(10356/1)

جبابرة الأعاجه (وجورها يرضي بها ساكن السماء وساكن الأرض "(،). أما الفشتالي ، فيقول . "وهو اليوم – أيده الله – لهذا (ل حمهد وافر ال حدد و"لمدد مرالثر الجنام بما أتيه له . . . وحادن الذهب على أ أشوسع في الإنفاق الذي لا يخعثى عيلة ولا فغر("(6). ا، – ملاحظات أساسية حول الرحلة : مما يمكن ملاحظته خلال هذا (ل حهد، أي)ل حهد الي حدي وما سوف يليه ، أن ألرحلة أصبحت تقليدا أصيلا عند المغاربة. وعلى الرغم من توزعها ما بين جلة حجازية، وسفارية، وعلمية.. . فإنها فى الواقع تمثل نسيجا متداخلا. إذ لا نجد جلة

(10357/1)

مغربية لا تتداخل فيم كا هذه الأهدافي كليا أو جزئيا. هذا، فضلا عن التواصل الثقافي وال حلمى والروحى الذي تمثله بين المشرق والمغرب (،). رل حل رحلة الكروتي هى

أحد اشاذج على هذا المستوى (جلة سفارية): "ثم دخلنا تونس وزرنا فيم لا أبا محمد سيدي عبد الله بن علي. .. وززلا ابن عرفة، ابن عبد السلام وسيدي ماضى صاحب الوالي الصاع سيدي أيى الحسن الشاذلي . . .، إخ "(ر). "فأول من لقيته من أرباب الرحاب وركاب أعواد الكراسي والمنابر فاضل الأفاضل وكابر الأكابر الشيخ (ل حالم الحدث أبو عبيد الله محمد بن جي حفر رحمه

(10358/1)

الله (،) عاب اشعرزقي ، النفحة المسكية في السفارة)يرجة، ف حة حجريه ، كل ط. (د (. (ر) ضصشتافي ، ا!الصدر السابق ، مل . 6 ر ا . (هـ) إبراهيم حركات ، ايبيارات السياسية والفكرية بالمغرب ، اشيصاء، لأ "ر (، س ط. 15 و (ر) علي اشئهرويى، النفحة، ءط. 41 .

ف حالى قصد لقائه والأخذ عنه وقدمته وبدأت منه ، بهنت من ملفوظ حامده ومحفوظ محامده . .. سلى مت عليه تصانيفع كخيرة وأجازفي ، بهتب لي بخط يده ،)(5().

وعلى هذا الأساس ، فإن تزليب الرحلات انطلاقا من)ل حناوين التي تحملها أو من الأهداف التي قامت من أجلها

(10359/1)

لا تفي بالأغراض المطلوبة، أي التزليب الدقيق بالاعتماد على المضمون (أي مضمون الرحلة)(الا). (ظ لك نجد مثلا جلة الكروتي جلة علمية أكنر مض كا جلة سفارية. فمنذ اجتيازه حدود المغرب ، فإن حديثه كان مركزا بشكل كبير على من لقيه من ال حلماء والمشاير (أصذين أخذ عنهم ا : "قدوة علماء الإسلام أبو عبد الله ج ت عبد ا اسملام ... أخذت عنه شرحه لكتاب ابن الحاجب الفروعي ، فقرأت بهتب لي وأجازقي غير ما مرة بهتب لي بخطه وس حمت عليه بمنزله جميع كتاب "الموط إ" (ب ما(مالك في مجالس كثيرة،)(ء(). وإذا كانت رحلة اشكروقي

(10360/1)

وَحكس اراءه ومنظوره وطريقة نظرته (ذشياء، فإن)ل حناصر الأساسية التي أثرت في شخصه : اجتماعية – ثقافية – دينية، إغ ، تربهي ذلك ، وإن كانت ال حطحيات (أجيوغرافية غير كافية أو ون حدمة.

فالدكتور محمد حجي ب حرف الكروقي بكونه جزوليا بكريا وعالما أديبا. كان يزاول التدريس بزاوية

تمكروت (لأ1) إلى أن استدعاه أحمد المنصور الذهبي لمهمه دبلوماسية إلى (أمجاب (ل حالي دون أن زحرف مضمون الرسالة ا أضي كلف بحملها، ودون أيضا أن تكون للتمكروقي أية مقدمات أو خبهرة بهذا الميدان .. . واش حلة ف حكس ذأطث . فطابع الخوف

(10361/1)

والتردد والإحساس بالاغتراب تميز شخصسية الكروثي خلال هذه المهمة(،،). وقد توفي عام لأه ه ار/ ،ر–لأرد ام . (5لا) نفسه ، كل ط. را، تبر محس . ار. ((1) ظكر اجمودة ي هدا الإضاز إف أضررحتا : ه ،.. دى ا دءكا 397) ذ 9لأ119،،5ى 2؟م +شه ،1 ظ 8 ىء لأ+ا،س) ،أكامء لمالم ا+ ء،"+)9لمالملأ دع عء لم ،"7 ع ٪11 أ،لأ ،م (م 2+" م 3 خ 4) لأرر ا ،لماء 2 ،،ءم ه ام ه + .؟ع ا،خ إد م)،الأ*–ع ا، 7* *لمالأ فأء،9ءم آ (ء ( ) عاب اشكروتي ، النفحة، ء". ، ، . (ر 1) محمد حجى، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد الدولة السعدية، ظ

(10362/1)

ا،، ،رر(، ءط. ، *لأ. (،ا) ص إلراهيم ستعحاتة، ا!لرجع السابق ، ء–. ءو،.

وإذا ما عدنا إلى الرحلة، فإن ملاحظات إشكالات تفرض نفسها في هذا (لمقام : أولاهما – وما من مجث في ذلك : أن الرحلة قد زحرضت للبتر والضياع فى)ل حديد من الصفحات . والذي يزكي هذا الاعتقاد وجود الأماكن ألفارغة وضع فيم كا حذف . "فأصخت الأذن عند ذلك بحسن الاستماع إلى محاسن ا اسمماع فغنوا وأطربوا بألحانهم البديى حة وأوتوا الأمداح النبوية وا أغصائد المولدية (حذف) هو ألشيخ الماهر وحرك من السكون (ب امد"(لأ(). "ونحن وراءهم نسير طربا

(10363/1)

كمالغصن المياد، واف حطحفنا رابرحين متنزهين في صهو"ت الجياد فكان عبدا ورحيدا مجديا (حذف) يهدينا نوره يعمي حى بين أيدينا)،(،(). ثانيا : إن نسخة "النفحة" التي تحكي وقائع جلة و 4 لأ(والتي جاءت منها نسخة ا أطبم حة الحجرية (ل حروفة عندنا اليوم كان تاريخ نسخها عام ،،16ا. وفي الصفحة ألأخيرة . "انش – بحمد الله زحالى وحسن عونه – على يد كاتبه محمد بن

عبد الرحمان ا اصدرعي ... وكان الفراغ منه بـ حد (ل حصر من يوم الأحد التاسع وال حشرين من صفر عام ،14 اهـ " الذي يو"فق)161ام (16). وجاء أيضا حول هذه النسخة

(10364/1)

بأفما "النسخة التي صجم منم كا هذا الكتاب المسمى بـ "حالنفحة الملسكية في السفارة التابهية". هذا الكلام يدفع إلى الاعتقاد بأن الرحلة المتداولة حاليا هي عمل (مصجم) عن نسخة ترجع إلى عام ،161، والتي فـ حكس إلى حد ما طبـ حة)ل حلاقات المغربية (ل حثمانية بـ حد عام "ه 16 . إن هذه التساؤلات انتي طرحها الدكتور حسن إبراهيم شحاتة يربطاها بطحبب حة (ل حمطيات التي يقدمها صاحب "النفحة" عن ألدولة (ل حثمانية ومجتص حها والتي – حسب اعتقاده – لا زحكس طابع ال حلاقات المغربية ا اظ نية خلال النصف الثاني من القرن السادس

(10365/1)

عشر(،ا). ومع ذلك ، وفي غياب الوَنائق التي تنفي أو

تربهي هذا الاعتقاد بأن ما جاء في نسخة) 161 من

ورحطيات (14) عا اط اظع ص وثي ، النفحة، كل د. 1 ، 1 .

(، 1) المصدر نفسه ، كل ى. 6، 1. (ر () المصدر نفسه ، مل

. رلأا . (14) –ء ذس اسه ا شحاتة، مرجع سابق ، صص ط .

15 لأ–لأا ر/ر ر ه –لأ ره .

حول الدولة والمجتمع (ل حثمافي إنما هي زحكس شخصية

اشكروقي في أبى حادها النفسية والاجتماعية.

فاشكروتي جاء به أحمد المنصور من مجتمع صحراوي

ليقوم برحلة سفارية مرت كلها في جو نفسي مصحوب

بالاغتراب والخوف والتردد، إغ

(10366/1)

. ولذلك فلا نستغرب من حالة الاقتضاب التي تطبع

الرحلة. ثالثا : إن الأحلومات التي جاء جلا الكرويما في

"النفحة" ليعت كلها من وضي حمه ، بل سالمها من عند

كل من ابن عبد ربه وأبي البقاء خالد بن أبى خالد(را).

رابى حا . إذا كانت رحلة الكروتي من حيث هي رحلة

سفارية ف حكس الاتصالات بين المغرب ر(ل حمثمانيين

على الرغم من ظروف الأزمة والصر"ع والمد والجزر التي

كانت تميز هذه ال حلاقات ، خاصة وأن هذه الأخيرة لا زالت في طور التشكل ، ولم ف حرف ب حد وضي حا نهائيا – عدو أو حليف –، فإنه من خلال اش حلة لا يمكن أن زحرف

(10367/1)

بالضبط طب حة الرسالة التي كان قد ب حث بها أحمد المنصور إلى السلطان مراد ولا حتى الأسباب الداعية إلى ذاسك. وإذاً كانت السرية ميزة أساسية للرجل الدبلوماسي ، فإننا لا ذ حمتقد أن اشكروتي قد تسشر عن ذكر مضمون الرسالة التي كان يحملها بما تقتضيه مهام الدبلوماسي ، باط لأنه كان فقط "مب حوثا)، و"حامل رسالة" ولم يكن سفيرا بادحنى الذي تحمله ألكلمة. وهذا ما ف حكسه الرحلة من بل (يغ كا إلى فماتها، إذ لا جض الحديث عن هذا الموضوع إلا حيزا ضئيلا أمام م ال حلومات الواردة حول الزيارات ر(ل حلماء والمشايخ الذين

(10368/1)

لقيهم ، إغ . "ثم في اليوم الثالث من إقامتنا في المنزل الذي أعد لنا، أذن لنا في الدخول على السلطان وإدخال

الهدية عليه فدخلنا عليه في إيوانه .. وناولنا كتب الخليفة السلطان مولانا أحمد الشريف الحسني ، وهدية عيمة مكافأة، وبى حثوا ورحنا رسولين مض كم "(5ء).

رب حد انتهاء المهمة : "فلما حان وقت السفر وتيسر، أذن لنا في الدخول على ا اسعلطان للوداع ، ودخلنا عليه في القبة التي سلمنا عليه فيها يوم وردنا على (ل حادة كسانا كهعوة جيدة رفي حة قبل دخولنا إليه ، فسلمنا عليه وخرجنا وناولنا أجوبة كتب الخليفة

(10369/1)

السلطان مولاي أحمد الشريف (ر ا) عاحب اخ سسروتي ، النفحة، مر. 4 لأ . (5ء) المصدر نفسه ، مو. 51 (.

؟هدية عظهيمة مكافأة وبى حثوا ص حمنا رسوللإت منهم فخرجنا في حفظ الله وبهبنا السفينة عشية يوم إلأحد سابع ف حبان من ال حام المذكور "(اء). وفي الأخير، نشير إلى أن الرحلة ف حكس ظروفا صي حبة رافقت الكروتي طيلة سفره بحرا مرور" بمجموعة من المدن ألجزائرية والتونسية و"لليبية حتى القسطحنطينية، وهي كلها تشكل مراحل أساسية داخل الرحلة.11، –

الدولة العثمانية من خلال اشكروقي : تجدر الإشارة قبل التفصيل فيما قدمه

(10370/1)

اشكر؟تي ص ت الدوأصة (ل حثمانية من ص حطيات إلى أن كل ما قدمه هذا الأخير يتميز بالاختزال والإيجاز. والواقع أن هذا ألحكم يسري على أغلب الرحلات المغربية إلى داخاط أراضي (اصدولة ال حثمانية وبشكل متفاوت زمانيا ومكانيا. فهل مرد هذا إلى قلة))م هتمام المغربي بأحو"ل الدولة والمجتمع ال حثمانيين ؟ أم عدم الإحساس بالغرابة أمام الاخر (ل حثماني ؟ أم لأن موضوع الشرق من صميم ألاهتمام الغربي أو ما يسمى بالاستشراق ! إن هناك اختلافا كبير" على هذا المستوى بين كتب الرحلات المغربية بهتب الرحلات الأوربية. فإذا أخذنا

(10371/1)

على سبيل المثال فقط الرحلات الفرنسية إلى الإمبر"طورية العثمانية خلال نفس الفترة، فإننا نجد مادة غزيرة ومفصلة عن المجتمع والدولة والدين

والحضارة. مدعمة بمجموعة م! اللوحات التي تجسد هذا المجتمغء و). إن هذا الحكم لا يقلل من قيمة الرحلات المغربية ومساهمتها في اكحريف بالشرق ومكوناته الاجتماعية خلال الفترة الحديثة، و"لكروتي مثير اصلانتباه على هذا المستوى. (1 ر) المصدر نفسه ، ص ى. ره ا . (4ء) الخر الأطرزحة المار إليها سالما :)1)71* –ع 11 7 كر حه لمالأ دأ+،9لأكا أ ى ى 4ء لأر 7 ع ، دإ أ،خ 2 دع ا لأم

(10372/1)

ع 97،) ذ 9ء9(،15()) ى 2 إ 3"سح ،1 ع ه طماعء 9أ،سا 1010، 7 ، ع 11 82" ح لأخ أ د أ ه 2) ، 10 أ شا . "ر ، دكا 1)خ أد

، – نظام الحكم : إن بداية حديث "النفحة" عن بعض ملاح نظحام الحكم العثماني جاء منذ بداية الرحلة عند حديث التامكروقي عن السلطان العثماني الذي يمثل قمة الهرم السياسي : "ولما وردنا على السلطان – أيده الله – ، وجدنا عنده رسا، ال حثمانيين التركملك بلاد الترك وا إوم سلطان البربن والبحرين)،(لأء). وإذا كان اشكروتي قد بدأ بالأوصاف السياسية والألقاب ، فلأن ذللث مزلبط بالرف حة الجغرافية

(10373/1)

الشاس حة التي يحكمها السلطحان ال حثمافي والناتجة عن التولي حات ... كما أن هذه (رزحة التي يحكمها السلطان يى حرفها الكروقي ببلاد الروم وعاصمتم كا القسطنطينية. هذأ، على الرغم من كون)اصدولة (ل حثمانية كانت تشمل)ل حديد من المناطق والشي حوب الأوربية والأسيوية والإفريقية على أن الكروقي يقدم ذلك باعتباره مصدر فخر واعتزأز بالنسبة لاحمثمانيين : "وقسطحنطهينية قاعدة بلاد الروم وكرسي مملكتهم ومدينة قيصر وما زال من بها من المسلمين ينتسبون إلى الر؟م ويحبون هذه النسبة ويؤثرونها حتى أن الخط الجيد عندهم يقولون

(10374/1)

خط رومى"(،4). وعلاقة السلطان برعيته –كما تقدمها "النفحة،) – هي علاقة حب واحترام تصل إلى مستوى التقديس : "ولسلطهانهم في قلوبهم محبة عظهيمة نجد كلإ جمن الرعية من المساكين الذين لا يعرفون السلطاان إذا أكلوا طعاما يدعون للسلطان ويطلبون من

الله صلاحه وبقاءه . وكذلك سائر أهاط تلك البلاد في أسواقهم ومسماجدهم الخفاء يخطحبون بخطب فصيحة.. . ؟إذا اقترب دخول الإفام قام رجل مض كم يقف ويتكلم بكلام طويل بلسان الترك – الله يى حلم – يدعو لسلطانهم ويذكر مآثره وماثر سلفه ويدعو لهم)،(لأء). وبخصوص ولاية ا إحهد،

(10375/1)

فإن الكروقي لا يشذ عما نجده في الكثير من المصادر)ل حربية والغربية؟ كما أنه لا يضيف جديدا، ويبقى انتقال الحكم من السلطان المتوفى إلى ولي (ل حهد مزلبطحا بقتل وإراقة دماء الإخوة الذين قد ينافسونه في ألحكم : "وإذا (لأو) علي اظكر:يى، النفحة، ءط. ر. حلات ا أتحرت اشسادس عشر قاء اشحهلطاد ستجمات (أتحالوفي لامشدال اف "سلطان اش زبر)، لكقط "بدستماه ()ي هلاج "، أي إصراطوز األإسلاج (الطر برلار نوير، إستانجرل وحغهارة الخلافة الإسلاية، ترحصة رصواد عاب ، ،"ر ا ، كل ط. 5،). (، 4) على اشكر: في ، النفحة، كل ط

(10376/1)

. ر 4 . (لأء) المصدر نفسه ، صصر. ، 15–ده 1

مات والدهم ، أخفى الوزير موته وب حث إلى المدينة التي يكون بها ولي)ل حمهد فيقدم المدينة ليلا ويدخل من باب البحر فيقتل إخوته تلك الليلة حتى الحوامل من نساء والده لا يؤخرن حتى يلدن ويخرجهن غدا مع والده مكفنين ويدفغهن فينفرد بالحكم والملك من غير منازع "(،ء). إن (ل حطحيات التى يقدمها الكروتي حول السلطان (ل حثماني تتميز بال حمومية ولا تفصح عن صورة واضحة. فإذا كانت الصورة التي يقدمها الكروقي عن السلطان هي صورة الفخامة ر(ل حمظمة كما تظهر ذلك الألقاب و"ل حلاقة

(10377/1)

بالرعية...، فإنها أيضا صورة دموية على اعتبار أن قتل الإخوة هو أحد أهم أسس الحكم في النظام)ل حثماني . في (ر"قع أن اشكروقي بخيل في ص حطياته حول السلطمان . غير أن السلطان ليس كل شيء قي نظام الحكم

)إحثمافي . ف حلى الرغم من مركزيته ، فإن الصورة التي يقدمها الكروقي عن نظام الحكم)ل حثمافي هي دولة

تقوم على النظام والأجهزة والإدارة. في حد السلطحان ، يأتي الصدر الأعظم الذي هو بمثابة الوزير الأول . غير أن الوظائف التي يشغلها بتفويض من السلطان في حل منه هو أيضا سلطهانا بدون لقب أو بدون تسمية، وما يقدمه

(10378/1)

اشكرإقي حول الصدر الأعظام يوضح ما ذهبنا إليه : "يكون الجميع على الوزير الأعظم في منزله هو يفصل أمور المملكة ويمضجها وَلصدر عنه أمورهم كلها، وسياسة مملكتهم مقررة بعدة قوانين مضبوطة بضو"بط مكتوبة عندهم ية حمها الوزير ويفتي فيها ولا يحتاج أن يشاور السلطان ولا يطدحه إلا على أمر مهم "(رو). فالصدر الأعظهم يتمتع إذن بامتيازات خطيرة تخوله الحسم في مختلف القضايا السياسية والاجتماعية والمالية، إغ . (،ء) ا!الصدر نفسه ، ملى. 6،(. لقد عرلى هدا الموصوت لى"خطاج قتل الإحوة،) 9 يؤءط اأء9 لمسور لرلا(ترج ى هدد

(10379/1)

القاعدة على أعساد (اعمكلطاد محمد انعارممب : "وأي واحد س ألسائي تسلل! له اشسلطة جق شه أر يقتاى إحوته ، ودأك أصلاحتماط سطام اجمالم ". رص حطج (إحلماء مجيزش د دأك ، وندا وحليهبم أد ب حملوا طبقه . بهاد أصا – هدا انقالور مدأ مديما س حهودا، هو أد موت واحد أز اكثر س (اشاس ؟فضاى من أد يترك ال حالم أطفوس (إستانبول وحفهعارة الخلافة الإسلامية، مرجع سابق ، صصر. 61–64). إر هدا اظوصوث ، وط اس عل! مما قياى حواصه ، مإت مسأنة قتاط الإخوة ني تهتحلأظ ط قانولا زحى تضيقه ... مالمصادر (ت ظ لية 11 تقدج أدطاء ال حلطء

(10380/1)

(الممتي) الدين أمتوا ي هدا الموضوخ ، وَ 1 تقدم لصا ي هدا الزعلآ. (رء) علي اشتهر"ني ، مل . ،15 .

وإذا كان للصدر الأعظم سلطة مطلقة، فإن باقى الوزراء أو رجال الدولة هه ا تحت تصرفه المباشر. ويقدم لنا اشكروقي هذه الشخصيات بشكل تراتبي في إحدى جلسات الديوان (*ه 7 أ") : "ثم أمين بيت المال يى حرض عليه مسائل ، واكه "دفتر دار"(،ء). إن "الدفتر دار" هو المسؤول عن الشؤون المالية، ويأقي في المرتبة الثانية

بـى حد الصدر الأعظام ، وتحت إمرته دفتر داران آخران يساعدانه . وفي موضع اخر من "النفحة"، يتحدث ألكروتي عن

(10381/1)

باقي عناصر أجهزة الدولة الرئيسية والكيفية التى يدخلون بها على السلطان : ". .. وقاش الرملي أرفع و"ثبت من قاضي الأناضول . أول من يدخل على السلطان هذان القاضيان)،(ر 4). "ثم يؤذن للوزير الأعظم والثافي والثالث فيدخلون بعد دخول قاضي الرملي .. . والأناضول. .. ثم زلميى الكتاب وزسى بيت المال ولا يدخل غير هؤلاء ولا يرى الحسلطان غيرهم "(5لأ). غير أن هؤلاء لا يدخلون بشكل جماعي ، بل بشكل فردي في نظحام لا يخرقونه وهو ما ب حبر عن الانضباط والنظام والصر"مة. "يدخل كل واحد مغ كم على فرده. . .، ثم إذا دخلوا على

(10382/1)

العص سلطان لا يجلس أحد بين يديه ، بل يقف وقوف أدب قابضا يده إحداهما على الأخرى كهيئتهم في الصلاة ولا

يتكلم ا"(.الأ). يخمععرمن مجالس الديوان التى زحقد تحت إشر"ف الصدر الأعظحم ، فتحضرها عناصر أخرى من رجال الدولة مثل . زليس الكتاب ومساعدوه . وب حرف هذا الأخير ب "نشانجي "، ويقوم بخغ الأور"ق الركية بطحغراء السنطان : "فما قبله أمره أن يضع فيه علامة السلطان يقولون بلسانهم النشان ، ويقولون للكاتب الذي يضعها نشانجى،،(ءلأ). إنها ارحناصر ا اشي تشكل أعمدة الدولة، يحدثنا اشكروتي عن أصلها وعن ا أسكيفية التي

(10383/1)

يكونون بها. إن ما سيحدثنا عنه اشكروتي هو ما سوف ب حرف (هـ و) المصدر نفسه ، كل ص . 151 . (ر ر) المععدر نفسه ، ءص 154 . (5لأ) المصدر نفسه . (1 لأ) المصدر نفسه . (ءلأ) المععدر نفسه ، صص . لأه ا–، 15 . خ د اشتماحي هو اظصدر الرئيسي شلقواليم ى اشقديمة للإمبر"طوريه زمسؤش تـ ص تـ صياعة قواسيم ى حديدة، وإلى حدش د القرد اشسادس عكتر كاد مجتار دائما س فئة (ل حلماء، ويشعل ما سوو ب حرو بسج تارية انديوار (برط يهوسلآى، مرجع سابق ، كل ى. لأر 1)،

(10384/1)

بـ "الديوشرمة" أو الغلمان الذين تأقي بهم الإدارة (ل حثمانية من المناطق المسيحية قصد ا اشجنيد فى الإدارة والجيش (ل حغمانيين : "السلطان يجيء من بـ حض بلاد الكفار ألذين في طاعته أولادهم ويأقي من ذلك الاف مؤلفة، يضم السلطحان لداره ولديار وزرائه وجنده ما يختارونه من ذلك ويربونهم على الإسلام ويى حلمونهم الكتابة والقراءة ويقولون لى ا "عجم غلمان ،،. ثم بى حدما تتميز عقولهم ويظحهر النجيب من غيره ، يختارون من يروا فيهم أهلية لخدمة السلطان فيثبتونهم في ديوان الجندج فمنهم يكون جند السلطان كله ....،(لألأ).

(10385/1)

وكما هو ملاحظ، فإن اشكروتي لا يتوسع كثيرا في الحديث عن أجهزة ا أسدولة الإدارية ر(ل حسكرية. وهذا ما يحول دون الخروج بصورة واضحة عن نظا أ الحكم (ل حثمافي خلال القرن السادس عشر، خاصة أنه قرن القوة والازدهار. إن (ل حطيات التي يقدمها اشكروقي تكشف لا عن صورة نظام الحكم ال حثمافي ، وإنما عن بى حض

ملامحه إ! في الأخير، فإن الكروتي يلحق بمجتمع القصر فئة خاصة با اسملطان ليس لهم دور غير تسليته . رل حل هذه (ل حادة موروَنة عن الأباطرة البيزنطحيين :

"فيتفرج في اللهو ولذاته وأموره في قصره هو وأهله وغلمانه

(10386/1)

وأناس صغار قصار القامة فيضحكونه ويل حبون بين يديه يؤَقى بهم إليه أينما وجدوا في بلادهل! ولا يدخل عليه ولا يراه غيرهم وغير الوزراء المذكورين . . ."(9 لأً).

4 – المجعمع : يكاد يغيب المجتمع كليا في رحلة اشكروقي ، إذ لا يقدم إلا فقرات هزيلة لا تفصح عن بنية ومكونات وأحوال المجتمع (ل حثمافي .. . فاشكروقي يحدثنا عن نوعين من المجتمع ، مجتمع الأغنياء والأعيان . وقد قدم لنا صورة عنه عند حديثه عن بيت أحد ارزراء الذين استضافه . "يفرشون الفرائعثر الرفي حة المثمنة من الحرير وغيره ، والنار توقد في طرف الفرالق .

(10387/1)

وقد دخلنا منزل رجل من وزراء السلطان وبنط السلطان وزوجته فأضافنا بأنو"ع الأط حمة وألوانها الختلفة وأشربة سكر وعسل مطحيبة (لأ لأ) علي اشكروني ، كل ط. 156 . (،6) المصدر نفسه ، كل د. ر 15 .

بأنو"ع الطيب ومجامير العود والعنبر على المجين واليسار، وماء الورد والزهر والمظ يرلض ط علينا، وهو على فرئ وصفف وسايد الحرير والديباج المذهب المرصع بأنو"ع الأحجار وغيره ، والحيطاان ملبسة بمثل ذلك الحثيء لا قيمة له ولا ثمن ، واشار توقد مع ذاطث كله في البيت ، والغلمان والأعلاج من الجيش والروم وقوفا صفوفا أمامه كاى

(10388/1)

واحد لا يشبه في الحسن والجمال عليم كم قفاطين وأقبياء نحتلفة الألوان 3 تـ الديباج والركاض لباس الواحد لا يشبه لباس الاخر يديرون أمره .. ."(44). إن هذه الفئة المجتي حية حجب "النخة المسكية" تنحدر من "عجم ا غلمان " الذين يربون للمهام الكبرى أطدولة : ".. . فمنهم يكون جند السلطحان كله من الوزر"ء ومن دونهم "()6). ثم مجتمع البسطلاء أو ال حامة المكون من الأتراك

، الذين يزاوأءن الحرف وا أعمنائع ولا بـ حينـون في أي منـصب من منـاصب اأسدو"صة. والملاحظ على الكروقي أنـه يربـط حالة هذا المجتمع بـا أس ضي حية الاقتصادية

(10389/1)

. ". .. إن تلك المدينـة ضيقة المعالق . .. ولو كانـت كثيرة الأمو"ل ما رأيت أحرص على الدنـيا ولا أكنـر جمعا لها منـهم ، يخدم أحدهم من يطحمع أن ينـال منـه أو ص حه وأء فلسا واحدا ويتـب حه ويبي حى في أغراضه ما دام طاص حا فيه ويسافر في خطر البحر ؟البر إلى بـلاد بـ حيدة ويقوده الحرص وأ أطمع ولا عليه في ذلك . وأجمو أهدى لأحدهل! ما يساوي درهما واحدا، قام على بـهبتـه وأخذه بـين يديه جص حا وبـرحله على رأسه زحظيما للهدية وللمهدى . ومن طلب منـه س حروفا حاجة يشتريها يى حطيها اسه ويتـركها عنـده ولو شهرا أو لثمهرين حرصا على

(10390/1)

البيع وجمع المال ! ثم إذا وقع البيع وقدم المشتري وطلب الإقالة، أقالوه لا قي حون منـه ولم بـ حمد مدة ما /

يأخذ الثمن ..."(رر). وعلى اش غم من هذه الوض حية الغريبة، فإن الكروقي بـ حتبر أن الأتراك "س حظحمون الدنيا وعارفو قدرها ومتص حون بها باللباس الرفيع والأكل الموسع . . . ،)(لأر). وقد صور لنا اشكروتي إحدى الحالات التي كانت تميز المجتمع)ل حمثمافي وهي فـ حايش الأجناس والأقليات . "وأما تزوج الحرائر وطلب الأولاد، فهم أزهد الناس في (د لأ) المصدر نفسه ، ص ى. رر –ه ه ا . (،لأ) المصدر نفسه ، ص . 56 (. (رلأ)

(10391/1)

المصدر نفعه ، كل ط. ده ا–،15 . (، لأ) ألمصدر نفسه ، كل ى .)15 .

ذلك! وإنما عندهم الحرائر والمملوكات من بنات الروم ر"لشراكسمة و"لصقالبة والمجوس والمماليك عندهه ا أفضل من أولادمم وأعز بكثير يزوجونهم بناتهم . وحتى السلطان لا يزوثا بناته إلا لمماليك . . ."(رلأ). ونختن الحديث كل تـ المجتمع بهذه الصورة التي يى حرضها اشكروقي عن وضي حية)ل حامة والمكونة أصلا من الترك : "و"ما الترك ، فإنهم لا يدخلون تركيا في جندهم ولا

يثبتونه في ديوانهم ولا يقبلونه أصلا، وإنما يتص حشون في ألمدينة بحرف خسيسة من الحمل

(10392/1)

على ظهورهلى ا على برادث يحطونها على ظهورهم كالبغال : يحمل الواحد منهم ما يحماط الجمل . 00،)(5،).

لأ – قيمة الدين والعلم والعلماء : نشير ي (اصبداية إلى أن الجانب الديني يحتل جزءا كبير" داخل الرحلة . ولا غرابة في ذأصك، ما دام تكوين الكروتي تكوينا دينيا، وشخصيته شخصية دينية. إلا أن هذا الموضوع في علاقته بالدولة ال حثمانية / يتحدث عنه اشكروتي إلا بشكل مقتضب . فأول ما بدأ به هو مذهب الدولة)ل حثمانية ألديني ، وهو المذهب الحنفي : "وأتحينا في هذه المدينة من فيم كا من الفقهاء وال حلماء وأكثرهم حنفيون

(10393/1)

وبى حض من فقهاء مصر الشاف حيين . وأما مذهب مالك، لا ايذكر ولا ب حرفونه ! بهتبه إذا وضي حت هناك، تباث

بـأرخص ثمن ! وأهل تلك البلاد كلها على مذهب أفي حنيفة)،(ا،). ونس أشكروقي هذا كما هو ملاحظ لا قي حلى بالمذهب الديني للدولة (ل حثمانية فقط وإنما هو ب حكس نوعا من تراتبية المذاهب وموقفها من ب حضها (لإحض . كما يتضمن صورة وموقفا من المذهب المالكي داخل المجتمع)ل حثمافي . ولقد جاء حديث الكروقي عن الجهاد أ؟ الفتوحات (ل حثمانية عرضيا تقدم (ل حثمانيين كمجاهدين : "والجهاد عندهم قائم مع الكفار على الدوام .

(10394/1)

يسبون بناتهم (ر لأ) المصدر نغسه . (5،) المصدر نفسه ، كل ط. 156 . (،،) المصدر نفسه ، كل د. ،15 .

؟نساءهم وأولادهم ويجلبونهم إلى أسواق المدن ، والسلطان يرء كل ت بى حض بلاد الكفار)اسذين تحت طاعته أولادهم "(ء،). والأتراك (ل حثمانيون حسب الكروتي كثيرو الذكر والصلاة على النبى : "وب حجبني منهم مبالغتهم في الصلاة على ابي لجلاضد، ويلتفت الخطيب عند ارة على النبى صبله لنله لنه إلى يمينه يواجه من على يمينه من اكاس ويصلي عل النبى لجلاشد

صلاة بليغة بصوت جهير حنين بخشوع وخضوع ثم يلتفت إلى اليسار،)(4").

(10395/1)

ومن بين صور التدين (ل حثماني وإسلامه ما ذكره اشكروقي : "... والمؤذنون من حين يدخل الناس إلى الجامع يوم الجص حة حتى يدخل ام لإمام وهم يقرءون ايات من القرآن وسورا بصوت رقيق حنين مبين مرتل يظان من سلى حهم ولم يرهم أنهم صبيان صغار . . . "(،،) . إن من بين ما يميز الدولة العثمانية تنيمها وَلقنينها للحياة الدينية، وهو الأمر الذي ل! تقم به أية دولة إسلامية من قبل (ره). وإذا كانت رحلة اشكروتي جلة علمية اكثر شها رحلة سفارية، فلأن ذاك ر"جع إلى الأولوية والاهتمام الذي أولاه ارحلم وال حلماء منذ مغادزله

(10396/1)

المغرفي . وعند وصوله إلى إسطحانبول ، تابع الكروتي في إعطا!اء ا الأولوية لما هو علمي أو ثقافي من خلال ألتركيز على الرموز (ل حبرة عن ذلك : كالمساجد

والدارس ؟اروايا. . . إلى غير ذلك: "وبهذه المدينة كهيئة مدارس والزوايا يقولون تجم التكية للواحدة يبنون فيها بيوتا لطلبة العلم والغرباء يطعمون فيها الطعام على الدوام ليلا وفمارا . . . "(،،). وإذا كان اشكروقي يحدثنا عن تدريس (ل حلم بجميع فروعه بإستانبول ، فإنه في الواقع لا يتحدث إلا عن (ل حلوم اك حلقة بالشؤون الدينية : "وفقهاؤهم يدرسون فقههج وا اشفسير

(10397/1)

والنحو واك حريب والبيان وعلم الكلام وغيرط..."(6،). (ر 9) الممدر نفسه . (لأ") المصدر نفسه ، ص . 155 ، (،9) المصدر نفسه ، ص . لأه ا . (د 9) أزرهاد كورعو، "أهمجة المرروث التاريحى ا إحرد (ل ظ ر زلأثيره ي ال حلاقات ال حربية ال حآلية"، مجلة المستقبل العربي ، عدد ،ر 1 ، 5وو ا ، صص ". لأر –لأه ا . ()هـ) على اشئهرزثي ، صر. 151 . (ر") المصدر نفسه ، صر. ،15 .

ومن بين صور الحياة (ل حلمية التي يغدمها اشكروتي عن عاصمة ال حثمانيين حديثه عن ثروة الكتب التي

تزخر بها إستانبول : "و"لكتب بهذه المدينة لا ف حد ولا

(10398/1)

تحصى ولا نهاية لها والخزاين والأسوات مملوءة بها، جلب إليها كتب كاط بلا..."(،،). " – الحضارة والعمران : وعلى غرار ما زحله باقي الرحالة خلال هذه الفترة، فقد أولى الكروقي اهتماما خاصا ل ما/ الحضارة ر(ل حمران بهذه ألمدينة (ل حريقة ذات الهويتين : الإسلامية والبيزنية.. . يقول الكروقي واصفا إياها : "والمدينة (ل حظمى على يمين المرس يسموَ إستنبول ، وهي مدينة مسورة بخارج أسوارها أرباض وديار وبناء متصل يبنون في وسط ماء البحر ويردمونه ويرف حون البناء على رآسها ويسكنون فيه ، والديار متصلة كذأك طال حة جمع

(10399/1)

سفح (ابر متراكمة فوق بـ حضها (لإحض ومرساها قلما يوجد في الدنيا مثله سحة وعمقا واستمكانا من الأريام

كلها. واس اضطرب البحر وعظم موجه أكثر ما يكون قلما يتحرك فيه الماء. .. ،،(ر،). ولقد جال اشكروتي ب حينيه في هذه المدينة فأعطانا وصفا شبه مفصل ل حالمها الدينية والتاريخية. "وفيها جوامع ومساجد عامرة بذكر الله)،(45). أما الحجر، فلا يبني به إلا القليل من الأكابر ر"لأغنياء. أما بخصوص الأزقة وألمنازل "و"زقة هذه المدينة كلها مفروشة بالحجر و"سحة الص "ق وا أصدكاكين ، وبناء ديارهم ضي حيف اكثره بال حود لكثرته

(10400/1)

عندهم)،(لأ 4). فهي كما –يقول اشكروقي– : "لاف حدولاتحصى فيها من كل لثيء مما يذكر من متاع الدنيا وما يقول الإنسان لو اجتمع أهل الأرض على أخذه لوررحهم وفضل عنهم "(ولأ). وهذا ما ب حكس حالة الغنى و"لترف والازدهار الاقتصادي الذي كانت تعرفه الدولة العثمانية خلال هذه الفترة من القرن السادس عشر. (؟،) الممدر نفسه . (ر،) المصدر نفسه ، كل د .5ر. (5لأ) المصدر نفسه . (61) المصدر نفسه ، كل ط. رر. (و،) المصدر نفسه ، كل ط.1ر.

(10401/1)

وبف حل المناخ الشديد البرودة، فإن ألأتراك يلجأ؟ن إلى إيقاد النار لمواجهة البرد ا أتحارس : "وهذه ألمدينة، باط تلك)اسبلاد كلها شديدة ا ألجرد غاية حيث يلجئهم ذلك إلى إيقاد (أشار في كاط بيت على الد؟ام ليلا ونهار" في فصاط ا اشعتاء كله لا يقدر أحد أن يفارق النار في منزأ، يفرشون ألفرائش اش في حة المتممة مح ت الحرير وغيره والنار توقد في طرف الفرالثر"(د،). ولقد أعجب اشكروقي بمسعاجد هذه ألمدينة، حيث أعطحانا ب حض أوصافها وملامحها. فقد حدثنا عن مسجد السليمانية إاصذي شيد خلال 5لأ 14– ،ءد ا على يد المهندلر

(10402/1)

سنان : "مسجد اأسعليمانية (أسذي بناه السلطان سليمان ودفن فيه شبيه تجاية صوفية في بنائها ووضي حها)،(*،). ويرى المؤرث البريطافي برنار لويس أن هذا المسجد يمثل من خلال هيكله وطريقة بنائه مدى تأثير الإسلام اثتركي ، وهو رحكس التقاء كل التيارات اأنحارسية وا أجيزنطاية. ل خ ت على الرغم من ذلك، فإن

)أطحابع أ إحثمافي يلاحظ بصورة إضحة(د،). وإلى جانب هذا المسجد، حدثنا اشكر؟تي عن مساجد أخرى على رأسها مسجد اياصوفيا: "وفيه مساجد وجوامع عامرة بذكر الله . من أعظامه المسجد))كي على باب قصر السلطهان يقوأص ن له

(10403/1)

آية صوفيا هي من البنيان اكدير (اصذي هو من أعجب أبنية الدنيا وأعظحمها. .. كات قبل الإسلابم كنيسة عظيمة عاى الضخامة التي با اتحدس ... قيل إنه بناها أصف بن برخيا وأصد خالة ألنبي سليمان لكون بنائه أشبه ببناء الجن ، و"اجشر يى حجز عن ذلك)،(،4). وواضح مما يقر)ط اشعروقي أن عنصر الأسطورة إلخيال من مكونات نظرته ألملاخر.. . والواقع أن سحر الشرق قد جرده من ر)كحيته . وب حكس ألوصف ااسذي قدمه اشكروقي لإحض س حالم آياصوفيا الافتتان بانعثرق زرإزحه : "وفي وسط المسجد قبة عظحيمة واورحة جدا عالية مفرطة في)ل حلو

(10404/1)

مرفوعة على قو"عد مبنية بناء ضخما منحوتة كأنها أص إف شواهق كالجبال وأساطلآت من رخا (مجزث ملون عالية في الهواء. .. أيضا بتبك ألقبة (ل حظهيمة قباب أخرى دائرة بها (لأ 4) المصدر نفسه ، مر. رر. (هـ لأ) المصدر نفسه . (د 4) س ط ز نويم ى، إسقانجرث وحفارة الخلافة الإشلاية، مرجع سابق ، ص ى . ،14 . (، 4) (ظلاص :في ، ص ى 10 ر .

3 ت ورأء تلك القو"عد وأساطيم ت وهي أخفض سقفا من الوسطى لكون بسطحها طبقة أخرى يصلي)اشاس فيها ؟يشرف مض كا على)أتحبة ا أس سلى في دربوز دائر بها خارج في هوائها مرفوع على أعمدة

(10405/1)

جديدة 3 ت الحائط. . . وفي ألسفلى قناديل زجاث لوقد في أجالي رمضان دائرة با اغبة ثلاثة مساطير، !رضى هذا المسجد كله منقوشر بأنو"ع النقوثم ط الختلفة الصت حة إلأ أس ان لا يشبه بى حضها في حضا، فائتة ألحعمم ت غريبة الترصير عا. قد أفرئا على ذلك (أسذهب اأصذائب . . . وفي المسجد 3 ت أ أصذهكب والزجاثا ما لا تحصى إلا مجاط ب حدها ومنبرها عان مرتفع في)ى(ء منحوت كله من حجر إ

احد من رخام أبيض صاف ، في أعلاه قبة مذهبة إمحرأبه أيضا منحوت من رخام دائر به مصاحف قرآن "(41). إف حمتبر القصور إحدى)ك حما! الرئيسية

(10406/1)

لمدينة إستانبول . فاقى ثروقي قد أعطانا صورة عض كا، وبدأ بقصر السلطان اش ئيعمي . "وفي رأسها (أصداخاط فى ا أصبحر قصر (أعسملطهان يسمونه بلغض كبم انسر"ية : قصر واسع جداً فيه مساح شه ؟مساكن غلمانه ونيس ورحه غيراً ؟رياضه ومنتزهاته ا–إيوانه ، ؟فيه خوخات !ر! مض كا ا أجحر ؟بنى أسه عاى ب حضها مجاثعم ى وقبات مزروعة منسقة!لس فيها أحيانا مع غلمانه "(،لأ). إ إلى جانب هذا القصر، توجد قصور أخرى. يقول الكروقي عند حديثه عنها . "وأطسلطهان سراية أخرى عند السليمانية يحون فيها ما يختارونه من بنات (أصكفار يجلبنلن من

(10407/1)

بلادس (وعليم –ا قيمات من نساء أمينات يؤدبلى ت وب حلمهن ما يصيح به لخدمة السلطان ثم يرزحون من ف حلج مض لن وتأدب أتحصر السلطان "(رد). ؟قي الخلاصة، فإن في هذه اش حلة انتي دامت سنتين حيث قداً أشا خلالها اك ص ؟قي صورة ص ت (اسدوأسة)ل حثمانية خلا أى االتحرن ا أسعادس عشر لم 1 تقدم سوى ب حض تفاصي! وجزئيات الصورة، ولم يقدم لنا صورة شاملة ومفصلة عن هذه اأط ر)صة. واصذأسك كانت الصورة التي قدمها لنا بمثابة لوحة فنية / تكتمل ب حمد. فالجوانب اشتي حدثنا عض كا اشكروتي لخصها لنا تلخيصا، فلم ا يحدتنا عن النظام

(10408/1)

السياسي (ل حثماني إلا س ت خلا ا حديثه عن السلطان والصدر الأ أ صاحب السلطة والنفوذ أو السلطان ، بد؟ن تسمية. (رلأ) المصدر نغسه ، كل –.ء ر. (4 لأ) اخ ص ت ، ءص . 4 ر. (ر لأ) المصدر نفسه ، ص . ،ر.

أما عن الجانب الاجتماعي الذي يكاد يغيب ، فلم يقدم لنا سوى نظرات تتحدث عن الأغنياء و"ل حامة دون أية تفاصيل أو وضوح . ونفس الشيء ينطحبق على الجانب الديني وال حلمي والحضاري ، وإن كان بشكل متفاوت

عن الجو"نب السابقة الذكر. كما أننا نسجل في هذا الصدد أنه بالرغم من طول الفترة التي قضاها الكروتي في قلب الدولة (ل

(10409/1)

حثمانية، فإنه قد أغفل الحديث عن ال حديد من الجو"نب والشخصيات التي كانت تحظى بأهمية خاصة داخل أجهزة الدولة. فإذا كان قد حدثنا عن المجتمع الحفهري ، فإن مجتمع البادية يغيب كليا في جلته . فهل كان المجتمع ال حثمافي حضريا بالدرجة الأولى ؟ هذا أمر مستب حد. كما أنه / يحدثنا عن الحياة الاقتصادية، وإن كان قد أعطحانا بى حمض ما يدل على أوج الدولة)ل حثمانية (ق ،1). وما من شك أن للاقتصاد دورا في ذلك . على مستوى اخر، فإن اشكروتي عند حديثه عن التدين)ل حثماني وال حلم وارحلماء بل وحتى أجهزة الدولة، فإنه لم

(10410/1)

يحدثنا عن أهم شخصية في هذا المجال ، ألا وهو المفتي الذي كان يشبهل مرب ما دينيا وسياسيا في أهم

القضايا التي تواجهها الدولة، بل تتحدث الكثير من المصادر عن الاحترام الذي يكنه السلطاان للمفتي ، وكان الشخص الوحيد الذي كان السلطحان يقوم ويتقدم خطكو"ت للسلام عليه (5،). فلماذا / يوله الكروقي أي اهتمام أم أنه كان يجهل بوجود هذا المنصب الخطير ؟ فضلا عن ذلك كله فإن هناك جوانب عديدة غابت نهائيا في الرحلة، كالوقف والحياة اليومية ودور اش جل والمر"ة والأطفال ، إخم. ومهما يكن ، فإن كتاب "النفحة" لا يخلو من

(10411/1)

قيمة تاريخية ت حلق بال حلاقات المغربية ارحغمانية، وبصورة الدولة ال حثمانية كما رآها مغربي من النخبة المثقفة للقرن (5))(طر. خ ،1 9ع ب "ع لما، ،"هـ "لأء99ر، ع 1 آلأ")أس ، ،9ء3 ع لا لاه ى 4*س ر 7 ،(غ أَلأَم "2 لماه م ع ه) لأ خء لمادع + أبو آلفاسج الرياقي ، الترجى نة الكبرى، ت أ. عجد الكريم الفئلأَلمب ؟،شظهألع ف!هأ(إ إ،الخئدث!ءر،ارء،! كل ط.111.

ألسادس عشر. لذلك ، فلا غنى عن هذا المصدر في ص حرفة

أحو"ل هذه الدولة في أوثغ ازدهارها . على أن هناك مسألة هامة تفاجئنا عند حديث الكروقي عن أوضاع منطحقة

(10412/1)

ثهال إفريقيا، وَلت حلق بأوضاعها المزرية وتشوق سكانها إلى حكم شرفاء المغرب . وما من شك أن هذه المسألة تثير "كثر من سؤال . فإذا كان الأمر كذلك، لماذا لم يتوجه سكان هذه المناطق بطلب التدخل المغريى بدل التدخل (ل حثمافي لمو"جهة الغزو الأرويى ؟ ثم هل يتطابق تصرج الكروتي مع أهداف مهمته الدبلوماسية ؟ ثم في الأخير : أليس هذا ما دفع بالدكتور حسن إبراهيم شحاته إلى الاعتقاد بأن ا الرحلة ف حكس (ل حلاقات المغربية)ل حثمانية خلال فترة حكم المولى إكاعيل والتى تتزامن وفترة كتابة النسخة المتداولة حاليا؟ وهو ما

(10413/1)

يدفع إلى الاعتقاد بأن الرحلة قد خضي حت لب حض التغيير"ت . ربما في اعتقادنا أن تصرمحات الكروقي

السابقة الذكر لا تتطابق والمهمة التي تكلف بها. وهذا له أكثر من مغزى.

(10414/1)

طريق الحرير

د. شوقي شعث المتحف الوطني
بحلب – سورية

لم يكن الحرير معروفا لدى الرومان في مطلع العصور الميلادية، وأغلب الظن أنهم عرفوه بعد احتلالهم سورية. فقد جلب بعض جنودهم بعضا منه إلى روما، ومع مرور الأيام بدأ ينتشر شيئا فشيئا، على الرغم من كون ذلك في بداية الأمر كان محظورا بسبب غلاء أثمانه ، فقد أصدر مجلس الشيوخ عام 14 م ، مرسوما يحرم على الرجال العاديين استخدام الحرير، وقصر ذلك على النساء فقط. وبعد نحو خمسين عام من ذلك التاريخ ، أصبح استعمال الحرير في اللباس يدل على منزلة لابسه

(10415/1)

الاجتماعية(1)، وبوجه الإجمال ، كان استعمال الحرير نادرا في بلدان الإمبراطورية الرومانية، حتى بالأوساط الركية، فيقال إن أول إمبراطور روما في لبس الثياب الحريرية الخالصة، كان الإمبراطور الأكابالس (218–222م) وذلك نظرا لغلاء أثمانه ، حيث يصعب على الناس العاديين والرسميين ، اقتناء الأثو"اب الحريرية(2).

كان الحرير ينقل من موطنه الأصلي، الصين ، عبر طريق عرف بطريق الحرير إلى المناطق الشرقية من حوض البحر المتوسط، وقد كان الطريق طويلا وشاقا تتخلله الصحاري والجبال إلى أن يصل إلى تدمر بسورية، حيث يباع

(10416/1)

بأثمان باهضة. وقد تطور ذلك في عهد أسرة هان التي حكمت الصين في الفترة ما بين 205و220م حين تشكلت كثير من المراكز التجارية على طول ذلك الطريق . وبالطبع كانت تحمل إلى جانب الحرير بضائع أخرى خفيفة الوزن غالية الثمن ، تطبيقا للمثل الدارج (ما

10–9Silk road pp.

(2) الحوليات الأثرية 38–39–305.

خف حمله وغلا ثمنه) ولم يكن الصينيون يوصلون هذه البضائع إلى سورية، بل كانوا يحملونها إلى بلاد فارس الفرثية، ويقوم هؤلاء بنقلها إن مراكز التجارة العالمية في الغرب مثل دورا أوربوس (الصالحية اليوم) وتدمر وغيرها من

(10417/1)

المراكز(3).

وقد أثبتت التنقبات الأثرية التي جرت مؤخرا في سوريا، خاصة في تدمر، أنها كانت من أهم المراكز وأغناها على طريق الحرير ، ففي عام 1930م ، عثرت بعثة فرنسية على عدد كبير من القطع الحريرية التي نسجت بالصين إلى جانب قطع نسجت محليا، كما عثرت على مثل ذلك في دورا اوربوس وحلبيه ، ولكن ما عثر عليه هنا لا يرقى في دقته إلى تلك القطع التي عثر عليها في تدمر(4).

لقد كانت تدمر كما يصفها البعض منجم ا ذهب حقيقي

في صناعة المنسوجات الحريرية، فقد كانت المنسوجات التي عثر عليها بتدمير لا مثيل لها من حيث

(10418/1)

الجودة والأناقة و"صبحت تدمر مدرسة انطلقت فيها طوال القرن الثاني الميلادي صناعة النسيج وفنونها، واستطاعت تلك المنسوجات أن تؤثر في أذواق الناس في المناطق المجاورة والعالم المعاصر لها في مطلع القرن الرابع الميلادي ، وبالطبع يمكن اعتبار المنسوجات الحريرية الصينية في تدمر أول إشارة للاتصال مع الصين في عهد أسرة هان ، ولكنها بالطبع اتصالات غير مباشر(5).

يميل البعض إلى الاعتقاد بأن السوريين كانوا يستوردون الحرير الخام من الصين ، ثم يحضرونه بأسلوبهم الخاص ويعيدون تصديره ، فقد عثر علماء الآثار على نماذج

(10419/1)

تدمرية من المنسوجات الحريرية في أماكن متفرقة من أوربا مثل كولونيا بألمانيا، ومدافن هوليوود في انجلترا، وكونثى في سويسرا(6). وكانت تدمر، بحكم موقعها الجغرافي بين إمبراطوريتين عالميتين آنذاك من ناحية، وموقعها المنعزل بوسط الصحراء، بعيدة المنال من الفرق الرومانية والفرسان الفرنسيين، فلم يتمكن أحد من السيطرة عليها. وربما كان توازن القوى هو الذي جعل منها دولة حاجزة، وقد مكنها هذا الوضع الفريد

(3) الحوليات الأثرية، ،38–39–301.

(10420/1)

---

(4) حولي المنسوجات الحريرية المكتشفة في التنقيبات الأثرية بسوريا انظر : Palmyre ,paris , 1934

(5) الحوليات الأثرية 38–39 (1988–1989)306

(6) الحوليات الأثرية، ،38–39–307.

من أن تلعب دورها كمحطة رئيسة لنزول القوافل فيها وجعلها عقدة هامة للمواصلات بين الشمال والجنوب وبين

الشرق والغرب . ولقد استغل حكام هذه الواحة التدمرية بذكاء حالة تدمر هذه ، فلعبوا لعبة الحياد تارة والوقوف إلى جانب القوى تارة أخرى(7).وتدلنا الدراسات المتوفرة بين أيدينا أن التدامرة لعبوا منذ القدم دورا هاما في التجارة العالمية

(10421/1)

كالفينيقيين واليونان ، فقد عرفنا علم الآثار على مستودعاتهم وحامياتهم التي كانت منتشرة على طول طرق القوافل من البحر الأبيض المتوسط حتى الخليج العربي. كانت هناك محطة تحمل اسم سبازينو – كاراكس تقع عند مدخل نهر الدجلة، ويظهر أن التدمريين كانوا رجال قوافل ووسطاء في تجارة البضائع القادمة من الخليج العربي أو من بكتيريا أو من مناطق آسيا الوسطى عن طريق اكياتانا والمدائن وسلوقيا، فمن سبازينو كاراكس تصعد القوافل الفرات ، ثم تتجه نحو الغرب إلى تدمر، وكانت هناك ثلاث محطات للاستراحة على طول الطريق هي :

(10422/1)

فولوجيزياز (Vologesias) إلى الجنوب من بابل ومحطة بالقرب من هيث وثالثة بالقرب من أم العمد. ومن تدمر نفسها تقوم القافلة التدمرية تحمل البضائع إلى انطاكية وسلوقية بسوريا ثم تقوم السفن الفنيقية واليونانية تحمل هذه البضائع إلى روما. عموما يمكن القول إن التدامره لعبوا دور الوسيط بين البارثيين والرومان مدة تزيد على القرنين من الزمان (هـ). لقد خاول الرومان أكر من مرة السيطرة على تدمر مباشر للاستفادة من خيراتها التجارية، وقد مرت تلك المحاولات في عدة مراحل أولها عند احتلالهم البتراء عام 106م، حيث ألحق

(10423/1)

تراجان تدمر بالولاية العربية التي أحدثها، وفي عام 130 م منحها هادريان اسم هادريانا بالميرا وجعلها تابعة إلى روما(9). وفي عام 130م أخذ الرومان الرها، وأخيرا في عام 273م أخذوا تدمر نفسها واعتقدوا أن بإمكانهم الإفساك بمفاتيح التجارة الواصلة من الصين والتي تحمل

(7) حتي ، ج 1 ، 433.

(8) 86Sillk road p.

يقول كلينغل في كتابه آثار سورية القديمة (الترجمة العربية) إن المواصلات التجارية جلبت لتدمر الخير والراء في أصبحت خلال الفترة الرومانية حاضرة كبيرة وعقدة لشبكة واسعة من المواصلات التي كانت تمتد إلى

(10424/1)

الشمال من صحراء العرب وبادية الشام ، وكان التدامرة يجلبون التجارة بأنفسهم ويعقدون الصفقات مع أقاصي البلدان ، إذ كانوا يجلبون الحرير من الصين (كلينغل ، ص106 .). وانظر : سيريغ ، "تدمر والشرق "، الحوليات العربية السورية، ج 1، م 1، 1951.

(9)حتى ،ج1 435.

الحرير وغيره من البضائع بعد أن ورثوا تلك المدن التجارية الهامة. ولكن الفرس نافسوهم فقطعوا طرق تلك التجارة، وفي القرن الثالث مدوا حدودهم شرقا وجنوبا وضموا إمبراطورية كوشان كما سيطروا على أفغانستان وشمال الهند وركبوا البحر وأصبحوا ملاحين مهرة وأصبحوا

(10425/1)

أكثر قوة من روما أو إثيوبيا حيث أصبحوا سادة البحر من باب المندب حتى سيلان وأسسوا عدة وكالات تجارية(10).

شوقي وعندما وزنت الإمبراطورية البيزنطية ممتلكات روما الشرقية حاولت استعادة مركز روما في الشرق إلا أنها، على ما يبدو، جاءت متأخرة فقد أصبحت تجارة الحرير منظمة وهى برمتها بيد الفرس وعليها أن تدفع أثمانها مقدما، وحيث أن الحرير أصبح منذ ذلك الوقت يلعب دورا هاما في حياة بيزنطة الاقتصادي والسياسي حيث نجد له ذكرا في كل مكان ، في نظام الجمارك وفي معاهدات السلام وقوانين الإنفاق المالي وفي النظم

(10426/1)

النقابية وحتى في المواعظ الدينية(11)، قام الإمبراطور جوستنيان ، إدراكا منه لأهمية الأرباح التجارية للحرير، بالسعي لإقامة صناعة وإنتاج الحرير في بلاده على نحو احتكاري فقام بالسيطرة على طريق

تجارة الحرير في بلاده الذي كان يمتد من فارس إلى أوربا الشرقية وعندما فشل لجأ إلى طريقة جديدة وهى أنه قام بإقناع راهبين من النساطرة عاشا بالصين بتهريب. دود الحرير إلى بيزنطة في أعواد القصب لتربيتها في البلاد البيزنطية، كما أقام الأنوال في القصور الملكية وكانت تلك الديدان المهربة بداية لإنتاج الحرير وتزويد

(10427/1)

بلدان أوربا به حتى القرن التاسع عشر(12).

لقد انتعشت تربية دود القز، وتطورت صناعة الحرير في بيزنطة، وكان الحرير البيزنطي يستعمل على نطاق واسع في صنع الألبسة الفضفاضة والألبسة الكهنوتية كما استعمله الإقطاعيون في ملابسهم وملابس نسائهم وفي بلاطهم.

(10) الحوليات السورية، ج1،م1،1951،60،118. Silk road

(11) Silk road p .118

(12) b519–20Encyclopedia Britanic

لقد كان الصينيون يعتبرون صناعة الحرير سرا من أسرارهم وقد فرضوا عقوبة الموت على من يذيع ذلك

السر ولكن أذيع ذلك السر على يد أميرة صينية تزوجت من

(10428/1)

حاكم إحدى المدن الإيرانية، بعد خروجها إلى بيت الزوجية خبأت في ثناء شعرها بويضات دودة القز وفي الوطن الجديد توالدت تلك البويضات وانتشر

مرزوق ، ص 124.

وفي العصور المتأخرة أي إبان الحروب الإفرنجية الصليبية، حمل الفرسان إلى أوروبا 3 حمل غيرهم من المغامرين العسكريين الألبسة الحريرية من سوريا، تلك الألبسة، المزينة بالزخارف العربية والملونة بألوان مختلفة عن تلك التي كانت شائعة، كما أن العرب المسلمين الذين فتحوا صقلية وإسبانيا اعتنوا بتربية دود القز من أجل إنتاج الحرير وكانت القزازة مصدرا هاما من مصادر

(10429/1)

الدخل في تلك البلاد. وقد استمرت هذه الصناعة إبان حكم النورمان لصقلية فقد اهتم الملك النورماندي روجر الأول بتلك الصناعة وطورها وحسن إنتاجها وزاد في إنتاج الحرير الصقلي حيث انتشر استعمالها من هناك إلى سائر أنحاء إيطاليا في الأزمنة اللاحقة(13). لقد كانت القزازة وصناعة الحرير مربحة جدا فعملت فيها الفقه النبيلة في فلورنسا وجنوه وميلانو والبندقية ولقيت رعياة طيبة من حكام تلك المدن فتطورت صناعته فيها إلى حد الشهرة(14).

(10430/1)

انتقلت بعدها صناعة الحرير إلى فرنسا وقد بدأت من تور في عام 1480 في عهد الملك لويس الحادي عشر، وفي عام 5ء1ا أدخلت بيوض دود القز إلى وادي نهر الرون الخصيب ، وفي عهد لويس الرابع عشر قام وزير ماليته بتأسيس صناعة الحرير في تلك المنطقة وشجع زراعة أشجار التوت وبذلك لفت انتباه الفرنسيين إلى مهنة القزازة وأهمتها. وفي الوقت نفسه تقريبا بدأت صناعة الحرير في إنجلترا، أي نحو القرن الرابع عشر ولكن الاهتمام الفعلي بتلك الصناعة كان في القرن السادس

عشر وذلك نتيجة لهجرة أعداد كبيرة من النساج الفلمنديين بسبب

(10431/1)

الحروب التي جرت بين الهولنديين والإسبان ، تبع ذلك موجة أخرى من المهاجرين الفرنسيين الذين كانوا يعملون في أعمال نسج الحرير وذلك عام 1685م .
وعندما كرت معامل نسيج الحرير وكثر عدد العاملين فيها تأسست عام 1625 نقابة لنساجي الحرير. وفي عام

(13) Encyclopedia Britancia, 20b519

اتصال العرب المسلمون بالصين فكان رجالهم يزورون الصين ومن أقدم تلك الزيارات ما سجله تاجر عربي اسمه سليمان زار بلاد الصين عام 237ه/801م وقام شخص آخر اسمه "أبو زيد حسن " عام 340ه /916م بعمل ذيل شطوط سليمان (مرزوق ، ص. 97).

(10432/1)

---

6. 519Encyclopedia Britancia, (14)

1713 طالب نساج الحرير الإنجليز برلمان بلادهم بحمايتهم بفرض ضرائب عالية على استيراد الحرير لأن الحرير الافرنسي كان يباع بأثمان أقل من أثمان الحرير الإنجليزي (15).

انتقلت صناعة الحرير أيضا إلى العالم الجديد مع الاكتشافات الجغرافية حيث نقلها المهاجرون الجدد إلى المواطن الجديدة من إسبانيا إلا أن هذه الصناعة لم تعمر طويلا فماتت قبل عام / 1600م، وعلى الرغم من ذلك ظلت المحاولات حثيثة للاهتمام بصناعة الحرير نظرا للأرباح الطائلة التي كان يجنيها التجار والمربون لدود

(10433/1)

القز وكذلك النساج وأخذت دول العالم تتسابق في إدخال تلك الصناعة المبنية على تربية دود القز فدخلت إلى أمريكا وكندا وإيران والهند واليابان (16).

... هل كان التبادل التجاري مقتصرا على الحرير؟

لقد كانت القوافل البرية (طريق الحرير البري) وكذلك السفن (طريق الحرير البحري) تحمل معها الحرير وإلى جانبه العطور والتوابل – وهي السلع الرئيسية – من

الشرق إلى الغرب أي من الصين والهند إلى العراق وبلاد الشام وكانت هناك بضائع تحمل من العراق وبلاد الشام لتباع في البلاد التي تمر فيها تلك القوافل والسفن في طريق

(10434/1)

العودة، ويصل بعضها إلى الصين . ويحدثنا الرحال والجغرافيون العرب عن تلك السلع ويذكرون أنها كانت قليلة الكمية لكنها غالية الثمن. وفي الوقت نفسه كانوا يأخذون – مثلا من اتيل وسيران – البخور ومختلف العطور التي أحرز العرب شهرة واسعة فيها وكذلك الأقمشة الكتانية والصوفية والسجاد والأدوية والأدوات المعدنية كالنحاس واللؤلؤ من الخليج العربي والمرجان من مرس الحرز بالجزائر والزمرد من أفريقيا. يومن بين الصادرات الهامة إلى الشرق الأقصى الدنانير الذهبية و"لدراهم الفضية للحاجة إلى الذهب والفضة(17)

(10435/1)

---

(15) Encyclopedia Britancia, 519. 520

(16) Encyclopedia Britancia, . b520

(17) Silk road,p. 195

... هل كانت المبادلات تقتصر على السلع التجارية؟

لقد أدى التبادل التجاري ، الذي در الأرباح الكبيرة، إلى التنافس الدولي الذي أخذ أحيانا شكل الصراع العربي، وتحدثنا الكتب التاريخية عن أن صراعا وقع بين العرب والصينيين في نحو عام 751م على ضفة فر تالاس القريب من دزها – ميول في كزكستان ، فقد التقت الجيوش العربية بقيادة زيادة بن صاع والجيوش الصينية بقيادة كاوهسيانغ رشي في معركة حامية لمدة خسة أيام انتهت

(10436/1)

بهزيمة الصين بسبب خيانة العناصر المرتزقة الأجنبية.

ومن بين الأسرى الذين أخذهم العرب في هذه المعركة صناع الحرير المهرة الذين نقلوهم إلى الكوفة، وتحدثنا الأخبار كذلك أنهم نقلوا صناعة الورق ، التي أقاموها في سمرقند، عن الصينيين (18). وقبل تلك العلاقات

التجارية قامت علاقات منتظمة بين أكبر حضارتين تقدما في ذلك العصر في شتى المجالات ، فقد سارت مع التجارة الأفكار و"الفنون وغيرها (19). لقد ساهم التجار بطريقة أو بأخرى في إدخال التعاليم البوذية إلى الهند كما ساهم العسكر في ذلك ومع الزمن قاد بان – شاو

(10437/1)

فرسانه الذين يرتدون الجلود القرمزية لإخضاع هسي يو (Hsi-yu)عاصمة كوشان التي أصبحت حينذاك مركزا هاما من مراكز البوذية وهناك أصبحت كثير من الديانات تتعايش جنبا إلى جنب ومن خلال نقود تلك الفترة نتعرف على الدب الذي يمثل مع الثور، ونتعرف أيضا على صور بوذا وهيليوس وميتراس رب الشمس وماه رب القمر وارتواسب (Artoasp) رب المياه والربة يالسامية نانيا (Nania) ربة الخصب وبالطبع كانت الديانة البوذية اكثر الديانات شيوعا لأنها كانت ديانة الطبقة الحاكمة في كوشان (20).

(18) Silk road,p. 195

(10438/1)

وانظر الدكتور عبد العزيز مرزوق ، الفن المحي ، تاريخه وخصائصه ، ص . 124 .

زياد بن صالح حاكم سمرقند قام بحملة ضد ملك فرغانه وأسر عددا من الصينيين الذين كانوا في جيش ملك فرغانه وكان من بينهم من يتقن صناعة الورق ، مرزوق ، ص . 100)، ويذكر البعض أن الورق اخترع في الصين عام 105 من قبل رجل صيني يدعى تساي لن (Tsai-lin).

(19) Silk road,p. 90

(20) Silk road,p. 91

هذه الحرية الدينية تعكس امتزاج التيارات الدينية المتميزة التي يمكن مقارنتها مع الطبيعة السنسكريتيه والماهايانا البوذية فلقد كانت البوذية سائدة في

(10439/1)

باكتيريا ومنتشرة إلى درجة كبيرة في الصغد (صغديا) وكادت تصل إلى خوارزم التي كانت بلاد الزراداشتيه ، ومع انتشارها انتشر الفن اليوناني – البوذي القاندهاري المنشأ فقد أظهرت التنقيبات الأثرية الأسلوب اليونافى وكذلك الفن الهندي –

اليوناني في تلك الأصقاع النائية، وإلى الشمال الأكثر بعدا وعلى طول الطريق البري والنهري عبر السهول الخزرية وحتى نهري الفولغا والكاما، عثر على نقود كوشانيه ولكن لم تظهر تماثيل أو أية مواد حضارية أخرى(21)، فمنذ القرن الأول للميلاد بدأت ملامح الفن الهندي اليوناني في الظهور كأوراق

(10440/1)

الاقنت التي تزين تيجان الأعمدة الكورنثية على طول الطريق التجارية الجديدة في آسيا الوسطى. وقد ظهر ذلك في البدء في خوتان التي كانت مسرح أقدم توسع لكوشان ، وإلى الشرق في نيا وجدت الكراسي ذات الأذرع ونجفات الأبواب المزينة بالأوراق والأزهار على تيجان كورنثيه (22)، كما عثر في لوب – نور على أوراق الغار والاقنت التي تبعد مسافة ستة أيام إلى الشمال من عبدال، وهناك شاهد آخر عثر عليه في خرائب معبد بوذي في ميران (Miran) يعود إلى القرن الثالث أو الرابع الميلادي ، كما عثر أيضا على رسوم جدارية في معبد ميران

(10441/1)

تظهر فيه أعلام حريرية إلى جانب المصلين وربما كان تلك الرسوم من أعمال فنان من القرن الثالث ويظهر أيضا في تلك الرسوم بوذا متدثرا بثوب أسود وبني مائل إلى الاحمرار وهو اللون التقليدي الهندي الذي يستعمله القديسون والزهاد(23)، وعلى الرأس كعكة من الشعر مصففة بشكل كلاسيكي، كما تظهر اليد مرفوعة بخشوع . وبهذه الطريقة انتشر الدين الجديد دون توقف على طول طريق القوافل من باكتيريا حتى تخوم الصين .

لقد سار على طريق الحرير تجار ومسافرون وجنود كلهم حملوا عاداتهم وأفكارهم ومهاراتهم الفنية معهم وأثروا في المناطق

(10442/1)

التي مروا بها أو استقروا فيها(24) فنشأ

(21) Silk road,p. 91

(22) Silk road,p. 91

(23) Silk road,p. 92

94Silk road,p. (24)

عن ذلك التلاقي تلاقح للأفكار والفنون فقد اختلطت الأفكار الدينية اليونانية بالأفكار الدينية البوذية، كما اختلطت الأشكال والمميزات الهلينية مع الذوق والموضوعات البوذية التي أصبحت معروفة في فن قندهار الاسم الآخر لمنطقة بيشاور(25)، وقد انتقل من قندهار هذه إلى الصين وقد عثر على تمثال بوذي يعتبر من أقدم العصور في الصين الداخلية وهو مصنوع من البرنز يعود تاريخه إلى نحو عام 338 م

(10443/1)

يعتقد أنه من مصنوعات لشمال الصين 26).

واكتشف العالم السوفيتي تولستوف (Tolstov) حصنا ضخما في طوبراك كالا بالقرب من الجانب الأيمن من عموداريا التd تبعد نحو150أو160 عن بحر آرال لا تزال ثلاثة من أبراجه قائمة، كما عرت البعثة على عدد كبير من الغرف تضم رسوما جدارية منفذة على كلسة طينية بألوان معدنية وبخلفية بيضاء وتزودنا هذه الرسوم بشاهد على وجود الأسلوب الفني العائد لقندهار، كما كان هناك عدد من أوراق الاقنت ومن الفن التشكيلي

الرومان الذي يتميز بحواجب العيون الكثيفة والعيون المفتوحة المعروفة في سوريا

(10444/1)

ومصر والشواطئ الشمالية من البحر الأسود، وهكذا التقت مدرستان للفن في شريط من الأشرطة الموجودة في غرفة واحدة وهما مدرسة قندهار والمدرسة الغربية السورية الرومانية مما يقود إلى الاعتقاد أن تلك الرسوم الجدارية كانت من عمل فنان واحد أو من قبل فريق من الفنانين يقودهم معلم يتكلم لغتين مطلع في نفس الوقت على الأسلوبين وعلى تقنيتها، هذا عن طرف من طريق الحرير أما عن الطرف الآخر وهو الطرف الغربي فقد وجدت في تدمر منسوجات صينية من الصوف والحرير في المدافن ربما كانت تستخدم كلفائف للموتى تشبه تلك التي عثر عليها

(10445/1)

في لولان (Lou-lan) بالقرب من لوب نور (Lop-nor) في الطرف الشرقي من الطريق وعليه يمكن الاعتقاد أن

هناك تبادلا للمعرفة التقنية بين مجموعتين من النساجين تفصلهما مسافات طويلة(27). فالمنسوجات الحريرية التى عثر عليها في تدمر عرفت بمنسوجات خان نسبة إلى موطنها الأصلي .

(25) Silk road,p. 195

(26) Silk road,p. 195

(27) Silk road,p. 195

يذكر سيريغ في الحوليات الأثرية السورية، ج 1 (1951)، ص . 70 أنه عندما بدأت التقاليد الفنية الإغريقية الرومانية تضمحل في سورية في القرن الرابع الميلادي في عهد قسطنطين تمكنت

(10446/1)

التقاليد الفنية الأسيوية من التقدم نحو البحر المتوسط.

ويتساءل المرء عن سبب غياب الديانة البوذية في الغرب وقد يجد المرء الجواب على هذا السؤال في أن وجود الديانات التوحيدية، كاليهودية وبعدها المسيحية ثم الإسلام في المناطق الغربية أي في سورية والعراق وغيرها من المناطق كانت العائق لأنها كانت تحارب

الهرتقة على حد تعبير البعض فبذلك أهملت البوذية في الغرب ، ومع أنه عثر في مدينة تدمر على بعض المميزات والملامح التي تخص الفن اليوناني الروماني والفن اليوناني البوذي إلا أن هذا لا يعتبر دلالة كافية على

(10447/1)

انتشار البوذية في تدمر(28).

مما سبق نرى أن الشرق والغرب التقيا عبر طريق الحرير الذي كان يأتي من الشرق الأقصى (الصين) إلى الشرق الأدنى (سوريا) برا وبحرا وبعد ذلك كان ينقل إلى الغرب بواسطة البحر أو بواسطة البر عن طريق أوروبا الشرقية، وخلال هذا الطريق حدث تبادل للتقاليد والمعتقدات والأفكار والفنون والعمارة ومناحي الحياة الأخرى حيث سارت عليها جحافل الجيوش الغازية، كما سار التجار والرهبان والجنود حاملين أفكار البلاد التي عاشوا فيها إلى البلاد التي استقروا فيها مجددا. وقد عرضنا في ثنايا هذا المقال

(10448/1)

القصير كيف انتقلت البوذية على طول هذا الطريق أي طريق الحرير وعبر تجارته إلى مناطق آسيا الوسطى والصين ، كما أنتقل الفن من سوريا ومناطق شرق البحر المتوسط في شتى أشكاله التشكيلية والمعمارية والرسوم الجدارية والمثمنات إلى أصقاع كثيرة ومدن مر بها طريق الحرير وكانت محطات تجارية(29) له مما عزز التبادل الحضاري بين الشرق والغرب. وقد ظل هذا الطريق ينر الرخاء الاقتصادي والمعرفة والحضارة على جانبيه ردحا طويلا من الزمن فقد ظل حيا في العصور الإسلامية من راشدية وأموية وعباسية وكذلك في الفترات اللاحقة، فانتقلت

(10449/1)

التكنولوجيا والبضائع وانتشر الإسلام في آسيا الوسطى والصين ومن المفيد أن نذكر هنا أن الأفاق التجارية والحضارية كانت واسعة جدا ومتعددة الجوانب ولا يمكن الدخول في تفاصيلها في مقالة قصيرة كهذه وما أردناه هنا فقط هو إلقاء الضوء على أهمية هذا الطريق في نشر الوعي التجاري

(28) 101Silk road,p.

(29) كانت تدمر بوتقة التقت فيها التقاليد الفنية

الإغريقية والفرثية ونجد في الأسرة الواحدة من يلبس لباسا فرثيا وآخر يلبس لباسا إغريقيا، كما قلد الفنان التدمري التماثيل البرنزية المستوردة من المشرق من فارس وبلاد ما

(10450/1)

بين النهرين واستعمل الصفوف اللؤلؤية المستديرة في زخرفة الملابس التي نجدها في المنحوتات الهندية القديمة في برهوت وبوذحايا (هنري سيريغ ، الحوليات الأثرية، ج 1، م 1، صص . 61–68).

والصناعي وتبادل الأفكار والسلع والعادات والزواج والمعلومات ، مما قرب بين الشعوب و سمح بإنشاء حضارات متعددة الجوانب والمظاهر على الرغم مما رافق ذلك ، في بعض الأحيان ، من تنافر وتنابذ سبب الحروب الطاحنة، ولكن هذا لم يمنع استمرار تدفق التيارات الحضارية بل ساعد أحيانا على تطويرها. وكلمة أخيرة لا بد من قولها : لقد كان لتدمر

(10451/1)

وسوريا دور أساس في ازدهار التجارة وصناعة الحرير وكان لها دور في انتقاله إلى الغرب وتطور صناعته وشيوع استعماله وقد رافق ذلك انتقال التقاليد الفنية والمعمارية والديانات والأفكار من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب .

المراجع

1 – بني عدنان ، تدمر والتدمريون ، وزارة الثقافة، دمشق ،1978 .

2 – تدمر في الآثار السورية. . . سورية ملتقى الشعوب والحضارات ، 1982.

3 – جونزا ه . م ، مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، بحوث في تاريخ بلاد الشام ، ترجمة الدكتور إحسان عباس ، عمان 1987.

(10452/1)

---

4 – حتى فيليب ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج 1، 1985 دار الثقافة ترجمة الدكتورين جورج حداد وعبد الكريم رافق .

5 – سيم يغ هنري ، تدمر والشرق بحث في مصادر الحضارة التدمرية، ج 1/ م 1، 1901 تعريب الدكتور جورج حداد.

6 – كلينغل هورست ، أثار سورية القديمة، ترجمة الأستاذ قاسم طوير 1986 .

7 – لوكرت مرغريتا، نهاية طريق الحرير، منسوجات من تدمر إلى بيركا، ترجمة محمد وحيد خياطة، الحوليات الأثرية السورية، م 38 وم 39 1988 –1989 .

8– مرزوق محمد عبد العزيز ، الفن الإسلامي ، تاريخه وخصائصه ، بغداد

(10453/1)

9– يحيى لطفي عبد الوهاب ، العرب في العصور القديمة، مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام ، الإسكندرية، 1990 .

10 – Boulnois L, the sillk road , London, 1966

11 – Encyclopeadia Britanica, 1970 (silk))

(10454/1)

طليطلة ومدرسة المترجمين

المدرسة الأولى للاستعراب الإسباني

... ... الأستاذ محمد القاضي

... ... طنجة

1 ـ طليطلة زينة المدن الأندلسية:

... لا يخفى على أي مهتم بتاريخ الأندلس عامة وبفترة ملوك الطوائف على وجه الخصوص الدور الذي لعبته مدينة طليطلة في تفعيل الأحداث السياسية بالأندلس، نظراً لموقعها الاستراتيجي الموجود في منحنى نهر التاخو (Rio Tajo)، حيث عرفت: »(بالثغر الأوسط) المتاخمة حدودها للممالك الإسبانية النصرانية، واعتبارها بذلك حاجز الدولة الإسلامية

(10455/1)

وجناحها الشمالي الأوسط ضد عدوان النصارى«(1).

... وقد وصفها ياقوت الحموي بأنها »مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس... وكانت قاعدة ملوك

القوطيين وموضع قرارهم، وهي على شاطئ نهر تاجه وعليه القنطرة التي يعجز الواصف عن وصفها. وقد ذكر قوم أنها مدينة دقيوناس صاحب أهل الكهف، قالوا: "وبقرب منها موضع يقال له جنان الورد فيه أجساد أصحاب الكهف لا تبلى إلى الآن، والله أعلم... وهي من

---

(1) محمد عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في جنة الأقطار، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية، بيروت، 1984، ص ص. 393 ـ 394.

(10456/1)

أجل المدن قدراً وأعظمها خطراً"«(1).

... وتعتبر طليطلة (Toledo) اليوم من المدن الإسبانية القديمة، إذ كانت موجودة قبل احتلال الرومان لها سنة 192 قبل الميلاد، وحظيت وما زالت تحظى بمكانة لدى الإسبانيين بصفتها عاصمة دينية لها خصوصيتها، »وكانت مع أحوازها أحد الأقاليم الخمسة التي تألفت منها مملكة قشتالة الجديدة. وما زالت طليطلة عاصمة دينية لإسبانيا، بعد أن كانت عاصمة لإمبراطوريتها وقاعدة للملوك القوطيين قبل الفتح الإسلامي

---

(1) معجم البلدان، المجلد الرابع، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص. 40.

(10457/1)

للأندلس« (1).

... وتعد كذلك من المدن التي وصلها طارق بن زياد ففتحها ضمن ما فتح من البلاد الأندلسية، فوجدها »خالية ليس فيها إلا اليهود في قوم قلة، وفر عالجها مع أصحابه، ولحق بمدينة خلف الجبل، وتبعهم طارق بعد أن ضم اليهود وخلى معهم بعض رجاله وأصحابه بطليطلة«(2)

---

(1) عبد اللطيف الخطيب، »ألفونسو السادس عشر ومدرسة المترجمين بطليطلة«، مجلة دعوة الحق المغربية، العدد السابع، السنة الثانية عشرة، يونيو 1969، ص. 69.

(2) انظر: ابن عذاري المراكشي، البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ج 2، ص. 12.

(10458/1)

.

2 ـ طليطلة الإسلامية

... ويذكر الدكتور حسين مؤنس أن طارقاً بن زياد دخل طليطلة من غير مقاومة تذكر، واستولى على الكنوز الزاخرة التي وجدها في قصور القوط وفي كنيسة طليطلة الكبيرة بوجه خاص. ولم يسهب المؤرخون المسلمون في شيء مما وقع للمسلمين في فتوحهم كلها مثلما أسهبوا في صفة المذبح المحلى بالجواهر الذي اغتنمه المسلمون في هذه الكنيسة الجامعة. فقد سموه مائدة سليمان بن داود وذهبوا إلى أن هذه المائدة كانت من زبرجد خالص. ومن المحقق أن هذا المذبح كان درة من درر الفن المحلى بأثمن ما لدى القوط من الذهب

(10459/1)

والجوهر، وأن وقوعه في يد المسلمين أثار بينهم دهشة كبرى. وينقل عن ابن حيان المؤرخ الأندلسي:

... وهذه المائدة المنوه عنها المنسوبة إلى سليمان النبي عليه السلام لم تكن له فيما يزعم العجم، وإنما

أصلها أن العجم في أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس. فإذا اجتمع عندهم ذلك المال، صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة، تحمل الشماسة والقسوس فوقها كتب الإنجيل إذا أبرزت في أيام المناسك، ويصفّفُونها على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها. فكانت تلك

(10460/1)

المائدة بطليطلة مما صيغ في هذا السبيل (1).

... أصبحت طليطلة إحدى القواعد الإسلامية المهمة بعد الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الإبيرية، فبلغت أوج ازدهارها أيام الحكم العربي الإسلامي وخصوصاً أثناء حكم ملوك الطوائف الذي قام على أنقاض الدولة الأموية، وذلك في أواخر الربع الأول من القرن الخامس الهجري، حيث احتضنت طليلطة أسرة قوية تعاقبت على حكمها، وهي أسرة بني ذي النون الذين تمكنوا من تكوين أكبر دول الطوائف فيها، ساعدهم في ذلك موقعها الاستراتيجي

---

(1) انظر: فجر الأندلس، ط 1، القاهرة، 1959، ص ص. 78 ـ 79.

(10461/1)

ووفرة مواردها، فاكتسبت مناعتها من انتصاراتها على كثير من ملوك الطوائف؛ كما اكتسبت أهمية في ميداني التعليم والثقافة حيث كانت تضم علماء وفقهاء وأدباء أفذاذاً تجمعوا بهذه المدينة لاعتبار أساسي هو رد موجة الثقافة المسيحية نظراً لقربها من المملكة الإسبانية. فأضحت من القواعد الكبرى للثقافة العربية الإسلامية في الأندلس، فكانت بذلك سداً معرفياً صلباً. ... فكان يرحل إليها علماء أوربا ليدرسوا العلوم العربية، وبلغ حب ذي النون للكتب أنهم كانوا يستولون على المكاتب الخاصة بالقوة؛ كما نقلت إلى هذه المدينة

(10462/1)

مخطوطات كثيرة من مكتبة المستنصر (961 ـ 976 م)، التي تبعثرت ولم يصل إلينا منها سوى مخطوط واحد

وضع عليه الحكم الثاني ملاحظات بخط يده(1).

3 ـ طليطلة ومكانتها العلمية

... وقد أنجبت طليطلة العديد من رجال العلم والأدب والدين، منهم: أبو الوليد بن الوقشي. وقد لقيه صاعد بتلك المدينة عام 438

---

(1) انظر: سيمون الحايك، الملك ألفونسو العاشر الحكيم أو نشوء الدولة النصرية، المطبعة البوليسية، بيروت، 1987، ص. 21؛ وانظر كذلك سيمون الحايك، »طليطلة مدينة الثقافة والترجمة«، مجلة العربي، عدد 315، فبراير 1985، ص. 67.

(10463/1)

هـ وكان يجمع إلى علوم اللغة والفقه معرفة بصناعة الهندسة والمنطق؛ وأبو جعفر بن منيح أحد المعتنين بعلم الهندسة والمنطق والنجوم والطب؛ والقويدس الذي تأدب في طليطلة وبرع في علوم العدد والهندسة والفرائض، ودرس في تلك المدينة زمناً طويلاً؛ وأبو إسحاق إبراهيم بن يحيى التجيبيّ النقاش المعروف بولد الزرقيال، وكان بصيراً بعلم الفلك قال فيه ابن الأبار:

»ولم تأت الأندلس بمثله، آخر أرصاده بقرطبة، وكان أكبر رصده قبل ذلك بطليطلة في أيام المأمون«. (التكملة، ص. 138).

(10464/1)

... ومن المشتغلين بالعلم أيضاً في طليطلة، أبو عامر بن الأمير المقتدر بن هود. وكان يضيف إلى معرفته بالعلم الرياضي اهتماماً بالمنطق والعلم الطبيعي والإلهي. ومن المهتمين بالطب ابن البغونش. وقد درس على علماء قرطبة فأخذ علم العدد والهندسة عن مسلمة المجريطي، وعلم الطب عن ابن جلجل وابن عبدون الجبلي وغيرهما، ثم خدم الظافر بن ذي النون والمأمون... ومن مشاهير الأطباء الذين استوطنوا طليطلة، ابن وافد اللخمي. وقد ألف كتاباً في الأدوية المفردة جمع فيها بين كتابي ديوسقوريدس وجالينوس. وكان يرى أن التداوي

(10465/1)

بالغذاء مقدم على التداوي بالدواء. أما صاعد بن أحمد الطليطلي الذي ولي قضاء طليطلة ليحيى بن ذي النون،

وهو مشهور بمؤلفه التاريخي "طبقات الأمم"، فقد كان من الحكماء والفقهاء الذين جمعوا بين الفقه والحكمة. تتلمذ على ابن حزم في قرطبة (1)

---

(1) انظر كذلك بالتفصيل: القاضي صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، وخصوصاً ما يتعلق بعلماء طليطلة وسرقسطة، ص ص. 80 ـ 100. وقد نقل عنه ابن أبي أصيبعة، ج 3، ص ص. 78 ـ 85؛ كما نقل عنهما الدكتور إحسان عباس في كتابه "تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين"، دار الثقافة، بيروت، ص ص. 60 ـ 61.

(10466/1)

.

4 ـ طليطلة بين تقلص الحكم الإسلامي واتساع المد المسيحي

... لقد تميزت فترة حكم ملوك الطوائف في الأندلس بالخلافات والتفرقة والانشقاق والفوضى والتخاذل والانقسامات الداخلية، في حين كانت قوة إسبانيا النصرانية تغذي هذه الخلافات مستغلة عوامل الوهن

والأزمات في صفوف ملوك الطوائف، وتساعد بعضهم ضد البعض الآخر من أجل إضعافهم والانقضاض عليهم في النهاية، لأنه:

... لم يكن ممكناً لدول الطوائف أن تستمر، لكونها لم تكن تتوفر على أدنى شروط الدولة المستقلة، خاصة غياب سلطة مركزية، وعدم قدرة السلطات الحاكمة على

(10467/1)

فرض سلطتها على السكان، وحماية أراضيها من نهب الجيش الأجنبي. فهي في الواقع لم تكن دولاً بالمعنى المعروف، وإنما كانت أقرب منها إلى وحدات الإقطاع(1).

... هكذا عاشت الأندلس قلقة مضطربة تحت حكم ملوك الطوائف الذين انشغلوا بخلافاتهم على السلطة، والصراعات الطائفية والسياسية، وبدا لأهل الأندلس أن كل شيء بدأ ينذر بالسقوط والانهيار، وكثر المتآمرون وطغى الاستبداد، وكان هجوم النصارى يتوالى على القواعد

---

(1) رجب محمد عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس

الإسلامية وإسبانيا النصرانية، القاهرة، دون تاريخ، ص. 275.

(10468/1)

الإسلامية، وتوج ذلك بالاستيلاء على طليطلة سنة 478 هـ (1085 م)، وذلك بعد حصار دام تسعة أشهر، حيث استعادها ألفونسو السادس الذي كان قبل سنوات قليلة لاجئاً فيها عند المأمون بن ذي النون.

... وكان استيلاء ألفونسو السادس، ملك ليون وقشتالة على مدينة طليطلة، وهو ما يحدد معظم المؤرخين المسيحيين والمسلمين تاريخه بشهر ماي 1085 م، من أهم أحداث التاريخ الإسباني في العصور الوسطى؛ إذ كان هذا تتويجاً للجهود المضنية، التي بذلت في حركة الاسترداد المسيحي، في القرن الحادي عشر. فقد كان له نفس الصدى الذي حدث عند

(10469/1)

سقوط هذه المدينة يوم كانت عاصمة القوط الغربيين القديمة في أيدي المسلمين، قبل ذلك بأربعمائة سنة، بحيث سرى هذا الاستيلاء في جميع أنحاء الأندلس والمغرب مسرى الألم والحسرة، مما كان حافزاً أساسياً دفع أمير المرابطين يوسف بن تاشفين إلى التدخل العسكري في شبه الجزيرة الإبيرية (1).

---

(1) ليفي بروفنصال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة محمد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ومراجعة لطفي عبد البديع، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ص. 120.

(10470/1)

... ترك سقوط طليطلة أثراً عميقاً في نفوس الأندلسيين عبر عنه الشعراء في غضب وبكاء... بكاء على المدينة العظيمة التي فقدت بنكبتها ركناً من أركان الإسلام وحصناً من حصونه، وذلك لما للمدينة من أهمية وشهرة بالغتين باعتبارها حاضرة الأندلس الكبرى. وقد رثاها أحد الشعراء قائلاً:

طليطلة أباح الكفر منها

فليس مثالها إيوان كسرى

محصنة محسنة بعيد

وكانت دار إيمان وعلم

فعادت دار كفر مصطفاة

مساجدها كنائس أي قلب

حماها إن ذا نبأ كبير

ولا منها الخورنق والسدير

تناولها ومطلبها عسير

معالمها التي طمست تنير

(10471/1)

قد اضطربت بأهليها الأمور

على هذا يقر ولا يطير

فيا أسفاه يا أسفاه حزنا

يكرر ما تكرره الدهور(1)

كما يعتبر سقوط طليطلة محطة كبرى في تاريخ فقهاء الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، حيث أرخت لتحول

موقفهم من ملوك الطوائف بعدما سجلت الفترة السابقة لسنة 478 هـ/ 1085 م مساندتهم المطلقة واللامشروطة لسياسة ملوك الطوائف، بحيث كانت مصالح

---

(1) انظر القصيدة كاملة عند: الدكتور سيمون الحايك، السيد: عنترة الإسبان أو الأندلس على عهد ملوك الطوائف وقدوم المرابطين إليها، مطابع الكريم الحديثة، لبنان، ص ص. 107 ـ 108.

(10472/1)

كلا الطرفين، من موقعها الطّبقي، تعرف انسجاماً عميقاً. ولكن مع احتلال طليطلة، لم يجد الفقهاء بداً من إعلانهم العصيان والتمرد فأطلقوا العنان لبعض الفتاوي المناهضة لحكم دول الطوائف، وخصوصاً عندما تأكدوا أن زمام الأمور السياسية بدأ ينفلت من يد هؤلاء الأمراء وأصبح حكمهم يعرف هزات عنيفة تنذر بتحولهم لقمة سائغة في متناول القوة المسيحية القادمة من الشمال. أما فقهاء طليطلة، فإن احتلال مدينتهم حرك وعيهم بضرورة اتخاذ مواقف صارمة وواضحة من المد المسيحي. فكانت قيادتهم للحركة الاحتجاجية التي تبناها المجتمع

(10473/1)

الطليطلي، أحد تلك المواقف المناهضة لسياسة حاكم طليطلة الابتزازية، بالإضافة إلى الصمود الحازم الذي أبداه بعض الفقهاء اتجاه عملية الهدم التي لحقت بمسجد طليطلة، وهو الشيخ محمد بن عيسى بن فرج عبد الله المغامي (المتوفى سنة 485 م) حيث كان بالمسجد »وبين يديه أحد التلامذة يقرأ. فكلما قالوا له عجل، أشار هو إلى تلميذه بأن أكمل، ثم قام ماطاش ولا تهيب، فسجد به واقترب، وبكى عليه ملياً وانتصب النصارى يحطمونه« (1).

---

(1) ابن بسام، الذخيرة، ط 2، بيروت، 1979، القسم 4، ج 1، ص. 132.

(10474/1)

... ويبقى الموقف الذي اتخذه الفقهاء من الاستنجاد بالمرابطين أهم موقف يمكن تسجيله في سياق الحديث عن مواقف مجموعة من فقهاء طليطلة أمام السياسة التوسعية لألفونسو السادس. وأمام هذه التحديات،

أصبحت الضرورة تستلزم الاستعانة بجيوش المرابطين بقيادة أميرهم يوسف بن تاشفين الذي كان عبوره إلى الأندلس بداية عهد جديد، حيث أنقذ الإسلام من الخطر الداهم الذي أصاب هذه البلاد. وبهذا يكون المرابطون قد مدوا حياة الأندلس السياسية وأبقوها تحت راية الإسلام زهاء أربعة قرون أخرى.

5 ـ سقوط طليطلة وأهميتها للإسبان

(10475/1)

... لقد كان استيلاء ملك ليون وقشتالة على مدينة طليطلة سنة 1085 م من أهم أحداث التاريخ الإسباني في العصور الوسطى: »فقد كان له نفس الصدى الذي حدث عن سقوط هذه المدينة، يوم كانت عاصمة القوط الغربيين القديمة في أيدي المسلمين«(1).

... ونظراً للمكانة العظيمة التي أصبحت تحظى بها هذه المدينة عند الإسبان بعد استرجاعها، فقد امتد اسمها إلى مناطق كثيرة في أمريكا الجنوبية والشمالية والفلبين

---

(1) يوسف أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين

والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، ط 2، القاهرة، 1958، ص. 60.

(10476/1)

والبرتغال إلى أن وصل إلى ستة وثلاثين (36) من الأماكن والمدن التي تحمل الاسم نفسه (طليطلة [1]) ([Toledo]).

... يرى بعض الباحثين العرب أنه لحسن حظ العرب والثقافة والحضارة العربيتين، استولى النصارى على مدينة طليطلة. فكما كان من الضروري على العرب فتح الأندلس ومد جسر بينهم وبين الغرب، كان من الضروري أيضاً أن تسقط مدينة طليطلة في يد ألفونسو السادس (الأدفونش)، وفي التاريخ الذي سقطت فيه أي عام 1085 م. ولو تأخرت

---

(1) انظر ذلك في مجلة:

Mundo Hispanico, N° 27, Octubre, 1970, ps 36 y37 (Toledo en El Mondo)).

(10477/1)

خمسين سنة عن السقوط، لما أتيح للعرب أن يؤدوا دورهم الثقافي والحضاري في العالم الغربي. ولو تأخر استرداد مدينة طليطلة خمسين سنة، لما استفاد الغرب شيئاً من الثقافة العربية واليونانية، بل كان الغربيون لجأوا إلى ترجمة الثقافة اليونانية من مصدرها اليوناني...، لأنه من المعروف أن الثقافة اليونانية وصلت إلى الغرب عن طريق العرب، أي أن العرب كانوا قد نقلوا الحضارة اليونانية إلى العربية، ثم جاء الغربيون، ونقلوا هذه الحضارة من العربية إلى اللاتينية في مدينة طليطلة(1)

---

(1) سيمون الحايك، »طليطلة مدينة الثقافة والترجمة«، مجلة العربي، عدد 315، فبراير 1985، ص. 67.

(10478/1)

.

... ومن الحقائق التاريخية الثابتة أن إسبانيا كانت المعبر الأكثر أهمية الذي تسربت منه الثقافة والحضارة الإسلامية إلى أروبا.

6 ـ طليطلة ومدرسة المترجمين

... ظلت طليطلة حتى بعد زوال الحكم الإسلامي محتفظة بالحضارة العربية الإسلامية:

... وقد غلبت العروبة على نصارى طليطلة، ولبثوا نصارى؛ ولكن اتخذوا اللغة العربية والثقافة العربية لأنفسهم، وكانوا يقيمون صلواتهم وطقوسهم الكنيسية باللغتين العربية واللاتينية، وأطلق على هذا الطقس الكنيسي اسم »الطقس المستعرب«... وظل سكانها متمسكين بعروبتهم، ولبث أخذهم

(10479/1)

وعطاؤهم وبيعهم وشراؤهم وجميع صكوك معاملاتهم باللغة العربية حتى أواخر القرن السادس عشر، ورغم أنهم طوال وجودهم تحت الحكم العربي، كانوا كثيري العصيان والتمرد والثورات على حكام قرطبة (1).

... ويؤكد المؤرخ الإسباني خواكين بالبيه، أستاذ اللغة العربية في جامعة مدريد المركزية:

... أنه بعد سقوط طليطلة، ظلت اللغة العربية لغة رسمية لأكثر من ثلاثمائة وخمسين سنة (350 سنة).

وهناك أكثر من ألف وثيقة تمت كتابتها في تلك المدينة بعد سقوطها، ويشير إلى أن أكثرها متعلق بالمعاملات الخاصة

---

(1) المرجع نفسه.

(10480/1)

بالمورسكيين الذين ظلوا في المدينة ولم يغادروها (1).

وبالرغم من كل ما اتخذته السلطات المسيحية الحاكمة فيما بعد من تعنت وقهر وتعذيب لإرغام المسلمين الذين فضلوا البقاء في طليطلة على التنصير، فقد بقوا مسلمين في سرائرهم محافظين على شعائرهم الدينية، وأصبح المسلمون شبيهين بجمعية سرية تكتم أمرها أشد الكتمان، وكانوا يجتمعون سراً ويتناقشون في

---

(1) انظر: مجلة الشرق الأوسط، عدد 345، فبراير 1993، ص. 14، "أطلس اللغة الإسبانية يضم بحراً عربياً" ضمن ملف أعده للمجلة كل من طلعت شاهين وسمير بيروتي ومحمد حربي.

(10481/1)

أمور دينهم خفية حتى لا يعرف أمرهم. واستمروا على هذه الحالة إلى أن أصدر:

... الملك فيليبي الثاني يوم 7 نونبر سنة 1566 م قانوناً بموجبه يمنع التكلم باللغة العربية ويقضي على التقاليد العربية وحطم الحمامات، كما ألزم المسلمين المتضررين بمقتضاه بترك أبواب منازلهم مفتوحة بصفة دائمة لكي يقع تفتيشها في كل وقت وحين لكي يتحقق المسيحيون من عدم أداء المسلمين لشريعتهم الإسلامية خفية إذا خلوا إلى أنفسهم(1)

---

(1) انظر: الدكتور محمد القادري، »هجرة المسلمين من إسبانيا في القرن السادس عشر«، مجلة الإيمان المغربية، عدد 7 ـ 8 (مزدوج)، 1964، ص. 71.

(10482/1)

.

... أما دورها الثقافي، فقد استمر في العطاء، فأصبحت وسيطاً من أهم وسائط الثقافية العربية الإسلامية إلى جميع أرجاء القارة الأوروبية، حيث أدرك ألفونسو

السادس أهميتها وفاعليتها في هذا الميدان، لأنها سرعان ما تحولت إلى دار ترجمة كبيرة للثقافة العربية الإسلامية إلى اللاتينية، حيث توافد عليها الباحثون والمتعطشون للمعرفة من مختلف أنحاء أوربا. فقد كان من أهم أعمال ألفونسو السادس:

... تأسيسه لمدرسة المترجمين التي عهد إليها بنقل أمهات الكتب العربية في مختلف العلوم إلى اللغة اللاتينية وبالسهر على

(1/10483)

إشاعتها... وقد استعان على نقل الكتب العربية إلى اللغة اللاتينية بكبار المتخصصين من المسلمين واليهود والنصارى، لأن اللاتينية كانت لغة الدين والدولة والعلم في الممالك النصرانية كافة... وقد كان لهذه المدرسة دور هام في إيقاظ أوربا من سباتها العميق وإخراجها من ظلمات الجهل والتعصب إلى نور العلم والمعرفة، بما تناقله العلماء بشتى الأقطار من نتاج الحضارة العربية وما اقتبسوه عنها من وسائل البحث وطرائق الاكتشاف، وبفضل ما استخرجوه من الكتب... ويقول رواة التاريخ الإسباني خلال هذه القرون السبعة الأخيرة: إن

(10484/1)

أولئك العلماء من مسلمين ويهود قد نهضوا بالمهمة المسندة إليهم على أحسن وجه بما أنجزوا من عمل النقل وتعليم الترجمة والإشراف عليها فكان فضلهم على النهضة الإسبانية عظيماً(1).

---

(1) انظر: عبد اللطيف الخطيب، »ألفونسو السادس ومدرسة المترجمين بطليطلة«، مجلة دعوة الحق المغربية، العدد السابع، السنة الثانية عشرة، يونيو 1969، ص ص. 69 ـ 70؛ وكذا: »حول مدرسة المترجمين بطليطلة«، دعوة الحق، العدد السابع، السنة الثالثة، أبريل 1960، ص ص. 58 ـ 59.

(10485/1)

وكان من أهم رجالها في هذه الفترة الراهب رايموندو ((Raymond 1126 ـ 1157 م)، الذي أدرك أنه لا مفر من معرفة كنه العلوم الإسلامية التي لا تعرف المسيحية منها آنذاك إلا القشور، ووضع خطة لترجمة أمهات الكتب العربية ترجمة علمية عن طريق النخبة من المستعمرين

الوافدين على إسبانيا والمستقرين بها من اليهود والمسلمين والدارسين لشتى العلوم الإسلامية وعلى رأسها الفلسفة، وبلغت الكتب التي ترجمها ما يزيد على خمسة وسبعين (75) كتاباً وموسوعة. وكان فعله هذا حدثاً حاسماً كان له أبعد الأثر في مصير أوربا، كما يقول

(10486/1)

إرنست رينان:

... فقد تولى الأسقف رايموندو رعاية جماعة من المترجمين والكتاب، تعرف في تاريخ الأدب "بمدرسة المترجمين الطليطليين" (Toledanos Colegio de Traductores)، وحفز، أفرادها على المهمة في نقل المؤلفات العربية. فتمت في هذه المدرسة ترجمة عيونها في الرياضيات والفلك والطب والكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعي وما وراء الطبيعة وعلم النفس والمنطق والسياسة، ومنها "أورجانون" أرسطو وشروح المسلمين عليه أو مختصراتهم له، وهي شروح ومختصرات جليلة وضعها فلاسفة مسلمون من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا

(10487/1)

والغزالي وابن رشد(1).

... ومن بين أشهر الوافدين إليها جيراردو دي الكرموني (Gerardo de Cremona) الذي وفد إليها من إيطاليا، حيث أمضى حوالي ثلاث وأربعين سنة (43) من حياته في الترجمة والتأليف، ووصل ما نقله من العربية إلى اللاتينية سبعة وثمانين (87) كتاباً في الفلسفة والمنطق والطب والفلك وغيرها من العلوم.

7 ـ ألفونسو العاشر ومدرسة المترجمين

(1) انظر: أنخيل غونثاليث بالينثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ط 1، القاهرة، مطبعة النهضة المصرية، ص. 537.

(10488/1)

... ظلت طليطلة مركزاً للثقافة الإسلامية في إسبانيا النصرانية في عهد الملك ألفونسو العاشر الملقب بالعالم والحكيم (El Sabio)، الذي اعتلى العرش سنة 1245 م وتوفي سنة 1284 م. وكان فعلاً عالماً محباً

للثقافة ومجالسة المهتمين بها.

... [فقد] مارس سياسة انفتاح على الأدب والفكر الشرقيين. ورغم مخاصمته العرب سياسياً، فقد بلغ الاهتمام بالثقافة العربية في عهده ذروته: فكان علمي التفكير، ونظرته إلى الثقافة نظرة إنسانية شاملة، وهو يفصل في أعماق الحقيقة بين قوميته الإسبانية، وبين قيمة الحضارة العربية العظيمة،

(1/10489)

التي حاول أن يحافظ على معطياتها، ورغم ما بدأت تتميز به تلك العهود في الممالك الأخرى من حقد على العرب... وظلت إسبانيا في عهده مستعربة إلى حد بعيد، وتعاون هو شخصياً مع العلماء المسلمين، واستفاد من تركة العرب الثقافية... استفاد من علومهم وآدابهم... ومثل خلفاء العرب أحاط نفسه بالأدباء والعلماء (1).

---

(1) انظر : ناديا ظافر شعبان، »ألفونسو العاشر والإسلام«، المجلة العربية السعودية، عدد مزدوج، 4 ـ 5 مايو 1979، ص ص. 110 ـ 112.

(1/10490)

... وبهذا يكون ألفونسو العاشر قد اقتفى أثر العرب في إقبالهم على نقل تراث الفرس والإغريق إلى اللغة العربية أيام خلافة المأمون العباسي الذي اعتنى بالترجمة والتأليف انطلاقاً من »بيت الحكمة« الذي أنشأه والده هارون الرشيد ببغداد، حيث جمع فيه المؤلفات العربية والمخطوطات للترجمة، وشكل مجموعة من المترجمين لنقل العلوم من اللغات اليونانية والفارسية والهندية والقبطية والآرامية. وأسند هذا الملك العالم مهمة ترجمة الكتب العربية القيمة بالأندلس إلى اللغة الإسبانية الناشئة آنذاك إلى أساتذة المدرسة الطليطلية

(10491/1)

المشهورة وطلابها، وكان من بينهم.

... نفر من النصارى والمسلمين واليهود المتحققين بشتى العلوم حوله. وقد أشرف بنفسه على توجيه أعمال الترجمة والتحرير أو التلخيص التي كان مساعدوه يقومون بها، وأنشأ في مرسية معهداً للدراسات بمعاونة القرطبي الفيلسوف المسلم، ولم يوفق هذا

المعهد المرسي كثيراً، فنقله إلى إشبيليا وأنشأ فيها مدرسة عامة للاتينية والعربية، وجعل فيها أساتذة من المسلمين لتدريس الطب والعلوم(1).

---

(1) أنخيل غونثاليث بالينثيا، مرجع مذكور، ص ص. 573 .574.

(10492/1)

... وقد ترجمت في عهده العديد من المؤلفات إلى اللغة الإسبانية كان أهمها كتاب "الإنجيل" و كتاب "كليلة ودمنة" وكتاب "التلمود" وقسم من مؤلفات ابن رشد. و»أمر الملك ألفونسو كذلك بترجمة كتب في ألعاب شرقية كـ"كتاب الشطرنج" [Juego de Ajedrez] (نشره آرنالد تشايجر في زيوريخ عام 1941 م) واستخدم الموسيقى الأندلسية في وضع أناشده الذائعة الصيت ()»(1Las Cantigas).

... وكان لهذه الترجمات التأثير الحاسم على الثقافة الأوربية. فهذا رينان يقول عن توما الأكويني: »إنه كفيلسوف مدين تقريباً

---

(1) المرجع نفسه، ص. 574.

(10493/1)

بكل شيء لابن رشد«، ويقول عن معلم توما الأكويني ألبيرتوس الكبير: »إنه مدين بكل شيء لابن سينا«، علماً بأن المترجمين باستثناء اثنين منهم هما غند سللبو ويوحنا الإسباني كلهم أجانب نقلوا ما ترجموه إلى بلدانهم، وتأثر علماء العصر بهذه الترجمات، بحيث أن الذين نبغوا في القرون الوسطى كان نبوغهم بتأثير الثقافة العربية: البرتوس ماغنوس، توما الأكويني، يوحنا الصليبي، دانتي، روجير بيكون وغيرهم كلهم تأثروا بالثقافة العربية (1)

---

(1) سيمون الحايك، »طليطلة مدينة الثقافة والترجمة«، مجلة العربي، عدد 315، فبراير 1985، ص. 9.

(10494/1)

.

... أما في ميدان التأليف، فقد كان جهده عظيماً بحيث جمع في طليطلة نفراً من أهل العلم ليصنفوا له كتب علم الفلك وقد تمكن هؤلاء العلماء من النهوض والتقدم

بالدراسات الفلكية بفضل مشاهداتهم ونقولهم وما قاموا به من أعمال علمية أخرى. وكان الملك كثيراً ما يشرف بنفسه على الأعمال التي كانت تجري في مدرسته الطليطلية، وكان يأمر بترجمة ما يرى نقله من الكتب العربية خاصة ويقوم بترتيبها بنفسه وخاصة ما يقول منها بنظريات جديدة تعدل مذهب بطلميوس في الفلك والجغرافية. وأمر كذلك بصنع آلات وأجهزة لم تكن معروفة إلى

(10495/1)

ذلك الحين. وكان يراجع ما ينجز من الترجمات ويصلح من أسلوبها، ويتجلى ذلك بوضوح من مقدمة ما يعرف (بالأوامر الخاصة) بكتب النجوم الأربعة. فقد جاء فيها: هذا هو كتاب "هيئات النجوم الثابتة الكائنة في السما الشافية"، مما أمر بترجمته من الكلدانية والعربية إلى الإسبانية الملك دون ألفونسو... بعد أن رتبها الملك المذكور وأمر بتصنيفها ثم استبعد منها الآراء التي وجد أنه قد تقادم بها العهد أو تكررت في الكتاب، والعبارات التي لم يكن أسلوبها قشتاليّاً قومياً ووضع محلها عبارات أخرى تفي بالمراد. أما كتب علم الفلك

هذه، فتتألف من:

... 1 ـ الكتب الأربعة في نجوم الفلك الثامن.

... 2 ـ الكتب الألفنسية في أجهزة علم الفلك وأدواته وكتبه.

... 3 ـ كتاب الزيج الألفونسي.

... إن الكثير من الكتب التي استعملت في هذه التآليف كانت نقولاً عن الزرقالي ومسلمة المجريطي وعلي بن خلف فلكي المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة وغيرهم كثير(1). كما نشطت في عهده وتحت إشرافه كتابة التاريخ على الطريقة الحولية اقتداء بالطريقة الإسلامية في تدوين التاريخ، فدونت عدة حوليات

---

(1) انظر ذلك بالتفصيل عند: أنخيل بالنثيا، مرجع مذكور، ص ص. 574 ـ 576.

من أشهرها "الحولية التاريخية الكبرى لإسبانيا" التي كتبت باللغة القشتالية، واعتمد واضعوها على مصادر

تاريخية عربية ككتاب "البيان الواضح في الملم الفادح" للمؤرخ البلنسي ابن علقمة المتوفى سنة 1115 م. وهذا الكتاب مفقود ـ ويا للأسف! ـ ولكن نقل عنه عدد من المؤرخين اللاحقين أمثال ابن عذاري المراكشي وابن الأبار وابن الخطيب. وكتاب في "أخبار الخلفاء" لابن الكردبوس، الذي عاش في أواخر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). وقد قام بترجمته أخيراً صديقنا المستعرب فليبي مايو سالكادو رئيس شعبة الدراسات

(10498/1)

الإسلامية بجامعة سالامنكا الإسبانية.

... [و] المقارنة تدل بما لا يدع مجالاً للشك على أن هذه الموسوعة الإسبانية التي ألفت في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) قد نقلت أخباراً وروايات كثيرة عن هذين الكتابين ـ كتاب ابن علقمة، وكتاب ابن الكردبوس ـ وبصفة خاصة الأخبار المتصلة بسقوط بلنسية في يد الفارس الإسباني المغامر السيد القمبيطور (El Campeador)، أي المبارز في القرن الحادي عشر الميلادي (الخامس الهجري)، وهي معلومات

جديدة لم ترد في المصادر الأخرى(1)

---

(1) انظر أحمد مختار العبادي، »من التراث العربي الإسباني. نماذج لأهم المصادر العربية والحوليات الإسبانية التي تأثرت بها«، مجلة عالم الفكر، عدد 1، المجلد الثامن، 1977، ص ص. 86 ـ 87؛ وانظر كذلك: »السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين«، المجلة التاريخية المصرية، العدد الأول، المجلد الثالث، 1950؛ وانظر كذلك بالإسبانية: Mendendez Pidadal, La Espana del Cid, II, p. 892.

(10499/1)

.

... وقد دونت مغامرات السيد القمبيطور في ملحمة إسبانية ألفت في القرن الثاني عشر الميلادي، وتعتبر من شوامخ الأدب الإسباني في فجر حياته. وهي أول ملحمة إسبانية كتبت باللغة القشتالية.

... والواضح من اسمها وألفاظها وأحداثها أنها كتبت على نمط السير العربية. فهي تصور السيد (El Cid). وقد

خرج من قريبة فيفار (Vivar) ليبني له مجداً وشهرة، فاتصل بالملك المستعين بن هود ملك سرقسطة، ودخل في خدمته، وحارب أعداءه وصار يتشبه بقادة العرب المشهورين، وتروقه أخبار المهلب بن أبي صفرة، كما كان يزجر الطير ويتفاءل به

(10500/1)

ويتشاءم على عادة العرب، وكان جنوده ينادونه على عادة الملوك بعبارة Miocid، وهي ترجمة لكلمة «يا سيدي». من هنا لصق به اسم السيد (El Cid)، مع أن اسمه الأصلي رودريخو دياث (Rodrigo Diaz)). ومع موت المستعين، انقلب هذا الفارس المغامر على المسلمين، واستولى على مدينة بلنسية التي استردها المرابطون بعد وفاته سنة 1099 م. والملحمة كتبها شاعر مستعرب من مدينة سالم (Medina Celi)) في شمال إسبانيا. وأحداثها التاريخية صحيحة إلى حد كبير، لأنها دونت بعد فترة قصيرة من وقوعها. ولهذا تعتبر مصدراً تاريخياً هاماً لتلك

(10501/1)

الفترة المتعلقة بعصر الطوائف والمرابطين(1).

... لقد كان فضل ألفونسو العاشر على الثقافة والفكر الإسبانيين عظيماً، لم يضاهه فيه ملك آخر من بعده، علماً بأن الثقافة الإسبانية خاصة والأوربية عامة مدينة لهذا الملك ومدرسته الطليطلية، في حين كان غيره من الملوك في

---

(1) انظر مجلة عالم الفكر، مرجع مذكور، ص. 88. وقام بترجمة نص الملحمة إلى اللغة العربية، وقدم لها بدراسة تفصيلية الدكتور طاهر أحمد مكي تحت عنوان "ملحمة السيد، أو ملحمة أندلسية كتبت في اللغة القشتالية" وصدرت عن دار المعارف بالقاهرة عام 1970.

(10502/1)

شبه الجزيرة الإبيرية يطعمون النيران بأحسن ما أنتجته العبقرية العربية في قرونها الزاهرة.

... ومن الغريب في أمره، أنه بينما عرشه يهتز تحت قدميه، يجد مكاناً بين أنقاض هذا العرض لتدعيم الجهاز العلمي، يسرق الوقت من حيث لا يوجد وقت سواء في

السلم أو في الحرب، في النجاح أو في الفشل لنمو إنتاجه الفكري. إنه دائب على إعادة النظر في الكتاب الذي سلمه إياه أبو العيش: "الأحجار"(1)

---

(1) انظر د. سيمون الحايك، »الملك ألفونسو العاشر الحكيم أو نشوء الدولة النصرية«، ص. 221 (مرجع سابق). لقد ورث ألفونسو العاشر عن أبيه فرناندو الثالث ملكاً قوياً، كاد أن يضيعه بحيث لم يستطع أن يسترجع غرناطة من العرب، كما كان ينتظر منه؛ كما فرض ضرائب جديدة على شعبه بسبب ثورة Soria عليه. حاول في أواخر أيامه أن يقسم مملكته بين أبناء أخيه وولده سانشو الذي عارضه، فثار عليه، فلجأ إلى إشبيليا إلى أن مات فيها سنة 1284 م.

(10503/1)

.

(10504/1)

عُبَيد بن شَرِيَّة الجُرهمي ومنهجه الإخباريّ

المعايطة

... ... الدكتور زريف مرزوق

... ... كلية الآداب ـ جامعة مؤته

... ... الكرك (الأردن)

حياته

... مع أن عُبيد بن شريَّة يعتبر من أوائل الإخباريين العرب، إلا أنه لم يحظ بالاهتمام الكبير من قبل المؤرخين الذين تعاملوا مع مجريات الأحداث التاريخية قبل الإسلام إلا بالنزر اليسير، بل تكاد المعلومات التي وردت عن عبيد ترد في مصدر واحد كما سنرى، أو رواية واحدة، ثم جاء المتأخرون ونقلوا هذه الرواية مع بعض التغيير في بعض

(10505/1)

الألفاظ لكن الدلالة واحدة.

... إن عدم الاهتمام بعبيد بن شرية بصورة تليق بإخباري متقدم أدى إلى عدم معرفتنا لحياة هذا الإخباري. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل أضفي عليه بعض الأساطير، ولا سيما فيما يتعلق بسني حياته.

... إن المعلومات المتوافرة لدينا لا تشير إلى نسبه

الكامل، بل إن كتب الأنساب ـ وعلى رأسها ابن الكلبي ـ التي نقلت المصادر معلوماتها عن عبيد لم تشر إلى نسبه من قريب أو بعيد. وكذلك البلاذري في كتابه "أنساب العرب"، وابن حزم في كتابه "جمهرة أنساب العرب".

(10506/1)

... ونجد في موضوع آخر أن عبيد نفسه يقر بأنه لم يبق جرهمي غيره، وأنه قد أتى عليه خمسون ومئة سنة (1).

... إن هذا الاعتراف من عبيد ربما جعل النسابة والإخباريين في حيرة من أمرهم. ويعود ذلك إلى أن جرهماً قد خرجت منذ زمن بعيد من اليمن، وانتقلت إلى الحجاز. فدخلت في صراع طويل مع أهل الحجاز للسيطرة على مكة. فهل لم يبق من جرهم إلا عبيد بن شريَّة حسب قوله؟

---

(1) عبيد بن شرية الجرهمي، أخبار عبيد، طبع في ذيل كتاب "التيجان في ملوك حمير" لوهب بن منبه، حيدر آباد الدكن، الهند، 1347 هـ، ص. 313.

(10507/1)

... إن واقع الأمر مخالف لذلك، إذ يذكر ابن النديم أن عبيداً روى عن بعض الجراهمة ومنهم الكسير الجرهمي وعَبْدُ وُدٍّ الجرهمي (1).

... إننا لا نجد اختلافاً كبيراً في اسم عبيد واسم أبيه وقبيلته. وإن رأينا بعض الاختلاف، فإن ذلك ـ في اعتقادي ـ قد جاء من التصحيف وليس من عدم المعرفة أو الاختلاف في نسبه. فقد جاء اسمه في معظم المصادر التي أشارت إليه بأنه عبيد بن شرية الجرهمي(2)

---

(1) ... محمد بن إسحق ابن النديم، الفهرست، تحقيق ناهد عباس عثمان، ط 1، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، 1985، ص. 18.

(2) أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة (ت 276 هـ)، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، ط 2، دار المعارف، القاهرة، 1969، ص. 534؛ أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت 282 هـ)، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1960، ص. 7؛ أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت 345 هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق قاسم الشماعي، ط 1، دار القلم، بيروت، 1989، ج 2، ص. 85؛ ابن النديم، الفهرست، مصدر سابق، ص. 180؛ ياقوت الحموي (ت 626 هـ)، معجم الأدباء، دار

الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1980، ج 12، ص. 73.

(10508/1)

. لكنهم أشاروا أيضاً إلى أنه عبيد بن سريه(1)، وفي موضع آخر ذكر عبيد بن سارية(2).

_____

(1) انظر: ابن قتيبة، المعارف، مصدر سابق، ص. 534؛ الدينوري، مصدر سابق، ص. 7؛ المسعودي، مصدر سابق، ج 2، ص. 85؛ ابن النديم، مصدر سابق، ص. 180؛ ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج 12، ص. 72

(2) الحافظ أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله ابن عساكر (ت 571 هـ)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، 1996، ج 38، ص. 202؛ ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج 12، ص. 72.

(10509/1)

... ولدى التدقيق في هذا الاختلاف، فإننا نجد التشابه الكبير في الألفاظ، وأن الأمر لا يتعلق بغير الكتابة

بالشين المعجمة أو بالسين. وهذا ـ كما ذكرت ـ ناتج عن تصحيف النساخ أو عن عدم المعرفة الحقيقية لاسم والده.

... ومثل هذا التصحيف جاء أيضاً باسم عبيد حيث أورده ابن حجر باسم عمير، وعمير قريبة إلى عبيد. ولما كان عبيد هو الأكثر شيوعاً في المصادر، فإننا نستثني كلمة عمير، ونعتمد كلمة عبيد(1)

---

(1) أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الفكر العربي، بيروت، د. ت، ج 3، ص. 101.

(10510/1)

.

... أما ابن الأثير، فقد صحف اسمه واسم والده وقال: هو عمير بن شبرمه(1). وهذا التصحيف أيضاً لا يخرج عن دلالته الأولى التي تشير إلى أنه عبيد بن شرية. وإن وجدنا بعض التصحيف في اسم عبيد، فإننا نرى أيضاً بعض الاختلاف في المكان الذي كان يقيم فيه. فقد أشارت بعض المصادر إلى أنه من صنعاء(2)

---

(1) أبو الحسن علي بن محمد الجزري ابن الأثير (ت 630 هـ)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرون، دار الشعب، القاهرة، 1970، ج 3، ص. 541.

(2) ابن النديم، الفهرست، مصدر سابق، ص. 181؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مصدر سابق، ج 12، ص. 72.

(10511/1)

، وفيها كان يقيم.

... وبعضها الآخر أشار إلى أنه من أهل الرقة في العراق(1)؛ كما قيل بأنه من أهل الحيرة، وفيها التقى بمعاوية بن أبي سفيان لما توجه إلى العراق بعد الصلح مع الحسن بن علي بن أبي طالب(2).

... باعتقادي أنه ليس هناك اختلاف في المكان الذي ينتمي إليه: فجميع المصادر التي تعرضت له تجمع على أنه يماني، بل إن المعلومات التي جاءت في كتابه الذي وصل

---

(1) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، مصدر سابق، ص. 202؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ج 12، ص. 78.

(2) ابن عساكر، المصدر السابق، ج 38، ص. 202.

(10512/1)

إلينا تؤكد ذلك ويزداد هذا التأكيد إذا قلنا إن الإخباريين الأوائل أمثال وهب بن منبه، وكعب الأحبار، وعبيد بن شرية هم من أصول يمانية.

... أما نسبته إلى الرقة أو إلى الحيرة، فهو أمر عادي في ذلك الوقت. فلربما انتقل عبيد إلى الرقة، ومنها إلى الحيرة؛ فاعتبره البعض من أهل الرقة، واعتبره الآخرون من أهل الحيرة.

... وأعتقد أن في نسبته لأهل الحيرة ما يؤكد أن عبيد ربما اطلع من أهل الحيرة على بعض القصص والأساطير التي راجت في اليمن قبل الإسلام. ومن المعلوم أن الحيرة كانت مركزاً ثقافياً متقدماً في الجزيرة

(10513/1)

العربية عشية ظهور الإسلام، وذلك لكون المنطقة ملتقى تجارياً، وعاصمة للمناذرة.

... إن المصادر المتوافرة لدينا لا تشير بشيء إلى حياته، وإنما ذكر أنه كان من المعمرين (1). إن الاختلاف في عمره، ومدة الزمن الذي عاشه عبيد لا يتناسب ومتوسط

العمر الذي كان يعيشه العربي في تلك الفترة. وتكفي نظرة إلى خلفاء بني أمية لنرى أن متوسط أعمارهم لم يتجاوز الثلاثين عاماً؛ كما أن الرسول – صلى الله عليه

---

(1) أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني، المعمرين، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار الطلائع، القاهرة، د. ت، ص. 59.

(10514/1)

وسلم – قال: »أعمار أمتي ما بين الستين والسبعين وأقلهم من يجوز ذلك«(1).

... فهل كان عبيد شاذاً في هذه القاعدة ليذكر بأنه عاش ثلاثمائة سنة، وقيل عاش عشرين ومئتي سنة (2).

---

(1) الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة (ت 275 هـ)، سنن ابن ماجة، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ج 2، ص. 1415.

(2) انظر: السجستاني، المعمرين، مصدر سابق، ص. 59؛ ابن قتيبة، مصدر سابق، ص. 534؛ ابن عساكر، مصدر سابق، ج 38، ص. 202.

(10515/1)

... ويظهر لنا عدم الدقة في ذكر هذا الرقم من أن عبيداً لما التقى بمعاوية، سأله معاوية: كم أتى عليك؟ فقال عشرين ومئتي سنة. قال له: ومن أين علمت؟ قال: من كتاب الله. قال: ومن أي كتاب الله؟ قال: من قول الله تبارك وتعالى: {وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم، ولتعلموا عدد السنين والحساب}(1) (2).

---

(1) ... سورة الإسراء، الآية 12.

(2) ابن عساكر، المصدر السابق، ج 38، ص. 202؛ ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج 12، ص. 73.

(10516/1)

... وفي رواية أخرى وردت في كتاب عبيد نصها: »... قال له معاوية: كم أتى عليك من العمر يا عبيد؟ قال: كثير يا أمير المؤمنين، كفاك أنه لم يبق جرهمي غيري. أتى عليّ مائة سنة وخمسون«(1). وفي "كتاب المعمرين" أنه قال: »مائتان وعشرون سنة« (2). وإذا افترضنا أن مقابلة عبيد للخليفة معاوية لأول مرة قد تمت سنة 41 ـ 42 هـ بعد عام الجماعة، وأن وفاة عبيد كانت في خلافة

عبد الملك بن مروان يحددها في سنة 67 هـ (3)

---

(1) عبيد بن شرية، أخبار، مصدر سابق، ص. 313.

(2) السجستاني، المعمرين، مصدر سابق، ص. 59.

(3) خير الدين الزركلي، الأعلام، ط 9، دار العلم للملايين، بيروت، 1990، ج 4، ص. 189.

(10517/1)

. فإذا أضفنا هذه المدة إلى عمره عندما التقى بمعاوية، فإنه يقل كثيراً عن العمر الذي ذكره السجستاني وتابعه عليه غيره من الذين كتبوا عن عبيد بن شرية.

... إن إلصاق العمر الطويل لم يكن ـ في اعتقادي ـ إلا تبريراً للذين نقلوا رواياته، في محاولة لتأكيد أن عبيد بن شرية كان قريباً من الأحداث التي ذكرها في أخبار اليمن، وأن رواياته لا تقع في باب الأساطير، وإنما في باب الحقيقة على حد قولهم.

... والمسألة الأخرى المتعلقة بعبيد بن شرية هي إسلامه. فقد ذكر ابن قتيبة أنه أدرك النبي – صلى الله عليه وسلم – ولم يسمع

(10518/1)

منه شيئاً(1). أما ابن عساكر، فقد ذكر رواية مرفوعة لهشام بن محمد الكلبي أنه أدرك الإسلام، فأسلم، ولم يذكر أنه قابل الرسول – صلى الله عليه وسلم –، أو أنه سمع منه شيئاً (2). وإلى مثل ذلك أشار ياقوت الحموي (3).

... ومع أن ابن الأثير قد أورده مع أسماء الصحابة، فقد قال: »ليس فيه ما يدل على أن له صحبة، إلا أنه قد كان قبل النبي – صلى الله عليه وسلم – وبعده، وقد أسلم، فلعله

---

(1) ابن قتيبة، المعارف، مصدر سابق، ص. 534.

(2) ابن عساكر، مصدر سابق، ج 38، ص. 202.

(3) ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج 12، ص. 73.

(10519/1)

أسلم على عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم –. والله أعلم«(1).

... أما ابن حجر العسقلاني، فمع وضعه مع أسماء الصحابة، فإنه لم يشر إلى هذه الصحبة واكتفى بالقول إنه أسلم(2). من خلال استعراض هذه النصوص، يتبين لنا أن

عبيداً لم تكن له صحبة مع الرسول – صلى الله عليه وسلم –، بل ربما يكون إسلامه قد جاء بعد موت الرسول – صلى الله عليه وسلم – وقيام حركة الفتوحات.

لقاؤه بمعاوية بن أبي سفيان

---

(1) ابن الأثير، أسد الغابة، مصدر سابق، ج 3، ص. 542.

(2) ابن حجر، الإصابة، مصدر سابق، ج 3، ص. 101.

(10520/1)

... تكاد المصادر تجمع على أن معاوية هو أول من التقى بعبيد بن شرية الجرهمي على اعتبار أنه من الإخباريين المعمرين. وبالرغم من هذا الإجماع، فإنها اختلفت في الطريقة والمكان الذي التقى فيه معاوية بعبيد بن شرية الجرهمي.

... ففي حين ذكر عبيد بن شرية نفسه أنه التقى به في مدينة الرقة (1)، نجد أن ابن قتيبة يشير إلى وفوده على معاوية وهو بالشام (2)، ولكن دون أن يذكر المكان الذي وفد منه: هل كان ذلك من اليمن أو من العراق، وذلك

---

(1) عبيد بن شرية، أخبار، مصدر سابق، ص. 312.

(2) ابن قتيبة، مصدر سابق، ص. 534.

(10521/1)

بناء على نصيحة من عمرو بن العاص لمعاوية باستقدامه.

... أما ياقوت، فنجد اضطراباً في روايته حول لقاء معاوية بعبيد. ففي حين يذكر ياقوت نقلاً عن ابن عساكر أنه وفد على معاوية دون أن يحدد المكان (1)، نجده في موضع آخر أنه لقيه بالحيرة عندما توجه معاوية إلى العراق بعد تنازل الحسن (2). ويعود مرة ثالثة ويقول إنه استحضره من صنعاء اليمن (3)، ليسأله عن الأخبار المتقدمة، وملوك العرب والعجم، وسبب تبلبل الألسنة،

---

(1) ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج 12، ص. 72.

(2) المصدر نفسه، ج 12، ص. 73.

(3) المصدر نفسه، ص. 78.

(10522/1)

وأمر افتراق الناس في البلاد.

... وفي ما تقدم، فإن هذه المصادر القليلة تجمع على لقاء معاوية بعبيد بن شرية. إلا أنها اختلفت في مكان هذا اللقاء. ولكن النقطة اللاَّفتة للنظر هي دور عمرو بن العاص في هذا الشأن، إذ جاء في أخبار عبيد أن عمرو بن العاص قال لمعاوية: »لو بعثت إلى الجرهمي الذي بالرقة من بقايا من مضى، فإنه أدرك ملوك الجاهلية وهو أعلم من بقي اليوم في أحاديث العرب وأنسابها، وأوصفه لما مر عليه من تصاريف الدهر، فبعث إليه معاوية... «(1).

---

(1) عبيد بن شرية، مصدر سابق، ص. 312.

(10523/1)

... والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الشأن هو من أين عرف عمرو بن العاص عن عبيد بن شرية، ومتى وأين التقى به؟ إذ من المعلوم أن عمرو لم يتوجه إلى العراق إلا في فترة النزاع بين علي ومعاوية، أثناء معركة صفين. وفيما بعد، أمضى طيلة حياته في مصر.

... وأمام هذه التساؤلات لا يبقى أمام المرء إلا أن يقرر بأن عمرواً ربما قد تعرف إليه أثناء أحداث وقعة صفين، وأن عبيداً ربما دخل في صف معاوية قاصاً لجنده في ذلك

الوقت العصيب. ولاشك في أن لمثل هذه القصص وقع كبير على جند الشام والغالبية منهم من القبائل اليمانية التي

(10524/1)

انحدرت من الأصل الذي ينتمي إليه عبيد بن شرية الجرهمي.

... أما عن فترة لقاء معاوية بعبيد بن شرية في الشام، فأرجح أنها لم تكن عند ذهاب معاوية إلى العراق بعد تنازل الحسن، وأنها كانت متأخرة عن ذلك وربما كانت في السنوات الأخيرة من عمر معاوية أو أنها قبل ذلك إذ تذكر المصادر أن معاوية قد أصيب في آخر حياته بالأرق(1)، وكان يفتش عن سمَّار يحدثونه ليلاً، ولا سيما في ليالي الشتاء الطويلة، ليقضي عليه ليله، ويذهب عنه همومه.

---

(1) ابن عساكر، مصدر سابق، ج 59، ص. 214.

(10525/1)

... وهناك إشارة أخرى لابد من التعرض لها، وهي عن الغاية التي استقدم بها معاوية عبيداً. فالمصادر تجمع على أنه أراد الاستماع إليه عن أحداث الماضي، ولكن مما يلفت النظر ما ذكره عبيد من أن معاوية لم يكتف بمنادمته ولكن طلب منه أن يكون وزيراً له في أمره(1).

... ومن خلال تتبع حياة معاوية، لا نجد لعبيد بن شرية ذكراً في أن معاوية كان يستشيره في قضاياه، وأن ما ذكره عبيد فيه مبالغة كبيرة، وبالتالي فإن وجوده إلى جانب معاوية لا يعدو أن يكون قصاصاً في مجالس معاوية

---

(1) عبيد بن شرية، المصدر السابق، ص. 313.

(10526/1)

الليلية بعد أن تقدمت به السن.

ثقافة عبيد بن شرية

... لا نستطيع الحكم على ثقافة عبيد إلا من خلال الكتب التي وضعها. وأبرز هذه الكتب هي الأمثال، وكتاب الملوك وأخبار الماضين. ومن خلال تتبع كتب الأمثال التي وصلت إلينا لم نجد فيها ما يشير إلى أن أحدهم قد

أخذ عن عبيد. وحتى بعض الأمثال التي جاءت في أخبار عبيد(1) حاولت البحث عن أصل لها في كتب الأمثال فلم أعثر عليها. ولو أن لهذه الأمثال قيمة علمية في ذلك الوقت، لربما اعتمد عليه من وضع كتباً بهذا الباب. وبالتالي، فإن ذكر اسم

---

(1) المصدر نفسه، ص. 313.

(10527/1)

الكتاب لا يعطينا صورة واضحة عن ثقافته.

... أما الكتاب الثاني، وهو "كتاب الملوك وأخبار الماضين"، فهو الكتاب الذي جاء عنوانه مختلفاً في المصادر التي كتبت عن عبيد. وأخيراً، وصل إلينا هذا الكتاب تحت اسم "أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها"(1).

... ومن خلال ما جاء في "أخبار عبيد"، نجد أن عبيداً كان على درجة من المعرفة بأخبار ملوك لخم وكندة وحمير وغسان(2) بالإضافة إلى معلومات عن العرب البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس وإرم

---

(1) المصدر نفسه، ص. 311.

(2) المصدر نفسه، ص. 313.

(10528/1)

والعماليق وجرهم وقحطان بن هود(1)؛ كما أشار إلى قبيلة جرهم في مكة وزواج إسماعيل منهم(2).

... وجاءت معلوماته حول هذا الأمر مختصرة جداً، بل هي ليست بالجديدة عما كان يتداوله أهل قريش قبل الإسلام. ومن الطبيعي أن يكون لهذه المعلومات انطلاقة جديدة لدى أهل قريش عندما جاء الإسلام، وأخذ الرسول – صلى الله عليه وسلم – يبشر بالدين الجديد.

... وقد أشار عبيد إلى شعر لحسان بن ثابت يذكر ثمود(3)، وشعر لأمية بن أبي الصلت(4)

---

(1) المصدر نفسه، صص. 313 ـ 319.

(2) المصدر نفسه، ص. 315.

(3) المصدر نفسه، ص. 393.

(4) المصدر نفسه، ص. 395.

(10529/1)

. وهذا ما يؤكد ما ذهبت إليه.

... وانتقل عبيد إلى الحديث عن بابل، وتفرق الناس في ذلك الوقت. وهي أيضاً معلومات مقتضبة لا تخرج أيضاً عن كونها قصصاً كان يتداولها الناس في ذلك الزمن.

... ويبدأ عبيد في بداية كتابه بالاستشهاد بالشعر. والواقع أن غالبية الأشعار التي جاء بها عبيد قد وردت لدى وهب بن منبه، مع بعض الاختلاف في الألفاظ، وتقديم صدر بيت أو عجزه على الآخر، وفي بعض المواقع من كتاب "الإكليل" للهمذاني.

(10530/1)

... وإذا كانت وفاة وهب سنة 114 هـ(1)، ووفاة عبيد بن شرية سنة 67 هـ أو 70 هـ(2)

---

(1) محمد بن إسماعيل البخاري (ت 194 هـ)، كتاب التاريخ الكبير، دار الفكر، بيروت، 1407 هـ/ 1986 م، ق. 2، ج 3، ص. 164؛ يعقوب بن سفيان الفسوي (ت 191 هـ)، كتاب المعرفة والتاريخ، المجلد الثاني، تحقيق أكرم ضياء العمري، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1975، صص. 29 ـ 30؛ ابن أبي زرعة (ت 281 هـ)، تاريخ أبي زرعة الدمشقي، ج 1، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني،

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق، 1980، ص. 295.

(2) الزركلي، الإعلام، مصدر سابق، ج 4، ص. 189؛ نور الدين حاطوم وآخرون، المدخل إلى التاريخ، مطبعة الهلال، دمشق، 1972، ص. 152.

(10531/1)

، فمن الطبيعي أن يكون وهب قد عاصر عبيداً، إذ أن ولادة وهب كانت سنة 34 هـ(1). ولكننا لا نجد ذكراً لعبيد في روايات وهب بن منبه؛ كما أننا لا نجد ولو رواية واحدة

---

(1) محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت 748 هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1990، ج 4، ص. 544؛ عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، ط 1، دار المشرق، بيروت، ص. 103؛ يوسف هورفتس، المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1949، صص. 27 ـ 28.

(10532/1)

لابن هشام ترد عند عبيد بن شرية.

... والملاحظ في أمر هذا الكتاب ما يلي:

... أولاً: أن عبيداً في الكتاب كان يخاطب معاوية باسمه فقط فقد وردت أربعاً وعشرين مرة في الكتاب، وأحياناً أخرى بلفظة »أمير المؤمنين«(1). صحيح أن بعض رؤساء القبائل كانوا يخاطبون معاوية باسمه في بعض الأحيان؛ كما أشار إلى ذلك الوليد بن عبد الملك في بعض خطبه عندما قال: »إنكم تكلمون من كان قبل من الخلفاء بكلام

(1) عبيد بن شرية، أخبار، مصدر سابق، ص. 324 ـ 327، 330 ـ 331، 335 ـ 337، 339، 348 ـ 350، 352، 356، 367، 376، 425.

(10533/1)

الأكفاء وتقولون يا معاوية ويا يزيد«(1). إلا أن ذلك لم يكن ليسمح به من قبل عبيد في مجالس سمر معاوية.

... ثانياً: يرد كثيراً عند عبيد بن شرية وهو يقول معاوية بقوله: سمعت ابن عمك ـ والمقصود عبد الله بن

عباس(2). فهل كان يسر معاوية أن يتحدث عبيد عن ابن عباس، وهو يرى في بني هاشم الخصوم الألداء

---

(1) عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ)، التاج في أخلاق الملوك، حققه فوزي عطوان، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ص. 113.

(2) عبيد بن شرية، أخبار، مصدر سابق، ص. 226، 327، 336، 352، 365، 366، 373، 384، 388، 412، 419.

(10534/1)

أو أن هذا الكتاب قد دون فيما بعد، أي بعد قيام الدولة العباسية، فحاول الرواة إعطاء صورة عن علم ابن عباس (صورة تمجيدية)؟

... جاء الكتاب على صيغة أسئلة وجهها معاوية لعبيد بن شرية، وكان عبيد يجيب عليها. وهذا يشير إلى أن معاوية كانت لديه معلومات سابقة عن هذه الأمور، وإلا لما تكونت لديه حصيلة معرفية عن طبيعة هذه الأسئلة.

... ثالثاً: إن عبيد قد حفظ الكثير من الآيات القرآنية. وقد عبر عن ذلك في أكثر ما يزيد على أربعة وعشرين آية أوردها في مواضع متعددة. ويبدو أن معاوية قد أعجب بحفظ عبيد فسأله: «هل قرأت

القرآن؟«. فأجاب: »حفظته في شهر«(1).

... رابعاً: لم تقتصر ثقافته على قراءة القرآن الكريم، بل تعدى ذلك إلى الحديث الشريف(2).

... خامساً: ثقافته الشعرية. يلاحظ أن عبيداً قد أكثر من اقتباس الأشعار التي تؤيد وجهة نظر في ما رواه. ومثال ذلك ما ذكره من شعر الأعشى والنابغة، وأمية بن أبي الصلت، وأسد بن عباس بن مرداس، وابن ربيعة الكلابي،

---

(1) المصدر نفسه، ص. 322، 325 ـ 327، 336، 340، 365، 371 ـ 374، 377، 380، 382، 384 ـ 385، 388، 413، 415 ـ 418، 421، 424.

(2) المصدر نفسه، ص. 323، 326، 352، 378، 381، 438.

وحسان بن ثابت وغيرهم من الشعراء وهم في أغلبهم ممن كانوا في الفترة التي سبقت الإسلام مباشرة(1).

... سادساً: أورد عبيد أقوالاً كثيرة لعبد الله بن عباس.

ولم تتوافر لنا معلومات حول لقائه بابن عباس، ولكن من المرجح أن عبيداً قد التقى بابن عباس عندما كان الاثنان في العراق. ويؤكد ذلك ما ذكره عدة مرات أنه سمع ابن عباس(2).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 353 ـ 354، 367، 393، 395، 405.

(2) المصدر نفسه، ص. 326 ـ 327، 335 ـ 336، 352، 365، 366 ـ 367، 373، 378 ـ 379، 384، 387، 413 ـ 415، 419، 438.

(10537/1)

... سابعاً: كان عبيد في كثير من الأحيان يلجأ إلى التفسير ليربط بين النص القرآني والأحداث التي تحدث عنها معتمداً في ذلك على تفسير ابن عباس(1).

... ثامناً: وعرف عن عبيد أنه كان يجيد لغات أخرى غير اللغة العربية مثل اللغة السريانية والعبرانية. فترد إشارات يذكر الاسم بالعربية وما يقابله بالعبرية أو السريانية(2). فأبو إبراهيم آزر واسمه تارخ، وعبار هو هود.

---

(1) المصدر نفسه، ص. 326، 335، 352، 366، 373، 378، 384، 387، 414، 419، 438.

(2) المصدر نفسه، صص. 313 ـ 315.

(10538/1)

... يمكن تقسيم وجهة نظر العلماء في عبيد إلى فريقين:

... أولاً: فريق العلماء الأوائل؛

... ثانياً: فريق العلماء المحدثين.

... أما الفريق الأول، فيأتي في مقدمته ابن النديم عندما تحدث عن الإخباريين وفي مقدمتهم عبيد، وعدَّه من أوائل الإخباريين الذين سردوا التاريخ بأسلوب قصصي(1). ومع أن المصادر الأولية التي وصلت إلينا لم تشر في غالبها إلى عبيد، فإننا نجد أن البعض قد أخذ عنه بعض المعلومات، ولاسيّما المتعلقة بأخبار اليمن(2)

---

(1) ابن النديم، الفهرست، مصدر سابق، ص. 180.

(2) انظر: الدينوري، الأخبار، مصدر سابق، ص. 7؛ المسعودي، مروج، مصدر سابق، ج 2، ص. 89.

.

... ويأتي في طليعة من أخذ عن عبيد الدينوري(1) والمسعودي حيث قال: »وأما عبيد بن شرية حين وفد على معاوية وسأله عن أخبار اليمن وملوكها وتواريخ سنيها، فإنه ذكر أن أول ملوك اليمن سبأ بن يشجب. وإذا قارنا معلومات المسعودي بمعلومات عبيد، نجد تطابقاً بين الاثنين(2)؛ كما نجد أيضاً هذا التطابق في كتاب "تاريخ سني ملوك الأرض" للأصفهاني(3)

---

(1) الدينوري، المصدر نفسه، صص. 7 ـ 8.

(2) المسعودي، مصدر سابق، ج 2، صص. 89 ـ 90.

(3) حمزة بن الحسن الأصفهاني (ت 336 هـ)، تاريخ سني ملوك الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1980، صص. 180 ـ 190.

. ويتناسب هذا التطابق مع ما أورده وهب بن منبه(1)، ثم جاء الهمذاني فيما بعد وضمّن كتابه بعض الروايات

التي ذكرها عبيد بن شرية في كتاب "الإكليل"(2). وهذا يعطينا مؤشراً بأن الرواة الأوائل قد اعتمدوا على مصادر لم تصل إلينا، أو على قصص وأساطير كان يتداولها الناس في ذلك الوقت.

---

(1) وهب بن منبه (ت 114 هـ)، التيجان في ملوك حمير، حيدر آباد الدكن، الهند، 1347 هـ، ص. 144.

(2) الهمذاني، الإكليل، ج 8، ص. 71، 184، 215، 232، 234، 240.

(10541/1)

... وأما الفريق الثاني، فيأتي في طليعته »كرنكو« الألماني الذي ادعى أن عبيد بن شرية شخصية خرافية اخترعها ابن النديم(1). وأود الإشارة هنا إلى أن عبيد بن شرية قد ذكر في المصادر قبل ابن النديم بفترات طويلة. فالكلبي الذي عاش في القرن الثاني الهجري قد ذكر معلومات عن عبيد قبل ابن النديم بقرنين من الزمن. وكنا نتمنى لو أن »كرنكو« دعم معلوماته بما ذهب إليه، ثم ما الفائدة التي سيجنيها ابن النديم من اختراعه لهذا الاسم، وهو

---

(1) أمين مدني، التاريخ العربي ومصادره، دار المعارف، القاهرة، 1966، ج 2، ص. 374.

(10542/1)

يعلم أن كتابهُ عبارة عن ببليوغرافيا للمؤلفين وكتبهم في الحضارة العربية الإسلامية حتى عصره. ... إن نزولنا عند رأي »كرنكو« معناه نزولنا عن مصادرنا والطعن فيها. فإذا كان ابن النديم يأخذ عمن يتلقف من الأفواه دون تثبت، فما قيمة كتابه "الفهرست"؟ وإذا كان ابن النديم يأخذ عن غير المتثبتين ـ لأنه ذكر ابن شرية ـ فلم لا يكون ابن قتيبة كذلك من الذين يأخذون من غير المتثبتين ـ فهو أيضاً ذكر ابن شرية وقاله عنه: »وفد على معاوية، فسأله عن الأخبار المتقدمة« ـ وما قيمة كتبه: "المعارف" و"عيون الأخبار" و"الشعر

(10543/1)

والشعراء" وغيرها؟ ولم لا يكون الدينوري مثل ابن النديم يأخذ من غير المتثبتين: فهو أيضاً ذكر عبيد

بن شرية في كتابه "الأخبار الطوال"، فقال عنه:

»وذكر عن ابن شرية أنه قال، إلخ«. وما قيمة مؤلفاته؟!

... فالحكم على عبيد بن شرية بأنه شخصية خيالية، وعلى أخباره بأنها من اختراعات أصحاب القصص، حكم يسري على ابن منبه وكعب الأحبار وغيرهما ممن تحدث في العصر الإسلامي عن التاريخ بعقلية النصوص التي اطلع عليها.

... أما جب (Gibb)، فيقول عن كتاب العرب الجنوبيين، ومنهم عبيد، بأنهم يفتقرون إلى الحس والمنظور التاريخي

(10544/1)

حتى حينما يتطرقون إلى أحداث تكون معاصرة لهم(1).

من الطبيعي أن لا يكون لمثل هؤلاء الرواة ذك الحس في تلك الفترة، إلا أنه يمكن القول إنهم بدأوا بوضع أسس المدرسة التاريخية اليمنية.

... أما عن المؤرخين العرب المحدثين، فقد عده جواد علي في طليعة من اشتغل برواية أخبار ما قبل الإسلام(2).

---

(1) ... هاملتون جب، دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة إحسان عباس وآخرين، ط 2، دار العلم للملايين، بيروت،

1974، ص. 114.

(2) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، مكتبة النهضة، بغداد، ج 1، ص. 83.

(10545/1)

وأخذ عليه جواد علي أن أسلوبه كان يميل للأسلوب القصصي الأسطوري(1)، ثم إن الأشعار التي ذكرها على ألسنة التابعة قد تكون من صنعه(2).

... ولم يكن عبيد أول من اتهم بوضع الإشعار لتأييد وجهة نظره في الأحداث التي يرويها، بل إن من جاء من بعده مثل محمد بن إسحق قد وجهت إليه مثل هذه التهمة.

... وإلى مثل ذلك ذهب الدوري الذي ذكر أن الروايات اليمنية الموجودة في المصادر الأولى بمجموعها ذات طابع أسطوري حتى ما كان منها في القرن السادس الميلادي، وهو القرن الذي ظهر

---

(1) المرجع نفسه، ج 1، ص. 83.

(2) المرجع نفسه.

(10546/1)

فيه الإسلام. قبل أن تصلنا روايات متينة، نجد الرواة مثل عبيد بن شرية ووهب بن منبه (ت 114 هـ/ 732 م) يوردون قصصاً خيالية شعرية لتاريخ اليمن هي مزيج من القصص الشعبي والإسرائيليات(1).

... ويرى شاكر مصطفى أن عبيد كان نواة مدرسة اليمن وأساس مدرسة الشام في التاريخ(2)، وأن أول تدوين تاريخي معروف في الإسلام كان في دمشق وبأمر من معاوية حين استقدم عبيد بن شرية إليه وسأله عن

---

(1) الدوري، بحث، مرجع سابق، ص. 15.

(2) شاكر مصطفى، التاريخ والمؤرخون العرب، ط 3، دار العلم للملايين، بيروت، 1983، ج 1، ص. 126، 137.

(10547/1)

أخبار الأمم وأمر الكتبة أن يدونوا أقواله وأن تنسب إليه(1)؛ كما يراه السيد عبد العزيز بأنه كان قصاصاً إخبارياً(2).

... ومن خلال ما تقدم، يمكننا القول ـ بناء على ما جاء في كتابه "أخبار الملوك" الوحيد الذي وصل إلينا ـ إن عبيد كان من أوائل المؤلفين في الأخبار وملوك العرب وأخبار

الماضين، وإن أخباره في طليعة ما دون بناء على أوامر من الخليفة معاوية بن أبي سفيان(3)

---

(1) المرجع نفسه، ج 1، ص. 135.

(2) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1981، ص. 45.

(3) ابن النديم، الفهرست، مصدر سابق، ص. 180؛ ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج 12، ص. 73.

(10548/1)

. وأول من نقل المعلومات هو أحد تلامذة محمد بن هشام(1)؛ وليس أدل على ذلك من أن كتابه هذا قد حصل على شهرة بعيدة، وطلب في كل مكان، وكثرت نسخه المختلفة(2). وإن اختلاف هذه النسخ لا يقلل من أهمية الكتاب، بل ربما يعود إلى النساخ والمهتمين الذين كانوا يضيفون معلومات عليه أو حذف بعضها.

آثار عبيد

... أورد ابن النديم كتابين فقط لعبيد بن شرية: الأول كتاب "الأمثال"؛ وهذا الكتاب - ويا للأسف! - لم يصل إلينا، ولعله لا يزال في

---

(1) عبيد بن شرية، أخبار، مصدر سابق، ص. 312.

(2) جواد علي، المفصل، ج 1، ص. 84.

(10549/1)

خزائن المخطوطات التي لم تكتشف بعد، علماً بأن ابن النديم قد رأى هذا الكتاب في نحو خمسين ورقة (1).

ولاشك في أنه كان يحوي من خلال الأمثال شيئاً من أخبار العرب في الجاهلية. ...

... أما الكتاب الثاني في ما نحن بصدده، فهو كتاب "الملوك وأخبار الماضين"، طبع في حيدر آباد سنة 1347 هـ بعنوان "أخبار عبيد بن شرية"، وضم إلى كتاب "التيجان" لوهب بن منبه (2).

---

(1) ابن النديم، الفهرست، مصدر سابق، ص. 180.

(2) انظر: عبيد بن شرية، مصدر سابق، ص. 311.

(10550/1)

... وأود التنويه هنا إلى أن هذا الكتاب يحمل عنواناً آخر وهو أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها، ولا يزال مخطوطاً

في المتحف البريطاني (1).

... ولدى المقارنة، تبين لنا أن المعلومات الموجودة في الاثنين متشابهة جداً، ولعلَّ هذا الاختلاف في اسم الكتاب جاء من بعض النساخ الذين رأوا أن المادة الأساسية لهذا الكتاب تتعلق بأخبار اليمن، فلا داعي - حسب رأيهم - أن يأتي العنوان مطلقاً، بل أرادوا تقييده حسب المعلومات الواردة فيه.

---

(1) شاكر مصطفى، التاريخ، مصدر سابق، ج 1، ص. 126؛ EI , « Ibn Sharya ».

(10551/1)

... ويذكر حسين نصار أن عبيد نفسه لم يدونه ولا عنونه، بل دونه كتاب معاوية ونسبوه إليه دون عنوانه كما يبدو؛ ومن ثم اختلف النساخ في عنوانه (1).

... أما من حيث المصادر والرواة الذين اعتمد عليهم عبيد، فلم يفصح عنها في كتابه إلا عرضاً في غالب الأحيان. ويأتي في طليعة هذه المصادر الإشارات القرآنية؛ فنلاحظ عبيد يستشهد بالآيات القرآنية، وذلك لإثبات قصصه، ومحاولة إضفاء الصفة الشرعية عليها (2)

---

(1) حسين نصار، نشأة التدوين التاريخي عند العرب، ط 2، منشورات اقرأ، بيروت، 1980، صص. 24 ـ 25

(2) عبيد بن شرية، أخبار، مصدر سابق، ص. 322، 325 ـ 327، 336، 340، 365، 371 ـ 374، 377، 380، 382 ـ 385، 388، 413، 415 ـ 418، 421.

(10552/1)

. كما يعود إلى الآيات القرآنية لتفسير بعض الأحداث وتأييد أخباره (1).

... كذلك استشهد بالآيات في الرد على المتندر به بالقرآن من خلال سؤاله عن قصة بلقيس (2).

... ويستشهد عبيد بالحديث الشريف، وذلك من باب إكساب أخباره صفة المصداقية (3). والتفسير الذي سمعه عن ابن عباس (4) ومن مصادر

---

(1) المصدر نفسه، ص. 326، 335، 352، 366، 373، 378، 384، 387، 414، 419، 438.

(2) المصدر نفسه، ص.323، 326، 352، 378، 381، 438.

(3) المصدر نفسه.

(4) **المصدر نفسه، ص.** 326، 335، 352، 366، 373، 378، 384، 387، 414، 419، 438.

(10553/1)

عبيد أيضاً الاستشهاد بالشعر وأخبار القصص الأخرى (1). ... واستقى عبيد أيضاً معلوماته من كتب أهل الكتاب، أي من "التوراة" و"التلمود"، فكان كثير الاعتناء بكتب القصص اليهودية والنصرانية. وقد أصاب عبيد في أشياء وأخطأ في أشياء أخرى، قد تبدو لليهود من البديهيات. ونجد بين مروياته أقوالاً صادرة عن مصادر نصرانية بالإضافة إلى "الإنجيل"، ومرويات صادرة عن مصادر فارسية وسريانية (2)

---

(1) **المصدر نفسه، صص.** 353 ـ 354، 367، 393، 395، 405.

(2) **جواد علي، المفصل، مصدر سابق، ج** 1، **صص.** 83 ـ 84، 353، 506؛ **نور الدين حاطوم، المدخل، مصدر سابق، ص.** 142، 153.

(10554/1)

. إلا أن ابن النديم ذكر أن عبيد روى عن الكيس النمري النسابة واللسين الجرهمي، وزيد بن الكيس وعبد وُدّ (1).

... وأعتقد أن ابن النديم قد أخطأ في ذكر زيد هذا، إذ قيل إن الكيس لقبه، وزيد اسمه، وبذلك يكون الكيس وزيد اسمين لشخص واحد. وكذلك الكيس واللسين وهو أيضاً تصحيف للكسير، وهذا ما لم يفطن إليه من حقق كتاب "الفهرست". وعبد ودّ الجرهمي والكسير الجرهمي (2). وبذلك يكون من رواته اثنان

---

(1) ابن النديم، مصدر سابق، ص. 180؛ ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج 5، ص. 32؛ ج 12، ص. 78.

(2) ... المصدر نفسه، ج 12، ص. 78.

(10555/1)

من جرهم، والثالث من النمريين، وفيه قال حسان بن ثابت مفتخراً:

وعند الكيس النمري علم

ولو أمسى بمنخرق الشمال (1)

... ويلاحظ على روايات عبيد أنها لا تحفل بالإسناد.

ويبدو أن عدم ذكره الإسناد مرده إلى أن ما جاء في كتاب "الملوك" هو مجموعة من الأقاصيص والأساطير، ولا مجال للإسناد في مثل هذه القصص(2).

هيكل معلوماته

... لا يجد الدارس لآثار عبيد بن شرية تسلسلاً تايخياً للأحداث التي أوردها في كتابه، ويمكن وضع الهيكل الذي بناه عبيد

---

(1) المصدر نفسه، ج 5، ص. 24.

(2) حسين نصار، مصدر سابق، صص. 30 ـ 35.

(10556/1)

لمعلوماته على النحو التالي:

يبدأ الكتاب بالبسملة والحمد، ثم يأخذ في إسناد روايته: »حدثنا عبيد بن شرية الجرهمي عن البرقي يرفع الحديث أن معاوية... «(1).

يشتمل الكتاب مقدمة تتناول ولاية معاوية وولعه

بالسمر وما كان استدعاء عبيد بن شرية من اليمن بإشارة من عمرو بن العاص الذي كان يعرف في معاوية شغفه بأخبار الماضين. وتذهب المقدمة بعدئذ للتعريف بشخصية عبيد وغزارة علمه الذي امتلك به قلب معاوية، كما تشير إلى تقدمه في العمر(2).

---

(1) عبيد بن شرية، مصدر سابق، ص. 312.

(2) المصدر نفسه، صص. 312 ـ 313.

(10557/1)

يتناول عبيد في كتابه تاريخ موطنه اليمن، بادئاً باجتماع البشر في بابل وافتراق ألسنة الناس، ثم تفرقهم شيعاً، وخروج بعض بني سام إلى اليمن. ثم يأخذ في سرد تاريخ هؤلاء اليمنيين مبتدئاً بما أرسل إليهم من أنبياء، وإن كان همه كله موجهاً لملوكهم وغزواتهم في بطون الأرض(1).

أ ـ تحدث عن قحطان باعتبار أنه أول من تكلم العربية. وفي هذا

الباب تحدث عن العرب البائدة مثل عاد وثمود وعمليق وطسم وجديس. وتحدث عن هذه الأقوام والأماكن التي أقاموا فيها(2)

(1) المصدر نفسه، صص. 314 وما بعدها.

(2) ... المصدر نفسه، صص. 316 ـ 380.

.

ب ـ تحدث عن العبرانيين وقتل داود لجالوت(1).

ج ـ تحدث عن القبط(2).

قصص الأنبياء عليهم السلام.

أ ـ نوح عليه السلام وأولاده والأقوام التي تنسب إليهم ولغاتهم ... وأولاد نوح سام وحام ويافث(3).

ب ـ هود وصالح عليهما السلام: تحدث عن هود وبعثه لقبائل عاد.

ولما هلكوا، التحق هو ومن آمن به بمكة وبقوا فيها حتى ماتوا. وبعد أن هلكت عاد، عمّرت ثمود فبطروا وأفسدوا في الأرض، وبعث الله فيها صالحاً نبياً. وقد آمن

(1) المصدر نفسه، صص. 322 ـ 325.

(2) المصدر نفسه، صص. 323 ـ 326.

(3) المصدر نفسه، صص. 322 ـ 327.

به قليل من ثمود، وقد ... أهلك الله قومه فطلب من الذين آمنوا به أن يرحلوا إلى الحرم ... فوصلوا مكة وبقوا فيها حتى ماتوا(1).

ج ـ ويذكر إسماعيل عليه السلام ونشأته مع آل جرهم في مكة ... وزواجه من بنت ابن عمرو الجرهمي(2).

د ـ وينتقل عبيد إلى سليمان عليه السلام الذي تسلم الأمر بعد أبيه ... وعلاقته مع بلقيس وغزواته وحروبه(3).

---

(1) المصدر نفسه، صص. 317 ـ 325.

(2) المصدر نفسه، صص. 315 ـ 317.

(3) المصدر نفسه، صص. 412 ـ 422.

(10560/1)

أخبار الأمم: ذكر الأقوام البائدة، قوم عاد وقوم ثمود(1).

ذكر جرهم وخروجهم من اليمن إلى الحرم(2).

وينتهي الجزء الذي وصل إلينا بمقتل طسم وما قيل في ذلك من شعر.

... وأول ما يلاحظ على الكتاب أنه ليس كتاباً تاريخياً

بالمعنى المصطلح عليه، وإنما هو مجالس سمر تاريخية مدونة. ولذلك يغلب عليه ما يغلب على تلك المجالس من خصائص. فترى الأسلوب الحواري يشيع فيه، أي أن الكتاب اتخذ صورة الحوار بين معاوية وعبيد. قال معاوية: وما كان اللسان يومئذ؟

---

(1) المصدر نفسه، صص. 325 ـ 370.

(2) المصدر نفسه، ص. 396.

(10561/1)

... قال عبيد: سرياني أوله وآخره، وهو لسان نبينا آدم عليه السلام ونوح وإدريس(1).

... قال معاوية: كيف اختصت أرض بابل باجتماع الناس فيها؟

... قال عبيد: هي سرة والأرض في فضلها، وأراد الله ذلك بها(2).

أسلوب عبيد ومنهجه

... من خلال الأخبار التي كونت "كتاب الملوك وأخبار الماضين"، نلاحظ أن عبيد امتاز بأسلوب قصصي يغلبه عليه طابع التسلية، وصاغ قصصه بخيال حاذق متمشياً

في أسلوبه مع أسلوب القصص الشعبي السائد آنذاك والذي كان يروى في المجالس. فأسلوبه امتداد لتلك

---

(1) المصدر نفسه، ص. 316.

(2) المصدر نفسه.

(10562/1)

الحركة القصصية المعروفة بقصص الأيام. وجاءت قصصه بأسلوب بسيط واضح، ولكنه صاغها بقالب أدبي جذاب(1). فهو يطلق لخياله العنان في تصوير الوقائع وكأن الأحداث تجري أمام القارئ. ويلون الحوادث التاريخية بأطياف خيالية تخرج بها إلى حد الأسطورة. ولا غرابة في ذلك، فقد اعتمد الإسرائيليات مادته الأولى في سرد أخباره التي لا يتورع عن الإضافة إليها من جعبته ليسد الثغرات التي لم يجد عنها شيئاً، ويستند إلى تفسير القرآن أحياناً(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 316.

(2) انظر الأخبار التي وردت عند: عبيد بن شرية، أخبار عبيد، مصدر سابق، ص. 325، 336، 356، 38، 359، 361 ـ 364، 367، 370، 396، 425، 428، 433، 439، 483..

.

... وتميل أخبار عبيد إلى الطول، وهذا يتمشى مع أسلوب القصة. ووفقاً للأسلوب الأدبي، ملاحظة الخيال الواسع في قصصه وأخباره، ويلاحظ عنايته بالشعر فقط؛ فكان يستشهد بالشعر كثيراً في ما يروي: فقد أورد شعراً منسوباً إلى عاد وثمود ولقمان وطسم وجديس والتبابعة (1). وهناك أمثلة أخرى عديدة(2)

---

(1) انظر: المصدر نفسه، ص. 316، 321، 328، 331، 333، 338، 339، 341، 351، 361، 388، 395، وغيرها.

(2) المصدر نفسه، ص. 318، 320، 328، 330، 338 ـ 339، 341، 349، 351، 355، 360، 363، 365، 380 ـ 381، 386، 388، 390، 393، 395، 399، 401، 403، 407، 409 ـ 410، 423، 425، 427، 431، 474، 481.

. وأما الشعر الكثير الذي روي على أنه من نظم التبابعة وغيرهم، وفيه قصائد طويلة، فلا ندري أمن نظمه أم من

نظم أشخاص آخرين قالوها على لسان من زعموا أنهم نظموها، أو أنها أضيفت فيما بعد إلى الكتاب ونسبت روايتها إلى عبيد (1). والشعر الذي جاء به عبيد يمكن تقسيمه إلى ثلاثة أقسام: قسم ضعيف ركيك، ليس من الشعر الحق في شيء، وهو موضوع على من نسب إليهم، وهو الغالب على الكتاب، ومن أمثلته ما ينسب لطسم بن لاوذ بن إرم حين انتقل من بابل إلى بلاد العرب (2)

---

(1) جواد علي، المفصل، مصدر سابق، ج 1، ص. 84.

(2) انظر: عبيد بن شرية، مصدر سابق، ص. 319.

(10565/1)

. وقسم آخر أجود من السابق، ولكنه من الموضوعات أيضاً، ومن أمثلته ما ينسب لتبع (1). أما القسم الثالث، فأشعار تنسب إلى شعراء معروفين، مثل العباس بن مرداس، وأعشى بن وائل، وحسان بن ثابت، وأمية بن أبي الصلت، وامرئ القيس، وعبيد بن الأبرص، والنابغة الذبياني(2). وقد وجدت أكثر هذه الأشعار في دواوين أصحابها، وإن كانت قد تختلف في بعض الألفاظ والعبارات.

---

(1) انظر: المصدر نفسه، ص. 400.

(2) انظر: المصدر نفسه، ص. 353 ـ 354، 367، 393، 395، 405.

(10566/1)

... وهناك ظاهرة جديرة بالتسجيل في عداد حسنات عبيد، إذ نراه يُعْنَى في بعض الأحيان بإيراد جملة من الأشعار بعد سرده الأخبار التي يعالجها، كما فعل بعد تناوله أخبار عاد وثمود، وكان عبيد يشعر بأن هذا المنهج الأكمل (1). ومن أجل السمر أيضاً، عني عبيد ببعض القطع النثرية وجودها وهذَّبها، لتلفت النظر من باقي الأخبار، وتظهر هذه القطع أوضح ظهورها في بعض الأحاديث التي ينسبها عبيد لأبطال تاريخه، وفي بعض أوصافه للأجناس (2).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 335.

(2) المصدر نفسه، ص. 336، 483.

(10567/1)

... ومن خصائص أسلوب عبيد أنه متأثر بالقرآن الكريم محاولاً أن يتبع خطاه، وأنه يستند إلى آياته ويقتبس من ألفاظه (1). ويقصد من ذلك إثبات قصصه ومحاولة إضفاء الشرعية عليها، فيورد آيات عن العرب البائدة (2). ويعود عبيد إلى الآيات القرآنية لتفسير

---

(1) ... انظر: المصدر نفسه، ص. 322، 325 ـ 327، 336 ـ 337، 340، 352، 365، 370 ـ 371، 374، 378، 380، 384 ـ 385، 388، 414، 416، 422، 424.

(2) انظر: المصدر نفسه، ص. 325، 327، 336، 340، 352، 365، 370، 373 ـ 375، 378، 380، 384 ـ 385، 388، 412، 416، 418، 422، 424.

(10568/1)

بعض الأحداث، وتأييد أخباره عن عاد وثمود إجابة على أسئلة معاوية (1). ويصرح حسين نصار فيقول: »وإن نحن لا نبعد كثيراً عن الصواب، إذا أعددنا كتاب عبيد مدونة تحوي الأخبار التاريخية، معالجة كما كان يعالجها الجاهليون، ولا تختلف عنهم إلا في اعتمادها على القرآن في قصص الأنبياء والشعوب التي تعرض لها القرآن«(2)، واعتمد عبيد بن شرية في القصص القرآنية

على ابن عباس كثيراً (3)

---

(1) انظر: المصدر نفسه، ص. 325، 327، 336، 340، 352، 365، 370، 375، 378، 380.

(2) حسين نصار، نشأة، مصدر سابق، صص. 31 ـ 32.

(3) عبيد بن شرية، أخبار عبيد، مصدر سابق، ص. 327، 366، 419؛ EI, « Ibn Sharya ».

(10569/1)

. ويلاحظ أيضاً أن عبيد يستشهد بالحديث الشريف، وذلك بهدف إضفاء الصحة والمصداقية على أخباره (1). ويلاحظ عنايته بالأنساب، فيورد سلسلة ملوك اليمن وتواريخ سنيها (2).

... يغلب على عبيد المبالغة وعدم التدقيق فيما يرويه ويقبله دون نقد أو تمحيص، بالرغم من أن أغلبه أساطير؛ فهو قلما ينقد أخباره، بل يحورها ليكسبها حيوية. وهذا يظهر في حديثه عن عاد ومللوكها وعن لقمان وأعمارهم،

---

(1) المصدر نفسه، ص. 323، 326، 378.

(2) المصدر نفسه، ص. 332، 335، 367، 370، 396، 415؛ المسعودي، مروج، مصدر سابق، ج 2، صص. 89 ـ 92.

(10570/1)

وعن عا الآخرة وعن ثمود وملوكها وصالح نبيها ولمع من أخبارها، وذكر مكة وأخبارها، وبناء البيت، ومن تداوله من جرهم وغيرها، وذكر اليمن وأنسابها وما قاله الناس في ذلك، وذكر اليمن وملوكها من التبابعة وغيرها، وسيرها ومقادير سنيها، وأخبار أصحاب الفيل، واختلاط الألسنة، ومسير يعرب وسكناه اليمن، ومسير عاد إلى الأحقاف وإرم ذات العماد(1).

_____

(1) ... المصدر نفسه، ص. 325، 327، 330، 336، 350، 352، 356، 367 ـ 368، 385، 394، 396، 425، 428، 433، 439.

(10571/1)

... ويلاحظ أحياناً أن روايات عبيد يُعارض بعضها البعض كما ظهر في الحديث عن لقمان بن عاد، وعن أعمار بعض الملوك(1). ولا يورد روايات عديدة عن الخبر نفسه، بل

يقتصر على إيراد خبر واحد؛ فهو لا يوثق معلوماته ولا يعرض وجهات النظر المختلفة. والذي يبدو أن روايات عبيد حرفت على يد نقلها مستغلين شهرته وشهرة كتابه وأخذوا ينسجون من عندهم أخباراً مدعين أن عبيد ذكرها(2)

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 225، 327، 330، 350، 356، 368، 424 ـ 425، 428، 432.

(2) ... جواد علي، المفصل، مصدر سابق، ج 1، ص. 84؛ مدني، مصادر، مصدر سابق، ج 2، ص. 376 ـ 377، 402.

(10572/1)

.

... وظهرت في أخبار عبيد خاصية تظهر في المسامرات، ألا وهي خاصية الاستطراد. فكثيراً ما كان عبيد يذكر عرضاً في أثناء حديثه بعض الأمور أو الأشخاص، فيسأله معاوية عنهم، فيضطر إلى الخروج إليهم، ثم يرجع إلى السياق الأصلي. وكان معاوية يشير عليه أحياناً بالرجوع إلى السياق قائلاً: »خذ في حديثك« أو »خذ في حديثك الأول« أو »دع هذا وخذ في حديثك الأول«. وكان معاوية يستعجل أحياناً بعض الحوادث، فيشير عليه

عبيد بالتمهل(1). وغلب على

---

(1) ... عبيد بن شرية، أخبار عبيد، مصدر سابق، ص. 337، 365، 405، 408، 413، 451.

(10573/1)

أخباره الخيال البدائي المبالغ بل المغرق في المبالغة، وخرجت أخباره قصصاً وخرافات وأساطير، عن ملوك اليمن، لا تختلف في شيء عما كان في الجاهلية، في غالب الظن. بل يمكننا أن نعتبر كتابه تدويناً للقصص التاريخية التي كانت شائعة في الجاهلية، وخاصة في جنوب بلاد العرب. وهي قصص تاريخية، لا أخبار تاريخية، فلا نستطيع أن نخرج منها بأخبار تاريخية علمية، وإنما نظفر بأدب شعبي خيالي. ومما يكمل صورتها ويقرب بينها وبين الجاهلية تلك الأنساب التي تشيع فيها، حتى قلما يظهر شخص دون أن تورد سلسلة نسبه، حقّاً كانت أو

(10574/1)

باطلة(1). وقد رتب عبيد معلوماته بشكل يشبه التسلسل الزمني وإن لم يورد ذلك بتاريخ أو تحديد للزمن، فهذا مفقود عنده، ولكنه تناول الأقدم ثم الذي يليه زمناً ثم الذي يتبعه(2).

---

(1) ... جواد علي، المفصل، مصدر سابق، ج 1، صص. 83 ـ 84؛ مدني، مصادر، مصدر سابق، ج 2، ص. 375؛ نور الدين حاطوم، المدخل، مصدر سابق، صص. 152 ـ 153.

(2) ... عبيد بن شرية، أخبار عبيد، مصدر سابق، ص. 335 ـ 336، 358 ـ 359، 361 ـ 364، 367، 370، 425، 428، 433، 439.

(10575/1)

... وفي الختام يتبين مما سبق أن عبيداً من الرواة الأقرب إلى القصاص منهم إلى المؤرخين. ويصدق القول على ما رواه بالقصص التاريخي، لذلك وصلت إلينا أخبار ضئيلة لا قيمة لها خالية من الفكرة التاريخية الموضوعية. وما صنفه عبيد في هذا الموضوع دليل واف على أن العرب الأقدمين كانت تنقصهم الملكة التاريخية والنفوذ إلى الحقائق حتى في أخص ما يتصل منها بحوادث العصر. ومع ذلك، فقد قبلت الأجيال التالية روايات عبيد بمجموعها

وأدمجها المؤرخون وكتاب آخرون في مؤلفاتهم(1)

---

(1) ... الدوري، بحث، مرجع سابق، ص. 15؛ مدني، مرجع سابق، ج 2، صص. 376 ـ 377؛ جب، »تاريخ«، دائرة المعارف الإسلامية، ج 2، ص. 124.

(10576/1)

. ويكفي عبيد أن معلوماته كانت أول تدوين تاريخي معروف في الإسلام وبأمر من معاوية حين استقدم عبيد بن شرية وسأله عن أخبار الأمم وأمر الكتبة أن يدونوا أقواله وأن تنسب إليه(1). وقد مهد الطريق لمن أتى بعده من المؤرخين الذين تأثروا به من ناحية المادة والهيكل، وابن خلدون لم يتوان عن إيراد هذه القصص بعينها لتحلية نظرياته والترغيب فيها(2).

---

(1) ... مصطفى، التاريخ، مصدر سابق، ص. 135.

(2) ... جب، »تاريخ«، دائرة المعارف الإسلامية، مرجع سابق، ج 9، ص. 124.

(10577/1)

... فكل من يطلع على كتاب أخبار ابن شرية يجده أسئلة يجيب عنها ابن شرية، ونجد أكثر أجوبة ابن شرية تستند إلى مصادر اطلع عليها عبيد بن شرية كما يظهر من قوله: »ويقال: جميع أجناس الفرس من ولده، إلخ« و»بلغني أن أولاد "بربر"، إلخ«، وقال: »وقال أسد بني ناعض«(1).

... لم يتطابق الكتاب مع المقدمة التي ذكرناها، إذ أنه ذكر أنه سوف يتحدث عن ملوك لخم والغساسنة. إلا أنه لم يورد عنهما شيئاً فيما بعد، ولا ندري هل تعرض لهم أو أن ما كتبه عنهم قد فقد.

---

(1) عبيد، أخبار عبيد، ص. 321.

(10578/1)

... وفي الختام يتبين لنا مما سبق أن عبيداً من أوائل الإخباريين القصاص، وأن المعلومات التي وصلت إلينا في كتابه تتطابق تماماً مع المعلومات التي ذكرها وهب بن منبه وكعب الأحبار. وهذا ما يؤكد أنهم قد نقلوا عنه دون أن يشيروا إلى ذلك صراحة أو أنهم جميعاً قد استقوا هذه المعلومات من مصدر واحد لم يصرحوا به.

... وكتاب عبيد ذو أهمية كبيرة، لا في تطور حركة

التأليف التاريخي فحسب، بل لأنه يكشف لنا النقاب عن الثقافات التي كان يعرفها العرب في الصدرالأول من الإسلام، وربما التي كان يعرفها العرب في الجاهلية، وخاصة

(10579/1)

في اليمن.

... وعلى أية حال، فإن الإخباريين اليمنيين يعتبرون الرواد في الكتابة التاريخية، وإن سرودها بالأسلوب القصصي الذي تغلب عليه الناحية الأسطورية في بعض الأحيان لا يقلل من أهمية المعلومات التي أوردوها.

... بل يمكن القول إنها كانت نقطة البدء في التدوين التاريخي الذي بدأ يأخذ طريقه منذ النصف الثاني من القرن الهجري الأول عن طريق مدرسة المغازي التي بدأت بعروة بن الزبير، إلى أن بدأت تتضح معالم المدرسة التاريخية في العصر العباسي انطلاقاً من بدء الخليقة مروراً بأيّام العرب والسير والمغازي حتى

(10580/1)

اكتملت الحلقة التاريخية العربية الإسلامية.

(10581/1)

عوامل انتشار الإسلام في آسيا أندونيسيا أنموذجاً

... ... الدكتور عادل محيي الدين الألوسي

... ... نائب عميد كلية الآداب ـ جامعة ذمار ـ اليمن

منهج البحث

يعكس البحث أموراً ثلاثة:

... الأول: أن العرب وصلوا إلى هذه الأصقاع منذ وقت مبكر على جناح التجارة واستوطنوا هناك وبعد القرن السابع الميلادي، تحولوا إلى دعاة للإسلام الحنيف الذي وجد فيه الأندونيسيون حلولاً شافية لما يعانونه من تمزق ديني وظلم اجتماعي. وهذا يفسر لنا الإقبال المنقطع النظير الذي حظي به الإسلام.

(10582/1)

... الثاني: إن شعوب جنوب شرقي آسيا (بورما ولاوس وفيتنام وكمبوديا وسيام أو تايلاند وشبه جزيرة الملايو، أي ماليزيا الغربية؛ وأرخبيل الملايو الذي يضم سنغافورة وأندونيسيا، أي جزائر الهند الشرقية؛ وسريلانكا، أي سيلان أو سرنديب، والهند والسند ...) والشرق الأقصى (الصين واليابان والفلبين) تعرفت الإسلام واعتنقته سلمياً وتدريجياً بأسلوب الجدل والإقناع الذي يستند إلى الحكمة والمنطق والموعظة الحسنة.

... والأمر الثالث: قابلية اللغة والثقافة العربيتين، وهما في ظل الإسلام، للانتشار في بلدان نائية تبعد عن الأرض

(10583/1)

العربية آلاف الأميال بحيث تركت بصمات واضحة في حياة تلك البلدان، ولا سيما أندونيسا.

... يتناول بحثي ثلاث فقرات:

... الأولى: بواكير صلات العرب بأندونيسيا.

... الثانية: كيفية وصول الإسلام إلى أندونيسيا.

... الثالثة: عوامل الأسلمة الأندونيسية.

وأملي وطيد في أن أوفق بإذن الله.

1 . بواكير صلات العرب بأندونيسيا

... ابتداء صلات بلاد العرب بالشرق الأسيوي قديمة قدم حضارتي وادي الرافدين ووادي النيل، ربما تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد(1)

---

(1) حوراني جورج مغنلو، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، دار الكتاب بمصر، 1958، ص. 1.

(10584/1)

. ركبت البحر على جناح التجارة عبر المحيط الهندي متخذةً من ضياء أكيلا (Acilla) الواقع على مقربة من رأس الخيمة (مسندم) في الخليج العربي منطلقاً لها. وفيما بعد تتابعت هجرات عرب جنوب شبه الجزيرة العربية في هذا الاتجاه. وتعد هجرة الحضارمة في الألف الرابع الميلادي، وعلى وجه التحديد قبيل انقراض الدولة الحميرية في اليمن، أعظم هجرة عربية منظمة إلى ربوع الشرق، حيث كون هؤلاء العرب في كوجرات التي يسميها العرب قزرات جالية كبيرة أطلق الهنود عليها اسم عربتو (Arabito)، ومنها انطلقوا صوب جزائر الهند الشرقية

(10585/1)

(أندونيسيا) والفلبين والصين(1).

... وترجع هجرتهم هذه إلى عوامل طبيعية تتمثل في قساوة مناخ جزيرة العرب الصحراوي الحار الجاف، فضلاً عن أزمات الجفاف التي كان نصيب حضرموت منها كبيراً(2). وهناك من يرجع هجرتهم إلى أحداث سياسية تعرضت لها دولة الحميريين في اليمن أدت إلى

---

(1) صلاح الدين البكري، "هجرة العرب إلى أندونيسيا"، ضمن مجلة الثقافة العربية المصرية، العدد 386، سنة 1946، ص. 19.

(2) عادل محيي الدين الألوسي، تجارة العراق البحرية مع أندونيسيا حتى أواخر ق 7 هـ، بغداد، الشؤون الثقافية، 1984، ص. 127.

(10586/1)

تصدع الجبهة الداخلية وفقدان الأمن ووقوع البلاد تحت أطماع البيزنطيين والأمباس وأخيراً سيطرة الفرس(1).

... نزل هؤلاء الحضارمة أولاً في شواطئ سومطرة الشمالية

الغربية، ومن ثم تسللوا إلى ثغور جاوة الشمالية وبقية الجزر الأخرى. لقد أثبتوا نشاطاً اقتصادياً لا يبارى وقدرة على الاتجار لا تجارى حتى وصلت سفنهم إلى أربعين سفينة تجوب أرخبيل الملايو ومكاسر الصين، وساعدهم على ذلك حسن معاملة الأندونيسيين لهم، مما

---

(1) محمد إسماعيل الندوي، تاريخ الصلات بين الهند والبلاد العربية، دار فتح، بيروت، د. ت.، ص. 18.

(10587/1)

شجعهم على استمرار تجاراتهم واستيطان بعضهم هناك وكان لهؤلاء العرب النصيب الأوفر في نشر الإسلام لاحقاً (1).

... هذه الفعاليات التجارية كانت بداية صلات العرب بالشرق الأقصى عموماً وبأندونيسيا على وجه الخصوص. ذلك بأن التجار العرب اتخذوا من الهند محطة توصلهم إلى سرنديب أولاً ثم إلى أندونيسيا ثانياً وإلى الصين وأطراف الشرق الأقصى أخيراً، وهو ما أكدته مؤلفات بلدانيِّينا أمثال سليمان التاجر في رحلته إلى الصين والهند والتي يرجع زمنها إلى سنة 237 هـ/ 851 م، وابن خرداذبة في

(1) البكري، مقال مذكور، ص. 20.

(10588/1)

مؤلفه أو دليله السياحي "المسالك والممالك" أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، والمسعودي في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" الذي ألفه في حدود النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي (1). ... ... يؤكد Chau Ju-Kua، وهو خبير متمرس بشؤون التجارة الخارجية في ميناء خانقو (كانتون) إبان القرن الرابع الهجري. ومن خلال عمله دوَّن كتاباً بالصينية سماه "جوفان جي إي إي" ("تذكرة عن الأمم

(1) عادل محيي الدين الألوسي، العروبة والإسلام في جنوب شرقي آسيا، بغداد، الشؤون الثقافية، 1988، ص. 47.

(10589/1)

الأجنبية"): «إن الطريق البحري إلى الصين لابد من أن يمر عبر San-Fots، أي بالمبانغ في الساحل الشرقي

لسومطرة التي يصفها بممر الأمم ومخزن تجارات العالم« (1). وثنى على هذه الأهمية ابن بطوطة الذي زعم أنه مر في طريق عودته من الصين بأندونيسيا بقوله (2)

---

(1) The Chinese and Arab Trade in the Twelfth and Thirteenth Centuries, Translated by Hirth and Rock Hill, Amsterdam, 1966, p. 193.

(2) شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطندي ابن بطوطة (ت 779 هـ/ 1377 م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مصر، 1964، ج 2، ص. 152.

(10590/1)

:

... بعد أن غادرت ميناء الزيتون ـ وهو ميناء اجوان شو في فوكين ـ جنوب الصين. وبعد شهرين وصلنا إلى الجاوة ونزلنا في سومطرة وقضيت فيها شهرين سافرت بعدها فوصلت بعد أربعين يوماً إلى كولم ـ أي كويلون ـ ومنها إلى قالقوط (ربما هي كلكتا الآن) ومنها إلى ظفار ومنها إلى مسقط

... كشفت التنقيبات الآثارية التي قامت بها وزارة الثقافة الأندونيسية عن ثلاثة آلاف رقيم حجري ومعدني مكتوبة بالعربية(1) بعضها منقوش عليه بالخط المسند

---

(1) Soedjamoko, An Introduction to Indonesian Historiography, New York, p. 48.

(10591/1)

الحميري، والبعض الآخر عبارة عن شواهد قبور مدون عليها أبيات من الشعر العربي معلمة بالتاريخ الهجري. فقد كتب على قبر ابن عم الملك الكامل والذي كان داعية أسلم على يده كثير من أهل سومطرة الغربية الأبيات التالية (1):

إنما الدنيا فناء ليس للدنيا ثبوت

... ... ولقد يكفيك منها أيها الطالب قوت

إنما الدنيا كبيت نسجته العنكبوت

... ... ليس إلاَّ في قليل كل ما فيها يموت

---

(1) فيصل السامر، الأصول التاريخية للحضارة العربية

الإسلامية في الشرق الأقصى، دار الطليعة، باريس، 1977، ص. 66.

(10592/1)

... وتشكل الدراسات الجادة التي قام بها ثلاثة من المؤرخين الأندونيسيين مؤخراً أهمية خاصة. فقد أثبتت هذه الدراسات وجود التجار العرب في شواطئ سومطرة الشمالية وبالذات في أتشيه (Atjeh) قبل مجيء الإسلام حتى أن هذه الدراسات أطلقت عليها «الواجهة العربية في أندونيسيا» وأنه بظهور الإسلام تحول معظم هؤلاء المستوطنين إلى دعاة للدين الجديد. من هذه الدراسات ما ذكره البروفسور قدر الله الفاطمي الذي لخص تاريخ دخول الإسلام إلى أندونيسيا على النحو التالي(1)

---

(1) وزارة الشؤون الدينية الأندونيسية، لمحة عن أندونيسيا، 1979، ص. 14.

(10593/1)

:

... 1 ـ أول اتصال جرى بين المسلمين والأندونيسيين

كان عام 55 هـ/ 674 م.

... 2 ـ وصل الإسلام إلى مدن السواحل، أي سواحل سومطرة الشمالية منذ سنة 59 هـ/ 678 م.

... 3 ـ نال الإسلام السلطة السياسية وانتشر في أندونيسيا عام 602 هـ/ 1205 م.

... أما الأستاذ نجيب الغطاس، فقد أكد أن أقدم المخطوطات التي تحدثت عن استيطان العرب المسلمين للأرخبيل الأندونيسيّ هي عبارة عن تقارير صينية، في حين ذهب الأستاذ محمد حسين نانيا إل أن وصول الإسلام إلى أندونيسيا قد حدث زمن الرسول – صلى الله عليه وسلم –.

(10594/1)

---

2 ـ بواكير صلات العرب بأندونيسيا

... من المناسب أن نطرح جانباً احتمال أن يكون الإسلام قد دخل إلى أندونيسيا عن طريق المبشرين. ذلك بأن كلمة »مبشر« أو »إرسالية« (Missionary) لا وجود لها إلا في الدين المسيحي، فليس في الإسلام كنيسة أو رئاسة بابوية، بل هناك دين يتداخل مع الدولة يمثله الرسول – صلى الله عليه وسلم – أو الخليفة الذي يجمع السلطتين الدينية والدنيوية، وأن انتشار الإسلام كان

بطريقتين: إحداهما الفتح وفرضه بالقوة العسكرية إن لم تنفع الوسائل الإرضائية، ومن ثم دخول سكان البلاد المفتوحة في دين

(10595/1)

الدولة التي رعت مصالحهم وكفلت حقوقهم ناهيك عن الإيجابية التي تحلت بها العقيدة الإسلامية السمحاء، وهذا النمط في نشر الدعوة لم تتجاوز حدوده سواحل الهند. ومرد ذلك إلى البعد وضعف إمكانات الدولة البحرية إن لم نقل تهيبها من البحر ومخاطره. هنا يبرز السؤال: كيف وصل الإسلام إلى أندونيسيا؟

... بالتأكيد، الإجابة تفرض نفسها؛ إذ لا وسيلة لهذا الوصول إلا بالطريق السلمي الذي تعد التجارة مرتكزه الأساسي. فطبيعة هذه الفعالية تتطلب انفتاحاً على الناس وتقرباً إليهم بإظهار الخلق والمعاملة الحسنة وبالصداقة وأحياناً

(10596/1)

بالزواد والمصاهرة التي كثيراً ما تنتهي بالاستيطان(1). وهذا ما درج عليه العرب الحضارمة الذين وصلت طلائعهم إلى جزائر الهند الشرقية (أندونيسيا) منذ عهد مبكر يرجع إلى ثلاثة قرون سبقت الإسلام(2). هذا، إذا كان التاجر ينشد الاتجار وسيلة عيش وربح ليس غير. أما إذا كان التاجر مسيساً يدعو لمعتقد، فلابد ـ والحالة هذه ـ من توافر قدر معين

---

(1) Bernard H. M. Viekke, Nustantara : A History of Indonesia, Bandung, 1959, p. 83.

(2) Wilford T. Nell, Twentieth Century Indonesia, Ney York and London, 1973, p. 250.

(10597/1)

من المنطق يمكن أن يستعمله التاجر لبث ما يحمله من أفكار أو معتقدات؛ وهذا ما حدث للتجار الدعاة الذين نشروا الإسلام في هذه الأصقاع بالمنطق والمجادلة والموعظة الحسنة والإقناع مستندين في ذلك إلى قوله تعالى: { ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن } (1).

... وبشأن وصول الإسلام إلى أندونيسيا، نطرح الآراء

التالية:

... .الرأي الأول: يفترض أن التجار العرب .والحضارمة في مقدمتهم .هم أول من حمل الإسلام إلى »أرض الهند«(2)

---

(1) الآية 125 من سورة النحل.

(2) "أرض الهند" تسمية أطلقتها مصادرنا التاريخية والبلدانية. وتمتد من الهند لتشمل معظم البلدان الواقعة إلى الشرق من شبه القارة الهندية. (يراجع أيضاً: القاموس السياسي، دار النهضة العربية، 1968، ص. 680).

(10598/1)

وأندونيسيا منه. وبعد ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي وتنامي قوته وتبلور مفاهيمه، تحول معظم هؤلاء التجار من العرب .وبعضهم كان قد استوطن .إلى دعاة لنشر الإسلام في أندونيسيا، وفي ذلك ضمان لمصالحهم التجارية وإبقاء لعقيدتهم التي آمنوا بها(1).

... لقد وفد الإسلام إلى أندونيسيا بين تيارات متعددة صينية وهندية وعربية وأوربية، تياراً متدفقاً سليماً وتدريجياً وساطته التجارة، ولكنه فعال في تأثيره

وانتشاره. وذلك يعود إلى اعتناق الدين قبل

---

(1) صلاح الدين البكري، حضرموت السياسي، مصر، 1935، ص. 240.

(10599/1)

تعلم شعائره وتفصيلاته، لأنه في وقت ما بدا متلائماً مع أسلوب الحياة الدارج وكأن العملية بكل ما فيها من أساسيات محاولة للتوفيق بين الإسلام الوافد والأنموذج الأندونيسي القائم. وهذا الفهم يفسر لنا ظاهرتين رافقتا دخول الإسلام إلى هذه الجزر، أولاهما: الإقبال المنقطع النظير الذي لقيه الإسلام حتى صار خلال قرون تلت دين الأغلبية الساحقة؛ وثانيتهما: أندونيسية الإسلام، أو بعبارة أخرى الخصوصية الأندونيسية التي فرضت نفسها لا في جوهر الإسلام المنصوص عليه في القرآن الكريم والسنة النبوية والتي لا مجال للتحريف

(10600/1)

والوضع فيها، ولكن في الشكل العام طقوساً وممارسات يومية(1).

... .الرأي الثاني: يفترض أن الدعاة الهنود هم أول من نشروا الإسلام في أرخبيل الملايو(2). ويستند أصحاب هذا الرأي إلى أن معرفة الهنود بأندونيسيا قديمة تمتد إلى بداية القرن الأول الميلادي. وخلال القرون التي تلت ظل الهنود يتجولون على طول

---

(1) نيووينهويجزه، "أندونيسيا"، تراث الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين، مصر، 1957، ص. 402.

(2) ... سير توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين، مصر، 1957، ص. 402.

(10601/1)

شواطئ الأرخبيل تجّاراً ودعاة للهندوسية. وخلال ذلك، كانت الحضارة الأندونيسية تعرف بالحضارة الهندو - جاوية(1). فاللغة السنسكريتية التي حملها الهنود أضافت إلى اللغة الملاوية مفردات أسهمت في تكوين لغة أندونسيا المعاصرة (Bahasd)؛ كما أن هناك دلائل اجتماعية منتشرة في سومطرة تعود في أصولها إلى العادات والتقاليد الهندية مثل الرقص والموسيقى

والنحت والأدب والهندسة المعمارية ونظام الطبقة الدينية المتميزة، أي نظام القسس، ونظام

---

(1) Dorothy Woodman, The Republic of Indonesia, London, 1955, p. 131... .

(10602/1)

المجاميع الاقتصادية ذات الاستقلال الذاتي(1).

ويذكرون التشابه المذهبي السائد في أندونيسيا والمتمثل في الشافعية التي يرجحون أنها انتقلت إليهم في سواحل كروماندل وملابار في الهند، فضلاً عن أن شكل الإسلام الشعبي بخصوصيته الأندونيسية وصفته الصوفية لها ما يشابهها تماماً في بلاد الهند(2).

وأخيراً، يفزع أصحاب هذا الرأي إلى الأدلة المادية ومنها المخطوطة التي وجدت في قرية سمدرة في ساحل سومطرة الشمالي الشرقي، وهي شهادة وفاة تكريمية مكتوبة على شاهد ضريح سلطان مالك الصالح الحاكم

---

(1) Op. cit., p. 132.

(10603/1)

المسلم المتوفى في العام 696 هـ/ 1297 م. وقد أثبتت الدراسات التي أجريت على هذه المخطوطة أن الحجر قد جلب من سواحل الهند الغربية بوساطة التجار الهنود الذين اعتنقوا الإسلام وتحولوا إلى دعاة للإسلام في أندونيسيا(1).

... .الرأي الثالث: ومفاده أن الإسلام دخل إلى أندونيسيا على يد الدعاة الفرس. وأصحاب هذا الرأي يستندون إلى حجج ودلائل، منها الخبرة التجارية التي عرف بها الإيرانيون. وعلى زعم حمزة الأصفهاني(2)، فإن أسطول الساسانيين زمن كسرى أنوشروان قد وصل إلى سواحل سرنديب، قبيل ظهور النفوذ

(10604/1)

البحري الإسلامي. حتى إن أهل الصين أطلقوا تسمية فارس (Pi-Se) على كل القادمين من منطقة الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية(1). وفي هذا الصدد يذكرون أن هناك حروفاً وكلمات فارسية لها ما يشابهها في الفارسية، وأنه كان في حاشية ملك أتشيه فارسيان أحدهما في سيراز والآخر في أصفهان(2)، وأن مولانا ملك إبراهيم الذي يعد من أوائل الدعاة الذين نشروا الإسلام في

(2) محاضرة عن جزر الهند الشرقية الهولندية، ألقاها إسماعيل الغطاس في نادي الشبان المسلمين بمصر، 1929، نشرت ضمن كتاب حاضر العالم الإسلامي، ص. 367.

(10605/1)

جاوة، قد جاء من إيران(1)، مع أن الدراسات التي قام بها المؤرخان الهولنديان كرن (Kren) وموكيت (Moquette)على قبر هذا الداعية قد أثبتت أنه كان تاجراً ثرياً، ولكنه ليس فارسياً بالضرورة(2).

... .الرأي الرابع: يفترض أن الإسلام دخل إلى أندونيسيا بوساطة التجار الأندلسيين أنفسهم الذين وصل بعضهم بتجاراته إلى الخليج العربي منذ القرن السابع الميلادي، وكانت لهم علاقات رفاقية ومصالح متبادلة مع

---

(1) M. C. Ricklefs, Jogjakarta under Sultan Mangkubumi 1749–1792, London, 1974, p. 3.

(2) Soedjamoko, p. 82.

(10606/1)

التجار المسلمين من الهنود ةالصينيِّين والعرب(1). لقد أسهم التجار الأندونيسيون بدور ثانوي، ولكنه مهم في دخول أبناء جلدتهم في الإسلام؛ ذلك بأن الدعاة التجار بمختلف جنسياتهم كانوا قد احتكوا بالأهالي، وهؤلاء بدورهم لقنوه أفراد عائلاتهم ومنهم إلى أصدقائهم وعملائهم وهلم جرّاً، وهذا ما حدث في جاوة وبقية الجهات الشرقية(2)

---

(1) جوجيين تجوان، "الوضع التجاري المتغير للصين في جنوب شرقي آسيا"، ترجمة محمد اينش، ضمن المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، ع 8، السنة الثانية، يوليو - سبتمبر، 1972، ص. 57.

(2) Soedjamoko, p. 30.

(10607/1)

.

... ويمكن أن نقسم الدعاة الذين شكلوا نواة الدعوة الإسلامية في أندونيسيا إلى: عرب سبق أن استوطنوا سواحل سومطرة الشمالية الغربية منذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، منهم من اعتنق الإسلام وهو في بلاد المهجر أو من حمله معه إلى هناك في هجرته؛ وإلى

تجار غير عرب من جنسيات مختلفة نقلوا إسلامهم مع تجارتهم التي وصلوا بها إلى سواحل الأرخبيل(1).

3 ـ عوامل الأسلمة الأندونسية

... ظاهرة تحول أندونيسيا السريع نحو الإسلام ظاهرة لافتة للنظر، ونرى أنها ترجع إلى عدة عوامل.

---

(1) Ricklefs, p. 2.

(1/10608)

... وفي مقدمة هذه العوامل العامل الديني المتمثل في عقيدة الإسلام ومبادئه التي دعت إلى رفع شأن انفرد وتحقيق ذاته، والقضاء على سلطة الكهنة البراهميين والنظام الطبقي الهندوكي، فضلاً عن أن الإسلام أشبع ميول السكان المحليين الروحية. فقد كان ممثلاً للسلطة في أشخاص الحكام المسلمين، وممثلاً للحضارة في أشخاص التجار الوافدين(1). إن معتقدات المسلمين الصوفية وجدت توافقاً إلى حد ما مع المعتقدات الأندونيسية القديمة التي تميل إلى الفلسفة الغيبية كالإيمان بإلاهات الحسن الثلاث: الجمال والفنون والمهارات

(1/10609)

وهي على الأكثر تركة هندوسية، وإن الأساس الذي قامت عليه هذه المعتقدات هو ما يعرف بالحيوية (Animism) التي تشكل الأساس لكل تصورات الأندونيسيين الدينية القائمة على فكرة أن كل تقلبات الطبيعة ومظاهرها هي نتيجة لعمل قوى غيبية (فوق الطبيعة) وأغلبها أرواح شريرة يمكن إرضاؤها وتجنب غضبها بمنتهى الحذر والتعقل، وأن المكونات الأساسية لهذا الدين الأندونيسي قائمة على اعتقادين(1): اعتقاد مفاده أن كل حي له نفس (soul) هي قوة حياته؛ وهي وإن كانت واحدة عند الجميع، فإنها قد تكون أقوى في واحد دون آخر أو إنها

(10610/1)

أكثر تمركزاً في جزء من أجزاء جسم الإنسان منه في جزء آخر. واعتقاد ثانٍ يؤمن بوجود نفس فردية تلازم الشخص الحي طوال حياته؛ وعند موته تبقى ملازمة للأماكن التي كان فيها أو ما يجاورها، وإن هذه النفس لا تنسحب من الاهتمام بشؤون الجماعة بل تبقى مهتمة بها ومشاركة فيها، وإن هذه النفس تغضب إذا ما خرج الأبناء على

عادات الأجداد أو كفوا عن تأدية الواجبات لهذه الأرواح؛ ولذلك يحرص الأندونيسيون على المحافظة على قيمهم القديمة من خلال عبادة الأجداد والتمسك بالتراث.

(10611/1)

... لقد تجنب الإسلام استفزاز الخصوصيات التي تشبث بها السكان المحليون. وبعبارة أدق، صار الحل إلى توفيق أو قلْ تكييف بعض العادات والتقاليد بما يتقارب أو ينسجم مع مبادئ الدين الإسلامي. وبالطبع، إن عملية التوفيق لم تكن على حساب الركائز الدينية للإسلام، ونعني بها الفرائض الخمس: فمقابل التشدد في الإقرار بوحدانية الله ونبوّة محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم – وترديد شعار الأسلمة (الشهادة) وإتيان واجبات العبادة المقدسة (الصلاة)، كانت هناك مرونة في تمرير روحانيات لا تتعلق بجوهر الإسلام(1)

---

(1) Nell, p. 254.

(10612/1)

.

... ثم العامل السياسي المتمثل في الصراع الداخلي بين الدويلات والإمارات الأندونيسية أولاً، وصراع هذه الكيانات المستمر ضد السلطة المركزية الهندوكية ثانياً. أسهم هذا العامل في دفع بعض أمراء هذه الدويلات وزعمائها ونبلائها إلى اعتناق الإسلام بوصفه سلاحاً فعالاً ضد الهندوك يحظى بتأييد شعبي يمكن أن نتلمسه في الإقبال الشديد الذي لقيه الإسلام بين السكان المحليين الذي خفف من اختلافاتهم العنصرية والعصبية والمصلحية في وحدة وطنية تنشد التحرر من السيطرة الأجنبية وبناء أندونيسيا المسلمة(1)

---

(1) فيصل السامر، "الإسلام في أندونيسيا"، ضمن مجلة الأقلام، السنة الخامسة، آذار 1969، ص. 13.

(10613/1)

.

... وضمن هذا العامل تأتي الانتصارات المتلاحقة التي حققتها الدولة العربية الإسلامية في المجال السياسي والعسكري بصفتها قوة متوثبة أسقطت الكسروية الساسانية وكسرت شوكة الإمبراطورية البيزنطية

وحررت الأراضي العربية التي أنَّتْ من سيطرتهما الطويلة. هذا المد الإسلامي انعكس إيجاباً ليس على حكام الدويلات الأندونيسية فقط، بل على كل حكومات جنوب شرقي آسيا والشرق الأقصى بشكل تسابقت معه هذه الحكومات عموماً على كسب ود الخلافة العربية الإسلامية التي حرصت بدورها على إقامة أحسن العلائق مع هذه الحكومات. ولا أدل

(10614/1)

على ذلك من كثرة السفارات والوفود المتبادلة بين الطرفين والتي وصلت إلى أكثر من ثلاثين سفارة وصلت إلى تلك البلاد النائية في العصرين الأموي والعباسي(1). هذه الإيجابيات سهلت من مهمة الدعاة المسلمين على المستويين الشعبي والرسمي.

... ومن العوامل التي أسهمت في الأسلمة الأندونيسية، العامل الاقتصادي الذي تمثله التجارة النشيطة بين جزر الأرخبيل أو التي تتجاوز المياه الأندونيسية إلى الصين والهند والخليج

---

(1) F. R. S. Jpseph Needham, Sciences and

, vol. I, p. 1971Civilisation in China, Cambridge,
.215

(10615/1)

العربي، والتي يعول عليها بوصفها مصدراً للربح وزيادة الدخول عن طريق المكوس والضرائب المفروضة على التجارات التي تمر بموانئهم فضلاً عن البضائع المصدرة والمستوردة. ويلاحظ أن معظم من زاول التجارة كانوا من حكام المقاطعات والأمراء والنبلاء. ولما كانت التجارة عبر المحيط الهندي بيد العرب، فقد سعى التجار الآسيويون، ولا سيما الأندونيسيون منهم، إلى كسب صداقة التجار المسلمين؛ مما أدى بشكل أو بآخر إلى قبول بعض التجار أمراء ونبلاء بالدين الجديد. وهناك رواية تزعم أن سلطان باساي المسلم فتح أسواقه لحاكم مالقا

(10616/1)

مقابل إسلام الأخير(1). وفي هذا الصدد، لابد لنا من أن ننوه بأن قيام الدولة العباسية، وانتقال مركز الخلافة إلى العراق وبناء بغداد، وتوسع وظائف ميناء البصرة

التجارية، ونشوء علائق صداقة بين خلفاء بني العباس ومعاصريهم من حكام جنوب شرق آسيا والصين، وما صار إليه المجتمع العربي الإسلامي من تطور وتمدن، وما رافق ذلك من تعدد في الحاجات وزيادة في نسب الاستهلاك على نطاق الفرد والجماعة والدولة التي صارت السوق الأعظم للتجار، كما يقول

---

(1) M. Allen Sierers, The mystical World of Indonesia, London, 1974, p. 44.

(10617/1)

ابن خلدون(1)، وما فرضه الإسلام من حج وحضه على الرحلة وطلب العلم، واهتمام بني العباس ببلدان الشرق وجهودهم في تأمين الطريق البحري الموصل إلى هذه البلدان، وما إلى ذلك من عوامل شجعت على ازدهار التجارة الإسلامية التي اتخذت من الخليج العربي والمحيط الهندي مسرحاً لنشاطها، ومن بغداد والبصرة منطلقاً لهذا النشاط التجاري المحموم(2).

---

(1) عبد الرحمن بن محمد الحضرمي ابن خلدون (ت 808 هـ/ 1405 م)، المقدمة، إحياء التراث، بيروت، د. ت.، ص. 55.

(2) عادل محيي الدين الألوسي، تجارة العراق ...، ص. 19 وما بعدها.

(10618/1)

... لقد وجد الأندونيسيون، تجاراً وصناعاً وفقراء عموماً، في الإسلام ديناً يمنحهم العدل والمساواة ومتنفساً يخلصهم من سيطرة الطبقات المستغلة بما أحياه فيهم من دينامية غذت العملية الثورية في أندونيسيا.

... إن الرأي القائل بأن العاملين الاقتصادي والسياسي كانا الأساس في انتشار الإسلام في أندونيسيا، كما ذهب إلى ذلك فان لير، بتأكيده دور الطبقة الأرستقراطية والفئة الحاكمة، ويغفل ـ بقصد أو من غير قصد ـ خاصية الإسلام الإصلاحية الشاملة لكل نواحي الحياة، وأسلوبه الإقناعي الذي بدا في وقت ما ملائماً لنمط

(10619/1)

الحياة الأندونيسية الدارجة(1).

... إلى جانب ما ذكرنا، هناك عوامل أسهمت في هذه

الأسلمة، منها أن التجار العرب استفادوا من الخبرة التي كونوها عن المجتمع الهندي الذي وطئته أقدامهم أول مرة في التكيف مع المجتمع الأندونيسي الذي يشبه إلى حد ما المجتمع الهندي(2)، مما أسهم في ارتفاع معنوياتهم وتحسن أوضاعهم النفسية فضلاً عن أن بعض التجار كانوا هنوداً مسلمين ولا يستبعد أن يكونوا أندونيسيين اعتنقوا الإسلام وأخذوا يدعون له. ثم إن

---

(1) مقالة "أندونيسيا"، ضمن تراث الإسلام، ص. 214.

(2) Soedja30moko, p. ..

(10620/1)

طبيعة التجارة آنذاك يغلب عليها طابع المقايضة وتخلو من التنافس الرأسمالي. هذا النمط الاجتماعي والاقتصادي قرب، أو قلّ حبب للمغترب فكرة التأقلم والاستيطان، وهو ما حدث مع بعض التجار المسلمين كما حدث لسابقيهم أو معاصريهم من الصينيين والهنود والإيرانيين مع فارق عنصر المؤاخاة والسواسية التي يؤمن بها الإسلام(1). وكان لإغلاق ميناء خانقو (كانتون) في الصين دون التجار العرب والأجانب في أعقاب الاضطرابات والفتن الداخلية التي اجتاحت سواحل

الصين الجنوبية بثورة أنلوشان عام 139 هـ/ 756 م،

---

(1) Op. cit., p. 43.

(1/10621)

ونهب كانتون عام 141 هـ، وأخيراً سقوط أسرة تانغ عام 294 هـ/ 906 م(1)، أثر في تحول طرق التجارة إلى موانئ أرخبيل الملايو، وصارت كله بار على الساحل لشبه جزيرة ملقا (سنغافورة الحالية) آخر نقطة تصلها السفن القادمة من الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية(2). هذا التحول انعكس إيجاباً في ازدياد أهمية الموانئ الأندونيسية أولاً، وفي ازدهار التجارة العربية الأندونيسية ثانياً، مما أدى إلى تغلغل التجار العرب المسلمين في المجتمع الأندونيسي وبالتالي دخول عدد كبير من الأندونيسيين في الإسلام.

(1/10622)

... وأخيراً، نشير إلى

(1)

«

»

»يروموك«

– صلى الله عليه وسلم –

2 . بواكير صلات العرب بأندونيسيا

... من المناسب أن نطرح جانباً احتمال أن يكون الإسلام قد دخل إلى أندونيسيا عن طريق المبشرين. ذلك بأن كلمة

(10623/1)

فصوص العربية وقوالب نحوها

... ... الدكتور محمد الأوراغي

... ... كلية الآداب . الرباط

تقديم

... بينا في أعمال سابقة(1) أن التغاير البنيوي للغات البشرية ناتج عن تباين فصوصها حجماً وعدداً. ووضحنا أن المعجم بوصفه فصاً لغوياً ليس واحداً في كل اللغات. إذ ظهر انقسامه إلى معجم شقيق ومعجم مسيك كما بينا كيف يتفرع فص »النحو«، في اللغات التوليفية،

إلى »التركيب« و»الإعراب«.

---

(1) انظر: د. محمد الأوراغي، »نحو اللغة العربية التوليفي«، ضمن مجلة التاريخ العربي، العدد الثالث عشر.

(10624/1)

بينما في النمط التركيبي من اللغات يتفرع إلى »التركيب« و»التصريف«. وظهر أيضاً أن حجم فص التصريف في التركيبيات مغاير لحجمه في التوليفيات. ... ما قدمناه في الفقرة أعلاه لا يعني أن ننهض حالياً بدراسة مقارنة بين الفصوص النمطية في اللغات البشرية، لأن مثل هذا العمل سبق لنا أن قمنا به في أبحاث أخرى(1)، بل يهمنا الآن أن نحدد محتويات فصوص النمط التوليفي من اللغات، ثم أن نكشف عن كيفية انتظام تلك الفصوص لتشكيل نسق

---

(1) انظر: د. محمد الأوراغي، الوسائط اللغوية، ج 2، » اللسانيات النسبية والأنحاء النمطية«.

(10625/1)

نمطي كما هو متمثل في اللغة العربية. لكن كيف السبيل إلى معالجة الإشكال المذكور، وما الغاية منه؟ أما الغاية، فتنحصر في إعداد الوسائل الكفيلة بمعالجة واردة لمسألة التوافق بين النظرية وموضوعها. فإذا سلمنا بأن كل نموذج يتم بناؤه بالقياس إلى حقل معين من الموضوعات، بحيث يصير النموذج مشابهاً لأصله بنيةً ووظيفة، وجب أن تأتي قوالبُ النماذج النحوية على قدر فصوص اللغة محتوى وانتظاماً.

... تأكد، في إطار النظرية اللسانية النسبية من عدة وجوه، أن كل لغة بشرية تنتمي إلى نمط لغوي ما، وأن النمط اللغوي تعيّنه

(10626/1)

وسائطُه النمطية التي تحدد طبيعة فصوصه وبنيته القولية. ومن المعلوم أيضاً أن النحو ما هو إلا تمثيل نظري لنمط لغوي يصطنعه اللساني لفهم بنية لغوية وإنتاج تلك البنية. لعلاقة التمثيل هذه بين الفص اللغوي والقالب النحوي، يحكم على ورود النحو بالقياس إلى النمط اللغوي الذي يعبر عنه. ولا تطابق بين النموذج الاستكشافي والواقع الموصوف إذا لم تكن قوالب النحو مشاكلة لفصوص اللغة التي يصفها.

... ويُفترض في القوالب، إذا صيغت بلغة رياضية، أن يُشكل كل واحد منها »نموذجاً فرعياً« يختص باستنباط الملحوظ في ظواهر الفص

(10627/1)

اللغوي القرين. وعليه، يجب أن يتكفل بكل فص قالب في إطار نهوض مجموع قوالب النموذج بمجموع فصوص اللغة. وللزيادة في توضيح الفرق بينهما نأخذ مثال المعجم المعتبر في ذهن المتكلمين فصاً لغوياً وفي قاموس اللغويين قالباً لسانياً، والقاموس وصف للمعجم دون غيره من فصوص اللغة. ولشدة اقترانهما، صح إطلاق اسم أحدهما على الآخر. كما أن بناء القَوِلَةِ وتغيير أبنيتها يعتبر فصاً، لكن العلم بقواعد البناء والتغيير قالب؛ وعليهما معاً تطلق راسمة التصريف(1)

---

(1) التصريف الموضوع والتصريف العلم يمثلان على التوالي العمل والعلم بكيفية مباشرة العمل، كما يتضح من قول ابن جني: »التصريف إنما هو أن تجيء إلى الكلمة الواحدة فتصرفها على وجوه شتى«. (المنصف، ج 1، ص. 3)؛ وقول الرضي: »القانون الذي تعرف به أبنيتها تصريف«. (شرح الشافية، ج 1، ص. 5). وبين الشيء في

حد ذاته وبينه وبين التمثيل للعلم به فرق تتخذه أساساً للتمييز بين الفص اللغوي والقالب النحوي.

(10628/1)

.

... يلزم عما تقدم أنه يتعذر إقامة نموذج نحوي وارد بالنسبة إلى نمط لغوي ما لم تحدد فصوص هذا الأخير من حيث العدد والمحتوى والعلاقات الجامعة بينها. ولإدراك هذه الغاية، يتعين الاهتمام أيضاً بالوسيلة المنهجية الكفيلة بإظهار استقلال الفصوص وتعالقها في آن واحد، لأنه على ذاك المنوال يجب أن تبنى قوالب النموذج النحوي المقترح لنمط لغوي.

... تنزع نماذج نحوية حديثة إلى البناء القالبي للقواعد. وهي في ذلك تقدم له تصورات مختلفة إلى حد كبير، الأمر الذي يدعو إلى إعادة طرح هذا الموضوع في إطار لسانيات نسبية يمكن

(10629/1)

من الإحاطة بقواعد القالب الذي يقترن بالفص اللغوي، ويجنب التفريع غير الوارد للقالب الواحد، أو اصطناع قالب لا يقترن بفص، إذ تبين أن النمطية تنال أيضاً القالبية.

1 . تفريع اللغة إلى فصوص

... التفريع الإجرائي للموضوعات المتواصلة التي تشكل حقلاً واحداً وسيلة منهجية قديمة، يلجأ إليها الباحث في كل زمان للتغلب على دراسة الظواهر البالغة التعقيد حتى إذا أتقن فهمها أعاد بناءها. وقد تسبب هذا التفريع المنهجي في توليد تخصصات ضيقة داخل كل حقل من حقول العلم. فنشأت علوم فرعية يختص كل منها بموضوع يتألف من مسائل

(10630/1)

خاصة وأخرى مشتركة يبرهن عليها من مبادئ عامة تستغرق كل العلوم الفروع.

... تفريع العلم المعين تبعاً لتجزيء موضوعه تُنوول عُلومياً من خلال التطرق إلى العلاقات التي يمكن أن تقوم بين العلوم النظرية. من تلك العلاقات يهمنا الاحتمال الأخير في عبارة ابن سينا إذ يقول:

... إن اختلاف العلوم الحقيقية هو بسبب موضوعها وذلك السبب إما اختلاف الموضوعات، وإما اختلاف موضوع واحد... إن اختلاف الموضوعات للعلوم إما على الإطلاق من غير مداخلة... وإما مع مداخلة... وهذا على وجهين: إما أن يكون أحد الموضوعين أعم كالجنس،

(10631/1)

والآخر أخص كالنوع أو الأعراض الخاصة بالنوع؛ وإما أن يكون في الموضوعين شيء مشترك وشيء مباين (1).

يلزم إذن أن تكون في الموضوعات المتداخلة مسائل مشتركة بين علوم فرعية ومسائل أخرى مباينة يستقل علم فرعي ببحثها.

... من بين أهم الحقول المعرفية التي مورس فيها التفريع المذكور نجد علم اللسان وتبعاً للتصور المكون عن موضوع هذا العلم اختلف العدد المقترح لأجزائه(2)

---

(1) ابن سينا، البرهان، ص. 104.

(2) بضم القواعد الخاصة بالشعر إلى ضوابط الكتابة والقراءة، وإدخال كل ذلك في اللسان، يكون الفارابي قد وسَّعَ تصوه لهذا الموضوع، حتى انقسم عنده العلمُ الذي يتناوله إلى »سبعة أجزاء عظمى: علم الألفاظ

المفردة، وعلم الألفاظ المركبة، وعلم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة، وقوانين الألفاظ عندما تركب، وقوانين تصحيح الكتابة وقوانين تصحيح القراءة وقوانين الأشعار«. (إحصاء العلوم، ص. 59). وحين جعل السكاكي اللسان من علم الأدب، وجد لأقسامه تركيبة متميزة صاغها بقوله: »وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب، دون نوع اللغة، ما رأيته لابد منه. وهي عدة أنواع متآخذة، فأودعته علم الصرف بتمامه وإنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق... وأوردت علم النحو بتمامه، وتمامه بعلمي المعاني والبيان... ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحد والاستدلال، لم أر بُدّاً من التسمح بهما... وما ضمنت جميع ذلك كتابي هذا إلا بعدما ميزت البعض عن البعض التمييز المناسب«. (مفتاح العلوم، ص. 3). ولعل السكاكي (626 هـ) قد أخذ هذا التفريع عن أبي البركات الأنباري (577 هـ) لما بين التقسيمين من شدة التشابه، كما يظهر من قول الأنباري »علوم الأدب ثمانية: النحو، واللغة، والتصريف، والعروض، والقوافي، وصنعة الشعر، وأخبار العرب وأنسابهم. وألحقنا بالعلوم الثمانية علمين وضعناهما وهما: علم الجدل في النحو، وعلم أصول النحو«. (نزهة الألباء، ص. 89). وحينما نظر ابن جني في العلاقة القائمة بين فرع بعينه وبين ما يتصل به مباشرة أو بواسطة أورد من علوم اللسان ما أودعه في

قوله: »التصريف وسيطة بين النحو واللغة يتجاذبانه، والاشتقاق أقعد في اللغة من التصريف كما أن التصريف أقرب إلى النحو من "الاشتقاق"«. (المنصف، ج 1، ص. 4).

(10632/1)

.

... لكن فروعاً قارة يتردد ذكرها لدى أكثر من مصنف لعلوم اللسان، بالإضافة إلى استقلال كل فرع بجهود لسانيين وتفرده بأعمالهم. ويعنينا الآن أن نسرد هذه الفروع فصوصاً وقوالب لنعود مرة أخرى إلى تفصيل محتوياتها النمطية.

... من المذكور في الطرة (5) السابقة يتبين أن الفارابي يستعمل عبارة »علم الألفاظ المفردة« للدلالة على جانب من الفرع اللساني المسمى »لغة« (1)

---

(1) اللغة، في اللسانيات العربية القديمة، استعملت أولاً بمعنى المعجم حالياً، إذ كان صاحب المعجم يوصف باللغوي. وتظهر بهذا المعنى من خلال تعاريفها وتعاريف عملها، كقولهم: »حد اللغة كل لفظ وضع لمعنى... واللغات عبارة عن الألفاظ الموضوعة للمعاني«. (السيوطي، المزهر، ج 1، ص. 8): »واللغة عبارة عن العلم

بالكلم المفردة «.(ابن يعيش، شرح المفصل، ج 1، ص. 11). وقولهم في تعريف اللغة وتحديد موضوعه: »وأما حد الفن، فهو علم يبحث فيه عن مفردات الألفاظ الموضوعة، وقد علم بذلك أن موضوع علم اللغة المفرد الحقيقي... وعلم اللغة علم الأوضاع الشخصية للمفردات «. (الفيروزابادي، القاموس المحيط، ج 1، ص. 2). وتكون اللغة مستعملة بمعنى المعجم عند ظهورها بجانب التصريف والنحو في أي تصنيف لعلوم اللسان. وقد استعملت اللغة أيضاً بمعنى النسق الرمزي المستعمل للتواصل، كما بيظهر من قول ابن جني :» أما حدها، فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم«. (الخصائص، ج 1، ص. 3).

(10633/1)

في عرف اللسانيين العرب القدماء. وهو الذي يرادف المعجم حالياً. وهذا الجانب من اللغة يُعنى بقضايا الدلالة المعجمية، في حين نجده يستعمل عبارة »علم قوانين الألفاظ المفردة «، ويريد بها الجانب الثاني من اللغة. وهو الذي يعني بالتمثيل الصوتي للمداخل المعجمية. وعليه، يجب ألا يخلو لسان أمة من فرع اللغة أو المعجم المختص بمزاولة التمثيل الدلالي والصوتي للمداخل

المعجمية، لأنه لا يخلو كتاب تعرض لتصنيف علوم اللسان من ذكر فرع اللغة الذي سنخصه من الآن فصاعداً باسم المعجم.

(10634/1)

... إلى جانب المعجم يأتي، فيما سقنا من النصوص، ذكرُ النحو وقد شعبه الفارابي وغيره إلى »الإعراب«. وهو العلم الذي يعطي قوانين أواخر الكلم عندما تركب. وبعبارة أخرى »إنه علم يبحث فيه عن أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناءً(1)، وموضوعه الكلم العربية من حيث ما يعرض لها من الإعراب والبناء«. والقسم الثاني من النحو يمثله »التركيبُ«. وهو الذي يتكفل تبعاً للفارابي بإعطاء »قوانين في أحوال التركيب والترتيب نفسه«(2)

---

(1) الصبان، حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، ج 1، ص. 18.

(2) الفارابي، إحصاء العلوم، ص. 61.

(10635/1)

. وغايته، كما ذكر السكاكي في "مفتاحـ"ه، اكتساب المعرفة بالقواعد التي تضبط »كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى... وأعني بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذاك«(1).

... والملاحظ في عبارة كل من الصبان والسكاكي أن الأول يعرف النحو مركزاً على قسم الإعراب منه. ويعرفه الثاني وقد غلَّب التركيب. بينما الإعراب قسيم التركيب. ومنهما يتألف النحو، كما جاء في قول الفارابي »علم قوانين الألفاظ عندما تركب ضربان: أحدهما يعطي قوانين

---

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص. 37.

(10636/1)

أطراف الأسماء... والآخر يعطي قوانين في أحوال التركيب«. عملاً بالمثبت هنا، يجب أن تتشعب قواعد نحو اللغات التوليفية إلى طائفتين: قواعد تركيبية وأخرى إعرابية. ولا يمس هذا التقسيم غير النمط التوليفي من اللغات البشرية.

... كل من دقق النظر فيما يتفرع إليه اللسان من علومه

الفرعية إلا واقترن ذكره للتصريف بجانب الاشتقاق.

وهو ما تكشف عنه عبارة ابن جني، بوصفه أكثر اللسانيين العرب تأليفاً فيهما، إذ يقول: »وينبغي أن يُعلم أن بين التصريف والاشتقاق نسباً قريباً واتصالاً شديداً«(1)

---

(1) ابن جني، المنصف، ج 1، ص. 3؛ ود. محمد الأوراغي، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم.

(10637/1)

. وقد سبق أن عيَّنّا درجة اتصالهما بإقامة علاقة التوازي بين الاشتقاق الكَلِمِي الذي يسبب التصريف القَوِلِي، لشدة اتصالهما سنجمعها هنا براسمة »التشقيف «المركبة تركيباً مزجياً من الاشتقاق والتصريف.

ونجعل هذه الراسمة تتشعب إلى: 1) الاشتقاق الذي يعنى بقواعد التفريع الدلالي؛ 2) التصريف الذي يهتم بقواعد التغيير القولي. وإذا ثبت تداخل الاشتقاق والتصريف من جهة اشتراكهما في موضوع واحد: يتكون من المفردات، إلا أن كل واحد منهما يستقل بجانب.

فاختص الاشتقاق بالوجه الدلالي للمفردة (= الكلمة)، وانفرد التصريف

بوجهها الصوتي (= القَوِلَة) (1). واستحق كلاهما التفرد براسمة خاصة على مذهب المحققين(2)

(1) الكلمة كالكلام لتناولهما التمثيل الدلالي لا غير؛ فالكلمة ترتبط بدلالة المدخل المعجمي والكلام بدلالة بنية الجملة، كما أن القَوِلَة كالقول لتناولهما التمثيل الصوتي فقط؛ فالقَوِلَة تخص الجانب الصوتي للمدخل كما يخص القول البنية الصوتية للجملة.

(2) انتفاء الصرامة في التمييز المطرد بين الموجهين الدلالي والصوتي للمفردات أو المركبات منها سبب في استعمال الرواسم نفسها حين تناول قضايا اشتقاقية أو صرفية حتى عند من يُفرق بينهما، وهم قلة، منهم القنوجي. كما يظهر من قوله: »علم الاشتقاق هو علم باحث عن كيفية خروج الكلم بعضها عن بعض بسبب مناسبة بينهما بالأصالة والفرعية باعتبار جوهرها. والقيد الأخير يخرج علم الصرف، إذ يُبحث فيه أيضاً عن الأصالة والفرعية بين الكلم. ولكن لا بحسب الجوهرية، بل بحسب الهيئة... فامتاز أحدهما عن الآخر، واندفع توهم الاتحاد«. (القنوجيّ، العلم الخفاق من علم الاشتقاق، ص. 67).

.

... لتداخل العلوم الفروع بسبب اشتراكها في الموضوع نفسه يكون الحديث أحياناً عن قضايا صرفية أو معجمية مفضياً إلى اقتحام مسائل من الصوت اللغوي. من مباحث هذا الفرع ما أدخله الفارابي في المعجم. إذ جعل »علم قوانين الألفاظ المفردة يفحص أولاً في الحروف المعجمية: عن عددها ومن أين يخرج كل واحد منها في آلات التصويت«(1). ومباحث أخرى من فرع الصوت اللغوي جعلها السكاكي من قضايا الصرف (2)، يجمعها الاهتمام بالأحوال العارضة لأصوات اللغة بسبب

---

(1) الفارابي، إحصاء العلوم، ص. 60.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص. 4.

تفاعلها عند ضم بعضها إلى بعض.

... وبغض النظر عن تداخل موضوعات كل من المعجم والصرف و»النَّحْو«(1)، فإن الفرع الأخير يشكل في

اللسانيات العربية تخصصاً متميزاً. فتفرد بمؤلفات كاملة، أو ببعض فصولها، كما تخللت مباحثه أغلب كتب الصرف والتجويد والقراءات(2)

---

(1) يُطلق النَّصْغُ على فرع الصوت اللغوي المتشعب إلى النَّطْق الذي يتناول أصوات اللغة مفردةً، وإلى النَّصْت الباحث في تلك الأصوات مركبة من حيث ما يعرض لها من الأحوال.

(2) مما طُبع وانتهى إلينا "أسباب حدوث الحروف" لابن سينا. والكتاب في قسم النطق من فرع النصغ؛ إذ يتناول خصائص كل تصويتة على حدة مما تستعمله اللغة العربية. ومما جاء في قسمي النصغ، النَّطْقِ والنَّصْتِ، كتاب "سر صناعة الإعراب" لابن جني كما يتضح من تقديمه له: »وإنما الغرض فيه ذكر أحوال الحروف مفردة أو منتزعة من أبنية الكلم التي هي مصوغة فيها... وأقروا ذلك شيئاً فشيئاً على تأليف حروف المعجم«. وممن خص فصولاً من كتابه للنصغ نذكر الخليل في "معجم العين"، وسيبويه في "الكتاب"، وابن سنان في "سر الفصاحة"، والداني في "التيسير في القراءات السبع"، وابن الجزري في "النشر في القراءات العشر". وغير هؤلاء كثير جداً. وانظر أيضاً جون كنتينو، دروس في النطق

العربي (Jean Cantineau, Cours de phonitique Arabe) على فقر اطلاعه في هذا الباب.

(10641/1)

. وقد كشفت المؤلفات المسرودة في الطرة أسفله عن تشعب النصغ، بوصفه فرعاً من اللسان يُعنى بخصائص التصويتات وقواعد تركيبها، إلى النّطق الذي يتولى أولاً حصر التصويتات المستعملة من بين المقدور عليه في كل لسان، وإلى النَّصْت الذي يجعل من تراكب تلك التصويتات موضوعاً، ومن تجريد قواعده غاية. ولاشك في أن البحث في خصائص التصويتات وكيفية تراكبها يكوّن أحد فروع اللسان. وفي أن النظر في موضوع هذا الفرع يدخل في أخصِّ خَوَاصِّ اللغات البشرية بَلْهَ نمطَها.

(10642/1)

... بقي مما أورده السكاكي من علوم اللسان أن ننظر في علم المعاني والبيان. وعند الفحص الدقيق للقضايا التي يختص كلا العلمين بمعالجتها، يتضح معنى قوله:

»وأوردت علم النحو بتمامه، وتمامه بعلمي المعاني

والبيان«. فكشف في أكثر من موضع في كتابه عن تداخل علمي النحو والمعاني، بل يتحدث عنهما في الغالب بالرواسم نفسها.

... وباعتبار ما سبق من تشعيب النحو إلى الإعراب والتركيب، فإن الضرب الأخير عند السكاكي لا يفترق في شيء عن علم المعاني. وقد صرّح بوحدة موضوعهما في مباحث النحو إذ قال: »اعلم أن علم النحو هو أن

(10643/1)

تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم... وأعني بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض...

وسيزداد ما ذكرنا وضوحاً في القسم الثالث إذا شرعنا في علم المعاني بإذن الله«(1). وكرره في مباحث علم المعاني بقوله: »اعلم أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام... وأعني بخاصية التركيب ما يسبق منه إلى الفهم عند سماع ذلك التركيب«(2).

... وحدة التركيب وما يعرف بين البلاغيين بعلم المعاني تتجلى أيضاً في حديث الجرجاني عن النظم (3)

---

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص. 37.

(2) المصدر نفسه، ص. 77.

(3) انظر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص. 55 و525؛ وفخر الدين الرازي، الإيجاز في دراية الإعجاز، ص. 105.

(10644/1)

إن استعمله في معنى إنشاء علاقات تركيبية بين مركبات متناسبة دلالياً ووظيفياً وقد استجابت مواقعها الرتبية لأصول تداولية معينة. وكذلك من خلال المسائل التي ناقش فيها سيبويه. من كل ما ذكر يتبين أن علم المعاني لا يتجاوز معناه عملية التأويل الدلالي لبنية قولية، وبذلك لا يستقل بالنظر في مسائل خاصة به.

... خلصنا مما سبق إلى أن ما سمي بعلم المعاني ليس سوى عملية تأويل لأبنية الجمل، ومن ثمة لا يشكل أحد فروع اللسان، ولا أحد ضروب فروعه؛ لأن من شروط التفريع الاستقلال بالموضوع وبوصف قواعده كما سيتضح بعد قليل.

(10645/1)

... وإذا ثبت أن علم المعاني لا يفرك ولا يشم، فما وضع رفيقه علم البيان. أيستقل بموضوع أو بجهة منه أم أنه يبحث في مسائل يتناولها فرع لساني آخر. من جملة ما يلاحظ بسهولة في موضوع علم البيان أن أغلب مسائله مبحوثة أيضاً في المعجم. وهي من قضاياه ما دام الأمر يتعلق بالتمثيل الدلالي لمداخله. يزكي هذا الطرح ما فعله الزمخشري في "أساس البلاغة"، وصرح به أيضاً وهو يقدم لمعجمه بسرد خصائصه: »منها تأسيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح بأفراد المجاز عن الحقيقة، والكناية عن التصريح«. حتى إذا عرَّف المعنى الوضعي

(10646/1)

للمفردة انتقل إلى تحديد معناها الاستعمالي، ويجعل عبارة »ومن المجاز« فاصلاً بين المعنيين، كما في مثل قوله في مادة »س ف ر . سافر سفراً بعيداً... ومن المجاز... سافرت الشمس عن كبد السماء«.

... يلزم عن المثبت في هذه الفقرة أن معاني المفردات المجازية ممثل لها أولاً في المعجم الذهني. وإلاّ لما تأتى للمتكلم أن يستعملها فيه. ويساعد على التمثيل الذهني للمعنيين العلاقةُ القائمة بينهما، كعلاقة اللزوم، والاحتواء، والتباين، والتشاكل. ولم يغفل عن

ذكر هذه العلاقات المعجمية كتاب في علم اللغة (= علم المعجم)، أو

(10647/1)

في علم البيان. وتكفي المقارنة بين النصين في الطرة(1)

---

(1) مع إنتاج النصين الآتيين داخل علمَي اللغة والبيان، لكنه يغلب عليهما اتحاد عباراتهما. يقول الرازي من البيانيين: »دلالة اللفظ على المعنى تارة تكون وضعية، وتارة تكون عقلية معنوية. وأن المعنوية ليست دلالة نفس الصيغة على معناها، بل دلالة معناها على معنى آخر. وقد ذكرنا أن الكناية والمجاز والاستعارة داخلة في القسم الثاني«. (نهاية الإيجاز، ص. 17). وفي مباحث تخص العلاقة بين دلالات الألفاظ المفردة يكاد البحرايني يكرر عبارات الرازي، إذ يقول: »دلالة اللفظ إما على تمام مسماه أو على جزء مسماه من حيث هو جزؤه، أو على الأمر الخارج عن مسماه اللازم له في الذهن من حيث هو لازم له... والدلالة الأولى هي دلالة المطابقة... والثانية دلالة التضمن... والثالثة دلالة الالتزام«. (شرح نهج البلاغة، ج

1، ص. 5. وللتوسع في مباحث علم المعجم، انظر:

السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها).

(10648/1)

أسفله ليتضح أن أغلب مسائل علم البيان هي قضايا معجمية. فكلاهما يختص أولاً وقبل كل شيء بالنظر في المفردات إذا حصرنا علم البيان في الكناية والمجاز والاستعارة وأخرجنا منه التشبيه والتمثيل باعتبارهما .كقضايا علم المعاني .من موضوع التركيب. وذلك بالقياس إلى ما في تينكم المسألتين من الاهتمام بالتأويل الدلالي لتراكيب مخصوصة. وكلاهما يسعى ثانياً إلى التمثيل لدلالة المفردات. وليس بينهما فرق البتة بالاستناد

(10649/1)

إلى محتوى "المعجم الذهني"، لأن المتكلمين المستعملين للمعجم يتمثلون، على حد سواء، المعاني الوضعية والمعاني الاستعمالية لأي مدخل معجمي، وإلا انقطع التواصل بينهم في حالة انعدام التمثل الذهني للمعاني

الاستعمالية لأي مدخل. وقد يفترق علم البيان عن المعجم بالقياس إلى "المعجم المقومَس" من حيث أن هذا الأخير يسبق فيه التمثيل للدلالة الوضعية على التمثيل للدلالة الاستعمالية. يترتب على المثبت في هذا المبحث أن فروع اللسان المتناقلة في اللغويات العربية القديمة لا تُمثِّلُ جميعُها فصوصاً لغوية أو قوالب نحوية.

(10650/1)

فلا يحتفظ من تلك الفروع بغير ما يلي:

... 1) المعجم: وهو عبارة عن أزواج من الخصائص الدلالية والصوتية التي تميز أيّاً من مفرداته في حال سكونها وعدم تغيرها.

... 2) النصغ: محتواه عددٌ محصور من التصويتات المتغايرة، ونسق من قواعد تركيبها. فكان هذا الفص الصوتي متشعباً إلى النَّطق والنَّصت.

... 3) التشقيف: يتكون محتوى هذا الفصّ من عوارض مفردات المعجم إبّان إقلاعها وخلال رحلتها. تحرك مفردات المعجم يسببه في الأغلب الأعم التوليدُ الدلالي الحاصلُ بتشقيق بعض الكلمات من بعض، والظاهر في تصريف بنية القوِلة

(10651/1)

بتغيير هيئتها إلى أخرى. وقد ينطلق تحرُّك المفردة المعجمية من بنيتها القولية: كأن تنقلب إلى هيئة أخرى من غير أن يوازي ذلك تفريع دلالي. لما تقدم تفرع فص التشقيف إلى الاشتقاق المتكوّن من قيود دلالية تضبط تفريع بعض الكلمات من بعض، وإلى التصريف المتكون من قواعد تتحكم في عملية نقل القوِلة من بنية إلى أخرى.

... 4) النحو: بمعناه الضيق، عبارة عن فص لغوي، يتمثل محتواه في الربط بين الخصائص البنيوية للمتراكب من المفردات المعجمية وبين عواملها التي أثرتها. من تلك الخصائص ما يتجلى في النسب الموقعية. وهذه تشكل

(10652/1)

مع مثيلاتها قسم التركيب من النحو. ومنها ما يخص العلامات الإفصاحية التي تكون قسم الإعراب منه. ومن هذه الخلاصة ننطلق فيما يلي لإثبات الفصوصية وتحديد مفهوم القالبية.

2 ـ قوالب النحو

... يتبين من المبحث السالف أن القالب النحوي ليس مفهوماً اصطلاحياً يقتضيه البناء النظري. وإنما هو تمثيل صوري لواقع الفص اللغوي الذي يقترن به. وتبعاً لهذا الاقتران الملحوظ في القديم من الأعمال اللغوية فإن التصور القالبي للأنحاء ليس وليد البحث اللساني المعاصر خلافاً لما يعتقده بعض المستعربة(1)

---

(1) يستفاد من كلام د. عبد القادر الفاسي أنه يربط ظهور التصور القالبي بظهور نحو شومسكي. ويعتقد أن غير هذا النحو من النماذج الأخرى القديمة والحديثة: »لا تزال تخلط في القاعدة الواحدة بين التركيب والصرف والدلالة«. (البناء الموازي، ص. 20).

(10653/1)

. بل التمييز بين قواعد مختلف مستويات التمثيل كان الغاية من التفكير المبكر في إيجاد مبدإ التفريع الإجرائي، وتطبيقه في التفصيص اللغوي. وبذلك استطاع لسانيو العربية القدماءُ أن يرصدوا الخرق الموضعي في العبارة. ولولا اشتداد الوعي بإمكان عزل قواعد أي مستوى على حدة، لما تأتى الاهتداء إلى الملاحن النسبية المتخذة هنا وسيلة منهجية: أولاً لإثبات

استقلال فصوص اللغة، وثانياً للكشف عن تغاير قواعد القوالب داخل نمط لغوي معين، وثالثاً لبيان ما في قواعد القالب الواحد من اختلاف بسبب اختلاف الأنماط اللغوية.

(1/10654)

---

3 ـ القالب المعجمي

... عملاً بمنهجية العمل المذكورة أخيراً، يلزمنا أن نبدأ، في جميع المباحث المخصصة للقوالب النحوية، بإثبات استقلال الفصوص التي تقترن بها. ويجب أن يُسلك في ذلك طريق الخرق الموضعي: بحيث يُجمَّع ملحون العبارة في مستوى معيّن، على أن تظل تلك العبارة سليمة بالنظر إلى باقي المستويات، ويُربط ذلك الملحون فيه بقاعدة قالبية. ولتوضيح ما ذكرنا بالأمثلة، نلجأ إلى وضع النجمة (*) على موطن الخرق فيما يلي من الجمل.

درهم ... (أ) . ... الشبل طفل * الأسد.

(ب) . أوشكت * الطائرة أقلعت.

(1/10655)

(ج) . زار السبع *.

– ... (أ) . الإِصْبُع *الوسطى أقصر الأصابع في كف النجار.

... (ب) . ضاع المال في حَلَبَة *السباق.

... (ج) . مررت بالقوم أجمعين أبضعين *.

... إذا صح أن محتوى المعجم في كل اللغات عبارة عن أزواج من الخصائص الدلالية والصوتية التي تميز مداخله المتغايرة، وإذا ثبت أن في جمل المجموعتين (1، 2) خرقاً موضعياً يرصده المعجم، وجب ارتباط الملحون بجانب الخصائص الدلالية للمفردة المعنية، كما هو الحال في جمل المجموعة الأولى، أو بجانب الخصائص الصوتية، كما في جمل المجموعة الثانية. بهذين الجانبين

(10656/1)

يهتم اللغويون أصحاب المعاجم في كل حين تجنباً للخطإ في المعنى والتصحيف في المبنى(1).

... بخلع الخاصية الدلالية [ولد الإنسان] عن (الطفل) المضاف إلى (الأسد) في الجملة (1. أ) تكوّن في الموضع نفسه لحن مرتبط بخرق قاعدة تنتمي إلى الشق الدلالي من القالب المعجمي. يمكن التعبير عن هذه

---

(1) من مقاصد اللغويين في وضع المعاجم تدقيق التمثيلين الدلالي والصوتي لمداخلها. وقد عبر الأزهري عن هذه الغاية بقوله: »أدل على التصحيف الواقع في كتب المتحاذقين، والمعْوِزَ من التفسير المزال عن وجهه«. (تهذيب اللغة، ج 1، ص. 7).

(10657/1)

القاعدة بقولنا:

– . لا يجرد مدخل معجمي من أخص خواصه الدلالية بغير عوض.

... وبإدخال (أوشك) على الجملة المحققة (الطائرة أقلعت) يكون هذا المدخل قد تجرد من أخص خواصه الدلالية، وهي [المقاربة]، من غير أن يتلقى خاصية دلالية أخرى عوض ما فقد. فخرق بذلك قاعدة من القالب المعجمي، وتسرب من خلاله اللحن إلى الجملة (1. ب). وحين تجرد مدخل (السبع) من جنس المعنى؛ [كل ذي ناب يعدو على الناس والدواب فيفترسها] من غير أن يُعوَّض بمثل ما فقد، يكون هذا المدخل قد خرق بدوره القاعدة المعجمية نفسها (3)، فسمح للحن أن يتسرب

(10658/1)

من خلاله إلى الجملة (1، ج). وبذلك يكون الملحون في جميع جملة المجموعة الأولى نسبياً بسبب ارتباطه بقاعدة قالبية.

... استقلال القالب المعجمي بمثل القاعدة (3) تعززه الاستعمالات المجازية من قبيل الجملة (4) الموالية.

– . محاضر اليوم بحر عديم السواحل.

... بالنظر إلى قاعدة تركيبية تفيد أن مقولة الاسم المحض لا تدخل تركيب الإسناد عن طريق المسند إليه، وجب أن تكون الجملة (4) لاحنة تركيبياً. ولا تسلم إلا بتجريد كلمة (البحر) في هذا الاستعمال من خصيصة [الماء]. وفي هذه الحالة ستظل الجملة لاحنة، لكن لحنها حينئذ

(10659/1)

يرتبط بقاعدة القالب المعجمي (3). ولتسلم معجمياً لابد من العوض، فحل [العلم] محل [الماء] لما في المعنيين من قابلية الاتساع إلى أبعد الحدود. وبالرجوع إلى جمل المجموعة (2)، نكون قد صرنا إلى الشق الصوتي من القالب المعجمي، ومنه سينجلي أكثر معنى الخرق

الموضعي.

... يُفترض في كل مدخل معجمي، فضلاً عن مجموع خصائصه الدلالية التي تشكل مفهوم »الكلمة«، أن يتفرد ببنية صوتية نميزها بمصطلح »القَوِلَة«. وقَوِلَةُ كل مدخل، ينتمي إلى المعجم الشقيق، مركبة من بنية حرفية مخصوصة ذات هيئة وزنية عامة. خصوص البنية الحرفية

(10660/1)

يحصل بعدد الأحرف وترتيبها، وعموم الهيئة الوزنية يستند إلى انتظام الحركات والسكنات.

... عملاً بالمثبت في الفقرة الأخيرة، يلزم أن تنحل قَولة المدخل إلى بنية حرفية وهيئة وزنية بحيث تتغاير القوِلات من إحداهما أو منهما معاً. من أمثلة التغاير الحاصل من الهيئة الوزنية فقط نذكر الأزواج التالية: (رِجْل/ رَجُل)، و (قِسْم/ قَسَم)، و (حَلْبَة/ حُلْبَة). والمتغاير من جهة البنية الحرفية دون الهيئة الوزنية نسوق منه: (حِصّةٌ/ قِصَّةٌ)، و (عَلَم/ عَدَد)، و (سِلْك/ صِفْر). أما المتغاير من الجهتين، فمن أمثلته:

(10661/1)

(صَقْر/ ذِئْب)، و (عَضُد/ عِنَب)، و (بُرْج/ طَبَق).

... إذا صح ما أوردنا هنا يكون الخرق الموضعي، في جمل المجموعة (2)، محصوراً في الشق الصوتي من الفص المعجمي الذي تنتمي إليه القوِلةُ الملحون في هيئتها الوزنية، كما في (إِصْبُع) و(حَلَبَة)، أو في بنيتها الحرفية، كما في (أَبْضَعين). إذن، من جملة ما يكون به تصحيف قوِلة المدخل إبدالُ حركة أو حرف غيرُ متوقع نصغاً أو صرفاً. وكل إبدال غير متوقع يترتب عليه خرق لإحدى قواعد القالب المعجمي. وهكذا يمكن فتح الهمزة من المدخل (أصبع) أو ضمُّها إلا أن قلب إحدى

(10662/1)

الحركتين كسرة سينجم عنه خرق القاعدة (5) التالية.

– . يمتنع في الهيئة الوزنية للقولة الخروجُ من الكسر إلى الضم بحاجز ساكن أو بغير حاجز.

... عملاً بهذه القاعدة، فإن استعمال أي قَوِلَة على هيئة (فِعُل) أو (فِعْلُل) يكون خرقاً للقاعدة المعجمية المذكورة(1).

---

(1) انظر ابن جني، المنصف، المرجع السابق، ج 1، ص. 20؛

والخصائص، المرجع السابق، ج 1، ص. 68؛ وانظر أيضاً ابن خالويه، ليس في كلام العرب، المرجع السابق، ص. 46.

(10663/1)

... وبمقتضى مبدإ ضرورة المحافظة على قوِلة المدخل، يمتنع الإبدال غير المرتقب في البنية الحرفية أو الهيئة الوزنية. ومانعه قاعدة من القالب النصفي تقول: لا إبدال في غير المتقارب مخرجاً المتجانس صوتياً. وكان الخرق في موضع (أبضعين)(1) من الجملة (2. ج). إذ »ليست الصاد أخت الضاد

---

(1) نبّه الأزهري إلى تصحيف ابن دريد لقوله »أبضعين«. فقال: »وهذا أيضاً تصحيف فاضح... العرب تؤكد الكلمة بأربعة توكيدات فتقول: مررت بالقوم أجمعين أكتعين أبصعين أبتعين... وهو مأخوذ من البَصْع وهو الجمع«. (تهذيب اللغة، ج 1، ص. 39).

(10664/1)

فتبدل منه«(1). وبحصول الإبدال مع انتفاء التقارب والتجانس الصوتي تولد في الموضع نفسه خرق.

... أما الإبدال في الهيئة الوزنية، فمنه تعاقب بعض الحركات على أحد أحرف البنية القولية؛ وهو أيضاً مرتقب وغير مرتقب. من الضرب الأول الاختلاسُ الحاصل بتسكين متحرك، أو ترك تكميل النطق بالحركة، والعوضُ الذي يحصل بتحريك ساكن وإسكان متحرك (2). ويدخل في الإبدال غير المرتقب جميعُ

---

(1) ابن جني، المنصف، ج 1، ص. 213.

(2) للتوسع في المسألة، انظر مبحث التغيير بالحركة والسكون في كتاب ابن يعيش، شرح الملوكي، ص. 444.

(10665/1)

الأبنية الحرفية التي تخرق بهيئتها الوزنية قاعدة صرفية؛ كأن يحرك الساكن من غير نقل السكون إلى موضع الحركة، كما في (حلبة) من الجملة (2. ب)، فيتولد عنه خرقٌ لقاعدة صرفية مفادها أنه لا يُبنى المصدر للمرة إلا على (فَعْلَة).

... وقبل مواصلة النظر في باقي المسائل المكوّنة لإشكال المعجم، نستحضر ما أوردناه في عبارات مختصرة.

... (أ) . عن طريق الخرق الموضعي يتوصل إلى إثبات

استقلال المعجم، أو غيره، عن سائر فصوص اللغة.

والمعجم في أي لغة عبارة عن أزواج من الخصائص الدلالية والخصائص الصوتية المميزة لمداخله

(10666/1)

المتغايرة. وإلى هذا الاعتبار يستند مبدأ ضرورة المحافظة على ما يكون للمدخل المعجمي من الخصائص بنوعيها الدلالي والصوتي.

... (ب) . المعجم، في كل اللغات البشرية، فص لغوي يُعبر عنه قالب نحوي. إذن، إذا كان الفص حقلاً من الموضوعات المتجانسة، فإن القالب نموذج للتمثيل النظري يحاكي الفص القرين بنيةٌ ووظيفةٌ. وإذا كان الفص يصدق على موضوعات منتظمة، فإن القالب يشمل أمثلة تلك الموضوعات وقواعد انتظامها. وعليه يلزم أن نعد المعجم الذهني فصاً لغوياً، لكن المعجم المقومَس وما قيم حول المعجم الذهني من الدراسات قالب

(10667/1)

نحوي.

... (ج) . يُباشر الفص المعجمي بكيفيتين؛ تحصل أولاهما خلال توظيفه في عملية التواصل، وتكون الثانية عند مقاربته من أجل دراسته. وفي كلتا الحالتين لا يخرج الأمر عن أحد الاحتمالين؛ إذ تناول أيٍّ من مفرداته تكلماً ودراسةً يكون إما سليماً وإما سقيماً. وإن وصف مدخل، عند توظيفه في عملية التواصل أو عند التكلم به، بأحد الحكمين؛ سليم أو سقيم يتأتى انطلاقاً من القالب المعجمي لا غير لأنه لا يجوز الحكم من الفص عليه. كما أن وصفه بأحد ذينكم الحكمين خلال دراسته لابد من الرجوع فيه إلى مبادئ قالبية عامة أو

(10668/1)

إلى قواعد تنتمي إلى غير القالب المعجمي.

... (د) . القالب المعجمي يجب أن يتفرع محتواه تفرّع محتوى الفص الذي يقترن به، بحيث يتشكل من صنفين من القواعد:

... 1) قواعد دلالية(1)

---

(1) من جملة المباحث الدلالية المنتمية إلى القالب المعجمي يمكن أن نذكر المسائل المعالجة في مقدمات

القياس لدى المناطقة. انظر الغزالي، معيار العلم؛ وابن سينا، الإشارات والتنبيهات؛ وكتاب العبارات؛ والمقدمات اللغوية لعلم أصول الفقه؛ انظر القرافي، شرح تنقيح الفصول؛ والرازي، المحصول في علم الأصول؛ والأسنوي، نهاية السول. وفي تلك المباحث يُدرج أغلب ما أودعه السيوطي في كتابه، المزهر في علوم اللغة وأنواعها؛ علماً بأنه يريد باللغة هذا المعجم. كما يمكن أن يدرج كتاب العسكري، الفروق في اللغة. وكل هذه الكتب وغيرها الكثير يمكن أن يشكل مادة لإقامة قواعد القالب المعجمي. انظر أيضاً كاتس وفدور، »بنية نظرية دلالية« ضمن دفاتر المعجمية(Katz et Fodor, «Structure d'une théorie sémantique») ..

(10669/1)

. وهذه تتدرج في سلمية تساند كالتالي: قواعد دلالية عامة كالتي عبرنا عنها بقولنا: لا يجرد مدخل معجمي من أخص خواصه الدلالية بغير عوض. وقواعد دلالية نمطية من قبيل: يتوفر الفعل الشقيق على خاصية دلالية ليست لأسه. مثل هذه القاعدة تصدق داخل نمط المعجم الشقيق ولا تصدق في نده المسيك ولا يُستبعد أن يوجد صنف القواعد الدلالية الخاصة. وعلى كل حال لا يجوز إغفال

مسألة التصنيف لقواعد التمثيل الدلالي عند تناول القالب المعجمي.

(10670/1)

... 2) قواعد صوتية. وهي أيضاً أصناف متدرجة في سلمية تساند، إلا أن من المفروض أن يوجد في الدرجة الأولى من السلمية صنف القواعد الخاصة. كقولنا يمتنع في الهيئة الوزنية للقولة الخروجُ من الكسر إلى الضم بحاجز ساكن أو بغير حاجز، وأن يتوالى فيها سكونان لازمان. ويأتي في الدرجة الثانية من السلمية صنف القواعد الصوتية النمطية، فالقواعد العامة. وهذا مما يفتقر إلى إثبات.
... ظهر أخيراً أن القواعد الصوتية تشكل مفصل التماس بين القالبين المعجمي والنصغيّ، إذ يشارك هذا الأخير الأولَ في اتخاذ قولة المدخل موضوعاً

(10671/1)

للدراسة، وكأن القواعد الصوتية يستمدها القالب المعجمي من القالب النصغي، أو أن هذا الأخير يشتغل بموضوعه لحساب المعجم. وهذا أحد المفاصل حيث تلتقي

فصوص اللغة وقوالب النحو.

... وتبيّن أيضاً أن أي قالب نحوي عبارة عن قواعد التمثيل النظري لفص لغوي واقعي. لذا فإن محتوى القالب النصغي عبارة عن قواعد التمثيل للمادة الصوتية من اللغة(1). وتبعاً لانفكاك هذه المادة الصوتية إلى وحدات صغرى تقبل التراكب

---

(1) للمزيد من التفصيل، انظر د. محمد الأوراغي، الوسائط اللغوية، ج 2، «اللسانيات النسبية والأنحاء النمطية».

(10672/1)

تفرَّع النصغ، الفصُّ والقالبُ، إلى النَّطق الذي ينهض بالتمثيل للتصويتات المفردة، وإلى النَّصت المتكفل بقواعد تركيب التصويتات في قولات المداخل المعجمية، وتركيب هذه الأخيرة في وحدات مقولية أكبر؛ كأنواع المركبات والجمل وهلم جرّاً.

... وبهذه المنهجية نفسها المرتكزة على الخرق الموضعي يمكن أن نواصل تحديد محتوى باقي فصوص اللغة العربية. ومن خلال وصفنا للقضايا اللغوية المكونة لموضوع كل فص نكون قد أقمنا القالب النحوي

القرين. ومن خلال الكشف عن طريقة تفاعل الفصوص نستطيع أن نرتب القوالب القرينة، وننتبين

(10673/1)

كيفية تدرج عمل قواعدها إبان إنتاج الجمل. ومن هذا العمل أنجزنا قسماً مهماً في كتابنا "الوسائط اللغوية" بجزأيه. وما التوفيق إلا من الله السميع العليم.

(10674/1)

فضل الأوقاف في بناء الحضارة الإسلامية

الدكتور أحمد أبو زيد
كلية الآداب – الرباط

... كانت مؤسسة الوقف في ظل الحضارة الإسلامية تجسيدا حيا، وتطبيقا عمليا لقيم السماحة والعطاء والتضامن الاجتماعي ورعاية حقوق الضعفاء والإنفاق في أوجه البر. وكانت تمثل موردا قارا يفيض بالخير على كثير من المؤسسات والمرافق الاجتماعية. وبفضل تلك

الموارد القارة قامت المساجد والمرافق الاجتماعية.

والمعمارية التابعة لها، وشيدت المدارس والمكتبات ودور العلم وأقيمت بها المرافق اللازمة لراحة العلماء وطلاب العلم، وأنشئت

(10675/1)

المستشفيات والمصحات والصيدليات وألحقت بها المدارس أو الأجنحة الخاصة لتدريس طلاب علوم الطب، وأقيمت الرباطات على الثغور الإسلامية ورصد لها من الموارد ما يلزم المجاهدين وألحقت بها أجنحة لتعليم فنون الحرب وصنع الأسلحة وأجنحة أخرى لتلقين العلوم الإسلامية.

... والمتصفح لتاريخ هذه المؤسسة العظيمة وآثارها وأبعادها الاجتماعية والحضارية الجليلة يقف وقفة إجلال وإعجاب أمام فضلها الكبير في تشييد صرح الحضارة الإسلامية.

فضل الوقف في إقامة شعائر الإسلام:

(10676/1)

... أول ما يطالع الناظر في صفحات تاريخ الوقف وأبعاده وفضله في الحضارة الإسلامية هو بناء المساجد وعمارتها وإعدادها لأداء وظائفها الدينية والاجتماعية، ولم تكن المساجد في ظل الحضارة الإسلامية بيوتا لإقامة الصلاة فحسب، بل كانت إلى ذلك منارات لنشر الإسلام ومراكز للتربية والتعليم، ومعينا للفضائل الخلقية، ومعرضا للفنون المعمارية.

... وبفضل الأوقاف، أقيمت المساجد والجوامع الكبيرة في سائر الحواضر الإسلامية، بل في كل بقعة من أنحاء العالم الإسلامي؛ وبفضلها كذلك استمرت تؤدي وظائفها الدينية والاجتماعية من

(10677/1)

غير انقطاع على امتداد تاريخ الإسلام، بعيدا عن تأثير الاضطرابات والتقلبات الاجتماعية والاقتصادية.

... والمسجد مؤسسة دينية واجتماعية تشمل عددا من الوظائف والمرافق التي تحتاج إلى مورد دائم يمدها بالمدد الكافي لوجودها، واستمرارها في أداء رسالتها، وتشمل رسالتها الإمامة والآذان والصيانة والنظافة والتربية والتعليم والخطابة والوعظ، وكثيرا من

الأعمال الاجتماعية، وبفضل موارد الوقف الدائمة استمرت المساجد في أداء هذه الوظائف.

(10678/1)

... ومن المرافق الهامة التي ترتبط بالمسجد محلات الطهارة والوضوء وتحتاج بدورها إلى دعم متصل لتزويدها بالماء الطاهر وتنظيفها وإصلاحها. وكان الوقف وما يزال المورد الأساسي لهذا الدعم، وبفضله تيسر للمسلمين أن يجدوا الماء الطاهر الصالح للطهارة بجانب المسجد، يجري دون انقطاع في جميع الأوقاف. وبتيسير وسائل الطهارة وأماكنها، يسر الوقف إقامة شعائر الإسلام وعمارة المساجد، وهناك مرافق أخرى كالإنارة والتدفئة أو التبريد.

المسجد وبناء الإنسان:

(10679/1)

... إن بناء الإنسان الصالح وتهذيب أخلاقه وإعداده إعدادا تربويا فاضلا من أهم مقاصد الإسلام. ومن هنا ركز على بناء الفرد ليضمن سلامة المجتمع. والمسجد هو

المدرسة الشعبية المفتوحة على الدوام لكافة المسلمين على اختلاف طبقاتهم وأعمارهم، منها يتلقون مبادئ القراءة والكتابة، وفيها يتلقون مبادئ الأخلاق والتربية، وفيها يحفظون كتاب الله ويجلسون إلى حلقات الدروس الدينية والوعظ والإرشاد، وفيها يجتمعون للعبادة والذكر.

(10680/1)

... من هنا كان المسجد منارة لنشر المعرفة، ومركزا لتهذيب الأخلاق وتقويم السلوك ونشر الفضيلة وتزكية النفوس، وكان محور الحياة اليومية للمسلمين يقصدونه للاجتماع والعبادة خمس مرات في اليوم على الأقل.

وبهذه اللقاءات اليومية المتقاربة تتكون الجماعة الإسلامية المتماسكة، وتنشأ الروابط المتينة بين أفرادها، ويندمجون في العمل الاجتماعي المثمر ويتمرنون على الاهتمام بالآخرين ويتعاونون على المصالح العامة.

... وبهذا تكلفت المساجد –على مر التاريخ الإسلامي– بإعداد النماذج الإنسانية العالية في الإيمان والعلم

(10681/1)

والآداب والسلوك الحميد والأخلاق الفاضلة، وأسهمت، وما تزال تسهم، في بناء الإنسان الصالح الذي يصلح ولا يفسد، ويبني ولا يهدم، وينفع ولا يضر. ولهذا، فإن المسجد يستحق العناية التامة والدعم الكامل ليتأتى له أن يستمر في أداء وظائفه الدينية والتربوية والاجتماعية، وإلا فسيعم الفساد وتضعف الأخلاق ويكثر الإجرام.

الوقف والجهاد في سبيل الله:

... يعد الجهاد من أفضل الأعمال والقربات التي حث عليها الإسلام. ومن الآثار الصحيحة التي تؤكد ربط الوقف بهذه الفريضة منذ بداية الإسلام، ما روى أن خالدا بن الوليد حبس

(10682/1)

دروعه وأكراعه في سبيل الله(1).

... ويؤكد أهمية الوقف على الجهاد والدعوة إلى الإسلام ما ذهب إليه الفقهاء من أن الأوقاف التي تكون في الثغور البرية والبحرية، ولم يحدد لها واقفها مصرفا معينا، تكون مخصصة للجهاد(2).

... ولاشك أن الرباطات الكثيرة التي كانت تنتشر على ثغور البلاد الإسلامية في القديم كانت تعتمد على الأوقاف، وكان الرباط مؤسسة تجمع بين وظائف التربية الدينية وإعداد المجاهدين وإعداد العدة

---

(1) رواه البخاري في كتاب "الزكاة"، باب 49، حديث رقم 1468.

(2) الخصاف، "أحكام الأوقاف"، صص.218–251.

(10683/1)

اللازمة من سلاح وطعام، وكانت تلحق بها أجنحة لصناعة الأسلحة. والأوقاف هي المورد الدائم للنفقات الضرورية لكل هذه الوظائف.

... ومن جهات الوقف التي ترتبط بالجهاد فك أسرى المسلمين من أيدي الأعداء، وسجل تاريخ الإسلام أوقافا كانت مخصصة لهذا الغرض. ولعل أشهرها وقف صلاح الدين الأيوبي الذي كان ببلده بلبيس(1).

... وبفضل ما تدره الأوقاف من أموال سخية على الرباطات والمجاهدين قاومت الأمة الإسلامية أعداءها على مر العصور، وصدت جيوش الاستعمار في العصر الحديث،

(1) "تاريخ الدول والملوك"، المجلد الرابع، صص.2-23.

(10684/1)

ولم ينجح المستعمر في اختراق حدودها إلا بعد أن ضعفت مؤسسة الوقف وتقلص دورها في حياة المسلمين. وهذا لا يعني أن الجيوش الإسلامية لم تكن كغيرها تنهزم، ولكن هزيمتها لا تعني انهزام الأمة كلها. فقد كانت الأمة بفضل مؤسساتها المدنية المستقلة كالمساجد والجوامع والرباطات والزوايا تقاوم المعتدي وترده على أعقابه، ولم تنهزم الأمة قط هزيمة مدمرة إلا بعد أن تقلص دور الأمة لحساب سلطة الدولة الحديثة(1).

الوقف والمواسم الدينية:

(1) ندوة "دور تنمو للوقف"، محاضرة محمد عمارة، صص.169-170.

(10685/1)

... تعتبر المواسم والأعياد الإسلامية شعائر تعبدية فضلها الله تعالى على غيرها وأمر بإحيائها وإقامتها

إظهارا لشعائر الإسلام وتعرضا لفضل الله ومرضاته، ومن هذه المواسم شهر رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحى ويوم عاشوراء.

... وحرصا على إقامة هذه الشعائر، ورغبة في التعرض لنفحاتها وكرامتها، وقف المسلمون أوقافا خاصة بها وشرطوا أن تخصص لإحيائها، وأن يصرف ريعها على المحتاجين لإدخال السرور عليهم وإشعارهم بسماحة الإسلام وعطفه على الضعفاء.

(10686/1)

... وما تزال سجلات الأوقاف تحفظ نصوص الوثائق الوقفية التي شرط فيها الواقفون أن تصرف في هذه المواسم خاصة. هناك وثائق نصت على أن يصرف الوقف كل سنة في يوم عاشوراء في شكل إعانات ومواد غذائية، توزع على طلبة العلم والأيتام ومؤدبيهم وعلى الفقراء والمساكين(1).

... وهناك وثائق أخرى نصت على أن يصرف من ريع الوقف مقادير من الطعام في كل يوم من أيام رمضان على الفقراء والمساكين وطلاب العلم.

---

(1) انظر "الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر"، ص.140.

(10687/1)

... وقد مولت الأوقاف موائد الإفطار والسحور للصائمين من الفقراء والغرباء، ووضعت بذلك الأساس لسنة حسنة لا تزال حية في بعض البلاد الإسلامية تحت شعار "موائد الرحمان".

... وهناك وثائق سجلت أوقافا خاصة لتقديم المساعدة للمستحقين في أيام العيد شرط فيها الواقفون أن تصرف في شراء كميات من المواد واللوازم الخاصة بالعيد وتوزع على المحتاجين، ويشترى من ريعها في عيد الأضحى مثلا كميات من اللحوم أو عدد من رؤوس الأغنام تذبح وتوزع لحومها(1).

---

(1) المرجع نفسه، صص. 142–143.

(10688/1)

... هناك أوقاف أخرى يتجلى فيها هذا البعد الديني كتلك التي كانت مخصصة للحرمين الشريفين، والزوايا، وأهل التصوف ونسخ المصاحف وقراءة القرآن. ولا يتسع المجال هنا للحديث عنها.

فضل الأوقاف في ازدهار الحركة العلمية:

... كان للوقف فضل كبير في إنشاء المدارس والمراكز العلمية والمكتبات في سائر بلاد الإسلام وفي بقائها واستمرارها على مر العصور، فلا تكاد تجد مدرسة ولا مكتبة إلا ولها أوقاف خاصة يصرف ريعها في الإنفاق عليها.

(10689/1)

... وجل الدراسات الحديثة التي تناولت الحضارة الإسلامية والحياة العلمية في الدولة الإسلامية أو الوقف وفضله في التنمية الاجتماعية، أوضحت أن أموال الوقف أسهمت بنصيب وافر في تنمية التعليم وازدهار الحركة العلمية في الحضارة الإسلامية، وأن هذه الأموال هي المورد الأساسي للمدارس العلمية، اعتمدت عليه اعتمادا كليا في نفقاتها وحاجاتها، إذ لم يكن في الدولة الإسلامية في الماضي ديوان أو وزارة للتعليم.

... وإذا أردنا أن نقف على فضل الوقف ودوره الكبير في رفد الحركة العلمية في الحضارة الإسلامية، فسنقابل بكم هائل

(10690/1)

من المدارس والمراكز العلمية والمكتبات في سائر البلاد الإسلامية. لهذا سنقتصر منها على القدر الكافي لإبراز البعد العلمي والثقافي لهذه المؤسسة الحيوية.

الوقف على المدارس:

... قبل الدخول في بيان فضل الوقف في إنشاء المدارس العلمية والمكتبات ورعايتها، يجب أن نعطي فكرة موجزة عن مكانة الوقف على التعليم عند الفقهاء.

... لقد بلغ من تعظيمهم لهذا النوع من الوقف وحرصهم على بقائه واستمراره وحمايته أن حرموا إلغاءه ووقفوا في وجه من سولت له نفسه ذلك

(10691/1)

... وقف عدد من كبار العلماء في وجه بعض سلاطين المماليك عندما أرادوا إنهاء الأوقاف جملة، وضمها إلى أملاكهم. أورد جلال الدين السيوطي موقف الشيخ سراج الدين البلقيني حين استشاره أحد أولئك السلاطين في إنهاء الأوقاف، فحرم الشيخ إنهاء ما كان منها مخصصا للمدارس والعلماء وطلبة العلم، وأباح إنهاء ما كان منها مخصصا لأفراد من عائلات السلاطين السابقين(1).

... ومن العلماء الذين وقفوا في وجه أولئك السلاطين حماية للوقف على التعليم: العز بن عبد السلام ويحيى

---

(1) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"، ج1، ص.162.

(10692/1)

بن شرف النووي وابن دقيق العيد وأمين الدين الأقصرائي(1).

... وقرر الفقهاء أن الوقف على التعليم يستوي في الاستفادة منه الكبير والصغير والغني والفقير. فهو لكل من طلب العلم. ولكنهم لم يجوزوا أن يخصص للأغنياء وحدهم. فإذا كان عاما ولم يقيد بشرط، جاز الانتفاع به للجميع دون تمييز(2).

... وبفضل الوقف شيدت المدارس والمعاهد في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه. ويذكر التاريخ بكثير من الإكبار والإعجاب

---

(1) نقلا عن "الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر"، ص.322-324.

(2) عن "الوقف في الشريعة والقانون"، ص.42.

(10693/1)

طائفة من أفراد المسلمين، كانت لهم اليد الطولى في إنشاء مدارس علمية كبرى في سائر الأمصار(1).

... روى الرحالة الشهير ابن جبير أنه شاهد في بغداد نحو ثلاثين مدرسة كل واحدة منها في قصر وبناية كبيرة، أشهرها وأكبرها المدرسة النظامية. ولهذه المدارس أوقاف وعقارات للإنفاق عليها وعلى العلماء والدارسين فيها، وكان وقف نظامية بغداد خمسة عشر ألف دينار شهريا، وتخرج منها أكابر العلماء(2).

---

(1) من "روائع حضارتنا"، ص.136.

(2) عن "الحياة العلمية في الدولة الإسلامية"، صص.58-61.

(10694/1)

... وفي القرن السادس مثلا نجد المدارس الموقوفة الخاصة بأبناء الفقراء والأيتام واللقطاء قد انتشرت في بلاد الإسلام. وقد تحدث ابن جبير عما شاهده من هذه المدارس في القاهرة ودمشق وغيرها(1).

... ويذكر التاريخ فضل صلاح الدين الأيوبي في إنشاء المدارس العلمية في جميع المدن التي كانت تحت

سلطانه في مصر ودمشق والموصل وبيت المقدس، وفضل نور الشهيد الذي أنشأ في سوريا وحدها أربعة عشر معهدا، منها ستة في دمشق وحدها(2).

---

(1) المقريزي، "الخطط"، ج5، عند كلامه عن المدارس.

(2) من "روائع حضارتنا"، ص.136.

(10695/1)

... ويعطي ابن خلدون أمثلة على ما كان في بغداد وقرطبة والكوفة والبصرة والقيروان وفاس من مراكز علمية، ويتحدث عما شاهده في القاهرة من التطور العلمي وازدهار المدارس. ويؤكد أن الذي ساعد على ذلك هو ما حدث في القرنين اللذين سبقا زمانه، وبخاصة زمن صلاح الدين الأيوبي الذي وقف أراضي زراعية وبيوتا وحوانيت على المدارس. ثم ما وقفه من بعده أمراء المماليك من أموال على المدارس العلمية، فازدهرت واجتذبت العلماء وطلاب العلم من البلاد الإسلامية شرقا وغربا(1)

---

(1) "المقدمة" : "فصل في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة".

(10696/1)

.

... وبمطالعة تاريخ المدارس العلمية في العالم الإسلامي يتأكد فضل الأوقاف في ازدهار الحياة العلمية، ويظهر أنه ما كان للمدرسة أن تقوم في البلاد الإسلامية لولا الأوقاف. يشهد لهذه الحقيقة أن عددا من المدارس التي لم تكن لها أوقاف كافية لرعايتها والإنفاق عليها لم تستطع أن تستمر في مزاولة نشاطها، ولم تلبث أن تعطلت وتهدمت(1).

... ومن هذه الشهادة يتضح جليا أن الحركة العلمية الواسعة التي شهدتها الأمصار الإسلامية إنما هي ثمرة من ثمرات ازدهار الأوقاف وكثرتها.

---

(1) انظر المقريزي، "الخطط"، صص.368–369.

(10697/1)

... ولم يقتصر تأثير الوقف وفضله على رفد المدارس وإمدادها بالموارد المالية الضرورية لسد حاجاتها، ولكن امتد إلى التوجيه التربوي، إذ كان يتدخل في توجيه العملية التعليمية، وفي تعيين العلوم والفنون التي يجب أن تدرس، وفي المقاييس والمؤهلات العلمية التي

يجب أن تكون في العالم والمدرس الذي يتولى تدريسها.

... وتعتبر الوثائق الوقفية التي تنص على شروط الواقفين المتعلقة بهذا التوجيه التربوي بمثابة جداول تربوية تنظم شؤون التعليم وتضع الأسس والشروط التي يجب أن يقوم عليها.

(10698/1)

... وهناك أوقاف خاصة للكراسي العلمية التي تخصص لتدريس بعض العلوم كالفقه والحديث والتفسير والسيرة والقراءات القرآنية. ذكر عبد الهادي التازي أن الكراسي العلمية التي كانت مدعمة بالوقف في جامع القرويين بفاس تبلغ ثمانية عشر كرسيا(1).

الوقف على المكتبات:

... من أهم المظاهر التي يتجلى فيها البعد العلمي للوقف إنشاء المكتبات ورعايتها وتزويدها بالكتب.

... والوقف على المكتبات وفتح أبوابها في وجه طلاب العلم يعكس حب المسلمين للعلم وأهله وحرصهم على نشره بين الناس.

---

(1) "جامع القرويين"، ج2، صص.372-375.

(10699/1)

... وبفضل هذا الحب الذي غرسه الإسلام في أهله، أقبل الناس على وقف الكتب وإنشاء المكتبات العامة والخاصة، وإن وقف المكتبات والكتب من مفاخر الحضارة الإسلامية، ومآثرها التي فاقت بها سائر الحضارات.

... ولقد اتخذت هذه المكتبات أسماء متعددة مثل خزانة الكتب، وبيت الكتب، ودار الكتب، ودار العلم، وبيت الحكمة.

... ولم يقتصر أمر إنشاء المكتبات ووقفها في سبيل الله على الخلفاء والأمراء والوزراء، بل تعداهم إلى العلماء والموسرين. نجد مثلا علي بن يحيى ابن المنجم ينشئ مكتبة ويجعلها وقفا في سبيل الله، ويخصص لها

(10700/1)

وقفا ينفق منه على من يفد عليها. ونصت في وثيقة وقفها على أن من يفد إليها يحق له الإقامة وأخذ نفقته من الوقف المرصود لها(1).

... واقترح علي بن يحيى بن المنجم علي بن خاقان وزير المتوكل العباسي أن يقف قسما من ثروته لإنشاء

مكتبة في سامراء يوقفها على طلبة العلم. فعمل بنصيحته، وجلب لها الكثير من الكتب التي نسخت من مكتبات بغداد(2).

... ويذكر لنا ابن جبير في رحلته إلى مصر ما يدل على مبلغ إعجابه بمكتباتها يقول:

---

(1) "أصالة حضارتنا"، ص.453.

(2) المرجع نفسه.

(10701/1)

... ومن مناقب هذا البلد ومفاخره (أي مصر) أن الأماكن في هذه المكتبات قد خصصت لأهل العلم فيهم. فهم يغدون من أقطار نائية، فيلقى كل واحد منهم مأوى يأوي إليه ومالا يصلح به أحواله جميعا. وبلغ من عناية السلطان بهؤلاء الذين يفدون للاستفادة العلمية أن أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها، وخصص لهم مستشفى لعلاج من مرض منهم وخصص لهم أطباء يزورونهم وهم في مجالسهم العلمية، وخصص لهم الخدم لقضاء حاجتهم(1).

---

(1) "رحلة ابن جبير"، ص.272 ومن بعدها.

(10702/1)

... وحوت المكتبة التي أوقفها ابن مليس الوزير الفاطمي على غرف عديدة للمطالعة، وقاعات خاصة للمحاضرات والمناظرات، وقاعة خاصة لتوجيه الباحثين والناشئين، وأعطيت من ريع وقفها مرتبات لطلبة العلم والعلماء والقائمين عليها(1).

... ومن المكتبات الوقفية المشهورة في تاريخ المسلمين المكتبة التي بناها ووقفها بنو عمار في طرابلس الشام، وكانت آية في السعة والضخامة، يقال إنها اشتملت على مليون كتاب(2).

---

(1) المقريزي، "خطط"، ج4، ص.226.

(2) "أصالة حضارتنا"، ص.440.

(10703/1)

... وانتشرت مكتبات الوقف في الأندلس والمغرب على مر التاريخ. ومن الطرائف التي تدل على ذلك ما ذكره المقري في "نفح الطيب" حيث حكى أن أبا حيان أثير الدين بن يوسف الإمام النحوي الغرناطي المشهور عاب عليه الإكثار من شراء الكتب، وقال: "الله يرزقك عقلا تعيش به، أنا أي كتاب أردته استعرته من خزائن الأوقاف، وإذا

أردت من أحد أن يعيرني درهما ما وجد ذلك"(1).

---

(1) عن ندوة "إدارة وتثمير ممتلكات الوقف"، محاضرة عبد الملك أحمد السيد، ص.235.

(10704/1)

... كما انتشرت ظاهرة وقف الكتب في المغرب على مر العصور، وجرت العادة أن تسلم للخزانات العامة، لتوضع تحت تصرف طلاب العلم والعلماء(1).

... وبفضل وقف الكتب والمكتبات، انتشرت الثقافة في العالم الإسلامي وشملت جميع طبقات الناس، وكان نظام المكتبات يشجع الناس على الإقبال عليها لما يجدونه من العناية والنفقة السخية والإقامة المريحة، فينكبون على القراءة والنسخ والمطالعة، لا يزعجهم هم، ولا يشغلهم

---

(1) مجلة "مجمع اللغة العربية" بدمشق، مجلد 63، م1988، بحث بعنون: "ظاهرة وقف الكتب في تاريخ الخزانة المغربية".

(10705/1)

خوف، كل هذا بفضل الخير العميم الذي فاض على المجتمع الإسلامي من مؤسسة الوقف العامرة.

البعد الصحي والاجتماعي:

... جل الباحثين والمفكرين المحدثين الذين أسهموا في الندوات والحلقات الدراسية والمناقشات التي أديرت حول نظام الوقف ودوره الحضاري والاجتماعي، وطرق النهوض به، وتطوير آفاق عمله، جل هؤلاء تحدثوا بإعجاب عن الفضل الكبير الذي كان للوقف، على مر تاريخ الحضارة الإسلامية، في مجالات الرعاية الصحية والخدمة الاجتماعية.

فضل الأوقاف في مجال الرعاية الصحية والاجتماعية:

(10706/1)

... أجمع الباحثون والمفكرون المحدثون، الذين تناولوا في أبحاثهم مؤسسة الوقف وأبعادها الحضارية على الإشادة بفضل الوقف في توفير الرعاية الصحية والخدمات الاجتماعية لأبناء المجتمع الإسلامي قبل العصر الحديث.

... لقد أظهرت جهود أولئك الباحثين، بعد الاطلاع على الوثائق الوقفية وكتب التاريخ والرحلات، أن كثيرا من مراكز الرعاية الصحية والمستشفيات التي انتشرت في

سائر المدن والأمصار الإسلامية كانت تعتمد اعتمادا كبيرا على موارد الأوقاف.

(10707/1)

... كما تحدثت عن وفرة الأوقاف التي أنشئت خصيصا لإنشاء المستشفيات والإنفاق عليها وإمدادها بالأدوية ووسائل العلاج اللازمة(1).

... وتحدث بعض الباحثين عن أنواع المراكز الصحية التي رعتها الأوقاف، فذكر، منها ستة أنواع:

المستشفيات الكبيرة.

المراكز الصحية الصغيرة.

المستوصفات المتنقلة.

مستشفيات السجون.

الصيدليات ومخازن الأدوية.

المدارس الطبية التعليمية(2).

---

(1) ندوة "إدارة وتثمير ممتلكات الوقف بجده"، محاضرة الدكتور عبد الملك أحمد السيد.

(2) "الوقف ودوره في التنمية"، ص.181.

(10708/1)

... المستشفيات الكبيرة: كان أول مستشفى كبير في تاريخ الحضارة الإسلامية هو البيمارستان الذي أمر ببنائه هارون الرشيد ببغداد(1).

... ومن المستشفيات التي أقيمت ببغداد مستشفى السيدة أم الخليفة المقتدر بالله، ويسمى مستشفى السيدة، افتتح في اليوم الأول من محرم 203هـ، كما أقام المقتدر مستشفى آخر ببغداد، وسمي المستشفى المقتدري(2).

... وتعددت المستشفيات الكبيرة وانتشرت حتى كان ببغداد وحدها في مطلع القرن الرابع خمسة مستشفيات(3)

---

(1) القفطي، "تاريخ الحكماء"، ص.283.

(2) المرجع نفسه، ص.194.

(3) "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، ج6، ص.139.

(10709/1)

.

... وبلغ من عناية المسلمين بالرعاية الصحية وتطوير خدماتها أن خصصت أوقاف لبناء أحياء طبية متكاملة.

حدث ابن جبير في "رحلته" أنه وجد ببغداد حيا كاملا من أحيائها يشبه المدينة الصغيرة، كان يسمى بسوق المارستان، يتوسطه قصر فخم جميل وتحيط به الغياض والرياض والمقاصير والبيوت المتعددة، وكلها أوقاف وقفت على المرضى، وكان يؤمه الأطباء والصيادلة وطلبة الطب، إذ كانت النفقات جارية عليهم من الأموال الوقفية المنتشرة ببغداد(1).

---

(1) "رحلة ابن جبير"، ص.201.

(10710/1)

... وتحدثت كتب التاريخ عن المستشفيات التي أنشئت في مصر بفضل أموال الوقف فذكروا منها مستشفى أنشأه الفتح ابن خاقان وزير المتوكل على الله العباسي(1).

... ومستشفى آخر أسسه أمير مصر أحمد بن طولون، سمي باسمه، وحبس له من الأوقاف ما يلزم للإنفاق عليه، وبنى فيه الحمامات للرجال والنساء(2).

... وكان من أشهر المستشفيات في العصر الأيوبي والمملوكي تلك التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي(3).

---

(1) المرجع نفسه.

(2) المقريزي، "الخطط"، ج2، ص.402.

(3) المرجع نفسه.

(10711/1)

... وتحدث المؤرخون والرحالة عن المستشفى الذي أنشأه الملك قلاوون بمصر، وجعله وقفا لعلاج مرضى المسلمين. قال عنه ابن بطوطة: "يعجز الوصف عن محاسنة، وقد أعد فيه من الأدوية والمرافق الخدمية ما لا يحصى"(1).

... وكثرت المستشفيات والمنشآت الصحية بمدن الأندلس. ذكر بعض الباحثين أن مدينة قرطبة كان بها خمسون مستشفى، وقفها وأنفق عليها الخلفاء والأمراء والموسرون(2).

---

(1) "رحلة ابن جبير"، ص.15.

(2) "رحلة ابن بطوطة"، ص.33.

(10712/1)

... ونهضت الأوقاف بالرعاية الصحية في المغرب الأقصى كذلك، وأقيمت مستشفيات كبيرة في أهم المدن

وتحدث عنها المؤرخون بإسهاب(1).

... من أهمها مستشفى سيدي فرج بفاس أسسه السلطان يوسف بن يعقوب المريني ووقف عليه عقارات كثيرة برسم النفقة عليه والعناية بالمرضى. ومن طريف ما ذكره المؤرخون أن جزءا من أوقافه كان مخصصا لعلاج طير اللقلاق، وجزءا للموسيقيين الذين يزورونه مرة كل أسبوع للترفيه عن المرضى(2)

---

(1) ندوة "إدارة وتثمير أملاك الوقف"، محاضرة الدكتور عبد الملك أحمد السيد.

(2) ندوة مؤسسة الوقف في العالم العربي والإسلامي، محاضرة الأستاذ محمد المنوني.

(10713/1)

.

... ويذكر المؤرخون مستشفى آخر بمدينة مراكش أنشأه المنصور الموحدي(1).

... المراكز الصحية: وهي مراكز طبية تعنى بتقديم الخدمات الصحية لأهل حي واحد، وكانت تقام بجوار المساجد، أو قرب الجامع الكبير.

... المستوصفات المتنقلة، وهي نوعان:

... الأول: عبارة عن فرق طبية متنقلة ترسل إلى الأماكن النائية في القرى والأرياف لتفقد الأحوال الصحية للسكان وعلاج المرضى. ويكثر هذا النوع في أوقات انتشار الأوبئة.

---

(1) "المعجب في تلخيص أخبار المغرب"، ص.411.

(10714/1)

... الثاني: عبارة عن مستشفيات عسكرية تنتقل مع الجيش الإسلامي وقت الحرب.

... مستشفيات السجون: وهي مستوصفات ملحقة بإدارة السجن لتقديم الخدمات الصحية الضرورية للمساجين والعناية بهم.

... وإلى جانب الأنواع المتقدمة، أنشأ المسلمون مستشفيات خاصة ببعض الأمراض، ومنها مستشفى الجذام الذي يجمع فيها المجذومون ويعزلون عن المجتمع كي لا ينتشر داؤهم إلى غيرهم؛ ومنها مستشفيات المجانين، التي أفردت لعلاج هذا الصنف من المرضى سريريا ونفسيا.

(10715/1)

... ويجب أن نشير إلى أن الخدمات الصحية التي تقدمها هذه المراكز الطبية من العلاج والعمليات والأدوية والطعام كانت مجانا بفضل الأوقاف التي كان المسلمون يرصدونها لهذه الأغراض الإنسانية. إذ كانت الرعاية الصحية في سائر البلاد الإسلامية إلى وقت قريب من أعمال البر والخير، ولم تكن هناك وزارات خاصة للصحة العمومية كما في العصر الحاضر.

... وكان للأوقاف أثر حميد على النهوض بعلوم الطب، لأن دور المستشفيات التي ينفق عليها من الأوقاف لم يكن يقتصر على تقديم العلاج، بل يتعدى ذلك إلى تدريس الطب. وكانت تخصص قاعات

(10716/1)

داخل المستشفيات الكبيرة للدروس والمحاضرات.

... الرعاية الاجتماعية:

... يعتبر الوقف الإسلامي الخيري دعامة للتكافل الاجتماعي، ووسيلة من وسائل علاج مشكلة الفقر في المجتمعات الإنسانية. وقد شرعت الأوقاف ليكون ريعها صدقة جارية وعملا خيريا لا ينقطع يدر الثواب المتصل

على الواقفين، ويدر الخير العميم الوافر على المحتاجين والمستحقين.

... إن الأوقاف قامت بدور كبير في مجال التضامن الاجتماعي في المجتمع الإسلامي، لأنها وإن تعددت جهاتها وأبعادها، تؤول إلى جهة بر لا ينقطع، وهي في الغالب للفقراء والمساكين

(10717/1)

والأيتام والأرامل والغرباء والمنقطعين والضعفاء وذوي العاهات والحاجات، والأطفال المحرومين لقد وجد هؤلاء جميعا الرعاية التامة في ظل المجتمع الإسلامي بفضل المؤسسات الخيرية وأعمال البر الدائمة التي تدرها الأوقاف.

... هذه الرعاية تعبير عملي عن روح التضامن الاجتماعي الحقيقي الذي غرسه الإسلام في النفوس، وجعله من أهم مرتكزات نظامه الاجتماعي. ويعد هذا التضامن المرتكز على الوقف أرقى من نظام الضمان الاجتماعي المعمول به في العصر الحاضر بكثير، لأن الوقف عمل تطوعي، وعبادة مالية يؤيدها الأغنياء والموسرون

(10718/1)

للفقراء والمساكين والضعفاء طلبا للثواب عند الله، وخدمة للمحتاجين من الناس، ولأنه مورد دائم تستفيد منه أجيال كثيرة، ثم لأنه مستقل عن الأجهزة الإدارية المركزية المعقدة.

... كان الوقف هو حجر الأساس الذي قامت عليه كل المؤسسات الخيرية في تاريخ حضارتنا. وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أول من ضرب المثل الأعلى لأمته في ذلك، فوقف سبع بساتين كان أوصى بها يهودي من أهل المدينة إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يتصرف فيها كيف يشاء، فوقفها – صلى الله عليه وسلم – بعد موت اليهودي على الفقراء

(10719/1)

والمساكين والغزاة وذوي الحاجات(1).

... والرعاية الاجتماعية والبر بالفقراء والمساكين مقصد من مقاصد الإسلام، أولاه القرآن الكريم عناية كبيرة، فحض في كثير من الآيات على الإحسان وإطعام المساكين والإنفاق على الفقراء.

... وبرز هذا المقصد في السنة النبوية كذلك، وظهر جليا

في الأحاديث التي تعد أصولا لتشريع الوقف، كما في قوله – صلى الله عليه وسلم – : "إن مما يلحق المومن من عمله وحسناته بعد موته علما نشره أو ولدا صالحا تركه، أو مصحفا ورثه، أو مسجدا بناه، أو بيتا لابن

---

(1) تقدم تخريج الحديث في الفصل الأول.

(10720/1)

السبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه بعد موته"(1).

... وكما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي ورد فيه أنه قال: "يا رسول الله إني أصبت أرضا بخيبر، لم أصب مالا قط هو أنفس عندي منه، فما تأمرني به؟ قال: إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها، فتصدق بها عمر في الفقراء وفي القربى وفي الرقاب وفي سبيل الله وابن السبيل والضيف"(2).

---

(1) الحديث رواه ابن ماجة، كتاب "المقدمة" رقم الحديث 238.

(2) تقدم تخريج الحديث في الفصل الأول.

(10721/1)

... انطلاقا من التوجهات القرآنية التي تحض على رعاية حقوق الضعفاء والمساكين،، ومن هذه الأحاديث التي برز فيها القصد إلى الرعاية الاجتماعية واضحا، تتابع المسلمون على مر الأجيال يحبسون الأراضي والعقارات والبساتين والغلات والدور لأعمال البر ونفع المحتاجين، مما ملأ المجتمع الإسلامي بالمؤسسات الخيرية.

... ووجوه البر وأبواب الإحسان والرعاية التي نشأت في المجتمع الإسلامي بفضل الوقف كثيرة. فهناك أوقاف للقطاء واليتامى لإيوائهم ورعايتهم وختانهم.

(10722/1)

... وهناك أوقاف مخصصة لرعاية المقعدين والعميان والشيوخ والعجزة، وأقاف لإمدادهم بمن يقودهم ويخدمهم، وأوقاف لتزويج الشباب والفتيات ممن تضيق أيديهم وأيدي أوليائهم عن نفقاتهم. وفي بعض المدن دور خاصة حبست على الفقراء لإقامة أعراسهم. وهناك أوقاف لإمداد الأمهات المرضعات بالحليب والسكر. ويذكر المؤرخون بإعجاب شديد أن من مبررات صلاح الدين الأيوبي أنه جعل في أحد أبواب القلعة بدمشق ميزابا

يسيل منه الحليب وميزابا يسيل منه الماء المحلى بالسكر، تأتي إليه الأمهات في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن ما يحتاجون إليه من

(10723/1)

الحليب والسكر(1).

وهناك أوقاف لإنشاء دور للضيافة والاستراحة (الخانات)، وأوقاف لقضاء الديون عن المعسرين، وأوقاف للقرض الحسن، وأوقاف لتوفير البذور الزراعية ولشق الأنهار وحفر الآبار.

... ومن أهم المنشآت الاجتماعية التي نشأت في المجتمعات الإسلامية بفضل الإقبال على الوقف أسبلة المياه الصالحة للشرب (السقايات). وكان من تقاليد الوقف أن تلحق الأسبلة بالمساجد، وغالبا ما تكون وسط المدينة أو على طرق القوافل، لتكون في متناول الجميع. وشاع الوقف لهذا الوجه من البر في سائر أنحاء

---

(1) "من روائع حضارتنا"، ص.127.

(10724/1)

العالم الإسلامي، لعظيم فضله وثوابه. وهناك أوقاف مشهورة في التاريخ لتزويد مكة المكرمة بالماء الطاهر الطيب، وأشهرها وقف السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد، وما زال يعرف بعين زبيدة(1).

... إن كل هذه الأوقاف والمؤسسات الخيرية الاجتماعية الناشئة عنها تدل على الدور الحيوي الكبير الذي كان الوقف يقوم به في مجال الرعاية الاجتماعية، وتوفير الأمن الغذائي، وعلاج مشاكل الفقر، وتوفير الماء الصالح للشرب، وإطعام الفقراء والمساكين، وأداء الدين عن الغارمين، وإنشاء صناديق للقرض

---

(1) "تاريخ الرسل والملوك"، ج3، ص.1440.

(10725/1)

الحسن إلى ما لا يعد ولا يحصى من وجوه البر والعمل الاجتماعي النافع الذي ينسج روابط المحبة وعلاقات التضامن والتكافل بين أفراد المجتمع وطبقاته. فأين هذه المبرات؟ كيف اختفت وتقلصت من مجتمعات المسلمين؟ أين الأيدي الرحيمة التي تمسح دموع اليتامى، وتصون الأرامل، وتعين المحتاجين، وتجعل المسلم أينما حل يشعر بالعزة والكرامة، وتجعل الأمة

الإسلامية أمة واحدة متراصة ينعم فيها الناس جميعا بالأمن والخير والكرامة والسلام؟

(10726/1)

فكرة المهدوية في الثورة الوطنية السودان ...

... ... عبد الله صالح سفيان

... ... باحث في الفلسفة – السودان

يختزل سودان وادي النيلالحديث بموقعه في قلب إفريقيا نموذج القطر القارة بالنظر إلى التعقيد البين في تركيبته الجدلية بشهادة التاريخ وحقائق الجغرافيا. فهو يحتوي على خليط من الثقافات ومزيج من الحضارات، وكان معبرا لها من الشمال إلى الجنوب أو من الغرب إلى الشرق وللعديد من المكونات البشرية ذات الأديان والتقاليد المتداخلة والتي استقرت في وضعها الحالي في ما يربو على

(10727/1)

الخمسين مجموعة عرقية انحدرت منها أكثر من ستمائة قبيلة تتحدث حوالي مائة لغة ولهجة، وتسور التركيبة الحدود السياسية التي أورثها الاستعمار لتجاور ثماني دول ذات ظروف ومكونات متقاربة أو متباينة ولكنها فاعلة في تحدتد راهن ومستقبل السودان .وتقدم الثورة المهدية بحركيتها وحضورها القوي في تارخ السودان نموذجا جيدا للبحث والدرس في الجوهر الرافد لمنطلقاتها ومسارها ومصيرها. ونقصد تحديدا : عقيدة المهدية المقرونة بظهور المهدي المنتظر، ذلك لأنها حققت في حدوثها ضربا من التدامج الوطني الاجتماعي الجاذب للمكونات

(10728/1)

العرقية التي انصهرت وتوحدت في سبيل الجهاد والتحرير لتأسيس الدولة المهدوية وتحقيق الوعد الإلهي المنتظر، وبهذا قدمت لنا مادة جيدة للتأمل الفاحص في علاقة الواقع بالعقائد أو – بدقة – مدى تحقق النظر بالعمل. وهذا منظور طيه اتجاه لفهم اكتشافي/ تنويري للتارخ الحي كمؤشرات دالة في باب الاعتبار والحكمة، خاصة وأن هناك أشباه ونظائر – في الثورات والعقائد المهدوية – حفل بها التاريخ الإسلامي

العربي.

في أواخر القرن الثالث عشر الهجري (1298 ه) ، وبدقة مع قرب كمال العصر / القرن الذي يقتضي ظهور إمام يقوم بأمر تجديد

(10729/1)

الدين على التمام مع الكمال؛ تهيأ الفقير سالك مغمور اسمه محمد أحمد بن عبد الله (1258ه – 1844 م/ 1302 ه – 1885م) أن ينتفض داعيا وثائرا بحسبه المهدي المنتظر لإصلاح أمر الدين وإزالة فساد الدنيا بسودان وادي النيل. وأكد أن هذا الزمان هو نهاية الحياة الدنيا " حيث أن الآخرة أقبلت وعلاماتها حصلت وأماراتها رويت بالعيان "(1) وفي منشور آخر

---

(1) د. محمد إبراهيم أبو سليم (محقق)، منشورات المهدية، جار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية 1979 وسنعتمدها كمصدر أساسي للإحالات بين القوسين . انظر، صص . 196، 332، 55، 169 .

(10730/1)

يقرر أنه قد " أقسم لي صلى الله عليه وسلم مرارا بأني منصور ومنظور من الله تعالى . وكشف لي يوم القيامة" . وتخيل أن زمنه امتدادا يندرج في زمن النبي، وأنه حتى يتم الوصول والاتصال ينبغي إحياء الدين وإصلاح أمر الدارين وذلك بإعادة الأمور إلى نصابها، أي إعادة الحاضر إلى الماضي. فالدنيا دار الفانية ويجب إسقاطها من القلوب وطردها وهي في كلمة جامعة " كالحية لين مسها ويقتل سمها ".

والحجة في كل هذا هو " تغير الزمن وترك السنن" وأنه – كمهدي مصطفى – قد تأكد له أن الإسلام بدأ غريبا وعاد اليوم أكثر غربة . ولهذا

(10731/1)

فإن مهمته المزدوجة هي إعادة الدين والدنيا إلى ما كانت عليه في زمن الرسول وصحابته، بإقامة دولة الحق الإلهي التي ستملك الأرض وتدخل كل الناس في طاعة مهدي الله. وهذه المهمة تستدعي هدم كل الأنظمة القائمة والأبنية المادية منها والمعنوية، والتهيؤ لقيام الساعة قبل أوانها في إطار الرؤيا التي سيطرت على مجال الرؤية وحصرته في مجال ضيق يعبر تعبيرا سافرا عن سلفية إرجاعية / وصفية طوباوية : تسلحت

بظاهر الفلسفة الصوفية وتعززت بكل ما تملك الطرقية من حضرة وحضور للأقطاب والأولياء، الأحياء منهم والأموات، واعتمدت

(10732/1)

الإلهام والبشارات كوسيلة اتصال " عصري" ثم قدحت شرر الثورة المهدية الذي إليه يتهافت العامة، وفي التهافت كان قدرها ومقتل المهدوية بالفعل.

لقد ظهر محمد أحمد في القرن التاسع عشر الذي اتسم بتصعيد الغزو العسكري الاستعماري الأوربي حين قادته فرنسا وبريطانيا وزاحمت به دولة الخلافةالعثمانية التي أخضعت معظم البلاد العربية والإسلامية لنفوذها الديني، مع وجود نوع من الاستقلال الذاتي أو التام الذي تمتعت به بعضها. كانت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت علم 1798 م قد فتحت أبواب العالم العربي على

(10733/1)

الحضارة الغربية الحديثة بما اشتملت عليه من مبادئ سياسية وأنظمة إدارية وعلوم وفنون. وسيأتي احتلال فرنسا للجزائر فيما بعد عام 1830 ثم تونس التي أدخلت تحتالحماية عام 1881 وامتداد نفوذ بـ بريطانياحتى عدن عبر بلاد الهند والشرق الأقصى ليعزز الاستعمار الأوربي ويزيد من متاعب الأمبراطورية / الخلافة العثمانية التي كانت تركيا " الرجل المريض" عنوانا سياسيا لها كانت تصارع في سبيل البقاء على الرغم من وجود السلطان عبد الحميد الرجل القوي الذي جمع بين القوى والآراء التقدمية وتعزز حضوره بوجود المفكر الإسلامي جمال

(10734/1)

الدين الأفغاني(1) .

ولم تكن للسودان يومها علاقة مباشرة مع الخلافة العثمانية، بل كان محكوما بالوكالة من طرف الخديوي محمد علي باشا حاكم مصر الذي فتح السودان عام 1821 م ففرض على البلاد نوعامن الوحدة الإدارية والسياسية المغرضة بحثا عن الموارد الاقتصادية والبشرية.

وتأسست حكومة هجينة من الإدارة التركية

---

(1) د. علي المحافظة، الإتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1983، ص 20. وما بعدها .محمد أبو القاسم حاج احمد، السودان، المأزق التاريخي وآفاق المستقبل، ص. 33 وما بعدها .

(10735/1)

الخديوية المطعمة بعناصر مصرية وأجنبية وقبلية سودانية عاثت فسادا في البلاد وعاشت هوس الاستنزاف الكامل للموارد والطاقات الشيء الذي خلق نوعا من الحقد والكراهية تجاه هذه السلطةالحاكمة باسم الخديوي وسلطان المسلمين وذلك رغم تعاطف أو تواطؤ بعض المستفيدين من التجار وزعماء القبائل ومشايخ الطرق معها إذ حسبوها تابعة لمركز الخلافة الإسلامية بتركيا . كانت المطامع الاستعمارية الأوربية والبريطانية خاصة قد ارهقت دولة الخلافة العثمانية وانعكست ذلك بصورة أخرى على الدولة المصرية حيث كان الخديوي يعاني من الأخطاء

(10736/1)

المالية والاقتصادية التي أوقعته فيها السياسات البريطانية الشيء الذي حطم تماما طموحه لتكوين امبراطورية عربية بجهوده وطموح ابنائه من بعده . بل تحولت مصر اثر الضعف والضغط، إلى مستعمرة بريطانية مع تتالي الأحداث.

أعلن الرجل إذن قيامه كثائر على الأوضاع السياسية والإدارية التركية الخديوية بالسودان زذلك حين قرر أن الأمر قد صدر إليه في الحضرة بقتال " الترك. أشد الناس كفرا ونفاقا" . ويبدو أن هذه السياسة الحكومية كانت حصيلة الفتح التركي الخديوي للسودان إذ صاحبت حملة الفتح التي قادها اسماعيل باشا ابن

(10737/1)

الخديوي موجات من العنف والاضطهاد الذي لم يعرفه الناس من طرف الأجانب من قبل. وكان أقوى رد فعل على حملة الفتح هو مقتل اسماعيل باشا قائد الحملة على يد جند " الملك نمر" زعيم قبائل الجعليين بمدينة شندي على شمال الخرطوم حيث مات وجنوده حرقا علم 1824 فاشتعلت الثورات والانتفاضات على الاستعمار الأجنبي في البلاد.

كان أبرز وأقوى أثر لهذا العمل الوطني هو تجريد محمد

بك الدفتر دار صهر خديوي مصر لحملة انتقامية دموية سريعة أحدث فيها مجازر هائلة في القبائل النيلية الشمالية ودمر وأحرق الكثير من القرى والمدن وأسر

(10738/1)

الكثير من الناس ونشر الذعر والرعب في البلاد، ثم واصل سيره جنوبا " والخلائق تفر من وجهه " وحيث كانت " شياطين الخراب والدمار تسير في ركابه "(1) .

---

(1) د. مكي شبيكة، السودان عبر القرون، دار الثقافة ببيروت، 1964، ص. 122؛ نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان، دار الثقافة، بيروت، 1967، ص . 508؛ وب. م هولت، دولة المهدية في السودان، وترجمة هنري رياض وآخرون، دار الجيل ببيروت مكتبة خليفة عطية ، الخرطوم، 1982، ص . 8 وما بعدها .

(10739/1)

وعلى الرغم من أن مقتل اسماعيل باشا كان بسبب طمعه وتعسفه في جمع الضرائب، إلا أن الحكومة استمرت على نفس النهج في حق الناس الذين لم يكونوا

متعودين أو قادرين عليها .. وينضاف إلى هذا استشراء الرشوة وأساليب القسوة في تحصيلها حتى أنها كانت شديدة ثقيلة على الفقراء خفيفة هينة على الأغنياء .

ورسمت الصورة السيئة للحكومة التركية التي عايشها المهدي في الرؤيا ونذر نفسه حين أمر بوجوب إعلان الجهاد عليها .

تزامن إعلان المهدوية كدعوة لثورة وطنية مع حدثين هامين يمكن اعتبارهما عاملين وطنيين ساعدا في إزكائها وهما:

(10740/1)

العامل الأول : اندلاع ثورة أحمد عرابي بمصر عام 1882 م والتي أدت إلى شل الحكومة الخديوية فلم تسمح لها بنجدة عساكرها بالسودان في وقت سرى فيه لهيب الثورة المهدية سريان النار في الهشيم. ثم إن الحكومة نفسها كانت غارقة في مشاكلها وتعيش أزمتها الداخلية و الدبلوماسية الدولية.

العامل الثاني: ظهور شخصية أحمد العوام وهو خطيب مصري جيء به منفيا إلى السودان وسجن بالخرطوم لاتهامه بتأييد الثورة العرابية. وقد انتهز العوام

فرصة وجوده في وقت التهب فيه الحماس الوطني إثر الانتصارات المتوالية السريعة التي تحققت

(10741/1)

للثورة المهدوية فعمل على التخزيل وانتقاد الحكومة التركية بعنف لإيقادها سعير الحرب بين المسلمين في السودان، يعني بذالك جند الحكومة والثوار المهدويين. وذهب إلى الإفتاء بفساد الحرب طاعنا في مشروعية السلطان العثماني نفسه وكذلك خديوي مصر لأنهم بدل أن يقوموا بالاتصال بالمهدي طلب الآيات والبراهين البينات على " مهدويته عن طريق حوار مع العلماء والفقهاء" ذهبوا مباشرة إلى تجريد السلاح وإعلان الحرب عليه. وبما أنه لاطاعة لسلطان جائر في معصية الخالق، فإن من مات في حرب كهذه هو عاص مخالف لأمر الله ورسوله،

(10742/1)

وذلك لأن الحرب هي مجرد وسيلة لابقاء ملك السلاطين والحكام الظالمين.

كان العوام صادقا وواضحا في موقفه من الحكومة التي لم تستفت علماء الأزهر حول المهدوية – على مطاعنه فيهم باعتبارهم علماء سلطة – إلا بعد مباشرتها الحرب وهلاك معظم جيوشها على أيدي الأنصار المهدويين. فكان أمرها " كرجوع فرعون إلى الإيمان بعد هلاك جيشه وتحققه الغرق "(1) كما انبرت

---

(1) نصيحة أحمد العوام (والعلاقات بين العرابية والمهدية)، تحقيق ودراسة د. محمد رشيد حسن، الدار السودانية الخرطوم، دار الفكر ببيروت، بدون تاريخ، ص 5. وما بعدها.

(10743/1)

كوكبه من العلماء والأعيان، بإيعاز من الحاكم العام في السودان ومن السودانيين، لتزييف الرسائل ووضع الفتاوي في تكذيب وتسفيه آراء المهدي في وقت كان فيه الأخير يزحف منتشرا في أرض السودان مزيحا جند الحكومة أفئدة الناس باسم سلطان الله في أرضه وبأمر نبيه وشهادة أوليائه.

وقد صدق حدس العوام حين انهزمت حكومة الخديوي بمصر بسبب الثورة العرابية عندما تدخل الأنجليز

فقضوا عليها وأسروا أحمد عرابي فتنازل لهم الخيدوي عن بلاد السودان. ولكن بالمقابل تعززت الحملة الدينية الوطنية وانخرط الناس زرافات ووحدانا في السيل

(10744/1)

المهدوي الذي اندفع باسم الجهاد والحرب المقدسة . وعند اقتراب زحف المهدي من العاصمة الخرطوم سيوجه الحاكم الانجليزي بالسودان تهمة الخيانة والتحريض لأحمد العوام، وحكم عليه بالاعدام في يناير 1885 . وقد نفذ الحكم قبل أيام من فتح المهدي للخرطوم، بل قبل أيام من لقاء لم ينكتب بين الرجلين لأن أحمد العوام توقف عن الحكم معلقا الأمر في حقيقة المهدية إلى حين اللقاء، ولكن بقيت غيرته وتأييده كمعلم وعامل هام في مسار الثورة الوطنية.

(10745/1)

إن ما خطه الصوفي الفيلسوف محي الدين ابن عربي (ت . 638 ه) في كتابه " عنقاء مغرب..." وكذا في " فصوص الحكم" و " الفتوحات" وغيرها من مؤلفاته الكثيرة،

واجتهدنا في بيانه بصدد عقيدة المهدوية وشخصية وأوان ظهور المهدي المنتظر كخيط ناظم أو مؤسس للعمق الفلسفي السياسي لمشروعه الصوفي الحياتي الوجودي؛ قد طمح محمد أحمد بن عبد الله إلى تحقيقه عمليا بل وانفاذه واقعيا باعتباره الحق أو الوجه الأحق. فهل تمثل مهدي السودان فلسفة ابن عربي الصوفية المهدوية كما هي في أصولها ثم طمح إلى تحقيقها ؟ أم إنه قد وقف عند " لا

(10746/1)

تقربوا الصلاة" واعتبره بمثابة الشيخ الأكبر و " الكبريت الأحمر " والحجة الضامنة له ولاء شيوخ متصوفة وصلاح وادي النيل وغيرهم للقيام معه كمهدي منتظر؟ وهل توفر له ذلك التنظيم المهدوي الذي وصفه ابن عربي : أي كون المهدي هو الخاتم والفجر الصادق الأوحدي الذي سيظهر ظهورا قياميا – كشمس المغرب – معززا برجال إلهيين وأولياء هم الوزراء الذين يشايعونه لإقامة مملكة الله وتحقيق العدل الإلاهي؟ وهل حمل اولئك الرجال الإلهيون رسالة المهمة المهدوية وأكملوا الطريق حتى النهاية أم إنهم تساقطوا كالفراش المتهافت على النور

(10747/1)

والنار محترقين بنار السلطة الزمنية لا المهدوية ومؤكدين بذلك أن الأمر قد كان بعد وفاة مهديهم مجرد ثورة دينية سياسية ؟ بل لماذا قال محمد أحمد أصلا بالمهدوية؟ هل لأنه فقير صوفي ومجاهد سائح متبتل بالفعل عكس حجته وإمامه الروحاني ابن عربي؛ أم إن في الأمر دوافع وحجج أخرى ؟ وهل لمح تباشير " الفجر الصادق" كما ابن عربي أم استيقظ قبل أوانه؟ هنا : وجود النصوص الأصلية لمهدي السودان الحاملة لأفكاره الصوفية البسيطة وخلوها من أية حجج أو براهين أو تعقيدات كلامية كانت أو فلسفية، يعفينا من الشرح والتأويل مادامت

(10748/1)

تعرض نفسهابنفسها فتبين معالم طريق القلم الذي مهد لسيف المهدوية في سودان وادي النيل الحديث. لقد تهيأ لمحمد أنه قد وقف على " عين المهدية" في وقت جانب فيه الحظ أهل الكشف على كثرة أقوالهم والمحققين والمصنفين كذلك فلننظر فيما بين يدينا

من آثار إلى هذه " العين" من زاوية الرؤِيا وأبعاد الرؤية حتى نقف على حقيقة الواقع / واقع الحقيقة.

1– الرؤيا

... إن مصدر الشرعية ومبتدأ الأمر في الدعوة عند مهدي السودان و "الحضرة "(1)

---

(1) الحضرةفي اللغة : ورود الشيء ومشاهدته . وعند ابن عربي هي مجموعة حقائق تآلفت بشكل مخصوص يعطي حقيقة جديدة واحدة مركبة لها خصائص مميزة وواضحة. انظر المعجم الصوفي،د .سعاد الحكيم، دار دندرة للطباعة والنشر،بيروت، الطبعة الأولى 1981. والحضرة كمصلح مقابلها كبمة غيبة.. كلمة يستعملها الصوفية على الإتساع ... الحضور أي المثول في حضرة الله (ونجد أن محمد أحمد المهدي قد مثل في حضرة النبي والأقطاب والأولياء)... ونلاحظ أن ابن عربي يستعملها وهو بسبيل وضع مذهبه الشمولي القائم على وحدة الشهود والوجود بمعنا أغنا وأشمال وبالنظر إلى مفهوم وصياغة محمد أحمد لها . تظر التعريفات للجرجاني، ص .88 ؛ ودائرة المعارف الإسلامية، المجلد السابع، ص . 466، وكذلك :
M.A Palacios, « The Theory of rhe Hadras of Ibn Arabi », in The Mystical Philosophy of Ibn Massarra, page 173, 183

أما الحضرة في نظام التصوف الطرقي الشعبي فيه محفل

محمود بزمان ومكان معينين ومخصوص بأناس معروفين لتلاوة الأذكار والأوراد والرياضات .

(10749/1)

الصوفية التي وقعت له وهو السالك في طريق المجاهدة، وأمها اللرسول صلى الله عليه وسلم وجمع من كبار الأولياء ومشايخ الصوفية. فكانت " مادة "الرؤيا آتية منها حين غمرت منه الوجدان والفكر والفعل المهدوي إلى حد الإمتلاء، وذلك حين يجاهر بأنه قد تتالت عليه الحقائق الغيبية في تلك الحضرة معززة بالأوامر " الإلهية والنبوية" ثم " تواترت الأنوار والبشائر والأسرار والأوامر النبوية والهواتف الالهية بإشارات وبشارات عظيمة" لإحياء الدين ولكونه المهدي الذي سيعزز ظهوره أكثر من مائتين وستين ألفا من الناس وستين ألفا من

(10750/1)

" الأولياء الميتين وملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى". وكان قد سطر هذه المظاهر الجوهرية لدعوته في أول

منشور سري إلى الشيخ محمد الطيب البصير (ت. 1908 م)
أحد مشاهير زعماء فروع الطريقة الصوفية السمانية
بالسودان، كتب إليه موضحا البدايات والبشارات قبل
ورود التأكيدات بصدد هذا " الأمر المكتوم " . ثم لما
أظهر مهديته عين الشيخ الطيب كنائب "نيابة كاملة
"وخاطبه بما يفيد معناها . ثم أوضح في مكتوب لاحق
إنني قد " جعلت مبايعتك مبايعتي" وسيأتي المهدي
لاحقا ليستبدل الشخص وهو الشيخ الطيب البصير،
والموقع بشخص

(10751/1)

وموقع جديد وهو منصب خليفة المهدي / عبد الله
التعايشي. والشيء المهم والجديد لدينا كإضافة
تاريخية لمفهوم المهدية – هو تعيين نائب أو خليفة
للمهدي الأمر الذي يمهد تماما، ولو كان بدون وعي،
لتأسيس دولة زمنية.
لقد أكد محمد أحمد أن أمر المهدية قد " هجم" عليه ك "
حال" هجوما ربما نجد له تفسيرا صوفيا خاصا في نسق
ابن عربي الذي يعرفه بأنه " مايرد على القلب بقوة
الوقت بغير تصنع منك" أي أنه حصيلة المجاهدة
الصوفية التي تعني " حمل النفس على المشاق البدنية

ومخالفة الهوى على كل حال" (1)

---

(1) المعجم الصوفي : الهجوم، المجاهدة، ص . 141، معجم المصطلحات على هامش التعريفات للجرجاني، الدار التونسية للنشر 1971 .

(10752/1)

.فإذن كان الأمر من الله ورسوله من غير استحقاق له بذلك لتواضعه وصغر مقامه لأنه كان يستبعد ذلك لنفسه وينتظر ظهور المهدي ليكون عونا وخادما له.

ومن أقوى ما يعزز به موقفه المتواضع هذا بعض الحجج التي يمكن استنباطها من منشور الدعوة الأساسي الذي صاغه بقلمه وهي:

الحجة الولى : ينسب المهدي إلى ابن عربي الحديث النبوي " علم المهدية كعلم الساعة ولا يعلم الساعة إلا الله تعالى " كما ينسب أقوال أخرى إلى النبي والخضر والشيخ أحمد بن إدريس الفاسي (ت .1253ه / 1837م) عن استحالة التوقيت والتعيين لشخص وجهة وزمن

(10753/1)

خروج المهدي، ويجد في هذا الاختلاف حجة له لا عليه مادام الاصطفاء قد تم وقضى الأمر محسوما منعقدا له.

الحجة الثانية : إن بعض الآيات والحديث الصحيح ينسخ الحديث الصحيح ، والأحاديث منها المقطوع و الموضوع والضعيف ولهذا فلا ثقة في المنقول والمكتوب في برهان أمر كالمهدية.

الحجة الثالثة : وهي الحجة الأقوى : إن تواضعه وصغر مقامه لا يمنعان فضل الله الذي يؤتيه من يشاء، فعلم الله وإدارته ومشيئته لا تتقيد بضبط القوانين ولا بعلوم المتفننين والمصنفين بل على حال يعلمها هو .. فإذا كان الأمر كذلك، كان الأمر كذلك،

(10754/1)

والهجوم قد ورد عليه اصطفاء واختيار من غير تصنع، فلا بد من القيام والامتثال والطاعة للأمر النبوي الشاهد عليه ثلة من الأولياء.

وكان المهدي قد تحدث مرارا عن سلسلة من الحضرات التي حصلت له وأهمها وأكبرها حضرة التنصيب حيث أكد أنها حصلت له " يقظة في حالة الصحة (...) لا بنوم ولا بجذب ولا سكر ولا جنون بل متصفا بصفات العقل اقفو أثر النبي"(المنشورات ص. 75) . ولنا أن نرجع هنا إلى

سيرته لنجد أن أمر المهدية قد هجم عليه وهو يتعبد منفردا في خلوته بجزيرة (أبا) الواقع في قلب منطقة النيل الأبيض قرب مدينة كوستي

(10755/1)

بوسط السودان. كان حينها زاهدا متبتلا على الغاية في الخمول والورع والزهد . وبلغ بهذه الأخلاق مرتبة المشيخة في التصوف الطرقي حيث أجازه الشيخ محمد شريف نور الدائم احد زعماء فروع الطريقة السمانية، فذاع صيته وكثر مريدوه وزواره بمنطقة النيل الأبيض كزاهد يدعو إلى الصلاح والإصلاح. ولم تعرف عنه فلتة في البدعة أو الاشتغال باختلاف الكرامات وخوارق العادات كعادة متصوفة الوقت.

لقد شهد من الحضور مشايخ الصوفية لتنصيبه رسميا النبي وجمع من الأولياء والأقطاب والفقراء والأتقياء و " الأولياء الميتين " (المنشورات ص

(10756/1)

---

24) من المغمورين الذين لا يعبأ بهم ومقامهم سام عند الله ورسوله. ونلاحظ أن معظم الأسماء التي ذكرها من الوجوه المعروفة في حلقات وفضاء التصوف الطرقي النيلي. وربما تأتي دلالة حضورهم الصاعق والمعجز كذلك لكونهم من اصحاب الكرامات وخوراق العادات التي لعبت دورا كبيرا في تشكيل الأرضية الصالحة لغرس التصديق بمبادئ الدعوة والالتفاف حولها وإقامتها .كما كان من أبرز الحضور الشيخ عبد القادر الجيلاني سلطان الأولياء في عرف التصوف الطرقي والشعبي، والخضر ذلك العبد الصالح الذي يتمتع بالحياة المستمرة والحكمة والعلم

(10757/1)

للدني الالهي والحضور المتجدد.

وقد تقرر ضمن هذه الحضرة ما يمكن ترتيبه كاهم واقوى معالم المهدوية التي انعقدت لمحمد احمد وهي كالتالي :

... أولا : أن الرسول قرر له في الحضرة والجمع أن من شك في مهديته فقد كفر وعقابه القتل.

... ثانيا : أن محمد أحمد عند لحظة ولادته عرفه أهل الظاهر والباطن بوصفه المهدي المنتظر، فلما أتم الأربعين يوما عرفته النباتات والجمادات. كما أن الرسول قد أعلمه بما

يفيد قوله « إنك مخلوق من عنان قلبي » (المنشورات ص 14–26). وإن من أبرز علاماته الخال على خده الأيمن .

ومن حيث النسب

(10758/1)

فقد أكد أنه من آل بيت النبي : حسنب / حُسَيبي من جهة الاب وعباسي من جهة أمه .

... ثالثا : تقوم المبادئ الطرق والصوفية على ستة أسس هي "الذل والإنكسار وقلة الطعام وقلة الشراب والصبر وزيارة السادات" وتقوم المهدية كذلك على ستة مبادئ هي " الحرب والحزم والعزم والتوكل والاعتماد على الله واتقان القول" (المنشورات ص 15) وقد تقررفي الحضرة أن تجتمع هذه المبادئ الاثنا عشر للمهدي وحده لاالأحد من قبله، تعظيما وتعزيزا. ومن الواضح أن اجتماع أسس الطريقة مع أسس المهدوية قد كان إعلانا بأنها جبتما قبلها، الشيء الذي

(10759/1)

سيسمح له من بعد بإعلان 'لغاء جميع الطرق والمذاهب، باعتبار أن المهدية الخاتمة قد ضمتها تحت رايتها الواحدة.

... رابعا : أكد المهدي أن الرسول أمر عزرائيل ملك الموت بأن يكون معه لايفارقه أبدا، بحيث يبقى في مقدمة جيشه حاملا علامة النصر وهي راية من نور النصر الأبدي على الأعداء.

... وبناء على هذه الأسس الباطنة القوية الواردة في الحضرة المصطفوية أعلن محمد أحمد أنه المهدي المنتظر الذي سيملأ الدنيا قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا. كان ذلك في منتصف عام 1297ه / 1880م حيث بدأ بتوجيه الرسائل رسميا إلى زعماء

(10760/1)

القبائل وشيوخ الطرق وخاصة الذين سبق وأن التمس قبولا بدعوته للاصلاح لديهم إبان سياحته الصوفية في بعض الأقاليم حيث لاحظ فساد الحكومة الأستعمارية الخديوية (التركية/المصرية) كما عاين اضمحلال تعاليم الأسلام والأنحاطاطالخلقي في المجتمع المدمي والبدوي. وشايع هذا وأزكاه الناحر القبلي الجاهلي الذي كان عنوانا حقيقيا للتردي في سودان وادي النيل في

غياب الشخص القائد أو الدولة المركزية الموحدة القوية أو التقليد الثقافي – الفلسفي الأصيل الباعث على اللحمة والتمركز.

(1/10761)

... ونشير هنا إلى أن المهدي قد ذكر أمام الرسول ((صلعم)) وهو في الحضرة من سيستهزئ بمهدويته من الناس وتحديدا العلماء، كما أن هناك الخشية من الأتراك وولاتهم وعمنائهم باعتبارهم الوجه المظلم والظالم ورمز السلطة الفاسدة، القاسية. كان العلماء يزينون لهم أفعالهم بالسكوت عن ممارستهم رغبة في الخلافة العثمانية بتركيا والتي كان بعض علماء السودان يدينون لها رسميا باعتبارها وريثة الخلافة الإسلامية.

... فإذا سلمنا بخطورة الأتراك كخصم استعماري سياسي فاعل ومؤثر في بناء وتوجيه مسار الدعوة ومستقبلهافإن الإشارة

(1/10762)

إلى خطورة العلماء وفي حضرة التنصيب بالذات تعتبر هامة في هذا السياق خاصة معظم العلماء المعروفين بالسودان حينذاك كانوا من الفقهاء السنيين الذين درسوا الفقه التقليدي بالأزهر ويريدون أن يثبت لهم علامات ونذر المهدوية باعتبارها من مقدمات قيام الساعة كما جاءت بها شعورا ذاتيا لامكان للاشتراك في التماسه أو بيانه إلا منجنس الحقل الدلالي مفاهمي الصوفي الشيئ الذي سيكرس الخلاف التاريخي الإسلامي بين أهل البيان (الفقهاء والمتكلمين) وأهل العرفان (الصوفية) .

(10763/1)

... إن الباحث في المرافق الفكر الإسلامي بالسودان يجد أن سيطرة الفكر الصوفي الطرقي على الفضاء الثقافي وعلى مدارس التعليم الديني بالسودان قد رجحت كفة الأ إنتصار دائما لمصلحة شيوخ المتصوفة وكذا الأدعياء الذين انحرفوا عن التصوف الإسلامي ومبادئه ليشيدوا ملكا دنيويا باسم الطريقة والسلوك والمجاهدة وقد غيبت هذه الهيمنية الفكر والإبداعالفلسفي غيابا ملحوظا بحيث لانجد سوى بعض الكتب والشروحات والمتونى التي وردت واشتغل بدراستها القليل من

الأفراد ولم تظهر أو تعرف مدرسةفلسفية أو كلامية أصيلة تعني بالبحث

(10764/1)

والدرس والتأصل.

... ويبدوا تخوف محمد أحمد هنا من طعن العلماء في ركائز مهدوية مفهوما لكونهم والحكومة في جبهة واحدة ضده.والشاهد أنه أردف أججه المؤيدة لمهدويتهبإعلانه المباشر لتكفير من اعتراض عليه أو شك في مهدويته قاطعا الطريق أمام أي جدال أو حوار فكري مادام الإصطفاء المهدوي النبوي الالهي له قد تم منذ مولده.

... فقد انتقل من الرؤيا الحديثة بالحضرة النبوية مباشرة إلى الواقع المعيش ليطبق حرفيا كل ما عَمَرَ خياله ووجدناه واستيقن برهانه من منظوره الصرفي الثوري. ولا شك أن هذا الإنتقال من الرؤيا/ الحضرة

(10765/1)

إلى الحياة الدنيا/ الثورة كان عبر رؤية معينة لنا كان عبر رؤية معينة لنا أن نتوقف لبيان معالمها وحدوها

قبل انحدار السيل المهدوي.

...

... II –الرؤية

... إن الخيط الناظم لاتساق الرؤية والرؤيا هو عنصر الزمان: المصدر الباعث لتوقيت المهدوية وتوهم تحيين القيامة،والعنصر القاسم لكل دعوى لم تحترم السيولة الأزلية الأبدية له، وكذلك الذاهب الآتي الذي هو أشبه من الماء بالماءفي نظر الثوار والمجددين والمصلحين من القائلين بفساد الدنيا والزمان ودوران التاريخ بالتبدل الظاهر للعيان. وقد تهيأ لمحمد أحمد المهدي –

(10766/1)

زمانيا– ما سبق وإن تهيأ لسابقيه من المهدويين السنيين ببلاد المغرب كمحمد المهدي بن تومرت(473ه –524ه) وأحمد بن أبي محلي(967 ه –1022 ه). حيث ظهر الأول في بداية القرن السادس الهجري والثاني في بداية القرن الحادي عشر الهجري، أي توافق مع رأس القرن حسب المخيال العامي الذي به اشتهر ظهور المهدي واتسق مع قرب كمال القرن أو رأسه أو له كان أ, آخره وذلك بحسب ظروف محيطه ومقاصده.

... يتسع مجال الرؤية المهدوية هذه من سودان وادي

النيل الأوسط في طموح مسكون بروح الثورة ليندام
شمال غامر بلاد مصر وشمال إفريقيا وعموم

(10767/1)

بلاد المسلمين شمالا؛ ثم يمتد ألى غرب إفريقيا متجاوزا
تضاريس وتناقضات الزمن والمكان في السودان، حيث
كان مشهورا تطلع الناس هناك في المغرب لظهور
المهدي المنتظر من بلاد المشرق وكان أول وأقوى من
أكدهذاالتطلع هو الشيخ عثمان بن فودي(عثمان دان
فوديو 1754–1817م) الذي قاد حركة الجهاد السنية
لقبيلة الفولاني في بلاد ممالك الهوسا الوثنية
بنيجيريا، واستطاع انشاء امبراطورية أسلامية واتخد
لقب أمير المؤمنين في دولة الخلافة
العثمانية"الصُكُتيّة". لقد تحدث دان فوديو عن ظهور
المهدي مباشرا بقرب ظهوره نافيا ذلك عن

(10768/1)

نفسه، كما بشر جماعته المنتصرة بأنها ستكون
طليعة جند المهدي وأن حركته الجهادية لن تخمد حتى

تقترن بالمهدية. وألف في ذلك كتاب " المهدي المنتظر" وكتاب "تحذير الإخوان من ادعاء المهدية الموعودة آخر الزمان " كدليل على قوة حصور وانتشار الفكر هناك ووارادة تسويرها خوف الأنتحال(1)

---

(1) د. محمد إبراهيم أبو سليم، الحركة الفكرية في المهدية، دار الجيل ببيروت، الطبعة الثانية 1981، ص.4؛ د. سيد أحمد إسماعيل عثمان، دراسة حول حركتي الشيخ عثمان ابن فودي ومحمد أحمد المهدي وآثارهما ، أعمال ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر (البحرين 1985)، الناشر، مكتبة التربية العربي لدول الخليج، الرياض، 1987، ص. 348.

(10769/1)

---

(1).

... وتلى ذلك وضع العديد من المؤلفات والبشارات وطرق الهجرات شرقا وشوقا. وقد تهيأ للناس قرب ظهور المهدي شرقي بلاد الهوسا : أي السودان. وأخد محمد أحمد يستثمر رأس المال الرمزي هذا حيث سيهتم اهتماما بالغا مكاتبة أحفاد الشيخ دان فوديو في بداية الثورة كما كتب إلى أهل مالي وسلطنة وادي وأهل شنقيط

وعموم غرب افريقياوكان أبرز ما جاوب به الشيخ حيات ابن سعيد حفيذ دان فوديو مبايعا المهدي بقوله ".. أنت اليوم قبلة الله ومسجده الحرام. فتوجهنا إليك ابراهيميي الوجوه" (المنشورات ص 336). غير أن شواغل الظروف

(10770/1)

الحياتية من التمردات وثورات قبلية محلية، لم تمسح بدعم المهدي نظاميا بجيوش أو بمساعدة مادية منظمة تترجم هذا التسليم والإسلام" لابراهيمي » فبقيت مهدويته ثورة الوطن .

... إن شمولية الرأية المهدوية المحدودة الزمان والمحددة المكان التي عمرت فضاء الرؤيا فقد كونت (مادتها) الأولية من تلك (السياحة) الصوفية. ولاتشبه سياحة ابن عربي إمامة الروحاني، التي قام بها محمداحمد في بعض أقاليم السودان حيث شاهد نوعا من الفساد الإجتماعي وضروبا من البدع الدينية والعادات والتقاليد التي تداخلت وتعاليم الدين فشكلت نسيجا

(10771/1)

سودانيا فريدا ومتميزا في المحيط الافريقي والمجال الجغرافي العربي المتوسطي المؤثر جدلا في تركيبة البلاد والإنسان. والإنفاذ هذه الرأية المهدوية العديمة والقيامية في آن مع ،كان لابد من اتخاذ خطوات تكتيكية لتصب في بحر الاستراتيجية المهدوية الكبرى. وسنجتهد في تركيبها عبر خطوات نرى ، أنها مفيدة وهامة لتوضيح السياق ، وهي:

الخطوة الأولى :

... تصعيد الزهد كميكانيزم صوفي في اذكاء الجهاد: الدعامة الأساسية للمهدوية. وبنفس القدر يمكن اعتبار الزهد المتطرف ونبذ الدنيا وتحقيرها حياتيا وسياسيا بواقع هجرة رمزية.

(10772/1)

وقد خاطب المهدي في بواكير دعوته مشاييخ الطرق الصوفية وعموم المتصوفة متحدثا لهم عن هجرة الدنيا باللغة التي يجيدها ويفهمونها ، وقرن الزهد زما يقتضيه من تجرد وتضحية وحزم بضرورة القيام الإحياء الذين . إلا أنه على الرغم من فعالية هذا التصعيد في استقطاب الأنصار المهدويين ، فإن غلبة الأصل الديني على المبدأالصوفي الديني كانت واضحة في سلوك بعض

أنصار المهدي حين نستنتج من تكراره وتشديده على عقوبة السرقة وغلة الغناءم على بعض المعارك ؛ أن ضعف تأطيرهم والفقر المادي والمعنوي البادي فيهم قد جعلهم يتخطفون غنائم

(10773/1)

النصر المرحلي الذي كان خاطفا في الدنيا قبل الآخرة ، كما تشهد بذلك العديد من المنشورات والرسائل المهدوية.

... ولنا أ، نوسع هذا الشرخ السلوكي الذي حدث حين ربطه بالطبيعة الطابعة لجوهر الإنسان ، ليصبح هوة اجتماعية حدثت في جسد البنية الثورية. ولربما كانت هي الثغرة في كل مشاريع الإصلاح المثالية الصوفية أو المهدوية أو غيرها ،وذلك حين ننظر في المواجهة بين " الجاه والرهادة"(1)

---

(1) عبد الله علي إبراهيم، المهدية والكبابيش : نحو مشروعية المعارضة، دراسات في تاريخ المهدية، المجلد الأول، مطبوعات قسم التاريخ بجامعة الخرطوم (بحوث المؤتمر العالمي لتاريخ المهدية، ديسمبر 1981، إعداد،د. عمر عبد الرزاق النقر، ص. 118؛ انظر كذلك د.

محمد سعيد القدال، المهدية والحبشة، دراسة قيمة يناقش فيها مشكلة الغنائم أو التناقض بين الدعوة والثورة، دار النشر بجامعة الخرطوم، 1973، ص. 36.

(10774/1)

---

(8) من خلال التهديد القوى الذي حملته تعاليمها وخطواتها للبنى الاجتماعية والأخلقية السائدة في أقاليم السودان . سنجد أن قبيلة مثل الكبابيش تعيش في غرب السودان الأوسط ككيان تاريخ مكون من بطون وشرائح وفروع متعددة ومتفاوتة طبقيا ومعيشيا؛ كانت تتمتع قبل قيام الثورة المهدوية بامتيازات تجارية من قبل الحكومة الإستعمارية وأيضا – وهذا هو الأهم – بعادات وتقاليد ونظم قد يتعارض بعضها تعارضا جذريا مع تعاليم الإسلام أو حسن الجوار والوطنية كأضعف الايمان . ومن أبرز هذه النظم السائدة اقبطاع الأرض واحتكارها ووراثتها

(10775/1)

على المستوى الاقتصادي، أو وجود نظام "القيمان" وهو نهوض قوم من قبيلة على رزق فرد أو جماعة من قبيلة أخرى ليسلبوه ويقسموه على المغبصبين بالفرحة والحبور وحسب أصول ومعايير معينة وطقوس قائمة.

وكان هذا النظام مظهرا من تجليات القوة في الباجية إلى جرجة أن الحكومة التركية استغلته في اخضاع بعض القبائل وكسر شوكتها بعد أن عجزت عن سحقها، مع ترتيب ارسال ربع الغنائم لخزينتها.

... كانت حصيلة المواجهة اذن أن بعض القبائل والطوائف والزعامات –في إطار ريبتها من برنامج الثورة المهدوية الهادف لمصادرة الأرض والمال

(10776/1)

بحسبانه مال الله في الدنياوتعويضها في الآخرة وفي إطار إلغاء النظم التي كرست نفسها ومال بعضها قائما إلى يومنا هذا بين بعض القبائل الرعوية –عارضت المهدوية ليس لكونها من العضاة أو طعنا في انعقادها لمحمد أحمد، وإنما لغلبة وتكلس نظم الدنيا وطبيعة الانسان على مثالية الدعوة إلى الزهد وشراء الآخرة.

الخطوة الثانية :

... كان تصعيد الدعوة إلى الزهد في الدنيا والتجرد منها

باسقاطها من القلوب هو في الواقع مقدمة للدعوة إلى الهجرة العلمية بعد المعركة الأولى التي انتصر فيها أنصار المهدي على تجريده من جند الحكومة

(10777/1)

في جزيرة (أبا) في قلب لانيل الأبيض حيث كانت خلوته ومركز دعوته. وقرر بعدها الهجرة إلى جبل قدير في غرب السودان الأوسط، وتحديدا إلى موقع بهذا الجبلقال عنه المهدي يوم تجلي شمس المغرب بمصادقة بن عربي وبن أبي محلي ويوجد في الصحراء جنوب المغرب الأقصى. ... وتأتي الهجرة هنا استمرارا لتطبيق المثل المبتكرة وللالتحام بين السيرة النبوية التاريخية وبين السلوك والفعل المهدوي الذي بدأه بأن هاجر الدنيا وانعكف معتزلا في خلوة منفردة بجزيرة "أبا" الواقعة في بحر النيل الأبيض قرب مدينة كوستي : تمثلاواقتداء بعزلة

(10778/1)

النبي (صلعم) وتعبده في غار حراء في شعب جبال مكة(1) (9).

_____

(1) للمزيد من توضيح للتماثل إو التوافق المعجز بين شخصية المهدي وسلوكه وما وقع له وبين السيرة النبوية يمكن الوحوع إلى أحد أنصار المهدي الكبار ومن أرخوا للدعوة والثورة والدولة ثم حكم عليه بالنفي حتى مات بعد وفاة المهدي ووقوع (الفتنة الكبرى)، انظر : إسماعيل عبد القادر الكردفاني(ت 1987م)، سعادة المستهدى بسيرة الإمام المهدي، تحقيق د. محمد إبراهيم أبو سليم، دار الجيل ببيروت، الطبعة الثانية 1982، ص. 135.

(10779/1)

... أراد المهدي استبيان مدى ظهوره؛ بالدعوة ألى الهجرة من شاطئ النيل إلى غرب السودان مقسما رجاله إلى مهاجرين وأنصار من الذين تجردوا عن أموالهم وفارقوا النعيم والديار واستقباهم المناصرون له بالبشر والترحاب. ويمكن القول بأن هجرته من منطقة جزيرة أبا النيلية إلى شعب الجبال في الغرب، على المستوى التكتيكي الجغرافي كانت هجرة من منطقة طالها نفوذ وجند الحكومة بسهولة إلى منطقة استطاع فيها بعد مجهود يسير التأليف بين بعض القبائل

المتناحرة والممالك الصغيرة وجمعها تحت راية الثورة المهدوية متجها بها نحو

(10780/1)

التحرير والتحرر من ضيق وفسلد الدنيا إلى سعة وغنى الآخرة .

... وهنا في جبل قدير / ماسة وفي غمرة الإنتصارات الخاطفة بعد نجاح الدعوة إلى الهجرة انغرس في جسد الثورة /الدولة المهدوية جرثوم فنائها الطبقي/القبلي الذي وإن لم تكن له أية صلة بالعمق الديني المهدوي ولا بشخص المهدي أصلا؛ إلا أنه كان نابعا من صلب الواقع المجتمعي السياسي. وذلك أن المهدي كان قد قسم جيشه إلى أربع رايات بعدد خلفاء الرسول وأقطاب الصوفية الأربعة الكبار، فعقد الراية الزرقاء وهي الكبرى للخليفة الأول والأكبر عبد الله التعايشي وضم

(10781/1)

إليها جميع أبناء غرب السودان. والراية الثانية للخليفة علي ود حلو باعتباره خليفة عمر بن الخطاب وهي الراية

الخضراء التي ضمت قبائل دغيم وكنانة وغيرهم من النيل الأبيض. أما الراية الرابعة/ الحمراء للخليفة شريف خليفة الإمام علي الكرار وتضم أقارب المهدي وعموم أهل النيل وسكانه. وأبقى الراية الثالثة لمحمد المهدي السنوسي زعيم الطريقة السنوسية المنتشرة في ليبيا حيث خاطبه وانتظر جوابه وعينه –بحسب الأمر في الحضرة –خليفة الثالث عثمان بن عفان. ولا شك أن هذا التقسيم وإن كانوا بيدوا بسيطا وظبيعيا أو لازما للحركة

(10782/1)

الجهاد، إلا أنه بعد موت المهدي سيفتح جراحات التعضب القبلي/ العرقي/ الجهوي أمام التنازع على إرث المهدوية المادي كسلطة دينية لدولة سياسية دنيوية.

... وهكذا كانت الهجرة الرمزية والمادية معا والتي أرادت استلهام النموذج النبوي والتمثل به ولكنها في نفس الوقت استقطبت الأنصار والمهاجرين إلى النظر في مستقبل السلطة والثورة المهدوية كأمر طبيعي. ...

... نقف عليخ، بصدد مهدوية محمد أحمد : أنها كدعوة لم تعتمد على أية روابط عصبية / قبيلة أو جهوية في

مبتدأأمرها ، وإنما قامت على نوع من الإجماع الوطني ضد سياسة

(10783/1)

الحكومة الأستعمارية في الظاهر، وعلى الاعجاب الصوفيي بشخصيته كسالك وثائر استثمر نظرة الناس وغيرتهم وحماسهم وأخصى رغبتهم في الدنيا وملأها بترغيبهم وترهيبهم من مخالفته وعقاب الآخرة التي اقتربت على رأية. فهو باعتبار المهدي المنتظر أرادها عصبية مهدوية قيامية ولكن الواقع المجتمعي وفي حضوره الشخصي فرض نفسه عليها كمهدوية وطنية محكومة بظروفها الزمانية والمكانية التي انتجتها . وما بين الالإرادة المهدوية كفيما كانت لدى محمد أحمد والواقع الإجتماعي التاريخي في السودان. ما بين النية والواقع؛ بورزت إلى الوجود

(10784/1)

بدرة الدولة المهدوية التي قامت دون عصبية قبلية كما اشترط ابن خلدون في قانونه التاريخي، ولاكن هذا

الميلاد كان مقبورا حتما حين حفرت له الأطماع السلطوية لحده المقدور في تربة التاريخ. ولنا ميثال محسوس وقريب على الفشل (المهدوي) الذي لحق بأبي محلي حين غاب عنه السند والتعزيز العصبي القبلي والوطني .فلقى مصرعه برصاصة أطلقها أنصار الدولة السعودية بمراكش ولم ينكتب له أي حظ مهدوي بشهادة أحد المأرخين الذي قال عنه إنه – أي أبي محلي –" قام طيشا ومات كبشا" .

(10785/1)

... أذن لنستنتج هنا إنها المرة الأولىفي تاريخ السودان الحديث التي فيها تشترك العناصر المستعربة والنيلية؛ الزنجية /الغرب افريقيا وغيرها في دعوة وطنية لطرد الإستعمار الأجنبي في صيغة مهدوية. فرغم اختلاف أو تخادل البعض كانت رأية المهدي شمولية في وقت تعددت فيه جهات الرأية للث ورة : هنالك من خاضها كحرب تحرير وطني، وهناك من خاضها رغبة في التحرير المعيشي والتجاري(إعادت تسيير تجارة الرقيق التي حضرتها الحكومة الخديوية رسميا)، وهناك من خاضها رغبة في الحرب والمغامراتها ومغانمها، وهناك من كان دون كل هذا

(10786/1)

؛كانـمهدويا (ابـراهميا) صادقا في انـخراطه وتـأييـده وهؤلاء هم الأكثرية من العامة أو الأغمار كما قال ابـن خلدون، وهم الوقود الملتـهب للمهدوية على مر تـاريـخها الخامد/المشعل كبـعث العنـقاء.

... الخطوة الثالثة :

... الغاء الطرق والمذاهب والكتب الدينـية من منـظور الرؤية وعموم الرؤيا المهدويةالحاكمة للدعوة . وكانـت أقوى حجى في إلغائها هي حضور وفتوى الشيخ عبـد القادر الجيلانـي وتـم ذلك في الحضرة النـبـوية عنـد مبـايـعته لمحمد أحمد المهدي وانـخراطه وجمهرة الأولياء والأقطاب في نـعيتـه ومساره المحفوف بـالمدد الالهي. كان للجيلانـي

(10787/1)

القطب وسلطان الأولياء وما يـزال مقام روحي وحضور ضخم يـغطي معظم منـاكق نـفوذ التـصوف الطرقي بـالسودان وغرب افريـقيا.

... رأى المهدي إذن أن تـعدد المذاهب والفرق واختـلافها وكثرة المصنـفات وتـفريـعاتـها قد حجب نـور الحق والدين

ومصادره : القرآن والسنة . استفاد ملاحظا من سياحته أن الكثرة دليل الضعف ومرتع البدع والضلالات لتعدد الاعتقادات في الناس من أئمة ومشاييخ . فكان أن أبطل الطرق الصوفية وحظر نشاطها صادر عن أمره كمهدي خاتم جامع لاصول ومقاصد الدين ، بحيث لم يبق مكان لمذهب أو طريقة خارج مجال رؤيته .وقد ذهب أبعد

(10788/1)

من ذلك فأمر بإحراق جميع الكتب عدا كتب الأصول والصحيحين وإحياء علوم الدين لأنها حجبت النور المنبعث من القرآن والسنة . أما بصدد إلغاء الفرق والمذاهب الأربعة فإننا نشير إلى أن السودان منذ أن عرف الثقافة الإسلامية لم يشهد أي نوع من التنازع المذهبي / الفرقي بل كان التنازع والتنافس غالبا بين الصوفية والفقهاء وبصورة شخصية فردية أكثر منها مذهبية.

... وجد المهدي إذن أرضية بكرا لم بمزقها النزاعات المذهبية فاستثسر بشخصيته وحضوره الصوفي أقوى ما فيها وهو الطرق الصوفية التي كان زعماؤها ومشايخها وفقراؤها

(10789/1)

السالكين من الجراويش والمريدين النواة الأصلية للدعوة المهدوية . وكانت هذه الطرق قبل ظهوره قد نجحت إلى حد كبير في إذابة الفوارق الاجتماعية بحيث تبدو دار شيخ الطريق أو الضريح كمجلس كبير لأسرة واحدة .كما كان صوت المشايخ مسموعا مقبولا أو مرهوبا من طرف السلطات الحكومية أو القبلية استنادا على نفوذهم الروحي وسطوتهم المعنوية لما عرف عنهم واشتهر بين العامة من إتيان الكرامات وخوارق العادات . وقد بلغ الأمر ببعض شيوخ المتصوفة قبل الثورة المهدوية في السودان أن كثر أتباعه ومريدوه وخدمه وإقطاعياته فشكل دولة

(10790/1)

داخل الدولة كالشيخ أحمد ود أم مريوم والشيخ حسن حسونة وغيره من الذين عاصروا دولة الفونج في أواسط السودان .

أما الشيخ محمد شريف نور الدائم أحد زعماء الطريقة السمانية (ت 1908 م) وأستاذ محمد أحمدقبل أن يعلن

ثورته ليفترق عنه؛ فقد سبق تلميذه الثائر بمشروع سياسي حن عمد إلى مخاطبة جمع من قادة الصوفية في السودان عارضا عليهم عملا موحدا لإنشاء سلطة بدلية عن الأتراك في السودان أي دولة صوفية وطنية مكان الحكومة الفاسدة الخديوسة، لتكون تابعة رمزا للخلافة الإسلامية العثمانية .ولكن اعترض عليه شقيقه الشيخ عبد

(10791/1)

المحمود نور الدائم معتبرا أنها دعوة للجري وراء السلطة ليس إلا ، ولهذا ظل المتصوف يهربون من السلطة "كهرب الصحيح من المجذوم" إلى أن تصدى التلميذ للأمر بطريقته المهدوية.

... كان آخر وتبعة مدى نحو الشمال المهدوي بلغته الدعوة هو الشيخ محمد السنوسي زعيم الطريقة السنوسية (1859–1902) الذي خاطبه المهدي لإقامة الدين. ومما يؤكد اتساق الرؤيا وامتدادها بالرؤية هنا ما ذكره من أن هواتف الحضرة النبوية أمرته بتوسيع إطار دعوته وبشرته بأنه سيصلي في مساجد مكة والمدينة والقدس ويملك العالم . فتطلع إلى مخاطبة

(10792/1)

السنوسي ونوه في خطابه بما عرف عنه من ايتقامة وعمل صادق لإقامة الدين بحسبما أخبره الخضر، وأعلمه بأنه المهدي المنتظر وأن الأمر النبوي أفردله مكانة بين الوزراء /الخلفاء فكان من مصيبه كرسي الخليفة المهدوي/ النبوي الثالث عثمان بن عفان، وخيره إن بلغه الخطاب بين الجهاد في بلاده ونواحيها وبين الهجرة إليه ، وهي أحب ،لبايعته وتعزيزه.

... ولكن السنوسي تجاهل تماما تماما خطاب المهدي ولم يرد عليه. كانت السنوسية قد جمعت بين العمل والدعوة لإصلاح المجتمع على مبادئها كطريقة صوفية سلفيةوأسست نظامها الخاص

(10793/1)

والمتكامل دينيا وعسكريا، بل وبسطت نفوذها الرقحي في ليبيل وامتدت شرقا وغربا وتوغلت جنوبا حتى شملت معضم بلاد غرب افريقيا جنوب الصحراء. وقد ظل جو من الشك يكتنف العلائق بينها والدولة العثمانية لاختلاف الطبيعتين وخاصة حين طمع السلطان

عبد الحميد في عونها للإسهام في نشر الدعوة إلى تعزيز الجامعة الإسلامية عساها تعين تركيا : الرجل المريض .ولاشك أن نجاح ونفوذ السنوسية قد جذب أنظار محمدأحمد وظموحاته التي حاولنا أن بين مدى عمق الرؤية التي شكلت بها المهدوية تشكيلا جمع في جوفه كل متناقضات الواقع المجتمع

(10794/1)

واغفل الزمن المتغير الساري والحاكم في مجرياته وطبائعه.

||| –المهدية المنتظرة أو/ حصاد الهشيم

... سيتضح إلحاحنا على الرؤية بالرؤيا أوالعكس ، أن نذكر باختصار ما كان يدور المهدي على المستوى الفكري الحصاري وذهل عنه اللاجل ذهولا تاريخيا يجد تفسيره أكثر وأعمق في فلسفة التاريخ الإسلامي السياسي. وخاصة منذ بدايات عصر التنوير العربي والذي يمكن أن نقول إن بداياته كانت مع الفلسفة العمرانية التي خطها ابن خلدون ولم يقف عليها المهدي ؛ ومرورا بالدعوة الاصلاحية السلفية الوهابية التي دشنها الشيخ محمد عبد الوهاب

(10795/1)

بالجزيرة العربية وتحالف بها مع أمير منطقة الدرعية فأسس دولة سياسية لم يقف المهدي على موقعها من التاريخ .كما لم يحسن الاتصال بالسنوسي حين جعله مجرد تابع لإقامة الدين رغم نفوذه الكبير.وأخيرا يبدو أن النهدي لم يبيمع في السودان بصدى حركة التنوير التي قادها ومن منطقات تجديدية الشيخ جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده وغيرهم من الإعلام .كان بعضها تقديميا والآخر سلفيا جذريا عن تلك الدعوة العدمية جوهريا والسلفسة الارجاعية سلوكيا

(10796/1)

–رغم نقاء مقاصدها ونواياها التي تبقى خارج ما نحن فيه من فلسفة وتحليل التاريخ – والتي اختزلت كل المواقف والمذاهب والاجتهادات واستلبت الزمان لتسير به تحيين القيامة.

... لقد باغت محمد أمحد قوات الحكومة التي أرسلت أكثر من حملة للقبض أو القضاء عليه وانتصر عليها بطريقة خاطفة مدهشة حين تغلبت الأسلحة البدائية لأنصاره على

الأسلحة النارية المتطورة لجند المكومة الفارغية من الوازع والعقيدة. سلسلة من الانتصارات السريعة والحاسمة تتالت فأشعرت العامة والخاصة بأهمية الثورة وأبرزت مصداقية كمهدي بل وعدها

(10797/1)

الناس –كما هو معتاد بحكم الفضاء والبيئة – كرامات مهدوية . وما انقضت بضع سنوات (1881–1885) حتى استطاع أن يكتسح معظم أقاليم السودان بفضل شخصيته القوية وحسن قيادة لسيل حماسي وطني جازف باسم الجهاد وكان مصير غير المنخرطين في دعوته من الشاكين وحتى المسلمين القتل الفوري بأمر النبي كما ورد في الحضرة. وتطفح الكتابات والدراسات بوصف ألوان من القتل والسحق والتدمير التي أحدثها جند المهدوية حتى شقوا طريقا داميا زاحفين من الغرب فاستقطوا العاصمة الخرطوم وصرعوا اللواء/ غردون باشا القائد الانجليزي الشهير

(10798/1)

والداهية الخطير الذي كان حاكما عاما باسم الحكومة الخديوية ومن ورائها الامبراطورية البريطانية، وقطعوا رأسه وقدموه للمهدي الشيء الذي أحزن بريطانيا بأسرها فعادب إلى السودان محتلة إياه مباشرة دون وسيط

... لم يمارس محمد أحمد السلطة الفعلية الزمنية كمهدي (منتصر) سوى أشهر معدودات عمل خلالها على نقل العاصمة من الخرطوم ألى أم درمان : البقعة المباركة.كان قد اتكأ المحارب على سلاحه ليستريح ويستأنف الغزو والجهاد، ولكن فارق زمنه في يونيو 1885م إثر وعكة طارئة وصعدت زوحه إلى بارئها ليستأنف خليفته عبد الله

(10799/1)

التعايشي الجهاد .ولكن ليس كما كان حال عبد المؤمن الكومي خليفة لبن تومرت ومؤسس الدولة الموحدية . وإن كان كلاهما خليفة مهدي زمانه ؛ لاالمهدي المنتظر بإطلاق.صعدت روح الرجل إذن وسط دهشة أنصاره المجاهدين وعامتهم من الذين ينتظرون اتمام باقي الحلم المهدوي : صلاته في مكة ةالقدس واستانبول العاصمة العثمانية ، وأن يملكوا الدنيا ويخضعوا جميع

الأمم ويشيع المهدي العدل ويحثوا المال حثوا.. ويقيم الدين الحق بأن يعيد الدنيا إلى الآخرة كما بشرته الحضرة .كما الحدث مذهلا وصاعقا:

(10800/1)

... أين ومتى وكيف ستكون وتتم الفتوحات ؟وهل اقتربت القيامة فقببض المهدي بعد أن أكمل مدته –" يعيش فقط خمسا من السنوات "– واتسق الحديث النبوي وصادق على معطيات نداء الحضرة النبوية التي أعلمته بأوان الاستدعاء؟

... إنالرؤياليست هي الحلم بأي حال من الأحوال المعروفة ، بل هي انعكاس دقيق للواقع المحسوس المعيش كما تبدو لصاحبها . وقد تحولت هنا في وجدان محمد أحمد إلى قناعات ثابتة حملت أهمية الدورالمنوط به وذلك بعد نفاذها عبر الرؤية –المحدودة لاالمحددة – إلى الواقع العيني لتشكل خلاصة المشروع المهدوي ، الذي

(10801/1)

بدأ صوفيا ناعما نعومة الأذكار والأوراد الدائرة في فلك الأحوال ومراتب المقامات والسالكة في فضاء السياحة الصوفية ؛ حتى تم تصعيدها بالمجاهدة وترفيعها إلى رتبة الجهاد المقدس . فظهرت المهدوية بالحضرة وانحدرت كالسيل انحدار بيليا جازف كاسحا أمامه كل السياسات والسيادات المحلية (القبيلة والاقطاعية) لتلقى بها في بحر ملتقى النيلين حيث استراح المتمهدي استراحة أبدية بعد أن انكتب للسودان الحديث ، بالقلم والسيف ،اسم ورسم به دخل خريطة التاريخ الجهادي الوطني واكتمل معلم مهدوي من معالم الثورات في الفكر العربي

(10802/1)

الإسلامي بعد أن ظن أنها اندثرت أو كمنت في كهوف الانتظارات الشيعي ونقف هنا على إضافة أهم لدوافع وخلاصات التأمل في حركية وراهنية عقيدة المهدي المنتظر.

... إن أهم ما نقف عليه إثر مفاجأة موت المهدي هو أنه لم يؤثر عن أنصاره أي اعتقاد بأنه مات موتا إنسيا طبيعيا ، ولم يضم رفاته مكانا آخر غير لحد ألحد له في بيته على شاطئ النيل بأمدرمان. مات محمد أحمد الشخص

..نعم ! ولكن بقي الرمز حيا ،أي كون المهدي المنتظر الذي سيظهر ليملأ الدنيا ... الخ، فهو المنتظر مادام قد ترك خليفة ورصيدا جهاديا وحمية دينية ملتهبة

(10803/1)

على سطح من التناقضات السياسية والاجتماعية (العرقية) الكامنة طي تلك اللحظة . وكأن التاريخ يعيد نفسه لحظة وفاة الرسول (صلعم) وما حكى التاريخ من أمر آل البيت.

... من الشيعة وما انجز عن ذلك من تداعيات ومتظهرات ماثلة للعيان. لقد بادر عبد الله التعايشي (نسبة إلى قبيلة التعايشة في غرب السودان) والذي كان من أقدم وأقوى أنصار المهدي إلى الدعوة لنفسه باعتباره خليفة خلفاء المهدي وأعلن عزمه على الإيتمرار في الجهاد لإقامة الدين ودولة المهدوية .كان مسكونا بهوس الجهاد المهدوي المتولد عن الانتصار رغم اتضاح

(10804/1)

جوهر الانتظار. خاطب الملكة فكتوريا ملكة بريطانيا والسلطان العثماني والخديوي بمصر طالبا مبايعته والانخراط في الارث المهدوي، لم تقم القيامة بعد ولكن النذر كامنة طي النفوس الممتلئة بهوس الجهاد بل وظاهرة في أسنة الرماح .يقرر المهدي " إن الخليفة عبد الله التعايشي هو مني وأنا منه... فجميع ما يفعله بأمر النبي (صلعم) أو بإذن منا .. هو مسدد ومؤيد من الله ورسوله ..إن جميع أفعاله محمولة على الصواب لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب ... وهو خليفتنا في الدين" كان هذا من نص المنشور الفائل بوراثة الخليفة عبد الله

(10805/1)

للمقام المهدوي كما قرره المهدي قبل وفاته ، وراثة الحضرة بما فيها من إشارات وكرامات ومدد إلهي. بل أن جميع الأسرار الإلهية اجتمعت في باء اسم عبد الله ونقطتها : عبد الله الفقير خليفة الصديق .وصرح الخليفة بعدها بأن رجالا من الجن بلغ عددهم حوالي سبعون ألفا بايعوه وانضافوا إلى جند الله رافعين الرايات النهدوية واقعية جامعة لتعدد الولاءات الدنيوية؟ ... خاض الخليفة عبد الله حروب الارتداد عن المهدوية بيدوبيد أخرى طمح إلى استئناف الحروب والفتوحات

الجهادية التوسعية . فأضحى في بضع سنوات سيد السودان كله

(10806/1)

والقابض على أزمة الأمور المهدوية وكذا الدنيوية ، وبلغ أعلى مجده السياسي كحكام مطلق حين آذن نجم سعده بالأفول فلقي مصرعه على أيدي غزاة الجيش الانجليزي في نوفمبر عام 1899 وانطوت صفحة المهدوية كثورة وطنية .

... كان لابد من بين عشرات والأبحاث وآلاف الوثائق والمخطوطات التي حوت تاريخ ووقائع الستورة المهدوية بالسودان أن نتقدم للحديث عنها اختيارا وموقفا موضوعيا حتى تندرج في نهر المهدوية الساري سريان النسغ في الجسد السياسي العربي الاسلامي بشهادة الوقائع التحريري، هو حروب التصفية الجسدية المتبوعة بالسلب

(10807/1)

والنهب والتدمير للدنيا عشما في سراب الآخرة . فقد صرح المهدي بوضوح أن من شك أو خالف أو أنكر مهديته" كافر دمه هدر وماله غنيمة " (المنشورات ص 311 وص 331). طال القتل كل الناس المسلم والمؤمن ، السوداني والتركي والمصري..الخ بلا بفريق إلا بمعيار الإيمان والتسليم بمهدي الله حسبما تقرر من أوامر "نبوية إلهية" في الحضرة .لاشك أننا اليوم قد وقفنا عند حقيقة الواقع على ضوء واقع الحقيقة التي كشف عنها نسبية هذا المعيار وبساطته الحاوية لخطورته والطاوية لروحه الدموية التي صادرت على أرواح العديد من الناس على مر

(10808/1)

التاريخ المهدوي. ولاشكأن فهم الثورة المهدوية بالسةدان في إطار ملابساتها التاريخية أو لكونها حلقة من حلقات السلسلة المهدوية في الفكر العربي الإسلامي في المخيال الغلم والامي؛ يجعلنا نتجنب وصفها أو إسقاط أي من أحكام القيمة المعاصرة عليها (استبدادية، قمعية...الخ) لأن الشروط والظروف التي انتجتها على الأقل ، ما تزال قائمة.

... لقد رام محمد أحمد المهدي إعادة الدنيا إلى الدين

وإقامة الدين في الدنيا ، ولكن انتهت محاولته بأن أعادت دنيا الإسلام إلى أيام الفتن اللواقح التي وقعت المهدوية اسيرتهما كلما قال

(10809/1)

بها ثائر من المهدويين الذين لايشفع لهم حسن النية أمام التاريخ مادامت العبرة في الأمور بخواتيمها . وقدم بفسه بوصفه المنتظر وحدد أرضية الوحدة القيامية ولكنه وضع عربة الجهاد المهدوية أمام حصان الواقع دون إعداد العدة وتوفير الأسباب الواقعية للنصر بل وفي غمرة الحروب والأزمات التي لحقت بالثورة فيما بعد . فانطلقت العربة بل قفزت في الهواء حين احتبست الزمان في المكان لتسقط بموته ولتجد نفسها لم تراود حدود المكان بل أسيرة حدودها السودانية فدخلت إلى دائرة التاريخ ككل أحلام ودويلات الزمان.

(10810/1)

... لاحاجة بنا بعد هذا إذن الدخول في تفاصيل الجدل حول حقيقة محمد احمد : هل هو المهدي المنتظر حقا أم مهدي

الله المنتصر ذلك لأنه حدث وأن حفل الفكرة الصوفي الطرقي لنيلي بشطحات فردية ساذجة في نفس الاتجاه ، ولكن لم يحدث إطلاقا أن عرف الفكر الديني بالسودان دعوة مهدوية جعلت من مبادئها ، با أسها البنيوي تكفير من لم يؤمن بها وإن كان مسلما . ويحيلنا هذا إلى التساؤل عن حقيقة المهدوية : هل هي "دعوة وظيفية أكثر كن غيبية "(1)

---

(1) الصادق المهدي، فكرة المهدية، أم درمان، ص.20. نشير إلى أن الصادق المهدي هو أشهر أحفاد محمد أحمد المهدي وزعيم حزب الأمة القومي الحالي وهو الواجهة السياسية لطائفة أنصار المهدي وهذا أثر أو تجل هام من تجليات وآثار المهديوية في عصرنا.

(10811/1)

---

(10) ركز خلالها المهدي على وظيفى الخلافة النبوية وإحياء الدين؟ أم هي ما رواه منطق النص المهدوي بنفسه وصادق عليه الواقع من كونها مهدوية وسلفية أم هي كل هذا؟

... إن القول إنها نهدوية وظيفية اختزال للتاريخ وتبرير له بغير مبرر، ونفى للغيبية والعدمية

القيامية ولعمقها الثوري التاريخي المؤسس لبيتها .

وقد نستفيد من ملاحظة القراءات المغرضة للمهدوية التي يحاول بعضها هذا الضرب من التنزيه أو التبرير؛ إن للتاريخ حراسه والقيمين عليه من المعاصرين الذين لا تحتاجهم لأنها حاضرة بحضور الظروف المتجذرة التي

(10812/1)

انتجتها على مر العصور.

... لقد كان محمد أحمد عالما بمهدويته من زاوية أنها "المهدية المنتظرة " (المنشورات ص26 وص302)، عالما بحدها ومحدوديتها " علم اليقين" فعبر بها أو انزلق سريعا ليرد "عين اليقين " فذهب به الزمان –إذ أراد حبسه وإقامة القيامة – قبل أن ينكتب له " التمكين" أو حال أهل الوصول إلى مقام "حق اليقين" (1)

---

(1) ابن عربي، مصطلحات الصوفية – على هامش التعريفاتللجرجاني، ص. 140؛ انظر كذلك المعجم الصوفي، م. س، صص. 1277 و1248 :

– علم اليقين : اليقين السابق للرؤية، المرتبط بالمعرفة الإنسانية.

– علم اليقين : ربط القآن اليقين في أحد مراتبه بالرؤية والمعاينة.

– حق اليقين : ميز القرآن بين الحق واليقين جاعلا الحق هو خالص اليقين وواضحه. هامش .سفيان

(10813/1)

---

(11) . فكان ما بينه وبين ملهمه وحجته لبن عربي بون شاسع ، ولكنه أبعد كثيرا ... جدا عن المهدي المنتظر.

(10814/1)

فلسطين في شرك اتفاقية سايكس بيكو 1916 وتصريح بلفور 1917

الدكتورة خيرية قاسمية

كلية الآداب – دمشق

مقدمة :

كانت فلسطين تعتبر دوما جزءا من سورية، تلك المنطقة التي عرفتها الجغرافية العربية بإسم الشام،

أو بر الشام، ولم تشكل خلال العهود التاريخية المختلفة كيانا منفصلا. وحتى أواخر الحرب العالمية الأولى كانت، بحدودها التي عرفت في عهد الانتداب (26.305.000 كم^2)، جزءا من الدولة العثمانية، تتوزع إداريا بين متصرفية القدس (المرتبطة مباشرة بالحكومة المركزية منذ 1887) وولاية بيروت(1)

---

(1) عمر صالح البرغوتي، "خليل طوطح"، تاريخ فلسطين، القدس 1923، ص. 257 وما بعدها.

(10815/1)

. ورغم هذه التقسيمات الإدارية فقد وجد مفهوم عربي لإقليم فلسطين غير محدد تحديدا جغرافيا دقيقا، تعود جذوره إلى عوامل دينية تاريخية. إلا أن مفهوم فلسطين كان يزداد وضوحا مع دخول عامل جديد للمنطقة، أضيف إلى العوامل الدينية التاريخية، هو الصهيونية، التي كانت دافعا لمناطق فلسطين المختلفة كي تتخذ منها موقفا موحدا(1) .

فلسطين وبداية الاستطان اليهودي :

---

(1) د. خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي صداه، 1908–1918، بيروت، 1973، ص. 9.

(10816/1)

كانت فكرة التطالع إلى فلسطين جزءا من معتقدات اليهود الدينية، ولكن منذ القرن التاسع عشر لم تعد فلسطين مجرد فكرة مثالية روحية، بل أصبحت قضية الاستيطان اليهودي تلعب دورا كبيرا في أمور السياسة الدولية العملية حتى قبل أن توجد الحركة الصهيونية السياسية. ورافق ذلك زيادة الاهتمام الدولي العام بالشرق الأدنى، وأحوال سورية بوجه خاص. وحاولت فرنسا أولا أن تتبنى الفكرة، ووجه نابليون نداء يدعو فيه اليهود للالتفاف حول رايته من إعادة "مملكة القدس القديمة". وتلاشى المشروع بمعارك عكا وأبي قير(1)

---

(1) L. Wolf, Notes on the Diplomatic History of the Jewish Question, London 1919. p. 104

(10817/1)

. ومنذ مطلع القرن الـ 19 عالج عدد من الكتاب والساسة البريطانية، من غير اليهود، مسألة توطين اليهود في فلسطين كوسيلة لتحكم بريطانيا في المسألة الشرقية، ولتثبيت سيطرتها على سورية، وحماية طريق الهند، وهذا ما دفع بريطانيا إلى أن تتبنى فكرة الاستيطان اليهودي قبل أن تتبناها أية منظمة صهيونية. من أجل هذا الهدف كانت تعليمات بالمرستون (Palmerston) إلى أول قنصل بريطاني في القدس لتقديم الحماية لليهود (1839)، وتعليماته إلى سفيره في الآستانة (1840)، بأنه "لو عاد اليهود إلى فلسطين بموافقة

(10818/1)

السلطان، فسيكون ذلك كبحا لأي مشاريع خطرة في المستقبل لمحمد علي أو خلفائه"(1) . ومن أجل هذا الهدف كان مشروع القنصل البريطاني في سورية، الكولونيل تشرتشل، في الستينات، لتوطين اليهود في فلسطين، والمفاوضات الفاشلة أواخر السبعينات لصحفي ونائب بريطاني (لورنس

أوليفنت) (Oliphant)، الذي

كان يحظى بعطف دزرائيلي (Disraeli) رئيس الوزارة

البريطانية، من أجل استيطان

---

(1) Palestine,The Organ of The British Palestine Committe ,London, February 2, pp. 1917–25.

(10819/1)

يهودي في أرض جلعاد، (شمال شرقي البحر الميت(1) .

وتقوى هذا الاتجاه بعد فتح

قناة السويس، ثم الاحتلال البريطاني لمصر، حيث أصبحت

المنطقة التي تقع شرقي

القناة ذات أهمية حيوية بالنسبة للمصالح

البيريطانية. وهذا يفسر ازدياد الاهتمام

البريطاني بمشاريع الاستيطان اليهودي في

فلسطين(2)، وازدياد نشاطات صندوق

---

(1) L. Oliphant,The Land of Gilead , London, 1880

(2) N. Bentwish, England in Palestine, London, 11, p. 1932

(10820/1)

استكشاف فلسطين (Plastine Exploration Fund)، الذي أسس برعاية الملكة فيكتوريا (1865)، وانطلق من فكرة دينية بهدف دراسة كل ما يتعلق بالأراضي المقدسة. إلا أن حقول نشاطاته وما قام به من عمليات التنقيب والمسح ووضع الخرائط لا يمكن أن يعزى إلى دوافع أثرية دينية، وخاصة أن معظم العاملين كانوا ضباطا في وزارة الحربية (سلاح الهندسة الملكية بالذات)(1).

---

(1) خيرية قاسمية، "نشاطات صندوق استكشاف فلسطين 1865–1915"، شؤون فلسطين، عدد 104، يوليوز 1980، ص. 71–100.

(10821/1)

إلا أن مسألة توطين اليهود في فلسطين، كعامل له دوره في السياسة الدولية، لم تحقق نتيجة ملموسة في ذلك الوقت المبكر: من جهة كانت القضايا الأخرى في الشرق تمتص فاعليات الدبلوماسية الشرقية، ومن جهة

أخرى كان من المحتمل أن تمس الفكرة نفسها سلامة الدولة العثمانية، وهذا يتضارب مع مصالح السياسة التقليدية البريطانية، ودول أوروبية اخرى، التي لم تكن قد اتفقت بعد على تركة الرجل المريض(1) .

---

(1) Wolf, Notes on the Diplomatic History ..., p. 101

(10822/1)

ومع ظهور الصهيونية الحديثة أوخر القرن التاسع عشر لم تكن فلسطسن هي الحل الوحيد لما يسمى "المشكلة اليهودية"، إلا أن الاتفاق نهائيا على اختيار فلسطين كان لسببين : أولا يسهل استقطاب الجماهير اليهودية لفكرة بناء الوطن القومي في فلسطين بسبب اقترانها بالدين وبذكريات تاريخية، والعامل الثاني، وهو الأهم، نشوء ظروف اتفقت فيها مصلحة السياسة العالمية والصهيونية. شرح زانغويل (Zangwill) ذلك ببضع كلمات : "الآن، وليس وقت آخر، هو فرصة إسرائيل ... فهناك تغيرات ... لن تنتظر اليهودي ولا فلسطين بعد أن حملت قناة

(10823/1)

السويس العالم إلى أبواب فلسطين(1) . وكانت وجهة النظر الصهيونية حيال الأطماع الدولية في فلسطين هي كما يلي : إن منح فلسطين لليهود هو الحل الوحيد لهذا التنافس والعداء بين الدول الكبرى على النفوذ في الراضي المقدسة، "ولن يكون العالم بذلك" – يقول زانغويل – "سوى الكاسب، إذ أن (اسرائيل) يمكن أن تلعب دورا هاما في حل مشكلة آسيا"(2)

---

(1) I. Zangwill, « Return to Palestine », The New Liberal Review, Dec, 1910, p. 627.

(2) M. Simon, (ed), Speeches, Articles and Lettres of I. Zangwill, London 1937, p. 80، مقال زانغويل عن الصهيونية عام 1899.

(1/10824)

.

بريطانيا تتبنى المشروع الصهيوني :

ركز هريزل (Heralei) جهوده الدبلوماسية على الدولة العثمانية وعلى إقناع الدول الكبرى بممارسة ضغط

عليها لتحقيق برنامج بال، وكانت تقف أمامه عقبات : فلسطين، الأرض المقدسة للديانات الثلاث، هي أرض معركة لمصالح متنازعة، والدولة العثمانية تتمسك بقوة للحفاظ على تماسكها، ولا يمكنها أن تقبل أي اقتراح من شأنه أن يضعف من إشرافها على فلسطين أو يؤدي إلى فصلها عن الدولة. ومن أجل مخطط بديل، كي يقيم خارج فلسطين مستوطنة يهودية مستقلة، تحول هريزل نحو بريطانيا لدعم مشاريعه، وفي

(10825/1)

تحوله الجديد إنما كان يلتفت إلى بلد له تقليد طويل من الاهتمام بحركة الاستيطان اليهودي. ونبعت فكرة هرتزل من أن بريطانيا، مع أنها لم تكن تسيطر على فلسطين، إلا أنها على الأقل تشرف على بلاد أخرى في الجوار القريب، يتيح للصهيونية إنشاء مستوطنات، على أمل أن مثل هذا الاستيطان سيكون خطوة تمهيدية لفلسطين، وفي الوقت المناسب ملحقا مفيدا(1) . وكان واثقا من موافقة الحكومة البريطانية، نظرا لأن النفوذ البريطاني في الجانب الشرقي للمتوسط يمكن أن يقوى باستيطان الشعب

---

(1) N. Barbour, Nisi Dominus, Beirut, 1969, p. 56

(10826/1)

اليهودي في ذهن هرتزل كان ما يسمسه "فلسطين المصرية"، وبمعنى آخر منطقة العريش. وكانت لحجج هرتزل انطباع عميق على الساسة البريطانيين، إذ ما يسعد بريطانيا أن يكون لها مقابل إنشاء المستوطنة اليهودية "ولاء 10 ملايين يهودي يعملون من أجل عظمتها وسيطرتها على الصعيدين السياسي والاقتصادي(1) ، وأنه "حين تتوطد (أقدامنا) في العريش تحت لواء الحكم البريطاني فستقع فلسطي d من ثم تحت دائرة

---

(1) R. Patai ‘ed), The complete Diaries of Theodor Herzel, Translated by H. Zohn, vol. IV, New York a London 1996, p. 1364.

(10827/1)

النفوذ البريطاني"(1). واعتبر وايزمان (Weizmann) رفض قيادة الحركة الصهيونية للمشروع بحجة "أنه لا يمكن القيام باستيطان على مقياس واسع"، خطأً جسيما، وأن الحكمة كانت تقضي بقبول المشروع لتوطيد أقدام الصهيونيين في هذا الجزء الذي يتصل بفلسطين جغرافيا ويمكنهم من توسيع أعمالهم الاستعمارية مع الزمن(2)

ورغم فشل مفاوضات العريس، استمرت الحكومة البريطانية تنظر إلى الحركة الصهيونية كعامل في سياستها، في الشرق يمكن

---

(1) Ibid, pp. 1473–1474

(2) Ch. Weizmann, Trial and Error, London 4th impression, 1950, pp. 120–121

(10828/1)

أن يحسب حسابه عند اللزوم لإبعاد أي قوة مهددة بجانب قناة السويس، هذا الاعتبار نفسه هو الذي جعل الحكومة البريطانية تنظر بقلق إلى التطور السريع للنفوذ الألماني في الدولة العثمانية، والذي ازداد مع وصول جمعية الاتحاد والترقي إلى السلطة (1909)،

ونفوذ بعض اليهود فيها، وعلاقتهم باليهود الألمان الصهيونيين(1) . وكان قد تبع خلع السلطان عبد الحميد انتعاش الأماني الصهيونية في فلسطين، ومع كل ما أبداه المسؤولون الأتراك من عطف على الصهيونيينن وتشجيع نشاطهم في

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، 424/222، F.O.

(10829/1)

فلسطين(1)، إلا أنهم لم يقدموا على الخطوة الحاسمة بفتح أبواب فلسطين رسميا لليهود، لاعتبارات كثيرة : فهم لا يرغبون في أن تكون فلسطين هي الهدف الوحيد للاستيطان اليهودي، لما وراء هذا من أهداف سياسية، وكان لا يمكنهم أن يتجاهلوا الرأي العام العربي الذي أصبح له وزنه في أعقاب التغيرات السياسية، ولدى الأتراك من مشاكل القوميات ما يكفي، ولا داعي إضافة قومية جديدة.

---

(1) أعداد متقدمة في عام 1910، Jewish Chronicle, London

(10830/1)

الإعتبار الأخيرة والأهم، هو أنه في حين كان الصهيونيون – نظرا لانتشارهم بين دول مختلفة ونفوذهم فيها – يحاولون تحقيق أهدافهم عن طريق ضغط تلك الدول لصالحهم لدى الدولة العثمانية، كانت تلك الدول عن طريق رعاياها من اليهود تحاول أن تجد طريقا للتدخل كجزء من الإهتمام الذي كانت تبديث بالشرق عموما والأراضي المقدسة على وجه الخصوص(1) . وربما كان اهتمام الحكومة البريطانية بالمشروع الصهيوني أسبق من غيرها، وجميع المؤسسات الصهيونية العاملة في فلسطين كانت

(1) وثائق وزارة اخارجية البريطانية 14/4/1911، Times, London

(10831/1)

مسجلة في بريطانيا، وأي اعتارض من السلطات العثمانية على نشاط تلك المؤسسات كان يثير احتجاج الهيئات الدبلوماسية البريطانية، ومن أجل البحث عن ضمانات دولية، كانت في أساس مخطط هوتزل، عمد الصهيونيون إلى التأكيد على أهمية تأمين العطف

البريطانيين وهو أمر لم يكن جديدا. وفي أبريل 1911 وجه أحد يهود نيويورك رسالة إلى وزارة الخارجية البريطانية يحثها على "أنه لو أعيدت فلسطين إلى اليهود تحت حماية ورعاية بريطانيا فستربط هذه بها 12 مليونا من الابشر بأحسن رباط الامتنان. ولو أن هذا البلد، شرقي قناة السويس، أصبح في

(10832/1)

حوزة شعب ممتن، ليكون حامية عسكرية لبريطانيا"(1) . إلا أن عدة اعتبارات أخرت التصريح البريطاني العلني بدعم الحركة الصهيونية سنوات أخرى.

وكانت السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى قد شهدت تزايد اهتمام وزارة الحربية البريطانية بمشكلة الدفاع عن قناة السويس ضد أي هجوم من الشرق، بعد أن كان الاعتقاد السائد في الدوائر العسكرية البريطانية ينفي حدوث هجوم خطير ضد القناة من فلسطين، لمصاعب اختراق سيناء، ولنقص الخطوط الحديدية، مع أن هذا الاعتقاد بدأ يتزعزع حين بزرت مشكلة

---

(1) 371/1248/15381، F.O.

(10833/1)

الحدود الشرقية لمصر والدفاع عن القناة (1906). وأمام لجنة الدفاع عن الامبراطورية (Committe of Defense) (في عهد حكومة الأحرار برئاسة كامبل بانرمان) أعيد النظر في الاستراتيجية التي تنجم عن كون مصر لم تعد جزيرة محمية، بل أنها يمكن أن تخترق في ظروف معينة بقوة معادية(1) وبين عامي 1912–1913 أثيرت مجددا مسألة الدفاع عن الحدود الشرقية نتيجة لتغير الأوضاع في الدولة العثمانية إثر حروب

---

(1) د. خيرية قاسمية، "قضية الحدود بين مصر وفلسطين قبل الحرب العالمية الأولى"، شؤون فلسطين، عدد 5 نونبر 1971، ص. 162–177.

(10834/1)

البلقان. وكانت الحجة التي طرحها كتشنر (Kitchener) (المعتمد البريطاني في مصر منذ سبتمبر 1911 وحتى نشوب الحرب)، إن الفعاليات العسكرية التركية الفائضة سوف تبحث عن مجال جديد في مناطق جنوب سورية والحدود المصرية ... ويبدو هذا أكثر احتمالا لو استمر تأثير الخبراء الألمان في الدوائر التركية العسكرية(1). ومع أن معظم المسؤولون البريطانيين قد قبلوا بأن فرنسا هي البديل الوحيد للحكم العثماني في سورية، إلا أن السؤال الوحيد الباقي، والذي يهم المصالح

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O ،195/2451/1124.

(10835/1)

الحيوية البريطانية، هو معرفة أين يجب أن يرسم الحد الجنوبي لسورية "الفرنسية". ولذلك، فإن الرأي الذي بدأ يكسب دعما في دوائر بريطانية معينة، هو، أنه في حالة تجزؤ الدولة العثمانية يجب أن يبذل جهد لفصل سورية الجنوبية، شمالا، إلى حدود حيفا وعكا، لتشكل كيانا

منفصلا يقع تحت النفوذ البريطاني، وعمل كتشنر على الدعوة لهذه الفكرة في الدوائر الرسمية قبل الحرب(1) . وأحد الأدلة على ذلك هي البعثة

---

(1) E. Kedourie, England anf the Middle East, 1914–1914the Destruction of the Ottoman Empire, 134, p. 1956, London, 1921.

(10836/1)

التي أرسلها صندوق استكشاف فلسطين، (وكان كتشنر قد عمل في الصندوق منذ 1877) بإيعاز من وزارة الحربية 1913–1914 لمسح صحراء سيناء في المثلث بين بئر السبع والعقبة ووادي عربة، وعدلت إلى حد كبير الفكرة السائدة بأن نقص المياه ومصاعب النقل تمنع أي هجوم خطير من فلسطين، وقدمت معلومات كانت ذات قيمة كبيرة إثر نشوب الحرب حين توجهت الأنظار كلها إلى شمال سيناء(1).

---

(1) لم ينشر صندوق الإستكشاف الفلسطيني هذا البحث الذي عرض بصحراء التيه، إلا بعد احتلال القدس أواخر 1917.

(10837/1)

مستقبل فلسطين في الاستراتيجية البريطانية خلال الحرب :

بنشوب الحرب العالمية الأولى، وتوقع انهيار الدولة العثمانية، أخذت الدول الكبرى التي لها مصالح في الشرق تعمل على إجراء المفاوضات والاتفاقات الدبلوماسية السرية من أجل توزيع الأجزاء غير العثمانية في الدولة في حالة انتهاء الحرب(1) . ومع أن فلسطين كانت فقيرة بإمكانياتها ومواردها المالية، ولم تكن وحدة سياسية

---

(1) Documents on British Foreign Policy 1919–1952, London,1919st Series, Vol IV, 1, 1939 (eds) by E.L. Woodward and R; Butter, pp. 51–241.

(10838/1)

وجغرافية متميزة، إلا أن مستقبلها احتل مكانا بارزا في المناقشات الدولية بسبب موقعها الجغرافي، الذي جعلها عاملا حيويا في التاريخ العالمي، ولاحتوائها أثمن

الأماكن المقدسة للديانات الثلاث. وكان أمرا معروفا أن

أي تسوية سياسية لمستقبل فلسطين تحوطها

الصعوبات والمخاطر(1) . ولم يكن ذلك إلا لوجود عدة

مطالب متداخلة ومصالح معقدة في فلسطين لمعظم الدول

المشتركة في الحرب :

فرنسا تتمسك بإدعاءاتها التقليدية في سورية،

والتي تجعل فلسطين جزءا متكاملا مع

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية،

F.O ،882/14pa//17/6.

(10839/1)

بقية سورية، روسيا التي تندفع نحو

الإسكندرون "الدافئة" تأمل أن تحصل عليها عن

سورية، روسيا التي تندفع نحو الإسكندرون "الدافئة"

تأمل أن تحصل عليها عن

طريق فلسطين، وهي ترفض دعم المطامع الفرنسية

الداعية إلى سيطرة الكاثوليك

وحدهم على الأمكان المقدسة، وهي بدعاواها

الأورثوذكسية لن تقبل احتكارا بروتستانتسا

بديلا(1) ، ألمانيا التي بدأت تتقدم منذ الفترة

السابقة للحرب لتلعب دورا هاما في المنطقة عن طريق مكانتها في الدولة

---

(1) ستيفن لونغريغ، تاريخ ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، بيروت 1978، ص. 74 (مترجم).

(10840/1)

العثمانية، من جهة ومحاولة استخدام النشاط الصهيوني في فلسطين من جهة أخرى لنشر النفوذ الألماني.

ولكن بريطانيا، كان لا يمكنها أن تسمح لأي قوة أخرى بالوجود على الشاطء الشرقي للقناة بحيث تهدد حكمها في مصر، وتهدد الطريق الرئيسية للمواصلات بين بلادها وبين الممتلكات الأسيوية، فكان لها مصلحة تقليدية في الاهتمام بفلسطين زادته الظروف الاستراتيجية الناجمة عن الحرب أهمية. إلا أنه حين تفجرت الحرب، وانضمت الدولة العثمانية إلى دول الوسط، لم تكن بريطانيا مستعدة لشغل الجزء الجنوبي من فلسطين والدفاع عن مصر من جهة

(10841/1)

حدودها، وتخلت لفترة عن الجزء الأكبر من سيناء للقوات التركية، وقنعت بصد الهجمات عن القناة. وفي الأيام الأولى من فبراير 1915 تقدم جيش تركي، قوامه 20.000، نحو منطقة القناة وهاجم عدة مواقع، وأمكن رده بسهولة، ولكن مجرد أن يأتي الجيش التركي عبر الصحراء بمدافعه الثقيلة، كان درسا موضوعيا للاستراتيجية البريطانية عن الخطر الذي يهدد مصر والقناة من عدو يحتل فلسطين، وأكد حقيقة هامة، أن طريقة لتأمين القناة ضد أي هجوم، وتحقيق انتصار بريطاني في الحرب، هو حمل هذا الموقع المتقدم حتى الخليل ومد مواقع سيناء

(10842/1)

المتقدمة داخل فلسطين(1) . ذلك أن القفار الصحراوية لا تشكل حدا حصينا. والدفاع المناسب للقناة لا يمكن أن يؤمن إلا بأن يوضع، بين هذا الشريط من الماء وأي عدو في المستقبل، شريطا من الأرض يسمح لعمليات واسعة النطاق ويكون مزروعا ومأهولا وملائما لتشكيل خلفية لتجهيز الجيش بضرورياته. "إن فلسطين بالنسبة للقناة تماما كما هي طنجة بالنسبة لجبل طارق ... وإن عامل الحضارة يؤمن حدودا أفضل من أي جدار من

الحرب"(2).

---

(1) V. Jabotinsky, Turkey and the War, London, 1916. pp. 201–208

(2) Ibid, pp. 208–208

(1/10843)

لقد حققت بريطانيا بعد كل هذه الاعتبارات من أهمية فلسطين الاستراتيجية بانسبة لمصر، وكونها الجسر الطبيعي بين آسيا وافريقيا. وتزايد الشعور في بريطانيا بأن

السيطرة على فلسطين هي شأن بريطاني بالتحديد(1) ومن أجل تنفيذ خطة سياسية عسكرية للحصول على فلسطين، يكون لها الإشراف المنفرد عليها، أخذت بريطانيا تتحرك ببطء، فأخرجت فلسطين أولا من دائرة نفوذ فرنسا، وذلك بمعارضة طلب الفرنسيين ضم فلسطسن إلى المنطقة التي يدعونها. وهذا ما أوصت به لجنة داخلية عينتها وزارة

---

(1) لونغريغ، تاريخ سورية ولبنان ...، ص. 74–75.

(1/10844)

الخارجية برئاسة دو بونسون (De Bunsen)، عام 1915 من أجل وضع صيغة سياسية لمستقبل الدولة العثمانية في آسيا : "إن فلسطين يجب أن يعترف بها كبلد يكون مصيرها موضوع مفاوضات خاصة تهتم بها كل الدول المتحاربة والحيادية"(1) . وكان واضحا أن السياسة البريطانية تتجه إلى منع أي دولة قوية من ممارسة سيطرتها على فلسطين، غير أن اللجنة لم تكن في الوقت نفسه على استعداد للتصوية بضم فلسطين إلى الممتلكات البريطانية. كان هذا المبدأ كافيا في هذه المرحلة لمواجهة المطالب

---

(1) Kedourie, England and the Middle East ..., 51p.

(10845/1)

الفرنسية بفلسطين، كذلك يفهم من هذا المبدأ أن السياسة البريطانية بدأت تتجه نحو تدويل فلسطين، على الأقل لمنع فرنسا من الاستفراد بمصيرها. ومنذ ذلك الحين توضحت اتجاهات السياسة الدولية نحو معاملة فلسطين معاملة منفصلة عن سائر المنطقة، وضمن إطار

خاص، نظرا لما تمثله من أخمية استراتيجية في صراع المصالح، غير أنه لم يجر تحديد واضح في ذلك الحين لمعنى فلسطين من ناحية جغرافية، وإن كانت الإشارة هنا تذهب إلى أنها المنطقة الواقعة في جنوب سورية، الممتدة من شمال خليج عكا – حيفا إلى صحراء النقب(1)

---

(1) عصام سخيني، فلسطين الدولة – جذور المسألة في التاريخ الفلسطيني، نيقوسيا، 1985، ص. 38–39.

(10846/1)

.

فلسطين : (المنطقة السمراء) في اثقافية سايكس بيكو

جاءت الخطوة البريطانية التالية لفصل فلسطين عن سورية ووضعها ضمن

نطاق النفوذ البريطانين حين وقعت اتفاقية سايكس – بيكو(1)

---

(1) نصت اتفاقية سايكس بيكو على إنشاء حكم مباشر لفرنسة في الساحل السوري (المنطقة الزرقاء) ولبريطانية في ولايتي بغداد والبصرة (الحمراء). أما

القسم الشمالي من سورية الداخلية وولاية الموصل (المنطقة أ) فصار إلى الاعتراف بدولة غريبة مستقلة يكون لفرنسة فيها الحق في تقديم المساعدات الاقتصادية والاستشارية، وتنشأ كذلك دولة عربية مستقلة في منطقة النفوذ البريطاني الداخلية (المنطقة ف) فيها حق تقديم المساعدة والمشورة).

(10847/1)

التي نصت على

جعل فلسطين وحدة منفصلة (المنطقة السمراء) في دائرة نظام الحكم الدولي، على أن يعين شكله بعد الإتفاق مع بقية الحلفاء وممثل شريف مكة (وكانت فلسطين في مباحثات الحسين مكماهون مشمولة في منطقة الاستقلال التي طالب بها الحسين). وربما اتخذ القرار الخاص بفلسطين في اتفاقية سايكس – بيكو نظرا لتضارب مصالح الدول الكبرى. ومع أن الاتفاقية لم تعط بريطانيا سوى حصة ضئيلة في خليج حيفا وعكا، إلا أنها خدمت مصالحها من جهة أخرى إذ بقيت فلسطين مسألة مفتوحة. ألمح بذلك فيها بعد مارك سايكس (Sykes) (وهو القوة

(10848/1)

الموجهة الرئيسية وراء سياسة بريطانية في الشرق الأدنى خلال الحرب(1) أثناء المفاوضات مع الصهيونيين التي سبقت تصريح بلفور، "بأن بريطانيا لم تعمل أي وعد لفرنسا فيما يتعلق بفلسطين وأنها قد نجحت بصعوبة في تجنب مثل هذا الوعد"(2) [وكانت الحدود الشمالية والشمالية الشرقية للمنطقة "السمراء" بينها وبين بحيرة الحولة ثم يتجه

---

(1) St. Leslie, Mark sykos, his life and Lettres, 288, p. 1923London,

(2) M. Perlmann, « Chapter of Arab-Jewish Diplomacy1918–1922 , Jewish Social Studies, Vol XI, n° 2April 1944, p. 129

(10849/1)

خط الحدود جنوبا بشرق فيخترق بحيرة طبيرة إلى نقطة تقع فرب سمخ (جنوب بحيرة طبرية) ومنها جنوبا بشرق حتى تصل اربد]. ووفقا لتقسيمات سايكس – بيكو ضمت المنطقة "السمراء" معظم لواء عكا، وظلت

صفد خارج المنطقة أولحقت بالمنطقة (أ) ذات النفوذ الفرنسي، كما أخرجت مدينتا حيفا وعكا لتمنحا لبريطانيا، كما ضمت المنطقة جميع لواء نابلس ومعظم متصرفية القدس المستقلة، التي أخرجت منها الغليل ومنطقة النقب، وضمنت المنطقتان الأخيرتان إلى المنطقة (ب) ذات النفوذ البريطاني، وحرمت المنطقة "السمراء" من منابع نهر الأردن، وسيكون

(10850/1)

لذلك أثره في الخلاف على مسألة الحدود بين فرنسا وبريطانيا ... ويقال إن المهندس اللبناني ألبير نقاش لعب دورا كبيرا في الاتفاقية حين قدم قطعة أرض إلى كل من سايكس وبيكو، وكان على صلة بهما، قيمتها 1500 ليرة ذهبية، مقابل أن يوافقا على إبقاء مواقع نهر اليطاني، من النبع في البقاع إلى المصب في الجنوب عند ساحل القاسمية، ضمن الأراضي اللبنانية، ولا يعتبراها عند رسم الخريطة ضمن الجزء الجنوبي من سورية الطبيعية (فلسطين)(1)

---

(1) ينلسون بان، "تعيين الحدود الشمالية لفلسطين

1918 – 1920، **شؤون فلسطين، عدد** 52 **ديسمبر** 1975، **ص.** 85–93.

(10851/1)

. ورغم أن الحدود في اتفاقية سايكس – بيكو لم تكن مرسومة بدقة، إلا أنها كانت الأولى في تاريخ فلسطين الحديث التي أريد لها أن تكون حدودا للكيان السياسي(1) **.**

ولم يرد للصهيونية أو لادعاءتها في الاتفاقية، مع ذلك بدأ قادة الحركة الصهيونية يشنون حملة مركزة على مقترحات سايكس التي قدمتها لهم الحكومة البريطانية بعد توقيع الاتفاقية (سايكس – بيكو) القبول بها يعني خسارتها (أي الصهيونية) للجليل ومنابع الأردن(2)

---

(1) **سيخنني، فلسطين الدولة .....، ص.** 40 – 41

(2) Frish WaserH.F. Raanan, The Frontiers of Nations, London, 1955, p. 118

(10852/1)

. ولقد صار فصل "سورية الجنوبية" عن بقية سورية أمرا لا سبيل إلى تعديله بسبب إدخال عنصر الصهيونية المعترف بها والآخذة في التقدم. واستكمالا لنقل فلسطين إلى منطقة النفوذ البريطاني، لجأت بريطانيا إلى تعزيز حركة تحظى باهتمام له تقليد طويل لم تخلقه الحرب بل أعطته اتجاها جديدا. ومنذ نوفمبر 1914 كتب هربرت صموئيل (عضو الحكومة) في مذكرة إلى وزارة الخارجية : "إن موضوع مستقبل السيطرة على فلسطين قد يثار، وإن اختلاف الدول الكبرى قد يجعل من الصعب تخصيص فلسطين لواحدة منها ... ولعل الفرصة قد سنحت لتنفيذ أماني

(10853/1)

الشعب اليهودي القديمة وإعادة إنشاء دولة يهودية ... واعتقد أن النفوذ الإنكليزي يجب أن يقوم بدور هام في تأسيس مثل هذه الدولة، لأن وضع فلسطين الجغرافي وقربها من مصر يجعلان صداقتها لإنكلترا أمرا له أهمية للإمبراطورية العثمانية"(1) ومن جهتها، رأت الزعامة الصهيونية أنه بإعلان الحرب، وإعادة فتح المسألة الشرقية حول مصير الأجزاء الباقية للدولة العثمانية، أصبح تحقيق المطامع الصهيونية أقرب إلى الواقع، وإن

خلق الدولة اليهودية في فلسطين سيكون النتيجة المحتمة لتسوية

---

(1) A. Samuel, Memoirs, London, 1945, p. 149

(1/10854)

ما بعد الحرب. ورغم العواطف المتنوعة بين الصهيونيين، نظرا لتوزيعهم بين الدول الحماية والمتحاربة، وموالاة بعض الزعماء فعلا لدول الوسط والدخول في مفاوضات مع الدولة العثمانية وألمانيا(1) صدار تصريح موال للصهيونية، إلا أن وجهة النظر التي يمثلها الزعماء الصهيونيون في بريطانيا، وضعت ثقتها بنصر الحلفاء، ورأت أن تراهن عليه لتحقيق الأهداف الصهيونية. بل لقد اتخذت الدوائر الصهيونية، الموالية

---

(1) S. Weltmann, « Germany, Tukey and the Zionist Movement, 1914–1918 », The Review of Politcs, Vol. 23, 1961

(1/10855)

للحلفاء، الاهتمام الألماني بالصهيونية حجة لها للتأثير على الحكومة البريطانية بالإسراع لمنح تأكيداتها بالعطف على الأماني الصهيونية(1) .

التحرك الصهيوني باتجاه فلسطين خلال الحرب :

استغل القائلون بهذا التوجه، بزعامة وايزمان، الفكرة التي تبناها البريطانيون، والرأي العام اليهودي، باحتمال حدوث تغير في العلاقات بين مصر وفلسطين في نهاية الحرب، كي يحاولوا إثارة الاهتمام البريطاني بالاستيطان اليهودي في فلسطين، وأماني الصهيونيين بمستقبل فلسطين، ذلك

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية،

F.O ،371/2671/35433.

(10856/1)

البلد الذي يجاور مصر (المحمية البريطانية)، بدعوى أن الحكومة البريطانية في تحالفها مع الصهيونية إنما تبحث عن أكثر مصالحها حيوية وليس المقامرة بفكرة خارج اهتماماتها. وكتب وايزمان عن مساعيه لدى الدوائر البريطانية : " ... لقد أشرنا طويلا إلى البريطانيين ... أن فلسطين اليهودية ستكون حامية لبريطانيا وخاصة

فيما يتعلق بقناة السويس"(1) وكتب إلى رئيس تحرير جريدة المانشستر جارديان : "... أنه لو وقعت فلسطين داخل نطاق النفوذ البريطاني، ولو أن بريطانيا شجعت الاستيطان

---

(1) Weizmann, Trial a Error ..., p. 243

(1/10857)

اليهودي هناك كمحمية بريطانية ... فسيكون لها خلال 20 سنة مليون يهودي، وربما أكثر، يطورون البلد ويعيدون الحضارة ثانية ويشكلون حراسا فعالين لقناة السويس"(1) . وحث سوكولوف (Sokolov) (القطب الصهيوني الثاني بعد وايزمان) الحكومة البريطانة في نسيان 1916 أن تتبنى حماية الأماني الصهيونية في فلسطين، نظرا لما سيعود على بريطانيا من فوائد نتيجة ضمها إلى فلكها :

"إن إقامة كومونولث يهودي في فلسطين لحماية انكلترا سيشكل جدارا فاصلا بين

---

(1) Ibid, p. 191

(1/10858)

السكان العرب في آسيا وشمال افريقيا، وهذا ليس بذي أهمية ضئيلة لدولة في حيازتنا

رعايا العرب ... والعنصر اليهودي، بإدخاله الحضارة الأوروبية، كفيل بأن يساهم

بنهضة شعوب وولايات المنطقة وتقويتها طبقا لأهداف بريطانيا(1) وكان من

المتحولين إلى الصهيونية (Side Botham) سايد بوتام، وهو محرر وناقد عسكري في

جريدة المانشستر غارديان، وأصبح مسؤولا مع مجموعة من الجريدة لنشر فكرة أن الاستيطان الصهيوني في فلسطين سيكون له فوائد استراتيجية كبيرة وقيمة سياسية

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O., F 42608/2817/371

(10859/1)

للإمبراطورية البريطانية، ومن تلك الحجج التي قدمها :

"إن قناة السويس الشريان الحيوي لمواصلاتنا مع الهند ... لا يمكن أن يتم الدفاع عنها بصورة كافية على

الضفتين ... إن الصهيونية في القدس يمكن ان تمنع نضوج هذا الهجوم التركي"(1) .

وقبل أن توقع اتفاقية سايكس – بيكو رسميا، وفي وقت كادت المراسلات بين الحسين ومكماهون تصل مرحلتها الأخيرة، بعث غراي (Grey)، وزير الخارجية البريطانية، يستطلع رأي حكومتي روسيا وفرنسا بشأن اقتراح صهيوني

---

(1) L. Simon, and L. Stein, (eds), Awakening Palestine, London, 1923, p. 259

(10860/1)

بإصدار تصريح حول مستقبل فلسطين يكون ملائما للأماني اليهودية "يضع بجانب الحفاء القوى اليهودية في أميركا والشرق ومكان آخر هو معاد (لنا) كثيرا"(1) ولم يكن اعتراض الخارجية الروسية على الفكرة ذاتها، بل إنها ترى صعوبات بطريقة تنفيذها. وأبدت الحكومة الفرنسية في ردها شكوكا بأن يلاقي المشروع أي استجابة من أي فئة من الفئات ذات النفوذ في المعسكر المعادي، ولكن ما رغبت أن تلفت له نظر الحكومة البريطانية بوجه خاص هو أن المشروع سوف

يجازف بشكل خاص

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O.,

F 42608/54791/2817/371

(10861/1)

بإثارة مشاعر العرب "الذين يحسن معاملتهم بجذر"(1)

ولكن احجام بريطانيا عن إلزام نفسها تجاه

الصهيونية في ذلك الوقت المبكر لم يكن بسبب

القضية العربية، بل لأن الحلفاء لم يكونوا قد انتهوا

بعد من مناقشاتهم حول مستقبل فلسطين، التي هي

مسألة لا يمكن أن تعالج بشكل مستقل عن سائر

مشاكل الحرب.

وفي خريف 1916 (وبعد شهرين من تفجر الثورة

العربية التي دخل فيها العرب

بقيادة، الشريف حسين في صراع مع الدولة العثمانية

جنبا إلى جنب مع الحلفاء)

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O.,

f 42608/54491/2817/371

(10862/1)

اتخذت الوزارة البريطانية قرارها بمهاجمة الجيوش التركية في فلسطين. وفي مطلع 1917 اجتازت الحملة البريطانية المصرية الحدود العثمانية السابقة لتنقل الحرب من افريقيا نحو آسيا(1) ورافقت هذه التطورات على جبهة القتال تشكل جمعية في منشستر باسم – British Palestine Commitee بدأت في مطلع 1917 إصدار مجلة أسبوعية « Palestine » (رئيس تحريرها سايد بوثام)، ويقوم برامجها على مبادئ ثلاثة : الصحراء ليست أحسن حصن لمصر والقناة، العطف على الأماني الصهيونية، إمكانية ربط تحقيق

---

(1) 18Bentwich, England a palestine ..., p.

(10863/1)

الأماني الصهيونية بمقدارات الإمبراطورية البريطانية. وجمعت مقالات سايد بوتام في كتاب England Palestine, Essays towards the Restoration of the Jewish State, London, 1918 يؤكد فيه / "أن مصر هي أهم مصلحة لنا في الشرق ...

وكأننا نقول بذلك إن فلسطين هي أهم مصلحة لنا ... لأن فلسطين الآن، وكما كانت دوما مقتاح مصر، ولذلك فإن مسكلة الدفاع عن مصر والذي تدعى بكعب أخيل الإمبراطورية البريطانية البحرية – ذات مكانة فريدة في النظام الاستعماري الإمبريالي البريطاني". وبرأي سايد بوثام "(1)

---

(1) Palestine, 1917/2/15

(10864/1)

... لو جاءت الحرب التالية وحدودنا الحالية دون تغيير ... فإن العدو (سواء كان الأتراك أو من يخلفهم) سيكون وراء بلد ذو مواصلات جيدة ومخزون هائل من المواد المتراكمة لعبور الصحراء بين فلسطين وقناة السويس ...". ويضيف "... لو وسعنا حدود مصر الشرقية لاستطعنا أن نكسب الدولة الحاجزة المثالية من أجل دفاع أفضل وأقل عبئا على مصر ...". ينتقل المؤلف بعد ذلك إلى النقطة الهامة والخطرة في نظره "... إن المستعمرين الوحيدين الذين يمكن أن يكونوا في فلسطين ليشكلوا دولة كهذه وليكونوا الضمانة الأكيدة لسلامة أرض مصر

(10865/1)

وحماية القناة هو اليهود ... إنه الشعب الوحيد الذي لديه ارتباط عاطفي بأرض فلسطين ... إنه يستطيع إنشاء دومنيون جديد على ساحل البحر المتوسط يرتبط بالعمل الإمبريالي لنا منذ البداية ويكون موقعا عسكريا قويا للسيطرة البريطانية في شرقي المتوسط ... ويشكل حماية ضد الشرق الغريب ... وكوسيط بيننا وبينه ...".

وحاولت الدعوة الصهيونية وهي تطالب بفلسطين أن تعطيها مكانة متميزة

بحجة أنها أرض مستقلة منفصلة عما جاورها جغرافيا وتاريخيا وتمهيدا لوضعها تحت

(10866/1)

إشراف مستقل، وأكد الصهيونيون هذه الفكرة برسم حدود فلسطين "المستقبل"

لوضعها أمام أولئك الذين بيدهم مقدراتها بعد الحرب(1) . وبرأي سايد بوتام، أنه في

رسم هذه الحدود لابد من أخذ دروس التاريخ والنظر بعين الاعتبار إلى الفشل السياسي والعسكري "للدولة

اليهودية القديمة" الذي كان يرجع إلى نقص في امتدادها الساحلي والحاجة إلى حدود جيدة في الشمال والشرق(2) . وبرأي بنتوتش (Bentnitch) أن "دور اليهود يمكن أن لا يقتصر على

---

(1) Jabotinsky, Turkey a the W Ar, p. 209

(2) Side Botham, England and Palestine ..., p. 199

(10867/1)

حدود فلسطين التاريخية، بل من السهل أن يعطي الشعب اليهودي مجالا أكثر اتساعا لفعاليته بأن يمتد إلى كل المنطقة التي يشملها (الوعد) من المتوسط حتى الفرات ومن لبنان حتى نهر مصر"، ويطلق على هذه المنطقة اسم (فلسطين الكبرى) "التي تملأها الارتباطات التاريخية والتي تطلب سكانا كي نقذوها من الأعمال وتآكل القرون"(1) .

هاجس تصريح بلفور :

في الوقت الذي كان فيه الصهيونيون يخططون لرسم مستقبل فلسطين لم تكن المسألة العربية مجهولة، إلا أن ظروف

---

(1) H. Sacher, Zionism and the Jewish Future, London, 1916, pp. 202–203

(10868/1)

الحرب وما قدمته من فرصة ممتازة لتحقيق الأمل الصهيوني تحت الحماية البريطانية دفع الصهيونيين، وهم حججهم للمطالبة بالوطن القومي اليهودي إلى إهمال شأن الوجود العربي، وحتى لو اعترفوا به أو أشاروا له، كانوا يستعبدون خطره. وكانوا يقللون من شأن القومية العربية كعامل حاسم له أهمية في مجرى الحرب كي يعطوا الحركة القومية اليهودية الأهمية الكبرى(1) ، وفكر البعض بمكان بديل للعرب (المحليين). مع ذلك فإن وجود الشعب العربي يتفوق عدديا على اليهود (700.000)

---

(1) Jabotinsky, Turkey and the war ..., pp. 213–223, 214

(10869/1)

كان يقلق الصهيونيين، وقبل شهور من صدور تصريح بلفور كتب أحد زعمائهم ساشر (Sacher) "... كم كانت ثقيلة مشكلة العلاقات مع العرب التي تجثم فوق صدورنا ... أنه يمكن في خلفية تفكيري الاعتراف بأنه حتى لو سادت خططنا السياسية حسب ما نرى، فإن العرب يبقون مشكلتنا الكبرى"(1) .

وكانت المشكلة نفسها تقلق بال الحكومة البريطانية منذ بدأ التفكير بالعطف

على الأماني الصهيونية، فهناك حقائق أولية تعرفها الحكومة البريطانية : العرب

---

(1) L. Stein, Balfour Declaration, London, 1961, 622p.

(10870/1)

يملكون فكيف يمكن جعل حقائق الوضع هذا تنسجم مع الآمال التي كان يسمح للصهيونيين أن يتمتعوا بها(1) لذلك كان هناك تخوف في الدوائر الرسمية البريطانية من أي تعقيدات تالية مع العرب، لم يكن ذلك تخوفا من صدام مع القومية العربية المنتصرة، بل إنه تخوف على اليهود في علاقاتهم مع العرب الذين يتفوقون عليهم

عدديا(2) وبدأت دوائر المكتب العربي (Arab Bureau) في القاهرة (أنشئ عام 1916 ويضم الخبراء البريطانيين في المنطقة)، نظرا لاتصاله

---

(1) Ibid, p. 626

(2) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O., F 42608/54491/2817/371

(10871/1)

بالأجواء العربية يجمع كل التقارير الممكنة عن المشكلة العربية حتى تكون الصورة واضحة أمام المتفاوضين في لندن(1) . ولتجنب أي صدام محتمل في المستقبل والتخفيف من أسباب عدم الاستقرار. تولى مارك سايكس التوفيق بين سياستس الحكومة اليهودية والعربية، فكان يناصر الصهيونية ويدعم بنشاط القضية العربية، كل ذلك من أجل المصلحة البريطانية، ويخلف ذلك بأسطورة بعث وإحياء الشرق حيث سيكون فيه مكان لكلا القوميتين العربية

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، أوراق المكتب

العربي ((Arab Bureau، F.O.882/14 /17Pa/2 ,

6/17Pa/

(10872/1)

واليهودية(1) .وفي وقت كان يتولى شخصيا متابعة المفاوضات شبه الرسمية مع الصهيونيين منذ فبراير 1917 كان يراعي خواطر العرب وآمالهم بخطبة (رنانة) حين سقطت بغداد بيد البريطانيين 1917(2) "... نحن نساند إحياء القومية العربية ... إحياء الحضارة العربية ... والوحدة العربية"، وبعض إلى وينجيت (Wingate) (المندوب السامي في مصر) في 1917/2/22 يطلب منه أن ينصح اللجنة العربية في القاهرة أن تبتكر وتقرر علما أو شعارا يجب أن يرفرف في منطقتي م وب

---

(1) Kedourie, England a the Middle East ..., pp. 79–86

(2) Ibid, p. 79

(10873/1)

يوحي باتحاد عربي(1) وفي أبريل 1917 قدم سايكس إلى الشرق (كممثل بريطاني
في البعثة البريطانية التي ألحقت بالقائد العام للقوات البريطانية في مصر)، كي يضمن قبولا
من الذين بيدهم الزعامة العربية لكل الخطط البريطانية في الشرق وخاصة التمهيد

---

(1) وثائق وارة الخارجية البريطانية، أوراق المكتب العربي، 1715Sp/ 16/882F.O., والحقيقة أن ألوان العلم لم تكن من ابتكار سايكس، بل كانت فكرة رجال الحركة العربية قبل الحرب العالمية الأولى (أوراق محب الذين الخطيب).

(10874/1)

لقبول عربي بما تعزم الحكومة البريطانية على إصداره لصالح الصهيونية، وذلك بتهيئه الجو العلاقات عربية يهودية مع لجنة من الزعماء السزريين في القاهرة (التي أصبحت منذ الفترة السابقة للحرب مركز نشاط السوريين العاملين في الحقل السياسي والثقافي).
ويبدو أنه قد أفهمهم أن كل ما يطلبه الصهيونيون هو أن تنظم فلسطين على أساس نظام (الملة) العثماني،

ولم يقل أن الصهونيين كانوا يتحدثون عن كومونولث يهودي في فلسطي(1) ن وذهب سايكس إلى جدة في مايو للتفاوض مع الحسين، ولم تكن

---

(1) Stein, Balfour Declaration ..., p. 62

(1/10875)

فلسطين ضمن موضوع المفاوضات. وعاد إلى لندن في يونيو ليعاود دعمه النشيط والدائم لزعماء الصهيونيين ولحث الحكومة البريطانية على إصدار تصريح متعاطف مع الصهيونية(1) .

وفي وقت كانت الوزارة البريطانية قد اتخذت قرارها (في 5 يونيو 1917) الموجه إلى النبي القائد العام للقوات البريطانية على الجبهة المصرية للقيام، بهجوم حاسم في فلسطين التي يجب أن تدد منها بريطانيا الضربة الأخيرة للدولة العثمانية لإخراجها من الحرب.

كانت المفاوضات الصهيوينة مع الحكومة البريطانية قد دخلت مرحلتها

---

(1) Leslie, Mark Sykes ..., p. 268

(1/10876)

النهائية. ولم يكن الزعماء

الصهيونيون – وهو على صلة بالدوائر البريطانية

وعرفوا قرار مجلس الوزراء بشن الحملة

أواخر صيف 1917 – ليرحبوا بصلح منفرد مع الدولة

العثمانية بجعل وضع فلسطين في

المستقبل غير مؤكد، ورأوا أن احتلال فلسطين من قبل

قوات الحلفاء يحقق وضعا أكثر

ملاءمة لخطط الصهيونية. وفي 18 يوليو وضع زعماء

الصهيونية مسودة مشروع قدم

للحكومة البريطانية لتصدر تصريحا(1) حصل على

موافقة مسبقة من الولايات المتحدة

---

(1) لونغريغ، سورية ولبنان ...، ص. 80.

(10877/1)

وفرنسا. إلا أن بعض أعضاء الحكومة. وعددا من اليهود

البريطانيين المعادين للصهيونية

وضعوا اعتراضات على كلمات المشروع، وأخيرا وصلت

المفاوضات نتيجة ناجحة

بتدخل ويلسون. فدفع بلفور (Blafour) وزير الخارجية

رسالته الشهيرة(1)

---

(1) يسرني جدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك أنها تنظر بعين الرضى والارتياح إلى المشروع الذي يراد به أن ينشأ في فلسطين وطن قومي لشعب اليهود، وتفرغ خير مساعيها لتسهيل إدراك هذا الغرض. ولكن ليكن معلوما أنه لا يسمح بإجراء شيء يلحق الضرر بالحقوق المدنية والدينية التي للطوائف (غير اليهودية الموجودة في فلسطين الآن أو بالحقوق التي يتمتع بها اليهود في البلدان الأخرى وبمركزهم السياسي فيها).

(10878/1)

في 2 نوفمبر

1917 إلى روتشيك (RoEhshild)، رئيس للاتحاد الصهيوني الإنكليزي، فكسبت الحركة الصهيونية ما حاول عبثا الحصول عليه من السلطان العثماني وما حاول عدد من الزعماء الصهيونيين، الحصول عليه من الاتحاديين. وكان هناك فرق بين الاقتراح الصهيوني الأول والتصريح الذي نشر نهائيا : فالأول ينص على جعل فلسطين كلها وطنا قوميا لليهود، والثاني ينص على

إنشاء وطن في فلسطين مع تحفظات حول الحقوق المدنية والدينية (لغير) اليهود. ومع أن هذه الصيغة التي تمت الموافقة النهائية عليها تظهر أن الوزارة البريطانية حين

(10879/1)

بحثت قضية إصدار التصريح كان في ذهنها الوجهة العربية، إلا أنها كانت تعتقد أن هذه الصيغة بحد ذاتها لن تؤدي إلى مشاكل مع العرب في فلسطين أو أن تؤثر على العلاقات البريطانية مع العالم العربي عامة. وفي كل الاجتماعات التي عقدها مجلس الوزراء لا يبدو أنه قد أثيرت احتمالات وقوع خطيرة مع العرب، وشغلت الوزارة باعتراضات اليهود المعادين للصهيونية أكثر من تلك التي يمكن أن يثيرها الجانب العربي(1) . ولم يكن في نص تصريح بلفور حدود جغرافية لفلسطين، ولكنه يفترض أنه تبنى

---

(1) Stein, Balfour Declaration, pp. 626–627

(10880/1)

مفهوم الحركة الصهيونية التي بينت تصوراتها على
إدعاءات دينية يهودية، وفلسطين التي عناها التصريح
يجب أن تكون في الاتساع والموقع قادرة على تلبية
المصالح البريطانية التي اتخذت مع ادعاءات
الصهيونية(1) .
صدر تصريح بلفور في وقت كانت فيه العمليات
العسكرية في فلسطين قد أصبحت
أكثر فعالية وانتهت المفاوضات والعمليات العسكرية
بوقت متوافق تقريبا : الأولى
بإصدار تصريح بلفور، والثانية باحتلال القدس (أي
بوصول الصهيونية غاية مساعيها

---

(1) *سحنيني، فلسطين الدولة ....، ص. 45-46

(10881/1)

مستغلة الظروف السياسية والعسكرية في حين أجبرت
الظروف العرب أن يلتزموا بتحالهم
مع نفس الدولة صاحبة التصريح(1) ، وحقق جيش الثورة
العربية بقيادة فيصل الخطة
المرسومة بمساعدات مالية وعسكرية بريطانية).
ونتيجة للاحتلال العسكري البريطاني،

الذي يخول بريطانيا أن تفعل ما تشاء في بلد محتل،
وتحت ستار
مناصرة المطامع الصهيونية التي تضمنها تصريح بلفور،
تمكنت بريطانيا من فصل فلسطين تدريجيا عن
سورية وضمها إلى تلك المنطقة التي تقع

---

(1) A. Hourani, The Arabic Thought in the Liberal Age 1798- 1939, Oxford, 1970, p. 3

(10882/1)

تحت النفوذ البريطاني المباشر.
أثار تصريح بلفور خوفا وشكوكا في الأوساط العربية
بعد أن وصلت أخباره مصر، ثم تسربت إلى فلسطين رغم
الرقابة والدعاية النشيطة من السلطات البريطانية،
تلك السلطات التي شعرت بحالة القلق العربي العام الذي
يسود المنطقة ليس فقط من أجل السياسة الصهيونية
بل بعد أن عرفت الأسس العامة للاتفاق الفرنسي
الانكليزي. وكان يهم السلطات البريطانية في
المنطقة أن لا يتأثر التحالف العربي البريطاني ضد
الحلف الألماني. وبرأي كلايتون (Clayton) (مدير
المخابرات العسكرية في القاهرة) إن من بواعث

(10883/1)

الشكوك وعدم الثقة التي توارد السوريين وشريف مكة، والتي لم تستطع انتصارات فلسطين والعراق أن تخففها، هو عدم وجود تصريح محدد ينفي فكرة الإلحاق وخاصة بالنسبة لسوريا، ومن جهة أخرى "فإن التصريح الذي أصدرته حكومة جلالته مؤخرا حول القضية اليهودية كان له انطباع عميق على المسلمين والمسيحيين معا الذين ينظرون بخوف كبير إلى احتمال أن تصبح فلسطين، حتى سورية، في النهاية بيد اليهودية الذين يخشى الجميع على السواء إمكانياتهم العسكرية التجارية"(1).

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O., 86526/225623/3054/371

(10884/1)

أين العرب في الخطط البريطانية :

وبدأ سايكس بوضع الخطوط العامة للسياسة التي يراها مناسبة لإنقاذ مستقبل

العلاقات العربية البريطانية، (وكان قد بدأ بالتمهيد
لها قبل صدور التصريح)،
وفحواها : إن هناك مكانا في المنطقة لكلا القوميتين
العربية واليهودية كي تعملا معا
لإحياء الشرق، وعلى الوعد بما يمكن أن تحققه
الصهيونية لو تم التحالف معها،
والتحذير مما يمكن أن تحدثه لو وقف منها العرب موقف
العداء. بدأت الخطوة بالتأثير
على الزعامة السورية في القاهرة لأنها المجموعة
العربية الواضحة في الشرق العربي التي

(10885/1)

يهمها أمر مستقبل فلسطين كجزء من سورية، فبعث
لها سايكس يعرض اقتراحات
لتوحيد الجهود بين العرب والصهيونيين، ويشير إلى أن
الهدف الوحيد للصهيونيين هو أن يكون لهم حق
الاستيطان في فلسطين وأن يعيشوا حياتهم
القومية(1) . ومع أن كلايتون قد بدأ بالقيام بالدعاية
حسب الخطوط التي اقترحها سايكس بين العناصر
السورية في مصر وكسب ثقة بعضها، إلا أنه لم يكن
لديه تفاؤل سايكس. ذكر ذلك في برقية في

1917/12/20 "إنهم (أي السوريين) لا يزالون خائفين ويشعرون أن الحركة

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O., F27647/3398/371

(10886/1)

الصهيونية تتقدم بخطوات تهدد مصالحهم"، مع ذلك فهو يأمل أن المناقشة والمقابلة مع اليهود لاشك ستهدئ من مخاوفهم(1) . وعبر عن رأي السوريين مراسل مجلة المستقبل في جنيف (وهي مجلة تصدر في باريس ويشرف على تحريرها عدد من السوريين) في مقال 1917/12/30 "... إن فلسطين قطعة من جسم سورية تأبى كل الأديان تركها نهبا للأماني الصهيونية".

وكان جورج بيكو (Picot) بدءا من أبريل 1917 أصبح مفوضا ساميا باسم فرنسا في الشرق للتأكيد على المصالح الفرنسية لدى القيادة

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O., 235780/3054/371

(10887/1)

البريطانية حين كانت الجيوش تدخل فلسطين(1). غير متفائل بسياسة سايكس، فبعث برقية من القاهرة في 1917/12/6 يقول فيها : "إن تصريح بلفور قد ترك أثرا كبيرا في الأوساط العربية السورية حتى الجهات المؤيدة للإنكليز لم تخف علي المرارة التي شعرت بها من جراء هذا التصريح". وهو يقدر مدى الرفض العربي لما يخطط له سايكس "... يعرف العرب بأن كل مقاومة من جانبهم ضد رؤوس الأموال والعمل المنسق اليهودي غير ممكنة وبأن عليهم التنازل مقابل ثمن بخس عن أراضيهم، ويرون إخوانهم في الوطن

---

(1) لونغريغز، سورية ولنان ....، ص. 82

(10888/1)

يعملون كمرتزقة وتحت إدارة أرباب عمل جدد وعلى أراض كانوا يملكونها من قبل". ومع أن تحذير بيكو لم ينبع من تجاوبه مع الشعور العربي، إذ هو يقر مع سايكس "بأن المصلحة الرئيسية تكون بالاستجابة

لرغبات الإسرائيليين، وإني لا أندم لكوني الأول بين من عملوا في هذا الاتجاه"، ولكنه يرى من غير الفطنة الذهاب أبعد بكثير، ذلك لأنه يخشى على مستقبل العلاقات مع العرب "ولذلك ليس بوسعي حتى في سبيل العمل الذي قمنا به، إلا أن أنصحكم بأقصى درجة من التصبر وأذعوكم بعدم الاستمرار في مساندة الحملة العامة التي قد تؤدي إلى

(10889/1)

خسارتنا لجميع العرب"(1).

وكان سايكس أكثر تفاؤلا على مستقبل الحلفاء في المنطقة، وفي برقيته الجوابية إلى بيكو في 1917/12/12(2) يقدر صعوبة الموقف، ولكنه يعجب من احتمال حدوث أية مصاعب مع العرب "... فإن الفقرة الثانية من التصريح تكفل بإسهاب مصالح العرب المحليين ... واليهود قد أكدوا ليس فقط على ضرورة التعاون الودي ضد الجيش التركي العدو المشترك بل عن اهتمامهم الحريص على حقوق ومصالح العرب"، ولذا كان سايكس واثقا أن مخاوف بيكو ليس لها

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O.,

F86526/235780/3054/371

Ibid (2)

(10890/1)

أساس. ولم تكن مهمة السلطات في مصر بالسهولة التي تخيلها سايكس، فدعوته لا تتلاءم مع ما بدأ يظهر من ازدياد نشاط الصهيونيين في الشرق وازدياد ضغطهم في لندن يستعجلون التنفيذ لكل ما يتضمنه التصريح من وعود، منها اقتراح إرسال بعثة إلى فلسطين لتمثيل المنظمة الصهيونية تعمل كجهاز استشاري للسلطات البريطانية في كل الأمور المعلقة بتأسيس الوطن القومي للشعب اليهودي(1).

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O., F84175/235200/3054/371

(10891/1)

كانت مسألة قبول الشريف حسين خطة سايكس أكثر صعوبة، واستقر الرأي على إرسال هوغارت (Hogarth) (أحد رجال المكتب العربي) وقدم للحسين صيغة تضمن

موافقته : "نحن مصممون على أن لا يخضع شعب لآخر، ونظرا لوجود الأماكن المقدسة في فلسطين لأتباع الديانات الثلاث، وهي ذات أهمية لكثير من الناس خارج فلسطين وبلاد العرب، فلا بد أن يكون هناك نظام خاص يوافق عليه العالم لإدارة هذه الأماكن ... (وإن) الرأي العام اليهودي في العالم يعطف على عودة اليهود إلى فلسطين ... وحكومة جلالته مصممة على أن لا توضع عقبة في سبيل تحقيق هذا

(10892/1)

الأمل بقدر ما يتفق ذلك مع حرية الأهالي الموجودين من الوجهتين الاقتصادية والسياسية ... (فضلا عن ذلك) فزعماء الحركة الصهيونية مصممون على إنجاح الصهيونية بالصداقة والتعاون مع العرب ومثل هذا العرض لا يمكن تجاهله(1) .

وبعث الحسين برسائل إلى كبار أتباعه في مصر وفي صفوف قوات الثورة ليخبرهم انه تلقى تأكيدات من الحكومة البريطانية بأن توطين اليهود لن يتعارض مع استقلال العرب(2)

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O.,

3054245810/371

(2) جورج انطونيوس، يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، بيروت، 1966، ص. 377

(10893/1)

.

مع ذلك ظل موقف الحسن بالنسبة للأوساط البريطانية غير مشجع، وبدأ التركيز على فيصل، ومن خلال لورانس (Lawrence) بدأ التأثير عليه حول ضرورة الوفاق مع اليهود "وأنها فرصته الوحيدة لإعطاء الحركة العربية ثمارها"(1) . وكان قدوم البعثة الصهيونية إلى الشرق في مارس 1918، برئاسة وايزمان لتشرف عمليا على وضع التصريح موضع التنفيذ، قد عمق شعور الاستياء. وكانت السلطات البلايطانية تخشى أن ينتقل هذا الشعور إلى المناطق الجنوبية الشرقية أي إلى "العرب الذين

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O., 14557/3388/371

(10894/1)

يقاتلون مع فيصل ... ويهم الأتراك أن يكسبوهم إلى جانبهم"(1) فرأت ضرورة تدبير لقاء بين الحركة الصهيونية والقائمين على قيادة الثورة العربية (الجناح الأيمن للقوات البريطانية). ووجد وايزمان أن "المسألة الفلسطينية يمكن عزلها في حال إنشاء حلف سياسي مع قيادة الحركة العربية في الشرق(2) . وشرح كلايتون أهداف الطرفين العربي واليهودي وتوقيعاتهما في لقاء العقبة 4 يونيو 1918 : فيصل

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O., 1467/123868/3381/371

(2) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O., 11053/125475/3395/371

(10895/1)

يتطلع إلى أن يحقق مطمحه في أن يصبح الأمير الحاكم على سوريا، وهو يأمل من أجل ذلك أن يتلقى دعما بريطانيا عسكريا، وكذلك هو يأمل دعم الصهيونية الاقتصادي والسياسي، وأخيرا فمن وراء الصهيونية والعمل من خلالها هو يعتمد على الإمبراطورية التي يضع

الثقة الكبرى بها كملجأه الوحيد. وبالنسبة لدوافع وايزمان فإن فلسطين "اليهودية المقبلة" يجب أن ترتبط بالدول المحيطة بها من أجل وجودها وتطورها ولهذا يبدو "حيويا من أجل تحقيق الأماني الصهيونية أن تعمل جنبا إلى جنب مع الحركة العربية المجاورة". ورأى كلايتون في لقاء

(10896/1)

الحركتين حلا لمشكلة الحكومة البريطانية حول تنفيذ وعودها لكلا الطرفين، ويتوقع "أن تكون مهمة تنسيق أهداف الصهيونية والعرب صعبة ولكنها ليست مستحيلة"(1).

رأى كلايتون انه من الممكن إقناع الحسين بالبرنامج الصهيوني وهو شرح مدى تأثير ذلك البرنامج على الآمال العربية في سورية "أنه لو نجح فيصل في تحرير سوريا ليصبح أميرا حاكما عليها فإن الحسين سيثق على الأقل بوجود مظهر خارجي للسيادة على أهم المناطق العربية، وقد يرحب بأية سياسة تساعد فيصل على

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O., 27647/105824/3395/371

(10897/1)

تحقيق هذا الهدف". وانتهى كلايتون إلى القول إنه لا يمكن للحركتين الصهيونية والعربية أن تعملا معا إذ ما ظلت اتفاقية سايكس – بيكو سارية المفعول"(1) واتفق كلايتون بذلك مع اقتراح عرضه وايزمان بعد عودته من العقبة على وينجيت (Wingate) المندوب السامي في مصر. وينجت بدوره طلب من الحكومة البريطانية أن لا تعتبر اتفاقها الرسمي مع فرنسا حول سوريا ملزما(2) . واعتبر سايكس أن الاقتراح الصهيوني قد تجاوز الحد المرسوم له بشكل بدأ يؤثر على المصلحة

---

(1) Ibid

(2) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O., F146/123868/3381/371

(10898/1)

البريطانية في الشرق فيما يتعلق بعلاقات بريطانية مع فرنسا. إن هدف السياسة البريطانية كما يراها

سايكس، بالنسبة للصهيونية، هو تمكين الأخيرة من حرية العمل في فلسطين نفسها وليس لمطامع أبعد، لسبب واحد هو ان المصالح الفرنسية في سورية أمر واقع ولابد من أخذها بعين الاعتبار. وكان سايكس لايزال يعتبر أن الاتفاقية التي تحمل اسمه لاتزال قائمة، وفقا للاتفاقية، فإن سورية هي خارج نطاق النفوذ البريطاني وتدخل ضمن نطاق النفوذ الفرنسي، عدا فلسطين(1) .

---

(1) Ibid

(10899/1)

وفي رسالته إلى بلفور 1918/7/17 أكد وايزمان أن كل ما يفعله في لقائه مع الحركة العربي، إنما هو للمصلحة البريطانية، وإنه كلما تطورت الحركة التي يمثلها فيصل كلما قل النزاع بين تلك الحركة وبين الصهيونية، "... فلو نجح فيصل في دخول دمشق ... سيدعم ذلك الموقف العربي، ولكنه يحتاج إلى معونة، والحركة الصهيونية يمكن أن تعطيه العناصر التي هو بحاجة إليها ... (وأنا) أتوقع إمكانية قيام تعاون مخلص بين الأمتين سيؤدي إلى منفعة متبادلة ويدعم

بريطانيا في الشرق الأدنى". هدف وايزمان التقليل من مسألة قيام مشكلة عربية

(10900/1)

خطرة في المستقبل في فلسطين لو دعمت الحركة العربية في مكة ودمشق، وبرأيه "أن ما يسمى بمسألة عربية في

فلسطين سوف تتخذ بذلك طبيعة محلية صرفة". ولكن العقبة التي تحول دون تحقيق الأماني العربية والصهيونية، بنظر وايزمان، تتمثل في اتفاقية سايكس – بيكو والتي "هي نتاج ديبلوماسي لسنوات الحرب الأولى فقدت معناها الواقعي في الوقت الحاضر". بالإضافة إلى ذلك فهي تشكل "مركزا للتآمر السياسي التي تحجب الرؤية الصحيحة وتقف ضد مبدأ تقرير المصير الحقيقي الذي عبرت عنه كلا الحركتين العربية والصهيونية"، وبنظره "إن

(10901/1)

استمرار هذه الاتفاقية وكل ما تمثله هو مصدر دائم للقلق في المنطقة"(1) .

وكانت السلطات البريطانية قد بدأت بتنظيم إدارة مستقلة لفلسطين عن مصر، ومع انها احتجت، بظروف الحفاظ على الوضع القائم وعدم تحديد الوضع السياسي لمستقبل فلسطين إلى رفض إحداث تغييرات أساسية تتناسب والتوقعات الصهيونية لمنعى التصريح، ولكنها وبموافقة الحكومة البريطانية سمحت بقدوم البعثة الصهيونية إلى فلسطين والتي سعت إلى إحداث أمور واقعة محددة تعطي للصهيونيين حقهم بأن يسمع

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O., 138908/3398/371

(10902/1)

صوتهم في مؤتمر السلم(1) . وكان مجرد قدوم البعثة بحد ذاته دليلا على الدعم البريطاني للحركة الصهيونية في حين حرمت غالبية الشعب من وجود منظمة مشابهة للدفاع عن مصالحها(2) ولم تكن محاولة فرض البرنامج الصهيوني سهلا وصورت التقارير التي كانت تنشرها النشرة العربية (Arab Bulletin)

ويصدرها المكتب العربي في القاهرة، حالة القلق. وجاء في تقرير بعثة أورسبي غور (Ormsbey Gore) ضابط الإرتباط البريطاني

---

(1) **وثائق وزارة الخارجية البريطانية،** F.O., 138908/3398/371

(2) **وثائق وزارة الخارجية البريطانية،** F.O., 88469/3395/371

(10903/1)

المرافق للبعثة إلى بلوفور في 1918/04/19 **"إن قدرا كبيرا من المشاكل التي واجهتها البعثة يعزى إلى غموض التصريح البريطاني لصالح إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي ... العرب يخشون أن يجردهم اليهود من ملكيتهم وأن يفقدوا مكانتهم السياسية والاجتماعية"**(1) **. وحاول السوريون المثقفون في مصر أن يتقدموا إلى السلطات البريطانية ببرنامج حول مستقبل فلسطين يرضي المصالح البريطانية. وهم رغم انقسامهم على أنفسهم يتفقون في معارضة فصل فلسطين**

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O., F11054/3395/371

(10904/1)

عن سوريا ووضعها تحت الإشراف الصهيوني. وأكد فارس نمر زعيم الكتلة السورية إلى هوغارت أنهم يطلبون سورية "المتكاملة" التي تضم فلسطين، ومع أنه قبل بها كمحمية بريطانية (بينما قبل أن تكون سائر سورية تحت حماية بريطانية "مقنعة" لمرحلة مؤقتة)، إلا أن ذلك برأيه يجب أن لا يكون خطوة نحو (فلسطين اليهودية) فهو، أي فارس نمر، "لا يمكنه أن يعتقد ولو للحظة واحدة أن الصهيونيين يأملون شيئا آخر سوى الإشراف السياسي"(1) . ووجه نمر سؤالا إلى

---

(1) النشرة العربية، وثائق وزارة الخارجية البريطانية، (Arab Bulletin 1918/6/24)

(10905/1)

هوغارت بشأن حدود شمال فلسطين، إذ رغب معرفة إن كانت لدى الصهيونيين أطماع بالاستطان اليهودي

شمال فلسطين، ويقول هوغارت : "إن نمر كان يريد بريطانيا بدون اليهود ويؤمن أن بإمكانها وحدها أن تفعل كل ما تطلبه سورية ولديه أسبابه الخاصة للتشكيك بقوة إدعاء الصهيونية فيما يتعلق بنفوذها في الولايات المتحدة ... فبعض ذوي النفوذ السوريين يمكنهم أن يتعاملوا مع ويلسون بشكل أكثر فعالية من الصهيونيين"(1) .

وفي تعليف سايكس على هذا البرنامج السوري تمسك بوجهة نظره بأن المصالح الفرنسية في سورية ليت مسألة خيالية

---

(1) Ibid

(10906/1)

وأنه يجب أخذها في الحسبان، واستخف بالمشاعر المعادية لفرنسا، والتي هي لصالح بريطانيا وبيديها السوريون في مصر "... علينا أن نؤكد للسوريين أننا ندعم ونتفق مع السياسة الفرنسية، وأننا سوف لن نتخاصم مع حلفائنا لإرضاء الساسة السوريين"(1) ما كان يهم سايكس من سورية هو أمر فلسطين التي جاهد بإبقائها (مفتوحة) في الاتفاقية التي تحمل اسمه،

وكان عليه قبل التوصل إلى تسوية بشأنها مع فرنسا أن يزيح من أذهان العرب فكرة ضم فلسطين إلى سورية بحجة فعالة

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O., F146/123863/3381/371

(10907/1)

ناجحة، برأيه، كان يرددها في أحاديثه مع ملك الحجاز وفيصل والمثقفين السوريين "إن فلسطين مركز الاهتمام الأول لأتباع الديانات الثلاث، ودولة سورية الوليدة لا يستطيع أن تتغلب على المشاكل الفلسطينية، أنتم تضعون أمام ناظركم التحرير النهائي وحرية سورية من كل وصاية أو حماية ... ولكن هل تتوقعون أن يدعكم العالم تديرون شؤونكم بدون تدخل ... ولو أصبحت فلسطين جزءا من سورية المحررة، فإن الفئات المتعددة المهتمة بفلسطين بلا شك سوف تشرفعلى شؤونكم ... وستجدون أنفسكم وقد تورطتم بقضايا عشرات الملايين من البشر الذين

(10908/1)

لا مصلحة لهم في سورية"(1) .

ما بعد الحرب : سعي بريطاني صهيوني لعزل فلسطين

بعد انتهاء العمليات الحربية كان الاحتلال البريطاني هو العامل الحاسم في حدود جديدة للمنطقة، ووضع الجنرال اللنبي (Allenby) نظام إدارة "مناطق العدو والمحتلة"، فقسمت سورية إلى مناطق إدارية وعسكرية تتبع القائد العم اللنبي (وتتطابق حدودها مع اتفاقية سايكس – بيكو) شرقية (أي سورية الداخلية) وتديرها الحكومة العربية برئاسة فيصل، وتشمل نظريا كل سورية الطبيعية، وغربية أي الساحل اللبناني السوري وتديرها القوات الفرنسية العسكرية،

---

(1) Ibid

(10909/1)

وجنوبية أي فلسطين، وتديرها القوات البريطانية العسكرية. وفشل جورج بيكو في السعي لإقامة حكم بريطاني فرنسي مشترك في فلسطين وحدث تغير جذري لاتفاقية سايكس بيكو بشأن حدود فلسطين

الشمالية، فتحولت الحدود إلى الشمال الشرقي باتجاه انياس بدل تحويلها إلى الجنوب الشرقي باتجاه طبرية شاملة معظم قضاء صند وبحيرة طبرية(1) وبذلك يقع خط الحدود الجديد إلى الشمال من حدود (المنطقة السمراء) في اتفاقية سايكس – بيكو، أي أن المنطقة الجنوبية (فلسطين) ضمت أجزاء من (المنطقة الزرقاء)

---

(1) نيلسون، تعيين الحدود الشمالية، ص. 85–93

(10910/1)

حسب الاتفاقية. والإجمال فإن هذه المنطقة
التي عهد بها للإدارة البريطانية مكنت بريطانيا من
أن تفرض سيطرتها المباشرة على
أراض تمتد من الحدود المصرية جنوبا إلى أقصى مدى
أتاحته لها علاقتها الدولية شمالا(1) .
واعتبر العرب أن هذا الإجراء تدبير مؤقت طالما أن
سورية هي جزء من الدولة العربية
الواحدة التي كانوا يتطلعون إلى تحقيقها في مؤتمر
السلم المقبل في باريس، وخاصة بعد صدور التصريح
الانكلو فرنسي المشترك في 1918/11/8 والذي صيغ
بعبارات غامضة عن وعود

(1) سخنيني، فلسطين الدولة ...، ص. 47

(10911/1)

بتحرير الشعوب التي رزحت تحت الحكم التركي وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالي(1) وكانت فلسطين جزءا، ولو نظريا، من حكومة دمشق العربية

باعتبارها الإقليم الجنوبي من سورية، وشارك أبناء فلسطين في فعاليات تلك الحكومة السياسية

والثقافية لم تقتصر على حدود المنطقة الشرقية.

وخرجت التظاهرات السلمية تنادي بشعارات الوحدة من طوروس إلى رفح، وتبنت شعارا يدل على معنى عميق من الوحدة الوطنية، الهلال وبداخله الصليب الذي حل محل النجمة في الشعار

(1) انطوينوس، يقظة العرب ...، ص. 590–591 (ملحق)

(10912/1)

العثماني(1) وتصاعدت شدة المعارضة العربية للمطالب الصهيونية، وبعثت الجمعية الفلسطينية لمقاومة الصهيونية في نيويورك رسالة في 26 نوفمبر 1918 تفند الدعوى الدعوى الصهيونية "... كل ما يمليه الضمير والعدل ... ويشهد به الدين والتاريخ ... بأن كل سورية هي لنا ولنا وحدنا ... إننا لا نرغب في فصل فلسطين سياسيا واقتصاديا عن بقية سورية بل أن يمنح الجميع فرصا متساوية"(2) .

---

(1) F. Newton, Fifty years in Palestine, London, 1948, p. 133

(2) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O., F205922/206456/3420/371

(10913/1)

إلا أن فلسطين عمليا كانت تحت الإدارة العسكرية البريطانية، وكانت وجهة نظر الخارجية البريطانية "إننا يجب أن لا نقبل على الإطلاق أن تكون فلسطين جزءا من سورية، فقد صرحت كل دول الحلفاء بما فيهم الرئيس ويلسون لصالح جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود بشرط ضمان حقوق ومصالح السكان (غير) اليهود

المقيمين في فلسطين"(1) وذهبت

السياسة البريطانية في تطرفها لدعم الصهونية في

فلسطين حدا كبيرا(2)

---

(1) **وثائق وزارة الخارجية البريطانية،** F.O., F747/201968/3885/371

(2) A. Tibawi, Syria from Peace Conference to the Fall of Damasce Islamic Quarterby, Dec 99, p. 1967

(10914/1)

. وكان للصهيونية وسائل كثيرة في التأثير على

سياسة بريطانيا وعلى وزارة الخارجية بالذات، وزاد

تطرف

مطالبها بعد الهدنة واقتراب مؤتمر السلم مع التهديد

بمباشرة العمل قبل التسوية النهائية.

ولخصت مقالات مجلة (Palestine) **المبادئ العامة**

الجغرافية والاقتصادية والعسكرية والتاريخية

التي يجب أن تبنى عليها حدود دولة "فلسطين

الجديدة"، وبرأيها أنه في رسم الحدود

يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار إمكانية تطوير حيادة

اقتصادية نشطة، وسهولة الدفاع الذاتي. وتقترح

المجلة ذاتها امتداد الحدود الساحلية في الغرب حتى الليطاني

(10915/1)

لأن "لبنان أحسن خط دفاع لإسرائيل"، وأن تمتد الحدود نحو الشمال الشرقي إلى منطقة يسهل الدفاع عنها وتحتوي كل
المستوطنات اليهودية في الجليل وتقترب إلى مشارف جبل الشيخ، أما في الشرق فيجب أن يمتد خط الحدود إلى غرب خط الحجاز بشرط أن يكون لفلسطين (اليهودية) نفوذ في الدولة العربية في سورية. أما في الجنوب فتطالب المجلة بمنافذ على البحار الشرقية وتؤكد على أهمية العقبة الاستراتيجية والاقتصادية. أما بالنسبة مع الحدود المصرية فتقترح تسليم الأجزاء الموجودة حاليا مع مصر حتى تقترب حدود فلسطين الجديدة إلى قناة

(10916/1)

السويس "رمزا للخدمات التي ستقدمها فلسطين في مهمة الدفاع عن مصر"(1) .

وفي محاولة للرد على الاحتجاجات ضد الصهيونية (خوفا على مصير البرنامج الصهيوني)، قدم سايكس بعد الهدنة إلى الشرق فشاهد عن قرب التباعد السحيق بين وجهتي النظر اليهودية (وغير اليهودية)". وجهة النظر اليهودية تعتبر أن تصريح بلفور لا يمكن أن يؤدي إلى تحقيق كامل لأهدافها ما لم يفرض التطور في المنطقة ... ولكن الخوف أن يفكر (غير اليهود) بأن أحسن برهان (لمطالبهم) هو الإنفجار

---

(1) وثائق وزارة الخارجية البريطانية، F.O., F27647/190447/3398/371

(10917/1)

العنيف(1) . إلا أن سايكس ظل حتى وفاته (عند افتتاح مؤتمر السلم) يصر على "أن الوضع الحالي ينبع من سوء الفهم أكثر من تضارب الآراء".

فلسطين ومناورات مؤتمر السلم في باريس 1919 :

كان العرب كسائر الشعوب الصغيرة، يتطلعون إلى قرار مؤتمر السلم الذي

سيعقد في باريس ليحقق لهم الاعتراف بمطالبهم في الاستقلال أو على الأقل مبدأ
تقرير المصير الذي اعتبر مبدأ التسوية لما بعد الحرب(2) بعد أن قاموا بنصيبهم في الاتفاقية

---

(1) Ibid

(2) Documents on British Foreign Policy ..., p. 12

(10918/1)

بينهم ولبين الحلفاء، وتبين على أبواب المؤتمر البون الشاسع بين ما يطالب به العرب
وبين ما ترضى الحكومة البريطانية أن تعترف به، مع ذلك اعتبروا، (أو على الأقل الوفد
العربي الوحيد الذي سمح له بالتمثيل برئاسة فيصل)، الحكومة البريطانية
صديقتهم الوحيدة، ومنها يستمدون النصح
والمشورة(1) . وكانت المشكلة الأولى التي واجهتها المطالب العربية أمام مؤتمر السلم هي الادعاءات الفرنسية في سورية، وتمسكت

---

(1) خيرية قاسمية، "تطور القضية الفلسطينية في

عهد الحكومة العربية في دمشق، شؤون فلسطينية، عدد 1، 1971، ص. 56–76

(10919/1)

فرنسا بعد 1918 باتفاقية سايكس –بيكو واعتبرتها قائمة وضامنة لحقوقها جزئيا، رغم ادعائها أنها قدمت بموجبها تضحيات كبيرة "فاحتمال إقامة حكومة عربية داخل سورية يشكل ضربة لمطامح الفرنسيين والأمر نفسه بالنسبة للتدويل المقترح بدلا من الهيمنة الفرنسية والكاثوليكية فيما يتعلق بالأماكن المقدسة(1) وانتظارا لافتتاح مؤتمر السلم جرت مباحثات جانبية في لندن بين لويد جورج وكلمنصو (Clemenceau) ٌجراء تعديل في توزيع مناطق النفوذ حسب إتفاقية سايكس – بيكو، وكان لويد جورج (George)

---

(1) لونغرينغ، سورية ولبنان ....، ص. 79

(10920/1)

مصمما أن يضم الموصل الغنية بالنفط إلى المنطقة التي خصصت للنفوذ البريطاني، وكان الموصل حسب اتفاقية سايكس – بيكو ضمن المنطقة (أ)، والأمر الثاني الذي كان لويد جورج قد صمم عليه هو استبدال الإدارة الدولية في فلسطين بسيطرة بريطانية وتوسيع حدودها. وفي المباحثات جرى تعديل سري لاتفاقية سايكس – بيكو وافق كلمنصو على نقل الموصل وفلسطين مقابل دعم بريطانيا لقضية فرنسا في أوروبا والحصول على أسهم فرنسية في شركة النفط التركية في الموصل، ووعد بأن تدعم بريطانيا فرنسا بمطالبها، عند إقرار الانتدابات، بالانتداب على

(10921/1)

سورية(1) . وهكذا استفردت بريطانيا بفلسطين التي ضمت أراضيها الآن مناطق تمتد حتى نهر الليطاني شمالا وإلى الحدود المصرية جنوبا. ولكن الحدود بين منطقة النفوذ البريطاني والفرنسي لم تكن محددة بدقة، وأخذ تخطيط الحدود الشمالية منذ ذلك الحين يخضع إلى ضغط مزدوج، فرنسي في الشمال يحاول التمسك بحدود اتفاقية سايكس – بيكو أو تعديلها تعديلا خفيفا، وبريطاني بتشجيع الصهيونية يسعى إلى

(1) H. Cumminy, Franco-British Rivalry in the Post-War Neaur East, The Decline of French In Fluence, 1914–1923, London, 1931, p. 60

(10922/1)

دفع حدود فلسطين شمالا لتأمين منطقة فلسطينية تساعد على تطور الحركة الصهيونية بالانسجام مع تصريح بلفور(1) .

ووقفت الحركة الصهيونية كاتجاه آخر (إلى جانب الإدعاءات الفرنسية) لمعارضة تحقيق المطالب العربية في مؤتمر السلم: إذ مع اقتراب مؤتمر السلم كانت استعدادت الصهيونيين على أشدها لوضع الخطوط العريضة للوطن القومي اليهودي، بتوجيه من وزارة الخارجية البريطانية. وكسبوا إلى جانب الدعم البريطاني دعم الوفد الأمريكي الرسمي برئاسة ويلسون الذي ذكر "بأن الوطن القومي

(1) نيلسون، تعيين الحدود الشمالية ...، ص. 93

(10923/1)

اليهودي كان أحد اثنين من المنجزات الجديدة التي انبثقت عنها الحرب التي جانب عصبة الأمم"(1) .

وقبل أن تفتتح مؤتمر السلم رسميا، بدأت محادثات رسمية بين الوفد العربي، برئاة فيصل، ووزارة الخارجية البرطانية، ولم يذكر بلفور في تقاريره عن المباحثات فيما إذا كان قد تباحث مع فيصل حول السياسة البريطانية المقبلة فيما يتعلق بفلسطين العراق، وكان فيصل واثقا، كوالد، أن العرب سوف يتوصلون إلى تسوية ودية حول هذه الأمور(2)

---

(1) J. Jeffries, Palestine; The Reality, London 1939, p. 243

(2) Tibawi, Syria from Peace Conference ..., p. 79

(10924/1)

ومع أنه لم يطلع على تفاصيل الخطط السياسية التي جرت بين فرنسا وبريطانيا بشأن تعديل مناطق النفوذ، شعر من مجرى محادثاته أن الادعاءات الفرنسية هي الخطر المباشر للدولة العربية في سورية، وأن بريطانيا ليست مستعدة للنزاع مع فرنسا حول سوريا مهما كان عطفها على الأماني العربية. كما شعر أنه لا

يمكن تأمين دعم بريطاني (لمواجهة الادعاءات الفرنسية)، وهو الدعم الوحيد في ذلك الحين، نظرا لأن بقية الدول مشغولة بشؤونها الخاصة وليس لها مصالح مباشرة في سورية، إلا بالتنازل عن بعض المصالح العربية. ويبدو أن وزارة

(10925/1)

الخارجية البريطانية كانت تحتاج إلى اعتراف من فيصل بسياستها حيال الصهيونية قبل عرض القضية على مؤتمر السلم، دون الرجوع إلى عرب فلسطين، فدفعته إلى الاتفاق مع ايزمان للتوفيق بين المطالب الصهيونية والعربية، كما أن فيصل كان يعتقد أنه لو توصل إلى تفاهم مع الصهيونيين فإنهؤلاء سيةحدون جهودهم معه للحد من أطماع فرنسا في تفاهم مع الصهيونيين فإن هؤلاء سيوحدون جهودهم معه للحد من أطماع فرنسا في سوريا(1) ورغم الأهمية التي يعزوها وايزمان إلى الاتفاقية مع فيصل،

---

(1) Documents on british Foreign Policy, pp. 421–422

(10926/1)

فإن كل ما إدعاه الصهيونيون قد وافق عليه فيصل بشكل شخصي، وإن الاتفاقية كانت مجرد اقتراح لم تتقدم على الإطلاق لتصل إلى مرحلة المعاهدة، وكانت كغيرها من الوثائق والتصريحات التي نسبت إلى فيصل خطة استراتيجية للحصول على وثيقة عربية بالموافقة على الخطط الصهيونية، ونظرا لأنها لم تعرض على الحسين ولا على غيره من زعماء الحركة العربية، فليس لها أدنى قيمة في التعبير النهائي عن السياسة العربية(1) وفي تبريره للتفاهم يقول فيصل إن العرب قد حرموا من الوصول إلى المتوسط وإنه يطالب

(1) Jeffries, Palestine ..., p. 308

(10927/1)

بالوفاء بالوعود التي أعطيت لوالده، ولكن أيد حكومة رسمية كانت تقبض عليه وتدفعه نحو صداقة جديدة للدكتور وايزمان مع تاكيدات بأن اليهود لا يسعون لإقامة دولة مستقلة في فلسطين وأن هدفهم إنعاشها"(1) . ولم تكن آراء فيصل حول مستقبل فلسطين تختلف عن آراء والده، وكانت مماثلة لآراء

غالبية العرب العاملين في الميدان السياسي، وتتلخص بأن فلسطين منطقة عربية تشكل جزءا من سورية ولذا يجب أن تظل ضمن منطقة الاستقلال العربي.

---

(1) Ibid, p. 249

(1/10928)

أما قداستها لدى الأديان الثلاث ووجود الأماكن المقدسة، فذلك أمر قد منحها صبغة خاصة يود العرب أن تتفق الأديان المعنية على تأمينها، أما الاستيطان اليهودي فيقبل به العرب على أسس إنسانية شريطة أن يخضع للحدود التي يفرضها احترام صالح أصحاب البلاد وحقوقهم الاقتصادية والسياسية(1) ويبدو أن فيصل لم تكن لديه أفكار واضحة عما تعنيه المشاريع الصهيونية، كل ما أخبره به هو إيجاد وطن روحي لليهود وإنه ليس لديهم مطامع سياسية، ولم يكن فيصل يعني مطلقا موافقته على فصل فلسطين عن

---

(1) أنطونيوس، يقظة العرب ...، ص. 395–396

(1/10929)

سورية واتخاذها وطنا قوميا لليهود(1) . ولم يكن الرأي العام في سورية عامة، أو فلسطين خاصة، يقبل بفصل فلسطين عن سورية، ورفع أعالي نابلس عريضة إلى فيصل في باريس يتمسكون بأن أهل فلسطين يرتبطون مع
سوريا بالروابط التاريخية والجغرافية والاقتصادية مما يجعلها جزءا منها "وإنه ليس لليهود
من العلاقات والوجود السياسي والأدبي والمادي مما يخولهم في فلسطين أقل حق أو شبه حق"(2) .

---

(1) Jeffries, Palestine, p. 249

(2) وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية 1918–1939 (إعداد بيان نويهض الحوت)، بيروت 1979، ص. 18

(10930/1)

عرضت القضية العربية على مؤتمر السلم في 6 فبراير 1919 في جو تسيطر عليه القوى الكبرى، وتقدم فيصل بالمطالب العربية على أساس مبادئ عامة، منها حق الشعوب (الناطقة بالعربية) في آسيا بالاستقلال والوحدة، وفقا لوعود الحلفاء، ولا يرى مانعا من الاستعانة بالدول الأجنبية للتطوير دون أن يعني ذلك

أي نفوذ سياسي. وانتهز فيصل الفرصة للتنديد باتفاقية سايكس – بيكو والمطالبة باتخاذ خطوات إيجابية للتحقق من رغبات الشعوب المعنية حتى يمكن الوصول إلى تسوية عادلة مؤكدا مبدأ موافقة الحكومتين(1)

---

(1) سليمان موسى، المرسلات التاريخية 1919 الثورة العربية الكبرى، مجلد 2، عمان 1975 ص. 45–48

(10931/1)

والواقع أن المسيطرين على المؤتمر خططوا مستقبل الشرق العربي قبل أن يستمعوا إلى فيصل، ففي جلسة 1919/1/30 اتخذ المؤتمر قرارا بفصل أجزاء من الدولة العثمانية (منها سورية الكاملة والعراق) ووضعها تحت إشراف العصبة عن طريق حكومات تعمل كدول منتدبة تستطيع أن تأخذ على عاتقها رفاهية هذه الشعوب وتقدمها (وكان القرار أساس المادة 22 من ميثاق عصبة الأمم ورغم أن الصهيونيين لا يمثلون دولة واليهود كانوا أقل من 10٪ من سكان فلسطين، فقد أرسلوا وفدا للحصول على تأكيد دولي لتصريح بلفور وتأمين ضمه إلى نص معاهدة السلم

وميثاق العصبة، لذلك رفضوا ضم فلسطين إلى دولة عربية أو تدويلها، وطالبوا بأن يعهد إلى بريطانيا بالانتداب من
قبل العصبة لوضع فلسطين في ظروف سياسية واقتصادية تكفل إنشاء الوطن القومي، فاتفقت مصالحهم بذلك مع مصلحة بريطانيا(1) وكانت أغلبية الصهيونيين تقدر صعوبة
(فلسطين المستقبل) التي تحكمها (أقلية) وتحاط بأراض يسكنها شعب له صلة لغوية
(بالأغلبية)، ولذلك كان همهم في مؤتمر السلم أن لا يطبق مبدأ تقرير المصير لأنه إذا طبق في الوقت الراهن، قبل أن تتحول فلسطين إلى

---

(1) Weizmann, Trial and Error ..., pp. 305–306

بلد يهودي بهجرة كثيفة واستيطان منظم في ظل حماية بريطانية، سيحول ذلك دون تأسيس دولة

يهودية(1) . ورست المنطقة الصهيونية في مذكرتها التي رفعها إلى مؤتمر السلم حدود فلسطين كما يلي : في الشمال، ضفتا نهر الليطاني الشمالية والجنوبية إلى خط عرض 3345، ومن هناك يتجه خط الحدود في اتجاه شرقي جنوبي إلى جنوب منطقة دمشق تماما إلى الغرب من خط سكة جديد

---

(1) وثائق وزارة الخارجية الأمريكية، وكان ويليام قد أرسل من قبل الخارجية الأمريكية إلى الشرق أواخر الحرب العالمية الأولى، W. Yale, Papers, n° 24 April, 1918, 22

(10934/1)

الحجاز، وفي الشرق، خط محاذ لخط سكة حديد الحجاز، وإلى الغرب منه، وفي الجنوب، خط يمتد من نقطة في جوار العقبة إلى العريش، وفي الغرب، البحر المتوسط(1)

وكانت هذه الحدود تتفق مع وجهة النظر البريطانية بتوسيع فلسطين إلى القدر الأقصى المستطاع، وجعل السياسة الصهيونية ممكنة من خلال إعطاء أوسع مجال للتطور الإقتصادي في فلسطين.

كان القرار الوحيد الذي اتخذه مؤتمر السلم بشأن

المطالب العربية هو موافقة المجلس الأعلى للحلفاء على اقتراح ويلسون بإرسال لجنة تحقيق من هيئة خبراء من

---

(1) سخيني، فلسطين الدولة ...، ص. 49–50

(10935/1)

الدول الكبرى لمعرفة رغبات السكان في المنطقة(1). وكانت فرنسا لا ترغب لأي لجنة بالدخول إلى البلاد من أجل التحقيق إلا إذا شمل العراق وفلسطين، كما وقفت بريطانيا من القضية موقف الفتور نظرا للخلاف الذي كان يدور حول حدود الموصل، وبسبب الضغط الصهيوني حتى لا يكشف تقرير اللجنة أن العرب يرغبون بحكومة عربية، واقتصرت اللجنة عa ى الأعضاء الأمريكيين

---

(1) H. Howard, « An American Expeviment in Peace Making, The King Evane Commission », Moslem World, Vol. 32, April, 1942, pp. 126–144

(10936/1)

(كنغ وكرين) ()(1Crane-King) وكان باعتقاد السوريين أن "(لجنة التحقيق الأمريكية) ستقرر مصير البلاد، وأضحى الرأي العام في فلسطين عشية قدومها يحوم حول كلمة واحدة هي الانضمام لسورية من الوجهتين الاقتصادية والسياسية، والمطالبة بالاستقلال القطعي الناجز(2) وأثبتت الحركة الوطنية في فلسطين كامل وحدتها مع الحركة القومية

---

(1) Tibawi, Syria from Peace Conference ..., 87p.

(2) عوني عبد الهادي (أوراق خاصة)، إعداد خيرية قاسمية، بيروت 1974، ص. 32.

(10937/1)

العربية في الشمال بمشاركة في المؤتمر السوري (15 مندوب من أصل 69). وعمل أعضاء المؤتمر السوري (يونيو 1919) جهدهم للتأكيد في مقرراتهم على استقلال سورية ضمن وحدة عربية مستقلة ورفض المادة 22 من ميثاق العصبة، واحتجاج على كل معاهدة سرية بتجزئة سورية، أو كل وعد عربي

يرعي إلى تمكين الصهيونية في فلسطين مع ضمان لليهود التمتع بحقوقهم العامة(1) وفي تحقيقات أعضاء اللجنة (الأمريكية) مع سكان فلسطين تقدم هؤلاء بمباطلهم "... أن تكون بلادنا سورية التي

---

(1) نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية ....، ص. 114-115

(10938/1)

تبتدئ شمالا بجبال طوروس وتنتهي برفح وغربا بالبحر المتوسط وشرقا بالبادية كلتة واحدة غير متجزئة مستقلة استقلالا تاما بلا حماية ولا وصاية، وأن تكون مقاطعتنا سورية الجنوبية (فلسطين)، التي هي جزء لا ينفك عن سورية، مستقلة استقلالا داخليا، رفض الهجرة والاحتجاج على الصهيونية ولا نرضى أن تكون مقاطعتنا وطنا قوميا لليهود، أما اليهود الأصليون الموجودون في بلادنا قديما فإننا نعتبرهم وطنيين لهم ما لنا وعليهم وما علينا"(1) وفي لقاء فيصل مع اللجنة (الأمريكية) قال:

---

(1) قاسمية، تطور القضية الفلسطينية ....، ص. 64.

(10939/1)

"إن العرب لا يمكنهم أن يقبلوا بفصل فلسطين عن سورية وإنه كان المفهوم عن الصهيونية إنها ترمي إلى هجرة محددة توسع المستعمرات اليهودية الموجودة ... أما مطامع الصهيونية فقد بعثت الخوف في نفوس الناس(1) . وبعثت اللجنة بانطباعاتها الأولى حول الوضع في سورية "أن هناك أمورا لا يمكن الخطأ فيها وهي الرغبة العميقة بالوحدة والاستقلال في سورية وفلسطين ... إن البرنامج الصهيوني لا يمكن تنفيذه إلا بالقوة ضد رغبات العرب(2) .

---

(1) **موسى، المراسلات التاريخية ...، ص.** 85

(2) Documents on British Foreign Policy ..., 315–316

(10940/1)

وجاء في توصيات اللجنة عن فلسطين أنه "لا يوجد هناك سبب يمنع ضم فلسطين إلى سورية المتحدة ووضع الأماكن المقدسة تحت إدارة لجنة دولية دينية"(1) .

وقد أثبتت محاولة مؤتمر السلم للكشف عن رغبات أهل المنطقة عدم جدواها

في التأثير على مجرى السياسة نظرا لأنه قد تقرر توزيع مناطق النفوذ بين الحكومتين

الفرنسية والبريطانية حتى قبل أن تباشر اللجنة مهامها(2) فالحكومة البريطانية بعد

---

(1) أنطونيوس، يقظة العرب ....، ص. 606–610 (ملحق)

(2) W. Yale, The Near East, A Modern History, University of Michigan Press 1958, p. 337

(10941/1)

تحقيقات اللجنة كانت ترغب بالانتهاء من مغامرة الحرب في الشرق بشكل يرضي مؤقتا فرنسا (التي كانت تمارس ضغطا مستمرا على الحكومة البريطانية لسحب قواتها العسكرية من المناطق المخصصة لفرنسا)، وكذلك يرضي المصالح الصهيونية دون أدنى اهتمام للمشاعر العربية. وفي المذكرة التي وضعها بلفور 1919/8/11 حول سورية وفلسطين والعراق أوضح أن سبب المصاعب الحالية هو التناقضات بين عدة وثائق : مراسلات الحسين – مكماهون، اتفاقية سايكس –

بيكو، التصريح المشترك، ميثاق العصبة، تعليمات لجنة كنغ – كراين، ويبدو التناقض أكثر وضوحا في

(10942/1)

فلسطين، فالدول الغربية قد وعدت بتأييد الصهيونية "فكيف التوفيق بين هذا الوعد وبين الميثاق أو تعليمات كنغ كرين ؟"، ولذا اقترح بلفور التمسك بالفكرة الأساسية التي تمكن وراء سايكس – بيكو(1) .

على ضوء مذكرة بلفور قدم لويد جورج إلى المجلس الأعلى المؤتمر السلم في 1919/9/1 صورة عن اتفاقية فرنسية لنكليزية مؤقتة لسحب القوات البريطانية من سورية (عدا فلسطين) على أن تحل القوات الفرنسية غربي خط سايكس – بيكو والعربية شرقي الخط(2)

---

(1) Documents on British Foreign Policy ..., p. 371

(2) N. Zeine, The Struggle for arab Indepenence, Beirut, 1960, pp. 6, Apprendix 260–67

(10943/1)

. وبالنسبة لفلسطين أصبح خط الحدود الشمالي المقترح يمتد من رأس الناقورة إلى شمال بحيرة طبرية ومعنى ذلك إدخال كل بحيرة طبرية ضمن فلسطين، ولكن الاتفاقية الفرنسية البريطانية لم تحسم تماما مسألة الحدود الشمالية لفلسطين وما وراء نهر الأردن وتركتها مفتوحة رغم الضغط الصهيوني(1) وفيما كان الرأي العام العربي ينتظر جلاء القوات الأجنبية كلها عن سورية كاملة، إذ به يفاجأ برسم حدود فرنسية بريطانية عبر سورية على أساس خط سايكس – بيكو ورغبات الصهيونية، وكانت هذه الاتفاقية

(1) سخنيني، فلسطين الدولة ...، ص. 52–56

(10944/1)

بداية لتقسيم سورية إلى منطقتي انتداب وخلق فلسطين كوحدة منفصلة رغم ما قيل أن الاتفاقية مباحثات فيصل في لندن تقرب منه وايزمان من جديد يعرض أموالا وخبراء للحكومة العربية وواعدا بإقناع الحكومة

الفرنسية للتخلي عن إدعاءاتها بالمنطقة الداخلية من

سورية مقابل مساعدة الأمير في

تحقيق البرامج الصهيونية في فلسطين. ويبدو أن

الأمور توقفت عند هذا الحد(1)، وأدلى فيصل بحديث إلى

مندوب جريدة الجويش كرونكل في لندن جاء فيه

"فلسطين هي جزء من سورية ... وقد تشكل

---

(1) Documents on British Foreign Policy ..., pp. 421–422

(10945/1)

فيما بعد ولاية من الدولة فيما بعد ولاية من الدولة

السورية ذان حكم ذاتي يتمتع فيها اليهود بحقوق

متساوية مع العرب(1) . وفي رسالته من لندن عبر فيصل

إلى والد، عن يأسه من الساسيين البريطانيين

ومعارضتهم تشكيل الحكومة التي وعدوا الحسين

بتأسيسها، وتيقن بأنهم أيضا لايريدون أن يبحثوا

بأمر البلاد العربية التي دخلت بحوزتهم بسبب الحرب

كالعراق وفلسطين. وأدرك اللعبة السياسية التي

مارستها بريطانيا، إذ أظهرت الصداقة للعرب كي

يسكتوا عما تفعله في فلسطين والعراق وتذرعت

بتعلق العرب

(1) 306Jeffries, Palestine ..., p.

(10946/1)

بها كي تتنازل فرنسا لها عن الموصل وفلسطين "... وهي تريد أيضا أن (تلتزمنا) لتوسع حدود فلسطين إلى حرمون وستتسع في شرق الأردن مهما يمكنها، وعدم البحث فيما تريد أن تفعله سواء كان في فلسطين أو في العرق"(1) . وفشل فيصل في مهمته في لندن بعد أن كانت المصالح الفرنسية والبريطانية قد سويت واضطرته مباحثاته مع كلمنصو في باريس إلى اتفاقية مبدأية (1920/1/6) تعترف فيما فرنسا بدولة سورية مستقلة ضمن حدود سيعترف بها مؤتمر السلم على أن تتعهد الدولة بأولوية فرنسا بإمدادها

---

(1) موسى، المراسلات التاريخية ...، ص. 225–264

(10947/1)

بالخبراء والمستشارين، وأن يعترف فيصل باستقلال لبنان تحت الانتداب الفرنسي. وأسر فيصل إلى ضابط

بريطاني في بيروت بعد عودته، أن من نقاط الاتفاقية هي سورية الموحدة ومن ضمنها فلسطين تحت مساعدة فرنسية، وأن أمله في النجاح أن يقدم للشعب فكرة، أن الانتداب الفرنسي يعني سورية الموحدة، ورغم أن عليه أن يطالب بفلسطين، وقد وعده كلمنصو أن يدعمه في ذلك، إلا أنه ليس له أمل بالنجاح(1) .

المؤتمر السوري يعلن وحدة سورية الطبيعية 1920 :

---

(1) Documents on Britsh Foreign Policy ..., pp. 624–626

(10948/1)

بعد عودة فيصل من أوروبا كان عليه أن يواجه معارضة داخلية تقاوم كل تسوية تقتضي بتجزئة البلاد وحرمانها من استقلالها وجعل جنوبها موطنا لليهود(1). وردا على ما بلغه من قلق بشأن فلسطين صرح فيصل لوفد قابله بعد عودته "بما أن فلسطين هي يدي اليمنى، فإني أؤكد لكم لكم أني لم أنسها ولن أنساها، وإني أسعى من أجل فلسطين كما أسعى من أجل سورية والعراق، أطمئنكم أن فلسطين ستكون حسب رغبات

أهلها جزءا من سورية"(2) وكان على

---

(1) جريدة العاصمة (دمشق)، عدد 74 11/11/1919

(2) نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات ...، ص. 108

هامش

(10949/1)

فيصل أن يقبل باقتراح مستشارية بضورة وضع الحلفاء أمام الأمر الواقع بإعلان المؤتمر السوري في 8 مارس 1920 "استقلال بلادنا السورية، التي منها فلسطين بحدودها الطبيعية استقلالا تاما لا سائبه فيه ... ورفض مزاعم الصهيونيين في جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود ..."، واعتبر البعض أن إعلان الاستقلال لا يؤدي إلى نتيجة عملية لما كانت فلسطين بيد الاحتلال البريطاني والمناطق الساحلية الغربية بيد فرنسا. ولكن الواقع أن القرار كان تعبيرا عن الإدارة الشعبية(1)

---

(1) خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق 1918–1920، القاهرة، 1971، ص. 165

(10950/1)

وكان من الطبيعي أن يرحب عرب فلسطين، (والتي شارك ممثلوها في المؤتمر السوري)، بقرار إعلان الاستقلال، وهذا ما دفع الصهيونيين إلى القيام بمعارضة قوية لضم فلسطين إلى الدولة السورية(1) وأكد فيصل في حديث لصحفي بريطاني بأن لقبه كملك "يشمل فلسطين كذلك ... ما لم يكن هناك شك حول هذه النقطة بسبب سوء استعمال الدول الغربية لكلمة سورية، والتي تعني بالنسبة لهم القسم الشمالي من البلاد فقط ... لقد كان هدف الحسين دوما ضم فلسطين إلى المنطقة التي اشترط أن يشملها الاستقلال

(1) جريدة الدفاع، (دمشق)، 1920/3/9

(10951/1)

العربي"(1) .

وجاء رد الفعل لإعلان الاستقلال عنيفا من الحكومتين البريطانية والفرنسية

بحجة أن مستقبل سورية وفلسطين (وكذلك العراق) تقرره دول الحلفاء، ورفضت

الحكومات الاعتراف بشرعية القرار. وكانت قد انقضت

شهور من المداولات لم

يتوصل اللقاء خلالها إلى حل بشأن الدولة العثمانية

برغم وجود اتفاق عام بأنها يجب أن تجزأ طبقا لبنود

الاتفاقيات السرية مع تغيير ظاهري على الأقل في

الخطة، خاصة بعد تبني مبدأ الانتداب على سورية

وفلسطين والعراق(2)

---

(1) Jeffries, Palestine ..., p. 325

(2) Tibawi, Syria from Peace Conference ..., p. 106

(1/10952)

ورفض فيصل التوجه إلى أوروبا بناء على عودة

بريطانية وفرنسية لشرح موقفه الشخصي أمام المجلس

الأعلى للحلفاء قبل أن يأتيه تأمين من الدولتين "بوحدة

واستقلال سورية وعدم فصل فلسطين عنها واتخاذها

وطنا قوميا لليهود وطرد العرب السوريين منها"(1) .

وفي رسالته إلة لويد جورج وميلران ذكر "إني أرغب

بكل قلبي إجابة الدعوى ولكن حيث أني لا أعلم ما هو

الأساس الذي سيتخذ لحل المسألة السورية خاصة

والعربية عامة، فلذا وخوفا من أنه بعد استماعي أيضا

يصدر قرار يخالف رغباتهم، فعندئذ

---

(1) قاسمية، الحكومة العربية ...، ص. 175

(10953/1)

أكون في موقف جدا حرج أمام الأمة العربية وأمام المجلس الأعلى والحلفاء، فلذا أطلب أن تخبروني مبدئيا عن القرار الذي سيتخذ وتطمنوني أولا عن استقلال البلاد السياسي ووحدتها(1) .

ولإزاء تصميم الحلفاء على رفض قرارات المؤتمر السوري، شعر عرب فلسطين أن اليهود الصهيونيين هم العقبة الرئيسية لضم فلسطين إلى الدولة السورية المستقلة الجديدة، فبدأو يتبعون أسلوب العنف لإثبات حقهم احتجاجا على خطر المشاريع الصهيونية ودعم السلطات البريطانية. وكان أشده أحداث القدس في أبريل 1920 حين تعرض اليهود

---

(1) المرجع نفسه، ملحق صور

(10954/1)

لمظاهرة عربية تهتف للاستقلال وتحمل العلم السوري وتنادي بسقوط الصهيونية(1) واعترفت لجنة التحقيق الإنكليزية أن سبب الحوادث هو خيبة أمل العرب لعدم تحقيق الاستقلال وخشيتهم من أن يخضعهم إنشاء الوطن القومي اليهودياقتصاديا وسياسيا(2) . وأسف فيصل لأحداث القدس، وبعض برقية إلى النبي بأن خطة الصهيونية بتأسيس حكومة يهودية سببت قلقا ليس في فلسطين بل في سورية كلها(3) وتقدم فيصل بإقتراح

---

(1) 133Newton, Fift Years ..,p.

(2) أنيس صايغ، أطاشيمون وقضية فلسطين، بيروت 1966، ص. 52

(3) قاسمية، الحكومة العربية ....، ص. 184

(10955/1)

أخير إلى الحكومة البريطانية من أجل تأسيس حكومة عربية في فلسطين وتقبل الحكومة البريطانية وحدة البلاد السورية والفلسطينية على أساس اللامركزية وتقييد الهجرة بصورة تتفق مع منافع البلاد ويحفظ كيانها القومي مع عدم السماح

بشراء أراض جديدة، على أن تعطي الحكومة البريطانية الأولوية في جميع المشاريع الاقتصادية والمالية(1) . ولم يكن لهذا الاقتراح أي أثر على التقرير النهائي لمستقبل فلسطين. ولم تعق جهود حكومة دمشق للمحافظة على صلاتها الودية مع الحلفاء، لتنفيذ

---

(1) وثيقة غير منشورة (من أوراق عوني عبد الهادي)

(10956/1)

القرارات التي اتفق عليها فيما بينهم.

ومع أن الصلح مع تركيا لم يعقد بعد، ومع أن شرعية فصل المناطق العربية عن الدول العثمانية لا يصح إلا بعد عقد المعاهدة، ومع ان نظام الانتداب لم يعرض بعد على مجلس العصبة، فقد قرر المجلس الأعلى للحلفاء المنعقد في سان ريو (إيطاليا) في 25 أبريل 1920 تقسيم المناطق العربية التي وزعت دبلوماسيا أثناء الحرب وفقا لبنود الاتفاقية السرية (سايكس – بيكو)، وحكم على المستطيل العربي الذي يشمل سورية والعراق بالتجزئة ونظام الانتداب، ومكنت قرارات سان ريمو الحكومتين الفرنسية

(10957/1)

والإنكليزية أن تتجاوزا نصوص إتفاقية 1916، فقد مدت بريطانيا انتدابها فوق كل العراق والأردن وفلسطين ومن مهامها التمسك الحرفي بتصريح بلفور، واعتبرت فرنسا القرارات حلا مرضيا أسيا وهو أقل من امتلاك كامل في الساحل وأكثر من منطقة نفوذ تتوقعها في الداخل، إلا أنه حسب تفسير فرنسا لالتزامات الانتداب أطلقت يدها في الساحل والداخل والصحراء(1) . واعتبر العرب تجزئة البلاد مع إنشاء حكومات متعددة، ضربة قوية لمطلب الوحدة حيث رسمت حدود سياسية وحواجز داخلية لا تتفق مع أي

(1) قاسمية، الحكومة العربية ...، ص. 175–176

(10958/1)

اعتبارات طبيعية للبلاد. وقدم الوفد العربي إلى مؤتمر السلم احتجاجا رسميا، إلى المؤتمر ثم إلى العصبة، بأن الانتداب قد وزع بشكل معاكس لحق الشعوب في تقرير مصيرها وأن فصل فلسطين عن سورية لا يناقض رغبات السكان فقط بل يهمل بشكل تام الوحدة بين جزئي البلد في اللغة

والتقاليد والعرق والاقتصاد، إن العرب لم يثوروا ضد الأتراك ليحاربوا إلى جانب
الحلفاء من أجل استبدال حاكم أجنبي بآخر(1) . وقدمت من جميع أنحاء فلسطين

---

(1) المرجع السابق، ص. 176-177

(10959/1)

مذكرات إلى السلطات المحتلة احتجاجا على القرار الذي يناقض المطالب السابقة ويتمسك بالمطالب المنحصرة في استقلال سوريا المتحدة من أقصى حدودها الشمالية إلى رفح جنوبا ورفض الهجرة رفضا باتا(1) .
نقل اللنبي قرارات سان ريمو في 27 أبريل إلى فيصل مع الإلحاح عليه بالسفر إلى باريس ليعرض قضيته أمام المؤتمر في الاجتماع التالي، وأعلامه أن فرنسا لا تزال على استعداد للاعتراف به ملكا على سورية بشرط قبول الانتداب، والتوصل معها إلى حل حول نصوص هذا الانتداب، أما مع بريطانيا فليس هناك إلا ما له

---

(1) المرجع نفسه، ص. 185

(10960/1)

بحث الحدود بين سورية وفلسطين، أما فيما يتعلق بفلسطين فيقول اللنبي "إنك كنت تعرف دائنا أن حكومة جلالته ملتزمة بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين لأن حكومة جلالته تعتبر نفسها ملزمة بحماية مصالح السكان المحليين في البلاد بكل ما في هذه الكلمة من معنى وهذا الالتزام ستؤكده بنود الانتداب(1) . وفي رده (15 مايو) يرفض فيصل مبدأ الانتداب "لأن السوريين يشعرون بأنه يمثل خطرا على أمتهم واستقلالهم.

---

(1) st 1Documents on British Foreign Policy, 1963, London, 13Series, Vol. (eds) Butler and 442Bury, Document n°.

(10961/1)

أما فيما يتعلق بمستقبل فلسطين، فلم نر أي وضوح في خطابكم بالنسبة للاعتراف بهذا البلد كذزء لا يتجزء من سورية، برغم أن فلسطين بحكم جغرافيتها وتقاليدها واقتصادها وأيضا بحكم لغتها وأمانيها القومية لا يمكن أن تعتبر إلا جزءا من سورية". ويشير فيصل إلى

احدى رسائل مكماهون في 1915/12/25 التي تعترف فيها الحكومة البريطانية بأن فلسطين جزء من الدولة العربية، ويضيف "أن اتفاقية سايكس – بيكو قررت لأن تقام إذارة دولية في المنطقة (السمراء) على أن تقرر نوعية هذه الإدارة بعد موافقة ممثل شريف مكة، ولا يوجد في

(10962/1)

الاتفاقية أي

شيء يذكر عن الصهيونية أو اليهود". وفيصل يأمل أن يحصل من بريطانيا على تصريحات

مرضية تثبت له أن أي معاهدة بين بريطانيا

والصهيونيين لن تكون أكثر أهمية من

أي معاهدة أخرى مع الملك حسين أو رئيس الجمهورية الفرنسية. ويوضح فيصل في

خاتمة رسالته سوء الفهم حول موقفه اتجاه الصهيونية وموضوع إيجاد وطن قومي "أما

مسألة جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود فإني لم أتعهد أبدا به لا كتابة ولا شفاهة، وكل

ما تعهدت به وأتعهد به اليوم أيضا هو أن حقوق اليهود

تبقى محفوظة في بلادنا كما كانت في الماضي بمعنى أننا

(10963/1)

نحافظ عليهم محافظتنا على العرب الوطنيين ويكون لهم من الحقوق والوظائف ما يكون للوطنيين فيها ... إني أريد قبل كل شيء، أن يصرح لي بصورة قطعية أن المؤتمر لا يريد أن يفصل بين فلسطين وسورية ويقطع ما يبنهما من الروابط(1) .

مؤامرة فصل فلسطين تتم 1920 – 1923 :

لم تجد احتجاجات فيصل إذ كانت وزارتا الخارجية والحربية في لندن قد بحثتا في إمكانية فصل فلسطين عن إشراف اللنبي السياسي والعسكري

---

(1) قاسمية، الحكومة العربية، ملحق مصور الرسالة بالإنكليزية والقسم الأخير مأخوذ من مسودة بالعربية من أوراق عوني بعد الهادي.

(10964/1)

وتعيين حاكم مدني له خبرة إدارية حتى قبل أن يمنح الانتداب إلى بريطانيا، ولم يعهد في ذلك إلى حيادي بل إلى صهيوني هو هربرت صموئيل. وقبل أن يذاع خبر تعيينه رسميا قدم فيصل احتجاجا إلى اللنبي ليس لأن صموئيل كان يهوديا، "بل بسبب أنه كان صهيونيا غايته تأسيس حكومة يهودية على أنقاض قسم كبير من سورية"(1) وتم الانتقال من إدارة عسكرية إلى إدارة مدنية دون صعوبة تذكر (30 يونيو 1920)، سوى احتجاج رفعه ممثلو المدن يعبر عن خيبة أملهم برسالة ملك بريطانيا إلى شعب فلسطين يؤكد على وجوب اتخاذ

---

(1) المرجع نفسه، ملحق مصور.

(10965/1)

إجراءات مباشرة لضمان تأسيس وطن قومي يهودي واعتبروا الرسالة "جنازة للأرض المقدسة"(1) وبسبب انشغال حكومة دمشق بمشاكلها مع السلطات الفرنسية في المنطقة الغربية (نتيجة تطورات أعقبت سان ريمو وصلت أوجها بإنذار غورو)، ترك شعب فلسطين ليتابع وحده نضاله السياسي، بعد أن فقد بانهيار الحكم العربي مصدرا قويا للتأييد. وأصبحت

فلسطين بعد سقوط دمشق "عضوا عربيا أبتر لا هو بنفسه يستطيع أن يكون مادة الحيادة لبقائه وتوفير المناعة للدفاع عن نفسه في وجه الغارة الصهيونية البريطانية، ولا

---

(1) جريدة الدفاع (دمشق)، 1920/7/13

(10966/1)

يستطيع استمداد القوة والعون من جاز عربي له ينجده ويأخذ بنصرته"(1) .

ولأن قرارات سان ريمو لم تحدد بدقة الحدود الفاصلة بين منطقتي الانتداب الفرنسي والبريطاني، أصبحت المسألة محور مفاوضات مريرة دارت بين الطرفين. وفي مقابل ما طرحته بريطانيا من حجج لتوسيع حدود فلسطين شمالا كانت فرنسا تطرح حججا أخرى لدفع خطوط الحدود الشمالية إلى الجنوب بقدر المستطاع(2) . واستمرت المفاوضات البريكانية الفرنسية على مسألة الحدود الشمالية لفلسطين إلى ما

---

(1) جريدة العرب (القدس)، 1933/5/27

(2) سخنيني، فلسطين الدولة ...، ص. 56

(10967/1)

بعد مؤتمر سان ريمو حتى تم توقيع معاهدة 1920/12/23، التي عينت الحدود الفاصلة بين النفوذين الفرنسي والبريطاني، واستغرق المسح مدة عامين وتم التوقيع على التقرير النهائي 1923/3/27. وبموجب الاتفاقية الأخيرة صار خط الحدود من الناقورة يتجه شرقا بشكل متعرج إلى الشمال الغربي من قرية المالكية، حيث يتجه إلى الشمال من المطلة (فلسطين)، ثم يتجه باتجاه جنوبي شرقي ليعبر بانياس على مسافة 900 متر إلى الجنوب الغربي من قرية بانياس، ويسير مع الضفة اليسرى لنهر بانياس باتجاه الجنوب الغربي حتى منطقة تل العزيزات، ثم

(10968/1)

يتجه جنوبا ويسير إلى الشرق من بحيرة الحولة ثم مع نهر الأردن حتى جسر بنات يعقوب حيث سيسر إلى

الشرق من نهر الأدرن إلى مصب النهر في بحيرة طبرية، ومن هنا يبدأ الخط بالسير على مسافة 10 أمتار من شاطئ بحيرة طبرية الشرقية إلى مناصف هذا الشاطئ تقريبا (عند الحمامات الكبريتية على الشاطئ). يبدأ خط الحدود عند هذه النقطة بالاتساع إلى الشرق لمسافة تبعد عن الشاطئ بما يتراوح بين 1200 متر وأكثر من 2كلم، بحيث يضم داخله جزءا من المنحدرات الغربية لهضبة الجولان ويصل الخط إلى جنوب شرق بحيرة طبرية على مسافة تبعد 500

(10969/1)

متر إلى الشمال والشمال الغربي من خط سكة حديد درعا – حيفا، يبقى هذا الجزء من الخط ضمن الأراضي الفلسطينية، ثم يسير خط حدود موازيا لطريق سمخ – الحمة إلى الشمال منه وعلى بعد 50 متر حتى ينتهي في الشرق في نقطة تبعد 500 متر إلى الشرق من الحمة. وبهذه الاتفاقية رسمت الحدود الدولية الشمالية لفلسطين بعد صراع دبلوماسي استمر اعواما، محوره الرئيسي الوصول إلى المياه وتأمين مصادرها، مع ذلك أعلن قادة الصهيونية استياءهم

للاتفاقية ورضوخ بريطانيا للمطالب الفرنسية لأنه أفقدهم فرص الاستيلاء على الليطاني ومنابع الأردن العليا وجنوب لبنان وجبل الشيخ وحوران(1) .

أما بالنسبة لحدود فلسطين الشرقية فالموقف لم يكن حاسما وفقا لقرارات سان ريمو لنوع العلاقة ما بين فلسطين والمنطقة الواقعة شرقي نهر الأردن ولا بالنسبة لبقية حدود فلسطين في الشرق. وكانت المنطقة حسب اتفاقية سايكس – بيكو جزءا من المنطقة (ب) (أي منطقة نفوذ بريطاني). ومع نهاية الحرب العالمية

---

(1) المرجع السابق، ص. 60–61؛ وأيضا : نلسون، تعيين الحدود الشمالية ...، ص. 90–92

الأولى أخذت الحركة الصهيونية تصر على إلحاق أقسام منها بفلسطين "المقترحة" (في مذكرتها إلى مؤتمر السلم)، ولكن الوضع الإداري في المنطقة شرقي الأردن

كان يعتبرها جزءا من إدارة "مناطق العدو المحتلة" الشرقية وخاضعة لحكومة دمشق. وفهمت بريطانيا أن انتدابها على فلسطين بموجب سان ريمو يشمل أيضا شرق الأردن. وبعد احتلال فرنسا لدمشق يوليو 1920 تحركت طموحات الفرنسيين القديمة في مد نفوذهم إلى الجنوب، وهذه الطموحات المتعارضة مع الدعاوي الصهيونية والإدارة البريطانية، هي التي دفعت إلى التوصل إلى اتفاقية ديسمبر

(10972/1)

1920 التي رسمت خطا فاصلا ما بين مناطق النفوذ الفرنسي في الشمال ومناطق النفوذ البريطاني في الجنوب. وكانت بريطانيا تميل إلى عدم دمج المناطق الواقعة في شرق نهر الأردن ضمن حدود فلسطين تاركة بذلك الطريق مفتوحا لإقامة شكل ما من حكومة عربية(1) وكيان سياسي في شرق الأردن مستقل عن فلسطين. ويصف الأمير عبد الله الحل الذي تمخضت عنه مفاوضات مع تشرشل وزير المستعمرات في القدس مارس 1921 أنه حل مرض ومن مصلحة العرب، "ثم إن البلاد كانت عرضة لأن يسري عليها وعد بلفور فوقفنا

(1) سخنيني، فلسطين الدولة ...، ص. 59–63

(10973/1)

حائلا دون ذلك الخطر، فلم يجدوا إليها من سبيل"(1) .

لقد نجح التحالف البريطاني الصهيوني في جولة رسم حدود فلسطين على مراحل، بهدف تأمين منطقة تساعد على تطور الحركة الصهيونية بالانسجام مع تصريح بلفور، وانتزاع فلسطين من إقليمها الطبيعي.

(1) عبد الله بن الحسين، الآثار الكاملة، بيروت 1973، ص. 33–34

(10974/1)

في الإدارة والحكم أيام بني أمية

الدكتور محمد ضيف الله بطاينة

جامعة اليرموك–الأردن

الولاية والولاة

... تقَسيم البلاد التابعة للدولة إلى وحدات إدارية أسلوب

رصين في الإدارة لاغني عنه، وفائدته لولاية الأمر أكيدة في سياسة الناس ورعاية مصالحهم، وقد اتبعه الرسول عله السلام والخلفاء الراشدون، واتبعته الدول والإمبراطوريات من قبل المسلمين ومن بعد، ولا تزال الدولة تتبعه في الوقت الحاضر.

... والمعارف الإدارية من الإرث المشترك بين المدنيات والحضارات، ولهذا فإن تبادل الخبرات والتجارب فيه والانتفاع منه بين

(10975/1)

الأمم والدول ممكن مادام وجه العلاقة بينها فيه لا تضار معه شخصيتها، ولذلك لم يتردد المسلمون في الاستفادة من تراث الأمم والدول في هذا المجال، والانتفاع منه في إدارة أمور الدولة وتصريف شؤون الناس، و اتخاذ الوسائل والأساليب النافعة والمناسبة منه لتحقيق الرعاية والأداء الأفضل.

... ومن هذا القبيل ، انتفعت الدولة الإسلامية في خلافة عمر بن الخطاب بنظام الدواوين الذي كان معمولا به عند الفرس والبيزنطيين (1)، واستفادت من

---

(1) انظر : الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص. 17؛

البلاذري، فتوح البلدان، صص. 537، 549.

(10976/1)

الإرث الإداري عند البيزنطيين في إدارة البلاد التي فتحها وكانت من قبل بين البيزنطيين(1) .

---

(1) انظر : Irfan Shahid, The Jund System in Bilad Al-Sham : Itd Origion, The Fourth International Conference On The History of Bilad Al- Sham, 15Amman,Jordan, Oct.–21,1983.

فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، ص. 289؛

نجدة خماش، الإدارة في العصر الأموي، صص. 18، 37، 38؛

صالح العلي، دراسات في الإدارة، صص. 14، 155.

(10977/1)

وإذا نظرنا إلى جدول الوحدات الإدارية في العصر الأموي،وجدنا الوحدات الإدارية في هذا العصر استمرارا لما كان عليه الحال في العصر الراشدي، إلا ما كان من استحداث بعض وحدات إدارية جديدة مثل جند قنسرين

الذي استحدث في خلافة معاوية بن أبي سفيان أو في خلافة يزيد بن معاوية استجابة للضرورات الطارئة، وما كان من ظهور وحدات إدارية جديدة بسبب الفتح مضافة إلى ما كان من قبل مثل بلاد المغرب والأندلس التي فتحت في خلافة عبد الملك بن مروان وفي خلافة الوليد ابن عبد الملك

(10978/1)

... والجدول لا يذكر جميع الوحدات الإدارية التي اشتملت عليها الخريطة الإدارية للدولة، الإسلامية، وإنما تتردد المعلومات فيه حول الوحدات الإدارية من بلاد العرب، أو التي نزلها العرب، أو التي آلت إدارتها إلى ولاة عرب في الأغلب، ولعل مرد ذلك إلى أن كافة المؤلفين تقريبا عاشوا في هذه البلاد، وعرفوا أحوالها، وتحدثوا في كتبهم عنها، أما البلاد الأعجمية، وبخاصة التي لم يستوطنها العرب، ولم تساهم بالأحداث التي لها علاقة بالخلافة، ولم يتولها ولاة عرب، فإن المعلومات عنها جاءت في كتب هؤلاء المؤلفين نزرة

(10979/1)

ويسيرة(3).

... كما تتفاوت الأخبار عن هذه الوحدات وذكر أسماء ولاتها في هذا الجدول بين خليفة وخليفة، ولعل مرد ذلك إلى مدى استحواذ أخبار الجوانب الإدارية على اهتمام المؤرخين بالمقارنة مع الأحداث الأخرى، ففي عهود الخلفاء الذين تميزت أيامهم بالسعة والنشاط والأمن والاستقرار والفتح مثل معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، كان الحديث عن الإدارة في عهودهم أوسع مجالا، بينما كان الحديث عن الإدارة قليلا ومحدودا في عهود الخلفاء الذين اتسمت عهودهم بالفتن

(10980/1)

والاضطرابات ونشوب الحروب الداخلية أو التي كانت أيامهم قصيرة مثل معاوية بن يزيد والوليد بن يزيد وأمثالهما.

... ومع أن عدد الوحدات الإدارية في الجدول ليس قليلا نسبيا، إلا أنه بالمقارنة مع ما تشتمل عليه المنطقة نفسها في الوقت الحاضر من الوحدات الإدارية يبدو ضئيلا جدا، وذلك لأسباب تعود في الأغلب إلى الخريطة السياسية للمنطقة في الوقت الحاضر، وإلى الكثافة

السكانية فيها، وما تتصف به الإدارة الحاضرة من التعقيد، فضلا عما تزخر به الحياة الحاضرة من المصالح الكثيرة والمتشابكة، والحاجات والمتطلبات العديدة

(1/10981)

والمتزايدة.

... أما بالنسبة للولاة على البلدان، فكان الخلفاء في هذا العصر هم الذين يباشرون تعيين الولاة وعزلهم، فالولاية في هذا العصر من النوع الذي أطلق عليه الماوردي اسم "ولاية الاستكفاء" خلافا "لولاية الاستيلاء" التي ظهرت في العصور العباسة(4).

... كان الخليفة يباشر تعيين الولاة في الأمصار الكبرى مثل مصر والكوفة والبصرة ويترك إلى هؤلاء الولاة تعيين ولاة البلدان الداخلية في عملهم، إلا أن هذا التعيين لم يكن يتم بعيدا عن نظر الخليفة وعلمه و موافقته،وكانالخليفة يضطر أحيانا إلى عزل من ولاه هؤلاء

(1/10982)

الولاة، وتعين آخرين اقتضاء للمصلحة العامة على نحو ما كان يحدث في بلاد خراسان التابعة لولاية البصرة، وفي أفريقيا التابعة لولاة مصر(5).

... إذا نظرنا إلى جدول الوحدات الإدارية، أن الولاية على البلدان كانت تتردد بين العرب في الأغلب، وبين غير العرب في الأقل الأقل. أما تردد الولاية على البلدان بين العرب، فأمر يظهر في إسناد الولاية إلى رجالات قرشية من بني أمية، وبني مخزوم، وبني سهم، وبني عدي، وغيرهم من بطون قريش.

(10983/1)

... ويظهر أيضا في إسناد الولاية إلى رجالات عربية من قبائل ثقيف، وغطفان وفزارة،وسليم، وأسد ،وتميم، وكلاب، وباهلة، والأزد، وكلب، وكندة، وخولان، وجدام، وعذرة، ولخم، وغسان، وخثعم، والأشاعرة، والسكاسك، والسكون، وجهينة وغيرها من قبائل العرب.

... أما تردد الولاية بين غير العرب فقليل جدا، ونذكر منهم فيروز الديلمي، وسعيد وداوديه، وأبا المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد وموسى بن نصير وأولاده، وطارق بن زياد مولى موسى ،وإسماعيل بن عبد الله بن

أبي المهاجر مولى بني مخزوم، ومحمد بن يزيد مولى قريش، ويزيد بن أبي

(10984/1)

مسلم مولى الحجاج.

... وقد ذهب البعض في تفسير اختيار خلفاء بني أمية ولاتهم من العرب على البلدان إلى هوى هؤلاء الخلفاء بين اليمانية والمضرية، والمعلوم أنه إذا نظر إلى تعيين الولاة العرب من هذا المنظور لا يخرج الوالي العربي عن أن يكون مضريا أو يمانيا.

... وفي دراسة حول "القبائل العربية وأثرها في سلطان بني أمية" تبين أن قائمة الولاة في ظل كل خليفة من خلفاء بني أمية كانت تشمل دوما وبلا استثناء ولاة أمويين ومضريين واليمانيين (6) ، وهذا دليل على أن المضرية واليمانية لم تكن المقصودة بذاتها في اختيار

(10985/1)

الولاة العربي على البلدان، وإن اختار الخلفاء الأمويين ولاتهم العرب لم يكن مرده إلى هواهم المتأرجح بين

هاتين العصبتين، فما هي الأسس التي راعاها هؤلاء الخلفاء في اختيار الولاة على البلدان؟

... لم يكن يغب عن ذهن الخلفاء أن الولاة على البلدان هم خلفاؤهم فيها، وأنهم مأخوذون بحريرتهم، ولذلك حرصوا أن يكون هؤلاء الولاة رضى يرفون بما أقاموا أنفسهم له.

... فلما انتهت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان، وآلت مقاليد الأمور إليه جعل عبد الله بن عامر بن كريز الأموي واليا على البصرة، ولعبد الله رواية عن الرسول

(10986/1)

عليه السلام وهو كثير المناقب ولاه عثمان بن عفان على البصرة، فافتتح خراسان، فلما قتل عثمان، وقف إلى جانب طلحة والزبير وعائشة، وقتل ابنه في معركة الجمل، ثم لحق بالشام، فلما ولاه معاوية البصرة ضعفه أهل عمله، ورموه باللين وعدم الأخذ على أيدي السفهاء وشكوه إلى معاوية فعزله (7)، وولى مكانه زياد بن أبيه.

... وزياد ابن أبيه من التابعين، وكان من أصحاب علي بن أبي طالب ، ولي له الخراج وبيت المال والديوان بالبصرة، ولما قتل علي كان زياد عامله على فارس، واستطاع زيادة آنذاك أن يضبط فارس من غير حاجة إلى جيش،

(10987/1)

مما أكبره في عين معاوية، ودعاه إلى استبطانه واستلحاقه بنسبة واستعماله (8) ، وكان مما كتب به معاوية إلى زياد : "إن قبلك رجلا من أصحاب رسول الله عليهالسلام فوله خراسان وهو الحكم بن عمر الغفاري"، فولاه زياد خراسان، واستعان زياد بعدة من أصحاب النبي عليه السلام في علمه(9)

... وولي معاوية على الكوفة المغيرة بن شعبة الثقفي، والمغيرة صحابي،وكان من قادة الفتح الإسلامي في ميدان العراق، ولي البصرة لعمر بن الخطاب، ثم ولي له الكوفة، ووليها بعض الوقت من خلافة عثمان، وفي الأحداث التي جرت بين علي بن أبي طالب

(10988/1)

وخصومه، وقف المغيرة على الحياد، وكان من الدهاء والولاة الأكفاء الذين أثنى عليهم أهل عملهم (10).

... وولى معاوية على مصر عمرا بن العاص، وعمرو صحابي شارك في الفتوح، وفتح مصر، ووليها لعمر بن الخطاب ثم لعثمان بن عفان بعض الوقت، ووقف إلى جانب معاوية

في خلافة مع علي، وقاد الجيش بعد التحكيم وأخذ مصر من أصحاب علي عام 38 ه (11).

... وممن ولاهم معاوية على مصر أخاه عتبة بن أبي سفيان قرابة السنة ثم عقبة بن عامر الجهني ومعاوية بن حديج السكوني ومسلمة بن مخلد الأنصاري ،وعقبة ومعاوية ومسلمة صحابيون ولأهل مصر

(1/10989)

عنهم أحاديث كثيرة عن النبي عليه السلام، وكان هؤلاء غضبوا لمقتل عثمان، ورفضوا البيعة لعلي، ووقفوا إلى جانب معاوية، وسهلوا مهمة عمرو بن العاص في الاستيلاء على مصر وأخذها من أصحاب علي(12).

... أما الحجاز، فجعل معاوية يداول ولايته في الأغلب بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص، وكلا الرجلين من بني أمية، ولهما رواية عن الرسول عليهالسلام، ولهما خبرة في الإدارة والولاية اكتسباها منذ فترة سابقة وبخاصة في خلافة عثمان بن عفان (13).

(1/10990)

... وإذا تمعنا هذا القدر من الولاة الذين اختارهم معاوية على البلدان، وجدنا معاوية يراعي الصحبة والكفاية والولاء له عند اختيارهم، ومع أن عنصر الولاء لمعاوية قد يكون ملفتا للنظر عند تقويم سياسة معاوية في اختيار الولاة مقارنة بسياسة الخلفاء السابقين، فقديكون الولاء للخليفة سبيل المناصحة التي تستقيم بها الأمور. وعليه فالصحبة والكفاية والولاء، عوامل أساسية في الأغلب لفهم اختيار الولاة على البلدان ومدى بقائهم في عملهم أيام معاوية

(10991/1)

... واختيار الولاة على البلدان من بني أمية يأتي منسجما مع الأسس المتبعة في اختيار الولاة، ولكن الملاحظ أن معاوية جعل الولاية على الحجاز محسورة في الأغلب بالرجال من بني أمية، ويبدو أن معاوية لم يبعد في ذلك عن الغرض، فهو يظهر بذلك ولاية بني أمية للناس وتقدمهم على سائر بيوت قريش وإمرتهم عليهم، سيما وأن الخلافة استقرت في قريش، ويضبط بهم أمور الحجاز ويأمن ثورته للوصول إلى الخلافة، فضلا عن أنه يبقى هؤلاء الشيوخ من بني أمية بعيدين عن الشام مركز الثقل

السياسي في أيامه،ولم يكن يتنزه عن أن يغري بينهم

(10992/1)

---

(14)، ليأمن من مضاددتهم لأغراضه ومراميه

... ثم عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد واستخلافه من بعده، وسخر الولاة ووجوه الناس والشعراء في الإعداد لذلك وتنفيذه، وتحمل الولاة العبء الأكبر في القيام بهذه المهمة، وصاروا شركاء الخليفة فيها (15)، وتصيبهم آثارها، وتلحقهم تبعاتها.

... وبعد موت معاوية، عانى والي الحجاز مشقة أخذ البيعة من بعض أبناء كبار الصحابة ليزيد، وتعرض ولاة يزيد في المدينة ومكة والعراق لثورات ثلاث، نشبت في هذه البلدان في فترات متباينة ، احتجاجا على خروج معاوية على مبدإ الشورى في اختيار

(10993/1)

الخليفة والبيعة ليزيد، وقام يزيد بن معاوية، حسب وصية أبيه في استبطان أهل الشام، والإنصار بهم على

خصمه (16)، بإرسال جيش من أهل الشام إلى الحجاز للقضاء على المعارضة وإخماد الثورة، وكان والي العراق عبيد الله بن زياد، يهدد الكوفيين من أنصار الحسين بن علي، ويتوعدهم بجيش أهل الشام ليفك الحصار الذي ضربوه عليه، وقتل الحسين بن علي على أرض العراق، وأخمدت ثورته في موقعة كربلاء، وفعل بثورة المدينة مثل ذلك في موقعة الحرة، وجاء دور ثورة عبد الله ين الزبير في مكة ،ومات يزيد ين معاوية في أثناء ذلك، وتنازل ولده

(10994/1)

معاوية بن يزيد عن الخلافة، ومات بعد ذلك بقليل، دون أن يعهد بالخلافة لأحد من آل بيته، وبدا وكأنه ما خطط له معاوية وشاده قد انهار، وبدأت مرحلة جديدة أخذ رؤساء القبائل ومن كان من الولاة، يلعبون فيها دورا مؤثرا في تقرير أمر الخلافة ومن تكون له

... فقد رجع عبيد الله بن زياد عائدا من العراق إلى الشام، وفي نفسه بحكم استلحاق بيته بالنسب الأموي، أن تبقى الخلافة في بني أمية، وكانت بعض القبائل من أهل الشام (17)، بحكم المصاهرة لمعاوية والمنزلة التي

كانت تتبوأها في عهد معاوية وولده يزيد (18)، ترغب أن تكون

(10995/1)

الخلافة في بني أمية، ولكنها كانت مترددة أول الأمر بين بني معاوية بن أبي سفيان وبين مروان بن الحكم تتجاذبها الأطماع والمخاوف(19)، ثم اتفقت كلمتها من بعد ذلك على البيعة لمروان بن الحكم.

... ووقفت بعض الأطراف الأخرى موقفا مغايرا لمن سبق ذكرهم، ففي هذه الفترة التي بدأفيها انحلال أمر بني أمية، دعا النعمان بن بشير الأنصاري الذي كان واليا على حمص، إلى عبد الله بن الزبير متعاطفا مع المدينة الغاضبة على بني أمية وما فعلوه في موقعة الحرة، ومال زفر بن الحارث، رئيس قبيلة كلاب في قنسرين، إلى جانب عبد الله بن

(10996/1)

الزبير، ولعله قام بذلك مدفوعا بالتنافس الذي كان بين كلاب وكلب التي كانت توالي بني أمية، و دعا

الضحاك بن قيس الفهري في دمشق إلى عبد الله بن الزبير وقيل دعا إلى البيعة لنفسه (20) ،ونشط ناتل بن قيس الجذامي أحد رؤساء جذام في فلسطين في تأييد عبد الله بن الزبير والبيعة له، ولعله كان يطمع أن يكون له في ظل ابن الزبير المكانة الحسنة نفاسة بما كان لحسان ين مالك الكلبي في ظل معاوية وولده يزيد (21)، وأعلن عبد الرحمان بن جحدم في مصر البيعة لعبد الله ابن الزبير، وأما العراق، فكان موزع الولاء بين ابن الزبير،

(10997/1)

وآل علي بن أبي طالب، وبني أمية حتى تمكن مصعب بن الزبير من بسط سلطان أخيه عبد الله بن الزبير عليه.

... ثم اجتاز بنو أمية هذه المحنة القاسية، واستوى سلطانهم على كل البلاد، بعد أن كانت أطبقت خلا الأردن بالتأييدلعبد الله ين الزبير.

... انعكست الأزمة السياسية التي مرّ بها سلطان بني أمية على سياسة الخلفاء في اختيار الولاة، وبمطالعة الجدول عن "الوحدات الإدارية ورؤسائها في العصر الأموي" لمعرفة الولاة على البلدان أيام مروان بن الحكم

وابنه عبد الملك، وهي الفترة التي صاحبت وأعقبت الأزمة السياسية التي تعرض

(10998/1)

لها سلطان بني أمية، نجد عامل الولاء يحظى بالمكان الأول في اختيار الولاة على البلدان، فأبو عثمان بن مروان بن الحكم ثم عبد الملك بن مروان بن الحكم على فلسطين، وعبد العزيز بن مروان بن الحكم على مصر. ... ولما قام عبد الملك بن مروان بأمر الخلافة من بعد أبيه مروان أقر أخاه عبد العزيز بن مروان على مصر ولما مات عبد العزيز ولى ابنه الملك بن عبد الملك عليها، وولى بشر بن مروان بن الحكم على الكوفة ثم ضم إليه البصرة، والوليد بن عبد الملك على دمشق، وعبد الله بن عبد الملك ثم أبان بن عقبة الأموي على حمص، وأبا

(10999/1)

عثمان بن مروان بن الحكم على الأردن، وأبان ابن مروان بن الحكم ثم سليمان بن عبد الملك على فلسطين ومحمد ين مروان بن الحكم على الجزيرة، وسعيد بن عبد الملك

بن مروان ثم يوسف بن يحيى بن الحكم الأموي ثم محمد بن مروان بن الحكم على الموصل، وأمية بن عبيد الله الأموي على خراسان ، وعبد الله بن أمية على سجستان.

... وهؤلاء الولاة أمويون من بني مروان في الأغلب، ولاشك أن "الأموية" تحتل سنام الولاء وذروته في الحفاظ على سلطان بني أمية، واعتماد الأموية في اختيار الولاة مظهر من مظاهر السياسة التي اتبعها معاوية كما

(11000/1)

رأينا، ولكنها ازدادت أيام مروان وابنه عبدالملك اتساعا نظرا للظروف السياسية الآلفة الذكر

... هناك بعد آخر في تركيز الولاية بالبيت الأموي واختيار ولاة منهم ،وهو أن الأزمة السياسية عن مدى التناحر بين القبائل وأبانت تنافسها الشديد على الزعامة ،فكان شأن إسناد الولايات إلى رجالات أموية أن يعلق هذا التنافس القبلي، ويرفع الصراع بين القبائل على الولاية، ومن ذلك أن أهل خراسان كتبوا إلى عبد الملك أن خراسان لاتصلح الفتنة إلا على رجل من قريش لايحسدونه،ولا يتعصبون عليه ، فولى عبد الملك مع خراسان أمية بن عبيد

(11001/1)

الله بن خالد الأموي (22) ، وقد يكون تعيين الولاة على أجناد الشام من رجالات البيت الأموي يلتقي مع هذا الغرض بعدما ظهر التنافس والخلاف بين قبائل الشام في أثناء النزاع بين عبدالله بن الزبير وبني أمية.

... وهو بعد يلتقي مع سابقه في الحفاظ على سلطان بني أمية وإبقائه فيهم وولى مروان بن الحكم حسان الكلبي، على الأردن، وحسان وبنو كلب ممن لايوشك في جدهم واجتهادهم في موالات بني أمية ونصرة سلطانهم (23).

... وولى عبدالملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي على الحجاز واليمن، ثم ولاهم من بعد ذلك على العراق، فجمع

(11002/1)

له المصريين البصرة والكوفة وأعمالهما، والحجاج الثقفي، وعلاقة ثقيف ببني أمية منذ الجاهلية معروفة، وكان ولاؤهم لبني أمية يؤلم عبدالله بن الزبير، واشترك الحجاج وأبوه في الحملة التي وجهها مروان بن

الحكم إلى الحجاز لقتال عبد الله بن الزبير (24)، ولما قتل عبد الملك مصعب بن الزبير واستولى على العراق، أراد أن يبعث جيشا لقتال عبد الله بن الزبير في الحجاز، فقام الحجاج إلى عبد الملك وقال : ابعثني إليه ياأمير المؤمنين، فإني رأيت في المنام كأني ذبحته زجلست على صدره وسلخته، فبعثه عبد الملك على رأس ذلك الجيش

(11003/1)

---

(25)، وولى عبد الملك محمد بن يوسف الثقفي على اليمن، ومحمد بن عمر الثقفي على الأردن، وقد راعى ولاة الأمصار عند تعيين الولاة على البلدان الداخلية في عملهم عنصر الولاء فيهم لبني أمية.

... وإلى جانب الولاء، كانت الكفاءة بعدا آخر من أبعاد استكفاء الولاة على البلدان، وهوبعد يظهر في النجاح الذي حققه هؤلاء الولاة في هذه الفترة في تصريف أعمالهم ممثلا بالحجاج والجهاز الذي استعان به طيلة عشرين سنة من ولايته على العراق وبلاد المشرق وإنجازاته في الفتح والعمران والثقافة، وممثلا بولاية عبد العزيز بن مروان على

(11004/1)

مصر وبلاد المغرب، وما تحقق على يده وأيدي الذين استعان بهم من الولاة مدة عشرين سنة .

... أما الصحبة، فنجدها في اختيار زهير بن قيس البلوي على أفريقية، وكان زهير صحابيا، ولزم عمر بن العاص في الفتنة (26)، وبعد ذلك فلا نسمع عنها في اختيار الولاة في هذه الفترة، لوفاة الصحابة في الأغلب وانقضاء زمنهم ،ولكننا نجدالعلم والتقى والورع والسن صفات تراعى في الأغلب عند استكفاء الولاة من أبناء الجيل الذي خلف جيل الصحابة وهو جيل "التابعين".

(11005/1)

... وإذا استثنينا من اتهم بالفسق وسوء السيرة منل قرة بن شريك، وجدنا الآخرين من الولاة على مثال حسن.

... فعبادة بن نسي الكندي وعدي بن عميرة ين عدي ممن ينزل الله بهم الغيث وينصر بهم على الأعداء(27)، وأيوب بن شرحبيل الصباح أحد أفضل اثنين من أهل مصر في خلافة عمر بن عبد العزيز (28)، وعبد الملك بن رفاعة الفهمي حسن السيرة، ودين فيه عدل وثقة أمين

فاضل (29)، وحفص بن الوليد ثقة فاضل (30)، والجراح بن عبدالله الحكمي صالح وعابد قارئ ومن رواة الحديث قال، تركت الذنوب حياء أربعين سنة ثم أدركني الورع (31)،

(11006/1)

وعروة بن محمد بن عطية السعدي، حليم يتحرى العدل ومن رواة الحديث، وقال لما دخل اليمن، يا أهل اليمن هذه راحلتي، فإن خرجت بأكثر منها فأنا سارق فخرج من اليمن وما معه إلا سيفه ورمحه ومصحفه (32)، وعمير بن ضابئ العنسي تابعي ثقة (33)،وكلثوم بن عياض القشيري من أهل الخير والتقوى وصاحب المواعظ (34)، وعبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ثقة ومأمون (35)، ومحمد بن سويد الفهري شامي تابعي ثقة (36)، وأشرس بن عبد الله السلمي فاضل خير، وكانوا يسمونه الكامل لفضله (37)، والأمثلة كثيرة

(11007/1)

... وإضافة الشواهد السابقة التي تتعلق بخصال وشمائل بعض الولاة، ورد عن عمر بن عبد العزيز أنه لما أراد أن يولى على مصر، قال : دلوني على رجل من أهل مصر له شرف وصلاح أوليه صلاتها (38)، ولما قتل يزيد بن أبي مسلم الوالي على أفريقيا، اجتمع الناس فنظروا في رجل يقوم بأمرهم، واجتمع رأيهم آخر الأمر على تولية محمد بن أوس الأنصاري، ولما سأل الخليفة يزيد بن عبد الملك عن محمد قيل له : رجل من أهل الدين والفضل معروف بالفقه (39)، وولى الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك منصورا بن جمهور الكلبي على العراق، فقال له

(11008/1)

يزيد بن حجرة الغساني، ياأمير المؤمنين، أوليت منصورا العراق ؟ قال : نعم، لبلاءه وحسن معونته، قال : ياأمير المؤمنين، إنه ليس هناك في إعرابيته وجفائه في الدين، قال : لم أول منصورا في حسن معاونته فمن أولى ؟ فقال : تولى رجلا من أهل الدين والصلاح والوقوف عند الشبهات، والعلم بالأحكام والحدود (40).

... وهذه الشواهد والأمثلة تشير إلى العوامل والأسس التي تراعي عند اختيار الولاة على البلدان، ولاشك أن العصر الأموي كان يشهد سيادة المفاهيم والقيم الإسلامية،

وكانت هذه المفاهيم والقيم المنبثقة عن عقيدة وشريعة

(11009/1)

الإسلام الموجهة لحياة الجماعة والدولة.

... وأما ما رمي به البعض من الولاة بالضعف أو ما رموا به من الظلم والجور فمسألة تتعلق بالمثال والتطبيق، والاختلاف في الرأي والاجتهاد بين ولاة الأمر والناس في تقييم الوسائل المتخذة للحفاظ على أمن وسلامة الجماعة والمجتمع والدولة التي يكون بهما سلامة أمن الفرد.

... ومن المناس أن نذكر أن ولاة الثغور كانوا يتخيرون من أهل النجدة والبأس والشجاعة، فعلى سبيل المثال وكان حسان بن النعمان بطلا شجاعا ميمون النقيبة(41)، وكان الجراح بن عبد الله الحكمي فارسا بطلا

(11010/1)

شجاعا(42)، وكان عمارة بن تميم اللخمي من أهل البأس والنجدة وأيمن الناس نقيبة (43)، وكان الأسود بن

بلال المحاربي شجاعا جلدا شديد البأس يحمد حزمه وعزمه وجهاده وصنع الله له(44) وغيرهم في مثل صفاتهم من ولاة الثغور كثيرة.

... استمرت العوامل المذكورة سابقا تراعى عند اختيار الولاة على البلدان، ولم يختلف الحال بين خليفة وآخر في الأغلب، ولكن "الأموية" باعتبارها معلما من معالم الولاء كانت تبرز أكثر عند تعرض سلطان بني أمية للخطر.

(11011/1)

... فلما ثار يزيد بن المهلب في العراق، وجه الخليفة يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك بالجيش إليه، وبعد القضاء على الثورة، ولى يزيد أخاه مسلة على العراق، واستعان مسلمة بعبد الملك بن بشر بن مروان بن الحكو على البصرة، وبمحمد بن عمر بن الوليد الأموي على الكوفة، وبسعيد بن عبد العزيز بن الحارث الأموي على خرسان(45).

... ولما وقع الخلاف بين بني أمية، وتقاتلوا على السلطان، صار الولاء عند هؤلاء يقصر على الحرص على سلطان بني أمية إلى الحرص على سلطان الفرد منهم مماكان لذلك الأثر الكبير في الإضرار

(11012/1)

بسلطان بني أمية، وهذا ظاهر في اختيار الوليد بن يزيد ابنه وأخيه وأخواله الثقفيين يشدبهم أزر سلطانه بعدما لحقه ما لحقه من الضرر على يد هشام بن عبد الملك وانتقامه ممن أعان وناصر هشاما عليه (46)،ويظهر هذا الاختيار أيضا في فعل يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذي ثار على ابن عمه الوليد بن يزيد وقتله واستعان بمن طابقه على ذلك وناصره(47)، ولعل هذه الظاهر كانت أطلت أيام سليمان بن عبد الملك، ولكنها توقفت بفضل السيطرة عليها، فلما بلغت الخلافة عند عتبة أحفاد،عبد الملك بن مروان مفترق الطرق، دعاهم الحرص على

(11013/1)

الخلافة إلى الاقتتال، وتوزعوا أحزابا وشيعا، واتخذ كل طرف من والاه عضدا نصيرا.

... اما بالنسبة للولاة من الموالي، فجاء تعيينهم على اليمن أيام معاوية بن أبي سفيان، واليمن أهل طاعة (48)، ثم على أفريقية والمغرب،وأهل هذه البلاد من

البربر، ومن هؤلاء الموالي الولاة، موسى بن نصير موسى مولى لخم، وقيل مولى بني أمية ،وكان ذا رأي وحزم وتدين ومن رواة الحديث، ولاه معاوية بن أبي سفيان البحر، وغزا قبرس، وقدمه معاوية لجسامته على آخر لأداء مهمة بقبرس، وقال : ماينبغي للسلطان أن يستعين إلا بالجسيم لهيبته، ووقف

(11014/1)

موسى إلى جانب مروان بن الحكم، ولما ولى عبد الملك بن مروان أخاه بشرا على العراق، أشخص معه موسى وزيرا ثم رجع موسى إلى مصر،وكان عند عبد العزيز ين مروان أميرا، وولاه عبد العزيز أفريقية، وجاءت على يديه فتوح المغرب والأندلس (49).

... ومنهم إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى مخزوم، وهو من أهل دمشق، وكا مؤدبا لأولادك عبد الملك بن مروان، حسن السيرة ومن صالحي المسلمين ، وتابعي ثقة، ولم يبق في ولايته على أفريقية من البربر أحد إلا أسلم (50).

(11015/1)

... وولى سليمان بن عبد الملك محمدا بن يزيد مولى قريش بمشورة الرجل الصالح رجاء بن حيوة(51).

... ومنهم يزيد بن أبي مسلم مولى ثقيف، وكان كاتبا للحجاج بن يوسف الثقفي في العراق، وقد كشفه سليمان بن عبد الملك فلم يجد عليه خيانة، وأراد يزيد أن يشم حرسه، وكانوا من البربر، فيجعل في الرجل اليمنى منهم "اسمه"، وفي اليد اليسرى "حرسي" فيعرفوا بذلك من غيرهم، فأنفوا من ذلك، وقتلوه،وقتلوه وقيل اتهم عبد الله بن موسى ين نصير بالتحريض على قتله (52).

(11016/1)

... ومنهم فيروز الديلمي من أوائل الذين أسلموا من أهل اليمن ولقي الرسول عليه السلام فقال له : إني أسلمت وتحتي أختان، فقال له الرسول : طلق أيها شئت، وأما ابنه الضحاك بن فيروز فتابعي عده البعض في الطبقة الأولى من تابعي أهل اليمن (53).

... وعند التدقيق في سيرة هؤلاء الرجال نجد اختيار الولاة من العرب، وينطبق الحال على غيرهم من الولاة العرب وغيرهم في الأغلب

... ولعل من المناسب أن نذكر بعض الاستثناءات التي

تمثلت باتخاذ دالة القرابة وسيلة إلى الولاة من غير أن يبلغ ذلك حد الإضرار بالاتجاه العام المتبع

(11017/1)

في اختيار الولاة، من هذا القبيل، كان تعيين عبد الرحمن بن عبد الله بن عبدالله بن عثمان الثقي على الكوفة، وعبد الرحمن ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان، ولما أساء عبد الرحمن السيرة أخرجه أهل الكوفة فلحق بمعاوية، فولاه معاوية على مصر ولكن أهل مصر ردوه (54).

... ولابد من الإشارة إلى أن استقرار قائمة الولاة على البلدان أيام بني أمية يكشف بوضوح عن وجود "عصبية النسب" في اختيارهم، فهم من قريش بفروعها المختلفة في الأغلب، ومن قبائل تميم وسليم وكلب وربيعة وغيرها من قبائل العرب، ولكن اختيار هؤلاء الولاة

(11018/1)

دون غيرهم من رصفائهم في عصبية النسب، كان يتم إضافة إلى العوامل السابقة الذكر وفق مكانة وشرف

الرجل منهم في الجماعة، فحسان بن مالك بن بحدل الكلبي زعيم كلب ومقدمهم (55)، وحبيش بن دلجة يالقيني أحد وجوه أهل الشام (56)، وروح بن زنباع الجذامي مميز عند الناس (57)، وزفر بن الحارث الكلابي، ومالك بن هبيرة السكوني من الوؤساء الأشراف (58)، والمهلب بن أبي صفرة أحد أشراف العرب (59)، وعبيد الله بن أبي بكره سيد أهل الشرق (60)، وعبد الملك بن مسمع بن مالك مب مسمع سيد وجواد، وكان فتى ربيعة وسيدها في زمانه(61)،

(11019/1)

والجنيد ين عبد الرحمن المري من الأجواد(62)، ويزيد بن شجرة الرهاوي سيد أهل الشام (63)، وأيوب بن شرحبيل بن أبرهة الصباح من السادة الأشراف (64)، والأمثلة كثيرة

... والمستفاد كن "عصبية النسب" ومكانة الوالي في هذا النسب،وهو القوة التي يتم بها التسليم والانقياد والمنعة للوالي ،ولما استشار يوسف ين عمر الثقفي الخليفة هشام ين عبد الملك في تولية مسلم بن قتيبة الباهلي على خراسان قال هشام : إن مسلما بن قتيبة رجل

ليس له بخراسان عشيرة، ولو كان له بها عشيرة لم يقتل بها أبوه (65) وبالنسبة للوالي من الموالي،

(11020/1)

فبالنسب بالولاء لايخلو من الفائدة، فإذا اجتمعت الخصال السابقة، وصحت نية الدولة في اختياره للولاية، كانت ربح الدولة قوة له، فلما اختار هشام بن عبد الملك نصر بن سيار الليثي واليا على خراسان قيل لهشام، نصر بخراسان العشيرة، فقال هشام: أنا عشيرته(66).

... ومما يتصل بعصبية النسب، أن الولاة أنهضوا معهم بني قومهم في عملهم فقد استعان الحجاج بن يوسف الثقفي ببني المغيرة بن شعبة الثقفي على أنهم رجال قومه وبنوا أبيه، صلحاء نبلاء أشراف بأبدانهم سوى شرف أبيهم ومنزلتهم في قومهم وهم عروة بن المغيرة وحمزة بن

(11021/1)

المغيرة بن عبد الله الثقفي ومحمد بن القاسم الثقفي (67).

... وكان مسلم الباهلي كبير القدر عند يزيد بن معاوية، وكان ابنه قتيبة بن مسلم على ميمنة الحجاج بن يوسف الثقفي في أثناء ثورة ابن الجارود أهل البصرة عليه، ثم ولاه الحجاج خراسان، فاستعان قتيبة في علمله وفتوحاته بإخوته عبد الله وعمرو وصالح وعبد الرحمن(68).

... واستعان المهلب بن أبي صفرة بأولاده حبيب والمغيرة ويزيد والمفضل ومدرك ومحمد وعبد الملك عبد الله، واستعان يزيد بن المهلب من بعده بإخوته وولده(69).

(11022/1)

... واستعان خالد بن عبد الله القسري البجلي بأخيه أسد ين عبد الله وإسماعيل بن أوسط البجلي وعبد الله بن عمرو البجلي وضبيس بن عبد الله البجلي (70)، واستعان عمر بن هبيرة الفزاري بحسان بن عبد الرحمن الفزاري وفراس بن سمي الغزاري زوج أم عمر بن هبيرة، واستعان يوسف بن عمر الثقفي بولديه الصلت والحكم بن الصلت وأخيه القاسم بن عمر ويوسف بن محمد بن القاسم الثقفي ومحمد بن عبد الله الثقفي وأبي أمية بن المغيرة بن عبد الله الثقفي (71).

(11023/1)

... واستعان موسى بن نصير بأولاده عبد العزيز وعبد الله ومروان وعبد الأعلى وابن أخيه أيوب وطارق مولاه(72) وهكذا فعل غيرهم من الولاة في الأغلب.

... فعصيبة النسب للولاة وماكنه الواحد منهم في قوته موجودة كما رأينا ولكن اختيار الدولة إياهم ولاة عزز ماكان لهم من الشرف والمكانة وساهم في إبراز البيوتات عبر مرة وفي ظل أكثر من خليفة، فالثقفيون تولوا الولايات منذ بداية السلطان الأموي وحتى نهايته، وعمل المهالبة في ظل بني أمية وبني العباس أيضا. ...

... عمل الولاة

(11024/1)

... ينوب الوالي كما هو معلوم عن الخليفة في سياسة الولاية وتصريف شئونها ،ولاكن الخلفاء في العصر الأموي تابعوا تحديد صلاحيات الوالي في نيابته عنهم، فجعلوا ولاية الوالي في الأغلب خاصة تقتصر على تدبير الجيش وسياسة الرعية وتوفير الأمن وحماية الناس، وأما القضاء وجبايةالخراج والصدقات فجعلوها إلى غيره

... وآثار الولاة الذين شاركوا في سياسة الدولة أيام الأمويين تشير إلى أنهم لم يكونوا سواء، فمنهم من طالت ولايته، ولم يخرج من الولاية إلا بالموت، وكان أثر بعض هؤلاء في سياسة الدولة واضحا، وميسمه عليها بينا،

(11025/1)

وربما ارتقت سياسة بعضهم إلى مستوى مدرسة سياسة في الحكم، ومنهم من حاول أن، يقلد هؤلاء، فاختلفت أحوالهم عند الخلفاء بين استمرار الاستعانة بهم والعزل وفق الظروف ومقتضيات الضرورة، وكانت مرتبتهم من السابقين مرتبة المقلد من المجتهد.

... وآخرون لم يلحقوا بهؤلاء، وكان منهم من هو مستور الحال ،ومنهم من لم تكتمل له في السياسة طريقة تعرف به ويعرف بها، ومضى هؤلاء من غير أن تكون الأخبار عنهم بالقدر الذي كان عن السابقين من أصحاب المدرسة السياسية في الحكم.

(11026/1)

... كان هم هؤلاء الولاة أن يحفظوا ما استرعوا من الغوائل ، ويقيموا بما أسند إليهم قياما مرضيا لأهل الولاية والدولة، وهم وأن توحدت همومهم، فإن وسائلهم في أداء أعمالهم كانت تختلف أحيانا، واختلاف وسائلهم كان يعود في الأغلب إلى عوامل أهمها شخصية الوالي وظروف وأوضاع الولاية وسياسة الدولة

... وقد تكون ولاية العراق مثالا مناسبا لبيان ذلك، فعلى أثر الصلح بين الحسن بن علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية،دخل أهل الكوفة في الجماعة وبايعوا معاوية

(11027/1)

... وكان المغيرة بن شعبة الذي ولاه معاوية على الكوفة(41ه – 51ه)، تأتيه أخبار الناس فكان لايفتش أحدا عن رأي أو هوى، وحسبه أن أعمال الولاية تجري بانتظام، وأن لاخوف من أحد على الطاعة والجماعة،حتى إذا بلغه أن الخوارج استعدوا يوما للثورة، أرسل الشرطة للقبض عليهم، وزج بهم في السجن بتهمة شق عصا الطاعة وتفريق الجماعة، ثم قام في أهل الكوفة، فحبب إليهم الطاعة والأمن، وبغض إليهم الخلاف والشقاق، وأخبرهم بما يبيت له الخوارج من الفتنة وتفريق

الجماعة، وطلب إليهم أن يأخذوا على أيدي هؤلاء، وأن يكفيه كل امرئ من

(11028/1)

الرؤساء أهل الخلاف والفتنة من قومه، فإن لم يفعلوا عصب الحليم التقي بذنب السفيه الجاهل، وجعل كل حي من الأحياء خرجت فيه خارجة من هؤلاء نكالا لمن بعده (73).

... وزياد بن أبيه الذي ولاه معاوية على البصرة(45ه – 53ه)، وضم إليه الكوفة (51ه – 53ه) بعد موت المغيرة بن شعبة، لم يبعد عن سياسة المغيرة، فقد أعلن لما جاء إلى البصرة واليا، أنه لن يكشف لأحد قناعا، ولايهتك له سترا مهما اعتمل البغض في صدره لزياد حتى يبدي صفحته ويثور على الدولة (74)، وجعل الفرد محكوما بما عليه أهل الجماعة من الطاعة والوقوف عند

(11029/1)

حدود الإسلام، وأثار الحس عند الجماعة، وحرك الروح الجماعية فيها، وجعلها مسئولة عن الفرد، واتخذها

الوسيلة إلى الأمن والنظام ووحدة الأمة، فأنكر على أهل البصرة ماينتهك في بلدهم من حرمات الإسلام، ويعتدي فيها على الأموال والأرواح وهم ينظرون ولا يغضبون، وأعلن أن يأخذهم بجريرة أهل الفسق منهم حتى يستقيموا، ويسوسهم بلين لاضعف فيه، وشدة من غير جبرية ولا عنف (75)، إشارة منه إلى الوقوف في سياسته عند أحكام الإسلام التي تعد منهجا وسطا في سياسة الحياة.

(11030/1)

... وسار زياد في الكوفة سيرته بأهل البصرة،وكانت المسؤولية الجماعية عصاه التي ساق بها حجز بن عدي الكندي وصحبه من بين قومهم إلى معاوية بالشام بعلة خلع الطاعة ومفارقة الجماعة.

... ولاشك أن مد ظل الجماعة على الحياة، وجعل المسؤولية الجماعية وسيلة إلى حماية الأمن والحفاظ على الوحدة والنظام مفهوم إسلامي نجده في قوله تعالى : {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة } الأنفال (آية 25) والجماعة التي يتحدث المغيرة وزيلد عنها، ويخافان شق عصاها وتفريقها هي جماعة المسلمين،أي الأمة، وعلى رأسها الخليفة رمز

(11031/1)

الجماعة ورمز وحدة الأمة وهو في ولايتهما معاوية بن أبي سفيان

... وقد قدم زياد في هذا الجانب معنى هاما وأساسيا في العلاقة بين الناس والدولة، فبرأي زياد، أن الذي خول الدولة أن تسوس الناس هو السلطان الذي أتاها الله، الله الذي جعل الإنسان خليفة على الأرض، ويؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، وهو معني استمده زياد من القرآن الكريم (76) ، وهذا من زياد تأكيد على خلافة معاوية، ولذلك دعا زياد الناس بعد هذا البيان إلى الإقبال على الأئمة أي على معاوية وولاته بالرضى،والدعوة لهم بالصلاح، واستقبال

(11032/1)

سلطانهم بالسمع والطاعة والمناصحة، لتعمر القلوب بالمحبة، وتصلح أحوالهم، ويجري العدل في الأحكام بينهم، وتدر الأرزاق والأعطيات عليهم، وتقضي حاجاتهم ومصالحهم، ويتم الإحسان إلى المجاهدين منهم، فالبغض والكراهية لأولي الأمر لايورث إلا الشر والفرقة،

ولاتدرك به النفوس أغراضها من الأمن والنصفة والعيش الرغيد(77).

... ونجاح هذه السياسة في استتباب الأمن وشد السلطان وتأكيد هيبة الدولة لايعود فحسب إلى عنصر الشدة في هذه السياسة، فالشدة وحدها ليست كفيلة بتنفيذ المناهج الذي أعلن عنه زياد في خطبته، فالعناية

(11033/1)

بالمقاتلة لإقامة علم الجهاد، والاهتمام بالشرط لحفظ الأمن والنظام وصون الأرواح والأموال، أمور تحتاج إلى المال، وإخراج الأعطيات والأرزاق في أوقاتها وأدرارها على أصحابها تحتاج إلى الاهتمام بموارد بيت المال وتنميتها، وتصريف الأعمال ورعايتها تحتاج إلى جهاز إداري يواكب تطلعات الدولة ويساهم في تحقيق أغراضها، وبلوغ كل ذي حق حقه يحتاج إلى جهاز قضاء نزيه، ولابد لمن يشارف هذه الأعمال أن تكون له عزيمة لاتثنى، وهمه لاتستسلم، ونفس نزوعة إلى الحق والخير ومحبة الصالح العام وإيثاره على الصالح الخاص.

(11034/1)

... وقد عرف عن زياد إخلاصه للدولة وحبه للجماعة ومحاربته لأسباب الفرقة والفتنة، ومناهضته للعصبية القبلية، وتدين وصلاح وتشبه بعمر بن الخطاب (78)، وكان يختار الأصلح والأفضل من الرجال للوظائف والأعمال(79)، واهتم بتنمية الموارد المالية لبيت المال، فحفر الأنهار وشق القنوات، واستصلح الأراضي، واستغل ما يمكن استغلاله من الأرض الموات، وبلغ خراج العراق في ولايته ماية وخمسين وعشرين مليون درهم وهو من أعلى ما وصل إليه خراج العلراق حتى زمنه(80)، وقد مكنه ذلك من دفع الرواتب في أوقاتها وإدارار الأرزاق على

(11035/1)

أصحابها (81).

... واستعان زياد في الفصل في الخصومات بين الناس بأفضل القضاة، وكان هو يتحرى العدل في الأحكام والأحسان في المعاملة إلى الرعية، ولم يغفل عن مشارفة الأمور بنفسه والسؤال عن أحوال الناس، والقيام بالأمور خير قيام (82)، ووصف عهده بالرفاه والأمن وأنه جمع لأهل العراق كما تجمع الذرة، وحاطهم كما تحوط الأم البرة (83).

... وعمل على أن تكون الترتيبات والإجراءات التي قام

بها في مجال القبيلة والإدارة والمال والثقافة منجمة مع الفكرة سيادة الإسلام وظهور أفكاره ونشر عقيدته وعلو يد الدولة وتأكيد

(11036/1)

هيبتها وحماية الأرواح وصون الممتلكات.

... وخلف على البصرة والكوفة من بعد زياد ولاة من أمثال عبد الله بن خالد بن أسيد، وعبد الله بن عمرو بن غلان، والضحاك بن قيس الفهري، لم تطل ولايتهم وعلى أثر انتشار الدعوة في الكوفة إلى بيعة الحسين بن علي عام 60 ه، رمي النعمان بن بشير والي الكوفة (59 ه – 60 ه) بالضعف والعجز عن الحفاظ على سلطان يزيد بن معاوية، فعزله يزيد، وضم الكوفة إلى عبيد الله بن زياد والي البصرة (56 ه –64 ه).

(11037/1)

... وقبل أن يغادر عبيد الله بن زياد البصرة إلى الكوفة، حذر أهل البصرة من الأرجاف والخلاف، وذكرهم بسياسة أبيه زياد، وأنه سيقتل المخالف، ويقتل به

عريفه ووليه، ويأخذ الأدنى، بالأقصى.

... ثم سار ابن زياد إلى الكوفة واليا عليها (60 هـ – 64 هـ)، فلما خبر أحوالها، جعل أكبر همة أن يضمن التزام الجماعة بالولاء لبني أمية والحفاظ على سلطان يزيد، والقضاء على الدعوة للحسين بن علي، فأخذ أهل الكوفة بما أخذهم به أبو زياد، وساسهم بسياسته، وبعد أن أخبرهم أن الخليفة يزيد ولاه مصرهم، وأمره أن ينصف المظلوم، ويعطي

(11038/1)

المحروم، ويحسن إلى السامع والمطيع، ويشتد على المريب والعاصي، أمر كل عريف من العرفاء أن يكتب أسماء الغرباء الذين ينزلون في قومه، ويضمن ألا يخالف، ولايبغي منهم على الدولة باغ، ومن لم يفعل ذلك من العرفاء، حل ماله ودمه، وصلب على باب داره، وأسقطت عرافته من العطاء

... واستخدم ابن زياد الأموال، وهدد بقطع الأرزاق والعطاء، وأخذ البريَّ بالسقيم، والشاهد بالغائب، ولم يزل هذا شأنه حتى كثر أتباعه وعلا أمره، وشتت أنصار الحسين، وأكد سلطان يزيد بن معاوية في الكوفة(84).

(11039/1)

... ومع أن زياد استن بسنة أبيه في ركوب الشدة واتخاذ المسؤولية الجماعية سبيلا إلى بلوغ الأهداف، فإنه لما بلغه مسير الحسين نحو الكوفة، أرسل جيشا للقائه، ولم يرسل الحسين بن علي إلى يزيد بن معاوية ليرى فيه رأيه كما فعل أبوه زياد بحجر بن عدي الكندي الذي أرسله زياد إلىمعاوية ليقضى فيه قضاءه، وإنما قبل أن يجعل سيفه حكما بينه وبين الحسين، صنيع صاحب السلطان الذي يذب عن سلطانه، فاختلف الحال بينه وبين أبيه في هذه القضية، ورغم انتصاره على الحسين وقتله إياه والقضاء على حركته، فإن فعلته بالحسين ظلت تلاحقه

(11040/1)

وتلاحق بني أمية حتى زوال سلطانهم وما بعد ... ثم مات يزيد بن معاوية، وتحركت في الكوفة شيعة الحسين بن علي تطلب بدمه ،ثم تلاها المختار بن عبيد الثقفي الذي أعلن نفسه مدافعا عن حق آل البيت، ولم يلبث سلطان عبد الله بن الزبير أن امتد إلى العراق،

وتمكن مصعب بن الزبير نائب أخيه على العراق من قتل المختار عام 67 ه والقضاء على حركته، وفي حين نجح مروان بن الحكم (64 ه – 65 ه) في الاستيلاء على الشام ومصر، تمكن ابنه عبد الملك من قتل مصعب بن الزبير عام 71 ه والاستيلاء على العراق، ثم قتل عبد الله بن الزبير في

(11041/1)

الحجاز عام 73 ه، وضم ما تبقى من البلاد في يد ابن الزبير إلى سلطانه، وجعل عبد الله بن مروان على البصرة خالد بن أسيد(71ه – 74ه)، وعلى الكوفة بشر بن مروان بن الحكم (71 ه – 74 ه)،وعلى الحجاز بن يوسف الثقفي (74 ه – 75 ه) ،ولما مات بشر بن مروان ولى عبد الملك على الكوفة والحجاج بن يوسف الثقفي وضم إليه البصرة(75ه –95ه)(85).

... كأول ما عرف من كفاية الحجاج، أن عبد الملك بن مروان في أثناء خروجه لإخضاع زفر بن الحارث الكلابي في الجزيرة، قلد الحجاج أمر عسكره، وكانت شكوى عبد الملك من العسكر، أنهم لايرحلون

(11042/1)

برحيله ولا ينزلون بنزوله، فقام الحجاج بهذه المهمة خير قيام، ولم يسلم من الحجاج أعوان روح بن زنباع الجدامي، الذي كان أقرب المقربين إلى عبد الملك، وكان يعرف بوزير عبد الملك (86)، وكان الحجاج في شرطته، فلما وجد الحجاج الأعوان روح على الطعام ولم يرحلوا برحيل عبد الملك أمر الحجاج بجلدهم وحرق فساطيط روح بالنار، فلم يعد أحد بعدها يقدر على أن يتخلف عن عبد الملك في رحيله و نزوله(87)، ولم تزل منزلة الحجاج تعلو عند عبد الملك، وثقة عبد الملك به تتأكد وتكبر، حتى أسند إليه قيادة الحملة التي وجهها إلى عبد الله

(11043/1)

بن الزبير في الحجاز.

... دخل الحجاج الكوفة، وقام على منبر المسجد الجامع فيها خطيبا، وقدم نفسه إلى أهل الكوفة على أنه الرجل القوي الشديد الذي اختاره الخليفة عبد الملك ووجهه إليهم، وعاب عليهم ما هم فيه من الفتن، وأعلن أن سيأخذهم بالشدة حتى يلتزموا سبل الحق ويتركوا الأرجاف، وينقادوا طائعين، وذكرهم بالجهاد وفضله في

حماية الثغور وكبت الأعداء وجباية، الفيء، وطلب إليهم أن يلحقوا بالمهلب بن أبي صفرة لقتال الخوارج، وأمر العرفاء أن يأخذوا الناس بالخروج إلى حيث يعسكر المهلب، وأن يأتوه بالبراءات وهدد من

(11044/1)

يتأخر بسفك دمه ونهب ماله، وحذر الجميع أن تكون منه عليهم وقعة تكون نكالا لما قبلها وأدبا لما بعدها (88).

... كان الحجاج ينطلق في كلامه إلى أهل الكوفة من إيمانه بأنه يمثل الخليفة وينوب عنه بصدق في العراق، وأن الحفاظ على الأمن والنظام وتأكيد هيبة الدولة وبسط سلطانها وأداء رسالتها في رعاية الناس وحماية الأموال والأرواح ونشر الإسلام هي مسؤولية ورسالته، وصار لصدق ولائه للخليفة وشدة إخلاصه للدولة وحرصه على أداء رسالتها يرى قوتها تصحبه على الدوام، فجاءت خطبته في ألفاظها وأسلوبها ومعانيها ومنهج الحكم

(11045/1)

فيها تحكي موقعة في الدولة ومستوى العلاقة بينه وبينها من جهة، والغرض الذي يريد والناس أن يصيروا معه إليه من جهة أخرى .

... وبدأ الحجاج بمحاربة الخوارج في الولاية، ونجح في القضاء على قوتهم بعد جهود مضنية وقتال مرير، وقضى على ثورة مطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفي

... وفي البصرة ،ألحق الهزيمة بعبد الله بن الجارود العبدي وقتله، وقضى على ثورة الزنج، واهتم الحجاج بحركة الفتح الإسلامي، ومدالفتوحات في الشرق إلى بلاد السند والهند وما وراء نهر جيحون حتى الصين، ولما رجع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي

(11046/1)

بالجيش من الشرق ثائرا على الحجاج عام 81ه، صبر له الحجاج، وكلفه القضاء على تلك الثورة الكثير من الأرواح والأموال(89).

... ولم يفت الحجاج أن يهتم بالاقتصاد ويصلح حاله وبخاصة لما رأى انخفاض الدخل ونقص واردات بيت المال، فرمى كل ناحية بما يصلحها، فوضع الخراج عمن تعرضت أرضه للآفات والكوارث، ومن أجل توسيع الرقعة الزراعية وزيادة الإنتاج، قدم القروض للمزارعين، وجلب

الجواميس من السند للحراثة، ورد الفلاحين الذين هجروا قراهم إلى المدن، ردهم إلى قراهم لاعتمال الأرض وزراعتها، وحفر بأرض الكوفة النهر المسمى

(11047/1)

بنهر الصين والنهر المعروف بالجامع، وحفر نهر النيل والزابي الذي يأخذ الماء من الزابي القديم وأحيانا على هذين النهرين، النيل والزابي، الأرضين، واستخرج من الضياع الموات المرفوض، ونقوع المياه، والمغايض، والآجام وضرب عليها المسنيات، وأنشأ دارا لضرب العلملة وأصلح النقد وضبط المكاييل، وبنى الحوانيت والأسواق في الكوفة، واستحدث مدينة واسط، وأنشأ فيها الأسواق والمحلات التجارية وجلب إليها الحرف والصناعات المختلفة، ومشاريع أخرى، وعمل بحزم إزاء الذين كانوا يتهربون من أداء الواجبات المالية عليهم، واشتد في

(11048/1)

محاسبة المقصرين من الجباة، وعاقب العمال الذين اختانوا الأموال وصادرهم ولم يسلم من ذلك ابن عبد

الرحمن بن أبي بكرة وآل المهلب بن أبي صفرة، وعمل على إعادة الأرض الخراجية التي تحولت إلى أرض عشرية، أعادها إلى ما كانت عليه أرضا خراجية واعتنى بأمور بيت المال كما يعتني صاحب العيال بعياله فتركه لما مات مترعا بالأموال(90).

... واهتم الحجاج بأمور العلم والثقافة، وأولى القرآن الكريم اهتماما كبيرا، وشجع أهله وبذل لهم الأموال، وقرب العلماء وأدناهم وجعلهم في حاشيته ،ونظرا لظهور اللحن والخطأ، أمر الحجاج بنقط

(11049/1)

المصاحف لإزالة عجمة العربية عن طريق تمييز الحركات في شكل أواخر الكلمات أو ما يعرف بالإعراب، وإزالة عجمة الحرف عن طريق تحديد اللفظ وتمييزه عن مثيله أو شبيهه بالرسم، وقد أحدثت العناية بالقرآن الكريم ثم بالحديث النبوي الشريف نهضة طيبة في شتى العلوم والمعارف، وأدت حركة التعريب التي ساهم الحجاج في خدمتها إلى إغناء الثقافة العربية وفتح الباب أمام الشعوب الأخرى أن تساهم في الثقافة العربية الإسلامية (91)

(11050/1)

... وعمل الحجاج على تطوير الإدارة وتسخيرها في خدمة خططه، واختار العمال والموظفين النصحاء، وجعل عرفاء القبائل من ذوي العلم والمكانة والنفوذ، ولم يتوان في مراقبتهم ومحاسبتهم ومعاقبة الذنبين منهم، وأصاب الحجاج في هذا الجانب نجاحا كبيرا أعانه عليه تدين ونزاهة وأمانة عنده وإيثار المصلحة العامة على الخاصة (92).

... وإضافة إلى ما سبق، تناول الشعراء أمثال جرير والفرزدق بعض ما حقق الحجاج فنوهوا في شعرهم بجهوده في حماية الدين، وغيرته على الحريم، وإقامة علم الجهاد، وتسيير الجيوش في البر والبحر، وصيانة

(11051/1)

الثغور، ومطاردة العصاة والمخالفين، وقمع الخوارج، والقضاء على الثائرين أمثال ابن الأشعث، ومحاربة الرشوة والفساد، وتتبع اللصوص وقطاع الطرق، ومعاقبة العمال الذين يغلون الأموال، ثم إشاعة الأمن والنظام(93) .

... نفذت سياسة الحجاج كما رأينا إلى جميع وجوه الحياة، وشملت رعايته شتى المجالات، وبسبب من الظروف التي مر العراق بها، وتجربة الخلفاء في السياسة والإدارة والحكم، وتكوين شخصية الحجاج، كانت الشدة والحزم وامتشاق السيف سبيل الحجاج إلى تنفيذ سياسته وحمل الناس على منهجه وخططه في العمل، وهي سياسة لاتبعد

(11052/1)

عن سياسة زياد بن أبيه الذي قيل أن الحجاج كان يتشبه به (94)، وكانت استمرارا لتلك السياسة، وقد ولد اعتقاد الحجاج بأهمية الدولة في وجدة الجماعة الإسلامية، وسيادة الإسلام، وتوفير الأمن والنظام، ودرء المفاسد في الداخل والخارج، وجلب المصالح، وإيمانه بشرعية الخلافة الأموية، ولد في نفس الحجاج إخلاصا للدولة وللخلفاء من بني أمية ورضى عن منهجه، وهو مالم يوافقه عليه الذين لايؤمنون بشرعية الخلافة الأموية من المعارضين والمخالفين والخارجين، وحاربوه بالسيف والقلم، ولم يوافقه الذين رأوه خالف سبيل الإسلام في

(11053/1)

الإصلاح، وعدوه ظالما جبارا وطاغية مستبدا، ولم يروا في الظروف المستجدة له عذرا مشروعا، ولا يزال الإختلاف في الحكم على سياسته قائما إلى اليوم (95).

... نظرت الدولة إلى هذه السياسة بعين اللرضى (96)، وعندما مات الحجاج عام 95ه جلس الخليفة الوليد بن عبد الملك يتقبل العزاء به، وتأسى بهذه المناسبة الولاة من الذين عاصروا الحجاج، ومن الذين جاءوا من بعد.

... ومما يروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : "الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، ومحمد بن يوسف باليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرة بن شريك بمصر، ويزيد ين

(11054/1)

أبي مسلم بالمغرب، امتلأت الأرض جورا" (97).

... والمعلوم أن يزيد بن أبي مسلم لم يكن واليا على المغرب في خلافة الوليد بن عبد الملك وإنما كان واليا عليها في خلافة يزيد بن عبد الملك (101ه – 105ه) وقتله الجند (98). ولكن الرواية تشكل قراءة لسياسة هؤلاء الرجال الذين اتصفت سياستهم بالشدة .

... وأما نسبتها إلى عمر بن عبد العزيز فلأنه طالما كثر الكلام عن إنكار الظلم وميله إلى الرفق بالناس، وتظل

الرواية تشير إلى أن الشدة في سياسة الناس كانت قدرا مشتركا بين الدولة والولاة في طول البلاد وعرضها.

(11055/1)

... وروي أن عدي بن أرطأة فزاري والي العراق من قبل عمر بن عبد العزيز أراد أن يستن بسنة الحجاج فنهاه عمر عن ذلك(99).

... وسار على سياسة زياد والحجاج بوجوهها المختلفة ولاة العلراق من بعد، أمثال : خالد بن عبد الله القسري الذي تولى العراق (105ه –120ه) في خلافة هشام بن عبد الملك (105ه –125ه) (100)، ويوسف ابن عمر الثقفي الذي تولى العراق (120ه –126ه) في خلافة هشام بن عبد الملك ثم في خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (125ه –126ه) (101)، ويزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري الذي تولى العراق (129ه –132ه)في خلافة

(11056/1)

مروان بن محمد (127ه –132ه)(102).

... وختاما ،لم تتردد الدولة الإسلامية في مجال الإدارة

وتقسيم البلاد إلى ولايات ووحدات إدارية أن تنتفع بخبرات وتجارب الأمم والدول السابقة، وكانت عوامل الصحبة إلى حين، والكفاية بأبعادها المختلفة، والولاء، أسسا لاختيار الولاة وإسناد الأعمال إليهم، وتوزع الاختيار بين العرب على اختلاف قبائلهم وبين غير العرب (الموالي)، ولكن حظ العرب كان أكبر بكثير من غيرهم، وغلب على سياسة الولاة في ولايتهم طابع الشدة، وكانت الشدة قدرا مشتركا بين الولاة والخلفاء في تعاملهم مع الرعية،

(11057/1)

ولكن الشدة لم تصرف الولاة عن أن يأخذوا بأساليب ووسائل تطوير وتنمية الإقتصاد وزيادة الموارد المالية، وتحسين الرعاية الاجتماعية، وتعميق ونشر الثقافة العربية الإسلامية، لما في ذلك من ضمان الطاعة وتأمين الأمن والاستقرار والنظام، وسلامة بناء الدولة وتعزيز قوتها وجبر وحدة الجماعة الإسلامية

ثبت بأهم المصادر والمراجع

... – ابن تغري بردى، جمال الدين يوسف بنتغري الأتابكي (ت 874هـ/1469م)، "النجوم الزاهرة في ملوك

القاهرة"، نسخة مصورة، المؤسسة المصرية للتأليف، القاهرة 1971.

(11058/1)

... – ابن الأثير، علي بن أبي مكرم محمد (ت 63ه/1232م)، "الكامل في التاريخ"، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت 1967م؛ "أسد الغابة" المطبعة الإسلامية، طهران 1970م.

... – ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت 597/1200م)، "سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز"، دار الكتب العلمية، بيروت 1984م.

... – ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب (ت 245ه/856م)، "المحبر"، تحقيق ايلز ليختن، دار الآفاق، بيروت.

... – ابن خلدون ،عبد الرحمن بن محمد (ت 808ه/1306م)، "المقدمة"، الدار التونسية للنشر، 1984م.

(11059/1)

... – ابن سعد، محمد بن منيع (ت 230ه/844م)، "الطبقات الكبرى"، دار صادر، بيروت .1960م.

... – ابن طولون، شمس الدين محمد (ت 953/1545م)، "الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام"، تحقيق صلاح الدين بن النجد، دمشق، 1956.

... – ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله (ت 463هـ/ 1071م)، "الاستيعاب في معرفة الأصحاب"، تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر، لقاهرة .

... – ابن عبد الحكم، عبد الرحمان بن عبد الله (ت 257هـ/ 870م)، "فتوح مصر وأخبارها"، ليدن، مطبعة بريل، 1930م.

(11060/1)

... – ابن عبد الحكم، عبد الله بن عبد الحكم (ت 214هـ/ 128م) "سيرة عمر بن عبد العزيز"، تحقيق أحمد عبيد، الطبعة الخامسة، المكتبة العربية، دمشق، دار العلم للملايين، بيروت.1967م.

... – لبن عبد ربه، أحمد محمد الأندلسي (ت 327هـ/ 938م)، "العقد الفريد"، تحقيق أحمد أمين والأبياري وعبد السلام هارون، القاهرة، 1947م.

... – ابن عساكر، علي بن حسن (ت 571هـ/ 1175م)، "تاريخ دمشق"، دار البشير، عمان، 1980.

... – ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت 276هـ/ 889م)،

"المعارف" ،تحقيق محمد إسماعيل الصاوي، الطبعة الثانية، دار

(11061/1)

إحياء التراث، بيروت، 1970م.

... – ابن كثير، أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت 774هـ/ 1372م)، "البداية والنهاية في التاريخ"، مكتبة المعارف، بيروت، 1966م.

... – الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد (ت 850هـ – /1447م)، "المستطرف في كل فن مستظرف"، المكتبة التجارية، القاهرة.

... – الأصفهاني، أحمد عبد الله (ت230هـ/ 1038م)، "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء"، المطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1980م.

(11062/1)

... – الأصفهاني، علي بن الحسين (ت 356هـ/ 966م)، "الأغاني" مصور عن طبعة دار الكتب، مؤسسة جمال للطباعة، بيروت، 1976م.

... – بحشل، أسلم بن سهل (ت 292هـ/ 905م)، "تاريخ واسط" ، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة المعارف، بغداد،1967م

... – البلاذري، أحمد بن يحيى(ت 279هـ /982م)، "أنساب الأشراف"، تحقيق إحسان عباس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1979م؛ "فتوح البلدان"، تحقيق صلاح الدين المنجد، كتبة النهضة العربية، القاهرة، 1906م.

... – البيهقي،إبراهيم بن محمد (ت 320هـ/ 930م)، "المحاسن والمساوئ"، دار صادر، بيروت، 1970م.

(11063/1)

... –الجاحظ، عمرو بن بحر(ت 225هـ/ 868م)، "البيان والتبيين" ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

... – جرير، جرير بن عطية الخطفي(ت 116هـ/ 730م)، "ديوان جرير"، شرح يوسف عبد دار الجليل، بيروت، 1992

... – الجهشياري، محمد بن عبدوس(ت 331هـ/943م)، "الوزراء والكتاب"، تحقيق السقا، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، 1938

... – خليفة، خليفة بن خياط(ت 240هـ /854م)،"تاريخ

خليفة"، تحقيق أكرم العمري، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة،بيروت، 1977م.

(11064/1)

... – خماش، نجدة خماش، "الإدارة في العصر الاموي" دار الفكر، دمشق، 1980م.

... – الدينوري ، أبو حنيفة أحمد بن داود(ت 282هـ/ 895م)، "الأخبار الطوال"، تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب، القاهرة، 1960م.

... –الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت 648هـ/ 1364م)، "تاريخ دول الإسلام"، تحقيق فهيم شلتوت، الهيئة المصرية العامة للتأليف، القاهرة، 1974م؛ "تاريخ الإسلام"، تحقيق بشار عواد، بغداد، 1977؛ "سير أعلام النبلاء"، الطبعة الثالثة، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985م.

(11065/1)

... – زامبارو، زامبارو، "معجم الأنساب والأسرات الحاكمة"، إخراج زكي محمد حسن وحسن أحمد، مطبعة

فؤاد، 1951.

... – الطبري، إسحاق بن يحيى (ت 450هـ/ 1058م)، "تاريخ صنعاء"، تحقيق عبد الله الحبشي، مكتبة السنجافي، صنعاء.

... – الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت 310هـ/ 922)، "تاريخ الأمم والملوك"، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف، القاهرة، 1967م.

... – العلي، صالح أحمد، "دراسات في الإدارة"، مطبعة المجتمع العلمي العراقي، بغداد، 1989م.

(11066/1)

... – الفرزدق، همام بن غالب بن صعصعة(ت 114هـ/ 728م)، "ديوان الفرزدق"، جمع وتحقيق عبد الله الصاوي، المكتبة التجارية، القاهرة، 1936م.

... – قدامة، قدامة بن جعفر (ت 328هـ/ 940م)، "الخراج وصنعة الكتابة"، تحقيق محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، 1981م.

... – الكندي ،أبو عمر بن يوسف (ت 350هـ/ 961م)، "الولاة والقضاء"، مطبعة الآباء اليسوعيين، 1908م.

... – المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد(ت 285هـ/

898م)، "الكامل"، تحقيق محمد أبو الفضل، دار نهضة مصر، القاهرة.

(11067/1)

... – الماوردي، علي بن حبيب(ت 540ه/ 1058م)، "الأحكام السلطانية"، الطبعة الثالثة، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، 1973م

... – المزيني، علي بن عايش،"القبائل العربية وأثرها على سلطان بني أمية"، رسالة ما جستير، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة،1990؛ "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، الطبعة الرابعة، تحقيق محمد محيي الدين، المكتبة التجارية، القاهرة، 1964م.

... –المسعودي، علي بن الحسن (ت 346ه/ 907م)، "التنبيه والإشراف"، تحقيق عبد الله الصاوي، المكتبة العصرية وبغداد، 1939م.

(11068/1)

... – المقدسي، مظهر بن طاهر (ت 507ه/ 1113م)، "البدءوالتاريخ" ،مكتبة الثقافة، بغداد.

... – وكيع، محمد بن خلف(ت 306ه/918م)، "أخبار القضاء"، عالم الكتب، بيروت.

... –اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت 284ه/ 897م)، "تاريخ اليعقوبي"، دار صادر، بيروت، 1960م.

... – Irfan shahid,The Jund System in bilad Al-Sham, Its Origin, The Fourth Internationl Conference of Bilad Al-Sham, Amman, Jordan, 15Oct.–21, 1983.

(11069/1)

في ذكرى وفاة ابن رشد عن الأصول الفقهية لفعل التفلسف عند ابن رشد

إبراهيم بورشاشن

أستاذ باحث – مكناس

عندما ينهض الغرب اليوم إلى الاحتفال بابن رشد في ذكراه الثمانية ميلادية لوفاته ، يقف بعض من تهمهم الذكرى للتأمل في هذا الوجه المشرق من وجوه تاريخنا الثقافي العربي – الإسلامي الذي احتفل العرب والمسلمون بالذكرى الثمانية ،لوفاته ، والتي حلت في

ربوعهم منذ أكثر من عشرين سنة، بإقامة أكثر من ندوة بهذه المناسبة، وهو يذكر بحقيقة هذه الوفاة التي أصابت الرجل في سنة 595 هـ كما يعرف ذلك المهتمون.

(11070/1)

ورغم أن ابن رشد ظل ، ولا يزال ، غائبا كرمز من الرموز الثقافية عند العرب والمسلمين ، في حين أنه شكل عند الغرب ، ويبدو أنه لا يزال ، جزءا من ذاكرتهم الثقافية التي يحاول البعض كبتها، ولا يجد البعض الآخر غضاضة في الإعلان عنها والإشادة بها والانتصار لها، فإن الاحتفال العربي – الإسلامي بابن رشد في السنوات الأخيرة حقق قفزة نوعية، كما يبدو في ندوات خلت ، وفي إرادة علمية عبرت عنها كثير من الجهات في تحقيق المتن الرشدي ، وتقديم قراءات جديدة له تراعى الشمولية والموضوعية.

(11071/1)

وإذا كان ابن رشد يدعو في تفسير ما بعد الطبيعة إلى شكر العلماء الذين ولدوا أنفسنا، ويجعل شكرهم أعظم من شكر الآباء الذين ولدوا أجسامنا، ويفرد في هذا الإطار أرسطو بأعظم هذا الشكر، لأنه ساهم في تخرج عقله ، وأفاده بذلك

القوة على إدراك الحق . ويجسد ابن رشد هذا الشكر في العناية بنصوصه الفلسفية وشرحها وإيضاحها لجميع الناس كما يصرح بذلك (1). فحق للغرب اليوم ، الذي يعتبر أرسطو أحد الأصول الفكرية الكبرى لثقافته المعاصرة، أن يشكر ابن رشد لأنه خلف أحفادا له في صقعه عرفوا بالرشديين اللاتين ، كرعوا من س حين

(11072/1)

الترجمات الفلسفية التي صبت على المتن الرشدي ، والتي ساهم فيها النقلة اليهود د بشكل وافر، فاعتنوا بها شرحا وإيضاحا وتأويلا يستجيب لأغراضهم الحضارية، وساهمت في تقريب "الإسطاجيري" واكتشافه . وشكر ابن رشد في الغرب بأن ربط ذكره بذكر أرسطو فسمي "الشارح الأكبر"، وأصبح ب حرف – خطأ – باعتباره ظلا قويا من ظلال أرسطو. . .

لقد لعب الأحفاد دورا كبيرا في يقظة الغرب الحديث ، بأشكال مختلفة من أشكال التأثير، وأولوا الفلسفة الرشدية تأويلا خاصا ينتصر لمفهوم الحقيقة المزدوجة، واس حدة العقل الإنساني (2)، وخاضوا

(11073/1)

صراعات حادة مع الأطراف المناهضة للفلسفة الرشدية أدت إلى العودة إلى الأرسطية في أصولهاالأولي، للتحرر من "تشويهات " ابن رشد للأرسطية . كما أدى هذا الرجوع – بشكل غير مباشر – إلى التحرر من تشويهات، الرشديين اللآتين للرشدية وإن بعد حين ، خاصة وأن الكتب الرشدية المسماة أصيلة، وهى "فصل المقال " و"مناهج الأدلة،) و"تهافت التهافت)، و"بداية المجتهد" و"مختصر المستشفى" لم يطلع عليها الغرب إلا في وقت جد متأخر من تاريخه الثقافي الفلسفي. وبالأمس ، واليوم ، وتد نهضت عدة جهات لنشر مؤلفات ابن رشد ي لغاتها

(11074/1)

الأصلية، سواء في أمريكا أو في مصر أو في المغرب ، يبدو أن الشروط من أجل إقامة الجسور مع هذا العلم الفلسفي – العربي تتوافر أكثر فأكثر من أجل اكتشافه من جهة، – إذ أن ابن رشد رغم ما كتب حوله لا يزال لم يكتشف بـ حد اكتشافا حقيقيا في عالمنا العربي لمما – الإسلامي – . ومن أجل فهمه من جهة أخرى فهما يحيط بجميع

(1) مقالة الألف الصغرى، تفسير ما بعد الطبيعة، تحقيق موريس بويج ، الجزء الأول ، دار المشرق ، بيروت ، الطبعة الرابعة، صص. 9–10.

(11075/1)

---

(2) زينب الخعفري ، أثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطى، دار التنوير، ط 2، 1985، صص 95–96.

أجزاء متنه في كافة مستوياته ومنحنياته وأسراره ، وهو ما يستدعى قيام فرق علمية تقوم بالمهمة في تواضع كبير وحيوية علمية، تذكران بالتواضع والحيوية العلمية اللتين لم تفارقا "فقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء، حتى قضى.

إن ابن رشد الذي ننهض اليوم جميعا إلى الاحتفال به رمز ثقافي كبير، يمكن بالقراءات المختلفة لمتنه أن يقدم مساهمات مختلفة في واقعنا الثقافي المعاصر كما قدم بـ حضا منه في فضاء ثقافي مختلف احتضنه عندما

(11076/1)

نبذناه . لكن ليس ابن رشد هو العلم الفلسفي الوحيد الذي أثر في الغرب ولم يؤثر فينا التأثير الكافي كذلك فعل ابن طفيل من قبل أو من بعد. ول حل رسالة "حي بن يقظان ،، ترتبط بنسب أصيل ووشائج غليظة بقصص مشابهة لها ظهرت في بلاد أوروبية في نفس السياق . لكننا كما أننا لم نكتشف ابن طفيل إلا متأخرين مع بوكوك وليون غوتييه ، وسبقنا الغرب إلى اكتشافه قديما مع موسى النربوني وطائفة الكويكرز رغم أن التجربة الفلسفية التي عرضها ابن طفيل في رسالته الفلسفية – الأدبية

(11077/1)

معين لا ينضب من الاستلهامات (3)، كذلك لم نكتشف ابن رشد إلا مع رينان . وسبقنا الغرب كذلك إلى ذلك مع الرشديين اللاتين (4)، رغم أن المتن الرشدي الضخم والمتنوع شهاب وار من المعرفة والعلم (5). لكن هل سيكون لهذين الاكتشافين المتأخرين أثر عميق في وعينا الفلسفي المعاصر، أم أنه قد طال الأمد، والقشرة الذهنية التي تكونت عبر تاريخ فكري يضج الجدل حوله ، يمنع تصلبها تسرب ندى الفكر الفلسفي، ويحول تورمها دون طل قلم الفيلسوفين الأندلسيين من النفاذ ؟

(11078/1)

تلك معضلة من معضلات تفكيرنا اليوم ، نومئ إليها – شعريا – وفش نحتفل بالذكرى الثمانية لوفاة ابن رشد في هذه المجلة العلمية بهذه المساهمة التي تتساءل عن بـ حض الأسر الفقهية للمشروع العلمي – الفلسفي عند ابن رشد.

(3) حول العالم الكبرى للتجربة الفلسفية لابن طفيل ، انظر مقالا لنا بالعدد الخامس من مجلة التاريخ العربي التي تصدرها "جمعية المؤرخين المغاربة"، وهو عبارة عن

تلخيص مركز لأهم الطروحات التي دافعنا عنها في رسالتنا الجامعية الموسومة بالتجربة الفلسفية لابن طفيل ، والتي حضرناها تحت إشراف الأستاذ

(11079/1)

الدكتور سالم يفوت ، وهي مرتقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

(4) لعل مسألة اكتشاف الغرب لأعلامنا ظاهرة تتكرر كما هو الحال أيضا مع ابن باجة وابن خلدون.

(5) حول ضخامة هذا المتن ولنوعه وأهميته ، انظر جمال الدين العلوي ، المتن الرشدي ، دار تبقال ، ط 1،1986.

لا شك أن الحديث عن العلاقة بيم ت النظر الفلسفي والفقهي عند ابن رشد يشكل ضربا من المجازفة والمغامرة العلمية التي قد يجد فيها)البعض شكلا من أشكال الإسقاط، أو على الأقل لا يجد فيها كبير فائدة، مما ب حله يشككي قيمتها العلمية.

(11080/1)

لكن إذا كنا نريد حقا أن نمتلك ابن رشد امتلاكا حقيقيا يسعفنا في استلهام بعض الإجابات على إشكالات معاصرة، فإن السبيل إلى ذلك هو النظر إلى مشروعه العلمي كله باعتباره يشكل وحدة منسجمة، وأن بعضه يشد بعضا، وبعضه يؤثر في بعض ألوانا مختلفة من التأثير قد يبلغ بى حضها درجة التأسيس كما قد يزعم المرء هاهنا فيما يخص العلاقة المفترضة بين الفقه والفلسفة عند ابن رشد.

إن "بداية المجهد" و"مختصر المستصفي" يكشف النظر فيهما عن قسمات شكلية وعميقة تخترق كثيرا من أجزاء المشروع العلمي لابن رشد. ولاشك أن الكتابين من

الكتب التي تتجاوز دراستها قدرات الأفراد. فهذان المؤلفان الفقهيان اللذان انفرد بتأليفهما أبو الوليد بن رشد الفيلسوف هما نتيجة كثير من التراكمات العلمية الشرعية التي عرفتها الأندلس مذ دخلها الإسلام ، وخالطت بشاشته قلوب أهله ، ونهضت بهم إلى التفقه في دينهم ، فأضافوا إلى الثقافة الإسلامية رافدا جديدا هو نتيجة اللقاء بين الحاضرة العربية الإسلامية

والحضارة الإسبانية التي ستعرف بثقافاتها الثلاث .

وأنتج هذا اللقاء كثيرا من الآثار العلمية المتميزة كان منها الكتاب الفقهي الفريد "بداية إلمجتهد، والمختصر

(11082/1)

من جهة حذف الطويل ، واشرع من جهة التتميم والتكميل " والضروري في أصول الفقه)،(6). ومن هنا قد يصبح الحديث عن الأصول العلمية للنظر الفقهى عند ابن رشد حديثا مشروعا، في ترابطها ببعض التجليات الفلسفية عند ابن رشد.

إن الأصول العلمية للنظر الفقهي أصول ظاهرة، لم يتردد ابن رشد في الإشارة إليها والتنويه بها، وإن كان ابن رشد – كعادته في الاستقلال الذاتي – لا يسير معها دوما حذو القذة بالقذة، بل كانت له شخصيته المستقلة المتميزة التي أضفت على آثاره العلمية كلها، سواء في الفقه أو في الفلسفة، مسحة من كبرياء

(11083/1)

علمي محمود ساهم به في الذهاب أحيانا بالأشكال الأولية المستلهمة إلى أبعد مدى ممكن

(6) تحقيق جمال الدين العلوي ، در الغرب الإسلامي، ط1 ، 1984، ص146.

وسنحاول في هذا العرض التنويه ببعض الأصول المتنوعة التي متح منها ابن رشد، والتي كانت تشكل سلطة علمية لا تكاد تنازع في الأندلس المسلمة ومارست تأثيرها القوي على فيلسوفنا الفقيه كما يفصح عن ذلك متنه الفقهي والفلسفي؟ من هذه الأصول أبو حامد الغزالي حليف ابن رشد وخصمه في نفس الوقت ، وابن عبد البر مرجع ابن رشد في الخلاف والحديث ، وابن القصار البغدادي الذي

(11084/1)

يعتبره ابن رشد من "أهل مسائل الخلاف " وينقل عنه (7)، ومتأخري المالكية وبخاصة ابن رشد الجد. وسنقتصر هنا على وقفة خاصة عند كل من ابن عبد البر وابن رشد الجد لبيان مدى تأثير هذين العلمين في المشروع العلمي – الفلسفي لابن رشد.

يعتبر كل من ابن عبد البر وابن رشد الجد حجتين في

فنيهما اللذين جودا فيه . فابن عبد البر جود في الحديث إلى درجة أنه شكل سلطة علمية قوية عند ابن رشد الحفيد، والجد جود في. الاجتهاد المذهبي وكتب في الفقه موسوعتي المقدمات ، و"البيان والتحصيل، اللذين احتفى بهما المغاربة كثير"، وإن كان

(11085/1)

أبن رشد فزع في كتابه "بداية افي " إلى "المقدمات " وسكت – على مما يبدو – عن "البيان والتحصيل ". فأين يمكن تلمس هذا التأثير المفترض لهذين الفقيهين في وَحل التفلسف الرشدي ؟

1 – لابن عبد البر حفامور قوي في "بداية المجتهد "، وليس صدفة أن ابن عبد البر كتب كتاب سماه "الاستذكار، وأن ابن رشد كتب كتاب "البداية" "على جهة التذكرة، كما يقول (8). لكن من أجل بيان هذه العلاقة بين ابن رشد وابن عبد البر، نقف أولا عند نص طريف في "البداية"، في آخر "كتاب الطهارة)،، له دلالاته العميقة في هذا السياق . يقول ابن رشد .

(11086/1)

"فهذا هو الذي رأينا أن نثبته في هذا الكتاب من المسائل التي ظننا أنها تجري مجرى الأصول ، وهي التي نطلق بها في الشرع أكثر ذلك ... أكثر ما عولت فيها نقلته من نسبة هذه المذاهب إلى أربابها هو كتاب "الاستذكار". وأنا أبحث لمن وقع من ذلك على وهم لي أن يصلحه ..."(9).

(7) بداية المجتهد ، تحقيق علي محمد عوض وعادل أحمد عبد الموجود، ج 4، دار الكتب العلمية، لبنان ، ط1، 1996، ص 209.

(8) نفس المصدر، ج 1، ص 325.

(9) البداية، مرجع سابق ، ج 2 ، ص 100.

(11087/1)

إن ابن رشد يصرخ في هذا النص أنه استفاد من "استذكار، ابن عبد البر في الخلاف الفقهي، وفي نسبة المذاهب إلى أصحابها. فما هو كتاب (الاستذكار، ؟ ولماذا ألفه ابن عبد البر ؟ وهل يقدم هذا الكتاب مادة غنية في الخلاف الفقهي متم منها ابن رشد ؟ وهل استفاد ابن

رشد من "الاستذكار" جمعية ، أم أنه اقتصر على ما قدمه له "كساب الطهارة)، ليس غير ؟ بل هل يمكن القول إن حافظ المغرب كان من العلماء الذين أثروا تأثير" كبير" في ابن رشد ليس فقط في "بداية المجتهد" وإنما في مسيرته العلمية برمتها ؟ فما هي العالم الكبرى إذن

(11088/1)

التي يمكن أن يكون ابن عبد البر قد دمغ بها شخصية ابن رشد ؟ ولماذا ألف ابن رشد كتابا جديدا في الخلاف ولم يستغن في ذلك ب "الاستذكار"، كما أنه كتب كتابا جديدا في الأصول ولم يستغن في ذلك ب "المستصفى" ؟

إن هذه الأسئلة المختلفة تقودنا في حديثنا عن علاقة ابن رشد بابن عبد البر إلى مستويين : مستوى يقتصر على العلاقة الخاصة المصرحة بين "الاستذكار، و"البداية"، ومستوى العلاقة العامة المفترضة بين المشروع العلمي لابن عبد البر ككل وبين المقاصد العالمية لابن رشد من "بداية المجتهد"، بل وأحيانا من مشروعه العلمي –

(11089/1)

الفلسفي جمعيه.

أ – إن "الاستذكار" أولا هو عمل ضخم قام به ابن عبد البر على هامش مصنفه "التمهيد" الذي شرح به ابن عبد البر "موطأ" الإمام مالك بن أنس ، فقام باختصاره وتصريفه على أبواب –الموطأ– ونسقه ، حاذفا منه التكرار، واصلا فيه المسند والمرسل من الحديث ، شارحا ما في الموطأ، من أقاويل الصحابة والتابعين ، وما لمالك من قول بنى عليه مذهبه واختاره ، ص حرجا عند ذكر كل قول رس مالك وذكره ما لسائر فقهاء الأمصار من التنازع في معانيه (10). فـ "الاستذكار" هو شرح

(11090/1)

---

(10) يقول ابن عبد البر ي مقدمة كتابه "الاستذكار"، مبررا موضوع كتابه ومنهجه فيه : ". .. أما بعد، فإن جماعة من أهل العلم وطلبه والعناية به من إخواننا – نفعهم الله وإيانا بما علمنا – سألونا في مواطن كثيرة مشافهة، ومهم من سألني ذلك من آفاق نائية مكاتبة، أن أصرف لهم كتاب التمهيد على أبواب الموطإ

ونسقه ، وأحذف لهم منه تكرار شواهده وطرقه ، وأصل لهم شرح المسند والمرسل اللذين قصدت إلى شرحهما خاصة في التمهيد، بشرح جميع ما في الموطإ من أقاويل الصحابة والتابعين ، وما لمالك فيه من قوله الذي بنى عليه مذهبه

(11091/1)

واختاره من أقاويل سلف أهل بلده الذين هم الحجة عنده على من خالفهم ، وأذكر على كل قول رسمه ، وأذكر فيه ما لسائر فقهاء الأمصار من التنازع في معاويه ، حتى يم شرح كتابه الموطإ،

لل"موطإ" على شرط الإيجاز و"الاختصار ! إنه مختصر يقتصر على الكافي من المعرفة الفقهية، ويقصد من جملة ما يقصد إلى تقريب الفقه : "إلى حفظ الحافظ وفهم المطالع ". ول حله لهذا السبب سمي ابن عبد البر كتابه هذه التسمية الدالة، الاستذكار.

(11092/1)

ومن جملة ما يتضمنه كتاب "الاستذكار" في عنوانه إشارة إلى "مذاهب فقهاء الأمطار، وهو ما يفصح عن المادة الغنية التي يتضمنها في الخلاف الفقهي خاصة، والتي "استنجد" بها ابن رشد في البداية وعول عليها كثيرا. فما هي المنهجية التي سلكها ابن عبد البر في عرض مذاهب فقهاء الأمصار في "استذكار"ه ؟ وكيف وظف ابن رشد هذه المادة العلمية الثرة ؟

نجد ابن عبد البر في المسائل الفقهية التي يقف عندها كثيرا ما يذكر اتفاق العلماء في مسألة أو ما أجع عليه علماء السلف ، أو ما أجع عليه علماء المسلمين حسب التعابير المختلفة

(11093/1)

التي يذكرها ثم ب حرج على ذكر ما اختلفوا فيه (11). لكن دون أن يذكر أسباب الخلاف بالشكل الذي جود فيه أبو الوليد بن رشد، وهي منهجية سيستفيد منها ابن رشد كثيرا، كما سيستفيد من المضامين الغنية التي عج بها هذا الكتاب الفقهي الفريد(12).

مستوعبا مستقصى بعون الله إن شاء الله ، على شرط

الإيجاز والاختصار، وطرح ما في الشواهد من التكرار، إذ كله ممهد مبسوط في كتاب التمهيد والحمد لله ، واقتصرت في الكتاب من الحجة والشاهد على فقر دالة وعيون مبنية، ونكت كافية، ليكون أترب إلى حفظ الحافظ وفهم المطالع إن شاء الله

(1/11094)

(. . .) ولم أذكر في كتابي هذا شيئًا من معاني النقل وغوائله ، وعلم طرقه وعلله ، ولا من فضائل مالك رحمه الله وأخباره ، إذ ذاك كله مذكور لأتم ذكر أكمله في كتاب التمهيد والحمد لله. . . أبي عبد البر، الاستذكار لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه "الموطأ" من معاني الرأي والآثار ولشرح ذلك كله بالإيجاز والاختصار، تحقيق ولقديم د. عبد العطي أمين قلعجي ، دار قتيبة للطباعة والنشر، دمسق / بيروت – دار الوعي ، حلب /القاهرة، ط 1 ، 1993 ، ص 163–168 . أما كتاب التمهيد الذي جاء "الاستذكار" على "هامشه "،

(1/11095)

فقد زتب فيه أبو عمر أحاديث الموطإ على أسماء شيوخ الإمام مالك، فرتبهم على ترتيب حروف المعجم، فيذكر الراوي، ويذكر ترجمته، وعدد الأحاديث التي خرجها مالك في موطئه عنه، ثم يذكر الحديث بسنده ثم يشرحه شرحا وافيا. (حول الفروق بين التمهيد والاستذكار، نم، صص 119–127.

(11) الاستذكار، مرجع سابق، الجزء الأول، صص 177–189–190–191 ... (12) ل حل هده الصلة العلمية القوية بين ابن رشد وابن عد البر هي التي ب حلت ألي حض يشككي نسبة ى بداية المجهد إلى ابن رشد، ويذكر أن ابن رشد سطا على كتاب لفقيه خرساني وأضاف

(11096/1)

له بعض أقوال

إن ابن عبد البر عند ابن رشد مرجع في الخلاف الفقهي من حيث نسبة المذاهب إلى أصحابها من فقهاء الأمصار، كما يشكل عنده سلطة ص حرفية كبرى خاصة فيما ب حلق بتوثيق سند الأحاديث وتمحيصها(13). فابن رشد يعتبر ابن عبد البر من أهل الحديث أو من أهل الشأن في الحديث بعبارته معا(14). ومن هنا فسلطته عند ابن

رشد في هذا المجال لا تنازع . فهو – فضلا عن البخاري ومسلم – مرجعه في الحديث ، وحجته في تدعيم بعض المسائل الفقهية(15)، بل سنده أحيانا لتجاوز المالكية(،1)، وبيان أن مالكا لم يكن عنده عالم بجميع

(11097/1)

الحديث (17)، وهو يدل من جملة ما يدل على انفتاح ابن عبد البر، وهو انفتاح سيمس ابن رشد منه تأثير كبير.

وإذا كان ابن رشد قد أشار إلى أنه قد عول على كتاب "الاستذكار"، فإن هذا التعويل لم يقتصر على "كتاب الطهارة" كما قد يبدو، وإنما هو ف حويل يخترق النص بأكمله ، كما نجده في ثنايا الكتاب . ومن أبين الأدلة على ذلك أننا نجد ابن رشد يشير في أحد المواضع إلى أن هناك أقوالا كثيرة حكاها ابن عبد البر في الزمان الذي يجوز للمسافر إذا قام فيه في بلد أن يقصر، لكن ابن رشد لا ينتقى من هذه الأقوال إلا ثلاثة، وهى

(11098/1)

الأشهر منها، وهى ما عليه فقهاء الأمصار(18).

إن "الاستذكار" إذن حاضر في البداية، جميعا كما أعلن عن ذلك أبو الوليد : حاضر بمادته الفقهية والحديثة وبنفسه المنفتح على المذاهب المختلفة. ولاشك أن كتاب "الاستذكار" كان جوابا على أسئلة طرحت على ابن عبد البر في عهده

ابن عبد البر وابن حزم ونسبه إلى نمسه انظر ابن عبد الملك الأنصاري ، الذليل والتكمله ، السفر السادس ، تحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة، بيروت ، لبنان، ط 1، 1973. ص 22.

(13) ج 1، ص 155–453.

(14) البداية، مرجع سابق ، ج 6، ص15–184 .

(11099/1)

---

(15) يستشهد ابن رشد عبد البر من أجل، الرد على أهل الظاهر الدين أجمعوا على مسألة فقهية تتعلق بالصوم (ج 3، ص 182). ويستشهد به في التأكيد إجماع الفقهاء على أن الآذان سنة مؤكدة (ج 3 ، ص 161). ويستشهد في حجية الأذان قائما وعلى طهر (نم ، ص 169).

(16) البداية، مرجع سابق ، ج 2 ، صص311–54 .

. (16) البداية، مرجع سابق ، ج 5، ص 359

(18) ا لبداية، ج 2، ص 364 .

وارتبط بها. وكتاب ،(البداية) أيضا هو جواب على أسئلة عرفها عصر ابن رشد وارتبط بها، وهو في بابه مختلف . فإذا كان ابن عبد البر قد قيض "الاشتذكمار" ليتم

(11100/1)

–له –شرح كتاب "الموطأ"، فإن هذا الهم في العصر الموحدي الذي تغير الموقف فيه من مالك والمالكية بوجه عام ، لم ب حد هما مشروعا، وأصبح المشروع هو الرجوع إلى الشريعة في أصولها الأولى من القران والحديث تمشيا مع المد الثقافي الموحدي المنتصر لهذه الأصول والمستخف بمذاهب الفقهاء(ر(). ول حل لهذا السبب يصبح كشاب "بداية المجتهد" تعبيرا عن روح عصر مخالف في بعض مظاهره لعصر ابن عبد البر. لكن مع ذلك يشكل ابن عبد البر سلطة عند ابن رشد ليس فقط من خلال "الاستذكار"، وإنما من خلال تأليف أخرى له . ومن أهمها في هذا .

(11101/1)

الإطار كتاب "الكافي في فقه أهل المدينة المالكي" وكتاب جامع بيان العلم وفضله ". فهذان الكتابان رغم أن ابن رشد سكت عنهما، لكن فحصا أوليا لهما يبدي تقاطعا كبيرا بينهما وبين مظاهر من المشروع الرشدي . ب –أما كتاب "الكافي "، فأهم شيء يثير فيه هو خطبته التي تتميز بغنى منهجي كبير لا شك أن ابن رشد انفعل بها واستلهمها استلهاما خاصا في مشروعه العلمي ككل ، وفي "كتاب المجتهد " على وجه خاص ، وإن كانت الخطبة في مجموعها تعتبر عن تقليد فقهي في الكتابة . فماذا تقدم خطبة الكتاب في هذا الإطار(20) ؟

(11102/1)

إن الناظر في هذه الخطبة يلاحظ حضور كثير ص ت المفاهيم المنهجية التي تؤسس للمقاربة التي نهجها ابن عبد البر في "كافيه "، والتي حضر بعضها في

(1) عبد الواحد المراكشي، المعجب ، تقديم ممدوح ، دار الكتاب، البيضاء، ط7. 1978ص 400–401.

(2) يقول أبن عبد البر : "... أما بعد، فإن بعض إخواننا

من أهل الطلب والعناية والرغبة في الزيادة من التعليم سألني أن أجمع له كتابا مختصر" في الفقه يجمع المسائل التي هي أصول وأمهات لما يبني عليها من الفروع والبينات في فوائد الأحكام ومعرفة الحلال والحرام يكون جامعا مهذبا

(11103/1)

وكافيا مقربا ومختصرا مبوبا يستذكر به عند الاشتغال وما يدرك الإنسان من الملال ، ويكفي عن المؤلفات الطوال ويقوم ويقوم مقام المذاكرة عند عدم المدارسة، فرأبت أن أجيبه إلى دلك لما رجوت فيه من عون العالم المقتصر، ولمع الطالب المسترشد التماسا التواب الله عز وجل في تقريبه على من أراده واعتمدت ليه على علم أهل المدية وسلكت فيه مسلك مذهب الإمام أبي عبد الله مالك بن أنس رحمه الله ... فأتيت بما لا يسع جهله لمن أحب أن يسم بالعلم نفسه . .." ابن عبد البر، الكافي فقه أهل المدينة المالكي ، دار الكتب العلمية،

(11104/1)

بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية، 1992 ، صص 9–10 .

"استذكار"ه ، والتي ستشكل عند ابن رشد سواء في "البداية" أو في غيرها من النصوص التي سيكتبها هديا في العرض والمقاربة.

وهذه المفاهيم هي : الأصول – الأمهات – المختصر – الجامع – الكافي – الاستذكار – مالا يسع جهله.
إن احتفاء ابن عبد البر في كتابه الكافي من المعرفة الفقهية التي تؤم المسالك التي تجري مجرى الأصول والأمهات ، والتي تشكل الضروري في هذه المعرفة التي يحتاجها طالب العلم ، والتي تقدم له بشكل صناعي يتسم بالتهذيب والاختصار لتكون له على "جهة

(11105/1)

التذكرة، فيرجع إليها كلما أراد المذاكرة . إن هذا الاحتفاء سيطبع كثيرا من مظاهر الكتابة الرشدية يتسم خاص يبرز أن الكتابة الفقهية طبعت كثيرا من مظاهر المشروع العلمي عند ابن رشد بطابع خاص (41).

ج – يمكن أن يقدم لنا كتاب "جامع بيان العلم وفضله "

لابن عبد البر، باعتباره عرضا لأهم المسائل الكبرى التي كانت تشغل بال الأندلسيين والمغاربة في القرن الخامس الهجري ، جملة من الأمور يمكن أن نقول إن انتصار ابن عبد البر لها قد يكون خلف تأثيره العميق على ابن رشد. وهذا التأثير الذي يفترض أن يكون ابن عبد البر

(11106/1)

مارسه على قاضي قرطبة يمكن حصره في مسألتين على الأقل :

– إن أبن عبد البر لم يكن ألف حريا خالصا، بل كان لا يرى ل حلم الكلام وضعية معرفية مقبولة في المجتمع الإسلامي (22) ، وكذلك كان ابن رشد بجهة من جهات النظر.

– إن ابن عبد البر كان يحمل على التقليد حملة كبيرة ويرفع لواء الاجتهاد(23) ،وكذلك ورحل ابن رشد.

وإنه ليمكن القول إن روح ابن عبد البر تخترق كثيرا من أجزاء المتن الرشدي ، رغم أن ابن رشد لم يشد به سوى في كتاب "البداية".

(11107/1)

---

(21) يمكن تبين بعض معالم كبرى للكتابة الرشدية في هذا الإطار في مقال سينشر لنا في مجلة الاجتهاد بعنوان : "العلاقة بين الفلسفة والفقه عند ابن رشد : "بداية المجتهد و"الكليات في الطب نموذجا.

(22) جامع بيان العلم وفضله ، ج 2، دار الفكر، صص 116–117.

(23) نم ص 133 .

2 – لم يلق ابن رشد شخص جده . فقد توفي الجد في السنة التي ولد فيها. الحفيد، لكن يبدو أن السلطة العلمية للجد سو"ء التي خلدتها مؤلفاته و فتاويه ، أو مواقفه في الأندلس ستؤثر في الحفيد تأثيرها البليغ .

(11108/1)

وقد أشار ابن رشد لجده في كتاب "بداية المجتهد،) اكثر من مرة، وخلد ب حمض مواقفه مع فقهاء زمانه ، وكان لكتاب "المقدمات " اكبر حظ من الذكر في حين لم يذكر – على ما يبدو – كتابه الضخم "البيان والتحصيل

" الذي اعتنى المغاربة به اعتناء كبيرا، رغم أنه قد يكون متم منه الكثير. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإشارات التي حظي بها الجد في كتاب "المجتهد " تنم عن تقدير عميق لأحد أصول الحفيد البيولوجية والعلمية .

– وأول موضع يذكر فيه الحفيد جده كان عند الحديث عن حكم آسار الحيوان ، حيث يذكر الحفيد موقف جده من الحديث

(11109/1)

الشهير حول ولوغ الكلب في الإناء(24)، وهو الموقف الذي عرضه في المقدمات ،(25)، ويوجد له نظيره في "المسائل "(26). فعند معالجة الجد لهذا الحديث في "المقدمات " يقوم تعليله باعتباره معقول المعنى. فالحديث ص حلل "ليس من سبب النجاسة، بل من سبب ما يتوقع أن يكون الكلب الذي وقع في الإناء كلبا فيخاف من ذلك السم . . . ولذلك جاء هذا العدد الذي هو السبع في غسله . فإن هذا العدد قد استعمل في الشرع في مواضع كثيرة في العلاج والمداواة من الأمراض (27). ثم يش الحفيد عرض موقف جده مثمنا :

(11110/1)

---

(24) نص الحديث 3 عرضه ابن رشد في البداية : "إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فلبرقه وليغسله سبع مرات " وفي بعض طرقه "أولاهن بالتراب "، وفي بعضها "وعفروه الثامنة بالتراب ". وهو حديث متفق على صحته كما يقول الحفيد (بداية المجتهد ج 1، صص 88-91 .

(25) ابن رشد الجد، المقدمات والممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعية والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات ، تحقيق د. محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الأولى ج1،صص 88-91.

(11111/1)

---

(26) هناك مسائل ابن رشد الجد وقفة علمية عند الحديث ومناقشته من خلال ما وزي المدونة من قول ظاهر يشكك في صحته ، في اتجاه إثباته وبيان حكمته (انظر مسائل أبي الوليد ابن رشد الجد، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، منشورات دار الآفاق ، الجديدة، المغرب ، الطبعة الأولى 1922، صص 728-733 .

(27) يقول الجد في "المقدمات" في المسألة : "والذي

أقول به في معنىأمر النبي صلى الله عليه وسلم بغسل الإناء سبعا من ولوغ الكلب فيه . . . أنه أمر ندب وإرشاد مخافة أن يكون الكلب كلبا يدخل على اكل سؤره أو

(11112/1)

"وهذا الذي قاله – رحمه الله – هو وجه حسن على طريقة المالكية". وموقف الجد يكشف – من جملة ما يكشف – عن نزوعه العميق إلى الدراية أكثر من الرواية، وهو الموقف الذي سبب له بعض المضايقات .

أما الموضع الثاني الذي أتى فيه الحفيد على ذكر جده ، ففي باب "بيوع الشروط والثنيا". ففي هذا الموضع يعرض ابن رشد أقسام الشروط، ويؤكد أن أصحاب مالك يرون "أن مذهبه هو أولى المذاهب ، إذ بمذهبه تجتمع الأحاديث كلها، والجمع عندهم أحسن من الترجيح "، ثم يشير إلى أن "للمتأخرين من أصحاب مالك في ذلك تفصيلات متقاربة، واحد من له

(11113/1)

ذلك جدي ، والمازري ، وا لبا جي" .

فالحفيد يصنف جده ضمن أصحاب مالك المتأخرين الذين يرون المذهب المالكي أولى المذاهب ، وينزعون إلى الجمع بين الأحاديث ويرون أنه أفضل من الترجيح ، وهو الموقف الذي ب حلن الجد عنه في "الفتاوى" وينتصر له الحفيد في
" البداية (28) .

– الموضع الثالث الذي يذكر فيه ابن رشد جده هو كتاب القصاص ، عند الحديث عن المسألة : "هل ينتظر بالصغار حتى يكبروا فيكون لهم الخيار في القتل أو العفو أم لا ؟. ويشير الحفيد إلى أن المسألة وقعت في حياة جده في قرطبة، وأنه أفتى فيها فتوى خالف فيها

(11114/1)

أهل زمانه الذين أفتوا فيها بالرواية المشهورة والتي تقول بأنه لا ينتظر الصغير، ي حين يفتى الجد بانتظاره على القياس . ولما قام فقهاء العصر وشنت حوا عليه "لما كانوا عليه من شده التقليد. . . ، اضطر أن يضع في ذلك قولا ينتصر فيه لهذا المذهب ، وهو موجود بأيدي

الناس "كما يقول الحفيد.

مستعمل الإناء قبل غسله منه ضرر ي جسمه ، والنبي !دنه ينهى عما يضر بالناس في دينهم ودنياهم ..."
(مرجع سابق ، الجزء الأول ، ص 90).

(11115/1)

---

(28) يقول الجد : "والجمع بين الآثار أولى من التعارض) (نم ، ص 678). ويقول الحفيد في "البداية : "والجمع أولى من الترجيح ما أمكن عند اكثر الأصوليين "
(البداية، ج 1، ص 498).
(29) انظر النازلة بتفصيل في "مسائل ابن رشد الجد، تحت عنوان : "هل يحتفظ بحق الصغار في التدمية إلى حين البلوغ ؟"، وهي النازلة التي نزلت بقرطبة سنة ست عشرة وخمس مائة (مرجع سابق ، ج 2 ، صص 1054–1060 .

لكن ما دلالة ذكر الحفيد لهذه الواقعة العلمية ذات الإمدادات الثقافية – الاجتماعية في عصره ؟ هل ذكرها لبعدها العلمي فقط ؟ أم أنها

(11116/1)

خلفت في نفسه تأثير" بليغا كان من جملة البواعث التي نهضت به إلى تصنيف البداية، الذي جعل من مقاصد كتابته التخفيف من غلواء هذا التقليد الذي آذى جده قديما ويؤدي المعرفة العلمية في عصره كثيرا(30)

– أما الموضع الأخير الذي أتى فيه الحفيد على ذكر جده ، فجاء في "كتاب الأقضية" عند النظر في الصفات المشترطة في جواز القضاء(31). ففي هذا الموضع يشير الحفيد إلى أن جده جعل كون الاجتهاد فيه (أي في القاضي) من)الصفات المستحبة،،، وهو القول الذي حكاه الجد في "المقدمات " عن المذهب المالكي كما يقول الحفيد(32).

(11117/1)

فالقاضي يجب أن ينصب ممن يسوغ لهم الاجتهاد، وهو قول ابن حبيب ومطرف وابن الماجشون وأصبغ على ما حكاه ابن رشد الجد في "المقدمات ". ولعله موقف الحفيد أيضا الذي وضع بين يدي القاضي كتاب "بداية المجتهد" الذي رفع عنه آفة التقليد ويدمغه بفضيلة الاجتهاد التي برحلها المذهب المالكي من الخصال المستحبة في

تولية القضاء.

فما هو التأثير الذي مارسه الجد على الحفيد على المستوى الفقهي والذي كان لبعضه انعكاسات هامة على مستوى اختياراته الفلسفية ؟

(11118/1)

أ- وجد ابن رشد الحفيد ثروة فقهية في بيته الذي نشأ فيه ، كما وجد إرثا من المناظرات الفقهية الكلامية التي عقدها جده مع الخالفين له من فقهاء ومتكلمين والتي كان طابعا الدراية من جهة، والإخلاص للمذهب المالكي من جهة أخرى مهيمنين عليها.

(30) لمحاربة التقليد، كتب ابن رشد "بداية المجهد، من أجل أن يبلغ به الفقيه رتبة الاجتهاد إذا حصل قد! كافيا من علم النحو واللغة وصناعة أصول الفقه بداية المجتهد ، ج 5،ص 69 .

(31) البداية، ج 6، ص . 205

(32) انظر: المقدمات والممهدات ، مرجع سابق ، ج 2 ، صص 259-260.

(11119/1)

فمن هو "الفقيه " أولا عند الجد ؟ وإلى أي حد تجلت هذه الصورة في شخص الحفيد ؟

إن "الفقيه " عند الجد هو الذي جع الحديث ونقفه فيه . إن نموذج ابن عبد البر حاضر هنا ولا شك ، "وجامع الحديث إذا لم يتفقه فيه ، ليس بفقيه ! ومعرفته للحديث مضلة له ، إذا لم يتفقه فيه ،(33). ولما كان "لا يصح شيء من أمور الديانة والإسلام إلا بلسان العرب "(34)، كانت معرفة اللغة العربية ضرورية للفقيه . كما أن العالم على الحقيقة هو العالم بالأصول والفروع . ولا يمكن للمرء أن يجد كثير معاناة في بيان كيف أصبحت هذه التوجيهات شي

(11120/1)

حار" لابن رشد الحفيد وهديا له في عمله العلمي، الذي بناه على الرجوع إلى الأصول بمظاهرها المختلفة وعلى دراسة عميقة للغة العربية، بل إن ابن رشد في أحد نصوصه في "بداية المجتهد" يعتبر المعرفة بأصول

الفقه واللغة العربية شرطا أساسيا من شروط الاجتهاد الفقهي(35). ولا شك أن 91 حرفة بأصول الفلسفة وباللغة العربية كذلك شرط أساسي من شروط التفلسف عند الفيلسوف العربي . وحتى نخرج من قول عام إلى قول خاص ، نتساءل عن مظاهر تأثير الجد في الحفيد.

(11121/1)

ب – يمكن تلمس بعض مظاهر هذا التأثير الذي مارسه الجد في الحفيد على المستوى الفلسفي، خاصة في مسألتين يمكن اعتبارهما وراء تأليفين هامين من تأليف ابن رشد ذات النفحة الفلسفية العميقة، والكتابان ص حاج – فصل المقال – و"مناهج الأدلة" يؤسسان للمشروع العلمي – الفلسفي لابن رشد.

المسألة الأولى : هل أول الواجبات الإيمان بالله تعالى أم أول الواجبات النظر والاستدلال ؟ وهل س حرفة طرق المذهب الأشعري شرط في صحة العقيدة أم لا ؟

(11122/1)

تعتبر مسألة : "ما أول الواجبات الإيمان أم النظر ؟" من المسائل الكلامية التي كثر حولها الجدال ، والتي يقدم ابن رشد الجد حولها تحليلا متميزا في

(33) مسائل بي لوليد ابن رشد الجد، مرجع سابق ، ص 674 .

(34) نم ، ص 477 .

(35) انظر هامش رقم 30.

"مقدمات"ه(36) من خلال عرض بـ مض المواقف المتقابلة في المسألة وتقديم موقفه ، فالباجي يذهب إلى أن أول الواجبات هو الإيمان بالله ، وهذا الإيمان هو التصديق الحاصل في القلب ، وليس من شروط صحته عند الباجي المعرفة النظرية. أما البخاري وأبو بكر الباقلاني ، فيذهبان إلى

(11123/1)

أن الإيمان بالله لا يصح إلا بـ حد المعرفة ، وأول واجباته النظر والاستدلال ، لأن الله تعالى 7 بـ حلم ضرورة وإنما يعلم بالنظر والاستدلال بالأدلة التي نصبها لمعرفته . وينفرد الباقلاني بالقول إن الإيمان ليس هو العلم ، وإنما سبيله أن يتضمن العلم . فالتصديق في القلب لا

يصح وجوده مع الجهل ، ولابد أن يكون متضمنا لدحلم ، وهو قول يبدو أن ابن رشد الجد يثمنه .

ويلاحظ أن المذهب المالكي يميل إلى القول بأن النظر أول الوجبات . وقد رد ذلك شيخ الباجي القاضي أبو جعفر السمناني إلى بقايا المذهب الاعتزالي في المذهب .

(11124/1)

ومن هنا لا يقبل الباجي مذهب من نزع إلى أن أول الواجبات النظر، "لأن من برحله أول الواجبات أوجبه بالعقل ، (و) لا يصح أن بعلم أحد أن الله أوجب عليه النظر وهو لا يى حلم الله إلا بعد النظر. (في حين) أن من أصول . أهل السنة أن العقل لا حظر فيه ولا إباحة"(37). ويقدم الجد حججا أخرى للباجي يرد بها على من ذهب إلى أن النظر أول الواجبات (38). لكن ابن رشد الجد انطلاقا من تمييزه بين الكلام وبديهة العقل من جهة، وبين مفهومي اليقين والعلم من جهة أخرى يرد على الباجي وعلى من يزعم أن النظر ليس أول الواجبات .

(11125/1)

فالنظر أول الواجبات عند الجد، لكن ليس على جهة أهل الكلام وما يتميز به من تعقيد وعواصة، وإنما هو على جهة بديهة العقل . إذ "العاقل إذا نظر إلى السماء والأرض واختلاف الليل والنهار وإلى نفسه واختلاف أحواله وخروجه من العدم إلى

(36) ابن رشد الجد، المقدمات ، مرجع سابق ، صص 57–61.

(37) نم ، صص 58–59.

(38) منها استدلاله بإجماع المسلمين على تسمية العامة والمقلدين مؤمنين ، ومنها استدلاله بـ حلاقة المسلمين بالكفار ساعة الحرب . إذ "لو كان الإيمان لا يصح إلا بـ حد النظر والاستدلال ، لجاز الكفار إذا غلب عليهم

(11126/1)

المسلمون أن يقولوا لهم لا يحل لكم قتلنا لأن من دينكم أد الإيمان لا يصح إلا بـ حد النظر والاستدلال فأخرونا حتى ننظر ونستدل . وهذا يؤدي إلى تركهم على كفرهم وأن لا يقاتلوا حتى ينظروا ويستدلوا، ولا خلاف في بطلان هذا)، (عند الباجي، نم ، ص 59.

الوجود، علم أن لذلك كله خالقا ومدبرا ليس كمثله شيء،(39). فعلى هذا الوجه يكون النظر أول الواجبات ويصح به الإيمان واليقين وإن لم يحصل به العلم ، "إذ لا يقع العلم إلا بعد إمعان النظر)،. أما تيقن المعتقد من غير علم ، فصحيح عند الجد : "فمن آمن بالله بتقليد أو نظر

(11127/1)

يحصل به اليقين أو يقع به العلم ، فهو مؤمن حقيقة، وإن كان مرتبة من آمن بالله وعلمه بالنظر والاستدلال أرفع من مرتبة من آمن بيقين حصل عنده من غير عالم "(41).

إن ابن رشد الجد رغم هذا الموقف الوسط ، فإنه يثمن النظر والاستدلال ويجعله أوجب الواجبات ! لأنه "إذا كان أول الواجبات الإيمان بالله وهو التصديق به وبما أخبر عن نفسه من صفات ذاته وأفعاله ، فإن النظر و"الاستدلال المؤدي إلى ص حرفة الله تعالى وأجب أيضا أوجبه الله على عباده وافترضه عليهم وتعبدهم به كسائر العبادات الواجبات ". ثم يعرض الجد جملة من

(11128/1)

الآيات التي تؤكد هذا المعنى، إذ "من عرف الله تعالى بالأدلة التي نصبها المعرفته ، فهو مؤمن ، ومرتبه في الإيمان أرفع من مرتبة من آمن به من غير علم ،(41).

لكن إذا كان ابن رشد الجد يدعو إلى النظر والاستدلال كما سيف حل الحفيد في "فصل المقال " حيث سيرفع النظر إلى مستوى الفعل المندوب ، فإنه لا يرى ضرورة أن يمر هذا النظر بطرق الأشعرية، وهو موقف آخر أكثر دقة يضيء أكثر موقف الجد الذي سينف حل به الحفيد إنفعالا كبيرا فيما يبدو.

(11129/1)

في نفس السياق ، وبصدد فتوى حول العلاقة التي ينبغي إقامتها مع المذهب الأشعري في تأسيس العقيدة(42)، بل وفي ثنايا الفتاوى جص حها، يقدم ابن رشد الجد قانونا في التعامل مع الأشعرية، وفي موضع من مواضع المقدمة الطويلة التي كتبها ابن رشد الجد مستفتحا بما كتابه "المقدمات الممهدات " يعرض ابن رشد الجد بشكل

(39) نم، ص 59.

(40) نم، صص 59–60.

(41) نم، ص 61.

(42) يبدو أن أول من نبه إلى أهمية هذه الفتوى في فهم "فصل ا!لقال " و"مناهج الأدلة" المرحوم جمال الدين العلوي (انظر المتن الرشدي ، دار توبقال ، ط 1، 1996 ،

(11130/1)

ص198).

غير مباشر لهذه المسألة، التي لا شك أن فهمها يضيء فهم كثير من مواقف ابن رشد الحفيد في م!ش وعه العلمي وخاصة في كتابه –مناهج الأدلة–.

وإذا كان ابن عبد البر يناصب علم الكلام برمته خصومة علمية مؤسسة، فإن ابن رشد الجد في الفتاوي يعتبر الألف حرية "العلماء على الحقيقة" لمعرفتهم بأصول الديانات ، ولعلمهم بالله عز وجل ، وما يجب له ، وما ينتفي عنه (43)، ويؤسس لذلك من الحديث الشريف . ومن هنا ينهى ابن رشد عن سب الألف حرية وتنقيصهم ،

ومن وحل ذلك يبصر أو يؤدب أو يستتاب ، وإلا ضرب (44).

لكن هل هذا

(11131/1)

الانتصار للأشعرية يعني أنه لا يكمل إيمان امرئ إلا بتبني طرق الأشعرية ومذهبهم في علم الكلام ؟

إن تثمين الجد للمذهب الأشعري لا يجعله على وفاق مع من يزعم أن الإيمان لا يكمل إلا على أصول الأشعرية ومذهبهم ، بل إننا نجده ينفى هذا المسلك عن الأشعرية الذي "لا يقر به أحد من أئمتهم ، ولا يتأوله عليهم إلا جاهل غبي، إذ لو كان الإيمان لا يكمل ، والإسلام لا يصح إلا بالنظر و"الاستدلال من طريق العقل على القوانين التي رتبها أهل الكلام على مذهب الأشعرية والمناهج التي نهجوها على أصلهم . . . ، لبين ذلك النبي صلى

(11132/1)

الله عليه وسلم للناس ، وبلغه إليهم . . . (45).

وما دام القران الكريم لم يدع الناس إلى الإيمان به من

طريق المتكلمين ، فإنه يجب تلمس طريق آخر لهذه المعرفة القلبية – العقدية. وهذا الطريق أسسته كثير من آي الكتاب العزيز عندما دعت إلى الاعتبار بالمخلوقات "وهو ما أمر الله به . . .،). إن في القرآن الكريم عند ابن رشد الجد كفاية عقدية، إذ "لا حاجة لأحد في إثبات التوحيد، وما يجب له من الصفات ، ويجوز عليه منها، ويستحيل وصفه بها، إلى سوى ما أنزله الله في كتابه ، وبينه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من الآيات

(11133/1)

التي نبه عليها وأمر بالاعتبار بها.. . "(46). ثم يسرد ابن رشد الجد جملة من آي الكتاب العزيز فيها

(43) مسائل أبي الوليد بن رشد، مرجع سابق ، ج 2 ، صص 837–838.

(44) مسائل أبي (ولإ...، مرجع سابق ، ص 838.

(45)نم ،ص 857.

(46)نم ،ص 858.

"من آثار الصنعة وليف الحكمة الدالين على وجود الصانع

الحكيم ، وأنه واحد، عالم ، مريد. . . " (47)، ويدعو إلى النظر فيها.

إن هذا المسلك هو الذي عول عليه سلف الأمة عند ابن رشد الجد، وهو "الواجب . إذ هو أصح وأبين ، وفي التوصيل إلى المقصود أقرب ، لأنه نظر عقلي بدير مركب على

(11134/1)

مقدمات من العلم ، لا ينفع الخلف في دلالتها،(48). ومن هنا ينش ابن رشد إلى أن "الاستدلال على ذلك بطريقة المتكلمين من الأشعريين ، وإن كان من طرق العلم الصحيحة، فلا يؤمن العنت على راكبها، والانقطاع على سالكها". ولذلك ترك هذا الاستدلال قديما، ويدعو الجد إلى تركه ، بل ويرى أن "من الحق الواجب على من ولاه الله أمر المسلمين أن ينهى العامة والمبتدئين عن قراءة مذاهب المتكلمين من الأشعرييين ، وفي يمنعهم من ذلك غاية المنع ، مخافة أن تنبو أفهامهم عن فهمها، فيضلون بقراءتها، ويلزمهم أن يقتصروا – فيما يلزم

(11135/1)

اعتقاده – على الاستدلال الذي نطق به القرآن ونبه عليه عباده في محكم التنزيل ، إذ هو بين واضح ، لائح يدرك ببديهة العقل ، بأيسر تأمل في الحين ...".

ويظل موقف ابن رشد الجد وسطا. فهو حين يمنع كتب عالم الكلام عن العامة، فإنه في الوقت نفسه يبيحها لمن "شدا في الطلب ، وله حظ وافر من الفهم)،، فهذا لا بأس له "أن يقرأها إذا وجد إماما فيها يفتح عليه منغلقها، لأنه يزداد بقراءتها، والوقوف عليها بصيرة من اعتقاده ، ويعرف بذلك فساد مذاهب أهل البدع ، واضمحلال شبههم ..."(49).

(11136/1)

أما القول بأنه "ت حين ... قراءة مذاهب المتكلمين من الأشعريين، والبداية بذلك قبل ف حليم ما يقيم به أمر الله من وضوئه وصلاته ، وسائر العبادات المفترضة عليه ، ويكفرون من خالف ذلك ...". فإن ابن رشد يعتبر هذا القول هو الكفر ب حينه ؟ "لأنهم إذا لم يصلوا ولا صاموا ولا حجوا حتى ب حرفوا الله عز وجل من تلك الطريقة الغامضة البعيدة حيدة، قد لا يصلون إلى س حرفة من تلك الطريقة إلا بعد المدة

(47)نـم ،ص 859.

(48)نـم ،ص 860.

(49)نـم ،ص 861.

(11137/1)

الطويلة، أو تنبو أفهامهم عنها جملة فيمرقون عن الدين ، ويخرجون عن جملة المسلمين "(50).

إن ابن رشد الجد إذن رغم انتصاره للأشعرية، فهو ينهي العامة عن قراءة كتبهم ، ويبيح هذه القراءة للخاصة. لكن ما يثير الاستغراب هو أن موقف الجد في عصر المرابطين كان ضد التوجهات الركية التي كانت تنهي عن عالم الكلام جملة. أما موقف ابن رشد الحفيد، فسيأتي أيضا على خلاف التوجهات الرسمية التي جعلت المذهب الأشعرية – في شخص ابن تومرت – المذهب الرسمي للدولة. فموقف الحفيد سيكون أكثر حدة وجذرية. ولعل موقفه أقرب إلى موقف ابن

(11138/1)

عبد انبر من موقف الجد، إذ سيذهب ابن رشد الحفيذ إلى انتقاد الطرق التي يتوسل بها الأشاعرة نقدا عنيفا، وينتقد الأساس الإبستمولوجي الذي يقوم عليه المذهب الأشعرية، لكنه سيجسد وصية جده في تقديم مقترح علمي للطريقة القرآنية التي أسست للعقيدة من منظور مختلف عن منظورالأشعرية، باعتبارها الطريقة الصالحة للعامة والخاضة على السواء! أما طرق الأشعرية، فتفتقر إلى البساطة القرآنية وإلى الأساس البرهاني العلمي(51).

(11139/1)

إن النظر واجب عند الجد، ولكن من غير طريق المتكلمين التي تذهب على كثير من الناس . وطريق الكتاب العزيز مسعفة في هذا المجال ، وهو ما سينافح عنه الحفيد في "الكشف عن منابع الأدلة" ذي النفحة العقدية الفلسفية والذي يقدم كثيرا من الأدوات لفهم مقاصد الخطاب الفلسفي عند ابن رشد. إن موضوع "الكشف عن ظابع الأدلة" كما يفصح عنه ابن رشد في مقدمة الكتاب يتعلق بالفحص عن الظاهر من العقائد التي قصد الشرع حمل الجمهور عليها، وتحري مقصد الشارع في ذلك بحسب

جهد ابن رشد واستطاعته ، مع وصف لاضطراب الناس في الشريعة بسبب ما

(11140/1)

عرض لهم الضلال من فهم

(50) نم ص 861–862.

(51) مناهج الأدلة ،في عقائد الملة ،تحقق محمود قاسم ، مكتبة الأنجلو مصرية، ط 2.1964 ، صفحات : 135–139–143–153–167.

مقصد الشريعة(52). لقد قدم ابن رشد ي "الكشف " العقائد الواجبة في الشرع التي لا يتم الإيمان إلا بها ، أو بعبارة أخرى، قدم ابن رشد الضروري في العقائد بمنهجية ترتفع عن حضيض المقلدين وشحط عن تشغيب المتكلمين كما أشار إلى ذلك في آخر "فصل المقال " مشيدا بالمنهجية العلمية التي دشنها الموحدون في الفضاء الثقافي للغرب الإسلامي(53)، وطبقها في كتاب

(11141/1)

"مناهج الأدلة، مقتفيا بذلك أيضا مقاصد جده القديمة وإن كان قد ذهب بها مذهبا أب حد تنزع عن عه لم الكلام كل فضيلة س حرفية .

المسألة الثانية :لكن ما العمل إذا أدى النظر العقلي البرهاني إلى حقيقة لم يستجب النص لها استجابة ظاهرة ؟ في هذا المجال أيضا يجد الحفيد لجده إجابة متميزة ودقيقة نومئ إليها بإجمال شديد.

إن تفكير ابن رشد في إشكال العلاقة بين الحكمة والشريعة لا يمكن فهمه دون رضي مه في السياق الفقهي الذي انبثق فيه ، خاصة عند ابن رشد الجد. ول حل إجابة ابن رشد عن هذا الإشكال في "فصل المقال " على شكل

(11142/1)

فتوى فقهية لا تفهم إلا من خلال هذا السياق الفقهي الذي طرحت فيه .

ففي " فتاوي " الجد نخد مسألة فقهية تطرح عليه ت حلق ب "ما يولد عليه الأطفال ومصيرهم ي الأخرى، وقدم الجد لهذه المسألة تحليلا يغلب فيه العرض العقلي على الاستشهاد النقلي متوسلا بالية التأويل والدليل

البرهاني. وعندما سيستقر رأي ابن رشد على الجواب الذي اختاره لهذه المسألة، سينطق بعبارة لا شك أنها ستترك أثرها العميق على شخصية الحفيد، وقد تكون وراء كثير من هواجسه العلمية. يقول الجد : "فإذا ثبت وتقرر بقي أم البرهان والدليل عليه ، وجب أن

(11143/1)

يصرف بالتأويل إليه ما خرج عن ظاهره من ص الآثار لاستحالة ورود الشرع بما ينافي

(52) المرجع السابق ، ص 134.

(53) فصل المقال ، نشرة ألبير نصري نادر، ط 3، دار المشرق ، بيروت ، ص 58.

العقل "(54). ثم يقدم الجد نموذجا لما ينبغي أن يكون عليه التأويل عند تعارض الدليل العقلي مع الحديث النبوي (55).

ولا شك أن هذه البذرة الفقهية قد نمت مع الزمن في فكر ابن رشد وأنتجت من جملة ما أنتجت كتاب "فصل المقال " الذي سيكون له تأثير على المشروع العلمي

عند ابن رشد، إلى درجة أننا لا نرى فقط هذه البذرة الفقهية تتشكل في

(11144/1)

تنظير محكم في "فصل المقال " الذي جاء على شكل فتوى فقهية وكأنه يذكر بفتوى جده قديما، بل نرى كتابا كبير" ككتاب "مما بعد الطبيعة" حاضرا نفسه في "فصل المقال ،(56). مما يطرح أسئلة عميقة في هذا الصدد حول علاقة ابن رشد الجد بالمشروع الفلسفي عند ابن رشد.أو بعبارة أخرى، حول التأثير العميق الذي مارسه الفقه في فلسفة ابن رشد.

إن كتاب "فصل المقال"، ذهب بفتوى الجد مذهبا قصيا كذلك كما وحل مع فتواه السابقة، لكن هذه المرة من أجل التأسيس كحمل التفلسف تأسيسا شرعيا، حيث استثمر ابن رشد ثقافته الفقهية العميقة في

(11145/1)

ذلك ، وهو ما يبدو للناظر في المفاهيم التي وظفها ابن رشد من أجل تحقيق مقصده (57)، وكذلك الآيات الكثيرة التي وظفها لذلك. لقد كان ابن رشد يدرك أن طبعة الخطاب ترتبط بطبيعة الخاطبين ، ولما كان كتاب "الفصل " موجها بالأساس إلى من يتشكك في شرعية

(54) يبدو أد أول من انتبه إلى هذه البدرة الفقهية إرنست رنان ، حين قال : "إن المكتبة الأهلية بباريس تضم مجلدا ضخما يحتوي على تلك المسائل الفقهية، التي كان يستشار فيها. وقد حوى هذا الكتاب – فيما حوى – فكرة جليلة ستراها مفصلة ميما بعد أجمل تفصيل أسدى حفيده وفي

(11146/1)

محاولة التوفيق بين الدين والعقل ، فكأن الحفيد أ على نفسه أد يتوسع في عرض آراء جده ، وأن يخرجها إلى حيز الوجود، في أروع صورة ("ابن رشد وفلسفته الدينية"، ص .14 . عن كتاب مسائل أبي الوليد ابن رشد الجد، مرجع سابق ، المجلد الأول ، ص 104.

(55)نم ،صص 576–577.

(56) انظر محمد المصباحي، "حضور كتاب "ما بعد الطبيعة" في كتاب "فصل المقال لابن رشد"، ضمن : تحولات في تاريخ الوجود والعقل ، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، دررا، صص 95–147.

(11147/1)

---

(57) من مثل مفاهيم : المباح – المخطور – الندب – الوجوب – الاتجار – البدعة – القياس الفقهي – الملة – أصول الفقه – الشرع – الفقيه – الفقه – الشريعة – الله تعالى – وغيرها من المفاهيم . . .

التفلسف ، اختار ابن رشد لخاطبته "الفحص على جهة النظر الشرعي ألا الفلسفي: هل النظر في الفلسفة وعلوم المنطق مباح بالشرع ، أو محظور، أم مأمور به ، إما على جهة الندب وإما على جهة الوجوب "(58). وقدم دفاعا ناجحا على المستوى النظري على الأقل ي إثبات ضرورة ممارسة التفلسف ، كما قدم في الكشف ، دفاعا نظريا في إثبات أهمية

(11148/1)

تخليص التفلسف والشريعة معا من تشغيب المتكلمين .

إن غرضنا هاهنا لم يكن تقديم قراءة مفصلة لهذين الكتابين الهامين ولا للفضاء الثقافي الفقهي الذي طبع شخصية فيلسوفنا. إن الذي قصدناه هو فحص عام للفرضية المشكلة التي زعمناها وهي : هل يمكن القول إنه يوجد كحل التفلسف عند ابن رشد بذور فقهية، أم أن هذا القول هو استيهام ليس إلا ؟! ويبدو أن النظر الموضوعي للمسألة بحل الجواب إيجابا أقرب إلى المعقولية من جواب آخر، وهو ما قد ينسج حبلا من وصال عميق آخر بين الفقه والفلسفة عند فيلسوفنا الفقيه أبي الوليد سواء على

(11149/1)

مستوى الكتابة أو على مستوى الآفاق النظرية التي فتحها. ويؤطر ابن رشد ضمن فضائه التاريخي الخاص الذي أملى عليه الأسئلة والإشكالات التي نذر عمره لتقديم إجابات ممكنة عنها، ويحررها ما أمكن ، مع شركائنا في فيلسوف قرطبة، من نظرة ضيقة قديمة تزعم أن ابن رشد لم يكن سوى وسيط بين الإسكولائيين وأجمعوا

(58) فصل المقال ، مرجع سابق ، ص 27.

Domi,ique urvoy, Ibn Rushd (Averroes) , **(59)**

.6p 1966Cariscript, Paris,

(11150/1)

قراءة حديثة في تاريخ الإمارات في ضوء المخطوطات العربية والوثائق البرتغالية والهولندية والبريطانية والمكتشفات الأثرية الأخيرة عصر النشأة ومجابهة التحدي البريطاني (1600 ـ 1900 م)

... ... الدكتور محمد مرسي عبد الله

... ... أبو ظبي

... ظهرت أول دراسة متخصصة لي عن تاريخ الإمارات في عام 1987 وهي من أوائل الدراسات الأكاديمية في هذا الموضوع. والآن وقد مضى عشرون عاماً على هذه الدراسة، أعود مرة أخرى إلى الكتابة عن تاريخ الإمارات لعدد من الأسباب الرئيسة وهي:

(11151/1)

... أولاً: جرى خلال العشرين عاماً الماضية أحداث كثيرة خلال عقد الثمانينيات والتسعينيات في داخل منطقة الخليج وفي العالم العربي وعلى مسرح الأحداث الدولية مثل قيام مجلس تعاون دول الخليج والحرب الخليجية الأولى والثانية إلى جانب اكتمال الوحدة الأوربية وانهيار الاتحاد السوفييتي والكتلة الشرقية وانفراد الولايات المتحدة بصفتها دولة عظمى في السياسة الدولية. وكل هذه الأحداث المحلية والعالمية ألقت بظلالها على أحوال الإمارات. وتطورت خلال هذه الفترة أيضاً الأحوال الداخلية في الإمارات في سرعة متلاحقة مذهلة،

(11152/1)

وتحققت على أرضها إنجازات حضارية وعمرانية هامة.

... وهذه كلها موضوعات جديدة وهامة، لم أعالجها بطبيعة الحال في كتابي السابق الذي نشرته عام 1978.

... ثانياً: يسر لي عملي في مركز الوثائق والدراسات خلال ثلاثين عاماً الإطلاع على ما جمعناه بالمركز من وثائق برتغالية وأخرى هولندية، وكذلك مجموعة الوثائق البريطانية المعروفة باسم »وثائق الوكالات«

ومجموعة وثائق جمبرون (بندر عباس). وكل هذه الوثائق تغطي فيما بينها تاريخ الإمارات في الفترة ما بين 1500 و1820، وهي فترة تمد المؤرخ بجذور الإمارات وموضوع نشأتها

(11153/1)

الذي أحجم المؤرخون عن تناوله بالتفصيل، بالرغم من أنه موضوع خطير. ولكن سبب إحجامهم هو قلة المادة العلمية. وتشمل هذه الفترة ظهور الإمارات بصفتها كيانات سياسية حديثة. وبدراستها، نفهم أسباب قيام هذه الإمارات ونعرف الجديد عن مسيرة الشيوخ المؤسسين الأوائل الذين قادوا هذه الإمارات من مرحلة القبيلة إلى عهد الإمارات والاتحاد والأحلاف السياسية. ... ومن المؤكد أن معالجة موضوع نشأة الإمارات لا يمكن أن يعتمد فقط على ما ورد في الوثائق الأجنبية مع تسليمنا بأهمية ما جاء فيها في بعض الأحيان. ولابد من البحث هنا

(11154/1)

عن المصادر المحلية من محفوظات مكتوبة أو تاريخ مرويّ عن المواطنين. وقد نشر أخيراً عدد من المخطوطات المحلية التي كتبها أبناء الإمارات، وطال شوقنا لقراءتها مثل مخطوطة "نقل الأخبار في وفيات المشايخ وحوادث هذه الديار" للعالم حميد بن سلطان الشامسي، وكذلك مخطوطة "الجواهر واللآلئ في تاريخ عمان الشمالي" للعالم عبد الله بن صالح المطوع. وقد بذل الدكتور فالح حنظل جهداً مشكوراً في تحقيق هاتين المخطوطتين.

... وقد كتبت هاتان المخطوطتان بعد الحرب العالمية الثانية. ولهذا نحن ما زلنا بحاجة إلى ما كتبه سعيد بن

(11155/1)

سرحان في المخطوطة العمانية "كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة" الذي كتب حوالي عام 1728، ومخطوطة المؤرخ العماني محمد بن رزيق "الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين" التي كتبها عام 1856. وقد حوت هاتان المخطوطتان الكثير من المعلومات المفيدة عن تاريخ الإمارات المبكر. وهكذا أصبح من الممكن والمتيسر لي لأول مرة تناول موضوع خطير كان من الصعب قبل الكتابة فيه عشرين عاماً، ألا وهو نشأة

الإمارات.

... ثالثاً: الإفراج عن مجموعة من الوثائق البريطانية ذات العهد القريب بين عام 1945 وعام 1966 حول الإمارات. وهذه

(11156/1)

الوثائق تكشف لنا الكثير من حقائق تاريخ الإمارات المعاصرة. ولم تكن هذه الوثائق متاحة لي حينما كنت أعد كتابي الأول أثناء دراسة الدكتوراه عام 1970، إذ لم يفرج عنها وقتذاك حسب قواعد الاطلاع في الأرشيف البريطاني والتي تقضي بضرورة مرور ثلاثين عاماً حتى يسمح بقراءة الوثائق. وهكذا تيسر لي اليوم أن أكتب بثقة أكثر، معتمداً على هذه الوثائق في تاريخ الإمارات، عن هذه الفترة الأخيرة والمعاصرة.

... رابعاً: إقامتي في الإمارات خلال الثلاثين عاماً الماضية، وجمعي للتاريخ المروي ولقاءاتي المتكررة مع المسؤولين

(11157/1)

صانعي القرارات ومع أهل العلم والدراية، ومشاهداتي الشخصية للأحداث ورؤيتي لصورة الإمارات وتطورها من الداخل .كل هذا أكسبني فهماً أكثر لشخصية صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان وصحبه الكرام أصحاب السمو حكام الإمارات، كما زاد درايتي بروح هذا البلد وشعبه وشخصيته المتميزة.

... إن دراستي الأولى التي صدرت عام 1978 تحت عنوان "دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها" يعالج تاريخ الإمارات في الفترة بين عام 1850 وعام 1975. وصحيح أنه ظهر في السنوات الأخيرة العديد من الكتب الجادة وخاصة من الباحثين

(11158/1)

المواطنين، ولكنها مثل كتابي الأول دراسات لدرجة الماجستير أو الدكتوراه. وهذه بطبيعتها لابد وأن تعالج فترة محددة لم تدرس من قبل. وقد ظهر منذ قريب كتاب قيم للدكتور سلوت عن عرب الخليج، اعتمد فيه على الوثائق الهولندية بدرجة كبيرة، ويعالج فيه أحوال الإمارات والخليج خلال القرنين السابع والثامن عشر. كما أننا نتوقع قريباً ظهور كتاب للدكتور أنطونيو دياس فارنها حول أوضاع الخليج بين عام

1500 و1700، معتمداً فيه على الوثائق البرتغالية. وهو كتاب مفيد أيضاً. وقد ظهر أيضاً الكثير من الدراسات التي اقتصرت على

(11159/1)

أحداث الحملة البريطانية على الإمارات عام 1819 أو عالجت فترة ما بين الحربين العالميتين، أو ركزت على منجزات دولة الإمارات العربية المتحدة بعد قيامها عام 1971. ولاشك في أن هذه الكتب كلها قيمة، ولكن يظل هنالك كتاب مفقود حتى يومنا هذا لم يظهر بعد، وهو الكتاب الأكاديمي الشامل في تاريخ الإمارات والذي يتناول نشأتها ويتتبع تطور أحداثها، حتى يحقق وحدتها في دولة الإمارات العربية المتحدة. وهو كتاب يحكي أيضاً قصة الإنجازات الحضارية الضخمة التي تحققت على أرض هذه الدولة ويتناول سيرة قائد مسيرتها صاحب السمو

(11160/1)

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان.

... وقد قمت بهذه الدراسة الأكاديمية الشاملة للإمارات تحت عنوان: "قراءة حديثة في تاريخ الإمارات 1600 ـ 1998". وقد جاءت هذه الدراسة في ثلاثة أجزاء كالتالي:

الجزء الأول : نشأة الإمارات ونهضتها ومجابهة التحدي البريطاني (1600 ـ 1900)؛

الجزء الثاني : بداية النهضة الحديثة وتحقيق الاتحاد في عهد زايد بن سلطان (1900 ـ 1998)؛

الجزء الثالث: الخرائط وشجرة نسب العائلات الحاكمة والرسوم البيانية.

... وقد عالجت موضوعات هذا الجزء الأول في أربعة أبواب:

(11161/1)

... الباب الأول: تراث الإمارات في المكان والزمان. وفي هذا الباب حاولت أن أدرس بشيء من التفصيل معالم ثقافة وجوانب شخصية سكان الخليج العربي الذي يعيش في إطاره أبناء الإمارات. ويذكر العالم الجغرافي البريطاني فيشر أن على كرتنا الأرضية بلداناً برزت وتميزت بشخصية معينة بسبب ظروفها الجغرافية مثل مصر

والصين وفرنسا، وقد وجدت أن الخليج العربي قد تشكلت له شخصية متميزة، نتيجة للعوامل الجغرافية الفريدة به، وخاصة الموقع الذي وهبه الله له، ونتيجة لأحداث التاريخ المحلية والإقليمية والدولية على مر العصور.

(11162/1)

... وهذا موضوع جديد أتاح لي الكتابة فيه تشجيع الحكام، وخاصة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، لعلماء الآثار بالتنقيب في أنحاء الدولة. وقد شهدت دولة الإمارات العربية المتحدة خلال الثلاثين عاماً الماضية أعمال تنقيب لم تعرفها دولة في العالم في مثل هذه الفترة القصيرة. وهكذا ـ بالعلم والتكنولوجيا الحديثة وبجهود العلماء ـ تكلمت أرض الإمارات الصامتة آلاف السنين، وحكت لنا لأول مرة قصة الإنسان الأول خلال ما قبل التاريخ على أرض الإمارات، وشرحت لنا تفاصيل حياة المستوطنات البشرية الأولى فيها ونشاطها وتطور

(11163/1)

فكرها وثقافتها. وقد أهمل المؤرخون طويلاً هذه المرحلة في الماضي بسبب ندرة المعلومات العلمية عنها، وظلت أخبارها تعيش في ظلام دامس. وتلك فترة رئيسة في تاريخ الإمارات؛ إذ هي سنوات بناء الأسس والأصول للتراث الذي تناقلته الأجيال، وفي إطاره يعيش ابن الإمارات اليوم. في هذه الفترة رسمت البيئة لسكان الإمارات احتراف الغوص، والاستئناس بالجمل، وزراعة النخيل، كما هيأت له حياة القبيلة في صحراء الإمارات اكتساب العادات والتقاليد العربية. واستفاد ابن الإمارات من موقع وطنه الفريد في الساحل الجنوبي لحوض الخليج

(11164/1)

العربي، وأسس لنفسه دوراً في التجارة العالمية منذ وقت مبكر في التاريخ البشري. فبنى السفن، واشتغل بالملاحة، ونقل التجارة. وهنا عرف ثقافات مختلفة، واكتسب قدرة على التعايش مع الآخرين، وقام بدور إيجابي في نقل الثقافة.

... ولاشك في أن ظهور الإسلام، والمشاركة الفعالة لأبناء الخليج في التاريخ العربي والإسلامي، قد أدّى دوراً كبيراً في تشكيل شخصية سكان الإمارات وثقافتهم؛ كما أن

الانفتاح المعاصر على العالم الخارجي أضاف عنصراً ثقافياً جديداً في فكر سكان دولة الإمارات العربية المتحدة وحياتهم.

(11165/1)

... أما الباب الثاني، وهو عصر نشأة الإمارات والاتجاه نحو الأحلاف السياسية (1600 ـ 1800)، فقد عالجت في هذا الباب موضوع نشأة الإمارات في القرن السابع عشر وقيام حلف القواسم وحلف بني ياس بعد نهاية النفوذ البرتغالي في الخليج في هذا القرن، وسقوط الدولة الصفوية في إيران عام 1722، وكذلك زوال نفوذ دولة اليهاربة في عمان في بداية هذا القرن. وهكذا نشأ فراغ سياسي في الخليج ملأته زعامات القبائل العربية المهاجرة من الداخل. وهنا شرحت الظروف التاريخية التي هيأت لانتقال سكان الإمارات من حالة القبيلة إلى الإمارة،

(11166/1)

وكيف انتقلوا منها إلى الأحلاف السياسية. وفي هذه المرحلة درست بشيء من التفصيل سيرة شخصيتين تاريخيتين: الأولى هي الشيخ رحمة بن مطر القاسمي مؤسس حلف القواسم منذ عام 1720، وعاصمته مدينة رأس الخيمة التي قامت على أنقاض مدينة جلفار القديمة؛ والشخصية الثانية هي الشيخ نهيان الفلاحي مؤسس أسرة آل نهيان حكام حلف بني ياس وإمارة أبو ظبي. وكانت عاصمته وقتذاك في واحة ليوا بالداخل. وكان تكوين هذه الأحلاف السياسية حدثاً تاريخياً عاماً في كل منطقة الخليج. وقد شارك أبناء الإمارات في ذلك إخوانهم من القبائل العربية

(11167/1)

الأخرى التي هاجرت في ذلك الوقت من نجد وداخل عمان إلى سواحل الخليج العربي. ووضعت هذه القبائل المهاجرة أسس الخريطة السياسية الحديثة للخليج اليوم. ظهرت إمارة آل صباح في الكويت وآل خليفة في البحرين ووضعت جذور حكم آل ثاني في قطر. وعاصر ذلك ظهور

حلف القواسم وحلف بني ياس.

... وكانت هذه الظاهرة في تلك الفترة من تاريخ المنطقة تعبيراً عن نهضة عربية لاستعادة الخليج العربي لمكانته الدولية مرة أخرى في التجارة العالمية، هي مرحلة يقظة عربية بعد التحرر من الغزو البرتغالي الذي دام بين عام 1507 وعام 1680. وقد

(11168/1)

رافق ظهور هذه الإمارات الحديثة إنشاء عدد من المدن العربية الجديدة مثل مدينة الكويت والزبارة والمنامة والبدع (الدوحة) وراس الخيمة وأبو ظبي. وقاد هذه الهجرات زعماء قادرون على إنشاء الكيانات السياسية والعناية بشؤون الاقتصاد التي هي سمة زعامات الخليج العربي.

... ولم يدم طويلاً انتصار العرب على الغزوة البرتغالية. إذ أن البرتغال كانت رأس حربة أوربا الناهضة وقتذاك لتحطيم منبع ثراء الاقتصاد العربي في الخليج. وظهر البريطانيون في صورة شركة الهند الشرقية الإنجليزية، ولكن سرعان ما تحولت الشركة إلى

(11169/1)

إمبراطورية في الهند وامتد من هناك نفوذهم إلى الخليج.

... ووجد البريطانيون في إمبراطوريتهم الجديدة في الهند تعويضاً عن ممتلكاتهم التي خسروها في العالم الجديد بأمريكا بعد الثورة الأمريكية عام 1889.

وازداد هنا اهتمام بريطانيا بالخليج العربي وأصبح يمثل في سياستهم الجديدة خط الدفاع الأول عن الهند.

... وفي الباب الثالث تحت عنوان »الإمارات فترة الأعاصير الإقليمية والدولية 1800 ـ 1855«، شرحت كيف لم يعش حلف القواسم وحلف بني ياس في السلام الذي عرفاه خلال القرن الثامن عشر ووفد النصف الأول من القرن التاسع

(11170/1)

عشر بالأعاصير الإقليمية والدولية بالنسبة لهما. في عام 1800 وصلت قوات الدولة السعودية الأولى إلى مشارف حدود الإمارات وجاءت حملاتهم إلى عمان مارة بالإمارات. واتخذت من واحة البريمي في عمان قاعدة لها.

وفي عام 1798 وصل نابليون إلى مصر وبدأ يخطط

لغزوته في الهند. وأسرعت الحكومة البريطانية في بومباي إلى عقد معاهدة مع السيد سلطان بن أحمد حاكم عمان واندفعت في تأمين مصالحها في منطقة الخليج. وسرعان ما حدث صدام بين حلف القواسم ذي القوة البحرية والذي اعتنق أفراده مذهب الإصلاح السلفي (الوهابي) وبين السفن

(11171/1)

البريطانية عند مدخل الخليج. وكانت الحملة البريطانية على موانئ القواسم وحصونهم وإحراق سفنهم في عام 1819. وقد كان لهذه الحملة نتائجها المباشرة في تحطيم حلف القواسم وتقسيمه إلى إمارات، فظهرت إمارة عجمان وإمارة أم القيوين. وعقدت بريطانيا مع الإمارات اتفاقية السلام الدائم عام 1820، واتفاقية أخرى للهدنة الدائمة عام 1853. وبعد عقد اتفاقية عام 1853، أطلق البريطانيون على الإمارات - حسب رؤيتهم - اسم الساحل المهادن.

(11172/1)

... ولما كانت كتابة تاريخ الإمارات تعتمد بصورة رئيسة خلال القرن التاسع عشر على الوثائق البريطانية بسبب وجود تاريخ وعلاقات مشتركة مع بريطانيا خلال هذا القرن نتج عنها ولاشك ضخامة حجم الوثائق البريطانية حول الإمارات بالنسبة لغيرها من وثائق الدول الأخرى؛ كما أن هذه الوثائق كتبت في الشارقة على مقربة من الأحداث، حيث كان للبريطانيين وكالة سياسية بها منذ عام 1825 بعد الحملة البريطانية ضد رأس الخيمة عام 1819 تمدهم بالمعلومات وأخبار الساحل.

(11173/1)

... لهذا نحن مضطرون إلى الاعتماد على هذا الحجم الهائل من الوثائق البريطانية في الكتابة عن تاريخ الإمارات. ولكننا نجد قلة معرفة البريطانيين للعرب عامة وقبائل الإمارات خاصة في هذه الفترة المبكرة لهم بين عام 1800 وعام 1900. وكان للبريطانيين خلال هذا القرن وكلاء لهم من أبناء الخليج. وجاء هذا التمثيل بعد حكم قاس ظالم للبريطانيين على القواسم؛ إذ أطلق موظفو حكومة بومباي البريطانية لقب القراصنة على القواسم، وسموا ساحل الإمارات ساحل القرصنة. وتخوف

البريطانيون من تعيين ضابط بريطاني في هذه الوظيفة خوفاً

(11174/1)

من قتله على يد أبناء القبائل الذين كانوا يصفونهم دائماً بالشراسة. وكانت العلاقة بين عرب الإمارات والبريطانيين بعد هذه الحملة شعوراً من العداء المتبادل؛ وهذا أمر طبيعي. ونحن نفسر هذا الوصف البريطاني لأبناء الإمارات بأنهم قوم شرسون في صورته الحقيقية، إذ هو عشق أبناء الإمارات وقبائلها للحرية ورفض منهم أن يقيم بينهم أجنبي بالقوة. وهذا الوكيل الأجنبي الممثل لبريطانيا ليس ضيفاً، بل هو يمثل دولة معتدية هزمتهم في معركة حربية عام 1819.

(11175/1)

... وليس هنالك أبلغ مما كتبه المستشرق البريطاني القس بادجر في مقدمة ترجمته لمخطوطة ابن رزيق عن عمان والساحل عام 1873، وذلك بعد أن فتحت له هذه

المخطوطة نافذة ليرى .بصفته أول أوربي .هذه البلاد من الداخل، وليس فقط العلاقات الرسمية الخارجية بين بريطانيا والحكام. انتقد بادجر في مقدمة كتابه هذا التقصير لدى حكومة الهند في معرفة أحوال القبائل العربية في عمان والساحل، وقال إنه بعد قرن من العلاقات السياسية والتجارية بين حكومة الهند من ناحية وعمان والإمارات من ناحية أخرى، فإن معرفة المسؤولين البريطانيين

(11176/1)

عن داخل هذه المنطقة مثل معلوماته تماماً عن منطقة البحيرات الكبرى في وسط أفريقيا آنذاك

... وسوف نجد .ونحن نقرأ الوثائق البريطانية في الجزء الثاني من هذا الكتاب في الفترة ما بين عام 1954 وعام 1971 .كيف تطورت لأول مرة معرفة البريطانيين عن عرب الإمارات، وذلك بعد أن حل الضابط السياسي البريطاني مكان الوكيل السياسي المحلي عام 1949. وبعد أن أصبح للبريطانيين معتمد في دبي عام 1954 وآخر في أبو ظبي منذ عام 1955. وهكذا رأى البريطانيون لأول مرة، بأعينهم هم، ما يجري في الداخل وفي الإمارات. وقد جاب في داخل

(11177/1)

الإمارات في تلك الفترة رجال البحث عن البترول. لهذا نجد كثيراً من هذه الأحكام المبكرة قد تغيرت. فكتب الرحالة البريطاني ولفرد تسيجر يصف البدو الذين عاش بينهم ولمس أخلاقهم عن قرب أنهم نبلاء العرب واختفى الوصف البريطاني القديم لهم أنهم قراصنة وشرسون، بل فضل الكثير من هؤلاء الموظفين البريطانيين الذين عملوا خلال الفترة من عام 1945 حتى عام 1971، سواء كانوا في السلك الدبلوماسي أو ضباطاً عسكريين في قوة ساحل عمان، البقاء في الإمارات بعد اعتزالهم الخدمة الرسمية، لما وجدوا من الحكام والأهالي من كرم وترحاب.

(11178/1)

... ولابد لقارئ الوثائق البريطانية أن يكون حذراً في قبول الأحكام البريطانية عن أهالي الإمارات في الفترة ما بين عام 1800 وعام 1949 عند كلامهم عن الأحوال الداخلية؛ إذ اقتصر وصفهم للشؤون الداخلية على تتبع أخبار فردية: فلان من قبيلة ما اعتدى على فلان من قبيلة

أخرى في المغاصات، وأدى هذا إلى قتال بين الإمارتين، أو فلانٌ لم يدفع ما عليه من دين في الغوص، أو جرى حادث ثأر ولجأ الجاني إلى إمارة أخرى. والواقع أن هذه الفوضى لم تكن لتحدث لو كان هنالك حكومة الحلف المركزية السابقة التي تمنع تكرار هذه الأحداث

(11179/1)

وتقيم العدل والنظام. ويعود السبب في ذلك إلى السياسة البريطانية التي وضعت كل همها في القضاء على سلطة القواسم وهيبة حكومتهم المركزية، ولم تنظر إلى ما وراء ذلك من تشجيع للفوضى الداخلية. لهذا أصبحت التقارير البريطانية خلال هذه الفترة أشبه بمحاضر الشرطة، ولكن أين إنشاء تجار اللؤلؤ للمدارس؟ وأين ما كان يدور في المجالس من شعر وأدب ومشاعر وطنية؟ لم ترد أي إشارة في التقارير البريطانية عن ذلك ولولا جمعنا لهذه المعلومات من صدور الرجال المعاصرين لها، لما عرفنا شيئاً عن هؤلاء الرواد من التجار والمعلمين،

(11180/1)

ولما عرفنا حقيقة المشاعر الوطنية والقومية.

... وفي دراستنا مثلاً لحادث دبي عام 1910 حينما نزلت قوة بريطانية مدينة دبي دون إذن من الحاكم للتفتيش عن السلاح، نجد الماجور كوكس المقيم البريطاني يصف الشيخ سهيل بن بطي حاكم دبي (1906 ـ 1912) بأنه حاكم ضعيفَ. لماذا يصف الماجورُ كوكسْ هذا الوصفَ؟ ذلك لأن الشيخ سهيل كما ذكر في تقريره كان يستمع إلى رأي أفراد العائلة الحاكمة وزعماء العائلات والتجار في المدينة، ورفض طلب كوكس بقبول ضابط بريطاني يقيم في دبي معتمَداً سياسيّاً، وكذلك قبول فتح مركز للتلغراف

(11181/1)

والبريد بريطاني في المدينة. إن الحاكم القوي في نظر البريطانيين في ذلك الوقت هو من ينفذ رغباتهم ويتجاهل مصالح شعبه وآراءه. وفي الواقع، إن هذه المشورة تعطينا صورة رائعة عن الكيفية التي كان يدار بها الحكم في الساحل وعن الكيفية التي كانت بها العلاقات وثيقة بين الحاكم والمحكوم.

... وقد حرصت عند قراءتي لهذه الوثائق على الحصول على المادة الضرورية لموضوعات بناءة لكتابة التاريخ. لقد

تتبعت في هذه الوثائق ما يتناول الأحوال الاقتصادية وتطورها، ودرست ما يفيدني منها مثل منع بريطانيا لعرب الإمارات من بناء

(11182/1)

السفن الكبيرة واستيراد الأخشاب من الهند بعد عام 1820 وكيف أدى هذا إلى عدم الاتصال المباشر بين الإمارات والهند وتدهور النشاط التجاري الواسع في الإمارات. ودرست منع بريطانيا الحكام من الاتصال بالدول الأجنبية منذ عام 1892 وحرمانهم من الاتجار مع الأجانب ومن إعطائهم أية امتيازات تجارية في الإمارات. كما بحثت نتائج العزلة التي فرضها البريطانيون على الإمارات وكيف حاول الحكام والأهالي مراراً كسر هذا الطوق.

(11183/1)

... وقد أتاحت لي الكتابة مرة أخرى عن دولة الإمارات الفرصة كي ألقي الضوء على الشخصيات التي أدّت دوراً تاريخياً مهماً سواء كانت هذه شخصية حاكماً أو عالماً أو

أديباً أو شاعراً أو تاجراً أثرى الحياة الاقتصادية أثناء القرن التاسع عشر. وهي فترة رئيسة في هذا الجزء الأول من الكتاب. واهتممت بالكتابة عن شخصية الشيخ سلطان بن صقر القاسمي (1803 ـ 1866) أمير حلف القواسم المفترى عليه، إذ حملت التقارير البريطانية كثيراً عليه وقدمته في صورة سيئة تختلف عن الحقيقة بسبب إصراره على تماسك حلف القواسم ومحاولته جمع

(11184/1)

شتات الإمارة ومقاومة السياسة البريطانية آنذاك التي عملت على هدم الكيان العربي في ساحل الإمارات في تلك الفترة المبكرة من تاريخ اليقظة العربية في الخليج. كما درست الدور التاريخي الذي أدّاه الشيخ شخبوط بن دياب (1790 ـ 1816) سواء في فترة حكمه أو بعد اعتزاله الحكم في إرساء قواعد إمارة أبو ظبي واتساع أراضيها. وكان، نتيجة لنقله عاصمة الإمارة من واحة ليوا في الداخل إلى مدينة أبو ظبي على الساحل، أن أطلق على إمارة بني ياس اسم إمارة أبو ظبي لأول مرة. وكانت إقامته في قلعة مريجب أواخر أيام حياته في منطقة

(11185/1)

العين سبباً في امتداد إمارة أبو ظبي إلى هذه المنطقة، وكذلك قدمت دراسة تفصيلية عن شخصية الشيخ مكتوم بن بطيء مؤسس إمارة دبي عام 1833.

... أما الباب الرابع، وهو «الإمارات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر»، فقد شرحت فيه كيف قامت في بداية هذه الفترة ثورة في الهند على الحكم البريطاني عام 1857، وأخمدتها بريطانيا بعد صعوبة وخسائر كثيرة في الأرواح. وقد ألغت الحكومة البريطانية شركة الهند الشرقية الإنجليزية، وأصبحت الإمبراطورية الهندية تحت النفوذ المباشر للتاج البريطاني، وعين نائب للملك بها. وقد أدى

(11186/1)

اهتمام بريطانيا بالإمبراطورية في الهند بعد فتح قناة السويس عام 1869 وتأمين الطريق إليها، إلى احتلالها لجزيرة قبرص عام 1878 من الدولة العثمانية، واحتلت بعد ذلك مصر عام 1882، ثم فتحت السودان عام 1899. ونتيجة لذلك كلِّه، زاد النفوذ البريطاني في الخليج والإمارات. وخلال هذه الفترة بين عام 1853 وعام

1900، ظهرت شركات الملاحة التجارية الهندية البريطانية المنتظمة في الخليج بعد أن قضى البريطانيون على دور القواسم وعرب الخليج في الملاحة البعيدة، ولم يكن ممكناً لعرب الخليج منافسة بريطانيا بسفنهم التقليدية

(11187/1)

مع استخدام بريطانيا للبخار وإنشاء شركات حديثة للملاحة وإنشاء خطوط التلغراف في المنطقة. وهكذا احتكرت بريطانيا التجارة الدولية في الخليج، وعقدت في عام 1892 المعاهدة المانعة مع حكام الإمارات وأعطت لاحتكارها صفة شرعية بهذه الاتفاقية؛ كما عزلت الحكام عن الاتصال بالدول الأجنبية والعالم الخارجي.

... وازداد تفكك حلف القواسم بعد وفاة الشيخ سلطان بن صقر القاسمي عام 1866؛ كما شغلت شخصية الشيخ زايد بن خليفة آل نهيان أحداث الإمارات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بين عام 1855 وعام 1909. وقد جمع الشيخ

(11188/1)

زايد بن خليفة بقوة شخصيته وشجاعته بصفته فارساً محارباً بالبادية حوله أكثر حكام الساحل المتصالح وتحالف معهم. وكاد أن يحقق حلم الإمارات في الاتحاد، ولكن السياسة البريطانية والمقيم البريطاني كوكس أحبطا محاولة الشيخ زايد بن خليفة في تحقيق طموحه وحلم أبناء الإمارات. وتأخر تحقيق هذه الفكرة حتى النصف الثاني من القرن العشرين. وقد جاءت حملة مدحت باشا والي بغداد العثماني عام 1871 بصفتها ردّاً لفعل النشاط البريطاني وازدياد نفوذ بريطانيا في الخليج. ولكن هذه الحملة لم تحقق مقاومة حقيقية للهيمنة البريطانية

(11189/1)

في الخليج. وفي نهاية هذا القرن شجّعت روسيا إيران على مد نفوذها على الساحل الإيراني في الخليج للحد من النفوذ البريطاني في هذه المنطقة. وقامت إيران باحتلال جزيرة صرى عام 1887 التابعة لإمارة القواسم؛ كما قضت آخر الأمر على هذه الإمارة العربية على الساحل الإيراني عام 1899. وبدأت إيران طموحاتها في احتلال

جزر أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى التابعة لحكام القواسم في إمارة رأس الخيمة وإمارة الشارقة. ومن هنا بدأت قضية هذه الجزر السياسية بين إيران والإمارات.

(11190/1)

... وإذا أردنا أن نلخص تاريخ الإمارات كما جاء في الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب، وذلك في إطاره العربي القومي وفي وضعه في السياسة الدولية، نقول إن نقمة أوروبا على هزيمتها في الحروب الصليبية في بيت المقدس وفشل محاولاتها في احتلال مصر بسبب قيامها بالدور الرائد أيام البطل صلاح الدين، هذه النقمة على العرب والمسلمين انتقلت غرباً. فاحتل النورماند صقلية، وتمكن البرتغاليون والإسبان من إخراج العرب من الأندلس. ولكن ظل الاقتصاد العربي المزدهر أحد أسباب قوة المسلمين الرئيسة، وتقدم البرتغاليون لضرب مركز

(11191/1)

هذا الاقتصاد العربي المزدهر، متمثلاً في مملكة هرمز وتجارة البحر الأحمر. ونجح البرتغاليون في تحويل التجارة الدولية عن منطقة الخليج إلى طريق جديد وهو خط الملاحة عبر جنوب إفريقيا. وبعد سقوط البرتغاليين في بداية القرن السابع عشر، ظن أبناء الخليج أن الفرصة قد جاءتهم لعودة مجدهم الاقتصادي التاريخي. وبدأت الهجرات، ونشأت إمارات حديثة. ولكن يقظة أوروبا كانت في تقدم مستمر، وتدفق عليهم المال من احتكار تجارة الشرق ومن غنى الأمريكتين. وجاء البريطانيون للهند والخليج وأحكموا قبضتهم على الاقتصاد العربي في

(11192/1)

الخليج. وبحرمان العرب من التجارة الدولية في الخليج، بدأت منطقة الشرق الأوسط تعاني رويداً رويداً من التدهور الاقتصادي. وتأثر البناء والتعليم والحياة عامة من هذا الحرمان بانقطاع شريان التجارة العالمية عبر الصحراء العربية إلى الموانئ العربية في الشام ومصر. وعرفت مصر الغنية مجاعات لم تشهدها في تاريخها الطويل كما يحكيها لنا المؤرخ الجبرتي. ولكن يشاء الله أن ينعم على منطقة الخليج بالبترول، وتحكي لنا

آخر إحصاءات تجارة الترانزيت الجوي والبحري في دولة الإمارات، وإحصاءات نشاطها الصناعي أن دخل هذه التجارة

(11193/1)

والصناعة قد أصبح موازياً لدخل البترول. وانتشر هذا الخير الجديد في دولة الإمارات ودول الخليج بصور مختلفة إلى البلاد العربية، متمثلاً في مشروعات اقتصادية مشتركة ومجالات عمل لكثير من أبناء الدول العربية. وهكذا عاد الخليج مرة أخرى بعد مرور أربعة قرون مركزاً هاماً للطيران والاتصالات الدولية، ومقراً لتجارة ترانزيت دولي وازدهار اقتصادي. وينعكس كل ذلك في صورة ازدهار علمي وثقافي عريض يعيد للحضارة العربية والإسلامية دورها في الحياة الإنسانية. ذلك، في كلمات بسيطة، تاريخ الإمارات في إطارها العربي والدولي.

(11194/1)

... وفي الختام، أسأل الله أن أكون قد وفقت في تقديم تاريخ أكاديمي للإمارات منذ ظهورها السياسي في القرن الثامن عشر في العصر الحديث حتى نهاية القرن التاسع

عشر، وأسأل الله تعالى أن يلبي هذا العمل حاجة طالب الجامعة، وأن يشبع رغبة المثقفين عامة في معرفة تفصيلية لهذه الفترة من تاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة.

... وآمل أن تشجع هذه الدراسة المؤرخين الشباب للبحث والنقد والكتابة في تاريخ وطن سجل أبناؤه في الماضي بداية يقظة عربية مع أبناء الخليج في العصر الحديث، كما سجل حكامه وشعبه اليوم بقيادة صاحب

(11195/1)

السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان أروع الخطى في البناء والإنجاز والمواقف القومية في التاريخ العربي المعاصر.

(11196/1)

قراءة في أدب الأطفال سيرة وتاريخ

... ... الدكتور نادي ساري الديك

... ... جامعة القدس المفتوحة . رام الله . فلسطين

أدب الأطفال من عصر البعثة المحمدية حتى عصر النهضة العربية

... كان للحياة في عصر ما قبل الإسلام صبغتها وقيمها. ومع بدء التنزيل القرآني، أخذ العرب ينشغلون به شيئاً فشيئاً حتى غدا همهم الأول والأساسيّ، الذي اتخذه عقيدة وجعله دستوره وأخذ يتعمق فيه من أجل الوصول إلى الهدف. وأما من عارضه، فقد جعله وسيلته من أجل الشك والطعن. إلا أن الطاعنين لم تخل آراؤهم من الإعجاب بالقرآن؛

(11197/1)

وقد وصفه أحدهم فقال: "والله إن له حلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر"(1).

... إن عناية المسلمين بالقرآن أدت إلى ازدهار العلوم وانتشار المعرفة، لأن فهم العرب والمسلمين للنص القرآني لم يكن قد سار في نسق واحد. لذا تعددت الدراسات القرآنية وانبثقت علوم متعددة عنها، أغنت الحياة الأدبية والعلمية معاً وأصبح بعضها مفاتيح لعلوم أخرى ظهرت فيما بعد.

(1) هند حسين طه، النظرية النقدية عند العرب، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، العراق، 1981، ص, 57.

(11198/1)

... ويعد القرآن دستوراً كاملاً متكاملاً، لأنه ناقش أمور الناس جميعاً الدينية والدنيوية. لذلك نجد فيه شتى أنواع المعرفة الإنسانية. ومن هذه الأنواع القصص القرآني، حيث جاء به عظة وعبرة للناس، لأنه يوازن بين الماضي والحاضر والخير والشر وغير ذلك كقوله تعالى {إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون، نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين }(1). وقد وردت القصص على لسان الحيوان والطير أيضاً كما قال تعالى: {حتى إذا أتوا على وادي النمل،

(1) سورة يوسف، الآية 2 ـ 3.

(11199/1)

قالت نملة: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، فتبسَّم ضاحكاً من قولها، وقال: رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين، وتفقد الطير فقال: ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين، لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتيني بسلطان مبين، فمكث غير بعيد فقال: أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإٍ بنبإٍ يقين }(1).

---

(1) سورة النمل، الآيات 18 ـ 22.

(11200/1)

... إن هذا الإخبار عن طريق الفن القصصي لم يكن جديداً على العرب، وكان يشكل محوراً من محاور الحوار في المنتديات والأسواق الأدبية التي عرفوها في تلك الأيام. والشعر العربي الذي خلفوه لنا من تلك الحقبة لم يكن ليترك هذا الأمر وهو أخبار وقصص القدماء، حيث تجده مليئاً بالأخبار دون تخصيص في نوعية محدودة منها، وهذا ما عناه النابغة الذبياني في قوله:

...

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه

إلا سليمان إذ قال الإله له

وخيس الجن إني قد أذنت لهم

فمن أطاعك، فانفعه بطاعته

ولا أحاشي، من الأقوام من أحد

(11201/1)

قم في البرية فاحددها عن الفند

يبنون تدمر بالصفاح والعمد

كما أطاعك وَادْلُلْهُ على الرشد(1)

...

... هذه المعرفة بالأساطير وعلوم الأولين جعلت الناس متفاوتين من قربهم للدين والعقيدة. من أجل ذلك، نجد الوثنيين قد هاجموا محمداً بأسلوب يرونه قريباً من الأسلوب القرآني، حيث تتشابه الأسلحة، كي يقللوا إعجاب الناس وافتتانهم بالقرآن الكريم إن استطاعوا حتى استعانوا بالنضر بن الحارث الذي يعي أساطير الأولين وأخبارهم حيث كان

---

(1) النابغة الذبياني، ديوان النابغة، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص. 33.

(11202/1)

النضر

... من شياطين قريش تعلم من الحيرة أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار. فكان إذا جلس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مجلساً فذكر فيه بالله، وحذر قومه مِمَّا أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة، خلفه في مجلسه إذا قام ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه فهلمُّوا إليّ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه (1).

... إلا أن الإيمان أخذ يتجذر في نفوس الناس بعد محاربتهم للكفر والإلحاد إذ غدت ملامح الخرافات والوثنية تزول رويداً رويداً، عن

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، القاهرة، 1955، ص. 300.

(11203/1)

طريق الصبر والجلد اللذين تمتع بهما أصحاب محمد عليه السلام. من هنا نرى أن الناس قد أصبحوا ميالين لسماع الأخبار عن البعثة ومريديها، حيث بدأت سمات النور تشخص في الوجود والنفوس. وقد أخذت أخبار الرسول الكريم تنتعش بسرعة مذهلة وبالذات بعد رحلة الإسراء والمعراج، لأن الناس قد سمعت أخباراً لم يعهدوها قبل الرسول محمد عليه السلام قط، لنرى أن أطفال المسلمين قد تاقوا شوقاً لسماع تلك الأخبار كي يزدادوا به إعجاباً وتقديراً "ويندس فريق منهم بين الكبار في حلقات المسلمين ليروا بطلهم العظيم رأي العين ويسمعوا

(11204/1)

منه"(1).

... وبذلك أخذ القرآن يغرس في النفوس، وصار الأطفال يدافعون حسب طريقتهم ومقدرتهم عن العقيدة الجديدة التي أخذت بلبابهم وقلوبهم معاً. وتزداد محنة المسلمين في مكة، ثم تتم الهجرة ليظهر لنا أول نص أدبي متكامل يصلح للأطفال، يتذوقه الكبار ويجدونه

قريباً فعلاً من النفوس والعقول، ألا وهو ذلك النشيد الذي استقبل به سيدنا محمد عليه السلام عند وصوله إلى يثرب مع صاحبه في الغار أبي بكر الصديق. وهذا النشيد بمثابة تعبير صادق عن شوق المجتمع

---

(1) أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، القاهرة، 1955، ص. 29.

(11205/1)

المدني آنذاك إلى الروحيّة الجديدة التي يرونها من خلال الهجرة الشريفة وتطلعاتهم نحو مستقبل أفضل. ولا غرابة في ملاقاة أهل يثرب رسول الله بالغناء وضرب الدفوف؛ وذلك تعبير صادق عن مشاعرهم أولا؛ كما أن طبيعة أهل يثرب أكثر ليناً واجتماعية من أهل مكة. وعلى وجه العموم، كان النشيد معبراً عن طبيعة العلاقة القادمة بين المهاجرين والأنصار، حيث لم يترك اليثربيون صورة حسنة وفاعلة من خلال بيئتهم إلا وألصقوها في هذا النشيد الصادق الناطق على الرغم من قصره.

طلع البدر علينا

وجب الشكر علينا

أيها المبعوث فينا

(11206/1)

جئت شرفت المدينة

من ثنيات الوداع

ما دعا لله داع

جئت بالأمر المطاع

مرحباً يا خير داع

... هذا الاستقبال جعل الناس جميعاً يستبشرون خيراً بالحياة القادمة. لذا بدأ الرسول الكريم ينظم المجتمع وفق منهج إسلامي رفيع المستوى، حتى نجده قد جدد مهام الشعب بكل شرائحه. وجاء ذلك إما فعلاً أو تقريراً منه عليه السلام. وكان لين القلب مع الأولاد وباقي الناس: فقد شوهد يقبل الإمام الحسين سبطه من الزهراء، حتى تعجب الأقرع بن حابس التميمي قائلاً: ‘‘"إن لي عشراً من الأولاد، فما قبلت واحداً منهم". فقال له النبي: "ما

أصنع لك إذا كان الله قد نزع الرحمة من قلبك؟"(1).

... ويروى أن عمر بن الخطاب قد رأى الحسن والحسين وهما يستمتعان بمداعبة الرسول لهما ويركبان على ظهره، فقال عمر: "نعم الفرس فرسكما". فأردف الرسول الكريم: "ونعم الفارسان هما".

... هذا يرينا أن الحب متبادل بين الرسول عليه السلام. ومن حوله من الناس وبالذات الأطفال، لأنهم ريحانة الحياة وصورة المستقبل وهم. كما يروى. أحباب الله؛ وكذلك إظهار مدى التعلق بالطفولة وتقديم أسمى ما يكون، ألا وهو المطاوعة

(1) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج 1، ص. 196.

والنزول إلى مستواهم والأخذ بيدهم. وذلك يدلّ على فلسفة لها أهميتها ومكانتها في التربية. روي عن الإمام علي كرم الله وجهه: "لا تربوا أولادكم على ما تربيتم عليه، لأنهم ولدوا لزمان غير زمانكم". وهذا

فيه امتداد لفلسفة الإسلام التي جاء بها القرآن الكريم وأكدها الرسول المصطفى بأقواله وأفعاله. وكيف لا يصنع الرسول ذلك وقد تربى في حجور بني سعد، وأخذ من البادية محاسنها وفصاحتها، زيادة على ما وهبه الله به من صفات تفرد بها عن غيره من المخلوقات. فقد كانت مرضعته حليمة السعدية ترقصه بما روي عنها:

(11209/1)

... ... يا رب إذا أعطيته فأبقه

... ... وأعله إلى العلا ورقه

... ... وادحض أباطيل العدا بحقه(1)

... وروي عن الشيماء، أخت الرسول في الرضاعة، أنها كانت ترقصه وتستبشر به خيراً:

... ... يا ربنا أبق لنا محمدا

... ... حتى أراه يافعاً وأمردا

... ... ثم أراه سيدا مسودا

... ... واكبت أعاديه معاً والحسدا

... ... وأعطه عزماً يدوم أبدا(2)

_____

(1) البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، دار المعارف، مصر، 1959، ص. 95.

(2) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، طبع مصر، 1328 هـ، ص. 123.

(11210/1)

... ولم يكن هذا حكراً على السعديين، وإنما قد فعله جده عبد المطلب معرباً عن فرحته بمولده الكريم:

... ... الحمد لله الذي أعطاني

... ... هذا الغلام الطيب الأردان

... ... قد ساد في المهد على الغلمان ...

... ... أعيذه بالبيت ذي الأركان

... ... حتى أراه بالغ البنيان

... ... أعيذه من شر ذي شنان

... ... من حاسد مضطرب العنان(1)

---

(1) البلاذري، أنساب الأشراف، المصدر السابق، ج 1، ص. 81.

(11211/1)

... إنا هنا نقرأ نصوصاً تنسب لأناس لهم علاقة بالنبي الكريم. وقد يشكك المرء في نسبتها، إلا أننا نقول ليس كثيراً أن نسمع ذلك من بيئة تعج بالشعر وبالقيم التربوية، بغضّ النظر عن شخصية الممدوح لأن ذلك إيضاح لصور الحياة وتفاعل الناس معها. ونردف أن ملامح النبوة قد ظهرت في آل عبد المطلب قبل مولد محمد وترسخت في محمد بعد ذلك وهذا ما أكدته السمات الخاصة والعامة للرسول الكريم. أضف إلى ذلك أن هذه الأراجيز تدل على مدى الفاعلية بين الابن وأهله، وخاصة إذا صدر عن إنسان كعبد المطلب وحليمة السعدية.

(11212/1)

... ولم يتوقف الأمر على الرسول عليه السلام وحده، بل استمرت العناية بالطفولة وقيمها لدى صحابته رضوان الله عليهم. فقد روي عن عبد الله بن عمر ملامة الناس له لمصاحبته ولده سالم. فأجابهم كي يريهم مكانة سالم في نفسه:

يلومونني في سالم وألومهم وجلدة بين العين والأنف سالم(1)

... بهذا نرى الصلة الفاعلة بين الابن وأبيه، إذ جعله في

مكان خاص له أهميته وقيمته. ويروى أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وهو يلاعب بنية؛ فقال له:

---

(1) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء، ج 1، طبع مصر، 1326، ص. 155.

(11213/1)

انبذها عنك، فوالله إنهن يلدن الأعداء، ويقربن البعداء، ويورثن الضغائن. فقال معاوية: لا تقل يا عمرو ذلك، فما ندب الموتى، ولا تفقّد المرضى، ولا أعان على الحزن مثلهن(1).

... إن رؤية الناس للأشياء مختلفة. هذا ما نقرأه في هذه النصوص، حيث تكون التربية وثقافة المرء فاعلاً حاسماً في خلق موقفه وبيان رأيه. وهكذا لم يكتف العرب بما روي عنهم تجاه الأولاد والبنات خاصة، بل نجدهم يمنون أنفسهم بأن يروا بناتهم وقد نضجن كي يتعززوا تجاه خاطبيهن:

---

(1) محاضرات الأدباء، المصدر السابق، ج 1، ص. 156.

(11214/1)

... ... يا ليتها قد لبست وصواصا

... ... وعلقت حاجبها تنماصا

... ... حتى يجيئوا عصبا حراصا

... ... ويرقصوا من حولنا أرقاصا

... ... فيجدوني عكراً حياصا(1)

... ولم يكتف المجتمع بما يسمع من أراجيز: إذ أخذ السمار يتحلقون حول أهل القصص والمهتمين بها. وازداد إقبال الناس على ذلك بعد الخلاف الذي حدث بين الإمام علي ومعاوية بن أبي سفيان، حيث سخر معاوية قصاصين خاصين يدعون له في المساجد:

---

(1) المفضل بن سلمة، الفاخر، طبع وزارة الثقافة، القاهرة، 1960، ص. 36.

(11215/1)

... وأما معاوية، فقد عين قصاصين رسميين يؤمون المساجد بعد صلاتي الفجر والمغرب يقصون الحكايات التي تتفق ودعوة معاوية، ويرجون له ولحكمه، ويدعون لآله وأهل الشام. ونشر ذلك في جميع الأمصار التي تحت يده. وحين خلص الأمر له وللأمويين من بعده، اشتعلت

العصبيات القبلية من جديد، وعادت القصص الجاهلية المتصلة بتلك العصبيات تروي فتبعث الخلافات بين المسلمين وتفض الأيام والمعارك والثارات القديمة بين القبائل، وتذكر العرب المسلمين بما قد نسوه منها في غمرة الإخلاص للدين(1)

---

(1) د. علي الحديدي، في أدب الأطفال، ص. 227.

(11216/1)

.

... هذا الأمر يجعلنا نستنتج أن القصص لم يكن هدفه الوحيد تربوياً، بل أصبح نفعاً سياسياً دون النظر إلى العواقب والخيارات، مما أذكى نار الفتنة من جديد بين القبائل من أجل كسب الانتصارات والأمجاد الفردية والأسرية كما هو الحال مع معاوية وأسرته الأموية، علماً بأن معاوية كان من الذين يشغفون بالسمر والمسامرة وحب الاطلاع على أخبار الماضين. حتى تعرف الناس إلى عبيد بن شرية الجرهمي، الذي وضع كتب الأخبار والسمر في عهد معاوية. واستمر التطور القصصي مع الأيام ليبزغ القصص الدينيّ ردّاً ـ كما نظن ـ لفعل القصص

(11217/1)

الذي يثير النعرات الجاهلية زيادة على التطور والتقدم وحاجة المجتمع إلى ذلك وقد لمع اسم وهب من منبه الفارسي الأصل في القصص الديني، لأنه من العارفين بأخبار الأساطير والديانات السابقة والشعوب المحيطة بالجزيرة العربية. لذلك أصبح القصص الديني يتخذ وسيلة إعلامية ناجعة من قبل الفرق الإسلامية لبيان رأيها من الأشياء كما هو الحال عند الخوارج، لأنهم عارضوا كفتي الميزان آنذاك (علي ومعاوية)، وأصبحوا يبثون أفكارهم وهمومهم عبر القصص الديني موضحين للناس الأسباب التي حدت بهم كي يقفوا من المعارك السياسية آنذاك

(11218/1)

موقفهم المعهود. إلا أن هذا النشاط المتتالي في نظم الحياة كافة لم يجعل المختصين يبرزون أدباً خاصاً بالأطفال وبالذات الرواة الذين دونوا الأدب العربي بعد روايته، مما جعل الناس يعيشون في حيرة من أمرهم تجاه هذا الموضوع الشائك والمهم في آن معاً. إذ لم يصلنا

إلا تلك المقطعات التي دونها المختصون من أغاني الكبار للصغار وهم يرقصونهم بواسطتها. وكان للعرب نصيب موفور من هذه المقطوعات الشعرية اشتهرت في أخبارهم، وأثرت عنهم في مجالسهم ومنتدياتهم ومنازلهم، وكانوا يتخذون هذا الترقيص بالغناء وسيلة ترفيه وتسلية

(11219/1)

للطفل. وبجانب ذلك، كانوا يبتغون به غرس جميل الخصال وحميد الفعال في ذهنه قبل أن يشتد عوده ويكبر. وقد تمكنت منه الأخلاق ونقشت في مخيلته الصفات وانطبعت في قلبه القدوة(1). ومن خلال ذلك نستطيع الجزم بأن العرب كانوا على دراية هامة وفاعلة بأصول التربية وقواعدها وقيمها، وكذلك أهمية الأدب تجاه خلق قاعدة صلبة في القيم والثقافة التي يريدون توصيلها لأطفالهم. فهم لم يجعلوا النصوص تسير وفق منهج واحد أو رؤية واحدة، بل تعددت

---

(1) أحمد عيسى، الغناء للأطفال عند العرب، المطبعة الأميرية، بولاق، 1936، ص. 3.

(11220/1)

أنماطها وأهدافها من أجل صفاء الروح وارتياح العواطف واطمئنانها، وإذكاء روح الخيال البناء كي يتم تزويدهم بالمعلومات والأفكار التي خطط لها وفق منهج وأسلوب مؤكدين، زيادة على المعلومات العلمية والتمسك بالروح الوطنية التي تجعلهم يفاخرون بالانتماء إلى أمة متجددة.

... وهذا ما نستشفه أيضاً من تصرف القبائل في ميلاد شاعر أو فارس، حيث كانت "القبيلة إذا نبغ فيها شاعر، أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر، لأنه من حماة أعراضهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد وشاعر ينبغ أو فرس

(11221/1)

تنتج" (1).

... هذا التعلق بالطفولة جعل عواطف الشعراء تستجيب للحدث فيما يخص الأولاد. فالمصاب يكون كبيراً .لا فرق في ذلك بين كبير وصغير .إذا اختطف الموت أحد الصبية كما فعل جرير في رثاء ولده "سوادة":

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم

لكن سوادة يجلو مقلتي لحم

قد كنت أعرفه مني إذا علقت

إلا تكن لك بالديرين باكية

من للعرين إذا فارقت أشبالي

باز يصرصر فوق المرقب العالي

رُعن الجياد ومد الغاية الغالي

---

(1) السيوطي، المزهر، ج 2، طبع الحلبي بمصر، ص. 473.

(11222/1)

فربَّ باكية بالرمل معوال(1)

... واستمر الأمر مع البيئة العربية، إذ يعبر كل إنسان عن العلاقة مع الأطفال بطريقة يراها مناسبة تصور نهجه وثقافته ومدى الفاعلية التي يخلقها نصه. لكن عملية بكاء الأبناء قد توجها ابن الروميّ برائعته التي تفور حزناً وألماً وصدقاً في التعبير واللفظ وكل شيء في نسج هذه المودة بينه وبين أبنائه الذين فقدهم في حياته: "هبة الله ومحمد وثالث لم يذكر اسمه في

ديوانه، ماتوا جميعاً في طفولتهم ورثاهم بأبلغ وأفجع ما رثى به والد

---

(1) جرير، ديوان جرير، دار صادر، بيروت، ص. 345.

(11223/1)

أبناءه"(1).

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي
توخى حمام الموت أوسط صبيتي
على حين شمت الخير في لمحاته
لقد قلَّ بين المهد واللحد لبثه
ألح عليه النزف حتى أحاله
وظل على الأيدي تساقط نفسه

جوداً فقد أودى نظيركما عندي
فلله كيف اختار واسطة العقد
وآنست من أفعاله آية الرشد
فلم ينسَ عهد المهد إذ ضم للحد
إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد

---

(1) عباس محمود العقاد، ابن الرومي. حياته من شعره، دار الكتاب العربي، بيروت، 1968، ص. 23.

(11224/1)

ويذوي كما يذوي القضيب من الرند(1)

... هذه الشفافية والصدق الذي نلمسه لا تجده في نصوص كثيرة، لأن هذا النص يجعلك تشعر بمصاب أليم ينقاد له الإنسان بعواطفه وفكره، والشاعر يضع الإبهام على الجرح ويقول هذا هو مكمن الألم، لذا يؤكد أن البكاء إحدى وسائل الشفاء والتقليل من تبعات الألم والحزن. إلا أنه لا يعيد الأمر إلى نصابه، وكذلك لا يستطيع أحد إدامة البكاء، لأن المسألة ليست بهذه السهولة: فهي ليست قراراً مادياً

---

(1) محمد النويهي، ثقافة الناقد الأدبي، ط 2، مكتبة الخانجي، بيروت، 1969، ص, 345 وما بعدها.

(11225/1)

يتخذه الإنسان؛ فقد لا تستجيب حاسة الدمع لمطلب الإنسان. فيزداد نكده وهمه على الدوام. لذا تكون العين وسيلة شفاء، لا طريق خلاص من الألم.

... من هنا نقول إن مثل هذه العواطف والدموع لا تصدر إلا عن نفس ملتاعة. وهذا يرينا جلل المصاب في الابن، لأنه جزء متنتال من الإنسان نفسه. إلا أن هذا الأمر لا يجعلنا نستعيض بهذه الأشعار عن أشعار خصصت للأطفال مهما كانت رقتها وجدواها. إن مشاعر ابن الرومي تمثل مشاعر أي إنسان صادق أصيب بإحدى فلذات كبده ونفسه. لذلك يتيقن لنا مدى أهمية النص الشعري لدى العربي حتى نسمع ونقرأ

(11226/1)

عن قادة هذه الأمة وهم يوصون مربي أولادهم كي يعلموهم الشعر: فهو ميزان القول وصناعة الأمة في بداية عهدها. والحاجة إلى التعبير الصادق جعلت العرب تقول شعراً كما فهم صاحب "العمدة"، لأن كلامهم كان منثوراً حتى احتاجوا إلى الغناء:

... فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقهم وطيب أعراقهم وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأمجاد وسمحائها الأجواد لتهز أنفسها إلى

الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم. فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام. فلما تم لهم وزنه، سموه شعراً لأنهم شعروا به، أي فطنوا(1)

---

(1) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ج 1، بيروت، 1972، ص. 16.

(11227/1)

.

وأخذ بهذه الوصية الإمام الغزالي رحمه الله وزاد عليها "أما الإمام الغزالي، فيرسم الطريق واضحاً ويؤمن على قول من سبقه مضيفاً إلى ذلك أحاديث الأخبار وحكايات الأبرار" (1). من هنا جاء كتابه "أيها الولد" معبراً عن موقفه في التربية وأثر الإسلام في موضوعاتها، إذ يعد كتابهُ معلماً واضحاً لرؤية فلسفية تحقق بعض السعادة للأطفال من خلال بيان حقوقهم وواجباتهم. ولحق به ابن خلدون صاحب الفلسفة والتفكير المنطقي.

---

(1) محمد الشنطي، في أدب الأطفال، ص. 172.

(11228/1)

... ولا يقف هذا الأمر عند هذا الحد، بل استمر بنقليات عدة. لكننا لا نجد نصوصاً أدبية بمفهومها الشمولي والمستقل معدة للأطفال إلا ما يتلمسه المرء في مسرح خيال الظل وأولياته عند الفاطميين كما سنورد ذلك في حينه. ونعتقد أن السبب الرئيس لعدم استقلالية نص أدبي كما هي النصوص في يومنا يعود لأسباب منها:

... 1 .أن الضياع الذي تعرض له تراثنا العربي بسبب الحرق والدمار والحروب وغير ذلك أدى إلى فقدان الشيء الكثير من أدبنا وفكرنا.

(11229/1)

... 2 .أن من قام على رواية الأدب والثقافة العربية وتدوينها أظنهم أغفلوا مثل هذا الأمر (النصوص إن وجدت). وذلك مرتبط بالبنية المجتمعية للوطن والمواطن في البلاد العربية.

... 3 .أن طبيعة البنية الاجتماعية كانت تنظر إلى الطفولة بصفتها مرحلة انتقالية، أي هي بمثابة معبر وجسر ليس غير. لذا كانت القبائل العربية توفد أبناءها للصحراء من أجل صلابة الأجساد وفصاحة اللسان

وملكة القول والبيان.

... 4 ـ أن ما سبق يؤكد عدم اهتمام العرب، ولا سيما في العصور اللاحقة للإسلام، بشيء اسمه أدب أطفال، وذلك نتيجة للصراع

(11230/1)

القائم والشدة التي يحتاجونها، بحيث نجدهم يسمون أولادهم بأسماء صعبة خشنة فيما يسمون جواريهم وخدمهم بأسماء رقيقة عذبة حتى قال أحدهم بعد أن سئل عن ذلك: "خدمنا لنا، وأولادنا لعدونا". بهذا كانوا يعتقدون أن الطفولة مرحلة مكملة للرشد أو معبر لها، وكأنهم لا يريدون هذه المرحلة. ففاقد الشيء لا يعطيه، بمعنى إذا كان الأطفال بعيدين عن أسرهم وبيئاتهم وكذلك يعدون جسدياً ونفسياً كي يكونوا أقوياء لملاقاة الأعداء فكراً وجسداً، فلم يكون النص الإرثي المحبب لديهم. وهذا ما ينطبق على جل الحضارات السابقة باستثناء

(11231/1)

الحضارات العربية في العراق ومصر التي عرفت قبل آلاف السنين.

...

أدب الأطفال عند العرب في العصر الحديث

... لم يحدد قطعاً تاريخ بدء عصر النهضة في الوطن العربي. إلا أن بعض الباحثين يجعل ذلك متمثلاً في الحملة الفرنسية على مصر عام 1798 م، في حين نرى من يعتقد بأن عصر النهضة يبدأ مع أول بعثة علمية أرسلها المصريون زمن محمد علي إلى أوروبا وكان ذلك عام 1824 م. ويبتعد آخرون عن هذين التاريخين ويضعون عام 1908 يوماً للنهضة العربية، وتمثل في إعلان الدستور العثماني الذي ساوى بين القوميات والديانات والثقافات،

(11232/1)

مما حدا بالشعوب الخاضعة لتركيا إلى تأييد هذا الدستور وإعلان ذلك صراحة دون مواربة. والذي نميل إليه أن بوادر النهضة لم تتمثل في تاريخ محدد من التواريخ المذكورة، بل نجدها قد ظهرت نتيجة لعوامل داخلية وخارجية، غير غافلين عن أثر تلك الأحداث والسنين التي مرت وعصفت بالوطن العربي أرضاً وشعباً

وتراثاً وثقافة. إلا أن الأساس ينبع من روحية الشعب الذي تتجسد فيه العملية التواصلية والشوق للحرية واللحاق بالركب الحضاري والإنساني.

(11233/1)

... إن المتتبع للمسيرة الحياتية للوطن العربي يجدها قد عكست على الأدب أيضاً وبالذات أدب الأطفال، لأن ما دون من أراجيز وأغاني لترقيص الأطفال لم يكن ليعد أدباً معداً للأطفال. ومثل هذا ليس عيباً أو خذلاناً لتاريخ أمة يمتد لآلاف السنين، وإنما يعود لعوامل عدة منها ما هو داخلي ومنها ما هو خارجي. إلا أن الخير وتوابعه كان يشكل محور الحكايات والقصص التي تسرد للطفل العربي المسلم، والتي تحمل في طياتها فلسفة التقوى والمحبة والاندفاع صوب عمل الخير.

(11234/1)

... وبما أن النهضة الأوروبية أسبق إلى الوجود من النهضة العربية في العصر الحديث، فقد كان أدب الأطفال عند الكتاب الأوروبيين أسبق إلى الحياة من

الكتاب العرب، لأن الأدب مطاوع للحياة ومتفاعل معها وليس مصوراً لها فقط من هنا نقول إن العرب في مطلع القرن التاسع عشر قد بدأوا يفكرون ملياً وجدياً في خلق أدب له فلسفته الخاصة بمراحل الطفولة كلها من أجل بناء مجتمع يعتمد على نهضة فكرية علمية لا شكلية قشرية. بهذا نجد أن الفارق قرنان من الزمن بين ظهور الأدب العربي المعد للأطفال ونظيره الأوروبي. فالسبق دائماً

(11235/1)

لمن يتقدم في أوليات النهضة وتسخر الحياة ومعطياتها من أجل الحياة المتطورة. وهذا ليس غريباً حقاً، لأن أول كتاب نقدي منظم بمنهجية علمية مبوبة ظهر على يدي ابن سلام الجمحي في القرن التاسع للميلاد، في حين لم يكن الأوروبيون يعرفون معنى لكلمة النقد. وكانت أوروبا تتخبط في الحروب الداخلية وطغيان الإقطاع، إلا أن الحضارة العربية وصلت إلى أوروبا بطرق شتى، وبالذات عن طريق طلبة العلم الوافدين للأقاليم العربية آنذاك، مما جعلها قاعدة مثلى لانطلاقة الحضارة الأوروبية في إبان عصر النهضة الأوروبي الحديث. وليس مثل

(11236/1)

ذلك بجديد، لأن امتزاج الشعوب واختلاط الأجناس وتداخل الحضارات والثقافات يؤدي إلى نهضة مؤكدة في الأمة التي تريد ذلك مع إرسال أول بعثة عربية مصرية إلى أوروبا في زمن محمد علي، أخذت الثقافة العربية تتلاقح مع الثقافات الأوروبية وبالذات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية فيما بعد. وبهذا، نقول إن أدب الأطفال بدأ يدخل قلوب العرب وعقولهم عن طريق طلبة البعثة العربية المصرية (إذ ظهر في البلاد العربية ـ زمن محمد علي باشا في مصر ـ مترجماً)، ونتيجة لاختلاط الأدباء والشعراء العرب بأدباء وشعراء الغرب. وكان أول من

(11237/1)

قدم كتاباً مترجماً عن اللغة الإنجليزية إلى الأطفال هو رفاعة الطهطاوي الذي كان مسؤولاً عن التعليم في ذلك الوقت. وكان الطهطاوي مربياً فاضلاً ومثقفاً ثقافة عربية إسلامية: فهو قد تخرج في الأزهر الشريف، ثم ألحقه محمد علي بالبعثة العلمية مرشداً روحياً لها. وكان أدب الأطفال قد وصل أوجه في فرنسا وتمثل في

كتابات تشارلز بيرو. عندئذ بدأ الطهطاوي بترجمة هذه الآداب المعدة للأطفال. فترجم قصصاً تعد من حكايات الأطفال، وأدخل قراءة القصص منهاجاً في المدارس المصرية(1)

---

(1) علي الحديدي، الأدب وبناء الإنسان، جامعة ليبيا، 1973، ص. 230.

(11238/1)

.

... ولم ينحصر دور الطهطاوي في الفترة التي كان فيها ملازماً للبعثة في فرنسا، بل تعداها إلى ما بعد عودته إلى وطنه مصر، وأصبح مسؤولاً عن التعليم. لقد أصبح يعي ما يفتقر إليه أطفال أمته وما يعانونه من جدب وفقر وحرمان في هذا الباب: لقد كان على علم بما يعانيه الأطفال العرب من جدب في الخيال، وفقر إلى التسلية الرفيعة، وقحط في الترفيه التراثي. استعان بكتب الأطفال الأجنبية وأمر بترجمتها ليقرأها التلاميذ المصريون. وكان رفاعة جاداً في أن يستعين في سياسته التعليمية بما يوضع أو يترجم من كتب حديثة. ومن ذلك

(11239/1)

ما كتبه لوكيل الحكومة المصرية المقيم في لندن سلحدار إبراهيم باشا بأن يرسل كتباً مطبوعة ومؤلفات للصغار والتلاميذ بحيث تميل أذهانهم إليها(1).

... إلا أن أدب الأطفال خفت ضوؤه، بل كاد أن يتلاشى بعد وفاة رفاعة الطهطاوي؛ إذ تدهور التعليم في مصر إلى حد كبير، مما جعل هذه الجذوة من الأدب تخفت وتكون من المنسيات تقريباً. فلم يهتم أولو الأمر بالعلم بوجه عام. فتضعضع أدب الأطفال، لأنه من الاهتمامات الحديثة العهد إلى حد ما. وبما أن أدب الأطفال صعب

---

(1) علي الحديدي، في أدب الأطفال، المصدر السابق، ص. 243.

(11240/1)

المراس ويحتاج إلى متمرسين بأمور شتى من الحياة زيادة على الميل النفسي والروحي، فقد ابتعد عنه جل الأدباء. لكن العملية لم تنعدم تماماً؛ فقد ظهر الكاتب محمد عثمان جلال في حكاياته تحت عنوان "العيون

اليواقظ في الأمثال والمواعظ". وهذه الحكايات جاءت خليطاً من البناء المعرفي والثقافي والتاريخي: إذ نجد روحية الأدب الفرنسي و"حكايات" لافونتين إلى جانب مرويات "ألف ليلة وليلة" وغيرها مما جاءت به الذاكرة المصرية عبر الأفواه والقصص الشعبي المتداول. وكما يعتقد الدكتور محمد غنيمي هلال، فإن "هذه الحكايات يمكن أن

(11241/1)

تكون موضوعاً لدراسة معمقة في الأدب المقارن"(1).

... وعلى الرغم من هذا التوجه الذي جاء به العلامة جلال، فإن المتتبع لا يجد قيمة حقة ـ من حيث الميول والمحاكاة للأطفال ـ في حكايات محمد عثمان جلال، وإنما هي عبارة عن أبيات منظومة حوت معلومات وأفكاراً وثقافات متعددة لم تخصص لمرحلة عمرية معينة؛ إلا أن مستواها العام أقرب إلى فكر وعقل الكبير منها إلى الطفل الصغير. لذلك نعتقد أنها أهملت ولم تحسب على أدب الأطفال، نظراً لركاكة أسلوبها وما تضمنته من

---

(1) محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، صص. 176 ـ 177 وغيرها.

(11242/1)

أخطاء لا توصف قد تضر ببنية الطفل العلمية والأدبية أكثر مما قد تفيده، لأن الأطفال يتلقفون معلوماتهم دون تمحيص، ولا سيما في مراحلهم العمرية الأولى؛ وبذلك تكون السلبية فيها أكثر من الإيجابية.

... وتلا جلال الكاتب عبد الله فريج بما قدمه في كتابه "نظم الجمان من أمثال لقمان" والذي يضم خمسين أرجوزة تقريباً. والذي يقرأ العنوانين السابقين يجد الكاتب قد تمسك بالسجع على طريقة المتأخرين في اختيار العنوانات. وهذه الأراجيز عبارة عن معلومات أقرب إلى ذوق الكبار منها للصغار، وبهذا تكون حكايات جلال أقرب إلى

(11243/1)

الطفولة من أراجيز عبد الله فريج، وكان ذلك عام 1893، أي بعد صدور حكايات جلال.

... إلا أن أدب الطفولة عند العرب قد بدأ فعلاً على يدي الشاعر الكبير أحمد شوقي الذي تثقف ثقافة عربية إسلامية قبل ذهابه لفرنسا لدراسة الحقوق، ومن ثم

تثقف بالثقافة الأوروبية، والفرنسية منها على الخصوص. وهذا ما عناه طه حسين في كلامه عن شوقي: فحينما "ذهب إلى فرنسا في آخر القرن الماضي إذا ذكر الشاعر، ذكر لمارتين و"بحيرته" التي ترجمها إلى العربية أو ذكر لافونتين وأساطيره؛ وإذا ذكر الفلسفة، ذكر جون سيمون. ومن المحقق أن آثار

(11244/1)

لامارتين ولافونتين آيات من الأدب الفرنسي "(1).

... إن تطعيم شوقي لثقافته جعلت منه إنساناً متمرساً إلى حد كبير، وبالذات في الموضوعات التي تحتاج إلى ثقافات مزدوجة كما هو أدب الأطفال والمسرح. وهذا لا يعني أن شوقي لم يكن مجيداً في الفنون الأخرى، بل يعد شاعراً عربياً من الطراز الأول في العصر الحديث.

... من هنا نقول إن ثقافة شوقي العربية الإسلامية جعلت منه إنساناً ميّالاً إلى حب المعرفة والتجديد. وبذلك توجه صوب أدب الأطفال الذي يحتاجه

---

(1) طه حسين، حافظ وشوقي، ط 4، مكتبة الخانجي، مصر، 1958، ص. 100.

(11245/1)

الوطن العربي إلى جانب احتياجاته في ضروب الحياة الأخرى من فكرية وعلمية وثقافية وغيرها. فبدأ ممارسة الكتابة للأطفال، إذ قال:

... وجربت خاطري في نظم الحكايات على أسلوب لافونتين الشهير. وفي هذه المجموعة القصصية التي صدرت عام 1898 شيء من ذلك فكنت إذا فرغت من وضع أرجوزتين أو ثلاث، أجتمع بأحداث المصريين وأقرأ عليهم شيئاً منها، فيفهمونها لأول وهلة ويأنسون إليها ويضحكون من أكثرها، وأنا أستبشر لذلك وأتمنى لو وفقني الله لأجعل للأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المستحدثة منظومات قريبة

(11246/1)

المتناول يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم(1).

... وقد اعتمد شوقي الحكمة وإيصال المعرفة بأسلوب غنائي جميل وبكلمات رقراقة فاعلة، مما يجعلنا نشعر بغنائيته الطافحة حتى في مثل هذه المواقف. إلا أن نتاج

شوقي، ولا سيّما الحكايات البالغة أربعاً وخمسين حكاية لم تكن جميعها معدة للأطفال، وذلك لأسباب عدة منها رمزيتها والتعريض بها أو أسلوب الجنس فيها والتعقيد الذي نلمسه في ثنايا بعضها. وهذه الأمور وغيرها جعلت الدارسين لها يميزون ما يصلح

---

(1) أحمد شوقي، الشوقيات، "المقدمة"، دار الكاتب العربي.

(11247/1)

للأطفال وما لا يصلح، بمعنى أنه أعلى من مستوياتهم وثقافاتهم. والسبب يعود إلى من جمعها: إذ جمعت وطبعت في الجزء الرابع من "الشوقيات"(1).

... وشوقي بحدسه وبطبيعته الإنسانية وميله الأدبي عرف ما للأدب من قيمة لدى الأطفال، فكان نتاجه إليهم. وما استخدامه الحيوانات والحديث باسمها إلا دلالة واضحة وذكية منه على فهم نفسية الطفل، علماً بأن شوقي لم يكن المبتدئ في هذه النتاجات الأدبية على لسان الحيوان، وإنما وجدت من زمن الحضارات العتيقة (عربية وهندية

(1) ... انظر الشوقيات، الجزء الرابع، صص. 94 ـ 158.

(11248/1)

وغيرها). وما كتاب "كلية ودمنة" سوى أحد الشواهد على ذلك فالحيوانات، بصداقتها المتنوعة مع الأطفال، تشكل جسراً فاعلاً وناطقاً في نقل المعرفة، فهي تشكل الجوانب المتعددة من صورة الطبيعة وتقلباتها. ... من هنا جاءت دروس العظة والأخلاق الحميدة والتهذيب النفسي في أناشيد شوقي وحكاياته. فهو سبيل فاعل وبناء في تهذيب النفوس وإرشاد الضمائر والعقول صوب الخير الفاعل، فكان يأتي بالصورة ونقيضها كي يقرب المراد إلى الأطفال بصور مشوقة ويعرفهم الخير والشر وكلاهما يسيران جنباً إلى جنب في دهاليز الحياة ونظمها مع

(11249/1)

الإنسان. وبذلك نجد شوقي وقد أخذ ينظم حكاياته وفق الأمثال والحكم والقصص المتداولة والمعروفة لدى الناس في مجتمعنا العربي تقريباً. ومن منظوماته الشيقة

والفاعلة قصيدة "اليمامة والصياد" التي حاول إيصال مقولة مشهورة بواسطتها، وهي "مقتل المرء بين فكيه" أو "لسانك حصانك إن صنته صانك وإن أهنته أهانك" و"من تدخل في ما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه".

يمامة كانت بأعلى الشجرة
فأقبل الصياد ذات يوم
فلم يجد للطير فيه ظلاّ
فبرزت من عشها الحمقاءُ

آمنة في عشها مستترة
وحام حول الروض أيّ حوم
وهم بالرحيل حين ملاّ

(11250/1)

والحمق داء ما له دواء

يا أيها الإنسان عما تبحث؟
ونحوه سدد سهم الموت
ووقعت في قبضة السكين
"ملكت نفسي لو ملكت منطقي"

تقول جهلاً بالذي سيحدث

فالتفت الصياد صوب الصوت

فسقطت من عرشها المكين

تقول قول عارف محقق:

... ففي هذه المقطوعة الجميلة يبدأ الشاعر بالإخبار حول مكانة اليمامة وعلاقتها بمحيطها، وكيف كانت مستقرة آمنة البال والخاطر بعلاقتها بالعش الذي صنعته بغريزة الحياة والأمل الآتي. إلا أن هذا الأمل قد تشوبه شوائب وتحول دونه عواقب جمة ووخيمة. وتمثل ذلك في بحث الصياد عن فريسة يكون من السهل

(11251/1)

اقتناصها، علماً بأن عملية البحث تلك لم تكن ميسورة أو سهلة في أي حال من الأحوال، حتى غدت من المستحيل، إذ أراد الصياد مغادرة المكان لعدم توافر ما يبتغيه؛ لكن تدخل المخلوق في ما لا يعنيه يجعله يهوي في مهالك الردى. وهذا ما تمثل مع الباحث والمبحوث عنه (الصياد واليمامة). وتأتي هنا العملية التكاملية في كيفية سقوط الضحية، وإن كانت هي السبب في ذاك

السقوط المتمثل في عدم امتلاك المنطق أو أسس التفكير. وجاء ذلك عن طريق السؤال الذي هو وسيلة السقوط ونهاية حياة مبحوث عنها كي تنتهي وقمين بالطرف الآخر الحفاظ

(11252/1)

عليها. لذلك تعانقت الأضداد، فهوت إلى مكان لم تكن لتنزل فيه لولا تدخلها في لحظة اليأس من الطرف الآخر كي ينتظر الجاني ضد ضحية معدة أصلاً لتكون كذلك، علماً أنها قد تسببت في حصول ما لم تحمد عقباه، ألا وهو "الوقوع في قبضة السكين" الذي هو بمثابة نتيجة مؤكدة لتصرفها اللاإرادي أو الساذج. وكان الشاعر يريد القول: "من فعل شيئاً بلا إرادة مع إنسان لا يستحق ذلك، كانت النتيجة عكسية"، ويرينا أيضاً مدى إصرار الصياد على الحصول على صيده الذي يبحث عنه لتتماثل الصورة وتكون اليمامة الضحية وتصرفها قد أوقعها في ذلك.

(11253/1)

... والذي يتتبع نتاج شوقي المعد للأطفال يجد نفسه أمام تجربة ناجحة إلى حد كبير من خلال النصوص التي تتلاءم مع روحية الطفل وذهنيته وسلوكاته اليومية.

إلا أن نتاج شوقي لم يخل من نقد أو تجريح إلى حد ما كما هي عادة محترفي صنعة الأدب والفن، بل كما هي عادة المرسل والمستقبل أبداً ما دام النقد فاعلاً أو نشطاً.

كما تعرض شوقي للنقد الأدبي من قبل العقاد في نتاجه بشكل عام كذلك، علماً أن العقاد قد تحامل على شوقي كثيراً وكأنه يحمل فكراً مبيتاً ضد شوقي(1)

---

(1) العقاد والمازني، الديوان، ط 3، مطبعة الشعب، القاهرة، ص. 77.

(11254/1)

. وعلى الرغم من موقف العقاد أو انتقاده لشوقي، فقد بقي شوقي يعي ما يقول في النهج والبناء الأدبي.

وكذلك ما فعله النقاد مع نتاج شوقي المعد للأطفال لم يثنه عن عزيمته تجاه ما يصنع، وكان صريحاً يعي ما يصنع. لذلك قالوا إنه يمهد نفسه ويأخذ الأشياء من أقربها ولا يوجد عمق فلسفي في ما كتب ولا عمق وابتعد عن التوجهات العامة للأدب العربي(1).

... من حقنا القول هنا إن شوقي كتب بفلسفة واضحة للأطفال وتبنى فكراً له قيمه وثوابته المعقولة التي لا غبار

---

(1) شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر، القاهرة، 1963، ص. 87 ـ 88.

(11255/1)

عليها. وأما ما قيل عن استخدامه الموضوعات الخالية من الفكر والعمق الفلسفي، فنقول إن هذا الأمر فيه تجن كبير، أو ربما قيل من أجل بيان رأي ليس غير.

فالنصوص التي بين أيدينا نحن الدارسين للأدب تؤكد صحة موقف شوقي التربوي والتعليمي من خلال نصوصه.

وهذا ليس جديداً، حيث يحاكي أدب الأطفال البساطة والميول النفسي للطفل وإبراز مقدرته الذهنية والعقلية. زيادة على ذلك، نجد طبيعة الخلق الإبداعي في النص الأدبي العربي قد أخذت تقترب من روحية العصر وثقافاته وابتعدت عن التقليد المميت القاتل.

فالفلسفة التي يريدها

(11256/1)

النقاد هي غير الفلسفة التي تبناها شوقي؛ لذلك جاءت قصصه خالية من الفلسفة المغرضة والتعقيد كما نص شوقي على ذلك(1) وكما نجد بعض الدارسين يعلل تلك المنهجية التي تبناها شوقي في كتاباته القصصية، حيث جعل روحية شوقي وعالمه الطفولي هما الدافعان للكتابة وليس قراءاته للقصص الغربي المنسوج على لسان الحيوان للأطفال كما هي "حكايات" لافونتين. ولم يكن لأشعار لافونتين من فضل سوى أنها بعثت في شوقي روحية الماضي واستحضار عالم الطفولة، كي يعبر عنها شعراً له قيمهُ وثقافته. من

(1) الشوقيات، "المقدمة"، المصدر السابق.

(11257/1)

هنا جاء نظمه ليعبر عن ذاته. وهكذا وصلت إلينا "شوقيّاته" ولم تكن تقليداً لأدب كما عرف في أوروبا وكما هي مواصفات أدب الطفولة، بل جاءت استجابة لروحيته وعفويته حتى أصبحت سحابة تظلِّلُ أطفال العرب في كل مكان(1).

... إن هذه الروحية التي تبناها شوقي .كما يعلل كمال

النجدي ـ ليست صائبة إلى حد ما. وحسبنا في ذلك هذا التطور التتابعي الذي نلمسه في نتاجات شوقي الأدبية. وما حكاياته وقصصه إلا جزء من أدبه؛ ليس من السهل علينا الأخذ بهذا الرأي،

---

(1) كمال نجدي، مجلة الهلال، العدد 11، السنة 76، أول أكتوبر 1968.

(11258/1)

لأن طفولة شوقي الشعرية لم تخلق مثل هذا النتاج. فأدب الأطفال يحتاج إلى مراس وفلسفة واقتناعات قبل كل شيء. وكذلك نجد النجدي يغالط شوقي نفسه، إذ اعترف بأهمية "حكايات" لافونتين من خلال مقدمته للـ"شوقيات"، ونرى مدى تأثر لافونتين بكتاب "كليلة ودمنة" الذي ترجم أصلاً عن اللغة الهندية العتيقة ومن ثم إلى العربية بعد الفارسية. وهذا يؤكد لنا أهمية المصدر الأساسي وباللغة العربية. فمن الأجدر بشوقي أن يتأثر بالاثنين معاً، فيما أن لافونتين قد تأثر بـ"كليلة ودمنة" وشوقي تأثر به. فهذا يجعلنا نتأكد من تأثير

(11259/1)

"كليلة ودمنة" في أحمد شوقي. لذلك جاء النتاج قريباً إلى نفوس الدارسين لهذا النتاج الفاعل والباني معاً(1).

... وكما أكد غنيمي هلال، فإن "حكايات" لافونتين تعد ثروة لها قيمتها في بحث الأدب المقارن. ومثل هذا يمكن أن يكون محور الدراسات المقارنة بين الأداب، وإن كان لأدب الأطفال صلاته عبر النظم والأفكار والفلسفات، الوافدة منها والمقيمة في البلاد أصلاً.

---

(1) عبد الرحمان بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، بيروت، 1965، ص. 20.

(11260/1)

... ولم يكتف شوقي بحكاياته للأطفال، بل جعل نصيبه وافراً في الأناشيد. فقد ألف عشر مقطوعات بين أغنية وأنشودة. وقد برع شوقي في كتابة بعض الأغاني والأناشيد؛ إلا أن أناشيده لم تصل إلى المستوى المطلوب، وذلك للقيمة اللغوية العالية والأسلوب الرفيع الذي جاءت به تلك الأناشيد. فحصيلة الأطفال اللغوية قد لا تسعفهم في تفهم تلك الأناشيد زيادة على الصنعة الطاغية على بعضها والشعور الباهت وجذب العواطف كما

أكد ذلك سعيد العريان في مقدمته لـ"شوقيات" في الجزء الرابع، مما حدا بالأطفال إلى العزوف عنها. وبذلك لم تصل

(11261/1)

للمستوى المطلوب كما هي الحكايات على لسان الحيوان.

... وقد جعل هذا الأمر شوقي يبحث عن نديم وصديق له ثقافته كي يسيرا معاً في هذا الدرب الشاق والطويل من أجل إسعاد طفولة وطن فقد الشيء الكثير: "وكتب شوقي لصديقه خليل مطران، الشاعر والأديب، يناشده السير معاً في هذا النوع من الأدب ويأخذ من أسلوب الغرب ونهج العرب، ولكن مطران ترك هذا التنوع من الأدب لشوقي"(1).

... ويجعلنا مثل هذا نحس أن الكتابة للأطفال ليست سهلة وأن كاتبها لا يبحث ـ فيما أظن ـ عن شهرة

---

(1) الطفولة في الشعر العربي الحديث، ص. 110.

(11262/1)

لصعوبتها. لذا لم يستجب مطران الأديب والفنان لدعوة شوقي. إلا أن ظهور محمد الهراوي جعل هذا الأدب يرتفع للأعلى: فقد كتب "سمير الأطفال للبنين" ثم "سمير الأطفال للبنات"، وكتب لهم أغاني وقصصاً منها "جحا والأطفال" و"بائع الفطير". وكانت جميع كتاباته النثرية والشعرية واضحة(1). وعلى الرغم من هذا الوضوح والتأثير كما نلمسه من وجهة نظر الباحثة، فإنه لم يسلم من النقد والتجريح. وهذا ليس غريباً. فكل جديد له مؤيدوه ومعارضوه في

---

(1) هيفاء شرايحة، أدب الأطفال ومكتباتهم، ط 2، المطبعة الوطنية ومكتبتها، عمان، ص. 29.

(11263/1)

كل الأزمنة والأمكنة. والحقيقة تؤكد نجاح الكيلاني في إيصال عواطفه وأفكاره إلى الشريحة المطلوبة، حيث كان الولد الرابع عشر لأسرته. وهذا الأثر ظهر عندما استضاف أبوه عائلة يونانية من الجيران بعد أن توفي عائلها. وبقيت الأم وفتاتان بلا مأوى، ودخلت الأسرة الأسطورة الإغريقية في طفولة الكيلاني المبكرة (1). ولا ننسى دور الأم الفاعل في صقل شخصية الكيلاني:

فقد رعته رعاية خاصة لكونه الصغير في إخوته مع كبر حجم

---

(1) انظر سعيد لطفي، "مشكلة كتاب الطفل وكيف يمكن مواجهتها"، مجلة النهضة، عدد 478، 1976، الكويت.

(11264/1)

الأسرة، إذ يجعل الأم تعطي وليدها الصغير رعاية أفضل وأكثر أو ربما يصبح الضدُّ سائداً، فيكون الإهمال نصيبه. إلا أن الكيلاني أخذ الجانب الأهم من الرعاية: فقد كانت تسدل عليه ما حفظته ذاكرتها من قصص وخيال وأحاديث روتها عبر الأيام، وكذلك ما للمعلم من أهمية فاعلة في بناء فكره وثراء معلوماته. لذلك تبلورت شخصيته على يد الشاعر الشيخ محمود الملاح وعبد الغني النابلسي(1). وبذلك كانت شخصيته قوية من الجوانب كافة: فقد أخذ الحنان والرعاية وبناء

---

(1) هيفاء شرايحة، أدب الأطفال ومكتباتهم، المصدر السابق، ص. 29.

(11265/1)

الشخصية، مما جعله يوفق في بلورة هذه الأمور جميعها في مقطوعة شعرية تظهر موهبته وحدسه.

لم أكن أنطق حرفا
في سكوني ليس يخفى
أقبلت أبسط كفّا
لم أحوّل عنه طرفا
للذي يظهر عطفاً
أستطيع القول صرفا
المعروف ألفا(1)

حينما كنت وليدا
إنما كان مرادي
كنت إن أبصرت أمي
وأبي قد جاء عندي
وابتسامي كان عطفاً
وأنا الآن صبي
فأحيي بلسان صاحب

(1) مجلة الأقلام، العدد الثالث، السنة الخامسة عشرة، دار الجاحظ، بغداد، 1979، ص. 47.

(11266/1)

... هذا الإقرار الفاعل من الشاعر يجعلنا نستجمع قوانا ونهيء أنفسنا كي نقول الحقيقة، كما أكدها من خلال نصه الشعري. فعلى الرغم من بساطة التعبير وسلاسة الأسلوب، فإنها تشكل لوحة ناطقة بمجريات أحداث الحياة منذ الطفولة حتى الصبا. وهكذا بين العلاقة الودية بين الوالدين والطفل، وأكد تبادلية الحنان من الطرفين. فالطفل آلة لاقطة تعكس ما تراه وتحسه بوضوح. لذلك لا نجد التنميق والصنعة، وإنما البديهة والطبيعة هما الناطقتان هنا، من أجل صورة صادقة فاعلة. فالطفل عندما يستقرئ هذه الأبيات، يشعر بالانتماء لها، لأنها

(11267/1)

تمثله وتحثه على الفضيلة. فالإقرار بالمعروف فضيلة لا تنسى: "فأحيي بلساني صاحب المعروف ألفا". فالطفل عندما يحس بالمصداقية في الشيء، يتمسك به ويقتدي به دون صعوبة، لأن الصدق يدفع بالآخرين إلى أن يسلكوه، فتكون الحياة طيبة مريحة. فالهدف التربوي

واضح جل الوضوح إلى جانب الأهداف الأخرى التي قد يستنبطها المرء من النص.

... ويجعلنا هذا الأمر نبحث في نتاجات الكيلاني، فنراها متعددة: إذ جلها تتوزع على القصص والحكايات والأناشيد والفكاهة والأساطير والأدب المترجم والأدب الديني وما يتلاءم مع ذوق الشبان(1)

---

(1) أدب الأطفال ومكتباتهم، المصدر السابق، ص. 31.

(11268/1)

.

... وتؤكد لنا هذه الأعمال تطور أدب الأطفال شيئاً فشيئاً. فقد انطلق من خطوات بدائية، وامتدت قامته بعض الامتداد على يدي شوقي والكيلاني، ليرفدهما حامد القصبي بمؤلفاته وإن كانت جل مؤلفاته مترجمة من الإنجليزية. وأول كتاب للقصبي كان تحت عنوان "التربية بالقصص لمطالعات المدرسة والمنزل". وعلى الرغم من مهنته، فقد كان صاحب ميول أدبية: فهو مهندس حيث قال عند طبعه الكتاب:

... لم أتردد أن أنشر بين الناس كتابي هذا عندما

تبينت أن الحاجة ماسة إليه، وذلك لأني في مطالعاتي للكتب الإنجليزية عثرت على عدد كبير من

(11269/1)

القصص التهذيبية التي تتضمن الحكمة والموعظة الحسنة في أسلوب شائق وعبارات خلابة، يقصد بها إلى تربية للناشئين تربية خلقية قويمة. فعولت على ترجمتها، لأعطي فيها صورة واضحة لطالبات مدارسنا وطلابها الذين يفيدهم هذا النوع من التهذيب، خصوصاً أن كتب المطالعة العربية التي تتناولها الأيدي الآن خلو من كثير من أمثال هذه القصص. وقد توخيت في الترجمة الاحتفاظ بروح القصة، غير مقيد بالالتزامات الأخرى لتأخذ القصة صبغتها العربية الخالصة التي تلائم الذوق السليم(1)

---

(1) حامد القصبي، التربية بالقصص لمطالعات المدرسة والمنزل، "المقدمة "، مطبعة النيل، القاهرة، 1925.

(11270/1)

.

... إن نتاجات الأدباء المذكورين وغيرهم جعل لمصر السبق في أدب الأطفال وطباعة الكتب الخاصة بهم، الأمر الذي حدا بكثير من الناس إلى التوجه صوب هذا الأدب، مما جعلنا نرى الغث والسمين. إلاّ أن القصص والأساطير تأخذ حيزاً واضحاً: فهي تأتي في الدرجة الأولى، يليها الكتب الدينية؛ وهذه القصص لا تخلو من التوجه العلمي. هذا النتاج الأدبي جعل التسابق واضحاً بين دور النشر والمؤسسات في إخراج هذا الفن للوجود، وبالذات مصر ولبنان، ومن ثم العراق الذي أصدر نتاجاً قيّماً كمّاً ونوعاً.

(11271/1)

... ففي لبنان صدر كثيرٌ من كتب الأطفال ودواوينهم، حيث امتازت بالطباعة الأنيقة. وظهر كتاب اهتموا بأدب الأطفال، وعلى رأسهم كارمن معلوف. وظهرت مجلات مصورة بعنوانات مختلفة: "بونازا" (1900)، "سوبرمان" (1964)، "الوطواط" (1966)، "طرزان" (1967)، "لولو الصغيرة" (1971)، "طارق" (1972)(1).

... وفي مرحلة الستينيّات، برزت حركة نشطة تعتني

بمطبوعات الأطفال من خلال "دار الفتى العربي"، هذه الدار التي كان لكثير من الكتاب الدور البارز في إدامتها

---

(1) عبد الغني عبد الهادي، مجلة التربية، العدد 20، 1977، ص. 66.

(11272/1)

ونهضتها، منهم زكريا تامر الذي كتب حوالي مئة قصة للأطفال أثارت ضجة عالمية بفنها وتعابيرها عندما ترجمت إلى اللغات الأجنبية. وقد أصدر مجموعته التي بهرت بجمالها وعمقها وثراتها القراء الأجانب قبل العرب (1).

... ومن الكتاب العرب في سوريا الذين رفدوا المكتبة بنتاجاتهم الشعرية والنثرية عادل أبو شنب وسليم بركات، وسليمان العيسى الذي برز في هذا المضمار شعراً غنياً بمضامين متعددة. وقد أصدر العيسى عدة مجاميع أدبية تخص الأطفال منها: 1 ـ ديوان الأطفال، وهو ديوان يتألف من خمسة وثلاثين نشيداً

---

(1) المرجع نفسه.

(11273/1)

وخمس مسرحيات. 2 .المستقبل (مسرحية غنائية). 3 . النهر (مسرحية غنائية). 4 .أناشيد الصغار .القطار الأخير. والذي جعل الكتاب في سوريا يتوجهون إلى كتابة أدب الأطفال أمور كثيرة، منها اللحاق بركب التوجه الصائب كما هو الحال في مصر، وكذلك الإقرار بالحرمان الذي يعيشه الطفل العربي. فكما يقول عادل أبو شنب:

... كان الأطفال في الماضي القريب يطفئون ظمأهم إلى المعرفة بقصص منقولة من الأدب العربي القديم ومحرفه، بحيث تلائم مداركهم، وبحكايات متوارثة تتناقل دون أن يكون لها أثر إيجابي ما إن لم تكن ذات أثر سلبي

(11274/1)

سيء، وبنصوص مدرسية صاغها أناس عديدو الخبرة، اضطرتهم المناهج التعليمية المتداولة وقتئذ أن يصولوا ويجولوا في ميدان ليس ميدانهم. وكان ازدهار القصص المروية والسير الشعبية ظاهرة تلفت النظر لركاكتها وشططها وغرقها في تجسيد السلبي، والحض على النزعة

الفردية والروح الإشكالية (1).

... لذلك حاول الأدباء المهتمون بأدب الأطفال الابتعاد عن السلبيات والأخطاء التي وقع فيها السابقون لهم، لأن ثقافة الطفل تشكل فعالية إبداعية قائمة بذاتها. فهي ليست بالهامشية أو الجانبية كما

---

(1) انظر مجلة فكر، تونس، حزيران، 1975.

(11275/1)

هي في العصور السابقة؛ وكذلك، فإن ثقافة الطفل تتطلب موهبة حقيقية شأن أي إبداع أصيل: فهي جنس جديد في الساحة العربية، وتدخل أيضاً في العملية التربوية وتكون جزءاً هاماً منها، تمد الأطفال بما ينمي معارفهم العلمية ومداركهم العقلية وإحساساتهم الجمالية وانتماءاتهم القومية. زد على ذلك اعتماد ثقافة الطفل على لغة خاصة في نقل الأفكار المختلفة عن اللغات المتداولة في التعبير الأدبي (1).

---

(1) انظر: جلال الشريف، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، عدد 95، آذار / مارس، 1979.

(11276/1)

... وسليمان العيسى الشاعر الإنسان قد حدد موقفه من شعر الأطفال حينما عرفه بإجابته على سؤال عصفورة تحاوره وهي تقف على نافذة بيته في دمشق وهو يكتب. فقال وهو يجيبها:

... ماذا تعني بالشعر الحقيقي؟ رفعت رأسي عن الورقة، وقلت لها: أعني الشعر السهل الصعب، القريب البعيد في وقت واحد... سهل، لأن الصغار يغنونه ويحفظونه في الحال؛ وصعب، لأن بعض معانيه وصوره تظل غامضة، بعيدة عن مداركهم بعض الشيء. وقد تعمدت هذه السهولة/ الصعوبة في شعر الأطفال وسميتها: المعادلة الشعرية الجميلة، معادلة أبذل جهداً كبيراً كي أحققها

(11277/1)

في كل نشيد، بل كل بيت أحياناً، على قدر ما أستطيع (1).

... هذا الموقف الذي اتخذه سليمان العيسى من شعر الأطفال يجعل الكتابة للأطفال مشروع تحد على مسار

الساحة العربية برمتها، لأن الاستجابة لهذا التحدي تعدّ انتصاراً مؤكداً على الذات أولاً وإيجاد فن منسجم مع حياة الطفولة وهو الأساس. وذلك لا يعني أن الشاعر يجب عليه خلق موضوعات شعرية لم يسبقه إليها أحد، وإنما قد يتعامل الشاعر مع التراث ويعيد صياغته من جديد. كما

---

(1) سليمان العيسى، ديوان غنوا يا أطفال، ج 1، دار العودة للصغار، بيروت، 1978، صص. 4 ـ 5.

(11278/1)

فعل العيسى مع قصة علي بابا والأربعين لصّاً، إذ تعامل معها بأسلوب نثري جميل تخلله أناشيد حلوة كما جاء على لسان علي بابا بعد معرفته لباب المغارة وسرها:

ما زلنا نحلم يا فاس
ببنفسجة زرقاء
لم أعرف يوماً يا فأسي
لم أعرف يوم صفاء
هل تصدق بنت الغاب
وترف على الحطّاب
وتلون بيتي بالأحلام

وألمح ظل نعيم

يا فأس علي بابا غني

غني فالحب كريم(1)

... نلاحظ مدى أهمية المضامين التي عالجها ويعالجها سليمان العيسى وغيره من الكتاب والشعراء، حيث يقع

---

(1) سليمان العيسي، ديوان غنوا يا أطفال، المصدر السابق، ج 8، ص. 5.

(11279/1)

تطوير هذا النهج من الشعر المعد للأطفال على عاتق المجيدين والمبرّزين من الشعراء الذين يتابعون النتاجات الإنسانية أينما كانت كي يطوروا أنفسهم. فهي تأكيد على حيوية هذا الموضوع. لذا تعددت مضامينه الشعرية وأصبحت لصيقة بالأطفال كما في قوله:

... يا غيمة يا أم المطر ... الأرض اشتاقت فانهمري

... ويقول على لسان الأطفال بيان عروبة فلسطين

والإيمان المطلق بذلك لدى الجيل الناشئ

ودرب انتصاري

هوى بفؤادي

بأرضي السليبة

فلسطين داري

تظل بلادي

وجوه غريبة

(11280/1)

وغيرها كنوز وفيرة في ثنايا أشعاره، مما يجعل الأطفال يتمسكون بعروبة بلادهم وامتداد هذه الثقافة الوطنية والقومية عبر الأجيال اللاحقة. فهو يقارن بين الموجودين على الأرض كي يؤكد أن التمايز موجود حتى في الملامح الخارجية للإنسان، زيادة على الملامح الأخرى.

... إن أدب الأطفال في سوريا حاول مبدعوه أن يوفقوا فيه بين فلسفة الإبداع والأهداف والغايات التربوية. وظهر ذلك في نتاجات الأدباء وتوجهاتهم الفكرية والعقائدية. لذلك تعاملوا مع الواقع حسب فهمهم له

وتفاعلهم كذلك وازداد اهتمام المبدعين بأدب الصغار بعد

(11281/1)

حرب حزيران عام 1967 م وكأنّا نحس الرد منهم على تلك الهزيمة المفجعة، وبالذات نجد الشاعر سليمان العيسى وقد توحد نفسياً ومعنوياً وروحياً مع الأطفال. ونظنه يصنع ذلك لأهمية الموضوع وحساسيته. زد على ذلك إيمانه المطلق بحقوق الأطفال ومدى الحرمان الواقعين فيه، إذ هم يشكلون أمل الانبعاث التكاملي في المستقبل. فقد عرف عنه صداقته للأطفال؛ إذ لم يعتل مكاناً لإنشاد الشعر إلا والأطفال يحيطون به كالزهور ورائحتهم الزكية تفوح أملاً وطمأنينة.

(11282/1)

... وفي الأردن وفلسطين بدأت محاولات للتأليف والترجمة في أدب الأطفال. فكان ذلك عام 1928، حيث كتب إبراهيم البوارشي مجموعة أناشيد للأطفال؛ كما كتب الأستاذ روكس العزيزي كتاباً للأطفال بعنوان "الملك

فيصل" عام 1935، ثم جاء الشاعر إسكندر البيتجالي، فأصدر كتابين: "المثل المنظوم" في عام 1942، و"الطفل المنشد" الذي احتوى على قصص شعرية وأناشيد وصفته كما في قوله:

أفقت وقمت مرتاحا
وعطر الروض قد فاحا(1)

إذا ما ديكنا صاحا
ونجم الصبح قد لاحا

---

(1) هيفاء شرايحة، المرجع السابق، ص. 37.

(11283/1)

... والملاحظ على نتاج الأدب المعد للأطفال في هذه الفترة أنه فردي، بمعنى يحمل جهداً فردياً خالصاً، إذ لم يكن هناك مؤسسات منظمة ترعى هذا الإنتاج وتهتم به. فقد جمع الأديب محمد إسعاف النشاشيبي مجموعة من أناشيد الأطفال طبعها في كتاب بعنوان "البستان" عام 1945، وكذلك إسحق موسى الحسيني وبعض صحبه أصدروا مجموعة قصص للأطفال منها "الكلب الوفي"

و"ردان المدلل" وفيها الكثير من القيم الاجتماعية التي تؤثر في الأطفال وتربيتهم. زد على ذلك ما كتبه يوسف هيكل: "أجداد النبي"، وخالد عبد الهادي صاحب قصة "خالد وفاتنة"

(11284/1)

ومحمود يوسف زايد الذي أصدر بعد عام من ذلك كتاباً بعنوان "يوليسيز التائه".

... وفي عام 1957 يصدر عبد الرؤوف المصري قصتين "رغيف يتكلم" و"الأم الطموحة"، علماً بأن هذه الإصدارات خالية من الصور الملازمة للنص وكذلك إخراجها سيء إلى حد ما.

... ويأتي بعد ذلك عدد من المهتمين، ويتوالى صدور أدب الأطفال. فقد أصدر عيسى الناعوري قصته "نجمة الليالي السعيدة" وفايز علي الغول "الدنيا حكايات" و"من سواليف السلف" و"أساطير من بلادي"، وجاد حسن فريز بشعره الجميل كي يحرك وعي الطفولة وخيالاتها كما في قوله يصف شجرة

(11285/1)

الرمان:

وفي أوراقها الخضر

أو أغصانها الشقر

لون الورد والفجر

جمال بارع السحر

تأمل في محاسنها

وفي أزهارها الحمراء

فمن ألوانها نعطيك

تقول وأنت تشهدها

... وكذلك نرى أن يوسف العظم أصدر أناشيد وأغاريد للطفل المسلم، وتليه تغريد النجار كي تكتب قصة بعنوان "صفوان البهلوان"، ويأتي بعدهم نبيل صوالحة، فيكتب "رحلتي الملونة في الأردن". ثم إن الجمعية الملكية احتضنت هذا الأدب منذ عام 1977 لترى بعض النتاجات النور، منها "السير وأصوله" و"بلاستيك في حياتنا". والذي نلمسه أن هذه الإصدارات قد أخذت طابعاً علمياً

(11286/1)

خاصاً. أما المجموعة التي تلتها، فقد اتجهت صوب الطبيعة والبيئة والعلاقة مع الإنسان، فصدرت قصص تعالج ذلك: "حيوانات تعيش بيننا" و"طعامك والصحة والمرضى (1).

... هذا، في حين يرى بعض الباحثين أن أدب الأطفال في الأردن بدأ حقيقة مع صدور مجلة "سامر عامر" (1979)، وأهميتها تكمن في استقطابها لعدد من البارزين أمثال الشاعر أحمد حسن أبو عرقوب الذي كتب بعض الأناشيد والقصص، والشاعر محمد القيسي الذي عرف متميزاً في شعره، والشاعر إبراهيم نصر الله، ومحمود شقير ومفيد نحلة وجمال أبو حمدان

---

(1) المرجع نفسه، ص. 39.

(11287/1)

وفخري قعوار. وهؤلاء من كتاب القصة المتميزين؛ ومحمود برهوم الذي أفردت له مهمات الترجمة من حكايات الشعوب وآدابها للأطفال. وكذلك كتب الشاعر محمود شلبي النشيد والقصيدة، وشحادة الناطور وجمال أبو حمدان الرواية والقصة القصيرة وكان مجال نشرها الصحف

والمجلات العامة. ومنذ عام 1979 الذي خصص لسنة دولية للطفل، بدأت المجالات الثقافية الرسمية تفتح ذراعيها لآداب الأطفال كما هي: مجلة "أفكار" ومجلة "الشباب". وهذا ساعد على ظهور كوكبة متميزة من كتاب الأطفال تضم أسماءً معروفة، إذ جمعت بين الأجيال كلها "مثل حسني

(11288/1)

فريز، وهو من جيل الرواد، والشاعر محمد الظاهر وإبراهيم العجلوني وعزمي خميس ويوسف الغزو ووفيقة ويوسف قنديل وأحمد المصلح"(1). وتنوعت النتاجات من حيث المضامين. وهكذا صرنا نقرأ السير التاريخية للقادة المعاصرين والملامح السياسية والأفكار التي يتبناها الكتاب، حيث بدأت "روضة الفرخ الهدهد" على عاتقها كتابة:

---

(1) أحمد المصلح، أدب الأطفال في الأردن، منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمان، 1983، ص. 29 وما بعدها.

(11289/1)

... سلسلة حكايات بطولة بدأتها بقصة "الشيخ عز الدين القسام في أحراج يعبد"، ثم كتاب "سر القنابل الموقوتة" و"قافلة الفداء" و"الزمن الحزين في دير ياسين" و"رحلة النضال حتى عام 1982"، وهي قصص تعبر عن شواهد حقيقية لثورة الشعب الفلسطيني؛ وقد أحيت في قصصها ذكرى أبطال هذا الشعب المناضل من أجل أرضه ووطنه. وإن ما يلفت النظر في هذه القصص جودة الإخراج، والرسومات المعبرة (1).

---

(1) هيفاء شرايحة، المرجع السابق، ص. 40.

(11290/1)

... كل ذلك لا ينفي وجود أدب للأطفال كتبه أدباء كبار لامعون من خلال نتاجاتهم. ففي فلسطين عرف الشاعر إبراهيم طوقان بالتزامه وثقافته الوطنية ووعيه السياسي الذي كتب نشيده المعروف "موطني"، مخاطباً أبناء وطنه جميعهم، ولا سيّما الأطفال، حيث لم يزل هذا النشيد شائعاً في الأقطار العربية وينشد في معظمها. وقد تضمن هذا النشيد إحساس الشاعر بقضية وطنه التي كانت في الوقت نفسه قضية كل وطن عربي. ومن هنا جاء شيوعه وانتشاره في سائر الأقطال العربية (1)

(1) أحمد أبو حاقة، الالتزام في الشعر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1979، ص. 267.

(11291/1)

.

... وكذلك لم يَجِد الشاعر عبد الكريم الكرمي عن جادة خلق العلاقة مع الطفولة، وذلك من خلال أناشيده الوطنية التي تعبر عن حبه لوطنه وقومه وأمته، تلك الأناشيد التي تحث مستقبليها على الكفاح، مما يشعر الآخرين بأهم العناصر الذاتية التي حدت به إلى المشاركة الوجدانية بينه وبين أطفال وطنه وأمته. ومثل هذه الأناشيد ترينا مدى صدق العاطفة وقوة الرابطة وانكشاف المعاناة الحقيقية. ومثل ذلك يأتي بأسلوب قوي وشيق إلى حد بعيد:

هيا إلى الكفاح

مواكب الصباح

ترفرف البنود

أنشودة الخلود

ونحمل القبس

بأننا الحرس

(11292/1)

على حبال النار

يصيح يا للثار

نحطم الأغلال

وتشهد الأجيال(1)

هيا بنا... هيا بنا

تسير في ركابنا

على طريق الشهدا

نسمعها على

نحن نضيء الأملا

لقد حلفنا للعلا

نحن رفعنا العلما

يحرس آفاق السما

إنا إذا جار الزمن

نحمي حمى هذا الوطن

... إن هذه الدافعية لم تأت من فراغ، بل نجدها قد خرجت

من قلب متمكن مؤمن بما يطالب به العقل. لذا نرى العقل والخيال قد توحدا في كثير من أناشيد الثورة والوطن والعروبة. فمثل هذه الاندفاعية في التوجه صوب

---

(1) عبد الكريم الكرمي، ديوان أغاني الأطفال، دار العودة، بيروت، 1978، ص. 152.

(11293/1)

العمل الصائب تحقق الأمل في النفس وتجعلها مطواعة، حتى لنرى أن الثورة امتدت في بقاع الوطن كلها من الجبال إلى الصحراء والسهول والهضاب، إذ كلها تفاعلت مع الحدث. وهذا ما نلمسه في أشعار هارون هاشم رشيد، الذي يرفض الذل ويريد ذلك من طفله أيضاً، لأن الطفولة تعيش في ضميره، وهذا الخيال والتّخيل قد يصبح حقيقة إذا آمن الجميع بالحق واندفعوا صوب الوحدة والتضامن، من أجل حرية الوطن الأبهى.

... وبما أن لفلسطين خصوصيتها بعد النكبة والانكسار، فإننا نجد أدبها قد بعث أيضاً استجابة للحديث، حيث يكون الأدب أينما يقيم

(11294/1)

الناس ويتفاعلون مع الحياة. إلا أن الأرض الفلسطينية بقيت تظهر بعض ملامح الحياة من خلال أهلها الصامدين. لذلك ظهر بعض الأدباء المهتمين بالطفولة والأطفال لنرى عبد الرحمن عباد في مجموعاته "ذاكرة العصافير" و"ذاكرة الزيتون" و"ذاكرة النخيل" و"ذاكرة البرتقال"، وهي عبارة عن قصص تحكي الحياة بأصوات النباتات والطبيعة والإنسان الذي يعيشها. وكذلك الشاعر الباحث علي الخليلي الذي أصدر مجموعات شعرية عن الأطفال. زد على ذلك الدراسة التي كتبها عن أغاني الأطفال في فلسطين. وغيرهما من الكتاب لم يبخل بنتاجه على أطفال

(11295/1)

وطننا؛ كما ظهرت في القدس مجلة البراعم لمدة عامين، ثم مجلة "طارق" التي صدرت عام 1971، وهي مجلة قصصية شهرية أطول عمراً من غيرها، إذ لم يزل عطاؤها قائماً؛ وكتب مفيد نحلة "أطفال القدس القديمة" بعد أن ظهرت قصة "اليتيم" للوجود عام 1966 ونشرت في جريدة "القدس" في حينه؛ وجمال أبو حمدان الذي كتب

"النهر".

... وأما الطفولة في العراق، فقد أخذت حيزاً مرموقاً إذا ما قيست الأمور بمثيلاتها. ونظن أن العراق كان من السباقين في نشر أدب الأطفال وتوزيعه على المؤسسات بأسعار رمزية جداً، إذ لا تساوي 10 ٪ من قيمة رأس

(11296/1)

المال المدفوع. وكانوا يهدفون إلى خلق فلسفة تربوية موسعة هدفها الأساسيّ معرفة الطفل لوطنه وأهله وثقافته في الوطن العربي الكبير، زيادة على الدوافع العلمية والتربوية والتثقيفية والترفيهية والأمور الأخرى. فالاهتمام بالطفولة ظهرت مع الشاعرين الكبيرين الرصافي والزهاوي، وكلاهما له ثقافته الخاصة؛ إلا أنهما كتبا أناشيد وقصائد تحاكي الطفولة وحياتها وتدعو إلى إصلاحها وتطورها. وفيما بعد، ظهر جيل من الأدباء المهتمين بالأطفال، وكان ذلك بعد ثورة تموز 1968؛ إذ أصبح الاهتمام بالطفل واضحاً، بل هُيِّءَ له في إطار

(11297/1)

فلسفة خاصة تهدف إلى خلق جيل ناشىء حسب فلسفة وطنية قومية مؤكدة. لقد وضعت الحكومة خطة شاملة دخلت حيز التنفيذ في عام 1968 بإنشاء المكتبات الخاصة بالأطفال ودور الحضانة والرعاية الاجتماعية. وهذه تقدم خدماتها بالمجان، لأنها جزء من خطة التعليم في العراق. من هنا ظهرت النوادي الترفيهية ومدارس الفنون التي تعتني بالشباب ومواهبهم بعد أن يحتضنوا في مرحلة الطفولة، زد على ذلك المراكز الموسيقية والمؤسسات الترفيهية الأخرى التي تستقطب أصحاب العقول والخبرات العلمية.

(11298/1)

... وقد أفرد المخططون بالعراق وقتاً مناسباً في الإذاعات العراقية المسموعة والمرئية كي يقدموا ما يتلاءم وروحية الطفل وفكره ونفسه. فظهرت البرامج والمسلسلات الإذاعية والتلفزيونية، وكذلك المجلّات والصحف الخاصة بالأطفال وأدبهم. فقد ظهرت جريدة خاصة باسم "مزمار" (1970) وقبلها مجلة بعنوان "مجلتي" (عام 1967). وهذا لا يجعلنا نهمل ما تصدره "دار ثقافة الأطفال" من مجلات وقصص تحكي ما يكون قريباً للأطفال بأسلوب مشوق وبطبعات عالية الجودة

جاذبة لروحية الطفل، وكلها هادفة غير مسفة أو مغرض بعضها، بل تنبع من فكر

(11299/1)

منظم بناء، وتصل إلى متناول الأطفال جميعاً دون استثناء، لأن جل الكتاب في العراق من الكتاب المبدعين والمهتمين بأدب الأطفال. ثم إن ما يرونه مناسباً وفاعلاً من نتاجات الكتاب والشعراء العرب يطبع ويوزع كذلك وهم لم يغفلوا الترجمات: فالأدب المترجم له وقعه وقيمته، وهم حريصون على اختيار النصوص الغنيّة بالثقافة والمعرفة، وكانوا يصدرونها عن "دار ثقافة الأطفال"، وكانت تصرف مكافآت مجزية لمن يترجم كتاباً أو يضع نصاً إبداعياً يتفق والنهج العام لتربية الجيل. وكذلك ظهرت مجموعة من البحوث والدراسات طبعت في العراق

(11300/1)

أو ألفت من قبل باحثين عراقيين تعالج مشاكل أدب الأطفال وطموحاته وتوجهاته. والدارس لا يجد فرقاً من

حيث الأهمية والمكانة لدى الناس بين النصوص وكاتبها. فكلما كان النص إبداعياً ثرياً بما يحتويه، كان أكثر قرباً والتصاقاً لدى الناس جميعاً. بمعنى أن النص الأدبي هو الذي يفرض وجوده على الناس قلباً وقالباً. وفي دول الخليج العربي الأخرى، نجد اهتماماً بالأطفال؛ إلاّ أنه متفاوت من مكان إلى آخر حسب الظروف والإمكانات المتاحة. وقبل ذلك الهدف والوسيلة في خلق مثل تلك الأمور التي تعالج مشاكل الأطفال وأدبهم

(11301/1)

وثقافتهم. ففي الكويت ظهرت مجلة "سعد"(عام 1969)، وهي تعنى بشؤون الأطفال وهمومهم وقصصهم وحكاياتهم. وفي البحرين ظهر بعض الأدباء ممن اهتموا بشؤون الطفل العربي واحتياجاته الأدبية، كما هو الحال عند عبد القادر عقيل وفوزية رشيد وحمدة خميس وغيرهم، لأنهم ينظرون إلى الكتابة للأطفال بصفتها ضرورة من ضرورات المجتمع وتطوره ومكانته بين المجتمعات الأخرى. وهذا ما أكده حمدة خميس في مقولة له عن أدب الأطفال: ''إنه لو تراجع كثير من الكتاب عن الكتابة للأطفال وأصبحت الفكرة مجرد حماس، فإن أدب الأطفال سيفرض نفسه عند

(11302/1)

أكثر الأمم"(1).

... ومثل هذا ليس جديداً على الأدباء في البحرين، لأنهم نهضوا مبكرين إذا ما قيس الأمر بمن حولهم، حيث كانت هناك نهضة أدبية تحكي قصة حياة ومجتمع. والشاعر البحريني قد سار مع الحياة بطواعيتها. والذي يتتبع نتاجات الشعراء في البحرين، يستشف ما نقوله ونرمي إليه. ونظن أنّ أدب الأطفال أصبح جزءاً من هذه النهضة الشعرية والأدبية والثقافية.

---

(1) علي عبد الله خليفة، كتابات 76، دار الغد، البحرين، 1976، ص. 173.

(11303/1)

... وأما في العربية السعودية، فقد حظي الأدب بنصيب وافر من الاهتمام، وبالذات في العقود الأربعة الأخيرة، مما جعل هذا الاهتمام الأدبي مادة علمية لنيل الشهادات العلمية العالية:

... الأمر الذي دفع بعض الباحثات إلى إعداد أطروحات

جامعية عن أدب الأطفال مؤخراً، ومنهن الباحثة آمال عبد الفتاح الجزائري التي تقدمت برسالة لنيل درجة الماجستير في موضوع "قصص الأطفال في المملكة العربية السعودية منذ عام 1379 هـ إلى عام 1410 هـ". وقد رصدت الباحثة إنتاج القصص الموجهة للطفل في المملكة وتتبعت مراحله وبينت أنواعه

(11304/1)

واتجاهاته وأهدافه وكشفت عن ملامحه الفنية(1).

... ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل نجد كثيراً من المهتمين بالأطفال وأدبهم، منهم عزيز ضياء وإسحق يعقوب وعبده خال وعبد الرحمن المريخي وعلوي الصافي وخالد بن عبد الله. وهذا ما جعلنا نرى بعض المجلات تظهر إلى الوجود مثل مجلة "حسن" التي صدرت عن دار عكاظ، ومجلة "الجيل الجديد" وصدرت عن الرعاية العامة لشؤون الشباب، ومجلة "الشبل". زد على ذلك الصحف المحلية التي تفرد صفحات لأدب الأطفال يتناوب على كتابتها

---

(1) محمد صالح الشنطي، في أدب الأطفال، المصدر السابق، ص. 191.

(11305/1)

وتحريرها كتاب مبدعون ومختصون في أدب الأطفال.
ويجد المتتبع أن الحكايات والقصص والأناشيد والقصائد كلها كتبت بأقلام المهتمين في السعودية ونشرت بعناية وحرص كبيرين.
... وفي المغرب العربي لم يغفل الأدباء هناك عن الأطفال وأدبهم. فقد ظهر في ليبيا كاتبان اهتما بالأطفال وقصصهم هما يوسف الشريف ومحمود فهمي، إذ أصدرا قصصاً ليبية للأطفال، منها قصة "الراعي الشجاع"، وهي من القصص المحببة للأطفال. وهناك الكاتب محمد الزكرة الذي ساهم إسهاماً لا بأس به في الكتابة للأطفال في ليبيا.

(11306/1)

... أما تونس، فقد ظهرت فيها بعض المجلات التي ترعى هذا التوجه منها "شهلوك وعرفان" بعد أن عرف بعض الأدباء طريقهم صوب هذا الأدب المفعم بالحيوية. وبذلك توجهوا صوب الكتابة للأطفال كما فعل محمد العروسي المطوي، رئيس تحرير مجلة "القصص" التونسية مع زميله

محمد مختار جنات، اللّذين كتبا قصصاً منها: "الفروج الأشقر" و"الدب والدمية"؛ وكتب العروسي بمفرده كثيراً من القصص الناجحة، منها "أبو نصيحة". وهكذا فعل القاضي الجيلاني بن الحاج قصة للأطفال بعنوان "بوشنب"، والتي فازت بجائزة بلدية تونس؛ وكذلك له مؤلفهُ "شجرة

(11307/1)

الانتقام". ويلي هؤلاء وبعض الكتاب كاتبان هما عبد الرحيم الكتاني وعبد الحق الكتاني، إذ أصدرا عدة قصص ومؤلفات بعنوان "القصص المدرسية"، منها "الفرحة الكبرى" و"الكيس العجيب". والذي لا ينسى أن الأدباء في تونس لم يغفلوا الأدب المترجم لأهميته الناجمة عن أسباب عدة؛ لذلك ترجم أحمد القديدي قصصاً كثيرة ومتنوعة من الآداب العالمية.

... وفي الجزائر أصدرت "الشركة الوطنية للنشر والتوزيع" كتب الأطفال باسم "سلسلة الأدب" كـ"سبّور" وغيرها. والذي ينظر في الأدب العربي المعد للأطفال في المغرب العربي الكبير يجد أنه

(11308/1)

تأخر بعض التأخُّر عن العراق ومصر والشام، وذلك لأسباب عدة متداخلة تتمثل في محاولة الاستعمار طمس الهوية الثقافية والوطنية والقومية للشعب العربي في المغرب الكبير، وبالذات في الجزائر، على أيدي الفرنسيين وليبيا من قبل الإيطاليين. وأما تونس والمغرب، فلا نعتقد أنهما يتوجهان لهذا الأمر. وهما يشكلان معبراً فاعلاً لنصرة الثورة في الجزائر، حيث يكون محاكاة الواقع أولى من غيره، لأن الأدب ينبع من نهضة الشعب وثورته على التخلف وإن كان الأدب فاعلاً في خلق الثورة ومساعداً على تفجيرها كي نصل إلى نتيجة حتمية أن

(11309/1)

الثورة والأدب يشكلان حلقات مسننة يحرك كل منهما الآخر للوصول إلى الهدف المنشود والمحقق.

... من هنا نرى أن جل الدول العربية قد قطعت شوطاً واسعاً صوب خلق فلسفة وطنية وقومية بوساطة أدب الأطفال، وإن لم تكن الدول متساوية في الرؤى والتوجهات وتحقيق الأهداف. وهذا لا يعني أن بعض الدول العربية لا علاقة لها بهذه الفلسفة التربوية

والترفيهية، بل إن من لم يقطع مسافات يحاول أن يضع بعض اللبنات في أساسات النهضة الشمولية، وذلك على الرغم من التراجعات والانقضاضات على البنية الفكرية والثقافية في الوطن العربي. إلا

(11310/1)

أنا نتلمس الأمل يتصاعد للوصول إلى الحقيقة.

(11311/1)

قراءة في تراث السهيلي المطبوع

الأستاذ بنيونس الزاكي

كلية الآداب ـ وجدة

أولاً. "نتائج الفكر" لأبي القاسم السهيلي، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا

... حاز التُّراث الفكري ـ في العقود الأخيرة من هذا القرن ـ عناية خاصة من لدن الباحثين والمحققين الذين ولَّى

طائفة منهم وجوههم شطر الغرب الإسلامي، ينفضون الغبار عن كنوزه، ويبرزون إسهام علمائه في إذكاء الثقافة الأدبية والإسلامية.

... وقد كان القرن السّادس الهجري من أخصب القرون علماً وثقافة في الأندلس، إذ برز فيه طائفة من حذاق العلم وجهابذة الفكر

(11312/1)

ممَّن طبقت شهرتهم الآفاق، حتى صار الواحد منهم تضرب إليه أكباد الإبل، وتحط بفنائه رحال الرجال.

... وقد كان الإمام السهيلي (508 هـ - 581 هـ) أحد أعلام هذه الفترة، وصاحب سهم وافر في نهضتها العلمية، وإسهامه الفكري مما لا يسَعُ أحداً من الدارسين جهلُه أو تجاهلُه.

... ولم يكن السهيلي - قبل العقدين الأخيرين من هذا القرن - يعرف بين جمهور العلماء والباحثين إلا بكتابه الفريد "الروض الأنف" الذي شرح فيه "سيرة" ابن هشام، فطلع على أهل العلم بمصنف لم يعرف شرح أَوْعَبُ ولا أكثرُ جمعاً منه(1)

---

(1) من كلمة قالها الدكتور محمود الطناحي في تصديره

لكتاب "البسيط في شرح الجمل" لابن أبي الربيع السبتي، ج 1، ص. 8.

(11313/1)

.

... ثم شاء الله ـ تعالى ـ أن يولي فئة من الباحثين وجوههم شطر إنتاج السهيلي الفكري، ويعمدوا إلى تحقيق ودراسة ما اهتدوا إليه مخطوطاً، ونشط آخرون في إعداد أبحاث انصبت على اهتمامات السهيلي وإنجازاته المتنوعة في أهم مجالات الثقافة الإسلامية المعروفة في عصره ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

... وإنصافاً للعلم وأهله، ينبغي الإشارة ابتداء إلى أن دارسي السهيلي مدينون إلى من كان له فضل سبق الوقوف على تراثه مخطوطاً، ومكابدة تحقيقه ودراسته، وأعني به الدكتور محمد إبراهيم البنا.

(11314/1)

... فقد نشر له تباعاً: "الأمالي"، و"نتائج الفكر" وكتاب "الفرائض وشرح آيات الوصية"، وأفاد أنه يعد كتاب

"التعريف والإعلام" للنشر(1)؛ كما أنجز دراسة علمية رصينة عن السهيلي ومذهبه النحوي(2).

... وكتاب "نتائج الفكر" هو أقدم تأليف للسهيلي فيما أفاد محققه، وقد عُني فيه بجوانب خمسة: الدلالة، والعلة، والعامل، ونظم القرآن، ونظم المصطلحات، والتعريفات.

---

(1) مقدمة نتائج الفكر، ص. 5.

(2) صدر عن دار البيان العربي بجدة عام 1985.

(11315/1)

... وقد ظهر لكتاب "النتائج" ثلاث نشرات: الأولى عن جامعة قار يونس بليبيا عام 1978، والثانية عن دار الاعتصام بمصر سنة 1984، والثالثة في السنة نفسها عن دار الرياض للنشر والتوزيع.

...

منهج تحقيق الكتاب

... أبان المحقق عن منهج تحقيقه للكتاب في مقدمته (ص. 24)، فنبه على أنه عُني بضبط النص، بالمقابلة بين نسختي الكتاب، وتخريج الأحاديث والأشعار والأمثال، إلخ.

... أقول: ولي على شواهد الكتاب الملاحظات الآتية:

1 ـ الشّواهد القرآنية:

(11316/1)

... عُني المحقق بتخريج كل الشواهد القرآنية، وفاته ضبط آيتين اثنتين الضبط الصحيح، الأولى في صفحة 46، وهي قوله تعالى: {سبح باسم ربك العظيم}. فاكتفى المحقق ببيان أنها من سورة الواقعة، الآية 74، ولم ينبه على أن صوابها {فَسبح} لا "سبح" كما جاء في المتن.

... الثانية: في صفحة 105، وسيق فيها قوله تعالى: {ذواتا أفنان} [الرحمان، الآية 48]، فضبط المحقق "ذواتا" بالتنوين، وصوابها "ذواتاً".

2 ـ الشواهد الحديثية والآثار:

(11317/1)

... حرص المحقق على تخريج الأحاديث وأقوال الصحابة. ومع ذلك، فقد أعياه بعضها، فسكت عنه دون أن يصرح بعدم وقوفه عليه، وتساهل في تخريج بعض الأحاديث بواسطة، من غير رجوع إلى مظانها.

ا ـ ما لم يهتد إلى تخريجه:

... 1 ـ الحديث: "أعمق ليموت" (النتائج، ص.140)، وأحال المحقق على "لسان العرب" و"جمهرة" ابن حزم.

... قلت: "اللسان" و"الجمهرة" غير معدودين في مصادر الحديث.

... والشاهد في "طبقات" ابن سعد، ج 2، ص.45، ومجمع الزوائد، ج 6، ص. 126، و"غريب الحديث" للخطابي، ج 1، ص ص. 136 ـ 137، و"الفائق" ج 3، ص. 412،

(11318/1)

و"الإصابة" ج 6، ص. 218 (نشرة البجاوي).

... 2 ـ حديث "اسكتي يا لا شيء" (النتائج، ص. 160).

... سكت عنه المحقق ولم يعلق عليه بشيء.

... قلت: أورده الغزالي في "الإحياء"، ج 3، ص. 204 (ط دار الندوة) مرفوعاً إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وساقه ثانية في ج 3، ص. 210 موقوفاً. قال أبو هريرة:

"الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالسن البالي تنادي ربها إلى يوم يفنيها: يا رب، يا رب لم تبغضني؟ فيقول لها: اسكتي يا لا شيء". وينظر "إتحاف السادة المتقين" للزبيدي ج 9، ص. 548، 572.

(11319/1)

... 3. حديث "دع ما حاك في نفسك، وإن أفتوك به وأفتوك" (النتائج، ص. 261).

... قلت: وقف به السهيلي عند ابن مسعود، فتوهم المحقق أنه قول له، وأدرجه في الفهارس العامة ضمن أقوال الصحابة.

... والصحيح أنه حديث لرسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ونصّه كما في "مسلم"، ج 4، ص. 1980، و"المسند"، ج 4، ص. 228، و"الترمذي"، ج 4، ص. 597: "عن وابصة بن معبد الأسدي أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال لوابصة: جئت تسأل عن البر والإثم؟ قال: نعم، قال: فجمع أصابعه فضرب بها صدره، وقال: استفت نفسك، استفت قلبك، والإثم ما

(11320/1)

حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس عنه وأفتوك"، والحديث أيضاً في "سنن" الدارمي، كتاب "البيوع"، باب: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"، ج 2، ص. 246، وينظر "الفائق"، ج 1، ص. 302، والحديث مثل عند البكري. ينظر "فصل المقال"، ص. 309، ط 3.

... 4 ـ حديث "لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حَدّ مطلع" (النتائج، ص. 268).

... علق عليه المحقق بقوله: "انظر "الإتقان" للسيوطي"، دون الإشارة إلى أنه حديث.

... قلت: وهو في "صحيح" ابن حبان: ينظر "الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان"، ج 1، ص. 146، و"مشكاة المصابيح"،

(11321/1)

ج1، ص. 80، و"شرح السنة" للبغوي، ج 1، ص. 263، و"مجمع الزوائد"، ج 7، ص. 152.

... 5 ـ حديث: "نظرت إلى جبريل كأنه حلس لاط، فعرفت فضل عمله علي" (النتائج، ص. 303).

... قلت: في "الفائق"، ج 1، ص. 305، حديث قريب من هذا ونصه: "مررت على جبريل ليلة أسري بي كالحلس من

خشية الله".

II ـ ما لم يَتَحَرَّ الدقة في تخريجه

... 1 ـ حديث: "لا تتراءى نارهما" (النتائج، ص. 142).

قال المحقق: "أخرجه النسائي، وروايته فيه: "ألا لا تراءى نارهما"".

(11322/1)

... قلت: الحديث كما جاء عند السهيلي في "شرح السنة" للبغوي، ج 10، ص. 244)، وهو بتمامه: ""أنا بريء من كل مسلم بين أظهر المشركين" قالوا: يا رسول الله، لِمَ؟ قال: لا تتراءى نارهما".

... 2 ـ حديث "إنها أهون على الله من الجيفة" (النتائج، ص. 160).

... قال المحقق: "أخرجه ابن ماجة في باب "مثل الدنيا"". (ص. 333).

... قلت: تتبعت الأحاديث الواردة عند ابن ماجة في الباب الذي ذكر المحقق، فلم أجد في واحد منها ذكراً للفظ الجيفة، وأقرب الروايات فيه لما ذكر السهيلي روايتان:

(11323/1)

... الأولى: ‘‘أترون هذه هينة ـ يقصد شاة ميتة شائلة ـ على صاحبها؟ فوالذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها’’.

... الثانية: ‘‘أترون هذه هانت على أصحابها؟ قال : قيل يا رسول الله ! من هوانها ألقوها. أو كما قال، قال: ‘‘فوالذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها’’.

("سنن" ابن ماجة، كتاب ‘‘الزهد’’،‘‘باب مثل الدنيا’’، ج 2، ص. 1377، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي).

... وبهذه الرواية ورد الحديث في كل ما تيسر لي الرجوع إليه من المصادر. ينظر "المستدرك على الصحيحين"، ج 4، ص. 306، و"الترمذي"، ج

(11324/1)

3، ص. 383، و"المسند"، ج 2، ص. 338؛ ج 4، ص. 229، و"مجمع الزوائد"، ج 1، ص. 253، و"الترغيب والترهيب"، ج 4، ص. 173، و"شرح السنة" للبغوي، ج 4، ص. 227، و"شعب الإيمان"، ج 7، ص. 325، و"مصنف" ابن أبي شيبة، ج 8، ص. 138.

... أقول: وقد جاء في "كشف الخفاء" للعجلوني، ص. 492:

"الدنيا جيفة، وطُلَّابُها كِلاب"، وهو حديث آخر.

... 3 ـ حديث: "أقرب ما يكون العبد إلى الله إذا كان ساجداً" (النتائج، ص. 273).

... قال المحقق: أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة. انظر "الفتح الكبير"، ج 1، ص. 219.

(11325/1)

... قلت: في جميع هذه المصادر ورد الحديث بلفظ "من ربه" بدل "إلى الله" و"وهو ساجد" عوض "إذا كان ساجداً".

... 4 ـ حديث: "يمين الله على الأرض" (النتائج، ص. 293).

... قال المحقق: أخرجه ابن عساكر والخطيب عن جرير، انظر "الفتح الكبير"، ج 2، ص. 79.

... قلت: الحديث في "كنز العمال"، ج 1، ص. 232، ونصه فيه: "يمين الله ـ عز وجل ـ طباق السموات والأرض".

... 5 ـ حديث: "مسكين رجل لا زوج له! مسكينة امرأة لا زوج لها"! (النتائج، ص. 407).

(11326/1)

... قال المحقق: أخرجه البيهقي عن أبي نجيح مرسلاً، انظر "منتخب كنز العمال"، ج 6، ص. 390.

... قلت: الحديث في "شعب الإيمان"، ج 4، ص. 382، ونصه فيه: ‘‘مسكين رجل ليست له امرأة، قيل: يا رسول الله وإن كان غنياً ذا مال؟ قال وإن كان غنياً من مال، قال: ومسكينة مسكينة امرأة ليس لها زوج. قيل يا رسول الله: وإن كانت غنية أو مكثرة من المال؟ قال: وإن كانت’’.

أقوال الصحابة:

... لم يُعْنَ المحقق بتخريج آثار الصحابة الآتية:

... 1 ـ قول عائشة رضي الله عنها: ‘‘إذا حاضت المرأة حرم الْجُحْرَانُ’’ (النتائج، ص. 54).

(11327/1)

... أقول: هو في "الغريبين" للهروي، ج 1، ص. 101 (مخطوط خزانة القرويين)، وهو أيضاً في "غريب الحديث" لابن قتيبة، ج 2، ص. 454، و"النهاية"، ج 1، ص. 240، و"الفائق"، ج 1، ص. 191، و"الأساس" (جحر)، و"تهذيب اللغة"، ج 4، ص ص. 136 ـ 137، و"الإنصاف" للبطليوسي، ص. 167، و"اللسان" (جحر)، و"جنى الجنتين" للمحبّي، ص.

33، و"تاج العروس" (جحر)، ج 10، ص. 375، ط الكويت.

... قلت: ودعوى السهيلي أن "الجحران" بالرفع هو قول طائفة من أهل العلم غير القتبي غيرُ مسلمة. فقد أفاد ابن الأثير أنه يروى بكسر النون، ويروى بضمِّها،

(11328/1)

كما نصَّ على ذلك أيضاً البطليوسي. فالظاهر أن السهيلي لم يستظهر أقوال من تَقَدَّمُوه.

... 2 ـ قول فاطمة رضي الله عنها: "يا حَسَنَانُ، يا حُسَيْنَانُ" (النتائج، ص. 54).

... استشهد السهيلي بهذا الأثر، ثم قال: "هكذا روته الرواة برفع النون".

... قال المحقق معلقاً عليه: "انظر "الروض الأنف"، ج 2، ص. 279".

... قلت: الذي في "الروض الأنف"، ج 4، ص. 140 (دار المعرفة، بيروت، ط 2) أن الهروي ـ وحده ـ قال ذلك في "الغريبين".

(11329/1)

... وفي "الغريبين"، ج 1، ص. 144، ورد ما نصه: "روت الرواة ذلك بضم النون: يا حسنانُ، يا حسينَانُ، فكأنها جعلت الاسمين اسماً واحداً فأعطتهما حظ الاسم من الإعراب، كما قالوا: الْجَلَّمَانُ - بضم النون - للجلم، والقلمان للقلم وهو المقراض، والجحران للفرج، هكذا رواه سلمة عن الفراء بضم النون فيهما جميعاً" ا. هـ

... وقال: أورد الزمخشري هذا الأثر في "الفائق"، ج 2، ص. 387، (باب "الظاء مع اللام"، دون تنصيص على حركة النون.

(11330/1)

... 3 - قول ابن سلام لعثمان رضي الله عنهما: "أنا خارجاً أنفع مني لك داخلاً" (النتائج، ص. 404).

... ولم يعلق عليه المحقق بشيء.

... قلت: كذا ورد عند السهيلي شاهداً في باب الحال.

... ولم أعثر عليه بهذه الرواية بعد طول بحث وتفتيش. ووقفت عليه في "أسد الغابة"، ج 3، ص. 160 (بتحقيق د. البنا وآخرين) في ترجمة ابن سلام، ضمن خبر، بالرواية التالية: "لما أريد قتْل عثمان رضي الله عنه، جاء عبد الله بن سلام، فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت في نصرك

قال: اخرج إلى الناس فاطردهم عني، فإنّك خارج خير إلي منك

(11331/1)

داخل".

... قلت: ولا شاهد فيه على هذه الرواية.

... 4 ـ قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "تمرة خير من جرادة" (النتائج، ص. 409).

... سكت عنه المحقق فلم يعلق عليه بشيء.

... قلت: أخرجه مالك في "الموطإ" كتاب "الحج"، باب "فدية من أصاب شيئاً من الجراد وهو محرم"، ج 1، ص. 416 (نشرة محمد فؤاد عبد الباقي)، وهو في "مصنف" عبد الرزاق، ج 4، ص. 410، و"المحلى"، ج 7، ص. 230 (ط دار الآفاق الجديدة)، واستشهد به من النحاة ابن أبي الربيع السبتي في "البسيط في شرح الجمل"، ج 1، ص. 539، وابن هشام في "المغني"، ص. 612 (دار

(11332/1)

الفكر، ط 5).

أقوال العرب:

... لم يعن المحقق بتخريج مجموعة من أقوال العرب، ومما أمكنني الوقوف عليه:

... 1 ـ "اذهب بذي تسلم" (النتائج، ص. 95).

... هو في "الكتاب"، ج 3، ص. 118، 121، 158، و"الكامل" للمبرد، ج 3، ص. 1353 (نشرة الدالي)، ونصه فيه: "افعل ذاك بذي تسلم". وجاء في "نوادر أبي زيد"، ص. 553: "ويقال: والله ما أحسنت بذي تسلم"، أي بسلامتك، وما أحسنت بذي تسلمان وبذي تسلمون، وللمرأة بذي تسلمين، وللنسوة بذي تسلمن، والمعنى في هذا كله: بسلامتكما للاثنين، وبسلامتكم للجماعة.

(11333/1)

... 2 ـ "كنا أهل ثمه ورمه" (النتائج، ص. 124).

... قال المحقق: "في "اللسان" : "قال أبو عبيد: المحدثون هكذا يروونه بالضم، ووجهه عندي بالفتح، والثم: إصلاح الشيء وإحكامه، وهو والرم بمعنى الإصلاح"".

... قلت: قول أبي عبيد هذا في "غريب الحديث" له، ج 4، ص. 403 ـ 404، وروايته فيه: "كنا أهل ثُمِّهِ وَرُمِّهِ حتى

استوى على عممه". هكذا يحدثونه: "أهل ثُمِّهِ وَرُمِّهِ - بالضم -، ووجهه عندي ثَمِّهِ وَرَمِّه، إلخ". وينظر "النهاية" لابن الأثير، ج 1، ص. 223.

... وينظر: الفائق"، ج 1، ص. 175، و "الأساس" (ثمم).

(11334/1)

... 3 - هو أحسن الفتيان وأجملهم" (النتائج، ص. 172).

... قلت: هو في "الكتاب"، ج 1، ص. 80، ونصه فيه: "هو أَحْسَنُ الفتيان وأجمله، وأكرم بنيه وأنبله". وينظر "البسيط في شرح الجمل"، ج 2، ص. 783.

... 4 - "اللهم اغفر لي أيها الرجل وارحمنا أيتها العصابة" (النتائج، ص. 199).

... قلت: هكذا جاء عند السهيلي، والذي في "الكتاب"، ج 3، ص. 170، و"أصول" ابن السراج، ج 1، ص. 367، و"أمالي" ابن الشجري، ج 1، ص. 418: "اللهم اغفر لي أيتها العصابة".

... 5 - "إنها لإبل أم شاء" (النتائج، ص. 260).

(11335/1)

... سكت عنه المحقق، وأدرجه في الفهارس العامة ضمن أقوال الصحابة.

... قلت: هذا شاهد من أقوال العرب سيَّار. ينظر "الكتاب"، ج 3، ص ص. 172 ـ 174، و"حروف المعاني" للزجاج، ص. 48، و"معاني الحروف" للرماني، ص. 173، و"أمالي" ابن الشجري، ج 3، ص. 108 (نشرة الطناحي)، و"أصول" ابن السراج، ج 2، ص. 213، و"الصحاح" (أمم)، ج 5، ص. 1867، و"الجنى الداني"، ص. 206، و"شرح المفصل" (التخمير)، ج 4، ص ص. 79 ـ 80، و"رصف المباني"، ص. 180 (ط 2)، و"شرح المفصل" لابن يعيش، ج 8، ص. 97.

... 6 ـ "حسبك ينم الناس" (النتائج، ص. 355).

(11336/1)

... قلت: هو في "المسائل العسكرية" للفارسي، ص. 127.

الشواهد الشعرية:

... 1 ـ قال الشاعر (النتائج، ص. 34):

وَفِي الجَهْلِ قَبْلَ المَوْتِ مَوتٌ لأَهْلِهِ ... فَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ

وَإِنَّ امْرَءاً لَمْ يَحْيَ بالعِلْمِ مَيِّتٌ ... فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى النُّشُورِ

نَشُورٌ

... قال المحقق: البيتان في "الفِلاكة والمفلوكون" ولم ينسبا لأحد.

... قلت: أفاد محققا كتاب "تعليم المتعلم في طريق التعلم" لبرهان الدين الزرنوجي (هامش صفحة 46) أن البيتين نسبا في إحدى النسخ المخطوطة للحسن بن علي

(11337/1)

المرغياني، وورد البيتان عند الصفدي في "الوافي بالوفيات"، ج 21، ص. 453، وياقوت الحموي في "معجم الأدباء"، ج 5، ص. 1956 (نشرة إحسان عباس)، وأفادا أنهما وُجدا في كتاب "سر السرور" لمحمود النيسابوري منسوبَيْن إلى الماوردي. وأنشدهما الماوردي في "أدب الدنيا والدين"، ص. 51 (نشرة محمد فتحي أبوبكر)، وأفاد أنهما لبعض أهل العصر. والبيتان كذلك بلا عزو في "إضاءة الراموس" لابن الطيب الشركَي، ج 2، ص ص. 193 ـ 194 (منشورات وزارة الأوقاف المغربية).

... 2 ـ وأنشد السهيلي (النتائج، ص. 57).

(11338/1)

... كَأَنَّ صَلا جَهيزَة حين تمشي حباب الماء يَتَّبِعُ الحَبَابَا

... قال المحقق: رواية "اللسان" :

... ... * كأن صلا جهيزة حين قامَت *

... قلت: البيت كذلك في "التهذيب"، ج 4، ص. 10، والروض الأنف"، ج 2، ص. 248، و"التاج" (حبب)، ج 2، ص. 224، وهو في "المستقصى"، ج 1، ص. 78، و"اللسان" (جهز)، ج 15، ص. 92 (ط الكويت)، وروايته في المواطن الثلاثة الأخيرة:

... كَأَنَّ صلاَ جهيزة حين قامت ... حَبَابُ الماءِ حالاً بَعْدَ حَالِ

... 3 ـ وقال الشاعر (النتائج، ص. 57).

(11339/1)

... تركتُ الرمحَ يعملُ في صلاه ... كأَنَّ سِنَانَه خرطومُ نَسْرِ

... قال المحقق: البيت في "الكامل" للمبرد، ج 1، ص. 67.

... قلت: البيت ليزيد بن سنان المري، وهو سابع أبيات "المفضلية"، ص. 13. ينظر "المفضليات"، ص. 70 (نشرة شاكر وهارون)، وهو بلا عزو في "جمهرة" ابن دريد، ج 2، ص. 897 (نشرة البعلبكي)، ويروى: "يبرق" بدل

"يعمل".

... 4 ـ وجاء في الصفحة 98 قول الشاعر:

... رأى الأمر يفضي إلى آخر ... فَصَيَّر آخره أوَّلا

(11340/1)

... قال المحقق: ذكره صاحب "العقد الفريد"، ج 2، ص. 253 في أبيات أربعة، قال: ''ولبعضهم''، ولم يُسَمِّه...

... وقد ذكر ابن جني في مواضع من "الخصائص" أنَّ أبا علي حَدَّثه به غير دفعه. انظر: ج 1، ص. 209؛ ج 2، ص. 31، 170، وانظر "الأشباه والنظائر"، ج 1، ص. 277

... قُلتُ: البيت لمحمود الوراق كما في "عيون الأخبار"، ج 3، ص. 53، 54، و"طبقات" ابن المعتز، ص. 367، (ط 3). ونسب للإمام علي. وهو بلا عزو في "سر صناعة الإعراب"، ج 2، ص. 687 (نشرة هنداوي)، و"المحتسب"، ج 1، ص. 188، و"شرح المفصل"، ج 5، ص. 120،

(11341/1)

و"الغيث المسجم"، ص. 449، و"محاضرات" اليوسي، ج 1، ص. 213.

... وانظر "ديوان" محمد الوراق، ص. 228، 229، صنعة د. وليد قصاب، وفي هامشه إحالة على مصادر أخرى.

... 5 ـ وجاء في الصفحة 149 قول الشاعر:

... ... * حوراء عيناء من العين الحيرْ *

... قال المحقق: البيت في "شرح المفصل"، ج 4، ص. 114، وهو لمنظور بن مرثد الأسدي، وروايته:

... ... * عيناء حوراء من العين الحير *

... قلت: جاء في "إصلاح المنطق"، ص. 126، 127، ما نصه:

قال الأصمعي: أنشدنا أبو مهدي:

(11342/1)

هل تعرف الدار بأعلى ذي القور ... قد درست غيرَ رمادٍ مكفور

مكتئب اللون مَرُوح ممطور ... أزْمَانَ عيناء سرور السرور

* عيناء حوراء من العين الحيرْ *

... وساقه ابن السكيت ثانية في الصفحة 37، فقال:

أزمان عيناء سرور المسرور ... عيناء حوراء من العين الحير

... وينظر "الزاهر في معاني كلمات الناس" لابن الأنباري، ج 1، ص. 120 (نشرة الضامن)، ط العراق؛ و"اللسان" (روم، قور، كفر).

... 6 ـ وجاء في الصفحة 188 قول الشاعر:

* نَحُجٌّ مَعاً، قالت: أَعَاماً وقابِلَه *

... قال المحقق: صدره:

(11343/1)

---

* فقلت: امكثي حتى يَسارِ لعلنا *

... والبيت من شواهد "الكتاب"، ج 2، ص. 39، ولا يعرف قائله.

... قلت: بل قائله معروف، وهو حميد بن ثور. ينظر "ديوانـ"ه، ص. 117، وروايته فيه:

فقلتُ امكثي حتى يسارِ لَوَ أَنَّنَا ... نَحُجٌّ فَقَالَتْ لِي أَعَامٌ

وقَابِلُ

... والظاهر أن المحقق لم يطلع على بحث الدكتور رمضان عبد التواب الموسوم: ''أسطورة الأبيات الخمسين في كتاب سيبويه'' الذي نشره في "مجلة المجمع العلمي العراقي" (المجلد 34، ص ص. 205 ـ 245، ط 1974) وأعاد نشره في كتابه "بحوث ومقالات في اللغة" (ص ص. 89 ـ

(11344/1)

140، وفي الصفحة 117 منه تخريج البيت من ديوان حُميد، ومصادر أخرى.

... 7 ـ وأنشد السهيلي (النتائج، ص. 209).

وأبيض كالمخراق...

... قال المحقق: لم يقلع لي البيت.

... قلت: البيت بتمامه:

وأبيضَ كالمِخْرَاقِ بَلَّيْتُ حَدَّه ... وهَبَّتُه في الساق والقَصَراتِ

وهو لامرئ القيس. ينظر "ديوانـ"ه، ص. 82 (نشرة أبي الفضل إبراهيم، ص 4).

... وصدره بلا عزو في "التهذيب" (خرق)، ج 7، ص. 42، و"اللسان" (خَرق)، ووهم صانع فهارسه فجعل صدر البيت عجزاً في فهرس الأشعار.

... 8 ـ وفي "النتائج"، ص. 209، ورد الشاهد:

(11345/1)

وأسمر خطي...

... فقال المحقق: قال ابن الأنباري في "شرح المفضليات"، ص. 734: "أنشدني أحمد والضبي للأسود بن يعفر:

... وأسمر خطي كأنَّ سنانه ... شهاب غضا شيعته فتلهبا

... والبيت في "الأصمعيات"، ص. 266 منسوباً إلى ربيعة بن مقروم الضبي، وفي "البحر المحيط"، ج 2، ص. 332:

"وقال حاتم:

وأسمر خطيا كأن كعوبه ... نوى القسب قد أربى ذراعاً على العشر"

قلت: الشاهد بروايته الثانية في "اللسان" (رمى) وعزاه لمن سماه أوساً. فإن يكن قصده أوس بن حجر، فليس في

ديوانه، وهو في اللسان ثانية (قسب) و(رمى) منسوباً لحاتم وهو

(11346/1)

في "ديوانـ"ه، ص. 46، ولا عزو في "البيان والتبيين"، ج 3، ص. 25؛ ونسب في "سمط اللآلئ"، ج 2، ص. 686 لعتيبة ابن مرداس، وفي حاشيته إحالة على مصادر أخرى نبه عليها العلامة الميمني رحمه الله.

... 9 ـ وأنشد السهيلي قول الشاعر (النتائج، ص. 225).

... بالخير خيرات وإن شرافا ... ولا أريد الشر إلا أن تا

... وعزاه المحقق للقيم بن أوس.

... قلت: هو لنعيم بن أوس في "العمدة"، ج 1، ص. 527 (نشرة قرقزان)، و"اللسان" (معي)، ولحكيم بن معيَّة التميمي في "المحكم" لابن سيده، ج 2، ص. 193، و"اللسان" ثانية (معي)، ونسبه

(11347/1)

القرطبي في "تفسيره"، ج 1، ص. 155 لمن سماه زهيراً.

فإن يكن مراده زهير بن أبي سلمى، فليس في ديوانه.

... 10 ـ وجاء في الصفحة 236 قول الشاعر:

كيف أصبحت؟ كيف أمسيت مما ... يثبت الود في فؤاد الكريم

... قال المحقق: انظر "أمالي" السهيلي، ص. 101، 102.

... قلت: الشاهد بلا عزو في "الخصائص"، ج 1، ص. 290، و "ديوان المعاني"، ج 2، ص. 570 عن المبرد النحوي قال: أنشدني المازني عن أبي زيد، وهو في "شرح" المرزوقي، ج 3، ص. 1401، و"رصف المباني، ص. 478، و"الدر المصون" للسمين الحلبي، ج 3، ص. 176، و"الأشموني"، ج 3، ص.

(11348/1)

116، و"المساعد"، ج 2، ص. 473، و"البحر المحيط"، ج 2، ص. 385، دار الفكر، ط 2، و"الهمع"، ج 2، ص. 140.

... وجاء في بعض هذه المصادر: "يزرع" مكان "يثبت".

... 11 ـ واستشهد السهيلي بالبيت الآتي منسوباً للأعشى (النتائج، ص. 270).

... وسخَّر من جِنِّ الملائِكِ سبعَةً ... قياماً لديه يَعْمَلُونَ بلا أَجْرِ

... قال المحقق: البيت في "اللسان"، مادة "جنن"، وفيه "تسعة" بدل "سبعة".
... قلت: الشاهد في "تفسير" الطبري، ج 1، ص. 506 (ط شاكر)، وفيه تنصيص على أنه للأعشى. أعشى قيس بني ثعلبة البكري. وهو يذكر سليمان

(11349/1)

بن داود وما أعطاه الله وورد ضمن أبيات كالآتي:

ولوْ كانَ شيءٌ خالِداً أو معمِّراً ... لكانَ سليمانُ البريءُ من الدَّهْرِ
بَراهُ إلاهي واصطفَاهُ عِبَادهِ ... وَمَلَّكه ما بين ثُريَّا إلى مِصْرِ
وسَخَّر من جنِّ الملائِكِ تِسْعَةً ... قِيَاماً لدَيْهِ يعمَلُونَ بلا أَجْرِ

... والشاهد في "الأضداد" لابن الأنباري، ص. 335 (نشرة أبي الفضل إبراهيم، ط الكويت)، وهو للأعشى. بلا وصف. في "المحرر الوجيز"، ج 1، ص. 179 (ط المغرب)، و"البحر

المحيط"، ج 1، ص. 153، و"الخزانة"، ج 6، ص. 176 (ط هارون)، وهو من

(11350/1)

شواهد الوزير اليمني في "الطراز"، ج 2، ص. 62 (ط دار الكتب العلمية) وعزاه للأرحبي، وبلا عزو في "الدر المصون"، ج 1، ص. 173، و"تفسير" القرطبي، ج 1، ص. 195.

... 12 ـ وأنشد السهيلي قول الشاعر (النتائج، ص. 281):

* كُلّا بَلَوْتُ فَلا النَّعْمَاءُ تُبْطِرُنِي *

... قال المحقق: البيت في "الكامل" للمبرد، ج 1، ص. 164، غير منسوب، وعجزه:

* ولا تَخَشَّعْتُ من لأوائِها جَزعا *

... قلت: الشاهد لعبد العزيز بن زرارة الكلابي في "معاني" العسكري، ج 1، ص. 88، و"الوحشيات"، ص. 175، و"الحماسة البصرية"، ج 1، ص. 116،

(11351/1)

و"العقد الفريد"، ج 2، ص. 29؛ ج 3، ص. 378، و"التذكرة السعدية"، ص. 108، وهو له من قصيدة في "البيان والتبيُّن"، ج 4، ص. 54، ولخلف الأحمر في "سمط اللآلي"، ج 2، ص. 412، وله أيضاً من قصيدة في "أمالي" الزجاجي، ص. 64 (نشرة هارون)، وللقيط بن زرارة في "الفرج بعد الشدة" للماوردي، ج 3، ص. 100 (ضمن رسائله) و"الفرج بعد الشدة" للتنوخي، ج 5، ص. 5 (نشرة عبود الشالجي)، و"الأرج بعد الفرج" للسيوطي، ص. 54.

... 13 ـ وأنشد السهيلي للخثعمي (النتائج، ص. 281).

(11352/1)

بكُلِّ تَدَاوَيْنَا فلم يَشْفِ ما بنا على أن قُربَ الدار خيرٌ من البعد

... قال المحقق: هو عبد الله بن الدمينة...، والبيت في "ديوانـ"ه، ص. 82.

... قلت: نسبه القالي في "ذيل الأمالي والنَّوادر"، ص. 104 ليزيد بن الطثرية، وعزاه أبو تمام في "وحشياتـ"ه، ص. 175، لعبد العزيز بن زرارة. وقد فات العلامة راتب النفاخ ـ رحمه الله ـ ذلك فلم ينبه عليه في الهامش.

... 14 ـ وفي صفحة 293 ورد الشاهد:

يَدَيْتُ على ابنِ حسْحاسِ بنِ عمرو ... بأسفل ذي الجَذاةِ يدَ الكريمِ

(11353/1)

... وخرجه المحقق من "لسان العرب" (جذا) و(يدي).

... قلت: هو أيضاً في "أمالي" ابن الشجري، ج 2، ص. 230 (نشرة الطناحي)، وفي هامشه فضل تخريج فيلنظر.

... 15 ـ وجاء في الصفحة، 299 كلام للسهيلي عن الرِّزق ـ بفتح الراء ـ فقال: كما جاء في الشعر من نحو قوله في عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

... واقْصِدْ إلى الخير ولا تَوقَّهْ ... وارزُقْ عِيَالَه رِزْقَهْ

... وعلق عليه المحقق بقوله: "هو عويف القوافي، من قصيدته التي يرثي فيها عمر بن عبد العزيز.

(11354/1)

... قلت: الظاهر أن المحقق انساق مع ما قال السهيلي، فتوهم أن البيت في رثاء عمر بن عبد العزيز، والصحيح أنه من قصيدة في رثاء سليمان بن عبد الملك، وإليك نص كلام المبرد: "وقال عويف القوافي شعراً يرثي سليمان بن عبد الملك ويذكر عمر بن عبد العزيز... "، ("الكامل"، ج 2، ص. 840 [نشرة الدالي]).

... 16 ـ وأنشد السهيلي قول الشاعر (النتائج، ص. 364).

ثلاثةُ أحباب فَحُبٌّ عَلاَّقة وَحُبٌّ تِملاَّق، وَحُبٌّ هُوَ القتلُ

(11355/1)

... قال المحقق في تخريجه: البيت في "مجالس ثعلب"، ج 1، ص. 23 منسوباً إلى أعرابي، وفي "شرح المفصل"، ج 6، ص. 48، ج 9، ص. 157.

... قلت: الشاهد بلا عزو في "ليس في كلام العرب"... لابن خالويه، ص. 139 (نشرة أحمد عبد الغفور عطار)، وعزاه المحقق إلى حنبل الطائي، وهو بلا عزو في "الدر المصون"، ج 2، ص. 210، و"نهاية الأرب"، ج 2، ص. 130، و"شرح المفصل" (التخمير)، ج 3، ص. 76 (نشرة عبد الرحمن العثيمين)، و"البحر المحيط"، ج 1، ص. 456، و"شرح الكافية الشافية" لابن مالك، ج 4، ص. 2239.

(11356/1)

... 17 ـ وفي الصفحة، 385 جاء قول الشاعر:

* والشهر مثل قلامة الظفر *

... وخرجه المحقق من "التاج" و"نهاية" ابن الأثير.

... قلت: الشطر أيضاً من شواهد الخطابي في "غريب الحديث"، ج 1، ص. 130. أورده ضمن بيت، فقال: قال الشاعر، أنشده الفقعسي:

... ابدأن من نجدٍ على ثقة والشهر مثل قلامة الظُّفْر

... وهو كذلك من شواهد القرطبي في "تفسير"هـ ج 2، ص. 293، ساقه ضمن بيتين، كالآتي:

... أخوان من نَجْدٍ على ثقةٍ ... والشَّهْر مثْلُ قُلامَةِ الظُّفْرِ

... حتى تكامل في استدارته ... في أربع زادت على عشر

(11357/1)

... 18 ـ وأنشد السهيلي قول الراجز (النتائج، ص. 392).

... وكُلُّ شيء قد يحب ولده ... حتى الحُبارى فتطير عَنَده

... وخرجه المحقق من "اللسان" (عند).

... قلت: هو أيضاً في "التهذيب" (عند)، ج 2، ص. 222، و"المستقصى"، ج 2، ص. 227، و"جمهرة" ابن دريد، ج 2، ص. 666، وتَكَرَّر الشاهد ثانية في "اللسان" (حَبَر)، وورد في الموضعين الأخيرين مَثَلاً على هيئة النثر.

نقول مختلفة:

... زخر كتاب "النتائج" بنقول كثيرة، اهتدى المحقق إلى تخريج أكثرها، وأعياه بعضها. وممّا فاته:

(11358/1)

... 1 ـ قول السهيلي (النتائج، ص. 246): "ومكان مضبوب ومسبوع" من "الضباب والسباع".

... قال المحقق: "لم أجد "مضبوباً ومسبوعاً" فيما أتيح لي من كتب اللغة".

... قلت: ورد في "الاشتقاق" لابن دريد، ص. 427 ما نصه: "و"السَّبيع" مثل المسبوع سواء، وهو الذي قد أكل

السبع غَنَمه".

... وفي "التاج" "سبع"، ج 21، ص. 278 (ط الكويت):

"وسُبِعَت الوحشية فهي (مَسبوعة)".

... 2 ـ قال السهيلي: "ومن هذا الباب ـ المتقدم بالطبع ـ تقدم (العزيز) على (الحكيم)، لأنه عزَّ، فلمَّا عزَّ حكم.. ".

(النتائج، ص. 268).

(11359/1)

... قلت: قوله: "لأنه عز فلما عز حكم" إشارة إلى خبر ساقه في شرح آيات الوصية: 42.

... وأورده أبو حيان في "البحر المحيط"، ج 3، ص. 484 (ط دار الفكر، بيروت، ط 2)، ونصه فيه: "روي أن بعض الأعراب سمع قارئاً يقرأ {والسارق والسارقة} إلى آخرها، وختمها بقوله: "والله غفور رحيم" فقال: ما هذا كلام فصيح، فقيل له: ليس التلاوة كذلك، وإنّما هي: (والله عزيز حكيم) [المائدة، الآية 38]، فقال: بخ بخ، عزَّ فحكم فقطع".

... 3 ـ وفي الصفحة 325 عقد السهيلي فصلا في صيغتي "افعلَّ" و"افعالّ"، وذكر أن الخطابي زعم أن معنى

(11360/1)

"احْمرَّ" مخالف لمعنى "احمارّ"، وذهب إلى أنّ "افعلّ" يقال فيما لم يخالطه لون آخر، و"افعالّ" يقال لما خالطه لون آخر...

... قلت: أغفل المحقق عزو قول الخطابي إلى مصدره، وهو في "غريب الحديث" له، ج 1، ص. 241، ونصه فيه: "فأما اللون الخالص كالحمرة والبياض ونحوهما، فالفعل منه "احمرَّ" و"ابيضَّ"...، هذا إذا أردت أنه قد تمكَّنَ واستقرَّ، فإذا أردت التغير والاستحالة قلت: "احمارَّ" و"اصفارّ".

... وبعد؛ فهذا ما يسر الله تعالى من متابعة شواهد "نتائج الفكر" فعسى أن يفيد محققه من ذلك ويعمل على إخراج الكتاب في

(11361/1)

طبعته الثالثة إخراجاً يشارف الكمال، وتلك رغبته التي عبر عنها في آخر مقدمة الطبعة الثانية.

ثانياً - "التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام" لأبي القاسم السهيلي، تحقيق عبد الله محمد

علي النقراط

... يعد كتاب "التعريف والإعلام" أحد المؤلفات التي نالت شهرة واسعة، وقد أفاد منه طلبة العلم عامة، والمشتغلون بالدراسات القرآنية خاصة، إفادة كبيرة.

... وموضوع هذا الكتاب هو التعريف بمبهمات القرآن أعلاماً كانت أو غير إعلام. وقد أبان السهيلي عن غرضه من هذا التأليف، فقال:

(11362/1)

... ... فإني قصدت أن أذكر في هذا المختصر الوجيز ما تضمنه كتاب الله العزيز من ذِكْرِ من لم يُسَمَّ فيه باسمه من نبي أو ولي أو غيرهما من آدمي أو ملك أو جني أو بلد أو شجر أو كَوكب أو حيوان، له اسم علم قد عرف عند نَقَلَة الأخبار والعلماء الأخيار (1).

منهج السهيلي في هذا الكتاب

---

(1) التعريف والإعلام، تحقيق عبد الله محمد علي النقراط، منشورات كلية الدعوة ولجنة الحفاظ على

التراث الإسلامي، طرابلس ـ ليبيا، ط 1، 1411 هـ/ 1996 م، ص. 50.

(11363/1)

... صرف السهيلي جهده في هذا التأليف إلى تتبع ما استبهم في القرآن من الأسماء، وسلك في ذلك مسلك المفسرين في تناول سور القرآن الكريم، بادئاً بسورة الحمد، ومنتهياً بسورة الفلق.

... وقد تَوَسَّلَ المؤلف إلى إعداد هذه الدراسة باعتماد ثلاثة مصادر:

... 1 ـ القرآن الكريم؛

... 2 ـ الحديث النبوي؛

... 3 ـ كتب التفسير والحديث والتاريخ والأخبار والأنساب.

... 1 ـ القرآن الكريم:

... أما المصدر الأول، فإن السهيلي اعتمده لأن القرآن ـ كما قال الزمخشري ـ(1)

---

(1) ينظر "الكشاف"، ط دار الكتاب العربي، بيروت، ج 1، ص. 546.

(11364/1)

"يفسر بعضه بعضاً"، وهو منهج أصحاب التفسير بالمأثور الذين انتهى بهم النظر في كتاب الله إلى أنه اشتمل على الإيجاز والإطناب، والإجمال، والتبيين، والإطلاق والتقييد، والعموم والخصوص. ولذلك لابد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى من أن ينظر في القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه في موضوع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً، وبما جاء مُبَيَّناً على فهم ما جاء مجملاً، ليحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء

(11365/1)

عن الله. وهذه مرحلة لا يجوز لأحد مهما كان أن يعرض عنها، ويتخطاها إلى مرحلة أخرى، لأنَّ صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه، وأعْرَف به من غيره(1).

... وقد جنح السهيلي إلى بيان ما استبهم من الأسماء في سورة "الحمد" فتمثل هذا اللون من التفسير واضحاً جلياً فيها.

... قال: قوله تعالى: {الذين أنعمت عليهم} [الفاتحة، الآية 7]: هم الذين ذكرهم الله في سورة النساء حين قال: {فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء

---

(1) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة، ج 1، ص. 37.

(11366/1)

والصالحين} [النساء، الآية 68]، ثم أعقب ذلك بقوله: وانظر إلى قوله تعالى: {وحسن أولئك رفيقا} [النساء، الآية 66]، واجمع بينه وبين قوله: {صراط الذين أنعمت عليهم} [الفاتحة، الآية 7]، تَجِدْهُ شرحاً له: لأن الصراط: الطريق، ومن شأن سالك الطريق الحاجة إلى الرفيق، ولذلك قال تعالى {وحسن أولئك رفيقا}(1).

2 ـ الحديث النبوي:

... السنة هي المصدر التشريعي الثاني بعد القرآن الكريم، ومهمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هي البيان، مصداقاً لقوله تعالى: {وأنزلنا إليك الذكر

(1) التعريف والإعلام، ص ص. 53 ـ 54.

(11367/1)

لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون } [النحل، الآية 44].

... وأوجه خدمة السنة للكتاب متعددة. فهي تبين مجمله، وتوضح مشكله، وتخصص عامه، وتقيد مطلقه، وتبين النسخ وتؤكد أحكاماً وردت في القرآن.

... وهذا الوجه الأخير هو الذي عناه السهيلي حين قال: "وانظر إلى قوله عليه السلام: "خير الرفقاء أربعة"(1)، تجده ينظر إلى قوله سبحانه: {من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً}".

(1) أخرجه ابن ماجة في "سننه"، "كتاب الجهاد"، باب "السرايا"، ج 2، ص. 944 (نشرة محمد فؤاد عبد الباقي).

(11368/1)

---

3 ـ كتب التفسير والحديث والتاريخ والأخبار والأنساب:

... أ ـ كتب التفسير والحديث:

... غلب على السهيلي الاستعانة بهذه المصادر. وهو تارة يحيل عليها، ويذكر عناوينها، ويكتفي بالتنبيه على مؤلفيها استغناءً بها عن ذكر أسمائها تارة أخرى.

... وهذه أهم كتب التفسير والحديث التي اعتمدها في "التعريف والإعلام"(1).

... 1 ـ "أحكام القرآن" للقاضي أبي بكر بن العربي المعافري.

... 2 ـ "تفسير" الطبري.

... 3 ـ "تفسير" عبد الرزاق.

... 4 ـ "تفسير" الكشي (عبد بن حميد).

---

(1) التعريف والإعلام، ص. 54.

(11369/1)

... 5 ـ "تفسير" الماوردي.

... 6 ـ "تفسير" النقاش.

... 7 ـ "سنن" الترمذي.

... 8 ـ "سنن" الدارقطني.

... 9 ـ "صحيح" البخاري.

... 10 ـ "مسند" البزار.

... 11 ـ "موطأ" الإمام مالك

...

... ب ـ كتب التاريخ والأخبار والأنساب:

... أكثر السهيلي من اعتماد هذه المصادر، وهذه قائمة بعناوين أهمها:

... 1 ـ "تاريخ الطبري".

... 2 ـ "سيرة ابن إسحاق".

... 3 ـ "سيرة ابن هشام".

... 4 ـ "مروج الذهب" للمسعودي.

... 5 ـ "معجم ما استعجم" للبكري.

... 6 ـ "المؤتلف والمختلف" لابن ماكولا.

... 7 ـ "الهواتف" لابن أبي الدنيا.

(11370/1)

... ومنهج السهيلي في "التعريف والإعلام" يكاد يكون منهجه نفسه في سائر كتبه. فهو يسوق الأقوال، ويعمل فكره الثاقب فيها، ويناقشها مناقشة علمية رصينة، فيرجح ما تعضده الأدلة والشواهد، ويلغي الضعيف منها والمرجوح.

... فعند كلامه على قوله تعالى: {قال الذي عنده علم من الكتاب} [النمل، الآية 40]، قال: قيل: هو آصف بن أرخيا

بن خالة سليمان، وكان عنده علم بالاسم الأعظم من أسماء الله تعالى، وقيل: هو سليمان نفسه.

(11371/1)

... ولا يصح في سياق الكلام مثل هذا التأويل، وذكر محمد بن الحسن المقري قولاً ثالثاً أنه صبة بن إذ، وهذا لا يصح البتة، لأن صبة هو ابن عاذ بن طابخة، واسمه عمرو بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد، وقد تقدم أن معداً كان في زمان بختنصر، وذلك بعد عهد سليمان عليه السلام بزمن طويل. فإذا لم يكن معد في عهد سليمان، فكيف صبة بن إذ، وهو بعده بخمسة آباء، وهذا بَيِّن لمن تأمله. وقد قيل فيه قول رابع: إنه جبريل عليه السلام(1).

---

(1) التعريف والإعلام، ص. 237.

(11372/1)

... ومن أمثلة التحقيق العلمي الذي ساد كتاب "التعريف والإعلام" ما جاء على لسان السهيلي وهو بصدد الكلام على الآية الرابعة من سورة الأحزاب: {ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه}؛ قال: كان جميل بن معمر الجمحي يدعى

ذا القلبين، فنزلت الآية، وفيه يقول الشاعر:

وكيف ثَوَائِي بالمدينة بعدما ... قضَى وطراً منها جميل بن معمر

... وروى الزبير بن بكار أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ استأذن على عبد الرحمن بن عوف، فسمعه يتغنى بهذا البيت، فقال: ما هذا يا ابا محمد؟ فقال: إنا إذا خلونا قلنا ما يقول الناس في

(11373/1)

بيوتهم، وقلب المبرد في الكامل هذا الحديث(1). وجعل المستأذن عبد الرحمن بن عوف، والمتغني عمر بن الخطاب، والزبير أعلم من المبرد بهذا الشأن(2).

... لكن السهيلي ـ وهو المحقق المدقق ـ تساهل في كتابه هذا بعض التساهل، فلم يعتمد الأخبار الصحيحة وحدها، ولم يشترط التزامها في الكتاب. وقد نبه على ذلك في معرض كلامه على قوله تعالى: {لها سبعة أبواب} [الحجر، الآية 44]، فقال:

---

(1) ينظر "الكامل"، ج 2، تحقيق محمد أحمد الدالي،

مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1986، ص ص. 564 ـ 565.

(2) التعريف والإعلام، ص ص. 253 ـ 254.

(11374/1)

"وقع في كتب المواعظ والرقائق أسماء لهذه الأبواب على ترتيب لم يرد في أثر صحيح، وإن كنا لم نشترط في هذا الكتاب أن نقتصر على الصحيح دون غيره" (1).

... وما تساهَلَ السهيلي في تضمينه كتابَه من أخبار قد لجأ إلى إيراد بعضه ثِقَةً براويه، كما وقع له عند كلامه على قوله تعالى: {أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم} [النمل،الآية 82]، قال:

... اسم الدابة: "أقصى" فيها ذكر أبو بكر بن الحسن، وذكر أنها الثعبان الذي كان في بئر الكعبة قبل بنيان

---

(1) التعريف والإعلام، تحقيق عبد الله محمد علي النقراط، ص ص. 253 ـ 254.

(11375/1)

قريش لها، وأن الطائر لما اختطفها ألقاها بالحجون(1)، فالتقمتها الأرض، فهي الدابة التي تخرج تكلم الناس، وتخرج عند الصفا، وهذا الذي قاله غريب، غير أن الرجل من أهل العلم، ولذلك ذكرنا قوله (2).

كتاب "التعريف والإعلام" نسخه المخطوطة، طبعاته ... لكتاب "التعريف والإعلام" أكثر من نسخة مخطوطة تحتفظ بها خزائن مغربية ومشرقية، وبعضها في خزائن أوربا، ومنها:

---

(1) الحجون: جبل أعلى مكة عند مدافن أهلها. (ينظر "معجم االبلدان" لياقوت الحموي، ج 2، ص. 161).

(2) التعريف والإعلام، ص. 238.

(11376/1)

---

1 ـ نسختا الخزانة العامة بالرباط، ورقماهما: 1202 د، و 1963 د.

2 ـ نسخة الخزانة الحسنية، بالرباط، ورقمها: 218/ 2.

3 ـ نسخة في مكتبة العلامة محمد المنوني.

4 ـ نسخة دار الكتب المصرية تحت رقم 29321 ب.

5 ـ نسختا ميونيخ وبرلين، ذكرتهما نشرة عياش، ولم

تنبه على أرقامهما.

... أما طبعات الكتاب، فهي:

1 ـ نشرة مطبعة الأنوار سنة 1938.

2 ـ نشرة دار الكتب العلمية بعناية عبد الأمير مهنا سنة 1987.

3 ـ طبعة دار الفكر العربي ببيروت بعناية هيثم عياش سنة 1988.

(11377/1)

---

4 ـ طبعة كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي بطرابلس ليبيا، بتحقيق عبد الله محمد علي النقراط سنة 1992.

... فأما الطبعة الأولى، فإن الباحثين الذين وقفوا عليها مجمعون على أنها تزخر بتصحيفات وتحريفات، بالرغم من ادعاء مصححها استفراغ الجهد في إخراجها سليمة من الأخطاء.

... والنشرة الثانية التي ظهرت بعناية عبد الأمير مهَنَّا اعتمدت نسخة خطية واحدة، قوبلت على نشرة مطبعة

الأنوار. وصاحب هذه النشرة يذكر في مقدمة الكتاب أن الذي دعاه إلى إخراجها ثانية هو ما لاحظه في النشرة الأولى من كثرة

(11378/1)

الأخطاء، لكن عمله لم يسلم من بعضها؛ بل لقد أضاف إليها أخطاء جديدة.

... والنشرة الثالثة التي صدرت بعناية هيثم عياش، زعم مُقدِّمها (عزت العنان) أنها اعتمدت نسختي ميونيخ وبرلين، لكن (المحقق!!) لا يصف النسختين، ولا يحيل حتى على رقميهما. ولا يكاد قارئ هذه النشرة يفرغ من إلقاء نظرة على هذا (التحقيق!!) حتى يستيقن أن الرجل ليس من أهل هذا الفن.

... وأكتفي هنا بالإلماع إلى بعض المسائل المنهجية:

... 1 ـ كُتِبَ على غلاف الكتاب العنوان الآتي: "غوامض الأسماء المبهمة والأحاديث المسندة في القرآن".

(11379/1)

... ولا أدري من أين جاء (المحقق!!) بهذا العنوان، إذ لم أقف على أحد ممن ترجم السهيلي وذكر تآليفه نبه على كتاب له بهذا العنوان. ومن العجيب أن السهيلي يذكر عنوان "التعريف والإعلام" في خطبة الكتاب، فتأكد بذلك أن ما أُثْبِتَ على الغلاف ليس إلا اختراعاً من المحقق أو الناشر أو هما معاً.

... 2 ـ سقط من النسختين اللتين اعتمدتهما هذه النشرة أكثر خطبة الكتاب، والمنهج المتعارف عليه في التحقيق يقتضي التنبيه على ذلك في الهامش، لكن هذا (المحقق!!) ينص على ما سقط في متن الكتاب. فأي منهج هذا في التحقيق ؟

(11380/1)

... 3 ـ يزعم المحقق أو الناشر أو هما معاً أن هذه النشرة هي أول إصدار للكتاب، والصحيح ـ كما مر بك ـ أنها النشرة الثانية.

... هذه بعض نقائص نشرة هيثم عياش وهي ـ كسابقتها ـ مثقلة بالهوامش التي لا داعي إلى كثير منها، والظاهر أن الرجل لا علم له بصناعة التحقيق.

... ولما كانت النشرة الرابعة هي التي حققت وفق المنهج

المتعارف عليه عند أهل هذا الفن، فقد وجدتني مدعواً إلى إيثارها ـ دون ما سواها من الطبعات التجارية السالفة ـ بمتابعة نقدية.

(11381/1)

... وبما أن المحقق قد جعل الكتاب قسمين: الدراسة أولاً، والتحقيق ثانياً؛ فإن متابعتي ستمضي وفق هذه الخطة.

... 1 ـ الدراسة:

... عقد المحقق ترجمة للسهيلي موجزة، تناول فيها نسبته إلى سهيل، ومصادر ترجمته، وصفاته، ومكانته العلمية، وشيوخه، وآثاره. ولي على أكثر هذه المباحث ملاحظات أوجزها كالآتي:

... 1) في الصفحة 17: ذكر المحقق أن السهيلي عرف بثلاث كنى، أشهرها أبو القاسم، ثم أبو زيد؛ وأما الثالثة، فهي أبو الحسن.

(11382/1)

... قلت: فات المحقق ـ كما فات معظم الذين ترجموا للسهيلي ـ كنية له رابعة، هي أبو علي، انفرد بها مصدر أندلسي هو "أدباء مالقة"، ص. 171 (مخطوط).

... 2) عَوَّلَ المحقق في ترجمته للسهيلي وذكر بعض أخباره على طائفة من المصادر، ذكرها في الصفحة 18 تحت عنوان: "المصادر التي ترجمت للسهيلي".

... ولي على هذه القائمة الملاحظات الآتية:

... أ ـ إن حصة الأسد في هذه القائمة حازتها المصادر الشرقية، والسهيلي أندلسي، وكان الأولى الرجوع إلى المصادر الأندلسية والمغربية لهذا الغرض.

(11383/1)

... ب ـ إن أهم مصدر أندلسي عَوَّلَ عليه من عُنُوا بالترجمة للسهيلي ـ قديماً وحديثاً ـ هو "المطرب من أشعار أهل المغرب" لابن دحية تلميذ السهيلي؛ ومن الغريب أنه لا يوجد في قائمة مصادر المحقق.

ج ـ إن السهيلي من علماء اللغة والنحو، وقد ترجمت له طائفة من مصادر هذين الفنين أهمهما:

... ("إشارة التعيين" لابن عبد المجيد اليماني، تحقيق

عبد المجيد دياب، ط السعودية، ص. 182.

... ("البلغة في تاريخ أئمة اللغة" للفيروزآبادي، تحقيق محمد المصري، ط دمشق، ص. 123.

(11384/1)

... ("طبقات النحاة واللغويين" لابن قاضي شهبة (مخطوط بالخزانة الأسدية ـ دمشق)، ص. 538.

... وليست هذه الثلاثة مِنْ مصادر المحقق، وإنما اكتفى بمصدر متأخر هو "بغية الوعاة" للسيوطي.

... وتحت عنوان: "صفاته ومكانته العلمية"، ذكر المحقق ما نصه: "وصف المترجمون له ـ للسهيلي ـ بالفقيه الأديب، الحافظ، العالم الجليل القدر، المقرئ، المتصرف في فنون العلم وضروب المعارف"، ثم أحال في الهامش على "شجرة النور الزكية" لابن مخلوف التونسي.

... أقول: ها هنا ملاحظتان اثنتان:

(11385/1)

... 1 ـ عبارة المحقق: "وصف المترجمون له... "تقتضي الإحالة على مصادر، لا على مصدر واحد.

... 2 ـ "شجرة النور الزكية" مصدر متأخر، وكان الأولى الإحالة على مصادر متقدمة عليه زمناً.

شيوخ السهيلي:

... عرج المحقق على أسماء اكثر شيوخ السهيلي، وذكر أنه أكثر عن ابن الطراوة في علوم اللسان، وناظره في "كتاب" سيبويه، كما أورد ابن عربي الحاتمي الصوفي ضمن هؤلاء الشيوخ.

... أقول: مناظرة السهيلي شيخه ابن الطراوة ذكرها ابن الأبار في "التكملة"، ج 3، ص. 32 (نشرة د. الهراس) والذهبي في "تذكرة الحفاظ"، ج 4، ص. 1349،

(11386/1)

وتناقلتها بعض المصادر المتأخرة دون تحقيق. والصحيح ـ كما حقق ذلك الدكتور محمد إبراهيم البنا ـ أنه لم تحدث مناظرة بين الشيخ وتلميذه، وإنما وقع في العبارة تصحيف، وصوابها: "ونظر في "كتاب" سيبويه على أبي الحسين ابن الطراوة". وكذلك وردت العبارة في "إشارة التعيين"، ص. 182، ويعضدها قول

الفيروزآبادي في "البلغة"، ص. 122: "سمع "كتاب" سيبويه وغيره على ابن الطراوة".

... (ابن عربي الحاتمي (560 هـ - 638 هـ) تلميذ السهيلي وليس شيخه، كما توهم المحقق، وقد حلاه بقول: "شيخنا" في موضعين من كتابه "محاضرات الأبرار"

(11387/1)

(ج 1، ص. 12، 401، ط دار صادر). وذكر سماعه على السهيلي كذلك العباس بن إبراهيم في كتابيه "الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام"، ج 8، ص. 66، و"إظهار الكمال في مناقب سبعة رجال"، ص. 336 (مخطوط الخزانة الحسنية)، والكتاني في "سلوة الأنفاس"، ج 2، ص. 220. والذي أوقع المحقق في هذا الوهم هو اعتماده ما جاء في "شجرة النور"، ص. 156، وقد شَذَّ ابن مخلوف بحكاية سماع السهيلي عن ابن عربي الحاتمي. ولعله اشْتَبَهَ عليه بالقاضي أبي بكر بن العربي المعافري.

آثاره:

(11388/1)

... تحت هذا العنوان ذكر المحقق ما اهتدى إليه من تآليف السهيلي المطبوعة والمخطوطة، ولي على ما ذكره الملاحظات الآتية:

... 1 .أنه ينسب للسهيلي .تسليماً بما تناقلته كتب التراجم .."شرح الجمل" للزجاجي.

... أقول: الذي أوقع المتأخرين في هذا الوهم هو ابن الأبار. فقد قال في "التكملة"، ج 3، ص. 33: ‘‘وله شرح على الجمل أظنه لم يستوفه’’. وقد حقق الدكتور البنا هذا الأمر وجلّى هذا الإشكال بأن أكَّدَ على أن ابن الأبار يعني بـ "شرح الجمل" كتاب "نتائج الفكر"، معتمداً على دليلين:

(11389/1)

... أ) أن السهيلي لم يشر في كتبه .وهو الحريص على ذلك .إلى أن له كتاباً بهذا العنوان، كما أن تلميذه ابن دحية لا يذكر في مؤلفات شيخه هذا الكتاب.

... ب) أن "نتائج الفكر" مرتب على أبواب الجمل. فلعل ابن الأبار ظن من هذا أنه شرح للجمل. (‘‘مقدمة’’ النتائج، ص. 21).

... 2 .يذكر المحقق ضمن مؤلفات السهيلي قصة يوسف

عليه السلام، وهي مخطوطة، ومنها نسختان بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 622 د، و 1427 د.

... أقول: هذا المخطوط قد نسبه للسهيلي خطأً الزركلي في "الأعلام"، ج 3، ص. 313، وتابعه المحقق دون تثبّت. وقد

(11390/1)

دَلَّلَتُ في رسالة لي جامعية على أن هذا المخطوط ليس من إنتاج السهيلي استناداً إلى أدلة، أهمها ما يلي:

... أ) أن المنهج المتبع في هذا المخطوط بعيد كل البعد عن منهج السهيلي الذي يقوم أساساً على استنطاق النصوص القرآنية عتماداً على علوم الآلة (اللغة ـ النحو ـ البلاغة...)، وليس في هذا المخطوط شيء من ذلك.

... ب) مما التزمه السهيلي في سائر تآليفه أنه يحيل على كتبه وآماليه ومسائله. ولو كان الكتاب له، ما غفل عن التنبيه عليه.

(11391/1)

... ج) أن السهيلي كثير الالتفات إلى إعجاز القرآن، شديد العناية بالنظم والبيان، ولا أثر في هذا المخطوط لشيء من ذلك

... وخلاصة القول إن هذا المخطوط يفتقر إلى روح السهيلي، ولا يسع من صَحِبَ هذا العالم وعاش مع مؤلفاته حيناً من الدهر إلا أن يسلم بأنه ليس من إنتاجه.

... 2 ـ أشار المحقق ـ في معرض حديثه عن تآليف السهيلي ـ إلى تأليف آخر له، هو "حلية النّبيل في معارضة ما في (كذا) السبيل".

... أقول: انفرد ابن الخطيب بالإشارة إلى هذا التأليف في "الإحاطة"، ج 3، ص. 379، وتصحفت فيه عبارة ‘‘ملقى السبيل’’ إلى

(11392/1)

‘‘ما في السبيل’’، ولم يتفطن المحقق إلى هذا التصحيف.

... و"ملقى السبيل" رسالة لأبي العلاء المعري. وقد نبه الدكتور محمد بنشريفة في كتابه "أبو المطرف ابن عميرة: حياته وآثاره". (ص. 299) عليها وأفاد أنها في فن الكتابة في الزهديات والمواعظ التي كانت منتشرة انتشاراً كبيراً في الأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين.

...

أهم ما تولاه من مناصب:

... وتحت هذا العنوان ذكر المحقق ـ نقلاً عن ابن الجزري في "غاية النهاية"، ج 1، ص. 371، والذهبي في "التذكرة"، ج 4، ص. 1349، أن السهيلي تولى قضاء الجماعة فحمدت

(11393/1)

سيرته.

... أقول: الذي أفاده ابن سعيد الأندلسي في "الغصون اليانعة"، ص. 31 (نشرة الأبياري، مصر، ط 3). وابن الأبار في "التكملة"، ج 1، ص. 80، وابن عبد المجيد اليماني في "إشارة التعيين"، ص. 33، وابن عبد الملك المراكشي في "الذيل والتكملة"، ج 1، ص ص. 220 ـ 221 (نشرة محمد بنشريفة، ط بيروت) أن هذا المنصب كان مُسْنَداً ـ يومئذ ـ إلى صاحبه ابن مضاء القرطبي.

... وتحت عنوان "رحلات السهيلي"، قال المحقق ما نصه: "لم تسعفنا المصادر التي ترجمت للسهيلي عن رحلاته إن كانت له رحلات، إلا ما ذكره ابن الخطيب من أنه

(11394/1)

تلا بالحرمين على خال أبيه، إلخ".

... أقول: إن كان مراد المحقق برحلاته خارج الأندلس، فصحيح؛ وإلاّ فقد صَحَّ أنه رحل إلى قرطبة وإشبيلية وغرناطة، قبل أن يعود إلى مالقة.

... وتحت عنوان: "الكتاب المحقق" تناول المحقق عنوانه ونسبته إلى السهيلي، وذكر أن المراجع التي ترجمت للسهيلي اتفقت على أنه أَلَّفَ كتاب "التعريف والإعلام فيما (كذا) أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام"، ثم قال: "وقد جاء في النسخ ج، د، و ط أنوار: من "الأسماء والأعلام" بواو العطف". ويضيف المحقق قائلاً: "وقال في "الروض الأنف": قد ذكرت في

(11395/1)

كتاب "التعريف والإعلام بما (كذا) أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام"".

... قلت: ما دام السهيلي قد ذكر نص عنوان الكتاب كاملاً، فلا مجال لإيثار غيره عليه. ثم إن زعم المحقق اتفاق المراجع على نص العنوان الذي ارتضاه ليس

بمسلم. فابن كثير (في "البداية والنهاية"، ج 12، ص. 318) والسيوطي (في "البغية"، ج 2، ص. 81) يذْكُران العنوان بحرف العطف.

... قال الدكتور البنا ("السهيلي ومذهبه النحوي"، ص. 174):

... ومن الطبيعي أن يترتب على هذا اختلاف كبير في منهج الكتاب. فإذا كان العنوان بدون عطف، فالكتاب لا يتناول

(11396/1)

إلا التعريف بما أبهم اسمُه من الأعلام، ولكن إذا وُجِدَ العاطف فهو يعرف أيضاً بما أبهم اسمه من غير الأعلام. وقد رجحت أن يكون العنوان كما أثبته ابن كثير والسيوطي بما ذكره السهيلي نفسه في كتابه. قال عند قوله تعالى: {كشجرة خبيثة} [إبراهيم، الآية 26]: "هي الحنطة، وقيل الكشوث، وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض... وإنما ذكرنا اسم هذه الشجرة المذكورة في القرآن لأنها من الباب الذي شرطناه، إذ هي مما أبهم من الأسماء، وإن لم تكن أعلاماً، والله المستعان".

... ... (التعريف والإعلام، ص. 154).

(11397/1)

... ثم عمد المحقق إلى وصف النسخ التي اعتمدها، فذكر منها أربعاً وأضاف إليها نسخة مطبعة الأنوار. وقد بَيَّنْتُ أن لكتاب "التعريف والإعلام" نسخاً أخرى مخطوطة، وطَبْعَتَيْن أخريين لم يقف عليها المحقق، ولا علم عنها شيئاً.

... وتحت عنوان: "قيمته العلمية" قال المحقق ما نصه: "لقد أَلَّفَ السهيلي هذا الكتاب في علم المبهمات وعليه استدراك لمحمد بن علي بن محمد البلنسي الغرناطي المتوفى سنة 636 هـ، وذيل عليه تلميذ من تلاميذه، وهو محمد ابن علي الخضر الغساني المعروف بابن عساكر (كذا) بكتابه المسمى "التكميل

(11398/1)

والإتمام"، وجمع بينهما شيخ الإسلام القاضي بدر الدين بن جماعة في كتاب سماه "التبيان في مبهمات القرآن"، ولخص السيوطي الموضوع في كتابه: "مفحمات الأقران في مبهمات القرآن"".

... أقول: لم يتقص المحقق ما خلّفه "التعريف والإعلام" من

أثر في أوساط العلماء القدماء والمتأخرين، وما استتبع ذلك من عناية به، استدراكاً وجمعاً واختصاراً.

... .فقد ألف ابن عسكر(1) المالقي (584 ـ 636 هـ) كتاب: "التكميل والإتمام لكتاب التعريف والإعلام"، وقد حققه الباحث حسين عبد الهادي بجامعة

_____

(1) وليس ابن عساكر كما توهم المحقق.

(11399/1)

الإمام محمد بن سعود بالرياض عام 1404 هـ، ونال به درجة الدكتوراه، ذكر ذلك محقق الجزء الأول من "صلة الجمع" للبلنسي حنيف بن حسن القاسمي (ج 1، ط دار الغرب الإسلامي، ط 1).

... وقد وهم محقق: "التعريف والإعلام" حيث ذكر أن ابن عسكر تلميذ السهيلي. وهذا توفي عام 581 هـ، وابن عسكر ولد عام 584 هـ، فكيف حصلت التلمذة؟!

... .وألف ابن فرتون، أحمد بن يوسف السلمي (ت 660 هـ) كتاب "الاستدراك والإتمام"، استدرك فيه عليه.

(11400/1)

... . وصف أبو عبد الله الشامي (671 . 751 هـ) كتاباً في مبهمات القرآن نسبه إليه إسماعيل باشا في "هدية العارفين"، ج 2، ص. 143.

... . وجمع بدر الدين بن جماعة (639 . 733 هـ) بين كتابي "الإعلام والتكميل"، وسماهُ: "التبيان في مبهمات القرآن"، ولم يقف عليه أحد من الباحثين، واختصره في كتاب سماه: "غرر التبيان في من لم يسم في القرآن" حققه عبد الجواد خلف عبد الجواد، ونشرته دار قتيبة بدمشق عام 1990 م، وحققه أيضاً الطالب عبد الغفار البيني ونال به درجة الماجستير من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام 1400

(11401/1)

هـ، ذكر ذلك محقق "صلة الجمع" للبلنسي، ج 1، ص. 51

... وقد التقى العبدري الحيحي الذي بدأ رحلته بالمغرب سنة 688 هـ بابن جماعة هذا واتهمه بالإغارة في كتابه المنوَّه به على "التعريف والإعلام" للسهيلي. (انظر "رحلة العبدَري"، ص. 231، نشرة محمد الفاسي، منشورات جامعة محمد الخامس . الرباط).

... . وألف أبو عبد الله بن علي الأوسي البلنسي (714 . 782 هـ) كتاب "صلة الجمع وعائذ التذييل لموصول

كتابي الإعلام والتكميل"، وقد حقق قسمه الأول حنيف حسن القاسمي، وقسمه الثاني عبد الله عبد الكريم محمد، وصدر الكتاب عن

(11402/1)

دار الغرب الإسلامي ببيروت في طبعته الأولى عام 1411 هـ/ 1991 م.

... .وصنف السيوطي (849 ـ 911 هـ) كتاباً في مبهمات القرآن سماه "مفحمات الأقران في مبهمات القرآن"، وقد طبع بتحقيق مصطفى ذيب البغا عام 1403 هـ، وطبع ثانية بتحقيق إياد خالد الطباع عام 1406 هـ

... .واختصر الشيخ بحرق (869 ـ 930 هـ) كتاب "التعريف والإعلام" وسمى مختصره: "تلخيص التعريف والإعلام فيما أبهم من القرآن من الأسماء والأعلام" ذكره حنيف حسن القاسمي، وأفاد أنه لا يزال مخطوطاً، وهو صغير جداً في ثلاث عشرة ورقة، توجد نسخة منه بمركز

(11403/1)

البحث العلمي بجامعة أم القرى تحت رقم 953. مصورة عن مكتبة الأحقاف باليمن. (صلة الجمع، ج 1، ص ص. 52 ـ 53).

... ـ وألف الإذكاوي (1104 ـ 1184 هـ) كتاباً في مبهمات القرآن سماه "ترويح أولي الدماثة بمنتقى الكتب الثلاثة". وقد ضم فيه كتاب البلنسي إلى كتابي السهيلي وابن عسكر، وانْتَقَى من فوائد الكتب ما رآه مناسباً، ولم يضف إليها شيئاً، والكتاب ما زال مخطوطاً بدار الكتب المصرية برقم 819 تفسير، ومنه نسخة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى تحت رقم 684 علوم القرآن، وهي بخط المؤلف. ينظر "صلة الجمع"، ج 1، ص.

(11404/1)

.53

... ـ "أسامي الذين نزل فيهم القرآن الحكيم" لمجهول، يوجد بإحدى خزائن المخطوطات بتركيا. ذكره محقق "صلة الجمع"، ج 1، ص. 53.

ثانياً ـ النص المحقق:

... 1 ـ التزم المحقق أن يضيف إلى النسخة المصرية التي اعتمدها أصلاً ما لم يرد فيها من زيادات وردت في النسخ

الأخرى المساعدة، لكنه لم يلزم ذلك

... فعند نهاية كلام السهيلي على قوله تعالى: {يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت} [النساء، الآية 60]، قال المحقق في الهامش: 11 من الصفحة 32 "في ط أنوار: بعدما انتهى من تفسير هذه الآية أورد قول الله تعالى: {ما فعلوه

(11405/1)

إلاّ قليل منهم} [النساء، الآية 66] وقوله {إلا الذين يصلون} إلى {قوم بينكم وبينهم ميثاق} [النساء، الآية 90]، ثم قال: وذلك حسب الترتيب الصحيح للآيات... ا.هـ".

... قلت: إذا كان الأمر كذلك، فإنّ حق هذا الكلام أن يكون في المتن، وينبه على زيادته في الهامش خضوعاً لما التزمه المحقق.

... ومثل ذلك وقع حين ورد كلام السهيلي على قوله تعالى: {إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق} [النساء، الآية 90] فقد أدرجه بعد تفسير قوله تعالى: {لمن ألقى إليكم السلم} [النساء، الآية 93]، فلم يُرَاع الترتيب التصاعدي

(11406/1)

للآيات.

... 2 ـ في صفحة 104 ورد في "المتن" ما نصه: "ولكهلان كان الملك قبل أخيه حمير ـ فيما ذكر المسعودي ـ ابن سبإٍ بن يشحب، إلخ".

... قلت: تبدو هذه العبارة قَلِقَة، وصوابها ـ والله أعلم ـ: "ولكهلان كان الملك قبل أخيه حمير بن سبإٍ بن يشحب... "فيما ذكر المسعودي.

... 3 ـ وفي صفحة 89 ورد نسبة قول للكَشّي، فقال المحقق في الهامش: "عند رجوعي لكتب التراجم لم يتحدد عندي من هو الكشي لكثرتهم".

... قلت هو عبد بن حميد (ت 249 هـ)، وقد أورد له السهيلي نقولاً في "شرح آيات الوصية"، ص. 56؛ و"الروض الأنف"، ج 2،

(11407/1)

ص. 197 وفيه حقق القول في الاسم فقال: ذكر الكشي، وهو عبد بن حميد. ا هـ والكشي اسم أعجمي، إذا عرب كُتبَ بالسين المهملة، قبلها كاف مكسورة. وانظر

تحقيقاً في هذا الاسم في "الإحكام في أصول الأحكام" لابن حزم الأندلسي بقلم أحمد شاكر (ج 6، ص ص. 107 ـ 108، ط دار الآفاق الجديدة، بيروت).

... 4 ـ وفي صفحة 160 عرض السهيلي ببيان ما أبهم من قوله تعالى: {ولقد جعلنا في السماء بروجاً} [الحجر، الآية 16]. فناسب المقام إيراد الشاهد: "خير منزلة في الأبد بين الزبانا والأسد". فتوهم المحقق أنه بيت شعر، فكتبه كالآتي:

(11408/1)

... خير منزلة في الأبد ... بين الزبانا والأسد

... ثم قال في الهامش: لم نهتد إلى قائله. ثم أورده في فهرس الأشعار، وأفاد أن قائله مجهول، وأن في وزنه اضطراباً.

... قلت: ليس الشاهد بيت شعر، وإنما هو مثل عربي، ساقه الميداني في "مجمع الأمثال"، ج 1، ص. 240؛ والزمخشري في "المستقصى"، ج 2، ص. 78. وروايته فيهما: "خَيْرُ لَيْلَةٍ بالأَبدِ، لَيْلَةٌ بين الزُّبانى والأَسدِ".

... وفي الصفحتين 696 ـ 697 جاء في معرض تفسير

السهيلي لقوله تعالى: {وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن} [الأحقاف، الآية 68] ما

(11409/1)

نصه: "ويقال: كانوا سبعة، وكانوا يهودا فأسلموا، ولذلك قال: {أنزل من بعد موسى} [الأحقاف، الآية 69]. وقيل في أسمائهم: "شاصر وماصر ومنشي وماشي والأحقب، ذكر هؤلاء الخمسة ابن دريد".

... قال المحقق معلقاً على هذا الخبر: "لم نعثر على ذلك من مؤلفاته التي بين أيدينا".

... قلت: ساق السهيلي هذا الخبر ثانية في "الروض الأنف"، ج 1، ص. 36، وعزاه لابن دريد، وهو في "جمهرته" (حقب)، ج 1، ص. 686 (نشرة البعلبكي)، وفيه أن أسماء هؤلاء النفر من الجن: حسا وبسا وشاصر وباصر والأحقب. وسيق الخبر في "تاج العروس" (حقب)، ج

(11410/1)

1، ص. 699 (ط الكويت)، وفيه أن أسماءهم: خَسا، ومسا، وشاصة، وباصة، والأحقب.

... 5 ـ وأنشد السهيلي قول الشاعر (التعريف والإعلام، ص. 253):

وكيف ثوائي بالمدينة بعدما ... قضى وطراً منها جميل بن معمر

... قال المحقق معلقاً عليه بالهامش: قال المبرد في "الكامل"، ج 1، ص. 266: وهذا الشعر لجميل ابن عبد الله بن معمر العذري، إلخ.

... قلت: ما أعجب أمر هذا المحقق وما أعجله! فإن المبرد إنما قال ما قال معلقاً على بيتين سابقين لهذا البيت، وهما:

وقالوا يا جميل أتى أخوها ... فقلت أتى الحبيبُ أخو الحَبيبِ

(11411/1)

أحبك أن نزلت جبالَ حِسْمى ... وأن نَاسَبْتَ بَثْنَةَ من قريبِ

... انظر "الكامل"، ج 2، ص. 564. (تحقيق محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت).

... وأما البيت: "وكيف ثوائي بالمدينة بعدما... "، فهو من غير نسبة عند المبرد، ولم يهتد محققه إلى قائله. وقد وقفت عليه في "الوافي بالوفيات"، ج 10، ص. 79، معزواً للصحابي بجير بن بجرة الطائي رضي الله عنه.

ثالثاً ـ كتاب: "الفرائض وشرح آيات الوصية"، تحقيق د. محمد إبراهيم البنا

... هذا ثالث تأليف للسهيلي يصدر مطبوعاً طبعة محققة بعد "الأمالي" و"نتائج الفكر".

(11412/1)

... وقد عني السهيلي في كتابه هذا ـ كما يقول محققه ـ بشرح آيات الوصية، ـ وهي آيات النساء: 11، 12، 176 ـ عناية بالغة، فلم يقتصر على القدر المناسب، وهو استنباط الأحكام الفقهية، بل تناول إلى جانب ذلك الحديث عن حكمته تعالى فيما أوصى به، ذاكراً أن تقدير كل فريضة يقوم على العدل والرحمة، وقد استفرغ الوسع في بيان أسرار الإعجاز في هذه الآيات.

... وبعد أن انتهى من" شرح آيات الوصية"، تعرض لأحاديث المواريث في أحد فصول هذا القسم، وعقبه بفصل تناول فيه قوله عليه الصلاة والسلام: "ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي

(11413/1)

فلأولى رجل ذكر" بَيَّنَ فيه كلام من تقدمه في تخريج قوله: "فلأولى رجل ذكر"، وهو أن "ذكر" وصف لرجل، وقد رفض هذا التخريج لأنه يؤدي إلى الحشو، ومضى في معاناة نادرة غريبة يوجه بها هذا الحديث، وبهذا الفصل ينتهي القسم الأول.

... أما القسم الثاني، فيقوم على عدة أبواب:

الباب الأول: في معرفة أصول الفرائض وأصحاب السهام.
... الباب الثاني: في كيفية العمل في هذه الفرائض التي لا عول فيها.
الباب الثالث: باب العدل في الفرائض، وقد ألحق به فصلاً في ميراث الجد.

(11414/1)

... الباب الرابع: في الأسباب المانعة من الميراث(1).

1 ـ "كتاب الفرائض" : مخطوطاته، منهج تحقيقه:

... أفاد الدكتور محمد إبراهيم البنا أن بداية معرفته بـ"كتاب الفرائض" كانت من عدة مراجع، آخرها "تاريخ الأدب العربي" لبروكلمان الذي نبه فيه على أن للسهيلي رسالة في علم الفرائض، وأنه توجد نسخة منها في المتحف البريطاني، ولم يشر إلى وجود نسخ أخرى لها.

---

(1) مقدمة كتاب "الفرائض"، منشورات جامعة قار يونس، ط 1، 1400 هـ/ 1980 م، ص. 12.

(11415/1)

... ولاشك في أن نشر نص عن أصل مخطوط واحد من المهمات الصعبة التي يخشاها المحقق، فيتهيب الإقدام على مثل هذا العمل، إذ النسخة الواحدة عرضة لسهو الناسخ وتصحيفه ويحتمل أن تزخر بخروم لا يجد المحقق سبيلاً إلى ترميمها.

... وقد أدرك الدكتور محمد إبراهيم البنا كل هذا، فعبر عنه أصدق تعبير وهو يَصِفُ منهج تحقيقه للكتاب؛

فقال: ‘‘فإذا لم يَجُد الزمن بغير نسخة واحدة، فالأمر مختلف؛ ولكن هذا لا يمنع من الإقدام على تحقيق هذه النسخة وإخراجها، وعلى المحق أن يحدد مشكلات النص، وهذا ما فعلته في ثنايا التحقيق. على أن

(11416/1)

كثيراً من هذه المشكلات قد وُفقت في حله، وبعضها رجوت أن أكون قد قلت فيه شيئاً. وبقيت مع ذلك بقية لا تُخلّ بالمقصود من الكتاب وقد وصفتها كما وردت في الصورة.

... هذا، وقد حرصت على تخريج الأحاديث والآثار والآراء والأشعار، إلخ.

... أقول: وسأمضي في متابعتي لـ"كتاب الفرائض"، وفق الخطة التي ارتضاها المحقق في إخراج هذا الكتاب.

... وأشير ابتداء إلى أن البحث في جذاذات فهارس الخزانة العامة للمخطوطات بالرباط قد هداني إلى نسخة ثانية لـ"كتاب الفرائض" تحمل رقم 2256 د، تقع في 70 لوحة، وهي وإن كانت لا تحمل اسم

(11417/1)

ناسخ ولا تاريخ نسخ، وسقطت منها خاتمة المؤلف، فقد حددت بعض إشكالات النسخة الأولى، وصوبت من أختها بعض ما غام أوسها عنه ناسخها على حد تعبير المحقق في مقدمة التحقيق، وهذه أهمها:

... 1 ـ جاء في الصفحة 44: "وقد تقدم اللفظ بين حالتي اللفظين وما يشاكله من مقامات الكلام، كل واحد من الاسمين".

... وعلق عليه المحقق في الهامش بقوله: "كذا ورد النص، وهو غير مستقيم".

... أقول: صواب العبارة كما في مخطوطة الرباط: وقد تقدم الفرق بين حالتي اللفظين، إلخ.

(11418/1)

... 2 ـ وفي صفحة 71 جاء ما نصه: "وأفاد بقوله: "أولى رجل" ـ يريد القريب الأقرب ـ نفي الميراث عن الأولى الذي هو من قبيل الأم كالخال".

... قال المحقق معلقاً ما تقدم: "بعد هذه العبارة كلمة غير واضحة، وإن كان السياق مستقيماً بدونها".

... قلت: الكلمة غير الواضحة كما في مخطوطة الرباط هي: "أو نحوه".

... 3 ـ وجاء في الصفحة 72 من المطبوع: "كما لا تقول: "هو

أفهمك"".

... وعلق عليه المحقق في الهامش بقوله: "في المصورة: "أقيمك" ولا يجوز ذلك لغة، ولعل الصواب ما أثبتناه".

(11419/1)

... قلت: في مخطوطة الرباط: "لا تقول: "هو أفقهك" ولعلها أصوب".

... 4 ـ في المطبوع: 73 جاء ما نصه: "ولو لم يكن في هذا المختصر إلا هذه الفائدة، لكانت تَتَحَاوَى وَحَلُه".

... وعلق عليه المحقق في الهامش بقوله: "كذا في المصورة، ولم يتبين لنا المراد منه".

... أقول: صواب العبارة كما في مخطوطة الرباط: "لكانت تساوي رحلة". وهي إحدى العبارات التي كان السهيلي يأتي بها تعبيراً عن اعتداده بنفسه، وإعجابه بما عنده. وقد رددها ثانية في "الروض الأُنُف"، ج 1، ص. 276 في معرض حديثه عن "رمضان أو شهر رمضان"، فقال في

(11420/1)

خاتمته: ‘‘كل هذا مبين في كتاب "نتائج الفكر"، فهناك أوردنا فيه فوائد تعجز عنها هِمَمُ أهل هذا العصر، أدناها تساوي رحلة عند من عرف قدرها’’.

... ومن المشكلات التي اجتهد المحقق في حلها، ووافق اجتهاده فيها ما جاء في نسخة الرباط، ما يلي:

... 1 ـ جاء في المطبوع 32: ‘‘بقرينة الغرض والمقصد، بخلاف التحبيس’’.

... وعلق المحقق على اللفظين بقوله: ‘‘في المصورة: "بقربة" و"التحسين". ولعل الصواب ما أثبتناه’’.

... قلت: هو كذلك، وقد جاء رسم اللفظين في مخطوطة الرباط موافقاً لما رجحه.

(11421/1)

... 2 ـ وجاء في المطبوع 56: ‘‘ذكر عبد بن حميد الكَشّي’’.

... وعلق المحقق عليه في الهامش بقوله: ‘‘في المصورة: عبد الرحمن بن حميد، ولم أجده في الرجال. ولعل الصواب ما أثبتناه’’.

... قلت: هو كذلك، وقد ورد في مخطوطة الرباط كما رجحه المحقق، وقد أورد له السّهيلي نُقولاً اعتمدها في مواطن

من كتاباته. ينظر "التعريف والإعلام"، ص. 111 (نشرة النقراط، ليبيا)؛ و"الروض الأنف"، ج 2، ص. 197، وفيه حقق القول في الاسم، فقال: ‘‘ذكر الكشّي، وهو عبد بن حميد، قال... ’’.

... هذه أهم التصويبات التي أسعفت بها النسخة الرباطية.

(11422/1)

---

2 ـ شواهد الكتاب:

... أشار المحقق في آخر كلامه على منهج تحقيق "كتاب الفرائض" إلى أنه حرص على تخريج الأحاديث والآثار والآراء والأشعار. ومع أنه أغفل التنصيص على تخريج الآيات القرآنية، فقد خَرَّجَهَا جميعاً إلا واحدة ندَّت عنه في الصفحة 61 وهي قوله تعالى: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً}، وهي من سورة النساء، الآية 82.

تخريج الأحاديث النبوية

... خرج المحقق كل أحاديث الكتاب، ولي على بعض هذه التخريجات الملاحظات الآتية:

(11423/1)

... أ ـ استشهد السهيلي في الصفحة 26 بالحديث: "اتقوا الله في الضعيفين..." فخرجه المحقق في الهامش بقوله: "أخرجه ابن عساكر عن ابن عمر، ولفظه: "اتقوا الله في الضعيفين: المملوك والمرأة"".

... قلت: هو بهذا اللفظ كذلك في "كنز العمال"، ج 9، ص. 71؛ وأما في ج 7، ص. 278، فقد أخرجه أنس بلفظ: "اتقوا الله في الضعيفين، الأرملة والصبي واليتيم".

... ب ـ ورد في الصفحتين 69 ـ 70، الحديث: "أوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصاراً". فقال السهيلي: أخرجه الدارقطني.

(11424/1)

... وقال المحقق في تخريجه: "الحديث في الجامع الصّغير عن أبي العلي...".

... قلت: ما دام السهيلي قد عزا الحديث للدارقطني، فلا مفهوم لأن يخرج من غير مؤلفاته إلا بعد استفراغ الجهد من متابعته فيها، وهو ما لم يفعله المحقق.

... والحديث في "سننـ"ه (ج 4، ص ص. 144 ـ 145)، ولفظه

فيه: "أعطيت جوامع الكلم واختصر لي الحديث اختصاراً"... وهو أيضاً في "شعب الإيمان" للبيهقي، ج 2، ص. 160؛ و"كنز العمال"، ج 11، ص. 425؛ و"تمييز الطيب من الخبيث"، ص. 56؛ و"كشف الخفاء" للعجلوني، ج 1، ص. 308؛ و"المقاصد الحسنة" للسخاوي،

(11425/1)

ص. 218 (نشرة محمد عثمان الخشت) وفيه ورد الحديث باللفظ الذي ساقه السهيلي.

... ج ـ وفي الصفحة 116، ساق السهيلي الحديث: "ابنا العاصي مؤمنان"، فقال المحقق في تخريجه: "أخرجه الواقدي. انظر "طبقات" ابن سعد، ج 4، ص. 191".

... قلت: الحديث في "المستدرك"، ج 3، ص. 240. وعلق عليه الحاكم بقوله: هو على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وساقه ثانية في ج 3، ص ص. 542 ـ 543؛ وهو في "المسند"، ج 2، ص. 327، 353، 354؛ و"كنز العمال"، ج 11، ص. 752.

(11426/1)

... د ـ وجاء في صفحة 119 من المطبوع ما نصه: ‘‘وكان نبينا ـ عليه السلام ـ إذا خرج من الخلاء يقول: "غفرانك"’’.

... خرجه المحقق من "سنن أبي داود" و"تحفة الأحوذي"، ثم قال: ‘‘وقال الحافظ أبو العلى صاحب "تحفة الأحوذي" : قال القاضي الشوكاني في "نيل الأوطار" : "هذا الحديث أخرجه الخمسة إلا النسائي، وصححه الحاكم وأبو حاتم". قال في "البدر المنير" : ‘‘ورواه الدارمي، وصححه ابن خزيمة وابن حبان’’.

... قلت: ها هنا أمور منهجية ومعرفية لابد من الوقوف عندها.

(11427/1)

... أ ـ الإحالة على المصادر بواسطة ـ وهي متوافرة ـ ليس منهجاً محموداً عند العلماء، فـ "نيل الأوطار" و"المستدرك" و"سنن الدارمي" وصحيحا ابن خزيمة وابن حبان جميعها مطبوعة، فكان الأولى متابعة الحديث فيها مباشرة، وتخريجه منها.

... ب ـ الذي نص على أن الحديث ‘‘رواه الخمسة إلا النسائي’’ هو ابن تيمية في "منتقى الأخبار"، ج 1، ص. 46، (دار الفكر، بيروت، ط 2). أما شارحه الشوكاني، فأول ما جاء

في تعليقه على الحديث قوله: ‘‘الحديث صححه الحاكم’’ (نيل الأوطار، ج 1، ص. 73، دار القلم، بيروت، ط 1)؛ ولو أن المحقق كلف

(11428/1)

نفسه بعض الجهد فرجع إلى المتن وشرحه، لانتبه إلى هذا الخلط الذي أوقعه فيه صاحب "تحفة الأحوذي" وتقبله هو بقبول حسن.

... ج ـ نص ابن تيمية على أن الحديث رواه الخمسة إلا النسائي، واصطلاح ‘‘الخمسة’’ عنده خاص به، مخالف لما هو معتمد عند المحدثين.

... قال في مقدمة "المنتقى" : ‘‘والعَلاَمَةُ لما رواه البخاري ومسلم: أخرجاه، ولبقيتهم: رواه الخمسة، ولهم سبعتهم: رواه الجماعة، ولأحمد مع البخاري ومسلم: متفق عليه، وفيما سوى ذلك أسمي من رواه منهم’’.

... وكان على المحقق أن يبسط القول في هذه المسألة إزالة لكل إشكال.

(11429/1)

... د ـ قول ابن تيمية في تخريج الحديث: رواه الخمسة إلا النسائي، ينصرف إلى "سننـ"ه، وقد أخرجه في كتاب "عمل اليوم والليلة" وعزاه إليه الحافظ المزي كما في "تحفة الأشراف"، ج 12، ص. 339. ينظر كتاب "الهداية في تخريج أحاديث البداية" لمؤلفه العلامة أحمد بن الصديق الغماري، ج 1، ص ص. 131 ـ 132 (عالم الكتب، بيروت، ط 1).

تخريج الآراء (الأخبار)

... جاء في الصفحة 42 كلام للسهيلي عن وجوه القبليات، وساق ـ استشهاداً عليه ـ ما نصه: "كما روي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: "والله حكيم عزيز" ـ والأعرابي لا يحفظ

(11430/1)

القرآن ـ فقال الأعرابي: ما أراها أنزلت كما تقول. فقال القارئ: {والله عزيز حكيم}، فقال الأعرابي: نعم، عز. فلمّا عز، حكم".

... قلت: ورد الخبر أيضاً في "البحر المحيط"، ج 3، ص. 484 (ط دار الفكر، بيروت، ط 2)، ونصه فيه: "روي أن بعض الأعراب سمع قارئاً يقرأ: {والسارق والسارقة} إلى آخرها، وختمها بقوله: "والله غفور رحيم"، فقال: ما هذا كلام

فصيح، فقيل له: ليس التلاوة كذلك، وإنما هي: {والله عزيز حكيم} [المائدة، الآية 38]، فقال: بخ، بخ، عز فحكم فقطع".

تخريج الأشعار

(11431/1)

... الشواهد الشعرية في "كتاب الفرائض" قليلة، وهي على وجه التحديد ثمانية:

... وقد اهتدى المحقق إلى تخريج بعضها، ولم يوفق إلى نسبة بعضها الآخر.

... والأبيات التي لم يوفق إلى معرفة قائليها هي:

... 1 ـ قول الشاعر (ص. 58):

... والمرء يجمع في الحيا ... ة وفي الكلام ما يسيم

... قال المحقق: البيت في "مفردات الراغب" و"البحر المحيط" غير منسوب، إلخ.

... قلت: البيت ليزيد بن الحكم الثقفي، وهو أحد شواهد "حماسة" أبي تمام. ينظر "شرح" المرزوقي، ج 2، ص. 1195. (نشرة هارون، ط دار الجيل، بيروت، ط 1)، وهو أيضاً في

"المختار من شعر بشار"، ص. 256 (نشرة العلوي، ط 1).

... 2 ـ قول الشاعر (ص. 63):

* يريد المرء أن يرتى مناه *

... وسكت عنه المحقق، فلم يعلق عليه بشيء.

... قلت: قائله هو الصحابي الجليل أبو الدرداء، وتمامه:

* ويأبى الله إلا ما أرادا *

... وينظر الشاهد في "حلية الأولياء"، ج 1، ص. 225؛

و"الاستيعاب"، ج 4، ص. 1648.

... 3 ـ قول الشاعر (ص. 63):

* وما المرء ما دامت حشاشة نفسه *

... قال المحقق: البيت في "اللسان"، مادة "حشش" (غير منسوب)، وفي "اللسان"، مادة "ألو" أنشده الفراء، إلخ. ...

... وعجزه:

(11433/1)

---

* بمدرك أطراف الخطوب ولا آل *

... قلت: الشاهد لامرئ القيس ("ديوانـ" ه، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط 4، ص. 39)، وهو آخر أبيات قصيدته الطويلة الشهيرة التي مطلعها:

أَلاَ عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي وهَلْ يَعِمَنْ من كَانَ في العُصُر الخَالِي

... وهو من شواهد السمين الحلبي في "الدر المصون"، ج 3، ص. 365 و ج 6، ص. 512 (نشرة د. الخراط، ط دار القلم)؛ والميداني في "مجمع الأمثال"، ج 1، ص. 196؛ و ج 2، ص. 632. والبيت بلا عزو في "تهذيب اللغة"، ج 1، ص. 431؛ و"المحكم" لابن سيده، ج

(11434/1)

2، ص. 340.

... وأخيراً هناك أخطاء مطبعية في الكتاب يحسن التنبيه عليها لتصويبها.

... 1 ـ جاء في الصفحة 43 ما نصه: "فكان لفظ الأبوين ها

هنا أشكلُ (كذا بالرفع) بهذا المقام".

... أقول: وصوابه "أشكلَ" (بفتح اللام)، لأنه خبر كان.

... 2 ـ وفي الصفحة 71 ورد ما نصه: "ولو قلتَ: "كل يرث هذا الميت بعد ذوي السهام"، لوجب أن يقال لك: "يرثه أولى رجل ذكر"، إلخ".

... قلت: صوابها: ولو قلت: مَنْ يرث...

... 3 ـ وفي نفس الصفحة: "ولو قلت: من يعطي المالَ (كذا بالنصب)؟ لقيل لك: أَعْطِهِ أَوْلَى رجل ذكراً".

(11435/1)

... قلت: صواب العبارة : "من يُعَطَى المالَ، إلخ".

... وبعد؛ فهذه قراءة موجزة لـ"كتاب الفرائض وشرح آيات الوصية". وهو ـ على صغر حجمه ـ في حاجة إلى أن يفاض الكلام في محتواه. فإن فيه من المسائل اللغوية والبلاغية والفقهية والأصولية ما يحتاج إلى مزيد نظر، والكتاب في حاجة إلى تنقيح جديد وطبعة أخرى، ولا سيما وقد كشف الغيب عن نسخة ثانية من مخطوطاته.

... والله ـ تعالى ـ أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، بعيداً عن كل رياء أو سمعة.

(11436/1)

قراءة في علاقة بين أمية بالموالي : ولاتهم وعمالهم في إفرقية(1)

الدكتور عز الدين عمر موسى
كلية الآداب – جامعة الملك السعود

إن علاقة الأمويين بالموالي من الموضوعات التي أصبحت فيها مسلمات عند الباحثين، مسلمات ذائعة الصين في الناس وفاشية بينهم، حتى أصبح وكان أمرها مفروغ منه فلا يقبل جدلا ولا يخضع لمحاكمة، فما أن تذكر هذه العلاقة حتى تتداعى إلى أذهان الناس، كل الناس :

(1) يستعمل المصطلح هنا ليعني شمال إفرقيا من طرابلس شرقا إلى المحيط علاوة على الأندلس وهذا ما جرى عليه الاصطلاح في العصر الأموي.

(11437/1)

دارسين ومثقفين ومتعلمين وعامة، صور عداء بين أمية للموالي او اضطهادهم لهم أو إن شئت فقل النظرة إليهم باستعلاء واستخفاف بهم.

ما أسباب هذا الانطباع العام ؟

إن هذا التساؤل يجعل موضوع هذا البحث أقرب إلى موضوعات المنهج التاريخي منه إلى موضوعات الكتابة التاريخية في تخصص دقيق، ولا عجب في ذلك، فالمؤرخ يتأثر بوعي أو بغير وعي بقيم مجتمعه وبالثقافة الغالبة في عصره، ومن ثم فإن قضية المفاهيم والمصطلحات تغدو في الأساس الذي يكسو الحقائق بدثاره، ويكسبها لونا معينا وطابعا مميزا.

(11438/1)

إن المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بموضوع علاقة بيني أمية بالموالي قد تأثرت،
منذ بداية الدراسات الحديثة، بعوامل متعددة،
فشكلها ووجهتها نحو الانطباع العام
المذكور آنفا. أشار برنارد لويس. غشارة صائبة إلى ان نظريات جوبينو، وغيره، العنصرية ظلت
"المستشرقين في القرن التاسع عشر، ففسروا الصراع بين الأمويين والعباسيين، والانشقاق الدين كله في أوائل التاريخ الإسلامي على أنه صراع عنصري بين ساميي الجزيرة وآريي إيران. واعتبروا فوز العباسيين نصرا للفرس على العرب مكنهم من تأسيس غمبراطورية فارسية جديدة، متشحة

بقناع فارسي – إسلامي، مكان الدولة العربية الدائلة "(1).

وقد ظل المستشرقون في ذلك القرن أسيري هذه النظرة العنصرية حتى أولئك الذين نظروا في التاريخ الأموي نظرة دينية صليبية أو حاولوا دراسته دراسة علمية.فمن النوع الأول الأب هنري لامانس الذي أفرط في تمجيد الأمويين العرب لا المسلمين ؛ ومن النوع الثاني قان فلوتن (2)

---

(1) برنارد لويس، العرب في التاريخ، تحقيق نبيه أمين فارسي ومحمود يوسف زايد، بيروت، دار العلم للملايين، 1954، ص. 114.

(2) قان فلترن، السيادة العربية والشعبية والإسرائليات، تعريب حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم، القاهرة، 1934 م.

ويوليوس فلهوزن (ت 1918) الذي حاول إنصاف بني أمية من تحامل المؤرخين المسلمين الأول عليهم فأبرز مكانتهم السياسية بمنهج فيه من العلمية الشيء الكثير ؛ ولكن المؤرخ هو نتائج بيئته، لا سيما أفكارها، فظل تأثير النظريات العنصرية عليه فهو يسمى دولة بني "أمية بالدولة العربية"، كما تجده ينظر الى التناقص الاجتماعي الأساسي فيها من خلال الصراع بين "أشراف عرب" وموال هم المسلمون من غير العرب، ويذهب الى تفسير مصطلح "المستضعفين" الذي كان محور برنامج حركة المختار الثقفي بأنه قصد به المسلمون غير العرب، ويضيف "أعني

(11441/1)

الموالي" الذين يقول بأنهم كانوا يؤلفون أكثر من نصف سكان الكوفة وفي أيديهم الحرف اليدوية والمهن والتجارة، وغالبيتهم – من حيث الأصل واللغة – من الفرس "جاءوا أسرى إلى الكوفة واعتنقوا الإسلام هناك ثم أعتقهم ساداتهم وانتسبوا إلى القبائل العربية موالي فيها" (1).

وهكذا فإن المحصلة الأساسية عنده محورت ذلك التناقض الاجتماعي في انقسام

(1) أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام: الخوارج والشيعة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، القاهرة، 1956 م، ص. 151.

(11442/1)

عرقي ؛ عربي فارسي. هذا على الرغم من أنه يشير إشارات عابرة للانقسام
الاجتماعي ؛ فالدولة الأموية عنده تمثل "الأشراف من العرب"(1) ونبه إلى وقوف أشراف الكوفة ضد المختار (2) ووضح أن
جيش المختار فيه كثير من الموالى(3) وزاملهم العرب من بجيلة وخثعم(4)، وكانت قيادات الجيش عربية(5) ومع كل هذا لم تمكنه النظرية العنصرية من تبين الصراع في إطار اجتماعي بين شريحتين متمايزتين وفي كل أعرق مختلفة متعددة.

---

(1) فهوزن، المرجع السابق، ص. 167.

(2) نفسه، ص. 160.

(3) نفسه، ص. 149.

(4) نفسه، ص. 161.

(5) نفسه، ص. 152.

(11443/1)

وعلى الرغم من انحسار النظريات العنصرية في القرن العشرين وغلبة التفسير الاجتماعي الاقتصادي في دراسة التاريخ وفهمه إلا أن مرتكزات تلك النظريات ظلت سائدة في القيم السياسية والمفاهيم الجوهرية للفكر الغربي الإمبريالي الصليبي الصهيوني. وظاهر هذا في نتائج أبحاث دراسية لتاريخ المسلمين. ولهذا جاءت نتائجهم لا تخلف كثيرا عما عند فلهوزن عن تاريخ الدولة الأموية. وبرنارد لويس خير من يصور الدراسات الاستشراقية الحديثة المنبثقة عن ذلك الفكر الغربي

(11444/1)

الحديث. فقد حاول فهم قضايا التوتر السياسي في التاريخ الإسلامي من منظور اجتماعي
اقتصادي، فهو يقول إن التفريق بين الطائفة صاحبة السيادة وبين الموالي في أساسه اقتصادي

واجتماعي أكثر مما كان قوميا (1). ويقول إنه كان بين الموالي "بعض الناطقي بالعربية،
أو بعض من هم عرب بالتأكيد ولكنهم لسبب ما فقدوا
أو فشلوا في الحصول على عضوية
تامة في الطبقة العربية الحاكمة"(2). ومع كل هذا ظلت مفاهيمه ومصطلحاته عن تاريخ الدولة

---

(1) لويس، المرجع السابق، ص. 99.

(2) نفسه، ص. 97.

(11445/1)

الأموية تفيض عرقية. فهو يقول عن انتشار الإسلام بين غير العرب : إن "عدم تفريق العرب بين الإسلام والعروبة واضح في موقفهم تجاه المسلمين الجدد ... إلى حد أنه لم يكن يسمح لهؤلاء بدخول الدين إلا إذا أصبحوا موالى أو أنصارا لأحد القبائل العربية"(1) ومقدمته هذه يعوزها الدليل.

ويقول بأن معوية جعل الحكم الإسلامي حكما دنيويا "يقوم على سيادة العنصر العربي"(2). ويوضح ذلك فيقول "فقد كان بناء الدولة العربية كله يقوم على الفرضية التالية : وهي أن أقلية عربية ستحكم

(1) لويس، المرجع السابق، ص. 79.

(2) نفسه، ص. 88–89.

(11446/1)

أكثرية غير مسلمة تدفع الضرائب"(1) وهكذا سادت هذه المفاهيم العرقية في تحليل التاريخ الأموي في الدراسات الاستشراقية على اختلاف مرتكزاتها الفكرية وغاياتها العلمية والسياسية.

ولا تختلف في هذا الموضوع دراسات العرب المحدثين العامة منها دون المتخصصة في نتائجها عن نظرائهم من المستشرقين شيئًا كثيرا، وذلك لأنهم كانوا تحت هيمنة الحضارة الغربية الغالبة وانبهارهم بها من جهة، وكانوا يحاولون التحرر منها والانعتاق من أسرها وإثبات الذات وتوكيدها من جهة أخرى، فأكدوا على قيم عرقية استعلائية في

(1) نفسه، ص. 98.

(11447/1)

دراستهم لتاريخ أمتهم، فأثر ذلك على منظروهم للدولة الأموية فقامت دراساتهم على مرتكزاتهم لا تختلف عن دراسات المستشرقين إلا في غاياتها، وهذا القول تجده شاملا لتيار العروبة الثقافي العام أو التيار القومي ذي المضمون الاجتماعي الخاص. ولا يحتاج المرء في إثبات ذلك أن يلجأ إلى كتابات أهل الغلو من التيار القومي أو أولئك الذين لهم هوى ديني أو موقف سياسي إيديولوجي معاد للإسلام وأهله، فحسبك موقف دارسين، ممن لا يتهمان في نزاهتهما العلمية، من قضية الموالي، وهما أحمد أمين وعبد العزيز الدوري، فالإثنان يسلمان

(11448/1)

بالتمييز بالتمييز بين العرب والموالي، ولكنهما يوضحان أن دور الموالي لم يكن هامشيا ولكنه لا يتجاوز حدا معينا، فبينما يبرزه أحمد أمين في مجال الحركة العلمية في مؤلفه القيم "فجر الإسلام". أشرافا وبينهم دون ذلك، وأن "الوظائف كانت مفتوحة أمامهم إلا تلك التي تعني الولاية على الغير كالإمارة والقيادة والقضاء، وقد تولى بعضهم القضاء، ولكن ندر من تولى مناصب عسكرية أو إدارية هامة"(1).

---

(1) مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص. 40 والخط من وضعي.

(11449/1)

ومما ساعد على هذا الإنطباع العام عن علاقة بين أمية بالموالي، بالإضافة إلى مفاهيم الدارسين وتصوراتهم، عدة عوامل أخرى، من أهمها أن بعض الروايات في المصادر تصور الأحداث الكبرى بما يؤكد النظرة العرقية. يقول الجاحظ "دولة العباس أعجمية خرسانية ودولة بني مروان أموية عربية"(1) وتجعل جل الروايات حركة المختار أو الدعوة العباسية وكأنهما حركتان للموالي ضد العرب، وإلى ذلك أشباه كثيرة ونظائر.

---

(1) البيان والتبيين، ج 1، ص. 206.

(11450/1)

ولعل من أهم العوامل التي ساعدت على بلورة هذا الإنطباع العام ورود مصطلح "موالي"(1) في الروايات بصورة متعددة مختلفة، فاستخدمه الدارسون بصورة

مربكة. ترد كلمة موالى في اللغة على ستة معان، فهي بمعنى العصبة والناصر والولي ومولى المولاة – وهو الذي يسلم على يديك ويواليك، والحليف مطلقا ومولى العتاقة والمحب. واللفظ من ألفاظ الأضداد فيأتي بمعنى العبد والسيد أو المالك والمملوك وتردد بمعنى الناصر في القرآن كثيرا وبمعنى السيد(2)

---

(1) لاجع مادة "ولي" في لسان العرب وتاج العروس.

(2) سورة النحل (الآية 76)؛ سورة الأنعام (الآية 62).

(11451/1)

والعصبة والورثة(1) والعبد(2). وورد اللفظ في الحديث على ثلاثة عشر معنى، ولهذا قالوا "فيضاف كل واحد إلى ما يقتضيه الحديث الوارد فيه". وليس هناك فيما أعلم أية دراسة تاريخية حللت الروايات التي ترد فيها كلمة "الموالي" وردتها إلى ما تقتضيه السياق من تلك المعاني المتعددة، والأغلب أن الدراسات الحديثة أخذت كلمة الموالي في الروايات المتعلقة بتاريخ الدولة الأموية لتعني تلك الفئة التي أسلمت من غير العرب فتحالفت مع قبائل عربية ودخلت في ولائها، بينما واقع

---

(1) سورة النساء (الآية 33).

(2) سورة الأحزاب (الآية 5).

(11452/1)

الحال يدعو إلى القول بأن مثل هذه الفئة لا يمكن أن تكون إلا قليلة، وذلك استنادا لما يستنتج من موقف الفقهاء من الحديث الوارد في هذا الشأن. ففي بعض الأثر "من أسلم على يده رجل فهو مولاه"، أي يرثه كما يرث من أعتقه. ولكن الحديث الذي عليه المعول في هذا الباب، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سئل عن رجل مشرك يسلم على يد رجل من المسلمين فقال :
هو أولى الناس بمحياه ومماته، أي أحق به من غيره. قال ابن الأثير : ذهب قوم إلى العمل
بهذا الحديث، واشترط آخرون أن يضيف إلى الإسلام على يده المعاقدة، وذهب أكثر

(11453/1)

الفقهاء إلى خلاف ذلك وجعلوا هذا الحديث بمعنى البر والصلة ورعي الذمام، ومنهم من ضعف الحديث(1).

ومن العوامل المؤثرة أيضا السياسة الاقتصادية للمروانيين التي هدفت إلى معالجة الأزمة المالية التي واجهت دولتهم، فكانت الإجراءات وكأنها موجهة ضد الموالي، خاصة في العراق حيث كانت الأزمة حادة، فأبقى الحجاج الأراضي الخراجية خراجية، وجعل غير المسلم يدفع الجزية وإن أسلم، وأجبر أهل

---

(1) راجع الشرح المسترسل عن هذا في مادة "ولي" في لسان العرب وانظر أبواب الموالاة والعتاقة والمعاقدة في كتب الفقه فالأمر فيها مستفيض.

(11454/1)

الريف على الرجوع إلى قراهم لإعمارها(1).

ولا ينبغي تجاهل تأثير الشعوبية التي ازدهرت أيام التدوين فأفرزت مفاهيم وتصورات لونت الروايات بألوانها، فأكد الشعوبيون على ما ينتقص العرب ويذمهم، وأبرز العرب ما يرفع قدرهم ويخفض خصومهم.

من كل ما سبق قوله ينبغي التنبه إلى استعملات اللفظ في الروايات ودلالاتها، وهذا ما لا يظهر الاهتمام به في جل الدراسات الحديثة حيث نظروا إلى اللفظ بأنه يعني كل المسلمين من غير العرب، سواء دخلوا في ولاءات حقيقية

مع قبائل

---

(1) راجع هذه المسألة عند الدوري، المرجع السابق، ص. 30–33.

(11455/1)

عربية أم لم يدخلوا، فعمموا تعميما خاطئا، ومنطلقهم في ذلك ما كان سائدا في المصرين : البصرة والكوفة.

وليس بالضرورة أن ينطبق حال المصرين هذين على بقية أجزاء الخلافة الأموية.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن بعض الدارسين المحدثين في دراساتهم الجزئية المتخصصة توصلوا إلى نتائج تخالف تلك التعميمات، من هؤلاء عبد العزيز الدوري وفاروق عمر وشعبان عن طبيعة الدعوة العباسية؛ فقد أثبتوا أن الحركة في جوهرها عربية بتنظيماتها وقياداتها، أما أتباعها فقد كانوا من عناصر التذمر التي تضم أعراقا متعددة خاصة العرب، ومن ثم فإن

(11456/1)

أسباب التذمر اجتماعية اقتصادية وليست عرقية.

ومثل هذه النتائج تدعو إلى إعادة النظر في جوهر علاقة بني أمية بالموالي. ولعل النظر في ولاة بني أمية في المغرب مما يفيد كثيرا في هذا السبيل(1)، بل إن مثل هذا النظر ينسف حتى مقولة استثناء الموالي من مناصب القيادة العسكرية والإدارية الهامة، وهي آخر مرتكز للقول بأن

---

(1) لقد تنبهت سعادة جودت في رسالتها للماجيستير المقدمة لقسم التاريخ في جامعة الملك سعود وعنوانها "دور القبائل القحطانية في الشام في العصر "الأموي" لهذه الظاهرة ولم يقف عندها ولهذا لم تفسرها.

(11457/1)

الأمويين ميزوا بين العرب والموالي على أساس عرقي، مثل هذه النتيجة تجعل النظر في المرتكزات السياسية والاقتصادية لسياسة بني أمية قضية مركزية في دراسة التاريخ الأموي كله.

يتضح من جدول الولاة المرفق أنه منذ أن أتم حسان بن النعمان الغساني فتح إفريقية وإلى أن انتزى بها عبد

الرحمن بن حبيب الفهري تعاور على ولاية إفريقية سبعة عشر واليا، ستة منهم من الموالي، وهم موسى بن نصير مولى لخم، وقيل بكر بن وائل، ومحمد بن يزيد مولى قريش، وإسماعيل ابن أبي المهاجر مولى بني مخزوم ويزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وعبيد

(11458/1)

الله بن الحبحاب مولى بني سلول. ومدة ولايتهم أربع وعشرون سنة، هي نصف مدة الولاة أجمعين، وهي خمسون سنة. ويلاحظ أنهم تدرجوا في الأعمال الإدارية حتى وصلوا إلى مرتبة الولاية. ولى موسى غزو البحر لمعاوية ثم خراج البصرة لبني مروان. وكان يزيد صاحب شرطة الحجاج(1)، ويقول الرقيق عن ابن الحبحاب "كان أوله كاتبا ثم تناهت به الحال إلى أن ولى إفريقية"(2). ويدلك على أهمية هذه الولاية أن الملحق الأول عن الولاة يوضح بجلاء ولاة إفريقية

---

(1) الرقيق، ص. 73؛ ابن عذاري، ج 1، ص. 48.

(2) الرقيق، ص. 71.

(11459/1)

كانوا من تعيين خلفاء بني أمية بنسبة 14 : 3؛
والاستثناء مع أبي المهاجر الذي عينه والي
مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري، الذي اختاره أهل القيروان
بعد مقتل ابن أبي مسلم حتى
يأتي أمر الخليفة، والثالث عبد الرحمن بن حبيب الفهري
الذي انتزى بإفريقية وأقره الخليفة.
ومن هنا يتضح أن ولاية إفريقية كانت ولاية مهمة لا
سيما وأنها كانت تدر على متوليها مالا عظيما، فقد
طالب سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير بثلاثمائة
ألف دينار لما عزله(1). وطلب

(1) المصدر نفسه، ص. 57.

(11460/1)

من واليه محمد بن يزيد أن يأخذ من آل موسى بن نصير
وكل من التبس بهم مثلها(1). وأغرم عبيدة السلمي
عمال بشر سلفه مالا جليلا(2)، فلا عجب أن كان عمال
الولاة مثلهم في المكانة.
إن الجدول الثاني يوضح عدد العمال المستخلفين في
القيروان أو رتبوا في أقاليم المغرب، وعددهم إثنان

وعشرون، ثمانية منهم موالي، وبما يكون عددهم أكثر من ذلك، لأن المصادر أحيانا تثبت النسبة دون ذكر الولاء(3)

---

(1) نفسه، ص. 59

(2) نفسه، ص. 69؛ ابن عذاري، ج 1، ص. 50

(3) يصف الرقيق حنش بن بكر بانه مولى قيس، ص. 91؛ وفي موضع آخر، ص. 93 يشير إلى النسبة وحدها دون ذكر الولاء؛ وابن خلدون، ج 6، ص. 11 قيسا.

(11461/1)

.

ومع أن هذا الجدول غير كامل، لأن المصادر لا تشير إلى جميع العمال مع كل وال، إلا أنه يعبر عن الانفتاح في تولية الموالي المراكز الإدارية الهامة، ونسبتهم أكثر من 36٪.

وتجدر الإشارة إلى أ، الوالي العربي قد يعين مولى عاملا (عبد الرحمن بن حبيب عين بكر بن حنش) وقد يكون جل عمال وآل مولى مولي مثله (موسى بن نصير) وقد يكون عمال وآل مولى عربا (محمد بن يزيد وإسماعيل بن أب المهاجر) أو عربا ومولي (ابن الحبحاب).

وإذا نظر المرء في عناصر الجيوش الأموية في المغرب يجد أن أعداد غير العرب كانت

(11462/1)

أكثر من العرب، وذلك منذ أن دخلت قبائل البتر الإسلام، وأسهمت في تثبيت عملية الفتح

وفتح بقية المغرب الإسلامي، حتى اتخذ الولاة حرسهم من البتر(1)، وبدأت غلبة العناصر

غير العربية مع حسان بن النعمان؛ فقد كانت جيوشه عربية خالصة(2) حتى اتخذت الكاهنة

سياسة الأرض المحروقة، فاستئمان الناس لحسان، ودخلوا جيشه، فجعل منهم إثنى عشر ألفا مع

العرب مجاهدين وأسلموا على يديه(3). وهذا العدد كان مع

---

(1) ابن عبد الحكم، ص. 214؛ الرقيق، ص. 64.

(2) الرقيق، ص. 52، 26.

(3) الرقيق، ص. 34؛ ابن الشباط، 116؛ وابن عذاري، ج 1، ص. 38.

(11463/1)

طارق في طنجة بعد فتح المغرب الأقصى؛ ويقول الرقيق القيرواني عنهم: "إنها العدة التي جعلها عليهم حسان. ويضيف أن موسى ترك مع طارق سبعة وعشرين رجلا من العرب ليفقوا جنده أولئك في الدين(1).

---

(1) الرقيق، ص. 39–40. وفي المصادر اختلاف كبير في عدد العرب هذا (انظر: ابن عبد الحكم، ص. 204؛ ابن خلكان، ج 5، ص. 325؛ ابن الشباط، 117؛ و ابن عذاري، ج 1، ص. 24؛ العبر، ج 6، ص. 110؛ ابن الأثير، ج 4، ص. 54؛ النوري، ص. 40.

(11464/1)

ومما يحدث إرباكا عند الباحثين بشأن عناصر الجيش أن الروايات عن الثروات تسمي جيش الأمويين بالعرب وجيوش الخارجين عليهم بالبربر مع أن في هؤلاء قادة عربا في أولئك عربا وبربرا. وهذا الاضطراب المربك قد يكون سببه تأثير الرواة لا سيما وأن الروايات المغربية تأخرت المغربية في التدوين عن المشرقية بقرنين تقريبا.

إن هذه النتائج قد تثير تساؤلا هاما، فربما يظن ظان بأن تعيين الموالي ولاة وعمالا في المغرب إنما يمثل خصوصية مغربية إرضاء لأهل إفريقية وكسبا لهم.

وأغلب الظن أن الأمر لم يكن كذلك إنما يمثل سياسة بني

(11465/1)

أمية تجاه الموالي. وهناك ثلاثة شواهد على ذلك: أولا أن أولئك الموالي ليسوا من أهل إفريقية، ثانيا: الواضح أن تعيين الولاة كان بسبب خبراتهم السابقة وكفاءاتهم في تطبيق سياسة الخليفة الذي عينهم. لقد كانت سياسة عبد الملك تجمع بين الحاجة إلى الخبرة العسكرية والمالية فوجدهما في موسى بن نصير، وسياسة سليمان قائمة على الحق والعدل فأشار عليه رجاء بن حيوة بمحمد بن يزيد(1). وجوهر سياسة عمر بن عب العزيز الهداية لا الجباية، فالتمسها في إسماعيل بن أبي المهاجر "فأسلم

---

(1) الرقيق، ص. 58؛ ابن عذاري، ج 1، ص. 47.

(11466/1)

بقية البربر على يديه"(1). ومن المعلو مأن القضية المالية كانت مسألة مركزية في سياسة هشام وفي ضوئها يفهم تعيينه لابن الحبحاب.

ثالثا كان خروج أهل المغرب على بني أمية في ظل ولاة من الموالي، فلو كان الأمر

عرقيا لتم في أيام الولاة العرب. كما أن أسباب الخروج توضح خير توضيح أن علاقة بني

أمية بالموالي لم تكن قائمة على العرق، وإن الثورات كانت أساسا لأسباب اقتصادية.

فقد كان خروج أهل المغرب على بني أمية في مرتين : الأولى سنة 102 هـ

---

(1) الرقيق، ص. 62؛ المالكي، ج1 ص. 116؛ ابن عذاري، ج 1، ص. 48.

(11467/1)

لأسباب ضرفية محدودة. والثانية سنة 122 هـ لأسباب عامة شاملة للمغرب كله. فكانت الولى خروجا على يزيد بن أبي مسلم الذي وسم حرسه، فاعتبروا ذلك إذلالا، فوثبوا عليه وقتلوه، وهو مولى. أما الثانية، وهي الأهم،

فإن الروايات القليلة المتوفرة ترد مبتدأها إلى السياسة المالية لعمر بن عبد الله المرادي وإلى ابن الحبحاب على طنجة "الذي تعدى في الصدقات والقسم (العشر) وأراد تخميس البربر، وزعم أنهم فيء المسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كانت الولاة يخمسون من لم يؤمن بهم"(1)

---

(1) الرقيق، ص. 73؛ ابن الأثير، ج 5، ص. 19؛ ابن عذاري، ج 1، ص. 51.

(11468/1)

فانتفض أهل المغرب الأقصى بقيادة مسيرة المذغري الخارجي ثم خالد بن حميد الزناتي(1). ويبدو أن إجراءات عمر المرادي جزء من سياسة ابن الحبحاب، لأن الثورة ما لبثت أن شملت المغرب كله، إفريقية وطرابلس سواء، بقيادة خارجية تحت إمرة عكاشة الصفري وعبد الواحد الهواري(2). وسياسة ابن الحجاج المالية، ولهذا كانت الثورات شاملة للدولة الأموية كلها نتيجة لما أفرزته تلك السياسة

---

(1) ابن عبد الحكم، ص. 218؛ ابن عذاري، ج 1، ص. 53؛

النويري، ص. 59؛ ابن الأثير، ج 5، ص. 192..

(2) الرقيق، ص. 76، 77، 85؛ ابن عذاري، ج 1، ص. 59.

(11469/1)

من تذمر تمثل في المشرق في ثورات الخوارج المتعددة وحركة الحارث بن سريج الموجئ سنة 116(1)، وزيد ابن علي عام 122(2) ، وانقلاب يزيد بن الوليد على الوليد بن يزيد سنة 126(3) ...

مصادر ومراجع البحث

1- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد البلنسي، "رحلة السيراء"، ج 2، تحقيق حسين مؤنس، ط 1، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1963 م.

---

(1) الطبري، ج 7، ص. 94-98.

(2) نفسه، ج 7، ص. 181.

(3) انظر خطبته عند الطبري، ج 7، ص. 268-269.

(11470/1)

2- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم، "الكامل في التاريخ"، دار صادر - دار بيروت، 1385/1965 هـ

3- البلاذري، أحمد بن يحيى، "أنساب الأشراف"، ج 3، ق 2، ج 5 مصورة مكتبة المثنى، بغداد.

4- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، "البيان والتبيين"، ج 3، باعتناء السندوبي، القاهرة، 1932 م.

5- الحميري، محمد بن عبد المنعم، "الروض المعطار في خبر الأقطار"، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1975 م.

6- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر"، بيروت، دار الكتاب

(11471/1)

اللبناني، 1981 م.

7- ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم، "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1978 - 1972.

8- خليفة بن خياط، "تاريخ خليفة بن خياط"، تحقيق أكرم ضياء العمري، الرياض، دار طيبة، 1405 هـ

9- الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري،

"معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان"، ج 1، تحقيق إبراهيم شبوح؛ ج 2، تحقيق محمد الأحمد أبو النور ومحمد ماضور، مكتبة الخانجي بمصر والمكتبة العتيقة بتونس، 1972 م.

(11472/1)

الدوري، عبد العزيز، "مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي"، بيروت، دار الطليعة، 1969 م.

10– الرقيق أبو اسحاق إبراهيم، "تاريخ إفريقية والمغرب"، تحقيق د. عبد الله الزيدان ود. عز الدين عمر موسى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990 م.

11– الزبيدي، المرتضى، "تاج العروس من جواهر القاموس"، ج 10، القاهرة، المطبعة الخيرية، 1307 هـ

12– ابن الشباط، محمد الشقراطسي التوزري "صلة السمط"، شرح القصيدة الشقراطسية الجزء الثاني، (مخطوط من المكتبة البريطانية تحت رقم .2186OR.

(11473/1)

13- الطبري، محمد بن جرير، "تاريخ الرسل والملوك"، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف بمصر، 1964 م.

14- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، "فتوح مصر وأخبارها"، تحقيق تشارلز توري، نيوهيفن، مطبعة جامعة ييل، 1922 م.

15- ابن عذاري، أحمد بن محمد، "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، ج 1-2، تحقيق ج. كولان وليفي بروفنسال، ليدن، مطبعة بريل، 1948 - 1951 م.

16- أبو العرب، "طبقات علماء إفريقية وتونس"، تحقيق نعيم اليافي وعلي الشابي، تونس، 1968 م.

(11474/1)

17- فان فلوتن، "السيادة العربية والشعبية والإسرائيليات"، تعريب حسن إبراهيم حسن، ومحمد زكي إبراهيم، القاهرة، 1943 م.

18- فلهوزن، يوليس، "أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام، الخوارج والشيعة"، ترجمة عبد الرحمن بدوي، القاهرة، 1956 م.

19- ابن القوطية، أبو بكر عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى، "تاريخ افتتاح الأندلس"، تحقيق إبراهيم

الإبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1402/ 1982 م.

20- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب المصري، "ولاة مصر"، تحقيق حسين نصار، بيروت، دار بيروت، 1959 م.

(11475/1)

21- لويس، برنارد، "العرب في التاريخ"، ترجمة نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زائد، بيروت، دار العلم للملايين، 1954 م.

22- المالكي، أبو بكر عبد الله محمد، "رياض النفوس"، تحقيق بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1403/1973 هـ

23- مجهول المؤلف، "أخبار مجموعة الفتح الأندلس وذكر امرائها"، تحقيق إبراهيم الإبياري، بيروت دار الكتاب اللبناني، 1401/1981 م.

24- المسعودي، علي بن الحسين، "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المطبعة التجارية الكبرى، ط 3، 1958 م.

(11476/1)

25- المقري، أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني، "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"، تحقيق إحسان عباس، بيروت دار صادر، 1968 م.

26- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكروم، "لسان العرب"، ج 10، بيروت، دار صادر، 1955 م.

27- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، "نهاية الأرب"، ج 24، تحقيق حسين نصار، وعبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1403/1983 م.

(11477/1)

قراءة موضوعية في جذور العلاقة التاريخية بين الإسلام واليهودية

... ... الدكتور محمد رفعت زنجير ...

... جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا

كلية التربية والعلوم الأساسية .أبو ظبي

مقدمة

... الصراع بين الحق والباطل والخير والشرّ قديم قدم

الإنسان على سطح هذه الأرض. ومحاولة قراءة هذا الصراع وفهمه، ومعرفة مبررات تصاعده تارة وانكماشه تارة أخرى هي الهدف من الدراسات التاريخية، لكي يستمد الناس من أحداث الماضي ما يساعدهم على استشراف المستقبل وكيفية التعامل معه.

(11478/1)

... والدين الذي أنزله الله على عباده واحد وهو الإسلام، بينما الشرائع مختلفة. وقد جدد الله هذه الشرائع بما يتلاءم وأحوال الناس ومستجدات الحياة. وكانت نبوة محمد خاتمة الشرائع، وقد صدقت بما قبلها من شرائع، ونسخت العمل بها، وصار لزاماً على الناس اتباعها إلى يوم القيامة. واليهود هم أمة من الناس الذين يجب عليهم الاتباع، وكان ينبغي أن يكونوا في طليعة المتبعين، لأن الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – مكتوب نعته واسمه لديهم في التوراة، ولطالما انتظروه واستبشروا بمبعثه. بيد أنهم نكصوا على أعقابهم لما

(11479/1)

جاءهم بالحق، وكانوا في طليعة أعدائه، والمؤلبين على دعوته عليه السلام. وقد حصلت على أثر وصول الرسول إلى المدينة المنورة موادعة للتعايش السلمي بين الطرفين، لم يلبث اليهود أن ضربوا بها عرض الحائط، ثم حصلت مواجهات ساخنة بين المسلمين واليهود انتهت بإخراجهم من المدينة المنورة.

... وقد عاش اليهود بعد ذلك موزعين في الحواضر الإسلامية، واحتضنهم المسلمون، ولم يلقوا إلا الخير والسلامة، بينما كانت النصرانية في أوروبا وغيرها تلاحقهم بالأذى والعدوان، لأنهم متهمون بقتل السيد المسيح على حسب اعتقاد النصارى. وقد

(11480/1)

رفل اليهود بالأمن في بلاد المسلمين، وعاشوا معهم حتى في الأندلس، إلى أن أجلي العرب عنها، فأجلي اليهود أيضاً، وذهبوا إلى القسطنطينية ضيوفاً على الدولة العثمانية التي آوتهم وساعدتهم. وكانت النتيجة أن دقوا لها مسامير نعشها، وقابلوا الإحسان بالإساءة، بعد أن طلبوا من السلطان عبد الحميد الثاني أن يوافق على إعطائهم وطناً بفلسطين، فأبى بالرغم من الإغراءات الكثيرة التي منوه بها. وذهبت على إثر ذلك الدولة

العثمانية أدراج الرياح، بتخطيط من اليهود وابنهم البار مصطفى كمال أتاتورك وأقيمت الدولة العبرية بعد

(11481/1)

ذلك بمساعدة بريطانيا. وكان أن حصلت المواجهات الساخنة بين الطرفين بعد قيام دولة إسرائيل العدوانية على أرض فلسطين المباركة، أرض الأنبياء والشهداء، ولم تزل المواجهات حتى اليوم.

... وهذا البحث الذي نقدمه ليس سرداً للتاريخ وبحثاً عن تفاصيله ودقائقه، ولا بحثاً تقليدياً في أسلوبه ومنهجه، بل هو قراءة متأنية واعية للعقلية والنفسية اليهودية التي قادت الصراع ضد هذا الدين منذ أيامه الأولى في المدينة، واستمر حقدها عليه وتآمرها على أتباعه حتى الساعة. فنحن هنا نحاول أن نفهم سير هذا الصراع ودوافعه الحقيقية

(11482/1)

الكامنة في النفوس اليهودية، معتمدين على بعض الأمثلة التاريخية بما يفي الغرض؛ لأننا هنا لا نؤرخ للحوادث، وإنما نريد معرفة سير الحوادث التاريخية، وندعو اليهود إلى تصحيح موقفهم من الإسلام وأهله، وأن لا يزجوا باليهودية في معركة مع الإسلام، بل عليهم أن يعمدوا إلى نزع فتيل العدوان، والاستجابة لصوت العقل، ونداء الأديان بالدعوة للسلام ونبذ العدوان، وأن لا يقابلوا الإحسان بالإساءة. ومنطق التاريخ يستوجب منهم ذلك ولهذا الغرض جاء هذا البحث ليكون إضاءة للباحث المسلم وغيره على حد سواء، فيكون للأول زاداً

(11483/1)

ونبراساً، ويكون للثاني مكاشفة موضوعية ليعرف حقيقة هذا الصراع الدائر اليوم على أرض فلسطين، والذي يعتبر حلقة ضمن سلسلة طويلة من التآمر اليهودي على دعوة الإسلام منذ فجر الدعوة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

المبحث الأول: البشارة بمحمد في التوراة وارتقاب اليهود له

أولاً: تأكيد القرآن للبشارة التوراتية بمحمد عليه

السلام

... تبدأ العلاقة بين الإسلام واليهودية منذ عهد موسى عليه السلام، حيث بشرت التوراة بنبوة محمد عليه السلام. وقد أكد القرآن الكريم أن محمداً عليه السلام مكتوب اسمه في التوراة

(11484/1)

والإنجيل. قال تعالى: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل}(1).

... ودعا القرآن الكريم إلى الاسترشاد بأهل الكتاب للدلالة على صدق نبوة محمد عليه السلام: فهم أهل العلم الأول، ولديهم ما يثبت نبوة محمد عليه السلام في كتابهم. قال تعالى: {أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل}(2). والمراد بالعلماء هنا العدول منهم، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي، ونحوهم(3)

---

(1) سورة الأعراف، الآية 157.

(2) سورة الشعراء، الآية 197.

(3) الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير، ج 2، ص. 658.

(11485/1)

، وقال تعالى: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم}(1)، فهي معرفة لا لبس فيها ولا غموض، حيث يروى أن عمر قال لعبد الله بن سلام: »أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمه «(2). وقال تعالى: {قل أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين}(3)

---

(1) سورة البقرة، الآية 146.

(2) الصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 140.

(3) سورة الأحقاف، الآية 10.

(11486/1)

. والشاهد هنا: هو عبد الله بن سلام، وهذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة(1).

ثانياً: نصوص من التوراة تثبت نبوة محمد عليه السلام ... لم تكن دعوة القرآن الصريحة إلى الاسترشاد بمعرفة

أهل الكتاب حول نبوة محمد عليه السلام إلا نابعة من يقين مفاده أن نصوصاً صريحة بالتوراة تشهد بنبوة محمد وتبشر به. وقد روى هذه النصوص العلماء من المسلمين مثل عبد الله بن عمرو؛ فعن عطاء بن يسار، قال:

---

(1) انظر: الصابوني، مصدر سابق، ج 3، ص. 318.

(11487/1)

... لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، قلت: خبرني عن صفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف ببعض صفته في القرآن ({يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً }(1)، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً (2)

---

(1) سورة الأحزاب، الآية 45.

(2) رواه البخاري والدّارمي. (انظر: التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق الألباني، ج 3، صص. 1602 ـ 1603).

(11488/1)

.

... كما روى هذه النصوص عن التوراة بعض علماء أهل الكتاب، مثل: كعب الأحبار. فقد حكى عن "التوراة" قال:

... نجد مكتوباً: محمد رسول الله، عبدي المختار، لا فظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، مولده بمكة، وهجرته بطيبة، وملكه بالشام، وأمته الحمادون، يحمدون الله في السراء والضراء، يحمدون الله في كل منزلة، ويكبرونه على كل شرف، رعاة للشمس، يصلون الصلاة إذا جاء وقتها، يتآزرون على أنصافهم، ويتوضؤون على أطرافهم، مناديهم ينادي في جو السماء، صفهم في القتال وصفهم في

(11489/1)

الصلاة سواء، لهم بالليل دوي كدوي النحل(1).

... ولاشك في أن الإخبار ببعثة محمد عليه السلام من قبل أنبياء بني إسرائيل أمر يؤيده العقل، ويتفق مع أحكامه. يقول الشيخ رحمة الله الكيرواني:

... إن الأنبياء الإسرائيلية، مثل: أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليهم السلام أخبروا عن الحوادث الآتية: كحادثة بختنصر، وقورش، وإسكندر وخلفائه، وحوادث أرض أدوم، ومصر، ونينوى، وبابل. ويبعد كل البعد أن لا يخبر أحد منهم عن خروج محمد – صلى الله عليه

---

(1) رواه البغوي والدّارمي (المصدر نفسه، ج 3، صص. 1606 ـ 1607).

(11490/1)

وسلم – ، الذي كان وقت ظهوره كأصغر البقول، ثم صار شجرة عظيمة تأوي طيور السماء في أغصانها، فكسر الجبابرة والأكاسرة، وبلغ دينه شرقاً وغرباً، وغلب الأديان، وامتد دهراً . . . وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث، وما كانت أقل من حادثة أرض أدوم ونينوى

وغيرهما. فكيف يجوز العقل السليم أنهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة، وتركوا الإخبار عن هذه الحادثة العظيمة ؟!(1).

ثالثاً: إدراك اليهود لبعثة محمد عليه السلام

---

(1) إظهار الحق، ص. 502.

(11491/1)

... كان عامة اليهود يدركون ذلك، وكثيراً ما قالوا للأوس والخزرج: »إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم« (1). وكان هذا سبباً في إسلام الكثير منهم فيما بعد.

... وكانت بعثة محمد معروفة لليهود خارج الجزيرة أيضاً. فـ"التوراة" واحدة. وكان ابن لهيبان يهودياً من أهل الشام، وهو من خيار اليهود وصلحائهم، هاجر إلى المدينة، ولعله كان قبل البعثة، يريد أن يلقى النبي عليه السلام لما يعلم من صفته. فلما أدركته الوفاة، قال:

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص. 245.

(11492/1)

... يا معشر يهود ! ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قال: قلنا: إنك أعلم. قال: فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانه، وهذه البلدة مهاجره، فكنت أرجو أن يبعث، فأتبعه. وقد أظلكم زمانه، فلا تسبقن إليه يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري والنساء ممن خالفه، فلا يمنعنكم ذلك منه(1).

... وكان من اليهود من يعرفون نبوة محمد. بيد أنهم توقفوا عن الالتحاق بدينه، حتى إذا كانت ساعة المواجهة مع المشركين، التحقوا بجيش محمد

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 246.

(11493/1)

عليه السلام، وقاتلوا معه، ومن هؤلاء مخيريق. قال ابن هشام:

... وكان من حديث مخيريق، وكان حبراً عالماً، وكان رجلاً

غنياً كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بصفته، وما يجد في علمه، وغلب عليه إلف دينه. فلم يزل على ذلك حتى كان يوم أحد، وكان يوم أحد يوم السبت. قال: يا معشر يهود ! والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت لكم. ثم أخذ سلاحه، فخرج حتى أتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأحد، وعهد إلى من ورائه من قومه: إن قتلت هذا

(11494/1)

اليوم، فأموالي لمحمد – صلى الله عليه وسلم – يصنع فيها ما أراه الله. فلما اقتتل الناس، قاتل حتى قتل (1).

رابعاً: معرفة غير اليهود ببعثة محمد عليه السلام عن طريق اليهود أنفسهم

... وقد شهد بعض العرب تحسس اليهود لولادة النبي محمد. فهذا حسان بن ثابت يقول: »والله إني لغلام يفعة، ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كل ما سمعت، إذا سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب: يا معشر يهود ! حتى إذا اجتمعوا إليه، قالوا له: ويلك مالك؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به« (2)

(1) المصدر نفسه، ج 2، ص. 257.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص. 181.

(11495/1)

.

... كما شهد غير العرب بارتقاب اليهود لبعثة النبي محمد عليه السلام. فهذا سلمان الفارسي كان عبداً عند رجل من يهود؛ ولما هاجر الرسول عليه السلام، سمع رجلاً يقول لسيده: »قاتل الله بني قيلة، والله إنهم الآن لمجتمعون على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي«. وحين أراد سلمان أن يستوثق من الرجل، سأله: ماذا قلت؟ فغضب سيده ولكمه لكمة شديدة، ثم قال: »مالك ولهذا؟ أقبل على عملك« (1).

خامساً: قريش تستفتي يهوداً بشأن النبي عليه السلام

(1) المصدر نفسه، ج 1، صص. 249 ـ 250.

(11496/1)

... ولأن اليهود لديها علم بالكتاب الأول، فقد أرسلت قريش تسأل اليهود عن أمر النبي – صلى الله عليه وسلم –، حيث أرسلت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود في المدينة، وقالوا لهما:

... سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهما أحبار

(11497/1)

يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن، فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجب؛ وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؛ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك، فاتبعوه فإنه نبي؛ وإن لم يفعل فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم(1).

وقد أوحى الله عز وجل إلى نبيه الإجابة عن هذه الأسئلة في »سورة الكهف«، ولكن الكافرين جحدوا وأصروا على عنادهم

---

(1) المصدر نفسه، ج 2، ص. 39.

(11498/1)

واستكبارهم.

سادساً: معرفة الرهبان أيضاً بقرب بعثة محمد عليه السلام

... لم تكن المعرفة ببعثة محمد عليه السلام قاصرة على اليهود، بل امتدت لتشمل رهبان النصارى. فقد كانوا على علم ببعثة محمد عليه السلام أيضاً. وقد كان رهبان النصارى على علم ببشارة عيسى عليه السلام لهم ببعثة محمد، لذلك كانوا يترقبون بعثة النبي عليه السلام.

وحين خرج أبو طالب تاجراً في رحلة الصيف إلى الشام، ومعه ابن أخيه محمد وهو حدث صغير السن آنذاك، مَرَّ على بحيرى الراهب، وتم اللقاء بينهما بطلب من بحيرى؛ وسأل بحيرى محمداً عن أشياء

(11499/1)

كثيرة، فأجاب عنها، ورأى خاتم النبوة بين كتفي محمد، فأدرك أنه نبي آخر الزمان. وكان مما قاله عقب اللقاء، موجهاً حديثه لأبي طالب: »فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود. فوالله لئن رأوه، وعرفوا منه ما عرفت، ليبغنه شرّاً. فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده«(1).

سابعاً: بعض أحبار اليهود تشهد بنبوة محمد عليه السلام

... اعترف بعض أحبار بني إسرائيل بنبوة محمد عليه السلام، مما يدل على صدق نبوة محمد عليه السلام، ويقيم الحجة على الجاحدين والمعاندين.

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 209.

(11500/1)

روى أنس، قال:

... سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله

عليه وسلم وهو في أرض يختترف(1)، فأتى النبي فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: »أخبرني جبريل آنفاً. أما أول أشراط الساعة، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب؛ وأما أول طعام يأكله أهل الجنة، فزيادة كبد حوت، وإذا سبق ماء الرجل ماءَ المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت«. قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول

---

(1) أي يجتني من الفواكه.

(11501/1)

الله. يا رسول الله ! إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي من قبل أن تسألهم يبهتونني. فجاءت اليهود، فقال: »أي رجل عبد الله فيكم؟ «. قالوا: »خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا«. قال: »أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ «. قالوا: أعاذه الله من ذلك فخرج عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فقالوا: »شرنا وابن شرنا«، فانتقصوه، قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله !(1).

---

(1) رواه البخاري. (انظر: التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق الألباني، ج 3، صص. 1643 ـ 1644).

(11502/1)

... وعن علي أن يهوديّاً يقال له فلان، حبر، كان له على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – دنانير، فتقاضى النبي، فقال له: »يا يهودي ما عندي ما أعطيك«. قال: فإني لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني. فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– : »إذاً أجلس معك«. فجلس معه، فصلى رسول الله الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة، وكان أصحاب رسول الله يتهددونه ويتوعدونه. ففطن رسول الله ما الذي يصنعون به. فقالوا: يا رسول الله ! يهودي يحبسك؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– : »منعني ربي أن أظلم معاهداً وغيره«.

(11503/1)

فلما ترجل النهار، قال اليهودي:

... أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، وشطر

مالي في سبيل الله. أما والله ما فعلت بك الذي فعلت بك إلا لأنظر نعتك في "التوراة" : »محمد بن عبد الله. مولده بمكة، ومهجره بطيبة، وملكه بالشام، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا متزي بالفحش، ولا قول الخنا«. أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وهذا مالي فاحكم فيه بما أراك الله.

وكان اليهودي كثير المال(1)

---

(1) رواه الحاكم والبيهقي في "دلائل النبوة ".

(انظر:التبريزي، مشكاة المصابيح، مصدر سابق، ج 3، ص. 1621 ـ 1622).

(11504/1)

.

... وامتدح القرآن الراسخين في العلم من أهل الكتاب.

قال تعالى: {لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً}(1). والراسخون في العلم هنا أربعة من علماء بني إسرائيل وهم: عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعيه، وأسد بن سعيه، وأسد بن عبيد

الذين دخلوا بالإسلام وصدقوا النبي عليه السلام(2).

---

(1) سورة النساء، الآية 162.

(2) انظر: الصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 464.

(11505/1)

... وقد رحب الرسول بالمؤمنين به من أهل الكتاب.

فهؤلاء لهم أجران: أجر الإيمان بنبيهم، وأجر الإيمان بمحمد عليه السلام(1).

ثامناً: الفطرة تشهد أيضاً على صدق نبوة محمد عليه السلام

... شهد بعض أطفال اليهود بنبوة محمد عليه السلام، وما كانوا ليشهدوا شهادة الحق لولا أنهم قرأوا ذلك في "التوراة" أو سمعوا آباءهم يتحدثون به. فأسلموا لله، واتبعو النبي

---

(1) ورد ذلك في حديث صحيح رواه أحمد والبيهقي والترمذي وغيرهم. (انظر: المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج 3، ص. 333، الحديث 3548، دار المعرفة، بيروت).

(11506/1)

عليه السلام. روى أنس أن غلاماً يهوديّاً كان يخدم النبي – صلى الله عليه وسلم – فمرض، فأتاه النبي – صلى الله عليه وسلم – يعوده، فوجد أباه عند رأسه يقرأ "التوراة"، فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم– : »يا يهودي ! أنشدك بالله الذي أنزل "التوراة" على موسى، هل تجد في "التوراة" نعتي وصفتي ومخرجي؟ «. قال: لا! قال الفتى: »بلى يا رسول الله ! إنا نجد لك في "التوراة" نعتك وصفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله«. فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – لأصحابه: »أقيموا هذا من عند رأسه، ولو

(11507/1)

أخاكم« (1).

... وعن أنس أيضاً، قال: كان غلام يهودي يخدم النبيَّ – صلى الله عليه وسلم – فمرض، فأتاه النبي – صلى الله عليه وسلم – يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: »أسلم«. فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال: »أطع أبا القاسم«!. فأسلم، فخرج النبي – صلى الله عليه وسلم –

وهو يقول: »الحمد لله الذي أنقذه من النار« (2).

---

(1) رواه البيهقي في دلائل النبوة. (انظر: التبريزي، مشكاة المصابيح، مصدر سابق، ج 3، صص. 1614 ـ 1615).

(2) رواه البخاري. (انظر: المصدر نفسه، ج 1، ص. 495).

(11508/1)

... وفي هذين الخبرين دليل ساطع على نبوة محمد عليه السلام، وعلى أن الفطرة السليمة لا تعرف الكذب، وتستطيع أن تدلي بالحق ولو كان أقرب المقربين إليها من الآباء ونحوهم يرفضون الإذعان للحق والانقياد له.

المبحث الثاني: حديث القرآن عن بني إسرائيل

... استمرت العلاقة بين الإسلام واليهودية إلى بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم –، فجاء مصدقاً لما قبله من أنبياء ورسل عليهم السلام، حيث أمره الله بالإيمان بالأنبياء والمرسلين جميعاً عليهم السلام بلا تفريق. قال تعالى: {قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على

(11509/1)

إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون}(1).

... وقد شهد القرآن الكريم بصدق موسى عليه السلام ونبوته، وبرأه مما شوه سيرته من دعايات يهودية مغرضة. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً}(2). وفي هذا الإطار دعا الله تعالى بني إسرائيل إلى الإيمان بمحمد الذي صدق بموسى وبشرت به "التوراة". قال تعالى مخاطباً بني

---

(1) سورة آل عمران، الآية 84.

(2) سورة الأحزاب، الآية 69.

(11510/1)

إسرائيل: {يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون، وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون}(1)، وأما في حالة عدم استجابتهم للدين

الحنيف، فيبقون مع المسلمين ضمن مجتمع واحد، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. ويمكن أن نحدد الأطر العامة لموقف القرآن الكريم من اليهود بما يلي:

---

(1) سورة البقرة، الآيات 40 ـ 42.

(11511/1)

أولاً: حديث القرآن عن بني إسرائيل في فترة ما قبل الإسلام. وقد تميز بما يلي:

... 1 ـ ذكر محاسنهم ونعم الله عليهم، تذكيرهم بالعهود والمواثيق، وهذا من أفضال القرآن الكريم القائم في أحكامه على العدل والموضوعية عند ذكره للأمم والشعوب. ويتجلى هذا في ذكره للمحاسن والعيوب على حد سواء. فقد ذكر أنه فضل بني إسرائيل على العالمين. قال تعالى: {يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين}(1). والمقصود بالآية تفضيلهم على العالمين في زمانهم كما ذكر

---

(1) سورة البقرة، الآية 47.

(11512/1)

المفسرون(1). وهذا التفضيل لا يكون إلا عن حكمة ربانية، ومعرفة بخصائص هذا المفضل. ومن هذه الخصائص: الصبر على البلاء، وقد نوه به الله سبحانه في قوله: {وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون}(2).

... 2 ـ ذكر ما أنعم به الله على بني إسرائيل من نعم لا حصر لها. وقد ذكر الله تعالى بعضها في القرآن الكريم

---

(1) انظر: الصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 62.

(2) سورة الأعراف، الآية 137.

(11513/1)

تذكيراً لهم بما ينبغي عليهم من شكر للمنعم، والتمسك بعهده وميثاقه، منها إنقاذهم من شر فرعون وبطشه وتعذيبه لهم. قال تعالى: {وإذ نجيناكم من آل فرعون يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم}(1). ولقد أغرق عدوهم أمام أعينهم فاشتفت قلوبهم من عدوهم، قال تعالى: {وإذ

فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون}(2). وفي رحلتهم إلى سيناء، قدم لهم الظل والغذاء معاً، قال تعالى: {وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن

---

(1) سورة البقرة، الآية 49.

(2) سورة البقرة، الآية 50.

(11514/1)

والسلوى}(1). وفجر لهم الأرض ينابيع ليشربوا ويستقروا، قال تعالى: {وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين}(2). كما أثنى على المؤمنين منهم بالنبي محمد عليه السلام، وقد تقدم ذكر ذلك في المبحث السابق.

... 3 ـ ذكر سلبياتهم التاريخية. إذ يعتبر القرآن الكريم مصدراً أميناً، وسجلاً موثقاً لمواقف الأمم مع أنبيائها، وما اكتنف تلك المواقف من حوار

---

(1) سورة البقرة، الآية 57.

(2) سورة البقرة، الآية 60.

(11515/1)

وجدال ومواجهات ساخنة. وسوف نستعرض هنا ما يتعلق بتسجيل القرآن لسلبيات اليهود بكل دقة ووضوح. فقد ذكر قصصهم ومثالبهم مع أنبيائهم. قال تعالى: {إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون}(1). وفي هذا الصدد، سجل القرآن أقوال اليهود وشبهاتهم الفاسدة حول دعوة الله عز وجل، وعلى مختلف الأصعدة، نذكر منها مواقفهم العقدية التي تؤمن بالغيب، ولكنها تفسد الإيمان به بالتحريف والتبديل، مما جعلها تقع في فخ الشِّرْك وتقترب من الوثنية. من ذلك ما ورد في قوله تعالى: {وقالت

---

(1) سورة النمل، الآية 76.

(11516/1)

اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل

قاتلهم الله أنى يؤفكون}(1)، وقوله: {وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم}(2)، وقوله: {وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء}(3).

... وسجل القرآن مواقفهم من الأنبياء عليهم السلام.

ويبدو أن دعاية السحر والجنون ألصقت بالأنبياء في كل

---

(1) سورة التوبة، الآية 30.

(2) سورة المائدة، الآية 64.

(3) سورة المائدة، الآية 18.

(11517/1)

الأمم، وذلك أن التفكير المادي لا يرى تفسيراً للنبوة غير هذا. قال تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون، أتواصوا به بل هم قوم طاغون}(1). وسجل القرآن موقف اليهود من مريم وابنها السيد المسيح عليه السلام، قال تعالى: {وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم}(2).

... كما سجل مواقفهم من أتباع الأنبياء عليهم السلام،

وهي مواقف تقوم على الأذى والعدوان، كما في قصة

---

(1) سورة الذاريات، الآيتان 52 ـ 53.

(2) سورة النساء، الآيتان 156 ـ 157.

(11518/1)

أصحاب الأخدود، حيث ندد القرآن بما تعرض له النصارى من أتباع المسيح عليه السلام من تصفية جسدية على يد اليهود في قصة أصحاب الأخدود، والتي سجلت أحداثها «سورة البروج»، حيث رفض النصارى تبديل دينهم، واعتناق اليهودية، واختاروا القتل حرقاً على تبديل دينهم، فحفرت لهم الأخاديد في الأرض، وأضرمت فيها النيران، وسيق الشعب المؤمن إلى النار فألقي فيها مكبلاً مقهوراً، وذلك كما ذكر ابن إسحاق(1).

---

(1) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط 2، 1411 هـ/ 1990 م، ج 2، صص. 129 ـ 132.

(11519/1)

... وقد اشتهر اليهود بقتل الأنبياء وأتباعهم. قال تعالى: {إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم}(1). وهذه الآية نزلت فيهم. وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال لأبي عبيدة بن الجراح:

... يا أبا عبيدة، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة. فقام مائة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر. فقتلوهم جميعاً

---

(1) سورة آل عمران، الآية 21.

(11520/1)

من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله عز وجل (1).

... 4 ـ تسجيل القرآن للأحوال النفسية لليهود. من ذلك قول أصحاب طالوت له عند لقاء أعدائهم: {قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده} (2)، وهذا القول يكشف عن نفسية خائفة قد أدركها الوهن بسبب قوة عدوها، وقلة

عددها وعتادها، وصور القرآن النفسية المحطمة لبني إسرائيل التي لا تحب الحرب وتبعاتها، وتلقي بها على كاهل نبيها وحده. قال تعالى مصوراً موقفهم مع موسى حين طلب منهم القتال

---

(1) الصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 274.

(2) سورة البقرة، الآية 249.

(11521/1)

لدخول الأرض المقدسة:

... {قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون } (1).

... وفي موقف آخر يصور القرآن ترددهم في ذبح البقرة، فيقول: {قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون }(2)

(1) سورة المائدة، الآية 22 ـ 24.

(2) سورة البقرة، الآية 71.

(11522/1)

. كما يصور سوء ظنهم واستعجالهم بالاتهام لمريم بالخطيئة، قال تعالى: {فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا }(1).

... 5 ـ سجل القرآن انحرافات اليهود الاجتماعية، كما في قوله تعالى عن الكافرين من بني إسرائيل وسبب لعنتهم على لسان أنبيائهم: {كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه }(2). كما سجل الانحرافات الاقتصادية، حيث أشار القرآن إلى نهم اليهود في جمع المال بكل السبل المحرمة، وأن

(1) سورة مريم، الآيات 27 ـ 28.

(2) سورة المائدة، الآية 79.

(11523/1)

هذا كان سبباً في تحريم الطيبات التي أحلت لهم، وذلك في قوله تعالى: {فبِظُلْمٍ من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدِّهم عن سبيل الله كثيرا، وأَخْذِهِم الربا وقد نُهُوا عنه وأَكْلِهِم أموال الناس بالباطل}(1).

ثانياً: حديث القرآن عن بني إسرائيل في عهد الدعوة الإسلامية

1 ـ ذكر القرآن الكريم مواقفهم العدوانية من الدعوة الجديدة. قال تعالى: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى}(2)

---

(1) سورة النساء، الآية 160 ـ 161.

(2) سورة المائدة، الآية 82.

(11524/1)

. وهذه الآية تأسيس لعلاقات المسلمين بأهل الكتاب. وبالرغم من عداوتهم، فقد دعا القرآن للتعايش السلمي بين أصحاب الشرائع السماوية جميعاً. وكانت فكرة قبول الآخر أساس الحرية الدينية في الإسلام: فالناس أحرار في أديانهم ومعتقداتهم حسب تصور الشريعة

الإسلامية التي لا ترى وصاية على عقول الناس ومعتقداتهم، قال تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}(1). ولا يقبل كفر بالإكراه، ولا إيمان بالإكراه كذلك فالأساس في الإيمان والكفر هو الحرية الإنسانية الكاملة بلا وصاية ولا

---

(1) سورة البقرة، الآية 256.

(11525/1)

إكراه؛ وبناء على الاختيار تكون المسؤولية أمام الله تعالى يوم القيامة.

... وفي إطار التعايش السلمي، دعا الإسلام برفق وشفافية مطلقة إلى الحوار مع أهل الكتاب عبر التاريخ. والهدف من الحوار الوصول إلى الحقيقة المتمثلة في الإقرار بنبوة محمد وموسى وعيسى عليهم السلام. وقد دعا القرآن إلى هذا الحوار، قال تعالى: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}(1)

---

(1) سورة آل عمران، الآية 64.

.

... 2 ـ سجل القرآن الكريم أقوال اليهود وشبهاتهم. من ذلك قوله تعالى: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق}(1)، {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى}(2). من ذلك قوله تعالى: {وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده لم تقولون على الله ما لا تعلمون، بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}(3)

_____

(1) سورة آل عمران، الآية 181.

(2) سورة البقرة، الآية 111.

(3) سورة البقرة، الآيتان 80 ـ 81.

. فحيث إنه لا عهد لهم عند الله بذلك يثبتونه، بطل قولهم الذي لا يستند إلى عهد أو علم، ثم وجه الله تعالى

الحديث إلى الحكم في قضية الخلود بالنار، وأنها مرهونة بكسب السيئات المحيطة بالإنسان، والتي تقوده إلى النار إذا لم يتخلص من إحاطتها، ويفك نفسه من أغلالها، وذلك بالإيمان بمحمد عليه السلام.

... وأنكر يهود نبوة سليمان بن داود، وزعموا أنه ساحر. فأنزل الله تعالى في ذلك رداً على قولهم: {وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا}(1)، أي باتباعهم السحر والعمل به(2)

---

(1) سورة البقرة، الآية 102.

(2) انظر: الصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 96.

(11528/1)

.

... وتنازع اليهود والنصارى عند النبي عليه السلام، فأنزل تعالى: {وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم}(1).

... 3 ـ تسجيل موقفهم من الرسول عليه السلام

... رفض أكثر اليهود الدعوة الجديدة، متذرعين بحجج

واهية، منها على سبيل المثال ما جاء في قوله تعالى:

{الذين قالوا إن الله عهِد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلمَ قتلتموهم

---

(1) سورة البقرة، الآية 113.

(11529/1)

إن كنتم صادقين }(1). كما قاموا بممارسة هواية التحريف لكتابهم المقدس، والتحريف في خطابهم للنبي عليه السلام، وهو ما نبه عليه الله عز وجل في قوله: {من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وراعِنا لَيًّا بأَلسنتهم وطعناً في الدين }(2).

... وكانوا يكتمون ما أنزل الله من "التوراة" من التبشير بمحمد عليه السلام(3)، فأنزل الله تعالى فيهم:

{إن الذين

---

(1) سورة آل عمران، الآية 183.

(2) سورة النساء، الآية 46.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 2، ص. 274.

(11530/1)

يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون}(1).

... ولكن هناك بعضهم ممن اعترف بالحق، ودخل في نعيم الإيمان، قال تعالى: {لكن الراسخون بالعلم منهم والمؤمنون يؤمنون بالله وما أنزل إليك وما أنزل من قبلك}(2).

... وعند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، استنكر يهود ذلك، وقالوا: يا محمد! ما ولاك عن قبلتك التي كُنْتَ عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت

---

(1) سورة البقرة، الآية 159.

(2) سورة النساء، الآية 162.

(11531/1)

عليها نتبعك ونصدقك(1)، فأنزل الله تعالى فيهم: {سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم}(2) الآيات.

4 ـ سجل القرآن موقفهم من المؤمنين

... سجل القرآن موقف اليهود من المؤمنين. وهو موقف يقوم على السخرية والاستهزاء، ويمتد إلى الأذى والعدوان. وقد ذكر عداوتهم للمؤمنين فقال تعالى: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 2، ص. 272؛ الصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 135.

(2) سورة البقرة، الآية 142.

(11532/1)

اليهود والذين أشركوا}(1). وكانوا يفضلون المشركين على المؤمنين. قال تعالى: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا}(2)، وقد آزروا أهل الشرك في غزوة الأحزاب ضد

الإيمان، ونقضوا عهودهم مع المؤمنين.

5 ـ تسجيل القرآن لأحوال اليهود النفسية

... وضح الله عز وجل ما في قلوب يهود من حسد يأكلهم بسبب ما أنزل الله من خير على عباده. قال تعالى: {ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب

---

(1) سورة المائدة، الآية 82.

(2) سورة النساء، الآية 51.

(11533/1)

ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم}(1). وفي سورة أخرى يكشف المكر الذي يملأ قلوب بعض أهل الكتاب، ويدفعهم إلى الحيلة من أجل ردة المؤمنين، قال تعالى: {وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم}(2)، وقال أيضاً: {ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون}(3). وهكذا نجد أن القرآن عني أدق

---

(1) سورة البقرة، الآية 105.

(2) سورة آل عمران، الآيتان 72 ـ 73.

(3) سورة آل عمران، الآية 69.

(11534/1)

عناية ليس بتسطير فكر اليهود فقط، وإنما برسم هواجسهم وحركاتهم في صور معبرة أيضاً.

...

6 ـ تسجيل القرآن لأهم الأحداث مع اليهود

... سجل القرآن معظم الأحداث التي جرت في عهد النبي عليه السلام، والصراع الذي دار بين الشرك والإيمان. فمن ذلك الحروب والوقائع، مثل: وقعة بني النضير في قوله تعالى: {يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين}(1)، ووقعة الخندق وبني قريظة في قوله تعالى: {إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا}(2)

---

(1) سورة الحشر، الآية 2.

(2) سورة الأحزاب، الآية 10.

(11535/1)

الآية. فالذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة، والذين جاءوهم من أسفل منهم قريش وغطفان(1)، وغير ذلك

7 ـ دعوتهم للإيمان عبر الخطاب بـ: »يا بني إسرائيل« ... تعرض السهيلي للنداء بلفظ »يا بني إسرائيل« في بعض المواضع من القرآن، وما في هذا التعبير من قيمة تربوية راشدة، تبعث على الإيمان، وتدعو إلى الهدى؛ وتركه في مواضع أخرى، حيث يقتضي الحال استعمال صيغة أخرى تظهر كرم المنعم وفضله، موضحاً السبب في إيثار صيغة ما في موضع، وتركها في آخر، من بلاغة قرآنية تدل على إعجاز

(1) ابن هشام، مصدر سابق، ج 3، ص. 272.

الكتاب الحكيم، فقال:

... [بنو إسرائيل]: إسرائيل هم بنو يعقوب، وكان يسمى إسرائيل: أي سري الله، لكن لم يذكروا في القراءة إلا إذا أضيفوا إلى إسرائيل، ولم يسموا فيه: بنو يعقوب. ومتى ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب لم يسم

إسرائيل، وذلك لحكمة فرقانية، وهو أن القوم لما خوطبوا بعبادة الله، وذكروا بدين أسلافهم موعظة لهم، وتنبيهاً من غفلتهم، سموا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله، فإن إسرائيل اسم مضاف إلى الله تعالى في التأويل، ألا ترى كيف نبه على هذا المعنى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين دعا إلى الإسلام قوماً

(11537/1)

يقال لهم بنو عبد الله، فقال لهم: »يا بني عبد الله! إن الله قد أحسن اسم أبيكم« (1)، ويحرضهم بذلك على ما يقتضيه اسمهم من العبودية لله. فكذلك قوله يا بني إسرائيل، إنما ورد في معرض التذكرة لهم بدين أبيهم، وعبوديته لله، فكان ذكرهم بهذا الاسم أليق بمقام التذكرة والتحريض من أن يقول لهم: يا بني يعقوب. ولما ذكر موهبته لإبراهيم وتبشيره بإسحاق، ثم يعقوب، كان لفظ يعقوب أولى بذلك المقام، لأنها موهبة بعقب أخرى، وبشرى عقب بها بشرى، وإن كان اسم يعقوب عبرانياً، ولكن لفظه موافق للعربي في العقب

---

(1) لم أجده.

(11538/1)

والتعقيب، فانظر مشاكلة الاسمين للمقامين، فإنه من باب النظر في إعجاز القرآن، وبلاغة ألفاظه، وتنزيل الكلام في منازله اللائقة به (1).

8 ـ حلل القرآن أسباب كفرهم وجحودهم بالرسالة المحمدية، ومبعثه دوافع كثيرة، منها:

... (البواعث النفسية: وهي كثيرة مثل الحسد. قال تعالى: {ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم}(2)،

---

(1) السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ج 2، ص. 294.

(2) سورة البقرة، الآية 105.

(11539/1)

{ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل، والله أعلم بأعدائكم، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسْمَع وراعنا لَيّاً بألسنتهم وطعناً

في الدين}(1). ...

... (البواعث العقلية: وهي تتعلق بضيق التفكير بسبب التمسك بالعادات والتقاليد، أو بسبب ضعف البواعث العلمية وانتشار الجهل والضلال، قال تعالى: {وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام

---

(1) سورة آل عمران، الآيات 44 ـ 46.

(11540/1)

لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة إنكم قوم تجهلون}(1). فبنو إسرائيل سرعان ما نسوا الله الذي قهر عدوهم فرعون، ومالوا إلى عبادة الأوثان. وهذا منتهى البلادة والغباء، ولذلك قال اللهم عنهم: {مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً}(2).

... (البواعث الاقتصادية: وسببها الحرص على المصلحة الشخصيّة التي قد تقتضي الاكتناز والبخل معاً، قال تعالى: {والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب

---

(1) سورة الأعراف، الآية 138.

(2) سورة الجمعة، الآية 5.

(11541/1)

أليم}(1)، وقال أيضاً: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء}(2). وقد كان اليهود أحرص الناس على جمع المال وابتزاز الناس به في القديم والحديث على حد سواء. وحين اتخذوا العجل ليعبدوه، صنعوه من ذهب!

...

9 - إنصاف القرآن لليهود

... ليس لمسلم أن يظلم معاهداً أو غيره. وإذا وقع شيء من ذلك، فلابد للعدالة من أن تأخذ مجراها؛ وإذا التبس الأمر على الحاكم في الأرض، فإن يد السماء سرعان ما تتدخل لمصلحة المظلوم ضد الظالم. وقد أنزل الله

---

(1) سورة التوبة، الآية 34.

(2) سورة آل عمران، الآية 181.

(11542/1)

عز وجل عدداً من الآيات في تبرئة يهودي اتهمه أحد الأنصار بالسرقة ظلماً وعدواناً، وهذه الأبيات هي من قوله تعالى: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما } إلى قوله: {ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً. ولولا فضل الله عليك ورحمته، لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم، وما يضرونك من شيء، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة، وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً}(1).

---

(1) سورة النساء، الآيات 106 ـ 113.

(11543/1)

والقصة باختصار أن نفراً من الأنصار: قتادة بن النعمان وعمه رفاعة غزيا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في بعض غزواته، فسرقت درع لأحدهم: رفاعة، فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم بنو أبيرق، فأتى صاحب الدرع رسول الله، فقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعي. فلما رأى السابق ذلك، عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي اسمه زيد بن السمين، وقال

لنفر من عشيرته: إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان، وستوجد عنده. فانطلقوا إلى رسول الله فقالوا: يا نبي الله إن صاحبنا بريء، وإن الذي سرق الدرع

(1/11544)

فلان، وقد أحطنا بذلك علماً، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس، وجادل عنه؛ فإنه إن لم يعصمه الله بك، يهلك ولما عرف رسول الله أن الدرع وجدت في بيت اليهودي، قام فبرأ ابن أبيرق وعذره عل رؤوس الناس. وكان أهله قد قالوا للنبي قبل ظهور الدرع في بيت اليهودي إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت. قال قتادة: فأتيت رسول الله فكلمته. فقال: عمدت إلى أهل بيت يذكر منهم إسلام وصلاح وترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة؟ قال: فرجعت، ولوددت أني خرجت من بعض

(1/11545)

مالي ولم أكلم رسول الله في ذلك فأتاني عمي رفاعة، فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله. فقال: الله المستعان. فلم نلبث أن نزلت: {إنا أنزلنا إليك} الآيات.

ويقول سيد قطب في التعقيب على هذه القصة:

... في هذا الوقت الحرج، الخطر، الشديد الخطورة، كانت هذه الآيات كلها تتنزل على رسول الله وعلى الجماعة الإسلامية لتتصف رجلاً يهودياً، اتهم ظلماً بسرقة، ولتدين الذين تآمروا على اتهامه، وهم أهل بيت من الأنصار في المدينة، والأنصار يومئذ هم عدة الرسول وجنده في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله

(11546/1)

ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة ... إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة بريء، تآمرت عليه عصبة لتوقعه في الاتهام، وإن كانت تبرئة بريء أمراً هائلاً في ميزان الله، إنما كانت أكبر من ذلك كانت هي إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى، ولا مع العصبية، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أيّاً كانت الملابسات والأحوال(1).

... هذه شريعة الله التي لا تحابي أحداً على حساب الآخر.

وأما شرائع الأرض اليوم التي تلبس مسوح الرهبان وتتستر بالعدالة وحقوق الإنسان، فهي التي تسمح

---

(1) في ظلال القرآن، ج 2، صص. 751 ـ 752.

(11547/1)

للإنسان بممارسة التمييز ضد أخيه الإنسان، وهو الأمر الذي لم تحققه حضارة الرجل الأبيض في هذا العالم بشكل فعليّ حتى اليوم.

المبحث الثالث: أهم أحداث الصراع بين الإسلام واليهودية في العهد النبوي

... دار صراع طويل بين الدعوة الإسلامية وأعدائها، ابتدأ بالفكر والبيان، وانتهى بالسيف والسنان. وقد دون التاريخ لب هذا الصراع كما سنجد في هذا المبحث.

أولاً: وثيقة الموادعة أساس للتعايش السلمي

... كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – مؤمناً

بالتعايش السلمي مع أهل الكتاب ممن لم يؤمن

برسالته. وفي هذا الإطار، تمت

(11548/1)

الموادعة بينهم وبين المسلمين. قال ابن إسحاق:

»وكتب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كتاباً بين

المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم

على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم«(1).

ومما جاء في الموادعة:

... وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين،

وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم،

وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم من

ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلاَّ نفسه . . . إن بطانة يهود

كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 2، ص.

240.

(11549/1)

إلا بإذن محمد – صلى الله عليه وسلم –، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة(1).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 242.

(11550/1)

... وهذه الموادعة تعتبر وثيقة تاريخية تبين قواعد المجتمع المدني الذي حدده الإسلام. فهو مجتمع يقوم على التكافل والتعاون ووحدة المصير لأبنائه أيّاً كان دينهم؛ كما أنه يقوم على الحرية الدينية والفكرية وقبول الآخر، وهو أرقى بكثير مما يسمى بالديمقراطية اليوم، وذلك لأن الديمقراطية تلزم جميع أبناء المجتمع بقوانين واحدة في الحوافز والعقوبات، مما يعني أن قرار الأكثرية يتحكم بالأقلية دائماً، بينما سمح الإسلام للأقلية بأن تمارس تطبيق دينها أو شريعتها

كما تريد. فلم يتدخل لفرض قوانين العقوبات الإسلامية أو

(11551/1)

غيرها على غير المسلمين، لأنهم يطبقون ما لديهم من شرائع، وبهذا يكون الإسلام أول من أنشأ وحدة اجتماعية حقيقية لمجتمع متعدد الأعراق والأديان ضمن مجتمع مدني متطور. وبهذا أصبح الإسلام هو أول من اعترف بإعطاء حق الحكم الذاتي للأقليات، وهو حق تشرئب إليه أعناق كثير من الأقليات في مطلع الألفية الثالثة للميلاد دون أن تحلم بوجوده في الواقع الذي تتردد فيه شعارات الحرية والعدالة والمساواة كل يوم ملء السمع والبصر.

ثانياً: احترام حقوق الإنسان

(11552/1)

... وفي إطار هذا التعايش، كان هنالك احترام كامل للإنسان حياً كان أو ميّتاً بغض النظر عن دينه. روى جابر

قال: »مرت جنازة، فقام لها رسول – صلى الله عليه وسلم –، وقمنا معه، فقلنا: يا رسول الله إنها يهودية. فقال: "إن الموت فزع، فإذا رأيتم الجنازة فقوموا"«(1). ومثل هذه المعاملة الحسنة تستوجب إشادة غوستاف لوبون بسماحة النبي – صلى الله عليه وسلم – مع الآخرين، حيث قال:

---

(1) متفق عليه. (انظر: التبريزي، مشكاة المصابيح، مصدر سابق، ج 1، ص. 521).

(11553/1)

... إن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وإنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله، كاليهودية والنصرانية على الخصوص. وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته. وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المرتابون، أو المؤمنون القليلون من الذين أنعموا النظر في تاريخ العرب«(1).

ثالثاً: موقف النبي عليه السلام من اليهود

... ذكرنا أنه منذ هجرة النبي عليه السلام إلى المدينة، كتب بينه وبين اليهود موادعة تحدد العلاقة بين

(1) حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ص. 128.

(11554/1)

الطرفين في إطار المجتمع المدني، وكان النبي عليه السلام يرغب بإيمان اليهود ونصرتهم له، لأنه يستشرف بما علمه الله تعالى أن المستقبل لهذا الدين، وأن اليهود سيفقدون مبررات وجودهم في المدينة وجزيرة العرب، بما سيرتكبونه من خيانات وجرائم تودي بهم. ولذلك دعاهم إلى الإيمان حفاظاً عليهم وعلى مصالحهم. عن أبي هريرة قال:

... بينما نحن في المسجد، خرج النبي – صلى الله عليه وسلم –، فقال: »انطلقوا إلى يهود«. فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس، فقام النبي ، فقال: »يا معشر يهود، أسلموا تسلموا، اعلموا أن الأرض لله

(11555/1)

ورسوله، وأني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه «(1).

... ولتوثيق العلاقة معهم، كان يقيم معهم علاقات إنسانية من تبادل اقتصادي ونحوه. عن عائشة قالت: اشترى رسول الله طعاماً من يهودي، ورهنه درعاً له من حديد(2)؛ كما أنه سمح لأتباعه بالرواية عن علماء بني إسرائيل. ففي الحديث: {بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج}(3)

---

(1) متفق عليه. (انظر: التبريزي، مشكاة المصابيح، مصدر سابق، ج 2، ص. 1186).

(2) المرجع نفسه، ج 2، ص. 873.

(3) رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو. (المصدر نفسه، ج 1، ص. 70).

(11556/1)

. وكان يتناول طعامهم ويتقبل هداياهم كما سيأتي.

رابعاً: محاولات اليهود قتل النبي عليه السلام

... حاول اليهود قتل النبي عليه السلام بطرح صخرة عليه، حيث:

... خرج رسول الله إلى بني النضير يستعينهم في دية

العامريين اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري. فلما خلا بعضهم ببعض قالوا: لن تجدوا محمداً أقرب من الآن. فمن رجل يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب أنا. فأتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الخبر، فانصرف عنهم، فأنزل الله تعالى فيه هو وقومه: {يا أيها الذين آمنوا

(11557/1)

اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون }(1) (2).

... وبالرغم من كيدهم، فقد كان النبي عليه السلام يقبل هداياهم، ويأكل طعامهم. صنعوا له يوم خيبر طعاماً، ودسوا له السم فيه، فاكتشف أمرهم ولم يعاقبهم. روى أبو هريرة، قال:

... لما فتحت خيبر، أهديت لرسول الله شاة، فيها سم، فقال رسول الله: »اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود«. فجمعوا له، فقال لهم رسول

---

(1) سورة المائدة، الآية 11.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 2، ص. 279.

(11558/1)

الله – صلى الله عليه وسلم- : »إني سائلكم عن شيء فهل أنتم مصدقيّ عنه؟ «.قالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم- : »من أبوكم؟ «. قالوا: »فلان «. قال: »كذبتم، بل أبوكم فلان «. قالوا: »صدقت وبررت «. قال: »فهل أنتم مصدقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ « قالوا: » نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كما عرفته في أبينا «، فقال لهم: »من

أهل النار؟ «. قالوا: »نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها «، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم- : »اخسأوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً «. ثم قال: »هل أنتم

(11559/1)

مصدقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ « قالوا: »نعم يا أبا القاسم«. قال: »هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً؟«. قالوا: »نعم«. قال: »فما حملكم على ذلك؟ «. قالوا: »أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت صادقاً لم يضرك« (1).

... وتكررت المحاولة مرة أخرى لقتله عليه السلام بواسطة السم. وقدمت يهودية شاة مسمومة إلى النبي يوم خيبر. فلما سألها عن سبب ذلك، قالت: »إن كنت نبياً لم يضرك، وإن لم يكن نبياً استرحنا منه«. فعفا

---

(1) رواه البخاري عن أبي هريرة. (التبريزي، مشكاة المصابيح، مصدر سابق، ج 3، صص. 1669 ـ 1670).

(11560/1)

عنها رسول الله ولم يعاقبها، وتوفي أصحابه الذي أكلوا من الشاة(1).

... وقد سرى السم في جسده الشريف، وبقي أثره حتى وفاته عليه الصلاة والسلام. فكان في سلك الشهداء، وجمع الله له أجر النبوة والشهادة معاً.

... قال الأزهري: قال جابر: واحتجم رسول الله – صلى الله

عليه وسلم – يومئذ، حجمه مولى بني بياضة بالقرن والشفرة، وبقي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعده ثلاث سنين، حتى كان وجعه الذي

---

(1) المصدر نفسه، ج 2، صص. 1667 ـ 1668، الحديث رقم 5931. وقد رواه أبو داود والدارمي. قال الألباني: »وهو حديث صحيح«.

(11561/1)

توفي فيه. فقال: [ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر عداداً، حتى كان هذا أوان انقطاع أبهري]. وتوفي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شهيداً (1).

... ونقل ابن إسحاق عن مروان بن عثان بن أبي سعيد بن المعلى قوله في التعقيب على محاولة المرأة اليهودية سم النبي عليه السلام يوم خيبر: »فإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مات شهيداً، مع ما أكرمه الله من النبوة«(2)

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج 4، ص.

.210

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 4، ص.

.44

(11562/1)

.

... وبالرغم من محاولتهم قتله عليه السلام، فقد تزوج ابنة أحد زعمائهم، وهي صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها.

... وكانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق أن قمراً وقع في حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها، فقال: ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمداً. فلطم وجهها لطمة خضر عينيها منها. فأتى بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبها أثر منه، فسألها ما هو؟ فأخبرته الخبر (1).

...

خامساً: موقف اليهود من الدعوة

---

(1) المصدر نفسه، ج 4، ص. 43.

(11563/1)

... سجلت صفحات التاريخ موقفاً سلبياً لليهود من دعوة النبي عليه السلام، ابتدأ من إنكار الدعوة، وتكذيب صاحبها وانتهى بالتآمر عليها وحمل السلام في وجهها.

قال تعالى: {ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين}(1). والآية نزلت في اليهود، الذين »كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبل مبعثه. فلما بعثه الله من العرب، كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون

(1) سورة البقرة، الآية 89.

فيه«(1).

... وقد شكل يهود من المنافقين من الأوس والخزرج حلفاً، وكان أخبار يهود هم الذين يسألون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويتعنتونه، ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل(2).

... وقد ذكرت كتب السيرة كثيراً من مواقفهم

المشينة تجاه الدعوة(3)، نكتفي من ذلك بموقفين:

... الموقف الأول: دخول أبي بكر بيت المدراس، حيث دخل

---

(1) الصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 88.

(2) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 2، ص. 255.

(3) انظر على سبيل المثال ما ورد في: المصدر نفسه، ج 2، صص. 258 ـ 284.

(11565/1)

... فوجد منهم ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم، يقال له فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر من أحبارهم يقال له أشيع، فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك يا فنحاص! اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً لرسول الله قدجاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في "التوراة" و"الإنجيل". فقال فنحاص لأبي بكر: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني، ولو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن

(11566/1)

الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا. قال: فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم، لضربت رأسك يا عدو الله. قال فذهب فنحاص إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فقال: يا محمد! انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله! إن عدو الله قال قولاً عظيماً، إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء. فلما قال ذلك، غضبت لله مما قال، وضربت وجهه. فجحد ذلك فنحاص، وقال: ما

(11567/1)

قلت ذلك؟ فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص رداً عليه(1): {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق} (2).

... الموقف الثاني: تهجمهم على ذات الله عز وجلّ. فقد

روى سعيد بن جبير أنه:

... أتى رهط من يهود إلى رسول الله، فقالوا: يا محمد! هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ قال: فغضب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى انتقع

---

(1) المصدر نفسه، ج 2، صص. 277 ـ 278؛ والصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 342.

(2) سورة آل عمران، الآية 181.

(11568/1)

لونه، ثم ساورهم غضباً لربه، قال: فجاءه جبريل عليه السلام فسكنه، فقال: خفض عليك يا محمد، وجاء من الله بجواب ما سألوه عنه: {قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد}(1). قال: فلما تلاها عليهم، قالوا: فصف لنا يا محمد كيف خلقه؟ كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أشد من غضبه الأول، وساورهم، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال له مثل ما قال له أول مرة، وجاءه من الله تعالى بجواب ما سألوه، يقول الله تعالى: {وما قدَروا الله حق قدره والأرضُ

(1) سورة الإخلاص.

(11569/1)

جميعاً قَبْضَتُهُ يوم القيامة والسماواتُ مطويَّاتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون }(1) (2).

سادساً: المواجهات العسكرية بين اليهود والمسلمين ... لم يكن خلاف يهود مع النبي – صلى الله عليه وسلم – مجرد خلاف عقدي، بل امتد ليشمل العدوان عليه شخصياً كما تقدم، والعدوان على الإسلام ودولته بالمدينة أيضاً، مما تسبب بإجلائهم عنها. فيهود بني قينقاع قالوا للنبي – صلى الله عليه وسلم- : »لو حاربتنا، لعلمت أنا نحن الناس«(3)

(1) سورة الزُّمر، الآية 67.

(2) ابن هشام، مصدر سابق، ج 2، ص. 284.

(3) السهيلي، الروض الأنف، مصدر سابق، ج 2، ص. 296.

(11570/1)

. وكان من أمرهم:

... أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت. فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما أن قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدت يهود على المسلم فقتلوه. فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود. فغضب المسلمون، ووقع الشر بينهم وبين بني قينقاع (1).

وكان إجلاؤهم في السنة الثانية للهجرة بعد غزوة بدر، وقبل أحد.

---

(1) ابن هشام، مصدر سابق، ج 3، ص. 137.

(11571/1)

... وأما بنو النضير، فقد أتاهم رسول الله في دية القتيلين من بني عامر، اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول – صلى الله عليه وسلم –، عقد لهما. فلما جاءهم الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وجدوها فرصة لكي يطرحوا عليه صخرة ويتخلصوا منه،

وانتدبوا لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فأتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الخبر من السماء، فقام وخرج. ثم »قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً من المدينة فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً للمدينة، فأقبل أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى انتهوْا إليه، فأخبرهم

(11572/1)

الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم« (1). وكان إجلاؤهم سنة أربع هجرية.

... ويهود بني قريظة كان لهم دور بارز في تحزيب الأحزاب على النبي – صلى الله عليه وسلم – يوم الخندق(2). فلما أتوا على قريش:

... قالوا: هؤلاء أحبار يهود، وأهل العلم بالكتاب الأول، فسلوهم: دينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم. فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه

---

(1) المصدر نفسه، ج 3، ص. 240.

(2) انظر تفاصيل ذلك عند ابن هشام، المصدر نفسه، ج 3، ص. 258.

(11573/1)

وممن اتبعه، فأنزل الله فيهم: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا}(1) (2). وقد نقضوا عهدهم مع النبي عند حصار الأحزاب له. ولما أن انجلى الكرب، وفرت الأحزاب، وضع الرسول – صلى الله عليه وسلم – سلاحه، فجاءه جبريل عليه السلام بسلاحه، فقال: »أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم. فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح

---

(1) سورة النساء، الآية 151.

(2) ابن هشام، مصدر سابق، ج 2، ص. 279؛ الصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 403.

(11574/1)

بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد المسير إلى بني قريظة، فإني عامد

إليهم، فمزلزل بهم«(1). وبعد حصارهم خمساً وعشرين ليلة، نزلوا على حكم النبي ، فحكم فيهم رجلاً من الأوس وهو سعد بن معاذ وكانوا مواليه، فقال: »فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء«(2). وكانت غزوة بني قريظة سنة خمس هجرية.

---

(1) ابن هشام، المصدر السابق، ج 3، ص. 267.

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص. 269.

(11575/1)

... وأما يهود خيبر، فقد غزاهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – في المحرم من سنة سبع للهجرة، وسبب الغزوة أنهم هم الذين:

... أثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي، وبغطفان، وأعراب البادية الجناح الثالث من الأحزاب. وكانوا هم أنفسهم يهيئون للقتال. فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي – صلى الله عليه وسلم –. وإزاء ذلك

اضطر المسلمون إلى بعوث متوالية، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين، مثل سلام بن أبي

(11576/1)

الحقيق، وأسير بن زارم. ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك، وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب، لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم، وهي قريش، كانت مجابهة للمسلمين. فلما انتهت هذه المجابهة، صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين، واقترب لهم سوء الحساب (1).

... وحصلت مواجهات أخرى مع مجموعات أخرى من اليهود بعد غزوة خيبر، مثل يهود فدك، ووادي القرى، وتيماء. وعاد الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعد ذلك إلى المدينة المنورة، وكان من وصاياه قبل

---

(1) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص. 408.

(11577/1)

موته إخراج اليهود من جزيرة العرب(1).

... ومن استقراء واقع المدينة بعد الهجرة النبوية، نجد

أن النبي عليه السلام كان حريصاً على أن يسود السلام والأمن في ربوع المدينة لكل سكانها، بمن فيهم اليهود. وكان حريصاً أيضاً على إقامة النظام الذي يكفل الأسس المنطقية للتعامل بين الجميع وفق مقتضيات العدل والمساواة. وكان يود لو أن اليهود كانوا في طليعة المؤمنين به؛ ولذلك لم يتوان عن دعوتهم إلى الهدى، ولم يكن

---

(1) انظر »باب إخراج اليهود من جزيرة العرب«، عند: التبريزي، مشكاة المصابيح، مصدر سابق، ج 2، ص.6 118.

(11578/1)

يريد لهم إلا الخير. بيد أنهم ظلموا أنفسهم، وأعلنوا رفضهم للدعوة. وهذا من حقهم وفق التصور الإسلامي لقضية حرية الأديان. لكنهم تجاوزوا ذلك إلى التآمر والدسائس وتحريض المشركين على المسلمين، ونكث العهود، وإعلان الحرب على الدعوة. فكان لابد من التصدي لهم بقوة. وقديماً قال الشاعر:

إذا لم يكن غير الأسنة مركباً

فما حيلة المضطر إلاَّ ركوبها

... وبعد هذه المواجهات مع اليهود في العهد النبوي، عادت الأمور إلى نصابها في ما تلاه من عهود، وعومل اليهود أحسن معاملة، وذلك لأن:

(11579/1)

... معاملة اليهود في ظل الحكم الإسلامي عبر التاريخ لم تكن وليدة الصدفة، ولا مجرد كرم أخلاقي من الحكام المسلمين، وإنما كان بسبب العقيدة الإسلامية التي تلزم أصحابها حكاماً ومحكومين بحماية أصحاب الديانات الأخرى، ومعاملتهم كمواطنين لهم حقوقهم التي لا يجوز المساس بها، ولهم احترامهم كأصحاب ديانات سماوية، يعترف بها الإسلام، ويعترف برسلهم (1).

---

(1) رفيق شاكر النتشة، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، ص. 17.

(11580/1)

... وقد استغل اليهود هذه المعاملة الحسنة، فتظاهر بعضهم بالإسلام مثل اليهودي اليمني عبد الله بن سبإٍ، وقادوا الفتن والمؤامرات داخل المجتمع الإسلامي. وكان من تأثير فتنهم مقتل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما. كما حاولوا تشويه العقيدة الإسلامية بما نشروه من سموم وأفكار هدامة، لا تتفق والعقيدة الإسلامية(1). ومع هذا، فقد بقوا آمنين سالمين لم يعرض لهم أحد من المسلمين بأذى.

---

(1) انظر: عبد الله التل، جذور البلاء، ص. 163 وما بعدها.

(11581/1)

المبحث الرابع: التعايش بين الإسلام واليهودية في العهود الإسلامية

أولاً: العهد للأقليات في المجتمعات الإسلامية

... الذمة: معناها العهد. وهو لفظ قد يطلق على كل من له عهد. يذكر ابن كثير أنه »في سنة إحدى عشر، أمر المأمون بأن ينادى: برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير، وإن أفضل الخلق بعد النبي عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب« (1). فالمؤمن له ذمة عند الله، وأهل الكتاب لهم ذمة الله عند المسلمين. وليس في هذا المصطلح ما

يشين اليهود أو غيرهم، لأن مصطلح المواطن لم يكن

---

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص. 286.

(11582/1)

شائعاً في تلك الأيام، وإنما الشائع أن يطلق لفظ مسلم أو ذمي على المواطنين في الدولة الإسلامية. يقول آدم متز:

... إن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا التي كانت كلها على عهد المسيحية في العصور الوسطى، وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين، وأولئك هم أهل الذمة، الذين كان وجودهم من أول الأمر حائلاً بين شعوب الإسلام وبين تكوين وحدة سياسية، وقد ظلت كنائس اليهود والنصارى وأديرتهم أجزاء غريبة. واستند أهل الذمة إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود، وما منحوه من حقوق، فلم

(11583/1)

يرضوا بالاندماج في المسلمين. وقد كان حرص اليهود والنصارى على أن تظل دار الإسلام دائماً غير تامة

التكوين (1).

ثانياً: الاستقلال الكامل لأهل الذمة

... وكان لليهود والنصارى استقلالهم الخاص بهم. يقول آدم متز: »ولما كان الشرع الإسلامي خاصاً بالمسلمين، فقد خلت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى والمحاكم الخاصة بهم«(2). وقد فتحت أمامهم أبواب الدولة والمناصب الرسمية

---

(1) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ج 1، ص. 55.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص. 75.

(11584/1)

والشعبية. يقول آدم متز: »ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة، أي باب من أبواب الأعمال، وكان قدمهم راسخاً في الصنائع التي تدر الأرباح الوافرة، فكانوا صيارفة وتجاراً، وأصحاب ضياع وأطباء«(1).

ثالثاً: وضع اليهود في العصر الأموي

... وفي العصر الأموي، تمتع اليهود بالحرية الكاملة مع بقية أهل الذمة. يقول فيليب حتي:

... وقد تمتع أهل الذمة في هذه الوضعيّة بقسط وافر من الحرية لقاء تأديتهم الجزية والخراج، وارتبطت بالفعل قضاياهم في الأمور المدنية والجنائية والقضائية

---

(1) المصدر نفسه، ص. 68.

(11585/1)

برؤسائهم الروحانيين، إلا إذا كانت القضية تمس المسلمين. أما الشريعة الإسلامية، فلم تطبق عليهم، لأنها لم توضع لهم. ولقد بقيت بعض أقسام هذا النظام الخاص تسري على أهل الذمة حتى آخر العهد العثماني، ومنها ما ظل مرعياً في عهد السلطات المنتدبة في العراق وسورية ولبنان وفلسطين(1).

رابعاً: وضع اليهود في العصر العباسي

... وكذلك الأمر في العصر العباسي، فقد:

---

(1) تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ط 7، 1986 م، ص. 297.

(11586/1)

... لقي اليهود من محاسنة المسلمين فوق ما لقيه النصارى برغم ما في بعض الآيات القرآنية من تنديد بهم. والسبب أنهم كانوا قليلي العدد، فلم يخش أذاهم. وقد وجد المقدسي سنة 985 أن أكثر الصيارفة وأرباب البنوك في سورية يهود، وأكثر الكتبة والأطباء نصارى. ونرى في عهد عدد من الخلفاء وأخصهم المعتضد [892 ـ 902 هـ] أنه كان لليهود مراكز هامة في الدولة(1).

... وعلى العموم، »كان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة، وكان رؤساء اليهود جهابذتهم عنده« (2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 426.

(2) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة، ط 3، 1377 هـ/ 1957 م، ج 1، ص. 75.

(11587/1)

. وقد بلغت مكانة أهل الكتاب إلى حد الذروة في ظل الدولة الإسلامية. يقول الدكتور فيليب حتي:

... إن النصارى واليهود كثيراً ما تقلدوا مناصب هامة في دوائر المال والكتابة والمهن الحرة حسدهم عليها بعض المسلمين من العامة، بحيث ظهرت نتائج ذلك التنافس في استنان شرائع جديدة لإيقاف أهل الذمة عند حدودهم. غير أن أكثر هذا التشريع الجديد ظل حبراً على ورق، ولم ينفذ دائماً (1).

---

(1) تاريخ العرب، مصدر سابق، ص. 422.

(11588/1)

... وعاش اليهود إلى جانب المسلمين في أحياء واحدة، فلا عزلة ولا حصار: »ولم يكن في المدن الإسلامية أحياء مختصة لليهود والنصارى، بحيث لا يتعدونها، وإن آثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين، وكانت الأديرة المسيحية منتشرة في كل أجزاء بغداد، حتى كادت لا تخلو منها ناحية «(1).

... وفي مصر كانت هنالك حرية كاملة لليهود، »وقد ولي الوزارة بالقاهرة منذ عام 436 إلى 439 هـ/ 1044 إلى 1047 م أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحي، وكان يهودياً

فأسلم، وكان يدير الدولة معه أبو سعد التستري

---

(1) آدم متز، مرجع سابق، ج 1، ص. 75.

(11589/1)

اليهودي». ولذلك قال الشاعر المصري:

يهود هذا الزمان قد بلغوا

العز فيهم والمال عندهم

يا أهل مصر إني نصحت لكم

غاية آمالهم وقد ملكوا

ومنهم المستشار والملك

تهودوا فقد تهود الفلك (1)

خامساً: وضع اليهود في الأندلس

... وأما اليهود في الأندلس، فكان حالهم أفضل من

إخوانهم في أوروبا كلها. ولذلك كانت الأندلس

محطتهم ومركزهم في القارة الأوروبية تحت لواء الإسلام

الذي أمن لهم الرعاية والحماية. يقول غوستاف لوبون:

(1) المرجع نفسه، ج 1، ص. 100.

(11590/1)

... وأسلم كثير من النصارى، ولكنهم لم يسلموا طمعاً في كبير شيء، وهم الذين استعربوا، فغدوا هم واليهود مساوين للمسلمين، قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولة، وكانت إسبانية العربية بلد أوروبا الوحيد الذي تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها، فصار عددهم فيه كثيراً جداً (1).

سادساً: الموازنة بين وضع اليهود في أوروبا ووضعهم في البلاد الإسلامية

... إن الحرية التي تمتع بها اليهود في ظل الإسلام لا تستوي وما لاقوه في أصقاع أوروبا من أذى وتشريد عبر التاريخ

(1) حضارة العرب، مرجع سابق، ص. 77.

(11591/1)

... ولقد شهد اليهود مذابح واضطهادات في معظم البلاد الأوروبية، إن لم يكن جميعها شرقيها وغربيها. منها بريطانيا، طردتهم في أول القرن السادس الميلادي، ومنعت دخولهم إليها مدة ثلاثة قرون؛ وفرنسا اضطرت في عهد لويس التاسع عشر إلى طردهم وحرق تلمودهم؛ وإسبانيا طردتهم وحرمتهم من الدخول إلى بلادها؛ وفي سنة 1492 م أصدر الملك فرديناند والملكة إيزابيلا مرسوماً بطردهم ومعهم أبناؤهم وبناتهم وخدامهم وخادماتهم، وأقرباؤهم صغيراً وكبيراً؛ والبرتغال فعلت كذلك لأسباب مختلفة؛ أما روسيا القيصرية التي حاولوا فيها قتل

(11592/1)

القيصر، فقد قامت ضدهم بعدة مذابح في أوقات متفرقة من التاريخ؛ وألمانيا، فكلنا يعرف موقف السلطات الألمانية النازية والمذابح التي وقعت عليهم من النازيين (1).

... وإذا كانت أوروبا قد اضطهدت اليهود، فقد وفر لهم الإسلام الملاذ الأمن في ربوع بلاده، مما أسهم بالحفاظ على الجنس اليهودي من الإبادة، وسمح لهم بتطوير

مقدراتهم الاقتصادية والفنية والعلمية عبر التاريخ.

وعن هذا الأمر يقول الأستاذ رفيق النتشة:

---

(1) رفيق شاكر النتشة، مرجع سابق، صص. 15 ـ 16.

(11593/1)

... وفي حين كانت أوروبا الغربية المسيحية تضطهد اليهود باسم الدين، وتذيقهم ألوان العذاب في العصور الوسطى، وتضطرهم إلى النزوح إلى شرقي أوروبا وغربيها، كانت الدولة العربية توليهم أسمى المناصب، وتعترف لهم بحق المساواة المطلقة، فيتجرون، ويثرون، ويبلغون شأواً في السياسة والإدارة والاقتصاد لم يكن له مثيلٌ (1).

سابعاً: اليهود في الدولة العثمانية

... كان العهد العثماني في سياسته نحو اليهود امتداداً لما سبقه من عهود إسلامية.

---

(1) المرجع نفسه، ص. 21.

(11594/1)

... وبعد خضوع فلسطين للحكم العثماني في أوائل القرن السادس عشر، بدأ يهود أوروبا يهاجرون إليها، وأقاموا في الأماكن المقدسة، القدس وطبريا وصفد والخليل.

وفي منتصف القرن الثامن عشر، هاجر عدد من يهود بولندا وروسيا إلى فلسطين، بسبب اضطهادهم هناك، واستقر معظمهم في صفد وطبريا، حيث لاقوا تحت حكم ظاهر العمر الحماية والأمن، كما لاقوا من مختلف السلاطين العثمانيين المعاملة الحسنة. وتعتبر الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة التي لم يحصل فيها اضطهاد (1).

---

(1) المرجع نفسه، صص. 26 ـ 27.

(11595/1)

... وقد حاولت الدولة العثمانية أن تحد من هجرة اليهود إلى فلسطين:

... وظلت العواصم الأوروبية المتعاطفة مع اليهود تضغط على الباب العالي ضغطاً لا هوادة فيه، للتخفيف من ذلك الشرط الزمني لإقامة اليهود في فلسطين، ورأى الباب العالي في سنة 1887 م إطالة المدة المسموح بها للحجاج اليهود إلى ثلاثة شهور بدلاً من شهر واحد (1).

ثامناً: اليهود يقضون على الخلافة الإسلامية

---

(1) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج 2، ص. 977.

(11596/1)

... في 18 أيار (مايو) 1901 م، قال هرتزل للسلطان . وكان قد اصطحب معه حاخاماً تركيّاً [موسى ليفي]، وعرض على السلطان تصفية الديون العثمانية، وإصلاح الاقتصاد المتدهور، ووقف حملات صحف "تركيا الفتاة" في أوروبا، وذلك مقابل إيجاد ملجأٍ لليهود في الأراضي المقدسة: فلسطين(1).

... فغضب السلطان، وكان مما قاله: »إننا لن نفرط بشبر من بلادنا دون أن نبذل أكثر مما بذلناه من دماء في سبيلها«(2).

---

(1) رفيق شاكر النتشة، مرجع سابق، ص. 9.

(2) المرجع نفسه، صص. 9 ـ 10.

(11597/1)

... وعرض عليه رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم »جون ترك« مبلغ 150 مليون ليرة إنكَليزية ذهباً، لكي يصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، فكان جوابه:

... إنكم لو دفعتم ملء الأرض ذهباً فضلاً عن مائة وخمسين مليون ليرة إنكَليزية ذهباً، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي. لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة، فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين، ولذلك لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضاً (1).

---

(1) المرجع نفسه، ص. 160.

(11598/1)

... وبعد هذا الجواب، خلعوه من الخلافة. وقد تم إلغاء الخلافة الإسلامية سنة 1924 م على يد مصطفى كمال الذي »كان ينتمي إلى يهود الدونمة في سالونيك؛ كما أن الجمعية التي أسسها قبل الحرب العالمية الأولى سنة 1907 م وهي جمعية "الوطن" في دمشق، كانت جمعية ماسونية«(1).

---

(1) زكريا البيومي، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين. التحالف الصليبي الماسوني الاستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي، ص. 283.

(11599/1)

... قامت دولة ما يسمونه بإسرائيل، وهي دولة لا تمت إلى اسمها بصلة، ومعنى إسرائيل بالعبرية: عبد الله(1). وهم يقصدون من وراء هذا الاسم معنى التفوق والتفضيل على من سواهم، بأنهم شعب الله المختار، وهم الجديرون بحمل كلمته في هذا العالم، وباقي شعوب الأرض إنما هي كالدواب ليركب عليها بنو إسرائيل(2). ولتحقيق هذا المشروع، لابد من تحطيم الأديان والأخلاق والقيم الاجتماعية السائدة بين الأمم، لأن الأديان جميعاً

---

(1) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 2، ص. 183.

(2) انظر: عبد الله التل، جذور البلاء، ص. 51، 79.

(11600/1)

تقف ضد عدوان الإنسان على أخيه الإنسان، وضد هذا المشروع الصهيوني الذي يستأثر بالله من دون بقية خلقه(1)، لأن الخلق لا يستحقون الدين حسب ما هو مذكور في "التلمود"، و"بروتوكلات حكماء صهيون" المنسوب إليهم. ولتحقيق هذا المشروع الصهيوني، يبرر اليهود كل ألوان العنف والخديعة، وكل الأساليب الماكرة والمتنافية مع الأخلاق(2)، وهم يهدفون من وراء مشروعهم إلى هدم المسجد الأقصى، وبناء ما يزعمونه هيكل

---

(1) المرجع نفسه، ص. 24.

(2) ... الفصل السادس »طرق تدمير المجتمعات غير اليهودية«، المرجع نفسه، ص. 172 وما بعدها.

(11601/1)

سليمان، ليحكموا العالم من ذلك الموقع. وليس ما يسمى بالعولمة والنظام العالمي الجديد إلا مشاريع أمريكية ظاهراً، ويهودية حقيقة. والهدف من ورائها أن يلعبوا بالعالم كما يريدون، لأن التاريخ بلغ نهايته عندهم كما زعموا، وقد وجدها الغرب فرصة ليتخلص من أذى اليهود، فدفع بأفواجهم إلى فلسطين المحتلة.

... قاوم العرب المشروع الصهيوني على مدى نصف قرن، وقد تخلل المقاومة ثغرات كثيرة من تمزق كلمتهم، وتفرق صفوفهم، وخلل ميزان القوى، وتخاذل بعضهم، فاستبدلوا بالمقاومة السلام والهرولة للتطبيع.

(11602/1)

... والسلام هدف استراتيجي للأديان جميعاً، ولكنه لن يكون إلا بإعادة الحقوق والنية الحسنة بين الطرفين، وهو ما لا تفعله القيادة الإسرائيلية. فأيّ نية حسنة لقتلة الأطفال من أمثال محمد الدرة وإخوانه في انتفاضة الأقصى الثانية؟ وأي حقوق تسترد وهم يريدون طمس الشخصية الإسلامية لفلسطين، وتشريد شعبها بالآفاق؟ إن الاعتراف بإسرائيل والتطبيع معها ليس هو بداية السلام في المنطقة، بل هو بداية الحرب. فهذا السرطان إذا استشرى في المنطقة وتمكن منها، فإنه سيزرع الفتن والحروب بين العرب والمسلمين أنفسهم، ليكون هو

(11603/1)

المسيطر على الجميع، تماماً كما كان يهود المدينة يشعلون نار الحرب بين الأوس والخزرج في الجاهلية، ويوردون السلام للطرفين، وإلا كيف نفسر هذا التشرذم العربي، وهذه الفرقة بين المسلمين، التي بدأت واستفحلت منذ انطلاق عملية السلام بعد حرب رمضان سنة 1973 م، حيث اشتعلت الحروب بين العرب وجيرانهم، ثم فيما بينهم. وكانت النتيجة هيمنة القوى الأجنبية على منطقة الشرق الأوسط بشكل كامل، وإذلال العرب والمسلمين.

... ولم يجتمع العرب إلا بعد سقوط محمد الدرة شهيداً وأمثاله من أطفال الحجارة الفلسطينية في القدس. لقد كان

(11604/1)

هؤلاء يرجمون الجندي الإسرائيلي، ويستنكرون التخاذل العربي والإسلامي عن أداء واجب النصرة للمسجد الأقصى، وكان حجارتهم تردد ما قاله الأبيوردي عند سقوط بيت المقدس بأيدي الصليبيين قبل تسعة قرون، فقال غاضباً(1):

أترضى صناديد الأعارب بالأذى

فياليتهم إذ لم يذودوا حمية

وتغضي على الذل كماة الأعاجم

عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

... إن قراءة التاريخ واجبة ليس للمتعة والتسلية، وإنما للعظة واستشراف المستقبل. ولابد للأمة التي يكون لها مستقبل من أن يكون لها عدو

---

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص. 394.

(11605/1)

تفكر بمقاومته والتفوق عليه، وهذه سنة كونية ثابتة عبر التاريخ ومن دراسة أحوال الأمم. وحينما هوت الشيوعية في روسيا وأوروبا الشرقية، بحث الغرب عن عدوّ جديد، فلم يجد أمامه إلا المسلمين، فبدأ قصف بلادهم، وغزوهم في عقر دارهم، وفرض الحصار عليهم دولة تلو الأخرى، تحت دعاوى أنها دول ترعى التطرف والإرهاب. وليت شعري إذا استسلم العرب لليهود، من هو العدو الجديد الذي سيبحثون عنه بديلاً لصراعهم مع إسرائيل حتى تجتمع كلمتهم، ويتوحدوا عليه؟ إنه

بكل أسف غير موجود، أو قل إن شئت هو أنفسهم، فسيسفك بعضهم دم بعض، ويغزو

(11606/1)

بعضهم بعضاً، وتعود الحالة كما كانت في الجاهلية الأولى، وستتوجه المعارك إلى الساحة الداخلية في كل بلد، فتستعر الحروب بين السلطة المتمكنة والتي يوهمها الغرب بأنه سندها ومصدر قوتها من جهة، وبين شعبها الأعزل الذي يبحث عن لقمة العيش وأدنى معيشة من جهة أخرى، وسيكون دور اليهود تسليط القوتين على بعضهما، وقد نصوا على هذا في "بروتوكولات"هم التي جاء فيها:

... لقد وسعنا الفجوة بين الحكام وشعوبهم. وبذلك أضعفنا الفريقين، ليسهل علينا السيطرة عليهما. ألبنا جميع السلطات بعضها على بعض، شجعنا تطاحن الأحزاب

(11607/1)

وتكالبها على السلطة، وأوهمنا العمال والكادحين بأنهم ينالون حقوقاً كاملة بدساتير وقوانين مزيفة، يتبجح بها أعواننا وعملاؤنا الذين جعلناهم رؤساء موجهين للعمال (1).

فأبواقهم الإعلامية تحث الشعوب على الثورة من أجل الديمقراطية من جهة، ومصانعهم الحربية تقدم السلاح لتلك الدول لتقمع بها تلك الشعوب من جهة أخرى. إنها فتنة لا قرار لها، وبقاء إسرائيل رهين بإشعال هذه الفتنة. ومن هنا يمكن أن نفهم سبب الترويج للديمقراطية في هذا الوقت بالذات من تاريخ الأمة.

---

(1) عبد الله التلّ، مرجع سابق، ص. 267.

(11608/1)

... إن استقرار إسرائيل لن يدمر العرب وحدهم، بل سيدمر من ورائهم كل الشعوب الفقيرة والمحرومة في هذا العالم. وسيلقون بالفتات للشعوب الغربية، وسيمسكون بالثروات جميعاً. فمعبودهم هو الذهب، ويوم اتخذوا العجل وعبدوه من دون الله لم يكن عجلاً حياً على طريقة الهنود، وإنما كان عجلاً من ذهب. فما

عبدوا إلا الذهب بتمثاله الحيواني الهابط، فلم يتخذوا الذهب على صورة ملائكة أو بشر، وإنما على صورة حيوان يؤدي المنافع والخدمات الشاقة لمالكه، وسيكون موقفهم عند تمكنهم من رقاب الشعوب بالسلام الذي يريدونه على طريقتهم

(11609/1)

تماماً كما كان موقف سلفهم فنحاص مع أبي بكر الصديق. ولن تهدأ هذه الفتنة إلا بسوط من الله، وتدخل مباشر من إرادته العلوية، ولذلك قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : »لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود«(1).

الخاتمة

---

(1) رواه مسلم. (انظر: التبريزي، مشكاة المصابيح، مصدر سابق، ج 3، ص. 1491).

(11610/1)

... استعرضت في هذا البحث بعض عقائد اليهود ومشاعرهم النفسية، وجانباً من سلوكهم ومواقفهم التاريخية قبل الإسلام وبعده. وذكرت أن هناك بشارات في التوراة حول نبوة محمد عليه السلام؛ وبناء على هذه البشارات وتطابقها وتحققها بالنبيّ الكريم عليه السلام، أسلم بعض أحبارهم، ونكص أكثرهم حسداً واستكباراً، لأن النبي لم يكن من الجنس الإسرائيلي، وبينت أن الإسلام ليس ضد اليهودية بما هي دين، وإن كان يختلف معها. فقد عمل الرسول موادعة مع اليهود عند وصوله للمدينة. وتعتبر تلك الموادعة وثيقة للتعايش السلمي بين الطرفين

(11611/1)

في دولة المدينة، بيد أن اليهود نكصوا وغيروا، وحاولوا قتل النبي عليه السلام، فاستوجب ذلك تأديبهم وإبعادهم عن المدينة، والوصية بإخراجهم من جزيرة العرب.

... وبعد العهد النبويّ، واستقرار الإسلام، هدأت مشاعر المواجهة بين المسلمين واليهود. ولقد آوى المسلمون

اليهودَ طيلة التاريخ الإسلامي، وعاملوهم معاملة مواطنين محترمين، وتبوأ اليهود مناصب عليا في الدول الإسلامية على مر عهودها، وهو أمر لم يكونوا يحلمون به في أوروبا والغرب كله عموماً، الذي كان يطاردهم بتهمة قتل المسيح عليه السلام. وهي جريمة لم تحدث،

(11612/1)

وقد برأهم الله منها في كتابه المنزل على محمد عليه السلام. بيد أنهم ظلوا متمسكين بنسبة هذه الجريمة إليهم، متفاخرين بقتلهم للمسيح كما يزعمون، مما يدل على غبائهم. قال تعالى: {وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ومالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً}(1).

---

(1) سورة النساء، الآيتان 156 ـ 157.

(11613/1)

... وفي العصر الحديث تعاون الغرب مع اليهود على قيام ما يسمونه بإسرائيل، ولم تقم دولة إسرائيل إلا على جثة الخلافة الإسلامية في إستانبول، والتي دق مسامير نعشها يهود الدونمة. فكان جزاء الإحسان والرعاية المقدمة لهم من المسلمين عبر التاريخ الإسلامي كله هو تأليب القوى العالمية على العرب والمسلمين من أجل إبقاء إسرائيل واستمرارها، ولا بقاء لإسرائيل إلا بإبعاد العرب عن دينهم. يقول المبشر اليهودي وليم جيفورد بالكراف: »متى توارى القرآن، ومدنية مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل

(11614/1)

الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه «(1)، مما يستوجب على المسلمين قاطبة التصدي لهذا المشروع الذي سيفتت عضدهم ويمزق وحدتهم. فقيادة هذا العالم ينبغي أن تكون بيد المسلمين أمة الخير والسلام، وصفها الله تعالى بقوله: {كنتم خير أمة أخرجت للناس}(2)، وليس بيد محرفي التوراة وقتلة الأنبياء، قال تعالى: {أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون}(3).

---

(1) عبد الله التلّ، مرجع سابق، ص. 201.

(2) سورة آل عمران، الآية 110.

(3) سورة البقرة، الآية 87.

(11615/1)

... ونؤكد في خاتمة البحث أنه لا خلاف للمسلمين مع اليهودية بما هي دين له حق في الحياة، قال تعالى: {لا إكراه في الدين}(1)، والإنسان حر في ما يختار، قال تعالى: {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}(2). ولا خلاف مع أتباع اليهودية من المسالمين، قال تعالى: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين}(3). والإسلام يؤمن بالحوار مع جميع المذاهب والطوائف

---

(1) سورة البقرة، الآية 256.

(2) سورة الكهف، الآية 29.

(3) سورة الممتحنة، الآية 8.

(11616/1)

والأديان. يؤكد ذلك دعوته أهل الكتاب إلى قواعد مشتركة من الإيمان بالله وتوحيده. قال تعالى: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}(1).

... وإنما الخلاف مع المشروع الصهيوني، ومع السلوك الصهيوني المتوحش الذي يبيح لنفسه قتل الأطفال في سن الورد، وطلعة الفجر، في عصر يقال إن فيه ميثاقاً لحقوق الإنسان وضعته هيئة الأمم المتحدة! ولقد أحسن من قال:

---

(1) سورة آل عمران، الآية 64.

(11617/1)

يا هيئة الأمم المحير أمرها

القتل والتشريد ملء عيوننا

ما أعجب الإنسان يعلن مبدأ

ماذا فعلت لأمة القرآن

في القدس في لبنان والجولان

حرّاً ويسكر من دم الإعلان

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

المصادر والمراجع

البيومي، زكريا، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين. التحالف الصليبي الماسوني الاستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي، عالم المعرفة، جدة، ط 1، 1411 هـ/ 1991 م.

ابن هشام، السيرة النبوية، ضبطه طه عبد الرءوف سعد، دار الفكر، بيروت، 1409 هـ/ 1989 م.

حتي، فيليب وآخرون، تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ط 7، 1986 م.

(11618/1)

الكيرواني، رحمة الله، إظهار الحق، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر.

ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط 2، 1411 هـ/ 1990 م.

لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة عادل الزعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

المباركفوري، الرحيق المختوم، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ط 1، 1400 هـ/ 1980 م.
محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، المكتبة الإسلامية، استانبول، 1984 م.
المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار المعرفة، بيروت.

(11619/1)

متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط 3، 1377 هـ/ 1957 م.
النتشة، رفيق شاكر، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، دار الكرمل، عمان، ط 1، 1983 م.
السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ضبطه طه عبد الرءوف سعد، دار الفكر، بيروت، 1409 هـ/ 1989 م.
السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، شركة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط 4، ص. 1398.
..، تاريخ الخلفاء، دار الفكر، بيروت.

(11620/1)

الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط 7، 1402 هـ/ 1981 م.

قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط 7، 1398 هـ/ 1978 م.

الشناوي، عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1983 م.

التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، ط 3، 1405 هـ/ 1985 م.

التل، عبد الله، جذور البلاء، المكتب الإسلامي، دمشق، ط 2، 1398 هـ/ 1978 م.

(11621/1)

قواعد المناظرة وأخلاقياتها من خلال مجادلة محمد القيسي ومحمد الأنصاري للنصارى بالأندلس

الأستاذ محمد عبد الواحد العسري

كلية الآداب ـ تطوان

... 1 ـ لقد جمعت المناظرة الدينية بين الإسلام

والنصرانية منذ أن اضطرهما التاريخ إلى الالتقاء ببعضهما. ولقد عبرت هذه المجادلة عن تأسيس هذين الدينين لمعرفتهما بذاتهما، من خلال تأملهما ودراستهما لعناصر الاختلاف والائتلاف بعينهما. كما عبرت المناظرة ذاتها عن مختلف الضرورات التاريخية التي دفعت بالدينين المذكورين إلى الانخراط معاً، ضمن تقليدين مختلفين متكاملين في

(11622/1)

الوقت نفسه؛ تقليد التعايش والمثاقفة من جهة، وتقليد بسط الهيمنة والسيطرة، وتأجيج روح الإلغاء والإقصاء المتبادلين بينهما من جهة ثانية.

... ولقد اندرج المسلمون والنصارى معاً ضمن ذينك التقليدين، بمجرد ما دفعهم واقعهم التاريخي والثقافي والمعرفي للقائهم بالأندلس إلى ذلك ولقد عبرت عن أجزاء من تمظهرات هذا الواقع، أعداد عديدة من كتب المناظرات الدينية التي لم يتقاعسوا يوماً عن استثمار المناسبات لعقدها واختلاقها. ولقد تناول بعض هذه المجادلات ـ ضمن رؤى متباينة ـ عدد من مؤرخي الأديان، ودارسي أفكارها

(11623/1)

وعلاقاتها بمجريات التاريخ العام للأندلس. ويمكن أن نمثل لهذا الأمر بالمجهودات التي بذلها كل من ل. ب. هارفي(1)

---

(1) L. P. Harvey, The Literary Culture of the Moriscos, 1492–1609.

... وهذه الأطروحة لم تنشر بعد، غير أن الباحثين في موضوع النصوص الدينية الأندلسية يحيلون عليها باستمرار. ولقد وقفت على فصلين منها، ترجمهما إلى الفرنسية مكيل دي إبالثا.

Recueil d'études sur les Moriscos Andalous en Tunisie (I.H.A.C), Madrid, 1973 (C.E.H.A), préparé par Miguel de Epalza et Ramon Petit.

(11624/1)

، وفان كونينكزفلد(1)**، وخيرار فيخرز**(2)**، وم. دي إبالثا**(3)

---

(1) P. Sj. Van Koningsveld, "La apologي-Al-a de Kendي en la Espaًa del siglo XII. Huellas Toledanas de un Animal Disputax", Actas del II Congreso internanal de Estudios Mozل, Toledo, 1989rabes, pp. 107–129.

(2) Van Koningsveld and G. A. Weigers, "The Polemical Works of Muhammad Al Qaysi (Fl. 1309) and their Circulation in Arbic and Aljamiado among the Mudejars in the Fourteenth Century," Al-Qantara, 15, 1994.

(3) M. de Epalza, "Notes pour une histoire des polémiques anti-chrétiennes dans l'Occident Musulman," Arabica, 18, 1971, pp. 99–106.

(11625/1)

، ول. كارديا(1)

---

(1) L. Cardaillac, Moriscos y Cristianos. Un Enfretamiento Polémico, (1492 1640), trad. Mercedes Garcia Arenal, Madrid, 1979.

... ويمكن أن نضيف إلى هذه القائمة مقالتين، أولاهما لخوزيب هرناندو، وثانيتهما لأنخل كورطبريا.

J. Hernando, "De nuevo sobre la obra polémica atribuida a Ramón Martí", Al Andalus, 8, 1992, pp. 97–108؛

A. Cortabarria, "La connaissance des textes arabes chez Raymond Martin O. P. et sa position en face de l'Islam", Cahiers de Fanjeux, 18, Ouvraje intitulé: Islam et Chrétiens du Midi (XII-XIII), pp. 279–300.

(11626/1)

. كما عمل بعض المهتمين بموضوع المناظرات نفسه على إخراج بعض متنها وتحقيقها. ومن بينهم، يمكن أن نذكر . على سبيل المثال لا الحصر . عبد المجيد

التركي(1)، وعبد المجيد الشرفي(2)، وأحمد حجازي

---

(1) "رسالة راهب فرنسا إلى المقتدر بالله وجواب الفقيه أبي الوليد الباجي على هذه الرسالة، مع مقدمة وترجمة إلى الفرنسية"، ضمن: Al-Andalus, 31 (1966), pp. 73–115. ولقد حقق هاتين الرسالتين، وقدم لهما محمد عبد الله الشرقاوي، القاهرة، 1986.

(2) أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، مقامع الصلبان، تحقيق وتقديم، تونس، 1975.

(11627/1)

السقا(1)، ومحمد رزوق(2)، وميكيل دي إبالثا(3)

---

(1) الإمام القطبي، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، تقديم وتحقيق وتعليق، القاهرة، 1980.

(2) شهاب الدين أحمد بن قاسم الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق، الدار البيضاء، 1978. ويعنى حالياً بتحقيقه ودراسته وترجمته إلى الإنجليزية: قاسم السمرائي وفان كوننكزفلد وخيرار فيخرز، من جامعة ليدن، هولندة.

(3) عبد الله الترجمان، تحفة الأريب في الرد على أهل

الصليب، دراسة وتحقيق وترجمة إلى الإسبانية: ميكل دي إبالثا Atti de la accademia nazionale de lincei, Roma, 1971) .).

(11628/1)

، وديـنـيـز كـرديـاك(1).

... وتـنـدرج المـنـاظرتـان اللتـان سـنـعـنـى بـهـما في هذه الورقة، ضمن هذا التراث الجدلي الذي جمع بين المسلمين والنصارى بالأندلس. ولنتوقف قليلاً عند ما نقصده بالمناظرة والمجادلة قبل أن نشرع في معالجتهما. فالمناظرة في "لسان

---

(1) D. Cardaillac, La polémique antichrétienne de la 4944du manuscrit aljamiado, N° bibliotèque nationale de Madrid, T. II, Translitteracion, Thèse de doctorat, Monpellier, 1972.

... أشكر الأستاذ الدكتور خيرار فيخرز الذي مكنني من مصورة من الجزء الثاني من هذا العمل.

(11629/1)

العرب" هي: "أن تنظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه". والنظر في هذا المعجم نفسه هو: "الفكر الذي تقدره وتقيسه منك"(1). والمناظرة في حقول المعرفة العربية الإسلامية وخطابتها المتعددة، من مثل "خطاب التعارض وخطاب الرد وخطاب النقض وما إليهما"، هي فكر ومنهج في آن واحد تداولها المسلمون والتزموا بها في تحصيل المعرفة وتبليغها(2). لذلك وضعوا لها شروطاً وقوانين في شكل مبادئ

(1) لسان العرب، بيروت، 1955، مادة "نظر".

(2) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، 1987، ص ص. 36 ـ 65.

(11630/1)

أخلاقية وقواعد منطقية. والجدل في المعجم المذكور هو: "اللدد في الخصومة والقدرة عليها"(1). ويستمد الجدل قسماً من معناه من الدرس الديني الذي انتهى إليه القرآن الكريم بالآية القائلة: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن}(2)

---

(1) والجدل: شدة القتل. والجدل: الصرع. وجدله جدلاً وجدله فانجدل وتجدل: صرعه على الجدالة. ولا تختلف هذه المعاني كثيراً عن مدلول الأصل اليوناني لمفردة: Polémique.

André Lalande, Vocabulaire technique et critique de la philisophie, 13è ed, 1980.

(2) سورة النحل، الآية 125.

(11631/1)

. لذلك استخدم الجدل في الثقافة الإسلامية ـ فيما استخدم فيه، وبوصفه منهجاً ـ للدعوة إلى الله، والدفاع عن العقيدة الإسلامية في الوقت نفسه (1).

... وبما أن لكل مناظرة أخلاقيات ومنطقيات، وبما أن الكتابين اللذين سنعنى بمعالجتهما يندرجان ضمن آداب المناظرة، أو بالأحرى ضمن ما يمكن تسميته بآداب المناظرة الجدلي، فسوف نؤشر على تلك الأخلاقيات وهذه القواعد المنطقية

---

(1) وبهذا المعنى الأخير استخدمه محمد القيسي (ت. القرن 14 م) ومحمد الأنصاري الأندلسي (ت. القرن 15 م) اللذين سنعنى بتناول مجادلاتهما للنصارى.

التي تميزهما. وقصدنا من ذلك مزدوج. فمن جهة، نروم الوقوف على جزء من الكيفية التي تمّ بواسطتها إنتاج هذين العملين. ومن جهة ثانية، نريد أن ننبه إلى ضرورة الاهتمام بوضع دراسات أخرى للتقعيد لتداوليات هذا النوع من المناظرة، بوصفها خطاباً طبيعياً، يرمي إلى إنتاج اليقين العملي أكثر مما يروم تحصيل اليقين النظري.

... 2 ـ لم تتبلور بالأندلس مناظرات جدلية دينية بين النصارى والمسلمين خلال الفترة نفسها التي ظهرت فيها بالشرق الإسلامي(1)

---

(1) Van Koningsveld and Weigers, p. 193.

... ويميز المؤلفان بين مراحل ثلاث أساسية في تطور هذا الجدل باللغة العربية. ولقد أدرجا مجالادت عبد الله السير ومحمد القيسي، ضمن هذه المرحلة الأخيرة، المرجع نفسه، ص. 196.

. بيد أنه بمجرد ما وصلت رسالة عبد المسيح الكندي إلى الأندلس، أخذ النصارى في إنتاج ردود ضد الإسلام على منوالها، ووفقاً لمحتوياتها(1). ولقد دافع فان كونينكزفلد على هذه الأطروحة وانتصر لها، معززاً ذلك بشواهد تاريخية ونصية متعددة(2). غير أن هذا الأمر لا يعني .في نظرنا .أن المجادلات الدينية لم تكن لتظهر بالأندلس، لولا تداول

---

(1) ومنها، حسب فان كونكزفلد: مجادلات بدرو ألفونسو، والراهب الطليطلي الذي جادله الخزرجي بكتابه سابق الذكر.

.111–108La aplogia de Al Kendi, pp.

.129–107Ibidem, pp. (2)

(11634/1)

النصارى والمسلمين لرسالة الكندي بها. فلقد خضع انبثاق هذه المجادلات وتطورها إلى شروطهما التاريخية الأندلسية الخاصة، أكثر مما خضع إلى مؤثرات شرقية صرفة(1). فضمن مختلف هذه الشروط التاريخية الأندلسية(2)، يمكن أن ندرج كتاب "مفتاح الدين والمجادلة بين النصارى والمسلمين من قول الأنبياء

(1) لا يمكن نفي دور هذه المؤثرات في هذا الصدد. فلقد ساهمت بالفعل في تعرف النصارى بالأندلس وبأوروبا على الإسلام.

(2) تراجع في هذه الشروط الأعمال المذكورة أعلاه لكل من: فان كوننكزفلد وفيخرز وميكل دي إبالثا ولويس كارديلك

(11635/1)

والمرسلين والعلماء الراشدين الذين قروا [قرأوا] الأناجيل" لمحمد القيسي(1)، وكتاب "رسالة السائل والمجيب ونزهة روضة الأديب" لمحمد الأنصاري الأندلسي(2). وما فتئ أول هذين الكتابين مخطوطاً بالخزانة الوطنية بالجزائر(3)

(1) وهو من أصل تونسي، ولقد عاش مدة من حياته أسيراً لدى النصارى بشمال الأندلس (ت. ق. 14 م).

(2) نزيل فاس أواسط القرن التاسع الهجري. (محمد المنوني، "مناقشة أصول الديانات في المغرب الوسيط والحديث"، مجلة البحث العلمي، الرباط، 1968، ص ص. 24 - 26).

(3) رقم 1557. لقد مكنني من مصورات من هذا الكتاب، ومن كتاب الأنصاري كذلك الأستاذ الفاضل الدكتور فان كونكزفلد الذي أشكره جزيل الشكر على ذلك وعلى اقتراحاته وتوجيهاته بخصوص موضوع هذه الورقة.

(11636/1)

. ولقد شكل موضوعاً لمقال فان كونينكزفلد وخيرار فيخرز، حيث عالجا في الجزء الأول منه الأقسام الثلاثة من "مفتاح الدين". كما عملا على تتبع آثار الترجمات الأعجمية التي خضع لها في أدبيات المجادلة بالأندلس خلال القرن الرابع عشر(1). كما استخدم أول هذين الباحثين قطعاً منه في درسه الافتتاحي ـ لتقلد منصب أستاذ كرسي للتاريخ الديني للإسلام في غرب أوروبا ـ للاستدلال على قدر من

---

(1) وحسب اجتهادات فان كونكزفلد وفيخرز، فالذي نقل هذا الكتاب إلى العجمية، هو علي الغريب (Van Koningsveld and Weigers, p. 192).

(11637/1)

أطروحة هذا الدرس(1). أما كتاب "رسالة السائل والمجيب"، فما زال مخطوطاً كذلك(2)

---

(1) الأسرى المسلمون في أوروبا الغربية خلال القرون الوسطى المتأخرة، ص. 11 من النسخة المهداة إلى كاتب هذه السطور.

(2) ويعرف منه ثلاث نسخ. محمد المنوني، ص ص. 27 ـ 28؛ والنسخة التي تستخدم في هذه الورقة هي نسخة الخزانة العامة بالرباط، 178 ج. وتجدر الإشارة إلى أنه إذا قارنا وصف المنوني لتلك النسخ، فإنه يمكن ملأ بياض في النسخة التي نستخدم بخصوص المدن التي عقد فيها الأنصاري مجادلاته، فتكون كالتالي: المجلس الأول بشقوبية (أمكن تحديد ذلك بالاستنتاج)؛ والثاني بسلمنقة؛ والثالث والسادس بمجريط؛ والرابع بوليدا؛ والخامس بشقوبية. ويذكر المؤلف بأن الفصول الجدلية التي سنتناولها في هذه الورقة، هي التي دعته إلى تأليف مجموع رسالته برسم الوزير المريني الحاجب أبي زكرياء يحيى بن زيان.

(11638/1)

. ولقد استخدم فان كونينكزفلد ورقتين منه في درسه سابق الذكر، لتحقيق الهدف نفسه.

... 1 . تستلزم كل مناظرة وجود دعوى، ووجود جانبين للدفاع عنها والاعتراض عليها ضمن آداب ووظائف محددة. ولابد أن تنتهي كل مناظرة إلى إفحام طرف منها للطرف الآخر، من أجل إظهار الحق وتحصيل الحقيقة واقتسامها(1)

---

(1) لم تندرج المناظرة الدينية بين الإسلام والنصرانية ضمن هذه الاستراتيجية الأخيرة، فلم يكن يهم الإسلام ولا المسيحية معاً سوى إعادة إنتاج الحقيقة المحصلة عند كل منهما سلفاً والدفاع عنها، ودحض حقيقة الآخر ورفضها وإقصائها.

(11639/1)

. فما دعوى محمد القيسي ومحمد الأنصاري ومجموع النصارى الذين تجادلوا معهما؟ (1)

... إنها دعوة عقدية لاهوتية صرفة. لذلك سنجد كاتبينا ومن ناظرهم من النصارى يتقلدون . في آن واحد وظائف المعتقد.

---

(1) "الحمد لله الذي هدانا للحق وأشهد النبي محمداً على الخلق وسلك بنا طريق الصدق وعصمنا من الزلال وجنبنا طريق الضلال فنحن الخلفاء الراشدين على الحق شاهدين اعتقادنا التوحيد وآمنا بالوعد والوعيد ونبيه الرشيد مفتاح العلوم ومبدد اليهود والروم يجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل وفي كل كتاب وتنزيل" (49/ 11 ـ 17).

(11640/1)

المسلِّم لما جاء في عقيدته بنصوصه المقدسة الخاصة به، ووظائف الناظر السالك لسبل الاستدلال على صحة عقيدته، إلى جانب أدوار العارض لدعواه والمعترض على دعوى خصمه.

... 1. 1 ـ بلور محمد القيسي في مقدمة كتابه ملخص الدعوى التي سيعمل على الدفاع عنها في القسم الأول والأخير منه. ولقد رامت هذه الدعوى الدفاع عن أطروحة مركزية تستقطب جوهر المناظرة الإسلامية النصرانية. وهي إثبات نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – بوصفه رسولاً جاء بالدين الحق والوحيد، من بعدما بشرت به جميع الكتب المنزلة. وتلك هي الدعوى نفسها التي

سيتخذ الأنصاري دور المنتج لها والعارض إياها باتخاذه لدور المعترض على دعوى النصارى في ما يتعلق بتصورهم لنبوة المسيح وألوهيته في الوقت نفسه. ومن المعروف أن دعاوى المسلمين والنصارى في هذا الصدد، وما يترتب عليها من تصورات مختلفة للرب وللنبوة عند كليهما، هي التي شكلت خلافهم السرمدي الذي انعكس في مجادلاتهم الدينية، وفي علاقاتهم المختلفة على مر الحقب والعصور(1)

---

(1) ولم تنجح قط أيّ محاولة توفيقية لتخفيض هذا الفرق الأساسي بين الإسلام والنصرانية. تراجع المصادر والمراجع التي اعتمدها في هذا الإطار خوان بانيلا وميكل دي إبالثا.

Littérature morisque en " ,Juan Panella

extait de la hèse de ,"espagnol en Tunisie

doctorat en histoire, encore inédite : Los moriscos espaُoles emigrados al norte

, 1609on de يde africa depués de la expuls

,, in Epalza, Recueil1971Barselona,

Influences islamiques dans la " ؛198- 187pp.

:théologie chrétienne médiévale

,"(L’adoptionisme espagnol (VIIIème siècle

,1992Islamochristiana, Roma,

.71–55pp.

(11642/1)

.

... ولقد رجع محمد القيسي لعرض دعواه إلى التوراة والإنجيل، فقدم ما جاء بهما بخصوص نبيه. وأول عباراتهما التي تسمح له بالدفاع عن دعواه وبالاعتراض على دعوى النصارى في شأن علاقة ناسوتية المسيح بألوهيته. ففي القسم الأول من كتابه، وقف عند ذكر إشعيا والزبور والإنجيل لرسول الإسلام(1)

---

(1) " أرى راكبين مقبلين أحدهما على حمار والآخر على جمل ينزل أحدهما لصاحبه (...) إن صاحب الحمار هو عيسى بن مريم وصاحب الجمل هو محمد – صلى الله عليه وسلم – " (50ـ12)؛ ولعله يحيل على: إشعياء 21/ 7: "هددوا في الزبور أن يرسل عليهم السيف ومعلوم أنه لم يأت نبي بسيف إلا محمد – صلى الله عليه وسلم – "، (50/ 15ـ16): "فاحفظوا وصيتي فسياتيكم الفارقليط يكون معكم

أبداً فإذا أتاكم الفارقليط بروح الحق والصدق فهو الذي يشهد علي" (16/ 12 ـ 14)؛ في إنجيل يوحنا آيات مختلفة تسمح باستنتاج هذا المعنى (15/ 26 و 16/ 7). ومن المعروف أن الفارقيط مفردة يونانية تفيد معنى:الشفيع. لذلك استند إليها القيسي ـ مثل جميع المسلمين ـ ليستدل بها على أن المسيح بشر بمحمد، نظراً لأنه لم يعرف نبي آخر بهذه الصفة. (راجع هامش 84). وترجع جميع المناظرات الإسلامية للنصارى إلى هذا الإنجيل. للاستدلال على هذا الأمر، يمكن أن نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: ناصر الدين على القوم الكافرين، مصدر مذكور، ص ص. 31 ـ 106؛ تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، مصدر مذكور، ص ص. 479 ـ 485.

(11643/1)

، قبل أن يشرع في وضع تاريخ للنصرانية ضمن رؤية إسلامية صرفة لهذا المعتقد. فبين كيف غرر بولس اليهودي(1)

---

(1) ولقد كان بولس يهودياً قاسياً على النصارى يتتبعهم بالتهديد والقتل قبل أن يعتنق النصرانية بدوره. "أنا رجل يهودي (...) فاضطهدت هذا الطريق

[النصرانية] حتى الموت، فكنت أعتقل أتباعه من الرجال والنساء، وأزج بهم في السجون". (أعمال الرسل، 22/ 3 ـ 4). وتعتبر رسائل بولس في "العهد الجديد"، من أهم النصوص التي قعدت للنصرانية وشرحتها. ويرى المسلمون أن اليهود "دسوا هذا الرذل بولس لإضلال أتباع المسيح"؛ ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل،بيروت، 1975، ص. 71؛ أحمد شلبي، مقارنة الأديان، 2 المسيحية، ص 6، 1978، ص ص. 104 ـ 125، 142؛ عبد الله الشرقاوي، في مقارنة الأديان، 1986، ص ص. 152 ـ 161؛ موريس بوكاي، دراسات في الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، دار المعارف، 1978، ص ص. 70 ـ 74. (مترجم عن الفرنسية).

Maurice Bucaille, La Bible, le Coran et la Science, ed, 14, 1976, p. 62.

(1/11644)

بمختلف شيع النصارى(1)، ما عدا شيعة المومن التي قاتلها إلى أن تفرقت في الأرض(2)

---

(1) "يعقوب ونسطور وملكون" (53/ 9). ويقصد القيسي بذلك فرق النصارى من اليعقوبية والنسطورية

والملكية.

(2) أما شيعة المومن، "فأدرك النبي منهم ثلاثين رجلاً راهباً فأمنوا وصدقوا قوله". (55/ 5 ـ 6)؛ ولقد جعل القيسي من خوف "صاحب فرنجة" ونصارى الأندلس من بقية هذه الشيعة بأحد معابدها بينهم، ومن استعدادها الأصلي للانقلاب إلى الإسلام، سبباً في اندلاع حرب ضد المسلمين بهذه البلاد. (ص ص. 68 ـ 71).

.176–172Van Koningsveld and Weigers, pp.

(11645/1)

، وكيف حرَّف لهم دينهم وأعدهم لمتابعة هذا التحريف. ولقد رام القيسي من هذا التأريخ لهذا الدين تيسير إمكان الاعتراض على دعوى النصارى بشأن ألوهية عيسى. ولقد بلور اعتراضه على هذه الدعوى ذاتها، بالرجوع إلى الأناجيل المختلفة والاستناد عليها؛ فاختلافها دليل عنده على ضياع تواتر النصرانيّة وانقطاع سندها، مما أدى ـ في نظره ـ إلى ضرورة مجيء الإسلام لتتميم الرسالة السماوية وإقفالها. ناهيك عن أنه لا يوجد في هذه الأناجيل، على تعددها واختلافها(1)

---

(1) "هكذا اختلفوا في قتله وفي سيرته وجميع أحواله والإنجيلات الأربعة مختلفة في جميع معانيها" (63/ 16 ـ 17).

(11646/1)

، ما يسمح باستنتاج عقيدة النصارى ـ عنده ـ في المسيح، تلك العقيدة المتعددة والمختلفة في حد ذاتها. فاعتقادهم بأن المسيح ابن الله لم يرد لا بالتصريح ولا بالتضمين في أي إنجيل(1). ولم يرد كذلك

---

(1) ترد مفردات الابن والأب والآب في الأناجيل: "ما زال أبي يعمل إلى الآن، وأنا أيضاً أعمل". (يوحنا، 5/ 17؛ وكذلك 5/ 21 ـ 22، إلخ). ولا ندري لم أنكر القيسي ذلك مع قدرته على تأويل الآبن والأب تأويلاً مجازياً، خاصة وأن بعض آيات الأناجيل تسمح بذلك: "... إني سأصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" (يوحنا، 20/ 18).

(11647/1)

اعتقادهم بأن الله هو المسيح وأنه ثالث ثلاثة(1).

فالمسيح كان ينادي ربه(2)

(1) " لأن اعتقادهم بأن الله هو المسيح، ولهم اعتقاد آخر أن الله ثالث ثلاثة، ولهم اعتقاد آخر أن المسيح ابن الله، فهذه اعتقاداتهم مختلفة غير موافقة بعضها بعضاً " (60/ 4 ـ 6)؛ ولقد اختلفت "اليعقوبية والملكية والنسطورية" في التثليث والاتحاد بالفعل. (Emilio Platti, " La doctrine des chrétiens d'aprés Abu Isa Alwarraq dans son traité sur la trinité", 20MIDEO, 1991, p. 25).

(2) " ربنا الذي في السماء تقدس اسمك وبان ملكك وطابت مشيئتك" (55/ 16 ـ 17)؛" ولم يقل أنا في السماء تقدس اسمي وربان ملكي" (57/ 5 ـ 6).

(11648/1)

، وربه كان يناديه(1)، كما كان "يتضرع إلى الله ويدعوه ويرفع يده إلى السماء"، ويحيي بإذنه الموتى(2). فكيف اعتقد النصارى في عيسى ما

(1) "أنت نبيِّي وحبيبي الذي بك سررت" (57/ 18)؛ "فهذا دليل على أنه رسوله أرسله وعبده وابن أمته"، (58/ 5 ـ 6). ويلاحظ في هذا المضمار أننا نقف في إنجيل

مرقس (1/ 11) على هذه الآية: "وإذا صوت ينادي من السماوات يقول: أنت ابني الحبيب، بك سررت". (انظر هامش 36).

(2) "رب لك الحمد إني أعلم أنك تعطيني كل شيء (...) ثم قال: "قم يا يعزار!"، فقام يجر حماره" (60/ 19 ـ 21/ 1 ـ 2).

(11649/1)

اعتقدوه؟

... 1. 2 ـ عندما حاول النصارى ـ حسب القيسي ـ تمثل عيسى وتكوين تصورات عنه وعن الله من خلال قصة المسيح، اعتمدوا منهج القياس، قياس الرب على المسيح ومماثلة أحدهما للآخر، بالرغم من اختلافهما بوصفهما محدثاً وحادثاً. فانتهوا تبعاً لذلك إلى التثليث، عندما كان عليهم أن يتوقفوا في هذا الأمر مثلما يتوقف المسلمون، فلا يسألون عن كيفية حدوثه(1). هكذا اعترض القيسي

---

(1) "نومن بالنفخة والروح والكلمة ولا نقول كيف ذلك

إلا أنه نقول من أمر الله ونقف حيث انتهى في صفته أو رسوله ولا علينا حجة" (86/ 14 ـ 16).

(11650/1)

على مضمون دعوة النصارى وعلى منهج تحصيلهم للمضمون نفسه. لذلك اتجه إلى إبطال دليل المدعين (النصارى) بما يسمى في لغة أهل المناظرة بالنقض أو المنع المدلل. فمن جهة، لا يستلزم من أدلة النصارى تصورهم للرب وللمسيح؛ ومن جهة ثانية، فإن المنهج الذي اتبعوه لتحصيل دعواهم (القياس) لا يجوز استخدامه في هذا الصدد، لعدم تساوي قطبي القياس ولاختلافهما. ثم إن هذا المنهج يحايثه بالضرورة الشك والظن، بينما يقتضي تحصيل العقيدة بناءها على القطع واليقين(1)

---

(1) "لأن الدخول مع الله وصفاته إذن قياس والقياس ظن والظن شك والشك لا يخرج منه حق" (87/ 1 ـ 2).

(11651/1)

. وبذلك أبطل القيسي حجية القياس في هذا المضمار جرياً على عادة المتكلمين في الغرب الإسلامي

الوسيط(1). وسيستمر محمد القيسي، لبلورة دعواه الخاصة في الله وصفاته المعارضة لدعوى النصارى في هذا الصدد، بعض أدلة علم الكلام الإسلامي، من مثل دليل

---

(1) عن إبطال القياس عند ابن حزم مثلاً يراجع، سالم يفوت، ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس، 1986، ص. 318؛ وعن إبطاله عند ابن تومرت: عبد الواحد العسري، معالم من الفكر الموحدي بمراكش، مراكش من التأسيس إلى آخر العهد الموحدي، آداب مراكش، 1988، ص ص. 206 ـ 207.

(11652/1)

الخلق ودليل نفي التحيز ودليل نفي الشبه(1).

... 1. 3 ـ ويبدو أن القيسي كان يضطر إلى مجادلة النصارى في غير هذه المواضع التي تشكل الخلاف الأساسي في الجدال الديني بين الإسلام والنصرانية. فلقد اعترض على دعاوى أخرى للنصارى ضد الإسلام بخصوص ما يتضمنه من

---

(1) " قد تبين أن الله ليس كمثله شيء فكيف يمتزجوا الأعراض إذ ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم" (59/ 16 ـ 18)؛

"فذلك محدث وله محدث لا يشبهه ولا يمازجه" (60/ 2 ـ 3).

(11653/1)

"الآيات المتشابهات والأحاديث المشكلات". فعندما سأله "راهب فاجر" عن دينه ونبيه، فأجابه القيسي بأن دينه هو التوحيد، وبأن نبيه هو محمد الذي نعته الإنجيل بالفارقليط، اعترض عليه ذلك مناظره (1). فالتوحيد في الإسلام ـ حسب هذا الأخير ـ مجرد زعم وادعاء، ما دام المسلمون يتمثلون ربهم ـ من خلال الآيات القرآنية ـ داخل مفاهيم الجوهر والعرض والجسم

---

(1) "ورماني بين حزب الشيطان في دار الكفر والطغيان أخدم النصارى العصيان والقسيسين والرهبان في المجادلة والهوان حتى سلبني عقلي وصيرني لا أملك قياد قولي" (81/ 6 ـ 9).

(11654/1)

وبواسطتها؛ فيجعلون بذلك لله جسماً ويدين ورجلين وحركة وانتقالاً، إلخ. (1) وقبل أن يشرع كلٌّ من الراهب

والقيسي ـ بمعية "الزعيم الكافر" ـ في إنتاج الدعاوى والاعتراضات المتبادلة، حاول ـ كل من جانبه ـ أن يضبط بعض قواعد المناظرة وأخلاقياتها. فهذا محمد القيسي يطلب من محاوره أن لا يغصبه حقه في الكلام، وأن يلتزم بما ستسفر عنه محاورتهما(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص ص. 82ـ83

(2) بالرغم من أن هذا النوع من المجادلة لم يكن ليهمه هذا الأمر في الدرجة الأولى، فإن ذلك لم يكن ليمنع أن يطمع ـ أحياناً ـ أحد طرفيها في إقناع الطرف الآخر. لذلك ذهب القيسي إلى أن من الرهبان من تشرح المناظرة "صدره للإسلام" (84/ 1).

(11655/1)

. وذاك الزعيم الكافر يرفع القيسي إلى مستوى خصمه حتى لا يستعظمه ويستحقره فيضعف عن القيام بحجته(1). لذلك تمكن القيسي من منع دعوى الراهب، بالنقض نفسه الذي سبق أن استخدمه للاعتراض على دعوى النصارى بخصوص المسيح والتثليث. غير أن القيسي، بعد إلحاح مجادله الذي يبدو بأنه لم يفهم ذلك الاعتراض المنهجي (إبطال القياس) أو أنه لم يقتنع به،

استعاد مناقشة إشكال المتشابه في الإسلام، مضيفاً إلى ذلك مشكلات عقدية أخرى(2)

---

(1) "يا محمد اسمع ما اقول لك تكلم وانصر دينك وقيد ألفاظك" (84/ 8 ـ 9).

(2) من أهمها تصور المسلمين للجنة بوصفها مجالاً للذات، الأكل والشرب والجماع وما يترتب على ذلك ومن الجدير بالذكر أننا نجد هذا الاعتراض النصراني على جنة المسلمين، يتردد في جميع المجادلات من هذا النوع.

Raymond Martin, Explantio, 52–54 A. in ,

Cortabaria, p. 296؛

الحجري، ناصر الدين، ص ص. 77 ـ 80.

(11656/1)

. ونظراً لأن هذه المشكلات هي نفسها التي سبق أن أجاب عنها راهب فرنسا، عبدُ الله الأسير(1)، فلقد اكتفى القيسي بإعادة إنتاج اعتراضات هذا الأخير على

---

(1) لقد أفرغ كوننكزفلد وفيخرز جهداً ملحوظاً للتحقق من هذه الشخصية الغامضة في تاريخ المجادلة الإسلامية النصرانية بفرنسا. وفي انتظار ذلك، استطاعا معاً أن

يفندا ما ذهب إليه كل من هارفي وأسين بلاثيوس ودينيز كارديك ولويس كارديك في هذا الصدد، الذين تصوروا بأن المعني بالأمر، هو: عبد الله الترجمان، صاحب "تحفة الأريب".(Van Koningsveld and Weigers, p.193) .

(11657/1)

دعوى النصارى في هذا الصدد. ولقد تمحورت هذا الاعتراضات على مضمون الدعوى واستندت إلى المنع المدلل. فالآيات التي احتج بها الراهب على القيسي تستلزم نقيض ما رام بها، لأنها تمتنع على التمثل الحرفي لها، وتستدعي في المقابل تأويلاً مجازياً بحسب دليل خطابها، وبما جرت به العادة من كلام العرب ولغاتهم، وذلك هو ما يجهله الراهب تمام الجهل حسب القيسي(1). فاليد في قوله {يد الله مغلولة}(2)

---

(1) "وهو [أي المتشابه من القرآن والحديث] بلسان العرب ولا معرفة لك به ولا جواب" (84/ 4 ـ 5).

(2) {يد الله مغلولة} (المائدة، الآية 63).

(11658/1)

لا يجب أن تحمل على معناها الحرفي فيستفاد منها اليد الجارحة، بل عل معناها المجازي الذي تسمح به اللغة العربية، فتغدو هي "النعمة"(1).

... بهذا النقض المدلل عارض القيسي دعوى الراهب دون أن يعترض على لفظها ولا على صحة نقلها. كما عمل على منعها بإبطال ما استلزم من ألفاظها مناظرُه من تصورات تشبيهية وتحييزية لله ولصفاته التي رام بنسبتها للإسلام نسف دعوى هذا الدين بخصوص التوحيد والتنزيه اللذين يقوم عليهما.

---

(1) 87/ 18 ـ 20.

(11659/1)

... وبذلك استطاع محمد القيسي أن يحقق هدفه من مجادلته للنصارى التي اضطر إليها، باعتراضه على دعاويهم ومنعها وإبطالها، فأفحمهم وانتصر عليهم(1)، معتمداً في كل ذلك بعض قواعد المناظرة المنطقية والتداولية والأخلاقية.

... 2 ـ قبل أن يشرع محمد الأنصاري في مناظرة خصومه، أورد مقدمة بين يدي قارئه، بين له فيها أنه إذ يتوجه

إليه بكتابه، فلكي يُيسر له ـ في حالة اضطراره إلى مجادلة النصارى ـ

---

(1) ولا غرو في ذلك، فالمجادل ينتصر دائماً على خصومه في النصوص التي يخطها بيده (فان كونكزفلد، الأسرى المسلمون، ص. 9).

(11660/1)

إمكان الرد عليهم وإفحامهم، لصيانة دينه ونبيه(1)، بأن يتعلم كيف يعترض على صحة النصرانية لتناقض الأس الذي تقوم عليه، وهو التثليث. لذلك يمكن أن ندرج هذا الكتاب من حيث وظيفته المصرح بها، ضمن الآداب الإسلامية ـ العلمية والتعليمية ـ التي رامت المحافظة على الإسلام بين أوساط المسلمين الذين تغلَّب عليهم النصارى بالأندلس(2)

---

(1) " فإنه إن اضطر أحد إلى مناظرتهم يوماً وهو غير عارف بأصولهم ربما أفحموه وألبسوا له الحق بالباطل " (301/ 52 ـ 302/ 1).

(2) بوصفها وسيلة من وسائل حماية الذات الإسلامية وهويتها، من خطر التنصير المحدق بها داخل أوساط

النصرانية المتغلبة. أتأسف لكوني لم أستطع الحصول على مقال دينيز كردياك في هذا الموضوع:

D . Cardaillac, “ Alqayçi et le moine de lérida, ou comment affirmer une identité islamique en milieu chrétien ”, in Actes du II. Symposium international du CIEM sur Religion, identité et sources documentaires sur les Morisques Andalous, Tunis, 1984, Vol. 1, pp. 129–137.

(11661/1)

.

... ولقد دارت المجالس الستة التي عقدت بين الأنصاري وأساقفة وشمامسة النصارى بالأندلس النصرانية حول دعاوى مختلفة ومتعددة، استقطبت جل نقاط الخلاف بين الإسلام والنصرانية بوصفهما دينين متغايرين ومتصارعين في آن واحد. ولعل أهم عنصر من عناصر هذا التغاير المستعصي بينهما، هو إنكار النصارى لنبوة محمد وإنكار المسلمين لألوهية المسيح، إلى جانب ما يتفرع عن ذلك من مشكلات عقدية وتشريعية متعددة.

... 1 .2 . عندما امتدح أحد زعماء الأساقفة دينه وعرض بالإسلام بالنيل من رسوله(1)

_____

(1) غير أنه لم يقدم ـ كما تقتضي ذلك قواعد المناظرة ـ أدلة خصمه على دعواه، وسيكون هذا هو ديدنه طيلة مجادلته، لذلك بدأ بهذا الاعتذار: "كان أول ما بدا به هذا الأسقف الضليل الثناء على دينه بجعاجيع وأخاليط أضربت عن ذكرها لطولها وشناعتها في الكفر" (303/ 1 ـ 2). ومن المعروف أن النصارى يستندون لإبطال الإسلام إلى الحياة الخاصة لنبي هذا الدين وسيرته.

"– Machometus fuit mendax - Machometus non fuit mundus sed potus immundus et peccator- Machometus nunqam fecit miracula ", Ramón Martí, Tractatus contra Machometum, in J. Hernando, p p. 100–101.

De Bunes Ibarra-Miguel Angel, La imagen de los Musulmanes del norte de Africa en la Espana de los siglos XVI y XVII, Los caràcteres de una hostilidad, (C.S.I.C), Madrid, 1989, pp. 203–213.

(11662/1)

اعترض عليه الأنصاري بمجموعة من الاعتراضات على مضمون ،

هذه الدعوى ومنعها بالنقض المدلل. ولقد استقطب هذه الاعتراضات هم البحث عن أصل النصرانية وأسها لتيسير الاستدلال على فسادها وعدم صحتها. لذلك عمد الأنصاري إلى التأريخ لظهور هذا الأس وذلك الأصل(1)، فأرجعهما إلى تحريفات عديدة رافقت ظهور النصرانية وتطورها وحايثتهما. ولقد شملت هذه التحريفات - عند الأنصاري - نصوص هذا الدين من جهة، وتأويلات أساقفته لها من جهة أخرى. فبالإضافة إلى المؤامرة اليهودية التي طالت النصرانية في

---

(1) الأضاليل التثليثات (304/ 9).

(11663/1)

مهدها، وأدت إلى ألوهية المسيح وبنوته إلى الرب(1)، وبالإضافة إلى رؤيا قسطنطين أو أمه التي أدت إلى اتخاذ الصليب أسّاً لهذا الدين ورمزاً له(2)، فلقد كان لاجتماعات أساقفة النصارى دورٌ هامٌّ وحاسمٌ في التقعيد للتَّثْليث(3)

---

(1) انظر هامش 32.

(2) "تقولون إنه رأى رماحاً كانت نزلت من السماء وأعلاماً فيها صور صلبان وإنه قيل له خذها وقاتل بها عدوك"

(305/ 5 ـ 6)؛ وحمل الصليب وتقديسه من أهم شعائر النصرانية. "إن أراد أحد منكم أن يسير ورائي، فلينكر نفسه وليحمل صليبه كل يوم ويتبعني" (لوقا، 9/ 23).

(3) " ذلك أن قسطنطين لما تم من أمره، ذكر جمع الأساقفة الذين كانوا ببيت المقدس، وهو أول الاجتماعات التي تسمونها سندوسات وهي سنة عندكم وفيها شرعوا لكم ديانتكم"؛ ويقصد الأنصاري بأول الاجتماعات ما هو معروف في تاريخ النصرانية، بمجمع نيقية الذي عقده قسطنطين سنة 325 م، والذي اتخذ فيه أساقفة المسيحية لذلك الزمان قرار ألوهية المسيح بوصفه ابناً للرب. يقول القرار: "نومن بالله الواحد (....) الأب مالك كل شيء (...) وبالابن الواحد (...) يسوع المسيح ابن الله الواحد (...) إله حق من إله حق من جوهر أبيه". (أحمد شلبي، مقارنة الأديان، ص. 2؛ المسيحية، 1978، ص. 144).

(11664/1)

.

... يرجع التثليث عند النصارى إلى ثلاثة قواعد أساسية، عمل الأنصاري على عرضها وعلى الاعتراض عليها في الوقت نفسه. فلقد اعترض على مضمون الدعوى (التثليث)

وبين كيف أنها لا تستلزم بالضرورة من النصوص الدينية وقصصها التي استدل بها النصارى على ذلك، من دون أن يعترض على صحة نقلها، بل اكتفى بالاعتراض على عدم ملاءمة تأويلات الأساقفة لهذه النصوص ذاتها، لمصادرتها المسبقة على المطلوب الذي هو التثليث(1)

---

(1) "إن الله لما قال للملائكة نحن خالقون بشراً على صورتنا (...) قال أساقفتكم إن هذا تصريح ونص من الله بالتثليث" (305/ 16 ـ 17)، "وإن إبراهيم لما قرب إليهم العجل لياكلوه، امتنعوا من ذلك فعلم إبراهيم من زعمكم أن الاثنين ملكان وأن الثالث هو الله" (306/ 3 ـ 5).

(11665/1)

. كما اعترض على اعتمادهم لمنهج القياس في تحصيلهم الدعوى نفسها، فبين لهم أنه حتى ولو سلم لهم تسليم جدل بأن "جميع الأنبياء مثلّثة" وبأن الشمس "من ثلاثة أشياء: جرم وحرارة وضياء" "وأن الإنسان كذلك جسم وروح وشهوة" (1)، فإنه لا يجوز نقل هذا التثليث من مضمار الموجودات إلى مضمار موجد الموجودات وسحبه عليه(2). ويعكس هذا الأمر اختلاف تصوري

(1) 306/ 11 ـ 12.

(2) "لنطق كل حبر منكم من يقيس الخالق بالمخلوقين والرب القديم بالمحدثين" (306/ 17 ـ 18). راجع "إبطال قياس الشاهد على الغائب" عند القيسي (هامش 43).

(11666/1)

النصارى والمسلمين للرب أو للإله فيما يتعلق بإشكال مفارقته أو محايثته للكون وللإنسان. وهو الإشكال نفسه الذي سيتردد بصيغ مختلفة في جميع مجالس مناظرات الأنصاري لخصومه.

... 2. 2 ـ ففي المجلس الثاني منها، طرَح هذا الأمر من خلال قصة صلب المسيح التي استدرج أسقف سلمنقة لعرض دعواه فيها، وللاستدلال عليها. ولقد انساق هذا الأسقف وراء ذلك، طمعاً في إقناع الأنصاري بحكمة الصلب في المسيحية. وتعتبر قصة صلب المسيح وما يحايثها من الاعتقاد في الطبيعة المزدوجة لعيسى(1)

---

(1) لقد جعل الأنصاري من محاوره المعبر عن ذلك بقوله: "فهو الإنسان التام من جهة الجسم و[الإله] التام من جهة الروح" (308/ 5 ـ 6).

، وفي الحلول والتجسيم، الأساس الثاني من الأسس الثلاثة للنصرانية(1). ويعتبر النصارى سر التثليث وكنهه من الخفاء والغموض بحيث إنه يتعدى حدود المعرفة العقلية وإمكاناتها(2)

---

(1) "أولها التثليث وثالثها محاسبة عيسى للناس. "والأب لا يحاسب أحداً، بل أعطى الابن سلطة القضاء كلها" (يوحنا، 5/ 22).

(2) عن حدود العقل والتثليث، يراجع:

" Trinité", in Dictionnaire des religions, 1984, 1729pp. 1731.

... "ويقول القس وهيب عطا الله: إن التجسيد قضية فيها تناقض مع العقل والمنطق والحس والمادة والمصطلحات الفلسفية، ولكننا نصدق ونومن أن هذا ممكن حتى ولو لم يكن معقولا" (طبيعة السيد المسيح، ص. 18؛ أحمد شلبي، مقارنة الأديان، ص. 2؛ المسيحية، 1978، ص. 139). وعند عموم المسلمين، فإن الدين الحق لا يمكن أن يتضمن الأسرار والخفاء والغموض (علي بن زين بان المهتدي، الرد على النصارى، نشره الأبوان: I. A. Khalife et W. S. J. Kutsh, Ar-radd ala-n–

nasara de Ali Attabari, Edi, in Mélange de
35 l'université St. Joseph, Vol.
.116p. ,1959)

... لذلك ذهب ابن حزم إلى أنه "لولا أننا شاهدنا النصارى، ما صدقنا أن في العالم عقلاً يسع هذا الجنون" (الفصل في الملل والأهواء والنحل، بيروت، 1975، ج 1، ص. 49).

(11668/1)

. ذلك هو ما رام مجادل الأنصاري إقناعه به، مستدلاًّ على ذلك بقصة عصيان آدم لربه بالجنة(1). فلقد اقتضت مشيئة الرب أن يعاقب العاصي وذريته على ذنبه مثلما اقتضت رحمته أن يُصلب ابنه فدية للأنبياء وتخليصاً للآدميين(2). اتجاه هذه الدعوى، بلور محمد الأندلسي الأنصاري خمسة اعتراضات لنقضها ومنعها.

---

(1) "قصة المسيح من الخفاء والغموض بحيث لا ينتهي إليها المسلمون ولا كثير من النصارى لدقتها وخفاياها" (307/ 91 ـ 20).

(2) 69. 307/ 25 ـ 27 ـ 308/ 1 ـ 5؛ **ولقد خرّج هذه السطور فان كوننكزفلد، الأسرى المسلمون، ص.** 12.

(11669/1)

ولقد أراد بثلاثة منها الاستدلال على أن دعوى النصارى في هذا الصدد تنسب الجور إلى الله من حيث تروم نفيه عنه، مما لا يجوز في حقه لا شرعاً ولا عقلاً(1). كما أراد برابعها نقض قول النصارى بالاتحاد والحلول لاستحالة اجتماع "الإله القديم الباقي مع الجسم المحدث الفاني"(2). أما الخامس من هذه الاعتراضات، فلقد نقض به الأنصاري فكرة الخلاص النصرانية المحايثة لقصة صلب

(1) " فكيف على أحكم الحاكمين وهو أهل العدل والأمر به في كتابه أن يعاقب أبناء أبناء الأنبياء في آباء آباء الآباء" (308/ 14 ـ 15).

(2) 309/ 6.

(11670/1)

المسيح(1). وبذلك جاءت جميع هذه الاعتراضات من قبيل المنع المستند والمنع المدلل التفصيلي. فلقد

(1) "قولكم إنه قتل في مرضاتكما ولينقدكم من النار" (309/ 11 ـ 12)؛ ونظراً لأن المنع في المناظرة يكون أحياناً فعلاً "تكلميا إدباريا تشكيكيا

وسجاليا". (طه عبد الرحمن، ص. 72)، فقد اعترض الأنصاري على نقض الأسقف لاعتراضاته. ["فإن الموت ذاقه جسمه لا روحه"، 309/ 17؛ "كان له روحان أحدهما لسائر البشر (...) والآخر إلهي لم يستحس بشيء من الألم" (310/ 3)]، بتأكيد علاقة الروح بالجسد وباستحالة اجتماع روحين في جسد واحد.

(11671/1)

استندت إلى تصور الإسلام لله وللنبوة، المخالف لتصور النصارى لهما، من حيث المفارقة والمحايثة اللتان سبق ذكرهما.

... ولقد أبطل محمد الأندلسي دعوى النصارى التي عرضها في المجلس السادس من مناظراته مجموعة من الأساقفة. فلقد دعوه في هذه المرة إلى الدخول في "دين المسيح والعهد الصريح" (1)، مسوغين لأنفسهم هذا الحق بالاستناد إلى ما جاء في الإسلام عن المسيح، من حيث كونه: "رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه" (2)، وإلى ما عندهم فيه كذلك: "ونحن نقول باسم الأب والابن والروح

_____

(1) 310/ 31.

(2) 310/ 15.

(11672/1)

القدس ثم نقول إلاهاً واحداً"(1). والواقع أن هؤلاء الأساقفة قد راموا بذلك تقليص الفوارق بين النصرانية والإسلام، وتذويبها بعبارات قليلة في بلاغة نصيّة متهافتة(2). وغني عن البيان أن

---

(1) 310/ 61.

(2) تندرج مناظرة النصارى للمسلمين في هذا الصدد، ضمن استراتيجية التبشير التي أملتها عليهم ظروفهم التاريخية المعروفة في هذا الباب. لذلك حاولوا الترويج لمثل هذا التعبير عن عقيدة التثليث بين الأقليات الإسلامية المدجنة والموريسكية بالأندلس وترسيخه بينها. (L. Cardaillac, Moriscos y (Cristianos, pp. 208–209.

(11673/1)

لمثل هذه الفروق أهمية عظمى عند الأنصاري. فإضافة المسيح إلى الله في الإسلام "إنما هي إضافة تشريف وتكريم" (1)، وليست إضافة حقيقية تستلزم الاتحاد والحلول بين اللاهوت والناسوت. ولقد منع محمد الأندلسي هذه الدعوى ـ الدعوة، بالمنع المستند إلى نصوص الأناجيل التي تسمح للنصارى بالاعتقاد في ألوهية عيسى، بينما لا تسمح ـ في نظره ـ إلا بالإيمان بنبوته فقط وبذلك غصب الأنصاري وظيفة المدعين من النصارى بنقض دعواهم بأدلتهم وبالاستدلال بها على دعواه.

---

(1) 310/ 20.

(11674/1)

... كان من المفروض أن يدور المجلس الرابع من مناظرات الأنصاري عن صلاة المسلمين وصيامهم، إلا أنه سرعان ما رجع به إلى موضوع المسيح وبنوته إلى الرب، لينقض هذه الدعوى مرة أخرى بالنقض المستند كذلك، وليغصب مرة ثانية وظيفة المدعي وأدلته عليها. هكذا تحدى الأنصاري الأسقف محاوره أن يأتيه ولو بنص واحد من: "التوراة والإنجيل من كلام المسيح عليه السلام يقول فيه إنه إله أو ابن الله" (1)، ليجعل منه كائناً عاجزاً عن

رفع هذا التحدي. فالمسيح "نبي معصوم، ولا يمكن، بل لا يجوز أن يتكلم بهذا القول العظيم

---

(1) 313/ 25.

(11675/1)

الذي أحوجتموه إلى إنكاره والاعتذار منه إلى الله "(1).

... 2. 4 ـ سبق أن ذهبنا إلى أن الخلاف الأساسي الذي تدور عليه جميع المجادلات الإسلامية النصرانية يكمن في التصورات المختلفة للنصارى وللمسلمين لله وللنبوة. ذلك هو ما استقطب مجموع الدعاوي والاعتراضات التي دارت بالمجلس الخامس الذي ناظر فيه الأنصاري، رئيس كتبة الملك وحاجبه. ولنلاحظ في هذا الصدد أن هذا الأسقف استهل مناظرته بتأكيد ضرورة احترام أخلاقيات المناظرة وقواعدها(2)

---

(1) 314/7 ـ 8.

(2) والجدير بالذكر في هذا المضمار أن الأنصاري لم يلتزم في جميع مجالسه بأخلاقيات المناظرة، فلم يتجنب الإساءة إلى خصومه بالقول (الشتم ـ السخرية ـ التشنيع)

وبالفعل (الانفصال عن المناظرة والمحاور "أشهى ما كان لمحاورتي").

(11676/1)

قبل أن يعترض على دعوى المسلمين في نبيهم ورسالته، بواسطة المنع المستند. فالقرآن ـ في نظره ـ يشهد بصحة اليهودية والنصرانية بوصفهما ديناً واحداً(1)، بينما لا تشهد التوراة ولا الأناجيل بصحة الإسلام. لذلك تحدى الأنصاري أن يأتيه "بدليل قاطع على صحة نبوة نبيكم من كتاب نبي غيره أو تفسير

---

(1) " أعني دين اليهود ودين النصارى لا اختلاف فيه كما يظن من لم يحصل عنده تحقيق " (315/ 1)؛ ولسوف يعترض الأنصاري على ذلك، بالوقوف على عناصر الاختلاف بين هذين الدينين (القصاص ـ الطلاق ـ الختان ـ الناقوس ـ الصليب، إلخ).

(11677/1)

عالم من غير ملتكم"(1). فكان لزاماً على محمد الأندلسي أن يمنع هذه الدعوى ـ الاعتراض، بالاجتهاد في بلورة

مجموعة من الاعتراضات على مضمونها. ففي نظره أن النصارى يعلمون صحة الإسلام وصدق رسالة نبيه، "ولكن من يضلل الله فلا هادي له "(2). والمسيح نفسه يقول: "وسياتي بعد البارفليط المبارك ولا ينطق إلا بالحق ولا يقول شيئاً من نفسه، وإنما يتكلم بما يوحَى إليه ويومر به وانا [جئتكم] بالأمثال وهو يجيئكم بالشرح والبيان" (3)

---

(1) 315/ 31. انظر هامش 57.

(2) 318/ 2.

(3) 318/ 4 ـ 5، في إنجيل يوحنا آيات كثيرة تفيد معنى هذا النص. (14/ 16 و 26، 15/ 26، 16/ 7). ويمكن أن نضيف إلى ما سبق أن قلناه في البارفليط ما ذهب إليه موريس بوكاي من أن دلالة فعلي "يسمع" و"يتحدث" ("Akouo" و "Laleo")، تسري على جميع مخطوطات إنجيل يوحنا في ما يتعلق بالبارفليط Paraclet. "ذلك يقودنا بمنتهى المنطق إلى أن نرى في Paraclet عند يوحنا كائناً بشرياً مثل المسيح يتمتع بحاستي السمع والكلام [...] فالمسيح يصرح بأن الله سيرسل فيما بعد كائناً بشرياً على هذه الأرض ليؤدي الدور الذي عرفه يوحنا. ولنقل باختصار إنه دور نبي يسمع صوت الله ويكرر على مسامع البشر رسالته" (ص ص. 128 ـ 129).(

Maurice Bucaille, La Bible, le Coran et la Science, p p. 108–109).

(1/11678)

. كما أن التبشير بمحمد – صلى الله عليه وسلم – قد وقع في التوراة، عندما بشر الله إبراهيم بأنه سيستجيب دعوته في إسماعيل، بمباركة ذريته ونقل النبوة إليها من ذرية إسحاق(1)، وعندما أوحى لموسى بأنه سيبعث نبياً مثله(2). كما أن الإعلان عن النبي نفسه تم في صحف أشعيا وإرميا وحيقون [حبقوق]

---

(1) 318/ 10 ـ 16.

(2) "نبي مثلك أجعل فيه خطابي ويتكلم بجميع ما أمره" (318/ 51)؛ ورد هذا المعنى بـ "كتاب التثنية" بهذا اللفظ: "لهذا أقيم لهم نبياً من بين إخوتهم مثلك، وأضع كلامي في فمه، فيخاطبهم بكل ما آمره" (18/ 18).

(1/11679)

---

(1)، كما جاء ذكر الإسراء معجزته في صحف دانيال(2)

---

(1) لم نقف في هذه الصحف على هذه الآيات التي احتج بها الأنصاري في هذا المضمار، ولعل هذا الأمر يرجع إلى اضطراب في الإحالة على النصوص. وتلك سمة من سمات هذا النوع من المجادلة. (I. A. Khalife et W. Kutsch, Ar-radd, p. 121).

(2) " رأيت بسحاب السماء ابن ءادم طالعاً حتى وصل إلى الرب وبين يديه تقرب " (318/ 20)؛ "وإذا بمثل ابن الإنسان مقبل على سحاب حتى بلغ الأزلي فقربوه منه فأنعم عليه بسلطان ومجد وملكوت لتتعبد به كل الشعوب والأمم من كل لسان ". (كتاب دانيال، 7/ 13 - 14).

(11680/1)

.

... هكذا أبطل الأنصاري دعوة النصارى المبطلين لدينه والمنكرين لنبوة نبيه، بالاستناد إلى كتبهم المقدسة والاستدلال بواسطتها على دعواه. لذلك أنهى مناظرته في هذا المجلس بقول جلساء الأسقف: "ما أردنا إلا أن ننصره، فكان يقودنا إلى دينه "(1).

... في المجلس السادس والأخير من مناظراته، اعترض الأنصاري على دعوى "أسقفين وقحين" حاولا نقض تصورات المسلمين للجنة (التمتع بلذات المأكل والمشرب والجماع) وللحياة الزوجية (تعدد الزوجات) (2)

---

(1) 319/ 8.

(2) يستثمر النصارى هاتين المسألتين بالإضافة إلى الطلاق وزواج المتعة، للاستدلال على أن الإسلام مجرد دعوى محمدية محملة بصدى تطور الحياة الخاصة لصاحبها بآثار رغباته ومنازعه الحسية في هذا المضمار.

(Raymond Martin, Explantio, in A. 49–50, Cortabaria).

(11681/1)

، بوصفها ـ في نظرهما ـ تصورات حسية خسيسة، وشهوانيّة شبقية في آن واحد. غير أن الأنصاري تصدى لهما بنقض هذه الدعوى بنقضين مختلفين ومتكاملين. فمن جهة، تخبر التوراة والأناجيل عن الأنبياء الذين تزوجوا وتسروا بأكثر من واحدة(1)، كما تتحدث عن المسيح الذي وعد حواريه بالأكل في الجنة(2). ومن جهة ثانية، فإن المنهج الذي اتبعه الأسقفان لإبطال اللذات

المذكورة يعتمد القياس الذي لا يصح في

---

(1) " فقد كان له [داوود] تسع وتسعون امرأة " (320/ 17).

(2) "على مايدة السرور بحضرة القدس في ضيافة رب العالمين " (92، 320/ 14).

(11682/1)

هذا المضمار، إذ لا يصح أن يقاس حال الدنيا بحال الجنة، أي قياس الغائب على الشاهد، نظراً لعدم تساوي قطبي القياس ولاختلافهما(1). ولقد كان يمكن للأنصاري أن ينهي بكل هذا وذاك آخر مجلس من مجالس مناظراته. غير أنه أبى إلا أن يعقد فصلاً أخيراً لينتصر فيه مرة أخرى لصحة نبوة نبيه وللطبيعة البشرية الصرفة للمسيح وكأن ذلك ما كان ليكفيه وليشفي غليله. فلقد فضل أن يضع هذا الانتصار في فم أحد الرهبان، ليعبر بدله عن ذلك، ويدافع عنه.

---

(1) " قياسكم الفاسد حال الدنيا بحال الجنة " (انظر هامش 43).

(11683/1)

... لقد اتخذ كل من محمد القيسي ومحمد الأندلسي الأنصاري في مناظرتهما للنصارى أدوار المدعي المعلل والمجيب معتقدين وناظرين ومحاورين، للدفاع عن تصوراتهما لله وللنبوة. كما اتخذا في الوقت نفسه أدوار المعترض والسائل والمانع لتمثلات النصارى لربهم ولأنبيائهم وعقائدهم وشعائرهم. وبذلك استخدما بعض قواعد المناظرة وأخلاقياتها. غير أن هذا لا يعني أنهما قد احترما إلى حد بعيد تلك القواعد ولا هذه الأخلاقيات. فمناظراتهما لم تراهن في الواقع على إشراك الخصم في البحث عن الحقيقة واقتسامها والالتزام بمقتضياتها، بقدر

(11684/1)

ما كانت تهدف إلى حماية الذات الإسلامية وتحقيقها والدفاع عنها وضمان استمرارها بين الجماعات الإسلامية في الأندلس المهددة بالتنصير. لذلك وجب مراجعة هذا النوع من المجادلة والتقعيد لتداولياتها ولأخلاقياتها، بمراعاة شروط إنتاجها التاريخية والمنطقية الخاصة

بـها.

...

(11685/1)

الجديد في المكتبة الأندلسية:

كتاب »أدباء مالقة« أو سيرة كتاب ينشر لأول مرة بعد خمس وأربعين سنة من اكتشاف مخطوطته الأصلية

... ... الأستاذ عبد العزيز الساوري

... ... وزارة الشؤون الثقافية .الرباط

... وكم من الشيوخ الأكابر كتبوا فملؤوا الدفاتر والدواوين بأسماء رجال الأندلس خاصة فضلاً عن ذكر مصنّفاتهم وأنسابهم وفضائلهم وأحوالهم(1)

---

(1) ... الأنوار النبوية في آباء خير البرية تأليف محمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحُسَيْنِي الجعفري المرسي الأندلسي المتوفى سنة 1052 هـ، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 1238، صص. 342 ـ 343.

(11686/1)

.

... إذا كان مصطلح "السيرة" يختص بالأعلام، فإن للكتاب الذي نتحدث عنه في هذا العرض سيرة تشبه سير الرجال، لا تخلو من طرافة وتشويق. وهذه بعض تفاصيلها:

... للمحققين والدارسين الأردنيين يَدٌ يَجِبُ أن تُذكر فَتُشْكَر(1)، لما يبذلونه من جهود متواصلة في نشر التراث المغربي الأندلسي، أمثال: د. عبد الكريم خليفة، ود. صلاح جرَّار، ود. نصرت عبد الرحمن، ود. حسين يوسف خربوش، ود. محمد علي شوابكة،

---

(1) ... مجلة "العرب"، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ج 11، 12، ص 33، شتنبر ـ أكتوبر 1998، ص. 846.

(11687/1)

ود. عبد الجليل حسن عبد المهدي، ود. محمود عبد الرحمن خياري، ود. حسن افلفيل، والأستاذة منال منيزل. وليس المجال مجال الإفاضة في هذا الموضوع، ولكن دعا إليه الحديث عن كتاب جليل مما قام أولئك بإحيائه بالنشر

والتحقيق(1)، وهو كتاب "أدباء مالقة المسمّى مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار وتقييد مالهم من المناقب والآثار" لمؤلفه

---

(1) ... انظر: من مساهمات الباحثين الأردنيين في تحقيق التارث الأندلسي والمغربي، بيبليوغرافيا أعدّها د. صلاح جَرّار (لم تنشر).

(11688/1)

أبي بكر محمد بن محمد بن علي بن خميس المالقي المتوفى بعد سنة 639 هـ

... وقد تولى تحقيقه والتقديم له الصديق الأستاذ د. صلاح جَرَّار، وهو من أساتيذ الجامعة الأردنية في عمان، وصدر عن دار البشير بعمان ومؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة الأولى، 1419 هـ 1999 م، في 510 صفحة من القطع الكبير، مذيّلاً بالفهارس الضرورية.

... اعتمد د. صلاح جَرَّار في تحقيقه لهذا الكتاب على نسخة مصوّرة عن النسخة الخطية الوحيدة التي كان يملكها الأستاذ محمد العرائشي المكناسي، ثم آلت إلى خزانة خاصة أخرى.

(11689/1)

... وتقع هذه المخطوطة في 105 ورقة من الحجم المتوسط، ومعدل سطور الصفحة الواحدة تتراوح ما بين 22 و25 سطراً. أما كلمات كل سطر، فتتراوح ما بين سبع كلمات وثلاث عشرة كلمة.

... ويتخلل الأسطر عناوين أسماء المترجم بهم بخط غليظ أحمر.

... وليس هناك تاريخ محدد للنسخ، ولكن لاحظ د. صلاح جَرَّار أن عبارة "أعادها الله" التي كان يثبتها الناسخ بإزاء اسم مدينة مالقة، تدل على أنها نسخت بعد سقوط مدينة مالقة سنة 892 هـ، ولكن اختلاف الخطوط فيها يوحي بأنها لم تكتب في زمن واحد(1).

---

(1) ... أدباء مالقة، ص. 30.

(11690/1)

... ويذكر د. قاسم أحمد السامرائي ـ الذي فحص أصل هذه النسخة سنة 1988 في مكتبة خاصة في الرباط حين زار مالكها في داره برفقة د. يحيى محمود ساعاتي، وصديقه

المستعرب الهولندي د. بيتر شورد فان كوننكزفيلد .
أن النص كتب »بالمداد الأسود والأحمر بخط أندلسي
واضح على نوعين من الكاغد، أولهما: عربي سميك يعود
إلى القرن التاسع للهجرة وأوراقه قليلة، والثاني: وهو
الأغلب، أوروبي أبيض يعود إلى القرن العاشر (السادس
عشر للميلاد) تظهر فيه الخطوط المائية المتوازية
والعلامة المائية فيه على شكل عنقود عنب. أما
تسفيرها (أي

(11691/1)

تجليدها)، فهو مغربي حديث جدّاً«(1).
... والنسخة ـ كما يصفها د. قاسم السامرائي ـ مرممة
ترميماً بدائياً سيئاً طمس الكثير من أسطر رؤوس
الصفحات فأخفاها. وفي آخر النسخة نقصٌ لا يزيد على بضع
ورقات، وفي داخلها نقص آخر يقع في ورقة واحدة أو
اثنتين(5) لا تزالان محفوظتين في خزانة الأستاذ الحسن
السائح في الرباط، كما أخبرني بذلك الفقيه محمد
المنوني شفاه الله تعالى، ولم تَعْلَقْ بهما يد المحقق
بعد.

---

(1) ... مخطوطة أندلسية فريدة في تراجم رجال مالقة،

عالم الكتب (مجلة سعودية)، مج 9، ع 3، محرم 1409 هـ، ص. 335.

(11692/1)

... وبالإضافة إلى ما في النسخة من محو ونقص وطمس، فإن فيها تصحيفاً كثيراً وسقطاً وتآكلاً في بعض الكلمات والأسطر، وأخطاء لغوية وإملائية.

... ونظراً إلى الأهمية الكبيرة لهذه المخطوطة، فقد نالت شهرة واسعة بين المعنيين بالمخطوطات والدارسين ومحققي التراث الأندلسي؛ إلا أنه لم يجرؤ أحد على تحقيقها ونشرها مع وجود أصلها(5)، ومنتسخات خطية كثيرة عنها، وبعض النسخ من مصوراتها في الخزائن العامة والخاصة داخل المغرب وخارجه.

(11693/1)

... وقد كان الفقيه محمد المنوني شفاه الله تعالى لما بلّغته خبر صدور كتاب أدباء مالقة، قال لي: في سنة 1957، كانت نية معهد مولاي الحسن للأبحاث المغربية الأندلسية بتطوان متجهة إلى تحقيقه مشاركة مع

الأستاذ محمد بن تاويت التطواني مدير المعهد آنذاك ود. محمود علي مكي. غير أن المبلغ القليل الممنوح للأستاذ محمد العرائشي المكناسي مالك المخطوطة الأصلية لهذا الكتاب حالت بين المعهد وبين المضيّ معه إلى النهاية، لذا قرّر المعهد إلقاءه من مشاريعه.

(1/11694)

... كما رأيت منه نسخة مخرّجة بتحقيق د. محمد بن شريفة ولست أدري هل دفعه إلى المطبعة أولاً؟

... وأول من عرّف بهذه المخطوطة وقيمتها الأدبية والتاريخية في وقت مبكّر، هو المستعرب الفرنسي ليفي بروفنسال في مقالة له بعنوان: "حول شعراء مالقة في القرن العاشر"، ونشرها في مجلة "أرابيكا"، العدد الأول، سنة 1954، صص. 289 ـ 293.

... ثم تلاه المستعرب الإسباني خواكين بالبي برميخو في دراسة له بعنوان: "مصدر مهم في تاريخ الأندلس: "تاريخ ابن عسكر". وهذه الدراسة منشورة في مجلة "الأندلس"، في العدد 31 لسنة 1966، صص.

(1/11695)

---

237 ـ 265.

... وكان الذي أَمَدَّهما بمصوّرة منها هو المستعرب الفرنسي جورج كولان، كما أخبرني بذلك د. محمد بن شريفة.

... ووجدنا بعدهما مجموعة من الدارسين قد عرَّفوا بها أيضاً. فمن هؤلاء الأستاذ محمد الفاسي في مقالة له بعنوان: "كتاب ابن عسكر وابن خميس في مشاهير مالقة"، وهي منشورة في مجلة "المناهل" التي تصدرها وزارة الشؤون القافية في الرباط في عددها 13 لسنة 1978، صص. 125 ـ 135.

ومن هؤلاء الدارسين أيضاً الأستاذ محمد العرائشي المكناسي ـ الذي كان يحتفظ بنسخة فريدة من هذه المخطوطة ـ مقالة له بعنوان:

(11696/1)

"صفحات من المخطوط النادر: بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها لابن عسكر"، ونشرها في مجلة "دعوة الحق" التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الرباط، في العدد 2، السنة 23، جمادى الأولى 1402 هـ/ أبريل 1982، صص. 110 ـ 114.

... وفي هذا المقال أعلن الأستاذ العرائشي عن نية

تحقيقه لهذه المخطوطة، إلا أن هذا الأمل لم يتحقق.

يقول:

... يسميه بعضهم "تاريخ مالقة"، والبعض الآخر "تاريخ ابن عسكر"، وهو مخطوط نادر، وتحفة أدبية تاريخية، لم يسبق له أن نشر أو عثر على نسخة أخرى في خزانة من الخزانات؛ إذ بعد البحث

(11697/1)

المتواصل، انتهيت إلى أنه لا وجود لنسخة ثانية من هذا المخطوط، سوى تلك النسخة الفريدة التي تعتز خزانتي باحتضانها. ومنذ أن قدمت هذا المخطوط لجائزة الحسن الثاني للمخطوطات [سنة 1970 التي تنظمها وزارة الشؤون الثقافية بالرباط] (1)، وأنا منهمك في تصحيحه وجمع شتاته. وبمجرد فراغي من تصحيح القسم الأول منه، سأقدمه للطبع عندما تتيسر أسبابه بإذن الله تعالى. ونظراً لكوني أمتلك النسخة الأصلية، وهي النسخة

---

(1) ... استخرج الفقيه محمد بوخبزة نسخة أخرى منه

بخطه، وحصل بها على جائزة الحسن الثاني للمخطوطات سنة 1989.

(11698/1)

الوحيدة الموجودة منه كما ذكرت آنفاً، فإني أحتفظ بجميع حقوقي القانونية فيما يرجع للنشر؛ وكل من قام بعمل يتنافى وتلك الحقوق، فإنني أعتبره مختلساً ومعتدياً على حقوق الغير بدون موجب. أما التعريف بالمخطوط في المجلات والصحف، فإنني لا أمانع فيه(1).

... غير أن أدق تعريف - على إيجازه - قرأناه عن هذه المخطوطة هو تعريف الأستاذ الخبير بالمخطوطات، قاسم أحمد السامرائي في مقالة له بعنوان: "مخطوطة أندلسية فريدة في تراجم رجال مالقة" منشورة في مجلة "عالم الكتب" السعودية (مجلد 9، عدد

---

(1) ... ص. 10، هامش رقم 1.

(11699/1)

3، محرم 1049 هـ، صص 335 ـ 336).

... وآخر من عرّف بهذه المخطوطة هو الأستاذ د. عبد الله المرابط الترغي في مقالة له بعنوان: "سبتة من خلال أعلام مالقة"، وهي منشورة في مجلة كلية الآداب بتطوان، العدد الخاص بندوة سبتة: التاريخ والتراث، السنة 3، ع 3، 1410 هـ/ 1989 م، صص. 135 ـ 161.

... وفيها يقول:

... ورغم أن الكتاب يتعلق بمالقة وأخبار أهلها والتعريف برجالها، فإنه لم يخل من ذكر بعض البلاد الأخرى وعرض أخبار رجالها، ولا سيما البلاد القريبة من مالقة كسبتة في عدوة المغرب. وتبرز سبتة على أكثر من واجهة بين

(11700/1)

مواد كتاب أعلام مالقة، فهي تبرز ضمن واجهة تراجم الرجال المعرَّف بهم سواء أكانوا سبتيين أم من بلاد غيرها. وتبرز على واجهة المصادر التي اعتمد عليها المؤلف في جمع مواد كتابه. وأخيراً تبرز وبشكل لافت للنظر ضمن النصوص الأدبية التي تخص سبتة أو ترتبط بأي صنف من أصناف العلاقة التي تجمع بين الأدباء في

كل من سبتة ومالقة(1).

... كما اعتمد عليها نفر من محققي التراث الأندلسي، مثل الفقيه محمد المنوني في كتابه "العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين"، ود. محمد بن شريفة في تحقيقه لبعض أجزاء

---

(1) ... ص. 141.

(11701/1)

"الذيل والتكملة" لابن عبد الملك المراكشي، وكتابه: "أبو المُطرِّف أحمد بن عَمِيرَة المخزومي حياته وآثاره"، ود. إحسان عباس في تحقيقه لشعر أبي عبد الله الرّصافي البلنسي وبعض أجزاء "الذيل والتكملة"، والأستاذ إبراهيم بن مراد في تحقيقه لكتاب "مختارات من الشعر المغربي الأندلسي" تنشر لأول مرة، ود. صلاح جَرَّار في تحقيق لشعر مَرْج الكُحْل الشُّقرِي، ود. عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب في تحقيقهما لبعض أجزاء "صلة الصلة" لابن الزبير، ود. محمود ومحمد عبد الرحمن خياري في رسالته للدكتوراه: "رسائل موحدية

(11702/1)

جمعاً وتحقيقاً ودراسة"، والمستعربان الإسبانيان ماريا إيزابيل كاليروسكال وفيرخيليو مارتينز اينمورادو في كتابهما "مالقة مدينة الأندلس"... وآخرون.

... فما السبب في تردُّد وعزوف الدارسين عن تحقيقها ونشرها؟

... يجيب د. صلاح جرَّار، فيقول: »لعل مصدر هذا التردد هو ما يعتور المخطوطة من نقص في أولها ووسطها وآخرها، وما لحق بعض صفحاتها من تلف، وما أصاب بعض سطورها وعباراتها من طمس ومحو، وما يشوب المخطوطة نفسها من تصحيف وسقط وتقديم وتأخير وخلل، مما يجعل من قراءتها أمراً شاقّاً، ولا سيما أن نسخة هذه المخطوطة

(11703/1)

فريدة ولا يوجد نسخة ثانية لمقابلتها بها«(1).

... غير أن مثل هذه العوائق ليس مما يُعجز الأستاذ المحقق د. محمد بن شريفة على سبيل المثال، ولذلك يبدو أن سبباً آخر حال دون نشره هذا الكتاب دون شك وفي هذا المجال أفادني د. علي لغزيوي أن ما حال دون

إقدام د. محمد بن شريفة على إخراج الكتاب، على الرغم من نيته القوية، يرجع في الغالب إلى ما كان قد ذكره الأستاذ محمد العرائشي في مقالته المشار إليها، من احتفاظه بحقه في متابعة كل من يُقدم على إخراج الكتاب ونشره بحكم كونه هو المالك

---

(1) ... أدباء مالقة، ص. 7.

(11704/1)

الحقيقي الوحيد للنسخة الأصلية منه.

... ونظراً لأهمية مدينة مالقة ـ وهي من أعمال كورة ريّة في الأندلس ـ موضوع هذه المخطوطة، فقد حظيت بعدة تواليف في تراجم أعلامها، مثل:

... 1 ـ فقهاء ريّة لقاسم بن سعدان المتوفى سنة 347 هـ؛

... 2 ـ رجال مالقة المُؤَلَّف للحكم المستنصر؛

... 3 ـ تاريخ مالقة لأبي عبد الحميد إسحاق بن سلمة القَيْنِي؛

... 4 ـ كتاب في المشهورين من أعلام مالقة لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري؛

(11705/1)

... 5 ـ الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام لأبي العباس أصبغ بن علي بن هشام المالقي المتوفى سنة 592 هـ(1)؛

... 6 ـ الإكمال والإتمام في صلة الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام لأبي عبد الله محمد بن علي بن خضر بن هارون الغسَّاني المشهور بابن عسكر المتوفى سنة 636 هـ(2)

---

(1) ... ختم أسبغ بن أبي العباس كتابه في أعلام مالقة بترجمة أبي محمد ابن الأصم المنْشِي أو المنشري المتوفى سنة 598. (انظر: الذيل والتكملة، س 5، ق 1، ص. 77).

(2) ... له كتاب آخر ذيّل فيه كتاب السهيلي، عنوانه: "التكميل والإتمام لكتاب التعريف والإعلام"، حققه وقدم له حسن مروة، وصدر عن دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى سنة 1418 هـ/ 1997 م، كما حققه الباحث حسين عبد الهادي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام 1404 هـ، ونال به درجة الدكتوراه.

(11706/1)

. وهذا الكتاب هو صلة وتتميم لكتاب أصبغ؛

... 7 ـ ذيل أو تذييل تاريخ مالقة لأبي الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجُذامي البُنّاهي المالقي كان حيّاً سنة 793 هـ

... ويبدو أن هذا الكتاب تذييل على كتاب ابن عسكر وابن خميس الآتي ذكره، ولم نقف على ذكره إلا عند ابن الخطيب(1).

---

(1) ... انظر مقال الدكتور محمد بن شريفة: "البُنّاهي لا النُّباهي" مجلة الأكاديمية، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، العدد 13، سنة 1988، ص. 78، 81؛ والإحاطة في أخبار غرناطة، ج 3، ص. 46، 193؛ ج 4، ص. 263.

(11707/1)

... 8 ـ أما الكتاب الثامن ـ من الكتب التي وضعت في التعريف بأعلام مدينة مالقة وأدبائها وفقهائها ـ فهو كتاب ابن خميس الذي ينشر لأول مرة بتحقيق د. صلاح جرَّار، وهو تتمة وتكملة لكتاب خاله ابن عسكر السابق.

... يقول السخاوي عن ابن خميس في سياق حديثه عن مدينة مالقة:

... وعمل أبو عبد الله محمد بن علي بن خضر بن عسكر الغسّاني لها تاريخاً لم يكمله، فأكمله ابن أخته أبو بكر محمد بن محمد بن علي بن خميس، وسماه "مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار وتقييد ما

(11708/1)

لهم من المناقب والآثار"(1).

... وقد فهم المحقق »من هذا النص أن ابن خميس هو الذي اختار هذا العنوان للكتاب وليس ابن عسكر حسب قول ابن عبد الملك المراكشي في "الذيل والتكملة"، وابن الخطيب في "الإحاطة" اللذين جعلا كتاب "مطلع الأنوار" عنواناً آخر لكتاب "الإكمال والإتمام" لابن عسكر«(2).

... وفي رأيه "أن ابن عسكر سمى كتابه "الإكمال والإتمام..." وأن ابن خميس سمى تتمته لذلك الكتاب "مطلع الأنوار..." (3)

---

(1) ... الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، ص. 272.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 18.

(3) ... المصدر نفسه، ص. 19.

(11709/1)

.

... وتسمِّي المصادر كتاب ابن خميس: "تاريخ مالقة"، و"التتميم"، و"التكملة" و"أدباء مالقة". أما العنوان المثبت على غلاف مخطوطة هذا الكتاب، فهو: "كتابٌ جُمعَ فيه بعض فقهاء مالقة وأدباؤهم". وهذه كلها تسميات صحيحة لكتاب ابن خميس.

... ويؤكد المحقق »أن ما وضعه أصبغ بن أبي العباس وأبو عبد الله بن عسكر وأبو بكر بن خميس هي كتبٌ ثلاثة مستقلة وليست كتاباً واحداً، وإن كان اللاحق منها يتمم السابق. وقد اختار كل واحد من هؤلاء المؤلفين الثلاثة عنواناً لكتابه«(1).

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 21.

(11710/1)

... ومن الأدلة التي ساقها المحقق على أن ما وضعه ابن خميس هو كتاب مستقل عما وضعه سابقاه:

... 1 ـ أن ابن خميس قد نقل في كتابه مراراً من كتاب ابن عسكر وكتاب أصبغ. فلو كانت هذه الكتب كتاباً واحداً، لما احتاج ابن خميس إلى تكرار ما ذكره وأورده سابقاه؛

... 2 ـ لو كان ما أضافه ابن خميس جزءاً من كتاب ابن عسكر، لما وضع ابن خميس له عنواناً، ولما فرّقت المصادر في نقلها عن ابن خميس وابن عسكر بينهما؛

... 3 ـ لو كان ما قام به المؤلفان كتاباً واحداً، لوصلنا بجزئيه أو لضاع بجزئيه. أما أن يضيع الجزءُ الذي وضعه

(11711/1)

ابن عسكر ويصلنا الجزء الذي وضعه ابن خميس، لذلك دليل على استقلال كل من العملين عن الآخر(16). ويخلص د. صلاح جرَّار من ذلك إلى أن

... كتاب "مطلع الأنوار" لابن خميس هو كتاب مستقل عن كتاب ابن عسكر، وإن كان يتمّم ما بدأه ابن عسكر. وإنما قام ابن خميس بتأليف هذا الكتاب، وفاء وتقديراً لخاله وأستاذه ابن عسكر. ويظهر هذا الوفاء لخاله جليّاً

من خلال الترجمة المطوّلة التي خصّه بها في كتابه واستغرقت نحو إحدى وعشرين صفحة(1)... وهي أطول ترجمة في الكتاب(2)

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 164 ـ 184ن رقم 50.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 21 ـ 22.

(11712/1)

.

... ولم يقف المحقق على ترجمة لابن خميس في أي من المصادر التي رجع إليها في تحقيق هذه المخطوطة. وقد جمع بعض أخباره من خلال كتابه هذا، وبعض الإشارات القليلة جدّاً الواردة في بعض المصادر.

... وينبه المحقق إلى »أن آخر تاريخ وفاة ورد في كتاب ابن خميس هو سنة وفاة أبي عبد الله محمد بن عيسى بن مع النصر المومناني، وهي سنة 638 هـ ويذكر السخاوي أن كتاب ابن خميس قد انتهى في سنة تسع وثلاثين وستمائة. مما يعني أن ابن خميس كان حيّاً في هذه السنة«(1).

---

(1) ... المصدر نفسه، صص. 24 ـ 25.

(11713/1)

... ولهذا الكتاب فوائد جمّة. فهو أولاً مصدر أدبي وتاريخي أندلسي له مكانته المرموقة في المكتبة الأندلسية، إذ يشتمل على تراجم ثلاثة وسبعين ومائة علمٍ من أعلام مدينة مالقة والطارئين عليها.

... وقد حذا فيه ابن خميس »حذو أستاذه ابن عسكر في ترتيب كتابه ترتيباً هجائياً حسب الترتيب المغربي، وبدأ من حيث انتهى أستاذه. فقد وصل أستاذه إلى أول حرف الميم، فترجم ابن خميس للأعلام التي تبدأ بحرف الميم، ثم حرف الصاد، فالعين، فالغين، فالقاف، فالسين، فالشين، فالهاء، فالياء. وهذا يعني أن الأحرف الأولى... كانت من

(11714/1)

نصيب ابن عسكر؛ ولذلك لا نجد تراجم تبدأ بهذه الحروف في كتاب ابن خميس «(1).

... ويمتاز هذا الكتاب بكثير من التراجم مما لا نعثر عليه في مصدر آخر سواه، كما أنه انفرد بمعلومات كثيرة من الأعلام التي لها تراجم في مصادر أخرى.

... وتشمل تراجم هذا الكتاب: الخلفاء والرؤساء والأدباء والشعراء والفقهاء والمدرّسين، وغيرهم من طبقات الأعلام.

... أما منهج ابن خميس في الترجمة لأعلامه، فهو يقوم

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 25.

(11715/1)

... على ذكر اسم العلم كاملاً، ثم كنيته، ثم بلده مبيّناً إن كان من مالقة أو من أحد أعمالها أو طارئاً عليها. ثم يسوق لنا أسماء شيوخه وتلاميذه ورحلاته ومؤلفاته وأهم الوظائف التي شغلها، ثم يسوق لنا نماذج من شعره ونثره. وغالباً ما يطيل في إيراد أشعار المشاهير ورسائلهم، ويظهر لنا واضحاً ميل ابن خميس إلى الشعر أكثر من النثر، ثم يختم الترجمة بذكر تاريخ وفاة صاحب الترجمة، وفي أغلب الأحيان بذكر اليوم والشهر والسنة ومكان الدفن(1).

---

(1) ... المصدر نفسه، صص. 25 ـ 26.

(11716/1)

... وفي هذا الكتاب أيضاً قصائد ونصوص نثرية كثيرة لا نجد لها ذكراً في مصدر آخر.

... ولكتاب ابن خميس هذا مقدمة بين فيها أهمية تدوين الأخبار وتقييد المناقب والآثار، ولكن هذه المقدمة أخلّت بها النسخة الخطية التي اعتمد عليها المحقق، وإنما وردت في كتاب "الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ" للسخاوي(1) الذي كان يملك نسخة كاملة منه، ووصفه بقوله: »وهو في مجلد لطيف على حروف المعجم«(2).

---

(1) ... صص. 49 ـ 50.

(2) ... الإعلام بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، ص. 273.

(11717/1)

... وقد أثبت د. صلاح جَرّار هذه المقدمة في بداية النص المحقق (1).

... استمد ابن خميس معلوماته في هذا الكتاب من مصادر وتقييدات كتابية وشفوية، وهي: كتاب "الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام" لأبي العباس أصبغ بن هلي بن هشام المالقي المتوفى سنة 592 هـ، وبعض تقييدات أبي عمرو بن سالم، ومؤلفات خاله ابن عسكر

مثل كتاب "الإكمال والإتمام"، ورسالة شيخه أبي علي الرندي إلى أهل سبتة، وكتاب "طلوع الزهرة السنية في سقوط زهرة الثنية" لمحمد بن حسن البنّالي، وتاريخ ابن حمادة

---

(1) ... أدباء مالقة، ص. 43.

(11718/1)

السبتي وابن الفرضي والرازي وابن حيان وابن الصّيْرفي وابن أبي الفيّاض وابن مزين والحميدي، و"طبقات الشعراء" لابن الفرضي، و"رجال" أبي الفضل عياض، و"قلائد العقيان" للفتح بن خاقان، و"رجال مالقة" المُؤَلَّف للحكم المستنصر، و"فهرسة" ابن الباذش، وفهرسة شيوخ أبي القاسم ابن الطيلسان المسماة: "اقتطاف الأنوار واختطاف الأزهار"، و"زاد المسافر" لصفوان ابن إدريس، و"المظفّري" لابن الأفطس، وكتاب أبي الطاهر السبتي في موثّقي زمانه، و"المقامات المُحْسنيَّة" لأبي عبد الله الجوني، و"صاحب الخبر".

(11719/1)

... أما المصادر التي نقلت من كتاب ابن خميس واعتمدت عليه، فمنها "صلة الصلة" لابن الزبير، و"الذيل والتكملة" لابن عبد الملك المراكشي، و"الإحاطة" و"أعمال الأعلام"، وهما للسان الدين بن الخطيب، و"الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" للسخاوي، و »جامع مختارات من الشعر المغربي والأندلسي".

... وكلمة أخيرة: إن هذا الكتاب نفيس ومهم في تخصصه بمدينة مالقة، إضافة إلى أنه يقدم لنا "معلومات تفصيلية أدبية وعلمية وتاريخية كثيرة عنها، ويصوّر لنا جوانب شتى من الحياة الأدبية فيها مثل المجالس الأدبية والمعارضات الشعرية

(11720/1)

والعلاقات التي تربط بين الأدباء. والكتاب واحد من مصادر أندلسية قليلة وصلتنا واختصت بالتعريف بأعلام مدينة بعينها، كما فعل لسان الدين بن الخطيب في زمنٍ تال عندما ألف "الإحاطة في أخبار غرناطة". وقد أورد السخاوي في كتابه "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" أسماء طائفة من الأندلسيين الذين ألفوا كتباً في التعريف بأعلام مدن أندلسية بعينها. وقد ضاع أكثر هذه الكتب ولم يصل إلينا منها سوى عددٍ

قليل(1).

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 7 ـ 8.

(11721/1)

... وأكرر القول، فأشيد بما كان للأستاذ د. صلاح جَرّار من عمل جاد ومخلص في هذا التحقيق، كما أشير بأن الكتاب سيصدر مرة أخرى هذه السنة بتقديم وتخريج وتعليق الصديق الكريم د. عبد الله المرابط الترغي ـ وهو من أساتيذ كلية الآداب في تطوان ـ عن دار الغرب الإسلامي ببيروت ودار الأمان بالرباط، تحت عنوان: "أعلام مالقة المسمّى الإكمال والإتمام في صلة الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام أو مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار وتقييد ما لهم من المناقب

(11722/1)

والآثار" تأليف أبي عبد الله بن عسكر وأبي بكر بن خميس.

... ولنا وقفة قادمة معه للموازنة بينه وبين تحقيق د. صلاح جَرَّار.

(11723/1)

كتب الفتوح مصادر للدراسات الحضارية

... ... الدكتور عبد العزيز بن إبراهيم العمري

كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

... ... الرياض ـ المملكة العربية السعودية

مقدمة

... يعد تاريخ الفتوح والجهاد من أوسع الأبواب في التاريخ الإسلامي، حيث تحتل أحداثه مساحة واسعة في المصادر التاريخية الإسلامية. وتلك الأحداث مقرونة دائماً بامتداد الإسلام وانتشاره، وتأمين الإسلام والمسلمين في بلادهم وفي البلاد المفتوحة. وهذا بالطبع لا يعني أن الإسلام انتشر بقوة الجهاد فقط؛

(11724/1)

فالإسلام دين الفطرة، فيه من المقومات الذاتية ما أقنع الناس على الدخول فيه، لكن حركات الجهاد والفتوح لها الأثر الأول في حفظ معتنقي الإسلام من الخروج منه أو الإجبار على تركه؛ كما كان لتلك الحركات أثر في بقاء أقاليم كاملة تحت راية الإسلام على مر العصور، وبالتالي فإن التأريخ لانتشار الإسلام لا يستغني عن تاريخ الجهاد فهما صنوان. وقد بدأ الجهاد منذ أيام رسولنا محمد – صلى الله عليه وسلم – إلى يومنا الحاضر وسيظل حياً إلى يوم القيامة »الجهاد ماض إلى يوم القيامة «(1)

---

(1) وضع البخاري باباً في "صحيحه" سماه "باب الجهاد ماض مع البر والفاجر لقول النبي – صلى الله عليه وسلم – : الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة".
(انظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير)؛ وأورد أبو داود في "سننه" قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : »الجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل«. (كتاب الجهاد، باب في الغزو مع أئمة الجور، الحديث رقم 2170).

(11725/1)

.

... واهتم المسلمون بالتأريخ له في كتب مستقلة وخصوصاً العصور الأولى، فألفت فيه كتب مختلفة مثل "فتوح البلدان" للبلاذري، و"الفتوح" لابن أعثم الكوفي، و"فتوح الإسلام" للأزدي، و"فتوح مصر وأخبارها" لابن عبد الحكم، وما نسب للواقدي من كتب في هذا الباب؛ كما أن أحداثه تمثل العصب الأساسيّ في التأريخ لعصور معينة في كتب التاريخ الحولية.

... وهذه الكتب المختصة بالفتوح مليئة بالأحداث الأخرى والروايات المتعددة في موضوعات شتى ذات صلة بقضايا حضارية مختلفة، آثر أولئك المؤلفون التطرق إليها وإعطاءها عناوين مستقلة

(11726/1)

في بعض الأحيان، أو إيرادها ضمن قضايا أخرى. وتعد تلك الموضوعات والروايات في كتب الفتوح مادة علمية مهمة لا يستغني عنها الدارس للجوانب الحضارية، مع أن عناوين تلك الكتب لا توحي بذلك ولاشك في أن بعض هذه الكتب يحوي موضوعات هامة يعتد برواياتها، ويمكن الاستفادة منها مباشرة، وبعضها الآخر يعد كتباً أسطورية ليس لها أي قيمة تاريخية تذكر، لكن

يمكن الاستئناس بها في بعض القضايا إلى حد ما.

... ولذلك، فإن هذا البحث يناقش مدى الاستفادة من تلك الكتب في الجوانب الحضارية، مع إيراد بعض النماذج والشواهد من خلال

(11727/1)

الروايات الواردة فيها؛ كما يتطرق البحث لمفهوم الحضارة ومفهوم الفتوح، وأهم الكتب التي ألفت في الفتوح وأشهر طبعاتها.

...

مفهوم الفتوح

... الفتوح جمع فتح، والفتح في اللغة نقيض الإغلاق. ويقصد به افتتاح دار الحرب ودخول دار العدو، وجمعه فتوح؛ كما يأتي الفتح بمعنى النصر والغلبة. وقد وردت لفظة "الفتح" في العديد من الآيات القرآنية، ومنها قوله تعالى: {إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً}(1)، وقوله تعالى: {لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم

---

(1) سورة الفتح، آية 1.

(11728/1)

وأثابهم فتحاً قريباً }(1)، وقول الله تعالى: {وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين }(2)، وقوله تعالى: {إذا جاء نصر الله والفتح }(3)، وقول الله تعالى: {لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاًّ وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير }(4).

... ولا يقتصر مفهوم الفتح على الانتصار العسكري فحسب، بل يتعداه إلى الانتصار في مختلف الميادين العسكرية

---

(1) سورة الفتح، آية 18.

(2) سورة الصف، آية 13.

(3) سورة النصر، آية 1.

(4) سورة الحديد، آية 10.

(11729/1)

والأدبية والأخلاقية، والتي سببت مجتمعة دخول الأقوام في البلاد المفتوحة عسكرياً في دين الإسلام بقناعة ورضا، مما سبب انتصار عقيدة التوحيد على الشرك في تلك البلدان.

أهداف الفتوح والتأليف فيها

... لقد بعث الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً – صلى الله عليه وسلم – إلى الناس كافة بدين الإسلام، كما قال الله تعالى: {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون}(1). وقد وعد الله بنصر هذا الدين وإظهاره في قوله: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على

_____

(1) سورة سبأ، آية 28.

(11730/1)

الدين كله ولو كره المشركون}(1).

... ومن هذا المنطلق، فإن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قد بذل جهده وسعى لتبليغ هذا الدين إلى كافة الناس دون إجبار لهم على الدخول فيه كما قال تعالى: {لا إكراه في الدين}(2)، وقال: {ما على الرسول إلا البلاغ}(3).

... وقد بدأ الرسول – صلى الله عليه وسلم – اتصالاً سلمياً بالدول عن طريق مكاتبة ملوكها، قبل الحرب والجهاد، حيث دعاهم في تلك الكتب إلى الإسلام(4)

---

(1) سورة التوبة، آية 33.

(2) سورة البقرة، آية 256.

(3) سورة المائدة، آية 99.

(4) انظر حول تلك الكتب: خالد سيد علي، رسائل النبي إلى الملوك والأمراء، الطبعة الأولى، دار التراث، الكويت، 1407 هـ

(11731/1)

، وعرضه عليهم، وبلغهم إياه، حتى يعذر إليهم أمام الله وأمام الناس.

... وقد جاهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – بنفسه العرب واليهود، وجاهد خلفاؤه رضي الله عنهم من بعده، في وقت واحد، أقوى دولتين في العالم في ذلك الوقت، هما فارس والروم. وكان هدف الجهاد الأول تبليغ دعوة الإسلام إلى الشعوب في تلك الدول، التي كانت قواها تمنع ذلك، وكانت أنظمتها تحجب الناس عن رؤية الحق. وكان الفاتحون المجاهدون يعرفون موقف الإسلام من الدعوة، وأنه لا إكراه في الدين. ولذلك، فإنهم كانوا يعرضون على الأعداء ثلاثة أمور قبل

(11732/1)

الدخول معهم في أي معركة: إما الإسلام، وإما الجزية، وإما القتال، وهو آخر الخيارات؛ فإن هم أسلموا، فهم من المسلمين، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم؛ وإن هم دفعوا الجزية، فإن لهم حقوقاً كان المسلمون أوفى الناس بها لهم. ويقوم المسلمون بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة بين الناس. وأما الإجبار على الدخول في الإسلام، فلم يكن وارداً على الإطلاق لقول الله تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم

(11733/1)

صاغرون}(1).

... كما أن الكفار كانوا يحاولون القضاء على دين الإسلام بالقتال إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً: {ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا}(2).

ومن هذه المنطلقات فإن الهدف الحروب التي جرت بين المسلمين وأعدائهم وصاحبت الفتوح إعطاء الناس الحرية الكاملة في الاختيار، وأن لا يحول بينهم وبين اختيار

الدين الصحيح أية قوة أو أية دولة ثم {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}(3). وقد رصدت كتب الفتوح تلك الحركة وما

---

(1) سورة التوبة، آية 29.

(2) سورة البقرة، آية 207.

(3) سورة الكهف، آية 29.

(11734/1)

يتعلق بها من تخيير الناس وإعطائهم الحرية.

... ونتيجة لهذه الحرية، دخل الناس في البلاد المفتوحة في دين الله أفواجاً كما وعد والله، ونظم الإسلام حياتهم العامة والخاصة، ورصدت كتب الفتوح تحقق هذه الأهداف، والمسار الحضاري الذي صاحبها، وما يمس حياة الناس في كافة المجالات، ونظم الحضارة الإنسانية المختلفة.

تعريف الحضارة

... في اللغة العربية: ضد البداوة(1)، ويقابلها باللغة الإنجليزية civilisation. وقد تعددت تعريفات

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج 4، ص. 197؛ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج 2، ص. 10.

(11735/1)

العلماء لكلمة الحضارة، وتأثر بعضهم بأصل الكلمة عند الأوربيين وما يتبعها من اشتقاق(1). والحضارة سميت بذلك لاشتغال أهلها بالأمور التي تساعدهم على الاستقرار وترتيب شؤون حياتهم المعيشية. وقد أخذ مفهوم الحضارة يشمل ما يتبع الاستقرار والإقامة من »تعاون وتآزر وحسن الخلق ورقة الحاشية وتبادل الأفكار والمعلومات في كل ناحية من نواحي الحياة، من صناعة وعلوم وثقافة وقانون« (2)

---

(1) انظر إلى مجموعة من هذه التعريفات عند: الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ص. 25 ـ 41.

(2) توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية، ص. 16.

(11736/1)

.

كتب الفتوح

... كتب العديد من المؤلفين كتباً مستقلة في الفتوح، وعنونوا لها عناوين تدل على تميزها في هذا الجانب. ولاشك في أن رصد هذه الكتب يتطلب العودة إلى الكتب المتخصصة في الفهرسة، إذ إن معظم ما كتب منها يعد مفقوداً أو مدمجاً في كتب أخرى، وما طبع منها مستقلاً قليل. وقد رصد فرانز روزنتال تسعة وعشرين ومئة (129) كتاب في الفتوح. إلا أنه بدراسة للعناوين التي أوردها، تبين لي أن ما عنون بالفتوح منها هي تسعة وعشرون (29) بحثاً، وبقية ما أورده منها جاءت في قضايا جهادية عامة، أو في تاريخ قادة، أو بلدان

(11737/1)

بذاتها(1). وقد استفاد روزنتال من قوائم ابن النديم في كتابه "الفهرست"(2).

... ومما عرف من الكتب المتخصصة في الفتوح "فتوح البلدان" لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت 279 هـ) (3)

---

(1) فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة

د. صالح أحمد العلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1403 هـ، ص ص. 283 ـ 287

(2) روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص. 273.

(3) هو أبو الحسن أحمد بن يحيى البلاذري، ولد في بغداد ونشأ بها، وطلب العلم وتنقل في بلاد الشام والجزيرة، وسمع الحديث والتاريخ من عدد من الرواة في زمانه؛ كما تتلمذ على يديه عدد من العلماء. حظي بمكانة خاصة عند خلفاء بني العباس وعلماء زمانه. ألف الكثير من الكتب من أشهرها أنساب الأشراف. (ت 279 هـ). [انظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، مخطوط مصور من المكتبة الظاهرية، المدينة، ج 2، ص. 469؛ المشهداني، موارد البلاذري في أنساب الأشراف، ج 1، ص ص. 44 ـ 67].

(11738/1)

، وهو كتاب مشهور أخذه العلماء بالقبول، ويعد ـ في تصوري ـ أوثق كتب الفتوح وأكثرها دقة وشمولية(1).

---

(1) تعد أقدم طبعات فتوح البلدان للبلاذري، طبعة لايدن، 1866 م، ثم طبعة الرحمانية بالقاهرة 1901 م، ثم طبعة القاهرة 1932 م، ثم طبعات بيروت 1956 م و 1957 و 1958 م و 1978 م. كما ترجم الكتاب إلى عدة

لغات منها الفرنسية والإنجليزية [انظر المشهداني، محمد جاسم حمادي، موارد البلاذري عن الأسرة الأموية في أنساب الأشراف، ج 1، ص. 62].

(11739/1)

... كما أن من كتب الفتوح ما ألفه ابن أعثم الكوفي(1) بعنوان "الفتوح". وقد طبع الكتاب عدة طبعات(2). والكتاب مليء بالمبالغات والأساطير التي لا تصح ولا تصدق. لكنه لا يخلو من

---

(1) هو أبو محمد أحمد بن محمد بن علي، ليس هناك معلومات كثيرة عن ترجمته، ضعفه كثير من العلماء في الحديث والرواية. وهذا واضح من خلال استعراض كتابه، ولم تتحدث عنه المصادر بشيء يذكر. (ت 314 هـ) [انظر: نعيم زرزور، "مقدمة" كتاب الفتوح، ص. 8].

(2) من أشهر طبعات هذا الكتاب وأكثرها انتشاراً طبعة بيروت، دار الكتب العلمية، 1406 هـ

(11740/1)

روايات يمكن الاستفادة منها من بعض الوجوه، وما يستشهد به في هذه الوقفات يعد عندي مما يمكن الاستفادة منه بحدود من هذه الكتب.

... وكتاب "الردة والفتوح" لسيف بن عمر التميمي الأسيدي(1)

---

(1) هو سيف بن عمر الضبي الأسدي البرجمي السعدي الكوفي، له تصانيف كثيرة في الفتوح، كان إخبارياً عالماً، متروك الحديث مقبول التاريخ، عاش في العراق، وتنقل في البلدان (ت 180 هـ) [الذهبي، ميزان الاعتدال، ج 2، ص. 255؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج 4، ص. 295]. من طبعات الكتاب طبعة بتحقيق قاسم السامرائي، انظر الطبعة الثانية، الرياض، دار أمية، 1418 هـ

(11741/1)

، وفيه روايات عديدة يستفاد منها في جوانب تاريخية مختلفة.

... كما أن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم(1) له كتاب "فتوح مصر وأخبارها". وهو كتاب جيد في بابه، ومرجع مهم للباحثين في "تاريخ مصر وأخبارها". وقد أجرى محمد جبر أبو سعدة دراسة على كتابه عنوانها

"ابن عبد الحكم المؤرخ وكتابه فتوح مصر وأخبارها"(2)

---

(1) ابن عبد الحكم هو: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري، أشهر العلماء الذين ألفوا في تاريخ مصر في صدر الإسلام، له رواية في الحديث (ت 257 هـ).

(2) طبع البحث في القاهرة، د. ت.، 1399 هـ/ 1979 م.

(11742/1)

.

... أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي (130 ـ 207 هـ) (1)

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن عمرو الواقدي السهمي الأسلمي ولاءً. ولد بالمدينة المنورة سنة 130 هـ، وتلقى العلم على أهلها، رحل في طلب العلم إلى مكة المكرمة والحجاز والشام والعراق وغيرها من بلدان الإسلام، استقر في بغداد سنة 180 هـ وعاش بها بقية حياته. له الكثير من الروايات في الحديث والتاريخ، اشتهر بالتأليف في المغازي. تولى قضاء الجانب الشرقي من بغداد أيام الرشيد. له العديد من التلاميذ أشهرهم ابن سعد صاحب كتاب "الطبقات الكبرى" (ت 207 هـ). [انظر:

ياقوت الحموي، معجم الأدباء، بيروت، دار إحياء التراث، ج 18، ص. 279؛ شمس الدين محمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1405 هـ، ج 9، ص. 475؛ محمد ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، د. ت؛ ج 7، ص. 77؛ محمد فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ج 1، ترجمة محمود فهمي حجازي، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1403 هـ، م 1، ج 2، ص. 100].

(11743/1)

. وله العديد من الكتب المتعلقة بالفتوح، وكثير مما طبع منها كتب أسطورية لا تصح نسبتها للواقدي، وإن كان من المتوقع أن كتبه الأصلية ربما لا يزال بعضها موجوداً ضمن المخطوطات المحفوظة في المكتبات لكنها لم تر العناية الدقيقة

من الباحثين. كما أن المخطوط منها لا يتفق بعضها مع بعض في الغالب، وإن اتفقت في التسمية، مما يدل على استخدام القصاص لاسم الواقدي ونسبة أساطيرهم وما اخترعوه من روايات إليه، وبالتالي ضياع كتبه الأصلية أمام هذا الكم الهائل مما نسب إليه.

... من هذه الكتب المنسوبة للواقدي:

(11744/1)

... 1 ـ "فتوح إفريقيا"(1).

... 2 ـ "فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان"(2).

... 3 ـ "فتوح البهنسا"(3).

---

(1) نشر في تونس 1315 هـ (صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، معهد المخطوطات العربية، 1995، ج 5، ص. 323).

(2) طبع في القاهرة 1309 هـ (صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، ج 5، ص. 323).

(3) طبع في القاهرة 1278 هـ و 1290 هـ و 1305 هـ و 1311 هـ، وغيرها. (انظر: صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، ج 5، ص. 324).

(11745/1)

... 4 ـ فتوح الشام(1).

... 5 ـ فتوح العراق والعجم(2)

---

(1) طبع الكتاب طبعات مختلفة، أقدمها طبعة شركة الهند الشرقية، كلكتا، 1854 م؛ كما طبع في القاهرة

1978 م، و 1891 م، و 1895 م، و 1912 م، و 1929 م، و 1935 م. ومن هذه الطبعات طبعة بيروت عن دار الجيل. ويشك كثير من الباحثين في نسبة الكتاب للمؤلف (راجع، صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، ج 5، ص. 324).

(2) طبع في الهند 1287 هـ (انظر: صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، ج 5، ص. 324)؛ كما طبع في مصر سنة 1309 هـ/ 1891 م. وقد وقفت على هذه الطبعة.

(11746/1)

.

... 6 ـ فتوح الجزيرة والخابور وديار بكر(1).

---

(1) طبع الكتاب لأول مرة في ألمانيا 1827 م. (صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، ج 5، ص. 324). وطبع الكتاب بتحقيق عبد العزيز فياض حرفوش، نشرته دار البشائر، بيروت، 1417 هـ وقد قام بسام الخراشي بتحقيق الكتاب في رسالة ماجستير، قدمت لقسم التاريخ بجامعة الملك سعود بالرياض خلال العام الجامعي 1411 هـ [انظر: زيد الحسين، دليل الرسائل

الجامعية في المملكة العربية السعودية، ط 2، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، 1415 هـ، ص. 333].

(11747/1)

... 7 ـ فتوح مصر(1).

... 8 ـ فتح منف والإسكندرية(2).

9 ـ "الردة مع نبذة من فتوح العراق" وذكر المثنى بن حارثة الشيباني(3)

---

(1) طبع في لايدن 1825 م. (صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، ج 5، ص. 324).

(2) طبع في لايدن 1825 هـ (إدوارد فندك، اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، بيروت، دار صادر، مصور عن طبعة القاهرة، دار الفجالة، 1313 هـ ص. 65).

(3) طبع الكتاب من رواية أحمد بن محمد بن أعثم الكوفي، بتحقيق يحيى الجبوري، بيروت، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، 1410 هـ والكتاب المطبوع قصة أسطورية خيالية نسجت بأسماء مغلوطة ووقائع مخترعة لا صحة لها، وبالتالي فإنه لا يعول عليه.

(11748/1)

محمد بن عبد الله الأزدي(1). وله كتاب "تاريخ فتوح الشام"(2)

---

(1) هو محمد بن عبد الله بن عمار بن سوادة الأزدي الغامدي، أبو جعفر البغدادي المخزومي من علماء البصرة المعدودين، اشتهر بالحفظ ورواية الحديث. وقد وثقه العلماء وأجازوا الرواية عنه، ولد سنة 162 هـ (ت 242 هـ). [انظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 5، ص. 416؛ المزي، تهذيب الكمال، ج 25، ص. 509؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج 9، ص. 265].

(2) طبع لأول مرة في الهند 1854 م. (صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، ج 1، ص. 55)؛ كما طبع بعناية عبد المنعم عبد الله عامر في القاهرة 1970 م، وقد اطلعت على هذه الطبعة.

(11749/1)

، ويتميز كتابه بإسناد الروايات وبيان مصادرها وسلسلة وصولها إليه.

... و"تاريخ افتتاح الأندلس" لابن القوطية القرطبي، من

القرن الرابع الهجري(1).

... أبو الحسن محمد البكري (ت 950 هـ) وله كتاب "فتوح مكة" المسمى "الدرر المكللة في فتوح مكة المشرفة".

وهو كتاب أسطوري، مليء

---

(1) أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز من علماء القرن الرابع الهجري المتقدمين في الأندلس، وقد حقق كتابه عبد الله أنيس الطباع، وأخرجت طبعته الأولى دار المعارف، بيروت 1415 هـ [انظر: عمر فاروق الطباع، مقدمة تاريخ افتتاح الأندلس، ص. 32].

(11750/1)

بالقصص والقصائد المنحولة(1).

... عبد الله بن محمد بن أبي شيبة(2)

---

(1) طبع الكتاب لأول مرة سنة 1302 هـ، وقد اطلعت على طبعة للكتاب صدرت عن دار المنار بتونس، دون تاريخ.

(2) هو أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، ولد بالكوفة وترعرع بها، طلب العلم على أشهر علماء زمانه، اعتبر من أشهر المحدثين، روى له البخاري في

صحيحه أكثر من ثلاثين حديثاً، كما روى له مسلم في صحيحه ما يزيد على ألف وثلاثمائة حديث، من أشهر تلاميذه الإمام البخاري، والإمام مسلم، والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم، اشتهر بكتابه المصنف الذي يحتوي على قسم في المغازي النبوية، وقسم في التاريخ والفتوح. [انظر: ابن أبي شيبة، المصنف، الجزء الرابع عشر؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 6، ص. 413؛ المزي، تهذيب الكمال، ج 16، ص. 37؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 11، ص. 124].

(11751/1)

(ت 235 هـ) وله كتاب "الفتوح"(1).

... وأما الكتب الأخرى في الفتوح التي لم أعرف لها طبعات، وقد عرفت مخطوطة وانتشرت بين العلماء، ونقل عنها الكثير من المؤرخين في السابق، فمنها ما كتبه أبو مخلف لوط بن يحيى (ت 157 هـ) (2)

---

(1) لم أطلع على الكتاب مستقلاًّ، ولعله جزء من كتابه "التاريخ"، حيث احتوى على أقسام خاصة بالفتوح. وقد طبع ضمن المصنف، طبعته الدار السلفية في الهند، وأعادت طباعته دار القرآن الكريم في كراتشي،

باكستان، سنة 1406 هـ

(2) هو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف. تابعي لقي عدداً من الصحابة. عاش في الكوفة واشتهر بها، له مرويات متعددة عند الطبري وغيره من المؤرخين، أجمع علماء الحديث على ترك الرواية عنه لتشيعه. [انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 18، ص. 41؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 7، ص. 301؛ يحيى بن إبراهيم اليحيى، مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري. دراسة نقدية، الرياض، دار العاصمة، 1410 هـ].

(11752/1)

، في فتوح الشام وفتوح العراق؛ وسيف بن عمر التميمي (ت 200 هـ) في "الفتوح الكبير"(1)؛ وأبو حذيفة إسحاق بن بشير (ت 206 هـ) في "الفتوح"؛ وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت 221 هـ) (2) في "السواد وفتحه"، وفي كتاب "فتوح الأحواز وفتوح أرمينية"؛ والمدائني (225) (3)

---

(1) لعله كتاب "الردة والفتوح" الذي حققه قاسم السامرائي.

(2) أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي، مولاهم، البصري، له تصانيف كثيرة. اشتهر بمعرفة أنساب

العرب وأيامهم، له روايات متعددة في الحديث. [انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج 10، ص. 246].

(3) هو العلامة الحافظ أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن سيف المدائني الإخباري، نزيل بغداد. له مؤلفات عديدة في السير والمغازي والأنساب. ثقة يروي عن الثقاة في الغالب. ولد سنة 132 هـ وتوفي في بغداد سنة 225 هـ [انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 10، ص. 401؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 14، ص. 124؛ ابن الأثير، الكامل، ج 6، ص. 516؛ سزكين، تاريخ التراث العربي، م 1، ج 2، ص. 139].

(11753/1)

في كتبه "فتوح الشام"، "فتوح العراق"، "فتوح الجزيرة"، "فتوح مصر"، "فتوح برقة"، "فتوح الأهواز"، "فتوح سجستان"، "فتوح كرمان"، "فتوح الري"، "فتوح جرجان وطبرستان"، "فتح بابل وراماسال"(1)؛ وأبو إسحاق العطار(2) في "الفتوح"؛ وابن أبي البغل(3) في "رسائل في فتح البصرة"(4)

---

(1) وقد أكثر الطبري النقولات عن المدائني في قضايا الفتوح، حيث نقل عنه في "تاريخ الأمم والملوك" ما

يزيد علىخمسمئة (500) رواية.

(2) لم أقف له على ترجمة.

(3) لم أقف له على ترجمة.

(4) انظر: روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص. 273؛ انظر محمد جاسم حمادي المشهداني، موارد البلاذري عن الأسرة الأموية في أنساب الأشراف، ج 1، ص. 62.

(11754/1)

.

... وقد احتوت كتب التاريخ العام العديد من أخبار الفتوح، وبموضوعات وأبواب مستقلة أحياناً، إلا أنها لا تدخل في بحثنا هذا، مع أن بعض المحققين أخرجوها أحياناً مفصولة عن مصنفاتها الأصلية، وظن بعض الناس أنها كتب مستقلة في الفتوح(1).

التشريع والنظم

---

(1) انظر قصة فتح الأندلس، عن كتاب "الإمامة والسياسة" لابن قتيبة، وقصة فتح الأندلس لابن قطبية، استخرجهما وحققهما عبد الله أنيس الطباع،

بيروت، مكتبة المعارف، 1415 هـ، وهما ملحقان بكتاب "تاريخ افتتاح الأندلس" لابن القوطية.

(11755/1)

... لقد كان ضمن أهداف الفتوح رفع الظلم عن المظلومين والمستضعفين الذين وقعوا تحت أيدي الطواغيت وأولياء الشيطان. قال تعالى: {وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً(الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً}(1).

---

(1) سورة النساء، آية 75 ـ 76.

(11756/1)

... ولذا فقد كانت الشريعة الإسلامية هي الحاكمة لأحوال المجاهدين وللمناطق المفتوحة على أيديهم، وبالتالي فقد كانوا يقيمون شريعة الإسلام في تلك المناطق.

وقد استجدت بعض الأمور التي تطلبت من الخلفاء والعلماء بحثها وإيجاد التشريعات الخاصة بها مستنبطة من الشريعة الإسلامية. ولعل فرض الخراج على الأراضي المفتوحة عنوة يعد في مقدمة التشريعات التي استنبطها عمر بن الخطاب من أصول شرعية صحيحة. ودعاه هذا لعقد اجتماع مع عدد كبير من علماء المسلمين وفقهاء الصحابة الذين قدموا من الأمصار المختلفة التي فتحت في تلك

(11757/1)

الفترة(1)؛ كما أن فرض العطاء كان إجراءاً تشريعياً كذلك وترصد كتب الفتوح ما يتعلق بالخراج والعطاء من الناحية التشريعية واتخاذ القرارات الخاصة به، حيث يحدثنا البلاذري في عنوان مستقل عن "أحكام أراضي الخراج". ويذكر في هذا الأمر أصول تشريع الخراج، وأقوال

---

(1) لمزيد من التوسع في هذه القضية، راجع: أبو يوسف، كتاب "الخراج"، الذي ألف في عهد هارون الرشيد، لبحث أصل هذا التشريع والنظام، وتوسع في قصة اتخاذ عمر

لهذا التشريع وما دار فيه من مشاورات. (أبو يوسف، الخراج، دار المعرفة، بيروت، 1399 هـ، ص. 24).

(11758/1)

الفقهاء فيه، وما يعتري الأراضي الخاصة به من إصابات، وما تنتجه من غلات وتغير الأحكام بتغير أحوالها، وغير ذلك من التفصيلات المتعلقة بها(1). كما تحدثت بعض تلك الكتب عن اختلاف الفقهاء والمشرعين حول معاملة بعض الأراضي: فابن عبد الحكم يتحدث عن أقوال الفقهاء حول معاملة بعض الأراضي في مصر، وهل كان الفتح عنوة أو صلحاً، وما بني على ذلك من أحكام شرعية(2). وتعد كتب الفتوح مرجعاً في عهود الصلح التي عقدوها مع أهل

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص . 433.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص ص. 151 ـ 156.

(11759/1)

البلاد الأصليين، وطبقها المسلمون عبر قرون طويلة. ولا يزال ينظر البعض إليها على أنها قائمة، مثل صلح بيت المقدس(1)؛ كما يحدث البلاذري عن فرض عمر للعطاء وما يتعلق به من تنظيم سواء في مقدار العطاء أو في ترتيب أهله، وفي مصادر أمواله، وتدوين الدواوين الخاصة به(2).

... كما تعد كتب الفتوح مصدراً مهماً للمناظرات الفكرية والدينية التي دارت بين المسلمين الفاتحين، وبين أعدائهم من الفرس والروم، والتي كان محورها

---

(1) انظر حول شروط الصلح: الأزدي، فتوح الشام، ص. 246.

(2) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص. 435.

(11760/1)

الحديث عن الإسلام وأصوله، وعلى رأسها توحيد الخالق وهي ديانة الأنبياء كلهم، والحديث عن بعثة نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم –، والشريعة التي بعث بها. وهذه المناظرات كثيرة ومتعددة، ومنتشرة في أخبار كتب الفتوح ورواياتها، ويصعب حصرها وتفصيلها، وسواء كان بعضها صحيحاً أو منحولاً، فإنها تعد مؤشراً هاماً على أن قضية الجهاد والفتح لم تكن عسكرية فقط،

بل كانت دينية وفكرية أيضاً(1)

---

(1) انظر مناظرة معاذ بن جبل للروم، عند ابن أعثم، الفتوح، ج 1، ص. 143؛ ومناظرة المغيرة بن شعبة للفرس في المصدر نفسه، ج 1، ص. 158؛ وانظر إلى بعض هذه المناظرات عند الأزدي، فتوح الشام، ص. 197؛ وانظر إلى بعض هذه المناظرات بين بعض المسلمين ورهبان النصارى عند الواقدي، فتوح الجزيرة، ص. 41، 53. وهي مناظرة لا يحتج بها، لكنها مؤشر على قضايا فكرية معينة.

(11761/1)

.

... كما أن بعض هذه المناظرات والمحاورات وقعت بين جماعات خارجية على المسلمين من بينهم، ويمكن رصدها من خلال كتب الفتوح ومعرفة الأدلة الشرعية للأطراف المختلفة فيها(1).

... كما تحتوي كتب الفتوح على رصد لحياة فقهاء الصحابة وعلماء الشريعة. فكتاب ابن عبد الحكم يحوي:

... مادة تاريخية طيبة ومفيدة للغاية. فهي من جهة ترصد النشاط العلمي للرعيل الأول من علماء مصر من

الصحابة الذين نزلوا مصر وقدموا

---

(1) انظر إلى مناظرة بعض أصحاب علي ـ رضي الله عنه ـ لطائفة ممن خرج عليه عند ابن أعثم، الفتوح، ج 3، ص. 262.

(11762/1)

إليها من الأقطار الأخرى؛ وهي من جهة ثانية تؤرخ قدوم من قدم من الصحابة إلى مصر، وهو أمر ذو أهمية بالغة (1).

... كما أن ابن عبد الحكم لا يكتفي بالحديث عن هؤلاء الصحابة الذين نزلوا مصر بل يذكر الأحاديث الواردة عنهم ويرويها بسندها ويعنون لذلك بـ "ذكر الأحاديث" حيث يذكر جمعاً من الصحابة وأحاديثهم(2).

... كما تتحدث كتب الفتوح عن بعض الدروس والمواعظ والخطب التي ألقاها فقهاء الصحابة(3)

---

(1) أبو سعدة، ابن عبد الحكم المؤرخ، ص. 97.

(2) انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ص. 248 ـ 319.

(3) انظر إلى بعض هذه الخطب عند ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 3، ص. 253، 255، 258؛ ج 5،

ص. 212، 213، 356؛ وانظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص. 139.

(11763/1)

وغيرهم من العلماء. ومن أمثلة ذلك الحديث عن خطبة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في الجابية حينما زار الشام، والتي لم تتوقف عند الوعظ والنصيحة، بل امتدت للحديث عن بعض الأحكام الشرعية الخاصة بالمرأة(1).

... كما تحدث ابن عبد الحكم عن خطبة لعمرو بن العاص - رضي الله عنه - حث فيها على الزكاة وصلة الأرحام والاقتصاد والإحسان إلى الجيران، وبين فيها بعض الأحكام الشرعية(2).

الإدارة ...

---

(1) الأزدي، فتوح الشام، ص. 252.

(2) انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 139.

(11764/1)

... يعد الرسول – صلى الله عليه وسلم – أول من نظم الأقاليم وعين الأمراء والعمال في أنحاء الدولة الإسلامية المختلفة. وتعد هذه أولى الخطوات الإدارية لتنظيم الدولة الإسلامية وتحديد المسؤوليات في المناطق وربطها بالعاصمة الإسلامية، وبالقائد الأول رسول الله – صلى الله عليه وسلم –. وقد تحدث البلاذري بالتفصيل عن أمراء الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذين بعثهم إلى اليمن، وعن المهام التي كلفوا بها(1).

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 78.

(11765/1)

... وتتحدث كتب الفتوح عن مشاورة الخلفاء والأمراء لأتباعهم وأخذ الرأي منهم، وهو مبدأ إداري أساسي سار عليه القادة(1).

... وقد تحدث الأزدي عن بعض المراسلات الإدارية بين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعماله وأمرائه(2). كما قام الأزدي برصد العديد من المراسلات التي دارت بين أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وأمرائه في بلاد الشام(3)

---

(1) انظر: الأزدي، فتوح الشام، ص. 45؛ ابن أعثم، الفتوح، ج 1، ص. 191؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص. 266.

(2) انظر: فتوح البلدان، ص. 78.

(3) الأزدي، فتوح الشام، ص. 30، 50، 125، 127، 135، 156، 159، 243، 244.

(11766/1)

.

... ويتحدث الواقدي عن بعض المراسلات بين عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب رضي الله عنه(1).

... ويحدثنا الواقدي عن مراسلات إدارية دارت بين عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما(2).

... ويعد ابن أعثم أكثر كتاب الفتوح إيراداً لنصوص الرسائل الإدارية في فترات الفتوح المختلفة(3)

---

(1) الواقدي، فتوح البهنسا، ص. 64

(2) الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص ص. 39 ـ 40.

(3) انظر: ابن أعثم، الفتوح، حيث أورد العديد من هذه الرسائل، ج 1، ص. 171، 232، 254،

267، 277، 279، 282، 287، 396، 402، 442؛ و ج 7، ص.

5، 177، 183، 184، 232،

388، 389.

(11767/1)

.

... ويذكر البلاذري في عنوان خاص ("أمر الخاتم") اتخاذ رسول – صلى الله عليه وسلم – خاتماً خاصاً يختم به رسائله ثم استعمال الخلفاء لهذا الأمر من بعده(1).

... كما تعد كتب الفتوح مرجعاً هاماً لمعرفة القواد والأمراء المسؤولين عن تسيير أمور الأقاليم وإدارتها بعد الفتح، وما يتصل بذلك من عزل وتعيين ومحاسبة ومراقبة وتأديب(2)

---

(1) **البلاذري، فتوح البلدان، ص ص.** 447 ـ 451.

(2) **انظر إلى قضية مراقبة عمر ـ رضي الله عنه ـ لأمرائه وقسمة أموالهم، في: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص.** 149؛ **وانظر إلى قصص عزل عثمان ـ رضي الله عنه ـ لبعض أمرائه عند: ابن أعثم، الفتوح، ج** 1، **ص.** 346؛ **وانظر إلى عزل بعض أمراء بني أمية عند: ابن أعثم، الفتوح، ج** 7، **ص.** 280.

؛ كما تعتبر مرجعاً للتقسيمات الإدارية في عصور الفتح وقبلها. فمن خلالها يمكن التمييز بين الإدارة والقضاء والشرطة(1). فابن عبد الحكم يتحدث عن تقسيم مصر إلى قسمين، مصر السفلى ومصر العليا، وعن دمج هذين القسمين في عصر عثمان بن عفان رضي الله عنه(2).

... كما تحدث الواقدي في عنوان مستقل عن عزل أبي موسى الأشعري من البصرة وولاية عبد الله بن عامر عليها(3). وقد

---

(1) انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 236.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ص. 63 ـ 74.

(3) الواقدي، فتح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 132.

تحدث الأزدي عن عزل خالد بن الوليد عن العراق وتوليته الشام(1).

... وتحدث ابن عبد الحكم عن ولاة المغرب في عدة مواضع من كتابه(2). وقد أوردت كتب الفتوح العديد من

الروايات المرتبطة بتعيين الخلفاء ومبايعتهم. فقد تحدث الواقدي في كتاب "فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان" عن مبايعة عثمان بن عفان بالخلافة في عنوان مستقل(3).

---

(1) الأزدي، فتوح الشام، ص. 68.

(2) انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 204، 213، 215، 217.

(3) المصدر نفسه، ص. 130.

(11770/1)

... وتحدث ابن أعثم عن قيام دولة بني العباس، وبيعة أول خلفائهم(1).

... كما تحدث عن بيعة هارون الرشيد(2) وخلافة الأمين(3) وبيعة المعتصم(4).

القضاء

... لقد كان القضاء منظماً بين المسلمين في حياتهم المدنية العامة؛ كما أن نظام القضاء رتب بطريقة معينة بين المجاهدين في ساحات القتال في المعارك المشهورة، حتى أن كتب الفتوح تتحدث عن القضاء في

المعارك المشهورة. ... ويتحدث البلاذري عن كيفية

---

(1) ابن أعثم، الفتوح، ج 7، ص 258

(2) لمصدر نفسه، ص. 402.

(3) المصدر نفسه، ص. 432.

(4) المصدر نفسه، ص. 470.

(11771/1)

اختيار عمر ـ رضي الله عنه ـ لبعض قضاته(1).

... وقد وضع ابن عبد الحكم عنواناً خاصاً ("ذكر قضاة مصر") (2). وقد تحدث في هذا الموضوع عن أوائل القضاة في مصر بعد فتحها، ثم تحدث بالتفصيل عن بقية القضاة في عهد الراشدين وفي عصر بني أمية وفي عصر بني العباس(3).

... وتحدث كتاب "فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان" عن القضاة في بعض بلاد فارس قبل فتح المسلمين لها(4)

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 101.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ص. 227.

(3) المصدر نفسه، ص ص. 227 ـ 247.

(4) انظر: الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 114.

(11772/1)

.

... ويمكن من خلال دراسة بعض النصوص والروايات الواردة في كتب الفتوح الوصول إلى حقائق معينة في العصور المصاحبة للفتح أو السابقة واللاحقة لها، حول تنظيم القضاء في بعض المناطق سواء في الظروف العسكرية أو المدنية. وحول قواعد التعيين والعزل للقضاة(1).

اللغة والأدب

... لاشك في أن اللغة العربية وآدابها قد انتشرت بانتشار الإسلام في المناطق المفتوحة. ودعا ذلك أهل اللغات الأخرى إلى تعلم اللغة العربية، وما يتبع ذلك من ثقافة إسلامية، وآداب للغة القرآن(2)

---

(1) انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 241.

(2) علي بن إبراهيم النملة، مراكز الترجمة عند

المسلمين، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1412 هـ، ص. 11.

(11773/1)

. وتحتوي كتب الفتوح على العديد من النصوص الأدبية الرائعة، منها الخطب الراقية ذات النصوص الفريدة(1)، والوصايا البليغة(2)

---

(1) انظر إلى خطبة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في الجابية عند الأزدي، فتوح الشام، ص. 251؛ وخطبة عبادة بن الصامت في المصدر نفسه، ص. 274؛ وخطبة أبي الدرداء، المصدر نفسه، ص. 275.

(2) انظر إلى الوصايا البليغة المتبادلة بين أبي بكر الصديق وخالد بن سعيد بن العاص ـ رضي الله عنهم ـ عند: الأزدي، فتوح الشام، ص. 23؛ ووصية أبي بكر لهاشم بن عتبة ـ رضي الله عنهما ـ في المصدر نفسه، ص. 33.

(11774/1)

.

... كما احتوت تلك الكتب على قصائد شعرية منها ما استشهد به، ومنها ما كان وليد المواقف، وبعضها صحيح النسبة لأصحابه، وبعضها الآخر منحول. فما ورد من حكايات وأشعار في ما نسب للواقدي من كتب الفتوح يعد في إجماله من الشعر المنحول. ومع هذا، ففي غالبه شعر فصيح وله معان رصينة، وبالتالي تعد كتب الفتوح سجلاً لشعر الجهاد(1)

---

(1) انظر: سيف بن عمر، الردة والفتوح، ص. 11، 13، 24، 27، 37، 38، 84، 88، 149، 186، 212، 219، 236، 248، 263؛ وانظر: البلاذري، فتوح البلدان، 25، 32، 51، 60، 65، 105، 118، 126، 127، 261، 289، 331، 349، 371، 372، 377، 378، 384 387، 390، 402، 403، 422، 426، 428، 430؛ وانظر: الواقدي، فتوح الشام، ج 1، ص ص. 33 ـ 107 و 196 ـ 287؛ و ج 2، ص ص. 9 ـ 235، 246، 248، 249، 266، 273، 282؛ وفتوح الجزيرة والخابور وديار بكر، ص ص. 33 ـ 191؛ وفتوح البهنسا، ص. 22، 88، 111 ـ 142؛ وانظر: البكري، فتوح مكة المشرفة، ص ص. 3 ـ 48؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ص. 83 ـ 114 وغيرها. وانظر: ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 1، ص ص. 48 ـ 98، وغيرها من

الصفحات؛ كما تحتوي بقية مجلدات "الفتوح" على العديد من القصائد الشعرية التي يصعب حصرها.

(11775/1)

، وتعد بعض هذه القصائد سجلاًّ لمعلومات تاريخية أو جغرافية(1).

... كما تعد تلك الكتب سجلاً للقصص المنسوجة بطريقة أدبية رائعة، سواء منها ما كان أسطورياً خيالياً، أو ما كان حقيقياً صيغ بأسلوب أدبي فريد. فبعض هذه الكتب بكاملها عبارة عن قصص خيالية اشترك فيها رجال ونساء عرفوا حقيقة أو خيالاً.

... ومن أبرز القصص على سبيل المثال قصة الخنساء مع أبنائها الأربعة، وما دار بينها وبينهم من حديث وقصائد

---

(1) انظر إلى القصيدة التي أوردها الواقدي، فتوح الجزيرة، والتي تتضمن وصفاً جغرافياً لبعض الأماكن، ص. 33.

(11776/1)

شعرية تعد من روائع القصص والشعر(1).

... كما تبرز قصة لامرأتين وجدتا مدفونتين في اليمن منذ زمن قديم قبل الإسلام وتركتا قصائد شعرية عند قبريهما فيها العديد من الحكم والمواعظ(2).

... وتعد كتب الفتوح سجلاً رائعاً لأدب الرسائل، حيث ترد نصوص مختلفة منها تعالج قضايا متنوعة، أشرنا إلى بعضها عند الجانب الإداري، كما أن البعض الآخر يتعلق بمناسبات اجتماعية أو بقضايا خاصة يصعب حصرها(3)

---

(1) انظر إلى هذه القصة عند الواقدي، ص. 35.

(2) انظر: ابن أعثم، الفتوح، ج 7، ص. 39.

(3) انظر رسالة عمر إلى أهل الشام يعزيهم في وفاة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ عند: ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 1، ص. 123.

(11777/1)

.

الترجمة

... يتحدث كُتاب الفتوح عن مواقف معينة استخدمت فيها الترجمة من اللغة العربية إلى لغات أخرى، وخصوصاً

الفارسية والرومية، وتعد من أنواع الترجمة الفورية.

فالأزدي مثلاً يذكر مواقف في فتوح الشام تطلبت الترجمة وفهم اللغة الأخرى(1).

... وقد وردت أخبار عن إجادة بعض النساء والجواري للترجمة(2)، بالإضافة إلى الأخبار المتعددة التي تتحدث عن وجود التراجمة من الرجال.

---

(1) انظر: الأزدي، فتوح الشام، ص ص. 176، 200، 101.

(2) انظر: الواقدي، فتوح الجزيرة، ص. 57.

(11778/1)

... وقد كانت دواوين الخراج منذ تأسيسها في عهد عمر بلغات غير العربية. ففي مصر بالقبطية، وفي الشام بالرومية، وفي العراق وفارس بالفارسية. وقد ذكر البلاذري أنه في خلافة عبد الملك بن مروان قام أحد كتاب الديوان من الروم بالبول في الدواة التي يستخدمها للكتابة، مما أغضب عبد الملك بن مروان ودفعه لترجمة الديوان ونقله إلى العربية(1).

... ولاشك أن نقل الديوان إلى العربية له ما يبرره من أسباب دينية واقتصادية وخلافها.

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 197.

(11779/1)

... كما يتحدث البلاذري في موضوع مستقل عن نقل ديوان الفارسية إلى العربية زمن الحجاج بن يوسف الثقفي(1).

... كما يتحدث عن بدايات الخط العربي وانتشاره في المدن العربية قبل الإسلام في عنوان مستقل ("أمر الخط") أورد فيه الحديث عمن كان يجيد الخط بمكة المكرمة عند بداية الإسلام، وعن مدى انتشاره بعد الإسلام، ومن كان يكتب للرسول – صلى الله عليه وسلم –، وعن أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – لزيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ بتعلم كتاب يهود(2).

(1) المصدر نفسه، ص. 298.

(2) المصدر نفسه، ص. 460.

(11780/1)

الهجرات البشرية

... تطلبت عملية الفتوح مشاركات واسعة من القبائل العربية التي رحلت مجاهدة من كافة أنحاء بلاد العرب إلى مناطق الجهاد. وقد تبع ذلك هجرة هذه القبائل، وإقامتها في مناطق جديدة. وقد كان تحرك هذه القبائل ابتداءً بترتيب من الخلفاء الراشدين. فالأزدي يتحدث عن مكاتبة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لأهل اليمن، ثم يفصل ما كان من أمرهم واستجابتهم لأبي بكر ورحيلهم بأولادهم من اليمن إلى المدينة، ثم منها إلى مناطق الفتوح المختلفة، ويتحدث عن قبائل بعينها، حيث يضع عنواناً لقدوم حمير على أبي بكر

(11781/1)

رضي الله عنه(1)؛ كما يضع عنواناً: "وفود العرب على أبي بكر رضي الله عنه(2)؛ ويتحدث بالتفصيل عن قدوم بني سليم وجماعة من القبائل على أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتوجههم إلى الشام(3). وفي الوقت نفسه نرى بروزاً لهذه القبائل في الوقائع المختلفة وتميزها عن غيرها(4). ويتحدث الواقدي عن جموع القبائل التي وردت العراق قبل القادسية مع سعد بن أبي وقاص، ومعهم أهلوهم وأولادهم(5)

---

(1) الأزدي، فتوح الشام، ص ص. 8 ـ 9، 16.

(2) المصدر نفسه، ص. 39.

(3) المصدر نفسه، ص. 42.

(4) انظر: الأزدي، فتوح الشام، ص. 227.

(5) الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 15.

(11782/1)

.

... كما تحدث عن أثر لفرسان من بجيلة، ومن بني بكر بن وائل، ومن الأشعريين ومزينة(1).

... ويذكر ابن عبد الحكم أخباراً عن تحرك جموع كبيرة من قبائل قضاعة من الشام إلى مصر(2)؛ كما تحدث بالتفصيل عن توزيع الخطط على القبائل التي رحلت إلى مصر عند فتحها مثل خولان، ومهرة، ولخم، ومذحج، وغافق، وتجيب، وهمذان وغيرها(3).

---

(1) الأزدي، فتوح الشام، ص ص. 69 ـ 77.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص. 112.

(3) المصدر نفسه، ص ص. 98 ـ 129.

(11783/1)

... ويتحدث ابن أعثم عن مراسلات دارت بين أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وقبائل كنده من أجل هجرتهم بأولادهم إلى العراق(1).

... وفي موضع آخر يتحدث عن البربر واستقرارهم في شمال إفريقيا(2).

... ويتحدث البلاذري عن سكان الطائف، وعن رحيل بعض اليهود إليها وسكنهم فيها(3).

... وكما لا يخفى علينا، فإنه بالمقابل هاجر كثير من الموالي من مناطق الفتح إلى بلاد العرب. ومن بينهم من تعلم وأصبح له مكانة

---

(1) ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 1، ص. 55.

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص. 495.

(3) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 66.

(11784/1)

خاصة بين العرب وغيرهم من المسلمين. ويمكن رصد عدد منهم في روايات كتب الفتوح. فالبلاذري مثلاً يتحدث في عنوان مستقل عن "أمر الأساورة والزط"، وهم جماعة من الأتراك سكنوا العراق وحالفوا بعض قبائل العرب في

البصرة وخالطوهم(1).

الحياة الاجتماعية

... هناك الكثير من الأخبار المتناثرة ذات العلاقة بالحياة الاجتماعية، مثل الزواج والعلاقة بالأقارب والجيران والمجتمع والأرحام وغير ذلك من الأمور الاجتماعية(2).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 366.

(2) انظر عن بعض هذه الأخبار في مصر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 139.

(11785/1)

... فمثلاً قصص الزواج كثيرة. ونطالع بعض رواياتها من خلال تلك الكتب، مثل زواج سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ من سلمى امرأة المثنى بن حارثة بعد وفاة المثنى(1).

... ويتحدث ابن أعثم عن زواج سجاح بنت الحارق التميمية بمسيلمة الكذاب ويورد بعض الروايات المتعلقة بهذا الزواج(2).

... كما يتحدث عن زواج خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ

من بني حنيفة بعد موقعة اليمامة(3).

---

(1) الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 29.

(2) ابن أعثم، الفتوح، ج 1، ص. 27.

(3) المصدر نفسه، ص. 39.

(11786/1)

... ويورد قصة زواج أحد أمراء بني العباس من ابنة لملك الترك في بلاد الخزر، ويصف الهدايا والتحف التي صحبت الزواج(1).

... كما ذكر قصة زواج هارون الرشيد بإحدى نساء بني العباس، وكيفية تعامل هذه المرأة مع زوجها الرشيد(2).

... ويتحدث الواقدي عن وجود سبعمائة امرأة من النخع في موقعة القادسية مات أزواجهن فتزوجن من قبائل أخرى(3).

---

(1) المصدر نفسه، ج7، ص. 393.

(2) المصدر نفسه، ص. 42.

(3) الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 36.

(11787/1)

... كما تتعرض بعض هذه الكتب لعلاقة النساء بأزواجهن، واحترامهن لهم وإعداد الطعام لهم، والقيام بحاجاتهم، وخدمتهم عند إصابتهم في المعارك وغيرها، وذلك من خلال قصص وروايات لوقائع محددة تمكن من معرفة طبيعة العلاقات الزوجية في المجتمعات إبان فترة الفتوح وعقبها(1)؛ كما يرد الحديث عن دور هؤلاء النسوة في الفتوح(2).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 29.

(2) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص. 141، حيث تحدث عن دور النساء في معركة اليرموك؛ وانظر: ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 1، ص. 90 و 202.

(11788/1)

... وتوجد نظرات اجتماعية خاصة تتعلق بالنسب والمصاهرة، يمكن معرفتها من خلال بعض الروايات(1).

... كما توجد أخبار خاصة ومميزة عن الوفيات، وفقد بعض الزعماء والقادة ممن لهم مكانة خاصة على الصعيد الاجتماعي وغيره(2)

---

(1) انظر أقوال الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ عند: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 186.

(2) انظر أخبار وفاة عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ عند: ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص ص. 180 ـ 183، حيث وضع لها عنواناً خاصاً وتحدث عنها بالتفصيل؛ وانظر بعض أخبار الوفيات عند: ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 1، ص ص. 240، 376، 495.

(11789/1)

.

... وتوجد بعض الأخبار المتعلقة بالحلي والملابس. فمثلاً نجد تفصيلات عن ملابس عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حينما قدم على بيت المقدس لمصالحة أهلها؛ كما نجد أخباراً عن ملابس أمراء المسلمين وقوادهم حينما قابلوا عمر ـ رضي الله عنه ـ في الجابية(1).

... ونجد عند ابن أعثم أخباراً عن أنواع الأطعمة والأشربة السائدة في تلك الفترة. ونجد أخباراً لأنواع الملابس والزينات والحلي التي يرتديها بعض القواد والمقاتلين وعوام الناس، أو التي يرتديها بعض رجال الكنيسة من نصارى العرب

(1) الأزدي، فتوح الشام، ص. 353.

(11790/1)

وغيرهم، بالإضافة لبعض المشروبات المحرمة والمنتشرة بين أهل الكتاب، أو بعض المسلمين(1).

... وجرى الحديث عن بعض الخلافات والنزاعات التي دارت بين المسلمين والتي كان لها تأثير على النواحي الاجتماعية(2).

... ويمكن الاستئناس ببعض الروايات عن الأحوال الاجتماعية السائدة في مناطق الفتح قبل وصول الإسلام(3).

...

الحياة الاقتصادية

(1) انظر: ابن أعثم، الفتوح، ج 1، ص. 164.

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص. 298.

(3) انظر: الأزدي، فتوح الشام، ص. 175.

(11791/1)

... يتبادر إلى الذهن حين الحديث عن كتب الفتوح ما يرتبط بالجهاد من غنائم وجزية، مما يؤخذ من الأعداء والمعاهدين. وهذا الأمر صحيح، حيث نجد الأخبار عن ذلك في أحداث المعارك المختلفة. إلا أن الأمر لا يتوقف عند الحصول عليها. فالحديث عن الغنائم يبين نوعية الممتلكات التي يكسبها المسلمون، من أنواع النقود المختلفة، والأطعمة، والأقمشة والملبوسات، وعروض التجارة المختلفة، بالإضافة إلى الثروات الحيوانية(1)

---

(1) انظر الحديث عن غنائم المسلمين في القادسية عند: الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 37؛ ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 1، ص. 168؛ وانظر غنائم المسلمين في اليرموك عند: ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 1، ص. 208.

(11792/1)

.

... فالبلاذري يتحدث في عنوان مستقل عن »أموال بني النضير«، وعن المزارع التي غنمها المسلمون ومحتوياتها، وعما تم فيها من توزيع وإقطاع(1)؛ كما تحدث في عنوان آخر عن »أموال بني قريضة«، ذكر فيه

قسمة ما غنمه المسلمون من أموالهم(2)؛ كما تحدث البلاذري عن أموال خيبر التي غنمها المسلمون من يهود، وعن المزارع وإنتاجها، والاتفاقية التي عقدها الرسول – صلى الله عليه وسلم – مع يهود خيبر على استزراع أرضها، وما أنتجته هذه الأرض ونصيب المسلمين

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 31.

(2) المصدر نفسه، ص. 35.

(11793/1)

والمزارعين من يهود(1). كما تحدث عن مغانم الرسول – صلى الله عليه وسلم – من وادي القرى وتيماء(2).

... كما تحدث البلاذري في مواضع عدة عن غنائم المسلمين من الفرس. فهو يذكر كنوزاً أخذها المسلمون بعد فتح نهاوند فيها درر ومجوهرات وأنواع مختلفة من الحلي(3).

... ويتحدث ابن أعثم عن كمية هائلة من الغنائم التي أخذها المسلمون من الفرس في بيكند وغيرها، حيث احتوت على كميات هائلة من الأسلحة والآنية والجواهر وغيرها(4)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 36.

(2) المصدر نفسه، ص. 47.

(3) المصدر نفسه، ص ص. 2، 3.

(4) ابن أعثم، الفتوح، ج 7، ص. 163.

(11794/1)

.

... ويتحدث كتاب فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان عن غنائم المسلمين في القادسية، وعن كمياتها وطريقة توزيعها(1).

... ويفصل في بعض غنائم المسلمين من بعض مدن شرقي فارس(2).

... وفي موضع يذكر بعض ما لدى نصارى العرب في العراق من ملابس وزينة وعدد مختلفة(3).

... ويفصل في موضع آخر القول في الملابس التي يرتديها بعض قواد الفرس، وما لديهم من جواهر وزينة مرتبطة بها(4)

---

(1) الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص ص. 27 ـ 28.

(2) المصدر نفسه، ص. 109.

(3) المصدر نفسه، ص. 16.

(4) المصدر والصفحة نفسهما.

(11795/1)

.

... ويتحدث الواقدي في مواضع من كتابه "فتوح الجزيرة" عن أنواع من الهدايا والتحف والمجوهرات التي كانت تنقل بين الجزيرة وخراسان(1).

... أما ابن عبد الحكم، فهو يحدثنا عن تكاثر الأموال عند عمال عمر - رضي الله عنه - على الأمصار، حيث وصلت قصيدة شعرية تعرض بهؤلاء العمال؛ فشكل لجنة قاسمت العمال أموالهم(2).

الخراج والعطاء

---

(1) الواقدي، فتوح الجزيرة، ص. 78.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 149؛ و البلاذري، فتوح البلدان، ص. 377.

(11796/1)

... تعد الجزية من الفروض التي يضعها المسلمون على غيرهم، وخصوصاً أهل الكتاب ومن في حكمهم، ويقاتلون حتى يؤدوها، كما يقاتل مانعو الزكاة من المسلمين عند تركها. وقد كانت الجزية تفرض على أهل البلاد المفتوحة صلحاً، وبمقادير محددة ومختلفة، بحسب الأحوال الاقتصادية لمن يدفعها. وتعد الجزية مقياساً لأحوال المجتمع الاقتصادية. وقد نالت مقادير الجزية اهتماماً خاصاً من قبل كتب الفتوح. فابن عبد الحكم يتحدث بالتفصيل عن »ذكر الجزية« على أهل مصر: فبعضها مال، وبعضها طعام وبعضها زيت، إلى غير ذلك من المقادير

(11797/1)

المحددة(1).

... كما يتحدث البلاذري عن الجزية التي فرضها الرسول – صلى الله عليه وسلم – على نصارى نجران وتفصيلاتها، ومنها الإبل والخيل والأقمشة والنقود وغيرها(2). كما يذكر الجزية التي فرضها عمر ـ رضي الله عنه ـ على أهل الشام، وما فيها من نقود وأطعمة(3).

... ويتحدث البلاذري في موضع خاص عن »أحكام أراضي الخراج«، وعما يفرض عليها من أموال أو إنتاج، وعن

الحكم في حال تعطيلها وعن أراضي

---

(1) انظر: ابن عبد الحكم، فتوح البلدان، ص ص. 151 ـ 156.

(2) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 77.

(3) المصدر نفسه، ص. 131.

(11798/1)

العشور، وعن الأحكام والضرائب التي كانت سائدة عليها قبل الإسلام، وموقف الإسلام منها(1).

... ويتحدث البلاذري في موضوع مستقل عن »ذكر العطاء في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه«، حيث يذكر تفاصيل مختلفة حول العطاء الذي فرض وحدد في خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ بعد أن كثرت الأموال، حيث بين مقادير العطاء التي فرضت للناس في زمن عمر ـ رضي الله عنه ـ، وعن ترتيب الناس في ديوان العطاء، وعن تنظيم هذا الأمر في كافة أمصار الإسلام، والعمال الذين أوكل إليهم العمل عليها(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 433.

(2) المصدر نفسه، ص ص. 435 ـ 447.

(11799/1)

.

... كما تحدث عن توزيع الأرزاق على أهل البادية والحاضرة(1). وتشير بعض الأمصار إلى أسعار السلع المتداولة في فترات مختلفة في بعض المناطق الإسلامية(2).

... ويضع البلاذري عنواناً ("أمر النقود") تحدث فيه عن أنواع النقود المتداولة في فترات مختلفة، وعن أوزانها وأقيامها؛ كما تحدث بالتفصيل عن الأوزان والمكاييل المتداولة في الأمصار الإسلامية، وعن ضرب الدنانير لأول مرة في الدولة الإسلامية واستمرار الضرب بعد ذلك(3)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 440.

(2) انظر: ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 7، ص. 163.

(3) البلاذري، فتوح البلدان، ص ص. 451 ـ 457.

(11800/1)

. وتعد أخبار البلاذري في هذا الجانب على غاية كبيرة من الأهمية في رصد العملات في أول الإسلام، ومن أهم

أنواع النشاط الاقتصادي.

الزراعة

... الزراعة من أهم أعمدة الاقتصاد. ولاشك في أن ازدهار الزراعة في أي مكان له مراحل، وقد يتعرض لقوة أو ضعف، وبالتالي فإن التأريخ لها يحتاج إلى تتبع الروايات حولها. وتعد كتب الفتوح من المصادر التي يعتمد عليها في التاريخ للزراعة وما يتعلق بها. فالبلاذري يتحدث بالتفصيل عن المحاصيل الزراعية للطائف، ويذكر منها العنب والرمان والعسل والزبيب، ويتحدث عن أحكام الزكاة في هذه

(11801/1)

المحاصيل(1).

... كما يتحدث عن إنتاج اليمن من العسل والعنب والزبيب وأنواع أخرى من المحصولات الزراعية(2)؛ ويتحدّث عن مسح السواد في العراق، وما فيه من أنواع المنتجات الزراعية، وما فرض عليها من خراج(3).

... ويتحدث ابن عبد الحكم عن الزراعة في ريف مصر وما فيه من الإنتاج والمرعى(4).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 68.

(2) المصدر نفسه، ص. 84.

(3) المصدر نفسه، ص. 269.

(4) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص. 139، 141.

(11802/1)

... كما يتحدث عن خروج جيش المسلمين إلى الريف في فصل الربيع وعنايتهم بخيولهم في هذا الموسم وتسمينها ورعيها(1). كما يتحدث عن محصول الزيتون وأهميته لدى الناس في شمال أفريقيا، وما يحصلون عليه من أموال مقابل بيعه في أفريقيا وفي أوربا(2).

... كما يتحدث عن جلب المحاصيل من مصر إلى الحجاز أيام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ(3)، ويتطرق لسياسة عمر في نهي جنده عن الاشتغال بالزراعة(4).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 139.

(2) لمصدر نفسه، ص. 185.

(3) المصدر نفسه، ص. 163.

(4) المصدر نفسه، ص. 162.

(11803/1)

... كما يتحدث الأزدي عن أنواع من القمح والشعير وجدها المسلمون بدمشق عند فتحها(1)، وعن أنواع من الأعناب والفواكه والثمار(2).

... ويذكر البلاذري أنواعاً من الصيد البري في شمال الجزيرة العربية: في المناطق الساحلية القريبة من تبوك، وفي دومة الجندل(3)، والمناطق المجاورة.

الصناعة

... ولاشك في أن المجتمعات البشرية على اختلافها يوجد بها حرفيون وصناعيون يقومون بتجهيز بعض احتياجات هذا المجتمع وتصنيعها.

---

(1) الأزدي، فتوح الشام، ص. 103.

(2) المصدر نفسه، ص. 113.

(3) البلاذري، فتوح البلدان، ص ص. 71 ـ 72.

(11804/1)

ومن تلك الاحتياجات ما هو مدني، ومنها ما هو عسكري.

وتوجد بعض الشواهد الخاصة بالصناعة، وخصوصاً العسكرية وما يرتبط بها. ومن ذلك حديث ابن القوطية

عن إقامة عبد الرحمن بن الحكم لدار صناعة السفن بإشبيلية(1)؛ كما يتحدث البلاذري عن وجود منجنيق ودبابة استخدمها الرسول – صلى الله عليه وسلم – أثناء حصار الطائف(2). وهذه صنعها أصحاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – في الموقع بعد أن تعلموا صناعتها من بعض الأماكن جنوب الحجاز(3)

---

(1) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص. 111.

(2) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 67.

(3) انظر: الطبري، تاريخ الطبري، ج 3، ص. 132، حيث ذكر بالتفصيل كيف بعث الرسول – صلى الله عليه وسلم – أناساً إلى جُرش تعلموا له صنع الدبابة.

(11805/1)

.

... ويتحدث البلاذري عن صناعة القراطيس في مصر تحت موضوع "أمر القراطيس"(1).

... ونالت المعاملات التجارية نصيبها من الروايات في كتب الفتوح. فالبلاذري يتحدث عن تعامل نصارى نجران بالربا وكثرته فيهم، مما أغضب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عليهم(2).

... كما يمكن الاستدلال على أنواع السلع المتداولة في المجتمعات المفتوحة في تلك الفترة من خلال بعض روايات الفتوح. فنجد الحديث عن أنواع الطيب من العنبر والعود وأنواع الزينة من الملابس المختلفة

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 241.

(2) المصدر نفسه، ص. 77.

(11806/1)

وما يتعلق بها(1)، بالإضافة لأنواع الأطعمة والملابس.

...

الخطط والبناء

... ورد الكثير من الأخبار والموضوعات المستقلة في كتب الفتوح عن التخطيط والتعمير والبناء. فقد وضع البلاذري موضوعات مستقلة وعناوين خاصة تتعلق ببناء المدن والأمصار. فقد وضع عنواناً مستقلاً عن "تمصير الكوفة"، تحدث فيه بالتفصيل عن اختيار موقع المدينة والمراسلات التي دارت بين عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنهما ـ؛ كما تحدث بالتفصيل عن بناء مسجدها وتقسيم أراضيها على

---

(1) الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 37.

(11807/1)

السكان، وما أحدثوه فيها من بناء؛ كما تحدث عن قطائعها وتوسع بنائها بعد ذلك في أيام بني أمية وبني العباس(1).

... وبالطريقة نفسها نجده يضع عنواناً لـ "تمصير البصرة"، ويتحدث عنها بالتفصيل في ما يزيد عن خمس وعشرين (25) صفحة، ذاكراً ما يتعلق بها من خطط وقطائع وبناء ومساجد، ومصادر للمياه عبر عصر الراشدين ("عصر التأسيس") وكل من عصر بني أمية وبني العباس(2).

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص ص. 274 ـ 287.

(2) المصدر نفسه، ص ص. 341 ـ 365.

(11808/1)

... كما تحدث بالتفصيل عن بناء مدينة بغداد وعنون لها بـ "أمر مدينة السلام"، حيث تكلم عن تخطيطها

وبنائها وأسواقها وأهم عيونها، في عدة صفحات(1). ...

... كما تحدث البلاذري عن إعادة بناء العديد من المدن والثغور وتحصينها في وجه الأعداء زمن هارون الرشيد(2).

... كما وضع عنواناً خاصاً عن "حفائر مكة" تحدث فيه بالتفصيل عما جرى فيها من حفر للآبار وتجميع للمياه؛ كما تحدث فيه عن أهم بيوت مكة، ودروبها، وترتيب بنائها منذ العصر الجاهلي حتى عصر

---

(1) المصدر نفسه، ص ص. 293 ـ 297.

(2) المصدر نفسه، ص ص. 175 ـ 176.

(11809/1)

بني العباس، وتحدث عن سجن مكة(1).

... كما تحدث عن »سيول مكة« المكرمة في موضوع مستقل فصل فيه الطرق التي سلكها سيول مكة، وتحدث عن تاريخ السيول(2).

... ووضع ابن عبد الحكم في كتابه "فتوح مصر وأخبارها" عنواناً هو »ذكر الخطط« (3)، تحدث فيه عن تفاصيل دقيقة من خطط الفسطاط عند تأسيسها فهو يتحدث عن سبب تأسيس المدينة وسبب اختيار المكان

وبناء جامع الفسطاط(4)؛ كما تحدث في موضوع مستقل عن

---

(1) المصدر نفسه، ص. 60 ـ 64.

(2) المصدر نفسه، ص. 64.

(3) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 92.

(4) المصدر والصفحة نفسهما.

(11810/1)

»الزيادة في المسجد الجامع«(1)؛ وتحدث عن تأسيس سوق الفسطاط، والطرق داخل المدينة(2).

... وفصل الحديث عن توزيع الأراضي على القبائل المختلفة، وعنون لذلك "ذكر من اختط حول المسجد الجامع مع عمرو بن العاص"(3).

... كما تحدث عن خطط الجيزة، وعن المكاتبات التي دارت بين عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ وهمذان، وبينه وبين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حول نزول الجيزة، وبناء الحصون فيها وتوزيع الأراضي على القبائل(4)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 131.

(2) المصدر نفسه، ص. 97.

(3) المصدر نفسه، ص. 98.

(4) المصدر نفسه، ص. 130.

(11811/1)

. وقد فصل في الحديث عن القطائع واستصلاح الأراضي ليس في زمن الفتح فقط بل وفي أيام بني أمية أيضاً(1). ... وتحدث عن حفر خليج أمير المؤمنين، ابتداء من الفكرة حتى التنفيذ، والنتائج الاقتصادية لذلك الحفر على مصر والحجاز(2). ولم يتوقف ابن عبد الحكم عند الحديث عن عمليات البناء، بل تحدث عن عمليات الهدم والتخريب التي حدثت لبعض القرى(3).

---

(1) انظر العنوان الذي وضعه ابن عبد الحكم، فتوح مصر، "ذكر القطائع"، ص. 132.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 162.

(3) المصدر نفسه، ص. 77.

(11812/1)

... كما تحدث البلاذري عن حفر القنوات في بعض المناطق في العراق لتأمين وصول المياه إلى السكان(1).

... وتحدث كتاب "فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان" المنسوب للواقدي عن تأسيس مدينتي الكوفة والبصرة، وعن السبب في ذلك، وعن تخطيط سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ للكوفة، وبناء بيوتها ومسجدها وتوزيع أراضيها(2).

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص . 273، 366.

(2) الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 71.

(11813/1)

... كما تحدث البلاذري عن إعادة بناء العديد من المدن والثغور وتحصينها في وجه الأعداء زمن هارون الرشيد(1).

العلوم والظواهر الطبيعية

... هناك بعض الظواهر الطبيعية التي رصدتها كتب الفتوح، وبالتالي فهي تعد مرجعاً للعلماء المشتغلين بهذه الظواهر. فابن القوطية يرصد كسوفاً للأندلس في أيام عبد الرحمن بن الحكم(2).

... وابن أعثم يتحدث بالتفصيل عن الطاعون الذي أصاب المسلمين في بلاد الشام أيام عمر بن الخطاب ـ رضي

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص ص. 175 ـ 176.

(2) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص. 111.

(11814/1)

الله عنه .(1).

... كما يتحدث الواقدي عن المجاعة التي حدثت في الحجاز نتيجة القحط والجدْب وهو ما عرف بعام الرمادة زمن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، كما يتحدث عن طاعون عمواس الذي أصاب الشام أيضاً(2).

... كما يتحدث البلاذري بالتفصيل عن السيول التي أصابت مكة المكرمة في الجاهلية، والطرق التي سلكتها تلك السيول(3).

(1) ابن أعثم، الفتوح، ج 1، ص. 238.

(2) الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 120.

(3) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 175.

(11815/1)

... كما أن هناك بعض المعلومات التي أوردتها كتب الفتوح عن التقسيمات الجغرافية، وأسماء بعض المناطق، وتقسيماتها، والمسافات بينها(1)، وطبيعة بعض المناطق وثرواتها الطبيعية، ومنتجاتها الزراعية، والحدود الجغرافية لبعض الأقاليم(2).

... فابن عبد الحكم يتحدث في موضوع مستقل عن "ذكر النيل"(3)، وتتحدث تلك الكتب عن موارد

---

(1) انظر طريق خالد بن الوليد من العراق إلى الشام والأماكن التي مر عليها في ص ص. 73 ـ 77.

(2) انظر مناقشة حدود مصر عند ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص. 99.

(3) المصدر نفسه، ص. 149.

(11816/1)

المياه ومواقعها والطرق التي يسلكها المسافرون(1)، فلو نظرنا مثلاً إلى وصف الأزدي للطريق التي سلكها أبو عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ حينما توجه لفتح الشام، لوجدناه يقول: »وأقبل أبو عبيدة حتى مر بوادي القرى، ثم أخذ على الحجر وهي أرض النبي صالح عليه السلام مما يلي الحجاز وهي دون الحجر مما يلي الشام وعلى

ذات المنار ثم على زيزاء ثم على مأب بعمان« (2). وغير ذلك من المعلومات البلدانية والجغرافية، التي تشكل مادة أساسية للباحثين في

---

(1) الأزدي، فتوح البلدان، ص. 262.

(2) الأزدي، فتوح الشام، ص. 29.

(11817/1)

هذه القضايا.

... كما تذكر تلك الكتب معلومات تاريخية مهمة عن بعض المناطق قبل وصول الإسلام إليها. فالواقدي يذكر في مكان واحد قرابة عشرين كنيسة ودير وبيعة كانت في الجزيرة الفراتية إبان فتحها زمن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ(1)، وبعض المعلومات التاريخية الواردة يمتد إلى عصور موغلة في القدم، فيها معلومات هامة أحياناً، وفي بعضها الآخر أساطير وخرافات لا قيمة لها من الناحية التاريخية(2)

---

(1) الواقدي، فتوح الجزيرة، ص. 92، 93.

(2) انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص. 7، حيث أورد معلومات متعددة عن تاريخ مصر القديم. وقد

قام أبو سعدة في بحثه عن ابن عبد الحكم بتحليل بعض تلك الروايات، ص ص. 99 ـ 102؛ وانظر: الواقدي، فتوح البهنسا، ص ص. 5 ـ 8.

(11818/1)

. ...

الخاتمة والتوصيات

... تتعدد كتب الفتوح وتتنوع، وتختلف أهمية رواياتها ومصداقية كتابها، فهي تحتاج إلى مزيد من الرصد والعناية والتصنيف والنقد الدقيق للكتاب، وللكتب وللروايات كل على حدة. وتبعاً لذلك، فإنه يمكن الوثوق بالعديد منها والاعتماد على ما أوردته من روايات تاريخية مختلفة في هذه الكتب؛ كما نجد أنها لم تتوقف عند الفتح والجهاد كما توحي بذلك عناوينها، بل امتدت للحديث عن القضايا الحضارية المختلفة المرتبطة بحياة الإنسان، فهي ولاشك ترصد انتشار الإسلام من الناحية الجغرافية، والجهود العسكرية

(11819/1)

التي بذلت من أجل ذلك، وما سبقها وصاحبها من طرق سلمية، وكتابات دعوية؛ كما أنها ترصد التغير الذي طرأ على حياة المجتمعات التي دخلها المسلمون إبان فترات الفتوح المختلفة، وخصوصاً المراحل الأولى منها، وبالتالي فهي ترصد الهجرات البشرية والحياة الاجتماعية والقضايا الاقتصادية وما يتفرع منها، كما ترصد بناء المدن والأمصار ومقومات الحياة فيها، بالإضافة إلى ذلك فهي تورد بعض الأخبار التاريخية السابقة للإسلام في تلك المناطق؛ كما أنها مرجع للدارس للحياة اللغوية والأدبية لا يستغنى عنه. يضاف لذلك أننا يمكن أن

(11820/1)

نستفيد منها في التاريخ الإداري للمناطق الإسلامية المختلفة وخصوصاً في عصوره الأولى.

... ومن خلال تلك الشواهد المختلفة في كتب الفتوح، يمكن أن ندرك أن الفتح الإسلامي ـ وخصوصاً في عصر الراشدين ـ لم يكن حركة جهادية عسكرية فحسب، بل كان امتداداً حضارياً وأخلاقياً وتنظيمياً شهد له أسلوب كتّاب الفتوح في ربطهم للقضايا الحضارية بموضوع كتاباتهم في الفتوح. فالفتح في نظرهم هو حضارة

امتدت لتغير في حياة الناس في تلك البلدان مجتمعة؛ كما أن هذا التغيير لم يكن مقصوراً على البلاد المفتوحة، بل تعداه إلى الشعوب

(11821/1)

والمناطق التي شاركت فيه، حيث كانت هناك عقلية متفتحة أوجدت الجو المناسب للتبادل الحضاري والتطوير البشري الذي أثر في حياة الناس في المناطق التي امتد إليها الإسلام، منذ مَدّه الأول حتى عصرنا الحاضر. وأعود لتأكيد أهمية تلك الكتب لدارسي القضايا الحضارية، مع الاهتمام بالتمييز بين الكتب بعضها عن بعض وبين الروايات نفسها، من خلال منهج البحث التاريخي الصحيح والمعروف.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولاً : المصادر المطبوعة:

(11822/1)

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (630 هـ - 1238 م)، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1385 هـ

الأزدي، محمد بن عبد الله (231 هـ)، فتوح الشام، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، 1970 م.

ابن أعثم الكوفي، أحمد بن محمد بن علي (ت 314 هـ)، الفتوح، بيروت، دار الكتب العلمية، 1406 هـ

البخاري، الحافظ أبو عبد الله إسماعيل بن إبراهيم (ت 256 هـ)، الجامع الصحيح، إسطنبول، المكتب الإسلامي، د. ت.

(11823/1)

البكري، أبو الحسن محمد (ت 950 هـ)، الدرر المكللة في فتوح مكة المشرفة، تونس، دار المنار، د. ت.

البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279 هـ)، فتوح البلدان، بيروت، دار الكتب العلمية، 1398 هـ

التميمي، سيف بن عمر الأسيدي (ت 180 هـ)، الردة والفتوح، تحقيق قاسم السامرائي، ط 2، الرياض، دار

أمية، 1418 هـ

ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت 852 هـ)، تهذيب التهذيب، 12 جزءاً، حيدر آباد، دائرة المعارف، 1325 هـ

(11824/1)

ابن حجر، تقريب التهذيب، ج 1، 2، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، ط 2، بيروت، دار المعرفة، 1395 هـ

الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم الأدباء، بيروت، دار المعرفة، د. ت.

الحموي، معجم البلدان، 5 أجزاء، بيروت، دار الكتاب العربي.

الحموي، معجم الأدباء، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت.

الخطيب البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد، 14 جزءاً، بيروت، دار الكتاب العربي، د. ت.

(11825/1)

أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (202 - 275 هـ)، سنن أبي داود، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط 2، القاهرة، مطبعة السعادة، القاهرة، 1369 هـ

الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 847 هـ)، سير أعلام النبلاء، 23 ج، ط 1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1405 هـ

الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي البجاوي، بيروت، دار المعرفة، د. ت.

ابن سعد، محمد (ت 230 هـ/ 845 م)، الطبقات الكبرى، 9 ج، بيروت، دار صادر، د. ت.

(11826/1)

ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد، المصنف، كراتشي، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، 15 ج، مع تكرار الجزء الرابع من 1: 4، 1406 هـ

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310 هـ/ 923 م)، تاريخ الأمم والملوك، الجزء 3 و4، بيروت، دار الفكر، د. ت.

ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري (ت 257 هـ)، فتوح مصر وأخبارها، لايدن، بريل، 1920 م.

ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ دمشق، مصور من نسخة المكتبة الظاهرية، المدينة المنورة، مكتبة الدار، 1407 هـ

(11827/1)

ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز (ق 4 هـ)، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، دار المعارف، 1415 هـ

الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، القاموس المحيط، بيروت، عالم الكتب، د. ت.

المزي، الحافظ جمال الدين أبو الحجاج يوسف (654 ـ 742 هـ)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق بشار عواد، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1402 هـ

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (ت 711 هـ)، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، القاهرة، دار

(11828/1)

المعارف، د. ت.

ابن النديم، أبو الفرج يعقوب بن إسحاق المعروف بالوراق (ت 380 هـ)، الفهرست، بيروت، مكتبة خياط، د. ت.

الواقدي، محمد بن عمر (ت 207 هـ)، فتوح أفريقيا، تونس، مطبعة المنار، 1966 هـ

..، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، القاهرة، مطبعة المحروسة، 1309 هـ

..، فتوح البهنسا، القاهرة، مطبعة بولاق، 1311 هـ

..، فتوح الشام، بيروت، دار الجيل، د. ت.

..، فتوح الجزيرة والخابور وديار بكر، تحقيق عبد العزيز فياض حرفوش، بيروت، دار البشائر، 1417 هـ

(11829/1)

..، الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة الشيباني، تحقيق يحيى الجبوري، ط 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1410 هـ

أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت 182 هـ)، الخراج، بيروت، دار المعرفة، 1399 هـ

ثانياً ـ المراجع:

بدران، عبد القادر (ت 1346 هـ)، تهذيب تاريخ دمشق، ط 2، بيروت، دار المسيرة، 1399 هـ
الحسين، زيد عبد المحسن، دليل الرسائل الجامعية في المملكة العربية السعودية، ط 2، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1415 هـ

(11830/1)

روزنتال، فرانز، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1403 هـ
سزكين، فؤاد محمد، تاريخ التراث العربي، المجلد الأول، الجزء الأول، ترجمة محمود فهمي حجازي، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1403 هـ
أبو سعدة، محمد جبرا، ابن عبد الحكم المؤرخ وكتابه فتوح مصر وأخبارها، القاهرة، 1399 هـ
صالحية، محمد عيسى، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، 5 أجزاء، القاهرة، معهد المخطوطات العربية، 1395 هـ

(11831/1)

علي، خالد سيد، رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء، ط 1، الكويت، دار التراث، 1407 هـ
كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 15 ج، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت.
المشهداني، محمد جاسم حمادي، موارد البلاذري عن الأسرة الأموية في أنساب الأشراف، ط 1، مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعي، 1407 هـ
الواعي، توفيق يوسف، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ط 1، القاهرة، 1407 هـ
النملة، علي بن إبراهيم، مراكز الترجمة القديمة عند المسلمين، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1412 هـ

(11832/1)

كنط والعصور الحديثة

الدكتور محمد سبيلا
كلية الآداب – الرباط

لم تشرع الحداثة الغربية في تلمس الوعي نجز انصرام إلا بعد انصرام ما يقارب ثلاثة قرون على انطلاق

ديناميتها في أوربا الغربية عند مطلع القرن الخامس عشر.

فقد انطلقت حركة الحداثة (التي هي التسمية الفكرية لمسمى تاريخي تحقيقي متداول هو . العصور الحديثة) مع أحداث تاريخية كبرى (أهمها اكتشاف العالم الجديد من طرف كريستوف كولومبوس سنة 1492**، وسقوط بيزنطة** 1453**...) وأحداث علمية وتقنية هامة (اكتشاف الطباعة مع غوتنبرغ سنة** 1440**، وفلكيات كوبرنيقوس**

(11833/1)

،41526**، واكتشاف الدورة الدموية . . .) وأحداث فكرية محددة (النهضة الفنية في إيطاليا، و أطروحات مازلن لوثر الاحتجاجية سنة** 1517**، وظهور كتاب "مقال في المنهج " لديكارت سنة** 1637**...).**

وتلك أحداث يأخذ بـ حضها برقاب بـ حض ضمن دينامية كلية لم تتوقف مسيرتها التي تتزايد سرعة ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي . وقد شكلت هذه الأحداث العلامات البارزة لسيرورة لم تنته أشواطها الكبرى إلى الان . فما تزال الحداثة تشكل الأفق المنظور للعالم

الحديث ، حتى ضمن ما يدعى بما بـ حد الحداثة الذي لا يعدو أن يكون مرحلة ثانية

(11834/1)

من مراحل الحداثة، مرحلة غيرت فيها هذه الأخيرة سرعتها وعمقت فيه منطقها.
هذه الأحداث والوقائع المتنوعة، المشتتة في المكان والزمان ، والتي أدرجها المؤرخون باكرا ضمن المرحلة التاريخية الجديدة (العصور الحديثة)، هي في الظاهر

أحداث لا رابط بينها باستثناء عملية إدراجها ونظمها ضمن تصنيف زمني لعصور ا لتاريخ .

أول مفكر تحقق لديه وعي واضح بالروابط العميقة الثاوية خلف هذه الأحداث ، واستنني حر جدتها الكلية بالقياس إلى ما سبقها، وفطن إلى الدلالة الفلسفية المشتركة بين هذه الأحداث المتناثرة والمتنافرة هو هيجل

(11835/1)

(Hugel). فمعظم مؤرخي فكرة الحداثة يؤكدون أن الحداثة لم تع ذاتها فلسفيا، وبشكل صرح وواضح ، إلا مع هيجل . فقد استعمل هذا الأخير مصطلح العصور الحديثة استعمالا خاصا يتميز عن المفهوم الزمني المتداول لدى المؤرخين ، والذي يشير إلى مجرد حقبة أخرى من حقب التاريخ وفق التصنيف التاريخي المتداول : عصور قديمة – عصور وسطى – عصور حديثة.

فالعصور الحديثة، في منظور هيجل ، هي عصور جديدة كل الجدة، عصور مختلفة نوعيا عما سبقها. العصور الحديثة بهذا المعنى تصف الحاضر على أنه فترة انتقال تستنفد ذاتها في الوعي بالتسارع

(11836/1)

من جهة، وبانتظار ولوقع لمستقبل مختلف نوعيا عن الحاضر وجذريا عن الماضي .

في مقدمة كتاب "فينومينولوجيا الروح "، يصف هيجل الزمن الذي يعيش فيه بأنه "زمن ميلاد وانتقال نحو حقبة جديدة. فقد قطعت الروح مع ما كانه العالم إلى حد الآن ، في وجوده وتمثيله . إن هذا الزمن الآن هو في طور

إغراق كل ذلك في الماضي ، كما أنه بـ حمل الآن على تمثله . إن الفلق الذي يداهم ما ظل باقيا إلى حد الآن ، والإحساس الغامض بـ (قدوم) شيء مجهول ، هي العلامات المبشرة بأن شيئا آخر (مختلفا) يتهيأ. إن هذا الانفتات . .. يقطعه بزوغ

(11837/1)

الشمس التي تحاول ، في رمشة عين ، ودفعة واحدة، أن تقيم صرح العالم الجديد"(1).

كان هيجل – فيما يرى هابرماس – هو أول من طرح مسألة قطيعة الحداثة مع الإيحاءات والإلهامات المعمارية للماضي التي هي غريبة عنها، في صيغة مشكل فلسفي "(2). ففي نهاية القرن 18 بدأت الحداثة تطرح على نفسها مشكلة العثور في

(1) HabermasDiscours philosophique de modernité gallimard 1985 7p

(2) المرجع نفسه ، ص 18.

ذاتها على مشروعيتها الخاصة، أو أن تستمد، بلغة

هابرماس ، ضمانتها من ذاتها. وقد اتخذت هذه المسألة صورة حادة لدى هيجل

(11838/1)

حيث تناولها كمشكل فلسفي ، بل كمشكل أسا!س في فلسفته . فبسبب غياب نماذج سابقة جاهزة، فإن الحداثة وجدت نفسها مرغمة على أن تجد توازنها، بل توازناتها، انطلاقا من الانقطعات التي أحدثتها هي ذاتها، وهي الانقطاعات التي نتجت عنها اختلالات ولدت قلقا اعتبره هيجل مصدر الحاجة إلى الفلسفة. وذلك من حيث أن الفلسفة بدأت ترى ذاتها، ابتداء من ذلك الوقت ، مكلفة بترجمة عصرها وزمنها إلى أفكار. بل إن هيجل مقتنع تماما بأنه يستحيل التوصل إلى المفهوم الذي تدرك به الفلسفة ذاتها خارج مفهوم الحداثة(3) .

(11839/1)

إن سؤال الحداثة إذن ليس مجرد سؤال – من بين عدة أسئلة – في حين على الفلسفة أن تطرحه على نفسها، بل ربما كان هو السؤال المركزي ، سؤ"ل الأسئلة الذي

يطرحه العصر على نفسه من خلال الفلسفة ليفهم ذاته رب حرف ماهيته ومعناه ويستشرف مآله .

لكن إذا لم يكن هناك جدال في كون هيجل هو الرائد الأول للوعي الفلسفي بالحداثة، فإن هناك اختلافا كبيرا وتباينا واضحا حول موقع كنط من الحداثة وحول مدى وعيه بها.

يزيد هذا الموضوع بلبلة وارتباكا كون فلسفة كنط قد ظلت منذ اكتمالها محط تأويلات مختلفة، كما شهدت الساحة الفلسفية في

(11840/1)

ألمانيا وفرنسا بالخصوص موجات من الكنية الجديدة، تبلورت في ألمانيا عبر مدرستين كبيرتين . مدرسة ماربورج ومدرسة هيدلبرغ . ركزت المدرسة الأولى على الإبستمولوجيا، والعلم ، ونقد كنط للميتافيزيقا، في حين ارتبط أتباع المدرسة الثانية بالفلسفة الحيوية المعادية للعلوم الطبيعية والمناوئة لعقلانية عصر التنوير، ولمحاولات فهم حياة الإنسان فهما علميا(9).

(3) المرجع نفسه ، ص 19.

(4) صادق جلال العظم ، دفاعا عن المادية والتاريخ ، بيروت ، دار الفكر الجديد، 1990، صص85–94. Atlas de philosophie T,F, Paris, p1993.

(11841/1)

174

تبين التأويلات المسايرة لمدرسة ماربورج بأن كنط قد عمل على التوفيق بين التفسير الميكانيكي للطبيعة والتفسير الغائي . فهو، على غرار ليبنتس ، يقيم نظام الكون على الغائية، لكنه لا يذهب إلى حد المغالاة الليبنتسية المتمثلة في مفهوم التناسق الأزلي ! إذ يرى أن القوانين الكلية المتحكمة في الطبيعة تعمل بالضرورة وبالفطرة في انسجام مع النظام الكوفي دون أن تخرج عن سياقها الغائي . وهكذا عمل كنط على التوفيق بين الفكر الطبيعي المدرسي، وفكر الطبيعة الحديث عن طريق إثبات القوانين الميكانيكية الكامنة في

(11842/1)

الطبيعة، معارضا النزعات والاتجاهات المدرسية، لكنه في الوقت نفسه يقر بوجود عقل كلي ناظم للقوانين الميكانيكية التي تحكم المادة وتحقق لها الانسجام والوحدة والاطراد، وتحميها من الصدفة والعبث (5).

فوكو : كنط عتبة الحداثة :

وعلى النقيض من هوسرل الذي يرفض أن يرى في الكنية عتبة الحداثة، من حيث إن إشكاليتها تماثل إشكالية ديكارت وترتكز عليها ، فإن هيدجر يعتبر كنط مؤسس أو رائد (L'instigateur) الحداثة الفلسفية : فالمحدودية الأساسية للكائن البشري التي تولدها وتعكسها س حرفة الظواهر عن طريق الحدس الحسي لا

(11843/1)

الحدس العقلي تمحو المعرفة التمثيلية المميزة للعصر الكلاسيكي لصلح، مدلول
التمثيل (6).

يقتفي فوكو أثر هذا التحليل الهيدجري تقريبا، ومعتبرا كنط "عتبة حداثتنا"، فهو الفيلسوف الذي

سيجعل الفلسفة تهتم بالإنسان ، لأن عتبة الحداثة لا تتجسد في اللحظة التي تم الاتجاه فيها إلى دراسة الإنسان دراسة موضوعية، بل عندما أصبح الإنسان وحدة تتشكل من عنصرين : التجريبي والمتعالي ، وهي القسمة التي ظهرت مع كنط ومهدت لظهور الإنسان كموضوع على سطح المعرفة وتناوله من زاويتين (7).

(11844/1)

---

(5) محمد عثمان الخشت ، فلسفة الدين في ضوء تأويل جديد للنقدية الكنطية، دار غريب ، القاهرة،ص 91.

(6) G.Leblanc, Le conflit des modernités selon Foucault In magazin littéraire n 309 avril 1993 p57. Voir heidegger kant et le probléme de la métaphysique pp 86-95.

(7) foucaut, les mots et les choses, gallimard, 198 p320.

إلا أن فوكو يتناول حداثة كنط من زاوية أخرى هي علاقته بالتنوير، وذلك من خلال تحليل نصه الشهير . "ما هو عصر التنوير ؟". يكتسي هذا النص أهمية مزدوجة بالنسبة لفوكو : أولا من حيث

(11845/1)

انتماؤه إلى مجال خاص من القضايا التي فعالجها الفلسفة، وهو مجال التاريخ والأحداث . فهو يتناول هذا الحدث التاريخي، محاولا أن يفهم تيمته وتأثيره على الأحداث اللاحقة له . ومن ثمة، فإن هذا المقال بعكس وعي الفيلسوف بالعصر الذي ينتمي إليه ، وبالأحداث التي ستغير وجه ووجهة التاريخ . ثانيا أهمية هذا النص بالنسبة لمشكلة الحاضر وسؤال الحاضر. يلاحظ فوكو أن كنط كتب حول التاريخ ، لكن نص "ما هو عصر التنوير ؟" نص متميز من حيث إنه لا يبحث في مسألة أصل التاريخ أو مشكلة التقدم ، بل هو نص يطرح سؤال الحاضر ومسألة

(11846/1)

الآن أو الراهن ، مقحما على السؤل حول التنوير سؤالا آخر في غاية الأهمية هو: "هل نحن نعيش الآن قرنا مستنيرا ؟"، محاولا استبانة تميز العصر الراهن عما سبقه من عصورهم مما ب حله ربما أول فيلسوف يتخذ من عصره وحاضره موضوعا للتفكير. الجديد لدى كنط هو أن الفكر

لم يعد مكتفيا باتخاذ موقف من الفكر السابق بالقبول أو الرفض ، ولم يعد يقتصر على التساؤل عما إذا كان القدماء أفضل من المحدثين أو العكس ، بل أخذ يطرح مسألة الراهنة(8).

(11847/1)

لكن فوكو يرى أيضا أننا لا يمكن أن نفصل سؤال التنوير عن سؤال آخر يتبين فيه أن ما كان يهم كنط ليس الثورة في حد ذاتها، بل الآثار المتبقية في أذهان الناس الذين لم يعيشوا مخاضها. ما كان يهم كنط هو الإصلاح الفكري والثقافي وتمكين جمهور المواطنين من قسط من الحرية يسمح لهم بأن يفكروا بتلقائية.

فالثورة والتنوير حدثان لا يمكن نسيانهما، لأنهما يطب حان عص! ر كنط ويمثلان حضورا وراهنية لا يمكن التغاضي عنها. إن هذين السؤالين – فيما يرى فوكو – ما فتئنا يترددان على جزء كبير من الفلسفة منذ القرن 19 إن لم نقل على

(11848/1)

كل الفلسفة الحديثة". إن هذين السؤالين يحددان ويوجهان مجال التساؤل الفلسفي عن هوية وجودنا في الآنية التي نعيش فيها(9).

(8) Foucault, Qu'est ce que les lumiéres voir aussi le cours 1993 309magazin littéraire n 35pp 1984 207publié in magazin littéraire n –39.

(9) فوكو، "كنط والثورة"، مجلة الكرمل ، العدد 12، سنة 1984 ، صص 70–71.

بهذين السؤالين إذن يكون كنط قد مهد لفلسفة تهتم بأنطولوجيا الحاضر التي حضرت بقوة في الفكر الألماني من هيجل إلى نيتشه إلى ماكس فيبر وهيدجر.

(11849/1)

وهكذا، فإن كنط يمثل – في نظر فوكو – "عتبة حداثتنا" سواء من المنظور الأنتربولوجى أو من المنظور اجميولوجي أو من حيث الكتابة عن تاريخ الحاضر. وهذا ما دفع البعض إلى القول بأن كنط يمثل – في نظر فوكو – نقطة التقاء العديد من مسارات الحداثة وروافدها، بل

نقطة التقاء صراعاتها ومخاضاتها الفكرية المختلفة وكأنها حداثات متقاطعة لا مجرد حداثة واحدة(10).

هابرماس : الفلسفة الكنطية مرآة الحداثة

يذكر هابرماس أن هيجل يرى أن ماهية العالم الحديث تتركز (Se concentre) في فلسفة كنط التي هي بؤرة (foyer) هذا العالم ،

(11850/1)

ونوع من التأويل الذاتي له ()(11Autoexégése)، وأن عصر الأنوار الذي جعل من العقل صنما يعبد، وينعكس ويلمع (culmine)في فلسفة كنط (12).

إلا أن هابرماس يعود إلى التأكيد بأن كنط "لم يفهم الحداثة كما هي ، وإن كان معماره الفكري قد عبر عن العالم الحديث . فالسمات الأساسية لهذا العصر تنعكس (se reflétent) على الفلسفة الكنطية كما لو كانت مرآة..

إن أساس فلسفة كنط هو فلسفة الذات والتأمل (أو الانعكاس) (Philosophie de la réflexion). فهذه

الفلسفة هي القاعدة الفلسفية التي أقام عليها كنط أنماط النقد الثلاثة

(11851/1)

التي شكلت البنية العامة لفلسفته ، منصبا العقل النقدي محكمة عليا قي حين أن يخضع لحكمها وقرارها كل شيء ولا يستمد صلاحيته إلا منها. قوام هذه الذاتية الفلسفية هى الذاتية المجردة كما عبر عنها الكوجيتو الديكارتي ، و"لوعي المطلق بالذات عند كنط، وتعني علاقة الذات العارفة بنفسها من حيث إنها تنكب

leblanc le conflis des modernités selon

(10Foucault (

(11) Habermas, le discours philosophique de la modernité, t.f. gallimard 1984, pp.22–23.

(12) **المرجع نفسه ، ص** 28.

(11852/1)

على ذاتها كموضوع ، من أجل إدراك ذاتها، وكأنها أمام صورة مرآوية، أي بصورة انعكاسية(13).

أول مظاهر الانعكاس هو استبدال كنط للمفهوم الجوهري الموحد للعقل ، وهو المفهوم المتوارث عن التراث الميتافيزيقي السابق ، بعقل مقسم إلى عناصر لا تقوم بينها إلا وحدة صورية. فكنط يفصل بين ملكات ثلاث ، أي بين العقل العملي ، والحكم الجمالي ، والمعرفة النظرية، مرسيا كل واحدة منها على أساس خاص . ومن حيث أن العقل النقدي يقدم أساس إمكانية المعرفة النظرية والحكم الأخلاقي والتقييم الجمالي ، فإنه لا يكتفي بالتأكد من ملكاته

(11853/1)

الذاتية، ولا بإبراز البنية المعمارية للعقل ، بل يريد أن يلعب دور الحكم أو القاضي الأعلى تجاه مظاهر ومكونات الثقافة كلها. وبذلك تصبح الفلسفة هي الراسم لحدود دوائر الثقافة برمتها كال ملم والتقنية، وكالقانون والأخلاق ، ومثل الفن و"لنقد الجمالي ، وفق معايير صورية، مضفية المشروعية عليها داخل هذه الحدود.

كانت هذه النشاطات العرفية (العلم ، الأخلاق ، الفن) قد أخذت في تحقيق قدر من التمايز والاستقلال الذاتي

(إيستمولوجيا ومؤسسيا) ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر. فمن الزاوية العرفية بدأت كل من هذه

(11854/1)

الفروع المعرفية تطرح على نفسها مسألة الصلاحية والصدقية، بصورة مستقلة انطلاقا من إشكالات خاصة ومن معايير خاصة. هكذا بدأت هذه الفروع المعرفية تطرح على نفسها المسائل المتعلقة بالحقيقة في مجال المعرفة، وبالعدل في مجال الأخلاق والقانون ، وبالذوق في مجال الجماليات.

وهذه التمايزات الإبستمولوجية والفلسفية بين الأنشطة العرفية قد حدثت ولبلورت على أرضية دينامية أعم تمثلت في تمايز واستقلال دائرة المعرفة عن دائرة الاعتقاد(14) (وهو التمايز الذي أشار إليه هيجل في دراسة له بعنوان "المعرفة والإيمان ").

(11855/1)

---

(13) **المرجع نفسه ،ص** 22.

(14) Habermas discours pp 22–23.

ديناميةهذه التمايزات المعرفية، التي كانت قد تبلورت في نهاية القرن الثامن عشر، هي مظهر أساسي من ديناميةمظاهر الحداثة، وذلك وفق المنظور الفكري لماكس فيبر (M.weber) **الذي ينطلق منه هابرماس كقاعدة فكرية لتحليل ديناميةالحداثة.**

يرى ماكس فيبر أن هناك علاقة داخلية حميمية وتلقائية بين الحداثة والعقلنة (rationalité). **فعلية نزع الطابع السحري عن العالم التي تفتتت وتفككت معها التصورات التقليدية القديمة للعالم ، ولدت بنفس الوقت ، ثقافة دنيوية وفق**

(11856/1)

سيرورة عقلية . وهكذا استقلت العلوم التجريبية الحديثة، والفنون والنظريات الأخلاقية والقانونية القائمة على أساس مبادئ شكلت دوائر من القيم الثقافية مكنت من إقامة ممارسات تحكمها مشروعيات داخلية خاصة بالإشكاليات النظرية والجمالية والعملية

الأخلاقية(15).

جوهر عملية التحديث عند ماكس فيبر هو عملية العقلنة التي طالت المجتمع والثقافة الحديثين . ووجها العقلنة هما علمنة الثقافة الغربية الحديثة وتنمية وتطوير المجتمع الغربي الحديث. وقد تميزت البنيات الاجتماعية الجديدة، المتولدة عن دينامية التحديث والعقلنة،

(11857/1)

بتمايز منظومتين تبلورتا حول محورين أو نواتين تنظيميتين هما المنشأة الرأسمالية والجهاز البيروقراطي للدولة. وهذه العقلنة، في وجهيها الانجتماعي والثقافي ، تغزر كافة مناحى الحياة اليومية ذاتها وَلفتت أشكال الحياة التقليدية ذاتها حيث تفقد هذه الأخيرة تلقائيتها الطبيعية وتخلي الساحة لعاير عقلانية حسابية شمولية صارمة قوامها الفردانية وحرية الاختيار(16).

ويرى هابرماس أن هذه الدينامية من التمايزات والاستقلالات ، التي اعتبرها فيبر جوهر عملية التحديث ، قد وجدت صدى وامتدادا لها في فلسفة كنط. لكن هذا

(11858/1)

الأخير – في نظر هابرماس – لم يعان أبدا هذه التمايزات، التي قسمت العقل ، كشروخ وانفصالات (Scissions). لقد انعكست على فلسفته ، لكنه لم يفهم أساسها

(54) **المرجع نفسه ، صص** 1–2.

(16) **المرجع نفسه ، ص** 2.

البعيد. وهكذا ظل كنط – في نظر هابرماس – يجهل الحاجة التي ظهرت على أثر الانفصالات التي فرضها مبدأ الذاتية، أي الحاجة التي فرضت نفسها على الفلسفة، الحاجة إلى التفكير في الحداثة كفترة تعني انفصالها عن الماضي ، وعن نماذجه ، ولتستقي معاييرها الخاصة من ذاتها، ولتكتسب مشروعيتها من نفسها(17).

(11859/1)

إلا أن الطريف في الأمر هو أنه إذا كان هابرماس يعتبر فلسفة كنط مرآة لدينامية الحداثة، دون أن يكون قد

فهم جوهرها واليتها، فإنه من زاوية أخرى، وفي موضع آخر، يعتبر هذه الفلسفة هي المنطلق الأول البعيد لما بعد الحداثة. فتمييز كنط بين العقل (raison) والذهن (أو الفهم أو الفاهمة) (entendement) هو – فيما يرى هابرماس – منطلق نقد التصور الذاتي الصرف للعقل ، أي نقد للعقل الذاتي وللعقل البارد والمتشيء. وهذا يدلنا على مدى التبكير في نقد الأشكال القصحية للعقل ، وخصوصا عندما يكون العقل محصورا بـ حد واحد. أي بعد

(11860/1)

التشيؤ البارد والموضوعاتي ، أو بـ حد التلاعب الأداتي بالطبيعة وبالبشر. وهكذا يعتبر هابرماس أن النقد الذاتي للعقل وللذاتية، الذي اعتبر بمثابة الشيء الجديد كليا عند نيتشه، كان في الواقع موجودا منذ لحظة كنط (18).

لوك فيري (L.ferry) : كنط مفكر الحداثة

ينسب الفيلسوف الفرنسي العاصر لوك فيري نفسه، باعتزاز، إلى الكنطية الجديدة مؤكدا على راهنية كنط ، وعلى ما يسميه باللحظة الكنية التي تتلخص – في

نظره – في إسهامين رئيسيين طبعا الفكر الغربي منذ تلك اللحظة إلى الآن ، وهما : العلمانية الفلسفية، ومسألة

(11861/1)

الذاتية.

بالنسبة للنقطة الأولى يبين لوك فيري أن "نقد العقل الخالص" يتضمن قلبا جذريا للعلاقة بين المتناهي واللامتناهي، وهى النقطة التي التقطها هيدجر بكامل الوضوح . فنقد العقل الخالص – بخلاف الديكارتية – وضع نظرية في التناهي

(17) المرجع نفسه ، ص 23.

(18) هابرماس ، "حتى نكون حداثيين إطلاقا"، (حوار)، مجلة الفكر العربي المعاصر، صص . 123–124.

سوف تضفي طابع النسبية على المطلق . فالفلسفة الغربية للقرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين كانت تنظر إلى التناهي انطلاقا من المتناهي . المنطلق هو الكائن

(11862/1)

المطلق بالمقارنة مع الإنسان ككائن ناقص ومتناهي.
وهذا هو المسار الذي سلكه كل من ديكارت وسبينوزا وليبنتز حيث يوجد المطلق أولا ثم يظهر الإنسان ككائن محدود، متناه ، ناقص ، وهو ما يعبر عن نفسه بالجهالة، والحساسية، والموت ، والخطيئة . . .
وإذا كان كنط – فيما يرى لوك فيري – هو الذي دشن الفضاء الفكري العلماني في الغرب ، وهو الفضاء الذي ما يزال ساريا وسائدا في أوربا والغرب عامة، والذي يؤطر ويوجه الفكر الأوربي عامة، فلأنه قد قلب)العلاقة السابقة مبتدئا بالتناهي والمحدودية كمنطلق أنتروبولوجيا ومعرفيا. وذاك

(11863/1)

هو المعنى الإسلامي "للحساسية المتعالية"، التي لم تعد علامة على التناهي الذي يجب أن يتجاوز بالاتحاد مع نوع من الحدس العقلي المتعالي ، بل هي علامة على الانعطاء الثابت للموضوع .

أما الإسهام الثاني الأساس لكنط، فيتمثل في أن كنط هو الذي دشن نقد الذاتية الميتافيزيقية، هذا النقد الذي ازدهر مع نيتشه ، وجعل الفلسفة الحديثة تدور.

حوله بدرجات متفاوتة(19).

يتبين إذن أنه ليس من اليسير تقديم موقف حاسم ونهائي لمسألة علاقة كنط بالحداثة ولمدى وعيه بها. فبعض الدارسين يرى أن (الثورة الكوبرنيقية)، التي ادعى كنط

(11864/1)

القيام بها هي في الو"قع "ثورة كوبرنيقية مضادة،)، لأن اتجاه الثورة الكوبرنيقية الأصلية كان نحو

(19) l.ferry kant, penseur de la modernité, in magazine littéraire, n 309avril 1993.

هنظر أيضا :

ferry et renault, systéme et critique, ousa, bruxelles, 1992D'un retour à kant, pp 156–157.

الواقعة في حين أن اتجاه الثورة الكوبرنيقية الكنطية المزعومة كان نحو المثالية(20)، وأن فلسفة كنط هي ارتداد عن فلسفة ديكارت (21) بينما يعتبره

البعض الآخر رائد الحداثة(22) ومفكر الحداثة، أو يعتبر فلسفته "بؤرة" العالم

(11865/1)

الحديث.

إلا أنه من الضروري الإشارة إلى أن هذه المواقف والتحليلات التي تنسب إلى كنط نوعا من الريادة في الحداثة، مواقف متفاوتة في تأكيدها لدرجة حداثية فلسفة كنط، بل إن بعضها يستعمل مصطلح الحداثة استعمالا خاصا. وهذا هو الحال بالنسبة لفوكو الذي يستعمل الحداثة (حداثتنا) بمعنى خاص ، أي بمي حنى إبيستميه الحداثة وهو الإبيستميه الذي ظهر بين نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن را والذي تميز بانبثاق الإنسان كذات فاعلة بموضوع للمعرفة.
والمعنى المسند للحداثة هنا معنى إبستمولوجي في الدرجة الأولى، ويرتبط

(11866/1)

بظهور العلوم الإنسانية بالخصوص. وهذا بالتأكيد معنى خاص للحداثة.

أما هابرماس ، فيدرج فلسفة كنط ضمن مخاض الحداثة باعتبارها عصر".كان في طور الانفلات النهائي من كل الإيحاءات المعيارية لنماذج الماضي ، وبصدد إعداد مشروعيته الخاصة واستمداد ومعياراته وضماناته الخاصة من ذاته . فهذه الانفلاتات والانبثاقات ولدت تمايزات واستقلالات على مستوى المؤسسات والبنيات الاجتماعية، وعلى مستوى الثقافة (علم – أخلاق – فن . . .) انعكست على الصرح الفلسفي الكنطي الذي سجلها دون أن يعيها. فكأن الحداثة هي من هذا الصرح بمثابة

(11867/1)

اللاوعي الذي يحدد الوعي دون أن يبلغ مرتبته .
وهابرماس يصادق في حكمه هذا على كنط على رأي هيجل حول هذا الأخير وحول التحولات الكبرى التي أحدثتها الحداثة، والتي تكاد تجملها الفقرة 124 من كتاب هيجل "مبادئ فلسفة الحق ، حيث يرد : "إن الحق في الحرية الذاتية هو محور ومركز الاختلاف بين العمصور الحديثة والعصور القديمة. وهذا الحق ، في لا تناهيه ، قد تم

التعبير عنه في المسيحية وأصبح فيها بمثابة المبدإ الشمولي الفعلي لشكل جديد من العالم. ومن بين التجليات

(11868/1)

---

(20) صادق جلال العظم، دفاعا عن المادية والتاريخ، بيروت، دار الفكر الجديد، 1990، ص88.

(21) المرجع نفسه، ص 93.

(22) ينسب إريك فيل (E.weil) إلى كنط الدور التاريخي المتمثل في إعداد فلسفة الوعي، أي الفلسفة الحديثة (انظر كتابه: E.weil, logique de la philosophie, Paris , Vrin, p. 275

القريبة من هذا المبدإ ندرج الحب و"الرومانسية واستهداف تحقيق السعادة الدائمة للفرد، إلخ. وكذا الأخلاقية والوعي (أو الضمير. م.)، ثم الأشكال الأخرى التي يشكل جزء منها مبادئ المجتمع المدني ويقدم عناصر تشكيل النظام

(11869/1)

السياس ، والتي يتجلى جزؤها الآخر في التاريخ ، وبالخصوص في تاريخ الفن ، وفي العلوم ، والفلسفة "(23).

هذه التحولات فعكسها فلسفة كنط دون أن تعيها وتفهم أساسها الفلسفي . فمصطلح العصور الحديثة منعدم الورود تقريبا في كتابات كنط ، وبالأحرى مصطلح الحداثة . فغياب المفهوم والتسمية مؤشر على غياب الفهم ، وعلى عدم القدرة على التشخيص .

لكن لفلسفة كنط سمة خاصة. فهي فلسفة تعيش مخاضا وتوترا حادا من حيث ارتباطها بالمضامين الفكرية السائدة في العصر وبالمحددات الإبستمولوجية للتفكير السائدة فيه. إلا أنها مخاض تجديد

(11870/1)

الإشكاليات التقليدية المهيمنة، مضمونا ولغة، مما برحلها تكون منطلق دينامية حداثة فكرية لم تتوقف عن التجدد حول قضايا التناهي، والعلمانية، والذاتية، والعقل ، والنقد. هذا، بالإضافة إلى تقديمها للأساس الإبستمولوجي لمشروعية المعرفة العلمية، ولشخيصها لجوهر فكر الأنوار من حيث أنه ثورة ضد التراث

والتقليد، ونقدها للعديد من المعتقدات المسيحية (ألوهية المسيح ، عقيدة التثليث ، عقيدتا الفداء والصلب ، عقيدة ملكوت المعجزات ..)(45) ومحاولة إقحام مضمون عقلاني في العديد من العقائد المسيحية، ومحاولة تأسيس

(11871/1)

الدين على الأخلاق .

(لأء) على الرغم من جودة الترجمات التي ينجزها إمام عبد الفتاح إمام لأعمال هيجل ، باعتباره من أكبر المتخصصين العرب ي هيجل ، فإن التدقيق ي ترجماته مجعلنا نكتشف بعض مظاهر عدم الدقة سواء في المصطلح أو في الدلالة. فمثلا كتاب هيجل المأخوذ منه هذا النص عنوانه "مبادئ فلسفة الحق)، وهو يترجمه "الأصول فلسفة الحق ". وكلمة السعادة الدائمة يستبدلها بالخلاص الأبدي . قارن بين النصين العربي والفرنسي (هيجل ، أمول فلسفة الحق ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، القاهرة، 1981، ص 241–163–

(11872/1)

Hegel , Principes de la philosophie du droit
p 1975paris vrin

(24) الخشت ، مصدر مذكور آنفا، القسم الثاني.

(11873/1)

كيف تطورت الآلة الإشبيلية والطرب الغرناطي في المهاجرات الأندلسية المغرب

الدكتور عبد العزيز بنعبد الله
عضو أكاديمية المملكة السعودية –الرباط

... أحاول في مبحثي هذا الكشف عن بعض مجالي الفن الموسيقي كما فعلت في خصوص الفن المعماري، وهما مظهران لحضارة المغرب التي أفردت لها منذ الأربعينيات العديد من الدراسات باللغتين العربية والفرنسية. فهو بحث تاريخي لا يزعم التقصي والاستيفاء للتنظيرات والتسطيرات المعمارية ولا للألحان والأوزان الموسيقية، وإنما هو استجابة عفوية زاوجت دواعي السوق ومازجت بواعث الذوق

(11874/1)

دون أن تتجاوز حدود الطوق، وكلاهما جزء من "موسوعة رباط الفتح" المرتقبة النشر.

... والواقع أن الذي أقحمني في هذا المجال، وإن كنت فيه مزجى البضاعة بمعزل عن أعالي بحوره، هو والدي العلامة الشيخ عبد الواحد بنعبد الله الذي ضم للضلاعة في العلوم الإسلامية الإمامة في فن الموسيقى؛ فكان له وثيق الصلة بأربابه أمثال المطيري والجعيدي والبريهي والحاج محمد التازي والفنانين الطيب بلكاهية والسبيع والوكيلي ورئيس الجوق الغرناطي أحمد بناني وكثيرين غيرهم.

(11875/1)

... وإذا كانت الموسيقى قد تقلص نشاطها في العدوتين (الرباط وسلا) وتطوان، بينما ازدهرت بفاس في عهد بني مرين، فما ذلك إلا لكون العاصمة الإدريسية كانت في مأمن من هجمات الإيبيريين الإسبان والبرتغاليين الذين كانوا يغيرون على سواحل المغرب في كل من البحر المتوسط والمحيط حيث احتلوا جيوبا ولم يستطيعوا السطو على مارتيل ومصب أبي رقراق، لأن

سكان المنطقتين من المهاجرين الأندلسيين والأصلاء كان قد شغلهم الاستعداد الموصول لحماية هذا القطاع عن كل ما سواه.

(11876/1)

... وقد انطلقت مزاهر الآلة الإشبيلية والطرب الغرناطي معا في رباط الفتح منذ انبثاق الدولة العلوية، خاصة المولى محمد بن عبد الله الذي اتخذ من المدينة حاضرة سلطانية على غرار فاس ومراكش ومكناس الإسماعيلية. فأقام قصره العامر بأكدال. وتابع نجله المولى سليمان عمران الحاضرة الموحدية ببناء "قصر القبيبات" أو "دار البحر"، وأصبح منذ ذاك لمنطقة أبي رقراق مكانة ديبلوماسية بعد أن صار قناصلة الدول الأوربية يقدمون أوراق اعتمادهم بها للمولى عبد الرحمان الذي أقام الأبراج والدور الجميلة وسط جنان وحدائق غناء زرعت

(11877/1)

خارج السور العلوي الذي اتسعت بوجوده رحاب المدينة حيث امتد من البحر جنوبا للالتقاء بالسور الموحدي المحاذي للقصر الملكي. وبقدر ما عزز المولى سليمان أبراج الدفاع عن "رباط الفتح" ببطاريات تحمي الساحل من جهة "دار البحر"، واكب حركة ازدهار الفن الموسيقي فصنف رسالتين اثنتين هما:

... 1- "إمتاع الأسماع بتحرير ما التبس من حكم السماع"، نسخة بمكتبة دبلن، جيستر بيتي في لاهاي رقم 4132، (م=118-81).

... 2- "تقييد في حكم الغناء"، الخزانة الحسنية بالرباط، 4864 و6430).

(11878/1)

... وقد بادر المولى محمد بن عبد الرحمن بعد استكمال بناء قصره الجديد، وهو البلاط الحالي في المشور السعيد. فأقام حفلا رائعا دعا له المسمعين المطربين من العدوتين (الرباط وسلا). وقد انضاف إلى هذا الفن السمعي الرائع فن الخطاطة (Calligraphie) في شخص الأديب الشريف مولاي أحمد الرفاعي القسطالي الرباطي(1) الذي اتخذه المولى سليمان مربيا لأولاده بالرباط وعينه واليا على فاس ونال الحظوة نفسها من

(1) صاحب المنظومة في صناعة الخط المسماة "نظم لآلي السمط في حسن تقويم بديع الخط"، نسخة في الخزانة العامة بالرباط

(11879/1)

خلفه المولى عبد الرحمن. وبذلك ازدهر في رباط الفتح فنان اثنان من أبرز الفنون السمعية البصرية (arts audio-visuels).

... ولعل اضطلاع كل من السلطانين العالمين المولى سليمان والمولى عبد الرحمن(1) بتركيز الفن الموسيقي برباط الفتح قد فسح المجال لظهور علماء أفذاذ برعوا في هذا الفن، وفي طليعتهم العلامة الشاعر قاضي العدوتين أحمد بن أحمد

(1) ذكر أبو المواهب سيدي العربي بن السائح في "إفادات وإنشادات" (مخطوط في خع)، أن المولى عبد الرحمن بن هشام كان ممن يروى عنه "صحيح البخاري" ويؤخذ عنه، وكان عالما بالحديث.

(11880/1)

الحكمي الذي تفرد في وقته بالفنون الأدبية كالموسيقى؛ علاوة على ضلاعته في الأصول والفقه. وعده سبطه شيخ الجماعة إبراهيم بن محمد التادلي من العارفين المبرزين في هذا المجال ("الاغتباط"، ص.33). وقد صنف عالم صوفي هو الشيخ فتح الله بن أبي بكر بناني كتابه المطبوع بالرباط "تسمية الأتباع ببعض ما يتعلق بحكم الطرب والسماع".

... على أن الشيخ العلامة إبراهيم بن محمد بن عبد القادر التادلي الرباطي قد أوغل في تحقيق وتدقيق بعض معالم هذا الفن حيث ألف كتابا في "الصيكا" سماه "أغاني السيقا ومغاني الموسيقى" أو

(11881/1)

"الارتقا إلى علم الموسيقى" (نسخة بالخزانة العامة بالرباط 1821د /109 [66 ورقة]). وعلى هذا المنوال النموذجي سار العلامة علي بن محمد بن عبد الواحد الزجلي في كتابه "أغاني الصيكا"، وهي ألحان مازلنا نستمع إليها في جميع أنحاء البلاد الإسبانية على نسقها العربي الأصيل نفسه. وقد ذكر الصفاقسي في كتابه "قانون الأصفياء" أن السيكاه أصله عربي بالصاد، ثم نقل إلى العجم فبدلوا الصيكة. استخرجه صيكة بن

تميم العراقي، ثم نقل إلى أهل فارس (مجلة "الأقلام العراقية"، ج4، السنة الأولى، 1384هـ/1964م).

(11882/1)

... وقد تبنى علماء كل من فاس ورباط الفتح هذا الفن، فأطلقوا على ما اخترع من طبوعه كلمة "مدرج". وهي من مصطلحات علم الحديث النبوي الشريف كما يقول شاعر المحدثين الحافظ العراقي:

ومدرج الحديث ما ألحق في ... أوله أو وسط أو طرف

... وفي طليعة علماء الرباط الذين ولعوا بالعزف على الرباب الشعبي (الكنبري) قاضي الرباط ووزير العدل في العهد اليوسفي محمد الرندة.

... وكان أهل الرباط قد سجلوا موشحات وأزجال الآلة الأندلسية في وثائق خاصة يستحضرها حتى الهواة في أجواقهم، لأن الموسيقى والتغني بها اندرجت في أبرز عادات

(11883/1)

وتقاليد المجتمع الرباطي. وكان من بين العوام رجالات أتقنوا الخمسة والخمسين مثل الموسيقار إبراهيم بن محمد الجزولي الرباطي (وهو من آل لميرو الأندلسيين المتوفى عام 1325هـ/1907م) ("الاغتباط" لأبي جندار، ج2، ص.22).

... وقد عرفت من بين هؤلاء رجلا هو عمي محمد بنعبد الله المتوفى عام 1937م. كان حرارا يصنع "المجاديل"، يتغنى طول النهار بالنوبات الخمس والخمسين في تواجد وهيام. ويرجع الفضل في تدوين الموسيقى للحسن بن أحمد الحايك الأندلسي التونسي التطواني (1130هـ/1717م) الذي جمع هذه الموشحات في كتاب "الحايك"

(11884/1)

الذي اشتمل على جميع نوبات وطبوع آلات الطرب. وهذا الكناش لم يبق على ترتيبه الأصلي، بل نسق بترتيب الفقيه الوزير محمد بن المختار الجامعي. وقد أورد خطبته أبو إسحاق التادلي في "أغاني السيقا" (ليفي بروفنصال في "مخطوطات الرباط العربية"، ص.196، خع 8د (60 ورقة) / خع=488د).

... وتوجد نسختان في كتاب "الوزير الجامعي" في

خع=1327د/8د؛ وكذلك خطبة لتأليف في الموسيقى خع 1031د.

... ولعل أبرز ظاهرة موسيقية برباط الفتح وجود جوقة للخمسة والخمسين بالقصر الملكي تعزف على مزامير نحاسية في أزيائها الأندلسية الزاهية، وهي

(11885/1)

الجبادولي ذو اللونين الأخضر والأحمر، تيمنا بلوني الراية المغربية. ومن مظاهر شعبية الموسيقى الأندلسية بالرباط أن الفقيه مدرر "مدرسة أبناء الأعيان بالرباط" كان يدربنا آخر الثلاثينيات على مقطوعات من رمل الماية خارج البرامج.

... ولم يكن علم الموسيقى مجرد هواية في رباط الفتح، بل أصبحت الألحان تحرك الوجدان وتضبط خلجات الجنان تهذيبا للأنفاس وضبطا للأعصاب. ومعلوم أن مستشفى سيدي فرج بفاس كان يعالج الأمراض العصبية بالموسيقى منذ عهد السعديين في القرن العاشر الهجري، أي قبل أن تعرف أمريكا وأوربا موسيقى

(11886/1)

الروك (Rock an roll) الهادفة للغاية نفسها؛ وكذلك الموسيقى الأمريكية المعروفة بـRythm and blues.

وقد وردت علينا من الصين الشعبية أواسط الثمانينيات أنباء تفيد قيام الصين بأبحاث لعلاج الأمراض العصبية بالموسيقى. فانضافت تجربة العلاج النفساني هذه إلى تجربة العلاج العضوي المعروف في الصين بالنقطية أو الوخز بالإبر (Acupuncture) والتي أتيح لي أن أشاهد بعض مظاهرها خلال رحلتي إلى الصين عام 1965م إبان الثورة الثقافية. وقد ظهر في هذا الموضوع أيضا بحث لسليمان الحوات (1231هـ/1816م) عنوانه "كشف القناع عن تأثير

(11887/1)

الطبوع في الطباع"، نسخة في خم (=الخزانة الحسنية بالرباط، 4229).

... غير أنه لا يمكن أن نتعرف بعمق مدى تطور الآلة الأندلسية بشقيها الإشبيلي والغرناطي في المهاجرات، وخاصة رباط الفتح، إلا إذا استعرضنا تطور الفن الموسيقي عبر العصور في مختلف جهات المغرب التي احتضنت وطورت هذا التراث العربي الأندلسي الرائع.

... فقد ظهرت بوادر هذا الفن في كل من فاس ومراكش

منذ أواخر الموحدين وازدهرت معالمه خاصة في فاس أيام بني مرين وبني الأحمر أمراء غرناطة، ولكن الاضطرابات والفتن التي شبت أواخر السعديين وقيام نوع من

(11888/1)

أمراء الطوائف(1) في المغرب حالت دون استمرار هذا الازدهار إلى أن ظهر المولى إسماعيل العلوي بعد مرور بضعة عقود من السنين على جواز آخر فئة من الموريسكيين المطرودين من الأندلس، فاستتب الأمن واطمأن الفكر وعاد الماء إلى مجراه مع تجدد مظاهر هذا الفن بإضافة عناصر جديدة تفتقت عن تجمع حافل ضم الفكر الأندلس في أصالته والفكر المغربي في حيويته وطرافته.

---

(1) أمثال عبد الله أعراس في الحسيمة والخضر غيلان في الهبط والدلائيين في الجبل وكروم الحاج في مراكش وأبي حسون بودميعة في سوس.

(11889/1)

... وقد انضاف إلى فن الموسيقى خينذاك فن جديد هو السماع المرفق بالآلة، فبرز منذ العهد السليماني ليكتمل خلال عهد المولى الحسن الأول في نهاية القرن الثالث عشر.

... وكانت فئات المهاجرين قد انتقلت في الفترة نفسها أوائل القرن الحادي عشر الهجري ضمن حشود وفيرة إلي الجزائر وتونس ومصر والقسطنطينية؛ كما انتشر قسم منها في مقاطعات إسبانية خارج الأندلس وأشتات أخرى شكلت طلائع التروبادور (Troubadours) في جبال "المور" بجنوب فرنسا. وكان للمارانوس (Maranos)، وهم موريسكيو(1)

---

(1) الموريسك أو الموريسكيون كلمة إسبانية أطلقها الإسبان على الأندلسيين المنصرين والمهجرين قسرا في القرن السادس عشر الميلادي، أي العاشر الهجري، ولا يعرفون في المراجع العربية إلا بالأندلسيين.

(11890/1)

اليهود، دورهم في إسهامات لها ميسمها الخاص. فهي إذن موسيقي عربية أندلسية مغربية تجذرت أصولها على ضفاف الرافدين، وانتقلت مع زرياب إلى الأندلس الرطيب

حيث تأثرت بعوامل مغربية ظلت خلوا من كل عنصر إسباني، وأثرت عي الأخرى في الموسيقى الأوربية، وخاصة الألحان الكنسية. وقد أدرج المغاربة في هذه الموسيقى الشرقية طبوعا وموازين وصنائع، مما أضفى عليها طابعا مغربيا في كثير من الحالات بجانب الأصول الراقية الأندلسية.

(11891/1)

... وتنقسم هذه الموسيقى لي وحدات أو نوبات لكل منها نغمة خاصة تسمى الطبع. وهذا الطبع يتكون بدوره من نقط خاصة. ويصل عدد الطبوع إلى ثلاثمائة وستة وستين على عدد أيام السنة الشمسية.

... والتلحين عند الآليين معناه وضع قطعة موسيقية للتعبير عن عاطفة وإفراغها في نغمات ينسق فيما بينها في توليف متجانس يتكون منه طبع يسبك في "ميزان" مناسب، طبقا لإيقاع خاص له وحدة تؤدى في زمن محدد تسمى "الدور". وقد بلغ عدد الموازين في الأندلس أربعة، أضاف إليها المغاربة ميزانا خامسا هو الدرج. سمي بذلك، لأنه مدرج بين الموازين

(11892/1)

وهو خاص بالآلة الإشبيلية لا يوجد في المألوف التونسي ولا الغرناطي الجزائري، في حين أن الموازين الأخرى هي البسيط والقائم ونصف والبطايحي والقدام. ويضبط كل ميزان بما يدعى التوساد، أي الضرب بالآلة المسماة الطر أو باليدين، الراحة على الراحة. وكان بدل التنويط العصري هو النوطات السبع لا إله إلا الله محمد رسول الله. وما زال المغاربة يحفظون من النوبات إحدى عشرة تتناسق مع موازين عددها خمسة وخمسون. وقد لاحظ الأستاذ محمد الفاسي أن هذه الموازين ضاع منها ثلاثة هي قائم ونصف الرصد وقائم ونصف الحجاز المشرقي ودرج

(11893/1)

رصد الذيل التي تأمل جمعية هواة الموسيقى العثور عليها. وقد شاطرها والدي رحمه الله هذا الجهد، متعاونا مع رئيسها الفنان الحاج إدريس بن جلون.

... والموسيقى تسمى "الآلة" بالمغرب، والموسيقار هو "الآلي". وقد وردت هذه التسمية في "نزهة الحادي" عند الكلام على سيرة المنصور الذهبي، وتسمى أيضا "الدندنة"، بينما تعرف بـ"الغرناطي" في الجزائر

و"المألوف" بتونس.

... وهكذا تتركب كل نوبة من خمسة ميازين يشكل كل ميزان صنعة تحتوي على قطع موسيقية خاصة، والنغمة المنبعثة منها عبارة عن نبرات تتواكب مع معاني المقطوعات

(11894/1)

الشعرية التي يقع اختيارها طبقا للتناسب لتستجيب لما يوحي به الظرف الزمني من استهلال أو تصاعد أو ارتخاء.

... وقد لاحظ أخونا الأستاذ الكبير المرحوم محمد الفاسي في بحث قيم نشرته "اللسان العربي" في عددها السادس، وهي مجلة مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي، بعنوان "الذوق العربي في الموسيقى الأندلسية" أن النوبة إنما سميت بذلك لأن العازفين كان يتقدم كل واحد منهم أمام الخليفة بما اخترعه ليعزف بدوره ثم تأتي بعده نوبة غيره. فسمي المجموع نوبات. ولعل هنالك في نظرنا المتواضع تفسيرا آخر يرجع إلى عدد الأوتار

(11895/1)

أو الملامس أو قوة النقر عليها. فالآلات التي كانت مستعملة في العالم العربي عامة والأندلس والمغرب خاصة هي خمسة: الكمان والقانون والأرغن والعود والرباب، وكان لكل آلة نبرة تمتاز بها جعلت أصناف النبرات موازية للميازين الخمسة التي تشكل النوبة. أما بقية الآلات الموسيقية التي بدأنا نستعملها اليوم، فهي مجرد تطوير للآلات القديمة مثل الكمان الجهي (Violoncelle) والقيتارة (Guitare) والبيان (Piano) الذي عوض البيان القيتاري (Clavecin).

(11896/1)

... وقد لاحظ أستاذنا الكبير محمد الفاسي أيضا أن الموسيقى الأندلسية كانت تسمى الآلة بالعامية، تمييزا لها عن الموسيقى التي تؤدى بدون آلة وهي السماع. ونحن نرى أن السماع لم يكن يعدو مجرد مديح في المواليد النبوية أو التواجد بالحب الإلهي دون غزل أو تشبيب في حضرات الذكر الصوفية. فكانت الآلة محظورة في كليهما، وإن كان المادحون قد أصبحوا اليوم يرفقون السماع بالآلة مع الاحتفاظ بأناشيد المديح دون ما

اعتادته الآلة الموسيقية من موشحات وأزجال يعطينا "الحايك" صورة واضحة عنها(1)

---

(1) وللشيخ محمد بن العربي الدلائي الرباطي البيضاوي كتاب سماه "فتح الأنوار في بيان ما بعين على مدح النبي المختار". وهو تأليف نظير "كناش الحايك" في فن الموسيقى بين فيه صنعة المديح بذكر الطبوع والألحان الشعرية والأناشيد والنغمات العروضية (أبو جندار، "الاغتباط"، ص.191).

(11897/1)

.

... غير أن ضرورة التحري لإدراك مدى بعد نظر أستاذنا الفاضل المرحوم محمد الفاسي تحدونا إلى القول بأن الأستاذ البحاثة قد حاول الرجوع بفكره الثاقب إلى الأصول حيث اعتبر السماع أصلا في الموسيقى. وإذا كان السماع هو منبع التواجد الغنائي حتى عند الحيوان، فما بالك بالإنسان في وجدانياته التي هي جزء من كيانه. فالمهاري في الصحراء المغربية تطوي المسافات في تسارعها الحثيث عندنا تتسمع إلى أصوات الحداة وهي تغني في نبرات ترددها أصداء الفيافي مما دفع أحد

شعراء صحرائنا وهو ابن الونان في "شمقمقيت"ه إلى إيصاء

(11898/1)

الحداة بالتؤدة والتمهل صارخا/
مهلا على رسلك حاذي الأينق ... ... ولا تكلفها بما لم تطق
... والسماع بصورة عامة سواء عند الهنود البوذيين أو البراهمة وغيرهم قد انطلقت منه تواجدات موسيقية لدى فنانيهم وصوفيتهم. ولعل للسماع الموسيقي العربي ضلعا في إثارة هذا الوجدان الآسيوي الذي وجدنا حتى لمصطلحاته صلة وثيقة لهذا المنبع الإنساني.
فالصوفي البوذي كان ولا يزال يغيب عن حسه إذا أطربه السماع فيردد كلمة (هو هو) (الله الله). ويغرق فيما سماه البوذيون اقتباسا من لغة متصوفة الإسلام وهو Nervana، أي نور الفناء.

(11899/1)

... وقد ترعرعت الآلة بجميع طبوعها إبان بني مرين حتى كان للجيش المريني نفسه في عهد أبي عنان موسيقاه

الخاصة به. كما كان للأسطول موسيقاه (راجع "رحلة أبي عنان المريني" المسماة "فيض العباب..." لإبراهيم عبد الله المعروف بابن الحاج)، وهي عادة استمرت إلى اليوم عن طريق الجوق الملكي. وقد بلغ الاعتناء بهذا الفن مبلغا أصبح معه للموسيقار مكانة كبيرة في المجتمع.

... وكان المنصور يجلب إلى مراكش أرباب الموسيقى وأصحاب الأغاني من فاس؛ وكانوا قد وفدوا على المنصور على سبيل العادة فأخرج بعضهم والقاضي أبو مالك عبد

(11900/1)

الواحد الحميدي حاضر بشبابة من الإبريز مرصعة أعطاه إياها المنصور وبعضهم قال أعطاني كذا وكذا.. فقال القاضي: لئن بلغت فاس لأردن أولادي إلى صنعة الموسيقى. فإن صنعة العلم كاسدة. ولولا أن الموسيقى هي العلم العزيز، ما رجعنا مخففين ورجع المغني بشبابة الإبريز ("الاستقصا"، ج 3، ص.96؛ "نزهة الحادي" عند الكلام على سيرة المنصور الذهبي).

... ولعل المغرب قد نال حظا وافرا من الآلة الأندلسية التي احتضنها دون بقية العالم العربي وإن كان العراق هو الذي أمد الأندلس بأول موسيقار وهو زرياب. على أن الأندلس قد عرفت بعد

(11901/1)

زرياب موسيقارا أندلسيا صميما عد من طبقات زرياب في الغناء، وهو عباس بن فرناس الذي هو أول من حاول الطيران بآلة صنعها بيده ("نفح الطيب"، ج3، ص.473) واخترع الزجاج من الحجارة.

... كما كتب في هذا الموضوع ابن حزم في "الغناء الملهي"، أمباح أم محظور (نسخة من الأسكوريال eb 25).

... ومن الموسيقيين الأندلسيين الذين استوطنوا الشرق ابن أبي الحكم محمد بن عبيد الله بن المظفر الباهلي أفضل الدولة (570هـ/1174م).

... وكان قد صنع أرغنا وله يد في سائر آلة الطرب وكان طبيب بيمارستان دمشق الذي بناه نور الدين بن الشهيد

(11902/1)

("طبقات الأطباء"، ج2، ص.155؛ "الدارس"، ج2، ص.137؛ "الوافي بالوفيات"، ج3، ص.330) وإن كانت هنالك مصادر عربية أصيلة ما زالت تمد هذا الفن مثل:

... – "رسالة في الموسيقى" لعمر الخيام (526هـ/1131م)، نادرة جدا لا تكاد توجد نسخة أخرى في ورقتين (مكتبة مغنيسيا العمومية، 1705/5).

... – "رسالة الملحون والنغم" للكندي [256هـ]، (مغنيسيا، 1705/8).

... – "عنصر الموسيقى" لإسحاق بن حنين [298 أو 299م] (نسخة فريدة 1705/9).

(11903/1)

... أما الطرب الغرناطي، فهو صنف من الآلة الأندلسية نشأ وترعرع في غرناطة آخر معقل بالأندلس استولى عليه الإسبان عام 897هـ/1481م، فهاجر معظم سكانه إلى فاس وتازة وتطوان وعدوتي أبي رقراق، ثم إلى الجزائر (وهران وتلمسان وبيجة) عبر المغرب الشرقي.

... وكانت إشبيلية هي عاصمة الطرب الأندلسي منذ القرن الثالث الهجري. وقد افتتحها موسى بن نصير عام 94هـ/712م، ودخلها المرابطون عام 484هـ أو 490هـ حسب ابن خلدون، وتولى الموحدون بإمارة أبي حفص بن عبد المومن الذي كان له بها كتاب وشعراء وفنانون حوالي منتصف القرن

(11904/1)

السادس الهجري. وقد انتقل كرسي المملكة الإسلامية منها إلى غرناطة (646هـ/1248م) عندما استولى عليها ملك قشتالة في دولة المرتضى بعد أن حكمها الموحدون نحوا من قرن واستمرت في قبضة المسلمين زهاء خمسة قرون وأصبحت غرناطة منذ ذلك صلة الوصل بين فاس والأندلس طوال عهد بني مرين عندما احتضنت الموسيقى الأندلسية مدة قرنين ونصف القرن، فأضافت إلى هذا التراث الإشبيلي عناصر جديدة عرفت بالطرب الغرناطي. وكان لغرناطة منذ العهود الأولى ضلع في بلورة الموسيقي الأندلسية، ولا سيما أن زرياب علي بن نافع العراقي مؤسس الطرب

(11905/1)

العربي قد عاش وتوفي بغرناطة عام 230هـ/ 844م. وقد برز المعقل الغرناطي بين أخريات العواصم الأندلسية التي ظلت تحت حكم المسلمين، فتجلى ذلك في مقطعات موسيقية كلها شجن وحزن على ما فقده الإسلام من تراث أصيل بالأندلس "الشهيدة". وما لبث هذا التراث

الذي تقلصت موازينه وطبوعه أن طعم بنغمات كلها حنين إلى الأندلس عندما هاجر الغرناطيون إلى المغرب الذي احتضن كلا من الآلة الإشبيلية والطرب الغرناطي ساد أحدهما –وهو الموسيقى الأندلسية بكامل نوباتها– بشمال المغرب فاس وتازة وتطوان والرباط وسلا وجنوبه مراكش.

(11906/1)

... بينما ترعرع الصنف الثاني، وهو الطرب الغرناطي، بالمغرب الشرقي امتدادا من غرب الجزائر (تلمسان ووهران وبيجة) وتونس. وقد احتضن المغرب الشرقي النوعين معا: الأول بتازة، والثاني بوجدة.

... وإذا كانت النكبات التي توالت على الأندلس منذ احتلال الإسبان لإشبيلية –عاصمة الطرب الأندلسي– قد حالت دون تطور الموسيقى، فقد تبلورت هذه الأشجان في ألحان المهاجرات الأندلسية بفاس وتطوان وعدوتي أبي رقراق حيث بدأت الهجرة بعد عام 981هـ/1486م ("الاستقصا"، ج3، ص.101)، أي بعد استيلاء الإسبان على غرناطة بست سنوات

(11907/1)

(897هـ/1491م) وكانت الهجرة الثانية عام 1017هـ على أثر مساكنة في غرناطة دامت عشرين ومائة سنة (120). وكان عبد الواحد الملقب بالرشيد الموحدي الذي بويع أول عام 630هـ/1232م هو الذي منح الأندلسيين – عام 637هـ– حق اللجوء إلى المغرب عامة والرباط خاصة حسب ظهير حرره قاضي الرباط آنذاك أبو المطرف بن عميرة. ولعل ذلك كان بسبب انضمام الإشبيليين إلى المولى الرشيد عام 635هـ/1237م، عندما حاول الأمير بن هود اقتحام ميناء مصب أبي رقراق في أسطول حربي. وقد توفي الرشيد عام 640هـ، وبويع بعده الأمير عمر المرتضى الذي كان

(11908/1)

واليا على رباط الفتح فامتد نفوذه من أبي رقراق إلى السوس وبه ختم عهد الموحدين وبدأ عهد بني مرين. وكان عرش الخلافة بالأندلس قد انتقل قبل ذلك بسنتين من إشبيلية إلى غرناطة. فهذه الأزمات الغامرة لم تكن لتفسح المجال لازدهار فن الموسيقى، ولاسيما أن الفئات الضخمة التي تواردت على منطقة أبي رقراق لم

تتم إلا بعد محنة غرناطة التي استمرت إلى عام 1017هـ بادر الإسبان خلالها بفصل الموريسكيين عن تراثهم الديني والحضاري منذ يناير 1492م، وذلك بإحراق مليون ونصف مليون مخطوط من بينها –دون شك– وثائق حول الموسيقى

(11909/1)

ونوباتها حسب مصادر إسبانية أهمها: كتاب

Francisco Piferrer, Nobiliario de los reinos y .138, p.1860seisiorico de Espana, T.XI, Madrid,

... وخلال هذه الفترة الحالكة لم نكن نسمع في عدوتي أبي رقراق سوى دوي موسيقي المدافع بين طوائف من المهاجرين الأندلسيين اتخذت لنفسها إطارا مجتمعيا خاصا لممارسة الهجوم البحري على الشواطئ الشمالية للبحر المتوسط في أجفانها الجهادية والتي ما لبثت أن تحولت إلى سفن قرصنية. وقد داخل الرعب الإسبان الملكيين، فألصقوا بالمهاجرين –لاستفزاز الملكية المغربية ضدهم، وتبعهم في ذلك

(11910/1)

مؤرخون غربيون – تهمة تكوين جمهوريات ثلاث حول أبي رقراق(1)، في حين لم يكن يعدو تشكيل دواوين أو مجالس أربعينية على غرار "أيت الأربعين" التقليدية في الأطلس، ولا سيما أن الطابع السياسي للمغرب آنذاك، أي آخر أيام السعديين، اتسم بالاضطراب واحتلال الخصم لجيوب ساحلية لم ينقذ

---

(1) وقد استأنسنا بهذه الأساطير الإسبانية التي ألصقت بالمجاهدين الأندلسيين والمغاربة في معارك جزر المتوسط ومناوشات الأنجريين في سبتة وحرب تطوان لقب شفارين (أي لصوص) حتى ألقت إلى جزر الملوية نفسها جزر الشفارين (Les Iles chaffarines).

(11911/1)

المغرب من ويلاتها إلى ظهور الملوك العلويين، وعلى رأسهم المولى إسماعيل. فعاد الماء إلى مجراه وألغيت الدواوين الأندلسية وتنفس الجميع الصعداء في ظلال وحدة المغرب وتحركت في هذه البحبوحة الوديعة أنفاس الوجدان لتنطلق مزاهر الفن الموسيقي في أروع وأبدع نبراتها(1).

... وإذا تتبعنا مسار مهاجري غرناطة بالمغرب العربي

ومصر وقسطنطينية، حتى جنوب فرنسا وجزر المتوسط، فإننا نلاحظ أن الطرب الغرناطي كا له نصيب الأسد بكل من الجزائر وتونس حيث تبلور في مقاطيع

---

(1) راجع "حياة ابن نصيحة" موسيقار السلطان محمد الثالث.

(11912/1)

حية تزخر بالرعة والمرح انتقلت بعض موشحاتها إلى دار الخلافة العثمانية إبان احتلال الأتراك للمغربين الأدنى والأوسط ودار الكنانة، بينما تركزت الآلة الإشبيلية في مهاجرات مختلفة بالمغرب الأقصى. وقد نقل الموريسكيون إلى "جبال المور" (Maures) بمقاطعة "بروفانس" (Provence) واللنكدوك (Languedoc) بجنوب فرنسا ألحانا موسيقية أندلسية، ولا سيما أن المنطقة كانت خاضعة للإسبان الذين لم يتنازلوا عنها لفرنسا إلا عام 1644م. وقد طور شعراء التروبادور (Troubadours) هذه الألحان التي واكبت في شبه الجزيرة الإيبيرية

(11913/1)

إسبانيا والبرتغال تلاحين الصيكا التي لا تزال منساقة إلى اليوم في طبوعها العربية بمعزل عن الموسيقى الكلاسيكية الغربية، وما زلنا نسمع بعض نبراتها في الكنائس الأوربية المسيحية التي نقلت أناشيدها عن الكاثوليكيين الإسبان، وبعدما طرد إسرائيليو غرناطة التي كانت تعرف بـ"حاضرة اليهود"، وتم تنصير بعضهم قسرا ضمن فئات أطلقت عليها الإسبان اسم مارانوس (Maranos) مقابل اسم الموريسك للمسلمين المنصرين انتقلوا إلى المغرب ونقلوا معهم مقطوعات موسيقية كانوا يعزفونها بالعربية معززة بما سبق أن نقلوه إلى غرناطة بعد

(11914/1)

سقوط إشبيلية في قبضة الإسبان. وكان اليهود من جملة من هاجر إلى فاس بعد وقعة الربض آخر القرن الثاني الهجري حيث جعلوا منها –خلال العهدين المرابطي والموحدي– مركزا لتعريب العبرية وتصحيح نحوها وصرفها انطلاقا من قواعد سيبويه وضع كتاب التشريع التلمودي في عشرين مجلدا للعالم اليهودي محررين

مجموعها باللغة العربية. غير أن نشاطهم العلمي هذا انبثق عن عاصمة قرطبة التي كانت خلوا من كل ما يمت إلى الموسيقى بصلة حيث انفردت إشبيلية وحدها بهذا الفن كما انفردت قرطبة في أربعة وعشرين من أرباضها بعلوم الحكمة، فكان لكل

(11915/1)

ربض كليته منها أربعة آلاف فيلسوف ومتكلم بالربض الجنوبي وحده. وقد تزعم هذه الثلة من العلماء اليهود موسى بن ميمون الذي سكن دار المجانة في العاصمة الإسماعيلية طوال خمس سنوات قبل أن ينتقل إلى مصر. ... وكان لليهود ضلع في الاقتباس من الآلة الغرناطية في العهد المريني ثم أيام العلويين حيث عززوا التراث الموسيقي بما فيه من أزجال ومواويل أدركت شخصيا نماذج منها بملاح الرباط آخر الأربعينيات ولا يزال صداها يتردد إلى الآن في مهاجرات اليهود خارج المغرب بكندا والولايات المتحدة وإسرائيل. وإذا كان موسيقيو اليهود

(11916/1)

اعتمدوا الحايك في طبوعهم العربية، فإنهم عمدوا اليوم إلى ترجمته إلى العربية عناية بمحتواها. وهكذا، فبقيام الدولة المرينية توطدت العلاقات مع بني الأحمر أمراء غرناطة أزيد من قرنين ترسخ خلالها احتضان عاصمة المغرب للتراث الموسيقي الأندلسي.

... والغريب أن ما وصلنا من المصادر العربية يكاد يكون خلوا من كل ما يتعلق بالموسيقى. فحتى الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الإفريقي الذي ولد بغرناطة حوالي 901هـ/1495م، أي بعد سقوط غرناطة بثلاث سنوات في قبضة الإسبان، قد ربي بفاس وظل عدلا بمارستان سيدي فرج خلال

(11917/1)

سنتين. وعندما بلغ عمر الوزان إحدى وعشرين سنة، بدأ رحلته حيث أسره قراصنة إيطاليون في نابل عام 1519م ونقل أسيرا إلى حاضرة الفاتكان حيث تبناه البابا، وهنالك حرر الوزان كتابه حول "وصف إفريقيا" بالعربية أولا، ثم ترجم للإيطالية. فكان من الصعب –في كلتا الحالتين– على الوزان أن يتحدث عن أزمة غرناطة وهو يعلم أن محاكم التفتيش التي أقضت مضاجع المسلمين بالأندلس قد شكلت بقرار وإمدادات من

البابوية آنذاك وقد ظهرت مع ذلك دراسات وأبحاث عربية في المغرب ألقت الضوء على كثير من الجوانب الغامضة في الموسيقى. وهكذا،

(11918/1)

فإذا استثنينا فترة الحكم السعدي التي اضطربت آخر أيامها عند تنازع أدعياء العرش وانقسم المغرب إلى ولايات مستقلة، فإن الموسيقى استعادت ازدهارها نسبيا باستتباب الأمن والاستقرار في عهد المولى إسماعيل الذي تولى الملك عام 1082هـ وعمره ست وعشرون (26) سنة. ولم يكد –قدس الله روحه– يلفظ نفسه الأخيرة في 28 رجب 1139هـ حتى كانت معظم معوقات التطور الثقافي الفكري المغربي قد انمحت بعد أن لم السلطان المجاهد شتات المغرب ومحق الأدعياء ودعم حركة التحرير ونشر الطمأنينة والرخاء.

(11919/1)

... وقبيل وفاة المولى إسماعيل بتسع سنوات، كان الفنان الحسن ابن أحمد الحايك التطواني الأندلسي الذي

هبت أسرته قبل ذلك من تونس قد قام بدور هام، فجمع من الموشحات الأندلسية ما انتشر ولم منها ما انتثر في كتابه "الحايك". وقد توفي بتطوان عام 1130هـ بعد نشاط غامر اتصل ضمنه بمجموع منطقة الشمال بين سبتة والفنيدق وتطوان التي كانت مسرحا لكثير من الموريسكيين الذين ظلوا يترددون بين هذه المراكز مستنشقين هواء الأندلس الشهيدة يرددون الألحان الغرناطية في نغماتها الشجية أكثر منها في موشحاتها التي فقدوا نصها

(11920/1)

بإبعادهم إبان محنة غرناطة عن لغتهم ودينهم. فكان للحايك الفضل في وصل ما حملوه معهم بما تجمع من تراث غرناطة بفاس. ومن هؤلاء الفاسيين ابن الطاهر المهدي بن يوسف بن أبي عسرية بن علي بن أبي المحاسن الفاسي الموسيقي (1187هـ/1764م) ("تاريخ تطوان"، ج3، ص.66؛ "عناية أولي المجد"، ص.58) والذي كان يعرف –حسب مؤرخ تطوان سكيرج– إنشاء 24 طبعا من طبوع الموسيقى ويعزف على العود والرباب وقد تتلمذ للأديب الشبلي المكناسي.

(11921/1)

... وقد امتاز المغرب بطبوع خاصة مثل الحصار الذي اعترف "المعجم الوسيط لمجمع القاهرة" بطابعه المغربي وكذلك البسيط وهو المسمى عند المشارقة "المحجر" ("الإعلام" للمراكشي، الطبعة الأولى، ج2، ص.199) وبطبع الاستهلال الذي اخترعه الحاج علال البطل في العهد السعدي حسب كتاب في الفن لمؤلف مجهول في المكتبة الوطنية بمدريد عدد 5307. وحتى الملحون عرف طبعا فريدا هو "السماوية" التي تغنى بصوت منخفض يتصاعد تدريجيا إلى السماء.

(11922/1)

... وقد استعمل الموسيقار كل أصناف الآلات مثل العود والكمان أو الكمنجة (Violon)، وهي آلة ذات أوتار أربعة انضافت إليها في العقود الأخيرة الكمان الجهير (Violoncelle) والبيان (Piano) وهو آلة ذات ملامس (Clavier). وقد عوض البيان القيتارى (Clavecin) الذي هو بيان قديم قيتاري الشكل. ولعل هذا "القيتار" من القتر، وهو نصال الأهداف كناية عن تأثير أوتاره

وتحريكه للوجدان، ويعرف في أوروبا بـGuitare، وهو آلة ذات أوتار ينقر عليها بقوة، وهي مسطحة الجانبين مشرقية الأصل (حسب قاموس Hachette). وقد عرف العرب القانون

(11923/1)

الذي تفنن الفيلسوف الفارابي في العزف عليه بألحان يثير بها مكان الفؤاد فرحا وحزنا يضحك ويبكي تبعا لمدى الضغط على الملامس. ومن الآلات العربية التي اتسمت بطابع مغربي خاص الرباب (Rebec)، وهو ذو وترين اثنين يعزف عليهما بمنهج دقيق جسا بأصابع اليد اليسرى. وقد مهر فيه الشيخ البريهي بفاس وربيبه عبد الكريم الرايس والفنان السبيع بالرباط كما مهر في القانون صالح الشرقي. وهنالك رباب عراقي من أربعة أوتار ورباب شعبي وحيد الوتر أشبه بما يعرف بالكنبري. ومهما يكن، فإن العازفين على الرباب قليلون جدا نظرا لصعوبة

(11924/1)

ممارسة هذه الآلة بمهارة ويعد أصحابها اليوم في العالم العربي على رؤوس الأصابع منهم علي المرابط والعربي بنصاري بالجزائر ومحمد غانم وأحمد بطيخ والدكتور بلحسن فوزة بتونس وإبراهيم الشعوبي في العراق.

وقد أصبح كثير من الشباب يتعاطون العزف على الرباب بتشجيع من المعهد الموسيقي بالرباط

... وقد تواكب اللحن الموسيقي في كثير من الأحيان مع ألحان السماع في المديح النبوي حيث علق الأمير الوليد بن زيدان بالسماع لا ينفك عنه ليلا ولا نهارا ("الاستقصا"، ج3، ص.133). وقد نشأ بعض الموسيقيين في العهد العلوي في أحضان

(11925/1)

الزوايا الصوفية كزاويتي الحراق وابن الريسوني بتطوان والزاوية الوزانية بفروعها في عواصم كبرى كفاس وطنجة. وقد كان للمعهد الموسيقي العصري بتطوان صلة وثيقة بالزاويتين المذكورتين. وكان على رأس هذا المعهد أخونا المرحوم إدريس بنونة. ومن تعاون المركزين انبثقت ألحان جديدة ذات ميسم خاص. وكان حب ليلى الذي تزخر به مواويل الآلة يتردد في الأذكار الملحنة بالزاوية حيث ينشد المسمعون قول

الشيخ محمد الحراق:

أتبحث عن ليلى وفيك تجلت ... وتحسبها غيرا وغيرك ليست

(11926/1)

... وقد حاول كثير من رجال الفن الذين توثقت صلاتهم بالطرق الصوفية تحقيق ازدواجية إيجابية بين الموسيقى والسماع، فأضافوا إلى شعر الغزل والتشبيب أشعار المديح النبوي. وقد كانت لوالدي العلامة عبد الواحد بنعبد الله يد طولى في هذا التزاوج. فكان إلى جانب تضلعه في الأصول والحديث والفقه، يلعب الشطرنج ويحفظ كل الطبوع؛ مما ساعده على ضمان وحدة تلحينية بين الطرفين. ولا بدع في ذلك إذا علمنا أن للموسيقى والسماع أحيانا نفسا واحدا ينطلق من الوجدان. فشاعر الأمراء حافظ شوقي الذي عارض "همزية البوصيري" يقول في ملحمته

(11927/1)

الغرامية بين عبلة وعنترة ضمن حوار بينهما حيث سأل عنتر عشقته قائلا:

ماذا وددت يا عبيل يا حياة عنتر؟

... فأجابته:

إني وددت أني صدف ... ... وأنت فيه جوهر

في زاخر لم يدر بعـ ... ... ـد الغائصون خبره

... والحب في هدفيه البشري والرباني هو محور الطريقتين. فقد قال ابن الفارض:

شربنا على حب الحبيب مدامة ... سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

... وقالت ربيعة العدوية:

أحبك حبين حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا

... وقول الشيخ الصوفي السري السقطي:

لست أدري أطال ليلي أم لا ... كيف يدري بذلك من يتقلى

(11928/1)

إن للعاشقين عن قصر الليـ ... ـل وعن طوله لفي الحب شغلا

... وقول إبراهيم بن أدهم:

ولو قطعتني في الحب إربا ... ... لما حن الفؤاد إلى سواك

... وكثير من هذه الألحان السماعية قد أدرجت في الآلة الأندلسية، فأصبحت جزءا من غزلها كقولهم:

عدتم فعادت ليالي الوصل أعيادا ... من قربكم ولذيذ الأنس قد عادا

لا أوحش الله عيني من جمالكم ... يا نورها لأقضى الدهر إسعادا

وقولهم:

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل إذا رضي المحبوب صح لك الوصل

تذلل له تحظ برؤيا جماله ففي وجه من تهوى الفرائض والنفل

وقولهم:

(11929/1)

لي حبيب حبه حشو الحشا ... إن يشا يمشي على قلبي مشى

قوله قولي وقولي قوله ... إن يشا شئت وإن شئت يشا

... وكان الملحنون في الحقلين دور كبير. وقد اشتهر في هذا المجال الشيخ المغراوي والشيخ الأكحل (مكتبة تطوان، 589) (راجع "الأغاني الأراجيز أو مواويل الملحون في فاس والرباط وسلا"، كتاب بقلم Jeanne Jouin، طبع عام 1900هـ).

... على أن الموسيقى قد امتزجت بالسماع المرفق بالآلة منذ القرن الثاني عشر، حيث كان علماء القرويين وكبار

شيوخ الصوفية لا يأنفون من الاستماع إليهما في نطاق المروءة والصون. وقد برز في عهد

(11930/1)

المولى سليمان (ت 1238هـ) عازف مسمع هو الشيخ الجابري الذي كان يطرب بحضور شيخ الجماعة بجامع القرويين العلامة سيدي حمدون بلحاج والعلامة المحدث الصوفي سيدي أحمد التجاني. وقد مدحه الشيخ حمدون بلحاج بقوله:

إن السماع لمقلة: إنسانها في الجابري:

... ... جبر القلوب بقوسه فاعجب لقوس جابري

... وكان العلامة المحدث أبو المواهب سيدي العربي السائح الرباطي يطرب لسماعه.

... وقد قامت المرأة المغربية بدور في الموسيقى احتذاء بالأندلسيات اللواتي نظمن موشحات غنائية مثل أم العلام الحجازية صاحبة الموشحات وأم الكرام

(11931/1)

ابنة المعتصم صاحبة المرية وأمة العزيز الأندلسية ("المطرب" لابن دحية). وكان العزف والغناء يمارسان ضمن أجواق نسوية في القصور الملكية على نسق ما عرف في الدولة العباسية، بل ازدهرت حتى داخل العائلات من هواة الآلة في الحواضر. على أن البادية المغربية قد عرفت هذا الازدهار مثل "الهكار" التي كانت تابعة للمغرب ضمن صحرائه الكبرى امتازت فيها المرأة بالعزف والتلحين. وكانت الموسيقى خاصة في الريف المجاور للأندلس هجير المرأة البدوية حيث لا تكاد تسمع في القبيلة سوى نغمات المزمار ورنات الأناشيد. ولم يكن ذلك يشغل

(11932/1)

المرأة عن إسهامها من فن مواز هو التمثيل الشعبي في تمسمان بالإضافة إلى خوض المعارك الجهادية لتحرير البلاد في بني توزين وفلح الحقول والسقي والحصاد. كما أن النهل من هذا المنبع لم يمنع المرأة في كزناية من المشاركة في مداولات مجلس الجماعة متقلدة بندقيتها التي تستخدمها بمهارة وهي تغني ممارسة في الوقت نفسه الرياضة والسباحة في بني سعيد ومسابح سيدي عيسى. وفي الأطلس وقممه الشامخة كانت الألحان

الشعبية بمشاركة المرأة يتردد صداها ضمن رقصات أحيدوس وأحواش والكدرة في روعة أصبحنا نتملى ببعض جوانبها في التلفزة

(11933/1)

المغربية.

المراجع:

... ولعل المراجع في اللغات العربية والأوربية المتعلقة بالموسيقى من أغنى المرتجع التي انفرد بها هذا الفن العربي الأصيل. ونستعرض فيما يلي قسما من هذه المراجع مع إبراز ما كتب حول ازدواجية الموسيقى والسماع وما أثاره ذلك من مناظرات بين علماء الدين والصوفية من جهة وهواة الآلة الأندلسية من جهة أخرى.

... – "الإنسان المعجب في اللسان المطرب" لأبي الفضل الكبير بن هاشم الكتاني، (مات دون إتمامه)، الموجود منه في ثلاثة كراريس.

(11934/1)

... – محمد بن أحمد بن الحداد الواد آشي، له ديوان كبير في العروض نظر فيه بين الألحان الموسيقية والآراء الخليلية، ("النفح" ج9، ص.238).

... – محمد العابد بن أحمد بن سودة، "استنزال الرحمات بالطبع والنغمات أو بإنشاد بردة المديح بالنغمات".

... – "الآلة وإطباعها ونغماتها وتاريخ دخولها إلى المغرب وشرح مصطلحات الموسيقى"، مجلد وسط فرغ منه 1325هـ/1907م.

... – محمد بن الطيب بن أحمد بن يوسف العلمي (المتوفى بمصر عام 1135–1134هـ/1721–1723م)، "مؤرخو الشرفاء"، ص.295.

(11935/1)

... – قصيدة غلام يسمى أبا الحسن علي الدكالي (68 بيتا)، خع–158د، مطلعها:

أفدي بأمي وأبي ... ... ظبيا عزيزا مر بي

له "رسالة في معرفة النغمات الثمان" (مدريد 334، ed H. G. farmer, Glasgow, 1933).

... – محمد بن جعفر الكتاني (1345هـ/1926م)، له تقييدات على "كتاب السماع" لأبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي المعروف بابن القيسراني (مكتبة المرحوم

الأستاذ محمد الناصر الكتاني).

... – محمد التهامي بن المدني جنون، 1331هـ/1913م، له "الزجر والإقناع بزواجر الشرع المطاع عن آلات اللهو والسماع"، سار فيه على تشديدات ابن

(11936/1)

الحاج لا على تسهيلات المواق وقد طبع بفاس، في 295ص. ألف في الرد عليه سيدي جعفر الكتاني "مواهب الجرب في السماع وآلات الطرب" ("الإعلام" للمراكشي، ج6، ص.103، الطبعة الأولى).

... – محمد الغالي بن المكي بن سليمان له "الجواهر الحسان في نغم الألحان"، يقع في كراستين، خزانة محمد المنوني بمكناس. له "تشنيف الأسماع في أسماء الجماع وما يلائمه من مستندات السماع" في مجلدين، طبع الجزء الأول بفاس، في 60 ص.

... – ابن نصيحة موسيقار السلطان محمد بن عبد الله، راجع "اختصار أبي إسحاق التادلي لتذكرة الأنطاكي"، مخطوط

(11937/1)

العلامة محمد التطواني بسلا.

... – رسالتان لأحمد بن خالد الناصري في الموسيقى والتنظير بين النغمات العربية والعجمية، خاطب بهما صديقه العلامة الفلكي إدريس بن محمد (فتحا) الجعيدي السلاوي.

... – تأليف في "الأمداح النبوية وذكر النغمات والطبوع" لأحمد بن محمد بن العربي أحضري البوعصامي الأندلسي المراكشي، كان حيا أواخر المائة الثانية عشرة، رتب مدائح وموشحات أهل المغرب على النغمات الأربع والعشرين وذكر مستنبط كل نوبة ساير به كتاب "الحايك" في الأمداح بدل التغزل والنسيب (مجلد ضخم في الخزانة السودية بفاس).

(11938/1)

... وقد ذكر النغمات والطبوع مع بيان تعلقها بالطبائع الأربعة وصور شجرة الطبوع، فجعل "الغريبة" المحررة تميل لكل طبع أصلا بلا فروع وجعل الماية أصل رمل الماية انقلاب الرمل والحسين والرصد للدم وفصل الربيع وجعل الزيدان أصل حجاز كبير، إلخ. (راجع "الإعلام" للمراكشي، ج2، ص.199). حيث ذكر أنه يوجد بخزانته.

... – أحمد العسراوي التطواني الموسيقي، له "اختصار

التذكرة للتادلي".

... – أحمد بن محمد بن الخياط الزكاري، 1343هـ/1924م.

له "مواهب الأرب المبرئة من الجرب في السماع وآلات الطرب"، مجلد اختصره الشيخ جعفر

(11939/1)

الكتاني، وطبع هذا الاختصار بفاس على الحجر، 23 ورقة.

... – "الإمتاع والانتفاع في مسألة السماع"، إلخ، مجهول

المؤلف ألفه باسم يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني (706هـ/1307م)، ورتبه على ثلاثة أبواب وسمى فيه 31 نوعا من آلات الموسيقى، توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية بمدريد، فرغ منها ناسخها عام 701هـ/1301م. وقف عليها الشيخ عباس بن إبراهيم المراكشي ("الإعلام"، ج2، ص.200، الطبعة الأولى)؛ كما وقف الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني على اسم المؤلف وهو أبو عبد الله بن الدراج ويوجد كتاب باسمه في خع 1828د عنوانه

(11940/1)

"الكفاية والغناء في أحكام الغناء".

... وقد أشار المراكشي إلى ما أورده المؤلف من أن طبع "الاستهلال" الذي هو فرع "الذيل" قد استخرجه الحاج علال البطلة بفاس أيام محمد الشيخ السعدي (يوجد في مجلد عدد 5307؛ ويوجد بخزانة الأستاذ محمد داود بتطوان كتاب من هذا النوع بخط العلامة محمد بن قاسم بن زاكور).

... – "كشف القناع عن تأثير الطبوع في الطباع"، لسليمان الحوات أبي بكر الإدريسي القيطوني (1240هـ/1824م)، أستاذ محمد بن علي السنوسي في الموسيقى.

... – "حاضر العالم الإسلامي" للأمير شكيب أرسلان، ج1، ص.279.

(11941/1)

... – أبو الحكم عبيد الله الباهلي (549هـ/1155م)، درس ببلده في العهد المرابطي. وهو طبيب شاعر هجاء مهر في الموسيقى وضرب العود ("نفح الطيب"، ج1، ص.385، طبعة مصر؛ ابن خلكان، ص.332).

... – أبو الصلت، أمية بن عبد العزيز (529هـ/1134م). له رسالة في الموسيقي، فقد الأصل العربي واحتفظ

بالترجمة العبرية دون اسم المترجم، في المكتبة الوطنية بباريس، عدد 1036.

... – لوكلير (Leclerc)، "الطب العربي"، ج2، ص.74.

... – سارطون (Sarton)، "مدخل إلى تاريخ العلم"، ج1، ص.203.

(11942/1)

... – أحمد بن المامون البلغيثي الرباطي الفاسي، 1348هـ/1929م.

... – عبد الرحمن بن عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي، 1096هـ/1958م، له "الجموع في علم الموسيقى والطبوع" (رجز)، برلين، 5521. وقد تحدث في كتابه "الأقنوم" عن الطب بالألحان في ثمانية أبيات.

... – عبد السلام بن الطائع أبو غالب الإدريسي الفاسي الموسيقي (1290هـ/1874م)، "شجرة النور"، ص.403. له: "اختصار التذكرة" للتادلي؛ "أغاني السيقا".

... مولاي العربي بن أحمد الوزاني له: "معلومات عن الطرب الأندلسي والعلامات الموسيقية" خم7728، كناش الموسيقى

(11943/1)

الأندلسية، 11 نوبة، مكتبة الكلاوي.

... – "الروضة الغناء في أصول الغناء"، ذكر مؤلفه المجهول أمداحا قيلت في السلطان مولاي رشيد، وهو ينقل عن ابن زاكور التطواني والبوعصامي، خع 192، 137 ورقة، المكتبة الوطنية بتونس (د33م). وهو مجموع مشتمل على أصول ألحان وأصوات وفروع وموشحات وما شاكلها من أوزان وأبيات.

... – "مجموع في الغناء والطرب".

... – "نوبات على الترتيب التطواني"، خع1518د، 98 صفحة.

... مجموع في الغناء والطرب اعتنت بجمعه الإرسالية العلمية الفرنسية بطنجة، وهو عبارة عن أجزاء من نوبات يغلب عليها

(11944/1)

الترتيب التطواني، 20 ورقة، خع1459د.

... – "المنتخبات الموسيقية"، لإدريس بن عبد العالي، طبع بالرباط

... – "كشف الغطاء عن أسرار الموسيقى ونتائج الغناء"،

طبع بالرباط، 25 صفحة.

... – "تقدم الموسيقى العربية بالمشرق والمغرب والأندلس" لحسن حسني عبد الوهاب، بالفرنسية.

... – "الموسيقى المغربية المسماة أندلسية" لمحمد الفاسي، مجلة تطوان، عدد 7، 1962.

... – مجلة اللسان العربي، لسان مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي، عدد 6.

... – دعوة الحق، عدد 9، 1959، وعدد 7، 1961.

(11945/1)

... – "تاريخ الموسيقى الأندلسية بالمغرب" لمحمد المنوني، مطبعة الرسالة، الرباط، 1389هـ/1969م.

... – "الموسيقى والموسيقيون بالمغرب"، مجلة تطوان، 1962، عدد 7.

... – "الآلة الأندلسية بالمغرب"، مجلة البحث العلمي، عدد 9، ص.96.

... – "النفح" ج4، ص.117.

... – "مجموع الأغاني والألحان من كلام الأندلس"، ديوان الأول والتاسع، في القرنين الثامن، طبع 1904، E. Yafil.

... – "تراثنا الموسيقي من الأدوار والموشحات"، اللجنة الموسيقية العليا، تأليف مجموعة من الأساتذة، القاهرة،

أربعة مجلدات.

... – مصطلحات الموسيقى.

(11946/1)

... – "الإعلام" للمراكشي، ج2، ص.200، الطبعة الأولى.

... – أوغست فيشر () (August Ficher1368هـ/1949)، وهو أستاذ ألماني عضو في مجمع القاهرة. له "زمام الغناء المطرب في النظم السائر في أقاصى المغرب"، بالعربية مع ترجمته إلى الألمانية.

... – "الإعلام" للزركلي، ج1، ص.19.

... A. Chottin, Les visages de la musique marocaine, Rabat, 1928, p16.

... – الموسيقى العربية الحديثة.

... Erlanger (R. d'), La musique Arabe, V. Essai de codification des règles usuelles de la musique arabe moderne, Echelle générale des sons, Guthner, 1949, p.42.

(11947/1)

... A. Chottin, Tableau de la musique

., cahier III-IV1940marocaine, r. des ét. Islam,

... (خع 4459).

(1)

(11948/1)

لمحة تاريخية حول مدينة تونس

الدكتور محمد الباجي بن مامي

المعهد الوطني للتراث – تونس

"وهذه المدينة، كلأها الله، من املدن العجيبة الغربية، وهي في غاية الاتساع ونهاية الإتقان ... ولها أبواب عديدة، وعند كل باب منها ربض متسع على قدر البلد المستقل ... كأنها ملك والأرباض لها إكليل ..." – العبدري الحيحي – "الرحلة".

ذكرها الكثير من الجغرافيين والرحل الزائرين، وأطنبوا في وصفها و التعبير عن الإعجاب بها.

بسقوط قرطاج، ومسح القائد العربي حسان بن النعمان لرسومها، ظهرت للوجود بالقرب منها، مدينة جديدة، كتب

(11949/1)

لها أن تخلف جارتها نهائيا، وأن تصبح عاصمة للبلاد التونسية، وأهم المدن بها. فكانت اسهاماتها في رواج الثقافة العربية الإسلامية، وفي انتشار الحضارة والعمران والفنون، وفي ازدهار الاقتصاد ما يلفت الإنتباه حقا.

كان اختيار حسان بن النعمان لموقعها ناتج عن عوامل استراتيجية مرتبطة بالحضور البيزنطي في مياه البحر الأبيض المتوسط، خاصة وأن أطماعهم في منطقة دحروا عنها منذ عهد قريبن مازالت متأججة، فكانوا يتحينون الفرص للانقضاض عليها من جديد.

(11950/1)

كانت تونس حسب المصادر قبل الفتح الإسلامي، قرية بربرية لم يكن لها أهمية تذكر لوجودها قرب قرطاج العظيمة، ونتيجة لوقوعها في مؤخرة الخليج، بعيدا عن مواضع مراقبة القادمين من البحر.

إلا أننا نلاحظ ان حفريات وأبارا تمت في بعض المواضع

من المدينة العتيقة، وأسفرت عن نتائج جد هامة غيرت كثيرا من الاعتبارات، إذ أثبتت وجود العديد من الآثار البونية والرومانية والبيزنطية، وذلك في حي الحفصية وفي القصة وداخل جامع الزيتونة – قرب المئذنة – وكذلك في جامع القصر بباب منارة الخ ... وهذا دليل واضح أن تونس مثلث مدينة

(11951/1)

ذات أهمية لا يستهان بها خلال الفترات الكلاسيكية.

ومن المؤكد انها كانت تمثل البعد الدفاعي لقرطاج من الداخل، إذ أننا نعلم أن سكان تونس انذاك كانوا من بين السكان الأصليين للبلاد.

إلا أنه مع الفتح الإسلامي، تغيرت المعطيات، وأصبح من الضروري أن يكون خط المواجهة من الداخل، خاصة وأن البحرية العربية لم تكن تضاهي آنذاك مستوى الأسطول البيزنطي.

كما تتميز تونس بموقعها الاستراتيجي والدفاعي، غذ لا يضاهيها في هذا أي موقع آخر، فهي ليست بعيدة عن البحر، وفي آن واحد في مأمن من عوادي الزمان وهجوم الأعادي، محتمية

(11952/1)

وراء بحريتها. إذ أن من خاصيات موقعها، انها تطورت بين بحريتين، السبخة من الجهة الغربية والبحرية من الجهة الشرقية.

هكذا أسس إذن حسان بن النعمان تونس سنة 84 هـ / 703 م، لتكون مركزا دفاعيا يمكنها من مواجهة الخطر البيزنطي، فكانت السد المنيع أمام هجمات الأعداء من البحر، والحامية لقسم هام من داخل البلاد، وجعل منها في آن واحد، نقطة الانطلاق للجيوش الإسلامية الفاتحة والغازية للجزر المتوسطية.

وحتى يتمكن هذا الجيش الناشر لرسالة الإسلام من مضاهاة الأسطور البيزنطي،

(11953/1)

بادر حسان بن النعمان بإنشاء دار صناعة قريبة من البحيرة، وقد ذكر أبو عبيد البكري أن البيزنطيين أغاروا من البحر على المسلمين بمدينة تونس فيقول : "كتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز والي مصر أن يوجه معسكر تونس

ألف قطبي بأهله وولده، وأن يحملهم من مصر، ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى توشيش وهي تونس، وكتب إلى ابن النعمان يأمره أن يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين ... وأن يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر، وأن يغادر منها على ساحل الروم، فيشتغلوا عن القيروان ..." هكذا سيكتب لتونس

(11954/1)

أن تلعب دورا دفاعيا، وستكون خاصة من أهم المراكز المستعملة في الحروب البحرية، بفضل ما توفره لها دار الصناعة من سفن، فاقت بها الأسطول البيزنطي. كما أن قدوم الأقباط من مصر سيكون أول الغيث، إذ ستستقطب ميدنة تونس أجناسا عديدة، توافدوا في مد متواصل، إذ فتحت هذه المدينة ذراعيها لكل الوافدين عليها، إما من أجل طلب العلم، او للاحتماء بأسوارها الحصينة أو من أجل طلب الرزق ...

اختط حسان إذن المدينة الجديدة، بطريقة ذكية، فقد جعل فيها إضافة لدار الصناعة، مسجدا ذكره البكري، إلا أنه لا يفيدنا إن كان هو الجامع

(11955/1)

الأعظم الحالي، إذ يؤكد ابن الشباط والرقيق القيرواني، أن عبيد الله بن الحبحاب هو المؤسس للجامع سنة 114 هـ / 732 م. أما ابن عذاري فقد ذكر تاريخ 116 هـ / 734 م. لكن لا يمكن تصور المسلمين طوال ثلاثين سنة من غير جامع يؤمونه ويصلون فيه، ومن الراجح أنه حصل نفس الخطأ الذي نلاحظه بالنسبة لدار الصناعة، إذ يفيدنا البكري أنه : "تقدم أن عبيد الله بن الحبحاب بنى دار الصناعة، فلعل من روى ذلك يريد أن عبيد الله جددها وزادها تحصينا ..." فلعل نفس الشيء حصل بالنسبة لجامع الزيتونة، ومن الممكن أن ابن الحجاب وسع فيه،

(11956/1)

وأضاف إليه بعض الزيادات، ويكون ذلك دليلا قاطعا على اتساع المدينة، وازدياد عدد سكانها خلال فترة وجيزة من الزمن.

وفق ابن النعمان في اختيار موقع هذا الجامع الذي طار صيته بين سكان المغرب الإسلامي. وقد لعب الجامع دورا دينيا وعلميا وكذلك دفاعيا أساسيا، إذ كان مطلا على

البحر، لهذا بنى المؤسس في زاويته – الشمالية / الشرقية والجنوبية / الشرقية – برجي مراقبة، يمكن عن طريقتهما مراقبة المغير من البحر. كما أن الجدار الشرقي يذكرنا بجدران الحصون والأربطة، فحجارته السميكة تؤكد هذا الدور الدفاعي.

(11957/1)

ومن الواضح، أنه خلال القرون الإسلامية الأولى، شاهدت مدينة القيروان نموا اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا، أهم بكثير من مدن افريقية الأخرى. لكن لم يمنع هذا ميدنة تونس من لامساهمة الفعالة في النهضة العامة للبلاد.
وهكذا مثل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي فترة ازدهار وتطور بالنسبة
للمدينة، فجدد الأغالبة جامع الزيتونة، وفي آخر أعمال البناء سنة 250 هـ / 864 م، أمر الخليفة المستعين بالله العباسي، إضافة قبة المحراب التي تعتبر عملا فنيا بديعا، وبإتمام هذه الأشغال أخذ الجامع شكله ومساحته النهائتين.

(11958/1)

كما أن ابراهيم الثاني جعل من تونس عاصمة له، انطلاقا من سنة 281 هـ / 893 م وذلك لمدة سنتين وانتقل إليها أيضا عبد الله بن الأغلب من سنة 291 هـ / 903 م إلى سنة 293 هـ / 905م – حيث اغتاله ابنه زيادة اله الثالث – وقد ساهم في تطورها التجاري، خاصة وأن علاقاتها مع بعض مناطق البحر الأبيض المتوسط، كانت تعرف دفعا متواصلا. مما يجلب الانتباه أنه انشئت خلال هذه الفترة القصيرة من استقرار الأغالبة بتونس، العديد من القصور والمنشآت، إضافة إلى أن زيادة الله الثالث أعاد بناء أسوار المدينة، مما زادها تحصينا ومناعة.

(11959/1)

وقد زار ابن حوقل تونس في بداية القرن التاسع الهجري / العاشر الميلادي، وأبدى إعجابه الشديد بها، وبما وصلت إليه من الرخاء والازدهار. لكن نتيجة لفترة الاضطرابات التي واكبت ثورة صاحب الحمار (أبو يزيد مخلد بن كيداد) لم ينتعش الاقتصاد من جديد إلا في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، فيبدو ان الولي الصالح محرز بن خلف وقف حازما أعاد به الحياة إلى الأسواق، فتذكر المصادر بأنه سهر على مصالح قومه

وحاول انعاش الحياة الإقتصادية والتجارية، إذ عاش في فترة شبابه الأزمة الاقتصادية التي عرفتها إفريقية

(11960/1)

نتيجة لعمليات التخريب والنهب خلال ثورة صاحب الحمار. فتقهقرت الحياة الاقتصادية بكافة نواحي افريقية، وخاصة منها تونس، بعدما عرفت ازدهار نسبيا في أواخر القرن الثالث الهجري. ومما نعلمه أن الشيخ سيدي محرز أحيي السويقة المجاورة لمقره والتي تسمى باسمها أهم أبواب الميدنة، كما ساهم في إعادة بناء أسوار الميدنة لحمايتها من الأعداء.

كما حافظت الذاكرة الشعبية على اهتمام هذا الولي باليهود الذين كانوا يسكنون خارج الأسوار بحي كان يسمى المرضى (وهو مرض الوباء) والذي يعرف حاليا بحي الملاسين، وبما أن هؤلاء اليهود

(11961/1)

اشتهروا ببراعتهم في بعض الصناعات وخاصة في مهنة التجارة، فقد حرص سيدي محرز على تخصيص حي خاص بهم

داخل الأسوار وهو الذي كان يعرف باسم حارة اليهود في حي الحفصية.

إلا أن فترة الازدهار والرخاء التي عفتها البلاد لم تتواصل، ففي أوساط القرن الخامس الهجري / العاشر الميلادي، مرت إفريقية بفترات مضطربة، كان سببها الرئيسي زحف بني سليم وبني هلال، مما تسبب في تقلص هذه الحضارة، ودام هذا الركود فترة طويلة. لكن استطاعت مدينة تونس – خلافا لبقية مدن افريقية – أن تخرج من هذا الانحطاط بسرعة، إذ عرفت في أيام بني

(11962/1)

خرسان، ازدهار نسبيا في الميدان الاقتصادي وفي الناحية الفنية والمعمارية، إذ أسس فيها عبد الحق بن خراسان دويلة دامت من سنة 451 هـ / 1059 م إلى سنة 555 هـ / 1160 م. وقد بنى الأمير أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحق، قصرا يوجد حسبما يبدو على أنقاضه قصر دار حسين. كما أقام كذلك الأسوار التي ذكرها الإدريسي. وتشهد على هذا الازدهار الذي عرفته المدينة آثار

الخراسانيين الباقية، ومنها تربة بني خرسان وجامع القصر.

(11963/1)

إلا أن أسبارا أجريت في داخل بيت الصلاة أثبتت أن هذا الجامع كان في أول الأمر حصنا بيزنطيا، استعمله خرسان فيما بعد لإقامة الصلاة، فجعلوا منه جامعا خاصا بهم.

أما في عهد الموحدين، فقد لقيت تونس عناية، أكبر، خصوصا بتشييد القصبة على يدي عبد المؤمن بن علي سنة الأخماس 555 هـ / 1160 م) التي بلغ اتساعها حوالي الربع من مساحة المدينة والتي يمكن اعتبارها مدينة مستقلة بذاتها.

بعد أن أصبحت تونس انطلاقا من هذه الفترة، العاصمة الشرقة للأمبراطورية الموحدية، جاء الحفصيون بعد الموحدين، وتابعوا ما قام به من سبقهم

(11964/1)

في الحكم، وشجعوا التطور الحاصل، فأبقوا تونس عاصمة لهم، وزادوا في توسيعها والاعتناء بها. ولا ريب أن الفترة الحفصية تعتبر في مجملها عهد نهضة وازدهار، وهكذا أصبحت تونس مدينة متسعة الأطراف، غذ بلغ عدد سكانها – في القرن الخامس عشر الميلادي – حوالي مائة ألف نسمة على مسافة 270 هكتار.

نتيجة لهذا النمو السكاني، تعددت جوامع الخطبة بالمدينة، إذ شيدت خمسة

منها خلال القرن التاسع الهجري / الثالث عشر الميلادي ولم يحصل ذلك إلا انطلاقا

(11965/1)

من سنة 630 هـ / 1233 م، حيث أقام أبو زكرياء الأول جامع القصبة الموحدي، وهو أول جوامع المدينة الذي يؤسس بعد جامع الزيتونة. إذ علمت إفريقيا خلال الفترة الإسلامية الولى، بالنهي عن وجود أكثر من جامع خطبة بالمدينة الواحدة. وهكذا بقي الجامع الأعظم، هو الوحيد في مدينة تونس إلى بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي.

كما أن العثمانيين ساهموا بطريقة مباشرة في إعطاء تونس نفسا جديدا، وإرجاع ديناميكيتها المعهودة

بعد فترة التراجع التي عرفتها خلال القرن العاشر الهجري / السادس الميلادي. فإن كان القرن

(11966/1)

الموالي أحلك الفترات التي مرت بها البلاد. إذ عرفت الثلاثة أرباع الأولى لهذا القرن حروبا عنيفة دارت رحاها بمدينة تونس وعدة جهات من البلاد، بين الجيوش التركية والأسطول الإسباني، والتي انتهت بانتصار العثمانيين سنة 1574 م:

فقد افتك الإسبان بجاية وطرابلس بداية من سنة 916 هـ/ 1510م. وتولى أبو محمد الحسن منصب الحكم سنة 932 هـ/ 1525م، ولم تكن مدته أحسن ممن سبقه (أبو عبد الله محمد بن الحسن الذي ساهم في إضعاف الدولة) واضطربت البلاد على يد ابن محمد الحسن. وفي أيامه قدم خير الدين وتلت قدومه حروب عديدة،

(11967/1)

استنجد أثناءها أبو الحسن بالإسبان. ورغم محاولة ابنه أبي العباس انقاذ الموقف، فإن الأمور تدهورت أكثر من

ذي قبل، إذ ترك أبو الحسن خزينة الدولة فارغة من الأموال، فلم يتيسر لابنه الدفاع عن البلاد. وأهم ما اتسم به هذا القرن هو دخول الإسبان إلى مدينة تونس خاصة في سنة 941 هـ/1535م، ويذكر الوزير السراج أنها "الواقعة التي نهبوا فيها وسلبوا وقتلوا أهل تونس" هي التي يعرفها أهل تونس آنذاك "بواقعة الأربعاء" فقد أباح فيها أبو الحسن الحفصي البلاد للإسبان مدة ثلاثة أيام.

(11968/1)

ولم ينج الجامع الأعظم من النهب والسلب، فيعلمنا ابن أبي دينار أن النصارى نهبوا خزائن جامع الزيتونة وحرقوا السقوف، كما يعلمنا أنه لحق المدارس ما لحق بالجامع. وتفرقت ما جمع فيها من دواوين العلوم.

وقد اعاد الكرة الإسبان سنة 980 هـ/1573م، ولم تختلف النتائج في هذه المرة عما سبقه في الاحتلال الأول. وقد بلغ الأمر بالجنود الإسبان إلى تحطيم سقوف الأبنية لاستعمال ألواحها للتدفئة، وقد بلغ الأمر بالجنود الإسبان إلى تحطيم سقوف الأبنية لاستعمال ألواحها

للتدفئة، وهو ما تسبب في خروج عدد هام من سكان المدينة إلى

(11969/1)

خارجها حفاظا على نسائهم وأبنائهم من القتل والسبي. إلا أن مجيء الأتراك بعد معركة حلق الوادي 1574م كان مختلفا عن الهجرات الأخرى، إذ هو متصل باستيلائهم على البلاد، فأول القادمين كانوا من الجند، وقد حاول هؤلاء التأثير في البلاد من الناحية المذهبية، لذلك بنوا الجامع وشيدوا المدارس – كاليوسفية – وأحيوا ما هدم منها – كالشماعية والعنقية – وحاولوا عن طريقها نشر مذهبهم الحنفي لدى العامة. إلا ان الاتجاه لم يتبلور إلا في بداية القرن الحادي الهجري / السابع عشر الميلادي.

(11970/1)

كما أنشئت خلال نفس هذا القرن أسواق جديدة (كسوق البركة وسوق الترك وسوق الباي وسوق الجرابة ...) وجوامع خطبة، خاصة منها جامع يوسف داي (سنة 1611

م) ثم جامع حمودة باشا المرادي (سنة 1655) وجامع سيدي محرز (سنة 1696م)، كما أسست العديد من القصور كقصر البايات المراديين قرب القصبة، وكذلك دار عثمان ودار الحداد وغيرها كثير.

وفي أوائل القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلاد أخذ البايات الحسينيون مكان المراديين، وورثوهم في قيادة الدولة، فعرفت تونس رخاء وانتعاشا، ذلك رغم الحرب الأهلية التي دامت ربع قرن

(11971/1)

(انطلاقا من سنة 1140 / 1728 م) وواجه خلالها علي باشا الأول عمه حسين بن علي تركي، وقد أسس كل منهما العديد من المعالم، فإضافة إلى الجامع الجديد بالصباغين، أسست في أيامهما سبع مدارس ضخمة. كما بنيت أهم القصور التي وصلتنا خلال النصف الثاني من نفس هذا القرن، نذكر من بينها : دار حسين ودار ابن عبد الله. كما أسس علي باي الثاني تربة البايات التي يمكن عدها أحد أضخم المعالم الدينية بالمدينة.

تواصل هذا الرخاء وتدعمت هذه الرفاهية في بداية القرن الثالث عشر الهجري /

(11972/1)

التاسع عشر الميلادي، فأضيفت معالم أخرى إلى الرصيد الموجود بعد.

فإضافة إلى مجموعة المباني التي أنشأها أهم وزير في فترة حمودة باشا ألا وهو يوسف صاحب الطابع، والمتكونة من الجامع المشهور باسمه والمدرستين وقصره والحمام والكتاب والأسواق المحيطة بها، أسست مجموعة من المعالم المدنية كقصر دار لصرم (الراجع إلى سنة 1819)، منشآت دفاعية خاصة منها القشلات الخمس المؤسسة في أيام حمودة باشا.

هذا، ومن الملاحظ أن المجتمع التونسي، طعم على مر العصور بعناصر أجنبية، لعبت دوار هاما في إعطاء الثقافة والفن والحضارة بصفة

(11973/1)

عامة، نفسا جديدا وصيغة اتسمت بأكثر حيوية على مختلف الفترات. وهكذا عرفت تونس العديد من التأثيرات التي قدمت خاصة – خلال القرون الإسلامية الأولى – من المشرق الإسلامي، وكانت اولها تلك التي

وردت عن طريق الجزيرة العربية ومصر والعراق وإيران، وكذلك من بلاد الشام.

لكن بداية من العهد الحفصي أصبحت التأثيرات الأندلسية، المغربية هامة جدا، والتي مازال البعض منها إلى يومنا هذا، وقد أعطى هؤلاء لمدينة تونس طابعا خاصا، ميزها عن العديد من المدن الأخرى، فالكثير من المعالم تأثرت بالنمط الأندلسي، والمغربي على حد

(11974/1)

سواء، خاصة مئذنة وقبة الجامع الموحدي بالقصبة وزاوية سيدي قاسم الجليزي (أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وغيرها كثير ...).

كما تواصلت التأثيرات المشرقية خلال الفترة الحفصية، وتمثلت جلها فيما قدم عن طريق مصر، ولم تؤثر العلاقات السياسية السيئة على سير العلاقات التجارية والثقافية، والدليل على ذلك ما حصل في مدرسة ابن تافراكين التي دفن فيها مؤسسها، وكذلك وجود الأواورين في المدارس الثلاث : الشماعية والعنقية والمنتصرية ... وقد عكس ما يؤكده جل المستشرقين من انقطاع هذه العلاقات.

(11975/1)

أما أهم هجرة وصلت مدينة تونس، فقد تمثلت في الموريسكيين سنة 101 هـ/ 1609م، ويقدر عددهم بنحو ثمانين ألف نسمة، ورغم ان العديد من هؤلاء المهاجرين وزعوا على عدة قرى ومدن، خاصة بالشمال التونسي، فقد استقطبت تونس الأثرياء منهم، وأهل العلم وأصحاب الحرف – مثل المختصين في صنع الشاشية –.

ومما لا شك فيه أن العطاء الثقافي والنشاط التعليمي ازدهر بطريقة مطردة انطلاقا من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. فيذكر حسين حسني عبد الوهاب : "أن جامع الزيتونة هو اسبق المعاهد التعليمية للعروبة مولدا، وأقدمها في

(11976/1)

التاريخ عهدا، وذلك منذ سنة 120 هـ/ 737م". كما يؤكد بعض المؤرخين أن علي بن زياد أشهر أعلام القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، والمتوفى سنة 183 هـ/

800 م، وكذلك ابن أشري، درسا بجامع الزيتونة.

ومن المؤكد أن علماء أجلاء آخرين عاشوا بتونس، إذ يذكر أبو العرب في طبقات علماء افريقية تسعة من بين أهم أهل العلم بالمدينة. وأصبح للجامع الأعظم شأن عظيم خاصة انطلاقا من بداية العهد الحفصي، وعرف كمعهد علمي طبقت شهرانه الآفاق، وتواردت عليه الدارسون من كل حدب وصوب.

(11977/1)

ولكن لم يختص الجامع الأعظم بمفرده بالتعليم، بل وجدت العديد من الأماكن الأخرى كالزوايا ومساجد الأحياء المختلفة، وكذلك الدور. وأول من جلس بمنزله، هو علي بن زياد، كما درس محرز بن خلف بداية من أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلاد، وفي بيته ...

وقد نحا أبو زكرياء الأول مؤسس الدولة الحفيصة منحى السلاطين والملوك العظام، فبني وشيد، حتى يعطي مظهرا عظيما لعاصمته، وقد تكون زيادة عدد السكان والتطور العمراني لمدينة تونس سببين المدرسة آخرين دفعا لبناء المدارس، كما الدافع المذهبي جعل السلطان يبني

(11978/1)

المدرسة الشماعية أولى مدارس المغرب الإسلامي التي أنشأها حسب كل المؤرخين لنشر المذهب الموحدي، كما أراد أبو زكرياء من وراء ذلك تكوين موظفين أكفاء وإطارات عليا يستعملهم لتقوية أسس دولته، وانطلاقا من هذه الفترة بنيت العديد من المدارس، فاق عددها الثلاثون، ووصلنا منها عشرون مدرسة.

نشطت إذن الحركة العلمية وازدهرت نتيجة لعدة عوامل منها : تشجيع

السلطة الحاكمة بما فيها بعض النسوة كالأمير عطف التي أسست جامع ومدرسة

التوفيق، وكذلك الأميرة فاطمة الاتي بنت المدرسة العنقية، كما وجد عدد هام

(11979/1)

من العلماء الذين تركوا بصماتهم في الحركة العلمية والثقافية، لا في مدينة تونس وإفريقية

فقط، بل اعترف لهم بمقدرتهم في كامل البلاد الإسلامية خاصة بقدوم نخبة من المثقفين الأندلسيين

الذين استوطنوا تونس انطلاقا من بداية الدولة الحفصية. وقد أفادنا ابن خلدون أنه : "اجتمع بحضرة المنتصر الحفصي من اعلام الناس الوافدين على أبيه، وخصوصا الندلس، من شاعر مفلق وكاتب بليغ، وعالم تحرير ..." كما أكد ذلك القلصادي في رحلته، وقد ذكر عددها من هؤلاء العلماء ومن بينهم : الشاعر صاحب "الحلة السيراء" والتآليف العديدة :

(11980/1)

أبو عبد الله محمد بن الآبار، كما أتى أبو الحسن حازم القرطاجني، وكذلك أبو العباس بن الغماز البلنسي، وابن سيد الناس اليعمري الإشبيلي والنحوي ابن عصفور، وغيرهم كثير من الأسماء اللامعة الذين سيطروا على القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وقد عرفت مدينة تونس بفضل هؤلاء ومن سواهم من الأفارقة كابن الخباز وأبي القاسم بن زيتونة وقاضي الجماعة ابن عبد الرفيع نهضة علمية شاملة جعلت منها اهم المراكز الثقافية والتعليمية بالمغرب الإسلامي. أما القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي فقد شاهد بروز جماعة

(11981/1)

من العلماء الأجلاء كقاضي الجماعة ابن قداح الهواري وابن السلام صاحب المؤلفات الهامة المتوفى سنة 749 هـ / 1348 م. كما استقر بها أبو عبد الله بن مرزوق، وبرز أيضا أبو مهدي عيسى الغبريني، وخاصة أفراد عائلة القلشاني ... لكن طغى اسم عبد الله محمد بن عرفة الورغمي على النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر ميلادي وهو يعتبر أهم علماء الدين بالبلاد، وبقي اسمه خالدا على مر القرون. أما عبد الرحمن بن خلدون، فهو أبرز العلماء الذين تفتخر بهم مدينة تونس، فهو يعد منشئ علم الإجتماع، وأبرز المؤرخين، كما

(11982/1)

برز في العلوم الفكرية بصفة عامة.

وقد نجح ابن عرفة في تكوين العديد من العلماء البارزين، خاصة منهم : أبو القاسم البرزلي، ومحمد البحيري وأبو عبد الله بن عقاب، وغيرهم من العلماء الأجلاء الذين برزوا على ساحة التعليم والتأليف في

النصف الأول للقرن التاسع الهجري / الخامس عشر ميلادي.

ومما يفيدنا به الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل أن الفترة ثرية بأسماء عديدة، وقد أعجب بالكثير من الأندلسيين الذين استقروا بتونس، وأهم شخصية ألفت انتباهه هو : محمد الخير المالقي الذي تعرف عليه سنة 846 هـ / 1460 م.

(11983/1)

كما برز أيضا خلال الفترة العثمانية الكثير من العلماء والشعراء والمؤلفين، وكان ذلك خلال القرنين الحادي عشر الميلادي، من بينهم : أبو عبد الله برناز وأحمد برناز صاحب "الشهب المحرقة" والوزير السراج صاحب "الحلل السندسية" ومحمد سعادة صاحب العديد من المؤلفات، كما يضاف إليهم محمد فتاتة، وبعض أفراد عائلة البيارمة، وعائلة الشريف، وعائلية ابن الخوجة.

أما بالنسبة للإشعاع الروحي لمدينة تونس، فقد شهد على ذلك الكثير من المؤلفين بما فيهم الأوروبيين الذين مروا بتونس : كآدورن وليون الإفريقي، إذ انتشرت الطرق

(11984/1)

الصوفية بصورة مطردة، وانطلاقا من محرز بن خلف المتوفى في بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، ولا يكاد يخلو حي من أحياء المدينة من وجود ولي أكثر : خاصة خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، الذي قد خلاله من المغرب أبو الحسن الشاذلي، فكون الكثير من الأتباع من بينهم خاصة السيدة عائشة المنوبية، وسيدي القرجاني وسيدي علي الحطاب وغيرهم ... وتذكر كتب المناقب أن عدد هؤلاء الأتباع بلغ الأربعين.

(11985/1)

وقد أصبحت المدينة خلال القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، تعج بهؤلاء المتصوفين نذكر من بينهم أحمد بن عروس الذي كان يتمتع بحماية السلطان الحفصي. ومن المؤكد أنه كان للأولياء والصالحين تأثير مباشر على التونسيين، مما جعل السلاطين الحفصيين، ثم البايات المراديين، فالبايات يتقربون إليهم ويخشونهم. وهذا ما جعل الولي العالم إبراهيم الرياحي يصعد إلى قمة الهرم – خلال النصف الثاني من القرن

الماضي – ويخشاه البايات الحسينيون.

الناحية المعمارية :

(11986/1)

بعد هذه اللمحة التاريخية، سنحاول تقديم الناحية الفنية والمعمارية لمدينة تونس وربضيها.

فمما يجب التأكيد عليه، هو أنه تنوعت مصادر التأثير في الناحية المعمارية

التونسية، وكذلك في الناحية الفنية بتنوع البلدان الإسلامية والمتوسطية التي صدرت

عنها. ورغم أنه كان للحضور المصري والأندلسي

والمغربي والتركي ... تأثير فعال في عدة مجالات،

كالثقافة والفن والمعمار والصناعة ... فالمثال الإيطالي

دليل على أنه لم تكن كل هذه التأثيرات إيجابية، وأن

للتأثيرات السلبية هي الأخرى مكان في هذه العلاقات

الخارجية، غذ أن

(11987/1)

الاتجاه إلى شراء الحاجيات والكثير من مواد البناء من إيطاليا، نتج عنه انتياب بعض الميادين تونس – وخاصة حي القلالين – ركود لم تعرفه من قبل.

لكن من المؤكد أيضا أن الدور الذي لعبته التأثيرات المحلية، كان هاما جدا، اتسمت الهندسة المعمارية الحفصية مثلا، بوجود تأثيرات مختلفة، البعض منها محلي، والبعض الآخر ورد في الخارج، لكنها عرفا كيف يتعايشان. ونتج عنهما فن واحد أعطى الصيغة "الشخصية" للفن الحفصي. وهكذا عرفت مدينة تونس كيف تكون لها شخصيتها، فقد استطاعت هضم التأثيرات الأجنبية، وخلقت أشياء بنفسها بقيت

(11988/1)

حية إلى يومنا هذا.

ومما لا شك فيه أن المدينة العصرية التي أنشأت بداية من أواخر القرن الماضي، أثرت بطريقة سلبية على المدينة العتيقة، وقد زاد الطين بلة بعض المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي عرفها سكان المدينة الأصليون مما أدى إلى تراجع كبير في مستوى معيشة البورجوازية القاطنة بالمدينة (والذين كان يطلق عليهم : البلدية) وكذلك الأرستقراطية السياسية

والعسكرية. فبعد حرمانهم من موارد رزق الدولة التي كانوا يتنعمون بها قبل استقرار الحماية الفرنسية بالبلاد سنة 1881، وكذلك من الموارد التجارية (التي عرفت

(11989/1)

تقهقرا متواصلا لفائدة المتاجر الموجودة بالمدينة العصرية)، لم يستطع هؤلاء مواصلة صيانة دورهم وقصورهم، ومن باب أولى وأحرى مواصلة بناء دور في نفس مستوى الدور السابقة، لهذا هجر السكان الأصليون المدينة العتيقة، خاصة أن نمط المسكن الغربي جبلهم، فتحولت المدينة العتيقة في أقل من نصف قرن، إلى ملجإ للطبقات السفلى ولسكان البادية الوافدين على العاصمة للحصول على شغل.

لهذا بدأ الكثير ممن يؤمنون بأهمية هذه المدينة وبتراثها في محاولة جزئية

(11990/1)

لإعطاء نفس جديد لمدينة تونس، فأنشئ المعهد الوطني للتراث للمحافظة على المدينة منذ سنة 1973، وهو يساهم مع جمعية صيانة المدينة في إحياء التراث والمحافظة على طابع المدينة العتيقة وعلى تطويرها، وكذلك على إيجاد حلول للمشاكل المتركمة والتي بدأت نتائجها الإيجابية بادية للعيان : فقد وظفت الكثير من المعالم المرممة. أما المعالم الهامة كجامع الزيتونة وجامع سيدي محرز وغيرها رمم جلها، ويحصل تعهدها وصيانتها بصوة مستمرة.

(11991/1)

ومما لا شك فيه أنه ليس من باب الصدفة أو من قبيل المجاملة أن ألحقت اليونسكو مدينة تونس بقائمة المدن المسجلة ضمن قائمة التراث العالمي، إذ أن هذه المدينة العتيقة تعتبر في حد ذاتها متحفا أثريا، فهي تحتوي حاليا سبعمائة معلم، وتعد احدى المدن العربية التي تحافظ على تراثها، وعلى نسيجها المعماري المتكامل.

كما أن تونس هامة من حيث وضعيتها الحالية، فهي أولا وبالذات العاصمة السياسية للبلاد، وتحتوي على جل

الوزارات والإدارات المركزية، التي ما زال قسم منها يتمحور حول قصر الحكومة بالقصبة، كما أن أهم الأدوار

(11992/1)

التي تضطلع به هذه المدينة، إذ تستقطب أسواقها القديمة عددا لا يستهان به من السواح ومن التونسيين أنفسهم.

ومما لا شك فيه أن مدينة تونس ثرية بمعالمها، إلا أن أهم معالم المدينة على الإطلاق هو جامع الزيتونة :

ذكر النويري أن أبا ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب أمر ببناء الجامع بتونس، وأنه بدأ في البناء سنة 248 هـ/ 863 م، وبعد موته واصل عمله أخوه أبو محمد زيادة الله، ومات هو الآخر قبل الانتهاء من إعادة بناء الجامع. وتوجد نقيشة تحيط بالمربع الحامل لقبة المحراب، تمدنا باسم المستعين بالله العباسي الذي أمر

(11993/1)

بالقيام بهذا العمل، وهي مؤرخة في سنة 250 هـ/ 865م، ونص النقيشة هو :

"بسم الله الرحمن الرحيم، مما أمر بعمله الإمام المستعين بالله أمير المؤمنين العباسي طلب ثواب الله، وابتغاء مرضاته على يدي نصر مولاه سنة خمسين ومائتين (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء الله) صنعه فتح الله".

ومما يلاحظ ان أعمدة بيت الصلاة وتيجانها جلبت من المدينة الأثرية بقرطاج. كما أضيفت بعض العناصر الأخرى خلال الفترات اللاحقة.

(11994/1)

فقد اهتم به أمراء بنو خرسان، غذ أضافوا ستة أبواب، كما بنوا مقصورة الإمام، والمقصورة الشرفية (سنة 457 هـ / 1064 م).

أما خلال الفترة الحفصية فقد صنعت أبواب خشبية تطل على الصحن سنة 716 هـ/1316م على يد السلطان أبو يحيا زكرياء وتثبت ذلك نقيشة ذات خط كوفي متأخر توجد في أعلى باب البهو للمدخل الرئيسي لبيت الصلاة.

كما شيدت مقصورة أبي عمرو عثمان، والمكتبة العبدلية أبي فارس عبد العزيز خلال القرن التاسع الهجري / الثامن عشر الميلادي هذا إضافة إلى عدة

انجازات تدل على اهتمام الحفصيين بهذا الجامع. لكن عرف

(11995/1)

الجامع خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي أحلك الفترات، وذلك مع دخول الإسبان ابتداء من سنة 1535، فقد نهبت خزائنه وحرقت في صحنه حوالي أربعين مجلد ولم ترجع له حرمته، إلا مع دخول الأتراك العثمانيين سنة 1574 م.

وأضيفت في العهد العثماني على يدي الإمام تاج العارفين البكري النقوش الجصية التي تحلي واجهة المحراب والحدائر، وتؤرخ هذا العمل، نقيشة تحيط بقاعدة قبة المحراب. كما تمت بعض أعمال الترميم في أيام محمد باي المرادي سنة 1064 هـ/ 1655م، وقد جددت المئذنة التي بناها، وذلك سنة 1312 هـ/ 1894م،

(11996/1)

وهي تعد حاليا من أجمل مآذن البلاد. إن أهمية هذا الجامع متأتية من كونه حافظ على جل عناصره المعمارية

والزخرفية منذ فترة تأسيسه، لذلك يعده الأخصائيون كأقدم معالم الإسلامي الموجودة حاليا – بمعية جامع عقبة بن نافع بالقيروان وجامع دمشق الأموي إضافة إلى جامع قرطبة – إذ انقرضت كل المعالم التي بنيت قبله او أعيد تشييدها. وهو هام أيضا لكونه من اثرى المعالم التي بنيت قبله أو أعيد العديد من النقائش التي تؤرخ جل عناصره المعمارية.

لهذا الجامع تخطيط شبه مربع، وتحتوي بيت الصلاة على سبع مسكبات موازية

(11997/1)

الجدار القبلة، وهي تمتد على خمسة بلاطة أعرضها الوسطى، ويحوي الجامع قبتين :

الأولى التي ذكرناها بعد (قبة المحراب) والمتأثرة بقبة جامع القيروان والتي بناها زيادة الله الأغلبي سنة 221 هـ، لكن تعتبر قبة الزيتونة أكثر تطورا باحتوائها على الضلوع البارزة والمقرصنات ... أما الثانية فهي قبة رواق البهو والتي أقيمت امام بلاطة المحراب، بامر من الخليفة الفاطمي : أبو المنصور العزيز

بالله، سنة 385 هـ/ 995 م، وهي تعتبر من أجمل قباب المغرب الإسلامي.

(11998/1)

أما المنبر فهو الثاني الذي وصلنا في العالم الإسلامي، فقد سبقه زمنيا بستين منبر جامع عقبة بالقيروان الذي صنع سنة 248 هـ/ 862 م.

جامع سيدي محرز :

ومن أهم المعالم التي تمتاز بها مدينة تونس، جامع سيدي محرز، وقد عرف بهذا الإسم لوقوعه أمام ضريح هذا الولي الصالح الذي توفي بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. (413 هـ / 1022 م).

المؤسس هو محمد باي المرادي، وكانت البداية في الأشغال سنة 1104 هـ/ 1692 م، وتوفي محمد باي قبل إتمامه سنة 1108 هـ/ 1696 م، فأكمل عمارته أخوه رمضان باي الذي توفي هو

(11999/1)

الآخر قبل إتمام المئذنة. ويمتاز هذا الجامع عن غيره بالبلاد التونسية، ببعض الخاصيات، ومن بينها اعتماد السقف المتكون من قباب متفاوتة الحجم، على أربع دعامات ضخمة، لذلك لا نجد في بيت الصلاة الأعمدة المرمرية التي اعتدنا وجودها في بقية الجوامع التونسية.

أما الصحن فهو محيط ببيت الصلاة من ثلاث جهات (الشرقية والشمالية والغربية) وهي ميزة لا نجدها إلا في الجوامع المتأثرة بالطابع المعماري للجوامع التركية، مثل جامع السلطان أحمد، وجامع سليمان القانوني وجامع بايزيد باسطنبول.

(12000/1)

ويمتاز المنبر بأنه قار ومبني بالحجارة، وقد كسي بأنواع الرخام الثري، على عكس المنابر التي عرفتها إفرقية في السابق،و كانت منابر خشبية متحولة ويرتكز القوس الموجود في فتحة المنبر على عمودين صغيرين من الرخام، تاج كل منهما من النمط الأندلسي. أثري هذا المعلم بألوام الزليج المجلوبة خصيصا من أزنيك، والمتميز بصناعة

ألوانه وأناقة الأشكال الزخرفية المستوحاة من العناصر

النباتية الطبيعية، التي تطغى
عليها الألوان : الأخضر والأزرق والأحمر والتي عرفت بها
منطقة الأناضول. ويتمثل

(12001/1)

الطراز الأندلسي، في أطباق فسيسفاء تتخذ أشكالا
هندسية تسيطر عليها الأطباق النجمة البسيطة
والقليلة الألوان (الأزرق والأصفر والأسود والأبيض).
بينما تمتاز النقوش الجصية بوجود طرازين : الأول
أندلسي متكون من عناصر هندسية متمثلة خاصة في
أطباق النجوم المكونة للأفاريز وطاقية المحراب
والشمسيات. أما الطراز الثاني فهو تركي الأصل،
وتتمثل عناصره في أشكال منفردة : كالمزهريات
والنجوم المثمنة وكوز الصنوبر الخ ...

(12002/1)

هذان بالطبع مثالان فقط من المعالم العديدة التي
مازالت تحتفظ بها تونس العتيقة، هذه المدينة التي
ترمم فيها معالم عدة، وتنتقد الإندثار والتلاشي حتى

تذكر بماضي تليد وبتاريخ ثري يدفعنا إلى إبراز إحدى المدن الهامة في العالم العربي الإسلامي.

(12003/1)

ليبيا في مخطوطات الرحالين المغاربة خلال القرنين 11–12 هـ / 17–18 م

الدكتور عبد الكريم كريم
كلية الآداب – الرباط

من دراستنا لتاريخ الرحلات المغربية إلى المشرق، نلاحظ أن بعضها كان يتم خلال القرن 16 م بواسطة البحر المتوسط، خاصة وأن النفوذ العثماني كان يشمل مناطق هامة من حوض هذا البحر؛ ومن ذلك على سبيل المثال: رحلة التامكروتي إلى إسطامبول عام 1589 – 1590، غير أن اضطراب المتوسط أواخر القرن 16 م نتيجة تحول طرق التجارة العالمية إلى المحيط الأطلسي، وما رافقه من انتشار للفوضى في بلدان الشمال الأفريقي

(12004/1)

أجبر القوافل على اتباع الطريق الصحراوي الذي ينطلق من مراكش عبر تافيلالت وتوات وبسكره وتوزر نحو فزان وما جاورها حتى وادي النيل؛ ومن ذلك الرحلتان المغربيتان اللتان قام بهما كل من ابن المليح عام 1040 هـ وأحمد الهشتوكي عام 1096 هـ وعندما أخذت الأوضاع تعرف نوعا من الاستقرار النسبي في ليبيا غداة تولية الباشا أحمد القرامانلي، أصبحت القوافل المغربية تأخذ طريق الساحل الليبي حتى النيل؛ ومن ذلك رحلات كل من : الدرعي عام 1121 هـ والزبادي عام 1148 هـ والحضيكي عام 1152 هـ والصغير عام 1152 هـ والناصري عام

(12005/1)

1196 هـ..

1– طوبوغرافية المنطقة

أولا – فيما يتعلق بالطريق الداخلي الصحراوي؛

ثانيا – فيما يتعلق بالطريق الساحلي الليبي.

مع تفاصيل الأسماء الأماكن الرئيسية التي كانت تحط بها القوافل وتقدير للمسافات التي تفصلها.

أولا – الطريق الجنوبي الصحراوي: ينطلق من مدينة مراكش إلى وادي درعة وإلى قصبة تنزولين ثم بلاد

بلبالت وتوات (هنا يتم اللقاء عادة مع الوفد السوداني)، فصحراء أزكيز وبلاد فزان بليبيا.

تعبر القوافل الصحراء الجنوبية الليبية في طريقها نحو الشرق:

(12006/1)

1– بلاد فزان وأهم محطاتها: أبار (أباري)، مدرك (مرزوق)، جرمة، دجان، ززي، تراغن (طرغين)، زويلة، تبسه (تمسه).

... أول منزل نزله الركب وصادفه المولى الرب قصر أبارصانه الباري... فاتصل الخبر ... ... بأميرها... فوجه من فرسان دولته وخدام مملكته نحو اثني عشر فارسا... ثم انتقل بعده ... ... لقصر يقال له جرمة... أهله جياد وأيامه أعياد، أكثر لحومه الدجاج، ثم بعده لقصر ... ... دجان... ثم لقصبة السلطان الجليل الرئيس محمد بن جميل، وهي المعروفة بمدرك.. ما ... ... أحسن سيرته في رعيته وأنشد عدله في

(12007/1)

بـريـتـه... تـأهـب – أعـانـه الله – للقيا الحجيج وتلقاه ... ...
بـفـرح وسـرور... وأمر قاضي عسكره وصاحب النـوازل
الشرعية بـبـلـده أن يـسـتـنـفـر له من ... ... الركب دوره،
فاختار له عشرة، فجالسهم بالحكمة... ثم أمر بـمـنـادينـا:
من ضيع لمغربي ... ... خروبة، قطعت يده؛ ومن ضيع له
مثقالا، قطع رأسه.
(ابـن مليح، صص. 22– 23).
ثم ارتحل القوم وحلوا " بـقـصر ززي، ثم نـزلنـا بـقـصر
تـراغن: قصر عظيم"، حيث استضافهم هنـاك الأمير عمر
التـراغي.
أما "زويلة ، فيحكى أنـها كانـت مدينـة عظيمة كثيرة
النـخيل وفيها مزارات وآثار تدل عليها. ويذكر أن دفات

(12008/1)

أبـوابـها هي القائمة إلى بـاب زويلة، أحد أبـواب مصر
وسميت بـذلك" (ابـن مليح، ص. 24).
واتـجه القوم إلى "مورد يقال له أبـو اللبـاع: غابـة من
شجر، وفيه آبـار قصار قريبـة الماء، ثم لقصر تـبـسه وهو
أعلى قصور فزان وآخرها كثيرة المياه والعيون" (ابـن
مليح، ص. 25).
2 – بـلاد "الفقا :

بلدة منقطعة في صحراء بين جبلين فيه عيون جارية ونخيل قطوفها دانية" (ابن مليح، ص. 25).

أما "زلة، فمدشر صغير لا معاش عندهم ولا قوت إلا ماء يسمونه أكَب: يستخرجونه من النخيل أبيض حلو ثم يطبخونه ويستخرجونه منه" (ابن مليح، ص. 25).

3 – بلاد وجلة:

(12009/1)

... رحب المسعى، كثيرة المرعى، أحدقت جنات من الجوانب تسقى بالدوالب، زرعها ... ... كثير، وخيرها غزير، تجلب لها الأرزاق من الأقطار والآفاق، كثيرة اللحوم والسمن، ... ... يجلب لها ذلك من الجبل الأخضر من برقة، تأتي القوافل منها كثيرا، أهلها سماح ... ... الوجوه، وبنيانها يشبه بناء المغرب في الشكل، ولها بابان أحدهما لناحية المشرق والآخر ... ... لناحية المغرب، وأعذب آبارها بئير بباب البلد؛ منها يسقون لأن غيره لا يشبهه في ... ... الطعم... وارتحل الركب لمنهل قريب من البلاد – يعرف بجراجي –

(12010/1)

فيه آبار ... وبعده ... ... بلاد صحراوية لا ترى فيها إلا رياحا تهب وكثائب الرمل كأنها رواحل تخب يقال له ... ... الغرود تطيش له العقول... وفيها كهوف ودور يقال إنها لقوم عاد منحوتة في الجبال سرنا ... ... فيها من نصف يوم (ابن مليح، ص. 25).

ومنها "لبلاد سيوره : مدشر عظيم على ربوة مرتفع، دورها بعضها فوق بعض، كثير الأشجار والنخيل، متفجرة العيون. تشبه جناتها جنات بلدنا مراكش" (ابن مليح، ص. 25). ومنها نحو مصر.

ثانيا – الطريق الشمالي الساحلي :

(12011/1)

ينطلق من مدينة قابس التونسية نحو مدينة طرابلس وسرت وأجدابية وبرقة فمصر...

... كان دخولنا طرابلس ضحى الثلاثاء الرابع والعشرين من شعبان (عام 1148 هـ). وكان ... ... نزولنا حيث ينزل ركب الحاج في وسطها... فيها مساجد وأسواق وتقام بها الجمعة.

أهل البلد يسمونها الظهرة من الظهور، لأنها ظاهرة، أي عارية من النخيل، بخلاف ... ... العمارات المتصلة بهذا البلد من كل جانب؛ فإنها كلها وسط النخيل. والحجاج

يسمونها ... ... الزرارية باسم رملة متصلة بما بينها وبين البلد يعمر بها سوق عظيم.

(الزبادي، ص. 23).

(12012/1)

"وفي يوم الثلاثاء أول يوم من رمضان (عام 1148 هـ)، دخل الركب الوارد من المشرق والقاصد بلاد المغرب، فنزل أيضا هاتيك الدروع وشرع كل من الركبين في قضاء الأمور وأخذنا في كتب الكتب إلى من خلفنا بفاس من الأحبة كالأهل والأشياخ وذوي المحبة" (الزبادي ص. 25).

بعد مدينة طرابلس، يواصل القوم طريقهم بمحاذاة الساحل: "بيتنا عند عين عافق على ساحل البحر... ثم بيتنا عند جبل النكازة... وفي سفح هذا الجبل من جهة الساحل مدينة عظيمة يقال لها مدينة لبدة قد خلت قديما وبقيت آثارها... ثم نزلنا إلى ساحل حامد... ومررنا ببلدة

(12013/1)

أزلتين وهي بلدة مثل التي قبلها في النخيل والسواني" (الزبادي، ص. 35 – 36).

أما مدينة "مسراته، فسرنا فيها ما شاء الله وبيتنا. ومن الغد، نزلنا – ضحىً – زاوية الشيخ العلامة... قطب مغربنا وإمام أئمتنا أبي العباس أحمد البرنسي... الشهير بزروى رحمه الله" (الزبادي، ص. 37).

من الأماكن التي وقف بها القوم: المنعم التي يوجد بقربها "مقطع الكبريت. سمي بذلك، لأن في أعلى سبخة هنالك معدن الكبريت في آبار كثيرة يحمل منها كالطين. ومن هنالك يحمل إلى مصر والإسكندرية، ومن المنعم يفارق الركب البحر فيتيامن عنه"

(12014/1)

(الزبادي، ص. 44).

... ... وأجدابية

... ... بلد قرب برقة... والموجود اليوم آثارها الدالة على العمارة الكثيرة، وهي آبار ... ... كثيرة في براج من الأرض عظيمة منقورة في الحجر وبقية بنيان حولها متين هائل ... ... بالحجر المنحوت. وهنالك رسم مسجد قديم... ومن أجدابية إلى سلوك.. آبار ... ... في فسيح من الأرض وبإزائها رسوم بناء... وسلوك بمرأى من الجبل

الأخضر قريبا

... من مرسى ابن غازي... زمن سلوك يحمل الركب ماء سبعة أيام، لأن طريقهم في ... ... هذه الأزمنة على السروال وهو مسيرة سبعة أيام

(12015/1)

لا ماء فيها.

(الزبادي، ص. 45**).**

و "التميمي... ماؤه على قتله ليس بالطيب، وبينه وبين درنة مسافة يوم ونصف، وهي مدينة على ساحل البحر لها مرسى عجيبة تنزل بها السفن" (الزبادي، ص. 48**).**

ومن المحطات أيضا: الدفنة، الجرجوب، حيث "يميل الناس يسارا إلى البحر في منحدر صعب مشرف على البحر، فينزلون إلى رمل أبيض يظهر من بعيد كأنه الثلج؛ فيخرجون الماء منه بعد حفره" (الزبادي، ص. 48**).**

وهناك الشمام والمدار والعقبة ووادي الرهبان، فبلاد مصر.

2 **– اقتصاديات البلاد**

أ – الزراعة ورعي الماشية.

(12016/1)

ب – التجارة في المدينة الرئيسية (طرابلس)؛ وفي جميع المناطق التي تحط بها القوافل.

– مواد التجارة: مزروعات وماشية ومصنوعات.

– التجارة الخارجية : تتم عبر البحار.

– التجارة الداخلية : مع أهم المناطق الجنوبية.

ج – طرق المواصلات ووسائلها.

أ – من أهم المناطق الخصبة:

– قرى زيزور: "ذات عنب وزيتون كثير" (الصغير، ص. 75**).**

– بلاد طرابلس: "ونزلنا الترابلس : مدينة على شاطئ... كثيرة المزارع والبساتين والفواكه بأنواعها" (الحضيكي، ص. 15**).**

(12017/1)

– وادي الرمل: "واد متسع عذب الماء لا ينقطع ماؤه صيفا وشتاء... وهو واد مخصب من أعلاه، فيه مزارع تخرج إليه ماشية أهل طرابلس أيام الربيع" (الدرعي، ص. 45**).**

– وادي السيد: "هو كالذي قبله أو أخصب منه، وماؤه ماء غريب لا ينقطع صيفا ولا شتاء" (الدرعي، ص. 46**).**

– جبل النكازة: "وزيت هذا البلد من أطيب الزيوت مذاقا، سيما ضرب منه يسمونه ضرب الماء يعصرونه بالماء – ولا أدري كيف يصنعون بذلك – لا تكاد تميز بينه وبين السمن" (الدرعي، ص. 46).

(12018/1)

– ساحل حامد: "وبلدة حامد بلدة كبيرة ذات نخل كثير ومزارع وأسواق وزيتون؛ إلا أن نخله رديء التمر كنخل هذه السواحل كلها" (الدرعي، ص. 48).

– مزارع سرت: "وبلاد سرت من أخصب البلاد، ذات مزارع كثيرة بالعمل، وعربها أهل رفاهية" (الدرعي، ص. 58).

– الجبل الأخضر: "لا يوجد أخصب منه ولا أكثر منه... وطول هذا الجبل نحو عشرة أيام... وأكثر أشجار الناحية التي مررنا بها العرعر، حتى أنه من شدة اشتباكه والتفافه لا ينفذ الناس فيه إلا في طرق معلومة وشعب مسلوكة" (الدرعي، ص. 61 – 62).

ب – أما أهم المراكز التجارية فهي:

(12019/1)

وكيف انتقلوا منها إلى الأحلاف السياسية. وفي هذه المرحلة درست بشيء من التفصيل سيرة شخصيتين تاريخيتين: الأولى هي الشيخ رحمة بن مطر القاسمي مؤسس حلف القواسم منذ عام 1720، وعاصمته مدينة رأس الخيمة التي قامت على أنقاض مدينة جلفار القديمة؛ والشخصية الثانية هي الشيخ نهيان الفلاحي مؤسس أسرة آل نهيان حكام حلف بني ياس وإمارة أبو ظبي. وكانت عاصمته وقتذاك في واحة ليوا بالداخل. وكان تكوين هذه الأحلاف السياسية حدثاً تاريخياً عاماً في كل منطقة الخليج. وقد شارك أبناء الإمارات في ذلك إخوانهم من القبائل العربية

(11167/1)

الأخرى التي هاجرت في ذلك الوقت من نجد وداخل عمان إلى سواحل الخليج العربي. ووضعت هذه القبائل المهاجرة أسس الخريطة السياسية الحديثة للخليج اليوم. ظهرت إمارة آل صباح في الكويت وآل خليفة في البحرين

ووضعت جذور حكم آل ثاني في قطر. وعاصر ذلك ظهور حلف القواسم وحلف بني ياس.

... وكانت هذه الظاهرة في تلك الفترة من تاريخ المنطقة تعبيراً عن نهضة عربية لاستعادة الخليج العربي لمكانته الدولية مرة أخرى في التجارة العالمية، هي مرحلة يقظة عربية بعد التحرر من الغزو البرتغالي الذي دام بين عام 1507 وعام 1680. وقد

(11168/1)

رافق ظهور هذه الإمارات الحديثة إنشاء عدد من المدن العربية الجديدة مثل مدينة الكويت والزبارة والمنامة والبدع (الدوحة) وراس الخيمة وأبو ظبي. وقاد هذه الهجرات زعماء قادرون على إنشاء الكيانات السياسية والعناية بشؤون الاقتصاد التي هي سمة زعامات الخليج العربي.

... ولم يدم طويلاً انتصار العرب على الغزوة البرتغالية. إذ أن البرتغال كانت رأس حربة أوربا الناهضة وقتذاك لتحطيم منبع ثراء الاقتصاد العربي في الخليج. وظهر البريطانيون في صورة شركة الهند الشرقية الإنجليزية، ولكن سرعان ما تحولت الشركة إلى

(11169/1)

إمبراطورية في الهند وامتد من هناك نفوذهم إلى الخليج.

... ووجد البريطانيون في إمبراطوريتهم الجديدة في الهند تعويضاً عن ممتلكاتهم التي خسروها في العالم الجديد بأمريكا بعد الثورة الأمريكية عام 1889.

وازداد هنا اهتمام بريطانيا بالخليج العربي وأصبح يمثل في سياستهم الجديدة خط الدفاع الأول عن الهند.

... وفي الباب الثالث تحت عنوان »الإمارات فترة الأعاصير الإقليمية والدولية 1800 ـ 1855«، شرحت كيف لم يعش حلف القواسم وحلف بني ياس في السلام الذي عرفاه خلال القرن الثامن عشر ووفد النصف الأول من القرن التاسع

(11170/1)

عشر بالأعاصير الإقليمية والدولية بالنسبة لهما. في عام 1800 وصلت قوات الدولة السعودية الأولى إلى مشارف حدود الإمارات وجاءت حملاتهم إلى عمان مارة بالإمارات. واتخذت من واحة البريمي في عمان قاعدة لها.

وفي عام 1798 وصل نابليون إلى مصر وبدأ يخطط لغزوته في الهند. وأسرعت الحكومة البريطانية في بومباي إلى عقد معاهدة مع السيد سلطان بن أحمد حاكم عمان واندفعت في تأمين مصالحها في منطقة الخليج. وسرعان ما حدث صدام بين حلف القواسم ذي القوة البحرية والذي اعتنق أفراده مذهب الإصلاح السلفي (الوهابي) وبين السفن

(11171/1)

البريطانية عند مدخل الخليج. وكانت الحملة البريطانية على موانئ القواسم وحصونهم وإحراق سفنهم في عام 1819. وقد كان لهذه الحملة نتائجها المباشرة في تحطيم حلف القواسم وتقسيمه إلى إمارات، فظهرت إمارة عجمان وإمارة أم القيوين. وعقدت بريطانيا مع الإمارات اتفاقية السلام الدائم عام 1820، واتفاقية أخرى للهدنة الدائمة عام 1853. وبعد عقد اتفاقية عام 1853، أطلق البريطانيون على الإمارات - حسب رؤيتهم - اسم الساحل المهادن.

(11172/1)

... ولما كانت كتابة تاريخ الإمارات تعتمد بصورة رئيسة خلال القرن التاسع عشر على الوثائق البريطانية بسبب وجود تاريخ وعلاقات مشتركة مع بريطانيا خلال هذا القرن نتج عنها ولاشك ضخامة حجم الوثائق البريطانية حول الإمارات بالنسبة لغيرها من وثائق الدول الأخرى؛ كما أن هذه الوثائق كتبت في الشارقة على مقربة من الأحداث، حيث كان للبريطانيين وكالة سياسية بها منذ عام 1825 بعد الحملة البريطانية ضد رأس الخيمة عام 1819 تمدهم بالمعلومات وأخبار الساحل.

(11173/1)

... لهذا نحن مضطرون إلى الاعتماد على هذا الحجم الهائل من الوثائق البريطانية في الكتابة عن تاريخ الإمارات. ولكننا نجد قلة معرفة البريطانيين للعرب عامة وقبائل الإمارات خاصة في هذه الفترة المبكرة لهم بين عام 1800 وعام 1900. وكان للبريطانيين خلال هذا القرن وكلاء لهم من أبناء الخليج. وجاء هذا التمثيل بعد حكم قاس ظالم للبريطانيين على القواسم؛ إذ أطلق موظفو حكومة بومباي البريطانية لقب القراصنة على القواسم، وسموا ساحل الإمارات ساحل القرصنة. وتخوف

البريطانيون من تعيين ضابط بريطاني في هذه الوظيفة خوفاً

(11174/1)

من قتله على يد أبناء القبائل الذين كانوا يصفونهم دائماً بالشراسة. وكانت العلاقة بين عرب الإمارات والبريطانيين بعد هذه الحملة شعوراً من العداء المتبادل؛ وهذا أمر طبيعي. ونحن نفسر هذا الوصف البريطاني لأبناء الإمارات بأنهم قوم شرسون في صورته الحقيقية، إذ هو عشق أبناء الإمارات وقبائلها للحرية ورفض منهم أن يقيم بينهم أجنبي بالقوة. وهذا الوكيل الأجنبي الممثل لبريطانيا ليس ضيفاً، بل هو يمثل دولة معتدية هزمتهم في معركة حربية عام 1819.

(11175/1)

... وليس هنالك أبلغ مما كتبه المستشرق البريطاني القس بادجر في مقدمة ترجمته لمخطوطة ابن رزيق عن عمان والساحل عام 1873، وذلك بعد أن فتحت له هذه

المخطوطة نافذة ليرى .بصفته أول أوربي .هذه البلاد من الداخل، وليس فقط العلاقات الرسمية الخارجية بين بريطانيا والحكام. انتقد بادجر في مقدمة كتابه هذا التقصير لدى حكومة الهند في معرفة أحوال القبائل العربية في عمان والساحل، وقال إنه بعد قرن من العلاقات السياسية والتجارية بين حكومة الهند من ناحية وعمان والإمارات من ناحية أخرى، فإن معرفة المسؤولين البريطانيين

(11176/1)

عن داخل هذه المنطقة مثل معلوماته تماماً عن منطقة البحيرات الكبرى في وسط أفريقيا آنذاك

... وسوف نجد .ونحن نقرأ الوثائق البريطانية في الجزء الثاني من هذا الكتاب في الفترة ما بين عام 1954 وعام 1971 .كيف تطورت لأول مرة معرفة البريطانيين عن عرب الإمارات، وذلك بعد أن حل الضابط السياسي البريطاني مكان الوكيل السياسي المحلي عام 1949. وبعد أن أصبح للبريطانيين معتمد في دبي عام 1954 وآخر في أبو ظبي منذ عام 1955. وهكذا رأى البريطانيون لأول مرة، بأعينهم هم، ما يجري في الداخل وفي الإمارات. وقد جاب في داخل

(11177/1)

الإمارات في تلك الفترة رجال البحث عن البترول. لهذا نجد كثيراً من هذه الأحكام المبكرة قد تغيرت. فكتب الرحالة البريطاني ولفرد تسيجر يصف البدو الذين عاش بينهم ولمس أخلاقهم عن قرب أنهم نبلاء العرب واختفى الوصف البريطاني القديم لهم أنهم قراصنة وشرسون، بل فضل الكثير من هؤلاء الموظفين البريطانيين الذين عملوا خلال الفترة من عام 1945 حتى عام 1971، سواء كانوا في السلك الدبلوماسي أو ضباطاً عسكريين في قوة ساحل عمان، البقاء في الإمارات بعد اعتزالهم الخدمة الرسمية، لما وجدوا من الحكام والأهالي من كرم وترحاب.

(11178/1)

... ولابد لقارئ الوثائق البريطانية أن يكون حذراً في قبول الأحكام البريطانية عن أهالي الإمارات في الفترة ما بين عام 1800 وعام 1949 عند كلامهم عن الأحوال الداخلية؛ إذ اقتصر وصفهم للشؤون الداخلية على تتبع أخبار فردية: فلان من قبيلة ما اعتدى على فلان من قبيلة

أخرى في المغاصات، وأدى هذا إلى قتال بين الإمارتين، أو فلانٌ لم يدفع ما عليه من دين في الغوص، أو جرى حادث ثأر ولجأ الجاني إلى إمارة أخرى. والواقع أن هذه الفوضى لم تكن لتحدث لو كان هنالك حكومة الحلف المركزية السابقة التي تمنع تكرار هذه الأحداث

(11179/1)

وتقيم العدل والنظام. ويعود السبب في ذلك إلى السياسة البريطانية التي وضعت كل همها في القضاء على سلطة القواسم وهيبة حكومتهم المركزية، ولم تنظر إلى ما وراء ذلك من تشجيع للفوضى الداخلية. لهذا أصبحت التقارير البريطانية خلال هذه الفترة أشبه بمحاضر الشرطة، ولكن أين إنشاء تجار اللؤلؤ للمدارس؟ وأين ما كان يدور في المجالس من شعر وأدب ومشاعر وطنية؟ لم ترد أي إشارة في التقارير البريطانية عن ذلك ولولا جمعنا لهذه المعلومات من صدور الرجال المعاصرين لها، لما عرفنا شيئاً عن هؤلاء الرواد من التجار والمعلمين،

(11180/1)

ولما عرفنا حقيقة المشاعر الوطنية والقومية.

... وفي دراستنا مثلاً لحادث دبي عام 1910 حينما نزلت قوة بريطانية مدينة دبي دون إذن من الحاكم للتفتيش عن السلاح، نجد الماجور كوكس المقيم البريطاني يصف الشيخ سهيل بن بطي حاكم دبي (1906 ـ 1912) بأنه حاكم ضعيفَ. لماذا يصف الماجورُ كوكسْ هذا الوصفَ؟ ذلك لأن الشيخ سهيل كما ذكر في تقريره كان يستمع إلى رأي أفراد العائلة الحاكمة وزعماء العائلات والتجار في المدينة، ورفض طلب كوكس بقبول ضابط بريطاني يقيم في دبي معتمَداً سياسيّاً، وكذلك قبول فتح مركز للتلغراف

(11181/1)

والبريد بريطاني في المدينة. إن الحاكم القوي في نظر البريطانيين في ذلك الوقت هو من ينفذ رغباتهم ويتجاهل مصالح شعبه وآراءه. وفي الواقع، إن هذه المشورة تعطينا صورة رائعة عن الكيفية التي كان يدار بها الحكم في الساحل وعن الكيفية التي كانت بها العلاقات وثيقة بين الحاكم والمحكوم.

... وقد حرصت عند قراءتي لهذه الوثائق على الحصول على المادة الضرورية لموضوعات بناءة لكتابة التاريخ. لقد

تتبعت في هذه الوثائق ما يتناول الأحوال الاقتصادية وتطورها، ودرست ما يفيدني منها مثل منع بريطانيا لعرب الإمارات من بناء

(11182/1)

السفن الكبيرة واستيراد الأخشاب من الهند بعد عام 1820 وكيف أدى هذا إلى عدم الاتصال المباشر بين الإمارات والهند وتدهور النشاط التجاري الواسع في الإمارات. ودرست منع بريطانيا الحكام من الاتصال بالدول الأجنبية منذ عام 1892 وحرمانهم من الاتجار مع الأجانب ومن إعطائهم أية امتيازات تجارية في الإمارات. كما بحثت نتائج العزلة التي فرضها البريطانيون على الإمارات وكيف حاول الحكام والأهالي مراراً كسر هذا الطوق.

(11183/1)

... وقد أتاحت لي الكتابة مرة أخرى عن دولة الإمارات الفرصة كي ألقي الضوء على الشخصيات التي أدّت دوراً تاريخياً مهماً سواء كانت هذه شخصية حاكماً أو عالماً أو

أديباً أو شاعراً أو تاجراً أثرى الحياة الاقتصادية أثناء القرن التاسع عشر. وهي فترة رئيسة في هذا الجزء الأول من الكتاب. واهتممت بالكتابة عن شخصية الشيخ سلطان بن صقر القاسمي (1803 ـ 1866) أمير حلف القواسم المفترى عليه، إذ حملت التقارير البريطانية كثيراً عليه وقدمته في صورة سيئة تختلف عن الحقيقة بسبب إصراره على تماسك حلف القواسم ومحاولته جمع

(11184/1)

شتات الإمارة ومقاومة السياسة البريطانية آنذاك التي عملت على هدم الكيان العربي في ساحل الإمارات في تلك الفترة المبكرة من تاريخ اليقظة العربية في الخليج. كما درست الدور التاريخي الذي أدّاه الشيخ شخبوط بن دياب (1790 ـ 1816) سواء في فترة حكمه أو بعد اعتزاله الحكم في إرساء قواعد إمارة أبو ظبي واتساع أراضيها. وكان، نتيجة لنقله عاصمة الإمارة من واحة ليوا في الداخل إلى مدينة أبو ظبي على الساحل، أن أطلق على إمارة بني ياس اسم إمارة أبو ظبي لأول مرة. وكانت إقامته في قلعة مريجب أواخر أيام حياته في منطقة

(11185/1)

العين سبباً في امتداد إمارة أبو ظبي إلى هذه المنطقة، وكذلك قدمت دراسة تفصيلية عن شخصية الشيخ مكتوم بن بطيء مؤسس إمارة دبي عام 1833.

... أما الباب الرابع، وهو «الإمارات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر»، فقد شرحت فيه كيف قامت في بداية هذه الفترة ثورة في الهند على الحكم البريطاني عام 1857، وأخمدتها بريطانيا بعد صعوبة وخسائر كثيرة في الأرواح. وقد ألغت الحكومة البريطانية شركة الهند الشرقية الإنجليزية، وأصبحت الإمبراطورية الهندية تحت النفوذ المباشر للتاج البريطاني، وعين نائب للملك بها. وقد أدى

(11186/1)

اهتمام بريطانيا بالإمبراطورية في الهند بعد فتح قناة السويس عام 1869 وتأمين الطريق إليها، إلى احتلالها لجزيرة قبرص عام 1878 من الدولة العثمانية، واحتلت بعد ذلك مصر عام 1882، ثم فتحت السودان عام 1899. ونتيجة لذلك كلِّه، زاد النفوذ البريطاني في الخليج والإمارات. وخلال هذه الفترة بين عام 1853 وعام

1900، ظهرت شركات الملاحة التجارية الهندية البريطانية المنتظمة في الخليج بعد أن قضى البريطانيون على دور القواسم وعرب الخليج في الملاحة البعيدة، ولم يكن ممكناً لعرب الخليج منافسة بريطانيا بسفنهم التقليدية

(11187/1)

مع استخدام بريطانيا للبخار وإنشاء شركات حديثة للملاحة وإنشاء خطوط التلغراف في المنطقة. وهكذا احتكرت بريطانيا التجارة الدولية في الخليج، وعقدت في عام 1892 المعاهدة المانعة مع حكام الإمارات وأعطت لاحتكارها صفة شرعية بهذه الاتفاقية؛ كما عزلت الحكام عن الاتصال بالدول الأجنبية والعالم الخارجي.

... وازداد تفكك حلف القواسم بعد وفاة الشيخ سلطان بن صقر القاسمي عام 1866؛ كما شغلت شخصية الشيخ زايد بن خليفة آل نهيان أحداث الإمارات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بين عام 1855 وعام 1909. وقد جمع الشيخ

(11188/1)

زايد بن خليفة بقوة شخصيته وشجاعته بصفته فارساً محارباً بالبادية حوله أكثر حكام الساحل المتصالح وتحالف معهم. وكاد أن يحقق حلم الإمارات في الاتحاد، ولكن السياسة البريطانية والمقيم البريطاني كوكس أحبطا محاولة الشيخ زايد بن خليفة في تحقيق طموحه وحلم أبناء الإمارات. وتأخر تحقيق هذه الفكرة حتى النصف الثاني من القرن العشرين. وقد جاءت حملة مدحت باشا والي بغداد العثماني عام 1871 بصفتها ردّاً لفعل النشاط البريطاني وازدياد نفوذ بريطانيا في الخليج. ولكن هذه الحملة لم تحقق مقاومة حقيقية للهيمنة البريطانية

(11189/1)

في الخليج. وفي نهاية هذا القرن شجّعت روسيا إيران على مد نفوذها على الساحل الإيراني في الخليج للحد من النفوذ البريطاني في هذه المنطقة. وقامت إيران باحتلال جزيرة صرى عام 1887 التابعة لإمارة القواسم؛ كما قضت آخر الأمر على هذه الإمارة العربية على الساحل الإيراني عام 1899. وبدأت إيران طموحاتها في احتلال

جزر أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى التابعة لحكام القواسم في إمارة رأس الخيمة وإمارة الشارقة. ومن هنا بدأت قضية هذه الجزر السياسية بين إيران والإمارات.

(11190/1)

... وإذا أردنا أن نلخص تاريخ الإمارات كما جاء في الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب، وذلك في إطاره العربي القومي وفي وضعه في السياسة الدولية، نقول إن نقمة أوروبا على هزيمتها في الحروب الصليبية في بيت المقدس وفشل محاولاتها في احتلال مصر بسبب قيامها بالدور الرائد أيام البطل صلاح الدين، هذه النقمة على العرب والمسلمين انتقلت غرباً. فاحتل النورماند صقلية، وتمكن البرتغاليون والإسبان من إخراج العرب من الأندلس. ولكن ظل الاقتصاد العربي المزدهر أحد أسباب قوة المسلمين الرئيسة، وتقدم البرتغاليون لضرب مركز

(11191/1)

هذا الاقتصاد العربي المزدهر، متمثلاً في مملكة هرمز وتجارة البحر الأحمر. ونجح البرتغاليون في تحويل التجارة الدولية عن منطقة الخليج إلى طريق جديد وهو خط الملاحة عبر جنوب إفريقيا. وبعد سقوط البرتغاليين في بداية القرن السابع عشر، ظن أبناء الخليج أن الفرصة قد جاءتهم لعودة مجدهم الاقتصادي التاريخي. وبدأت الهجرات، ونشأت إمارات حديثة. ولكن يقظة أوروبا كانت في تقدم مستمر، وتدفق عليهم المال من احتكار تجارة الشرق ومن غنى الأمريكتين. وجاء البريطانيون للهند والخليج وأحكموا قبضتهم على الاقتصاد العربي في

(11192/1)

الخليج. وبحرمان العرب من التجارة الدولية في الخليج، بدأت منطقة الشرق الأوسط تعاني رويداً رويداً من التدهور الاقتصادي. وتأثر البناء والتعليم والحياة عامة من هذا الحرمان بانقطاع شريان التجارة العالمية عبر الصحراء العربية إلى الموانئ العربية في الشام ومصر. وعرفت مصر الغنية مجاعات لم تشهدها في تاريخها الطويل كما يحكيها لنا المؤرخ الجبرتي. ولكن يشاء الله أن ينعم على منطقة الخليج بالبترول، وتحكي لنا

آخر إحصاءات تجارة الترانزيت الجوي والبحري في دولة الإمارات، وإحصاءات نشاطها الصناعي أن دخل هذه التجارة

(11193/1)

والصناعة قد أصبح موازياً لدخل البترول. وانتشر هذا الخير الجديد في دولة الإمارات ودول الخليج بصور مختلفة إلى البلاد العربية، متمثلاً في مشروعات اقتصادية مشتركة ومجالات عمل لكثير من أبناء الدول العربية. وهكذا عاد الخليج مرة أخرى بعد مرور أربعة قرون مركزاً هاماً للطيران والاتصالات الدولية، ومقراً لتجارة ترانزيت دولي وازدهار اقتصادي. وينعكس كل ذلك في صورة ازدهار علمي وثقافي عريض يعيد للحضارة العربية والإسلامية دورها في الحياة الإنسانية. ذلك، في كلمات بسيطة، تاريخ الإمارات في إطارها العربي والدولي.

(11194/1)

... وفي الختام، أسأل الله أن أكون قد وفقت في تقديم تاريخ أكاديمي للإمارات منذ ظهورها السياسي في القرن الثامن عشر في العصر الحديث حتى نهاية القرن التاسع

عشر، وأسأل الله تعالى أن يلبي هذا العمل حاجة طالب الجامعة، وأن يشبع رغبة المثقفين عامة في معرفة تفصيلية لهذه الفترة من تاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة.

... وآمل أن تشجع هذه الدراسة المؤرخين الشباب للبحث والنقد والكتابة في تاريخ وطن سجل أبناؤه في الماضي بداية يقظة عربية مع أبناء الخليج في العصر الحديث، كما سجل حكامه وشعبه اليوم بقيادة صاحب

(11195/1)

السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان أروع الخطى في البناء والإنجاز والمواقف القومية في التاريخ العربي المعاصر.

(11196/1)

قراءة في أدب الأطفال سيرة وتاريخ

... ... الدكتور نادي ساري الديك

... ... جامعة القدس المفتوحة . رام الله . فلسطين

أدب الأطفال من عصر البعثة المحمدية حتى عصر النهضة العربية

... كان للحياة في عصر ما قبل الإسلام صبغتها وقيمها. ومع بدء التنزيل القرآني، أخذ العرب ينشغلون به شيئاً فشيئاً حتى غدا همهم الأول والأساسيّ، الذي اتخذه عقيدة وجعله دستوره وأخذ يتعمق فيه من أجل الوصول إلى الهدف. وأما من عارضه، فقد جعله وسيلته من أجل الشك والطعن. إلا أن الطاعنين لم تخل آراؤهم من الإعجاب بالقرآن؛

(11197/1)

وقد وصفه أحدهم فقال: "والله إن له حلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، ما يقول هذا بشر"(1).

... إن عناية المسلمين بالقرآن أدت إلى ازدهار العلوم وانتشار المعرفة، لأن فهم العرب والمسلمين للنص القرآني لم يكن قد سار في نسق واحد. لذا تعددت الدراسات القرآنية وانبثقت علوم متعددة عنها، أغنت الحياة الأدبية والعلمية معاً وأصبح بعضها مفاتيح لعلوم أخرى ظهرت فيما بعد.

(1) هند حسين طه، النظرية النقدية عند العرب، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، العراق، 1981، ص, 57.

(11198/1)

... ويعد القرآن دستوراً كاملاً متكاملاً، لأنه ناقش أمور الناس جميعاً الدينية والدنيوية. لذلك نجد فيه شتى أنواع المعرفة الإنسانية. ومن هذه الأنواع القصص القرآني، حيث جاء به عظة وعبرة للناس، لأنه يوازن بين الماضي والحاضر والخير والشر وغير ذلك كقوله تعالى {إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون، نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين }(1). وقد وردت القصص على لسان الحيوان والطير أيضاً كما قال تعالى: {حتى إذا أتوا على وادي النمل،

(1) سورة يوسف، الآية 2 ـ 3.

(11199/1)

قالت نملة: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون، فتبسَّم ضاحكاً من قولها، وقال: رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين، وتفقد الطير فقال: ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين، لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتيني بسلطان مبين، فمكث غير بعيد فقال: أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإٍ بنبإٍ يقين }(1).

---

(1) سورة النمل، الآيات 18 ـ 22.

(11200/1)

... إن هذا الإخبار عن طريق الفن القصصي لم يكن جديداً على العرب، وكان يشكل محوراً من محاور الحوار في المنتديات والأسواق الأدبية التي عرفوها في تلك الأيام. والشعر العربي الذي خلفوه لنا من تلك الحقبة لم يكن ليترك هذا الأمر وهو أخبار وقصص القدماء، حيث تجده مليئاً بالأخبار دون تخصيص في نوعية محدودة منها، وهذا ما عناه النابغة الذبياني في قوله:

...

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه

إلا سليمان إذ قال الإله له

وخيس الجن إني قد أذنت لهم

فمن أطاعك، فانفعه بطاعته

ولا أحاشي، من الأقوام من أحد

(11201/1)

قم في البرية فاحددها عن الفند

يبنون تدمر بالصفاح والعمد

كما أطاعك وَادْلُلْهُ على الرشد(1)

...

... هذه المعرفة بالأساطير وعلوم الأولين جعلت الناس متفاوتين من قربهم للدين والعقيدة. من أجل ذلك، نجد الوثنيين قد هاجموا محمداً بأسلوب يرونه قريباً من الأسلوب القرآني، حيث تتشابه الأسلحة، كي يقللوا إعجاب الناس وافتتانهم بالقرآن الكريم إن استطاعوا حتى استعانوا بالنضر بن الحارث الذي يعي أساطير الأولين وأخبارهم حيث كان

---

(1) النابغة الذبياني، ديوان النابغة، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص. 33.

(11202/1)

النضر

... من شياطين قريش تعلم من الحيرة أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار. فكان إذا جلس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مجلساً فذكر فيه بالله، وحذر قومه مِمَّا أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة، خلفه في مجلسه إذا قام ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه فهلمُّوا إليّ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه (1).

... إلا أن الإيمان أخذ يتجذر في نفوس الناس بعد محاربتهم للكفر والإلحاد إذ غدت ملامح الخرافات والوثنية تزول رويداً رويداً، عن

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، القاهرة، 1955، ص. 300.

(11203/1)

طريق الصبر والجلد اللذين تمتع بهما أصحاب محمد عليه السلام. من هنا نرى أن الناس قد أصبحوا ميالين لسماع الأخبار عن البعثة ومريديها، حيث بدأت سمات النور تشخص في الوجود والنفوس. وقد أخذت أخبار الرسول الكريم تنتعش بسرعة مذهلة وبالذات بعد رحلة الإسراء والمعراج، لأن الناس قد سمعت أخباراً لم يعهدوها قبل الرسول محمد عليه السلام قط، لنرى أن أطفال المسلمين قد تاقوا شوقاً لسماع تلك الأخبار كي يزدادوا به إعجاباً وتقديراً "ويندس فريق منهم بين الكبار في حلقات المسلمين ليروا بطلهم العظيم رأي العين ويسمعوا

(11204/1)

منه"(1).

... وبذلك أخذ القرآن يغرس في النفوس، وصار الأطفال يدافعون حسب طريقتهم ومقدرتهم عن العقيدة الجديدة التي أخذت بلبابهم وقلوبهم معاً. وتزداد محنة المسلمين في مكة، ثم تتم الهجرة ليظهر لنا أول نص أدبي متكامل يصلح للأطفال، يتذوقه الكبار ويجدونه

قريباً فعلاً من النفوس والعقول، ألا وهو ذلك النشيد الذي استقبل به سيدنا محمد عليه السلام عند وصوله إلى يثرب مع صاحبه في الغار أبي بكر الصديق. وهذا النشيد بمثابة تعبير صادق عن شوق المجتمع

---

(1) أحمد شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، القاهرة، 1955، ص. 29.

(11205/1)

المدني آنذاك إلى الروحيّة الجديدة التي يرونها من خلال الهجرة الشريفة وتطلعاتهم نحو مستقبل أفضل. ولا غرابة في ملاقاة أهل يثرب رسول الله بالغناء وضرب الدفوف؛ وذلك تعبير صادق عن مشاعرهم أولا؛ كما أن طبيعة أهل يثرب أكثر ليناً واجتماعية من أهل مكة. وعلى وجه العموم، كان النشيد معبراً عن طبيعة العلاقة القادمة بين المهاجرين والأنصار، حيث لم يترك اليثربيون صورة حسنة وفاعلة من خلال بيئتهم إلا وألصقوها في هذا النشيد الصادق الناطق على الرغم من قصره.

طلع البدر علينا

وجب الشكر علينا

أيها المبعوث فينا

(11206/1)

جئت شرفت المدينة

من ثنيات الوداع

ما دعا لله داع

جئت بالأمر المطاع

مرحباً يا خير داع

... هذا الاستقبال جعل الناس جميعاً يستبشرون خيراً بالحياة القادمة. لذا بدأ الرسول الكريم ينظم المجتمع وفق منهج إسلامي رفيع المستوى، حتى نجده قد جدد مهام الشعب بكل شرائحه. وجاء ذلك إما فعلاً أو تقريراً منه عليه السلام. وكان لين القلب مع الأولاد وباقي الناس: فقد شوهد يقبل الإمام الحسين سبطه من الزهراء، حتى تعجب الأقرع بن حابس التميمي قائلاً: ‘‘"إن لي عشراً من الأولاد، فما قبلت واحداً منهم". فقال له النبي: "ما

أصنع لك إذا كان الله قد نزع الرحمة من قلبك؟"(1).

... ويروى أن عمر بن الخطاب قد رأى الحسن والحسين وهما يستمتعان بمداعبة الرسول لهما ويركبان على ظهره، فقال عمر: "نعم الفرس فرسكما". فأردف الرسول الكريم: "ونعم الفارسان هما".

... هذا يرينا أن الحب متبادل بين الرسول عليه السلام. ومن حوله من الناس وبالذات الأطفال، لأنهم ريحانة الحياة وصورة المستقبل وهم. كما يروى. أحباب الله؛ وكذلك إظهار مدى التعلق بالطفولة وتقديم أسمى ما يكون، ألا وهو المطاوعة

(1) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج 1، ص. 196.

والنزول إلى مستواهم والأخذ بيدهم. وذلك يدلّ على فلسفة لها أهميتها ومكانتها في التربية. روي عن الإمام علي كرم الله وجهه: "لا تربوا أولادكم على ما تربيتم عليه، لأنهم ولدوا لزمان غير زمانكم". وهذا

فيه امتداد لفلسفة الإسلام التي جاء بها القرآن الكريم وأكدها الرسول المصطفى بأقواله وأفعاله. وكيف لا يصنع الرسول ذلك وقد تربى في حجور بني سعد، وأخذ من البادية محاسنها وفصاحتها، زيادة على ما وهبه الله به من صفات تفرد بها عن غيره من المخلوقات. فقد كانت مرضعته حليمة السعدية ترقصه بما روي عنها:

(11209/1)

... ... يا رب إذا أعطيته فأبقه

... ... وأعله إلى العلا ورقه

... ... وادحض أباطيل العدا بحقه(1)

... وروي عن الشيماء، أخت الرسول في الرضاعة، أنها كانت ترقصه وتستبشر به خيراً:

... ... يا ربنا أبق لنا محمدا

... ... حتى أراه يافعاً وأمردا

... ... ثم أراه سيدا مسودا

... ... واكبت أعاديه معاً والحسدا

... ... وأعطه عزماً يدوم أبدا(2)

_____

(1) البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، دار المعارف، مصر، 1959، ص. 95.

(2) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، طبع مصر، 1328 هـ، ص. 123.

(11210/1)

... ولم يكن هذا حكراً على السعديين، وإنما قد فعله جده عبد المطلب معرباً عن فرحته بمولده الكريم:

... ... الحمد لله الذي أعطاني

... ... هذا الغلام الطيب الأردان

... ... قد ساد في المهد على الغلمان ...

... ... أعيذه بالبيت ذي الأركان

... ... حتى أراه بالغ البنيان

... ... أعيذه من شر ذي شنان

... ... من حاسد مضطرب العنان(1)

---

(1) البلاذري، أنساب الأشراف، المصدر السابق، ج 1، ص. 81.

(11211/1)

... إنا هنا نقرأ نصوصاً تنسب لأناس لهم علاقة بالنبي الكريم. وقد يشكك المرء في نسبتها، إلا أننا نقول ليس كثيراً أن نسمع ذلك من بيئة تعج بالشعر وبالقيم التربوية، بغضّ النظر عن شخصية الممدوح لأن ذلك إيضاح لصور الحياة وتفاعل الناس معها. ونردف أن ملامح النبوة قد ظهرت في آل عبد المطلب قبل مولد محمد وترسخت في محمد بعد ذلك وهذا ما أكدته السمات الخاصة والعامة للرسول الكريم. أضف إلى ذلك أن هذه الأراجيز تدل على مدى الفاعلية بين الابن وأهله، وخاصة إذا صدر عن إنسان كعبد المطلب وحليمة السعدية.

(11212/1)

... ولم يتوقف الأمر على الرسول عليه السلام وحده، بل استمرت العناية بالطفولة وقيمها لدى صحابته رضوان الله عليهم. فقد روي عن عبد الله بن عمر ملامة الناس له لمصاحبته ولده سالم. فأجابهم كي يريهم مكانة سالم في نفسه:

يلومونني في سالم وألومهم وجلدة بين العين والأنف سالم(1)

... بهذا نرى الصلة الفاعلة بين الابن وأبيه، إذ جعله في

مكان خاص له أهميته وقيمته. ويروى أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وهو يلاعب بنية؛ فقال له:

---

(1) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء، ج 1، طبع مصر، 1326، ص. 155.

(11213/1)

انبذها عنك، فوالله إنهن يلدن الأعداء، ويقربن البعداء، ويورثن الضغائن. فقال معاوية: لا تقل يا عمرو ذلك، فما ندب الموتى، ولا تفقّد المرضى، ولا أعان على الحزن مثلهن(1).

... إن رؤية الناس للأشياء مختلفة. هذا ما نقرأه في هذه النصوص، حيث تكون التربية وثقافة المرء فاعلاً حاسماً في خلق موقفه وبيان رأيه. وهكذا لم يكتف العرب بما روي عنهم تجاه الأولاد والبنات خاصة، بل نجدهم يمنون أنفسهم بأن يروا بناتهم وقد نضجن كي يتعززوا تجاه خاطبيهن:

---

(1) محاضرات الأدباء، المصدر السابق، ج 1، ص. 156.

(11214/1)

... ... يا ليتها قد لبست وصواصا

... ... وعلقت حاجبها تنماصا

... ... حتى يجيئوا عصبا حراصا

... ... ويرقصوا من حولنا أرقاصا

... ... فيجدوني عكراً حياصا(1)

... ولم يكتف المجتمع بما يسمع من أراجيز: إذ أخذ السمار يتحلقون حول أهل القصص والمهتمين بها. وازداد إقبال الناس على ذلك بعد الخلاف الذي حدث بين الإمام علي ومعاوية بن أبي سفيان، حيث سخر معاوية قصاصين خاصين يدعون له في المساجد:

---

(1) المفضل بن سلمة، الفاخر، طبع وزارة الثقافة، القاهرة، 1960، ص. 36.

(11215/1)

... وأما معاوية، فقد عين قصاصين رسميين يؤمون المساجد بعد صلاتي الفجر والمغرب يقصون الحكايات التي تتفق ودعوة معاوية، ويرجون له ولحكمه، ويدعون لآله وأهل الشام. ونشر ذلك في جميع الأمصار التي تحت يده. وحين خلص الأمر له وللأمويين من بعده، اشتعلت

العصبيات القبلية من جديد، وعادت القصص الجاهلية المتصلة بتلك العصبيات تروي فتبعث الخلافات بين المسلمين وتفض الأيام والمعارك والثارات القديمة بين القبائل، وتذكر العرب المسلمين بما قد نسوه منها في غمرة الإخلاص للدين(1)

---

(1) د. علي الحديدي، في أدب الأطفال، ص. 227.

(11216/1)

.

... هذا الأمر يجعلنا نستنتج أن القصص لم يكن هدفه الوحيد تربوياً، بل أصبح نفعاً سياسياً دون النظر إلى العواقب والخيارات، مما أذكى نار الفتنة من جديد بين القبائل من أجل كسب الانتصارات والأمجاد الفردية والأسرية كما هو الحال مع معاوية وأسرته الأموية، علماً بأن معاوية كان من الذين يشغفون بالسمر والمسامرة وحب الاطلاع على أخبار الماضين. حتى تعرف الناس إلى عبيد بن شرية الجرهمي، الذي وضع كتب الأخبار والسمر في عهد معاوية. واستمر التطور القصصي مع الأيام ليبزغ القصص الدينيّ ردّاً ـ كما نظن ـ لفعل القصص

(11217/1)

الذي يثير النعرات الجاهلية زيادة على التطور والتقدم وحاجة المجتمع إلى ذلك وقد لمع اسم وهب من منبه الفارسي الأصل في القصص الديني، لأنه من العارفين بأخبار الأساطير والديانات السابقة والشعوب المحيطة بالجزيرة العربية. لذلك أصبح القصص الديني يتخذ وسيلة إعلامية ناجعة من قبل الفرق الإسلامية لبيان رأيها من الأشياء كما هو الحال عند الخوارج، لأنهم عارضوا كفتي الميزان آنذاك (علي ومعاوية)، وأصبحوا يبثون أفكارهم وهمومهم عبر القصص الديني موضحين للناس الأسباب التي حدت بهم كي يقفوا من المعارك السياسية آنذاك

(11218/1)

موقفهم المعهود. إلا أن هذا النشاط المتتالي في نظم الحياة كافة لم يجعل المختصين يبرزون أدباً خاصاً بالأطفال وبالذات الرواة الذين دونوا الأدب العربي بعد روايته، مما جعل الناس يعيشون في حيرة من أمرهم تجاه هذا الموضوع الشائك والمهم في آن معاً. إذ لم يصلنا

إلا تلك المقطعات التي دونها المختصون من أغاني الكبار للصغار وهم يرقصونهم بواسطتها. وكان للعرب نصيب موفور من هذه المقطوعات الشعرية اشتهرت في أخبارهم، وأثرت عنهم في مجالسهم ومنتدياتهم ومنازلهم، وكانوا يتخذون هذا الترقيص بالغناء وسيلة ترفيه وتسلية

(11219/1)

للطفل. وبجانب ذلك، كانوا يبتغون به غرس جميل الخصال وحميد الفعال في ذهنه قبل أن يشتد عوده ويكبر. وقد تمكنت منه الأخلاق ونقشت في مخيلته الصفات وانطبعت في قلبه القدوة(1). ومن خلال ذلك نستطيع الجزم بأن العرب كانوا على دراية هامة وفاعلة بأصول التربية وقواعدها وقيمها، وكذلك أهمية الأدب تجاه خلق قاعدة صلبة في القيم والثقافة التي يريدون توصيلها لأطفالهم. فهم لم يجعلوا النصوص تسير وفق منهج واحد أو رؤية واحدة، بل تعددت

---

(1) أحمد عيسى، الغناء للأطفال عند العرب، المطبعة الأميرية، بولاق، 1936، ص. 3.

(11220/1)

أنماطها وأهدافها من أجل صفاء الروح وارتياح العواطف واطمئنانها، وإذكاء روح الخيال البناء كي يتم تزويدهم بالمعلومات والأفكار التي خطط لها وفق منهج وأسلوب مؤكدين، زيادة على المعلومات العلمية والتمسك بالروح الوطنية التي تجعلهم يفاخرون بالانتماء إلى أمة متجددة.

... وهذا ما نستشفه أيضاً من تصرف القبائل في ميلاد شاعر أو فارس، حيث كانت "القبيلة إذا نبغ فيها شاعر، أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر، لأنه من حماة أعراضهم، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد وشاعر ينبغ أو فرس

(11221/1)

تنتج" (1).

... هذا التعلق بالطفولة جعل عواطف الشعراء تستجيب للحدث فيما يخص الأولاد. فالمصاب يكون كبيراً .لا فرق في ذلك بين كبير وصغير .إذا اختطف الموت أحد الصبية كما فعل جرير في رثاء ولده "سوادة":

قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم

لكن سوادة يجلو مقلتي لحم

قد كنت أعرفه مني إذا علقت

إلا تكن لك بالديرين باكية

من للعرين إذا فارقت أشبالي

باز يصرصر فوق المرقب العالي

رُعن الجياد ومد الغاية الغالي

---

(1) السيوطي، المزهر، ج 2، طبع الحلبي بمصر، ص. 473.

(11222/1)

فربَّ باكية بالرمل معوال(1)

... واستمر الأمر مع البيئة العربية، إذ يعبر كل إنسان عن العلاقة مع الأطفال بطريقة يراها مناسبة تصور نهجه وثقافته ومدى الفاعلية التي يخلقها نصه. لكن عملية بكاء الأبناء قد توجها ابن الروميّ برائعته التي تفور حزناً وألماً وصدقاً في التعبير واللفظ وكل شيء في نسج هذه المودة بينه وبين أبنائه الذين فقدهم في حياته: "هبة الله ومحمد وثالث لم يذكر اسمه في

ديوانه، ماتوا جميعاً في طفولتهم ورثاهم بأبلغ وأفجع ما رثى به والد

---

(1) جرير، ديوان جرير، دار صادر، بيروت، ص. 345.

(11223/1)

أبناءه"(1).

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي
توخى حمام الموت أوسط صبيتي
على حين شمت الخير في لمحاته
لقد قلَّ بين المهد واللحد لبثه
ألح عليه النزف حتى أحاله
وظل على الأيدي تساقط نفسه

جوداً فقد أودى نظيركما عندي
فلله كيف اختار واسطة العقد
وآنست من أفعاله آية الرشد
فلم ينسَ عهد المهد إذ ضم للحد
إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد

---

(1) عباس محمود العقاد، ابن الرومي. حياته من شعره، دار الكتاب العربي، بيروت، 1968، ص. 23.

(11224/1)

ويذوي كما يذوي القضيب من الرند(1)

... هذه الشفافية والصدق الذي نلمسه لا تجده في نصوص كثيرة، لأن هذا النص يجعلك تشعر بمصاب أليم ينقاد له الإنسان بعواطفه وفكره، والشاعر يضع الإبهام على الجرح ويقول هذا هو مكمن الألم، لذا يؤكد أن البكاء إحدى وسائل الشفاء والتقليل من تبعات الألم والحزن. إلا أنه لا يعيد الأمر إلى نصابه، وكذلك لا يستطيع أحد إدامة البكاء، لأن المسألة ليست بهذه السهولة: فهي ليست قراراً مادياً

---

(1) محمد النويهي، ثقافة الناقد الأدبي، ط 2، مكتبة الخانجي، بيروت، 1969، ص, 345 وما بعدها.

(11225/1)

يتخذه الإنسان؛ فقد لا تستجيب حاسة الدمع لمطلب الإنسان. فيزداد نكده وهمه على الدوام. لذا تكون العين وسيلة شفاء، لا طريق خلاص من الألم.

... من هنا نقول إن مثل هذه العواطف والدموع لا تصدر إلا عن نفس ملتاعة. وهذا يرينا جلل المصاب في الابن، لأنه جزء متنتال من الإنسان نفسه. إلا أن هذا الأمر لا يجعلنا نستعيض بهذه الأشعار عن أشعار خصصت للأطفال مهما كانت رقتها وجدواها. إن مشاعر ابن الرومي تمثل مشاعر أي إنسان صادق أصيب بإحدى فلذات كبده ونفسه. لذلك يتيقن لنا مدى أهمية النص الشعري لدى العربي حتى نسمع ونقرأ

(11226/1)

عن قادة هذه الأمة وهم يوصون مربي أولادهم كي يعلموهم الشعر: فهو ميزان القول وصناعة الأمة في بداية عهدها. والحاجة إلى التعبير الصادق جعلت العرب تقول شعراً كما فهم صاحب "العمدة"، لأن كلامهم كان منثوراً حتى احتاجوا إلى الغناء:

... فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقهم وطيب أعراقهم وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة وفرسانها الأمجاد وسمحائها الأجواد لتهز أنفسها إلى

الكرم وتدل أبناءها على حسن الشيم. فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام. فلما تم لهم وزنه، سموه شعراً لأنهم شعروا به، أي فطنوا(1)

---

(1) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ج 1، بيروت، 1972، ص. 16.

(11227/1)

.

وأخذ بهذه الوصية الإمام الغزالي رحمه الله وزاد عليها "أما الإمام الغزالي، فيرسم الطريق واضحاً ويؤمن على قول من سبقه مضيفاً إلى ذلك أحاديث الأخبار وحكايات الأبرار" (1). من هنا جاء كتابه "أيها الولد" معبراً عن موقفه في التربية وأثر الإسلام في موضوعاتها، إذ يعد كتابهُ معلماً واضحاً لرؤية فلسفية تحقق بعض السعادة للأطفال من خلال بيان حقوقهم وواجباتهم. ولحق به ابن خلدون صاحب الفلسفة والتفكير المنطقي.

---

(1) محمد الشنطي، في أدب الأطفال، ص. 172.

(11228/1)

... ولا يقف هذا الأمر عند هذا الحد، بل استمر بنقليات عدة. لكننا لا نجد نصوصاً أدبية بمفهومها الشمولي والمستقل معدة للأطفال إلا ما يتلمسه المرء في مسرح خيال الظل وأولياته عند الفاطميين كما سنورد ذلك في حينه. ونعتقد أن السبب الرئيس لعدم استقلالية نص أدبي كما هي النصوص في يومنا يعود لأسباب منها:

... 1 .أن الضياع الذي تعرض له تراثنا العربي بسبب الحرق والدمار والحروب وغير ذلك أدى إلى فقدان الشيء الكثير من أدبنا وفكرنا.

(11229/1)

... 2 .أن من قام على رواية الأدب والثقافة العربية وتدوينها أظنهم أغفلوا مثل هذا الأمر (النصوص إن وجدت). وذلك مرتبط بالبنية المجتمعية للوطن والمواطن في البلاد العربية.

... 3 .أن طبيعة البنية الاجتماعية كانت تنظر إلى الطفولة بصفتها مرحلة انتقالية، أي هي بمثابة معبر وجسر ليس غير. لذا كانت القبائل العربية توفد أبناءها للصحراء من أجل صلابة الأجساد وفصاحة اللسان

وملكة القول والبيان.

... 4 ـ أن ما سبق يؤكد عدم اهتمام العرب، ولا سيما في العصور اللاحقة للإسلام، بشيء اسمه أدب أطفال، وذلك نتيجة للصراع

(11230/1)

القائم والشدة التي يحتاجونها، بحيث نجدهم يسمون أولادهم بأسماء صعبة خشنة فيما يسمون جواريهم وخدمهم بأسماء رقيقة عذبة حتى قال أحدهم بعد أن سئل عن ذلك: "خدمنا لنا، وأولادنا لعدونا". بهذا كانوا يعتقدون أن الطفولة مرحلة مكملة للرشد أو معبر لها، وكأنهم لا يريدون هذه المرحلة. ففاقد الشيء لا يعطيه، بمعنى إذا كان الأطفال بعيدين عن أسرهم وبيئاتهم وكذلك يعدون جسدياً ونفسياً كي يكونوا أقوياء لملاقاة الأعداء فكراً وجسداً، فلم يكون النص الإرثي المحبب لديهم. وهذا ما ينطبق على جل الحضارات السابقة باستثناء

(11231/1)

الحضارات العربية في العراق ومصر التي عرفت قبل آلاف السنين.

...

أدب الأطفال عند العرب في العصر الحديث

... لم يحدد قطعاً تاريخ بدء عصر النهضة في الوطن العربي. إلا أن بعض الباحثين يجعل ذلك متمثلاً في الحملة الفرنسية على مصر عام 1798 م، في حين نرى من يعتقد بأن عصر النهضة يبدأ مع أول بعثة علمية أرسلها المصريون زمن محمد علي إلى أوروبا وكان ذلك عام 1824 م. ويبتعد آخرون عن هذين التاريخين ويضعون عام 1908 يوماً للنهضة العربية، وتمثل في إعلان الدستور العثماني الذي ساوى بين القوميات والديانات والثقافات،

(11232/1)

مما حدا بالشعوب الخاضعة لتركيا إلى تأييد هذا الدستور وإعلان ذلك صراحة دون مواربة. والذي نميل إليه أن بوادر النهضة لم تتمثل في تاريخ محدد من التواريخ المذكورة، بل نجدها قد ظهرت نتيجة لعوامل داخلية وخارجية، غير غافلين عن أثر تلك الأحداث والسنين التي مرت وعصفت بالوطن العربي أرضاً وشعباً

وتراثاً وثقافة. إلا أن الأساس ينبع من روحية الشعب الذي تتجسد فيه العملية التواصلية والشوق للحرية واللحاق بالركب الحضاري والإنساني.

(11233/1)

... إن المتتبع للمسيرة الحياتية للوطن العربي يجدها قد عكست على الأدب أيضاً وبالذات أدب الأطفال، لأن ما دون من أراجيز وأغاني لترقيص الأطفال لم يكن ليعد أدباً معداً للأطفال. ومثل هذا ليس عيباً أو خذلاناً لتاريخ أمة يمتد لآلاف السنين، وإنما يعود لعوامل عدة منها ما هو داخلي ومنها ما هو خارجي. إلا أن الخير وتوابعه كان يشكل محور الحكايات والقصص التي تسرد للطفل العربي المسلم، والتي تحمل في طياتها فلسفة التقوى والمحبة والاندفاع صوب عمل الخير.

(11234/1)

... وبما أن النهضة الأوروبية أسبق إلى الوجود من النهضة العربية في العصر الحديث، فقد كان أدب الأطفال عند الكتاب الأوروبيين أسبق إلى الحياة من

الكتاب العرب، لأن الأدب مطاوع للحياة ومتفاعل معها وليس مصوراً لها فقط من هنا نقول إن العرب في مطلع القرن التاسع عشر قد بدأوا يفكرون ملياً وجدياً في خلق أدب له فلسفته الخاصة بمراحل الطفولة كلها من أجل بناء مجتمع يعتمد على نهضة فكرية علمية لا شكلية قشرية. بهذا نجد أن الفارق قرنان من الزمن بين ظهور الأدب العربي المعد للأطفال ونظيره الأوروبي. فالسبق دائماً

(11235/1)

لمن يتقدم في أوليات النهضة وتسخر الحياة ومعطياتها من أجل الحياة المتطورة. وهذا ليس غريباً حقاً، لأن أول كتاب نقدي منظم بمنهجية علمية مبوبة ظهر على يدي ابن سلام الجمحي في القرن التاسع للميلاد، في حين لم يكن الأوروبيون يعرفون معنى لكلمة النقد. وكانت أوروبا تتخبط في الحروب الداخلية وطغيان الإقطاع، إلا أن الحضارة العربية وصلت إلى أوروبا بطرق شتى، وبالذات عن طريق طلبة العلم الوافدين للأقاليم العربية آنذاك، مما جعلها قاعدة مثلى لانطلاقة الحضارة الأوروبية في إبان عصر النهضة الأوروبي الحديث. وليس مثل

(11236/1)

ذلك بجديد، لأن امتزاج الشعوب واختلاط الأجناس وتداخل الحضارات والثقافات يؤدي إلى نهضة مؤكدة في الأمة التي تريد ذلك مع إرسال أول بعثة عربية مصرية إلى أوروبا في زمن محمد علي، أخذت الثقافة العربية تتلاقح مع الثقافات الأوروبية وبالذات الإنجليزية والفرنسية والإيطالية فيما بعد. وبهذا، نقول إن أدب الأطفال بدأ يدخل قلوب العرب وعقولهم عن طريق طلبة البعثة العربية المصرية (إذ ظهر في البلاد العربية ـ زمن محمد علي باشا في مصر ـ مترجماً)، ونتيجة لاختلاط الأدباء والشعراء العرب بأدباء وشعراء الغرب. وكان أول من

(11237/1)

قدم كتاباً مترجماً عن اللغة الإنجليزية إلى الأطفال هو رفاعة الطهطاوي الذي كان مسؤولاً عن التعليم في ذلك الوقت. وكان الطهطاوي مربياً فاضلاً ومثقفاً ثقافة عربية إسلامية: فهو قد تخرج في الأزهر الشريف، ثم ألحقه محمد علي بالبعثة العلمية مرشداً روحياً لها. وكان أدب الأطفال قد وصل أوجه في فرنسا وتمثل في

كتابات تشارلز بيرو. عندئذ بدأ الطهطاوي بترجمة هذه الآداب المعدة للأطفال. فترجم قصصاً تعد من حكايات الأطفال، وأدخل قراءة القصص منهاجاً في المدارس المصرية(1)

---

(1) علي الحديدي، الأدب وبناء الإنسان، جامعة ليبيا، 1973، ص. 230.

(11238/1)

.

... ولم ينحصر دور الطهطاوي في الفترة التي كان فيها ملازماً للبعثة في فرنسا، بل تعداها إلى ما بعد عودته إلى وطنه مصر، وأصبح مسؤولاً عن التعليم. لقد أصبح يعي ما يفتقر إليه أطفال أمته وما يعانونه من جدب وفقر وحرمان في هذا الباب: لقد كان على علم بما يعانيه الأطفال العرب من جدب في الخيال، وفقر إلى التسلية الرفيعة، وقحط في الترفيه التراثي. استعان بكتب الأطفال الأجنبية وأمر بترجمتها ليقرأها التلاميذ المصريون. وكان رفاعة جاداً في أن يستعين في سياسته التعليمية بما يوضع أو يترجم من كتب حديثة. ومن ذلك

(11239/1)

ما كتبه لوكيل الحكومة المصرية المقيم في لندن سلحدار إبراهيم باشا بأن يرسل كتباً مطبوعة ومؤلفات للصغار والتلاميذ بحيث تميل أذهانهم إليها(1).

... إلا أن أدب الأطفال خفت ضوؤه، بل كاد أن يتلاشى بعد وفاة رفاعة الطهطاوي؛ إذ تدهور التعليم في مصر إلى حد كبير، مما جعل هذه الجذوة من الأدب تخفت وتكون من المنسيات تقريباً. فلم يهتم أولو الأمر بالعلم بوجه عام. فتضعضع أدب الأطفال، لأنه من الاهتمامات الحديثة العهد إلى حد ما. وبما أن أدب الأطفال صعب

---

(1) علي الحديدي، في أدب الأطفال، المصدر السابق، ص. 243.

(11240/1)

المراس ويحتاج إلى متمرسين بأمور شتى من الحياة زيادة على الميل النفسي والروحي، فقد ابتعد عنه جل الأدباء. لكن العملية لم تنعدم تماماً؛ فقد ظهر الكاتب محمد عثمان جلال في حكاياته تحت عنوان "العيون

اليواقظ في الأمثال والمواعظ". وهذه الحكايات جاءت خليطاً من البناء المعرفي والثقافي والتاريخي: إذ نجد روحية الأدب الفرنسي و"حكايات" لافونتين إلى جانب مرويات "ألف ليلة وليلة" وغيرها مما جاءت به الذاكرة المصرية عبر الأفواه والقصص الشعبي المتداول. وكما يعتقد الدكتور محمد غنيمي هلال، فإن "هذه الحكايات يمكن أن

(11241/1)

تكون موضوعاً لدراسة معمقة في الأدب المقارن"(1).

... وعلى الرغم من هذا التوجه الذي جاء به العلامة جلال، فإن المتتبع لا يجد قيمة حقة ـ من حيث الميول والمحاكاة للأطفال ـ في حكايات محمد عثمان جلال، وإنما هي عبارة عن أبيات منظومة حوت معلومات وأفكاراً وثقافات متعددة لم تخصص لمرحلة عمرية معينة؛ إلا أن مستواها العام أقرب إلى فكر وعقل الكبير منها إلى الطفل الصغير. لذلك نعتقد أنها أهملت ولم تحسب على أدب الأطفال، نظراً لركاكة أسلوبها وما تضمنته من

---

(1) محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، صص. 176 ـ 177 وغيرها.

(11242/1)

أخطاء لا توصف قد تضر ببنية الطفل العلمية والأدبية أكثر مما قد تفيده، لأن الأطفال يتلقفون معلوماتهم دون تمحيص، ولا سيما في مراحلهم العمرية الأولى؛ وبذلك تكون السلبية فيها أكثر من الإيجابية.

... وتلا جلال الكاتب عبد الله فريج بما قدمه في كتابه "نظم الجمان من أمثال لقمان" والذي يضم خمسين أرجوزة تقريباً. والذي يقرأ العنوانين السابقين يجد الكاتب قد تمسك بالسجع على طريقة المتأخرين في اختيار العنوانات. وهذه الأراجيز عبارة عن معلومات أقرب إلى ذوق الكبار منها للصغار، وبهذا تكون حكايات جلال أقرب إلى

(11243/1)

الطفولة من أراجيز عبد الله فريج، وكان ذلك عام 1893، أي بعد صدور حكايات جلال.

... إلا أن أدب الطفولة عند العرب قد بدأ فعلاً على يدي الشاعر الكبير أحمد شوقي الذي تثقف ثقافة عربية إسلامية قبل ذهابه لفرنسا لدراسة الحقوق، ومن ثم

تثقف بالثقافة الأوروبية، والفرنسية منها على الخصوص. وهذا ما عناه طه حسين في كلامه عن شوقي: فحينما "ذهب إلى فرنسا في آخر القرن الماضي إذا ذكر الشاعر، ذكر لمارتين و"بحيرته" التي ترجمها إلى العربية أو ذكر لافونتين وأساطيره؛ وإذا ذكر الفلسفة، ذكر جون سيمون. ومن المحقق أن آثار

(11244/1)

لامارتين ولافونتين آيات من الأدب الفرنسي "(1).

... إن تطعيم شوقي لثقافته جعلت منه إنساناً متمرساً إلى حد كبير، وبالذات في الموضوعات التي تحتاج إلى ثقافات مزدوجة كما هو أدب الأطفال والمسرح. وهذا لا يعني أن شوقي لم يكن مجيداً في الفنون الأخرى، بل يعد شاعراً عربياً من الطراز الأول في العصر الحديث.

... من هنا نقول إن ثقافة شوقي العربية الإسلامية جعلت منه إنساناً ميّالاً إلى حب المعرفة والتجديد. وبذلك توجه صوب أدب الأطفال الذي يحتاجه

---

(1) طه حسين، حافظ وشوقي، ط 4، مكتبة الخانجي، مصر، 1958، ص. 100.

(11245/1)

الوطن العربي إلى جانب احتياجاته في ضروب الحياة الأخرى من فكرية وعلمية وثقافية وغيرها. فبدأ ممارسة الكتابة للأطفال، إذ قال:

... وجربت خاطري في نظم الحكايات على أسلوب لافونتين الشهير. وفي هذه المجموعة القصصية التي صدرت عام 1898 شيء من ذلك فكنت إذا فرغت من وضع أرجوزتين أو ثلاث، أجتمع بأحداث المصريين وأقرأ عليهم شيئاً منها، فيفهمونها لأول وهلة ويأنسون إليها ويضحكون من أكثرها، وأنا أستبشر لذلك وأتمنى لو وفقني الله لأجعل للأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المستحدثة منظومات قريبة

(11246/1)

المتناول يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم(1).

... وقد اعتمد شوقي الحكمة وإيصال المعرفة بأسلوب غنائي جميل وبكلمات رقراقة فاعلة، مما يجعلنا نشعر بغنائيته الطافحة حتى في مثل هذه المواقف. إلا أن نتاج

شوقي، ولا سيّما الحكايات البالغة أربعاً وخمسين حكاية لم تكن جميعها معدة للأطفال، وذلك لأسباب عدة منها رمزيتها والتعريض بها أو أسلوب الجنس فيها والتعقيد الذي نلمسه في ثنايا بعضها. وهذه الأمور وغيرها جعلت الدارسين لها يميزون ما يصلح

---

(1) أحمد شوقي، الشوقيات، "المقدمة"، دار الكاتب العربي.

(11247/1)

للأطفال وما لا يصلح، بمعنى أنه أعلى من مستوياتهم وثقافاتهم. والسبب يعود إلى من جمعها: إذ جمعت وطبعت في الجزء الرابع من "الشوقيات"(1).

... وشوقي بحدسه وبطبيعته الإنسانية وميله الأدبي عرف ما للأدب من قيمة لدى الأطفال، فكان نتاجه إليهم. وما استخدامه الحيوانات والحديث باسمها إلا دلالة واضحة وذكية منه على فهم نفسية الطفل، علماً بأن شوقي لم يكن المبتدئ في هذه النتاجات الأدبية على لسان الحيوان، وإنما وجدت من زمن الحضارات العتيقة (عربية وهندية

(1) ... انظر الشوقيات، الجزء الرابع، صص. 94 ـ 158.

(11248/1)

وغيرها). وما كتاب "كلية ودمنة" سوى أحد الشواهد على ذلك فالحيوانات، بصداقتها المتنوعة مع الأطفال، تشكل جسراً فاعلاً وناطقاً في نقل المعرفة، فهي تشكل الجوانب المتعددة من صورة الطبيعة وتقلباتها. ... من هنا جاءت دروس العظة والأخلاق الحميدة والتهذيب النفسي في أناشيد شوقي وحكاياته. فهو سبيل فاعل وبناء في تهذيب النفوس وإرشاد الضمائر والعقول صوب الخير الفاعل، فكان يأتي بالصورة ونقيضها كي يقرب المراد إلى الأطفال بصور مشوقة ويعرفهم الخير والشر وكلاهما يسيران جنباً إلى جنب في دهاليز الحياة ونظمها مع

(11249/1)

الإنسان. وبذلك نجد شوقي وقد أخذ ينظم حكاياته وفق الأمثال والحكم والقصص المتداولة والمعروفة لدى الناس في مجتمعنا العربي تقريباً. ومن منظوماته الشيقة

والفاعلة قصيدة "اليمامة والصياد" التي حاول إيصال مقولة مشهورة بواسطتها، وهي "مقتل المرء بين فكيه" أو "لسانك حصانك إن صنته صانك وإن أهنته أهانك" و"من تدخل في ما لا يعنيه لقي ما لا يرضيه".

يمامة كانت بأعلى الشجرة
فأقبل الصياد ذات يوم
فلم يجد للطير فيه ظلاّ
فبرزت من عشها الحمقاءُ

آمنة في عشها مستترة
وحام حول الروض أيّ حوم
وهم بالرحيل حين ملاّ

(11250/1)

والحمق داء ما له دواء

يا أيها الإنسان عما تبحث؟
ونحوه سدد سهم الموت
ووقعت في قبضة السكين
"ملكت نفسي لو ملكت منطقي"

تقول جهلاً بالذي سيحدث

فالتفت الصياد صوب الصوت

فسقطت من عرشها المكين

تقول قول عارف محقق:

... ففي هذه المقطوعة الجميلة يبدأ الشاعر بالإخبار حول مكانة اليمامة وعلاقتها بمحيطها، وكيف كانت مستقرة آمنة البال والخاطر بعلاقتها بالعش الذي صنعته بغريزة الحياة والأمل الآتي. إلا أن هذا الأمل قد تشوبه شوائب وتحول دونه عواقب جمة ووخيمة. وتمثل ذلك في بحث الصياد عن فريسة يكون من السهل

(11251/1)

اقتناصها، علماً بأن عملية البحث تلك لم تكن ميسورة أو سهلة في أي حال من الأحوال، حتى غدت من المستحيل، إذ أراد الصياد مغادرة المكان لعدم توافر ما يبتغيه؛ لكن تدخل المخلوق في ما لا يعنيه يجعله يهوي في مهالك الردى. وهذا ما تمثل مع الباحث والمبحوث عنه (الصياد واليمامة). وتأتي هنا العملية التكاملية في كيفية سقوط الضحية، وإن كانت هي السبب في ذاك

السقوط المتمثل في عدم امتلاك المنطق أو أسس التفكير. وجاء ذلك عن طريق السؤال الذي هو وسيلة السقوط ونهاية حياة مبحوث عنها كي تنتهي وقمين بالطرف الآخر الحفاظ

(11252/1)

عليها. لذلك تعانقت الأضداد، فهوت إلى مكان لم تكن لتنزل فيه لولا تدخلها في لحظة اليأس من الطرف الآخر كي ينتظر الجاني ضد ضحية معدة أصلاً لتكون كذلك، علماً أنها قد تسببت في حصول ما لم تحمد عقباه، ألا وهو "الوقوع في قبضة السكين" الذي هو بمثابة نتيجة مؤكدة لتصرفها اللاإرادي أو الساذج. وكان الشاعر يريد القول: "من فعل شيئاً بلا إرادة مع إنسان لا يستحق ذلك، كانت النتيجة عكسية"، ويرينا أيضاً مدى إصرار الصياد على الحصول على صيده الذي يبحث عنه لتتماثل الصورة وتكون اليمامة الضحية وتصرفها قد أوقعها في ذلك.

(11253/1)

... والذي يتتبع نتاج شوقي المعد للأطفال يجد نفسه أمام تجربة ناجحة إلى حد كبير من خلال النصوص التي تتلاءم مع روحية الطفل وذهنيته وسلوكاته اليومية.

إلا أن نتاج شوقي لم يخل من نقد أو تجريح إلى حد ما كما هي عادة محترفي صنعة الأدب والفن، بل كما هي عادة المرسل والمستقبل أبداً ما دام النقد فاعلاً أو نشطاً.

كما تعرض شوقي للنقد الأدبي من قبل العقاد في نتاجه بشكل عام كذلك، علماً أن العقاد قد تحامل على شوقي كثيراً وكأنه يحمل فكراً مبيتاً ضد شوقي(1)

---

(1) العقاد والمازني، الديوان، ط 3، مطبعة الشعب، القاهرة، ص. 77.

(11254/1)

. وعلى الرغم من موقف العقاد أو انتقاده لشوقي، فقد بقي شوقي يعي ما يقول في النهج والبناء الأدبي.

وكذلك ما فعله النقاد مع نتاج شوقي المعد للأطفال لم يثنه عن عزيمته تجاه ما يصنع، وكان صريحاً يعي ما يصنع. لذلك قالوا إنه يمهد نفسه ويأخذ الأشياء من أقربها ولا يوجد عمق فلسفي في ما كتب ولا عمق وابتعد عن التوجهات العامة للأدب العربي(1).

... من حقنا القول هنا إن شوقي كتب بفلسفة واضحة للأطفال وتبنى فكراً له قيمه وثوابته المعقولة التي لا غبار

---

(1) شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر، القاهرة، 1963، ص. 87 ـ 88.

(11255/1)

عليها. وأما ما قيل عن استخدامه الموضوعات الخالية من الفكر والعمق الفلسفي، فنقول إن هذا الأمر فيه تجن كبير، أو ربما قيل من أجل بيان رأي ليس غير.

فالنصوص التي بين أيدينا نحن الدارسين للأدب تؤكد صحة موقف شوقي التربوي والتعليمي من خلال نصوصه.

وهذا ليس جديداً، حيث يحاكي أدب الأطفال البساطة والميول النفسي للطفل وإبراز مقدرته الذهنية والعقلية. زيادة على ذلك، نجد طبيعة الخلق الإبداعي في النص الأدبي العربي قد أخذت تقترب من روحية العصر وثقافاته وابتعدت عن التقليد المميت القاتل.

فالفلسفة التي يريدها

(11256/1)

النقاد هي غير الفلسفة التي تبناها شوقي؛ لذلك جاءت قصصه خالية من الفلسفة المغرضة والتعقيد كما نص شوقي على ذلك(1) وكما نجد بعض الدارسين يعلل تلك المنهجية التي تبناها شوقي في كتاباته القصصية، حيث جعل روحية شوقي وعالمه الطفولي هما الدافعان للكتابة وليس قراءاته للقصص الغربي المنسوج على لسان الحيوان للأطفال كما هي "حكايات" لافونتين. ولم يكن لأشعار لافونتين من فضل سوى أنها بعثت في شوقي روحية الماضي واستحضار عالم الطفولة، كي يعبر عنها شعراً له قيمهُ وثقافته. من

(1) الشوقيات، "المقدمة"، المصدر السابق.

(11257/1)

هنا جاء نظمه ليعبر عن ذاته. وهكذا وصلت إلينا "شوقيّاته" ولم تكن تقليداً لأدب كما عرف في أوروبا وكما هي مواصفات أدب الطفولة، بل جاءت استجابة لروحيته وعفويته حتى أصبحت سحابة تظلِّلُ أطفال العرب في كل مكان(1).

... إن هذه الروحية التي تبناها شوقي .كما يعلل كمال

النجدي ـ ليست صائبة إلى حد ما. وحسبنا في ذلك هذا التطور التتابعي الذي نلمسه في نتاجات شوقي الأدبية. وما حكاياته وقصصه إلا جزء من أدبه؛ ليس من السهل علينا الأخذ بهذا الرأي،

---

(1) كمال نجدي، مجلة الهلال، العدد 11، السنة 76، أول أكتوبر 1968.

(11258/1)

لأن طفولة شوقي الشعرية لم تخلق مثل هذا النتاج. فأدب الأطفال يحتاج إلى مراس وفلسفة واقتناعات قبل كل شيء. وكذلك نجد النجدي يغالط شوقي نفسه، إذ اعترف بأهمية "حكايات" لافونتين من خلال مقدمته للـ"شوقيات"، ونرى مدى تأثر لافونتين بكتاب "كليلة ودمنة" الذي ترجم أصلاً عن اللغة الهندية العتيقة ومن ثم إلى العربية بعد الفارسية. وهذا يؤكد لنا أهمية المصدر الأساسي وباللغة العربية. فمن الأجدر بشوقي أن يتأثر بالاثنين معاً، فيما أن لافونتين قد تأثر بـ"كليلة ودمنة" وشوقي تأثر به. فهذا يجعلنا نتأكد من تأثير

(11259/1)

"كليلة ودمنة" في أحمد شوقي. لذلك جاء النتاج قريباً إلى نفوس الدارسين لهذا النتاج الفاعل والباني معاً(1).

... وكما أكد غنيمي هلال، فإن "حكايات" لافونتين تعد ثروة لها قيمتها في بحث الأدب المقارن. ومثل هذا يمكن أن يكون محور الدراسات المقارنة بين الأداب، وإن كان لأدب الأطفال صلاته عبر النظم والأفكار والفلسفات، الوافدة منها والمقيمة في البلاد أصلاً.

---

(1) عبد الرحمان بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، بيروت، 1965، ص. 20.

(11260/1)

... ولم يكتف شوقي بحكاياته للأطفال، بل جعل نصيبه وافراً في الأناشيد. فقد ألف عشر مقطوعات بين أغنية وأنشودة. وقد برع شوقي في كتابة بعض الأغاني والأناشيد؛ إلا أن أناشيده لم تصل إلى المستوى المطلوب، وذلك للقيمة اللغوية العالية والأسلوب الرفيع الذي جاءت به تلك الأناشيد. فحصيلة الأطفال اللغوية قد لا تسعفهم في تفهم تلك الأناشيد زيادة على الصنعة الطاغية على بعضها والشعور الباهت وجذب العواطف كما

أكد ذلك سعيد العريان في مقدمته لـ"شوقيات" في الجزء الرابع، مما حدا بالأطفال إلى العزوف عنها. وبذلك لم تصل

(11261/1)

للمستوى المطلوب كما هي الحكايات على لسان الحيوان.

... وقد جعل هذا الأمر شوقي يبحث عن نديم وصديق له ثقافته كي يسيرا معاً في هذا الدرب الشاق والطويل من أجل إسعاد طفولة وطن فقد الشيء الكثير: "وكتب شوقي لصديقه خليل مطران، الشاعر والأديب، يناشده السير معاً في هذا النوع من الأدب ويأخذ من أسلوب الغرب ونهج العرب، ولكن مطران ترك هذا التنوع من الأدب لشوقي"(1).

... ويجعلنا مثل هذا نحس أن الكتابة للأطفال ليست سهلة وأن كاتبها لا يبحث ـ فيما أظن ـ عن شهرة

---

(1) الطفولة في الشعر العربي الحديث، ص. 110.

(11262/1)

لصعوبتها. لذا لم يستجب مطران الأديب والفنان لدعوة شوقي. إلا أن ظهور محمد الهراوي جعل هذا الأدب يرتفع للأعلى: فقد كتب "سمير الأطفال للبنين" ثم "سمير الأطفال للبنات"، وكتب لهم أغاني وقصصاً منها "جحا والأطفال" و"بائع الفطير". وكانت جميع كتاباته النثرية والشعرية واضحة(1). وعلى الرغم من هذا الوضوح والتأثير كما نلمسه من وجهة نظر الباحثة، فإنه لم يسلم من النقد والتجريح. وهذا ليس غريباً. فكل جديد له مؤيدوه ومعارضوه في

---

(1) هيفاء شرايحة، أدب الأطفال ومكتباتهم، ط 2، المطبعة الوطنية ومكتبتها، عمان، ص. 29.

(11263/1)

كل الأزمنة والأمكنة. والحقيقة تؤكد نجاح الكيلاني في إيصال عواطفه وأفكاره إلى الشريحة المطلوبة، حيث كان الولد الرابع عشر لأسرته. وهذا الأثر ظهر عندما استضاف أبوه عائلة يونانية من الجيران بعد أن توفي عائلها. وبقيت الأم وفتاتان بلا مأوى، ودخلت الأسرة الأسطورة الإغريقية في طفولة الكيلاني المبكرة (1). ولا ننسى دور الأم الفاعل في صقل شخصية الكيلاني:

فقد رعته رعاية خاصة لكونه الصغير في إخوته مع كبر حجم

---

(1) انظر سعيد لطفي، "مشكلة كتاب الطفل وكيف يمكن مواجهتها"، مجلة النهضة، عدد 478، 1976، الكويت.

(11264/1)

الأسرة، إذ يجعل الأم تعطي وليدها الصغير رعاية أفضل وأكثر أو ربما يصبح الضدُّ سائداً، فيكون الإهمال نصيبه. إلا أن الكيلاني أخذ الجانب الأهم من الرعاية: فقد كانت تسدل عليه ما حفظته ذاكرتها من قصص وخيال وأحاديث روتها عبر الأيام، وكذلك ما للمعلم من أهمية فاعلة في بناء فكره وثراء معلوماته. لذلك تبلورت شخصيته على يد الشاعر الشيخ محمود الملاح وعبد الغني النابلسي(1). وبذلك كانت شخصيته قوية من الجوانب كافة: فقد أخذ الحنان والرعاية وبناء

---

(1) هيفاء شرايحة، أدب الأطفال ومكتباتهم، المصدر السابق، ص. 29.

(11265/1)

الشخصية، مما جعله يوفق في بلورة هذه الأمور جميعها في مقطوعة شعرية تظهر موهبته وحدسه.

لم أكن أنطق حرفا
في سكوني ليس يخفى
أقبلت أبسط كفّا
لم أحوّل عنه طرفا
للذي يظهر عطفاً
أستطيع القول صرفا
المعروف ألفا(1)

حينما كنت وليدا
إنما كان مرادي
كنت إن أبصرت أمي
وأبي قد جاء عندي
وابتسامي كان عطفاً
وأنا الآن صبي
فأحيي بلسان صاحب

(1) مجلة الأقلام، العدد الثالث، السنة الخامسة عشرة، دار الجاحظ، بغداد، 1979، ص. 47.

(11266/1)

... هذا الإقرار الفاعل من الشاعر يجعلنا نستجمع قوانا ونهيء أنفسنا كي نقول الحقيقة، كما أكدها من خلال نصه الشعري. فعلى الرغم من بساطة التعبير وسلاسة الأسلوب، فإنها تشكل لوحة ناطقة بمجريات أحداث الحياة منذ الطفولة حتى الصبا. وهكذا بين العلاقة الودية بين الوالدين والطفل، وأكد تبادلية الحنان من الطرفين. فالطفل آلة لاقطة تعكس ما تراه وتحسه بوضوح. لذلك لا نجد التنميق والصنعة، وإنما البديهة والطبيعة هما الناطقتان هنا، من أجل صورة صادقة فاعلة. فالطفل عندما يستقرئ هذه الأبيات، يشعر بالانتماء لها، لأنها

(11267/1)

تمثله وتحثه على الفضيلة. فالإقرار بالمعروف فضيلة لا تنسى: "فأحيي بلساني صاحب المعروف ألفا". فالطفل عندما يحس بالمصداقية في الشيء، يتمسك به ويقتدي به دون صعوبة، لأن الصدق يدفع بالآخرين إلى أن يسلكوه، فتكون الحياة طيبة مريحة. فالهدف التربوي

واضح جل الوضوح إلى جانب الأهداف الأخرى التي قد يستنبطها المرء من النص.

... ويجعلنا هذا الأمر نبحث في نتاجات الكيلاني، فنراها متعددة: إذ جلها تتوزع على القصص والحكايات والأناشيد والفكاهة والأساطير والأدب المترجم والأدب الديني وما يتلاءم مع ذوق الشبان(1)

---

(1) أدب الأطفال ومكتباتهم، المصدر السابق، ص. 31.

(11268/1)

.

... وتؤكد لنا هذه الأعمال تطور أدب الأطفال شيئاً فشيئاً. فقد انطلق من خطوات بدائية، وامتدت قامته بعض الامتداد على يدي شوقي والكيلاني، ليرفدهما حامد القصبي بمؤلفاته وإن كانت جل مؤلفاته مترجمة من الإنجليزية. وأول كتاب للقصبي كان تحت عنوان "التربية بالقصص لمطالعات المدرسة والمنزل". وعلى الرغم من مهنته، فقد كان صاحب ميول أدبية: فهو مهندس حيث قال عند طبعه الكتاب:

... لم أتردد أن أنشر بين الناس كتابي هذا عندما

تبينت أن الحاجة ماسة إليه، وذلك لأني في مطالعاتي للكتب الإنجليزية عثرت على عدد كبير من

(11269/1)

القصص التهذيبية التي تتضمن الحكمة والموعظة الحسنة في أسلوب شائق وعبارات خلابة، يقصد بها إلى تربية للناشئين تربية خلقية قويمة. فعولت على ترجمتها، لأعطي فيها صورة واضحة لطالبات مدارسنا وطلابها الذين يفيدهم هذا النوع من التهذيب، خصوصاً أن كتب المطالعة العربية التي تتناولها الأيدي الآن خلو من كثير من أمثال هذه القصص. وقد توخيت في الترجمة الاحتفاظ بروح القصة، غير مقيد بالالتزامات الأخرى لتأخذ القصة صبغتها العربية الخالصة التي تلائم الذوق السليم(1)

---

(1) حامد القصبي، التربية بالقصص لمطالعات المدرسة والمنزل، "المقدمة "، مطبعة النيل، القاهرة، 1925.

(11270/1)

.

... إن نتاجات الأدباء المذكورين وغيرهم جعل لمصر السبق في أدب الأطفال وطباعة الكتب الخاصة بهم، الأمر الذي حدا بكثير من الناس إلى التوجه صوب هذا الأدب، مما جعلنا نرى الغث والسمين. إلاّ أن القصص والأساطير تأخذ حيزاً واضحاً: فهي تأتي في الدرجة الأولى، يليها الكتب الدينية؛ وهذه القصص لا تخلو من التوجه العلمي. هذا النتاج الأدبي جعل التسابق واضحاً بين دور النشر والمؤسسات في إخراج هذا الفن للوجود، وبالذات مصر ولبنان، ومن ثم العراق الذي أصدر نتاجاً قيّماً كمّاً ونوعاً.

(11271/1)

... ففي لبنان صدر كثيرٌ من كتب الأطفال ودواوينهم، حيث امتازت بالطباعة الأنيقة. وظهر كتاب اهتموا بأدب الأطفال، وعلى رأسهم كارمن معلوف. وظهرت مجلات مصورة بعنوانات مختلفة: "بونازا" (1900)، "سوبرمان" (1964)، "الوطواط" (1966)، "طرزان" (1967)، "لولو الصغيرة" (1971)، "طارق" (1972)(1).

... وفي مرحلة الستينيّات، برزت حركة نشطة تعتني

بمطبوعات الأطفال من خلال "دار الفتى العربي"، هذه الدار التي كان لكثير من الكتاب الدور البارز في إدامتها

---

(1) عبد الغني عبد الهادي، مجلة التربية، العدد 20، 1977، ص. 66.

(11272/1)

ونهضتها، منهم زكريا تامر الذي كتب حوالي مئة قصة للأطفال أثارت ضجة عالمية بفنها وتعابيرها عندما ترجمت إلى اللغات الأجنبية. وقد أصدر مجموعته التي بهرت بجمالها وعمقها وثراتها القراء الأجانب قبل العرب (1).

... ومن الكتاب العرب في سوريا الذين رفدوا المكتبة بنتاجاتهم الشعرية والنثرية عادل أبو شنب وسليم بركات، وسليمان العيسى الذي برز في هذا المضمار شعراً غنياً بمضامين متعددة. وقد أصدر العيسى عدة مجاميع أدبية تخص الأطفال منها: 1 ـ ديوان الأطفال، وهو ديوان يتألف من خمسة وثلاثين نشيداً

---

(1) المرجع نفسه.

(11273/1)

وخمس مسرحيات. 2 .المستقبل (مسرحية غنائية). 3 . النهر (مسرحية غنائية). 4 .أناشيد الصغار .القطار الأخير. والذي جعل الكتاب في سوريا يتوجهون إلى كتابة أدب الأطفال أمور كثيرة، منها اللحاق بركب التوجه الصائب كما هو الحال في مصر، وكذلك الإقرار بالحرمان الذي يعيشه الطفل العربي. فكما يقول عادل أبو شنب:

... كان الأطفال في الماضي القريب يطفئون ظمأهم إلى المعرفة بقصص منقولة من الأدب العربي القديم ومحرفه، بحيث تلائم مداركهم، وبحكايات متوارثة تتناقل دون أن يكون لها أثر إيجابي ما إن لم تكن ذات أثر سلبي

(11274/1)

سيء، وبنصوص مدرسية صاغها أناس عديدو الخبرة، اضطرتهم المناهج التعليمية المتداولة وقتئذ أن يصولوا ويجولوا في ميدان ليس ميدانهم. وكان ازدهار القصص المروية والسير الشعبية ظاهرة تلفت النظر لركاكتها وشططها وغرقها في تجسيد السلبي، والحض على النزعة

الفردية والروح الإشكالية (1).

... لذلك حاول الأدباء المهتمون بأدب الأطفال الابتعاد عن السلبيات والأخطاء التي وقع فيها السابقون لهم، لأن ثقافة الطفل تشكل فعالية إبداعية قائمة بذاتها. فهي ليست بالهامشية أو الجانبية كما

---

(1) انظر مجلة فكر، تونس، حزيران، 1975.

(11275/1)

هي في العصور السابقة؛ وكذلك، فإن ثقافة الطفل تتطلب موهبة حقيقية شأن أي إبداع أصيل: فهي جنس جديد في الساحة العربية، وتدخل أيضاً في العملية التربوية وتكون جزءاً هاماً منها، تمد الأطفال بما ينمي معارفهم العلمية ومداركهم العقلية وإحساساتهم الجمالية وانتماءاتهم القومية. زد على ذلك اعتماد ثقافة الطفل على لغة خاصة في نقل الأفكار المختلفة عن اللغات المتداولة في التعبير الأدبي (1).

---

(1) انظر: جلال الشريف، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، عدد 95، آذار / مارس، 1979.

(11276/1)

... وسليمان العيسى الشاعر الإنسان قد حدد موقفه من شعر الأطفال حينما عرفه بإجابته على سؤال عصفورة تحاوره وهي تقف على نافذة بيته في دمشق وهو يكتب. فقال وهو يجيبها:

... ماذا تعني بالشعر الحقيقي؟ رفعت رأسي عن الورقة، وقلت لها: أعني الشعر السهل الصعب، القريب البعيد في وقت واحد... سهل، لأن الصغار يغنونه ويحفظونه في الحال؛ وصعب، لأن بعض معانيه وصوره تظل غامضة، بعيدة عن مداركهم بعض الشيء. وقد تعمدت هذه السهولة/ الصعوبة في شعر الأطفال وسميتها: المعادلة الشعرية الجميلة، معادلة أبذل جهداً كبيراً كي أحققها

(11277/1)

في كل نشيد، بل كل بيت أحياناً، على قدر ما أستطيع (1).

... هذا الموقف الذي اتخذه سليمان العيسى من شعر الأطفال يجعل الكتابة للأطفال مشروع تحد على مسار

الساحة العربية برمتها، لأن الاستجابة لهذا التحدي تعدّ انتصاراً مؤكداً على الذات أولاً وإيجاد فن منسجم مع حياة الطفولة وهو الأساس. وذلك لا يعني أن الشاعر يجب عليه خلق موضوعات شعرية لم يسبقه إليها أحد، وإنما قد يتعامل الشاعر مع التراث ويعيد صياغته من جديد. كما

---

(1) سليمان العيسى، ديوان غنوا يا أطفال، ج 1، دار العودة للصغار، بيروت، 1978، صص. 4 ـ 5.

(11278/1)

فعل العيسى مع قصة علي بابا والأربعين لصّاً، إذ تعامل معها بأسلوب نثري جميل تخلله أناشيد حلوة كما جاء على لسان علي بابا بعد معرفته لباب المغارة وسرها:

ما زلنا نحلم يا فاس
ببنفسجة زرقاء
لم أعرف يوماً يا فأسي
لم أعرف يوم صفاء
هل تصدق بنت الغاب
وترف على الحطّاب
وتلون بيتي بالأحلام

وألمح ظل نعيم

يا فأس علي بابا غني

غني فالحب كريم(1)

... نلاحظ مدى أهمية المضامين التي عالجها ويعالجها سليمان العيسى وغيره من الكتاب والشعراء، حيث يقع

---

(1) سليمان العيسي، ديوان غنوا يا أطفال، المصدر السابق، ج 8، ص. 5.

(11279/1)

تطوير هذا النهج من الشعر المعد للأطفال على عاتق المجيدين والمبرّزين من الشعراء الذين يتابعون النتاجات الإنسانية أينما كانت كي يطوروا أنفسهم. فهي تأكيد على حيوية هذا الموضوع. لذا تعددت مضامينه الشعرية وأصبحت لصيقة بالأطفال كما في قوله:

... يا غيمة يا أم المطر ... الأرض اشتاقت فانهمري

... ويقول على لسان الأطفال بيان عروبة فلسطين

والإيمان المطلق بذلك لدى الجيل الناشئ

ودرب انتصاري

هوى بفؤادي

بأرضي السليبة

فلسطين داري

تظل بلادي

وجوه غريبة

(11280/1)

وغيرها كنوز وفيرة في ثنايا أشعاره، مما يجعل الأطفال يتمسكون بعروبة بلادهم وامتداد هذه الثقافة الوطنية والقومية عبر الأجيال اللاحقة. فهو يقارن بين الموجودين على الأرض كي يؤكد أن التمايز موجود حتى في الملامح الخارجية للإنسان، زيادة على الملامح الأخرى.

... إن أدب الأطفال في سوريا حاول مبدعوه أن يوفقوا فيه بين فلسفة الإبداع والأهداف والغايات التربوية. وظهر ذلك في نتاجات الأدباء وتوجهاتهم الفكرية والعقائدية. لذلك تعاملوا مع الواقع حسب فهمهم له

وتفاعلهم كذلك وازداد اهتمام المبدعين بأدب الصغار بعد

(11281/1)

حرب حزيران عام 1967 م وكأنّا نحس الرد منهم على تلك الهزيمة المفجعة، وبالذات نجد الشاعر سليمان العيسى وقد توحد نفسياً ومعنوياً وروحياً مع الأطفال. ونظنه يصنع ذلك لأهمية الموضوع وحساسيته. زد على ذلك إيمانه المطلق بحقوق الأطفال ومدى الحرمان الواقعين فيه، إذ هم يشكلون أمل الانبعاث التكاملي في المستقبل. فقد عرف عنه صداقته للأطفال؛ إذ لم يعتل مكاناً لإنشاد الشعر إلا والأطفال يحيطون به كالزهور ورائحتهم الزكية تفوح أملاً وطمأنينة.

(11282/1)

... وفي الأردن وفلسطين بدأت محاولات للتأليف والترجمة في أدب الأطفال. فكان ذلك عام 1928، حيث كتب إبراهيم البوارشي مجموعة أناشيد للأطفال؛ كما كتب الأستاذ روكس العزيزي كتاباً للأطفال بعنوان "الملك

فيصل" عام 1935، ثم جاء الشاعر إسكندر البيتجالي، فأصدر كتابين: "المثل المنظوم" في عام 1942، و"الطفل المنشد" الذي احتوى على قصص شعرية وأناشيد وصفته كما في قوله:

أفقت وقمت مرتاحا
وعطر الروض قد فاحا(1)

إذا ما ديكنا صاحا
ونجم الصبح قد لاحا

---

(1) هيفاء شرايحة، المرجع السابق، ص. 37.

(11283/1)

... والملاحظ على نتاج الأدب المعد للأطفال في هذه الفترة أنه فردي، بمعنى يحمل جهداً فردياً خالصاً، إذ لم يكن هناك مؤسسات منظمة ترعى هذا الإنتاج وتهتم به. فقد جمع الأديب محمد إسعاف النشاشيبي مجموعة من أناشيد الأطفال طبعها في كتاب بعنوان "البستان" عام 1945، وكذلك إسحق موسى الحسيني وبعض صحبه أصدروا مجموعة قصص للأطفال منها "الكلب الوفي"

و"ردان المدلل" وفيها الكثير من القيم الاجتماعية التي تؤثر في الأطفال وتربيتهم. زد على ذلك ما كتبه يوسف هيكل: "أجداد النبي"، وخالد عبد الهادي صاحب قصة "خالد وفاتنة"

(11284/1)

ومحمود يوسف زايد الذي أصدر بعد عام من ذلك كتاباً بعنوان "يوليسيز التائه".

... وفي عام 1957 يصدر عبد الرؤوف المصري قصتين "رغيف يتكلم" و"الأم الطموحة"، علماً بأن هذه الإصدارات خالية من الصور الملازمة للنص وكذلك إخراجها سيء إلى حد ما.

... ويأتي بعد ذلك عدد من المهتمين، ويتوالى صدور أدب الأطفال. فقد أصدر عيسى الناعوري قصته "نجمة الليالي السعيدة" وفايز علي الغول "الدنيا حكايات" و"من سواليف السلف" و"أساطير من بلادي"، وجاد حسن فريز بشعره الجميل كي يحرك وعي الطفولة وخيالاتها كما في قوله يصف شجرة

(11285/1)

الرمان:

وفي أوراقها الخضر

أو أغصانها الشقر

لون الورد والفجر

جمال بارع السحر

تأمل في محاسنها

وفي أزهارها الحمراء

فمن ألوانها نعطيك

تقول وأنت تشهدها

... وكذلك نرى أن يوسف العظم أصدر أناشيد وأغاريد للطفل المسلم، وتليه تغريد النجار كي تكتب قصة بعنوان "صفوان البهلوان"، ويأتي بعدهم نبيل صوالحة، فيكتب "رحلتي الملونة في الأردن". ثم إن الجمعية الملكية احتضنت هذا الأدب منذ عام 1977 لترى بعض النتاجات النور، منها "السير وأصوله" و"بلاستيك في حياتنا". والذي نلمسه أن هذه الإصدارات قد أخذت طابعاً علمياً

(11286/1)

خاصاً. أما المجموعة التي تلتها، فقد اتجهت صوب الطبيعة والبيئة والعلاقة مع الإنسان، فصدرت قصص تعالج ذلك: "حيوانات تعيش بيننا" و"طعامك والصحة والمرضى (1).

... هذا، في حين يرى بعض الباحثين أن أدب الأطفال في الأردن بدأ حقيقة مع صدور مجلة "سامر عامر" (1979)، وأهميتها تكمن في استقطابها لعدد من البارزين أمثال الشاعر أحمد حسن أبو عرقوب الذي كتب بعض الأناشيد والقصص، والشاعر محمد القيسي الذي عرف متميزاً في شعره، والشاعر إبراهيم نصر الله، ومحمود شقير ومفيد نحلة وجمال أبو حمدان

---

(1) المرجع نفسه، ص. 39.

(11287/1)

وفخري قعوار. وهؤلاء من كتاب القصة المتميزين؛ ومحمود برهوم الذي أفردت له مهمات الترجمة من حكايات الشعوب وآدابها للأطفال. وكذلك كتب الشاعر محمود شلبي النشيد والقصيدة، وشحادة الناطور وجمال أبو حمدان الرواية والقصة القصيرة وكان مجال نشرها الصحف

والمجلات العامة. ومنذ عام 1979 الذي خصص لسنة دولية للطفل، بدأت المجالات الثقافية الرسمية تفتح ذراعيها لآداب الأطفال كما هي: مجلة "أفكار" ومجلة "الشباب". وهذا ساعد على ظهور كوكبة متميزة من كتاب الأطفال تضم أسماءً معروفة، إذ جمعت بين الأجيال كلها "مثل حسني

(11288/1)

فريز، وهو من جيل الرواد، والشاعر محمد الظاهر وإبراهيم العجلوني وعزمي خميس ويوسف الغزو ووفيقة ويوسف قنديل وأحمد المصلح"(1). وتنوعت النتاجات من حيث المضامين. وهكذا صرنا نقرأ السير التاريخية للقادة المعاصرين والملامح السياسية والأفكار التي يتبناها الكتاب، حيث بدأت "روضة الفرخ الهدهد" على عاتقها كتابة:

---

(1) أحمد المصلح، أدب الأطفال في الأردن، منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمان، 1983، ص. 29 وما بعدها.

(11289/1)

... سلسلة حكايات بطولة بدأتها بقصة "الشيخ عز الدين القسام في أحراج يعبد"، ثم كتاب "سر القنابل الموقوتة" و"قافلة الفداء" و"الزمن الحزين في دير ياسين" و"رحلة النضال حتى عام 1982"، وهي قصص تعبر عن شواهد حقيقية لثورة الشعب الفلسطيني؛ وقد أحيت في قصصها ذكرى أبطال هذا الشعب المناضل من أجل أرضه ووطنه. وإن ما يلفت النظر في هذه القصص جودة الإخراج، والرسومات المعبرة (1).

---

(1) هيفاء شرايحة، المرجع السابق، ص. 40.

(11290/1)

... كل ذلك لا ينفي وجود أدب للأطفال كتبه أدباء كبار لامعون من خلال نتاجاتهم. ففي فلسطين عرف الشاعر إبراهيم طوقان بالتزامه وثقافته الوطنية ووعيه السياسي الذي كتب نشيده المعروف "موطني"، مخاطباً أبناء وطنه جميعهم، ولا سيّما الأطفال، حيث لم يزل هذا النشيد شائعاً في الأقطار العربية وينشد في معظمها. وقد تضمن هذا النشيد إحساس الشاعر بقضية وطنه التي كانت في الوقت نفسه قضية كل وطن عربي. ومن هنا جاء شيوعه وانتشاره في سائر الأقطال العربية (1)

(1) أحمد أبو حاقة، الالتزام في الشعر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1979، ص. 267.

(11291/1)

.

... وكذلك لم يَجِد الشاعر عبد الكريم الكرمي عن جادة خلق العلاقة مع الطفولة، وذلك من خلال أناشيده الوطنية التي تعبر عن حبه لوطنه وقومه وأمته، تلك الأناشيد التي تحث مستقبليها على الكفاح، مما يشعر الآخرين بأهم العناصر الذاتية التي حدت به إلى المشاركة الوجدانية بينه وبين أطفال وطنه وأمته. ومثل هذه الأناشيد ترينا مدى صدق العاطفة وقوة الرابطة وانكشاف المعاناة الحقيقية. ومثل ذلك يأتي بأسلوب قوي وشيق إلى حد بعيد:

هيا إلى الكفاح

مواكب الصباح

ترفرف البنود

أنشودة الخلود

ونحمل القبس

بأننا الحرس

(11292/1)

على حبال النار

يصيح يا للثار

نحطم الأغلال

وتشهد الأجيال(1)

هيا بنا... هيا بنا

تسير في ركابنا

على طريق الشهدا

نسمعها على

نحن نضيء الأملا

لقد حلفنا للعلا

نحن رفعنا العلما

يحرس آفاق السما

إنا إذا جار الزمن

نحمي حمى هذا الوطن

... إن هذه الدافعية لم تأت من فراغ، بل نجدها قد خرجت

من قلب متمكن مؤمن بما يطالب به العقل. لذا نرى العقل والخيال قد توحدا في كثير من أناشيد الثورة والوطن والعروبة. فمثل هذه الاندفاعية في التوجه صوب

---

(1) عبد الكريم الكرمي، ديوان أغاني الأطفال، دار العودة، بيروت، 1978، ص. 152.

(11293/1)

العمل الصائب تحقق الأمل في النفس وتجعلها مطواعة، حتى لنرى أن الثورة امتدت في بقاع الوطن كلها من الجبال إلى الصحراء والسهول والهضاب، إذ كلها تفاعلت مع الحدث. وهذا ما نلمسه في أشعار هارون هاشم رشيد، الذي يرفض الذل ويريد ذلك من طفله أيضاً، لأن الطفولة تعيش في ضميره، وهذا الخيال والتّخيل قد يصبح حقيقة إذا آمن الجميع بالحق واندفعوا صوب الوحدة والتضامن، من أجل حرية الوطن الأبهى.

... وبما أن لفلسطين خصوصيتها بعد النكبة والانكسار، فإننا نجد أدبها قد بعث أيضاً استجابة للحديث، حيث يكون الأدب أينما يقيم

(11294/1)

الناس ويتفاعلون مع الحياة. إلا أن الأرض الفلسطينية بقيت تظهر بعض ملامح الحياة من خلال أهلها الصامدين. لذلك ظهر بعض الأدباء المهتمين بالطفولة والأطفال لنرى عبد الرحمن عباد في مجموعاته "ذاكرة العصافير" و"ذاكرة الزيتون" و"ذاكرة النخيل" و"ذاكرة البرتقال"، وهي عبارة عن قصص تحكي الحياة بأصوات النباتات والطبيعة والإنسان الذي يعيشها. وكذلك الشاعر الباحث علي الخليلي الذي أصدر مجموعات شعرية عن الأطفال. زد على ذلك الدراسة التي كتبها عن أغاني الأطفال في فلسطين. وغيرهما من الكتاب لم يبخل بنتاجه على أطفال

(11295/1)

وطننا؛ كما ظهرت في القدس مجلة البراعم لمدة عامين، ثم مجلة "طارق" التي صدرت عام 1971، وهي مجلة قصصية شهرية أطول عمراً من غيرها، إذ لم يزل عطاؤها قائماً؛ وكتب مفيد نحلة "أطفال القدس القديمة" بعد أن ظهرت قصة "اليتيم" للوجود عام 1966 ونشرت في جريدة "القدس" في حينه؛ وجمال أبو حمدان الذي كتب

"النهر".

... وأما الطفولة في العراق، فقد أخذت حيزاً مرموقاً إذا ما قيست الأمور بمثيلاتها. ونظن أن العراق كان من السباقين في نشر أدب الأطفال وتوزيعه على المؤسسات بأسعار رمزية جداً، إذ لا تساوي 10 ٪ من قيمة رأس

(11296/1)

المال المدفوع. وكانوا يهدفون إلى خلق فلسفة تربوية موسعة هدفها الأساسيّ معرفة الطفل لوطنه وأهله وثقافته في الوطن العربي الكبير، زيادة على الدوافع العلمية والتربوية والتثقيفية والترفيهية والأمور الأخرى. فالاهتمام بالطفولة ظهرت مع الشاعرين الكبيرين الرصافي والزهاوي، وكلاهما له ثقافته الخاصة؛ إلا أنهما كتبا أناشيد وقصائد تحاكي الطفولة وحياتها وتدعو إلى إصلاحها وتطورها. وفيما بعد، ظهر جيل من الأدباء المهتمين بالأطفال، وكان ذلك بعد ثورة تموز 1968؛ إذ أصبح الاهتمام بالطفل واضحاً، بل هُيِّءَ له في إطار

(11297/1)

فلسفة خاصة تهدف إلى خلق جيل ناشىء حسب فلسفة وطنية قومية مؤكدة. لقد وضعت الحكومة خطة شاملة دخلت حيز التنفيذ في عام 1968 بإنشاء المكتبات الخاصة بالأطفال ودور الحضانة والرعاية الاجتماعية. وهذه تقدم خدماتها بالمجان، لأنها جزء من خطة التعليم في العراق. من هنا ظهرت النوادي الترفيهية ومدارس الفنون التي تعتني بالشباب ومواهبهم بعد أن يحتضنوا في مرحلة الطفولة، زد على ذلك المراكز الموسيقية والمؤسسات الترفيهية الأخرى التي تستقطب أصحاب العقول والخبرات العلمية.

(11298/1)

... وقد أفرد المخططون بالعراق وقتاً مناسباً في الإذاعات العراقية المسموعة والمرئية كي يقدموا ما يتلاءم وروحية الطفل وفكره ونفسه. فظهرت البرامج والمسلسلات الإذاعية والتلفزيونية، وكذلك المجلّات والصحف الخاصة بالأطفال وأدبهم. فقد ظهرت جريدة خاصة باسم "مزمار" (1970) وقبلها مجلة بعنوان "مجلتي" (عام 1967). وهذا لا يجعلنا نهمل ما تصدره "دار ثقافة الأطفال" من مجلات وقصص تحكي ما يكون قريباً للأطفال بأسلوب مشوق وبطبعات عالية الجودة

جاذبة لروحية الطفل، وكلها هادفة غير مسفة أو مغرض بعضها، بل تنبع من فكر

(11299/1)

منظم بناء، وتصل إلى متناول الأطفال جميعاً دون استثناء، لأن جل الكتاب في العراق من الكتاب المبدعين والمهتمين بأدب الأطفال. ثم إن ما يرونه مناسباً وفاعلاً من نتاجات الكتاب والشعراء العرب يطبع ويوزع كذلك وهم لم يغفلوا الترجمات: فالأدب المترجم له وقعه وقيمته، وهم حريصون على اختيار النصوص الغنيّة بالثقافة والمعرفة، وكانوا يصدرونها عن "دار ثقافة الأطفال"، وكانت تصرف مكافآت مجزية لمن يترجم كتاباً أو يضع نصاً إبداعياً يتفق والنهج العام لتربية الجيل. وكذلك ظهرت مجموعة من البحوث والدراسات طبعت في العراق

(11300/1)

أو ألفت من قبل باحثين عراقيين تعالج مشاكل أدب الأطفال وطموحاته وتوجهاته. والدارس لا يجد فرقاً من

حيث الأهمية والمكانة لدى الناس بين النصوص وكاتبها. فكلما كان النص إبداعياً ثرياً بما يحتويه، كان أكثر قرباً والتصاقاً لدى الناس جميعاً. بمعنى أن النص الأدبي هو الذي يفرض وجوده على الناس قلباً وقالباً. وفي دول الخليج العربي الأخرى، نجد اهتماماً بالأطفال؛ إلاّ أنه متفاوت من مكان إلى آخر حسب الظروف والإمكانات المتاحة. وقبل ذلك الهدف والوسيلة في خلق مثل تلك الأمور التي تعالج مشاكل الأطفال وأدبهم

(11301/1)

وثقافتهم. ففي الكويت ظهرت مجلة "سعد"(عام 1969)، وهي تعنى بشؤون الأطفال وهمومهم وقصصهم وحكاياتهم. وفي البحرين ظهر بعض الأدباء ممن اهتموا بشؤون الطفل العربي واحتياجاته الأدبية، كما هو الحال عند عبد القادر عقيل وفوزية رشيد وحمدة خميس وغيرهم، لأنهم ينظرون إلى الكتابة للأطفال بصفتها ضرورة من ضرورات المجتمع وتطوره ومكانته بين المجتمعات الأخرى. وهذا ما أكده حمدة خميس في مقولة له عن أدب الأطفال: ''إنه لو تراجع كثير من الكتاب عن الكتابة للأطفال وأصبحت الفكرة مجرد حماس، فإن أدب الأطفال سيفرض نفسه عند

(11302/1)

أكثر الأمم"(1).

... ومثل هذا ليس جديداً على الأدباء في البحرين، لأنهم نهضوا مبكرين إذا ما قيس الأمر بمن حولهم، حيث كانت هناك نهضة أدبية تحكي قصة حياة ومجتمع. والشاعر البحريني قد سار مع الحياة بطواعيتها. والذي يتتبع نتاجات الشعراء في البحرين، يستشف ما نقوله ونرمي إليه. ونظن أنّ أدب الأطفال أصبح جزءاً من هذه النهضة الشعرية والأدبية والثقافية.

---

(1) علي عبد الله خليفة، كتابات 76، دار الغد، البحرين، 1976، ص. 173.

(11303/1)

... وأما في العربية السعودية، فقد حظي الأدب بنصيب وافر من الاهتمام، وبالذات في العقود الأربعة الأخيرة، مما جعل هذا الاهتمام الأدبي مادة علمية لنيل الشهادات العلمية العالية:

... الأمر الذي دفع بعض الباحثات إلى إعداد أطروحات

جامعية عن أدب الأطفال مؤخراً، ومنهن الباحثة آمال عبد الفتاح الجزائري التي تقدمت برسالة لنيل درجة الماجستير في موضوع "قصص الأطفال في المملكة العربية السعودية منذ عام 1379 هـ إلى عام 1410 هـ". وقد رصدت الباحثة إنتاج القصص الموجهة للطفل في المملكة وتتبعت مراحله وبينت أنواعه

(11304/1)

واتجاهاته وأهدافه وكشفت عن ملامحه الفنية(1).

... ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل نجد كثيراً من المهتمين بالأطفال وأدبهم، منهم عزيز ضياء وإسحق يعقوب وعبده خال وعبد الرحمن المريخي وعلوي الصافي وخالد بن عبد الله. وهذا ما جعلنا نرى بعض المجلات تظهر إلى الوجود مثل مجلة "حسن" التي صدرت عن دار عكاظ، ومجلة "الجيل الجديد" وصدرت عن الرعاية العامة لشؤون الشباب، ومجلة "الشبل". زد على ذلك الصحف المحلية التي تفرد صفحات لأدب الأطفال يتناوب على كتابتها

---

(1) محمد صالح الشنطي، في أدب الأطفال، المصدر السابق، ص. 191.

(11305/1)

وتحريرها كتاب مبدعون ومختصون في أدب الأطفال.
ويجد المتتبع أن الحكايات والقصص والأناشيد والقصائد كلها كتبت بأقلام المهتمين في السعودية ونشرت بعناية وحرص كبيرين.
... وفي المغرب العربي لم يغفل الأدباء هناك عن الأطفال وأدبهم. فقد ظهر في ليبيا كاتبان اهتما بالأطفال وقصصهم هما يوسف الشريف ومحمود فهمي، إذ أصدرا قصصاً ليبية للأطفال، منها قصة "الراعي الشجاع"، وهي من القصص المحببة للأطفال. وهناك الكاتب محمد الزكرة الذي ساهم إسهاماً لا بأس به في الكتابة للأطفال في ليبيا.

(11306/1)

... أما تونس، فقد ظهرت فيها بعض المجلات التي ترعى هذا التوجه منها "شهلوك وعرفان" بعد أن عرف بعض الأدباء طريقهم صوب هذا الأدب المفعم بالحيوية. وبذلك توجهوا صوب الكتابة للأطفال كما فعل محمد العروسي المطوي، رئيس تحرير مجلة "القصص" التونسية مع زميله

محمد مختار جنات، اللّذين كتبا قصصاً منها: "الفروج الأشقر" و"الدب والدمية"؛ وكتب العروسي بمفرده كثيراً من القصص الناجحة، منها "أبو نصيحة". وهكذا فعل القاضي الجيلاني بن الحاج قصة للأطفال بعنوان "بوشنب"، والتي فازت بجائزة بلدية تونس؛ وكذلك له مؤلفهُ "شجرة

(11307/1)

الانتقام". ويلي هؤلاء وبعض الكتاب كاتبان هما عبد الرحيم الكتاني وعبد الحق الكتاني، إذ أصدرا عدة قصص ومؤلفات بعنوان "القصص المدرسية"، منها "الفرحة الكبرى" و"الكيس العجيب". والذي لا ينسى أن الأدباء في تونس لم يغفلوا الأدب المترجم لأهميته الناجمة عن أسباب عدة؛ لذلك ترجم أحمد القديدي قصصاً كثيرة ومتنوعة من الآداب العالمية.

... وفي الجزائر أصدرت "الشركة الوطنية للنشر والتوزيع" كتب الأطفال باسم "سلسلة الأدب" كـ"سبّور" وغيرها. والذي ينظر في الأدب العربي المعد للأطفال في المغرب العربي الكبير يجد أنه

(11308/1)

تأخر بعض التأخُّر عن العراق ومصر والشام، وذلك لأسباب عدة متداخلة تتمثل في محاولة الاستعمار طمس الهوية الثقافية والوطنية والقومية للشعب العربي في المغرب الكبير، وبالذات في الجزائر، على أيدي الفرنسيين وليبيا من قبل الإيطاليين. وأما تونس والمغرب، فلا نعتقد أنهما يتوجهان لهذا الأمر. وهما يشكلان معبراً فاعلاً لنصرة الثورة في الجزائر، حيث يكون محاكاة الواقع أولى من غيره، لأن الأدب ينبع من نهضة الشعب وثورته على التخلف وإن كان الأدب فاعلاً في خلق الثورة ومساعداً على تفجيرها كي نصل إلى نتيجة حتمية أن

(11309/1)

الثورة والأدب يشكلان حلقات مسننة يحرك كل منهما الآخر للوصول إلى الهدف المنشود والمحقق.

... من هنا نرى أن جل الدول العربية قد قطعت شوطاً واسعاً صوب خلق فلسفة وطنية وقومية بوساطة أدب الأطفال، وإن لم تكن الدول متساوية في الرؤى والتوجهات وتحقيق الأهداف. وهذا لا يعني أن بعض الدول العربية لا علاقة لها بهذه الفلسفة التربوية

والترفيهية، بل إن من لم يقطع مسافات يحاول أن يضع بعض اللبنات في أساسات النهضة الشمولية، وذلك على الرغم من التراجعات والانقضاضات على البنية الفكرية والثقافية في الوطن العربي. إلا

(11310/1)

أنا نتلمس الأمل يتصاعد للوصول إلى الحقيقة.

(11311/1)

قراءة في تراث السهيلي المطبوع

الأستاذ بنيونس الزاكي

كلية الآداب ـ وجدة

أولاً. "نتائج الفكر" لأبي القاسم السهيلي، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم البنا

... حاز التُّراث الفكري ـ في العقود الأخيرة من هذا القرن ـ عناية خاصة من لدن الباحثين والمحققين الذين ولَّى

طائفة منهم وجوههم شطر الغرب الإسلامي، ينفضون الغبار عن كنوزه، ويبرزون إسهام علمائه في إذكاء الثقافة الأدبية والإسلامية.

... وقد كان القرن السّادس الهجري من أخصب القرون علماً وثقافة في الأندلس، إذ برز فيه طائفة من حذاق العلم وجهابذة الفكر

(11312/1)

ممَّن طبقت شهرتهم الآفاق، حتى صار الواحد منهم تضرب إليه أكباد الإبل، وتحط بفنائه رحال الرجال.

... وقد كان الإمام السهيلي (508 هـ - 581 هـ) أحد أعلام هذه الفترة، وصاحب سهم وافر في نهضتها العلمية، وإسهامه الفكري مما لا يسَعُ أحداً من الدارسين جهلُه أو تجاهلُه.

... ولم يكن السهيلي - قبل العقدين الأخيرين من هذا القرن - يعرف بين جمهور العلماء والباحثين إلا بكتابه الفريد "الروض الأنف" الذي شرح فيه "سيرة" ابن هشام، فطلع على أهل العلم بمصنف لم يعرف شرح أَوْعَبُ ولا أكثرُ جمعاً منه(1)

---

(1) من كلمة قالها الدكتور محمود الطناحي في تصديره

لكتاب "البسيط في شرح الجمل" لابن أبي الربيع السبتي، ج 1، ص. 8.

(11313/1)

.

... ثم شاء الله ـ تعالى ـ أن يولي فئة من الباحثين وجوههم شطر إنتاج السهيلي الفكري، ويعمدوا إلى تحقيق ودراسة ما اهتدوا إليه مخطوطاً، ونشط آخرون في إعداد أبحاث انصبت على اهتمامات السهيلي وإنجازاته المتنوعة في أهم مجالات الثقافة الإسلامية المعروفة في عصره ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

... وإنصافاً للعلم وأهله، ينبغي الإشارة ابتداء إلى أن دارسي السهيلي مدينون إلى من كان له فضل سبق الوقوف على تراثه مخطوطاً، ومكابدة تحقيقه ودراسته، وأعني به الدكتور محمد إبراهيم البنا.

(11314/1)

... فقد نشر له تباعاً: "الأمالي"، و"نتائج الفكر" وكتاب "الفرائض وشرح آيات الوصية"، وأفاد أنه يعد كتاب

"التعريف والإعلام" للنشر(1)؛ كما أنجز دراسة علمية رصينة عن السهيلي ومذهبه النحوي(2).

... وكتاب "نتائج الفكر" هو أقدم تأليف للسهيلي فيما أفاد محققه، وقد عُني فيه بجوانب خمسة: الدلالة، والعلة، والعامل، ونظم القرآن، ونظم المصطلحات، والتعريفات.

---

(1) مقدمة نتائج الفكر، ص. 5.

(2) صدر عن دار البيان العربي بجدة عام 1985.

(11315/1)

... وقد ظهر لكتاب "النتائج" ثلاث نشرات: الأولى عن جامعة قار يونس بليبيا عام 1978، والثانية عن دار الاعتصام بمصر سنة 1984، والثالثة في السنة نفسها عن دار الرياض للنشر والتوزيع.

...

منهج تحقيق الكتاب

... أبان المحقق عن منهج تحقيقه للكتاب في مقدمته (ص. 24)، فنبه على أنه عُني بضبط النص، بالمقابلة بين نسختي الكتاب، وتخريج الأحاديث والأشعار والأمثال، إلخ.

... أقول: ولي على شواهد الكتاب الملاحظات الآتية:

1 ـ الشّواهد القرآنية:

(11316/1)

... عُني المحقق بتخريج كل الشواهد القرآنية، وفاته ضبط آيتين اثنتين الضبط الصحيح، الأولى في صفحة 46، وهي قوله تعالى: {سبح باسم ربك العظيم}. فاكتفى المحقق ببيان أنها من سورة الواقعة، الآية 74، ولم ينبه على أن صوابها {فَسبح} لا "سبح" كما جاء في المتن.

... الثانية: في صفحة 105، وسيق فيها قوله تعالى: {ذواتا أفنان} [الرحمان، الآية 48]، فضبط المحقق "ذواتا" بالتنوين، وصوابها "ذواتاً".

2 ـ الشواهد الحديثية والآثار:

(11317/1)

... حرص المحقق على تخريج الأحاديث وأقوال الصحابة. ومع ذلك، فقد أعياه بعضها، فسكت عنه دون أن يصرح بعدم وقوفه عليه، وتساهل في تخريج بعض الأحاديث بواسطة، من غير رجوع إلى مظانها.

ا ـ ما لم يهتد إلى تخريجه:

... 1 ـ الحديث: "أعمق ليموت" (النتائج، ص.140)، وأحال المحقق على "لسان العرب" و"جمهرة" ابن حزم.

... قلت: "اللسان" و"الجمهرة" غير معدودين في مصادر الحديث.

... والشاهد في "طبقات" ابن سعد، ج 2، ص.45، ومجمع الزوائد، ج 6، ص. 126، و"غريب الحديث" للخطابي، ج 1، ص ص. 136 ـ 137، و"الفائق" ج 3، ص. 412،

(11318/1)

و"الإصابة" ج 6، ص. 218 (نشرة البجاوي).

... 2 ـ حديث "اسكتي يا لا شيء" (النتائج، ص. 160).

... سكت عنه المحقق ولم يعلق عليه بشيء.

... قلت: أورده الغزالي في "الإحياء"، ج 3، ص. 204 (ط دار الندوة) مرفوعاً إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وساقه ثانية في ج 3، ص. 210 موقوفاً. قال أبو هريرة:

"الدنيا موقوفة بين السماء والأرض كالسن البالي تنادي ربها إلى يوم يفنيها: يا رب، يا رب لم تبغضني؟ فيقول لها: اسكتي يا لا شيء". وينظر "إتحاف السادة المتقين" للزبيدي ج 9، ص. 548، 572.

(11319/1)

... 3. حديث "دع ما حاك في نفسك، وإن أفتوك به وأفتوك" (النتائج، ص. 261).

... قلت: وقف به السهيلي عند ابن مسعود، فتوهم المحقق أنه قول له، وأدرجه في الفهارس العامة ضمن أقوال الصحابة.

... والصحيح أنه حديث لرسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ونصّه كما في "مسلم"، ج 4، ص. 1980، و"المسند"، ج 4، ص. 228، و"الترمذي"، ج 4، ص. 597: "عن وابصة بن معبد الأسدي أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال لوابصة: جئت تسأل عن البر والإثم؟ قال: نعم، قال: فجمع أصابعه فضرب بها صدره، وقال: استفت نفسك، استفت قلبك، والإثم ما

(11320/1)

حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس عنه وأفتوك"، والحديث أيضاً في "سنن" الدارمي، كتاب "البيوع"، باب: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك"، ج 2، ص. 246، وينظر "الفائق"، ج 1، ص. 302، والحديث مثل عند البكري. ينظر "فصل المقال"، ص. 309، ط 3.

... 4 ـ حديث "لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حَدّ مطلع" (النتائج، ص. 268).

... علق عليه المحقق بقوله: "انظر "الإتقان" للسيوطي"، دون الإشارة إلى أنه حديث.

... قلت: وهو في "صحيح" ابن حبان: ينظر "الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان"، ج 1، ص. 146، و"مشكاة المصابيح"،

(11321/1)

ج1، ص. 80، و"شرح السنة" للبغوي، ج 1، ص. 263، و"مجمع الزوائد"، ج 7، ص. 152.

... 5 ـ حديث: "نظرت إلى جبريل كأنه حلس لاط، فعرفت فضل عمله علي" (النتائج، ص. 303).

... قلت: في "الفائق"، ج 1، ص. 305، حديث قريب من هذا ونصه: "مررت على جبريل ليلة أسري بي كالحلس من

خشية الله".

II ـ ما لم يَتَحَرَّ الدقة في تخريجه

... 1 ـ حديث: "لا تتراءى نارهما" (النتائج، ص. 142).

قال المحقق: "أخرجه النسائي، وروايته فيه: "ألا لا تراءى نارهما"".

(11322/1)

... قلت: الحديث كما جاء عند السهيلي في "شرح السنة" للبغوي، ج 10، ص. 244)، وهو بتمامه: ""أنا بريء من كل مسلم بين أظهر المشركين" قالوا: يا رسول الله، لِمَ؟ قال: لا تتراءى نارهما".

... 2 ـ حديث "إنها أهون على الله من الجيفة" (النتائج، ص. 160).

... قال المحقق: "أخرجه ابن ماجة في باب "مثل الدنيا"". (ص. 333).

... قلت: تتبعت الأحاديث الواردة عند ابن ماجة في الباب الذي ذكر المحقق، فلم أجد في واحد منها ذكراً للفظ الجيفة، وأقرب الروايات فيه لما ذكر السهيلي روايتان:

(11323/1)

... الأولى: ‘‘أترون هذه هينة ـ يقصد شاة ميتة شائلة ـ على صاحبها؟ فوالذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها’’.

... الثانية: ‘‘أترون هذه هانت على أصحابها؟ قال : قيل يا رسول الله ! من هوانها ألقوها. أو كما قال، قال: ‘‘فوالذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها’’.

("سنن" ابن ماجة، كتاب ‘‘الزهد’’،‘‘باب مثل الدنيا’’، ج 2، ص. 1377، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي).

... وبهذه الرواية ورد الحديث في كل ما تيسر لي الرجوع إليه من المصادر. ينظر "المستدرك على الصحيحين"، ج 4، ص. 306، و"الترمذي"، ج

(11324/1)

3، ص. 383، و"المسند"، ج 2، ص. 338؛ ج 4، ص. 229، و"مجمع الزوائد"، ج 1، ص. 253، و"الترغيب والترهيب"، ج 4، ص. 173، و"شرح السنة" للبغوي، ج 4، ص. 227، و"شعب الإيمان"، ج 7، ص. 325، و"مصنف" ابن أبي شيبة، ج 8، ص. 138.

... أقول: وقد جاء في "كشف الخفاء" للعجلوني، ص. 492:

"الدنيا جيفة، وطُلَّابُها كِلاب"، وهو حديث آخر.

... 3 ـ حديث: "أقرب ما يكون العبد إلى الله إذا كان ساجداً" (النتائج، ص. 273).

... قال المحقق: أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة. انظر "الفتح الكبير"، ج 1، ص. 219.

(11325/1)

... قلت: في جميع هذه المصادر ورد الحديث بلفظ "من ربه" بدل "إلى الله" و"وهو ساجد" عوض "إذا كان ساجداً".

... 4 ـ حديث: "يمين الله على الأرض" (النتائج، ص. 293).

... قال المحقق: أخرجه ابن عساكر والخطيب عن جرير، انظر "الفتح الكبير"، ج 2، ص. 79.

... قلت: الحديث في "كنز العمال"، ج 1، ص. 232، ونصه فيه: "يمين الله ـ عز وجل ـ طباق السموات والأرض".

... 5 ـ حديث: "مسكين رجل لا زوج له! مسكينة امرأة لا زوج لها"! (النتائج، ص. 407).

(11326/1)

... قال المحقق: أخرجه البيهقي عن أبي نجيح مرسلاً، انظر "منتخب كنز العمال"، ج 6، ص. 390.

... قلت: الحديث في "شعب الإيمان"، ج 4، ص. 382، ونصه فيه: ‘‘مسكين رجل ليست له امرأة، قيل: يا رسول الله وإن كان غنياً ذا مال؟ قال وإن كان غنياً من مال، قال: ومسكينة مسكينة امرأة ليس لها زوج. قيل يا رسول الله: وإن كانت غنية أو مكثرة من المال؟ قال: وإن كانت’’.

أقوال الصحابة:

... لم يُعْنَ المحقق بتخريج آثار الصحابة الآتية:

... 1 ـ قول عائشة رضي الله عنها: ‘‘إذا حاضت المرأة حرم الْجُحْرَانُ’’ (النتائج، ص. 54).

(11327/1)

... أقول: هو في "الغريبين" للهروي، ج 1، ص. 101 (مخطوط خزانة القرويين)، وهو أيضاً في "غريب الحديث" لابن قتيبة، ج 2، ص. 454، و"النهاية"، ج 1، ص. 240، و"الفائق"، ج 1، ص. 191، و"الأساس" (جحر)، و"تهذيب اللغة"، ج 4، ص ص. 136 ـ 137، و"الإنصاف" للبطليوسي، ص. 167، و"اللسان" (جحر)، و"جنى الجنتين" للمحبّي، ص.

33، و"تاج العروس" (جحر)، ج 10، ص. 375، ط الكويت.

... قلت: ودعوى السهيلي أن "الجحران" بالرفع هو قول طائفة من أهل العلم غير القتبي غيرُ مسلمة. فقد أفاد ابن الأثير أنه يروى بكسر النون، ويروى بضمِّها،

(11328/1)

كما نصَّ على ذلك أيضاً البطليوسي. فالظاهر أن السهيلي لم يستظهر أقوال من تَقَدَّمُوه.

... 2 ـ قول فاطمة رضي الله عنها: "يا حَسَنَانُ، يا حُسَيْنَانُ" (النتائج، ص. 54).

... استشهد السهيلي بهذا الأثر، ثم قال: "هكذا روته الرواة برفع النون".

... قال المحقق معلقاً عليه: "انظر "الروض الأنف"، ج 2، ص. 279".

... قلت: الذي في "الروض الأنف"، ج 4، ص. 140 (دار المعرفة، بيروت، ط 2) أن الهروي ـ وحده ـ قال ذلك في "الغريبين".

(11329/1)

... وفي "الغريبين"، ج 1، ص. 144، ورد ما نصه: "روت الرواة ذلك بضم النون: يا حسنانُ، يا حسينَانُ، فكأنها جعلت الاسمين اسماً واحداً فأعطتهما حظ الاسم من الإعراب، كما قالوا: الْجَلَّمَانُ - بضم النون - للجلم، والقلمان للقلم وهو المقراض، والجحران للفرج، هكذا رواه سلمة عن الفراء بضم النون فيهما جميعاً" ا. هـ

... وقال: أورد الزمخشري هذا الأثر في "الفائق"، ج 2، ص. 387، (باب "الظاء مع اللام"، دون تنصيص على حركة النون.

(11330/1)

... 3 - قول ابن سلام لعثمان رضي الله عنهما: "أنا خارجاً أنفع مني لك داخلاً" (النتائج، ص. 404).

... ولم يعلق عليه المحقق بشيء.

... قلت: كذا ورد عند السهيلي شاهداً في باب الحال.

... ولم أعثر عليه بهذه الرواية بعد طول بحث وتفتيش. ووقفت عليه في "أسد الغابة"، ج 3، ص. 160 (بتحقيق د. البنا وآخرين) في ترجمة ابن سلام، ضمن خبر، بالرواية التالية: "لما أريد قتْل عثمان رضي الله عنه، جاء عبد الله بن سلام، فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت في نصرك

قال: اخرج إلى الناس فاطردهم عني، فإنّك خارج خير إلي منك

(11331/1)

داخل".

... قلت: ولا شاهد فيه على هذه الرواية.

... 4 ـ قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "تمرة خير من جرادة" (النتائج، ص. 409).

... سكت عنه المحقق فلم يعلق عليه بشيء.

... قلت: أخرجه مالك في "الموطإ" كتاب "الحج"، باب "فدية من أصاب شيئاً من الجراد وهو محرم"، ج 1، ص. 416 (نشرة محمد فؤاد عبد الباقي)، وهو في "مصنف" عبد الرزاق، ج 4، ص. 410، و"المحلى"، ج 7، ص. 230 (ط دار الآفاق الجديدة)، واستشهد به من النحاة ابن أبي الربيع السبتي في "البسيط في شرح الجمل"، ج 1، ص. 539، وابن هشام في "المغني"، ص. 612 (دار

(11332/1)

الفكر، ط 5).

أقوال العرب:

... لم يعن المحقق بتخريج مجموعة من أقوال العرب، ومما أمكنني الوقوف عليه:

... 1 ـ "اذهب بذي تسلم" (النتائج، ص. 95).

... هو في "الكتاب"، ج 3، ص. 118، 121، 158، و"الكامل" للمبرد، ج 3، ص. 1353 (نشرة الدالي)، ونصه فيه: "افعل ذاك بذي تسلم". وجاء في "نوادر أبي زيد"، ص. 553: "ويقال: والله ما أحسنت بذي تسلم"، أي بسلامتك، وما أحسنت بذي تسلمان وبذي تسلمون، وللمرأة بذي تسلمين، وللنسوة بذي تسلمن، والمعنى في هذا كله: بسلامتكما للاثنين، وبسلامتكم للجماعة.

(11333/1)

... 2 ـ "كنا أهل ثمه ورمه" (النتائج، ص. 124).

... قال المحقق: "في "اللسان" : "قال أبو عبيد: المحدثون هكذا يروونه بالضم، ووجهه عندي بالفتح، والثم: إصلاح الشيء وإحكامه، وهو والرم بمعنى الإصلاح"".

... قلت: قول أبي عبيد هذا في "غريب الحديث" له، ج 4، ص. 403 ـ 404، وروايته فيه: "كنا أهل ثُمِّهِ وَرُمِّهِ حتى

استوى على عممه". هكذا يحدثونه: "أهل ثُمِّهِ وَرُمِّهِ - بالضم -، ووجهه عندي ثَمِّهِ وَرَمِّه، إلخ". وينظر "النهاية" لابن الأثير، ج 1، ص. 223.

... وينظر: الفائق"، ج 1، ص. 175، و "الأساس" (ثمم).

(11334/1)

... 3 - هو أحسن الفتيان وأجملهم" (النتائج، ص. 172).

... قلت: هو في "الكتاب"، ج 1، ص. 80، ونصه فيه: "هو أَحْسَنُ الفتيان وأجمله، وأكرم بنيه وأنبله". وينظر "البسيط في شرح الجمل"، ج 2، ص. 783.

... 4 - "اللهم اغفر لي أيها الرجل وارحمنا أيتها العصابة" (النتائج، ص. 199).

... قلت: هكذا جاء عند السهيلي، والذي في "الكتاب"، ج 3، ص. 170، و"أصول" ابن السراج، ج 1، ص. 367، و"أمالي" ابن الشجري، ج 1، ص. 418: "اللهم اغفر لي أيتها العصابة".

... 5 - "إنها لإبل أم شاء" (النتائج، ص. 260).

(11335/1)

... سكت عنه المحقق، وأدرجه في الفهارس العامة ضمن أقوال الصحابة.

... قلت: هذا شاهد من أقوال العرب سيَّار. ينظر "الكتاب"، ج 3، ص ص. 172 ـ 174، و"حروف المعاني" للزجاج، ص. 48، و"معاني الحروف" للرماني، ص. 173، و"أمالي" ابن الشجري، ج 3، ص. 108 (نشرة الطناحي)، و"أصول" ابن السراج، ج 2، ص. 213، و"الصحاح" (أمم)، ج 5، ص. 1867، و"الجنى الداني"، ص. 206، و"شرح المفصل" (التخمير)، ج 4، ص ص. 79 ـ 80، و"رصف المباني"، ص. 180 (ط 2)، و"شرح المفصل" لابن يعيش، ج 8، ص. 97.

... 6 ـ "حسبك ينم الناس" (النتائج، ص. 355).

(11336/1)

... قلت: هو في "المسائل العسكرية" للفارسي، ص. 127.

الشواهد الشعرية:

... 1 ـ قال الشاعر (النتائج، ص. 34):

وَفِي الجَهْلِ قَبْلَ المَوْتِ مَوتٌ لأَهْلِهِ ... فَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ

وَإِنَّ امْرَءاً لَمْ يَحْيَ بالعِلْمِ مَيِّتٌ ... فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى النُّشُورِ

نَشُورٌ

... قال المحقق: البيتان في "الفِلاكة والمفلوكون" ولم ينسبا لأحد.

... قلت: أفاد محققا كتاب "تعليم المتعلم في طريق التعلم" لبرهان الدين الزرنوجي (هامش صفحة 46) أن البيتين نسبا في إحدى النسخ المخطوطة للحسن بن علي

(11337/1)

المرغياني، وورد البيتان عند الصفدي في "الوافي بالوفيات"، ج 21، ص. 453، وياقوت الحموي في "معجم الأدباء"، ج 5، ص. 1956 (نشرة إحسان عباس)، وأفادا أنهما وُجدا في كتاب "سر السرور" لمحمود النيسابوري منسوبَيْن إلى الماوردي. وأنشدهما الماوردي في "أدب الدنيا والدين"، ص. 51 (نشرة محمد فتحي أبوبكر)، وأفاد أنهما لبعض أهل العصر. والبيتان كذلك بلا عزو في "إضاءة الراموس" لابن الطيب الشركَي، ج 2، ص ص. 193 ـ 194 (منشورات وزارة الأوقاف المغربية).

... 2 ـ وأنشد السهيلي (النتائج، ص. 57).

(11338/1)

... كَأَنَّ صَلا جَهيزَة حين تمشي حباب الماء يَتَّبِعُ الحَبَابَا

... قال المحقق: رواية "اللسان" :

... ... * كأن صلا جهيزة حين قامَت *

... قلت: البيت كذلك في "التهذيب"، ج 4، ص. 10، والروض الأنف"، ج 2، ص. 248، و"التاج" (حبب)، ج 2، ص. 224، وهو في "المستقصى"، ج 1، ص. 78، و"اللسان" (جهز)، ج 15، ص. 92 (ط الكويت)، وروايته في المواطن الثلاثة الأخيرة:

... كَأَنَّ صلاَ جهيزة حين قامت ... حَبَابُ الماءِ حالاً بَعْدَ حَالِ

... 3 ـ وقال الشاعر (النتائج، ص. 57).

(11339/1)

... تركتُ الرمحَ يعملُ في صلاه ... كأَنَّ سِنَانَه خرطومُ نَسْرِ

... قال المحقق: البيت في "الكامل" للمبرد، ج 1، ص. 67.

... قلت: البيت ليزيد بن سنان المري، وهو سابع أبيات "المفضلية"، ص. 13. ينظر "المفضليات"، ص. 70 (نشرة شاكر وهارون)، وهو بلا عزو في "جمهرة" ابن دريد، ج 2، ص. 897 (نشرة البعلبكي)، ويروى: "يبرق" بدل

"يعمل".

... 4 ـ وجاء في الصفحة 98 قول الشاعر:

... رأى الأمر يفضي إلى آخر ... فَصَيَّر آخره أوَّلا

(11340/1)

... قال المحقق: ذكره صاحب "العقد الفريد"، ج 2، ص. 253 في أبيات أربعة، قال: ''ولبعضهم''، ولم يُسَمِّه...

... وقد ذكر ابن جني في مواضع من "الخصائص" أنَّ أبا علي حَدَّثه به غير دفعه. انظر: ج 1، ص. 209؛ ج 2، ص. 31، 170، وانظر "الأشباه والنظائر"، ج 1، ص. 277

... قُلتُ: البيت لمحمود الوراق كما في "عيون الأخبار"، ج 3، ص. 53، 54، و"طبقات" ابن المعتز، ص. 367، (ط 3). ونسب للإمام علي. وهو بلا عزو في "سر صناعة الإعراب"، ج 2، ص. 687 (نشرة هنداوي)، و"المحتسب"، ج 1، ص. 188، و"شرح المفصل"، ج 5، ص. 120،

(11341/1)

و"الغيث المسجم"، ص. 449، و"محاضرات" اليوسي، ج 1، ص. 213.

... وانظر "ديوان" محمد الوراق، ص. 228، 229، صنعة د. وليد قصاب، وفي هامشه إحالة على مصادر أخرى.

... 5 ـ وجاء في الصفحة 149 قول الشاعر:

... ... * حوراء عيناء من العين الحيرْ *

... قال المحقق: البيت في "شرح المفصل"، ج 4، ص. 114، وهو لمنظور بن مرثد الأسدي، وروايته:

... ... * عيناء حوراء من العين الحير *

... قلت: جاء في "إصلاح المنطق"، ص. 126، 127، ما نصه:

قال الأصمعي: أنشدنا أبو مهدي:

(11342/1)

هل تعرف الدار بأعلى ذي القور ... قد درست غيرَ رمادٍ مكفور

مكتئب اللون مَرُوح ممطور ... أزْمَانَ عيناء سرور السرور

* عيناء حوراء من العين الحيرْ *

... وساقه ابن السكيت ثانية في الصفحة 37، فقال:

أزمان عيناء سرور المسرور ... عيناء حوراء من العين الحير

... وينظر "الزاهر في معاني كلمات الناس" لابن الأنباري، ج 1، ص. 120 (نشرة الضامن)، ط العراق؛ و"اللسان" (روم، قور، كفر).

... 6 ـ وجاء في الصفحة 188 قول الشاعر:

* نَحُجٌّ مَعاً، قالت: أَعَاماً وقابِلَه *

... قال المحقق: صدره:

(11343/1)

---

* فقلت: امكثي حتى يَسارِ لعلنا *

... والبيت من شواهد "الكتاب"، ج 2، ص. 39، ولا يعرف قائله.

... قلت: بل قائله معروف، وهو حميد بن ثور. ينظر "ديوانـ"ه، ص. 117، وروايته فيه:

فقلتُ امكثي حتى يسارِ لَوَ أَنَّنَا ... نَحُجٌّ فَقَالَتْ لِي أَعَامٌ

وقَابِلُ

... والظاهر أن المحقق لم يطلع على بحث الدكتور رمضان عبد التواب الموسوم: ''أسطورة الأبيات الخمسين في كتاب سيبويه'' الذي نشره في "مجلة المجمع العلمي العراقي" (المجلد 34، ص ص. 205 ـ 245، ط 1974) وأعاد نشره في كتابه "بحوث ومقالات في اللغة" (ص ص. 89 ـ

(11344/1)

140، وفي الصفحة 117 منه تخريج البيت من ديوان حُميد، ومصادر أخرى.

... 7 ـ وأنشد السهيلي (النتائج، ص. 209).

وأبيض كالمخراق...

... قال المحقق: لم يقلع لي البيت.

... قلت: البيت بتمامه:

وأبيضَ كالمِخْرَاقِ بَلَّيْتُ حَدَّه ... وهَبَّتُه في الساق والقَصَراتِ

وهو لامرئ القيس. ينظر "ديوانـ"ه، ص. 82 (نشرة أبي الفضل إبراهيم، ص 4).

... وصدره بلا عزو في "التهذيب" (خرق)، ج 7، ص. 42، و"اللسان" (خَرق)، ووهم صانع فهارسه فجعل صدر البيت عجزاً في فهرس الأشعار.

... 8 ـ وفي "النتائج"، ص. 209، ورد الشاهد:

(11345/1)

وأسمر خطي...

... فقال المحقق: قال ابن الأنباري في "شرح المفضليات"، ص. 734: "أنشدني أحمد والضبي للأسود بن يعفر:

... وأسمر خطي كأنَّ سنانه ... شهاب غضا شيعته فتلهبا

... والبيت في "الأصمعيات"، ص. 266 منسوباً إلى ربيعة بن مقروم الضبي، وفي "البحر المحيط"، ج 2، ص. 332:

"وقال حاتم:

وأسمر خطيا كأن كعوبه ... نوى القسب قد أربى ذراعاً على العشر"

قلت: الشاهد بروايته الثانية في "اللسان" (رمى) وعزاه لمن سماه أوساً. فإن يكن قصده أوس بن حجر، فليس في

ديوانه، وهو في اللسان ثانية (قسب) و(رمى) منسوباً لحاتم وهو

(11346/1)

في "ديوانـ"ه، ص. 46، ولا عزو في "البيان والتبيين"، ج 3، ص. 25؛ ونسب في "سمط اللآلئ"، ج 2، ص. 686 لعتيبة ابن مرداس، وفي حاشيته إحالة على مصادر أخرى نبه عليها العلامة الميمني رحمه الله.

... 9 ـ وأنشد السهيلي قول الشاعر (النتائج، ص. 225).

... بالخير خيرات وإن شرافا ... ولا أريد الشر إلا أن تا

... وعزاه المحقق للقيم بن أوس.

... قلت: هو لنعيم بن أوس في "العمدة"، ج 1، ص. 527 (نشرة قرقزان)، و"اللسان" (معي)، ولحكيم بن معيَّة التميمي في "المحكم" لابن سيده، ج 2، ص. 193، و"اللسان" ثانية (معي)، ونسبه

(11347/1)

القرطبي في "تفسيره"، ج 1، ص. 155 لمن سماه زهيراً.

فإن يكن مراده زهير بن أبي سلمى، فليس في ديوانه.

... 10 ـ وجاء في الصفحة 236 قول الشاعر:

كيف أصبحت؟ كيف أمسيت مما ... يثبت الود في فؤاد الكريم

... قال المحقق: انظر "أمالي" السهيلي، ص. 101، 102.

... قلت: الشاهد بلا عزو في "الخصائص"، ج 1، ص. 290، و "ديوان المعاني"، ج 2، ص. 570 عن المبرد النحوي قال: أنشدني المازني عن أبي زيد، وهو في "شرح" المرزوقي، ج 3، ص. 1401، و"رصف المباني، ص. 478، و"الدر المصون" للسمين الحلبي، ج 3، ص. 176، و"الأشموني"، ج 3، ص.

(11348/1)

116، و"المساعد"، ج 2، ص. 473، و"البحر المحيط"، ج 2، ص. 385، دار الفكر، ط 2، و"الهمع"، ج 2، ص. 140.

... وجاء في بعض هذه المصادر: "يزرع" مكان "يثبت".

... 11 ـ واستشهد السهيلي بالبيت الآتي منسوباً للأعشى (النتائج، ص. 270).

... وسخَّر من جِنِّ الملائِكِ سبعَةً ... قياماً لديه يَعْمَلُونَ بلا أَجْرِ

... قال المحقق: البيت في "اللسان"، مادة "جنن"، وفيه "تسعة" بدل "سبعة".
... قلت: الشاهد في "تفسير" الطبري، ج 1، ص. 506 (ط شاكر)، وفيه تنصيص على أنه للأعشى. أعشى قيس بني ثعلبة البكري. وهو يذكر سليمان

(11349/1)

بن داود وما أعطاه الله وورد ضمن أبيات كالآتي:

ولوْ كانَ شيءٌ خالِداً أو معمِّراً ... لكانَ سليمانُ البريءُ من الدَّهْرِ
بَراهُ إلاهي واصطفَاهُ عِبَادهِ ... وَمَلَّكه ما بين ثُريَّا إلى مِصْرِ
وسَخَّر من جنِّ الملائِكِ تِسْعَةً ... قِيَاماً لدَيْهِ يعمَلُونَ بلا أَجْرِ

... والشاهد في "الأضداد" لابن الأنباري، ص. 335 (نشرة أبي الفضل إبراهيم، ط الكويت)، وهو للأعشى. بلا وصف. في "المحرر الوجيز"، ج 1، ص. 179 (ط المغرب)، و"البحر

المحيط"، ج 1، ص. 153، و"الخزانة"، ج 6، ص. 176 (ط هارون)، وهو من

(11350/1)

شواهد الوزير اليمني في "الطراز"، ج 2، ص. 62 (ط دار الكتب العلمية) وعزاه للأرحبي، وبلا عزو في "الدر المصون"، ج 1، ص. 173، و"تفسير" القرطبي، ج 1، ص. 195.

... 12 ـ وأنشد السهيلي قول الشاعر (النتائج، ص. 281):

* كُلّا بَلَوْتُ فَلا النَّعْمَاءُ تُبْطِرُنِي *

... قال المحقق: البيت في "الكامل" للمبرد، ج 1، ص. 164، غير منسوب، وعجزه:

* ولا تَخَشَّعْتُ من لأوائِها جَزعا *

... قلت: الشاهد لعبد العزيز بن زرارة الكلابي في "معاني" العسكري، ج 1، ص. 88، و"الوحشيات"، ص. 175، و"الحماسة البصرية"، ج 1، ص. 116،

(11351/1)

و"العقد الفريد"، ج 2، ص. 29؛ ج 3، ص. 378، و"التذكرة السعدية"، ص. 108، وهو له من قصيدة في "البيان والتبيُّن"، ج 4، ص. 54، ولخلف الأحمر في "سمط اللآلي"، ج 2، ص. 412، وله أيضاً من قصيدة في "أمالي" الزجاجي، ص. 64 (نشرة هارون)، وللقيط بن زرارة في "الفرج بعد الشدة" للماوردي، ج 3، ص. 100 (ضمن رسائله) و"الفرج بعد الشدة" للتنوخي، ج 5، ص. 5 (نشرة عبود الشالجي)، و"الأرج بعد الفرج" للسيوطي، ص. 54.

... 13 ـ وأنشد السهيلي للخثعمي (النتائج، ص. 281).

(11352/1)

بكُلِّ تَدَاوَيْنَا فلم يَشْفِ ما بنا على أن قُربَ الدار خيرٌ من البعد

... قال المحقق: هو عبد الله بن الدمينة...، والبيت في "ديوانـ"ه، ص. 82.

... قلت: نسبه القالي في "ذيل الأمالي والنَّوادر"، ص. 104 ليزيد بن الطثرية، وعزاه أبو تمام في "وحشياتـ"ه، ص. 175، لعبد العزيز بن زرارة. وقد فات العلامة راتب النفاخ ـ رحمه الله ـ ذلك فلم ينبه عليه في الهامش.

... 14 ـ وفي صفحة 293 ورد الشاهد:

يَدَيْتُ على ابنِ حسْحاسِ بنِ عمرو ... بأسفل ذي الجَذاةِ يدَ الكريمِ

(11353/1)

... وخرجه المحقق من "لسان العرب" (جذا) و(يدي).

... قلت: هو أيضاً في "أمالي" ابن الشجري، ج 2، ص. 230 (نشرة الطناحي)، وفي هامشه فضل تخريج فيلنظر.

... 15 ـ وجاء في الصفحة، 299 كلام للسهيلي عن الرِّزق ـ بفتح الراء ـ فقال: كما جاء في الشعر من نحو قوله في عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

... واقْصِدْ إلى الخير ولا تَوقَّهْ ... وارزُقْ عِيَالَه رِزْقَهْ

... وعلق عليه المحقق بقوله: "هو عويف القوافي، من قصيدته التي يرثي فيها عمر بن عبد العزيز.

(11354/1)

... قلت: الظاهر أن المحقق انساق مع ما قال السهيلي، فتوهم أن البيت في رثاء عمر بن عبد العزيز، والصحيح أنه من قصيدة في رثاء سليمان بن عبد الملك، وإليك نص كلام المبرد: "وقال عويف القوافي شعراً يرثي سليمان بن عبد الملك ويذكر عمر بن عبد العزيز... "، ("الكامل"، ج 2، ص. 840 [نشرة الدالي]).

... 16 ـ وأنشد السهيلي قول الشاعر (النتائج، ص. 364).

ثلاثةُ أحباب فَحُبٌّ عَلاَّقة وَحُبٌّ تِملاَّق، وَحُبٌّ هُوَ القتلُ

(11355/1)

... قال المحقق في تخريجه: البيت في "مجالس ثعلب"، ج 1، ص. 23 منسوباً إلى أعرابي، وفي "شرح المفصل"، ج 6، ص. 48، ج 9، ص. 157.

... قلت: الشاهد بلا عزو في "ليس في كلام العرب"... لابن خالويه، ص. 139 (نشرة أحمد عبد الغفور عطار)، وعزاه المحقق إلى حنبل الطائي، وهو بلا عزو في "الدر المصون"، ج 2، ص. 210، و"نهاية الأرب"، ج 2، ص. 130، و"شرح المفصل" (التخمير)، ج 3، ص. 76 (نشرة عبد الرحمن العثيمين)، و"البحر المحيط"، ج 1، ص. 456، و"شرح الكافية الشافية" لابن مالك، ج 4، ص. 2239.

(11356/1)

... 17 ـ وفي الصفحة، 385 جاء قول الشاعر:

* والشهر مثل قلامة الظفر *

... وخرجه المحقق من "التاج" و"نهاية" ابن الأثير.

... قلت: الشطر أيضاً من شواهد الخطابي في "غريب الحديث"، ج 1، ص. 130. أورده ضمن بيت، فقال: قال الشاعر، أنشده الفقعسي:

... ابدأن من نجدٍ على ثقة والشهر مثل قلامة الظُّفْر

... وهو كذلك من شواهد القرطبي في "تفسير"هـ ج 2، ص. 293، ساقه ضمن بيتين، كالآتي:

... أخوان من نَجْدٍ على ثقةٍ ... والشَّهْر مثْلُ قُلامَةِ الظُّفْرِ

... حتى تكامل في استدارته ... في أربع زادت على عشر

(11357/1)

... 18 ـ وأنشد السهيلي قول الراجز (النتائج، ص. 392).

... وكُلُّ شيء قد يحب ولده ... حتى الحُبارى فتطير عَنَده

... وخرجه المحقق من "اللسان" (عند).

... قلت: هو أيضاً في "التهذيب" (عند)، ج 2، ص. 222، و"المستقصى"، ج 2، ص. 227، و"جمهرة" ابن دريد، ج 2، ص. 666، وتَكَرَّر الشاهد ثانية في "اللسان" (حَبَر)، وورد في الموضعين الأخيرين مَثَلاً على هيئة النثر.

نقول مختلفة:

... زخر كتاب "النتائج" بنقول كثيرة، اهتدى المحقق إلى تخريج أكثرها، وأعياه بعضها. وممّا فاته:

(11358/1)

... 1 ـ قول السهيلي (النتائج، ص. 246): "ومكان مضبوب ومسبوع" من "الضباب والسباع".

... قال المحقق: "لم أجد "مضبوباً ومسبوعاً" فيما أتيح لي من كتب اللغة".

... قلت: ورد في "الاشتقاق" لابن دريد، ص. 427 ما نصه: "و"السَّبيع" مثل المسبوع سواء، وهو الذي قد أكل

السبع غَنَمه".

... وفي "التاج" "سبع"، ج 21، ص. 278 (ط الكويت):

"وسُبِعَت الوحشية فهي (مَسبوعة)".

... 2 ـ قال السهيلي: "ومن هذا الباب ـ المتقدم بالطبع ـ تقدم (العزيز) على (الحكيم)، لأنه عزَّ، فلمَّا عزَّ حكم.. ".

(النتائج، ص. 268).

(11359/1)

... قلت: قوله: "لأنه عز فلما عز حكم" إشارة إلى خبر ساقه في شرح آيات الوصية: 42.

... وأورده أبو حيان في "البحر المحيط"، ج 3، ص. 484 (ط دار الفكر، بيروت، ط 2)، ونصه فيه: "روي أن بعض الأعراب سمع قارئاً يقرأ {والسارق والسارقة} إلى آخرها، وختمها بقوله: "والله غفور رحيم" فقال: ما هذا كلام فصيح، فقيل له: ليس التلاوة كذلك، وإنّما هي: (والله عزيز حكيم) [المائدة، الآية 38]، فقال: بخ بخ، عزَّ فحكم فقطع".

... 3 ـ وفي الصفحة 325 عقد السهيلي فصلا في صيغتي "افعلَّ" و"افعالّ"، وذكر أن الخطابي زعم أن معنى

(11360/1)

"احْمرَّ" مخالف لمعنى "احمارّ"، وذهب إلى أنّ "افعلّ" يقال فيما لم يخالطه لون آخر، و"افعالّ" يقال لما خالطه لون آخر...

... قلت: أغفل المحقق عزو قول الخطابي إلى مصدره، وهو في "غريب الحديث" له، ج 1، ص. 241، ونصه فيه: "فأما اللون الخالص كالحمرة والبياض ونحوهما، فالفعل منه "احمرَّ" و"ابيضَّ"...، هذا إذا أردت أنه قد تمكَّنَ واستقرَّ، فإذا أردت التغير والاستحالة قلت: "احمارَّ" و"اصفارّ".

... وبعد؛ فهذا ما يسر الله تعالى من متابعة شواهد "نتائج الفكر" فعسى أن يفيد محققه من ذلك ويعمل على إخراج الكتاب في

(11361/1)

طبعته الثالثة إخراجاً يشارف الكمال، وتلك رغبته التي عبر عنها في آخر مقدمة الطبعة الثانية.

ثانياً - "التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام" لأبي القاسم السهيلي، تحقيق عبد الله محمد

علي النقراط

... يعد كتاب "التعريف والإعلام" أحد المؤلفات التي نالت شهرة واسعة، وقد أفاد منه طلبة العلم عامة، والمشتغلون بالدراسات القرآنية خاصة، إفادة كبيرة.

... وموضوع هذا الكتاب هو التعريف بمبهمات القرآن أعلاماً كانت أو غير إعلام. وقد أبان السهيلي عن غرضه من هذا التأليف، فقال:

(11362/1)

... ... فإني قصدت أن أذكر في هذا المختصر الوجيز ما تضمنه كتاب الله العزيز من ذِكْرِ من لم يُسَمَّ فيه باسمه من نبي أو ولي أو غيرهما من آدمي أو ملك أو جني أو بلد أو شجر أو كَوكب أو حيوان، له اسم علم قد عرف عند نَقَلَة الأخبار والعلماء الأخيار (1).

منهج السهيلي في هذا الكتاب

---

(1) التعريف والإعلام، تحقيق عبد الله محمد علي النقراط، منشورات كلية الدعوة ولجنة الحفاظ على

التراث الإسلامي، طرابلس ـ ليبيا، ط 1، 1411 هـ/ 1996 م، ص. 50.

(11363/1)

... صرف السهيلي جهده في هذا التأليف إلى تتبع ما استبهم في القرآن من الأسماء، وسلك في ذلك مسلك المفسرين في تناول سور القرآن الكريم، بادئاً بسورة الحمد، ومنتهياً بسورة الفلق.

... وقد تَوَسَّلَ المؤلف إلى إعداد هذه الدراسة باعتماد ثلاثة مصادر:

... 1 ـ القرآن الكريم؛

... 2 ـ الحديث النبوي؛

... 3 ـ كتب التفسير والحديث والتاريخ والأخبار والأنساب.

... 1 ـ القرآن الكريم:

... أما المصدر الأول، فإن السهيلي اعتمده لأن القرآن ـ كما قال الزمخشري ـ(1)

---

(1) ينظر "الكشاف"، ط دار الكتاب العربي، بيروت، ج 1، ص. 546.

(11364/1)

"يفسر بعضه بعضاً"، وهو منهج أصحاب التفسير بالمأثور الذين انتهى بهم النظر في كتاب الله إلى أنه اشتمل على الإيجاز والإطناب، والإجمال، والتبيين، والإطلاق والتقييد، والعموم والخصوص. ولذلك لابد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى من أن ينظر في القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه في موضوع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً، وبما جاء مُبَيَّناً على فهم ما جاء مجملاً، ليحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء

(11365/1)

عن الله. وهذه مرحلة لا يجوز لأحد مهما كان أن يعرض عنها، ويتخطاها إلى مرحلة أخرى، لأنَّ صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه، وأعْرَف به من غيره(1).

... وقد جنح السهيلي إلى بيان ما استبهم من الأسماء في سورة "الحمد" فتمثل هذا اللون من التفسير واضحاً جلياً فيها.

... قال: قوله تعالى: {الذين أنعمت عليهم} [الفاتحة، الآية 7]: هم الذين ذكرهم الله في سورة النساء حين قال: {فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء

---

(1) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة، ج 1، ص. 37.

(11366/1)

والصالحين} [النساء، الآية 68]، ثم أعقب ذلك بقوله: وانظر إلى قوله تعالى: {وحسن أولئك رفيقا} [النساء، الآية 66]، واجمع بينه وبين قوله: {صراط الذين أنعمت عليهم} [الفاتحة، الآية 7]، تَجِدْهُ شرحاً له: لأن الصراط: الطريق، ومن شأن سالك الطريق الحاجة إلى الرفيق، ولذلك قال تعالى {وحسن أولئك رفيقا}(1).

2 ـ الحديث النبوي:

... السنة هي المصدر التشريعي الثاني بعد القرآن الكريم، ومهمة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هي البيان، مصداقاً لقوله تعالى: {وأنزلنا إليك الذكر

(1) التعريف والإعلام، ص ص. 53 ـ 54.

(11367/1)

لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون } [النحل، الآية 44].

... وأوجه خدمة السنة للكتاب متعددة. فهي تبين مجمله، وتوضح مشكله، وتخصص عامه، وتقيد مطلقه، وتبين النسخ وتؤكد أحكاماً وردت في القرآن.

... وهذا الوجه الأخير هو الذي عناه السهيلي حين قال: "وانظر إلى قوله عليه السلام: "خير الرفقاء أربعة"(1)، تجده ينظر إلى قوله سبحانه: {من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً}".

(1) أخرجه ابن ماجة في "سننه"، "كتاب الجهاد"، باب "السرايا"، ج 2، ص. 944 (نشرة محمد فؤاد عبد الباقي).

(11368/1)

---

3 ـ كتب التفسير والحديث والتاريخ والأخبار والأنساب:

... أ ـ كتب التفسير والحديث:

... غلب على السهيلي الاستعانة بهذه المصادر. وهو تارة يحيل عليها، ويذكر عناوينها، ويكتفي بالتنبيه على مؤلفيها استغناءً بها عن ذكر أسمائها تارة أخرى.

... وهذه أهم كتب التفسير والحديث التي اعتمدها في "التعريف والإعلام"(1).

... 1 ـ "أحكام القرآن" للقاضي أبي بكر بن العربي المعافري.

... 2 ـ "تفسير" الطبري.

... 3 ـ "تفسير" عبد الرزاق.

... 4 ـ "تفسير" الكشي (عبد بن حميد).

---

(1) التعريف والإعلام، ص. 54.

(11369/1)

... 5 ـ "تفسير" الماوردي.

... 6 ـ "تفسير" النقاش.

... 7 ـ "سنن" الترمذي.

... 8 ـ "سنن" الدارقطني.

... 9 ـ "صحيح" البخاري.

... 10 ـ "مسند" البزار.

... 11 ـ "موطأ" الإمام مالك

...

... ب ـ كتب التاريخ والأخبار والأنساب:

... أكثر السهيلي من اعتماد هذه المصادر، وهذه قائمة بعناوين أهمها:

... 1 ـ "تاريخ الطبري".

... 2 ـ "سيرة ابن إسحاق".

... 3 ـ "سيرة ابن هشام".

... 4 ـ "مروج الذهب" للمسعودي.

... 5 ـ "معجم ما استعجم" للبكري.

... 6 ـ "المؤتلف والمختلف" لابن ماكولا.

... 7 ـ "الهواتف" لابن أبي الدنيا.

(11370/1)

... ومنهج السهيلي في "التعريف والإعلام" يكاد يكون منهجه نفسه في سائر كتبه. فهو يسوق الأقوال، ويعمل فكره الثاقب فيها، ويناقشها مناقشة علمية رصينة، فيرجح ما تعضده الأدلة والشواهد، ويلغي الضعيف منها والمرجوح.

... فعند كلامه على قوله تعالى: {قال الذي عنده علم من الكتاب} [النمل، الآية 40]، قال: قيل: هو آصف بن أرخيا

بن خالة سليمان، وكان عنده علم بالاسم الأعظم من أسماء الله تعالى، وقيل: هو سليمان نفسه.

(11371/1)

... ولا يصح في سياق الكلام مثل هذا التأويل، وذكر محمد بن الحسن المقري قولاً ثالثاً أنه صبة بن إذ، وهذا لا يصح البتة، لأن صبة هو ابن عاذ بن طابخة، واسمه عمرو بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد، وقد تقدم أن معداً كان في زمان بختنصر، وذلك بعد عهد سليمان عليه السلام بزمن طويل. فإذا لم يكن معد في عهد سليمان، فكيف صبة بن إذ، وهو بعده بخمسة آباء، وهذا بَيِّن لمن تأمله. وقد قيل فيه قول رابع: إنه جبريل عليه السلام(1).

---

(1) التعريف والإعلام، ص. 237.

(11372/1)

... ومن أمثلة التحقيق العلمي الذي ساد كتاب "التعريف والإعلام" ما جاء على لسان السهيلي وهو بصدد الكلام على الآية الرابعة من سورة الأحزاب: {ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه}؛ قال: كان جميل بن معمر الجمحي يدعى

ذا القلبين، فنزلت الآية، وفيه يقول الشاعر:

وكيف ثَوَائِي بالمدينة بعدما ... قضَى وطراً منها جميل بن معمر

... وروى الزبير بن بكار أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ استأذن على عبد الرحمن بن عوف، فسمعه يتغنى بهذا البيت، فقال: ما هذا يا ابا محمد؟ فقال: إنا إذا خلونا قلنا ما يقول الناس في

(11373/1)

بيوتهم، وقلب المبرد في الكامل هذا الحديث(1). وجعل المستأذن عبد الرحمن بن عوف، والمتغني عمر بن الخطاب، والزبير أعلم من المبرد بهذا الشأن(2).

... لكن السهيلي ـ وهو المحقق المدقق ـ تساهل في كتابه هذا بعض التساهل، فلم يعتمد الأخبار الصحيحة وحدها، ولم يشترط التزامها في الكتاب. وقد نبه على ذلك في معرض كلامه على قوله تعالى: {لها سبعة أبواب} [الحجر، الآية 44]، فقال:

---

(1) ينظر "الكامل"، ج 2، تحقيق محمد أحمد الدالي،

مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1986، ص ص. 564 ـ 565.

(2) التعريف والإعلام، ص ص. 253 ـ 254.

(11374/1)

"وقع في كتب المواعظ والرقائق أسماء لهذه الأبواب على ترتيب لم يرد في أثر صحيح، وإن كنا لم نشترط في هذا الكتاب أن نقتصر على الصحيح دون غيره" (1).

... وما تساهَلَ السهيلي في تضمينه كتابَه من أخبار قد لجأ إلى إيراد بعضه ثِقَةً براويه، كما وقع له عند كلامه على قوله تعالى: {أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم} [النمل،الآية 82]، قال:

... اسم الدابة: "أقصى" فيها ذكر أبو بكر بن الحسن، وذكر أنها الثعبان الذي كان في بئر الكعبة قبل بنيان

---

(1) التعريف والإعلام، تحقيق عبد الله محمد علي النقراط، ص ص. 253 ـ 254.

(11375/1)

قريش لها، وأن الطائر لما اختطفها ألقاها بالحجون(1)، فالتقمتها الأرض، فهي الدابة التي تخرج تكلم الناس، وتخرج عند الصفا، وهذا الذي قاله غريب، غير أن الرجل من أهل العلم، ولذلك ذكرنا قوله (2).

كتاب "التعريف والإعلام" نسخه المخطوطة، طبعاته ... لكتاب "التعريف والإعلام" أكثر من نسخة مخطوطة تحتفظ بها خزائن مغربية ومشرقية، وبعضها في خزائن أوربا، ومنها:

---

(1) الحجون: جبل أعلى مكة عند مدافن أهلها. (ينظر "معجم االبلدان" لياقوت الحموي، ج 2، ص. 161).

(2) التعريف والإعلام، ص. 238.

(11376/1)

---

1 ـ نسختا الخزانة العامة بالرباط، ورقماهما: 1202 د، و 1963 د.

2 ـ نسخة الخزانة الحسنية، بالرباط، ورقمها: 218/ 2.

3 ـ نسخة في مكتبة العلامة محمد المنوني.

4 ـ نسخة دار الكتب المصرية تحت رقم 29321 ب.

5 ـ نسختا ميونيخ وبرلين، ذكرتهما نشرة عياش، ولم

تنبه على أرقامهما.

... أما طبعات الكتاب، فهي:

1 ـ نشرة مطبعة الأنوار سنة 1938.

2 ـ نشرة دار الكتب العلمية بعناية عبد الأمير مهنا سنة 1987.

3 ـ طبعة دار الفكر العربي ببيروت بعناية هيثم عياش سنة 1988.

(11377/1)

---

4 ـ طبعة كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ على التراث الإسلامي بطرابلس ليبيا، بتحقيق عبد الله محمد علي النقراط سنة 1992.

... فأما الطبعة الأولى، فإن الباحثين الذين وقفوا عليها مجمعون على أنها تزخر بتصحيفات وتحريفات، بالرغم من ادعاء مصححها استفراغ الجهد في إخراجها سليمة من الأخطاء.

... والنشرة الثانية التي ظهرت بعناية عبد الأمير مهَنَّا اعتمدت نسخة خطية واحدة، قوبلت على نشرة مطبعة

الأنوار. وصاحب هذه النشرة يذكر في مقدمة الكتاب أن الذي دعاه إلى إخراجها ثانية هو ما لاحظه في النشرة الأولى من كثرة

(11378/1)

الأخطاء، لكن عمله لم يسلم من بعضها؛ بل لقد أضاف إليها أخطاء جديدة.

... والنشرة الثالثة التي صدرت بعناية هيثم عياش، زعم مُقدِّمها (عزت العنان) أنها اعتمدت نسختي ميونيخ وبرلين، لكن (المحقق!!) لا يصف النسختين، ولا يحيل حتى على رقميهما. ولا يكاد قارئ هذه النشرة يفرغ من إلقاء نظرة على هذا (التحقيق!!) حتى يستيقن أن الرجل ليس من أهل هذا الفن.

... وأكتفي هنا بالإلماع إلى بعض المسائل المنهجية:

... 1 ـ كُتِبَ على غلاف الكتاب العنوان الآتي: "غوامض الأسماء المبهمة والأحاديث المسندة في القرآن".

(11379/1)

... ولا أدري من أين جاء (المحقق!!) بهذا العنوان، إذ لم أقف على أحد ممن ترجم السهيلي وذكر تآليفه نبه على كتاب له بهذا العنوان. ومن العجيب أن السهيلي يذكر عنوان "التعريف والإعلام" في خطبة الكتاب، فتأكد بذلك أن ما أُثْبِتَ على الغلاف ليس إلا اختراعاً من المحقق أو الناشر أو هما معاً.

... 2 ـ سقط من النسختين اللتين اعتمدتهما هذه النشرة أكثر خطبة الكتاب، والمنهج المتعارف عليه في التحقيق يقتضي التنبيه على ذلك في الهامش، لكن هذا (المحقق!!) ينص على ما سقط في متن الكتاب. فأي منهج هذا في التحقيق ؟

(11380/1)

... 3 ـ يزعم المحقق أو الناشر أو هما معاً أن هذه النشرة هي أول إصدار للكتاب، والصحيح ـ كما مر بك ـ أنها النشرة الثانية.

... هذه بعض نقائص نشرة هيثم عياش وهي ـ كسابقتها ـ مثقلة بالهوامش التي لا داعي إلى كثير منها، والظاهر أن الرجل لا علم له بصناعة التحقيق.

... ولما كانت النشرة الرابعة هي التي حققت وفق المنهج

المتعارف عليه عند أهل هذا الفن، فقد وجدتني مدعواً إلى إيثارها ـ دون ما سواها من الطبعات التجارية السالفة ـ بمتابعة نقدية.

(11381/1)

... وبما أن المحقق قد جعل الكتاب قسمين: الدراسة أولاً، والتحقيق ثانياً؛ فإن متابعتي ستمضي وفق هذه الخطة.

... 1 ـ الدراسة:

... عقد المحقق ترجمة للسهيلي موجزة، تناول فيها نسبته إلى سهيل، ومصادر ترجمته، وصفاته، ومكانته العلمية، وشيوخه، وآثاره. ولي على أكثر هذه المباحث ملاحظات أوجزها كالآتي:

... 1) في الصفحة 17: ذكر المحقق أن السهيلي عرف بثلاث كنى، أشهرها أبو القاسم، ثم أبو زيد؛ وأما الثالثة، فهي أبو الحسن.

(11382/1)

... قلت: فات المحقق ـ كما فات معظم الذين ترجموا للسهيلي ـ كنية له رابعة، هي أبو علي، انفرد بها مصدر أندلسي هو "أدباء مالقة"، ص. 171 (مخطوط).

... 2) عَوَّلَ المحقق في ترجمته للسهيلي وذكر بعض أخباره على طائفة من المصادر، ذكرها في الصفحة 18 تحت عنوان: "المصادر التي ترجمت للسهيلي".

... ولي على هذه القائمة الملاحظات الآتية:

... أ ـ إن حصة الأسد في هذه القائمة حازتها المصادر الشرقية، والسهيلي أندلسي، وكان الأولى الرجوع إلى المصادر الأندلسية والمغربية لهذا الغرض.

(11383/1)

... ب ـ إن أهم مصدر أندلسي عَوَّلَ عليه من عُنُوا بالترجمة للسهيلي ـ قديماً وحديثاً ـ هو "المطرب من أشعار أهل المغرب" لابن دحية تلميذ السهيلي؛ ومن الغريب أنه لا يوجد في قائمة مصادر المحقق.

ج ـ إن السهيلي من علماء اللغة والنحو، وقد ترجمت له طائفة من مصادر هذين الفنين أهمهما:

... ("إشارة التعيين" لابن عبد المجيد اليماني، تحقيق

عبد المجيد دياب، ط السعودية، ص. 182.

... ("البلغة في تاريخ أئمة اللغة" للفيروزآبادي، تحقيق محمد المصري، ط دمشق، ص. 123.

(11384/1)

... ("طبقات النحاة واللغويين" لابن قاضي شهبة (مخطوط بالخزانة الأسدية ـ دمشق)، ص. 538.

... وليست هذه الثلاثة مِنْ مصادر المحقق، وإنما اكتفى بمصدر متأخر هو "بغية الوعاة" للسيوطي.

... وتحت عنوان: "صفاته ومكانته العلمية"، ذكر المحقق ما نصه: "وصف المترجمون له ـ للسهيلي ـ بالفقيه الأديب، الحافظ، العالم الجليل القدر، المقرئ، المتصرف في فنون العلم وضروب المعارف"، ثم أحال في الهامش على "شجرة النور الزكية" لابن مخلوف التونسي.

... أقول: ها هنا ملاحظتان اثنتان:

(11385/1)

... 1 ـ عبارة المحقق: "وصف المترجمون له... "تقتضي الإحالة على مصادر، لا على مصدر واحد.

... 2 ـ "شجرة النور الزكية" مصدر متأخر، وكان الأولى الإحالة على مصادر متقدمة عليه زمناً.

شيوخ السهيلي:

... عرج المحقق على أسماء اكثر شيوخ السهيلي، وذكر أنه أكثر عن ابن الطراوة في علوم اللسان، وناظره في "كتاب" سيبويه، كما أورد ابن عربي الحاتمي الصوفي ضمن هؤلاء الشيوخ.

... أقول: مناظرة السهيلي شيخه ابن الطراوة ذكرها ابن الأبار في "التكملة"، ج 3، ص. 32 (نشرة د. الهراس) والذهبي في "تذكرة الحفاظ"، ج 4، ص. 1349،

(11386/1)

وتناقلتها بعض المصادر المتأخرة دون تحقيق. والصحيح ـ كما حقق ذلك الدكتور محمد إبراهيم البنا ـ أنه لم تحدث مناظرة بين الشيخ وتلميذه، وإنما وقع في العبارة تصحيف، وصوابها: "ونظر في "كتاب" سيبويه على أبي الحسين ابن الطراوة". وكذلك وردت العبارة في "إشارة التعيين"، ص. 182، ويعضدها قول

الفيروزآبادي في "البلغة"، ص. 122: "سمع "كتاب" سيبويه وغيره على ابن الطراوة".

... (ابن عربي الحاتمي (560 هـ - 638 هـ) تلميذ السهيلي وليس شيخه، كما توهم المحقق، وقد حلاه بقول: "شيخنا" في موضعين من كتابه "محاضرات الأبرار"

(11387/1)

(ج 1، ص. 12، 401، ط دار صادر). وذكر سماعه على السهيلي كذلك العباس بن إبراهيم في كتابيه "الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام"، ج 8، ص. 66، و"إظهار الكمال في مناقب سبعة رجال"، ص. 336 (مخطوط الخزانة الحسنية)، والكتاني في "سلوة الأنفاس"، ج 2، ص. 220. والذي أوقع المحقق في هذا الوهم هو اعتماده ما جاء في "شجرة النور"، ص. 156، وقد شَذَّ ابن مخلوف بحكاية سماع السهيلي عن ابن عربي الحاتمي. ولعله اشْتَبَهَ عليه بالقاضي أبي بكر بن العربي المعافري.

آثاره:

(11388/1)

... تحت هذا العنوان ذكر المحقق ما اهتدى إليه من تآليف السهيلي المطبوعة والمخطوطة، ولي على ما ذكره الملاحظات الآتية:

... 1 .أنه ينسب للسهيلي .تسليماً بما تناقلته كتب التراجم .."شرح الجمل" للزجاجي.

... أقول: الذي أوقع المتأخرين في هذا الوهم هو ابن الأبار. فقد قال في "التكملة"، ج 3، ص. 33: ‘‘وله شرح على الجمل أظنه لم يستوفه’’. وقد حقق الدكتور البنا هذا الأمر وجلّى هذا الإشكال بأن أكَّدَ على أن ابن الأبار يعني بـ "شرح الجمل" كتاب "نتائج الفكر"، معتمداً على دليلين:

(11389/1)

... أ) أن السهيلي لم يشر في كتبه .وهو الحريص على ذلك .إلى أن له كتاباً بهذا العنوان، كما أن تلميذه ابن دحية لا يذكر في مؤلفات شيخه هذا الكتاب.

... ب) أن "نتائج الفكر" مرتب على أبواب الجمل. فلعل ابن الأبار ظن من هذا أنه شرح للجمل. (‘‘مقدمة’’ النتائج، ص. 21).

... 2 .يذكر المحقق ضمن مؤلفات السهيلي قصة يوسف

عليه السلام، وهي مخطوطة، ومنها نسختان بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 622 د، و 1427 د.

... أقول: هذا المخطوط قد نسبه للسهيلي خطأً الزركلي في "الأعلام"، ج 3، ص. 313، وتابعه المحقق دون تثبّت. وقد

(11390/1)

دَلَّلَتُ في رسالة لي جامعية على أن هذا المخطوط ليس من إنتاج السهيلي استناداً إلى أدلة، أهمها ما يلي:

... أ) أن المنهج المتبع في هذا المخطوط بعيد كل البعد عن منهج السهيلي الذي يقوم أساساً على استنطاق النصوص القرآنية عتماداً على علوم الآلة (اللغة ـ النحو ـ البلاغة...)، وليس في هذا المخطوط شيء من ذلك.

... ب) مما التزمه السهيلي في سائر تآليفه أنه يحيل على كتبه وآماليه ومسائله. ولو كان الكتاب له، ما غفل عن التنبيه عليه.

(11391/1)

... ج) أن السهيلي كثير الالتفات إلى إعجاز القرآن، شديد العناية بالنظم والبيان، ولا أثر في هذا المخطوط لشيء من ذلك

... وخلاصة القول إن هذا المخطوط يفتقر إلى روح السهيلي، ولا يسع من صَحِبَ هذا العالم وعاش مع مؤلفاته حيناً من الدهر إلا أن يسلم بأنه ليس من إنتاجه.

... 2 ـ أشار المحقق ـ في معرض حديثه عن تآليف السهيلي ـ إلى تأليف آخر له، هو "حلية النّبيل في معارضة ما في (كذا) السبيل".

... أقول: انفرد ابن الخطيب بالإشارة إلى هذا التأليف في "الإحاطة"، ج 3، ص. 379، وتصحفت فيه عبارة ‘‘ملقى السبيل’’ إلى

(11392/1)

‘‘ما في السبيل’’، ولم يتفطن المحقق إلى هذا التصحيف.

... و"ملقى السبيل" رسالة لأبي العلاء المعري. وقد نبه الدكتور محمد بنشريفة في كتابه "أبو المطرف ابن عميرة: حياته وآثاره". (ص. 299) عليها وأفاد أنها في فن الكتابة في الزهديات والمواعظ التي كانت منتشرة انتشاراً كبيراً في الأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين.

...

أهم ما تولاه من مناصب:

... وتحت هذا العنوان ذكر المحقق ـ نقلاً عن ابن الجزري في "غاية النهاية"، ج 1، ص. 371، والذهبي في "التذكرة"، ج 4، ص. 1349، أن السهيلي تولى قضاء الجماعة فحمدت

(11393/1)

سيرته.

... أقول: الذي أفاده ابن سعيد الأندلسي في "الغصون اليانعة"، ص. 31 (نشرة الأبياري، مصر، ط 3). وابن الأبار في "التكملة"، ج 1، ص. 80، وابن عبد المجيد اليماني في "إشارة التعيين"، ص. 33، وابن عبد الملك المراكشي في "الذيل والتكملة"، ج 1، ص ص. 220 ـ 221 (نشرة محمد بنشريفة، ط بيروت) أن هذا المنصب كان مُسْنَداً ـ يومئذ ـ إلى صاحبه ابن مضاء القرطبي.

... وتحت عنوان "رحلات السهيلي"، قال المحقق ما نصه: "لم تسعفنا المصادر التي ترجمت للسهيلي عن رحلاته إن كانت له رحلات، إلا ما ذكره ابن الخطيب من أنه

(11394/1)

تلا بالحرمين على خال أبيه، إلخ".

... أقول: إن كان مراد المحقق برحلاته خارج الأندلس، فصحيح؛ وإلاّ فقد صَحَّ أنه رحل إلى قرطبة وإشبيلية وغرناطة، قبل أن يعود إلى مالقة.

... وتحت عنوان: "الكتاب المحقق" تناول المحقق عنوانه ونسبته إلى السهيلي، وذكر أن المراجع التي ترجمت للسهيلي اتفقت على أنه أَلَّفَ كتاب "التعريف والإعلام فيما (كذا) أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام"، ثم قال: "وقد جاء في النسخ ج، د، و ط أنوار: من "الأسماء والأعلام" بواو العطف". ويضيف المحقق قائلاً: "وقال في "الروض الأنف": قد ذكرت في

(11395/1)

كتاب "التعريف والإعلام بما (كذا) أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام"".

... قلت: ما دام السهيلي قد ذكر نص عنوان الكتاب كاملاً، فلا مجال لإيثار غيره عليه. ثم إن زعم المحقق اتفاق المراجع على نص العنوان الذي ارتضاه ليس

بمسلم. فابن كثير (في "البداية والنهاية"، ج 12، ص. 318) والسيوطي (في "البغية"، ج 2، ص. 81) يذْكُران العنوان بحرف العطف.

... قال الدكتور البنا ("السهيلي ومذهبه النحوي"، ص. 174):

... ومن الطبيعي أن يترتب على هذا اختلاف كبير في منهج الكتاب. فإذا كان العنوان بدون عطف، فالكتاب لا يتناول

(11396/1)

إلا التعريف بما أبهم اسمُه من الأعلام، ولكن إذا وُجِدَ العاطف فهو يعرف أيضاً بما أبهم اسمه من غير الأعلام. وقد رجحت أن يكون العنوان كما أثبته ابن كثير والسيوطي بما ذكره السهيلي نفسه في كتابه. قال عند قوله تعالى: {كشجرة خبيثة} [إبراهيم، الآية 26]: "هي الحنطة، وقيل الكشوث، وهي شجرة لا ورق لها ولا عروق في الأرض... وإنما ذكرنا اسم هذه الشجرة المذكورة في القرآن لأنها من الباب الذي شرطناه، إذ هي مما أبهم من الأسماء، وإن لم تكن أعلاماً، والله المستعان".

... ... (التعريف والإعلام، ص. 154).

(11397/1)

... ثم عمد المحقق إلى وصف النسخ التي اعتمدها، فذكر منها أربعاً وأضاف إليها نسخة مطبعة الأنوار. وقد بَيَّنْتُ أن لكتاب "التعريف والإعلام" نسخاً أخرى مخطوطة، وطَبْعَتَيْن أخريين لم يقف عليها المحقق، ولا علم عنها شيئاً.

... وتحت عنوان: "قيمته العلمية" قال المحقق ما نصه: "لقد أَلَّفَ السهيلي هذا الكتاب في علم المبهمات وعليه استدراك لمحمد بن علي بن محمد البلنسي الغرناطي المتوفى سنة 636 هـ، وذيل عليه تلميذ من تلاميذه، وهو محمد ابن علي الخضر الغساني المعروف بابن عساكر (كذا) بكتابه المسمى "التكميل

(11398/1)

والإتمام"، وجمع بينهما شيخ الإسلام القاضي بدر الدين بن جماعة في كتاب سماه "التبيان في مبهمات القرآن"، ولخص السيوطي الموضوع في كتابه: "مفحمات الأقران في مبهمات القرآن"".

... أقول: لم يتقص المحقق ما خلّفه "التعريف والإعلام" من

أثر في أوساط العلماء القدماء والمتأخرين، وما استتبع ذلك من عناية به، استدراكاً وجمعاً واختصاراً.

... .فقد ألف ابن عسكر(1) المالقي (584 ـ 636 هـ) كتاب: "التكميل والإتمام لكتاب التعريف والإعلام"، وقد حققه الباحث حسين عبد الهادي بجامعة

_____

(1) وليس ابن عساكر كما توهم المحقق.

(11399/1)

الإمام محمد بن سعود بالرياض عام 1404 هـ، ونال به درجة الدكتوراه، ذكر ذلك محقق الجزء الأول من "صلة الجمع" للبلنسي حنيف بن حسن القاسمي (ج 1، ط دار الغرب الإسلامي، ط 1).

... وقد وهم محقق: "التعريف والإعلام" حيث ذكر أن ابن عسكر تلميذ السهيلي. وهذا توفي عام 581 هـ، وابن عسكر ولد عام 584 هـ، فكيف حصلت التلمذة؟!

... .وألف ابن فرتون، أحمد بن يوسف السلمي (ت 660 هـ) كتاب "الاستدراك والإتمام"، استدرك فيه عليه.

(11400/1)

... . وصف أبو عبد الله الشامي (671 . 751 هـ) كتاباً في مبهمات القرآن نسبه إليه إسماعيل باشا في "هدية العارفين"، ج 2، ص. 143.

... . وجمع بدر الدين بن جماعة (639 . 733 هـ) بين كتابي "الإعلام والتكميل"، وسماهُ: "التبيان في مبهمات القرآن"، ولم يقف عليه أحد من الباحثين، واختصره في كتاب سماه: "غرر التبيان في من لم يسم في القرآن" حققه عبد الجواد خلف عبد الجواد، ونشرته دار قتيبة بدمشق عام 1990 م، وحققه أيضاً الطالب عبد الغفار البيني ونال به درجة الماجستير من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام 1400

(11401/1)

هـ، ذكر ذلك محقق "صلة الجمع" للبلنسي، ج 1، ص. 51

... وقد التقى العبدري الحيحي الذي بدأ رحلته بالمغرب سنة 688 هـ بابن جماعة هذا واتهمه بالإغارة في كتابه المنوَّه به على "التعريف والإعلام" للسهيلي. (انظر "رحلة العبدَري"، ص. 231، نشرة محمد الفاسي، منشورات جامعة محمد الخامس . الرباط).

... . وألف أبو عبد الله بن علي الأوسي البلنسي (714 . 782 هـ) كتاب "صلة الجمع وعائذ التذييل لموصول

كتابي الإعلام والتكميل"، وقد حقق قسمه الأول حنيف حسن القاسمي، وقسمه الثاني عبد الله عبد الكريم محمد، وصدر الكتاب عن

(11402/1)

دار الغرب الإسلامي ببيروت في طبعته الأولى عام 1411 هـ/ 1991 م.

... .وصنف السيوطي (849 ـ 911 هـ) كتاباً في مبهمات القرآن سماه "مفحمات الأقران في مبهمات القرآن"، وقد طبع بتحقيق مصطفى ذيب البغا عام 1403 هـ، وطبع ثانية بتحقيق إياد خالد الطباع عام 1406 هـ

... .واختصر الشيخ بحرق (869 ـ 930 هـ) كتاب "التعريف والإعلام" وسمى مختصره: "تلخيص التعريف والإعلام فيما أبهم من القرآن من الأسماء والأعلام" ذكره حنيف حسن القاسمي، وأفاد أنه لا يزال مخطوطاً، وهو صغير جداً في ثلاث عشرة ورقة، توجد نسخة منه بمركز

(11403/1)

البحث العلمي بجامعة أم القرى تحت رقم 953. مصورة عن مكتبة الأحقاف باليمن. (صلة الجمع، ج 1، ص ص. 52 ـ 53).

... ـ وألف الإذكاوي (1104 ـ 1184 هـ) كتاباً في مبهمات القرآن سماه "ترويح أولي الدماثة بمنتقى الكتب الثلاثة". وقد ضم فيه كتاب البلنسي إلى كتابي السهيلي وابن عسكر، وانْتَقَى من فوائد الكتب ما رآه مناسباً، ولم يضف إليها شيئاً، والكتاب ما زال مخطوطاً بدار الكتب المصرية برقم 819 تفسير، ومنه نسخة بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى تحت رقم 684 علوم القرآن، وهي بخط المؤلف. ينظر "صلة الجمع"، ج 1، ص.

(11404/1)

.53

... ـ "أسامي الذين نزل فيهم القرآن الحكيم" لمجهول، يوجد بإحدى خزائن المخطوطات بتركيا. ذكره محقق "صلة الجمع"، ج 1، ص. 53.

ثانياً ـ النص المحقق:

... 1 ـ التزم المحقق أن يضيف إلى النسخة المصرية التي اعتمدها أصلاً ما لم يرد فيها من زيادات وردت في النسخ

الأخرى المساعدة، لكنه لم يلزم ذلك

... فعند نهاية كلام السهيلي على قوله تعالى: {يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت} [النساء، الآية 60]، قال المحقق في الهامش: 11 من الصفحة 32 "في ط أنوار: بعدما انتهى من تفسير هذه الآية أورد قول الله تعالى: {ما فعلوه

(11405/1)

إلاّ قليل منهم} [النساء، الآية 66] وقوله {إلا الذين يصلون} إلى {قوم بينكم وبينهم ميثاق} [النساء، الآية 90]، ثم قال: وذلك حسب الترتيب الصحيح للآيات... ا.هـ".

... قلت: إذا كان الأمر كذلك، فإنّ حق هذا الكلام أن يكون في المتن، وينبه على زيادته في الهامش خضوعاً لما التزمه المحقق.

... ومثل ذلك وقع حين ورد كلام السهيلي على قوله تعالى: {إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق} [النساء، الآية 90] فقد أدرجه بعد تفسير قوله تعالى: {لمن ألقى إليكم السلم} [النساء، الآية 93]، فلم يُرَاع الترتيب التصاعدي

(11406/1)

للآيات.

... 2 ـ في صفحة 104 ورد في "المتن" ما نصه: "ولكهلان كان الملك قبل أخيه حمير ـ فيما ذكر المسعودي ـ ابن سبإٍ بن يشحب، إلخ".

... قلت: تبدو هذه العبارة قَلِقَة، وصوابها ـ والله أعلم ـ: "ولكهلان كان الملك قبل أخيه حمير بن سبإٍ بن يشحب... "فيما ذكر المسعودي.

... 3 ـ وفي صفحة 89 ورد نسبة قول للكَشّي، فقال المحقق في الهامش: "عند رجوعي لكتب التراجم لم يتحدد عندي من هو الكشي لكثرتهم".

... قلت هو عبد بن حميد (ت 249 هـ)، وقد أورد له السهيلي نقولاً في "شرح آيات الوصية"، ص. 56؛ و"الروض الأنف"، ج 2،

(11407/1)

ص. 197 وفيه حقق القول في الاسم فقال: ذكر الكشي، وهو عبد بن حميد. ا هـ والكشي اسم أعجمي، إذا عرب كُتبَ بالسين المهملة، قبلها كاف مكسورة. وانظر

تحقيقاً في هذا الاسم في "الإحكام في أصول الأحكام" لابن حزم الأندلسي بقلم أحمد شاكر (ج 6، ص ص. 107 ـ 108، ط دار الآفاق الجديدة، بيروت).

... 4 ـ وفي صفحة 160 عرض السهيلي ببيان ما أبهم من قوله تعالى: {ولقد جعلنا في السماء بروجاً} [الحجر، الآية 16]. فناسب المقام إيراد الشاهد: "خير منزلة في الأبد بين الزبانا والأسد". فتوهم المحقق أنه بيت شعر، فكتبه كالآتي:

(11408/1)

... خير منزلة في الأبد ... بين الزبانا والأسد

... ثم قال في الهامش: لم نهتد إلى قائله. ثم أورده في فهرس الأشعار، وأفاد أن قائله مجهول، وأن في وزنه اضطراباً.

... قلت: ليس الشاهد بيت شعر، وإنما هو مثل عربي، ساقه الميداني في "مجمع الأمثال"، ج 1، ص. 240؛ والزمخشري في "المستقصى"، ج 2، ص. 78. وروايته فيهما: "خَيْرُ لَيْلَةٍ بالأَبدِ، لَيْلَةٌ بين الزُّبانى والأَسدِ".

... وفي الصفحتين 696 ـ 697 جاء في معرض تفسير

السهيلي لقوله تعالى: {وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن} [الأحقاف، الآية 68] ما

(11409/1)

نصه: "ويقال: كانوا سبعة، وكانوا يهودا فأسلموا، ولذلك قال: {أنزل من بعد موسى} [الأحقاف، الآية 69]. وقيل في أسمائهم: "شاصر وماصر ومنشي وماشي والأحقب، ذكر هؤلاء الخمسة ابن دريد".

... قال المحقق معلقاً على هذا الخبر: "لم نعثر على ذلك من مؤلفاته التي بين أيدينا".

... قلت: ساق السهيلي هذا الخبر ثانية في "الروض الأنف"، ج 1، ص. 36، وعزاه لابن دريد، وهو في "جمهرته" (حقب)، ج 1، ص. 686 (نشرة البعلبكي)، وفيه أن أسماء هؤلاء النفر من الجن: حسا وبسا وشاصر وباصر والأحقب. وسيق الخبر في "تاج العروس" (حقب)، ج

(11410/1)

1، ص. 699 (ط الكويت)، وفيه أن أسماءهم: خَسا، ومسا، وشاصة، وباصة، والأحقب.

... 5 ـ وأنشد السهيلي قول الشاعر (التعريف والإعلام، ص. 253):

وكيف ثوائي بالمدينة بعدما ... قضى وطراً منها جميل بن معمر

... قال المحقق معلقاً عليه بالهامش: قال المبرد في "الكامل"، ج 1، ص. 266: وهذا الشعر لجميل ابن عبد الله بن معمر العذري، إلخ.

... قلت: ما أعجب أمر هذا المحقق وما أعجله! فإن المبرد إنما قال ما قال معلقاً على بيتين سابقين لهذا البيت، وهما:

وقالوا يا جميل أتى أخوها ... فقلت أتى الحبيبُ أخو الحَبيبِ

(11411/1)

أحبك أن نزلت جبالَ حِسْمى ... وأن نَاسَبْتَ بَثْنَةَ من قريبِ

... انظر "الكامل"، ج 2، ص. 564. (تحقيق محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت).

... وأما البيت: "وكيف ثوائي بالمدينة بعدما... "، فهو من غير نسبة عند المبرد، ولم يهتد محققه إلى قائله. وقد وقفت عليه في "الوافي بالوفيات"، ج 10، ص. 79، معزواً للصحابي بجير بن بجرة الطائي رضي الله عنه.

ثالثاً ـ كتاب: "الفرائض وشرح آيات الوصية"، تحقيق د. محمد إبراهيم البنا

... هذا ثالث تأليف للسهيلي يصدر مطبوعاً طبعة محققة بعد "الأمالي" و"نتائج الفكر".

(11412/1)

... وقد عني السهيلي في كتابه هذا ـ كما يقول محققه ـ بشرح آيات الوصية، ـ وهي آيات النساء: 11، 12، 176 ـ عناية بالغة، فلم يقتصر على القدر المناسب، وهو استنباط الأحكام الفقهية، بل تناول إلى جانب ذلك الحديث عن حكمته تعالى فيما أوصى به، ذاكراً أن تقدير كل فريضة يقوم على العدل والرحمة، وقد استفرغ الوسع في بيان أسرار الإعجاز في هذه الآيات.

... وبعد أن انتهى من" شرح آيات الوصية"، تعرض لأحاديث المواريث في أحد فصول هذا القسم، وعقبه بفصل تناول فيه قوله عليه الصلاة والسلام: "ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي

(11413/1)

فلأولى رجل ذكر" بَيَّنَ فيه كلام من تقدمه في تخريج قوله: "فلأولى رجل ذكر"، وهو أن "ذكر" وصف لرجل، وقد رفض هذا التخريج لأنه يؤدي إلى الحشو، ومضى في معاناة نادرة غريبة يوجه بها هذا الحديث، وبهذا الفصل ينتهي القسم الأول.

... أما القسم الثاني، فيقوم على عدة أبواب:

الباب الأول: في معرفة أصول الفرائض وأصحاب السهام.
... الباب الثاني: في كيفية العمل في هذه الفرائض التي لا عول فيها.
الباب الثالث: باب العدل في الفرائض، وقد ألحق به فصلاً في ميراث الجد.

(11414/1)

... الباب الرابع: في الأسباب المانعة من الميراث(1).

1 ـ "كتاب الفرائض" : مخطوطاته، منهج تحقيقه:

... أفاد الدكتور محمد إبراهيم البنا أن بداية معرفته بـ"كتاب الفرائض" كانت من عدة مراجع، آخرها "تاريخ الأدب العربي" لبروكلمان الذي نبه فيه على أن للسهيلي رسالة في علم الفرائض، وأنه توجد نسخة منها في المتحف البريطاني، ولم يشر إلى وجود نسخ أخرى لها.

---

(1) مقدمة كتاب "الفرائض"، منشورات جامعة قار يونس، ط 1، 1400 هـ/ 1980 م، ص. 12.

(11415/1)

... ولاشك في أن نشر نص عن أصل مخطوط واحد من المهمات الصعبة التي يخشاها المحقق، فيتهيب الإقدام على مثل هذا العمل، إذ النسخة الواحدة عرضة لسهو الناسخ وتصحيفه ويحتمل أن تزخر بخروم لا يجد المحقق سبيلاً إلى ترميمها.

... وقد أدرك الدكتور محمد إبراهيم البنا كل هذا، فعبر عنه أصدق تعبير وهو يَصِفُ منهج تحقيقه للكتاب؛

فقال: ‘‘فإذا لم يَجُد الزمن بغير نسخة واحدة، فالأمر مختلف؛ ولكن هذا لا يمنع من الإقدام على تحقيق هذه النسخة وإخراجها، وعلى المحق أن يحدد مشكلات النص، وهذا ما فعلته في ثنايا التحقيق. على أن

(11416/1)

كثيراً من هذه المشكلات قد وُفقت في حله، وبعضها رجوت أن أكون قد قلت فيه شيئاً. وبقيت مع ذلك بقية لا تُخلّ بالمقصود من الكتاب وقد وصفتها كما وردت في الصورة.

... هذا، وقد حرصت على تخريج الأحاديث والآثار والآراء والأشعار، إلخ.

... أقول: وسأمضي في متابعتي لـ"كتاب الفرائض"، وفق الخطة التي ارتضاها المحقق في إخراج هذا الكتاب.

... وأشير ابتداء إلى أن البحث في جذاذات فهارس الخزانة العامة للمخطوطات بالرباط قد هداني إلى نسخة ثانية لـ"كتاب الفرائض" تحمل رقم 2256 د، تقع في 70 لوحة، وهي وإن كانت لا تحمل اسم

(11417/1)

ناسخ ولا تاريخ نسخ، وسقطت منها خاتمة المؤلف، فقد حددت بعض إشكالات النسخة الأولى، وصوبت من أختها بعض ما غام أوسها عنه ناسخها على حد تعبير المحقق في مقدمة التحقيق، وهذه أهمها:

... 1 ـ جاء في الصفحة 44: "وقد تقدم اللفظ بين حالتي اللفظين وما يشاكله من مقامات الكلام، كل واحد من الاسمين".

... وعلق عليه المحقق في الهامش بقوله: "كذا ورد النص، وهو غير مستقيم".

... أقول: صواب العبارة كما في مخطوطة الرباط: وقد تقدم الفرق بين حالتي اللفظين، إلخ.

(11418/1)

... 2 ـ وفي صفحة 71 جاء ما نصه: "وأفاد بقوله: "أولى رجل" ـ يريد القريب الأقرب ـ نفي الميراث عن الأولى الذي هو من قبيل الأم كالخال".

... قال المحقق معلقاً ما تقدم: "بعد هذه العبارة كلمة غير واضحة، وإن كان السياق مستقيماً بدونها".

... قلت: الكلمة غير الواضحة كما في مخطوطة الرباط هي: "أو نحوه".

... 3 ـ وجاء في الصفحة 72 من المطبوع: "كما لا تقول: "هو

أفهمك"".

... وعلق عليه المحقق في الهامش بقوله: "في المصورة: "أقيمك" ولا يجوز ذلك لغة، ولعل الصواب ما أثبتناه".

(11419/1)

... قلت: في مخطوطة الرباط: "لا تقول: "هو أفقهك" ولعلها أصوب".

... 4 ـ في المطبوع: 73 جاء ما نصه: "ولو لم يكن في هذا المختصر إلا هذه الفائدة، لكانت تَتَحَاوَى وَحَلُه".

... وعلق عليه المحقق في الهامش بقوله: "كذا في المصورة، ولم يتبين لنا المراد منه".

... أقول: صواب العبارة كما في مخطوطة الرباط: "لكانت تساوي رحلة". وهي إحدى العبارات التي كان السهيلي يأتي بها تعبيراً عن اعتداده بنفسه، وإعجابه بما عنده. وقد رددها ثانية في "الروض الأُنُف"، ج 1، ص. 276 في معرض حديثه عن "رمضان أو شهر رمضان"، فقال في

(11420/1)

خاتمته: ‘‘كل هذا مبين في كتاب "نتائج الفكر"، فهناك أوردنا فيه فوائد تعجز عنها هِمَمُ أهل هذا العصر، أدناها تساوي رحلة عند من عرف قدرها’’.

... ومن المشكلات التي اجتهد المحقق في حلها، ووافق اجتهاده فيها ما جاء في نسخة الرباط، ما يلي:

... 1 ـ جاء في المطبوع 32: ‘‘بقرينة الغرض والمقصد، بخلاف التحبيس’’.

... وعلق المحقق على اللفظين بقوله: ‘‘في المصورة: "بقربة" و"التحسين". ولعل الصواب ما أثبتناه’’.

... قلت: هو كذلك، وقد جاء رسم اللفظين في مخطوطة الرباط موافقاً لما رجحه.

(11421/1)

... 2 ـ وجاء في المطبوع 56: ‘‘ذكر عبد بن حميد الكَشّي’’.

... وعلق المحقق عليه في الهامش بقوله: ‘‘في المصورة: عبد الرحمن بن حميد، ولم أجده في الرجال. ولعل الصواب ما أثبتناه’’.

... قلت: هو كذلك، وقد ورد في مخطوطة الرباط كما رجحه المحقق، وقد أورد له السّهيلي نُقولاً اعتمدها في مواطن

من كتاباته. ينظر "التعريف والإعلام"، ص. 111 (نشرة النقراط، ليبيا)؛ و"الروض الأنف"، ج 2، ص. 197، وفيه حقق القول في الاسم، فقال: ‘‘ذكر الكشّي، وهو عبد بن حميد، قال... ’’.

... هذه أهم التصويبات التي أسعفت بها النسخة الرباطية.

(11422/1)

---

2 ـ شواهد الكتاب:

... أشار المحقق في آخر كلامه على منهج تحقيق "كتاب الفرائض" إلى أنه حرص على تخريج الأحاديث والآثار والآراء والأشعار. ومع أنه أغفل التنصيص على تخريج الآيات القرآنية، فقد خَرَّجَهَا جميعاً إلا واحدة ندَّت عنه في الصفحة 61 وهي قوله تعالى: {ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً}، وهي من سورة النساء، الآية 82.

تخريج الأحاديث النبوية

... خرج المحقق كل أحاديث الكتاب، ولي على بعض هذه التخريجات الملاحظات الآتية:

(11423/1)

... أ ـ استشهد السهيلي في الصفحة 26 بالحديث: "اتقوا الله في الضعيفين..." فخرجه المحقق في الهامش بقوله: "أخرجه ابن عساكر عن ابن عمر، ولفظه: "اتقوا الله في الضعيفين: المملوك والمرأة"".

... قلت: هو بهذا اللفظ كذلك في "كنز العمال"، ج 9، ص. 71؛ وأما في ج 7، ص. 278، فقد أخرجه أنس بلفظ: "اتقوا الله في الضعيفين، الأرملة والصبي واليتيم".

... ب ـ ورد في الصفحتين 69 ـ 70، الحديث: "أوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصاراً". فقال السهيلي: أخرجه الدارقطني.

(11424/1)

... وقال المحقق في تخريجه: "الحديث في الجامع الصّغير عن أبي العلي...".

... قلت: ما دام السهيلي قد عزا الحديث للدارقطني، فلا مفهوم لأن يخرج من غير مؤلفاته إلا بعد استفراغ الجهد من متابعته فيها، وهو ما لم يفعله المحقق.

... والحديث في "سننـ"ه (ج 4، ص ص. 144 ـ 145)، ولفظه

فيه: "أعطيت جوامع الكلم واختصر لي الحديث اختصاراً"... وهو أيضاً في "شعب الإيمان" للبيهقي، ج 2، ص. 160؛ و"كنز العمال"، ج 11، ص. 425؛ و"تمييز الطيب من الخبيث"، ص. 56؛ و"كشف الخفاء" للعجلوني، ج 1، ص. 308؛ و"المقاصد الحسنة" للسخاوي،

(11425/1)

ص. 218 (نشرة محمد عثمان الخشت) وفيه ورد الحديث باللفظ الذي ساقه السهيلي.

... ج ـ وفي الصفحة 116، ساق السهيلي الحديث: "ابنا العاصي مؤمنان"، فقال المحقق في تخريجه: "أخرجه الواقدي. انظر "طبقات" ابن سعد، ج 4، ص. 191".

... قلت: الحديث في "المستدرك"، ج 3، ص. 240. وعلق عليه الحاكم بقوله: هو على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وساقه ثانية في ج 3، ص ص. 542 ـ 543؛ وهو في "المسند"، ج 2، ص. 327، 353، 354؛ و"كنز العمال"، ج 11، ص. 752.

(11426/1)

... د ـ وجاء في صفحة 119 من المطبوع ما نصه: ‘‘وكان نبينا ـ عليه السلام ـ إذا خرج من الخلاء يقول: "غفرانك"’’.

... خرجه المحقق من "سنن أبي داود" و"تحفة الأحوذي"، ثم قال: ‘‘وقال الحافظ أبو العلى صاحب "تحفة الأحوذي" : قال القاضي الشوكاني في "نيل الأوطار" : "هذا الحديث أخرجه الخمسة إلا النسائي، وصححه الحاكم وأبو حاتم". قال في "البدر المنير" : ‘‘ورواه الدارمي، وصححه ابن خزيمة وابن حبان’’.

... قلت: ها هنا أمور منهجية ومعرفية لابد من الوقوف عندها.

(11427/1)

... أ ـ الإحالة على المصادر بواسطة ـ وهي متوافرة ـ ليس منهجاً محموداً عند العلماء، فـ "نيل الأوطار" و"المستدرك" و"سنن الدارمي" وصحيحا ابن خزيمة وابن حبان جميعها مطبوعة، فكان الأولى متابعة الحديث فيها مباشرة، وتخريجه منها.

... ب ـ الذي نص على أن الحديث ‘‘رواه الخمسة إلا النسائي’’ هو ابن تيمية في "منتقى الأخبار"، ج 1، ص. 46، (دار الفكر، بيروت، ط 2). أما شارحه الشوكاني، فأول ما جاء

في تعليقه على الحديث قوله: ‘‘الحديث صححه الحاكم’’ (نيل الأوطار، ج 1، ص. 73، دار القلم، بيروت، ط 1)؛ ولو أن المحقق كلف

(11428/1)

نفسه بعض الجهد فرجع إلى المتن وشرحه، لانتبه إلى هذا الخلط الذي أوقعه فيه صاحب "تحفة الأحوذي" وتقبله هو بقبول حسن.

... ج ـ نص ابن تيمية على أن الحديث رواه الخمسة إلا النسائي، واصطلاح ‘‘الخمسة’’ عنده خاص به، مخالف لما هو معتمد عند المحدثين.

... قال في مقدمة "المنتقى" : ‘‘والعَلاَمَةُ لما رواه البخاري ومسلم: أخرجاه، ولبقيتهم: رواه الخمسة، ولهم سبعتهم: رواه الجماعة، ولأحمد مع البخاري ومسلم: متفق عليه، وفيما سوى ذلك أسمي من رواه منهم’’.

... وكان على المحقق أن يبسط القول في هذه المسألة إزالة لكل إشكال.

(11429/1)

... د ـ قول ابن تيمية في تخريج الحديث: رواه الخمسة إلا النسائي، ينصرف إلى "سننـ"ه، وقد أخرجه في كتاب "عمل اليوم والليلة" وعزاه إليه الحافظ المزي كما في "تحفة الأشراف"، ج 12، ص. 339. ينظر كتاب "الهداية في تخريج أحاديث البداية" لمؤلفه العلامة أحمد بن الصديق الغماري، ج 1، ص ص. 131 ـ 132 (عالم الكتب، بيروت، ط 1).

تخريج الآراء (الأخبار)

... جاء في الصفحة 42 كلام للسهيلي عن وجوه القبليات، وساق ـ استشهاداً عليه ـ ما نصه: "كما روي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ: "والله حكيم عزيز" ـ والأعرابي لا يحفظ

(11430/1)

القرآن ـ فقال الأعرابي: ما أراها أنزلت كما تقول. فقال القارئ: {والله عزيز حكيم}، فقال الأعرابي: نعم، عز. فلمّا عز، حكم".

... قلت: ورد الخبر أيضاً في "البحر المحيط"، ج 3، ص. 484 (ط دار الفكر، بيروت، ط 2)، ونصه فيه: "روي أن بعض الأعراب سمع قارئاً يقرأ: {والسارق والسارقة} إلى آخرها، وختمها بقوله: "والله غفور رحيم"، فقال: ما هذا كلام

فصيح، فقيل له: ليس التلاوة كذلك، وإنما هي: {والله عزيز حكيم} [المائدة، الآية 38]، فقال: بخ، بخ، عز فحكم فقطع".

تخريج الأشعار

(11431/1)

... الشواهد الشعرية في "كتاب الفرائض" قليلة، وهي على وجه التحديد ثمانية:

... وقد اهتدى المحقق إلى تخريج بعضها، ولم يوفق إلى نسبة بعضها الآخر.

... والأبيات التي لم يوفق إلى معرفة قائليها هي:

... 1 ـ قول الشاعر (ص. 58):

... والمرء يجمع في الحيا ... ة وفي الكلام ما يسيم

... قال المحقق: البيت في "مفردات الراغب" و"البحر المحيط" غير منسوب، إلخ.

... قلت: البيت ليزيد بن الحكم الثقفي، وهو أحد شواهد "حماسة" أبي تمام. ينظر "شرح" المرزوقي، ج 2، ص. 1195. (نشرة هارون، ط دار الجيل، بيروت، ط 1)، وهو أيضاً في

"المختار من شعر بشار"، ص. 256 (نشرة العلوي، ط 1).

... 2 ـ قول الشاعر (ص. 63):

* يريد المرء أن يرتى مناه *

... وسكت عنه المحقق، فلم يعلق عليه بشيء.

... قلت: قائله هو الصحابي الجليل أبو الدرداء، وتمامه:

* ويأبى الله إلا ما أرادا *

... وينظر الشاهد في "حلية الأولياء"، ج 1، ص. 225؛

و"الاستيعاب"، ج 4، ص. 1648.

... 3 ـ قول الشاعر (ص. 63):

* وما المرء ما دامت حشاشة نفسه *

... قال المحقق: البيت في "اللسان"، مادة "حشش" (غير منسوب)، وفي "اللسان"، مادة "ألو" أنشده الفراء، إلخ. ...

... وعجزه:

(11433/1)

---

* بمدرك أطراف الخطوب ولا آل *

... قلت: الشاهد لامرئ القيس ("ديوانـ" ه، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط 4، ص. 39)، وهو آخر أبيات قصيدته الطويلة الشهيرة التي مطلعها:

أَلاَ عِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي وهَلْ يَعِمَنْ من كَانَ في العُصُر الخَالِي

... وهو من شواهد السمين الحلبي في "الدر المصون"، ج 3، ص. 365 و ج 6، ص. 512 (نشرة د. الخراط، ط دار القلم)؛ والميداني في "مجمع الأمثال"، ج 1، ص. 196؛ و ج 2، ص. 632. والبيت بلا عزو في "تهذيب اللغة"، ج 1، ص. 431؛ و"المحكم" لابن سيده، ج

(11434/1)

2، ص. 340.

... وأخيراً هناك أخطاء مطبعية في الكتاب يحسن التنبيه عليها لتصويبها.

... 1 ـ جاء في الصفحة 43 ما نصه: "فكان لفظ الأبوين ها

هنا أشكلُ (كذا بالرفع) بهذا المقام".

... أقول: وصوابه "أشكلَ" (بفتح اللام)، لأنه خبر كان.

... 2 ـ وفي الصفحة 71 ورد ما نصه: "ولو قلتَ: "كل يرث هذا الميت بعد ذوي السهام"، لوجب أن يقال لك: "يرثه أولى رجل ذكر"، إلخ".

... قلت: صوابها: ولو قلت: مَنْ يرث...

... 3 ـ وفي نفس الصفحة: "ولو قلت: من يعطي المالَ (كذا بالنصب)؟ لقيل لك: أَعْطِهِ أَوْلَى رجل ذكراً".

(11435/1)

... قلت: صواب العبارة : "من يُعَطَى المالَ، إلخ".

... وبعد؛ فهذه قراءة موجزة لـ"كتاب الفرائض وشرح آيات الوصية". وهو ـ على صغر حجمه ـ في حاجة إلى أن يفاض الكلام في محتواه. فإن فيه من المسائل اللغوية والبلاغية والفقهية والأصولية ما يحتاج إلى مزيد نظر، والكتاب في حاجة إلى تنقيح جديد وطبعة أخرى، ولا سيما وقد كشف الغيب عن نسخة ثانية من مخطوطاته.

... والله ـ تعالى ـ أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، بعيداً عن كل رياء أو سمعة.

(11436/1)

قراءة في علاقة بين أمية بالموالي : ولاتهم وعمالهم في إفرقية(1)

الدكتور عز الدين عمر موسى
كلية الآداب – جامعة الملك السعود

إن علاقة الأمويين بالموالي من الموضوعات التي أصبحت فيها مسلمات عند الباحثين، مسلمات ذائعة الصين في الناس وفاشية بينهم، حتى أصبح وكان أمرها مفروغ منه فلا يقبل جدلا ولا يخضع لمحاكمة، فما أن تذكر هذه العلاقة حتى تتداعى إلى أذهان الناس، كل الناس :

(1) يستعمل المصطلح هنا ليعني شمال إفرقيا من طرابلس شرقا إلى المحيط علاوة على الأندلس وهذا ما جرى عليه الاصطلاح في العصر الأموي.

(11437/1)

دارسين ومثقفين ومتعلمين وعامة، صور عداء بين أمية للموالي او اضطهادهم لهم أو إن شئت فقل النظرة إليهم باستعلاء واستخفاف بهم.

ما أسباب هذا الانطباع العام ؟

إن هذا التساؤل يجعل موضوع هذا البحث أقرب إلى موضوعات المنهج التاريخي منه إلى موضوعات الكتابة التاريخية في تخصص دقيق، ولا عجب في ذلك، فالمؤرخ يتأثر بوعي أو بغير وعي بقيم مجتمعه وبالثقافة الغالبة في عصره، ومن ثم فإن قضية المفاهيم والمصطلحات تغدو في الأساس الذي يكسو الحقائق بدثاره، ويكسبها لونا معينا وطابعا مميزا.

(11438/1)

إن المفاهيم والمصطلحات المتعلقة بموضوع علاقة بيني أمية بالموالي قد تأثرت،
منذ بداية الدراسات الحديثة، بعوامل متعددة،
فشكلها ووجهتها نحو الانطباع العام
المذكور آنفا. أشار برنارد لويس. غشارة صائبة إلى ان نظريات جوبينو، وغيره، العنصرية ظلت
"المستشرقين في القرن التاسع عشر، ففسروا الصراع بين الأمويين والعباسيين، والانشقاق الدين كله في أوائل التاريخ الإسلامي على أنه صراع عنصري بين ساميي الجزيرة وآريي إيران. واعتبروا فوز العباسيين نصرا للفرس على العرب مكنهم من تأسيس غمبراطورية فارسية جديدة، متشحة

بقناع فارسي – إسلامي، مكان الدولة العربية الدائلة "(1).

وقد ظل المستشرقون في ذلك القرن أسيري هذه النظرة العنصرية حتى أولئك الذين نظروا في التاريخ الأموي نظرة دينية صليبية أو حاولوا دراسته دراسة علمية.فمن النوع الأول الأب هنري لامانس الذي أفرط في تمجيد الأمويين العرب لا المسلمين ؛ ومن النوع الثاني قان فلوتن (2)

---

(1) برنارد لويس، العرب في التاريخ، تحقيق نبيه أمين فارسي ومحمود يوسف زايد، بيروت، دار العلم للملايين، 1954، ص. 114.

(2) قان فلترن، السيادة العربية والشعبية والإسرائليات، تعريب حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم، القاهرة، 1934 م.

ويوليوس فلهوزن (ت 1918) الذي حاول إنصاف بني أمية من تحامل المؤرخين المسلمين الأول عليهم فأبرز مكانتهم السياسية بمنهج فيه من العلمية الشيء الكثير ؛ ولكن المؤرخ هو نتائج بيئته، لا سيما أفكارها، فظل تأثير النظريات العنصرية عليه فهو يسمى دولة بني "أمية بالدولة العربية"، كما تجده ينظر الى التناقص الاجتماعي الأساسي فيها من خلال الصراع بين "أشراف عرب" وموال هم المسلمون من غير العرب، ويذهب الى تفسير مصطلح "المستضعفين" الذي كان محور برنامج حركة المختار الثقفي بأنه قصد به المسلمون غير العرب، ويضيف "أعني

(11441/1)

الموالي" الذين يقول بأنهم كانوا يؤلفون أكثر من نصف سكان الكوفة وفي أيديهم الحرف اليدوية والمهن والتجارة، وغالبيتهم – من حيث الأصل واللغة – من الفرس "جاءوا أسرى إلى الكوفة واعتنقوا الإسلام هناك ثم أعتقهم ساداتهم وانتسبوا إلى القبائل العربية موالي فيها" (1).

وهكذا فإن المحصلة الأساسية عنده محورت ذلك التناقض الاجتماعي في انقسام

(1) أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام: الخوارج والشيعة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، القاهرة، 1956 م، ص. 151.

(11442/1)

عرقي ؛ عربي فارسي. هذا على الرغم من أنه يشير إشارات عابرة للانقسام
الاجتماعي ؛ فالدولة الأموية عنده تمثل "الأشراف من العرب"(1) ونبه إلى وقوف أشراف الكوفة ضد المختار (2) ووضح أن
جيش المختار فيه كثير من الموالى(3) وزاملهم العرب من بجيلة وخثعم(4)، وكانت قيادات الجيش عربية(5) ومع كل هذا لم تمكنه النظرية العنصرية من تبين الصراع في إطار اجتماعي بين شريحتين متمايزتين وفي كل أعرق مختلفة متعددة.

---

(1) فهوزن، المرجع السابق، ص. 167.

(2) نفسه، ص. 160.

(3) نفسه، ص. 149.

(4) نفسه، ص. 161.

(5) نفسه، ص. 152.

(11443/1)

وعلى الرغم من انحسار النظريات العنصرية في القرن العشرين وغلبة التفسير الاجتماعي الاقتصادي في دراسة التاريخ وفهمه إلا أن مرتكزات تلك النظريات ظلت سائدة في القيم السياسية والمفاهيم الجوهرية للفكر الغربي الإمبريالي الصليبي الصهيوني. وظاهر هذا في نتائج أبحاث دراسية لتاريخ المسلمين. ولهذا جاءت نتائجهم لا تخلف كثيرا عما عند فلهوزن عن تاريخ الدولة الأموية. وبرنارد لويس خير من يصور الدراسات الاستشراقية الحديثة المنبثقة عن ذلك الفكر الغربي

(11444/1)

الحديث. فقد حاول فهم قضايا التوتر السياسي في التاريخ الإسلامي من منظور اجتماعي
اقتصادي، فهو يقول إن التفريق بين الطائفة صاحبة السيادة وبين الموالي في أساسه اقتصادي

واجتماعي أكثر مما كان قوميا (1). ويقول إنه كان بين الموالي "بعض الناطقي بالعربية،
أو بعض من هم عرب بالتأكيد ولكنهم لسبب ما فقدوا
أو فشلوا في الحصول على عضوية
تامة في الطبقة العربية الحاكمة"(2). ومع كل هذا ظلت مفاهيمه ومصطلحاته عن تاريخ الدولة

---

(1) لويس، المرجع السابق، ص. 99.

(2) نفسه، ص. 97.

(11445/1)

الأموية تفيض عرقية. فهو يقول عن انتشار الإسلام بين غير العرب : إن "عدم تفريق العرب بين الإسلام والعروبة واضح في موقفهم تجاه المسلمين الجدد ... إلى حد أنه لم يكن يسمح لهؤلاء بدخول الدين إلا إذا أصبحوا موالى أو أنصارا لأحد القبائل العربية"(1) ومقدمته هذه يعوزها الدليل.

ويقول بأن معوية جعل الحكم الإسلامي حكما دنيويا "يقوم على سيادة العنصر العربي"(2). ويوضح ذلك فيقول "فقد كان بناء الدولة العربية كله يقوم على الفرضية التالية : وهي أن أقلية عربية ستحكم

(1) لويس، المرجع السابق، ص. 79.

(2) نفسه، ص. 88–89.

(11446/1)

أكثرية غير مسلمة تدفع الضرائب"(1) وهكذا سادت هذه المفاهيم العرقية في تحليل التاريخ الأموي في الدراسات الاستشراقية على اختلاف مرتكزاتها الفكرية وغاياتها العلمية والسياسية.

ولا تختلف في هذا الموضوع دراسات العرب المحدثين العامة منها دون المتخصصة في نتائجها عن نظرائهم من المستشرقين شيئًا كثيرا، وذلك لأنهم كانوا تحت هيمنة الحضارة الغربية الغالبة وانبهارهم بها من جهة، وكانوا يحاولون التحرر منها والانعتاق من أسرها وإثبات الذات وتوكيدها من جهة أخرى، فأكدوا على قيم عرقية استعلائية في

(1) نفسه، ص. 98.

(11447/1)

دراستهم لتاريخ أمتهم، فأثر ذلك على منظروهم للدولة الأموية فقامت دراساتهم على مرتكزاتهم لا تختلف عن دراسات المستشرقين إلا في غاياتها، وهذا القول تجده شاملا لتيار العروبة الثقافي العام أو التيار القومي ذي المضمون الاجتماعي الخاص. ولا يحتاج المرء في إثبات ذلك أن يلجأ إلى كتابات أهل الغلو من التيار القومي أو أولئك الذين لهم هوى ديني أو موقف سياسي إيديولوجي معاد للإسلام وأهله، فحسبك موقف دارسين، ممن لا يتهمان في نزاهتهما العلمية، من قضية الموالي، وهما أحمد أمين وعبد العزيز الدوري، فالإثنان يسلمان

(11448/1)

بالتمييز بالتمييز بين العرب والموالي، ولكنهما يوضحان أن دور الموالي لم يكن هامشيا ولكنه لا يتجاوز حدا معينا، فبينما يبرزه أحمد أمين في مجال الحركة العلمية في مؤلفه القيم "فجر الإسلام". أشرافا وبينهم دون ذلك، وأن "الوظائف كانت مفتوحة أمامهم إلا تلك التي تعني الولاية على الغير كالإمارة والقيادة والقضاء، وقد تولى بعضهم القضاء، ولكن ندر من تولى مناصب عسكرية أو إدارية هامة"(1).

---

(1) مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص. 40 والخط من وضعي.

(11449/1)

ومما ساعد على هذا الإنطباع العام عن علاقة بين أمية بالموالي، بالإضافة إلى مفاهيم الدارسين وتصوراتهم، عدة عوامل أخرى، من أهمها أن بعض الروايات في المصادر تصور الأحداث الكبرى بما يؤكد النظرة العرقية. يقول الجاحظ "دولة العباس أعجمية خرسانية ودولة بني مروان أموية عربية"(1) وتجعل جل الروايات حركة المختار أو الدعوة العباسية وكأنهما حركتان للموالي ضد العرب، وإلى ذلك أشباه كثيرة ونظائر.

---

(1) البيان والتبيين، ج 1، ص. 206.

(11450/1)

ولعل من أهم العوامل التي ساعدت على بلورة هذا الإنطباع العام ورود مصطلح "موالي"(1) في الروايات بصورة متعددة مختلفة، فاستخدمه الدارسون بصورة

مربكة. ترد كلمة موالى في اللغة على ستة معان، فهي بمعنى العصبة والناصر والولي ومولى المولاة – وهو الذي يسلم على يديك ويواليك، والحليف مطلقا ومولى العتاقة والمحب. واللفظ من ألفاظ الأضداد فيأتي بمعنى العبد والسيد أو المالك والمملوك وتردد بمعنى الناصر في القرآن كثيرا وبمعنى السيد(2)

---

(1) لاجع مادة "ولي" في لسان العرب وتاج العروس.

(2) سورة النحل (الآية 76)؛ سورة الأنعام (الآية 62).

(11451/1)

والعصبة والورثة(1) والعبد(2). وورد اللفظ في الحديث على ثلاثة عشر معنى، ولهذا قالوا "فيضاف كل واحد إلى ما يقتضيه الحديث الوارد فيه". وليس هناك فيما أعلم أية دراسة تاريخية حللت الروايات التي ترد فيها كلمة "الموالي" وردتها إلى ما تقتضيه السياق من تلك المعاني المتعددة، والأغلب أن الدراسات الحديثة أخذت كلمة الموالي في الروايات المتعلقة بتاريخ الدولة الأموية لتعني تلك الفئة التي أسلمت من غير العرب فتحالفت مع قبائل عربية ودخلت في ولائها، بينما واقع

---

(1) سورة النساء (الآية 33).

(2) سورة الأحزاب (الآية 5).

(11452/1)

الحال يدعو إلى القول بأن مثل هذه الفئة لا يمكن أن تكون إلا قليلة، وذلك استنادا لما يستنتج من موقف الفقهاء من الحديث الوارد في هذا الشأن. ففي بعض الأثر "من أسلم على يده رجل فهو مولاه"، أي يرثه كما يرث من أعتقه. ولكن الحديث الذي عليه المعول في هذا الباب، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سئل عن رجل مشرك يسلم على يد رجل من المسلمين فقال :
هو أولى الناس بمحياه ومماته، أي أحق به من غيره. قال ابن الأثير : ذهب قوم إلى العمل
بهذا الحديث، واشترط آخرون أن يضيف إلى الإسلام على يده المعاقدة، وذهب أكثر

(11453/1)

الفقهاء إلى خلاف ذلك وجعلوا هذا الحديث بمعنى البر والصلة ورعي الذمام، ومنهم من ضعف الحديث(1).

ومن العوامل المؤثرة أيضا السياسة الاقتصادية للمروانيين التي هدفت إلى معالجة الأزمة المالية التي واجهت دولتهم، فكانت الإجراءات وكأنها موجهة ضد الموالي، خاصة في العراق حيث كانت الأزمة حادة، فأبقى الحجاج الأراضي الخراجية خراجية، وجعل غير المسلم يدفع الجزية وإن أسلم، وأجبر أهل

---

(1) راجع الشرح المسترسل عن هذا في مادة "ولي" في لسان العرب وانظر أبواب الموالاة والعتاقة والمعاقدة في كتب الفقه فالأمر فيها مستفيض.

(11454/1)

الريف على الرجوع إلى قراهم لإعمارها(1).

ولا ينبغي تجاهل تأثير الشعوبية التي ازدهرت أيام التدوين فأفرزت مفاهيم وتصورات لونت الروايات بألوانها، فأكد الشعوبيون على ما ينتقص العرب ويذمهم، وأبرز العرب ما يرفع قدرهم ويخفض خصومهم.

من كل ما سبق قوله ينبغي التنبه إلى استعملات اللفظ في الروايات ودلالاتها، وهذا ما لا يظهر الاهتمام به في جل الدراسات الحديثة حيث نظروا إلى اللفظ بأنه يعني كل المسلمين من غير العرب، سواء دخلوا في ولاءات حقيقية

مع قبائل

---

(1) راجع هذه المسألة عند الدوري، المرجع السابق، ص. 30–33.

(11455/1)

عربية أم لم يدخلوا، فعمموا تعميما خاطئا، ومنطلقهم في ذلك ما كان سائدا في المصرين : البصرة والكوفة.

وليس بالضرورة أن ينطبق حال المصرين هذين على بقية أجزاء الخلافة الأموية.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن بعض الدارسين المحدثين في دراساتهم الجزئية المتخصصة توصلوا إلى نتائج تخالف تلك التعميمات، من هؤلاء عبد العزيز الدوري وفاروق عمر وشعبان عن طبيعة الدعوة العباسية؛ فقد أثبتوا أن الحركة في جوهرها عربية بتنظيماتها وقياداتها، أما أتباعها فقد كانوا من عناصر التذمر التي تضم أعراقا متعددة خاصة العرب، ومن ثم فإن

(11456/1)

أسباب التذمر اجتماعية اقتصادية وليست عرقية.

ومثل هذه النتائج تدعو إلى إعادة النظر في جوهر علاقة بني أمية بالموالي. ولعل النظر في ولاة بني أمية في المغرب مما يفيد كثيرا في هذا السبيل(1)، بل إن مثل هذا النظر ينسف حتى مقولة استثناء الموالي من مناصب القيادة العسكرية والإدارية الهامة، وهي آخر مرتكز للقول بأن

---

(1) لقد تنبهت سعادة جودت في رسالتها للماجيستير المقدمة لقسم التاريخ في جامعة الملك سعود وعنوانها "دور القبائل القحطانية في الشام في العصر "الأموي" لهذه الظاهرة ولم يقف عندها ولهذا لم تفسرها.

(11457/1)

الأمويين ميزوا بين العرب والموالي على أساس عرقي، مثل هذه النتيجة تجعل النظر في المرتكزات السياسية والاقتصادية لسياسة بني أمية قضية مركزية في دراسة التاريخ الأموي كله.

يتضح من جدول الولاة المرفق أنه منذ أن أتم حسان بن النعمان الغساني فتح إفريقية وإلى أن انتزى بها عبد

الرحمن بن حبيب الفهري تعاور على ولاية إفريقية سبعة عشر واليا، ستة منهم من الموالي، وهم موسى بن نصير مولى لخم، وقيل بكر بن وائل، ومحمد بن يزيد مولى قريش، وإسماعيل ابن أبي المهاجر مولى بني مخزوم ويزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وعبيد

(11458/1)

الله بن الحبحاب مولى بني سلول. ومدة ولايتهم أربع وعشرون سنة، هي نصف مدة الولاة أجمعين، وهي خمسون سنة. ويلاحظ أنهم تدرجوا في الأعمال الإدارية حتى وصلوا إلى مرتبة الولاية. ولى موسى غزو البحر لمعاوية ثم خراج البصرة لبني مروان. وكان يزيد صاحب شرطة الحجاج(1)، ويقول الرقيق عن ابن الحبحاب "كان أوله كاتبا ثم تناهت به الحال إلى أن ولى إفريقية"(2). ويدلك على أهمية هذه الولاية أن الملحق الأول عن الولاة يوضح بجلاء ولاة إفريقية

---

(1) الرقيق، ص. 73؛ ابن عذاري، ج 1، ص. 48.

(2) الرقيق، ص. 71.

(11459/1)

كانوا من تعيين خلفاء بني أمية بنسبة 14 : 3؛
والاستثناء مع أبي المهاجر الذي عينه والي
مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري، الذي اختاره أهل القيروان
بعد مقتل ابن أبي مسلم حتى
يأتي أمر الخليفة، والثالث عبد الرحمن بن حبيب الفهري
الذي انتزى بإفريقية وأقره الخليفة.
ومن هنا يتضح أن ولاية إفريقية كانت ولاية مهمة لا
سيما وأنها كانت تدر على متوليها مالا عظيما، فقد
طالب سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير بثلاثمائة
ألف دينار لما عزله(1). وطلب

(1) المصدر نفسه، ص. 57.

(11460/1)

من واليه محمد بن يزيد أن يأخذ من آل موسى بن نصير
وكل من التبس بهم مثلها(1). وأغرم عبيدة السلمي
عمال بشر سلفه مالا جليلا(2)، فلا عجب أن كان عمال
الولاة مثلهم في المكانة.
إن الجدول الثاني يوضح عدد العمال المستخلفين في
القيروان أو رتبوا في أقاليم المغرب، وعددهم إثنان

وعشرون، ثمانية منهم موالي، وبما يكون عددهم أكثر من ذلك، لأن المصادر أحيانا تثبت النسبة دون ذكر الولاء(3)

---

(1) نفسه، ص. 59

(2) نفسه، ص. 69؛ ابن عذاري، ج 1، ص. 50

(3) يصف الرقيق حنش بن بكر بانه مولى قيس، ص. 91؛ وفي موضع آخر، ص. 93 يشير إلى النسبة وحدها دون ذكر الولاء؛ وابن خلدون، ج 6، ص. 11 قيسا.

(11461/1)

.

ومع أن هذا الجدول غير كامل، لأن المصادر لا تشير إلى جميع العمال مع كل وال، إلا أنه يعبر عن الانفتاح في تولية الموالي المراكز الإدارية الهامة، ونسبتهم أكثر من 36٪.

وتجدر الإشارة إلى أ، الوالي العربي قد يعين مولى عاملا (عبد الرحمن بن حبيب عين بكر بن حنش) وقد يكون جل عمال وآل مولى مولي مثله (موسى بن نصير) وقد يكون عمال وآل مولى عربا (محمد بن يزيد وإسماعيل بن أب المهاجر) أو عربا ومولي (ابن الحبحاب).

وإذا نظر المرء في عناصر الجيوش الأموية في المغرب يجد أن أعداد غير العرب كانت

(11462/1)

أكثر من العرب، وذلك منذ أن دخلت قبائل البتر الإسلام، وأسهمت في تثبيت عملية الفتح

وفتح بقية المغرب الإسلامي، حتى اتخذ الولاة حرسهم من البتر(1)، وبدأت غلبة العناصر

غير العربية مع حسان بن النعمان؛ فقد كانت جيوشه عربية خالصة(2) حتى اتخذت الكاهنة

سياسة الأرض المحروقة، فاستئمان الناس لحسان، ودخلوا جيشه، فجعل منهم إثنى عشر ألفا مع

العرب مجاهدين وأسلموا على يديه(3). وهذا العدد كان مع

---

(1) ابن عبد الحكم، ص. 214؛ الرقيق، ص. 64.

(2) الرقيق، ص. 52، 26.

(3) الرقيق، ص. 34؛ ابن الشباط، 116؛ وابن عذاري، ج 1، ص. 38.

(11463/1)

طارق في طنجة بعد فتح المغرب الأقصى؛ ويقول الرقيق القيرواني عنهم: "إنها العدة التي جعلها عليهم حسان. ويضيف أن موسى ترك مع طارق سبعة وعشرين رجلا من العرب ليفقوا جنده أولئك في الدين(1).

---

(1) الرقيق، ص. 39–40. وفي المصادر اختلاف كبير في عدد العرب هذا (انظر: ابن عبد الحكم، ص. 204؛ ابن خلكان، ج 5، ص. 325؛ ابن الشباط، 117؛ و ابن عذاري، ج 1، ص. 24؛ العبر، ج 6، ص. 110؛ ابن الأثير، ج 4، ص. 54؛ النوري، ص. 40.

(11464/1)

ومما يحدث إرباكا عند الباحثين بشأن عناصر الجيش أن الروايات عن الثروات تسمي جيش الأمويين بالعرب وجيوش الخارجين عليهم بالبربر مع أن في هؤلاء قادة عربا في أولئك عربا وبربرا. وهذا الاضطراب المربك قد يكون سببه تأثير الرواة لا سيما وأن الروايات المغربية تأخرت المغربية في التدوين عن المشرقية بقرنين تقريبا.

إن هذه النتائج قد تثير تساؤلا هاما، فربما يظن ظان بأن تعيين الموالي ولاة وعمالا في المغرب إنما يمثل خصوصية مغربية إرضاء لأهل إفريقية وكسبا لهم.

وأغلب الظن أن الأمر لم يكن كذلك إنما يمثل سياسة بني

(11465/1)

أمية تجاه الموالي. وهناك ثلاثة شواهد على ذلك: أولا أن أولئك الموالي ليسوا من أهل إفريقية، ثانيا: الواضح أن تعيين الولاة كان بسبب خبراتهم السابقة وكفاءاتهم في تطبيق سياسة الخليفة الذي عينهم. لقد كانت سياسة عبد الملك تجمع بين الحاجة إلى الخبرة العسكرية والمالية فوجدهما في موسى بن نصير، وسياسة سليمان قائمة على الحق والعدل فأشار عليه رجاء بن حيوة بمحمد بن يزيد(1). وجوهر سياسة عمر بن عب العزيز الهداية لا الجباية، فالتمسها في إسماعيل بن أبي المهاجر "فأسلم

---

(1) الرقيق، ص. 58؛ ابن عذاري، ج 1، ص. 47.

(11466/1)

بقية البربر على يديه"(1). ومن المعلو مأن القضية المالية كانت مسألة مركزية في سياسة هشام وفي ضوئها يفهم تعيينه لابن الحبحاب.

ثالثا كان خروج أهل المغرب على بني أمية في ظل ولاة من الموالي، فلو كان الأمر

عرقيا لتم في أيام الولاة العرب. كما أن أسباب الخروج توضح خير توضيح أن علاقة بني

أمية بالموالي لم تكن قائمة على العرق، وإن الثورات كانت أساسا لأسباب اقتصادية.

فقد كان خروج أهل المغرب على بني أمية في مرتين : الأولى سنة 102 هـ

---

(1) الرقيق، ص. 62؛ المالكي، ج1 ص. 116؛ ابن عذاري، ج 1، ص. 48.

(11467/1)

لأسباب ضرفية محدودة. والثانية سنة 122 هـ لأسباب عامة شاملة للمغرب كله. فكانت الولى خروجا على يزيد بن أبي مسلم الذي وسم حرسه، فاعتبروا ذلك إذلالا، فوثبوا عليه وقتلوه، وهو مولى. أما الثانية، وهي الأهم،

فإن الروايات القليلة المتوفرة ترد مبتدأها إلى السياسة المالية لعمر بن عبد الله المرادي وإلى ابن الحبحاب على طنجة "الذي تعدى في الصدقات والقسم (العشر) وأراد تخميس البربر، وزعم أنهم فيء المسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنما كانت الولاة يخمسون من لم يؤمن بهم"(1)

---

(1) الرقيق، ص. 73؛ ابن الأثير، ج 5، ص. 19؛ ابن عذاري، ج 1، ص. 51.

(11468/1)

فانتفض أهل المغرب الأقصى بقيادة مسيرة المذغري الخارجي ثم خالد بن حميد الزناتي(1). ويبدو أن إجراءات عمر المرادي جزء من سياسة ابن الحبحاب، لأن الثورة ما لبثت أن شملت المغرب كله، إفريقية وطرابلس سواء، بقيادة خارجية تحت إمرة عكاشة الصفري وعبد الواحد الهواري(2). وسياسة ابن الحجاج المالية، ولهذا كانت الثورات شاملة للدولة الأموية كلها نتيجة لما أفرزته تلك السياسة

---

(1) ابن عبد الحكم، ص. 218؛ ابن عذاري، ج 1، ص. 53؛

النويري، ص. 59؛ ابن الأثير، ج 5، ص. 192..

(2) الرقيق، ص. 76، 77، 85؛ ابن عذاري، ج 1، ص. 59.

(11469/1)

من تذمر تمثل في المشرق في ثورات الخوارج المتعددة وحركة الحارث بن سريج الموجئ سنة 116(1)، وزيد ابن علي عام 122(2) ، وانقلاب يزيد بن الوليد على الوليد بن يزيد سنة 126(3) ...

مصادر ومراجع البحث

1- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد البلنسي، "رحلة السيراء"، ج 2، تحقيق حسين مؤنس، ط 1، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1963 م.

---

(1) الطبري، ج 7، ص. 94-98.

(2) نفسه، ج 7، ص. 181.

(3) انظر خطبته عند الطبري، ج 7، ص. 268-269.

(11470/1)

2- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم، "الكامل في التاريخ"، دار صادر - دار بيروت، 1385/1965 هـ

3- البلاذري، أحمد بن يحيى، "أنساب الأشراف"، ج 3، ق 2، ج 5 مصورة مكتبة المثنى، بغداد.

4- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، "البيان والتبيين"، ج 3، باعتناء السندوبي، القاهرة، 1932 م.

5- الحميري، محمد بن عبد المنعم، "الروض المعطار في خبر الأقطار"، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1975 م.

6- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر"، بيروت، دار الكتاب

(11471/1)

اللبناني، 1981 م.

7- ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم، "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1978 - 1972.

8- خليفة بن خياط، "تاريخ خليفة بن خياط"، تحقيق أكرم ضياء العمري، الرياض، دار طيبة، 1405 هـ

9- الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري،

"معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان"، ج 1، تحقيق إبراهيم شبوح؛ ج 2، تحقيق محمد الأحمد أبو النور ومحمد ماضور، مكتبة الخانجي بمصر والمكتبة العتيقة بتونس، 1972 م.

(11472/1)

الدوري، عبد العزيز، "مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي"، بيروت، دار الطليعة، 1969 م.

10– الرقيق أبو اسحاق إبراهيم، "تاريخ إفريقية والمغرب"، تحقيق د. عبد الله الزيدان ود. عز الدين عمر موسى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990 م.

11– الزبيدي، المرتضى، "تاج العروس من جواهر القاموس"، ج 10، القاهرة، المطبعة الخيرية، 1307 هـ

12– ابن الشباط، محمد الشقراطسي التوزري "صلة السمط"، شرح القصيدة الشقراطسية الجزء الثاني، (مخطوط من المكتبة البريطانية تحت رقم .2186OR.

(11473/1)

13- الطبري، محمد بن جرير، "تاريخ الرسل والملوك"، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف بمصر، 1964 م.

14- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، "فتوح مصر وأخبارها"، تحقيق تشارلز توري، نيوهيفن، مطبعة جامعة ييل، 1922 م.

15- ابن عذاري، أحمد بن محمد، "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، ج 1-2، تحقيق ج. كولان وليفي بروفنسال، ليدن، مطبعة بريل، 1948 - 1951 م.

16- أبو العرب، "طبقات علماء إفريقية وتونس"، تحقيق نعيم اليافي وعلي الشابي، تونس، 1968 م.

(11474/1)

17- فان فلوتن، "السيادة العربية والشعبية والإسرائيليات"، تعريب حسن إبراهيم حسن، ومحمد زكي إبراهيم، القاهرة، 1943 م.

18- فلهوزن، يوليس، "أحزاب المعارضة السياسية الدينية في صدر الإسلام، الخوارج والشيعة"، ترجمة عبد الرحمن بدوي، القاهرة، 1956 م.

19- ابن القوطية، أبو بكر عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى، "تاريخ افتتاح الأندلس"، تحقيق إبراهيم

الإبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1402/ 1982 م.

20- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب المصري، "ولاة مصر"، تحقيق حسين نصار، بيروت، دار بيروت، 1959 م.

(11475/1)

21- لويس، برنارد، "العرب في التاريخ"، ترجمة نبيه أمين فارس ومحمود يوسف زائد، بيروت، دار العلم للملايين، 1954 م.

22- المالكي، أبو بكر عبد الله محمد، "رياض النفوس"، تحقيق بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1403/1973 هـ

23- مجهول المؤلف، "أخبار مجموعة الفتح الأندلس وذكر امرائها"، تحقيق إبراهيم الإبياري، بيروت دار الكتاب اللبناني، 1401/1981 م.

24- المسعودي، علي بن الحسين، "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المطبعة التجارية الكبرى، ط 3، 1958 م.

(11476/1)

25- المقري، أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني، "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"، تحقيق إحسان عباس، بيروت دار صادر، 1968 م.

26- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكروم، "لسان العرب"، ج 10، بيروت، دار صادر، 1955 م.

27- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، "نهاية الأرب"، ج 24، تحقيق حسين نصار، وعبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1403/1983 م.

(11477/1)

قراءة موضوعية في جذور العلاقة التاريخية بين الإسلام واليهودية

... ... الدكتور محمد رفعت زنجير ...

... جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا

كلية التربية والعلوم الأساسية .أبو ظبي

مقدمة

... الصراع بين الحق والباطل والخير والشرّ قديم قدم

الإنسان على سطح هذه الأرض. ومحاولة قراءة هذا الصراع وفهمه، ومعرفة مبررات تصاعده تارة وانكماشه تارة أخرى هي الهدف من الدراسات التاريخية، لكي يستمد الناس من أحداث الماضي ما يساعدهم على استشراف المستقبل وكيفية التعامل معه.

(11478/1)

... والدين الذي أنزله الله على عباده واحد وهو الإسلام، بينما الشرائع مختلفة. وقد جدد الله هذه الشرائع بما يتلاءم وأحوال الناس ومستجدات الحياة. وكانت نبوة محمد خاتمة الشرائع، وقد صدقت بما قبلها من شرائع، ونسخت العمل بها، وصار لزاماً على الناس اتباعها إلى يوم القيامة. واليهود هم أمة من الناس الذين يجب عليهم الاتباع، وكان ينبغي أن يكونوا في طليعة المتبعين، لأن الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – مكتوب نعته واسمه لديهم في التوراة، ولطالما انتظروه واستبشروا بمبعثه. بيد أنهم نكصوا على أعقابهم لما

(11479/1)

جاءهم بالحق، وكانوا في طليعة أعدائه، والمؤلبين على دعوته عليه السلام. وقد حصلت على أثر وصول الرسول إلى المدينة المنورة موادعة للتعايش السلمي بين الطرفين، لم يلبث اليهود أن ضربوا بها عرض الحائط، ثم حصلت مواجهات ساخنة بين المسلمين واليهود انتهت بإخراجهم من المدينة المنورة.

... وقد عاش اليهود بعد ذلك موزعين في الحواضر الإسلامية، واحتضنهم المسلمون، ولم يلقوا إلا الخير والسلامة، بينما كانت النصرانية في أوروبا وغيرها تلاحقهم بالأذى والعدوان، لأنهم متهمون بقتل السيد المسيح على حسب اعتقاد النصارى. وقد

(11480/1)

رفل اليهود بالأمن في بلاد المسلمين، وعاشوا معهم حتى في الأندلس، إلى أن أجلي العرب عنها، فأجلي اليهود أيضاً، وذهبوا إلى القسطنطينية ضيوفاً على الدولة العثمانية التي آوتهم وساعدتهم. وكانت النتيجة أن دقوا لها مسامير نعشها، وقابلوا الإحسان بالإساءة، بعد أن طلبوا من السلطان عبد الحميد الثاني أن يوافق على إعطائهم وطناً بفلسطين، فأبى بالرغم من الإغراءات الكثيرة التي منوه بها. وذهبت على إثر ذلك الدولة

العثمانية أدراج الرياح، بتخطيط من اليهود وابنهم البار مصطفى كمال أتاتورك وأقيمت الدولة العبرية بعد

(11481/1)

ذلك بمساعدة بريطانيا. وكان أن حصلت المواجهات الساخنة بين الطرفين بعد قيام دولة إسرائيل العدوانية على أرض فلسطين المباركة، أرض الأنبياء والشهداء، ولم تزل المواجهات حتى اليوم.

... وهذا البحث الذي نقدمه ليس سرداً للتاريخ وبحثاً عن تفاصيله ودقائقه، ولا بحثاً تقليدياً في أسلوبه ومنهجه، بل هو قراءة متأنية واعية للعقلية والنفسية اليهودية التي قادت الصراع ضد هذا الدين منذ أيامه الأولى في المدينة، واستمر حقدها عليه وتآمرها على أتباعه حتى الساعة. فنحن هنا نحاول أن نفهم سير هذا الصراع ودوافعه الحقيقية

(11482/1)

الكامنة في النفوس اليهودية، معتمدين على بعض الأمثلة التاريخية بما يفي الغرض؛ لأننا هنا لا نؤرخ للحوادث، وإنما نريد معرفة سير الحوادث التاريخية، وندعو اليهود إلى تصحيح موقفهم من الإسلام وأهله، وأن لا يزجوا باليهودية في معركة مع الإسلام، بل عليهم أن يعمدوا إلى نزع فتيل العدوان، والاستجابة لصوت العقل، ونداء الأديان بالدعوة للسلام ونبذ العدوان، وأن لا يقابلوا الإحسان بالإساءة. ومنطق التاريخ يستوجب منهم ذلك ولهذا الغرض جاء هذا البحث ليكون إضاءة للباحث المسلم وغيره على حد سواء، فيكون للأول زاداً

(11483/1)

ونبراساً، ويكون للثاني مكاشفة موضوعية ليعرف حقيقة هذا الصراع الدائر اليوم على أرض فلسطين، والذي يعتبر حلقة ضمن سلسلة طويلة من التآمر اليهودي على دعوة الإسلام منذ فجر الدعوة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

المبحث الأول: البشارة بمحمد في التوراة وارتقاب اليهود له

أولاً: تأكيد القرآن للبشارة التوراتية بمحمد عليه

السلام

... تبدأ العلاقة بين الإسلام واليهودية منذ عهد موسى عليه السلام، حيث بشرت التوراة بنبوة محمد عليه السلام. وقد أكد القرآن الكريم أن محمداً عليه السلام مكتوب اسمه في التوراة

(11484/1)

والإنجيل. قال تعالى: {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل}(1).

... ودعا القرآن الكريم إلى الاسترشاد بأهل الكتاب للدلالة على صدق نبوة محمد عليه السلام: فهم أهل العلم الأول، ولديهم ما يثبت نبوة محمد عليه السلام في كتابهم. قال تعالى: {أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل}(2). والمراد بالعلماء هنا العدول منهم، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي، ونحوهم(3)

---

(1) سورة الأعراف، الآية 157.

(2) سورة الشعراء، الآية 197.

(3) الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير، ج 2، ص. 658.

(11485/1)

، وقال تعالى: {الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم}(1)، فهي معرفة لا لبس فيها ولا غموض، حيث يروى أن عمر قال لعبد الله بن سلام: »أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمه «(2). وقال تعالى: {قل أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين}(3)

---

(1) سورة البقرة، الآية 146.

(2) الصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 140.

(3) سورة الأحقاف، الآية 10.

(11486/1)

. والشاهد هنا: هو عبد الله بن سلام، وهذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة(1).

ثانياً: نصوص من التوراة تثبت نبوة محمد عليه السلام ... لم تكن دعوة القرآن الصريحة إلى الاسترشاد بمعرفة

أهل الكتاب حول نبوة محمد عليه السلام إلا نابعة من يقين مفاده أن نصوصاً صريحة بالتوراة تشهد بنبوة محمد وتبشر به. وقد روى هذه النصوص العلماء من المسلمين مثل عبد الله بن عمرو؛ فعن عطاء بن يسار، قال:

---

(1) انظر: الصابوني، مصدر سابق، ج 3، ص. 318.

(11487/1)

... لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، قلت: خبرني عن صفة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف ببعض صفته في القرآن ({يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً }(1)، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً (2)

---

(1) سورة الأحزاب، الآية 45.

(2) رواه البخاري والدّارمي. (انظر: التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق الألباني، ج 3، صص. 1602 ـ 1603).

(11488/1)

.

... كما روى هذه النصوص عن التوراة بعض علماء أهل الكتاب، مثل: كعب الأحبار. فقد حكى عن "التوراة" قال:

... نجد مكتوباً: محمد رسول الله، عبدي المختار، لا فظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، مولده بمكة، وهجرته بطيبة، وملكه بالشام، وأمته الحمادون، يحمدون الله في السراء والضراء، يحمدون الله في كل منزلة، ويكبرونه على كل شرف، رعاة للشمس، يصلون الصلاة إذا جاء وقتها، يتآزرون على أنصافهم، ويتوضؤون على أطرافهم، مناديهم ينادي في جو السماء، صفهم في القتال وصفهم في

(11489/1)

الصلاة سواء، لهم بالليل دوي كدوي النحل(1).

... ولاشك في أن الإخبار ببعثة محمد عليه السلام من قبل أنبياء بني إسرائيل أمر يؤيده العقل، ويتفق مع أحكامه. يقول الشيخ رحمة الله الكيرواني:

... إن الأنبياء الإسرائيلية، مثل: أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليهم السلام أخبروا عن الحوادث الآتية: كحادثة بختنصر، وقورش، وإسكندر وخلفائه، وحوادث أرض أدوم، ومصر، ونينوى، وبابل. ويبعد كل البعد أن لا يخبر أحد منهم عن خروج محمد – صلى الله عليه

---

(1) رواه البغوي والدّارمي (المصدر نفسه، ج 3، صص. 1606 ـ 1607).

(11490/1)

وسلم – ، الذي كان وقت ظهوره كأصغر البقول، ثم صار شجرة عظيمة تأوي طيور السماء في أغصانها، فكسر الجبابرة والأكاسرة، وبلغ دينه شرقاً وغرباً، وغلب الأديان، وامتد دهراً . . . وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث، وما كانت أقل من حادثة أرض أدوم ونينوى

وغيرهما. فكيف يجوز العقل السليم أنهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة، وتركوا الإخبار عن هذه الحادثة العظيمة ؟!(1).

ثالثاً: إدراك اليهود لبعثة محمد عليه السلام

---

(1) إظهار الحق، ص. 502.

(11491/1)

... كان عامة اليهود يدركون ذلك، وكثيراً ما قالوا للأوس والخزرج: »إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم« (1). وكان هذا سبباً في إسلام الكثير منهم فيما بعد.

... وكانت بعثة محمد معروفة لليهود خارج الجزيرة أيضاً. فـ"التوراة" واحدة. وكان ابن لهيبان يهودياً من أهل الشام، وهو من خيار اليهود وصلحائهم، هاجر إلى المدينة، ولعله كان قبل البعثة، يريد أن يلقى النبي عليه السلام لما يعلم من صفته. فلما أدركته الوفاة، قال:

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص. 245.

(11492/1)

... يا معشر يهود ! ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قال: قلنا: إنك أعلم. قال: فإني إنما قدمت هذه البلدة أتوكف خروج نبي قد أظل زمانه، وهذه البلدة مهاجره، فكنت أرجو أن يبعث، فأتبعه. وقد أظلكم زمانه، فلا تسبقن إليه يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري والنساء ممن خالفه، فلا يمنعنكم ذلك منه(1).

... وكان من اليهود من يعرفون نبوة محمد. بيد أنهم توقفوا عن الالتحاق بدينه، حتى إذا كانت ساعة المواجهة مع المشركين، التحقوا بجيش محمد

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 246.

(11493/1)

عليه السلام، وقاتلوا معه، ومن هؤلاء مخيريق. قال ابن هشام:

... وكان من حديث مخيريق، وكان حبراً عالماً، وكان رجلاً

غنياً كثير الأموال من النخل، وكان يعرف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بصفته، وما يجد في علمه، وغلب عليه إلف دينه. فلم يزل على ذلك حتى كان يوم أحد، وكان يوم أحد يوم السبت. قال: يا معشر يهود ! والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت لكم. ثم أخذ سلاحه، فخرج حتى أتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأحد، وعهد إلى من ورائه من قومه: إن قتلت هذا

(11494/1)

اليوم، فأموالي لمحمد – صلى الله عليه وسلم – يصنع فيها ما أراه الله. فلما اقتتل الناس، قاتل حتى قتل (1).

رابعاً: معرفة غير اليهود ببعثة محمد عليه السلام عن طريق اليهود أنفسهم

... وقد شهد بعض العرب تحسس اليهود لولادة النبي محمد. فهذا حسان بن ثابت يقول: »والله إني لغلام يفعة، ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل كل ما سمعت، إذا سمعت يهودياً يصرخ بأعلى صوته على أطمة بيثرب: يا معشر يهود ! حتى إذا اجتمعوا إليه، قالوا له: ويلك مالك؟ قال: طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به« (2)

(1) المصدر نفسه، ج 2، ص. 257.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص. 181.

(11495/1)

.

... كما شهد غير العرب بارتقاب اليهود لبعثة النبي محمد عليه السلام. فهذا سلمان الفارسي كان عبداً عند رجل من يهود؛ ولما هاجر الرسول عليه السلام، سمع رجلاً يقول لسيده: »قاتل الله بني قيلة، والله إنهم الآن لمجتمعون على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي«. وحين أراد سلمان أن يستوثق من الرجل، سأله: ماذا قلت؟ فغضب سيده ولكمه لكمة شديدة، ثم قال: »مالك ولهذا؟ أقبل على عملك« (1).

خامساً: قريش تستفتي يهوداً بشأن النبي عليه السلام

(1) المصدر نفسه، ج 1، صص. 249 ـ 250.

(11496/1)

... ولأن اليهود لديها علم بالكتاب الأول، فقد أرسلت قريش تسأل اليهود عن أمر النبي – صلى الله عليه وسلم –، حيث أرسلت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود في المدينة، وقالوا لهما:

... سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. فقالت لهما أحبار

(11497/1)

يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن، فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول، فروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجب؛ وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؛ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك، فاتبعوه فإنه نبي؛ وإن لم يفعل فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم(1).

وقد أوحى الله عز وجل إلى نبيه الإجابة عن هذه الأسئلة في »سورة الكهف«، ولكن الكافرين جحدوا وأصروا على عنادهم

---

(1) المصدر نفسه، ج 2، ص. 39.

(11498/1)

واستكبارهم.

سادساً: معرفة الرهبان أيضاً بقرب بعثة محمد عليه السلام

... لم تكن المعرفة ببعثة محمد عليه السلام قاصرة على اليهود، بل امتدت لتشمل رهبان النصارى. فقد كانوا على علم ببعثة محمد عليه السلام أيضاً. وقد كان رهبان النصارى على علم ببشارة عيسى عليه السلام لهم ببعثة محمد، لذلك كانوا يترقبون بعثة النبي عليه السلام.

وحين خرج أبو طالب تاجراً في رحلة الصيف إلى الشام، ومعه ابن أخيه محمد وهو حدث صغير السن آنذاك، مَرَّ على بحيرى الراهب، وتم اللقاء بينهما بطلب من بحيرى؛ وسأل بحيرى محمداً عن أشياء

(11499/1)

كثيرة، فأجاب عنها، ورأى خاتم النبوة بين كتفي محمد، فأدرك أنه نبي آخر الزمان. وكان مما قاله عقب اللقاء، موجهاً حديثه لأبي طالب: »فارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه يهود. فوالله لئن رأوه، وعرفوا منه ما عرفت، ليبغنه شرّاً. فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده«(1).

سابعاً: بعض أحبار اليهود تشهد بنبوة محمد عليه السلام

... اعترف بعض أحبار بني إسرائيل بنبوة محمد عليه السلام، مما يدل على صدق نبوة محمد عليه السلام، ويقيم الحجة على الجاحدين والمعاندين.

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 209.

(11500/1)

روى أنس، قال:

... سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله

عليه وسلم وهو في أرض يختترف(1)، فأتى النبي فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: فما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: »أخبرني جبريل آنفاً. أما أول أشراط الساعة، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب؛ وأما أول طعام يأكله أهل الجنة، فزيادة كبد حوت، وإذا سبق ماء الرجل ماءَ المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت«. قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول

---

(1) أي يجتني من الفواكه.

(11501/1)

الله. يا رسول الله ! إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي من قبل أن تسألهم يبهتونني. فجاءت اليهود، فقال: »أي رجل عبد الله فيكم؟ «. قالوا: »خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا«. قال: »أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ «. قالوا: أعاذه الله من ذلك فخرج عبد الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فقالوا: »شرنا وابن شرنا«، فانتقصوه، قال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله !(1).

---

(1) رواه البخاري. (انظر: التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق الألباني، ج 3، صص. 1643 ـ 1644).

(11502/1)

... وعن علي أن يهوديّاً يقال له فلان، حبر، كان له على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – دنانير، فتقاضى النبي، فقال له: »يا يهودي ما عندي ما أعطيك«. قال: فإني لا أفارقك يا محمد حتى تعطيني. فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– : »إذاً أجلس معك«. فجلس معه، فصلى رسول الله الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة، وكان أصحاب رسول الله يتهددونه ويتوعدونه. ففطن رسول الله ما الذي يصنعون به. فقالوا: يا رسول الله ! يهودي يحبسك؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– : »منعني ربي أن أظلم معاهداً وغيره«.

(11503/1)

فلما ترجل النهار، قال اليهودي:

... أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، وشطر

مالي في سبيل الله. أما والله ما فعلت بك الذي فعلت بك إلا لأنظر نعتك في "التوراة" : »محمد بن عبد الله. مولده بمكة، ومهجره بطيبة، وملكه بالشام، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا متزي بالفحش، ولا قول الخنا«. أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وهذا مالي فاحكم فيه بما أراك الله.

وكان اليهودي كثير المال(1)

---

(1) رواه الحاكم والبيهقي في "دلائل النبوة ".

(انظر:التبريزي، مشكاة المصابيح، مصدر سابق، ج 3، ص. 1621 ـ 1622).

(11504/1)

.

... وامتدح القرآن الراسخين في العلم من أهل الكتاب.

قال تعالى: {لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً}(1). والراسخون في العلم هنا أربعة من علماء بني إسرائيل وهم: عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعيه، وأسد بن سعيه، وأسد بن عبيد

الذين دخلوا بالإسلام وصدقوا النبي عليه السلام(2).

---

(1) سورة النساء، الآية 162.

(2) انظر: الصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 464.

(11505/1)

... وقد رحب الرسول بالمؤمنين به من أهل الكتاب.

فهؤلاء لهم أجران: أجر الإيمان بنبيهم، وأجر الإيمان بمحمد عليه السلام(1).

ثامناً: الفطرة تشهد أيضاً على صدق نبوة محمد عليه السلام

... شهد بعض أطفال اليهود بنبوة محمد عليه السلام، وما كانوا ليشهدوا شهادة الحق لولا أنهم قرأوا ذلك في "التوراة" أو سمعوا آباءهم يتحدثون به. فأسلموا لله، واتبعو النبي

---

(1) ورد ذلك في حديث صحيح رواه أحمد والبيهقي والترمذي وغيرهم. (انظر: المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ج 3، ص. 333، الحديث 3548، دار المعرفة، بيروت).

(11506/1)

عليه السلام. روى أنس أن غلاماً يهوديّاً كان يخدم النبي – صلى الله عليه وسلم – فمرض، فأتاه النبي – صلى الله عليه وسلم – يعوده، فوجد أباه عند رأسه يقرأ "التوراة"، فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم– : »يا يهودي ! أنشدك بالله الذي أنزل "التوراة" على موسى، هل تجد في "التوراة" نعتي وصفتي ومخرجي؟ «. قال: لا! قال الفتى: »بلى يا رسول الله ! إنا نجد لك في "التوراة" نعتك وصفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله«. فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – لأصحابه: »أقيموا هذا من عند رأسه، ولو

(11507/1)

أخاكم« (1).

... وعن أنس أيضاً، قال: كان غلام يهودي يخدم النبيَّ – صلى الله عليه وسلم – فمرض، فأتاه النبي – صلى الله عليه وسلم – يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: »أسلم«. فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال: »أطع أبا القاسم«!. فأسلم، فخرج النبي – صلى الله عليه وسلم –

وهو يقول: »الحمد لله الذي أنقذه من النار« (2).

---

(1) رواه البيهقي في دلائل النبوة. (انظر: التبريزي، مشكاة المصابيح، مصدر سابق، ج 3، صص. 1614 ـ 1615).

(2) رواه البخاري. (انظر: المصدر نفسه، ج 1، ص. 495).

(11508/1)

... وفي هذين الخبرين دليل ساطع على نبوة محمد عليه السلام، وعلى أن الفطرة السليمة لا تعرف الكذب، وتستطيع أن تدلي بالحق ولو كان أقرب المقربين إليها من الآباء ونحوهم يرفضون الإذعان للحق والانقياد له.

المبحث الثاني: حديث القرآن عن بني إسرائيل

... استمرت العلاقة بين الإسلام واليهودية إلى بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم –، فجاء مصدقاً لما قبله من أنبياء ورسل عليهم السلام، حيث أمره الله بالإيمان بالأنبياء والمرسلين جميعاً عليهم السلام بلا تفريق. قال تعالى: {قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على

(11509/1)

إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون}(1).

... وقد شهد القرآن الكريم بصدق موسى عليه السلام ونبوته، وبرأه مما شوه سيرته من دعايات يهودية مغرضة. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً}(2). وفي هذا الإطار دعا الله تعالى بني إسرائيل إلى الإيمان بمحمد الذي صدق بموسى وبشرت به "التوراة". قال تعالى مخاطباً بني

---

(1) سورة آل عمران، الآية 84.

(2) سورة الأحزاب، الآية 69.

(11510/1)

إسرائيل: {يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون، وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون}(1)، وأما في حالة عدم استجابتهم للدين

الحنيف، فيبقون مع المسلمين ضمن مجتمع واحد، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. ويمكن أن نحدد الأطر العامة لموقف القرآن الكريم من اليهود بما يلي:

---

(1) سورة البقرة، الآيات 40 ـ 42.

(11511/1)

أولاً: حديث القرآن عن بني إسرائيل في فترة ما قبل الإسلام. وقد تميز بما يلي:

... 1 ـ ذكر محاسنهم ونعم الله عليهم، تذكيرهم بالعهود والمواثيق، وهذا من أفضال القرآن الكريم القائم في أحكامه على العدل والموضوعية عند ذكره للأمم والشعوب. ويتجلى هذا في ذكره للمحاسن والعيوب على حد سواء. فقد ذكر أنه فضل بني إسرائيل على العالمين. قال تعالى: {يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين}(1). والمقصود بالآية تفضيلهم على العالمين في زمانهم كما ذكر

---

(1) سورة البقرة، الآية 47.

(11512/1)

المفسرون(1). وهذا التفضيل لا يكون إلا عن حكمة ربانية، ومعرفة بخصائص هذا المفضل. ومن هذه الخصائص: الصبر على البلاء، وقد نوه به الله سبحانه في قوله: {وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون}(2).

... 2 ـ ذكر ما أنعم به الله على بني إسرائيل من نعم لا حصر لها. وقد ذكر الله تعالى بعضها في القرآن الكريم

---

(1) انظر: الصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 62.

(2) سورة الأعراف، الآية 137.

(11513/1)

تذكيراً لهم بما ينبغي عليهم من شكر للمنعم، والتمسك بعهده وميثاقه، منها إنقاذهم من شر فرعون وبطشه وتعذيبه لهم. قال تعالى: {وإذ نجيناكم من آل فرعون يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم}(1). ولقد أغرق عدوهم أمام أعينهم فاشتفت قلوبهم من عدوهم، قال تعالى: {وإذ

فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون}(2). وفي رحلتهم إلى سيناء، قدم لهم الظل والغذاء معاً، قال تعالى: {وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن

---

(1) سورة البقرة، الآية 49.

(2) سورة البقرة، الآية 50.

(11514/1)

والسلوى}(1). وفجر لهم الأرض ينابيع ليشربوا ويستقروا، قال تعالى: {وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين}(2). كما أثنى على المؤمنين منهم بالنبي محمد عليه السلام، وقد تقدم ذكر ذلك في المبحث السابق.

... 3 ـ ذكر سلبياتهم التاريخية. إذ يعتبر القرآن الكريم مصدراً أميناً، وسجلاً موثقاً لمواقف الأمم مع أنبيائها، وما اكتنف تلك المواقف من حوار

---

(1) سورة البقرة، الآية 57.

(2) سورة البقرة، الآية 60.

(11515/1)

وجدال ومواجهات ساخنة. وسوف نستعرض هنا ما يتعلق بتسجيل القرآن لسلبيات اليهود بكل دقة ووضوح. فقد ذكر قصصهم ومثالبهم مع أنبيائهم. قال تعالى: {إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون}(1). وفي هذا الصدد، سجل القرآن أقوال اليهود وشبهاتهم الفاسدة حول دعوة الله عز وجل، وعلى مختلف الأصعدة، نذكر منها مواقفهم العقدية التي تؤمن بالغيب، ولكنها تفسد الإيمان به بالتحريف والتبديل، مما جعلها تقع في فخ الشِّرْك وتقترب من الوثنية. من ذلك ما ورد في قوله تعالى: {وقالت

---

(1) سورة النمل، الآية 76.

(11516/1)

اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل

قاتلهم الله أنى يؤفكون}(1)، وقوله: {وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم}(2)، وقوله: {وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء}(3).

... وسجل القرآن مواقفهم من الأنبياء عليهم السلام.

ويبدو أن دعاية السحر والجنون ألصقت بالأنبياء في كل

---

(1) سورة التوبة، الآية 30.

(2) سورة المائدة، الآية 64.

(3) سورة المائدة، الآية 18.

(11517/1)

الأمم، وذلك أن التفكير المادي لا يرى تفسيراً للنبوة غير هذا. قال تعالى: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون، أتواصوا به بل هم قوم طاغون}(1). وسجل القرآن موقف اليهود من مريم وابنها السيد المسيح عليه السلام، قال تعالى: {وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم}(2).

... كما سجل مواقفهم من أتباع الأنبياء عليهم السلام،

وهي مواقف تقوم على الأذى والعدوان، كما في قصة

---

(1) سورة الذاريات، الآيتان 52 ـ 53.

(2) سورة النساء، الآيتان 156 ـ 157.

(11518/1)

أصحاب الأخدود، حيث ندد القرآن بما تعرض له النصارى من أتباع المسيح عليه السلام من تصفية جسدية على يد اليهود في قصة أصحاب الأخدود، والتي سجلت أحداثها «سورة البروج»، حيث رفض النصارى تبديل دينهم، واعتناق اليهودية، واختاروا القتل حرقاً على تبديل دينهم، فحفرت لهم الأخاديد في الأرض، وأضرمت فيها النيران، وسيق الشعب المؤمن إلى النار فألقي فيها مكبلاً مقهوراً، وذلك كما ذكر ابن إسحاق(1).

---

(1) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط 2، 1411 هـ/ 1990 م، ج 2، صص. 129 ـ 132.

(11519/1)

... وقد اشتهر اليهود بقتل الأنبياء وأتباعهم. قال تعالى: {إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم}(1). وهذه الآية نزلت فيهم. وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال لأبي عبيدة بن الجراح:

... يا أبا عبيدة، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة. فقام مائة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر. فقتلوهم جميعاً

---

(1) سورة آل عمران، الآية 21.

(11520/1)

من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله عز وجل (1).

... 4 ـ تسجيل القرآن للأحوال النفسية لليهود. من ذلك قول أصحاب طالوت له عند لقاء أعدائهم: {قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده} (2)، وهذا القول يكشف عن نفسية خائفة قد أدركها الوهن بسبب قوة عدوها، وقلة

عددها وعتادها، وصور القرآن النفسية المحطمة لبني إسرائيل التي لا تحب الحرب وتبعاتها، وتلقي بها على كاهل نبيها وحده. قال تعالى مصوراً موقفهم مع موسى حين طلب منهم القتال

---

(1) الصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 274.

(2) سورة البقرة، الآية 249.

(11521/1)

لدخول الأرض المقدسة:

... {قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون } (1).

... وفي موقف آخر يصور القرآن ترددهم في ذبح البقرة، فيقول: {قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون }(2)

(1) سورة المائدة، الآية 22 ـ 24.

(2) سورة البقرة، الآية 71.

(11522/1)

. كما يصور سوء ظنهم واستعجالهم بالاتهام لمريم بالخطيئة، قال تعالى: {فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا }(1).

... 5 ـ سجل القرآن انحرافات اليهود الاجتماعية، كما في قوله تعالى عن الكافرين من بني إسرائيل وسبب لعنتهم على لسان أنبيائهم: {كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه }(2). كما سجل الانحرافات الاقتصادية، حيث أشار القرآن إلى نهم اليهود في جمع المال بكل السبل المحرمة، وأن

(1) سورة مريم، الآيات 27 ـ 28.

(2) سورة المائدة، الآية 79.

(11523/1)

هذا كان سبباً في تحريم الطيبات التي أحلت لهم، وذلك في قوله تعالى: {فبِظُلْمٍ من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدِّهم عن سبيل الله كثيرا، وأَخْذِهِم الربا وقد نُهُوا عنه وأَكْلِهِم أموال الناس بالباطل}(1).

ثانياً: حديث القرآن عن بني إسرائيل في عهد الدعوة الإسلامية

1 ـ ذكر القرآن الكريم مواقفهم العدوانية من الدعوة الجديدة. قال تعالى: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى}(2)

---

(1) سورة النساء، الآية 160 ـ 161.

(2) سورة المائدة، الآية 82.

(11524/1)

. وهذه الآية تأسيس لعلاقات المسلمين بأهل الكتاب. وبالرغم من عداوتهم، فقد دعا القرآن للتعايش السلمي بين أصحاب الشرائع السماوية جميعاً. وكانت فكرة قبول الآخر أساس الحرية الدينية في الإسلام: فالناس أحرار في أديانهم ومعتقداتهم حسب تصور الشريعة

الإسلامية التي لا ترى وصاية على عقول الناس ومعتقداتهم، قال تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}(1). ولا يقبل كفر بالإكراه، ولا إيمان بالإكراه كذلك فالأساس في الإيمان والكفر هو الحرية الإنسانية الكاملة بلا وصاية ولا

---

(1) سورة البقرة، الآية 256.

(11525/1)

إكراه؛ وبناء على الاختيار تكون المسؤولية أمام الله تعالى يوم القيامة.

... وفي إطار التعايش السلمي، دعا الإسلام برفق وشفافية مطلقة إلى الحوار مع أهل الكتاب عبر التاريخ. والهدف من الحوار الوصول إلى الحقيقة المتمثلة في الإقرار بنبوة محمد وموسى وعيسى عليهم السلام. وقد دعا القرآن إلى هذا الحوار، قال تعالى: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}(1)

---

(1) سورة آل عمران، الآية 64.

.

... 2 ـ سجل القرآن الكريم أقوال اليهود وشبهاتهم. من ذلك قوله تعالى: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق}(1)، {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى}(2). من ذلك قوله تعالى: {وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده لم تقولون على الله ما لا تعلمون، بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}(3)

_____

(1) سورة آل عمران، الآية 181.

(2) سورة البقرة، الآية 111.

(3) سورة البقرة، الآيتان 80 ـ 81.

. فحيث إنه لا عهد لهم عند الله بذلك يثبتونه، بطل قولهم الذي لا يستند إلى عهد أو علم، ثم وجه الله تعالى

الحديث إلى الحكم في قضية الخلود بالنار، وأنها مرهونة بكسب السيئات المحيطة بالإنسان، والتي تقوده إلى النار إذا لم يتخلص من إحاطتها، ويفك نفسه من أغلالها، وذلك بالإيمان بمحمد عليه السلام.

... وأنكر يهود نبوة سليمان بن داود، وزعموا أنه ساحر. فأنزل الله تعالى في ذلك رداً على قولهم: {وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا}(1)، أي باتباعهم السحر والعمل به(2)

---

(1) سورة البقرة، الآية 102.

(2) انظر: الصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 96.

(11528/1)

.

... وتنازع اليهود والنصارى عند النبي عليه السلام، فأنزل تعالى: {وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم}(1).

... 3 ـ تسجيل موقفهم من الرسول عليه السلام

... رفض أكثر اليهود الدعوة الجديدة، متذرعين بحجج

واهية، منها على سبيل المثال ما جاء في قوله تعالى:

{الذين قالوا إن الله عهِد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلمَ قتلتموهم

---

(1) سورة البقرة، الآية 113.

(11529/1)

إن كنتم صادقين }(1). كما قاموا بممارسة هواية التحريف لكتابهم المقدس، والتحريف في خطابهم للنبي عليه السلام، وهو ما نبه عليه الله عز وجل في قوله: {من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وراعِنا لَيًّا بأَلسنتهم وطعناً في الدين }(2).

... وكانوا يكتمون ما أنزل الله من "التوراة" من التبشير بمحمد عليه السلام(3)، فأنزل الله تعالى فيهم:

{إن الذين

---

(1) سورة آل عمران، الآية 183.

(2) سورة النساء، الآية 46.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 2، ص. 274.

(11530/1)

يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون}(1).

... ولكن هناك بعضهم ممن اعترف بالحق، ودخل في نعيم الإيمان، قال تعالى: {لكن الراسخون بالعلم منهم والمؤمنون يؤمنون بالله وما أنزل إليك وما أنزل من قبلك}(2).

... وعند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، استنكر يهود ذلك، وقالوا: يا محمد! ما ولاك عن قبلتك التي كُنْتَ عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت

---

(1) سورة البقرة، الآية 159.

(2) سورة النساء، الآية 162.

(11531/1)

عليها نتبعك ونصدقك(1)، فأنزل الله تعالى فيهم: {سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم}(2) الآيات.

4 ـ سجل القرآن موقفهم من المؤمنين

... سجل القرآن موقف اليهود من المؤمنين. وهو موقف يقوم على السخرية والاستهزاء، ويمتد إلى الأذى والعدوان. وقد ذكر عداوتهم للمؤمنين فقال تعالى: {لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 2، ص. 272؛ الصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 135.

(2) سورة البقرة، الآية 142.

(11532/1)

اليهود والذين أشركوا}(1). وكانوا يفضلون المشركين على المؤمنين. قال تعالى: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا}(2)، وقد آزروا أهل الشرك في غزوة الأحزاب ضد

الإيمان، ونقضوا عهودهم مع المؤمنين.

5 ـ تسجيل القرآن لأحوال اليهود النفسية

... وضح الله عز وجل ما في قلوب يهود من حسد يأكلهم بسبب ما أنزل الله من خير على عباده. قال تعالى: {ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب

---

(1) سورة المائدة، الآية 82.

(2) سورة النساء، الآية 51.

(11533/1)

ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم}(1). وفي سورة أخرى يكشف المكر الذي يملأ قلوب بعض أهل الكتاب، ويدفعهم إلى الحيلة من أجل ردة المؤمنين، قال تعالى: {وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم}(2)، وقال أيضاً: {ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون}(3). وهكذا نجد أن القرآن عني أدق

---

(1) سورة البقرة، الآية 105.

(2) سورة آل عمران، الآيتان 72 ـ 73.

(3) سورة آل عمران، الآية 69.

(11534/1)

عناية ليس بتسطير فكر اليهود فقط، وإنما برسم هواجسهم وحركاتهم في صور معبرة أيضاً.

...

6 ـ تسجيل القرآن لأهم الأحداث مع اليهود

... سجل القرآن معظم الأحداث التي جرت في عهد النبي عليه السلام، والصراع الذي دار بين الشرك والإيمان. فمن ذلك الحروب والوقائع، مثل: وقعة بني النضير في قوله تعالى: {يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين}(1)، ووقعة الخندق وبني قريظة في قوله تعالى: {إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا}(2)

---

(1) سورة الحشر، الآية 2.

(2) سورة الأحزاب، الآية 10.

(11535/1)

الآية. فالذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة، والذين جاءوهم من أسفل منهم قريش وغطفان(1)، وغير ذلك

7 ـ دعوتهم للإيمان عبر الخطاب بـ: »يا بني إسرائيل« ... تعرض السهيلي للنداء بلفظ »يا بني إسرائيل« في بعض المواضع من القرآن، وما في هذا التعبير من قيمة تربوية راشدة، تبعث على الإيمان، وتدعو إلى الهدى؛ وتركه في مواضع أخرى، حيث يقتضي الحال استعمال صيغة أخرى تظهر كرم المنعم وفضله، موضحاً السبب في إيثار صيغة ما في موضع، وتركها في آخر، من بلاغة قرآنية تدل على إعجاز

(1) ابن هشام، مصدر سابق، ج 3، ص. 272.

الكتاب الحكيم، فقال:

... [بنو إسرائيل]: إسرائيل هم بنو يعقوب، وكان يسمى إسرائيل: أي سري الله، لكن لم يذكروا في القراءة إلا إذا أضيفوا إلى إسرائيل، ولم يسموا فيه: بنو يعقوب. ومتى ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب لم يسم

إسرائيل، وذلك لحكمة فرقانية، وهو أن القوم لما خوطبوا بعبادة الله، وذكروا بدين أسلافهم موعظة لهم، وتنبيهاً من غفلتهم، سموا بالاسم الذي فيه تذكرة بالله، فإن إسرائيل اسم مضاف إلى الله تعالى في التأويل، ألا ترى كيف نبه على هذا المعنى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين دعا إلى الإسلام قوماً

(11537/1)

يقال لهم بنو عبد الله، فقال لهم: »يا بني عبد الله! إن الله قد أحسن اسم أبيكم« (1)، ويحرضهم بذلك على ما يقتضيه اسمهم من العبودية لله. فكذلك قوله يا بني إسرائيل، إنما ورد في معرض التذكرة لهم بدين أبيهم، وعبوديته لله، فكان ذكرهم بهذا الاسم أليق بمقام التذكرة والتحريض من أن يقول لهم: يا بني يعقوب. ولما ذكر موهبته لإبراهيم وتبشيره بإسحاق، ثم يعقوب، كان لفظ يعقوب أولى بذلك المقام، لأنها موهبة بعقب أخرى، وبشرى عقب بها بشرى، وإن كان اسم يعقوب عبرانياً، ولكن لفظه موافق للعربي في العقب

---

(1) لم أجده.

(11538/1)

والتعقيب، فانظر مشاكلة الاسمين للمقامين، فإنه من باب النظر في إعجاز القرآن، وبلاغة ألفاظه، وتنزيل الكلام في منازله اللائقة به (1).

8 ـ حلل القرآن أسباب كفرهم وجحودهم بالرسالة المحمدية، ومبعثه دوافع كثيرة، منها:

... (البواعث النفسية: وهي كثيرة مثل الحسد. قال تعالى: {ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم}(2)،

---

(1) السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ج 2، ص. 294.

(2) سورة البقرة، الآية 105.

(11539/1)

{ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل، والله أعلم بأعدائكم، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسْمَع وراعنا لَيّاً بألسنتهم وطعناً

في الدين}(1). ...

... (البواعث العقلية: وهي تتعلق بضيق التفكير بسبب التمسك بالعادات والتقاليد، أو بسبب ضعف البواعث العلمية وانتشار الجهل والضلال، قال تعالى: {وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام

---

(1) سورة آل عمران، الآيات 44 ـ 46.

(11540/1)

لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة إنكم قوم تجهلون}(1). فبنو إسرائيل سرعان ما نسوا الله الذي قهر عدوهم فرعون، ومالوا إلى عبادة الأوثان. وهذا منتهى البلادة والغباء، ولذلك قال اللهم عنهم: {مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً}(2).

... (البواعث الاقتصادية: وسببها الحرص على المصلحة الشخصيّة التي قد تقتضي الاكتناز والبخل معاً، قال تعالى: {والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب

---

(1) سورة الأعراف، الآية 138.

(2) سورة الجمعة، الآية 5.

(11541/1)

أليم}(1)، وقال أيضاً: {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء}(2). وقد كان اليهود أحرص الناس على جمع المال وابتزاز الناس به في القديم والحديث على حد سواء. وحين اتخذوا العجل ليعبدوه، صنعوه من ذهب!

...

9 - إنصاف القرآن لليهود

... ليس لمسلم أن يظلم معاهداً أو غيره. وإذا وقع شيء من ذلك، فلابد للعدالة من أن تأخذ مجراها؛ وإذا التبس الأمر على الحاكم في الأرض، فإن يد السماء سرعان ما تتدخل لمصلحة المظلوم ضد الظالم. وقد أنزل الله

---

(1) سورة التوبة، الآية 34.

(2) سورة آل عمران، الآية 181.

(11542/1)

عز وجل عدداً من الآيات في تبرئة يهودي اتهمه أحد الأنصار بالسرقة ظلماً وعدواناً، وهذه الأبيات هي من قوله تعالى: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما } إلى قوله: {ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً. ولولا فضل الله عليك ورحمته، لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم، وما يضرونك من شيء، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة، وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً}(1).

---

(1) سورة النساء، الآيات 106 ـ 113.

(11543/1)

والقصة باختصار أن نفراً من الأنصار: قتادة بن النعمان وعمه رفاعة غزيا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في بعض غزواته، فسرقت درع لأحدهم: رفاعة، فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم بنو أبيرق، فأتى صاحب الدرع رسول الله، فقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعي. فلما رأى السابق ذلك، عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي اسمه زيد بن السمين، وقال

لنفر من عشيرته: إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان، وستوجد عنده. فانطلقوا إلى رسول الله فقالوا: يا نبي الله إن صاحبنا بريء، وإن الذي سرق الدرع

(1/11544)

فلان، وقد أحطنا بذلك علماً، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس، وجادل عنه؛ فإنه إن لم يعصمه الله بك، يهلك ولما عرف رسول الله أن الدرع وجدت في بيت اليهودي، قام فبرأ ابن أبيرق وعذره عل رؤوس الناس. وكان أهله قد قالوا للنبي قبل ظهور الدرع في بيت اليهودي إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت. قال قتادة: فأتيت رسول الله فكلمته. فقال: عمدت إلى أهل بيت يذكر منهم إسلام وصلاح وترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة؟ قال: فرجعت، ولوددت أني خرجت من بعض

(1/11545)

مالي ولم أكلم رسول الله في ذلك فأتاني عمي رفاعة، فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله. فقال: الله المستعان. فلم نلبث أن نزلت: {إنا أنزلنا إليك} الآيات.

ويقول سيد قطب في التعقيب على هذه القصة:

... في هذا الوقت الحرج، الخطر، الشديد الخطورة، كانت هذه الآيات كلها تتنزل على رسول الله وعلى الجماعة الإسلامية لتتصف رجلاً يهودياً، اتهم ظلماً بسرقة، ولتدين الذين تآمروا على اتهامه، وهم أهل بيت من الأنصار في المدينة، والأنصار يومئذ هم عدة الرسول وجنده في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله

(11546/1)

ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة ... إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة بريء، تآمرت عليه عصبة لتوقعه في الاتهام، وإن كانت تبرئة بريء أمراً هائلاً في ميزان الله، إنما كانت أكبر من ذلك كانت هي إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى، ولا مع العصبية، ولا يتأرجح مع المودة والشنآن أيّاً كانت الملابسات والأحوال(1).

... هذه شريعة الله التي لا تحابي أحداً على حساب الآخر.

وأما شرائع الأرض اليوم التي تلبس مسوح الرهبان وتتستر بالعدالة وحقوق الإنسان، فهي التي تسمح

---

(1) في ظلال القرآن، ج 2، صص. 751 ـ 752.

(11547/1)

للإنسان بممارسة التمييز ضد أخيه الإنسان، وهو الأمر الذي لم تحققه حضارة الرجل الأبيض في هذا العالم بشكل فعليّ حتى اليوم.

المبحث الثالث: أهم أحداث الصراع بين الإسلام واليهودية في العهد النبوي

... دار صراع طويل بين الدعوة الإسلامية وأعدائها، ابتدأ بالفكر والبيان، وانتهى بالسيف والسنان. وقد دون التاريخ لب هذا الصراع كما سنجد في هذا المبحث.

أولاً: وثيقة الموادعة أساس للتعايش السلمي

... كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – مؤمناً

بالتعايش السلمي مع أهل الكتاب ممن لم يؤمن

برسالته. وفي هذا الإطار، تمت

(11548/1)

الموادعة بينهم وبين المسلمين. قال ابن إسحاق:

»وكتب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كتاباً بين

المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم

على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم«(1).

ومما جاء في الموادعة:

... وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين،

وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم،

وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم من

ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلاَّ نفسه . . . إن بطانة يهود

كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 2، ص.

240.

(11549/1)

إلا بإذن محمد – صلى الله عليه وسلم –، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة(1).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 242.

(11550/1)

... وهذه الموادعة تعتبر وثيقة تاريخية تبين قواعد المجتمع المدني الذي حدده الإسلام. فهو مجتمع يقوم على التكافل والتعاون ووحدة المصير لأبنائه أيّاً كان دينهم؛ كما أنه يقوم على الحرية الدينية والفكرية وقبول الآخر، وهو أرقى بكثير مما يسمى بالديمقراطية اليوم، وذلك لأن الديمقراطية تلزم جميع أبناء المجتمع بقوانين واحدة في الحوافز والعقوبات، مما يعني أن قرار الأكثرية يتحكم بالأقلية دائماً، بينما سمح الإسلام للأقلية بأن تمارس تطبيق دينها أو شريعتها

كما تريد. فلم يتدخل لفرض قوانين العقوبات الإسلامية أو

(11551/1)

غيرها على غير المسلمين، لأنهم يطبقون ما لديهم من شرائع، وبهذا يكون الإسلام أول من أنشأ وحدة اجتماعية حقيقية لمجتمع متعدد الأعراق والأديان ضمن مجتمع مدني متطور. وبهذا أصبح الإسلام هو أول من اعترف بإعطاء حق الحكم الذاتي للأقليات، وهو حق تشرئب إليه أعناق كثير من الأقليات في مطلع الألفية الثالثة للميلاد دون أن تحلم بوجوده في الواقع الذي تتردد فيه شعارات الحرية والعدالة والمساواة كل يوم ملء السمع والبصر.

ثانياً: احترام حقوق الإنسان

(11552/1)

... وفي إطار هذا التعايش، كان هنالك احترام كامل للإنسان حياً كان أو ميّتاً بغض النظر عن دينه. روى جابر

قال: »مرت جنازة، فقام لها رسول – صلى الله عليه وسلم –، وقمنا معه، فقلنا: يا رسول الله إنها يهودية. فقال: "إن الموت فزع، فإذا رأيتم الجنازة فقوموا"«(1). ومثل هذه المعاملة الحسنة تستوجب إشادة غوستاف لوبون بسماحة النبي – صلى الله عليه وسلم – مع الآخرين، حيث قال:

---

(1) متفق عليه. (انظر: التبريزي، مشكاة المصابيح، مصدر سابق، ج 1، ص. 521).

(11553/1)

... إن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وإنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله، كاليهودية والنصرانية على الخصوص. وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته. وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المرتابون، أو المؤمنون القليلون من الذين أنعموا النظر في تاريخ العرب«(1).

ثالثاً: موقف النبي عليه السلام من اليهود

... ذكرنا أنه منذ هجرة النبي عليه السلام إلى المدينة، كتب بينه وبين اليهود موادعة تحدد العلاقة بين

(1) حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ص. 128.

(11554/1)

الطرفين في إطار المجتمع المدني، وكان النبي عليه السلام يرغب بإيمان اليهود ونصرتهم له، لأنه يستشرف بما علمه الله تعالى أن المستقبل لهذا الدين، وأن اليهود سيفقدون مبررات وجودهم في المدينة وجزيرة العرب، بما سيرتكبونه من خيانات وجرائم تودي بهم. ولذلك دعاهم إلى الإيمان حفاظاً عليهم وعلى مصالحهم. عن أبي هريرة قال:

... بينما نحن في المسجد، خرج النبي – صلى الله عليه وسلم –، فقال: »انطلقوا إلى يهود«. فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس، فقام النبي ، فقال: »يا معشر يهود، أسلموا تسلموا، اعلموا أن الأرض لله

(11555/1)

ورسوله، وأني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه «(1).

... ولتوثيق العلاقة معهم، كان يقيم معهم علاقات إنسانية من تبادل اقتصادي ونحوه. عن عائشة قالت: اشترى رسول الله طعاماً من يهودي، ورهنه درعاً له من حديد(2)؛ كما أنه سمح لأتباعه بالرواية عن علماء بني إسرائيل. ففي الحديث: {بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج}(3)

---

(1) متفق عليه. (انظر: التبريزي، مشكاة المصابيح، مصدر سابق، ج 2، ص. 1186).

(2) المرجع نفسه، ج 2، ص. 873.

(3) رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو. (المصدر نفسه، ج 1، ص. 70).

(11556/1)

. وكان يتناول طعامهم ويتقبل هداياهم كما سيأتي.

رابعاً: محاولات اليهود قتل النبي عليه السلام

... حاول اليهود قتل النبي عليه السلام بطرح صخرة عليه، حيث:

... خرج رسول الله إلى بني النضير يستعينهم في دية

العامريين اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري. فلما خلا بعضهم ببعض قالوا: لن تجدوا محمداً أقرب من الآن. فمن رجل يظهر على هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب أنا. فأتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الخبر، فانصرف عنهم، فأنزل الله تعالى فيه هو وقومه: {يا أيها الذين آمنوا

(11557/1)

اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون }(1) (2).

... وبالرغم من كيدهم، فقد كان النبي عليه السلام يقبل هداياهم، ويأكل طعامهم. صنعوا له يوم خيبر طعاماً، ودسوا له السم فيه، فاكتشف أمرهم ولم يعاقبهم. روى أبو هريرة، قال:

... لما فتحت خيبر، أهديت لرسول الله شاة، فيها سم، فقال رسول الله: »اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود«. فجمعوا له، فقال لهم رسول

---

(1) سورة المائدة، الآية 11.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 2، ص. 279.

(11558/1)

الله – صلى الله عليه وسلم- : »إني سائلكم عن شيء فهل أنتم مصدقيّ عنه؟ «.قالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم- : »من أبوكم؟ «. قالوا: »فلان «. قال: »كذبتم، بل أبوكم فلان «. قالوا: »صدقت وبررت «. قال: »فهل أنتم مصدقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ « قالوا: » نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كما عرفته في أبينا «، فقال لهم: »من

أهل النار؟ «. قالوا: »نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها «، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم- : »اخسأوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً «. ثم قال: »هل أنتم

(11559/1)

مصدقيّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ « قالوا: »نعم يا أبا القاسم«. قال: »هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً؟«. قالوا: »نعم«. قال: »فما حملكم على ذلك؟ «. قالوا: »أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت صادقاً لم يضرك« (1).

... وتكررت المحاولة مرة أخرى لقتله عليه السلام بواسطة السم. وقدمت يهودية شاة مسمومة إلى النبي يوم خيبر. فلما سألها عن سبب ذلك، قالت: »إن كنت نبياً لم يضرك، وإن لم يكن نبياً استرحنا منه«. فعفا

---

(1) رواه البخاري عن أبي هريرة. (التبريزي، مشكاة المصابيح، مصدر سابق، ج 3، صص. 1669 ـ 1670).

(11560/1)

عنها رسول الله ولم يعاقبها، وتوفي أصحابه الذي أكلوا من الشاة(1).

... وقد سرى السم في جسده الشريف، وبقي أثره حتى وفاته عليه الصلاة والسلام. فكان في سلك الشهداء، وجمع الله له أجر النبوة والشهادة معاً.

... قال الأزهري: قال جابر: واحتجم رسول الله – صلى الله

عليه وسلم – يومئذ، حجمه مولى بني بياضة بالقرن والشفرة، وبقي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعده ثلاث سنين، حتى كان وجعه الذي

---

(1) المصدر نفسه، ج 2، صص. 1667 ـ 1668، الحديث رقم 5931. وقد رواه أبو داود والدارمي. قال الألباني: »وهو حديث صحيح«.

(11561/1)

توفي فيه. فقال: [ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر عداداً، حتى كان هذا أوان انقطاع أبهري]. وتوفي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شهيداً (1).

... ونقل ابن إسحاق عن مروان بن عثان بن أبي سعيد بن المعلى قوله في التعقيب على محاولة المرأة اليهودية سم النبي عليه السلام يوم خيبر: »فإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مات شهيداً، مع ما أكرمه الله من النبوة«(2)

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج 4، ص.

.210

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 4، ص.

.44

(11562/1)

.

... وبالرغم من محاولتهم قتله عليه السلام، فقد تزوج ابنة أحد زعمائهم، وهي صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها.

... وكانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق أن قمراً وقع في حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها، فقال: ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمداً. فلطم وجهها لطمة خضر عينيها منها. فأتى بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبها أثر منه، فسألها ما هو؟ فأخبرته الخبر (1).

...

خامساً: موقف اليهود من الدعوة

---

(1) المصدر نفسه، ج 4، ص. 43.

(11563/1)

... سجلت صفحات التاريخ موقفاً سلبياً لليهود من دعوة النبي عليه السلام، ابتدأ من إنكار الدعوة، وتكذيب صاحبها وانتهى بالتآمر عليها وحمل السلام في وجهها.

قال تعالى: {ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين}(1). والآية نزلت في اليهود، الذين »كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبل مبعثه. فلما بعثه الله من العرب، كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون

(1) سورة البقرة، الآية 89.

فيه«(1).

... وقد شكل يهود من المنافقين من الأوس والخزرج حلفاً، وكان أخبار يهود هم الذين يسألون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويتعنتونه، ويأتونه باللبس ليلبسوا الحق بالباطل(2).

... وقد ذكرت كتب السيرة كثيراً من مواقفهم

المشينة تجاه الدعوة(3)، نكتفي من ذلك بموقفين:

... الموقف الأول: دخول أبي بكر بيت المدراس، حيث دخل

---

(1) الصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 88.

(2) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 2، ص. 255.

(3) انظر على سبيل المثال ما ورد في: المصدر نفسه، ج 2، صص. 258 ـ 284.

(11565/1)

... فوجد منهم ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم، يقال له فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر من أحبارهم يقال له أشيع، فقال أبو بكر لفنحاص: ويحك يا فنحاص! اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً لرسول الله قدجاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في "التوراة" و"الإنجيل". فقال فنحاص لأبي بكر: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني، ولو كان عنا غنياً ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن

(11566/1)

الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنياً ما أعطانا الربا. قال: فغضب أبو بكر، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده، لولا العهد الذي بيننا وبينكم، لضربت رأسك يا عدو الله. قال فذهب فنحاص إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، فقال: يا محمد! انظر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله! إن عدو الله قال قولاً عظيماً، إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء. فلما قال ذلك، غضبت لله مما قال، وضربت وجهه. فجحد ذلك فنحاص، وقال: ما

(11567/1)

قلت ذلك؟ فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص رداً عليه(1): {لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق} (2).

... الموقف الثاني: تهجمهم على ذات الله عز وجلّ. فقد

روى سعيد بن جبير أنه:

... أتى رهط من يهود إلى رسول الله، فقالوا: يا محمد! هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ قال: فغضب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى انتقع

---

(1) المصدر نفسه، ج 2، صص. 277 ـ 278؛ والصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 342.

(2) سورة آل عمران، الآية 181.

(11568/1)

لونه، ثم ساورهم غضباً لربه، قال: فجاءه جبريل عليه السلام فسكنه، فقال: خفض عليك يا محمد، وجاء من الله بجواب ما سألوه عنه: {قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد}(1). قال: فلما تلاها عليهم، قالوا: فصف لنا يا محمد كيف خلقه؟ كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أشد من غضبه الأول، وساورهم، فأتاه جبريل عليه السلام، فقال له مثل ما قال له أول مرة، وجاءه من الله تعالى بجواب ما سألوه، يقول الله تعالى: {وما قدَروا الله حق قدره والأرضُ

(1) سورة الإخلاص.

(11569/1)

جميعاً قَبْضَتُهُ يوم القيامة والسماواتُ مطويَّاتٌ بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون }(1) (2).

سادساً: المواجهات العسكرية بين اليهود والمسلمين ... لم يكن خلاف يهود مع النبي – صلى الله عليه وسلم – مجرد خلاف عقدي، بل امتد ليشمل العدوان عليه شخصياً كما تقدم، والعدوان على الإسلام ودولته بالمدينة أيضاً، مما تسبب بإجلائهم عنها. فيهود بني قينقاع قالوا للنبي – صلى الله عليه وسلم- : »لو حاربتنا، لعلمت أنا نحن الناس«(3)

(1) سورة الزُّمر، الآية 67.

(2) ابن هشام، مصدر سابق، ج 2، ص. 284.

(3) السهيلي، الروض الأنف، مصدر سابق، ج 2، ص. 296.

(11570/1)

. وكان من أمرهم:

... أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت. فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما أن قامت انكشفت سوءتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهودياً، وشدت يهود على المسلم فقتلوه. فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود. فغضب المسلمون، ووقع الشر بينهم وبين بني قينقاع (1).

وكان إجلاؤهم في السنة الثانية للهجرة بعد غزوة بدر، وقبل أحد.

---

(1) ابن هشام، مصدر سابق، ج 3، ص. 137.

(11571/1)

... وأما بنو النضير، فقد أتاهم رسول الله في دية القتيلين من بني عامر، اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول – صلى الله عليه وسلم –، عقد لهما. فلما جاءهم الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وجدوها فرصة لكي يطرحوا عليه صخرة ويتخلصوا منه،

وانتدبوا لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فأتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الخبر من السماء، فقام وخرج. ثم »قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً من المدينة فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً للمدينة، فأقبل أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى انتهوْا إليه، فأخبرهم

(11572/1)

الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم« (1). وكان إجلاؤهم سنة أربع هجرية.

... ويهود بني قريظة كان لهم دور بارز في تحزيب الأحزاب على النبي – صلى الله عليه وسلم – يوم الخندق(2). فلما أتوا على قريش:

... قالوا: هؤلاء أحبار يهود، وأهل العلم بالكتاب الأول، فسلوهم: دينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم. فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه

---

(1) المصدر نفسه، ج 3، ص. 240.

(2) انظر تفاصيل ذلك عند ابن هشام، المصدر نفسه، ج 3، ص. 258.

(11573/1)

وممن اتبعه، فأنزل الله فيهم: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا}(1) (2). وقد نقضوا عهدهم مع النبي عند حصار الأحزاب له. ولما أن انجلى الكرب، وفرت الأحزاب، وضع الرسول – صلى الله عليه وسلم – سلاحه، فجاءه جبريل عليه السلام بسلاحه، فقال: »أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم. فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح

---

(1) سورة النساء، الآية 151.

(2) ابن هشام، مصدر سابق، ج 2، ص. 279؛ الصابوني، مصدر سابق، ج 1، ص. 403.

(11574/1)

بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد المسير إلى بني قريظة، فإني عامد

إليهم، فمزلزل بهم«(1). وبعد حصارهم خمساً وعشرين ليلة، نزلوا على حكم النبي ، فحكم فيهم رجلاً من الأوس وهو سعد بن معاذ وكانوا مواليه، فقال: »فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء«(2). وكانت غزوة بني قريظة سنة خمس هجرية.

---

(1) ابن هشام، المصدر السابق، ج 3، ص. 267.

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص. 269.

(11575/1)

... وأما يهود خيبر، فقد غزاهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – في المحرم من سنة سبع للهجرة، وسبب الغزوة أنهم هم الذين:

... أثاروا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين الطابور الخامس في المجتمع الإسلامي، وبغطفان، وأعراب البادية الجناح الثالث من الأحزاب. وكانوا هم أنفسهم يهيئون للقتال. فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه في محن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبي – صلى الله عليه وسلم –. وإزاء ذلك

اضطر المسلمون إلى بعوث متوالية، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين، مثل سلام بن أبي

(11576/1)

الحقيق، وأسير بن زارم. ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك، وإنما أبطأوا في القيام بهذا الواجب، لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم، وهي قريش، كانت مجابهة للمسلمين. فلما انتهت هذه المجابهة، صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين، واقترب لهم سوء الحساب (1).

... وحصلت مواجهات أخرى مع مجموعات أخرى من اليهود بعد غزوة خيبر، مثل يهود فدك، ووادي القرى، وتيماء. وعاد الرسول – صلى الله عليه وسلم – بعد ذلك إلى المدينة المنورة، وكان من وصاياه قبل

---

(1) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص. 408.

(11577/1)

موته إخراج اليهود من جزيرة العرب(1).

... ومن استقراء واقع المدينة بعد الهجرة النبوية، نجد

أن النبي عليه السلام كان حريصاً على أن يسود السلام والأمن في ربوع المدينة لكل سكانها، بمن فيهم اليهود. وكان حريصاً أيضاً على إقامة النظام الذي يكفل الأسس المنطقية للتعامل بين الجميع وفق مقتضيات العدل والمساواة. وكان يود لو أن اليهود كانوا في طليعة المؤمنين به؛ ولذلك لم يتوان عن دعوتهم إلى الهدى، ولم يكن

---

(1) انظر »باب إخراج اليهود من جزيرة العرب«، عند: التبريزي، مشكاة المصابيح، مصدر سابق، ج 2، ص.6 118.

(11578/1)

يريد لهم إلا الخير. بيد أنهم ظلموا أنفسهم، وأعلنوا رفضهم للدعوة. وهذا من حقهم وفق التصور الإسلامي لقضية حرية الأديان. لكنهم تجاوزوا ذلك إلى التآمر والدسائس وتحريض المشركين على المسلمين، ونكث العهود، وإعلان الحرب على الدعوة. فكان لابد من التصدي لهم بقوة. وقديماً قال الشاعر:

إذا لم يكن غير الأسنة مركباً

فما حيلة المضطر إلاَّ ركوبها

... وبعد هذه المواجهات مع اليهود في العهد النبوي، عادت الأمور إلى نصابها في ما تلاه من عهود، وعومل اليهود أحسن معاملة، وذلك لأن:

(11579/1)

... معاملة اليهود في ظل الحكم الإسلامي عبر التاريخ لم تكن وليدة الصدفة، ولا مجرد كرم أخلاقي من الحكام المسلمين، وإنما كان بسبب العقيدة الإسلامية التي تلزم أصحابها حكاماً ومحكومين بحماية أصحاب الديانات الأخرى، ومعاملتهم كمواطنين لهم حقوقهم التي لا يجوز المساس بها، ولهم احترامهم كأصحاب ديانات سماوية، يعترف بها الإسلام، ويعترف برسلهم (1).

---

(1) رفيق شاكر النتشة، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، ص. 17.

(11580/1)

... وقد استغل اليهود هذه المعاملة الحسنة، فتظاهر بعضهم بالإسلام مثل اليهودي اليمني عبد الله بن سبإٍ، وقادوا الفتن والمؤامرات داخل المجتمع الإسلامي. وكان من تأثير فتنهم مقتل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما. كما حاولوا تشويه العقيدة الإسلامية بما نشروه من سموم وأفكار هدامة، لا تتفق والعقيدة الإسلامية(1). ومع هذا، فقد بقوا آمنين سالمين لم يعرض لهم أحد من المسلمين بأذى.

---

(1) انظر: عبد الله التل، جذور البلاء، ص. 163 وما بعدها.

(11581/1)

المبحث الرابع: التعايش بين الإسلام واليهودية في العهود الإسلامية

أولاً: العهد للأقليات في المجتمعات الإسلامية

... الذمة: معناها العهد. وهو لفظ قد يطلق على كل من له عهد. يذكر ابن كثير أنه »في سنة إحدى عشر، أمر المأمون بأن ينادى: برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير، وإن أفضل الخلق بعد النبي عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب« (1). فالمؤمن له ذمة عند الله، وأهل الكتاب لهم ذمة الله عند المسلمين. وليس في هذا المصطلح ما

يشين اليهود أو غيرهم، لأن مصطلح المواطن لم يكن

---

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص. 286.

(11582/1)

شائعاً في تلك الأيام، وإنما الشائع أن يطلق لفظ مسلم أو ذمي على المواطنين في الدولة الإسلامية. يقول آدم متز:

... إن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية وبين أوروبا التي كانت كلها على عهد المسيحية في العصور الوسطى، وجود عدد هائل من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين، وأولئك هم أهل الذمة، الذين كان وجودهم من أول الأمر حائلاً بين شعوب الإسلام وبين تكوين وحدة سياسية، وقد ظلت كنائس اليهود والنصارى وأديرتهم أجزاء غريبة. واستند أهل الذمة إلى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود، وما منحوه من حقوق، فلم

(11583/1)

يرضوا بالاندماج في المسلمين. وقد كان حرص اليهود والنصارى على أن تظل دار الإسلام دائماً غير تامة

التكوين (1).

ثانياً: الاستقلال الكامل لأهل الذمة

... وكان لليهود والنصارى استقلالهم الخاص بهم. يقول آدم متز: »ولما كان الشرع الإسلامي خاصاً بالمسلمين، فقد خلت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى والمحاكم الخاصة بهم«(2). وقد فتحت أمامهم أبواب الدولة والمناصب الرسمية

---

(1) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ج 1، ص. 55.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص. 75.

(11584/1)

والشعبية. يقول آدم متز: »ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة، أي باب من أبواب الأعمال، وكان قدمهم راسخاً في الصنائع التي تدر الأرباح الوافرة، فكانوا صيارفة وتجاراً، وأصحاب ضياع وأطباء«(1).

ثالثاً: وضع اليهود في العصر الأموي

... وفي العصر الأموي، تمتع اليهود بالحرية الكاملة مع بقية أهل الذمة. يقول فيليب حتي:

... وقد تمتع أهل الذمة في هذه الوضعيّة بقسط وافر من الحرية لقاء تأديتهم الجزية والخراج، وارتبطت بالفعل قضاياهم في الأمور المدنية والجنائية والقضائية

---

(1) المصدر نفسه، ص. 68.

(11585/1)

برؤسائهم الروحانيين، إلا إذا كانت القضية تمس المسلمين. أما الشريعة الإسلامية، فلم تطبق عليهم، لأنها لم توضع لهم. ولقد بقيت بعض أقسام هذا النظام الخاص تسري على أهل الذمة حتى آخر العهد العثماني، ومنها ما ظل مرعياً في عهد السلطات المنتدبة في العراق وسورية ولبنان وفلسطين(1).

رابعاً: وضع اليهود في العصر العباسي

... وكذلك الأمر في العصر العباسي، فقد:

---

(1) تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ط 7، 1986 م، ص. 297.

(11586/1)

... لقي اليهود من محاسنة المسلمين فوق ما لقيه النصارى برغم ما في بعض الآيات القرآنية من تنديد بهم. والسبب أنهم كانوا قليلي العدد، فلم يخش أذاهم. وقد وجد المقدسي سنة 985 أن أكثر الصيارفة وأرباب البنوك في سورية يهود، وأكثر الكتبة والأطباء نصارى. ونرى في عهد عدد من الخلفاء وأخصهم المعتضد [892 ـ 902 هـ] أنه كان لليهود مراكز هامة في الدولة(1).

... وعلى العموم، »كان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة، وكان رؤساء اليهود جهابذتهم عنده« (2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 426.

(2) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة، ط 3، 1377 هـ/ 1957 م، ج 1، ص. 75.

(11587/1)

. وقد بلغت مكانة أهل الكتاب إلى حد الذروة في ظل الدولة الإسلامية. يقول الدكتور فيليب حتي:

... إن النصارى واليهود كثيراً ما تقلدوا مناصب هامة في دوائر المال والكتابة والمهن الحرة حسدهم عليها بعض المسلمين من العامة، بحيث ظهرت نتائج ذلك التنافس في استنان شرائع جديدة لإيقاف أهل الذمة عند حدودهم. غير أن أكثر هذا التشريع الجديد ظل حبراً على ورق، ولم ينفذ دائماً (1).

---

(1) تاريخ العرب، مصدر سابق، ص. 422.

(11588/1)

... وعاش اليهود إلى جانب المسلمين في أحياء واحدة، فلا عزلة ولا حصار: »ولم يكن في المدن الإسلامية أحياء مختصة لليهود والنصارى، بحيث لا يتعدونها، وإن آثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين، وكانت الأديرة المسيحية منتشرة في كل أجزاء بغداد، حتى كادت لا تخلو منها ناحية «(1).

... وفي مصر كانت هنالك حرية كاملة لليهود، »وقد ولي الوزارة بالقاهرة منذ عام 436 إلى 439 هـ/ 1044 إلى 1047 م أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاحي، وكان يهودياً

فأسلم، وكان يدير الدولة معه أبو سعد التستري

---

(1) آدم متز، مرجع سابق، ج 1، ص. 75.

(11589/1)

اليهودي». ولذلك قال الشاعر المصري:

يهود هذا الزمان قد بلغوا

العز فيهم والمال عندهم

يا أهل مصر إني نصحت لكم

غاية آمالهم وقد ملكوا

ومنهم المستشار والملك

تهودوا فقد تهود الفلك (1)

خامساً: وضع اليهود في الأندلس

... وأما اليهود في الأندلس، فكان حالهم أفضل من

إخوانهم في أوروبا كلها. ولذلك كانت الأندلس

محطتهم ومركزهم في القارة الأوروبية تحت لواء الإسلام

الذي أمن لهم الرعاية والحماية. يقول غوستاف لوبون:

(1) المرجع نفسه، ج 1، ص. 100.

(11590/1)

... وأسلم كثير من النصارى، ولكنهم لم يسلموا طمعاً في كبير شيء، وهم الذين استعربوا، فغدوا هم واليهود مساوين للمسلمين، قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولة، وكانت إسبانية العربية بلد أوروبا الوحيد الذي تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها، فصار عددهم فيه كثيراً جداً (1).

سادساً: الموازنة بين وضع اليهود في أوروبا ووضعهم في البلاد الإسلامية

... إن الحرية التي تمتع بها اليهود في ظل الإسلام لا تستوي وما لاقوه في أصقاع أوروبا من أذى وتشريد عبر التاريخ

(1) حضارة العرب، مرجع سابق، ص. 77.

(11591/1)

... ولقد شهد اليهود مذابح واضطهادات في معظم البلاد الأوروبية، إن لم يكن جميعها شرقيها وغربيها. منها بريطانيا، طردتهم في أول القرن السادس الميلادي، ومنعت دخولهم إليها مدة ثلاثة قرون؛ وفرنسا اضطرت في عهد لويس التاسع عشر إلى طردهم وحرق تلمودهم؛ وإسبانيا طردتهم وحرمتهم من الدخول إلى بلادها؛ وفي سنة 1492 م أصدر الملك فرديناند والملكة إيزابيلا مرسوماً بطردهم ومعهم أبناؤهم وبناتهم وخدامهم وخادماتهم، وأقرباؤهم صغيراً وكبيراً؛ والبرتغال فعلت كذلك لأسباب مختلفة؛ أما روسيا القيصرية التي حاولوا فيها قتل

(11592/1)

القيصر، فقد قامت ضدهم بعدة مذابح في أوقات متفرقة من التاريخ؛ وألمانيا، فكلنا يعرف موقف السلطات الألمانية النازية والمذابح التي وقعت عليهم من النازيين (1).

... وإذا كانت أوروبا قد اضطهدت اليهود، فقد وفر لهم الإسلام الملاذ الأمن في ربوع بلاده، مما أسهم بالحفاظ على الجنس اليهودي من الإبادة، وسمح لهم بتطوير

مقدراتهم الاقتصادية والفنية والعلمية عبر التاريخ.

وعن هذا الأمر يقول الأستاذ رفيق النتشة:

---

(1) رفيق شاكر النتشة، مرجع سابق، صص. 15 ـ 16.

(11593/1)

... وفي حين كانت أوروبا الغربية المسيحية تضطهد اليهود باسم الدين، وتذيقهم ألوان العذاب في العصور الوسطى، وتضطرهم إلى النزوح إلى شرقي أوروبا وغربيها، كانت الدولة العربية توليهم أسمى المناصب، وتعترف لهم بحق المساواة المطلقة، فيتجرون، ويثرون، ويبلغون شأواً في السياسة والإدارة والاقتصاد لم يكن له مثيلٌ (1).

سابعاً: اليهود في الدولة العثمانية

... كان العهد العثماني في سياسته نحو اليهود امتداداً لما سبقه من عهود إسلامية.

---

(1) المرجع نفسه، ص. 21.

(11594/1)

... وبعد خضوع فلسطين للحكم العثماني في أوائل القرن السادس عشر، بدأ يهود أوروبا يهاجرون إليها، وأقاموا في الأماكن المقدسة، القدس وطبريا وصفد والخليل.

وفي منتصف القرن الثامن عشر، هاجر عدد من يهود بولندا وروسيا إلى فلسطين، بسبب اضطهادهم هناك، واستقر معظمهم في صفد وطبريا، حيث لاقوا تحت حكم ظاهر العمر الحماية والأمن، كما لاقوا من مختلف السلاطين العثمانيين المعاملة الحسنة. وتعتبر الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة التي لم يحصل فيها اضطهاد (1).

---

(1) المرجع نفسه، صص. 26 ـ 27.

(11595/1)

... وقد حاولت الدولة العثمانية أن تحد من هجرة اليهود إلى فلسطين:

... وظلت العواصم الأوروبية المتعاطفة مع اليهود تضغط على الباب العالي ضغطاً لا هوادة فيه، للتخفيف من ذلك الشرط الزمني لإقامة اليهود في فلسطين، ورأى الباب العالي في سنة 1887 م إطالة المدة المسموح بها للحجاج اليهود إلى ثلاثة شهور بدلاً من شهر واحد (1).

ثامناً: اليهود يقضون على الخلافة الإسلامية

---

(1) عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج 2، ص. 977.

(11596/1)

... في 18 أيار (مايو) 1901 م، قال هرتزل للسلطان . وكان قد اصطحب معه حاخاماً تركيّاً [موسى ليفي]، وعرض على السلطان تصفية الديون العثمانية، وإصلاح الاقتصاد المتدهور، ووقف حملات صحف "تركيا الفتاة" في أوروبا، وذلك مقابل إيجاد ملجأٍ لليهود في الأراضي المقدسة: فلسطين(1).

... فغضب السلطان، وكان مما قاله: »إننا لن نفرط بشبر من بلادنا دون أن نبذل أكثر مما بذلناه من دماء في سبيلها«(2).

---

(1) رفيق شاكر النتشة، مرجع سابق، ص. 9.

(2) المرجع نفسه، صص. 9 ـ 10.

(11597/1)

... وعرض عليه رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم »جون ترك« مبلغ 150 مليون ليرة إنكَليزية ذهباً، لكي يصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، فكان جوابه:

... إنكم لو دفعتم ملء الأرض ذهباً فضلاً عن مائة وخمسين مليون ليرة إنكَليزية ذهباً، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي. لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة، فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين، ولذلك لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضاً (1).

---

(1) المرجع نفسه، ص. 160.

(11598/1)

... وبعد هذا الجواب، خلعوه من الخلافة. وقد تم إلغاء الخلافة الإسلامية سنة 1924 م على يد مصطفى كمال الذي »كان ينتمي إلى يهود الدونمة في سالونيك؛ كما أن الجمعية التي أسسها قبل الحرب العالمية الأولى سنة 1907 م وهي جمعية "الوطن" في دمشق، كانت جمعية ماسونية«(1).

---

(1) زكريا البيومي، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين. التحالف الصليبي الماسوني الاستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي، ص. 283.

(11599/1)

... قامت دولة ما يسمونه بإسرائيل، وهي دولة لا تمت إلى اسمها بصلة، ومعنى إسرائيل بالعبرية: عبد الله(1). وهم يقصدون من وراء هذا الاسم معنى التفوق والتفضيل على من سواهم، بأنهم شعب الله المختار، وهم الجديرون بحمل كلمته في هذا العالم، وباقي شعوب الأرض إنما هي كالدواب ليركب عليها بنو إسرائيل(2). ولتحقيق هذا المشروع، لابد من تحطيم الأديان والأخلاق والقيم الاجتماعية السائدة بين الأمم، لأن الأديان جميعاً

---

(1) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 2، ص. 183.

(2) انظر: عبد الله التل، جذور البلاء، ص. 51، 79.

(11600/1)

تقف ضد عدوان الإنسان على أخيه الإنسان، وضد هذا المشروع الصهيوني الذي يستأثر بالله من دون بقية خلقه(1)، لأن الخلق لا يستحقون الدين حسب ما هو مذكور في "التلمود"، و"بروتوكلات حكماء صهيون" المنسوب إليهم. ولتحقيق هذا المشروع الصهيوني، يبرر اليهود كل ألوان العنف والخديعة، وكل الأساليب الماكرة والمتنافية مع الأخلاق(2)، وهم يهدفون من وراء مشروعهم إلى هدم المسجد الأقصى، وبناء ما يزعمونه هيكل

---

(1) المرجع نفسه، ص. 24.

(2) ... الفصل السادس »طرق تدمير المجتمعات غير اليهودية«، المرجع نفسه، ص. 172 وما بعدها.

(11601/1)

سليمان، ليحكموا العالم من ذلك الموقع. وليس ما يسمى بالعولمة والنظام العالمي الجديد إلا مشاريع أمريكية ظاهراً، ويهودية حقيقة. والهدف من ورائها أن يلعبوا بالعالم كما يريدون، لأن التاريخ بلغ نهايته عندهم كما زعموا، وقد وجدها الغرب فرصة ليتخلص من أذى اليهود، فدفع بأفواجهم إلى فلسطين المحتلة.

... قاوم العرب المشروع الصهيوني على مدى نصف قرن، وقد تخلل المقاومة ثغرات كثيرة من تمزق كلمتهم، وتفرق صفوفهم، وخلل ميزان القوى، وتخاذل بعضهم، فاستبدلوا بالمقاومة السلام والهرولة للتطبيع.

(11602/1)

... والسلام هدف استراتيجي للأديان جميعاً، ولكنه لن يكون إلا بإعادة الحقوق والنية الحسنة بين الطرفين، وهو ما لا تفعله القيادة الإسرائيلية. فأيّ نية حسنة لقتلة الأطفال من أمثال محمد الدرة وإخوانه في انتفاضة الأقصى الثانية؟ وأي حقوق تسترد وهم يريدون طمس الشخصية الإسلامية لفلسطين، وتشريد شعبها بالآفاق؟ إن الاعتراف بإسرائيل والتطبيع معها ليس هو بداية السلام في المنطقة، بل هو بداية الحرب. فهذا السرطان إذا استشرى في المنطقة وتمكن منها، فإنه سيزرع الفتن والحروب بين العرب والمسلمين أنفسهم، ليكون هو

(11603/1)

المسيطر على الجميع، تماماً كما كان يهود المدينة يشعلون نار الحرب بين الأوس والخزرج في الجاهلية، ويوردون السلام للطرفين، وإلا كيف نفسر هذا التشرذم العربي، وهذه الفرقة بين المسلمين، التي بدأت واستفحلت منذ انطلاق عملية السلام بعد حرب رمضان سنة 1973 م، حيث اشتعلت الحروب بين العرب وجيرانهم، ثم فيما بينهم. وكانت النتيجة هيمنة القوى الأجنبية على منطقة الشرق الأوسط بشكل كامل، وإذلال العرب والمسلمين.

... ولم يجتمع العرب إلا بعد سقوط محمد الدرة شهيداً وأمثاله من أطفال الحجارة الفلسطينية في القدس. لقد كان

(11604/1)

هؤلاء يرجمون الجندي الإسرائيلي، ويستنكرون التخاذل العربي والإسلامي عن أداء واجب النصرة للمسجد الأقصى، وكان حجارتهم تردد ما قاله الأبيوردي عند سقوط بيت المقدس بأيدي الصليبيين قبل تسعة قرون، فقال غاضباً(1):

أترضى صناديد الأعارب بالأذى

فياليتهم إذ لم يذودوا حمية

وتغضي على الذل كماة الأعاجم

عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

... إن قراءة التاريخ واجبة ليس للمتعة والتسلية، وإنما للعظة واستشراف المستقبل. ولابد للأمة التي يكون لها مستقبل من أن يكون لها عدو

---

(1) السيوطي، تاريخ الخلفاء، مصدر سابق، ص. 394.

(11605/1)

تفكر بمقاومته والتفوق عليه، وهذه سنة كونية ثابتة عبر التاريخ ومن دراسة أحوال الأمم. وحينما هوت الشيوعية في روسيا وأوروبا الشرقية، بحث الغرب عن عدوّ جديد، فلم يجد أمامه إلا المسلمين، فبدأ قصف بلادهم، وغزوهم في عقر دارهم، وفرض الحصار عليهم دولة تلو الأخرى، تحت دعاوى أنها دول ترعى التطرف والإرهاب. وليت شعري إذا استسلم العرب لليهود، من هو العدو الجديد الذي سيبحثون عنه بديلاً لصراعهم مع إسرائيل حتى تجتمع كلمتهم، ويتوحدوا عليه؟ إنه

بكل أسف غير موجود، أو قل إن شئت هو أنفسهم، فسيسفك بعضهم دم بعض، ويغزو

(11606/1)

بعضهم بعضاً، وتعود الحالة كما كانت في الجاهلية الأولى، وستتوجه المعارك إلى الساحة الداخلية في كل بلد، فتستعر الحروب بين السلطة المتمكنة والتي يوهمها الغرب بأنه سندها ومصدر قوتها من جهة، وبين شعبها الأعزل الذي يبحث عن لقمة العيش وأدنى معيشة من جهة أخرى، وسيكون دور اليهود تسليط القوتين على بعضهما، وقد نصوا على هذا في "بروتوكولات"هم التي جاء فيها:

... لقد وسعنا الفجوة بين الحكام وشعوبهم. وبذلك أضعفنا الفريقين، ليسهل علينا السيطرة عليهما. ألبنا جميع السلطات بعضها على بعض، شجعنا تطاحن الأحزاب

(11607/1)

وتكالبها على السلطة، وأوهمنا العمال والكادحين بأنهم ينالون حقوقاً كاملة بدساتير وقوانين مزيفة، يتبجح بها أعواننا وعملاؤنا الذين جعلناهم رؤساء موجهين للعمال (1).

فأبواقهم الإعلامية تحث الشعوب على الثورة من أجل الديمقراطية من جهة، ومصانعهم الحربية تقدم السلاح لتلك الدول لتقمع بها تلك الشعوب من جهة أخرى. إنها فتنة لا قرار لها، وبقاء إسرائيل رهين بإشعال هذه الفتنة. ومن هنا يمكن أن نفهم سبب الترويج للديمقراطية في هذا الوقت بالذات من تاريخ الأمة.

---

(1) عبد الله التلّ، مرجع سابق، ص. 267.

(11608/1)

... إن استقرار إسرائيل لن يدمر العرب وحدهم، بل سيدمر من ورائهم كل الشعوب الفقيرة والمحرومة في هذا العالم. وسيلقون بالفتات للشعوب الغربية، وسيمسكون بالثروات جميعاً. فمعبودهم هو الذهب، ويوم اتخذوا العجل وعبدوه من دون الله لم يكن عجلاً حياً على طريقة الهنود، وإنما كان عجلاً من ذهب. فما

عبدوا إلا الذهب بتمثاله الحيواني الهابط، فلم يتخذوا الذهب على صورة ملائكة أو بشر، وإنما على صورة حيوان يؤدي المنافع والخدمات الشاقة لمالكه، وسيكون موقفهم عند تمكنهم من رقاب الشعوب بالسلام الذي يريدونه على طريقتهم

(11609/1)

تماماً كما كان موقف سلفهم فنحاص مع أبي بكر الصديق. ولن تهدأ هذه الفتنة إلا بسوط من الله، وتدخل مباشر من إرادته العلوية، ولذلك قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : »لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود«(1).

الخاتمة

---

(1) رواه مسلم. (انظر: التبريزي، مشكاة المصابيح، مصدر سابق، ج 3، ص. 1491).

(11610/1)

... استعرضت في هذا البحث بعض عقائد اليهود ومشاعرهم النفسية، وجانباً من سلوكهم ومواقفهم التاريخية قبل الإسلام وبعده. وذكرت أن هناك بشارات في التوراة حول نبوة محمد عليه السلام؛ وبناء على هذه البشارات وتطابقها وتحققها بالنبيّ الكريم عليه السلام، أسلم بعض أحبارهم، ونكص أكثرهم حسداً واستكباراً، لأن النبي لم يكن من الجنس الإسرائيلي، وبينت أن الإسلام ليس ضد اليهودية بما هي دين، وإن كان يختلف معها. فقد عمل الرسول موادعة مع اليهود عند وصوله للمدينة. وتعتبر تلك الموادعة وثيقة للتعايش السلمي بين الطرفين

(11611/1)

في دولة المدينة، بيد أن اليهود نكصوا وغيروا، وحاولوا قتل النبي عليه السلام، فاستوجب ذلك تأديبهم وإبعادهم عن المدينة، والوصية بإخراجهم من جزيرة العرب.

... وبعد العهد النبويّ، واستقرار الإسلام، هدأت مشاعر المواجهة بين المسلمين واليهود. ولقد آوى المسلمون

اليهودَ طيلة التاريخ الإسلامي، وعاملوهم معاملة مواطنين محترمين، وتبوأ اليهود مناصب عليا في الدول الإسلامية على مر عهودها، وهو أمر لم يكونوا يحلمون به في أوروبا والغرب كله عموماً، الذي كان يطاردهم بتهمة قتل المسيح عليه السلام. وهي جريمة لم تحدث،

(11612/1)

وقد برأهم الله منها في كتابه المنزل على محمد عليه السلام. بيد أنهم ظلوا متمسكين بنسبة هذه الجريمة إليهم، متفاخرين بقتلهم للمسيح كما يزعمون، مما يدل على غبائهم. قال تعالى: {وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ومالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً}(1).

---

(1) سورة النساء، الآيتان 156 ـ 157.

(11613/1)

... وفي العصر الحديث تعاون الغرب مع اليهود على قيام ما يسمونه بإسرائيل، ولم تقم دولة إسرائيل إلا على جثة الخلافة الإسلامية في إستانبول، والتي دق مسامير نعشها يهود الدونمة. فكان جزاء الإحسان والرعاية المقدمة لهم من المسلمين عبر التاريخ الإسلامي كله هو تأليب القوى العالمية على العرب والمسلمين من أجل إبقاء إسرائيل واستمرارها، ولا بقاء لإسرائيل إلا بإبعاد العرب عن دينهم. يقول المبشر اليهودي وليم جيفورد بالكراف: »متى توارى القرآن، ومدنية مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل

(11614/1)

الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه «(1)، مما يستوجب على المسلمين قاطبة التصدي لهذا المشروع الذي سيفتت عضدهم ويمزق وحدتهم. فقيادة هذا العالم ينبغي أن تكون بيد المسلمين أمة الخير والسلام، وصفها الله تعالى بقوله: {كنتم خير أمة أخرجت للناس}(2)، وليس بيد محرفي التوراة وقتلة الأنبياء، قال تعالى: {أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون}(3).

---

(1) عبد الله التلّ، مرجع سابق، ص. 201.

(2) سورة آل عمران، الآية 110.

(3) سورة البقرة، الآية 87.

(11615/1)

... ونؤكد في خاتمة البحث أنه لا خلاف للمسلمين مع اليهودية بما هي دين له حق في الحياة، قال تعالى: {لا إكراه في الدين}(1)، والإنسان حر في ما يختار، قال تعالى: {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}(2). ولا خلاف مع أتباع اليهودية من المسالمين، قال تعالى: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين}(3). والإسلام يؤمن بالحوار مع جميع المذاهب والطوائف

---

(1) سورة البقرة، الآية 256.

(2) سورة الكهف، الآية 29.

(3) سورة الممتحنة، الآية 8.

(11616/1)

والأديان. يؤكد ذلك دعوته أهل الكتاب إلى قواعد مشتركة من الإيمان بالله وتوحيده. قال تعالى: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}(1).

... وإنما الخلاف مع المشروع الصهيوني، ومع السلوك الصهيوني المتوحش الذي يبيح لنفسه قتل الأطفال في سن الورد، وطلعة الفجر، في عصر يقال إن فيه ميثاقاً لحقوق الإنسان وضعته هيئة الأمم المتحدة! ولقد أحسن من قال:

---

(1) سورة آل عمران، الآية 64.

(11617/1)

يا هيئة الأمم المحير أمرها

القتل والتشريد ملء عيوننا

ما أعجب الإنسان يعلن مبدأ

ماذا فعلت لأمة القرآن

في القدس في لبنان والجولان

حرّاً ويسكر من دم الإعلان

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

المصادر والمراجع

البيومي، زكريا، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين. التحالف الصليبي الماسوني الاستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي، عالم المعرفة، جدة، ط 1، 1411 هـ/ 1991 م.

ابن هشام، السيرة النبوية، ضبطه طه عبد الرءوف سعد، دار الفكر، بيروت، 1409 هـ/ 1989 م.

حتي، فيليب وآخرون، تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ط 7، 1986 م.

(11618/1)

الكيرواني، رحمة الله، إظهار الحق، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر.

ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط 2، 1411 هـ/ 1990 م.

لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة عادل الزعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

المباركفوري، الرحيق المختوم، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ط 1، 1400 هـ/ 1980 م.
محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، المكتبة الإسلامية، استانبول، 1984 م.
المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار المعرفة، بيروت.

(11619/1)

متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط 3، 1377 هـ/ 1957 م.
النتشة، رفيق شاكر، السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين، دار الكرمل، عمان، ط 1، 1983 م.
السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ضبطه طه عبد الرءوف سعد، دار الفكر، بيروت، 1409 هـ/ 1989 م.
السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، شركة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط 4، ص. 1398.
..، تاريخ الخلفاء، دار الفكر، بيروت.

(11620/1)

الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط 7، 1402 هـ/ 1981 م.

قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط 7، 1398 هـ/ 1978 م.

الشناوي، عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1983 م.

التبريزي، مشكاة المصابيح، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، ط 3، 1405 هـ/ 1985 م.

التل، عبد الله، جذور البلاء، المكتب الإسلامي، دمشق، ط 2، 1398 هـ/ 1978 م.

(11621/1)

قواعد المناظرة وأخلاقياتها من خلال مجادلة محمد القيسي ومحمد الأنصاري للنصارى بالأندلس

الأستاذ محمد عبد الواحد العسري

كلية الآداب ـ تطوان

... 1 ـ لقد جمعت المناظرة الدينية بين الإسلام

والنصرانية منذ أن اضطرهما التاريخ إلى الالتقاء ببعضهما. ولقد عبرت هذه المجادلة عن تأسيس هذين الدينين لمعرفتهما بذاتهما، من خلال تأملهما ودراستهما لعناصر الاختلاف والائتلاف بعينهما. كما عبرت المناظرة ذاتها عن مختلف الضرورات التاريخية التي دفعت بالدينين المذكورين إلى الانخراط معاً، ضمن تقليدين مختلفين متكاملين في

(11622/1)

الوقت نفسه؛ تقليد التعايش والمثاقفة من جهة، وتقليد بسط الهيمنة والسيطرة، وتأجيج روح الإلغاء والإقصاء المتبادلين بينهما من جهة ثانية.

... ولقد اندرج المسلمون والنصارى معاً ضمن ذينك التقليدين، بمجرد ما دفعهم واقعهم التاريخي والثقافي والمعرفي للقائهم بالأندلس إلى ذلك ولقد عبرت عن أجزاء من تمظهرات هذا الواقع، أعداد عديدة من كتب المناظرات الدينية التي لم يتقاعسوا يوماً عن استثمار المناسبات لعقدها واختلاقها. ولقد تناول بعض هذه المجادلات ـ ضمن رؤى متباينة ـ عدد من مؤرخي الأديان، ودارسي أفكارها

(11623/1)

وعلاقاتها بمجريات التاريخ العام للأندلس. ويمكن أن نمثل لهذا الأمر بالمجهودات التي بذلها كل من ل. ب. هارفي(1)

---

(1) L. P. Harvey, The Literary Culture of the Moriscos, 1492–1609.

... وهذه الأطروحة لم تنشر بعد، غير أن الباحثين في موضوع النصوص الدينية الأندلسية يحيلون عليها باستمرار. ولقد وقفت على فصلين منها، ترجمهما إلى الفرنسية مكيل دي إبالثا.

Recueil d'études sur les Moriscos Andalous en Tunisie (I.H.A.C), Madrid, 1973 (C.E.H.A), préparé par Miguel de Epalza et Ramon Petit.

(11624/1)

، وفان كونينكزفلد(1)**، وخيرار فيخرز**(2)**، وم. دي إبالثا**(3)

---

(1) P. Sj. Van Koningsveld, "La apologي-Al-a de Kendي en la Espaًa del siglo XII. Huellas Toledanas de un Animal Disputax", Actas del II Congreso internanal de Estudios Mozل, Toledo, 1989rabes, pp. 107–129.

(2) Van Koningsveld and G. A. Weigers, "The Polemical Works of Muhammad Al Qaysi (Fl. 1309) and their Circulation in Arbic and Aljamiado among the Mudejars in the Fourteenth Century," Al-Qantara, 15, 1994.

(3) M. de Epalza, "Notes pour une histoire des polémiques anti-chrétiennes dans l'Occident Musulman," Arabica, 18, 1971, pp. 99–106.

(11625/1)

، ول. كارديا(1)

---

(1) L. Cardaillac, Moriscos y Cristianos. Un Enfretamiento Polémico, (1492 1640), trad. Mercedes Garcia Arenal, Madrid, 1979.

... ويمكن أن نضيف إلى هذه القائمة مقالتين، أولاهما لخوزيب هرناندو، وثانيتهما لأنخل كورطبريا.

J. Hernando, "De nuevo sobre la obra polémica atribuida a Ramón Martí", Al Andalus, 8, 1992, pp. 97–108؛

A. Cortabarria, "La connaissance des textes arabes chez Raymond Martin O. P. et sa position en face de l'Islam", Cahiers de Fanjeux, 18, Ouvraje intitulé: Islam et Chrétiens du Midi (XII-XIII), pp. 279–300.

(11626/1)

. كما عمل بعض المهتمين بموضوع المناظرات نفسه على إخراج بعض متنها وتحقيقها. ومن بينهم، يمكن أن نذكر . على سبيل المثال لا الحصر . عبد المجيد

التركي(1)، وعبد المجيد الشرفي(2)، وأحمد حجازي

---

(1) "رسالة راهب فرنسا إلى المقتدر بالله وجواب الفقيه أبي الوليد الباجي على هذه الرسالة، مع مقدمة وترجمة إلى الفرنسية"، ضمن: Al-Andalus, 31 (1966), pp. 73–115. ولقد حقق هاتين الرسالتين، وقدم لهما محمد عبد الله الشرقاوي، القاهرة، 1986.

(2) أحمد بن عبد الصمد الخزرجي، مقامع الصلبان، تحقيق وتقديم، تونس، 1975.

(11627/1)

السقا(1)، ومحمد رزوق(2)، وميكيل دي إبالثا(3)

---

(1) الإمام القطبي، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، تقديم وتحقيق وتعليق، القاهرة، 1980.

(2) شهاب الدين أحمد بن قاسم الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق، الدار البيضاء، 1978. ويعنى حالياً بتحقيقه ودراسته وترجمته إلى الإنجليزية: قاسم السمرائي وفان كوننكزفلد وخيرار فيخرز، من جامعة ليدن، هولندة.

(3) عبد الله الترجمان، تحفة الأريب في الرد على أهل

الصليب، دراسة وتحقيق وترجمة إلى الإسبانية: ميكل دي إبالثا Atti de la accademia nazionale de lincei, Roma, 1971) .).

(11628/1)

، وديـنـيـز كـرديـاك(1).

... وتـنـدرج المـنـاظرتـان اللتـان سـنـعـنـى بـهـما في هذه الورقة، ضمن هذا التراث الجدلي الذي جمع بين المسلمين والنصارى بالأندلس. ولنتوقف قليلاً عند ما نقصده بالمناظرة والمجادلة قبل أن نشرع في معالجتهما. فالمناظرة في "لسان

---

(1) D. Cardaillac, La polémique antichrétienne de la 4944du manuscrit aljamiado, N° bibliotèque nationale de Madrid, T. II, Translitteracion, Thèse de doctorat, Monpellier, 1972.

... أشكر الأستاذ الدكتور خيرار فيخرز الذي مكنني من مصورة من الجزء الثاني من هذا العمل.

(11629/1)

العرب" هي: "أن تنظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معاً كيف تأتيانه". والنظر في هذا المعجم نفسه هو: "الفكر الذي تقدره وتقيسه منك"(1). والمناظرة في حقول المعرفة العربية الإسلامية وخطابتها المتعددة، من مثل "خطاب التعارض وخطاب الرد وخطاب النقض وما إليهما"، هي فكر ومنهج في آن واحد تداولها المسلمون والتزموا بها في تحصيل المعرفة وتبليغها(2). لذلك وضعوا لها شروطاً وقوانين في شكل مبادئ

(1) لسان العرب، بيروت، 1955، مادة "نظر".

(2) طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، 1987، ص ص. 36 ـ 65.

(11630/1)

أخلاقية وقواعد منطقية. والجدل في المعجم المذكور هو: "اللدد في الخصومة والقدرة عليها"(1). ويستمد الجدل قسماً من معناه من الدرس الديني الذي انتهى إليه القرآن الكريم بالآية القائلة: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن}(2)

---

(1) والجدل: شدة القتل. والجدل: الصرع. وجدله جدلاً وجدله فانجدل وتجدل: صرعه على الجدالة. ولا تختلف هذه المعاني كثيراً عن مدلول الأصل اليوناني لمفردة: Polémique.

André Lalande, Vocabulaire technique et critique de la philisophie, 13è ed, 1980.

(2) سورة النحل، الآية 125.

(11631/1)

. لذلك استخدم الجدل في الثقافة الإسلامية ـ فيما استخدم فيه، وبوصفه منهجاً ـ للدعوة إلى الله، والدفاع عن العقيدة الإسلامية في الوقت نفسه (1).

... وبما أن لكل مناظرة أخلاقيات ومنطقيات، وبما أن الكتابين اللذين سنعنى بمعالجتهما يندرجان ضمن آداب المناظرة، أو بالأحرى ضمن ما يمكن تسميته بآداب المناظرة الجدلي، فسوف نؤشر على تلك الأخلاقيات وهذه القواعد المنطقية

---

(1) وبهذا المعنى الأخير استخدمه محمد القيسي (ت. القرن 14 م) ومحمد الأنصاري الأندلسي (ت. القرن 15 م) اللذين سنعنى بتناول مجادلاتهما للنصارى.

التي تميزهما. وقصدنا من ذلك مزدوج. فمن جهة، نروم الوقوف على جزء من الكيفية التي تمّ بواسطتها إنتاج هذين العملين. ومن جهة ثانية، نريد أن ننبه إلى ضرورة الاهتمام بوضع دراسات أخرى للتقعيد لتداوليات هذا النوع من المناظرة، بوصفها خطاباً طبيعياً، يرمي إلى إنتاج اليقين العملي أكثر مما يروم تحصيل اليقين النظري.

... 2 ـ لم تتبلور بالأندلس مناظرات جدلية دينية بين النصارى والمسلمين خلال الفترة نفسها التي ظهرت فيها بالشرق الإسلامي(1)

---

(1) Van Koningsveld and Weigers, p. 193.

... ويميز المؤلفان بين مراحل ثلاث أساسية في تطور هذا الجدل باللغة العربية. ولقد أدرجا مجالادت عبد الله السير ومحمد القيسي، ضمن هذه المرحلة الأخيرة، المرجع نفسه، ص. 196.

. بيد أنه بمجرد ما وصلت رسالة عبد المسيح الكندي إلى الأندلس، أخذ النصارى في إنتاج ردود ضد الإسلام على منوالها، ووفقاً لمحتوياتها(1). ولقد دافع فان كونينكزفلد على هذه الأطروحة وانتصر لها، معززاً ذلك بشواهد تاريخية ونصية متعددة(2). غير أن هذا الأمر لا يعني .في نظرنا .أن المجادلات الدينية لم تكن لتظهر بالأندلس، لولا تداول

---

(1) ومنها، حسب فان كونكزفلد: مجادلات بدرو ألفونسو، والراهب الطليطلي الذي جادله الخزرجي بكتابه سابق الذكر.

.111–108La aplogia de Al Kendi, pp.

.129–107Ibidem, pp. (2)

(11634/1)

النصارى والمسلمين لرسالة الكندي بها. فلقد خضع انبثاق هذه المجادلات وتطورها إلى شروطهما التاريخية الأندلسية الخاصة، أكثر مما خضع إلى مؤثرات شرقية صرفة(1). فضمن مختلف هذه الشروط التاريخية الأندلسية(2)، يمكن أن ندرج كتاب "مفتاح الدين والمجادلة بين النصارى والمسلمين من قول الأنبياء

(1) لا يمكن نفي دور هذه المؤثرات في هذا الصدد. فلقد ساهمت بالفعل في تعرف النصارى بالأندلس وبأوروبا على الإسلام.

(2) تراجع في هذه الشروط الأعمال المذكورة أعلاه لكل من: فان كوننكزفلد وفيخرز وميكل دي إبالثا ولويس كارديلك

(11635/1)

والمرسلين والعلماء الراشدين الذين قروا [قرأوا] الأناجيل" لمحمد القيسي(1)، وكتاب "رسالة السائل والمجيب ونزهة روضة الأديب" لمحمد الأنصاري الأندلسي(2). وما فتئ أول هذين الكتابين مخطوطاً بالخزانة الوطنية بالجزائر(3)

(1) وهو من أصل تونسي، ولقد عاش مدة من حياته أسيراً لدى النصارى بشمال الأندلس (ت. ق. 14 م).

(2) نزيل فاس أواسط القرن التاسع الهجري. (محمد المنوني، "مناقشة أصول الديانات في المغرب الوسيط والحديث"، مجلة البحث العلمي، الرباط، 1968، ص ص. 24 - 26).

(3) رقم 1557. لقد مكنني من مصورات من هذا الكتاب، ومن كتاب الأنصاري كذلك الأستاذ الفاضل الدكتور فان كونكزفلد الذي أشكره جزيل الشكر على ذلك وعلى اقتراحاته وتوجيهاته بخصوص موضوع هذه الورقة.

(11636/1)

. ولقد شكل موضوعاً لمقال فان كونينكزفلد وخيرار فيخرز، حيث عالجا في الجزء الأول منه الأقسام الثلاثة من "مفتاح الدين". كما عملا على تتبع آثار الترجمات الأعجمية التي خضع لها في أدبيات المجادلة بالأندلس خلال القرن الرابع عشر(1). كما استخدم أول هذين الباحثين قطعاً منه في درسه الافتتاحي ـ لتقلد منصب أستاذ كرسي للتاريخ الديني للإسلام في غرب أوروبا ـ للاستدلال على قدر من

---

(1) وحسب اجتهادات فان كونكزفلد وفيخرز، فالذي نقل هذا الكتاب إلى العجمية، هو علي الغريب (Van Koningsveld and Weigers, p. 192).

(11637/1)

أطروحة هذا الدرس(1). أما كتاب "رسالة السائل والمجيب"، فما زال مخطوطاً كذلك(2)

---

(1) الأسرى المسلمون في أوروبا الغربية خلال القرون الوسطى المتأخرة، ص. 11 من النسخة المهداة إلى كاتب هذه السطور.

(2) ويعرف منه ثلاث نسخ. محمد المنوني، ص ص. 27 ـ 28؛ والنسخة التي تستخدم في هذه الورقة هي نسخة الخزانة العامة بالرباط، 178 ج. وتجدر الإشارة إلى أنه إذا قارنا وصف المنوني لتلك النسخ، فإنه يمكن ملأ بياض في النسخة التي نستخدم بخصوص المدن التي عقد فيها الأنصاري مجادلاته، فتكون كالتالي: المجلس الأول بشقوبية (أمكن تحديد ذلك بالاستنتاج)؛ والثاني بسلمنقة؛ والثالث والسادس بمجريط؛ والرابع بوليدا؛ والخامس بشقوبية. ويذكر المؤلف بأن الفصول الجدلية التي سنتناولها في هذه الورقة، هي التي دعته إلى تأليف مجموع رسالته برسم الوزير المريني الحاجب أبي زكرياء يحيى بن زيان.

(11638/1)

. ولقد استخدم فان كونينكزفلد ورقتين منه في درسه سابق الذكر، لتحقيق الهدف نفسه.

... 1 . تستلزم كل مناظرة وجود دعوى، ووجود جانبين للدفاع عنها والاعتراض عليها ضمن آداب ووظائف محددة. ولابد أن تنتهي كل مناظرة إلى إفحام طرف منها للطرف الآخر، من أجل إظهار الحق وتحصيل الحقيقة واقتسامها(1)

---

(1) لم تندرج المناظرة الدينية بين الإسلام والنصرانية ضمن هذه الاستراتيجية الأخيرة، فلم يكن يهم الإسلام ولا المسيحية معاً سوى إعادة إنتاج الحقيقة المحصلة عند كل منهما سلفاً والدفاع عنها، ودحض حقيقة الآخر ورفضها وإقصائها.

(11639/1)

. فما دعوى محمد القيسي ومحمد الأنصاري ومجموع النصارى الذين تجادلوا معهما؟ (1)

... إنها دعوة عقدية لاهوتية صرفة. لذلك سنجد كاتبينا ومن ناظرهم من النصارى يتقلدون . في آن واحد وظائف المعتقد.

---

(1) "الحمد لله الذي هدانا للحق وأشهد النبي محمداً على الخلق وسلك بنا طريق الصدق وعصمنا من الزلال وجنبنا طريق الضلال فنحن الخلفاء الراشدين على الحق شاهدين اعتقادنا التوحيد وآمنا بالوعد والوعيد ونبيه الرشيد مفتاح العلوم ومبدد اليهود والروم يجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل وفي كل كتاب وتنزيل" (49/ 11 ـ 17).

(11640/1)

المسلِّم لما جاء في عقيدته بنصوصه المقدسة الخاصة به، ووظائف الناظر السالك لسبل الاستدلال على صحة عقيدته، إلى جانب أدوار العارض لدعواه والمعترض على دعوى خصمه.

... 1. 1 ـ بلور محمد القيسي في مقدمة كتابه ملخص الدعوى التي سيعمل على الدفاع عنها في القسم الأول والأخير منه. ولقد رامت هذه الدعوى الدفاع عن أطروحة مركزية تستقطب جوهر المناظرة الإسلامية النصرانية. وهي إثبات نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – بوصفه رسولاً جاء بالدين الحق والوحيد، من بعدما بشرت به جميع الكتب المنزلة. وتلك هي الدعوى نفسها التي

سيتخذ الأنصاري دور المنتج لها والعارض إياها باتخاذه لدور المعترض على دعوى النصارى في ما يتعلق بتصورهم لنبوة المسيح وألوهيته في الوقت نفسه. ومن المعروف أن دعاوى المسلمين والنصارى في هذا الصدد، وما يترتب عليها من تصورات مختلفة للرب وللنبوة عند كليهما، هي التي شكلت خلافهم السرمدي الذي انعكس في مجادلاتهم الدينية، وفي علاقاتهم المختلفة على مر الحقب والعصور(1)

---

(1) ولم تنجح قط أيّ محاولة توفيقية لتخفيض هذا الفرق الأساسي بين الإسلام والنصرانية. تراجع المصادر والمراجع التي اعتمدها في هذا الإطار خوان بانيلا وميكل دي إبالثا.

Littérature morisque en " ,Juan Panella

extait de la hèse de ,"espagnol en Tunisie

doctorat en histoire, encore inédite : Los moriscos espaُoles emigrados al norte

, 1609on de يde africa depués de la expuls

,, in Epalza, Recueil1971Barselona,

Influences islamiques dans la " ؛198- 187pp.

:théologie chrétienne médiévale

,"(L’adoptionisme espagnol (VIIIème siècle

,1992Islamochristiana, Roma,

.71–55pp.

(11642/1)

.

... ولقد رجع محمد القيسي لعرض دعواه إلى التوراة والإنجيل، فقدم ما جاء بهما بخصوص نبيه. وأول عباراتهما التي تسمح له بالدفاع عن دعواه وبالاعتراض على دعوى النصارى في شأن علاقة ناسوتية المسيح بألوهيته. ففي القسم الأول من كتابه، وقف عند ذكر إشعيا والزبور والإنجيل لرسول الإسلام(1)

---

(1) " أرى راكبين مقبلين أحدهما على حمار والآخر على جمل ينزل أحدهما لصاحبه (...) إن صاحب الحمار هو عيسى بن مريم وصاحب الجمل هو محمد – صلى الله عليه وسلم – " (50ـ12)؛ ولعله يحيل على: إشعياء 21/ 7: "هددوا في الزبور أن يرسل عليهم السيف ومعلوم أنه لم يأت نبي بسيف إلا محمد – صلى الله عليه وسلم – "، (50/ 15ـ16): "فاحفظوا وصيتي فسياتيكم الفارقليط يكون معكم

أبداً فإذا أتاكم الفارقليط بروح الحق والصدق فهو الذي يشهد علي" (16/ 12 ـ 14)؛ في إنجيل يوحنا آيات مختلفة تسمح باستنتاج هذا المعنى (15/ 26 و 16/ 7). ومن المعروف أن الفارقيط مفردة يونانية تفيد معنى:الشفيع. لذلك استند إليها القيسي ـ مثل جميع المسلمين ـ ليستدل بها على أن المسيح بشر بمحمد، نظراً لأنه لم يعرف نبي آخر بهذه الصفة. (راجع هامش 84). وترجع جميع المناظرات الإسلامية للنصارى إلى هذا الإنجيل. للاستدلال على هذا الأمر، يمكن أن نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: ناصر الدين على القوم الكافرين، مصدر مذكور، ص ص. 31 ـ 106؛ تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، مصدر مذكور، ص ص. 479 ـ 485.

(11643/1)

، قبل أن يشرع في وضع تاريخ للنصرانية ضمن رؤية إسلامية صرفة لهذا المعتقد. فبين كيف غرر بولس اليهودي(1)

---

(1) ولقد كان بولس يهودياً قاسياً على النصارى يتتبعهم بالتهديد والقتل قبل أن يعتنق النصرانية بدوره. "أنا رجل يهودي (...) فاضطهدت هذا الطريق

[النصرانية] حتى الموت، فكنت أعتقل أتباعه من الرجال والنساء، وأزج بهم في السجون". (أعمال الرسل، 22/ 3 ـ 4). وتعتبر رسائل بولس في "العهد الجديد"، من أهم النصوص التي قعدت للنصرانية وشرحتها. ويرى المسلمون أن اليهود "دسوا هذا الرذل بولس لإضلال أتباع المسيح"؛ ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل،بيروت، 1975، ص. 71؛ أحمد شلبي، مقارنة الأديان، 2 المسيحية، ص 6، 1978، ص ص. 104 ـ 125، 142؛ عبد الله الشرقاوي، في مقارنة الأديان، 1986، ص ص. 152 ـ 161؛ موريس بوكاي، دراسات في الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، دار المعارف، 1978، ص ص. 70 ـ 74. (مترجم عن الفرنسية).

Maurice Bucaille, La Bible, le Coran et la Science, ed, 14, 1976, p. 62.

(1/11644)

بمختلف شيع النصارى(1)، ما عدا شيعة المومن التي قاتلها إلى أن تفرقت في الأرض(2)

---

(1) "يعقوب ونسطور وملكون" (53/ 9). ويقصد القيسي بذلك فرق النصارى من اليعقوبية والنسطورية

والملكية.

(2) أما شيعة المومن، "فأدرك النبي منهم ثلاثين رجلاً راهباً فأمنوا وصدقوا قوله". (55/ 5 ـ 6)؛ ولقد جعل القيسي من خوف "صاحب فرنجة" ونصارى الأندلس من بقية هذه الشيعة بأحد معابدها بينهم، ومن استعدادها الأصلي للانقلاب إلى الإسلام، سبباً في اندلاع حرب ضد المسلمين بهذه البلاد. (ص ص. 68 ـ 71).

.176–172Van Koningsveld and Weigers, pp.

(11645/1)

، وكيف حرَّف لهم دينهم وأعدهم لمتابعة هذا التحريف. ولقد رام القيسي من هذا التأريخ لهذا الدين تيسير إمكان الاعتراض على دعوى النصارى بشأن ألوهية عيسى. ولقد بلور اعتراضه على هذه الدعوى ذاتها، بالرجوع إلى الأناجيل المختلفة والاستناد عليها؛ فاختلافها دليل عنده على ضياع تواتر النصرانيّة وانقطاع سندها، مما أدى ـ في نظره ـ إلى ضرورة مجيء الإسلام لتتميم الرسالة السماوية وإقفالها. ناهيك عن أنه لا يوجد في هذه الأناجيل، على تعددها واختلافها(1)

---

(1) "هكذا اختلفوا في قتله وفي سيرته وجميع أحواله والإنجيلات الأربعة مختلفة في جميع معانيها" (63/ 16 ـ 17).

(11646/1)

، ما يسمح باستنتاج عقيدة النصارى ـ عنده ـ في المسيح، تلك العقيدة المتعددة والمختلفة في حد ذاتها. فاعتقادهم بأن المسيح ابن الله لم يرد لا بالتصريح ولا بالتضمين في أي إنجيل(1). ولم يرد كذلك

---

(1) ترد مفردات الابن والأب والآب في الأناجيل: "ما زال أبي يعمل إلى الآن، وأنا أيضاً أعمل". (يوحنا، 5/ 17؛ وكذلك 5/ 21 ـ 22، إلخ). ولا ندري لم أنكر القيسي ذلك مع قدرته على تأويل الآبن والأب تأويلاً مجازياً، خاصة وأن بعض آيات الأناجيل تسمح بذلك: "... إني سأصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم" (يوحنا، 20/ 18).

(11647/1)

اعتقادهم بأن الله هو المسيح وأنه ثالث ثلاثة(1).

فالمسيح كان ينادي ربه(2)

(1) " لأن اعتقادهم بأن الله هو المسيح، ولهم اعتقاد آخر أن الله ثالث ثلاثة، ولهم اعتقاد آخر أن المسيح ابن الله، فهذه اعتقاداتهم مختلفة غير موافقة بعضها بعضاً " (60/ 4 ـ 6)؛ ولقد اختلفت "اليعقوبية والملكية والنسطورية" في التثليث والاتحاد بالفعل. (Emilio Platti, " La doctrine des chrétiens d'aprés Abu Isa Alwarraq dans son traité sur la trinité", 20MIDEO, 1991, p. 25).

(2) " ربنا الذي في السماء تقدس اسمك وبان ملكك وطابت مشيئتك" (55/ 16 ـ 17)؛" ولم يقل أنا في السماء تقدس اسمي وربان ملكي" (57/ 5 ـ 6).

(11648/1)

، وربه كان يناديه(1)، كما كان "يتضرع إلى الله ويدعوه ويرفع يده إلى السماء"، ويحيي بإذنه الموتى(2). فكيف اعتقد النصارى في عيسى ما

(1) "أنت نبيِّي وحبيبي الذي بك سررت" (57/ 18)؛ "فهذا دليل على أنه رسوله أرسله وعبده وابن أمته"، (58/ 5 ـ 6). ويلاحظ في هذا المضمار أننا نقف في إنجيل

مرقس (1/ 11) على هذه الآية: "وإذا صوت ينادي من السماوات يقول: أنت ابني الحبيب، بك سررت". (انظر هامش 36).

(2) "رب لك الحمد إني أعلم أنك تعطيني كل شيء (...) ثم قال: "قم يا يعزار!"، فقام يجر حماره" (60/ 19 ـ 21/ 1 ـ 2).

(11649/1)

اعتقدوه؟

... 1. 2 ـ عندما حاول النصارى ـ حسب القيسي ـ تمثل عيسى وتكوين تصورات عنه وعن الله من خلال قصة المسيح، اعتمدوا منهج القياس، قياس الرب على المسيح ومماثلة أحدهما للآخر، بالرغم من اختلافهما بوصفهما محدثاً وحادثاً. فانتهوا تبعاً لذلك إلى التثليث، عندما كان عليهم أن يتوقفوا في هذا الأمر مثلما يتوقف المسلمون، فلا يسألون عن كيفية حدوثه(1). هكذا اعترض القيسي

---

(1) "نومن بالنفخة والروح والكلمة ولا نقول كيف ذلك

إلا أنه نقول من أمر الله ونقف حيث انتهى في صفته أو رسوله ولا علينا حجة" (86/ 14 ـ 16).

(11650/1)

على مضمون دعوة النصارى وعلى منهج تحصيلهم للمضمون نفسه. لذلك اتجه إلى إبطال دليل المدعين (النصارى) بما يسمى في لغة أهل المناظرة بالنقض أو المنع المدلل. فمن جهة، لا يستلزم من أدلة النصارى تصورهم للرب وللمسيح؛ ومن جهة ثانية، فإن المنهج الذي اتبعوه لتحصيل دعواهم (القياس) لا يجوز استخدامه في هذا الصدد، لعدم تساوي قطبي القياس ولاختلافهما. ثم إن هذا المنهج يحايثه بالضرورة الشك والظن، بينما يقتضي تحصيل العقيدة بناءها على القطع واليقين(1)

---

(1) "لأن الدخول مع الله وصفاته إذن قياس والقياس ظن والظن شك والشك لا يخرج منه حق" (87/ 1 ـ 2).

(11651/1)

. وبذلك أبطل القيسي حجية القياس في هذا المضمار جرياً على عادة المتكلمين في الغرب الإسلامي

الوسيط(1). وسيستمر محمد القيسي، لبلورة دعواه الخاصة في الله وصفاته المعارضة لدعوى النصارى في هذا الصدد، بعض أدلة علم الكلام الإسلامي، من مثل دليل

---

(1) عن إبطال القياس عند ابن حزم مثلاً يراجع، سالم يفوت، ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس، 1986، ص. 318؛ وعن إبطاله عند ابن تومرت: عبد الواحد العسري، معالم من الفكر الموحدي بمراكش، مراكش من التأسيس إلى آخر العهد الموحدي، آداب مراكش، 1988، ص ص. 206 ـ 207.

(11652/1)

الخلق ودليل نفي التحيز ودليل نفي الشبه(1).

... 1. 3 ـ ويبدو أن القيسي كان يضطر إلى مجادلة النصارى في غير هذه المواضع التي تشكل الخلاف الأساسي في الجدال الديني بين الإسلام والنصرانية. فلقد اعترض على دعاوى أخرى للنصارى ضد الإسلام بخصوص ما يتضمنه من

---

(1) " قد تبين أن الله ليس كمثله شيء فكيف يمتزجوا الأعراض إذ ليس بجوهر ولا عرض ولا جسم" (59/ 16 ـ 18)؛

"فذلك محدث وله محدث لا يشبهه ولا يمازجه" (60/ 2 ـ 3).

(11653/1)

"الآيات المتشابهات والأحاديث المشكلات". فعندما سأله "راهب فاجر" عن دينه ونبيه، فأجابه القيسي بأن دينه هو التوحيد، وبأن نبيه هو محمد الذي نعته الإنجيل بالفارقليط، اعترض عليه ذلك مناظره (1). فالتوحيد في الإسلام ـ حسب هذا الأخير ـ مجرد زعم وادعاء، ما دام المسلمون يتمثلون ربهم ـ من خلال الآيات القرآنية ـ داخل مفاهيم الجوهر والعرض والجسم

---

(1) "ورماني بين حزب الشيطان في دار الكفر والطغيان أخدم النصارى العصيان والقسيسين والرهبان في المجادلة والهوان حتى سلبني عقلي وصيرني لا أملك قياد قولي" (81/ 6 ـ 9).

(11654/1)

وبواسطتها؛ فيجعلون بذلك لله جسماً ويدين ورجلين وحركة وانتقالاً، إلخ. (1) وقبل أن يشرع كلٌّ من الراهب

والقيسي ـ بمعية "الزعيم الكافر" ـ في إنتاج الدعاوى والاعتراضات المتبادلة، حاول ـ كل من جانبه ـ أن يضبط بعض قواعد المناظرة وأخلاقياتها. فهذا محمد القيسي يطلب من محاوره أن لا يغصبه حقه في الكلام، وأن يلتزم بما ستسفر عنه محاورتهما(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص ص. 82ـ83

(2) بالرغم من أن هذا النوع من المجادلة لم يكن ليهمه هذا الأمر في الدرجة الأولى، فإن ذلك لم يكن ليمنع أن يطمع ـ أحياناً ـ أحد طرفيها في إقناع الطرف الآخر. لذلك ذهب القيسي إلى أن من الرهبان من تشرح المناظرة "صدره للإسلام" (84/ 1).

(11655/1)

. وذاك الزعيم الكافر يرفع القيسي إلى مستوى خصمه حتى لا يستعظمه ويستحقره فيضعف عن القيام بحجته(1). لذلك تمكن القيسي من منع دعوى الراهب، بالنقض نفسه الذي سبق أن استخدمه للاعتراض على دعوى النصارى بخصوص المسيح والتثليث. غير أن القيسي، بعد إلحاح مجادله الذي يبدو بأنه لم يفهم ذلك الاعتراض المنهجي (إبطال القياس) أو أنه لم يقتنع به،

استعاد مناقشة إشكال المتشابه في الإسلام، مضيفاً إلى ذلك مشكلات عقدية أخرى(2)

---

(1) "يا محمد اسمع ما اقول لك تكلم وانصر دينك وقيد ألفاظك" (84/ 8 ـ 9).

(2) من أهمها تصور المسلمين للجنة بوصفها مجالاً للذات، الأكل والشرب والجماع وما يترتب على ذلك ومن الجدير بالذكر أننا نجد هذا الاعتراض النصراني على جنة المسلمين، يتردد في جميع المجادلات من هذا النوع.

Raymond Martin, Explantio, 52–54 A. in ,

Cortabaria, p. 296؛

الحجري، ناصر الدين، ص ص. 77 ـ 80.

(11656/1)

. ونظراً لأن هذه المشكلات هي نفسها التي سبق أن أجاب عنها راهب فرنسا، عبدُ الله الأسير(1)، فلقد اكتفى القيسي بإعادة إنتاج اعتراضات هذا الأخير على

---

(1) لقد أفرغ كوننكزفلد وفيخرز جهداً ملحوظاً للتحقق من هذه الشخصية الغامضة في تاريخ المجادلة الإسلامية النصرانية بفرنسا. وفي انتظار ذلك، استطاعا معاً أن

يفندا ما ذهب إليه كل من هارفي وأسين بلاثيوس ودينيز كارديك ولويس كارديك في هذا الصدد، الذين تصوروا بأن المعني بالأمر، هو: عبد الله الترجمان، صاحب "تحفة الأريب".(Van Koningsveld and Weigers, p.193) .

(11657/1)

دعوى النصارى في هذا الصدد. ولقد تمحورت هذا الاعتراضات على مضمون الدعوى واستندت إلى المنع المدلل. فالآيات التي احتج بها الراهب على القيسي تستلزم نقيض ما رام بها، لأنها تمتنع على التمثل الحرفي لها، وتستدعي في المقابل تأويلاً مجازياً بحسب دليل خطابها، وبما جرت به العادة من كلام العرب ولغاتهم، وذلك هو ما يجهله الراهب تمام الجهل حسب القيسي(1). فاليد في قوله {يد الله مغلولة}(2)

---

(1) "وهو [أي المتشابه من القرآن والحديث] بلسان العرب ولا معرفة لك به ولا جواب" (84/ 4 ـ 5).

(2) {يد الله مغلولة} (المائدة، الآية 63).

(11658/1)

لا يجب أن تحمل على معناها الحرفي فيستفاد منها اليد الجارحة، بل عل معناها المجازي الذي تسمح به اللغة العربية، فتغدو هي "النعمة"(1).

... بهذا النقض المدلل عارض القيسي دعوى الراهب دون أن يعترض على لفظها ولا على صحة نقلها. كما عمل على منعها بإبطال ما استلزم من ألفاظها مناظرُه من تصورات تشبيهية وتحييزية لله ولصفاته التي رام بنسبتها للإسلام نسف دعوى هذا الدين بخصوص التوحيد والتنزيه اللذين يقوم عليهما.

---

(1) 87/ 18 ـ 20.

(11659/1)

... وبذلك استطاع محمد القيسي أن يحقق هدفه من مجادلته للنصارى التي اضطر إليها، باعتراضه على دعاويهم ومنعها وإبطالها، فأفحمهم وانتصر عليهم(1)، معتمداً في كل ذلك بعض قواعد المناظرة المنطقية والتداولية والأخلاقية.

... 2 ـ قبل أن يشرع محمد الأنصاري في مناظرة خصومه، أورد مقدمة بين يدي قارئه، بين له فيها أنه إذ يتوجه

إليه بكتابه، فلكي يُيسر له ـ في حالة اضطراره إلى مجادلة النصارى ـ

---

(1) ولا غرو في ذلك، فالمجادل ينتصر دائماً على خصومه في النصوص التي يخطها بيده (فان كونكزفلد، الأسرى المسلمون، ص. 9).

(11660/1)

إمكان الرد عليهم وإفحامهم، لصيانة دينه ونبيه(1)، بأن يتعلم كيف يعترض على صحة النصرانية لتناقض الأس الذي تقوم عليه، وهو التثليث. لذلك يمكن أن ندرج هذا الكتاب من حيث وظيفته المصرح بها، ضمن الآداب الإسلامية ـ العلمية والتعليمية ـ التي رامت المحافظة على الإسلام بين أوساط المسلمين الذين تغلَّب عليهم النصارى بالأندلس(2)

---

(1) " فإنه إن اضطر أحد إلى مناظرتهم يوماً وهو غير عارف بأصولهم ربما أفحموه وألبسوا له الحق بالباطل " (301/ 52 ـ 302/ 1).

(2) بوصفها وسيلة من وسائل حماية الذات الإسلامية وهويتها، من خطر التنصير المحدق بها داخل أوساط

النصرانية المتغلبة. أتأسف لكوني لم أستطع الحصول على مقال دينيز كردياك في هذا الموضوع:

D . Cardaillac, “ Alqayçi et le moine de lérida, ou comment affirmer une identité islamique en milieu chrétien ”, in Actes du II. Symposium international du CIEM sur Religion, identité et sources documentaires sur les Morisques Andalous, Tunis, 1984, Vol. 1, pp. 129–137.

(11661/1)

.

... ولقد دارت المجالس الستة التي عقدت بين الأنصاري وأساقفة وشمامسة النصارى بالأندلس النصرانية حول دعاوى مختلفة ومتعددة، استقطبت جل نقاط الخلاف بين الإسلام والنصرانية بوصفهما دينين متغايرين ومتصارعين في آن واحد. ولعل أهم عنصر من عناصر هذا التغاير المستعصي بينهما، هو إنكار النصارى لنبوة محمد وإنكار المسلمين لألوهية المسيح، إلى جانب ما يتفرع عن ذلك من مشكلات عقدية وتشريعية متعددة.

... 1 .2 . عندما امتدح أحد زعماء الأساقفة دينه وعرض بالإسلام بالنيل من رسوله(1)

_____

(1) غير أنه لم يقدم ـ كما تقتضي ذلك قواعد المناظرة ـ أدلة خصمه على دعواه، وسيكون هذا هو ديدنه طيلة مجادلته، لذلك بدأ بهذا الاعتذار: "كان أول ما بدا به هذا الأسقف الضليل الثناء على دينه بجعاجيع وأخاليط أضربت عن ذكرها لطولها وشناعتها في الكفر" (303/ 1 ـ 2). ومن المعروف أن النصارى يستندون لإبطال الإسلام إلى الحياة الخاصة لنبي هذا الدين وسيرته.

"– Machometus fuit mendax - Machometus non fuit mundus sed potus immundus et peccator- Machometus nunqam fecit miracula ", Ramón Martí, Tractatus contra Machometum, in J. Hernando, p p. 100–101.

De Bunes Ibarra-Miguel Angel, La imagen de los Musulmanes del norte de Africa en la Espana de los siglos XVI y XVII, Los caràcteres de una hostilidad, (C.S.I.C), Madrid, 1989, pp. 203–213.

(11662/1)

اعترض عليه الأنصاري بمجموعة من الاعتراضات على مضمون ،

هذه الدعوى ومنعها بالنقض المدلل. ولقد استقطب هذه الاعتراضات هم البحث عن أصل النصرانية وأسها لتيسير الاستدلال على فسادها وعدم صحتها. لذلك عمد الأنصاري إلى التأريخ لظهور هذا الأس وذلك الأصل(1)، فأرجعهما إلى تحريفات عديدة رافقت ظهور النصرانية وتطورها وحايثتهما. ولقد شملت هذه التحريفات - عند الأنصاري - نصوص هذا الدين من جهة، وتأويلات أساقفته لها من جهة أخرى. فبالإضافة إلى المؤامرة اليهودية التي طالت النصرانية في

---

(1) الأضاليل التثليثات (304/ 9).

(11663/1)

مهدها، وأدت إلى ألوهية المسيح وبنوته إلى الرب(1)، وبالإضافة إلى رؤيا قسطنطين أو أمه التي أدت إلى اتخاذ الصليب أسّاً لهذا الدين ورمزاً له(2)، فلقد كان لاجتماعات أساقفة النصارى دورٌ هامٌّ وحاسمٌ في التقعيد للتَّثْليث(3)

---

(1) انظر هامش 32.

(2) "تقولون إنه رأى رماحاً كانت نزلت من السماء وأعلاماً فيها صور صلبان وإنه قيل له خذها وقاتل بها عدوك"

(305/ 5 ـ 6)؛ وحمل الصليب وتقديسه من أهم شعائر النصرانية. "إن أراد أحد منكم أن يسير ورائي، فلينكر نفسه وليحمل صليبه كل يوم ويتبعني" (لوقا، 9/ 23).

(3) " ذلك أن قسطنطين لما تم من أمره، ذكر جمع الأساقفة الذين كانوا ببيت المقدس، وهو أول الاجتماعات التي تسمونها سندوسات وهي سنة عندكم وفيها شرعوا لكم ديانتكم"؛ ويقصد الأنصاري بأول الاجتماعات ما هو معروف في تاريخ النصرانية، بمجمع نيقية الذي عقده قسطنطين سنة 325 م، والذي اتخذ فيه أساقفة المسيحية لذلك الزمان قرار ألوهية المسيح بوصفه ابناً للرب. يقول القرار: "نومن بالله الواحد (....) الأب مالك كل شيء (...) وبالابن الواحد (...) يسوع المسيح ابن الله الواحد (...) إله حق من إله حق من جوهر أبيه". (أحمد شلبي، مقارنة الأديان، ص. 2؛ المسيحية، 1978، ص. 144).

(11664/1)

.

... يرجع التثليث عند النصارى إلى ثلاثة قواعد أساسية، عمل الأنصاري على عرضها وعلى الاعتراض عليها في الوقت نفسه. فلقد اعترض على مضمون الدعوى (التثليث)

وبين كيف أنها لا تستلزم بالضرورة من النصوص الدينية وقصصها التي استدل بها النصارى على ذلك، من دون أن يعترض على صحة نقلها، بل اكتفى بالاعتراض على عدم ملاءمة تأويلات الأساقفة لهذه النصوص ذاتها، لمصادرتها المسبقة على المطلوب الذي هو التثليث(1)

---

(1) "إن الله لما قال للملائكة نحن خالقون بشراً على صورتنا (...) قال أساقفتكم إن هذا تصريح ونص من الله بالتثليث" (305/ 16 ـ 17)، "وإن إبراهيم لما قرب إليهم العجل لياكلوه، امتنعوا من ذلك فعلم إبراهيم من زعمكم أن الاثنين ملكان وأن الثالث هو الله" (306/ 3 ـ 5).

(11665/1)

. كما اعترض على اعتمادهم لمنهج القياس في تحصيلهم الدعوى نفسها، فبين لهم أنه حتى ولو سلم لهم تسليم جدل بأن "جميع الأنبياء مثلّثة" وبأن الشمس "من ثلاثة أشياء: جرم وحرارة وضياء" "وأن الإنسان كذلك جسم وروح وشهوة" (1)، فإنه لا يجوز نقل هذا التثليث من مضمار الموجودات إلى مضمار موجد الموجودات وسحبه عليه(2). ويعكس هذا الأمر اختلاف تصوري

(1) 306/ 11 ـ 12.

(2) "لنطق كل حبر منكم من يقيس الخالق بالمخلوقين والرب القديم بالمحدثين" (306/ 17 ـ 18). راجع "إبطال قياس الشاهد على الغائب" عند القيسي (هامش 43).

(11666/1)

النصارى والمسلمين للرب أو للإله فيما يتعلق بإشكال مفارقته أو محايثته للكون وللإنسان. وهو الإشكال نفسه الذي سيتردد بصيغ مختلفة في جميع مجالس مناظرات الأنصاري لخصومه.

... 2. 2 ـ ففي المجلس الثاني منها، طرَح هذا الأمر من خلال قصة صلب المسيح التي استدرج أسقف سلمنقة لعرض دعواه فيها، وللاستدلال عليها. ولقد انساق هذا الأسقف وراء ذلك، طمعاً في إقناع الأنصاري بحكمة الصلب في المسيحية. وتعتبر قصة صلب المسيح وما يحايثها من الاعتقاد في الطبيعة المزدوجة لعيسى(1)

---

(1) لقد جعل الأنصاري من محاوره المعبر عن ذلك بقوله: "فهو الإنسان التام من جهة الجسم و[الإله] التام من جهة الروح" (308/ 5 ـ 6).

، وفي الحلول والتجسيم، الأساس الثاني من الأسس الثلاثة للنصرانية(1). ويعتبر النصارى سر التثليث وكنهه من الخفاء والغموض بحيث إنه يتعدى حدود المعرفة العقلية وإمكاناتها(2)

---

(1) "أولها التثليث وثالثها محاسبة عيسى للناس. "والأب لا يحاسب أحداً، بل أعطى الابن سلطة القضاء كلها" (يوحنا، 5/ 22).

(2) عن حدود العقل والتثليث، يراجع:

" Trinité", in Dictionnaire des religions, 1984, 1729pp. 1731.

... "ويقول القس وهيب عطا الله: إن التجسيد قضية فيها تناقض مع العقل والمنطق والحس والمادة والمصطلحات الفلسفية، ولكننا نصدق ونومن أن هذا ممكن حتى ولو لم يكن معقولا" (طبيعة السيد المسيح، ص. 18؛ أحمد شلبي، مقارنة الأديان، ص. 2؛ المسيحية، 1978، ص. 139). وعند عموم المسلمين، فإن الدين الحق لا يمكن أن يتضمن الأسرار والخفاء والغموض (علي بن زين بان المهتدي، الرد على النصارى، نشره الأبوان: I. A. Khalife et W. S. J. Kutsh, Ar-radd ala-n–

nasara de Ali Attabari, Edi, in Mélange de
35 l'université St. Joseph, Vol.
.116p. ,1959)

... لذلك ذهب ابن حزم إلى أنه "لولا أننا شاهدنا النصارى، ما صدقنا أن في العالم عقلاً يسع هذا الجنون" (الفصل في الملل والأهواء والنحل، بيروت، 1975، ج 1، ص. 49).

(11668/1)

. ذلك هو ما رام مجادل الأنصاري إقناعه به، مستدلاًّ على ذلك بقصة عصيان آدم لربه بالجنة(1). فلقد اقتضت مشيئة الرب أن يعاقب العاصي وذريته على ذنبه مثلما اقتضت رحمته أن يُصلب ابنه فدية للأنبياء وتخليصاً للآدميين(2). اتجاه هذه الدعوى، بلور محمد الأندلسي الأنصاري خمسة اعتراضات لنقضها ومنعها.

---

(1) "قصة المسيح من الخفاء والغموض بحيث لا ينتهي إليها المسلمون ولا كثير من النصارى لدقتها وخفاياها" (307/ 91 ـ 20).

(2) 69. 307/ 25 ـ 27 ـ 308/ 1 ـ 5؛ **ولقد خرّج هذه السطور فان كوننكزفلد، الأسرى المسلمون، ص.** 12.

(11669/1)

ولقد أراد بثلاثة منها الاستدلال على أن دعوى النصارى في هذا الصدد تنسب الجور إلى الله من حيث تروم نفيه عنه، مما لا يجوز في حقه لا شرعاً ولا عقلاً(1). كما أراد برابعها نقض قول النصارى بالاتحاد والحلول لاستحالة اجتماع "الإله القديم الباقي مع الجسم المحدث الفاني"(2). أما الخامس من هذه الاعتراضات، فلقد نقض به الأنصاري فكرة الخلاص النصرانية المحايثة لقصة صلب

(1) " فكيف على أحكم الحاكمين وهو أهل العدل والأمر به في كتابه أن يعاقب أبناء أبناء الأنبياء في آباء آباء الآباء" (308/ 14 ـ 15).

(2) 309/ 6.

(11670/1)

المسيح(1). وبذلك جاءت جميع هذه الاعتراضات من قبيل المنع المستند والمنع المدلل التفصيلي. فلقد

(1) "قولكم إنه قتل في مرضاتكما ولينقدكم من النار" (309/ 11 ـ 12)؛ ونظراً لأن المنع في المناظرة يكون أحياناً فعلاً "تكلميا إدباريا تشكيكيا

وسجاليا". (طه عبد الرحمن، ص. 72)، فقد اعترض الأنصاري على نقض الأسقف لاعتراضاته. ["فإن الموت ذاقه جسمه لا روحه"، 309/ 17؛ "كان له روحان أحدهما لسائر البشر (...) والآخر إلهي لم يستحس بشيء من الألم" (310/ 3)]، بتأكيد علاقة الروح بالجسد وباستحالة اجتماع روحين في جسد واحد.

(11671/1)

استندت إلى تصور الإسلام لله وللنبوة، المخالف لتصور النصارى لهما، من حيث المفارقة والمحايثة اللتان سبق ذكرهما.

... ولقد أبطل محمد الأندلسي دعوى النصارى التي عرضها في المجلس السادس من مناظراته مجموعة من الأساقفة. فلقد دعوه في هذه المرة إلى الدخول في "دين المسيح والعهد الصريح" (1)، مسوغين لأنفسهم هذا الحق بالاستناد إلى ما جاء في الإسلام عن المسيح، من حيث كونه: "رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه" (2)، وإلى ما عندهم فيه كذلك: "ونحن نقول باسم الأب والابن والروح

_____

(1) 310/ 31.

(2) 310/ 15.

(11672/1)

القدس ثم نقول إلاهاً واحداً"(1). والواقع أن هؤلاء الأساقفة قد راموا بذلك تقليص الفوارق بين النصرانية والإسلام، وتذويبها بعبارات قليلة في بلاغة نصيّة متهافتة(2). وغني عن البيان أن

---

(1) 310/ 61.

(2) تندرج مناظرة النصارى للمسلمين في هذا الصدد، ضمن استراتيجية التبشير التي أملتها عليهم ظروفهم التاريخية المعروفة في هذا الباب. لذلك حاولوا الترويج لمثل هذا التعبير عن عقيدة التثليث بين الأقليات الإسلامية المدجنة والموريسكية بالأندلس وترسيخه بينها. (L. Cardaillac, Moriscos y (Cristianos, pp. 208–209.

(11673/1)

لمثل هذه الفروق أهمية عظمى عند الأنصاري. فإضافة المسيح إلى الله في الإسلام "إنما هي إضافة تشريف وتكريم" (1)، وليست إضافة حقيقية تستلزم الاتحاد والحلول بين اللاهوت والناسوت. ولقد منع محمد الأندلسي هذه الدعوى ـ الدعوة، بالمنع المستند إلى نصوص الأناجيل التي تسمح للنصارى بالاعتقاد في ألوهية عيسى، بينما لا تسمح ـ في نظره ـ إلا بالإيمان بنبوته فقط وبذلك غصب الأنصاري وظيفة المدعين من النصارى بنقض دعواهم بأدلتهم وبالاستدلال بها على دعواه.

---

(1) 310/ 20.

(11674/1)

... كان من المفروض أن يدور المجلس الرابع من مناظرات الأنصاري عن صلاة المسلمين وصيامهم، إلا أنه سرعان ما رجع به إلى موضوع المسيح وبنوته إلى الرب، لينقض هذه الدعوى مرة أخرى بالنقض المستند كذلك، وليغصب مرة ثانية وظيفة المدعي وأدلته عليها. هكذا تحدى الأنصاري الأسقف محاوره أن يأتيه ولو بنص واحد من: "التوراة والإنجيل من كلام المسيح عليه السلام يقول فيه إنه إله أو ابن الله" (1)، ليجعل منه كائناً عاجزاً عن

رفع هذا التحدي. فالمسيح "نبي معصوم، ولا يمكن، بل لا يجوز أن يتكلم بهذا القول العظيم

---

(1) 313/ 25.

(11675/1)

الذي أحوجتموه إلى إنكاره والاعتذار منه إلى الله "(1).

... 2. 4 ـ سبق أن ذهبنا إلى أن الخلاف الأساسي الذي تدور عليه جميع المجادلات الإسلامية النصرانية يكمن في التصورات المختلفة للنصارى وللمسلمين لله وللنبوة. ذلك هو ما استقطب مجموع الدعاوي والاعتراضات التي دارت بالمجلس الخامس الذي ناظر فيه الأنصاري، رئيس كتبة الملك وحاجبه. ولنلاحظ في هذا الصدد أن هذا الأسقف استهل مناظرته بتأكيد ضرورة احترام أخلاقيات المناظرة وقواعدها(2)

---

(1) 314/7 ـ 8.

(2) والجدير بالذكر في هذا المضمار أن الأنصاري لم يلتزم في جميع مجالسه بأخلاقيات المناظرة، فلم يتجنب الإساءة إلى خصومه بالقول (الشتم ـ السخرية ـ التشنيع)

وبالفعل (الانفصال عن المناظرة والمحاور "أشهى ما كان لمحاورتي").

(11676/1)

قبل أن يعترض على دعوى المسلمين في نبيهم ورسالته، بواسطة المنع المستند. فالقرآن ـ في نظره ـ يشهد بصحة اليهودية والنصرانية بوصفهما ديناً واحداً(1)، بينما لا تشهد التوراة ولا الأناجيل بصحة الإسلام. لذلك تحدى الأنصاري أن يأتيه "بدليل قاطع على صحة نبوة نبيكم من كتاب نبي غيره أو تفسير

---

(1) " أعني دين اليهود ودين النصارى لا اختلاف فيه كما يظن من لم يحصل عنده تحقيق " (315/ 1)؛ ولسوف يعترض الأنصاري على ذلك، بالوقوف على عناصر الاختلاف بين هذين الدينين (القصاص ـ الطلاق ـ الختان ـ الناقوس ـ الصليب، إلخ).

(11677/1)

عالم من غير ملتكم"(1). فكان لزاماً على محمد الأندلسي أن يمنع هذه الدعوى ـ الاعتراض، بالاجتهاد في بلورة

مجموعة من الاعتراضات على مضمونها. ففي نظره أن النصارى يعلمون صحة الإسلام وصدق رسالة نبيه، "ولكن من يضلل الله فلا هادي له "(2). والمسيح نفسه يقول: "وسياتي بعد البارفليط المبارك ولا ينطق إلا بالحق ولا يقول شيئاً من نفسه، وإنما يتكلم بما يوحَى إليه ويومر به وانا [جئتكم] بالأمثال وهو يجيئكم بالشرح والبيان" (3)

---

(1) 315/ 31. انظر هامش 57.

(2) 318/ 2.

(3) 318/ 4 ـ 5، في إنجيل يوحنا آيات كثيرة تفيد معنى هذا النص. (14/ 16 و 26، 15/ 26، 16/ 7). ويمكن أن نضيف إلى ما سبق أن قلناه في البارفليط ما ذهب إليه موريس بوكاي من أن دلالة فعلي "يسمع" و"يتحدث" ("Akouo" و "Laleo")، تسري على جميع مخطوطات إنجيل يوحنا في ما يتعلق بالبارفليط Paraclet. "ذلك يقودنا بمنتهى المنطق إلى أن نرى في Paraclet عند يوحنا كائناً بشرياً مثل المسيح يتمتع بحاستي السمع والكلام [...] فالمسيح يصرح بأن الله سيرسل فيما بعد كائناً بشرياً على هذه الأرض ليؤدي الدور الذي عرفه يوحنا. ولنقل باختصار إنه دور نبي يسمع صوت الله ويكرر على مسامع البشر رسالته" (ص ص. 128 ـ 129).(

Maurice Bucaille, La Bible, le Coran et la Science, p p. 108–109).

(1/11678)

. كما أن التبشير بمحمد – صلى الله عليه وسلم – قد وقع في التوراة، عندما بشر الله إبراهيم بأنه سيستجيب دعوته في إسماعيل، بمباركة ذريته ونقل النبوة إليها من ذرية إسحاق(1)، وعندما أوحى لموسى بأنه سيبعث نبياً مثله(2). كما أن الإعلان عن النبي نفسه تم في صحف أشعيا وإرميا وحيقون [حبقوق]

---

(1) 318/ 10 ـ 16.

(2) "نبي مثلك أجعل فيه خطابي ويتكلم بجميع ما أمره" (318/ 51)؛ ورد هذا المعنى بـ "كتاب التثنية" بهذا اللفظ: "لهذا أقيم لهم نبياً من بين إخوتهم مثلك، وأضع كلامي في فمه، فيخاطبهم بكل ما آمره" (18/ 18).

(1/11679)

---

(1)، كما جاء ذكر الإسراء معجزته في صحف دانيال(2)

---

(1) لم نقف في هذه الصحف على هذه الآيات التي احتج بها الأنصاري في هذا المضمار، ولعل هذا الأمر يرجع إلى اضطراب في الإحالة على النصوص. وتلك سمة من سمات هذا النوع من المجادلة. (I. A. Khalife et W. Kutsch, Ar-radd, p. 121).

(2) " رأيت بسحاب السماء ابن ءادم طالعاً حتى وصل إلى الرب وبين يديه تقرب " (318/ 20)؛ "وإذا بمثل ابن الإنسان مقبل على سحاب حتى بلغ الأزلي فقربوه منه فأنعم عليه بسلطان ومجد وملكوت لتتعبد به كل الشعوب والأمم من كل لسان ". (كتاب دانيال، 7/ 13 - 14).

(11680/1)

.

... هكذا أبطل الأنصاري دعوة النصارى المبطلين لدينه والمنكرين لنبوة نبيه، بالاستناد إلى كتبهم المقدسة والاستدلال بواسطتها على دعواه. لذلك أنهى مناظرته في هذا المجلس بقول جلساء الأسقف: "ما أردنا إلا أن ننصره، فكان يقودنا إلى دينه "(1).

... في المجلس السادس والأخير من مناظراته، اعترض الأنصاري على دعوى "أسقفين وقحين" حاولا نقض تصورات المسلمين للجنة (التمتع بلذات المأكل والمشرب والجماع) وللحياة الزوجية (تعدد الزوجات) (2)

---

(1) 319/ 8.

(2) يستثمر النصارى هاتين المسألتين بالإضافة إلى الطلاق وزواج المتعة، للاستدلال على أن الإسلام مجرد دعوى محمدية محملة بصدى تطور الحياة الخاصة لصاحبها بآثار رغباته ومنازعه الحسية في هذا المضمار.

(Raymond Martin, Explantio, in A. 49–50, Cortabaria).

(11681/1)

، بوصفها ـ في نظرهما ـ تصورات حسية خسيسة، وشهوانيّة شبقية في آن واحد. غير أن الأنصاري تصدى لهما بنقض هذه الدعوى بنقضين مختلفين ومتكاملين. فمن جهة، تخبر التوراة والأناجيل عن الأنبياء الذين تزوجوا وتسروا بأكثر من واحدة(1)، كما تتحدث عن المسيح الذي وعد حواريه بالأكل في الجنة(2). ومن جهة ثانية، فإن المنهج الذي اتبعه الأسقفان لإبطال اللذات

المذكورة يعتمد القياس الذي لا يصح في

---

(1) " فقد كان له [داوود] تسع وتسعون امرأة " (320/ 17).

(2) "على مايدة السرور بحضرة القدس في ضيافة رب العالمين " (92، 320/ 14).

(11682/1)

هذا المضمار، إذ لا يصح أن يقاس حال الدنيا بحال الجنة، أي قياس الغائب على الشاهد، نظراً لعدم تساوي قطبي القياس ولاختلافهما(1). ولقد كان يمكن للأنصاري أن ينهي بكل هذا وذاك آخر مجلس من مجالس مناظراته. غير أنه أبى إلا أن يعقد فصلاً أخيراً لينتصر فيه مرة أخرى لصحة نبوة نبيه وللطبيعة البشرية الصرفة للمسيح وكأن ذلك ما كان ليكفيه وليشفي غليله. فلقد فضل أن يضع هذا الانتصار في فم أحد الرهبان، ليعبر بدله عن ذلك، ويدافع عنه.

---

(1) " قياسكم الفاسد حال الدنيا بحال الجنة " (انظر هامش 43).

(11683/1)

... لقد اتخذ كل من محمد القيسي ومحمد الأندلسي الأنصاري في مناظرتهما للنصارى أدوار المدعي المعلل والمجيب معتقدين وناظرين ومحاورين، للدفاع عن تصوراتهما لله وللنبوة. كما اتخذا في الوقت نفسه أدوار المعترض والسائل والمانع لتمثلات النصارى لربهم ولأنبيائهم وعقائدهم وشعائرهم. وبذلك استخدما بعض قواعد المناظرة وأخلاقياتها. غير أن هذا لا يعني أنهما قد احترما إلى حد بعيد تلك القواعد ولا هذه الأخلاقيات. فمناظراتهما لم تراهن في الواقع على إشراك الخصم في البحث عن الحقيقة واقتسامها والالتزام بمقتضياتها، بقدر

(11684/1)

ما كانت تهدف إلى حماية الذات الإسلامية وتحقيقها والدفاع عنها وضمان استمرارها بين الجماعات الإسلامية في الأندلس المهددة بالتنصير. لذلك وجب مراجعة هذا النوع من المجادلة والتقعيد لتداولياتها ولأخلاقياتها، بمراعاة شروط إنتاجها التاريخية والمنطقية الخاصة

بـها.

...

(11685/1)

الجديد في المكتبة الأندلسية:

كتاب »أدباء مالقة« أو سيرة كتاب ينشر لأول مرة بعد خمس وأربعين سنة من اكتشاف مخطوطته الأصلية

... ... الأستاذ عبد العزيز الساوري

... ... وزارة الشؤون الثقافية .الرباط

... وكم من الشيوخ الأكابر كتبوا فملؤوا الدفاتر والدواوين بأسماء رجال الأندلس خاصة فضلاً عن ذكر مصنّفاتهم وأنسابهم وفضائلهم وأحوالهم(1)

---

(1) ... الأنوار النبوية في آباء خير البرية تأليف محمد بن عبد الرفيع بن محمد الشريف الحُسَيْنِي الجعفري المرسي الأندلسي المتوفى سنة 1052 هـ، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم ك 1238، صص. 342 ـ 343.

(11686/1)

.

... إذا كان مصطلح "السيرة" يختص بالأعلام، فإن للكتاب الذي نتحدث عنه في هذا العرض سيرة تشبه سير الرجال، لا تخلو من طرافة وتشويق. وهذه بعض تفاصيلها:

... للمحققين والدارسين الأردنيين يَدٌ يَجِبُ أن تُذكر فَتُشْكَر(1)، لما يبذلونه من جهود متواصلة في نشر التراث المغربي الأندلسي، أمثال: د. عبد الكريم خليفة، ود. صلاح جرَّار، ود. نصرت عبد الرحمن، ود. حسين يوسف خربوش، ود. محمد علي شوابكة،

---

(1) ... مجلة "العرب"، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ج 11، 12، ص 33، شتنبر ـ أكتوبر 1998، ص. 846.

(11687/1)

ود. عبد الجليل حسن عبد المهدي، ود. محمود عبد الرحمن خياري، ود. حسن افلفيل، والأستاذة منال منيزل. وليس المجال مجال الإفاضة في هذا الموضوع، ولكن دعا إليه الحديث عن كتاب جليل مما قام أولئك بإحيائه بالنشر

والتحقيق(1)، وهو كتاب "أدباء مالقة المسمّى مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار وتقييد مالهم من المناقب والآثار" لمؤلفه

---

(1) ... انظر: من مساهمات الباحثين الأردنيين في تحقيق التارث الأندلسي والمغربي، بيبليوغرافيا أعدّها د. صلاح جَرّار (لم تنشر).

(11688/1)

أبي بكر محمد بن محمد بن علي بن خميس المالقي المتوفى بعد سنة 639 هـ

... وقد تولى تحقيقه والتقديم له الصديق الأستاذ د. صلاح جَرَّار، وهو من أساتيذ الجامعة الأردنية في عمان، وصدر عن دار البشير بعمان ومؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة الأولى، 1419 هـ 1999 م، في 510 صفحة من القطع الكبير، مذيّلاً بالفهارس الضرورية.

... اعتمد د. صلاح جَرَّار في تحقيقه لهذا الكتاب على نسخة مصوّرة عن النسخة الخطية الوحيدة التي كان يملكها الأستاذ محمد العرائشي المكناسي، ثم آلت إلى خزانة خاصة أخرى.

(11689/1)

... وتقع هذه المخطوطة في 105 ورقة من الحجم المتوسط، ومعدل سطور الصفحة الواحدة تتراوح ما بين 22 و25 سطراً. أما كلمات كل سطر، فتتراوح ما بين سبع كلمات وثلاث عشرة كلمة.

... ويتخلل الأسطر عناوين أسماء المترجم بهم بخط غليظ أحمر.

... وليس هناك تاريخ محدد للنسخ، ولكن لاحظ د. صلاح جَرَّار أن عبارة "أعادها الله" التي كان يثبتها الناسخ بإزاء اسم مدينة مالقة، تدل على أنها نسخت بعد سقوط مدينة مالقة سنة 892 هـ، ولكن اختلاف الخطوط فيها يوحي بأنها لم تكتب في زمن واحد(1).

---

(1) ... أدباء مالقة، ص. 30.

(11690/1)

... ويذكر د. قاسم أحمد السامرائي ـ الذي فحص أصل هذه النسخة سنة 1988 في مكتبة خاصة في الرباط حين زار مالكها في داره برفقة د. يحيى محمود ساعاتي، وصديقه

المستعرب الهولندي د. بيتر شورد فان كوننكزفيلد .
أن النص كتب »بالمداد الأسود والأحمر بخط أندلسي
واضح على نوعين من الكاغد، أولهما: عربي سميك يعود
إلى القرن التاسع للهجرة وأوراقه قليلة، والثاني: وهو
الأغلب، أوروبي أبيض يعود إلى القرن العاشر (السادس
عشر للميلاد) تظهر فيه الخطوط المائية المتوازية
والعلامة المائية فيه على شكل عنقود عنب. أما
تسفيرها (أي

(11691/1)

تجليدها)، فهو مغربي حديث جدّاً«(1).
... والنسخة ـ كما يصفها د. قاسم السامرائي ـ مرممة
ترميماً بدائياً سيئاً طمس الكثير من أسطر رؤوس
الصفحات فأخفاها. وفي آخر النسخة نقصٌ لا يزيد على بضع
ورقات، وفي داخلها نقص آخر يقع في ورقة واحدة أو
اثنتين(5) لا تزالان محفوظتين في خزانة الأستاذ الحسن
السائح في الرباط، كما أخبرني بذلك الفقيه محمد
المنوني شفاه الله تعالى، ولم تَعْلَقْ بهما يد المحقق
بعد.

---

(1) ... مخطوطة أندلسية فريدة في تراجم رجال مالقة،

عالم الكتب (مجلة سعودية)، مج 9، ع 3، محرم 1409 هـ، ص. 335.

(11692/1)

... وبالإضافة إلى ما في النسخة من محو ونقص وطمس، فإن فيها تصحيفاً كثيراً وسقطاً وتآكلاً في بعض الكلمات والأسطر، وأخطاء لغوية وإملائية.

... ونظراً إلى الأهمية الكبيرة لهذه المخطوطة، فقد نالت شهرة واسعة بين المعنيين بالمخطوطات والدارسين ومحققي التراث الأندلسي؛ إلا أنه لم يجرؤ أحد على تحقيقها ونشرها مع وجود أصلها(5)، ومنتسخات خطية كثيرة عنها، وبعض النسخ من مصوراتها في الخزائن العامة والخاصة داخل المغرب وخارجه.

(11693/1)

... وقد كان الفقيه محمد المنوني شفاه الله تعالى لما بلّغته خبر صدور كتاب أدباء مالقة، قال لي: في سنة 1957، كانت نية معهد مولاي الحسن للأبحاث المغربية الأندلسية بتطوان متجهة إلى تحقيقه مشاركة مع

الأستاذ محمد بن تاويت التطواني مدير المعهد آنذاك ود. محمود علي مكي. غير أن المبلغ القليل الممنوح للأستاذ محمد العرائشي المكناسي مالك المخطوطة الأصلية لهذا الكتاب حالت بين المعهد وبين المضيّ معه إلى النهاية، لذا قرّر المعهد إلقاءه من مشاريعه.

(1/11694)

... كما رأيت منه نسخة مخرّجة بتحقيق د. محمد بن شريفة ولست أدري هل دفعه إلى المطبعة أولاً؟

... وأول من عرّف بهذه المخطوطة وقيمتها الأدبية والتاريخية في وقت مبكّر، هو المستعرب الفرنسي ليفي بروفنسال في مقالة له بعنوان: "حول شعراء مالقة في القرن العاشر"، ونشرها في مجلة "أرابيكا"، العدد الأول، سنة 1954، صص. 289 ـ 293.

... ثم تلاه المستعرب الإسباني خواكين بالبي برميخو في دراسة له بعنوان: "مصدر مهم في تاريخ الأندلس: "تاريخ ابن عسكر". وهذه الدراسة منشورة في مجلة "الأندلس"، في العدد 31 لسنة 1966، صص.

(1/11695)

---

237 ـ 265.

... وكان الذي أَمَدَّهما بمصوّرة منها هو المستعرب الفرنسي جورج كولان، كما أخبرني بذلك د. محمد بن شريفة.

... ووجدنا بعدهما مجموعة من الدارسين قد عرَّفوا بها أيضاً. فمن هؤلاء الأستاذ محمد الفاسي في مقالة له بعنوان: "كتاب ابن عسكر وابن خميس في مشاهير مالقة"، وهي منشورة في مجلة "المناهل" التي تصدرها وزارة الشؤون القافية في الرباط في عددها 13 لسنة 1978، صص. 125 ـ 135.

ومن هؤلاء الدارسين أيضاً الأستاذ محمد العرائشي المكناسي ـ الذي كان يحتفظ بنسخة فريدة من هذه المخطوطة ـ مقالة له بعنوان:

(11696/1)

"صفحات من المخطوط النادر: بعض أخبار فقهاء مالقة وأدبائها لابن عسكر"، ونشرها في مجلة "دعوة الحق" التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الرباط، في العدد 2، السنة 23، جمادى الأولى 1402 هـ/ أبريل 1982، صص. 110 ـ 114.

... وفي هذا المقال أعلن الأستاذ العرائشي عن نية

تحقيقه لهذه المخطوطة، إلا أن هذا الأمل لم يتحقق.

يقول:

... يسميه بعضهم "تاريخ مالقة"، والبعض الآخر "تاريخ ابن عسكر"، وهو مخطوط نادر، وتحفة أدبية تاريخية، لم يسبق له أن نشر أو عثر على نسخة أخرى في خزانة من الخزانات؛ إذ بعد البحث

(11697/1)

المتواصل، انتهيت إلى أنه لا وجود لنسخة ثانية من هذا المخطوط، سوى تلك النسخة الفريدة التي تعتز خزانتي باحتضانها. ومنذ أن قدمت هذا المخطوط لجائزة الحسن الثاني للمخطوطات [سنة 1970 التي تنظمها وزارة الشؤون الثقافية بالرباط] (1)، وأنا منهمك في تصحيحه وجمع شتاته. وبمجرد فراغي من تصحيح القسم الأول منه، سأقدمه للطبع عندما تتيسر أسبابه بإذن الله تعالى. ونظراً لكوني أمتلك النسخة الأصلية، وهي النسخة

---

(1) ... استخرج الفقيه محمد بوخبزة نسخة أخرى منه

بخطه، وحصل بها على جائزة الحسن الثاني للمخطوطات سنة 1989.

(11698/1)

الوحيدة الموجودة منه كما ذكرت آنفاً، فإني أحتفظ بجميع حقوقي القانونية فيما يرجع للنشر؛ وكل من قام بعمل يتنافى وتلك الحقوق، فإنني أعتبره مختلساً ومعتدياً على حقوق الغير بدون موجب. أما التعريف بالمخطوط في المجلات والصحف، فإنني لا أمانع فيه(1).

... غير أن أدق تعريف - على إيجازه - قرأناه عن هذه المخطوطة هو تعريف الأستاذ الخبير بالمخطوطات، قاسم أحمد السامرائي في مقالة له بعنوان: "مخطوطة أندلسية فريدة في تراجم رجال مالقة" منشورة في مجلة "عالم الكتب" السعودية (مجلد 9، عدد

---

(1) ... ص. 10، هامش رقم 1.

(11699/1)

3، محرم 1049 هـ، صص 335 ـ 336).

... وآخر من عرّف بهذه المخطوطة هو الأستاذ د. عبد الله المرابط الترغي في مقالة له بعنوان: "سبتة من خلال أعلام مالقة"، وهي منشورة في مجلة كلية الآداب بتطوان، العدد الخاص بندوة سبتة: التاريخ والتراث، السنة 3، ع 3، 1410 هـ/ 1989 م، صص. 135 ـ 161.

... وفيها يقول:

... ورغم أن الكتاب يتعلق بمالقة وأخبار أهلها والتعريف برجالها، فإنه لم يخل من ذكر بعض البلاد الأخرى وعرض أخبار رجالها، ولا سيما البلاد القريبة من مالقة كسبتة في عدوة المغرب. وتبرز سبتة على أكثر من واجهة بين

(11700/1)

مواد كتاب أعلام مالقة، فهي تبرز ضمن واجهة تراجم الرجال المعرَّف بهم سواء أكانوا سبتيين أم من بلاد غيرها. وتبرز على واجهة المصادر التي اعتمد عليها المؤلف في جمع مواد كتابه. وأخيراً تبرز وبشكل لافت للنظر ضمن النصوص الأدبية التي تخص سبتة أو ترتبط بأي صنف من أصناف العلاقة التي تجمع بين الأدباء في

كل من سبتة ومالقة(1).

... كما اعتمد عليها نفر من محققي التراث الأندلسي، مثل الفقيه محمد المنوني في كتابه "العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين"، ود. محمد بن شريفة في تحقيقه لبعض أجزاء

---

(1) ... ص. 141.

(11701/1)

"الذيل والتكملة" لابن عبد الملك المراكشي، وكتابه: "أبو المُطرِّف أحمد بن عَمِيرَة المخزومي حياته وآثاره"، ود. إحسان عباس في تحقيقه لشعر أبي عبد الله الرّصافي البلنسي وبعض أجزاء "الذيل والتكملة"، والأستاذ إبراهيم بن مراد في تحقيقه لكتاب "مختارات من الشعر المغربي الأندلسي" تنشر لأول مرة، ود. صلاح جَرَّار في تحقيق لشعر مَرْج الكُحْل الشُّقرِي، ود. عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب في تحقيقهما لبعض أجزاء "صلة الصلة" لابن الزبير، ود. محمود ومحمد عبد الرحمن خياري في رسالته للدكتوراه: "رسائل موحدية

(11702/1)

جمعاً وتحقيقاً ودراسة"، والمستعربان الإسبانيان ماريا إيزابيل كاليروسكال وفيرخيليو مارتينز اينمورادو في كتابهما "مالقة مدينة الأندلس"... وآخرون.

... فما السبب في تردُّد وعزوف الدارسين عن تحقيقها ونشرها؟

... يجيب د. صلاح جرَّار، فيقول: »لعل مصدر هذا التردد هو ما يعتور المخطوطة من نقص في أولها ووسطها وآخرها، وما لحق بعض صفحاتها من تلف، وما أصاب بعض سطورها وعباراتها من طمس ومحو، وما يشوب المخطوطة نفسها من تصحيف وسقط وتقديم وتأخير وخلل، مما يجعل من قراءتها أمراً شاقّاً، ولا سيما أن نسخة هذه المخطوطة

(11703/1)

فريدة ولا يوجد نسخة ثانية لمقابلتها بها«(1).

... غير أن مثل هذه العوائق ليس مما يُعجز الأستاذ المحقق د. محمد بن شريفة على سبيل المثال، ولذلك يبدو أن سبباً آخر حال دون نشره هذا الكتاب دون شك وفي هذا المجال أفادني د. علي لغزيوي أن ما حال دون

إقدام د. محمد بن شريفة على إخراج الكتاب، على الرغم من نيته القوية، يرجع في الغالب إلى ما كان قد ذكره الأستاذ محمد العرائشي في مقالته المشار إليها، من احتفاظه بحقه في متابعة كل من يُقدم على إخراج الكتاب ونشره بحكم كونه هو المالك

---

(1) ... أدباء مالقة، ص. 7.

(11704/1)

الحقيقي الوحيد للنسخة الأصلية منه.

... ونظراً لأهمية مدينة مالقة ـ وهي من أعمال كورة ريّة في الأندلس ـ موضوع هذه المخطوطة، فقد حظيت بعدة تواليف في تراجم أعلامها، مثل:

... 1 ـ فقهاء ريّة لقاسم بن سعدان المتوفى سنة 347 هـ؛

... 2 ـ رجال مالقة المُؤَلَّف للحكم المستنصر؛

... 3 ـ تاريخ مالقة لأبي عبد الحميد إسحاق بن سلمة القَيْنِي؛

... 4 ـ كتاب في المشهورين من أعلام مالقة لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري؛

(11705/1)

... 5 ـ الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام لأبي العباس أصبغ بن علي بن هشام المالقي المتوفى سنة 592 هـ(1)؛

... 6 ـ الإكمال والإتمام في صلة الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام لأبي عبد الله محمد بن علي بن خضر بن هارون الغسَّاني المشهور بابن عسكر المتوفى سنة 636 هـ(2)

---

(1) ... ختم أسبغ بن أبي العباس كتابه في أعلام مالقة بترجمة أبي محمد ابن الأصم المنْشِي أو المنشري المتوفى سنة 598. (انظر: الذيل والتكملة، س 5، ق 1، ص. 77).

(2) ... له كتاب آخر ذيّل فيه كتاب السهيلي، عنوانه: "التكميل والإتمام لكتاب التعريف والإعلام"، حققه وقدم له حسن مروة، وصدر عن دار الفكر المعاصر ببيروت ودار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى سنة 1418 هـ/ 1997 م، كما حققه الباحث حسين عبد الهادي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام 1404 هـ، ونال به درجة الدكتوراه.

(11706/1)

. وهذا الكتاب هو صلة وتتميم لكتاب أصبغ؛

... 7 ـ ذيل أو تذييل تاريخ مالقة لأبي الحسن علي بن عبد الله بن الحسن الجُذامي البُنّاهي المالقي كان حيّاً سنة 793 هـ

... ويبدو أن هذا الكتاب تذييل على كتاب ابن عسكر وابن خميس الآتي ذكره، ولم نقف على ذكره إلا عند ابن الخطيب(1).

---

(1) ... انظر مقال الدكتور محمد بن شريفة: "البُنّاهي لا النُّباهي" مجلة الأكاديمية، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، العدد 13، سنة 1988، ص. 78، 81؛ والإحاطة في أخبار غرناطة، ج 3، ص. 46، 193؛ ج 4، ص. 263.

(11707/1)

... 8 ـ أما الكتاب الثامن ـ من الكتب التي وضعت في التعريف بأعلام مدينة مالقة وأدبائها وفقهائها ـ فهو كتاب ابن خميس الذي ينشر لأول مرة بتحقيق د. صلاح جرَّار، وهو تتمة وتكملة لكتاب خاله ابن عسكر السابق.

... يقول السخاوي عن ابن خميس في سياق حديثه عن مدينة مالقة:

... وعمل أبو عبد الله محمد بن علي بن خضر بن عسكر الغسّاني لها تاريخاً لم يكمله، فأكمله ابن أخته أبو بكر محمد بن محمد بن علي بن خميس، وسماه "مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار وتقييد ما

(11708/1)

لهم من المناقب والآثار"(1).

... وقد فهم المحقق »من هذا النص أن ابن خميس هو الذي اختار هذا العنوان للكتاب وليس ابن عسكر حسب قول ابن عبد الملك المراكشي في "الذيل والتكملة"، وابن الخطيب في "الإحاطة" اللذين جعلا كتاب "مطلع الأنوار" عنواناً آخر لكتاب "الإكمال والإتمام" لابن عسكر«(2).

... وفي رأيه "أن ابن عسكر سمى كتابه "الإكمال والإتمام..." وأن ابن خميس سمى تتمته لذلك الكتاب "مطلع الأنوار..." (3)

---

(1) ... الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، ص. 272.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 18.

(3) ... المصدر نفسه، ص. 19.

(11709/1)

.

... وتسمِّي المصادر كتاب ابن خميس: "تاريخ مالقة"، و"التتميم"، و"التكملة" و"أدباء مالقة". أما العنوان المثبت على غلاف مخطوطة هذا الكتاب، فهو: "كتابٌ جُمعَ فيه بعض فقهاء مالقة وأدباؤهم". وهذه كلها تسميات صحيحة لكتاب ابن خميس.

... ويؤكد المحقق »أن ما وضعه أصبغ بن أبي العباس وأبو عبد الله بن عسكر وأبو بكر بن خميس هي كتبٌ ثلاثة مستقلة وليست كتاباً واحداً، وإن كان اللاحق منها يتمم السابق. وقد اختار كل واحد من هؤلاء المؤلفين الثلاثة عنواناً لكتابه«(1).

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 21.

(11710/1)

... ومن الأدلة التي ساقها المحقق على أن ما وضعه ابن خميس هو كتاب مستقل عما وضعه سابقاه:

... 1 ـ أن ابن خميس قد نقل في كتابه مراراً من كتاب ابن عسكر وكتاب أصبغ. فلو كانت هذه الكتب كتاباً واحداً، لما احتاج ابن خميس إلى تكرار ما ذكره وأورده سابقاه؛

... 2 ـ لو كان ما أضافه ابن خميس جزءاً من كتاب ابن عسكر، لما وضع ابن خميس له عنواناً، ولما فرّقت المصادر في نقلها عن ابن خميس وابن عسكر بينهما؛

... 3 ـ لو كان ما قام به المؤلفان كتاباً واحداً، لوصلنا بجزئيه أو لضاع بجزئيه. أما أن يضيع الجزءُ الذي وضعه

(11711/1)

ابن عسكر ويصلنا الجزء الذي وضعه ابن خميس، لذلك دليل على استقلال كل من العملين عن الآخر(16). ويخلص د. صلاح جرَّار من ذلك إلى أن

... كتاب "مطلع الأنوار" لابن خميس هو كتاب مستقل عن كتاب ابن عسكر، وإن كان يتمّم ما بدأه ابن عسكر. وإنما قام ابن خميس بتأليف هذا الكتاب، وفاء وتقديراً لخاله وأستاذه ابن عسكر. ويظهر هذا الوفاء لخاله جليّاً

من خلال الترجمة المطوّلة التي خصّه بها في كتابه واستغرقت نحو إحدى وعشرين صفحة(1)... وهي أطول ترجمة في الكتاب(2)

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 164 ـ 184ن رقم 50.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 21 ـ 22.

(11712/1)

.

... ولم يقف المحقق على ترجمة لابن خميس في أي من المصادر التي رجع إليها في تحقيق هذه المخطوطة. وقد جمع بعض أخباره من خلال كتابه هذا، وبعض الإشارات القليلة جدّاً الواردة في بعض المصادر.

... وينبه المحقق إلى »أن آخر تاريخ وفاة ورد في كتاب ابن خميس هو سنة وفاة أبي عبد الله محمد بن عيسى بن مع النصر المومناني، وهي سنة 638 هـ ويذكر السخاوي أن كتاب ابن خميس قد انتهى في سنة تسع وثلاثين وستمائة. مما يعني أن ابن خميس كان حيّاً في هذه السنة«(1).

---

(1) ... المصدر نفسه، صص. 24 ـ 25.

(11713/1)

... ولهذا الكتاب فوائد جمّة. فهو أولاً مصدر أدبي وتاريخي أندلسي له مكانته المرموقة في المكتبة الأندلسية، إذ يشتمل على تراجم ثلاثة وسبعين ومائة علمٍ من أعلام مدينة مالقة والطارئين عليها.

... وقد حذا فيه ابن خميس »حذو أستاذه ابن عسكر في ترتيب كتابه ترتيباً هجائياً حسب الترتيب المغربي، وبدأ من حيث انتهى أستاذه. فقد وصل أستاذه إلى أول حرف الميم، فترجم ابن خميس للأعلام التي تبدأ بحرف الميم، ثم حرف الصاد، فالعين، فالغين، فالقاف، فالسين، فالشين، فالهاء، فالياء. وهذا يعني أن الأحرف الأولى... كانت من

(11714/1)

نصيب ابن عسكر؛ ولذلك لا نجد تراجم تبدأ بهذه الحروف في كتاب ابن خميس «(1).

... ويمتاز هذا الكتاب بكثير من التراجم مما لا نعثر عليه في مصدر آخر سواه، كما أنه انفرد بمعلومات كثيرة من الأعلام التي لها تراجم في مصادر أخرى.

... وتشمل تراجم هذا الكتاب: الخلفاء والرؤساء والأدباء والشعراء والفقهاء والمدرّسين، وغيرهم من طبقات الأعلام.

... أما منهج ابن خميس في الترجمة لأعلامه، فهو يقوم

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 25.

(11715/1)

... على ذكر اسم العلم كاملاً، ثم كنيته، ثم بلده مبيّناً إن كان من مالقة أو من أحد أعمالها أو طارئاً عليها. ثم يسوق لنا أسماء شيوخه وتلاميذه ورحلاته ومؤلفاته وأهم الوظائف التي شغلها، ثم يسوق لنا نماذج من شعره ونثره. وغالباً ما يطيل في إيراد أشعار المشاهير ورسائلهم، ويظهر لنا واضحاً ميل ابن خميس إلى الشعر أكثر من النثر، ثم يختم الترجمة بذكر تاريخ وفاة صاحب الترجمة، وفي أغلب الأحيان بذكر اليوم والشهر والسنة ومكان الدفن(1).

---

(1) ... المصدر نفسه، صص. 25 ـ 26.

(11716/1)

... وفي هذا الكتاب أيضاً قصائد ونصوص نثرية كثيرة لا نجد لها ذكراً في مصدر آخر.

... ولكتاب ابن خميس هذا مقدمة بين فيها أهمية تدوين الأخبار وتقييد المناقب والآثار، ولكن هذه المقدمة أخلّت بها النسخة الخطية التي اعتمد عليها المحقق، وإنما وردت في كتاب "الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ" للسخاوي(1) الذي كان يملك نسخة كاملة منه، ووصفه بقوله: »وهو في مجلد لطيف على حروف المعجم«(2).

---

(1) ... صص. 49 ـ 50.

(2) ... الإعلام بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، ص. 273.

(11717/1)

... وقد أثبت د. صلاح جَرّار هذه المقدمة في بداية النص المحقق (1).

... استمد ابن خميس معلوماته في هذا الكتاب من مصادر وتقييدات كتابية وشفوية، وهي: كتاب "الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام" لأبي العباس أصبغ بن هلي بن هشام المالقي المتوفى سنة 592 هـ، وبعض تقييدات أبي عمرو بن سالم، ومؤلفات خاله ابن عسكر

مثل كتاب "الإكمال والإتمام"، ورسالة شيخه أبي علي الرندي إلى أهل سبتة، وكتاب "طلوع الزهرة السنية في سقوط زهرة الثنية" لمحمد بن حسن البنّالي، وتاريخ ابن حمادة

---

(1) ... أدباء مالقة، ص. 43.

(11718/1)

السبتي وابن الفرضي والرازي وابن حيان وابن الصّيْرفي وابن أبي الفيّاض وابن مزين والحميدي، و"طبقات الشعراء" لابن الفرضي، و"رجال" أبي الفضل عياض، و"قلائد العقيان" للفتح بن خاقان، و"رجال مالقة" المُؤَلَّف للحكم المستنصر، و"فهرسة" ابن الباذش، وفهرسة شيوخ أبي القاسم ابن الطيلسان المسماة: "اقتطاف الأنوار واختطاف الأزهار"، و"زاد المسافر" لصفوان ابن إدريس، و"المظفّري" لابن الأفطس، وكتاب أبي الطاهر السبتي في موثّقي زمانه، و"المقامات المُحْسنيَّة" لأبي عبد الله الجوني، و"صاحب الخبر".

(11719/1)

... أما المصادر التي نقلت من كتاب ابن خميس واعتمدت عليه، فمنها "صلة الصلة" لابن الزبير، و"الذيل والتكملة" لابن عبد الملك المراكشي، و"الإحاطة" و"أعمال الأعلام"، وهما للسان الدين بن الخطيب، و"الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" للسخاوي، و »جامع مختارات من الشعر المغربي والأندلسي".

... وكلمة أخيرة: إن هذا الكتاب نفيس ومهم في تخصصه بمدينة مالقة، إضافة إلى أنه يقدم لنا "معلومات تفصيلية أدبية وعلمية وتاريخية كثيرة عنها، ويصوّر لنا جوانب شتى من الحياة الأدبية فيها مثل المجالس الأدبية والمعارضات الشعرية

(11720/1)

والعلاقات التي تربط بين الأدباء. والكتاب واحد من مصادر أندلسية قليلة وصلتنا واختصت بالتعريف بأعلام مدينة بعينها، كما فعل لسان الدين بن الخطيب في زمنٍ تال عندما ألف "الإحاطة في أخبار غرناطة". وقد أورد السخاوي في كتابه "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ" أسماء طائفة من الأندلسيين الذين ألفوا كتباً في التعريف بأعلام مدن أندلسية بعينها. وقد ضاع أكثر هذه الكتب ولم يصل إلينا منها سوى عددٍ

قليل(1).

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 7 ـ 8.

(11721/1)

... وأكرر القول، فأشيد بما كان للأستاذ د. صلاح جَرّار من عمل جاد ومخلص في هذا التحقيق، كما أشير بأن الكتاب سيصدر مرة أخرى هذه السنة بتقديم وتخريج وتعليق الصديق الكريم د. عبد الله المرابط الترغي ـ وهو من أساتيذ كلية الآداب في تطوان ـ عن دار الغرب الإسلامي ببيروت ودار الأمان بالرباط، تحت عنوان: "أعلام مالقة المسمّى الإكمال والإتمام في صلة الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام أو مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخيار وتقييد ما لهم من المناقب

(11722/1)

والآثار" تأليف أبي عبد الله بن عسكر وأبي بكر بن خميس.

... ولنا وقفة قادمة معه للموازنة بينه وبين تحقيق د. صلاح جَرَّار.

(11723/1)

كتب الفتوح مصادر للدراسات الحضارية

... ... الدكتور عبد العزيز بن إبراهيم العمري

كلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

... ... الرياض ـ المملكة العربية السعودية

مقدمة

... يعد تاريخ الفتوح والجهاد من أوسع الأبواب في التاريخ الإسلامي، حيث تحتل أحداثه مساحة واسعة في المصادر التاريخية الإسلامية. وتلك الأحداث مقرونة دائماً بامتداد الإسلام وانتشاره، وتأمين الإسلام والمسلمين في بلادهم وفي البلاد المفتوحة. وهذا بالطبع لا يعني أن الإسلام انتشر بقوة الجهاد فقط؛

(11724/1)

فالإسلام دين الفطرة، فيه من المقومات الذاتية ما أقنع الناس على الدخول فيه، لكن حركات الجهاد والفتوح لها الأثر الأول في حفظ معتنقي الإسلام من الخروج منه أو الإجبار على تركه؛ كما كان لتلك الحركات أثر في بقاء أقاليم كاملة تحت راية الإسلام على مر العصور، وبالتالي فإن التأريخ لانتشار الإسلام لا يستغني عن تاريخ الجهاد فهما صنوان. وقد بدأ الجهاد منذ أيام رسولنا محمد – صلى الله عليه وسلم – إلى يومنا الحاضر وسيظل حياً إلى يوم القيامة »الجهاد ماض إلى يوم القيامة «(1)

---

(1) وضع البخاري باباً في "صحيحه" سماه "باب الجهاد ماض مع البر والفاجر لقول النبي – صلى الله عليه وسلم – : الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة".
(انظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير)؛ وأورد أبو داود في "سننه" قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : »الجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل«. (كتاب الجهاد، باب في الغزو مع أئمة الجور، الحديث رقم 2170).

(11725/1)

.

... واهتم المسلمون بالتأريخ له في كتب مستقلة وخصوصاً العصور الأولى، فألفت فيه كتب مختلفة مثل "فتوح البلدان" للبلاذري، و"الفتوح" لابن أعثم الكوفي، و"فتوح الإسلام" للأزدي، و"فتوح مصر وأخبارها" لابن عبد الحكم، وما نسب للواقدي من كتب في هذا الباب؛ كما أن أحداثه تمثل العصب الأساسيّ في التأريخ لعصور معينة في كتب التاريخ الحولية.

... وهذه الكتب المختصة بالفتوح مليئة بالأحداث الأخرى والروايات المتعددة في موضوعات شتى ذات صلة بقضايا حضارية مختلفة، آثر أولئك المؤلفون التطرق إليها وإعطاءها عناوين مستقلة

(11726/1)

في بعض الأحيان، أو إيرادها ضمن قضايا أخرى. وتعد تلك الموضوعات والروايات في كتب الفتوح مادة علمية مهمة لا يستغني عنها الدارس للجوانب الحضارية، مع أن عناوين تلك الكتب لا توحي بذلك ولاشك في أن بعض هذه الكتب يحوي موضوعات هامة يعتد برواياتها، ويمكن الاستفادة منها مباشرة، وبعضها الآخر يعد كتباً أسطورية ليس لها أي قيمة تاريخية تذكر، لكن

يمكن الاستئناس بها في بعض القضايا إلى حد ما.

... ولذلك، فإن هذا البحث يناقش مدى الاستفادة من تلك الكتب في الجوانب الحضارية، مع إيراد بعض النماذج والشواهد من خلال

(11727/1)

الروايات الواردة فيها؛ كما يتطرق البحث لمفهوم الحضارة ومفهوم الفتوح، وأهم الكتب التي ألفت في الفتوح وأشهر طبعاتها.

...

مفهوم الفتوح

... الفتوح جمع فتح، والفتح في اللغة نقيض الإغلاق. ويقصد به افتتاح دار الحرب ودخول دار العدو، وجمعه فتوح؛ كما يأتي الفتح بمعنى النصر والغلبة. وقد وردت لفظة "الفتح" في العديد من الآيات القرآنية، ومنها قوله تعالى: {إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً}(1)، وقوله تعالى: {لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم

---

(1) سورة الفتح، آية 1.

(11728/1)

وأثابهم فتحاً قريباً }(1)، وقول الله تعالى: {وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين }(2)، وقوله تعالى: {إذا جاء نصر الله والفتح }(3)، وقول الله تعالى: {لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاًّ وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير }(4).

... ولا يقتصر مفهوم الفتح على الانتصار العسكري فحسب، بل يتعداه إلى الانتصار في مختلف الميادين العسكرية

---

(1) سورة الفتح، آية 18.

(2) سورة الصف، آية 13.

(3) سورة النصر، آية 1.

(4) سورة الحديد، آية 10.

(11729/1)

والأدبية والأخلاقية، والتي سببت مجتمعة دخول الأقوام في البلاد المفتوحة عسكرياً في دين الإسلام بقناعة ورضا، مما سبب انتصار عقيدة التوحيد على الشرك في تلك البلدان.

أهداف الفتوح والتأليف فيها

... لقد بعث الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً – صلى الله عليه وسلم – إلى الناس كافة بدين الإسلام، كما قال الله تعالى: {وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون}(1). وقد وعد الله بنصر هذا الدين وإظهاره في قوله: {هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على

_____

(1) سورة سبأ، آية 28.

(11730/1)

الدين كله ولو كره المشركون}(1).

... ومن هذا المنطلق، فإن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قد بذل جهده وسعى لتبليغ هذا الدين إلى كافة الناس دون إجبار لهم على الدخول فيه كما قال تعالى: {لا إكراه في الدين}(2)، وقال: {ما على الرسول إلا البلاغ}(3).

... وقد بدأ الرسول – صلى الله عليه وسلم – اتصالاً سلمياً بالدول عن طريق مكاتبة ملوكها، قبل الحرب والجهاد، حيث دعاهم في تلك الكتب إلى الإسلام(4)

---

(1) سورة التوبة، آية 33.

(2) سورة البقرة، آية 256.

(3) سورة المائدة، آية 99.

(4) انظر حول تلك الكتب: خالد سيد علي، رسائل النبي إلى الملوك والأمراء، الطبعة الأولى، دار التراث، الكويت، 1407 هـ

(11731/1)

، وعرضه عليهم، وبلغهم إياه، حتى يعذر إليهم أمام الله وأمام الناس.

... وقد جاهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – بنفسه العرب واليهود، وجاهد خلفاؤه رضي الله عنهم من بعده، في وقت واحد، أقوى دولتين في العالم في ذلك الوقت، هما فارس والروم. وكان هدف الجهاد الأول تبليغ دعوة الإسلام إلى الشعوب في تلك الدول، التي كانت قواها تمنع ذلك، وكانت أنظمتها تحجب الناس عن رؤية الحق. وكان الفاتحون المجاهدون يعرفون موقف الإسلام من الدعوة، وأنه لا إكراه في الدين. ولذلك، فإنهم كانوا يعرضون على الأعداء ثلاثة أمور قبل

(11732/1)

الدخول معهم في أي معركة: إما الإسلام، وإما الجزية، وإما القتال، وهو آخر الخيارات؛ فإن هم أسلموا، فهم من المسلمين، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم؛ وإن هم دفعوا الجزية، فإن لهم حقوقاً كان المسلمون أوفى الناس بها لهم. ويقوم المسلمون بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة بين الناس. وأما الإجبار على الدخول في الإسلام، فلم يكن وارداً على الإطلاق لقول الله تعالى: {قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم

(11733/1)

صاغرون}(1).

... كما أن الكفار كانوا يحاولون القضاء على دين الإسلام بالقتال إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً: {ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا}(2).

ومن هذه المنطلقات فإن الهدف الحروب التي جرت بين المسلمين وأعدائهم وصاحبت الفتوح إعطاء الناس الحرية الكاملة في الاختيار، وأن لا يحول بينهم وبين اختيار

الدين الصحيح أية قوة أو أية دولة ثم {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر}(3). وقد رصدت كتب الفتوح تلك الحركة وما

---

(1) سورة التوبة، آية 29.

(2) سورة البقرة، آية 207.

(3) سورة الكهف، آية 29.

(11734/1)

يتعلق بها من تخيير الناس وإعطائهم الحرية.

... ونتيجة لهذه الحرية، دخل الناس في البلاد المفتوحة في دين الله أفواجاً كما وعد والله، ونظم الإسلام حياتهم العامة والخاصة، ورصدت كتب الفتوح تحقق هذه الأهداف، والمسار الحضاري الذي صاحبها، وما يمس حياة الناس في كافة المجالات، ونظم الحضارة الإنسانية المختلفة.

تعريف الحضارة

... في اللغة العربية: ضد البداوة(1)، ويقابلها باللغة الإنجليزية civilisation. وقد تعددت تعريفات

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج 4، ص. 197؛ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج 2، ص. 10.

(11735/1)

العلماء لكلمة الحضارة، وتأثر بعضهم بأصل الكلمة عند الأوربيين وما يتبعها من اشتقاق(1). والحضارة سميت بذلك لاشتغال أهلها بالأمور التي تساعدهم على الاستقرار وترتيب شؤون حياتهم المعيشية. وقد أخذ مفهوم الحضارة يشمل ما يتبع الاستقرار والإقامة من »تعاون وتآزر وحسن الخلق ورقة الحاشية وتبادل الأفكار والمعلومات في كل ناحية من نواحي الحياة، من صناعة وعلوم وثقافة وقانون« (2)

---

(1) انظر إلى مجموعة من هذه التعريفات عند: الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ص. 25 ـ 41.

(2) توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية، ص. 16.

(11736/1)

.

كتب الفتوح

... كتب العديد من المؤلفين كتباً مستقلة في الفتوح، وعنونوا لها عناوين تدل على تميزها في هذا الجانب. ولاشك في أن رصد هذه الكتب يتطلب العودة إلى الكتب المتخصصة في الفهرسة، إذ إن معظم ما كتب منها يعد مفقوداً أو مدمجاً في كتب أخرى، وما طبع منها مستقلاً قليل. وقد رصد فرانز روزنتال تسعة وعشرين ومئة (129) كتاب في الفتوح. إلا أنه بدراسة للعناوين التي أوردها، تبين لي أن ما عنون بالفتوح منها هي تسعة وعشرون (29) بحثاً، وبقية ما أورده منها جاءت في قضايا جهادية عامة، أو في تاريخ قادة، أو بلدان

(11737/1)

بذاتها(1). وقد استفاد روزنتال من قوائم ابن النديم في كتابه "الفهرست"(2).

... ومما عرف من الكتب المتخصصة في الفتوح "فتوح البلدان" لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت 279 هـ) (3)

---

(1) فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة

د. صالح أحمد العلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1403 هـ، ص ص. 283 ـ 287

(2) روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص. 273.

(3) هو أبو الحسن أحمد بن يحيى البلاذري، ولد في بغداد ونشأ بها، وطلب العلم وتنقل في بلاد الشام والجزيرة، وسمع الحديث والتاريخ من عدد من الرواة في زمانه؛ كما تتلمذ على يديه عدد من العلماء. حظي بمكانة خاصة عند خلفاء بني العباس وعلماء زمانه. ألف الكثير من الكتب من أشهرها أنساب الأشراف. (ت 279 هـ). [انظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، مخطوط مصور من المكتبة الظاهرية، المدينة، ج 2، ص. 469؛ المشهداني، موارد البلاذري في أنساب الأشراف، ج 1، ص ص. 44 ـ 67].

(11738/1)

، وهو كتاب مشهور أخذه العلماء بالقبول، ويعد ـ في تصوري ـ أوثق كتب الفتوح وأكثرها دقة وشمولية(1).

---

(1) تعد أقدم طبعات فتوح البلدان للبلاذري، طبعة لايدن، 1866 م، ثم طبعة الرحمانية بالقاهرة 1901 م، ثم طبعة القاهرة 1932 م، ثم طبعات بيروت 1956 م و 1957 و 1958 م و 1978 م. كما ترجم الكتاب إلى عدة

لغات منها الفرنسية والإنجليزية [انظر المشهداني، محمد جاسم حمادي، موارد البلاذري عن الأسرة الأموية في أنساب الأشراف، ج 1، ص. 62].

(11739/1)

... كما أن من كتب الفتوح ما ألفه ابن أعثم الكوفي(1) بعنوان "الفتوح". وقد طبع الكتاب عدة طبعات(2). والكتاب مليء بالمبالغات والأساطير التي لا تصح ولا تصدق. لكنه لا يخلو من

---

(1) هو أبو محمد أحمد بن محمد بن علي، ليس هناك معلومات كثيرة عن ترجمته، ضعفه كثير من العلماء في الحديث والرواية. وهذا واضح من خلال استعراض كتابه، ولم تتحدث عنه المصادر بشيء يذكر. (ت 314 هـ) [انظر: نعيم زرزور، "مقدمة" كتاب الفتوح، ص. 8].

(2) من أشهر طبعات هذا الكتاب وأكثرها انتشاراً طبعة بيروت، دار الكتب العلمية، 1406 هـ

(11740/1)

روايات يمكن الاستفادة منها من بعض الوجوه، وما يستشهد به في هذه الوقفات يعد عندي مما يمكن الاستفادة منه بحدود من هذه الكتب.

... وكتاب "الردة والفتوح" لسيف بن عمر التميمي الأسيدي(1)

---

(1) هو سيف بن عمر الضبي الأسدي البرجمي السعدي الكوفي، له تصانيف كثيرة في الفتوح، كان إخبارياً عالماً، متروك الحديث مقبول التاريخ، عاش في العراق، وتنقل في البلدان (ت 180 هـ) [الذهبي، ميزان الاعتدال، ج 2، ص. 255؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج 4، ص. 295]. من طبعات الكتاب طبعة بتحقيق قاسم السامرائي، انظر الطبعة الثانية، الرياض، دار أمية، 1418 هـ

(11741/1)

، وفيه روايات عديدة يستفاد منها في جوانب تاريخية مختلفة.

... كما أن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم(1) له كتاب "فتوح مصر وأخبارها". وهو كتاب جيد في بابه، ومرجع مهم للباحثين في "تاريخ مصر وأخبارها". وقد أجرى محمد جبر أبو سعدة دراسة على كتابه عنوانها

"ابن عبد الحكم المؤرخ وكتابه فتوح مصر وأخبارها"(2)

---

(1) ابن عبد الحكم هو: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري، أشهر العلماء الذين ألفوا في تاريخ مصر في صدر الإسلام، له رواية في الحديث (ت 257 هـ).

(2) طبع البحث في القاهرة، د. ت.، 1399 هـ/ 1979 م.

(11742/1)

.

... أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي (130 ـ 207 هـ) (1)

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن عمرو الواقدي السهمي الأسلمي ولاءً. ولد بالمدينة المنورة سنة 130 هـ، وتلقى العلم على أهلها، رحل في طلب العلم إلى مكة المكرمة والحجاز والشام والعراق وغيرها من بلدان الإسلام، استقر في بغداد سنة 180 هـ وعاش بها بقية حياته. له الكثير من الروايات في الحديث والتاريخ، اشتهر بالتأليف في المغازي. تولى قضاء الجانب الشرقي من بغداد أيام الرشيد. له العديد من التلاميذ أشهرهم ابن سعد صاحب كتاب "الطبقات الكبرى" (ت 207 هـ). [انظر:

ياقوت الحموي، معجم الأدباء، بيروت، دار إحياء التراث، ج 18، ص. 279؛ شمس الدين محمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1405 هـ، ج 9، ص. 475؛ محمد ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، د. ت؛ ج 7، ص. 77؛ محمد فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ج 1، ترجمة محمود فهمي حجازي، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1403 هـ، م 1، ج 2، ص. 100].

(11743/1)

. وله العديد من الكتب المتعلقة بالفتوح، وكثير مما طبع منها كتب أسطورية لا تصح نسبتها للواقدي، وإن كان من المتوقع أن كتبه الأصلية ربما لا يزال بعضها موجوداً ضمن المخطوطات المحفوظة في المكتبات لكنها لم تر العناية الدقيقة

من الباحثين. كما أن المخطوط منها لا يتفق بعضها مع بعض في الغالب، وإن اتفقت في التسمية، مما يدل على استخدام القصاص لاسم الواقدي ونسبة أساطيرهم وما اخترعوه من روايات إليه، وبالتالي ضياع كتبه الأصلية أمام هذا الكم الهائل مما نسب إليه.

... من هذه الكتب المنسوبة للواقدي:

(11744/1)

... 1 ـ "فتوح إفريقيا"(1).

... 2 ـ "فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان"(2).

... 3 ـ "فتوح البهنسا"(3).

---

(1) نشر في تونس 1315 هـ (صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، معهد المخطوطات العربية، 1995، ج 5، ص. 323).

(2) طبع في القاهرة 1309 هـ (صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، ج 5، ص. 323).

(3) طبع في القاهرة 1278 هـ و 1290 هـ و 1305 هـ و 1311 هـ، وغيرها. (انظر: صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، ج 5، ص. 324).

(11745/1)

... 4 ـ فتوح الشام(1).

... 5 ـ فتوح العراق والعجم(2)

---

(1) طبع الكتاب طبعات مختلفة، أقدمها طبعة شركة الهند الشرقية، كلكتا، 1854 م؛ كما طبع في القاهرة

1978 م، و 1891 م، و 1895 م، و 1912 م، و 1929 م، و 1935 م. ومن هذه الطبعات طبعة بيروت عن دار الجيل. ويشك كثير من الباحثين في نسبة الكتاب للمؤلف (راجع، صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، ج 5، ص. 324).

(2) طبع في الهند 1287 هـ (انظر: صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، ج 5، ص. 324)؛ كما طبع في مصر سنة 1309 هـ/ 1891 م. وقد وقفت على هذه الطبعة.

(11746/1)

.

... 6 ـ فتوح الجزيرة والخابور وديار بكر(1).

---

(1) طبع الكتاب لأول مرة في ألمانيا 1827 م. (صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، ج 5، ص. 324). وطبع الكتاب بتحقيق عبد العزيز فياض حرفوش، نشرته دار البشائر، بيروت، 1417 هـ وقد قام بسام الخراشي بتحقيق الكتاب في رسالة ماجستير، قدمت لقسم التاريخ بجامعة الملك سعود بالرياض خلال العام الجامعي 1411 هـ [انظر: زيد الحسين، دليل الرسائل

الجامعية في المملكة العربية السعودية، ط 2، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات، 1415 هـ، ص. 333].

(11747/1)

... 7 ـ فتوح مصر(1).

... 8 ـ فتح منف والإسكندرية(2).

9 ـ "الردة مع نبذة من فتوح العراق" وذكر المثنى بن حارثة الشيباني(3)

---

(1) طبع في لايدن 1825 م. (صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، ج 5، ص. 324).

(2) طبع في لايدن 1825 هـ (إدوارد فندك، اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، بيروت، دار صادر، مصور عن طبعة القاهرة، دار الفجالة، 1313 هـ ص. 65).

(3) طبع الكتاب من رواية أحمد بن محمد بن أعثم الكوفي، بتحقيق يحيى الجبوري، بيروت، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، 1410 هـ والكتاب المطبوع قصة أسطورية خيالية نسجت بأسماء مغلوطة ووقائع مخترعة لا صحة لها، وبالتالي فإنه لا يعول عليه.

(11748/1)

محمد بن عبد الله الأزدي(1). وله كتاب "تاريخ فتوح الشام"(2)

---

(1) هو محمد بن عبد الله بن عمار بن سوادة الأزدي الغامدي، أبو جعفر البغدادي المخزومي من علماء البصرة المعدودين، اشتهر بالحفظ ورواية الحديث. وقد وثقه العلماء وأجازوا الرواية عنه، ولد سنة 162 هـ (ت 242 هـ). [انظر: الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 5، ص. 416؛ المزي، تهذيب الكمال، ج 25، ص. 509؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج 9، ص. 265].

(2) طبع لأول مرة في الهند 1854 م. (صالحية، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، ج 1، ص. 55)؛ كما طبع بعناية عبد المنعم عبد الله عامر في القاهرة 1970 م، وقد اطلعت على هذه الطبعة.

(11749/1)

، ويتميز كتابه بإسناد الروايات وبيان مصادرها وسلسلة وصولها إليه.

... و"تاريخ افتتاح الأندلس" لابن القوطية القرطبي، من

القرن الرابع الهجري(1).

... أبو الحسن محمد البكري (ت 950 هـ) وله كتاب "فتوح مكة" المسمى "الدرر المكللة في فتوح مكة المشرفة".

وهو كتاب أسطوري، مليء

---

(1) أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز من علماء القرن الرابع الهجري المتقدمين في الأندلس، وقد حقق كتابه عبد الله أنيس الطباع، وأخرجت طبعته الأولى دار المعارف، بيروت 1415 هـ [انظر: عمر فاروق الطباع، مقدمة تاريخ افتتاح الأندلس، ص. 32].

(11750/1)

بالقصص والقصائد المنحولة(1).

... عبد الله بن محمد بن أبي شيبة(2)

---

(1) طبع الكتاب لأول مرة سنة 1302 هـ، وقد اطلعت على طبعة للكتاب صدرت عن دار المنار بتونس، دون تاريخ.

(2) هو أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، ولد بالكوفة وترعرع بها، طلب العلم على أشهر علماء زمانه، اعتبر من أشهر المحدثين، روى له البخاري في

صحيحه أكثر من ثلاثين حديثاً، كما روى له مسلم في صحيحه ما يزيد على ألف وثلاثمائة حديث، من أشهر تلاميذه الإمام البخاري، والإمام مسلم، والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم، اشتهر بكتابه المصنف الذي يحتوي على قسم في المغازي النبوية، وقسم في التاريخ والفتوح. [انظر: ابن أبي شيبة، المصنف، الجزء الرابع عشر؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 6، ص. 413؛ المزي، تهذيب الكمال، ج 16، ص. 37؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 11، ص. 124].

(11751/1)

(ت 235 هـ) وله كتاب "الفتوح"(1).

... وأما الكتب الأخرى في الفتوح التي لم أعرف لها طبعات، وقد عرفت مخطوطة وانتشرت بين العلماء، ونقل عنها الكثير من المؤرخين في السابق، فمنها ما كتبه أبو مخلف لوط بن يحيى (ت 157 هـ) (2)

---

(1) لم أطلع على الكتاب مستقلاًّ، ولعله جزء من كتابه "التاريخ"، حيث احتوى على أقسام خاصة بالفتوح. وقد طبع ضمن المصنف، طبعته الدار السلفية في الهند، وأعادت طباعته دار القرآن الكريم في كراتشي،

باكستان، سنة 1406 هـ

(2) هو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف. تابعي لقي عدداً من الصحابة. عاش في الكوفة واشتهر بها، له مرويات متعددة عند الطبري وغيره من المؤرخين، أجمع علماء الحديث على ترك الرواية عنه لتشيعه. [انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 18، ص. 41؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 7، ص. 301؛ يحيى بن إبراهيم اليحيى، مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري. دراسة نقدية، الرياض، دار العاصمة، 1410 هـ].

(11752/1)

، في فتوح الشام وفتوح العراق؛ وسيف بن عمر التميمي (ت 200 هـ) في "الفتوح الكبير"(1)؛ وأبو حذيفة إسحاق بن بشير (ت 206 هـ) في "الفتوح"؛ وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت 221 هـ) (2) في "السواد وفتحه"، وفي كتاب "فتوح الأحواز وفتوح أرمينية"؛ والمدائني (225) (3)

---

(1) لعله كتاب "الردة والفتوح" الذي حققه قاسم السامرائي.

(2) أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي، مولاهم، البصري، له تصانيف كثيرة. اشتهر بمعرفة أنساب

العرب وأيامهم، له روايات متعددة في الحديث. [انظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج 10، ص. 246].

(3) هو العلامة الحافظ أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن سيف المدائني الإخباري، نزيل بغداد. له مؤلفات عديدة في السير والمغازي والأنساب. ثقة يروي عن الثقاة في الغالب. ولد سنة 132 هـ وتوفي في بغداد سنة 225 هـ [انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 10، ص. 401؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج 14، ص. 124؛ ابن الأثير، الكامل، ج 6، ص. 516؛ سزكين، تاريخ التراث العربي، م 1، ج 2، ص. 139].

(11753/1)

في كتبه "فتوح الشام"، "فتوح العراق"، "فتوح الجزيرة"، "فتوح مصر"، "فتوح برقة"، "فتوح الأهواز"، "فتوح سجستان"، "فتوح كرمان"، "فتوح الري"، "فتوح جرجان وطبرستان"، "فتح بابل وراماسال"(1)؛ وأبو إسحاق العطار(2) في "الفتوح"؛ وابن أبي البغل(3) في "رسائل في فتح البصرة"(4)

---

(1) وقد أكثر الطبري النقولات عن المدائني في قضايا الفتوح، حيث نقل عنه في "تاريخ الأمم والملوك" ما

يزيد علىخمسمئة (500) رواية.

(2) لم أقف له على ترجمة.

(3) لم أقف له على ترجمة.

(4) انظر: روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ص. 273؛ انظر محمد جاسم حمادي المشهداني، موارد البلاذري عن الأسرة الأموية في أنساب الأشراف، ج 1، ص. 62.

(11754/1)

.

... وقد احتوت كتب التاريخ العام العديد من أخبار الفتوح، وبموضوعات وأبواب مستقلة أحياناً، إلا أنها لا تدخل في بحثنا هذا، مع أن بعض المحققين أخرجوها أحياناً مفصولة عن مصنفاتها الأصلية، وظن بعض الناس أنها كتب مستقلة في الفتوح(1).

التشريع والنظم

---

(1) انظر قصة فتح الأندلس، عن كتاب "الإمامة والسياسة" لابن قتيبة، وقصة فتح الأندلس لابن قطبية، استخرجهما وحققهما عبد الله أنيس الطباع،

بيروت، مكتبة المعارف، 1415 هـ، وهما ملحقان بكتاب "تاريخ افتتاح الأندلس" لابن القوطية.

(11755/1)

... لقد كان ضمن أهداف الفتوح رفع الظلم عن المظلومين والمستضعفين الذين وقعوا تحت أيدي الطواغيت وأولياء الشيطان. قال تعالى: {وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً(الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً}(1).

---

(1) سورة النساء، آية 75 ـ 76.

(11756/1)

... ولذا فقد كانت الشريعة الإسلامية هي الحاكمة لأحوال المجاهدين وللمناطق المفتوحة على أيديهم، وبالتالي فقد كانوا يقيمون شريعة الإسلام في تلك المناطق.

وقد استجدت بعض الأمور التي تطلبت من الخلفاء والعلماء بحثها وإيجاد التشريعات الخاصة بها مستنبطة من الشريعة الإسلامية. ولعل فرض الخراج على الأراضي المفتوحة عنوة يعد في مقدمة التشريعات التي استنبطها عمر بن الخطاب من أصول شرعية صحيحة. ودعاه هذا لعقد اجتماع مع عدد كبير من علماء المسلمين وفقهاء الصحابة الذين قدموا من الأمصار المختلفة التي فتحت في تلك

(11757/1)

الفترة(1)؛ كما أن فرض العطاء كان إجراءاً تشريعياً كذلك وترصد كتب الفتوح ما يتعلق بالخراج والعطاء من الناحية التشريعية واتخاذ القرارات الخاصة به، حيث يحدثنا البلاذري في عنوان مستقل عن "أحكام أراضي الخراج". ويذكر في هذا الأمر أصول تشريع الخراج، وأقوال

---

(1) لمزيد من التوسع في هذه القضية، راجع: أبو يوسف، كتاب "الخراج"، الذي ألف في عهد هارون الرشيد، لبحث أصل هذا التشريع والنظام، وتوسع في قصة اتخاذ عمر

لهذا التشريع وما دار فيه من مشاورات. (أبو يوسف، الخراج، دار المعرفة، بيروت، 1399 هـ، ص. 24).

(11758/1)

الفقهاء فيه، وما يعتري الأراضي الخاصة به من إصابات، وما تنتجه من غلات وتغير الأحكام بتغير أحوالها، وغير ذلك من التفصيلات المتعلقة بها(1). كما تحدثت بعض تلك الكتب عن اختلاف الفقهاء والمشرعين حول معاملة بعض الأراضي: فابن عبد الحكم يتحدث عن أقوال الفقهاء حول معاملة بعض الأراضي في مصر، وهل كان الفتح عنوة أو صلحاً، وما بني على ذلك من أحكام شرعية(2). وتعد كتب الفتوح مرجعاً في عهود الصلح التي عقدوها مع أهل

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص . 433.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص ص. 151 ـ 156.

(11759/1)

البلاد الأصليين، وطبقها المسلمون عبر قرون طويلة. ولا يزال ينظر البعض إليها على أنها قائمة، مثل صلح بيت المقدس(1)؛ كما يحدث البلاذري عن فرض عمر للعطاء وما يتعلق به من تنظيم سواء في مقدار العطاء أو في ترتيب أهله، وفي مصادر أمواله، وتدوين الدواوين الخاصة به(2).

... كما تعد كتب الفتوح مصدراً مهماً للمناظرات الفكرية والدينية التي دارت بين المسلمين الفاتحين، وبين أعدائهم من الفرس والروم، والتي كان محورها

---

(1) انظر حول شروط الصلح: الأزدي، فتوح الشام، ص. 246.

(2) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص. 435.

(11760/1)

الحديث عن الإسلام وأصوله، وعلى رأسها توحيد الخالق وهي ديانة الأنبياء كلهم، والحديث عن بعثة نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم –، والشريعة التي بعث بها. وهذه المناظرات كثيرة ومتعددة، ومنتشرة في أخبار كتب الفتوح ورواياتها، ويصعب حصرها وتفصيلها، وسواء كان بعضها صحيحاً أو منحولاً، فإنها تعد مؤشراً هاماً على أن قضية الجهاد والفتح لم تكن عسكرية فقط،

بل كانت دينية وفكرية أيضاً(1)

---

(1) انظر مناظرة معاذ بن جبل للروم، عند ابن أعثم، الفتوح، ج 1، ص. 143؛ ومناظرة المغيرة بن شعبة للفرس في المصدر نفسه، ج 1، ص. 158؛ وانظر إلى بعض هذه المناظرات عند الأزدي، فتوح الشام، ص. 197؛ وانظر إلى بعض هذه المناظرات بين بعض المسلمين ورهبان النصارى عند الواقدي، فتوح الجزيرة، ص. 41، 53. وهي مناظرة لا يحتج بها، لكنها مؤشر على قضايا فكرية معينة.

(11761/1)

.

... كما أن بعض هذه المناظرات والمحاورات وقعت بين جماعات خارجية على المسلمين من بينهم، ويمكن رصدها من خلال كتب الفتوح ومعرفة الأدلة الشرعية للأطراف المختلفة فيها(1).

... كما تحتوي كتب الفتوح على رصد لحياة فقهاء الصحابة وعلماء الشريعة. فكتاب ابن عبد الحكم يحوي:

... مادة تاريخية طيبة ومفيدة للغاية. فهي من جهة ترصد النشاط العلمي للرعيل الأول من علماء مصر من

الصحابة الذين نزلوا مصر وقدموا

---

(1) انظر إلى مناظرة بعض أصحاب علي ـ رضي الله عنه ـ لطائفة ممن خرج عليه عند ابن أعثم، الفتوح، ج 3، ص. 262.

(11762/1)

إليها من الأقطار الأخرى؛ وهي من جهة ثانية تؤرخ قدوم من قدم من الصحابة إلى مصر، وهو أمر ذو أهمية بالغة (1).

... كما أن ابن عبد الحكم لا يكتفي بالحديث عن هؤلاء الصحابة الذين نزلوا مصر بل يذكر الأحاديث الواردة عنهم ويرويها بسندها ويعنون لذلك بـ "ذكر الأحاديث" حيث يذكر جمعاً من الصحابة وأحاديثهم(2).

... كما تتحدث كتب الفتوح عن بعض الدروس والمواعظ والخطب التي ألقاها فقهاء الصحابة(3)

---

(1) أبو سعدة، ابن عبد الحكم المؤرخ، ص. 97.

(2) انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ص. 248 ـ 319.

(3) انظر إلى بعض هذه الخطب عند ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 3، ص. 253، 255، 258؛ ج 5،

ص. 212، 213، 356؛ وانظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص. 139.

(11763/1)

وغيرهم من العلماء. ومن أمثلة ذلك الحديث عن خطبة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في الجابية حينما زار الشام، والتي لم تتوقف عند الوعظ والنصيحة، بل امتدت للحديث عن بعض الأحكام الشرعية الخاصة بالمرأة(1).

... كما تحدث ابن عبد الحكم عن خطبة لعمرو بن العاص - رضي الله عنه - حث فيها على الزكاة وصلة الأرحام والاقتصاد والإحسان إلى الجيران، وبين فيها بعض الأحكام الشرعية(2).

الإدارة ...

---

(1) الأزدي، فتوح الشام، ص. 252.

(2) انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 139.

(11764/1)

... يعد الرسول – صلى الله عليه وسلم – أول من نظم الأقاليم وعين الأمراء والعمال في أنحاء الدولة الإسلامية المختلفة. وتعد هذه أولى الخطوات الإدارية لتنظيم الدولة الإسلامية وتحديد المسؤوليات في المناطق وربطها بالعاصمة الإسلامية، وبالقائد الأول رسول الله – صلى الله عليه وسلم –. وقد تحدث البلاذري بالتفصيل عن أمراء الرسول – صلى الله عليه وسلم – الذين بعثهم إلى اليمن، وعن المهام التي كلفوا بها(1).

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 78.

(11765/1)

... وتتحدث كتب الفتوح عن مشاورة الخلفاء والأمراء لأتباعهم وأخذ الرأي منهم، وهو مبدأ إداري أساسي سار عليه القادة(1).

... وقد تحدث الأزدي عن بعض المراسلات الإدارية بين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعماله وأمرائه(2). كما قام الأزدي برصد العديد من المراسلات التي دارت بين أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وأمرائه في بلاد الشام(3)

---

(1) انظر: الأزدي، فتوح الشام، ص. 45؛ ابن أعثم، الفتوح، ج 1، ص. 191؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص. 266.

(2) انظر: فتوح البلدان، ص. 78.

(3) الأزدي، فتوح الشام، ص. 30، 50، 125، 127، 135، 156، 159، 243، 244.

(11766/1)

.

... ويتحدث الواقدي عن بعض المراسلات بين عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب رضي الله عنه(1).

... ويحدثنا الواقدي عن مراسلات إدارية دارت بين عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما(2).

... ويعد ابن أعثم أكثر كتاب الفتوح إيراداً لنصوص الرسائل الإدارية في فترات الفتوح المختلفة(3)

---

(1) الواقدي، فتوح البهنسا، ص. 64

(2) الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص ص. 39 ـ 40.

(3) انظر: ابن أعثم، الفتوح، حيث أورد العديد من هذه الرسائل، ج 1، ص. 171، 232، 254،

267، 277، 279، 282، 287، 396، 402، 442؛ و ج 7، ص.

5، 177، 183، 184، 232،

388، 389.

(11767/1)

.

... ويذكر البلاذري في عنوان خاص ("أمر الخاتم") اتخاذ رسول – صلى الله عليه وسلم – خاتماً خاصاً يختم به رسائله ثم استعمال الخلفاء لهذا الأمر من بعده(1).

... كما تعد كتب الفتوح مرجعاً هاماً لمعرفة القواد والأمراء المسؤولين عن تسيير أمور الأقاليم وإدارتها بعد الفتح، وما يتصل بذلك من عزل وتعيين ومحاسبة ومراقبة وتأديب(2)

---

(1) **البلاذري، فتوح البلدان، ص ص.** 447 ـ 451.

(2) **انظر إلى قضية مراقبة عمر ـ رضي الله عنه ـ لأمرائه وقسمة أموالهم، في: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص.** 149؛ **وانظر إلى قصص عزل عثمان ـ رضي الله عنه ـ لبعض أمرائه عند: ابن أعثم، الفتوح، ج** 1، **ص.** 346؛ **وانظر إلى عزل بعض أمراء بني أمية عند: ابن أعثم، الفتوح، ج** 7، **ص.** 280.

؛ كما تعتبر مرجعاً للتقسيمات الإدارية في عصور الفتح وقبلها. فمن خلالها يمكن التمييز بين الإدارة والقضاء والشرطة(1). فابن عبد الحكم يتحدث عن تقسيم مصر إلى قسمين، مصر السفلى ومصر العليا، وعن دمج هذين القسمين في عصر عثمان بن عفان رضي الله عنه(2).

... كما تحدث الواقدي في عنوان مستقل عن عزل أبي موسى الأشعري من البصرة وولاية عبد الله بن عامر عليها(3). وقد

---

(1) انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 236.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ص. 63 ـ 74.

(3) الواقدي، فتح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 132.

تحدث الأزدي عن عزل خالد بن الوليد عن العراق وتوليته الشام(1).

... وتحدث ابن عبد الحكم عن ولاة المغرب في عدة مواضع من كتابه(2). وقد أوردت كتب الفتوح العديد من

الروايات المرتبطة بتعيين الخلفاء ومبايعتهم. فقد تحدث الواقدي في كتاب "فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان" عن مبايعة عثمان بن عفان بالخلافة في عنوان مستقل(3).

---

(1) الأزدي، فتوح الشام، ص. 68.

(2) انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 204، 213، 215، 217.

(3) المصدر نفسه، ص. 130.

(11770/1)

... وتحدث ابن أعثم عن قيام دولة بني العباس، وبيعة أول خلفائهم(1).

... كما تحدث عن بيعة هارون الرشيد(2) وخلافة الأمين(3) وبيعة المعتصم(4).

القضاء

... لقد كان القضاء منظماً بين المسلمين في حياتهم المدنية العامة؛ كما أن نظام القضاء رتب بطريقة معينة بين المجاهدين في ساحات القتال في المعارك المشهورة، حتى أن كتب الفتوح تتحدث عن القضاء في

المعارك المشهورة. ... ويتحدث البلاذري عن كيفية

---

(1) ابن أعثم، الفتوح، ج 7، ص 258

(2) لمصدر نفسه، ص. 402.

(3) المصدر نفسه، ص. 432.

(4) المصدر نفسه، ص. 470.

(11771/1)

اختيار عمر ـ رضي الله عنه ـ لبعض قضاته(1).

... وقد وضع ابن عبد الحكم عنواناً خاصاً ("ذكر قضاة مصر") (2). وقد تحدث في هذا الموضوع عن أوائل القضاة في مصر بعد فتحها، ثم تحدث بالتفصيل عن بقية القضاة في عهد الراشدين وفي عصر بني أمية وفي عصر بني العباس(3).

... وتحدث كتاب "فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان" عن القضاة في بعض بلاد فارس قبل فتح المسلمين لها(4)

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 101.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ص. 227.

(3) المصدر نفسه، ص ص. 227 ـ 247.

(4) انظر: الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 114.

(11772/1)

.

... ويمكن من خلال دراسة بعض النصوص والروايات الواردة في كتب الفتوح الوصول إلى حقائق معينة في العصور المصاحبة للفتح أو السابقة واللاحقة لها، حول تنظيم القضاء في بعض المناطق سواء في الظروف العسكرية أو المدنية. وحول قواعد التعيين والعزل للقضاة(1).

اللغة والأدب

... لاشك في أن اللغة العربية وآدابها قد انتشرت بانتشار الإسلام في المناطق المفتوحة. ودعا ذلك أهل اللغات الأخرى إلى تعلم اللغة العربية، وما يتبع ذلك من ثقافة إسلامية، وآداب للغة القرآن(2)

---

(1) انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 241.

(2) علي بن إبراهيم النملة، مراكز الترجمة عند

المسلمين، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1412 هـ، ص. 11.

(11773/1)

. وتحتوي كتب الفتوح على العديد من النصوص الأدبية الرائعة، منها الخطب الراقية ذات النصوص الفريدة(1)، والوصايا البليغة(2)

---

(1) انظر إلى خطبة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في الجابية عند الأزدي، فتوح الشام، ص. 251؛ وخطبة عبادة بن الصامت في المصدر نفسه، ص. 274؛ وخطبة أبي الدرداء، المصدر نفسه، ص. 275.

(2) انظر إلى الوصايا البليغة المتبادلة بين أبي بكر الصديق وخالد بن سعيد بن العاص ـ رضي الله عنهم ـ عند: الأزدي، فتوح الشام، ص. 23؛ ووصية أبي بكر لهاشم بن عتبة ـ رضي الله عنهما ـ في المصدر نفسه، ص. 33.

(11774/1)

.

... كما احتوت تلك الكتب على قصائد شعرية منها ما استشهد به، ومنها ما كان وليد المواقف، وبعضها صحيح النسبة لأصحابه، وبعضها الآخر منحول. فما ورد من حكايات وأشعار في ما نسب للواقدي من كتب الفتوح يعد في إجماله من الشعر المنحول. ومع هذا، ففي غالبه شعر فصيح وله معان رصينة، وبالتالي تعد كتب الفتوح سجلاً لشعر الجهاد(1)

---

(1) انظر: سيف بن عمر، الردة والفتوح، ص. 11، 13، 24، 27، 37، 38، 84، 88، 149، 186، 212، 219، 236، 248، 263؛ وانظر: البلاذري، فتوح البلدان، 25، 32، 51، 60، 65، 105، 118، 126، 127، 261، 289، 331، 349، 371، 372، 377، 378، 384 387، 390، 402، 403، 422، 426، 428، 430؛ وانظر: الواقدي، فتوح الشام، ج 1، ص ص. 33 ـ 107 و 196 ـ 287؛ و ج 2، ص ص. 9 ـ 235، 246، 248، 249، 266، 273، 282؛ وفتوح الجزيرة والخابور وديار بكر، ص ص. 33 ـ 191؛ وفتوح البهنسا، ص. 22، 88، 111 ـ 142؛ وانظر: البكري، فتوح مكة المشرفة، ص ص. 3 ـ 48؛ وانظر: ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ص. 83 ـ 114 وغيرها. وانظر: ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 1، ص ص. 48 ـ 98، وغيرها من

الصفحات؛ كما تحتوي بقية مجلدات "الفتوح" على العديد من القصائد الشعرية التي يصعب حصرها.

(11775/1)

، وتعد بعض هذه القصائد سجلاًّ لمعلومات تاريخية أو جغرافية(1).

... كما تعد تلك الكتب سجلاً للقصص المنسوجة بطريقة أدبية رائعة، سواء منها ما كان أسطورياً خيالياً، أو ما كان حقيقياً صيغ بأسلوب أدبي فريد. فبعض هذه الكتب بكاملها عبارة عن قصص خيالية اشترك فيها رجال ونساء عرفوا حقيقة أو خيالاً.

... ومن أبرز القصص على سبيل المثال قصة الخنساء مع أبنائها الأربعة، وما دار بينها وبينهم من حديث وقصائد

---

(1) انظر إلى القصيدة التي أوردها الواقدي، فتوح الجزيرة، والتي تتضمن وصفاً جغرافياً لبعض الأماكن، ص. 33.

(11776/1)

شعرية تعد من روائع القصص والشعر(1).

... كما تبرز قصة لامرأتين وجدتا مدفونتين في اليمن منذ زمن قديم قبل الإسلام وتركتا قصائد شعرية عند قبريهما فيها العديد من الحكم والمواعظ(2).

... وتعد كتب الفتوح سجلاً رائعاً لأدب الرسائل، حيث ترد نصوص مختلفة منها تعالج قضايا متنوعة، أشرنا إلى بعضها عند الجانب الإداري، كما أن البعض الآخر يتعلق بمناسبات اجتماعية أو بقضايا خاصة يصعب حصرها(3)

---

(1) انظر إلى هذه القصة عند الواقدي، ص. 35.

(2) انظر: ابن أعثم، الفتوح، ج 7، ص. 39.

(3) انظر رسالة عمر إلى أهل الشام يعزيهم في وفاة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ عند: ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 1، ص. 123.

(11777/1)

.

الترجمة

... يتحدث كُتاب الفتوح عن مواقف معينة استخدمت فيها الترجمة من اللغة العربية إلى لغات أخرى، وخصوصاً

الفارسية والرومية، وتعد من أنواع الترجمة الفورية.

فالأزدي مثلاً يذكر مواقف في فتوح الشام تطلبت الترجمة وفهم اللغة الأخرى(1).

... وقد وردت أخبار عن إجادة بعض النساء والجواري للترجمة(2)، بالإضافة إلى الأخبار المتعددة التي تتحدث عن وجود التراجمة من الرجال.

---

(1) انظر: الأزدي، فتوح الشام، ص ص. 176، 200، 101.

(2) انظر: الواقدي، فتوح الجزيرة، ص. 57.

(11778/1)

... وقد كانت دواوين الخراج منذ تأسيسها في عهد عمر بلغات غير العربية. ففي مصر بالقبطية، وفي الشام بالرومية، وفي العراق وفارس بالفارسية. وقد ذكر البلاذري أنه في خلافة عبد الملك بن مروان قام أحد كتاب الديوان من الروم بالبول في الدواة التي يستخدمها للكتابة، مما أغضب عبد الملك بن مروان ودفعه لترجمة الديوان ونقله إلى العربية(1).

... ولاشك أن نقل الديوان إلى العربية له ما يبرره من أسباب دينية واقتصادية وخلافها.

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 197.

(11779/1)

... كما يتحدث البلاذري في موضوع مستقل عن نقل ديوان الفارسية إلى العربية زمن الحجاج بن يوسف الثقفي(1).

... كما يتحدث عن بدايات الخط العربي وانتشاره في المدن العربية قبل الإسلام في عنوان مستقل ("أمر الخط") أورد فيه الحديث عمن كان يجيد الخط بمكة المكرمة عند بداية الإسلام، وعن مدى انتشاره بعد الإسلام، ومن كان يكتب للرسول – صلى الله عليه وسلم –، وعن أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – لزيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ بتعلم كتاب يهود(2).

(1) المصدر نفسه، ص. 298.

(2) المصدر نفسه، ص. 460.

(11780/1)

الهجرات البشرية

... تطلبت عملية الفتوح مشاركات واسعة من القبائل العربية التي رحلت مجاهدة من كافة أنحاء بلاد العرب إلى مناطق الجهاد. وقد تبع ذلك هجرة هذه القبائل، وإقامتها في مناطق جديدة. وقد كان تحرك هذه القبائل ابتداءً بترتيب من الخلفاء الراشدين. فالأزدي يتحدث عن مكاتبة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لأهل اليمن، ثم يفصل ما كان من أمرهم واستجابتهم لأبي بكر ورحيلهم بأولادهم من اليمن إلى المدينة، ثم منها إلى مناطق الفتوح المختلفة، ويتحدث عن قبائل بعينها، حيث يضع عنواناً لقدوم حمير على أبي بكر

(11781/1)

رضي الله عنه(1)؛ كما يضع عنواناً: "وفود العرب على أبي بكر رضي الله عنه(2)؛ ويتحدث بالتفصيل عن قدوم بني سليم وجماعة من القبائل على أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتوجههم إلى الشام(3). وفي الوقت نفسه نرى بروزاً لهذه القبائل في الوقائع المختلفة وتميزها عن غيرها(4). ويتحدث الواقدي عن جموع القبائل التي وردت العراق قبل القادسية مع سعد بن أبي وقاص، ومعهم أهلوهم وأولادهم(5)

---

(1) الأزدي، فتوح الشام، ص ص. 8 ـ 9، 16.

(2) المصدر نفسه، ص. 39.

(3) المصدر نفسه، ص. 42.

(4) انظر: الأزدي، فتوح الشام، ص. 227.

(5) الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 15.

(11782/1)

.

... كما تحدث عن أثر لفرسان من بجيلة، ومن بني بكر بن وائل، ومن الأشعريين ومزينة(1).

... ويذكر ابن عبد الحكم أخباراً عن تحرك جموع كبيرة من قبائل قضاعة من الشام إلى مصر(2)؛ كما تحدث بالتفصيل عن توزيع الخطط على القبائل التي رحلت إلى مصر عند فتحها مثل خولان، ومهرة، ولخم، ومذحج، وغافق، وتجيب، وهمذان وغيرها(3).

---

(1) الأزدي، فتوح الشام، ص ص. 69 ـ 77.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص. 112.

(3) المصدر نفسه، ص ص. 98 ـ 129.

(11783/1)

... ويتحدث ابن أعثم عن مراسلات دارت بين أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وقبائل كنده من أجل هجرتهم بأولادهم إلى العراق(1).

... وفي موضع آخر يتحدث عن البربر واستقرارهم في شمال إفريقيا(2).

... ويتحدث البلاذري عن سكان الطائف، وعن رحيل بعض اليهود إليها وسكنهم فيها(3).

... وكما لا يخفى علينا، فإنه بالمقابل هاجر كثير من الموالي من مناطق الفتح إلى بلاد العرب. ومن بينهم من تعلم وأصبح له مكانة

---

(1) ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 1، ص. 55.

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص. 495.

(3) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 66.

(11784/1)

خاصة بين العرب وغيرهم من المسلمين. ويمكن رصد عدد منهم في روايات كتب الفتوح. فالبلاذري مثلاً يتحدث في عنوان مستقل عن "أمر الأساورة والزط"، وهم جماعة من الأتراك سكنوا العراق وحالفوا بعض قبائل العرب في

البصرة وخالطوهم(1).

الحياة الاجتماعية

... هناك الكثير من الأخبار المتناثرة ذات العلاقة بالحياة الاجتماعية، مثل الزواج والعلاقة بالأقارب والجيران والمجتمع والأرحام وغير ذلك من الأمور الاجتماعية(2).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 366.

(2) انظر عن بعض هذه الأخبار في مصر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 139.

(11785/1)

... فمثلاً قصص الزواج كثيرة. ونطالع بعض رواياتها من خلال تلك الكتب، مثل زواج سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ من سلمى امرأة المثنى بن حارثة بعد وفاة المثنى(1).

... ويتحدث ابن أعثم عن زواج سجاح بنت الحارق التميمية بمسيلمة الكذاب ويورد بعض الروايات المتعلقة بهذا الزواج(2).

... كما يتحدث عن زواج خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ

من بني حنيفة بعد موقعة اليمامة(3).

---

(1) الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 29.

(2) ابن أعثم، الفتوح، ج 1، ص. 27.

(3) المصدر نفسه، ص. 39.

(11786/1)

... ويورد قصة زواج أحد أمراء بني العباس من ابنة لملك الترك في بلاد الخزر، ويصف الهدايا والتحف التي صحبت الزواج(1).

... كما ذكر قصة زواج هارون الرشيد بإحدى نساء بني العباس، وكيفية تعامل هذه المرأة مع زوجها الرشيد(2).

... ويتحدث الواقدي عن وجود سبعمائة امرأة من النخع في موقعة القادسية مات أزواجهن فتزوجن من قبائل أخرى(3).

---

(1) المصدر نفسه، ج7، ص. 393.

(2) المصدر نفسه، ص. 42.

(3) الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 36.

(11787/1)

... كما تتعرض بعض هذه الكتب لعلاقة النساء بأزواجهن، واحترامهن لهم وإعداد الطعام لهم، والقيام بحاجاتهم، وخدمتهم عند إصابتهم في المعارك وغيرها، وذلك من خلال قصص وروايات لوقائع محددة تمكن من معرفة طبيعة العلاقات الزوجية في المجتمعات إبان فترة الفتوح وعقبها(1)؛ كما يرد الحديث عن دور هؤلاء النسوة في الفتوح(2).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 29.

(2) انظر: البلاذري، فتوح البلدان، ص. 141، حيث تحدث عن دور النساء في معركة اليرموك؛ وانظر: ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 1، ص. 90 و 202.

(11788/1)

... وتوجد نظرات اجتماعية خاصة تتعلق بالنسب والمصاهرة، يمكن معرفتها من خلال بعض الروايات(1).

... كما توجد أخبار خاصة ومميزة عن الوفيات، وفقد بعض الزعماء والقادة ممن لهم مكانة خاصة على الصعيد الاجتماعي وغيره(2)

---

(1) انظر أقوال الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ عند: ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 186.

(2) انظر أخبار وفاة عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ عند: ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص ص. 180 ـ 183، حيث وضع لها عنواناً خاصاً وتحدث عنها بالتفصيل؛ وانظر بعض أخبار الوفيات عند: ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 1، ص ص. 240، 376، 495.

(11789/1)

.

... وتوجد بعض الأخبار المتعلقة بالحلي والملابس. فمثلاً نجد تفصيلات عن ملابس عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حينما قدم على بيت المقدس لمصالحة أهلها؛ كما نجد أخباراً عن ملابس أمراء المسلمين وقوادهم حينما قابلوا عمر ـ رضي الله عنه ـ في الجابية(1).

... ونجد عند ابن أعثم أخباراً عن أنواع الأطعمة والأشربة السائدة في تلك الفترة. ونجد أخباراً لأنواع الملابس والزينات والحلي التي يرتديها بعض القواد والمقاتلين وعوام الناس، أو التي يرتديها بعض رجال الكنيسة من نصارى العرب

(1) الأزدي، فتوح الشام، ص. 353.

(11790/1)

وغيرهم، بالإضافة لبعض المشروبات المحرمة والمنتشرة بين أهل الكتاب، أو بعض المسلمين(1).

... وجرى الحديث عن بعض الخلافات والنزاعات التي دارت بين المسلمين والتي كان لها تأثير على النواحي الاجتماعية(2).

... ويمكن الاستئناس ببعض الروايات عن الأحوال الاجتماعية السائدة في مناطق الفتح قبل وصول الإسلام(3).

...

الحياة الاقتصادية

(1) انظر: ابن أعثم، الفتوح، ج 1، ص. 164.

(2) المصدر نفسه، ج 3، ص. 298.

(3) انظر: الأزدي، فتوح الشام، ص. 175.

(11791/1)

... يتبادر إلى الذهن حين الحديث عن كتب الفتوح ما يرتبط بالجهاد من غنائم وجزية، مما يؤخذ من الأعداء والمعاهدين. وهذا الأمر صحيح، حيث نجد الأخبار عن ذلك في أحداث المعارك المختلفة. إلا أن الأمر لا يتوقف عند الحصول عليها. فالحديث عن الغنائم يبين نوعية الممتلكات التي يكسبها المسلمون، من أنواع النقود المختلفة، والأطعمة، والأقمشة والملبوسات، وعروض التجارة المختلفة، بالإضافة إلى الثروات الحيوانية(1)

---

(1) انظر الحديث عن غنائم المسلمين في القادسية عند: الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 37؛ ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 1، ص. 168؛ وانظر غنائم المسلمين في اليرموك عند: ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 1، ص. 208.

(11792/1)

.

... فالبلاذري يتحدث في عنوان مستقل عن »أموال بني النضير«، وعن المزارع التي غنمها المسلمون ومحتوياتها، وعما تم فيها من توزيع وإقطاع(1)؛ كما تحدث في عنوان آخر عن »أموال بني قريضة«، ذكر فيه

قسمة ما غنمه المسلمون من أموالهم(2)؛ كما تحدث البلاذري عن أموال خيبر التي غنمها المسلمون من يهود، وعن المزارع وإنتاجها، والاتفاقية التي عقدها الرسول – صلى الله عليه وسلم – مع يهود خيبر على استزراع أرضها، وما أنتجته هذه الأرض ونصيب المسلمين

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 31.

(2) المصدر نفسه، ص. 35.

(11793/1)

والمزارعين من يهود(1). كما تحدث عن مغانم الرسول – صلى الله عليه وسلم – من وادي القرى وتيماء(2).

... كما تحدث البلاذري في مواضع عدة عن غنائم المسلمين من الفرس. فهو يذكر كنوزاً أخذها المسلمون بعد فتح نهاوند فيها درر ومجوهرات وأنواع مختلفة من الحلي(3).

... ويتحدث ابن أعثم عن كمية هائلة من الغنائم التي أخذها المسلمون من الفرس في بيكند وغيرها، حيث احتوت على كميات هائلة من الأسلحة والآنية والجواهر وغيرها(4)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 36.

(2) المصدر نفسه، ص. 47.

(3) المصدر نفسه، ص ص. 2، 3.

(4) ابن أعثم، الفتوح، ج 7، ص. 163.

(11794/1)

.

... ويتحدث كتاب فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان عن غنائم المسلمين في القادسية، وعن كمياتها وطريقة توزيعها(1).

... ويفصل في بعض غنائم المسلمين من بعض مدن شرقي فارس(2).

... وفي موضع يذكر بعض ما لدى نصارى العرب في العراق من ملابس وزينة وعدد مختلفة(3).

... ويفصل في موضع آخر القول في الملابس التي يرتديها بعض قواد الفرس، وما لديهم من جواهر وزينة مرتبطة بها(4)

---

(1) الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص ص. 27 ـ 28.

(2) المصدر نفسه، ص. 109.

(3) المصدر نفسه، ص. 16.

(4) المصدر والصفحة نفسهما.

(11795/1)

.

... ويتحدث الواقدي في مواضع من كتابه "فتوح الجزيرة" عن أنواع من الهدايا والتحف والمجوهرات التي كانت تنقل بين الجزيرة وخراسان(1).

... أما ابن عبد الحكم، فهو يحدثنا عن تكاثر الأموال عند عمال عمر - رضي الله عنه - على الأمصار، حيث وصلت قصيدة شعرية تعرض بهؤلاء العمال؛ فشكل لجنة قاسمت العمال أموالهم(2).

الخراج والعطاء

---

(1) الواقدي، فتوح الجزيرة، ص. 78.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 149؛ و البلاذري، فتوح البلدان، ص. 377.

(11796/1)

... تعد الجزية من الفروض التي يضعها المسلمون على غيرهم، وخصوصاً أهل الكتاب ومن في حكمهم، ويقاتلون حتى يؤدوها، كما يقاتل مانعو الزكاة من المسلمين عند تركها. وقد كانت الجزية تفرض على أهل البلاد المفتوحة صلحاً، وبمقادير محددة ومختلفة، بحسب الأحوال الاقتصادية لمن يدفعها. وتعد الجزية مقياساً لأحوال المجتمع الاقتصادية. وقد نالت مقادير الجزية اهتماماً خاصاً من قبل كتب الفتوح. فابن عبد الحكم يتحدث بالتفصيل عن »ذكر الجزية« على أهل مصر: فبعضها مال، وبعضها طعام وبعضها زيت، إلى غير ذلك من المقادير

(11797/1)

المحددة(1).

... كما يتحدث البلاذري عن الجزية التي فرضها الرسول – صلى الله عليه وسلم – على نصارى نجران وتفصيلاتها، ومنها الإبل والخيل والأقمشة والنقود وغيرها(2). كما يذكر الجزية التي فرضها عمر ـ رضي الله عنه ـ على أهل الشام، وما فيها من نقود وأطعمة(3).

... ويتحدث البلاذري في موضع خاص عن »أحكام أراضي الخراج«، وعما يفرض عليها من أموال أو إنتاج، وعن

الحكم في حال تعطيلها وعن أراضي

---

(1) انظر: ابن عبد الحكم، فتوح البلدان، ص ص. 151 ـ 156.

(2) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 77.

(3) المصدر نفسه، ص. 131.

(11798/1)

العشور، وعن الأحكام والضرائب التي كانت سائدة عليها قبل الإسلام، وموقف الإسلام منها(1).

... ويتحدث البلاذري في موضوع مستقل عن »ذكر العطاء في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه«، حيث يذكر تفاصيل مختلفة حول العطاء الذي فرض وحدد في خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ بعد أن كثرت الأموال، حيث بين مقادير العطاء التي فرضت للناس في زمن عمر ـ رضي الله عنه ـ، وعن ترتيب الناس في ديوان العطاء، وعن تنظيم هذا الأمر في كافة أمصار الإسلام، والعمال الذين أوكل إليهم العمل عليها(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 433.

(2) المصدر نفسه، ص ص. 435 ـ 447.

(11799/1)

.

... كما تحدث عن توزيع الأرزاق على أهل البادية والحاضرة(1). وتشير بعض الأمصار إلى أسعار السلع المتداولة في فترات مختلفة في بعض المناطق الإسلامية(2).

... ويضع البلاذري عنواناً ("أمر النقود") تحدث فيه عن أنواع النقود المتداولة في فترات مختلفة، وعن أوزانها وأقيامها؛ كما تحدث بالتفصيل عن الأوزان والمكاييل المتداولة في الأمصار الإسلامية، وعن ضرب الدنانير لأول مرة في الدولة الإسلامية واستمرار الضرب بعد ذلك(3)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 440.

(2) انظر: ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج 7، ص. 163.

(3) البلاذري، فتوح البلدان، ص ص. 451 ـ 457.

(11800/1)

. وتعد أخبار البلاذري في هذا الجانب على غاية كبيرة من الأهمية في رصد العملات في أول الإسلام، ومن أهم

أنواع النشاط الاقتصادي.

الزراعة

... الزراعة من أهم أعمدة الاقتصاد. ولاشك في أن ازدهار الزراعة في أي مكان له مراحل، وقد يتعرض لقوة أو ضعف، وبالتالي فإن التأريخ لها يحتاج إلى تتبع الروايات حولها. وتعد كتب الفتوح من المصادر التي يعتمد عليها في التاريخ للزراعة وما يتعلق بها. فالبلاذري يتحدث بالتفصيل عن المحاصيل الزراعية للطائف، ويذكر منها العنب والرمان والعسل والزبيب، ويتحدث عن أحكام الزكاة في هذه

(11801/1)

المحاصيل(1).

... كما يتحدث عن إنتاج اليمن من العسل والعنب والزبيب وأنواع أخرى من المحصولات الزراعية(2)؛ ويتحدّث عن مسح السواد في العراق، وما فيه من أنواع المنتجات الزراعية، وما فرض عليها من خراج(3).

... ويتحدث ابن عبد الحكم عن الزراعة في ريف مصر وما فيه من الإنتاج والمرعى(4).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 68.

(2) المصدر نفسه، ص. 84.

(3) المصدر نفسه، ص. 269.

(4) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص. 139، 141.

(11802/1)

... كما يتحدث عن خروج جيش المسلمين إلى الريف في فصل الربيع وعنايتهم بخيولهم في هذا الموسم وتسمينها ورعيها(1). كما يتحدث عن محصول الزيتون وأهميته لدى الناس في شمال أفريقيا، وما يحصلون عليه من أموال مقابل بيعه في أفريقيا وفي أوربا(2).

... كما يتحدث عن جلب المحاصيل من مصر إلى الحجاز أيام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ(3)، ويتطرق لسياسة عمر في نهي جنده عن الاشتغال بالزراعة(4).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 139.

(2) لمصدر نفسه، ص. 185.

(3) المصدر نفسه، ص. 163.

(4) المصدر نفسه، ص. 162.

(11803/1)

... كما يتحدث الأزدي عن أنواع من القمح والشعير وجدها المسلمون بدمشق عند فتحها(1)، وعن أنواع من الأعناب والفواكه والثمار(2).

... ويذكر البلاذري أنواعاً من الصيد البري في شمال الجزيرة العربية: في المناطق الساحلية القريبة من تبوك، وفي دومة الجندل(3)، والمناطق المجاورة.

الصناعة

... ولاشك في أن المجتمعات البشرية على اختلافها يوجد بها حرفيون وصناعيون يقومون بتجهيز بعض احتياجات هذا المجتمع وتصنيعها.

---

(1) الأزدي، فتوح الشام، ص. 103.

(2) المصدر نفسه، ص. 113.

(3) البلاذري، فتوح البلدان، ص ص. 71 ـ 72.

(11804/1)

ومن تلك الاحتياجات ما هو مدني، ومنها ما هو عسكري.

وتوجد بعض الشواهد الخاصة بالصناعة، وخصوصاً العسكرية وما يرتبط بها. ومن ذلك حديث ابن القوطية

عن إقامة عبد الرحمن بن الحكم لدار صناعة السفن بإشبيلية(1)؛ كما يتحدث البلاذري عن وجود منجنيق ودبابة استخدمها الرسول – صلى الله عليه وسلم – أثناء حصار الطائف(2). وهذه صنعها أصحاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – في الموقع بعد أن تعلموا صناعتها من بعض الأماكن جنوب الحجاز(3)

---

(1) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص. 111.

(2) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 67.

(3) انظر: الطبري، تاريخ الطبري، ج 3، ص. 132، حيث ذكر بالتفصيل كيف بعث الرسول – صلى الله عليه وسلم – أناساً إلى جُرش تعلموا له صنع الدبابة.

(11805/1)

.

... ويتحدث البلاذري عن صناعة القراطيس في مصر تحت موضوع "أمر القراطيس"(1).

... ونالت المعاملات التجارية نصيبها من الروايات في كتب الفتوح. فالبلاذري يتحدث عن تعامل نصارى نجران بالربا وكثرته فيهم، مما أغضب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عليهم(2).

... كما يمكن الاستدلال على أنواع السلع المتداولة في المجتمعات المفتوحة في تلك الفترة من خلال بعض روايات الفتوح. فنجد الحديث عن أنواع الطيب من العنبر والعود وأنواع الزينة من الملابس المختلفة

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 241.

(2) المصدر نفسه، ص. 77.

(11806/1)

وما يتعلق بها(1)، بالإضافة لأنواع الأطعمة والملابس.

...

الخطط والبناء

... ورد الكثير من الأخبار والموضوعات المستقلة في كتب الفتوح عن التخطيط والتعمير والبناء. فقد وضع البلاذري موضوعات مستقلة وعناوين خاصة تتعلق ببناء المدن والأمصار. فقد وضع عنواناً مستقلاً عن "تمصير الكوفة"، تحدث فيه بالتفصيل عن اختيار موقع المدينة والمراسلات التي دارت بين عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنهما ـ؛ كما تحدث بالتفصيل عن بناء مسجدها وتقسيم أراضيها على

---

(1) الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 37.

(11807/1)

السكان، وما أحدثوه فيها من بناء؛ كما تحدث عن قطائعها وتوسع بنائها بعد ذلك في أيام بني أمية وبني العباس(1).

... وبالطريقة نفسها نجده يضع عنواناً لـ "تمصير البصرة"، ويتحدث عنها بالتفصيل في ما يزيد عن خمس وعشرين (25) صفحة، ذاكراً ما يتعلق بها من خطط وقطائع وبناء ومساجد، ومصادر للمياه عبر عصر الراشدين ("عصر التأسيس") وكل من عصر بني أمية وبني العباس(2).

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص ص. 274 ـ 287.

(2) المصدر نفسه، ص ص. 341 ـ 365.

(11808/1)

... كما تحدث بالتفصيل عن بناء مدينة بغداد وعنون لها بـ "أمر مدينة السلام"، حيث تكلم عن تخطيطها

وبنائها وأسواقها وأهم عيونها، في عدة صفحات(1). ...

... كما تحدث البلاذري عن إعادة بناء العديد من المدن والثغور وتحصينها في وجه الأعداء زمن هارون الرشيد(2).

... كما وضع عنواناً خاصاً عن "حفائر مكة" تحدث فيه بالتفصيل عما جرى فيها من حفر للآبار وتجميع للمياه؛ كما تحدث فيه عن أهم بيوت مكة، ودروبها، وترتيب بنائها منذ العصر الجاهلي حتى عصر

---

(1) المصدر نفسه، ص ص. 293 ـ 297.

(2) المصدر نفسه، ص ص. 175 ـ 176.

(11809/1)

بني العباس، وتحدث عن سجن مكة(1).

... كما تحدث عن »سيول مكة« المكرمة في موضوع مستقل فصل فيه الطرق التي سلكها سيول مكة، وتحدث عن تاريخ السيول(2).

... ووضع ابن عبد الحكم في كتابه "فتوح مصر وأخبارها" عنواناً هو »ذكر الخطط« (3)، تحدث فيه عن تفاصيل دقيقة من خطط الفسطاط عند تأسيسها فهو يتحدث عن سبب تأسيس المدينة وسبب اختيار المكان

وبناء جامع الفسطاط(4)؛ كما تحدث في موضوع مستقل عن

---

(1) المصدر نفسه، ص. 60 ـ 64.

(2) المصدر نفسه، ص. 64.

(3) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 92.

(4) المصدر والصفحة نفسهما.

(11810/1)

»الزيادة في المسجد الجامع«(1)؛ وتحدث عن تأسيس سوق الفسطاط، والطرق داخل المدينة(2).

... وفصل الحديث عن توزيع الأراضي على القبائل المختلفة، وعنون لذلك "ذكر من اختط حول المسجد الجامع مع عمرو بن العاص"(3).

... كما تحدث عن خطط الجيزة، وعن المكاتبات التي دارت بين عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ وهمذان، وبينه وبين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حول نزول الجيزة، وبناء الحصون فيها وتوزيع الأراضي على القبائل(4)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 131.

(2) المصدر نفسه، ص. 97.

(3) المصدر نفسه، ص. 98.

(4) المصدر نفسه، ص. 130.

(11811/1)

. وقد فصل في الحديث عن القطائع واستصلاح الأراضي ليس في زمن الفتح فقط بل وفي أيام بني أمية أيضاً(1). ... وتحدث عن حفر خليج أمير المؤمنين، ابتداء من الفكرة حتى التنفيذ، والنتائج الاقتصادية لذلك الحفر على مصر والحجاز(2). ولم يتوقف ابن عبد الحكم عند الحديث عن عمليات البناء، بل تحدث عن عمليات الهدم والتخريب التي حدثت لبعض القرى(3).

---

(1) انظر العنوان الذي وضعه ابن عبد الحكم، فتوح مصر، "ذكر القطائع"، ص. 132.

(2) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص. 162.

(3) المصدر نفسه، ص. 77.

(11812/1)

... كما تحدث البلاذري عن حفر القنوات في بعض المناطق في العراق لتأمين وصول المياه إلى السكان(1).

... وتحدث كتاب "فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان" المنسوب للواقدي عن تأسيس مدينتي الكوفة والبصرة، وعن السبب في ذلك، وعن تخطيط سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ للكوفة، وبناء بيوتها ومسجدها وتوزيع أراضيها(2).

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص . 273، 366.

(2) الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 71.

(11813/1)

... كما تحدث البلاذري عن إعادة بناء العديد من المدن والثغور وتحصينها في وجه الأعداء زمن هارون الرشيد(1).

العلوم والظواهر الطبيعية

... هناك بعض الظواهر الطبيعية التي رصدتها كتب الفتوح، وبالتالي فهي تعد مرجعاً للعلماء المشتغلين بهذه الظواهر. فابن القوطية يرصد كسوفاً للأندلس في أيام عبد الرحمن بن الحكم(2).

... وابن أعثم يتحدث بالتفصيل عن الطاعون الذي أصاب المسلمين في بلاد الشام أيام عمر بن الخطاب ـ رضي

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص ص. 175 ـ 176.

(2) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص. 111.

(11814/1)

الله عنه .(1).

... كما يتحدث الواقدي عن المجاعة التي حدثت في الحجاز نتيجة القحط والجدْب وهو ما عرف بعام الرمادة زمن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، كما يتحدث عن طاعون عمواس الذي أصاب الشام أيضاً(2).

... كما يتحدث البلاذري بالتفصيل عن السيول التي أصابت مكة المكرمة في الجاهلية، والطرق التي سلكتها تلك السيول(3).

(1) ابن أعثم، الفتوح، ج 1، ص. 238.

(2) الواقدي، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص. 120.

(3) البلاذري، فتوح البلدان، ص. 175.

(11815/1)

... كما أن هناك بعض المعلومات التي أوردتها كتب الفتوح عن التقسيمات الجغرافية، وأسماء بعض المناطق، وتقسيماتها، والمسافات بينها(1)، وطبيعة بعض المناطق وثرواتها الطبيعية، ومنتجاتها الزراعية، والحدود الجغرافية لبعض الأقاليم(2).

... فابن عبد الحكم يتحدث في موضوع مستقل عن "ذكر النيل"(3)، وتتحدث تلك الكتب عن موارد

---

(1) انظر طريق خالد بن الوليد من العراق إلى الشام والأماكن التي مر عليها في ص ص. 73 ـ 77.

(2) انظر مناقشة حدود مصر عند ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص. 99.

(3) المصدر نفسه، ص. 149.

(11816/1)

المياه ومواقعها والطرق التي يسلكها المسافرون(1)، فلو نظرنا مثلاً إلى وصف الأزدي للطريق التي سلكها أبو عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ حينما توجه لفتح الشام، لوجدناه يقول: »وأقبل أبو عبيدة حتى مر بوادي القرى، ثم أخذ على الحجر وهي أرض النبي صالح عليه السلام مما يلي الحجاز وهي دون الحجر مما يلي الشام وعلى

ذات المنار ثم على زيزاء ثم على مأب بعمان« (2). وغير ذلك من المعلومات البلدانية والجغرافية، التي تشكل مادة أساسية للباحثين في

---

(1) الأزدي، فتوح البلدان، ص. 262.

(2) الأزدي، فتوح الشام، ص. 29.

(11817/1)

هذه القضايا.

... كما تذكر تلك الكتب معلومات تاريخية مهمة عن بعض المناطق قبل وصول الإسلام إليها. فالواقدي يذكر في مكان واحد قرابة عشرين كنيسة ودير وبيعة كانت في الجزيرة الفراتية إبان فتحها زمن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ(1)، وبعض المعلومات التاريخية الواردة يمتد إلى عصور موغلة في القدم، فيها معلومات هامة أحياناً، وفي بعضها الآخر أساطير وخرافات لا قيمة لها من الناحية التاريخية(2)

---

(1) الواقدي، فتوح الجزيرة، ص. 92، 93.

(2) انظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص. 7، حيث أورد معلومات متعددة عن تاريخ مصر القديم. وقد

قام أبو سعدة في بحثه عن ابن عبد الحكم بتحليل بعض تلك الروايات، ص ص. 99 ـ 102؛ وانظر: الواقدي، فتوح البهنسا، ص ص. 5 ـ 8.

(11818/1)

. ...

الخاتمة والتوصيات

... تتعدد كتب الفتوح وتتنوع، وتختلف أهمية رواياتها ومصداقية كتابها، فهي تحتاج إلى مزيد من الرصد والعناية والتصنيف والنقد الدقيق للكتاب، وللكتب وللروايات كل على حدة. وتبعاً لذلك، فإنه يمكن الوثوق بالعديد منها والاعتماد على ما أوردته من روايات تاريخية مختلفة في هذه الكتب؛ كما نجد أنها لم تتوقف عند الفتح والجهاد كما توحي بذلك عناوينها، بل امتدت للحديث عن القضايا الحضارية المختلفة المرتبطة بحياة الإنسان، فهي ولاشك ترصد انتشار الإسلام من الناحية الجغرافية، والجهود العسكرية

(11819/1)

التي بذلت من أجل ذلك، وما سبقها وصاحبها من طرق سلمية، وكتابات دعوية؛ كما أنها ترصد التغير الذي طرأ على حياة المجتمعات التي دخلها المسلمون إبان فترات الفتوح المختلفة، وخصوصاً المراحل الأولى منها، وبالتالي فهي ترصد الهجرات البشرية والحياة الاجتماعية والقضايا الاقتصادية وما يتفرع منها، كما ترصد بناء المدن والأمصار ومقومات الحياة فيها، بالإضافة إلى ذلك فهي تورد بعض الأخبار التاريخية السابقة للإسلام في تلك المناطق؛ كما أنها مرجع للدارس للحياة اللغوية والأدبية لا يستغنى عنه. يضاف لذلك أننا يمكن أن

(11820/1)

نستفيد منها في التاريخ الإداري للمناطق الإسلامية المختلفة وخصوصاً في عصوره الأولى.

... ومن خلال تلك الشواهد المختلفة في كتب الفتوح، يمكن أن ندرك أن الفتح الإسلامي ـ وخصوصاً في عصر الراشدين ـ لم يكن حركة جهادية عسكرية فحسب، بل كان امتداداً حضارياً وأخلاقياً وتنظيمياً شهد له أسلوب كتّاب الفتوح في ربطهم للقضايا الحضارية بموضوع كتاباتهم في الفتوح. فالفتح في نظرهم هو حضارة

امتدت لتغير في حياة الناس في تلك البلدان مجتمعة؛ كما أن هذا التغيير لم يكن مقصوراً على البلاد المفتوحة، بل تعداه إلى الشعوب

(11821/1)

والمناطق التي شاركت فيه، حيث كانت هناك عقلية متفتحة أوجدت الجو المناسب للتبادل الحضاري والتطوير البشري الذي أثر في حياة الناس في المناطق التي امتد إليها الإسلام، منذ مَدّه الأول حتى عصرنا الحاضر. وأعود لتأكيد أهمية تلك الكتب لدارسي القضايا الحضارية، مع الاهتمام بالتمييز بين الكتب بعضها عن بعض وبين الروايات نفسها، من خلال منهج البحث التاريخي الصحيح والمعروف.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولاً : المصادر المطبوعة:

(11822/1)

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (630 هـ - 1238 م)، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، 1385 هـ

الأزدي، محمد بن عبد الله (231 هـ)، فتوح الشام، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، 1970 م.

ابن أعثم الكوفي، أحمد بن محمد بن علي (ت 314 هـ)، الفتوح، بيروت، دار الكتب العلمية، 1406 هـ

البخاري، الحافظ أبو عبد الله إسماعيل بن إبراهيم (ت 256 هـ)، الجامع الصحيح، إسطنبول، المكتب الإسلامي، د. ت.

(11823/1)

البكري، أبو الحسن محمد (ت 950 هـ)، الدرر المكللة في فتوح مكة المشرفة، تونس، دار المنار، د. ت.

البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279 هـ)، فتوح البلدان، بيروت، دار الكتب العلمية، 1398 هـ

التميمي، سيف بن عمر الأسيدي (ت 180 هـ)، الردة والفتوح، تحقيق قاسم السامرائي، ط 2، الرياض، دار

أمية، 1418 هـ

ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت 852 هـ)، تهذيب التهذيب، 12 جزءاً، حيدر آباد، دائرة المعارف، 1325 هـ

(11824/1)

ابن حجر، تقريب التهذيب، ج 1، 2، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، ط 2، بيروت، دار المعرفة، 1395 هـ

الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم الأدباء، بيروت، دار المعرفة، د. ت.

الحموي، معجم البلدان، 5 أجزاء، بيروت، دار الكتاب العربي.

الحموي، معجم الأدباء، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت.

الخطيب البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد، 14 جزءاً، بيروت، دار الكتاب العربي، د. ت.

(11825/1)

أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي (202 - 275 هـ)، سنن أبي داود، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ط 2، القاهرة، مطبعة السعادة، القاهرة، 1369 هـ

الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 847 هـ)، سير أعلام النبلاء، 23 ج، ط 1، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1405 هـ

الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق علي البجاوي، بيروت، دار المعرفة، د. ت.

ابن سعد، محمد (ت 230 هـ/ 845 م)، الطبقات الكبرى، 9 ج، بيروت، دار صادر، د. ت.

(11826/1)

ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد، المصنف، كراتشي، إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، 15 ج، مع تكرار الجزء الرابع من 1: 4، 1406 هـ

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310 هـ/ 923 م)، تاريخ الأمم والملوك، الجزء 3 و4، بيروت، دار الفكر، د. ت.

ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري (ت 257 هـ)، فتوح مصر وأخبارها، لايدن، بريل، 1920 م.

ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ دمشق، مصور من نسخة المكتبة الظاهرية، المدينة المنورة، مكتبة الدار، 1407 هـ

(11827/1)

ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز (ق 4 هـ)، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، دار المعارف، 1415 هـ

الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي، القاموس المحيط، بيروت، عالم الكتب، د. ت.

المزي، الحافظ جمال الدين أبو الحجاج يوسف (654 ـ 742 هـ)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق بشار عواد، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1402 هـ

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (ت 711 هـ)، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، القاهرة، دار

(11828/1)

المعارف، د. ت.

ابن النديم، أبو الفرج يعقوب بن إسحاق المعروف بالوراق (ت 380 هـ)، الفهرست، بيروت، مكتبة خياط، د. ت.

الواقدي، محمد بن عمر (ت 207 هـ)، فتوح أفريقيا، تونس، مطبعة المنار، 1966 هـ

..، فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، القاهرة، مطبعة المحروسة، 1309 هـ

..، فتوح البهنسا، القاهرة، مطبعة بولاق، 1311 هـ

..، فتوح الشام، بيروت، دار الجيل، د. ت.

..، فتوح الجزيرة والخابور وديار بكر، تحقيق عبد العزيز فياض حرفوش، بيروت، دار البشائر، 1417 هـ

(11829/1)

..، الردة مع نبذة من فتوح العراق وذكر المثنى بن حارثة الشيباني، تحقيق يحيى الجبوري، ط 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1410 هـ

أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت 182 هـ)، الخراج، بيروت، دار المعرفة، 1399 هـ

ثانياً ـ المراجع:

بدران، عبد القادر (ت 1346 هـ)، تهذيب تاريخ دمشق، ط 2، بيروت، دار المسيرة، 1399 هـ
الحسين، زيد عبد المحسن، دليل الرسائل الجامعية في المملكة العربية السعودية، ط 2، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1415 هـ

(11830/1)

روزنتال، فرانز، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1403 هـ
سزكين، فؤاد محمد، تاريخ التراث العربي، المجلد الأول، الجزء الأول، ترجمة محمود فهمي حجازي، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1403 هـ
أبو سعدة، محمد جبرا، ابن عبد الحكم المؤرخ وكتابه فتوح مصر وأخبارها، القاهرة، 1399 هـ
صالحية، محمد عيسى، المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع، 5 أجزاء، القاهرة، معهد المخطوطات العربية، 1395 هـ

(11831/1)

علي، خالد سيد، رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء، ط 1، الكويت، دار التراث، 1407 هـ
كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 15 ج، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت.
المشهداني، محمد جاسم حمادي، موارد البلاذري عن الأسرة الأموية في أنساب الأشراف، ط 1، مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعي، 1407 هـ
الواعي، توفيق يوسف، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ط 1، القاهرة، 1407 هـ
النملة، علي بن إبراهيم، مراكز الترجمة القديمة عند المسلمين، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1412 هـ

(11832/1)

كنط والعصور الحديثة

الدكتور محمد سبيلا
كلية الآداب – الرباط

لم تشرع الحداثة الغربية في تلمس الوعي نجز انصرام إلا بعد انصرام ما يقارب ثلاثة قرون على انطلاق

ديناميتها في أوربا الغربية عند مطلع القرن الخامس عشر.

فقد انطلقت حركة الحداثة (التي هي التسمية الفكرية لمسمى تاريخي تحقيقي متداول هو . العصور الحديثة) مع أحداث تاريخية كبرى (أهمها اكتشاف العالم الجديد من طرف كريستوف كولومبوس سنة 1492**، وسقوط بيزنطة** 1453**...) وأحداث علمية وتقنية هامة (اكتشاف الطباعة مع غوتنبرغ سنة** 1440**، وفلكيات كوبرنيقوس**

(11833/1)

،41526**، واكتشاف الدورة الدموية . . .) وأحداث فكرية محددة (النهضة الفنية في إيطاليا، و أطروحات مازلن لوثر الاحتجاجية سنة** 1517**، وظهور كتاب "مقال في المنهج " لديكارت سنة** 1637**...).**

وتلك أحداث يأخذ بـ حضها برقاب بـ حض ضمن دينامية كلية لم تتوقف مسيرتها التي تتزايد سرعة ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي . وقد شكلت هذه الأحداث العلامات البارزة لسيرورة لم تنته أشواطها الكبرى إلى الان . فما تزال الحداثة تشكل الأفق المنظور للعالم

الحديث ، حتى ضمن ما يدعى بما بـ حد الحداثة الذي لا يعدو أن يكون مرحلة ثانية

(11834/1)

من مراحل الحداثة، مرحلة غيرت فيها هذه الأخيرة سرعتها وعمقت فيه منطقها.
هذه الأحداث والوقائع المتنوعة، المشتتة في المكان والزمان ، والتي أدرجها المؤرخون باكرا ضمن المرحلة التاريخية الجديدة (العصور الحديثة)، هي في الظاهر

أحداث لا رابط بينها باستثناء عملية إدراجها ونظمها ضمن تصنيف زمني لعصور ا لتاريخ .

أول مفكر تحقق لديه وعي واضح بالروابط العميقة الثاوية خلف هذه الأحداث ، واستنني حر جدتها الكلية بالقياس إلى ما سبقها، وفطن إلى الدلالة الفلسفية المشتركة بين هذه الأحداث المتناثرة والمتنافرة هو هيجل

(11835/1)

(Hugel). فمعظم مؤرخي فكرة الحداثة يؤكدون أن الحداثة لم تع ذاتها فلسفيا، وبشكل صرح وواضح ، إلا مع هيجل . فقد استعمل هذا الأخير مصطلح العصور الحديثة استعمالا خاصا يتميز عن المفهوم الزمني المتداول لدى المؤرخين ، والذي يشير إلى مجرد حقبة أخرى من حقب التاريخ وفق التصنيف التاريخي المتداول : عصور قديمة – عصور وسطى – عصور حديثة.

فالعصور الحديثة، في منظور هيجل ، هي عصور جديدة كل الجدة، عصور مختلفة نوعيا عما سبقها. العصور الحديثة بهذا المعنى تصف الحاضر على أنه فترة انتقال تستنفد ذاتها في الوعي بالتسارع

(11836/1)

من جهة، وبانتظار ولوقع لمستقبل مختلف نوعيا عن الحاضر وجذريا عن الماضي .

في مقدمة كتاب "فينومينولوجيا الروح "، يصف هيجل الزمن الذي يعيش فيه بأنه "زمن ميلاد وانتقال نحو حقبة جديدة. فقد قطعت الروح مع ما كانه العالم إلى حد الآن ، في وجوده وتمثيله . إن هذا الزمن الآن هو في طور

إغراق كل ذلك في الماضي ، كما أنه بـ حمل الآن على تمثله . إن الفلق الذي يداهم ما ظل باقيا إلى حد الآن ، والإحساس الغامض بـ (قدوم) شيء مجهول ، هي العلامات المبشرة بأن شيئا آخر (مختلفا) يتهيأ. إن هذا الانفتات . .. يقطعه بزوغ

(11837/1)

الشمس التي تحاول ، في رمشة عين ، ودفعة واحدة، أن تقيم صرح العالم الجديد"(1).

كان هيجل – فيما يرى هابرماس – هو أول من طرح مسألة قطيعة الحداثة مع الإيحاءات والإلهامات المعمارية للماضي التي هي غريبة عنها، في صيغة مشكل فلسفي "(2). ففي نهاية القرن 18 بدأت الحداثة تطرح على نفسها مشكلة العثور في

(1) HabermasDiscours philosophique de modernité gallimard 1985 7p

(2) المرجع نفسه ، ص 18.

ذاتها على مشروعيتها الخاصة، أو أن تستمد، بلغة

هابرماس ، ضمانتها من ذاتها. وقد اتخذت هذه المسألة صورة حادة لدى هيجل

(11838/1)

حيث تناولها كمشكل فلسفي ، بل كمشكل أسا!س في فلسفته . فبسبب غياب نماذج سابقة جاهزة، فإن الحداثة وجدت نفسها مرغمة على أن تجد توازنها، بل توازناتها، انطلاقا من الانقطعات التي أحدثتها هي ذاتها، وهي الانقطاعات التي نتجت عنها اختلالات ولدت قلقا اعتبره هيجل مصدر الحاجة إلى الفلسفة. وذلك من حيث أن الفلسفة بدأت ترى ذاتها، ابتداء من ذلك الوقت ، مكلفة بترجمة عصرها وزمنها إلى أفكار. بل إن هيجل مقتنع تماما بأنه يستحيل التوصل إلى المفهوم الذي تدرك به الفلسفة ذاتها خارج مفهوم الحداثة(3) .

(11839/1)

إن سؤال الحداثة إذن ليس مجرد سؤال – من بين عدة أسئلة – في حين على الفلسفة أن تطرحه على نفسها، بل ربما كان هو السؤال المركزي ، سؤ"ل الأسئلة الذي

يطرحه العصر على نفسه من خلال الفلسفة ليفهم ذاته رب حرف ماهيته ومعناه ويستشرف مآله .

لكن إذا لم يكن هناك جدال في كون هيجل هو الرائد الأول للوعي الفلسفي بالحداثة، فإن هناك اختلافا كبيرا وتباينا واضحا حول موقع كنط من الحداثة وحول مدى وعيه بها.

يزيد هذا الموضوع بلبلة وارتباكا كون فلسفة كنط قد ظلت منذ اكتمالها محط تأويلات مختلفة، كما شهدت الساحة الفلسفية في

(11840/1)

ألمانيا وفرنسا بالخصوص موجات من الكنية الجديدة، تبلورت في ألمانيا عبر مدرستين كبيرتين . مدرسة ماربورج ومدرسة هيدلبرغ . ركزت المدرسة الأولى على الإبستمولوجيا، والعلم ، ونقد كنط للميتافيزيقا، في حين ارتبط أتباع المدرسة الثانية بالفلسفة الحيوية المعادية للعلوم الطبيعية والمناوئة لعقلانية عصر التنوير، ولمحاولات فهم حياة الإنسان فهما علميا(9).

(3) المرجع نفسه ، ص 19.

(4) صادق جلال العظم ، دفاعا عن المادية والتاريخ ، بيروت ، دار الفكر الجديد، 1990، صص85–94. Atlas de philosophie T,F, Paris, p1993.

(11841/1)

174

تبين التأويلات المسايرة لمدرسة ماربورج بأن كنط قد عمل على التوفيق بين التفسير الميكانيكي للطبيعة والتفسير الغائي . فهو، على غرار ليبنتس ، يقيم نظام الكون على الغائية، لكنه لا يذهب إلى حد المغالاة الليبنتسية المتمثلة في مفهوم التناسق الأزلي ! إذ يرى أن القوانين الكلية المتحكمة في الطبيعة تعمل بالضرورة وبالفطرة في انسجام مع النظام الكوفي دون أن تخرج عن سياقها الغائي . وهكذا عمل كنط على التوفيق بين الفكر الطبيعي المدرسي، وفكر الطبيعة الحديث عن طريق إثبات القوانين الميكانيكية الكامنة في

(11842/1)

الطبيعة، معارضا النزعات والاتجاهات المدرسية، لكنه في الوقت نفسه يقر بوجود عقل كلي ناظم للقوانين الميكانيكية التي تحكم المادة وتحقق لها الانسجام والوحدة والاطراد، وتحميها من الصدفة والعبث (5).

فوكو : كنط عتبة الحداثة :

وعلى النقيض من هوسرل الذي يرفض أن يرى في الكنية عتبة الحداثة، من حيث إن إشكاليتها تماثل إشكالية ديكارت وترتكز عليها ، فإن هيدجر يعتبر كنط مؤسس أو رائد (L'instigateur) الحداثة الفلسفية : فالمحدودية الأساسية للكائن البشري التي تولدها وتعكسها س حرفة الظواهر عن طريق الحدس الحسي لا

(11843/1)

الحدس العقلي تمحو المعرفة التمثيلية المميزة للعصر الكلاسيكي لصلح، مدلول
التمثيل (6).

يقتفي فوكو أثر هذا التحليل الهيدجري تقريبا، ومعتبرا كنط "عتبة حداثتنا"، فهو الفيلسوف الذي

سيجعل الفلسفة تهتم بالإنسان ، لأن عتبة الحداثة لا تتجسد في اللحظة التي تم الاتجاه فيها إلى دراسة الإنسان دراسة موضوعية، بل عندما أصبح الإنسان وحدة تتشكل من عنصرين : التجريبي والمتعالي ، وهي القسمة التي ظهرت مع كنط ومهدت لظهور الإنسان كموضوع على سطح المعرفة وتناوله من زاويتين (7).

(11844/1)

---

(5) محمد عثمان الخشت ، فلسفة الدين في ضوء تأويل جديد للنقدية الكنطية، دار غريب ، القاهرة،ص 91.

(6) G.Leblanc, Le conflit des modernités selon Foucault In magazin littéraire n 309 avril 1993 p57. Voir heidegger kant et le probléme de la métaphysique pp 86-95.

(7) foucaut, les mots et les choses, gallimard, 198 p320.

إلا أن فوكو يتناول حداثة كنط من زاوية أخرى هي علاقته بالتنوير، وذلك من خلال تحليل نصه الشهير . "ما هو عصر التنوير ؟". يكتسي هذا النص أهمية مزدوجة بالنسبة لفوكو : أولا من حيث

(11845/1)

انتماؤه إلى مجال خاص من القضايا التي فعالجها الفلسفة، وهو مجال التاريخ والأحداث . فهو يتناول هذا الحدث التاريخي، محاولا أن يفهم تيمته وتأثيره على الأحداث اللاحقة له . ومن ثمة، فإن هذا المقال بعكس وعي الفيلسوف بالعصر الذي ينتمي إليه ، وبالأحداث التي ستغير وجه ووجهة التاريخ . ثانيا أهمية هذا النص بالنسبة لمشكلة الحاضر وسؤال الحاضر. يلاحظ فوكو أن كنط كتب حول التاريخ ، لكن نص "ما هو عصر التنوير ؟" نص متميز من حيث إنه لا يبحث في مسألة أصل التاريخ أو مشكلة التقدم ، بل هو نص يطرح سؤال الحاضر ومسألة

(11846/1)

الآن أو الراهن ، مقحما على السؤل حول التنوير سؤالا آخر في غاية الأهمية هو: "هل نحن نعيش الآن قرنا مستنيرا ؟"، محاولا استبانة تميز العصر الراهن عما سبقه من عصورهم مما ب حله ربما أول فيلسوف يتخذ من عصره وحاضره موضوعا للتفكير. الجديد لدى كنط هو أن الفكر

لم يعد مكتفيا باتخاذ موقف من الفكر السابق بالقبول أو الرفض ، ولم يعد يقتصر على التساؤل عما إذا كان القدماء أفضل من المحدثين أو العكس ، بل أخذ يطرح مسألة الراهنة(8).

(11847/1)

لكن فوكو يرى أيضا أننا لا يمكن أن نفصل سؤال التنوير عن سؤال آخر يتبين فيه أن ما كان يهم كنط ليس الثورة في حد ذاتها، بل الآثار المتبقية في أذهان الناس الذين لم يعيشوا مخاضها. ما كان يهم كنط هو الإصلاح الفكري والثقافي وتمكين جمهور المواطنين من قسط من الحرية يسمح لهم بأن يفكروا بتلقائية.

فالثورة والتنوير حدثان لا يمكن نسيانهما، لأنهما يطب حان عص! ر كنط ويمثلان حضورا وراهنية لا يمكن التغاضي عنها. إن هذين السؤالين – فيما يرى فوكو – ما فتئنا يترددان على جزء كبير من الفلسفة منذ القرن 19 إن لم نقل على

(11848/1)

كل الفلسفة الحديثة". إن هذين السؤالين يحددان ويوجهان مجال التساؤل الفلسفي عن هوية وجودنا في الآنية التي نعيش فيها(9).

(8) Foucault, Qu'est ce que les lumiéres voir aussi le cours 1993 309magazin littéraire n 35pp 1984 207publié in magazin littéraire n –39.

(9) فوكو، "كنط والثورة"، مجلة الكرمل ، العدد 12، سنة 1984 ، صص 70–71.

بهذين السؤالين إذن يكون كنط قد مهد لفلسفة تهتم بأنطولوجيا الحاضر التي حضرت بقوة في الفكر الألماني من هيجل إلى نيتشه إلى ماكس فيبر وهيدجر.

(11849/1)

وهكذا، فإن كنط يمثل – في نظر فوكو – "عتبة حداثتنا" سواء من المنظور الأنتربولوجى أو من المنظور اجميولوجي أو من حيث الكتابة عن تاريخ الحاضر. وهذا ما دفع البعض إلى القول بأن كنط يمثل – في نظر فوكو – نقطة التقاء العديد من مسارات الحداثة وروافدها، بل

نقطة التقاء صراعاتها ومخاضاتها الفكرية المختلفة وكأنها حداثات متقاطعة لا مجرد حداثة واحدة(10).

هابرماس : الفلسفة الكنطية مرآة الحداثة

يذكر هابرماس أن هيجل يرى أن ماهية العالم الحديث تتركز (Se concentre) في فلسفة كنط التي هي بؤرة (foyer) هذا العالم ،

(11850/1)

ونوع من التأويل الذاتي له ()(11Autoexégése)، وأن عصر الأنوار الذي جعل من العقل صنما يعبد، وينعكس ويلمع (culmine)في فلسفة كنط (12).

إلا أن هابرماس يعود إلى التأكيد بأن كنط "لم يفهم الحداثة كما هي ، وإن كان معماره الفكري قد عبر عن العالم الحديث . فالسمات الأساسية لهذا العصر تنعكس (se reflétent) على الفلسفة الكنطية كما لو كانت مرآة..

إن أساس فلسفة كنط هو فلسفة الذات والتأمل (أو الانعكاس) (Philosophie de la réflexion). فهذه

الفلسفة هي القاعدة الفلسفية التي أقام عليها كنط أنماط النقد الثلاثة

(11851/1)

التي شكلت البنية العامة لفلسفته ، منصبا العقل النقدي محكمة عليا قي حين أن يخضع لحكمها وقرارها كل شيء ولا يستمد صلاحيته إلا منها. قوام هذه الذاتية الفلسفية هى الذاتية المجردة كما عبر عنها الكوجيتو الديكارتي ، و"لوعي المطلق بالذات عند كنط، وتعني علاقة الذات العارفة بنفسها من حيث إنها تنكب

leblanc le conflis des modernités selon

(10Foucault (

(11) Habermas, le discours philosophique de la modernité, t.f. gallimard 1984, pp.22–23.

(12) **المرجع نفسه ، ص** 28.

(11852/1)

على ذاتها كموضوع ، من أجل إدراك ذاتها، وكأنها أمام صورة مرآوية، أي بصورة انعكاسية(13).

أول مظاهر الانعكاس هو استبدال كنط للمفهوم الجوهري الموحد للعقل ، وهو المفهوم المتوارث عن التراث الميتافيزيقي السابق ، بعقل مقسم إلى عناصر لا تقوم بينها إلا وحدة صورية. فكنط يفصل بين ملكات ثلاث ، أي بين العقل العملي ، والحكم الجمالي ، والمعرفة النظرية، مرسيا كل واحدة منها على أساس خاص . ومن حيث أن العقل النقدي يقدم أساس إمكانية المعرفة النظرية والحكم الأخلاقي والتقييم الجمالي ، فإنه لا يكتفي بالتأكد من ملكاته

(11853/1)

الذاتية، ولا بإبراز البنية المعمارية للعقل ، بل يريد أن يلعب دور الحكم أو القاضي الأعلى تجاه مظاهر ومكونات الثقافة كلها. وبذلك تصبح الفلسفة هي الراسم لحدود دوائر الثقافة برمتها كال ملم والتقنية، وكالقانون والأخلاق ، ومثل الفن و"لنقد الجمالي ، وفق معايير صورية، مضفية المشروعية عليها داخل هذه الحدود.

كانت هذه النشاطات العرفية (العلم ، الأخلاق ، الفن) قد أخذت في تحقيق قدر من التمايز والاستقلال الذاتي

(إيستمولوجيا ومؤسسيا) ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر. فمن الزاوية العرفية بدأت كل من هذه

(11854/1)

الفروع المعرفية تطرح على نفسها مسألة الصلاحية والصدقية، بصورة مستقلة انطلاقا من إشكالات خاصة ومن معايير خاصة. هكذا بدأت هذه الفروع المعرفية تطرح على نفسها المسائل المتعلقة بالحقيقة في مجال المعرفة، وبالعدل في مجال الأخلاق والقانون ، وبالذوق في مجال الجماليات.

وهذه التمايزات الإبستمولوجية والفلسفية بين الأنشطة العرفية قد حدثت ولبلورت على أرضية دينامية أعم تمثلت في تمايز واستقلال دائرة المعرفة عن دائرة الاعتقاد(14) (وهو التمايز الذي أشار إليه هيجل في دراسة له بعنوان "المعرفة والإيمان ").

(11855/1)

---

(13) **المرجع نفسه ،ص** 22.

(14) Habermas discours pp 22–23.

ديناميةهذه التمايزات المعرفية، التي كانت قد تبلورت في نهاية القرن الثامن عشر، هي مظهر أساسي من ديناميةمظاهر الحداثة، وذلك وفق المنظور الفكري لماكس فيبر (M.weber) **الذي ينطلق منه هابرماس كقاعدة فكرية لتحليل ديناميةالحداثة.**

يرى ماكس فيبر أن هناك علاقة داخلية حميمية وتلقائية بين الحداثة والعقلنة (rationalité). **فعلية نزع الطابع السحري عن العالم التي تفتتت وتفككت معها التصورات التقليدية القديمة للعالم ، ولدت بنفس الوقت ، ثقافة دنيوية وفق**

(11856/1)

سيرورة عقلية . وهكذا استقلت العلوم التجريبية الحديثة، والفنون والنظريات الأخلاقية والقانونية القائمة على أساس مبادئ شكلت دوائر من القيم الثقافية مكنت من إقامة ممارسات تحكمها مشروعيات داخلية خاصة بالإشكاليات النظرية والجمالية والعملية

الأخلاقية(15).

جوهر عملية التحديث عند ماكس فيبر هو عملية العقلنة التي طالت المجتمع والثقافة الحديثين . ووجها العقلنة هما علمنة الثقافة الغربية الحديثة وتنمية وتطوير المجتمع الغربي الحديث. وقد تميزت البنيات الاجتماعية الجديدة، المتولدة عن دينامية التحديث والعقلنة،

(11857/1)

بتمايز منظومتين تبلورتا حول محورين أو نواتين تنظيميتين هما المنشأة الرأسمالية والجهاز البيروقراطي للدولة. وهذه العقلنة، في وجهيها الانجتماعي والثقافي ، تغزر كافة مناحى الحياة اليومية ذاتها وَلفتت أشكال الحياة التقليدية ذاتها حيث تفقد هذه الأخيرة تلقائيتها الطبيعية وتخلي الساحة لعاير عقلانية حسابية شمولية صارمة قوامها الفردانية وحرية الاختيار(16).

ويرى هابرماس أن هذه الدينامية من التمايزات والاستقلالات ، التي اعتبرها فيبر جوهر عملية التحديث ، قد وجدت صدى وامتدادا لها في فلسفة كنط. لكن هذا

(11858/1)

الأخير – في نظر هابرماس – لم يعان أبدا هذه التمايزات، التي قسمت العقل ، كشروخ وانفصالات (Scissions). لقد انعكست على فلسفته ، لكنه لم يفهم أساسها

(54) **المرجع نفسه ، صص** 1–2.

(16) **المرجع نفسه ، ص** 2.

البعيد. وهكذا ظل كنط – في نظر هابرماس – يجهل الحاجة التي ظهرت على أثر الانفصالات التي فرضها مبدأ الذاتية، أي الحاجة التي فرضت نفسها على الفلسفة، الحاجة إلى التفكير في الحداثة كفترة تعني انفصالها عن الماضي ، وعن نماذجه ، ولتستقي معاييرها الخاصة من ذاتها، ولتكتسب مشروعيتها من نفسها(17).

(11859/1)

إلا أن الطريف في الأمر هو أنه إذا كان هابرماس يعتبر فلسفة كنط مرآة لدينامية الحداثة، دون أن يكون قد

فهم جوهرها واليتها، فإنه من زاوية أخرى، وفي موضع آخر، يعتبر هذه الفلسفة هي المنطلق الأول البعيد لما بعد الحداثة. فتمييز كنط بين العقل (raison) والذهن (أو الفهم أو الفاهمة) (entendement) هو – فيما يرى هابرماس – منطلق نقد التصور الذاتي الصرف للعقل ، أي نقد للعقل الذاتي وللعقل البارد والمتشيء. وهذا يدلنا على مدى التبكير في نقد الأشكال القصحية للعقل ، وخصوصا عندما يكون العقل محصورا بـ حد واحد. أي بعد

(11860/1)

التشيؤ البارد والموضوعاتي ، أو بـ حد التلاعب الأداتي بالطبيعة وبالبشر. وهكذا يعتبر هابرماس أن النقد الذاتي للعقل وللذاتية، الذي اعتبر بمثابة الشيء الجديد كليا عند نيتشه، كان في الواقع موجودا منذ لحظة كنط (18).

لوك فيري (L.ferry) : كنط مفكر الحداثة

ينسب الفيلسوف الفرنسي العاصر لوك فيري نفسه، باعتزاز، إلى الكنطية الجديدة مؤكدا على راهنية كنط ، وعلى ما يسميه باللحظة الكنية التي تتلخص – في

نظره – في إسهامين رئيسيين طبعا الفكر الغربي منذ تلك اللحظة إلى الآن ، وهما : العلمانية الفلسفية، ومسألة

(11861/1)

الذاتية.

بالنسبة للنقطة الأولى يبين لوك فيري أن "نقد العقل الخالص" يتضمن قلبا جذريا للعلاقة بين المتناهي واللامتناهي، وهى النقطة التي التقطها هيدجر بكامل الوضوح . فنقد العقل الخالص – بخلاف الديكارتية – وضع نظرية في التناهي

(17) المرجع نفسه ، ص 23.

(18) هابرماس ، "حتى نكون حداثيين إطلاقا"، (حوار)، مجلة الفكر العربي المعاصر، صص . 123–124.

سوف تضفي طابع النسبية على المطلق . فالفلسفة الغربية للقرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين كانت تنظر إلى التناهي انطلاقا من المتناهي . المنطلق هو الكائن

(11862/1)

المطلق بالمقارنة مع الإنسان ككائن ناقص ومتناهي.
وهذا هو المسار الذي سلكه كل من ديكارت وسبينوزا وليبنتز حيث يوجد المطلق أولا ثم يظهر الإنسان ككائن محدود، متناه ، ناقص ، وهو ما يعبر عن نفسه بالجهالة، والحساسية، والموت ، والخطيئة . . .
وإذا كان كنط – فيما يرى لوك فيري – هو الذي دشن الفضاء الفكري العلماني في الغرب ، وهو الفضاء الذي ما يزال ساريا وسائدا في أوربا والغرب عامة، والذي يؤطر ويوجه الفكر الأوربي عامة، فلأنه قد قلب)العلاقة السابقة مبتدئا بالتناهي والمحدودية كمنطلق أنتروبولوجيا ومعرفيا. وذاك

(11863/1)

هو المعنى الإسلامي "للحساسية المتعالية"، التي لم تعد علامة على التناهي الذي يجب أن يتجاوز بالاتحاد مع نوع من الحدس العقلي المتعالي ، بل هي علامة على الانعطاء الثابت للموضوع .

أما الإسهام الثاني الأساس لكنط، فيتمثل في أن كنط هو الذي دشن نقد الذاتية الميتافيزيقية، هذا النقد الذي ازدهر مع نيتشه ، وجعل الفلسفة الحديثة تدور.

حوله بدرجات متفاوتة(19).

يتبين إذن أنه ليس من اليسير تقديم موقف حاسم ونهائي لمسألة علاقة كنط بالحداثة ولمدى وعيه بها. فبعض الدارسين يرى أن (الثورة الكوبرنيقية)، التي ادعى كنط

(11864/1)

القيام بها هي في الو"قع "ثورة كوبرنيقية مضادة،)، لأن اتجاه الثورة الكوبرنيقية الأصلية كان نحو

(19) l.ferry kant, penseur de la modernité, in magazine littéraire, n 309avril 1993.

هنظر أيضا :

ferry et renault, systéme et critique, ousa, bruxelles, 1992D'un retour à kant, pp 156–157.

الواقعة في حين أن اتجاه الثورة الكوبرنيقية الكنطية المزعومة كان نحو المثالية(20)، وأن فلسفة كنط هي ارتداد عن فلسفة ديكارت (21) بينما يعتبره

البعض الآخر رائد الحداثة(22) ومفكر الحداثة، أو يعتبر فلسفته "بؤرة" العالم

(11865/1)

الحديث.

إلا أنه من الضروري الإشارة إلى أن هذه المواقف والتحليلات التي تنسب إلى كنط نوعا من الريادة في الحداثة، مواقف متفاوتة في تأكيدها لدرجة حداثية فلسفة كنط، بل إن بعضها يستعمل مصطلح الحداثة استعمالا خاصا. وهذا هو الحال بالنسبة لفوكو الذي يستعمل الحداثة (حداثتنا) بمعنى خاص ، أي بمي حنى إبيستميه الحداثة وهو الإبيستميه الذي ظهر بين نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن را والذي تميز بانبثاق الإنسان كذات فاعلة بموضوع للمعرفة.
والمعنى المسند للحداثة هنا معنى إبستمولوجي في الدرجة الأولى، ويرتبط

(11866/1)

بظهور العلوم الإنسانية بالخصوص. وهذا بالتأكيد معنى خاص للحداثة.

أما هابرماس ، فيدرج فلسفة كنط ضمن مخاض الحداثة باعتبارها عصر".كان في طور الانفلات النهائي من كل الإيحاءات المعيارية لنماذج الماضي ، وبصدد إعداد مشروعيته الخاصة واستمداد ومعياراته وضماناته الخاصة من ذاته . فهذه الانفلاتات والانبثاقات ولدت تمايزات واستقلالات على مستوى المؤسسات والبنيات الاجتماعية، وعلى مستوى الثقافة (علم – أخلاق – فن . . .) انعكست على الصرح الفلسفي الكنطي الذي سجلها دون أن يعيها. فكأن الحداثة هي من هذا الصرح بمثابة

(11867/1)

اللاوعي الذي يحدد الوعي دون أن يبلغ مرتبته .
وهابرماس يصادق في حكمه هذا على كنط على رأي هيجل حول هذا الأخير وحول التحولات الكبرى التي أحدثتها الحداثة، والتي تكاد تجملها الفقرة 124 من كتاب هيجل "مبادئ فلسفة الحق ، حيث يرد : "إن الحق في الحرية الذاتية هو محور ومركز الاختلاف بين العمصور الحديثة والعصور القديمة. وهذا الحق ، في لا تناهيه ، قد تم

التعبير عنه في المسيحية وأصبح فيها بمثابة المبدإ الشمولي الفعلي لشكل جديد من العالم. ومن بين التجليات

(11868/1)

---

(20) صادق جلال العظم، دفاعا عن المادية والتاريخ، بيروت، دار الفكر الجديد، 1990، ص88.

(21) المرجع نفسه، ص 93.

(22) ينسب إريك فيل (E.weil) إلى كنط الدور التاريخي المتمثل في إعداد فلسفة الوعي، أي الفلسفة الحديثة (انظر كتابه: E.weil, logique de la philosophie, Paris , Vrin, p. 275

القريبة من هذا المبدإ ندرج الحب و"الرومانسية واستهداف تحقيق السعادة الدائمة للفرد، إلخ. وكذا الأخلاقية والوعي (أو الضمير. م.)، ثم الأشكال الأخرى التي يشكل جزء منها مبادئ المجتمع المدني ويقدم عناصر تشكيل النظام

(11869/1)

السياس ، والتي يتجلى جزؤها الآخر في التاريخ ، وبالخصوص في تاريخ الفن ، وفي العلوم ، والفلسفة "(23).

هذه التحولات فعكسها فلسفة كنط دون أن تعيها وتفهم أساسها الفلسفي . فمصطلح العصور الحديثة منعدم الورود تقريبا في كتابات كنط ، وبالأحرى مصطلح الحداثة . فغياب المفهوم والتسمية مؤشر على غياب الفهم ، وعلى عدم القدرة على التشخيص .

لكن لفلسفة كنط سمة خاصة. فهي فلسفة تعيش مخاضا وتوترا حادا من حيث ارتباطها بالمضامين الفكرية السائدة في العصر وبالمحددات الإبستمولوجية للتفكير السائدة فيه. إلا أنها مخاض تجديد

(11870/1)

الإشكاليات التقليدية المهيمنة، مضمونا ولغة، مما برحلها تكون منطلق دينامية حداثة فكرية لم تتوقف عن التجدد حول قضايا التناهي، والعلمانية، والذاتية، والعقل ، والنقد. هذا، بالإضافة إلى تقديمها للأساس الإبستمولوجي لمشروعية المعرفة العلمية، ولشخيصها لجوهر فكر الأنوار من حيث أنه ثورة ضد التراث

والتقليد، ونقدها للعديد من المعتقدات المسيحية (ألوهية المسيح ، عقيدة التثليث ، عقيدتا الفداء والصلب ، عقيدة ملكوت المعجزات ..)(45) ومحاولة إقحام مضمون عقلاني في العديد من العقائد المسيحية، ومحاولة تأسيس

(11871/1)

الدين على الأخلاق .

(لأء) على الرغم من جودة الترجمات التي ينجزها إمام عبد الفتاح إمام لأعمال هيجل ، باعتباره من أكبر المتخصصين العرب ي هيجل ، فإن التدقيق ي ترجماته مجعلنا نكتشف بعض مظاهر عدم الدقة سواء في المصطلح أو في الدلالة. فمثلا كتاب هيجل المأخوذ منه هذا النص عنوانه "مبادئ فلسفة الحق)، وهو يترجمه "الأصول فلسفة الحق ". وكلمة السعادة الدائمة يستبدلها بالخلاص الأبدي . قارن بين النصين العربي والفرنسي (هيجل ، أمول فلسفة الحق ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، القاهرة، 1981، ص 241–163–

(11872/1)

Hegel , Principes de la philosophie du droit
p 1975paris vrin

(24) الخشت ، مصدر مذكور آنفا، القسم الثاني.

(11873/1)

كيف تطورت الآلة الإشبيلية والطرب الغرناطي في المهاجرات الأندلسية المغرب

الدكتور عبد العزيز بنعبد الله
عضو أكاديمية المملكة السعودية –الرباط

... أحاول في مبحثي هذا الكشف عن بعض مجالي الفن الموسيقي كما فعلت في خصوص الفن المعماري، وهما مظهران لحضارة المغرب التي أفردت لها منذ الأربعينيات العديد من الدراسات باللغتين العربية والفرنسية. فهو بحث تاريخي لا يزعم التقصي والاستيفاء للتنظيرات والتسطيرات المعمارية ولا للألحان والأوزان الموسيقية، وإنما هو استجابة عفوية زاوجت دواعي السوق ومازجت بواعث الذوق

(11874/1)

دون أن تتجاوز حدود الطوق، وكلاهما جزء من "موسوعة رباط الفتح" المرتقبة النشر.

... والواقع أن الذي أقحمني في هذا المجال، وإن كنت فيه مزجى البضاعة بمعزل عن أعالي بحوره، هو والدي العلامة الشيخ عبد الواحد بنعبد الله الذي ضم للضلاعة في العلوم الإسلامية الإمامة في فن الموسيقى؛ فكان له وثيق الصلة بأربابه أمثال المطيري والجعيدي والبريهي والحاج محمد التازي والفنانين الطيب بلكاهية والسبيع والوكيلي ورئيس الجوق الغرناطي أحمد بناني وكثيرين غيرهم.

(11875/1)

... وإذا كانت الموسيقى قد تقلص نشاطها في العدوتين (الرباط وسلا) وتطوان، بينما ازدهرت بفاس في عهد بني مرين، فما ذلك إلا لكون العاصمة الإدريسية كانت في مأمن من هجمات الإيبيريين الإسبان والبرتغاليين الذين كانوا يغيرون على سواحل المغرب في كل من البحر المتوسط والمحيط حيث احتلوا جيوبا ولم يستطيعوا السطو على مارتيل ومصب أبي رقراق، لأن

سكان المنطقتين من المهاجرين الأندلسيين والأصلاء كان قد شغلهم الاستعداد الموصول لحماية هذا القطاع عن كل ما سواه.

(11876/1)

... وقد انطلقت مزاهر الآلة الإشبيلية والطرب الغرناطي معا في رباط الفتح منذ انبثاق الدولة العلوية، خاصة المولى محمد بن عبد الله الذي اتخذ من المدينة حاضرة سلطانية على غرار فاس ومراكش ومكناس الإسماعيلية. فأقام قصره العامر بأكدال. وتابع نجله المولى سليمان عمران الحاضرة الموحدية ببناء "قصر القبيبات" أو "دار البحر"، وأصبح منذ ذاك لمنطقة أبي رقراق مكانة ديبلوماسية بعد أن صار قناصلة الدول الأوربية يقدمون أوراق اعتمادهم بها للمولى عبد الرحمان الذي أقام الأبراج والدور الجميلة وسط جنان وحدائق غناء زرعت

(11877/1)

خارج السور العلوي الذي اتسعت بوجوده رحاب المدينة حيث امتد من البحر جنوبا للالتقاء بالسور الموحدي المحاذي للقصر الملكي. وبقدر ما عزز المولى سليمان أبراج الدفاع عن "رباط الفتح" ببطاريات تحمي الساحل من جهة "دار البحر"، واكب حركة ازدهار الفن الموسيقي فصنف رسالتين اثنتين هما:

... 1- "إمتاع الأسماع بتحرير ما التبس من حكم السماع"، نسخة بمكتبة دبلن، جيستر بيتي في لاهاي رقم 4132، (م=118-81).

... 2- "تقييد في حكم الغناء"، الخزانة الحسنية بالرباط، 4864 و6430).

(11878/1)

... وقد بادر المولى محمد بن عبد الرحمن بعد استكمال بناء قصره الجديد، وهو البلاط الحالي في المشور السعيد. فأقام حفلا رائعا دعا له المسمعين المطربين من العدوتين (الرباط وسلا). وقد انضاف إلى هذا الفن السمعي الرائع فن الخطاطة (Calligraphie) في شخص الأديب الشريف مولاي أحمد الرفاعي القسطالي الرباطي(1) الذي اتخذه المولى سليمان مربيا لأولاده بالرباط وعينه واليا على فاس ونال الحظوة نفسها من

(1) صاحب المنظومة في صناعة الخط المسماة "نظم لآلي السمط في حسن تقويم بديع الخط"، نسخة في الخزانة العامة بالرباط

(11879/1)

خلفه المولى عبد الرحمن. وبذلك ازدهر في رباط الفتح فنان اثنان من أبرز الفنون السمعية البصرية (arts audio-visuels).

... ولعل اضطلاع كل من السلطانين العالمين المولى سليمان والمولى عبد الرحمن(1) بتركيز الفن الموسيقي برباط الفتح قد فسح المجال لظهور علماء أفذاذ برعوا في هذا الفن، وفي طليعتهم العلامة الشاعر قاضي العدوتين أحمد بن أحمد

(1) ذكر أبو المواهب سيدي العربي بن السائح في "إفادات وإنشادات" (مخطوط في خع)، أن المولى عبد الرحمن بن هشام كان ممن يروى عنه "صحيح البخاري" ويؤخذ عنه، وكان عالما بالحديث.

(11880/1)

الحكمي الذي تفرد في وقته بالفنون الأدبية كالموسيقى؛ علاوة على ضلاعته في الأصول والفقه. وعده سبطه شيخ الجماعة إبراهيم بن محمد التادلي من العارفين المبرزين في هذا المجال ("الاغتباط"، ص.33). وقد صنف عالم صوفي هو الشيخ فتح الله بن أبي بكر بناني كتابه المطبوع بالرباط "تسمية الأتباع ببعض ما يتعلق بحكم الطرب والسماع".

... على أن الشيخ العلامة إبراهيم بن محمد بن عبد القادر التادلي الرباطي قد أوغل في تحقيق وتدقيق بعض معالم هذا الفن حيث ألف كتابا في "الصيكا" سماه "أغاني السيقا ومغاني الموسيقى" أو

(11881/1)

"الارتقا إلى علم الموسيقى" (نسخة بالخزانة العامة بالرباط 1821د /109 [66 ورقة]). وعلى هذا المنوال النموذجي سار العلامة علي بن محمد بن عبد الواحد الزجلي في كتابه "أغاني الصيكا"، وهي ألحان مازلنا نستمع إليها في جميع أنحاء البلاد الإسبانية على نسقها العربي الأصيل نفسه. وقد ذكر الصفاقسي في كتابه "قانون الأصفياء" أن السيكاه أصله عربي بالصاد، ثم نقل إلى العجم فبدلوا الصيكة. استخرجه صيكة بن

تميم العراقي، ثم نقل إلى أهل فارس (مجلة "الأقلام العراقية"، ج4، السنة الأولى، 1384هـ/1964م).

(11882/1)

... وقد تبنى علماء كل من فاس ورباط الفتح هذا الفن، فأطلقوا على ما اخترع من طبوعه كلمة "مدرج". وهي من مصطلحات علم الحديث النبوي الشريف كما يقول شاعر المحدثين الحافظ العراقي:

ومدرج الحديث ما ألحق في ... أوله أو وسط أو طرف

... وفي طليعة علماء الرباط الذين ولعوا بالعزف على الرباب الشعبي (الكنبري) قاضي الرباط ووزير العدل في العهد اليوسفي محمد الرندة.

... وكان أهل الرباط قد سجلوا موشحات وأزجال الآلة الأندلسية في وثائق خاصة يستحضرها حتى الهواة في أجواقهم، لأن الموسيقى والتغني بها اندرجت في أبرز عادات

(11883/1)

وتقاليد المجتمع الرباطي. وكان من بين العوام رجالات أتقنوا الخمسة والخمسين مثل الموسيقار إبراهيم بن محمد الجزولي الرباطي (وهو من آل لميرو الأندلسيين المتوفى عام 1325هـ/1907م) ("الاغتباط" لأبي جندار، ج2، ص.22).

... وقد عرفت من بين هؤلاء رجلا هو عمي محمد بنعبد الله المتوفى عام 1937م. كان حرارا يصنع "المجاديل"، يتغنى طول النهار بالنوبات الخمس والخمسين في تواجد وهيام. ويرجع الفضل في تدوين الموسيقى للحسن بن أحمد الحايك الأندلسي التونسي التطواني (1130هـ/1717م) الذي جمع هذه الموشحات في كتاب "الحايك"

(11884/1)

الذي اشتمل على جميع نوبات وطبوع آلات الطرب. وهذا الكناش لم يبق على ترتيبه الأصلي، بل نسق بترتيب الفقيه الوزير محمد بن المختار الجامعي. وقد أورد خطبته أبو إسحاق التادلي في "أغاني السيقا" (ليفي بروفنصال في "مخطوطات الرباط العربية"، ص.196، خع 8د (60 ورقة) / خع=488د).

... وتوجد نسختان في كتاب "الوزير الجامعي" في

خع=1327د/8د؛ وكذلك خطبة لتأليف في الموسيقى خع 1031د.

... ولعل أبرز ظاهرة موسيقية برباط الفتح وجود جوقة للخمسة والخمسين بالقصر الملكي تعزف على مزامير نحاسية في أزيائها الأندلسية الزاهية، وهي

(11885/1)

الجبادولي ذو اللونين الأخضر والأحمر، تيمنا بلوني الراية المغربية. ومن مظاهر شعبية الموسيقى الأندلسية بالرباط أن الفقيه مدرر "مدرسة أبناء الأعيان بالرباط" كان يدربنا آخر الثلاثينيات على مقطوعات من رمل الماية خارج البرامج.

... ولم يكن علم الموسيقى مجرد هواية في رباط الفتح، بل أصبحت الألحان تحرك الوجدان وتضبط خلجات الجنان تهذيبا للأنفاس وضبطا للأعصاب. ومعلوم أن مستشفى سيدي فرج بفاس كان يعالج الأمراض العصبية بالموسيقى منذ عهد السعديين في القرن العاشر الهجري، أي قبل أن تعرف أمريكا وأوربا موسيقى

(11886/1)

الروك (Rock an roll) الهادفة للغاية نفسها؛ وكذلك الموسيقى الأمريكية المعروفة بـRythm and blues.

وقد وردت علينا من الصين الشعبية أواسط الثمانينيات أنباء تفيد قيام الصين بأبحاث لعلاج الأمراض العصبية بالموسيقى. فانضافت تجربة العلاج النفساني هذه إلى تجربة العلاج العضوي المعروف في الصين بالنقطية أو الوخز بالإبر (Acupuncture) والتي أتيح لي أن أشاهد بعض مظاهرها خلال رحلتي إلى الصين عام 1965م إبان الثورة الثقافية. وقد ظهر في هذا الموضوع أيضا بحث لسليمان الحوات (1231هـ/1816م) عنوانه "كشف القناع عن تأثير

(11887/1)

الطبوع في الطباع"، نسخة في خم (=الخزانة الحسنية بالرباط، 4229).

... غير أنه لا يمكن أن نتعرف بعمق مدى تطور الآلة الأندلسية بشقيها الإشبيلي والغرناطي في المهاجرات، وخاصة رباط الفتح، إلا إذا استعرضنا تطور الفن الموسيقي عبر العصور في مختلف جهات المغرب التي احتضنت وطورت هذا التراث العربي الأندلسي الرائع.

... فقد ظهرت بوادر هذا الفن في كل من فاس ومراكش

منذ أواخر الموحدين وازدهرت معالمه خاصة في فاس أيام بني مرين وبني الأحمر أمراء غرناطة، ولكن الاضطرابات والفتن التي شبت أواخر السعديين وقيام نوع من

(11888/1)

أمراء الطوائف(1) في المغرب حالت دون استمرار هذا الازدهار إلى أن ظهر المولى إسماعيل العلوي بعد مرور بضعة عقود من السنين على جواز آخر فئة من الموريسكيين المطرودين من الأندلس، فاستتب الأمن واطمأن الفكر وعاد الماء إلى مجراه مع تجدد مظاهر هذا الفن بإضافة عناصر جديدة تفتقت عن تجمع حافل ضم الفكر الأندلس في أصالته والفكر المغربي في حيويته وطرافته.

---

(1) أمثال عبد الله أعراس في الحسيمة والخضر غيلان في الهبط والدلائيين في الجبل وكروم الحاج في مراكش وأبي حسون بودميعة في سوس.

(11889/1)

... وقد انضاف إلى فن الموسيقى خينذاك فن جديد هو السماع المرفق بالآلة، فبرز منذ العهد السليماني ليكتمل خلال عهد المولى الحسن الأول في نهاية القرن الثالث عشر.

... وكانت فئات المهاجرين قد انتقلت في الفترة نفسها أوائل القرن الحادي عشر الهجري ضمن حشود وفيرة إلي الجزائر وتونس ومصر والقسطنطينية؛ كما انتشر قسم منها في مقاطعات إسبانية خارج الأندلس وأشتات أخرى شكلت طلائع التروبادور (Troubadours) في جبال "المور" بجنوب فرنسا. وكان للمارانوس (Maranos)، وهم موريسكيو(1)

---

(1) الموريسك أو الموريسكيون كلمة إسبانية أطلقها الإسبان على الأندلسيين المنصرين والمهجرين قسرا في القرن السادس عشر الميلادي، أي العاشر الهجري، ولا يعرفون في المراجع العربية إلا بالأندلسيين.

(11890/1)

اليهود، دورهم في إسهامات لها ميسمها الخاص. فهي إذن موسيقي عربية أندلسية مغربية تجذرت أصولها على ضفاف الرافدين، وانتقلت مع زرياب إلى الأندلس الرطيب

حيث تأثرت بعوامل مغربية ظلت خلوا من كل عنصر إسباني، وأثرت عي الأخرى في الموسيقى الأوربية، وخاصة الألحان الكنسية. وقد أدرج المغاربة في هذه الموسيقى الشرقية طبوعا وموازين وصنائع، مما أضفى عليها طابعا مغربيا في كثير من الحالات بجانب الأصول الراقية الأندلسية.

(11891/1)

... وتنقسم هذه الموسيقى لي وحدات أو نوبات لكل منها نغمة خاصة تسمى الطبع. وهذا الطبع يتكون بدوره من نقط خاصة. ويصل عدد الطبوع إلى ثلاثمائة وستة وستين على عدد أيام السنة الشمسية.

... والتلحين عند الآليين معناه وضع قطعة موسيقية للتعبير عن عاطفة وإفراغها في نغمات ينسق فيما بينها في توليف متجانس يتكون منه طبع يسبك في "ميزان" مناسب، طبقا لإيقاع خاص له وحدة تؤدى في زمن محدد تسمى "الدور". وقد بلغ عدد الموازين في الأندلس أربعة، أضاف إليها المغاربة ميزانا خامسا هو الدرج. سمي بذلك، لأنه مدرج بين الموازين

(11892/1)

وهو خاص بالآلة الإشبيلية لا يوجد في المألوف التونسي ولا الغرناطي الجزائري، في حين أن الموازين الأخرى هي البسيط والقائم ونصف والبطايحي والقدام. ويضبط كل ميزان بما يدعى التوساد، أي الضرب بالآلة المسماة الطر أو باليدين، الراحة على الراحة. وكان بدل التنويط العصري هو النوطات السبع لا إله إلا الله محمد رسول الله. وما زال المغاربة يحفظون من النوبات إحدى عشرة تتناسق مع موازين عددها خمسة وخمسون. وقد لاحظ الأستاذ محمد الفاسي أن هذه الموازين ضاع منها ثلاثة هي قائم ونصف الرصد وقائم ونصف الحجاز المشرقي ودرج

(11893/1)

رصد الذيل التي تأمل جمعية هواة الموسيقى العثور عليها. وقد شاطرها والدي رحمه الله هذا الجهد، متعاونا مع رئيسها الفنان الحاج إدريس بن جلون.

... والموسيقى تسمى "الآلة" بالمغرب، والموسيقار هو "الآلي". وقد وردت هذه التسمية في "نزهة الحادي" عند الكلام على سيرة المنصور الذهبي، وتسمى أيضا "الدندنة"، بينما تعرف بـ"الغرناطي" في الجزائر

و"المألوف" بتونس.

... وهكذا تتركب كل نوبة من خمسة ميازين يشكل كل ميزان صنعة تحتوي على قطع موسيقية خاصة، والنغمة المنبعثة منها عبارة عن نبرات تتواكب مع معاني المقطوعات

(11894/1)

الشعرية التي يقع اختيارها طبقا للتناسب لتستجيب لما يوحي به الظرف الزمني من استهلال أو تصاعد أو ارتخاء.

... وقد لاحظ أخونا الأستاذ الكبير المرحوم محمد الفاسي في بحث قيم نشرته "اللسان العربي" في عددها السادس، وهي مجلة مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي، بعنوان "الذوق العربي في الموسيقى الأندلسية" أن النوبة إنما سميت بذلك لأن العازفين كان يتقدم كل واحد منهم أمام الخليفة بما اخترعه ليعزف بدوره ثم تأتي بعده نوبة غيره. فسمي المجموع نوبات. ولعل هنالك في نظرنا المتواضع تفسيرا آخر يرجع إلى عدد الأوتار

(11895/1)

أو الملامس أو قوة النقر عليها. فالآلات التي كانت مستعملة في العالم العربي عامة والأندلس والمغرب خاصة هي خمسة: الكمان والقانون والأرغن والعود والرباب، وكان لكل آلة نبرة تمتاز بها جعلت أصناف النبرات موازية للميازين الخمسة التي تشكل النوبة. أما بقية الآلات الموسيقية التي بدأنا نستعملها اليوم، فهي مجرد تطوير للآلات القديمة مثل الكمان الجهي (Violoncelle) والقيتارة (Guitare) والبيان (Piano) الذي عوض البيان القيتاري (Clavecin).

(11896/1)

... وقد لاحظ أستاذنا الكبير محمد الفاسي أيضا أن الموسيقى الأندلسية كانت تسمى الآلة بالعامية، تمييزا لها عن الموسيقى التي تؤدى بدون آلة وهي السماع. ونحن نرى أن السماع لم يكن يعدو مجرد مديح في المواليد النبوية أو التواجد بالحب الإلهي دون غزل أو تشبيب في حضرات الذكر الصوفية. فكانت الآلة محظورة في كليهما، وإن كان المادحون قد أصبحوا اليوم يرفقون السماع بالآلة مع الاحتفاظ بأناشيد المديح دون ما

اعتادته الآلة الموسيقية من موشحات وأزجال يعطينا "الحايك" صورة واضحة عنها(1)

---

(1) وللشيخ محمد بن العربي الدلائي الرباطي البيضاوي كتاب سماه "فتح الأنوار في بيان ما بعين على مدح النبي المختار". وهو تأليف نظير "كناش الحايك" في فن الموسيقى بين فيه صنعة المديح بذكر الطبوع والألحان الشعرية والأناشيد والنغمات العروضية (أبو جندار، "الاغتباط"، ص.191).

(11897/1)

.

... غير أن ضرورة التحري لإدراك مدى بعد نظر أستاذنا الفاضل المرحوم محمد الفاسي تحدونا إلى القول بأن الأستاذ البحاثة قد حاول الرجوع بفكره الثاقب إلى الأصول حيث اعتبر السماع أصلا في الموسيقى. وإذا كان السماع هو منبع التواجد الغنائي حتى عند الحيوان، فما بالك بالإنسان في وجدانياته التي هي جزء من كيانه. فالمهاري في الصحراء المغربية تطوي المسافات في تسارعها الحثيث عندنا تتسمع إلى أصوات الحداة وهي تغني في نبرات ترددها أصداء الفيافي مما دفع أحد

شعراء صحرائنا وهو ابن الونان في "شمقمقيت"ه إلى إيصاء

(11898/1)

الحداة بالتؤدة والتمهل صارخا/
مهلا على رسلك حاذي الأينق ... ... ولا تكلفها بما لم تطق
... والسماع بصورة عامة سواء عند الهنود البوذيين أو البراهمة وغيرهم قد انطلقت منه تواجدات موسيقية لدى فنانيهم وصوفيتهم. ولعل للسماع الموسيقي العربي ضلعا في إثارة هذا الوجدان الآسيوي الذي وجدنا حتى لمصطلحاته صلة وثيقة لهذا المنبع الإنساني.
فالصوفي البوذي كان ولا يزال يغيب عن حسه إذا أطربه السماع فيردد كلمة (هو هو) (الله الله). ويغرق فيما سماه البوذيون اقتباسا من لغة متصوفة الإسلام وهو Nervana، أي نور الفناء.

(11899/1)

... وقد ترعرعت الآلة بجميع طبوعها إبان بني مرين حتى كان للجيش المريني نفسه في عهد أبي عنان موسيقاه

الخاصة به. كما كان للأسطول موسيقاه (راجع "رحلة أبي عنان المريني" المسماة "فيض العباب..." لإبراهيم عبد الله المعروف بابن الحاج)، وهي عادة استمرت إلى اليوم عن طريق الجوق الملكي. وقد بلغ الاعتناء بهذا الفن مبلغا أصبح معه للموسيقار مكانة كبيرة في المجتمع.

... وكان المنصور يجلب إلى مراكش أرباب الموسيقى وأصحاب الأغاني من فاس؛ وكانوا قد وفدوا على المنصور على سبيل العادة فأخرج بعضهم والقاضي أبو مالك عبد

(11900/1)

الواحد الحميدي حاضر بشبابة من الإبريز مرصعة أعطاه إياها المنصور وبعضهم قال أعطاني كذا وكذا.. فقال القاضي: لئن بلغت فاس لأردن أولادي إلى صنعة الموسيقى. فإن صنعة العلم كاسدة. ولولا أن الموسيقى هي العلم العزيز، ما رجعنا مخففين ورجع المغني بشبابة الإبريز ("الاستقصا"، ج 3، ص.96؛ "نزهة الحادي" عند الكلام على سيرة المنصور الذهبي).

... ولعل المغرب قد نال حظا وافرا من الآلة الأندلسية التي احتضنها دون بقية العالم العربي وإن كان العراق هو الذي أمد الأندلس بأول موسيقار وهو زرياب. على أن الأندلس قد عرفت بعد

(11901/1)

زرياب موسيقارا أندلسيا صميما عد من طبقات زرياب في الغناء، وهو عباس بن فرناس الذي هو أول من حاول الطيران بآلة صنعها بيده ("نفح الطيب"، ج3، ص.473) واخترع الزجاج من الحجارة.

... كما كتب في هذا الموضوع ابن حزم في "الغناء الملهي"، أمباح أم محظور (نسخة من الأسكوريال eb 25).

... ومن الموسيقيين الأندلسيين الذين استوطنوا الشرق ابن أبي الحكم محمد بن عبيد الله بن المظفر الباهلي أفضل الدولة (570هـ/1174م).

... وكان قد صنع أرغنا وله يد في سائر آلة الطرب وكان طبيب بيمارستان دمشق الذي بناه نور الدين بن الشهيد

(11902/1)

("طبقات الأطباء"، ج2، ص.155؛ "الدارس"، ج2، ص.137؛ "الوافي بالوفيات"، ج3، ص.330) وإن كانت هنالك مصادر عربية أصيلة ما زالت تمد هذا الفن مثل:

... – "رسالة في الموسيقى" لعمر الخيام (526هـ/1131م)، نادرة جدا لا تكاد توجد نسخة أخرى في ورقتين (مكتبة مغنيسيا العمومية، 1705/5).

... – "رسالة الملحون والنغم" للكندي [256هـ]، (مغنيسيا، 1705/8).

... – "عنصر الموسيقى" لإسحاق بن حنين [298 أو 299م] (نسخة فريدة 1705/9).

(11903/1)

... أما الطرب الغرناطي، فهو صنف من الآلة الأندلسية نشأ وترعرع في غرناطة آخر معقل بالأندلس استولى عليه الإسبان عام 897هـ/1481م، فهاجر معظم سكانه إلى فاس وتازة وتطوان وعدوتي أبي رقراق، ثم إلى الجزائر (وهران وتلمسان وبيجة) عبر المغرب الشرقي.

... وكانت إشبيلية هي عاصمة الطرب الأندلسي منذ القرن الثالث الهجري. وقد افتتحها موسى بن نصير عام 94هـ/712م، ودخلها المرابطون عام 484هـ أو 490هـ حسب ابن خلدون، وتولى الموحدون بإمارة أبي حفص بن عبد المومن الذي كان له بها كتاب وشعراء وفنانون حوالي منتصف القرن

(11904/1)

السادس الهجري. وقد انتقل كرسي المملكة الإسلامية منها إلى غرناطة (646هـ/1248م) عندما استولى عليها ملك قشتالة في دولة المرتضى بعد أن حكمها الموحدون نحوا من قرن واستمرت في قبضة المسلمين زهاء خمسة قرون وأصبحت غرناطة منذ ذلك صلة الوصل بين فاس والأندلس طوال عهد بني مرين عندما احتضنت الموسيقى الأندلسية مدة قرنين ونصف القرن، فأضافت إلى هذا التراث الإشبيلي عناصر جديدة عرفت بالطرب الغرناطي. وكان لغرناطة منذ العهود الأولى ضلع في بلورة الموسيقي الأندلسية، ولا سيما أن زرياب علي بن نافع العراقي مؤسس الطرب

(11905/1)

العربي قد عاش وتوفي بغرناطة عام 230هـ/ 844م. وقد برز المعقل الغرناطي بين أخريات العواصم الأندلسية التي ظلت تحت حكم المسلمين، فتجلى ذلك في مقطعات موسيقية كلها شجن وحزن على ما فقده الإسلام من تراث أصيل بالأندلس "الشهيدة". وما لبث هذا التراث

الذي تقلصت موازينه وطبوعه أن طعم بنغمات كلها حنين إلى الأندلس عندما هاجر الغرناطيون إلى المغرب الذي احتضن كلا من الآلة الإشبيلية والطرب الغرناطي ساد أحدهما –وهو الموسيقى الأندلسية بكامل نوباتها– بشمال المغرب فاس وتازة وتطوان والرباط وسلا وجنوبه مراكش.

(11906/1)

... بينما ترعرع الصنف الثاني، وهو الطرب الغرناطي، بالمغرب الشرقي امتدادا من غرب الجزائر (تلمسان ووهران وبيجة) وتونس. وقد احتضن المغرب الشرقي النوعين معا: الأول بتازة، والثاني بوجدة.

... وإذا كانت النكبات التي توالت على الأندلس منذ احتلال الإسبان لإشبيلية –عاصمة الطرب الأندلسي– قد حالت دون تطور الموسيقى، فقد تبلورت هذه الأشجان في ألحان المهاجرات الأندلسية بفاس وتطوان وعدوتي أبي رقراق حيث بدأت الهجرة بعد عام 981هـ/1486م ("الاستقصا"، ج3، ص.101)، أي بعد استيلاء الإسبان على غرناطة بست سنوات

(11907/1)

(897هـ/1491م) وكانت الهجرة الثانية عام 1017هـ على أثر مساكنة في غرناطة دامت عشرين ومائة سنة (120). وكان عبد الواحد الملقب بالرشيد الموحدي الذي بويع أول عام 630هـ/1232م هو الذي منح الأندلسيين – عام 637هـ– حق اللجوء إلى المغرب عامة والرباط خاصة حسب ظهير حرره قاضي الرباط آنذاك أبو المطرف بن عميرة. ولعل ذلك كان بسبب انضمام الإشبيليين إلى المولى الرشيد عام 635هـ/1237م، عندما حاول الأمير بن هود اقتحام ميناء مصب أبي رقراق في أسطول حربي. وقد توفي الرشيد عام 640هـ، وبويع بعده الأمير عمر المرتضى الذي كان

(11908/1)

واليا على رباط الفتح فامتد نفوذه من أبي رقراق إلى السوس وبه ختم عهد الموحدين وبدأ عهد بني مرين. وكان عرش الخلافة بالأندلس قد انتقل قبل ذلك بسنتين من إشبيلية إلى غرناطة. فهذه الأزمات الغامرة لم تكن لتفسح المجال لازدهار فن الموسيقى، ولاسيما أن الفئات الضخمة التي تواردت على منطقة أبي رقراق لم

تتم إلا بعد محنة غرناطة التي استمرت إلى عام 1017هـ بادر الإسبان خلالها بفصل الموريسكيين عن تراثهم الديني والحضاري منذ يناير 1492م، وذلك بإحراق مليون ونصف مليون مخطوط من بينها –دون شك– وثائق حول الموسيقى

(11909/1)

ونوباتها حسب مصادر إسبانية أهمها: كتاب

Francisco Piferrer, Nobiliario de los reinos y .138, p.1860seisiorico de Espana, T.XI, Madrid,

... وخلال هذه الفترة الحالكة لم نكن نسمع في عدوتي أبي رقراق سوى دوي موسيقي المدافع بين طوائف من المهاجرين الأندلسيين اتخذت لنفسها إطارا مجتمعيا خاصا لممارسة الهجوم البحري على الشواطئ الشمالية للبحر المتوسط في أجفانها الجهادية والتي ما لبثت أن تحولت إلى سفن قرصنية. وقد داخل الرعب الإسبان الملكيين، فألصقوا بالمهاجرين –لاستفزاز الملكية المغربية ضدهم، وتبعهم في ذلك

(11910/1)

مؤرخون غربيون – تهمة تكوين جمهوريات ثلاث حول أبي رقراق(1)، في حين لم يكن يعدو تشكيل دواوين أو مجالس أربعينية على غرار "أيت الأربعين" التقليدية في الأطلس، ولا سيما أن الطابع السياسي للمغرب آنذاك، أي آخر أيام السعديين، اتسم بالاضطراب واحتلال الخصم لجيوب ساحلية لم ينقذ

---

(1) وقد استأنسنا بهذه الأساطير الإسبانية التي ألصقت بالمجاهدين الأندلسيين والمغاربة في معارك جزر المتوسط ومناوشات الأنجريين في سبتة وحرب تطوان لقب شفارين (أي لصوص) حتى ألقت إلى جزر الملوية نفسها جزر الشفارين (Les Iles chaffarines).

(11911/1)

المغرب من ويلاتها إلى ظهور الملوك العلويين، وعلى رأسهم المولى إسماعيل. فعاد الماء إلى مجراه وألغيت الدواوين الأندلسية وتنفس الجميع الصعداء في ظلال وحدة المغرب وتحركت في هذه البحبوحة الوديعة أنفاس الوجدان لتنطلق مزاهر الفن الموسيقي في أروع وأبدع نبراتها(1).

... وإذا تتبعنا مسار مهاجري غرناطة بالمغرب العربي

ومصر وقسطنطينية، حتى جنوب فرنسا وجزر المتوسط، فإننا نلاحظ أن الطرب الغرناطي كا له نصيب الأسد بكل من الجزائر وتونس حيث تبلور في مقاطيع

---

(1) راجع "حياة ابن نصيحة" موسيقار السلطان محمد الثالث.

(11912/1)

حية تزخر بالرعة والمرح انتقلت بعض موشحاتها إلى دار الخلافة العثمانية إبان احتلال الأتراك للمغربين الأدنى والأوسط ودار الكنانة، بينما تركزت الآلة الإشبيلية في مهاجرات مختلفة بالمغرب الأقصى. وقد نقل الموريسكيون إلى "جبال المور" (Maures) بمقاطعة "بروفانس" (Provence) واللنكدوك (Languedoc) بجنوب فرنسا ألحانا موسيقية أندلسية، ولا سيما أن المنطقة كانت خاضعة للإسبان الذين لم يتنازلوا عنها لفرنسا إلا عام 1644م. وقد طور شعراء التروبادور (Troubadours) هذه الألحان التي واكبت في شبه الجزيرة الإيبيرية

(11913/1)

إسبانيا والبرتغال تلاحين الصيكا التي لا تزال منساقة إلى اليوم في طبوعها العربية بمعزل عن الموسيقى الكلاسيكية الغربية، وما زلنا نسمع بعض نبراتها في الكنائس الأوربية المسيحية التي نقلت أناشيدها عن الكاثوليكيين الإسبان، وبعدما طرد إسرائيليو غرناطة التي كانت تعرف بـ"حاضرة اليهود"، وتم تنصير بعضهم قسرا ضمن فئات أطلقت عليها الإسبان اسم مارانوس (Maranos) مقابل اسم الموريسك للمسلمين المنصرين انتقلوا إلى المغرب ونقلوا معهم مقطوعات موسيقية كانوا يعزفونها بالعربية معززة بما سبق أن نقلوه إلى غرناطة بعد

(11914/1)

سقوط إشبيلية في قبضة الإسبان. وكان اليهود من جملة من هاجر إلى فاس بعد وقعة الربض آخر القرن الثاني الهجري حيث جعلوا منها –خلال العهدين المرابطي والموحدي– مركزا لتعريب العبرية وتصحيح نحوها وصرفها انطلاقا من قواعد سيبويه وضع كتاب التشريع التلمودي في عشرين مجلدا للعالم اليهودي محررين

مجموعها باللغة العربية. غير أن نشاطهم العلمي هذا انبثق عن عاصمة قرطبة التي كانت خلوا من كل ما يمت إلى الموسيقى بصلة حيث انفردت إشبيلية وحدها بهذا الفن كما انفردت قرطبة في أربعة وعشرين من أرباضها بعلوم الحكمة، فكان لكل

(11915/1)

ربض كليته منها أربعة آلاف فيلسوف ومتكلم بالربض الجنوبي وحده. وقد تزعم هذه الثلة من العلماء اليهود موسى بن ميمون الذي سكن دار المجانة في العاصمة الإسماعيلية طوال خمس سنوات قبل أن ينتقل إلى مصر. ... وكان لليهود ضلع في الاقتباس من الآلة الغرناطية في العهد المريني ثم أيام العلويين حيث عززوا التراث الموسيقي بما فيه من أزجال ومواويل أدركت شخصيا نماذج منها بملاح الرباط آخر الأربعينيات ولا يزال صداها يتردد إلى الآن في مهاجرات اليهود خارج المغرب بكندا والولايات المتحدة وإسرائيل. وإذا كان موسيقيو اليهود

(11916/1)

اعتمدوا الحايك في طبوعهم العربية، فإنهم عمدوا اليوم إلى ترجمته إلى العربية عناية بمحتواها. وهكذا، فبقيام الدولة المرينية توطدت العلاقات مع بني الأحمر أمراء غرناطة أزيد من قرنين ترسخ خلالها احتضان عاصمة المغرب للتراث الموسيقي الأندلسي.

... والغريب أن ما وصلنا من المصادر العربية يكاد يكون خلوا من كل ما يتعلق بالموسيقى. فحتى الحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الإفريقي الذي ولد بغرناطة حوالي 901هـ/1495م، أي بعد سقوط غرناطة بثلاث سنوات في قبضة الإسبان، قد ربي بفاس وظل عدلا بمارستان سيدي فرج خلال

(11917/1)

سنتين. وعندما بلغ عمر الوزان إحدى وعشرين سنة، بدأ رحلته حيث أسره قراصنة إيطاليون في نابل عام 1519م ونقل أسيرا إلى حاضرة الفاتكان حيث تبناه البابا، وهنالك حرر الوزان كتابه حول "وصف إفريقيا" بالعربية أولا، ثم ترجم للإيطالية. فكان من الصعب –في كلتا الحالتين– على الوزان أن يتحدث عن أزمة غرناطة وهو يعلم أن محاكم التفتيش التي أقضت مضاجع المسلمين بالأندلس قد شكلت بقرار وإمدادات من

البابوية آنذاك وقد ظهرت مع ذلك دراسات وأبحاث عربية في المغرب ألقت الضوء على كثير من الجوانب الغامضة في الموسيقى. وهكذا،

(11918/1)

فإذا استثنينا فترة الحكم السعدي التي اضطربت آخر أيامها عند تنازع أدعياء العرش وانقسم المغرب إلى ولايات مستقلة، فإن الموسيقى استعادت ازدهارها نسبيا باستتباب الأمن والاستقرار في عهد المولى إسماعيل الذي تولى الملك عام 1082هـ وعمره ست وعشرون (26) سنة. ولم يكد –قدس الله روحه– يلفظ نفسه الأخيرة في 28 رجب 1139هـ حتى كانت معظم معوقات التطور الثقافي الفكري المغربي قد انمحت بعد أن لم السلطان المجاهد شتات المغرب ومحق الأدعياء ودعم حركة التحرير ونشر الطمأنينة والرخاء.

(11919/1)

... وقبيل وفاة المولى إسماعيل بتسع سنوات، كان الفنان الحسن ابن أحمد الحايك التطواني الأندلسي الذي

هبت أسرته قبل ذلك من تونس قد قام بدور هام، فجمع من الموشحات الأندلسية ما انتشر ولم منها ما انتثر في كتابه "الحايك". وقد توفي بتطوان عام 1130هـ بعد نشاط غامر اتصل ضمنه بمجموع منطقة الشمال بين سبتة والفنيدق وتطوان التي كانت مسرحا لكثير من الموريسكيين الذين ظلوا يترددون بين هذه المراكز مستنشقين هواء الأندلس الشهيدة يرددون الألحان الغرناطية في نغماتها الشجية أكثر منها في موشحاتها التي فقدوا نصها

(11920/1)

بإبعادهم إبان محنة غرناطة عن لغتهم ودينهم. فكان للحايك الفضل في وصل ما حملوه معهم بما تجمع من تراث غرناطة بفاس. ومن هؤلاء الفاسيين ابن الطاهر المهدي بن يوسف بن أبي عسرية بن علي بن أبي المحاسن الفاسي الموسيقي (1187هـ/1764م) ("تاريخ تطوان"، ج3، ص.66؛ "عناية أولي المجد"، ص.58) والذي كان يعرف –حسب مؤرخ تطوان سكيرج– إنشاء 24 طبعا من طبوع الموسيقى ويعزف على العود والرباب وقد تتلمذ للأديب الشبلي المكناسي.

(11921/1)

... وقد امتاز المغرب بطبوع خاصة مثل الحصار الذي اعترف "المعجم الوسيط لمجمع القاهرة" بطابعه المغربي وكذلك البسيط وهو المسمى عند المشارقة "المحجر" ("الإعلام" للمراكشي، الطبعة الأولى، ج2، ص.199) وبطبع الاستهلال الذي اخترعه الحاج علال البطل في العهد السعدي حسب كتاب في الفن لمؤلف مجهول في المكتبة الوطنية بمدريد عدد 5307. وحتى الملحون عرف طبعا فريدا هو "السماوية" التي تغنى بصوت منخفض يتصاعد تدريجيا إلى السماء.

(11922/1)

... وقد استعمل الموسيقار كل أصناف الآلات مثل العود والكمان أو الكمنجة (Violon)، وهي آلة ذات أوتار أربعة انضافت إليها في العقود الأخيرة الكمان الجهير (Violoncelle) والبيان (Piano) وهو آلة ذات ملامس (Clavier). وقد عوض البيان القيتارى (Clavecin) الذي هو بيان قديم قيتاري الشكل. ولعل هذا "القيتار" من القتر، وهو نصال الأهداف كناية عن تأثير أوتاره

وتحريكه للوجدان، ويعرف في أوروبا بـGuitare، وهو آلة ذات أوتار ينقر عليها بقوة، وهي مسطحة الجانبين مشرقية الأصل (حسب قاموس Hachette). وقد عرف العرب القانون

(11923/1)

الذي تفنن الفيلسوف الفارابي في العزف عليه بألحان يثير بها مكان الفؤاد فرحا وحزنا يضحك ويبكي تبعا لمدى الضغط على الملامس. ومن الآلات العربية التي اتسمت بطابع مغربي خاص الرباب (Rebec)، وهو ذو وترين اثنين يعزف عليهما بمنهج دقيق جسا بأصابع اليد اليسرى. وقد مهر فيه الشيخ البريهي بفاس وربيبه عبد الكريم الرايس والفنان السبيع بالرباط كما مهر في القانون صالح الشرقي. وهنالك رباب عراقي من أربعة أوتار ورباب شعبي وحيد الوتر أشبه بما يعرف بالكنبري. ومهما يكن، فإن العازفين على الرباب قليلون جدا نظرا لصعوبة

(11924/1)

ممارسة هذه الآلة بمهارة ويعد أصحابها اليوم في العالم العربي على رؤوس الأصابع منهم علي المرابط والعربي بنصاري بالجزائر ومحمد غانم وأحمد بطيخ والدكتور بلحسن فوزة بتونس وإبراهيم الشعوبي في العراق.

وقد أصبح كثير من الشباب يتعاطون العزف على الرباب بتشجيع من المعهد الموسيقي بالرباط

... وقد تواكب اللحن الموسيقي في كثير من الأحيان مع ألحان السماع في المديح النبوي حيث علق الأمير الوليد بن زيدان بالسماع لا ينفك عنه ليلا ولا نهارا ("الاستقصا"، ج3، ص.133). وقد نشأ بعض الموسيقيين في العهد العلوي في أحضان

(11925/1)

الزوايا الصوفية كزاويتي الحراق وابن الريسوني بتطوان والزاوية الوزانية بفروعها في عواصم كبرى كفاس وطنجة. وقد كان للمعهد الموسيقي العصري بتطوان صلة وثيقة بالزاويتين المذكورتين. وكان على رأس هذا المعهد أخونا المرحوم إدريس بنونة. ومن تعاون المركزين انبثقت ألحان جديدة ذات ميسم خاص. وكان حب ليلى الذي تزخر به مواويل الآلة يتردد في الأذكار الملحنة بالزاوية حيث ينشد المسمعون قول

الشيخ محمد الحراق:

أتبحث عن ليلى وفيك تجلت ... وتحسبها غيرا وغيرك ليست

(11926/1)

... وقد حاول كثير من رجال الفن الذين توثقت صلاتهم بالطرق الصوفية تحقيق ازدواجية إيجابية بين الموسيقى والسماع، فأضافوا إلى شعر الغزل والتشبيب أشعار المديح النبوي. وقد كانت لوالدي العلامة عبد الواحد بنعبد الله يد طولى في هذا التزاوج. فكان إلى جانب تضلعه في الأصول والحديث والفقه، يلعب الشطرنج ويحفظ كل الطبوع؛ مما ساعده على ضمان وحدة تلحينية بين الطرفين. ولا بدع في ذلك إذا علمنا أن للموسيقى والسماع أحيانا نفسا واحدا ينطلق من الوجدان. فشاعر الأمراء حافظ شوقي الذي عارض "همزية البوصيري" يقول في ملحمته

(11927/1)

الغرامية بين عبلة وعنترة ضمن حوار بينهما حيث سأل عنتر عشقته قائلا:

ماذا وددت يا عبيل يا حياة عنتر؟

... فأجابته:

إني وددت أني صدف ... ... وأنت فيه جوهر

في زاخر لم يدر بعـ ... ... ـد الغائصون خبره

... والحب في هدفيه البشري والرباني هو محور الطريقتين. فقد قال ابن الفارض:

شربنا على حب الحبيب مدامة ... سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

... وقالت ربيعة العدوية:

أحبك حبين حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا

... وقول الشيخ الصوفي السري السقطي:

لست أدري أطال ليلي أم لا ... كيف يدري بذلك من يتقلى

(11928/1)

إن للعاشقين عن قصر الليـ ... ـل وعن طوله لفي الحب شغلا

... وقول إبراهيم بن أدهم:

ولو قطعتني في الحب إربا ... ... لما حن الفؤاد إلى سواك

... وكثير من هذه الألحان السماعية قد أدرجت في الآلة الأندلسية، فأصبحت جزءا من غزلها كقولهم:

عدتم فعادت ليالي الوصل أعيادا ... من قربكم ولذيذ الأنس قد عادا

لا أوحش الله عيني من جمالكم ... يا نورها لأقضى الدهر إسعادا

وقولهم:

تذلل لمن تهوى فليس الهوى سهل إذا رضي المحبوب صح لك الوصل

تذلل له تحظ برؤيا جماله ففي وجه من تهوى الفرائض والنفل

وقولهم:

(11929/1)

لي حبيب حبه حشو الحشا ... إن يشا يمشي على قلبي مشى

قوله قولي وقولي قوله ... إن يشا شئت وإن شئت يشا

... وكان الملحنون في الحقلين دور كبير. وقد اشتهر في هذا المجال الشيخ المغراوي والشيخ الأكحل (مكتبة تطوان، 589) (راجع "الأغاني الأراجيز أو مواويل الملحون في فاس والرباط وسلا"، كتاب بقلم Jeanne Jouin، طبع عام 1900هـ).

... على أن الموسيقى قد امتزجت بالسماع المرفق بالآلة منذ القرن الثاني عشر، حيث كان علماء القرويين وكبار

شيوخ الصوفية لا يأنفون من الاستماع إليهما في نطاق المروءة والصون. وقد برز في عهد

(11930/1)

المولى سليمان (ت 1238هـ) عازف مسمع هو الشيخ الجابري الذي كان يطرب بحضور شيخ الجماعة بجامع القرويين العلامة سيدي حمدون بلحاج والعلامة المحدث الصوفي سيدي أحمد التجاني. وقد مدحه الشيخ حمدون بلحاج بقوله:

إن السماع لمقلة: إنسانها في الجابري:

... ... جبر القلوب بقوسه فاعجب لقوس جابري

... وكان العلامة المحدث أبو المواهب سيدي العربي السائح الرباطي يطرب لسماعه.

... وقد قامت المرأة المغربية بدور في الموسيقى احتذاء بالأندلسيات اللواتي نظمن موشحات غنائية مثل أم العلام الحجازية صاحبة الموشحات وأم الكرام

(11931/1)

ابنة المعتصم صاحبة المرية وأمة العزيز الأندلسية ("المطرب" لابن دحية). وكان العزف والغناء يمارسان ضمن أجواق نسوية في القصور الملكية على نسق ما عرف في الدولة العباسية، بل ازدهرت حتى داخل العائلات من هواة الآلة في الحواضر. على أن البادية المغربية قد عرفت هذا الازدهار مثل "الهكار" التي كانت تابعة للمغرب ضمن صحرائه الكبرى امتازت فيها المرأة بالعزف والتلحين. وكانت الموسيقى خاصة في الريف المجاور للأندلس هجير المرأة البدوية حيث لا تكاد تسمع في القبيلة سوى نغمات المزمار ورنات الأناشيد. ولم يكن ذلك يشغل

(11932/1)

المرأة عن إسهامها من فن مواز هو التمثيل الشعبي في تمسمان بالإضافة إلى خوض المعارك الجهادية لتحرير البلاد في بني توزين وفلح الحقول والسقي والحصاد. كما أن النهل من هذا المنبع لم يمنع المرأة في كزناية من المشاركة في مداولات مجلس الجماعة متقلدة بندقيتها التي تستخدمها بمهارة وهي تغني ممارسة في الوقت نفسه الرياضة والسباحة في بني سعيد ومسابح سيدي عيسى. وفي الأطلس وقممه الشامخة كانت الألحان

الشعبية بمشاركة المرأة يتردد صداها ضمن رقصات أحيدوس وأحواش والكدرة في روعة أصبحنا نتملى ببعض جوانبها في التلفزة

(11933/1)

المغربية.

المراجع:

... ولعل المراجع في اللغات العربية والأوربية المتعلقة بالموسيقى من أغنى المرتجع التي انفرد بها هذا الفن العربي الأصيل. ونستعرض فيما يلي قسما من هذه المراجع مع إبراز ما كتب حول ازدواجية الموسيقى والسماع وما أثاره ذلك من مناظرات بين علماء الدين والصوفية من جهة وهواة الآلة الأندلسية من جهة أخرى.

... – "الإنسان المعجب في اللسان المطرب" لأبي الفضل الكبير بن هاشم الكتاني، (مات دون إتمامه)، الموجود منه في ثلاثة كراريس.

(11934/1)

... – محمد بن أحمد بن الحداد الواد آشي، له ديوان كبير في العروض نظر فيه بين الألحان الموسيقية والآراء الخليلية، ("النفح" ج9، ص.238).

... – محمد العابد بن أحمد بن سودة، "استنزال الرحمات بالطبع والنغمات أو بإنشاد بردة المديح بالنغمات".

... – "الآلة وإطباعها ونغماتها وتاريخ دخولها إلى المغرب وشرح مصطلحات الموسيقى"، مجلد وسط فرغ منه 1325هـ/1907م.

... – محمد بن الطيب بن أحمد بن يوسف العلمي (المتوفى بمصر عام 1135–1134هـ/1721–1723م)، "مؤرخو الشرفاء"، ص.295.

(11935/1)

... – قصيدة غلام يسمى أبا الحسن علي الدكالي (68 بيتا)، خع–158د، مطلعها:

أفدي بأمي وأبي ... ... ظبيا عزيزا مر بي

له "رسالة في معرفة النغمات الثمان" (مدريد 334، ed H. G. farmer, Glasgow, 1933).

... – محمد بن جعفر الكتاني (1345هـ/1926م)، له تقييدات على "كتاب السماع" لأبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي المعروف بابن القيسراني (مكتبة المرحوم

الأستاذ محمد الناصر الكتاني).

... – محمد التهامي بن المدني جنون، 1331هـ/1913م، له "الزجر والإقناع بزواجر الشرع المطاع عن آلات اللهو والسماع"، سار فيه على تشديدات ابن

(11936/1)

الحاج لا على تسهيلات المواق وقد طبع بفاس، في 295ص. ألف في الرد عليه سيدي جعفر الكتاني "مواهب الجرب في السماع وآلات الطرب" ("الإعلام" للمراكشي، ج6، ص.103، الطبعة الأولى).

... – محمد الغالي بن المكي بن سليمان له "الجواهر الحسان في نغم الألحان"، يقع في كراستين، خزانة محمد المنوني بمكناس. له "تشنيف الأسماع في أسماء الجماع وما يلائمه من مستندات السماع" في مجلدين، طبع الجزء الأول بفاس، في 60 ص.

... – ابن نصيحة موسيقار السلطان محمد بن عبد الله، راجع "اختصار أبي إسحاق التادلي لتذكرة الأنطاكي"، مخطوط

(11937/1)

العلامة محمد التطواني بسلا.

... – رسالتان لأحمد بن خالد الناصري في الموسيقى والتنظير بين النغمات العربية والعجمية، خاطب بهما صديقه العلامة الفلكي إدريس بن محمد (فتحا) الجعيدي السلاوي.

... – تأليف في "الأمداح النبوية وذكر النغمات والطبوع" لأحمد بن محمد بن العربي أحضري البوعصامي الأندلسي المراكشي، كان حيا أواخر المائة الثانية عشرة، رتب مدائح وموشحات أهل المغرب على النغمات الأربع والعشرين وذكر مستنبط كل نوبة ساير به كتاب "الحايك" في الأمداح بدل التغزل والنسيب (مجلد ضخم في الخزانة السودية بفاس).

(11938/1)

... وقد ذكر النغمات والطبوع مع بيان تعلقها بالطبائع الأربعة وصور شجرة الطبوع، فجعل "الغريبة" المحررة تميل لكل طبع أصلا بلا فروع وجعل الماية أصل رمل الماية انقلاب الرمل والحسين والرصد للدم وفصل الربيع وجعل الزيدان أصل حجاز كبير، إلخ. (راجع "الإعلام" للمراكشي، ج2، ص.199). حيث ذكر أنه يوجد بخزانته.

... – أحمد العسراوي التطواني الموسيقي، له "اختصار

التذكرة للتادلي".

... – أحمد بن محمد بن الخياط الزكاري، 1343هـ/1924م.

له "مواهب الأرب المبرئة من الجرب في السماع وآلات الطرب"، مجلد اختصره الشيخ جعفر

(11939/1)

الكتاني، وطبع هذا الاختصار بفاس على الحجر، 23 ورقة.

... – "الإمتاع والانتفاع في مسألة السماع"، إلخ، مجهول

المؤلف ألفه باسم يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني (706هـ/1307م)، ورتبه على ثلاثة أبواب وسمى فيه 31 نوعا من آلات الموسيقى، توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية بمدريد، فرغ منها ناسخها عام 701هـ/1301م. وقف عليها الشيخ عباس بن إبراهيم المراكشي ("الإعلام"، ج2، ص.200، الطبعة الأولى)؛ كما وقف الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني على اسم المؤلف وهو أبو عبد الله بن الدراج ويوجد كتاب باسمه في خع 1828د عنوانه

(11940/1)

"الكفاية والغناء في أحكام الغناء".

... وقد أشار المراكشي إلى ما أورده المؤلف من أن طبع "الاستهلال" الذي هو فرع "الذيل" قد استخرجه الحاج علال البطلة بفاس أيام محمد الشيخ السعدي (يوجد في مجلد عدد 5307؛ ويوجد بخزانة الأستاذ محمد داود بتطوان كتاب من هذا النوع بخط العلامة محمد بن قاسم بن زاكور).

... – "كشف القناع عن تأثير الطبوع في الطباع"، لسليمان الحوات أبي بكر الإدريسي القيطوني (1240هـ/1824م)، أستاذ محمد بن علي السنوسي في الموسيقى.

... – "حاضر العالم الإسلامي" للأمير شكيب أرسلان، ج1، ص.279.

(11941/1)

... – أبو الحكم عبيد الله الباهلي (549هـ/1155م)، درس ببلده في العهد المرابطي. وهو طبيب شاعر هجاء مهر في الموسيقى وضرب العود ("نفح الطيب"، ج1، ص.385، طبعة مصر؛ ابن خلكان، ص.332).

... – أبو الصلت، أمية بن عبد العزيز (529هـ/1134م). له رسالة في الموسيقي، فقد الأصل العربي واحتفظ

بالترجمة العبرية دون اسم المترجم، في المكتبة الوطنية بباريس، عدد 1036.

... – لوكلير (Leclerc)، "الطب العربي"، ج2، ص.74.

... – سارطون (Sarton)، "مدخل إلى تاريخ العلم"، ج1، ص.203.

(11942/1)

... – أحمد بن المامون البلغيثي الرباطي الفاسي، 1348هـ/1929م.

... – عبد الرحمن بن عبد القادر بن علي بن يوسف الفاسي، 1096هـ/1958م، له "الجموع في علم الموسيقى والطبوع" (رجز)، برلين، 5521. وقد تحدث في كتابه "الأقنوم" عن الطب بالألحان في ثمانية أبيات.

... – عبد السلام بن الطائع أبو غالب الإدريسي الفاسي الموسيقي (1290هـ/1874م)، "شجرة النور"، ص.403. له: "اختصار التذكرة" للتادلي؛ "أغاني السيقا".

... مولاي العربي بن أحمد الوزاني له: "معلومات عن الطرب الأندلسي والعلامات الموسيقية" خم7728، كناش الموسيقى

(11943/1)

الأندلسية، 11 نوبة، مكتبة الكلاوي.

... – "الروضة الغناء في أصول الغناء"، ذكر مؤلفه المجهول أمداحا قيلت في السلطان مولاي رشيد، وهو ينقل عن ابن زاكور التطواني والبوعصامي، خع 192، 137 ورقة، المكتبة الوطنية بتونس (د33م). وهو مجموع مشتمل على أصول ألحان وأصوات وفروع وموشحات وما شاكلها من أوزان وأبيات.

... – "مجموع في الغناء والطرب".

... – "نوبات على الترتيب التطواني"، خع1518د، 98 صفحة.

... مجموع في الغناء والطرب اعتنت بجمعه الإرسالية العلمية الفرنسية بطنجة، وهو عبارة عن أجزاء من نوبات يغلب عليها

(11944/1)

الترتيب التطواني، 20 ورقة، خع1459د.

... – "المنتخبات الموسيقية"، لإدريس بن عبد العالي، طبع بالرباط

... – "كشف الغطاء عن أسرار الموسيقى ونتائج الغناء"،

طبع بالرباط، 25 صفحة.

... – "تقدم الموسيقى العربية بالمشرق والمغرب والأندلس" لحسن حسني عبد الوهاب، بالفرنسية.

... – "الموسيقى المغربية المسماة أندلسية" لمحمد الفاسي، مجلة تطوان، عدد 7، 1962.

... – مجلة اللسان العربي، لسان مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي، عدد 6.

... – دعوة الحق، عدد 9، 1959، وعدد 7، 1961.

(11945/1)

... – "تاريخ الموسيقى الأندلسية بالمغرب" لمحمد المنوني، مطبعة الرسالة، الرباط، 1389هـ/1969م.

... – "الموسيقى والموسيقيون بالمغرب"، مجلة تطوان، 1962، عدد 7.

... – "الآلة الأندلسية بالمغرب"، مجلة البحث العلمي، عدد 9، ص.96.

... – "النفح" ج4، ص.117.

... – "مجموع الأغاني والألحان من كلام الأندلس"، ديوان الأول والتاسع، في القرنين الثامن، طبع 1904، E. Yafil.

... – "تراثنا الموسيقي من الأدوار والموشحات"، اللجنة الموسيقية العليا، تأليف مجموعة من الأساتذة، القاهرة،

أربعة مجلدات.

... – مصطلحات الموسيقى.

(11946/1)

... – "الإعلام" للمراكشي، ج2، ص.200، الطبعة الأولى.

... – أوغست فيشر () (August Ficher1368هـ/1949)، وهو أستاذ ألماني عضو في مجمع القاهرة. له "زمام الغناء المطرب في النظم السائر في أقاصى المغرب"، بالعربية مع ترجمته إلى الألمانية.

... – "الإعلام" للزركلي، ج1، ص.19.

... A. Chottin, Les visages de la musique marocaine, Rabat, 1928, p16.

... – الموسيقى العربية الحديثة.

... Erlanger (R. d'), La musique Arabe, V. Essai de codification des règles usuelles de la musique arabe moderne, Echelle générale des sons, Guthner, 1949, p.42.

(11947/1)

... A. Chottin, Tableau de la musique

., cahier III-IV1940marocaine, r. des ét. Islam,

... (خع 4459).

(1)

(11948/1)

لمحة تاريخية حول مدينة تونس

الدكتور محمد الباجي بن مامي

المعهد الوطني للتراث – تونس

"وهذه المدينة، كلأها الله، من املدن العجيبة الغربية، وهي في غاية الاتساع ونهاية الإتقان ... ولها أبواب عديدة، وعند كل باب منها ربض متسع على قدر البلد المستقل ... كأنها ملك والأرباض لها إكليل ..." – العبدري الحيحي – "الرحلة".

ذكرها الكثير من الجغرافيين والرحل الزائرين، وأطنبوا في وصفها و التعبير عن الإعجاب بها.

بسقوط قرطاج، ومسح القائد العربي حسان بن النعمان لرسومها، ظهرت للوجود بالقرب منها، مدينة جديدة، كتب

(11949/1)

لها أن تخلف جارتها نهائيا، وأن تصبح عاصمة للبلاد التونسية، وأهم المدن بها. فكانت اسهاماتها في رواج الثقافة العربية الإسلامية، وفي انتشار الحضارة والعمران والفنون، وفي ازدهار الاقتصاد ما يلفت الإنتباه حقا.

كان اختيار حسان بن النعمان لموقعها ناتج عن عوامل استراتيجية مرتبطة بالحضور البيزنطي في مياه البحر الأبيض المتوسط، خاصة وأن أطماعهم في منطقة دحروا عنها منذ عهد قريبن مازالت متأججة، فكانوا يتحينون الفرص للانقضاض عليها من جديد.

(11950/1)

كانت تونس حسب المصادر قبل الفتح الإسلامي، قرية بربرية لم يكن لها أهمية تذكر لوجودها قرب قرطاج العظيمة، ونتيجة لوقوعها في مؤخرة الخليج، بعيدا عن مواضع مراقبة القادمين من البحر.

إلا أننا نلاحظ ان حفريات وأبارا تمت في بعض المواضع

من المدينة العتيقة، وأسفرت عن نتائج جد هامة غيرت كثيرا من الاعتبارات، إذ أثبتت وجود العديد من الآثار البونية والرومانية والبيزنطية، وذلك في حي الحفصية وفي القصة وداخل جامع الزيتونة – قرب المئذنة – وكذلك في جامع القصر بباب منارة الخ ... وهذا دليل واضح أن تونس مثلث مدينة

(11951/1)

ذات أهمية لا يستهان بها خلال الفترات الكلاسيكية.

ومن المؤكد انها كانت تمثل البعد الدفاعي لقرطاج من الداخل، إذ أننا نعلم أن سكان تونس انذاك كانوا من بين السكان الأصليين للبلاد.

إلا أنه مع الفتح الإسلامي، تغيرت المعطيات، وأصبح من الضروري أن يكون خط المواجهة من الداخل، خاصة وأن البحرية العربية لم تكن تضاهي آنذاك مستوى الأسطول البيزنطي.

كما تتميز تونس بموقعها الاستراتيجي والدفاعي، غذ لا يضاهيها في هذا أي موقع آخر، فهي ليست بعيدة عن البحر، وفي آن واحد في مأمن من عوادي الزمان وهجوم الأعادي، محتمية

(11952/1)

وراء بحريتها. إذ أن من خاصيات موقعها، انها تطورت بين بحريتين، السبخة من الجهة الغربية والبحرية من الجهة الشرقية.

هكذا أسس إذن حسان بن النعمان تونس سنة 84 هـ / 703 م، لتكون مركزا دفاعيا يمكنها من مواجهة الخطر البيزنطي، فكانت السد المنيع أمام هجمات الأعداء من البحر، والحامية لقسم هام من داخل البلاد، وجعل منها في آن واحد، نقطة الانطلاق للجيوش الإسلامية الفاتحة والغازية للجزر المتوسطية.

وحتى يتمكن هذا الجيش الناشر لرسالة الإسلام من مضاهاة الأسطور البيزنطي،

(11953/1)

بادر حسان بن النعمان بإنشاء دار صناعة قريبة من البحيرة، وقد ذكر أبو عبيد البكري أن البيزنطيين أغاروا من البحر على المسلمين بمدينة تونس فيقول : "كتب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز والي مصر أن يوجه معسكر تونس

ألف قطبي بأهله وولده، وأن يحملهم من مصر، ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى توشيش وهي تونس، وكتب إلى ابن النعمان يأمره أن يبني لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين ... وأن يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر، وأن يغادر منها على ساحل الروم، فيشتغلوا عن القيروان ..." هكذا سيكتب لتونس

(11954/1)

أن تلعب دورا دفاعيا، وستكون خاصة من أهم المراكز المستعملة في الحروب البحرية، بفضل ما توفره لها دار الصناعة من سفن، فاقت بها الأسطول البيزنطي. كما أن قدوم الأقباط من مصر سيكون أول الغيث، إذ ستستقطب ميدنة تونس أجناسا عديدة، توافدوا في مد متواصل، إذ فتحت هذه المدينة ذراعيها لكل الوافدين عليها، إما من أجل طلب العلم، او للاحتماء بأسوارها الحصينة أو من أجل طلب الرزق ...

اختط حسان إذن المدينة الجديدة، بطريقة ذكية، فقد جعل فيها إضافة لدار الصناعة، مسجدا ذكره البكري، إلا أنه لا يفيدنا إن كان هو الجامع

(11955/1)

الأعظم الحالي، إذ يؤكد ابن الشباط والرقيق القيرواني، أن عبيد الله بن الحبحاب هو المؤسس للجامع سنة 114 هـ / 732 م. أما ابن عذاري فقد ذكر تاريخ 116 هـ / 734 م. لكن لا يمكن تصور المسلمين طوال ثلاثين سنة من غير جامع يؤمونه ويصلون فيه، ومن الراجح أنه حصل نفس الخطأ الذي نلاحظه بالنسبة لدار الصناعة، إذ يفيدنا البكري أنه : "تقدم أن عبيد الله بن الحبحاب بنى دار الصناعة، فلعل من روى ذلك يريد أن عبيد الله جددها وزادها تحصينا ..." فلعل نفس الشيء حصل بالنسبة لجامع الزيتونة، ومن الممكن أن ابن الحجاب وسع فيه،

(11956/1)

وأضاف إليه بعض الزيادات، ويكون ذلك دليلا قاطعا على اتساع المدينة، وازدياد عدد سكانها خلال فترة وجيزة من الزمن.

وفق ابن النعمان في اختيار موقع هذا الجامع الذي طار صيته بين سكان المغرب الإسلامي. وقد لعب الجامع دورا دينيا وعلميا وكذلك دفاعيا أساسيا، إذ كان مطلا على

البحر، لهذا بنى المؤسس في زاويته – الشمالية / الشرقية والجنوبية / الشرقية – برجي مراقبة، يمكن عن طريقتهما مراقبة المغير من البحر. كما أن الجدار الشرقي يذكرنا بجدران الحصون والأربطة، فحجارته السميكة تؤكد هذا الدور الدفاعي.

(11957/1)

ومن الواضح، أنه خلال القرون الإسلامية الأولى، شاهدت مدينة القيروان نموا اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا، أهم بكثير من مدن افريقية الأخرى. لكن لم يمنع هذا ميدنة تونس من لامساهمة الفعالة في النهضة العامة للبلاد.
وهكذا مثل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي فترة ازدهار وتطور بالنسبة
للمدينة، فجدد الأغالبة جامع الزيتونة، وفي آخر أعمال البناء سنة 250 هـ / 864 م، أمر الخليفة المستعين بالله العباسي، إضافة قبة المحراب التي تعتبر عملا فنيا بديعا، وبإتمام هذه الأشغال أخذ الجامع شكله ومساحته النهائتين.

(11958/1)

كما أن ابراهيم الثاني جعل من تونس عاصمة له، انطلاقا من سنة 281 هـ / 893 م وذلك لمدة سنتين وانتقل إليها أيضا عبد الله بن الأغلب من سنة 291 هـ / 903 م إلى سنة 293 هـ / 905م – حيث اغتاله ابنه زيادة اله الثالث – وقد ساهم في تطورها التجاري، خاصة وأن علاقاتها مع بعض مناطق البحر الأبيض المتوسط، كانت تعرف دفعا متواصلا. مما يجلب الانتباه أنه انشئت خلال هذه الفترة القصيرة من استقرار الأغالبة بتونس، العديد من القصور والمنشآت، إضافة إلى أن زيادة الله الثالث أعاد بناء أسوار المدينة، مما زادها تحصينا ومناعة.

(11959/1)

وقد زار ابن حوقل تونس في بداية القرن التاسع الهجري / العاشر الميلادي، وأبدى إعجابه الشديد بها، وبما وصلت إليه من الرخاء والازدهار. لكن نتيجة لفترة الاضطرابات التي واكبت ثورة صاحب الحمار (أبو يزيد مخلد بن كيداد) لم ينتعش الاقتصاد من جديد إلا في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، فيبدو ان الولي الصالح محرز بن خلف وقف حازما أعاد به الحياة إلى الأسواق، فتذكر المصادر بأنه سهر على مصالح قومه

وحاول انعاش الحياة الإقتصادية والتجارية، إذ عاش في فترة شبابه الأزمة الاقتصادية التي عرفتها إفريقية

(11960/1)

نتيجة لعمليات التخريب والنهب خلال ثورة صاحب الحمار. فتقهقرت الحياة الاقتصادية بكافة نواحي افريقية، وخاصة منها تونس، بعدما عرفت ازدهار نسبيا في أواخر القرن الثالث الهجري. ومما نعلمه أن الشيخ سيدي محرز أحيي السويقة المجاورة لمقره والتي تسمى باسمها أهم أبواب الميدنة، كما ساهم في إعادة بناء أسوار الميدنة لحمايتها من الأعداء.

كما حافظت الذاكرة الشعبية على اهتمام هذا الولي باليهود الذين كانوا يسكنون خارج الأسوار بحي كان يسمى المرضى (وهو مرض الوباء) والذي يعرف حاليا بحي الملاسين، وبما أن هؤلاء اليهود

(11961/1)

اشتهروا ببراعتهم في بعض الصناعات وخاصة في مهنة التجارة، فقد حرص سيدي محرز على تخصيص حي خاص بهم

داخل الأسوار وهو الذي كان يعرف باسم حارة اليهود في حي الحفصية.

إلا أن فترة الازدهار والرخاء التي عفتها البلاد لم تتواصل، ففي أوساط القرن الخامس الهجري / العاشر الميلادي، مرت إفريقية بفترات مضطربة، كان سببها الرئيسي زحف بني سليم وبني هلال، مما تسبب في تقلص هذه الحضارة، ودام هذا الركود فترة طويلة. لكن استطاعت مدينة تونس – خلافا لبقية مدن افريقية – أن تخرج من هذا الانحطاط بسرعة، إذ عرفت في أيام بني

(11962/1)

خرسان، ازدهار نسبيا في الميدان الاقتصادي وفي الناحية الفنية والمعمارية، إذ أسس فيها عبد الحق بن خراسان دويلة دامت من سنة 451 هـ / 1059 م إلى سنة 555 هـ / 1160 م. وقد بنى الأمير أحمد بن عبد العزيز بن عبد الحق، قصرا يوجد حسبما يبدو على أنقاضه قصر دار حسين. كما أقام كذلك الأسوار التي ذكرها الإدريسي. وتشهد على هذا الازدهار الذي عرفته المدينة آثار

الخراسانيين الباقية، ومنها تربة بني خرسان وجامع القصر.

(11963/1)

إلا أن أسبارا أجريت في داخل بيت الصلاة أثبتت أن هذا الجامع كان في أول الأمر حصنا بيزنطيا، استعمله خرسان فيما بعد لإقامة الصلاة، فجعلوا منه جامعا خاصا بهم.

أما في عهد الموحدين، فقد لقيت تونس عناية، أكبر، خصوصا بتشييد القصبة على يدي عبد المؤمن بن علي سنة الأخماس 555 هـ / 1160 م) التي بلغ اتساعها حوالي الربع من مساحة المدينة والتي يمكن اعتبارها مدينة مستقلة بذاتها.

بعد أن أصبحت تونس انطلاقا من هذه الفترة، العاصمة الشرقة للأمبراطورية الموحدية، جاء الحفصيون بعد الموحدين، وتابعوا ما قام به من سبقهم

(11964/1)

في الحكم، وشجعوا التطور الحاصل، فأبقوا تونس عاصمة لهم، وزادوا في توسيعها والاعتناء بها. ولا ريب أن الفترة الحفصية تعتبر في مجملها عهد نهضة وازدهار، وهكذا أصبحت تونس مدينة متسعة الأطراف، غذ بلغ عدد سكانها – في القرن الخامس عشر الميلادي – حوالي مائة ألف نسمة على مسافة 270 هكتار.

نتيجة لهذا النمو السكاني، تعددت جوامع الخطبة بالمدينة، إذ شيدت خمسة

منها خلال القرن التاسع الهجري / الثالث عشر الميلادي ولم يحصل ذلك إلا انطلاقا

(11965/1)

من سنة 630 هـ / 1233 م، حيث أقام أبو زكرياء الأول جامع القصبة الموحدي، وهو أول جوامع المدينة الذي يؤسس بعد جامع الزيتونة. إذ علمت إفريقيا خلال الفترة الإسلامية الولى، بالنهي عن وجود أكثر من جامع خطبة بالمدينة الواحدة. وهكذا بقي الجامع الأعظم، هو الوحيد في مدينة تونس إلى بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي.

كما أن العثمانيين ساهموا بطريقة مباشرة في إعطاء تونس نفسا جديدا، وإرجاع ديناميكيتها المعهودة

بعد فترة التراجع التي عرفتها خلال القرن العاشر الهجري / السادس الميلادي. فإن كان القرن

(11966/1)

الموالي أحلك الفترات التي مرت بها البلاد. إذ عرفت الثلاثة أرباع الأولى لهذا القرن حروبا عنيفة دارت رحاها بمدينة تونس وعدة جهات من البلاد، بين الجيوش التركية والأسطول الإسباني، والتي انتهت بانتصار العثمانيين سنة 1574 م:

فقد افتك الإسبان بجاية وطرابلس بداية من سنة 916 هـ/ 1510م. وتولى أبو محمد الحسن منصب الحكم سنة 932 هـ/ 1525م، ولم تكن مدته أحسن ممن سبقه (أبو عبد الله محمد بن الحسن الذي ساهم في إضعاف الدولة) واضطربت البلاد على يد ابن محمد الحسن. وفي أيامه قدم خير الدين وتلت قدومه حروب عديدة،

(11967/1)

استنجد أثناءها أبو الحسن بالإسبان. ورغم محاولة ابنه أبي العباس انقاذ الموقف، فإن الأمور تدهورت أكثر من

ذي قبل، إذ ترك أبو الحسن خزينة الدولة فارغة من الأموال، فلم يتيسر لابنه الدفاع عن البلاد. وأهم ما اتسم به هذا القرن هو دخول الإسبان إلى مدينة تونس خاصة في سنة 941 هـ/1535م، ويذكر الوزير السراج أنها "الواقعة التي نهبوا فيها وسلبوا وقتلوا أهل تونس" هي التي يعرفها أهل تونس آنذاك "بواقعة الأربعاء" فقد أباح فيها أبو الحسن الحفصي البلاد للإسبان مدة ثلاثة أيام.

(11968/1)

ولم ينج الجامع الأعظم من النهب والسلب، فيعلمنا ابن أبي دينار أن النصارى نهبوا خزائن جامع الزيتونة وحرقوا السقوف، كما يعلمنا أنه لحق المدارس ما لحق بالجامع. وتفرقت ما جمع فيها من دواوين العلوم.

وقد اعاد الكرة الإسبان سنة 980 هـ/1573م، ولم تختلف النتائج في هذه المرة عما سبقه في الاحتلال الأول. وقد بلغ الأمر بالجنود الإسبان إلى تحطيم سقوف الأبنية لاستعمال ألواحها للتدفئة، وقد بلغ الأمر بالجنود الإسبان إلى تحطيم سقوف الأبنية لاستعمال ألواحها

للتدفئة، وهو ما تسبب في خروج عدد هام من سكان المدينة إلى

(11969/1)

خارجها حفاظا على نسائهم وأبنائهم من القتل والسبي. إلا أن مجيء الأتراك بعد معركة حلق الوادي 1574م كان مختلفا عن الهجرات الأخرى، إذ هو متصل باستيلائهم على البلاد، فأول القادمين كانوا من الجند، وقد حاول هؤلاء التأثير في البلاد من الناحية المذهبية، لذلك بنوا الجامع وشيدوا المدارس – كاليوسفية – وأحيوا ما هدم منها – كالشماعية والعنقية – وحاولوا عن طريقها نشر مذهبهم الحنفي لدى العامة. إلا ان الاتجاه لم يتبلور إلا في بداية القرن الحادي الهجري / السابع عشر الميلادي.

(11970/1)

كما أنشئت خلال نفس هذا القرن أسواق جديدة (كسوق البركة وسوق الترك وسوق الباي وسوق الجرابة ...) وجوامع خطبة، خاصة منها جامع يوسف داي (سنة 1611

م) ثم جامع حمودة باشا المرادي (سنة 1655) وجامع سيدي محرز (سنة 1696م)، كما أسست العديد من القصور كقصر البايات المراديين قرب القصبة، وكذلك دار عثمان ودار الحداد وغيرها كثير.

وفي أوائل القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلاد أخذ البايات الحسينيون مكان المراديين، وورثوهم في قيادة الدولة، فعرفت تونس رخاء وانتعاشا، ذلك رغم الحرب الأهلية التي دامت ربع قرن

(11971/1)

(انطلاقا من سنة 1140 / 1728 م) وواجه خلالها علي باشا الأول عمه حسين بن علي تركي، وقد أسس كل منهما العديد من المعالم، فإضافة إلى الجامع الجديد بالصباغين، أسست في أيامهما سبع مدارس ضخمة. كما بنيت أهم القصور التي وصلتنا خلال النصف الثاني من نفس هذا القرن، نذكر من بينها : دار حسين ودار ابن عبد الله. كما أسس علي باي الثاني تربة البايات التي يمكن عدها أحد أضخم المعالم الدينية بالمدينة.

تواصل هذا الرخاء وتدعمت هذه الرفاهية في بداية القرن الثالث عشر الهجري /

(11972/1)

التاسع عشر الميلادي، فأضيفت معالم أخرى إلى الرصيد الموجود بعد.

فإضافة إلى مجموعة المباني التي أنشأها أهم وزير في فترة حمودة باشا ألا وهو يوسف صاحب الطابع، والمتكونة من الجامع المشهور باسمه والمدرستين وقصره والحمام والكتاب والأسواق المحيطة بها، أسست مجموعة من المعالم المدنية كقصر دار لصرم (الراجع إلى سنة 1819)، منشآت دفاعية خاصة منها القشلات الخمس المؤسسة في أيام حمودة باشا.

هذا، ومن الملاحظ أن المجتمع التونسي، طعم على مر العصور بعناصر أجنبية، لعبت دوار هاما في إعطاء الثقافة والفن والحضارة بصفة

(11973/1)

عامة، نفسا جديدا وصيغة اتسمت بأكثر حيوية على مختلف الفترات. وهكذا عرفت تونس العديد من التأثيرات التي قدمت خاصة – خلال القرون الإسلامية الأولى – من المشرق الإسلامي، وكانت اولها تلك التي

وردت عن طريق الجزيرة العربية ومصر والعراق وإيران، وكذلك من بلاد الشام.

لكن بداية من العهد الحفصي أصبحت التأثيرات الأندلسية، المغربية هامة جدا، والتي مازال البعض منها إلى يومنا هذا، وقد أعطى هؤلاء لمدينة تونس طابعا خاصا، ميزها عن العديد من المدن الأخرى، فالكثير من المعالم تأثرت بالنمط الأندلسي، والمغربي على حد

(11974/1)

سواء، خاصة مئذنة وقبة الجامع الموحدي بالقصبة وزاوية سيدي قاسم الجليزي (أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وغيرها كثير ...).

كما تواصلت التأثيرات المشرقية خلال الفترة الحفصية، وتمثلت جلها فيما قدم عن طريق مصر، ولم تؤثر العلاقات السياسية السيئة على سير العلاقات التجارية والثقافية، والدليل على ذلك ما حصل في مدرسة ابن تافراكين التي دفن فيها مؤسسها، وكذلك وجود الأواورين في المدارس الثلاث : الشماعية والعنقية والمنتصرية ... وقد عكس ما يؤكده جل المستشرقين من انقطاع هذه العلاقات.

(11975/1)

أما أهم هجرة وصلت مدينة تونس، فقد تمثلت في الموريسكيين سنة 101 هـ/ 1609م، ويقدر عددهم بنحو ثمانين ألف نسمة، ورغم ان العديد من هؤلاء المهاجرين وزعوا على عدة قرى ومدن، خاصة بالشمال التونسي، فقد استقطبت تونس الأثرياء منهم، وأهل العلم وأصحاب الحرف – مثل المختصين في صنع الشاشية –.

ومما لا شك فيه أن العطاء الثقافي والنشاط التعليمي ازدهر بطريقة مطردة انطلاقا من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي. فيذكر حسين حسني عبد الوهاب : "أن جامع الزيتونة هو اسبق المعاهد التعليمية للعروبة مولدا، وأقدمها في

(11976/1)

التاريخ عهدا، وذلك منذ سنة 120 هـ/ 737م". كما يؤكد بعض المؤرخين أن علي بن زياد أشهر أعلام القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، والمتوفى سنة 183 هـ/

800 م، وكذلك ابن أشري، درسا بجامع الزيتونة.

ومن المؤكد أن علماء أجلاء آخرين عاشوا بتونس، إذ يذكر أبو العرب في طبقات علماء افريقية تسعة من بين أهم أهل العلم بالمدينة. وأصبح للجامع الأعظم شأن عظيم خاصة انطلاقا من بداية العهد الحفصي، وعرف كمعهد علمي طبقت شهرانه الآفاق، وتواردت عليه الدارسون من كل حدب وصوب.

(11977/1)

ولكن لم يختص الجامع الأعظم بمفرده بالتعليم، بل وجدت العديد من الأماكن الأخرى كالزوايا ومساجد الأحياء المختلفة، وكذلك الدور. وأول من جلس بمنزله، هو علي بن زياد، كما درس محرز بن خلف بداية من أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلاد، وفي بيته ...

وقد نحا أبو زكرياء الأول مؤسس الدولة الحفيصة منحى السلاطين والملوك العظام، فبني وشيد، حتى يعطي مظهرا عظيما لعاصمته، وقد تكون زيادة عدد السكان والتطور العمراني لمدينة تونس سببين المدرسة آخرين دفعا لبناء المدارس، كما الدافع المذهبي جعل السلطان يبني

(11978/1)

المدرسة الشماعية أولى مدارس المغرب الإسلامي التي أنشأها حسب كل المؤرخين لنشر المذهب الموحدي، كما أراد أبو زكرياء من وراء ذلك تكوين موظفين أكفاء وإطارات عليا يستعملهم لتقوية أسس دولته، وانطلاقا من هذه الفترة بنيت العديد من المدارس، فاق عددها الثلاثون، ووصلنا منها عشرون مدرسة.

نشطت إذن الحركة العلمية وازدهرت نتيجة لعدة عوامل منها : تشجيع

السلطة الحاكمة بما فيها بعض النسوة كالأمير عطف التي أسست جامع ومدرسة

التوفيق، وكذلك الأميرة فاطمة الاتي بنت المدرسة العنقية، كما وجد عدد هام

(11979/1)

من العلماء الذين تركوا بصماتهم في الحركة العلمية والثقافية، لا في مدينة تونس وإفريقية

فقط، بل اعترف لهم بمقدرتهم في كامل البلاد الإسلامية خاصة بقدوم نخبة من المثقفين الأندلسيين

الذين استوطنوا تونس انطلاقا من بداية الدولة الحفصية. وقد أفادنا ابن خلدون أنه : "اجتمع بحضرة المنتصر الحفصي من اعلام الناس الوافدين على أبيه، وخصوصا الندلس، من شاعر مفلق وكاتب بليغ، وعالم تحرير ..." كما أكد ذلك القلصادي في رحلته، وقد ذكر عددها من هؤلاء العلماء ومن بينهم : الشاعر صاحب "الحلة السيراء" والتآليف العديدة :

(11980/1)

أبو عبد الله محمد بن الآبار، كما أتى أبو الحسن حازم القرطاجني، وكذلك أبو العباس بن الغماز البلنسي، وابن سيد الناس اليعمري الإشبيلي والنحوي ابن عصفور، وغيرهم كثير من الأسماء اللامعة الذين سيطروا على القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، وقد عرفت مدينة تونس بفضل هؤلاء ومن سواهم من الأفارقة كابن الخباز وأبي القاسم بن زيتونة وقاضي الجماعة ابن عبد الرفيع نهضة علمية شاملة جعلت منها اهم المراكز الثقافية والتعليمية بالمغرب الإسلامي. أما القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي فقد شاهد بروز جماعة

(11981/1)

من العلماء الأجلاء كقاضي الجماعة ابن قداح الهواري وابن السلام صاحب المؤلفات الهامة المتوفى سنة 749 هـ / 1348 م. كما استقر بها أبو عبد الله بن مرزوق، وبرز أيضا أبو مهدي عيسى الغبريني، وخاصة أفراد عائلة القلشاني ... لكن طغى اسم عبد الله محمد بن عرفة الورغمي على النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر ميلادي وهو يعتبر أهم علماء الدين بالبلاد، وبقي اسمه خالدا على مر القرون. أما عبد الرحمن بن خلدون، فهو أبرز العلماء الذين تفتخر بهم مدينة تونس، فهو يعد منشئ علم الإجتماع، وأبرز المؤرخين، كما

(11982/1)

برز في العلوم الفكرية بصفة عامة.

وقد نجح ابن عرفة في تكوين العديد من العلماء البارزين، خاصة منهم : أبو القاسم البرزلي، ومحمد البحيري وأبو عبد الله بن عقاب، وغيرهم من العلماء الأجلاء الذين برزوا على ساحة التعليم والتأليف في

النصف الأول للقرن التاسع الهجري / الخامس عشر ميلادي.

ومما يفيدنا به الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل أن الفترة ثرية بأسماء عديدة، وقد أعجب بالكثير من الأندلسيين الذين استقروا بتونس، وأهم شخصية ألفت انتباهه هو : محمد الخير المالقي الذي تعرف عليه سنة 846 هـ / 1460 م.

(11983/1)

كما برز أيضا خلال الفترة العثمانية الكثير من العلماء والشعراء والمؤلفين، وكان ذلك خلال القرنين الحادي عشر الميلادي، من بينهم : أبو عبد الله برناز وأحمد برناز صاحب "الشهب المحرقة" والوزير السراج صاحب "الحلل السندسية" ومحمد سعادة صاحب العديد من المؤلفات، كما يضاف إليهم محمد فتاتة، وبعض أفراد عائلة البيارمة، وعائلة الشريف، وعائلية ابن الخوجة.

أما بالنسبة للإشعاع الروحي لمدينة تونس، فقد شهد على ذلك الكثير من المؤلفين بما فيهم الأوروبيين الذين مروا بتونس : كآدورن وليون الإفريقي، إذ انتشرت الطرق

(11984/1)

الصوفية بصورة مطردة، وانطلاقا من محرز بن خلف المتوفى في بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، ولا يكاد يخلو حي من أحياء المدينة من وجود ولي أكثر : خاصة خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، الذي قد خلاله من المغرب أبو الحسن الشاذلي، فكون الكثير من الأتباع من بينهم خاصة السيدة عائشة المنوبية، وسيدي القرجاني وسيدي علي الحطاب وغيرهم ... وتذكر كتب المناقب أن عدد هؤلاء الأتباع بلغ الأربعين.

(11985/1)

وقد أصبحت المدينة خلال القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، تعج بهؤلاء المتصوفين نذكر من بينهم أحمد بن عروس الذي كان يتمتع بحماية السلطان الحفصي. ومن المؤكد أنه كان للأولياء والصالحين تأثير مباشر على التونسيين، مما جعل السلاطين الحفصيين، ثم البايات المراديين، فالبايات يتقربون إليهم ويخشونهم. وهذا ما جعل الولي العالم إبراهيم الرياحي يصعد إلى قمة الهرم – خلال النصف الثاني من القرن

الماضي – ويخشاه البايات الحسينيون.

الناحية المعمارية :

(11986/1)

بعد هذه اللمحة التاريخية، سنحاول تقديم الناحية الفنية والمعمارية لمدينة تونس وربضيها.

فمما يجب التأكيد عليه، هو أنه تنوعت مصادر التأثير في الناحية المعمارية

التونسية، وكذلك في الناحية الفنية بتنوع البلدان الإسلامية والمتوسطية التي صدرت

عنها. ورغم أنه كان للحضور المصري والأندلسي

والمغربي والتركي ... تأثير فعال في عدة مجالات،

كالثقافة والفن والمعمار والصناعة ... فالمثال الإيطالي

دليل على أنه لم تكن كل هذه التأثيرات إيجابية، وأن

للتأثيرات السلبية هي الأخرى مكان في هذه العلاقات

الخارجية، غذ أن

(11987/1)

الاتجاه إلى شراء الحاجيات والكثير من مواد البناء من إيطاليا، نتج عنه انتياب بعض الميادين تونس – وخاصة حي القلالين – ركود لم تعرفه من قبل.

لكن من المؤكد أيضا أن الدور الذي لعبته التأثيرات المحلية، كان هاما جدا، اتسمت الهندسة المعمارية الحفصية مثلا، بوجود تأثيرات مختلفة، البعض منها محلي، والبعض الآخر ورد في الخارج، لكنها عرفا كيف يتعايشان. ونتج عنهما فن واحد أعطى الصيغة "الشخصية" للفن الحفصي. وهكذا عرفت مدينة تونس كيف تكون لها شخصيتها، فقد استطاعت هضم التأثيرات الأجنبية، وخلقت أشياء بنفسها بقيت

(11988/1)

حية إلى يومنا هذا.

ومما لا شك فيه أن المدينة العصرية التي أنشأت بداية من أواخر القرن الماضي، أثرت بطريقة سلبية على المدينة العتيقة، وقد زاد الطين بلة بعض المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي عرفها سكان المدينة الأصليون مما أدى إلى تراجع كبير في مستوى معيشة البورجوازية القاطنة بالمدينة (والذين كان يطلق عليهم : البلدية) وكذلك الأرستقراطية السياسية

والعسكرية. فبعد حرمانهم من موارد رزق الدولة التي كانوا يتنعمون بها قبل استقرار الحماية الفرنسية بالبلاد سنة 1881، وكذلك من الموارد التجارية (التي عرفت

(11989/1)

تقهقرا متواصلا لفائدة المتاجر الموجودة بالمدينة العصرية)، لم يستطع هؤلاء مواصلة صيانة دورهم وقصورهم، ومن باب أولى وأحرى مواصلة بناء دور في نفس مستوى الدور السابقة، لهذا هجر السكان الأصليون المدينة العتيقة، خاصة أن نمط المسكن الغربي جبلهم، فتحولت المدينة العتيقة في أقل من نصف قرن، إلى ملجإ للطبقات السفلى ولسكان البادية الوافدين على العاصمة للحصول على شغل.

لهذا بدأ الكثير ممن يؤمنون بأهمية هذه المدينة وبتراثها في محاولة جزئية

(11990/1)

لإعطاء نفس جديد لمدينة تونس، فأنشئ المعهد الوطني للتراث للمحافظة على المدينة منذ سنة 1973، وهو يساهم مع جمعية صيانة المدينة في إحياء التراث والمحافظة على طابع المدينة العتيقة وعلى تطويرها، وكذلك على إيجاد حلول للمشاكل المتركمة والتي بدأت نتائجها الإيجابية بادية للعيان : فقد وظفت الكثير من المعالم المرممة. أما المعالم الهامة كجامع الزيتونة وجامع سيدي محرز وغيرها رمم جلها، ويحصل تعهدها وصيانتها بصوة مستمرة.

(11991/1)

ومما لا شك فيه أنه ليس من باب الصدفة أو من قبيل المجاملة أن ألحقت اليونسكو مدينة تونس بقائمة المدن المسجلة ضمن قائمة التراث العالمي، إذ أن هذه المدينة العتيقة تعتبر في حد ذاتها متحفا أثريا، فهي تحتوي حاليا سبعمائة معلم، وتعد احدى المدن العربية التي تحافظ على تراثها، وعلى نسيجها المعماري المتكامل.

كما أن تونس هامة من حيث وضعيتها الحالية، فهي أولا وبالذات العاصمة السياسية للبلاد، وتحتوي على جل

الوزارات والإدارات المركزية، التي ما زال قسم منها يتمحور حول قصر الحكومة بالقصبة، كما أن أهم الأدوار

(11992/1)

التي تضطلع به هذه المدينة، إذ تستقطب أسواقها القديمة عددا لا يستهان به من السواح ومن التونسيين أنفسهم.

ومما لا شك فيه أن مدينة تونس ثرية بمعالمها، إلا أن أهم معالم المدينة على الإطلاق هو جامع الزيتونة :

ذكر النويري أن أبا ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب أمر ببناء الجامع بتونس، وأنه بدأ في البناء سنة 248 هـ/ 863 م، وبعد موته واصل عمله أخوه أبو محمد زيادة الله، ومات هو الآخر قبل الانتهاء من إعادة بناء الجامع. وتوجد نقيشة تحيط بالمربع الحامل لقبة المحراب، تمدنا باسم المستعين بالله العباسي الذي أمر

(11993/1)

بالقيام بهذا العمل، وهي مؤرخة في سنة 250 هـ/ 865م، ونص النقيشة هو :

"بسم الله الرحمن الرحيم، مما أمر بعمله الإمام المستعين بالله أمير المؤمنين العباسي طلب ثواب الله، وابتغاء مرضاته على يدي نصر مولاه سنة خمسين ومائتين (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء الله) صنعه فتح الله".

ومما يلاحظ ان أعمدة بيت الصلاة وتيجانها جلبت من المدينة الأثرية بقرطاج. كما أضيفت بعض العناصر الأخرى خلال الفترات اللاحقة.

(11994/1)

فقد اهتم به أمراء بنو خرسان، غذ أضافوا ستة أبواب، كما بنوا مقصورة الإمام، والمقصورة الشرفية (سنة 457 هـ / 1064 م).

أما خلال الفترة الحفصية فقد صنعت أبواب خشبية تطل على الصحن سنة 716 هـ/1316م على يد السلطان أبو يحيا زكرياء وتثبت ذلك نقيشة ذات خط كوفي متأخر توجد في أعلى باب البهو للمدخل الرئيسي لبيت الصلاة.

كما شيدت مقصورة أبي عمرو عثمان، والمكتبة العبدلية أبي فارس عبد العزيز خلال القرن التاسع الهجري / الثامن عشر الميلادي هذا إضافة إلى عدة

انجازات تدل على اهتمام الحفصيين بهذا الجامع. لكن عرف

(11995/1)

الجامع خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي أحلك الفترات، وذلك مع دخول الإسبان ابتداء من سنة 1535، فقد نهبت خزائنه وحرقت في صحنه حوالي أربعين مجلد ولم ترجع له حرمته، إلا مع دخول الأتراك العثمانيين سنة 1574 م.

وأضيفت في العهد العثماني على يدي الإمام تاج العارفين البكري النقوش الجصية التي تحلي واجهة المحراب والحدائر، وتؤرخ هذا العمل، نقيشة تحيط بقاعدة قبة المحراب. كما تمت بعض أعمال الترميم في أيام محمد باي المرادي سنة 1064 هـ/ 1655م، وقد جددت المئذنة التي بناها، وذلك سنة 1312 هـ/ 1894م،

(11996/1)

وهي تعد حاليا من أجمل مآذن البلاد. إن أهمية هذا الجامع متأتية من كونه حافظ على جل عناصره المعمارية

والزخرفية منذ فترة تأسيسه، لذلك يعده الأخصائيون كأقدم معالم الإسلامي الموجودة حاليا – بمعية جامع عقبة بن نافع بالقيروان وجامع دمشق الأموي إضافة إلى جامع قرطبة – إذ انقرضت كل المعالم التي بنيت قبله او أعيد تشييدها. وهو هام أيضا لكونه من اثرى المعالم التي بنيت قبله أو أعيد العديد من النقائش التي تؤرخ جل عناصره المعمارية.

لهذا الجامع تخطيط شبه مربع، وتحتوي بيت الصلاة على سبع مسكبات موازية

(11997/1)

الجدار القبلة، وهي تمتد على خمسة بلاطة أعرضها الوسطى، ويحوي الجامع قبتين :

الأولى التي ذكرناها بعد (قبة المحراب) والمتأثرة بقبة جامع القيروان والتي بناها زيادة الله الأغلبي سنة 221 هـ، لكن تعتبر قبة الزيتونة أكثر تطورا باحتوائها على الضلوع البارزة والمقرصنات ... أما الثانية فهي قبة رواق البهو والتي أقيمت امام بلاطة المحراب، بامر من الخليفة الفاطمي : أبو المنصور العزيز

بالله، سنة 385 هـ/ 995 م، وهي تعتبر من أجمل قباب المغرب الإسلامي.

(11998/1)

أما المنبر فهو الثاني الذي وصلنا في العالم الإسلامي، فقد سبقه زمنيا بستين منبر جامع عقبة بالقيروان الذي صنع سنة 248 هـ/ 862 م.

جامع سيدي محرز :

ومن أهم المعالم التي تمتاز بها مدينة تونس، جامع سيدي محرز، وقد عرف بهذا الإسم لوقوعه أمام ضريح هذا الولي الصالح الذي توفي بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. (413 هـ / 1022 م).

المؤسس هو محمد باي المرادي، وكانت البداية في الأشغال سنة 1104 هـ/ 1692 م، وتوفي محمد باي قبل إتمامه سنة 1108 هـ/ 1696 م، فأكمل عمارته أخوه رمضان باي الذي توفي هو

(11999/1)

الآخر قبل إتمام المئذنة. ويمتاز هذا الجامع عن غيره بالبلاد التونسية، ببعض الخاصيات، ومن بينها اعتماد السقف المتكون من قباب متفاوتة الحجم، على أربع دعامات ضخمة، لذلك لا نجد في بيت الصلاة الأعمدة المرمرية التي اعتدنا وجودها في بقية الجوامع التونسية.

أما الصحن فهو محيط ببيت الصلاة من ثلاث جهات (الشرقية والشمالية والغربية) وهي ميزة لا نجدها إلا في الجوامع المتأثرة بالطابع المعماري للجوامع التركية، مثل جامع السلطان أحمد، وجامع سليمان القانوني وجامع بايزيد باسطنبول.

(12000/1)

ويمتاز المنبر بأنه قار ومبني بالحجارة، وقد كسي بأنواع الرخام الثري، على عكس المنابر التي عرفتها إفرقية في السابق،و كانت منابر خشبية متحولة ويرتكز القوس الموجود في فتحة المنبر على عمودين صغيرين من الرخام، تاج كل منهما من النمط الأندلسي. أثري هذا المعلم بألوام الزليج المجلوبة خصيصا من أزنيك، والمتميز بصناعة

ألوانه وأناقة الأشكال الزخرفية المستوحاة من العناصر

النباتية الطبيعية، التي تطغى
عليها الألوان : الأخضر والأزرق والأحمر والتي عرفت بها
منطقة الأناضول. ويتمثل

(12001/1)

الطراز الأندلسي، في أطباق فسيسفاء تتخذ أشكالا
هندسية تسيطر عليها الأطباق النجمة البسيطة
والقليلة الألوان (الأزرق والأصفر والأسود والأبيض).
بينما تمتاز النقوش الجصية بوجود طرازين : الأول
أندلسي متكون من عناصر هندسية متمثلة خاصة في
أطباق النجوم المكونة للأفاريز وطاقية المحراب
والشمسيات. أما الطراز الثاني فهو تركي الأصل،
وتتمثل عناصره في أشكال منفردة : كالمزهريات
والنجوم المثمنة وكوز الصنوبر الخ ...

(12002/1)

هذان بالطبع مثالان فقط من المعالم العديدة التي
مازالت تحتفظ بها تونس العتيقة، هذه المدينة التي
ترمم فيها معالم عدة، وتنتقد الإندثار والتلاشي حتى

تذكر بماضي تليد وبتاريخ ثري يدفعنا إلى إبراز إحدى المدن الهامة في العالم العربي الإسلامي.

(12003/1)

ليبيا في مخطوطات الرحالين المغاربة خلال القرنين 11–12 هـ / 17–18 م

الدكتور عبد الكريم كريم
كلية الآداب – الرباط

من دراستنا لتاريخ الرحلات المغربية إلى المشرق، نلاحظ أن بعضها كان يتم خلال القرن 16 م بواسطة البحر المتوسط، خاصة وأن النفوذ العثماني كان يشمل مناطق هامة من حوض هذا البحر؛ ومن ذلك على سبيل المثال: رحلة التامكروتي إلى إسطامبول عام 1589 – 1590، غير أن اضطراب المتوسط أواخر القرن 16 م نتيجة تحول طرق التجارة العالمية إلى المحيط الأطلسي، وما رافقه من انتشار للفوضى في بلدان الشمال الأفريقي

(12004/1)

أجبر القوافل على اتباع الطريق الصحراوي الذي ينطلق من مراكش عبر تافيلالت وتوات وبسكره وتوزر نحو فزان وما جاورها حتى وادي النيل؛ ومن ذلك الرحلتان المغربيتان اللتان قام بهما كل من ابن المليح عام 1040 هـ وأحمد الهشتوكي عام 1096 هـ وعندما أخذت الأوضاع تعرف نوعا من الاستقرار النسبي في ليبيا غداة تولية الباشا أحمد القرامانلي، أصبحت القوافل المغربية تأخذ طريق الساحل الليبي حتى النيل؛ ومن ذلك رحلات كل من : الدرعي عام 1121 هـ والزبادي عام 1148 هـ والحضيكي عام 1152 هـ والصغير عام 1152 هـ والناصري عام

(12005/1)

1196 هـ..

1– طوبوغرافية المنطقة

أولا – فيما يتعلق بالطريق الداخلي الصحراوي؛

ثانيا – فيما يتعلق بالطريق الساحلي الليبي.

مع تفاصيل الأسماء الأماكن الرئيسية التي كانت تحط بها القوافل وتقدير للمسافات التي تفصلها.

أولا – الطريق الجنوبي الصحراوي: ينطلق من مدينة مراكش إلى وادي درعة وإلى قصبة تنزولين ثم بلاد

بلبالت وتوات (هنا يتم اللقاء عادة مع الوفد السوداني)، فصحراء أزكيز وبلاد فزان بليبيا.

تعبر القوافل الصحراء الجنوبية الليبية في طريقها نحو الشرق:

(12006/1)

1– بلاد فزان وأهم محطاتها: أبار (أباري)، مدرك (مرزوق)، جرمة، دجان، ززي، تراغن (طرغين)، زويلة، تبسه (تمسه).

... أول منزل نزله الركب وصادفه المولى الرب قصر أبارصانه الباري... فاتصل الخبر ... ... بأميرها... فوجه من فرسان دولته وخدام مملكته نحو اثني عشر فارسا... ثم انتقل بعده ... ... لقصر يقال له جرمة... أهله جياد وأيامه أعياد، أكثر لحومه الدجاج، ثم بعده لقصر ... ... دجان... ثم لقصبة السلطان الجليل الرئيس محمد بن جميل، وهي المعروفة بمدرك.. ما ... ... أحسن سيرته في رعيته وأنشد عدله في

(12007/1)

بـريـتـه... تـأهـب – أعـانـه الله – للقيا الحجيج وتلقاه ... ...
بـفـرح وسـرور... وأمر قاضي عسكره وصاحب النـوازل
الشرعية بـبـلـده أن يـسـتـنـفـر له من ... ... الركب دوره،
فاختار له عشرة، فجالسهم بالحكمة... ثم أمر بـمـنـادينـا:
من ضيع لمغربي ... ... خروبة، قطعت يده؛ ومن ضيع له
مثقالا، قطع رأسه.
(ابـن مليح، صص. 22– 23).
ثم ارتحل القوم وحلوا " بـقـصر ززي، ثم نـزلنـا بـقـصر
تـراغن: قصر عظيم"، حيث استضافهم هنـاك الأمير عمر
التـراغي.
أما "زويلة ، فيحكى أنـها كانـت مدينـة عظيمة كثيرة
النـخيل وفيها مزارات وآثار تدل عليها. ويذكر أن دفات

(12008/1)

أبـوابـها هي القائمة إلى بـاب زويلة، أحد أبـواب مصر
وسميت بـذلك" (ابـن مليح، ص. 24).
واتـجه القوم إلى "مورد يقال له أبـو اللبـاع: غابـة من
شجر، وفيه آبـار قصار قريبـة الماء، ثم لقصر تـبـسه وهو
أعلى قصور فزان وآخرها كثيرة المياه والعيون" (ابـن
مليح، ص. 25).
2 – بـلاد "الفقا :

بلدة منقطعة في صحراء بين جبلين فيه عيون جارية ونخيل قطوفها دانية" (ابن مليح، ص. 25).

أما "زلة، فمدشر صغير لا معاش عندهم ولا قوت إلا ماء يسمونه أكَب: يستخرجونه من النخيل أبيض حلو ثم يطبخونه ويستخرجونه منه" (ابن مليح، ص. 25).

3 – بلاد وجلة:

(12009/1)

... رحب المسعى، كثيرة المرعى، أحدقت جنات من الجوانب تسقى بالدوالب، زرعها ... ... كثير، وخيرها غزير، تجلب لها الأرزاق من الأقطار والآفاق، كثيرة اللحوم والسمن، ... ... يجلب لها ذلك من الجبل الأخضر من برقة، تأتي القوافل منها كثيرا، أهلها سماح ... ... الوجوه، وبنيانها يشبه بناء المغرب في الشكل، ولها بابان أحدهما لناحية المشرق والآخر ... ... لناحية المغرب، وأعذب آبارها بئير بباب البلد؛ منها يسقون لأن غيره لا يشبهه في ... ... الطعم... وارتحل الركب لمنهل قريب من البلاد – يعرف بجراجي –

(12010/1)

فيه آبار ... وبعده ... ... بلاد صحراوية لا ترى فيها إلا رياحا تهب وكثائب الرمل كأنها رواحل تخب يقال له ... ... الغرود تطيش له العقول... وفيها كهوف ودور يقال إنها لقوم عاد منحوتة في الجبال سرنا ... ... فيها من نصف يوم (ابن مليح، ص. 25).

ومنها "لبلاد سيوره : مدشر عظيم على ربوة مرتفع، دورها بعضها فوق بعض، كثير الأشجار والنخيل، متفجرة العيون. تشبه جناتها جنات بلدنا مراكش" (ابن مليح، ص. 25). ومنها نحو مصر.

ثانيا – الطريق الشمالي الساحلي :

(12011/1)

ينطلق من مدينة قابس التونسية نحو مدينة طرابلس وسرت وأجدابية وبرقة فمصر...

... كان دخولنا طرابلس ضحى الثلاثاء الرابع والعشرين من شعبان (عام 1148 هـ). وكان ... ... نزولنا حيث ينزل ركب الحاج في وسطها... فيها مساجد وأسواق وتقام بها الجمعة.

أهل البلد يسمونها الظهرة من الظهور، لأنها ظاهرة، أي عارية من النخيل، بخلاف ... ... العمارات المتصلة بهذا البلد من كل جانب؛ فإنها كلها وسط النخيل. والحجاج

يسمونها ... ... الزرارية باسم رملة متصلة بما بينها وبين البلد يعمر بها سوق عظيم.

(الزبادي، ص. 23).

(12012/1)

"وفي يوم الثلاثاء أول يوم من رمضان (عام 1148 هـ)، دخل الركب الوارد من المشرق والقاصد بلاد المغرب، فنزل أيضا هاتيك الدروع وشرع كل من الركبين في قضاء الأمور وأخذنا في كتب الكتب إلى من خلفنا بفاس من الأحبة كالأهل والأشياخ وذوي المحبة" (الزبادي ص. 25).

بعد مدينة طرابلس، يواصل القوم طريقهم بمحاذاة الساحل: "بيتنا عند عين عافق على ساحل البحر... ثم بيتنا عند جبل النكازة... وفي سفح هذا الجبل من جهة الساحل مدينة عظيمة يقال لها مدينة لبدة قد خلت قديما وبقيت آثارها... ثم نزلنا إلى ساحل حامد... ومررنا ببلدة

(12013/1)

أزلتين وهي بلدة مثل التي قبلها في النخيل والسواني" (الزبادي، ص. 35 – 36).

أما مدينة "مسراته، فسرنا فيها ما شاء الله وبيتنا. ومن الغد، نزلنا – ضحىً – زاوية الشيخ العلامة... قطب مغربنا وإمام أئمتنا أبي العباس أحمد البرنسي... الشهير بزروى رحمه الله" (الزبادي، ص. 37).

من الأماكن التي وقف بها القوم: المنعم التي يوجد بقربها "مقطع الكبريت. سمي بذلك، لأن في أعلى سبخة هنالك معدن الكبريت في آبار كثيرة يحمل منها كالطين. ومن هنالك يحمل إلى مصر والإسكندرية، ومن المنعم يفارق الركب البحر فيتيامن عنه"

(12014/1)

(الزبادي، ص. 44).

... ... وأجدابية

... ... بلد قرب برقة... والموجود اليوم آثارها الدالة على العمارة الكثيرة، وهي آبار ... ... كثيرة في براج من الأرض عظيمة منقورة في الحجر وبقية بنيان حولها متين هائل ... ... بالحجر المنحوت. وهنالك رسم مسجد قديم... ومن أجدابية إلى سلوك.. آبار ... ... في فسيح من الأرض وبإزائها رسوم بناء... وسلوك بمرأى من الجبل

الأخضر قريبا

... من مرسى ابن غازي... زمن سلوك يحمل الركب ماء سبعة أيام، لأن طريقهم في ... ... هذه الأزمنة على السروال وهو مسيرة سبعة أيام

(12015/1)

لا ماء فيها.

(الزبادي، ص. 45**).**

و "التميمي... ماؤه على قتله ليس بالطيب، وبينه وبين درنة مسافة يوم ونصف، وهي مدينة على ساحل البحر لها مرسى عجيبة تنزل بها السفن" (الزبادي، ص. 48**).**

ومن المحطات أيضا: الدفنة، الجرجوب، حيث "يميل الناس يسارا إلى البحر في منحدر صعب مشرف على البحر، فينزلون إلى رمل أبيض يظهر من بعيد كأنه الثلج؛ فيخرجون الماء منه بعد حفره" (الزبادي، ص. 48**).**

وهناك الشمام والمدار والعقبة ووادي الرهبان، فبلاد مصر.

2 **– اقتصاديات البلاد**

أ – الزراعة ورعي الماشية.

(12016/1)

ب – التجارة في المدينة الرئيسية (طرابلس)؛ وفي جميع المناطق التي تحط بها القوافل.

– مواد التجارة: مزروعات وماشية ومصنوعات.

– التجارة الخارجية : تتم عبر البحار.

– التجارة الداخلية : مع أهم المناطق الجنوبية.

ج – طرق المواصلات ووسائلها.

أ – من أهم المناطق الخصبة:

– قرى زيزور: "ذات عنب وزيتون كثير" (الصغير، ص. 75**).**

– بلاد طرابلس: "ونزلنا الترابلس : مدينة على شاطئ... كثيرة المزارع والبساتين والفواكه بأنواعها" (الحضيكي، ص. 15**).**

(12017/1)

– وادي الرمل: "واد متسع عذب الماء لا ينقطع ماؤه صيفا وشتاء... وهو واد مخصب من أعلاه، فيه مزارع تخرج إليه ماشية أهل طرابلس أيام الربيع" (الدرعي، ص. 45**).**

– وادي السيد: "هو كالذي قبله أو أخصب منه، وماؤه ماء غريب لا ينقطع صيفا ولا شتاء" (الدرعي، ص. 46**).**

– جبل النكازة: "وزيت هذا البلد من أطيب الزيوت مذاقا، سيما ضرب منه يسمونه ضرب الماء يعصرونه بالماء – ولا أدري كيف يصنعون بذلك – لا تكاد تميز بينه وبين السمن" (الدرعي، ص. 46).

(12018/1)

– ساحل حامد: "وبلدة حامد بلدة كبيرة ذات نخل كثير ومزارع وأسواق وزيتون؛ إلا أن نخله رديء التمر كنخل هذه السواحل كلها" (الدرعي، ص. 48).

– مزارع سرت: "وبلاد سرت من أخصب البلاد، ذات مزارع كثيرة بالعمل، وعربها أهل رفاهية" (الدرعي، ص. 58).

– الجبل الأخضر: "لا يوجد أخصب منه ولا أكثر منه... وطول هذا الجبل نحو عشرة أيام... وأكثر أشجار الناحية التي مررنا بها العرعر، حتى أنه من شدة اشتباكه والتفافه لا ينفذ الناس فيه إلا في طرق معلومة وشعب مسلوكة" (الدرعي، ص. 61 – 62).

ب – أما أهم المراكز التجارية فهي:

(12019/1)

الكتاب : مجلة التاريخ العربي

ويقترح هنا مستر فالنس إنشاء كلية في البحرين لتعليم كل طلاب الخليج الراغبين في التعليم الثانوي والعالي ودافع عن مشروعه هذا قائلا:

... طمع أن نحقق بإنشاء هذه الكلية أربعة أهداف:أولا: إبقاء هذا الشباب في إمارته . ثانيا :إعادة بعض هذا الشباب من الناحية الفنية ليحل مكان الأجانب الذين يحتكرون الوظائف العليا. ثالثا : إعادت عدد من المعلمين لتولي شؤون التعليم في الخليج. رابعا: من خلال هؤلاء المعلمين من أبناء الخليج ينشر التاريخ االمحلي . وأنا مقتنع تماما أننا سوف نبني هنا في الخليج شعورا وطنيا يعارض

(12885/1)

فكرة الوحدة العربية والقومية العربية (5).

... لكن مشروع فالنس في كتابة تاريخ للخليج يتعارض مع فكرة القومية العربية لم يلق قبولا لدى شيخ البحرين أو شيخ الكويت .وماهي إلا عشر سنوات، وفي فترة الخمسينات واجه البريطانيون نفس القضية في

التعليم في إمارة قطر وفي الإمارات المتصالحة.

... م تقدم بريطانيا وال تاريخها الطويل في الإمارات أية خدمات تعليمية. وبعد الحرب العالمية الثانية ومع تقدم التعليم في قطر والكويت.بعد ظهور البترول بهما، وفي محاولة للتطوير التعليم في الشارقة طلب الشيخ صقر بن سلطان القاسمي

(12886/1)

بعثة تعليمية من الكويت عام 1953.وسرعان ما حذت دبيحذو الشارقة. قدمت قطر عام 1958 بعثات أيضا تعليمية في إمارات الساحل وأرسلت مصر إلى الإمارات تعثة تعليمية وفي مدينة العين سجع السيخ زايد ين سلطان آل نهيان التعليم ونشأت مدرسة آل نهيان عام 1962.وهكذا جلب التعليم الحديث في تلك الفترة ما ظنه البريطانيون خطرا عليهم في أواخر الثلاثينيات في تغيبهم للتعليم.الآن قدم المعلمون العرب بدعوة من الشيوخ وبحماس من الأهالي وحملوا عبء هذه النهضة التعليمية مع إخوانهم من مدرسي الإمارات، ولم يكن هناك جامعة في الإمارات

(12887/1)

في ذلك الوقت، واضطرا الطلاب لإكمال تعليمهم بعد المرحلة الثانوية السفر إلى القاهرة وبيروت ودمشق وبغداد، وهكذا زالت تماما تلك العزلة التي فرضت على الإمارات منذ عام 1892.

... وقد ظلم البريطانيون في تقاريرهم في تلك الفترة المعلمين العرب الوافدين للمساهمة في التعليم حين فسروا سبب تغير مشاعر الحكام ومشاعر الكراهية التي اجتاحت الشباب والأهالي تجاههم بأن مصدرها هم المعلمون،ولكن القراءة المتأنية في التقارير البريطانية التي كتبها المقيم والمعتمدون في أنحاء الخليج في ذلك الوقت تضع اللائمة أيضا على سوء

(12888/1)

تصرف الحكومة البريطانية التي شاركت إسرائيل وفرنسا حملة السويس عام 1956. وقد وجد البريطانون استنكار لذلك من جميع الحكام في الخليج، هذا إلى جانب ماأثاره هذا الإعتداء على مصر من غضب عارم في جميع أنحاء الوطن العربي، ولقد أثار هذا الإعتداء الشعب البريطاني أيضا ضد حكومته وسارت مظاهرات عدائية

في لندن ضد إيدن رئيس وزراء بريانيا لم تشهدها هذه العاصمة من قبل،واضطر إيدن إلى اعتزال الحكم.
ولاشك أن السياية المفرطة لدى البريطانيين من أي تعبير قومي بصورة علنية في تلك القترة في الإمارات واعتبار البريطانيين أن

(12889/1)

ذلك إهانة موجهة ضدهم هو سبب حادث إصرار المعتمدية البريطانية في دبي على إخراج عضو بعثة الكويت ومدير مدرسة دبي هاشم أبو عمارة في مارس 1957.
ومعلم هاشم أبو عمارة فلسطيني الأصل. وحين نقرأ اليوم المآخذ التي سجلتها المعتمدية في دبي ضده نجد أنه قال في خطبة له عند افتتاح المدرسة الأحمدية إن مركز العلم والثقافة في الماضي كان في بلاد العرب ولم يكن في واشنطن أو لنظن أو باريس، وأن على العرب اليوم استعادة مجد آبائهم. كما سجلتعليه المعتمدية أنه أنشأ فرقة للكشافة في المدرسة، وأنه كان نشيطا وجعل من بيته مقرا

(12890/1)

لتدريس اللغة الإنجليزية لكبار السن بالمجان. وكان البريطانيون قلقين من قدوم المعلمين أو منالتعاون العربي في الميدان التعليم، وقد استنكروا على هاشم أبو عمارة إقناعه الشيخ راشد بن آل مكتوم افتتاح مدرستين جديدتين: أحدهما قام الشيخ بيمويلها والثانية قامت بمساهمات من الأهالي، كما أنه أقنع الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم استقدام تسعة مدرسين أردنيين وشجع الأهالي على المشاركة في الإنفاق على هذه البعثة. هذا إلى جانب محبة الطلاب له وخاصة أبناء الشيخ راضد بن سعيد آل مكتوم الشيخ مكتوم والشيخ حمدان وكثير من

(12891/1)

أبناء التائلة الحاكمة ةكبار العائلات في دبي. وكان هؤلاء الطلبة يترددون عليه في بيته.

وفي المهرجان الرياضي في ختام العام الدراسي في شهر مارس 1957 سارت فرقة الكشافة دبي مع فرقة كشافة الشارقة في طابور واحد. وخطب هاشم أبو عمارة مثيرا مشاعر المجد العربي، ةحض الجميع على استعادة هذا المجد. وفي نهاية الحفل ألقى بعض الطلبة صغار السن حجارة على سيارة المعتمد البريطاني، وأصرت

المعتمدية في رسالتها في اليوم التالي على إبعاد مدير المدرسة هاشم أبو عمارة واتهمته بأنه يعمل ويتدخل في السياسة، وأصرت المعتمدية على

(12892/1)

طلبها وأنه لابد من رحيله قبل نهاية العام، ومع ترحيل (دائرة المعارف) في دبي للمعلم هاشم أبو عمارة بعد إلحاح بريطاني وسط استنكار الطلبة والأهالي، فإن بلدية دبي أطلقت اسم ميدان جمال عبد الناصر على أحدث ميادينها وقتذاك، كما سمت أحمد شوارعها شارع بور سعيد(6).

وثائق وكتابة التاريخ:

يخرج المؤرخ العربي الذي يعيش بين الوثائق بمعلومات جديدة حقا،وهي معلومات مضبوطة بمعنى أن لها تاريخا محددا ومكانا محددا وأسماء أفراد محددين. ولكنه يحسن أيضا أن هذه الرسائل فيها الكثير من الطعن في العرب والكراهية لهم.

(12893/1)

كتب هذه الوثائق معتمدون سياسيون، ووثائق تكشف لنا في الدرجة الأولى مصالح بلادهم،وفي ثنايا الوثائق تبدومصالحهم السياسية والإقتصادية التي يردونها،وببيعة الحال تختلف كتابة المعتمد الفرنسي عن المعتمد البريطاني في راوية حادثة ما، ولهذا يجب الحيطة عند قراء هذه الأحكام التي يصدرها المعتمدون الأجانب حول الشخصيات التي يتناولونها وعن وضعهم للمجتمع العربي الذي يتكلمون عنه.

بعد الحرب العالمية الثانية، وبعد الإنسحاب البريطاني من الهند،قررت الحكومة البريطانية إلغاء عمل الوكلاء السياسيين المحليين في الشارقة

(12894/1)

بعد رحيل آخر ممثليها (جاسمالكظماوي) عام 1949.

وعينت بريطانيا في الشارقة ضابطا سياسيا بريطانيا. في عام 1954انتقت الوكالة من الشارقة إلى دبي ةتغيرت تسمية الضابط السياسيإلى معتمد سياسي وظل الوضع حتى الإنسحاب عن ساحل الإمارات(7) ولأول مرة يرى البريطانيون بأعينهم مباشرة مايجري في هذا الساحل،وتطورت معرفة البريطانيين بالممنطقةخاصة حين جاب في داخل الإمارات في تلك

الفترة رجال البحث عن البترول،وسرعان ما تغيرت أحكام البريطانيين عن عرب الإمارات عما كانت عليه من قبل. لقد أطلق البريطانيون على العرب الإمارات

(12895/1)

بعد مواجهتهم الحرية معهم بين عام 1800–1819 لقب القراصنة(8). وهي نفس التسمية التي أطلقها الأوروبيون في تقاريرهم عن إخواننا في المغرب والجزائر الذين حالوا استرداد أراضيهم في الأندلس،والذين استمر العداء بينهما فترة طويلة أيام سطو الإسبان والبرتغال. أطلق البرتغاليون والإسبان على هذا الجهاد الشرعي لقب القرصنة، ةنفس التسمية أطلقها البرتغاليون على جهاد اليعاربة في عمان ةالمحيط الهندي/وهي نفسها التي أطلقها البريطانيون على جهاد القواسم في ساحل الغمارات ، وبعد أنعقد البريطانيون اتفاقية الصلح البحري مع

(12896/1)

الإمارات تغيرتتسمة الساحل إلى الإمارات المتصالحة منذ عام 1853، وظلالبريطانيون يتوحسون خفية من تعيين ضابط بريطاني في الوكالة بالشارقة خوفا من أن يقتله عبر الإمارات ،وكانت الأحكام البريطانية دائما أن عرب الإمارات قبائل شرسة لاترحب بوجود الغريب بينهم.

ولكن حينما أصبح للبريطانيين منذ عام 1949 ضاب سياسي ،وبعرفوا أكثر على عرب الإمارات تغيرت أحكامهم تماما(((9).

كتب الرحالة البريطاني (ولفرد ثسيجر) بعد أن عبر صحراء الربع الخالي من سلالا إلى أبو ظبي عام 1947 يصف البدو أنهم نبلاء العرب (10) واختفى الوصف

(12897/1)

البريطاني القديم لهم أنهم قراصنة وأنهم قوم شرسون، نعم هم شرسون ولايرحبون بوكيل بريطاني وهو يفرض عليهم بعد معركة حربية ويمثل ، التدخل الأجنبي،ولكنهم إذا جاءهم ضيفا يحترمهم ةلايتدخل في شؤونهم فإنه يجد الكرم وحسن الضيافة. وقد فضل الكثير من الموضفين البريطانيين الذين عملوا في الإمارات خلال الفترة من كششافة ساحل عمان البقاء في الغمارات بغد اعتزالهم الخدمة الرسمية، وذلك لما

وجدوه من الحكام والأهالي من كرم وترحاب.

صيحة التضامن العربي من أبو ظبي :

(12898/1)

زإلى جانب الجهد القومي العلمي في ميدان التاريخ الذي يقوم به مركز الوثائق والدراسات في رؤية تاريخ بأعين أبنائه ومن مدخل عربي، فإن دولة الإ/أرات العربية المتحدة بقيادة الشيخ زايد بن سلطان آلنهيان ترفع دائما علم التضامن والوفاق العربي. وهو أمر حيوي في حياة الأمة العربية. وتأكيدا للتضامن العربي ولقاء المفكرين العرب لتدارس أحوال الأمة العربية اليوم عقد في أبو ظبي في الفترة ما بين 2-4نوفمبر 1997تحت رعاية صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان "ندوة مستقبل العالم العربي" التي تدعو للتضامن وتعزيز الصف

(12899/1)

العربي. وقد صرح الشيخ زايد للوفود قائلا:

... يجب أن نتسامح ونعطي المخ"ئ فرصة، ولو تضامن

العرب منا ... استخفت بهم إسرائيل ولا مارست أمريكا عليهم الضغوط

... وقد أضدرت الندوة بيان أبو ظبي للتضامن العربيوجمع شمل الأمة العربية .

الهوامش : (1) أنور الخطيب : الثقافة في ربع قرن، مؤسسة الاتحاد للنشر، أبو ظبي، 1997.

(2) عبد الكريم كريم : المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 97.

John C Wilkinson, The Imannate Tradition of Oman;London, 1987p 218 -220.

(12900/1)

---

(3) Lisbone, arquivo de tarre do tambo . , certidào1649nde setember de 6.coa, De Servico De Rui Mendes De Vasconcelo Prestador Na Conquista De Dàs A Muhammad Yàsi.

(4.(373**/**1**/**15India Offuce Records, London, R/ Repot of C.R.L ADRIAN Adrian Valence to Mr. Belgrave on 26th June 1939,pp 7**–**15

(5) India Office Records, Ibid

(6) /1016FO/558London ,,

Political Age,t, Dubai,to F B Richards, Barain,
&1957March, 26
Political Agent, Dubai,to H E sir burrows, H M
1957th May 6Political resident, Bahrain,

(12901/1)

---

(7) **محمد مرسي عبد الله : دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها، الكويت** 1981 **صص** 187 – 188

(8) **محمد مرسي عبد الله : إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى، القاهرة** 1978 **صص** 179 – 180.

(9) **محمد مرسي عبد الله : دولة الإمارات ، ص** 130.

(10) Thesiger, Arabian Sands, London, 1959 pp, 84–86.

(12902/1)

مسألة نحوية لأبي بكر بن العربي

قوله عليه السلام (لاَ تُصَرُّوا الإِبلَ)

... ... تقديم وتحقيق وتعليق الدكتورة حياة قارة

... إن هذه المسألة النحوية التي أقدمها اليوم لأول مرة محققة، هي من تأليف الإمام العالم الحافظ المتبحر أبي بكر بن العربي المَعَافِرِي الإشبيلي المتوفى سنة 543 هـ(1)

---

(1) نسبة إلى قبيلة "مَعَافر" بفتح الميم والعين وكسر الفاء، القحطانية، وهذه النسبة هي المشهورة في مصادر ترجمته. وقد وقفت على نسبة أخرى له في كناشة بالخزانة العامة بالرباط ـ رقم 91 ج، صفحة 166، نصها: "قال الفقيه العلامة الكاتب الأوحد سيدي محمد بن أحمد اليحمدي الفحصي في كتابه المسمى "تحفة الظرفاء في جميع ما في الكَلاَعي من الرسائل النبوية والصّحابة والخُلفاء". وكان فراغه من هذا التأليف يوم الجمعة عشية عرفة عام 1164 هـ، وأهدى أول نسخة منه للسلطان الأعظم سيدي محمد بن عبد الله بن مولاي إسماعيل العلوي، وهو كتاب على نسق عجيب نادر الوجود. قال رحمه الله ما نصه: "قرأت في كناش سيدنا الوالد رحمه الله الذي كان يقرأه دائماً على سيدي مولاي اسماعيل رحمه الله في ترجمة الإمام سيدي أبي بكر بن العربي رحمه الله ونفع به نقل ابن حجر شارح سيدي البخاري

أنه: المُغَافِري بضم الميم وفتح الغين المعجمة بعد ألف على وزن المُعَافِري بالمهملة كما هو مشهور، نسبة إلى مُغَافِر حيٌّ من هَمْدان بفتح الهاء وسكون الميم، القبيلة المعروفة من اليمن"". وفيما يتعلق بالترجمة بأبي بكر بن العربي، والتعريف بمؤلفاته، انظر: "قانون التأويل"، ص ص. 71 ـ 226؛ و"الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم" لأبي بكر بن العربي (الجزء الأول)؛ و"آراء أبي بكر بن العربي الكلامية" (الجزء الأول).

(12903/1)

"ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها"(1). وعلى الرغم من كثرة تصانيفه ورسائله، فإنني لم أجد لها ذكراً في المصادر التي ترجمت به.

... ويبدو أنها من المسائل اللغوية والنحوية(2) التي ناقشها ابن العربي ليستفيد منها الفقهاء قصد فهم القرآن والسنة لاستنباط الأحكام.

---

(1) الصلة، ج 2، ص. 558، رقم 1298.

(2) له رسالة في النحو واللغة أطلق عليها "ملجأ المتفقهين إلى معرفة غوامض النحويين واللغويين" ذكرها ابن العربي في عدة مواضع من كتبه، ونسبها

إليه المقري في" أزهار الرياض"، ج 3، ص. 95؛ والنفح، ج 2، ص. 36.

(12904/1)

... وفي أثناء بحثي عن تواليفه المخطوطة التي لم تنشر، وقفت على مجموع خطي يضم في آخره هذه المسألة، وترددت بادئ الأمر في تحقيقها ونشرها لسببين:

... أولهما: الجانب الفقهي للمسألة؛ لأن الحديث الشريف - موضوع هذه المسألة - حديث عظيم، يتضمن خلافاً فقهياً عميقاً حول الحكم في المصْراة.

... وثانيهما: المسألة في صناعة النحو، وأعترف بقصوري في هذه الصناعة. إلاّ أن هذا التردد سرعان ما تلاشى أمام رغبتي في نشر النص لأهميته، قصد التعريف به. لذلك حاولت أن أتتبع رأي ابن العربي في هذه المسألة لاستخراج ما يليق أن

(12905/1)

يكون تعليقاً وتوضيحاً لها.

... وأملي أن يكون ما قدمته حافزاً على إعادة قراءة هذه

المسألة النحوية لاستنباط ما خفي عنا. وبالله التوفيق.

عرض وتحليل

... سئل الإمام الحافظ أبو بكر بن العربي عن قوله: ‘‘لا تُصَرُّوا الإبلَ’’ أهي مبنية لما لم يسم فاعله، أم مركبة على الفاعل؟

... إن هذه المسألة، فيما نرى، تثير مشاكل عدة، منها:

1 ـ الخلاف الفقهي في حكم بيع المصْراة(1)

---

(1) أحاديث المُصَرَّاة ـ فيما قال الإمام بدر العيني ـ على نوعين: أحدهما مطلق عن ذكر مدة الخيار، وبه أخذت المالكية وحكموا فيها بالردِّ مطلقاً. والآخر منها مقيد بذكر مدة الخيار كما في رواية مسلم، وبه أخذت الشافعية. انظر تفصيل ذلك في "عمدة القاري في شرح صحيح البخاري"، ج 11، ص ص. 270 ـ 271. وعقد الإمام ابن حزم الأندلسي للمصَرَّاة فصولاً في "المحلَّى" وذكرها في إطار ‘‘من اشترى سلعة على السلامة من العيوب فوجدها معيبة فهي صفقة مفسوخة كلها لا خيار له في إمساكها إلاَّ بأن يجدد فيها بيعاً آخر بتراض منهما ’’. وقال: ‘‘هذا حكم كل معيب حاشا المصراة فقط’’. انظر تفصيل الحكم فيها: المحلى، م 6، ج 9، ص. 66؛ وانظر كذلك "أعلام السنن في شرح صحيح البخاري" لأبي سليمان الخطابي، ج

1، ص ص. 596 ـ 597؛ و"الفتح الباري" لابن حجر العسقلاني، ج 4، ص. 362.

(12906/1)

، قال عنه ابن العربي:

... وهذا حديث عظيم، بيانه في موضعين: مسائل الخلاف، وشرح الصحيح. ومن فصوله القوية أن التَّصرية عندنا عيب. وبه قال الشافعي(1)، وقال أبو حنيفة ليست بِعيب، والدليل على أنها عيب زيادة الثمن بالتَّصرية ونقصانه بعدمها، ولا جواب عن هذا.

... وردَّ أبو حنيفة هذا الحديث لوجهين:

... أحدهما: أن راويه أبو هريرة، ولم يكن فقيهاً، وإنما كان رجلاً صالحاً، وإنما تقبل روايته في المواعظ لا في الأحكام.

---

(1) انظر: الرسالة للإمام الشافعي، ص ص. 242 ـ 244.

(12907/1)

... الثاني: وقد قال أبو حنيفة إن هذا الحديث يخالف أصول الشريعة من ثمانية أوجه(1)، فأوردها، وجاوبنا(2)

---

(1) فيما يخص مذهب الإمام أبي حنيفة في هذه المسألة، والاعتراضات عليها، انظر: "عمدة القاري في شرح صحيح البخاري" للإمام العيني، ج 11، ص. 270؛ و"بداية المجتهد ونهاية المقتصد" لابن رشد، ج 2، ص. 132؛ و"المحلَّى" لابن حزم، م 6، ج 9، ص ص. 67 ـ 70؛ و"المعلم" للمازري، ج 2، ص. 248؛ و"أوجز المسالك إلى موطإ مالك"، ج 11، ص ص. 376 ـ 380.

(2) فيما يتعلق بردِّ ابن العربي على أبي حنيفة في هذه المسألة، انظر: "عارضة" الأحوذي، ج 5، ص ص. 260 ـ 271.

(12908/1)

عليها كما في مسائل الخلاف (1).

... 2 ـ اختلاف أهل العلم واللغة في تفسير المُصَرَّاة، ومن أين أخذت واشتقت. وتفصيل ذلك كما يلي:

... أ ـ أن أصل التَّصْرية حبس الماء. يقال منه: صَرَيْتُ الماءَ إذا حبسته. وهذا التفسير قول أبي عبيد، وأكثر أهل اللغة(2)

---

(1) القبَس في شرح موطإ مالك بن أنس، ج 2، ص ص. 851 ـ 852.

(2) انظر: "غريب الحديث" لأبي عبيد القاسم بن سلام، ج 2، ص ص. 240 ـ 241؛ و"الفتح الباري"، ج 4، ص. 362؛ و"أعلام السنن"، ج 1، ص. 596؛ و"عمدة القاري"، ج 11، ص. 369؛ و"مشارق الأنوار"، ج 2، ص ص. 42 ـ 43؛ و"النهاية في غريب الحديث"، ج 3، ص. 27.

(12909/1)

.

... ويقال: صَرَيْتُ الماءَ في الحوض، واللَّبن في الضَّرع، وصَرَّيْتُه، وماءٌ صِرىً وصَرىً؛ إذا اجتمع في موضع واستنقع، وبقي حتى يتغيَّر ويصفرّ فلا يُقدر على شربه، ولذلك قال ذو الرمة:

صَرىً آجِنٌ يَزْوِي له المرءُ وَجْهَهُ إذا ذاقَهُ ظمآنُ في شهر نَاجِز(1)

... وقال أبو عبيد: المُصَرَّاة: هي الناقة أو البقرة أو الشاة يُصَرَّى اللَّبَنُ في ضَرعها؛ أي يُجمع ويُحبس، ويقال منه: صَرَيْتُ وصَرَّيته،

---

(1) انظر: "الجامع من الغريب" للحافظ أبي الوليد الوقشي، مخطوط، ص. 166.

(12910/1)

وصَرَّيتَ الشاة تَصْرِيةً، إذا لم تحلبها أياماً حتى يجتمع اللبن في ضرعها، والشاة مُصَرَّاة(1).

... وذكر ابن السكيت مادة "صري" في باب قطع الأمر: يقال صَرَى أَمْرَهُ يَصْرِيهِ صَرْياً؛ إذا قطعه(2).

---

(1) انظر: "غريب الحديث" لأبي عبيد، ج 2، ص. 240؛ وكذلك "لسان العرب" (صري)؛ و"التهذيب" (صري)، ج 12، ص ص. 224 ـ 225؛ و"العين" (صري)، ج 7، ص. 151؛ و"الفصوص"، ج 3، ص ص. 139 ـ 142؛ و"صحيح مسلم"، ج 3، ص. 1155.

(2) كنز الحفاظ، ص. 507.

(12911/1)

... وأورد أبو الوليد الوقَّشي الحديث في كتابه "الجامع من الغريب" وعرض رأيه في مسألة اشتقاق كلمة

المصرّاة، وقال:

... وروى بعض الفقهاء: ''لا تَصُرُّوا الإبلَ''، أي لا تشدوا ضروعها لئلا يُرْضع لبنها أو يُحلب، وكذلك يفعلون بالإبل، بفتح التاء وضم الصاد. وذلك خطأ. يقال: صَرَرْتُ الناقة، واسم ما يُشَدُّ به ضرعُها الصِّرار. وردَّ هذه الرواية جماعة، وقالوا هذا يبطله قوله ''مُصَرَّاة''. ولو كان من ''صَرَرْتُ'' مخففة لقال: ''مَصْرُورَة''.

(12912/1)

... قال(1): وما قالوه لا يلزم، لإمكان أن يكون أصل مُصَرَّاة مُصرَّرَة بثلاث راءات فكرهوا اجتماع الراءات فأبدلوا من الثالثة ياء كما قالوا: تَظَنَّيت والأصل تظنَّنت، ومنه دسَّاها، أي دَسَّسَها، ومنه تصدية والأصل تَصْدِدَة، لأنه تَفْعِلَة، من قوله {إذا قومُكَ منه يَصِدُّون}(2) في قراءة من كسر الصاد، أي يَضِجُّون ويَعِجُّون(3).

---

(1) في أصل المخطوط رمز "ش"، وهذه علامة هشام بن أحمد بن هشام الوقشي.

(2) سورة الزخرف، الآية 57.

(3) كتاب "الجامع من الغريب" للحافظ أبي الوقشي، مخطوط، ص. 166.

(12913/1)

... كما ذكر الإمام المازري الكلمة في كتابه "المعلم بفوائد مسلم" وقال: ‘‘وأهل اللغة يقولون: لا تُصَرُّوا. وقد اختلف عن مالك فقيل عنه مثل هذا’’(1).

... أما الأزهري في "تهذيب اللغة"، فقد جوَّز إمكان اشتقاقها من الصَّرِّ، والصَّرْي معاً. قال: ‘‘فإن كان من الصَّرِّ فهو بفتح التاء وضم الصَّاد، وإن كان من الصَّرْي فيكون بضم التاء وفتح الصَّاد’’ (2).

---

(1) المعلم بفوائد مسلم، ج 2، ص. 248.

(2) تهذيب اللغة (صري)، ج 12، ص ص. 224 ـ 225؛ والتفسير نفسه في "لسان العرب" (صري).

(12914/1)

... كما عقد الإمام بدر الدين العيني لهذا الحديث فصلاً مطولاً في كتابه "عُمدَة القاري في شرح صحيح البخاري" وعرض من خلاله أوجه الخلاف الفقهي واللغوي والصرفي للكلمة ‘‘المُصَرَّاة ـ تُصَرُّوا’’. قال:

... قلت: إذا كانت المُصَرَّاة من الصَّرِّ بالتشديد يكون اسم المفعول منه مَصْرُورَة، ولكنها تكون من: صَرَرَ على وزن فَعَلَ، فيكون اسم المفعول منه مُصَرَّر، ولكن لما قُلِبَت الراء الثالثة ياء لما ذكره(1)

---

(1) يشير هنا إلى ما قاله الأزهري في أنه لما اجتمعت في الكلمة ثلاث راءات، قلبت إحداها ياء كما في تظنيت في تظننت كراهة اجتماع الأمثال (عمدة القاري، ج 11، ص. 269)؛ والتفسير نفسه في "التهذيب" و "اللسان" (صري).

(12915/1)

قلبت ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها فصارت مُصَرَّاة.

... وإذا كانت من الصَّرْي وهو معتل اللام اليائي، فالقياس أن يكون اسم المفعول منه مُصَرَّاة، وأصلها مُصَرِّية، قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. والقياس التصريفي أن يكون أصلها من: صَرَّى يُصَرِّي تصْرِيَةً؛ من باب التفعيل فَفُعِّلَ بها ما ذكرنا. ولذلك قال الخطابي: اختلف أهل العلم واللغة في تفسير المُصَرَّاة، ومن أين أخذت واشتقت. وقول البخاري(1): والمُصَرَّاة التي صُرِّيَ لبنها على القياس الذي ذكرناه،

(1) صحيح البخاري، ج 2، ص. 12.

(12916/1)

وهو الصحيح(1)... وأشار البخاري بهذا إلى أن الصحيح في تفسير المُصَرَّاة أن تكون من: صَرَّى من باب "فَعَّلَ" بالتشديد، ومنه يقال: صَرَّيْتُ الماءَ؛ إذا حبسته وجمعته، ويكون أصل مُصَرَّاة على هذا مُصَرِّيَة فقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها. وهذا هو الصحيح وأكثر ما تكلموا فيه خارج عن قانون التصريف. فافهم (2).

... ب ـ أن الكلمة "تُصَرُّوا" مبنية للمعلوم، وهو أمر أجمع عليه الفقهاء واللغويون الذين ذهبوا هذا المذهب في حمل

(1) حذفنا جملة من النص خشية الإطالة.

(2) عمدة القاري، ج 11، ص. 269.

(12917/1)

الكلام على الخطاب للمعلوم؛ لأن الحديث النبوي الشريف {لا تُصَرُّوا الإبلَ} جاء في سياق النهي الشرعي في البيوع

الفاسدة.

... وقد أورد القاضي عياض الحديث في كتابه "مشارق الأنوار على صحاح الآثار" من خلال فصل عقده للاختلاف والوهم، وقال:

... قوله: "لاَ تُصَرُّوا الإبلَ" كذا صحيح الرواية والضبط في هذا الحرف بضم التاء وفتح الصاد وفتح لام الإبل؛ من صَرَّى؛ إذا جمع: مثقل ومخفف. وهو تفسير مالك والكافة له من أهل اللغة والفقه.

(12918/1)

... وبعض الرواة يحذف واو الجمع ويضم لام الإبل على ما لم يسمَّ فاعله، وهو خطأ على هذا التفسير، لكنه يخرج على تفسير من فسره بالربط والشدِّ من: صَرَّ يَصُرُّ. وقال فيه: المصرورة، وهو تفسير الشافعي لهذه اللفظة، كأنه يحبسه لها ربط أخلافها وشدها لذلك

... وبعضهم يقوله: لا تَصُرُّوا بفتح التاء وضم الصاد ونصب اللام وإثبات واو الجمع. ولا تصح أيضاً إلاّ على التفسير الآخر من الصَّرّ (1).

... وقد عزا القاضي عياض هذا التفسير لضبط المتقنين

من شيوخه. قال:

---

(1) مشارق الأنوار، ج 2، ص. 43.

(12919/1)

... وكان شيخنا أبو محمد بن عتاب يقول للقارئ عليه والسامعين: اجعلوا أصلكم في هذا الحرف متى أشكل عليكم ضبطه قوله تعالى {فَلَا تُزَكُّوا أَنفسَكم}(1) واضبطوه على هذا التأويل، فيرتفع الإشكال. ويحكي ذلك لنا عن أبيه، لأنه من: صَرَّى مثل زَكَّى (2).

---

(1) سورة النجم، الآية 32.

(2) مشارق الأنوار، ج 2، ص. 43؛ وفي "سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي": "لا تُصَرُّوا الإبلَ بضم أوله وفتح الصاد المهملة بوزن تُوَلُّوا". (ج 7، ص. 253).

(12920/1)

... ويتناول ابن حجر العسقلاني الحديث أيضاً من هذه الجهة، ويحدِّد اشتقاق اللفظة في الصري، وأنها مركبة على الفاعل. يقول:

... قوله: "لا تُصَرُّوا" بضم أوله وفتح ثانيه بوزن تُزَكُّوا. يقال: صَرَّى يُصَرِّي تَصْرِيَةً كزَكَّى يُزَكِّي تزكية. والإبل بالنصب على المفعولية.

... وقيده بعضهم بفتح أوله وضم ثانيه. والأول أصح، لأنه من: صَرَّيْتُ اللبن في الضرع؛ إذا جمعته، وليس من: صررت الشيء؛ إذا ربطته، إذ لو كان منه لقيل مصرورة أو مُصَرَّرَة، ولم يقل مُصَرَّاة، على أنه قد سمع الأمران في كلام العرب.

(12921/1)

... قال الأغلب:

... رأت غلاماً قد صَرَى في فقرته ... ماء الشباب عنفوان سيرته

... وقال مالك بن نويرة:

... فقلتُ لقومي هذه صدقاتكم مُصَرَّرَةٌ أخلافُها لم تحرر

... وضبطه بعضهم بضم أوله وفتح ثانيه، لكن بغير واو

على البناء للمجهول، والمشهور الأول (1).

... ح .أن الوجه النحوي لصيغة "لاَ تُصَرُّوا الإِبل" .فيما يرى ابن العربي .هو البناء لما لم يسمَّ فاعله. يقول في ذلك:

---

(1) فتح الباري، ج 4، ص. 362؛ وانظر كذلك "أوجز المسالك إلى موطإ مالك"، ج 11، ص. 375؛ و"صحيح مسلم بشرح النووي"، ج 5، ص. 160.

(12922/1)

... ... إذا ثبت هذا عدنا إلى قوله: ''لا تُصَرُّوا الإِبل'' فوجدناه نهياً على صيغة المجهول فيما يتعلَّق بمنع السيلان والدّرور؛ وهو قطع اللبن ومنعه من الخروج، فوجب أن يكون بضم التاء الزائدة وفتح الفاء الأصل في البناء، وهي الصاد في العبارة، وضم الرَّاء التي هي العين في الأصل والراء في الصيغة، كما قال الله تعالى: {لا تُزَكُّوا أنفسكم} (1).

... إن تغليب ابن العربي لهذا الوجه النحوي ناتج .فيما يرى . عن امتناع إمكان قراءة ''لا تَصُرُّوا الإِبلَ''(2)

---

(1) سورة النجم، الآية 32.

(2) مسألة "لا تُصَرُّوا الإبل" ضمن كتاب "الجامع من الغريب" لأبي الوليد الوقشي، مخطوط، ص. 250.

(12923/1)

"بفتح التاء الزائدة وضم الفاء التي هي صاد في الصيغة، ونصب اللام من الإبل على إعراب المفعول المعلوم فاعله" (1)، وذلك لوجهين:

... 1 .الأول منهما أن المعاني في لسان العرب مشتركة بين الأبنية، ومشتركة أيضاً باختلاف الحروف التي لا يتطرق إليها البدل، مثل صَرَرَ براءين، بمعنى قَطَعَ. ولكن على الرغم من هذا الاشتراك، فإن الاشتقاق غير مطرد في اللغة (بمعنى المعجم). يقول: "... مع أنه قد قيل إن الصِّرمة قطعة من الإبل، ولا تقول مع ذلك: صَرَمت الإبل، إذا قطعت لبنها لوجود معنى القطع، كذلك لا

---

(1) المصدر نفسه.

(12924/1)

تقول: لا تَصُرُّوا بفتح التاء الزائدة وضم الفاء الأصلية بمعنى لا تجمعوا لبنها وإن وُجد فيه المعنى "(1).

... 2 ـ أوجه دلالة اللفظ على المعنى في الاستعمالين: صَرَّ وصَرَى. يقول:

... ... والثاني أن صَرَى المعتل يقتضي القطع، ويتعلق باللَّبن بلفظه المرفوع له، وصَرَّ المضاعف لا يعني القطع إلاَّ بمعنى مرتبط بمدلول اللفظ، ولا يتعلق باللَّبن لفظاً، فكان هذا أولى بالحديث للوجهين جميعاً، وعليه فسَّره أبو عبيدة وأبو عبيد والأصمعي وجماعة من العلماء وغيرهم ممن سبقهم ولحقهم (2)

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه، ص. 251.

(12925/1)

.

... إن التعليل الذي قدمه ابن العربي لصيغة "لاَ تُصَرُّوا الإبل" يقوم على ترجيح "صَرَى" في قراءة تعتمد أساساً على وجود نوع من التوازن والانسجام بين الأبعاد

الصوتية والدلالية والتركيبية للكلمة نفسها.

II ـ وصف المخطوطة

... اعتمدت في نشر "جواب أبي بكر بن العربي عن قوله عليه السلام: لا تُصَرُّوا الإبل" على مخطوطة وحيدة محفوظة بالزاوية الحمزاوية ـ زاوية سيدي حمزة (إقليم الراشيدية) رقم 91، ومنها مصورة ميكرو فيلمية بالخزانة العامة بالرباط رقم 101 حم.

(12926/1)

... ويقع هذا الجواب في ثلاث صفحات من حجم متوسط ضمن مجموع يضم 252 صفحة، وقياس الورقة 15×21 سم، ومعدل سطور الصفحة الواحدة 22 سطراً، في كل سطر 10 كلمات تقريباً، وهي مكتوبة بخط أندلسي، وليس فيها اسم الناسخ ولا مكان النسخ.

... وكان الفراغ منها يوم الخميس خامس شهر ربيع المكرم عام ثمانية وتسعين وستمائة.

... ويحتوي هذا المجموع على العناوين التالية:

... 1 ـ "الجامع من الغريب" لأبي الوليد هشام بن أحمد الوقَّشي(1)

(1) هو هشام بن أحمد بن هشام الكِنَانِي، يعرف بالوَقَّشِي، من أهل طليطلة يكنى: أبا الوليد. أحد رجال الكمال في وقته باحتوائه على فنون المعارف، وجمعه لكليات العلوم، توفي سنة 489 هـ، ترجمته في: "الصلة"، ج 2، ص ص. 617 ـ 618، رقم 1437؛ و"بغية الملتمس"، ص. 485، رقم 1427.

(12927/1)

، وهو تعليق على "موطإ" مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ في تفسير لغاته وغوامض إعرابه ومعانيه (ص ص. 1 ـ 243).

... 2 ـ "النكت الزائدة" للمؤلف نفسه. قال: ''وهذه نكت في كتاب الجامع ومواضع متفرقة في "الموطأ" قد أشفع القول فيها هنا'' (ص ص. 243 ـ 250).

... 3 ـ قوله عليه السلام: لا تُصَرُّوا الإبلَ لأبي بكر بن العربي (ص ص. 250 ـ 252).

III ـ النص المحقق

قوله عليه السلام: ''لا تُصَرُّوا الإبلَ'' لابن العربي

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما.

(12928/1)

... سُئل الإمامُ الحافظ أبو بكر بن العربي عن قوله: ''لا تُصَرُّوا الإبلَ''(1)

---

(1) الحديث في "الموطأ" ضمن باب ما ينهى عنه من المساومة والمبايعة. نصه: ''حدثني مالك عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة: أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "لا تَلَقَّوُا الرُّكبان للبيع، ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ، ولا تَنَاجَشُوا، ولا يبع حاضرٌ لبَادٍ، ولا تُصَرُّوا الإبلَ والغنم، فمن ابتاعها بعد ذلك، فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها إن رَضيها أمسكها وإن شخِطها ردَّها وصاعاً من تَمَرٍ"''. (ص. 591، رقم 99).

... كما أخرجه البخاري في ''كتاب البيوع''، ص. 64 ـ باب النهي للبائع أن لا يحفل الإبل، ج 3، ص ص. 6 ـ 14؛ ومسلم في ''كتاب البيوع'' باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه، ج 1، ص. 602.

... والحديث كذلك في "الجامع من الغريب" لأبي الوليد

الوقشي، ص.166؛ و"غريب الحديث" لأبي عبيد، ج 2، ص. 240؛ و"سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي"، ج 7، ص. 253؛ و"مسند الإمام أحمد بن حنبل"، ج 2، ص. 222؛ و"النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير، ج 3، ص. 27.

(12929/1)

أهي مبنية لما لم يسم فاعله، أم مركبة على الفاعل؟

... فأجاب رضي الله عنه، فقال: اعلموا - وفقكم الله - أن بناء صَرَرَ للجمع والضمّ، وبناء صَرَيَ للقطع. هذا في المعتل اللام كالأول في المضاعف،

كلٌّ واحدٍ منهما بمعناه: فإذا قُلتَ: صَرَّ فلانٌ كذا وكذا، كان معناه: جَمَعَهُ، وإذا قلت: صَرَى فلانٌ كذا يَصْرِي، كان معناه: قَطَعَهُ.

... ومن الأول قول النبي - صلى الله عليه وسلم - لمحمية وصاحبه: "أَخْرِجَا ما تُصَرِّرَانِ"(1)

---

(1) ابن قتيبة، الحديث في غريب الحديث، ج 1، ص. 518؛ و"النهاية في غريب الحديث والأثر"، ج 3، ص. 27؛ و"لسان العرب" - مادة "صَرَّ".

(12930/1)

، وقد كانا جمعا كلاماً وزوَّراه.

... ومن الثاني قول النبي – صلى الله عليه وسلم – مخبراً عن الله في آخر من يخرج من النار، أن الله يقول له في حديث طويل: "يا ابن آدم ما يَصْرِيني منك" (1). فإذا فهمتم معنى اللفظين وبنائهما، وكيفية خروجهما، كان تصريف بناء الأول: صَرَّا الشيء يَصُرُّه صَرّاً؛ إذا جمعه، فإذا قرنت بالأمر، قلت: صُرَّ الدراهم، معناه: اجمعها/ ولفَّها، ولا يستعمل

(1) الحديث في "غريب الحديث" لأبي عبيد، ج 3، ص. 83؛ و"النهاية في غريب الحديث والأثر، ج 3، ص. 27؛ و"لسان العرب". مادة "صري".

(12931/1)

غالباً إلا فيما يشتمل عليه، وإذا أمرت الجماعة، قلت: صُرُّوا كذا. وإذا ركبت عليه النهي، قلت للواحد: لا تَصُرَّ كذا، بضم الفاء، وللجماعة: لا تَصُرُّوا بضم الفاء أيضاً.

... وأما تصريف الثاني، فتقول: صَرَّى الشيء: انقطع، وصَرَّيْته؛ إذا قطعته، وذلك يستعمل غالباً في كل جارٍ دَارٍّ من ماءٍ أو لبنٍ، فإذا أمرتَ به قلت: صَرِّ كذا بفتح الفاء؛

لأنه من فَعَلَ يَفْعِلُ بكسر العين، وفتحت في الأمر فاؤه بالواو، ولعلَّةٍ معروفة عند أهل الصناعة والسماع عندنا، ولا يبقى الأول. وإذا أمرت الجماعة، قلتَ: صَرُّوا

(12932/1)

مثله، فإذا ركَّبت عليه النَّهي، قلت للواحد: لا تُصَرِّ بفتح الفاء، ولا تُصَرُّوا للجماعة بفتح الفاء مثله؛ معناه: لا تُعْطُوا جارياً، ولا تمنعوا من الدُّرور دَارّاً.

... إذا ثبت هذا، عدنا إلى قوله: لا تُصَرُّوا الإبلَ، فوجدناه نهياً على صيغة المجهول فيما يتعلق بمنع السيلان والدُّرور؛ وهو قطع اللَّبن، ومنعه من الخروج، فوجب أن يكون بضم التاء الزائدة وفتح الفاء الأصل في البناء، وهي الصَّاد في العبارة، وضم الراء التي هي العين في الأصل، والرَّاء في الصيغة، كما قال الله تعالى {لا تُزَكُّوا أنفسَكم}

(12933/1)

وتقول على هذا للجماعة: لا تُغَزُّوا زيداً، ولا تُلَبُّوا داعياً، ولا تُسَنُّوا لظالمٍ أملاً.

... إذا أفهمتهم هذا، فقد بقيت هنا نكتة، وهي أن كل ممنوع من السيلان والتفرق مجموع، فظنَّ لذلك بعضهم أنه يجوز ''لا تَصُرُّوا الإبلَ'' بفتح التاء الزائدة وضم الفاء التي هي صاد في الصيغة، ونصب اللام من الإبل على إعراب المفعول المعلوم فاعله، وذلك ممتنع لوجهين:

... الوجه الأول: أن المعاني في "لسان العرب" مشتركة بين الأبنية في كثير من المثل والمضاعف والمهموز وما لا يهمز، يحكي ذلك أرباب العربية. ولولا التطويل

(12934/1)

لذكرت لكم منه أمثلة نعم، وأبعد منه تشريك المعاني باختلاف الحروف التي لا يتطرق إليها البدل، كقولك صَرَرَ براءين؛ بمعنى قَطَعَ، ولا يعبأ بأحدهما عن الآخر، مع أنه قد قيل إن الصِّرمة قطعة من الإبل، ولا تقول مع ذلك: صَرَمْتُ الإبل؛ إذا قطعت لبنها لوجود معنى القطع، كذلك لا تقول: لا تَصُرُّوا بفتح التاء الزائدة وضم الفاء الأصلية؛ بمعنى لا تجمعوا لبنها، وإن وُجد فيه المعنى.

... والثاني: أنَّ صَرَى المعتل، يقتضي القطع، ويتعلق باللبن بلفظه المرفوع له، وصَرَّ المضاعف لا يعني / القطع، إلَّا بمعنى مرتبط

(12935/1)

بمدلول اللفظ، ولا يتعلق باللبن لفظاً، فكان هذا أولى بالحديث للوجهين جميعاً، وعليه فسره أبو عبيدة(1)، وأبو عبيد(2)، والأصمعي(3)، وجماعة من

---

(1) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى، مولى بني سلامة، من بني تميم بن مرة. قال ثعلب: "من أراد أخبار الجاهلية فعليه بكتب أبي عبيدة". توفي سنة 210 هـ

(2) هو أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي. صاحب التصانيف في القراءات والحديث والفقه والشعر. توفي سنة 224 هـ

(3) عبد الملك بن قريب. كان صاحب لغة ونحو، إماماً في الأخبار والنوادر والملح والغرائب. قيل توفي سنة 213 هـ

(12936/1)

العلماء، وغيرهم ممن سبقهم ولحقهم. والله الموفق للصواب، وينفع بالعلم، ويغفر لمن تصفح هذا الكتاب أن يغفر لكاتبه، وأن يعهده برحمته، ولا حول ولا قوة إلاَّ

بالله العليّ العظيم، والصلاة على سيِّد الأنام رسول ذي الجلال والإكرام محمد النبيّ عليه السلام، وعلى آله وأصحابه الكرام وسلم تسليما، والحمد لله رب العالمين كثيرا.

... وكان الفراغ منه يوم الخميس خامس شهر ربيع المكرم عام ثمانية وتسعين وستمائة.

المصادر والمراجع

آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، للأستاذ عمار الطالبي، ط الجزائر.

(12937/1)

إسعاف المبطا برجال الموطا، لجلال الدين السيوطي [معجم الرواة المذكورين في إسناد أحاديث "موطإ" مالك بن أنس]، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط 1، 1992.

أعلام السنن في شرح صحيح البخاري، لأبي سليمان الخطابي، دراسة وتحقيق د. يوسف الكتاني، منشورات عكاظ، الرباط، 1991.

أوجز المسالك إلى موطإ مالك، لمولانا محمد زكريا

الكاندهلوي، دار الفكر، بيروت، 1980.

بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لأبي الوليد بن رشد الحفيد، دار الفكر، بيروت.

(12938/1)

تهذيب اللغة، للأزهري، تحقيق ذ. أحمد عبد العليم البردوني، مراجعة ذ. علي محمد البجاوي، الدار المصرية للتأليف.

الرسالة، للإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ط 1، 1388 هـ/ 1969 م.

سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان.

صحيح البخاري، عالم الكتب، بيروت.

صحيح مسلم، نشر وتوزيع رئاسة إدارة البحوث العلمية بالمملكة العربية السعودية، 1980.

صحيح مسلم بشرح النووي، دار الفكر، 1981.

(12939/1)

عارضة الأحوذي، لابن العربي، ط دار العلم، بيروت - لبنان.
عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، للشيخ الإمام بدر الدين العيني، إدارة الطباعة المنيرية، مصر.
العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال.
العواصم في القواصم، لابن العربي، تحقيق د. عمار الطالبي، ط الجزائر.
غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي، تحقيق د. عبد الكريم إبراهيم العزباوي، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، 1403 هـ/ 1983 م.

(12940/1)

غريب الحديث، لابن قتيبة، تحقيق د. عبد الله الجبوري، وزارة الأوقاف، الجمهورية العراقية، ط 1، 1977.
غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام، دار الكتاب العربي، بيروت، 1396 هـ/ 1986 م.
الفائق في غريب الحديث، للزمخشري، ضبطه وصححه علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط 1، 1945.

فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، تصحيح وتحقيق الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الرياض.

(12941/1)

الفصوص، لأبي العلاء صاعد الرَّبَعي البغدادي، تحقيق ودراسة د. عبد الوهاب التازي سعود، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط 1، 1414 هـ/ 1994 م.

قانون التأويل، لابن العربي، دراسة وتحقيق د. محمد السليماني، دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، ومؤسسة علوم القرآن، بيروت، ط 1، 1406 هـ/ 1986 م.

القبس في شرح موطإ مالك بن أنس، لابن العربي، دراسة وتحقيق محمد عبد الله ولد كريم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1992.

كنز الحفاظ، لابن السكيت، مكتبة دار التراث، القاهرة، 1995.

(12942/1)

لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت.
المحلَّى، للإمام ابن حزم الأندلسي، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
مسند الإمام أحمد ابن حنبل، المكتب الإسلامي، دار صادر، بيروت.
مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض، المكتبة العتيقة، دار التراث.
المعلم بفوائد مسلم، لأبي عبد الله محمد بن علي المازري، تقديم وتحقيق الشيخ محمد الشاذلي النيفر، الدار التونسية للنشر، 1985.

(12943/1)

الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، لابن العربي، دراسة وتحقيق د. عبد الكبير العلوي المدغري، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط 1، الرباط، 1408 هـ/ 1988 م.
النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية.

المخطوطات:

(الجامع من الغريب، لأبي الوليد الوقَّشي (ت 489 هـ)، مخطوطة محفوظة بالزاوية الحمزاوية، زاوية سيدي حمزة (إقليم الراشدية ـ المغرب) رقم 91، ومنها مصورة ميكروفيلمية بالخزانة العامة بالرباط رقم 101 حم.

(12944/1)

(كناشة لمجهول، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم 91 ج.

(12945/1)

مساهمة علماء المغرب في ميدان الطب والتطبيب

... ... الأستاذ عبد الصمد العشاب

مكتبة عبد الله كَنون ـ طنجة

... يشهد المغرب حالياً نهضة كبيرة في ميدان الطب، بما يوجد فيه من مستشفيات وما فيها من أطباء مختصين وفي الطب العام أيضاً وما يوجد في المغرب من

مئات العيادات الطبية الخاصة والعامة، ومئات الصيدليات في كل ربوع المغرب. فالصحة والعلاج متقدمان في المغرب، والعمليات الجراحية الدقيقة تجري عندنا بنجاح، ولا سيما عمليات القلب المفتوح والشرايين والمخ والعصب الشوكي والعمود الفقري .وكلها تحتاج

(12946/1)

إلى دقة في الأداء وخبرة علمية عالية.

... هذا التقدم في ميدان الطب الذي يشهده المغرب المعاصر لم يأت من فراغ، بل كان له مثيل عبر العصور التاريخية التي مر بها المغرب، ولا سيما ما يحتفظ به التاريخ من تفاصيل تخص عصر الموحدين والمرينيين والسعديين وبداية العصر العلوي إلى أواخر القرن التاسع عشر.

... وسنطلع بتفصيل على جملة من الأطباء المغاربة الذين كانت لهم اليد الطولى في العلاج ومعرفة خواص الأعشاب ومقاديرها ومنافعها.

(12947/1)

... وكان الطب الإسلامي القديم قد استمد عناصره الأولى من الطب النبوي الذي وردت به أحاديث شريفة اهتم بها العلماء وجعلوها قاعدة للعلاج. وألفت في الطب النبوي تآليف مفيدة من أهمها "أربعون حديثاً في الطب النبوي" للعلامة عبد اللطيف البغدادي المتوفى عام 629 هـ/ 1231 م.

... وعندما اختلطت الأمة العربية بشعوب أخرى بعد انتشار الإسلام، أخذ العلماء المسلمون يهتمون بنقل كتب الطب من اليونانية والفارسية ولغات أخرى إلى اللغة العربية وانكبوا على دراستها. ولم يكتفوا بالنقل فقط، بل أضافوا إلى علم الطب إضافات جعلت

(12948/1)

العرب والمسلمين فيما بعد أساتذة العالم في هذا العلم وفي غيره. فلا ينكر أحد من الدارسين لتاريخ الحضارة الإنسانية تأثير ابن سينا وابن طفيل وابن النفيس وابن الهيثم والرازي وغيرهم في علم الطب
وأستاذيتهم للعالم فيه. كما لا ينكر أحد تأثير ابن رشد وابن سبعين وابن باجة وابن خلدون وغيرهم في علم الفلسفة والاجتماع وأستاذيتهم للعالم فيه.

... وللتدليل على ما نقول ننظر إلى عدد المخطوطات

الطبية التي تزخر بها المكتبات المنبثة في العالم الإسلامي، الخاصة منها والعامة. وفي المغرب عندنا مئات الكتب المؤلفة في علم

(12949/1)

الطب بجميع فروعه وأقسامه لا تزال مخطوطة لم تر النور بعد. وإنما وقعت الإشارة إليها والتعريف بها في ما صدر من كتب تهتم بوصف مخطوطات المكتبات. فإذا نهضت همة مؤسسات النشر بالعمل على نشرها ووجدت من بين العلماء والمحققين والأطباء الدارسين من ينكبّ على تحقيقها، إذن لبرز للوجود بحر زاخر من المعرفة كانت وما زالت تستمتع به الرطوبة والأرضة وحدهما.

... إن معرفتنا بتراثنا يجعلنا نكتشف ذاتنا ونكتشف موقعنا من تاريخ الحضارة الإنسانية وندرك القيمة العلمية لمساهمة علماء المغرب في علم الطب ومهنة التطبيب.

(12950/1)

... وسنتبع في هذه الدراسة طريقة الترتيب التاريخي، فنبدأ بعصر الموحدين ثم المرينيين فالسعديين فالعلويين. أما العصر المرابطي، فلم يحفظ لنا التاريخ أعلاماً مميزين ينتمون سليقة إلى المغرب؛ وإنما كانت هناك نهضة طبية في المغرب والأندلس رفع رايتها أطباء أندلسيون عملوا في المغرب، وأطباء مغاربة تكونوا في الأندلس واستقروا بها.

... عقد الأستاذ محمد المنوني في كتابه عن الموحدين(1) فصلاً للحديث عن الطب والصيدلة في ذلك العهد، فذكر أن الطب

---

(1) محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص. 123.

(12951/1)

كانت له صولة ودولة، واعتنى الموحدون ـ وبخاصة الخليفة يوسف بن عبد المومن والخليفة يعقوب ابنه ـ اعتناء كبيراً بالطب والأطباء، فبنوا المستشفيات ونظموا هذه المهنة وجعلوا لها رؤساء. وكان الطب ضمن برامج الدراسة على عهدهم وفن الصيدلة هو الآخر كان له ازدهار في عهد الموحدين. وقد وظفوا بمستشفى مراكش

وبقصور الخلفاء عدداً من الصيادلة.

... ثم يذكر الأستاذ المنوني بعد ذلك أن رجالات الطب والصيدلة في ذلك العهد كانوا بكثرة وافرة: منهم الخليفة يوسف بن عبد المومن الموحدي، وكان له طموح إلى هذا العلم وحفظ كثيراً من

(12952/1)

النصوص الطبية؛ ومنهم الطبيب أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن بقي السلوي المتوفى عام 563 هـ/ 1168 م، اشتغل بالطب ونبغ فيه فكان يعيش نفسه من هذه المهنة؛ ومنهم الشريف الإدريسي الجغرافي المشهور الذي ألف في علم الطب كتابه "الجامع لصفات أشتات النبات"، وهو أحد الكتب التي اعتمدها ابن البيطار في كتابه عن النبات، كما ألف كتاباً في الصيدلة.

... ومنهم الطبيب سعيد الغماري الذي عاصر الخليفة يوسف بن عبد المومن بمراكش؛ ومنهم طبيب كبير من المغرب هو أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن محمد السلمي المعروف بالقطب

(12953/1)

المصري، قتله التتار بنيسابور عام 618 هـ/ 1221 م، وكان قد انتقل إلى مصر وأقام بها لمدة ثم سافر إلى فارس وأخذ عن الإمام فخر الدين الرازي، وألف كتباً في الطب والحكمة منها "شرح الكليات من كتاب «القانون» لابن سينا". والملاحظ أن الخلفاء الموحدين كانوا يستخلصون لأنفسهم نبغاء الأطباء من المغرب والأندلس، فكانت قصور الخلفاء تأوي أطباء مثل ابن زهر وهم أسرة كبيرة كلهم أطباء نساء ورجالاً، ومثل ابن طفيل وابن رشد الحفيد وغيرهم.

(12954/1)

... ولنستمع إلى وصف شاهد عيان هو الشيخ عبد الواحد المراكشي(1) يصف مستشفى بناه الخليفة يعقوب المنصور الموحدي بمدينة مراكش عاصمة الخلافة الموحدية قال:

... وبنى بمدينة مراكش بيمارستاناً ما أظن أن في الدنيا مثله. وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه. فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما

زاد على الاقتراح، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات وأجرى فيها مياهاً

---

(1) المعجب، نشر محمد سعيد العريان ومحمد العلمي، ص. 287.

(12955/1)

كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع بركٍ في وسطه إحداها رخام أبيض. ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت. وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة خارجاً عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال. وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم، من جهاز الصيف والشتاء. فإذا نقه المريض فإن كان فقيراً، أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل؛ وإن كان غنياً دفع إليه ماله وترك

(12956/1)

وسببه. ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كان من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت أهل بيت. يقول كيف حالكم وكيف القومة عليكم إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج. لم يزل مستمراً على هذا إلى أن مات رحمه الله.

... ونقل الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله عن أحد المؤرخين الفرنسيين أن البروفسور "مي" في كتابه "الموحدون" الذي ألفه عام 1923 م أن هذا المستشفى لا يخلف وراءه مصحات أوربا المسيحية فحسب، بل تخجل منه حتى اليوم

(12957/1)

مستشفيات باريس. ونقل أيضاً أن "ولتر" ذكر في كتابه "مختصر التاريخ" ما يلي: »ازدهر علم الطب والتداوي عند العرب، على حين كان الأروبيون يجهلون هذا العلم الشريف ويحتقرون أربابه، لأن الكنيسة حرمت الاستشفاء بغير زيارة الكنائس والتمسح بذخائر للقديسين«. وقال "لوكلير" في كتابه "تاريخ طب

العرب" : »... وقد كان الأروبيون يضطرون إلى اللجوء للمستشفيات العربية. فهذا الملك شانجه توجه إلى قرطبة من أجل العلاج من مرض الاستسقاء« (1).

---

(1) عبد العزيز بنعبد الله، الطب والأطباء بالمغرب، ص ص. 40 ـ 41.

(12958/1)

... ومن أطباء هذا العصر أبو الحجاج يوسف بن فتوح بن محمد بن عبد الله القرشيّ. كان طبيباً من أصحاب الدراية الكبرى بخصائص النبات والعشب. ولهذا كان يعرف بالعالم العشاب، لأنه كان يجمع بين العلم بالتفسير وأصول الفقه وتدريسهما للطلبة، وبين الصيدلة وتصنيع الدواء وتقطيره من الأعشاب المختلفة. توفي الطبيب ابن فتوح عام 562 هـ/ 1166 م(1).

... إن لقب »العشاب« كان يطلق على المختصين بمعرفة الأعشاب وفوائدها الطبية، وهو عادة يكون صيدلياً خبيراً يصف الأدوية الناجعة

---

(1) التازي، جامع القرويين، ج 1، ص. 168.

(12959/1)

للأدواء. غير أنه لا يرقى إلى صفة »طبيب«، لأن الطبيب كان ـ زيادة على معرفته بخواص الأعشاب ـ يقوم بالفصد والجراحة وبتر الأعضاء وغير ذلك من أعمال الجراحة.

ويمكن أن نضع مثالاً لهذا في عصرنا بالطبيب الجراح في المستشفى والطبيب المتخرج في الطب العام الذي هو بمثابة الصيدلي القديم.

... ولا يزال إلى يومنا هذا أفراد من الناس لهم دراية بخواص الأعشاب وفوائدها يعرفون بالعطارة منتشرين في المشرق والمغرب. ويقومون بتحضير الدواء وتقطيره وبيعه لمن يحتاج إليه. ولكن مع تقدم الطب وكثرة أنواع الأدوية التي تباع في

(12960/1)

الصيدليات، قل استعمال الأعشاب لقلة المختصين بمنافعها. ونحن نقرأ اليوم في الصحف والمجلات العلمية عن وجود إقبال كبير في أروبا على استعمال الأعشاب الطبية والتداوي بها وإنشاء صيدليات لبيع تلك الأعشاب بمقاديرها الصحيحة. وهذا يجعلنا نعود بالذاكرة إلى طبنا القديم والكتب التي ألفت فيه

ورجوع هؤلاء الأطباء الغربيين إلى تلك الكتب بعد ترجمتها للاستفادة مما تشتمل عليه؛ في حين أهمل أهلونا أطباءهم وعلماءهم القدماء وضربوا بكتبهم عرض الحائط، بينما عرف الغرب قيمتها فاستفاد منها. ولكن الحكام الغربيين لم يكونوا

(12961/1)

على تسامح مع الأطباء والصيادلة المسلمين: فقد كانوا يضايقونهم ويتعسفون عليهم. ونأتي بمثال على ذلك المرسوم الذي أصدره الملك خوان الثاني في بلد الوليد بإسبانيا سنة 1308 م يمنع بمقتضاه على المسلمين ممارسة عدد من الأمور العامة والخاصة، ومنها منعهم من مزاولة مهنة الجراحة أو العطارة أو بيع المواد الغذائية أو الأدوية ويعاقب من يخالف بدفع غرامة قدرها 2000 مرابطي وبالجلد زائداً على الغرامة(1).

---

(1) مجلة التاريخ المغربي، ع 6، ص. 151.

(12962/1)

... ومن أطباء هذه الفترة في عهد الموحدين إبراهيم الأنصاري الأديب النحوي المتوفى عام 581 هـ/ 1186 م. فقد اكتسب خبرة كبيرة في الصيدلة، وكان وهو بمدينة فاس يدرس العلم للطلبة ويقوم ببيع الأعشاب الطبية(1).

... ومن أطباء هذه الفترة كذلك الطبيب أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفضل المجري المتوفى عام 506 هـ/ 1112 م. كان من أطباء فاس المعالجين، بالإضافة إلى معرفته باللغة والأدب(2).

---

(1) ابن الأبار، التكملة.

(2) المصدر نفسه.

(12963/1)

... وكذلك علي بن يقظان السبتي الطبيب الأديب الشاعر الذي توجه إلى مصر عام 544 هـ/ 1149 م، ثم إلى اليمن والعراق. وكذلك أبو جعفر عمر بن علي القلعي المتوفى عام 576 هـ/ 1180 م، وكان ماهراً في الأدوية وعلاج الأمراض. كتب ملاحظات على كتب ابن سينا الطبية. رحل إلى دمشق وبها استقر حتى وفاته.

... وفي عصر بني مرين نبغ عدد من الأطباء، منهم أبو

الحسن علي بن أبي الحسن المراكشي له كتاب في الأمراض السرية وعلاجها وطبائع النساء وضعه باسم خزانة السلطان أبي الحسن المريني.

(12964/1)

... ومنهم أبو العباس الشريشي السلوي الأصل، أخذ الطب في المشرق وتوفي بالفيوم من مصر عام 641 هـ/ 1243 م.

... ومنهم أحمد بن علي الملياني المراكشي المتوفى عام 715 هـ/ 1315 م، كاتب شاعر أخذ بحظ من علم الطب.

ومنهم أحمد الجذامي السبتي الطبيب المتوفى بمراكش عام 650 هـ/ 1252 م.

... وعدد صاحب كتاب "بلغة الأمنية"(1) و"مقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب". وذكر في كتابه هذا المشهورين جداً، وهم:

---

(1) لمؤلف مجهول، تحقيق الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور، 1984، ص ص. 51 ـ 56.

(12965/1)

... 1) الطبيب الماهر الأشهر محمد الشريشي السبتي. كان له تقدم في صناعة الطب ومعرفة بما يرجع إليها من علم وعمل. وكانت مكانته مكينة عند الأمراء والملوك استدعاه السلطان أبو عنان إلى حضرته بفاس، فاجتمع هنالك مع جماعة من الأطباء ونظر في حاجته فأجزل له العطاء. وكان السلطان أبو عنان يقول بعد ذلك: »اختصت سبتة بأربعة رجال دون سائر بلاد المغرب«. ويعد منهم الطبيب محمد الشريشي. توفي الشريشي عام 771 هـ/ 1369 م.

... 2) الطبيب محمد بن مقاتل السبتي المتوفى عام 764 هـ/ 1362 م.

(12966/1)

... 3) الطبيب محمد بن مبارك الأزدي السبتي المتوفى عام 791 هـ/ 1388 م، وهو تلميذ الطبيب محمد بن مقاتل السابق ذكره.

... 4) الطبيب محمد المعز الصنهاجي المتوفى بفاس عام 792 هـ/ 1388 م.

... 5) الطبيبة عائشة ابنة الشيخ محمد بن الجيار

محتسب سبتة. قرأت علم الطب على صهرها الشيخ الشهير الشريشي الذي ذكرناه آنفاً ونبغت فيه وكانت عارفة بخواص العقاقير وما يرجع إلى ذلك اشتهرت عند الأمراء فكانوا يغدقون عليها من عطاياهم لأجل إتقانها لصنعة الطب. وأوصت في آخر عمرها بتوقيف أملاكها في وجوه البر والإحسان.

(12967/1)

... فإذا كان هذا عدد الأطباء العلماء المشهورين في بلدة واحدة هي سبتة، فماذا يكون عددهم في بقية المدن وخاصة العواصم كفاس ومراكش؟ لاشك أن هذه الطبقة من العلماء الطبيعيين والرياضيين والفلاسفة ضاعت تراجم الكثير منهم، وضاعت بالتالي أعمالهم العلمية من كتب ونظريات وتجارب. وما بقي منها ووصل إلينا ينطق بصريح العبارة بما كان للمغرب من مدنية ونبوغ وحضارة علمية وتقدم معماري كبير(1).

---

(1) عبد الله كَنون، النبوغ المغربي، ص. 218.

(12968/1)

... ولنذكر في الفترة نفسها طبيباً آخر نشأ بفاس هو الطبيب اليهودي أبو الحجاج يوسف بن يحيى بن إسحاق المعروف بابن سمعون المتوفى عام 623 هـ/ 1226 م.

كان من أشهر الأطباء في بداية القرن السابع الهجري.

قال عنه القفطي في "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" :

كان ابن سمعون طبيباً إسرائيلياً وهو من أهل فاس قرأ الفلسفة والطب وظهر نبوغه في العلوم الرياضية. وقد ارتحل إلى مصر واجتمع بالحاخام ابن ميمون الشهير. ثم قصد العراق بصفته تاجراً والهند أيضاً. وأخيراً استقر بحلب فقصده الناس للاستفادة منه. وكان ابن سمعون

(12969/1)

ذكياً حاد الخاطر، وهما أمران ساعداه على النجاح الكبير في مهنة الطب(1).

... ومن أطباء القرن الثامن الهجري (ق 14 م) نذكر أبا العباس أحمد بن محمد بن شعيب الجزنائي نسبة إلى قبيلة أجزناية من إقليم الريف. بلده تازة واستقراره كان بمدينة فاس. لا يعرف تاريخ ميلاده، ولكن وفاته كانت بتونس عام 749 هـ/ 1348 م؛ إذ كان هناك صحبة السلطان أبي الحسن المريني. قال عنه ابن الأحمر في كتابه "نثير فرائد الجمان" ما مفاده أن قدمه كانت

راسخة في الطب، وله براعة في علم التنجيم والحساب

---

(1) المرجع نفسه، ج 1، ص. 167.

(12970/1)

بالإضافة إلى الفقه والأدب. ويتعجب ابن الأحمر من نبوغ الجزنائي في اللغة العربية والأدب مع أنه بربري الأصل. وهذا تعجب في غير محله، لأن كثيراً من نوابغ الفكر الإسلامي والأدبي كانوا من غير العرب(1).

... وقد نوه ابن خلدون بالطبيب الأديب أبي العباس الجزنائي، فقال عنه: »برع الجزنائي في اللسان والأدب والعلوم العقلية والطب وغيرها. ونظمه السلطان أبو سعيد (المريني) في جملة الكتاب وأجرى عليه رزق الأطباء لتقدمه فيه، فكان كاتبه وطبيبه

---

(1) الحلقة 40 من كتاب "ذكريات مشاهير رجال المغرب" للأستاذ عبد الله كَنون.

(12971/1)

وكذا مع السلطان أبي الحسن بعده». انتهى كلام ابن خلدون.

... توفي أبو العباس أحمد الجزنائي في يوم عيد الأضحى من عام 749 هـ/ 1348 م بتونس؛ إذ كان في صحبة السلطان أبي الحسن المريني. وكانت وفاته بسبب الطاعون الجارف الذي عم البلاد في تلك المدة.

... ومن أطباء القرن الخامس عشر للميلاد أبو الحسن علي بن عبد الله بن هيدور التادلي الطبيب الشهير المتوفى عام 816 هـ/ 1413 م. وهو فاسي المولد والنشأة. وكان مشاركاً في فنون كثيرة واشتهر بالطب وألف فيه رسالة سماها "المقالة الحكمية في الأمراض الوبائية". وهي رسالة

(12972/1)

في حقيقة المرض الناتج عن الوباء وما هي أسبابه وما وسائل علاجه الطبية.

... ومن الأطباء أيضاً أحمد بن محمد بن مهنا السبتي المتوفى بفاس أواخر القرن الثامن الهجري. وهو مؤلف كتاب "الإيضاح والتتميم"، شرح فيه أرجوزة ابن سينا في الطب.

... وفي عصر الدولة السعدية، ولا سيما زمن السلطان أحمد

المنصور الذهبي ومن جاء بعده من الملوك السعديين، نبغ طبيب رفع من قيمة العصر الذي عاش فيه هو أبو القاسم بن أحمد بن عيسى المعروف بالغول الفشتالي(1)

---

(1) ترجمة الغول الفشتالي للأستاذ عبد الله كَنون، جريدة الميثاق، العددان: 227 و 228.

(12973/1)

نسبة إلى فشتالة القبيلة المعروفة بالشمال والتي أنجبت عدداً من الرجال المشهورين. كان الفشتالي فقيهاً مشاركاً في جملة من العلوم، مبرزاً في الطب متفرداً فيه وفي الهندسة والحساب.

... ألف في الهندسة والحساب كتباً منها "منظومة المخمس الخالي الوسط". وشرح نصوص في كيفية قسم الماء لقواديس الديار. أما في علم الطب الذي يهمنا في هذا المقام، فنشير إلى ما ألفه فيه، منها "منظومة في الجمع بين الأحاديث النبوية وكلام الأطباء والحكماء في الطواعين والأوباء"، وكتاب "حافظ المزاج ولافظ الأمشاج بالعلاج". وهذا الكتاب

(12974/1)

عبارة عن منظومة رجزية تقع في نحو خمسمائة وألف بيت، مرتب على أربعة وعشرين باباً، فيها الحديث عن وجع الرأس والشقيقة والزكام والقروعة وجرب الرأس وداء الثعلب، وهو الذي نسميه بـ »الثنية «، وختم بالباب الرابع والعشرين الذي تحدث فيه عن أنواع الأشربة والمربيات والأدهان والأوزان والمقادير. ويقول في مقدمة هذا الرجز:

وبعد؛ فاعلم أن علم الطب
لأنه منعش الأبدان
فصغت فيه درراً يتيمه
أدوية وجودها معروف
وكلها في قطرنا ميسر
سميته بحافظ المزاج

علم شريف للخبير الطيب
للعون في عبادة الديان
لم يحوها طالبها بقيمه

(12975/1)

يدركها الشريف والمشروف

إلا يسيراً أصله ييسر

ولافظ الأمشاج بالعلاج

توفي الطبيب الفشتالي عام 1059 هـ/ 1649 م.

... وقد كان للطب في العصر السعدي مزيد اعتناء بأهله واهتمام بشأنه. ومما يدل على ارتقاء شأن الطب في هذا العصر ما وصفه السلطان أحمد المنصور الذهبي في كتابه لولده بمراكش عند ظهور الوباء من أنواع الوقاية والعلاج ونص المراد منه:

... وإلى هذا ـ أسعدكم الله ـ أول ما تبادرون به قبل كل شيء هو خروجكم إذا لاح لكم شيء من علامات الوباء ولو أقل القليل حتى بشخص واحد، ثم لا تغفلوا عن استعمال الترياق

(12976/1)

أسعدكم الله، فالزموه إذا استشعرتم بحرارة وتخوفتموها فاستعملوا الوصف من الوزن المعروف منه ولا تهملوا استعماله. وأما ولدنا ـ حفظه الله لمكان الشبيبة ـ فحيث يمنعه الحال من المداومة على الترياق، فها هي الشربة النافعة لذلك قد تركناها كثيرة

هُنَالِكُمْ عند التونسي فيكون يستعملها هو والأبناء الصغار المحفوظون بالله حتى إذا أحس ببرد المعدة من أجلها تعطوه الترياق فيعود إليها. والبراءة التي ترد عليكم من سوس أو من عند الحاكم أو من عند ولد خالكم أو من عند غيرهما لا تقرأ ولا تدخل داراً. بل تعطى لكاتبكم هو

(12977/1)

الذي يتولى قراءتها ويعرفكم مضمنها، ولأجل أن الكاتب يدخل عليكم ويلابس مقامكم فلا يفتحها إلا بعد إدخالها في خل ثقيف (يعني ثقيل) وتنشر فتيبس وحينئذ يقرأها ويعرفكم بمضمنها إذ ليس ياتيكم من سوس ما يستوجب الكتمان (1).

... ففي هذا النص الذي كتب زمن الوباء وهو الطاعون نجد أن السلطان أحمد المنصور يوصي باستعمال الترياق وهو ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين. ويوصي بالاتقاء من العدوى بالنصائح التي تقدمت. وهذا يدل على براعة المنصور في الطب.

---

(1) النبوغ، ص. 252.

(12978/1)

... وقد أشار الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي إلى الأمراض التي كانت منتشرة في هذا العصر (القرن العاشر الهجري) نذكر منها الطاعون ثم الصرع أو داء النقطة وحب الإفرنج وهو مرض الزهري المعروف عندنا بالنوار. وداء المفاصل والجرب (الحكة) والقرع، وتضخم الغدة الدرقية وداء الغباوة الناتج عن نقص في البنية. ويكثر ذلك في البداية، وبالخصوص حيث يكثر الفقر والماء الممزوج بالجير وداء الجذام الوراثي. وذكر كودار في تاريخه أن اليهود الأندلسيِّين اللاجئين إلى المغرب هم الذين أدخلوا الأمراض التناسلية مثل الزهري(1)

---

(1) عبد العزيز بنعبد الله، الطب والأطباء بالمغرب، ص. 62.

(12979/1)

.

... ومن أطباء العصر السعدي كذلك الشيخ الفقيه المحدث المشارك أبو عبد الله محمد بن سعيد المرغيثي

السوسي، المزداد بمرغيثة عام 1107 هـ/ 1598 م، ونشأ مكباً على الدراسة حتى ظهر نبوغه في العلوم الدينية والأدب والحساب والتوقيت والطب. وكان هو بمراكش قد تصدر لعلاج الناس مدة، ولكنه اعتزل التطبيب بسبب أن إنساناً حمل إليه قارورة فيها بول مريض وهو بالمسجد؛ فاستاء من ذلك، وقال: إن عملاً يؤدي إلى أن أكون سبباً في دخول النجاسة للمسجد لا أشتغل به. وقد علق الأستاذ عبد الله كَنون على هذا الكلام بقوله:

(12980/1)

... وهذا تشدد منه رحمه الله؛ وإلا فهو يعلم من السنة التي وصف بأنه إمام فيها أن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان ينصب في مسجده خيمة لعلاج مرضى الصحابة، وأن أعرابياً بال في المسجد فابتدره الصحابة بالتعنيف عليه، فقال لهم – صلى الله عليه وسلم- : لا تزرموه، وأمر بإفراغ دلو ماء على مكان بوله. فقال الأعرابي:

... اللهم ارحمني وارحم محمدا ... ولا ترحم معنا أحدا

فقال له النبي في سماحته المعهودة: »لقد حجرت واسعا يا هذا«.

... توفي المرغيثي عام 1089 هـ/ 1678 م.

(1/12981)

... ومن العهد السعدي كذلك نذكر أبا علي الحسن بن أحمد المسفيوي(1) المراكشي الأديب الطبيب المزداد عام 968 هـ/ 1560 م. أخذ علم الطب على شيخه أبي القاسم الوزير الطبيب المشهور، وأخذ المنطق والحساب والهندسة على الشيخ أحمد القاضي.

... وكان المسفيوي على إلمام ببعض اللغات الأجنبية. ولذلك ذكر المقري في "النفح" أنه قام بتعريب بعض الكتب بإذن من السلطان أحمد المنصور الذهبي. غير أنه من المؤسف جداً أن تضيع آثار كثير من علمائنا ومنهم المسفيوي هذا، الذي لم يبق من

---

(1) الميثاق: عدد 79، ترجمة لعبد الله كَنون.

(1/12982)

آثاره إلا بعض القصائد المديحية، مما ينبئ عن إهمال كبير تعرض له تراثنا في هذه الفترة والفترات الأخرى.

توفي الطبيب المسفيوي عام 1003 هـ/ 1594 م.

... ومن هذا العصر السعدي نذكر أستاذاً آخر في الطب هو أبو محمد سقين السفياني القصري أحد مشاهير رجال الحديث الشريف، ودرس ألفية ابن سينا في الطب، وعنه أخذها الناس عام 956 هـ/ 1549 م. ومثله الفقيه عبد الواحد بن عاشر المتوفى عام 1040 هـ/ 1630 م وكانت له معرفة بالطب. وأحمد بن عبد الحميد المعروف بالمريد المراكشي المتوفى عام 1048 هـ/ 1638 م كان إماماً في جميع

(12983/1)

الفنون حكيماً ماهراً في الطب وحسين الشوشاوي السوسي، وهو من أهل القرن التاسع(1). وابن عزوز المراكشي الذي ألف كتابه "ذهاب الكسوف في طب العيون".

... وأبو القاسم الوزير من أهل فاس وكان اسمه ونسبه كالذي ذكرناه. كان طبيباً ماهراً، اختص به السلطان أحمد المنصور الذهبي من أسرة السعديين فصيره من أطبائه وقربه إليه.

... قال عنه المقري في "نفح الطيب": «العلم الجليل علماً وقدراً العلامة المتفنن، ذو التآليف المفيدة والعلم

الغزير الفقيه أبو القاسم بن محمد الوزير الغساني«.

---

(1) الطب والأطباء، ص. 57 وما بعدها.

(12984/1)

... أخذ الطب عن والده محمد وأخذ العلوم الأخرى عن الشيخ المنجور وأعلام آخرين، ولكنه تفرد بعلم الطب وصار مرموقاً في العاصمتين مراكش وفاس معروفاً بهذه المهنة راسخ القدم فيها. وله في هذا العلم مؤلفات خدم بها البلاط السعدي في عهد أحمد المنصور الذهبي كما تقدم.

... ألف كتاباً سماه: "حديقة الأزهار في الأعشاب والعقار"، وهو المعروف بكتاب "الأدوية المفردة". وفي حق هذا الكتاب يقول المقري:

... ["حديقة الأزهار في الأعشاب والعقار"] كتاب في بابه لم يؤلف مثله. يذكر سائر الأعشاب والعقاقير بما سميت به في الكتب،

(12985/1)

ثم يذكر اسمها بلسان العامة (أي بالاسم الذي يعرفه عامة الناس)، ثم يذكر خواص الأعشاب على وجه عجيب وأسلوب غريب.

أتم تأليف هذا الكتاب عام 994 هـ/ 1585 م. ويقع في نحو اثنتين وستين ومئة صفحة .مخطوط مرتب على حروف المعجم. يذكر فيه المصطلح الطبي باسمه العلمي المعروف به يونانياً كان أو روسياً أو غيرهما، ويذكر خاصية العقار واسمه بالعربية أو البربرية ثم بالعامية الدارجة كما يذكر بدل ذلك العقار إن لم يكن موجوداً وأحياناً يذكر المكان الذي يجلب منه أو ينبت فيه بالمغرب. هذا هو الكتاب الأول. أما الكتاب الثاني،

(12986/1)

فهو شرح على نظم ابن عزرون في الحميات الذي ذيل به أرجوزة ابن سينا في الطب.

... وألف كتاباً آخر سماه: "مغني الطبيب". قام أبو القاسم الوزير بترجمته بأمر من السلطان أحمد المنصور الذهبي الذي سلمه هدية من أحد أكابر الروم كان قد تشرف بمقابلة السلطان السعدي المذكور. ولا حاجة إلى الإشارة إلى أن الطبيب أبا القاسم الوزير كان على دراية باللغات الأجنبية، ولعلها اللاتينية القديمة

والبرتغالية والإسبانية. وأخيراً، فإن الطبيب أبا القاسم الوزير كان قد ازداد سنة 955 هـ وتوفي بعد سنة 1012 هـ/ 1603 م. ولم يذكر أحد

(12987/1)

تاريخ وفاته، نظراً لأن الفتنة التي قامت بين أبناء المنصور غطت على وفاة الطبيب فضاع خبره(1).

... وننتقل بعجالة إلى العصر العلوي، فنتحدث عن أسرة الدراق التي كان منها الأطباء محمد وابنه عبد الوهاب وقريبه أحمد طبيب السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي دخل طنجة في عهد احتلالها من طرف الأنجليز بقصد ملاقاة الأطباء النصارى ورؤية الشخص الذي صوروه لتعليم التشريح معاينة، والطبيب أحمد بن محمد طبيب السلطان مولاي إسماعيل. أصل هذه الأسرة من ناحية سوس واستقروا قديماً

---

(1) الميثاق، عدد 266، ترجمة لعبد الله كَنون.

(12988/1)

بفاس وحازوا بها رياسة الطب(1).

... وكان الطبيب أحمد المختص بالسلطان مولاي إسماعيل ذا وجاهة وبروز بين أقرانه حظي عند السلطان لخبرته بالأمراض ومعرفته بأدويتها. توفي عام 1116 هـ/ 1704 م.

... ونبغ من هذه الأسرة الطبيب عبد الوهاب ابن الطبيب أحمد بن الطبيب محمد أدراق المتوفى عام 1159 هـ/ 1746 م. له تآليف أغنت الدراسات الطبية بالمغرب منها كتاب "التعليق على النزهة" للشيخ داود الأنطاكي، و"تذييل على أرجوزة ابن سينا في الطب" و"أرجوزة في حب الإفرنج"، وهو

---

(1) عبد الوهاب بنمنصور، أعلام المغرب، ج 6، ص. 123.

(12989/1)

المرض المعروف بالنوار، وقصيدة في فوائد النعناع (التازي في جامع القرويين) وكتاب "هز السمهري على من نفى عيب الجذري".

... ويعد الطبيب عبد الوهاب من أكبر رجال هذه الأسرة قدراً وأشهرهم اسماً. انتهت إليه رياسة الطب في زمنه وبلغ في هذه المهنة مكانة عالية(1).

... ومن التلاميذ المتخرجين على علماء أدراق نذكر طبيباً من أنبغ تلاميذ الشيخ أحمد بن محمد أدراق هو أبو محمد عبد القادر بن العربي المنبهي المدغري المعروف بابن شقرون المكناسي. كان عالماً مشاركاً في فنون شتى، ولكنه امتاز

---

(1) النبوغ المغربي، ص. 300.

(12990/1)

ببراعته في علم الطب واشتهر به فصار من أعلامه.

... نشأ بمدينة مكناس وأخذ عن جماعة من شيوخها علوماً كثيرة، غير علم الطب الذي تلقاه بمكناس على شيخه إبراهيم بن القائد علي وكان طبيباً. وبفاس تلقى على الطبيب أحمد بن محمد أدراق. ولما ارتحل إلى مصر، أخذ على الشيخ أحمد الزيداني مسائل كثيرة من كتاب ابن النفيس الذي اختصر فيه "القانون" لابن سينا.

... ووصفه الأديب محمد بن الطيب العلمي في كتابه "الأنيس المطرب". فمما قاله:

(12991/1)

... ضم إلى علم الأديان علم الأبدان. فركب الأدوية، وانتشرت له بين الحكماء ألوية، وعرف الأمراض، وأرسل سهام الرقى فأصاب الأغراض. رحل إلى الشرق فأدى فرضه، ثم رجع قاصداً أرضه، فناهيك من علم اجتلب، ومن دُرٍّ نظم وَدَرٍّ احتلب.

... من مؤلفاته في علم الطب كتاب سماه "النفحة الوردية في العشبة الهندية". وقد وصف أستاذنا عبد الله كَنون هذا الكتاب فقال:

... وهي (أي "النفحة الوردية") رسالة صغيرة تقع في كراسة من 15 صفحة، ولكن قيمتها العلمية كبيرة؛ إذ أنها بحث مستوفى في هذه العشبة المعروفة بالمغرب والتي كثيراً

(12992/1)

ما كانت هي الدواء الأخير الذي يرجع إليه الناس في عدة أمراض عندما ييأسون من الشفاء.

... ويصف لنا المؤلف هذه العشبة الهندية بأنها لم تكن معروفة عند قدماء الأطباء، وإنما تفطن لها المتأخرون من أهل الهند الجنوبي فجربوها فوجدوا لها نفعاً عظيماً.

... قال الأستاذ عبد الله كَنون: »وتأليفه هذا يدل على طول باعه في مهنته ومعرفته بعلم النبات وخصائصه، لأنه بحث يكاد يكون مبتكراً وناسجاً على غير منوال سابق«.

... ومن تآليفه أيضاً منظومته الطبية المسماة بـ"الشقرونية"، نسبة إلى اسمه العائلي. تقع هذه الأرجوزة في

(12993/1)

نحو 700 بيت نظمها جواباً لسؤال من تلميذه الشيخ صالح بن المعطي. ومضمنها شرح فوائد المآكل والمشارب المتداولة بين الناس.

... نذكر نموذجاً منها يتعلق بأكل اللحم مشوياً:

خير الشواء ما على الجمر شوي بلا دخان في قضيب يلتوي

يفتح للصحة ألف باب ... وهو الذي يعرف بالكباب

... وألف نظماً آخر في منافع النعناع معروفاً ومشهوراً، وكتاباً في منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير.

... وألف في غير الطب كتاب "شرح البسط والتعريف"،

وهو منظومة في علم التصريف للعلامة أبي زيد عبد الرحمن المكودي.

(12994/1)

... لا يعرف تاريخ ولادة هذا الطبيب ابن شقرون ولا تاريخ وفاته. غير أنه كان حياً سنة 1140 هـ/ 1727 م. فهو من مخضرمي القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين(1).

... ومن أطباء القرن التاسع عشر العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي الغريسي المتوفى سنة 1895 م. له كتاب "أقوال المُطاعين في الطعن والطواعين"، يبحث في الأمراض الناتجة عن وباء الطاعون، ويشرح معنى الطاعون ويعين الوقت الذي يغلب وقوعه فيه ثم يعرض لوسائل الوقاية والعلاج. وقد ازدان هذا الكتاب

---

(1) الميثاق، عدد 229 ـ 230، ترجمة لعبد الله كَنون.

(12995/1)

بفوائد تاريخية عن الأوبئة التي اجتاحت بعض جهات المغرب ومات بسببها خلق كثير(1).

... ونختم هذا التقديم المختصر للأطباء المغاربة عبر العصور بطبيب نعتقد أنه خاتمة هؤلاء القدامى المذكورين، هو الشريف سيدي عبد السلام العلمي المتوفى بفاس عام 1323 هـ/ 1905 م. فإنه بعد أن أتم دراسته بالقرويين بفاس وتصدر لتدريس علم التوقيت بها، انتدبه السلطان مولاي الحسن الأول لدراسة الطب بمصر. فالتحق بمستشفى القصر العيني وصار يدرس الطب على علماء من مصر وإسبانيا

---

(1) محمد العربي الخطابي، فهارس الخزانة الملكية (الطب).

(12996/1)

وفرنسا وحضر تشريح نحو 1600 جثة من مخلفات ثورة عرابي الشهيرة. ولما عاد إلى بلاده، فتح عيادة صغيرة قرب حرم مولاي إدريس بفاس؛ ولكنه لم يستمر طويلاً، إذ أصيب بشلل في نصفه الأسفل أرغمه على ملازمة داره والاكتفاء بإفادة الطلبة الواردين عليه.

... وألف في علم الطب تآليف هي كالتالي:

... 1 ـ "ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة

فاس :

... وهذا الكتاب ـ كما هو ظاهر من عنوانه ـ يهتم بذكر الأسماء المغربية لما ورد في "تذكرة" الأنطاكي الضرير المتوفى عام 1008 هـ/ 1599 م. و"التذكرة" كتاب مشهور يتناول أوصاف

(12997/1)

بعض الأدوية وخواصها وتركيباتها. فالعمل الذي قام به الطبيب سيدي عبد السلام العلمي هو عمل علمي كبير، حيث قرب النفع بما ورد في كتاب "التذكرة" لعموم المهتمين بخواص الأعشاب في المغرب بأن جعل أمام الأسماء المشرقية للنباتات أسماءها المغربية مرتبة حسب الحروف الهجائية. ولم يكتف الطبيب العلمي بذلك فقط، بل إنه حاول في كتابه هذا توضيح كيفية تقطير بعض الأعشاب الطبية مصوراً بالأشكال الهندسية الجهاز المستعمل لهذه الغاية.

(12998/1)

... وقد أهدى المؤلف كتابه هذا للسلطان مولاي الحسن اعترافاً منه بالجميل الذي أسداه إليه بإرساله في بعثة دراسية إلى مصر. وطبع هذا الكتاب على المطبعة الحجرية بفاس في حياة المؤلف في أواخر القرن التاسع عشر.

... 2 ـ "البدر المنير في علاج البواسير" :

... وهو مطبوع مع كتاب "ضياء النبراس" الذي تحدثنا عنه آنفاً. وقد رتب كتابه هذا على مقالات وفصول، تحدث في المقالة الأولى الفصل الأول منها على العلامات التي يتميز بها دم البواسير من دم الكبد ومن دم الأمعاء؛ وفي الفصل الثاني تحدث عن دم البواسير بوصفه دم علة

(12999/1)

وفساد وأن خروجه من الجسم خير من احتباسه؛ وخصص الفصل الثالث لما ينبغي لصاحب هذه العلة من التحفظ وفيما يناسبه من الأغذية وما لا يناسبه منها. أما الفصل الرابع، فهو لكيفية معالجة البواسير.

... والمقالة الثانية في كيفية تركيب الأدوية المأخوذة من الطب القديم والجديد النافعة للبواسير، وفيها

فصول: الأول فيما يسكن ألم البواسير عند الأقدمين؛ والفصل الثاني فيما يسكن ألم البواسير في علم الطب الجديد. وهكذا الفصول الثالث والرابع والخامس والسادس . وكلها تختص بمرض البواسير وكيفية قطع دمها ومسقطها ومعالجتها

(13000/1)

بالكي.

... 3 . منظومة رجزية في علم التشريح سماها "مفتاح التشريح" :

... تقع في ثمانية وسبعين بيتاً طبعت بهامش "ضياء النبراس". وفي هذه المنظومة يتحدث عن تركيب الهيكل الجسمي للإنسان وتفصيل أسماء العظام وأنواعها وذكر منها 8 للجمجمة و13 للوجه و64 للأطراف العليا و60 للأطراف السفلى و53 للجذع. ثم جهاز البصر والسمع والأنف وأعضاء العنق والصدر والأمعاء والبطن والجهاز البولي والجهاز التناسلي عند المرأة والرجل. وبذلك يتأكد لنا أن الرجل كان في عصره إطاراً طبياً مهماً: لو اسْتُغِلَّ أحسن استغلال، لكانت

(13001/1)

النتائج حميدة.

... 4 ـ "الأسرار المحكمة في حل رموز الكتب المترجمة" :

... فسر في هذا الكتاب مصطلحات الكتب الطبية الأجنبية التي ترجمت إلى اللغة العربية في عصره.

... 5 ـ "التبصرة في سهولة الانتفاع بمجربات «التذكرة» :

... لقد رتب في هذا الكتاب "تذكرة" الأنطاكي المشار إليها ترتيب الأمراض، بدلاً من الحروف كما فعل في كتابه "ضياء النبراس". وذلك ليسهل البحث لمن يطلب علاج مرض من الأمراض.

... وبالإضافة إلى ما ذكرناه من التآليف الطبية نزيد عليها بذكر جملة أخرى منها:

(13002/1)

... فهناك كتاب "الاكتفاء في طلب الشفاء" الذي ألفه محمد بن يحيى العزفي السبتي المتوفى عام 768 هـ/ 1366 م. وهو كتاب اختصر فيه مصنفاً مطولاً في الأدوية،

وهو يبحث في الأدواء التي تصيب الإنسان في جميع أجزاء جسمه، كما يتحدث عن أمراض النساء والأطفال ويصف الحميات ويذكر وسائل العلاج والأدوية وخصائصها، كما يبحث في علم الزينة والتجميل. كل هذه المعلومات في عشرين باباً من الكتاب(1).

---

(1) محمد العربي الخطابي، فهارس الخزانة الملكية.

(13003/1)

... وألف العلامة عبد الرحمن بن محمد الفاسي المتوفى عام 932 هـ/ 1525 م كتاباً في تفسير أسماء الأعشاب والعقاقير المعروفة عند الأطباء. وهي بطبيعة الحال غير الأسماء التي يعرفها بها العوام، فيشرح معناها وكثيراً ما يأتي بمقابلها في اللهجة الدارجة أو في اللهجة الأمازيغية.

... كما ألف العلامة أحمد بن محمد بن حمدون بن الحاج الفاسي المتوفى عام 1317 هـ/ 1899 م كتاباً أسماه "الدرر الطبية المهداة للحضرة الحسنية" (يعني السلطان الأول)، وهو كتاب جامع في الطب مقسم إلى ثلاثة أقسام مع مقدمة عن تاريخ الطب والصيدلة

(13004/1)

وأسماء المشاهير من الأطباء ومؤلفاتهم. وهذا الكتاب يقع في خمسة أجزاء(1).

... وألف العلامة أحمد بن صالح بن إبراهيم الدرعي المتوفى عام 1147 هـ/ 1734 م كتاباً سماه "الدرر المحمولة على الهدية المقبولة في حلل الطب مشمولة"، وهو كسابقه يتعرض في بداية الكتاب لعلم الطب ومكانته ثم يدخل في صميم موضوعه فيشرح الأمراض ثم الأدوية التي تناسب كل مرض.

... وألف العلامة عبد الله بن عبد العزيز القرشي المراكشي المشهور بسيدي بلة بن عزوز المتوفى عام 1204 هـ/ 1789 م كتاباً سماه "ذهاب الكسوف ونفي

---

(1) المرجع نفسه، ص. 99.

(13005/1)

الظلمة في علم الطب والطبائع والحكمة"، وهو كتاب جامع في علم الطبيعة والطب والصيدلة. اختصره المؤلف من عدة كتب(1) وقسمه إلى سبعين باباً، كل باب في علم أو عمل (أي أن كل باب يتحدث عن علة وعلاجها).

... وألف محمد أَحْنِنِي الدرعي كتابه "راحة الإنسان في

طب الأبدان"، وهي رسالة قسمها المؤلف إلى أربعة وعشرين باباً، منها -أي من أبواب هذا الكتاب- ما يتناول موضوعات طبية، ومنها ما يتناول الطلاسم والأحجبة وما شابه ذلك.

---

(1) الخطابي، الفهرس.

(13006/1)

... وألف محمد بن إبراهيم الروداني من رجال القرن التاسع عشر كتاباً قيماً سماه "كنز المحتاج في علم الطب والعلاج"، رتبه على تسعة أبواب تتناول علاج مختلف الأمراض وما يناسبها من الأدوية. وختم كتابه بالحديث عن تدبير الصحة وما يحفظها من التزام عادات في الأكل والشرب والنوم والرياضة والسياحة وما إليها.

... ومثل هذا الكتاب كتاب "المنافع في علم الطب النافع" للشيخ محمد بن علي البعقيلي من رجال القرن التاسع عشر. ففيه وصف أدوية لعلاج كثير من الأمراض، ولا يبعد أن تكون هذه الأدوية التي وصفتها تلك الكتب المشار

(13007/1)

إليها لا تزال تحتفظ بخاصيتها في العلاج. ونتمنى إحياء لهذا التراث أن لو وجد من بين أطبائنا الأساتذة المهتمين من يعيد النظر في هذه الكتب ويستخرج منها تلك الأدوية الطبيعية التي تغني عن الدواء المصنوع الذي كثيراً ما تحدث عند استعماله مضاعفات إن نفعت جهة في الجسم، فإنها تضر بالجهة الأخرى.

... ومن الكتب الطبية المغربية نذكر كتاب "عنوان الشفا مع صدق الطب والوفا" لعبد الله بن أحمد الكضاضي من رجال القرن الثالث عشر الميلادي. وهذا الكتاب يبحث في العلل ومقادير الأدوية وخواص بعض الحيوانات للعلاج بأجزائها

(13008/1)

وخواص الأعشاب.

... واهتم علماؤنا بتقريب مفهوم العلاج ووسائله إلى أذهان المتعلمين، فوضعوا لذلك منظومات تجمع بين الفائدة الطبية وسهولة الحفظ، لأن الكلام المنظوم أقرب إلى الحفظ من الكلام المنثور. ومن هذه المنظومات "علامة السعادة في حكم الأغذية المعتادة" لعلي بن حسن

القيسي المراكشي. وهي منظومة تبحث في طبائع الأغذية وأصنافها من حبوب وخضر وقطاني وفاكهة طرية وجافة ولحوم وتوابل وألبان ومشتقاتها ومياه معدنية وخمور ومربيات. بلغ عدد الأغذية والأشربة الموصوفة في تلك المنظومة 202 نوعاً(1)

---

(1) المرجع نفسه، ص. 204.

(13009/1)

.

... ومن المنظومات كذلك أرجوزة علي بن الطيب بن علي المراكشي المتوفى بعد عام 614 هـ/ 1217 م، سماها "بهجة المطالع في الحفظ للمجامع". وهي منظومة تبحث في تدبير الصحة الجنسية وما يتصل بها، أهداها صاحبها للسلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الحق المريني الذي تولى عرش المغرب من سنة 614 هـ/ 1217 م إلى سنة 638 هـ/ 1240 م.

... ومن المنظومات كذلك أرجوزة الشيخ قاسم بن أحمد بن يامون التليدي الخمسي المتوفى بعد عام 1071 هـ/ 1660 م، موضوعها آداب الزواج وما يتعلق به طبياً وعملياً.

(13010/1)

... واهتم العلماء بشرح هذه المنظومة، لما امتازت به من فوائد ونصائح لا غنى عنها لمن هو مقبل على الزواج وتكوين الأسرة.

... وألف الشيخ محمد بن يوسف السنوسي رسالة صغيرة في فضل مهنة الطب. وبالرغم من أن السنوسي هذا ينتسب للفقه وعلوم الشريعة، فإنه أراد أن يدلي بدلوه في علم الطب؛ نظراً لأفضليته وشهرته على كل العلوم.

... وألف الأمير عبد الله بن أحمد بن السلطان مولاي إسماعيل المتوفى عام 1210 هـ/ 1795 م كتاباً سماه "نزهة النفوس فيما يصلح للعريس والعروس". ألفه لابن عمه السلطان مولاي سليمان. وهو كتاب يحتوي

(13011/1)

على وصفات طبية مهمة تصلح للمقبلين على الحياة الزوجية وتأسيس الأسرة.

... كل هذه الكتب السابقة وغيرها، وهي تعد بالعشرات، تعطينا فكرة عن اهتمام علمائنا بالطب علماً وبالتطبيب مهنةً. وكما قلت في بداية هذه الدراسة،

فإن النهضة الطبية المعاصرة هي صورة للنهضة الطبية المغربية في قديم الزمان. ويبقى أن نذكر بواجب الوفاء الذي يفرضه علينا تقديرنا لعلمائنا الأقدمين، وهو ما فعلناه في هذه الدراسة، من إبراز للنبوغ المغربي في ميدان الطب ومهنة التطبيب.

(13012/1)

مستقبل الموارد المائية في الوطن العربي

... ... الدكتور عبد الله العوينة

... ... كلية محمد الخامس كلية الآداب – الرباط

... يشكو العالم العربي من نقص هام في موارده المائية، وخاصة منها الموارد الداخلية، فالمياه المتجددة في الوطن العربي لا تمثل إلا أقل من 1 ٪ من الثروات المتجددة في العالم. كما أن نصيب الفرد العربي لا يتجاوز 1744 م 3 في السنة، بينما المعدل العالمي يصل إلى 12900 م 3 في السنة

(13013/1)

(الشويكي، 1991) وعدم الانتظام الزمني يزيدان مشكلة الماء تفاقما وخطورة. ولا شك أن هذا الوضع وليد الظروف الطبيعية العالم للعالم العربي. ذلك أن 80 ٪ من المساحة العامة للوطن العربي عبارة عن أراض منبسطة، الشيء الذي يساعد على تبخر المياه المتهاطلة، بينما الأراضي الجبلية التي تساهم عادة في تغذية المجاري، محدودة الامتداد. والجيولوجيا عنصر مساعد على تخزين المياه حيث تمتد طبقات رسوبية راشحة، خاصة في شبه الجزيرة العربية و في الصحراء الكبرى. أما المناخ فهو القاسم المشترك الأساسي حيث ينتمي جل الوطن العربي

(13014/1)

للحزام الجاف وشبه الجاف، والصحراء الحقيقية تغطي 43 ٪ من المساحة الإجمالية. ولا يستثنى من هذه القاعدة إلا جنوب السودان، وبعض جبال اليمن، ومرتفعات المغرب العربي وجبال الشام.

... ...

1– الموارد الحالية

1.1 – الموارد السطحية

... شح الأمطار وامتداد الصحاري عنصران يفسران الدور الثانوي الذي تلعبه المياه السطحية النابعة من قلب الوطن العربي، إذا استثنينا غرب الشام والمغرب العربي. فجل الوديان قصيرة ومؤقتة الجريان، وتبقى أهم المصادر السطحية تلك التي تعبر الوطن العربي قادمة من إفريقيا الشرقية (

(13015/1)

حالة النيل) أو من الجبال التركية أو الإيرانية (الرافدين).

أ– المياه السطحية في المغرب العربي :

... عدة مرتفعات جبلية، بعضها خزانات حقيقية، تمثل المصدر المغذي لأنهار هامة، تصب في البحر المتوسط أو المحيط الأطلنتي، بينما البعض الآخر ينزل تجاه الصحراء حيث تختفي مياهه.

... والإتاحات المائية الإجمالية تساوي 48 كم 3 من المياه القابلة للتعبئة. منها 13 كم 3 مستعملة حاليا. جل هذه الموارد مركزة في المغرب الأقصى، وتدل الإحصاءات على اتساع الإمكانيات المستقبلية لهذا الجزء من الوطن العربي حيث لا يستعمل

(13016/1)

المغرب الأقصى حاليا سوى 33 ٪ من إمكاناته (المجلس الأعلى للماء، الرباط، 1990).

... ويختلف استخدام المياه السطحية حسب المجال الجغرافي. ففي الحاشية الصحراوية ترتكز الحياة الفلاحية على الري ابتداء من بعض المجاري القادمة من الأطلس (مثال تافيلالت، جنوب المغرب) . وبناء السدود الداخلية نصف الجافة، فإن سهول قدم الجبال قد عرفت إنشاء قطاعات سقوية هامة (مثال تادلة والحوز). وفي المجالات الجبلية، عنف المياه إضافة إلى قلة امتداد الرقعة الزراعية، يمثلان عائقا هاما. كما أن السهول المجاورة مهددة دائما بالفيض.

(13017/1)

لذا فإن التهيئة سعت في نفس الوقت إلى تنظيم الصبيب عن طريق التخزين وإلى الحد من خطورة الفيض. ومشاريع سبو ومد جردة احسن الأمثلة عن هذا الوضع (قصاب وستهم، 1980).

ب – المياه السطحية في الشام الغربي (الشرق الأدنى) :

... يتحكم الوضع التضاريسي والبنائي في توزيع المياه داخل المجال الذي ينتمي للأخدود الكبير السوري – الإفريقي، والذي يعتبر ذا بنائية نشيطة تتمثل في فوالق هامة هي المسؤولة عن توزيع التضاريس في جبال لبنان ومنخفض الأردن والمرتفعات الشرقية. وأهم الأنهار تحتل موقع المنخفض الطولي لأخدود الشام.

(13018/1)

... حوضان نهريان كبيران يتفرعان عن المجموعة الجبلية التي تمثلها مرتفعات لبنان الشرقية. حوض العاصي يتجه شمالا إلى أن يلتقي بروافد قادمة من تركيان فيصب في البحر. وحوض الأردن يتجه جنوبا عبر بحيرة طبريا لينتهي عند البحر الميت، بعد استقباله للبرموك والمجاري من مرتفعات الأردن. ومياه الشرق الأدنى تعتبر موارد لا بأس بها. لكن الحدود السياسية بين الدول وخاصة التجاور مع إسرائيل يطرح إشكال السطو الذي تحاول من خلاله هذه الدولة الاستيلاء على موارد الأردن والجنوب اللبناني (خليفة ، 1991).

(13019/1)

ج – مياه السيل في المناطق الصحراوية :

... تمتاز المناطق الصحراوية ضمن الوطن العربي بفقر مياهها السطحية. ولا تخرج عن هذه القاعدة سوى بعض الكتل الجبلية التي تغذي سيولا مؤقتة هي نفسها تغذي فرشات مائية باطنية. وتدخل في هذا الإطار جبال الهكار وتبستي بوسط الصحراء الكبرى، ومرتفعات عسير على ساحل البحر الأحمر. بعض هذه المياه ينزل بسرعة إلى البحر الأحمر والبعض الآخر ينزل نحو سطوح الصحراء. وكمية المياه التي تنزل إلى البحر الأحمر في الجزء السعودي، تم تقديرها بحوالي 1.4 كم 3 سنويا (عثمان، 1986) إلا أن جل هذه

(13020/1)

المياه لا يتم الانتفاع بها وذلك بسبب سرعة تدفقها وفجائية صبيبها. أما المجاري الداخلية فهي أطول لكنها أقل صبيبا. وتزيد أهمية السيول في القطر اليمني. وقد استغلت هذه السيول منذ القديم وقامت عليها حضارة اليمن الزراعية الشهيرة بتجهيزاتها ومنشآتها.

... د. الأنهار العابرة : النيل، والفرات ودجلة

... د.1. المياه السطحية في السودان ومصر : معجزة النيل

... تمتد شمال السودان وفي مصر صحراء قاحلة يخترقها حادث جغرافي فريد من نوعه، كان إطار بزوغ إحدى أعرق الحضارات العالمية، ويتمثل في نهر النيل الذي ترتكز حوله

(13021/1)

الفلاحات الغنية والسكن الكثيف. هذا النهر يعتبر عطاء يسميه الفلاحون "بحرا" وتم تأليهه من طرف الحضارات القديمة، يمثل في نفس الوقت الخشية عندما يزيد الفيض عن مستواه العادي، والأمل لأنه سنويا يحيى الأراضي الممتدة (بوزنسون، 1975).

... يمثل النيل الأبيض الصبيب القاعدي بسبب انتظامه النسبي، لكن نصيبه متواضع على المستوى السنوي (أقل من ثلث الصبيب السنوي) وهو يتعرض لتبخر الكثير من مياهه في منطقة السدود.

... أما النيل الأزرق والعطبرة فهما المسؤولان الأساسيان عن فيض النيل السنوي وعن امتداد الرقعة

(13022/1)

الزراعية. ويرتفع صبيب النيل الأزرق ليصل ما يقترب من 6000 م 3/ ث في نهاية الصيف.

... والتبخر في الصحراء مسؤول عن تقليص القدر الإجمالي للصبيب حيث لا يصل إلى البحر سوى ثلث الموارد.

... كما أن هذا المورد الهام يتسم بعدم الانتظام من سنة إلى أخرى (براهيم، 1987). وبسبب توالي سنوات الخصاص، وسنوات الفيض المفرط، تم التفكير في تجهيز الحوض بشكل يضمن الحصول على المياه الكافية، دون حدوث خسائر.

... وتوالت التجهيزات منذ القديم إلى حين بناء السد العالي الذي يهدف إلى التخزين المستديم لمقاومة سنوات جفاف متوالية.

(13023/1)

سعة التخزين تصل إلى 120 كم3 مع إنتاج 10 مليار كيلواط / ساعة من الكهرباء. كما تم الاتفاق على إنشاء قنوات تحويل في العالية لضمان استمرار تدفق المياه. وتقف المشاكل السياسية والأمنية دون إتمام هذه المشاريع (ناف وماتسون، 1984).

ورغم مختلف هذه المشاريع تشكو مصر من نقص في المياه إذا اعتبرنا نموها السكاني واتساع حواضرها. والعجز المائي يعتبر سببا أساسيا يحد من إمكانيات التوسع الفلاحي والاقتصادي.

د. 2 – المياه السطحية في الصحراء السورية – العراقية : مياه دجلة والفرات .

(13024/1)

... الصحراء السورية – العراقية ذات مناخ قاري، تشرف عليها جهة الشمال والشمال الشرقي جبال تكسوها الثلوج، بينما جل المجال السوري – العراقي يوجد في منطقة حيث الأمطار تقل عن 300 مم، وجل هذه الموارد تتبخر بعد سيل قصير. ولذا فجل الموارد المائية قادمة من خارج الأرض العربية. فخمسون في المائة من إيراد دجلة والفرات من تركيا و 30 ٪ من إيران (المنظمة العربية للتنمية الزراعية 1981).

... تنطلق دجلة من الطوروس الشرقي وتخترق أولا أراضي مغذية تمثل 55 ٪ من حوضها، جلها في جبال تركي وإيران وتلال شمال العراق. ثم

(13025/1)

يتلقى النهر روافد هامة قادمة من إيران. وارتفاع الحرارة والتبخر في السهل العراقي، سبب في تلميح المياه التدريجي، إلى حين الالتقاء بنهر الكارون حيث تصبح الملوحة معتدلة من جديد. وقد أقيمت المشاريع العديدة على دجلة وروافدها من أجل تأمين المياه وتخزينها، وللوقاية من الفيض. وسد الموصل الذي أقيم سنة 1986 بسعة 13 كم3 يسمح بالسيطرة على موارد العالية التركية وتنظيم الجريان، كما يضمن صبيب 32 كم3 سنويا. وشيدت سدود أخرى متعددة على روافد دجلة، رفعت المقدار المائي المضمون وسط العراق إلى حوالي 40 كم3 (

(13026/1)

الكسان،1991).

... أما الفرات فهو قادم من هضبة الأناضول بوادر عام يصل إلى حوالي 30 كم 3. أنشئت عليه سدود تركية حديثة، أهمها سد أتاتورك، كان لها صدى تخفيض الوارد المائي إلى سوريا (انخفاض الوارد عند مدخل سوريا إلى 13 كم 3). أما سد الفرات السوري فهو يسمح بري

150.000 هكتار وينتج 2.5 مليار كلواط / ساعة. وفي العراق أقيمت العديد من المشاريع على الفرات من أهمها سد الحبانية الذي يملأ منخفضا بسعة 3.3 كم3 (المنظمة العربية للتنمية الزرعية، 1981).

(13027/1)

والحاجات السورية – العراقية من مياه الفرات ترتفع إلى 24 كم3 ، بينما لم يبق يصل إلى البلدين سوى 13 كم3 . وهذا يطرح إشكال اقتسام الثروة المائية بين الدول الثلاث بحدة كبيرة (خلفية ، 1991) .

1 . 2 – الموارد الجوفية

... نصيبها مرتفع في الوطن العربي ، خاصة إذا اعتبرنا جفاف المناخ وأهمية التبخر. المياه الجوفية مقدارها حوالي 42 كم3 وتساوي 15 من مجموع الموارد كما يتوفر الوطن العربي على مياه جوفية موروثة أي غير متجدد ، تمثل رصيدا ضخما في الصحراء الكبرى وصحراء الجزيرة العربية (خوري والدروبي ، 1990) .

(13028/1)

... وينقسم الوطن العربي إلى عدة أحواض هدروجيولوجية :

أ – شبه الجزيرة العربية :

... تتكون شبه الجزيرة من درع قديم غربا ، صخوره ضعيفة النفاذية ، يعتبر فقيرا من المياه الجوفية وإن كان مجال تغذية هام ، ومن حوض رسوبي ممتد حتى جبال عمان وسلاسل إيران شرقا غني بالطبقات الحاملة للماء .

... وتنحني طبقات هذا الحوض نحو سواحل الخليج بسمك يتعدى 5000 م ، ويتألف من طبقات جبرية ورملية .

وتتدفق عن هذه الطبقات بعض العيون الارتوازية .بعض الفرشات موروثة بينما البعض الآخر متجدد التغذية .

وتستعمل هذه المياه في عديد

(13029/1)

من الأحواض لأغراض زراعية أو لتغذية . وتستعمل هذه المياه في عديد من الأحواض لأغراض زراعية أو لتغذية المدن بالماء الشروب (خوري والدروبي ، 1990) .

ب – الشرق الأدنى :

... جبال الشرق الأدنى مجال تغذية الهلال الخصيب بالمياه الجوفية التي تعتبر أساس بزوغ حضارات راقية ، وذلك لأن منابع هذه المياه تغذي مباشرة المدن

والقطاعات الزراعية ، وتمثل منطلق أهم أنهار المنطقة كالليطاني والعاصي والأردن .

... تتلقى سلسلة لبنان ودمشق أمطار هامة وثلوجا تنزل على صخور كلسية راشحة . وهذا ما يفسر غنى الخزانات الباطنية صبي

(13030/1)

الينابيع الكبرى (الحكيم 1982) مثل نبع بردى ، وجعيطة وانطلياس ، والعين الزرقاء. وتتضمن هضبة فلسطين طبقة مائية تنحني نحو الغرب تجاه الساحل إلا أن كثرة المضخات الإسرائيلية تستنزف حاليا هذه المياه (خليفة ، 1991).

ج – المياه الجوفية في سهول العراق :

... تركيب العراق شبيه بحوض تحيط به حواش مغذية وهذا ما يجعل منه وضعا ملائما لتخزين المياه الباطنية ، وتصدر عدة عيون على هوامش هذا السهل . بينما في أراضي ما بين النهرين ، اقتراب الفرشة المائية من السطح أدى إلى تعرضها للتبخر وبالتالي إلى ارتفاع درجة

(13031/1)

ملوحتها . لكن حاليا ، وما دامت المياه السطحية غزيرة، فإنه لا يستفاد إلا بقسط محدود من المياه الجوفية.

ح – وادي النيل والدلتا :

... في غرين النيل فرشة مائية هامة تكون رصيدا إضافيا، هو في حالة ارتفاع مطرد بسبب استمرارية السقي الشيء الذي يهدد الكثير من الأراضي الزراعية بالميهة والملوحة. وحركات الماء الجوفي خاضعة أساسا لارتفاع مستوى النهر. وهي تنحي حاليا نحو البحر والنهر. وفي الشمال تتصل بعض هذه الفرشات الحبيسة بمياه البحر، الشيء الذي يرفع ملوحتها إلى مقادير عالية.

(13032/1)

هـ– المياه الجوفية في الصحراء الشرقية والسودان والقرن الإفريقي :

... في شمال شرق إفريقيا ترتفع أهمية المياه الجوفية وذلك بسبب امتداد مصادرها في وقت تكون فيه مياه النيل السطحية محورية ومحدودة. وتمثل هذه المياه الجوفية تعويضا يغذي المراكز والواحات المتباعدة. فجنوبا وعلى سواحل البحر الأحمر تبرز القاعدة القديمة لتختفي غربا وشمالا تحت سمك هام من الرواسب الحثية

الحاملة للمياه (خزان الحجر الرملي النوبي). هذا الخزان يمتد على 2 مليون كم 2 ويحتوي على ما مقداره 75.000 كم 3 من المياه الموروثة التي لا

(13033/1)

تتجدد إلا بقسط ضعيف (خوري والدروبي، 1990).

و –المياه الجوفية في الصحراء الكبرى الغربية :

جنوب الأطلس تمتد سهول وهضاب صحراوية تعلوها بعض السلاسل الجبلية وتستقر في هذا

الحوض الكبير طبقات مائية هامة موروثة من أهمها، حوض الكبير وحوض مرزوق وحوض الجفارة (خوري

والدروبي،1990).

ي – المياه الجوفية في الجزء المتوسطي من المغرب العربي :

... تتوفر المياه الجوفية في جبال الأطلس الكلسية التي تتغذى بذوبان الثلوج وبالأمطار. كما توجد فرشات باطنية في سهول قدم الجبل والمنخفضات داخل الطبقات الحطامية الحديثة.

(13034/1)

ومقدار هذه الثروات حوالي 13 كلم 3، يتم استعمال 5 كم 3 منها حاليا. وتلعب هذه المياه الجوفية دورا مهما في تغذية مراكز حضرية وزراعات كثيفة (تروان وآخرون، 1985).

3.1– المصادر المائية الجديدة :

... بسبب ندرة الموارد السطحية والجوفية في بعض المجالات أو عدم كفايتها للحاجة الملحة، اظطرت بعض البلدان العربية إلى نهج طرق استثمار جديدة للمياه قد تمثل في المستقبل العلاج الأساسي للخصاص الملاحظ في الوطن العربي.

(13035/1)

... وتتلخص هذه الموارد الجديدة في إعادة استخدام المياه الملوثة أو على أثر تصريفها من قبل التربة بعد سقي أول، وفي تحلية مياه البحر.

... تمثل المياه المعادة الاستعمال مقدارا مهما يصل إلى 4.5 كم 3 يستخدم الجزء الأهم منها في الدولة المصرية، وهذا الاستخدام يتم بالنحو التالي : على إثر عملية الري في العالية وفي الدلتا، يرتفع منسوب الفرشة المائية، الشيء الذي يضطر إلى إنشاء قنوات تصريف ترجع نظريا إلى النهر أو تذهب مباشرة إلى البحر، وتمتاز مياه قنوات

التصريف بارتفاع تعدنها بسبب المواد التي تحللت فيها، من

(13036/1)

مواد ترابية أصلية ومواد كيماوية يستعملها المزارعون، وتكون في الغالب ذات نوعية غير جيدة، لكن في بعض الحالات تبقى صالحة لبعض الزراعات التي لا تتطلب جودة خاصة للماء ولذا يتم استعمالها لري أراضي السافلة (إبراهيم ، 1987).

... أما تحلية مياه البحر والمياه المالحة، فإنها تمثل في بعض الحالات السبيل الوحيد لحل معضلة العجز المائي، وهي في تطور مستمر رغم التكلفة العالية (6 دولارات للمتر المكعب في الوقت الراهن). إلا أن الأبحاث مستمرة للوصول إلى طرق تحلية بتكلفة أقل. ومعالجة المياه مهمة جدا في الأقطار

(13037/1)

الصحراوية من الوطن العربي، وخاصة منها دول الخليج.

تصل نسبة استخدام مياه البحر من بين مجموع الموارد

المتوفرة إلى مقادير هامة في بعض بلدان الخليج (36٪ في قطر). وهناك خطة في هذه الدولة لتحلية مياه البحر وتخزينها جوفيا في القطاع الشمالي حيث الفرشات عذبة، لاستعمالها في الري، كما يتم في هذا البلد معالجة مجاري الدوحة والاستفادة منها في الري (الصندوق العربي، الكويت،1986).

خاتمة : تقويم شمولي لموارد الماء في الوطن العربي :

(13038/1)

... عملية التقويم صعبة بسبب حداثة رصد الموارد في الدول العربية (عدا مصر) وبسبب استمرار اكتشاف موارد جديدة كانت مجهولة إلى أمد قريب. كما أن التقويمات المتوفرة غير ممركزة وموضوعة بمناهج غير متحددة. لذا فالتقويمات الصادرة عن المؤسسات القطرية أو عن باحثين جامعيين تصل إلى مقادير جد متفاوتة يصعب التوفيق فيما بينها. فتقديرات جامعة الدول العربية، سنة 1986، أو المنظمة العربية للتنمية الزراعية، سنة 1987، أو منظمة "أكساد" سنة 1990 شديدة التفاوت. كما أن تقدير المياه الجوفية يعتريه إبهام يتعلق باعتبار أو

(13039/1)

عدم اعتبار – حسب المؤلفات – للمياه الموروثة غير المتجددة والتي تعتبر تخزينا قديما.

... وسوف نعتبر في هذا المقال آخر التقديرات المبنية على أحدث الأبحاث وهي الأكثر شمولا لآخر الاكتشافات.

... هذا التقدير الصادر عن "أكساد" يعتبر أن الموارد السطحية ترتفع إلى 2955 **كم** 3 **والجوفية المتجددة إلى** 41 **. أما المخزون الجوفي الإجمالي، غير المتجدد فيعلو إلى حوالي** 8.000 **كم** 3 **(خوري والدروبي،**1990**).**

... هذا التقدير يسمح بتحديد ميزانية عامة للمياه :

(13040/1)

... – المصادر المطرية تمثل 2.200 **كم** 3 **(تهاطل معدل** 160 **مم على مساحة الوطن العربي)،**

... – التسرب السنوي يساوي 40 **كم** 3 **ليكون المياه الجوفية المتجددة،**

... – السيل في حدود الوطن العربي مقداره 190 **كم** 3 **بينما** 105 **كم** 3 **هي موارد سطحية قادمة من خارج**

الحدود،

... – يضيع عن طريق التبخر ما يقترب من 1.970 كم 3 وهو ما يمثل حوالي 90 ٪ من الواردات المطرية.

... بالنسبة للتوزيع الجغرافي، نلاحظ أن هناك اختلافا كبيرا تتركز الموارد في مجموعة من الدول في مقدمتها مصر والعراق والسودان بالنسبة للمياه السطحية، والمغرب،

(13041/1)

ومصر وسوريا بالنسبة للمياه الجوفية المتجددة، ومصر، والسعودية، وليبيا، بالنسبة للمخزون الجوفي الموروث.

... أما فيما يخص نسبة المياه المرتبطة بتصريف داخلي والمياه القادمة من بلدان مجاورة، فإننا نلاحظ أن شبه الجزيرة العربية، والشام الغربي والمغرب العربي لا يتلقون مياها أجنبية – بينما مصر والسودان والشام الشرقي والعراق جهات تتلقى جل مياهها من مصادر أجنبية.

2– استغلال الموارد المائية واستثمارها :

... يعرف قطاع تعبئة المياه وتوزيعها واستثمارها لأهداف اقتصادية واجتماعية نموا مطردا في الوطن العربي، من

(13042/1)

أهم مظاهره الطاقة التخزينية في السدود الكبرى والمتوسطة، وارتفاع استغلال مياه الفرشات الجوفية القريبة والعميقة ومشاريع التحويل المائي على مسافات شاسعة.

... ترتبط هذه الزيادة في وتيرة تنمية الموارد المائية بتزايد الطلب على الماء بسبب النمو السكاني المرتفع (3 ٪ سنويا) وتوسيع الحاضرات الكبرى وارتفاع الطلب على مياه الري وتقدم الصناعات. فالنمو السكاني يفسر الزيادة في طلب الماء والغذاء (76 مليون ساكن سنة 1950، 205 مليون سنة 1985 وحوالي 300 مليون سنة 2000، الشويكي، 1991). هذه الوتيرة المرتفعة تفسر

(13043/1)

التزايد في طلب الماء الشروب والماء الصناعي وماء الري. فبالنسبة لماء السقي (حوالي 83 ٪ من الاستخدام المائي) تصبح ملحة اكثر إذا اعتبرنا أن المساحات الزراعية محدودة وأن التهاطلات

متواضعة وإن السبيل الوحيد للزيادة في الإنتاج

الغذائي يكمن في تكثيف الزراعات باستعمال تقنية الري.

... وبالنسبة للصناعة التي تعتبر قطاع تشغيل أساسي يرتفع الطلب على الماء بوتيرة كبرى إذ تصل نسبة استخدام المياه في الصناعة إلى حوالي 11 ٪ في مجموع الوطن العربي. كما أن التوسع الحضري (ارتفاع نسبة سكان المدن من 41 ٪ سنة يستدعي

(13044/1)

تزايد الإسراع في وتيرة الطلب على الماء الشروب الذي يكون اليوم 6 ٪ من استخدامات الماء (الكسان، 1991).

... لكل هذه الأسباب تعتبر الحاجة إلى الماء مرتفعة، وتقدر في حدود سنة 2000 بحوالي 320 كم 3 بالنسبة لمجموع الوطن العربي، هذا مع العلم أن أقصى الإمكانات المتاحة في حدود لا تتعدى هذا المقدار الشيء الذي ينذر بعجز مستقبلي خطير، سوف يطرح لا محالة إشكالات اقتصادية واجتماعية وسياسية (الشويكي، 1991).

... لذا يرتفع الاهتمام بالمياه السطحية دائمة كانت أم موسمية وبالمياه الجوفية للرفع من قدرات البلدان

(13045/1)

العربية على إنتاج المياه.

1.2– استثمار المياه السطحية :

... ارتفع وتيرة الموارد السطحية في البلدان العربية منذ حصولها على الاستقلال، وخاصة منذ 1960، حيث أقيمت سدود كبرى ومتوسطة على الأنهار الدائمة، وسدود ثلية على المجاري الموسمية، وتم تحويل المياه من الأحواض الغنية إلى المجالات التي تشكو من الخصاص، وقد مكنت هذه المشاريع الهامة من تجاوز سنوات الجفاف المتوالية مثل سنوات 80 –1985 بالنسبة للمغرب الأقصى، ومواجهة ارتفاع الطلب على الماء الشرب في بعض الحاضرات التي تعرف توسيعا سريعا (القاهرة، بغداد،

(13046/1)

دمشق، الدار البيضاء).

أ – المغرب العربي :

يعرف المغرب العربي نموا هائلا لقدراته المائية السطحية وذلك بسبب الضغط السكاني (50 مليون من مستهلكي الماء، بحصة يومية لا

تتعدى 150 لتر للساكن الواحد)، ويستدعى هذا استثمارات مرتفعة الثمن، وبحثا متواصلا عن إمكانيات إضافية للتخزين والتحويل لإرضاء المناطق المحتاجة وخاصة منها المدن الكبرى، وهكذا يعرف المغرب العربي تنافسا هاما بين الاستعمالات المختلفة للماء، من فلاحة وصناعة وتغذية بالماء الصالح للشرب (العوينة ، 1996).

(13047/1)

... وتنعدم في المغرب العربي الأنهار الكبرى التي تسمح بتخزين على مدى سنوات متوالية بينما تكثر الأنهار الوسطى التي تمكن من إقامة منشآت تخزين موسمي لمياه المطر والسيول الشتوية حتى يتم استعمالها في الصيف ثم في بداية السنة للاحقة السنوات المتوالية الجافة، لكن مع حرص كبير على الماء وقيود هامة على استعماله كما تم ذلك خلال النصف الأول من الثمانينيات في المغرب الأقصى، وخلال سنة 1995. وتستعمل المياه الجبلية خصوصا حيث أقيمت جل السدود عند سافلة المجرى الجبلي للأنهار، ويستغل حاليا من المياه السطحية المتاحة

(13048/1)

بـ مقدار 7.5 كم 3 في المغرب الأقصى، و 2 كم 3 في الجزائر و 1 كم 3 في تونس، وقد تمكن المغرب الأقصى من تنظيم ما مقداره 10 كم 3 من مياهه السطحية بعد تشييد العديد من السدود، من أهمها سد المسيرة وسد بين الويدان وسد محمد الخامس (المجلس الأعلى للماء، 1990) وتسمح هذه السدود المختلفة من رفع إمكانيات السقي التي تقترب من المليون هكتارا.

بـ – استغلال مياه النيل :

... كانت مياه النيل تستغل بنشر مياه الفيض على الحقول المقسمة إلى أحواض وانتظار مرحلة نزول المستوى لزرع الأرض. هذه الطريقة تم التخلي عنها بصفة

(13049/1)

تدريجية منذ إنشاء أول السدود التي تسمح بتنظيم السقي خلال السنة بأكملها. تقنيات الفيض المصرية دلالة على تمكن المزارعين وقدرتهم على التحكم في مياه النهر متى أتت هذه المياه بالمقدار وما دامت لم

تترتب عنها خسائر ناتجة عن مياه الفيض القصوى (بوزنسون، 1957).

... وقد كان الهدف من إنشاء السدود التمكن من المياه في فترات الشح، حتى يبقى المنسوب عاليا بما يمكن للاستمرار في الري، وهكذا سجل آخر فيض للنيل اجتاح الوادي والدلتا سنة 1964، مباشرة قبل إنشاء السد العالي الذي يتمكن من حبس مجموع واردات النهر، وهذا

(13050/1)

ما سمح بتنظيم الري الدائم وبتوسيع المجال المسقي، إضافة إلى إنتاج الطاقة الكهربائية. إن السد العالي يكفل لمصر التوسع الزراعي في 2.3 مليون فدان (أي حوالي مليون من الهكتارات) ويضمن لها تنوع الإنتاج والزيادة في المردودية. ويتم التوسع الزراعي في الأراضي البور والأراضي الصحراوية (إبراهيم، 1987).

... وهكذا وباعتبار حصة مصر عند أسوان والتي مقدارها 55.5 كم 3 ومياه الصرف التي يعاد استخدامها (2.3 كم 3) وبإضافة مياه الخزان شبه السطحي (0.9 كم 3) فإن توزيع الاستغلال يتم كالتالي (تقويمات سنة 1980،

(13051/1)

إبراهيم، 1987) : 49.7 كم 3 تستخدم لري الأراضي المزروعة منذ القديم، 3.3 كم 3 تستخدم لمياه الشرب، 2.5 كم 3 تستغل في الاحتياجات الصناعية و 4 كم 3 تستخدم لاحتياجات غير استهلاكية كتوفير الماء للإنتاج الكهربائي أو للتمكن من الاستمرار في الملاحة أوقات الشح.

... ج – استغلال مياه دجلة والفرات :

... لقد أقيمت على دجلة والفرات وروافدهما العديد من الخزانات المائية الهادفة إلى تنظيم الصبيب وضمان مياه الري في أوقات الجفاف. من بين هذه السدود والخزانات سد الموصل بسعة 12.9 كم، سد البخمة (8 كم 3)، سد دوكان (

(13052/1)

6.8 كم 3)، بحيرة الحبانية (3.3 كم 3). ومن أهم المشاريع، مشروع منخفض الثرثار، الممتد بين دجلة والفرات شمال غرب بغداد والذي يتلقى مياه دجلة بعد تحويلها من سد سامراء. وطاقة تخزين هذا المنخفض 85 م

. منه تنطلق قناة نحو الفرات وأخرى نحو دجلة. ومن أهم المشاريع المقامة على الفرات سد الفرات في سوريا. لكن مصير هذا السد مرتبط بالإيرادات المائية الواصلة إليه من سد أتاتورك المقام بتركيا (الشويكي، 1991).

... وتستخدم العراق ما مقداره. 42 كم 3 من المياه، 1.5 ٪ للماء الشروب بنصيب للفرد مقداره 132 لتر في

(13053/1)

اليوم، والقسم الأوفر للري، حيث يتم سقي أراضي شاسعة (3.3 مليون هكتار) نصيبها حوالي 11700 م3 للهكتار في السنة، أما الصناعة فالموارد المستخدمة فيها ما زالت ضعيفة.

... 2.2 –استثمار المياه الجوفية :

من مجموع المياه الجوفية المستغلة حاليا في الوطن العربي، أي حوالي 20 إلى 23 كم 3، يستخرج النصف الأول من الدول العربية الإفريقية والنصف الثاني من المشرق العربي، وهذا المقدار المستخرج يتم على حساب المياه المتجددة في كثير من الحالات والمياه الموروثة في حالات أخرى، وفي الوقت الراهن ويعرف الاستخراج من الطبقات

(13054/1)

العميقة الموروثة وتيرة عالية. بينما كان الاستعمال في الماضي يتوقف على الطبقات الحرة القريبة وذلك لأسباب تقنية.

... وقد أبدع العرب في طرق استغلال هذه الفرشات منذ العهود القديمة (تقنية الخطارات أو الإفلاج مثلا)، واستمر الشأن كذلك حتى في القرن العشرين لسهولة حفر الآبار الضعيفة العمق وسهولة الاستخراج بوسائل يدوية أو آلية. وتستخدم هذه المياه القريبة في نفس الوقت للشرب وللري، لكن على مساحات ضعيفة الامتداد، ولما تجددت تقنيات الاستخراج ارتفعت وتيرة الاستغلال لهذه الفرشاة القريبة التي اعتبرت خيرات بدون

(13055/1)

حدود، دون تحليل إمكانياتها الفعلية، وهذا ما أدى في بعض الحالات إلى نضوب الماء وفي حالات أخرى إلى تداخله مع فرشا مجاورة مالحة إما من أصل بحري أو مرتبطة بسبخان قارية، هذا ما وقع في سهل الجفارة في ليبيا

وفي الإمارات العربية وقطر، وفي جنوب اليمن، وسهل دمشق.

... وقد سمحت الوسائل الآلية العصرية، والطرق الجيوفزيائية للتنقيب من اكتشاف واستخراج المياه العميقة الموروثة. والرصيد المائي الضخم لهذه الطبقات سمح بتمديد الزارعة على مساحات واسعة في مناطق معروفة بقحولتها كالصحراء الإفريقية والصحراء السعودية (

(13056/1)

الكسان،1991). كما سمح استخراج هذه المياه بالانطلاق في مشاريع اقتصادية هامة كمشروع الوادي الجديد في مصر (سقي 22.000 هكتار في الواحات الجنوبية الغربية انطلاقا من مياه فرشة الحث النوبي بحفر آبار قد يصل عمقها إلى 800 م). والمشروع الليبي من أضخم المشاريع المائية في العالم حيث حفرت آبار يصل عمق بعضها إلى 1500 م. وتحول مياه الآبار الجنوبية إلى الساحل المتوسطي بصبيب حالي مقداره 700 مليون م 3 سنويا، سيتم رفعه إلى 1.4 كم 3 بعد إنشاء الذراع الغربي من النهر الصناعي انطلاقا من منطقة فزان، ومسافة نقل

(13057/1)

المياه تصل إجمالا إلى حوالي 1600 كم (الكسان،1991).

... وتعرف الصحراء العربية الشرقية نفس التطور حيث حفرت العديد من الآبار في شبه الجزيرة العربية وصحراء الأردن وسوريا والعراق، وعمق بعض الآبار يتجاوز 1000 م في الصخور الحثية (تكوين الساق مثلا) وبعمق متوسط في الطبقات الكرنوناتية (أم الرضمة والدمام). وتصل المقادير المستخرجة في السعودية إلى 53 مليون م 3 من طبقة الساق، 38 من تكوين تبوك، 80 من طبقة أم رضمة و 157 مليون م 3 من الساحل وتكون النيوجين (خوري والدروبي،1990).

(13058/1)

... وتشير الموازنة بين الموارد المتاحة والمقادير المستغلة حاليا بالنسبة للمياه السطحية والجوفية معا، إلى أن هناك فائضا ما زال لم يتم استثماره، وخاصة بالنسبة للمياه العميقة، الموروثة، إلا أن تقدير هذا الفائض الذي يمثل إتاحات المستقبل يتطلب المزيد من الأبحاث من جهة، والتعرف على مشاكل استغلال المياه

من جهة ثانية، وخاصة منها المشاكل المتعلقة بالظروف السياسية لاستثمار المياه المتأصلة عن بلدان مجاورة. فالمقادير المائية الواصلة للوطن العربي من هذه الجهات قابلة للتغيير حسب الأوضاع السياسية، ورهينة

(13059/1)

بميزان القوة بين الدول العربية من جهة والدول المجاورة من جهة أخرى.

3– المشاكل المائية ومستقبل الموارد المائية :

... لقد انبنت الحضارات المختلفة على الموارد المائية المسطحة كانت أم جوفية. والبحث عن الماء ومحاولة تعبئتها كان اهتماما دائما للشعوب العربية. فالسقي كان الوسيلة الوحيدة لتعويض خصاص المطر، وعدم انتظام هطوله، وكان السبيل الوحيد لتكثيف المردود الزراعي. وعلى الماء نمت حضارات مدنية راقية، كحضارة مدينة فاس مثلا. كما أنه حاليا، تنمو المدن الكبرى والمصانع ويتزايد طلبها للماء.

(13060/1)

لذا ينضاف إلى مشكل الخصاص العام، مشكل التنافس بين قطاعات اقتصادية وعمرانية واجتماعية مختلفة.

... لقد تنوعت الأساليب العتيقة لاستعمال الماء. وتمثل التقنيات العصرية فرصة سمحت باستعمال مياه كانت صعبة التناول مثل الفرشات الجوفية العميقة. كما سمحت السدود الضخمة من تنظيم الصبيب واستدامة الانتفاع بالماء. لكن التقنيات تفسر كذلك النزعة الحديثة للاستنزاف، خاصة عندما يتعلق الأمر بثروات مائية غير متجددة. أما المياه السطحية فيهددها مشكل توحل السدود في العالية ومشكل التلوث الناجم عن توسع الحواضر وعدم تطبيق

(13061/1)

قوانين صارمة.

... لكن يبقى من أهم المشاكل التي تعيشها الموارد المائية تلك التي تتعلق بالتعاون الجهوي والدولي، خاصة إذا علمنا أن جزءا هاما من مياه الوطن العربي قادم من خارج حدوده.

... 1.3– المشاكل التقنية والمحلية :

... أ– توالي السنوات الجافة وآثاره على الموارد المائية :

... عرفت دول الشرق الأدنى (لبنان ، سوريا، الأردن

وفلسطين) في شتاء 1992 و 1993 تهاطل ثلوج وافرة، وسقوط أمطار غزيرة أدت إلى تجدد مخزونها الباطني وامتلاء خزاناتها السطحية كبحيرة طبريا، ويمثل هذا ظاهرة سعيدة تقوي الأمل في المستقبل.

(13062/1)

وقد عرف المغرب الأقصى سنة 1996 نفس الشيء.

... لكن هذه الظاهرة ليست هي الأعم في الوطن العربي، حيث في الغالب تتوالى سنوات الشح منذرة بنزول مستوى الفرشات ونضوب الينابيع وفراغ خزانات السدود وتوقف مشاريع الري وتهديد المشاريع الصناعية. وقد عرفت مصر ودول الساحل الإفريقي (السودان ودجيبوتي والصومال وموريتانيا) دورات الجفاف السحيقة التي تسببت في المجاعات، وقد مس الجفاف جريان نهر النيل حيث نزل صبيبه سنة 1985 إلى أدنى مستوى عرفه منذ بداية القرن (35 كم 3) ودام انخفاض مستواه خلال خمس سنوات، نزل خلالها

(13063/1)

منسوب بحيرة ناصر إلى 164 سنة 1984 بينما مستواها الأصلي 177 م. وهو أضعف مستوى لها منذ إنشائها (إبراهيم ، 1987).

... ومعروف أن المخزون القاعدي لهذه البحيرة يمثله مستوى 147 م وإن كفاءة التشغيل المثلى للمحطة الكهربائية تتطلب ضاغطا مائيا قدره 57 م أي على الأقل مستوى 165 م ونزول المستوى إلى 164 م في يناير 1985 هدد تشغيل هذه المحطة وبالتالي إمكانيات ضمان الماء للري، وهذا الوضع يضر في نفس الوقت بإمكانيات الري وإمكانيات التشغيل الكهربائي، بينما تعتبر كهرباء السد العالي أساسية لمشاريع اقتصادية هامة

(13064/1)

أقيمت في مصر وخاصة في جزئها الجنوبي.

... ب – خطر توحل حقينات السدود :

... تعرف جل خزانات السدود في البلدان العربية توحلا مهما، يتمثل في تراكم سريع للمواد المنقولة من طرف الأنهار وخاصة منها المواد الو حلية الدقيقة. ويرجع هذا إلى سرعة تدهور السطوح في المجالات الجافة ونصف الجافة تحت تأثير السيول العنيفة الناجمة عن العواصف المطرية. ويمثل هذا التراكم الوحلي تهديدا بالنسبة

لإمكانيات التخزين وراء السدود لأنه يقلل من كفائتها الإجمالية.

(13065/1)

... في المغرب مثلا يقدر الحجم الضائع سنويا من المنشآت المائية بحوالي 50 مليون م 3 نتيجة التوحل ويعرف هذا الحجم تصاعدا مستمرا بسبب تزايد مقادير انجراف التربة والتي تصل إلى ما بين 200 طن/ كم 2 سنة في الأحواض النهرية المستقرة وأكثر من 2000 إلى 3000 طن/ كم 2 / سنة في المناطق الجبلية الوعرة كجبال الريف.

... وإذا علمنا بأن القدرات التخزيية للمغرب هي في حدود 10 كم 3 وأن الطاقة الضائعة حتى الآن تفوق 0.8 كم3 وإن الحجم الضائع سنويا هو 0.05 كم 3 فإننا ندرك بأن خطر التوحل تهديد حقيقي، حيث ستعرف السدود

(13066/1)

المغربية فقدانا لعشرة في المائة من طاقتها بعد مرور أقل من 20 سنة، ولذا فالحل الوحيد يكمن في أخذ

الترتيبات التي من شأنها التقليص من حدة التعرية ونقل الرواسب.

... أما سدود العراق والسد العالي بمصر فهي من المنشآت الضخمة التي تسمح بتنظيم المياه على مدى سنوات، ولذا فإن سعة خزاناتها لا تطرح بنفس الحدة مشكل التوحل، والسبب هو ضخامة المخزون القاعدي القابل للضياع بسبب تراكم الرواسب والأطماء.

... ج – مشكل الاستنزاف والهدر والتمليح :

(13067/1)

... هي مشاكل مترابطة فيما بينها لأن استنزاف المياه الباطنية يؤدي عادة إلى تداخل الفرشات المستغلة بفرشات غير صالحة مجاورة كمياه البحر أو السبخات ، وهدر المياه السطحية يؤدي إلى إفراط في تراكم المياه وصعود مستوى الفرشات وبالتالي تعرضها للتبخر والتمليح .

... هدر المياه السطحية ، معطى يلاحظ في جل المجالات حيث تستغل المياه لري الأراضي بل حتى في التغذية بالماء الشروب ، حيث تستعمل كميات تتعدى الحاجيات

الفعلية . فطرق الري الحالية تؤدي إلى هدر ما يساوي 30 إلى 40 ٪ من الماء حيث يستعمل المزارعون 11000 إلى

(13068/1)

12000 م3 لري الهكتار الواحد ، بينما بطرق دقيقة أكثر يمكن الإكتفاء بحوالي 7500 م3 والحصول على نفس النتيجة ، كما أن فرط الري يؤدي إلى تدهور التربة لأن القسي الدائم يكدسها ويمنع من تهويتها، والإفراط المائي يعني زيادة في الأملاح المذابة الواصلة للتربة ، ومادام التبخر قويا فهذا يعمل على تراكم الأملاح في المسكات العليا الترابية، وهذه وضعية أتربة الدلتا وخاصة في جزئها الشمالي وأراضي دجلة والفرات وشط العرب (إبراهيم ، 1987) .

(13069/1)

... والهدر مدعوم من طرف الدولة مادامت المياه بثمن ضعيف ، والوسيلة الوحيدة للحد منه رفع ثمن الماء ليحسن المزارعون بقيمته . ويطرح الهدر إشكالا آخر ، هو لزوم تشييد المزيد من قنوات التصريف الداخلي لمنع

صعود مستوى الفرشة .

... أما الاستنزاف فهو ظاهرة تتعلق أكثر بالمياه الجوفية ، وتهم كل المناطق المتوفرة على فرشات مائية سمحت بإقامة مشاريع ري ، تسمح هي الأخرى بالحصول على إنتاجية مرتفعة ، فيسارع المزارعون إلى ضخ المزيد من الماء للحصول على المزيد من الأرباح ، ونتائج هذه الظاهرة أكثر خطورة في الدول

(13070/1)

المنتجة للنفط أي الدول حيث ثمن الطاقة منخفض جدا .

... وتعرف المياه الجوفية للكويت و إمارات الخليج هذه الظاهرة ، ففي الكويت مثلا تتوزع المياه إلى مياه عذبة في الجنوب الغربي ومياه رديئة (4 إلى 5 غ / لتر) في الجزء الأوسط ومياه مالحة في الشرق حيث المرور من مياه كربوناتية إلى مياه كبريتية ثم مياه كلورية .والنظام الهيدروجيولوجي قائم على الترصد في مجال الصخور البارزة غربا وجنوبا، وعلى إفراغ في اتجاه شط العرب والخليج مع استمرارية مائية (الصندوق العربي ، الكويت، 1986) .

... د – مشكل تلوث المياه :

(13071/1)

... تعرف المياه السطحية ومياه الفرشات الحرة القريبة تهديدا خطيرا في الوقت الراهن يتمثل في تلويثها وبالتالي تردي نوعيتها .

... هذا التلوث من مصادر متعددة أهمها حاليا التلوث الناجم عن رمي مياه الحاضرات الكبرى دون معالجتها في الأنهار ، الشيء الذي يرفع منن المحتوى المكروبيولوجي للمياه بسبب تراكم مواد عضوية قابلة للفساد ، وهذه وضعية تلاحظ في وادي سبو عند سافلة مدينة فاس ، وتلاحظ أكثر سافلة القاهرة وبغداد .

(13072/1)

... المظهر الثاني للتلوث إلقاء مياه الصناعات الكيماوية والغذائية في الأنهار فتنتج عنه تسمم لها وارتفاع في محتواها الكيماوي والعضوي .

... والمظهر الثالث هو الناتج عن المخصبات والمبيدات المستعملة في الزراعة قصد تكثيفها ورفع إنتاجيتها وهي مواد كيماوية تلوث المجاري والمصارف والفرشات الجوفية القريبة .

... 2.3 – المشاكل السياسية ومستقبل الموارد المائية :

... وراء العجز الملاحظ حاليا في الموارد المائية والمزايد إلى حد أنه أصبح يهدد المستقبل الاقتصادي للدول العربية التفاوت فبإنتاج المياه بين بلدان عسر

(13073/1)

مائي تشكو الضيق ، ومجالات وفرت تضييع مياهها هدرا ومن جهة ثانية تحكم بلدان أجنبية في مستقبل المصادر المائية . هناك أولا مشاكل داخلية بين بلدان العالم العربي ، فالشخصية العربية بنيت منذ القديم على الشعور بالأهمية البالغة للمياه وذلك ارتباطا ببزوغ الحضارة العربية في مواطن شح وندرة مائية وقد قامت حروب داخلية عديدة من أجل الماء ، ونلاحظ حاليا انعدام خطة قومية عربية لتعبئة المياه واستعمالها . هكذا مثلا تقوم دول الخليج بإنفاق أموال طائلة لتحلية ماء البحر ، بينما تضيع مياه شط العرب في البحر .

(13074/1)

... لكن أهم مشاكل الماء في العالم العربي مقدرة دول عالية النيل والفرات ودجلة على التحكم في منسوب هذه الأنهار، الذي تظهره إسرائيل على الماء كما أظهرته على الأرض والذي صار يهدد جيرانها.

...

... أ – المياه والصراع العربي الإسرائيلي :

... تحتل إسرائيل مجالا انتقائيا بين بيئة مطيرة (لبنان) وبيئة جافة في سيناء وشبه الجزيرة العربية، وفي جل أراضي فلسطين الميزان المائي سالب ما عدا في أقصى الشمال الذي يتميز بفائض نسبي يتطلب التخزين، الشيء الذي تمكنه بحيرة طبريا. كما تسمح الطبقة الصخرية بتخزين المقدار

(13075/1)

المائي المستعمل في السهول الغربية والذي تضاف إليه المياه المحولة من بحيرة طبريا.

... والسياسة الإسرائيلية القائمة على استيلاء على الأرض اهتمت كذلك بالاستيلاء على الماء بل سياسة التوسع المجال ناجمة عن العجز المائي وعن إرادة الحصول على المزيد من الماء، وهكذا تم تخطيط العديد من المشاريع منها مشروع كوتون (1954) لاستغلال مياه الأردن

واليرموك حجم الواردات المائية الإسرائيلية 2.1 كم 3 من المياه الجوفية، 0.6 من الأردن والباقي من المسيلات أو الفرشات المالحة. وتطور الاستهلاك من 0.35 م 3 سنة 1949 إلى

(13076/1)

2.1 كم 3 سنة 1985 رغم القيود المطبقة على السكان العرب، استدعى إلى البحث عن مصادر جديدة، وفي هذه الخطة يدخل الاستيلاء على الجولان والجنوب اللبناني، فهضبة الجولان تغذي اليرموك والاستيلاء عليه أوقف مشاريع التوزيع الزراعي العربي، واحتلال جنوب لبنان سمح بالاقتراب من الليطاني ومن تحويل مياهه إلى شمال إسرائيل والمقر ضخ 150 مليون م 3 منه في اتجاه طبريا (كالي ،1991 – خليفة، 1991).

... ب – مياه النيل – التهديدات الحالية ومخاطر المستقبل :

(13077/1)

... ارتفع عدد سكان مصر من 7 مليون نسمة سنة 1880 إلى 54 سنة 1980، ومن المقرر أن تصل ساكنة هذا البلد إلى 108 مليون سنة 2010 بينما الأرض الزراعية محدودة والمياه قادمة من مصادر خارجية، وقد انقد السد العالي مصر والسودان في سنوات الجفاف (1979 – 1987) حيث مكن من الاستمرار في الري. لكن وقت الفيض قد رام، وصارت المشاكل متعددة ومن بينها قلة الماء، وارتفاع ثمن الطاقة الكهربائية بعدما صارت نسبة الطاقة في السد العالي في تقلص (نصف كهرباء مصر سنة 1979 و 20 ٪ فقط سنة 1986) بينما ارتفعت حصة المحطات النفطية

(13078/1)

والغازية (إبراهيم ، 1987).

... ومشكلة مصر مزدوجة : الأرض والماء لأن الهدف رفع مقدار الغذاء للاستجابة للطلب، و هذا يعني سقي مساحات إضافية والسقي يتطلب موارد مائية إضافية.

... سنة 1980 كانت موارد مصر تتلخص في 55.5 كم 3 من النيل عند أسوان، 2.9 كم 3 من الخزان الجوفي و 2.3 من إعادة استخدام المصادر، هذا المجموع يكفي للحاجيات الآنية. والمقرر رفع الموارد إلى 72.4 كم 3 سنة 2000 (

55.5 حصة مصر في أسوان، 9.4 من الخزان الجوفي، 10 من مياه المصارف و 2 كم 3 كفائدة من تشييد قناة جونحلي)، لكن هذه التقديرات لم

(13079/1)

يتحقق منها إلى الآن أي شيء. فقد كان من المفروض الانطلاق في توفير موارد جديدة. لكن العمل بقناة جونجلي توقف لأسباب أمنية. وتسبب التلوث في تحريم استعمال مياه عدد من المصاريف والمياه الجوفية وهكذا لم تتمكن مصر سنة 1990 من توفير سوى 6.7 كم 3 إضافية بينما ارتفع الطلب على الماء الشروب وعلى الماء الصناعي وهذا ما يقف في وجه التوسع المجالي للأراضي المروية. والإشكال يرتبط بالتنمية المرتقبة في دول العالية (زايير، أوغندا ،كينيا، طانزانيا الرواندا، الحبشة) وكلها تعتزم الاستفادة من مياه النهر. فانتهاء قناة

(13080/1)

جونجلي ستصبح حصة مصر من النيل 57.5 كم 3. ولتمديد الزراعة المسقية إلى 11 مليون فدان أي 4.7 مليون هكتار لا بد من الحصول على وارد مقداره 79 كم 3 (باعتبار الحاجيات غير الزراعية)، فإذا تحسنت ظروف الجريان في عالية السودان تمكنت مصر من الحصول على 9 كم 3 إضافية لكن العجز سيبقى رغم ذلك قائما.

... وتقوم إثيوبيا بدراسة إمكانيات استصلاح أراضيها والرفع من حصتها من مياه النيل، الشيء الذي سيحرم مصر والسودان من 5 كم 3 على الأقل، وتتدخل إسرائيل لمساعدة إثيوبيا في هذا المشروع، للضغط على مصر والحصول على تحويل

(13081/1)

لمياه النهر إلى النقب.

... ج –مياه الفرات :الصراعات المحتملة :

... نهر الفرات نهر دولي يجتاز سوريا و العراق قادما من الأناضول . وقد استغلت سوريا والعراق مياهه منذ القديم ، الشيء الذي أعطاه حقوقا تاريخية مكتسبة ، وتصريف النهر يصل إلى 26 كم3 (825 م3 / ث) ويمثل 80 ٪ من موارد سوريا 38 ٪ من موارد العراق . وقد أقام البلدان العديد من السدود والمشاريع الزراعية على هذا

النهر من أهمها سد الفرات وسد الحبانية. إلا أن تركيا ، والتي تعرف تزايدا سكانيا هاما عمدت إلى إنشاء مشاريع تخزين وسقي سوف تعمل على تقليل

(13082/1)

الإيراد المائي للدول الغربية ، والمشكلة تكمن إذن في توزيع الحقوق وتصادم المصالح الحيوية (خليفة ، 1991) .

... الحصة الحالية لسوريا 4,4 كم3 ، للعراق 8,6 كم3 . وحاجيتهما المستقبلية ترتفع إلى ما يعادل 90٪ من مياهه . بينما عملت تركيا على بناء سد أتاتورك الذي سيكون جاهزا قبل نهاية القرن والذي بدأ مفعوله منذ سنتين . هذه المشاريع من المفروض أن تنخفض صبيب النهر بنسبة 400٪ قد أثر على معامل الكهرباء السورية حيث انخفض منسوب الماء مما داعا إلى توقيفها سنة 1990 . ومن المتوقع من الآن عجز مائي خطير في سوريا

(13083/1)

والعراق يصعب حله مادامت الإمكانات المائية محدودة .

خاتمة عامة

... يتزايد استهلاك الوطن العربي للمياه سنويا بنسبة 5 ٪ بينما تزايد التعبئة والاستثمار لا يصل إلى هذا المقدار الذي يعني محليا العجز المائي وفي مجالات أخرى استنزاف ثروات استراتيجية.

... والخطة العربية لإنماء الاقتصاد وخاصة الاقتصاد الفلاحي تقوم على السيطرة على الموارد المائية ، وهذه السيطرة محاطة بمخاطر شتى منها تهديدات داخلية وتقنية (تصحر – تلوث – تملح) ومنها تهديدات دولية أو سياسية (الأطماع الإسرائيلية والخطط التنموية الماقضة

(13084/1)

للمصلحة العربية في الدول الإفريقية وتركيا) .

لقد نشبت صراعات هامة بين الدول التي تجتازها الأنهار الكبرى العربية النيل والفرات ودجلة . ومن المحتمل أن تتحول إلى صراعات ملحة ، لذا فمن غير المعقول أن يستمر الوضع العربي على ما هو عليه من تفرقة و أنانية قطرية . فالتعاون العربي أحسن حل يكفل الاستخدام

الأكثر رشدا للموارد الموجودة ، التوزيع الأكثر عدالة فيما بين الدول العربية ، والبحث الأكثر تنسيقا عن الموارد إضافية ، والموقف الموحد الأكثر ثباتا أمام الأطماع الأجنبية .

المراجع

(13085/1)

– ع.ع . إبراهيم (1987) – استخدام نماذج الأمثلية في إعادة توزيع المياه بين قطاعي الزراعة والكهرباء ، معهد التخطيط القومي ، القاهرة ، ص . 99 .

– ج . بونرنسون (1957) .–الإنسان والنيل ، كالميار ، باريز (بالفرنسية) .

– ج. ف . تروان وآخرون (1985) . – المغرب العربي ، الإنسان والمجال (بالفرنسية) ، آرمان كولان ، 360 ص .

– الحكيم (1982) – أبحاث هدرولوجية ، وهدروكيماوية في بعض الكتل الكارستية المتوسطية (لبنان ، سوريا والمغرب) ، أطروحة الدولة (بالفرنسية) ، إكس آن بروفانس .

(13086/1)

– ن . خليفة (1991) – مياه الشرق الأوسط وحروب العقد القادم ، مجلة الوحدة ، العدد 76 ، صص . 41 – 47 .

– ج . خوري وع . الدروبي (1990) . – الموارد المائية في الوطن العربي ، اكساد، اليونسكو ، دمشق ، 166 ص .

– م . الشويكي (1991) . – " الأمن المائي العربي " ، مجلة الوحدة ، العدد 76 ، صص . 25 – 40 .

– ع . العوينة (1996) . – " التنمية الزراعية والتمدن ، التنافس على الماء في المغرب، حالة المغرب الشرقي " ضمن مؤلف التمدن والزراعة في حوض البحر المتوسط ، نشر لارماطان ، صص . 273 – 282 (بالفرنسية) .

(13087/1)

– عثمان مصطفى نوري (1988) – الماء وسيرة التنمية في المملكة العربية السعودية، تهامة .

– أ .قصاب وم . ستهم (1980) . – جغرافية تونس ، منشورات كلية العلوم الإنسانية – تونس .

– إ كالي(1991) – المياه والسلام ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ،168 ص .

– ج . الكسان (1991) . – " الثورة المائية " ، مجلة

الوحدة ، العدد 76 ، صص . 113 – 121.

– المجلس الأعلى للماء (1990) . – إعداد الأحواض المائية وحماية السدود من التوحل ، الرباط ، 78 ص . (بالفرنسية) .

(13088/1)

– المنظمة العربية للتنمية الزراعية (1981) . – برنامج الأمن الغذائي العربي ، الموارد الطبيعية، الخرطوم .

– مركز البحوث والدراسات المائية (1989) .– مؤتمر الموارد المائية للدول العربية وأهميتها الإستراتيجية ، الجامعة الأردنية – عمان .

– ت . ناف ور.د . ماتسون (1984) . – الماء في الشرق الأوسط ، مركز البحث حول الشرق الأوسط – جامعة بانسلفانيا – (بالإنجليزية) .

(13089/1)

مشاهدات رحالة مغربي : أوضاع الشرق العربي عام 1938

... ولد الفقيه العلامة الصديق الشدادي عام 1310 هـ

بمدينة الرباط، ونشأ بها في رعاية والده (محمد الشدادي) الذي كان من الطلبة الذين وجههم المولى الحسن إلى أوروبا للدراسة بمعاهدها العسكرية والوقوف على أسلحتها المتطورة ، وعندما عاد إلى المغرب انخرط في سلك الجندية وتدرج في مراتبها . إلى أن أصبح (قائد الرحا) وبحكم النشأة العسكرية، عمل الصديق الشدادي في شبابه في الجندية وظل بها إلى أن فرضت الحماية الأجنبية على المغرب عام 1330 هـ/1912 م .

(13090/1)

... قام العلامة الصديق الشدادي برحلة إلى الديار المقدسة لأداء مناسك الحج والعمرة دامت نحو الأربعة أشهر (من قعدة عام 1356 إلى صفر عام 1357) الموافق (يناير – أبريل 1938) .

... ومن بلاد الحجاز بالمملكة العربي السعودية توجه إلى العراق وزار النجف وكربلاء وبغداد ومنها إلى دمشق فمدينة القدس عبر القنيطرة وطبرية والناصرة ونابلس ، كما زار مدينة بي تلحم ومدينة إبراهيم الخليل . ومن القدس قصد بيروت مرورا بمدينة حيفا وعكا وصيدا . وفي بيروت ركب البحر عائدا إلى المغرب .

(13091/1)

... من الملاحظات الهامة التي تثير انتباه الدارس لمذكرات العلامة الشدادي :

... – حرصه على زيارة العواصم الرئيسية في المشرق العربي (القاهرة – مكة – المدينة – بغداد – دمشق – القدس – بيروت) التي كانت مركز الانبعاث الثقافي القومي والإسلامي ومنطلق الأحداث السياسية ضد الاستعمار الفرنسي والإنكليزي وضد الهيمنة الصهيونية بفلسطين .

... – التركيز على الجانب التعليمي والثقافي والإشادة بأعلام الفكر العربي الإسلامي (بناة النهضة الحديثة) ويدخل في هذا الجانب أحوال التعليم الأصيل ودور المساجد في بث اليقظة

(13092/1)

والوعي والمكانة التي أصبحت للجامعة وكلياتها المختلفة الدينية والأدبية والعلمية وفق مناهج البحث العلمي الحديث .

... – الوقوف على الأحوال السياسية لأقطار الشرق العربي

:

... 1 – أنماط الحكم – الحكومات العربية – الوزارات والإدارات ...

... 2 – الحدود المصطنعة التي فرضها الاستعمار وقسم بموجبها بلاد الشرق العربي .

... 3 – ما يعانيه العرب من الاحتلال الأجنبي الفرنسي والإنكليزي .

... 4 – تطور المواجهات العربية – الصهيونية بفلسطين .

(13093/1)

... ومن جهة أخرى أولى الفقيه الشدادي الجانب العسكري في بعض أقطار الشرق العربي عناية خاصة وذلك راجع إلى تربيته العسكرية وإلى ما كان يرى ضرورته لمواجهة الاحتلال الأجنبي .

... إلى جانب الوقوف طويلا عند الماضي التاريخي لأقطار الشرق العربي سواء في عهودها القديمة أو خلال التاريخ العربي الإسلامي . وأخيرا حرص العلامة الصديق الشدادي على نقل عدد من الكتب المتعلقة بموضوعات دينية ولغوية وفقهية وفي التاريخ والجغرافيا والحساب

وغيرها وأقر تدريسها في مدرسته (بالزاوية المعطوية) بالرباط .

(13094/1)

... من الأقطار العربية التي زارها العلامة الصديق الشدادي في الشرق العربي :

... 1 – في بلاد مصر

... ° زرنا مجلة الفتح لصاحبها خطيب الدين يجاور السيدة زينب رضي الله عنها .

... ° كما زرنا مجلة الإسلام لصاحبها أمين قرب العتبة الخضراء وزرنا أيضا الجامعة وبها كليات متعددة واجتمعنا برئيس الكلية الأدبية الأستاذ طه حسين .

... ° وزرنا المعهد الأزهري النظامي واجتمعنا بالأستاذ أحمد أمين صاحب " ضحى الإسلام " .

(13095/1)

... ° والأستاذ الخولي وجدناه يدرس " ديوان " ابن الرومي ، والأستاذ الشاذلي يدرس " الشعر والشعراء " لابن قتيبة .

... 2 – في بلاد العراق

... غادرنا المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام على الساعة (9) عصرا يوم الأحد 11 محرم الحرام سنة 1357 على متن السيارة قاصدين مدينة النجف أولا فبتنا بمحطة الحنك وهي محطة بها نخيل وزروع ثم رحلنا صباح غد فقلنا بمحطة ذي الخليفة وهي محطة بها نخيل كثير وزرع أيضا ثم بتنا بمحطة يقال لها الغزالة ومنها صباحا إلى القرية الكبيرة المسماة بحايل تابعة لحكومة ابن

(13096/1)

السعود أميرها من كبار أصحابه يقال له عبد العزيز بن سعيد من أكابر الكرماء لا يجلس للحكم إلا بعد أن يقرأ بين يديه قارئ شيئا من البخاري . دخلنا هذه القرية قرب زوال يوم الثلاثاء 13 من شهره فدخلنا إلى داخل البلد في صحبة رفيقي الفقيه العلامة النبيل السيد علي بن محمد الكردي المديني ثم الشامي ذهبنا إلى دار صاحب له يقال له علي بن عبد العزيز الحايلي بنا وفرح زائدا والحمد لله وأكرمنا . والبلدة المذكورة تشتمل على مدرسة سعودية حكومية أسست عام 1356 بها نحو 500 تلميذ يقرأ فيها القرآن وتدرس فيها العلوم

(13097/1)

الابتدائية مديرها مصري عبد الخالق عامري ، وبها أسواق كبيرة على الطراز العربي القديم بها دكاكين فيها حرف وبها دكتور فريد السبكي المصري وآخر محمد إسماعيل كنزري من المدينة المنورة ، وبها من المساجد نحو الأربعين ولكن ليس للجمعة منها إلا واحد بها آلة برقية لا سلكية زرناها صباح يوم الأربعاء أسست سنة 1351 يرأسها هاشم خليفة المدني وقد أقمنا بالبلدة المذكورة نحو اليومين ثم سرنا الخميس والجمعة وبتنا مقيمين وقتا لانتظار بقية القافلة ورحلنا منها يوم الأحد صباحا وبعد الزوال وصلنا إلى حدود العراق فوجدنا

(13098/1)

الدليل في انتظارنا ومعه مدرعة رشاشة ثم صرنا نحو الساعة فوجدنا خيما مضروبة وفي إحداها مفوض العراق فسرح لنا على الباسبورات بعد أداء سبعمائة فلس (ربع دينار) وبتنا هناك وقمنا صبيحة يوم الاثنين 19 من شهره وسرنا مشيا حثيثا من الساعة الواحدة صباحا إلى التاسعة فوصلنا إلى محطة يقال لها الرحبى فوجدنا

بها خيما للدكاترة لاختبار صحة الحجاج وعلى الساعة العاشرة دخلنا النجف ونزلنا بفندق الحاج قاسم العربي بالسوق الكبير حول الحرم العلوي بثلاثين فلسا وزرنا قبر الإمام على رضي الله عنه وعليه قبة عجيبة داخلها

(13099/1)

وأعلاها وما حولها ومناراتها كل ذلك من الذهب وداخلها أيضا كله من زجاجات البلور مكتوب على الباب الخارجي : خير البشر بعد رسول الله الإمام علي .

... وفي داخل القبة تاج بعض الملوك كله مرصع وفوق قنديل مرصع . وزرنا الكوفة يوم 20 وشاهدنا مسجد الإمام علي الكبير وفيه عدة مقامات : مصلى علي ومحراب للنبي ومحراب لجبريل وآخر لآدم ومصلى نوح والتنور الذي قال فيه الله : (وفار التنور) . وفيه مقام مسلم بن عقيل بن أبي طالب وقبر هانئ بن عورة وقد زرناهما ودخلنا إلى داخل البلد وفيها سكان يبلغون نحو العشرة آلاف وفيها

(13100/1)

عشرة مساجد للجمعة منها اثنان والسكان خارج البلد يبلغون نحو العشرين ألفا وفي داخلها أسواق وصناعات وزرنا بها ضريح نبي الله سيدنا يونس عليه السلام وهو على شاطئ الفرات وعليه كثير النخل تسقى منه ، وفي النجف مدرسة أهلية يبلغ عدد تلاميذها 500 ، تدرس بها اللغة العربية والعلوم العصرية واللغة الإنجليزية .

... وفي مساء الثلاثاء 20 منه سافرنا على متن السيارة قاصدين كربلاء وبينها وبين النجف 75 فدخلناها بعد الغروب ونزلنا بأعلى فندق منها وهو فندق شاطئ الفرات وزرنا بها مقام سيدنا الحسين وهو مقام رفيع قبته من

(13101/1)

ذهب وواجهته كلها مرصعة بالذهب وكل داخله مرصع بمرآة البلور وبداخله مقبرة كبيرة للشهداء (72) الذين استشهدوا مع سيدنا الحسين رضي الله عنه به محل استشهاده رضي الله عنه وبه فيمحل سفلي وبداخله مدفنه ومحراب كتب فوقه (وهزي إليك بجدع النخلة) .

... كما زرنا أيضا ضريح العباس بن علي كرم الله وجهه هناك وله قبة بهيجة مذهبة وخرجنا من البلدة

المذكورة نهار الأربعاء ، واكترينا بمبلغ 130 فلسا في السيارة الصغيرة ، قاصدين بغداد فمررنا على قرية المسيب ثم قرية تسمى الإسكندرية ثم أخرى تسمى المحمودية وبين البلدين

(13102/1)

من عدد الكيلومترات 113 .

... وحللنا ببغداد عند العصر يومه ونزلنا بمنزل المتنبي بشارع الرشيد الكبير وللبلدة المذكورة منظر بهيج وشكل بديع وقد زرنا بها ضريح مولاي عبد القادر الكيلاني ومدير الحضرة الكيلانية هو سيدي محمد سعيد القادري ، وبداخل الضريح المذكور مسجد كبير تقم فيه الجمعة أديناها فيه بتاريخ 23 من الجاري أمامه حنفي وبداخل هذا المسجد مسجد آخر رتب له إمام شافعي يصلي معه الشافعية وخارج الضريح بالصحن عدة بيوت لإقامة الغرباء من الهند والأفغان والمغاربة لهم خراج خاص لمأكلهم .

(13103/1)

... وقفنا في بغداد على ضفة دجلة على آثار مدرسة قديمة من إنشاء العباسيين كتب على جدرانها :

... (ما شاء الله ، بسم الله الرحمن الرحيم ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير إلى (المفلحون) قد كان إنشاء هذا البناء في زمن خلافة عبد الله أبي جعفر المنصور المستنصر بالله العباسي في سنة ثلاثين وستمائة وقد تجدد تعميره في زمن خلافة ظل الله في سنة 1282) .

... وقد اندرست ساعته وما بقي من الآثار الباقية إلا أطلال بالية وبني محلها سوق كبير وصارت أرضها معدة لوضع ما يرد من السلع لأجل أداء الجمرك كما وقفنا على مسجد

(13104/1)

من آثار العباسيين يقال له جامع مرجانة .

... وزرنا ضريح سليل رسول الله مولانا موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومعه سيدنا محمد الجواد بن الرضى وهو مقام عظيم عليه بناء عظيم به قبتان كل واحدة مموهة بالذهب وأربع مآذن كلها موهت بالذهب وداخل القبتين والمسجد الحائط بهما كل سقوفه مرصعة بالزجاجات البلورة والحاصل أنه مقام تحار فيه الأنظار

ويقف دونه القلم والألباب وأهل هذه القرية وهي على ضفة الدجلة كلهم شيعة وله بلاط كبير به من الأقواس 86 وله أبواب ستة

(13105/1)

.

... وفيه زرنا ضريح مولانا الإمام الأعظم النعمان أبا حنيفة رضي الله عنه وهو بقرية على ضفة دجلة وضريحه رضي الله عنه داخل مسجد عظيم تعلوه مهابة تقشعر منها الجلود والمسجد المذكور تقام فيه الجمعة وله قبة عظيمة محاطة بعمل السواري ومكتوب على محرابه : (فتقبلها ربها بقبول حسن) إلى (بغير حساب) وعن يساره لوح كتب فيه : لو كان العلم معلقا عند الثريا لناله رجال من فارس . وزرنا يوم السبت 24 منه ضريح مولانا الغزالي وله قبة صغيرة بمقبرة باب الشيخ وهناك قبر شهير يقال له جمال وآخر يقال له صاحب الزمان، وفيه

(13106/1)

زرنا مقام سيدي معروف الكرخي وفي مقبرته الكبرى ضريح السيدة زبيدة زوج الرشيد أم البنين .

... 3 – في بلاد الشام

... وكان وصولنا إلى الشام على الساعة التاسعة يوم الثلاثاء 27 فنزلنا وذهبت للمسجد الأموي فشاهدت ما يدل على عظمة سابقية الإسلام أن به منظرا يحار فيه البصر ويطمئن له الخاطر ويثلج له القلب به بلاطات ثلاث كل واحد يشتمل على أقواس وعرض كل قوس خمسة مترا و بصحنه الأول محاريب أربعة أو سطها منقوش داخله بالصدف والرخام والمرمر وجدران هذا الصحن في القبلة كلها مرخمة بالرخام والمرمر وجدران هذا الصحن في

(13107/1)

القبلة كلها مرخمة بالرخام الذي هو أشد بياضا من الثلج مع تحسينات تحار فيها الأبصار وكل ذلك يدل على عظمة ملوكها يرحمهم الله . وبداخله ضريح سيدنا يحيى عليه السلام قبة جميلة جدا وفي بلاطه ثلاثة وعشرون قوسا وعرض 9 م زرت سيدنا ومولانا الختم الأكبر والعلم الأشهر سيدي محيى الدين بن العربي صاحب "الفتوحات الملكية " له قبة مدهشة مهابة وعظمة ووقار وكتب عند جدار رأسه (بسم الله الرحمن الرحيم ، (ادع إلى

سبيل ربك بالموعظة إلى (المهتدين) . هذا قبر العبد الفقير إلى الله عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أحمد

(13108/1)

بن العربي الطائي الحلبي رضي الله عنه وأرضاه ، توفي في سحر ليلة الجمعة ثاني وعشرين ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد) .

... ومن جهة الجوف ضريحان لنجلي الشيخ رضي الله عنهم : سعد الدين نجل محيي الدين توفي 663 عماد الدين توفي 653 وبه ضريح الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله وبه مسجد للجمعة متوسط. كما زرنا أيضا يومه الشيخ عبد الغني النابلسي رضي الله عنه وبه مسجد الجمعة أيضا وهو بالصالحية أيضا .

(13109/1)

... وفي يوم الثلاثاء المذكور زرنا على يد رجل صالح لقيناه يسمى الشيخ محمد الحمصي مسجد أهل الكهف على جبل قاسيون فدخلنا المسجد وتبركنا به والحمد لله وبداخله قبر سيدنا محمد بن الحنفية بن الإمام علي رضي

الله عنه . وفيه زرت محمد الأيوبي بحارة الأكراد أحد قواد الجيش المستشهدين في حرب الصليب وحذاءه قبر أخيه صالح الأيوبي من المفتين .

... وفي يوم الأربعاء 28 زرنا قبر سيدتنا رقية بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وفي هذا اليوم حظينا بزيارة السلطان الأعظم صلاح الدين الأيوبي ووجدت فوق ضريحه لوح عليه صورة

(13110/1)

وكتب أسفلها : (قف باحترام أمام مرقد بطل الإسلام العظيم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب شادي ولد رحمه الله في قلعة تكريت سنة 532 هـ استتب له الملك والسلطان على مصر والشام نحو العشرين سنة إلى أن توفي بدمشق سنة 589 هـ ودفن بالقلعة ثم نقل إلى هذه البقعة التي تفتخر بضم تخاليده رحمه الله وأجزل ثوابه ، وإلى جنبه ضريح وزيره عماد الدين) ..

... واجتمعنا بمقدم زاويته الشيخ الصديق الجزائري في رياض الضريح المذكور .

(13111/1)

... وفيه زرنا مدفن رأس سيدنا الحسين رضي الله عنه وهو بداخل مسجد الأمويين وعليه قبة يعلوها خشوع ورهبة .

... وفي يوم الأربعاء زرنا دار الحديث التي كان يدرس فيها النووي وابن الصلاح وحظينا فيها بزيارة الشيخ محمود بن رشيد العطار أكبر شيخ بالدار المذكورة وهو من تلامذة الشيخ بدر الدين المرحوم الذي درس في هذه الدار ما ينيف على خمسة وسبعين سنة وعمره 88 عاما وقد أجازني الشيخ محمود المذكور بإجازة بسنده إلى الشيخ المذكور بجميع العلوم العقلية والنقلية فالحمد لله على ذلك ، كما حظينا أيضا في هذه الدار

(13112/1)

المذكورة بوكيل الشيخ المرحوم ومعتمد العلماء الأحياء هنا الشيخ محمد يحيى المكتبي .

... وفي يوم الجمعة 30 منه خرجنا صباحا إلى النزهة وتمتيع الطرف بموضع يقال له (دمر) خارج البلد وبه من البساتين والمناظر الحسنة ما يستلفت الأنظار وتطيب بها القلوب والأبصار ، وفي وقت الجمعة رجعنا وأديناها بالمسجد الأموي وخطب خطبة موضوعا دعاء الأمة إلى العمل بالدين فأجاد وأحسن ثم بعد الفراغ حظينا بزيارة هذا

الخطيب الجليل وهو الشيخ عبد الرحمن الخطيب من آل الخطيب عائلة كلها علماء وأجلاء حفظهم الله ، ومن ثم ذهبنا إلى

(13113/1)

ضيافة مولانا الشريف الجليل الفقيه السيد المكي الكتاني ففرح بنا وأكرمنا إكراما جميلا .

... وذهبنا إلى زيارة أهل التحقيق الفقيه العلامة رئيس المجلس العلمي التشريعي سيدي علي الدقر رضي الله عنه فاجتمعنا به ونلنا فيه غاية البشاشة والبرور واستجزناه فأجازنا بجميع مستنداته ومقروآته ولا سيما من طريق الشيخ بدر الدين بن يوسف البياني المغربي رحمه الله ، ثم ذهبنا عند المغرب إلى ضريح الولي الصالح خاتمة الأولياء سيدي محيي الدين بن العربي وقامت هناك حلقة الذكر وكان يعلوها من الأنوار والمهابة ما تطمئن له النفوس

(13114/1)

والحمد لله .

... وفي يوم السبت وقفنا على معمل الملف وكنا رأينا من قبل معمل الزجاج وكيفية استخراجه ورأينا الرحا التي تدور بالماء ورأينا في اليوم المذكور باب شرقي وهو الباب الذي كان دخل منها سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وفي اليوم نفسه زرنا ضريح الولي الصالح أرسلان حامي الشام .

... وفي يوم الأحد 2 صفر زرنا مدرسة الهداية ابتدائية وعدد تلامذتها نحو الثمانين ومديرها محمد سعيد البخاري هاجر من بخارى هو وأخوه محمد علي وأبوه وبعدها خرجنا إلى المهاجرين وهي حارة مرتفعة عن الشام بها منظر يشرف على

(13115/1)

الشام وبساتينه وصرفنا هناك سويعات تمتعنا فيها بذلك المنظر الطبيعي الجميل وفي المساء خرجنا في صحبة سيدي المكي الكتاني إلى النزهة في بستان جميل إلى عربين وهو منظر جميل أيضا فالحمد لله على ذلك .

... وفي صباح يوم الاثنين 3 زرنا الفقيه العلامة المحدث المشارك سيدي أبي الخير الميداني بالمكتبة الأجرية

مدفن صاحب " التصانيف الأجرية " المتوفى سنة 860 وأهداني مختصر "كتاب السعادة " لمؤلفه الحافظ الشهير السيد محمد أمين الخروطي ، وفيه زرنا المدرسة التجارية العلمية مديرها السيد محمود وشريكه الشريف الشيخ مراد

(13116/1)

وتلاميذته ثلاثمائة ثم دخلنا لزيارة الفقيه العلامة وأكبر الفهامة المشارك المطلع الشيخ سيدي هاشم الخطيب حفظه الله فألفيناه بحرا ضخما له إطلاع كبير في العلوم وأكرمني وأجازني .

... وبعده في اليوم المذكور خرجنا إلى النزهة في بستان به مناظر حسان مع جماعة ذوي إحسان واجتمعنا فيه بذي الفضل والكرامة وزرنا الفقيه العلامة الشيخ محمد الكافي التونسي وشيخ القراء محمد الحلواني ، وشيخ الطريقة السيد االهاشمي التلمساني وجماعة من الفضلاء النبلاء مادحي الرسول عليه من الله أزكى التحيات .

... 4 – في بلاد فلسطين

(13117/1)

... وفي يوم الخميس 6 صفر 1357 خرجنا على الساعة الثامنة ونصف صباحا من دمشق إلى القدس على متن السيارة اكريناها بمبلغ 56 فرنك ومنه إلى بيروت 56 أيضا ، ومررنا في طريق القدس على جبل الشيخ وكله ثلوج مرت فيه السيارة نحو الساعتين ومنه إلى محطة القنيطرة وحولها من الحرث و الزرع ما يسر الخاطر ، ثم منه إلى محطة بنات يعقوب نقطة جمرك وحولها وادي الشريعة وبها زروع وهي حدود سوريا ثم جاعون قرية يهودية وحولها أيضا زروع وغرس كثير وعمائر وبها جمرك فلسطين ولا أنسى ما قاساه الركاب أصحاب الأغراض من شدة التفتيش ثم

(13118/1)

بعده محطة طبرية وقبلها بساتين فيحاء وعرصات أزهارها طافحة تطيبنا برائحتها حمدا لله وبها جبال كلها زرابي مبثوثة كأنها من جنة الخلد منقولة ثم لمجادلة وهي قرية صغيرة ذات بهجة ثم مدينة ناصرة وهي ذات منظر جميل وموقع بهيج وفيها انتقلنا إلى سيارة أخرى ثم إلى مدينة نابلس وهي مدينة عظيمة يكتنفها جبلان يسكنها العرب وعند الساعة السادسة مساء دخلنا القدس المعظم فقصدت المسجد الأقصى

فقابلني شيخ المسجد الشيخ العابد والتقي الزاهد من لا يفتر عن ذكر الله تعالى السيد فائد الأنصاري وعنده نزلت وذلك والحمد لله من حسن

(13119/1)

ضيافة الله لي .

... وفي صباح يوم الجمعة أديت الفريضة في قبة الصخرة ودخلنا لزيارة المسجد والطواف بأمكنته الشريفة فبدأنا أولا بالدخول من الباب الشمالي ويقال له باب الجنة أمامه أسطوانتان وأمامه في أرضه السفلى مقام سيدنا سليمان الذي بقي فيه حين موته عليه السلام المشار له بقوله تعالى : { لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين } وهناك قبة ضخمة مبنية على الصخرة المعلقة التي عرج منها النبي – صلى الله عليه وسلم –والذي بناها هو عبد الملك بن مروان سنة 72 من الهجرة ويحيط بالصخرة (دربوز) كبير

(13120/1)

وبداخله محاريب لسيدنا سليمان وآخر يقال إن النبي – صلى الله عليه وسلم – صلى فيه وهو قبلته الأولى وآخر لسيدنا إدريس عليه السلام ، والصخرة المذكورة وفوقها من جهة أطرافها أقدام مرسومة يقال إنها أقدام النبي – صلى الله عليه وسلم – وفيها آثار أصابع يقال إنها لجبريل أمسكها ليلة الإسراء لخوف سقوطها ويقولون إن هذه الصخرة معلقة ويوجد في أسفلها جدار يحيط بها بناه العربي الحاتمي رضي الله عنه وتحت الصخرة ينزل له بدرج وإذا استقبلت يكون عن يمينك محراب ينسب لداود عليه السلام وطاف ينسب لإبراهيم وعن اليسار محراب

(13121/1)

ينسب لسليمان و مقام في الداخل ينسب للخضر عليه السلام وفي وسط الصخرة فوهة كبيرة يقال إنها محل المعراج ، وفي داخل الدربوز المذكور حول الصخرة المذكورة محل يقال إن فيه شعرتين للنبي – صلى الله عليه وسلم – ومحل أسفله يقال فيه قدم النبي – صلى الله عليه وسلم – ولقبه المذكورة أبواب أربعة وللحرم كله أبواب 10 وله أربع منارات وهناك قبة المعراج وقبة محراب النبي عليه السلام صليت فيها والحمد لله

ومن حسن السعد أن التقينا بالرحالة فدلنا على المحل الذي ألف فيه الغزالي " الأحياء " . ثم زرنا بعد أداء الجمعة

(13122/1)

بالأقصى جدار المبكى الذي يحج إليه اليهود حيث رباط أبي مدين دفين تلمسان ثم زرنا كنيسة يسمونها القيامة بداخلها قبر يزعمون أنه لعيسى وصورة إزاءه من الوجهة الأخرى لمريم عليها السلام.

... ودخلنا للمسجد الأقصى وشاهدنا به محرابا عظيما بناه صلاح الدين الأيوبي ومنبره أهداه بعض الأجلة للسلطان المذكور ويقال إن عمر صلى به ، وشاهدت خارج المسجد مدارس وشوارع قديمة من أثر صلاح الدين الأيوبي زفيه مكتبة يوجد بها من الكتب (5000) توجد مدرسة أصلية واحدة يقال لها روضة المعارف وفي المساجد مدرسون منهم محمد سعود

(13123/1)

العوري ، الشيخ موسى أفندي البودري ، فضيلة الشيخ أفندي الخالدي نسبة إلى سيدنا خالد بن الوليد وهو من أكبر المؤرخين ومنهم فضيلة المفتي الأكبر والشيخ الأشهر محمد أمين الحسيني انتقل إلى بيروت وفي معيته الشيخان فضيلة الشيخ حسن أبو سعود وفضيلة الشيخ موسى لأفندي العذراوي . والسيد فائق الأنصاري أكبر شاعر ومن فطاحل شعراء فلسطين إسعاف بك النشاشيري .

... سكان فلسطين مليون وربع اليهود أربعمائة المسيحيون مائة ألف . قلعة داود وسليمان أساسها في الأرض 10 أمتار . بين البلد والخليل 36 كيلو . في جبل الطور شاهدنا

(13124/1)

المقام الذي رفع الله منه عيسى عليه السلام وعليه قبة صغيرة وبقربه قبة بأسفل ينزل بها بالدرج بها قبور ثلاثة : محمد العلمي ، سليمان الفارسي ربيعة البصرية العدوية . كلية اليهود كبيرة ومستشفيات لهم .

... جبال التيه تبتدئ من الطور وتنتهي إلى مدين به مقبرة لشهداء الحرب ، أبعدت الحكومة من المسليمن 5000 إلى قرب حيفا . جنود الإنكليزيين 50000 . مدينة

بيت لحم أكثر سكانها من العرب المسيحيين وقليل من المسلمين وشاهدنا فيها أعظم كنيسة في العالم فيها محل ولادة عيسى والنخلة والمهد ، والكنيسة المذكورة يقال لها

(13125/1)

كنيسة المهد .

... مدينة إبراهيم الخليل بها وبقراها سبعون ألفا من المسلمين لا يوجد بها يهود ولا مسيحيون لا زالت على عهدها القديم منذ زمان سيدنا إبراهيم ، مسجد الخليل بناه سليمان عليه السلام وبيسار بابها الغربي جدار ويجم إليه اليهود وبه غار قبر الخليل ويقابله قبر سارة ولكل منهما قبة عند باب المسجد ، ثم قبة قبر إسحاق وإزاءه قبر زوجه وزوج سيدتنا رفقة أم يعقوب وإزاءه زوجه السيدة لائقة وزوجه رحيل عند طريق بيت لحم وفي الغرب في مؤخر المسجد قبر يوسف عليه السلام وكل القبور دفنت بداخل غار تحت المسجد وقد

(13126/1)

شاهدنا باب المغارة طولها 55 م وعرضها 33 م .

... منبر المسجد كان في مدينة عسقلان بغزة من أعمال فلسطين في مشهد الحسيني ثم نقله صلاح الدين الأيوبي إلى مسجد الخليل سنة 584 هـ وعشية الجمعة زرت المكتبة مديرها محمد أمين الأنصاري رضي الله عنه عدد الكتب ينيف على سبعة آلاف وأقدام كتاب عندهم " ملخص الموطأ " للقابسي من سنة 418 هـ

... تأسيس المكتبة سنة 1318 هـ

... وفي يوم الجمعة 7 صفر كانت المناداة على موسم سيدنا موسى عليه السلام اجتمع الجمهور بعد صلاة الجمعة في قاعة من ساحة المسجد وحضر الحاكم الأجنبي

(13127/1)

وجماعة من العسكريين مع الموسيقى ووقعت المناداة على الموسم المذكور ، ولهذا الموسم سبب وهو أن النصارى يحجون في يوم معين من السنة إلى الكنيسة الكبيرة هناك ويجتمع منهم ما يزيد على ثلاثين ألفا ففكر في ذلك صلاح الدين الأيوبي وقال من الجائز أن يقضوا على المسلمين بالذبيحة والقتل في هذا اليوم ولا قوة للمسلمين ورأى أن يتخذ المسلمون موسما في مثل يوم موسمهم فأمرهم باتخاذ الموسم المذكور في يوم

حج النصارى وبقي من ذلك الوقت إلى يومنا هذا . وفي ويوم السبت 8 منه ذهبت صباحا إلى زيارة سيدنا داود عليه السلام تقبل

(13128/1)

الله منا ذلك . وعلى الساعة الثامنة صباحا منه سافرنا إلى بيروت وعلى الساعة 12 وصلنا إلى حيفا وأديت الفريضة في مسجد الاستقلال هناك فيه منظر جميل ثم عكا صيدا .

... 5 – في بلاد لبنان

... وفي يوم الأحد 9 صفر دخلنا إلى بيروت ونزلت عند الحاج إبراهيم الكنوني وفي يوم الاثنين زرنا كلية الشريعة الإسلامية والتقينا فيها بالأستاذ علي طنطاوي وسمعناه يقرأ في موضوع المكاتب المصرية ويشرح عدد ما وجد فيها من الكتب العلمية وهو مبحث لطيف ثم زرنا الفقيه العلامة الشيخ محمد العربي الزرهوني العزوزي المغربي ودعانا للفطور

(13129/1)

عنده ...

... مدارس بيروت – كلياتها . المقاصد الخيرية الإسلامية للبنين وبها تسعمائة تلميذ تحضيري وابتدائي وثانوي يدرس فيها القرآن والعلوم العربية بجميع فروعها والعلوم الدينية الأكحامية واللغة الإفرنسية بجميع فروعها يرأسها الوجيه عمر بك الداعوق رئيس غرفة التجارة وعميدها .

... ثم كلية البنات التابعة للجمعية المذكورة وبها ألف ومائة تلميذة يدرس بها العلوم المشار إليها وترتيب المنازل والإقامة بشؤونها والأعمال اليدوية .

(13130/1)

... ورواتب المدرسين في هاته المدرستين ستمائة فرنك سنويا . وللجمعية المذكورة أربع مدارس للبنين في مدينة بيروت وفي كل منها 700 مجانا ولهم أربع مدارس للبنات مجانا أيضا : خديجة الكبرى ، فاطمة الزهراء ، عائشة أم كلثوم . ولها مدارس في الجبال اللبنانية عددها 56 كلها على نفقة الجمعية وجميع ما تنفق هذه الجمعية سنويا خمسون ألف ليرة ذهبية تساهم فيها الأمة الإسلامية البيروتية كما لها أوقاف تستثمرها لأجل القيام بما ذكر .

(13131/1)

... وللمسلمين مدارس أخرى أهلية تبلغ نحو العشرة أكبرها الكلية العباسية الإسلامية تدرس بها العلوم العصرية وقد تخرج منها عدد كبير من رجال البلاد وغيرهم ومديرها ساعته كمال عباس بن مؤسسها الشيخ عباس الأزهري .

... وفي كلية عظمى حكومية للطلب بأنواعه وفيها أيضا الجامعة الأمريكية الكبرى يتخرج منها الأطباء والمهندسون والصيادلة والمحامون والمدرسون ولها بنايات عديدة في غاية الإتقان والتنميق وعدد تلاميذها ألف وخمسمائة وبداخلها مستشفى عظيم يتداوى فيه الفقراء مجانا .

(13132/1)

... وهذه المدرسة لها اعتناء خاص باللغة العربية وهي تستمد من محسني الأمريكيين وقد تخرج منها كبراء وأجلاء وبها متحف شاهدنا فيه عجائب وغرائب من الآثار القديمة معدنية وغيرها ومنها ما له ألفا سنة قبل المسيح وفيه غرف جامعة لأنواع الحيوانات محفوظة في

جلودها .

... ومنها كلية الآباء السيوعيين مسيحية تدرس فيها العلوم العليا من الطب والهندسة وحقوق لها مطبعة عربية .

... ويبلغ عدد الكليات نحو العشرين والجامعات نحو الأربعة وعدد مدارسها نحو المائتين وعدد الأمة اللبنانية المذكورة مليون إلا ربع والمسيحيون أكثر

(13133/1)

إقبالا على العلم ماديا وأدبيا وذلك عائد إلى الامتيازات التركية القديمة .

... العلماء المشتهرون :

... مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ محمد توفيق خالد قاضي القضاة العلامة الأديب الشاعر المربي الشيخ مصطفى العلايلي صاحب المؤلفات العديدة . الشيخ أحمد المحمصاني بقية السلف . الشيخ محمد البربير . الشيخ عبد الباسط الأنسب .

... ومن الشبيبة الناهضة الأستاذ عبد الله العلايلي ، أعظم كاتب في بيروت عمر أبو النصر صاحب مجلة " الحرب العظمى " إلياس حرفوش صاحب " صحافة الحديث " . صاحب جريدة " النهار " جبران أتويني .

(13134/1)

... من كبر الكتاب محيي الدين النصولي صاحب جريدة " بيروت ".

... في الساعة 11 وربع من نهار يوم الخميس 13 صفر الخير ركبنا الباخرة (مريت باشا) قاصدين مارسيليا فوصلنا إلى حيفا على الساعة الرابعة ونصف وأقمنا نحو الساعتين ووقفنا في الإسكندرية نحو العشرين ساعة ووصلنا مرسيليا يوم الأربعاء 19 في الساعة 12) .

(13135/1)

مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتابه المخطوط

"الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم"

866 ـ 871 هـ/ 1462 ـ 1467 م

... ... الدكتور عمر عبد السلام تدمري

... ... الجامعة اللبنانية ـ طرابلس

... يحفل تراث أمتنا بكمٍّ هائل من كتب التاريخ والرحلات

والبلدان وغيرها، منها المطبوع، ومنها ما هو مخطوط لم يُنشر حتى الآن.

... وفي هذه الدراسة أتناول مخطوطاً في التاريخ والتراجم. وفي ضمنه رحلة قام بها مؤلفه إلى بلاد المغرب والأندلس استغرقت نحو ست

(13136/1)

سنوات (من سنة 866 حتى 871 هـ/ 1465 حتى 1467 م).

... والكتاب في الأساس يؤرخ لحقبة مهمة من عصر المماليك في القرن 9 هـ/ 10 م في مصر والشام؛ كما يؤرخ لبلاد المغرب والأندلس على عهد الحفصيّين، وبني مرين وبني الأحمر قُبَيل سقوط غرناطة وضياع الأندلس من المسلمين.

... وسأتناول من المخطوط الصفحات الخاصة بوصف بلاد المغرب والأندلس، والأخبار والوقائع التي جمعها مؤلفه وشاهدها خلال رحلته وتنقله بين البلاد من أجل التجارة من جهة، ولقاء العلماء والأدباء والأمراء وتأريخ الحوادث والأخبار من جهة أخرى.

(13137/1)

... ولكن، في البدء، لا بدّ من تعرّف المؤرخ الرحالة. فهو:

»أبو المكارم زين الدين عبد الباسط بن أبي الصفاء غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري المَلْطيّ الحنفيّ«.

... كان جدّه شاهين تَتَرِيَّ الأصل، من مدينة سراي ببلاد القفجاق، وأصبح من مماليك السلطان الظاهر برقوق.

ولهذا يُعرف بالظاهري، وتولى نيابة بيت المقدس في أواخر دولة الناصر فرج بن برقوق. توفي سنة 834 هـ/ 1431 م.

... ووالده خليل هو المؤرخ المعروف صاحب كتاب "زُبدة كشف الممالك" المطبوع، وغيره من المصنفات، من مواليد بيت المقدس سنة 811 أو 813 هـ/

(13138/1)

1409 أو 1411 م. وقد تقلّب في المناصب والرُتَب الرفيعة في البلاد حتى وصل إلى منصب الوزارة في مصر أيام السلطان الأشرف بَرْسْبَاي سنة 840 هـ/ 1437 م.

وفي آخر حياته أقام بطرابلس الشام منقطعاً للتأليف ونشر العلم حتى تُوفِّي فيها سنة 873 هـ/ 1468 م.

... أما المؤرخ صاحب الرحلة عبد الباسط، فهو وُلد في مدينة مَلَطْيَة بآسِية الصغرى (تركيا حالياً) أثناء نيابة أبيه عليها، ليلة الأحد 11 من شهر رجب سنة 844 هـ/

1440 م. ثم انتقل مع أبيه إلى طرابلس الشام في سنة 859 هـ فأقاما فيها نحو 6 سنوات، حيث خرجا منها

(13139/1)

سنة 865 هـ أو قبلها بيسير، فزارا دمشق، ثم عادا معاً إلى القاهرة. فتزوج عبد الباسط فيها، ثم خرج في نصف شهر ربيع الأول سنة 866 هـ إلى بلاد الصعيد. فمكث فيها ثلاثة أشهر اشترى أثناءها كمية من الكتّان برسم الاتجار به في بلاد المغرب، وعاد إلى القاهرة. ومنها انتقل إلى الإسكندرية ليركب البحر، ويبدأ رحلته المغربية التي استغرقت نحو ست سنوات، ولم يُكتب له أن رأى أباه بعد ذلك

... كان عبد الباسط يعرف التركية باعتبار نشأته في مَلَطيَة، إلى جانب العربية، وتأثر بوالده المؤرخ فأخذ عنه حُب التأريخ، وأفاد

(13140/1)

كثيراً من مدوَّناته وفوائده وتعليقاته، وأخذ في رحلتيه إلى طرابلس الشام وبلاد المغرب على أكثر من

خمسين شيخاً وعالماً وأديباً. ولهذا تنوعت معارفه بين اللغة والفقه والحديث والأصول والمنطق والتاريخ والأدب والهندسة والمساحة والطبّ، وجمع بين علوم أهل المشرق والمغرب. وبناءً على تنوع علومه، فقد تنوعت مؤلفاته، فصنّف في السيرة النبوية، والتفسير، والفقه، والمواعظ، والتجويد، والأذكار، والتاريخ، والتراجم. وتنوعت مؤلفاته التأريخية بين التاريخ الحولي العام والتاريخ الخاص أو التأريخ لجماعة بعينها، مثل:

(13141/1)

الأنبياء أولي العزم، والخلفاء الراشدين، وسلاطين مصر، وغيره. وأحصينا عشرين مؤلفاً له، بين كبير من عدة أجزاء، وصغير في جزء واحد. واللاّفت للنظر أنه لم يُطبع من مؤلفاته كلها سوى كتاب واحد، منذ 90 عاماً. وقد حقَّقْنا نحن كتاباً آخر من كتبه يصدر هذا العام (2000) بإذن الله، في 8 مجلدات، نذكره بعد قليل. وها نحن ننشر له مقتطفاتٍ من كتابٍ ثالث له على صفحات هذه المجلّة التأريخية الرصينة.

... وهذه أسماء مؤلفاته مرتبة على الحروف:

1 ـ الأذكار المهمّات في المواضع والأوقات.

(13142/1)

---

2 ـ الحكمة في كون خمس صلوات مخصوصة بهذه الأوقات.

3 ـ الدرّ الوسيم في توشيح تتميم التكريم في تحريم الحشيش ووصفه الذميم.

4 ـ الروض الباسم في حوادث العُمر والتراجم.

5 ـ الروضة المُرْبَعَة في سيرة الخلفاء الأربعة.

6 ـ الزهر المقطوف في مخارج الحروف.

7 ـ شرح عمدة الطالبين ورغبة الراغبين.

8 ـ غاية السول في سيرة الرسول (طُبع بإستانبول 1328 هـ/ 1910 م).

9 ـ القول الحزْم في تاريخ الأنبياء أُولِي العزْم.

10 ـ القول الخاص في تفسير سورة الإخلاص.

(13143/1)

---

11 ـ القول المأنوس في حاشية القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط

12 ـ القول المشهود في ترجيح تشهّد ابن مسعود.

13 ـ المجمع المفنَّن بالمعجم المُعَنْوَن.

14 ـ مجموع البستان النوري لحضرة مولانا السلطان الغوري.

15 ـ المنفعة في سرّ كَوْن الوضوء مخصوصاً بالأعضاء الأربعة.

16 ـ نجم السكر.

17 ـ نُزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين.

18 ـ نزهة الألباب في مختصر أعجب العُجاب.

19 ـ النفحة الفائحة في تفسير سورة الفاتحة.

(13144/1)

---

20 ـ نَيْل الأَمَل في ذيل الدُول (هو كتاب في التاريخ العام، ألفه ليكون ذيلاً على كتاب "دُوَل الإسلام" للحافظ الذهبي (ت 748 هـ). ويتناول قرابة 150 عام، من سنة 744 حتى آخر سنة 896 هـ وقد قمنا بتحقيقه عن النسخة الفريدة المحفوظة في مكتبة البودليان بأكسفورد، رقم Hunt 285,610، ويصدر في 8 مجلدات عن المكتبة العصرية بصيدا وبيروت هذا العام إن شاء الله. ووضعت في مقدمة المجلد الأول منه دراسة مطولة عن المؤلف وسيرته ومنهجه التارخي).

* * *

(13145/1)

... أمّا "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم" الذي انتزعنا منه "الرحلة المغربية"، فهو التاريخ الكبير للمؤلف، وصلنا منه 4 أجزاء فقط، وهو في الأصل أكبر من ذلك، إذ أن النسخة المعروفة لدينا فيها سَقْط كثير. فالجزء الأول يبدأ بحوادث سنة 844، وذهبت منه بقيّة وَفَيَات السنة المذكورة، وأول حوادث سنة 845 هـ وسقطت وفيات سنة 846، وأخبار ووفيات سنة 847، وضاعت ورقة في أثناء وفيات سنة 849 هـ وفي هذا الجزء بياض ذهبت فيه بقية وفيات سنة 850 هـ ويحمل غلاف الكتاب العنوان التالي: »هذا كتاب التواريخ الملوكية

(13146/1)

في الحوادث الزمانية«. بخط الشيخ جمال الدين المعروف بابن الشِحنة. وكتب بعد ذلك عبارة: »الثالث. تأليف الإمام عبد الباسط المشهور بالحَنَفِيّ المؤرخ«.

... وأوله في الصفح 1 ب يبدأ بـ: »بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله عدّة للقائه، محمد رسول الله خير أنبيائه. قال مسطّره الفقير إلى الله تعالى الحفيِّ عبد الباسط بن

خليل الحنفيِّ... فهذا تعليق جمعته في التاريخ أنيق، وابتدأت فيه من مولدي الذي هو سنة أربع وأربعين وثمانماية ليكون عون (كذا) في الحوادث المتجدّدات والوَفَيَات على التحقيق... ولما كمل هذا

(13147/1)

الترتيب وتمّ، وفاح شذا (كذا) عَرْفه ونَمّ، سمّيته: "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم".

... وقد وقع اضطراب في أوراق هذا الجزء، حيث وُضعت سنة 848 قبل سنة 846. ولم يتنبّه العاملون في المكتبة إلى هذا الخطإ في الترتيب عند ترقيم أوراقه التي بلغت 66 ورقة × 2 = 132 صفحة.

... أما الجزء الثاني الذي بين أيدينا من الكتاب، فيحتوي على حوادث سنة 865 إلى سنة 868 هـ وبقيّة وفَيَاتها في الجزء الثالث. فيكون قد ضاع من الكتاب من بداية سنة 851 حتى آخر سنة 864 هـ، أي 14 سنة بالتمام والكمال.

(13148/1)

... وبدأ الجزء الثاني بما نصّه: »بسم الله الرحمن الرحيم، وبه أستعين وأتوكل عليه وهو حسبي ونِعْم الوكيل. وبعد؛ فإني أردت أن أجمع جميع ما وقع من أول الخلفاء إلى ابتداء العثماني، ورتبت ذلك في يوم بعد يوم. والحمد لله«. ومجموع أوراق هذا الجزء 186 ورقة × 2 = 372 صفحة.

... ويتناول الجزء الثالث من بقيّة وفيات 868 إلى سنة 872 هـ وبقية حوادثها في لجزء الرابع. ومجموع أوراقه 169 ورقة × 2 = 338 صفحة.

... والجزء الرابع فيه من بقيّة حوادث سنة 870 هـ حتى نهاية وفيات سنة 874 هـ ويبدأ من الورقة 170 وينتهي

(13149/1)

بالورقة 259، أي ما مجموعه 89 ورقة × 2 = 178 صفحة.

... وفي آخر الجزء جاء النص التالي:

... تمَّ (... ... ...) "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم" على يد مؤلفه وجامعه وكاتبه الفقير إلى الله تعالى الزين عبد الباسط بن خليل الحنفي، غفر الله له ذنوبه، وستر عليه عيوبه، (...) طوله، وذلك في يوم

الاثنين ثامن عشر ربيع الأول الشريف سنة تسعين [و] ثمانماية (... ... ...) آمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

(13150/1)

... والكتاب منه نسخة فريدة مخطوطة في مكتبة الفاتيكان بإيطاليا، وفي الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية نسخة مصورة عنها، وهي برقم 2403/ تاريخ تيمور. وفي مكتبتي نسخة مصورة عنها.

... ويُثْبِت عبد الباسط عَمْلَقَتَه في هذا المخطوط النادر والمهم في آن. فهو لم يدوّن رحلته كيوميّات مجردة لوحدها، بل أتى بها ضمن سياق تأريخيٍّ حافل في الزمان والمكان، دون أن يخصها بسردٍ منفصل عن مجرى الأحداث والوقائع التي شهدها في المشرق والمغرب، بحيث كان صارماً في التزامه بالتساوق التاريخي، وتراتبيّة الأيام والشهور

(13151/1)

والسنين. فكتابه في الأساس هو كتاب في التاريخ العام يتناول الأخبار والحوادث على السنين مع الوَفَيَات، وهو ما يُعرف تقليدياً بكتب الحوليات. إلا أن رحلته بنفسه إلى بلاد المغرب والأندلس، وقبل ذلك رحلته إلى طرابلس الشام، أكسَبَتَاه تجربة وفائدة بَالِغَتَي الأهمية، بحيث اطّلع على أحوال البلاد والمجتمعات البعيدة عن كثب، بل عاش في خِضمِّ بيئتها، وعاصر أحداثها، فكتب عنها وهو مؤرخ يُعايش الحدث، بل يشارك أحياناً في مجرياته ووقائعه.

(13152/1)

... فإذا تناولنا وقائع الرحلة فحسب، نجده يُمتعنا بوصفه للبلاد والمواقع والأماكن التي يزورها، ويصوّر لنا بأسلوب سهل ومُمتع دقائقها وخصائصها، ويعرّفنا بالعلماء والأعيان والقادة الذين يلتقيهم ويجتمع بهم ويأخذ عنهم، ويترجم لبعضهم تراجم غير مسبوقة، وينفرد بذكر أعلام لم نقف عليهم في مصادر الطبقات والرجال والوَفَيَات، على كثرتها، ويعرض لأحداث وأخبار كثيرة قلَّ أن نجدها أيضاً في المصادر المعاصرة لتلك الحقبة، خاصة أنه كان شاهداً على عصره، متفاعلاً معه، مُستقصياً أخباره بأمانة المؤرخين الثقاة، فضلاً عما

(13153/1)

يتخلل الرحلة من حكايات طريفة، ومعلومات نادرة، تزيد إلى معارفنا مجموعة من المصطلحات والمفردات التاريخية المفيدة.

... ومن خلال الرحلة نقف على العلاقات السياسية والإدارية التي تربط بين صاحب تونس وصاحب تلمسان، وقائد طرابلس الغرب وصاحب تونس، وعلاقات المسلمين باليهود، وعلاقات المسلمين والفرنج من جنويّين ومالطيّين، وبرتغال وفنلنديّين، والصراع الحربي بين الفريقين من جهة، والحركة التجارية بينهما من جهة أخرى، مع الوقوف على العادات والتقاليد والرسوم والأحوال الاجتماعية لدى المسلمين واليهود والفرنج

(13154/1)

والبربر، والنُظُم المالية من خراج وضرائب وأعشار، وغيرها.

... أما مسار الرحلة، فكان على النحو التالي: القاهرة - الإسكندرية - تونس - جزيرة جربة - طرابلس الغرب - قابس - القيروان - تونس (ثانية) - باجة - قسنطينة -

بجّايا . الجزائر . مازونا . قلعة هوّارة . البطحاء . تلمسان . وهران . تلمسان (ثانية) . وهران (ثانية) . مالقة . يكش . الحامة . غرناطة . مالقة (ثانية) . وهران (ثالثة) . بجّايا . تونس . طرابلس الغرب . مسراته (مصراته) . قصر أحمد . عقبة المواس . برقة . لبنا . بئر ساوكنا . الإسكندرية . القاهرة.

(13155/1)

... وقد أمضى أطول أوقات رحلته في ثلاث مدن هي: وهران (21 شهراً)، وتونس (15 شهراً)، وطرابلس الغرب (12 شهراً). وكان يريد دخول كل من مدينة فاس بالمغرب الأقصى، وقرطبة بالأندلس، وعبّر عن ذلك في رحلته. إلاّ أنّ كثرة الفتن الداخلية التي كانت تشهدها فاس، والخطر الفرنجيّ الذي كان يحاصر قرطبة ويهدّدها من الخارج، صرفاه عن تحقيق أمنيته. ولكن ذلك لم يمنعه من تدوين أخبار مفصّلة عن الأحداث التي وقعت في فاس إبّان رحلته، وهو مقيم إمّا بتلمسان أو بوهران، يتابع الأحداث من أفواه الرواة الإخباريين.

(13156/1)

... وبعد؛ فهذا هو نصّ الرحلة كما كتبه المؤلف بخطّه، متفرقاً في ثنايا أوراق المخطوط، ونُثْبِتُه كما هو بأغلاطه النحويّة وأخطائه اللغوية، وسنشير إلى الصواب في الحواشي، ولن نقوم بتحقيق النص وما فيه من حوادث وَوَفَيَات، لأن هذا يستغرق صفحات كثيرة، وليس هنا مجالها.

... وسنذكر الجزء، والسنة، والشهر، ونضع عناوين لكل فقرة من النص للوقوف بسرعة على المضمون، ونضع كل ذلك بين حاصرتين [ ]، مع ذكر رقم الورقة في المخطوط، ونضعه بين خطين مائلين متوازيين / /. أما الكلمات المكررة في النص، أو المكتوبة في حواشي

(13157/1)

المخطوط، فنضعها بين قوسين ( ).

... وفي المخطوط صفحات كثيرة شبه ممسوحة غير مقروءة، وزادها التصوير سوءاً، فأضحت قراءتُها غير ممكنة. وسنشير إلى المواضع التي مُسِحت فيها الكلمات أو غمضت قراءتها، واجتهدنا في تحقيقها قدر الطاقة.

[الجزء الأول]

/ورقة 1B/ [سنة أربع وأربعين وثمان ماية]

... »استهلّت هذه السنة وخليفة الإسلام بمصر عبد الله، ووليه الإمام الأعظم والخليفة المكرم، أمير المؤمنين، المعتضد بالله، أبو الفتح، داود بن أمير المؤمنين المتوكل على الله أبي عبد الله محمد بن أمير المؤمنين المستكفي بالله

(13158/1)

أبي الربيع سليمان الهاشميّ، العباسيّ، المصريّ.

... / 2B/ »وكان سلطان المغرب الأدنى، تونس وما والاها من أعمال إفريقية، السلطان أبو عمرو. ووهمَ من قال: أبو سعيد عثمان بن محمد بن عبد العزيز أبو فارس بن أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن يحيى بن إبراهيم بن يحيى بن عبد الواحد بن أبو حفص بن الهنتانيّ / 3A/ . قبيلة من البربر . الحفصيّ، نسبة إلى حفص عمر هذا آخر جدوده، وهو الذي يقال له إثبات أحد العشرة من أصحاب محمد بن تومرت المعروف بالمهتدي، وهو ثاني . ومن دُعي عمر هذا القائم عبد المؤمن، وهو

(13159/1)

وغيرهما بدعوة المهديّ هذا بالمغرب على ما عرفت في محله من التواريخ. وكذِب من زعم أنهم من ذرّية عمر بن الخطاب، بل هم من بربر المصامدة. وإنا سُقْنا عثمان هذا هنا لأنه موجود الآن في زمننا هذا الذي علّقنا فيه هذا التعليق.

... ومملكة عثمان هذا متسعة معظّمة، وهي أعظم ممالك المغرب في عصرنا هذا، وطول هذه المملكة فوق الشهرين، وبها عدة مدن هي قواعد، بل ممالك، كمسراته، وغريان، وطرابلس، وقابس، والقيروان، وصفاقس، وموسا، والمهدية، وبنزرت، وباجة، وبلد العنّاب، وبجّاية، وقُسُنطينة، والحامة، وقفصة، وتقرب،

(13160/1)

ونقطة، وبسكرة، والجرايد، وغير ذلك من البلاد، ومعدن المرجان في مملكته ومن يجلب في سائر البلاد، ويحكم على بعض بلاد الصحارى كفزّان ونحوها. وبالجملة، فهو من أجل الملوك، ومملكته من أجلّ الممالك التي بها العدل الظاهر وقيام ناموس الشرع وعلوم الفتن وقلّة الهرج والمرج في كثير من الأشياء لا سيما القضاة والشهود والأئمة، فلا تخليط ببلاده في مثل هذه الأمور، جزاه الله تعالى خيراً، وأبقاه للمسلمين.

... وكان سلطان المغرب الأوسط تلمسان وما والاها في هذه السنة السلطان أبو العباس أحمد بن أبو(1)

---

(1) الصواب: »بن أبي«.

(13161/1)

حمُو موسى ابن عبد الواحد العبد الوادي. وعبد الواحد هو جدّه الأعلى بعد عدّة أجداد.

... وكان سلطان المغرب الأقصى ببرّ العدوة ـ أعني مملكة /A 4/ فاس وما والاها في هذه السنة عبد الحق بن عثمان بن مرين المريني. ومَرين جدُّه الأعلى بعد عدة أجداد. ويدعى بأمير المسلمين أيضاً.

... وكان سلطان المغرب الأقصى ببرِّ الأندلس غرناطة وما والاها من بلاد الإسلام في هذه السنة: أبي(1) عبد الله محمد بن (...)(2) بن نصر

---

(1) الصواب: »أبو«.

(2) في الأصل كلمة غير مقروءة. ولعلّ المقصود: »محمد بن سعد« المعروف بالزغل.

(13162/1)

الخزرجيّ، الأنصاريّ الأرجونيّ. ونصر هو المعروف بابن الأحمر، وهو ـ أعني نصر ـ جدّه الأعلى بعد عدّة جدود، ويُلقَّب بالغالب بالله، ويُدعى أيضاً بأمير المسلمين.

[الجزء الثاني]

[شهر شوال سنة 866 هـ] [بداية الرحلة]

... /A 39/ وفيه، في يوم الجمعة حادي عشرة ركبت البحر الملح من مينا ثغر الإسكندرية بشواني البنادقة فأقلعوا، وكان معهم جماعة من تجار المسلمين بأصناف البضائع وأكثرها الكتّان، وساروا متوجهين إلى جهة تونس المغرب.

[دخول تونس وأخبار صاحبها]

(13163/1)

... /A 42/ وفيه في يوم الأربعاء ثاني عشرينه دخلنا إلى مدينة تونس بعد أن بقينا بالبحر ثلاثاً (1) وثلاثين يوماً، فرأيت مدينة حسنة، جليلة، هائلة، بديعة، تقرب من دمشق في خفّتها، ونزلتُ بدارها بمكان يُسمّى فندق الركاد، ووجدنا صاحب تونس وسلطانها المتوكل على

الله عثمان خارجاً عنها آخذاً في التوجه لجهة تلمسان لأجل إخراج صاحبها محمد بن أبي ثابت منها لكونه أخرج أحمد بن أبي حمُّو، القائم بدعوة بني حفص ملوك تونس وقطعه هو الدعوة لهم، أعني محمداً بن أبي ثابت.

[الاجتماع بعلماء تونس]

---

(1) الصواب: »ثلاثة«.

(13164/1)

... وفي يوم الخميس ثامن ذي الحجة ورد عليّ جماعة من علماء تونس، من جملتهم شيخنا سيدي أبو اليُمن إبراهيم الأخذري.

... ثم أخذت أستفيد من الشيخ المذكور ذلك، وتكلمت معه في ذلك على وجه المباحثة، فأنِس بي وأعجبه كلامي. وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يجلس بجامع الزيتونة في أوقات معلومة من الظهر إلى بعد العصر أحياناً، وأحياناً من العصر إلى قرب الغروب. وكنت أجالسه كثيراً في هذه الأوقات وأسمع الكثير من فوائده وتحقيقاته، فإنه كان آية، وقرأت في الفنون، لا سيما الأصلين بروايته.

[صلاة عيد الأضحى بجامع الزيتونة]

(13165/1)

... وفيه في يوم الجمعة كانت الوقفة بعرفات في هذه السنة، وفيه في يوم السبت عيّدنا النحر بتونس، وصلّينا صلاة العيد بجامع الزيتونة، وهو من أعظم جوامع هذه البلاد وأشرفها وأبهجها. »يقال إن السيد الخضر رؤي به غير ما مرة«.

... /B 42/ »وفيه [ذي الحجة] في يوم الأربعاء ثامن عشرينه ورد إلى مرصا(1) تونس وإلى ميناها اثنان من مراكب الفرنج ومعهم عدّة أسرى للفدى(2) وأفدوا، ثم اتفق لي أنني توجهت إلى المرصا ونزلت في قارب للتفرّج على ذَين المركَبين، فطلعت إلى

---

(1) الصواب: »مَرْسى«.

(2) الصواب: »لِلفداء«.

(13166/1)

الأكبر منهما، وبينا أنا أتفرّج فيه وإذا بشخص من الأسرى المحضرين تركيّ الجنسية من بلاد حاج ترخان من دست قبجاق التتر، ما يعرف شيئاً باللغة العربية، بل بالتركية والفرنجية، لم يبق في المركب غيره من الأسرى، فسألته بالتركية عن اسمه فأجابني، ثم قال لي: أنا من أسرى المسلمين. فقلت له: قد أُفدي جميع أسرى المسلمين، فما بالك؟ فقال: كلَّموني حين الفِداء فلم أعرف بلغة العرب لأترجم عمّا في ضميري، فلم يلتفت إليّ أحد، وظنّوا أنني كافر. فوعدته بأنني أفديه، فدعا لي. ثم لما نزلت، اجتمعت بصاحبنا الخواجا التاجر

(13167/1)

المعظّم المكرّم سيدي أبو(1) القاسم البنيولي، الغرناطي الأندلسيّ، نزيل تونس وعظيم التجار بها عن هذا الشخص، فقال: والله إننا ظننّا أنه من الكفّار ولم نعلم لغته فأعلمته بإسلامه وأنه تركيّ الجنس من خيار المسلمين لا يعرف غير لغة الترك والفرنج، فإنه أسِر في أيديهم وله زيادة على الخمسة وعشرين(2) سنة، وكان أخبرني بذلك، فتلطّف في قضيّته، وفديته بأربعين ديناراً من مالي، وأنزلته إلى البرّ. فلازمني ولا زال في خدمتي عدّة سنين، وحصل لي به غاية النفع

---

(1) الصواب: »أبي«.

(2) الصواب: »على الخمس والعشرين سنة«.

(13168/1)

والرفق، وكان يحدّثني عن بلاد التتر والفرنج بأشياء كثيرة غريبة، ولا زال معي إلى أن وردتُ القاهرة فتُوفِّي بها في طاعونِ سنة ثلاث وسبعين، وكان اسمه مبارك، وكان مباركاً عند الله، خيّراً، ديّناً، سليم الباطن والفطرة، صادق اللهجة، فكِه المحاضرة لا يُمَلّ منه، رحمه الله تعالى«.

[وصف متنزّه رأس الطابية]

... »وفيه، في يوم الأحد سابع عشرينه جمع التاجر المعظّم والخواجا المكرّم الحاج أبو القاسم البنيولي الغرناطي الأندلسيّ نزيل تونس وكبير التجار بها جماعة من أعيان التجار من أصحابه والحجّاج منهم من أهل

(13169/1)

الأندلس وغيرهم، وعمل لهم ضيافة حافلة بمكان من أجنَّة تونس يقال له »رأس الطابية« من متنزّهات ملوك تونس وأمكنة فُرَجِهم، وكنت في ذلك اليوم ممّن دُعي لهذه الضيافة، فرأيت هذا الجنان في غاية الإتقان والحسن، وبه مكان كالقصر برسم السلطان ثلاث طباق، عظيم إلى الغاية، أنيق البناء، فرج، نزه، بناء ملوكيّ على صفة غريبة، وهيئة عجيبة، وبه بركة ماء عظيمة، كبيرة جداً، وبه شجر يقال له »المحتشة« برسم جريان الماء فيه نُقر في حجرٍ كالرخام، يدخل الماء إليه من جهة ثم يُحوّل في حولات(1) غريبة في

---

(1) الصواب: »حوالات«.

(13170/1)

أوضاع محفورة نَقْراً في هذه البلاطة على هيئة دائرة واسعة متداخلة النقور، بديعة الصفات تسُرّ الناظر وتشرح الخاطر، وهي من النوادر، يجول فيها الماء كأنه جفن متعاكس الجولان عدّة معاكسات، غريبة الهيئات. ثم هيّأوا من جملة هذه الضيافة مأكولاً يقال له »المجبنة« من مآكل الأندلس، وصفته جبن طريّ يُدعك بالأيدي حتى يصير كالعجين، ثم يُعجن السميد عجناً

مُحكَماً مملوكاً جيداً حتى يصير في قوام عجين البُرِّ.

رأيته بهذه البلاد أو أغلظ قواماً منه بيسير، ثم يؤخذ منه قطعة تُبسط بالكفّ بلطافة وشباقة، ثم يُجعل عليها

(13171/1)

قطعة من الجبن المدعوك، ويُجمع حتى يصير الجبن حشواً لها، ثم يُبسط قليلاً، ثم يُلقى في الطاجن وهو على النار بالدُهْن فيُقلى، ثم يُرفع ويُرش عليه السكر المدقوق /B 48/ ناعماً ومعه اليسير من الكمّون. وعُمل ذلك بين يدي الحاضرين، وتولّى عمله بعضٌ من الجماعة من ظرفائهم. وكان يوماً معدوداً من الأعمار، سالماً من الأغيار، اجتمع فيه عدة من ظرفاء أهل الأندلس وأعيانها من طلبة علم وتجار، كلهم أهل ذكاء، وحصلت مذاكرات علمية أدبية تاريخية إلى غير ذلك

(13172/1)

... وكان من جملة الجماعة الكاتب المجيد الباهر، والشاعر الفريد الماهر، الذكيّ، النيِّر، محمد الخيّر المالقي، أحد

أدباء بلاده وشاعر عصره. فأنشدنا في هذا المجلس بنفسه بديهة، وكان قد هبّ النسيم فأنعش بهبوبه، وأذكر المحبّ بمحبوبه:

قالوا شفاني النسيم الذي سَرَى
ولم يشفني ذاك النسيم لأنه

على مسقط الأنواء وهو قليلُ
طبيبٌ يداوي الناسَ وهو عليلُ

... والخيّر هذا أحد الكتبة بالأندلس من أعيانها وفُصحاء شعرائها. وُلد بمالقة في سنة 831 وبها نشأ فقرأ القرآن العظيم وشيئاً في الفقه وغيره، وتعاطى الأدب وبرع في

(13173/1)

فنّه، ونظم ونثر، وقال وشَعَر، وكتب الخط الحسن الجيد على طريقة أهل بلاده، وكتب لبعض الملوك، ثم قَدِم تونس في سنة أربعٍ وستين وثمانماية، واتصل بخدمة المسعود بالله محمد بن عثمان صاحب تونس وامتدحه، فقرّبه إليه وأدناه واختصّ به وجعله كاتبه.

[صلاة السلطان بجامع الزيتونة]

... »... وفيه في يوم الجمعة عاشره بتونس حضر صاحبها المتوكل على الله عثمان للصلاة بجامعها الأعظم الذي يقال له جامع الزيتونة، وقد جرت العادة هناك أن السلطان إذا قدم من سفر صلّى أول جمعة دخوله بهذا الجامع وترك حضور الصلاة بجامع قصبته

(13174/1)

دار سلطنته. وقصد الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد البيدمُري التريكي، وكان إذ ذاك ناظر الجيش بتونس وبيده نظر هذا الجامع، فأمر بضمّ المقصورة التي جرت العادة بصلاة السلطان بها وبَسَطَها بالحُصُر الجيدة والجديدة، وأطلق بها مجامر العود، وأغلق بابيها وشبابيكها، ثم أحضرت سجّادة السلطان وهي من سعف رفيه، محكمة الصنعة، ففُرشت بمكان جلوسه للصلاة، ثم حضر السلطان بأُبَّهة زائدة وبين يديه ولده ووليّ عهده محمد المسعود بالله، وجماعة أُخر من إخوته وبنيهم والناس تسلّم عليه بالسلطنة، وكلما اجتاز بجماعة رفعوا

(13175/1)

صوتهم بقوله: »سلام، نصرك الله« لا يزيدون على ذلك ونزل بالجامع المذكور، وشهد الصلاة به، ثم ركب عائداً لقصبته، وكان يوماً مشهوداً«.

[التنزّه بظاهر تونس]

... وفيه، في يوم الخميس سابع عشرينه خرجنا لظاهر تونس من باب الزلّاج للتنزّه، لما حصل عندي من ضيق الصدر بسبب موت الإبنة، وخرج معنا الشاعر الأديب البارع، الفاضل، الكامل، الديّن، أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد المعروف بابن الرزين الخزرجي، الأنصاري، الأندلسيّ الأصل، التونسيّ، فاجتزنا بممرّنا على زرع أخضر، ومعنا من الشعراء ثلاثة أيضاً، أحدهم

(13176/1)

يُسمّى محمد الجريري، والآخر أحمد الورداني، والآخر شعيب البجائي، فقلت: ليُنشد كل من حضر شيئاً بديهةً في هذا الزرع، بشرط الإجادة في المعنى، فبدر الفاضل بن الرزين، وأنشد ارتجالاً وأنا أسمع ذلك:

يا خليليَّ قفا واعتبرا

وبرأسه غدير أخضر

كيف ماس الزرع حسناً واسترد

صنعت فيه يد الريح زرد

... فلما سمع الباقون ذلك من بديهته أحجموا عن المقال، وسألتهم المرّة بعد الأخرى في إنشاد شيء، فاعتذروا بفضيلة الأول اعترافاً، وقالوا: لا قدرة لنا على هذا الشعر ولا القريب منه، وسألوا في الكفّ عنهم، ووقع لثاني ذلك

(13177/1)

اليوم من البَسْط والمذاكرة في العلوم والأدب ما أنسانا بعض ما نجده، وكان يوماً معدوداً من الأعمار، سالماً من الأغيار.

[إنشاد المؤلّف بين يدي صاحب تونس]

... وفيه في يوم السبت تاسع عشرينه بعث إليّ محمد المسعود بالله بن المتوكل على الله عثمان صاحب تونس

وليّ عهد أبيه يستدعيني إليه بالحضور إلى بين يديه، وكنت لم أجتمع به، وبلغه عنِّي أنني أنظم أو نحو ذلك فلما حضرت عنده، أنس بي، ورفع من محلّي، ثم أخذ يتلطف بي في المؤانسة بالكلام، وأنشدته:

ألا يا آلَ حفصٍ يا ملوكاً
ألا فُقْتُم ملوكَ الأَرض طُرّاً

(13178/1)

ويا دُرَراً بهم نُظِمت سلوكُ
فما من بعدكم أحدٌ مليكُ

... فأعجباه إلى الغاية وأجاز وأثاب، جزاه الله تعالى خيراً. وكتب لي قِطْميراً بإعفائي عن المغارم واللوازم فيما أتّجر فيه، وتردّدتُ عليه المرّة بعد الأخرى، واجتمعت به مرة وعنده الشيخ العالم الفاضل علي الكسْلي في بلد العنّاب.

[شهر رمضان] [وصف جزيرة جربة]

... »/A 54/ وفيه، أعني شهر رمضان هذا في يوم الخميس ثانيه دخلنا إلى جزيرة جربة ونزلنا من السّواني إليها،

فرأيت جزيرة عجيبة في الجزائر، قريبة من أحد جوانبها إلى البرّ الكبير، خصبة جداً، ذات

(13179/1)

كروم وزيتون وغنم كثير وخير وافر، وإلى قرب ميناها حصن منيع دخلت إليه ورأيته، وديارها في بساتينها، وليست بمدينة مسوّرة، بل مفرّقة الأبنية آية(1) جداً، مربّعة الشكل في الجزائر بوضع غريب، فأقمنا بساحلها ثمانية أيام، فأوسق التجار منها الزيت الكثير وأنواع الأكسية.

[دخول المؤلف طرابلس الغرب]

... ثم أقلعنا عنها قاصدين طرابلس المغرب فوصلنا إليها بكرة نهار الخميس خامس عشر شهر رمضان ونزلنا بها، وفتر عزمي عن السفر في البحر إلى جهة ثغر الإسكندرية ونويت الإقامة بها وهُيّئت لي أسباب

---

(1) كذا في الأصول.

(13180/1)

الإقامة بها على يد تاجرها صاحبنا عبد الحميد العوّادي كبير التجار بها فأنعم وتفضّل بمكانٍ سكنّا به.

... ولقيت بها من الفضلاء قاضيها وخطيبها ومفتيها القاضي منصور البنجريري القدوريّ، وليس هو من أهلها، وإنما هو من مدينة بالقرب من القيروان تسمّى بنجرير. وهو إنسان حَسَن، من أُولي العلم، ولديه فضيلة علمية وأدب، وله نظم حَسَن أنشدني منه الكثير، وله تخميس "البُرْدَة". اجتمعت به عدّة مِرار وأَنِسَ بي وأنا به، وسمعت الكثير من فوائده.

[التنزّه بميناء طرابلس الغرب]

(13181/1)

... ... وفيه، في يوم الثلاثاء خامس عشرة خرج الحاج وخرجنا مع جماعة من أعيان تجار طرابلس المغرب إلى خارجها للتنزه بميناها وفيها الزاوية التي أنشأها الأمير أبو عبد الله محمد بن السلطان الكبير الشهير الخطير أبو(1) فارس عبد العزيز صاحب تونس، وأبو عبد الله هذا هو والد عثمان صاحب تونس الآن، وهذه الزاوية هي التي بات بها أبو عبد الله هذا بمرضه الذي مات به. وقد ذكر هذه الزاوية الحافظ بن حجر في تاريخه "إنباء الغُمر

في أنباء العُمر" (2)

---

(1) الصواب: »أبي«.

(2) انظر: إنباء الغُمر بأنباء العُمر، لابن حجر العسقلاني، تحقيق د. حسن حبشي، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1392 هـ/ 1972 م، ج 3، ص. 488 الترجمة رقم 12.

(13182/1)

في ترجمة أبي عبد الله هذا، في وَفَيات سنة خمس وثلاثين وثمانماية. وهي زاوية ظريفة جداً، مُطلّة على بستان عظيم، كانت متنزَّهاً لأبي عبد الله هذا هي والبستان وما به من البناء الأنيق والقصر الجيّد. ولما كان يحضر في سفره يأتي إلى طرابلس هذه، وله بهذه الزاوية البرّ والمعروف، وهي من آثاره هناك رحمه الله تعالى، فإنه كان من الأجواد ومن ذوي الشهامة، لا تعرف له صبوة، /56 A/ غير غرامه بالصيد، ولما مات تأسّف عليه والده إلى الغاية، فإنه كان وليّ عهده. ثم تنزّهنا بهذا البستان ورأيناه والقصر الذي به، وهو في

(13183/1)

غاية الحسن ومن محاسن المباني في محله.

[شهر جمادى الآخر]

... /BB 75/ »... وفيه، في هذه الأيام ونحن بطرابلس الغرب، هيّأ قائدها جملة من المال مستكثرة فوق المائة ألف دينار، وهي الحمل المقرّر عليه في كل سنة جهّزه ليُحمل إلى صاحب تونس على يد ولده ساسي. وكان ساسي هذا قد عزم على التوجّه لتونس بإعادة من يحضر من النساء، فرأى ابنة عمّه ظافر التي تزوّج بها ساسي هذا، وعمل لها بطرابلس عرساً حافلاً عظيماً قبل هذا التاريخ بشهور، وأقاموا مدّة، ثم أرادوا العَود.

(13184/1)

... وتهيّأت أنا أيضاً للسفر إلى تونس عائداً إليها مع هذه الرفقة.

[دخول قابس]

... /B 76/ »... وفيه، في يوم الأحد خامس عشرينه دخلت إلى مدينة قابس بالقرب من القيروان، فرأيت مدينة

عجيبة، غير أنها خربت جداً وليس بها إلا القليل من الناس والعمارة، فسبحان من لا يتغيّر.

[دخول القيروان]

... وفيه، في يوم الأربعاء ثامن عشرينه دخلنا إلى مدينة القيروان وحللت بها للإقامة شيئاً، فأَنْزَلَنَا الشيخ الإمام العالم العلاّمة أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد البلديّ الشهير بابن البكّوش، عالمُ القيروان ومفتيها

(13185/1)

وخطيبها بدارٍ إلى جانب داره، وأنِس إليّ جداً. وأخذت بعد ذلك في الحضور إلى مجالس دروسه، وأخذنا عليه العلم الكثير في الوقت اليسير باجتهاد وكثرة ترداد، ما بين قراءة بنفسنا عليه وسماع، واستفدنا منه نُبَذاً جيدة في صناعة الطبّ، وحصَّلنا الفوائد الجمّة الجليلة إلى الغاية والنهاية، وأجازر لنا«.

[زيارة جبّانة القيروان]

... »... وفيه، في صبيحة يوم الجمعة ثامن عشرينه خرجت لجبّانة القيروان برسم زيارة من بها من الأعيان

المشهورين، فرأيت جبّانة عظيمة، وزرنا جماعة من العلماء الصالحين وعدّة من الأولياء

(13186/1)

والمشايخ، وكنت كتبت أسماء الكثير منهم وغاب ذلك عنّي الآن بذهاب ذلك التعليق، فكان من جملة من زرناه الإمام سَحْنُون، والشيخ أبو الحسن القابسيّ، وشُقْرون، وآخرين(1) ثم تجوّلت على القيروان بظاهرها، ورأيت بِرَكها المُعَدَّة لمياه الأمطار، وكانت عدة، بقي منها واحدة معمورة تمتلئ بماء المطر، ومنها يستقي أهل القيروان، والبقية خراب، وزرنا بداخل القيروان الشيخ [1] بن أبي زيد صاحب "الرسالة"«.

[شهر شوال] [صلاة العيد بجامع عُقبة بالقيروان]

---

(1) الصواب: »وآخرون«.

(13187/1)

... /A 79/ »وفيه، في يوم الجمعة ثالثه بالقاهرة كان يوم عيد الفطر بالقيروان، فكان التفاوت ليلتان، ولا

بِدْع في ذلك، فإن المسافة ما بين القاهرة والقيروان مقدار مسيرة ماية ليلة، فتختلف المطالع اختلافاً فاحشاً. أو لعل الاختلاف في ليلة والأخرى لعارض آخر في الشهور الماضية. وحضرنا في هذا اليوم صلاة العيد بالقيروان بجامع عُقبة بن عامر. وهو الجامع الأعظم بها، وهو من بديع الجوامع وأحسنها، ثم حضرنا صلاة الجمعة به.

[دخول تونس وباجة]

(13188/1)

... »... وفيه، في يوم العشرين منه خرجت من القيروان متوجّهاً إلى تونس فوصلناها في الثالث والعشرين آخر النهار، فلم أُقِم بها إلا بعض أيام قلائل، ثم خرجنا في أواخر شوال هذا صُحبة الركب المتوجه إلى المغرب تلمسان، وتلك /B 79/ الديار صحبة شرخ المراكب محمد بن أبي إبراهيم الفيلاليّ العبد الصالح، ودخلنا باجة، ونلنا العذاب في أثناء سفرنا، ورأينا أشياء يطول شرحها.

[شهر ذي القعدة] [وصف قسنطينة]

... »... وفيه، في سابع عشره دخلت لمدينة قُسنطينة،

فرأيت مدينة عجيبة الموضوع، حسنة المجموع، على جبلٍ عالٍ، وتحتها

(13189/1)

واد عظيم، كثير الخصب والأَجنَّة والبساتين، ذات الأَشجار ذوي الثمار المتنوعة، وبها النعَم والخيرات، والرخاء الغالب، وأعجبنتني إلى الغاية، ورأيت أبنيتها وهي جيدة عظيمة. فأقمنا بها ثلاثة أيام، ثم سرنا في رابعها إلى جهة تلمسان«.

[شهر ذي الحجة] [دخول بجّايا]

... »... وفيه دخلنا مدينة بجّايا، وبادرت بالاجتماع بشيخها الإمام العالم، العلامة، سيدي أبو (1) القاسم محمد المسراتيّ والد الشيخ أبو(2) الفضل، وسمعت الكثير من فوائده، وسألني عن وفاة ولده، وكنت قد بلغني ذلك

---

(1) الصواب: »أبي«.

(2) الصواب : »أبي«.

(13190/1)

قبل مسيرنا من القاهرة، فذكرت له ذلك، وكثُر أسفه عليه مع ما كان قبل ذلك، فإنه كان تحقق موته».

[دخول الجزائر]

... ثم رحلنا من بجّاية فدخلنا الجزائر، وتبرّكتُ بسيدنا الشيخ الوليّ العالم العلامة، الشهير، الخطير، الكبير، سيدي عبد الرحيم الثعلبيّ، وسمعنا شيئاً من فوائده، وسألته بعض أسئلة كانت تشكل عليّ، فأفادنيها على أحسن وجه وأتمّه، ورأيت تفسيره، وقرأت عليه من أوله بعض سطور، وأجازني، رحمه الله تعالى.

(13191/1)

... ثم رحلنا من الجزائر فاجتزنا بطريقنا إلى تلمسان /80 A/ بمدينة مازونا، وقلعة هوّارة، والبطحاء، ودخلنا تلمسان في أواخره.

[صلاة عيد الأضحى بتلمسان]

... وفي يوم الأحد عاشره كان عيد النحر بتلمسان، فخرجنا للمصلَّى بظاهرها، وحضر محمد بن أبي ثابت صاحب

تلمسان صلاة العيد في هذا اليوم بعد أن خرج في موكب حافل حين تعالى النهار جدّاً، ثم صلّى ونحر أُضحية كبشاً أَلْمحاً(1) في المصلّى بعد فراغه من الصلاة، وشهّر هذا الكبش محمولاً على بغل مع رجل مُعَدّ لذلك، فشقّ به المدينة لأجل

---

(1) الصواب: »كبشاً أَمْلَحاً«.

(13192/1)

أن يُتَيَقَّن بتضحية الإمام على قاعدة مذهب الإمام مالك رضي الله عنه. وكان هذا الرجل لما سار بهذه الذبيحة الأُضحية مُجِدّاً ببغله في سيره مُحِثّاً في ذلك ولم أكن أعرف ذلك قبل هذا التاريخ، فسألت بعض أصحابي عن ذلك، فأجابني بأنّ ذلك من عادة ملوك هذه البلاد، وأصل ذلك ما لحظته أنا من إعلام الناس بأنّ الإمام ذَبَح.

[رَبَض العُبّاد بتلمسان]

... »وفيه، في يوم الجمعة خامسه خرجت من تلمسان قاصداً رَبَض تلمسان الذي يقال له العُبَّاد، ونسبته لتلمسان كنسبة ضاحية دمشق لها، وبه مقام الشيخ مُتَيْرك أبو مَدْيَن

(13193/1)

شُعيب الإشبيليّ، القطْب، الوليّ، العارف، نفعنا الله تعالى ببركاته (.....)(1) فزرته، ثم اجتمعت بسيدنا وشيخنا الإمام، العالم، العلاّمة أبي عبد الله محمد بن العباس شيخ تلمسان/A 92/ وعالمها، وخطيب جامع العُبّاد، تغمده الله تعالى برحمته، فوجدته بحراً في الفنون العلمية آية في ذلك، فأَنِس فيّ، ثم سمعت خطبته التي شنّف بها الأسماع وموعظته التي بها الانتفاع، وتردّدتُ إليه بعد ذلك، وحضرت كثيراً من دروسه الحافلة في كثير من الفنون العلمية، واستفدت الجمّ من فوائده في مدة ستة شهور.

---

(1) مقدار كلمتين غير مقروءتين.

(13194/1)

وكان أجلّ علماء تلمسان في عهده ذلك، وله من السنّ نحو الثمانين سنة أو جاوزها، مع تمتّعه بحواسّه وسلامة بدنه.

[الاجتماع بعلماء تلمسان]

... ثم لقينا من العلماء بتلمسان قاضي الجماعة بها الشيخ، العالم، الفاضل، سيدي أبو (1) عبد الله محمد العُقباني، وأخوه (2) سيدي أبو (3) سالم إبراهيم خطيب جامع تلمسان الأعظم وإمامه، وسيدي الشيخ، العالم محمد بن مرزوق، وسيدي الشيخ محمد بن زكريا مفتي تلمسان، والسيد الشريف يحيى بن أبي الفَرَج قريب السيد الشريف

---

(1) الصواب: »أبا«.

(2) الصواب: »وأخاه«.

(3) الصواب: »أبا«.

(13195/1)

التلمسانيّ قاضي غرناطة وعالم الأندلس.

... ولقينا بها جماعةً أُخَر من الفُضلاء والأدباء والأطبّاء، منهم: سيدي علي بن فشوش أحد أطباء تلمسان في المزاولة والدُرْبَة، وسمعت من فوائدهم، وحضرت دروس بعضهم، ونقلت عنهم أشياء، وأجازوني. ولازمت في الطب الرئيس الفاضل، الماهر، الأدربيّ، الأقدريّ، موسى بن سمويل بن يهودا الإسرائيليّ، المالقي، الأندلسي،

اليهوديّ، المتطبّب، المعروف بأبيه، هدَاه الله تعالى للإسلام، لم أسمع بذِمِّيٍّ، ولا رأيت كمثله في مهارته في العلم، وفي علم الوفْق والميقات وبعض العلوم القديمة،

(13196/1)

مع التّعبّد الزائد في دينه على ما يزعمه ويعتقده، وهو في الأصل من يهود الأندلس. ووُلد بمالقة قبل العشرين وثمانماية، وأخذ عن أبيه، وغيره، ومَهَرَ في صناعة الطب، وانتقل إلى تلمسان فقطنها، وقصده الكثير من الفضلاء للأخذ عنه، لازمتُه مدة وأخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب، وغيره، وأجازني، وبلغني عنه في هذه الأيام بأنه انتهت إليه الرياسة في الطب بتلمسان، وهو مقرّب ومختص بصاحبها من غير أن يُداخله فيما يتعلق بالمملكة لعقله ورأيه، أسأل الله تعالى أن يُمِتْه على ملّة النبي صلى الله عليه وسلم«.

(13197/1)

[إخراج المستعين بالله بن الأحمر من غرناطة]

... »... وفيه، في هذه الأيام أيضاً، ورد الخبر إلى تلمسان

بأن صاحب غرناطة وملك الأندلس أمير المسلمين المستعين بالله سعد بن أبي عبد الله محمد بن أبي الحاج يوسف بن أبي الوليد إسماعيل بن نصر المعروف بابن الأحمر، قد وقعت الوحشة بينه وبين ولده أبا الحسن علياً(1). وثار أبو الحسن المذكور على أبيه المذكور فأخرجه من غرناطة ومَلَكَها، وأن المستعين بالله توجه لمالقة، وسبب ذلك الوزراء من بني السرّاج وغيرهم /B 92/ الذين حسّنوا هذا

---

(1) الصواب: »أبي الحسن عليّ«.

(13198/1)

لأبي الحسن«.

[شهر صفر]

... وفيها، في أوائل /A 93/ صفر ورد الخبر إلى تلمسان بأن المستعين بالله صاحب غرناطة بعث إليه ولده الذي ملك بعده من حمله إلى بعض حصون الأندلس مضيّقاً عليه به.

[استيلاء البرتغال على جبل الفتح]

... وفيه .أعني هذا الشهر .أخذ الفرنج البرطقال البلدَ المعظّم أحد أعزّ حصون الإسلام وبلدانها بالأندلس المسمى بجبل الفتح، وذلك في هذه الفتنة الكائنة بين الأب والابن، أعني أبا النصر سعد بن الأحمر، وولده أبا الحق، الماضي خبرُهما. فإنّا لله وإنّا إليه راجعون. فإن ذلك من أعظم المصائب في

(13199/1)

الإسلام، لأن من هذا الحصن كانت بداية أخذ بلاد الأندلس من الكفّار في الزمن الأول، وهو أعظم معاقل الإسلام بالأندلس، وخرج أهلها منها بالأمان، وبالله المستعان.

ولما بلغ هذا الخبر تلمسان وغيرها من بلاد الإسلام بهذه الجهة، عظُم ذلك عليهم وكثُر التأسف على ضعف الإسلام بالأندلس واشتغالهم عن حفظ الحصون الإسلامية بما هم فيه من الفِتَن وطلب العزّ والسلطان المفضي إلى الذّلّ والهوان.

... وبلغنا أن الكفار احتالوا بعض حيلة على أهل جبل الفتح، ثم أمّنوهم، فخرجوا ولم يتعرّضوا لهم البتّة، بل أعانوهم على نقل الكثير

(13200/1)

من أمتعتهم، وإيصالهم إلى حيث مأمنهم.

[عزم ألفونس ملك قشتالة الزحف على الأندلس]

... /B 93/ »... وفيه ورد الخبر إلى تلمسان من الأندلس بأن أَلْفُنْش صاحب قشتالة وإشبيلة(1) وقُرطُبة وباقي ما في ذلك من بلاد الفرنج وممالكها قد عزم على الزحف على الأندلس لغزوها وأخذها (.....)(2) الخلاف الكائن بين الأب والابن، أعني ملك الأندلس سعداً وولده أبا الحسن وما وقع لهما، وأُرجف بذلك في تلك البلاد. ولما بلغ أبو(3) الحسن

(1) هكذا في الأصل، والصواب: »إشبيلية«.

(2) مقدار كلمتين غير مقروءتين.

(3) الصواب: »أبا«.

(13201/1)

ذلك، بعث باستقدام أبيه من الحصن الذي كان به. ولما خرج الأب توجّه إلى مدينة ألمرِيَّة فأقام بها ولم يعارضه ولده في ذلك، بل بعث إليه فطلب رضاه والاعتذار إليه، وأنه الملك وهو في معنى وزيره ونحو ذلك من الكلمات.

وكان بألمريّة القائد محمد بن سيدهم فقام بأمر المستعين بالله سعد هذا أتمّ القيام وخدمه، ولم يزل بألمريّة كالمتصافي مع ولده حتى مات بها في آخر السنة هذه على ما بلغني.

[دخول وهران]

... /B 94/ »... وفيه، في يوم الاثنين سادس عشرينه قصدت واهران(1)

---

(1) هكذا يكتبها المؤلف في كل المواضع بإضافة أَلِفٍ بعد الواو. والمشهور »وهران«.

(13202/1)

فدخلتها في سابع عشرينه آخر النهار، ثم (... ... ...) (1) زاوية سيدي إبراهيم التازي (... ... ...)(2) الشيخ، الإمام، العالم، الكامل، سيدي أبو(3) العباس أحمد بن العباس المالكي، مفتي واهران (... ... ...)(4) وصاحبت كبار أهل العلم والفضل بهذه البلدة فاستفدت (... ... ...) (5).

---

(1) مقدار أربع كلمات غير مقروءة.

(2) مقدار أربع كلمات غير مقروءة.

(3) هكذا أثبتها المؤلّف، ولا نعرف الجملة التي قبلها حتى نحكم إن كانت بالرفع أو بالنصْب أو بالجرّ.

(4) مقدار أربع كلمات غير مقروءة.

(5) مقدار ست كلمات غير مقروءة.

(13203/1)

[شهر جمادى الأول] [انشغال صاحب قشتالة بثورة الفرنج]

... /95 A/ »وفيه، أعني هذا الشهر ثار (بعض) (1) ملوك الفرنج بصاحب قشتالة، فأشغلهم الله تعالى عن المسلمين وما كان قصده، ورد الله تعالى كيده في نحره حتى بعث يلتمس الصلح بينه وبين المسلمين من أهل الأندلس، واتفق الحال على عقد الصلح بينه وبينهم في هذه السنة إلى مدّة خمس سنين، وحصل لبعض الناس /95 B/ بل لعامّة أهل الأندلس بعض الطمأنينة وأمنوا شرّ صاحب قشتالة.

[استيلاء الفرنج على حصن لوشا]

---

(1) كلمة »بعض« تكررت مرتين في الأَصل.

(13204/1)

... وفيه أخذ الفرنج في أثناء التكلّم في الصلح قبل أن يُعقد حصناً للمسلمين بالأندلس، وكنت أعرف اسمه وإنما أُنْسِيتُه الآن، وأظنّه حصن لوشا، وما حرّرت ذلك إلى الآن لبُعْد العهد بتلك البلاد.

[شهر رجب] [رعب الفرنج من السلطان العثماني]

... »... وفيها استهل شهر رجب بالأحد، وفيه في هذا اليوم أشيع بتلمسان أنّ [ا]بن عثمان ملك الروم قد تهيّأ وعزم على المشي على بلاد الفرنج من جهة المغرب لإبادتهم، وزادت هذه الإشاعة وكثُرت في هذا الشهر بكثير من بلاد المغرب وبلاد الكفّار حتى بلغني بعد /A 96/ ذلك أن هذه

(13205/1)

الإشاعة دخل رعبُها في قلوب الكثير من الفرنج النائيين عن بلاد [ا]بن عثمان حتى النائيين ببُعد كبير عن بلاد [ا]بن عثمان«.

[شهر رمضان] [العودة من وهران إلى تلمسان]

... /B 97/ »... وفيه، أعني شهر رمضان هذا، خرجت متوجهاً من واهران لتلمسان، فدخلتها في اليوم السابع والعشرين منه، ونزلت بمنزل عبد الرحمن بن النجار صاحب الأشغال بها، بل مدبّر المملكة لسلطانها محمد بن أبي ثابت، وكان قد اختصّ به وقرّبه وأدناه في سلطنته دون كل أحد، وركن إليه، واطمأن إليه، ولم يكن للوزير ولا لغيره معه كلام، والأمر في مملكة

(13206/1)

تلمسان والنهي إليه، فأنس بي هو وولديه(1) عبد الله الأكبر، وعبد الواحد الأصغر. وكان عبد الله نائباً عن والده، ومن الكَتَبة؛ وأما عبد الواحد، فكان في هيئة الجند ويركب وينزل مع السلطان. ولم يكن بعبد الرحمن هذا بأس بالنسبة لغيره فإنه كان سيوساً عاقلاً، وكذا ولده عبد الله مع ميله لطلب العلم، ومحبّة الفضل والفضيلة وأهل العلم(2).

... »...وفيه، في حادي عشره، ورد الخبر من جهة مدينة فاس لتلمسان بقيام أهل فاس من السواد الأعظم... وقصدوا دار الشريف محمد بن

---

(1) الصواب: »هو وولداه«.

(2) كلمة غير مقروءة.

(13207/1)

عمران، وهو مزوار الشرفاء بفاس كنقيب الأشراف بهذه البلاد، لكن مع حُرمة وافرة وكلمة نافذة وشهامة ظاهرة ... فبايعوا السيد الشريف محمد بن عمران وعقدوا له البيعة بالملك عليهم... ولقد كنت في عودتي لتلمسان هذه المدة عزمت على التوجه منها لجهة فاس لأراها. فلما بلغني ما وقع بها من هذه الفتن والخطب، فتر عزمي عن ذلك فعدت إلى واهران بشيء تسوّقته من تلمسان لأجل بيعه بالأندلس، وعزمت على التعدية والجواز من برّ العدوة لبرّ الأندلس.

[شهر ذي الحجة] [صلاة الأضحى بوهران]

(13208/1)

... /B 100/ »... وفيه، كان عيد النحر بالقاهرة السبت، وكان عندنا بواهران بالجمعة، وخرجنا لمصلّى واهران

بظاهرها، وكانت الأضحية بها في غاية الرضاء، فأبيع بها كل أربعة من جياد الغنم بدينار«.

[سنة 870 هـ]

[شهر المحرّم] [زيارة الصخرة بساحل وهران]

... /A 109/ »... وفيه، أعني هذا الشهر، زرنا الصخرة التي بساحل واهران التي أشيع بأنها المُرادة في قوله تعالى حكايةً عن فتى موسى بن عمران ـ على نبيِّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ: {أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ}(1).

---

(1) سورة الكهف، الآية 63.

(13209/1)

وذلك أنني خرجت إلى واهران من باب البحر إلى الساحل فرأيت صخرة عظيمة بالساحل المذكور، وعلى ظهرها مسجد لطيف يُصلّى فيه ويُدعا(1)به. فيقال إنه مشهور بإجابة الدعاء فيه. وكنت رأيت قبل ذلك بتلمسان مسجداً يقال له »مسجد الجدار«، يزوره أهل تلمسان، وعليه أُنسٌ وخفر. ويزعم أهل تلمسان بأنه مكان الجدار الذي أقامه السيد الخضر. ثم رأيت في بعض التفاسير أن

المراد بالقرية المذكورة في سورة الكهف إلى تلمسان. فلم أستبعد حينئذ على هذا القول أن تكون الصخرة هذه التي بواهران. وبالجملة، فهذا شيء قد

---

(1) الصواب: »ويُدعى«.

(13210/1)

قيل على إمكان أن يكون الأمر بخلاف ذلك، والله أعلم.

[شهر ربيع الأول] [محاصرة بني وطاس لفاس]

... /A 110/ »... وفيه في يوم الأربعاء تاسعه، ورد الخبر إلى واهران في البحر الملح بأنّ بني وطاس تحزّبوا وجمعوا جموعاً عظيمة، وهم في نيّة حصار فاس ليأخذها الذي يقال له مولاي الشيخ من صاحبها السيد الشريف محمد بن عمران، وأن أهل فاس في ضرر كبير بسبب ذلك، وأن التجار والقوافل قد انقطعت ما بين تلك البلاد بسبب هذه الفِتَن، وأن العرب الذين يقال لهم الشاوية مع بني وطاس... «. ...

(13211/1)

[شهر ربيع الآخر] [السفر في البحر إلى الأندلس]

... /B 111/ »وفيه، في يوم نصفه، سافرت في البحر الملح إلى بلاد الأندلس في مركب كبير للجنويّين مع جماعة من تجار الأندلس وتلمسان وواهران وغيرهم. وأقامت أم ولدي بمنزل الشيخ الإمام العالم، الفاضل، الصالح، العابد، الزاهد، سيدي أبو(1) عبد الله محمد المعروف بابن القصَّار التلمسانيّ خطيب جامع البيطار بوهران، وأحد أعيان أصحاب سيدنا الشيخ الولي، العارف بالله، سيدي إبراهيم التازي، وذكر القصّار هذا أيضاً في روايتنا عنه بالسيد بن التازي

---

(1) الصواب: »أبي«.

(13212/1)

المذكور من النظم، فخلفنا سيدي محمد المذكور في أهلنا خلفاً جميلاً، جزاه الله تعالى عنّا خير الجزاء، ورحمه رحمة واسعة، فإنه ورد علينا بعد هذا التاريخ للقاهرة حاجّاً في سنة أربع وسبعين، وتوجه إلى مكة المشرّفة، فأقام مجاوراً بها، ومات في سنة ست وسبعين.

[دخول مالقة]

... وفيه، في يوم الجمعة ثالث عشرينه دخلنا لمدينة مالقة من بلاد الأندلس فنزلنا بها، واجتمعت بها بالشيخ العالم، العلامة، الإمام، الهُمام، سيدي أبو(1) العباس أحمد السيد الشريف التلمسانيّ، شيخ الأندلس وعالمها، وقاضي

---

(1) الصواب: »أبي«.

(13213/1)

الجماعة بغرناطة كان، بل عالم المغرب في وقته، فأَنِس بنا، وسمعنا الكثير من فوائده.

... واجتمعت بها أيضاً بالشيخ العالم، الفاضل، سيدي أبو(1) عبد الله محمد بن الترعة قاضي مالقة وخطيبها، وسألني عن ترجمة الشيخ خليل المالكيّ، وذكر لي أنه بصدد شرح "مختصر"ه وأنه لا خبر عنده بشيء من أحواله، وأن له الشوق والاستشراف الزائد إلى ترجمته. وكانت ترجمته عندي من »دُرَر« (2)

---

(1) الصواب: »أبي«.

(2) المراد كتاب: الدُرَر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، وفيه ترجمة الشيخ خليل بن إسحاق

بن موسى المالكي، المتوفّى سنة 767 هـ وله شرح "مختصر ابن الحاجب" في ست مجلّدات. (انظر ج 2، ص. 86 رقم 1653).

(13214/1)

الحافظ بن حجر، فأوقفته عليها، فانشرح لذلك صدره، ثم حضرت الكثير من دروسه استئناساً به. وسمعت الكثير من فوائده، لا سيما العربية، فإنه آية فيها. وهو إنسان حسن، عنده بِشْر وبشاشة وطلاق(1) مُحيّا. قرأ الكثير وأخذ عن جماعة من علماء عصره، منهم الشريف التلمسانيّ المذكور، ومنهم قاضي الجماعة في ذلك العصر سيدي الشيخ، العلامة، الرحلة، أبي(2) عبد الله محمد بن منظور، في سنة (...)(3) وثمانين إن شاء الله تعالى. وشهر وتميُّز، وولي قضاء

---

(1) الصواب: »وطلْق«.

(2) الصواب: »أبو«.

(3) بياض في الأصل مقدار كلمة.

(13215/1)

مالقة وخطابة جامعها /A 112/ الأعظم وإفتائها، وهو بصدد نفع الطلبة بها. وكان شاباً في تلك الأيام من أبناء الأربعين فما دونها. وبلغني الآن أنه في غاية الشُّهرة والذكر بمالقة وهو على ما هو عليه، نفع الله تعالى بعلومه وكثّر منه.

[أسر الفرنج جماعة من المسلمين عند طواحين مالقة]

... وفيه، في يوم الثلاثاء سادس عشرينه هجم جمع من الفرنج البرطقال على بعض الطواحين خارج مالقة فأسروا عدّة من المسلمين فمن كان بالطاحون المذكورة، ثم ورد الخبر بأنّ أسيراً من الكفار ممّن أسلم بهذه البلاد، ثم هرب وأتى دليلاً مع

(13216/1)

هؤلاء الكفار بعد ارتداده، وفعل معهم ما فعل بهذه الطاحون. ولله الأمر«.

[قصبة مالقة]

... »... وفيه ـ أعني هذا اليوم ـ [الخميس تاسع عشرينه] صعدت بمالقة إلى قصبتها، وهي السلطنة وبها دار الإمارة، وكانت حينئذ خالية من السكان لأنها لم يكن

بها عاملاً(1) حينئذ، فرأيتها قصبة هائلة، وبها الآثار العظيمة، وهي من تجديد السلطان الكبير /B 112/ أبو(2) الحسن المريني ملك المغرب فاس الذي مَلَك المغرب جميعه ومَلَكَ الأندلس، الملقب بالمنصور. ثم إنني رأيت بهذه القصبة مكاناً

---

(1) الصواب: »عامل«.

(2) الصواب: »أبي«.

(13217/1)

مُعَدّاً للماء، به ثلاثة من الأزيار المالقيّ، ما رأيت ولا سمعت بمثلها ولا بحسنها، قد صُفَّت ثلاثتها إلى جانب بعضها البعض بهذا المكان المُعَدّ لشرب الماء بدهليز هذه القصبة، كل زير منها كالفخّار أو الخابية الكبيرة بهذه البلاد، لكنها ليست كالنواعير، واسعة الأفواه، بل ضيّقتها بأعناق كالأزيار لا الخوابي، وهي بديعة الصنعة، غريبة النقوش من العجائب والنوادر، ومن جنسها في هذه البلاد لكن لا قدْرها في العِظَم وحُسن الصنعة زير بالسبيل الذي تجاه بركة الناصرية بالقرب من زاوية أبو(1) شامة،

(1) الصواب: »أبي«.

(13218/1)

وكذلك بحارة زُويلة بسبيل [ا]بن جلود الذي إلى جانب باب داره، لكن شَتَّان ما بين الصنعتين، على أنهما أغنى ما بتلك البلاد، وما بهذه البلاد من صنعة مالقة، لكن ما هناك عُمل للسلاطين«.

[شهر جمادى الأول] [الرياح العاصفة بمالقة]

... »... وفيه، أعني جماد هذا في يوم الأحد ثالثه، ثارت رياح عاصفة جداً عظيمة هائلة بمدينة مالقة ونحن بها، فاقتلعت الكثير من الأشجار الهائلة العظيمة، فما ظنّك بغيرها، وعرفت الكثير من (... ... ...)(1). ووردت الأخبار بأنه فسد بهذه الريح عدّة من مراكب

(1) مقدار ثلاث كلمات غير مقروءة.

(13219/1)

الفرنج البرطقال كانوا قد تجهّزوا بها قاصدين غزو المسلمين، فخذلهم الله تعالى وأهلكهم، ودام هبوب هذه الرياح من بعد نصف العصر إلى فجر يوم الاثنين، وكانت أمراً مهولاً، لا سيما في الليل«.

... »وفيه [يوم الجمعة عاشره] خرجنا من مالقة على البغال لجهة غرناطة فاجتزنا بطريقنا على بلدة من بلادها يقال لها يكش، مدينة جيدة، كثيرة الخيرات والفواكه، وبها من التين اليابس والزبيب واللوز شيئاً كثيراً(1). وذكر لي جماعة من أهلها أن المراكب الكبار تأتي إلى بعض الموانيء القريبة من يكش هذه وتوسق

---

(1) الصواب: »شيء كثير«.

(13220/1)

من التين واللوز ما شاء الله أن توسق، وتحمل ذلك منها إلى غالب البلدان النائية عنها، ومع ذلك فلا يظهر نقْص ذلك ببلدنا.

... ثم سرنا منها إلى بلد يقال لها الحامّة، وهي من أعظم البلدان نزاهة وحسناً، وبخارجها مكانان بُنيا على عينين من الماء الحار من نبعهما، وبهما سُمِّيت هذه البلدة الحامّة. أحد المكانين للرجال، والآخر للنساء، وليس

بهذه البلدة حمّاماً (1) غيرهما، يجريان بلا تكلّف، ويدخل الداخل إليها للاغتسال والاستحمام من غير أجرة.

ورأيتهما مبنيَّان (2)

---

(1) الصواب: »حمّام«.

(2) الصواب: »مبنيّين«.

(13221/1)

بناءً عجيباً مُحكَماً أنيقاً. ثم دخلت الحامة المختصّة بالرجال واغتسلت فيها، ثم بتنا بهذه البلدة. وهي ذات سور منيع.

[وصف غرناطة]

... واجتزنا في الغد على الطريق لجهة غرناطة، فدخلناها في اليوم الثاني صبيحة النهار، وكان ذلك في /113 A/ أواخر هذا الشهر، ورأيت غرناطة، فإذا بها بلدة نزهة عظيمة من أعظم بلاد الأندلس، وهي قاعدة ملك الإسلام بالأندلس، وتخت السلطنة بها، غريبة الوضع حسنة الأبنية، ظريفة، أنيقة، بديعة الوضع، بها سائر أرباب الصنائع، وهي كدمشق الشام، وبها المياه الجارية والبساتين الأجنة والكروم،

(13222/1)

وهي مجمع الفضلاء والعلماء والأعيان والشعراء وأرباب الفنون والعمالات. وبها بقايا الناس، والآثار العظيمة، والأمكنة النزهة، وهي في الجند تقدير دمشق، لكنها محشوة حشواً، وأهلها من خيار أهل البلاد وأشجع الناس، يقال إن بها ثمانين ألف رامٍ بقوس الجوخ. ومن كانت العامة من أهل غرناطة معه من ملوك، راج أمره، ومن شاءوا سلطنته أبقوه، ومن أبَوْه أخرجوه. وبها الطريف والآداب والأنداب الغربية، وبالجملة فهي من أعظم بلاد المغرب وأنزهها. لقيتُ بها جماعة من العلماء والفضلاء، منهم شيخنا، سيدنا ومولانا قاضي الجماعة

(13223/1)

بها، الشيخ، الإمام، العالم، العلاّمة، أبي(1) عبد الله محمد بن منظور، إنسان من كبار أهل العلم والفضل الغزير، له نورة وحُسن سمت وسكون زائد ووقار ودين وخير وأدب وحشمة وورع، وعليه حضرت عنده غير ما مرة، وسمعت الكثير من فوائده، كثّر الله في الإسلام من مثله. وقد بلغني أنه موجود إلى الآن في هذا الزمان، وهو باقٍ على

قضائه ومنصبه لدينه وعفّته وحُسن سيرته، وتحرّزه وشكره في إنصافه وقضائه بالحق والعدل، حفظه الله تعالى وأبقاه، وبعين عنايته رعاه«.

---

(1) الصواب: »أبو«.

(13224/1)

... »... وفيه، في ثاني عشرينه، خرجت إلى جهة أجنّة غرناطة وبساتينها، فرأيت العجب من كثرة ذلك وما بها من الفواكه والخيرات (... ... ...)(1) خرجنا للتنزه في كروم غرناطة أيضاً من جهتها الأخرى غير جهة الأجنة فرأينا فيها أمراً مهولاً من الأشجار من عنب وتين.

... وفيه في يوم الجمعة تاسع عشرينه طلعت إلى صاحب غرناطة السلطان أبو (2) الحسن، وهو بحصنه دار الإمارة التي يقال لها (...)(3) غرناطة، فأَنِس إليَّ، وكان بعث يطلبني إليه

---

(1) مقدار أربع كلمات غير مقروءة.

(2) الصواب: »أبي«.

(3) كلمة غير مقروءة.

(13225/1)

ليسألني عن أخبار صاحب تلمسان وصاحب تونس، فذكرت له ما حضرني من ذلك، ثم أخذ يسألني عن الشام وأحواله، وعن مصر وأحوالها وأنا أجيبه عن كل ما يسأل من ذلك، وهو متعجب مما أجيبه. ثم خرج لي أمره (... ... ...) (1) بأن لا يؤخذ منّي شيء مما يلزم التجار من المغارم، وأكرمني إلى الغاية... «.

[شهر جمادى الآخر] [وصف ربض البيازين بغرناطة]

... /B 113/ »... وفيه، في عاشره، خرجت من غرناطة إلى جهة الرَبَض بها، وهو المعروف برَبَض البيازين، فرأيناه ورأينا جامعه الأعظم، وهو غريب

---

(1) مقدار أربع كلمات غير مقروءة.

(13226/1)

من أحسن الجوامع بناء، به السواري الرخام الأبيض الأنيقة، واجتزنا في مرورنا بالمسجد الذي بمنارة في مكان الهلال هيئة ديكة ناشر جناحيه، ويُعرف عندهم بفرّوج الرواح، أي الرياح. ورأيت من يذكر أنه وُضع طَلْسَم لمنع الريح العطية، ويذكرون أنه لولاه لهبّت

الرياح على غرناطة وأضرّت بحالها، بل أهلكتها. ثم عُدْنا ودخلنا إلى الحمراء لرؤيتها، وهي دار الإمارة وقلعة السلطنة دار المُلك وهي غربية الهيئة، محكمة البناء، أنيقة جداً، دائرة على علوّه بوجهين، أحد وجهيها مُطِلّ على مرج غرناطة، وهو مرج عظيم يسقيه النهر

(13227/1)

الذي يقا له "شنيل" من عجائب الأنهار، ولقينا به سمك غريب (1) في جودته يصفه الأطبّاء لأصحاب الحُمّيات يقال له "الرضراضي"، وجهة هذه الجزائر الأخرى مطلّ على جهة وادي صارو الذي به أجنّة غرناطة وبساتينها عَطِر بهج رائق نزه من كِلا الجانبين. وهذه العلوة التي بنيت عليها هذه الدار المعظّمة بل الحصن الأعظم والأبراج العجيبة والسور الغريب طرف جبل أحمر اللون، بحضيضه من جهة المرج مكان يستخرج منه تراب أحمر اللون جداً يشبه في لونه الطين الأرينيي يُعرف بالأندلس، فلتراب الأنجبار

---

(1) الصواب: »سمكاً غريباً«.

(13228/1)

المعدنيّ، ومنه يُصنع الكيزان التي يشرب بها الماء في تلك البلاد، وهي كيزان رفيعة غاية في جودة الصناعة، مبرّدة للماء بطبعها، بل ولها منافع، فيقال إنها تمنع الأسهال الدموي شرباً، وهو كلام مقبول، ثم رأينا من الأبنية الغريبة والأوضاع العجيبة الأنيقة والتخاريج التي في صناعة الجبس نعجز الآن عن شرحه ووصفه.

وبالجملة، فإن غرناطة هذه وحمراءها (1) من أجلّ مدن الأقاليم وأظرفها، لولا قرب الكفار من تلك الديار وأَخْذهم غالب تلك الأقطار الأندلسية والكثير من مدن الإسلام التي كانت مشهورة،

---

(1) الصواب: »وحمراءها«.

(13229/1)

لا سيما في أيام بني أميّة بها، مثل شرينة، وبلنسية، وقرطبة، وطليطلة، وشذونة، وجيّان، والحصون المنيعة كشاطبة وغير ذلك من بلاد كثيرة كانت للإسلام صارت للفرنج الآن، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

[شهر رجب] [ركوب البحر إلى وهران]

... وفيها استهلّ رجب بالاثنين، ففيه، في هذا اليوم، ركبنا البحر عائدين إلى وهران فدخلتها في رابع رجب هذا، وعزمت على السفر في البحر في المركب التي ركبنا بها والتوجه فيها إلى جهة تونس، ثم رأيت آثار الضعف باقية بي. وأشار عليّ بعض خُلّص أصحابي بالإقامة حتى تقوى البنية وتشتدّ

(13230/1)

القوة، فأقمنا بها على عادتنا.

[شهر شعبان] [تحصين تلمسان]

... »... وفيه، في أوائل شعبان، ابتدأ صاحب تلمسان في بناء برج عظيم على باب تلمسان، وأخذ في قطع ما إلى جانب الباب من خارجه من الأشجار، واجتهد في تحصينها، وتفقّد أسوارها، وجدّ في العمل في إنشاء هذا البرج حتى أنهاه في أواخر هذا الشهر.

... وفيه، أعني هذا الشهر، بعد نهاية البرج، خرج صاحب تلمسان إلى المكان الذي يقال له جبل بني مشعل وبه حصن منيع، فتفقّده، وأشيع بأنه قصد أن يبعث بحريمه وذخائره إليه، إذ بلغه مجيء صاحب تونس إليه.

(13231/1)

[الخوف من مراكب الفرنج بسواحل وهران]

... /A 116/ »وفيه، في أواخره، ونحن بواهران ظهرت أربعة مراكب الفرنج من جهة المغرب، ففزع أهل النواحي بخارج واهران إليها، بل وأُرجفَ بواهران أن هذه المراكب مشحونة بالمقاتلة، وأنهم قصدوا أذى المسلمين. ثم اجتازت تلك المراكب ولم تعرّج لجهة وهران ولا سواحلها. وسلّم الله تعالى.

... ثم بلغنا الخبر بأنها أخافت السبيل بنواحي بجّايا، وأضرّت بالمارة، وأسرت الكثير من المسلمين«.

[سنة 871 هـ]

[شهر المحرّم] [إعداد بني وطاس لحصار فاس]

(13232/1)

... /B 127/ »... وفيه، في ثانيه، ورد علينا الخبر ونحن بواهران أن بني وطاس عزموا على منازلة فاس وحصارها، وأنهم تحزَّبوا لذلك، وثار معهم طوائف العربان الشاوية وغيرهم، وأن السيد الشريف محمد بن عمران صاحب فاس

تهيَّأ لهم.

[شهر صفر] [قدوم سفينة من فنلندة إلى وهران]

... /A 129/ »... وفيه، في يوم تاسع عشرينه، ورد إلى ساحل مدينة واهران شونة عظيمة من مراكب الفرنج الجنويّين برسم الاتجار في الجوخ، وكانت وردت من المحيط من بلاد افلنده (1) ونحوها من بلاد

---

(1) هكذا في الأصل. وهي فنلندة. البلاد الإسكندنافية.

(13233/1)

الفرنج بالمحيط، وتجهّز كثير من تجار وهران وتلمسان للسفر فيها إلى جهة بلاد تونس. وتجهّزت أنا أيضاً لذلك وعزمت على العَود لهذه البلاد بعد دخول تونس وغيرها من البلاد.

[شهر ربيع الأول] [البربر بساحل بجاية]

... »... وفيه، في حادي عشره، ركبت في البحر الملح في الشونية الماضي ذكرها، وأقلعنا إلى جهة تونس.

... وفيه، في يوم السبت رابع عشره، عكّر علينا الريح وسكنت، فمنعنا فيه من السفر فعملت النواتية

البحّارة فيه بالمقاذيف، وكانت المركب مثقلة، فقلّ سيرها بالنهار كله. فلما كان عند العصر دخلنا إلى ساحل البرّ

(13234/1)

بالقرب من بجّاية، ونزلنا من المركب، فوجدنا طائفة من برابر تلك النواحي والجبال.

[الوصول إلى ميناء تونس]

... »... وفيه، في يوم تاسع عشرينه، دخلنا لساحل المرسى بتونس، وعزمت على عدم الإقامة بها، وأن أتوجّه إلى طرابلس في المركب /130 A/ التي أنا بها لأقرب من البلاد، وكان معي العيال وبعض أثقال فما أنزلتهم من المركب لأنها قامت نحو الأربعة أياماً (1). ثم سافرت، وجاء إليّ بعض أصحابي من تونس وتأسّفوا على ما بلغهم من الجراحة التي حلّت ببدني، وبعثوا بأشياء من أنواع الهدية وأحسنوا

---

(1) الصواب: »أيّام«.

(13235/1)

وتفضّلوا. وممّن جاءني عظيم التجار بتونس صاحبنا سيدي أبو القاسم البغْيُولي، سلّمه الله تعالى.

[شهر جمادى الأول] [دخول طرابلس الغرب]

... /A 132/ »... وفيه، في أواخره، دخلنا إلى مينا مدينة طرابلس المغرب ونزلت بدارٍ بها، وأقمنا بها مدة شهور.

[ركب الحجّاج]

... »... وفيه، في يوم السبت سادس عشره، قدم إلى طرابلس سيدي أحمد الدهماني القرويّ شيخ الركب، ومعه جمع وافر من المصامدة وغيرهم، وهم قاصدون الحج من على طريق بَرقَة. وتجهّز جماعة من طرابلس أيضاً للسفر معهم، وتجهّزت أنا أيضاً، وتكلّفت إلى شراء جِمال

(13236/1)

وغير ذلك

... وفي يوم الخميس ثامن عشرينه، اجتمعت بطرابلس بطائفة من المصامدة الذين هم صحبة الركب أستشيرهم في السفر، فأشاروا عليّ بأنه نعم الرأي. وصحبنا من ثمّ

سيدي محمد بن سعيد المصموديّ، العبد الصالح، وتعارفنا به، وكنّا بعد ذلك في السفر نتأنّس به غاية الأنس، وسمعنا الكثير من فوائده. وهو إنسان حسن، من عباد الله تعالى الصالحين. وحجّ لما قدم القاهرة من عامه هذا، وجاور بمكة، وهو بها إلى يومنا هذا فيما أُخبرت، وقد كُفّ بصره، وللناس فيه الاعتقاد الحسن، نفع الله تعالى به «.

(13237/1)

[شهر شعبان] [سفر المؤلف مع الركب من طرابلس]

... »... وفيه، أعني هذا الشهر، خرجنا مسافرين مع الركب من طرابلس قاصدين هذه البلاد من على طريق برقة بعد أن اجتزنا بمسراتة، ثم بقصر أحمد من أعمال طرابلس، ثم دخلنا برقة فشقّيناها من على الطريق الوسطيّ لا الساحل، لأنّ الركب اختشى من التوجه من على طريق الساحل من شرور عربان برقة وأذاهم لكونهم غالباً في هذه الأيام يكونون بالساحل، وقطعنا عَقَبَة المواس وتسلّمنا البساط من أرض برقة وبقينا بها ليالي وأياماً، ورأينا أرضاً عجيبة وبلاداً خربة غريبة، لم يبق إلاّ

(13238/1)

رسومها وبعض الآثار، وهي بطحاء لا جبال بها ولا تلال ولا عمران، وتعجّبت من سيرنا فيها بلا ما يدلّ على الطريق حتى ولا آثارها. وكنّا نرى بها شيئاً كثيراً من النعام كباراً، بحيث يخيّل لناظرها من بُعدٍ أنها شجرة. ورأينا مدينة "لبنا" وهي خراب، مدينة عظيمة، كانت مبنيّة بالرخام الأبيض، وأكثر جدرانها قائمة على أصولها، مُحكمة البناء، ورأينا غيرها من بلدان خربة. ثم اجتزنا بالبساط /B 134/ بالبير المعروفة ببيرساوكنا، وهي من أعجب الآبار، عميقة جداً، وإذا رُمي إليها الحجر لا يُسمع صوته لبُعد المسافة بين فمها

(13239/1)

ومائها. وقاسينا في طريقنا من المشاق ما لا يُعدّ، ولقينا بعض العربان وأخافونا، بل ربّما قصدوا نهب الركب وأخذوا شيئاً من أثاث الناس، وداروا بنا أياماً، وما سلّم الله تعالى منهم إلا بعد جهدٍ جهيد وخوف شديد حتى وصلنا إلى عربان لبيد، وكانت بلادهم مخصبة ولم يعترضونا بسوء، وأقاموا لنا أسواقاً. وسرنا بعد ذلك إلى جهة الإسكندرية.

[شهر شوال] [العيد في بلاد لبيد]

... »... وفيها كان أول شوال بتمام عدد ما قبله بالثلاثاء، وعيّدنا في بلاد لبيد بالقرب من الإسكندرية، ثم أعاقنا والركب عن الجدّ في السير قلّة

(13240/1)

الظهر لموت الكثير من الجمال ووقوفها، ووقف لي بالطريق بعض جِمال تضرّرنا بوقوفها حتى مشيتُ في بعض الأحيان على قدميّ، ودام ذلك بنا نحو الخمسة أيام، وكان معي دابّة أتعلّل بركوبها، فصرت أخاف أن تقف أو نحو ذلك، وضعف مملوكاً (1) كان لنا يخدمنا وتغلَّبنا به، ثم وجّه الله تعالى له بالعافية، فله الحمد على ذلك ثم دخلنا مدينة الإسكندرية في خامس هذا الشهر «.

... ».. وفيه، في يوم الأحد عشرينه، خرج الوالد من القاهرة مسافراً مع الحج، وكنت أنا قد تعوّقت بالإسكندرية ولا عِلم لي بما

---

(1) الصواب: »وضعُف مملوك«.

(13241/1)

كان للوالد، ولا له بما كان من قدومي. وكان قد حصل عندي بعض وعك أعاقني عن الحضور صحبة الركب إلى القاهرة «.

[شهر ذي القعدة] [العودة إلى القاهرة]

... »... وفيه، في يوم الثلاثاء سابعه، قدمت إلى القاهرة فوجدت الوالد قد سافر كما ذكرت، فتأسّفت على عدم رؤياي إيّاه واجتماعي به، وكان جُلّ عزمي أن أتوجّه للحج في هذه السنة، فما أراد الله تعالى، وبيده الأمور «.

(13242/1)

مشيخة الكارات... في سورية!!

... ... الدكتور محمد منير كيال

... ... دمشق ـ سوية

... كانت الصناعة التقليدية في سورية، حتى أوائل العقد الثالث من القرن العشرين، محكومة بأطر وعبادات وتقاليد، لا يمكن الخروج عليها. وكان من أهم تلك الأطر

ما كان يطلق عليه "مشيخة الكارات"، المعروفة باسم "نظام الأصناف".

... بموجب هذا النظام، كان على الفتى الذي يرغب في مزاولة أيّ حرفة (كار) أن ينخرط في تجمع تلك الحرفة، ويترقّى من أجير إلى صانع فمعلم، في ذلك الكار وفق قواعد مستمدة من التعاليم

(13243/1)

الدينية، والأعراف المهنية والاجتماعية.

... ويرجع المستشرق الفرنسي ماسينيون هذا النظام في سورية إلى حركة القرامطة التي انتشرت على شكل تنظيمات سرية، يمكن أن تعد أولى المنظمات الحرفية في سورية. وقد عرفت تلك المنظمات فترة ازدهار، لدرجة أصبح لها محاكمها الخاصة للفصل في المنازعات التي تقع بين الحرفيين (1).

... وقد نجم عن الاضطرابات التي عمت سورية في القرن الحادي عشر، أن انعدمت هيبة الدولة، وسادة الفوضى،

---

(1) ... انظر كتابنا "فنون وصناعات دمشقية"، صص. 202 ـ 204، مطبوعات وزارة الثقافة، سورية، 1958.

(13244/1)

وأصبح البدوي يأكل على رأي ابن المدينة بالطبق كما يقولون!! (1).

... انكفأ سكان دمشق إلى داخل سور المدينة (2). وبدت دمشق وكأنها مجموعة من الحارات المستقلة، التي لكل منها حياتها الخاصة (3)

---

(1) ... كناية عن الإمعان في تلسط أهل البادية على أهل الحاضرة، لانعدام هيبة الدولة، وضعف قدرتها على حفظ الأمن، أي أن البدوي كان يغزو الحاضرة، ويركع ابن المدينة، ويضع على رأسه طبقاً (آنية)، ومن ثم يباشر طعامه.

(2) ... نقولا زيادة، دمشق في عصر المماليك، صص. 65 - 67.

(3) ... انظر: سوفاجي، مجلة المشرق، ص. 179، 1926 م.

(13245/1)

. ...

... وبفضل روح التعاون والتآزر، التي كانت تسود أهل الحارة، كان على سكان كل حارة أن ينظموا أنفسهم للدفاع عن مدينتهم، وكان ذلك التنظيم في إطار

تجمعات حرفيّة (كارات)، ثم ما لبثت تلك التنظيمات الحرفيّة أن أناطت بنفسها حل المشاكل التي تقع بين أعضائها في حدود الكار (الحرفة)، والحيلولة دون ظلم الحكّام لهم. فانتظم قطاع كبير من السكان، وبخاصة في المدن، في تلك الكارات، سواء في مجال الإنتاج أو الخدمات والتسويق (1)

---

(1) ... عبد الكريم رافق، "مظاهر التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني"، مجلة دراسات تاريخية، العدد 4، 1981.

(13246/1)

. وقد تحكمت تلك التنظيمات في نوعية الإنتاج ومواصفاته وأسعاره، وكانت المواد الأولية المستوردة لكل حرفة توزع على معلميها من قبل شيخ الكار (الحرفة) بحسب ما تتحمله حالتهم بعد أن يخص نفسه بحصة ونصف الحصة!!

... وإذا كانت سيادة هذا النظام بين مد وجزر في العهد المملوكي، فإن العهد العثماني كان أكثر حفاظاً على الماضي وأكثر تمسكاً بعاداته وتقاليده الموروثة!!

ولئن تباينت تفاصيل نظام الأصناف المذكور من مدينة

إلى مدينة أخرى، ومن حرفة إلى حرفة أخرى، فإن تسلسل المراتب في الحرف (الكارات) ينحصر في خمس مراتب

(13247/1)

تتبعها مرتبتان رديفتان. وهي (1):

... 1 ـ شيخ مشايخ الكارات (الحرف)، ومساعده النقيب.

... 2 ـ شيخ الكار (الحرفة)، ومساعده الشاويش.

... 3 ـ المعلم.

... 4 ـ الصانع.

... 5 ـ الأجير.

... ومعنى ذلك أن كل مبتدئ أو أجير في حرفة، عليه أن يرتبط بصانع يعلمه (بإشراف المعلم وتوجيهه) أصول الحرفة وتقاليدها. وعلى كل صانع أن يرتبط بمعلم يعلمه أسرار الحرفة، ويشهد له عندما يتقن عمله ويصبح مهيئاً لأن يحترف الحرفة، لينخرط في

---

(1) ... انظر كتابنا: ياشام، في التراث الشعبي الدمشقي، ص. 82، مطبعة ابن خلدون، دمشق، 1984.

(13248/1)

عداد المعلمين (1).

... 1. 1. شيخ مشايخ الكارات: يأتي في قمة الهرم الحرفي، وكان يطلق عليه في مدينة حماه لقب "شيخ السوق"، و"شيخ البدستان". ويشترط فيه أن يكون مشهوراً بالاستقامة والصلاح واللياقة في المشيخة، وأن يرضى عنه مشايخ الحرف (الكارات)، وينوّهوا بحسن سيرته ويذكروا محامده... وأن يوافق القاضي والسلطان على تعيينه. ومهمته الإشراف على جميع طوائف الحرف ومشايخها. ولا يتم أي تعيير فيها إلا بعلمه

---

(1) ... ليلى صباغ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، مطبعة وزارة الثقافة، 1973، صص. 68 ـ 71.

(13249/1)

ورأيه. وكان مشايخ الحرف كلهم ينتخبون بحضوره ويزكون بتزكيته (1). فهو الآمر والحاكم الأعظم، والرئيس الأسمى الذي لا يبدّل ولا يعزل، ولا يخلعه من منصبه، إلا الموت أو الاستقالة.

... كانت سلطته كبيرة أيام المماليك، وكان له في العصر العثماني أن يزجّ بمن تعدى من المشايخ، ومن

سائر أهل الحرف، في السجن، أو يكبّله بالقيود، ويجلده بالسياط (2)

---

(1) ... عبد الودود محمد يوسف، "طوائف الحرف والصناعات"، مجلة الحوليات السورية، المديرية العامة للآثار والمتاحف، المجلد 19، ج 1 ـ 2، ص. 85، 1969.

(2) ... ياشام، ص. 83.

(13250/1)

. فهو ـ والحال هذه ـ كان يمارس جميع السلطات التي يمارسها شيخ كل كار على العاملين في حرفته، لكن هذه السلطة ما لبثت أن تقلصت وأصبحت شعائرية رمزية في مطلع القرن العشرين؛ ولم يبق له إلا المصادقة على انتخاب شيوخ الحرف، وتصدر الاحتفالات والطقوس الرمزية للحرف (1).

... 1. 2. النقيب: الساعد الأيمن لشيخ مشايخ الحرف، ويعيّنه القاضي بناء على اقتراح شيخ المشايخ، ويكون من المعلمين المتميزين في حرفته. وهو ينوب مناب شيخ المشايخ. ويعدُّ ممثلاً له في اجتماعات المنظمات

---

(1) ... فنون وصناعات دمشقية، ص. 206.

(13251/1)

الحرفية التي تستدعي حضور شيخ المشايخ. وهو رسول شيخ المشايخ في حفلات الترفيع (الشدّ) للصناع والأجراء، وهو يتلو الأدعية في هذه الحفلات نيابة عن شيخ المشايخ، ويقوم بما يلزم كما لو كان شيخ المشايخ حاضراً بنفسه. كما أنه صلة الوصل بين شيخ المشايخ ومشايخ الحرف (1)، ويحضر مراسيم تنصيب مشايخ الحرف، ويكلف بالسهر على حسن انتظام سير العمل في الحرب وحسن أخلاق العاملين في كل حرفة (2).

---

(1) ... المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، ص. 76.

(2) ... باشام، ص. 85.

(13252/1)

... 2. 1. شيخ الكار: وهو رئيس الحرفة، ويطلق عليه في بعض الحرف لقب "باشي" (1)، ويختاره معلمو الحرفة بعد المذاكرة والاستحسان باتفاق الآراء، ويذهبون به إلى شيخ مشايخ الكارات، ويذكرون اختيارهم له. فيتلو

شيخ المشايخ عشرا من القرآن الكريم، ثم يقدم له النصائح اللازمة لتسيير أمور الكار (الحرفة) بالعدل والاستقامة، والسهر على مصالحها، ويأخذ عليه العهد بذلك فيدخل الشيخ الجديد على بساط شيخ المشايخ، ويقر القاضي ذلك وتكون هذه المشيخة مدى

---

(1) ... كما في حرفة القصابين والمعماريين: قصاب باشي ومعمار باشي.

(13253/1)

الحياة، وقد تكون وراثية في بعض الحرف، إلا إذا أخل الشيخ بمهامه، فيعزّل، إما بطلب من معلمي الحرفة، وإما برغبة شيخ مشايخ الكارات. وعندما يتوفى، قد يعمد المعلمون إلى اختيار ابن شيخ الكار اعترافاً بجميل صنع أبيه (1).

... وفي جميع الأحوال، لابد من أن تتوافر في شيخ الكار شروط كان من أهمها: أن يكون متقناً لعمله في حرفته، وبذّ أقرانه الذين شهدوا له بالكفاءة؛ وأن يكون كريم الأخلاق، أميناً على عهوده، وبخاصة ما يتعلق بغيره، وأن يكون غنيّاً

---

(1) ... المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، ص. 72.

(13254/1)

مليئاً، وهذا الشرط لازم، ولا سيما أن شيخ الكار يأخذ على عاتقه تعهدات كثيرة. فإذا لم يكن قادراً على الوفاء بذلك، شك المعلمون في قدرته على تنفيذ تعهداته.

... ويتوجب عليه العمل ليل نهار، لحل مشاكل الحرفة التي تقع بين المعلمين وصناعهم، وبين المعلمين والزبائن؛ وقضايا أخرى، تتعلق بنوعية الإنتاج وتحديد السعر المناسب.

... وعلى شيخ الكار أن يتدارس مع معلمي الحرفة مصالح الحرفة ويحرص على صيانة سمعتها، والمحافظة على الروابط الجيدة بين العاملين في الحرفة، معلمين وصنّاعاً وأجراء...

(13255/1)

... وحتى يستطيع شيخ الكار القيام بهذه المهام، والوقوف على كل كبيرة وصغيرة في الحرفة، كانت

حوانيت كل حرفة تتجمع في أماكن خاصة تتخذ أوراقاً لمنتجاتها، كسوق الحدادين والنجارين والبزوريين والخياطين والدقاقين (1).

... وكان لكل سوق أبوابه ومداخله، ويحرسه حراس ليليون يستأجرهم أبناء السوق. وإذا حدث أن سرقت حوانيت السوق، فإن الحراس يدفعون ثمن ما سرق، جرّاء تقصيرهم. ويدفع أهل السوق أجر الحراس بالتساوي (2).

---

(1) ... فنون وصناعات دمشقية، ص. 208.

(2) ... طوائف الحرف والصناعات، ص. 78.

(13256/1)

... وعلى هذا، فإن شيخ الكار يعدّ المرجع الأول في تحديد أعراف الحرفة، وكان لمقرراته مؤيدات قوية تتعدى أحياناً العقوبات المسلكية إلى الغرامات والعقوبات الجسدية. فقد كان له أن يأمر بإغلاق حانوت المخطئ أو حرمانه من ممارسة الحرفة مدة من الزمن، أو أن يأمر بقص قسم من غرته (1)، للتشهير به، أو بعمل وليمة للمعلمين الآخرين.

---

(1) ... الغروة: مقدم شعر رأس المرء. ويعد قص طرف

الغرة وجانب من الشارب عند الرجل، في عرف العامة، إهانة تمس كرامته.

(13257/1)

... وعندما يحدث مشكل ما، يأتي المتظلم إلى شيخ الكار ويعقد للشيخ طرف الشملة أو الحطة (1)

---

(1) ... الحطة: قطعة قماش حريرية، مربعة الشكل، طول ضلعها نحو ذراع. تطوى على شكل مثلث، وتوضع قاعدته على رأس الرجل فوق الطاقية (العرقية) ويترك الطرفان سائبان على الكتفين. (انظر: حسن حمامي، الأزياء الدمشقية وتقاليدها في سورية، ص. 155، مطبوعات وزارة الثقافة السورية؛ وكتابنا ياشام، ص. 98). أما الشملة، فهي قطعة متطاولة من قماش الأغباني الحريري، وهي مطرزة برسوم لأزاهير وعروق نباتية ذهبية أو فضية، يتمنطق بها الرجل بلفها عدة مرات فوق سرواله أو قنبازه (الرداء).

(13258/1)

ويقول له: »إيدي بزنّارك (ويعض يده على شملة شيخ الكار) داخل على الله وعليك أن تأخذ لي حئي (= حقي) من (فلان)«؛ فيقول له الشيخ: »وصلت للحأ (= لحق) إن كان لك حأ (= حق)« (1).

... ويسمع منه شيخ الكار القصة، ويستبقيه عنده ثم يستدعي خصمه ويسمع منه على حدة، ثم يجمعهما ويسمع منهما. وعندما يتكلم الواحد، لا يسمح للآخر أن يقاطعه مهما كان كلامه. وإذا كان هناك شهود، استدعاهم ولو بالقهر.

---

(1) ... أيدي: يدي، أرادوا الترجي والتوسل؛ حئي: حقي.

(13259/1)

... ويحسم الشيخ الأمر لصاحب الحق بحكم لا مرد له، إلا إذا رأى شيخ المشايخ الإجحاف في الحكم.

... 2. 2. الشاويش: مساعد شيخ الكار (الحرفة)، ويختاره شيخ الكار بالتشاور مع كبار المعلمين في الحرفة. وراعي في اختياره أن يكون أهلاً لعمله، قادراً على القيام به على الوجه المرضيّ(1). وهو ينوب مناب شيخ الكار ويساعده في بعض مهامه، كما أنه رسول شيخ الكار ويدعو بإذنه المعلمين والصناع، للبحث في القضايا التي

تهم الحرفة، كما يدعو المعلمين والصناع لحضور حفلات الشدّ والولائم، ويبلّغ قرارات

---

(1) ... ياشام، ص. 85.

(13260/1)

العقوبة لمن حكم عليه شيخ الكار بذلك(1).

... 3. المعلم: من أتقن الحرفة، وتوافر لديه ما يكفي من المال لفتح حانوت يمارس فيه حرفته. ومن المعلمين ينتخب شيخ المشايخ وشيخ الكار.

... وكان للمعلم في حانوته سلطة تماثل سلطة رب الأُسرة في بيته. فهو رئيس الحرفة ويعمل تحت إمرته الصناع والأجراء، وهو المنتج والتاجر الذي يتمتع بحق ممارسة الحرفة وبيع منتجاتها. وتسلم حصة حانوته من المواد الأولية اللازمة للإنتاج.

---

(1) ... المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، ص. 75.

(13261/1)

... وله أيضاً الاشتراك في الاجتماعات، واتخاذ القرارات المتعلقة بالحرفة مع بقية المعلمين، وشيخ الكار.

... وكان للمعلم في حانوته سلطة تماثل سلطة رب الأسرة في بيته. فهو رئيس الحرفة ويعمل تحت إمرته الصناع والأجراء، وهو المنتج والتاجر الذي يتمتع بحق ممارسة الحرفة وبيع منتجاتها. وتسلم حصة حانوته من المواد الأولية اللازمة للإنتاج.

... وله أيضاً الاشتراك في الاجتماعات، واتخاذ القرارات المتعلقة بالحرفة مع بقية المعلمين وشيخ الكار.

(13262/1)

... كما أنه مسؤول عن أخلاق الأجير ونشاطه وغذائه، وملاحظة الصناع وتوجيههم. وكان من المعلمين من يزيد في العوائق للحيلولة دون ارتقاء الصانع إلى رتبة معلم.. كانوا يقلون على الصانع ويكلفونه بالأتاوات والولائم والهدايا، زيادة على شروط الكفاءة والمقدرة؛ في حين كانوا يسهلون وصول أبنائهم إلى المراتب العليا في الحرفة(1).

... والعلاقة بين المعلمين تسودها المحبة، ولا تفسدها المزاحمة؛ وبين المعلمين والزبن، تقوم هذه العلاقة على أسس من الاستقامة للحفاظ على شرف الحرفة

---

(1) ... فنون وصناعات دمشقية، ص. 203.

(13263/1)

وسمعتها لدى المستهلك(1)

---

(1) ... جمال الدين القاسمي وخليل العظم، قاموس الصناعات الشامية، ج 2، ص. 458، مطبوعات دار طلاس. ... وهذا الكتاب فريد من نوعه في وصف الصناعات الشامية في القرن التاسع عشر. وقد اطلعت على مخطوطة هذا الكتاب في أوائل العقد الخامس من القرن العشرين في دار الغبرة يوم كنت أعد كتابي «نون وصناعات دمشقية ». وكانت تلك المخطوطة تحمل عنوان: « بدائع الغرف في الصناعات والحرف». وقد ورد بها ذكر ما يزيد على 500 حرفة مصنفة في ثلاثة أجزاء، ينتهي الجزء الأول منها بحرف السين، وقد كتبه العلامة الشيخ محمد سعيد القاسمي؛ وأنهى الجزئين الثاني والثالث نجله جمال الدين القاسمي مع نسيبه خليل العظم. ثم قام الأستاذ ظافر القاسمي بتحقيق هذه المخطوطة وأعدها للطباعة في جزئين بعنوان «قاموس الصناعات

الشامية »، وذلط عن العهد الفرنسي للدراسات الشرقية بدمشق، ثم صدر في مجلد واحد عن دار طلاس.

(13264/1)

.

... 4. الصانع: يشكل الصنّاع عماد العمل في الحرفة، وهم يعملون لحساب المعلمين لقاء أجر متفق عليه. وقد حاول المعلمون تأخير ترفيع صناعهم إلى مرتبة معلم، لتحاشي منافستهم لهم. ذلك بأن استقلالية الصانع قد تؤثر في مردود حانوت المعلم، سواء من ناحية جودة الصنعة، أو من ناحية الدخل.

... ولما كان لكل حرفة عدد من الحوانيت لا يمكن تجاوزه، فإن إحداث أي حانوت أو فتحه زيادة على ذلك العدد يعد مخالفة صريحة لما تواضع عليه معلمو الحرفة، وبالتالي فإن مثل ذلك الأمر سيخفض مردود معلمي الحرفة. ولذلك كان كل معلم في

(13265/1)

الحرفة الواحدة يحرص على أن يتعلم أولاده حرفته، حتى يحملوا اسمه في ممارسة الحرفة. وإذا لم يكن للأسرة عقب ذكر، أو زهد أبناؤها في ممارسة الحرفة، لسبب من الأسباب، فإن امتياز الأسرة بفتح حانوت خاص بها، يمكن أن يبيعه الورثة لأحد المعلمين الآخرين في الحرفة، باقتراح من شيخ الكار(1). وهكذا فإن كثيراً من الصناع وصلوا إلى درجة إتقان الحرفة، لكن تلك الظروف أو الشروط قد تقف عائقاً أمام إمكان الصانع فتح حانوت خاص به(2) وممارسة حرفته بصفته معلماً، وبالتالي فإن على الصانع أن يبقى صانعاً

---

(1) ...

(2) ...

(13266/1)

فترة من الزمن يعود تقديرها للمعلم، إذا توافرت الشروط الأخرى وتوافر لدى الصانع السيولة المالية اللازمة لذلك

... وخلال هذه الفترة يترتب على المعلم تتبع خطوات الصانع، ومراقبة عمله، وتقديم النصح والتوجيه له، في كل صغيرة وكبيرة، حتى ينضج ويتقن الحرفة، ويصبح

في نظر المعلم كفؤاً للاستقلال. وعلى هذا، فإنه لا يحق لصانع أن يترك عمله لدى المعلم ويقوم بفتح دكان خاص به، ما لم يجزه المعلم الذي يعمل لديه. وإذا عمد الصانع إلى فتح حانوت خاص به خلافاً لذلك، فإن شيخ الكار والمعلمين الآخرين في تلك الحرفة يعارضونه

(13267/1)

ويعاقبونه بإغلاق حانوته والتشهير بعدم قدرته وقلة كفاءته لدى الزبن(1).

وكثيراً ما كان المعلم يخفي عن صانعه سر صنعته، تمسكاً بالصانع وحباً في امتصاص تعبه، وحتى يبقى الصانع تحت كنفه. فقد حُدّثت في أواخر العقد الرابع من القرن العشرين بأن معلماً للخزف أجاز صانعاً بالاستقلالية في العمل. وبعد أن جرت مراسيم الشد (التكريس) للصانع، وأصبح معلماً، أخذ هذا المعلم الجديد، في ممارسة عمله في مشغله، لكنه فوجئ بأن الأواني الخزفية التي ينتجها ليس لها البريق الذي كان للقطع التي كان ينتجها، يوم كان يعمل

---

(1) ...

(13268/1)

صانعاً لدى معلميه. ولما زاره معلمه لتفقد أحواله (وهذا من تقاليد الحرفة)، ولاحظ الإنتاج، تبسّم وقال لصانعه القديم: »لقد أتقنت كل شيء. إلا أنك لم تتعرف إلى نفس المعلم (أي سر الحرفة)«. فقال له الصانع: »لم يتغير عملي عما كنت أقوم به عندك«. قال له المعلم: »عندما كنا نخرج الأواني من الفرن غبّ شيّها، ماذا كنا نفعل؟«، أجاب الصانع: »كنت أناولك الآنية لتصفّها على الرف حسب جودتها«. فسأله المعلم: »وأيضاً؟؟«. أجاب الصانع: »كنت تنقر على كل آنية وتنفض عنها بقايا رمال الفرن«. فأخبره المعلم: »أنا لم أكن أنفض

(13269/1)

عنها بقايا الرمال، فالنقر على الآنية كان لاختبار جودتها، والنفخ الذي ظننته لإزالة الغبار، كان لإكساب الآنية ذلك البريق«. وهذا هو نفس المعلم الذي كنت تفتقده، لأنك لم تلحظه. فخذ ذلك وأنت الآن معلم بحق«!(1).

... 5. الأجير: يأتي الأجراء في أسفل السلم الحرفي، وكان استخدام الأجير يتم بعقد لدى القاضي الشرعي. وجرت

العادة على ألاَّ يعمل أجيراً من كان دون السابعة من عمره. ففي هذه السن يأتي الوالد (أو الولي) بابنه إلى المعلم ويقول له: »هالولد ابنك، اللحم اللك، والعضم لي، بدي ياك

---

(1) ... من أرشيفنا الخاص.

(13270/1)

تعلمه صنعة تفيده في شبابه وآخرته. فهو أمانة في رأبتك«(1).

... ويبقى الأجير عادة سنين بلا أجر، لكن معلمه يمنحه كل يوم خميس خميسية، تكون متناسبة مع انتباهه ومهارته. وهذه الخميسية لا تعدو عن كونها أجرة رمزية لترغيب الأجير، أو هي "شوفة خاطر" كما يقولون (2).

---

(1) ... هالولد: هذا الولد؛ الك: لك؛ العضم: العظام؛ بدّي ياك: أرغب إليك؛ رأبتك: رقبتك

(2) ... شوفة خاطرك اكرامية لا تتناسب مع الأجر الحقيقي. وهي لترغيب الأجير.

(13271/1)

... وقد يدفع وليّ الأجير إلى المعلم مبلغاً من المال مقابل تعليم الأجير الحرفة خلال مدة يتفق عليها.

... وفي كلتا الحالتين، يدرّب الأجير في هذه المرحلة من تدرجه في الحرفة على أعمال الخدمة، من كنس ورش لأرض الحانوت بالماء وجلب الأغراض للصانع وخدمته، كملآ جرّة الماء وجلب الطعام؛ فهو كما يقولون "حجر مقداف"(1)

---

(1) ... حجر مقذاف: شبهوه بالحجر الذي يقذف بالمقلاع، أو المداحة؛ وكان ممن يقذف الحجارة أيام الاحتلال الفرنسي لسورية من لا يخطئ الإصابة. والعبارة كناية عن أن الأجير يلبي جميع الطلبات ولا يتوانى عن أي عمل يطلب إليه ضمن حدود الحرفة ومتطلباتها.

(13272/1)

. كما يتعلم نظافة اليد (الأمانة) والتواضع وغض الطرف، وعدم مخالطة أجراء الحوانيت الأخرى.

... وفي هذه المرحلة، يراقب المعلم أوضاع الأجير: سعاله وعطاسه وجلوسه وكلامه ولهجته في مخاطبة الآخرين. والمعلم في كل حالة يوالي إسداء النصح له، ويأخذه بالشدة حيناً، والتفهم أحياناً أخرى؛ كذلك، فإن الصانع في غياب المعلم يوالي ملاحظة الأجير، ويقدم له النصح؛

ينقل للمعلم ما يراه من الشذوذ في سلوك الأجير. وإذا لم يستجب الأجير لذلك، يطرده المعلم ولا يجوز لمعلم آخر قبوله(1)

---

(1) ... دمشق في مطلع القرن العشرين، ص. 153.

(13273/1)

.

... والغاية من ذلك صقل طباع الأجير، وكسر العنجهية في نفسه، فلا تكبر، ولا يأخذ بها الغرور عندما يصبح صانعاً. وبذلك يخلص للحرفة ويخدمها، ويكون منها وإليها.

... أما مدة هذه المرحلة، فهي حسب نباهة الأجير ودقة ملاحظته. فقد تمتد إلى سن البلوغ، أو تقل عن ذلك فإذا توافرت لدى الأجير المؤهلات والمهارات اللازمة، لبلوغ رتبة الصانع. فإن معلمه يرشحه للمثول أمام لجنة من المعلمين يرأسها شيخ الكار، لاختباره. فإن وجد أهلاً لرتبة الصانع، يرشح إلى حفلة الشد إلى صانع.

(13274/1)

... كان ارتقاء الأجير إلى مرتبة الصانع، وارتقاء الصانع إلى مرتبة المعلم في الحرب الشامية لا يتم إلا بعد أن تتوافر لدى من يراد ترقيته، شروط دينية وأخلاقية ومهنية خاصة، وأن يزكيه معلمه لدى شيخ الكار. وأن ينجح في الاختبار العملي والنظري في مجال عمله، وأن يكون على درجة عالية من الخلُلُق واللوك والتعامل الجيد مع الآخرين.

... وحتى لا نقع في التكرار، سنقتصر على هذا البحث على تقاليد ارتقاء الصناع إلى معلمين، ونتغاضى عن ارتقاء الأجراء إلى صناع؛ لأن تقاليد ارتقاء الأجراء إلى صناع تتماثل مع تقاليد ارتقاء

(13275/1)

الصناع إلى معلمين.

... يرفع معلمو الحرفة إلى شيخ الكار (الحرفة) أسماء من لديهم من الصناع الذين بلغوا درجة كافية من المهارة في الحرفة، وكانوا على درجة عالية من الخُلُق والسلوك والتمسك بأركان الدين الحنيف. وفي الوقت المحدد، يستدعي كل معلم وصانعه للمثول أمام اللجنة الفاحصة، التي تتكون من خيرة معلمي الحرفة.

... وفي ذلك اليوم يتقدم كل مرشح من شيخ الكار،

فيقبل يديه ويدي كل من أعضاء اللجنة الفاحصة، ويجلس بين يدي شيخ الكار بكل أدب واحترام.

(13276/1)

... ويبدأ الشيخ بسؤال معلم كل مرشح عن آدابه وأمانته والمحافظة على صلواته، فيزكونهم ويطلعون شيخ الكار على واقع حالهم، ثم يوجه أعضاء اللجنة الأسئلة لكل مرشح، ويناقشونه لاختبار مدى معلوماته. كما يوجه شيخ الكار للمرشح سؤالاً عملياً عن الحرفة وأصول الصنعة؛ فإذا اجتاز الصانع ذلك الاختبار، يرشحه شيخ الكار لاحتفال الشد (التكريس). وإن رأى بين المرشحين مقصراً، أعاده إلى معلمه لاستكمال تمكنه من أصول الحرفة وآدابها(1).

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 154.

(13277/1)

... ويجري احتفال الشدّ (التكريس) في أحد المتنزهات (على الأغلب) بدعوة من شيخ الكار. ويحضره شيخ الكار والنقيب (مساعد شيخ المشايخ) والشاويش (مساعد

شيخ الكار) والمعلمون والصناع ومن يحتفل بشدّهم من الصناع. فيتصدر شيخ الكار المكان، وإلى جانبه النقيب والشاويش وأعضاء اللجنة الفاحصة والمعلمون، ويجلس بمقابلتهم الصناع والمدعوّون، بعد ترك فسحة بينهم وبين شيخ الكار وصحبه. ومن ثمة يدعو شيخ الكار، لاستعراض المرشحين، فيمرون من أمام الشيخ وصحبه بأدب جمّ. وكلَّما مر مرشح، ينهض معلمه فيقدمه إلى شيخ الكار والحضور.

(13278/1)

... وبعد ذلك، يفسح شيخ الكار المجال للجميع، للمرح والحبور والألعاب، حتى إذا حل موعد صلاة الظهر، تنادوا إلى الصلاة جماعة. وبعد الصلاة، يجلسون كما كانوا ويزكي كل معلم صانعه، ويشيد بأخلاقه وتديّنه على مرأى ومسمع من الجميع. فإذا انتهوا، تفرقوا لتناول طعام الغذاء، وممارسة ألعابهم وسرورهم. وعقب صلاة العصر، يجلس شيخ الكار في منتصف هلال وعن يمينه ويساره يجلس أعضاء اللجنة الفاحصة والمعلمون. وبعد ترك مسافة، تتشكل بمقابل هذا الهلال صفوف من المرشحين والصناع الآخرين والمدعوين. فيأخذ النقيب والشاويش المرشح

(13279/1)

إلى خارج مكان الاحتفال، ثم يعودون يتقدمهم النقيب فالشاويش حاملاً صينية عليها هدايا الشدّ المقدمة من المرشح. فيضعها الشاويش أمام الشيخ. أما المرشح، فيكون في المؤخرة، وهو مكتوف اليدين إلى صدره مطرق الرأس، بكل أدب وحشمة، وقد شدَّ المحزم على خصره. فيوقفه الشاويش على بساط أخضر، ويجعل إبهام رجله اليمنى يعلو إبهام رجله اليسرى، ويطلب النقيب إلى الشاويش قراءة الفاتحة بصوت عال، ثم يطلب قراءة الفاتحة للمرة الثانية، ويطلق عليها ثاني شرف. ثم تتلى فاتحة الختام. ويعقب ذلك الابتهالات الدينية والأمداح النبوية

(13280/1)

والحمد والصلاة على النبي – صلى الله عليه وسلم – وآله وصحبه والتابعين.

... ثم يوصي النقيب المرشح، وبعدها يلفّ النقيب المرشح بالمحزم من وسطه إلى قرب قدميه، ويعقد طرفي المحزم من الخلف إلى الأمام بثلاث عقد: الأولى احتراماً

لشيخ الكار، والثانية لمعلم المرشح، والثالثة للشاويش. وذلك دلالة على أن للشيخ وحده أن يحل العقدة الأولى، لأنه شيخ الكار؛ وأن العقدة الثانية يحلها المعلم ليفخر بأنه أخرج معلماً ماهراً من تحت يده؛ ويحل الثالثة الشاويش، لأنه أحد السلطات التي على المشدود أن يخضع لها في كاره (حرفته).

(13281/1)

... وهنا يعين للمشدود "أباً" في الكار، وهذا الأب غالباً ما يكون معلمه. وهو بمنزلة الكفيل، فيأخذ على عاتقه تحمل أيّ خلل على المشدود عندما يمارس المعلّمية في حانوته الخاص به.

... ومن ثم يسدي شيخ الكار للمشدود النصح بقوله: »يا بني! إن جميع الحرف أمانة على الأموال والأعراض والأرواح. والأمانة هي الدين... فإذا نفق كارك فاحفظ دينك. كن صادقاً وأميناً... واعلم أن كارك مثل عرضك، حافظ عليه بمقدرتك وإذا استلمت أموال الناس فلا تفرِّط فيها! وإياك أن تخون أهل الكار! والخائن قبيله الديّان«.

(13282/1)

... ثم يسأل الشيخ الحضور عن رأيهم في المشدود، إن كان مستحقاً، فيجيبون بأنه مستحق. فيركع المشدود وأبوه في الكار الواحد إزاء الآخر نصف ركعة وتتشابك أيديهما ويأخذ الأب على المشدود العهد الآتي: »أعاهدك عهد الله ورسوله، بأني لا أخون الكار ولا أغش الصنعة في شيء«.

... وبذلك تحل عقد المحزن، وتوزع الهدايا على الشيخ والنقيب والشاويش والمعلم ويصبح الصانع معلماً(1)

---

(1) ... للتوسع، يمكن العودة إلى فصل: "مراسيم الفتوة وتشكيلات الحرف بدمشق"، نشره محمد جودت في كتابه "ذيل على فصل الأخيّة الفتيان التركية" بإستانبول سنة 1932، وذلك عن محاضرة إلياس عبد الله، قنصل هولندا بدمشق، في مؤتمر المستشرقين، المنعقد في ليدن عام 1883 م.

(13283/1)

.

... بعد ذلك يربت شيخ الحرفة على كتف المشدود، ويهنئه ويدعو له بالتوفيق فينهض ويطرف على سائر المعلمين ويركع لتقبيل أياديهم، فيهنئونه ويدعون

له بالتوفيق.

... ثم يجري إنشاء بعض الأغاني والمدائح النبوية ويختتم الحفل بتلاوة عشر من القرآن الكريم.

... وبعد فترة، يقوم شيخ الكار وبعض المعلمين في الحرفة بزيارة المعلم الجديد، لمشاهدة إنتاجه ومقدرته، وإسداء النصح والتوجيه له، وبالتالي يروّجون لصنعته ومهارته بالدعاية له في مجالسهم الخاصة(1)

---

(1) ... نشير إلى ان حفلات الشدّ غالباً ما تكون لصانع واحد، ونادراً ما تكون لأكثر من صانع في الحرفة الواحدة.

... ولابد من التنويه بأن الكثير من معلومات هذا البحث استقيته من عمل ميداني في العقد الخامس من القرن العشرين نتيجة للقاء مع بعض أصحاب التنظيم الحرفي لحرفة المسحرين والخبازين والكندرجية والحلاقين وغيرهم.

(13284/1)

.

(13285/1)

مع العياشي في رحلته إلى القدس

... ... الدكتور أبو القاسم سعد الله

... ... جامعة آل البيت ـ عمان ـ الأردن

مقدمات

... في هذا البحث نتناول القدس كما وصفها بعض الرحالة المغاربة في رحلاتهم. والمقصود بالقدس مدينة القدس وما جاورها مثل الخليل وبيت لحم، لأن المغاربة ـ فيما يبدو ـ كانوا يعتبرون ذلك كله امتداداً لتلك المدينة، بل ربما كانوا ينظرون إلى فلسطين كلها على أنها بلاد "مقدسة".

... وقد اقتصرنا على الرحلات التي كتبت خلال العهد العثماني، لأن ما كتب قبل ذلك يمثل عهداً إسلامياً آخر له

(13286/1)

رحلاته أيضاً، مثل رحلة ابن جبير (القرن 13 هـ) وبن بطوطة (القرن 14 م). ونعني بالعهد العثماني الفترة

التي تمتد من فاتح القرن السادس عشر الميلادي إلى حوالي 1830، أي تاريخ احتلال الفرنسيين للجزائر وإخراجها من فلك الدولة العثمانية، وبذلك لا يشمل البحث الرحلات المغاربية التي كتبها أصحابها بعد 1830 بالرغم من أن الوجود العثماني قد استمر في تونس إلى 1881 وفي ليبيا إلى 1912 وفي القدس إلى 1917. أما المغرب الأقصى، فقد كان دائماً خارج فلك الدولة العثمانية.

(13287/1)

... ويبدو من الدراسة الأولى لتوجهات المغاربة نحو الشرق أنهم كانوا في الأغلب يكتبون رحلاتهم الحجازية، وليس القدسية أو الفلسطينية. فمعظم الرحلات المغربية المعروفة سواء في عهد الحكم الإسلامي في الأندلس وبلاد المغرب أو في العهد العثماني كانت تتناول تجربة الرحالة من بلده إلى الحجاز، أي رحلات الحج، ثم رجوعه إلى بلاده. أما زيارة القدس، فلم تكن دائماً في برنامج الرحلة. لماذا؟

... ليس لدينا الآن الجواب المقنع. إنه من المعروف أن المسجد الأقصى يأتي في المرتبة الثالثة بالنسبة للبيت الحرام ومسجد الرسول –

(13288/1)

صلى الله عليه وسلم –. ولكن الظاهر أن ذلك ليس هو السبب وراء ندرة زيارات القدس، ومن ثم قلة الرحلات المكتوبة عنها. ونعتقد أن وراء ذلك أسباباً أخرى اقتصادية واجتماعية وأمنية.

... ذلك بأن الحج كانت تقوم بأدائه في العادة الفئة المتوسطة والفقيرة وبعض الأغنياء(1)، وكان العلماء (المثقفون) من الفئة الأولى في أغلب الأحيان: فلا الفقراء كانوا قادرين على

---

(1) ... انظر بحثنا "حول أدب الرحلة عند المغاربة"، ضمن دراسات في مصادر تاريخ العرب الحديث، إعداد هند أبو الشعر، جامعة آل البيت، الأردن، 1998، صص. 495 ـ 506.

(13289/1)

كتابة الرحلات لجهلهم، ولا الأغنياء الذين كانوا غالباً من الموظفين الساميين الذين لا شأن لهم بالكتابة وربما ليس لهم الوقت للبقاء في المشرق وأداء الزيارات هنا وهناك؛ فقد كانوا يؤدون الفريضة ثم يرجعون لمهامهم

في السلطة. وكان طريق الحج شاقاً ويحتاج إلى التزود بالمال والمؤونة والاستعداد للدفع من أجل القوت والحمل والركوب والكسوة ومصاريف أخرى معروفة أو طارئة؛ ولذلك كان بعضهم يمتهن التجارة في ذهابه وإيابه ليعيش منها، وقد يعيش من حرفة النساخة مثلاً.

(13290/1)

... والرحالة المغربي لا يسافر وحده بل في جماعة، وهنا تصبح الجماعة ظاهرة اجتماعية حيوية، ولا نعني هنا الركب الرسمي أو قافلة الحج المعروفة، وإنما الصحبة المعروفة التي تتعاون في السراء والضراء أثناء الرحلة إلى حين العودة إلى الأهل والبلاد. فالحاج كان واحداً من كل وفرداً في جماعة يتضامنون ويتكافلون ويسهرون بعضهم على مصالح البعض، ولذلك نلمح أن الفرد إذا أراد الخروج عن الجماعة لغرض من أغراض الزيارة أو التخلف لأداء مهمة، فإنه يفعل ذلك بالاتفاق مع أصحابه، كما فعل العياشي حين عزم على الانفصال عن القافلة

(13291/1)

ليزور القدس. وكان هذا التضامن حاضراً في كل الأركاب والقوافل، ولكنه ربما كان أوضح من غيره لدى المغاربة الذين يجعلهم بُعْدُ الشقة واختلاف اللهجة أكثر التصاقاً ببعضهم، بالرغم من تعاونهم مع الركب المصري وانضمامهم أحياناً إليه.

... أما مسألة الأمن، فقد أثرت كثيراً في القيام بزيارة القدس. إن الذين كتبوا عن قوافل الحج أو طالعوا الرحلات يعرفون كم كان الطريق محفوفاً بالأخطار على الحجاج. فهناك بالإضافة إلى قطاع الطرق، قبائل تمتهن فرض أتاوات على الحجاج؛ وهناك ثورات تحدث في المنطقة التي يمر بها الحجاج

(13292/1)

فيصبح قطع المنطقة خطراً آخر على العابرين. وهناك تمردات على أرباب السلطة يكون الحجاج أحياناً من ضحاياها. أما الأخطار الطبيعية، فهي معروفة. فانقطاع الماء وعدم معرفة الآبار، وغش الأدلاء، والتيه، كلها تعرض حياة الحجاج إلى خطر حقيقي. ويحدثنا العياشي عن ظاهرة أخرى كادت تجلب إليهم نقمة الأهالي وهي لباسهم قبعات الخوص اتقاء لحرارة الشمس. فقد ظنهم بعض الأهالي من الفرنجة، فكانوا لهم ما لا يريدون

سماعه. يضاف إلى ذلك أخطار البحر على من سلكوا طريق الموانئ(1)

---

(1) ... هناك رحلات مغاربية وأندلسية غير قدسية، مثل رحلة العبدري ورحلة القلصادي. ومن الرحلات التي تضمنت الحديث عن بيت القدس، "تاج المفرق" أو "رحلة البلوي" (ت 1164 هـ/ 1765 م، ولكنه اقتصر على الحديث عن المسجد الأقصى والصخرة المشرفة ولقاء بعض علماء الوقت.

(13293/1)

.

... وليس كل الذين زاروا القدس أو عملوا فيها تركوا لنا رحلات نعرف من خلالها حياة المدينة وحياة أهلها وتجارتها ومعارفها. فهذا أبو الفضل المشدالي أقام في القدس وتعاطى التدريس بها طويلاً، ولا نعرف أنه ترك رحلة مكتوبة(1)؛ وهذا محمد بن الأزرق تولى القضاء في القدس وتوفي فيها، ومع ذلك لا نجد له أثراً مكتوباً يصف فيه إقامته بها(2)

---

(1) ... أحمد أبو عصيدة البجائي، رسالة الغريب، تقديم وعرض أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت،

1991.

(2) ... محمد بن الأزرق، بدائع السلك، تحقيق علي سامي النشار، بغداد، 1977.

(13294/1)

؛ ودخل أبو راس الناصر فلسطين وذكر مدينتي غزة والرملة، ولم يذكر القدس في رحلته "فتح الإله"(1).

... وأهداف زيارة القدس مختلفة من رحالة إلى آخر. وإذا كانت المشاعر الدينية هي الغالبة على هذه الزيارة، فإن البعض كان يكتفي بزيارة المسجد الأقصى والإكثار من الصلوات فيه ووصف أوضاعه وتاريخه كما فعل الزياني في "الترجمانة الكبرى"(2)؛ والبعض

---

(1) ... الناصر أبو راس، فتح الإله ومنته، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، 1995.

(2) ... أبو القاسم الزياني، الرجمانة الكبرى، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، الرباط، 1967.

(13295/1)

كان يهدف إلى استكمال معارفه عن "بلاد الشام »، كما فعل أحمد المقري، الذي زار القدس حوالي سبع مرات، ومع ذلك لم يخصص لها من كتابه الضخم "نفح الطيب" سوى بضعة أسطر ليست بذات قيمة(1). أما العياشي، فقد كان اهتمامه بالدرجة الأولى بزيارة المسجد الأقصى، وليس مدينة القدس والحصول على الإجازات من رجال الدين والتصوف. ولذلك لم يتحدث عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في هذه المدينة، واكتفى ـ وهو الرجل المهتم بالتصوف والحياة العلمية ـ

---

(1) ... أحمد المقري، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، ج 1، بيروت، 1988، ص. 154.

(13296/1)

بمخالطة رجال الدين والتصوف البارزين والحصول منهم على إجازات وتبادل القصائد معهم.

... ونخلص من ذلك إلى أن الذين زاروا القدس وكتبوا عنها من الرحالة المغاربة عدد قليل جداً بالقياس إلى الذين زاروا الحرمين الشريفين وكتبوا الرحلات الحجازية. فلا الورتلاني ولا الدرعي ولا ابن عمار ولا أبو راس تركوا لنا جزءاً من رحلته عن القدس، وكلهم عاشوا

في العهد العثماني(1).

---

(1) ... عن رحلات ابن عمار والورثلاني وأبي راس، انظر كتابنا أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 1، ط 3، بيروت، 1992.

(13297/1)

... وهكذا لم يبق لنا سوى ثلاث رحلات تناولت القدس بتفاوت وتباين في الاهتمام، وهي رحلة المقري ورحلة العياشي ورحلة الزياني. ونريد أن نقتصر هذه المرة على الرحلة الثانية.

حياة العياشي

... إن ترجمة العياشي متوافرة في عدة مصادر مغربية ومشرقية، ومعظم تآليفه يغلب عليها الأسانيد والتصوف وما تزال مخطوطة، ولا نعرف من كتبه المطبوعة سوى رحلته المعروفة بـ"ماء الموائد"، وهو عنوان أحسن اختياره إذا كان مقصوده أنها عمل لا غنى عنه كما لا يستغني الإنسان عن الماء سواء في الموائد أو غيرها. ولكن طبعة الرحلة أصبحت

(13298/1)

قديمة؛ فقد طبعت طبعة حجرية في آخر القرن الماضي (1898)، فكانت صعبة الخط عويصة الفهم. وقد أشرف محمد حجي على استخراج ما فيها من أعلام، وأعيد تصوير طبعة فاس بفهارس جديدة، سنة 1977. وليتهم طبعوا النص طبعة حديثة ليكون أكثر فائدة وسهولة للقراء وأكثر مطابقة لعنوان المؤلف، وهو "ماء الموائد".

... والعياشي هو عبد الله بن محمد بن أبي بكر المكنى أبو سالم، نسبة إلى قبيلة آيت عياش البربرية القاطنة بنواحي سجلماسة جنوب غربي المغرب الأقصى؛ وقد ذكر له المترجمون سبعة تآليف من غير الرحلة(1)

---

(1) ... ترجمة "العياشي" في "الأعلام" للزركلي، ج 4. وبناء عليه، إنه ولد سنة 1037 هـ/ 1627 م، وتوفي سنة 1090 هـ/ 1679 م. وتوجد ترجمته في عبد الحي الكتاني (فهرس الفهارس، ج 2، ص. 211)؛ وصفوة من انتشر؛ ومناقب الحضيكي؛ وخلاصة الأثر، ج 3، ص. 70؛ وإعلام النبلاء، ج 6، ص. 387؛ ودليل مؤرخ المغرب، ج 1، ص. 247؛ وبركلمان، ج 2، ص. 357. وقد ترجم له أيضاً عبد الرحمن الجبرتي في عجائب الآثار، دار الجيل، بيروت، 1980، ص. 115.

. قرأ العياشي على شيوخ منهم أخوه الأكبر، وأبو بكر بن يوسف الكتاني، وعبد القادر الفاسي، وغيرهم، وقرأ أثناء حجه على شيوخ مصريين، منهم الأجهوري والخفاجي وإبراهيم المأموني وعلي الشبراملسي وسلطان المزاجي، وفي الحجاز جاور عدة سنوات وأخذ العلم والتصوف عن جماعة منهم زين العابدين الطبري وعبد الله باقشير، وعلي بن الجمال، وعبد العزيز الزمزمي وإبراهيم الكردي وحسين العجمي، ومنهم عيسى الثعالبي أحد أعيان الجزائريين المهاجرين إلى مكة، ونال من هؤلاء جميعاً الإجازات وكتب عن بعضهم الأسانيد. وقد سافر إلى الحج مع

(13300/1)

وفد جزائري يرأسه عبد الكريم الفكون، فأخذ عنه مؤلفاته وطريقته، وكتب عنه في رحلته صفحات ثمينة(1)، وكانت له مع بعض العلماء الجزائريين في المشرق خلافات في الرأي نذكر منهم يحيى الشاوي الذي تنابز مع العياشي ونال كل منهما من الآخر. وسنرى أن العياشي ذكر مجموعة أخرى من العلماء وزعماء التصوف

في مدن فلسطين، مثل غزة والرملة والقدس والخليل، والتقى بعلماء

---

(1) ... انظر كتابنا شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون رائد السلفية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986؛ وكذلك تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ط 2، الجزائر. 1985.

(13301/1)

آخرين مغاربة، منهم عبد العزيز النفاتي التونسي قاضي القدس في وقته.

... أخبر العياشي أنه كان "ينوي" زيارة القدس، وهو ما يزال في طريقه إلى الحج. وأثناء مجاورته الحرمين تجددت عنده نية الزيارة. ولكن الوسائل المادية كانت تعوزه؛ فقد كان يشكو من "قلة ذات اليد" وكذلك من الخوف في الطريق. ولكنه عندما حل بالعقبة وجد من شجّعه على الزيارة وكتب له كتباً تعرفه للوجهاء في أهم المدن الفلسطينية، ومنها القدس الشريف.

(13302/1)

... ونفهم من العياشي أن هناك ما يمكن أن نسميه بالتضامن المغاربي، بحيث كان المغاربة يساعدون بعضهم بعضاً. ويأتي ذلك في سياق الحديث عن نسبة بعض الرجال مثل المغربي، والزناتي، والتونسي، والطرابلسي. فقد قال إنه عندما وصل المويلح وشعر باشتداد الحر، ذهب ليستريح في ظل سور من النخيل فوجد حارسه رجلاً من "زناتة إفريقية"، فآواه وسقاه الماء البارد وأعطاه الرطب، وأخذ راحته عنده، ولم يخبرنا العياشي ما دار بينه وبين هذا الرجل الذي يبدو مؤكداً أنه من البربر، مثله. وذكر العياشي المنازل التي مروا بها بين المويلح

(13303/1)

والعقبة، فكانت: عيون القصب، ومغارة شعيب، وبني عطية، وظهر الحمار، ثم العقبة.

من العقبة إلى غزة

... كانت الزيارة سنة 1074 أثناء الحجة الثانية للعياشي. وفي العقبة حيث يفترق ركب الحج المصري والمغربي والشامي، تجددت نية العياشي في زيارة القدس. وكان سبب ذلك وجود أهل غزة وأهل معان في

العقبة؛ فقد جاؤوا للتجارة مع الحجاج وأحضروا معهم الفواكه. فقال العياشي عن هذه الظروف:

... تجددت لنا نية السفر إلى القدس الشريف وزيارة ثالث الحرمين ومشاهدة الأرض المقدسة المباركة، ومعاينة آثار الأنبياء، وزيارة الخليل

(13304/1)

ونبيه، عليهم الصلاة والسلام. وكان ذلك يختلج في أفكارنا أيام المجاورة كلها، ونرغب إلى الله تعالى في تيسير ذلك في مضان الإجابة، وهي إحدى المسائل التي سألت الله تعالى فيها بالملتزم... فمنَّ الله بالإجابة (1).

... ولكن النية لا تكفي. فقد وجد نفسه بلا مال، وبلا رفاق، وأمام مشاق جسيمة، وطريق غير مألوفة، مع شدة الخوف من أهوال الطريق، وكان يفكر في أنه بعد الوصول إلى مصر يترك الركب هناك أياماً ويذهب للزيارة ثم يلتحق بالركب المغربي في مصر ويرجع معه إلى بلاده، ولكن ظروفاً

---

(1) ... العياشي، ج 2، ص. 300.

جديدة عرضت له فجعلته يغير من خطته ويبدأ رحلته إلى القدس الشريف من العقبة. كان قبل ذلك يرى تحقيق الرحلة أمراً صعباً بل متعذراً.

... لقلة ذات اليد، وعدم القدرة على مقاسات (كذا) المشاق العظيمة التي يوجبها الانفراد عن الطريق المألوف، والسلوك في بلاد غير معهودة، والمعارف بها مفقودة، والرفقة إليها غير مأمونة، والمخاوف إن لم تتحقق فهي مظنونة(1).

... لكن وجود الحاج أحمد العجيس الطرابلسي معهم في الرَّكْب ووجود أهل غزة في العقبة جعله يغير خطته ويعزم على زيارة القدس ابتداء من

---

(1) ... المصدر نفسه.

العقبة. فقد اكترى لهم (وكانوا ثلاثة) الحاج أحمد الطرابلسي حملين وجلب لهم الماء من رجل اسمه صبح الدباب، من عرب الحكوك، ووفر لهم ما يحتاجونه من نفقة في الطريق إلى القدس، فتخفف العياشي وصاحبه من الأثقال وترك كتبه عند الركب المغاربي المتوجه إلى مصر، وفارقوا الركب الذي رحل عنهم يوم 29 محرم، وقد شعروا بوحشة عظيمة، وكانوا الثلاثة "مثل الأثافي لا رابع لنا إلا عناية الله". واغتنموا الفرصة والفراغ فزاروا قبر إبراهيم اللقاني، بعد أن دلهم عليه بعض أصحابهم "الفريقيين". ثم ارتحلوا في قافلة أهل غزة. وكان

(13307/1)

الركب الشامي في خفارة أمير الوحيدات وما والاها من عرب غزة. وهذا الأمير يدعى بشير، وكان قد جاء إلى العقبة على رأس حوالي عشرين فارساً من أصحابه.

... وتختلط المصالح والأحداث والأشخاص في رحلة العياشي، فنعرف أن هناك الحاج حسن المغربي الذي كان هو كبير حجاج أهل غزة في هذه السنة. وكانت بين الأمير بشير والحاج المغربي معرفة، ولكنها معرفة غير قائمة على الثقة؛ فاتفقا على أن يذهب البشير بحجاج غزة بأتاوة

يؤدونها إليه، ولكن الحجاج كانوا يخشون غدره، ولذلك استوثقوا منه عند أمير الركب المصري، وكتبوا بذلك محضراً.

(13308/1)

ولماذا هذا الخوف من غدر البشير؟ يخبرنا العياشي أنه وقعت في تلك السنة (1074 هـ) مقاتلة بين عسكر غزة والبشير وأن رجال البشير نهبوا العسكر، وخاف منهم أهل الركب الشامي، بالرغم من الضمانات التي قدمها لهم الحاج حسن المغربي، بل إن بعضهم لم يطمئن إليه وذهب إلى مصر. ويخبر العياشي أن القافلة كانت تضم مائة جمل، أربعون منها يملكها الحاج حسن المغربي وحده.

... وقص العياشي أحوال الطريق بين العقبة وغزة، من نقص الماء، والخطر، وصعوبة المسالك وذكر كيف تعرضوا إلى "شيخ العرب" الذي جاء ليحصي الجمال، وكيف أخبره

(13309/1)

الحاج حسن المغربي أن »هؤلاء حجاج فقراء لا شيء معهم فتركها«. وأخبرنا كذلك أنهم عندما اقتربوا من غزة، »فارقهم شيخ العرب وجماعته، لأنهم خافوا من باشة غزة؛ فإنهم قتلوا منه في الشهر الذي قبل هذا نحو ثلاثمائة وكيف سار الناس وهم في حالة خوف ووجل، لأن المحل الذي كانوا يسيرون فيه كان واقعاً بين الفريقين المتحاربين. وفي السابع من صفر، وضعوا رحالهم عند باب غزة، فاطمأنت نفوسهم«. وأخذ العياشي يصف غزة وما حولها، وهو وصف خارج نطاق هذا البحث.

(13310/1)

... وعندما دخلوا غزة، تلقاهم رجل من تجارها وأدخلهم داره وأطعمهم. ثم ذهبوا إلى الجامع الكبير واستقروا به. وتحدث عن حالة أهل غزة وما عندهم من تجارة نافقة، »مع ما هم عليه من التشويش من أجل العرب المخالفين؛ فإنهم يغيرون على القرى التي حول المدينة وينسفون زروعها، وعجز الباشا عن مقاومتهم«.

العياشي والغصين

... وفي غزة تعرف العياشي بأحد علمائها، وهو عبد

القادر بن الغصين. وكان إسماعيل النابلسي الذي يصفه العياشي بقوله "صاحبنا" هو الذي كتب كتاباً إلى الغصين وأعطاه العياشي ليعرفه به ويطلب منه العناية به.

(13311/1)

وفي المسجد سلم العياشي رسالة النابلسي إلى الغصين فظن الغصين أن الوصية تعني شخصاً آخر غير العياشي، فلم يأبه به في ساعتها. وانتظر العياشي إلى اليوم التالي، ثم ذهب إلى الغصين في مدرسته، وعرفه بنفسه على أنه هو المعني بوصية الرسالة. وكان العياشي صريحاً في حديثه عن نفسه، إذ قال إن الغصين كان يعتقد أن الموصى به كان شخصاً آخر غيره »لما رأى من رثاثة هيئتي«. فاعتذر له الغصين، ورحب به، وطلب أمتعته وصاحبيه من المسجد، وأنزلهم في مكان يليق بهم من مدرسته، وهو مكان مخصص للغرباء، وأحسن إليهم، [وأخبره الشيخ

(13312/1)

الغصين أن أمير البلد (غزة) هو الذي بنى هذا الرباط (المدرسة وتوابعها)، وحبسه عليه، وجعل له أوقافاً. وقد أخبره الغصين أن أحمد المقري، صاحب كتاب "نفح الطيب" هو سبب بناء الرباط والتحبيس عليه. فالمقري هو الذي دخل على الباشا، وكان معه الشيخ عبد القادر، وحث الباشا على بناء المدارس والمساجد والإحسان إلى أهل العلم. فلم يخرج من عنده حتى أمر الباشا بالقاضي وكتب الوثيقة في ذلك، واعترف الغصين بالدين لأحمد المقري: إذ أن ما هم فيه يرجع إلى فضله. وكان المقري يأتي إليهم من مصر بوصية من الشيخ النجار. وكان المقري

(13313/1)

قد بارك أخوي عبد القادر، وهما عبد الرحمن وآخر لم يذكره، وكلاهما من كبار التجار في غزة ومصر. وقد استجاز العياشي الغصين فأجازه. وقرأ عليه منظومة المقري المعروفة باسم "إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة". وكان لدى الغصين نسخة منها.

... وقد كتب العياشي أبياتاً مدح بها الشيخ عبد القادر الغصين مطلعها:

لدى الشيخ الغصين أنخت رحلي ... بغزة ما أعز بها مكان

... وممن لقيه العياشي أيضاً بغزة الشيخ عمر الشرقي، قاضي الحنفية، وهو صهر الشيخ الغصين. وذكر أن سلف الشيخ الشرقيّ كانوا من أهل العلم، وأنهم ازدادوا وجاهة

(13314/1)

بمصاهرتهم لآل الغصين. وقد أعطانا العياشي صورة عن حياة بعض العلماء وتعلقهم بالمناصب، حين قال إن الشيخ الشرقي كان شافياً. وعند وفاة القاضي الحنفي، تحول إلى مذهب أبي حنيفة حتى يتولى الخطة ويتقرب من أرباب السلطة. وقد انتقد العياشي هذا السلوك(1).

... وكان العياشي يرغب في زيارة عسقلان، ولكنه اكتفى برؤيتها من بعيد. وقال إن البساتين ممتدة من غزة إلى عسقلان. وعد من مزارات غزة قبر هاشم بن عبد المطلب جد الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وقبر الإمام الأوزاعي، ومولد الإمام

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 2، ص. 308.

(13315/1)

الشافعي.

... وبعد إقامة خمسة أيام من غزة، ارتحل العياشي عنها من الثاني عشر من صفر 1074. واكترى هو وصاحباه حمارين إلى الرحلة. وتخففوا من بعض حوائجهم فتركوها في غزة لحين الرجوع. وقد كتب إليه الشيخ عبد القادر الغصين رسائل إلى أعيان الرملة والخليل والقدس، يوصي به وبأصحابه خيراً.

العياشي في الرملة

... يظهر أن هدف العياشي الرئيس كان ملاقاة العلماء وأهل الصلاح والتصوف، والحصول منهم على الإجازات وتسجيل ذلك في رحلته، وهذا الاهتمام كان مشتركاً في الحقيقة بين غالبية رحالة المغرب والأندلس منذ القديم،

(13316/1)

فعندما نزل العياشي بالرملة، ركز حديثه على رجال الدين فيها، ولا سيما أولئك الذين حمل إليهم الرسائل من الشيخ الغصين. فقد نزل العياشي وصاحباه عند محمد بن أبي الوفاء "الأشعري الحسيني"، وهو الذي كتب إليه الشيخ الغصين رسالة يوصيه فيها بالزوار المغاربة

(والواقع أن العياشي لم يذكر من هما رفيقاه). واعترف العياشي بأن الشيخ أبا الوفاء قد أحسن إكرامهم وأحلّهم مقاماً طيباً، ولم يأخذ منهم شيئاً في المقابل. وأخبرنا العياشي أن أبا الوفاء كان من فقهاء الشافعية، وأنه كان قد تولى القضاء بالقدس، وأن منزله بالرملة

(13317/1)

كان موئلاً للأعيان والأفاضل، ورافقه أبو الوفاء إلى الشيخ خير الدين الرملي يوم 14 صفر. ونعرف من العياشي أن الرملي كان طاعناً في السن، وأنه سمع منه الحديث المسلسل وأوائل الكتب الستة وكتب إليه إجازة بذلك ومن أخبار الشيخ الرملي أنه قد غرس آلاف الأشجار في الرملة، وأن الناس قلدوه في هذا العمل، وأنه لم يتولّ ولاية ولا منصباً، وأنه المرجع في الفتوى ببلاد الشام، وكان الشيخ الرملي هو الذي دفع أجرة العياشي في الكراء إلى القدس (1).

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 2، ص. 311.

(13318/1)

... ومن مزارات الرملة كما جاء في رحلة العياشي: قبر المقداد بن الأسود، ومشهد يقال إنه لعبد الرحمن بن عوف. وعلق العياشي على أن الصحيح أن ابن عوف قد توفي في المدينة، وقال العياشي إن أصل جامع الرملة كان كنيسة، وإن الفتح الإسلامي في الرملة كان بعضه صلحاً وبعضه عنوة، فكان الجامع مناصفة تبعاً لذلك، وصادف دخول العياشي الرملة مجيء آغا السلطان العثماني إليها، وكان الآغا قادماً من إسطانبول في أبهة عظيمة، حسب تعبير العياشي. وقد أورد قصة هذا الآغا بالتفصيل (1).

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 2، ص. 314.

(13319/1)

العياشي في القدس

... لم يكثر العياشي من وصف مدينة القدس، فلم يتحدث عن أسواقها وتجارها وجالياتها وحرفها، وإنما وصف المسجد الأقصى، وتحدث، كعادته، عن بعض علماء البلاد، ولا سيما بعض المتنفذين منهم، كما تحدث عن قبة الصخرة، وزاوية المغاربة، وبعض أبواب المدينة.

... واللاّفت للنظر أن الأمور كانت تبدو مسيبة. ففي الشعاب الواقعة على مشارف المدينة وجدوا أناساً يأخذون الغفارة من المارة، وقد تعرض العياشي ورفيقاه إلى اللعنات، لأنهم كانوا يضعون على رؤوسهم مظلات من الدوم فحسبوهم من الفرنجة.

(13320/1)

... وعند دخولهم القدس الشريف، صلوا العصر بقبة الصخرة، ووضعوا حوائجهم في زاوية المغاربة. وهناك التقى العياشي بالشيخ محمد الصيداوي، نقيب رواق الشيخ منصور، وكان الرواق يقع تحت صحن الصخرة المقدسة، وكان الشيخ الغصين قد كتب إلى الشيخ الصيداوي بشأن العياشي، ولذلك احتفى الشيخ الصيداوي بضيوفه وأعطاهم بيتاً إزاء الرّواق الذي كان داخل المسجد، فاغتبطوا بذلك لأنهم سيتمكنون من الجلوس في المسجد والصلاة فيه متى شاؤوا.

(13321/1)

... وقد خص العياشي المسجد الأقصى بأوصاف كثيرة. فهو مسقف كله، وهو رفيع البناء، وتصلى فيه الجمعة، وفيه مكان معلوم صلى فيه الخليفة عمر بن الخطاب، وفي ركنه الشرقي مزار يقال له مهد عيسى، وله طاقات واسعة يشرف منها الناظر على الوادي الذي يسمى وادي جهنم، وتحت المسجد الأقصى مسجد آخر واسع جداً مرفوع على أساطين من حجارة منحوتة، وهي من البناء السليماني. ويلخص العياشي رأيه فيقول: »وبالجملة، فغرائب الصخرة والمسجد الأقصى وما حولهما من المزارات شيء كثير«(1). ويعترف أن هناك

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 2، ص. 316.

(13322/1)

تآليف كثيرة حول الموضوع، ولكنه يقتصر في روايته على ما شاهده شخصياً ("بعض ما رأيناه وزرناه").

... ومن هذه المشاهدات والمزارات حجرٌ خارج بعض أبواب المسجد يتبرك به الناس على أنه مربط البراق. وقد غلب العشب والكلأ اليابس على الناحية الشرقية من المسجد، فلا يقدر المرء على المشي فيها بلا نعل لكثرة شوكها، ويعتقد الناس أن سماء القدس دائماً فيها غيم، فلا تظل

صافية كامل اليوم. ولعله يريد أن يقول إن ذلك من الكرامات. ثم إن أرض القدس أرفع مكان وأقرب مكان إلى السماء.

(13323/1)

... ومن المزارات خارج البلدة طور زيتا الواقع بين المسجد والوادي الكبير (وادي جهنم)، يشرف طور زيتا على القدس كله وعلى ما حوله. وفي أعلى طور زيتا مزارة يقال إن منها رفع عيسى عليه السلام. وكانت هذه المزارة في يد النصارى، ولكن الشيخ محمد العلمي هو الذي سعى إلى استعادتها منهم إلى أن نجح في ذلك وقد بنى الشيخ تحت المزار مشهداً أو رباطاً، وفيه قبره. وأخبر العياشي أن هذا المكان يوجد تحت يدي أولاد الشيخ، ومنهم عمر العلمي الذي سيرد ذكره. وفي أعلى جبل الطور قبرُ رابعة العدوية، وهو في مغارة تحت الأرض، وقبر

(13324/1)

مريم الذي يوجد في كنيسة بأصل الوادي، وكان في عهد العياشي بأيدي النصارى. وقال إنه تحرج من الدخول إلى هذا القبر، فاكتفى بزيارته بالعين من الخارج.

... وذكر من المزارات عين سلوان التي توجد في أسفل الوادي، ولم يصل إليها أيضاً ولم يزرها إلا بالعين، وأرسل من جاءه منها بماء، لأن الآثار وردت بفضل هذه العين حسب قوله، وقد أخبر أنها ليست عيناً جارية على وجه الأرض، وإنما هي في شكل حوض ينزلون إليه بأدراج؛ وهناك قبر شداد بن أوس وقبر عبادة ابن الصامت، وكلاهما تحت سور المسجد الشرقي؛ وفي المكان نفسه مقبرة عظيمة.

(13325/1)

وفي سور المسجد حول القبرين المذكورين صخرة عظيمة ذات أذرع قيل إنها من آثار النبي سليمان، وموضع يقال إنه هو عرشه وهو حول باب المسجد الموالي لناحية الوادي.

... وفي غرب مدينة القدس مزارات أخرى منها موضع يقال إنه قبر النبي داود. وكان في الماضي تحت إشراف النصارى، ولكن الشيخ محمد العلمي أو غيره من الصالحين استعاده منهم. ويقول العياشي إن أغلب المزارت في

تلك البلاد (الجهة؟) هي بأيدي النصارى، ومنها ـ في بيت لحم ـ مولد عيسى عليه السلام، وقد مروا قريباً منه عند توجههم إلى الخليل، ومنها قبر يونس بن متَّى

(13326/1)

عليه السلام، وهو في قرية قرب الخليل. وقد اكتفى العياشي بزيارة المكانين بالعين «تأثُّماً من دخول متعبد النصارى ولضيق الوقت»(1). أما قبر موسى عليه السلام، فبينه وبين القدس نحو نصف مرحلة، ناحية المشرق؛ وقد أروه ما يحاذيه من الأمكنة، عندا صعدوا الطور، وأخبروه أن المسافة إليه مخيفة للغاية، وأنه لا يمكن الوصول إليه إلا بقوة ومنعة، بالرغم من أنه كان كثير الشوق إلى ما هنالك من العجائب. وقد تحدث العياشي عن بعض ما يرويه الناس عن ذلك المكان، وقال إنه لم يرد خبر صحيح عنه،

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 2، ص. 318.

(13327/1)

وإن القبر أظهره بعض الملوك المتأخرين حوالي المائة السادسة أو السابعة عن طريق الكشف.

... كان العياشي يريد زيارة قبر موسى أو الخليل، وكان الوقت ضيقاً، وخشي من ضياع الفرصة، فكان قلقاً، وهو لا يستطيع إطالة الإقامة، لأن عليه أن يلتحق بالركب المغاربي في القاهرة في وقت معلوم.

العياشي وقاضي القدس

... وقد أشار عليه بعضهم بالحديث إلى قاضي القدس محمد النفاتي. وهذا الشيخ تونسي الأصل. وقد تقلد قضاء القدس بعد أن قدم من إسطانبول، وكانت للشيخ النفاتي وجاهة عند السلطان وعند العسكر، وقد جاءته هذه الوجاهة من

(13328/1)

أخيه علي النفاتي (أبو الحسن) الذي توفي. وكان الشيخ محمد النفاتي قد استوطن اسطانبول سنوات قبل تقلده القضاء بالقدس في هذه السنة (1074 هـ). ولاحظ عليه العياشي أنه لا يملك قوة الحافظ العلمية، وإنما كان ينتمي إلى الصلاح بسبب أسلافه.

... اتصل العياشي بالشيخ النفاتي، فأكرمه إكراماً

زائداً، وأظهر البهجة والسرور به، وطلب من أصحابه أن يهيئوا المنزل وضرورات المعيشة للعياشي ورفيقه.

ولكن العياشي أخبره أنهم قد نزلوا في بيت بالمسجد الأقصى، وأنه لا يمكنه التحول منه لراحتهم فيه وقربهم من المسجد، فاكتفى النفاتي

(13329/1)

بتوفير حاجتهم من لحم وخبز ونحوهما. وكانت هذه الحاجات تذهب إلى منازلهم يومياً. ويخبرنا العياشي أنه نظم قصيدة وقدمها إلى الشيخ النفاتي "مكافأة له على بره" وإحسانه، وقد جاء فيها:

لقاضي قضاة القدس سره

تبدى بأفق الغرب من خير عترة

فصار بأفق الشرق يسري إلى العلا

غدا قمراً فيه يضيء لقاصد

تولى به دون البلاد لنسبة

وذلك أن »القدس« أرفع بلدة

علو غدا فوق السما مستقره

هلال به قدماً تشرف قطره

ولم ينقطع حتى على النسر سيره

ولكنه في »القدس« قد تم بدره

يراها لبيت قد تهدب فكره

كما قد أتانا في الأحاديث ذكره

(13330/1)

... وقد ظهر له أن العياشي يرغب في زيارة المقامين، قبر موسى وقبر الخليل، فثبطه النفاتي عن زيارة قبر موسى لطول المسافة وكذلك لعدم التأكد من أنه مشهد الكليم حقاً، ثم إن الأمن مفقود هناك بالإضافة إلى قلة العمران، وضرورة ذهاب القيم معهم وهو غير متيسر، إلى آخر ما هناك من مثبطات. ولذلك قبل العياشي العذر، واكتفى بالنية، فلم يبق أمامه ورفيقه سوى زيارة الخليل التي حثهم القاضي النفاتي عليها. ...

العياشي وشهاب الدين المصري

(13331/1)

... أخبر العياشي أنه لقي في القدس أيضاً أحد علماء مصر، واسمه شهاب الدين الحنفي. وكان هذا الشيخ قد وصل إلى القدس منذ حوالي شهرين. وقد سمع به العياشي

وغيره وهم ما يزالون في غزة والرملة، وعلموا آنذاك أن الشيخ من كبار العلماء الذين حلوا بالقدس وتعاطوا التدريس في علم الحديث؛ فاشتاق العياشي إلى لقائه. وكان الشيخ شهاب الدين نازلاً بالقرب من رواق الشيخ منصور حيث نزل العياشي. وقد بعث الشيخ شهاب الدين إلى العياشي، فزاره في منزله ورحل به وسأله عن أخبار الحجاز. ويذكر العياشي أنه كان يجله على السماع، ورجع

(13332/1)

إليه العياشي في اليوم التالي فوجده يقرئ مناسك الحج على مذهب أبي حنيفة؛ وجرى ذكر التروية، فقال الشيخ إنها مشتقة من الرؤية، فاعترض العياشي وقال إنها من التروي بالماء، فأبى الشيخ ذلك، وجرى بينهما الخلاف حول مسائل أخرى، ورجعا إلى الكتب ومنها "الصحيحان"، وفي آخر المطاف تغلب العياشي وأخرج الشيخ أمام جمع من العلماء، منهم عمر العلمي، فلم يسع الشيخ شهاب الدين سوى الانتقال من القدس بعد يومين عائداً إلى مصر. وأثناء رجوع العياشي، لقيه في الخليل، ثم في غزة، واجتمع به في خان يونس، وتعاملا بالمجاملة، وتفارقا

في دمياط على خير ما يرام.

... ولكن العياشي لم يترك صاحبه إلا بعد أن وسع دائرة النقد للعصر وأهله. فالشيخ شهاب الدين غبي في نظر العياشي وجاهل أيضاً، لأن »ما انتشر له من الصيت إنما هو بغلبة الجهل على أهل تلك الديار وقلة المخلصين بها فضلاً عن المحققين«(1)، ولكن العياشي اعترف للشيخ بالجرأة والجسارة وطلاقة اللسان والسمعة.

العياشي وعمر العلمي

... أشار العياشي في عدد من المرات إلى أسلاف أسرة العلمي، ولكنه عاصر الشيخ عمر بن عبد الصمد بن محمد والتقى به واعتبره من

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 2، ص. 321.

شيوخه. هذا النوع من العلماء في كل بلد حل به، وقد اعتبر العياشي محمد العلمي (الجد) تارة قطباً وتارة

غوثاً، وقال أنه هو شيخ شيخه، أبي بكر السكتاني المغربي، لأن السكتاني قد تلقى الذكر الصوفي عن محمد العلمي وحصل منه على الإجازة. وروى العياشي أن أحمد المقري، صاحب "نفح الطيب"، قد تلقى على الشيخ محمد العلمي أيضاً، ولكننا لا نعرف ماذا تلقى عنه. وكان المقري هو الذي أشار على السكتاني بلقاء العَلَمِيِّ الجد.

(13335/1)

... وفي اليوم الثاني من حلول العياشي بالقدس، دعاهم الشيخ عمر العلمي إلى داره (الجمعة 18 صفر). وقد أخذ عليه العياشي العهد، وشد عليه المئزر، ومارس طقوساً أخرى معروفة عند أصحاب الطرق الصوفية. وأجازه العلمي إجازة تتضمن خطوطاً لأصحابه وأصحاب جده يشهدون عليها. وقد أورد العياشي نص الإجازة والقصيدة التي نظمها في مدح الشيخ عمر العلمي الذي يسميه "شيخنا" :

جزى الله عنا خيراً أبا حفص
سليل إمام كان قطب زمانه

إمام الهدى من للكمالات ذا قنص
ومنزله في خاتم الفصل كالنص

(13336/1)

... ووصف العياشي شيخه عمر العلمي بأوصاف الوجاهة والزهد، وقال إنه خليفة جده (ولم يتحدث طويلاً عن والده عبد الصمد) في مجالس الذكر كل ليلة مع جماعة كثيرة من أصحابه بين العشائين، بباب الصخرة، وأخبر أن والده عبد الصمد قد توفي مبكراً لكفله جده وورَّثه مكانته. وقد نقل العياشي إجازة الشيخ عمر العلمي له، »تبركاً بها« (1)، ... بالرغم من طولها. وقد شهد على هذه الإجازة عدد من مشايخ القدس المقربين للشيخ عمر العلمي الذي يمثل في الحقيقة الطريقة الرفاعية. ويبدو أن هذه

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 2، صص. 324 ـ 325.

(13337/1)

الطريقة كانت لها شهرة كبيرة عندئذ في القدس.

العياشي والشيخان محمود السالمية وقاسم إمام

... هذان الشيخان كانا أيضاً من أتباع الطرقة الرفاعية، ومن ملازمي الشيخ عمر العلمي. وقد شهد الأول منهما

(محمود السالمي) على إجازة العلمي للعياشي. وقال العياشي إنه عقد مع الشيخين السالمي وإمام "عقد أخوة في الله" وتكفلاً له بالدعاء مدى الحياة. ومن المهم هنا أن السالمي منح العياشي ديوان الشيخ محمد العلمي الذي يحتوي على قصائد صوفية كثيرة، وعلى أمداح مدح بها الرسول – صلى الله عليه وسلم –؛ كما منحه مجموعة من رسائل

(13338/1)

الشيخ محمد العلمي أيضاً، وقد وعد العياشي بذكر بعضها في رحلته.

... وتوجد شهادة محمود السالمي في عدة صفحات(1)، وجاء في آخرها: »انتهت الإجازة البهية على يد أضعف البرية، محمود السالمي القدسي راجياً دعوة بظهر الغيب من أستاذنا الشيخ الكبير المجيز، ومولانا وشيخنا المجاز،... وذلك آخر صفر الخير سنة 1074«.

... ومن الذين شهدوا أيضاً على هذه الإجازة: عبد الباقي بن عبد القادر بن محمد العلمي، ودرويش التميمي، ويحيى بن شبنانة، وعلي بن عمر بن عبد الصمد بن محمد العلمي،

(1) ... المصدر نفسه، ج 2، صص. 326 ـ 330.

(13339/1)

وأحمد بن حسن الرجواني، وقاسم بن عبد المعطي، وعبد الرحمن بن الحاج أحمد الدقاق، وعلي الحوراني، ويحيى بن المهدي، وعلي الكردي، وغير هؤلاء. وقد وصف بعضهم العياشي ـ مثل الشيخ محمود السالمي ـ بالمحدث وأخذ إجازة عن العياشي وسماه "شيخنا".

... وهكذا نرى أن العياشي لم يكن مهتماً بالحياة الاقتصادية والاجتماعية لمدينة القدس. ولم يسجل أسعاراً ولا بضائع ولا عدد سكان وأجناسهم ومعاشهم، وكان اهتمامه في الأساس بالجوانب الدينية كالمساجد والزوايا والربط، والجوانب الروحية كالانتماء إلى الطرق الصوفية، ولا سيما

(13340/1)

الرفاعية، والحصول من أصحابها على إجازات وشهادات. وكان يقدم بين يدي شيوخه الجدد بعض الأشعار للشكر والتقدير. وقد نفهم أن العياشي أراد أن يسجل في

رحلته عن القدس وغيرها ما كان يشغل بال متعلمي المغرب عندئذ، وهي شؤون الدين والتصوف وأسماء المشتغلين بهما في المشرق.

بعض المراجع

أبو راس، محمد الناصر، فتح الإله ومنته، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، 1990.

ابن الأزرق، محمد، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق علي سامي النشار، بغداد، 1977.

(13341/1)

الإدريسي، محمد بن محمد الشريف، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية.

البلوي، خالد، تاريخ المفرق، جزآن، تحقيق الحسن السائم، ط المغرب، 1980.

الجبرتي، عبد الرحمن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، 1980.

الدرعي، أحمد بن ناصر، الرحلة الناصرية، نقل عن العياشي. حج الدرعي سنة 1122 هـ

الدرعي، ابن عبد السلام الناصري، الرحلة الناصرية.

(مخطوطة).

الزركلي، خير الدين، المجلد 15، ص. 172.

(13342/1)

الزياني، أبو القاسم بن أحمد، الترجمانة الكبرى، تحققي عبد الكريم الفيلالي، الرباط، 1967.

أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، الجزائر، 1985.

شراب، محمد محمد حسن، بيت المقدس والمسجد الأقصى، دار القلم، دمشق، 1994.

الشنوفي، علي، مكة المكرمة والكعبة المشرفة من كتب الرحالة المسلمين، تونس 1989.

العبدري، محمد البلنسي، الرحلة العبدرية، تحقيق أحمد بن جدو، كلية الآداب، الجزائر، 1964.

العياشي، أبو سالم عبد الله بن محمد، الرحلة العياشية (ماء الموائد)، جزآن، ط 2، مصورة، الرباط، 1977.

(13343/1)

فهيم، حسين محمد، أدب الرحلة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1989.

القلصادي، علي، رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1989.

المقري، أحمد، النفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1980.

الهيلة، محمد الحبيب، "القدس وشعاعها من المغرب والأندلس من خلال الرحلات العلمية، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، عمان، المجلد 3، 1983.

(13344/1)

معالم من التجربة الفلسفية لابن طفيل

الأستاذ إبراهيم بنعبد الله بورشاشن
كلية الآداب – مكناس

تعتبر "قصة حي بن يقظان" لابن طفيل من أجمل النصوص الفلسفية التي خطها فيلسوف عربي مسلم. ومن الغريب أن هذا الأثر الفلسفي اليتيم قد مات بموت صاحبه، وإن عرف هنا أو هناك، عرف تحت اسم آخر غير اسم الرجل الذي قدم مجمل الموضوعات والإشكالات التي

عرفها تاريخ الفلسفة في إهاب قصصي جذاب، والغريب كذلك أن هذه الرسالة الفلسفية لا يزال الغبن يلاحقها، فمنذ أن لفت بوكوك عناية الدارسين لها حيث ترجمها إلى اللاتينية سنة 1671،

(13345/1)

وهذا الأثر الفلسفي يشكو من أكثر من شكاة؛ ففضلا عن عدم وجود أي تحقيق علمي له رغم تعدد نشراته، فهو يشكو من قلة الاحتفال العلمي به. فإنه رغم كثرة الدراسات التي أنجزت حوله فإن هذه الدراسات لم تقرأ الرسالة كنص متكامل في سياقه الاجتماعي – الثقافي وتقف عند لغته ورموزه. إذ أن الدراسات التي حاولت أن تقدم قراءة نقدية تراعي النص ولغته ورموزه وسياقه الاجتماعي – الثقافي دراسات نادرة، وإن كانت قراءة بهذا المعنى لاتزال في طي المشاريع ...

وإن تفحصنا لبعض هذه الدراسات أوقفنا على ملاحظة هامة، وهي أن

(13346/1)

هذه الدراسات تتعامل مع نص ابن طفيل معاملة تجزيئية حيث تجد نفسها تقطع النص أوصالا وتباعيض، وتغيب عنها النظرة المتكاملة له. فتنزع في قراءته إما منزعا تقمصيا، فترى فيه "سيل الخلاص" كما نجد مثلا في قراءة الشيخ عبد الحليم محمود، وإما تقرأه إسقاطية، فتراه سابقا إلى كثير من الكشوف التي عرفها العلم

الحديث كما نجد ذلك عند بعض الدارسين العرب، أو تقرؤه قراءة تاريخية تربطه بأصول يونانية أو هندية كما نجد ذلك عند كثير من المستشرقين. وسنحاول في هذا البحث أن نعرف بهذا الفيلسوف وكتاباته قبل أن نضرب إلى فلسفته

(13347/1)

نتعرف على بعض من معالم هذه التجربة الفلسفية الغنية لفيلسوف الموحدين بدون منازع.

1- حياة ابن طفيل؛ نظرة موجزة :

لا يحدثنا التاريخ عن السنة التي ولد فيها ابن طفيل، في حين لا نجد صعوبة في الوقوف على تاريخ وفاته. فقد

وقع الإجماع على أنه توفي سنة 581 هـ، أما إذا أردنا أن نتحمل من أجل الوقوف على سنة ميلاده، فإن القرائن لا تدل سوى على أنه قد يكون ولد بين سنة 495 هـ وسنة 505 هـ، فهذا ليون غوتييه يؤكد أن ابن طفيل ينتمي إلى الجيل السابق لجيل ابن رشد، ففي اللقاء الشهير الذي دعا ابن طفيل فيه ابن رشد إلى

(13348/1)

"شرح" كتب أرسطو، يعتذر ابن طفيل عن القيام بهذه المهمة بكبر السن(1). وهكذا ففي الوقت الذي يكون فيه ابن رشد في أتم نضجه، يكون ابن طفيل شيخا مسنا، وفي وقت لاحق سيتنازل ابن طفيل عن دور طبيب الخليفة لابن رشد – حسب ل. غوتييه(2)

---

(1) انظر نص اللقاء في المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي تقديم ممدوح حقي دار الكتاب الدارالبيضاء الطبعة السابعة، 1978، صص. 353، 354.

(2) Ibn tofail, sa vie, ses ouvres, par Léon Gautier, Paris, Ernest Leroux, Editeur, 1909 ، ويؤكد ابن رشد في كتاب Vrin, Reprises, p. 19 الكليات أنه لم يزاول صناعة الطب كبير مزاولة، اللهم

إلا في نفسه وفي أقرباء له أو أصدقاء، مؤكدا أنه لم يكن هو الذي يتولى علاجهم وإنما كان فقط يتصفح ما يعرض لهم من التغايير عند معالجة الأطباء لهم في وقته الذين هم أبعد الخلق عن هذه الصناعة ... كما يقول. (كتاب الكليات في الطب تح خ.م. فورنياس –ك الباريث دي مورالس مدرسة الدراسات العربية في غرناطة – المجلس الأعلى للبحوث العلمية، مدرية 1987، ص. 445) مما قد يوحي بأن ما تقرر عند ل. غوتييه من إسناد مهمة طبيب الخليفة لابن رشد في حاجة إلى مراجعة كما قد يفهم من إشارة للأستاذ جمال الدين العلوي في كتابه القيم المتن الرشدي (دار توبقال، ط 1، 1986، ص. 60). لكن في روض القرطاس لابن أبي زرع (دار المنصور للطباعة الرباط 1973، ص. 176) إشارة واضحة إلى ان ابن رشد دعي برسم مهنة الطب إلى مراكش. ومن هنا ينبغي أن يفهم قول ابن رشد في الكليات فهما لا ينفي عن ابن رشد البتة ممارسة المهنة، وإن كان ابن رشد لم يتفرغ لها تفرغا كاملا. فيمكن أن يكون قد دعي لممارستها في القصر – لفترة من الزمن – بعد تأليفه لكتابة الكليات هذا قبل سنة 565 هـ (المتن الرشدي، ص. 59) في حين أنه دعي لممارسة مهنة الطب سنة 578 هـ

(13349/1)

-، وأخيرا يموت ابن طفيل سنة 581. ففارق السن بينهم يكون بين 15 إلى 25 سنة. وقد جزم خير الدين الزركلي بأن سنة ولاده ابن طفيل هي 494 (1).

وأما اسم ابن طفيل فهو محمد، وأما اسم أبيه فهو عبد الملك، أما اسم القريب فمحمد، وأما اسم جده البعيد فطفيل. ولا نعرف شيئا عن أبيه، ولا عن جدوده، وتؤكد الكتب التي أوردت نسبه على رفع نسبه إلى القبيلة العربية الشهيرة قيس بن

---

(1) الإعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستغربين، الجزء السادس دار العلم للملايين بيروت الطبعة الرابعة، 1979، ص. 249.

(13350/1)

غيلان(1).

---

(1) الذيل والتكملة، السفر السادس، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، 1973 درا الثقافة بيروت، 1956، ص. 407 رقم الترجمة 1089؛ ونفح الطيب، أحمد المقري، تح إحسان عباس المجلد الأول، بيروت 1968، ص. 606؛

والإحاطة في إخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب تح محمد عبد الله عنان، المجلد الثاني، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1394–1974 وقد وردت ترجمة ابن طفيل من ص. 478 إلى 482.

(13351/1)

أما عن مسقط رأسه، فتذهب جل المصادر إلى أنه ولد في واد آش(1) ، وهي "مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة، كبيرة خطيرة، تطرد حولها المياه والأنهار، ينحط نهرها من جبل شلير، وهو في شرقها – وهي على ضفته ولها عليه أرجاء لاصقة بسورها، وهي كثيرة التوت والأعناب وأصناف الثمار والزيتون والقطن بها كثير ..."(2)

---

(1) الذيل والتكملة، مرجع سابق؛ روض لقرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع دار المنصور للطباعة الرباط 1973، ص. 176، الإحاطة مرجع سابق.

(2) الروض المعطار للحميري نشره ليفي بروفنصال، مطبعة التأليف والنشر القاهرة، 1973، صص. 192، 193.

(13352/1)

. وإذا كان ابن طفيل قد قضى في هذه المدينة الجميلة طفولته، وصدرا من شبابه، فلعل جو هذه المدينة أن يكون هيأ لفيلسوفنا مكانا هادئا للتأمل، وساهم كثيرا في إرهاف حسه. ووادي آش فضلا عن ذلك مدينة أنجبت كثيرا من العلماء يصادفهم الباحث، وهو يطالع كتب الرجال والطبقات التي اهتمت بالتأريخ لرجال العلم والأدب في الأندلس.

أما عن أسرة ابن طفيل، فنعرف أن ابن طفيل خلف ثلاثة أبناء على الأقل، لعل أكبرهم هو أبو بكر(1)

---

(1) المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبار تحقيق إبراهيم الإيباري دار الكتاب اللبناني، ط 2، 1983، صص. 85، 86.

(13353/1)

الذي ينسب إليه عادة ابن طفيل ثم جعفر(1). ثم ابنه يحي الذي التقى به صاحب "المعجب" بمراكش سنة 603

وأنشده من شعر لأبيه(2).

أما عن استمرارية أسرة ابن طفيل، فهذا ابن رشيد، يلتقي بحفيد ابن طفيل "أبي زكرياء يحيى بن أحمد ابن يحيى بن محمد بن عبد المالك ابن طفيل القيسي"، ويمده بكتاب نادر لابن طفيل في انتقال مصحف عثمان من قرطبة إلى مراكش(3)

---

(1) كما يذكر مخطوط البودليان بإكسفورد في نسبته لابن طفيل ورقة 23.

(2) المعجب، مرجع سابق، ص. 350.

(3) أورده صاحب نفح الطيب، مرجع سابق، صص. 606–615. أما عن رحلة ابن رشيد التي ورد فيها النص الأصلي فاسمها ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، وتتألف الرحلة من سبعة أجزاء ولا يعرف منها الآن سوى نسخة واحدة مخطوطة بمكتبة الأسكوريال بمدريد وتوجد مصورتها في الخزانة العامة بتطوان وتوجد صورة الجزء الثالث بخزانة الرباط وفي أيدي الناس الجزء الثالث تحقيق د. بلخوجة والقسم الأول مفقود وكذلك الجزء الرابع "المشكاة العدد، 2، 1403 – 1983.

(13354/1)

. وكان أبو زكرياء هذا وزيرا، وهو أمر ذو دلالة على منزلة أسرته العلمية والسياسية عند المرينيين.

لقد كان ابن طفيل رجل علم وسياسة، ولا نعرف الكثير عن حياته العلمية ولا عن حياته السياسية، سوى بعض الشذرات لا تغني كثيرا في هذا المجال؛ لكن لا يجب الإشارة إليه هو أن ابن طفيل لم يكن غريبا عن ثقافة عصره بكل أشكالها ولويناتها، فدرس الفقه على يد عبد الحق بن عطية وأبو محمد الرشاطي، والأدب على يد ابن شرف، كما درس الفلسفة على شيوخ لم يحفظ لنا التاريخ ذكر أحد منهم، وغير ذلك من العلوم التي كرع من معينها والتي

(13355/1)

أهلته لوظائفه في الدولة الموحدية، حيث نجده في سنة 540 هـ كتابا لابن ملحان الطائي(1)، ثم بعد ذلك سنة 548 هـ كتابا لوالي غرناطة أبي سعيد(2). ثم كتابا له سنة 549هـ عندما عين

---

(1) الذيل والتكملة والإحاطة مرجان سابقان. ولنظر محمد عبد الله عنان، أندلسيات كتاب العربي العشرون، يوليوز 1988، ص. 42.

(2) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تحقيق جماعة من الأساتذة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، دار الثقافة، ط1، 1985، ص. 50.

(13356/1)

واليا لسبتة وطنجة(1). وفي سنة 552 هـ يسجل ابن طفيل لعبد المومن بن علي حدث نقل المصحف العثماني من قرطبة إلى مراكش(2). وفي سنة 533 هـ يأمر عبد المؤمن ابن طفيل بكتابة قصيدة يستدعي فيها العرب من بين سليم(3)، ثم نجده سنة 565 هـ يكتب قصيدة أخرى لأبي يعقوب يوسف يستدعي فيها العرب إلى الجهاد(4)

---

(1) روض القرطاس، مرجع سابق، ص. 152.

(2) نفح الطيب، مرجع سابق.

(3) اليان المغرب، مرجع سابق، ص. 63.

(4) توجد قصيدة عند ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الأولى، 1964 وهي أربعة وأربعون بيتا، صص. 411، 415 ... وتوجد في البيان المغرب، صص. 114، 115 وقد سقط منها 13 بيتا. وللقصيدة نشرة ودراسة قام بها غرسية

غومس تحت عنوان "قصيدة سياسية لابن طفيل" لم تنشر نشرت في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد العدد الأول 1953، وقد عد د. محمد مفتاح كتابه التلقي والتأويل بدراسة مفصلة لهذه القصيدة، مرجع سابق، ص. 149.

(13357/1)

. وفي سنة 576 هـ يكتب قصيدة للخليفة يبشر فيها بفتح قفصة(1). ونجده قبل ذلك في مرض الخليفة أبي يعقوب يكثر الدخول عليه للرعاية(2). ثم يتوفى سنة 581 هـ ويحضر الخليفة أبو يوسف يعقوب جنازته، كرمز على المنزلة الخاصة التي نالها ابن طفيل في قلوب الأسرة الموحدية، فقيها وطبيبا وفيلسوفا ووزيرا(3)

---

(1) البيان المغرب، مرجع سابق، ص. 142؛ الإحاطة، مرجع سابق؛ والمقتضب، مرجع سابق، صص. 85، 86.

(2) المن بالإمانة، مرجع سابق، ص. 411.

(3) من المؤكد أن ابن طفيل قد مارس الوزارة في عهد الموحدين؛ أولا لنه كان كاتبا، وكثيرا ما جمع الكتاب مع مهارته الإنشائية والوزارة أيضا، البيان المغرب، ص. 51، ثانيا لأن وظيفة "الوزير" هي سياسة أحوال الخليفة

والنظر في أعماله وأشغاله (نم، ص. 92)، وقد كان ابن طفيل يجمع الأمرين معا، وثالثا لأن شخصية ابن طفيل كوزير ينفرد بذكرها صاحب روض القرطاس كما يزعم ذلك ل. غوتييه (مرجع سابق، ص. 6) وإنما أثبتها كذلك ابن دحية في المطرب (المرجع سابق، ص. 66)؛ وابن رشد في رحلته كما أثبت ذلك صاحب النفح الذي أورد عن ابن رشد رسالة ابن طفيل في المصحف العثماني.

(13358/1)

. ويبدو أن هذه المنزلة لم يكن وراءها فقط تمكنه من الثقافة الإسلامية، وإنما كذلك رعايته لخليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن وتربيته له، وسيرته الشخصية التي رفعها البعض
إلى درجة سيرة الأولياء(1). وكذلك ثقافته العلمية الواسعة وتكوينه الفلسفي
كما سلف؛ وقد خلف ابن طفيل آثارا أدبية وعلمية فلسفية تبين مدى مساهمته في علوم عصره.

2- آثار ابن طفيل :

---

(1) يدرج ابن صاحب الصلاة ابن طفيل ضمن الأطباء

الأولياء الذين كانوا يدخلون على الخليفة أبي يعقوب إبان مرضه. المن، مرجع سابق، ص. 410.

(13359/1)

لقد نسب الذين ترجموا لابن طفيل الفيلسوف آثارا علمية، منها ما كتبه ابن طفيل، ومنها ما يبدو أنه لم يكتبه قط، ومنها ما يبدو أنه لا يزال مفقودا.

* أما الآثار التي كتبها ابن طفيل، وتوجد بين أيدينا، فهي رسالته الفلسفية "حي ابن يقظان"، و"أرجوزته الطبية"، ونصوص أدبية أخرى.

أ- ليس هناك من شك في أن ابن طفيل هو مؤلف رسالة "حي بن يقظان"، فقد أشار إلى ذلك صاحب "المعجب"(1)، ونسبها له ابن الخطيب في "الإحاطة"(2)، كما أن المخطوطات التي بين أيدينا لهذه الرسالة الفلسفية

---

(1) مرجع سابق، ص. 349.

(2) مرجع سابق، ص. 49.

(13360/1)

ممهورة بتوقيع ابن طفيل، وإن كان في بعضها زلل واضح كما نجد مثلا في "مخطوط الجزائر" الذي ينسب الرسالة خطأً إلى ابن سينا، وقد عاينته. وفي مخطوطي القاهرة وليدن اللذين ينسبان الرسالة خطأً إلى ابن سبعين وقد عاينهما ليون غوتييه، وهذا الزلل وقع فيه أيضا ابن خلدون عندما نسب الرسالة خطأً إلى ابن سينا وذلك في معرض لمالجته لـ "صناعة التوليد" حين ذكر رأي الفارابي وحكام الأندلس في "عدم انقراض الأنواع، واستحالة انقطاع المكونات، وخصوصا النوع الإنساني" فقال : "وتكلف ابن سينا في الرد على هذا الرأي لمخالفته إياه،

(13361/1)

وذهابه إلى إمكان انقطاع الأنواع، وخراب التكوين، ثم عوده ثانيا لاقتضاءات فلكية وأوضاع غريبة تنذر في الأحقاب بزعمه، فتقتضي تخمير طينة مناسبة لمزاجه بحرارة مناسبة فيتم تكونه إنسانا، ثم يقيض له حيوان يخلق فيه إلهام لتربيته والحنو عليه، إلى أن يتم وجوده وفصاله. وأطنب في بيان ذلك في الرسالة التي سماها رسالة حي بن يقضان(1). مما دفع غرسية غومس في دراسة له أن يستخلص بأن هناك رسالة ثالثة لـ "حي

بن يقظان"

---

(1) المقدمة الجزء الثالث تح عبد الواحد واف لجنة البيان العربي، ط3، 1967، صص. 1077، 1078.

(13362/1)

غير التي كتبها ابن سينا وابن طفيل، والتي من الممكن أن تشبه أكثر الرسالة السينوية، وقد رد ليون غوينتة على هذا الزعم، ولكن ميغل كروس قدم سنة 1949 في رسالته للدكتوراه ما يدعم به أطروحة غومس، ولكن حجمه لم تتوجه إلى أساس المشكل(1). بل إن طائفة الكويكرز قد عرفت هذه الرسالة الفلسفية وجعلتها من المراجع الأساسية في تربية مريدها لفترة طويلة قبل أن تعرف أنها لفيلسوف عربي ! وهذا

---

(1) انظر ملخصا للمشكلة وللردود في Histoire de la philisophie en Islam par Abdurrahman Vrin .Paris 2. Badawi t724, 722, pp. 1972

(13363/1)

الخطأ في نسبة الرسالة إلى صاحبها يطرح – من جملة ما يطرح – مشكل موت نص حي بن يقظان بموت صاحبه ابن طفيل. إن موت نص ابن طفيل بعد وفاة صاحبه يطرح تساؤلات مهمة حول وضعية المناخ الثقافي الذي أنتج فيه النص؛ فقد كان فذا المناخ يعادي العمل الفني بعامة والشعري بخاصة كما يتجلى خاصة في شعور حازم القرطاجي بالاغتراب عن عصره، كما كان يعادي العمل الفلسفي – كما بين ابن طفيل نفسه ثم ابن رشد – فضلا عن أن نص ابن طفيل يدخل في باب "الاختلاف الامتناعي » وهو باب غير مثمن في النقد البلاغي القديم(1)

---

(1) انظر جابر عصفور، مفهوم الشعر، درا التنوير ط2، 1982، ص. 149 وص. 204.

(13364/1)

. ومن هنا، فلعل الانحطاط الثقافي العام هو الذي كان وراء الصمت الكبير الذي أحاط بنص ابن طفيل، كما أحاط بنصوص معاصره ابن رشد.

أما عن الدراسات التي تناولت النص فهي في مجملها لاتزال نادرة، ولا تزال في كثير منها أبعد عن ملامسة

النص في طبيعته وإشكالياته، إذ أن هذا النص – رغم صغر حجمه – يثير صعوبات كبرى، وإشكاليات أكبر، ويتطلب مقاربات متعددة، ولعل أقرب طريق لمقاربة هذا النص هو الطريق المونغرافي إذ أن تضافر الجهود ضرورة للقيام الجاد بشأن هذا النص الأدبي والفلسفي الخالد، وكل دراسة مفردة، ستظل دراسة

(13365/1)

قاصرة مهما ادعت من دعاوي وبذلت من جهد ...

ب – لم يذكر الأجورة الطيبة – ممن أرخوا لابن طفيل – سوى ابن الخطيب، وأطلق عليها اسم "الأجوزة الطبية المجهولة"(1)، وإن كانت الإشادة بمهارة ابن طفيل الطبية

تمت بأكثر من قلم؛ فقد ذكر صاحب "القرطاس" أن ابن طفيل كان من

أهل الحدق بصناعة الطب والنظر في الجراحات(2)، كما نسبه إلى الطب صاحب "الإحاطة"(3) و"الذيل والتكملة"(4) و"المطرب"(5)

---

(1) الإحاطة المجلد الثاني، مرجع سابق، ص. 479.

(2) ص. 176.

(3) مرجع سابق، ص. 479.

(4) مرجع سابق، ص. 407.

(5) مرجع سابق، ص. 66.

(13366/1)

و"المقتضب"(1) و"البيان المغرب"(2).

لكن الأرجوزة اليوم لم تعد مجهولة، فقد تم اكتشافها، وإن لم تعرف بعد طريقها إلى النشر، وتوجد نسختها الوحيدة في خزانة القرويين بفاس، "تحت رقم 1969"، وتحتوي الأرجوزة على أكثر من 7700 بيت من الرجز السهل الواضح البين ... وهذه النسخة تشمل على ثمان وأربعين ومائة ورقة من مقياس 30 × 21 إلا أنها عارية عن ذكر تاريخ نسخها وعن ذكر الناسخ نفسه، وكثير من أوراقها مصابة بالسوس والرطوبة، وقد ألف ابن طفيل ولأرجوزته على سبع مقالات

---

(1) مرجع سابق، ص. 65.

(2) مرجع سابق، ص. 142.

(13367/1)

..."(1)، أما نسبة الأرجوزة لابن طفيل فأمر غير قابل للشك، فذلك ما تؤكده وثيقة التحبيس الموجودة في الهامش الأيسر من الورقة الأولى للأرجوزة حيث نقرأ : "حبس مولانا الإمام ... هذا الجلد المشتمل على رجز ابن طفيل"، فضلا عن الطابع التعليمي الذي يسودها؛ سواء من خلال الأسلوب الذي ضيعت به الأرجوزة، أو من خلال التوجيهات الثانوية فيها، مما يشي بقرابة واضحة بين أرجوزته وبين رسالته "حي بن يقظان"، ويكشف عن شخصية ابن طفيل

---

(1) عبد العزيز الدباغ "الأرجوزة الطبية لأبي بكر بن الطفيل"، دعوة الحق، غشت 1984، ص. 239.

(13368/1)

التربوية. وإن كان هذا النص الطبي لا يقدم كثيرا في فهم شخصية ابن طفيل الفلسفية، رغم انطواء الطب تحت "العلم الطبيعي" وارتباطه به، اللهم ما يمكن أن نكشف من خلاله عن الشخصية العلمية لابن طفيل، من خلال الوقوف على المعالم الكبرى للمنهج العلمي الذي يبلوه في الأرجوزة، أو من خلال الوقوف على بعض المفاهيم التي يشترك فيها الطب والفلسفة، فيشرف

بها هذا العلم الطبيعي على بعض موضوعات العلم الإلهي.

وأرجوزة ابن طفيل فوق هذه كله موسوعة علمية كبرى في علم النبات وعلم الحيوان، يشيد فيها كثيرا بجالينوس بالحكيم(1)

---

(1) ص. 7 من الأرجوزة.

(13369/1)

. وأبقراط "الحكيم الفاضل"(1).

ج- خلف ابن طفيل أيضا من جملة ما خلف، بعض الآثار الأدبية التي كتبها من مناسبات مختلفة، ومن أهم هذه الآثار الموجودة؛ رسالته الرائعة في نقل المصحف العثماني(2)، وقصيدته في رخص العرب على الجهاد(3)، وأشعار متفرقة حفظها لنا صاحب "المعجب"(4).

والناظر في هذه الآثار يقف على الأقل على ملاحظتين اثنتين :

---

(1) طن.م، ص. 7، وص. 101.

(2) ذكرها صاحب المن، مرجع سابق.

(4) مرجع سابق، صص. 350، 352.

(13370/1)

أولاهما، قدرة ابن طفيل الفائقة على الوصف، ترفدها دقة الملاحظة وجمال الأسلوب؛ فابن طفيل يعتني كثيرا بأسلوبه، من خلال اغترافه من معين تقنيات الخطاب الشعري الذي يقوم على التخييل. وهذا الأسلوب رافق ابن طفيل كثيرا في رسالته الفلسفية أيضا، مما يطرح مسألة العلاقة بين الأدب والفلسفة عند ابن طفيل كثيرا في رسالته الفلسفية أيضا، مما يطرح مسألة العلاقة بين الأدب والفلسفة عند ابن طفيل.

ثانيهما، ولوع ابن طفيل بالغرابة وكلفه بها، فرسالته الأدبية الرائعة في المصحف العثماني مثلا يتردد فيها مفهوم "الغريب" 09

(13371/1)

مرات، كما يتردد فيها مفهوم "العجيب" 05 مرات، فضلا عن الفضاء العجائبي التي تحرص على خلقه في الرسالة من خلال مفاهيم كثيرة، وبخاصة مفهوم الكرامة التي يتردد في هذا النص الأدبي كثيرا. وهذا الولع يترجمه اختفاء ابن طفيل في قصته الفلسفية بكتاب

المسعودي "أخبار الزمان"(1) واستفادته منه، وهو كتاب يعبق غرابة كله، ذكر فيه المسعودي كما قال : "طرفا من أخبار

---

(1) أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، تصنيف أبي الحسن علي بن الحسين المسعودي، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت 1966.

(13372/1)

الروحانية على ما نقل إلينا ... على طريق التعجب لا من طريق التصديق"(1). وقد استعار منه ابن طفيل الفضاء العجائب لقصته "حي بن يقظان".

** أما الآثار التي يبدو أن ابن طفيل كتبها ولكنها لن تصل إلينا؛

أ – فمراسلاته الطبية مع ابن رشد، والتي يذكرها ابن أبي أصيبعة(2)، أما ليون غوتييه فينزع في دراسته عن ابن طفيل إلى القول بأن المؤلف الطبي الذي أشار إليه ابن الخطيب والمراسلات التي ذكرها ابن أصيبعة هي في

(1) ن.م.، صص. 39، 40.

(2) عيون النباء، الجزء الثالث درا الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1981، ص. 126.

(13373/1)

الحقيقة مؤلف واحد(1)، وهو أمر أصبح مستبعدا بعد اكتشاف الأرجوزة. فيبقى إذن أن لابن طفيل كتابات أخرى في الطب لازالت مجهولة.

ب – كذلك لابن طفيل كتابات في الفلك، يبدو أنها هي أيضا لازالت مجهولة، وخاصة ما كتبه عن المواضع المسكونة من الأرض، كما أكد ذلك ابن رشد ومن الصعب أن نطمئن إلى ما قرره غوتييه من أن هذا المكتوب هو نفسه ما كتبه ابن طفيل في الفلك، في بدايات حكايته الفلسفية(2)، لأن النص الذي أشار إليه ابن رشد، يدخل في إطار سجالي جمع بين ابن طفيل والمسمى

(1) مرجع سابق، ص. 25.

(2) غوتيه، مرجع سابق، ص. 26.

(13374/1)

أبو عبد الرحمن بن طاهر، مما يؤكد أن الأمر يتعلق بمقالة أفردها ابن طفيل لهذه المسألة؛ مقالة في الرد على أقاويل خصم الإعتراض على مقدماته، وهي مقالة اطلع عليها ابن رشد، واعتبر أن أقاويلها جدلية. يقول ابن رشد :

"فهذه البراهين هب التي اعتمدها أرسطو في هذا الموضع، وهي كما ترى براهين طبيعية صحام. وقد يمكن أن نستدل على هذا بدلائل غير هذه. وقد ذكرنا نحن في ذلك طريقا من البيان في الجوامع الصغار التي لنا هو لعمري صحيح، ومقدماته مأخوذة من "الحس والقياس". وقد أطال صاحبنا أبو عبد الرحمان بن طاهر القول في هذه

(13375/1)

المسألة، واستعمل في ذلك مقدمات كثيرة ر يخفى جنسها عند من ارتاض العلوم الطبيعية. لكن ما رام اثباته من ذلك حق هو لا شك فيه. وقد نازعه قوم من زمننا، وقد تكلف هو بالرد عليهم،

وأقاويلهم في ذلك مشهورة بأيدي الناس. ولصاحبنا أبي بكر بن طفيل قول جيد في

الاعتراض على المقدمات التي استعملها في ذلك البيان،

وقد ناقضه هو. وهي

كلها أو جلها أقاويل جدلية"(1) ونحن نعد هذه المقالة

مما لا يزال مفقودا من مؤلفات ابن طفيل.

---

(1) تلخيص الآثار العلوية، تح جمال الدين العلوي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1994، صص. 116، 118.

(13376/1)

*** أما الكتب التي يبدو أن ابن طفيل لم يكتبها قط، فرسالة في علم الفلك، ورسالة في النفس.

أ- أما الرسالة في الفلك، فقد ذكر البطروجي أن ابن طفيل وعد بكتابة رسالة فلكية، يبسط فيها ما توصل إليه من حقائق جديدة في علم الفلك قد تعتبر فتحا جديدا فيه، لكن البطروجي صاحب ابن طفيل وتلميذه لم يؤكد هذا الأمر ولم ينفه. فيقول : "وقد علمت بأن أبا بكر ابن طفيل رحمه الله تعالى، كان يذكر لنا أنه عثر على هيئة وأصول لتلك الحركات غير ذينك الأصلين اللذين وضعهما بطليموس، ودون أن يضع فلكا خارج المركز أصلا، ولا فلك تدوير،

(13377/1)

وتصح معه تلك الحركات جميعا ودون أن يلزم عنها شيء من المحال. وكان وعد أن يكتب فيه، ومكانه من العلم بحيث لا يجهل"(1) لكن يبدو من سكوت البطروجي هذا أن وعد ابن طفيل ظل معلقا، وأن انصرافه – كما قال في اعتذاره لابن رشد عن معالجته لنصوص أرسطو – إلى همومه السياسية، وهمومه

(1) كتاب الهيئة للبطروجي، صورة نسخة مكتبة الإسكوريال نشرها جولدستاين نيوهافن سنة 1971، ذكره د. عبد الحميد صبرة في مقاله "ابن رشد وموقفه من فلك بطليموس" والذي نشر ضمن أعمال مؤتمر ابن رشد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر نونبر 1978.

(13378/1)

التأملية"(1)، قد حال بينه وبين هذه الكتابة، وربما كتابات أخرى كانت ستغني البحث في العلم العربي الإسلامي.

ب – أما الرسالة في النفس، فقد ذكر المراكشي أنه رأى بخط ابن طفيل

"رسالة في النفس". وقد نال هذا القول من لدن مؤرخي الفلسفة احتفاء كبيرا، وتم قبوله
كقول لا يرقى إليه الشك، كما يلاحظ ل. غوتييه، بحجة ان المراكشي مؤرخ ثقة،
ويتحدث عن كتاب رآه بأم عينيه، وهو فضلا عن ذلك عرف يحيى ابن الفيلسوف
الذي قدم له ما تركه أبوه من مخطوطات، فكيف يشك بعد ذلك في

---

(1) المعجب، مرجع سابق، ص. 345.

(13379/1)

قوله ؟ لكن الحجج التي يقدمها ل. غوتييه لتنفيذ هذا الزعم، قد تجعل دعوى المراكشي هذه متسرعة
وباطلة(1).
إن المراكشي عند غوتييه يكون دقيقا عندما يكتب في التاريخ، لكنه عندما يخرج عنه إلى ميدان آخر
كالفلسفة مثلا فإنه يفقد دقته، ويقدم دليلا على ذلك ثلاث أو أربع هفوات زل بها المراكشي في نظره، وبان بها عدم تحقيقه.
أولى هذه الهفوات، زعمه أن ابن طفيل تتلمذ على يدي

ابن باجة في حين ان ابن طفيل نفسه في رسالته ينفي هذا الزعم، وهو ما يلقي ظلا من الشك حول

---

(1) غوتييه، ابن طفيل، حياته آثاره، مرجع سابق، صص. 38، 41.

(13380/1)

قراءة المراكشي لرسالة ابن طفيل.

ثانيهما، زعمه ان رسالة حي بن يقضان "في الطبيعيات ... غرضه فيها بيان مبدأ النوع الإنساني على مذهبهم" أي الفلاسفة. ويعتقد ل. غوتييه أن هذا القول يحمل أكثر من خطإ :

– إن القصة لا تنتمي إلى العلم الطبيعي، فالثلث الأول منها هو الذي يمكن أن ينسحب عليه هذا القول.

– أن الغرض من الرسالة ليس بيان مبدإ النوع الإنساني، لأن ميلاد "حي" من غير أم ولا أب حسب ل. غوتييه، هو حدث استثنائي فريد وتخيل حاذق يهيئ ويكمل تخيلا آخر؛ تخيل فيلسوف يعلم نفسه بأقصى معاني الكلمة. وهذا القول لهذا

(13381/1)

الباحث يمكن ان يناقش.

3- أن هذا التولد الذاتي ليس حسب غوتييه مذهب الفلاسفة، وهو قول مردود

على غوتييهن فإن أرسطو يقول به في كتاب "الحيوان" وإن بمستوى معين(1)

---

(1) إن أرسطو لا يتحدث أبدا عن التوالد، ولكنه يتحدث عن توالد الحيوانات ... فقد لاحظ أرسطو أن الحيوانات منها ما يولد من أبوين شبيهين، وتارة من التولد التلقائي. والتولد عند أرسطو يستند على معطيات علمية جديدة، وعلى ملاحظات قوية، ويمكن تفسير أليانه بالاستدلال انطلاقا مما يظن أنه يعرفه حول تكون الحيوانات التي تولد من أبوين متشابهين. إن، Pierre Louis, La découverte de la vie, Aristole, collection savoir, 1975, pp. 139, 141؛ **وانظر** Aristole, Histoire des Animaux, tome 1, nouvelle traduction, J. Tricot, Paris, 1975, p. 319.

(13382/1)

،

كما يقول به الشيخ الرئيس حيث نجد ابن رشد يحكي عن ابن سينا، بأنه "يقول إنه ممكن أن يتولد الإنسان من تراب، كما يتولد الفأر" ولكنه "وإن كان يعتقده ... لم يقله موافقة لأهل زمانه ..."(1)

---

(1) مقال الألف الصغرى ضمن تفسير ما بعد الطبيعة تح موريس بويج ط2، بيروت 1967، صص. 46، 47. وقد وجدنا في كتاب الحيوان لابن سينا في التولد، وهو مذهب ينزع إلى القول بأن الإنسان يتولد مثله مثل الحيوان يقول ابن سينا : "... فليس يجوز إذا كان الحيوان يتكون بالتوالد أن لا يتكون بالتولد، فإنه يجوز أن يكون التوالد يحفظ النوع، والتولد يحدث في الأحيان أشخاصا تبتدئ منها الولادة، كما أن الناس ربما قطع التوالد والولد عنه واحد ينتهي إليه التولد، ويجوز أن تكون العوارض التي تعرض في الهواء تقطع النسل، ثم يعود النوع بالتولد، فيكون التولد والتوالد معاونين في استحفاظ النوع، وقد وجدنا في الوادي الذي يسيل عنه بهستون حيوان الجندبيدستر، ومعلوم أن ذلك الوادي حادث وأن هذا الحيوان في غالب الظن الشديد الغلبة قد تولد فيه، فإنه لا يجوز أن يقال إنه من البحار التي يكثر فيها للبعد العظيم بين ذلك الموضع وبين

البحار. كتاب الحيوان تح عبد الحليم منتصر – سعيد زايد – عبد الله إسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1390 هـ – 1970، صص. 385، 386.

(13383/1)

.

إننا دون أن نسلم لغوتييه فلسفيا بما يقرر من أحكام، فإننا نأخذ باستنتاجه في أن المراكشي لم يقرأ رسالة ابن طفيل، ونرجع احتماله في أن يكون هذا المؤرخ قد عرضت عليه نسختان من "حي"، فأخذ إحداهما على أنها رسالة في النفس، والأخرى على أنها قصة "حي"، ويكون المراكشي بذلك لم يقرأ كتاب النفس المزعوم، كما لم يقرأ قصة "حي بن يقظان" كلها. ومما يقوي هذا الإفتراض أن مخطوطا بمدريد ظن لأمد على أنه كتاب النفس المفقود في حين أنه ليس نسخة من الرسالة الفلسفية، "حي بن يقظان"(1)

---

(1) كما برهن على ذلك غوتييه نفسه، مرجع سابق، صص. 38، 41.

(13384/1)

. وينتهي ل. غوتييه إلى القول إن ابن طفيل لم يكتب سوى رسالة "حي بن يقظان"(1) وهو جزم بعد اكتشاف كتابات أخرى لابن طفيل في حاجة إلى مراجعة.

3- الصلة بين شخصيات ابن طفيل وابن سينا :

إن قراءة قصة "حي ابن يقظان" لابن طفيل بمعزل عن التراث الأدبي -

الفلسفي السينوي هي قراءة قاصرة، فإن هذا التراث، وخاصة في جانبه القصصي

الذي اقتبس منه ابن طفيل شخصيات قصته الفلسفية، يعتبر من المداخل الأساسية لفهم جوانب مهمة من هذه الرسالة الطريفة، سواء على مستوى شكلها أو على مستوى مضمونها، فكيف ذلك ؟.

---

(1) مرجع سابق، ص. 41.

(13385/1)

استعار ابن طفيل الشخصية الرئيسية لقصته، من رسالة لابن سينا تحمل نفس العنوان، فقد كتب ابن سينا قصته الفلسفية، "حي ابن يقظان"(1)، من أجل "الدعوة إلى السفر برفقة ملك الإشراف"(2)، للسياحة في العوالم

الممكنة، وبلوغ أقصى كمالات الإنسان. وقد رمز لهذا الملك بالشيخ المهيب "حي بن يقظان"، "الذي يحترف السياحة في أقطار العوام"، ووجهه لا

---

(1) نشرة أحمد أمين مع قصتي ابن طفيل والسهروردي في سلسلة ذخائر العرب (8) ط3، دار المعارف، 1966، مصر.

(2) هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، منشورات عويدات، ط1، 1966، ص. 262.

(13386/1)

يحيد عن "أبيه الدائم الحياة" والذي سلم له مفاتيح العلوم كلها، حتى أحاط بكل شيء خبرا. ويشترط هذا الشيخ الكامل، على من يطمع في هذه السياحة، ليدرك كماله، أن يعلم استحالة السياحة الخالصة، وأن يقنع بالسياحة المدخولة مركز على استحالة التجرد من المادة. وأن يتخلص من "رفقة السوء"؛ ورمز الشهوات. ويرقى عن "الخافقين"؛ رمز العالم المحسوس. عندئذ في السياحة والترقي، حتى يدرك "الملك المطاع"، ويذوق لذة الوصال؛ رمز واجب الوجود، والفناء والمشاهدة. ويحرص هذا الشيخ، – وهو يصف العوالم، وعلاقة الملك بأمته التي هي في

وصال دائم؛ تمتع النظر إلى وجهه، فيغض الدهش أطرافهم، – على التشويق والترغيب في اتباعه من أجل السياحة.

ذلك باختصار شديد السمات الكبرى لحي "ابن سينا. وما يقيم العلاقة بين الشخصيتين السينوية وشخصية ابن طفيل أن كليها على الأقل يحترف السياحة بلغة ابن سينا

والجولان بلغة ابن طفيل. أما الشخصيتان المعينتان ل "حي" ابن طفيل، على

اكتشاف الدين والمجتمع؛ آسال وسالمان(1)،

فاقتبسهما ابن

---

(1) هما إسمان عربيان، انظر الإشارات والتنبيهات تح سليمان دنيا، القسم الرابع، دار المعارف، مصر، عند شرح الطوسي، صص. 791، 792.

طفيل من قصة نوه بها ابن

سينا في القسم الأخير من سفره "الإشارات

والتنبيهات"، وأوماً إلى انها من الرموز

التي تحمل معاني جديرة بالتأمل. قال ابن سينا : "وإذا

قرع سمعك فيما يقرعه، وسرد عليك فيما تسمعه، قصة

لسلامان وأبسال، فاعلم أن سلامان مثل ضرب لك، وأن

أبسالا مثل ضرب لدرجتك في العرفان إن كنت من أهله.

ثم حل الرمز إن أطلقت"(1). ويقدم الطوسي – شارح ابن

سينا –

---

(1) انظر الإشارات والتنبيهات، مرجع ساابق، صص. 790، 793؛ وانظر تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، تح حسن عاصي، دار قباس، ط1، 1986، صص. 132، 133.

(13389/1)

إمكانات لحل هذا الرمز السينوي المعلق(1)، فيؤكد أن

كلام ابن سينا يشعر "بوجود قصة يذكر فيها هذان

الإسمان، ويكون سياقهما مشتملة على ذكر طالب ما

لمطلوب لا يناله إلا شيئا فشيئا، ويظفر بذلك النيل على

كمال بعد كمال، ليمكن تطبيق سلامان على ذلك

الطالب، وتطبيق آسال على مطلوبه ذلك، وتطبيق ما جرى

بينهما من الأحوال على الرمز الذي أمر الشيخ بحله".

فيأتي على ذكر قصة يراها الطوسي، مطابقة لما ذكره

---

(1) نجد شرح الطوسي، ضمن هوامش الإشارات والتنبيهات، صص. 790، 799؛ وضمن تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، صص. 133، 139.

(13390/1)

ابن سينا. وهذه القصة تدور في ظاهرها حول تيمة الحب والانتقام؛ وتضمر في باطنها رموزا وأسرارا نحاول تلخيص هذه القصة لبيان مواطن التأثير والتأثر :

أحبت زوجة سالمان، أخاه الأصغر آسال، الذي نشأ في كنف أخيه الأكبر، حتى استوى شابا ذا بسطة في العلم والجسم، وكمال في الخلق والشجاعة. فأغرمت به المرأة وأوعزت إلى سالمان أن يشجع اخاه على مخالطة أهله، حتى يسرقوا منه طابعه العالية. ولما اتتها الفرصة وخلت به، راودته عن نفسه فاستعصم. ودبرت حيلة؛ فأوحت إلى زوجها أن يزوج آسال أختها، حتى إذا جاء الليل، "باتت امرأة

(13391/1)

سالمان في فراش أختها ... وقد تغيم السماء في الوقت غيما فلام منه برق أبصر بضوئه وجهها، لإزعجها، وخرج من عندها،وعزم على مفارقتها"، فطلب من أخيه، أن يبعثه في مهمة عسكرية، فلما طال غيابه، وأيقن أن زوجة أخيه سلته، رجع، فعادت لمراودته، فلما استيأست منه، تملكتها شهوة الانتقام؛ فأوعزت إلى الجنود أن يخذلوه في الحرب، ففعلوا وتركوه مضرجا بدمائه، وقد أيقنوا هلاكه. فأتته "مرضعة من حيوانات الوحش، ألقمته حلمة ثديها، واغتدى بذلك، إلى أن انتعش وعوفي". فعاد إلى البيت، فـ"واطأت [المرأة] طابخه، وطاعمه، وأعطتهما

(13392/1)

مالا، فسقياه السم" فمات. فحزن عليه سالمان، وفزع إلى العزلة يناجي ربه، إلى أن "أوحى إليه جلية الحال"، فانتقم من قتلة أخيه آسال.

ويمضي الطوسي في فلك رموز هذه القصة، مؤكدا أن سالمان هو "مثل للنفس الناطقة. وأبسال مثل للعقل النظري المترقي إلى أن حصل عقلا مستفادا، وهو درجتها في العرفان، إذ كانت تترقى إلى الكمال ..."، منتهيا في

الأخير، إلى "أن هذا التأويل مطابق لما ذكره الشيخ، ومما يؤيده أنه قصده بهذه القصة، أنه ذكر في رسالة – في القضاء والقدر – قصة سالمان وأبسال، وذكر فيها حديث لمعان البرق من الغيم

(13393/1)

المظلم، الذي أظهر لأبسال وجه ارمأة سالمان، حتى أعرض عنها". وهو ما أوله الطوسي بـ"الخطفة الإلهية التي تسنح في أثناء الاشتغال بالأمور الفانية ...". ونحن لا نشك ان ابن طفيل قد اطلع على هذه القصة، وتأثر بها. لكن هناك قصة أخرى، تمت الإشارة إليها آنفا، وهي قصة "الملك والصنم"، وهذه بدون شك ابن طفيل.

إن العناصر التي نعتبر ان ابن طفيل استلهمها من فلسفة ابن سينا، وخاصة من رسالتي "حي ابن يقظان" و"آسال وسلامان" السينويتين، باعتبارهما تضمان كثيرا من هذه العناصر السينوية، التي هي من أسرار هذه الحكمة المشرقية

(13394/1)

التي نوه بها ابن طفيل في بداية رسالته الفلسفة، هي : القول بالتولد الذاتي، وجوهرية النفس، والقول بـ"ألوهية" الأجرام السماوية، والقول بالمجاهدة،والقول بالحياة بعد الموت، وهي عناصر تخترق النص الفلسفي وتشكل لحمته الأساسية.

لكن كيف فهم ابن طفيل "حي ابن يقظان" و"أسال" و"سلامان"، وأي زظيفة قاموا بها في رسالته الفلسفية ؟.

لقد اختار ابن طفيل لبطل قصته اسم "حي ابن يقظان"، و"الحي هو الدارك

الفعال [إذ أن] خاصية الحياة الإدراك والفعل"(1)

---

(1) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، مطبعة العامرية الشرقية، ط1، 1324 هـ، صص. 18، 27.

(13395/1)

، وهو "المتحرك من ذاته

بحركات محدودة نحو أغراض وأفعال محدودة تتولد عنها أفعال محدودة"(1) "واليقظان هو المستعمل للحواس"، فجمع له بين الإدراك العقلي وبين الممارسة العلمية الخاضعة للتدبير. وهكذا أدرك "حي" باشتغاله

المضمي بحواسه، وبتفتحه الفكري الناتج عن فطرته الفائقة معرفة نظرية وعلمية كاملة، وتحرك بالفعل ذاتي

---

(1) يقول ابن رشد : "إن الأشياء التي تسمى حية عالمة هي الأشياء المتحركة من ذاتها بحركات محدودة نحو أغراض وأفعال محدودة تتولد عنها أفعال محدودة ..." التهافت تح موريس بويج ط2 بيروت 1987، ص. 187.

(13396/1)

واع، وبتدبير كبير – مشدوها بلغز هذا الوجود – لبلوغ الكمال الميتافيزيقي. فـ "حي" إذن يرمز عند ابن طفيل لأدوات المعرفة في تحررها وتفتحها وتألقها وشوقها إلى المعرفة التي ترمي بالذات من خلال أفعال محدودة في أتون المطلق.

أما "آسال" ابن طفيل فيرمز "للعقل الديني" الذي يترقى في المعرفة مكسرا طوق التقليد متجاوزا ظواهر النصوص، كلفا بالتأمل والغوص على المعاني، محبا للعزلة المعنية على ذلك حتى يصل بمساعدة "حي" إلى درجة الاتصال. إن هذا العقل، بمواصفاته التي حرص ابن طفيل على التشديد عليها، هو وحده القادر على

(13397/1)

التجاوب مع "العقل الفلسفي" الذي يمثله "حي بن يقظان". ولذلك سيجسد ابن طفيل من خلال لقاء "آسال" "بحي"، واطمئنان بعضهما لبعض، وتبادلهما لتجاريهما، غناء "الفلسفة" والشريعة، و"المحبة الطبيعية" التي تحدث عنها ابن رشد في "فصل المقال"، ولا يخفى أن هناك قرابة واضحة بين "الآسلين"؛ "آسال" ابن سينا وآسال ابن طفيل، وإن لم يكن بينهما تطابق تام؛ فكلاهما ترقى في مراقي المعرفة، حتى بلغ درجة من الكمال.

أما "سالمان" ابن طفيل فرمز "للعقل الديني"، والوقاف عند الظواهر،

(13398/1)

المحب للاجتماع الإنساني والحريص عليه، العقل غير مؤهل – عادة – لفهم

"الحكمة" والتجاوب معها. وقد أسند ابن طفيل لسالمان نفس الوظيفة التي أسندها

ابن سينا لسميه، فكلاهما "ملك"، وإن كانت الأدوار التي

قام بها كل منهما

منسجمة مع السياق الفلسفي – الأدبي للقصة. ففي رسمه لصورة سالمان يقدم لنا ابن

طفيل معالم الشخصية الأندلسية التي ينبو ذوقها عن التفلسف ويعسر عليها فهم الحكمة، ولا

تستطيع أن ترفع إلا يفاع الاستبصار، "لما ركب في طباعه [1] من الجبن عن الفكرة" ووقوفها عند ظواهر النصوص،وبعدها عن التأمل والتأويل

(13399/1)

الناتج عن نقص فطرتها. فهذا النقض هو العائق الكبير الذي يقف دون هذه الشخصية وفهم الحكمة، وهو الذي يكمن وراء هذه الخصومة العميقة لها، فها هو سالمان وأهل جزيرته ينقبضون عن "حي" لما "ترقى عن الظاهر قليلا وأخذ في وصف ما سبق إلى فهمهم خلافه" ويشمئزون مما أتى به، ويستخطونه في قلوبهم – وهي نفس المشاعر التب بودلت بها الفلسفة عبر تاريخها في المجتمع الأندلسي، في حين لم يجد آسال الذي ربي بينهم أي حرج في فهم الحكمة، ولم يظهر عليه أي تردد في قبولها لما شعر به من استنارة أكبر وفهم لدينه أعمق. لكن للمجتمع

(13400/1)

منطقه وللخاصة منطقها، وهو من الدروس التي أراد ابن طفيل الوحي بها من خلال توظيفه لهذه الشخصيات السينوية.

4– أهمية قصة حي بن يقظان وموضوعها :

لقدكتب ابن طفيل رسالته الفلسفية – الأدبية وقسمها إلى ثلاثة أقسام؛

القسم الأول، يمكن النظر إليه باعتباره مقدمة في تاريخ الفلسفة يؤرخ فيه ابن طفيل لكثير من الإشكاليات التي عرفها تاريخ الفلسفة في الإسلام، منها إشكالية الاتصال، غشكالية الكتابة الفلسفية، إشكالية المعاد، وغيرها من الإشكاليات التي يطرحها تاريخ الفلسفة في الإسلام والتي عرض لها ابن طفيل بإيجاز كبير

(13401/1)

من خلال إثارته للصعوبات التي تكتنف النص الفلسفي الإسلامي، سواء من حيث القضايا التي يثيرها أو من خلال الأساليب التي عرض بها قضاياه هذه. وهذه الإشكاليات

سيتردد صدى كثير منها في هذا النص الطريف. إم مقدمة "حي بن يقظان" تثير عند القارئ – من جملة ما تثير – مشكلة الكتابة الفلسفية، وكأن ابن طفيل نفسه يقول لنا إن ما سيكتبه سيكون مشكلا ولابد من النظر إليه ونظرا خاصا. فإذا كان الفارابي يعتقد أن أفلاطون اشتهر بكتابة الرموز والأساطير، وأنه عندما يذكر الحقيقة واضحة

(13402/1)

يظنها القارئ رمزا وليس حقيقة، وعندما علم ذلك "واستبين أنه قد شهر بذلك، وعرف
الناس أجمع عنه ذلك، ربما عمد إلى الشيء الذي يريد ان يتكلم فيصرح به تصريحا
ظاهرا، فيظن القارئ والسامع لكلامه أن في ذلك رمزا، وأنه يريد به
خلاف ما صرد به"(1). أفلا يمكن أيضا بهذه الجهة أن تنظر إلى نص ابن طفيل على انه مخادع ؟ وأن علينا أن ننتبه إلى الحالات القليلة التي يقال فيها الشيء في النص والذي يخالف الطبيعة

---

(1) الفارابي، تلخيص نواميس لأبي نصر ضمن أفلاطون في

الإسلام تح عبد الرحمن بدوي، ط 2، دار الأندلسي، 1980، ص 36.

(13403/1)

التامة للكتاب، غذ أن الأمور المهمة تقال عادة في بعض الأحيان وخاصة عند فلاسفة يدركون خطورة القول الفلسفي ؟ ولعل هذا مصدر شعورنا في "أننا نجد دائما أكثر صدقا وعمقا ما نظن أننا وجدناه من خلال النص رغم مؤلفه"(1). وما يؤكد هذا الأمر هو تثمين ابن طفيل لطريقة الغزالي في الكتابة والتي أسسها على التمييز بين الآراء أو المذاهب في آخر كتابه "ميزان العمل"، والتي تثوي وراء هذا التناقض الذي يخترق نصوصه، والتي لا تفتأ

---

(1) Ph. Lejeune, Le pacte autobiographique, coll, poétique, Edition du Seuik, Paris p.26.

(13404/1)

يلمسها كل متعامل مع التراث الغزالي.

ثم قسم صغير، ختم به رسالته وقد جاء على شكل

اعتذار. وهو قسم غني بالمعطيات التي تربط القصة بفضائها السوسيو – ثقافي. واعتذارا ابن طفيل في آخر النص، وإن كان من أجل توضيح أن ما قدمه في الرسالة لا يراد منه مخالفة طريق "السلف الصالح" – وإنما على العكس من ذلك، الإفصاح عما ظن به السلف من معرفة من جهة، والرد على منكري الشرائع من جهة أخرى، فاحتمى ابن طفيل بالسلف الصالح، وصرح بمقاصده من الكتابة الفلسفية، خفية ان ترشقه نبال المكفرين(1)

---

(1) انظر في هذا الصدد ما جاء في الشفاء للقاضي عياض في الفصل الذي عقده لبيان الاختلاف في تكفير النازعين إلى التأويل، تح جماعة من الأساتذة دار الوفاء للطباعة والنشر الجزء، ص. 593.

(13405/1)

– فإنه أيضا اعتذار عن عجزه الطبيعي عن التعبير الواضح عن موضوعات تلح على الفكر البشري إلحاحا كبيرا، وتند عن التعبير الواضح وتنفلت منه، واللجوء إلى التعبير عنها، يفقدها حقيقتها ويحيلها إلى شيء آخر.

وبين هذين القسمين، جاء القسم الأكبر من الرسالة

كوحدة روائية متسعة، قسمها ابن طفيل إلى جملتين كبيرتين؛ جملة تشكل الجزء النظري من الرسالة، وجملة تشكل الجزء العملي منها، وتبتدئ هذه الجملة بظهور اسم الجنيد، وحضور مفهوم المشاهدة الذي سيحدث انقلابا في المشهد الميتافيزيقي للرسالة.

(13406/1)

وتكمن أهمية الرسالة الفلسفية لابن طفيل، في أنها تقذف بقارئها في أعماق الفلسفة الإسلامية بتياراتها المختلفة، وبخاصة مع الفلاسفة الكبار، ليعيش معها في قالب تعليمي أخاذ، حيث تعرض الرسالة في شكل أدبي أهم الإشكالات التي أرقت فلاسفتنا سواء كانت تلك الإشكالات ذات طبيعة ميتافيزقية أو ذات طبيعة فلسفية – علمية، أو ذات طبيعة لغوية مرتبطة بالشكل الذي صيغة به تلك الإشكالات والقضايا الفلسفية. وإن وقوفا عند مقدمة الرسالة من جهة، وقراءة الرسالة على ضوئها ينير لنا معرفة كثيرة من الروافد التي شكلت النسيج العام

(13407/1)

للرسالة. وبخاصة لابد وأن يمر خاصة بفهم الكتب المتأخرة الفلسفية الباجية والغزالية، والكتاب السينوية ذات النفس المشرقي. باعتبار أنها تشكل أسس بناء فلسفته.

وتكمن أهمية التأثير الباجي في قرب العهد بين الفيلسوفين أولا، ثم ثانيا، لأن ابن اعتبر ابن باجة أول فيلسوف في المغرب، – ولا غرو أنه أول فيلسوف يأتي مباشرة بعد هجمات الغزالي على الفلسفة – وأفراد له حيزا مهما في مقدمته بحيث تكرر اسمه فيها كثيرا بشكل يلفت النظر، وفي هذه المقدمة حرص فيلسوفنا خاصة على المقارنة بين تجربته الفلسفية وتجربة أبي بكر بن

(13408/1)

الصائغ، ثم أخيرا وليس آخرا لأننا نلمس في مفهوم المتوحد الذي "استعاره" فيلسوفنا من ابن باجة الهيكل العام الذي بنى عليه ابن طفيل رسالته.

أما التأثير السينوي فيبرز من خلال هذه المواضع التي تعتبر من أسرار

هذه الحكمة المشرقية السينوية المفترضة التي استلهمها ابن طفيل. ويبدو أن ابن

سينا لم يكتب سفرا خاصا بالفلسفة المشرقية، إذ أن هذه الفلسفة – انطلاقا من
إحالات ابن طفيل – منبثة في أكثر من كتاب سينوي.
ومما يؤكد ذلك ان بعض
الدارسين ذهبوا إلى أن نصوصا من الفلسفة المشرقية
توجد في "الإشارات" وهو

(13409/1)

ما تدعمه "جواشون"(1)، وإلى ذهب د. الجابري(2)، وفي حواشي ابن سينا على
كتاب "الربوبية" المنسوب إلى أرسطو، يلاحظ كوربان
أن من أصل ستة مواضع يستشهد
فيها ابن سينا بفلسفته المشرقية، هناك خمسة مواضع
تتعلق بالوجود بعد الموت، مما جعله يؤكد أن الفلسفة
المشرقية هي مذهب الحياة الآخرى(3)

---

(1) فلسفة ابن سينا وأثرها في أوروبا خلال القرون الوسطى، جواشون، ترجمة رمضان لاود، دار العلم للملايين، ط1، 1950، هامش 1، ص. 20.

(2) نحن والتراث، المركز الثقافي العربي الدارالبيضاء، دار الطليعة، بيروت ط1، 1980، ص. 125.

(3) كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص. 262.

(13410/1)

. ومن هنا ضرورة الأصل السينوي في فهم رسالة ابن طفيل. فقد صرح ابن طفيل أن حضور ابن سينا بفلسفته المشرقية في الرسالة حضور استلهام وليس حضور عرض محايد فقط وقد استعار فيلسوفنا من هذا المتن السينوي على الأقل خمس عناصر مشرقية : عنصر التولد الذاتي – عنصر قداسة الأجرام السماوية – عنصر جوهرية النفس – وعنصر المجاهدة – عنصر الحياة بعد الموت. وهي العناصر التي تخترق نسيج رسالة ابن طفيل الفلسفية.

أما التأثير الغزالي فنلمسه خاصة من خلال هذا التأثير العميق الذي خلفه الكتاب الفلسفي "مشكاة الأنوار" للغزالي على

(13411/1)

رسالة ابن طفيل؛ إن التأملات الغزالية ليست غريبة عن تأملات حي بن يقظان، وإن النص الذي أثر في البنية السطحية والعميقة لنص ابن طفيل، لنفسه الفلسفي – الإشراقي، هو نص "مشكاة الأنوار"، سواء من خلال انفعال ابن طفيل بتعابيره الغزالية، ويمكن القيام بمقارنة بسيطة بين أسلوبي الكتابين لملامسة هذا الأثر الكبير لرسالة الغزالي على رسالة ابن طفيل. أو من خلال بنيته الأولية للدلالة المكونة من الزوج نور/ظلمة والتي ترجمها ابن طفيل من خلال الزوج علم/جهل من خلال ستة مستويات كل مستوى علمي ينقلنا إلى مستوى علمي أعلى

(13412/1)

حتى نصل إلى المستوى الأخير مستوى المعرفة المطلقة، وفي كل مستوى يتم التحرر من جهل أساسه الارتباط بما هو جسماني إلى التعلق بمعرفة أساسها الارتباط بما هو معقول. وهذه المستويات يمكن النظر إليها باعتبارها محطات، لأننا أمام رحلة استعارية ينتقل فيها البطل "حي" من محطة إلى محطة، وكل محطة تؤدي إلى الأخرى حتى ينتهي به المطاف إلى المحطة الأخيرة. ويمكن إحصاء ستة من هذه المحطات : محطة الموت ومحطة

الصور ومحطة الفاعل ومحطة الذات العارفة ومحطة الفناء وفيها يتم الاستغراق في النور الأعلى وطرح كل ما يتعلق بالبدن

(13413/1)

وبخاصة اللغة و"العقل النظري"، وأخيرا محطة المجتمع.

لقد أبرز ابن طفيل "نسقه الفلسفي" في قصة حي بن يقظان انطلاقا من تجربة تجمع بين هم التوحد الباجي المؤسس على فعل النظر، وبين هم المجاهدة السينوية – الغزالية المؤسسة على فعل الذوق؛ تجربة منفتحة على الممكن، مغايرة للمألوف، وباعثة على التأمل. وقد حرص ابن طفيل على أن يؤطر تجربته هذه ضمن "الفلسفة المشرقية" السينوية التي كان كلفا بها، ويجعل فلسفته تعبيرا عن بعض أحوالها، ويعمل ما وسعه ذلك على التعبير عنها لأنها الحق المطلق الذي ينبغي الحرص على طلبه في

(13414/1)

تقديره. كما حرص ابن طفيل، دون أن يمنعه استلهامه الفلسفة الباجوية، على أن يضرب في عمق التجربة الفلسفية الغزالية من خلال ارتياضه العميق في كتبه المختلفة وبخاصة كتاب "مشكاة الأنوار"، يقيم بذلك كله الأسس الفلسفية لتجربته، حيث نجد فيلسوفنا من خلال ذلك يقدم لنا ابن باجة في إهاب سينوي – غزالي، كما سيقدم لنا ابن سينا في ثوب غزالي، ليجمع في تركيب غريب بين فلاسفة لا يكاد يجد أحدهم ذاته عن غيره؛ فابن باجة انتقد الغزالي وسكت عن ابن سينا، والغزالي "كفر" ابن سينا وأجهز على كثير من آرائه، ويأتي ابن طفيل وكأنه

(13415/1)

يريد أن يلم شملا تفرق، ويجمع بناء تصدع. وقد طرح هذا الأمر مسألة أساسية حول وضعية هذه رسالة ابن طفيل هل هي قصة فلسفية أم أنها قصة تنتمي إلى الأدب الصوفي ؟.

لقد أدب كثير من الدراسين على الذهاب إلى أن ابن طفيل قد انتهى في آخر مطافه العلمي إلى التصوف(1)،

---

(1) بل إننا نجد محمود قاسم يعتبر أن الغاية التي قصد

إليها ابن طفيل من رسالته هي "تمجيد المعرفة الصوفية وتقديمه لها على كل معرفة سواها"، ابن طفيل، معجم أعلام الفكر الإنساني، تصدير إبراهيم مذكور المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، ص. 194.

(13416/1)

وأنكر البعض ذلك، والمتصفح لرسالة "حي بن يقظان" يلمس أن علاقة ابن طفيل بالتصوف هو إشكال من الإشكالات التي يطرحها النص، فإن القارئ لنص ابن طفيل يلمس أن التصوف حاضر في النص على مستوى خاطبين : خطاب حول التصوف، وهو خطاب نقدي، يتخذ مسافة بينه وبين شكل من أشكال التصوف. وهو خطاب نلمسه في أول النص وآخره. وخطاب آخر ينفتح على التصوف، ويظهر في بداية النص، ليخترق فيما بعد كثيرا من أجزائه، ويطرح هذا الخطاب الثاني على القارئ السؤال التالي : هل انفتاح ابن طفيل هذا على التصوف انفتاح تبن وانتصار ؟ أم هو انفتاح

(13417/1)

من نوع خاص ؟.

لقد بدأ ابن طفيل نصه الفلسفي وأنهاه بنقد تجربتين في التصوف، تجربة مشرقية يمثلها كل من الحلاج والبسطامي، وتجربة مغربية لم يفصح عن أقطابها، وإن كان قد حدد بعضا من معالم خطها الفكري. أما التجربة الأولى فقد انتقدها ابن طفيل باعتبارها شطحت في التعبير عن بعض الحقائق التي يجب أن يطويها أصحابها ولا يحكوها كما يقول أبو حامد. فوقع أحدهم في القول بالحلول، ووقع الآخر في التصريح بوحدة الوجود. ونحن نجد في رسالة ابن طفيل نصا واضحا يكشف عن مراقبة "العقل" للتجربة الميتافيزيقية حتى تظل في نجوة عن

(13418/1)

"الوهم"، و"البهة"، وعن "الحلول"، و"الاتحاد". ويبرز المزالق التي أدت بهؤلاء إلى الوقوع في هذه الأوهام، والظنون، والشبهات. أما التجربة الثانية، فتجربة تيار صوفي أندلسي، يلتقي مع التيار المشرقي في غلوه، فهو تيار نبغت أفكاره في العدوتين، و"انتشرت في البلدان وعم ضررها، وخشينا على الضعفاء – كما يقول ابن طفيل – الذين أطرحوا تقليد الأنبياء صلوات الله عليهم، وأرادوا تقليد السفهاء والأغبياء أن يظنوا أن

تلك الآراء هي الأسرار المضنون بها على غير أهلها، فيزيد بذلك حبهم فيها وولعهم بها"، إنه تيار يأخذ ببطان

(13419/1)

الشريعة، ويطرح ظاهرها، وهو بذلك يحدث من البلبلة في الغرب الإسلامي، ما أحدثه التيار السابق في مضرقه.
وابن طفيل كفيلسوف أدبته المعارف، حيث نجده في مراقبة تجربته الفلسفية، بذلك الرصيد المعرفي الذي تراكم لديه من ممارسته للعلوم النظرية، فأشعرته بأهمية حضور العقل في كل معرفة ممكنة، وهو ما يترجمه نصه الفلسفي. وابن طفيل كوزير حنكته تجارب الحكم، فأشعرته بأهمية الحفاظ على وحدة الجماعة، وهو ما تعكسه تجربته السياسية من جهة، وما يفصح عنه سرديا في آخر رسالته الفلسفية من جهة أخرى. لا شك أن ابن طفيل هذا، يجد

(13420/1)

من الحجج والدعاوي ما يكفيه لفرض هتين التجربتين الصوفيتين معا؛ المشرقية والمغربية.

أما الخطاب الثاني الذي ينفتح به ابن طفيل بشكل واضح على التصوف، فيظهر على الأقل في قرائن أربعة :

إعلانه للانتصار لطريق أهل الولاية، ذكره للجنيد كحجة سلطة، رفضه "للعقل"، توظيفه للقاموس الصوفي.

لكن الدارس للنص الفلسفي وإن كان يلاحظ أن ابن طفيل انفتح على التصوف

انفتاحا كبيرا، فإن نصه ظل نصه ظل نصا فلسفيا في العمق، يعتبر ان التجارب

(13421/1)

الفلسفية لا يمكن أن تثبت من غير طريق الفلاسفة من أهل النظر، ويعتبر أن النظر والتأمل وأدواته المعرفية لا يمكن أن يتجاوزه إلا الشاذ النادر، وأن الطريق النظري طريق أساسي في المعرفة الفلسفية. ومن هنا أهمية الطب والرياضيات في قصة ابن طفيل. فقد شهد ابن طفيل – في مقدمته الفلسفية – على أن طرفا من النخبة المثقفى في الغرب الإسلامي قطعت أعمارها في الاشتغال بهذه العلوم، بل إن ابن طفيل نفسه اشتغل بهذه العلوم، وخص علم الهيئة بأثير عنايته في رسالته الفلسفية،ويعتبر البعد الفلكي في الشخصية العلمية لابن طفيل، من

(13422/1)

الأبعاد التي لا يزال يكتنفها الغموض، لكن هناك قرائن كثيرة تكشف عن إلمام ابن طفيل بعلم الهيئة وتجويده فيه. أما الشخصية الطبية لابن طفيل فتبرز في الرسالة في المواضع التي قدم فيها ابن طفيل وصفا بديعا للأعضاء الداخلية لحي بن يقظان أثناء تخلقه من الطينة المتخمرة، وأثناء تشريحه للظبية.

إن التجربة اللسفية لابن طفيل كما عرضها في رسالته لا تنفصل عن أساسها العلمي رغم نهايتها الغنية بالاستعارات والموغلة في التخييل. ولا غرو، فلقد ظلت الفلسفية عند ابن طفيل تتغذى بالعلم وتقوم عليه.

وإن فهم شخصية فيلسوفنا

(13423/1)

الطبية، بظلالها الموحية، وفهم شخصيته الفلكية، من المفاتيح الأساسية لفهم خطابه الفلسفي – الميتافيزيقي. ومن هنا هذا التنوع في الكتابة عند ابن طفيل في نصه الفلسفي؛ أسلوب أقرب إلى الوضوح حين يتعلق الأمر بحكي "العلم" و "الفلسفة"، وأسلوب

يتوغل في الغموض وتكاد تنتصر فيه الحكاية على الفلسفة، حين يتعلق الأمر بعرض "المشاهدات" وتقريب "الأذواق". وهو في كل هذا أسلوب غمره صاحبه في فضاء من الغرابة والتعجيب؛ يضفي على النص سحر الإيحاء وبلاغة المجاز، ويشرع الباب أمام تأويلات الخطاب، وهو أفق آخر من آفاق البحث

(13424/1)

الذي يفتحه هذا النص الفلسفي – العجيب لدارسه !.
ومن هنا فهم هذا الغني في الكتابة عند ابن طفيل،
فجاءت المقدمة
الفلسفية تحمل بصمات الفيلسوف الأكاديمي الصارم،
وجاءت الوحدة الروائية تحمل
في جزئها الأول حرص العالم ودقته، وتحمل في جزئها
الأخير انطلاق الأديب – الفيلسوف.
فإذا كان الجزء النظر يستجيب في موضوعه للرصد
والملاحظة، وفي تثبيته للأمانة و
"الموضوعية"، فإن ابن طفيل يتعبر – في الجزء العلمي
من الرسالة – أن "الحقائق

(13425/1)

الروحية الباطنية" هي أس الحقائق وملاكها، مما يجعل فعل الكتابة – باعتباره فعلا يقدر به المرء على التعبير عن حقائق بعيدة الإدراك، والرصد والملاحظة – فعلا صعب المنال؛ لأن هذه الحقائق تتعلق بتجارب شخصية فردية لا تقبل التعميم، بل إن نقلها هو خيانة لها. ولذلك تصبح اللغة عند ابن طفيل في هذا السياق قاصرة وغنية في نفس الوقت؛ قاصرة من حيث طبيعتها الحسية العاجزة عن نقل هذه الحقائق المتعالية، وغنية من حيث تعويضها هذا القصور باللجوء إلى تقنيات البلاغة من استعارة ومجاز، لإخراج الأفكار صورا، وبعث الحقائق

(13426/1)

مشاهد ناطقة. فيتأرجح ابن طفيل بين أسلوبين مختلفين في التعبير لاختلاف الموضوعات وتباين المخاطبين، فيصبح هذا النص الفلسفي وكأن هاجسه الأول هو لفت الانتباه إلى طبيعة السبل التي ينبغي سلوكها من أجل تصريف التجربة الميتافيزيقية وإيصالها إلى الغير، هل يوصلها له بلغة البرهان أن بلغة

الشعر والخطابة ؟.

لقد كان ابن طفيل على وعي كبير بأهمية الكتابة الفلسفية ودورها في فهم النصوص الفلسفية من جهة كما نجد في موقفه من ابن باجة عندما اشتكى من قلق العبارة لدية، وفي موقفه من ابن رشد عندما التمس منه رسميا بأن يقوم

(13427/1)

بمراجعة المتن الأرسطي ليرفع عنه قلق العبارة أيضا، والخطر الذي تمثله هذه الكتابة في تثبيت التجارب الفلسفية إن هي لم تدرك حدودها كما نجد في موقفه من بعض المتصوفة ومن أبي حامد بخاصة من جهة أخرى، وكما نجد في حرصه على تقديم نص فلسفي في حلة أدبية رائقة.

وهكذا فإن الحديث عن الكتابة الفلسفية عند ابن طفيل هو حديث عن هاجس من الهواجس التي أرقته، وأرقته، وقد بذل ابن طفيل لأجل ذلك جهدا فلسفيا وفنيا في كتاب نصه الفلسفي، مستلهما أشكالا من التعبير من الفضاء الثقافي – الفلسفي الذي كان يتنفس فيه؛ فعالج إشكال

(13428/1)

الكتابة ضمن تجربة في الكتابة تتوخى في الآن نفسه التقريب للوضوح، والرمز للتعمية، مما أضفى على هذه الكتابة طابعا من قلق وإغماض.

ولقد جهد ابن طفيل في إنتاج نص فلسفي – أدبي قريب أيضا من التداول

الإسلامي شكلا ومضمونا، وعانى كثيرا في إنشاء هذا النص الفلسفي إلى الحد الذي

أصبحت فيه حجب الغموض تتكاثف على النص وتتكاثف وتضطر القارئ إلى كثير من التأويل والاعتبار. وقد استفاد في كتابة نصه هذا من تجربتي ابن حزم في "التقريب لحد المنطق"، والبطليوسي في "الحدائق كذلك".

(13429/1)

لقد حاول ابن طفيل في رسالته "حي بن يقظان" أن يتقصى على طريقته خطى ابن حزم وابن سيد في تقريب الفلسفة. فقد عاش ابن طفيل مثله مثل ابن حزم وابن سيد في مجتمع ينبو ذوقة عن التفلسف، وكان من جملة

أسباب رفض الفلسفة طبيعة اللغة الفلسفية باعتبارها تهويلا وزخرفة، وشخصية الفيلسوف باعتبار أخلاقياته وسلوكه، وطبيعة الفلسفة وما تؤدي إليه – بزعمهم – إلى الإلحاد والكفر. وقد حاول ابن طفيل في رسالته هذه أن يرد بشكل ضمني وصريح على هذه الدعاوي المناهضة للفلسفة؛ فأنشأ نصا بلغة عربية فصيحة تمتح من تقنيات البيان العربي؛

(13430/1)

لغة أبعد عن التهويل والزخرفة. كما أنشأ نصا حرص فيه على تقريب الفلسفة – على غرار ما فعل سابقاه – من المقتضى التداولي الإسلامي. وفضلا عن كل ذلك، فإن الذي أنشأ هذا النص هو فيلسوف أبعد ما يكون عن الأوصاف التي دمغ بها الفلاسفة كحجة على رفضها من طرف خصوم الفلسفة، فقد كان ابن طفيل يعتبر من حسنات الزمان الموحدي؛ بل "وليا" فوق كل تهمة أو ريبة في شخصه أو دينه، بل إن مكانته العلمية والسياسية لم تكن محل نزاع في أي وقت، وعلاقته بأبي يعقوب يوسف، وحضور الخليفة جنازته أكبر دليل على الإجماع الذي تم حول شخصية

(13431/1)

الفيلسوف، مما يجعل لانتصاره لفعل التفلسف أبلغ الأثر
في نفوس الخصوم. وهذا الانتصار رافقه الانتصار أيضا
للشريعة من خلال الدفاع خاصة عن أهمية النبوة في
الحياة الاجتماعية بعامة وحياة الفيلسوف بخاصة؛
يستعير ابن طفيل من التراث السينوي شخصيتين يلج
بهما عالما أوشكت
الفلسفة المشرقية أن تجعله فضلا وهو عالم النبوة(1).
وقد لاحظ كثير من الدارسين
أن رسالة ابن طفيل تستبطن فكرة أن "الإنسان الفائق
الفطرة مستغن عن النبوة بما

---

(1) د. الجابري، نحن والتراث، ص. 160.

(13432/1)

وهب من العقل"(1)، وأن «الفيلسوف في غنى عن
الشرع"(2)، بل إن ابن طفيل
في ذلك النص الذي انتزعه من "الإشارات والتنبيهات"
في مقدمة رسالته لذو دلالة كبرى في هذا السياق، ففيه

تحل الرياضة العقلية محل العبادة الشرعية.

لكل إذا كان ابن طفيل قد أخضع جزءا كبيرا من رسالته لهذا المنطق المشرقي، وفي الوقت الذي تبدو فيه الرسالة وكأنها انتهت، يستأنف ابن طفيل الحديث في أفق غزالي يؤسس للنبوة

---

(1) ابن طفيل وقصة "حي بن يقظان"، عمر فروخ دار لبنان للطباعة والنشر بيروت ط2، 1986، ص. 84.

(2) ابن طفيل، يوحنا قميرء، ص. 86.

(13433/1)

ويبين اضطرار كافة الخلق إليها بمستويات مختلفة(1)، فبعدما أعلن ابن طفيل في بداية رسالته عن تصوره الفلسفي لتكون شخصية النبي وتم له تأسيسها، فهو يعلن في أخرها عن ضرورة تقليد هذه الشخصية، ليؤكد ما أقره في معرض اعتذاره لإخوانه، من ان رسالته تدخل في إطار الدعوة إلى بيان أهمية النبوة في حياة الإنسان. ومن هنا فإن درس "المنقذ من الضلال" حاضر في نهاية رسالة ابن طفيل، فالغزالي برهن في هذا الكتيب على أصل النبوة وبين

---

(1) انظر في ذلك المنقذ من الضلال "حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها"، مرجع سابق، ص. 144.

(13434/1)

حاجة الخلق جميعهم إليها، بل إن أبا حامد ينتقد الإختبار السينوي الذي يعتبر النبوة راجعة "إلى الحكمة والمصلحة، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق ..." وأن الحكماء ليسوا من العوام الجهال حتى يدخلوا في حجر التكليف فهم متبعون للحكمة يبصرون بها، ويستغنون فيها عن التقليد(1)، في حين يؤكد الغزالي أنه "كما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل، بل يجب فيها تقليد الأطباء ... فكذلك بان لي على الضرورة – يقول الغزالي – بأن أدوية العبادات ... لا يدرك

---

(1) ن.م، ص. 156.

(13435/1)

وجه تأثيرها ببضاعة

العقل، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك

الخواص بنور النبوة لا ببضاعة

العقل"(1). إن الدعوة إلى تقليد الأنبياء هذه هي من

المهام التي أعلن ابن طفيل اضطلاعه

بها من وراء كتابة رسالته الفلسفية، وهو شعار ابن

طفيل من جهة لإتمام الاختيار

المشرقي السينوي بالاختيار الغزالي، ومن جهة أخرى

لمحاربة التيارات الباطنية التي

تريد أن تنال من وحدة الأمة الثقافية، وخاصة تلك التي

أشاعت بالأندلس كما يقول

---

(1) ن.م، ص. 152.

(13436/1)

ابن طفيل "آراء فاسدة ... نبغت بها ... وصرحت بها، حتى

انتشرت في البلدان، وعم

ضررها [فخشي ابن طفيل] على الضعفاء الذين اطرحوا

تقليد الأنبياء صلوات الله عليهم، وأرادوا تقليد السفاء

والأغبياء أن يظنوا أن تلك الآراء هي الأسرار المضنون

بها على غير أهلها، فيزيد بذلك حبهم فيها وولعهم

بها"، فقد عرفت الأندلس إذن هذه التيارات الصوفية

التي تقول كما أنبأ بذلك فيلسوفنا برفع التكليف الشرعي، حيث زعموا - كما سجل ذلك عياض - قبله - في "الشفاء"(1) أن ظواهر الشرع وأكثر ماجاءت به الرسل من

---

(1) مرجع سابق، صص. 607، 608.

(13437/1)

الأخبار عما كان ويكون من أمر الآخرة، والحشر، والقيامة، والجنة، والنار، ليس فيها شيء على مقتضى لفظها ومفهوم خطابها، وإنما خاطبوا بها الخلق على جهة المصلحة لهم، إذ لم يمكنهم التصريح لقصور أفهامهم وهكذا أبطل هؤلاء الشرائع، ودعوا إلى ترك تقليد الأنبياء لأن ذلك التقليد ديدن العوام، وتحدثوا عن أسرار مضنون بها تكتشف الحقيقة للخواص. فأراد ابن طفيل رسالته الفلسفية، "حي بن يقظان"؛ بيانا لتهافت "متفلسفة العصر" هؤلاء، بأن عرض فيها ما يعتبره الحقيقة التي تحفظ للشريعة وظيفتها وتفتح للفلسفة أفقها، ولا تضحي

(13438/1)

بأحدها في سبيل الآخر. إنه موقف يريد للشريعة أن تؤدي وظيفتها في لم شمل المجتمع وإصلاح الجمهور. موقف يحافظ على الشريعة من أن يداخلها تغيير، ومنفتح أيضا على الفلسفة والعلم ويرى فيهما طريق الكمال والسعادة. إن حرص ابن طفيل على إنقاذ الحكمة ممن يهددونها في وجودها، وحرصه على إنقاذ النبوة ممن يرون إمكان الاستغناء عنها، كان من جملة الأسباب التي حدث به إلى كتابة هذا الأثر الفلسفي الخالد.

****

إن نص ابن طفيل لا يمكن فهمه إلا إذا نظرنا إليه باعتباره نصا "متعدد

(13439/1)

القيم" بعبارة تودوروف(1)، بمعنى أن أصواتا كثيرة تسكنه. إنه نص لا يمكن

أن يدرك إلا في علاقته بالإرث الثقافي السابق عليه؛

فهو كعمل فني لا يمكن إدراكه

إلا في علاقته بالأعمال الفنية الأخرى، وكنص فلسفي لا يمكن غدراكه إلا في

علاقته بالعمال الفلسفية الأخرى. وقد رأينا أن رسالة "حي بن يقظان" لا يمكن فهمها إلا في تعارضها واختلافها مع نصوص الفلاسفة المشار إليهم. إذ من الوهم أن نعتقد ان عمل ابن طفيل ذو وجود مستقل؛ إنه يظهر

---

(1) الشعرية ترجمة شكري بوخوت ورجاء سلامة، دار توبقال البيضاء، ط2، 1990، صص. 41، 42.

(13440/1)

مندمجا داخل مجال أدبي وفلسفي ممتلئ بالأعمال السابقة. ونضيف ها هنا أن مؤشرات وجود مفهوم "التناص" في رسالة ابن طفيل كثيرة، فهذا المفهوم يكشف لنا أن عملية إنتاج النص تمت من خلال تفاعله وتحاوره مع نصوص أخرى سبقته فشكلت ذاكرته كنصوص المسعودي والجنيد وابن سينا والغزالي وابن حزم وابن سيد وغيرهم، وأخرى عاصرته فتأثر بها معارضا لها ومنتقدا لها كنصوص ابن باجة خاصة(1)

---

(1) ومن يدري، لعل نصوص ابن رشد كانت بين يدي فيلسوفنا أيضا، فحاوره حوار خفيا دون ان يذكره،

لاختياراته المناهضة للاختيار السيوني، الغزالي الذي انتصر له ابن طفيل.

(13441/1)

، فمن هنا يمكن النظر إلى رسالة ابن طفيل باعتبارها فضاء سيميائيا تتلاقح فيه وتتصارع جملة من الأشكال والخطابات بحثا عن شكل أدبي – فلسفي متميز ينفي عنه صفة التقليد والمحاكاة ليجعل منه نصا إبداعيا يمتص النصوص والكتابات ويهدمها قبل أن يعيد توزيعها بشكل منظم داخل بنيته الخاصة. فنص ابن طفيل يتخذ طابعا جدليا وحواريا من حيث الشكل والدلالة – كما رأينا – مع نصوص ابن سينا والغزالي خاصة، بحيث يمكن النظر إلى ابن طفيل باعتباره قارئا جيدا لأعمال هؤلاء الفلاسفة. وأهم نوع من التناص نجده في رسالة "حي بن يقظان" ما

(13442/1)

سماه جيرار جينيت بـ"الميتا نص"، ويعني العلاقة التي تربط بين نص وآخر يمثل موضوعه دون أن يسميه، أي

أنه يشير إليه بطريقة ضمنية غير معلنة وتكون مهمة القارئ هو الذي يكتشف ذلك(1). وإنه يمكن اعتبار نص "مشكاة الأنوار" موضوعا مفترضا بامتياز لرسالة ابن طفيل دون إلغاء أهمية النصوص الأخرى كالتدبير والإشارات والمنقذ وميزان العمل وربما التوهم والوصايا للمحاسبي

---

(1) G. Gennette, Palmpsestes, seuil, paris, 1982 ,p. 10؛ وانظر أيضا جيرار جينيت، مدخل لجامع النص، ترجمة عبد الرحمن أيوب، درا توبقال، ط1، 1985، ص. 90.

(13443/1)

ونصوص ابن شرف الأدبية وغيرها من النصوص. إن رسالة لبن طفيل هي نسيج من أصوات آتية من الأدب والفلسفة والتصوف والقرآن والحديث والسيرة ومن الحياة اليومية ولغة الاتصال الاجتماعي أيضا؛ إنها بهذا المعنى فسيفساء من النصوص تتجاور فيما بينها وتتبادل التأثير لتؤدي وظيفة التقريب والتشويق والترغيب في دخول الطريق التي أرادها ابن طفيل لرسالته.

وأخيرا فإن هذه الرسالة الفلسفية بإعلائها من شأن الذات وتأكيدها على استقلاليتها في المعرفة، وجمعها بين محبة العقلانية والشغف بالخيال حين تلتقي الفلسفة والسرد عند ابن

(13444/1)

طفيل لإعطاء معنى للكون. والرسالة برجوعها إلى الينابيع العميقة للتاريخ الإنساني والنفس الإنسانية وكأنها تدعونا إلى القيام برحلة استعارية إلى هذه الأغوار، والرسالة الفلسفية كذلك باعتبارها "تجربة روحية لوعي مبدع"(1) ... كل أولئك، وغيرها من الأمور التي تجعل من ابن طفيل معاصرا لنا، تجعل من هذا الأثر الفلسفي – الأدبي تراثا فلسفيا نشأ ولم ينته بعد من استوائه.

---

(1) النقد الموضوعاتي، دانييل برجير عن كتاب مدخل إلى مناهج النقد الأدبي ترجمة رضوان ظاظا سلسلة عالم المعرفة الكويتية العدد 221 ماي 1997، ص. 135.

(13445/1)

إن رسالة ابن طفيل تعلمنا درسا أساسيا حول انفتاح الفلسفة على حقول متنوعة من المعرفة، وعلى أشكال مختلفة من الكتابة. إنها تعلمنا أن الفلسفة إيقاعات متنوعة وليست إيقاعا واحدا نمطيا يسهل استنساخه او الكشف عن دلالته ومعناه؛ والرسالة الفلسفية بهذا التفرد والتنوع تضع أمام قارئها أكثر من تحد في الفهم والمقاربة. فهل سيستطيع أحد يوما أن يكشف عن المقاصد الحقيقية لهذا العمل الفلسفي اليتيم هذا، أم أن الرسالة قدر لها أن تظل موضع تأويلات لا متناهية، يشكو منها البعض، ويقر لها البعض الآخر ؟!.

(13446/1)

من التراث المخطوط

مقاصد القصول المترجمة عن حل الترجمة لابن دنينير اللخمي (+ 627 هـ)

الدكتور محمد حسان الطيان والدكتور محمد مراياتي

... ... المعهد العالي للعلوم

التطبيقية والتكنولوجيا – دمشق

ملخص البحث

... يتناول البحث مخطوطا في علم التعمية (Encipherment) لم ير النور بعد، هو مقاصد القصول المنرجمة عن حل الترجمة "لإبراهيم بن محمد المعروف بابن دنينر اللخمي الموصلي (ت 627 هـ). و المخطوط مقسوم إلى قسمين : الأول لحل ما عمي في الكلام المنثور، و فيه عرض لطرائق التعمية المختلفة و مناهج

(13447/1)

استخراجها و ما يتطلبها ذلك من معارف لغوية ، كما أن فيه عرضا لاستعمال بعض الأدوات في التعمية كالشطرنج و الخرز الملون و تثقيب الخشب ...الخ. و لعل من أهم ما تطرق إليه ابن دنينير في هذا القسم التعمية المركبة (Super- encipherment) . و الثاني لحل المعمى في الكلام المنظوم، و فيه عرض لمتطلبات استخراج المعمى من الشعر من علم بالعروض و القافية ، و تبصر بالكتابة و تتبع دقيق لتواتر الحروف العربية و ائتلافها و اختلافها في الكلام العربي ...

(13448/1)

... إن ماوقفنا عليه في هذا المخطوط من مفاهيم التعمية و طرائقها و مناهج استخراجها يؤلف حلقة مهمة في تأريخنا لهذا العلم ، و يضيف قرائن جديدة إلى ما توصلنا إليه من أصالة العرب فيه.

المقدمة

... التعمية (أو الشفرة) تحويل نص واضح إلى آخر غير مفهوم باستعمال طريقة محددة يستطيع من يعرفها أن يفهم النص . و استخراج التعمية (أو كسر الشفرة) تحويل النص المعمى إلى نص واضح لمن لا يعرف مسبقا طريقة التعمية المستعملة .

...

(13449/1)

... إن علم التعمية و استخراج المعمى واحد من علوم كثيرة تدين للعرب ولادة و نشأة و تطورا، خلصنا إلى إثبات ذلك في كتابنا الموسوم بـ " علم التعمية و استخراج المعمى عند العرب " – الجزء الأول (1) حيث حققنا ثلاثة نصوص قديمة في هذا العلم أولها : رسالة في استخراج المعمى للكندي (260ه) فيلسوف العرب المشهور، و ثانيها : المؤلّف للملك الأشرف لعلي بن عدلان النحوي (666 هـ) و ثالثها : مفتاح الكنوز في إيضاح

المرموز لعلي ابن الدريهم الموصلي (762 هـ) . و أثبتنا بالدليل

---

(1) – نشر الغة العربية بدمشق عام 1987م.

(13450/1)

القاطع مقولة كبير مؤرخي التعمية الأستاذ " دافيد كهن" في كتابة (مستخرجو الرموز " the code breakers) : ولد علم التعمية بشقيه بين العرب، فقد كانوا أول من اكتشف طرق استخراج المعمى و كتبها و دونها "، (1) و مقولته الاحقة في كتابه الآخر "كهن والرموز (kahm on codes): " لقد وجدت أن العرب مارسوا استخراج المعمى (كسر الشفرة) قبل الغرب بمدة طويلة، وكان هذا أهم إنجاز تاريخي في كل ما احتواه كتابي (the code breakers

---

(1) –the code brakfers، ص. 93 وانظر علم التعمية واستخرج المعمى عند العرب، ج 1 ، صص. 46،47.

(13451/1)

) (1).

... اعتمد الأستاذ " كهن " في هذا كله على ما وجده في كتاب " صبح الأعشى في معرفة الإنشا" للقلقشندي (1418 م–821 هـ) و جل ما فيه منقول عن " رساالة مفتاح الكنوز في إيضاح المرموز " لابن الدريهم . و لكن ضياع مخطوط هذه الرسالة جعل أصابع التشكيك و الطعن تتجه نحو حقيقة ابن الدريهم زاعمة أنه شخصية وهمية مفترضة لاو جود لها(2)

---

(1) – kahn on codes ص.21

(2) – the coe breakers، ص. 992؛ وانظر التعمية، ج 1، ص. 78.

(13452/1)

... وجاء اكتشافنا لهذا المخطوط ليكون ردا على هذا الزعم و تأييدا لما توصل إليه " كان " في كتابيه . و كان من سوالف الأقضية أو أرسلنا إليه كتابنا (علم التعمية و استخراج المعمى عند العرب : الجزء الأول) مع ملخص إنكليزي له، فأجاب برسالة أكد فيها أن الكتاب إسهام عظيم في تاريخ علم التعمية، و مدعاة كبرى

لامتنانه الشخصي و تقدير سائر المهتمين بهذا المبحث والمؤرخين له ، وقد ألحقنا بهذا البحث صورة عن رسالة مشفوعة بترجمتها .

(13453/1)

... و يأتي كتاب ابن دنينير هذا ليعضد ما أثبتناه، و يضيف قرائن جديدة إلى ما توصل إليه المؤرخ " دافيد كهن " من أصالة العرب في هذا العلم .

ترجمة ابن دنينير : (1)

... إبراهيم من محمد من إبراهيم بن علي بن هبة الله بن يوسف بن نصر بن أحمد المعروف بابن دنينير – مصغر دينار – اللخمي القابوسي ، من ولد قابوس الملك بن المنذر

---

(1) – مصادر ترجمة : عقود الجمان في شعراء هذا الزمان لابن الشعار؛ وتاريخ بغداد لابن الشاعس ؛ والوافي بالوفيات، ج6، ص. 126؛ ج1، ص. 62؛ ومعجم المؤلفين ، ج1، ص. 81؛ وشعر الظاهرية، ص. 147.

(13454/1)

من ماء السماء و ينسب إلى الموصل .

... ولد سنة 583 هـ – 1187 م وعاصر زمان الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي، صاحب حلب و أعمالها (المتوفي سنة 613هـ)و ألتحق بخدمة الأمير أسد الدين أحمد بن عبد الله المهراني، و له فيه مدائح. ثم اتصل سنة 614هـ بخدمة الملك ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر محمد بن أيوب صاحب مصر (المتوفي سنة 635هـ) . تنقل ابن دنينير بين البلاد الشامية و الديار المصرية ، و امتدح جماعة من ملوكها و كبرائها . و كانت على يد الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل ، الذي صلبه

(13455/1)

في قلعة السبتية القريبة من بانياس(1) سنة 627 هـ –1229م .

مصنفاته

... يمكن حصر العلوم التي صنف فيها ابن دنينير – وفق

ما ورد في ترجماته – في نوعين :

---

(1) – لعلها القلعة التي ذكرها القلقشندي باسم قعة الصبيبة (بضم الصاد وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الباء الموحدة وهاء الآخر) وهي في بانياس الجولان لابانياس الساحل، وكانت من أجل القلاع وأمنعها. انظر صبح الأعشى، ج 4، صص. 104، 200؛ وج 12 صص. 105، 328.

(13456/1)

... أ – الشعر : و له في هذا الفن كتابان : أولهما ديوانه الشعري ، و قد ذكر الزركلي أن منه نسخة مخطوطة في خزانة الأستاذ أحمد عبيد رحمه الله . و ثانيهما " الكافي في علم القوافي " وهو مما لم يصل إلينا من مؤلفاته .

... ب – التعمية : وهو العلم الذي اشتهر به وبرع حتى فاق أقرانه . و قد ذكر الصفدي له فيه كتابين : أولهما كتاب " الشهاب الناجم في علم وضع التراجم "، وهو مما لم يصل إلينا من مؤلفاته ، على أن ابن دنينير ذكره في مقاصد الفصول و أحال عليه . و ثانيهما " مقاصد الفصول المترجمة عن علم حل الترجمة "،

(13457/1)

وهو موضوع بحثنا .

مخطوط الكتاب و نماذج منه

... لهذا الكتاب نسخة فريدة – فيما نعلم – تقع ضمن مجموع كبير تحتفظ به مكتبة فاتح باصطنبول تحت رقم (5300) يشتمل على موضوعات مختلفة أبرزها موضوع التعمية، إذ ضم عشر رسائل فيها، شغلت منه نحوا من خمس و ثمانين ورقة (48 – 133) و يعود تاريخ نسخه إلى القرن السادس الهجري حسب تقدير د. فؤاد سزكين(1).

_____

(1) – تاريخ التراث العربي المجلد الهاني، الجزء الرابع، ص. 245، 246. نقلا عن مجلة معهد المخوطات العربية المجلد 32، الجزء1، الصفحة 69.

(13458/1)

... أما كتاب ابن دنينير فيشغل أكبر حجم بين رسائل التعمية التي اشتمل عليها هذا المجموع، إذ يقع ضمن الورقات (54/أ – 80 / أ) و قد حملت الورقة الأولى منه

عنوان " زبد فصول ابن دنينير في حل التراجم " و جاء تحتها أبيات مختلفة عن القوافي و ما إليها، و حملت الورقة الثانية عنوان " مقاصد الفصول المترجمة عن حل الترجمة " وفيما يلي نماذج من هذا المخطوط للورقتين الأوليين منه و الورقة الأخيرة :

مزايا الكتاب و أبرز أقسامه

... يمتاز كتاب ابن دنينير هذا بمزيتين اثنتين :

(13459/1)

... الأولى : أنه أكبر كتاب عرفناه في هذا العلم .

... و الثانية : أن صاحبه أفاد ممن تقدمه من أرباب هذا الفن كالكندي و ابن طباطبا وصاحب المقالتين.(1)

... و قد قسمه إلى قسمين كبيرين يشتمل كل منهما على فصول بلغ مجموعها ستة و ستين فصلا ، على أن كل مجموعة منها تشترك في موضوع محدد جعلناه عنوانا لباب، مما أدى إلى

---

(1) – مما مقالتان في التعمسة لم نقف على اسم مؤلفهما على كثرة البحث، ولعله قصد إلى تعمية اسمه فاشتعر

بصاحب المقالتين، وقد حققنا نصيهما في الجزء الثاني من كتاب التعمية واستخرج المعمى عند العرب.

(13460/1)

توزيع كل قسم على أبواب عدة جاءت على النحو التالي :

... القسم الأول حل ما عمي في الكلام المنثور : ويشمل على أربعة أبواب:

... الأول : سبل استخراج المعمى و عدته .

... الثاني : أقسام التعمية و ضروبها

... الثالث : مناهج استخراج المعمى

... الرابع : استخراج التعمية المركبة

... القسم الثاني حل ما عُمِّي في الكلام المنظوم : و يشتمل على خمسة أبواب :

... الأول : ما ينبغي معرفته من العروض .

... الثاني : ما ينبغي معرفته من القوافي .

... الثالث : ما ينبغي معرفته من الخصائص اللغوية .

(13461/1)

... الرابع : ملاحظات عامة و حالات خاصة في الشعر المعمى .

... الخامس : أمثلة عملية .

... خاتمة تشتمل على أبيات لحروف المعجم و أبيات للمعاياة.

ملامح من أصالة ابن دنينير في كتابه

... يشترك ابن دنينير مع سالفيه و خالفيه في كثير من الأمور التي عني ببنياتها المؤلفون في هذا الفن كتعداده لطرق التعمية المختلفة، و بيانه مناهج الاستخراج و اعتمادها على معارف لغوية كمية (إحصائية) وكيفية تنتظمها قوانين ائتلاف الحروف واختلافها في اللغة، و كلامه على استخراج المعمى من الشعر و مستلزماته ...

و غير ذلك.

(13462/1)

... على أن الدراسة التحليلية الموازنة لكتاب ابن دنينير تثبت أن الرجل تفرد – أو كاد – بأمور عدة نذكر منها :

... –1استعمال الأرقام (المعالجة الرقمية) في التعمية :

... جاء في الفصل (26)من كتابه " و أما الترجمة بقصد

تعميتها بقسم من أقسام المركب، وهو أن تعمد إلى العدد الموضوع بإزاء حرف من الحروف فتضاعفه مرة أو مرتين أو أكثر من ذلك، فإن ذلك يخفى عمن يقصده .

مثال ذلك إذا أردت أن تكتب : الله و لي التوفيق : " ب س س ي يب س ك ب س ض يب قس ك ر " فوضعنا (ب) وهي اثنان في حساب الجمل وهي ضعف الألف ، و السين

(13463/1)

ستين [كذا] في حساب الجمل وهو ضعف اللام ، و كذلك الباقي و غيره من التضاعيف فانظر ما أحسن هذه اللطيفة "(1).

... إن التعمية بهذه الطريقة تعد جد هامة من حيث المنهج أو المبدأ مع كونها في صورتها الأولية إعاضة بسيطة، غير أنها قابلة لإجراء تطوير عليها يجعل استعمالها أكثر تعقيدا .

... و يمكن تمثيل هذا المبدأ الهام الذي سبق إليه ابن دنينير بالشكل التالي :

النص الواضح

تبديل الأرقام بالحروف

معالجة رقمية

إعادة تبديل الحروف بالأرقام

النص المعمى

---

(1) –مخطوط مقاصد الفصول المترجمة ورقة 67/أ، 67/ب.

(13464/1)

... و المقصود بالمعالجة الرقمية هنا المضاعفة مرة أو مرتين أو أكثر من ذلك، و يمكن توضيح ذلك بتعمية قولنا " الله و لي التوفيق " بالمضاعفة مرة :

... "ب س س ي يب س ك ب س ض يب قس ك ر "

... و تصبح التعمية بعد المضاعفة مرتين :

... " د قك قك ك كد قك م دقك غخ كد شك م ت "

... و الجدول التالي يبين كيفية التعمية بهذه الطريقة و مضاعفة حساب الجمل مرة ثم مرتين و العودة إلى الحروف فيهما :

النص الواضح

ا

ل

ل

ه و

ل

ي

ا ل ت و

ف

ي

ق

حساب الجمل

1

30

30

6 5

30

10

6 400 30 1

80

10

100

المضاعفة مرة

2

60

60

12 10

60

(13465/1)

20

12 800 60 2

160

20

200

العودة للحرف

ب

س

س

ي يب

س

س

ب س ض يب

قس

ك

ر

المضاعفة مرتين

4

120

120

24 20

120

40

24 1200 120 4

320

40

400

العودة للحروف

د

قك

قك

ك كد

قك

م

د قك غخ كد

شك

م

ت

... و هذا المبدأ في التعمية على غاية الأهمية، إذ هو المستعمل حاليا، غير أن المعالجة الرقمية لم تقتصر على هذا يمكن أن تأخذ أشكالا أخرى، تغدو فيها أكثر

تعقيدا و صعوبة ، مما يجعل استخراجها عسيرا . و قد تنبه ابن الدريهم على هذه الطريقة، فأخذها عن ابن دنينير، و أجرى عليها تطويرا ، فجعل المعالجة الرقمية تقوم على

(13466/1)

تحليل العدد إلى مجموعة أعداد، يقابل كل منها الحرف المناسب له في حساب الجمل(1).

... و لما كان ابن دنينير عارفا قيمة هذه الطريقة لم ينس أن يُدِلَّ على القارئ في آخر الفصل مزهوا بما كتب ، بقوله "انظر ماأحسن هذه اللطيفة ".

... 2– عرض بعض طرق التعمية المركبة كاستعمال القلب و الإعاضة معا :

... يقول ابن دنينير : " و إن كانت الحروف مبتدعة [أي بطريقة الإعاضة البسيطة] و قدم بعضها على بعض كما ذكرنا فيما سلف [أي بطريقة القلب] فينبغي أن نستعمل في استخراجها الحيلة

---

(1) – علم التعمية، ج1، صص. 183، 331–332.

(13467/1)

الأولى [أي الكمية بإحصاء الحروف] فإذا استخرج مرتبها ووضع كل حرف بإزاء حرف من حروف الوضع قلبها وجعل بعضها موضع بعض و قدمها و أخرها [أي استعمال منهجية استخراج القلب] حتى يظفر بالمقصود منها (1)".

... إن هذه الإشارة على غاية من الأهمية، لأنها تعد الفكرة الأساسية لأحدث طرق التعمية المتبعة حاليا في العالم، و أكثر مثال على ذلك المعيار الدولي الحالي Encryption Standard Des Data المبني على مبدأ التعمية من الإصاغة و القلب معا ، و لكن على نحو أكثر تطورا

---

(1) – مخطوط مقاصد المترجمة، ورقة 61/أ الفصل (31).

(13468/1)

و تعقيدا و باستعمال العد الاثتاني . Binary .

... و من المؤسف حقا أن ابن دنينير لم يصرح بأن هذه

التعمية مركبة ، و لم يلبث عندها بما يقتضيه أمرها مع أنه ازدهى بتفهمه مالم يفهمه غيره من التعمية المركبة !.

... 3– استعمال عدة أرقام لتعمية الحرف الواحد بالإعاضة(1)، و هو مبدأ هام ينبئ عن معرفة دقيقة بالتعمية و استخراجها ، و يسمى اليوم قلب تواتر الحروف Frequency reversals ، و تعود أوائل الأمثلة الغربية على استعمال هذه الطريقة إلى

---

(1) – مخطوط الجزء الثاني من علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب، ص. 223.

(13469/1)

عهد هنري الرابع Henry IV ملك فرنسة في مراسلاته مع لاندغراف Landgrave of Hesse بين عامي 1602 – 1606 م . أي بعد أربعمئة سنة مما كتبه ابن دنينير .

... 4 – الإكثار من طرق التعمية بالإخفاء Concealement cipher . و قد دعاها ابن دنينير تعمية مركبة ، وذكر لها أنواعا عدة تؤدن بأن تركيب التعمية عنده يعني تركيب المعاني المقصود تعميتها

على حامل بما يخفى الهدف الأصلي من هذه المعاني، أو بتعبير آخر : و ضع الحروف المراد تعميتها على شكل ما يخفي المعنى الأصلي المقصود ورائها، و غالبا ما يكون هذا الشكل أداة من

(13470/1)

أدوات كرقعة الشطرنج، و الخرز الملون ، و الورق المطوي ...الخ . يقول في الفصل (23) : " و أما الترجمة التي قد عميت بأن ركبت حروفها على بيوت رقعة الشطرنج فإن ذلك أيضا لحاضر، و قد توضع لغائب بطريق أذكره لك لم يذكره أحد بتة، ومثال ذلك أنك إذا أردت أن تقول لصاحبك كلاما يطلع عليه أحد غيره عمدت إلى رقعة الشطرنج و أخذت بيدقين أسود و أبيض، ثم تظهر لمن حولكما أنكما تلعبان بها فتتركها في البيت الذي قد وضع للحرف الذي في أول كلامك، ثم في البيت الذي للحرف الذي يليه ، ثم في البيت الذي للحرف الآخر، ثم كذلك حتى

(13471/1)

ينفذ جميع ما في نفسك من الكلام، ثم يفعل صاحبك كذلك أيضا حتى يستتم الكلام الذي بينك و بينه

.

و ها أنا مصَوِّر" لك صورته :

هنا يكتب جدول ص : 240

... مثاله إذا أردت أن تكتب " أحمد " جعلت البيدق في البيت الأول ، وهو الألف ، و في البيت السادس، و هو الحاء، و في الرابع و العشرين، وهو الميم، و في الثامن، و هو الدال.

... فإذا أردت أن تكتب كتابا إلى جهة أوله " الله " تكتب :

... حضر اليوم عندنا رجلان ، فقدما سفرة الشطرنج، ثم أخذا بيدقين، فترك أحدهما بيدقه في أول البيوت، ثم رفعه و تركه في الثالث و

(13472/1)

العشرين مرتين، ثم رفعه و تركه في البيت السادس و العشرين .

... فما معنى ما فعل هذا الرجل ؟ فأما قولنا " في البيت الأول " فإنه يدل على الألف و قولنا " في الثالث و العشرين " يدل على الام مرتين، و " السادس و العشرين يدل على الهاء , و كذلك فقس عليه على هذا المثال، و بادره بالقبول و الامتثال.

... 5- إيجاز ما أسهب به غيره ممن ألف في هذا الفن ، يقول : " واختصرت ذلك غاية الاختصار بما يغني عن كتاب الكندي و طول حشوه "(1)، و أكبر مثال على ذلك الجدول الذي صنعه لما

---

(1) - مخطوط مقاصد فصول مترجمة، ورقة 6/ ب.

(13473/1)

لا يأتلف من الحروف ، إذ جمع فيه قوانين تنافر الحروف في صفحة واحدة بعد أن رأيناه عند الكندي منثورة في صفحات متعددة، و فيما يلي نص ذلك الجدول :

هنا يكتب الجدول الموجود في ص : 241

الخاتمة

... لقد حقق علم التعمية و استخراج المعمى تطورا هائلا منذ مطلع هذا القرن، بدءا من ابتكار طريقة

"سجل المرة الواحدة " التي اقترحها فيرنام Gelbert Vernam عام 1917 خلال الحرب العالمية الأولى، و انتهاء بالتعمية الكمومية التي قدم فكرة منظومتها Bennett و).Brassad1)

---

(1) – « تعمية الكمومية مزيادة العرب في علم التعمية" للدكتور محمد مراياتي، مجلة عالم الذرة، عدد خاص، 1993، صص. 61، 65.

(13474/1)

و مرورا بما حققه استخدام الحاسوب من قفزات هائلة في هذا المجال. و قد انعكس هذا التطور على أهمية هذا العلم ومكانته بين العلوم، فلم يعد وقفا على العمليات الحربية و المؤسسات العسكرية و إنما تعداها إلى المؤسسات الحكومية بل و بعض المؤسسات الخاصة ، إذ إن ثورة المعلومات و ما يتطلبه حفظ المعلومات من سرية في كثير من الأحيان جعل تعميتها أمرا ضروريا لا مفر منه؛ بحيث لا يمكن تداولها إلا على نحو ضيق تسمح به الخطة المرسومة لها سواء كان ذلك في الصناعة أو التجارة أو في شركات التلفزة و البث الفضائي أو في شبكات

(13475/1)

الحواسيب أو الاتصالات الهاتفية المتحركة أو في الكشف عن اللغات القديمة البائدة(1).

... على أن ذلك كله لا يعني إغفال أثر المتقدمين من علماء التعمية العرب في إرساء أسس هذا العلم، و رسم المنهجيات المحكمة في استخراجه، بل يبرز هذا الأثر، إذ تشير الدراسات إلى أن كل ما استحدث في التعمية و استخراج المعمى ما زال يعتمد على المبادئ الأساسية التي نص عليها العلماء العرب إن في طريق التعمية أو في مناهج استخراجها، مما يؤكد عمق أصالة العرب في هذا الميدان و أهمية ما جاؤوا به .

---

(1) – التعمية الكمومية، ص. 63.

(13476/1)

أهم المراجع المعتمدة

أ – العربية :

... –" الأعلام "، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين،

بيروت، ط 5 . 1980م.

... –" التعمية الكمومية و ريادة العرب في علم التعمية "، د. محمد مرياتي، مقال في عدد خاص من مجلة عالم الذرة الصادرة عن هيئة الطاقة الذرية في دمشق .1993م.

... –" علم التعمية و استخراج المعمّى عند العرب "، الجزء الأول، دراسة و تحقيق لرسائل الكندي و ابن عدلان و ابن الدريهم ، د. محمد مراياتي د. محمد حسان الطيان، د. يحيى مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربي بدمشق.1987م.

(13477/1)

... –" مجلة معهد المخطوطات العربية "، المجلد 32، الجزء الأول. 1988 م.

– معجم المؤلفين "، عمر رضا كحالة ، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي ، بيروت، 1376هـ –1957م.

... –"مقاصد الفصول المترجمة عن حل الترجمة "، لابن دنينير، مخطوط فاتح (5300'.)

... –" الوافي بالوفيات "، صلاح الدين الصفدي، باعتناء طائفة من أهل العلم، دار فرانز شتاينر بفيسباده، ألمانية . 1949 – 1980 .

ب – الأجنبية :

1- Al-Kadi Ibrahim, Origins of Cryptology the Arab Contribution, Cryptologia, Vol 16, N° 2, April 1992.

(13478/1)

2- kahn. David, The Code Breakers Macmillan publishing Company. New York 1983

3- kahn. David, The Code Breakers Macmillan Company. New York 1976

(13479/1)

مقاومة القبائل الصحراوية للاحتلال الفرنسي في الثلث الأول من القرن العشرين

الأستاذ علال الخديمي

كلية الآداب – الرباط

مدخل :

الهدف من هذه الدراسة، هو إلقاء نظرة عامة وموجزة،

تضع مقاومة القبائل الصحروايـة في إطارها الوطني الشامل، لأن هذه الحقيقة تجاهلتها الدراسات الأجنبية، التي وإن أشارت إلى تبادل الدعم بين أبناء المغرب، أي بين الشمال والجنوب، فبدافع الضغط على الدولة المغربية آنذاك لتحقيق أهداف المحتلين في فصل أجزاء المغرب ووضع الحواجز بين المغاربة في الشمال والوسط والجنوب الصحراوي.

(13480/1)

وبادئ ذي بدئ، يجب أن ننبه إلى الملاحظات الآتية :

1– إننا سنقتصر على مقاومة الاحتلال الفرنسي، لأن معظم معارك الصحراء جرت ضد الفرنسيين.

2– سنقتصر على أشهر المعارك، ولن نتعرض لكل أسماء القبائل لأن كل القبائل الصحراوية، سواء المنتمية اليوم للدولة الموريطانية أو المنتمية للوطن الأم، المغرب، كلها شاركت في الجهاد ضد المحتلين وقدمت التضحيات الكبيرة في سبيل الدفاع عن استقلال المغرب ووحدته إلى حدود 1934، حيث تمكن الاحتلال الفرنسي من إخضاع المغرب.

(13481/1)

3– إننا إذا قلنا جنوب المغرب فإننا نقصد به الجنوب الصحراوي إلى حدود السينغال، انسجاما مع الحقائق التاريخية، ما دمنا نتحدث عن الفترة الممتدة من نهاية القرن الماضي إلى 1934، مثلما نتحدث اليوم عن جنوب المغرب الذي ينتهي عند الحدود الموريطانية.

4– ولقد قسمنا هذه الدراسة إلى مقدمة، ومرحلتين، تعرضنا في المرحلة الأولى لفشل مشروع التدخل السلمي الذي بدأه الفرنسيون مبكرا انطلاقا من السينغال، ثم عرضنا أهم الأحداث التي ميزت مقاومة القبائل الصحراوية ابتداء من سنة 1905 التي كانت سنة متميزة في تاريخ المغرب.

(13482/1)

مقدمة منهجية :

من أخطر ما تمنى به الشعوب في تاريخها هو تشويه مبادئها النضالية، وطمس مظاهر توحدها ووحدة أهدافها وآمالها وتطلعاتها. وإذا كان دعاة الاستعمار والهيمنة، قد بذلوا أكبر الجهود الفكرية والمادية، لزرع أسباب الفرقة بين عناصر الشعب الواحد، ليسهل عليهم التغلب

انسجاما مع الموجة الاستعمارية التي كانت تتحكم فيها نواميس التوسع الإمبريالي، فإن الشعب المغربي كان في مقدمة الشعوب التي تعرضت للتفتيت والتمزيق بهدف التغلب على صموده ومقاومته.

(13483/1)

ولقد أبان المغاربة خلال تاريخهم الطويل، عن وحدة شاملة كان سداها الإسلام ولحمتها التاريخ المشترك بمآثره ومحاسنه ومساوئه ومآسيه، ميدانها أرض معطاء، جللها خالقها بأكاليل الجمال الطبيعي، وعقود التنوع البيئي. فما شئت من جبال شاهقة خضراء وسهول خصبة فيحاء، وصحاري ممتدة، تحتضن جنات تجري من تحتها الأنهار تغري بحب الحرية والشجاعة والتواصل الإنساني.

إن مآثر الشعب المغربي الوحودي، وغناه الطبيعي، كل تلك المزايا كانت سندا ودافعا للصمود في وجه أعتى موجات الاحتلال الأجنبي منذ عهد رومان إلى عهد الاستعمار

(13484/1)

الحديث.

هذه مميزات أصيلة للتكامل، قلما ينعم بها بلد مثلما هو حال المغرب، ولهذا

حاولت الأوساط الاستعمارية، بكل ما أوتيت من خبرة وقوة وتنظيم وعلم، أن تعزل

المغاربة عن بعضهم، حتى لا يتبادلوا "الدعم والعون، وحتى يئسوا من تحقيق آمالهم في الحرية والاستقلال، كما حاولت أن تطمس كل ما يثير الوعي والحمية الدينية وتنشر كما يبعث على اليأس والإحباط وهكذا جزئ المغرب إلى مناطق نفوذ إسبانية ودولية وفرنسية وإلى مناطق أخرى قالوا عنها إنها أرض خلاء.

(13485/1)

وعن مقاومة المغاربة تحدثوا عن مقاومة سهلية وأخرى جبلية وعن مقاومة ريفية وبربرية وصحراوية غافلين عن الروابط الدينية والوطنية التي كانت تدفع المجاهدين إلى تبادل العون والنصح والتشجيع تقاسم الآلام والآمال في طرد الغزاة الأجانب.

وإذا كان من الطبيعي أن تعمد الأوساط الاستعمارية إلى الدس وإلى تشويه الحقائق لإنجاح مخططاتها، فإن الأمر الشاذ هو ان يتحدث المغاربة كما تحدث الأجانب عن

مقاومة الشعب المغربي وكأنها حركات مفصولة العرى المادية والثقافية والروحية. وإن الحديث عن مقاومة أي إقليم من الأقاليم أو أي

(13486/1)

قبيلة من القبائل ينبغي رؤيته متصلا بمحيطه البشري المغربي الشامل.

إن من يجتهد ليقف في صفوف المجاهدين المغاربة، الذين قارعوا الاحتلال الاستعماري سيعرف – بالاعتماد على التحقيق التاريخي العلمي – بأن جهاد المغاربة في الجنوب الصحراوي كان يستمد العون والدعم المادي والمعنوي من إخوانهم في الشمال، سواء على المستوى الرسمي أو على المستوى الشعبي. إن هذه الحقيقة واضحة وثابتة ومؤكدة. لأن الأمر كان يتعلق باحتلال أجنبي نصراني لأرض مغربية مسلمة.

(13487/1)

وهكذا، لا مندوحة لنا، من التأكيد في النهاية، على أن عمليات الجهاد التي كانت القبائل الصحراوية تنفذها

ضد القوات الفرنسية في أدرار والترارزة وتكانت وفي باقي الأقاليم الصحراوية كالحوض والساقية الحمراء ووادي الذهب، كانت تنظم بأموال الشعب المغربي وأسلحته ودعمه، وكانت لشيوخ القبائل ومقدميها وضمانها الحرية الكاملة في التخطيط والتنفيذ انسجاما مع المميزات المحلية، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فكم من عقبة وضعها المغاربة أمام المحتلين في شمال البلاد وعرقلوا بها أهدافهم، كان العنصر الصحراوي أساسيا فيها.

(13488/1)

ويكفي دليلا، على ترابط وتلاحم المغاربة في جهادهم، أن خطط الاستعمار لم

تكن تنجح إلا بعد التنسيق بين جيوش الاحتلال في الشمال والجنوب، وأن نجاح المحتلين في إنهاء جهاد القبائل الصحراوية لم يتم إلا بعد أن تمت السيطرة على الشمال في سنة 1934.

أولا : حركة الجهاد في المرحلة الأولى 1905–1913.

1– فشل مشروع كوبولاني :

بعد مسلسل طويل من "التدخل السلمي" الذي بناه المستعرب الفرنسي (Xavier Coppolani)، على

الدسائس واستغلال المنافسات بين الفرق القبلية، وبين زعماء الدينيين والسياسيين، تمكن الفرنسيون من بسط نفوذهم

(13489/1)

على منطقة الترارزة والبراكنة بين 1998 و 1904. ولما حاول كوبولاني مد الاحتلال الفرنسي إلى إقليم تكانت صادف مقاومة عنيدة تزعمها أمير المنطقة الشيخ بكار ولد سويد، شيخ قبائل إدواعيش وزعيم الإقليم منذ 1836. فقد جمع هذا المجاهد الصحراوي الكبير حوله كل المعارضين لسياسة التوسع الفرنسي شمال نهر السنغال، وحارب المحتلين إلى أن سقط شهيدا في أبريل 1905(1)

---

(1) نور الدين أسريدي، مساهمة في دراسة تاريخ موريطانيا، رسالة دبلوم دراسات عليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 199.

Vuillemin (D), Contribution à l'histoire de la Mauritanie, Dakar, 1962, pp. 130–134 et p. 303.

(13490/1)

.

والملاحظ أن هذه السنة 1905، التي جعلناها بداية للحديث عن جهاد صحراويين، تعتبر ذات دلالة عميقة في تاريخ المغرب، فلقد توترت العلاقات الفرنسية المغربية بشكل كبير خلالها وظهرت عواقب ذلك التوتر في الضغوط العسكرية التي مارسها الفرنسيون في الشمال والجنوب.

وغير خاف أن توتر العلاقات الفرنسية سنة 1905، يرجع إلى ما أعقب الاتفاق الودي بين أنجلترا وفرنسا سنة 1904 من تطورات. فقد اتهم المغاربة الفرنسيين والإنجليز بالتصرف في مصير الشعب المغربي دون استشارته وترتب عن ذلك

(13491/1)

رفض المغرب لكل تعاون منفرد مع فرنسا، وأفشل السلطان مولاي عبد العزيز مشروع "الإصلاحات" الذي أرادت فرنسا بواسطة فرض

حماية مبكرة على المغرب(1).

ومن مظاهر التوتر في علاقات المغرب مع فرنسا دعوة المغرب لعقد مؤتمر دولي، وتأييد ألمانيا لدعوته بزيارة الإمبراطور الألماني لمدينة طنجة في مارس 1905.

---

(1) علال الخديمي، "مجلس الأعيان ومشروع الإصلاحات الفرنسية بالمغرب سنة 1905" في ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي خلال القرن التاسع عشر، 1983، نشر كلية الآداب والعولم الإنسانية بالرباط 1986.

(13492/1)

أما الرد الفرنسي، فقد جاء متنوعا : صراع دبلوماسي ضد ألمانيا، ضغط عسكري ضد المغرب ظهر في الحدود الجزائرية المغربية، وفي تشجيع الثائر (بوحمارة) في المغرب الشرقي وفي تنشيط التدخل العسكري شمال نهر النهر. أمام هذا التهديد الواضح لمصير المغرب كدولة مستقلة دعا سلطان المغرب شعبة للاتحاد وبذل العون للمخزن، بهدف المحافظة "على توفر القوة الإسلامية وأسبابها" وبين له الأضرار التي ستصيب البلاد والعباد إذ لم يبادر المغاربة للإتحاد والتعاون(1)

---

(1) رسالة من مولاي عبد العزيز، إلى القبائل مؤرخة في 27 ربيع الثاني 1323 الموافق، 1 يونيو 1905. قارن علال الخديمي، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب 1894–1910. نشر إفريقيا الشرق، الدارالبيضاء، الطبعة الثانية، صص. 57–60.

(13493/1)

.

وإذا اعتمد المركز على الدفاع السياسي أو "سياسة الدفاع" فإن الشعب حمل السلاح وانتشرت بينه الدعوات المتكررة للجهاد ولقد كان اغتيال زعيم مسلسل "التدخل السلمي" في الصحراء كوبولاني في 12 ماي 1905، من طرف الشريف ولد سيدي مولاي الزين إعلانا بارزا بفشل مشروع التدخل السلمي المزعوم في جنوب المغرب وبداية لحرب طويلة بين المغاربة من جهة، وجيوش الاحتلال الجنبية من جهة أخرى.

2– تصعيد المقاومة الصحراوية بتشجيع من المخزن :

وقد تدخل السلطان مولاي عبد العزيز لمساعدة القبائل الصحراوية لما اتضح عزم

(13494/1)

الفرنسيين إلى توسيع احتلالهم، وهكذا أرسل وفدا مخزنيا اتصل بوفود قبائل
الترارزة، والبراكنة وتكانت والحوض ووادي الذهب والساقية الحمراء، وعقد الاجتماع في
السمارة بمقر الشيخ ماء العينين الذي أصبح هو المنسق لحركة الجهاد في الصحراء مع خليفة السلطان مولاي
إدريس بن عبد الرحمان الذي تولى قيادة المجاهدين(1).
وقد حاصر المجاهدون بقيادة مولاي إدريس، الطلائع الأولى للفرنسيين في المراكز المتقدمة بتكانت وأذروهم بضرورة إخلاء تمانت. ثم نشبت معركة

(1) محمد الغربي، الساقية الحمراء ووادي الذهب، الجزء الأول، ص. 348.

(13495/1)

شديدة بين الجانبين في شهر نونبر 1906 تسمى
معركة النييملان، كبد فيها الصحراويون قوات الاحتلال خسائر فادحة، وإثر هذه المعركة شدد المجاهدون الحصار
على مركز تجيكجا مدة شهر. ثم تخلوا عن الحصار بعد
وصول قوات فرنسية من السنغال مزودة بالمدفعية

والرشاشات(1).

فورة الجهاد تعم المغاربة من المتوسط إلى نهر السنغال 1907–1909:

أ– ظرفية سنة 1907:

تعرض الذين درسوا الاحتلال الفرنسي للأقاليم الصحراوية لظرفية الجهاد سنة 1907، فأشاروا إلى هدوء في المقاومة. وذكروا أن

---

(1) نور الدين أسريدي، المرجع السابق، ص. 240–241.

(13496/1)

سبب هدوء عمليات الجهاد يرجع بالدرجة الأولى إلى تراجع المجاهدين من أدرار نحو الشمال وإلى تردد كثير من القبائل الصحراوية في حمل السلاح ضد الفرنسيين(1). والواقع أن هدوء 1907، يرجع بالدرجة الأولى إلى الضغط الذي مارسته الحكومة الفرنسية على المخزن المغربي. وقد ظهر ذلك الضغط بوضوح عندما دخلت القوات الفرنسية لمدينة وجدة واحتلها في 29 مارس 1907. فبعد هذا الاحتلال الذي وقع بمناسبة مقتل أحد الفرنسيين بمدينة مراكش، تقدمت فرنسا بمطالب تعجيزية

(1) B. gillier, La pénétration en Mauritanie, Paris 1926, p. 151

(13497/1)

للمغرب مقابل الجلاء عن وجدة. وقد جاء في مقدمة تلك المطالب، مطلب سحب الخليفة السلطاني من الأقاليم الصحراوية، والتوقف عن تحريض القبائل الصحراوية على الجهاد، ومنع إرسال الأسلحة إلى الشيخ ماء العينين.

حاول المخزن أن يصمد في وجه هذه المطالب أو التخفيف منها، لكنه اضطر

في النهاية إلى قبولها وهو يعلم صعوبة تنفيذها، لأن نفوس المغاربة كانت محرضة ضد الاحتلال الفرنسي. لقد تخوف المخزن من تصعيد الاحتلال عبر الحدود الجزائرية، ورغب في جلاء القوات المحتلة عن مدينة وجدة، ولهذا أصدر أمره إلى الشيخ ماء العينين

(13498/1)

بإرسال مولاي إدريس بن عبد الرحمان إلى فاس للتشاور معه وبتهديء الوضع بالصحراء ريثما تنتهي المفاوضات

مع الجانب الفرنسي بالطرق الدبلوماسية(1).

ومما جاء في رسالة السلطان إلى الشيخ ماء العينين :

وبعد، فإن الدولة الفرنسوية كانت تشتكي بأمور من جملتها، ما يدعونه من الأضرار اللاحقة بهم من رعيتنا السعيدة في نواحي الحدود بالصحراء وغير ذلك، ولما حدثت حادثة الطبيب الفرنسوي

---

(1) علال الخديمي، "الشيخ ماء العينين ومقاومة التدخل الفرنسي بالمغرب 1884–1910". مجلة دراسات، كلية الآداب بأكادير 1987، العدد الأول، ص. 37.

(13499/1)

القتيل بمراكش إثر حوادث أخرى بالقتل والجرح لبعض الفرنسويين في غيرها من المدن، ظهر منها تشديد في طلب الإنصاف لها في كل ما تشتكي به ...(1)

---

(1) نفسه، وانظر النص الكامل للرسالة في كناش الخزانة العامة رقم د 1695 وهي مؤرخة بـ 8 ربيع النبوي 1325 الموافق ل 21 أبريل 1907. وجدير بالذكر أن الفرنسيين نيقوا ضغطهم على المغرب مع الإسبان. ولهذا أرسلت الدولتان سفنا حربية للشواطئ المغربية

لمنع تهريب السلاح إلى المغاربة في الجنوب خاصة.

قارن نور الدين بلحداد، التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية (1860–1934)، دبلوم دراسات عليا، كلية الآداب بالرباط، 1994، صص. 185–186.

(13500/1)

هكذا إذن فسبب هدوء الوضع خلال سنة 1907 شمال نهر السنغال يرجع إلى ما كان من تطورات في عاصمة المغرب على أثر احتلال وجدة. وكأن هذا الاحتلال لم يكف الفرنسيين، لما رأوا صمود المغرب، فعمدوا إلى قنبلة الدارالبيضاء وشرعوا في احتلال بلاد الشاوية منذ غشت 1907. وهكذا أرغموا محزن مولاي عبد العزيز على "التعاون" معهم. وبذلك قضوا على مصداقيته لدى الشعب، الأمر الذي أدى إلى بيعة خليفة السلطان وأخيه مولاي عبد الحفيظ بهدف إخراج المحتلين من الأراضي المغربية(1)

---

(1) قارن علال الخديمي، التدخل الأجنبي، م.س.، صص. 317–320.

(13501/1)

.

ب – بيعة مولاي عبد الحفيظ وتصاعد حركة الجهاد :

كتب الضابط الفرنسي (Gillier) يقول : "بعد هدوء سنة 1907، أعقبته الفترة الأكثر اضطرابا في احتلالنا (للصحراء).

إن عودة السرية التي ذهبت تطلب المساعدة من سلطان المغرب جاءت معها إلى أدرار عناصر محبة للحرب ومسلحة جيدا، زادها تحريض ووعظ مرابط سمارة حدة وحماسا. وكانت توافقها جماعة منالتلاميذ يتزعمها الشيخ حسانة بن ماء العينين الذي كلف بتنظيم القتال والذي سيؤدي مهمته بكثير منالذكاء والحنكة إن هذه الجماعة المشاغبة جعلتنا في حالة استنفار طيلة ما يقرب من

(13502/1)

سنة"(1).

الواقع أن وفرة الجهاد التي صاحبت بيعة سلطان الجهاد بفاس عمت المغرب من أقصاه إلى أقصاه. وهكذا نشبت

المعارك في حدود المغرب الشرقية "بني يزناسن" وسواحل الغربية "الشاوية" وخاصة في الأقاليم الصحراوية.

وقد دفع حماس الجهاد الصحراويين، إلى بذل أقصى الجهود والتضحيات بهدف طرد المحتلين، فبين شهر مارس ودجنبر 1908 تعرضت القوات الفرنسية بالصحراء إلى أكثر من 135 هجوما، وبلغ عدد القتلى حسب الروايات الفرنسية 142 جنديا وضابطا وأهم نتيجة لهذه الفورة الجهادية هي انتشار الإشاعات

---

(1) 155Gillier, op. cit.; p.

(13503/1)

بقرب انسحاب الفرنسيس من الأراضي التي احتلوها(1).

وتشير الدراسات الفرنسية إلى أن المغاربة ركزوا جهودهم في اتجاهين اثنين خلال هذه المدة :

أولهما : حماية أكجوجت بأدرار وكانت اهم نقطة متقدمة في الاحتلال.

ثانيهما : الوحدات العسكرية المهارية المتحركة، التي نظمت بتكانت بقيادة الضابط مانجان (Mangin)، الذي

كان الصحراويون يقلبونه "بودرس" والذي اشتدت وطأته على المجاهدين بأدرار(2)

---

(1) Ibid., pp. 174–175؛ بلحداد، م.س، ص. 190.

(2) "إن تأسيس المركز العسكري بأكجوجت في يناير 1908 كان مناسبة لأولى خيبات أملنا" Gillier, op. cit., p.156.

(13504/1)

.

وقد توصل المجاهدون الصحراويون بعد معارك عديدة طاحنة، وبعد هجمات موفقة صادروا خلالها جمال القوات الفرنسية، وبعد ضربات متتالية لخطوط التموين وخطوط المواصلات، توصلوا إلى تحقيق الهدفين المشار إليهما. قال جيلييي (Gillier) : "إن المغاربة تمكنوا من تحقيق الهدفين الرئيسيين المحددين : تحطيم مركز أكجوجت العسكري المتقدم، والقضاء على قواتنا المتحركة"(1).

---

(1) انسحب الفرنسيون من أكجوجت تحت ضغط

المجاهدين في 10 شتنبر 1908. انظر : جيلي، صص. 163–169.

(13505/1)

ولإبراز هذه النتيجة علينا أن نروي ما حدث خلال معركة من المعارك العديدة. إن الأمر يتعلق بمعركة المعينن التي جرت وقائعها يوم 12 يونيو 1908.

فقبل أن ينشب الصحراويون القتال مع القوات الفرنسية، بعثوا برسالة إلى الضابط الفرنسي يقولون فيها : "ما الذي جاء بك إلى أرض الله هذه ... إن شهرتك تعدت حدود هذه البلاد، أما نحن فلا نخافك وسنقاتلك وجها لوجه وعددا بعدد، إنكم مائة وعشرون وسنكون نحن كذلك مائة وعشرين وسننتصر عليكم بإذن الله"(1).

---

(1) Gillier, p. 165

(13506/1)

وقد هاجم المجاهدون والقوة الفرنسية المتحركة بقيادة مانجان وقضوا عليها نهائيا، ثم قطعوا رأس مانجان

وأرسلوه مع أحد الرماة قائلين له : "اذهب وبين للنصارى ما فعلنا ببودرس"(1).

وهكذا كان لبيعة مولاي عبد الحفيظ كسلطان للجهاد، ومساندته للمجاهدين الصحراويين، أثر فعال عظيم في الانتصارات التي حققوها سنة 1908 ضد القوات الفرنسية بالأقاليم الصحراوية الجنوبية، مثلما كان لتلك البيعة من أثر في تشجيع حركة الجهاد بالشاوية. ولمحاصرة حركة الجهاد المغربية، مارست الأوساط الاستعمارية ضغوطا كبيرة على

(1) نفسه، ص. 166.

(13507/1)

عبد الحفيظ، وامتنعت عن الاعتراف به إلا بعد التخلي عن الدعوة للجهاد. وقد قررت في الوقت نفسه سلوك نهج جديد في الاحتلال بالأقاليم الصحراوية.

ج – حملة كورو واحتلال أدرار 1909 :

لما تبين للأوساط الاستعمارية بإفريقيا الغربية فشل العمليات العسكرية المحدودة جنوب المغرب أي في الأقاليم الموريطانية اليوم، قررت تهييئ حملة كبيرة

وقوية لاحتلال أدرار أي بلاد شنقيط التي كانت مركزا رئيسيا للمقاومة الصحراوية وإبعاد القبائل المجاهدة نحو الشمال(1).

---

(1) Gl Gouraud, Mauritanie Dakar, plon. Paris, 1945

(13508/1)

اعتمدت خطة كورو، وهو ايضا الضابط الذي كلف بقيادة الحملة، على نهج خطط عسكرية وسياسية واقتصادية ماكرة، بهدف إرغام القبائل المجاهدة على الخضوع للاحتلال. هكذا تقرر احتلال الواحات والآبار وفرض غرمات كثيرة على سكان الواحات، خاصة من المواد الغذائية ومصادرة قطعان الماشية، وبها ثم النقل لتوفير احتياجات الجيش الغازي من الغذاء والمركوب وبالتالي سلب وسائل القوة والصمود من يد القبائل(1)، وفي الوقت نفسه اتبع كورو خطة الحملات

---

(1) قدم الشيخ سيدي بابا دعما لحملة كورو على أكرار في شكل أدلاء وحيوانات للنقل والركوب.

(13509/1)

المتحركة أي نفس النهج الذي كان يتبعه الرحل، لكي يؤثر في القبائل المجاهدة مع بناء مراكز عسكرية ووضع قوات لحراستها. أما من الناحية السياسية فقد بحث قائد الحملة الفرنسية عن تكوين تحالفات سياسية، بهدف استغلال أطراف من السكان ضد أطراف أخرى وكان الهدف من العمل السياسي هو محاولة تخريب الهياكل الاجتماعية القبلية من الداخل(1)

---

(1) قارن محمد الشيخ الطالب اخيار، صفحات من دفاع المغاربة عن السيادة والوحدة الترابية ما بين 1900–1913، نماذج من الصحراء المغربية؛ ندوة المقاومة المغربية ضد الاستعمار، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، اكادير، 1991، صص. 150–151.

(13510/1)

.

وبعد معارك عديدة خاضتها القبائل المجاهدة بقيادة سيدي أحمد ولد أحمد عيدة أمير أدرار، تمكنت القوات الفرنسية من احتلال مدينة أطار في يناير 1909(1) وقد مثل احتلال أطار ضربة مؤلمة لحركة الجهاد، لأن

المدينة كانت عاصمة الإقليم ومركزا للدارة والتنظيم وتموين المجاهدين.

وبعد احتلال أدرار أصبحت منطقة وادي الذهب الملجأ الآمن لقبائل أدرار حيث كانت تتزود بالمؤن والسلاح، وتنسق عمليات الجهاد مع قبائل المنطقة.

---

(1) نور الدين أسريدي، م.س.، ص. 266.

(13511/1)

وقد عرفت سنوات 1910–1912 فتورا نسبيا ف عمليات الجهاد وإذا كان احتلال الواحات وأماكن الرعي والآبار قد حرم القبائل الصحراوية من إمكانية التزود بالماء والغذاء بسهولة، ودفعها – أو دفع بعضها – إلى مهادنة المحتل والتعايش معه؛ فإن فتور عمليات الجهاد الصحراوي سنتي 1910–1911 لا يجد تفسيره إلا بالوضع الذي كان يسود عاصمة البلاد، وما كان يمر به السلطان عبد الحفيظ من صعوبات خارجية وداخلية.

فعلى مستوى العلاقات المغربية الفرنسية، نلاحظ أن الفرنسيين شغلوا السفارة المغربية التي كان يقودها محمد المقري مدة طويلة

(13512/1)

في باريز. ورفضوا الجلاء عن وجدة وبلاد الشاوية والدار البيضاء. واشترطوا شروطا ثقيلة على السلطان مقابل إقراض المغرب لتصفية ديونه السابقة(1).

وإذا تحدث الفرنسيون عن ضرورة التعاون معهم لحل مشاكل المغرب، فإن إنذارهم للسلطان في فبراير 1910 بضرورة إبعاد المدربين الأتراك من الجيش المغربي، وبضرورة الموافقة على اتفاقيات المخزن مع الحكومة الفرنسية، قد تبين منه عزمهم على إخضاع السلطان عبد الحفيظ لهيمنتهم. يتضح ذلك من الخطوة العسكرية التي أقدم

---

(1) علال الخديمي، التدخل الأجنبي والمقاومة، 1994، الفصل الأخير.

(13513/1)

عليها جيش الاحتلال بالشاوية في يونيو 1910، عندما تدخل في تادلا بهدف إلقاء القبض على الشيخ ماء العينين الذي كان في طريقه من تزنيت إلى فاس(1).

وهكذا ففي الوقت الذي كان الفرنسيون يتحدثون عن التعاون المزعوم مع السلطان، كانوا يخربون علاقاته مع شعبه. ويجعلون مهمة صموده مستحيلة.

وبالفعل فقد أثاروا قضية أخرى مع المغرب هي قضية زعير التي زادت

في تأزيم العلاقات الفرنسية سنة 1911. فمن مشروع احتلال قبائل زعير،

---

(1) علال الخديميم، "الشيخ ماء العينين ومقاومة التدخل الفرنسي"، دراسات، عدد 1، 1987.

(13514/1)

تدخلت القوات الفرنسية لاحتلال عاصمة المغرب فاس في ماي 1911، وبهذا الاحتلال

فتحت الطريق لفرض الحماية سنة 1912 بعد اتفاق ألمانيا مع فرنسا في نونبر 1911(1).

وعلى الرغم من هذه الوضعية التي كانت تنبئ بقرب نهاية مقاومة المغاربة تحددت عملية الجهاد بأشد ما يكون من الحماس والحدة. والواقع أن احتلال

---

(1) علال الخديم، "حادث أكادير والعلاقات المغربية

الألمانية، ندوة أكادير الكبرى : المحور التاريخي؛ "حملة فاس 1911، المقاومة والانعكاسات الدولية"، ندوة المقاومة في المنطقة الوسطى الشمالية، فاس، 1955 (تحت الطبع).

(13515/1)

فاس، وعقد اتفاقية الحماية مارس 1912، قد أثار حمية المغاربة للجهاد وخاصة لما انتفضت طوابير الجيش المغربي ضد ضباطها الفرنسيين في أبريل 1912(1). وازداد حماس القبائل للجهاد في الشمال والجنوب لما بويع الشيخ الصحراوي أحمد الهبة بن ماء العينين أميرا للجهاد بسوس غشت 1912 بعد شيوع أخبار تنازل مولاي عبد الحفيظ أو قتله من طرف الفرنسيين(2)

---

(1) Aubert Jacques, Les journées sanglantes de 1926Fés, Casablanca

(2) يتهم ليوطي مولاي عبد الحفيظ بالتواطظ مع أحمد الهبة، وتشير بعض الروايات إلى ان السلطان راسل الهبة وحثه على الجهاد.

(13516/1)

.

وفي هذه الظرفية تصاعدت حركة الجهاد بالأقاليم الصحراوية وانسحبت فرق عديدة من القبائل التي كانت قد هادنت المحتلين نحو الشمال لتنضم إلى المجاهدين. وألقى الفرنسيون القبض على أمير أدرار ولد عيدة بتهمة التواطؤ مع المجاهدين بعد الاتفاق مع الفرنسيين على الخضوع.

د – معركة البويرات 1913 :

واستجابة لهذه التطورات تزعم الأغظف بن ماء العينين بتنسيق مع أخيه أحمد الهيبة، حركة كبيرة من المجاهدين من قبائل وادي الذهب والساقية الحمراء. وقد حاصرت هذه الحركة قوة فرنسية كان يقودها الضابط (Martin)، وقضت عليها واستولت

(13517/1)

على جميع أسلحتها وجمالها وذخيرتها(1).

وقد أثارت هذه الواقعة ضجة داخل فرنسا. وإثرها نظم الفرنسيون حملة عسكرية قوية كان هدفها سحق

القبائل بوادي الذهب والساقية الحمراء(2).

دخلت الحملة الفرنسية بقيادة موري (Mouret) وادي الذهب قرب كتلة زمور. كما دخلت الساقية الحمراء لكنها لم تصادف إلا الفراغ. وعندما وصلت إلى مدينة السمارة وخربتها، واضطرت إلى التراجع جنوبا بعد أن لاحظت أحشاد المجاهدين حواليها. ولم يلبث القتال أن نشب بين القوة

---

(1) Gillier, op. cit., pp. 226–228

(2) قارن أسريدي نور الدين، م.س.، ص. 280.

(13518/1)

الفرنسية والمجاهدين في معركة شرسة تواجه فيها الجانبان بالسلاح الأبيض احيانا.

وقد أسفرت معركة وادي "تكلعيت" أو معركة سمارة (1 دجنبر 1913) عن استشهاد حوالي 100 صحراوي وخسر الفرنسيون حوالي 62 بين قتيل وجريح حسب الرواية الفرنسية(1).

---

(1) Gillier, op. cit., pp. 229–235

جدير بالذكر أننا نكتب أسماء المعارك بكثير من

التحفظ، لأن المصادر الفرنسية لا تنطق في كثير من الأحيان أسماء الأماكن بدقة، زد على ذلك اختلاف المحتلين والمجاهدين في تسمية المعارك، وبهذا تبقى الرواية الشفوية ضرورية في هذا المجال.

(13519/1)

ثانيا : حركة الجهاد في المرحلة الثانية

1– الجهاد الصحراوي خلال الحرب العالمية الأولى :

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى، أصبح المجال الصحراوي من شنقيط إلى سوس بخاصة، والمجال المغربي بصفة عامة مسرحا للدعايات المتصارعة للحلفاء ودول المحور.

فمن جهة حاولت ألمانيا إثارة ثورة عامة في المغرب ضد فرنسا، وفي شمال

إفريقيا عامة، وقد استخدمت في سبيل ذلك كل ما لديها من اتصالات وعلاقات

مع زعماء مغاربة. وصرفت الأموال وقدمت السلاح(1)

---

(1) ركزت ألمانيا في البداية على إثارة انتفاضة عامة انطلاقا من شمال المغرب، واستخدمت في ذلك عبد الملك بن محيي الدين بن الأمير عبد القادر الجزائري، كما

نسقت عملها مع مولاي عبد الحفيظ الذي كان موجودا بإسبانيا. وفي هذه الإطار تدخل حركة المجاهد الصحراوي محمد المامون بنواحي تازة وحركة عبد القادر الجزائري منذ 1915 إلى 1918.

(13520/1)

. وقد استفاد المجاهدون المغاربة من العون المادي والمعنوي الألماني، خاصة لما دخلت تركيا الحرب بجانب ألمانيا في أكتوبر 1914. والملاحظ أن الدعاية الألمانية القوية، والنشاط السري للمخابرات الألمانية(1) لم يتوج بنزول عسكري في سواحل المغرب الشمالية أو الجنوبية، كما كان منتظرا. وكان بالإمكان، كذلك نجاح نزول ألماني في سواحل الصحراء بالتنسيق مع المجاهدين لو قدمت الأسلحة الثقيلة.
ولكن يبدو أن الألمان انشغلوا أكثر بالتدخل في ليبيا لتهديد الوجود البريطاني في

---

(1) Gaulis, La France et le Maroc, Paris, 1921

(13521/1)

مصر. وبذلك غامروا في منطقة قريبة منهم بعيدة عن تهديد الوجود الفرنسي بالمغرب.

ولم تقف فرنسا مكتوفة الأيدي، بل جندت بدورها – كل ما ليدها من قوة عسكرية وبشرية بالمغرب لمراقبة السواحل المغربية وإحباط الدعاية الألمانية، وهكذا دفعت المتعاونين معها، إلى نشر فتاوي مضادة للدعاية التركية والألمانية "فتوى الشيخ سعد بوه. والشيخ سيديل بابا)، كما عمل الفرنسيون على استمالة الرحل فلم يحاربوهم ولم يمنعوهم من انتجاع الأقاليم الواقعة شمال نهر السنغال(1)

---

(1) انظر نور بلحداد، المرجع السابق، وكذلك نور الدين أسريدي، م. س.

(13522/1)

.

وقد مارست فرنسا ضغوطا متوالية على الحكومة الإسبانية، واتهمتها بتسهيل مهمة ألمانيا في المغرب، خاصة لما تمت اتصالات بين عملاء ألمان وزعماء الجهاد المغاربة في شمال المغرب وفي سوس وسربت الأموال الألمانية إلى المغرب، وهكذا بدأ نوع من

التنسيق بين الفرنسيين والإسبان في السواحل الصحراوية، واشتد ضغط الفرنسيين على حركة الجهاد بسوس بزعامة أحمد الهبة، ودفعت فرنسا بالقواد الكبار الكنتاوي والكلاوي إلى بذل أقصى الجهود للقضاء على المجاهدين. وأشهر الحملات قادها الضابط الفرنسي دولاموط (De la Mothe) سنة 1917 رد

(13523/1)

على هزيمة القائد حيدة أميس الذي قتله المجاهدون وكان من أقوى أعمدة السياسة الفرنسية بسوس(1).

وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى، عرفت حركة الجهاد الصحراوية بعض الهدوء. ثم استؤنف الجهاد في كل أنحاء المغرب ابتداء من 1921.

2– حركة الجهاد 1921–1934 :

عرفت حركة الجهاد بالأقاليم الصحراوية خلال الفترة الممتدة من 1920 إلى 1934، عدة تحولات، ويمكن التمييز بين

---

(1) قارن محمد المختار السوسي، المعسول، الجزء الرابع

من جهاد أحمد الهيبة والقبائل السوسية والصحراوية؛ وعن دور القواد الكبار في المنطقة وكذلك الجزء 20.

(13524/1)

فتريتين :

الأولى من 1921 إلى 1926، والثانية من 1927 إلى 1934 أي السنة التي تمكنت فيها قوات الاحتلال من فرض مراقبتها على مجموع المغرب.

– فخلال الفترة الأولى تميزت حركة الجهاد بنوع من الحدة، حيث كثرت الاشتباكات وتعددت المعارك بشكل يسمح بنا بالقول إن حركة الجهاد بعد الحرب العالمية الثانية، تحولت في الأقاليم الصحراوية إلى حرب استنزاف طويلة الأمد ضد المحتلين الفرنسيين.

وهكذا بدأ المجاهدون ينظمون غزوات كبيرة تنطلق من مراكز بعيدة في جنوب سوس أو الساقية الحمراء أو من وادي الذهب وتهاجم المحتلين في أدرار

(13525/1)

وفي الترارزة وفي تكانت، وأحيانا في الحوض والأزوارد. وقد اشتهر خلال هذه الفترة زعماء قادوا حملات أشهرهم محمد تقي الله المعروف بوجاهة، وإسماعيل ولد الباردي ومحمد المامون وأحمد ولد حمادي وغيرهم كثير. ولقد خاض هؤلاء المجاهدون معارك عديدة كبدوا خلالها الفرنسيين خسائر فادحة في الرجال والأموال، وغنموا خلالها الأسلحة وبهائم النقل والركوب(1) وأشهر المعارك التي قادها أولئك الزعماء هي على سبيل المثال لا الحصر :

---

(1) راجع نور الدين بلحداد، م. س.، ونور الدين أسريدي، م. س.

(13526/1)

---

*- معركة أشريرك (اشريرق ؟) وقعت يوم 28 نونبر 1923 قادها الوجاهة وسحقت خلالها قوة فرنسية بقيادة الضابط)1Bedeines(.

*- معركة بوكرن في 5 ماي 1924 استشهد خلالها الوجاهة.

*- معركة لقديم في 23 أكتوبر 1924 قادها إسماعيل ولد البارودي وأحمد ولد حمادي وأتباع الوجاهة والوالي

بن ماء العينين وانتصر فيها المجاهدون(2)

---

(1) Gillier, op. cit., pp. 252–254

(2) Ibidem, p. 262.

عن دور إسماعيل ولد الباردي يمكن مراجعة :

Sophie Carantini, « Ismaël Ould Bardi, héros de la résistance saharienne », R.O.M.M., n° 41/42, 1987.

(13527/1)

.

*– معركة رأس الرمت قادها ولد المامون. وانهزم فيها المجاهدون في يوليوز 1925.

*– معركة الطريفية أبريل 1926. دامت حوالي ثلاثة أيام وهي من أكثر المعارك دموية، وقد شاركت فيها كل القبائل الصحراوية وتميز فيها الرماة من الرقيبات بمهارتهم في التصويب(1).

إن هذه المعارك قد بينت الجهود الجبارة التي بذلها الصحراويون دفاعا عن وحدة بلادهم واستقلالها، كما يمكن أن نعتبرها من آكد الشواهد على الالتحام الذي كان يجمع بين المغاربة آنذاك، فكل الغزوات كانت

تهيأ في الأقاليم الصحراوية الشمالية

---

(1) جيليي، م. س، ص. 263.

(13528/1)

بمساندة مادية ومعنوية من المغاربة في الشمال والوسط والجنوب، وبالفعل لقد ربطت التقارير العسكرية الفرنسية هذه المعارك بما كان يجري في الشمال وسوس من صراع بين المغاربة والإسبان والفرنسيين وردت أسباب تصاعد حدة المقاومة إلى تشجيع محمد بن عبد الكريم الخطابي، للمجاهدين بالدعاية والمال والسلاح الذي غنمه من الإسبان(1). كما أشارت التقارير الفرنسية، إلى ظهور جمعيات إسلامية عملت على تحيري البلدان الإسلامية في شمال إفريقيا كلها منها :

---

(1) جيليي، م.س، ص. 292.

(13529/1)

"عصبة تحرير الأهالي في مستعمرات إفريقيا"، تأسست سنة 1924 بموسكو و"لجنة مستقبل الإسلام" تأسست بدورها سنة 1924 بكونيا ()(1Konia).

وقد ألحت كل التقارير العسكرية على ضرورة التنسيق بين الجيوش الفرنسية المحتلة للجزائر والموجودة بمراكش وبالأقاليم الصحراوية. وهو الأمر الذي تم سنة 1925 عندما عقد مؤتمر بين قيادات هذه الجيوش في مدينة مراكش في 16 يناير وقرر القيام بأعمال مشتركة ومنسقة ضد القبائل الصحراوية. وكان الهدف هو قطع كل الإمدادات الآتية من وسط المغرب والتضييق على حركة

---

(1) المرجع نفسه، ص. 293.

(13530/1)

الجهاد(1).

أما في المرحلة الخيرة الممتدة من 1927 إلى 1934 فنلاحظ ان حدة المعارك قد خفت، ويفسر ذلك التطور بالتضييق الذي مارسته فرنسا وإسبانيا على حركة محمد بن عبد الكريم، التي أنهيت باستسلامه سنة

1926، وبتوغل الجيوش الفرنسية في التخوم الجزائرية ومن مراكش نحو الجنوب الصحراوي، حيث حاصرت المجاهدين بتافيلالت ودرعة والساقية الحمراء، وفي الوقت نفسه تمنكت إسبانيا من تركيز وجودها في السواحل الصحراوية، وادخلت قوات جديدة وأسلحة عصرية كالطائرات. كما سمحت للفرنسيين بملاحقة القبائل في

---

(1) المرجع نفسه، ص. 301.

(13531/1)

وادي الذهب والساقية. وإذا أضفنا لهذه التطورات، ما أصاب الأقاليم الصحراوية من جفاف وخاصة سنة 1933. فإننا نفهم لماذا تحولت كثير من الهجمات الجهادية إلى غزوات هدفت إلى قتل الرجال ومصادرة الأموال. وقد أصابت هذه الغزوات الفرنسيين والقبائل الصحراوية الخاضعة لهم على السوء.

وبعد معارك شهيرة وقعت سنة 1931 و 1932 خاصة، تراجعت حركة الجهاد وانتهى الفرنسيون بأن أخضعوا لنفوذهم الرحل كما أخضعوا حركة الجهاد في وسط المغرب وتافيلالت وسوس والجنوب الصحراوي. وقد

تميزت المرحلة الأخيرة من حركة الجهاد بقتل الفرنسيين

(13532/1)

للأمير أحمد ولد عيدة سنة 1932 بتهمة الإستمرار في مساندة المجاهدين. وكانت آخر المعارك هي التي خاضعها مجاهدو أولاد الدليم في مركز أطار في 8 يناير 1934.

خاتمة :

هكذا نكون بعد هذه النظرة الموجزة، قد تعرفنا على الخطوط العامة للمقاومة الصحراوية ضد الاحتلال الفرنسي بين 1905 و 1934 وقد تبين أن تلك المقاومة كانت وطنية أي مغربية ضد الاحتلال الأجنبي.

إن الفوارق المحلية والصعوبات الجغرافية والجيوسياسية، لم تكن إلا لتزيد المغاربة آنذاك تكاملا وتواصلا وتوحدا ضد الأخطار الخارجية. إن المغاربة جميعا كانوا

(13533/1)

يصدرون من معين واحد هو الإسلام، ومن رغبة عظيمة في الدفاع عن كرامة الإنسان المغربي المعتز بكيانه الحضاري الشامخ في التاريخ.

وخير ما نختم به هذه الخاتمة القصيرة، جزء من رسالة بعثها البطل الصحراوي المجاهد بكار ولد سويد أحمد إلى أحد قادة جيش الإحتلال، في 20 يناير 1904 يقول فيها :

.... أما بعد، فمن بكار ولد سويد أحمد، أمير تكانت إلى صاحب النصارى في قرية كهيدي موجبه بلغ النصارى مني أن المسلمين من مغربها إلى مشرقها أمرهم واحد ودينهم واحد وما هم إلا كالجمع الواحد ... وردت عليهم كتب القبائل من كل ناحية

(13534/1)

في أمرهم ووردت عليهم كتب مولانا السلطان المنصور مولاي عبد العزيز ... فالآن كفوا عن المسلمين ولا تعتدوا ببناء ولا غيره ... واعلموا أن أرض المسلمين ليست لأحد منهم يختلي بها دون الآخر. ولا يعطيها إلا سلطان العامة واتفاق المسلمين. فبهذا فكفوا ... وإلا فقد تعرضتم لنقض العهد ولا يخفى ما فيه(1).

---

(1) وردت هذه الفقرة في مؤلف نور الدين أسريدي المذكور أعلاه.

(13535/1)

مقدمات المعجم التاريخي

... ... الأستاذ محمد الأوراغي

... ... كلية الآداب – الرباط

تقديم

... من الثوابت الراسية كون اللغة موضوعا متغيرا ، سواء اعتبرها دارسوها بنية طبيعية لعضو ذهني أو مادة للتحليل التاريخي . وأن تغيير اللغة ، من جهة ، ينفلت للملاحظة ، إذ لا يقع تحت أعين المتلاغين الذين يرصدون تبدل اللغات ويتعقبون أسبابه ، ومن جهة أخرى ، لا يحدث صدفة ، ولا بإرادة المتكلمين . وإنما يناط تحول أي لغة بصنفين من الأسباب . أسباب خارجية مثل الزمان و إن كان من العوامل الضعيفة

(13536/1)

التأثير إذا لم يربط بالعامل الثاني الذي هو الاستعمال المرتبط بالجماعة التي تمارس العمل اللغوي تكلما ودراسة . وأسباب داخلية ترجع إلى محرك واحد يتمثل في الطابع الوضعي للغة المتحقق بالعلاقة الاعتباطية القائمة بين الرمز ومدلوله .

... يترتب عن المثبت في الفقرة السابقة أمران . يتمثل أولهما في ضرورة أن يكون لكل لغة ماض وحاضر .

وثانيهما في وجوب تفريع البحث اللغوي إلى دراسة مجردة تصطنع سكون اللغة بعزلها عن عوامل التأثير فيها التي تسبب تغيرها . ودراسة تلاحق اللغة المتفاعلة مع أوساطها المتعاقبة عبر الزمان

(13537/1)

. وفي هذا القسم الأخير يقع بحثنا في معجم اللغة العربية التاريخي .

... القول بضرورة أن يكون لكل ماض يعكس ما ولى من أوساطها وانقضى ، وحاضر ينطق عن حال أهلها ويصور بيئتهم الراهنة ، فيه شيء من الغلو إذا لم يتم تعيين المكون اللغوي المعني بهذه العبارة . هب أن اللغة نسق وظيفي ؛ تنتظم إذا لم يتم تعيين المكون اللغوي المعنى بهذه العبارة . هب أن اللغة نسق وظيفي ؛

تنتظم به تصويتات في مفردات معجمية والمفردات في مركبات والمركبات في جمل وهلم جرا ، تجد عند البحث أن التغيير

(13538/1)

الذي يلحق اللغة لا يمس نسقها مباشرة . بل كما سبق أن بينا في موضع آخر(1)، يتناول أولا العناصر المنتظمة به . وتأتي في المقدمة أصوات اللغة باعتبار هذا القطاع من أكثر مكونات اللغة قابلية للتغيير غير الإداري . وذلك بسبب ارتباطه القوي بالإنجاز الفردي للغة ، وفيه تنعكس الاستعدادات الطبيعية للمتكلمين باللغة المعنية . إذ يعتبر اختلاف الأمزجة ، وتفاوت أعضاء جهاز التصويت البشري ، وآفات

---

(1) انظر محمد الأوزاغي ، " اللغويات التاريخية والتاريخ اللغوي " ، ضمن مجلة التاريخ العربي ، العدد الأول ، ص . 179 – 207 .

(13539/1)

الكلام ، والاختلاط اللغوي عوامل فعالة ، لا يقل بعضها عن بعض في تعريض المكون الصوتي للتغيير المستمر .

... وبموازاة أصوات اللغة يأتي معجمها من حيث القابلية للتغيير . لكن التغيير في هذه المرة إرادي بحكم ما ينشأ من مؤسسات الترجمة والتعريب من أجل التوسع في مادة المعجم العربي وإثرائه بالجديد من المفردات . ولاشتداد العلاقة بين قطاعي الأصوات والتصريف ، ومن جهة أخرى ، بين المعجم وقطاعي التصريف والتركيب فإن التغيير الذي يمس مفردة معجمية وجهها الصوتي أو وجهها المعنوي فإنه يسبب ، لعلاقة التساند بين مكونات

(13540/1)

اللغة ، في تسريب التغيير إلى نسق عن طريق التصريف والتركيب .

... و إذا قلنا للغة ماضيا يعكس ما ولى من أوساطها وانقضى فإن المقصود معجمها (1)

---

(1) لأهمية المعجم بالقياس إلى باقي المكونات كان القدماء يستعملون اللغة بمعنى المعجم ، ويصفون باللغوي صاحب معجم . وبهذا المعنى تظهر من خلال

تعاريفها وتعريف علمها . منها قولهم : " حد اللغة كل لفظ وضع لمعنى ... واللغات عبارة عن الألفاظ الموضوعة للمعاني"السيوطي ، المزهر ، ج 1 ،ص . 8 . وقولهم في تعريف علم اللغة وتحديد موضوعه : " و أما حد الفن فهو علم يبحث فيه عن مفردات الألفاظ الموضوعة ، وقد علم بذلك أن موضوع اللغة المفرد الحقيقي ...وعلم اللغة علم الأوضاع الشخصية للمفردات " . الفيروزابادي ، القاموس المحيط ، ج 1 ، ص . 2 . وتكون اللغة مستعملة بمعنى المعجم عند ظهورها بجانب التصريف والنحو في أي تصنيف لعلوم اللسان أو الأدب ، كما فعل السكاكي ، مفتاح العلوم ، ص . 3 ، والفارابي ، إحصاء العلوم ، ص . 59 . والأنباري ، نزهة الألباب في طبقات الأدباء ، ص . 89 . وكذلك تكون حيث يقارن السيوطي بين موضوعي النحو واللغة ، المزهر ، ج 1 ، ص .43

(13541/1)

. ولولا قلنا بأن اللغة ماضيا يعكس بمكانة المعجم المركزية لما استحوذ على راسمة اللغة التي تشمل ، بمعناها المصوغ في قولهم " أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن

أغراضهم"(1) ، كلا من الأصوات والمعجم والاشتقاق

والتصريف ،والنحو بفرعيه الإعراب والتركيب والبلاغة بفرعيها المعاني والبيان . إذن ، بالنظر إلى خطورة المعجم ومكانته من اللغة صار هذا إياها ، فنال النصيب الأوفر من جهود اللسانيين العرب ، والقدماء منهم

---

(1) ابن جني ، الخصائص ، ج 1 ، ص . 33.

(13542/1)

خاصة (1).بل للمعجم على حدة مكانة متميزة ، عبر عنها الدكتور أمجد الطرابلسي بقوله : "المعاجم هي المرجع الذي لا غنى عنه في كل بحث مهما كان نوعه ، بل هي المرجع الذي يستوي في الحاجة إليه الناشئ المتعلم والباحث المنقب ، ولا ريب في أن تنوع المعاجم لدى الأمة وتجددها من حين لآخر ، وذيوع استعمالها بين الأفراد ، دليل على حيوية هذه الأمة وحيوية لغتها " (2)

---

(1) للوقوف على مراحل تكوين المعجم العربي انظر الدكتور أمجد الطرابلسي ، حركة التأليف عند العرب .

(2) الدكتور أمجد الطرابلسي ، حركة التأليف عند العرب ،ص . 9 .

(13543/1)

.

... وإذا صح أن المعجم يدخر في كلماته ثقافة المجتمع فإن قسما من مادته ، وهو الحافظ لهوية الأمة والضامن لاستمرارها ، لا يناله التغيير ولا يدخل في الماضي المندثر . لأنه ماضي أهل اللغة المستحضر وكيان الأمة المستمر . وهذا أحد المبادئ التي يجب اعتبارها في وضع معجم تاريخي للغة العربية . وهو مبدأ ثابت المعجم ومتغيره .

... لكلا الفرعين من المعجم بداية ؛ ويزيد المتغير بأن له نهاية ، فصار مصدرا لتكوين مادة الوسط المتروك ، كما كان مستودعا للمستحدث الجديد . يلزم عن المثبت هنا ضرورة إدخال عنصر الزمان من

(13544/1)

أجل تحديد تاريخ وضع المفردة وتاريخ تركها . وإذا تعذر عمليا ضبط تاريخ ميلاد كل مفردة أو تاريخ وفاتها بالنسبة تعين الانتقال إلى وحدة قياس الزمن الموالية ؛ كالعقد ، والقرن ، والعصر . أو الطفرات والنكسات . وعليه لا مندوحة ، حين وضع المعجم

التاريخي ، من مراعاة مبدأ تفتير المفردات التي يقضي بتعيين الفترة التي عاشت فيها مفردات المعجم .

... يراعي عند إجراء مبدأ التفتير إما وجه المفردة المعنوي ، وهذا الوجه نستعمل هنا اسم " الكلمة " و إما وجهها الصوتي الذي نخصه براسمة " القولة " و إما الجمع بينهما .

(13545/1)

فيكون المعتبر الكلمة عند استئناف الوضع الحاصل بنقل القولة من كلمة مستعملة إلى كلمة أخرى مستحدثة . كنقل قولة (الرقن) من معنى (الاختضاب بالزعفران والحناء أو نقط الكتاب وتزينه) إلى معنى (النقر على ملامس الآلة الكاتبة) . وقد يكون المعتبر القولة لا غير ، وذلك في حالة الترك الناتج عن الاحتفاظ بالكلمة والتخلي عن قولتها المعوضة بغيرها . من هدا القبيل الاحتفاظ بأيام الأسبوع مع التخلي عن أسمائها المستعملة في عصر انقضى وولى (1)

---

(1) ذكر السيوطي أن العرب في الجاهلية كانت تسمي الأحد الأول والإثنين ، الأهون ، بعضهم يقول الأهود ، والثلاثاء جبارا ، والأربعاء دبارا ، والخميس مؤنسا ،

والجمعة العروبة ، وبعضهم يقول عروبة فلا يعرفها ، والسبت شيارا ، المزهر ، ج 1 ، ص . 459 .

(13546/1)

. يلزم عن المثبت في هذه الفقرة مبدأ ضرورة الفصل بين القولة والكلمة عند إجراء مبدأ التفتير على المفردات المعجم التاريخي.

... وإذا صح ما سقناه حول مبدأ ثابت المعجم ومتغيره يلزم أن تكون حركة التبذل في قسم المتغير من المعجم أكثر منها في قسم الثابت منه . ونعني بحركة التبدل ما يلحق المادة المعجمية من عوارض بعضها يطرأ على ثابت المعجم فلا يحصل له غيره ، كتوسيع كلمة أو تقليصها وتشقيقها . محدودية هذا التغيير آتية من السماح في هذا القسم بتعدد القراءة لا غير . إضافة إلى هذا التغييير الطفيف يطرأ أيضا على

(13547/1)

متغير المعجم تبدلات ، من أهمها "الترك" ، و "النقل " ، و " الخلق " . وهذا الأخير يحصل بإحدى الوسيلتين " التوليد

" ، مثل (صاروخ) و (حاسوب) ، أو " الاقتراض " . ويكون الاقتراض عن طريق التعريب ، مثل (تلفاز) و (تلفن) ، أو عن طريق التعجيم مثل (تلفون) و (تلفزيون) ، (وشومسكي لاحقة) . باعتبار أن العجمة قد تمثل في القولة ، أو أحد المركبات المزجية أو الوصفية أو الإضافية ، كما في المثال المذكور . ويترتب عن محتوى هذه الفقرة أن يراعى عند وضع المجمع التاريخي مبدأ أصول النشأة وطرقها .

(13548/1)

... بإجراء ما سرد من المبادئ ؛ 1) ثابت المعجم ومتغيره ، 2) تفتير المفردات ، 3) الفصل بين القولة والكلمة ، 4) أصول النشأة وطرقها ، يتكون معجم تاريخي له من الأدوار ما لا يكون لغيره العام . كما سيتضح من المبحث الآتي .

1 – قيمة المعجم التاريخي

... قد يتساءل عن جدوى معجم تاريخي ، وعن مجالات استعماله ، وفيما ينتفع به ، وهل يسد ما سد المعجم العام الذي لا يخضع وضعه لما سرد من المبادئ . عن السؤال الأخير يمكن بكل اطمئنان أن نجيب بالإيجاب ،

مادام التمثيل الدلالي والصرفي والتركيبي فيهما واحدا.

ويزيد

(13549/1)

عليه التاريخي بمهام ليست للعام ، إذ يكون له

استعمالان : أحدهما ذرعي والآخر لغوي . ...

1– الاستعمال الذرعي للمعجم التاريخي :

... تناول معجم اللغة من الوجهة التاريخية لا يكون

بمعزل عن المجتمع المدخر ثقافته في مفردات المعجم .

ويسبب الترابط القوي بينهما تتغير المادة المعجمية

بتأثير من مختلف الأنشطة البشرية المتداولة بين

أفراد المجتمع ، بحيث يكون معجم اللغة مسايرا

للتحولات الاجتماعية المتعاقبة عبر تاريخ الأمة .

ويكوون التقطيع المجتمعي والمعجمي واحدا . لتوضيح

العبارة بالمثال لا أحد يشك في أن العصر

(13550/1)

الجاهلي مجتمع مدخر بصورة مجملة في مفردات معجم ، وأن

مجيء الإسلام أحدث طفرة إنسانية مدونة بنفس الصورة

في مادة معجم جديدة (1)

---

(1) عن المثبت أعلاه يعبر ابن فارس بقوله : " كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهن ونسائهم وقرابينهم فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ، ونسخت ديانات ، وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظا من مواضع إلى مواضع أخرى بزيادات وشرائع شرعت ، وشرائط شرطت . فعفى الآخر الأول " ، الصاحبي ، ص . 78 . وفي الموضوع نفسه انظر أيضا السيوطي ، المزهر ، ج 1 ، ص . 294 .

(13551/1)

، كما أن احتلال البلاد الإسلامية وإخضاع أهلها لثقافة المستعمر سيحدثان نكسة اجتماعية محفوظة كرؤوس أقلام أو عناوين في مفردات معجم النكسة . وهكذا تتعاقب على اللغة المعينة ، كالعربية مثلا ، مواد معجمية متغايرة كتعاقب الأحوال الاجتماعية المتباينة على مسار أهل تلك اللغة ، إلا أن بعضا من الأحوال الاجتماعية تفنى وتضمحل بينما موادها المعجمية تبقى محفوظة ولا تندثر .

... عن تلكم العلاقة القائمة بين الأحوال المجتمعية

والموارد المعجمية يلزم أن ينظر إلى المعجم التاريخي بوصفه وثيقة طبيعية شمولية . فهو وثيقة

(13552/1)

طبيعية لأنه يمتنع افتعالها ، وشمولية لأنها تغطي كل المجالات والحقول مما عملته أيدي القوم وعقولهم ، أو ورد عليهم بنقلة إلهية أو نكسة بشرية وبذلك يمكن اتخاذ المعجم التاريخي ذريعة ، ووسيلة منهجية للكشف الموضوعي عن البائد من أحوال المجتمع وقارها . وليس أسهل من تحويل الظاهرة المجتمعية المقصودة بالدراسة إلى حقل دلالي (1) ، بحيث يتأتى للدارس أن يعاين مدى

---

(1) المقصود بالحقل الدلالي مفردات المعجم المرتبطة دلاليا بمحور معين ؛ كما تجمعت في معاجم المعاني من قبيل المخصص ، لابن سيده ، وفقه اللغة للثعالبي .

(13553/1)

فشو الظاهرة المعينة أو خبوها على مر العصور وذلك من خلال ما يلاحظه من اتساع أو ضيق في الحقل الدلالي

المقترن بتلك الظاهرة .

... ويدخل في الاستعمار الذرعي للمعجم التاريخي دراسة نصوص منتمية إلى أحقاب متغايرة إذ يفتقر إليه الدارس من أجل تأويل سليم لعباراتها ، سواء أكان النص المدروس شرعيا أم تاريخيا أم أدبيا أم علميا .

فلفظة (زعم) في " موجهات الخطاب العلمي " المعاصر تقترن بمعنى

(الادعاء الذي يكون مظنة للكذب) . لكنها في " الكتاب " في مثل قول سيبويه ؛ "زعم الخليل ...وقد زعم بعضهم " ، تقترن بمعنى (

(13554/1)

عد الأمر كذا واعتبره كذلك) وعليه قول الشاعر :

... " زعمتني شيخا ولست بشيخ ... ... إنما الشيخ من يدب دبيبا " (1)

وبه يتجنب مثل هذا التأويل لقوله تعالى { ختامه مسك } الظاهر في شرحهم لمفردة " الختام : الطين أو الشمع يختم به على الشيء وفي التنزيل العزيز { ختامه مسك } (2). وقد بين الراغب الاصفهاني فساد هذا التأويل (3)

---

(1) انظر الخليل ، محجم العين ، مادة (زعم) .

(2) انظر : المعجم الوسيط ، مادة (ختم) .

(3) قال الأصفهاني في شرح الآية { ختامه مسك } : " معناه منقطعه ، وخاتمة شربه ؛ أي سؤره في الطيب مسك . وقول من قال : يختم بالمسك أي يطبع فليس بشيء . لأن الشراب يجب أن يطيبفي نفسه . فأماختمه بالطيب فليس مما يفيده . ولا ينفعه طيب خاتمه مالم يطب في نفسه " مفردات غريبي القرأن . وذكر الأنباري في كتابه إيضاح الوقوف والابتداء أن (ختامهه) معناه خلطه .

(13555/1)

. وتستعمل في كلام الناس حاليا بمعنى (ترك ما يحسن في كل شيء ويجمل إلى خاتمته لإنهائه به) . وبين الاستعمالين فرق في المعنى كبير.

... ومما يستعمل حاليا بمعنى مغاير لمعناه في نصوص قديمة نذكر المفردة " كلا " . إذ يغلب على استعمالها الحالي أن تكون بمعنى " لا " في الجواب بالنفي عن سؤال . كما يتضح ذلك من العبارة (ب) المجاب بها عن السؤال (أ) في مثل الجملتين (1) .

(1) (أ) هل رأيت شخصا يخرج من بيت القتيل .

(ب) كلا ، لأني ظللت في سريري ذلك اليوم .

(13556/1)

... ولهذه المفردة في السابق استعمالات مغايرة لما هي عليه اليوم . فلا تكون بمعنى " لا "في الجواب بالنفي عن استفهام و إن جاءت بعده ، كما في وقله تعالى . (2 ، أ) . لأن الطمع حاصل والدخول ممتنع . وفي الآية (2 ، ب) حيث يكون الجواب بالتعيين لا بالإثبات أو النفي . وهي بمعناها إذا راكبت جملة خبرية منتهية بها . كما في قوله جل شأنه (2 ، ج) ، أو جملة طلبية كما في الآية (2 ، د) .

(2) (أ) { أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم كلا } (70 – 39) (1) .

---

(1) العدد الأول رقم السورة والثاني رقم الآية .

(13557/1)

(ب) { يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لاوزر } (75 – 11) .

(ج) { ثم يطمع أن أزيد كلا } (74 – 15) .

(د) { قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا }

(23 – 99) .

... " كلا " في هذه الآيات ونحوها من الاستعمالات تكون " زجرا وردا و إنكار لما قبلها ... لأن فيها معنى التهديد والوعيد " (1) . وهي في صدر الجملة خلو من معنى الإنكار مشحونة بمعنى التوكيد ؛ كانت داخلة على جملة إسمية ، كما في (3 ، أ) أو على جملة فعلية في

---

(1) القيسي ، شرح كلا وبلى ونعم ، ص . 23 .

(13558/1)

مثل (3 ،ب) . وقد تأتي بمعنى " ألا " الاستفتاحية ، كما في (3 ، ج) .

(3) (أ) { كلا إن كتاب الفجار لفي سجين } (83 – 7) .

(ب) { كلا سيعلمون } (78 – 4) .

(ج) { كلا إنها تذكرة } (80 – 11) .

... من استعمالات هذه النماذج (زعم) ، و (ختام)، و(كلا) المنتمية بالتوالي إلى مقولات الفعل والإسم والإدارة نستخلص فرضية مراسية قد لا تتخلف ، ونصوغها في العبارة

(4) الموالية .

(4) التأويل السليم لأي نص منتم لفترة مغايرة لفترة الدراسة يلزمه معجم تاريخي .

(13559/1)

... ويجب أن تصدق الفرضية المراسية (4) على نص من فترة سابقة ، مثاله نصوص الشعر الجاهلي الدروسة حاليا ، صدوقها على نص من فترة لاحقة ، مثاله القرآن الكريم إبان نزوله و الشروع في تفسير معانيه واستنباط أحكامه . إذ جميع معانيه الإسلامية المدخرة في مفرداته تشريعات مستحدثة ، تصير حاضرا بتمثلها والاهتداء بها، وإلا بقيت مستقبلا لم يدرك.

... 2–الاستعمال اللغوي للمعجم التا ريخي :

... ثبت في المبحث السابق أن المعجم التاريخي يوفر معلومات يستخدمها الشتغلون بحقول معرفية متعددة ، كالمؤرخ ، والمفسر ، وناقد

(13560/1)

الأدب ، ودارس المجتمع ، وغير هؤلاء كثير. أما غايتنا من هذا المبحث فتنحصر في الكشف عن حاجة اللغوي إليه .

لأن تفسير الملحوظ في ظواهر لغوية أو الإثبات المراسي لفرضية نظرية يحوجان اللساني إلى تاريخ اللغة ، كما توضحه العبارة

"ولو كان بأيدينا تاريخ للغة العربية يرصد مراحل تطورها مرحلة لأمكننا تتبع مسلسل التحجر بكيفية أدق "(1). وبما أن المعجم أحد الفصوص المكونة للغة وجب أن يستقل بقسم من تاريخ استقلال كل من أصواتها و صرفها

---

(1) الدكتور أحمد المتوكل ، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية ، ج2 ، ص.43 .

(13561/1)

و تركيبها بما يعنيه من تاريخ اللغة ككل. يشهد لهذا الاستقلال الجزئي طبعا ما سبق إثباته من أن بعض فصوص اللغة أكثر قابلية للتغيير من بعضها الآخر(1) ، و أنه بسبب من مبدأ التساند القائم بين مكونات النسق يتسرب التغيير من فص معرض لعوامله إلى فص ىخر اقل عرضة لأسباب التغيير و عوامله.

... من المثبت في الفقرة السابقة نخلص إلى أن تاريخ اللغة، يتشكل من مجموع تواريخ فصوصها التي

تكونها. و أن للمعجم ، بوصفه

---

(1) انظر محمد الاوراغي ، " اللغويات التاريخية و التاريخ اللغوي "، ضمن مجلة التاريخ العربي ، العدد الأول .

(13562/1)

أحد فصوصها، تاريخه الخاص ، ينتفع اللساني بجانب منه ففي دراسته اللغوية. و قبل الشروع في الكشف عن هذا الجانب من استعمالات المعجم التاريخي يحسن أن نذكر من جديد بضرورة الفصل بين تاريخ اللغة بوصفه ممارسة علمية تلاحق بنية اللغة و تتعقب تطورها في احد الاتجاهين باعتبارها قابلة للنتقال إلى طور أحسن أو أقبح. ومن جهة اخرى بين تاريخ علم اللغة ؛ (أو تاريخ اللسانيات) الذي يهتم بميلاد أفكار النحاة ونظرياتهم، و يتعقب اطاريحهم و تحاليلهم المقترحة لمختلف الظواهر المبحوثة، و من جهة ثالثة بين تاريخ اللغويين الذي

(13563/1)

يعنى بالحياة العلمية و الظروف البيئية و الاجتماعية للمشتغلين بالمسألة اللغوية. و ليس للصنف الأخير من التأريخ سوى دور المساعد في إقامة تاريخ لعلم اللغة الذي ينحصر دوره هو الآخر في المساعدة على إنشاء تاريخ للغة ذاتها.

... و قد ألم أكثر من دارس على مبدأ الفصل بين تارخ العلم و تارخ المشتغلين به ، و هو ما تبين عنه العبارة " و لنذكر هنا أن تارخ النحو يختلف عن تاريخ النجاة. لقد كتب الكثير عن النحويين و القليل عن تاريخ النحو "(1)

---

(1) الذكتور محمد المختار ولد أباه ، تاريخ النحو العربي في المشرق و المغرب ، ص. 22.

(13564/1)

. و تبين أن التأريخ للنحو أفيد و أنفع من الاشتغال بحياة أصحابه كما توضحه هذه العبارة التي تفاصل بينهما " محاولة تبيان مراحل التطور لهذا العلم. وهذا ماينبغي أن يكون أهم شيء في تاريخ العلوم "(1) إن كان الدكتور محمد المختار قد عقد العزم في مقدمة كتابه على التأريخ للنحو؛ بمعنى مما يطرحه النحاة من

أجهزة وصفية و مايدخل عليها من التعديلات خلال استعمالها في وصف العربية خلال التصدي للموضوع وجد نفسه يؤرخ للنحاة(2)

---

(1) نفسه، ص. 23.

(2) ننبه المؤلف إلى ما بين المشروع و تنفيذه فختم كتابه بقوله : " هنا أنهي هذا الكتاب و إن لم أنجزه كما كنت أتصوره ... و ذلك أنني أولا ساورني الطموح أن أكتب تاريخاا للنحو لا للنجاه " ، تاريخ النحو العربي ، ص. 575.

(13565/1)

، الشيء الذي يدل على درجة ممنن الصعوبة في فرز الأنظار النحووية المتشابكة ، و بالأأحرى فرز اللغة ذاتها.

... و إذا تبين أن تاريخ النحاة مختلف عن تاريخ النحو و هما غير تاريخ اللغة المتشكل منن تواريخ فصوصها فإن الذي يهمنا الضرب الأخير قسم المعجم التاريخي خاصة. لأنه يعنينا الآن أن نوضح ما يوفره من المعلومات عن المادة المعجمية ، تمكن اللساني من وصف بنية اللغة في حاضره . فالمطلوب أن نبين كيف يتردد اللساني ، و

هو يدرس ظواهر بعينها ، ببين االمعجمية و حاضر البنية اللغوية .و ينبغي ألا يغيب عنا أن ماضي

(13566/1)

المعجم الممقصود في هذه المرحلة من البحث يععني االلساني أكثر من غيره ، و أنه لا يهمه إرجاع تلك المادة إلى الماضي بعينها بقدر مما يهمه أن حاضرها يكشف عن أن لها مماصيا مغايرا .

... من جملة ما يكشف عما للمفردة من الماضي أصل " من التركيب إلى المعجم " (1) المعبر عنه بالصيغة (5) الموالية.

---

(1) للمزيد من التفصييل فيما يخص أصل المعجمة المصوغ في العبارة (5) أعلاه انظر مقال :

bernard pottier , l ‘incidence et le procès d’inversion des hiérachies sémantiques , in la linguistiques génétique.

(13567/1)

---

(5) التركيب المعجم ...

... ... مَعْجَمَة

أصل من التركيب إلىكل مفردة خضعت في فترة من التطور اللغوي لعملية المعجمة. من جراء هذه العملية تغادر وحدة لغوية التركيب لتنضم إلى المعجم .و يدل على انضمامها المتأخر إلى تلك المفردات بخاصية التركيب الشاهدة على ماضيها . من هذا القبيل يمكن أن نذكر ما يلي من المركبات .

... (1) المركبات الوصفية ؛ هذا الصنف من المفردات المعجمية ناتج ، إذا صح تنبؤ بوتييي في مقاله المشار إليه في الطرة (19) أسفله ، عن انقلاب تركيب الإسناد " المسيرة خضراء " إلى مركب وصفي "

(13568/1)

المسيرة الخضراء . إذن ، كل مفردة معجمية بصورة مركب وصفي فإن لها تركيب الإسناد أصلا عنه تتحول ففي مرحلة متأخرة من تكوينها إلى مدخل معجممي ، كما توضح أمثلة المبيان (6) الذي يؤرخ لمختلف المراحل المقطوعة عند نشأة صنف االمركب الوصفي من مفردات المعجم .

(6) ...

1(. تراكيب الإسناد

... 1.1. تزمين 1.2. تجريد(2. مفردات المعجم

... 1.1. اسود الحجر 1.2. الحجر أسود 2. الحجر الأسود

... 1.1. طار الصحن 1.2. الصحن طائر 2. الصحن الطائر

1.1. شرعت السلطة 1.2 .السلطة مشرعة 2. السلطة التشريعية

(13569/1)

أما المركبات الوصفية المعكوسة (وهي مفردات المعجم التي يسبق فيها الوصف الموصوف)،فإن تكوينها يكون في طور ثالث من عملية المعجمة، كما يتضح من أمثلة المبيان (7) الذي يكشف عن انزلاق الموصوف إلى المرتبة الثانية بعد الوصف.

(7) موصوف

2 وصف ... 3. جد عظيم، رفيع العماد، طويل اليد، سليط اللسان. قيد الأوابد. عبر الهواجر، جنوب إفريقيا، شمال المغرب.

وبعكس ترتيب العناصر التي تكون المكون الوصفي يتولد "مركب إضافي" صورة لا دلالة. لأن الوصف، وإن أضيف إلى الموصوف المحلى بالمعرف "الى"،فلا يتكتسب بذلك تعريفا، بدليل

جواز أن يقع نعتا للنكرة كما في قوله (1) .

(8) بمنجرد قيد الاوابد لاحه طراد الهوادي.

... ويدخل في المفردات المعجمية التي أصلها تركيب الإسناد مركبات خاصة؛ أحد عناصرها الفعل. نذكر من هذا الصنف ما يلي :

(II) مركبات مزجية : وهي سبائك تولدت في فترة الاستعمال عن مزج فعل واسم، منه (حبذا) ذكر الأزهري في تأليفه "وإما حبذا فإنه حبّ ذا فإذا وصلت رفعت به فقلت حبذا زيد" (2)

---

(1) أنظر سيبويه، الكاتب، ج1، ص. 211.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، مادة (حب) وذكر ابن منظور في تأليف هذه الكلمة فقال : "حبذا كلمتان جعلتا شيئًا واحدا، ولم تغير في تثنية ولا جمع ولا تأنيث، ورفع بها الإسم. تقول : حبذا زيد، وحبذا الزيدان، وحبذا الزيدون، وحبذا أنت، وأنتما وحبذا يبتدأ بها... لأن حبذا كلمة مدح يبتدأ بها لأنها جواب...أجربتها على ذكر شيئً سمعته... وحبذا في الحقيقة فعل واسم (حب) بمنزلة (نعم) و (ذا) فاعل بمنزلة ("الرجل"). أنظر لسان العرب" مادتي (حب) و (حبذا).

(13571/1)

وإن الغاية من سبك الفعل (حبـ) مع الإسم (ذا) تكمن في توليد محمول إسمي؛ من صنف المشتقات، يجوز إثباته وصفا على جهة المدح للموضوع المرفوع بعده، كما في الجملة (9) الموالية :

(9) حبذا العدل.

... وهكذا تكون "جهة المدح" المدلول عليها بسبيكة "حبذا" هي المقتضية لتقديم الخبر (حبذا) على المبتدأ (العدل) في الجملة (9). ويمكن الدلالة أيضا على جهة المدح أو جهة الذم بصيغة محمول إسمي. وذلك عن طريق تسمية الفعلين (نعم) و(بئس) بتسكين عينهما؛ (نعم)، و(بئس)، لأن هذه الخاصية الصرفية؛ (تكسين عين الثلاثي) لا تلحق سوى

(13572/1)

الاسماء.

... وفي مرحلة ثالثة من تطور المحمول (حبذا)، كما عليه الاستعمال في عصرنا الحاضر، تحول إلى فعل تام التصرف؛ بعد أن تنوسي اسم الإشارة (ذا) عن طريق إسقاط ألفه،

وجعل (ذا) ضمن أحرف الفعل الأصول (حبذا)، وصار يشاكل بمعناه الفعل (فَضَّلَ)، كما هو الحال في الجملة (10) التالية.

... (10) يحبذ منظمو الندوة أن تكون المحاضرات مكتوبة.

... ومن المركبات المزجية المنتمية إلى مقولة الأداة المتولدة. في مرحلة ما من تطور اللغة، عن سبك أداتين مستقلتين نسوق ما بإزاء (11) من الأمثلة.

(13573/1)

---

(11) (أ) إن + ما ... ... إنما الحصرية

(ب) إن + لا ... ... إلا استثنائية

(ج) ك + لا ... ... كلا التوكيدية أو الزجرية.

يشهد على الماضي المنقضي للأداة المركبة لجوء اللغوي أحيانا إليه من أجل تفسير خاصة بنيوية أو تأويل دلالي. من الأول تفسير نحاة نصب المستثنى بالأداة (إن) المركبة مع (لا) في (إلا) ومن الثاني تبرير البيانيين لمعنى الحصر في (إنما) بما اجتمع فيها من الإثبات المقترن بالأداة (إن) والنفي المدلول عليه بالأداة (ما).

... (III) المركبات المتراصة

(13574/1)

. يشكل التراص حلقة تقع بين مرحلة تركيبية قبلها وأخرى مزجية بعدها. وهو يضم من المفردات المعجمية ماكان في مرحلة التركيب مؤلفا بالعطف، كما في مثل (الحضارة العربية والإسلامية)، و(إثنان وعشرة) و (اللغات الهندية والأوربية). ثم صار إلى مرحلة التراص بإسقاط العطف؛ (الحضارة العربية الإسلامية)، و(إثنا عشر). ويتهيأ بذلك لأن يصير إلى مرحلة المزج المتميزة بإسقاط بعض خصائص القولتين ليسهل اندماج أحرفهما في مفردة معجمية واحدة، كما في نحو (الهند أوربية).

(13575/1)

... يشهد على سقوط واو العطف من المركبات المتراصة، كما في اسماء الأعداد من أحد عشر إلى تسعة عشر ونحوها من أسماء الجواهر كالمنظمة الإفريقية الأسيوية، و (إثنان وثلاثون) و (ثلاثة وأربعون) وهلم جرا. وكذلك استمرارها في الاستعمال على قلته بالنسبة إلى أسماء، كما في (منهج الافتراض والاستنباط).

... يبين مما تقدم أنه بإسقاط واو العطف تحصل المعجمة

بالخروج عن التركيب إلى مرحلة التراص التي ينتقل عنها إلى طور المزج الحاصل بإسقاط بعض خصائص العنصرين الممتزجين في المفردة الواحدة. يعني هذا أن الأسماء المتولدة عن

(13576/1)

التركيب المزجي قد قطعت فترة التراص. وأن أسماء الأعداد من أحد عشر إلى تسعة عشر مهيأة للمرور إلى طور التركيب المزجي، وقد وصلته في عاميات عربية حيث يقال في النطق بها : (حداش، تناش، تلتاش...) أما وحدات العقود الزائدة على الأعداد (عشرون، ثلاثون، أربعون...) في مثل (واحد وعشرون) فإنها مهيأة لأن تصير إلى طور التراص. وهي في هذا التطور بالنسبة إلى اللغات الأوربية.

... وللمفردات المعجمية الناتجة عن الجمع بين عنصرين خصائص فارقة تميز أطوارها. ففي طور التركيب يستلم العنصران المؤلفان بالعطف نفس العوارض، من

(13577/1)

حالة تركيبية وعلامة إعرابية ووظيفية نحوية. وفي مرحلة التراص يستحوذ العنصر الثاني على العوارض، ويلزم حرف الإعراب من العنصر الأول علامة بناء لا تفارقه. أما في طور المزج فإن معالم التركيب تكاد تختفي. إذ يسبك من بعض أحرف العنصرين قولة تتمتع بنفس الخصائص الصرفية التي تكون للموضوع أصلا مفردا.

... (IV) المركبات الإضافية. تمثل المركبات الإضافية من قبيل؛ (سوار الذهب، ورئيس الوزراء، واقتصاد السوق، وفك الاشتباك، وموصل الكهرباء، وفقر الدم، ومحور الأراتيب، ونحوها الكثير)، وآخر الأطوار في عملية المعجمة. ينتقل

(13578/1)

إليه بعد إسقاط حرف الإضافة (1) الفاصل بين العنصرين المتفاضلين وهما في المرحلة ما قبل النهائية. وقد وصف سيبويه مرحلة

---

(1) مثل الأحرف؛ (عن، إلى، من، في، على...) ونحوها يسميها سيبويه حروف الإضافة باعتبار وظيفتها التي هي "إضافة معاني الأفعال قبلها إلى الأسماء بعدها"، وتسمى أيضا باعتبار عملها "حروف الجر"، لأنها تجر ما

بعدها من الأسماء، أي تخفضها. وهي متساوية في إيصال الأفعال إلى ما بعدها وعمل الخفض وإن اختلفت معانيها في أنفسها". ابن يعيش، شرح المفصل"، ج 8، ص 7. أنظر أيضا سيوبيه، الكتاب،ج 1، ص.209.

(13579/1)

"الإضافة بالحرف" بتحليل مثال من حرف إضافة فقال "فإذا قلت : يا لبكر فإنما أردت أن تجعل ما يعمل في المنادى مضافا إلى بكر باللام. وإذا قلت : مررت بزيد، فإنما أضفت المرور إلى زيد بالباء؛ وكذلك هذا لعبد الله. وإذا قلت : أنت كعبد الله فقد أضفت إلى عبد الله الشبه بالكاف. وإذا قلت : أخذته من عبد الله فقد أضفت الأخذ إلى عبد الله بمن. وإذا قلت: مذ زمان، فقد أضفت الأمر إلى وقت من الزمان بمذ. وإذا قلت : أنت في الدار، فقد أضفت كينونتك في الدار إلى الدار بفي ... وإذا قلت رب رجل يقول ذاك فقد أضفت القول إلى

(13580/1)

الرجل برب. وإذا قلت : بالله، ووالله، فإنما أضفت الحلف إلى الله جل ثناؤه" (1).

... ويشهد لطور الإضافة بالحرف احتفاظ بعض المفردات المعجمية في الكتب المدرسية بحرف الإضافة الجامع بين عنصرين في مركب إضافي من قبيل "مضاد اللإبالة، وكاره للماء ومسرع للقلب وناقل للأكترونات وباعث للسكر وإدخال في المعدة وفرط في الإماهة ونحوها كثير". وإذا كان الاحتفاظ أحيانا بالحرف مبررا دلاليا، إذ لا يجوز إسقاط (في) مثلا من "إدخال في المعدة" لما يلزم عن "إدخال المعدة" من تغيير ضروري في الحد

---

(1) سيبويه ، الكاتب، ج1،ص .209.

(13581/1)

في مثل (فرط في الإبالة، وناشر للحرارة) ليس له ما يبرره سوى الوقوف بالمفردة المعجمية عند هذه المرحلة الواقعة في الوسط بين التركيب قبلها والمعجم بعدها. كما توضح ذلك سلمية التساند (12) الموالية :

(12) دخل الهارب إلى المسجد < ... دخول إلى المسجد < دخول المسجد.

... وحرف الإضافة (إلى) ونحوه في مثل الجملة (دخل الهارب

إلى المسجد) يعمل عملا داخليا. بمعنى أن حروف الجر يتسلط عملها على اسم معمول بغيرها فتطمس أثر العامل القديم ولا تلغيه. لأنه يستلمه من جديد المركب من حرف الإضافة والإسم المجرور، كما يتضح من

(13582/1)

خلال المقارنة بين جمل المجموعة (13) التالية :

(13) (أ) دخلت القوارض مخبزة.

(ب) دخلت القوارض إلى مخبزة.

(ج) دخلت القوارض إلى مخبزة ودكانا.

... يتبين من الجملة (13، أ)، أن المركب الفعلي (دخلت القوارض) عامل يجلب حالة النصب التركيبية، فيسمح لفص الإعراب؛ أحد مكونات النحو العاملي، بأن يعمل الفتحة الظاهرة على الحرف الإعرابي للإسم (مخبزة). وبما أن حروف الإضافة تستمد من "مبدأ الجوار" القدرة على أن تطمس بعملها للجر إعرابا سابقا وهو النصب من غير أن تقوى على إلغائه لوقوعها بدورها في مجال عامل سابق وجب أن

(13583/1)

يتولد عن اقتران (إلى) بالإسم (مخبزة) في الجملة (13،ب) عمل داخلي، يتمثل في نسخ الفتحة التي هي علامة لحالة النصب المسندة عندئذ إلى المركب الحرفي (إلى المخبزة) لوقوعه في مجال عامل سابق؛ وهو المركب الفعلي

الذي يعمل حالة النصب التركيبية. ويشهد على استلام المركب الحرفي لحالة النصب ظهور الفتحة علامة هذه الحالة على المعطوف (دكانا) في الجملة (13، ج) (1)

---

(1) كون المركب الحرفي يستلم حالة النصب ذكره النحاة وعبر عنه ابن يعيش إذ قال : "قد تنصب ما عطفته على الجار والمجرور نحو قولك مررت بزيد وعمرا، وإن شئت (وعمرو) بالخفض على اللفظ، والنصب على الموضع... فهذا يؤذن بأن الجار والمجرور في موضع نصب ولذلك قال سيبويه إنك إذا قلت مررت بزيد فكأنك قلت مررت زيدا. يريد أنه لو كان مما يجوز ان يستعمل بغير حرف جر لكان منصوبا.

وجملة الأمر أن حرف الجر ينزل منزلة جزء من الاسم من حيث كان وما بعده في موضع نصب"، شرح المفصل، ج8،ص.10.

(13584/1)

.

... وقد ينسخ حرف الإضافة بعمله للجر الضمة المعربة عن حالة الرفع كما تكشف عنه الجملة (14) الموالية :

(14) كفى بالكتاب مؤنسا.

... لكن حرف الباء ونحوه فليس له في مثل الجملة (14) سوى عمل الجر؛ أما وظيفة الإضافة التي يطلع بها كل جار فملغاة إن اقترن الحرف باسم فاعل. لذا وصف النحاة بالزيادة أي حرف جر داخل على الفاعل (1) . لأن الأصل من وضع حروف الإضافة أن تساعد أفعالا ضعيفة لا تقوى بمفردها على تجاوز المرفوع. إذ من الافعال " أفعال

---

(1) للتوسع في مواضع زيادة حرف الجر أنظر ابن هشام، مغني البيب،ص. 112.

(13585/1)

ضعفت عن تجاوز الفاعل إلى المفعول فاحتاجت إلى أشياء تستعين بها على تناوله والوصول إليه. وذلك نحو عجبت، ومررت، وذهبت... فلما ضعفت هذه الأفعال عن الوصول إلى الأسماء رفدت بحروف الإضافة" (1) . ومما أوردناه حول وظيفة حرف الإضافة وعمله الداخلي نستخلص جملة من الفرضيات المراسية. ومن أهمها :

... أولا، من عوامل الإعراب ما يكون عمله داخليا؛ كأن يجلب لمعموله علامة ينسخ بها إعرابه السابق، ويشكل معه مركبا يتلقى الإعراب المطموس إذا دخل الناسخ ومعموله في مجال عامل آخر. وكل عامل

---

(1) ابن يعيش، شرح المفصل، ج 8، ص.8.

(13586/1)

يطمس بعمله إعرابا سابقا فهو ناسخ لإعراب أصلي.

... ثانيا، نواسخ الإعراب الأصلي قسمان. أحدهما يضم نواسخ تجلب فتحة لمعمولاتها فتطمس بها إعراب الرفع الذي كان لها. ويضم هذا القسم ثلاثة أضرب : 1- ما ينسخ إعراب المبتدأ ولا يتناول الخبر لاحتفاظه بإعرابه الأصلي. من هذا الضرب (إن) في نحو (إن الفقر مذلة). و 2 - ما ينسخ إعراب الخبر ولا يتناول المبتدأ، مثل (كان) في قوله تعالى

{ كان الناس أمة واحدة }.و 3- ما ينسخ إعراب المبتدأ وخبره معا. منه الأفعال الموجهة من قبيل (علم، وظن، وزعم) في مثل (تحسب العفيف غنيا).

(13587/1)

وتتميز النواسخ الفعلية، كانت ناقصة أو تامة، بكونها لا تشكل مع معمولها مركبا واقعا في مجال عامل آخر، بخلاف ذلك النواسخ الحرفية. كما يؤذن بذلك العطف على محل المركب في قوله تعالى { إن الله بريء من المشركين ورسوله }.

أما القسم الثاني من النواسخ فإنه يضم حروف الإضافة التي تجلب الكسر لمعمولها فتطمس به إعراب النصب الذي كان له. لكنه يطرد في حرف الجر أن يؤلف مع معموله مركبا واقعا في مجال عامل النصب. وقد تخلع وظيفة الإضافة عن حرف الجر إن هو طمس بعمله إعراب الفاعل. كما في قوله عز وجل { وما تسقط من ورقة } و

(13588/1)

{ما تخرج من ثمرات } و { كفى بالله شهيدا }.

... ثالثا ، كون حروف الإضافة وضعت أصلا لتقوية غير المتعدي على تجاوز المرفوع وإيصال معناه إلى المفعول يدل على أن إضافة المصادر إلى المفعول . كما في مثل قولهم : "فقر الدم ، وهلاك الجيش ، وشتم الأبرياء ، وقتل الأنبياء ، وصلة الرحم ، ومحبة الله ، وعبادة الرب " . إلا أن

تدقيق العبارة في مسألة إضافة المصدر تقتضي التفصيل في فعله .

... مقولة الفعل ، كما سبق تعريفها في موضع آخر (1)

---

(1) انظر محمد الأوزاغي ، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم ، الباب الأول من القسم الثاني .

(13589/1)

... ، تتناول أصناف :

1 –الفعل القاصر ؛ (كل فعل يراكب اسما حالته التركيبية الرفع ووظيفته النحوية المفعولية)،مصدره لا يضاف قطعا إلى الفاعل . منه " سقوط الفاكهة ، ورسوب المتهاون، وهلاك الظالم " . 2 – الفعل اللازم ؛ (كل فعل يعمله مراكبه بنفسه ، فتكون له حالفة الرفع ووظيفة الفاعل) ، مصدره لا يضاف قطعا إلى المفعول . ومن أمثلته " هروب الجبان ، وقدوم الحاج ، وإقلاع الطائرة " . 3 – الفعل المتعدي ؛ (وهو كل فعل يعمله مراكبه بغيره) مصدره يضاف أصلا إلى المفعول كما في (زيارة الأهل ؛ وحبك نار ، واحترام

(13590/1)

الجار) ، وقد يضاف عرضا إلى الفاعل إن أمن اللبس بوجود ما يعرب عن ذلك ؛ كظهور المفعول في مثل { وأكلهم السحت } وكون المصدر كفعله ينتقي الاسم فاعلا لا مفعولا في نحو {وكذلك أخذ ربك} .

... وتحصل الإضافة بغير حرف الجر إذا أضيفت مصادر الأفعال الثلاثة ؛ القاصر ، واللازم ، والمتعدي ، إلى المفعول أو الفاعل ، كل بحسب اختصاصه وشروطه ، وإلا رفد بحرفها إذا كان المصدر مضافا إلى الظرف ، كما في نحو (سقوط في البئر) ، و(خروج من السجن) ، و { وصد عن سبيل الله } ، و (إدخال في المعدة) . وإذا توسع في استعمال

(13591/1)

الفعل اللازم (1)

---

(1) اشترط في إضافة المصدر إلى الظف التوسع في فعله دون تقييده باللازم أو غيره . ذكره ابن حيان الأندلسي في تفسير قوله : { تربص أربعة أشهر } فقال " هذا من باب إضافة المصدر إلى ما هو ظرف زمان في الأصل ، لكنه اتسع فيه فصير مفعولا به ، ولذلك صحت الإضافة إليه .

وكان الأصل ؛ (تربصهم أربعة أشهر) . وليست الإضافة إلى الظرف من غير اتساع ، وتكون الإضافة على تقدير في " ، البحر المحيط ، ج 2 ، ص . 182 . وقد كرر ابن حيان شرط الاتساع في الفعل في مواضع من تفسيره . كقوله في تحليل الآية { فصيام ثلاثة أيام } . إن " المصدر مضاف للثلاثة بعد الاتساع ، ولو أبقى على الظرفية لم تجز الإضافة " ، نفسه ، ص . 78 .

(13592/1)

بتعديه إلى الظرف بغير الحرف ؛ كما في مثل (تمرون الديار) ، و(تصعدون
الجبال) و(تدخلون الجنان) . من ظوابط إضافة المصدر المذكور يمكن أن نستخلص مقدمة مراسية تخص تاريخ المركب الإضافي ، وأن نصوغها بالعبارة (15) الموالية.
... (15) معجمة المركب الإضافي تحصل أولا بخروجه من تركيب الإسناد إلى شبهه ؛ حيث يلاحظ في هذه المرحلة ، الوظيفة النحوية ؛ (كالإضافة إلى الفاعل ، أو المفعول ، أو الظرف) ، أو يكون تحقيق الإضافة قد حصل بواسطة حرفها ولو في قسم المعنوية (1)

---

(1) فرع نحاة العربية الإضافة إلى : 1 – إضافة لفظية

قيل في تعريفها : " هي كون المضاف صفة مضافة إلى معمولها " . و 2 – إضافة معنوية . وهي التي " لا يكون المضاف صفة مضافة إلى معمولها " . للمزيد من التفصيل انظر الرضي ، شرح الكافية ، ج 1 ، ص .273 .

(13593/1)

منها؛ (وهي التي يضاف فيها اسم الجوهر إلى مثله بغير حرف الجر أو به ، كما في مثل رئيس للوزراء أو رئيس الوزراء ، ومعطف من الجلد أو معطف الجلد ، وسمك في النهر أو سمك النهر) . وثانيا بمغادرة شبه الإسناد إلى الإضافة المعجمية المتميزة بالتجريد صوريا من حرف الجر ودلاليا من ملاحظة الوظيفة النحوية . كما في مثل ؛ (عبد الرحمان ،و فضل الله ، وديوان العرب ، وقوس النصر ، وامرؤ القيس) .

... (٧) المركبات النسبية ؛ مفردات معجمية تولدت في فترة من التطور اللغة عن طريق إلحاق ياء مشددة تتحول إلى حرف إعرابي

(13594/1)

للمفردات ما لم تلحقها هاء الوحدة في مثل (الخوارزمية) .

... ومن خصائص ياء النسبة أن تخرج ما تلحقه إلى مقولة غيره . فقد تزاد في آخر المصدر ، وهو اسم معنى فيصير اسم عين . من هذا القبيل إلحاقها بالمصدر (كرس) (1) للحصول على (كرسي) وهو اسم ذات المقعد من الخشب . وكذلك (الخيري) اسم نبات من (الخير) اسم لمعنى العطف والميل . و(البردي) نبات مائي من (البرد) الذي هو

---

(1) قال ابن فارس في مادة (كرس) ومعناها : " الكاف والراء والسين أصل صحيح يدل على تلبد شيء فوق شيء وتجمعه " ، معجم مقاييس اللغة .

(13595/1)

خلاف الحر . ومن هذا الضرب أمثلة كثيرة . وقد تلحق ياء النسبة اسم عين فتحوله إلى صفة . منه زيادتها في (عاد) قبيلة هود لتوليد (عادي) الدال على كل مألوف اعتاده الناس منذ زمان غابر . ومنه (الكتابي) الذي يوصف به النصراني أو اليهودي .

... كما تزاد ياء النسبة في المفردات تلحق الجمل أيضا لإنشاء مركب نسبي صفة . وهي تختص بلحوق جملة فعلية

فعلها ما ض مسند إلى المتكلم ، فتكون الياء المشددة قد اقترنت بتافعلتُ، في مثل (كنبتي (1)

---

(1) كنتي من شواهد النحاة المتكررة في كتبهم على أن الفعل وفاعله يشكلان مركبا فعليا واحدا . للتوسع في الموضوع انظر الأنباري ، أسرار العربية والإنصاف في مسائل الخلاف ؛ وابن يعيش ، شرح المفصل ؛ انظر أيضا ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (كون) .

(13596/1)

لوصف الشيخ الذي يحدث بما كان له من الصفات الجسمية . فيقول كنا كذا ، وكان كذا ، وكنت كذا . وعليه قول الشاعر :

(16) ... وما أنا كنتي ولا أنا عاجن ... ... وشر الرجال الكنتي وعاجن

... ويلحق به (قلتي) لوصف شخص يحدث بما قال أو كتب . وقد يلحق ياء النسبة الفعل الماضي المسند إلى الغائب في مثل (كاني) وهو الشخص الذي يحدث بما كان له من الصفات الخلقية . كما في اللسان " الكنتي في الجسم والكاني في الخلق " . ويلحق بالكاني الرحلي لوصف الشخص الذي يحدث بما مضى من رحلاته .

(13597/1)

... مما سبق من أمثلة المركبات النسبية يتضح أن لهذا الصنف من مفردات المعجم تاريخا يتمثل في انتقال مركبات ، خلال مراحل التكوين ، من مقولة ’إلى أخرى ، كمرور الجملة إلى مقولة الإسم الصفة ، ومغادرة مفردة لمقولة فرعية إلى مثلها . منه انتقال الإسم المحض إلى اسم صفة وبالعكس . وهكذا يصير التغيير المقولي مادة للمعجم التاريخي .

... (VI) تغير المقولة . يعنى في مسألة تغيير المقولة بتتبع حركة العناصر المعجمية التي غيرت انتماءها إلى مقولة بعينها فانعكس ذلك على بنيتها الصرفية أو التركيبية . وقد يحدث التغيير

(13598/1)

داخل مقولة أصل ؛ كانتقال عناصر من مقولة فرعية إلى مقولة فرعية أخرى . من هذا القبيل انتقال فعل قاصر إلى فعل لازم ، واللازم إلى فعل متعد ، والمتعدي إلى فعل متخط (1)

_____

(1) أثبتنا في عمل آخر سيظهر قريبا إنشاء الله أن طائفة من الأفعال المتعدية متميزة بخاصية الإشراب . إذ تشترك أفعال كل زمرة من هذه الطائفة في تضمين معنى فعل آخر . كاشترك زمرة الفعل (أعطى) في تضمن . معنى (التملك) واقتضاء معنى (الأخذ) . من أفعال هذه الزمرة (وهب ، ومنح ، وزوج ، ووعد وكسا) . واشترك زمرة الفعل (منع) في تضمن معنى (الحرمان) واقتضاء معنى (التجريد). من أفعالها نذكر على سبيل التمثيل (منع ، وسلب ، وحرم ، وسرق) . وللفعل المتخطي خصائص مميزة أخرى يطول الحديث بذكرها .

(13599/1)

وبالعكس . وتكون البنية التركيبية للفعل هي مسؤولية عن الكشف عن تغيير عنصر لمقولته الفرعية . ويلحق به ما تغيرت وسائل التعليق به ، و إن كان هذا الصنف الأخير أدخل في تاريخ التركيب منه في تاريخ المعجم . كما أن تغيير لبنته الصرفية أدخل في تاريخ المكون الصرفي من اللغة ، كأن يتخلى فعل عن بنائه للفاعل للتمسك الجزئي أو النهائي ببنائه للمفعول . من ذلك (قحط ، وقعي ، وقعم ، وزكم ، وعني ، وجن) . وقد يحدث التحول بتغيير الانتماء إلى المقولة الأصل ؛

كانتقال أفعال تامة إلى أفعال ناقصة إلى أدوات . كما ذكره

(13600/1)

الدكتور أحمد المتوكل في مسلسل التحجر (1) .

... ويشهد على تغيير وسيلة التعليق بالفعل ، وتغيير مقولته الفرعية أمثلة من عربية معربين معاصرين و أخرى من العامية المغربية . كما في مجموعة الجمل (17) الموالية :

(17) (أ) استبدلت سيارتي القديمة بأخرى جديدة .

(ب) وهب محمد هندا دارا .

(ج) هاد التلميذ جاب نتائج حسنة .

... تكشف الجملة (17 . أ) عن تغيير وسيلة التعليق بالفعل . إذ يكثر حاليا استعمال (استبدل) متعديا

---

(1) انظر د . المتوكل ، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية ، ج 2 ، ص . 27 .

(13601/1)

بنفسها إلى المفعول المتروك، وبحرف الإضافة إلى العوض ، وهو على خلاف ذلك في العربية كما في قوله تعالى : { أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير }.ويلاحظ أن (وهب) في مثل الجملة (17 . ب) صار فعلا متخطيا . وهو في العربية متعد بنفسه إلى المفعول وبحرف الإضافة إلى المستفيد كما في مثل قوله تعالى { فوهب لي ربي حكما } . ونحوه أربع وعشرين آية .

ويعتبر الفعل (وهب) الذي منع سيبويه تعديته إلى المستفيد بغير حرف الإضافة شاهدا على أن الأصل في جميع الأفعال المتخطية التعدي إلى منصوب واحد لا غير ، وهو ما عبر عنه

(13602/1)

ضراحة إذ قال " فهذه الحروف كان أصلها في الاستعمال بحروف الإضافة ، وليس كل فعل يفعل به هذا " (1) . أما الجملة (17 . ج) فإن فعلها قد تحول من اللزوم ، كما في قوله تعالى { فجاء بعجل سمين } ، إلى التعدي وقد أدمج باء بالإضافة في بنيته الصرفية فصارت (جاب) بدل (جاء به) في العربية الفصحى .

... إلى جانب استبدال الفعل لمقولته الفرعية قد يغادر مقولته الأصل للانتماء إلى الأدوات، إن استوفى مراحل

التحجر التي جعلها الدكتور أحمد المتوكل أربعا (2)

---

(1) سيبويه ، الكتاب ، ج 1 ، ص . 17 .

(2) مما ذكره الدكتور المتوكل في التحجر ومراحله نقتطع قوله : " من المعلوم أن المفردات غالبا ما تتعرض عبر تطور اللغة لظاهرة ما يسمى " التحجير " ... ويمكن رصد تحجر الأفعال المحمولات بالشكل التالي : 1 – يفقد الفعل بالتدريج فحواه العجمي ...2 – يكسب ==دورا آخر يكون غالبا الدلالة على سمات صرفية ...3 – يفقد كذلك بعضا من الخصائص الصرفية – التركيبية ...4 – يبلغ التحجر منتهاه فتنقلب هذه الأفعال إلى أدوات " . للمزيد من التفصيل انظر كتابه اللغة العربية واللسانيات الوظيفية ، ج 2 ، ص . 27 .

(13603/1)

من أمثلة الأفعال التي قطعت كل المراحل في مسلسل التحجير فانقلبت أدوات ذكر : (ليس ، وعيسى، وغدا ، وراح) ونحوها مما تستعمله العاميات العربية ، كما في قول المغربي : " صاحبك عاد اخرج " . حيث يعتبر العنصر (عاد) مجرد أداة تقترن بالفعل الماضي لتقريبه من الحاضر .

... نستخلص من مسائل المبحث (1 . 2) المعقود للاستعمال اللغوي للمعجم التاريخي أن قسما من هذا الأخير مرتبط بتاريخ باللغة ككل . يكشف عن هذه العلاقة أمران . أحدهما أن تاريخ يتشكل من تواريخ فصوصها التي تكونها . وثانيهما كون مفردات من المجمع

(13604/1)

تنشأ وتتغير نسقيا مما يوفر إمكانية التنبؤ بالأطوار التي مرت بها مفردات هذا القسم من غير أن تربط تلك الأطوار بفترات معينة كما اتضح من تناول مراحل تكوين مركبات ؛ كالمركب الوصفي المعكوس خاصة ، والمركب الإضافي ، إلخ .

... بجانب هذا القسم من تاريخ المعجم المتميز بخاصية التنبؤ يقوم قسم ثان يتميز بتحقيب مواده ، ويكون ذلك بربط ولادة مفرداته بطفرة أو بنكسة ، وكذلك فناؤه الدلالي أو اللفظي. ويجتهد داخل إحدى هاتين الفترتين على أن يقرن نشوء كل مفردة أو انقراضها بسنة بعينها ، ويفعل ذلك بثابت المعجم ومتغيره

(13605/1)

كما سيتضح في باقي المباحث من هذا المقال .

مصادر البحث

ابن جني ، الخصائص ، دار الكتب ، القاهرة ، 1371 .

ابن حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، مطابع النصر ، الرياض .

ابن سيده ، المخصص ، المكتب التجاري ، بيروت .

ابن فارس ، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها .

ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، بيروت .

الأزهري ، تهذيب اللغة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة .

الأنباري ، نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، القاهرة ، 1386 .

(13606/1)

الأنباري ، إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل ، مجمع اللغة ، دمشق، 1391 .

الأوزاغي ، اللغويات التاريخية والتاريخ اللغوي ، ضمن مجلة التاريخ العربي ، العدد الأول .

الخليل ، معجم العين ، مكتبة الهلال ، بيروت .

الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، دار المعرفة بيروت .

الرضي ، شرح الكافية .

السكاكي ، مفتاح العلوم ، القاهرة ، 1356 .

السيوطي ، المزهر في علوم العربية ، القاهرة .

الطرابلسي أمجد ، حركة التأليف عند العرب ، مكتبة الفتح ، دمشق 1391 .

الفارابي ، إحصاء العلوم ، القاهرة 1967 .

(13607/1)

الفيروزابادي ، القاموس المحيط ، دار المامون ، دمشق ، 1398 .

المتوكل أحمد ، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية ، دار الأمان ، الرباط ، 1996 .

سيبويه ، الكتاب ، مكتبة المثنى ، بغداد 1316 .

ولده أباه محمد المختار ، تاريخ النحو العربية في المشرق والمغرب ، إيسيسكو ، 1417

(13608/1)

مقدمة كتاب "نفح الطيب" مرآة لثقافة مؤلِّفه الموسوعيّة

... ... الأستاذ عبد الواحد عبد السلام شعيب
... جامعة الفاتح ـ كلية الآداب طرابلس ـ ليبيا

... كثيراً ما يكتفي القارئ بقراءة مقدمة كتاب ما دون إتمام بقية محتوياته، لأنها تكشف عادة عما يعالجه هذا الكتاب أو ذاك المصنف من قضايا وأفكار، فضلاً عما تحتويه كذلك من حديث عن الأسباب الكامنة وراء تأليفه، وعن الخطة أو الهيكلة التي سار على نهجها صاحبه فيه.

(13609/1)

... لذا فقد حرص علماؤنا الأُوَل على اهتمامهم الشديد بأن تكون فواتح كتبهم ومصنفاتهم أو مقدماتها ذات قدر كبير من الدقة والإتقان باعتبارها تمثل المرآة التي تعكس نتاجهم العلمي فيها. وهذا هو ما يهدف إليه اليوم منهج البحث العلمي الحديث وطرائقه.

... وهكذا، فإن شهرة مقدمات بعض الكتب قد تفوق في بعض الأحايين شهرة الكتاب نفسه. وخير مثال على ذلك

"مقدمة" العلامة ابن خلدون التي طغت بشهرتها على شهرة كتابه "العبر" الذي قدم له بتلك المقدمة.

(13610/1)

... ومن الكتب التي حملت اسم المقدمات محتصراً من بقية اسم الكتاب كاملاً وطارت شهرته في الآفاق كتاب "المقدّمات"(1) في الفقه المالكي لأبي الوليد ابن رشد الجدّ المتوفى سنة 520 هـ

---

(1) ... أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت ـ لبنان، 1988، في ثلاثة أجزاء.

(13611/1)

... من هنا ارتأينا أن نولي مقدمة كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب" للمقَّري التلمساني شيئاً من الدراسة التحليلية المركزة بوصفها إحدى مقدمات الكتب التي تعبر

تعبيراً رقيقاً عن هوية مؤلفها الثقافية ذات الطابع الموسوعي، لا بل وعن منهجيته العلمية أيضاً.

... والمقَّري صاحب "النّفح" هو شهاب الدين أحمد بن محمد المقَّري التلمساني المولود بتلمسان بالجزائر سنة 986 هـ والمتوفى بمصر سنة 1041 هـ، وهو حافظ المغرب وجاحظها(1)

---

(1) انظر الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، ج 2، ص. 308 ـ 312. وقد اعتمد صاحب "الإعلام" كثيراً على كتاب "خلاصة الأثر" في الترجمة للمقَّري.

(13612/1)

.

... ولما كانت مقدمة "النّفح" مستوعبة لعدد متنوع من جوانب ثقافة مؤلفها العلمية الموسوعية، فقد رأينا أن نتحدث عن بعض هذه الجوانب في أربعة محاور صغيرة، وذلك على النحو التالي:

أولاً: منهجية المقَّري العلمية:

... يمكن أن نلخص أهم ركائز منهجية المقَّري، العلمية وأهم سماتها في مقدمته في النقاط التالية:

... 1 . يتجلى لقارئ مقدمة كتاب "نفح الطيب" أن مؤلفه قد نهج فيه منهجاً علمياً فريداً في تقسيم هذه الموسوعة الأدبية التاريخية إلى أقسام وأبواب متناسقة ومنسجمة بعضها مع بعض، بحيث قسّم الكتاب إلى قسمين

(13613/1)

رئيسين: القسم الأول، وهو يتعلق بالأندلس وأخبارها ويضم ثمانية أبواب. أما القسم الثاني، فقد خصصه للتعريف بلسان الدين بن الخطيب وأخباره وأحوال العلماء الذين تطرق إلى ذكرهم، وهذا القسم جعله في ثمانية أبواب أيضاً.

... لذا نجد أن المقَّري قد وحّد بين قسمي كتابه من حيث عدد الأبواب، بحيث جعل لكل قسم من قسمي كتابه ثمانية أبواب. وهذا هو النهج الذي يسلكه مع الباحثين والمؤلفين في العصر الحاضر، وذلك تمشياً مع أسس منهج البحث العلمي القويم وأهدافه.

(13614/1)

... 2 ـ من سمات منهجية المقَّري كذلك في مقدمة كتابه "النّفح" أن حدّد لنا فيها المكان والزمان اللّذين خصّهما بالتأليف. فالمكان هو بلاد الأندلس، والزمان هو الحقبة الزمنية التي عاشها المسلمون فيها والتي استمرت نحواً من ثمانية قرون، مع التركيز بصفة خاصة على القرن الثامن الهجري، عصر لسان الدين بن الخطيب الذي خصص له القسم الثاني من الكتاب. وهكذا جعل المقَّري بلاد الأندلس ووزيرها لسان الدين بن الخطيب »محوراً لدائرة معارف تاريخية وأدبية تحتوي أخبار عصره ومصره، لا بل تستوعب كثيراً من أخبار الأجيال التي

(13615/1)

تعاقبت في الأندلس إلى زمان وجوده« (1).

... 3 ـ حدد المقَّري في مقدمته الأسباب التي حدَت به إلى تصنيف كتابه "النّفح". إذ يقول:

... وكنا خلال الإقامة بدمشق المحوطة وأثناء التأمل في محاسن الجامع والمنازل والقصور والغوطة، كثيراً ما ننظم في سلك الذاكرة درر الأخبار الملقوطة... فينجرّ بنا الكلام والحديث شجون وبالتفنن يبلغ المستفيدون ما يرجعون، إلى ذكر البلاد الأندلسية ووصف رياضها السندسية... فصرت أورد بدائع بلغائها ما يجري على

لساني، من الفيض الرحماني،

---

(1) أزهار الرياض، ج 1، من مقدمة الناشرين، ص. ج.

(13616/1)

وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني من النظم الجزل، في الجد والهزل، والإنشاء الذي يدهش به ذاكرة الألباب وإن شاء... فلما تكرر ذلك غير مرة على أسماعهم، لهجوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمة إجماعهم... فطلب مني المولى أحمد الشاهيني إذ ذاك.. أن أتصدّى للتعريف بلسان الدين في مصنف يعرب عن بعض أحواله وأنبائه وبدائعه وصنائعه (1).

... وبالرغم من تردد المقَّري في تقحّم هذا الأمر وتجشّمه في البداية، فإن إلحاح صديقه الأديب الدمشقي أحمد الشاهيني جعله

---

(1) ... »مقدمة « النّفح، ج 1، صص. 69 ـ 70.

(13617/1)

يستجيب لمطلبه إذ عزم على تأليف كتابه "النّفح"، وذلك بعيْد وصوله إلى القاهرة حيث يقول: »ثم إني لما تكرر علي هذا الغر من الإلحاح، ولم تقبل أعذاري التي زنْدُها شحاح، عزمت على الإجابة، للمذكور عليّ من الحقوق... فوعدته بالشروع في المطلب عند الوصول إلى القاهرة المعزّيّة... «(1).

... 4 ـ كما أبان المقَّري في مقدِّمته عن الموضوعات التي ضمنها كتابه "النّفح". إذ يذكر في هذا الصدد:

... ولما حصل لي كمال الاغتباط، نشرت بساط الانبساط(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 80.

(2) يبدو أن المقَّري قد اقتبس هذه العبارة من بيت شعري للقاضي عياض بن موسى السبتي ـ الذي صنف فيه كتابه "أزهار الرياض" ـ والبيت هو:

... ... إذا ما نشرت بساط انبساط ... فعنه فديتك فاطو المزاحا

... (انظر: الخريدة، ج 3، ص. 504).

(13618/1)

، وحدثت لي قوة النشاط، وانقشعت عني سحائب الكسل وانجابت، وناديت فكري فلبّت مع ضعفها وأجابت.

فاقتدحت من القريحة زنداً كان شحاحاً، وجمعت من مقيداتي حساناً وصحاحاً، وكنت كتبت شطره، وملأت بما تيسر هامشه وسطره، ورقمت من أنباء لسان الدين بن الخطيب حُلَلاً لا تخلق جدّتها الأعصر، وسلكت من التعريف به رحمه الله مَهَامِه تكلُّ فيها واسعات الخطى وتقصر.

فحدث لي بعد ذلك عزم على زيادة ذكر الأندلس جملة، ومن كان يعضد بها الإسلام وينصر، وبعض مفاخرها الباسقة، ومآثر أهلها المتناسقة، لأن كل ذلك لا يستوفيه القلم ولا

(13619/1)

يحصر (1).

... 5 ـ كشف المقَّري النقاب في مقدمته عن هويته، ذاكراً فيها اسمه كاملاً ومكان ولادته ومذهبه والأماكن التي حلَّ بها، والأماكن التي تلقى فيها تعليمه أو تولى التدريس بها. فها هو يقول: »فيقول العبد الفقير... أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقَّري، المغربي المالكي الأشعري، التلمساني المولد والنشأة والقراءة،

نـزيل فاس الباهرة ثم مصر والقاهرة «(2).

---

(1) النّفح، المصدر السابق، ج 1، صص. 107 ـ 108.

(2) المصدر نفسه، ص. 13.

(13620/1)

... 6 ـ اتخذ المقَّري عنواناً لكتابه اتسم بالكمال والشمولية بحيث انطبق تماماً على محتوى ما أورده فيه من أقسام وأبواب وموضوعات. فجاء على هذا النحو: "نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب"؛ وحافظ فيه من جهة أخرى على سنة من سبقه من العلماء والمؤلفين في اتخاذ مثل هذه العناوين المسجوعة لأسماء كتبهم ومصنفاتهم.

... 7 ـ يتبين لنا من مقدمة "النّفح" أن هذا الكتاب بالرغم من كونه أحد كتب التراجم، فإن مؤلفه استطاع أن يجمع فيه بين منهج كتب التراجم والمجامع الأدبية ذات الطابع

(13621/1)

الموسوعي متخذاً من بلاد الأندلس وأديبها لسان الدين ابن الخطيب مدخلاً لدراسة التاريخ الأندلسي والحضارة الأندلسية بجوانبها المختلفة ليس خلال القرن الثامن الهجري الذي عاش فيه ابن الخطيب فحسب، بل تعداه إلى فترة الوجود الإسلامي بالأندلس كاملة والتي استمرت مدة ثمانية قرون. وهذا هو المنهج الذي سار على منواله المقَّري أيضاً في كتابه "أزهار الرياض في أخبار عياض" الذي اتخذه هو أيضاً مدخلاً لدراسة تاريخ بلاد المغرب وحضارته، مع التعريج على ذكر الحضارة الأندلسية لتداخل تاريخ العدوتين وحضارتهما خلال القرن

(13622/1)

السادس الهجري بخاصة الذي عاش فيه علاّمة المغرب وحافظها أبو الفضل عياض بن موسى السبتي.

... 8 ـ من الناحية المنهجية أيضاً، عدّد لنا المقَّري أسماء بعض مصادر كتابه الأدبية والتاريخية في مقدمته، ومنها كتب ابن خلّكان، والصّفدي، وعبد الملك بن حبيب، وابن حجر العسقلاني، وابن الأثير، والزمخشري، وبعض أصحاب الدواوين من الشعراء. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن المقَّري قد اعتمد في تصنيف كتابه "النّفح" على عدد كبير ومتباين من المصادر والمظانّ الأندلسية

والمغربية والمشرقية؛ كما أن بعض هذه المصادر لم يصل إلينا.

(13623/1)

... ومن جهة أخرى، أوضح المقَّري أن معظم مراجعه قد تركها بالمغرب ولم ينقل منها إلى مصر إلا القليل، الأمر الذي جعله يعتمد كثيراً على محفوظاته، حيث يقول: »وتركت الجميع بالمغرب، ولم أستصحب معي منه ما يبين عن المقصود ويُعْرب، إلا نزراً يسيراً علق بحفظي، وحليت بجواهره جِيدَ لفظي، وبعض أوراق سعد في جواب السؤال به حظي. ولو حضرني الآن ما خلّفته، مما جمعت في ذلك الغرض وألفته، لقرّت به عيون وسُرَّت به ألباب«(1).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 102.

(13624/1)

... 9 ـ ومما نلاحظه في الجانب المنهجي لمقدمة "النّفح" كذلك أن المقَّري أراد أن يبرز في كتابه مآثر الأندلسيين العلمية والأدبية منها بوجه الخصوص، وذلك في قوله:

... معتنياً بالفحص عن أبناء الأندلس، وأخبار أهلها التي تنشرح لها الصدور والأنفس، وما لهم من السَّبْق في ميدان العلوم، والتقدم في جهاد العدو الظّلوم، ومحاسن بلادهم ومواطن جدالهم وجلادهم، حتى اقتنيت منها ذخائر يرغب فيها الأفاضل الأخاير، وانتقيت جواهر فرائدها للعقول بواهر، واقتطفت أزاهر أنجمها في أفق المحاضرة زواهر، وحصّلت فوائد بواطن وظواهر،

(13625/1)

طالما كانت أعين الألبّاء لنيلها سواهر، وجمعت من ذلك كلماً عالية (1).

... ونجد هنا أن المقَّري قد حاكى في كلامه هذا أو تأثر بما كتبه ابن بسّام الشنتريني في مقدمة كتابه "الذخيرة" الذي صنفه في تراجم أدباء القرن الخامس الهجري بالأندلس، وذلك لإظهار مدى تفوق أهل الأندلس في ميدان العلوم والآداب، ولعدم اكتراثهم بتسجيل مآثر بلدهم الأدبية والعلمية ذات السَّبْق. إذ يقول ابن بسّام في مقدمة كتابه:

---

(1) المصدر نفسه، ص. 108.

(13626/1)

... وقد أودعت هذا الديوان الذي سميته بـ "الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة" من عجائب علمهم، وغرائب نثرهم ونظمهم... لأن أهل هذه الجزيرة ـ مذ كانوا ـ رؤساء خطابة، ورؤوس شعر وكتابة، تدفقوا فأنسوا البحور، وأشرقوا فباروا الشموس والبدور، وذهب كلامهم بين رقّة الهواء وجزالة الصّخرة الصّماء (1).

... ويقول أيضاً: »حتى ضمنت كتابي هذا من أخبار هذا الأفق، ما لعلّي سأربي به على أهل المشرق«(2).

---

(1) الذخيرة، ق 1، م 1، ص. 14.

(2) المصدر نفسه، ص. 16.

(13627/1)

... 10 ـ تأثر المقَّري في كتابه "النّفح" تأثراً ما بمنهج لسان الدين بن الخطيب في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة"، إذ إن هذين الكتابين يتشابهان في العناصر التي تتألف منها الترجمة وفي أسلوب الإنشاء (1). إلا أن

المقَّري كان أمْيل إلى كثرة الاستطراد في كتابه من ابن الخطيب.

... وكثرة الاستطراد هذه التي ميزت منهج المقَّري في بعض كتبه الأخرى، وخاصة "أزهار الرياض"، لم تحدث خللاً بعمله العلمي في مصنفاته ـ حسب علمنا ـ بل هي التي أضفت على كتابه

---

(1) أزهار الرياض، المصدر السابق، ج 1، مقدمة الناشرين، ص. د.

(13628/1)

"النّفح" بخاصة صفة الموسوعية المتعددة المناحي العلمية والثقافية، ولا سيما الأدبية والتاريخية منها.

... وقد صرح المقَّري في مقدمته عن غلبة الاستطراد عليه في كتابه "النّفح" في قوله عن ابن الخطيب: »وذكر أنبائه التي يروق سماعها ويتأرج نفحها ويطيب، وما يناسبها من أصول العلماء الأفراد، والأعلام الذين اقتضى ذكرهم شجون الكلام والاستطراد«(1).

... من جهة أخرى، نرى أن هذا الاستطراد الذي حفل به كتاب "النّفح" قد يعود إلى غزارة معلومات مؤلفه التي تنم عن كثرة اطلاعه

(1) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 115.

(13629/1)

وحفظه للأخبار والأشعار حتى سمي عند الأدباء بجاحظ المغرب:

... لأنه مثل الجاحظ أبي عثمان، انسياب أسلوب، وطلاوة حديث، وطلبة حقيقة ودراسة تفصيلات يريدها عياناً وبياناً واختباراً وتقريّاً لها في مواطنها ومظانها في الكتب والواقع... حتى يبلغ الغاية شأن الجاحظ عمرو بن بحر، في إتمام وإكمال العدة لموضوعه يبلغ به شأوه بعد أن بذل فيه كل جهد مستطاع (1).

ثانياً: الجانب الديني

---

(1) ... من نفح الطيب، المصدر السابق، ص. 10 من التمهيد.

(13630/1)

... يتراءى لقارئ مقدمة كتاب "نفح الطيب" مدى ثقافة مؤلفه الواسعة في علوم القرآن والحديث والفقه وأصوله، إذ إن افتتاحيته لمقدمة كتابه أو خطبته له قد شملت عبارات طويلة في الحمد والتصلية بأسلوب فقهيّ بديع حتى ليدرك القارئ خلالها أنه كما لو كان بصدد قراءة كتاب في علوم الشريعة. ومن النماذج التي تبنئ عن بصماته في هذا الشأن من مقدمة "نفح"ـه:

... .إكثاره من الاقتباس القرآني والألفاظ القرآنية. وهذا دليل على درايته بكتاب الله عز وجل وعلومه. وهذا الأسلوب القرآني في كتابة التاريخ بخاصة هو إحدى سمات

(13631/1)

الكتابة التاريخية عند معظم المؤرخين الأندلسيين الكبار كابن حيان وابن بسام وابن حزم وابن الخطيب.

... ومن أمثلة الاقتباسات القرآنية التي أتحفنا بها المقَّري في مقدمته بين الفيْنة والأخرى على سبيل التمثيل لا الحصر قوله: »وأهفو إلى قصور ذات بهجة (1)، وصروح توضح معالمُها للرائد نهجه... وأنهار جارية (2)، وأزهار نواسمها

---

(1) اقتباس من الآية الكريمة: {فأنبتنا به حقائق ذات بهجة} (الآية 60 من سورة النمل).

(2) اقتباس من الآية الكريمة: {فيها عين جارية فيها سرر مرفوعة} (الآية 12، من سورة الغاشية).

(13632/1)

سارية «(1).

... وفي حديثه عن ركوب البحر يقول: »وقلّ من ركبه فأفلت من كيده ونجا، فزادنا ذلك الحذر، الذي لم يبق ولا يذر(2)، على ما وصفناه من هول البحر طلقا، وأجرينا إذ ذاك في ميدان الإلقاء باليد إلى التهلكة(3) طلقا«(4).

---

(1) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 19.

(2) من الآية الكريمة: {لا تبقي ولا تذر لوّاحة البشر} (الآيتين 28 و29 من سورة المدثّر).

(3) من الآية الكريمة: {وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة} (الآية 195 من سورة البقرة).

(4) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 34.

(13633/1)

... ومنها قوله: »وما يستوى الظل والحرور(1)، والحزن والسرور، والظلمات والنور«(2). وقوله أيضاً: »ومن كانت بضاعته مُزْجَاة(3)، فهو عن الإنصاف بمنجاة«.

---

(1) من الآية الكريمة: {وما يستوى الأعمى والبصير، ولا الظلمات ولا النور، ولا الظل ولا الحرور} (الآيات 19 و20 و21 من سورة فاطر).

(2) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 3.

(3) من الآية الكريمة: {وجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ وتصدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي المُتَصَدِّقِين} (الآية 88 من سورة يوسف عليه السلام).

(13634/1)

... .استشهاده ببعض الآيات القرآنية الكريمة في مقدمته، ومنها قوله تعالى: {وإذا مسّكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلا إيّاه}(1)، وقوله تعالى: {إنْ أُريد إلاَّ الإصْلاحَ ما اسْتَطَعْت}(2).

... .وقد يستعمل المقَّري في بعض الأحيان ألفاظاً قرآنية من سور متعددة كما في قوله: »والله سبحانه المسؤول في الفوز والنجاة كرماً منه وحلماً، فبيده الخير لا إله إلاّ هو العلي الكبير، العليم الخبير، الذي أحاط بكل شيء

علماً، فلا

---

(1) الآية الكريمة رقم 67 من سورة الإسراء.

(2) الآية الكريمة رقم 88 من سورة هود.

(13635/1)

يعزُبُ عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء من مخلوقاته على الشمول والاستغراق «(1).

... نلاحظ على افتتاحية المقَّري لمقدمته أن فيها مسحة من علم التوحيد والعقائد كما في قوله:

... وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذي ابتدأ الخلق من غير مثال وبرا، وقسَّم العباد إلى حاضر وباد وظاهر وخامل وقاصر وكامل تشير إليه بالأنامل الكُبرا، وأبدى في اختلاف ذواتهم وأعراضهم وتباين أدواتهم وأغراضهم، وتغاير ألسنتهم وأمكنتهم وأزمنتهم وألوانهم وأكوانهم ومناصبهم

---

(1) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 12.

(13636/1)

ومناسبهم عِبَرا، وجعل الدنيا لمن أتيح صغراً أو كبرا،... جسراً للآخرة ومعْبرا، وحكم ـ وهو الفاعل المختار ـ على الجميع بالموت فكان لمبتدإهم خبرا،... فسبحانه من إله انفرد بوجود القدم والبقاء، واختصّ بفضله من شاء فارتقى وعمّ تعالى ذوي السعادة والشقا، بالحدوث والفنا (1).

... ـ أما عن ثقافة المقَّري الحديثة، فقد أفصح عنها في غير ما موضع من مقدمته. منها حديثه عن قيامه بتدريس الحديث النبوي الشريف في إحدى حجاته بالمدينة المنوّرة على مقربة من قبرالنبي – صلى الله عليه وسلم –، إذ

(1) المصدر نفسه، ص. 2.

(13637/1)

يقول: »وأمليت الحديث النبوي بمرأى منه عليه الصلاة والسلام ومسمع«(1). وفي كلامه عن صديقه الأديب الدمشقي ابن شاهين، يقول: »وروينا عنه مسند أحمد حسن الأسانيد والمتون«(2). يقصد بذلك مسند الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في علم الحديث.

... .كما نقل لنا المقَّري في مقدمته شيئاً من كلام الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة في ما يجب في حق المصطفى – صلى الله عليه وسلم – حيث قال: »وقد قال إمامنا مالك صاحب المناقب الجليلة: "كل كلام يؤخذ منه ويُرد إلا كلام

---

(1) المصدر نفسه، ص. 57.

(2) المصدر نفسه، ص. 101.

(13638/1)

صاحب هذا القبر – صلى الله عليه وسلم – أزكى صلاة وأتم سلام"«(1).

ثالثاً: الجانب التاريخي

... تكشف لنا مقدمة كتاب "النّفح" عن ثقافة صاحبه ودرايته الواسعة بعلم التاريخ والأخبار. فكتابه "النّفح" هو موسوعة أدبية تاريخية أرّخ فيها لبلاد الأندلس وحضارتها الإسلامية من شتى جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والثقافية، وخاصة الأدبية منها، خلال فترة الوجود الإسلامي بها منذ الفتح حتى السقوط

(1) المصدر نفسه، ص. 109.

(13639/1)

... وقد صرّح لنا المقَّري بذلك عن جمعه بين الأدب والتاريخ في "نفح"ه، فقال في مقدمته: »وأوردت فيه من نظم وإنشاء ما يكتفي المقتصر عليه إن شاء، ومن أخبار ملوك ورؤساء، وطبقات من أحسن أو أساء، ما فيه اعتبار للمتأمّل، واذّكار للراحل المتحمّل، وزينة للذاكر المتجمّل«(1).

... من هنا نسجل أن هناك تشابهاً بين موسوعة المقَّري "النّفح" وبين موسوعة ابن بسام الشنتريني المتوفى سنة 542 هـ "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" من حيث أن كلاًّ منهما قد جمع في كتابه بين التاريخ والأدب

(1) المصدر نفسه، ص. 118.

(13640/1)

الأندلسيين. إلا أن الأخير كان قد اقتصر على الترجمة لأدباء الأندلس وأخبارهم خلال القرن الخامس الهجري/ عصر

الطوائف وجزء من أعلام القرن السادس الهجري / عصر المرابطين بالأندلس الذي عاش فيه. بينما كان كتاب "النّفح" أكثر شمولية من كتاب "الذخيرة" من حيث الترجمة لأدباء الأندلس وأخبارهم لا خلال القرن الثامن الهجري الذي عاش فيه لسان الدين بن الخطيب وحسب، بل تعداه بالترجمة لمن سبقه أو لحقه من الأدباء الأندلسيين خلال حقبة زمنية أطول امتدت من لدن الفتح الإسلامي للأندلس إلى ما بعد سقوطها في أيدي النصارى

(13641/1)

الإسبان سنة 897 هـ/ 1422 م. ولم نقصد بذلك عقد مقارنة منهجيّة بين هذين الكتابين ("النّفح" و"الذخيرة")، وإنما جرّنا إلى ذلك اعتبار أن هذين المصنّفين هما أحفل ما وصل إلينا من المصادر عن الأدب الأندلس وتاريخه.

... ويمكن أن نعدد بعض الاهتمامات والإشارات التاريخية للمقَّري في مقدمته والتي تنبئ بضلوعه في هذا الفن، وذلك في المواضع الآتية:

... .بدأ المقَّري افتتاحية مقدمته بالحديث عن أهمية علم التاريخ مستقياً ذلك من كلام الخالق عز وجل في هذا

الشأن، فيقول: »وأمر جَلّ اسمُه بالتدبّر في أنباء من مضى

(13642/1)

والنظر في عواقب أحوال الذين زال أمرهم وانقضى، من صنوف الأمم، ووبّخ من دَجَا قلبه بالإعراض عن ذلك وأظلم «(1).

... .تعرض المقَّري في مقدمته إلى ذكر بعض معجزات النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – متكئاً في ذلك على دراسته لكتب السّيرة النبوية الشريفة، وذلك في قوله:

... سيّد الرّسل الغُرّ الميامين، ملجأ الأمة جعلنا الله ممن نجا باللجإ إليه آمين، الذي أنزل عليه القرآن، هدى للناس وبيِّنات من الهدى والفرقان، وانشق له الزبرقان، ونبع الماء من بين أصابعه زيادة في الإيقان،

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 3.

(13643/1)

وسلّمت عليه الأحجار، وانقادت لأمره الأشجار، متفيّئة ظلاله الشريفة وخطّت في الأرض أسطراً مبدعة في الإتقان، إلى غير ذلك من معجزاته الخوارق. فهو صاحب الدعوة الجامعة، والبراهين اللاّمعة(1).

... . كشف لنا عن جانب آخر من اهتمامه التاريخي، ألا وهو درايته بعلم النسب. فها هو يرجع في مقدمته نسب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – إلى جدّه الأعلى عدنان بقوله: »ذو الفضل العظيم الذي لم يختلف فيه من أهل العقول اثنان، والمجد الصميم الثابت الأصول الباسق الأفنان، المنتقى من مَحْتَد معدّ بن

---

(1) المصدر نفسه، ص. 4.

(13644/1)

عدنان، المنتخب من خير عنصر وأطهر سلالة «(1).

... . عرّج المقَّري في مقدمته على الفتوحات الإسلامية الكبرى التي تمت في عصري الخلفاء الراشدين والدولة الأموية، وبيّن كيف أن الرقعة الإسلامية قد امتدت من حدود الصين شرقاً إلى المحيط الأطلسي وبلاد الأندلس غرباً، وذلك في قوله:

... وعلى آله وعترته الفائزين بأثرته، أنصار الدين، والمهاجرين المهتدين، وأشياعه وذريته، الطالعين نجوماً في سماء شهرته، وأتباعهم القائمين بحقوق نصرته، أرباب العقل الرصين، الفاتحين بسيوف دعوته أبواب المعقل الحصين،

---

(1) المصدر نفسه.

(13645/1)

حتى بلغت أحكام ملّته، وأعلام بعثته، من الأندلس والصين، فضلاً عن الشام والعراق (1).

... .أما عن الجانب التاريخي عند المقَّري من الناحية التوثيقية، فقد كان دقيقاً في انتقاء التواريخ الصحيحة أو الأكثر رجاحة في التأريخ لكثير من المواقع الحربية أو الأحداث الهامة في كتابه. وفي مقدمته أفصح لنا عن هذا الاهتمام التوثيقي لديه: ففي رحلته إلى المشرق وحلوله بأقطارها كثيراً ما أرّخ ذلك بذكر الأشهر والسنوات. ومن أمثلة ذلك حديثه عن سنة رحيله إلى المشرق والذي ذكر فيه مدى حنينه إلى

---

(1) المصدر نفسه، ص. 5.

(13646/1)

المغرب الأقصى في قوله:

... إنه لما قضى الملك الذي ليس لعبده في أحكامه تعقّب أو ردّ، ولا محيد عما شاءه سواء كره ذلك المرء أو ردّ، برحلتي من بلادي، ونقلتي عن محلّ طارفي وتلادي، بقطر المغرب الأقصى الذي تمّت محاسنه...

... قطر كأنَّ نسِيمَهُ نفحات كافورٍ ومسْكِ

... وكأنَّ زَهْرَ رياضه ... دُرٌّ هَوَى من نظْم سِلْكِ

... وذلك في أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الألف، تاركاً المنصب والأهل والوطن والإلف (1).

---

(1) المصدر نفسه، صص. 13 ـ 14.

(13647/1)

... ومن النماذج التي تبيّن اهتمامه بالتدوين التاريخي بالسنوات والأشهر أيضاً ما جاء في قوله: »وأكملت

العمرة، ودعوت الله أن أكون ممن عَمَرَ بطاعته ربه عمره، وذلك في أوائل ذي القعدة من عام ثمانية وعشرين وألف من الهجرة السنيّة «(1). ثم يقول: »ثم عدت إلى مصر... وذلك في محرم سنة 1029 هـ، ثم قصدت زيارة بيت المقدس في ربيع من هذا العام«(2).

... .يستشهد المقَّري في مقدمته ببعض العبارات المقتبسة من كلام بعض الصحابة أو الخلفاء الراشدين وخطبهم لمدى اطلاعه

---

(1) المصدر نفسه، ص. 40.

(2) المصدر نفسه، ص. 54.

(13648/1)

الواسع على أحداث التاريخ الإسلامي ووقائعه. ففي ركوبه للبحر يصفه بقوله: »ونحن قعود، كدود على عود، ما بين فرادى وأزواج،... وتوهمنا أنه ليس في الوجود أغوار ولا نجود، إلا السماء والماء«(1). فهنا يتحفنا المقَّري بنقله بعض العبارات بنصّها وفصّها من رسالة والي مصر عمرو بن العاص للخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما أرسل له طالباً منه أن يصف له البحر، خاصة عندما استأذنه معاوية ابن أبي سفيان

والي الشام آنذاك في أن يبني المسلمون أسطولاً بحرياً أسوة بالبيزنطيين. فبعث

---

(1) المصدر نفسه، ص. 34.

(13649/1)

عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر يصف له البحر بقوله: «يا أمير المؤمنين إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد أحزن القلوب، وإن ثار أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلّة والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق»(1).

... ذكر لنا المقَّري في مقدمته إحدى القصائد الشعرية ذات المدلول التاريخي والتي تدخل ضمن ما يعرف بالتأريخ بالشعر، إذ هناك الكثير من القصائد الشعرية التي أرّخت لبعض الدول أو الأحداث أو الوقائع المهمة

---

(1) الإسلام في حوض البحر المتوسط، ص. 6.

(13650/1)

في الأندلس مثل قصيدة يحيى الغزال الجيّاني أو أرجوزته في فتح بلاد الأندلس والتي أثنى عليها شيخ مؤرخي الأندلس ابن حيان في "تاريخه"، وقصيدة عبد المجيد ابن عبدون في رثاء دولة بني الأفطس أصحاب بطليوس زمن أمراء الطوائف بالأندلس، وبعض القصائد التي أرّخت لانتصار المسلمين في الزلاّقة سنة 479 هـ/ 1086 م، ثم هناك أرجوزة لسان الدين بن الخطيب التاريخية المسماة »رقم الحلل في نظم الدول«(1). والقصيدة التي أدرجها المقَّري في مقدمة كتابه "النّفح"

---

(1) توجد منها نسخة مخطوطة بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم 695.

(13651/1)

وتدخل ضمن هذا السياق، تتكون من 103 بيت من الشعر، وهي من نظمه. وقد عدّد في النصف الأول منها بعض من أفناه الزمان من الملوك والأعلام في عصور الجاهلية والإسلام، وخاصة في عهدي الأمويين والعباسيين، بينما خصص النصف الثاني منها في التأريخ لسيرة لسان الدين بن الخطيب عن طريق الشعر. ومن أبيات هذه القصيدة التي تتعلق بابن الخطيب:

بل أين أرباب العلو

وذوو الوزارة والحجا

كأئمة سكنوا بأنـ

هي جنة الدنيا التي

لا سيما غرناطه الـ

م أو التصدُّر والإمامه

بة والكتابة والعلامه

دلس فلم يشكو سآمه

قد أذكرت دار المقامه

(13652/1)

غراء رائقة الوسامه(1)

... .أكد المقَّري في مقدمته أهمية الجانب التاريخي في كتابه "النّفح". فقد ضمّن قسميْه الرئيسين طائفة كبيرة من الأخبار سواء عن بلاد الأندلس وأحوالها أو عن أعلامها وأدبائها خاصة في عصر ابن الخطيب. وقد عبر عن ذلك أثناء تقسيم كتابه إلى أقسام وأبواب في قوله: »القسم الأول: فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار المترعة

الأكوان، والأنباء المنتحية صوْب الصواب، الرافلة من الإفادة في سوابغ الأثواب، وفيه بحسب القصد والاقتصار، وتحرّي التوسط في بعض

---

(1) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 10.

(13653/1)

المواضع دون الاختصار، ثمانية من الأبواب: ... «(1).

... أما عن القسم الثاني، فيقول: »القسم الثاني: في التعريف بلسان الدين ابن الخطيب، وذكر أنبائه التي يرُوق سماعها ويتأرج نفحها ويطيب، وما يناسبها من أحوال العلماء والأفراد، والأعلام الذين اقتضى ذكرهم شجون الكلام والاستطراد، وفيه أيضاً من الأبواب ثمانية موصلة إلى جنات أدب قطوفها دانية «(2).

رابعاً: الجانب الأدبي واللغوي

---

(1) المصدر نفسه، ص. 112.

(2) المصدر نفسه، ص. 115.

(13654/1)

... يعدّ المقَّري أديباً وشاعراً ولغوياً بكل ما تحمله هذه الكلمات من معنى. فنراه كثيراً ما »يبث في ثنايا الأخبار والحوادث والتراجم ـ داخل كتابه مما ينشئه قلمه من نظمه أو نثره. فحين تعرض حادثة أو ترد قصيدة أو نحو ذلك مما يثير إعجابه ويستدعي قريحته فيحاكي القصيدة بقصيدة من نظمه، ويضاهي الرسالة النثرية برسالة من إنشائه «(1). وقد لمسنا ذلك منه مراراً في مقدمته: ففي وصفه لمدينة طيبة ـ وهي المدينة المنوّرة ـ يقول المقَّري من إنشائه:

... ... إذا لم تطب في طيبة عند طيب

---

(1) الأندلس من نفح الطيب، ص. 15.

(13655/1)

... ... به طيبة طابت فأين تطيب (1)

... وهنا قد أعاد لنا في هذا البيت أحرف كلمة طيبة ست مرات. وهذا من باب الجناس الذي يكثر منه في نثره داخل كتابه، ولكن هنا استعمله في شعره أيضاً.

... ومن جهة أخرى، فإن المقَّري قد عرف بكثرة حفظه

لأشعار العرب، وذلك نظراً لما تميز به من قوة الذاكرة »وصفاء الذهن

---

(1) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 45. ومن أمثلة تكرار أحرف إحدى كلمات البيت الشعري عدة مرات في البيت نفسه قول أحد الشعراء:

... ... ولا الضعيف حتى يبلغ الضعف ضعفه ... ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله الفا

(13656/1)

وقوة البديهة «(1). وهذا ما جعله يكثر من استعمال أو اقتباس بعض الكلمات أو العبارات من قصائد بعض الشعراء الكبار سواء في نثره أو نظمه. ومن أمثلة ذلك في مقدمته قوله: »وشاعر هام في كل واد، وقال ما لم يفعل فكان للغاوين من الرواد، وجاهل عَمرَ الخراب، وخُدع بالسّراب، عن أعذب الشراب، ومحقق علم أنه إذا جاء القدر عمي البصر ممن كان أحذر من غراب، وموفق تيقّن أن غير الله فان وكل الذي فوق التراب تراب «(2)

---

(1) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، المصدر

السابق، ج 2، ص. 308.

(2) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 6.

(13657/1)

.

... فقد استشهد المقَّري هنا بأحد أبيات المتنبي الشعرية في إحدى قصائده والذي يقول فيه:

... ... إذا صَمَّ مِنْكَ الوُدُّ فالكُلُّ هَيِّنٌ

... ... وَكُلُّ الذِي فَوْقَ التُّرابِ تُرَابُ(1)

... أما حديثه عن الخنساء في مقدمته، فجاء فيه: »وعاشق خنساءُ فكره ذات الصِّدار، من الشجون والشّعار، تبكي على صحر المحبوب، وتذكره كلما طلعت شمس أو كان للصَّبا هبوب«(2). فقد اقتبس المقَّري في هذا الموضع شيئاً من شعر الخنساء في رثاء

---

(1) انظر ديوان المتنبي، ص. 481.

(2) ... »مقدمة« النفح، المصدر السابق.

(13658/1)

أخيها صخر، وذلك في قولها:

... ... يذكّرنِي طُلُوعُ الشمْس صَخْراً

... ... وأَذْكرهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

وهذا البيت من إحدى قصائد الخنساء التي مطلعها:

... ... يُؤَرِّقنِي التّذكُّرُ حِينَ أُمْسِي

... ... فأُصْبِحُ قَدْ بُلِيتُ بِفَرْطِ نَكْسِ(1)

وهو من بحر الوافر؛ كما أنه من محاسن شعر الخنساء.

... وفيما يتعلق بالأسلوب السّجعي للمقَّري، فإنه قد طغى على نثره سواء في مقدمته التي نحن بصدد دراستها أو في بقية كتابه "النّفح" كاملاً.

---

(1) ديوان الخنساء.

(13659/1)

... وهذا الأسلوب المسجوع الذي سار على منواله المقَّري في تصنيف موسوعته هذه، هو النهج الذي سلكه كثير

ممن صنّف كتباً في تاريخ الأدب أو في التأريخ لبعض التراجم أو الطبقات. فقد سبق المقَّري في هذا الفن في التأليف حول الأندلس أدباً وتاريخاً كل من ابن بسّام الشنتريني في كتابه "الذخيرة" والفتح بن خاقان في كتابيْه "قلائد العقيان" و"مطمح الأنفس"، وهما من أعلام القرن السادس الهجري. ولكن على الرغم من أن المقَّري قد كان من أعلام القرن الحادي عشر الهجري، فإن ثقافته الموسوعية الدينية والأدبية والتاريخية

(13660/1)

واللغوية واعتماده على مصادر نادرة، أهلته لأن يكون كتابه "النّفح" مصدراً أدبياً وتاريخياً لا يقل قيمة عن هذه الكتب المذكورة.

... من جهة ثانية، فإن أسلوب المقَّري السّجعيّ في كتابه كان أسلوباً سهلاً وسلساً. ويرجع ذلك إلى غزارة علم مصنِّفه ودرايته بأسرار اللغة وغريبها ودربته في اختيار الألفاظ الجزلة وانتقائه للعبارات الرصينة الخالية من القعقعة اللفظية والكلمات الثقيلة.

... ومن أمثلة أسلوب المقَّري السّجعي في مقدمة كتابه: »وفي مثل هذا الموطن تذوب القلوب الرقاق، كما قال حائز السّبْق بالاستحقاق،

(13661/1)

الأديب الأندلسي المشهور بابن الزقّاق... «(1).

... فهنا وظّف المقَّري هذه العبارة المسجوعة متكئاً على مخزونه الثقافي اللغوي، إذ يقتبس من كلام ابن مالك النحوي في افتتاحية "ألفيته"ه الشهيرة في علم النحو، وذلك في بيته القائل:

... وهو بسبْقٍ حَائِزٌ تفضيلا مُسْتَوْجِبٌ ثَنَائِيَ الجميلا(2)

... ويشير ابن مالك في هذا البيت إلى ابن معطي الذي سبقه في تأليف "ألفية" في النحو أيضاً.

---

(1) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 16.

(2) متن ألفية ابن مالك في النحو والصرف، ص. 10؛ شرح ابن عقيل، ج 1، ص. 17.

(13662/1)

... وعلى ذكر السّجع كذلك اقتبس المقَّري بعض كلمات خطبة قُسّ بن ساعدة المسجوعة التي طارت شهرتها،

لبلاغتها ورصانة عباراتها. يقول المقَّري: »وتساوى في السيْر نهار مشرق وليل مقمر أوداج«(1). وهذا من خطبة قسّ التي جاء فيها: »أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج ونهار ساج«(2).

... نلاحظ كذلك أنه مما يميز أسلوب المقَّري في مقدمته أن جمع لنا فيها من أساليب البلاغة والبديع الشيء الكثير من جناس وطباق

---

(1) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 35.

(2) كتاب نقد النثر، ص. 98.

(13663/1)

واستعارة وتورية ومقابلة وإيغال ونحوها.

... ومن أمثلة استعماله للجناس والطّباق اللّذَيْن أكثر من استخدامهما قوله: »وحللنا منه بين السّحر والنّحر«(1).

... وقوله: »وساءت الظنون، وتراءت صورها المنون، والشّراع في قراع، من جيوش الأمواج، التي أمدّت منها الأفواج بالأفواج«(2).

... ومنها: »ونحن قعود كدود على عود، ما بين فرادى وأزواج«(3).

... »وحصل بعد الشدة الفرج«(4).

---

(1) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 33.

(2) المصدر نفسه، صص. 33 ـ 34.

(3) المصدر نفسه، ص. 34.

(4) المصدر نفسه.

(13664/1)

... »وقرأنا من الطرق خطوطاً ذات استقامة واعوجاج«(1).

... وهكذا، فإن أسلوب المقَّري في هذه المقدمة حافل بالصور البيانية واللغوية.

... كذلك، فإن المقَّري قد تميز بقدرته وتمكنه من الناحية اللغوية من حيث تلاعبه بالألفاظ واستعماله للغريب من اللغة والكلمات المترادفة والجموع النادرة في الاستعمال. والأمثلة على ذلك كثيرة عنده. ففي حديثه عن ابن الخطيب يقول: »ورقمت من أنباء لسان الدين ابن الخطيب حُلَلاً لا تُخْلِقُ جدّتها الأعصر«(2). فكلمة »تخلق« هنا بمعنى: تبلى.

---

(1) المصدر نفسه، ص. 35.

(2) المصدر نفسه.

(13665/1)

فقد جاء في "اللسان" في مادة »خلق«: خُلِقَ الشيء خُلُوقاً وخُلُوقَة، وخَلَقَ خَلاَقَةً، وخَلِقَ وأَخْلَقَ إخلاقاً، واخْلَوْلَقَ: بَلِيَ.

... قد يُدْرِكُ الشَّرَفَ الفَتَى وَرِدَاؤُهُ ... خَلَقٌ وجَيْبُ قَمِيصِهِ مَرْقُوعُ

... وقد يقال: ثوب أَخْلاَق. يصفون به الواحد.

... وأَخْلَقَ الدَّهر الشيء: أبلاه(1).

... وقال بُقيلة الأَشجعي في هذا الصدد أيضاً:

... ... البَسْ جَدِيدَكَ إنِّي لاَبِسٌ خَلَقِي

---

(1) لسان العرب، ج 10، صص. 88 ـ 89.

(13666/1)

... ... وَلاَ جَديدَ لِمَنْ لاَ يلْبَسُ الخَلَقَا (1)

ثم نأتي هنا إلى ذكر أحد اهتمامات المقَّري الأَدبية، وهي المتعلقة بالأَمثال العربية القديمة. فقد استشهد في مقدمته بعدد منها، وهذه الأَمثال تعد من أدوات الكتّاب

والأدباء الكبار. يقول الميداني في مقدمة كتابه "مجمع الأمثال" :

... فإن من المعلوم أن الأدب سلَّم إلى معرفة العلوم، به يتوصل إلى الوقوف عليها، ومنه يُتوقع الوصول إليها، غير أن له مسالك ومدارج، ولتحصيله مراقي ومعارج، وإنّ أعلى تلك المراقي وأقصاها، وأوعر هاتيك

---

(1) الفاخر، ص. 297.

(13667/1)

المسالك وأعصاها، هذه الأمثال التي هي لُماظات حَرَشة الضِّباب... (1).

... ومن الأمثلة العربية الشهيرة التي تطرّق إليها المقَّري في مقدمته قوله: »وأتوق وقد اتسع من البعد الخرق، خصوصاً إذا شدا صادح أو ومض برق، إلى ديار لا يعدوها اختيار «(2).

... فقد نقل المقَّري هنا من المثل العربي الشهير: »اتّسع الخرق على الرّاقع«. جاء في "الكتاب" لسيبويه: أن هذا المثل مأخوذ من بيت شعري لرجل من بني سُلَيْم، وهو أنس بن العباس في قوله:

(1) مجمع الأمثال، ج 1، صص. 26 ـ 27.

(2) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 17.

(13668/1)

... لاَ نَسَبَ اليَوْمَ ولا خُلَّةً ... اتّسَعَ الخَرْقُ على الرَّاقِعِ

أي لا نسب ولا قرابة اليوم بيننا. وقد تفاقم الأمر، بحيث لا يرجى خلاصه: فهو كالخرق الواسع في الثوب لا يقبل رقع الرّاقع. والخُلَّة بالضمّ: الصَّداقة(1). ومنها أيضاً ما جاء في قوله: »والعدوّ ينتهز الفرصة ويسلب الأنفس والأموال وينتهب، وليس له في غير قطع شأفة المسلمين ابتغاء، وإن عقد المهادنة في بعض الأحيان فهو يُسرُّ حَسْواً في ارتغاء«(2). جاء في "مجمع

(1) كتاب سيبويه، ج 2، صص. 285 ـ 286.

(2) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 79.

(13669/1)

الأمثال"(1): الارتغاء شرب الرِّغوة.

... وقال أبو زيد والأصمعي: أصله الرجل يُوتى باللبن، فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة، ولا يريد غيرها فيشربها وهو في ذلك ينال من اللّبن.

... كما يضرب هذا المثل لمن يظهر أمراً ويريد غيره. وفي "التهذيب" : »يُضرب مثلاً لمن طلب القليل وهو يُسِرُّ أخذ الكثير«(2).

... وعن زيارة المقَّري لدمشق يقول في مقدمته: »وكنّا خلال الإقامة بدمشق المحوطة... ونقضي أوطار الأقطار

---

(1) مجمع الأمثال، المصدر السابق، ج 2، ص. 495.

(2) لسان العرب، المصدر السابق، ج 14، مادة »رغا«، ص. 330.

(13670/1)

ونستدعي أعلام الأعلام، فينجرّ بنا الكلام والحديث شجون«.»الحديث شجون« مثل عربي يضرب في الحديث يُتذكّر به غيره.

... قال الفرزدق:

لاَ تَأْمَنَنَّ الحرْبَ إنَّ اسْتِعَارهَا

... ... كضبَّةَ إِذْ مَالَ: الحديثُ شَجُونُ(1)

وفي حديث المقَّري عن أحمد بن شاهين الدمشقي يقول: »فكم له أسماه الله ولغيره من أعيان دمشق لديَّ من أياد، يعجز عن الإبانة عنها لو أراد وصفها قُسّ إياد«. إذ استعمل المقَّري هنا المثل العربي: »أبلغ من قُسّ«. ويقال كذلك:

---

(1) مجمع الأمثال، المصدر السابق، ج 1، صص. 258 ـ 259.

(13671/1)

»أخطب من قُسّ«. وهو قُسّ بن ساعدة بن حذافة بن زهير بن إياد بن نزار الإيادي وكان من حكماء العرب وأعقل من سُمِعَ به منهم. قال الأعشى:

... ... وأبلغُ مِن قُسٍّ وأَجرَى من الّذي
... ... بذِي الغيل مِنْ خَفَّانَ أَصبَحَ خَادِرَا(1)

... ومن الأمثال العربية أيضاً ما جاء في قوله: »والحقَّ أبلج، والباطل لَجْلَجْ، وليس الخبر كالعيان«(2). ويقال كذلك: »وليس الخبر كالمعاينة«. ويروى أن الرسول هو

أول من قال هذا المثل (3)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 155.

(2) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 65.

(3) مجمع الأمثال، المصدر السابق، ج 2، ص. 217.

(13672/1)

.

... وعلى ذكر هذه الأمثال التي استعان بها المقَّري في مقدمته، فإن قوله: »وارتجلت حين مللت من السُّرى، مضمّناً ذكر ما أروم له تيسُّرا، وقد أكثر الرفاق عند رؤية ما لم يألفوه من الآفاق تلهُّفاً وتحسُّرا«(1)، ربما قد قصد به المثل العربي القديم: »عند الصباح يحْمَدُ القومُ السُّرى« والذي ينسب إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه في أحد أبياته الشعرية:

... ... عِنْدَ الصَّباحِ يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى

---

(1) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 30.

(13673/1)

... ... وتَنْجَلِي عَنْهُمْ غَيَابَاتُ الْكَرَى(1)

نأتي بعد هذا إلى ذكر شيء من اهتمام المقَّري بالنقد الأدبي في مقدمته. فقد لمسنا لديه بعض الإشارات النقدية في عدة مواطن، نسوق منها بعض النماذج على سبيل الاستدلال:

... ففي قوله عن ابن الزقاق البلنسي: »وفي مثل هذا الموطن تذوب القلوب الرقاق، كما قال حائز السبْق بالاستحقاق، الأديب الأندلسي الشهير بابن الزقّاق:

وقَفْتُ عَلى الرُّبُوعِ ولِي حَنِينٌ
ولَوْ أنِّي حَنَنْتُ إلى مغاني

---

(1) مجمع الأمثال، المصدر السابق، ج 2، ص. 5.

(13674/1)

لِسَاكنهن ليسَ إلى الرُّبُوعِ
أحبّائِي حَننتُ إلى ضُلُوعِي« (1)

فهنا استخدم المقَّري منهجه النقدي على هذا الشاعر البلنسي ابن الزقَّاق بأن جعله صاحب مكانة سامقة في

ميدان الأدب، ذاكراً له شيئاً من جيّد شعره شاهداً على ذلك

... أما عن حديثه عن الخنساء وشعرها في أخيها صخر، فقد لمّح كذلك بمنهجه النقدي في قوله: »وعاشق خنساءُ فكره ذات الصِّدار، من الشجون والشعار، تبكي على صخْر قلب المحبوب، وتذكره كلما طلعت شمس أو كان للصَّبا هبوب، فتأتي بما يُطفئ وقودَ

---

(1) النّفح، المصدر السابق، ج 1، صص. 16 ـ 17.

(13675/1)

الجوى المشْبُوب من بحار الأشعار«(1).

... فيبدي المقَّري هنا إعجابه بقصائد الخنساء الشعرية في رثاء أخيها صخر. وهو الذي قالت فيه أيضاً:

... ... وإنَّ صَخْراً لَتَأْتَمُّ الهَدَاةُ بِهِ

... ... كأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ (2)

... ومن المواضع التي نشاهد فيها استخدام المقَّري لمنهجه النقدي الأدبي على بعض الرسائل النثرية أو القصائد الشعرية التي ضمنها مقدمته، تعليقه على رسالة ابن شاهين الأديب الدمشقي الذي ألمّ عليه فيها

بالشروع في

---

(1) المصدر نفسه، صص. 6 ـ 7.

(2) ديوان الخنساء، ص. 40.

(13676/1)

تصنيف كتابه "النّفح". فقد قال عن ابن شاهين هذا:

»وأتى في المكتوب بأنواع من البلاغة، مما تركت ذكره هنا لعدم تعلقه بهذا الأمر الخاص الذي يُيَسِّر لكارع الأدب مساغه، وختمه بقصيدة نفيسة من نظمه يستنجز فيها ذلك الوعد. وأشهد أنه قد حاز فيها قصب السَّبْق والمجْد «(1).

... وفي ثنائه على ابن الخطيب ومكانته العلمية والأدبية يقول: »إذ لسان الدين بن الخطيب إمام هذه الفنون، المحقق لذوي الآمال الظنون، المستخرج من بحار البلاغة درَّها المكنون، وله اليد الطولى في العلوم

---

(1) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 104.

(13677/1)

على اختلاف أجناسها، والألفاظ الرائقة التي تزيح وحشة الأنفس بإيناسها «(1).

... ويقول في إعجابه بأدب ابن الخطيب أيضاً: »إذ هو - أعني لسان الدين - فارس النظم والنثر في ذلك العصر، والمنفرد بالسَّبْق في تلك الميادين بأداة الحصر، وكيف لا ونظمه لم تستول على مثله أيدي الهصْر، ونثره تزري صورته بالخريدة ودُمية العصْر «(2). ويقصد بـ»الخريدة « هنا كتاب العماد الأصفهاني "خريدة القصر وجريدة العصر"(3)

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 109.

(2) المصدر نفسه، ص. 70.

(3) انظر العماد الأصفهاني الكاتب، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق آذرتاش آذرنوش، الدار التونسية للنشر، ط 2، 1986.

(13678/1)

.

... كما تجدر الإشارة إلى أن المقَّري قد خصّص باباً كاملاً من القسم الثاني لكتابه "النّفح" ليذكر نماذج مطولة من نظم ابن الخطيب ونثره. إذ يقول: »الباب الخامس: في

إيراد جملة من نثره الذي عَبِقَ أريج البلاغة من نفحاته، ونظمه الذي تألّق نور البراعة من لمحاته وصفحاته «(1).

... ومما نلاحظه على مقدمة "النّفح" بصفة خاصة وعلى الكتاب بصفة عامة أن صاحبه قد حشد فيه أشعاراً كثيرة من الموشحات والأزجال لعدد من الوشّاحين والزجّالين الأندلسيين الذين من بينهم لسان الدين بن

---

(1) النّفح، المصدر السابق، ج 1، ص. 116.

(13679/1)

الخطيب. وبذلك يكون المقَّري قد خالف صاحب "الذخيرة" ابن بسّام الذي عَزف عن الاستشهاد بشعر التوشيح أو الأزجال بحجة أن هذا النمط الأدبي الذي شاع في الأندلس على أيامه لا يرقى إلى مستوى الشعر العربي الأصيل المصَفَّى بأوزانه وبحوره المعروفة. غير أن فن التوشيح على أيام المقَّري أضحى كثير التداول لدى الأدباء والشعراء سواء في المشرق أو في المغرب.

خاتمة

... وبعد هذه الإطلالة السريعة على مقدمة كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب وذكر وزيرها لسان

الدين بن الخطيب" للتعريف بموسوعية مصنفها العالم الجليل

(13680/1)

أحمد المقري التلمساني الذي بزَّ أقرانه وشيوخه، والذي عمت أصداء آثاره العلمية أقصى المغرب وأنأى المشرق، فإنه يمكننا القول إننا لم نعرّف إلا بنزر يسير من مناحي ثقافته، وبنتف صغيرة من جوانب موسوعيته، التي لا تستوعبها مثل هذه المقالة القصيرة المتواضعة.

... ولكن مع ذلك، فإن دراستنا لهذه المقدمة الحافلة قد أفصحت لنا بجلاء عن مدى نبوغ مؤلفها ودربته الفائقة في مجاليْ التأليف والتصنيف العلمي والمنهجي، فضلاً عما أنبأت به كذلك ممّا يعجُّ به هذا الكتاب من زخم علمي وأدبي، إذ إنّ المثل العربي يقول:

(13681/1)

»ويُستدلُّ على الشّجر بالواحدة من الثَّمر«.

... وهذا أيضاً هو ما بوّأه المكانة السامقة بين كتب الموسوعات والأمهات التي تزخر به مكتبتنا العربية

الإسلامية.

... فرحم الله المقَّري رحمة واسعة. إنه سميع مجيب.

المراجع

القرآن الكريم.

ديوان الخنساء، شرح وتحقيق عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، د. ت.

العماد الأصفهاني الكاتب، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق آذرتاس آذرنوس، نقحه وزاد عليه محمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، ومحمد المرزوقي، الدار التونسية للنشر، 1986، ج 3.

(13682/1)

النيسابوري الميداني، أبو الفضل أحمد، مجمع الأمثال، قدم له وعلق عليه نعيم حسين زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، جزآن، ط 1، 1988.

قدامة بن جعفر، أبو الفرج، كتاب نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، 1982.

المتنبي، أبو الطيب، ديوان المتنبي، دار الجيل، بيروت، د. ت.

المقَّري التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ـ لبنان، 1988، ثمانية مجلدات.

(13683/1)

المقري التلمساني، أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار عياض، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، الرباط، 1978، ج 1.

ابن بسام الشّنتريني، أبو الحسن علي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، 1975، القسم الأول، المجلد الأول.

ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج 10، 14، د. ت.

سيبويه، كتاب سيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 2، ج 2، 1979.

(13684/1)

مقدمة لدراسة الملابس المغربية .الأندلسية في العصر الإسلامي من خلال المصادر التاريخية والأثرية

... ... الدكتور صالح يوسف بن قربة
... ... قسم الآثار بكلية العلوم الإنسانية جامعة الجزائر

تمهيد

... يعتبر موضوع الملابس أو الأزياء المغربية الإسلامية، بنوعيها المدني والعسكري، من الموضوعات الأثرية الهامة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، جدة وطرافة في هذا المجال، لأن الملابس عامة تشكل عنصراً تراثياً هاماً من بين عناصر تراثنا المادي والفني، لا يقل أهمية عن بحث ودراسة أي أثر تراثي

(13685/1)

آخر مهما بلغت قيمته الفنية والفكرية معا.

... ودراسة الملابس الإسلامية من ناحيتي الزمان والمكان تمثل مصدراً أثرياً أصيلاً يميط اللثام عن جوانب اجتماعية وثقافية مفيدة نذكر من بينها على سبيل المثال لا الحصر تطور الذوق الاجتماعي، والأصناف والميول

الفردية، وكذا الفروق الاجتماعية والمادية في المجتمع الإسلامي في جده وهزله، في فترات ازدهاره وذبوله واضمحلاله. هذا، فضلاً عن أن الملابس نفسها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعادات والتقاليد، خصوصاً أوقات المناسبات والأعياد والاحتفالات المختلفة، التي تحدد لنا طريقة

(13686/1)

ارتدائها، وتنوع ألوانها واختلافها. ومع ذلك، وبالرغم من أهميتها القصوى، فإنها لم تلق العناية اللاّئقة بها من قبل الباحثين والمؤرخين وعلماء الآثار والمشتغلين بالدراسات الاجتماعية الأخرى باستثناء بعض البحوث والدراسات القليلة المتفرقة هنا وهناك

... ومما لاشك فيه أنّ معلوماتنا عن الملابس عامة، والعسكرية منها على الخصوص، لا تزال في بدايتها. فمادتها متناثرة في المصادر التاريخية وكتب الرحالة والجغرافيين العرب، وهي لا تسعف الباحث في هذا المجال، لذلك نلجأ إلى الدراسات الأثرية التي تعد الحجر الأساسيّ في

(13687/1)

كشف أشكال الثقافة المادية، حيث تمكن الباحثون والعلماء بفضل الدراسات الدقيقة من استخلاص أشكال ومضامين شفاهية غير مسجلة من عادات الإنسان وتقاليده منذ العصور القديمة، وهو ما نبه الأثريين إلى تطبيق الدراسات الأثرية على التراث في جانبيه التاريخي والفني.

... والمصادر الأثرية متنوعة يأتي في مقدمتها المخطوطات المزوقة(1)، والخزف والنسيج والجص والعاج وغيرها لاستكمال النقص وبالتالي رسم صورة واقعية عن

---

(1) يأتي في طليعة المصادر الأثرية: مقامات الحريري التي رسمها الواسطي والمحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس.

(13688/1)

الملبوسات. وباعتبار أن هذا التراث ما هو إلاّ نِتَاجٌ حضاري معاصر للفترة أو الحقبة التي أنجز فيها، وبالنظر إلى كونه يفيد في معرفة التواصل الحضاري في مجال التراث المادي، ورغبة منا في خدمة هذا الموضوع، ارتأينا أن

نساهم بهذه الدراسة المتواضعة عن الملابس والأزياء المغربية في العصر الإسلامي من الناحية التاريخية والاجتماعية والحربية (العسكرية)، وذلك حسبما يتوافر لدينا من أدوات البحث المتعلقة بهذا الجانب الهام.

... وانطلاقاً من هذا المفهوم، سوف نتناول دراسة الملابس المغربية من جانبين رئيسين هما:

(13689/1)

... 1 ـ جانب نظري.

... 2 ـ جانب عملي تطبيقي.

... أما الجانب النظري، فيهتم بالناحية التاريخية لإثبات أصالة الملبوسات المغربية، وبالتالي يحاول اكتشاف المادة التراثية وتفحصها ومقارنتها، ثم ملاحظة توظيفها في المجتمع الإسلامي آنذاك.

... أما الجانب العملي التطبيقي، فيأخذ في الاعتبار كل ما تيسر من مواد الملابس والأزياء في بلاد المغرب ومخلفاتها وموادها الخام، إذا أمكن الحصول عليها. هذا، فضلاً عن مصادرها كتجارة الأقمشة والخيوط لبيان المؤثرات عليها. ويخلص هذا الجانب إلى تقسيم الملابس إلى مجموعات حسب

(13690/1)

طريقة استعمالاتها، ولا سيما الناحية الاجتماعية لاقتصارها على وظيفة معينة أو فترة محددة.

... وتهدف الدراسة الميدانية إلى بيان أصالتها وتتبع جذورها من حيث كونها ملابس مغربية إسلامية متوارثة ترجع في أصولها وتقاليدها إلى القرون الأولى للهجرة.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن هذا الاتجاه لا يتحقق إلا بالقيام بدراسة مقارنة تستند إلى الأدلة الأثرية والنصوص التاريخية، والتي تستحق التحليل الدقيق المقارن لمضامينها، علماً بأن المصادر التاريخية من جهة وكتب الجغرافية والرحلات والفقه والنوازل والمعاجم اللغوية من

(13691/1)

جهة ثانية، كلها تحتوي على العديد من الألفاظ والأسماء والصفات لمختلف أنواع الأزياء. ومن الأمثلة على ذلك ما نكتشفه في كتب التراث مثل كتاب "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني و"مروج الذهب" للمسعودي و"العقد الفريد" لابن عبد ربه و"البيان" لابن عذاري و"المعجب"

لعبد الواحد المراكشي و"الإحاطة في أخبار غرناطة" للسان الدين بن الخطيب و"الحلة السيراء" لابن الأبار. وبالإضافة إلى ذلك، فهناك كتب المسالك والممالك مثل كتاب "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب" للبكري و"نوازل" ابن رشد.

(13692/1)

... أما المعاجم اللغوية، فقد أمدتنا بالكثير من المعلومات القيمة التي يتطلبها البحث، خصوصاً فيما يتعلق بأصول المفردات واشتقاق المصطلحات. وهنا لابد من الإشارة إلى أن استعمالنا لاصطلاح اللباس أو الزي العسكري للدلالة على عدة الجيش (الجند) وفي طليعته الخليفة أو الأمير والقائد والجندي المقاتل في المغرب الإسلامي شيء مبالغ فيه إلى حد ما، بل هو غير وارد تاريخياً البتة، لأن المغاربة المسلمين في مرحلة الفتح وصدر الإسلام وردحٍ من العصر الأموي، لم يعرفوا الجيش المنظم الدائم بمفهومه العسكري؛ كما أن المؤسسة

(13693/1)

العسكرية الإسلامية لم تتبلور وتأخذ أبعادها وسماتها الحقيقية إلا في العصر العباسي(1) في حالة المشرق، والعصر الفاطمي في حالة المغرب. وحين جاء الإسلام، غدت الأمة كلها مقاتلة، وهذا يعني أن كل القادرين على حمل السلاح من الرجال ينفرون للحرب عند الحاجة(2). ...

---

(1) فاروق عمر فوزي، »الجند الأموي والجيش العباسي - دراسة في تطور المؤسسات العسكرية في العصرين الأموي والعباسي«، مجلة المورد، عدد خاص، المجلد الثامن، العدد 4، 1979 م، ص. 234.

(2) المقال نفسه، ص. 234.

(13694/1)

... وهكذا، حين بدأت حركة الفتح العربي الإسلامي، اشترك فيها المقاتلة من مختلف القبائل. ومع ذلك، فهؤلاء المقاتلة لم يشكلوا جيشاً نظامياً بمعنى الكلمة، وبالتالي لم تكن هناك شارة أو لباس يميزهم، بل ظلوا على أزيائهم العادية ولباسهم الفضفاض الذي لا يعوق حركة أجسامهم ولا يقلقها عند الالتحام: »خفاف بسيطة وسراويل فوقها البرانس وجباب الصوف«(1).

---

(1) المسعودي، مروج الذهب، على هامش الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج 5، ص. 127.

(13695/1)

... ومع ذلك، فإننا غالباً ما نجد أزياءهم متعددة الألوان، ولكن لم تكن للألبسة شارة أو رمز معين. وهذا يدل فعلاً على أن المسلمين في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام تميزوا بالبساطة. فالمسلمون جميعاً مجاهدون في سبيل الله يلبون النداء، ويركبون إلى الغزو بلباسهم العادي وأسلحتهم التي كانت بحوزتهم، واستعملوا بالإضافة إلى ذلك أغطية الرأس مثل العمائم.

... ويمكن القول ـ في ضوء ما سبق ـ بأن بحث ودراسة الملابس (الأزياء) العسكرية المغربية والأندلسية في العصر الإسلامي، يطرح إشكالية معالجتها ودراستها دراسة

(13696/1)

تحليلية مقارنة كما وردت في المصادر التاريخية والأثرية، لندرة ما وصلنا بشأنها. ومما يزيد في صعوبة

البحث أننا كلما حاولنا جمع شتات المادة التاريخية، نجد أنفسنا في بحر لجي بسبب ندرة الأخبار والأوصاف المتعلقة بها كما سبق أن ذكرنا؛ وحتى إن وجدت، فهي قليلة وشحيحة جداً لا تدلنا على شكل ثابت لها. ومن ثم فهي لا تسعف الباحثين المتخصصين في هذا المجال. وهذا لا يعني بطبيعة الحال خلو المصادر التاريخية من المادة نفسها فحسب، بل هي قليلة جداً لا تعدو مجرد إشارات وتلميحات متناثرة هنا وهناك وبالرغم من قلتها، فهي

(13697/1)

مهمة لما تضمنته من معلومات دقيقة، ولا سيما فيما يخص أنواع الملبوسات، وكذا التسميات التي عرفت بها وطريقة ارتدائها وطرزها وتنوع أصنافها. هذا، فضلاً عن المناسبات التي استعملت فيها آنذاك، حيث تميز كل فصل من فصول السنة بزي خاص.

... وانطلاقاً من المعلومات التي تضمنتها، فهي تفيد في دراسة الملبوسات العامة والخاصة التي ارتبطت بفئات وطبقات معينة في المجتمع المدني؛ كما تساعد أيضاً في التعرف بشكل صحيح على المواد الخام التي صنعت منها تلك الملبوسات. نذكر من بينها ما حفلت به

مؤلفات الإدريسي(1)

---

(1) كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

(13698/1)

وابن حيان(1) والمقري(2) من أخبار عن أهل قرطبة حاضرة الخلافة الأموية، الذين اشتهروا بحسن الزي في الملابس والمراكب(3).

... ويأتي في مقدمة هؤلاء المؤرخين الرحالة والجغرافي العربي ابن حوقل الذي تحدث عن أنواع الملابس المفضلة عند أهل الأندلس، فذكر منها »اللبود المغربية الثمينة والحرير، وما يؤثرونه من ألوان الخز والقز«(4)

---

(1) المقتبس من تاريخ الأندلس.

(2) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.

(3) د. أحمد فكري، قرطبة في العصر الإسلامي.

(4) أطلق المسلمون على الحرير كلمة "القز" قبل غزله، ولكنه عندما يخلط مع الصوف يسمونه "الخز". (انظر ابن سيدة، المخصص).

(13699/1)

.

... [وكان] يجلب منها الديباج ولم يساومهم في أعمال لبودهم أهل بلد على وجه الأرض. وربما عمل لسلطانهم لبود ثلاثية، يقوم اللبد منها بالخمسين والستين ديناراً... فهي من محاسن الفرش، ويعمل عندهم من الخز السكب والسفيق ما يزيد ما استعمل منه للسلطان على ما بالعراق ويكون منه المشمع فيمنع المطر من أن يصل إلى لابسه (1).

... يتبين من كلام ابن حوقل الذي لم يحدد فيه منطقة أو جهة معينة أنه قصد مدينة قرطبة نفسها، ولا نستبعد أن تكون الملابس نفسها قد

---

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، القسم الأول، ص ص. 110 - 114.

(13700/1)

استعملها أهل المغرب بحكم عامل التأثير والتأثر والامتزاج الحضاري.

... ونستخلص مما أورده المقري في مؤلفه "نفح الطيب"

نقلاً عن ابن سعيد المغربي من أن ما كان يجري بالأندلس، كان يجري بقرطبة(1). والغالب على سكانها ترك العمائم وانهم كثيراً ما كانوا يرتدون غفائر الصوف الحمر والخضر. أما الغفائر الصفر، فكانت "مخصوصة لليهود"، وأكثرهم لا يمشي »دون طيلسان، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ المعظمون« (2)

---

(1) د. أحمد فكري، قرطبة في العصر الإسلامي، ص. 259.

(2) المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 1، ص ص. 207 ـ 208.

(13701/1)

.

... أما عن ابن عذاري المراكشي، فيلقي أضواء كاشفة حول الملابس الأندلسية بشكل خاص، فيعطينا ثبتاً كاملاً بأصناف الملبوسات الممتازة وتسمياتها، التي شاع استعمالها من قبل الأندلسيين خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ـ كما يفهم من عبارته التي يشير فيها إلى أنه من بين أصناف الأكسية: »... الخز الطرازي، وصوف البحر والكساء العنبري، والسقلاطون، والمريشات وأنماط الديباج، والديباج الرومي والفروي

الفنك«(1).

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب، ج 1، ص. 297.

(13702/1)

... ومما يؤثر على أهل الأندلس ما سنه الفنان زرياب لسكان قرطبة من لبس البياض وترك الملابس الملونة في فصل الصيف، بينما يعودون إليها »ويلبسون بقية السنة الثياب الملونة«. وجعلهم يلبسون في الفصل الذي بين الحر والبرد »جباب الخز والملحم والمحرر والدراريع التي لا بطائن لها«(1).

... أما في بداية الفصل الذي بين البرد والحر، وهو ما يطلق عليه المقري اسم الخريف، فكانوا يلبسون فيه »المحاشي والمروية والثياب المصمتة وما شاكلها من خفائف الثياب الملونة ذوات الحشو

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص ص. 207 ـ 208.

(13703/1)

والبطائن الكثيفة«. وفي فصل الشتاء، فقد نصحهم زرياب أن يستظهروا من تحت ثيابهم »صوف الفراء«(1).

... وإذا كانت هذه حال الملابس الأندلسية كما كشفت عنها أوصاف المؤرخين والجغرافيين العرب، فماذا عن الملابس المغربية خلال العصر الإسلامي؟ فهل نالت هي أيضاً عناية واهتمام هؤلاء الكتاب والمؤرخين أو أنها ظلت بعيدة عن ذلك؟ والغريب أن ما ذكره المؤرخون بخصوص هذا الموضوع أكدت جزءاً كبيراً منه الآثار الإسلامية.

---

(1) المصدر نفسه، ص. 208.

(13704/1)

... ومهما يكن من أمر، فالذي لا جدال فيه أن ما نملكه من نصوص تاريخية عن أصناف الملابس المغربية قليل لا يفي بالمطلوب ولا يسعف الباحث في هذا الحقل من الدراسات الأثرية.

... ومع ذلك، فاستناداً إلى الإشارات المقتضبة التي وردت عنها في كتب المؤرخين والجغرافيين، نستطيع رسم صورة حقيقية عنها. من ذلك مثلاً ما ذكره المقدسي حول

»الرساتيق .الأقاليم .كانوا يرتدون أكسية « وأن عامة سكان المغرب من البربر الذين أطلق عليهم السوقة، كانوا يرتدون المناديل، والمنديل .كما هو معروف .لباس من صوف يغطي الرأس ويتدلى على

(13705/1)

الكتفين والظهر، وليس ببعيد أن يكون هذا المنديل بمثابة عمامة أو زناراً يتمنطقون به، كما يستشف من الأخبار التاريخية أن لبس الجبة كان من الصوف، فهذا اللباس البسيط انتشر بشكل خاص في مدينة تاهرت حاضرة الدولة الرستمية في المغرب الأوسط، وهو ما أكده ابن الصغير في معرض كلامه عن عبد الرحمن بن رستم الذي كان يكثر من شراء هذا النوع من الملبوسات، »فاشترى أكسية صوفاً وجباباً صوفاً وفراء«(1).

---

(1) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم بحاز، بيروت، ط دار الغرب الإسلامي، 1986 ، ص. 4.

(13706/1)

... ويتضح من عبارة ابن الصغير أن الصوف والفراء كانا يشكلان أهم الأقمشة التي لقيت إقبالاً شديداً بين الناس. هذا، بالإضافة إلى أن الجبة أو الجباب اعتبرت أيضاً من الأزياء المحببة لدى الأمراء. ومع ذلك، فالغموض وشحة الوثائق لدى المؤرخين القدامى قد امتدت عدواها إلى الباحثين المحدثين، فجاءت كتاباتهم وأبحاثهم في هذا الصدد مختلفة وغير ثابتة على حد تعبير أحد الباحثين العرب الذين اشتغلوا بموضوع الملابس(1)

---

(1) د. صلاح العبيدي، الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي، ط دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980، ص. 91.

(13707/1)

.

... ومهما يكن من شيء، فالذي لاشك فيه أن لباس الصوف كان يعد لباساً عاماً شاع استعماله في بلاد المغربين الأدنى والأوسط حيث ارتداه الزعماء والقادة والخلفاء والأمراء. يدل على ذلك أن أبا يزيد مخلد بن كيداد حين فجر ثورته في وجه الفاطميين الشيعة كان لباسه الصوف(1).

... وفي ضوء المعطيات السابقة، يمكن القول إن لبس الجبة كان يشكل أيضاً لباساً رسمياً عند الخلفاء الفاطميين الذين كانوا يظهرون البساطة والتقشف في حياتهم

---

(1) ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان، تونس، الدار التونسية للنشر، 1976 م، ص. 157.

(13708/1)

السياسية. فقد روي عن الخليفة المعز لدين الله أنه استدعى ذات يوم أشياخاً من كتامة في يوم شتاء بارد، فدخلوا عليه في مجلس قد »فرش باللبود، وعليه جبة« (1).

... والجبة ـ كما هو معروف من أوصاف المعاجم اللغوية ـ كانت عبارة عن لباس طويل تتدلى إلى الركبة، وقد تزيد، لأنها تستر ما تحتها.

... والحقيقة أن دراسة هذا النوع من الملابس الإسلامية ما زال يكتنفه الغموض، بسبب ندرة المعلومات من جهة، وقلة الرسوم والصور التي حفظتها الآثار من جهة أخرى.

البرنس

(1) المرجع نفسه، ص. 159.

(13709/1)

... استعمل أهل المغرب، في العصرين القديم والإسلامي، البرنس ثوباً خارجياً. والبرنس كما عرفه ابن سيدة هو «كل ثوب رأسه منه متصل به سواء أكان دراعة أم ممطراً أو جبة»(1).

... وحسب المقدسي، فإن سكان هذه البلاد من البربر كانوا جميعاً يرتدون البرانس البيضاء والسوداء على حد سواء. وكما هو معروف، فالبرنس لباسٌ صوفي كان يستعمل في فصل الشتاء للوقاية من البرد والمطر، كما استعمل في بعض المناطق في كل الفصول أو على مدار السنة.

(1) ابن سيدة، المخصص، ج 4، ص. 81.

(13710/1)

... ومن المرجح جداً أن لبس البرنس في القديم كان يعد شارة أو علامة مميزة لطوائف من البربر، عرفوا تبعاً

لذلك باسم "البرانس"، كانوا يمتهنون التجارة والزراعة، وتشربوا لثقافة اللاتينية. فهؤلاء تميزوا عن جيرانهم بلبس برنسٍ له غطاء رأس، بينما عرف الصنف الآخر من البربر باسم "البتر"، لارتدائهم برنساً مبتور الرأس، أي دون غطاء الرأس، وهؤلاء كانوا بدواً بعيدين عن تأثير الثقافة اللاّتينية.

... وأما تفسير "البتر" بأنهم سموا كذلك لتجردهم من زي معين يعرف بالبرنس(1)

---

(1) انظر عبد الحميد العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس، القاهرة، 1958 م، ص. 32.

(13711/1)

، فهو تفسير لغوي لا يستند إلى أساس علمي قوي(1).

وعلى الرغم من تسليمنا بعدم صحة هذا التقسيم لسكان المغرب، فإن البرنس لباس خارجيّ كان يشكل زياً شعبياً منذ القديم في بلاد المغرب توارثته الأجيال وتواصل لبسه حتى اليوم.

... ولعل لباس البرنس هذا هو الذي أشار إليه ابن الصغير في معرض حديثه عن عبد الرحمن بن رستم حينما قال: »... اشترى أكسية صوفاً«(2)

(1) د. عبد العزيز سالم، المغرب الكبير في العصر الإسلامي، ج 2، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1966 م، ص. 136.

(2) ابن الصغير، أخبار الأئمة الرستميين، ص. 41.

(13712/1)

ووزعها على المحتاجين من أهل مملكته؛ ومن المحتمل جداً أنها كانت ألبسة صوفية غير مفصلة يلتحف بها كالحايك دون غطاء الرأس. وفي هذا الصدد يقول دوزي: »إن كلمة البرنس قد عنيت في الأزمنة القديمة طاقية، إلا أنها تشير إشارة في العصور الحديثة إلى معطف ضخم له قلنسوة «(1).

... والجدير بالملاحظة أن لبس البرنس لم يقتصر على سكان المغرب فحسب، بل امتد وانتشر إلى حد ما في المشرق في العصر

(1) دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة د. أكرم فاضل، بغداد، طبعة وزارة الإعلام العراقية، 1971 م، ص. 66.

(13713/1)

العباسي، حيث اتخذ لباساً مميزاً للذين يشهرون بهم من الخارجين على الدولة. وجرت العادة في مثل هذه الحالة أن يلبسوا الخوارج برانس، ويطوفوا بهم على هذه الشاكلة في الشوارع والدروب(1).

... وبالإضافة إلى ما سبق، كان البرنس أيضاً يشكل لباساً خاصاً عند اليهود وأطلق عليه اسم "براطيل"، كما شاع لبسه من قبل النصارى حسبما ذكره متز(2).

---

(1) د. صلاح العبيدي، الملابس العربية الإسلامية، ص. 234.

(2) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج 1، ص. 94.

(13714/1)

... وأكد المسعودي ظاهرة استعمال البرنس في العصر العباسي بقوله: «... ودخل المعتضد وبدر الكبير مدينة السلام، وبين أيديهما وصيف الخادم على جمل فالج وعليه دراعة ديباج وبرنس وخلفه جماعته وقد لبسوا الدراريع من الحرير الأحمر وعلى رؤوسهم البرانس» (1).

... والمتأمل في النصوص السابقة يلاحظ أن وصف البرنس لا يدل على أنها متصلة بالرأس بلباس آخر مثل الدراعة،

وإنما تدل على أنه غطاء للرأس فحسب. والبرنس المشرقي بهذه الكيفية يختلف تمام الاختلاف عمّا عرفناه عن

---

(1) المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص ص. 267 ـ 268.

(13715/1)

البرنس الإفريقي أو المغربي الذي يتميز بمواصفات خاصة.

... ولا يزال البرنس يستعمل في بلدان المغرب العربي حتى اليوم؛ ويحمل الاسم نفسه، ولكننا حينما نحاول البحث عن صورته التاريخية في الآثار الإسلامية المغربية، فإنه يكون صعب المنال، بسبب زوال معظم الفنون التطبيقية التي كانت تحمل صوراً حية من المجتمع المغربي في العصر الإسلامي. ... وفيما يخص البرنس المشرقي، فالأمر يختلف تماماً من هذه الناحية، حيث لا تزال بعض الآثار تحتفظ بصوره. من ذلك مثلاً نذكر أن أقدم صورة ما زالت تحتفظ بشكل البرنس على الآثار

(13716/1)

المشرقية، تلك التصويرة الواردة في مخطوط كتاب "كليلة ودمنة"(1)، وهي تمثل قصة "الناسك وابن الثعبان"، حيث نشاهد الناسك في الصورة وقد أسند ظهره إلى عمود داخل البيت، بينما وقف أمامه ابنه. ويظهر الناسك في برنس مؤلف من قطعة واحدة يغطي الجسم والرأس معاً، والجزء الذي يغطي البدن أقرب ما يكون إلى الدراعة، وهو متصل من أعلى بغطاء للرأس على شكل قلنسوة عالية(2)

---

(1) د. خالد الجادر، المخطوطات العراقية المرسومة في العصر العباسي، بغداد، طبعة وزارة الإعلام، 1972 م، ص ص. 38 ـ 39.

(2) د. صلاح العبيدي، الملابس العربية، ص ص. 235 ـ 236.

(13717/1)

.

... ونحب الإشارة هنا إلى أن البرنس، سواء كان مصنوعاً من الصوف أو الوبر، يعتبر من أهم الأزياء المحلية في المغرب الإسلامي.

... ومما لاشك فيه أن الصوف كانت تشكل المادة الأولية

في لباس القادة والخلفاء والأمراء. ويؤثر عن زعيم الموحدين الروحي المهدي ابن تومرت أنه يظهر التقشف والبساطة في لباسه، حيث اقتصر على لبس »ثياب الصوف من قميص ومن سراويل ومن جبة تواضعاً« (1).

---

(1) ابن القطان، نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، طبعة تطوان، ص. 132.

(13718/1)

... وأصبح "البرنس" ولبسه من الأمور التي تحرص عليها كل طوائف المجتمع المغربي في العصر الإسلامي، يستوي في ذلك الرجل العادي والجندي والفقيه والعالم والسلطان، ولكن بدرجات متباينة يراعى فيها اللون والشكل والمادة، وهو ما أشار إليه القلقشندي في كلامه عن »لبس السلطان بالمغرب«، خصوصاً يوم الاحتفال أو يوم التمييز وهو: »يوم عرضهم (الجند) على السلطان، ويختص السلطان بلبس البرنس الأبيض الرفيع لا يلبسه ذو سيف غيره«(1).

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، الطبعة الأميرية، 1915 م، ج 5، ص. 204.

ومنذ ذلك الوقت صار هذا العمل تقليداً متبعاً في كل بلدان المغرب الإسلامي.

... أما الفقهاء، فقد لبسوا البرنس الأبيض شأنهم في هذا شأن السلطان، على حين كان «العلماء وأهل الصلاح لا حرج عليهم في ذلك، ولا حرج في غير الملون مثل الأبيض من البرانس»(1).

... ويستشف من الإشارات التاريخية أن البرنس المغربي كان يعد من الأشياء الثمينة التي تهدى للملوك والسلاطين بالمشرق. فقد أهدى السلطان أبو الحسن المريني لدولة المماليك بمصر «الحلل المرقومة المذهبة والأنساق والقنع والمحررات المختمة

(1) المصدر والصفحة نفسهما.

والبرانس المصنوعة من الحرير المشفف وأحاريم الصدف»(1).

... يتبين من الأوصاف السابقة المتعلقة بهذا النوع من

الملابس الشعبية أننا نستطيع أن نتمثل صورته الواضحة. وقد ارتداه السلطان المريني والزياني وغيرهما من القادة والجند، إذ لا غنى لأحد عنه لأهميته التاريخية في المناسبات والاحتفالات الرسمية والحياة اليومية(2)

---

(1) ابن مرزوق، المسند الصحيح الحسن، ص ص. 452 ـ 453.

(2) أشار الإدريسي في معرض كلامه عن مدينة "نول لمطة" المغربية إلى شهرتها ببيع الأكسية المسماة «بالسفسارية والبرانس التي يساوي الزوج منها خمسين درهماً ديناراً وأقل وأكثر». (المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق وتعجيم محمد حاج صادق، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1983، ص. 75).

(13721/1)

.

السروال

... إن المعلومات التي انتهت إلينا بخصوص هذا اللباس ضئيلة جداً. ويبدو أن سبب إحجام الكتاب والمؤرخين عن ذكره يرجع بالدرجة الأولى إلى عدم شيوعه بين الناس

من جهة، وإلى كونه لباساً محدود الاستعمال من جهة ثانية(1).

... ونحب، قبل أن نفصل القول في هذا اللباس، أن نشير إلى أصل السروال اللغوي والتاريخي، لأن ذلك يساعدنا على فهم أهميته باعتباره لباس البدن الداخلي.

---

(1) د. صلاح حسين العبيدي، الملابس العربية، ص ص. 195 ـ 196.

(13722/1)

... وعليه، فالسروال مؤنثة، وتجمع على سراويل وسراويلات(1). وإذا كانت الكلمة عربية، فإن السروال في الأصل ليس عربياً. ومن المرجح أنه انتقل إلى العرب من بلاد فارس، وهي مشتقة من الفارسية القديمة "زرد أرد"(2).

---

(1) أبو هلال العسكري، كتاب التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، تحقيق د. عزت حسن، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، 1389 هـ، ج 1، ص. 214.

(2) ابن سيدة، المخصص، ج 4، ص. 83، ويعرف في الفارسية الحديثة باسم "شلوار".

(13723/1)

... وتحدث الجاحظ عن القميص والسروال في عهده، فقال(1): »إن القميص والسروال هما الشعار، وسائر الثياب الدثار«.

... أما عن شكل السروال، فيتألف من حجرة وساقين(2). وتتميز بأنها تستر من الجسم أسفله، وتكون مفصلة ومخيطة. وهي على أنواع، منها سراويل أسماط، أي غير محشوة(3)، وسراويل مخرفجة ومفرسخة، وهي السراويل الواسعة(4).

---

(1) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي، 1914 م، ص. 154.

(2) ابن منظور، لسان العرب، ج 10، ص. 152.

(3) ابن سيدة، المصدر السابق، ج 4، ص. 83.

(4) المصدر والصفحة نفسهما.

(13724/1)

... كان السروال من ملابس المجتمع المغربي القديم، كما كان لباساً مهماً شاع بين طبقات المجتمع المغربي في

العصر الإسلامي من الخلفاء والسلاطين والحكام. ويعتبر السروال بالإضافة إلى ذلك من لباس الكتاب(1) والفقهاء والقضاة وقادة الجيش والجند.

... وكان الأغنياء من التجار يلبسون القمصان والأردية فوق السراويل(2). ولما كان السروال لباساً عاماً، لبسه أعاظم

---

(1) الخالديان، التحف والهدايا، تحقيق سامي الدهان، القاهرة، طبعة دار المعارف بمصر، 1956 م، ص. 157.

(2) القرطبي، صلة تاريخ الطبري، أبريل 1897، ص. 79.

(13725/1)

الناس وأصاغرهم. وهي لذلك، لابد أنها كانت تختلف في شكلها ونوعها ولونها من فئة إلى أخرى، لأنها اتخذت من قِبَلِ مختلف الطبقات التي تتفاوت في المركز الاجتماعي والمادي. من ذلك مثلاً أن سراويل الإمام يعقوب بن أفلح الرستمي كانت تمتاز بعرضها الفضفاض حتى بلغت »حجرة سراويله في جنبه«(1).

---

(1) ابن الصغير، سيرة الأئمة...، ص. 113. ويروي في هذا الشأن عن الإمام نفسه أنه »كانت له أخلاق في لباسه

وركوبه يخرج عن طبع البشر، حجرة سراويله في جنبه».

(13726/1)

... وكانت السراويل تتخذ من القماش، أي الكتان(1). ويبدو أنها كانت أيضاً من طبقة الأثرياء. فقد ذكر الغبريني في ترجمته للتجيبي(2):

... أنه كان يوماً يسير إلى باب البحر (ببجاية) ومعه بعض خواصه، وإذا بشخص يتمايل سكراً، فألقى يده الشيخ فقال له: يا سيدي ارفع ما أنتم به هذه السكرة. فانتهره الناس، فقال لهم: لا عليكم، دعوه! فتركوه. فأخذ

---

(1) وكانت السراويل تتخذ من القماش الأبيض والأسود والأزرق.

(2) الغبريني، عنوان الدراية، تحقيق رابح بونار، الجزائر، ط الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1970 م، ص. 152.

(13727/1)

سرواله ودفعه إليه لأنه لم يكن عنده، فانفصل الرجل والسروال بيده.

... كان السروال في بلاد المغرب الإسلامي ذا أهمية خاصة عندما أصبح يشكل زياً رسمياً لرجال الدولة، بالإضافة إلى أزياء أخرى استعملت معه. ومع ذلك، فينبغي أن نأخذ في الاعتبار أن كل طبقة من الطبقات التي سبقت الإشارة إليها كانت تختلف سراويلها من حيث شكلها ولونها ومناسبات لبسها. فقد جرت العادة في بلاد المغرب على أن الجند المقاتل وخصوصاً فرقة المشاة، كانوا يرتدون "جبا دولي" الأحمر أو الأخضر، ومن لباسهم أيضاً السروال الأزرق، والصدرية

(13728/1)

والعمامة أو الطربوش وكلاهما أحمر(1). أما سراويل الجند والفرسان، فالمعلومات والإشارات الواردة بشأنها ضئيلة جداً ومقتضبة وغامضة، وأحياناً متناقضة؛ كما أن المصادر التي نستقي منها معلوماتنا عن الملبوسات المغربية قلما تذكر طول الملبوس وطريقة تفصيله

وخياطته أو طريقة ارتدائه أو الألبسة التي تلبس مجتمعة معا(2)

---

(1) عبد العزيز بنعبد الله، مظاهر الحضارة المغربية، القسم الثالث، الرباط، نشر دار المسلمين، 1958 م، ص. 43.

(2) صبيحة رشيد رشدي، الملابس العربية وتطورها في العهود الإسلامية، بغداد، نشر مؤسسة المعاهد الفنية، ط 1، 1980 م، ص. 5.

(13729/1)

.

... وفي هذه الحالة، نلجأ إلى المصادر المادية الأثرية، والتي لا يزال بعضها يحتفظ برسومها أو صورها. ومن الأمثلة على ذلك، نذكر أن السروال المصور على الآثار المغربية والأندلسية، جاءت بأشكال وأنماط متباينة في تفصيلها وخياطتها تبعاً للمناسبة التي اتخذت فيها. وفضلاً عن ذلك، فإننا نستدل على صورة هذه السراويل من العلب العاجية التي كانت تصنع في الأندلس. وقد وصلت إلينا مجموعة طيبة من صناديق مستطيلة الشكل غطاؤها على هيئة هرم مسطح وعلب

أسطوانية الشكل، وجميعها كانت تتخذ لحفظ العطور والعنبر والمسك(1)

---

(1) عن هذه الرسوم وأوصافها، انظر:

José Ferrandis, Marfiles Arabes de occidente, 1Tomo -2 ,1935, Madrid, 26, pp. 26, Figure 2T.–27.

(13730/1)

.

... تبين من رسوم هذه العلب أن الفرسان من الصيادين يرتدون سراويل تصل حتى الأقدام وتكاد تلتصق بالسيقان بحيث تبدو كما لو كانت جوارب(1).

...

... ومن المرجح جداً أن تلك السراويل هي اللباس نفسه الذي أطلق عليه المقري اسم: »الأشكر لاط« (2). وعلى العموم، ومهما يكن من شكل هذه السراويل، فليس بين أيدينا في الحقيقة رسم مصور واضح للسروال

---

(1) د. محمد عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، بيروت، طبعة دار

الثقافة، دون تاريخ، ص ص. 179 ـ 192.

(2) المقري، نفح الطيب، ج 1، ص. 207.

(13731/1)

الأندلسي بعد القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي.

... وفيما يخص بلاد المغرب الإسلامي، فالإشكال يظل مطروحاً بسبب إحجام المؤرخين من جهة، وغياب الفنون والصنائع التي قد تساهم برسومها في حل هذا الإشكال من جهة ثانية؛ وحتى إن وجدت، فنادراً ما تحمل بين زخارفها رسوماً آدمية.

(13732/1)

مقومات المنهج التربوي الإسلامي وخصوصياته

الدكتور عباس الجراري

عضو أكاديمية المملكة المغربية كلية الآداب – الرباط

مقدمة : الإسلام عقيدة ونظام (منهج متكامل)

... ... الإسلام هو خاتم الرسالات السماوية ، أي آخر الأديان التي بعثها الله لهداية البشرية وإسعادها في الدنيا

والآخرة . وقد كلف بتبليغ هذا الدين سيدنا محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بواسطة الوحي الذي أنزله الحق تعالى عليه ، وهو القرآن الكريم ، معجزة الإسلام الأولى . وتكفل العلي القدير بحفظه فلم يقع تبديل ولا تحريف مثلما وقع في بقية

(13733/1)

الكتب : { إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون } (1) ، هو المصدر الأساسي للدين . ثم عمل الرسول – صلى الله عليه وسلم – على تبينه بالسنة ، وهي ما صدر عنه عليه السلام من أقوال و أفعال وتقريرات ، فكانت بذلك المصدر الثاني والمكمل : { و أنزلنا إليك الذكر لتبين ما أنزل إليهم } (2) .

والإسلام عقيدة ونظام ، أو هو عقيدة يقوم عليها نظام : أما العقيدة فتدعو إلى توحيد المطلق ، أي عبادة الله وحده لا شريك له : { قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد

---

(1) سورة الحجر (الآية 9) .

(2) سورة النحل (الآية 44) .

(13734/1)

ولم يكن كفوًا أحد } (1) وفي ذلك إبعاد لكل المعتقدات الخرافية ، ولجميع الأوهام والآراء المضطربة والأفكار التي لا يقبلها العقل والمنطق .

وتوحيد الله عز وجل يستلزم الإيمان بأنه تعالى خالق الكون ومنظمه ومسيره بإرادته وقدرته . ولا تحتاج من يريد التأكيد من ذلك إلا أن ينظر في هذا الكون بتأمله بالعقل المفضي إلى الاقتناع ، بل يكفيه أن ينظر إلى نفسه : { وفي أنفسكم أفلا تبصرون }(2) .

---

(1) سورة الإخلاص .

(2) سورة الذاريات (الآية 21) .

(13735/1)

والتوحيد يفضي إلى الإيمان بالملائكة الكتب والرسل ، وبالقدر خيره وشره ، وباليوم الآخر الذي هو يوم الحساب والمصير . ولو لم يكن هذا اليوم لكان وجود الخلق والتكاليف مجرد عبث ، وحاش الله أن يكون علمه كذلك : { أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون }(1)

... ... هذا جانب الإيمان في العقيدة ، وهو يحل للفرد المسلم كل المشكلات الغيبية التي أثارها الإنسان وطرحها على فكرة منذ بدء الخليقة ، والتي ظل فيها غير المومنين محتارين ومضطربين .

---

(1) سورة المومنون (الآية 116) .

(13736/1)

... ... إلا أن هذا الإيمان الباطني المتبلور في القول والتعبير يقتضي العمل ، أي يتطلب بعض التكاليف التعبدية التي تجعل المسلم متصلا بربه وشاعرا بقربه منه و رقابته عليه ، حتى يتم له الإحسان الذي هو " أن تعبد الله كأنك تراه إن لم تكن تراه فإنه يراك " (1) .

... ... و إن هذه التكاليف التي هي الصلاة والزكاة والصوم والحج لتحرك الوجدان وتوقظ الضمير وتربي في النفس كل ملكات الخير ، وهي مضبوطة في نطاق ما يستطيعه الإنسان ويتحمله ،

---

(1) من حديث رواه البخاري ومسلم و أبو داود والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب .

(13737/1)

ولكل منها معناه ومغزاه والحكمة منه في سباق العبادة التي تعتبر الغاية من إيجاد الخلق : { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } (1) .

... ...

... ... هذا جانب العقيدة في الإسلام ، وهو يهدف إلى إصلاح ذات الفرد وتطهير روحه والسمو بفكره وجعله في النهاية عنصرا صالحا مستعدا للعمل والتعايش ، وقادرا على أن يكون في مجتمع سليم ومنتج ، وعلى أن يتشكل منه هذا المجتمع .

... ... من هنا يأتي الجانب الثاني ، وهو النظام الذي يقوم على هذه العقيدة أي النظام الذي يبنى عليه

---

(1) سورة الذريات (الآيات 56 – 57 – 58) .

(13738/1)

المجتمع الإسلامي . إنه مجتمع مؤسس على الفضيلة المتمثلة في مجموعة من المبادئ والقيم ، في طليعتها الحرية والإخاء ، والعدالة والمساواة ، واحترام كرامة الإنسان و إرادته، والصدق في التعامل ، والتسامح وحسن

الجوار ، ومنع جميع أشكال الظلم والاعتداء ، وتحريم كل أنواع الفواحش والمنكرات .

... ... وللنظام الإسلامي معالم وملامح ومقومات يمكن تلخيصها في العناصر الخمسة الآتية:

... ... 1- عنصر تربوي يعني بالطفل في مختلف مراحل تكوينه ونشأته منذ زواج أمه إلى أن تحمل به فما بعد ذلك ، مما سيتناوله هذا العرض .

(13739/1)

... ... 2 - عنصر علمي يقوم على مفاهيم وتوجيهات مكملة للعملية التربوية وفاعلة فيها على نحو ما سنوضح بعد .

3 - عنصر سياسي يقوم على الشورى إبعادا لكل مظهر للطغيان والاستبداد : {وشاورهم في ... الأمر } . (1) و { أمرهم شورى بينهم } (2) ، وعلى العدل الذي ينفي كل أنواع الظلم : { إن الله يأمركم أن تردوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل } (3) { وعدلوا هو أقرب للتقوى } (4)

---

(1) سورة آل عمران (الآية 159) .

(2) سورة الشورى (الآية 35) .

(3) سورة النساء (الآية 57) .

(4) سورة المائدة (الآية 9)

(13740/1)

، وعلى المساواة فلا تمييز ولا تفرقه ولا عنصرية ولا عصبية ولا احتكار ولا تعالي ولا استعباد : { يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ،إن أكرمكم عند الله أتقاكم }(1) " أيها الناس إن ربكم واحد و إن ربكم واحد و إن أباكم واحد كلكم لآدام و آدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى (2) ويقوم هذا الجانب على رباط البيعة الذي هو عقد ملزم للحاكم والمحكوم

---

(1) سورة الحجرات (الآية 13) .

(2) من خطبة النبي – صلى الله عليه وسلم – في حجة الوداع .

(13741/1)

والذي هو معظم الشأن عند الله : { إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنوتيه أجرا عظيما } (1) .

وعلى أساس هذه المقومات يكون بناء الأمة التي أرادها الله أن تكون أمة الخير على الدوام { ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون }(2)

---

(1) سورة الفتح (الآية 10) .

(2) سورة آل عمران (الآية 104) .

(13742/1)

---

4 – عنصر اقتصادي يقوم على أن المال مال الله و أن الإنسان مجرد متصرف فيه : { و آتوهم من مال الله الذي آتاكم } (1) و أنه لذلك ينبغي أن ينفق بتوسط لا إسراف فيه ولا تقتير : { ولا تجعل يدك مغلولة إلى

عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا }

(2) كما ينبغي أن يوزع بعدل ، كل بقدر عمله

واستحقاقه وما يستطيع امتلاكه طالما أن هذا الامتلاك

لا يخرج عن حدود الشرع . ومن ثم حرم الله الربا ، { و أحل

الله البيع وحرم الربا } (3)

---

(1) سورة النور (الآية 33) .

(2) سورة الإسراء (الآية 29) .

(3) سورة البقرة (الآية 274) .

(13743/1)

ومنع كنز الأموال وعدم إنفاقها في سبيل الله فبشرهم

بعذاب أليم } (1) .

5 – عنصر اجتماعي يقوم على العناية بالأسرة

باعتبارها الخلية الأولى للمجتمع ، مع الاهتمام بالمرأة

التي هي أساس هذه الأسرة كما يتضح فيما بعد . ويقوم

هذا الجانب الاجتماعي كذلك على التضامن والتكافل حتى

لا يكون في المجتمع الإسلامي من يمد يده بالتسول أو

السرقة ، لأن

في أموال الأغنياء حقا للمحتاجين عن طريق الصدقة

والزكاة والكفارات والتبرعات ومختلف أعمال البر

والإحسان : { وفي أموالهم حق للسائل

---

(1) سورة التوبة (الآية 34) .

(13744/1)

والمحروم}(1) .

... ... من هذه العناصر يتبين أن النظام الإسلامي يتسم بالتكامل ، و أنه يتضمن منهجا لإصلاح حياة الفرد والمجتمع والرقي بهما في مدارج السعادة .

... ... لقد كان العرب في الجاهلية قبائل متفرقة ومتنافرة تستبد بهم النعرات العصبية ، ويعيشون تحت رحمة الفرس والروم ، ويعانون القلق والاضطراب ، وقد انتشرت فيهم الفواحش والمنكرات ، وطغت عليهم حياة البداوة والترحل بحثا عن الكلأ والماء وكذا حياة التجارة في قريش ، وسادتهم عبادة الأصنام والأوثان تزاحمها اليهودية

---

(1) سورة الذاريات (الآية 19) .

(13745/1)

والنصرانية في بعض الأماكن .

... ... وبزغ فيهم فجر الإسلام فقاوموه أول الأمر ، إلا أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – و أصحابه الكرام تابعوا الرسالة وكشفوا الحقائق و أزلوا الأوهام و أبانوا الحجج صابرين ثابتين و مثابرين إلى أن انتصر الحق وعلت كلمة الله . فكان أن تكونت دولة إسلامية موحدة وقوية وتم القضاء على الإمبراطوريات وجميع قوى الظلم والبغي . وكان أن اتسعت رقعة هذه الدولة في ظروف سنوات محدودة لتشمل مناطق و أقاليم ممتدة في مختلف أنحاء الكون . ثم كان أن أتاحت هذه الدولة في ظل الإسلام تكوين حضارة

(13746/1)

وثقافة متميزين كان لهما النفوذ والسؤدد على مدى قرون في وقت كان العالم غارقا في الجهل والتخلف .

... ... لقد أظهر الإسلام ما كان في المغرب والشعوب التي اعتنقته من قدرات عقلية وطاقات للعمل ، فأبدعوا في ظل الحرية و الأمن والرخاء والاستقرار ، وأنتجوا في مختلف المجالات العلمية والأدبية والفنية والتقنية ما أغنوا به تراث الإنسانية ، وما طعموا به هذا التراث من سمات إسلامية باقية على مدى الأزمان ، وكانوا بذلك

سادة و أساتذة للأمم والشعوب الأخرى التي تلمذت عليهم واقتبست منهم .

(13747/1)

... ... وقد تسنى هذا للمسلمين باعتبار دينهم عقيدة ونظاما أي باعتباره منهجا .

و أنه لمنهج يتميز بخصائص أهمها :

1 – أنه منهج إلهي متروكأمر تطبيقه للبشر .

2 – أنه يتسم بالاتساع والشمولية والتكامل .

3 – أنه جرب على مدى خمسة عشر قرنا فأثمر و أنتج .

4 – أنه يقوم على قواعد و أصول قابلة للملاءمة مع مختلف الظروف والأحوال .

5– أنه بذلك صالح لكل زمان ومكان .

منظور الإسلام للفرد والمجتمع

... ... في سياق مقومات المنهج الإسلامي وخصوصياته على وجه العموم ، وتمهيدا لإدراك البعد التربوي في هذا المنهج ، يلزم

(13748/1)

توضيح مفهومين يرتبطان بهذا البعد ، ويبدوان متناقضين وهما ليسا كذلك ، إنهما الفردية الجماعية ، باعتبار الفردية نابعة من أن الدين مسألة تخص الفرد من حيث هو – أي الدين – علاقة بين الإنسان وخالقه بكل ما تقتضيه هذه العلاقة من خشوع وتأمل ؛ وباعتبار الجماعية قائمة على أن الإسلام جاء لتكوين مجتمع تشمله نظم وقوانين، وأنه بذلك دين جماعي من حيث هو يرتبط بالجماعة في كل شيء .

... ... والحقيقة أن الإسلام دين يتجه للفرد والجماعة في نفس الوقت ، بل هو ينطلق من الفرد ليصل إلى الجماعة . إلا أن المقصود بهذه

(13749/1)

الفردية هو الفلسفي و النفسي الذي هو رديف الشخصية ، وكذا بعدها الاجتماعي الذي يجعلها حالة الفرد باعتباره وحدة ضمن الوحدات المكونة للمجتمع بكل ما في هذه الوحدة من صفات ومؤهلات تجعلها صالحة للحياة في ذلك المجتمع ، ومن ثم فليس المقصود بالفردية ما قد يؤديه مدلولها السلوكي الذي يجعل الفرد أنانيا منعزلا عن الآخرين ، يعتبر نفسه الغاية التي يلغي الآخر .

... ... وقد عني الإسلام بالفرد عناية فائقة تتمثل في عدة مجالات ، أبرزها ثلاثة :

(13750/1)

... ... أولا : تمتيعه بجملة من الحقوق ، بها يعيش الفرد إنسانيته في حرية وعزة وكرامة ومساواة مع الآخرين .

... ثانيا : تكليفه بواجبات هي التي تحدد دوره وتجعل منه شخصا مسؤولا في المجتمع، ينهض بمهمات تخول له مكانته و أهميته ، وقبل ذلك تجعله يفيد منافع في هذا المجتمع .

... ثالثا : إعداده إعدادا صالحا لكي يكون قادرا على الاستفادة من حقوقه والقيام بواجباته. و إن لهذا الإعداد أهمية قصوى ، إذ هو يتجلى في تربية الفرد وفق مبادئ الإسلام وتعاليمه وقيمه و مقوماته وفضائله .

(13751/1)

... وتتم هذه التربية في تكامل يراعي العنصرين المكونين لفردية الإنسان وهما : الجسد والروح ؛

... وحتى يتحقق هذا التكامل بين الجسم والروح نبه

الإسلام إلى مراعاة مطلبيهما: { وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا } (1) "اعمل عمل امرئ يظن أن لن يموت أبدا واحذر حذر امرئ يخشى أن يموت غدا " (2) .

... فإذا كانت العناية بالجسم تقتضي تغذيته وتطهيره وترويضه وعلاجه وما إلى ذلك ، فإن العناية بالروح تقوم على

---

(1) سورة القصص (الآية 77)

(2) رواه البيهقي في السنن الكبرى عن ابن عمرو بن العاص .

(13752/1)

الأخلاق والعبادات واحترام الحدود ، وهما تسيران متوازنتين إلى حد أن الجسد إذا أصابه مما يحول دون أداء العبادات على وجهها الأكمل رخص له في التخفيف بأمور كقصر الصلاة ، وصلاة المريض والعاجز ، والإفطار في رمضان للمسافر والمريض ، والحج حسب الاستطاعة . ... جراري1 ... وفي نطاق التوازن القائم على الوسطية والاعتدال ، أتاح الله للإنسان كل طيب يتمتع به دون إسراف ، ولكن في حدود ما يقيم الجسم ويحفظ

له قوته ويمنع عنه عوامل الوهن والضعف : { يا بني آدام خذوا زينتكم عند كل مسجد

(13753/1)

وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة } (1) وبهدف تحقيق نفس التوازن في مجال الروح نهى الإسلام عن الرهبانية نية ، لما تقتضيه من انصراف كلي للعبادة : { ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها } (2) ومعروف أنه " لا رهبانية في الإسلام " (3) إذ " أن الله

---

(1) سورة الأعراف (الآيتان 29 – 30) .

(2) سورة الحديد (الآية 26) .

(3) تكلم فيه ابن حجر .

(13754/1)

أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة"(1).

... ... هذا عن الأعداد ، أما عن الواجبات فهي على ثلاثة

أنواع :

... ... أولا : واجبات نحو الله

... ... ثانيا : واجبات نحو المجتمع

... ... ثالثا : واجبات نحو النفس

... ... وتكتفي الإشارة إلى هذا النوع الأخير ، المتمثل في الوجبات نحو النفس ، لارتباطه بالفردية التي يساق حولها الحديث: { ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة } (2) وتعرض هذه الواجبات باعتبار النفس أمانة على الفرد أن

---

(1) رواه البيهقي عن سعد بن أبي وقاص .

(2) أخرجه البخاري عن أبي هريرة .

(13755/1)

يحافظ عليها ويصونها ، فلا يغامر بإتلافها كأن ينتحر مثلا ليضع حدا لحياته ، والسبب كامن في أمرين اثنين :

... ... 1 – حرمة النفس

... ... 2– كونها ملكا الله ، والفرد إنما هو مؤتمن عليها .

... ... وليس يخفى ما يكون للمنتحر من مصير : " الذي يخنق نفسه يخنقها في النار ، والذي يطعن نفسه

يطعنها في النار " (1) . " من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى خالدا فيها أبدا . ومن تحسى سما فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى خالدا مخلدا فيها وأبدا . ومن تحسى فقتل

---

(1) أخرجه البخاري عن أبي هريرة .

(13756/1)

نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا"(1).

... ... على أن صيانة النفس لا تكون فقط بالمحافظة على حياتها ، ولكن تكون كذلك بحفظ التوازن بين الجسم والروح .

... ... وحتى يتمكن الفرد من القيام بواجباته كلها – سواء مع نفسه أو مع ربه والمجتمع – فقد شرع له الله حقوقا بها يؤكد ذاته وسيادته وكرامته وعزته ؛ وهي عناصر قد تعرض أصحابها للشطط والزلل ، ولكن حين

---

(1) أخرجه البخاري عن أبي هريرة كذلك.

(13757/1)

يكون الفرد المسلم بفضل إعداده للحياة محصنا بتقوى الله ومراعاة الآخرين ، فإنه لا يخشى عليها من شيء ، على الرغم من أنها مظهر لممارسة الفردية.

... ... و إذا كانت الحقوق التي شرع الله للإنسان كثيرة كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، فإنه يمكن القول بأنها جميعا تتمحور حول الحرية والعدل والمساواة .

... ... وحين يكون الإعداد صالحا ، فإن الفرد يتوقف بحريته عند حرية الآخرين ؛ وبذلك تتحقق حرية جميع الأفراد ، أي حرية المجتمع . وحين ينسحب الأمر على بقية الحقوق ، تصبح المساواة شاملة للجميع ، فتتحقق بها

(13758/1)

وبالعدل دعامتان للاستقرار السياسي والاجتماعي في الأمة .

... ... ومن أبرز مظاهر تمتع الفرد بحقوقه أن يكون له رأي خاص ومستقل ، وأن تكون له القدرة على التعبير عنه ، في نهي عن أن يكون مجرد تابع ومقلد وإمعة ، وحث على أن تكون له شخصيته وذاتيته وحريته في الرأي والتفكير والتعبير : " لا تكونوا أمعة ، تقولون

أن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، و إن أساءوا فلا تظلموا " (1) .

---

(1) رواه الترمذي عن حذيفة .

(13759/1)

... ... هذا ، وحين يكون الإعداد وتؤدي الواجبات وتعطى الحقوق ، فإن ذلك كله يتوج بأكبر مظهر للفردية وهو تحمل المسؤولية والمحاسبة على العمل : { لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت } (1) { وكل إنسان ألزمناه طائرة في عنقه ونخرج له يوم القيامة كاتبا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا }

(2) { من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها } (3)

---

(1) سورة البقرة (الآية 285) .

(2) سورة الإسراء (الآيتان 13 – 14) .

(3) سورة فصلت (الآية 45)

(13760/1)

{ولا تزر وازرة وزر آخرى}(1) { وأن ليس للإنسان إلا ما سعى و أن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى } (2).

... ... و إذا كان هذا وضع الفرد في منظور الإسلام ، فإن وضع المجتمع هو الفرد في آخر المطاف، لأنه هو الأساس واللبنة الأولى والنواة التي تعطي الثمار بعد . لذا ، فإن أعد الفرد أو الأفراد إعدادا صالحا ، كان ذلك إعدادا لمجتمع سليم صحيح .ويتسع نطاق الأفراد شيئًا فشيئًا في خلايا

---

(1) سورة الحجرات (الآية 10) .

(2) سورة الانعام (الآية 166) والإسراء (15) وفاطر (18) والزمر (8) والنجم (37) .

(13761/1)

تتسع بالتدريج وتكبر إلى أن يتم الوصول إلى المجتمع .

... ... ولعل أول ما يلفت النظر في الجماعة الإسلامية هو ما يكون لأفرادها من روابط وعلاقات تجمعها صفتان تبدوان متناقضتين ولكنهما في الحقيقة متكاملتان ، الشدة على الأعداء بما تقتضي من قوة الإيمان ورفع لواء الحق والحماس المتدفق من أجل نصرة كلمة الله وما ينتج

عن ذلك من نور مضيء للوجوه والقلوب من جهة ، ثم الرحمة بما تستوجب من رأفة وتواضع ومودة و أخوة و حنو و إشفاق من جهة ثانية : { محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم

(13762/1)

ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزارع ليغيظ بهم الكفار } (1) .

... ... فإذا كانت علاقة أفراد المجتمع الإسلامي مع أعدائهم وخصومهم تقوم على الشدة، فإنها فيما بينهم تقوم على المحبة والمودة والأخوة : { والمومنون والمومنات بعضهم أولياء بعض } (2) { و إنما المومنون إخوة } (3)

---

(1) آخر سورة الفتح (الآية 29)

(2) سورة االتوبة (الآية 72) .

(3) سورة الحجرات (الآية 10) .

(13763/1)

{ والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم

ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتو ا ويوثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة }(1) " مثل المومنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " (2) .

... ... وبنفس الصفات الحميدة يكون السلوك مع غير المسلمين الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي من غير أن يخاصموه أو يعادوه : " من آذى ذميا فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم

---

(1) سورة الحشر (الآية 9)

(2) أخرجه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير .

(13764/1)

القيامة } (1) " من قذف ذميا حد له يوم القيامة بسياط من نار " (2) .

... ... ثم إن حياة المجتمع الإسلامي تقتضي أن يشعر كل فرد أنه يتحمل الأمانة و أنه مسؤول : " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، والأمير راع ، والرجل راع

على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته " (3).

---

(1) رواه الخطيب البغدادي عن النعمان بن بشير .

(2) أخرجه البخاري ومسلم و أبو داود والترمدي عن أبي هريرة .

(3) أخرجه البخاري ومسلم و أبو داود وابن حنبل عن ابن عمر .

(13765/1)

... ... هذه المسؤولية تمس ظاهر الحياة وباطنها وما يعلن الإنسان ويخفيه لأنها مسؤولية يحاسب عليها . ومن ثم فهي تقتضي ضميرا حيا يقظا يراعي الله والناس والنفس من خلال المبادئ والقيم : { وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون } (1) .

... ... ويتميز المجتمع الإسلامي بملمح آخر يتمثل في التكافل ، وهو أن يكون الفرد في كفالة الجماعة بأن تحفظ له مصالحة الحيوية وترد عنه الأضرار : " المومن للمومن كالبنيان يشد

(1) سورة التوبة (الآية 106)

(13766/1)

بعضه بعضا " (1) . فكما أن للأفراد واجبات يؤدونها ، و إن لم يؤدوها تعرض المجتمع للخراب ، فإن لهم حقوقا إن لم تسدد وقع الانهيار كذلك . و إذا كان المقصود هو حقوق جميع الأفراد ، فإنه في حال التكافل يختص الأمر بالعجزة والضعفاء ومن إليهم من الأرامل واليتامى والمساكين . وبهذا تأخذ الحقوق والواجبات مجراها الطبيعي في نطاق تحقيق إنسانية الفرد والمجتمع ، بكل ما تتطلبه

(1) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن حنبل عن أبي موسى .

(13767/1)

هذه الإنسانية من غذاء وأمن وعدل وحق وفضيلة وإيمان ، وبكا ما تتطلع إليه النفس (1) .

العناية بالطفل تبدأ بالأم : مكانة المرأة والأسرة

... ... إذا كان المجتمع الإسلامي متسما بالتكامل على هذا النحو ، من خلال ظواهر ومظاهر متعددة تتجلى على مستوى الفرد ثم على مستوى الجماعة عبر خلية الأسرة ، فإن الفرد في كل هذه المستويات يبقى اللبنة الأولى والأساسية إذا صلحت صلح الكل و إذا فسدت فسد الكل .

---

(1) أخرجه الطبراني عن أنس .

(13768/1)

... ... من هنا كانت العناية بالفرد في تكوينه وتنشئته – أي في تربيته – أهم ما تبدأ به المجتمعات المتماسكة والمتحضرة . والمقصود بالتربية هو غير ما يظن الكثيرون حين يربطونها بالتعليم ، إذ هي عملية موازنة له ومستوعبة له وسابقة عليه ، وفي المثل الشعبي المغربي الذي له نظير لا شك في أمثال مختلف البلاد الإسلامية أن " الترابي سبقت الجامع " ومعناه أن التربية تسبق الكتاب حيث يتعلم الطفل مبادئ القراءة والكتابة وأساسيات الدين .

(13769/1)

... ... إن التربية توقظ الضمير وتقوي الإرادة وتصفي النفس وتهذب السلوك. بها تكون التقوى والاستقامة ، وتكون التعبئة لأداء الواجبات ، وبها تتحرك مشاعر الخير في الإنسان ، وهي التي تدفعه للعمل المثمر الجاد .

... ... ومن هذا التطور عني الإسلام بالتربية عامة ، وبما يتعلق منها بالطفل خاصة ، باعتباره الغرس الذي سينمو لإمداد المجتمع بأجيال صالحة .

... ... ونظرا لهذه المكانة التي للأطفال ، فقد أولاهم القرآن الكريم تشريفا منقطع النظير وصل إلى حد القسم بهم وتمكينهم من الحكمة : { لا أقسم بهذا

(13770/1)

البلد و أنت حل بهذا البلد ووالدوما ولد لقد خلقنا الإنسان في كبد } (1) { يل يحيى خذ الكاتب بقوة ، و آتيناه الحكم صبيا (2) .

... ...

... ...

... وتبدأ عناية الإسلام بالطفل قبل أن يولد ، أي بأمه التي ستخرجه للوجود والحديث عن الأم في منظور الإسلام يبدأ حتما بمكانة المرأة في هذا المنظور وما لها فيه من أولوية تتجلى في كثير من الموافق ، انطلاقا مما كان

عليه وضعها في السابق ،سواء عند العرب أو غيرهم ، إذ كان يشك في كونها إنسانا ، وكان ينظر إليها

---

(1) أول سورة البلد .

(2) سورة مريم (الآية 11) .

(13771/1)

باعتبارها متاعا يباع ويورث ، وكانت تحرق حين يموت زوجها ، وكانت في أحسن أحوالها تعد لعبة في ملك الرجل يلهو بها ويعبث ، دون نسيان الوأد الذي كانت تتعرض له والذي مازال إلى الآن قائما في بعض البلاد التي تحارب كثرة الإنجاب .

... ... لهذا وغيره كانت المرأة معرضة للظلم ، فجاء الإسلام وحاربه و أعطاها الاعتبار اللائق بها من حيث هي عنصر مكون للحياة والمجتمع ، عليها تقوم الأسرة وبها تكون . من أهم ما ينبغي لفت النظر إليه أن الإسلام من بالغ رعايته للمرأة جاء في القرآن بسور خاصة بها هي : " النساء " و "

(13772/1)

مريم " و الممتحنة " و "الطلاق " ، بالإضافة إلى أحكامها المتفرقة في بقية السور . ثم إنه سوى الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات ، وخاطبها في الشريعة بمثل ما خاطب به الرجل ، وجعلها مسؤولة عن أعمالها ، ومنحها – كالرجل – ما تستحقه من جزاء ، وسعى في كل ما جعل لها إلى تحقيق كرامتها والمحافظة لها على وظيفتها الاجتماعية، وكذا إلى صون عفافها وعفاف الرجل : { قل للمومنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمومنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن } (1)

---

(1) سورة النور (الآيتان 30 – 31) .

(13773/1)

" إنما النساء شقائق الرجال " (1) { ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة } (2) وهي درجة موضحة بأن { الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهن على بعض وبما أنفقوا من أموالهم } (3).

فالتفضيل راجع إلى طبيعة كل من الجنسين وما المرأة في ذلك من وضع خاص نظرا لما تتعرض له كل شهر وما تعانيه في الحمل والولادة والإرضاع . ثم إن الرجل مكلف

---

(1) أخرجه أبو داود والترمذي وابن حنبل والدرامي عن عائشة .

(2) سورة البقرة (الآية 226) .

(3) سورة النساء (الآية 34) .

(13774/1)

بحمل أعبائها والقيام بجميع التكاليف والنفقات حتى ولو كانت الزوجة ذات مال. جراري 3

... ... إن المرأة تتحمل رسالتها في المجتمع باعتبارها زوجة و أما ، ثم تنهض بدور فعال في هذا المجتمع بما تمارسه فيه من أعمال إلى جانب الرجل . ففي نطاق الزوجية يكون التساوي والتكافؤ بينها وبين الرجل ، فليس أن يقبل ويرضى ولكن لها كذلك : " لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن " فقالوا : " يا رسول الله وكيف إذنها ؟" قال : أن تسكت " (1)

---

(1) أخرجه البخاري عن أبي هريرة . وفي حديث آخر عن عائشة أنها قالت لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – "

إن البكر تستأمر فتستحي فتسكت " قال – صلى الله عليه وسلم – : سكاتها إذنها " .

(13775/1)

.

... ... وفي مجال الأمومة وقع تنويه كبير بما تعانيه المرأة في الحمل و الولادة و الإرضاع ، بالإضافة إلى ما تقاسيه هي و زوجها في سبيل تربية الأبناء : { حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا } (1) { والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لم أراد أن يتم الرضاعة } (2) { وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح

---

(1) سورة الأحقاف (الآية 14)

(2) سورة البقرة (الآية 231)

(13776/1)

الذل من الرحمة وقل لهما رب ارحمهما كما ربياني صغيرا }(1) .

... ... وجاء رجل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : " يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ »" قال " أمك " قال : ثم من ؟ قال : " أمك " قال : " ثم من ؟ " قال : " أمك" قال ثم من ؟ قال : " أبوك " (2) .

... ... وفي ميدان الحياة العامة تحدث القرآن الكريم عن بعض النساء اللائي كان لهن رأي وشخصية ودور .

فامرأة نوح وامرأة

---

(1) سورة الإسراء (الآيتان 23 – 24)

(2) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة حسن الصحابة : حسن العشرة والإحسان .

(13777/1)

لوط كانتا على رأي مخالف لزوجيهما المومنين ، وامرأة النار مع الداخلين ، وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من القوم الظالمين } (1) .

... ... وبلغت مكانة المرأة في الإسلام أنها تقدم البيعة ، وقد قدمتها لرسول الله – صلى الله عليه وسلم

- {يا أيها النبي إذا جاءك المومنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا ياتين ببهتان يفترينه بين أيديهم و أرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن

---

(1) سورة التحريم (الآيتان 10 –11) .

(13778/1)

واستغفر لهن – صلى الله عليه وسلم – إن الله غفور رحيم } (1) .

... ... إلى هذه المظاهر وغيرها يضاف التكريم الذي يزين المرأة إذ يجعلها في مكانة تقدير عالية " استوصوا بالنساء خيرا " (2) " لا يفرك مومن مومنة ، إن كره منها خلقا رضي منها آخر " (3) .

... ... في إطار هذه المكانة تتكون الأسرة قائمة على الرجل والمرأة ، وعلى السكون الجامع بينهما برباط المودة والرحمة والمحبة والحنو : { ومن

---

(1) سورة الممتحنة (الآية 12)

(2) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة .

(3) أخرجه مسلم عن أبي هريرة . يفرك : يبغض .

(13779/1)

آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة } (1) ، وهي علاقة مثلت باللباس ، مع ما يعنيه مدلوله من ستر وحفظ وصيانة وجمالية " { هن لباس لكم و أنتم لباس لهن } (2) ... ... وقد ربطت هذه العلاقة بأحكام دقيقة تراعي فيها عوامل إنسانية واجتماعية كثيرة تلخص في اعتبار الزواج ميثاقا كبيرا وملزما : { و أخذن منكم ميثاقا غليظا } (3) .

---

(1) سورة الروم (الآية 20) .

(2) سورة البقر ة (الآية 186) .

(3) سورة النساء (الآية 21) .

(13780/1)

... ... فالأسرة – وهي الخلية الأولى في المجتمع – تبدأ من الزوجين ، وتنطلق من حسن اختيار الزوجة . ومن ثم أباح الإسلام للرجل أن ينظر إلى المرأة قبل الزواج " انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما " (1) ، وداعاه إلى أن

يتخيرها صالحة " تنكح المرأة لأربع ، لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك " (2)

---

(1) رواه الترمذي عن المغيرة بن شعبة وقد أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه خطب امرأة ، ورواه لبن ماجة عن أنس متحدثا عن المغيرة ورواه النسائي من حديث أبي هريرة والمغيرة .

(2) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة .

(13781/1)

" لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تتزوجوهن لمالهن فعسى أموالهن أن تطغينهن ، ولكن تزوجنهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل " (1) .

... ... وإن تفضيل الإسلام لذات الدين يعني أن الرجل لن يتزوج المرأة طمعا في مالها أو جاهها، ولا تعلقا بجمال عارض قد يزول ذات يوم ، والحياة الزوجية عمر ممتد ، وحتى إذا لم يزل – وهو لابد زائل مع الأيام – فإنه يصبح عند الرجل أمرا عاديا يألفه ، ولكنه يتزوجها لأن هدفه أن يقيم أسرة تؤسس على الفضيلة . وكما أن الأمر

---

(1) أخرجه ابن ماجة عن ابن عمر .

(13782/1)

يهم المرأة فهو يهم الرجل كذلك " إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه ،إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفسادا " (1) .

... ... إن الإلحاح على عنصر الدين في الزواج بالنسبة للطرفين هو الذي يجعل من العلاقة الزوجية رباطا مقدسا قائما على الاقتناع والرضى والقناعة كذلك ، وهي كلها عوامل بها يتسنى الدوام والاستمرار . و إن أمر الرضى يعتبر ذا أهمية قصوى لأن قصوى لأن به تهدأ النفس وتطمئن وتسكن ويزول طمعها وتذهب وساوسها : { ولسوف يعطيك ربك فترضى } (2)

---

(1) رواه الترمذي عن أبي حاتم المزني .

(2) سورة الضحى (الآية 5) .

(13783/1)

.

توجيهات لتنشئة الطفل

... ... انطلاقا من هذا الرباط المقدس تتوالى مظاهر اهتمام الإسلام بالطفل بدء من مرحلة الحمل به وإرضاعه على نحو ما مر .

... ... وحتى تكون تنشئة الطفل مقرونة بتكوين ملكاته يدعو الإسلام إلى مساعدته على تكوينها من خلال التعامل معه بما يتناسب مع المرحلة التي يجتاز : " من كان له صبي فليتصاب له " (1) ، كما يدعو إلى العناية بالجانب السلوكي عبر تدريبه على ممارسات يريدها أن تكون سليمة ودالة على مستوى من التهذيب راق ومختصر ، وكذا على مستوى عميق

---

(1) رواه ابن عساكر عن معاوية .

(13784/1)

من الإيمان

والوعي بحقيقة الحياة وكنه الوجود : " يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك " (1) " يا غلام إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فلتسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم

أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد

---

(1) أخرجه البخاري عن عمر بن أبي سلمة ، وكذا مسلم والدرامي والترمذي و ابن ماجة وابن حنبل ، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد قال ذلك لربيبه عمر بن أبي سلمة .

(13785/1)

كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف " (1) .

... ... ويكتمل هذا التوجيه السلوكي في تهيئ الطفل للإقبال على الدين وتدريبه على أداء فروضه بالتدريج / وترغيبه في ذلك مع السعي إلى تكوين شخصيته والشعور بكيانه حتى ينشأ الذكر في سياق رجولة لا تأنيث فيها ولا تخنيث ولا انحراف ، وكذلك حتى تنشأ الأنثى في إطارها الطبيعي : " مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع (2)

---

(1) رواه أحمد عن ابن عباس ، وكان رسول الله قد قال له

.

(2) أخرجه أحمد في مسنده وأبو داود فب سننه والحاكم في المستدك عن ابن عمرو بن العاص .

(13786/1)

.

... ... ولم يكن للمنظور الإسلامي للتربية أن يهمل جسم الطفل والحاجة إلى تقويته بالتدريب على مختلف أنوع الرياضات على نحو ما كان معروفا في العهد النبوي من رماية وسباحة وركوب الخيل " علموا أولادكم السباحة والرماية " (1) " علموا أولادكم السباحة والرمي " (2) " حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرماية

---

(1) رواه ابن مندة في كتاب معرفة الصحابة ، و أبو موسى المدني في كتاب الذيل ،والديلمي في مسند الفردوس عن بكر بن عبد الله بن الربيع الأنصاري .

(2) رواه البيهقي في الشعب عن حديث ابن عمر مرفوعا .

(13787/1)

و ألا يرزقه إلا طيبا " (1) .

... ... والمتأمل في منظور الإسلام للتربية يجد أن الإلحاح كبير على العناية بالجسم والروح ، لأن العناية بهما في آن واحد هي التي تجعل تربية الطفل سوية لا خلل فيها ولا اضطراب.

---

(1) أخرجه الترمذي ، وابن حيان في كاتب " الثواب " ، والبيهقي في الشعب عن حديث أبي رافع . وروى أبو يعقوب القراب من طريق مكحول أن عمر بن الخداب ض كتب إلى أهل الشام أن علموا أولادكم السباحة و الفروسية .

(13788/1)

وحين تكون سوية فإنها تكون متسمة بالهدوء والسكينة والاتزان ، والمقصود هدوء النفس وسكينة الضمير واتزان الذات . وفي هذا التوازن وبه يتحقق كيان الفرد في نطاق الفطرة التي
فطره الله عليها ، وهي مجبولة على الوسطية والاعتدال كما مر . فلا بد للروح حتى تنهض بدورها أن يكون الجسم قويا سليما معافى ، ولابد للجسم كي يكون كذلك أن تسكنه روح تواقة للفضيلة والكمال .

... ... ثم إن من شأن هذا التوازن أن يصون النفس من الآفات الجسدية أتعلل النفسية ، وما أكثرها في كل زمان ومكان ، لا سيما هاته التي شاعت في

(13789/1)

المجتمعات المعاصرة كالقلق والشك والضياع والحيرة . ويدخل في هذه الصيانة جانب آخر يتجلى في السعي لكسب العلم والمعرفة ، وكذا لاكتساب العيش والقوت . ... وفي سياق هذا المنظور ضمن القرآن الكريم جماع التوجيهات المنصوح بها في تنشئة الطفل ، سواء في علاقته بربه أو علاقته بوالديه أو بمجتمعه } و إذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن ، وفصالته في عامين أن اشكر لي ولوالديك ، إلي المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به

(13790/1)

علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون

. يابني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو الأرض يات بها الله ، إن الله لطيف خبير ، يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصاغر خدك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختار فخور ، واقصد في مشيك واخفض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير } (1) .

---

(1) سورة لقمان (الآيات 12 – 18) .

(13791/1)

... ... إنها نصائح تلخص ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم جسميا وعقليا واجتماعيا، وهي صادرة عن لقمان (1) ، وقد قدم لقمان لابنه هذه الوصايا التي بدأت بالتحذير من الشرك بالله وهو أكبر الذنوب وأعظم الكبائر . وبعد تحذيره من الشرك وصاه أن يشكر الله نعمة الوجود والإيمان و أن يشكر لوالديه حسن عنايتهما و

---

(1) لم يكن كما يظن نبيا ولكنه رجلا حكيما ، ففي الحديث : "لم يكن لقمان نبيا ولكن كان عبدا كثير

التفكير حسن اليقين أحب الله تعالى فأحبه فمن عليه بالحكمة " ذكرة الطبرسي في " مجمع البيان " عن ابن عمر .

(13792/1)

تربيتهما ، ونبه إلى أن مرجع الإنسان ومآله إلى الله الذي يعلم كل كبيرة و صغيرة من أعمال ل العباد ، ثم أوصاه بإقام الصلاة

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على المصائب وعدم التكبر والتبختر والعجب والاختيال ، مع الاعتدال في المشي وخفض الصوت .

... ... ولا يخفى أن كنه هذه التوجيهات يتمثل في السمو الروحي الذي هو أساس الإيمان وحقيقة الوجود وجوهر رسالة الإنسان في الحياة . وهل تكون الحياة حقا بدون هذا السمو الروحي الذي يقوم شخصية الفرد ويبنيها على قيم فاضلة ؟ فتكون النفس عزيزة ، وتكون الهمة عائلية

(13793/1)

، ويكون إباء الضيم ورفض الظلم ، ويكون صون الحرية والدفاع عن الكرامة ، ويكون الصبر والتحمل في سبيل الحق ونيل المرامي وبلوغ الأهداف مهما تكن وعرة وصعبة، وبذلك يحصل الرضى والقناعة وتتجنب الوسائل اللامشروعية لإدراك الغابات فيتم الإبتعاد عن الشبهات ودنايا الأمور وسفاسفها .

وينطلق هذا السمو عن مراعاة أمر مهم، وهو أن الفرد أحد مخلوقات الله، وأنه بالتالي في حاجة إلى أن يحافظ على صلته بخالقه. وتبدأ هذه الصلة تتربى في نفس الفرد منذ طفولته الأولى، فينشأ على عقيدة التوحيد بشكل تلقائي، سرعان ما ينمو بتقليد

(13794/1)

الوالدين في أداء الواجبات الدينية وفي التحلي بالأخلاق الحميدة. وشيئا فشيئا تكبر هذه الصلة وتتقوى كلما تدرج في مراحل التكوين والتعليم. والمسؤولية في ذلك تقع على الأسرة أول الأمر – أي على الوالدين – قبل أن تتحملها المدرسة ثم المجتمع كله : "كل مولود على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" (1).

...

– يتبع --

---

(1) أخرجه أبو يعلى في مسنده والطبراني في الكبير والبيهقي في السنن عن الأسود بن سريع.

(13795/1)

... ...

مقومات المنهج التربوي الإسلامي وخصوصياته –تابع –

الدكتور عباس الجراري

عضو أكاديمية المملكة المغربية كلية الآداب – الرباط

الواجبات بين الوالدين والأولاد

... لا يخفى أن الله تعالى جعل الأولاد أساس حفظ النسل واستمرار الحياة البشرية : {يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء } (1) { والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين و حفدة } (2) .

---

(1) أول سورة النساء .

(2) سورة النحل (الآية 72)

(13796/1)

... ومن عظيم حكمته سبحانه لضمان هذا الاستمرار في أحسن حال أنه غرس في قلوب الآباء والأمهات الرأفة بالأبناء والبنات وبث عاطفة حبهم والحنو عليهم والحنان وجعلهم بالتالي زينة تضفي على الحياة البهجة والبهاء والسعادة : { المال والبنون زينة الحياة الدنيا }(1) . وعن حفيديه الحسن والحسين قال عليه السلام : " هما ريحانتاي من الدنيا " (2) . وكان – صلى الله عليه وسلم – يأخذ أسامة بن زيد فيقعده على فخذه ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ويقول :

---

(1) سورة الكهف (الآية 45)

(2) رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر .

(13797/1)

" اللهم لرحمهما فإني أرحمهما " (1) وجاء أعرابي إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : " أتقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم " فقال عليه السلام : " أو أملك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟" (2) . وبهذا يفهم التعبير على الأولاد بأنهم فلذات الأكباد (3) :

وإنما أولادنا بيننا

أكبادنا تمشي على الأرض

ولو هبت الريح على بعضهم

لامتنعت عيني من الغمض

---

(1) أخرجه البخاري عن أسامة .

(2) رواه البخاري ومسلم عن عائشة .

(3) للشاعر العربي حطان بن المعلي .

(13798/1)

... ومن ثم كان الآباء والأمهات يعنون بأولادهم ويعطفون عليهم ويعطونهم ويحبون أن يدخروا لهم . فقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – في عيادة بن أبي وقاص أثناء مرضه فقال له سعد : "يا رسول الله إني رجل ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة أفأتصدق بثلثي مالي ؟ " قال – صلى الله عليه وسلم – : " لا " قال سعد : " أفأتصدق بشطر مالي " ؟ قال – صلى الله عليه وسلم – : " لا " قال سعد : " أفأتصدق بشطر مالي"؟ قال – صلى الله عليه وسلم – " لا " قال سعد : " فأتصدق بثلث مالي ؟ " قال – صلى الله عليه وسلم – : " الثلث

(13799/1)

والثلث كثير؛ لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس " (1).

... و إنصافا للأورد حدد الشرع لكل واحد منهم ما يكون له في قسمة التركة ، بل إنه حث على التسوية بينهم في مجرد العطاء وعدم تفضيل بعضهم على بعض فيه .

فقد أتى بشير والد النعمان إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال : " إني نحلت إبني هذا غلاما كان لي " فقال – صلى الله عليه وسلم – : "أكل ولدك نحلته مثل هذا ؟ " قال : " لا " قال

---

(1) راه البخاري ومسلم و أبو داود والترمذي والنسائي عن سعد بن أبي وقاص وفي رواية رجل ذو مال كثير .

(13800/1)

– صلى الله عليه وسلم – : " فارتجعه " (1) .

... ومن هذا كله ، حذر الله تعالى من فتنة الأولاد وجعلها كفتنة المال : { واعلموا أنما أموالكم و أولادكم فتنة } (2) أي لما يتعرض له الإنسان من فتنة بسببهما .

... وحتى تتحقق الغاية السامية من الإنجاب كان الوالدان مطالبين بتربية أولادهم وتأديبهم على نحو ما مر حتى

ينشأوا صالحين { رب هب لي من الصالحين } (3)

و {أجنبني وبني أن نعبد الأصنام }

---

(1) أخرجم مالك في الموطأ عن النعمان بن بشير . ونحل : أعطى .

(2) سورة الأنفال (الآية 28) .

(3) سورة الصافات (الآية 100) .

(13801/1)

---

(1) . ومن ثم " لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع " (2) ، " ما نحل والد ولدا من نحل أفضل من أدب حسن " (3) .

... والتأديب الصحيح لا يعني التشدد والقسوة إلى حد الغلظة التي قد تفضي إلى حرمان الأطفال من أبسط ما يحتاجونه ، ماديا وعاطفيا " " علموا ولا تعنفوا " (4) .

كما أنه لا يعني إرخاء الحبل وتركه على الغارب والمبالغة في تدليلهم

---

(1) سورة إبراهيم (الآية 37) .

(2) رواه الترمذي عن جابر بن سمرة .

(3) رواه الترمذي كذلك عن أيوب عن جده .

(4) رواه الطيالسي في مسنده من حديث أبي هريرة رفعه إليه .

(13802/1)

والزعم أن في ذلك سلوك سبيل التربية الحرة والتلقائية وهو في الحقيقة لا يعدو الأخذ من هذا النمط التربوي إلا جانبه السلبي الذي غالبا ما يؤدي إلى التسيب والفوضى ثم إلى الميعة والانحلال .

... وبين هذين الاختيارين وقع إهمال التربية الصحيحة وتم الإلقاء بتبعتها على الغير ، وبصفة خاصة على المدرسة التي هي بدورها فرطت في هذا الجانب بعد أن قصرت همها على تلقين المعرفة جافة في غالب الأحيان .

ومن ترك الأولاد للشارع يلتقطون منه ويستعملون الكلمات البديئة والعبارات النابية والسلوك القبيح وشتى أنواع الفواحش

(13803/1)

والرذائل وحتى حين يكون الأطفال أمام أوليائهم فإن هؤلاء يغلقون آذانهم وعيونهم عما يشاهدونه

ويستمعون إليه ويطلقون لهم العنان ويدعونهم لجهاز التلفزة والفيديو وما يقدم لهم عبر القنوات المحلية والفضائية من برامج و أشرطة في مجالس الجنس والخلاعة والمجون والعنف والمخدرات وما إليها . وهذا كله دليل على أن الآباء والأمهات تخلوا عن المسؤولية ، ونسوا أن الأولاد أمانة في عنقهم ، فكانت النتيجة أن هؤلاء الأولاد لم يجنوا فساد السلوك بالإضافة إلى قلق الضمير وعدم راحة البال؛ وكانت النتيجة بعد هذا أن انقطعت

(13804/1)

العلاقة – أو كادت – بين الطرفين . فالآباء والأمهات غاضبون غير راضين ، وهم في شكوى دائمة ، والأولاد ثائرون متمردون أو ساخرون مستهزئون ، وهم غالبا ما يعيشون بلا أمل ولا هدف، يجرون وراء الأهواء والنزوات لا قيم لهم يومنون بها ولا مثل يستميتون من أجلها ، وحين يعون واقعهم ربما يحملون أولياءهم مسؤولية وجودهم في الحياة .

... وكما أن الإسلام يحمل الوالدين مسؤولية عظيمة نحو أولادهم ، فقد حمل مسؤولية عظيمة كذلك تجاه آبائهم و أمهاتهم . وقد سبق في التوجيهات القرآنية المشار إليها في هذا العرض أن الله عز وجل

(13805/1)

جعل عدم الإشراك به مقرونا ببر الوالدين ، بل إن هذا البر يعدل الجهاد في سبيل الله . فقد جاء رجل إلي النبي – صلى الله عليه وسلم – وقال : " أجاهد ؟ " قال له – صلى الله عليه وسلم – : " ألك أبوان ؟ " قال : " نعم " قال – صلى الله عليه وسلم – : " ففيهما فجاهد " (1) وقال عبد الله : " سألت النبي – صلى الله عليه وسلم – : " أي العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ " قال – صلى الله عليه وسلم – : " الصلاة لميقاتها " قال : "ثم أي؟" قال – صلى الله عليه وسلم – " بر الوالدين " قال :

---

(1) رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو .

(13806/1)

" ثم أي " قال – صلى الله عليه وسلم – : " الجهاد في سبيل الله " (1) .

... ولا عجب ، فقد جعل الإسلام للبرور بالوالدين والإحسان إليهما مكانة توصل صاحبها إلى الجنة : " رغم أنفه ثم رغم أنفه ثم رغم أنفه " قيل : " من يا رسول الله ؟ " قال

- صلى الله عليه وسلم - : " من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة " (2) أي من أسعده الله بأن عاش أبواه أو أحدهما حتى كبرا وساخا واعتنى بهما وأدى ما عليه من واجب نحوهما فإن له

---

(1) أخرجه الترمذي عن ابن مسعود .

(2) رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة .

(13807/1)

الجنة ، ومن لم يدخل الجنة في هذه الحال فهو عاق لوالده . والعقوق كما لا يخفى من أكبر الكبائر أي من الذنوب العظيمة ، إذ هو يقرن بالإشراك بالله : " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ " قالوا : " بلى يا رسول الله " قال - صلى الله عليه وسلم - : " الإشراك بالله وعقوق الوالدين " (1) ، وللأم في هذا المجال مكان الأسبقية والأفضلية كما مر .

ثمرة هذه التنشئة : شباب قوي

---

(1) رواه البخاري عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه .

(13808/1)

... إن العناية التي يوليها الإسلام لمرحلة الطفولة في شتى أطوارها نابعة من أن الإنسان في هذه المرحلة يكون ضعيفا غير قادر على شيء ، محتاجا لما ينمي جسمه وعقله حتى يخرج منها سليما وقد اكتسب المقومات التي تؤهله لمرحلتين في الحياة هما :

... 1 – مرحلة الشباب والرجولة وما تتسم به من قوة وقدرة على العمل والكسب ومواجهة المصاعب وتحمل المسؤولية .

... 2 – مرحلة الشيخوخة التي يعود الإنسان بها إلى الضعف كما بدأ ، فتنهار قواه وتعجز عن العمل محتاجا لغيره كما كان في الطفولة ، وربما اعترته أمراض عاقت حركته

(13809/1)

ونشاطه ومسيرة حياته : { الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة } (1) .

... وكما عني الإسلام بالطفل ، فقد عني بالشاب اعتبارا لأن مرحلته امتدادا للأولى ، فيها يتم تكوينه وينضج

عطاؤه وتكتمل له جميع الإمكانات والطاقات المادية والحية ، ثم فيها تونع ثمار التنشئة الأولية وتجنى وتقطف .

... ومن ثم كل حركة عظيمة في التاريخ أو كل نهضة مباركة لم تقم إلا على سواعد الشباب وبجهودهم بل إن كل تطوير أو تغيير لم يحدث إلا بأفكار الشباب وهممهم . ومن هنا

---

(1) سورة الروم (الآية 54) .

(13810/1)

ظهرت الرسالات السماوية ومن حولها وخلفها الشباب ، على نحو ما تحكي قصص الرسل والأنبياء ودعاة التوحيد على مر التاريخ . فأهل الكهف الذين رفضوا الشرك وثبتهم الله على الدين وزادهم يقينا كانوا من الشباب : { إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى }(1) ، و إبراهيم عليه السلام حين ثار على أبيه الذي كان يتاجر في الأصنام ووقف ضد قومه حتى غدا حديث الجميع كان فتى في مقتبل العمر : { قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم } (2)

---

(1) سورة الكهف (الآية 13) .

(2) سورة الأنبياء (الآية 60) .

(13811/1)

إذ قال لهم : { وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين } (1) . وكذلك كان يحيى حين أوتي الحكمة - كما مر - { يايحيى خذ الكتاب بقوة و آتيناه الحكم صبيا } (2) ، أما يوسف عليه السلام فأوتيها مع العلم في سن الشباب : { ولما بلغ أشده آتيناه حكما و علما } (3) ، ومثله موسى عليه السلام : { ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما و علما } (4) .

---

(1) السورة نفسها (الآية 57) .

(2) سورة مريم (الآية 12) .

(3) سورة يوسف (الآية 12) .

(4) سورة القصص (الآية 14) .

(13812/1)

... وقد لخص القرآن الكريم مميزات الشباب في هذا الوصف الذي ذكره على لسان بنت شعيب تصف موسى عليهما السلام بعد أن أوى إلى مدين : { يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين } (1) . فبالقوة توافرت له الطاقة الجسمية التي تؤهله للعمل مهما يكن شاقا ، وبالأمانة اكتمل

الجانب الروحي الذي يملأ قلبه بالإيمان ويجعل ضميره حيا يقظا يراقبه وينبهه فلا ينحرف ولا يزيغ .

... ومعروف أن سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – بعث برسالة الإسلام في عز شبابه واكتمال قواه . وحين نزل عليه

---

(1) السورة نفسها (الأية 26) .

(13813/1)

قوله تعالى : { وأنذر عشيرتك الأقربين } (1) جمع بني عبد المطلب وكان عددهم خمسة و أربعيين رجلا وصنع لهم طعاما فلما أكلوه قال لهم : " يا بني عبد المطلب إني واله ما أعلم شابا جاء قومه بأفضل مما جئتكم بكلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلين في الميزان:" شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله " . وإذا كان عليه

السلام قد بين في هذه القولة أنه شاب وهو يومئذ في الأربعين من عمره ، فإن شبانا آخرين من أهل مكة سينضمون إليه وسيقومون جانبه ويعززونه أمثال علي بن أبي طالب وزيد بن

---

(1) سورة الشعراء (الآية 213) .

(13814/1)

حارثة والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر وصهيب الرومي رضوان الله عليهم أجمعين ، وكثير منهم عانى الشدة والعذاب في إسلامه . وعنهم قال النبي الكريم : " أوصيكم بالشباب فإنهم أرق أفئدة ، إن الله بعثني بشيرا ونذيرا فحالفني الشباب وخالفني الشيوخ " ثم قرأ : {فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم } (1) .

... ثم إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان يعين الشباب في مناصب قيادية هامة ، كأسامة بن زيد بن حارثة الذي ولاه الرسول – صلى الله عليه وسلم – قيادة جيش المسلمين وهو

---

(1) سورة الحديد (الآية 16) .

(13815/1)

دون العشرين .

... وعلى نهجه الحكيم سار الخلفاء الراشدون من بعده ، إذ كانوا ينصبون الشباب ويحملونهم المسؤوليات في المهمات والملمات ، وكان ابن شهاب الزهري يقول لتلاميذه : "لا تحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم فإن عمر بن الخطاب كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان واستشارهم ، يبغي حدة عقولهم " (1) .

... لقد عني الإسلام بالشباب تكميلا لاهتمامه بالأطفال ومن مظاهر هذه العناية أنه نبه إلى ضرورة اغتنام مرحلة الشباب قبل ضياعها : " اغتنم خمسا قبل خمس : حياتك قبل موتك،

---

(1) رواه ابن عبد البر عن ابن الماجشون .

(13816/1)

وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك " (1) . ومن مظاهرها كذلك أنه جعل الإنسان محاسبا على شبابه ، باعتباره

نعمة أنعم الله بها عليه " لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم " (2) .

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس .

(2) رواه الترمذي عن أبي برزة .

(13817/1)

... ولقد جعل الله الشباب الذي نشأ في عبادته أحد السبعة الذين يظلهم يوم القيامة : "سبعة يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه " (1) .

---

(1) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة .

(13818/1)

... إن هذه العناية بالشباب في الإسلام نابعة من منظور متقدم يعتبر الشباب بسمات ومسرات وتطلعات ، ويعده إرادة وقوة وعزيمة وجرأة وإصرارا ، ويربطه بالصفاء والصدق والإخلاص والإيمان والثبات ، ويراه حلما وخيالا و أملا ورجاء وتصميما ونشاطا وإقداما وحيوية ودفعا إلى الأمام باستمرار . والشباب في هذا المنظور هو قلب الأمة النابض ومناط آمالها وذخر مستقبلها وعماد وجودها وقوة نهضتها وربيع عمرها وجمال حياتها ، وزهرة حاضرها وأفق غدها المنشود . هو جوهرة غالية و أمانة سامية على المجتمع أن يحفظها ويحافظ عليها

(13819/1)

ويصونها ولا يعبث بها أو يضيعها ، إنه طاقة كبرى للعمل والإنتاج ، ورصيد غني لا تعدل غناه أية ثورة مهما تكن عظيمة ، غير أنه لا يمكن أن يؤدي إلى ما فيه مصلحة الأمة إلا إذا عني به ووجه في طريق الخير .

... إن الحياة المعاصرة بمشكلاتها و أزماتها بلغت تعقيدا ليس من السهل تجاوزه أو التغلب عليه ، ونتج

عنها مجتمع مليء بالتناقضات ، فمن جهة هناك ظروف اقتصادية واجتماعية وفكرية صعبة ، ومن جهة ثانية هناك مظهر الرخاء وطغيان روح الاستهلاك وحب الاستمتاع. والشباب أمام هذا الواقع موزعون بين مقبل على الحياة السهلة

(13820/1)

أو ساع إلى مثل هذه الحياة ما فيها من تفسخ وانحلال ، وبين رافض وميال إلى الفرار والهروب أو إلى الهدم والتحطيم .

... إنهم بهذا معرضون لمشاكل يعانونها ،وهم في الغالب غير قادرين على مواجهتها وغير مسلحين لهذه المواجهة ، مما يهدد حياتهم بالانهيار والاستسلام وربما الانحراف و الانجراف مع التيارات الفاسدة التي تتمثل في حملات التشكيك والتضليل وفي موجات الميعة والانحلال . وهي ظواهر تزيد يوما إثر يوم ، وقت انسدت الآفاق أمام الشباب واستبد بهم الشعور بالتهميش، وفي تخلت الأسرة والمدرسة والجامعة والمجتمع كله

(13821/1)

عن مسؤوليته. ولا سبيل إلى توقيف هذه الظواهر والحد من آثارها إلا بمراجعة تبدأ بتربية الأطفال على نحو ما سبق ومتابعة هذه التربية . ولن تتحقق هذه المراجعة إلا إذا وقع الاهتمام فيها بأمرين اثنين :

... 1 – إصلاح مناهج التربية والتعليم ووضع فلسفة للفكر والثقافة في ضوء مقدسات الأمة وقيمها وهمومها المعيشة وتطلعاتها المشروعة وفي نطاق تنمية شاملة .

... 2 – التخطيط لهذه التنمية في تكامل يراعي فتح الأبواب واسعة أمام الأجيال وإتاحة الفرصة أو يؤدي دوره ويتحمل مسؤوليته .

(13822/1)

... وإذا كان غير ممكن في مثل هذا العرض تناول ما يقتضيه هذان الأمران من مسائل تفصيلية قد يكون لكل مجتمع فيها رؤيته الخاصة ، فلا أقل من التنبيه إلى مسألتين كما يراهما الإسلام ، هما :

... 1 – التعليم النافع الذي يؤهل للعمل والإنتاج .

... 2 – التكوين الخلقي القائم على القيم والفضائل .

التعليم رديف التربية ...

... إن العالم اليوم منقسم إلى فريق متقدم و آخر متخلف ، والقياس المميز بينهما هو العلم . فبه تبنى القوة العسكرية ويقام الاقتصاد وتتطور الفلاحة وتنمو التجارة وتزدهر الحياة الاجتماعية ويرقى الفكر

(13823/1)

وتكبر الآفاق ويتسع النفوذ وبسط السلطان . وبالجهل يكون عكس هذا وضده ، أي يكون الضعف والفقر والمرض والتقلص والتقوقع والانحسار والتبعية والاستلاب والذلة والخضوع .

... وإن ما يعيشه الإنسان اليوم هو نفس ما عاشه منذ بدء الخليقة ، ما يدل على أن واقع التقدم والتأخر رهين بشرط العلم ، وهذه سنة الله في خلقه ، لأنه لم يخلق الإنسان لعبا

وعبثا ، ولكن خلقه ليعمر الأرض ويستثمر مارزقه الله من إمكانات وما سخر له من كائنات .

... فحين خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه شاءت إرادته تعالى أن يجعل في الأرض

(13824/1)

خليفة ، فوجه الكلام بهذه الإرادة إلى الملائكة يقصد إلى إخبارهم بأسلوب يفيد استشارتهم في الأمر العظيم . فجاء رد الملائكة تعجبا واستفسارا ، مستبعدين أن يجعل الله الخلافة فيمن طبيعته الفساد وسفك الدماء مما يتنافى مع ما يريده الله من تعمير للأرض بالإصلاح والانضباط والانتظام ، وهم مع تفويضهم الأمر إلى الله تعالى يرون أنفسهم أولى بهذا الاستخلاف ، لأنهم يعظمون الله وينزهونه . ولكن الحق سبحانه أخبرهم بأنه يعلم ما لا يعلمون ، أي أنه في الوقت الذي أراد أن يجعل آدم خليفة له كان يعرف أن لآدم ما يؤهله لهذه

(13825/1)

المهمة و أن هذا المؤهل هو العلم وقد تجلى في تعليم الله آدم جميع الأسماء التي يمكن التلفظ بها للتعبير عن الموجودات . وحين كشف الله جهل الملائكة بهذا العلم الذي لم يكونوا يعرفونه و أظهره على لسان آدم ، اتضحت لهم القيمة التي تجعله أهلا للخلافة ، واستحق بذلك أن يسجدوا له بأمر من الله تحية إعظام و إكبار له ولعلمه ؛ وامتنع عن السجود لإبليس الذي أخذه الكبر

فكان من الكافرين : { و إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم

(13826/1)

ما لا تعملون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض و أعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين }(1).

---

(1) سورة البقرة (الآيات 29 – 30) .

(13827/1)

... لهذا كان الإسلام دين العلم بحق ، لا ينازعه في الاهتمام الكبير به والدعوة الصريحة إليه أي دين ، ولا

أي فكر أو مذهب كيفما كان ، فإن أول آية نزلت من القرآن الكريم على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جاءت تدعو إلى القراءة : { إقرأ باسم ربك الذي خلق }(1).

... فالعلم في الإسلام يقوم على القراءة والكتابة ، وهو بذلك يستند إلى الأدوات التي وهبها الله للإنسان ليبحث عن طريق الحس والتجريب ظواهر الحياة ويدرك أسرارها وما يربطها من علاقات : { والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا

---

(1) أول سورة العلق .

(13828/1)

وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون } (1) .

... والعلم في الإسلام مرتبط بالإيمان : { يرفع الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات } (2) " فأما طبقتي وطبقة أصحابي فأهل علم وإيمان " (3) . والإيمان في الإسلام لا يتم عن طريق التقليد ، ولكن بواسطة النظر والتأمل : { قل انظروا ماذا في السماوات والأرض } (4) { ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله

---

(1) سورة النحل (الأية 78)

(2) سورة المجادلة (الآية 11)

(3) من حديث رواه ابن ماجة عن أنس بن مالك .

(4) سورة يونس (الآية 101) .

(13829/1)

إن الله في ذلك الآيات لقوم يومنون } (1) { أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت و إلى الأرض كيف سطحت } (2) .

... لهذا فهو بعد النظر يترك للإنسان حرية الاختيار : { فمن شاء فليومن ومن شاء

فليكفر } (3) على أن يمارس هذه الحرية بوعي وإدراك وصدق : { ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق و أنتم تعلمون } (4) ومن ثم يربط العلم بالضمير المتمثل في

---

(1) سورة النحل (الآية 79) .

(2) سورة الغاشية (الآيات 17 – 20) .

(3) سورة الكهف (الآية 29) .

(4) سورة البقرة (الآية 42) .

(13830/1)

خشية الله وتقواه : { واتقوا الله ويعلمكم الله } (1) { إنما يخشى الله من عباده العلماء }(2) .

... والعلم في الإسلام مقرون بالعمل وبما ينفع منه : { أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم و أنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون } (3) { يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون } (4) " تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعلموا " (5)

---

(1) السورة نفسها (الآية 281) .

(2) سورة فاطر (الآية 28) .

(3) سورة البقرة (الآية 44) .

(4) سورة الصف (الآيتان 2 – 3) .

(5) رواه بن عبد البر عن عبد الرحمن بن غنم عن عشرة من الصحابة .

(13831/1)

" لا تكون بالعلم عالما حتى تكون به عاملا " (1) "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع " (2) .

... من هذا يتبين أن المجتمع الإسلامي مجتمع عالم أو هكذا

ينبغي أن يكون ، لأن طلب العلم فيه واجب : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " (3) ولو بشد الرحالة في طلبه "أطلبوا العلم ولو في الصين " (4) ، ومع الحث على ذلك في كل مرحلة من مراحل العمر : " من

---

(1) رواه الدارامي في المقدمة عن أبي الدردار .

(2) رواه ابن ماجة عن أبي هريرة ضمن دعاء .

(3) رواه ابن كاجة عن أنس بن مالك .

(4) أخرجه البيهقي والخطيب وابن عبد البر عن أنس .

(13832/1)

جاء أجله وهو يطلب علما ليحي به الإسلام لم تفضله النبيون إلا بدرجة "(1). ... وبذلك فالعلم في الإسلام ينمو لاستمرار ولا يتوقف : {وما أوتيتم من العلم إلا قليل } (2) { وقل رب زدني علما } (3)

... والإسلام في هذه الدعوة إلى العلم يجعل الثواب عليه عظيما : " من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله به طريقا إلى الجنة " (4) " من خرج في طلب العلم كان في

---

(1) رواه ابن عبد البر عن عبد الله بن عباس .

(2) سورة الإسراء (الآية 85) .

(3) سورة طه (الآية 114) .

(4) رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة

.

(13833/1)

سبيل الله حتى

يرجع " (1) .

... ولا عجب بعد هذا أن يكبر الإسلام شأن العلماء و أن

يعظمهم ، { قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا

يعلمون } (2)

{ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة و أولو العلم }(3)

"العلماء ورثة الأنبياء "(4) "فضل العالم على العابد

كفضلي على أدناكم "(5) "يشفع يوم القيامة ثلاثة :

الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء

---

(1) رواه الترمذي عن أنس بن مالك .

(2) سورة الزمر (الآية 5) .

(3) سورة آل عمران (الآية 18) .

(4) من حديث أخرجه الترمذي عن أبي الدرداء .

(5) رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي .

(13834/1)

"(1) .

... ولا يخفى أنه يوم كان المسلمون ملتزمين بدينهم ، سائرين على هديه و متبعين لمنهجه ، أتيح لهم أن يكسبوا العلم و ينتجوا فيه ويبرزوا ، ويبدعوا به حضارة و ثقافة متميزين ما زالت آثارهما مائلة للعيان واضحة البصمات في تراث الإنسانية جمعاء .ثم مرت عليهم فترة عانوا فيها من الضعف و الهوان ما كاد يعصف بكيانهم ووجودهم لولا أن تداركهم الله بلطفه . وها هم اليوم يسعون إلى استرجاع ما ضاع واستدراك ما فات ، وما أكثر ما ضاع وأعظم ما فات ، والكون في سيره السريع الحثيث لا

(1) أخرجه ابن ماجة عن عثمان بن عفان .

(13835/1)

ينتظر المتأخرين ولا يبالي بالمتوانين .

... آية هذا النهوض مؤسسات التعليم العديدة على اختلاف مستوياته وفي شتى البلاد ، والأعداد الهائلة من التلاميد والطلاب المتطلعين إلى أن يكونوا مؤهلين لحمل رسالة الغد القريب و البعيد بما تهدف إليه من تجاوز

مأزق التأخر والتخلف والاندماج في مجالات الرقي والازدهار ، وسيلتهم طلب العلم والتقدم فيه ، وإمكاناتهم تتلخص في رهانهم على الإنسان باعتبار تكوينه هو أهم رصيد .

... وإذا كان العالم الإسلامي يشهد نموا كبيرا في التعليم بجميع أسلاكه –مع تفشي الأمية للأسف الشديد –

(13836/1)

مما يولد تضخما قد يؤدي ، وأدى بالفعل ، إلى كثير من السلبيات ، فإن هذا النمو يحتاج للحد من سلبيته – أن يوازيه نمو مماثل في نوع التعليم و تطوير في مقرراته ومناهجه وأساليبه ، أي أنه يحتاج إلى ضرورة إعادة النظر في شكله ومضمونه وأهدافه ووسائل تحقيقها ، بروح إسلامي ، وبما يتناسب مع الفترة التي يتطلبها التكوين العلمي ، وليس وفق خطط قصيرة المدى تملى أو تفرض من جهات أجنبية مشبوهة ، وتعرض الأجيال لتحولات نوعية مفاجئة غالبا ما تقترن نتائجها بالتشكيك في تعلم العلم .

(13837/1)

... لقد أصبح شائعا أن ا علم النافع اليوم هو الذي يتصل بالتكنولوجيا ، علما بأن هذه التكنولوجيا تبدو متجاورة بفعل قوة الاتصال التي دخلت الانسانية مرحلتها في العقدين الأخيرين.إلا أن التكنولوجيا نفسها لا تكون مجدية و إيجابية إلا إذا وازاها في العلم عنصر إنساني هو الذي تبلوره المعطيات الثقافية ، مما يعطي العلم مدلوله الشمولي الذي يسع كل أنماط الفكر الإنساني في مختلف مجالاته التأملية التجريدية والمادية التطبيقية .

(13838/1)

... ثم إن التقدم العلمي أصبح اليوم يقاس بالإنتاج، ولكن الإنتاج نفسه لا يتحقق إلا إذا وجد الإنسان ، وكان له مستوى علمي ، وتوافرت له قدرات على ابتكار هذا الإنتاج وتوجيهه والاستفادة منه .من هنا فإن الفرق بين شعب متقدم وآخر متأخر كامن –داخل الإطار العلمي – في مدى تفوق الشعب المتقدم على غيره في الإمكانات الثقافية التي يمتلكها وكيفية توظيفها في تنمية نفسه وترقيتها . وامتلاك الإمكانات يعني أن يكون

زمامها بيد مستعملها لا أن يكون مستعيرا لها أو مقتبسا .

(13839/1)

... إن العلم عند الشعوب المتقدمة – كما هو في المنظور الإسلامي – رأس مال ووسيلة استثمار وعامل إنتاج وعنصر فاعل في تغيير الواقع . وهو عند الشعوب المتخلفة مجال للهروب من المشاكل، ووسيلة للمتعة والتسلية أو لاجترار المحن والالام . ويكفي لإدراك هذا المعنى أن يشار إلى أن الدول المتقدمة تنفق نحو أربعة في المائة من دخلها العام للنهوض بالبحث العلمي وتطويره وتوظيفه في التنمية ، وأن المغرب والمسلمين ومن إليهم ينفقون صفرا فاصلة ثلاثة في المائة ، وربما منهم من يشعر بأن ما عنده من علماء إنما يشكل حملا ثقيلا

(13840/1)

يريد أن يتخفف منه،وهذا لاشك من أسباب هجرة الأذمغة من البلاد المتخلفة إلى البلاد المتقدمة .

... هذا جانب في قضية التعليم ، وجانب آخر قلما يقع الالتفاف إليه ، وهو العنصر التربوي في العملية التعليمية، إذ التعليم ينبغي أن يكون مقترنا بالتربية، وإلا فإنه يكون جافا وقد يصبح وبالا وخرابا ، سواء على مستوى الأفراد أو على صعيد الأمم والشعوب ، لأنه إذا كان التعليم يلقن المعرفة ويغدي العقل والذاكرة ، فإن التربية توجه وتهذب وتحسن السلوك والأخلاق.

(13841/1)

... وقد جاءت عناية القرآن الكريم بالتربية أسبق من عنايته بالتعليم : {اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم ،

كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إن إلى ربك الرجعى }(1) .

... فالدعوة إلى القراءة باسم الله تتضمن توجيها تربويا مهما يدعو إلى الاستعانة به والاعتماد على على عونه وبركته . وفي الإشارة إلى الخالق تذكير بعظمته ، والعودة إلى الأمر بالقراءة والرب الأكرم تنبيه إلى الله

الذي هو أكرم من كل كريم ، مع ما

---

(1) سورة العلق (ثماني آيات) .

(13842/1)

يرمز إليه الكرم في معناه الخلقي الواسع . فهذه كلها توجيهات تربوية عالية بعدهايأتي عنصر التعليم ملحقا على {الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم } لتعود الآيات مرة أخرى إلى جانب التربية مرتبطا بطغيان المستغنين مع أن الجعى لله عز و جل .

... في هذا السياق التربوي المرتبط بالتعليم ينبغي إعادة الاعتبار لمهنة التعليم حتى تستعيد مكانتها الشريفة . ويكفي في هذا المجال أن يشار إلى أن الله تعالى نسب التعليم إلى ذاته العالية {وعلم آدم الأسماء كلها }(1) {الرحمان علم القرآن خلق

---

(1) سورة البقرة (الآية 30) .

(13843/1)

الإنسان علمه البيان }(1) .بل إن الله عز وجل جعل التعليم مقرونا بالامتنان على الرسول – صلى الله عليه وسلم – بما أولاه من فضل عظيم : {وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما }(2). ولا عجب بعد هذا أن يكون التعليم مهنة الرسل : {هو الذي بعث في الأميين يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين } (3) " إنما بعثت معلما "(4) .

---

(1) سورة الرحمن (الآيتان 1–2) .

(2) سورة النساء (الآية 112) .

(3) سورة الجمعة (الآية 2) .

(4) من حديث رواه ابن ماجة عن عبد الله بن عمرو .

(13844/1)

... وفي هذا السياق كذلك يجدر التذكير بحقيقة نسيت ولم تعد بها الأسف عناية ، وهي أن المعلم أب روحي للتلميذ ، وأن التلميذ ابن روحي للمعلم . ومن ثم فما لم تكن بينهما علاقة الحب ، فإن التعليم يفشل ، والمقصود بعلاقة الحب ما تنم عنه من وفاء وتقرير ورعاية وحنو ، وما يكون فيها من لين حينا و قسوة

حينا آخر ، في صبر على التلاميذ ورفق في معاملتهم و العدل في هذه المعاملة ، مع المحافظة على بناء شخصيتهم . إلا أن قوة شخصية التلميذ في نطاق الحرية والاعتزاز لا ينبغي أن تترجم عنده إلى الغرور والأنانية ، أو إلى

(13845/1)

الرفض و التمرد ، بل ينبغي أن تفهم عنده –وحتى عند المعلم – أنها تتعارض مع الامتثال والانضباط ، علما بأن الامتثال والانضباط لا يعنيان العنف و القهر ، كما أن عدم استعمال العنف والقهر لا ينبغي أن يفضي بالمعلم إلى اللامبالاة وعدم الاهتمام .

... إن الإلحاد على التربية في العملية التعليمية راجع إلى أن الهدف الحقيقي من هذه العملية هو تكوين الإنسان الصالح لمواجهة الحياة وبناء المجتمع ، وهذا لا يتحقق إلا بتفتيح الذهن و تنوير الفكر و تلقين المعرفة وترسيخ القيم و تربية النفس دينيا ووطنيا وخلقيا وذقيا وغير

(13846/1)

ذلك من جوانب التربية التي لا يتحمل مسؤوليتها رجل التعليم وحده ، ولكن يتحملها إلى جانبه ، وربما قبله وبعده، الأسرة ثم المجتمع و سائل التثقيف والإعلام .

منظومة الأخلاق الإسلامية

... والحديث عن القيم في التربية عموما –تكوين النشئ خاصة – يفضي إلى البحث عن الأخلاق الإسلامية باعتبارها تشكل منظومة متكاملة تبدأ من وضوح المفهوم إلى تحديد جملة من الفضائل تسلك في سياق فلسفة ذات خصائص ومميزات .

... فالخلق هو السجية و الطبع وما إليهما مما يصبح للإنسان عادة وحالة راسخة ، عنها تصدر جميع أفعاله وتصرفاته . وله

(13847/1)

عدة مجالات يبحثها " علم الأخلاق "، وهو علم يندرج في أقسام الحكمة العملية ، إذ ينظر في سلوك الإنسان المتمثل في أفعاله وتصرفاته والغاية منها . وإذا كان هذا السلوك يتأرجح بين الحسن و القبيح أو بين الفضيلة والرذيلة ، فإن الحكماء منذ القديم أطروا

الفضيلة في موقع وسط بين رذيلتين هما الإفراط و التفريط ، وهم في ذلك يرون أن النفس البشرية مشتملة على قوى ثلاث هي العقل و الشهوة والغضب ، وأن الفضائل ثلاثة كذلك :

... 1– الحكمة : وهي وسط بين البلاهة و الخبث أو الخداع .

(13848/1)

... 2– العفة : وهي وسط بين الجمود والفجور .

... 3– الشجاعة : وهي وسط بين الجبن والتهور .

... والإنسان يكسب هذه الفضائل بالعقل والمعرفة والتربية والنشأة .وقد يكون من السهل أن يأتي بفعل حسن بتكلفه ، ولكن ليس من السهل عليه أن يأتي به دون تكلف ما لم يكن فيه سجينة وطبعا أي ما لم يكن قد تربى ونشأ عليه ، فكيف بأفعال حسنة تؤدى دون تكلف ، وهذا هو الخلق العظيم الذي جاء به الإسلام والذي جاء به الإسلام والذي جلاه رسول الله : { وإنك لعلى خلق عظيم } (1) وهو خلق القرآن : " كان خلقه

---

(1) سورة القلم (الآية 4)

(13849/1)

القرآن "(1) .

... ولابد فقد كان القرآن الكريم يعلمه و يرشده بخطاب مباشر : { لاتمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم } (2) {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة و الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن } (3) { وآت ذا القربى حقه و المسكين و ابن السبيل ولا تبدر تبديرا إن المبدرين كانوا إخوان الشياطين } (4) { ولا

---

(1) للسيدة عائشة رضي الله عنها تجيب قتادة حين سألها عن خلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم –

(2) سورة الحجر (الآية 88) ، و طه (الآية 129) .

(3) سورة النحل (الآية 125).

(4) سورة الإسراء (الآية 26–27).

(13850/1)

تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم }(1) { واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل }(2) { والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر }(3) {واصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا }(4) { فأما اليتيم فلا

تقهر وأما السائل فلا تنهر ولأما بنعمة ربك فحدث }(5)

وبهذا يفهم قوله عليه الصلاة و السلام " أدبني ربي

_____

(1) سورة فصلت (الآية 33) .

(2) سورة الأحقاف (الآية 34) .

(3) سورة المدثر (الآيات 5–6–7) .

(4) سورة الإنسان (الآية 24) .

(5) سورة الضحى (الآيات 9–10–11).

(13851/1)

فأحسن تأديبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق " (1).

... إن البحث في الأخلاق الإسلامية عبر سلوك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوصل إلى أنها تسير في اتجاهات ثلاثة :

... الأول = تجريد الفضائل الجاهلية كالكرم والنجدة والشجاعة من هدفها التفاخري وما يرتبط به من عصبية ، وتحويلها إلى غاية تجعلها تقربا إلى الله و زلفى : " إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفهرها بالآباء "(2) .

...

_____

(1) أخرجه ابن السمعاني عن ابن مسعود .

(2) من حديث رواه ابن ماجة عن أبي هريرة .

(13852/1)

... الثاني = تحريم الفواحش : { قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن }(1)

... الثالث = التوسط في كل تصرف و سلوك باعتبار الوسطية روح الإسلام ، وهي تتفق مع المفهوم العلمي للفضيلة كما مر : { وكذلك جعلناكم أمة وسطا }(2)

"خير الأمور أوسطها "(3) .

---

(1) سورة الأعراف (الآية 31) .

(2) سورة البقرة (الآية 142) .

(3) رواه السمعاني في ذيل تاريخ بغداد عن علي بن أبي طالب ورواه الديلمي عن ابن عباس . وفي رواية أوساطها .

(13853/1)

... وقد مست الأخلاق الإسلامية كل جوانب الحياة الفردية و الجماعية متجلية في الصدق و الصبر وكظم الغيظ والعفو والحياء والكرم والتواضع والوفاء بالوعد والنصح والإرشاد والشجاعة والتماسك والتعاضد والتساند وحسن المعاشرة وما إليها مما لا حد له من صفات تضبط سلوك الإنسان . وهي جميعا حين تحلل وتقارن مع ما عرفه ويعرفه الفكر الإنساني في هذا المضمار تجلى فلسفة سلوك إسلامي متميز بجملة خصائص :

... أولا = أنها تقوم على التطبيق و الممارسة ، أي على الجانب العملي الذي يخرجها من كونها قضية نظرية تجريدية كما في بعض

(13854/1)

الفلسفات .

... ثانيا = أنها تسعى إلى تكميل شخصية الفرد وذات الإنسان من حيث هي عنصر أساسي من عناصر الكمال ، على عكس بعض النظريات التي تؤى الأخلاق مظهر ضعف وعجز .

... ثالثا = أنها ترتبط بالجماعة ، إذ تتعدى نطاق الفرد إلى مجتمعه من خلال التبعة الخلقية أي المسؤولية الخلقية التي تكون سلوك الفرد في مجتمعه مع ما فيها

من انعكاس على الآخرين وما فيها كذلك من محاسن للنفس .

رابعا = أنها مرتبطة بالرسالة التي تحملها الإنسان في الكون والتي يحتاج النهوض بها إلى الإيمان و إلى السلوك .

(13855/1)

... خامسا = أنها مرتبطة بمصير الإنسان الذي لا يمكن النظر إليه انطلاقا من الثقة في الوجود وخالقه ، وامتثالا لأوامر هذا الخالق واجتنابا لنواهيه ، وتوقعا بعد هذا لجزائه .

خاتمة

... وبعد ، فإن الحديث عن مقومات المنهج التربوي وخصوصياته يقتضي – لتكميله – تناول مسألتين اثنتين :

... الأولى : أن هذه المقومات – وهي مبادئ وقيم سلوكية ترتبط بالنظام الإسلامي عامة – تحتاج في بلورتها وتطبيقها في الحياة المعاصرة إلى تأمل وتدبر يفضيان بها إلى الممارسة العملية الناجحة . وهي حاجة تمس مختلف جوانب هذا النظام .

(13856/1)

... إن المسلمين اليوم ، وهم يتدبرون أمرهم وما يعانونه من تخلف علمي وتدهور اقتصادي وانهيار اجتماعي يسعون جاهدين إلى تصحيح أوضاعهم بالرجوع إلى الإسلام ، لأنه " لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها . " (1) .

... إلا أن هذا الرجوع لا يعني تطبيق التجربة الإسلامية الأولى كما هي بشكل حرفي ، فذلك غير ممكن وغير مناسب . والذي يدعو إلى مثل هذه العودة إنما يقصد إلى التعجيز ووضع العوائق ومعاكسة مسيرة التاريخ ، ولكن العودة الحق إلى الإسلام تعني الرجوع إلى مبادئه قيمه

---

(1) ينسب هذا القول إلى الإمام مالك .

(13857/1)

وأصول نظامه ومقومات منهجه وخصوصياته ، والنظر في إمكان التوفيق بينها وبين الواقع مشكلاته وقضاياه ، وما يثيره العصر من أفكار ونظريات ، لأن التخلي عن الأساس الذي قامت به وعليه الدولة الإسلامية – وهو

الدين – لن يؤدي إلا إلى مزيد من التخلف والضياع ، ولأن المذاهب الوضعية المختلفة مهما تكن جاذبيتها الطارئة ، ويكن إغراؤها الوقتي ، فإنها لا يمكن أن تؤدي إلى شيء ، فكيف والتجربة في عقر دارها لا تنم عن غير الفشل الحاث على التراجع عنها يوما بعد يوم . ...

(13858/1)

... الثانية : أن تطبيق هذه المقومات يتوقف على شروط كثيرة جاء معظمها في ثنايا البحث ، وإن كان الإلحاح ينبغي أن ينصب على القدوة ، لأن الطبيعة البشرية مجبولة على التقليد ، من حيث نزعة اجتماعية تتولد عن وجود الإنسان بين الآخرين بكل ما يقتضيه هذا الوجود من تفاعل و تأثر . وهو غالبا ما يسعى إلى تقليد من يعتبره النموذج والمثال .

... وإذا كان المسلمون بحكم ظروفهم يرون النموذج في المغرب المتقدم ،فهم في هذا على حق طالما أن الأمر يمس العلم والإنتاج والتكنولوجيا وما ينتج عنها جميعا من تفوق ، ولكنهم في غير

(13859/1)

هذا المجال مخطئون بسبب ما يعانيه هذا الغرب نفسه من انهيار خلقي وإنسي متجل في التفسخ والانحلال ، سواء على مستوى الفرد أو المجتمع ، نتيجة طغيان القيم المادية والتقنية عليه وضعف المبادئ الدينية والخلقية .

... من هنا تلزم العودة إلى النموذج الإسلامي الصحيح ، أي إلى سيرة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه والتابعين : { " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا } (1) .

{و السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم

---

(1) سورة الأحزاب (الآية 21)

(13860/1)

بإحسان رضي الله عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم } (1) "

أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم " (2) .

... إلا أن هذا النموذج الإسلامي يحتاج إلى من يقربه اليوم لعموم الناس بالتلقين والتعليم، وكذا إلى من يبلوره في تصرفه وسلوكه . وهنا يحضر دور العلماء والوعاظ

والمعلمين والمدرسين والمربين ، وكذا دور المسؤولين عن التوجيه والإرشاد العام وجميع ممثلي الأمة ونوابها والمتحملين أمانتها والقائمين

---

(1) سورة التوبة (الآية 101)

(2) رواه البيهقي والديلمي عن ابن عباس .

(13861/1)

على شؤونها المختلفة .

... فإذا كان الشخص المقتدى به صالحا كان تقليده مفضيا إلى صلاح من يسير على نهجه ، وإذا كان منحرفا قاد الإقتداء به إلى الزيغ والفساد . ويعظم الأمر أو يصغر بقدر ما يكون للتابع من تعلق بالمتبوع وما يكون له من إعجاب به وتقدير له . ومن بين هؤلاء جميعا يبقى للمؤسسة التعليمية والتربوية دور كبير ، كما يبقى الدور قبل هذا وبعد للأسرة باعتبارها الخلية الأولى التي تحتضن الطفل على نحو ما سبق توضيحه في هذا العرض ، وهو ما أكده الحق سبحانه : { إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم

(13862/1)

مهتدون } (1) { والذين آمنوا وتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين } (2) .

---

(1) سورة الزخرف (الأية 22) .

(2) سورة الطور (الآية 19) .

(13863/1)

مكونات المجتمع الأندلسي ومكانة أهل الذمة فيه

... ... الدكتور أحمد شحلان

... ... كلية الآداب – الرباط

ملاحظات لا بد منها

لا يحق لنا أن نزعم بأننا نستطيع أن نتناول في هذا المدخل مضمون العنوان الذي عنونا به بحثنا هذا، تناولا مفصلا ودقيقا وشاملا، لأن مقولة العنوان كانت مادة غزيرة لسلسلة متواترة من ترثنا التاريخي منذ العصر الأندلسي وإلى اليوم، كما كانت مطلبا كرست له أجيال من الباحثين المختصين، الوقت الطويل والجهد الكبير. لذلك فرغبتنا في هذا

المدخل، هي أن نرسم خطاطة للمسرح الذي أثمرت تربته حضارة فريدة أفسحت المجال للفكر الإنساني في امتداداته المختلفة. ومن تلك الإمتدادات ما أنتجه العصر الذهبي العبري الذي بنى صرح ثقافته. من مكونات فكرية عربية إسلامية، فأنتج هو أيضا تراثا أرخ له اليهود بلغتهم، وأرخت له تلك السلسلة التاريخية المشار إليها أعلاه، وستكون هذه هي مواضيع بحوثنا في المقبل من الأعداد إن شاء الله (1).

(1) نسعرض للتراث العربي التاريخي وبعض الدراسات الهامة المكتوبة بالعبرية تحليلا ومقارنة، في المقبل من أعداد المجلة، إن شاء الله.

فما هي إذا عناصر مكونات هذا المجتمع الأندلسي الفريد ؟

1- العرب

كانت النواة الأولى للعرب الذين وصلوا الأندلس تتكون

من القيسيين والكلبيين، ممن وفد مع موسى بن نصير، ثم جاءت بعدهم دفعة أخرى مع الحر ابن عبد الرحمن الثقفي سنة 94هـ ومنذ ذلك تتابعت الهجرات، واستجلب عبد الرحمن الأول أجنادا سوريين، استقروا فيما بعد في جنوب وغرب الأندلس. وسمي أولئك الوافدون مع ابن نصير البلديين، في حين سمي الوافدون مع بلج بن بشير الشاميين.

(13866/1)

استقر العرب بصفة عامة في مدن السهول الخصبة، خصوصا في منحدر الوادي الكبير وقرب منحدرات أنهار التجه وشنيل وإبره قرب مرسيا، واستقر العدنانيون القيسيون حول طليطلة والهذليون في منطقة أريولة وأكثر التميميين والقيسيين في منطقة إشبيليا وبلنسيه. وتوزع القحطانيون اليمنيون في عديد من الأماكن. واستقرت الأرستقراطية الحميرية في قرطبة وبطليوس وإشبيليا وألبيره ومرسيا،وتوزعت منازل العرب الشاميين في أماكن متعددة، فنزل جند دمشق كورة (ضاحية) ألبيره وجند الأردن كورة جيان وجند مصر كورة باجة وبعضهم بكورة

(13867/1)

تدمير(1) . وعددهم مؤلف ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم، في الجنس الأول والثاني من ساكنة الأندلس حيث قال : "الجنس الأول دخل إليها من بني هاشم الجم الغفير، من الحجاز واليمن والعراق والشام ومصر وجراثيمهم ومواليهم الجم الغفير، من سائر البلاد التي ذكرنا"(2)

---

(1) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، (تحقيق محمد بن عبد عنان)، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1973، ج1،ص. 103–105. وأنظر أيضا : ابن حزم، جمهرة أنساب العرب،فهو يذكر فيها القبائل العربية ويذكر المنازل التي استقرت بها.

(2) "ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم" 1، مؤلف مجهول (تحقيق عبد القادر زمامة) مجلة البحث العلمي، العدد الثالث والرابع، السنة الأولى، 1964،ص.55 (سنحيل إليه ب : زمامة).

(13868/1)

2- البربر

تدفقت جموع البربر على الأندلس، وكان أكثرها من زناتة،مع الطلائع الأولى للفتح، ثم تبعتها صنهاجة أيام ضعف الدولة الأموية، وازداد هذا العنصر سلطة في عهد المرابطين، حيث احتلت قبائلهم كثيرا من المدن، وخصوصا الثغور منها : "ولما فتح الموحدون الأندلس واستولى يوسف على شرقها، أنزل زناتة في بلنسيا وصنهاجة وهسكورة في شاطبة ومرسيا، وأهل تنمل في لورقة، وكوميا في ألمرية وبرشلونة. وعندما استرجع باجة سنة 570 أرسل مع أهلها قبيلا من الموحدين بأولادهم وعيالهم ليسكنوا معهم فيها. وفي سنة 616 أرسلت مجموعة

(13869/1)

من كوميا إلى الأندلس" (1) .

وعددهم صاحب أعيان فاس من الجنس الثالث ممن دخل الأندلس حيث قال : "الجنس الثالث دخل إليها من برابرة المغرب وإفريقيا. ومن كان منهم من أهل الحاضرة استقر في القرى"(2). ومن بيتاتهم التي ذكرها ابن حزم في جمهرة الأنساب : وزداجة وملزوزة وامغيلة ومكناسة وازناتة ومديونة وهوارة ومصمودة وأوربة وزواوة

وصنهاجة

---

(1) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (تحقيق كولان وليفي بروفنسال) (ج 4، تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، 1967، ج 4، ص.69.

(2) زمامة، ص.55.

(13870/1)

---

(1) .

3– السقالبة (الصقالبة) أو الموالي

وهم الخدم المستجلبون من الشمال، وأصلهم من أسارى أسرتهم الجيوش الجرمانية في حروبها مع السلافيين،ثم حملوا إلى الأندلس وبيعوا بها. والبعض منهم كان من أسرى القراصنة الذين كانوا يطوفون في مياه الأبيض المتوسط واستجلب اليهود، من كان منهم خاصا بخدمة الحريم، من فرنسا، خصوصا من) 2Verdun)

---

(1) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر ص.498–502.

E. Lévi- Provençal, l’Espagne musulmane, **(2)**

.(2= Lévi (Provençal 29, P.1932paris,

(13871/1)

.ويقول ابن حوقل : "ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان الروقة من سبي أفرنجة وجليقة وخدم الصقالبة...والصقالبة قبيل من ولد يافث...فنصف بلدهم بالطول يسببه الخراسانيون...والنصف الشمالي يسببه الأندلسيون من جهة جليقة وإفرنجة وانكبردة وقلورية، وبهذه الديار من سبيهم الكثير، باق على حاله ..."(1). وكثر عدد الصقالبة الموالي أيام الخلافة، وصار لهم ذكر وصيت. يقول ابن عذاري المراكشي : "...وكانوا أبهى حلل المملكة وأخص

---

(1) أبو القاسم بن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض ، ط2، القسم الأول، ليدن، 1938**، ص.**110.

(13872/1)

عددها، عني الخلفاء بجمعهم والاستكثار منهم". وبلغوا حظوة عند الحكم ما بعدها حظوة، فعلى الرغم مما ظهر

منهم من أمور قبيحة فإنه كان يقول : "هم أمناؤنا وثقاتنا على الحرم، فينبغي للرعية أن تلين لهم وترفق في معاملتهم فتسلم من معرتهم، إذ ليس يمكننا في كل وقت الإنكار عليهم "وازدادت سطوتهم بعد موت الحكم حتى ظنوا أن

" لا غالب لهم وأن الملك بأيديهم" كما يقول ابن عذاري(1). وجاء في "النفح" : " إن عدد الفتيان الصقالبة بالزهراء، بلغ ثلاثة عشرة آلاف وسبع مائة وخمسين فتى...وعدة

---

(1) البيان ، ج2، ص.259.

(13873/1)

النساء...الصغار والكبار وخدم الخدمة ستة آلاف وثلاث مائة وأربعة عشرة امرأة"(1)

4– المستعمرون أو النصارى المعاهدون أو الأعاجم (Los Mozarabes)

... وهم النصارى الذين بقوا بعد فتح الأندلس في المدن والبقاع المفتوحة ، في ظل الدولة الإسلامية ، وكانوا يكونون مجموعات كبيرة في قواعد الرئيسية مثل قرطبة و إشبيلية وطليطلة (2)

(1) أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطب...،تحقيق محمد محيي الدين عبد المجيد، مطبعة السعادة، مصر، 1949 ، ج2، ص.103.

(2) لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1937 ، ج 1 ، صص . 106– 107 .

(13874/1)

. وكان من الطبيعي أن يكون عددهم كبيرا في كل أرجاء الأندلس ، ففي معاهدة فحص غرناطة ، مثلا وعد المعاهدة ابن رودمير باثني عشر ألف مقاتل ، وكانوا في منطقة جد محدودة (1) . وكان هؤلاء النصارى أو الأعاجم يكونون طبقتين داخل المجتمع الأندلسي ، طبقة عليا ، جماعها كبار النصارى ووجوههم ، وطبقة من العامة . وقد غير الفاتحون من وضع هؤلاء الإجتماعي ، ومكنوهم من خدمة الأرض مقابل جزء يسير من منتوجها يؤدونه للدولة ، ويحتفظون هم بجله ، وكانوا قبلا أقنانا مملوكين (2)

(1) البيان ج 4 ، ص 69 ؛ والإحاطة ، ج 1 ص . 109 .

E . Lévi - provençal , L'Espagne musulmane (2)

(= Lévi - (Proveçal 160au Xè siècle , P .

(13875/1)

. وكان كل امتيازاتها الاجتماعية ، إذ أخذت جل أرض الأندلس صلحا ، وعليه فإن أصحابها كانوا يبيعون ويباع منهم ، و أبناء آخر ملوك القوط حافظوا على ثلاثة آلاف ضيعة سميت بعد ذلك صفايا الملوك (1) .

5 – المولودون أو المسألة من أهل الدين

---

(1) أحمد الطاهري ، عامة قرطبة في عصر الخلافة ، منشورات عكاظ، الرباط، 1988 ، صص . 148 – 169 .

أنظر التفصيل في ، Lévi- Provençal , Histoire de L'Espagne musulmane , Paris , 1950 T. 3, PP 214–226 (Lévi- Provençal =2)

(13876/1)

وهم سكان الأندلس الأصليون الذين اعتنقوا الإسلام .

وعدهم صاحب " أعيان فاس " ، هم والنصارى المعاهدة ، في الجنس الرابع قال : " الجنس الرابع من أهلها الذين دخل

عليهم المسلمون ، منهم من أسلم واستقر بموضعه ، ومنهم من سبي عند الفتح واستقر بها ، وبها بقي عقبه ، ومنهم من أسلم بعد الفتح أو سبي بعد الفتح واستقر بها عقبهما . وهذا الصنف على أجناس ، منهم الروم والجلالقة وقشتالة ، وراغون البرمدي ، والعريقيين والينير (1)

---

(1) يذكر المحقق عبد القادر زمامة ، في حاشية 54 بأنه لو يتوصل إلى تقويم هذه الأسماء المحرفة عن أصولها .

(13877/1)

والطوطيين من الأمم القديمة ، ومنهم أهل البريس مدينة مستقر طاغية فرانسيس ، ومنهم عجم رومية ...ومنهم من كان اليهود مستقرا بها قبل الفتح ، وأسلم عند الفتح أو بعده ، أو دخل إليها بعد الفتح و أسلم " (1) .

... 6– اليهود

لا يعرف متى وصل اليهود أرض إسبانيا فقد زعم أنهم جاؤوا إليها مع طلائع الفينيقيين الأولى الذين قدموا مع Tharsis في القرن العاشر قبل الميلاد ، كما زعم أيضا أن

مجموعة ثانية منهم وردت أيام نبوخد نصر سنة 558 قبل الميلاد . ومن المؤكد أنهم كانوا موجودين في أرض إسبانيا

---

(1) زمامة ، صص . 55 .

(13878/1)

منذ القرن الرابع الميلادي ، إذ أقر المجمع الذي عقد في Ilibrow ، مابين 309 و 312 (ق. م) عديدا من البنود يمنع بمقتضاها تعامل النصارى مع اليهود وكذا مخالطتهم والزواج منهم ومشاركة الطعام (1) .

... وكان هؤلاء اليهود الذين استوطنوا الأندلس قبل الفتح عونا للفاتحين ، يقول المقري عن فتح طارق : " ... ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجه إلى البيرة ، فحاصروا مدينتها وفتحوها عنوة ،

---

(1) Chrétiens et Juifs " , Raymond , R . Thourent Hespéris , T. " à Grenade au IV siècle avant J .C (1943XXX , PP . 201- 202) .

(13879/1)

وألفوا بها يهودا ضموهم إلى قصبة غرناطة ، وصار ذلك سنة متبعة متى وجدوا بمدينة فتحوها يهودا ، ويضمونهم إلى قصبتها ويجعلون معهم طائفة من المسلمين يسدونها " (1) . وقد تحدث أسطور في كتابه " تاريخ اليهود في الأندلس الإسلامية " ، بتفصيل عن وجود طوائف ذات أهمية كبرى في عديد من المدن ، مثل قرطبة وإشبيلية ولسيانة وغرناطة وطليطلة وقلعة حماد وسرقسطة ، وكذا في مدن الشمال ، مثل برشلونة وطركونة وطرطوشة (2)

---

(1) النفح ، ج 1 ، ص . 10 ؛ البيان ، ج2 ، ص . 12 .

(2)

(أ . شتور ، تاريخ يهود إسبانيا المسلمة ، ج 1 ... 1960)

(13880/1)

. ولن نفصل القول في موضوع اليهود في هذا القسم من البحث ، لأننا سنخصص معظم دراساتنا المقبلة لهم ولأهل الذمة ، كما أشرنا سابقا .

... هذه العناصر التي كونت سكان الأندلس منذ الفتح حتى السقوط ، وقد استطاعت أن تؤثر وتتأثر و أن

تنتظم فيما بينها تنظيما دقيقا لو يحدث بهذا المقدار في زمن يسير إلا في هذه الأندلس(1) . فهل كانت هذه العناصر تكون وحدة متكاملة أم كانت نسيجا مجتمعيا لم يستطع التخلص من خصوصياته ؟ .

ينطلق الجواب على هذا السؤال من طبيعة الفتح ومسار الاستقرار والظروف

---

(1) Lévi- Provençal , P . 1, 32.

(13881/1)

السياسية التي ستطبع كل تاريخ الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية . فأرض الأندلس أرض فيئ، فتح جلها صلحا ، وعليه فإن أصحابها الأصلين سيحافظون على كثير من أراضيهم،

وسيظل لهم وجودهم الفعلي في النشاطات المختلفة .

يقول ابن حوقل : " وبالأندلس غير ضيعة فيها الألوف من الناس لم تمدن وهم على دين نصرانية الروم " (1) .

والكثير من أصحاب الأرض من غير هؤلاء ممن دخل الإسلام ، سيكونون في واقع أمرهم معظم سكان الأندلس ، وسيصبحون في مصاف العرب والبربر بعد أجيال ، وقد

(1) صورة الأرض ، القسم الأول ، ص . 111 .

(13882/1)

تستحيل التفرقة بين هؤلاء وهؤلاء (1).

... وكان الصقالبة الذين نيف عددهم في قرطبة وحدها على خمسة عشرة ألف نسمة (2) التأثير الكبير ، خصوصا و أنهم كانوا في خدمة أصحاب القرار ، وقيادة الجيش، وكان لهم قول مسموع في نساء القصرولدى أهل السلطة (3) . وظل العنصر اليهودي الذي ساهم في الفتح ، كما أشرنا إلى ذلك ، نشطا يتحرك في مجالات الاقتصاد المختلفة ، ولكنه كان أيضا ذا تأثير سياسي كبير (4)

(1) Lévi- Provençal 1, T . 1, P . 75;.

(2) البيان ، ج 2 ، ص . 232 .

(3) نفسه ، ص . 259 .

(4) عبد الله بن بلقين ، مذكرات المسماة بكتاب التبيان ، تحقيق بروفنسال ، دار المعارف بمصر ، 1955 ، ص .37 و 53 .

(13883/1)

.

... لقد كون كل هؤلاء ظاهريا ، مجموعا ينم عن انسجام ، وكانت العامة أكثره ، إذ كان في قرطبة وحدها " خلق لا يحصيه إلا خالقهم " (1) ، أو كما قال بن خلدون : " ويموجج بحر المدينة بالسفلة " (2) . وكان على قمة كل هذه العناصر أرستقراطية عربية تتكون من نبلاء الفاتحين وبعض أكابر البربر والصقالبة ، واتخد هؤلاء الطبقة العامة خدما في كل مجالات الحياة (3)

---

(1) البيان ، ج 2 ، ص . 222 .

(2) عبد الرحمان بن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ... ، تحقيق علي عبد الواحد ، ج 3 ، ص . 878 .

(3) Lévi- Provençal 1, P 233 .

(13884/1)

، وكانوا يعيشون ، سواء منهم سكان المدن أو الأرياف والحصون ، على طريقة ملاك الأراضي الكبار ، يستخدمون المولدين والعامة والفلاحين المستعربين في زراعة ضيعهم فيخصصون لهم أجرا مقدما أو يفردون لهم قسطا من المنتوج (1) غير أنه سيكون لهذه الطبقة العاملة التي تمثلت في بقية

الأجناس الأخرى ، بطبيعة الحال ، فيما آلت إليه الأمور وتبعا للتقلبات السياسية المختلفة ، وضع جديد يضعف من شأن العصبية العربية التي لم تجد لها منبتا خصبا في أرض الأندلس ، فتحللت الروابط القبلية

---

(1) Lévi- Provençal 2, T . 1, P . 84–85.

(13885/1)

في المدن التي لم تجد لها منبتا خصبا في أرض الأندلس، فتحللت الروابط القبلية في المدن وضعفت في البوادي لأن : " الأندلس ليست بدار عصائب ولا قبائل " (1) . أو كما قال ابن عباد في رسالته إلى يوسف بن تاشفين : " فإننا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا ، وتغيرت أنسابنا ... فصرنا فيها شعوبا لا قبائل و أشتاتا لا قرابة ولا عشائر " (2) ولم يعد لكثير من أعقاب تلك البيوت الأرستقراطية

---

(1) ابن خلدون ، ج 2 ، ص . 46 .

(2) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ، تحقيق علوش ، الرباط، 1936 ، ص 33 .

(13886/1)

ذكر ، فصاروا من عامة الناس . يقول ابن خلدون : " تجد كثيرا من أعقاب البيوت وذوي الأحساب والأصالة ، وأهل الدول منطرحين في الغمار ، منتحلين للحرف الدنيئة في معاشهم بما يفسد أخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسفة " (1) .

... ومما يثبت هذا الوضع الذي آلت إليه العصبية العربية أن الحكم في الأندلس ، منذ بداية الأمويين وحتى الأفول ، ظل متأثرا بما كان لكن هذه العناصر من قوة قد تزداد هنا وقد تضعف هناك ، تبعا للغلبة أو الاندحار اللذين كانا من ثمرة الانقسامات داخل سلطة

(1) ابن خلدون ، ج 3 ، ص . 878 .

(13887/1)

العائلة الواحدة ، أو الصراع الذي كان يحدث بين الدويلات ، أو التهديدات التي كانت ترد من قوة خارجية شمالا وجنوبا ، زيادة على ما كانت تحدثه العناصر غير العربية من فتن أو ثورات أو تطلعات تريد بها علو كرسي السلطة . وباختصار ، فإن صيرورة الحكم في الأندلس ظلت رهينة بحركية يكاد يكون لها وحدها

التأثير الكبير ، تلك هي النزاعات الداخلية والمناوشات الخارجية والصراعات السياسية . وكان لهذه الحركية مرتكزاتها الأساسية هي التي ولدت الفعل اليومي والنشاط المتأجج الذي سبك كل العناصر المكونة لسكان شبه الجزيرة

(13888/1)

الإيبيرية . وتمثلت هذه المرتكزات في الوظائف التي خص بها كل عنصر في البنية العامة التي تكون الحكم ، سواء عندما كان في أوجه وجماع وحدته أو ضعفه و انحداره وتفتته .

... تربعت النخبة العربية على سدة الحكم ، وتقلدت مراتب الوزارة والكتابة والقضاد والشرط والحسبة والخطط والمظالم والمواريث والمباني وبيت المال وضرب السكة (1) . وشاركهم في هذه المناصب في ما بعد ، عديد من البربر الذين ارتبطوا بهم دما ، وكذا بعض المولدين الذين سواهم بهم الإسلام وتضلعهم في لغة القرآن و آداب حضارته الإسلامية

---

(1) زمامة ، ص . 55 .

(13889/1)

. وكتب التراجم والرجال الأندلسية تزخر بأسماء هؤلاء في العلم والقضاء (1) . وقد استطاع هؤلاء المولدون أن يشغلوا مناصب كبرى كانت وقفا على الأستقراطية العربية ، مما سيخلق صراعا داخليا مريرا عبر عنه ابن الفرضي في حديثه عن عبد الله بن الحسن المعروف بابن الشدي ، الذي استقصاه أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد ،

---

(1) ابن الفرضي أبو الوليد عبد الله بن محمد ، تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ؛ و أبو عبد الله محمد بن حارث الخشني ، قضاة قرطبة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، 1966 .

(13890/1)

على وشقة وما والاها ، قال ابن الفرضي: " إنه كان منسوبا إل الكبير مزهوا شديد العصبية للمولدين منتقدا للعرب حافظا لمثالبها ... توفي 335 هـ " (1) .

... أما من احترف من العرب ، فكانت حرفتهم الفلاحة والغراسة ونسج الحرير والغزل والنسيج والتجارة فيهما ، وبيع العطر والشمع الفاكهة والخضر والخبز .

ونشطت عامة البربر في الحواضر ، في عديد من الصنائع الجارية ، مثل ظفر الحلفاء والقنب والحبال وصناعة المحاريث والسلال والبراذع والشطاطيب وصيد الطيور وحمل الماء والبناء . ومن سكن منهم

---

(1) ابن الفرضي ، ص . 227 .

(13891/1)

البوادي كان يجلب إلى المدن البقر والسمن والزيت والعسل والصوف والدجاج والفواكه والفحم والخشب (1) ... ... شحلان 2

... أشرنا سابقا إلى أهمية الصقالبة في دولة الأمويين ، ورأينا أن عددهم كان كثيرا في عديد من مرافق القصر وخدمة الدولة (2) حتى قال ابن عذارى : " وكانوا أبهى حلل المملكة وأخص عددها ، عني الخلفاء بهم والاستكثار منهم " (3) فجمعوا الأموال وملكوا الأراضي والعبيد ، وتقلدوا وظائف سامية في

---

(1) زمامة ، ص . 55 .

(2) النفح ، ج 2 ، 163 ؛ والبيان ، ج 2 ، صص . 247 – 248 .

(3) البيان ، ج 2 ، ص . 259 .

(13892/1)

الدولة والجيش أيام الناصر – وقد نيفت ولايته على نصف قرن – فتولى عبد الله بن بدر الكتابة ، وقند المواريث ، ودري الشرطة ، و أفلح الخيل ، وخلف الفتى الطراز ، وطرفة بن عبد الرحمن صاحب " المطبخ المواريث " ، ورئيس نجدة حملة من الحملات العسكرية ، وأصبح قند، وهو غير الأول ، قائدا على طليطلة ، وكان بدر الفتى الكبير صاحب السيف (1) وأشرف عبد الله بن بدر سنة 329 على أعمال حفر قناة بين جبل سير والمسجد الكبير بقرطبة ، كما أشرف جعفر ابن عبد الرحمن

---

(1) البيان ، ج 2 ، ص . 165 و 164 و 183 و 191 و 203 و 214 و 223 .

(13893/1)

الصقلبي ، حاجب الحكم الثاني ، على توسيع المسجد . وتولى الشرطة بقرطبة ثلاثة منهم محمد بن تمليخ ، صاحب البرد ، وأحمد بن ناصر صاحب السوق وقاضي جيان ، وخالد بن هشام الذي وزر لهشام الثاني (1) . وتعاظم

أمرهم واستخدموا أحيانا في قمع الثوارت و إخماد النعرات ، بل كانوا هم أنفسهم وقودا لهذه الثورات ، كما جاء في " أخبار فائق النظامي وجؤدر " ، أيام الحكم الثاني . وظهرت لهم عصبية عبر عنها حبيب الصقلبي أيام هشام الثاني في كتاب أسماه " كتاب الاستظهار والمقابلة على من أنكر

---

(1) Lévi- Provençal 1, PP 105- 107.

(13894/1)

فضائل الصقالبة " (1) .

... ومن اشتغل من موالي الحواضر فقد اشتغل بالصنائع وبعض المهن والتجارة وتقديم الخدمات ، فمن صنائعهم الحياكة والخرازة والنسيج وسبك الحديد وصناعة آلات الحرب والنحاس و آلات الخيل وسرجه . ومن مهنهم الصباغة والحجامة والتطبيب والطحن وخراطة العود ونجارة الخشب وتسمير البهائم . وكانوا يتجرون في النعال والحياك والجلاليب واللحم . أما الخدمات التي كانوا يقدمونها

---

(1) البيان ، ج 2 ، ص . 259 – 262 ومابعدها ؛ وانظر :

أخبار الناصر في النفح ، تحقيق إحسان عباس 1968 ، ج 1 ، صص 253 – 282 .

(13895/1)

للمجتمع ، فتمثلت في ضرب الطبول والبنود والقيام بالمساجد والآدان ورصد الوقت ودفن الوتى وحفر القبور وحراسة الأسواق ليلا وحراسة الفنادق وحمل السلع من بلد إلى بلد (1) .

... واحتل المعاهدة النصارى مناصب كبيرة في الدولة والجيش (2) مثل عمر بن قومس (Comes) الذي كان كاتبا للأمير عبد الله (توفي 298) (3) . وعلى الرغم من اعتراض الفقهاء على بلوغ النصارى

---

(1) زمامة ، ص . 55 .

(2) Lévi- Provençal 1P ,112 et 2Lévi- Provençal 1,T. PP. 232- 234

(3) Lévi- Provençal 2P ,111 et 1Lévi- Provençal 1,T. P. 290 .

(13896/1)

مناصب عليا في الدولة ، فإن ذوي السلطة لم يروا في الأمر بأسا ، إذ تحدثنا الأخبار أن الفقهاء حثوا الأمير محمد الأول على تخيير كتابه النصارى بين الإسلام أو العزل ، كحال كاتبه القومس بن أنطونين (1)،

غير أن الأميرومن جاء بعده لم يستغنوا عن كتابهم ومقتصديهم اليهود والنصارى خلال الحكم الأموي كله (2) ولا شك أن هؤلاء كانوا إداريين يدبرون أمور الاقتصاد وتنظيم الدولة وكانوا يختلفون عن كتاب الرسائل كما يفهم

---

(1) انظر مثلا : النفح ، ج 1 ، ص . 202 . T. 2Provençal ,
1 .PP 232- 234

(2) T. 2Provençal ,1 . 290P .

(13897/1)

من كلام المقرئ . واسترشد أصحاب الحل والعقد في الأندلس بكبار النصارى في كثير من الأحيان ، فقد أشار أرطباص – الذي عينه العرب بعد الفتح ، حاكما على طليطلة ورئيسا للنصارى وزعيما لعجم الذمة ومستخرجا خراجهم لأمراء المسلمين – على أبي الخطار هشام ، بتفريق القبائل الشاميين في الكور ، تخفيفا عن

قرطبة (1) . كما كان المظفر يستشير أب الربيع النصراني في مهمات أمره (2) . واعتمد الناصر لدين الله سنة 329 عباس بن المندر أسقف إشبيلية ، ويعقوب بن مهران

---

(1) الإحاطة ، ج 1 ، صص . 103 – 104 .

(2) مذكرات ، صص . 66 – 67 .

(13898/1)

أسقف بجاية وعبد الملك بن حسام أسقف البيرة ، في بعثة من قرطبة إلى جليقة لمفاوضات رودمير في فداء محمد بن هشام (1) .ولعب هؤلاء المعاهدة دورا كبيرا في ثورة ابن حفصون حيث حاولوا التدخل بالصلح أو التخلي عن هذا الأخير (2) .

... ومن أسلم من هؤلاء المعاهدة النصارى ، فمن كان من البادية اكتسب البقر والغنم واشتغل بالحرث وتربية النحل . وكان أهل الجبال منهم يغرسون الجنات

---

(1) ابن حيان القرطبي ، المقتبس ، (نشر ب : سالميتا ، المعهد الإسباني للثقافة ، مدريد ، كلية الآداب ، الرباط

1979 ، ج 5 ، ص . 467.

(2) نفسه .

(13899/1)

ويرعون أشجار الفاكهة ويقطعون الخشب ويصنعون الفحم . ومن ولي البحر منهم امتهن الصيد وجلب الحوت والسردين وصناعة السفن و آلاتها (1) .

... سبق لنا أن ألمحنا أعلاه لأهمية اليهود إبان فتح المدن الأندلسية فنالوا كبير جزاء لهذا الفعل ، و أعدوا نفوسهم ثقافة وعلما ، ليقوموا بالمهمات الجسام في جهاز الدولة ، فهذا حسداي بن إسحق بن شبروط يصفه ابن حيان بـ : " وحيد العصر الذي لا يعدل به خادم ملك ، في الأدب وسعة الحيلة ولطف المدخل وحسن الولوج " (2) . وحسداي هذا

---

(1) زمامة ، ص . 55 .

(2) المقتبس ، مدريد ، ص . 366 .

(13900/1)

كان مترجما للناصر ومدبرا لإدارته العامة وجمارك المملكة ، كما كان يذهب في سفارات خطرة ، ويستقبل السفراء القادمين على قرطبة .

وهكذا استقبل سنة 944 سفارة قسطنطين الثامن الذي ورد من بزنطة ، واستقبل سنة 956 ممثلي أطان الأول (Otton) القادم من ألمانيا . واختياره الخليفة لدى أرمود الثالث (Ordomo) عندما نزع إلى الصلح سنة 955 . وهو الذي أقنع الملكة (Tota de Navarre) بزيارة العاصمة (1) . وذهب أيضا في سفارة إلى أردون بن ردمير ، ملك جليقة لفداء محمد بن هشام وعقد الصلح

---

(1) Lévi- Provençal 1, P 112 .

(13901/1)

---

(1) . " فارتفعت به الحرب بين الملتين بين مدينة شنترين ومدينة وشقة ، فاقنع رودمير غيره من النصارى بالصلح والمسالمة " (2) . وهو الذي عقد المسلم مع شنير بن غفيريد الإفرنجي صاحب برشلونة كما رضي بذلك الناصر لدين الله (3) . وكلف الحكم الثاني إبراهام بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوسي ببعثة وجهها إلى ملوك الشمال (4) . ونقل ابن الخطيب عن ابن حيان قولا

في ابن النغريلة المشهور ، جاء فيه : " وكان ... من أكمل

---

(1) البيان ، ج 2 ، ص . 221 .

(2) المقتبس ، مدريد ، ص . 467 .

(3) نفسه .

(4) أ . اشتور ، ج 1 ، صص . 228 – 229 .

(13902/1)

الرجال علما وحلما ، وفهما وذكاء ودماثة ودهاء ، ومكرا وملكا لنفسه ، وبسطا من خلقه ومعرفة بزمانه ...ناهيك برجل كتب بالقلمين ، واعتنى بالعلمين ، وشغف باللسان العربي ونظر فيه ، وقرأ كتبه وطالع أصوله ، فانطلقت يده ولسانه ، وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربي في ما احتاج إليه من فصول التحميد الله تعالى والصلاة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، والتزكية لدين الإسلام وذكر فضائله ، وما يريد ولا يقصر فيما يريد ولا يقصر فيما ينشئه عن أوسط كتاب الإسلام ...وكان قد حمل ولده يوسف المكنى بأبي حسين على مطالعة

(13903/1)

الكتب ، وجمع إليه المعلمين والأدباء من كل ناحية يعلمونه ويدرسونه ، وأعقله بصناعة الكتابة ، ورشحه لأول حركته لكتابة ابن مخدومه بلكين برتبة المترشح لمكانه تمهيدا لقواعد خدمته ، فلما هلك إسماعيل في هذا االوقت ، أدناه باديس إليه و أظهر الاغتباط به ، والاستعاض بخدمته عن أبيه " (1) .

... وقصة ابن النغريلة في تاريخ الأندلس كانت فصلا من أهم الفصول التي امتزج فيها الدهاء بالمكر ، وبررت فيها الغاية الوسيلة ، فقد أباح ابن النغريلة في مهمته في قصر باديس كل شيء فقد قتل

---

(1) الإحاطة ، ج 1 ، صص . 438 – 439 .

(13904/1)

خاله أبا الربيع ابن الماطوني لما مالت إليه أم ماكسر (1) و أبعد كل من رأى فيه خطرا عليه من القصر و ألحقه بوظائف خارج غرناطة وأوغل صدر الرئيس على وزيره ابن القروي علي وعبد الله. و أصبح يولي ويعزل ويغني ويفقر ، إلى أن انتهت حياته بمأساة خص لها الأمير بن بلقين صفحات عديدة من مذكراته وجاء

صدى هذه الأحداث في رسالة ابن حزم التي خصها بابن النغريلة حيث يقول : " اللهم إنا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا ، بدنياهم عن إقامة دينهم وبعمارة قصورهم ، يتركونها عما قريب ، عن

---

(1) مذكرات ، ص . 48 و 53 .

(13905/1)

عمارة شريعتهم اللازمة لهم ... حتى استشرق لذلك أهل القلة والذمة ، وانطلقت ألسنة أهل الكفر والشرك " (1) .

ويقول في نفس السياق ، في رسالة التخلص لوجوه التخليص ، إجابة لسائل سأله : " وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أوحصن في شيء من أندلسنا هذه ، وأولها عن آخرها ، محارب الله تعالى ورسوله ، وساع في الأرض بفساد . والذي ترونه عيانا من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم و

---

(1) ابن حزم الأندلسي ، الرد على ابن النغريلة اليهودي ، تحقيق احسان عباس ، دار العروبة ، 1960 ، ص. 45 .

(13906/1)

إباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون إلى أهلها، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين ، مسلطون لليهود على قوارع طريق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أها الإسلام " (1) .

... وامتهن من أسلم من اليهود بخياطة الملف والثياب وظفر القيطان ونسج العقل والقلنصوات وصبغها والحجامة والدلالة في الأسواق و إصلاح النعال المخروزة . أما الموالي منهم، فقد اشتغلوا بصناعة الصابون والفانيد وتشبيك الفداوش والشعرياء والترد والمقروض ، وتفسير الكتب وتزويق الخشب وتركيب المناسج وضرب

---

(1) نفسه ، ص . 173 .

(13907/1)

الدينار والدراهم وحلي النساء وفرط الجمان وخدمة الزجاج وتصفية المعادن وصناعة القدور . وتاجروا في الحوت والشحوم والأدوية والأعشاب والصوف والكتان وآلات الطرب والحلي ومواد التغدية . ومن الخدمات التي كانوا يقومون بها ، طبخ الأخباز والإسفنج والشواء وعصر الزيت وحملها وتخليص الرباع وتزليجها وخدمة الحمامات

وسقاية الماء وكراء الأواني (1)

... وكان لنساء الأندلس على العموم مهن اشتهرن بها أيضا ، من ذلك ما ذكره ابن حزم في " طوق الحمامة " ، إذا كان منهن الطبيبة والحجامة والسراقة ؟ !

---

(1) زمامة ، ص . 55 .

(13908/1)

والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخفة والصانعات في المغزل والنسيج (1) .

... ومن الأكيد أنه كان بالأندلس صناعات كبرى وتجارة دولية وردت الإشارة إليها في أماكن كثيرة في كتب التراجم والرجال والتواريخ ، مما لم نستطع ذكره هنا نظرا لموقع الأندلس الجغرافي وغناها في باطن الأرض وظاهرها ، وحوطها ببحرين عظيمين وكونها كانت مراكز لسلطة قوية في كثير من عهودها .

---

(1) ابن حزم الأندلسي ، طوق الحمامة في الألفة و الآلاف ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، المكتبة التجارية الكبرى ، 1959 ، ص . 19 .

(13909/1)

... استقلالية أهل الذمة

... بنيت هذه الإستقلالية على وثيقة ترجع إلى أيام عمر بن الخطاب ، وهي الوثيقة التي بعث بها القائد عبد الرحمن بن غانم إلى عمر بن الخطاب ، حين صالح القائد المذكور نصارى الشام (1) . ويتضح ، بادئ ذي بدء ، أن نصارى الأندلس لم يتقيدوا ، خصوصا في بداية الفتح ، بجل بنود الإتفاقية . ففي المعاهدة التي وقعت

---

(1) الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلسي والمغرب ، إشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ج 2 ، ص . 237 – 238 .

(13910/1)

بين عبد العزيز بن نصير و Théodémir (تدمير) ، والتي أمن فيها ابن نصير تدمير على نفسه و أتباعه ، وضمن له فيها حرية المعتقد ، لم يرد أي تقييد يلزم تدمير ببقية البنود (1) . وظل مضمون المعاهدة ساري

المفعول حتى عهد المرابطين والموحدين ، ولم يفرض الفاتحون الإسلام على أهل الأندلس فرضا ، وظلوا يعاملون السكان الأصليين ، نصارى ويهودا ، معاملة خاصة مكنتهم من حرية الدين والمعتقد . فقد أفتى القاضي أبو عبد الله بن يحيى ، وكان شيخ المفتين بقرطبة (ت 297) ، بإطلاق سراح

---

(1) Lévi- Provençal 2, T. 1, PP. 32 -33.

(13911/1)

صبي نصراني أسلم ثم عاد إلى النصرانية ، في حين ورد الإفتاء بقتل من ارتد من أولاد المسلمين ، متى بلغ ولم ينفع فيه التأديب . وسوت لفتوى التاسعة ، في أحكام أهل الذمة بين من أنكر نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – سواء كان ذميا أو مسلما ، ولم توجب شيئا على اليهودي والنصراني الذي يشهد بأن محمدا – صلى الله عليه وسلم – أرسل للمسلمين ولم يرسل إلى أهل الذمة (1)

---

(1) أبو الأصبغ عيسى بن سهيل الأندلسي ، وثائق في أحكام قضايا أهل الذمة ، تخرج محمد عبد الوهاب خلاف ،

المركز العربي الدولي للإعلام ، القاهرة ، 1980 ، الفتوى رقم 1 و 2 ؛ و انظر أيضا : المعيار ، ج 2 ، صص . 334 – 345 .

(13912/1)

. وجاء في فتوى ابن تاشفين أن الذين أسلموا خوفا يقبل إسلامهم ، و إذا رجعوا عن ا

الإسلام لهذا السبب يعذرون " إذ لا ملامة عليه (من رجع إلى النصرانية) في أن يفر من الظلم بالخديعة والتلاعب " (1) .ويرجع بروفنسال إسلام الكثير من ساكنة الأندلس الأوائل طواعية، إلى الهروب من ثقل الضرائب ، بل يرى أن السلطة كانت تفضل أن يحافظ هؤلاء على دينهم ، لأن ذلك يوفر لبيت مال المسلمين دخلا كبيرا (2) . ولا يمكن أن نفهم ثورة مسيحي قرطبة أيام عبد الرحمن

---

(1) المعيار ، ج 8 ، ص . 63 .

(2) Lévi- Provençal 2,T. 1 . 74P .

(13913/1)

الثاني ، على أنها ثورة قام بها النصارى لأنهم أرغموا على ترك المسيحية واعتناق الإسلام ، و إنما يجب أن نفهمها على أنها ثورة المسيحيين الذين أنكروا الإسلام وحقيقة النبي كحقائق مطلقة . والأصل فيما يعرف بقضية الشهداء كان تشكيكا في الإسلام وليس دعوة إلى التنصر ، وجل المحاكمين كانوا لسبهم الإسلام والنبي ، وليس لأنهم كانوا يؤدون طقوسهم الدينية " (1) . والقضية نفسها ، كما عرضها بروفنسال تفصح عن كبير حرية في أمور الجدل الديني ، كما تبين تحرز

(1) انظر التفصيل في : Lévi- Provençal P P. 1,T. 2 234–239

(13914/1)

القضاة في إصدارهم و أحكامهم على المتهمين ، بل تظهر تردد الحكام أنفسهم في الموافقة على هذه الأحكام مما جعلهم يستفتون الفقهاء قبل اتخاذ أي قرار (1) . وما جاء في رسالة Louis Le Pieux مسيحي Merida سنة 828 ، تظلما للخليفة عبد الرحمن وابنه الحكم ، ولا يشكو من أية مضايقة دينية ، و إنما كان التظلم من ثقل الضرائب

بالدرجة الأولى . وظل المسيحيون يتمتعون في القواعد الرئيسية مثل قرطبة و إشبيلية وطليطلة باستقلال ذاتي ويطبقون شرائعهم القوطية القديمة على يد قضائهم وتحت مسؤولية قواميسهم

---

(1) نفسه ، ص , 229 .

(13915/1)

---

(1)، الذين كانوا يتمتعون باحترام كبير ، وكانوا من مستشاري الخلفاء في قضاياهم الخاصة ، وفي قضايا النصارى و أحوالهم . ويذكر ابن القوطية أن عبد الرحمن بن معاوية هو الذي نصب أول قومس في الأندلس (2) . ويبدو أن القومس كان يرأس جهازا إداريا كاملا مركزه قرطبة وفروعه في الكور . وهكذا فقد كان أهل الذمة في مختلف مدن البلاد وكورها يسيرون أمورهم برئاسة شيوخ من أهل دينهم ذوي حنكة ودهاء ومداراة ومعرفة بالجباية . وعليه فإن قضايا الطائفة خلال القرن

---

(1) الإحاطة ، ج 1 ، ص . 106 (هامش 2)

(2) عامة قرطبة ، ص . 149 .

(13916/1)

العاشر كانت تدبر بواسطة موظفين تختارهم الطائفة باتفاق مع السلطة الإسلامية العليا . وكان على رأس هذه الإدارة شخص يسمى باللاتينية Defensor أو Protector وهو الذي عرف في أدبيات التاريخ الأندلسي بالقومس (Conde Comes) . وكان Exceptor هو الذي يحصل الجباية والضرائب . ويقضي في قضاياهم الشرعية الخاصة بهم ، قاض يعرف بقاضي النصارى أو قاضي العجم ، ويسملى باللاتينية Censor . وكان مرجعهم التشريعي قوطي . أما الخلافات التي كانت تقع بينهم وبين المسلمين ، فإنها تعرض على القضاء الإسلامي . ومن قضاة النصارى بقرطبة

(13917/1)

، أصبغ بن نبيل ووليد بن جيزران وحفص بن البر (1) . وجاء في المقتبس أن الخليفة الحكم استقبل سنة 360 رسل حلويرة (Elvira) بنت الملك رودمير " فوصل مع العجم من كبار نصارى قرطبة قاضيهم أصبغ بن نبيل و أسقفهم عيسى بن المنصور وقومسهم معاوية بن لب ومطران إشبيلية عبد الله بن قاسم ، يترجمون عنهم "

(2) .

---

(1) ابن حيان القرطبي ، المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن حجي ، دار الثقافة ، بيروت ، 1956 ، ص . 63 – 64 ؛ والعامة ، ص . 28 .

(2) المقتبس ، بيروت ، ص 21 – 22 .

(13918/1)

... واستقر كبار أساقفة النصارى بجل مدن الأندلس ، إذ في سنة 329 هـ كلف الناصر لدين الله عباس بت المندر جاتليق إشبيلية ، ويعقوب بن مهران أسقف بجاية ، وعبد الملك بن حسان أسقف البيرة بمهمة فداء محمد بن هشام (1) . وكان القوامس يظهرون الطاعة للسلطة الحاكمة في كثير من المناسبات إذ عندما وصل المنصور إلى مدينة عليسة وافاه " عدد عظيم من القوامس المتمثلين بالطاعة في رجالهم وعلى أتم احتفالهم فصاروا في ملك مسلمين " . وقد أظهر المنصور هذا احتراما لهم و أجزل لهم العطاء " فأجاز

---

(1) المقتبس ، مدريد ، ص . 467 .

(13919/1)

هناك القوامس بجملتهم على اقتدراهم وكساهم وكسا رجالهم وصرفهم إلى بلادهم " (1)

... وتتجلى حرية التعبد في كثرة الكنائس التي كانت منتشرة في كل الأندلس ما بين القرن الثامن والثاني عشر ، سواء في المدن الكبرى أو الصغرى . ومن أشهر هذه الكنائس أيام الخلافة ، الكنيسة العظمى بقرطبة Saint- Aciscle ومن أشهر الأديرة الواقعة في أطراف المدينة دير أرملاط ( ) (2Guadimellato).

---

(1) نفسه .

(2) 74–72, PP . 1Lévi- Provençal

(13920/1)

وكان الأمير أحيانا يحضر الصلاة في الكنيسة ، كما فعل أبو عامر بن شهيد (1) ، بل كان قرع النواقيس يبهج سمع أهل قرطبة على الرغم من تشدد الفقهاء في هذا الأمر ببلاد الإسلام (2) . ويذكر الإدريسي أنه كان بالأندلس كنيسة من الكنائس تستقبل الناس وتستضيفهم عادة متبعة ورثها الخلف عن السلف ، وكانت دائما عامرة بالقس والرهبان ، وبها أموال مذخرة

و أحوال واسعة ، وأكثر هذه الأموال محبسة عليها في أقطار الغرب وبلاده ، وينفق منها على الكنيسة وخدامها " (3)

---

(1) النفح ، ج 1 ، ص . 345 .

(2) العامة ، ص . 151 .

(3) نفسه ، ص . 152 .

(13921/1)

.

... ونظرا لهذه الأهمية التي كانت تحظى بها الكنيسة فإنها لو تكن ملجأ النصارى وحدهم ، بل كانت ملجأ المسلمين وكل الغرباء ، وتعددت فيها الفتاوى التي وردت في كثير من المصادر ك " المعيار " للونشريسي ، و " أحكام قضايا أهل الذمة " (1) وهي فتاوي غطت جل الحكم الإسلامي بالأندلس ،مما يبين أهمية الكنيسة ودورها الكبير . ونضرب مثالا لذلك بالفتوى التي وجهت إلى القاضي أبي الفضل عياض ، عن أحباس حبسها نصارى معاهدة ، على كنيسة

---

(1) المعيار ، ج 7 ،صص . 73 – 74 ؛ ج 8 ، ص 59 ؛ وأبو الأصبغ بن سهيل ، الفتوى ، رقم 8 .

(13922/1)

لهم ، حيث قال : " وكان القسيسون يستغلونها وينفقونها (أموال التحبيس) في مصالح كنيستهم ومافضل منها يأخذونه لأنفسهم " (1) ، والفتوى الثامنة منفتاوي ابن أصبغ حيث تقول : " وعلى غرار ما يكون الحكم فيما يتعلق بالأحباس التي تحبس على الكنائس والأديرة ، قربى إلى الله تعالى ، فلا يجوز للأسقف إخراجها عما حبست عليه من أجل بيعها ... إذ يبطل كل تصرف من هذا القبيل ... كما هوالحال بالنسبة لأحباس المسلمين على حد سواء " (2) .

---

(1) المعيار ، ج 7 ،ص . 73 .

(2) أبو الأصبغ بن سهل ، ص . 69 .

(13923/1)

... وإذا تحدثت الأخبار عن هدم الكنائس في الأندلس ، فإن ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى وقائع خاصة ، أو عندما

تصبح الكنيسة معقلاللثورة على السلطة ، كما جاء ذلك واضحا في كثير من كتب التاريخ مثل " الإحاطة " و " البيان " و " مذكرات ابن بلقين "، وقد ربطت هذه بين هدم بعض الكنائس وثورة ابن حفصون (1) . وكثيرا ما كانت تنتهي تلك الثورات بصلح فلا تمس الكنيسة ويحافظ على حرمتها كما حدث في فتح ماردة (2) . ولو كان هدم الكنائس أمرا متعبا ، ما وجدنا

---

(1) أنظر مثلا : الإحاطة ، ج 3 ، ص .279 .

(2) البيان ، ج 2 ، ص . 15 .

(13924/1)

فتاوي تفتي بمنع قرع النواقيس أو التخفيف منه (1) ، ولما أشار الونشريسي في " معياره " إلى التسامح في بناء الكنائس والحظ على عدم تهديمها (2) . وظل الحفاظ على الكنائس سنة كما سنها عبد الرحمن بن معاوية ، الذي وجد المسلمين يقاسمون نصارى قرطبة في كنيستهم العظمى ، فأوسع لهم البذل في شطرهم ، وفاء بعهد المصالحة ، وأباح لهم بناء كنائسهم التي

---

(1) ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ،

تحقيق ليفي بروفنسال ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ... القاهرة ، 1955 ، صص. 77 – 80 .

(2) المعيار ، ج 2 ، ص . 214 .

(13925/1)

كانت قد هدمت إبان الفتح وكذا بناء كنيستهم العظمى خارج قرطبة (1) . وكانت الأناجيل أيضا شائعة الرواج يطالعها النصراني وغير النصراني . وقد أفاد منها ابن حزم كثيرا في كتابه " الفصل " ، وكان يصاحب رجال الكنيسة ويجادلهم (2) .

... ظلت سلطة اليهود ومقاليد أمورهم الدينية الخاصة بهم بين أيديهم ، فقد جرت العادة على أن تعين السلطة رأس

---

(1) البيان ، ج 2 ، ص . 229 ؛ وأبو الأصبغ بن سهل ، صص . 77– 80 .

(2) أنظر مثلا : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح و أولاده ، القاهرة ، ج 2 ، ص . 20 .

(13926/1)

الجالوت أو الناسي أو شيخ اليهود ، للقضاء في أمرهم وبتشريعهم ، ويكون هذا الشيخ نفسه هو الواسطة بينهم وبين السلطة المدنية (1) ، فقد جاء في فتوى وجهت إلى أبي العتاب، أن يهوديا ادعى أن عمه حبس عليه جنة ، وقام نزاع حول هذه الجنة فأفتى ابن العتاب أن لليهودي الحق إذا أراد رفع دعواه على عميه ومحاكمتها إلى حكم أهل دينهم (2) . وقد تمتع اليهود ، في ظل هذه الحرية ، بالسماح لهم ببناء دور عبادتهم في أحيائهم الخاصة وكذلك بين السكان المسلمين (3)

---

(1) مذكرات ، ص . 131 .

(2) المعيار ، ج 7 ، ص . 439 .

(3) أبو الأصبغ بن سهيل ، الفتوى ، رقم 7 .

(13927/1)

. والدليل على الزيادة في بناء المعابد والبيع هو كثرة الفتاوى المتعلقة بها وقد جاءت هذه في " نوازل " ابن سهل (1) والونشريسي (2) وغيرها . كما كثرت الفتاوى أيضا حول التوراة والكتب اليهودية

وقد حذرت إحدى الفتاوي شراء الكتب من اليهود

باستثناء كتبهم الدينية (3) . ومنع ابن عبد الرؤوف رواج الأخبار الكاذبة إلا أخبار بني إسرائيل فلا حرج عليها (4) . وقد أفاد ابن حزم كثيرا من هذه الكتب في مؤلفه " الفصل " و أخبر

---

(1) نفسه ، ص . 247 .

(2) المعيار ، ج 8 ، صص . 58 – 59 .

(3) ثلاث رسائل ، ص . 57 .

(4) نفسه ، ص . 13 .

(13928/1)

أن كثيرا من فرقهم كانت معروفة في الأندلس ففي حديثه عن فرق اليهود تحدث عن الفرقة العنانية ، وقال : " وهذه الفرقة بالعراق ومصر والشام ، وهم بالأندلس بطليطلة وطلبيرة " (1) . كما قال عن مذهب العيساوية : " ولقد لقيت من ينحو هذا المذهب من خواص اليهود كثيرا " (2) .

... هذه نظرة موجزة في الأندلس ، أهلا ونشاطا وحريات عقائدية وقانونية ، أردنا أن تكون مدخلا لما سنقدم عليه من دراسة في التراث التاريخي العربي والعبري في الغرب الإسلامي، والله الموفق للصواب .

---

(1) **الفصل ، ج** 1 **ص** . 78 .

(2) **نفسه ، ص** . 89 .

(13929/1)

ملاحظات حول دراسات المستشرقين للفنون والآثار العربية الإسلامية

... ...

الدكتور محمد الباجي بن مامي

... ... المعهد الوطني للتراث – تونس

... لا شك أن دراسة مختلف الجوانب المباشرة لمساهمة الأجانب في دراسة كل النواحي المتعلقة بالوطن العربي، وعلى الخصوص الجانب التاريخي والحضاري، لأمر دقيق وهام جدا. فبلادنا العربية عرفت تطورات وتحولات على كل المستويات، واليوم أصبح عالمنا العربي مسيطرا على مصادر تاريخه، من معلومات أثرية وتدقيق وتمحيص في المصادر، وتنظيم محكم لوثائق الأرشيفات إلخ...

(13930/1)

وذلك بطريقة علمية، بدأت تصبح دقيقة مع الأيام، وهي تجعلنا نواكب التقدم العلمي، والدراسات المتعلقة بتاريخ الإنسانية بصفة عامة. لذلك نرى من واجبنا تصحيح الدراسات المتعلقة بتاريخ الإنسانية بصفة عامة. لذلك نرى من واجبنا تصحيح الدراسات والآراء القائمة حول تاريخنا الذي شوه في العديد من جوانبه (هنا لا يهم إن كان ذلك عن قصد أو بغير قصد) ولا يهمنا في هذه الدراسة معرفة مقاصد الذين تبحروا في تاريخنا وفي دراسة شخصيتنا بقدر ما يهمنا إقامة الحقائق، ومواجهة مختلف التحديات، وخاصة إثبات أنه بقدورنا تخطي كل

(13931/1)

العراقيل، والاهتمام بتاريخنا بأنفسنا، حتى نعطي بذلك لثراتنا ولتاريخنا المكون لشخصيتنا، الأبعاد الحقيقية التي يمكن أن نواجه عن طريقها كل التحريفات التي مازال يعاني منها تاريخ الأمة العربية. وبالطبع، من بين المكونات الأساسية لتاريخنا ولشخصيتنا، الآثار المتبقية من الفترات السابقة، التي تعرفنا على مقدار ما وصل إليه أجدادنا من التقدم في الفنون المعمارية والابتكارات الهندسية.

فمن المؤكد أن العديد من المواضيع التي تهم العالم العربي أثارت اهتمام الكثير من المستشرقين، ولعل من أهمها الفنون والعمارة التي

(13932/1)

ألفت حولها انطلاقا من القرن الماضي
العديد من المصنفات، غير أن المؤلفات التي اتسمت بشيء من العلمية لم تظهر للوجود إلا في أواخر القرن الماضي وبداية القرن الحالي، وقائمة المستشرقين الذين اهتموا بالآثار الإسلامية
طويلة، والعديد من دراساتهم مازالت معتمدة إلى يومنا هذا، إلا أن تطور دراسات أبناء الوطن العربي بينت أنه أقل ما يقال في دراسات المستشرقين أنها تحتوي على العديد من الأخطاء الفادحة وهي نابعة عن عدة أسباب :
أولها الأخطاء الناتجة عن غير قصد، وتتمثل خاصة في :
... 1– جهل المستشرقين اللغة العربية.

(13933/1)

... 2- عدم إدراك أصول الشريعة الإسلامية.

... 3- جهلهم لكنوز الحضارة العربية وتراثها.

... في حين ينبع النمط الثاني من الأخطاء عن تحيز الكثير من المستشرقين الذين حاولوا إظهار العجز التام للعنصر العربي في الخلق والإبداع، بينما أكدوا على مساهمة الحضارات القديمة في إثراء الحضارة العربية ليصلوا إلى الاستنتاج التالي : ارتباط الوطن العربي بالرومان والبيزنطيين والفرس وغيرهم.

... وهكذا رأى الكثير من المستشرقين أنه لدراسة الفن والعمارة العربيين، لابد من تحليل العناصر والتعرف على ماهو متأثر بالبلاد الأخرى.

(13934/1)

كما كان القاسم المشترك بينهم هو عرض واف لخصائص الفنون السابقة للإسلام : أي " الفنون التي يتأثر بها العالم الإسلامي في طور نشأته".

... ويرى أغلب هؤلاء المستشرقين أن الفنون السائدة عندما انتشر الإسلام على أيدي العرب الفاتحين، انحصرت آنذاك في فنين هما : الفن البيزنطي (وهو يعتبر وريث الفنون الكلاسيكية الأخرى) والفن الفارسي. فكان الأول منتشرا في الشام وفي مصر وفي شمال إفريقية، بينما

انتشر الثاني في العراق وفي أطراف الجزيرة العربية، إلا أننا نلاحظ أن أغلب المعالم الراجعة إلى الفترة الإسلامية الأولى

(13935/1)

قد اندثرت، وهكذا اختفت بعض حلقات التطور مما جعل المستشرقين يلتمسون المصادر في الفنون القديمة أو المسيحية وذلك كلما واجهوا بناء أو عنصرا جديدا متناسين كل إمكانيات الخلق والإبداع لدى الفنان العربي.

... اهتم المستشرقون إذن بالبحث عن المصادر والتأثيرات التي عرفتها فنون البلاد العربية وعمارتها، فالبحث عن المصادر يعتبر أهم شيء في دراستهم، وهذا ما حملهم على القيام بمقارنة عناصر العمارة والزخارف في الفنون السابقة للإسلام. فمن الواضح أن العديد من المستشرقين يعدون العرب مدينين قبل كل شيء للحضارات السابقة

(13936/1)

لهم، وهي نظرة كانت سائدة خاصة خلال فترة استعمار الوطن العربي من قبل القوى العظمى، وتعد هذه الآراء – بالطبع – إحدى العناصر الأساسية لتبرير وجود الاستعمار الغربي (1) .

---

(1) يؤكد مثلا ج . مارسيه على أن الفن الإسلامي مدين بالكثير للفنون التي سبقته أنظر :

– G . Marçais , l'art Musulman, P.U.F, 1962.

بينما يرى هنري تراس أن الفن الأموي مثلا حاجزا أمام نمو الفن الهلينستي بالمشرق، خاصة نتيجة للتكرار في الأشكال. راجع :

H. Terrasse, l'art Hispano - Mauresque, des origines aux XIIIe S, Paris, 1932.

(13937/1)

... هكذا اتفق أغلب المستشرقين على إنكار أي فضل للعرب وجردوهم من كل حس فني أو استنباط معماري، فيذكر (ج. مارسيه) أن الفن العربي هو آخر الفنون التي ظهرت للوجود من بين الفنون العظمى بالعالم القديم، ولذلك فلابد أنه تأثر بالفنون التي سبقته (1) ويذكر (هنري تيراس) أن كل البلاد العربية أخذت عن سوريا أي

بطريقة غير مباشرة عن الحضارة الهيلينسية ثم الرومانية. ويرى أيضا أنه عندما انتقلت الخلافة إلى بغداد لعبت العراق نفس الدور الذي لعبته بلاد الشام عندما كان يحكمها الأمويون. وهكذا

---

(1) مارسيه ، المرجع نفسه.

(13938/1)

تأثرت العمارة الإسلامية والفنون الزخرفية تأثرا عميقا بالفن الساساني (1) ، وهو ما يذهب إليه أيضا أبرز المستشرقين ك: (كرزو) و (ج. مارسيه)، وخاصة (بابادو بولو)، وهكذا اتفق الكثير من هؤلاء على إنكار أي فضل للعرب وجردوهم من كل حس فني أو استنباط معماري وأكدوا على أن الجزيرة العربية كانت فراغا معماريا قبل الإسلام، وأن العرب لم يأتوا بأي شيء يذكر لإثراء الفن والمعمار بالبلاد التي فتحوها، ويؤكدون على أن الدين الإسلامي نشأ في "واد غير ذي زرع" لم ينتج حضارة ذكرت في تاريخ

---

(1) هنري تراس، المرجع نفسه.

(13939/1)

الإنسانية.

... لكن نرى أن المكتشفات الأثرية بالجزيرة العربية أثبتت أن سكانها كانوا يتمتعون قبل ظهور الإسلام بحضارات عريقة، خاصة منها ما أفرزته حفريات الفاو التي أكدت أن العرب لم يكونوا عند فتوحاتهم جاهلين كل الجهل بالأساليب الفنية والمعمارية المنتشرة آنذاك

... ومن المؤكد أيضا أن المستشرقين لم يدرسوا الحضارة والعمارة الإسلامية من خلال العقيدة، بل انطلقوا في تفسيرها من خلال مقارنات مع الحضارات السابقة، لكن تناسوا دور العقيدة التي مثلت الركيزة الأولى لكل ماقام به المسلمون خلال القرون الأولى.

(13940/1)

فمثلا في جامع عقبة بن نافع بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس أكد المستشرقون على التاثيرات البيزنطية في الزخارف الإسلامية. ثم بحثوا عن المواد الرومانية والبيزنطية، وأظهروا عجز المسلمين عن الخلق والإبداع (فهم يركزون خاصة على الأعمدة

وتيجانها المجلوبة من مواقع قديمة كقرطاج وجلولة وغيرها...) وكذلك نفس الشيء بالنسبة لزخارف المسجد الطولوني، فنجد أمثلة في دراسات المستشرقين لأشكال توجد في هذا الجامع، أرجعوها إلى أصل ساساني وأخرى إلى أصل بيزنطي، وثالثة إلى أصل قبطي، ورابعة إلى أصل هيلنستي وهكذا... لكن رغم

(13941/1)

وجود اقتباسات، فإن الفنانين الذين قاموا بهذه الأعمال قد أثبتوا مهارة فائقة فخلقوا هياكل جديدة أضافوها إلى تراث العمارة الإنسانية.

... والأمثلة عديدة عن محاولات المستشرقين تجريد الفنان العربي المسلم من أي خلق

أو إبداع. فهذا (كرسول) الذي ألف أحد أهم المصنفات في تاريخ العمارة العربية الإسلامية، قد درس معلمة قبة الصخرة، وقسم عناصرها وزخارفها إلى أجزاء، ورأى أنها تتمثل في :

... 22 ٪ من المصادر الرومانية

... 22 ٪ من المصادر البيزنطية.

... 55 ٪ من المصادر السورية المسيحية.

(13942/1)

... 01٪ المتبقي لم يحدد المؤلف مصدره.

... وهو نفسه الذي يؤكد أن عرب ما قبل الإسلام لم يكن لديهم إلا أفكار باهتة

أو بدائية عن البناء والعمارة (1) ، وإن بلاد العرب كانت تمثل فراغا معماريا يكاد يكون تاما، وأن الصفة العربية يجب ألا تستخدم للتعريف بعمارة العصر الإسلامي(2).

---

(1) K.A.C. Grewell, Early Muslim Architectures, 1T. (1932, P .1 , (90

(2) ويذهب نفس المذهب، الأب لامنس وجرترول بال إلخ ....

أنظر : Greswell, Idem, Vol. 1, P.7

(13943/1)

... بينما يرى مستشرق آخر تتصف آراؤه بالكثير من الاعتدال وبالعملية الكاملة، وهو

(لوسيان قولفان)، أن مدينة القدس، شاهدت نشأة الفن الإسلامي الأول (وهو يعني بهذا فن الزخرفة)(1) .

ويستدل على ذلك بقية الصخرة بالذات (التي بناها عبد الملك بن مروان سنة 691 م) و يعبر بهذا على موقف مغاير تماما (ل كرسول) وغيره من المستشرقين .

---

(1) L. Golvin , « Quelque Réfléxions sur la formation de l'esthétique musulmane ' dans Mélanges d'Islamologie ,dédiés à la mémoire de A. Bel , Vol. III , p. 20.

(13944/1)

... ومن بين الأمثلة الأخرى التي نوردها ، هو ما ذكره المقريزي من أن ثلاثة إخوة مهندسين قدموا من الرها لبناء أسوار القاهرة و بواباتها ، (وذلك سنة 480 هـ/1087 م، أي في عصر بدر الجمالي). ويرى الكثير من المؤرخين أن هذه الأسوار و البوابات قد اقتبست عناصرها المعمارية و الزخرفية من أصول عثر عليها في الأناضول وأرمينيا و شمال سوريا وبيزنطة وروما ومصر القبطية إلخ ... لكن رغم إمكانية وجود تأثيرات ومصادر أجنبية فلا يمكن إنكار أن هذه الأسوار كانت متكاملة و فريدة في نوعيتها ، وهي تختلف اختلافا تاما عما نجده

(13945/1)

بالبلاد التي ذكرها هؤلاء المستشرقون .

... وقد اختلف العديد من هؤلاء في مصدر بعض العناصر الفنية التي استعملها العرب، من ذلك مثلا العقد المنفوخ الذي نسبوه إلى فارس ثم إلى الهند و كذلك إلى آسيا الصغرى إلخ...كما كان نفس الشأن بالنسبة للعقد الثلاثي الفتحات الذي نسب خاصة إلى بلاد الهند،لكن نلاحظ أن الأمثلة التي ذكرها المستشرقون هي زخرفية بحتة ، بينما خضعت في العمارة لمبادئ هندسية ، لهذا يمكن أن نؤكد أن الفنان العربي لم يتعمد تقليد الأشكال كما وجدها ، بل حاول دائما أن يدخل عليها الكثير من التحويرات

(13946/1)

التي تتماشى و طبيعة الفن العربي . والذي نلاحظه إذن أن المستشرقين تغافلوا في كل هذه الأمثلة عن طبيعة الزخرفة العربية النابعة عن العقيدة الإسلامية و التي تأبى تقليد الطبيعة ، وهي ليست لها بداية أو نهاية، وهي في تداخلها كتداخل هذا الكون .

... غاب عن أذهان أغلبهم إذن أن الدّين الإسلامي بعث

لكافة الشعوب ، وهو لا يملك مركبات ، فكما استوعب قلوب أهالي البلاد التي فتحها ، فقد استوعب بناءهم ، ووضعه في إطار و تخطيط إسلاميين كاملين يخدمان العقيدة الإسلامية.

(13947/1)

... فالبلاد التي فتحها الجيش الإسلامي كانت تحتوي على أنواع شتى من المعالم : معابد وثنية وكنائس وأديرة مسيحية وكذلك منشآت دفاعية ، بما فيها الحصون والقلاع إلخ ... واستعملت فيها عناصر معمارية عديدة . وقد اقتبس العمال العرب أشكالا من هذه العناصر، واشتقوا منها – بالطبع – عناصر أخرى ، وأضافوا إليها عناصر ابتكروها ، مما أفرز فنا جديدا مستقلا بذاته ، ويمكن لنا سرد العديد من الأمثلة التي تبين أن الفنان العربي تأثر فعلا بالمعطيات الفنية والمعمارية التي قدمت من خارج بلاده أو التي وجدها على عين المكان ،

(13948/1)

لكن الشيء ، المؤكد أنه استطاع هضمها ، و إعطاءها من شخصيته ما جعلها تكون فريدة في نوعها ، غير مشابهة لما سبقها من العمارة .

... ونورد كمثال لذلك ، ورقة العنب ، التي استعملت في العديد من فنون الحضارات الكلاسيكية ، فهي استعملت في الفن الهيلنستي وفن القبطي وكذلك البيزنطي إلخ

... لكن نلاحظ أن ورقة العنب الزخرفة للوسادات التي تعلو تيجان الأعمدة بجامع بالفسطاط اتسمت بخصائص جديدة ، فهي تمثل تطورا واضحا بالنسبة للفنون السابقة ، وهذا دليل إضافي على أنه رغم الاقتباس في الفنون التي سبقته ، فإن الفن العربي

(13949/1)

الإسلامي ، أثبت مهارة نادرة في إعطاء صورة جديدة للعناصر التي استعملها ، تجعلها تبدو وكأنها مبتكرة .

... كما أن المستشرقين تجاهلوا شيئا آخر ، هو خصب الخيال العربي ، فقد توصل الفنان العربي إلى الجمع بين الأشكال الهندسية والنباتية ، فنتجت عنها أشكال زخرفية متنوعة . وانطلاقا منها ابتدعت أشكال فريدة في الزخرفة العربية الإسلامية ، كما نتبين خاصية أخرى

قبل ظهور الفن العربي الإسلامي وهي خاصية التكرار في الأشكال المختلفة (هندسية كانت أم نباتية) كما امتاز الفنان العربي بملء الفراغات ، وهو ما لم يكن

(13950/1)

معروفا في الفنون الكلاسيكية .

... وهكذا حاول الكثير من المستشرقين النيل من الحضارة العربية ، فقد أبدلوا مصطلح " فن عربي " بالفن الإسلامي ، محاولة منهو إزالة أي إبداع عربي ، وذلك على أساس أن شعوبنا مختلفة ، وغير عربية ، وهي متكونة من مصريين وفرس وروم وبربر إلخ ...

... وأحسن من تحدث في هذا الموضوع الدكتور فريد الشافعي الذي ذكر أنه : " من المؤكد أن الغربيين حاولوا حرمان العرب أن تسمى حضارتهم وعمارتهم وفنونهم بالعربية نسبة إلى دولتهم التي بسطت نفوذها على عدة أقطار إسلامية تسكنها شعوب عربية، بينما

(13951/1)

لم يحرم الرومان والبيزنطيون والساسانيون من أن تنسب حضارتهم وعمارتهم وفنونهم إليهم ، مع أن هذه الدول كانت تتكون من أجناس وشعوب مختلفة ، ومع أن علماء الفنون والآثار هم أدرى الناس بأن كل طراز فني من تلك الطرز قد قام على أسس من فنون أخرى معاصرة له أو سابقة عليه " (1) .

... كما أثارت انتباه الكثير من المؤرخين العرب ، محاولة جل المستشرقين ربط غالب مكونات الحضارة المعمارية العربية من فنون وزخارف وهندسة إلخ ... بالفن

---

(1) الدكتور فريد الشافعي ، العمارة العربية في مصر الإسلامية ، القاهرة ، 1970 ، ص . 24 .

(13952/1)

الساساني . فإذا كانت محاواتهم إظهار التأثيرات الرومانية والبزنطية والمسيحية على الفن العربي جلية وواضحة ، فكان يراد بها تبرير محاولتهم تركيز وجودهم في مستعمراتهم العربية ويعلل ذلك وجود حضارات قديمة بالعديد من مناطق الوطن العربي ، فإن محاولتهم إظهار التأثيرات الفارسية كعنصر أساسي

في الفن والحضارة العربية ، يستجيب إلى أهداف أخرى .
فقد اتفق جميعهم على أن فارس دخلت البلاد العربية عن طريق بلاد ما بين النهرين ، فأثرت فيها مباشرة .
وهكذا أخذت منها العراق كل العناصر المعمارية والزخرفية التي انتشرت في

(13953/1)

ربوعها انطلاقا من بداية الفتوحات ، ثم أثرت بدورها في بقية الوطن العربي ، خاصة بلاد الشام ثم مصر التي أثرت بدورها في العديد من الأقاليم الأخرى . وهكذا فهم يسعون إلى التأكيد على أن بلاد ما بين النهرين ، كانت تشكو حالة فقر معماري ، وكأنها دخيلة جديدة على الحضارة والفنون وأنها استقت كل العناصر الفنية من فارس.
... فهل يمكن لنا قبول هذه التأكيدات و أن نسلم بها ؟
إذ أول ما يتبادر إلى الذهن أن بلاد الرافدين سبقت الساسانيين بآلاف من السنين في مجال الحضارة والعراق مهد لحضارات عظمى نذكر منها خاصة

(13954/1)

السومارييين والآشوريين والبابليين وغيرهم . فعندما كانت كل هذه الحضارات القديمة تبرز على الساحة ، لم نكن نعلم بوجود أي حضارات متقدمة ببلاد فارس.

وهكذا يحاول المستشرقون التغافل عن هذه الحقبة الزمنية الطويلة ، ويمرون مباشرة إلى الفترة الإسلامية كأن بلاد ما بين النهرين لم تعرف حضارة تذكر قبل ذلك ، وأنها استندت في كل ما قامت به على الساسانيين فأين ذهبت كل المخلفات الحضارية والفنية والمعمارية التي عرفتها البلاد التي نشأت فيها أهم الحضارات و أعرقها ؟ ونحن نتساءل قبل كل شيء : من بدأ في عملية التأثير على

(13955/1)

الآخر ومن أخذ على جاره الأول ؟ العراق أم فارس التي لم تدخل صف الحضارات القديمة إلا خلال الألف الأولى قبل الميلاد .

... ونحن لا نود هنا دراسة من بدأ في التأثير في الحضارة الأخرى ، بل ما نسعى إلى إقراره هو أن التأثيرات متبادلة ، وإن كل حضارة أخذت عن الأخرى لإثراء تراثها ، فمن المؤكد أن حضارة ما بين النهرين أثرت تأثيرا عميقا في الحضارة الساسانية ، ثم أخذ الفنان العراقي عن

الحضارة المجاورة و أعطاها من شخصيته ما جعلها تأخذ شكلا جديدا . وهكذا دواليك ، فالفن ليس مرتبطا بمنطقة أو بفترة زمنية محددة ، بل

(13956/1)

هو متطور وهو خاصة أخذ وعطاء . لهذا نستغرب من تأكيد المستشرقين على أن الفن الساساني أثر من طرف واحد في الفن العربي من دون أي امتزاج أو تفاعل ، وجعل الفن العربي يأخذ فقط – وذلك رغم كل الأدلة والقرائن المضادة – وهو لدليل قاطع على محاولة النيل من الشخصية ومن الحضارة ومن التراث العربي .

... أما عن جهل العديد من المستشرقين لكنوز الحضارة العربية وتراثها فحدث ولا حرج فهم بجهلهم هذا يحرفون الكثير من نواحي تاريخ الأمة العربية ، ومن بين الأمثلة العديدة التي يمكن أن نسوقها في هذا المجال ، ذلك الذي يهم

(13957/1)

البلاد التونسية ، إذ أن أهم التأثيرات التي عرفتها إفريقية خلال القرون الإسلامية الأولى ، هي التأثيرات المشرقية التي تمثلت معظمها فيما قدم عن طريق مصر ، إلا أنه بعد استيلاء الفاطميين على مصر و إغرائهم بني هلال وبني سليم على الرحيل إلى إفريقية ، اتسمت العلاقات السياسية بنوع من الفتور بين البلدين ، ودام هذا الوضع مدة طويلة ، خاصة بعد دخول الموحدين إلى مدينة تونس . إلا أن هذه العلاقات اختلفت من فترة إلى أخرى ، فكانت تارة طيبة ، وتارة سيئة ، حسب المصالح والظروف – لهذا أكد كل المستشرقين الذين اهتموا

(13958/1)

بتاريخ هذه الرقعة من الوطن العربي (1) على وجود قطيعة تامة بين إفريقية ومصر – وبالتالي كامل المشرق العربي – انطلاقا من القرن 5 هـ/ 11 م . وقد ورد هذا التأكيد نتيجة لجهلهم بوجود العديد من المعالم الأثرية تبين تواصل العلاقات الفنية والمعمارية والثقافية . فرغم أن التأثير المصري تناقص بصفة ملحوظة خلال الفترة الحفصية فإن الشيء المؤكد هو أنه رغم عدم

---

(1) من بينهم خاصة : H . Saladin . L . Golvin , G. marçais , A . Lezine..

(13959/1)

وجود أي ارتباط سياسي بمصر ، وعدم تنقل الأفراد من المشرق للاستقرار بإفريقية، فإن هذه التأثيرات الفنية والمعمارية قد بقيت موجودة نتيجة لهذه العلاقات الاقتصادية والثقافية المتواصلة ، وهكذا استطاعت مصر عن طريق الطلبة والحجيج الأفارقة الذين كانوا يمرون بها أو يستقرون فيها لطلب العلم أن تعرف بالإفريقية بما كان يجد من جديد على أرضها .

... فعرفت خاصة المدارس التونسية المؤسسة خلال القرون 7 هـ/13 م و 8 هـ/14 م و 9 هـ/15 م تأثيرات مشرقية واضحة ، أتت عن طريق مصر ، من ذلك مثلا مدرسة ابن تافراكين(1)

---

(1) حول هذه المدرسة وحول شخصية الحاجب ابن تافراكين راجع محمد الباجي بن مامي ، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد الحسيني ، تونس ، 1981 ، ص ص . 312 – 324 .

(13960/1)

التي دفن فيها مؤسسها . إذ عاش الحاجب أبو عبد الله بن تافراكين مدة من الزمن بمصر ، وذلك خلال أواسط القرن 8 هـ/14 م (من سنة 749 هـ/ 1348 م إلى سنة 751 هـ/1350 م) وهكذا جلب معه هذا النمط من الأثيرات التي لم تعرفها البلاد التونسية من قبل، و المتمثلة في دفن المؤسس بمدرسته أو مسجده . ثم دفن القائد نبيل أبو قطاية هو الآخر خلال القرن التاسع هجري / الخامس عشر الميلادي بمدرسته التي كانت تقع بباب المنارة قرب قصبة مدينة تونس (1)

---

(1) تم التخلص من هذا القائد العسكري بإيعاز من السلطان ابن عمر وعثمان ، نتيجة لتكالبه على السلطة ، وذلك سنة 857 هـ/1453 م (راجع الزركشي ، تاريخ الدولتين ، ص . 147) ؛ والرصاع : الفهرست ، ص . 126 و 141 و 188 .

(13961/1)

.

... كما نلاحظ أيضا تأثيرات مصرية على تصميم بعض المدارس والزوايا ، وهي تتمثل خاصة في عنصر الإيوان ،

وهو عنصر جهل المستشرقون وجوده بالبلاد التونسية سنة 634 هـ/1236 م (1) – على إيوانين متناظرين . أما المدرسة العنقية المؤسسة سنة 742 هـ/1341 م (2)

---

(1) شيدها مؤسس الدولة الحفصية أبو زكريا الأول . راجع محمد الباجي بن مامي ، المرجع نفسه ، ص ص . 236 – 269 .

(2) أسستها امرأة ، وهي الأميرة فاطمة أخت السلطان يحي أبي بكر ، ولا يمثل هذا مثالا شاذا ، إذ شيدت قبلها (في أواسط القرن 7 هـ/13 م) الأميرة عطف جامع ومدرسة الهواء .

(13962/1)

، فهي تذكرنا بالمدرسة السابقة ، إذ تمتاز هي الأخرى باحتوائها على إيوانين هما أيضا متناظرين ، ويوجدان في نفس المكان الذي وجدا فيه بالشماعية ، إذ يتوسط الرواق الشرقي والرواق الغربي ، وآخر الأمثلة لمدرسة بالبلاد التونسية احتوت على أواوين هي المنتصرية المؤسسة خلال سنة 841 هـ/1438 م (1) ، والتي تحتوي على ثلاثة

(1) أسسها السلطان أبو عبد الله محمد المنتصر بالله ، وتوفي قبل إتمامها سنة 839 هـ/1435 م ، فواصل عمله أخوه وخليفته أو عمرو عثمان . راجع محمد الباحي بن مامي ، المرجع نفسه ، ص ص . 325 –346 .

(13963/1)

أواوين .

... ومما يجلب الانتباه أن القرن 9 هـ/15 م اتسم باحتوائه على العديد من المعالم المتأثرة بالعمارة المصرية ، فنجد نفس النمط من التأثيرات في بعض المعالم الأخرى كمقام الولي الصالح سيدي أحمد بن عروس الذي أسس في أواسط القرن 9 هـ/15 م (1) كما نتبين أيضا التأثيرات المصرية خاصة في ميضاة السلطان التي تعد تحفة فنية فريدة من نوعها بالبلاد التونسية، وهي من أجمل ما وصلنا من المعالم المؤسسة خلال الفترة الحفصية ، التي أمر

(1) أمر ببناء هذه الزاوية السلطان محمد المنتصر بالله حوالي سنة 838 هـ/1435 م .

(13964/1)

ببنائها السلطان أبو عمر عثمان في منتصف القرن التاسع هجري / الخامس عشر ميلادي .

... ومن بين التأثيرات المشرقية الأخرى ، التي وصلتنا عن طريق مصر : وجود السبيل ، مثلا في المدرسة السيجومية المؤسسة حوالي سنة 815 هـ/ 1412 م وفي مدرسة سيدي محرز الذي انتهى من بنائها سنة 844 هـ/1441 م وغيرها ...هذا كله بالطبع دليل على أن التأثيرات الفنية والمعمارية المصرية على إفريقية كانت هامة ومتواصلة . كما يمكن أن نشير إلى أن العلاقات بين مصر و إفريقية كانت جيدة في عهد السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان (839 هـ/1434 م –

(13965/1)

893 هـ/1487 م) الذي بعث خلال سنة 849 هـ/1446 م ، وكذلك سنة 858 هـ/1454 م ، وفي عام 872 هـ/1468 م بهدايا عديدة لسلطان مصر ، ويعد هذا مثالا من بين أمثلة كثيرة أخرى .

... هكذا يمكن إذن التأكيد على جهل المستشرقين عما تزخر به البلاد العربية من معالم ، فرغم تباعد الشقة ،

فإن الروابط الثقافية والفنية والمعمارية بقيت قائمة الذات ، وما المثل الذي سقناه إلا واحد من بين العديد من الأمثلة الأخرى ، وهو ما لم يتوصل إلى فهمه المستشرقون ، أو لعلهم تجاهلوه لإبراز القطيعة التي تؤيد نظرياتهم .

(13966/1)

... وبالطبع ، يعد المسجد أهو المنشآت التي تمتاز بها العمارة الإسلامية ، لهذا اهتم المستشرقون اهتماما خاصا بهذا النوع من العمائر و أفرزوا له العديد من البحوث ومن الآراء والنظريات التي تهم مصدره وتصميمه . وهذا (كرسول) يؤكد أن إنشاء الجامع ناتج عن عامل سياسي بحت ، وليس عن سبب ديني ، وأن زياد بن أبيه – والي معاوية بن أبي سفيان على العراق – هو الذي بدأ بإنشاء أول جامع ، إذ أنه زاد في بناء جامع البصرة ، وذلك سنة 44 هـ/665 م ، وذلك حسب رأيه حتى يبعد العرب عن مساجد القبائل ، ويجعلهم يؤمون المساجد

(13967/1)

الجامعة التي تمثل مكانا للاجتماعات الرسمية والتي يلقي فيها خطبة (1) أعتقد أنه ليس من الضروري التأكيد على أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو أول من قام ببناء جامع. وما زيد في مساحة الجوامع إلا لازدياد عدد المسلمين ، مما نتج عنه ضيق بيوت الله بالمصلين. ... ورأى الكثير من المستشرقين أن العرب لم ينشئوا المساجد في العهود الأولى للإسلام ، بل اتخذوا الكنائس أول الأمر لإقامة شعائرهم ، وهكذا رأوا أن المسلمين اهتموا بالفتوحات وتدعيم مبادئ الدين

---

(1) انظر : Creswel , Early Muslim Archtecture , 1T. . 35,P .

(13968/1)

الإسلامي الحنيف ، ولم يجدوا متسعا من الوقت للبناء والتشييد ، لذلك نجدهم يقتسمون الكنائس مع المسيحيين في دمشق وحلب وحمص وحماة و قرطبة وغيرها..(1) إلا أنه في

---

(1) اعتمد المستشرقون في ذلك على بعض الإشارات من بينها مثلا :

... – المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، الذي ذكر أنه : " لما فتح المسلمون حمص ، اعمدوا إلى الكنيسة فجعلوا < ... نصفها جامعا " ، انظر طبعة ليدن ، ص . 156 .

... – كما روي البلاذري أن المسليمن " اتخدوا من نصف كنيسة حلب جامعا " . انظر : فتوح البلدان ، طبعة ليدن ، ص . 147 ...

(13969/1)

واقع الأمر لا يمكن أن نعد هذه الحالات إلا شاذة إذا ما قارناها بمئات المساجد والجوامع التي أقيمت خلال القرن الأول للإسلام .

... وانطلاقا من هذه المعطيات ، أكد الكثير من المستشرقين نتيجة لاتخاذ المسلمين أجراء من الكنائس ، جوامع لهم ، على أن تخطيط المسجد موروث عن تخطيط الكنائس (خاصة السورية والمصرية منها) وذلك نتيجة أن الجامع الأموي بدمشق كان في الأصل كنيسة ، وأن الوليد بن عبد الملك أبقى على بناء معظم أجزائها ، واحتفظ بنظامها ، واتخذها مسجدا جامعا للمسلمين . إلا أن بعض المستشرقين أنفسهم يخالفون

(13970/1)

هذا الرأي ، فهذا (سوفاجيه) يرى أن المسجد الأموي بدمشق لم يتأثر في عمارته أو تخطيطه بكنيسة يوحنا المعمدان التي بني مكانها (1) . بينما يؤكد (مانال قومات مورينو) ذلك إثر إجراء حفريات في مسجد قرطبة، أنه ثبت لديه أن نظام هذا الجامع لا يرتبط في شيء بنظام الكنيسة التي كانت قائمة في موضعه (2) .

---

(1) انظر : J. Sauvaget ,La Mosquée Omeyyade de Médine , Paris , 1947 , P. 95..

(2) Mabuel Gomez Moreno , El Arte Espagnol hasta los Almohades , vol . III , Ars Hispaniae - Madrid, 1948 , P . 29.

(13971/1)

... بينما يذهب البعض الآخر من هؤلاء المستشرقين إلى ربط تصميم المساجد بمعابد الفراعنة ، وهو ما يؤكده مثلا (هنري سلادان) (1) ونحن لا نحتاج بالطبع للإجابة

على هذا الرأي ،فالتباين الذي يوجد بين تصميم الجامع والمعبد الفرعوني شاسع جدا . كما يرى البعض الآخر من المستشرقين أن المسجد الجامع متأثر في تخطيطه بالبازيليك الرومانية ، ويتبينون ذلك خاصة : في الرواق الأوسط للجامع أو البلاط الوسطى (La Nef centrale) التي تتسم بأكثر اتساع من

---

(1) H . Saladin , La Mosquée de sidi Okba à Kairouan , Paris , 1899 .

(13972/1)

الأروقة الأخرى ، ويكون سقف هذه البلاطة – في بعض الحالات – أكثر ارتفاعا من بقية سقف الجامع ، كما أن هذه البلاطة الوسطى تلتقي بطريقة متعامدة مع أسكوب (Travée) مواز لجدار القبلة ، ويكون هو الآخر أكثر عرضا من بقية أساكيب الجامع، وهكذا يكونان في التقائهما تصميما يتمثل في حرف (T) اللاتينية ، وهو ما يوجد فعلا في العديد من البازيليكات (1)

---

(1) أكد على هذا التأثير الكثير من المستشرقين من بينهم مثلا :

- 35H . Saladin , La Mosquée de sidi Okba , PP .

.40

– G . Maraçais , L’art Musulman des origines à 2nos jours , 1933Vols , Paris , T . 1, PP . 1 - 11, 115.

كما أكد عليه خاصة هنري تراس وبابادو بولو وكرسول وغيرهم.

(13973/1)

.

... لكن يمكن أن نعد من الثابت هندسيا أن السبب في بناء البلاطة الوسطى أعرض من بقية البلاطات ، وكذلك الشأن بالنسبة للأسكوب الموازي لجدار القبلة ، هو وجود قبة المحراب التي تعلو مكان التقاء هذين العنصرين ببعضهما ، ومن المعروف أن قاعدة القبة مربعة الشكل ، لذلك يتخذ الأسكوب وكذلك البلاطة نفس أبعاد مربع القبة .

... ولم يكتف المستشرقون بهذا ، بل أكد الكثير منهم أن العديد من عناصر الجامع اشتقت هي الأخرى من بعض عناصر الكنائس ، من ذلك مثلا : المحراب والمنبر والمئذنة إلخ..

(13974/1)

... وكما لا حظنا ، فإن هذه النظريات والآراء المغلوطة نتجت عن العديد من العوامل ، من بينها جهل المستشرقين بالفقه الإسلامي . ولن نحاول هنا دراسة هذا الموضوع أو التعمق فيه ، فقد خيض فيه ما فيه الكفاية (خاصة من قبل الدكتور أحمد فكري) (1) إلا أننا نلاحظ بالنسبة لعنصر المحراب ، أنه الموضوع الذي ناقش فيه المستشرقون أكثر من غيره ، وبالطبع له دلالاته ، التي

---

(1) راجع أحمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، 1965 / 1969 وكذلك آثار تونس الإسلامية ومصادر الفن الإسلامي ، تونس 1949 .

(13975/1)

تبين لنا مدى نزاهة البعض أو سوء نيتهم . فيرى البعض أن المسلمين تأثروا في إنشاء المحراب ببعض الديانات الأخرى ، فهناك من أكد على تأثير المعابد البوذية والهندوستية ، أو بعض المعالم التي سبقت الإسلام

زمنيا . بينما يرى (ج . مارسيه) أن الأقرب للمعقول ، أن المسليمن نقلوا شكل المحراب عن المعابد اليهودية ، أو الكنائس القبطية.

... غير أن أغلب المستشرقين يؤكدون على أن المحراب متأثر بحنية هيكل الكنيسة Absyde))، ويذهب (بابا دوبولو) إلى أن المحراب يرمز إلى : " الاحتواء على الرسول وهو بدوره يوحي إلى وجود

(13976/1)

الإلاه " (1) . بالطبع لما نقرأ هذا التأكيد ، نفهم أكثر أن مؤرخا مثل(بابا دوبولو) لم يفهم شيئا من قواعد الإسلام ، بل نشعر وكأنه يتحدث عن دين آخر لا يمت بأي صلة لديننا ، إذ أن الله موجود في كل مكان ، ولا يمتاز المحراب عن بقية أماكن المسجد بقدسية خاصة . كما يرى نفس المؤلف أنه لو كان يراد من وجود المحراب تنيين اتجاه القبلة ، لكان من الأجدى أن يوضع في مكان أكثر ارتفاعا ، يسمح للجميع بمشاهدته ، وقد

---

(1) **انظر :** A . Papadopoulo , L'islam et l'art Musulman , Edition L. Mazinod , Paris , 1976 ,P. 230 .

(13977/1)

أكد (كرسول) ثم (ج . مارسيه) أن الأقباط هم الذين أدخلوا عنصر المحراب المجوف إلى المسجد (1) .

... وقد ساند بعض العلماء العرب المستشرقين فيما ذهبوا إليه ، من بينهم خاصة الدكتور زكي حسن الذي رأى أن المحراب منقول عن الجزء المجوف للكنائس القبطية (أي الهيكل) وكذلك عن الحنية التي توجد في صدر الكنيسة (2)

---

(1) كان اقتناعهم بهذا الرأي ، انطلاقا من نص السمهودي الذي ذكر أن عمر بن عبد العزيز استقدم عمالا من الروم ومن القبط للعمل في مسجد الرسول بالمدينة ، وذلك سنة 691 هـ/708 م .

(2) الدكتور زكي محمد حسن ، فنون الإسلام ، القاهرة ، 1948 ،ص . 36 .

(13978/1)

. لكن ما يمكن أن نؤكده أن العلاقة بين عنصرين معماريين متشابهين ، لا يعني وجود اشتقاق بينهما ،

إذ أن وجود روابط وظائفية بينهما يعد شيئًا أساسيا ، ومن المؤكد أن إدخال عنصر المحراب المجوف إلى المسجد يعتبر ضرورة وظيفية ، لأن المساجد التي لا تحتوي على محاريب ، يضطر فيها الإمام إلى أن يشغل صفا كاملا أثناء الصلاة ، ووجود المحراب يمكن من استغلال هذا الصف من قبل المصلين .

... و إذا وجدت معارضة ما على إدخال عنصر المحراب المجوف إلى عمارة المساجد ، فذلك ناتج لا عن شكل المحراب نفسه ، بل عن الزخارف التي

(13979/1)

تكسوه ، وهو مما يشغل بال الإمام والمصلين ، وهكذا أساء المستشرقون فهم هذا القصد ، وبنوا عليه نظرياتهم التي كانت مغلوطة . وكما لا حظنا ، فإن هذه النظريات والآراء نتجت عن العديد من العوامل ، من بينها خاصة جهلهم بالفقه الإسلامي .

... وقد حاول البعض من المستشرقين ربط العناصر المعمارية بالمذاهب الفقهية خاصة منها نماذج الجوامع ، فمثلا في البلاد التونسية حاولوا ربط المساجد التي ظهرت في الفترة العثمانية بالمذهب الحنفي ، بينما

أرجعوا المساجد التي سبقتها زمنيا إلى المذهب المالكي . إلا أن العمارة ترتبط

(13980/1)

ارتباطا وثيقا وكليا بالمدارس الفنية والمعمارية فقط ، فالمئذنة – مثلا – التي نسبت للمالكية ، ليس لها ارتباط بهذا المذهب (وهي المئذنة ذات القاعدة المربعة الشكل) فقد ظهرت قبل انتشارها بالبلاد التونسية في المغرب الأقصى أين كان يسيطر آنذاك المذهب الموحدي ، وكذلك الشأن بالنسبة للمئذنة الشكل التي رأى البعض أنها حنفية ، لكن من المعلوم أنها بنيت في المشرق بمساجد حبست على المذهب المالكي أو على المذهب الشافعي .

(13981/1)

... ومما نلاحظه أيضا أن الكثير من الآثاريين غير العرب ، ساهموا في حفريات بالبلاد العربية اكتشفت من خلالها طبقات عديدة ، تمثل عصورا مختلفة ، وذلك بداية من عصور ما قبل التاريخ إلى العهد الإسلامي ، إلا أن اهتمامات

هؤلاء الآثاريين المتجهة اهتماماتهم إلى الفترات التاريخية القديمة ، جعلتهم يزيلون الطبقات الإسلامية ويطمسونها تماما . وهكذا فقدت حلقات هامة من تاريخنا .

... إلاّ أنه يجب علينا أن لا يكون رد فعلنا معاكسا تماما ، إذ على كل آثري عربي أن يهتم بكل الفترات الزمنية ، و أن يولي كل الحضارات التي

(13982/1)

مرت بها بلادنا الاهتمام الذي تستحقه ، إذ أن الفترات الزمنية المختلفة تمثل حلقات متماسكة لتوضيح ما غمض من حضارتنا العربية الإسلامية .

... وخلاصة القول إن دور المؤرخ العربي هو كتابة الحقيقة ، و أن لا يكون دورنا هو الرفض لكل ما أتى به المستشرقون وأن لا يكون ردنا مبنيا على العاطفة ، فعلينا إذن وقبل كل شيء أن نغربل كل الآراء والنظريات ، وأن نفرق بين الغث والسمين ، وأن نقول للمحسن أحسنت ، ونعيد النظر في الأعمال المغلوطة .

المصادر والمراجع

... 1 – المصادر والمراجع العربية

(13983/1)

... ابن أبي الضياف (أحمد) ، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، ... ... تونس ، 1963 – 1966 .

... ابن عاشور (الفاضل) ،" أثر الحفصيين في إنشاء المدارس بالمغرب " ، مجلة الثريا ، ... ... تونس ، ماي 1945 .

... ابن مامي (محمد الباجي) ، مدارس مدينة تونس من العهد الحفصي إلى العهد ... ... الحسيني ، تونس 1981 .

... بعتسي (عفيف) ، جمالية الفن العربي ، دمشق .

... زكي (محمد حسن) ، أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية ، القاهرة ... ... 1956 ؛ وفنون الإسلام ، القاهرة ،

(13984/1)

1948 .

... الشابي (محمد) ، أضواء على الآثار الإسلامية ، تونس ، 1966 .

... الشافعي (فريد) ، العمارة العربية في مصر الإسلامية

، القاهرة ، 1970 .

... شبوح (إبراهيم) ، بعض مؤثرات إيران القديمة في فن العمارة بإفريقية ، القاهرة ، ... ... بدون تاريخ .

... فكري (أحمد) ، آثار تونس الإسلامية ومصادر الفن الإسلامي ، تونس 1949 .

... فكري (أحمد) ، مساجد القاهرة ومدارسها ، دار المعارف بمصر القاهرة ، 1965 – ... ... 1969 .

... كومل (أرنست) ، الفن الإسلامي ، ترجمة الدكتور أحمد موسى ، بيروت 1966 .

(13985/1)

... مرزوق (محمد عبد العزيز) ، الفن الإسلامي المصري ، مصر ، دار المعارف للطباعة ... ... والنشر، 1952 .

... المصري (عبد الله) ، الآثار في المملكة العربية السعودية ، الرياض ، 1975 .

... 2 – المراجع الأجنبية

BRUNSCHVIG

(13986/1)

ملامح النبوغ العلمي والنزوع الصوفي عند أهل قسنطينة وبلاد التكرور من خلال "منشور الهداية" للفكون (ت 1073 هـ) و"فتح الشكور" للولاتي (ت 1240 هـ)

... ... الأستاذ محمد سعيد صمدي

... ... طنجة

... يستدعي التأريخ لمكونات الثقافة العربية الإسلامية ودراستُها إعمال النظر في مختلف إنتاجات الفكر والعلم التي ظهرت بالأقطار والآفاق الإسلامية مشرقاً ومغرباً. ولاشك في أن قارتنا الإفريقية حظيت بحضور قوي ومتجذر للدعوة الإسلامية وما تفرع عنها من اجتهادات وتصورات وعادات ومعتقدات. وقد

(13987/1)

تولد عن ذلك حصيلة غنية بمصنفات وآثار عمقت هذا الحضور وأسست هويته.

... وقد كانت مشاركة الجهة الشمالية للقارة الإفريقية المتاخمة لسواحل البحر الأبيض المتوسط ودول الجوار من السودان العربي فعالة ومؤثرة في تعميق الوجود

الإسلامي بالمنطقة، وإرسال إشعاعه وأنواره إلى آفاق الجنوب والوسط الإفريقي، تجلى ذلك بوضوح في الرحلات العلمية والتجارية، وفي التآليف والتقاييد ومراكز التدريس والإقراء والروابط الأسرية والصّلات المختلفة.

(13988/1)

... ولا أحد ينكر الدور الكبير الذي أدّاه المغرب الأقصى في تكريس المد العلمي الإسلامي وإشاعته. فلقد كان فضل المغاربة مع جهود غيرهم بطبيعة الحال كبيراً في اعتناق شريحة واسعة من السودانيين الإسلام، سرعان ما توسعت وامتدت لتسع الحاكمين والمحكومين. يبرر الدكتور عبد القادر زبادية طبيعة هذا التأثير ومظاهره وتجلياته، فيقول:

... ولعل الأثر الأكثر أهمية في اعتناق السودانيين الإسلام كان قد حصل كنتيجة لإسلام المغاربة: فقد كان هؤلاء على اتصال منذ القديم بغرب إفريقيا، لما ازدادت تلك الصلة قوة عن طريق التجارة

(13989/1)

خلال العصور الوسطى كان من أثرها المباشر إقبال أمراء وسلاطين السودان على اعتناق الإسلام، وكان رعاياهم يتبعونهم بصورة تلقائية تقريباً (1).

... ويتحدث الدكتور إبراهيم علي طرخان في هذا السياق ناقلاً عن دافيدسن (Davidson) في كتابه "اكتشاف إفريقيا القديمة" وروش في كتابه "الدين وسحر سنغاي" ما يفيد أن الهدف الديني كان يخدم التجاري والعكس صحيح، وإن كان ظاهر قول الدارسين الأجانب يوحي بالمعنى الأول فقط، أي

---

(1) »ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو خلال ق. 16 هـ«، مجلة الأصالة الجزائرية، ع 53، ص. 9، هـ 1.

(13990/1)

الدين وسيلة للربح، وهو ما يفسر الخلفية العقدية لأبحاثهم وتنقيباتهم. يقول الدكتور إبراهيم طرخان:

... عمل هؤلاء التجار على نشر الدعوة الإسلامية، إذ كانوا يرون في انتشار الإسلام تدعيماً وتوسيعاً للتبادل التجاري، بجانب الهدف الديني. لذلك نشطت حركة التجارة، وزحفت جنباً إلى جنب مع الدعوة الإسلامية في

»جاو« وما حولها(1). والمعروف أن التجار المسلمين من شمالي إفريقية ظلوا يحتكرون التجارة مع بلاد السودان طوال العصور

---

(1) تقع جاو شمال سنغاي (Songhay) الواقعة شرق تمبكتو في إقليم دندي على أرض النيجر الأدنى.

(13991/1)

الوسطى، وحالوا دون اتصال الأروبيين بقلب إفريقية لأسباب دينية واقتصادية، حتى عصر الكشف الجغرافي لإفريقيا (1).

... ومهما يكن من أمر، فإن استتباب أمر الإسلام بهذه الديار والقفار ولَّد تواصلاً ثقافياً وزكَّى ارتباطاً دينياً حميماً بين الأهالي والأجناس المختلفة الأنواع والطباع.

---

(1) »دراسات في تاريخ إفريقيا الإسلامية قبل عصر الاستعمار، إمبراطورية صنغي الإسلامية«، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، م 8، السنة 1981، ص. 12.

...

(13992/1)

... ويتوخى هذا العرض إعمال النظر والتقريب لكتابين هامين من الكتب النادرة في مجالها، التي أرخت لأعيان الرجال من العلماء والمتصوفة الذين أدوا دورهم في ميدان التبليغ والإقراء والسلوك بكل من المغرب الأوسط/ الجزائر، وبلاد التكرور.

... (الكتاب الأول: "منشور الهداية في كشف حال من ادَّعى العلم والولاية" للعلامة الجزائري الشهير عبد الكريم الفكُّون (ت 1073 هـ).

... (الكتاب الثاني: "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور" للعلامة الولاتي البرتلي (ت 1240 هـ).

(13993/1)

... والكتابان معاً يلتقيان في كونهما في أدب التراجم، وإن اختلفا منهجاً ورؤية وتقويماً، وفائدتهما جليلة في مجال ضبط وترجمة العديد من أعيان الجهة التي ينتسب إليها المؤلفان. إضافة إلى ما يبوح به المصدران من مقروءات وكتب كانت مناط التداول والدراسة والتعليم، ومن طرق صوفية عرفانية سرى سحرها إلى هذه الديار (الجزائرية والتكرورية). وقد تجلت ملامح هذه

الطرق في الأذكار والأحزاب والأوراد والتصليات والمعتقدات التي نقلت إلى هناك وكرست بذلك البعد الصوفي لإفريقيا.

(13994/1)

ا ـ منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية للفكُّون

... تعتبر شخصية عبد الكريم الفكُّون من الشخصيات الشهيرة في زمانها، بحكم مشاركتها الفعالة في التأليف والإقراء والإصلاح المجتمعي ورئاسته ركب الحجيج، والكتاب الذي نضعه الآن بين أيدينا من بين أهم آثار العلمية التي خلفها المؤلف؛ وقد صدر مطبوعاً سنة 1981 م، من دار الغرب الإسلامي في 299 صفحة، تقديماً ومتناً أصلياً وفهارس بعناية الدكتور أبي القاسم سعد الله. ولاشك في أن المؤلَّف بحكم معالجته لقضايا مجتمعية حساسة، ونقده لطبقة معينة معروفة، جرَّ

(13995/1)

على صاحبه رد فعل قوي ورافض من قبل الفئة المتقصدة بالخطاب، وإن لم يصلنا بعض أصداء هذه الردود.

أ ـ من هو الفكُّون؟

... إن الباحث الأدبي المختص في دراسة أدب الغرب الإسلامي، والمؤرخَ المعنِيَّ بتاريخ القطر الجزائري في العصور الوسطى، وكل باحث يعنى بدراسة هذا الجزء من قارتنا، لابد من أن يعثر على جوانب مفيدة وغنية، تثويهاً ملامح هذه الشخصية الجزائرية الفذة التي كانت لها إشعاعات على مستويات عديدة.

... فصاحب "المنشور" هو العالم المصلح المفتي النحوي المدرس عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكُّون

(13996/1)

القسنطيني(1) (998 ـ 1073 هـ)، وهناك من كان يطلق عليه اسم محمد بن عبد الكريم كالرحالة المغربي أبي سالم العياشي(2)

---

(1) ضبط الحضيكي اسم الفكُّون بضم الفاء والكاف المشددة، على حين ضبطه العياشي بفتح الأول وضم الكاف المشددة، وهو الصواب الذي ردده الفقيه ابن

عجيبية في "أزهار"ه.

(2) في الرحلة العياشية، ج 2، ص. 206 هـ يذكر »سيدي عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الفكُّون«؛ وفي رحلته، ج 2، ص. 390 هـ يقول: »سيدي محمد بن العلامة الفهامة الناسك الخاشع الجامع بين علمي الظاهر والباطن سيدي عبد الكرين بن محمد بن عبد الكريم "الفكُّون"«. ولعل المقصود واحد.

(13997/1)

، والمؤرخ محمد القادري(1).

... ينتمي المترجم له لأحد أعرق وأشهر البيوتات العلمية بحضارة قسنطينة: بيت آل الفكُّون. كانت لأسرته مكانة مجتمعية ودينية وسياسية ذات اعتبار، وقد نوه به وبأسرته ـ نظماً ونثراً ـ معاصره العلامة الأديب أحمد المقري التلمساني نزيل فاس ثم القاهرة (ت 1041 هـ). يقول المقري: »فهو العالم الذي ورث المجد لا عن كلالة، وتحقق الكل أن بيته شهير الجلالة، بيت بني الفكُّون، هضاب العلم والوقار والسكون، لا زال الخلف منهم يحيون مآثر

---

(1) نقل ذلك عن العياشي في التقاط الدرر، ص. 155، رقم 253.

(13998/1)

السلف:

ودام عبد الكريم فرداً
فهو الذي حاز فضل سبق

في العلم والزهد والولاية
وصار في الزمان آية

والله يبقيه ذا سمو
بجاه خير الورى المرجى
عليه أزكى الصلاة تترى

مخلد الفضل والدراية
من خصه الله بالعناية
لدى ابتداء وفي النهاية(1)

... والمترجم له من سلالة الفقيه الأديب الحسن بن علي بن

الفكُّون القسنطيني، صاحب الرحلة المنظومة التي قام بها من بلدته قسنطينة إلى مراكش أواخر القرن السادس الهجري، وقد استهلها بقوله:

ألا قل للسرى ابن السرى

---

(1) منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، ص. 231.

(13999/1)

إلى البدر الجواد الأريحي

... وطريقته في وصف أحاسيسه ومرئياته انبنت على المنوال التالي:

فجئت بجاية فجلت بدور

وفي أرض الجزائر هام قلبي

وفي مليانة قد ذاب شوقاً

يضيق بوصفها حرف الروي

بمعسول المراشف كوثري

بلين العطف والقلب القسي(1)

---

(1) تنظر الموسوعة المغربية، ج 2، ص. 84؛ ورحلة العبدري، ص. 34؛ ودرة الحجال، ج 1، ص. 127؛ والمراكشي، الإعلام، ج 7، ص. 29؛ والجذوة، ص. 114؛ والمهدي البوعبدلي، »عبد الكريم الفكُّون والتعريف بتأليفه: "منشور الهداية"«، مجلة الأصالة، ع 51، ص. 15.

(14000/1)

... والقصيدة في اثنين وثلاثين بيتاً، وقد احتفظ لنا بنصها الكامل الرحالة أبو عبد الله محمد العبدري في "الرحلة المغربية".

... والمترجم من حفدة العالم عبد الكريم بن يحيى الفكُّون(1)، الذي كان موالياً مسانداً للتواجد العثماني بديار الجزائر. وقد قدم خدمات مهمة سهلت عملية فتح بلدة قسنطينة من قبل الأتراك وبسبب هذا الموقف »البطولي« المساند، إلى جانب المكانة العلمية، منحه العثمانيون منصب رئاسة ركب الحجيج، وهو المنصب الذي استمر في

---

(1) توفي سنة 988 هـ، وهي السنة التي ازداد فيها عبد الكريم الفكُّون.

(14001/1)

أسرته من بعده. وكان لصاحبنا عبد الكريم الحظ الأوفر في هذا الأمر الذي مكنه من امتيازات وفرص وحظوات قلما تتاح في غير هذا المنصب. يقول المؤرخ البحاثة الجزائري المهدي البوعبدلي:

... فكان يذهب إلى الديار المقدسة سنوياً، كانت خطة إمارة ركب الحج لا تسند إلا لأمثل عالم، تراعى فيه عدة مقاييس، أهمها التبحر في العلم والاستقامة، إذ هو الممثل لبلاده ولنخبة علمائها، حيث يجتمع بجل علماء الأقطار الإسلامية، ويتبادل معهم الإجازات والتآليف، ويشارك في المناظرات العليمة التي كانت تعقد لحل المشاكل العويصة. فكانت

(14002/1)

مهمة أمير الركب في رحلاته الإفادة والاستفادة (1).

(إسهاماته العلمية والإصلاحية

... عني عبد الكريم الفكُّون عناية فائقة بتحبير الأوضاع والتقاييد التي كان يرى في موضوعاتها ورصدها ما يخدم أهدافه التعليمية والتربوية والدينية بصفة عامة. وتآليفه العديدة تفصح عن باعه الطويل في العلم واقتداره على ممارسة الكتابة بجدارة واستحقاق. ولقد وظف القلم بحق في الدفاع عن آرائه ومعتقداته، محارباً أهل الادعاء والبدع منتصراً لأهل الاقتداء والورع، وما "منشور الهداية" إلا

---

(1) المهدي البوعبدلي، مقال مذكور، ص. 15.

(14003/1)

برهان ساطع على ذلك، وهو بالتالي وثيقة من الوثائق الجزائرية المهمة التي أرخت لفترة القرنين 10 و11 الهجريين.

... ومن خلال الاطلاع على تآليف الفكُّون يظهر أنه كانت له مشاركة تتوزع مجالات مختلفة كانت مناط العناية والاهتمام آنئذ. فقد كتب في الحديث والفقه واللغة نحواً وصرفاً، وساهم أيضاً في ميدان نظم القريض كما سنرى.

... ومما يجدر التذكير به في هذا السياق، عناية الفكُّون

واهتمامه بنصوص المغاربة. ذلك بأن كتب التراجم تذكر أن صاحبنا رصد في بعض أوضاعه نصوص بعض المشاهير من أهل المغرب كالمكودي وابن آجروم

(14004/1)

من خلال أعمال الشريف بن يعلى الذي شرح الآجروميَّة، والمجرادي السلاوي. وما زالت بعض هذه الآثار محفوظة كما سنذكر. وفيما يلي مسرد لأهم ما وصلنا من تآليفه:

... 1 ـ "الدرر في شرح المختصر". والمقصود به "مختصر" عبد الرحمن الأخضري. وعن أهميته وما فيه من مضامين وفرائد، يقول مؤلفه: «... نبهنا على فوائد فيه لم توجد في المطولات، ونكت حسان قل أن تلقى في غيره، وتنبيهات أخذناها من فحوى خطابه، وفروع كملنا بها ما لم يفصح به كلامه رضي الله عنه وأرضاه .وربما نبهنا على ما طغى به قلم شارحه المذكور(1)

---

(1) يقصد الفقيه الفرضي عبد اللطيف المسبح المرداسي (ت 980 هـ) شارح هذا "المختصر".

(14005/1)

، أو هفا فيه «(1).

... 2 ـ "شرح البسط والتعريف في علم التصريف"(2): ألفه سنة 1048 هـ قال عنه صاحب الفكُّون ومعاصره أبو سالم العياشي وقد وازن بين الشرح،وشرح العلامة المغربي محمد المرابط الدلائي(3)

---

(1) منشور الهداية، ص. 46.

(2) أرجوزة مشهورة من 403 بيت اعتنى بها الكثير من العلماء شرحاً وتوضيحاً، وصاحبها نحوي كبير هو عبد الرحمان المكودي الفاسي (ت 807 هـ).

(3) توفي سنة 1089 هـ، سمَّى شرحه هذا "فتح اللطيف للبسط والتعريف في علم التصريف"، حققه الأستاذ محمد غنضور المدرس بجامعة فاس سنة 1988 في إطار دبلوم الدراسات العليا.

(14006/1)

: »وشرحه هذا أوسع نقلاً وأكثر بحثاً وأتم تحريراً من شرح العلامة سيدي أبي عبد الله المرابط الدلائي، ولا أدري أيهما سبق إلى شرحه «(1).

... وتوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة في ملكية الأستاذ علي امقران السحنوني بالجزائر، ذكر الدكتور

أبو القاسم سعد الله محقق "المنشور" أنه اطلع عليها.

... 3 ـ "فتح المولى في شرح شواهد الشريف بن يعلى".

وهو الكتاب الذي رصد فيه منتخبات الشواهد الشعرية التي وظفها الشريف أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يعلى الحسني أول شارح اقتحم متن

---

(1) الرحلة العياشية، ج 2، ص. 391.

(14007/1)

"الآجرومية"(1). وعن هذه الشواهد التي اعتمدها ابن يعلى يقول المرحوم عبد الله كَنون: »يعتني الشارح بالشواهد العربية من أشعار القدماء الذين يعول النحاة عليهم في إثبات القاعدة النحوية أو تسجيل الشذوذ الذي يقع في كلام بعضهم أحياناً. وقد احتوى الشرح على عشرات الشواهد من هذا القبيل، الأمر الذي حدا بأحد العلماء وهو أبو العباس أحمد الدقون إلى وضع شرح لشواهده(2). يستفاد من هذا أن شواهد أبي عبد

---

(1) شرحه يسمى "الدرة النحوية في شرح الآجرومية".

(2) »الشريف شارح الجرومية«، جريدة الميثاق، عدد 276، ص. 4 و6.

(14008/1)

الله محمد بن يعلى الحسني كانت مناط وقفة تأليفية ضرورية عند كبار أهل العلم الذين قدروا مقدمة "الآجرومية" وشروحها مقدارهما ووظيفتهما في تقديم الدرس النحوي للطلبة المبتدئين.

... وما زال شرح الفكُّون على شواهد ابن يعلى مخطوطاً، لم يحقق بعد - على حد علمي وبحثي. وتوجد نسخة بالمكتبة الوطنية بتونس، مسجلة تحت رقم 406، كتبت سنة 1138 هـ بخط مغربي.

... 4 - "شرح لامية الجمل النحوية" للمجراد السلاوي (ت 778 هـ) (1)

---

(1) من شراحها المغاربة المعاصرين للفكَون، الفقيه المدرس أبو الحسن علي بن أحمد الرسموكي (ت. 1049 هـ) والمكي البطاوري الرباطي (ت 1355 هـ).

(14009/1)

... 5 - "محدد السنان في نحور إخوان الدخان"(1): وهو تقييد مفيد يرد فيه على دعاة حلِّيَّة شرب عشبة التبغ،

وعلى رأسهم العالم المصري الشهير الأجهوري. يقول الفكُّون في مقدمة كتابه:

... اطلعت على جواب في القضية لبعض أهل مصر وغيرهم من العلماء والصلحاء النجباء، فتأنست النفس بعد استيحاشها، وانبسطت بعد انكماشها، واستعنت بالله على تبيين

---

(1) قرأه ابن عجيبة: "محدث النسيان في فجور إخوان الدخان". تنظر طبقات ابن عجيبة (لو 77). وقد اختصر أبو سالم العياشي هذا الجزء وأورده كاملاً في رحلته، ج 2، ص ص. 396 ـ 403.

(14010/1)

[الحلّ] (1) في المسألة وتوضيح الصواب في هذه المعضلة بعد إيراد الأجوبة لمن هي له نظماً ونثراً، وتتبع ما في الجواب الأول منها سطراً سطراً. وبعد الفراغ ـ إن شاء الله ـ أذيله بما عليه أحوال أبناء الزمان وأذكر مساويهم ما هو في غاية النصح... (2).

وفي هذا التقييد معالجة فقهية جامعة لبلوى هذا العصر الذي ظهرت فيه هذه العادة السيئة. وقد وعى الفكُّون

دوره الإصلاحي والتربوي، فانبرى لمحاربتها لساناً وقلماً.

والجدير بالذكر أن

---

(1) رسمت في المخطوط: » الحلو«.

(2) محدد السنان، مخطوط الخزانة الحسنية، رقم 6929.

(14011/1)

عادة التدخين قبل أن تظهر في المغرب ثم بالجزائر، ظهرت بداية بإفريقيا الوسطى في أوائل القرن الحادي عشر الهجري. يقول محمد بن ميمون بن الطاهر التوزاني المضاري (1362 هـ): »وأول ما ظهرت ـ التبغ ـ بتنبكتو(1)

---

(1) قامت بديار تنبكتو حركة علمية مقاومة لهذه الآفة المجتمعية. من ذلك الفتوى المطولة في تحريم الدخان التي وضعها القاضي محمد بن أحمد بن عبد بن عبد الرحمان السوداني، وقد تحدث الدكتور محمد حجي بإسهاب عن تفشي هذه العادة وما أفرزته من كتابات وفتاوى. ينظر الموضوع في كتابه "الحركة الفكرية"، ج 1، ص ص. 247 ـ 266.

(14012/1)

في أوائل القرن الحادي عشر، ولما قدم أهل السودان للمغرب على السلطان أحمد المنصور بالفيل، قدموا بها يشربونها... وألف في تحريمها الشيخ محمد بن عبد الكريم تأليفاً سماه "محدد السنان...". وفي "العمليات" ("العمل الفاسي"):

وحرموا طابا للاستعمال

وللتجارة على المنوال(1)

... 6 ـ "منشور الهداية" : سيرد الحديث عنه.

---

(1) تقييد في تحريم التبغ، ص. 19، طبعته دار النشر المغربية بعناية وتحقيق الابن الأصغر للمؤلف الدكتور عبد الله عاصم.

(14013/1)

... 7 ـ "ديوان شعري" : الخطاب الشعري ـ كما يعرفه النقدة ـ خطاب الأحاسيس والتجارب الشعورية الصادقة. لذا نجد الفكُّون قد وظف هذا النمط الكتابي في التعبير

والإفصاح عن المكنونات والخوالج الدفينة، وقد يبدو عند قراءة بعض أشعاره نوعاً من التصنع والتعمل؛ إلا أن ذلك لا يطرد في جميع أشعاره. يقول الأستاذ أبو القاسم سعد الله: »أما تعاطيه الشعر، فالظاهر أنه كان يمارسه سليقة وكان يعارض به ما يرد عليه منه في رسائل المراسلين أمثال المقري وتاج العارفين والسوسي المغربي (ت 1023 هـ)، ومنه ما كان ينظمه للتنفيس عن

(14014/1)

كرب الدنيا مثل "سلام الذليل في دفع الباغي المستطيل"، ومنه ما نظمه في المديح النبوي تحت ضغط المرض الذي عانى منه طلباً من الله متوسلاً إليه بالنبي الكريم(1) لتعجيل الشفاء.

... هذه أهم التآليف التي خلفها العالم المصلح عبد الكريم الفكُّون، الذي شارك بِهِمَّة عالية وجرأة نادرة في ميدان التعليم والإقراء ومجالات التربية والإصلاح المجتمعي. ولاشك في أن رحلاته الموسمية للديار المقدسة ساهمت إلى حد كبير في توسيع مداركه وإغناء مقروءاته واقتناء المخطوطات وملاقاة

---

(1) المنشور، المصدر المذكور، ص ص. 11 ـ 12.

العلماء والسادات. وفي التغني بمناقبه والإشادة
بشخصيته قال العالم أحمد ساسي البوني صاحب
المنظومة المسماة "الدرر المصونة في علماء وصلحاء
بونة" :

بسيدي عبد الكريم العالم
مؤلف التآليف الكثيرة
بنجله محمد نور الظلام
وبيننا وبينه قرابة
وعنده الكتب بالآلاف
أمير أركاب إلى الرسول

الصالح الفكُّون ذي المكارم
وكان ذا مناقب أثيرة
أبقى الإله مجدهم على الدوام
أربى على الأقران في النجابة
والمجد تالد بلا خلاف
سيدنا محمد ذي السول

... ب ـ تقريب لبعض مضامين "منشور الهداية"

... (حيثيات الكتابة ودواعيها:

(14016/1)

... الكتاب ـ كما ألمحنا في بداية هذا البحث ـ يندرج في أدب التراجم، لكن صاحبه سلك فيه مسلكاً فريداً يخالف ما عرف عند جمهرة من المترجمين والمؤرخين. وهو مسلك نهج فيه سبيل الصراحة المفرطة التي تعتمد على ثنائية المدح والقدح دون أي اعتبار لعلائق القرابة أو الصداقة أو الحظوة المجتمعية. يقول الشيخ المهدي البوعبدلي واصفاً طريقته هاته في تقديم مترجميه:

... وقد تتبع المترجمين سواء الممدوحين أو المقدوحين بصراحة وتفصيل لم يتعودها المؤلفون في التراجم القدامى منهم والمتأخرون. فهو يذكر المترجم باسمه ولقبه

(14017/1)

وأطوار حياته من لدن نشأته، ويجسم المحاسن أو المساوئ، وأكثر من حمل عليهم هم ممن تربطهم به صلة

القرابة أو التلمذة؛ كما أن جلهم، خصوصاً قسم الموظفين، هم من أعيان بيوتات قسنطينة (1).

... إن كتاب "منشور الهداية" مؤلَّف ذو قيم متعددة، لعل ما سنذكره في ثنايا هذا العنصر سيبرز أهمها. إنه تقييد هام يصور طبيعة البيئة القسنطينية زمن الانهيار والتجزُّؤ وهيمنة عقلية الهرطقة والخرافة. وصاحبه ينطلق كما يصرح بنفسه من خلفية إصلاحية تنويرية، كانت السبب والمحمل الذي حمله

---

(1) المهدي البوعبدلي، مقال مذكور، ص. 22.

(14018/1)

على كشف الزيف والزور والذود عن حمى الشريعة والدفاع عن أهلها والأصفياء الخلص:

... فلما رأيت الزمان بأهله قد تعثر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر، وسحائب الجهل قد أظلت، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيساً والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيساً، وصاحب الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة، وروائح السلب والطرد من المولى عليه فائحة، إلا أنهم ـ أعني الطائفتين(1) ـ تمسكوا من

دنياهم بمناصب شرعية، وحالات

---

(1) يقصد أدعياء العلم وجهال المتصوفة الذين تلبسوا بمسوح العلم والزهد وأفئدتهم هواء.

(14019/1)

كانت قِدْماً للسادة الصوفية فموَّهوا على العامة... كل ذلك والقلب مني يتقطع غيرة على حزب الله العلماء أن يُنسَب جماعة الجهلة المعاندين الضالين المضلين لهم أو يذكروا في معرضهم، وغيرة على جناب السادة الأولياء الصوفية أن تكون أراذل العامة وأنذال الحمقى المغرورين أن يتسموا بأسمائهم أو يظن بهم اللحوق بآثارهم، ولم آل في التنفير من كلتا الطائفتين والتحذير منهم في كل زمان وأوان، وبين كل صالح من الإخوان... لأني غرت على دائرة الحمال من أهل حضرته(1).

---

(1) المنشور، المصدر المذكور، ص ص. 31 ـ 32.

(14020/1)

تعمدت نقل كلامه على طوله، لتلمس صراحته في معالجته لهذا الموضوع الذي توخى به النصح والتصحيح العقيدي، هذه الصراحة النادرة التي جرَّت عليه سلوك المنابذة والمنافرة والمقارعة. وقد ذكر أبو القاسم سعد الله ناشر "المنشور" ومحققه بعد اطلاعه على مخطوطة شرح الفكُّون على المنظومة الصرفية للمكودي الفاسي (ت 807 هـ)، وهو الشرح الذي وضعه سنة 1048 هـ كما ذكرنا، أي بعدما انتهى من عكوفه على كتابة "المنشور"، ما يفيد هذا الرد السلبي الذي واجه به المعنيون أو بعضهم المؤلف. يقول سعد الله: »ثم إنه ألف كتاباً آخر في علم

(14021/1)

الصرف هو "فتح المولى" سنة 1048هـ، وذكر فيه أنه ألف "منشور الهداية" وأن هذا الكتاب قد جلب إليه نقمة البعض ورمقته العيون بالبغض من أجله «(1)، كيف لا والذين قصدهم وعينهم من أصحاب الوظائف والمناصب والمنابر والشهرة. والفكُّون على ما يظهر من جرأته وسلاطة لسانه في الحق كان مترقباً لمثل هذه الردود، محتسباً ذلك في صحيفته. ولا نملك من الدليل القاطع مهما حاولنا استبطان الخطاب، واستقراء السياق، ما

يثبت غير ما صرح به الفكُّون بخصوص مقصدية النصح لأئمة العلم والولاية.

---

(1) المصدر نفسه، ص. 14.

(14022/1)

... وبعجالة، نذكر بالتقسيمات الأربعة التي كونت بنية هذا الكتاب:

... فبعد مقدمة قصيرة مهد بها للموضوع، نجد:

التصنيف الأول المخصص ـ كما يقول بلغته ـ «لمن لقيناه من العلماء والصلحاء المقتدى بهم، ومن قبل زمنهم ممن نقلت إلينا أحوالهم وصفاتهم تواتراً»، وهم أهل الاقتداء والوفاء.

التصنيف الثاني المخصص لأدعياء العلم المتفيهقين.

التصنيف الثالث المخصص لأهل الهرطقة والادعاء المتلبسين بلبوس الصوفية.

التصنيف الرابع المخصص لذكر الأصحاب والأحباب. وقد ضمن هذا الأخير في خاتمة فريدة أنهاها بمساجلة طريفة حصلت بينه

(14023/1)

وبين صديقه الأديب أحمد المقري المشهور.

(ملامح علمية

... نريد أن نسطر هنا بعض المعطيات المتعلقة بالحقل العلمي - علماً وتعلماً - التي يقدمها كتابنا والتي من خلالها ستتجلى القيمة العلمية التي يكتسبها هذا النص الذي يعد بحق ذخيرة من ذخائر المكتبة العربية الإسلامية القديمة.

... فالكتاب في حد ذاته - بصفته تأليفاً مكتملاً ظفرنا بنصه - تأريخٌ لصاحبه ومحبره علامة عصره عبد الكريم الفكُّون. فهو - أي "المنشور" - ينبئ عن مكانته العلمية والمجتمعية في مستوى المجتمع بعامة أو في مستوى النخبة بخاصة، وهو بالتالي

(14024/1)

برهان على اقتداره على ممارسة الكتابة بجدارة وكفاءة.

... ويقدم "منشور الهداية" معلومات مفيدة عن زمرة أعيان العصر ممّن سكنوا بلدة قسنطينة الشهيرة آنئذ

أو ممن مروا بها. وقد فاق عددهم في هذا الكتاب مائة ترجمة لم ترتب ترتيباً منهجياً واضحاً. فكثيراً ما يخلط بين التراجم، ويعاود الحديث عمّن تقدم إقحاماً في ترجمة غيره. والملاحظ أيضاً أنها تراجم متوسطة الطول في عمومها، محدودة المعلومات لا تخلو من فوائد وإضافات. ومن فوائدها ذكر مشيخة المترجَم وتحليته بما هو أهله كقوله مثلاً عن والده: »كان فقيهاً

(14025/1)

صوفيّاً«، وعن علي المرواني: »كان من نجباء تلامذة الوزان«، وعن عبد اللطيف المسبح: »الفقيه الفرضي«، وعن علي بن حمود: »ومن المدعين الولاية أيضاً رجل يقال له علي... «.وهكذا.

... ويزخر النص بذكر أماكن الدرس وحلقات العلم بالحواضر. من هذه المراكز ورد ذكر: قسنطينة، زواوة، الجزائر، المدينة، الزيبان، عنابة، بونة، ميلة، تونس العاصمة، نقاوس، فاس، مصر الأزهر، الأندلس بلدة قريبة من تونس كانت مشهورة، جبل أوراس، باجة تونس....

(14026/1)

... ويحبل "المنشور" بجملة المقروءات التي كانت محل عناية الأساتذة والفقهاء المدرسين، على الرغم من كون الفكُّون نفسه يعترف بأن بضاعة العلم كانت مزجاة في ذلك الزمان وأن بلوى الإعراض عن التفقه والتعلم عمت الأقطار، »لانقراض العلم في كل الأقطار فيما أعلمه اللهم إلا ما شذ فلا أدخل تحت عهدته« (1).

... ويقول عن أحد المتجرّئين على مجالس الإقراء والدرس: »ولعمري لا يصلح لأن يقعد بين يدي العلماء فضلاً عن أن يتسمى بالعلم أحرى أن يتصدى للتدريس. لكن غباوة الجهل وقلة الحياء من الله

---

(1) المصدر نفسه، ص. 82.

(14027/1)

وخراب البلدة وكثرة العامة، هي التي جرأته على ذلك، وزاده حب المدحة والافتخار، "فإنها لا تعمى الأبصار"«(1).

وأما انه من سلف من مضى فحق لكن

نِعم الجدود ولكن بئس ما خلفوا(2)

... ومن جملة المقروءات العلمية التي عني بها أعلام قسنطينة، نلحظ هيمنة متون الفقه المالكي والنحو والسيرة والتصوف والسلوك والفرائض، وإن كان ذلك في قلة ومحدودية لم تسمح معها ظروف المجتمع بالاتساع والامتداد. وفيما يلي رصد لأهم وأجود المؤلفات التي تردد صداها في هذا التأليف:

---

(1) الحج، ص. 46.

(2) المنشور، المصدر المذكور، ص. 88.

(14028/1)

.كتب الفقه وعلى رأسها نجد

... ("مختصر الشيخ خليل" : كان هذا المتن الفقهي مناط الدرس والإقراء في مراكز العلم بحاضرة قسنطينة وغيرها، وساد العمل به أيضاً في أرض السودان الغربي كما سنرى عند مقاربة كتاب "فتح الشكور". صاحب هذا "المختصر" هو الشيخ الفقيه خليل بن إسحاق الجندي القاهري أحد كبار أعلام الفقه المالكي (ت 767 هـ)، أثنى الإمام ابن غازي المكناسي على هذا المتن فقال:

... إن مختصر الشيخ العلامة خليل بن إسحاق أفضل نفاس

الأعلاق وأحق ما رمق بالأحداق وصرفت إليه همم الحداق، إذ هو عظيم الجدوى، بليغ

(14029/1)

الفحوى مبين لما به من الفتوى وما هو المرجح الأقوى، وقد جمع الاختصار في شدة الضبط والتهذيب، وأظهر الاقتدار في حسن المساق والترتيب، فما نسج أحد على منواله ولا سمحت قريحة بمثاله... (1).

ومن نافلة القول الإشارة إلى أن شروح هذا "المختصر" كثيرة جداً، مما يفسر أنه كتاب جامع مانع لقي القبول والعناية لصلاح نية صاحبه واحتساب ثوابه. وفي قسنطينة كان بعض الفقهاء مقتصرين على "المختصر" في حلقاتهم، وإذا أطلق اسم المختصر على متن، فإن المقصود "المختصر الخليلي". وبالتوازي مع

---

(1) نقلاً عن طبقات ابن عجيبة، لو 98.

(14030/1)

"المختصر"، نجد حضوراً معادلاً لبعض المتون الفقهية كـ"الرسالة" لأبي زيد القيرواني و"فروع" ابن

الحاجب(1)، و"مختصر" الشيخ عبد الرحمن الأخضري صاحب "السلم المرونق" في المنطق. وهذه كلها متون خدمت بقوة الفقه المالكي بهذه الديار التي اعتمدت مذهب إمام المدينة المنورة، وعملت بمذهبه.

...

.كتب النحو

... ("ألفية ابن مالك بشرح المرادي والمكودي" : من كتب النحو التي اعتمدت في إقراء درس النحو بهذه الديار "شرح المرادي" على

---

(1) وضع الشيخ خليل بن إسحاق مختصراً على "مختصر ابن الحاجب الفرعي" في فقه المالكية.

(14031/1)

"الألفية" النحوية المشهورة لابن مالك وقد درَّسها الفكُّون نفسه مرة بتعاليق المرادي وأخرى بتفسيرات المكودي. ولقد كان الفكُّون بما أوتي من تضلع من مادة النحو يضيف إضافات جليلة إبان تدريسه النحو، يستدرك بها على الشارحين ويكمل ما نقص، مما يجعل مادة شرحه هاته لو جمعت لكونت حاشية مستقلة. يقول عبد الكريم الفكُّون: »فلما رأيت من حرصه(1) ما رأيت،

ساعفته واستعنت بالله. فقرأ علي المكودي واستعان بالتقييد، وبعد ختمه قرأ

---

(1) وكان يترجم لأبي الحسن علي بن عثمان الشريف الزواوي (منشور الهداية، ص ص. 205 ـ 207).

(14032/1)

علي المرادي وقيد علي فيه كثيراً مما فتح الله به من الأبحاث«(1). وقد كان جمع من أعلام وقته مهتمّين غاية الاهتمام بهذين الشرحين(2).

... ولقيت "المقدمة الآجرومية" عناية واضحة. وممن شرحها بهذه الديار زين الدين جبريل(3). وكان الفقيه المغربي أبو عبد الله السوسي الفاسي يُقرئها، وَمن جلسائه أثناء تدريسها الفقيه عبد الكريم الفكُّون الذي لاحظ عليه كثرة الخلط

---

(1) المصدر نفسه، ص. 207.

(2) تنظر صفحات: 93، 109، 202، 207.

(3) نشر هذا الشرح المستشرق الفرنسي دولفان (Delphin)، مطبعة أرنست لورو، وهران، 1886 م.

(14033/1)

وعدم الضبط(1).

. علم القراءات

... وكانت للجزائريين عناية بعلم القراءة الذي أعاره علماء الإسلام القيمة المستحقة، لماله من ارتباط وثيق بحفظ كلمة »الله« وصونها لفظاً بلسان ورسماً ببنان.

ومن ألمع المقرئين بالآفاق القسنطينية شيخ مغربي وفد عليها، وكان له بها شهرة ومكانة، ونعني به أبا عبد الله محمد بن مزيان التواتي، وهو شيخ من شيوخ الفكُّون الذين يعتز بهم.

... توفي رحمه الله سنة 1031 هـ بمرض الطاعون. قال عنه الفكُّون:

---

(1) المنشور، المصدر المذكور، ص. 73.

(14034/1)

... كان - رحمه الله - من جملة الحفاظ، قصدته يوما لدار سكناه، فخرج إلي وبيده لوح به ما يزيد على الخمسين بيتاً من "الشاطبية الكبرى". ويذكر أنه سريع لحفظه ولأكثر من ذلك وكان - رحمه الله - يثني على شيخه

المذكور (يقصد أبا محمد عبد العزيز الحراز فقيه ونحوي مغربي لامع) في علم القراءات (1).

.المنتخبات الشعرية

... يحفظ متن "المنشور" مادة شعرية متوسطة متناثرة بين فقرات التراجم، بلغ عدُّ أبياتها خمسة وثلاثين ومائة بيت، منها ما هو صادر عن المؤلف وقد لا نجدها في مصدر غيره. كما

---

(1) المصدر نفسه، ص. 58.

(14035/1)

يظهر إعجابه البالغ بقصيدة عبد الرحمن الأخضري "القدسية" التي نقل عنها كثيراً. كذلك أعجب بابن البناء السرقسطي في بعض أبياته. أما "بردة" البوصيري و"همزيته"ه، فلم يرد لهما أثر في هذا الكتاب. ولعل مرد ذلك إلى غياب العناية الكبيرة بالمادة الشعرية واستجلاب أجود منتخباتها وأحسن شواهدها، خاصة نصوص المديح النبوي الذي كنا نود الظفر ببعض شذراته ودرره قصد استجلاء فن المديح النبوي بالديار الجزائرية على عهد المؤلف.

(ملامح النزعة الصوفية

(14036/1)

... يعتبر عبد الكريم الفكُّون رجلاً عارفاً صوفياً سلك طريق القوم في التقرب والرقي العرفاني والسلوكي. على أنه من داخل المنظومة الصوفية سيحارب من دنسوا صفاء هذه التجربة الروحية الصادقة من أدعياء بني قومه، وسيحاول لفت النظر للشوائب الاعتقادية التي ألصقت بالدين عن طريق الدعوى والدروشة والتبرك، والاعتقاد بالتسليم المطلق للأحياء والأموات من العارفين اللدنيين. إنه ـ بلغة أخرى ـ دافع عن نمط صوفي مُعيَّن هو »الصوفية العالمة« أو »الولاية العالمة« التي تستنير وتستضيء بهدى المنقول المتواتر. يقول الفكُّون:

(14037/1)

»فالعالم ولي الله، والولي لا يكون إلا عالماً. وقد قال الشافعي: إذا لم يكن العلماء أولياء الله، فليس لله ولي؛ وأما الولي بلا علم، فالعداوة أقرب إليه من المحبة«(1).

... من هذا المنطلق، يعتبر كتاب "منشور الهداية". في تقديري. من المصادر الصوفية المهمة والمتميزة لما يحتويه من رؤى تنظيرية تصحيحية مركزة اعتمدت على دحض الأباطيل ورد الشبهات وتبيين حقيقة «الحقيقة والشريعة». ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أن صاحبنا من الأتباع الخلص للطريقة الزروقية(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 150.

(2) من التآليف المفيدة في التعريف بهذه الطريقة كتاب مخطوط لمؤلف مجهول عنوانه أحمد زروق وطريقته في التصوف، مجموع الخزانة العامة بالرباط، رقم 2100 د.

(14038/1)

، التي تردد صداها بقوة واطراد في المنشور مستدلاً بآراء ومقولات منشئها العالم العارف الشيخ أحمد زروق الذي أثنى عليه قائلاً في أحد المواضع بعد نقل مقطع من وصاياه: «قلت: لله دره ما أعلمه بالطريقة! وما أتبعه بالسنة! وهذه الوصية الجامعة جمعت لمباني الطريقة والحقيقة» (1). وقد أكثر الفكُّون من النقل عنه، خاصة من كتابه "البدع"(2)، وقد يختار منقولاته التي تخدم

اتجاهه الاعتقادي والإصلاحي بدقة متناهية، يفهم منها حسن الاتباع وسداد الرأي.

---

(1) المنشور، المصدر المذكور، ص. 194.

(2) مخ. خ. ع، رقم 1157 ك

(14039/1)

ومعلوم عند المهتمين بشخصية زروق أنه اعتز بالتصوف ووعى دوره في إصلاح الذات وتربية النفس التي بصلاحها يصلح المجتمع. فأسس طريقته على أسس مستنيرة لا يفقد المستند عليها توازنه بين الظاهر والباطن. يقول زروق رحمه الله: «اعلم أن الفقه والتصوف أخوان في الدلالة على أحكام الله سبحانه. فلا تصوف إلا بفقه إذ لا تعلم أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف» (1). وفي ظلال هذه الطريقة ذات

---

(1) عدة المريد، مخ. خ. ع، 1657 د (نقلاً عن: الحسن الشاهدي، في أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، ج 2، ص. 351).

(14040/1)

الإشعاع الصوفي السني المعتدل، أنهى الشيخ زروق حياته العلمية والسلوكية بزاويته المشهورة بمسراتة بليبيا، هذه الزاوية التي لعبت دوراً ريادياً في نشر هذا النمط الصوفي بين جمهور القاصدين من الطلبة والمريدين وعامة الناس(1).

... إن الفكُّون بهذا المنشور الجريء أراد تجديد المعرفة الصوفية .اعتقاداً وانقياداً .مما طرأ عليها آنئذ من خزعبلات وهرطقات أفسدت صفاء التصوف، ولم يكن

---

(1) عن الشيخ زروق ومنقولاته المذكورة في: منشور الهداية، تنظر صفحات: 17 . 35 . 36 . 130 . 141 . 143 . 147 . 157 . 186 . 195 . 197.

(14041/1)

نشازاً في إشهار سلاح القلم والتدوين لمحاربة تجار الديانة، بل له سلف في ذلك كالشيخ زروق المذكور، وكذا لسان الدين بن الخطيب الذي وظف قلمه السيال في هذا اللون من ألوان المقارعة والجهاد، فدافع بدوره عن أهل الحقيقة والمعرفة الصوفية من داخل المنظومة، وألف .هذا الأخير .رسائل متعددة في الموضوع من بينها "الغيرة على أهل الحيرة" و"حمل الجمهور على السنن

المشهور أو السنى المشهور" و"الرد على أهل الإباحة". إلا أن الفكُّون سلط لسانه اللاذع فسمى الأمور بمسمياتها، فكان يعيب على كل مترجم من أدعياء التصوف

(14042/1)

ودعاويه وأباطيله وأراجيفه، وكان ينعت بعضهم بأخس النعوت وأشنعها.

... لنأخذ مثلاً المبحث الذي خصصه للحديث عن زيغ وخارجية أحمد الفاسي الذي عرف به في مطلع ترجمته قائلاً: »وهو فصيح القلم حسن الخط جيد العبارة يستعمل الشعر كثيراً والشعر أغلب عليه« (1)، ثم يقول: »وبعد مدة من مفارقة هذا الشقي وحلوله بوطنه، ورد علي كتاب من بعض فقهاء المغرب وذرية صالحيه وممن يتعاطى الأدب، عرفني بعقيدة الفاسي المذكور وأنه خارجي المعتقد، وذكر لي أن أشعاره تدل على بغضه لعلي بن أبي

---

(1) المنشور، المصدر المذكور، ص. 97.

(14043/1)

طالب «(1).

... وفي وصف قاسم بن أم هانئ يقول: »... وتراه تمشي زبانيته بين يديه لتفريق الرشا على الحكام والأمراء، فتسمح نفسه ببذل مائة لأولئك ولا تنقاد لدفع درهم واجب عليه. وهذه صفة الكفر أقرب إليها من الإيمان« (2). ويصل به حد الغيرة والنصرة لأهل الله العارفين المخلصين إلى حد توظيف أسلوب النداء والاستصراخ والتذرع، وهو أسلوب جريء ينم عن صدق الرجل وقوة إيمانه:

---

(1) المصدر نفسه، ص. 99.

(2) المصدر نفسه، ص. 123.

(14044/1)

... فيالله وللمسلمين من عصابة جهلة مرقوا من الدين وغيروا طريق سُنة سيد المرسلين، وهجموا على مناصب الأولياء الصالحين، فادعوها لأنفسهم حالاً، ودعوا إليها عباد الله نساءً ورجالاً، يسوّل لهم الشيطان أقاويل مزخرفة وأخباراً محرفة فيصيدون بها العامة، وربما سرى سحرهم إلى الخاصة ولم يراقبوا مولاهم ولا علموا ما أمامهم ووراءهم (1).

وأما مشهد الحضرة الذي يلجأ إليه متصوفة زمانه في لحظة الكشف والمعانقة والتوحد، فإن الفكُّون انتقده انتقاداً صارخاً. فالحضرة، في تصوره واعتقاده،

---

(1) المصدر نفسه، ص ص, 137 ـ 138.

(14045/1)

مظهر جنوني متمرد ينفلت فيه الذاكر من ضوابط الذكر ومروءة الإنسان: »ولو لم يكن من استعمالهم الجوارح في المعاصي إلى استعمالهم الحضرة وصراخهم وزعيقهم وتغييرهم اسم الله تعالى لكان كافياً، أحرى ما يعهد منهم من غير ذلك قولاً وفعلاً مما لا يتمارى فيه اثنان«(1). وقد تكرر انتقاده لعمل الحضرة والتحذير منها والإنكار على أهلها والسخرية بحالهم:

... واتخذوا الحضرة، وهي لعبة يتخذونها يراءون بها الناس ولا يستخفون من الله، بها يأكلون ومنها يتمولون وعليها في قضاء أَوْطَارِهِم يعولون،

---

(1) المصدر نفسه، ص. 179.

(14046/1)

يجتمعون لذكر المولى جل جلاله فيغيرون اسمه ويشطحون ويرقصون وربما يتضاربون، فتراهم ككلاب نابحة، ولعابهم كمياه طافحة، وأنفاسهم كنيران لافحة، لا يفرقون بين واجب ومندوب ولا محرم ولا مكروه، ويعتقدون أن ما هم عليه هو الحق الواضح والطريق الأقوم الراجح...(1).

... وبالرغم من كل ما ذكر من أمثلة محدودة جداً، فإن منشور الهداية مليء بأخبار الأولياء والمتصوفة الجزائريين الصالحين الذين يرى ويلمس فيهم الشيخ الفكُّون البركة والولاية والصلاح،

---

(1) المصدر نفسه، ص. 119؛ تنظر أيضاً صفحات: 160 ـ 170 ـ 174 ـ 179.

(14047/1)

فيحدثنا عن الكرامات والمقامات والمنامات وما يتحقق من غيبيات. وقد كان يذكر نتفاً ودرراً من ذلك تعرضاً للنفحات والتماساً للبركات. من ذلك مثلاً قوله: »وللشيخ ـ عمر الوزان ـ كرامات كثيرة لسنا بصددها، وإنما أتينا بما ذكر تبركاً به. ولعل الله أن يفتح علينا بما فتح

به عليه وعلى كل أحبائه. وإن أنسأ الله الأجل، أفردها بتقييد«(1).

... وتحدث المؤلف عن بعض مرئياته المنامية التي طابق الواقع المعيش فحواها وصدق مضمونها. وكان يسوق ذلك في مساق تعضيد حكم أو تكريس وصف أو نعت من النعوت:

---

(1) المصدر نفسه، ص. 37.

(14048/1)

»وظهر بذلك مصداق ما كنت رأيته في عالم النوم«(1).

... ومن بين أهم كتب المرجعية الصوفية التي نقل عنها الفكُّون أو التي كانت رائجة في الوسط الدراسي وحلقات الذكر، نجد "الحكم العطائية" و"دلائل الخيرات"، و"الشفا" للقاضي عياض و"رسائل في التصوف" لابن عباد الأندلسي (ت 792 هـ بفاس)، و"المدخل" لمحمد بن الحاج العبدري الفاسي (ت 737 هـ) و"الرد على المبتدعة" للطرطوشي (ت 520 هـ) (2)

---

(1) تنظر تتمة الحكاية في: المنشور، ص ص. 76 ـ 77.

(2) حقق محمد الطالبي كتاب الطرطوشي، الحوادث والبدع، سنة 1959، المطبعة الرسمية، تونس.

(14049/1)

؛ كما استشهد بفتاوي الشاطبي وآراء الغزالي ومقولات البسطامي ورسائل زروق وبمرويات عن محيي الدين بن عربي وأبي الحسن الشاذلي وغيرهما...

... ولعل هذا النزوع الذي نزعه الشيخ الفكُّون في محاربة أدعياء التصوف الذين شوهوا قدسية المسلك الصوفي هو الذي دفع بالدكتور أبي القاسم سعد الله إلى نسبة الفكُّون إلى التيار السلفي واعتباره أحد رموزه ودعاته بالقطر الجزائري. ويظهر ذلك بوضوح في كتابه "شيخ الإسلام عبد الكريم الفكُّون، داعية السلفية"(1)، وفي قوله في مقدمة

---

(1) طبع بدار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986 م.

(14050/1)

"المنشور" : »إن العقيدة التي يظهر بها الفكُّون أمامنا هي عقيدة المسلم السني المتمسك بأهداب الشرع

والجماعة، فهو سلفي محافظ«(1).

... إن المتأمل في منطوق الخطاب الفكُّوني بعمومه لا يستشف منه هذا النزوع المطلق لجماعة السلفيين. على أن البنية الفكرية والمرجعية الثقافية اللتين تحكمان الجهاز المعرفي للمتصوف الحق ـ عقيدة وسلوكاً ـ هما تماماً ما ألفيناه في خطاب الفكُّون، فهو كما قلنا سابقاً دافع من داخل المنظومة الصوفية عن نمط صوفي معين يستمد جذوره ومشروعيته من المنبع الأصلي

---

(1) »مقدمة« المنشور، ص. 12.

(14051/1)

للشريعة، ويسقي هذه الجذور وينميها برواء الطريقة الزروقية.

... هذه جملة من الملاحظات عنت لي وأنا أتفحص هذا الكتاب القيم، ولعل في إبرازها وتقريبها ما يفسر القيمة العلمية التي يكتسبها هذا النص الحافل. وقد فاتت الإشارة إلى أهم البيوتات العلمية التي أرخ لها "المنشور"، ومن هذه البيوتات »بيت آل نعمون،... وبيت آل الفكُّون، وبيت آل الزواوي، وبيت بني باديس...،

وبيت آل الغرياني من القيروان، وبيت بني الأموي، وغيرها... «.

(14052/1)

... إن "المنشور" وثيقة علمية نادرة، كفيلة بإثراء الوعي التاريخي، والتفكير الديني والانشغال الأدبي بديارِ الجزائر الشقيقة في ذلك الوقت. وهذا ما يعطي الكتاب قيمته التأليفية المرتبطة أساساً بمكانة مؤلفه العلمية والدينية.

II ـ "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور" ... التأليف الثاني الذي نضعه أمام أنظارنا، ينتمي صاحبه زمنياً لأواخر القرن الثاني عشر الهجري وبداية القرن الثالث الهجري. فهو إلى حد ما يقترب من عهد سابقه (القرن الحادي عشر الهجري). وهو مؤلَّف هام كسالفه في أدب التراجم(1)

---

(1) طبع بدار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981، في 299 صفحة، ومتن الكتاب من ص. 25 إلى ص. 210.

(14053/1)

. إلا أن أهميته تزداد والحاجة إليه تكبر بحكم الثغرة الكبيرة التي يملؤها كتاب "فتح الشكور"؛ فهو يؤرخ لفضاء مكاني وزماني قلما وقف الباحثون والمهتمون بخصوصه على ما ينير خصوصية الفضاء السوداني الغربي على مستوى حقول العلم والفقه واللغة والتصوف. نُشِر الكتاب بتحقيق الأستاذين الكبيرين محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي.

... لقد أسدى العالم المؤرخ البرتلي الولاتي صاحب هذا التأليف خدمة جلّى في تأصيل الانتماء العربي الإسلامي لقارتنا بهذا الثغر التكروري. وقد غطى فترة زمنية مهمة امتدت من سنة 1056 هـ إلى 1215

(14054/1)

هـ (1650 ـ 1800 م)، ما يعني أن الظفر بنسخة هذا الكتاب أضفت على المادة التراثية الإفريقية الإسلامية عنصراً أساسيّاً من عناصر الوحدة والتواصل بين المغرب الأقصى بشمال إفريقيا والسودان الغربي. قال الشيخ المنوني رحمه الله معرفاً به: »يشتمل على عدد من التراجم والأسماء المغربية، فضلاً عن إشارات للصلات

الثقافية بين المغرب والسودان الغربي« (1).

... أ ـ من هو البرتلي الولاتي؟

---

(1) المصادر العربية لتاريخ المغرب، ج 2، ص. 41، رقم 747.

(14055/1)

... حينما ينظر الباحث في كتب تراجم أهل الفترة التي عاش فيها مؤلف "الفتح"، وكذا كتب هذه المنطقة، يكاد لا يجد ترجمة وافية أو تعريفاً أو إشارة تغني ظلال هذه الشخصية، اللهم إلاّ إذا استثنينا الفصلة النادرة التي ظفر بها متن "فتح الشكور" وفلتت من الضياع، وهي عبارة عن ترجمة مستقلة للمؤلف وضعها أحد تلامذته، فأضيفت إلى هذا الكتاب في مقدمته. ولا ندري من هو واضع هذه الترجمة، فالنسخة عارية من التصريح باسمه.

... على أن هذه الترجمة استجمعت في خطابها التعريفي بالرجل أهم معطيات خطاب الترجمة، تحلية وولادة ووفاة

(14056/1)

وأسرة، وكتابة ومنقبة وتقريظاً. لذا كانت المرجع الأوثق والمعتمد لكل باحث يرصد أحد أعلام بلاد التكرور الكبار. ولقد أدرك مترجمه هذا الحيف والسكوت الذي لحق شيخه إلى أن كاد يُنسى ويترك علمه وأثره، فقال: »وفوائده أيضاً وتصانيفه كثيرة لا يعرفها إلا من أحاط بكتبه، لأنه ممن دفن وجوده في أرض الخمول «(1).

والكلام يفيد أن صاحب "فتح الشكور" تناساه قومه، وأغفلوا ذكر تراثه، بالرغم من قربه منهم زماناً ومكاناً.

---

(1) فتح الشكور، ص. 18.

(14057/1)

... والولاتي ـ كما يقدمه تلميذه الأبر المجهول الاسم ـ ينتسب لبيت من البيوتات المعروفة ببلاد التكرور علماً وورعاً وصلاحاً. قال: »شيخنا أبو عبد الله الطالب محمد بن الشيخ العابد أبي بكر الصديق بن الشيخ الصالح الزاهد محمد بن الولي التقي النقي الطالب علي بنّان رحمهم الله تعالى«. البرتلي الولاتي (1140 هـ ـ 1219 هـ) أفرط مترجمه في تحليته. فقد وصفه بتسعة

وخمسين وصفاً، يهمنا منها الأوصاف والتحليات التالية:

»الإمام المشهور العلامة الحجة الحافظ الأصولي الأستاذ المقرئ المجود النحوي اللغوي البياني العروضي

(14058/1)

المتفنن الصوفي ولي الله تعالى العارف به المفتي الشهير...«. وكلها صفات دالة على شهرة الولاتي ومشاركته الواسعة في حقول المعرفة المختلفة.

... ومن آثاره: ...

... 1 – "شروح على صغرى السنوسي".

... 2 – "شرح أسماء الله تعالى الحسنى".

... 3 – "شرح السلم المرونق في المنطق".

... 4 – "نسب الشرفاء ذرية مولاي الشريف".

... 5 – "تأليف في علم السر".

... 6 – "تأليف في علم التاريخ".

... 7 – "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور".

... 8 – "أنظام متنوعة".

(14059/1)

... وكان الولاتي معتنياً بجمع الكتب والانهماك على مطالعتها وتفحصها، مقتصراً على إقراء ما يراه مجدياً في حلقاته التعليمية. فقد كان لا يدرس إلا في كتاب، ويثني على شيوخه. يحكي عنه تلميذه الكثير من المبرات والمناقب التي تدل على مكانته الأخلاقية الرفيعة.

... وفي تقريظه يقول تلميذه المشار إليه في قصيدة، نقتطف منها:

ألا عم صباحاً أيها الذاهبُ الحِبرُ
دعاك إله الخلق للخير كله
لأنك مقبول الشفاعة في الدعا
فكنتَ نهاراً تبصر الناس كُلَّها
وكنت بروقاً لامعات فصوبها

ويا من به تزهى النخيل وتثمر

(14060/1)

فيا سعد من بقرب قبرك يقبر
جزاؤك دار الخلد منها تبشر
إذا الشمس غابت والكواكب تظهر

يسر به من كان في الأرض يحفر

... ب ـ تقريب وصفي تحليلي للمتن

... ـ بواعث التأليف

... استهل الولاتي تأريخه هذا الذي اختار له اسم "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور" بمقدمة قصيرة لخص فيها الباعث الذي حركه لوضع هذا الصنف من التأليف، والمتعلق بترجمة أعيان العلماء بمنطقة معينة في زمن محدد بنظام خاص.

... والمؤلف، كما يظهر من هذه المقدمة، اطلع على أعمال سابقيه وجهودهم في هذا المضمار، فلمس الثغرة الواضحة الناتجة عن

(14061/1)

نسيان رواد الحركة العلمية ببلاد التكرور، وهو الأمر الذي حفزه إلى جمع أعلام بلاده وترجمتهم والتبرك بتحبير مناقبهم ونشاطهم:

... ورأيت سلفنا قد ألفوا تآليف عديدة في تعريف العلماء في كل نوع من التاريخ. فمنهم من ألف في رجال مذهبه، ومنهم من ألف في النحاة وغير ذلك، ورأيتهم لم يذكروا علماء تكرور لبعد المسافة بينهم وبين

علمائنا... أردت أن آتي بتاريخ أعيان التكرور لتعرف مراتبهم في الفقه والدين (1).

والولاتي يقتصر كما يقرر في مقدمته على مشاهير الأعلام:

---

(1) المصدر نفسه، ص. 26.

(14062/1)

... ولم أذكر غير المشاهير من العلماء، لأن الإحاطة متعذرة وربما تركت ذكر من كان مشتهراً منهم لبعد داره مني أو لعدم معرفتي بأخباره مرتباً لهم على حروف المعجم المغربية، مقدماً عند اتفاق أسمائه من سبقت وفاته على غيره، وذاكراً فيهم من دخل التكرور من غير أهله وكان شيخاً لهم مشتهراً رجاء بركته... (1).

بهذه الطريقة ترجم الولاتي وعيه التاريخي والقومي.

لقد أعمل كل ما في جهده حتى يستقصي أخبار ونشاط من عني بترجمتهم. ويشترك المؤلف في هذا الوعي التاريخي للبعد الوطني مع أحد معاصريه

---

(1) المصدر نفسه.

(14063/1)

السودانيين المشارقة، وهو العالم الفقيه محمد ضيف الله بن محمد الجعلي الفضلي (1139 هـ - 1224 هـ) الذي صنف "الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان"(1). على أن هذا الأخير آثر رصد الأعيان بجميع صنوفهم:

... وأردت أن أجمع هؤلاء الأعيان في معجم، وأذكر العلماء العاملين على حدة ومشايخ الصوفية وما يدل على سيرهم وأقوالهم في تعظيم الشريعة على حدة وعلماء التجويد على حدة وقراء القرآن على حدة والنجباء والشعراء على حدة، وأذكر الملوك والشيوخ

---

(1) طبع ببيروت، مجهول التاريخ، ودار النشر.

(14064/1)

المعتنين بأمر الدين (1).

وكذلك لا نغفل كتاباً هاماً في هذا المساق لمحمد بن عثمان المترجَم: "إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور".

... ولاشك في أن مؤرخين آخرين من السودان بشقيه

الشرقي والغربي أسدوا خدمة تأريخية وتراثية جليلة لهذا الفضاء المكاني المديد الذي نحن الآن بصدد النبش في ذاكرته.

... ولم يفت أبا عبد الله محمد الولاتي، قبل أن يباشر الترجمة الأولى، أن يحدد للقارئ تخوم قطر التكرور وحدوده. فهو »إقليم واسع ممتد شرقاً إلى أدغاغ، ومغرباً إلى بحر بني زناقية، وجنوباً إلى

---

(1) طبقات الجعلي، ص. 6.

(14065/1)

بيط، وشمالاً إلى أدرار«، وهي المنطقة المتاخمة لموريتانيا والسنغال.

...

.نظرات في مادة الترجمة

... اعتمد الولاتي في الكثير من معلوماته وإفاداته على المؤرخ عبد الرحمن السعدي التنبكتي(1)، صاحب "تاريخ السودان" كما نقل عن أحمد بابا السوداني (ت 1036 هـ)، الذي ترجم له ترجمة حافلة، وعن الشريف أحمد بن محمد بن أحمد صاحب "الأنوار السنية".

... يتكون خطاب كل ترجمة من الثوابت التالية: اسم

المترجم ونسبه إذا توافر، تحليته بما اشتهر به، نشاطه في

---

(1) ترجم له ترجمة قصيرة في: الفتح، المصدر المذكور، ص. 176.

(14066/1)

التدريس والتأليف، وفاته.

... وكان نَفَسُ هذه التراجم يتراوح بين الطول والقصر، مما جعل مادتها زاخرة بالمعطيات والمعلومات النادرة التي أغنت معرفتنا بطبيعة الحركة العلمية والدينية ببلاد التكرور، وبمدى التأثير الكبير الذي ساهم به علماء المغرب في إنماء وإثراء الدرس العلمي بهذه الديار.

.الدرس الفقهي ببلاد التكرور

... حينما نتأمل طبيعة الحلقات الدراسية التي كانت تعقد بمراكز العلم بأرض التكرور، نجد الانتشار الواسع والأهمية القصوى لمتون الدرس الفقهي بعد مرحلة إقراء الدرس اللغوي نحواً وصرفاً وبلاغة.

(14067/1)

... وقد كان "مختصر الإمام خليل" المتن المحبذ لدى فقهاء التكرور، فأكبوا على إقرائه وإعمال تعاليق وأنظام فريدة وشروح وحواشي فصلت متنه وأوضحت مغالقه وأكملت ناقصه.

... وفي هذا السياق يقف الباحث على شروح كثيرة لهؤلاء العلماء لهذا المختصر الفقهي الذي جذر الفقه المالكي وساهم في إشاعته ونشره بأرضهم. وقد وصل بهم الحد إلى التعصب لهذا المذهب والانتصار للآراء الفقهية التي قال بها الشيخ خليل رحمه الله. فهذا مثلاً الفقيه المقرئ أحمد بن محمد رَارَا التنواجيوي (ت 1210 هـ)، يقول عنه مترجمه: »... وكان مقتدياً

(14068/1)

بما قاله الشيخ خليل، ولا يلتفت إلى شرح ولا إلى نص غيره، ويقول ما قاله سيدي أحمد بابا التنبكتي: نحن أناس خليليون إن ضل ضللنا«(1)، وعن الفقيه الشريف محمد بن فاضل (ت 1160 هـ) ذكر مقالته الشهيرة: »فما تكون مسألة في الفقه إلا وحكمها يؤخذ من "مختصر" خليل رحمه الله، إما من منطوقه وإما من مفهومه. فكان

يسأل عن المسألة التي ليست بظاهرة في منطق خليل من أين تُؤخَذ من نَصِّ خليل؟ فيقول تؤخذ من مكان كذا... «(2).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 60.

(2) المصدر نفسه، ص. 125.

(14069/1)

... وفي مقام آخر لما ترجم للفقيه الطالب محمد بن الفقيه أبي بكر بن عيسى الغلاوي (ت 1120 هـ) الذي ينتسب لبيت من البيوتات الشهيرة علماً وصلاحاً قال عنه: »كان رحمه الله تعالى فقيهاً مدرساً صالحاً تقياً فاضلاً عاقلاً لبيباً حسن الدراية والإقراء لـ"مختصر خليل" لم يشتغل بإقراء غيره «(1). ولم تكن طريقتهم في تدريس "المختصر" مبنية على السرد الفقهي المجرد والسطحي، بل كانت مؤسسة على حسن الفهم وتعميق النظر وتقليب الآراء ومباحثتها ومقارنتها، مما يعني أن تبنيهم للرأي الفقهي الخليلي

---

(1) المصدر نفسه، ص. 132.

(14070/1)

كان عن اقتناع وإيمان. فهذا المختار بن الطالب أحمد بن محمد الغلاوي (ت 1203 هـ) يحدثنا الولاتي عن طريقته في قراءة وإقراء هذا المتن فيقول: »وكان كثير المطالعة لشروح خليل ينبه في مطالعته لها إلى ما في نص "المختصر" ومعاني الحروف، ويعارض كلام الشراح بعضها ببعض في هوامش الشروح، ويزيل ما فيها من تعارض وإشكال«(1). إلى هذا الحد بلغ تعلقهم وشغفهم بالفكر الفقهي الخليلي لما لقوا فيه من واقعية ووسطية انسجمتا مع جهازهم الفكري وواقعهم المعيش.

---

(1) المصدر نفسه، ص. 138.

(14071/1)

... ومن المتون التي لقيت العناية الواسعة، "رسالة" أبي زيد القيرواني التي ترددت أصداؤها في أغلب حلقات الدرس والتعليم، ثم تأتي بدرجة أقل متون فقهية أخرى كان حضورها مقتصراً على بعض المدارس كمتن "المرشد المعين" لابن عاشر، و"مختصر" أبي زيد الأخضري الجزائري، و"تحفة" ابن عاصم، و"فروع" ابن الحاجب

و"المدونة"، و"المدخل" لابن الحاج الفاسي وغيرها.

... وقبل أن أنتقل إلى حقل علمي آخر، لا بأس أن أحشر هنا ذكر كتاب كان له شأن كبير وذيوع مطرد، وهو في حقل السيرة النبوية. يتعلق الأمر بـ"الشفا" للقاضي عياض، ومعلوم

(14072/1)

أن "الشفا" هو الكتاب المغربي الأول الذي طبقت شهرته آفاق الدنيا، وقد احتضنه علماء التكرور وأولوه عناية نادرة وصلت بهم إلى حد قراءته بالسند المتصل إلى صاحبه. وهو أمر له دلالته وإيحاؤه في مجال خبر ومعرفة طرق التلقي والتحمل عند أعلام هذه المنطقة بخاصة وأهل السودان الغربي بعامة.

... وقد كان لهم اعتقاد ونية حسنة في "شفاء" عياض. فالقراءة كانت مرتبطة بالتبرك واستمداد الرحمات والاستشفاء؛ كما أن بعض المراكز العلمية كانت تخصص شهر رجب وما يليه لإقراء "الشفا"، وبعضها في شهر رمضان.

...

(14073/1)

مقروءات النحو وعلم القراءات

... نشطت بقوة حركة دراسة النحو واللغة في ديار التكرور. وتعتبر العناية بهذه العلوم المفتاح لتلقي الخطاب العربي وفهم علومه وتذوق آدابه. ولاشك في أن علم القراءات من العلوم الإسلامية الفريدة الذي تستدعي تفوقاً وتضلعاً من علوم الآلة التي بها ينظر إلى لغة النص القرآني المحكمة.

... ففي مجال مادة النحو اعتمد العلماء التكروريون اعتماداً كبيراً على إسهامات المغاربة النحوية، وفي طليعة المنتخبات التي قرأوها ووضعوا عليها شروحاً وحواشي نجد "شرح المكودي على الألفية"، ومنظومته

(14074/1)

الصرفية "البسط والتعريف في علم التصريف" والآجروميّة" و"لامية المجرادي السلوي في الجمل". ولقد كان الولاتي في العديد من تراجمه يشير إلى تفوق المغاربة في الدرس النحوي.

... وفي مجال عنايتهم بالقراءة القرآنية، نلحظ التفوق والنبوغ اللذين أبان عنهما القراء الكبار الذين قرأوا

بالسبع، من بينهم الشيخ الأمين ابن حبيب الجكني وإبراهيم بن الإمام العلوي، وأحمد رَارَا التنواجيوي(1)

---

(1) قال في ترجمته: »أخذ القراءات السبع عن سيدي محمد بن عبد الله بن بابا التنواجيوي ابن سيد القراء في بلدنا، سيدي عبد الله بن أبي بكر التنواجيوي« (الفتح، ص. 61)، ويتجلى أن بيت آل التنواجيوي لمع في علم القراءات، والقراء السبعة المذكورون جمعهم الإمام المقرئ الخاقاني في قوله:

»وإنَّ لنا أَخْذُ القراءة سُنة
فللسبعة القراء حقٌّ على الورى
فبالحرمين ابن كثير ونافع
وبالشام عبد الله وهو ابن عامر
وحمزة أيضاً والكسائي بعده

عن المقرئين الأولين ذوي السر
لإقرائهم قرآن ربهم الوتر
وبالبصرة ابن العلاء أبو عمرو
وعاصم الكوفي وهو أبو ذر
أخو الخلق بالقرآن والنحو والشعر«

(عن "الحاقانية" وهي في 51 بيت).

(14075/1)

، وأحمد بن البشير الكلسوكي والبشير بن الحاج الهادي الأديلي البيلي شيخ الولاتي وآخرون. وقد كان معتمدهم في هذا الفن متن "الشاطبية" و"الدرر اللوامع في قراءة نافع" لابن بري.

المشهد الصوفي في "فتح الشكور"

... يعَدُّ "الفتح" مصدراً هاماً من مصادر التراث الصوفي بإفريقيا الشمالية الوسطى. فهو في تقديري بمثابة "حلية الأولياء" ببلاد التكرور شبيه بحلية أبي نعيم وطبقات عبد الرحمن السلمي، على اعتبار أن صاحبه يؤرخ لأشهر أهل العرفان والولاية والصلاح ببلده، ويذكرهم الذكر الحسن الذي كان له فيه اعتقاد ونية

(14076/1)

صالحة. والمتأمل في هذا المتن يجده مشبعاً بالخطاب الصوفي بمختلف تجلياته ورموزه ومصطلحاته. وهو بهذا الاعتبار مرآة صادقة تعكس الطابع الصوفي الذي طبع شخصية الولاتي، والنخبة العالمة وجمهرة الناس بهذه الديار.

... إن الخطاب الصوفي هنا يتجلى في الحضور المكثف لأخبار المكاشفات ونصوص الكرامات والمحكيات والرؤى المنامية والتقاء الشيوخ وسبل ارتقاء المقامات عن طريق المجاهدة والمكابدة. فكثيراً ما نقرأ مثل هذه التعابير الدالة على النزعة الصوفية ـ اعتقاداً وسلوكاً ـ المتجذرة في صدور الناس: »كان من عباد الله

(14077/1)

الصالحين، والأولياء العارفين المشهورين يزوره الناس من كل فج في كل ساعة يزوره الشرفاء والأولياء والصالحون وغيرهم ويأتون بالفتوحات وينحرون عند قبره«(1)، ومثل: »قبره بالساحل في موضع يقال له أجفار وهو (حرم) يتبرك به، يضع عنده أهل تلك البلاد الأمتعة، فتحفظ حتى يأتيها صاحبها« إلى غير ذلك مما يفصح عن طبيعة العقلية الاعتقادية المهيمنة عند الخاصة والعامة على حد سواء.

---

(1) من ترجمته للشيخ أحمد البكاي الكنتي، الفتح، ص ص. 30 ـ 31.

(14078/1)

... ومن صور المشهد الصوفي أيضاً نص الكرامة الحاضر بكثافة في الفتح، والكرامة بصفتها حقيقة تصويرية محبكة مستحيلة الوقوع عند العوام ممكنة عند الخواص، قضية أثير حولها نقاش مستفيض وسال بشأنها مداد بين مؤيد ومصدق ومفند داحض. وإذا كان التصوف الإسلامي قبل القرن السابع الهجري لا يشترط ضرورة ثبوت كرامات للولي حتى يشهد له بالولاية، فإن الحال سيختلف »بعد القرن السابع الهجري وحتى اليوم. إذ صارت الكرامات مبحثاً لا غنى عنه في الكتابات الصوفية كافة، ولا نكاد نجد صوفياً واحداً بلا كرامات، بل عمد مؤرخو التصوف

(14079/1)

المتأخرون إلى تراجم الأوائل، فوشحوها بالكرامات الباهرة «(1). وهكذا تلونت وتداخلت المحكيات الذهنية

الشعبية الشفهية باللغة التركيبية المتماهية في الخطاب الصوفي، فولد ذلك نص الكرامة الذي يكون في حد ذاته بنية لغوية مفهومية تستدعي القراءة والتحليل.

... والولاتي أتحف قراءه بمادة حافلة من نصوص الكرامات. فقد روى مثلاً عند حديثه عن أبي القاسم التواتي (ت 922 هـ) »أن الناس ازدحموا على نعشه في ليلة مظلمة وتصادموا حتى سقطوا على الأرض

---

(1) يوسف زيدان، »كرامات الصوفية«، مجلة فصول، مج 13، ع 3، 1994، ص. 224.

(14080/1)

جميعاً، وبقي النعش في الهواء بقدرة الباري سبحانه، حتى قاموا ورأى الناس هناك جماعة كثيرة غير معروفين (كذا)، وذلك من كراماته« (1).

... وفي مساق هذا النفس الصوفي العرفاني، كان الولاتي يستجلب شواهد من الرؤى المنامية التي يحتج بها أهل التصوف ويعتقدون فيها الحجية والاستدلالية، خاصة عندما يتعلق الأمر بـ »رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال لي...«. ونظير هذا التعبير وارد باطراد

كبير في الكتابة الصوفية.

---

(1) الفتح، المصدر المذكور، ص. 71؛ وتنظر أيضاً ص ص. 45 ـ 55، 56، 58، 68، 70، 98، 122، 135، 137.

(14081/1)

ومن الأمثلة المذكورة في "الفتح" قول الولاتي عن أحمد بن حمى الله (ت 1193 هـ): »رأته امرأة صالحة في المنام طالعاً السماء، فقالت وقد رأت رجليه وساقيه وفخذيه ذهباً، فقالت: بم نال هذا؟ فقال لها قائل: بعبارة السر«(1). وقوله في ترجمة »الولي الصالح العارف بالله تعالى سيدي محمد بن عبد الله بن أبي ردة العلوشي (ت 1187 هـ): »... ورؤيته – صلى الله عليه وسلم – له لا تكاد تعد... وله أمر عجيب في إخراج الجن والكنوز والسحر، ما أظن أن أحداً من أهل عصره مثله في ذلك« (2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 57.

(2) المصدر نفسه، ص ص. 132 ـ 133.

(14082/1)

.

... ولننتقل الآن إلى التواليف الصوفية التي تُدووِلَت في هذه المنطقة، وفي طليعتها جزء "دلائل الخيرات" الذي اعتنوا به عناية فائقة وِرْداً ودراسة، وبحثاً وتبركاً واستشفاء. فهذا الفقيه محمد بن محمد المسلمي (ت 1171 هـ) يتخذه ورداً يومياً يتعبد به: »وكان معبراً للرؤيا ناسكاً كثير العبادة مداوماً قيام الليل وقراءة القرآن و"دليل الخيرات"«، وروى الولاتي أن السعدي صاحب "تاريخ السودان" كان يَدْرُسه مع جماعة على الشيخ الأمين بن أحمد بن محمد (ت 1041 هـ). ويظهر من هذه الرواية أن "دلائل" الجزولي كَانَتْ

(14083/1)

عمدة المربين السالكين في إقراء طلبتهم وتربيتهم وتنشئتهم على التربية الصوفية منذ نعومة أظافرهم. يقول المؤرخ عبد الرحمان السعدي: »كنا جماعة نعرض على شيخنا الفقيه الأمين "دلائل الخيرات" والنسخ تختلف في إثبات لفظة سيدنا وإسقاطها. فسألناه عنه، فقال: كنا نعرضه على الشيخ العلامة الفقيه محمد بَغْيُغْ، فسألته عنه كذلك فقال: ليس في ذلك الاختلاف بأس لا يضر شيئاً، وسألناه أيضاً عن قول المؤلف: وأن

تغفر لعبدك فلان بن فلان، فقال: كنا نعرضه أيضاً على الفقيه عبد الرحمن ابن الفقيه محمود، فسألناه عنه، فقال

(14084/1)

مجيباً: وأن تغفر لعبدك عبد الرحمن ولم يذكر والده «(1). جلي إذن أن ورد الجزولي كان مناط مباحثة ومدارسة عند الجميع أساتذة وطلبة.

... ومن التآليف الصوفية الوارد ذكرها في "فتح الشكور" : »نظم أسماء النبي التي في "دلائل الخيرات"، و"مطالع المسرات بشرح دلائل الخيرات"، و"إشراف البدر على عدد أهل بدر"، و"جذوة الأنوار في الذب على أولياء الله الأخيار"، و"الممزوج"(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 63.

(2) هذان الكتابان الأخيران للصوفي الكبير المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي الوافي، وله في علم التصوف وسلوك الطريق تآليف أخرى. (تنظر ترجمته في: الفتح، ص ص. 152 ـ 153).

(14085/1)

، و"سلاح أهل الإيمان لمحاربة الشيطان من الصلاة وتلاوة القرآن" لعبد الله العثماني، و"الحزب الكبير" لأبي الحسن الشاذلي، و"الدعاء بأسماء الله الحسنى" لابن عباد، و"الحكم العطائية"، و"شروح زروق" عليها، و"إهداء الضياء في أفق عقائد الأصفياء" لأند عبد الله بن أحمد الولاتي المحجوبي (ت 1172 هـ). هذا، إلى جانب أحزاب وأوراد وتصليات أخرى كانت تحفظ وترتل وتنشد.

... هكذا يظهر الوسط التكروري من خلال "فتح الشكور" وسطاً متشبعاً بالثقافة الإسلامية ذات الطابع الصوفي، هذه الثقافة الأصيلة التي فتح لها الأفارقة بهذه

(14086/1)

الديار صدورهم لما ألفوا فيها من عدالة وصفاء وكرامة.

... ولم يكن ليتحقق هذا النصر المبين والفتح المكين إلا بفعل جهود الدعاة والعلماء والتجار، ولقد أدت دول المغرب العربي دوراً فاعلاً في مد جسور التواصل والالتقاء مع دول السودان، مما انعكس إيجابياً على إغناء المرجعية الثقافية وإثرائها بهذه الآفاق الإفريقية.

... وأخيراً، إذا كان "فتح الشكور" يختلف مع "منشور

الهداية" في طبيعة تقديم مادة التراجم لرجالات بلديهما، على اعتبار أن الفكُّون قدم أكثر مما مدح والولاتي يغيب عنده مطلقاً القدح والتشنيع، فإن

(14087/1)

الكتابين ـ بالرغم من هذا الاختلاف ـ يكتسبان قيماً علمية وتاريخية وتراثية نادرة، يجمل بالباحث استقصاؤها وإبرازها.

(14088/1)

ملامح من التأثير المغربيّ في الحركة الإصلاحية للشيخ المجدّد عثمان بن فُودي

... ...

... ... الدكتور عبد العلي الودغيري

... ... رئيس الجامعة الإسلامية بالنيجر

... شهد القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي حركة إصلاحية دينية وثقافية واجتماعية وسياسية كبرى، شملت منطقة واسعة من غرب أفريقيا جنوب

الصحراء، وتُوجت في النهاية بإقامة دولة إسلامية على يد مؤسسها وزعيمها الوحي الشيخ الداعية المجدد عثمان بن محمد فودي الفلاني(1)

---

(1) ... مصادر ترجمة الشيخ عثمان والتعريف بحركته وجهاده كثيرة جداً ما بين عربية وأجنبية، نقتصر منها على ما يلي:

... .إنفاق الميسور، لمحمد بلو، تحقيق بهيجة الشاذلي، معهد الدراسات الأفريقية، الرباط، سنة 1996 م.

... .روض الجنان في ذكر بعض مناقب الشيخ عثمان، للوزير غطاط بن ليم، مخطوط مصور بالمركز الأفريقي لإحياء التراث الإسلامي بالجامعة الإسلامية بالنيجر؛

... .ضبط الملتقطات، للوزير جنيد من محمد البخاي، مطبوع بطريقة التصوير في نيجيريا (دون تاريخ).

... .المجاهد الكبير في غرب أفريقيا الشيخ عثمان بن فودي، لأمين الدين أبو بكر، مطابع المختار الإسلامي، كانو، نيجيريا (دون تاريخ)؛

... .روائح الأزهار من روض الجنان، للوزير جنيد بن محمد البخاي (مخطوط)؛

... .أنيس الجليس في مناقب عثمان وأخيه وابنه الوزير، لغطاط بن ليم (مخطوط)؛

... .تحفة الإخوان ببعض ما لشيخنا عثمان من الكرامات،

للوزير جنيد بن محمد البخاري (مخطوط)؛ ...

... . عرف الريحان في التبرك بذكر الشيخ عثمان رضي الله عنه وذكر من اشتهر من أولاده عليهم من الرحمان أوفر الرضوان، للوزير جنيد بن محمد البخاري، مطبوع بطريقة التصوير في نيجيريا (دون تاريخ)؛ =

= ... . الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، للشيخ آدم عبد الله الألوري، ط. 3، سنة 1978 م (دون ذكر المكان)؛

... . نبذة يسيرة تشير إلى بعض كرامات الشيخ عثمان بن فودي، لمحمد ماء الله يط بن عبد القادر بن المصطفى، مخطوط مصور بالمركز الأفريقي لإحياء التراث الإسلامي بالجامعة الإسلامية بالنيجر؛

... . قطائف الجنان في وظائف الشيخ عثمان، لمحمد ماء الله يط من عبد القادر بن المصطفى (ذكره ضمن الكتاب السابق وأحال عليه)، ص. 6.

(14089/1)

(1168 . 1232 هـ/ 1754 . 1817 م).

... ولم يكن هذا الشيخ الذي استطاع أن يبني أسس دولة دامت مدة قرن كامل (1804 . 1903 م)، في حقيقة

أمره، إلا رجلاً تشبع بثقافة إسلامية واسعة، ومُنح من الصفات الخلقية، والمواهب العقلية، والشجاعة في الرأي، والصدق في الإيمان، والإخلاص في العمل، وحسن الموعظة، ما هيأه الله تعالى به ليقوم بدور المصلح الديني المجاهد في سبيل نشر الدين ومقاومة الكفر والوثنية، وقمع البدع والخرافات، وتخليص المسلمين من بني قومه مما كانوا عليه من الانحطاط في الأخلاق والسلوك وسوء الاعتقاد والجهل

(14090/1)

بحقائق الشرع، وشدة الفرقة والانقسام.

... بدأ ابن فودي(1)

---

(1) ... كلمة "فودي" تعني الفقيه باللغة الفُلَّانية، وقد ضبطها الشيخ عبد الله بن فودي (أخو عثمان) في فهرسته المسماة "إيداع النسوخ" فقال: "ولقبه فُودي (بفاء مضمومة ضمة إشمام، وبعد الواو دال مهملة مضمومة وبعدها ياء ممالة). وقد رأيت هذا الضبط موجوداً على عدد من عناوين كتب الشيخ عثمان المخطوطة على هذا النحو "فودي"، أي على نحو ما ترسم كلمات كثيرة في المصحف برواية ورش عن نافع مثل: الهدى ـ الضحى ـ الأولى ـ

الحسنى ـ سجى ـ قلى ـ أغنى...، أي بياء بها علامة الإمالة، وهي ألف فوقها ونقطة واحدة تحتها. وقد جرت العادة على كتابة الكلمة في المطبوعات الحديثة بياء مثناة عادية "فودي". ولذلك سار يقرأها الكثيرون بدال مكسورة عوض المضمومة تيسيراً للنطق. أما الذين كتبوا عن الشيخ عثمان وعائلته باللغات الأجنبية، فهم تارة يكتبون: Fodio (فوديو)، وتارة: Fudi (فودي)، وأخرى Fodiye (فوديي). أما المتداول حالياً على الألسنة في منطقة الهوسا وبلاد الفلان، فهو: "فُودْيُو".

(14091/1)

دعوته مع جماعة قليلة ممن تأثروا بصدق لهجته، وعلموا حسن نيته، وقوة حجته، وإخلاصه في دينه وعقيدته. فما لبثت هذه الجماعة أن تقوَّت واتَّسع نطاقها وطارت أخبارها إلى سائر الآفاق.

... وقد وصل خبر هذه الدعوة إلى السلطان المغربي المولى سليمان، وبلغه ما هي عليه أحوال الشيخ عثمان من الورع والصلاح والتفاني في الجهاد ومحاربة البدع، فأبدى تجاوبه معه، وإعجابه بحركته، وكتب في هذا الشأن رسالتين سنة 1225 هـ وجه الأولى باسم أمير آهير

(الواقعة حالياً في النيجر)، وهو الأمير محمد الباقري، والثانية باسم الشيخ عثمان

(14092/1)

يبارك له فيها عمله، ويتشوق لرؤيته ويدعو له بالنصر والتوفيق(1).

... مضت هذه الحركة في خطواتها إلى أن انتهت بإنشاء إمارة إسلامية، تقوم على تطبيق الشريعة، وتجاهد في سبيل نشر الإسلام وقمع البدع والخرافات، وتمت مبايعة الشيخ عثمان الذي أصبح يلقب بأمير المؤمنين(2)

---

(1) ... انظر نص الوثيقتين في: إنفاق الميسور، ص. 292. وقد أخطأ المرحوم آدم الألوري حين ذكر أن صاحب الرسالتين هو المولى أحمد. (انظر كتابي: الإمام المغيلي، والإسلام في نيجيريا).

(2) ... يذهب بعض الباحثين إلى أنه كان ثاني شخصية تلقب بهذا اللقب في السودان الغربي بعد السلطان محمد أسكيا ملك السنغاي.

(14093/1)

.

... ومن ثم انطلق العمل في ثلاثة اتجاهات:

... أ) تنظيم شؤون الإمارة الناشئة إدارياً وسياسياً واجتماعياً وتدبير شؤون الحكم والجهاد والدعوة وصد الخصوم وتوسيع رقعة الإسلام؛

... ب) التنظير للأسس الفكرية والدينية التي قامت عليها الدولة الناشئة، وتوضيح مبادئ دعوتها ودفع الشبهات عنها. وقد تصدى لهذا الميدان بالذات كل من الشيخ عثمان نفسه وأخيه عبد الله وابنه محمد بلَّو؛ وكتبوا في ذلك عشرات المؤلفات والرسائل والمقالات(1)

---

(1) ... بلغت مؤلفات الشيخ عثمان حسبما يذكره محمد بلّو ولده في إنفاق الميسور أكثر من مئة، وأوصلها أحد الباحثين، وهو إسماعيل بلوغن، إلى 115 عنوان (انظر مقالته المنشورة بعنوان: « Uthman dan Fodio, The Mujaddid of West Africa »، ضمن كتاب: Studies in History of the Sohoto Caliphaate الذي نشرته جامعة أحمد بلَّو بزاريا (لاغوس ـ نيجيريا، 1995)، ص. 485 وما بعدها. وبلغت مؤلفات أخيه عبد الله نحو المئتين، وزادت مؤلفات محمد بلَّو على المئة، وأكثر

هذه الأعمال ما يزال مخطوطاً وبعضه طبع بطريقة التصوير في نيجيريا.

(14094/1)

، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الكتابات التي ألفها غير هؤلاء الثلاثة من علماء الدولة الجديدة ومؤرخيها ومنظريها وعلمائها الكبار؛

... ج) نشر التعليم: إذ أولت الدولة العثمانية الفُودْيَوية التي جعلت من مدينة صوكوتو شمال نيجريا، عاصمة سياسية وإدارية وعلمية لها، عناية فائقة للجانب العلمي والثقافي، وأعطت للتعليم أولوية قصوى؛ ونالت المرأة من ذلك نصيباً وافراً(1)

---

(1) ... ألف الشيخ عثمان رسالة في الحث على تعليم المرأة سماها: "كتاب تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ المجلس لتعليم النسوان" (مطبوع في صوكوتو بطريقة التصوير، دون تاريخ)، ودافع فيه عن حق المرأة في تعليم شؤون دينها.

(14095/1)

. ولما كانت لغة التعليم هي اللغة العربية، والكتب التعليمية هي الكتب الإسلامية العربية، فقد أصبح من الطبيعي أن تزدهر هذه اللغة وتزدهر معها الثقافة العربية ازدهاراً لم يسبق له في السودان الغربي إلا مثال واحد، ونعني به ذلك الازدهار العلمي الذي عرفته مدينة تمبكتو خلال عصرها الذهبي أيام دولتي مالي وسنغاي.

... وبالرغم من أن الدولة العثمانية الصوكوتية لم تُعمِّر أكثر من قرن .إذ كانت نهايتها على يد الاستعمار الإنجليزي الذي قضى عليها سنة 1903 م ، فإنها استطاعت خلال هذه المدة الوجيزة أن تخلف وراءها

(14096/1)

المئات من الكتب والمصنفات الجليلة في مختلف فنون المعرفة؛ كما استطاعت أن تخرّج العشرات من العلماء والفقهاء والشعراء والكتاب والمؤرخين ورجال الدين. وللأسف الشديد، فإن هذا التراث الإسلامي على أهميته وغزارته، ما يزال أكثره مغموراً، وما تزال الجامعات ومراكز البحث بعالمنا العربي لا تكترث بإخراجه ونشره والتعريف به. بل إن مما يزيدنا حسرة وألماً أن تاريخ هذه الحركة الجهادية الكبرى، وهذه الثورة

الإسلامية العظيمة التي يعود إليها الفضل في توطيد دعائم الدين والثقافة العربية في منطقة غرب أفريقيا وجنوب

(14097/1)

الصحراء خلال العصر الحديث، لم تستحق ما كان ينبغي لها من العناية والاهتمام من الباحثين والمؤرخين والدارسين في العالم العربي، بالرغم من أنها في نظرنا لا تقل أهمية عن مثيلاتها من الحركات الإصلاحية الدينية والاجتماعية التي عرفتها مناطق أخرى من عالمنا العربي والإسلامي التي قامت في فترة معاصرة أو مقاربة لها تاريخياً.

... ||. تشبَّهت الحركة الإصلاحية التي قادها الشيخ عثمان وخلفاؤه من بعد، في بعض جوانبها، كالدعوة لتصحيح العقيدة وتخليصها من شوائب البدع والخرافات، وإحياء الجهاد، والعمل على تطبيق الشريعة

(14098/1)

في العبادات والمعاملات، وتطهير المجتمع من مظاهر الفساد، والاهتداء في كل ذلك بهدي الكتاب والسنة، تشبّهت بحركة إصلاحية مزامنة لها، وهي التي قام بها الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في الجناح الشرقي من العالم العربي. ومن ثم ذهب بعض الباحثين من العرب والغربيين(1)

---

(1) ... منهم: توماس أرنولد في كتابه "الدعوة للإسلام"؛ وحسن إبراهيم حسن في كتابه "انتشار الإسلام في القارة الأفريقية »؛ والدكتور عبد الرحمن زكي في كتابه "تاريخ الدول الإسلامية السودانية"؛ والدكتور عبد الحميد بخيت في كتابه "المجتمع العربي الإسلامي" (انظر كتاب "الثقافة العربية في نيجيريا"، للدكتور علي أبو بكر، ط 1، 1972 م، ص. 111).

(14099/1)

الذين اهتموا بحركة ابن فودي إلى القول بأن هذا الأخير تأثر في دعوته الإصلاحية بالحركة الوهابية، وقد بنى هؤلاء الباحثون رأيهم هذا على اعتقاد أن الشيخ عثمان قد حج إلى الديار المقدسة واتصل هنالك بالدعوة الوهابية فتأثر بها ومن ثم عاد إلى بلاده وصار يحذو

حذوها، ويترسم خطاها(1)

---

(1) ... من الأخطاء الفادحة التي وقع فيها الدكتور حسن أحمد محمود ـ وهو من أصحاب هذا الرأي ـ قوله يتحدث عن الشيخ عثمان ابن فودي: »ثم رحل إلى بلاد الحجاز وذهب إلى مكة، وكانت الوهابية قد انتشرت في الحجاز، ذاعت مبادؤها في الإصلاح وحققت قدراً كبيراً من النجاح بالتحالف الذي تم بينها وبين آل سعود، وقد خالط عثمان دعاة الوهابيين واستمع إليهم، وتشرب مبادئهم وتحمس لها، فأيقظت في نفسه الرغبة الملحة في أن يحارب البدع في بلاده كما حاربها الوهابيون في بلادهم، وأن يعلنها ثورة على أولي الأمر كما كانت الوهابية ثورة على السلطان والمفاسد...« (الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 3، 1986 م، ص. 216).

... ومن المسلم به أن الشيخ عثمان لم تكتب له زيارة الحجاز ولا العمرة ولا الحج كما سنرى. وقد حاول مرة أن يرافق شيخه جبريل بن عمران لأداء الفريضة، فمنعه أبوه من ذلك ولذلك، فإن كل ما قاله هذا المؤلف هو من باب الوهم والرجم بالغيب. ولعل الخطأ أتاه من اعتماده المطلق على بعض الأقوال دون تثبت ولا تحقق.

(14100/1)

.

... وهناك من رأى غير هذا الرأي، ومنهم الشيخ المرحوم آدم عبد الله الألوري، وهو من كبار علماء نيجيريا، الذي رد هذا القول بقول آخر وأتى عليه بأدلة منها:

... 1 ـ أن ابن فودي لم يسبق له أن اعتمر أو حج على الإطلاق، ولم يثبت أن خرج عن حدود بلاده. فهو عالم سوداني تعلم على مشايخ السودان، وتأثر بهم وبالحركات الإصلاحية الإسلامية السابقة التي انحدر بعضها من الشمال الإفريقي وبعضها كان نابعاً من الأرض السودانية نفسها؛

(14101/1)

... 2 ـ أن مذهبه يختلف عن مذهب ابن عبد الوهاب في أصول دعوتهما: فابن فوديو مالكي المذهب أشعري العقيدة، صوفي على طريقة القادرية، وابن عبد الوهاب حنبلي سلفي »لا يرى الانتساب إلى أية طريقة صوفية إلا بدعة« (1)؛

... 3 ـ أنه لا يمنع التوسل بالأنبياء والأولياء، والآخر كان يمنعه منعاً جازماً.

---

(1) ... الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، آدم عبد الله الألوري، ط 1، مصر، 1974 م، ص. 27.

(14102/1)

... 4 ـ أنه لا يمنع استعمال المنطق اليوناني ولا يحرمه، والآخر ينهى عنه على رأي ابن تيمية والسيوطي وغيرهما؛

... 5 ـ لم يرد أي ذكر لمحمد بن عبد الوهاب في مؤلفات ابن فودي أو أخيه عبد الله وابنه محمد بلّو، ولا في مؤلفات أحد من تلاميذهم. وذلك يدل على أنهم لم يتصلوا بالدعوة الوهابية؛ ولو اتصلوا بها، لذكروها في أشعارهم ومؤلفاتهم، وهم الذين لم يكونوا يغادرون شاذة ولا فاذة من أحوال دعوتهم إلا وذكروها وأرّخوا لها؛

(14103/1)

... 6 ـ أن قيام الدعوة الوهابية في نجد ـ أول قيامها ـ إنما كان سنة 1153 هـ، ولكنها "لم تنتشر في الحجاز انتشاراً يجعلها مقبولة أو معروفة في العالم الإسلامي

قبل قيام دعوة ابن فودي التي قامت عام 1180 هـ، ولم تعرف الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة إلا في 1218 هـ(1)

---

(1) ... لعل ما يقصد إليه المرحوم الألوري هو أنها لم تكن معروفة بشكل واسع، وإلا فمن الثابت تاريخياً أنه قبل سنة 1218 هـ التي استولى فيها الأمير سعود بن عبد العزيز حامل دعوة ابن عبد الوهاب وناشرها على مكة، كانت هناك وفود من العلماء تأتي من الشيخ ابن عبد الوهاب وأمراء نجد إلى 1179 هـ، لكن يظهر أن اتصالات هذه الوفود كانت محدودة جداً مقصورة على الحاكم وعلمائه الذين كان لهم موقف متصلب من دعوة الشيخ ابن عبد الوهاب كما كانت الوفود النجدية تمنع من الحج في كثير من المناسبات (انظر: مسعود الندوي، محمد بن عبد الوهاب، منشورات جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، 1404 هـ/ 1984 م؛ والدكتور صالح بن عبد الله العبود، عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، منشورات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، 1408 هـ).

(14104/1)

، وقد بلغت في هذا التاريخ دعوة ابن فودي ذروتها وبدأ في الجهاد مع ملوك هوسا...«(1).

... على أن هنالك من حاول، بالرغم من هذه الأدلة، تبرير وجود التأثير المذكور بالقول إن ابن فودي وإن كان ـ حقاً ـ لم يسبق له أن حج أو اعتمر، فإنه كان تلميذاً مُخلصاً لكل من الشيخين: جبريل بن عمر الأقدسي (نسبة إلى أقدس أو أكَدَز في النيجر)، ومحمد تَنْبُو اللذين ثبتَ حجهما

---

(1) ... آدم عبد الله الألوري، الإسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني، صص. 90 – 100؛ وانظر أيضاً كتابه عن الإمام المغيلي، صص. 35 ـ 38.

(14105/1)

بالفعل. ومن ثم، »فلا مانع من أن ينقلا النزعة الوهابية إلى تلميذهما«(1).

---

(1) ... أمين الدين أبو بكر، المجاهد الكبير في غرب أفريقيا: الشيخ عثمان بن فودي، ص. 37. ومن الثابت أن الشيخ محمد تَنْبُو قد مكث في الديار المقدسة بضع عشرة سنة؛ ولكنه بمجرد عودته، عاجلته المنية في

أقدَس كما يقول عبد الله بن فودي في كتابه: إيداع النسوخ من أخذت عنه من الشيوخ/ منشور بزاريا - نيجيريا، مكتبة نولا، سنة 1958 م، ص. 4.

(14106/1)

... وإذا كان من الثابت تاريخياً أن الشيخ جبريل بالذات كان له تأثير قوي على تلميذه عثمان وأخيه عبد الله، وكان سباقاً قبلهما إلى الدعوة للإصلاح ومحاربة البدع(1) حتى قال عنه تلميذه الشيخ عثمان: »ومن فضائله رضي الله عنه أنه بلغ الغاية في الاشتغال بالكتاب

---

(1) ... من التراث الذي خلفه الشيخ جبريل بن عمر في محاربة البدع منظومته الرجزية "في تكفير أهل السودان بالمعاصي التي لا يأخذها التأويل"، وهي واقعة في 26 بيتاً، ضمنها تلميذه الشيخ عثمان في "شفاء الغليل فيما أشكل من كلام شيخ شيوخنا جبريل" وعلق عليها.

(14107/1)

والسنة وحض الناس عليهما؛ ومن فضائله رضي الله تعالى عنه أنه كان أول من قام بهدم العوائد الذميمة في بلادنا السودانية هذه، وكان كمال ذلك ببركته على أيدينا»(1).

---

(1) ... إنفاق الميسور، ص. 78. وذكر محمد بلَّو أنه نقل هذا الكلام من كتاب الشيخ المسمى "شفاء الغليل فيما أشكل من كلام شيخ شيوخنا جبريل". وفي المركز الأفريقي لإحياء التراث الإسلامي بالجامعة الإسلامية بالنيجر نسخة مصورة من كتاب "شفاء الغليل..." في صفحتين، لكن لم يرد بها هذا الكلام الذي نقله عنه ولده محمد بلَّو في "إنفاق الميسور".

(14108/1)

... ومدحه عبد الله بن فودي بقوله:

جبريل من جَبَر الإله به لنا
وافى وحزبُ ضلالة في تَلْعة
فأزاح عنه حنادس الأعلاج من
لم يخش في إظهار دين الله من

دينـاً حنـيـفاً مستـقيم المنـهج

والدين في وَهْد كشيء بَـهْرج

عاداتـهم وكساه حلة زبْـرج

مستـهزئً أو لائم مُتَمَجْمِجِ(1)

... فإن السؤال مع ذلك يبقى: هل من المقطوع به أن الشيخ جبريل كان له اتصال ببعض دعاة الوهابية أو أنه مجرد احتمال، وأن ما قام به من الدعوة والإصلاح إنما

---

(1) ... الشيخ عبد الله بن فودي، تزيين الورقات، مطبوع بالتصوير في نيجيريا (دون تاريخ)، ص. 12.

(14109/1)

هو من باب الاتفاق والصدفة مع تلك الدعوة؟ لأنه ليس من الضروري أن يكون كل من حج في هذا الزمان قد اجتمع بدعاة ابن عبد الوهاب وتأثر بهم.

... وبرجوعنا إلى عدد كبير من مؤلفات الشيخ عثمان نفسه وأخيه عبد الله وابنه محمد بلّو .وهما أكثر الناس احتكاكاً به وأكثرهم اطلاعاً على أسراره وأحواله ومعرفة بأفكاره ، وبرجوعنا أيضاً إلى مؤلفات غير هؤلاء من كتاب الدولة العثمانية وعلمائها وتلاميذها

ومؤرخيها ابتداء من الوزير غداد بن لَيْمَ أمير المصالح في عهد الشيخ عثمان، ومروراً بالشيخ عبد القادر بن المصطفى ـ سبط

(14110/1)

الشيخ عثمان ـ وانتهاء بالوزير جنيد البخاري المعاصر لنا ـ رحمة الله ـ، لم نجد في كل ما كتبوه عن الشيخ وحركته وتاريخ دولته أية إشارة لا من قريب ولا من بعيد إلى الدعوة الوهابية أو إلى أحد رموزها ومشايخها ومنظريها ومصادرها الأساسية. وقد اعتمد الشيخ ابن عبد الوهاب، اعتماداً كبيراً، على ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ـ وكانا من أهم مصادره ـ ولم نجد لذلك أي صدى في كتابات ابن فودي.

... نعم، هناك في مخطوط "الآثار الكنوية" نص يقول فيه صاحبه ـ وهو من المعاصرين(1)

---

(1) ... ولد آدم بن محمد الفندكي صاحب "الآثار الكنوية من الفوداوية إلى الفلانية" سنة 1903 م.

(14111/1)

:

...

... ولما حج الشيخ جبريل، اجتمع بشريف مكة وتكلم معه في أمر التجديد، فأعطاه لواءً صغيراً، ولكن لم يؤذن له عند الانصراف، وإنما قال له: إذا أتاك الإذن فامض لشأنك، وإن لم يأت فلست بصاحبها، وسيأتيك صاحبها. فلما رجع إلى وطنه، حضره للتهنئة أكثر الناس وجميع التلاميذ ما عدا الشيخ عثمان فلم يحضر إلا بعد مدة طويلة، فلما حضر وسلم عليه قال: أين الوديعة؟ فقام الشيخ جبريل، فأتى باللواء ثم تكلما طويلاً. فلما ابتدأ الأمر(1)، اجتمعوا أن يبايعوا الشيخ فأبى حتى أتوه

---

(1) ... يقصد ابتداء أمر دعوة ابن فودي.

(14112/1)

بنصوص وحجج فقال: [إن] كان لابد فبايعوني وأنا أبايع القرآن والسنة(1).

... وهذا النص، فضلاً عن كونه لم يوثق روايته بأي سند أو إحالة على أي مصدر موثوق، ولم نجد في الكتابات السابقة ما يؤيد المعلومات الواردة فيه، لا يؤكد الاتصال برجال الدعوة الوهابية ولكن بشريف مكة. ومن

المعروف أن شرفاء (حكام) مكة لم يكونوا من المناصرين لدعوة الشيخ ابن عبد الوهاب. ثم إن شريف مكة ـ حسب النص ـ لم يأذن للشيخ جبريل بالقيام بدعوة التجديد، وإنما أمره بانتظار صاحب الدعوة

---

(1) ... الآثار الكنوية، ص. 32، مصور عن مخطوط خاص.

(14113/1)

(الذي هو الشيخ عثمان). وهذا يتنافى مع قول ابن فودي متحدثاً عن شيخه جبريل:

... فوالله لا ندري هل [كنا] نهتدي إلى سبيل السنة وترك العوائد الذميمة لولا تنبيه هذا الشيخ المبارك وكل من أحيى السنة وهدم العوائد الذميمة في بلادنا السودانية هذه فهو موجة من أمواجه. ولذلك قلت شعراً:

إن قيل فيَّ بحسن الظن ما قيلا فموجة »أنا من أمواج جبريلا«(1)

فقد اتفقت الروايات على أن الشيخ جبريل كان سباقاً إلى إعلان دعوة الإصلاح ومحاربة البدع وإحياء السنة، ثم

إن النص وارد في سياق إبراز

---

(1) ... إنفاق الميسور، ص. 70.

(14114/1)

كرامات الشيخ عثمان الخارقة وما تنبأ له به المنجمون والأولياء والعلماء - على حد زعم المؤلِّف - حول ظهور دعوته(1).

... III - ومهما يكن من أمر، فإن الذي نستطيع أن نؤكده في شيء من الاطمئنان هو أن كل مطالع لمؤلفات الشيخ عثمان وأخيه عبد الله

---

(1) ... ورد النص ضمن باب بعنوان: "باب في الكلام على الدولة الرابعة الفلانية العثمانية، وهي مما أخبر به كثير من الأولياء والعلماء، وقد أخبر بها المنجمون... وأخبر بها أهل الجفر نحو ستمئة سنة وعشرين سنة هجرية. وقد ذكرها أبو العباس اليوني في كتاب "شمس المعارف"...".

(14115/1)

وابنه محمد بلّو وغيرهما من كتاب الدولة العثمانية وعلمائها طيلة الحقبة التي استمرت فيها، سيلاحظ ـ بلا شك ـ ظاهرة ذلك الحضور المكثف للمصادر المغربية من جهة والمالكية الأشعرية من جهة ثانية. وحين نقول "المصادر المغربية"، فنحن نعني بها تلك التي ألفها علماء من مختلف أقطار المغرب العربي وبلاد الأندلس، من أمثال الشيخ أحمد زروق ومحمد بن عبد الكريم المغيلي ومحمد السنوسي في مؤلفاتهم العديدة، وأبي عبد الله ابن الحاج صاحب المدخل، والقاضي عياض، وعبد الملك بن حبيب، وابن رشد، ومكي بن أبي طالب القيسي، ومحمد بن

(14116/1)

أبي جمرة (الأندلسي دفين مصر)، وأبي الحسن علي بن حاتم النجيبي المعروف بالزقاق، وأحمد بن علي المنجوري، وابن فرحون، والونشريسي صاحب "المعيار"، والباجي، وابن زرب، وابن لب، وابن خلدون، والمازري، ومحمد بن أحمد السبتي، وابن عرفة، والقرطبي، والإشبيلي (شارح "الأربعين النووية")، وابن عبد البر، والكلاعي، والشاطبي، والسهيلي، وابن جزي الكلبي، وأبي زيد القيرواني، وأبي القاسم البرزلي، وعبد

العزيز الأندلسي، ومحمد بن أحمد الأندلسي الساحلي (صاحب "بغية السالك")، وأبي العباس أحمد بن نصر الداودي الطرابلسي، وسحنون،

(14117/1)

وأبي عبد الله المواق، وأبي مهدي عيسى الغبريني التونسي، وأحمد المقري (في "عقائد أهل السنة")، وصالح بن عبد الرحمن الأوجلي، وأحمد بن خلف المعروف بحلولو، وميارة الفاسي، وعبد الرحمن الأخضري، والهاروشي (عبد الله بن محمد الخياط الفاسي التونسي)، وعبد الرحمن التاجوري، وابن زكري التلمساني، والأبي (محمد بن خلف التونسي)، وعبد الرحمن الثعالبي، والعربي الفاسي، وعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، وأحمد بن عبد الله الجزائري (صاحب "القصيدة الجزائرية" المشهورة في العقائد)، والجزولي (في "شرح الرسالة")، هذا فضلاً عن

(14118/1)

بعض علماء الصحراء والسودان الغربي أمثال أحمد بابا التنبكتي، والمختار الكنتي، ومحمد بن المختار الأعمش،

ومحمد الوالي، ومحمد الطاهر بن إبراهيم، وجبريل بن عمر، فضلاً عن الشراح الكثيرين لمؤلفات هؤلاء العلماء من المغرب والأندلس والصحراء والسودان الغربي.

... هذه بصفة عامة أمثلة من المصادر الدينية المغربية التي اعتمد عليها الشيخ عثمان في تنظيراته وكتاباته المختلفة، استخرجناها بالاستقراء والتتبع لجملة ما توافر لدينا من مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة. ومثل ذلك نجده في كتابات أخيه عبد الله وابنه محمد بلَّو،

(14119/1)

وغيرهما من منظري الحركة ومؤلفيها.

... وبعد ذلك، تأتي في المرتبة الثانية المصادر المالكية المشرقية، وعلى رأسها: كتب الإمام مالك، والشيخ خليل، والخرشي، والقرافي، والشبرخيتي، والأجهوري، وعبد السلام اللقاني، وسالم بن محمد السنهوري (شارح خليل)، ومحمد بن إبراهيم التتائي (شارح خليل)، وأبي الحسن المالكي (علي بن محمد بن خلف المصري صاحب "الكفاية في شرح الرسالة")، وابن عطاء الله السكندري، وسواهم من شيوخ المالكية وشراحها.

(14120/1)

... وبعدها تأتي في المرتبة الثالثة من حيث الأهمية المصادر المشرقية الشافعية، كمؤلفات السيوطي، والشعراني، وابن حجر، والقسطلاني، وأبي حامد الغزالي، وعز الدين بن عبد السلام، والسخاوي، والبيضاوي، والزركشي، والقشيري، والتفتازاني.

... ثم بعدها المصادر الحنفية كمؤلفات القونوي (محمود بن أحمد)، وابن البزاز (صاحب "الفتاوى")، وأبي الليث السمرقندي (نصر بن محمد)، وشهاب الدين الخفاجي.

... أما غير ذلك من المصادر الحنبلية، فهو نادر جداً.

(14121/1)

... هذا، علماً بأن المصادر الأساسية قبل هذا النوع أو ذاك عند الشيخ عثمان بن فودي، هي القرآن الكريم وتفاسيره وكتب السنة المعروفة كالبخاري ومسلم وغيرهما.

... ولنتوقف الآن، بعدما عرفنا أهمية المصادر المغربية وتأثيرها الواضح في كتابات ابن فودي ورجالات حركته، عند ثلاثة نماذج من العلماء المغاربة، كان لها اثر قوي

في تكوين الشخصية العلمية لزعيم هذه الحركة وهو الشيخ عثمان، وصياغة أفكاره الإصلاحية، وتوجيه دعوته، وحضور واضح ملموس في جل كتاباته وتنظيراته، وكذا في كتابات الشخصيات البارزة من رموز هذه الحركة

(14122/1)

وقادتها وموجهيها.

... وهذه الشخصيات الثلاث التي نعنيها هي:

... 1 ـ الفقيه الداعية الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي؛

... 2 ـ الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن الحاج العبدري الفاسي؛

... 3 ـ الشيخ الفقيه أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي.

... IV ـ المغيلي وتأثيره في حركة ابن فودي: أما الإمام محيي الدين محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني(1)

---

(1) ... مصادر ترجمة المغيلي كثيرة جداً ما بين قديمة وحديثة، نكتفي منها بذكر ما يلي:

... 1 ـ دوحة الناشر، لابن عساكر؛

... 2 ـ نيل الابتهاج، للتنبكتي؛

... 3 ـ البستان، لابن مريم؛

... 4 ـ شجرة النور الزكية، لابن مخلوف؛

... 5 ـ لقط الفرائد، لابن القاضي؛

... 6 ـ فهرس الفهارس، للكتاني؛

... 7 ـ تعريف الخلف، للحفناوي؛

... 8 ـ معجم أعلام الجزائر، لعادل نويهض؛

... 9 ـ دائرة المعارف الإسلامية (مادة: "المغيلي")؛

10 ـ الإمام المغيلي وآثاره في الحكومة الإسلامية في القرون الوسطى في نيجيريا، لآدم عبد الله الألوري؛

11 ـ The Life and Teaching of Al-Maghali، وهي أطروحة دكتوراه قدمها حسن إبراهيم كوارزو سنة 1972 م بلندن (مرقونة).

12 ـ فراج عطا سالم، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي، "دراسة تاريخية ببلوغرافية"، مجلة عالم الكتب، الرياض، م 11، ع 3، 1990.

(14123/1)

(ت 909 هـ)، فكان ـ بحق ـ أكبر داعية إسلامي عرفه الغرب الأفريقي خلال القرن التاسع وبداية العاشر

الهجري. فبعد رحيله من تلمسان وإقامته في توات التي كان له فيها قصته المشهورة مع اليهود الذين استولوا على الموارد الاقتصادية، واستعلوا على المسلمين، وأفسدوا الأخلاق والذمم، قام هذا الداعية الكبير برحلته الطويلة إلى مناطق السودان الغربي، وظل مشتغلاً بالدعوة والوعظ والتدريس والقضاء والفُتْيا وبَذْل النصح لأمرائها وأولي الأمر فيها. وطاف بعدد من عواصمها وأقاليمها فزار كانوا وكَشنَة في شمال نيجيريا، وكاغو

(14124/1)

(أو جاو) (الواقعة في مالي حالياً) وتَكَدَّة من منطقة أهير (التابعة للنيجر حالياً)، وغيرها من البلاد الواقعة بين نهري السنغال والنيجر. ويقول بول مارتي: »ونحن نعلم ـ حسبما هو متداول من معلومات ـ أن الإسلام دخل إلى بلاد الجرما والبلاد المجاورة إلى تساوة (Tessaoua)، وزندر (Zinder) بواسطة الشريف الكبير محمد بن عبد الكريم المغيلي، أو بالأحرى بواسطة تلاميذه المباشرين في القرن الخامس عشر«، إلى أن يقول: »لقد هبط المغيلي مع نهر النيجر إلى ناحية ساي ()(1Saye)

---

(1) ... منطقة "ساي" هذه هي التي توجد بها الجامعة الإسلامية بالنيجر حالياً، وتبعد عن نيامي بحوالي 50 كلم.

(14125/1)

وأرسل بعثات من قبله إلى بلاد جرما جندا (Djermagenda)، وربما إلى الشرق أيضاً«(1).

... وقد استُقبلتْ وفادة المغيلي إلى هذه المناطق بحفاة بالغة، وقربه أمراؤها وملوكها وجعلوا منه مستشارهم الخاص ومرجعهم الفقهي الأعلى، وكتب لهم رسائل ووصايا وفتاوى في أمور الحكم والدولة والسياسة الشرعية، منها:

... أ) »مجموعة في أمور الإمارة وسياسة الدولة التي ألفها لأمير كانوا محمد ابن يعقوب المعروف بَرمْفت، وهي التي طبعت بعنوان مخترع: "تاج

---

(1) ... Paul Marty, L'Islam et les tribus dans la colonie du Niger, p. 342.

(14126/1)

الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين «(1). وقد سلك فيها مسلك أسلافه من علماء المسلمين الذين ألفوا كتباً في نصح الملوك، وإرشاد السلاطين مثل أبي بكر الطرطوشي في "سراج الملوك"، والماوردي في الكتاب المنسوب إليه باسم: "نصيحة الملوك"، وكتابه المشهور "الأحكام السلطانية"، والغزالي في كتابه "التبر المسبوك في نصيحة الملوك"، وابن الأزرق الأندلسي في: "بدائع السلك في

(1) ... طبعت هذه المجموعة طبعات متعددة وترجمت إلى الإنجليزية، وآخر طبعاتها صدرت سنة 1994 م، عن دار ابن حزم (بيروت)، بتحقيق محمد خير رمضان يوسف.

(14127/1)

طبائع الملك"، والحميدي في "الذهب المسبوك في وعظ الملوك" وغيرها مما هو معروف؛

... ب) ثم كتب للأمير رَمْفَا محمد بن يعقوب لأمير كانو وصية أخرى في ما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام(1)؛

... ج) ثم مكث مدة عند السلطان محمد بن أبي بكر

التوري المعروف بالحاج أسكيا أمير مملكة سنغاي، وألف له أجوبة عن

---

(1) ... ترجمها ريشار بلمر (R. Palmer) إلى الأنجليزية سنة 1914 م، ثم نشرها الألوري في كتابه "الإسلام في نيجيريا"، وضمنت أيضاً في كتاب "ضياء السياسات" لعبد الله بن فودي الذي نشره د. أحمد كاني سنة 1988.

(14128/1)

أسئلة كثيرة وجهها إليه، وهي المجموعة التي عرفت باسم: "أسئلة أسكيا وأجوبة المغيلي"(1)؛ فكانت بمثابة الحجة الشرعية الدامغة التي استعملها أسكيا في توطيد دعائم ملكه ومواجهة خصومه.

... وكان المغيلي بجانب ثقافته الدينية الواسعة وقيامه بأمور الوعظ والإرشاد، ومعرفته بأمور السياسة الشرعية. صوفياً على الطريقة القادرية. وكثير من الباحثين يعتقدون أنه كان له دور كبير في نشر هذه الطريقة بالسودان الغربي(2)

---

(1) ... نشرها عبد القادر زبابدية سنة 1974 م بالجزائر

وترجمت إلى الفرنسية والإنجليزية.

(2) ... انظر النصوص الخاصة بذلك في كتاب بول مارتي عن: كنتة الشرقيون، تعريب محمد محمود ولد ودادي، دمشق، 1985؛ وانظر كذلك: خ. هونوبك في مقاله عن المغيلي بدائرة المعارف الإسلامية، ط الفرنسية.

(14129/1)

، بل منهم من كان يعتقد أن المغيلي هو أول من نشر الطريقة بالسودان(1)، أو هو الناشر الحقيقي لها في أقل الأحوال(2).

... ومهما يكن، فإن المتفق عليه بين جميع الدارسين الذين تناولوا شخصية المغيلي من القدامى والمحدثين ومن العرب والغربيين، هو أن الرجل كان له تأثير قوي وملموس جداً ظل صداه يتردد بعده قروناً طويلة. وهذا يلخصه الشيخ الأمين محمد عوض الله بقوله:

---

(1) ... آدم الألوري، الإسلام في نيجيريا، ص. 43.

(2) ... بول مارتي، كنتة الشرقيون، مرجع مذكور، صص. 32 ـ 33، و ص. 141.

(14130/1)

... ونستطيع أن نؤكد من النصوص السابقة، أن الدور الذي قام به العالم الجليل المغيلي لا يدانيه أي دور قام به عالم مغربي في السودان الغربي. فقد ترك أثراً إسلامياً كبيراً، وقام بتصحيح مفاهيم كثيرة كانت مغلوطة في أذهان العامة والسلاطين(1).

... ويقول الدكتور شيخو أحمد سعيد غلادنثي، وهو أحد المثقفين البارزين اليوم في نيجيريا، ومن أبناء مدينة كانو بالذات، متحدثاً عن زيارة المغيلي لمدينته:

(1) ... العلاقات بين المغلرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغي، جدة، 1970، ص. 192.

(14131/1)

... ولقد كان لهذه الزيارة التي قام بها المغيلي إلى كانو صدى كبير، ونتائج عظيمة تركت أثراً واضحاً لا في كانو فحسب، ولكن في ولايات الهوسا جميعاً، لأن انتشار الإسلام في كانو أدى إلى انتشاره في الولايات

الأخرى [من نيجريا]. ومن ذلك الوقت نستطيع أن نقول إن ولاية كانو أصبحت ولاية إسلامية حقاً، وبدأت بعدئذ تلعب دوراً هائلاً في خدمة الثقافة الإسلامية في الولايات الأخرى... (1)

---

(1) ... الدكتور غلادنثي، حركة اللغة العربية وآدابها بنيجيريا، ط 2، الرياض، 1993 م، ص. 42. ويذكر هذا المؤلف أن أحفاد المغيلي في كانو ما يزالون إلى اليوم يحضرون مجلس أمير كانو، ويكونون في حاشيته.

(14132/1)

.

... وحين حاول المرحوم الشيخ آدم الألوري أن يؤرخ لحركة الأدب واللغة العربيين في نيجيريا في كتابه الذي سماه: "مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية"، لم يجد محيداً عن الاعتراف بتأثير المغيلي في هذه الناحية أيضاً، ودوره في ترقية العلوم العربية والثقافية الإسلامية، مما جعله يقسم عصور الأدب العربي في نيجيريا منذ قيام هذا الأدب فيها إلى العصر الحاضر، إلى خمسة أدوار رتبها على النحو التالي:

1 ـ العصر البرناوي (عصر ظهور الإسلام في نيجيريا، من القرن الخامس إلى السابع الهجري؛

(14133/1)

... 2 ـ العصر الونغري (من القرن السابع إلى القرن التاسع)؛

... 3 ـ عصر المغيلي (من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر الهجري)؛

4 ـ العصر الفلاني (يبدأ بظهور ابن فودي وقيام دولته إلى سقوطها في بداية القرن الحالي)؛

... 5 ـ العصر الأنجليزي (في القرن العشرين).

... ثم يجعل من نص بعض فتاوى المغيلي الواردة في أجوبته لأسئلة أسكيا، نموذجاً لأسلوب الكتابة العربية في هذا العصر الأدبي الذي سماه بالعصر المغيلي.

... وأخيراً يختم المرحوم الألوري في كتابه المشار إليه شهادته في حق المغيلي بالقول:

(14134/1)

... فقد استفادت البلاد منه كثيراً، وآثاره كثيرة في ميادين عديدة واضحة ملموسة لكل صغير وكبير، في الحكم والسياسة والعلم والأدب... ولقد تعلم منه الكثيرون، والكثيرون من علماء هذه البلاد؛ واتصل بسلاطين كانو وكَشِنَة وأكذر وتَكَدَّ؛ ووضع لهم وصايا سياسية على القواعد الشرعية، وهي محفوظة في الدوائر الحكومية ومعمول بها في الأوساط الرسمية(1).

---

(1) ... مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية، ط 2، 1992، (دون ذكر المكان)، صص. 18 ـ 19.

(14135/1)

... وسيطول بنا الحديث جداً لو أرسلنا لقلمنا العنان في تتبع الشهادات الكثيرة التي أدلى بها المؤرخون والدارسون من الأفارقة والعرب الغربيين في حق هذه الشخصية وتأثيرها البالغ الأهمية. وقد كتبت حوله رسائل وأطروحات وكتب ومقالات بمختلف اللغات. فلنكتف بإحالة القارئ إليها.

... ٧ ـ لقد ظل تأثير المغيلي هذا الذي تحدثنا عنه محفوظاً في ذاكرة الأجيال من أبناء السودان الغربيّ عموماً ونيجيريا على الخصوص، وظلت أعماله وآثاره

المكتوبة والروايات الشفوية المنقولة عنه يحفظها العلماء ويتداولها أهل الإصلاح والسياسة

(14136/1)

ورجال الدعوة جيلاً بعد آخر، إلى أن وصلت مرحلة قيام الحركة التي قادها عثمان بن فودي، فاستثمرتها أحسن استثمار، واعتمدت عليها أشد الاعتماد، حتى إننا لا نكاد نجد مؤلفاً من مؤلفات الشيخ عثمان أو غيره من منظري حركته والقائمين بدعوته والمؤرخين لها، يخلو من الإشارة للمغيلي والنقل عنه والرجوع إلى وصاياه وفتاواه ورسائله، والاحتجاج بأقواله وآرائه في تدعيم دعوتهم وإسناد الأفكار التي تضمنتها حركتهم الجهادية والإصلاحية والدعوية، ولا سيما أن هذه الحركة قد واجهت كثيراً من الخصوم لا من العوام فقط، ولكن من بعض

(14137/1)

العلماء والأمراء أيضاً(1)، وقامت في وجهها حملات من التشكيك والتشويش في العديد من القضايا الدينية

والدنيوية. فكانت فتاوى المغيلي وكتاباته بما لها في نفوس الجميع من الإجلال والإكبار هي الحجة الدامغة من بين الحجج التي اتكأ عليها ابن فودي وأنصاره(2)

---

(1) ... نذكر منها تلك المناظرات والمناقشات والمطارحات السياسية والدينية التي دارت بين ابن فودي ورجال دعوته، وبين الأمير محمد الأمين الكانمي، والتي أوردها محمد بلو في "إنفاق الميسور" وغيره.

(2) ... لم يكن ابن فودي ورجال دعوته هم وحدهم الذين يستندون إلى كتابات المغيلي ووصاياه في إسناد آرائهم وتدعيم مذهبهم، بل كان كثير من رجال الدعوة والسياسة أيضاً يفعلون مثل ذلك ومن الأمثلة عليه كتاب "تيسير الفتاح في الدب عن أهل الصلاح" الذي ألفه محمد أكنا السوقي (نسبة إلى كل السوق من بلاد الطوارق والواقعة حالياً ضمن بلاد مالي)، ثم الكُنْهاني في 121 صفحة كبيرة. فقد ألفه صاحبه في الرد على رجل عاب عليه وعلى قومه أنهم ساكنوا الكفار ولم يهاجروا، محتجّاً بنصوص للمغيلي من أجوبته لأسكيا ومن رسالته المسماة "مصباح الأرواح"، فكان المؤلف يتتبع عبارات المغيلي ويحللها ويشرحها ويرد على خصمه بما فهمه منها، والكتاب مخطوط بالنيجر تحصلت منه على مصورة خاصة بواسطة الأخ الأستاذ أحمد محمد الشفيع.

(14138/1)

.

... وإذا كان المغيلي قد ألف كتباً عديدة في مسائل من العلوم مختلفة كالفقه والحديث والتفسير والتوحيد والوعظ والمنطق والبلاغة واللغة والأدب والسياسة الشرعية وأنظمة الحكم(1)، فإن أربعة من هذه الآثار العلمية هي التي استأثرت أكثر من غيرها باهتمام منظري الدعوة الفُودية، وهي تلك الرسائل الثلاث التي ألفها خلال إقامته بالسودان الغربي استجابة لطلب سلطاني كانو وسنغاي، بالإضافة إلى رسالته

---

(1) ... وصل عدد مؤلفاته حسب مقالة "دائرة المعارف الإسلامية" إلى 26 عنواناً، وتجاوزت الثلاثين عند بعض الباحثين.

(14139/1)

الرابعة التي كان قد ألفها في نازلة يهود توات، وعرفت في بعض المصادر باسم: "تأليف فيما يجب على المسلمين من اجتناب الكفار"، وفي بعضها باسم:

"مصباح الأرواح في أصول الفلاح"(1).

... وهكذا، فإننا إذا عدنا مثلاً إلى كتاب: "سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان"(2) لعثمان بن فودي، فسنجد أنه قد قسمه إلى عشرة فصول قصيرة اعتمد فيها المؤلف اعتماداً كلياً على المغيلي، ونقل في تسعة فصول منها أكثر

---

(1) ... نشرها رابح بونادر بهذا العنوان سنة 1968 م، بالجزائر.

(2) ... مطبوع بطريقة التصوير في نيجيريا.

(14140/1)

كلامه في أجوبته لأكسيا؛ حتى إننا لو حذفنا منه هذه النقول والنصوص المغيلية لما بقي فيه شيء يذكر سوى فقرات قليلة، وجمل لا تعدو أن تكون تعليقاً أو وسيلة ربط بين هذا الكلام أو ذاك.

... وفي رسالة أخرى لعثمان بن فودي بعنوان "تنبيه الإخوان على أحوال أرض السودان"(1)، نجد المؤلف قد خصص فصلاً منها (وهو السادس) لذكر وصية الشيخ المغيلي لمحمد بن يعقوب سلطان كانو بالإضافة إلى نقول منه وإشارات إليه في مواضع أخرى.

---

(1) ... مخطوط مصور بالمركز الأفريقي لإحياء التراث الإسلامي التابع للجامعة الإسلامية بالنيجر.

(14141/1)

... وفي رسالته المسماة: "مسائل مهمة يحتاج إلى معرفتها أهل السودان"(1)، ينقل أيضاً عن أجوبة المغيلي لأسكيا في مواضع متفرقة ويحتج بأقواله وآرائه.

... وكذلك الأمر في كتب أخرى له مثل "وثيقة الإخوان لتبين دليلات وجوب اتباع الكتاب والسنة والإجماع"(2)، ومثل "نجم الإخوان يهتدون به بإذن الله في أمور الزمان"(3)، ومثل "سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان(4)"، ومثل "بيان وجوب الهجرة على العباد"(5)

---

(1) ... كذلك

(2) ... مطبوع بطريقة التصوير في نيجيريا (دون تاريخ).

(3) ... كذلك

(4) ... كذلك

(5) ... كذلك

(14142/1)

و"نصيحة أهل الزمان"(1) و"مصباح الزمان"(2)، وغيرها.

أما في رسالته المسماة "حصن الأفهام من جيوش الأوهام"(3)، فقد نقل فيه عن المغيلي في مواضع ثم قال: »وسُئل شيخنا محمد بن عبد الكريم التلمساني عن تحليل المطلقة ثلاثاً قبل زَوْج، فقال...«. وقد علق الألوري ـ رحمه الله ـ على كلمة "شيخنا" هذه، فقال:

---

(1) ... كذلك

(2) ... كذلك

(3) ... حصن الأفهام، مطبوع بمطبعة الزاوية بالقاهرة؛ ثم طبع بطريقة التصوير في كانو بنيجيريا، سنة 1986 م، بتحقيق د. فضل الرحمان الصديقي.

(14143/1)

... انظر قول ابن فودي: وسئل شيخنا... لقد عزا النقل إلى المغيلي ونسب نفسه إليه كالتلميذ الذي سمع أو أخذ

عن المغيلي مباشرة، مع ما بينهما من بعد العهد الذي لا يقل عن ثلاثة قرون. وإن دل ذلك على شيء، فإنما يدل على غاية التأثر وشدة التعلق بهذا الشيخ(1).

...

... وللشيخ عثمان كتاب بعنوان "كتاب تعليم(2) الإخوان بالأمور التي كفرنا بها ملوك السودان"(3)، ينقل فيه عن المغيلي في أجوبته لأسكيا، وعنه

---

(1) ... الإمام المغيلي، ص. 34.

(2) ... كذا.

(3) ... مخطوط مصور بالمركز الأفريقي بالجامعة الإسلامية بالنيجر.

(14144/1)

في "مصباح الأرواح"(1) في مواضع مختلفة، ثم يختم الكتاب بنقل الترجمة التي خصه بها أحمد بابا في "نيل الابتهاج" و"كفاية المحتاج"، فيقول: "هذا كلام المغيلي في "مصباح الأرواح في أصول الفلاح" رضي الله تعالى عنه، ونريد أن نورد ترجمته التي أوردها سيدي أحمد بابا في كتابه "نيل الابتهاج" وكتابه "كفاية المحتاج" ليُعْلَم أنه عالم سُنِّي قدوة...". وفي نهاية الترجمة التي

يوردها، يعقِّب بقوله:

---

(1) ... طبعة رابح بونار كما تقدم في هامش سابق.

(14145/1)

... قُلتُ: وقفْنا ـ بحمد الله تعالى ـ على بعض تواليفه وانتفعنا بها، منها كتاب "المسائل" الذي ألفه لأبي عبد الله محمد بن يعقوب سلطان كانو وغيرها، جزاه الله عنا الخير وجمعنا معه في علالي جنة الفردوس آمين.

... ونريد أيضاً أن نختم هذا الكتاب بذكر سندنا المتصل إليه ـ رضي الله تعالى عنه ـ الذي جاءنا من سيدي محمد المختار بن أبي بكر الكُنْتي الأموي، وهو سند ورد السلسلة القادرية، أجازني به الشيخ العالم نوح، وهو عن شيخه سيدي محمد المختار المذكور، وهو عن شيخه سيدي الشريف علي بن أحمد، وهو عن شيخه سيدي أبي

(14146/1)

النقاب السيد الأمير لُقِّب به لكونه يتلثَّم، وهو عن شيخه أخيه سيدي أحمد، وهو عن شيخه سيدي علي بن

أحمد، وهو عن شيخه أبيه سيدي أحمد، وهو عن شيخه الرقاد، وهو عن شيخه أحمد الفيرم، وهو عن شيخه عمر بن سيدي أحمد البكاء، وهو عن شيخه سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي رضي الله تعالى عنه، وقدّر اتصالنا به الاتصال الحسن في البرزخ وفي الآخرة كما قدَّر اتصالنا به في الدنيا الاتصال المعنويّ الذي هو هذا السند.

... وأخيراً، لقد ألف الشيخ عثمان كتاباً سماه "أصول العدل لولاة الأمور وأهل الفضل"(1)

---

(1) ... مطبوع بطريقة التصوير في نيجيريا (دون تاريخ).

(14147/1)

، اقتدى فيه اقتداءً تامّاً بكتاب المغيلي لأمير كانو محمد بن يعقوب، المطبوع باسم "تاج الدين..."، بل لم يزد شيئاً على أن لخص كلام الغزالي في بعض تواليفه في شأن الإمارة والنصح للسلاطين والأمراء، وهي عشرة أمور أوردها "على وجه التلخيص والاختصار مخافة التطويل المؤدي إلى الملل«(1)، ثم أتبعه مباشرة بتلخيص كلام المغيلي في الكتاب المذكور، فقال:

... فهذه أصول العدل التي ذكرها الغزالي في بعض توالفيه(2)

---

(1) ... أصول الولاية، ص. 1.

(2) ... لم يُسمِّ الشيخ عثمان كتاب الغزالي الذي لخص منه هذه الأُول العشرة ولم يذكر عنوانه. بالرجوع إلى مؤلفات الغزالي، اتضح أن النقل وقع من كتابه المسمى "التبر المسبوك في نصيحة الملوك"، ثم إن الشيخ عثمان خلط بين ما سماه الغزالي بأصول العدل والإنصاف، وهي عشرة؛ وبين ما سماه بأصول شجرة الإيمان، وهي عشرة أيضاً. فالأصلان التاسع والعاشر المذكوران هنا على أنهما من تمام أصول العدل مذكوران عند الغزالي بين أصول شجرة الإيمان. أما التاسع من أصول العدل، فهو قول الغزالي: »أن نجتهد أن ترضى عنك جميع رعيتك بموافقة الشرع... «؛ والأصل العاشر: »أن لا يطلب [السلطان] رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع...«.

(14148/1)

، وينبغي لكل أمير أن يعتني بفهمها واستعمالها، وينبغي له أيضاً أن يعتني بثمانية أمور ذكرها محمد

بن عبد الكريم المغيلي التلمساني في بعض تواليفه، وأورد كلامه على وجه التلخيص والاختصار مخافة التطويل المؤدي إلى الملل: الأمر الأول: فيما يجب على الأمير من حسن النية...(1).

... ثم أتى على تلخيص الأبواب الثمانية التي تتألف منها رسالة المغيلي في نصح الأمراء المشهورة. وبالانتهاء منها ينتهي كتاب الشيخ عثمان بلا زيادة ولا نقصان.

---

(1) ... المصدر نفسه، ص.15.

(14149/1)

... على أن تأثير المغيلي في الشيخ عثمان لا يمكن حصره في مجرد النقول الكثيرة التي نجدها تتردد في جل كتاباته، بل لقد تجاوز ذلك إلى الاقتداء بسيرته وطريقته في ردع البدع ومنهجه في الدعوة، وإلى العمل بآرائه والاقتداء بأفكاره واستعمالها في تدعيم مواقفه. وكثيرٌ من الفصول والرسائل التي كتبها الشيخ عثمان ما هو إلا تكرار أو شرح أو تلخيص أو تعليق أو إعادة إنتاج لأفكار المغيلي وكتاباته وترداد لمقولاته وآرائه.

(14150/1)

... وعلى نحو ما كان المغيلي يختم كل فصل من رسالته "تاج الدين..." بعبارة يكررها وهي قوله: »رأس البلية احتجاب السلطان عن الرعية«، كان ابن فودي أيضاً يختم كل فصل من فصول كتابه "إحياء السنة..." بعبارة (اللهم وفقنا لاتباع سنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم بجاهه عندك). أما رسالته "المسائل المهمة..."، فكان أيضاً يختم كل فصل منها بالدعاء المأثور: »اللهم أرنا الحق حقاً وأرزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وأرزقنا اجتنابه«. ومثل هذا فعله اليوسي من قبل في كتاب "المحاضرات" حين كان يختم كل فصل منه بالآية

(14151/1)

الكريمة: {لله الأمر من قبل ومن بعد}.

... فإذا أضفنا إلى كل هذا ما سبق قوله عن صوفية المغيلي وريادته في نشر الطرقة القادرية بالسودان جنوب الصحراء، وما أوردناه من اتصال سند الشيخ عثمان بسند المغيلي، وعرفنا ما كان عليه ابن فودي من اتباع لهذه الطرقة حتى أصبح له وردٌ خاص به، وله في

ذلك كتابات منها رسالته عن "السلاسل القادرية"(1)، وقصائد في التوسل بالشيخ الجيلاني(2)

---

(1) ... مطبوع بطريقة التصوير في نيجيريا.

(2) ... منها القصيدة الرائية التي كتبها بالفلانية ثم عربها أخوه عبد الله، وضمنها كتابه "تزيين الورقات"، وختم كل بيت منها باسم عبد القادر.

(14152/1)

، اتضح لنا جانب آخر من جوانب تأثر هذا الشيخ بالإمام المغيلي.

... وخلاصة القول إن الشيخ الألوري أشار إلى بعض الشخصيات من علماء السودان وبعض الحركات الإسلامية التي كان لها أثر في تكوين شخصية ابن فودي، ولا سيما حركة الموحدين والمرابطين وحركة أبي بكر النوري (أسكيا الحاج)، ثم خلص بعدها إلى القول:

... وقد تنورت أفكار ابن فودي على تلك الحركات من خلال آثار المغيلي وفتاواه ورسائله ووصاياه التي ورثها من علماء بلاده، وتأثر بسيرة المغيلي في غيرته على الإسلام والدفاع عن بيضته باللسان ثم باليد ثم بشهر

السلام... تأثر به حتى صار ينقل من كتبه كأنما ينقل منه مشافهة(1).

... هذا عن مؤسس الدولة وقائد تلك الحركة الشيخ عثمان. أما أخوه عبد الله الذي يعتبر بحق أكبر منظر ومؤرخ للدعوة الفودية، وأكبر عالم إسلامي عرفته بلاد نيجيريا وبلاد السودان الغربي، في القرن الثالث عشر الهجري، فضلاً عن تضلعه الكبير من اللغة العربية وعلومها وآدابها حتى لقبه بعضهم بـ »عربي الهوسا«، فلم يكن أقل تأثراً من أخيه بالإمام المغيلي، وكتاباته وآرائه؛ ولم يكن أقل منه اهتماماً بتراثه

(1) ... الإمام المغيلي، مرجع مذكور، ص. 34.

وحفظاً لآثاره. وإذ لا يمكن في مثل هذه العجالة تتبع سائر النقول الواردة في مؤلفات عبد الله بن فودي، فلا أقل من ذكر ثلاثة أمثلة للاستشهاد على ما نقول:

... أما كتابه المسمى "ضياء السلطان وغيره من الإخوان"(1)، فما هو في الحقيقة سوى مجموع يتضمن أربع رسائل: اثنتان منهما للمغيلي، وهما:

... ... 1 ـ رسالته في أمور السلطنة (تاج الدين)؛

... ... 2 ـ أجوبة المغيلي لأسئلة أسكيا.

... واثنتان لأخيه عثمان، هما:

---

(1) ... مطبوع في نيجيريا بطريقة التصوير (دون تاريخ).

(14155/1)

... ... 1 ـ "سراج الإخوان في أهم ما يحتاج إليه في هذا الزمان"؛

... ... 2 ـ "مصباح أهل الزمان".

... وقد صدره بمقدمة قصيرة قال فيها: »جمعت فيه حاصل ما في أربعة كتب: كتابين لمفتي الزمان محمد بن عبد الكريم بن محمد التلمساني المغيلي، وكتابين لأمير المومنين شيخنا عثمان لنستضيء بما قالا في أمور الزمان، مع تفسير بعض المجملات من كلامهما وتنبيه على ما يخفى على الجهال من فحوى عبارتهما بحسب ما فهمته«.

... وأما كتابه "ضياء الحكام فيما لهم وعليهم من الأحكام"(1)

---

(1) ... مطبوع في دار العربية، بيروت (دون تاريخ).

(14156/1)

، فقد خصص فصلاً منه لوصية المغيلي التي كتبها لأمير كانو مع شيء من الاختصار والتلخيص، وختم بالقول: »واعلم أن جميع ما ذكرته في هذا الفصل، فهو ملخص من كتاب محمد بن عبد الكريم التلمساني«(1). ...

... وفي كتاب ثالث له بعنوان "ضياء السياسات وفتاوة النوازل"(2)، نجده بالإضافة إلى نقول عن المغيلي متفرقة هنا وهنالك، يخصص مرة أخرى فصلاً منه لهذه الوصية نفسها التي كتبها محمد بن عبد الكريم

---

(1) ... ضياء الحكام، ص. 18.

(2) ... حققه وقدم له ونشره د. أحمد كاني، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط 1، سنة 1988.

(14157/1)

المغيلي إلى أمير كانو، ويقدم لها بقوله: »فإذا فهمت ما قدمنا لم يشكل عليك رسالة المغيلي إلى سلطان كانو«، ثم أتى على نص الرسالة(1).

... هذه أمثلة اقتصرنا عليها من نقول عبد الله بن فودي من المغيلي. وما على المستزيد إلا أن يرجع إلى سائر كتبه الأخرى، وهي بالعشرات ما بين مخطوط ومطبوع.

... هذا عن الشيخين عثمان وأخيه عبد الله. أما عن الأمير محمد بلّو، فقد نقل عنه بدوره في مواضع كثيرة من مؤلفاته منها "إنفاق الميسور" وغيره، وكان ينعته بـ»الحجة«. وفي هذا النعت ما فيه من

---

(1) ... ضياء السياسات، ص. 81.

(14158/1)

الدلالة التي لا تخفى على من عرف قيمة فتاوى المغيلي وآرائه في تثبيت دعائم الدولة الناشئة وتوطيد أركانها.

... VI ـ ابن الحاج وتأثيره في ابن فودي

... أما الشيخ الفقيه الزاهد أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي (ت 737 هـ)، والمعروف بابن الحاج، فقد

كان من العلماء العاملين، و»أحد المشايخ المشهورين بالزهد والخير والصلاح« كما يقول ابن فرحون(1). تلقى العلم من شيوخه بالمغرب، ثم رحل وأقام بمصر، وصحب الشيخ الصوفي أبا محمد بن أبي جمرة

---

(1) ... انظر ترجمة ابن الحاج في الديباج، لابن فرحون، ج 2، ص. 321.

(14159/1)

وتأثر به كثيراً، واستفاد منه استفادة كبيرة فيما سجله بكتابه "المدخل". وكان من أشهر تلاميذه الشيخ عبد الله المنوفي، والشيخ خليل صاحب "المختصر" في الفقه المالكي (1).

... وقد اشتهر ابن الحاج بكتابه "المدخل"، وهو "المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على كثير من البدع المحدثة والعوائد المنتحلة"(2). وقد طارت شهرة هذا الكتاب، وشرق ذكره وغرّب، ولقى عناية فائقة من العلماء وطلاب العلم لغزارة علمه

---

(1) ... انظر شجرة النور الزكية، ص. 218.

(2) ... اعتمدنا على طبعة دار الفكر، بيروت، 1986 م.

(14160/1)

وفوائده، وأهمية موضوعاته حتى قال ابن فرحون: »الوقوف عليه متعين«. فلا غرابة أن ينتشر أيضاً في بلاد السودان، ويحتفل به علماؤها وفقهاؤها ورجالات الإصلاح فيها، ويصبح من الكتب المقروءة، والمصادر المعتمدة(1)، مثلما احتفل به علماء المشرق والمغرب. ... وموضوع هذا الكتاب الجليل الذي ألفه صاحبه في أربعة مجلدات كبار، هو باختصار تعريف المسلم بما هو على طريق السنة من أوجه

---

(1) ... انظر: فتح الشكور عند ترجمته لأحمد السوداني، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1981 م، ص. 30.

(14161/1)

العبادات والمعاملات اليومية المختلفة، وما هو مخالف لذلك من البدع والخرافات الممقوتة، إما لغلوها أو لمخالفتها لأمور الدين، وتفصيل القول في كل الحالات الملازمة للمسلم منذ قيامه من نومه، وأدائه لفرائضه إلى

أكله وشربه وملبسه ومعاشرته لإخوانه وجيرانه وأهله وأولاده وأساتذته، وإلى خروجه لعمله والسعي لرزقه ومخالطته للناس في الأسواق وفي الحل والترحال، ومعاملته لغيره من العباد في مختلف أوجه التصرفات والمعاملات والصنائع والحرب والتجارات، ويبين حد الشرع في ذلك كله، وما ينبغي فعله، وما لا ينبغي حسب الكتاب

(14162/1)

والسنة.

... هذا الكتاب الاجتماعي التربوي الذي وصف فيه صاحبه كثيراً أوضاع المجتمع الإسلامي في عصره بالمشرق والمغرب، وما كان عليه أهل زمانه من البدع والانحرافات، واهتم فيه بمعالجة سلوك المسلم في حياته اليومية، وتوجيهه إلى التربية الصحيحة السليمة الموافقة لروح الشريعة والمراعية لمقاصدها، من أجل تكوين الإنسان النافع في المجتمع الإسلامي الصالح، وكان أسبق من غيره إلى التنبيه إلى عدد من أمراض المجتمع الإسلامي، والمعتقدات الفاسدة والعادات السيئة. هذا الكتاب لقي اهتماماً كبيراً عند الشيخ عثمان، وهو الذي

(14163/1)

تزعم حركة الإصلاح الديني والمجتمعي، ونصب نفسه وجرد سلاحه وقلمه لمحاربة البدع وإحياء السنة. وكان من تأثره به أن ألف على منواله كتاباً سماه "إحياء السنة وإخماد البدعة"(1) حذا فيه حذو ابن الحاج في منهجه وطريقته وموضوعه، وإن كان قد ترك كثيراً من القضايا التي لم تدع الحاجة إليها في وقته وبلاده، وأضاف قضايا أخرى مما يناسب زمانه وأهل بلده وما عندهم من العوائد الشنيعة والأفعال القبيحة، فجاء مختصراً في جزء حب الحاجة والاقتضاء. ولم يكن تأثره به مقصوراً على أخذ

---

(1) ... مطبوع بكانو، نيجيريا (دون تاريخ).

(14164/1)

المنهج والطريقة والموضوع فحسب، بل أكثر من النقل عنه والاستشهاد بأقواله والاحتجاج بآرائه بما لا يدع مجالاً للشك في درجة تأثره القصوى بهذا الكتاب وصاحبه.

... وكما نقل عنه في كتابه الذي سماه "إحياء السنة..."، نقل عنه أيضاً في مجموعة من كتبه الأخرى مثل "نصيحة أهل الزمان..." و"بيان وجوب الهجرة على العباد"(1) و"المسائل المهمة" و"تحذير أهل الإيمان من التشبه بالكفرة والعصيان"(2)

---

(1) ... حققه وترجمه إلى الأنجليزية وقدم له: فتحي حسن المصري، وطبعته دار جامعة الخرطوم للنشر، 1997.

(2) ... مخطوط مصور بالمركز الأفريقي لإحياء التراث الإسلامي التابع للجامعة الإسلامية بالنيجر.

(14165/1)

و"تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ المجلس لتعليم النسوان" و"حصن الأفهام في جيوش الأوهام"، وفي رسالته المسماة "أجوبة محررة عن مسائل مقررة"(1)، وغيرها.

... وعلى نحو ما تأثر الشيخ عثمان بابن الحاج، كان تأثر ابنه محمد بلَّو الذي نقل عنه في "إنفاق الميسور" وغيره.

... وأما عبد الله بن فوديو، فقد نقل بدوره عن "المدخل"؛ كما نقل عن كتاب آخر لابن الحاج وهو

"النوازل" أو"الأحكام" في بعض مؤلفاته، منها: "ضياء السياسات". ولم يكتف بذلك، بل وضع للـ"مدخل" تلخيصاً سماه: "لباب المدخل" قال في أوله:

---

(1) ... كذلك

(14166/1)

... قال العبد الفقير إلى عفو الله المذنب الخاطئ عبد الله بن محمد بن عثمان غفر الله لهم: الحمد لله الذي رفع أهل الدين وأتباع السنة وأَخْفضَ أهل الكفر وأتباع البدعة، صلى الله على نبيه محمد وآله وصحبه ومن تبعهم وتأدب بآدابهم إلى يوم الدين. أما بعد فهذا "كتاب لباب المدخل" في آداب أهل الدين والفضل، لخَّصتُه من كتاب محمد بن محمد العبدري الفاسي المعروف بابن الحاج الذي سماه "كتاب المدخل في تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع". فجميع ما في هذا التلخيص مذكور في "المدخل" باللفظ بالمعنى

(14167/1)

غالباً، مما ذكره في الذين يدور عليهم أمر الدين، وهم سبعة: العالم، والمتعلم، والإمام، والمؤذن، والمؤدّب، والمجاهد، والفقير المنقطع للعبادة. وجعلت لكل منهم باباً. فانظر من أيهم أنت، فتأدب بما لك من الآداب، وأسأل الله النفع به لمؤلفه أو كاتبه أو قارئه وكل منم لحظه بالرضى، والله المستعان.

... وواضح من هذا أن المؤلف لم يلخص في الحقيقة "كتاب المدخل" كله، وإنما اقتصر على قسم مهم منه هو الخاص بالأصناف السبعة المذكورين الذين يدور عليهم أمر الدين وترك أموراً أخرى غير ذلك إلا أنه كان بين الحين والأخر

(14168/1)

ينبه إلى بعض البدع الرائجة في زمانه، وما فيها من مخالفة للسنة وما كان عليه السلف الصالح. ثم ختم بخاتمة ضمّنها »ما روي من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم«، وجملة من صفاته لُيبيِّن بها السنة التي ينبغي اتباعها والصفات الحميدة التي على المسلم الاتصاف بها؛ وما خالفها، فهو بدعة.

... والخلاصة هي قول أحد علماء نيجيريا المعاصرين: » إن

ابن فودي مالكيٍّ يتمسك بآراء علماء المالكية، خصوصاً منهم المغاربة كابن فرحون وابن الحاج، وتأثره في الفقه والحديث بابن الحاج كثير. لهذا جعل كتابه "إحياء السنة" على نمط

(14169/1)

"المدخل" لابن الحاج«(1). وقوله في موضع آخر: »وكان منهج ابن فودي على نهج ابن الحاج في "مدخله"، والغزالي في "إحيائه"، وأحمد زروق في "قواعده"«(2).

... VII ـ أبو علي اليوسي وابن فودي: أما أبو علي اليوسي الفقيه المغربي المشهور (ت 1102 هـ)، فهو ذلك العالم المشارك المتضلع، المجاهد المصلح، الذي اعتبره كثير من مترجميه مجدد المئة الحادية عشرة، لما له من آراء ومواقف في الصدع بالحق، والجرأة في إبداء النصح؛ وله كتابات معروفة في

---

(1) ... آدم الألوري، الإمام المغيلي، ص. 36.

(2) ... المرجع نفسه، ص. 90.

(14170/1)

الدعوة للإصلاح ومقاومة البدع والعادات السيئة والشعوذة والخرافات.

... ولقد اشتهر اليوسي بكتابه "المحاضرات"، الذي ضمنه بعض آرائه وتأملاته، ودعوته الإصلاحية، كما اشتهر برسالته المسماة بـ "براءة اليوسي" التي وجهها إلى السلطان العلوي المولى إسماعيل، وبذل له فيها النصيحة الواجبة على العلماء، وبصره بما عليه الواجب نحو رعيته من إقامة العدل، ورفع الظلم، وإحقاق الحق، وإقامة حدود الشرع؛ وله رسائل أخرى في مقاومة أهل البدع والتشنيع ببعض العوائد والمعتقدات(1)

---

(1) ... كذلك انظر: د. عباس الجراري، عبقرية اليوسي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1، 1981، ص. 125.

(14171/1)

.

... وقد التفتت حركة ابن فودي إلى أهمية هذا الكتاب، فاستعانت ببعض ما ورد فيه من كلام يناسب اتجاهها. ولذلك نجد الشيخ عثمان ينقل منه نصوصاً تتعلق ببعض البدع والعوائد، وخاصة في رسالته "نصيحة الزمان"، وكتابه المسمى "نجم الإخوان" في مواضع شتى،

وكتاب "تعليم الإخوان بالأمور التي كفرنا بها ملوك السودان"، ورسالته المسماة "أجوبة محررة في مسائل مقررة" وغيرها. كما نقل عنه ولده محمد بلَّو في "إنفاق الميسور" في مواضع متعددة يقول في واحد منها: »إذ قد وجد في هذه البلاد طائفة مثل الطائفة التي ذكرها الحسن

(14172/1)

اليوسي، وهم طائفة نظروا في كلام من حَضَّ من الأئمة على النظر في علم التوحيد، وحَذَّر من الجهل فيه، ومن التقليد، فجعلوا يسألون الناس عما يعتقدون ويكلفونهم الجواب والإبانة عن الصواب«(1).

... ومن هذه النصوص التي ينقلها محمد بلَّو عن محاضرات اليوسي النص المشهور الذي يحكي قصة الشجرة الخضراء التي كان الناس في سجلماسة يعتقدون فيها اعتقادات فاسدة(2).

---

(1) ... إنفاق الميسور، ص. 97.

(2) ... المرجع نفسه، ص. 246.

(14173/1)

... وبجانب هذا، يتحدث المرحوم أحمد الألوري عن الشيخ عبد الله بن فُودي وآدابه وعلمه وتآليفه وأشعاره، ولا سيما مجموعته المسماة "تزيين الورقات". ثم يقول: »والواقف على أشعاره هذه لا يتردد في الاعتقاد أن عبد الله فودي قد تأثر كثيراً بالحسن اليوسي صاحب "الدالية" في مدحه للشيخ ناصر الدرعي في داليته، فاقتدى به عبد الله في مدح شيخه جبريل في قصيدته المسماة: "عُج"«(1).

---

(1) ... مصباح الدراسات الأدبية، مرجع مذكور، ص. 64 ـ 65.

(14174/1)

... وهذه القصيدة التي يشير إليها الألوري هي التي يقول عبد الله بن فودي في مطلعها(1)

---

(1) ... تزيين الورقات، صص. 10 ـ 11. ولعله من غريب الصدف أن يكون جامع ديوانه "تزيين الورقات"، المطبوع في نيجيريا طبعة مصورة، واحداً من أبناء المغاربة في الأصل، وهو الحاج عبد الرحمان بن الحاج

عثمان المغربي الصكتي مولداً وموطناً. إلا أن هذا الديوان طبع طبعة أخرى محققة سنة 1925 م في إبادان على يد M. Heskett مع ترجمة. إلى اللغة الأنجليزية، ولم يرد في هذه الطبعة ذكر لهذا المغربي جامع الديوان كما ورد في الطبعة الصوكوتوية المصورة.

(14175/1)

:

وهي قصيدة طويلة في 64 بيتاً حشيت بالغريب والحُوشيِّ من الألفاظ، ودلت على قدرة صاحبها اللغوية، وتضلعه من علومها كما هو معروف عنه.

عُجْ نحو أضواج(1) الأحبة من مَج(2)

واشرب من الأنشاج(3) ماء الزُّعْبج(4)

سُحَّ الدموعَ على منازلهم بها
قف عندها، سَلْ مَنْ بها، فعسى تُجب

---

(1) ... أضواج: ج ضَوْج، وهو منعطف الوادي.

(2) ... مَج: واد هنالك كان قد نزل فيه الشيخ جبريل.

(3) ... أنشاج: جمع نَشَج، وهو مجرى الماء.

(4) ... الزَّعْبج، كجعفر: الغيم الأبيض والرقيق والخفيف.

(14176/1)

واشف الجنان من الهموم الدُمَّج(1)

حَوجاء(2 َ(أو لوْجاء(3) تُرْضي مَنْ شُجِي(4)

... أما القصيدة الدالية للحسن اليوسي(5) التي يشير إليها الألوري، ويرجح أن يكون الشيخ الوزير عبد الله بن فودي قد تأثر

---

(1) ... الدُمَّج: المُدمجة، أي الداخلية.

(2) ... حوجا: تأنيث أحوج، وهو المحتاج.

(3) ... لوجاء: يقال: مالي فيه حوجاء ولا لوجاء، أي حاجة؛ ولوجاء أيضاً: ملتوية.

(4) ... شُجِي: أُحْزِنَ أو حَزِنَ.

(5) ... وهي تزيد على خمسمئة بيت مطلعها:

عَرِّجْ بمنعرج الهضاب الوُرَّدِ بين اللَّصاب وبين ذات الأرمدِ

(14177/1)

بها، فقد كانت من الشيوخ الذي يحفظونها ويُدرِّسونها لطلابهم. فقد ذكر الشيخ عبد الله بن القاضي الحاج ـ من علماء نيجيريا في القرن التاسع عشر الميلادي ـ في كتاب ألفه في التعريف بشيخه أبي عبد الرحمن مصطفى بن محمد التورودي وذكر مناقبه(1)، ترجمة لأحد العلماء المغمورين المسمى »مُودِ مَاركان« ـ والاسم دال على أنه من أصل مغربي ـ كان شيخاً للتورودي، وكان »عالماً متقناً للفنون بارعاً في الصناعة العربية لا

---

(1) ... مخطوط مصور بالمركز الأفريقي لإحياء التراث الإسلامي بالجامعة الإسلامية بالنيجر (دون عنوان).

(14178/1)

سيما اللغة، مبرزاً في المعقول وسائر العلوم النظرية كالمنطق وعلم الكلام، وحيد عصره وفريد دهره في الحسا وعلم الفرائض«. قال صاحب الكتاب: »وعلى هذا الشيخ المبارك ـ رحمه الله ـ قرأ شيخنا(1) رضي الله عنه غالب كتب اللغة من ديوان الشعراء الستة و"المقامات(2) الحريرية" وغيرها، ما عدا "الدالية" للإمام الأديب الحسن اليوسي رضي الله عنه و"الهمزية" للإمام البوصيري رحمه الله في مدح النبي صلى الله عليه وسلم،

فهما من جملة مسموعاته على

---

(1) ... يقصد مصطفى التورودي.

(2) ... في الأصل "المقامة"، وهو خطأ في الرسم.

(14179/1)

شيخه الأكبر العالم العلامة عبد الله بن فودي رحمه الله، لأنه لما طلب قراءة هذين الكتابين على شيخه "مُودِ" اعتذر له بعدم نقله إياهما، فأحاله إلى شيخه الأكبر، فقال له: هو أوسع مني باعاً فيهما«(1).

---

(1) ... المرجع نفسه، ص. 13. ويذكر المؤلف أن هذا العالم ذا الأصل المغربي (مودِ مارُكَانْ) مات بمدينة صوكوتو وفيها دفن، وحضر جنازته السلطان محمد بلَّو وجميع من في المدينة من الصلحاء والعلماء وأكابر الفضلاء.

(14180/1)

... وما دمنا بصدد الحديث عن تأثير علماء المغرب في الحركة الفكرية والعلمية والدينية على عهد الدولة العثمانية الفودية، فلنختم بجزء آخر مما ورد في ترجمة

"مَودِ مارُكان" لتعلقه بعالم مغربي آخر لم يكشف التورودي عن اسمه، وضع شرحاً على "تسهيل" ابن مالك في النحو، وكان له قبول حسن عند علماء المنطقة، قال القاضي عبد الله وهو يترجم للشيخ "مُودي" المذكور: ... فناهيك من تحقيقه وتدقيقه، تصديه لاستنباط ما في تسهيل جمال الدين بن مالك رضي الله عنه مع صعوبة معانيه ودقة مبانيه وإعواز شروحه المتكلفة لبيانه في هذه

(14181/1)

البلاد، خلا شرح الدماميني رضي الله عنه، مع أن النسخ التي كانت هنا غير صحيحة ولا كاملة لما فيها من كثرة اللحن. وعلى نسخته التي كتبها بيده وصححها وهذبها بقوة عارضة نظره مدار من يتعاطى هذا الكتاب اليوم من الطلبة، وبها قرأنا على شيخنا، ثم مَنَّ الله تعالى عليه بعد وفاة شيخه(1) الذي فتح الباب إلى سبيل هذا الكتاب، بشرح لطيف ظريف وجيز الألفاظ سهل العبارة، لعالم مغربي، فكان صغير الحجم. لقد بين مكنون متن "التسهيل" لكل ذي فهم، ولا شك أن هذا العالم الذي بذل جهده لو

---

(1) ... يقصد الشيخ مودي مَارُوكَانْ.

(14182/1)

وجد هذا الشرح لاعتمد عليه، ولكان له عاضداً ومساعداً على تهذيبه وتنقيحه.

(14183/1)

ملامح من الدراسات الإسلامية في إعداد العالم المجتهد

... ... الدكتور محمد البطاينه

... ... جامعة اليرموك.الأردن

... في ظل الضمور والانكماش الذي تعيشه المنطقة العربية الإسلامية أمام الهيمنة التي تمارسها عليها الآلة الغربية بجميع أشكالها ومظاهرها، وإزاء الأحوال المختلفة من التبعية والصور المتعددة من الإلحاق التي تتعرض لها وتُفرض عليها، يشعر المرء وكأنه يغرق في محيط سُدت فيه المنافذ عليه، وأُقيمت الأرصاد من كل

جانب، وحيل بينه وبين أمته وتاريخها؛ وحتى الثقافة التي تمثل آخر

(14184/1)

المعاقل والحصون في الحفاظ على الأمة وصلتها بالجذور وصد الاعتداءات عنها، لم تَسْلم هي أيضاً من آثار الهيمنة والتسلط، أصابها الشواظ في كل مظهر من مظاهرها؛ ولم تَنجُ الجامعات والمعاهد وبرامج الدراسات فيها من ذلك فهل في تاريخ الأمة الثقافي من العناصر والخبرات ما يصلح لرفد الحاضر، وينفع في توثيق الصلات بينه وبين ذلك الماضي، ويحفظ الاستمرار الحضاري بينهما في مجال هذه الدراسات؟ ولاشك أن السؤال كبير، وأن الجهد والوقت المتاحيْن لهذه المقالة لا يساعدان على تقديم إجابة شاملة ووافية شافية. ولا يزيد العمل

(14185/1)

في هذا الجانب عن أن يكون محاولة متواضعة قد تسد ثغرة ويفوتها ثغرات. وسوف تتجه هذه المقالة إلى مجال الدراسات الإسلامية بعامة والفقهية بخاصة، وليس إلى

الدراسات التاريخية: فالدراسات التاريخية بعض ثمار النهضة العلمية الإسلامية، وهي فرع من فروعها الثقافية؛ وليست العلوم الإسلامية أو التاريخية مقصودة لعينها في هذا المجال، فالمقصود هو تعرُّف خطط هذه الدراسات وأساليبها في البحث والبناء المعرفي وأهدافها المنشودة في إعداد "العالِم المجتهد".

(14186/1)

... وفي هذا الجانب، تشترك العلوم الإسلامية جميعاً، وتكاد تكون واحدة. ويكون اتخاذ العلوم الفقهية مجالاً للدراسة والاستشهاد والاستدلال أكثر فائدة وتحقيقاً للغرض ووفاء بحاجات الدراسات العليا في الوقت الحاضر، الإسلامية منها والتاريخية، وذلك لما كانت تحظى به تلك العلوم من العناية والاهتمام في ذلك الوقت من جهة، وتأثر العلوم التابعة لها كالدراسات التاريخية بأسلوبها في الدرس والمعالجة من جهة أخرى.

...

الدراسات الإسلامية

(14187/1)

... حضَّ الإسلام على العلم وطَلَبه وتعلِّمه وتعليمه، وأثنى على العلماء وأعلى شأنهم، فجعلهم ورثة الأنبياء وحَمَلَة رسالتهم إلى الناس يزيحون أستار الظلام والظلمات عن وجه الحياة. فراجت في أجواء هذه الدعوى والتكريم سوق العلم، واشتد التنافس فيه، وعمّت حلقاته أرجاء البلاد الإسلامية، ونُصبت راياته، وعلت أعلامه دراسة وتدويناً لا تُحْصى بيسر لكثرة آثاره ومدوّناته. وبادر الخلفاء والملوك والوزراء والأمراء والأغنياء وأهل الإحسان رجالاً ونساء يوقفون الوقوف على العلم وأهله، مما ضمن إدرار الأرزاق والجرايات

(14188/1)

والنفقات على المشتغلين به أساتذة وطلاباً.

... وقد اتجهت جهود العلماء منذ فجر الإسلام إلى العناية بالقرآن الكريم والسنة النبوية عناية كبرى شملت جميع النواحي وأحاطت بكل ما يتصل بهما. ولا يكاد علمٌ من العلوم والمعارف التي اشتغل المسلمون بها إلاّ وله بهذه العناية صلة ونسب. فالتفسير للنظر في القرآن وبيان ألفاظه ومعانيه، والقراءات لقراءة القرآن وضبط أدائه وحفظ لهجاته، وأصول الفقه للنظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام، والفقه لمعرفة

أحكام الله تعالى في أفعال المكلَّفين، وعلوم الحديث لمعرفة

(14189/1)

الناسخ والمنسوخ من الأحاديث، والنظر في الأسانيد ورواة الحديث ومعرفة أحوالهم وعدالتهم، وعلوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة وأدب وشعر وعروض، لتقويم اللسان وعَصْمه من الخطأ في قراءة القرآن، وبيان الإعجاز فيه والكشف عن أسراره الأدبية، وأنه ليس بشعرٍ وأن محمداً – صلى الله عليه وسلم – ليس بشاعر، والمنطق لأصول الفقه وعلم الكلام، وعلم الكلام للحِجَاج عن العقائد الإيمانية والدفاع عنها وحمايتها بالأدلة العقلية. وحتى التاريخ وتقويم البلدان وعلوم الكائنات والحيوان والنبات والفلك والنجوم والطب والحساب والهندسة

(14190/1)

والفلسفة وغير ذلك من العلوم، كان الاشتغال بها تحقيقاً لما جاء في القرآن الكريم من إيحاءات واستجابة لحاجات المجتمع ومتطلبات الحياة المتجددة (1)

_____

(1) انظر: الماوردي، أدب الدنيا والدين، صص. 44 ـ 50؛ الغزالي، إحياء علوم الدين، صص. 5 ـ 10، 17 ـ 23؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة عامر بن شراحيل الشعبي؛ ابن الجوزي، المنتظم، ج 14، ص. 293، ج 17، ص. 249، ج 18، ص. 239؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ترجمة الوزير الفضل محمد بن العميد؛ البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، ص. 7، 9، 52، 54، 74 ـ 76 ومواضيع متفرقة أخرى؛ ابن خلدون، المقدمة، صص. 528 ـ 549، 557 وما بعدها؛ محمود شلتوت، تفسير القرآن، صص. 13 ـ 15؛ منير الدين أحمد، تاريخ التعليم عند المسلمين، صص. 82 ـ 83.

(14191/1)

.

...

مراحل الدراسة

... ميّز الباحثون من خلال دراسة بعض كتب التراجم وغيرها مرحلتين دراسيتين في تاريخ التعليم عند المسلمين، كانت الأولى مرحلة "المكتب" أو "الكتّاب". وهي مرحلة قريبة الشبه بالمرحلة الابتدائية في أيامنا الحاضرة، وكان الاهتمام ينصبُّ فيها على العربية والقرآن الكريم مع بعض الاختلافات اليسيرة في مواد

التعليم بين أهل الأندلس والمغرب وأفريقية والمشرق.

وكان التدريس يستمر فيها إلى حد بلوغ الشبيبة (1)

---

(1) انظر: ابن قتيبة، المعارف، صص. 238 ـ 239؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج 1، ص. 328؛ أبو العرب، طبقات علماء أفريقية، صص. 2 ـ 21؛ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج 1، صص. 42 ـ 43، 48؛ ابن خلدون، المقدمة، صص. 523 ـ 525.

(14192/1)

.

... وبعد أن يستجيد الطالب الكتابة والقراءة وحفظ القرآن، كان يجوز له أن ينتقل إلى مرحلة تالية متقدمة للتبحر في العلم والتخصص فيه، يمكن إطلاق اسم مرحلة الدراسات العليا (1) عليها. وقد اشتملت مناهج مرحلة الدراسات العليا على العلوم التي ذكرنا آنفاً وما لم نذكر من العلوم الشرعية وما يلحق بها والعلوم العقلية. وكانت مدة الدراسة في هذه المرحلة طويلة، وقد تستوعب عمر الإنسان كله دارساً ومدرساً (2).

---

(1) منير الدين أحمد، تاريخ التعليم عند المسلمين،

صص. 50 ـ 53.

(2) المصدر نفسه، ص. 74.

(14193/1)

أماكن إجراء الدراسة ونظامها

... كانت الدراسة تُعقد في المساجد والجوامع كالمسجد الحرام في مكة، والمسجد النبوي في المدينة، وجامع المنصور في بغداد وأمثالها من المساجد والجوامع في المدن الأخرى. وقد كان المسجد الجامع الذي أنشئ عام 79 هـ/ 698 م في تونس نواة جامعة الزيتونة فيها من بعد، وكان المسجد الجامع الذي أنشئ في فاس عام 245 هـ/ 859 م نواة جامعة القرويين فيها، وكان المسجد الجامع الذي أنشئ في القاهرة عام 361 هـ/ 971 م نواة جامعة الأزهر(1)

---

(1) صبحي عبد الحفيظ، "عضو هيئة التدريس الجامعي، أعداده ومسئولياته ومشكلاته"، ضمن أعمال ندوة عضو هيئة التدريس في الجامعات العربية، جامعة الملك سعود، الرياض، 14 ـ 17/5/ 1403 هـ/ الموافق 27/2 ـ 2/ 3/ 1983 م.

(14194/1)

. كما كانت الدراسات تعقد في منازل العلماء وحوانيتهم وغيرها من المواضع. ثم أنشئت المدارس كالمدرسة النظامية في بغداد وغيرها في فترات تالية، وصارت تحتضن حركة العلم، وتعقد فيها مجالسه وحلقاته(1).

... كانت الدراسة تجري إما على نظام الحلقات، وإما على نظام المجالس(2)، وكلا النظامين كانا من أشكال الدراسة

---

(1) انظر: ابن الجوزي، المنتظم، ج 16، صص. 304 ـ 306، ج 17، ص. 92، ج 18، ص. 203، 239؛ الذهبي، دول الإسلام، ج 1، ص. 269، ج 2، ص. 136.

(2) انظر: منير الدين أحمد، تاريخ التعليم عند المسلمين، صص. 54 ـ 55.

(14195/1)

التي عرفت منذ أيام الرسول – صلى الله عليه وسلم – (1).

... وقد سُميت الحلقة بهذا الاسم، لأن الطلاب كانوا يتحلّقون جلوساً حول شيخهم. وهذا يُشعر بأن عددهم

كان محدوداً، و"حلقة بحث أو دراسة" في هذه الأيام (Research Seminar أو Reading Seminar) قريبة الشبه من ذلك

... وأما المجلس، فسمّي بهذا الاسم لأنه موضع الجلوس. ولم يكن اصطفاف جلوس الطلاب فيه كما في الحلقة، وقد يكون عدد الطلاب الذين يحضرونه أكثر أحياناً من طلاب الحلقة، و"المحاضرة" اليوم (Lecture) شبيهة

---

(1) انظر: الماوردي، أدب الدنيا والدين، ص. 44.

(14196/1)

بذلك

...

صلة المواد الدراسية بحاجات المجتمع

... لم تكن العلوم التي كانت موضع عناية الدراسات العليا واهتمامها واحدة منذ فجر الإسلام حتى عز العطاء العلمي للمسلمين وبداية التراجع فيه. فقد عملت المشكلات والحاجات المستجدة على ظهور بعض العلوم التي كانت تضاف إلى العلوم السابقة. وعلى سبيل المثال، كان الخلفاء الراشدون أئمة وعلماء فقهاء في أحكام الإسلام، ومستقلين بالفتاوى في الأقضية؛ فلم

يستعينوا بالفقهاء إلاّ نادراً. فلما أفضتْ الخلافة بعدهم إلى خلفاء لا استقلال لهم بعلم الفتاوى والأحكام، اضطروا إلى

(14197/1)

الاستعانة بالفقهاء، وألحوا في طلبهم لولاية القضاء والأحكام. فلما رأى أهل تلك الأيام عز العلماء وإقبال الحكام عليهم، اشرأبّوا لطلب العلم وأكبوا على علم الفتاوى والأقضية، لشدة الحاجة إليها في الولايات والحكومات. ثم ظهر من بعد ذلك من الأمراء وأولي الأمر من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد، ومالت نفوسهم إلى سماع الحجج والمناظرة والمجادلة، فأكبّ الناس على علم الكلام. ومن بعد علم الكلام، ظهرت المناظرة والميل إلى علم الخلافيات والمناظرات في الفقه (1)،

---

(1) انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ص. 42.

(14198/1)

وهكذا دواليك وهي أمثلة تدل على مدى الارتباط بين خطط الدراسات العليا وحاجات المجتمع ومرونة هذه الخطط في تعديل أوضاعها لتلبية متطلبات الحياة وحل مشكلاتها.

التخصص في الدراسة

... ميز العلماء المسلمون بين علوم مطلوبة ومقصودة لعينها، وعلوم هي الآت ومقدمات ومطلوبة لغيرها.

وقالوا: لو تجرد الطالب للاستقصاء في كل العلوم، لوقع القصور منه، ولم يفِ عمره كله للقيام بذلك: فالعلم كثير والعمر قصير. ولذلك دعوا إلى التخصص، وسمّوا علوم التخصص المقاصد، وآثروا في علوم التخصص (المقاصد) التوسع في العلم، وتفريع

(14199/1)

المسائل، واستكشاف الأدلة، وكل ما يزيد الطالب تمكناً ومَلَكَة فيه. وأما العلوم التي هي آلة ووسيلة تساعد على التمكّن في التخصص، فلا ينبغي للطالب أن ينظر فيها إلاّ من حيث إنها آلة تساعده على ذلك التخصص فقط، ولا يتوسع ولا يُفرّعُ المسائل فيها، لأن ذلك يخرجه من المقصود، أي التخصص، ويكون عائقاً عن

تحصيله. إلاّ أن التخصص والدعوة إليه لم يمنع من وجود العلم الموسوعي والعلماء الموسوعيين في الدراسات الإسلامية(1).

---

(1) انظر: روزنتال، مناهج العلماء المسلمين، ترجمة أنيس فريحة، ص. 164.

(14200/1)

العلوم والأعمال اللازمة في إعداد العالم المجتهد ... كان ربط الدراسات العليا بحاجات الحياة، وتقديم الحلول لما يجد فيها من مشكلات، داعياً إلى عناية هذه الدراسات بتهيئة العلماء وإعداد المجتهدين القادرين على الاستقلال في استنباط الأحكام. وكان الإبداع والابتكار رائد الحركة العلمية وأبرز غاياتها. وتأليف الكتب التي حملت اسم "الأوائل" واعتنت بذكرهم وتحدثت عن مجال إبداعهم وموضوع سبقهم من البراهين الدالة على ذلك

(14201/1)

... ولأهمية الاجتهاد في قيادة الحياة وشق الطريق الصحيح للنهوض والتقدم، وضعت السلطة العلمية للمدرسة الإسلامية نظاماً لتلبية هذه الأغراض وإعداد العلماء المجتهدين، يمكن أن يوصف بالدقة والتكامل والجودة العالية. فقال الإمام الشافعي (ت 204 هـ/ 819 م) في كتاب "الأمّ" : "لا أعلم أحداً من أهل العلم رخّص لأحد من أهل العقول والآداب في أن يفتي ولا يحكم برأي نفسه إذا لم يكن عالماً بالذي تدور عليه أمور القياس من الكتاب والسنة والإجماع والعقل لتفصيل المشتبه"(1).

---

(1) الشافعي، الأم، ج 7، ص. 273.

(14202/1)

... وعندما تناول الشافعي المسألة في "الرسالة"، كان حديثه أكثر تفصيلاً وبياناً. فقد أوجب على من يتصدى للاجتهاد أن يكون عالماً بالسُّنَن، وأقوال السلف، وإجماع الناس واختلافهم، ولسان العرب، فقال: "ولا يكون لأحد أن يقيس (يجتهد) حتى يكون عالماً بما مضى قبله من السنن، وأقاويل السلف، وإجماع الناس واختلافهم، ولسان العرب"(1).

... وإضافة إلى الشروط السابقة، أوجب الشافعي على المجتهد أن يكون صحيح العقل قادراً على معرفة المشتبهات، متثبتاً متروِّياً غير متعجل، ولا يمتنع أن

---

(1) الشافعي، الرسالة، ص. 221.

(14203/1)

يستمع إلى أقوال مخالفيه، وينتصف لنفسه من نفسه وهواها، فقال:

... ولا يكون له أن يقيس حتى يكون صحيح العقل، وحتى يفرق بين المشتبه، ولا يعجل بالقول دون التثبيت، ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه، لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة ويزداد به تثبيتاً فيما اعتقد من الصواب... وعليه في ذلك بلوغ جهده، والإنصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول وتركَ ما يتركُ.. (1).

... وحذّر الشافعي من الاغترار بتمام العقل (الذكاء المفرط) والإقدام على الاجتهاد من غير أن يكون المُقْدم على

(1) المصدر نفسه، ص. 221.

(14204/1)

الاجتهاد عالماً بالعلوم المطلوبة في الاجتهاد، ومَنَعَ أن يكون الحفْظُ للعلوم وحده سبباً إلى الاجتهاد ما لم يلازمه قدرات عقلية مبدعة تعين صاحبها على عقْل المعاني وحقيقة المعرفة. فإذا لم يلازم الحفظ عقل المعاني والعلمُ بحقيقة المعرفة لقصور في العقل أو قصور في امتلاك اللغة،لم يكن له أن يجتهد. قال الشافعي:

... ... وأما من تم عقلُه ولم يكن عالماً بما وصفنا، فلا يحل له أن يقول بقياس...

... ... ومن كان عالماً بما وصفنا بالحفظ لا بحقيقة المعرفة، فليس له أن يقول أيضاً بقياس، لأنه قد يذهب عليه عقل

(14205/1)

المعاني...

... ... ولو كان حافظاً مقصّر العقل، أو مقصّراً عن علم لسان العرب، لم يكن له أن يقيس من قبل نقص عقله عن الآلة

التي يجوز بها القياس (1).

... ولاشك أن هذه التعليمات كانت معالم على طريق الاجتهاد وإعاد المجتهدين صدرت عن عالم خبير في عالم العلم وتحكي خبرته وتجربته في الاجتهاد والاستقلال في استنباط الأحكام، وكانت منهجَ من سبق من العلماء المجتهدين الذين تكونت بها عندهم روح الاستقلال في الاجتهاد، وهي الروح التي جعلت أبا حنيفة النعمان يقول في أسلافه العلماء: "هم رجال

---

(1) المصدر نفسه، ص. 222.

(14206/1)

ونحن رجال"، وجعلت مالك بن أنس يقول: "ليس من أحدٍ إلاّ ويؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله "– صلى الله عليه وسلم –(1).

... وكان من وجاهة هذا المنهج وصلاحه في إعداد المجتهدين أن العلماء من بعدما فتئوا يذكرونه ويوجبون به التزام من يتعرض للفتوى. فقال العلموي (ت 981 هـ/ 1573 م) في شروط المفتي المستقل:

... أن يكون قيّماً بمعرفة أدلة الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس وما التحق بها على التفصيل، وهذا في كتب الفقه؛ وعالماً في الأدلة ووجوه

---

(1) انظر: الخضري، تاريخ التشريع الإسلامي، ص. 323.

(14207/1)

دلالتها وكيفية الاقتباس منها، وهذا يستفاد من أصول الفقه؛ وعارفاً بعلوم القرآن والحديث والناسخ والمنسوخ والنحو والتصريف واللغة واختلاف العلماء واتفاقهم بالقدر الذي يتمكن معه من الوفاء بشروط الأدلة والاقتباس منها، ذا دُرْبةٍ وارتياض في استعمال ذلك، وعالماً بالفقه ضابطاً لأمهات مسائله وتفاريعه وحافظاً لها (1).

... وليتحقق للطالب الاقتدار والملَكَةُ العلمية في العلوم التي تؤهله في العلم ونيل رتبة العالم ودرجة المجتهد، أرشد العلماء إلى اتباع

---

(1) العلموي، المعيد في أدب المفيد والمستفيد، ص. 87.

(14208/1)

التدريج في طلب العلم مع الطالب، وعدم الخلط بين علمين معاً عليه، إلاّ أن يكون الطالب قابلاً لذلك، متميزاً بجودة الفهم والنشاط (1).

... وأوصى العلماء بعدم تفريق المجالس العلمية (الدروس والمحاضرات) في العلم الواحد وتقطيع ما بينها إلى فترات زمنية تكون سبباً إلى النسيان وانقطاع مسائل العلم بعضها عن بعض (2). وهو شبيه ما يعرف اليوم بتأجيل الدراسة وتركها أزماناً.

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص. 482، صص. 695 ـ 696.

(2) المصدر نفسه، صص. 696 ـ 697.

(14209/1)

... ومن الأساليب التي دفعت المدرسةُ الإسلاميةُ طلابها إليها أسلوب الحوار والجدل والمناظرة، وهو أسلوب يفيد في شحذ العقل وتقويته لِدَرْك غرض العلم والرغبة فيه، ويفيد في معرفة مأخذ الأئمة وأدلتهم ومران المطالعين له على الاستدلال فيما يرومون الاستدلال عليه. ولذلك دعا ابن خلدون، لتقوية "المَلَكة العلمية" عند الطالب، إلى مشاركة الطالب في المجالس العلمية، والمحاورة

والمناظرة في المسائل العلمية التي تُبسطُ فيها. وأما حضور هذه المجالس والتزامها بالسكوت والاشتغال فيها بالحفظ، فإنه لا ينفع في تكوين

(14210/1)

الملَكَة العلمية عنده (1).

... ولما رأى العلماء المناظرات تنحرف عن أهدافها في تقوية العقل ومعرفة الحق واستنباط الأحكام، إلى التعصبات والخصومات المُهْلكة والأخلاق المرذولة من الفخر والمباهاة والكبرياء والرياء وتزكية النفس والاستكبار عن الحق وكراهته والحسد وغيرها، ألّفوا في شروط المناظرة وآدابها حتى تظل في خدمة ما وُضعَتْ له من الأهداف والأغراض العلمية(2)

---

(1) المصدر نفسه، صص. 523 ـ 524، 555.

(2) للاطلاع على آفات المناظرات وما يتولد عنها من مُهْلكات الأخلاق وما وُضعَ لها من الشروط والآداب، انظر: ابن خلدون، المقدمة، ص. 556؛ الغزالي، إحياء علوم الدين، صص. 41 ـ 48؛ العلموي، المعيد، صص. 114 ـ 121.

(14211/1)

.

... وطالبوا الطالب بحضور الدرس والحرص على العلم والاشتغال به: قراءةً ومطالعةً وتعليقاً ومباحثةً ومذَاكَرَةً وفكراً وإقراءً وتصنيفاً، ليتم بهذه الأعمال تنمية الطالب عقلاً وعلماً وتكوين الدّربة عنده(1). وهي أعمال تشبه ما يجري اليوم في ما يُطلق عليه بالإنجليزية Reading Seminar وResearch Seminar.

... كما أوجبوا على طالب العلم أن يرحل في طلب العلم ولقاء المشايخ لما في ذلك من مزيد كمال التعلم واكتساب الفوائد. ويُشْبِهُها اليوم ما يُعرف بالبعثات العلمية وحضور لقاءات

---

(1) العلموي، المعيد، ص. 41.

(14212/1)

العلم وندواته ومؤتمراته.

... ومما قيل من الشعر بحق الطالب المتعلم في هذا المجال:

أخي لن تنال العلم إلاّ بستة

ذكاء وحرص واجتهاد وبُلْغَةٌ(1)

سأنبيك عن تفصيلها ببيان

وتلقين أستاذ وطول زمان(2)

... فإذا نهض الطالب بما وُضعَ عليه من واجبات واتّبع ما أُرشد إليه من أساليب وأَكْثَرَ التفتيش والمطالعة، والتنقيب والمراجعة، والاختلاف من كلام الأئمة ومُتفقِه، وواضحه ومُشكله، وصحيحه وضعيفه وراجحه، وغير ذلك من سلوك هذه المسالك،

---

(1) البُلغة: السِّعَة في المال.

(2) العلموي، المعيد، المصدر السابق، ص. 59.

(14213/1)

اتصف بصفة المجتهدين، وارتفع عن درجة الجمود والتقليد، وانخرط في سلك الأئمة المحققين، وسواء فيه الحرّ والعبد والمرأة والأعمى والأخرس(1).

... وحتى يثمر عمل الطالب الذي سار في هذا السبيل، وأخذ نفسه بهذه التوجيهات والإرشادات والتعليمات، لابد من توفير العلماء الأكفاء المحققين الذين على أيديهم

يتمكن الطالب من الإحاطة بمبادئ العلم وقواعده، والوقوف على مسائله، واستنباط فروعه عن أصوله، وتكوين الملكة العلمية عنده، تلك الملكة التي تيسر له الحَذْق في العلم والتفنن فيه

---

(1) المصدر نفسه، صص. 80، 85.

(14214/1)

والاستيلاء عليه(1).

... ولما كان الطالب والأستاذ أبرز طرفي هذه العملية، لم يفُت العلماء أن يُنَبّهوا إلى ما يجب أن يكون الطالب عليه مع نفسه من البعد عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات، ومع أستاذه من الاحترام والتبجيل والإكرام، وما يجب أن يكون عليه الأستاذ من الأخلاق الرفيعة والآداب الحميدة مع نفسه وطلابه ودروسه ومحاضراته(2)

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص 522

(2) من أجل الوقوف على آداب المتعلم والمعلم ووظائفه، انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ص. 48 وما بعدها؛ العلموي، المعيد، المصدر السابق، صص, 44 ـ 73، 78.

(14215/1)

.

... ولكن المجتمع الإسلامي لم يبق على حالة من النهوض الذي شهده في القرون الهجرية الأولى، وإنما أخذت الاضطرابات الفكرية التي ظهرت فيه تشتد منذ القرن الخامس الهجري، وأعقبها اضطرابات سياسية، وضعفت الخلافة أمام المُسْتَولين على الولايات والبلدان، وضَعُفَتْ العناية باللغة العربية، وانفصلت عن الإسلام وبخاصة منذ أيام السلاجقة الذين لم يكونوا يحسنون العربية، واضطرب فهم الدولة لنصوص الإسلام واستنباط الأحكام في معالجة الوقائع، وظهر العجز في الوصول إلى رتبة الاجتهاد، وكان للأئمة المجتهدين السابقين

(14216/1)

الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل، من الثقة التي رسّخها تلاميذهم وأصّلوها في قلوب الجمهور، إضافة إلى كيد النظراء والحسد في القلوب وتقييد القضاة بأحكام معروفة في القضاء، وتدوين المذاهب الفقهية، كان لذلك كله وعوامل أخرى عملت جميعها على خلْق أجواء كانت تبعث على الطمأنينة إلى

التقليد والاتّباع في الأحكام، والخوف من الاجتهاد وولوج بابه وإسناده إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا يحقق رتبة الاجتهاد(1)،

---

(1) انظر: ابن خلدون، المقدمة، ص. 544؛ الخضري، تاريخ التشريع الإسلامي، صص. 323 ـ 329.

(14217/1)

وانعكس ذلك كله على مستوى الدراسات الإسلامية.

... ولم يرتفع مستوى الدراسات الإسلامية بعد سدّ باب الاجتهاد، وأخذ في الهبوط ولم يتغلب المسلمون قادة وأمة على أسباب الضعف والانحطاط، وحالت عوامل الضعف الداخلي والتحديات الخارجية دون النهوض، ثم تعرضت ديار الإسلام للغزو الأجنبي بأشكاله المختلفة، وبخاصة في القرون الثلاث الأخيرة من العصر الحاضر، ثم لم يلبث أن وقعت تحت نير الاحتلال والاستعمار، وبدأت مرحلة جديدة في حياة المسلمين أخذت تبتعد عن الماضي الإسلامي وتقترب من الحاضر الأجنبي، وكانت المؤسسات العلمية

(14218/1)

جامعاتٍ ومعاهد تحمل في طياتها بعض صور هذا الابتعاد والاقتراب.

...

... ومما سبق، نخلص إلى القول:

أولاً: ... نشأت الدراسات الإسلامية الفقهية بعامل روحي هو نيل رضاء الله، مما جعلها إلى تحقيق القيم الروحية أكثر قرباً منها إلى تحقيق المنافع المادية، وأكسبها ذلك طابع الرحمة والبر بالإنسان. وكانت آداب الطالب والأستاذ وأخلاقهما والعلاقة بينهما لا تخرج عن هذا الإطار، وكان قيام المدارس الفكرية والمذاهب الاجتهادية تصديقاً لهذه العلاقة وتوثيقاً لها.

(14219/1)

ثانياً: ... كان إعداد العالم القادر على الاستقلال في الاجتهاد من أبرز أهداف الدراسات الإسلامية الفقهية. وقد اعتمدت هذه الدراسات ... من أجل تحقيق أهدافها على صحة الطالب النفسية والبدنية والعقلية، وتمكينه من المعارف الأساسية والمُساعِدة التي تيسّر

له الحِذق في التخصص والاستيلاء عليه وتكوين الملَكَة العلمية فيه عن طريق القراءة وتجاوز الحفظ إلى عقل النص وفهم منطوقه ومعقوله، والمشاركة بالتعليق والمناقشة والمناظرة وقيادة الدارس وإعداد البحوث، والرحلة في طلب العلم، وغيرها من الأعمال، وقَرَنَتْ فُرَص

(14220/1)

النجاح ودرجته بمستوى استعداد الطالب وقابليته للقيام بذلك، ووفرة العلماء المحققين الذين يأخذون بيد الطالب في هذا السبيل.

ثالثاً: ... الاستقلال في الاجتهاد والقدرة على استنباط الأحكام أسّ النهضة في المجتمع، وطريقه إلى القوة والتقدم والتحرر، والتقليد سبيل الجمود والانحطاط وداعية إلى الضعف والتخلف والتبعية.

رابعاً: ... الفكر الصحيح آخره أول الاجتهاد، والاضطراب الفكري والسياسي في المجتمع نهاية الاجتهاد وبوابة التقليد والاتّباع، والعيش على إفرازات الماضي، وفقدان المناعة على التدريج والسقوط أمام

(14221/1)

الغزاة والسير على طريقهم.

خامساً: ارتبطت الدراسات العليا بحاجات المجتمع ومصالحه، وهي حاجات فكرية روحية وحاجات مادية. ولاشك في أن الحاجات المادية تتأثر بمستوى إشباع الحاجات الفكرية ونوعها، ولكن الدراسات التاريخية تتصل مباشرة بالحاجات الفكرية والروحية. وعندما يكون الانسجام بين الدراسات التاريخية والفكر في المجتمع تامّاً، أي عندما يكون "العضو"، أي الدراسات التاريخية من أصل الجسم، أي "الفكر"، ونَبْتِهِ، تصبح الدراسات التاريخية من حاجات المجتمع ومتطلباته، ويكون الارتباط بينها وبين المجتمع جارياً،

(14222/1)

وتسري روح الانسجام في جسم الدراسات التاريخية طلّاباً وأساتذة ووسائل وأهدافاً، وتأتيها الأموال قربى إلى الله، وتنمو وتزدهر، وتكون طريق الدراسات الفقهية لها مرجعاً ومنهجاً مُعيناً. أوَ ليس بناء شخصية الطالب وإعداده للاستقلال في الاجتهاد وتزويد المجتمع بمعارف أعمق وأدق عن الماضي وأكثر فائدة ونفعاً للحاضر، هدفاً من أهداف الدراسات التاريخية وامتحاناً مُلقى بين أيدي القائمين عليها؟

المصادر والمراجع

أحمد، منير الدين، تاريخ التعليم عند المسلمين، ترجمة سامي الصقار، دار المريخ، الرياض، 1401 هـ/ 1981 م.

البيهقي، ظهير الدين أبو الحسن علي بن زيد (ت 565 هـ/ 1169 م)، تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق محمد كرد علي، ط 2، المجمع العلمي، دمشق، 1396 هـ/ 1976 م.

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597 هـ/ 1200 م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992 م.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ/ 1405 م)، المقدمة، الدار التونسية للنشر، 1984 م.

الخضري، محمد الخضري، تاريخ التشريع الإسلامي، ط 7، المكتبة التجارية، القاهرة، 1960 م.

(14223/1)

(14224/1)

ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت 681 هـ/ 1282 م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1397 هـ/ 1977 م.

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748 هـ/ 1347 م)، دول الإسلام، تحقيق فهيم شلتوت، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1974 م.

روزنتال، فرانز، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، 1381 هـ/ 1961 م.

الشافعي، محمد بن إدريس (ت 204 هـ/ 819 م)، الأم، دار الشعب، القاهرة، 1968 م.

(14225/1)

شلتوت، محمود، تفسير القرآن الكريم، دار الشروق، بيروت، 1979 م.

ابن عذاري المراكشي، أحمد بن محمد (ت 695 هـ/ 1295 م)، البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب، مكتبة صادر، بيروت، 1950 م.

ابن عساكر، علي بن الحسن (ت 571 هـ/ 1175 م)، تاريخ دمشق، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر، دار الفكر، دمشق، 1995 م.

العلموي، عبد الباسط بن موسى (ت 981 هـ/ 1973 م)، المعيد في أدب المفيد والمستفيد، تحقيق أحمد عبيد، المكتبة العربية، دمشق، 1349 هـ/ 1920 م.

(14226/1)

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت 505 هـ/ 1111 م)، إحياء علوم الدين، المكتبة التجارية، القاهرة.
ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ/ 1889 م)، المعارف، تحقيق الصاوي، ط 2، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1970 م.
الماوردي، علي بن حبيب (ت 450 هـ/ 1058 م)، أدب الدنيا والدين، تحقيق مصطفى السقا، ط 4، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، 1393 هـ/ 1973 م.
النجدي، أحمد جاسم، منهج البحث الأدبي عند العرب، بغداد، 1398 هـ/ 1978 م.

(14227/1)

من أعلام المغرب والأندلس أبو القاسم السهيلي

... ... الأستاذ الزاكي بنيونس

... ... كلية الآداب ـ وجدة

أ ـ السهيلي: حياته ونسبه

... عرض ابن دحية لنسب شيخه السهيلي فقال:

... أبو القاسم السهيلي، وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن ـ واسمه أَصْبغ بن حسين بن سعدون بن رضوان بن فتوح، وهو الداخل إلى الأندلس. هكذا أَمْلى عليّ نسبه، وقال إنه من ولد أبي رُويْحَة(1) الخثعمي

---

(1) ... ينظر: ابن عبد البر، الاستيعاب، ج 4، صص. 1660 ـ 1661، نشره محمد علي البجاوي، دار نهضة مصر، د. ت.

(14228/1)

الذي عقد له رسول – صلى الله عليه وسلم – لواء عام الفتح، ذكره أهل السِّيَر(1).

كُناه

... عرف السهيلي بثلاث كُنى: ثنْتان تردَّدتا في أكثر

المصادر، وهماأبو القاسم وأبو زيد، والثالثة ذكرها ابن الأبار(2) وابن فرحون(3) وابن الخطيب(4)

---

(1) ... المطرب من أشعار أهل المغرب، ص. 230، تحقيق الأبياري وآخرين، دار العلم للجميع، بيروت.

(2) ... تكملة الصلة، ج 3، تحقيق عبد السلام الهراس، ط دار المعرفة، المغرب، ص. 32.

(3) ... الديباج المذهب، ج 1، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، ص. 481.

(4) ... الإحاطة في أخبار غرناطة، ج 3، تحقيق عبد الله عنوان، ط الخانجي، ط 4، ص. 477.

(14229/1)

وابن العماد(1)، وهي أبو الحسن.

... ولقد اعتُبر تعدد هذه الكنى أمراً مشكلاً، بسبب أن معظم المصادر قد ضربت صفْحاً عن حياة السهيلي الخاصة. وقد شغل هذا الأمر أحد دارسي السهيلي ـ وهو الدكتور محمد إبراهيم البنا ـ فتجشم لتبيان سر هذا الغموض، والتمس لإزاحته وجوهاً(2).

... وأحسب أن ابن خميس(3) قد انفرد بتجلية ما انبهم من أمر زواج السهيلي

---

(1) ... شذرات الذهب، ج 4، ط دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص. 271.

(2) ... أبو القاسم السهيلي ومذهبه النحوي، صص. 44 ـ 45. بتصرف.

(3) ... أدباء مالقة، مخطوط، ص. 171.

(14230/1)

وإنجابه، ذلك بأنه أفرد ترجمة لأحد أبنائه ـ وهو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن السهيلي ـ فانضافت إليه بذلك كنية رابعة، هي: أبو علي.

أسرة السهيلي

... لقد سكتت مصادر ترجمة السهيلي عن حياته الخاصة كما أسلفت، ولم تذكر شيئاً عن أسرته، وكل ما انتهى إلينا من حديث آبائه خبران: أحدهما ألمع إليه ابن دحية وهو يعرِّف بشيوخ السهيلي. قال: »ورحل إلى قرطبة، فقرأ القرآن العظيم بالمقارئ السبعة على المقرئ أبي داود سليمان بن يحيى بمسجده بباب الجوز، وقال لي عنه: كان يُجلّ(1)

---

(1) ... في المطرب: "يحمل"، ولا معنى له كما نبه على ذلك الدكتور محمد إبراهيم البنا في مقدمة "نتائج الفكر".

(14231/1)

أبي رحمه الله«.

... وأما الخبر الثاني، فقد ساقه السهيلي في الروض(1)، وألمع فيه إلى جده، فقال: »رُوي حديث غريب لعله أن يصح(2)، وجدته بخط جدي أبي عمران(3) أحمد بن أبي القاضي رحمه الله«.

---

(1) ... الروض الأنف، ج 1، ص. 194.

(2) ... نبه الدكتور محمد إبراهيم البنا إلى أن مما التزمه السهيلي في تعبيراته أن يقرن حبر "لعل" بـ"أن". (نتائج الفكر، ص. 33، هامش 2).

(3) ... كذا في الروض الأنف، وفي التكملة، ج 1، ص. 40، وذيلها لابن عبد الملك، ج 1، ص. 72، "أبو عمر".

(14232/1)

... وقد عول ابن الآبار(1) على هذا الخبر، واعتمده في إعداد ترجمة جد السهيلي.

... ولعل ابن قاضي شهبة والحافظ الذهبي قد أعياهما أن يفيضا في التعريف بأسرة السهيلي، فاقتصرا على هذين الخبرين، واستوحيا منهما ما جعل أولهما يعلن أن السهيلي كان "من بيت علم وخطابة"(2)، بينما أفاد ثانيهما أنه "ولد الخطيب أبي محمد بن الخطيب أبي عمرو"(3).

---

(1) ... التكملة، ج 1، ص. 40. (نشرة د. الهراس).

(2) ... طبقات النحويين واللغويين، 258. (صورة خطبة عن المكتبة الأسدية بدمشق).

(3) ... تذكرة الحفاظ، ج 4، ص. 1348.

(14233/1)

... وقد اشتهرت نسبة السهيلي إلى سهيل، غير أن البلديين لم تتفق كلمتهم على المراد بها. فياقوت الحموي يعتبر سهيلاً وادياً، فيقول: »ووادي سهيل بالأندلس من كورة مالقة، فيه قرى، من إحدى هذه القرى عبد الرحمن السهيلي، مصنف "شرح السيرة المسمى بالروض الأنف"(1)؛ وجنَح ابن الخطيب إلى اعتبارها حصناً، فقال واصفاً إياها إنها "حصن حصين يضيق عن مثله هند وصين« (2)

---

(1) ... "سهيل" معجم البلدان، ج 3، ط. دار صادر، ص. 291.

(2) ... معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق د. محمد كمال شبانة، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، ص. 85.

(14234/1)

.

... وأما مناسبة تسميته هذا الوادي بـ"سهيل"، فقد أبان عنها الحميري وهو يصف "مربلّة" وأنها بالقرب من مرسى سهيل، فقال: »وهناك جبل منيف عال يزعم أهل تلك الناحية أن النجم المسمة سُهَيْلاً يُرى من أعلاه، قال: ولذلك سُمي أبو القاسم الأستاذ الحافظ مؤلف "الروض الأنف" السيهيلي«.

... ويفيد الأستاذ عبد الله عنان أن سُهيلاً بلدة قديمة يرجع تاريخها إلى عهد الرومان، كانت تُدعى Selitane، فغيّر المسلمون اسمها إلى سهيل، وما زالت قائمة حتى الآن، وتعرف اليوم باسم Tuengirola، وتبعد عن مالقة بنحو ثلاثين

(14235/1)

كيلومتراً(1).

مولده

... لا يكاد يقوم خلاف في تاريخ ميلاد السهيلي أنه سنة ثمان وخمسمائة(2) للهجرة (508 هـ)، وأقدم تأكيد لذلك جاء على لسان ابن دحية الذي قال: »سألته عن مولده فأخبرني أنه ولد سنة ثمان وخمسمائة. وقد اعتمدت المصادر المتأخرة هذه الرواية، ولم تجعلها مثار خلاف، سوى

---

(1) ... الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط 2، ص. 257.

(2) ... الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط 2، ص. 534؛ وقارن برحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، ص. 59.

(14236/1)

ما نقله ابن الآبار «(1). قال: وقال أبو القاسم بن الملجوم، أحد تلاميذ السهيلي:

...

... أخبرني أنه ولد عام سبعة أو ثمانية وخمسمائة، شك

فيها لوقوع مداد على تاريخه. كما لم يحقق الذهبي ميلاده، كان الأمر انبهم عليه، فاكتفى بأن قال: « مولده سنة بضع وخمسمائة "(2)، واكتفى في موضع آخر بضبط تاريخ وفاته الذي جعله سنة إحدى وثمانين وخمسمائة (581 هـ) وأعقب ذلك قوله: "وعاش اثنتين وسبعين سنة "(3)

---

(1) ... تكملة الصلة، ج 3، ص. 33.

(2) ... تذكرة الحفاظ، ج 4، ص. 1348.

(3) ... العبر في خبر من غبر، ج 4، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، ص. 244.

(14237/1)

، فيؤول كلامه إلى أن السهيلي ولد سنة 508 هـ

...

تحقيق في عمى السهيلي

... اتفقت معظم المصادر على أن السهيلي قد أضرّ وهو في السابعة عشرة من عمره. وقد عولت جميعها على ما جزم به ابن الآبار من أنه »كفَّ بصره بماء نزل به وهو ابن سبع عشرة سنة أو نحوها« (1). ولاشك أن هذا الخبر كان معتمد الصفدي في إدراج ترجمته ضمن تراجم العميان(2)

---

(1) ... تكملة الصلة، ج 3، نشرة د. الهراس، ص. 32.

(2) ... هو كتابه الشهير بـ "نكْت الهميان في نكت العميان". وترجمة السهيلي فيه واردة في الصفحتين 187 ـ 188 (نشرة الأستاذ أحمد زكي، المطبعة الجمالية، ط 1).

(14238/1)

.

... وقد شكّك الدكتور محمد إبراهيم البنا في عمى السهيلي معتمداً ما يلي:

... 1 ـ أن تلميذه ابن دحية ـ وهو أقدم من ترجم له وعُني بأخباره ـ لا يشير إلى ذلك، وكان حقيقاً به أن ينبه على هذه العاهة لو كانت قائمة بشيخه.

... 2 ـ أن كلام السهيلي في "الروض" قد يدفع إلى تحقيق مسألة ضرره(1).

... قلت: أما الاحتجاج الأول باطل، لأنه إذا كان ابن دحية قد أغفل الإشارة إلى ذلك، فإن اثنين من تلاميذ السهيلي قد نبّها على عمى شيخهما: فقد جزن الضبي

---

(1) ... "مقدمة" الأمالي، ص. 9؛ السهيلي ومذهبه النحوي، ص. 51 ـ 53.

(14239/1)

بأنه "كان مكفوف البصر"(1)، ونص ابن عربي الحاتمي الصوفي ـ وهو يتحدث عن مصادر كتابه: "محاضرات الأبرار" ـ على عماه، فقال: «... وكتاب "الروض الأُنُف" لشيخنا الضّرير أبي زيد السهيلي المالكي رحمه الله» (2).

... وأما الدليل الثاني، فقويّ يستدعي تأملاً ونظراً تحتّمهما نصوص وردت في "الروض" وغيره. وقد تتبعتها، فوجدتها تزيد على العشرة، وها هي ذي:

---

(1) ... بغية الملتمس، ط دار الكتاب العربي، مصر، ص. 367.

(2) ... محاضرات الأبرار ومسامرات الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار، ج 1، ط دار صاد، بيروت، ص. 140.

(14240/1)

... 1 ـ »... ورأيت لابن المغربي «(1).

... 2 ـ »... وروي حديث غريب لعله أن يصح، وجدته بخط جدي أبي عمران «(2).

... 3 ـ »... وهكذا قيدته بكسر الهمزة «(3).

... 4 ـ »... وجدت في حاشية كتاب الشيخ مما كتبه عن أبي الوليد الكتاني «(4).

---

(1) ... الروض الأنف، ص. 105.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 194.

(3) ... المصدر نفسه، ص. 241.

(4) ... المصدر نفسه، ج 2، ص. 218. والمراد بالشيخ هنا هو الحافظ أبو بحر الأسدي، وهو من طبقة أشياخ السهيلي.

(14241/1)

... 5 ـ »... ورأيت المهلّب في شرح البخاري «(1).

... 6 ـ »... كذا قيده الشيخ أبو بحر بفتح الزاي «(2).

... 7 ـ »... وأملى علينا أبو بكر الحافظ، وكتبت عنه، بخط يدي «(3).

... 8 ـ »... وألفيت في حاشية الشيخ «(4).

... 9 ـ »... وألفيت بخط الشيخ «(5).

... 10 ـ »... بل قد رأيت في بعض فتوح الشام«(6).

---

(1) ... الروض الآنف، ج 2، ص. 149.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 196.

(3) ... المصدر نفسه، ص. 218.

(4) ... المصدر نفسه، ص. 244.

(5) ... المصدر نفسه، ص. 289.

(6) ... المصدر نفسه، ج 3، ص. 382.

(14242/1)

... 11 ـ »... ولم أره، ولكني رأيت البكري«(1).

... 12 ـ »... ورأيت ذلك في بعض كتب الواقدي«(2).

... 13 ـ »... وقد رأيت لابن فورك نحواً من هذا«(3).

... وأكثر هذه النصوص(4). فيه احتمال، ولا ينهض دليلاً للقطع بعمى السهيلي المبكر، وإنما يحتمله فقط أما النص السابع الذي يتعلق بالحافظ أبي بكر العربي، فقد استوقف الدكتور محمد إبراهيم

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 4، ص. 227.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 270.

(3) ... نتائج الفكر، ص. 225.

(4) ... لم يتقص الدكتور البنا جميع النصوص، وإنما اقتصر على ثلاثة منها.

(14243/1)

البنا(1) الذي لاحظ أنه يوجد من الشواهد ما قد يكون مسعفاً بتحديد تاريخ التقاء السهيلي بشيخه ابن العربي في إشبيلية. يقول:

... وذلك أننا بتتبُّعنا لمسيرة السهيلي العلمية ولقائه بشيوخه، نتبين أنه لم يخرج من مالقة إلا بعد أن مات شيخه ابن الطراوة سنة 528 هـ، وبعد أن تتلمذ لأبي محمد القاسم بن دحمان. على أنه لم يقصد إشبيلية مباشرة، بل ذهب إلى قرطبة، وقضى بها زمناً لقي فيه أربعة. فإذا عرفنا أنه ولد سنة 508 هـ، وأنه ترك مالقة سنة 529 هـ أو 230

---

(1) ... تنظر دراسته: السهيلي ومذهبه النحوي، صص. 52 ـ 53.

(14244/1)

هـ، وأنه قضى في قرطبة نحو السنة أو السنتين، فيكون لقاؤه لشيخه ابن العربي نحو سنة 532 هـ، وقد وافى الخامسة والعشرين من عمره.

... فإذا قال السهيلي: »وأملى علينا أبو بطر الحافظ«، وهو في هذه السنة أو بعدها .وقد تواترت الأخبار أنه كُفّ بصره في السابعة عشرة ، فلا مخرج من هذا إلا بواحد من أمرين:

... 1 .أن السهيلي لم يكن قد فقد بصره تماماً حتى هذه السنة، وأنه كان لا يزال قادراً على التمييز، قادراً على أن يكتب ما يُمْلى عليه، ثم تلاشى ذلك الضوء تدريجياً.

(14245/1)

... 2 .أن السهيلي كان مكفوف البصر تماماً، ولا غرابة في أن يستطيع الكتابة، وقد كان من قبل قارئاً كاتباً، وأن يتصور المكان الذي يكتب فيه. ويرجح هذا الظن ما ذكره السهيلي في هذا النص من قوله: »وكتبت عنه بخط يدي«، فهذا يُعدّ حشواً لا معنى له، إلا أن يريد السهيلي أنه يمكنه أن يكتب.

... ولكن هذا الأمر لا يثبت أمام النظر، لأنه لا معنى لأن يُدهد نفسه في مجلس الحافظ أبي بكر بن العربي. وأما

قوله: »وكتبت عنه بخط يدي«، فهو تأكيد لسماع عن شيخه بأنه قد كتب أيضاً وهو في مقامه بإشبيلية في منتصف العقد الثالث من

(14246/1)

عمره، وأن هذا الضعف لم يمنعه من الكتابة.

... أقول: وقد وفِّقْتُ ـ بحمد الله ـ فاهتديت إلى خبر يقوي التشكيك في أن السهيلي قد فقد بصره تماماً. فقد ذكر الزبيدي(1) في مادة خ ز ج أنها بفتح فسكون، ونبه على أن الحافظ ابن حجر ضبطها كذلك، ثم قال »ووجِدَ في "الروض الأُنُف" بخط السهيلي بفتحتين«.

... كما أفاد بروكلمن(2) أن السهيلي اختصر كتابه "الروض

---

(1) ... تاريخ العروس، ج 5، تحقيق مصطفى حجازي، ط الكويت، صص. 523 ـ 524.

(2) ... تاريخ الأدب العربي، ج 3، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر، ص. 13.

(14247/1)

الأَنُف" بعنوان "الإشارة إلى سيرة المصطفى وآثار من بعده من الخلفاء"، ونبه على أن منه نسخة خطية في : ميونخ أول 448.

... فإذا صحّ هذان الخبران، فإن السهيلي قد كان متمتعاً ببصره وقد جاوز الستين من عمره. يؤكد ذلك أنه لم يفرغ من تأليف "الروض الأَنُف" إلا في جمادى الأولى من سنة تسع وستين وخمسمائة كما أخبر هو بذلك(1).

...

عقليته

... أجمع كثير من ترجم للسهيلي على أنه كان يتوقد ذكاء، مقدماً في الفهم والفطنة، صاحب اختراعات واستنباطات دلت على ثقابة فكره، ونباهة علمه، وسعة

---

(1) ... الروض الأَنُف، ج 1، ص. 5.

(14248/1)

حفظه(1). ذلك بأنه أوتي ما لا يمكن أن يكون العالم عالماً إلا بتوفره عليه: ذاكرة جيدة حاضرة، وملكة في التصور والتخيل قوية، وثقافة واسعة وعميقة. وقد تلاحقت هذه المواهب جميعاً فجعلت منه مفكراً مبتكراً،

وأهلته ليكون في طليعة العلماء المبرزين. وحسبك شهادة على هذا أن تجده منعوتاً عند المتقدمين بأوصاف من مثل قول بعضهم: »كان حافظاً

---

(1) ... انظر: ابن عبد المجيد اليماني، إشارة التعيين، ص. 182؛ والفيروزابادي، البلغة في تاريخ أئمة اللغة، ص. 122؛ والسيوطي، طبقات الحفاظ، ص. 481؛ وشجرة النور الزكية، ص. 156.

(14249/1)

للسِّير والأخبار والأنساب، إماماً في الحفظ والذكر والإدراك«(1). و»كان حافظاً للتاريخ القديم والحديث جامعاً بين الرواية والدراية «(2).

...

زهده

... لقد غلب على السهيلي حياة الزهد، وليس ذلك بدعاً. فقد كان، كما قال تلميذه ابن دحية، »يتسوغ بالعفاف، ويتبلغ بالكفاف «(3).

... وقد كان حقاً زاهداً لا متزهداً. يؤكد ذلك رغبتُه في قصور الأمراء، في عصر كانت أبوابهم تغص

---

(1) ... ابن الآبار، التكملة، ج 3، ط الهراس، ص. 32.

(2) ... تذكرة الحفاظ، ج 4، ص. 1348.

(3) ... المطرب من أشعار أهل المغرب، ص. 232.

(14250/1)

بالشعراء والعلماء، وإنَّ في شعره التوسلي لإشارات صريح إلى ما كان عليه حال أهل العلم والأدب من إقبال على الملوك، وتراصّ على أبوابهم:

إذا سدت الأملاك دوني بابها
فزعت إلى باب المهيمن ضارعاً
فلم ألف حُجَّاباً ولم أخش منعه

ونهنه عن غشيانهم زجر حاجب
ذليلاً أنادي باسمه غير هائب
وإن كان سؤلي فرق هام الكواكب

... وثمة مسألة ثابتة تؤكد زهد السهيلي وحقيقة توكله على خالقه، وهي جهره بعدم مسايرة المذهب الظاهري(1) وسلبه أتباعه وصف "أرباب الحقائق". وهذا طعن صريح في

(1) ... انظر: الروض الأنف، ج 1، ص. 281.

(14251/1)

المذهب، وتسفيه لأنصاره، وفي طليعتهم أبو يوسف الموحدي الذي حمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث(1)، وقد كان هذا مقصد أبيه وجده، إلا أنهما لم يظهراه، وأظهره هو، وتوعد من خالفه بالعقوبة الشديدة.

...

إنصافه

... الإنصاف من شيم النفوس الكبيرة، وهو خلق كان ولا يزال عزيزاً بين الناس.

... ولقد كان السهيلي منصفاً لأهل العلم عامة، ولأشياخه وأقرانه خاصة، يقدر الجميع حق قدره، ويعترف لذوي الفضل بفضلهم.

---

(1) ... المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المعرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ط 1.

(14252/1)

... فهو حين يذكر علماء النحو القدامى يشيد بفضلهم، فيقول: »فمن تأمل هذه الحكمة من أرباب الصناعة رأى من بُعْد غوْرهم، ودقة أذهانهم، ورجاحة أحلامهم، وثقابة أفهامهم ما يُستدل به على أنهم مؤيدون بالحكمة في جميع أغراضهم وكلامهم« (1).

... وإذا عرض بالذكر لبعض أشياخه، نوَّهَ بعلمه وسعة اطلاعه اعترافاً بحق المشيخة، كقوله في ابن الرماك: »وكان إماماً في هذه الصناعة رحمه الله«(2).

---

(1) ... نتائج الفكر، ص. 85.

(2) ... الروض الأنف، ج 1، ص. 201؛ ونتائج الفكر، ص. 257.

(14253/1)

... ومن أمثلة إنصافه لأقرانه واعترافه لهم بالسبق ما حكاه أبو سليمان بن حوط الله.قال:

...

... سمعت شيخنا أبا زيد السهيلي يقول: لما شاهدت من حفظ أبي عبد الله بن الفخار صاحبنا ما عجز عنه غيره، ورأيته قد تقدم في ذلك قلت: كيف أسُودُ مع هذا؟ فرزقني الله من الفقه ما قصر عنه وسواه، والحمد لله على

ذلك كثيراً(1).

...

أمانته العلمية

... يلاحظ الدارس لكتب السهيلي وأماليه أنه حريص على عزو النقول إلى قائليها، وهو يتحرى ـ ما أسعفته مصادره

---

(1) ... الذيل والتكملة، ج 6، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، ص. 89.

(14254/1)

وذاكرته ـ أن يسوقها بألفاظها حفاظاً على سلامة معانيها. فإذا أعياه ذلك، استفرغ جهده للإبقاء على المعنى سليماً، وانتقى الألفاظ المحققة لهذا الغرض. وقد التزم هذا المنهج الذي ألزم به نفسه في سائر أبحاثه، وأعلن عنه في بعض نقوله، فقال: »... ذكر ذلك كثير ممن ألف في الأخبار والتفسير ـ ذكروا هذا المعنى بألفاظ شتى، فلخصته بهذا التلخيص، وتحريت فيه القصد إلى معنى ما ذكروه والله المستعان «(1).

---

(1) ... التعريف والإعلام، تحقيق عبد الله النقراط، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ص. 162.

(14255/1)

... ولعل الذي حدا بالسهيلي إلى اعتماد هذا المنهج ما لاحظه على بعض أهل العلم من استشهاد بمعاني النصوص دون ألفاظها، وفي ذلك من التجنّي على أصحاب النقول ما فيه، بحيث يقوِّلون ما لم يقصدوا إليه، وإساءة إلى القراء الذين يلقَّنون مضامين لا تعبر عن حقيقة مقاصد أصحابها. وإذا علمت هذا، فلا يروعنك أن تجد السهيلي يشنع على عالم كبير وهو أبو علي الفارسي، فيعيب عليه نقل أقوال غيره بلفظه وإفساده لمعانيها (1).

---

(1) ... الروض الأنف، ج 4، ص. 172.

(14256/1)

... وأخيراً، فإن الإمامة العلمية تُلزم السهيلي ان يشيد بفضل مشايخه عليه. ولذلك، فهو إذا أفاد شيئاً، أو ظفر بنكتة من أحدهم لم يدّعها لنفسه، وإنما يعزوها إلى صاحبها، كقوله: »وهذه النكتة لقِنْتُها عن الشيخ الإمام الحافظ أبي بكر محمد بن العربي رحمه الله «(1)، وربما أدى به الإعجاب بالفكرة إلى التعصب لها، ونبذ ما

سواها، كقوله ـ وقد ساق قولاً في النحو ـ: »وإليه كان يذهب شيخنا أبو الحسين ابن الطراوة السبائي، ومنذ سمعت هذا القول لم أقدر أن أعرج معتقدي عنه «(2)

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 1، ص. 172.

(2) ... الأمالي، تحقيق محمد إبراهيم البناء، ط 1، ص. 72.

(14257/1)

.

...

اعتداده بنفسه

... زخرت كتابات السهيلي بعبارات الإعجاب بعلمه والإشادة بغزارة علمه ودقائق فكره وقدرته على تجلية ما استغلق من دقائق العلم ونكته، كزعمه أن بعض ما عنده من العلم »تعجز عنه همم أهل عصر «(1)، وأن بعض تعليلاته »عجب عجاب «(2)، وأن ما انتهى إليه »مسألة عذراء لم تفترعها أيدي النحاة، أو لم يشْفُ منها متقدم منهم ولا متأخر «(3)، وأن له في مسألة أخرى »تحقيقاً وبياناً شافياً لمعناها، وكشفاً عن فقهها

---

(1) ... الروض الأنف، ج 1، ص. 276.

(2) ... الأمالي، ص. 50.

(3) ... الروض الأنف، ج 2، ص. 153.

(14258/1)

لم ير أحداً سبقه إلى مثلها «(1)، وأن له إملاء في أخرى »لا يعدل بقيمتها الدنيا بحذافيرها «(2). وقد يُعْمِل عقله في مبحث فيهتدي إلى سرٍّ من أسرار التشريع فيه، فتحركه نشوة الظفر به، فيقول: »لو لم يكن في هذا المختصر إلا هذه الفائدة لكانت تُساوي رحْلَة «(3).

... ومع الإعجاب بما عنده من العلم والتحقيق الواسع العميق، فهو لا يغلو بذلك غلوّاً ينسيه طبيعته البشرية، بل يتواضع

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 3، ص. 45.

(2) ... المصدر نفسه.

(3) ... كتاب الفرائض وشرح آيات الوصية، ص. 73؛ وقارن بالروض، ج 1، ص. 270.

(14259/1)

تواضع العلماء الذين يوقنون أن العلوم مهما تاتّت لطالبها، والمعارف وإن ازدحمت في صدر صاحبها تظل محدودة متناهية. وقد وقع له ـ وهو بصدد تفسيراته ـ أن أدرك أنه لم يهتد إلى سر تأويلها، فاعترف بقوله: »وقد بقي في نفسي من تأويل هذه الآية شيء حتى يكمل الله نعمته بفهمها إن شاء الله تعالى«(1).

...

حِدَّتُه

... لازَمَت السهيلي حدَّةٌ لم تخف على أهل عصره، وقد جرت بينه وبين بعض معاصريه مناظرات ومساجلات علمية عكَسَ ابن دحية صورتها بقوله: »وجلبَ على النحاة بخيله ورجله، وتلقى

---

(1) ... الروض الأنف، ج 2، ص. 77.

(14260/1)

الراية باليمين، وحوى الغاية بالهزيل والسمين«(1).

... وأشهر ما عُلِمَ من مناظراعته(2) ما جرى بينه وبين ابن خروف النحوي(3)

---

(1) ... المطرب، ص. 232.

(2) ... انظر هذه المناظرات في: السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، ج 3، تحقيق محمد إبراهيم عبد الله، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، صص. 219 ـ 231.

(3) ... هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خروف الحضرمي، شرح كتاب "الجمل" للزجاجي، ووضع لـ "كتاب" سيبويه شرحاً أسماه "تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب"، وهو مطبوع، توفي سنة 609 هـ وهو غير ابن خروف الأديب، وقد اشتبه الأول بالثاني في طائفة من المصادر.

(14261/1)

. وقد وصف السهيلي خصمه بالجهل والتقليد، فقال: »ما أجهل هذا الجاهل حيث ينكر ما لا ينكره أحد! «(1)، و»هذا الجاهل من جفاة المقلدين«(2). وحدة السهيلي وإن بدت قاسية، لا تنحدر إلى مستوى الفحش والإسفاف.

...

رحلاته ووظائفه

... من المؤكد أن السهيلي قضى العقدين الأولين من حياته في مالقة، ولم يفارقها إلا بعد أن مات شيخه ابن الطراوة سنة 528 هـ، وقد أفادت بعض المصادر أنه أقام فترة بإشبيلية(3)

(1) ... الأشباه والنظائر، ج 3، ص. 230.

(2) ... المصدر نفسه، صص. 230 ـ 231.

(3) ... الإحاطة، ج 3ن ص. 479؛ ونفح الطيب، ج 4، ص. 271.

(14262/1)

، كما أفاد ابن الخطيب أنه دخل غرناطة(1). ومن المحتمل أنه رحل إلى قرطبة قبل ذلك حيث لقي جلة من الشيوخ الذين كانوا مقصد الطلاب. ولعلل السهيلي ضاق بمالقة ـ مسقط رأسه ومرتع صباه ـ ولم يطب له فيها عيش بعد أن افتقد أعظم شيوخه تأثيراً في حياته العلمية، غير أن خيبة أمل السهيلي لم تدم طويلاً. فقد قيض الله له أن يحظى بلقاء القاضي أبي بكر بن العربي الذي فيه ضالته، فلازمه وأخذ عنه علماً غزيراً في فنون شتى، وإن كتبه وأماليه لتزخر بنقول وفوائد لقنها عن شيخه ابن العربي.

(1) ... الإحاطة، ج 3، ص. 379.

(14263/1)

... وقد رجح الدكتور محمد إبراهيم البنا أن السهيلي(1) أنهى رحلته العلمية وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، عاد بعدها إلى بلده مالقة، فكانت له بها حلقة وتلاميذ، وقضى فيها بقية عمره يعاني شظف العيش، وبؤس الحرمان، إلا الثلاث السنوات الأخيرة التي حظي فيها بعطف الخلافة الموحدية ورعايتها، وذلك

... بعد أن أطلعهم ابن دحية على كتابه "الروض الأُنُف"، فأمرا بوصوله إلى حضرتهم، وبذلوا له من مراكبهم وخيلهم ونعمتهم، وقوبل بمكارم الأخلاق، وأزال الله عنه علام الإملاق،

---

(1) ... السهيلي ومذهبه النحوي، ص. 83.

(14264/1)

واستقبل بالجاه الجسيم، والوجه الوسيم(1).

... وقد سكتت مصادر ترجمته عن المهام التي أسندت إليه في مراكش، فقيل إنه أُسند إليه هناك منصب قاضي الجماعة. ذكر ذلك الذهبي(2) وابن الجزي(3)، وليس بمسلّم: إذ المعروف أن قضاء الجماعة كان مسنداً ـ يومئذ ـ

لصديقه ابن مضاء القرطبي(4)

---

(1) ... المطرب، ص. 232.

(2) ... تذكرة الحفاظ، ج 4، ص. 1349.

(3) ... غاية النهاية، ج 1، ص. 371.

(4) ... انظر: الذيل والتكملة، ج 1، صص. 220 ـ 221؛ وقارن: ابن سعيد الأندلسي، الغصون اليانعة، نشرة الأبياري، دار المعارف، ط 3، ص. 31.

(14265/1)

.

... ولم تكن هذه السنوات الثلاث في حياة السهيلي في مراكش هنيئة سعيدة. فلقد غاظ الحساد أن يُولى هذه العناية، ويحظى من الحضرة بهذه الحظوة، »والعمر ـ مع ذلك ـ قد عسا وذبل عوده، وذهب العيش وأفل سعوده، فعندما عاش مات«(1).

...

وفاته

... توفي السهيلي ـ رحمه الله ـ بمراكش، على المشهور(2)، سنة 571 هـ، وقبره بها معروف(3)

---

(1) ... المطرب، صص. 232 ـ 233.

(2) ... ذهب الفيروزابادي إلى أن وفاته كانت سنة 588 هـ (البلغة، ص. 123)؛ وفي النفح، (ج 3، ص, 40)، جعل وفاته سنة 585 هـ

(3) ... ذكر الناصري (في الاستقصا، ج 2، ص. 204 و ج 9، ص. 161) أن قبره يوجد خارج باب الرب، أحد أبواب مراكش، ونبه الدكتور عبد الهادي التازي إلى أن ضريح السهيلي قد تقرر بناؤه بعد هدم باب الشريعة، أحد أبواب مراكش. (انظر: ابن ا صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص. 214). ويحسن التنبيه هنا إلى أن السهيلي معدود في سبعة رجال الذين اشتهرت أخبار صلاحهم، واعتاد الناس زيارة أضرحتهم تبركاً بهم. ينظر في التعريف بهم: محمد الأمين الصحراوي، الارتجال في مناقب سبعة رجال، مخ خ م، ص. 194؛ والعباس بن إبراهيم التعارجي، إظهار الكمال في مناقب سبعة رجال، مخ خ م، ص. 232؛ وكذلك أطروحة الدكتور حسن جلاب، الحركة الصوفية في مراكش.

(14266/1)

.

...

شيوخه

... لقد كان السهيلي ـ رحمه الله ـ حريصاً على طلب العلم، مجداً في تحصيله ومتابعة حلقات العلم، وإن من كان طلب العلم دَيْدَنَه وهِجِّيراه، وطَلْبَتَه ومناه لا شك يأخذ منه بنصيب وافر، ويكون له فيه تألف ظاهر، ولا سيما إذا كان العلم شرعياً، وطالبه من أهل التصاون والصلاح، والخير والصدق في طلبه، لا يحفزه عليه حافز من سلطة، أو مطلب دنيا، وإنما يحرضه عليه الإخلاص في تحصيله، حبّاً في الله ودينه الحنيف.

(14267/1)

... وإذا كنا قد حُرِمنا برنامجاً لشيوخ السهيلي، فإن مصادر ترجمته عامة، وكتاب "المطرب" خاصة، قد أسْعَفَتْنَا بأسماء الكثير منهم.

... ولقد عُنِيَ ابن دحية بترتيب شيوخ السهيلي ترتيباً زمنياً، وإن ذلك يسعف ـ لا محالة ـ في الوصول إلى نتائج على قدر كبير من الأهمية، كاستيضاح زمن الطلب، واتجاهات الشيوخ، ومدى الأثر الذي خلفوه فيه، كما يساعد كل ذلك على استكشاف شخصيته واستقلاله في آرائه واجتهاداته، ولا سيما أنه كان ذا ملكات متعددة

الجوانب والاتجاهات، وهو ما أهّله ـ كما ذكر مترجموه ـ ليكون أصولياً ومحدثاً

(14268/1)

وفقيهاً وعالماً بالقراءات والتفسير والأخبار والأنساب والعربية ولهجاتها.

... ولقد شغلت نفسي بتتبع شيوخ السهيلي تتبع استقصاء، ولذلك وجدتني مدعواً لمتابعة ترجمته في كتب التراجم والطبقات والرحلات المغربية والمشرقية.

وقد تحصل لي ـ بحمد الله ـ عدد كبير منهم ويصلح أن يكون برنامجاً حافلاً بهم، وأشهرهم:

... 1 ـ أبو الحسين سليمان بن محمد بن عبد الله الليثي الشهير بابن الطراوة (ت 528 هـ)، وهو أعظم شيوخ السهيلي أثراً في اتجاهه النحوي واللغوي، وقد كان نحوياً ماهراً أديباً يقرض الشعر ويُنشئ الرسائل، وله آراء

(14269/1)

في النحو انفرد بها. وقد كان السهيلي شديد الإعجاب به، أثنى عليه في أكثر من موضع من تآليفه، وتأثر ببعض أصوله وآرائه.

... 2 ـ أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الإشبيلي (ت 543 هـ)، أفاد ابن دحية(1) أن السهيلي «لازمه فأخذ عنه كثيراً من الحديث والأصول والتفسير». وقد كان لهذه الملازمة آثار طيبة عكستها مؤلفات السهيلي، فهو كثير الإحالة على ابن العربي، حتى صار لقب "شيخنا" إذا أطلق لا ينصرف إلا إليه.

---

(1) ... المطرب، ص. 231.

(14270/1)

... 3 ـ أبو بكر محمد بن أحمد بن طاهر الإشبيلي، ذكر ابن دحية(1) أن السهيلي سمع عليه جملة من الحديث وحدَّث عنه كثيراً في "الروض"(2) و"التعريف والأعلام"(3)، وتكاد مروياته عنه تكون من طريق أبي علي الغساني. ومن هذه المرويات كتاب "الاستيعاب" لابن عبد البر، و"مسند البزار"(4)، و"سيرة ابن هشام"(5)

---

(1) ... المصدر نفسه، صص. 231 ـ 132.

(2) ... انظر: الروض الأنف، ج 1/5، ص. 236، 241، 284؛ ج 2، ص. 285؛ ج 3، ص. 125، 233، 235، ج 4، ص. 67.

(3) ... التعريف بالأعلام، ص. 157.

(4) ... الروض الأنف، ج 2، ص. 285.

(5) ... المصدر نفسه، ج 1، ص. 5.

(14271/1)

.

... 4 ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن الرماك (ت 541 هـ)، قال ابن دحية(1):»ولزم الأستاذ الماهر النحوي أبا القاسم بن الرماك، فلقن عنه فوائد النحو «.

... وقد برز ابن الرماك في الأدب واللغة، واشتهر اشتغاله بـ"كتاب" سيبويه. وكان السهيلي كثير الثناء عليه والتقدير له. ومن ذلك قوله فيه: »كان إماماً في صنعة العربية «(2)، وقد طرز بعض كتبه بآراء له(3).

...

تلاميذه

... لقد أخذ عن السهيلي خلق كثير، ومن أشهرهم:

---

(1) ... المطرب، ص. 232.

(2) ... الروض الأنف، ج 1، ص. 201.

(3) ... نتائج الفكر، ص. 257.

(14272/1)

... 1 ـ أبو علي الرندي (ت 616 هـ): أفاد الرعيني(1) أنه أكثر عن السهيلي وتفقه به واختصر بصحبته وروى عنه جميع تواليفه، وذكر بعض طلبته أنه »لم يكن في حلبة الأستاذ أبي زيد السهيلي ـ من الطلبة ـ أنجب منه على كثرتهم«(2). وقد كان السهيلي يقدر فيه نبوغه وتفوقه حتى لقد قال في حقه معترفاً بكفاءته: »هو أقصد لـ"كتاب" سيبويه منا«(3).

---

(1) ... برنامج شيوخ الرعيني، ص. 86.

(2) ... الإحاطة، ج 2، ص. 328.

(3) ... المصدر نفسه، ج 2، ص. 328.

(14273/1)

... 2 ـ ابن دحية الكلبي، أبو الخطاب (ت 633 هـ): حدث عن شيوخ، واشتهر إكثاره عن السهيلي. قال ابن دحية(1):»قرأت عليه وسمعت كثيراً من أماليه التي

أملاها في معاني كتاب الله العزيز وأنواره، ودقائق النحو وأسراره، وغوامض علم الأصول وأغواره «. وقال في موضع آخر(2): »وأجاز في ولأخي الحافظ أبي عمرو جميع مروياته ومسموعاته ومجموعاته «.

... 3 ـ أبو علي بن كسرى الموري (ت 616 هـ): أجرى ابن الخطيب ذكره في عداد شيوخ محمد بن أحمد بن عبد الأستجّي

---

(1) ... المطرب، ص. 233–234.

(2) ... المصدر نفسه، صص. 237 ـ 238.

(14274/1)

الحميري، وحلاّه هذا بقوله: »وكان من طلبة أبي القاسم السهيلي وممن نبغ صغيراً، وهو الذي أنشد في طفولته السيد أبا إسحاق الكبير «(1) بإشبيلية:

قسماً بحمض وإنه لعظيم فهي المقام وأن إبراهيم

... وكان بالحضرة الأستاذ أبو القاسم السهيلي، فقام عند إتمام القصيدة، وقال: »لمثل هذا كنت أحسيك الحسا، ولمثل هذا منت أواصل في تعليمك الإصباح والإمسا «(2).

---

(1) ... هو ولد الخليفة الموحدي عبد المومن بن علي.

(2) ... الإحاطة، ج 3، ص. 328.

(14275/1)

... 4 ـ أبو محمد عبد الملك بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصاري: ذكر غير واحد ممن ترجموا له(1) أنه روى عن السهيلي، وأفاد المقري(2) أنه أكثر عنه.

...

إنتاجه الفكري

... حدد القاضي أبو بكر بن العربي ـ شيخ السهيلي ـ الغاية من التأليف في عبارة صريحة، هي: »لا ينبغي لحصيف يتصدى إلى تصنيف أن يعدل عن غرضين: إما أن يخترع معنى، أو يبتدع وضعاً ومتناً، وما سوى هذين الوجهين فهو تسويد الورق، والتحلي بحلية

---

(1) ... الذيل والتكملة، ج 1، ص. 182؛ وبرنامج شيوخ الرعيني، ص. 60.

(2) ... نفح الطيب، ج 4، ص. 334.

(14276/1)

السرق «(1).

... ولقد كانت تصانيف أبي القاسم السهيلي كذلك تمتاز بالجدة في اختيار الموضوع والبراعة في حسن التناول، فهو مثلاً لم يسبق إلى التأليف في مبهمات القرآن وكان أول من تصدى لشرح السيرة النبوية.

... وأما الجدة في التناول، فأبحاثه جميعاً تنطق باجتهاده في أكثر المسائل التي ندب نفسه لمعالجتها، لا فرق في ذلك بين أن تكون هذه المسائل نحوية أو لغوية أو فقهية أو بلاغية...، وكتابه "الروض الأنف" خاصة يزخر بالكثير منها.

---

(1) ... عارضة الأحوذي، ج 1، ص. دار الفكر، د. ت، ص. 3.

(14277/1)

... ويلاحظ على إنتاج السهيلي الفكري عامة أنه ـ بالنظر إلى نبوغ صاحبه المبكر، والعمر الذي قُيِّض له أن يعيشه ـ قليل. والسر في ذلك أن الرجل كان حريصاً على أن يصون فكره وقلمه أن يخوضا فيما لا يعود على العلم وأهله بكبير فائدة. وقد كان بوسعه أن ينصف كُتُباً في الفقه والأصول ويفسر القرآن الكريم تفسيراً كاملاً على غرار ما جرت به عادة العلماء عبر العصور. وقد سلك ـ

فيما يبدو ـ منهجاً آخر ارتضاه لنفسه والتزمه في سائر أبحاثه، وهو أن ينتقي المسائل التي تكون الحاجة ماسة إلى معالجتها، فيعمل فيها فكره الثاقب،

(14278/1)

ويخوض غمار معضلاتها، فإذا هي تسفر عن نكتها ودقائقها، وقد كانت ـ قبل ذلك ـ أسراراً خفية.

... ولقد أسعفنا الحظ، فجاد علينا بأهم آثار السهيلي.

وأما ما حرمناه من بنات أفكاره، فلا يعدو أن يكون مسائل مفردة؛ ولكنها بالرغم من كونها كذلك، فلقد كانت ـ لو سلمت من الضياع ـ قمينة بأن تساعدنا أكثر على استجلاء شخصية السهيلي ومكانته العلمية.

... وفيما يلي مسرد بأسماء كتبه وأماليه ومسائله:

ا ـ المطبوعة:

... 1 ـ "الروض الأنف والمشرع الرِّوَى في تفسير ما اشتمل عليه حديث سيرة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –

(14279/1)

واحتوى". وهو عنوان ـ كما يقول الدكتور البنا(1) ـ يعبر عن عُجب أبي القاسم به. فـ"الروضة الأنُف" هي التي لم يُرْعَ منها شيء(2). والمَشْرَعُ ـ كمقعد ـ مورد الشاربة(3)، والرِّوَى ـ بكسر الراء وفتح الواو ـ غير الكدر كما يقول السهيلي نفسه(4). ولقد أراد له أن يكون اسماً على مسمّى، وهو ـ بحق ـ كتاب حافل بفيض من المعارف والفوائد.

---

(1) ... السهيلي ومذهبه النحوي، ص. 77.

(2) ... لسان العرب (انف).

(3) ... تاريخ العروس (شرع).

(4) ... الروضالأنف، ج 1، ص. 171.

(14280/1)

وكتاب "الروض الأنُف" هو أعظم مصنفات السهيلي، وأوسعها شهرة بين أهل العلم قديماً وحديثاً. ولقد عبر عن منهجه فيه فقال إنه انتحى في هذا الإملاء أن ينبه »على ما في السيرة من لفظ غريب، أو إعراب غامض، أو كلام مستغلق، أو نسب عويص، أو موضع فقه ينبغي التنبيه عليه، أو خبر ناقص يوجد السبيل إلى تتمته «(1).

... ولقد توسل إلى تحقيق ما رامه، سالكاً سبيل الاختصار، وأجهد فكره تحقيقاً لهذا الغرض حتى ظفر بالمراد. وقد عبر عن ذلك بقوله:

---

(1) ... المصدر نفسه، صص. 3 ـ4.

(14281/1)

... فتبجست لي ـ بمنّ الله تعالى ـ من المعاني الغريبة عيونُها، وانثالت علي من الفوائد اللطيفة أبكارُها وعونُها، وطفقت عقائل الكلم يزدلفن بأيتهن أبدأ، فأعرضت عن بعضها إيثاراً للإيجاز، ودفعت في صدور أكثرها خشية الإطالة والإملال... مع أني قللت الفضول، وشذبت أطراف الفصول، ولم أتتبع شجون الأحاديث ـ وللحديث شجون ـ فجاء الكتاب من أصغر الدواوين حجماً، ولكنه كُنيف مُلئ علماً(1)

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 1، ص. 4؛ و"كنيْف" تصغير "كنف": وعاء الراعي يجعل فيه آلته. وقول السهيلي هذا ينظر إلى قول عمر بن الخطاب في ابن مسعود رضي الله عنهما: "كنيف مليء علماً"، أي أنه وعاء علم، والتصغير هنا للتعظيم. (وانظر طبقات ابن سعد، ج 3، ط دار صادر،

1985؛ وأبو النعيم، حلية الأولياء، ج 1، ص. 129. وفيه: "ملئ فقهاً" (دار الكتاب العربي، ط 4، 1985)؛ وتأويل مشكل القرآن، تحقيق أحمد صقر، ط المكتبة العلمية بالمدينة المنورة، ص. 48؛ وأبو عبيد، غريب الحديث، ج 1، ص. 169؛ والحاكم، المستدرك، ج 3، ص. 318.

(14282/1)

.

... وأما زمن تأليف "الروض"، فقد أخبر السهيلي أنه كان »في شهر المحرم من سنة تسع وستين وخمسمائة، وكان الفراغ منه في جمادى الأولى من ذلك العام«(1).

... وقد عنى طائفة من العلماء بـ"الروض الأنف" اختصاراً له وشرحاً وتحشية. وأشهر هؤلاء:

... 1 ـ بدر الدين أو عز الدين بن جماعة الكناني (ت 733 هـ)، اختصره وسماه: "نور الروض"(2)

---

(1) ... الروض الأنف، ج 1، ص. 5.

(2) بغية الوعاة، ج 1، ص. 65؛ وكشف الظنون، ج 1، صص. 917 ـ 918؛ والرسالة المستطرفة؛ والزركلي، الأعلام، ج 6، ص. 282، ويوجد أصل هذا المخطوط في مكتبة ممتاز

العلماء محمد تقي، بلكتو بالهند تحت رقم 75، حديث أهل السنة والجماعة، ومنه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات تحت رقم 3.76. أفاد ذلك د. عبد الجواد خلف عبد الجواد في مقدمة تحقيق لكتاب غرر البيان، ص. 110.

(14283/1)

.

... 2 ـ مغلطاي بن قليج الحنفي (ت 762 هـ) اختصر "السيرة" و"الروض" وسماه "الزهر الباسم"(1).

... 3 ـ قاضي القضاة يحيى المُناوي (ت 871 هـ). وضع حاشية له جردها سبطه زين العابدين بن عبد الرؤوف المناوي(2).

---

(1) ... السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق روزنتال، ص. 158؛ ويراجع خزانة الأدب، ج 9، ط هارون، ص. 555؛ وبروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج 3، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر، ط 4، ص. 13.

(2) ... الرسالة المستطرفة، صص. 80 ـ 81.

(14284/1)

... ولمكانة "الروض الأنف" العلمية وقيمة مباحثه، فقد كان ولا يزال مرجعاً أساسياً لمختلف الدراسات والأبحاث العلمية، حتى لقد أكثر بعض اللغويين من النقل عنه. وقد وجدوا في كثير من مواده ضالتهم المنشودة، فأغنوا مصنفاتهم بها، كما حفلت مصادر أخرى بنقول منه في النحو والفقه والتفسير والبلاغة(1)، وغير ذلك من فنون العلم وضروب المعرفة. ...

---

(1) ... قف على هذه النقول والاقتباسات من كتل السهيلي في مواضعها من هذه الدراسة.

(14285/1)

... 2 ـ "نتائج الفكر" : حققه الدكتور محمد إبراهيم البنا ونشر مرتين: الأولى بليبيا سنة 1978 م، والثانية بمصر بدار الاعتصام سنة 1986 م.

... وقد عُنِي في هذا الكتاب بجوانب خمسة: الدلالة، والعلة، والعامل، ونظم القرآن، ونقد المصطلحات والتعريفات(1).

... 3 ـ "كتاب الفرائض وشرح آيات الوصية" : حققه كذلك الدكتور البنا، وقد صدرت له نشرة أولى عن جامعة

قاريونس بليبيا سنة 1980 م. وقد عني فيه بذكر مصادر المواريث في كتاب السنة وأقوال الصحابة. أما القسم الثاني، فأسسه على أربعة

---

(1) ... "مقدمة" النتائج، ص. 22.

(14286/1)

أبواب:

... الباب الأول : في معرفة أصول الفرائض وأصحاب السهام.

... الباب الثاني : في كيفية العمل في هذه الفرائض الي لا عول فيها.

... الباب الثالث : باب العول في الفرائض، وألحق به فصلاً في ميراث الجد.

... الباب الرابع : في الأسباب المانعة من الإرث.

... 4 ـ التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام : وموضوع الكتاب هو التعريف بمبهمات القرآن أعلاماً كانت أو غير أعلام. وقد أبان السهيلي عن غرضه من تأليفه وقال:

(14287/1)

... فإني قصدت أن أذكر في هذا المختصر الوجيز ما تضمنه كتاب الله العزيز من ذكر من لم يسم فيه باسمه العلم من نبي أو وليّ أو غيرهما، من آدمي أو ملك، أو جني أو بلد، أو كوكب أو شجرة أو حيوان له اسم علم قد عرف عند نقلة الأخبار والعلماء الأحبار(1).

... ولقد كان السهيلي سباقاً إلى إفراد كتاب في هذا الباب، وقد أمكنه أن يجمع ما تناثر من مبهمات القرآن من مصادر كثيرة أحال عليها في تأليفه. وهو مطبوع متداول(2)

---

(1) ... التعريف والأعلام، تحقيق عبد الأمير علي مهنا، دار الكتب العلمية، ط 1، ص. 16.

(2) ... طبع مرتين، وهو في حاجة إلى نشرة علمية محققة. وقد افاد الدكتور البنا أنه أعده للنشر، ذكر ذلك في مقدمة تحقيقه لـ"نتائج الفكر ". وإذا كان السهيلي أول من صنف في مبهات القرآن، فإن العالم المصري عبد الغني بن سعيد (ت 409 هـ) قد سبقه إلى التصنيف في مبهات الحديث بنحو قرن ونصف.

(14288/1)

.

... ولقد كانب لكتاب "التعريف والإعلام" أثر في أوساط العلماء القدماء والمتأخرين. ذلك بأنه استتبع عدداً من المصنفات بين استدراك وجمع.

... 1 ـ فقد ألف ابن عسكر المالقي (584 ـ 636) كتاب "التكميل والإتمام لكتاب التعريف والإعلام"(1).

... 2 ـ وألف ابن فرتون أبو العباس أحمد بن يوسف السلمي (ت 660 هـ) كتاب "الاستدراك والإتمام" استدرك فيه عليه.

... 3 ـ وجمع بدر الدين بن جماعة (ت 733 هـ) بين كتابي "الإعلام" و"التكميل"، وسماه "التبيان"(2)

---

(1) ... كشف الظنون، ج 1، صص. 421 ـ 422، و1771.

(2) ... إيضاح المكنون، ج 3، ص. 224, وعنوانه الكامل "التبيان في مبهمات القرآن".

(14289/1)

. وقد التقى العبدري الحيحي الذي بدأ رحلته من حاحة بالمغرب في سنة 688 هـ بابن جماعة هذا، واتهمه بالإغارة في كتابه المنوه به على كتاب "التعريف والإعلام" للسهيلي.

... 4 ـ وألف أبو عبد الله محمد بن علي الأوسي البلنسي (ت 746 هـ) كتاب "صلة الجمع وعائد التذييل لموصولي كتاب الإعلام والتكميل"، جمع فيه بين كتابي السهيلي وابن عسكر(1)

---

(1) ... رحلة العبدري، ص. 231، تحقيق الأستاذ محمد الفاسي، منشورات جامعة محمد الخامس، وسحين التنبيه هنا إلى أن كتاب "التبيان مفقود"، وقد اختصره مؤلفه في كتاب سماه "غرر البيان فيمن لم يسم في القرآن"، وقد حققه د. عبد الجواد خلف عبد الجواد، وصدرت له الطبعة الأولى عن دار قتيبة، بدمشق سنة 1990.

(14290/1)

.

5 ـ وذكر السيوطي ت 911 هـ) كتب السهيلي وابن عسكر وابن جماعة، ثم قال: »ولي فيه تأليف لطيف جمع فوائد الكتب المذكورة مع زوائد أخرى على صغر حجمه جداً«(1).

... وهناك كتاب آخر شبيه بكتاب السهيلي، وهو: "البيان فيما أبهم من الأسماء في القرآن" من تأليف أبي عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان الزهري النحوي(2)

---

(1) ... يشير إلى كتابه "مفحمات الأقران في مبهمات القرآن"، الذي نبه عليه في "الإتقان"، ج 4، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، ط 4، دار التراث، ص. 81. وقد نشرته مؤسسة الرسالة، بتحقيق أ. إياد خالد الطباع.

(2) ... تنظر ترجمته في بغية الوعاة، ج 1، صص. 25 ـ 26.

(14291/1)

، وهو أندلسي مهاجر، ولد بمالقة وطاف الأندلس، هاجر إلى المشرق. قتله التتار سنة 917 هـ ولعله وضع هذا لكتاب في المشرق معتمداً منهج السهيلي ما دام من أهل مالقة أيضاً، وقد شرح مقامات الحريري، وله مؤلفات، منها: "شرح الإيضاح للفارسي"، و"التبيان والتبيين في أنساب المحدثين" و"أقسام البلاغة وأحكام الصناعة".

... 5 ـ مجموعة من الأمالي والمسائل المفردات أشار إلى طائفة منها في كتابه "الروض الأنف".

... وقد نشر الدكتور البنا من أماليه قطعة مجموعة وسماها بأمالي السهيلي(1)

---

(1) ... صدرت طبعتها الأولى عام 1970 بمطبعة السعادة.

(14292/1)

، ونازعه الدكتور طه محسن(1) في هذه التسمية. وهي تضم خمس مسائل: مسألة فيما لا ينصرف، وفي كافش التشبيه، ومسألة في الجواب ببلى ونعم، وأجوبته على صاحبه المحدث ابن قرقول، ومسألة في الطلاق والأيمان اللازمة. والمسائل الثلاث الأولى في النحو، والآخرة في الفقه، أما أجوبته على ابن قرقول ـ وهي أربع وسبعون مسألة ـ فإنها تضم موضوعات لغوية ونحوية وفقهية وغير ذلك

(1) ... مجلة المورد العراقية، المجلد 18، عدد 3، 1989، ص. 84.

(14293/1)

... 6 ـ مسائف في النحو واللغة والحديث والفقه، عثر عليها الدكتور طه محسن في مخطوطة تحتفظ بها مكتبة فاتح بإستانبول ضمن مجموع رقمه 469، فحققها ونشرها بمجلة "المورد" العراقية(1)، وأكَّد أنها القسم الثاني المكمل لما نشره الدكتور البنا.

... وأما موضوعات هذه المسائل، فقد جاءت متتابعة وفق التسلسل الآتي:

... 1 ـ مسألة في حروف الشرط

... 2 ـ مسألة في الاستثناء.

... 3 ـ مسألة في المفعول معه.

... 4 ـ تعليق على كلام أبي علي الفارسي في كتاب "الإيضاح".

---

(1) ... المرجع نفسه، صص. 84 ـ 110.

(14294/1)

... 5 ـ قصيدة جيمية من نظم السهيلي.

... 6 ـ مسألة في مدلول لفظ "الاستطاعة".

... 7 ـ فوائد من قوله تعالى: {وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون}.

... 8 ـ استنباط فقهي من الحديث الشريف طاعتقها فإنها مومنة".

... 9 ـ حديث رواه السهيلي بسنده.

... 10 ـ إطلاق لفظ الأنرهل يتناول الحر والعبد؟

... 11 ـ الأمر المجرد هل يقتضي التكرار؟

... 12 ـ خطاب المسافر والمريض بالصوم في رمضان.

... 13 ـ خطاب الحائض بالصوم.

... 14 ـ الكلام على الرؤيا والرؤية.

... 15 ـ تحريم إتيان النساء في أعجازهن.

(14295/1)

... واختلفت هذه المسائل فيما بينها من حيث الطول. فبينما نجد بعضها يزيد على خمس صفحات من المخطوط، كالثانية والرابعة عشرة، نجد أخرى لا تتجاوز بضعة أسطر، كالثالثة والثامنة(1).

... وهناك عناوين لمسائل أخرى أشار إليها في "الروض الأنف"، وذكرتها مصادر أخرى، وهي في النحو، والتفسير، والحديث، والسيرة.

1 ـ مسائل في النحو:

... 1 ـ مسألة في الكحل: ذكرها في "الروض"(2) عند قوله – صلى الله عليه وسلم – في وصف إبراهيم عليه السلام: «لم أر رجلاً أشبه بصاحبكم، ولا

---

(1) ... المرجع نفسه، ص. 85.

(2) ... ج 2، ص. 153.

(14296/1)

صاحبكم أشبه به منه«، فقال: »ولو أسقط من أشبه« الثاني لكان حسناً جداً(1)، ولو أخر »صاحبكم« فقال: »ولا أشبه به صاحبكم منه«. لجاز، ويكون فاعلاً بأشبه الثانية، ويكون من باب قولهم: »ما رأيت رجلاً أحسن في عينه الكحل من زيد«، وهي مسألة عذراء لم تفترعها أيدي النحاة بعد، ولم يكشف منها متقدم منهم ولا متأخر ممن رأينا كلامه فيها، وقد أملينا في غير هذا الكتاب فيها

(1) ... هذا سبق قلم من السهيلي رحمه الله. فقد أوتي الرسول – صلى الله عليه وسلم – جوامع الكَلِم، وهو أفصح العرب، وكلامه فوق أن يستدرك عليه.

(14297/1)

تحقيقاً شافياً«.

... 12 ـ مسألة في "وحده" منصوباً على حال: قال السهيلي: »وفي باب "وحده" أسرار، أمليناها في غير هذا الكتاب«(1).

... 3 ـ مسألة في لفظ الجلالة: قال:

... حكم الألف واللام في هذا اللفظ يخالف حكمها في سائر الأسماء، ألا ترى أنك تقول: يا أيها الرجل، ولا ينادى اسم الله بيا أيها، وتقطع همزته في النداء، فتقول: يا ألله، ولا يكون ذلك في اسم غيره، إلى أحكام كثيرة يخالف فيها هذا الاسم لغيره من الأسماء المعرفة. ولعل بعض ذلك يذكر فيما بعد. إن شاء الله ، وقد

---

(1) ... الروض الأنف، ج 4/ ص. 62.

(14298/1)

استوفيناه في غير هذا الكتاب(1).

... 4 ـ مسألة في إعراب قوله تعالى: {لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً}. قال: »قد أملينا في إعراب هذه الآية نحواً من كراسة، وذكرنا ما وهِمَ فيه الزجاج من إعرابها«(2).

5 ـ مسألة فيما يسمى واو الثمانية: قال: »أفردنا للكلام على هذه الواو التي يسميها بعض الناس واو الثمانية باباً طويلاً«(3).

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 1، ص. 260.

(2) ... المصدر نفسه، ج 2، ص. 54.

(3) ... المصدر نفسه، ص. 56.

(14299/1)

... 6 ـ مسألة في الصفة المشبهة: قال ـ بعد أن عرض لصورة حكاها سيبويه ـ: »للمسألة أسرار، وفي باب الصفة عجائب من التعليل قد استوفيتها وكشفتها في غير هذا الإملاء«(1).

... 7 ـ مسألة في المفعول من أجله: قال: »وعندنا في المفعول من أجله أسرار لا تطول بكشفها، وثمرة بِكْر ليس هذا حين قطفها«(2).

2 ـ مسائل في التفسير

... 1 ـ مسألة في الحروف المقطعة في أوائل السور: عرّج السهيلي على هذه الحروف دون أن يجزم بأن له فيها إملاء. وقد كان يرى أن تأمل أسرارها

---

(1) ... الأمالي، ص. 118.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 124.

(14300/1)

بالقلب، وملاحظتها بعين الفكر، وفحص خفي تعليلاتها ليس إلا قصد التفكر والاعتبار، في حكمة مَن خلق الإنسان وعلمه البيان. وتثبيتاً لمعتقده هذا، فقد ساق شواهد في هذا الباب فيها: »من دلالة الحروف المقطعة على المعاني والرمز بها إليها كثير من منظوم الكلام ومنثوره، كقول الراجز(1):

فقلت لها قفي، فقالت: قاف

---

(1) ... هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وتمامه "لا تسبينا قد نسينا الإيجاف". (وانظر: السيرافي، ضرائر الشعر، تحقيق د. رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1، ص. 98).

(14301/1)

ومن هذا الباب حروف التهجي في أوائل السور«(1).

... وليس بمستبعد أن يكون السهيلي قد أفرد لهذه الحروف إملاء، نَقر فيه على أسرارها، وأعمل فكره في استكشاف خفاياها، يرجح ذلك أنه وعد بإنجاز هذا العمل(2)، كما أن الزركشي ألمع إلى أنه جمع في هذه الحروف المذكورة في أوائل السور في قوله: {ألم يسطع

نور حق كره}، ثم قال: »... وتأمل سورة الأعراف، زاد فيها "ص" لأجل قوله: {فلا يمكن في صدرك حرج} (الأعراف، الآية 2)، وشرح فيها قصص آدم فمن بعده من

---

(1) ... نتائج الفكر، ص. 224.

(2) ... الروض الأنف، ج 2، ص. 296.

(14302/1)

الأنبياء«، ولهذا قال بعضهم: فمعنى "ألمطٓ : {ألم نشرح لك صدرك} (الشرح، الآية 1)، وقيل: معناه المصور، وقيل: أشار بالميم لمحمد، وبالصاد للصديق، وفيه إشارة لمصاحبة الضاد بالميم، وأنها تابعة لها كمصاحبة الصديق لمحمد ومتابعته له، وجعل السهيلي هذا من أسرار الفواتح(1).

... 2 ـ مسألة في قوله تعالى: {الله نور السموات والأرض}. قال: »وقد أمليت في غير هذا الكتاب من معنى {نور السموات والأرض} ما فيه شفاء«(2)

---

(1) ... البرهان في علوم القرآن، ج 1، تحققي محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط 3، ص. 170.

(2) ... الروض، ج 1، ص. 219.

.

... 3 ـ مسألة في قوله تعالى: {وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه}. قال ابن دحية: »وأملى علي كلامه على قول الله تعالى: {وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه«(1).

... 4 ـ مسألة في قوله تعالى: {يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل". قال ابن دحية كذلك: »و[أملى علي] كلامه على قول الله جل وعلا: {يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل«(2).

... 5 ـ مسألة في {قل هو الله أحد}. قال ابن دحية: »و[أملى علي] تفسير قول النبي – صلى الله عليه وسلم – في {قل

---

(1) ... المطرب، ص. 237.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 237.

هو الله أحد} أنها تعدل ثلث القرآن«(1).

3 ـ في الحديث

... 1 ـ مسألة في كراهية أن يقول الرجل: زرعت في أرضي كذا. قال في "الروض" :

... وفي مسند وكيع بن الجراح، عن ابي عبد الرحمن الحبلي أنه كان يكره أن يقول الرجل: »زرعت في أرضي كذا وكذا«، لأن الله هو الزارع، وفي مسند البزار مرفوعاً إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – النهي عن ذلك أيضاً، وقد تكلمنا على وجه هذا الحديث في غير هذا الإملاء (2).

---

(1) ... المصدر نفسه.

(2) ... الروض، ج 1، ص. 45.

(14305/1)

... 2 ـ مسألة في "التحيات". قال: »وقد ذكرنا في غير هذا الكتاب فوائد جمة في معنى "التحيات" إلى آخر المشهد«(1).

... 3 ـ مسألة في "سبحان الله وبحمده". قال: وقد أشرنا إلى تمام المعنى في شرح ما تضمنه لفظ "القوسين" من

قوله {قاب قوسين} في جزء أمليناه في شرح "سبحان الله وبحمده" تضمن لطائف من معنى التقديس والتسبيح «(2).

... 4 ـ مسألة في قوله عليه السلام: »إن الله جميل يحب الجمال«. قال: »وقد كشفنا معناها [المحبة] بغاية البيان في شرح قوله عليه

---

(1) ...

(2) ... المصدر نفسه، ج 2، ص. 157. 286؛ ج 4، ص. 196.

(14306/1)

السلام: "إن الله جميل يحب الجمال"، ونبهنا هنالك تقصير أبي المعالي ـ رحمه الله ـ في شرح المحبة في كتاب الإرادة من كتاب "الشامل". فلتنظر هنالك«(1)..

... 5 ـ مسألة في حديث "الموطأ" في الشؤم. قال: »وقد أمليت حديث "الموطأ" في الشؤم، وأنه إن كان، ففي المرأة والفرس والدار تحقيقاً وبياناً شافياً لمعناه، وكشفاً عن فقهه لم أر أحداً ـ والحمد لله ـ سبقني إلى مثله«(2).

---

(1) ... المصدر نفسه، ث. 250.

(2) ... المصدر نفسه، ج 3، ص. 45.

(14307/1)

... 6 ـ مسألة في حديث الأمة التي قال لها: أين الله؟. قال: »وقد أملينا في حديث الأمة التي قال لها: "أين الله؟". قالت: "في السماء" مسألة بديعة نافعة شافية رافعة لكل لبس، والحمد لله«(1). ... 7 ـ مسألة في قوله عليه السلام: »المومن يأكل في معيّ واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء« قال:

... وقد أملينا في معنى قوله: »يأكل في سبعة أمعاء« نحواً من كراسة رددنا فيها قول من قال: إنه مخصوص برجل واحد، وبينا معنى الأكل والسبعة الأمعاء، وأن الحديث ورد إلى سبب خاص، ولكن معناه

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 3، ص. 283.

(14308/1)

عام، وأتينا في ذلك بن =ما فيها شفاء، والحمد لله(1).

... 4 ـ في التراجم والسير

... 1 ـ استدراكات على كتاب "الاستيعاب في معرفة الأصحاب" بن عبد البر. قال: وخالدة بنت الحارث، قد ذكر إسلامها، وهي مما أغفله أبو عمر في كتابه "الصحابة". وقد استدركناها عليه في جملة الاستدراكات التي ألحقناها بكتابه(2).

... 2 ـ "الإشارة إلى سيرة المصطفى وآثار من بعده من الخلفاء". ذكره بروكلمن، وذهب إلى أنه اختصار لكتابه "الروض الأنف"، وأن منه نسخة خطيبة

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 4، ص. 253.

(2) ... المصدر نفسه، ج 2، ص. 291.

(14309/1)

في ميونيخ(1).

5 ـ في أدب الزهد والمواعظ

... "حلية النبيل في معارضة ملقى السبيل". ذكرها ابن الخطيب(2)، وقد عارض فيها رسالة أبي العلاء المعري الموسومة "ملقى السبيل"؛ أفاد ذلك الدكتور محمد بنشريفة(3)، ونبه إلى أنها تندرج في فن الكتابة في

(1) ... تاريخ الأدب العربي، ج 3، ترجمة د. عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر، ط 4، ص. 13.

(2) ... الإحاطة، ج 3، ص. 379، وتصحفت فيه لفظة "ملقى" إلى "مافي".

(3) ... أبو المطرف بن عميرة، حياته وآثاره، ص. 299، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ط 1.

(14310/1)

الزهديات والمواعظ التي كانت منتشرة انتشاراً كبيراً بالأندلس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين.

6 ـ مسائل مختلفة

... 1 ـ مسألة في أبواب الجنة وأبواب النار. قال: »وقد أملينا في معنى أبواب الجنة وأبواب النار فائد عددها وتسميتها، وذكر الزبانية، والحكمة في كونهم عدداً قليلاً مسألة في قريب من جزء، فلتنظر هناك«(1).

... 2 ـ مسألة السر في عور الدَّجَّال. وتحدث عن معجزات المسيح وختم ذلك بقوله:

(1) ... الروض الأنف، ج 2، ص. 65.

(14311/1)

... فكان في مسيح الهدى من الآيات ما يشاكل حاله ومعناه حكمة من الله، كما جعل في الصورة الظاهرة من مسيح الضلالة، وهو الأعور الدجال ما يشاكل حاله، ويناسب صورته الباطنية، على نحو ما شرحنا وبينا في إملاء أمليناه على هذه النكتة في غير هذا الكتاب، والحمد لله(1).

... 3 ـ مسألة في أخبار الزباء. قال: »وقد أملينا في غير هذا الموضع ذكر نسبها وطرفاً من أخبارها«(2).

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 3، ص. 12.

(2) ... الروض الأنف، ج 1، ص. 33.

(14312/1)

... 4 ـ شرح "الإرشاد" للجويني. ذكره الألوسي في تفسيره(1).

7 ـ ما نسب إليه خطأ

... 1 ـ "جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس". في مكتبة الأسد، دار الكتب الظاهرية سابقاً، في دمشق، برقم 9006، ودار الكتب المصرية 1473، تاريخ تيمور كتاب بعنوان "جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس"، منسوب للسهيلي.

... وقد نبه الباحث عبد العزيز الساوري في مقال له(2) على هذا الوهم وانتهى إلى أن هذه

---

(1) ... روض المعاني، ج 1، ط دار الفكر، 1978، ص. 53.

(2) ... جريدة الحياة اللندنية، العدد 10487، 23 أكتوبر 1999، ص. 17.

(14313/1)

"الجذوة" ليست للسهيلي.

... 2 ـ "تفسير سورة يوسف" : يوجد بالخزانة العامة (قسم الوثائق والمخطوطات) مخطوطان اثنان: الأول تحت رقم 662 د، والثاني رقمه: 1427د، بهما كلام على "سورة يوسف"، سمي تفسيراً، ونسب للسهيلي.

... ولقد سارعت إلى الاطلاع على هذا المخطوط، يحدوني الأمل الكبير في أن أظفر بتفسير للسهيلي متكامل ـ ولو لسورة واحدة ـ أعتمده في استجلاء منهجه في

التفسير واستكشاف معالمه.

... لكن سرعان ما وقعت لي خيبة أمل. ذلك بأنه اتضح لي بعد النظرة الأولى أن ما احتوى عليه هذا المخطوط ليس بتفسير، فضلاً عن أن

(14314/1)

يكون للإمام السهيلي، وذلك لاعتبارات كثيرة، وأهمها ما يلي:

... أ ـ أن السهيلي يعتقد أن لفواتح السور أسراراً تدبُّرها واجب على أولي الألباب، لا يجوز لدارس القرآن أن يصرف نظره عن استكناه معانيها، واستجلاء مقاصدها، و"سورة يوسف" ـ كما هو معلوم ـ مستهلة بأحرف التهجي، ولا كلام في هذا المخطوط عليها.

... ب ـ أن المنهج المتبع في هذا المخطوط بعيد كل البعد عن منهج السهيلي الذي يقوم أساساً على استنطاق النصوص القرآنية اعتماداً على علوم الآلة، وأعني بذلك: اللغة والنحوو البلاغة، إلخ، وليس في هذا المسمى

(14315/1)

"تفسيراً"شيء من ذلك

... ج .أن السهيلي حريص في تفسيره على الإكثار من الشواهد الشعرية المجمع على الاحتجاج بها، ويغلب عليه نسبتها إلى قائلها، وشواهد هذا المخطوط جميعاً غير معزوة، بل إن الكثير منها غير مألوف في مصادر التفسير.

... د .أن السهيلي .حين يعتمد التفسير بالمأثور .يعزو النقول إلى أصحابها، صحابة كانوا أو تابعين، أو غيرهم من أئمة التفسير. وهذا المخطوط لا يكاد يظهر فيه أثر لذلك

... هـ .أن الطابع الغالب على هذا المخطوط هو القصص والحكايات، والضعيف منها والمستغرب كثير.

(14316/1)

... و .يتخلل هذا التفسير كثير من أخبار المتصوفة الواهية، كقول صاحبه: »حكي أن الشبلي رأى امرأة تبكي خلف جنازة وتقول: ما كان لي سواه، فخرق الشبلي ثيابه وقال: وامصيبتاه على فقد من ليس له سواه! «.

... ز .مما التزمه السهيلي في سائر مصنفاته أنه يحيل على كتبه وأماليه ومسائله، ولو كان له تفسير لـ"سورة يوسف" ما غفل عن التنبيه عليه.

... ح .أن السهيلي كثير الالتفات إلى إعجاز القرآن، شديد العناية باللغة والنحو والبيان، ولا أثر في هذا المخطوط لشيء من ذلك.

(14317/1)

... وخلاقة القول، فإن هذا المخطوط يفتقر إلى روح السهيلي، ولا يسعُ من صَحِب هذا العالم وعاش مع مؤلفاته حيناً من الدهر إلا أن يسلِّم بأنه ليس من نتاجه.

... وإن تعجب .بعد كل هذا .فعَجَبٌ أن تعلم أن أحد طلبة الدراسات العليا قد اختار هذا المخطوط موضوعاً لأطروحة جامعية(1)

---

(1) ... كان قد جمعني لقاء بالأستاذ البحاثة المرحوم محمد المنوني، وحدثته في شأن هذا المخطوط، فأكد لي صحة ما انتهيت إليه من أمر نسبته، ثم أخبرته بأن أحد طلبة الدراسات الإسلامية قد اختاره موضوعاً لنيل دبلوم الدراسات العليا، فقال في منكّتاً: "ضعف الطالب والمطلوب".

(14318/1)

.

... 3 ـ "الإيضاح والتبيين لما أبهم في تفسير الكتاب المبين". ذكره الزركلي(1) والبغدادي(2). والظاهر ـ والله اعلم ـ أن هذا الكتاب هو كتاب "التعريف والإعلام" نفسه، لتشابه العنوانين. وأغلب الظن أن هذا العنوان ورد خطأ عند بعض من ترجموا للسهيلي، فتناقل ذلك المتأخرون دون تحقيق.

---

(1) ... الأعلام، ج 4، ص. 86.

(2) ... هدية العارفين، ج 1، ص. 520.

(14319/1)

من أنماط الفكر اللغوي بالمغرب

الأستاذ محمد الأوراغي

كلية الآداب – الرباط

0. استهلال

التأريخ للحركة الفكرية في مختلف حقول العلم لا يقل أهمية عن ممارسة العمل المعرفي ذاته. يكفيه نفعاً و إفادة أن يضيء التيارات المتنافسة داخل الحقل الواحد

للتفرد بدراسة موضوعه المبحوث فيه. وليس أنجع من أن يكون التأريخ للعلم مصباحا لإنتاج المعرفة، المهمتين نفس الباحث، كأن ينقلب اللساني مثلا مؤرخا للسانيات، كما ينقلب أحيانا "علوميا" حين ينتقل إلى « علم أعلى" ليفحص فيه المبادئ الأولية التي تؤسس مختلف النظريات

(14320/1)

والنماذج المطبقة في دراسة موضوع بعينه.

وقد نبتعد كثيرا عن الصواب إن قلنا إن المغرب، منذ الربع الأخير من القرن العشرين، أخذ الصدارة داخل الوطن العربي فيما يخص البحث اللساني, وقد آن الأوان للشروع في تحديد ملامح الفكر اللغوي في هذا البلد وغيره من بلدان وطننا الكبير، واستجلاء الخصائص الجامعة والفارقة بين النزعات الفكرية في الأبحاث اللغوية وفي غيرها من المجالات المعرفية، وغاية هذا المقال أن يكون دعوة لذوي الاختصاص إلى صوغ تجاربهم حتى تنكشف السبل أمام المقبلين على ممارسة البحث في نحو اللغة العربية.

(14321/1)

---

1. لغة واحدة وأطاريح متعددة

من المتعذر منطقيا أن يكون لكل مزاول للبحث في اللغة أو في غيرها تجربة شخصية متميزة. لكنه يفترض في عمل كل لغوي أن يكون منتميا إلى نزعة في البحث اللغوي مخصوصة. يعني هذا أن الحديث عن تجربتنا اللغوية يفرض علينا أن نبدأه بحصرها في التيار اللغوي الذي يشملها.

لتحديد أي تيار لغوي لابد من ربطه بالأطروحة التي يتبناها أصحابه، ومن مقابلته بغيره المستند إلى أطروحة مخالفة، إلى حين الإحاطة بكل المشارب المتواجدة. ولا نعني بالتيار اللغوي نظرية لسانية أو نموذجا نحويا، بل نقصد به مجموع

(14322/1)

الأعمال اللغوية المتميزة داخليا بخصائص إحدى الأطاريح التالية: القديم القارّ، أو الجديد الجابّ أو نقد القديم المستمر.

1. 1. أطروحة القديم القار:

تستند أطروحة القديم القار إلى مقدمتين. الأولى يتكرر ذكرها في التراث العربي بصيغتين مشتركتين في القصد. وهما القول بأن ليس في الإمكان أبدع مما كان، وقولهم ما ترك الأول للآخر شيئا يقوله. أما المقدمة الثانية فضمنية في التراث اللغوي خاصة. يمكن أن يقال في التصريح بها: معرفة اللغة العربية مرتبطة بمعرفة النحو العربي. وكأن اللغوي الذي يجمع بين تينكم المقدمتين

(14323/1)

يقول: بما أن النحاة الأوائل وصفوا اللغة العربية وصفا كافيا لم يبق إذن للمتأخرين إلا الرواية عنهم. وبما أن الهدف التعليمي واضح في النحو العربي تعين التمسك به، إذ به تتعزز معرفة العربية؛ اللغة المحفوظة بالقرآن من الانقراض، والثابت نسقُها فلا يتجدد منها سوى قسم المتغير من معجمها. أما القسم الثابت منه فقار مثل نسقها(1)

---

(1) في دراسة لبعض مقدمات المعجم التاريخي بيّنا أن

المعجم يدّخر في كلماته ثقافة المجتمع، الشيء الذي يمنع قسما من مادته؛ وهو الحافظ لهوية الأمة والضامن لاستمرارها، أن يناله التغيير فلا يصير من الماضي المندثر. مفردات هذا القسم من المعجم تمثل ماضي أهل اللغة المستَحضَرَ، وكيان الأمة المستمر، فثبتت إلى جانب المفردات المتجددة في القسم المتغير من نفس المعجم. للمزيد من التفصيل، اُنظر محمد الأوراغي، "مقدمات المعجم التاريخي"، ضمن مجلة التاريخ العربي، العدد الثاني، ص. 151–171.

(14324/1)

. وبذلك صارت للعربية بين اللغات وضعية خاصة؛ إذ تُعرف بالنحو الموصوف ويُعرف غيرها بالاستعمال الدارج، ويَحفظ الكتابُ نسقها الموصوفَ من نحاتها في كل العصور، وينقرض غيرُها لتحفظ الآثار بقية منها.

وقبل المرور إلى الكشف عن بعض المظاهر التي خلفتها أطروحة القديم القار لا بأس من وقفة قصيرة عند مقدمتَيْها. وأول ما ينبغي تسجيله ألّا تلازم بين طيفكم المقدمتين. فالقول بارتباط معرفة اللغة العربية بمعرفة النحو العربي لا يلزم عنه ضرورة الأخذ

بمقدمة ما ترك الأول للآخر شيئا يقوله. لأنه إذا كان عدد الاستعمال

(14325/1)

الدارج يسوغ الربط بين معرفة العربية ومعرفة نحو سيبويه فإن نسبية المعرفة البشرية لتشكل الدليل القاطع على ضرورة التخلي عن الاعتقاد بأن النحاة الأوائل قد وصفوا اللغة العربية وصفا كافيا فلم يتركوا لأمثالهم المتأخرين شيئا يستدركونه عليهم(1) ، لأن التمسك بهذه المقدمة في أطروحة القديم القار يخلف الكثير من الجوانب

---

(1) قديما نبه الجاحظ إلى الضرر الذي يلحق العلم بسبب الأخذ بالمقدمة المذكورة، فقال: "ما على الناس شيء أضر من قولهم: ما ترك الأول للآخر شيئا". اُنظره ومثله في ابن جني، الخصائص، ج 1، ص. 190

(14326/1)

السلبية في للاحق من أعمال اللغويين القدماء. وسنختصر القول بذكر أهمها فيما يلي:

(ا) احتباس الفكر اللغوي: كاد التفكير في اللغة العربية يتوقف بعد سيبويه. وهو ما يفسر التوجه المبكر لأغلب النحاة إلى أعمال لغوية هامشية(أي كل عمل لغوي لا يسهم في تطوير نظرية أو نموذج، ولا في نمو المعرفة اللغوية). ويمكن أن ندخل في اللغويات الهامشية الأصناف التالية: 1) المختصرات ؛ 2) الشروح ومختصراتها؛ 3) حواشي الشروح؛ 4) المنظومات ومختصراتها؛ 5) شروح المنظومات وحواشي شروحها(1)

---

(1) الأصناف الخمسة المسرودة أعلاه، نمثل لها بما يلي من الأعمال. ضمن المختصرات نذكر "اللمع في العربية" لابن جني، و"شذور الذهب" لابن هشام، و "مختصر التصريف العربي"، للزنجاني، ولصحاح الجوهري سبع عشرة مختصرا. ومن التلاخيص "نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز"، للرازي، و "تلخيص المفتاح" القزويني، و "عمدة الحافظ وعدة اللافظ" لابن مالك أما الشروح فإن لها النصيب الأوفر من التأليف اللغوي حتى عزَّ الكتاب غير المشروح، وصارت شروح الكتاب الواحد تُعد أحيانا بالعشرات لجمل الزجاجي تسع وسبعون شرحا). ومن مختصرات الشروح موجز ابن الضائع الذي لخص فيه شرح السيرافي لكتاب سيبويه. ومن حواشيها حاشية

البغدادي على شرح الرضي لشافية ابن الحاجب. وبالدخول في مرحلة التذيل والتكميل والتحمير أخذ التأليف في ميدان اللغة يضيق، وكان المخرج في اللجوء إلى نظم المعرفة اللغوية في أراجيز ليسهل على المتعلم حفظها.

من أراجيز النحو نظم اليشكوري وألفية ابن معطي الزواوي، والكافية الشافية لابن مالك (2750 بيتا)، ==وقد اختصره في ألفيته التي عارض بها ألفية ابن المعطي. ومن أراجيز علم الصرف "لامية الأفعال" لابن مالك، ومتن الترصيف في علم التصريف" لعبد الرحمن بن عيسى. وقد امتد النظم إلى المعاجم، إذ انبرى ابن معطي لنظم صحاح الجوهري لكنه لم يتمكن من إكماله.

وبنشوء الأراجيز اللغوية تجددت حركة الشرح، وشرح الشرح. من قبيل حاشية الرفاعي على شرح بحرق اليمني للامية الأفعال، وحاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك.

(14327/1)

. لكن أغلب هذه الأصناف لعبت دورا رئيسيا في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، وفي تعزيز لغة المستعمربين.

(II) كثرة الخلاف في المفاهيم النظرية والتحاليل

المراسية: لا شك أن اختلاف العلماء أساس تطور المعرفة البشرية إن صعد الخلاف إلى أصول النظريات وانحدر منها إلى أبنية النماذج المتفرعة عنها ليتوقف عند المعرفة المقتنصة بها. أما الجدل في الجزئيات فلا يولد إلا معرفة مشتبهة، خاصة إذا امتد أيضا إلى اللغة الاصطلاحية المستعملة في الوصف. والخلاف النحوي، كما تكشف عنه كتبه سواء أكان بين نحويّين(1)

---

(1) رد المبرد على سيبويه فيما يعرف بمسائل الغلط وترتب عن ذلك كتاب الخلاف بين سيبويه والمبرد، نسبه القفطي ("إنباه الرواة" ، ج 2، ص. 295) إلى الرماني؛ وكتاب "الانتصار" لابن ولاد، وقد ألفه لإبطال نقد المبرد، و "تفسير المسائل المشكلة" للفارقي انتصر فيه للمبرد.

(14328/1)

أو بين فريقين(1) أو بين نحوي وباقي النحاة(2) ، لا يتجاوز في عمومه مسائل

---

(1) الخلاف بين نحاة البصرة والكوفة ترك الكثير من كتب الخلاف النحوي، كالإنصاف في مسائل الخلاف بين

النحويين البصريين والكوفيين للأنباري، ومسائل خلافية في النحو للعكبري، والمقنع في اختلاف البصريين والكوفيين نسبه القفطي (إنباه الرواة، ج 1، ص. 103) إلى أبي جعفر النحاس.

(2) انتقد نحاة في مسائل مخصوصة إجماع غيرهم. منهم ابن جني في الخصائص، "باب القول على إجماع أهل العربية متى تكون حجة"، وابن مضاء القرطبي في كتابه الرد على النحاة.

(14329/1)

متفرقة مجزأة، قد ينفع الخوض فيها الباحث أما متعلم اللغة فلا، إذ حتى الوجوه المتناقضة تصير جائزة لديه. يكفي البعض مما سردناه من الجوانب السلبية الملحوظة في التراث اللغوي العربي ليتكون حديثا موقفان منه. يتبنى أحدهم الأطروحة الثانية الموالية. أوراغي

1. 2. أطروحة الجديد الجاب:

إذا كانت أطروحة القديم القارّ تخص على الترويج للغويات العربية القديمة، وتدعو النحاة الجدد إلى الاهتمام برواية النحو القديم، وتُرغبهم في تبسيطه لتيسير تعليمه فإن أطروحة الجديد الجابّ تعمل بنقيض ذلك إذ تلح على نبذ الفكر اللغوي

العربي القديم جملة وتفصيلا، وتصر على إخراجه من الحوار الذي يقوم عادة بين التيارات اللغوية قديمها وحديثها. وبذلك تعذر التعايش على هاتين الأطروحتين. فلا تتعرض أحددهما للأخرى إلا من أجل الكشف عن العيوب واختلاف المثالب.

وإن الفضل في ابتداع الجديد الذي ينسخ القديم ويمحوه ليرجع إلى الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري. موقفه هذا شكله من دفاعه عن جدوى اللغويات الغربية، ومن سعيه إلى إثبات فشل اللغويات العربية القديمة، وأخيرا من نقدده المتواصل للقائلين بضرورة اعتبار التراث اللغوي لبناء نماذج معاصرة. وقد عبر

عن هذا الموقف مرات عديدة في مواضع كثيرة من أعمال(1)

---

(1) في الدفاع عن اللغويات الغربية قال الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري: "فالنماذج الغربية أثبتت

كفايتها الوصفية، وليس هناك ما يمكن أن يشكك فيها بهذه السطحية، ولا أحدد يستطيع بشيء من الجدية (اللهم إلا إذا كان الأمر يتعلق بشعوذة) أن يدعي أننا نحتاج إلى نموذج آخر يبنى بالاعتماد على العربية لوصفها". وذكر في رفضه للتراث اللغوي العربي ما يلي: "إلا أنه خلافا لما يعتقد، ليس هناك ضرورة منطقية أو منهجية تفرض علينا توظيف هذا التراث" ومرة أخرى وسع العبارة ليشمل الرفض باقي حقول المعرفة. كما يظهر من قوله: "لا ضرورة منهجية ولا منطقية تفرض الرجوع إلى فكر الماضي وتصنيفاته ومفاهيمه لمعالجة مادة معينة". وفي نقده لمن يقول بالرجوع إلى قدماء لبناء نماذج معاصرة يكرر مثل قوله: "فوصف العربية، في رأيه، ولو كانت معاصرة يستدعي الرجوع إلى القدماء. إلا أنه لا يبين سر اعتقاد ذلك". وللإطلاع على المزيد من أقوال الدكتور عبد القادر الفاسي المدافعة عن نجاعة النموذج الغربي، والواصفة للنحو العربي بالفشل، وللتراث كله بالعائق، اُنظر مداخلاته وتعقيباته في كتاب المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، وكتابه اللسانيات واللغة العربية، ومقاله "الربط الإحالي" ضمن مجلة تكامل المعرفة، عدد 9، وإحالاته في تلك الأعمال، اُنظر أيضا ما نقله عنه

الدكتور محمد المختار ولد باه في كتابه تاريخ النحو العربي.

(14332/1)

.

قد يفضل البعض الانضمام إلى تيار لغوي كتبت له غلبة الانتشار بشتى الوسائل وله بعد ذلك أن ينشئ ما يحلو له من المبررات لدعم اختياره ورفض اختيارات الآخرين. مبدأ الاختيار هذا وارد. لأنه ما ثبت في تاريخ المعرفة البشرية أن حصل إجماع مطلق حول نظرية، ولا انفرد نموذج بحقل معين من غير منازع، لكن أغير الوارد ابستملوجيا(=عُلُومِيّاً)، هو اضطرار العلم المشتغل بإطار معين إلى استباحة الأطر المخالفة، وتجريح أصحابها، والترخيص باستعمال المتيسر
من أساليب الاستخفاف بأعمالهم.

(14333/1)

أطروحة الجديد الجاب تهيأت لها جميع الأسباب لرفضها. إذ الحكم على التراث بكونه عائقا للنهضة والتطور

يقترن في ذهن المثقف، ولو لم يكن مختصا بمرحلة جديدة في حركة الاستشراق التي قامت في الأصل للنيل من الحضارة العربية الإسلامية وتشويه التراث العربي وتحريفه. والأهم من ذلك أن يستند رفض هذه الأطروحة إلى ما يلي من المبررات:

(ا) النحو الكلي الموضوع لوصف جميع اللغات البشرية، ضمنها العربية، لا يقتنع بكليته غير أصحابه والمشتغلين به. لأن بين الكلي من اللسانيات المتوجهِ بالبحث إلى ما يعم جميع اللغات البشرية،

(14334/1)

وبين الخاص منها الذي يحصر تأمله في اللغة المعينة، تقع لسانيات نسبية. من شأنها أن تؤطر أنحاء نمطية؛ توضع لوصف اللغات إلى ما لا نهاية، أو افتعال الائتلاف بينها إلى درجة سبكها في بينة نحو واحد يستغرق كل اللغات. من بين هذه التوجهات الثلاثة في البحث اللغوي نأخذ بالنسبي من اللسانيات.

(اا) السعي إلى بناء نحو نمطي لوصف العربية وما شاكلها من اللغات يفضل لاكتفاء باقتراض نحو موضوع لوصف الإنجليزية من أجل الاستعانة به في وصف

العربية. ومن الصعب التشكيك في أسبقية وضع النماذج على استجلابها جاهزة، لما في الأول

(14335/1)

من حمل للفكر على المساهمة في إنتاج الأنحاء وغيرها من النماذج، بخلاف الثاني الذي يغلب عليه التوقف والاضطرار إلى استخدام المتوفر من الأنحاء وإن لم يطابق بعضها اللغة المحلية، لأنه في حالة عدم التوافق بين النحو المستورد واللغة المحلية توصف هذه الأخيرة بالغرابة لتسويغ تعديلها فتصير كغيرها من "اللغات الطبيعية"(1)

---

(1) من منظور النظرية اللسانية العامة تكون العلاقة بين النحو الكلي واللغات الخاصة علاقة تأثير في اتجاه واحد؛ منطلقها النحو الكلي ومنتهاه اللغة الخاصة. وإذ حصل بينهما تدافع تعين تعديل اللغة لا النظرية. وإذا استعصى تعديل معطيات حُملت زعماً على أنها من "العربية القديمة" وليست من "العربية المعاصرة" أو أنها من الأسلوب الخاص بالقرآن الكريم الذي لا يجوز، في نظرهم، الاستشهاد بنصوصه.

(14336/1)

. وكل تركيب، وإن اطرد استعماله في العربية وقضى نحو سيبويه بسلامة بنيته، فإنه لا يجوز إذا لم يكن له وجه من وجوه النحو الكلي.

(III) من خلال التقابل المقام في الفقرة (III) بين تينكم الفئتين من النحاة يظهر من الطبيعي ألاّ يجد المتمسك باستجلاب النحو الجاهز أي ضرورة منهجية أو منطقية تفرض عليه الرجوع إلى "فكر الماضي"، بينما اللغوي المقبل على بناء نحو لوصف نمط العربية يضطر عُلُوميّا (=ابستملوجيا) للرجوع إلى التراث في الميدان الذي يعنيه وغيره من الميادين المجاورة، لأنه بغير ذلك الرجوع كأنه لم يتكلم أحد

(14337/1)

قط في الموضوع. والواقع شاهد بخلاف ذلك ولسنا في حاجة إلى التذكير باستثمار مفكري الغرب للتراث اليوناني في بناء نهضتهم.

(v1) يضاف إلى ما تقدم من دواعي رفض أطروحة الجديد الجابّ مبررات أخرى مراسية، تعنى بما يترتب عن وصف العربية بنحو مقترض من لغة أخرى منعوتٍ بالنحو الكلي

كي يؤثر في اللغات الخاصة ولا يتأثر بها.

الاستعانة على وصف العربية باقتراض نحو جاهز يخلف العديد من الآثار السلبية، يمكن تجميعها في صنفين. أحدهما يخص التغييرات المستحدثة في بنية اللغة ذاتها، والآخر يتعلق باللغة الإصلاحية المستعملة في

(14338/1)

الوصف. وقد يحسن أن نحرر العبارة بمثال يبين القصد ويوضحه.

(أ) تشجيع الدخيل. وصف العربية بنحو غيرها يفتح للدخيل جميع مستويات اللغة. فيتسرب التغيير أول إلى أصوات اللغة نطقا وزيادة أو حذفا. وثانيا إلى صرفها، كأن يُفك الإدغام في مثل (مكّكَولي) حيث يجب الإدغام (مكّولي). وعلة ذلك أن اللغة الأصل لا تعرف الإدغام رسما. وثالثا إلى تكوين مركبات، كتقديم المضاف إليه على المضاف في مثل (شومسكي لاحقة) لأن اللغة الأصل تقبله. ورابعا تسريب الدخيل إلى التركيب لحمله على تجويز أن يمثل الفاعل مسبوقا بالعبارة (من قِبل

(14339/1)

ونحوها) مع الفعل المبني صرفي للمفعول في مثل (شُتِمَ الأهل من قبل الولد). لأن تركيب اللغة الأصل يقتضي بأن يكون هذا البناء على هذا النحو(1) . لأن المثال أن تَدّغَنَ العربية لنسق العطف في غيرها، فلا تدرج أداة العطف إلا مرة واحدة قبل آخر معطوف مهما تعددت المركبات المتعاطفة.

من مجموع الدخيل على العربية، وهو كثير، تشكلت لدى أنصار الجديد الجابّ ما يعرف بينهم باللغة العربية المعاصرة. وحقيقة

---

(1) للمزيد من التفصيل، انظر: الدكتور عبد القادر الفاسي الفهري، البناء الموازي، ص. 181، ومواضع أخرى أحال عليها هناك

(14340/1)

هذه اللغة أنها عربية اللفظ غربية التركيب. أما الخالصة من الشوائب الغربية فهي اللغة العربية القديمة عندهم.

(ب) استبدال الرواسم(1) : إحلال لغة واصفة محل أخرى من النتائج اللازمة عن اقتراض النماذج الجاهزة. هذا التغيير في اللغة الاصطلاحية يمكن أن يُلمس بوضوح في

مستويين اثنين: أولهما عام يستغرق كل الرواسم. والثاني جزئي يخص رواسم بعينها. أما العام فيتمثل في تخلي أصحاب النحو الكلي عن إدراج الخصائص

---

(1) الرواسم: من الرسم بمعنى بالخصائص، وهي عبارة عن المفاهيم المحددة نظريا أو مراسيا الواصفة لموضوع الدراسة.

(14341/1)

الوظيفية للغة في تحديد مفاهيم نحوها. بينما نحاة العربية القدماءُ وبعض المحدثين جعلوا من الخصائص الوظيفية نواة للخصائص الصورية(1). فلا تجد كتابا في النحو تناول البناء للمفعول من غير أن يتعرض للسبب الذي لأجله حذف الفاعل(2)

---

(1) للوقوف على حضور البعد الوظيفي في النحو العربي وغيابه في النحو الكلي المطبق على العربية، قارن مثلا أبواب التقديم والتأخير في كتاب سيبويه ودلائل الجرجاني بمفاهيم التبئير والخفق والتفكيك لدى الدكتور الفاسي في كتابه اللغة العربية واللسانيات.

(2) السبب الذي لأجله يحدف الفاعل أحد المسائل الستة

في البناء للمفعول، اُنظر: ابن عصفور، شرح جمل الزجاجي وانظر أيضا الزركشي، البرهان.

(14342/1)

. وهذه المسألة لا يثيرها أبدا كتاب يستعين على وصف العربية بنحو كلي. وللاستبدال الجزئي الذي يلحق رواسم بعينها وجوه كثيرة، يمكن أن تجمّع في فئتين: فئة الرواسم المستحدثة لمفاهيم محددة نظريا لا تحيل على واقع لغوي في العربية. من هذا القبيل "الموضوع الضمني"(1)

---

(1) من جملة ما يدل على انتماء راسمة "الموضوع الضمني" إلى النظرية ولا يتعلق به واقع لغوي هو أن ما صدقه فارغ صوتيا ومبهم دلاليا، كما يتضح أيضا من التعريف المقدم له: "الموضوع الضمني في البناء لغير الفاعل هو مقولة ضميرية فارغة ذات تأويل مبهم" (الدكتور الفاسي، اللغة العربية واللسانيات، ص. 183.

(14343/1)

، وفئة الرواسم المنقولة من نحو العربية بعد إفراغها كليا أو جزئيا من محتواها الاصطلاحي، مثل ذلك الفاعل والمفعول.

إن البعض من المبررات (I-IV) المسرودة أعلاه عاصم من الانجراف مع تيار الجديد الجاب الذي بدأ أصحابه البحث في "اللغة العربية" بإخراج القديم لغةً ونحواً من الحوار العلمي. وبذلك لم يبق بين أيدينا من الأطاريح السالفة الذكر سوى الثالثة الموالية.

1. 3. أطروحة نقد القديم المستمر:

نقد القديم المستمر أطروحة الباحث الذي لا يخرج من مجال بحثه ثقافة عصره لأنها معاصرة، ولا ثقافة عصور سابقة لأنها غير

(14344/1)

معاصرة. إنه في البدء لا يتقيد بغير هذين الشرطين؛ 1) انتماء العمل بغض النظر عن عصره إلى مجال تخصصه، و 2) إعمال النظر في ذلك العمل بالفحص والاختبار. وفي النهاية لا يرغب في غير بناء القديم بذهنية العصر. إذن المشكل كل المشكل ينحصر في مسألة كيف يُعاد بناء القديم لتحصل منه الفائدة في هذا العصر فيكون مجديا.

كلمة القديم تقتضي الحدوث في زمان ولى وانقضى، ولكن إذا نُعت بها الفكر في قولنا "الفكر القديم" لا تفيد ما في لفظة "العتاقة" من معنى التآكل والإشراف على الانقراض. إذ من مميزات الفكر التجرد من الزمان

(14345/1)

بحكم تناوله للثوابت. إنه خاضع للنشوء في حقبة ما ولكنه لا يبلى ولا يقدُم ما ثبت موافقا لموضوعه المستقر. وإذا احتفظنا للفكر العربي القديم بهذا المعنى سهل علينا الكشف عن الجدوى من إعادة بنائه في حقل اللغة وغيره من الحقول العلمية الأخرى، وتتأتى لنا أن نمثل لأوجه الاستفادة منه بما يلي:

1. 3. 1. إسهام التراث العربي في بناء النظريات المعاصرة:

سعى مفكرون مغاربة، داخل حقول معرفية محددة، إلى إدماج التراث العربي القديم في عملية بناء الحضارة البشرية المعاصرة. وقد لا تدرك القيمة الحقيقية لهذا العمل إذا لم

(14346/1)

يوضع في سياقه التاريخي.

من الثوابت الراسية في الفكر الأوربي الذي مهد للحركة التوسعية الادعاءُ بأن شعوب الأرض قسمان: أحدهما يضم الشعوب الأوربية المتميزة في نظرهم بذهنية مبدعة خلاقة. فقيّض الله لهؤلاء أن يحملوا مشعل الحضارة لإنارة العقول المظلمة. وفي القسم الآخر أهملوا باقي الشعوب، وجعلوا داخله الأمة العربية الإسلامية بجامع بينها يتمثل في الاتصاف بالعجز التام في مجال الخلق والإبداع، والالتزام بمنهج التقليد

(14347/1)

والأتباع. مثل هذه الأمم في نظر الأوربيين محكوم عليها بالانحطاط ومسخرة للاستهلاك، ومنتهى غايتها أن تحسن التقليد، ومبلغ معرفتها أن تجيد فهم علم الغرب.

اهتمام بعض المفكرين المغاربة بتحديد سهم التراث العربي في إقامة الحضارة لا يتضح عطاؤه الواقعي خارج هذا السياق التاريخي. فهم من غير قصد منهم كشفوا

بقوة عملهم عن زيف أحكام دهاقنة الاستشراق والاستعمار على الفكر العربي القديم. وطريقهم في ذلك فعل التقنين، كما سيأتي، لا أقول الإصلاحيين كما كان من قبل

(14348/1)

ولإعادة بناء القديم قيمة أخرى داخلية تُلمس بوضوح في ميدان اللغة على وجه الخصوص في الجوانب التالية: 1) إدراج اللغة العربية ضمن اللغات الحية التي تؤثر في بناء النظريات اللغوية الأكفى(1) ، 2) إشراك نحاة

---

(1) مفهوم" المركب المتقطع" يرتبط دخوله إلى النحو التوليدي التحويلي باللغة العربية، كما في شومسكي، نظرية العمل والربط، ص. 224 (N. chomsky, Théorie du gouvernement et du liage). وبالعربية أيضا يرتبط تقليص أنواع البؤرة الستة إلى بؤرتي الجديد والمقابلة، كما في: المتوكل، الوظائف التداولية، ص. 28، ط 1.

(14349/1)

العربية القدماء في الحوار العلمي الدائر حاليا بين اللغويين الجدد على اختلاف أوطانهم وألسنتهم(1)

---

(1) من الملغويين المعروفين بسعيهم المبكر إلى إشراك الفكر اللغوي العربي القديم في النقاش العلمي الحديث نذكر أحمد المتوكل، كما يتبين من قوله: "نعتمد في وصفنا للوظائف الخمس... النحو الوظيفي إطارا عاما إلا أننا سنقترض في وصفنا لهذه الوظائف، كلما دعت الحاجة إلى ذلك، تحليلات ومفاهيم من الفكر اللغوي العربي القديم نحوه وبلاغته... وسيمكننا عقد الحوار بين الفكر اللغوي العربي القديم والنحو الوظيفي، فضلا عن تمحيض مشروعيته، من تحقيق هدفين إثنين: إغناء النحو الوظيفي... وتقويم مجموعة من الأوصاف المقترحة في النحو العربي"، الوظائف التداولية، ص. 10.

وللتوسع في الموضوع، اُنظر كتابه تأملات في نظرية المعنى في الفكر اللغوي العربي.

Réflexions sur la théorie de la signification dans la pensée linguistique arabe.

ومن هؤلاء نذكر أيضا الدكتور أحمد الإدريسي، وقد كشف في أطروحته، "تداوليات الخطاب ولسانيات السكاكي"، عن وحدة المفاهيم المؤسسة لكلا المقترحين، وعن التماثل التام في بنية نحوهما. وفضلا

عن ذلك بين من خلال "مقارنة الدرس الصوتي الصرفي عند السكاكي بنظيره في اللسانيات المعاصرة أنه يطابق الصوتيات البنيوية في وصف الأصوات مستقلة عن سياقها وأكفى منها وصفيا في وصف الظواهر الصوتية السياقية". وسنجنب أنفسنا عواقب المجازفة بالتعرض لغيرهما من المفكرين المغاربة المشتغل بغير اللغة.

(14350/1)

، و 3) الكشف عن التأثير المتبادل بين النحو العربي القديم والأنحاء المعاصرة. ولأهمية هذا العنصر سنقف عنده قليلا.

ينحصر التثاقف لدى أنصار الجديد الجابّ في تأثر النحاة العرب، على اختلاف عصورهم، بأمثالهم الغربيين. فأصبح لهذا التثاقف اتجاه واحد؛ لأن أي لغوي رافض للنحو العربي الماضي لا يراه حاضرا في النحو الغربي المعاصر. وقد لا يتأخر في التصدي لكل من يقيم علاقة بين "مبدأ تجنَّبْ الضمير" في نحو شومسكي(1) وبين قول نحاة

---

(1) مبدأ تجنب الضمير(=Eviter - les- pronoms)، اُنظره في شومسكي، نظرية العمل والربط

العربية" متى قدروا على المتصل لم يأتوا مكانه بالمنفصل"(1) . أو من يربط عاملية شومسكي بعاملية سيبويه على الرغم من تماثلهما الملحوظ حتى في اللغة الاصطلاحية(2). ولعل هذه الأمثلة كافية لاستجلاء التثاقف النحوي بمعناه الحقيقي.

(1) ابن جني، الخصائص، ج 2، ص. 191. وقد تكررت هذه العبارة في كتب النحو بألفاظ متقاربة عشرات المرات.

(2) للوقوف على تطابق العامليتين، انظر الأوراغي، "اللغويات التاريخية والتاريخ اللغوي" ضمن مجلة التاريخ العربي، عدد 1.

ولإعادة بناء التراث اللغوي قيمة ثالثة ترتبط بمواصلة النحو العربي في تأدية إحدى وظائفه الرئيسية. ألا وهي توسيله لاكتساب العربية. لأن احتصار هذه اللغة عن الاستعمال الدارج يعوق معرفتها بالتلقي المباشر. فسد النحو، بوصفه طريقة صناعية لمعرفة اللغة، مسد التلقي

مباشرة من المحيط اللغوي.

إن قيام النحو مقام التجربة في تحصيل المعرفة باللغة المحتصرة ليستمد قيمته الحقيقية من إحجام النظريات اللسانية الحديثة عن اقتحام مجال تعليم اللغات. لأن لها أهدافا حاسوبية، وبيولوجية، وفلسفية، ولها سهمها في علوم الذكاء

(14353/1)

الاصطناعي، وفي بناء أنساق صناعية للتواصل، ونحو هذا كثير. يعني هذا أن نشر الثقافة اللسانية الحديثة بين المتعلمين قد يفيدهم في أحد الحقول العلمية المسرودة، ولكن لا تنفعهم في تحصيل ملكة اللغة العربية. وإذا اتضحت الحاجة الداعية إلى إعادة بناء التراث اللغوي العربي أمكن الآن النظر في مسألة كيف يكون ذلك البناء.

2. النحو التوليفي

بناء على نحو يأتلف ونمط اللغة العربية لا يقوم بغير استثمار التراث اللغوي العربي، وهذا الاستثمار لا يعني الترديد الحرفي للقديم من التحاليل والمفاهيم. لأن التقيد برواية ما خلف

(14354/1)

السلفُ في حقل اللغة من تقاليد المنتصرين لأطروحة القديم القار. وإنما يعني الاستثمار إعادة قراءة التراث بحيث تكون النتيجة خلقا جديدا. وهكذا أصبحت إعادة قراءة التراث اللغوي العربي، وغير اللغوي أيضا، من الإشكالات المنهجية الملازمة لأطروحة نقد القديم المستمر. ولا بأس من إضاءة ولو قصيرة لاستحضار تجارب سابقة في قراءة التراث.

إعادة قراءة التراث اللغوي العربي من الإشكاليات المنهجية التي حظيت باهتمام القليل من اللغويين المغاربة، وبإهمال سواهم من اللغويين العرب. إذ لم نهتد، ضمن من رجعنا إلى أعمالهم، إلى

(14355/1)

أحد تناول تلك المنهجية وصفا وتطبيقا عدا الدكتورين أحمد المتوكل، وأحمد الإدريسي. من أهداف منهجية القراءة عند هذين اللغويين استجلاءُ النظرية المرصودة من أجل مقارنتها بمثيلتها الحديثة، فتطعيم إحداهما بالأخرى، إلا أن منهجية المتوكل مصمّمة لتناول

حقول العلم المتجاورة فعلوم اللغة العربية، بينما منهجية الإدريسي مهيأة لإعادة قراءة لسانيات السكاكي، وصوغ مفاهيمها صياغة صورية لتسهل مقارنتها بتداوليات الخطاب. نكتفي بهذه اللمع(1)

---

(1) للتوسع في الموضوع، انظر محمد المتوكل، تأملات في نظرية المعنى في الفكر اللغوي العربي، والدكتور أحمد الإدريسي، لسانيات السكاكي وتوادوليات الخطاب.

(14356/1)

إذ أن القصد منها أن نذكر بأعمال سابقة انفردت بالتصدي لإشكال قراءة التراث اللغوي العربي. ونلخص بذلك إلى الحديث عن تجربتنا في الموضوع.

2. 1. أصول استثمار الفكر العربي القديم لإقامة نظريات بشروط الفكر المعاصر

لتحديد الأصول المذكورة ننطلق من الفرضيتين المراسيتين الآتيتين:

(1) الفكر العربي القديم تعرب حقوله المعرفية جميعا وأشتاتا، بوضوح تام عن انتمائه المذهبي.

(2) التراكم المعرفي في كل حقل معرفي يشكل مادة

كافية لبناء نظرية تخصه بالشروط المعهودة في نظريات هذا العصر.

(14357/1)

عملا بالفرضية المراسية (1) يلزم أن ينتمي الفكر العربي القديم إلى أحد المذهبين المتقابلين، على جهة ارتفاع المذهب الثالث، هما:

(ا) المذهب الطبيعي؛ وهو المؤطر للأنحاء الكلية والمستند إلى فرضية عمل مفادها في علم اللغة أن الملكة اللغوية نسيج خلايا عضو (=العقل) في الذهن البشري. وهي بذلك واحدة في الناس جميعا، تنتقل إلى الولد بالوراثة. ويقترن اكتساب اللغة بنمو عضوها في الذهن، ويتعلق نمو ذلك العضو بتحريض من المحيط اللغوي الخارجي. ولفرضية العمل الطبيعية هذه نفس السياق في النظرية المعرفية. إذ يعتبر العقل

(14358/1)

خزانا من المعارف المطبوعة خلقة فيه، ومبادئ جميع العلوم منسوجة في خلاياه. ويحصل الفرد عالما بانبعاث

المعرفة من ذات العقل بعد عملية التحريض التي يقوم بها العالم الخارجي.

(II) المذهب الكسبي؛ وهو المؤطر للأنحاء النمطية، والمؤسس على فرضية مراسية مفادها، في نظرية المعرفة، أن الذهن البشري استعداد طبيعي لاقتناص أوليات من العالم الخارجي المنتظم على وجه كلي. ويصير قادرا على استنباط ثوان يختبر مراسيا صدقها في الواقع، فتحصل له قدرة جديدة على استنباط توالت تشتق من الثواني بقواعد مضبوطة. وكذلك يستمر في تكوين

(14359/1)

نسق معرفي. ولفرضية الكسب المراسية نفس السياق في علم اللغة، إذ تعتبر اللغة ملكة صناعية يتحلى بها العضو الذهني المهيأ فِطرة لأن تتشكل ذاته ببنيتها بشرط أن تنتظمه "علاقة السماع" بالوسط اللغوي المحيط بالفرد.

وإن التأليف العربي القديم ليطالعنا بعدد كبير من النصوص منم حقول علمية مختلفة تشترك جميعها في الإعراب عن انتماء الفكر العربي إلى المذهب الكسبي. منها عبارة لفخر الدين الرازي في سياق نظرية

لاكتساب المعرفة يقول فيها: "لاشك أن النفس الإنسانية قابلة للمعارف الكلية والإدراكات المحضة. ثم أنها في أول

(14360/1)

الأمر تكون خالية من جميع هذه المعارف... ثم أنها في أول الأمر تكون خالية من جميع هذه المعارف... ثم في المرتبة الثانية يحصل فيها العلوم البديهية يمكن التوصل بتركيباتها إلى اكتساب العلوم النظرية "(1) . ومن تلك النصوص ما ورد في سياق علم اللغة وعدّ الملكة اللغوية صفة حادثة من خارج في العضو الذهني المهيأ للتشكل ببنيتها. وهو ما يعبر عنه ابن خلدون بوضوح تام إذ يقول:

---

(1) للتوسع في الأدلة والنصوص الشاهدة على انتماء الفكر العربي إلى مذهب الكبسي انظر القسم الأول من كتابنا اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم.

(14361/1)

"الملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال فتكون ملكة أي صفة راسخة. كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولً. ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها بعد ذلك ثم لا يزال سماعه لذلك يتجدد... واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة... هكذا تصير الألسن من جيل إلى جيل"(1)

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص. 289. ولإمعان ابن خلدون في الدفاع عن الفرضية الكسبية تصدى بالنقد لمقاباها الفرضية الطبيعية، إذ قال : "الملكات إذا استقرت ورسخت في محلها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل. ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتها إعرابا وبلاغة أمر طبيعي. ويقول : كانت العرب تنطق بالطبع، وليس كذلك، وإنما ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبة وطبع" (المقدمة، ص. 289).

(14362/1)

---

(1) . مما تقدم نستخلص النتيجة (3) الموالية:

(3) التراث العلمي العربي، بعلومه الإسلامية والنظرية،

يشكل تيارا فكريا كسبيا؛ أساسه الفرضية الكسبية المحافظة على تماسكه الداخلي والضامنة لاستمراره الأبدي موازيا لمقابلة التيار الفكري المؤسس على الفرضية الطبعية التي تؤدي دور مقابلتها الكسبية. وعملا بالفرضية المراسية (2) يلزم أن يشكل الفكر اللغوي المجتمع في التراث العربي مادة كافية لإقامة نظرية لسانية نسبية، في مقابل النظرية اللسانية العامة، ولبناء نحو نمطي، في مقابل النحو الكلي، يخص مجموعه من اللغات

(14363/1)

المتشاكلة بنيويا.

من أصول النظرية اللسانية النسبية وحدة المبادئ المقومة للغات. وهذه المبادئ، كما سيأتي ذكرها كلية؛ بمعنى لا تدخل في تكوين البنية اللغوية فحسب، بل توجد مقومة لماهية سائر الكائنات. وعددها أربعة؛ نذكر كل مبدأ باسمه العام يعقبه بين قوسين مرادفه المناسب للغة، كما يلي: 1) المبدأ المادي (= المبدأ الدلالي)،

و (2) المبدأ الغائي (=المبدأ التداولي)، و (3) المبدأ الفاعلي (= المبدأ الوضعي للوسائط اللغوية)، و (4) المبدأ

الصوري (= المبدأ الصوري)(1)

---

(1) للتوسع في محتويات المبادئ المسرودة أعلاه، في العلاقات القائمة بينها انظر القسم الثاني من كتابنا اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم.

(14364/1)

.

من أدلة تدخل التداول في تكوين البنية أن لاحظ اللغويون القدماء حضوره خلال تحليلهم لظواهر لغوية من العربية فانعكس في وصفهم لها بصورة واضحة. وهو ما لاحظه بنفس الوضوح كل مهتم بمنهجية إعادة قراءة التراث اللغوي لمقارنة بمثيله من النظريات اللغوية المعاصرة(1)

---

(1) من أولئك الدكتور أحمد المتوكل كما يظهر بصريح العبارة: "وضعنا لبنة أولى لمنهجية تكمن من إعادة قراءة الفكر اللغوي العربي القديم... توصلنا في هذه المحاولة إلى أن النظرية الثاوية خلف مختلف العلوم اللغوية (النحو، اللغة، البلاغة، فقه اللغة) نظرية تداولية، وأنها بالتالي قابلة للتحاور(بمعنى القرض

والاقتراض) مع النظريات التداولية الحديثة بما فيها نظرية النحو الوظيفي"، الوظائف التداولية، ص. 10.

ومنهم الدكتور أحمد الإدريس، إذ قال في التقديم لأطروحته تداوليات ولسانيات السكاكي، "هذا البحث يطمح إلى إعادة قراءة لسانيات السكاكي وصياغتها صوريا. ومقارنتها بتداوليات الخطاب".

(14365/1)

. ويكفي الآن هذان الدليلان على عدم الكفاية في وصف العربية بنحو غير تداولي؛ كالنحو التوليدي التحويلي الذي أقصى البُعد الوظيفي للغة الأسباب تقنية بمسألة التمثيل للمعطيات التداولية، كما أبعد في بدايته الدلالة لنفس العلة.

إذا كان المبدأ التداولي مسؤولا عن الدمج الضروري لوظيفة التواصل في بنية اللغة فإن المبدأ الوضعي للوسائط اللغوية مسبب الفوارق الموجودة بين اللغات البشرية. وبما أن كل تغاير منتهاه يلزم أن تتجمع اللغات البشرية في أنماط لغوية، قد لا يتجاوز عددها، باعتبار "كبير الوسائط"(1)

---

(1) كبير الوسائط يصدق على ما به تتجمع اللغات

البشرية في أقل عدد بعد الواحد. وصغيرها يتناول ما به تتجمع لغات النمط الواحد في مجموعات صغرى.

(14366/1)

نمطين اثنين، كما يتضح في ما يلي:

عملا بعلاقة التباين، أو عدم المساواة، تضطر كل لغة إلى إيجاد وسيلة للتفريق بين العوارض؛ م (=1. الأحوال التركيبة كالرفع والنصب، و 2. الوظائف النحوية كالفاعل والمفعول)، و لا وجود في الأصل لأكثر من إمكانيتين، بحيث يكون الإعراب عن العوارض إما بالعلامة المحمولة؛ وهو الوسيط إلى نشوء نمط اللغات التركيبية كالإنجليزية(1)

---

(1) بدا لنا مؤخرا أن نغير أسماء بعض المفاهيم فتخلينا عما استعملنا في (الاكتساب، ص. 125) الموضوع الآن بين قوسين كما يلي: وسيط العلامة المحمولة (=أصل الإعراب)، اللغات التوليفية (=اللغات المعربة))، وسيط الرتبة المحفوظة (=أصل الترتيب القبلي)، اللغات التركيبية (=اللغات المرتبة).

(14367/1)

. وليس من الحكمة وجود نمط لغوي ثالث مترتب عن الجمع بين دينكم الوسيطين.

وبما أن كل نموذج يتم بناؤه بالقياس إلى حقل معين من الموضوعات، بحيث يصير النموذج مشابها لأصله بنية ووظيفة(1) . يلزم، بدءا، أن تبنى أنحاء نمطية وفقا للأنماط اللغوية، بحيث يكون للنحو التركيبي ولموضوعه اللغات التركيبية بنية قاعدية تتميز بالترتيب القار، ويكون للنحو التوليفة ولموضوعه اللغات

(1) للتوسع في علاقة النموذج بموضوعه، انظر مقال:

judith Milner , « La sémantique Propositionnelle générative de Brekle »,in 26Langage , N°

(14368/1)

التوليفية بنية قاعدية تتميز بالتأليف أتحر من الترتيب القبلي. بصحة المثبت هنا لا مسوغ لبناء نحو كلي. وإذا حصل فهو نحو نمطي معمم.

بعد هذا التوضيح المقرب للمفهوم من كل من النظريات

اللسانية النسبية، والأنحاء النمطية، والنحو التوليفي نعود للنظر في كيفية استثمار التراث الفكري العربي لإنجاز مشروع النحو التوليفي.

كل اللغات البشرية مخيرة قبل الوضع بين إمكانيتين على الأقل. وباختيار لغة لإحداهما يبطل فيها استعمال الإمكانية الباقية(1)

---

(1) من النصوص المتوفرة في التراث العربي الشاهدة على المثبت أعلاه قول القاضي عبد الجبار وهو يتحدث في نفس الموضوع: "وأما الذي يتعلق بالواضعة فقد كان يصح فيه أن تقع المواضعة فيه على غير الطريقة التي وقعت عليها. لكن المواضعة إذا استقرت فيه على طريقة صار بمنزلة ما لا يصحح إلا كذلك فيمن يسلك ذلك الطريق. وهذا بين في الكلام والكتابة وسائر الصناعات"، المغني، ج 16.

(14369/1)

. وقد اختارت العربية، ضمن مجموعتها اللغوية، وسيط العلامة المحمولة. لأنه يتيح أولا التفريق بين العوارض، ويُمكّن ثانيا من الحصول على بنية قاعدية متميزة بالتأليف الحر من الترتيب القبلي، فتوفرت للتداول

إمكانية التأثير المباشر في بنية الجملة بترتيب مكوناتها(1)

---

(1) في التراث اللغوي العربي نصوص كثيرة تذكر بصريح العبارة ما أوردناه. من ذلك قول الزجاجي: "إن للأسماء لما كانت تعتورها المعاني فتكون فاعلة ومفعولة... ولم تكن في صورتها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني بل كانت مشتركة، جعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني... جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ليتسعوا في كلامهم، ويقدموا الفاعل إن أرادوا ذلك أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه وتكون الحركات دالة على المعاني"، الإيضاح في علل النحو، ص. 69. وفي ما يخص اختصاص العربية أي نمطها باستعمال وسيط العلامة المحمولة = أو الإعراب بالحركات، انظر الصاحبي لابن فارس. وممن نبه على أن العربية فضلت وسيط العلامة المحمولة على مقابلة وسيط الرتبة المحفوظة ابن ==يعيش كما يتضح من قوله: "ولو اقتصر في البيان على حفظ المرتبة فيعلم الفاعل بتقدمه والمفعول بتأخره لضاف المذهب، ولم يوجد من الاتساع بالتقديم والتأخير ما يوجد بوجود الإعراب (شرح المفصل، ج 1، ص. 73). وللتحقق من تأثير التداول في بنية الجملة عن طريق ترتيب مكوناتها، انظر باب القديم والتأخير لدى

البيانيين كالجرجاني والسكاكي وغيرهم من المفسرين كالزمخشري.

(14370/1)

. ما تقدم نصوغه من جديد في الخلاصة (4) التالية:

(4) تبين أن اللغات البشرية، تبعا لأحد الوسيطين اللغويين العلامة المحمولة أو الرتبة المحفوظة، موزعة على نمطين اثنين؛ لغات توليفية كالعربية واليابانية، ولغات تركيبية كالإنجليزية والفرنسية. وقد أشار أكثر من لغوي غربي(1) إلى النمطين دون تفسير لذلك أو التعليل. وتبين أيضا أن اللغات التوليفية تختص ببنية قاعدية تتميز بالتأليف

---

(1) اُنظر شومسكي، نظرية العمل والربط، ص. 224، حيث يتناول ما أسماه:

Langues configurationnelles et langues non - configurationnelles.

(14371/1)

الحر من أي ترتيب قبلي. المثبت في هذه الخلاصة نقرنه بأصل معرفي صاغه أبو الحسن الفارسي(1) في الهيثمية (5) التالية:

(5) إذا كان الصواب في غيرهما معا.

---

(1) أصل العبارة (5) أعلاه قول أبي الحسن الفارسي نقلا عن ابن الهيثم: "كل مذهبين مختلفين فإما أن يكون أحدهما صادقا والآخر كاذبا. وإما أن يكونا جميعا كاذبين والحق غيرهما جميعا، وإما أن يكونا جميعا يؤديان إلى معنى واحد هو االحقيقة، ويكون كل واحد من الفريقين الباحثين بذينك المذهبين قد قصر في البحث" (تنقيح المناظر، ص 56).

(14372/1)

عملا بالهيثمية (5) فإن كل ما يقدمه التراث اللغوي العربي من الاختلاف في المفاهيم النظرية والتحاليل المراسية يصح منه المنسجم مع محتوى الخلاصة(4) ويبطل خلافة المناقض لهذه الخلاصة. وللتوضيح نمثل أولا للاختلاف في المفاهيم النظرية المرتبطة ببنية النحو.

عاملية البصريين مقيسة على العلاقة الرتبية القائمة

في الطبيعة بين العلل السابقة في الوجود والمعلولات التالية. وبذلك أوجبت تقديم الفعل العامل على الفاعل المعمول ولم تجوز العكس. لأن "رتبة العامل أن يكون قبل المعمول. وكونه عاملا فيه سبب أوجب تقديمه"(1)

---

(1) ابن يعيش، شرح المفصل، ج 1، ص. 74.

(14373/1)

وبذلك تكون عاملية نحاة البصرة مرتّبة. بخلاف ذلك عاملية الكوفيين المبنية بالقياس إلى العربية، فكانت عاملية محرّرة، لا تقيم علاقة رتبية بين العامل ومعموله. لأن الموقع لا يخلع على الفعل أو عنه خاصية عمل الرفع في مراكبه. كما يظهر واضحا من قولهم: "قولنا(قام) يرفع (زيد) اختصار وتقريب... فعلة الرفع (قام) والعلة لا ينكر تقدمها وتأخرها، إذا كان العامل لا يزايله التقدم"(1) .

---

(1) أبو علي الفارسي، أقسام الأخبار، ص. 1214؛ رسالة موجودة ضمن مجلة المورد، عدد 3، سنة 1978.

(14374/1)

بعرض تصور كل البصريين والكوفيين للعاملية على الهيثمية (5) يلزم أن يصح أحدهما ويبطل الآخر.

وبعرضهما من جديد على محتوى الخلاصة (4) يلزم أن تصح عاملية الكوفيين، إذ تشبه الأصل المقيس عليه (اللغة التوليفية)؛ وأن تبطل عاملية البصريين لانعدام التشابه بينها وبين نمط العربية.

وبإخراج العملية المرتبة من الاعتبار لفائدة العاملية الحرة، نلغي بالضرورة كل ما يترتب عنها من المفاهيم الفرعية الكثيرة؛ كمفهوم الضمير المستتر(1) .

والعامل

---

(1) اُنظر ابن مضاء، الرد على النحاة، ص. 81، مبحث "رد تقدير الضمائر في الأفعال".

(14375/1)

المعنوي، فضلا عن تجنب افتعال مبررات غير واردة؛ من قبيل كون الفاعل جزءا من الفعل مانع من تقديمه على عامله. وبما أن المفعول ليس جزءا من الفعل العامل فيه جاز أن يتقدم عليه(1) . كما نتجنب وصف بنية برواسم (=لغة اصطلاحية يتحدد معناها داخل النموذج وتستعمل لوصف موضوعات الحقل أصل ذلك النموذج)، أجنبية عن

عاملية البصريين المرتبة. من هذا القبيل تكرار مثل قول الجرجاني "وإذا قلت: أنت فعلت، فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من

---

(1) اُنظر الأنباري، أسرا العربية، ص. 77، والإنصاف في مسائل الخلاف، ج 11، ص. 78.

(14376/1)

هو"(1). وصف المركب (أنت) في ذلك الموقع بكونه فاعلا لا يناسب عاملية البصريين المرتبة، وإنما يناسب العاملية المحررة التي وضعها الكوفيون.

من هذا المثال الموضح لكيفية المفاضلة بين المفاهيم المختلفة التي يقدمها التراث اللغوي العربي نكون قد كشفنا عن جزء من محتوى أطروحة نقد القديم المستمر. وللزيادة في التوضيح نخضع جملة من المفاهيم المتنافسة لفحص جديد.

2. 2. أصول المفاضلة بين المفاهيم المتنافسة:

---

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص. 111.

(14377/1)

سبق أن نعتنا أطروحة القديم القار بالحياد تجاه الخلاف المنتشر في النظرية والتحاليل. وتبين قبل قليل أن أطروحة نقد القديم المستمر للخلاف بالمرصاد، إذ تراقبه عن كثب وتتربص به. لكنها لا تفلح في تقوية الوارد وإضعاف منافسه النابي إذا لم ينسق جملة من الأصول الفارقة بين الخالص والزائف. وهو ما سنحاول أن نبينه من تناولنا لما يلي من المفاهيم والتحاليل.

(ا) ثنائية الكلام والقول(1)

---

(1) سبق أن تناولنا ثنائية الكلام، وثنائية الاستثناء المتصل والمنقطع بنفس أصول المفاضلة بين مختلف المفاهيم المقدمة لهما في التراث اللغوي العربي. للمزيد من التفصيل، اُنظر محمد الأوراغي، اللغويات التاريخية والتاريخ اللغوي" ، ضمن مجلة التاريخ العربي، عدد 1.

(14378/1)

. لهذه الثنائية، في التراث الفكري العربي، مفهومان مختلفان؛ أحد مفهومي الثنائية يتداوله فلاسفة (الغزال، المعارف العقلية)؛ ومتكلمون (القاضي عبد الجبار، المغني، ج 7، والجويني، الإرشاد)، وبعض النحويين (سيبويه، الكتاب، والجرجاني، دلائل الإعجاز). ويتميز

هذا المفهوم (بغض النظر عن فروق طفيفة بين فرق المتكلمين لا تؤثر في معناه)، بقيامه على علاقة التوازي. بمعنى أن شق (القول) من تلك الثنائية يتناول وجه العبارة الحسي الملابس لوجهها المعنوي، في حين يجري شق (الكلام) منها على الوجه المعنوي قبل أن تباشره

(14379/1)

الألفاظ المعبرة عنه. ولما بينهما من الموازاة والمطابقة يتم أحدهما بتمام الآخر وينقص بنقصانه.

أما المفهوم الآخر فقد لأسسه ابن جني، وانتشر في كتب النحو بعده، على علاقة الانتماء التي تقوم أصلا بين عام (= القول بحكم شموله للعبارة التامة والناقصة)، وبين الخاص (= الكلام لتفرده بالدلالة على العبارة التامة دون الناقصة). وإذا ظهر الفرق واضحا لقيام المفهومين على علاقتين متغايرتين لم يبق سوى المفاضلة بينهما.

(14380/1)

يلزم عن العمل بالهيثمية (5) أن يكون أحد مفهومي تلك الثنائية صحيحا والآخر باطلا، ويكون الفصل بينهما بأصل الإنجاب (6) الموالي:

(6) إذا نشأ حول موضوع معين رأيان متغايران قدم الملحوظ في ظواهر أخرى على القاصر الذي لا يتجاوز موضعه.

إذا صح الإنجاب هذا يكون المفهوم الثاني للثنائية الذي أقامه ابن جني على علاقة الانتماء باطلا، إذا لم يثبت استعماله في غير موضعه. أما الأول فملحوظ استعماله على نطاق واسع. يكفي أن نذكر انقسام الحذف(1)

---

(1) اُنظر أبواب الحذف في كتب النحو كمغني ابن هشام، والبسيط في شرح جمل الزجاجي لابن أبي الربيع.

(14381/1)

إلى (أ) الاقتصار؛ وهو خلع مكون أو أكثر من البنية الكلامية وخلع المقابل الذي يدل عليه من البنية القولية، (ب) الاختصار؛ وهو خلع من البنية القولية مع إقامة دليل على ثبوت مقابله المدلول عليه في البنية الكلامية. وبذلك يتضح معنى قولهم؛ المحذوف لدليل كالثابت. كما أن لهذه الثنائية، بمعناها الأول القائم

على علاقة الموازاة، امتدادا إلى لسانيي هذا العصر، فتظهر فيما يعرف بينهم بالبنية المنطقية والصورة الصوتية.

(14382/1)

نخلص مما تقدم ضرورة إهمال فهم ابن جني لثنائية الكلام والقول من أجل الاحتفاظ بالمفهوم المنافس، بحيث يمكن أن نصوغ من جديد فلقي الثنائية كما يلي: الكلام يصدق على البنية الدلالية المستلة من "النطق" لتبليغها ولما تنعكس على المرآة الصوتية. بينما القول يصدق على الصورة الصوتية التي تشاكل الكلام بنيويا وتشخصه حسيا.

النتيجة المستحصلة من تلك المفاضلة بين المفاهيم المتنافسة لا تخفى فوائدها الكثيرة لذا سنتخلى عن ذكر أمثلة لها من أجل مواصلة النظر في كيفية استثمار الخلاف لاقتناص المادة المناسبة لبناء نحو

(14383/1)

توليفي للعربية.

(II) عوامل الأحوال التركيبية. العامل ، في التراث اللغوي العربي، ينشأ عن قيام علاقة تركيبية بين عنصرين: أحدهما عامل يجلب الحالة التركيبية، فعلامتها للآخر القابل لهما. وإذا قلصنا الأحوال التركيبية إلى حالتي للرفع والنصب(1)

---

(1) أثبتنا موضع آخر أن حروف الإضافة والجر تعمل عملا داخليا. بمعنى أن أي حرف من هذه المجموعة يتسلط عمله على مركب معمول بغيره فيطمس أثر العامل القديم ولا يلغيه، لأنه يستلمه من جديد المركب الحرفي المتكون من الجار والمجرور. للمزيد من التفصيل اُنظر محمد الأوراغي، "مقدمات المعجم التاريخي"، ضمن مجلة التاريخ العربي، عدد 2، ص. 151 – 171.

(14384/1)

لا يستبعد، بمقتضى أصل المشابهة بين النموذج وأصله، أن تنقسم الأحوال إلى صنفين: أحدهما يضم العامل لحالة الرفع، والآخر يشمل ما يعمل حالة النصب.

إلا أن التراث اللغوي العربي يقدم عددا لابأس به من

العوامل(1)، بل يكاد يسرد كل ما يخطر بالبال في هذا المجال. فذكر النحاة المتفرقين للرفع عوامل هي:

الابتداء ، والمبتدأ، والمركب منهما، والخبر، والفعل، والحرف المشبه بالفعل، والإسناد، والفاعلية، وجعلوا للنصب الفعل، والمشبه

---

(1) اُنظر عبد القادر الجرجاني، العوامل المائة، والأنباري، الإنصاف، والزجاجي، الإيضاح.

(14385/1)

به، والمركب من الفعل والفاعل، والمفعولية. وما حظي أي من هذه العوامل بإجماع النحاة ولا سلم أحدها من نقد نحوي يقول بغيرها. وبمقتضى الهيثمية (5) لا يصح من تينكم القائمتين سوى عاملين؛ أحدهما يكون شرطا لحدوث حالة الرفع التركيبية، ويكون الآخر شرطا لجلب حالة النصب. ومن المحتمل بنفس الأصل ألّا تكون القائمتان نهائيتين.

وإذا علمنا أن النظرية اللغوية المعاصرة لا تسوغ الأخذ برأي تقليدا لصاحبها الموثوق بعمله تعين إخضاع تلك العوامل بدون استثناء للفحص والاختبار. ولا يكون ذلك الفحص بغير أصول المفاضلة بين

(14386/1)

المفاهيم المتنافسة. منها أصل ولادة المثل (7)

الموالي(1) .

(7) العامل يسبب في توليد نوع واحد من الأثر للقابل أو القوابل المتحدة العوارض.

---

(1) في مقابل سابق (("إعراب الناسخ الحرفي"، ضمن مجلة كلية الآداب، الرباط، عدد 119) تعرضنا للأصل (7) بصيغة خاصة واختبرنا جدواه هناك، وهو بالصيغة الحالية أورد لعمومه. إذ يستغرق عوامل الأحوال التركيبية، وعوامل الوظائف النحوية، وعوامل الوظائف التداولية، وعوامل العلامات الإعرابية.

(14387/1)

أصل ولادة المثل يقصي من القائمتين كل عامل يُسبب في توليد نوعين من الأثر. إذن الفعل، والحرف المشبه به ليسا من عوامل الأحوال التركيبية. وبموجب أصل الإنجاب (6) يلغى من القائمتين كل عامل قاصر لا يتجاوز موضعه. فلا يعتبر من عوامل الرفع كل عامل مختص

بعمل الرفع في قابل دون سواه. فلا يعتبر من عوامل الرفع كل ابتداء، والمبتدأ، والمركب منهما، والخبر، لأن كل واحد لا يتجاوز موضعه لعمل نفس الحالة التركيبية في الفاعل أو في نائبه.

(14388/1)

ولنفس المبرر نخرج الفاعلية، لأنه هو الآخر لا يتجاوز موضعه ليعمل حالة الرفع في المبتدأ، أو الخبر، أو نائب الفاعل. والظاهر أنه لم يسلم من تلك القائمة سوى الإسناد. وهو ملحوظ في الفاعل ونائبه، وفي المبتدأ وخبره. مما تقدم نخلص بكل اطمئنان إلى النتيجة المصوغة في العبارة (8) الموالية:

(8) الإسناد علاقة تركيبية تسبب في توليد حالة الرفع لقوابل تراكبت بهذه العلاقة.

يشهد على ورود الخلاصة (8) مسايرتها للعاملة الحرة المنسجمة بدورها في مستلزمات وسيط العلامة المحمولة. والانسجام الداخلي من أقوى مبادئ النظرية

(14389/1)

والتحاليل.

وبنفس المنهجية نفحص أيضا مقترح النحاة فيما يخص عوامل النصب، لننتهي في الأخير إلى إلغاء كل العوامل المذكورة هناك إلا المركب من الفعل والفاعل لا باعتباره هو العامل لحالة النصب، ولكن بوصفه أحد طرفي علاقة تركيبية، طرفها الثاني هو القابل المستلم لحالة النصب. نطلق على هذه العلاقة اسم "الأفضل". وهي علاقة تركيبية تقوم بين مركب إسنادي وبين أي مركب يقبل أن يستلم حالة النصب التركيبية. وبذلك نكون قد أقمنا عاملا للنصب من جنس عامل الرفع إذ كلاهما علاقة تركيبية. وعندئذ نخلص إلى النتيجتين (9) و (10)

(14390/1)

التاليتين.

(9) الإفضال علاقة تركيبية تسبب في توليد حالة النصب لقوابل تُراكب بهذه العلاقة مركبا إسناديا.

(10) كل عامل فهو علاقة وليس طرفا في علاقة طرفها الثاني قابل. والواقع طرف علاقة فهو الناسخ الذي يعمل عملا داخليا فيطمس إما علاقة النصب، كحروف الجر، وإما علاقة الرفع، كالنواسخ الحرفية.

يفترض في هذه العاملية المبنية بما ذكر من المفاهيم أن تتجاوز جميع مشاكل الخلاف بين النحاة المترتبة عن إيجاد مفسر للعلامة الإعرابية. وبقدر ما تقترب من بنية المكون العاملي في الواقع اللغة يضعف فيها مصدر توليد

(14391/1)

المشاكل المغلوطة.

وبنفس المنهجية المتبعة في المفاضلة بين المفاهيم النظرية يمكن أن نفاضل بين مختلف التحاليل المقترحة لنفس الظاهرة اللغوي. إذ بها تمكنا في السابق من إقامة مبدأ الارتباط والانقطاع العملي لتفسير الكثير من الحالات التركيبية التي ظلت في التراث اللغوي العربي من الموضوعات الشائكة(1)

---

(1) نذكر في هذا الباب باستعمال ذلك المبدأ لحل مشاكل كثيرة جدا تخص فتح همزة الناسخ الحرفي (ءن) وكسرها (اُنظر في الموضوع مقالنا " إعراب الناسخ الحرفي"، ولحل مشكل الاستثناء المتصل والاستثناء المنقطع (اُنظر مبحث "نسق (إلا) الاستثنائية"، ص. 252

من كتابنا اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، ومبحث " الاستثناء المتصل والمنقطع" في مقالنا "اللغويات التاريخية والتاريخ اللغوي".

(14392/1)

. وبها حاولنا تخليص أبنية القصر من خلاف البيانيين(1) ، وعملنا على معالجة واردة لظواهر لغوية ستظهر في بحث لاحقا إن شاء الله. والله الموفق.

---

(1) قارن بين المعالجة المقترحة لأبنية القصر في القسم الثالث من كتابنا اكتساب اللغة وبين مقترح البيانيين في دلائل الجرجاني، ومفتاح السكاكي وفي كتابي السيوطي الإتقان في علوم القرآن، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن.

(14393/1)

من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي

الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله

عضو أكاديمية المملكة المغربية

... الخليج عريق في العروبة وقد استعمل الجغرافي اليوناني (سترابون Strabon المتوفى بين 21 و 25 ميلادية) كلمة (الخليج العربي) في وصفه للحملة التي قام بها الرومان على بلاد العرب (1) .

---

(1) ودرج على ذلك المؤرخ الروماني بلين الصغير Pline le jeune)) المتوفى (عام 114 م) حيث سمي الخليج باسمه الصحيح وهو الخليج العربي .

(14394/1)

... ويرجع إطلاق المؤرخين اسم (الخليج الفارسي) إلى القائد اليوناني (نيركس) بعدما عاد من الهند مبعوثا من سيده (الاسكندر الأكبر) حيث لم تمر إلا من الساحل الشرقي فظن أن المنطقة كلها فارسية .(1)

---

(1) وقد ندد الرائد الدنماركي كارستن نيور عام (1762 م / 1286 ه) بهذا الزعم الذي ردده جغرافيون صوروا جزءا من بلاد العرب كأنه خاضع – كما يقول نيبور – لحكم ملوك الفرس كما أبرز هذه الحقيقة الرحالة الإنجليزي (هورديك أوين) في القرن العشرين

رغم تواطؤ الكثير من الجغرافيين المعاصرين على الغض من عروبة الخليج .

(14395/1)

... وتتجلى عروبة المنطقة أيضا منذ أعرق العصور في الاسم الذي تحمله مقاطعة خوز ستان الإيرانية التي تسمى من قبل الفرس إلى السنوات الأخيرة " عربستان " أي بلاد العرب ولا تزال تقطنها إلى الآن قبائل عربية مختلفة كبني تميم الذين ينتسب إليهم الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعربستان هذه هي التي كانت تسمى "الأهواز " والأهواز كما جاء في معجم البلدان جمع هوز وأصله حوز لأنه ليس في كلام الفرس (حاء) حيث يقولون

(14396/1)

(مهمد) لمحمد ولذلك ترى أن كلمة الأهواز اسم عرب أطلق على هذا الإقليم في العصر الإسلامي وتسمى بهذا الاسم في المغرب الأقصى ناحية مراكش عاصمة المرابطين والموحدين والسعديين ولعل لهذه التسمية صلة بما

يحكيه بعض المؤرخين حول أسباب إطلاق اسم سوس على أقصى جنوب المغرب في الأطلس الصغير فيروي المؤرخ الروماني سالوست (Salluste) المتوفى في (عام 35 ق.م) (في الكتاب الذي صنفه حول "حرب يوغورتا " ملك نوميديا من أسرة أمراء البربر والمولود عام (154 ق. م) أن الفرس الذين حاولوا الإغارة على شبه الجزيرة الإيبيرية أي

(14397/1)

(إسبانيا والبرتغال) في عهد هيراكلس (Heraclus) 575 -641 م وهو هيركول اللاتيني الذي سميت به (أساطين هرقل) أي (مضيق جبل طارق) شمالي المغرب الأقصى قد تحولت أشرعة مراكبهم بشدة الريح إلى المحيط الأطلنطيقي فوصلوا إلى جنوب المغرب حيث اتصلوا بالجيتول Gétules)) (وأهم أهل جزولة الحالية على ما يظهر) فتصاهروا معهم وسميت سوس (وكذلك كل من مدينتي سوسة التونسية والليبية وهما متشابهان) اقتباسا من كلمة سوسانة (Susaiane) أو أرض عيلامElam)) الواقعة بمنطقة الأهواز على أن الفرس قد اشتهروا قديما

(14398/1)

بالنورمانديين ومعناه الرمل بلغتهم وقد أطلق هذا الاسم على أهل نوميديا وهي إقليم إفريقي يقع بين منطقة قرطاج التي أسسها الفينيقيون كعاصمة لمستعمرتهم عام (814 ق.م) وبلاد موريطانيا وقد خضعت هذه المنطقة بعد ثورة (يوغورطا) إلى الحكم الروماني وسنرى كيف أن هذه العناصر تشكل حلقات في الشبكة الواسعة التي حبكها الفينيقيون منذ أعرق العصور بين الشمال الإفريقي والخليج العربي فهم الذين أسسوا مدينة تير (Tyr) (صور الحالية في لبنان) في الألف الثالثة قبل الميلاد وكانت عاصمة تشرف على القوافل التي تنقل إلى

(14399/1)

الغرب ما ينتجه الشرق الآسيوي عبر (بحر القلزم) والفينيقيون هم الذين أسسوا قرطاج (واسمها محرف عن قرية (حداش) أي القرية الحديثة لأنها أسست بعد كل من مدينة أوتتك Utique)) التونسية (أي العتيقة) ومدينة ليكس أو ليكسوس) المغربية

حوالي (1101 ق. م) وقد سقطت مدينة (تير) تحت الحكم الروماني عام (64 ق.م) وأشرف عليها وعلى قصر فرعون أي وليلي القديمة (Volubilis) بالمغرب الأقصى الإمبراطور الروماني سبتم سيفير (Septime Sévère) (146 -211 ق. م) .

(14400/1)

... ويرى بعض المؤرخين أن الفينيقيين كانوا قد استقروا فترة من الزمن في شواطئ الخليج قبل أن ينتقلوا إلى الساحل السوري وأنهم سمعوا مدينة " صور " على شاطئ البحر المتوسط تيمنا باسم مدينتهم الأولى على شاطئ الخليج ولعل الآثار التي تم الكشف عنها في المنطقتين تضفي على هذه الرواية سمة من الحقيقة لا سيما وأن مؤرخين محدثين قد أكدوا ذلك ومن جملتهم الأستاذ (جان كاك بيريبي) في كتابه (الخليج الفارسي) والأستاذ أمين الريحاني الذي أبرز بالإضافة إلى ما ذكر تشابك الدوحة العربية بالدوحة الفينيقية في كتابه " ملوك

(14401/1)

العرب " .

... وبذلك يكون الفينيقيون قد هاجروا من الخليج إلى البحر المتوسط منذ خمسة آلاف سنة كما يقول المؤرخ رولنسون .

... وعندما وسع الفينيقيون شبكة مستعمراتهم على سواحل المتوسط و أسسوا ليكس وأوتيك ومالقة وقادس (بالأندلس) وهيبو (عناية وبنزرت) أصبحت اللغة البونيقية (Langue Punique) المستمدة من الكنعانية العربية مع تطعيمات محلية لغة أشبه بعامية إفريقيا الشمالية في العصر الحاضر . ... عزيز

(14402/1)

... وقد عثر في البرازيل على حجارة مكتوبة بالعربية البونية تحمل تاريخ (125 ق.م) نتج عن مقارنتها باللهجة الدارجة اليوم في المغرب العربي أن هذه اللهجات ليست سوى امتداد أصيل للغة بني كنعان العربية العريقة التي استعملت قبل الإسلام في كل من الخليج العربي والمغرب وبذلك تأكد أن لغة الضاد قد مهدت السبيل للإسلام في المغرب العربي والخليج قبل البعثة المحمدية بأزيد من ألف عام وقد اعتبر الرحالة

المغربي الكبير الحسن بن محمد الوزان المعروف عند الغربيين بليون الإفريقي (Léon l'africain) إن الفينيقيين عنصر هام

(14403/1)

في سكان إفريقيا الشمالية عام (1215 ق. م) عندما أجلاهم الإسرائيليون عن فلسطين ثم تتابعت الجاليات أيام نبي الله داود عليه السلام عام (1055 ق.م) والواقع أن العرب كانوا يملأون – بالإضافة إلى الشمال الإفريقي – هضاب وبطاح جنوب إفريقيا حيث كشف الدكتور استانلي تيمبور على مقربة من نهر زمبير في مقاطعة روديسيا آثارا منقوشة مع رسوم مكتوبة استدل بها على أن العرب استثمروا مناجم الذهب التي كان قد استثمرها قبلهم أسلافهم عرب اليمن وقد لاحظ صاحب قصة الحضارة (ج2 ، ص .43) أن الحضارة ظهرت في بلاد اليمن وبلاد

(14404/1)

المغرب القديمة وانتشرت في صورة مثلث ثقافي إلى سومر وبابل واشور ومصر وعضد هذه النظرية ماقيل من أبوة اليمن (بلد العرب البائدة) للشعب العربي في سائر أقطاره وخاصة في حوض البحر الأبيض المتوسط حيث كانت نسبة المواليد منخفضة والوفيات مرتفعة مما يسهل استيعاب الهجرة وقد تحدث بن خلدون في تاريخه (ج1 ص 99 ،طبعة بيروت) عن عروبة جبال الأطلس المغربية فأشار إلى ما أكده المؤرخون والنسابون العرب أمثال الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي من أن صنهاجة (سكان الأطلس الأوسط) ومصمودة (سكان الأطلس الكبير)

(14405/1)

وكتامة (بشمالي وشرقي المغرب الأقصى) عرب يمنيون من (سلالة حمير) فيكون البرابرة حسب هذه الرواية أعرق في العروبة من ربيعة ومصر لانتسابهم إلى افريقش بن قيس بن صيفي الحميري وقد تحدث عن هذه النظرية القلقشندي في (صحبة الأعشى) (ج 1 ، ص.321) فلاحظ أن افريقش هذا هو الذي نقل البربر من سواحل الشام –مركز الفينيقيين ومهاجري الخليج العربي – إلى المغرب ملاحظا أن أكثر الأقوال جانحة إلى عروبة

البربر خلافا لابن حزم (في جمهرته) الذي تبعه ابن خلدون (التاريخ ج6 ، ص. 96) بزعم أنه لم يكن لحمير طريق إلى بلاد

(14406/1)

البربر إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن ويظهر أن ابن خلدون اغفل الطريق القديمة التي كانت تصل اليمن عن طريق بحر القلزم (أي عيذاب وبور سودان الحالية) وصحراء السودان والتشاد بالصحراء المغربية المتدة من (تنبكتو) إلى (النيجر) إلى مراكش تلك الطريق التي أكد الحسن الوزان أنه سلكها مع القوافل التجارية في القرن العاشر الهجري فرارا من قراصنة الطريق الساحلية على طول البحر الأبيض المتوسط وسنرى كيف أن سجلماسة عاصمة الصحراء كانت منذ القرن الثالث الهجري مركزا للقوافل التجارية بين (بصرة المغرب) و(بصرة الخليج)

(14407/1)

وليس ببدع أن يوغل في الصحراء أهل هذه الصحراء لاسيما وأن هؤلاء كان في (النيجر) أم في (السودان) أم في الربع الخالي من جنوب غرب آسيا وقد أسس العرب مراكز تجارية في غمار الصحاري كمحطات للقوافل المحملة بالبضائع المجلوبة من أقاصي البلاد وكانت التجارة آنذاك تمر حتما في الطريق البرية لأن العرب لم يكونوا قد استأنسوا بعد بالطرق الملاحية وقد ساعدت وحدة نظام الحياة القبلية في الصحراء على هذا الترابط.

... ويعتبر القرن الثالث الهجري قمة نشاط الحركة التجارية برا وبحرا وفترة ذهبية في تاريخها وكانت الخطوط

(14408/1)

التجارية كلها سواء انبثقت من غرب أوربا أو من الشمال الإفريقي أو من روسيا تؤدي كلها إلى ميناء الابلة وميناء البصرة وقد تحدث الرحالة (بانيكار) في كتابه حول

السيطرة الغربية " أن العرب سواء في الشرق أم في الغرب أصبحوا يتنافسون مع الشعوب الأخرى على تجارة الافاويه فكان للتجار مستودعات بالقاهرة

والإسكندرية بل وحتى بمدينة فاس في المغرب الأقصى

(ص .37 ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد) أضف إلى ذلك أن تجارة الرقيق المجلوب من إفريقيا السمراء وحركة الحجيج كان لهما ضلع في تعزيز هذه الحركة التجارية وقد بلغ من

(14409/1)

اهتمام المسؤولين العرب بتأمين طرق المواصلات أن عزم عمرو بن العاصي وبعده هارون الرشيد على شق (ترعة السويس) حتى تمتد الخطوط التجارية دون انقطاع من الأندلس والمغرب إلى الصين وقد اشتهرت ثلاث مدن ملاحية في الخليج بالصين بينما كانت (البصرة) نقطة التقاء للسفن البحرية وطرق القوافل التجارية حيث بدت في شهرتها ميناء (الأبلة) الذي ظل مع ذلك المركز التجاري الأوحد مابين الخليج العربي والخط الملاحي لنهر (دجلة) الممتد إلى البصرة وقد تعزز التبادل آنذاك بين الشرق والغرب بوحدة العملة حيث كان التجار يعتمدون

(14410/1)

العملة الذهبية (وهي الدينار) والفضة (وهي الدرهم) .

... وإذا علمنا أن (البصرة) تقع على الطرف المباشر للصحراء في جانب الأرض المزروعة وبساتين النخيل في منطقة (شط العرب) علمنا لماذا كانت محط أنظار الحضريين والصحراويين من المغاربة حيث أسست (بصرة المغرب) بالقرب من مدينة (القصر الكبير) شمالي المغرب وظلت مركزا اقتصاديا هاما لصنع الكتان ومرحلة في طريق القوافل إلى أن هدمها أبو الفتوح (368 ه) (البيان لابن عذاري ج 1 ص.330) وقد حدثنا (ناصر خسروا) الذي زار البصرة الشرقية عام 1050 م عما وجده من

(14411/1)

عادات لدى التجار الذين كانوا يملكون (كمبيالات أو سفتجات) يحفظونها لدى تاجر عملة أو رجل بنك مقابل إيصال وكل المشتريات تدفع بالشيكات أو الكمبيالات على البنوك ومثل هذه الحوالات كانت أيضا بسجلماسة حيث كانت التجارة مزدهرة مع السودان والبصرة حسب (ابن حوقل) الذي حدثنا ع العوائد التجارية بهذه المدينة (عاصمة الصحراء المؤسسة عام 140 هـ) وكذلك كل من صاحب المسالك (ص 70) و (ابن سعيد المغربي '

عن حوالة قدرها أربعون ألف دينار حررها تاجر سجلماسي لفائدة تاجر آخر وكان التجار المسيحيون الواردون من الأندلس وتلمسان

(14412/1)

يمرون بسجلماسة الذي أكد (ياقوت الحموي) في معجمه أن صانع نسيجها بدت في جودة الإنتاج مصانع مصر كما لاحظ (ابن خرداذبه) الجغرافي العربي في القرن الثالث الهجري أن التجار الصقالية كانوا يمرون في وجهتهم نحو الشرق عن طريق سوس الأدنى مدينة البصرة المغربية بحيث يمكن القول بأن هذا المركز كان منطلقا للقوافل نحو البصرة المغربية بحيث يمكن القول بأن هذا المركز كان منطلقا للقوافل نحو البصرة الشرقية عن طريق الخليج العربي سواء عبر الصحراء الجنوبية أم خلال (بلاد الكنانة) وليس من العبث أن تحمل مدن مغربية وأندلسية

(14413/1)

في هذه الطريق الغربي أسماء مدن أخرى تتلاحق في الشق الشرقي لنفس الطريق فبالإضافة إلى البصرة وسوس الأهواز وحمص (في كل من فاس الجديد والأندلس) توجد في قلب الأطلس مدينة (القاهرة) وفي قلب (الريف) إقليم (فشتالة) المعروف بالشام الصغير كما توجد في الأندلس مدينة تدمير وفي تونس سوسة التي كانت تسمى حضرموت، المتساوقة في اسمها مع تدمر السورية التي كانت منذ العصر الروماني من أبرز المراكز التجارية في هذه الشبكة وكانت أشهر المدن والموانئ في الخليج آنذاك (أبولوجوس) أي (الأبلة)) الواقعة على شاطئ دجلة البصرة وهي

(14414/1)

أقدم من البصرة وهي أقدم من البصرة وتقابلها في الغرب مدينة الأبلة التي ينتمي إليها أبو عبد الله الآبلي شيخ ابن خلدون وقد ظلت (الأبلة) المخرج الرئيسي على الخليج من أجل التجارة الفارسية في النقطة التي تلتقي عندها الطرق العظيمة من فارس وجزيرة العرب على ضفتي دجلة وقد لفت (ابن خرداذبة) الانتباه إلى المكانة الهامة التي احتلتها (الأبلة) في التجارة بين الشرق والغرب حيث كان التجار اليهود يقلعون من

فرنسا في البحر العربي (أي المتوسط) ويتجهون نحو أنطاكيا ومنها إلى بغداد ثم الأبلة فالسند والهند والصين وقد

(14415/1)

ظلت هذه المدينة بارزة على المسرح العالمي مرتبطة بالبصرة في النشاطات البحرية الخاصة بالخليج لعدة قرون وإذا كانت مدينة البصرة الحديثة قد امتصت الأبلة فإن ذلك لم يتم إلا بعد القرن التاسع الهجري وهنا يمكن أن نتساءل عن الدور الذي قام به (الخوارج) لدعم الروابط السياسية بين الخليج والمغرب منذ صدر الإسلام فالأزارقة قد ثاروا في الأهواز والبصرة حيث استباحوا دماء وأعراض المسلمين الخارجي عن نطاق فكرتهم ولكنهم ما لبثوا أن انهزموا لتطرفهم فخلفهم الصفريون القائلون بضرورة التعايش مع غير

(14416/1)

الخوارج وقد نفذ هؤلاء الصفرية في المغرب إلى قلوب البربر الذين شقوا الطاعة

على الخليفة هشام وأججوا نار الثورة عام (121هـ) بإقليم طنجة وتشربت فلولهم إلى الصحراء فأسست مدينة سجلماسة التي أصبحت حاضرة (بني مدرار) إلى منتصف القرن الرابع الهجري وهو التاريخ الذي تهدمت فيه مدينة البصرة الغربية وانهار الحكم الخارجي وكذلك الشيعي في المغرب بانهزام (جوهر الصقلي) الذي نقل عدته إلى مصر حيث بنى القاهرة من قبيل الصدفة أن يجعل الخوارج من البصرة موئلا لهم ومركزا ينافسون به (الكوفة) التي عدت قاعدة من قواعد الشيعة

(14417/1)

في نفس الوقت الذي جعلوا من سجلماسة في قلب الصحراء المغربية حاضرة لإمارة خارجية وحلقة أساسية في سلسلة المراحل التي تأوي إليها القوافل التجارية كما أنه ليس من قبيل الصدف أن تقلص الحركة التجارية بين الخليج والمغرب في القرن الرابع الهجري في نفس الوقت الذي تقلص فيه نفوذ الخوارج.

... ومنذ أن استوثقت روابط المغرب بالصحراء في القرن الخامس بدأت أسواق النخاسة تنفق في خفاء وكذلك كان الأمر عندما شكل عنصر الزنج في الدور العباسي

الثاني (ما بين 233هـ أي 468هـ أي 847 م 1075 م)

طبقة متميزة في المجتمع العربي

(14418/1)

خاصة في شمال الخليج فعززوا حركة الرق والنخاسة يساعدهم امتداد النفوذ الإسلامي إلى إفريقية (أي تونس وجزء من الجزائر) وازدهار الملاحة العربية حيث ما لبث الأيوبيون أن سيطروا في القرن التالي على الشق الشرقي لبحر العرب أي البحر الأبيض المتوسط يساندهم في الشق الغربي الموحدون الذين كان لهم أسطول من أربعمائة قطعة اعتبره المؤرخ الفرنسي (أندري جوليان) أعظم أسطول في البحر المتوسط ولم يقبض العرب على زمام البحر الأحمر المتوسط فحسب بل أصبحوا سادة المحيط الهندي لا سيما بعد أن اكتشفوا الرياح الموسمية وسخروها

(14419/1)

لخدمتهم وأنشأوا الموانئ والمنائر التي تشتغل فيها النيران ليلا لتهتدي بها السفن وعززوا المرافئ بمراكز

الحاميات حفاظا عليها من القرصنة وغارات البدو وفي هذا العصر استعيض عن الموالي الصقابلة الذين نفقت نخاستهم منذ القرن الثالث الهجري واقترن اسمهم بها حتى صار الأوربيون يطلقون اسم الصقابلة (Slaves) على العبيد (Esclaves) – نقول استعيض عنهم بالزنوج الذين أصبح التجار المسلمون يأتون بإعداد ضخمة منهم وقد استوطنت جماعات من الباطنيين والزيديين إفريقية فرارا من الاضطهاد العباسي ثم استعجل ذلك عندما زج

(14420/1)

الفاطميون – اقتصاصا من بني زيري – بمائتي ألف قرمطي من بني هلال وبني سليم الذين نشروا الدمار في هذه البلاد مما حدا (ابن خلدون) إلى التنكر في (القرن الثامن) للعرب الذين لم يكن يقصد بهم سوى الأعراب وخاصة هؤلاء ولم تدخل إلى المغرب من هؤلاء سوى فلول منتقاة كان الزمن قد غنى على عنجهيتهم البدوية ونزعتهم القرمطية فكان لهم ضلع في تعريب المغرب وشنقيط والواقع أن الباطنيين من القرامطة أو الزيديين قد كادوا فسادا في إفريقيا وجاس المغامرون

منهم في مجاهل الصحراء الإفريقية لاصطياد الزنوج في الأدغال الكثيفة وفي

(14421/1)

هذا العصر حادت طريق البر في شمال إفريقيا عن خطها العادي لتصل بالبصرة وبغداد وسوريا ومصر بواسطة الخط الساحلي على طول بحر العرب على أن حركة القرامطة الأبادية قد بدأت منذ سنة (315هـ / 927م) حيث استولوا على البصرة وظلوا يعرقلون سير القوافل التجارية أو القوافل التجارية أو قوافل الحجيج لاعتقادهم أن الحج من شعائر الجاهلية بل من قبيل عبادة الأصنام ولذلك أجهز القرامطة على من سموهم بالكفار وعبدة الأحجار بمكة فردموا بئر زمزم وكدسوا جثث القتلى في المسجد الحرام واندفعوا يخربون جوانبه بحرا بهم وخيولهم

(14422/1)

فاحتملوا معهم (الحجر الأسود) إلى (الأحساء) حيث بقي ملقى عام (339 هـ/ 950م) وبنو هذيل هؤلاء هم الذين

حاولوا في الخليج الوقوف في وجه القرامطة منتهكي حرمة البيت وهم الذين أشرنا إلى اعتدالهم عندما هاجروا إلى المغرب الأقصى في القرن السادس الهجري بدعوة من المنصور الموحدي بطل (معركة الأرك) في الأندلس.

... ومهما يكن فإن هذه الأحداث قامت حجر عثرة في طريق المبادلات التجارية حيث أن (الحشاشين) من الإسماعيلية الباطنية امتدت جذورهم شرقي الخليج حتى خلال الحكم الأيوبي إلى الوقت الذي زحف المغول على فارس

(14423/1)

حوالي (659هـ/ 1260م).

... وإذا كانت التجارة قد تقلصت في هذه الفترة بين المغرب والخليج خاصة وبين الشرق والغرب عامة فإن ذلك لم يكن يرجع بالنسبة للمغرب إلى وجود هذه الطوائف الهدامة بل هؤلاء كانوا منبثين على طول مراحل القوافل شرقا ينبهون ويقتلون ويدمرون ومع ذلك فإن نفس العوامل كانت تدعم حركة النخاسة والمبادلات لا سيما بعد أن احتل ملوك المغرب السعديون السودان أواخر القرن العاشر الهجري ثم العلويون بعدهم عندما توغل السلطان المولى إسماعيل في قلب الصحاري إلى حدود غينيا وشكل جيشا من العبيد (أي الزنوج)

(14424/1)

ما لبث أن أعاد تاريخ ثورات الزنج بالشرق وخاصة بالخليج إلا أن عنصرا جديدا ظهر منذ أوائل القرن السادس عشر حيث حاول البرتغاليون الاستعماريون سد البحر الأحمر في وجه السفن العربية للاستيلاء على مداخله تمهيدا لغزو الخليج العربي وهنا يبرز المغرب في إنقاذ الخليج من ضغط الاستعمار البرتغالي ففي عام (1540م) دخل سليمان القانوني إلى الخليج العربي من الشمال ونازل البرتغاليين أمام الأسطول العثماني غير أنهم لم يكفوا عن مهاجمة المراكز العربية في الخليج مضاعفين ضغوطهم على المغرب الذي انحدروا إليه بعد أن قضوا

(14425/1)

على آخر من تبقى من العرب في الأندلس تقتيلا وتهجيرا غير أن رد فعل المغرب الأقصى كان عنيفا ففي عام (986هـ/ 1578م) هاجم البرتغال بقضه وقضيضه شمال المغرب بقيادة ملكه الشاب الدون سبستيان (Don Sébastien) وبلغ جند البرتغال آنذاك مائة وعشرين

ألفا وقطع أسطوله الرابطة في أصيلا والعرائش عدة مات وزحف الجيش البرتغالي إلى (وادي المخازن) في (متم جمادى الأولى من نفس السنة أي رابع غشت عام 1578م) وكانت هجمة صليبية عززت فيها البابوية الزحف المسيحي على العالم الإسلامي شرقا وغربا باستنفار الجول الكاثوليكية

(14426/1)

وتعبئة شباب الفاتكان ولكن أبى الله إلا أن يهزم هؤلاء الأحزاب وينصر عباده المومنين فقتل مالك البرتغال وأسر جيشه وفر أسطوله فكانت هذه المعركة كما يقول المؤرخ الفرنسي (هنري طيراس) المعركة الفاصلة في تاريخ الصراع بين المسيحية والإسلام أنزلت ضربة بالطموح البرتغالي وفككت أوصال مملكة البرتغال لأن الدون سبستيان مات بدون وارث فخلفه خاله (فيليب الثاني) ملك اسبانيا التي اندمجت فيها البرتغال أزيد من (ستين سنة) ظلت خلالها هذه الفترة البرتغاليين عن (منطقة البحرين) (التي احتلوها قرنا كاملا) عام (1662م)

(14427/1)

أي بعد معركة وادي المخازن بأربع وأربعين سنة كما طرد البرتغاليون عن مجموع مستعمراتهم على الشط العربي عام (1649م الموافق 1059 هـ) وبذلك تحرر العالم العربي من هيمنة البرتغال الذين لطخوا تاريخ العروبة والإسلام طول أربعة قرون بدافع من البابوية التي قسمت ممتلكات الشرق والمغرب بين البرتغاليين والإسبان.

... وإذا كان (الخليج العربي) قد غدا منذ القرن الثالث الهجري المرحلة الرئيسية في تاريخ الملاحة العربية تمر به المراكب في ذهابها وإيابها بين أوربا والشرق الأقصى عبر البحر الأبيض المتوسط فإن كلا من

(14428/1)

الخليج والبحر المتوسط كان عالة الواحدة على الآخر واستمر

هذا التساوق إلى القرن العاشر الهجري عندما كان مضيق (جبل طارق) هو الممر

الفاصل بين المحيط الأطلنطكي والمتوسط فكانت سبتة منطلق المراكب التجارية إلى ديار الهند.

... وظلت كذلك حتى بعد سقوط القسطنطينية في يد السلطان العثماني محمد الثاني (عام 857 هـ / 1435 هـ) وباستئصال شأفة الغزو البرتغالي في الخليج وتقليص ظلهم في سواحل المغرب شمالا وغربا تمكن العرب من الانتصار في (الحرب الصليبية الثانية) التي أججت أوربا نيرانها ضد العرب في القرنين السادس

(14429/1)

عشر والسابع عشر لتنطلق في حلقات أخرى من هذه الحرب بقيادة الهولنديين والإنجليز والفرنسيين في كل من المغرب والخليج العربي .

... غير أن حدثا جديدا كلل انبثاق العصر الحدث وانقضاء القرون الوسطى وهو اكتشاف أمريكا عام (898 هـ/ 1492م) من طرف (كريستوف كلومبوس).

والغريب أن اكتشاف أمريكا الذي نسبه الكثير من المؤرخين إلى العرب يرجع الفضل فيه بالذات إما إلى رجال الخليج قبل الميلاد أو إلى عالم من علماء الأندلس والمغرب فقد تأكد أن الفينيقيين المنتسبين أصلا إلى الخليج قاموا بدورة حول العالم ثلاث سنوات طافوا

(14430/1)

خلالها إفريقيا ووصلوا إلى (البرازيل وأسسوا مملكة هناك ما زالت معالمها قائمة إلى الآن ومن جملتها الحجارة المكتوبة باللغة البونيقية أي لهجة إفريقيا الشمالية مما يدل – إذا صحت الرواية – على أن القرطاجيين – وهم عرب فينيقيون تأقلموا في المغرب – هم الذين أسهموا مع المغاربة في اكتشاف أمريكا ويعترف (كر يستوف كلومبس) نفسه – كما أورد ذلك المؤرخ الفرنسي (رونان) في كتابه (ابن رشد ومذهبه) (verroés et l'Avérroïsme) بأن كولومبس ترك رسالة بعد وفاته يقر فيها بأن الذي أوعز بوجود قارة جديدة وراء المحيط هو ابن

(14431/1)

رشد المغربي في كتابه " الكليات" في الطب على أن مجلة "نيوزويك" الأمريكية أكدت في عددها الصادر في أبريل 1960 (راجع الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة، ص.13.) إن الوثائق التي عثر عليها تثبت أن أمريكا كانت معروفة للعرب "الذين قاموا – حسب تعبيره قبل سنة 1100 من الطرف الغربي للعالم

الإسلامي ومن ميناء الدار البيضاء على التحديد ورسوا في عدة مواضع على الساحل الأمريكي" وقد أيد هذه النظرية الدكتور (ليس شينج بانج) أستاذ التاريخ واللغة الصينية بجامعة (هارفارد) كما يدها الدكتور (رينتشارد

(14432/1)

رودولف) رئيس المؤتمر الذي عقدنه الجمعية الشرقية الأمريكية .

... وهنا بدأت في المغرب والخليج فترة جديدة من الصراع تجلى في ظهور الإنجليز على مسرح التجارة الخارجية حيث تنفسوا الصعداء من اندحار البرتغال فأقاموا في الشرق (الشركة الهندية) وفي المغرب (شركة بربريا) (Company Barbary) وبينما أرادوا أن يركزوا في الخليج وجودهم بملء ما تركه البرتغاليون من فراغ إذا بهم يكتنفون في المغرب بالعمل على حماية صفقاتهم التجارية من القرصنة وتأمين البحر المتوسط من غارات المراكب والسفن مما أدى ببعض الدول الكبرى

(14433/1)

كالدانمارك والسويد وبعض المرافئ الحرة كهامبورغ وبريم بألمانيا إلى دفع إتاوة سنوية خاصة للمغرب اعتصاما بأسطوله من (لصوصية البحر) وكان قراصنة المغرب قد مدوا شبكة غاراتهم إلى المحيط الأطلنتيقي فواجهوا الإنجليز في عقر ديارهم وقلصوا من جهة ثانية ضغطهم على الشرق العربي وخاصة الخليج لاضطرارهم إلى الاحتفاظ بجزء من أسطولهم لحماية سواحل الجزر البريطانية إلا أن الإنجليز فوجئوا هنا وهناك في آن واحد على طول طريق الهند المارة من جبل طارق بمزاحم جديد هو (هولندا) قامت هي الأخرى بتحدي القرار البابوي الهادف

(14434/1)

إلى اقتسام العالم بين زعيمي الكاثوليكية آنذاك اسبانيا والبرتغال وكان لقيام الحركة البروتستانتية ضلع في دعم هذا الاتجاه فأنشأ الهولنديون عام (1592م) شركة للتجارة مع الهند واتجه هولندي بين (1598م و 1601 / موافق 1007 و 1010هـ) إلى المحيط الهندي يعن طريق الممر الجديد برأس الرجاء الصالح للاتجار والغزو معا بينما عقدوا مع المغرب الأقصى معاهدة عام (1610م) للحصول على رسوم

الأسبقية في التجارة الخارجية، ولم يكد يهل عام (1640م 1050هـ) حتى احتل الهولنديون مكان الصدارة في (الخليج العربي) إلا أن صراعهم

(14435/1)

ضد الإنجليز ما فتئ أن استفحل بسبب تدخل القراصنة المغاربة الذين كانوا يعملون بغير قصد منهم على التخفيف من ضغط الفريقين على الخليج العربي، فقد كان كل من الإنجليز والهولنديون ظلوا يمدون سفن القرصنة المغربية بالعتاد ومواد السفانة وقطع الغيار بينما طفق الإنجليز يواصلون حربا شعواء ضد هؤلاء القراصنة حتى اندلعت الحرب بين الطرفين طوال عامين (1652م/1563هـ) واتسعت شبكتها إلى ما وراء البحار فاشتبك الأسطولان الإنجليزي والهولندي في (مياه الهند) المؤدية إلى الخليج والواقع أن القراصنة قلصوا من نشاط الإنجليز

(14436/1)

فتعطلت تجارتهم في الشرق في

نفس الوقت الذي أدى حيادهم بهولندا إلى نوع من

الحصانة تمتع به أسطولها في

البحر المتوسط مما فسح لها مجال الضغط على الخليج وقد

احتفظ المغرب الأقصى باستقلاله في هذه الفترات بل أنه

احتفظ باستقلاله خلال ألف عام (إلى عام 1912) فكان

القطر العربي الإسلامي الوحيد الذي ظل في منأى عن

سيطرة الخلافة العثمانية والذي عرف كيف يستغل

انتصاره في (معركة وادي المخازن) حيث أصبحت دول

أوربا تخطب وده لأن هزيمة دولة استعمارية كالدولة

العثمانية لم يكن بالأمر الهين ولا بالشيء الذي يمر

دون أن

(14437/1)

يثير إعجاب العالم مما حدا الإنجليز إلى مفاتحة المغرب

بدون جدوى في القيام بعمل موحد لخلق (كونومنيوم)

مشترك في الهند وانشغل المغرب في لم شتاته

وتطوير صناعته فزرع قصب السكر وفتح مصانع

لتكريره فتنافس البلاطان الإنجليزي والفرنسي على

اقتنائه(1)

_____

(1) كان السكر في شقي العروبة بإفريقيا ومصر (الخطط) للمقريزي، ج1، ص.203) وإفريقية وخاصة في قابس وحلولا (المسالك للبكري، جزء إفرقية والمغرب، ص.17 و 32) وكانت معاصر السكر في المغرب تدر سنويا على المنصور السعدي أزيد من ستمائة ألف أوقية ذهبية (وزن الأوقية 30 غرام تقريبا) وكان بالمغرب مناجم فضة وذهب خاصة قرب سجلماسة (كتاب الاستبصار) والنحاس الخالص الذي لا يعدله غيره شرقا وغربا بالإضافة إلى القطن الذي سزرع بتدلا (وصف إفريقيا للإدريسي ص.50) وتطورت على يد الإنجليز عام 1864 م في منطقة مدينة الجديدة صناعة قطن حريري شبيه بالقطن الأمريكي كانافقا في أوربا وذلك بالإضافة إلى مصانع الطلس أيام السعديين.

(14438/1)

وصدره المغرب إلى الشرق في جملة ما صدر من جلود وزيوت ومعادن (من نحاس ورصاص وحديد وقصدير بالإضافة إلى ملح البارود والكبريت) وأصبح للدينار المغربي نفاق في السوق العالمية رغم انخفاض وزنه الذهبي إلى 3548 غرام وتهافت المضاربون من الإنجليز على هذه العملة القوية يستعيضون بها ما خسروه من صفقات في الخليج

(1)

---

(1) كانت تنبكتو تؤدي إلى المغرب جزية سنوية قدرها ستون قنطارا من التبر أي الذهب الغير مسبوك مما جعل من المنصور الذهبي أعظم أمير في العام من حيث العملة وكان الإنجليز يهربون الذهب في صناديق السكر المغربي.

(14439/1)

بل أصبح المغرب يدلي بدلوه في توجيه السياسة الأوربية وفي فتح قروض
(ناب منها دولة هولندا مليون ونصف مليون دينار)
واكتساح أوربا حيث وجه عملاء للدعاية لمنتجاته وسوائمه ومعادنه عاملا على حماية الصناعة الوطنية من المزاحمة الأجنبية. غير أن منافسا جديدا ما لبث أن برز هو الاستعمار الفرنسي الذي اضطر عدوتي الأمس (هولندا وإنجلترا) إلى التحالف لدرء خطره الداهم ولكن ذلك لم يمنع فرنسا من تهديد مصالح الإنجليز في الخليج،
واستطاع نابليون أن يطأ تراب مائة ألف من جنده إذا هو لم ينضم إلى كتلة الحصاري القاري (

(14440/1)

Bloc Continental) المضروب على الإنجليز وكان أسطول القراصنة المغاربة يقض مضاجع الأوربيون في المتوسط وفي عرض المحيط الأطلنطيقي الذين نقلوا إليه عملياتهم بعد أن أصبح طريقا جديدا إلى الخليج ولم تكن علائق فرنسا مع المغرب سياسة التدافع بين الدول الأوربية يثير إلى أقاليم مستقلة خلال القرن السابع عشر (قبيل توحيد المغرب على يد الدولة العلوية) هو نفسه الذي ترك ثغرات تسرب منها المستعمرون مثل ما وقع في إمارات الخليج بالنسبة للهولنديين والإنجليز والفرنسيين.

(14441/1)

... ففي الوقت الذي اتسع نطاق التجارة الإنجليزية في الشرق و أوربا الشرقية أي القرن السادس عشر تزايد أيضا مع المغرب وحتى غينيا بإفريقيا غير أن الفرنسيين كانوا قد بدوا حتى الهولنديين في مبادلاتهم مع المغرب حيث دخلت في عام واحد (1698 م) لمرسى سلا أربعون سفينة تجارية وتأسست بعد ذلك بسنتين شركة تجارية فرنسية اظطلعت بإصدار

المنتجات المغربية وقد بلغ عدد السفارات المغربية إلى فرنسا نحوا من سبع وعشرين سفارة، أولاها عام 1576 م والأخيرة عام 1909 أي قبيل الحماية بثلاث سنوات.

(14442/1)

... كانت حجرة بادس تعتبر ميناء فاس في البحر المتوسط، وكان الأسطول التجاري لبعض الدول يرابط فيها إلا أن القراصنة الجزائريين اتخذوها عام (1554 م) (971 هـ) مقرا للهجوم على سواحل الأندلس واقتناص السفن المتوجهة للهند والخليج وكان قراصنة تطوان والعرائش يتعاونون معهم لأن القرصنة الجهادية كانت عبارة عن رد فعل المسلمين على ما لحق إخوانهم في الأندلس من نفي وتنكيل وتقتيل وقد تحالف قراصنة سلا (وهم خليط من العرب والمسلمين والاعلاج من كافة سواحل المتوسط) مع الإنجليز لمساعدتهم على احتلال جبل طارق وكانت

(14443/1)

معظم الدول الإسلامية المتوسطية تساند هذه القرصنة لا لكونها انطلاقة مشروعة ضد العدوان الإيبري فحسب بل أيضا لأنها أعادت إلى العرب سيادة المتوسط والمحيط وواجهت القرصنة المسيحية ونشرت الأمن والطمأنينة في البحار بالنسبة للسفن العربية والحليفة، وكان معظم البوارج الحربية في أوائل العهد العلوي (أي القرن السابع عشر) قد اقتنصها القرصان من الأسطول الفرنسي أو الهولندي أو الإنجليزي وأهمها تسع عشرة سفينة إنجليزية وأربع فرنسية مما يدل على هيمنة أسطول القرصان الجهادي، وقد بلغ عدد القطع الخمسين في عهد المولى

(14444/1)

محمد بن عبد الله وسبعا وأربعين أيام المولى سليمان ولكن المغرب ظل مع ذاك ينعم في الحقل الدولي بمكانة ملحوظة مما حدا روسيا إلى طلب انضمامه في حرب القرم (1854م– 1956م) إلى كتلة المحايدين واستدراجه للدخول إلى الحلف الروسي الأمريكي ضد تركيا وفرنسا وإنجلترا، وكان المغرب يشعر بأن انغماره في هذا الحلف يعزز مركزه ضد الفرنسيين والإنجليز الذين بدأوا يتنافسون لبسط نفوذهم على

المغرب لا سيما بعد ما احتلت فرنسا الجزائر وأجبرت المغرب على إمضاء معاهدة لالة مغنية عام 1845 م ولكن المغرب راعى ذمام الإسلام فلم

(14445/1)

يجرؤ على الدخول في حلف موجه ضد تركيا المسلمة رغم كونها كانت حجرة عثرة في سبيل وصل علاقاته مع الشرق العربي وخاصة الخليج منذ أن سيطر العثمانيون عليهما في منتصف القرن الخامس عشر، وتمتاز هذه الصلات العريقة بين الخليج العربي والمغرب الأقصى وهما شقان متنائيات للوطن العربي الممتد إلى المحيط- بظاهرة هي أصالة معظم مصطلحاتها الدارجة بالنسبة للفصحى ولا شك أن هذه الوصلة التي استوثقت عبر العصور راجعة بالإضافة إلى العوامل التي أشرنا إليها كوحدة الأصل الكنعاني والتأثير الحميري المشترك إلى وحدة المنبع المالكي

(14446/1)

في مفرداته الفقهية ومصادر اقتباسه الحديثية والقرآنية، ولا شك أن لرواج المصطلحات المالكية في جميع المناحي الاجتماعية خاصة في أبي ظبي أثرا قويا في تكييف هذا التراث الوحدوي، كما أن احتكاك المغاربة بزملائهم الخليجيين قد خلف مجموعة من الألفاظ الدارجة أشرنا إلى بعضها في معجم خاص حاولنا فيه إبراز مظاهر الوحدة في عاميتي المغرب والخليج ونشر مجلة اللسان العربي (عدد 5 – 1387 هـ ٪ 1967 م) وهذه الكلمات موحدة المعنى في الخليج والشام والمغرب أي في المراكز التي ورثت لغة كنعان العربية وتأثرت بلغة القرطاجيين أي

(14447/1)

اللغة البونيقية، وهاكم جملة منها: البايت (للباقي من طعام الأمس) والبحرة أو البحيرة (للمستنقع) والبراحة (للبراح) والبسباسة (للبسباس) وبغى يبغي (بمعنى أراد) والبلدة والبلع (لمنزلتي من منازل القمر) والبلدية (لإحدى دوائر الحكومة) وبلم فمه (أي أغلقه) والتحسونة أو الحسانة (الحلاقة) والجنطة أو الشنطة (للحقيبة) والحارة (للمحلة والحي) وحب (بمعنى قبل) وحويل أو حولي (أي ما دار عليه الحول والخاطر (بمعنى الضيق

الطارق) والختمة (بمعنى إتمام القرآن) والخفرة (أي الأنف الكبير) والدرويش (بمعنى

(14448/1)

الفقير) والربعة (أو الربيعة لصندوق إيداع أجزاء القرآن) والردحة (بمعنى الرقص) والشاهد (بمعنى السبابة من الأصابع والصيني (أي إناء النحاس أو الخزف) والطنا (بمعنى الإغاظة تقول اطناني أي أغاظني) والعرضة (أي حفلة الزفاف) والعزيمة (أي الدعوة إلى مأدبة) والأعشار (بمعنى الزكوات) والعمارية (أي المحفة) والعيال (بمعنى الأولاد الصغار) والغربي (أي الهواء يهب من جهة الغرب) والفكغ أو الفقاع (أي الكماة) والكحة (بمعنى السعال) وكخ (للنهي عن الاقتراب من الشيء القذر) والمرفاعة أو المرفع (للرف المعلق)

(14449/1)

والمشموم (للباقة من الرياحين) والمطهر (للمرحاض) والمكبة أو المكب (لغطاء صحن الطعام)، وهنالك أسماء

أعطيت لمدن ومناطق شتى تقع في امتداد طرق القوافل منها "جبل الأخضر" في المغرب وهو ينبثق كجزيرة في قلب الصحراء وكذلك "الجبل الأخضر" الذي يقوم على محاذاة ساحل عمان وسط كثبان الرمال من الصحراء الحمراء الخليجية .

... وتبرز إمارة أبي ظبي في هذه المجموعة الخليجية كمرحلة من مراحل القوافل المغربية نظرا لواحاتها الثرية واتصالها بالبر بطريق تقع على حدود المملكة العربية السعودية ونظرا لما كان يسودها من أمن

(14450/1)

وهدوء حتى استحق ساحلها وهو ساحل عمان أي يسمى ساحل الهدنة .

... تلك مظاهر للوحدة الأصلية المتعلقة بين الخليج والمغرب العربي تبرز امتداد الوطن العربي من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلنطيقي، وقد عادت هذه الوحدة اليوم إلى عنفوان عزها بعد انهيار الاستعمار وانكشاف الستر الكثيفة التي قامت حائلا اصطناعيا بين اخوان طوال عدة قرون ولكننا عند اللقاء من جديد بعد طول الفرقة نشعر وكأننا لم نفترق لأن خلجات قلوبنا

متساوقة ولأن لنا في مقومات تراثنا العربي الإسلامي سندا قويا لم تفصمه نوائب الدهر ولم تحل عراه

(14451/1)

الوثقى مكائد المستعمرين.

(14452/1)

من العرائش إلى فضالة أربعة عقود ونصف من الاستراتيجية الإسبانية في احتلال مراسي مغربية (1578–1624م)

الدكتور الحسين بوزينب
كلية الآداب – الرباط

... لقد كانت معركة وادي وادي المخازن بمثابة معيار مهم لإمكانات التوغل الإسبانية داخل الأراضي المغربية. فملك إسبانيا فليب الثاني كان على بينة تامة من كافة العناصر التي تسمح له بتقييم القوات المغربية تقييما موضوعيا، سواء تعلق الأمر بالقوات

التي يمكن أن نعتبرها نظامية أو بتلك التي تستنفر عند الحاجة وفي حالات الأزمة. من هنا نفهم انشغاله الكبير بالمغامرة

(14453/1)

التي ينوي ركوبها، ثم ركبها ابن أخته الملك سبستيان بعد ذلك فهو كان يعارض هذه الغامرة. وبعدما وصله خبر الهزيمة، كتب قائلا: "لقد حدث ما كنا نخشاه من ملك البرتغال"(1).

... هكذا إذن سنجد تحفظات عند فليب الثاني قبل المعركة المذكورة للدخول في مغامرة مغربية، فما بالك بعدها؟ بعد هزيمة البرتغال ستكون المبررات أكبر لتلافي أي مواجهة مع جيرانه في الجنوب. ولكن كانت تأتيه مشاكل كثيرة من المغرب كان عليه أن يبت فيها بشكل

---

(1) Guillermo Gozalbes Busto, Los Moriscos en Marruecos, Granada, T. G. Arte, 1992, p.33.

(14454/1)

من الأشكال، ولم تكن هذه المشاكل من صنع المغرب دائما بل كانت نتيجة وجود قواعد مغربية يستعملها غير المغاربة (القارصنة والمورسكيون وغيرهم) للتصدي للسفن الإسبانية المبحرة في المحيط الأطلسي.

... لقد حاول فليب الثاني أن يجد حلولا متفاوضا عليها مع المغاربة من أجل وضع حد لحركة القرصنة التي كانت تنطلق من مرسى العرائش والتي كانت هي الشغل الشاغل لهذا الملك من هنا سيأتي إذن اقتراح مبكر يذهب في اتجاه مقايضة العرائش بالبريجة (Mazagan).

(14455/1)

... لقد كان الحصول على العرائش هاجسا عند فليب الثاني لا يفارقه حتى أنه اعتبر العرائش وحدها تساوي إفريقيا كلها. فأمام هذا الانشغال الاستراتيجي، كان الملك الإسباني يتحمل كل الإبطاءات والتأجيلات التي كان يواجهه بها أحمد المنصور في الوفاء بوعده بتسليمه المرسى المذكور. لقد كان المنصور بطبيعة الحال يرى في القيام بهذه العملية نوعا من الانتحار السياسي. لذلك سنرى أن استراتيجية المنصور كانت ترتكز على إبقاء الوعود(1)

_____

(1) لم يتردد المنصور في استعمال كافة الأساليب التي تطمئن فيليبي الثاني بأنه سيتسلم العرائش، بما في ذلك إبلاغه كتابة أنه قد أعطى الأوامر ليتم هذا التسليم. يقول المنصور في إحدى رسائله إلى ملك إسبانيا: "... وكذلك تأمروا لأصحابكم يقبضون لأصحابنا البريجة مثل ما أمرنا نحن للقائد إبراهيم يقابض لأصحابكم العرائش". (انظر: عبد الكريم كريم، "المغرب في عهد الدولة السعدية"، الدار البيضاء، شركة الطبع والنشر، الطبعة الثانية، 1978، ص.118).

(14456/1)

مع التأجيل المستمر في تنفيذها وإقناع الملك الإسباني في الوقت نفسه بالقيام بكافة الإجراءات من أجل صيانة المغرب من قبضة الأتراك

... كان فليب الثاني، بالرغم من شعوره بكل ما قلناه سابقا، يفضل القنوات الدبلوماسية عبر الأب مرين (Padre Marin) وبيرو بنيغاش (Pero Vanegas) وآخرين لإبلاغ كل تطلعاته إلى أحمد المنصور. وأنطونيو دا شالدانيا(1)

---

(1) Ctonica de Almançor, Sultao de Marrocos

), Estudio critico, introduçao e 1603–1578(
notas de Antonio Dias Farinha. Traduçao
francesa de Léon Bourdon. Lisboa, Instituto de
.1997Investigaçao Cientifica Tropical Lisboa,

(14457/1)

(Antonio de Saldanha) الذي عاش لمدة طويلة قريبا من مسار هذه المفاوضات التي كانت تتوخى التسليم المنشود من قبل الإسبان، يقدم لنا شهادات كثيرة تؤكد ما نحن بصدده هنا.

... فعندما كان الخطر التركي يلوح في الأفق أمام أحمد المنصور، كان هذا الأخير يتوجه إلى فليب الثاني ليقترح عليه التحالف. يقول لنا أ. دا شالدانيا:

... ... أرسل الأب مرين إلى لشبونة حيث كان يوجد الملك فليب وطلب منه أن يبلغه استعداده لخوض غمار مخاطر الحرب قبل أن يستأنف السلام مع الأتراك، ويذكره بأن أهم مسرح للحرب هو في البحر وأن الهدف هو

(14458/1)

العرائش. لذلك كان يجدر بالملك فليب أن يكثر من قواته حتى لا يجرؤ التركي على المجيء، لأن كليهما كان معرضا للخطر نفسه... (1)

... كان كل من الإسبان والأتراك يتطلعون إلى الاستيلاء على العرائش. ففي سنة 1581م يصل إلى المنصور خبر من الجزائر مفاده أن علي باشا كان يجهز ستين سفينة (galera) للوصول بها إلى مضيق جبل طارق والاستيلاء على العرائش إذا امتنع المنصور عن تسليمها إياه، وبعد ذلك سيجتاح شواطئ إسبانيا(2).

---

(1) Cronica, p. 65.

(2) Cronica, p. 75.

(14459/1)

... لقد كان لتسليم العرائش للإسبان مقابل آخر عند المنصور يتمثل في احتجاز مولاي الشيخ ومولاي الناصر داخل إسبانيا، وقد كانا يطالبان بالعرش المغربي. فعندما كانت للملك الإسباني آمال للحصول على مدينة أحلامه، كان يبعث بأخبار مطمئنة عن وضعية هذين الشخصين إلى المنصور. فقد أبلغه عبر الأب مرين:

... ... إن مولاي الشيخ يحاول أن يدخل الدين المسيحي (...)

وإن مولاي الناصر سيحول من لشبونة إلى قشتالة وسيحبس في مكان بعيد عن البحر، بحيث لن يضرن "الشريف" في شيء. ولكن [على المنصور] أن يحاول تسليم العرائش لجلالته،

(14460/1)

لأنه بهذا ستحبط كل مشاريع الأتراك وستتوطد الصداقة بين صاحب الجلالة الملك فليب والشريف...(1) ... بطبيعة الحال، وكما قلنا سابقا، فأحمد المنصور لن يقول إنه لا يسلم العرائش، ولكنه لن يسلمها أبدا. فسياسته في هذا الموضوع اتخذت طريق التسويف والبحث المستمر عن مبررات لتأخير تسليم(2) هذا المكان، حتى مل الملك فليب الثاني واستبدت به خيبة الأمل، فقرر السماح بالنزول في مليلية لأكبر عدو يخافه المنصور. ولكن قبل ذلك،

---

(1) Cronica, p. 77.

(2) Cronica, cap. 38, p. 105.

(14461/1)

... ... شرع الملك فليب في سنة 1586م في الإصرار بشكل كبير على تسليمه العرائش، الأمر الذي كان يقابله الشريف السعدي بدهائه. وكما صرح بلتسار بولو (Baltasar Polo) للأب مرين، فإن إسبانيا كانت تنتظر بفارغ الصبر خلال شهر ماي، وهو الوقت الذي اعتبر، حسب ما فهم من الأب مرين، موعدا لهذا التسليم مقابل البريجة(...). Francisco da Costa قد كتب إلى الملك فليب الثاني في موضوع العرائش، أنه كان يعتبر أمر تسليم العرائش من قبل الشريف السعدي بمثابة سخرية لا يجب أن تحمل على محمل الجد، لأنه لم يسلمها عندما كانت تفتقر إلى

(14462/1)

التحصين والدفاع وكان يتخوف من احتلالها من قبل الأتراك، فكيف سيفعل ذلك الآن بعد تحصينها كما يجب؟

... وأخيرا، خرج الأب مرين من مراكش وكله أمل. غير أنه مرض في الطريق ومات واصطحب معه إلى الحياة الأخرى كل الاتفاقات المزعومة حول تسليم العرائش(1).

... كان على فليب الثاني أن يخفي غيظه المتنامي من جراء الإحباط الذي كان يستولي عليه بسبب عدم وفاء

المنصور بوعده. وكان عليه أن يخفي كل ذلك، لأن رغبته في الاستيلاء على العرائش كانت كبيرة جدا. فأمام هذه الوضعية، كان الملك الإسباني يبعث

---

(1) Cronica, pp. 123–125.

(14463/1)

بتلميحات إلى المنصور يفهمه منها أن إمكان السماح لمعارضه بالنزول في المغرب أمر وارد في الوقت نفسه يوصل إليه عبر بلتسار بولو محاسن تسليم العرائش(1). ... لقد كان تقرب المنصور إلى ملكة إنجلترا على أثر هزيمة الأسطول الإسباني Armada Invencible أمام الإنجليز بالإضافة إلى مسألة العرائش، مبررا لإنزال مولاي الناصر في المغرب وتحولا في سياسة المنصور تجاه الملك الإسباني. سنلاحظ حدوث هجومات من قبل ست سفن للنصور على لنثرتا (Lanzarote) وفوارتا بانتور (Fuerteventura) سنة

---

(1) Cronica, cap. 45, pp. 131 ss y.

(14464/1)

1593م. وقد أسفرت هذه الهجومات عن غنائم وسبي في الجانب الإسباني(1).

... وبالرغم من التحول السالف الذكر والذي لاحظنا في نطاقه رد فعل من الجانبين، لا نظن أن العلاقات بين الملكين ستتدهور أكثر؛ بل بالعكس، إننا نعتقد أن تبادل رسائل المجاملة سيستمر بين الملكين حتى في الحالات الأكثر تأزما، كما يمكن أن نتبين ذلك من خلال رسالة(2) أحمد المنصور المؤرخة في 6 ذي القعدة 1003هـ والتي نفهم منها وجود نوع من الإخبار برجوع مولاي الناصر

---

(1) انظر أرشيف سيمانكاس، الرزمة 2636E.

(2) انظر أرشيف سيمانكاس، الرزمة 492E.

(14465/1)

إلى المغرب أو التبرير لهذا الرجوع من قبل ملك إسبانيا. يقول أحمد المنصور بعد مقدمة المجاملة التي عودنا عليها في كل الأحوال:

... . . . هذا، وقد وصلنا كتابك، فقابلناه على عادتنا في كتبك الواردة إلينا بوجه البشر والترحيب وأحللناه من اهتمامنا واهتبالنا بالمحل الفسيح والمكان الرحيب

وطالعنا ما ذكرتم عن ولد أخينا الخارج بمليلية وعن أسباب خروجه وحتى خديمكم بلتزار بول ذكر لنا ما أمرتموه أن يبثه علينا وينهيه إلينا. وإلى هذا، فها نحن أجبناه عن ذلك مشافهة وكلمناه بما عندنا مواجهة، ومن عنده إن شاء الله تتلقون ما

(14466/1)

لدينا وتقفون على ما عندنا وما وصل به كتابكم الآخر على مسألة ولد صاحب طنجة ومن معه هنا عندنا من أصحاب الفضالغوش...

... إذا كان هذا هو الوجه الذي أراد المنصور أن يظهر به أمام غريمه أو صديقه أو خصمه فليب الثاني، فحالته النفسية الحقيقية عند وصوله خبر دخول المغرب من قبل الناصر تختلف تماما عما يمكن أن يستنتج من الرسالة المذكورة. وقد كان من حظنا أن وجدنا وصفا في كتاب سلدانيا للحالة التي كان عليها أحمد المنصور عندما وصله خبر الناصر وقد جاز إلى المغرب. يقول سلدانيا:

(14467/1)

... إذا كان الشريف السعدي يجامل كل هذه المجاملة، فلأنه كان يعرف أن قضية مولاي الناصر كانت متقدمة جدا ولم يعد يطلب من صاحب الجلالة إلا أن يخرجه إلى حجرة بادس لأن في جبل دبدو كان له هناك مرابطي تجمعه به صداقة كبرى(...). كانت الأمور على هذه الحالة، وقبل أن يسلم جوابه للفارس الطنجاوي، عندما أخبر الشريف (السعدي) من قبل ابنه مولاي الشيخ بأن الناصر كان قد وصل إلى المغرب بالضبط إلى مليلية. ومن دون أن ينتظر ساعة واحدة، أمر بقرع طبله الأكبر إعلانا بخروج الملك إلى الحرب وأخرج محلته في اليوم نفسه وذهب ليقضي

(14468/1)

الليلة تحت خيمته صحبة علوجه وعائلته فقط دون أن يكشف عن أسباب هذا التحول المفاجئ(1).

... هكذا ستسير الأمور بين الملكين. فإلى حدود سنة 1602م، سيستمر الإسبانيون في اتخاذ نوع من الحذر والاحتراس في سياستهم تجاه أحمد المنصور الذي لم يكن يبين أي عداء واضح للإسبانيين. فعلى أساس تخوف لدى الجانب الإسباني من إمكان هجوم المنصور على بعض النقط التي كانوا يحتلونها على الشواطئ المغربية، وذلك عندما كان المنصور يقود جيشا من

خمسين ألف رجل في اتجاه فاس ليحارب ابنه وولي عهده. وبعد ما رأى

---

(1) Cronica, p. 205.

(1/14469)

الإسبانيون أن هدف المنصور هو الذي أشرنا إليه وأن تخوفاتهم لم تكن ترتكز على أسس معقولة ولم يعرج المنصور على قاعدة من قواعد صاحب الجلالة في المغرب وأن حساباتهم كانت خاطئة، راجعوا موقفهم. فهم كانوا يعرفون "... أنه ليس صديقا، ولكنه لم يصرح قط بعداوته للإسبانيين"(1).

... وستسلم العرائش للإسبانيين كما يعرف الجميع، ولكن لن يكون أحمد المنصور هو المسلم ولا فليب الثاني هو المسلم إليه، بل سيتنازل عنها ابنه محمد الشيخ المامون لفليب الثالث ابن فليب الثاني، وذلك سنة 1610م بعد مفارضات

---

(1) AGS, legajo E 2636.

(1/14470)

طويلة وعسيرة توسط فيها المغامر الجنوي جينتينو مرتارا (Gianettino Mortara). والكل يعرف الملابسات التي أحاطت بتسليم هذا المرسى إلى الإسبانيين ومآل الشيخ المامون بعد هذا الحدث بسنوات قليلة. ونود هنا أن نشير إلى مسألة ربما لم يقع الاهتمام بها بما فيه الكفاية لارتباطها بموضوع الاستراتيجية التي نحاول تحليلها في هذه المناسبة. وقد تزامنت الظرفية التي سبقت تسليم العرائش بوقت قليل مع قرار طرد الموريسكيين من الأندلس ومع تواجد الشيخ المامون في إسبانيا التي كان قد التجأ إليها على أثر الهزيمة التي لحقت ابنه

(14471/1)

عبد الله أمام زيدان يوم 27 يناير 1609م بجوار نهر أبي رقراق(1)

---

(1) T. Garcia Figueras y Rodriguez Joulia Saint-Cyr, Larache, datos para su historia en el siglo XVII, Madrid, Consejo Superior de Investigaciones Cientificas, 1973p.65.

... "بدأت سنة 1609م بأسوإ طيرة لمحمد الشيخ. ففي 27 يناير وقعت في أبي رقراق (...) مواجهة بين عبد

الله وزيدان خرج منها ابن السلطان منهزما أيما انهزام، فالتجأ صحبة أبيه إلى الاحتماء في العرائش. هنا قرر الشيخ الهروب إلى إسبانيا في أقرب مناسبة، وفضل إبعاد أخيه أبي فارس وابنه عبد الله والاعتماد عليهما في الوقت نفسه لتأمين انسحابه. وهكذا عهد إليهما بإعادة تنظيم الجيش في حدود الإمكان ومتابعة الحرب ضد المولى زيدان. (...). وأخيرا وصلت الأخبار عن كيفية وصول السلطان الهارب إلى الأراضي البرتغالية بفضل مساعدة جينيتنو مرتارا، وذلك صحبة أمه وأبنائه الصغار وبعض القواد الذين رافقوه خلال عملية الهروب. لقد كان خروج العائلة المالكة والحاشية يوم 4 مارس".

(14472/1)

. وستطرح مسألة متابعة طرد المورسكيين أو تفضيل احتلال العرائش، في الوقت الذي كان الشيخ المانون يتأهب فيه للرجوع إلى المغرب للوفاء بوعده بتسليم العرائش وسط الشكوك التي كانت تحوم حول الطريقة التي كان سيستقبله بها ابنه عبد الله (الذي كان ينظر إلى قضية العرائش من زاوية تختلف عن تلك التي كان ينظر منها أبوه)، وكذلك وسط تقويم الإمكانات الإسبانية الحقيقية لإنجاز العمليتين المعقدتين

والصعبتين في آن واحد. ويظهر أن محضر اجتماع مجلس الدولة المؤرخ في 26 دجنبر 1609م جليا تلك التخوفات التي كانت لدى الإسبانيين

(14473/1)

من ردود الفعل المحتملة والتي يصعب التنبؤ بها من قبل المورسكيين المطرودين أو من أولئك المرشحين للطرد نحو المغرب، وكذا من الشيخ المامون ومن عبد الله ومن المغاربة بصفة عامة، إذا ما تم الاستيلاء على العرائش بعد تهجير المورسكيين.

... إن مجلس الدولة هذا يبين الأولويات التي كان يعتبرها كل عضو فيه بخصوص سياسة الدولة والأحداث الكبرى التي كانت تعيشها إسبانيا تلك الظروف.

فجينتينو مرتارا، بالرغم من عدم انتمائه إلى هذا المجلس، ونظرا لدور الوساطة الذي أداه بين الطرفين، قد أدرج رأيه بين آراء أعضاء المجلس.

(14474/1)

وكان يرى بطبيعة الحال أن الأسبقية يجب أن تعطى لقضية العرائش ولرجوع الشيخ المامون إلى المغرب قبل طرد المورسكيون. إننا نفهم موقف رجل كان هاجسه الوحيد هو التخلص من هذا الملف الذي طال كثيرا وأخذ منه الوقت والمال والمجهود ما لم يأخذه من غيره. وقد كان لباقي أعضاء المجلس آراء مخالفة لهذا الرأي مع تدرج فيها. وفيما يلي هذه الآراء:

... – الفارس الأكبر لليون (Comendador Mayor de Leon): قال إن المتفق عليه هو أن تنجز مسألة العرائش بعد انتهاء الطرد. وهذا الأمر في نظره يشكل ضمانة كبرى.

(14475/1)

... – مركيس بلادا (Marqués de Velada): رأيه يسير في الاتجاه السابق نفسه. وكان يرى وجوب إتمام ما بدئ في قضية طرد المورسكيين، وذلك دون الإقدام على فعل أي شيء من شأنه أن يمنع أو يؤخر قضية العرائش، وذلك لأنه سيكون من المؤسف أن تباشر المسألتين معا وأن لا تحقق أي شيء منهما . . . ومن هذين الشيئين لا ينقص من قيمة طرد المورسطيين بل يعتبرها أكثر أهمية من احتلال العرائش الذي تحفه كل الصعوبات المعروفة.

... – دوق لارم (Duque de Lerma): وكان لهذا الدوق تأثير كبير على فليب الثالث في اتخاذ قرار الطرد النهائي في حق

(14476/1)

الموريسكيين. لذلك لن ننتظر من هذا الشخص موقفا مخالفا لخطته القاضية بإبعاد العنصر الموريسكي من إسبانيا. ورأي دوق لارم هو:

أن تعد العدة وأن ينجز كل ما قيل وأن ينشر قرار (طرد الموريسكيين من) الأندلس في أقرب وقت وأن يعمل على تنفيذ التهجير . . . وإذا لم يقم الموريسكيون بتحرك، سينتهي التهجير في وقت وجيز، وكل ما سيهيأ له سيصلح لقضية العرائش. وإذا قام (الموريسكيون بحركة ما)، فسيكون من المفيد عدم التزامنا في تلك القضية (أي العرائش).

(14477/1)

... نستنتج من تصريح دوق لارم أن مسألة العرائش لم تكن تكتسي أهمية كبرى عنده، خصوصا بالمقارنة مع

هاجسه المتمثل في طرد الموريسكيين.

... – القائد العام لقشتالة (Condestable de Castilla):

يعتبرها مسألة ناجحة لا محالة، ويجب أن يكون الطرد من الأندلس وغرناطة ومرسية سابقا بأيام كثيرة أو بعد أمر العرائش. ويرى أنه بعد نشر قرار الطرد، يجب العدول عن الاهتمام بالعرائش قبل إنهاء الطرد.

... – دوق إقطاعة ابن ملك (Duque del Infantado): إن المهم هو إنهاء عمل الطرد الذي شرع في إنجازه. وهو يعتبر هذا في درجة عليا،

(14478/1)

بحيث لو خير بين هذا ومسألة العرائش لاختار قضية الطرد.

... بعد حسم أمر العرائش لصالح الاستراتيجية الإسبانية، سيبقى النظر في جدوى كل الجهود التي بذلها الإسبان خلال عقود طويلة للحصول على هذه القاعدة التي كان يعتبرها الإسبانيون أصلا لكل المشاكل التي كانت تلحق بسفنهم. وهنا نتساءل: هل استؤصل الضرر من جذوره؟ وسيبقى النظر كذلك في الإمكانات الإسبانية المادية والعسكرية لمواجهة أمور

هذه القاعدة بكل مستلزماتها أو أن الإسبانيين قد دخلوا إلى نفق لا يعرفون مخرجه.

(14479/1)

... إن الوثائق التاريخية المحفوظة في سيمانكاس تبين أن وجود الإسبان في هذه القاعدة كان صعبا ومضنيا، وقاسى أصحابه الأمرين منذ أن وضعوا أرجلهم فيه. فمشاكل الانضباط العسكري المتمثلة في فرار الجنود وقلة المؤن واللوازم ومناوءة المغاربة، إلخ. ستغير الإدراك الذي كان عند الإسبانيين نحو هذا الأمر. ففي هذا الصدد، يقول مؤلفو "Larache":

... إن امتلاك مرسى اللكوس الذي طالما تطلع إلى امتلاكه (الإسبان) وأصبح واقعا، بدأ يظهر غير متناسب مع الآمال التي كانت معلقة عليه. فالقرصنة ما زالت تصعد تهجماتها كما كان الأمر

(14480/1)

من ذي قبل. وبالمقابل، نجد أن مسؤوليات الخزينة الإسبانية التي كانت تعيش حالة مزرية قد تفاقمت

كثيرا خصوصا مع المتطلبات العديدة من الأموال والمؤن واللوازم التي كان حاكم العرائش يستعجل ويضايق بها يوما بعد يوم الملك فليب الثالث نفسه.

... وقد أسفرت هذه الظروف التي أضيفت إلى الفشل الذي حصد عند محاولة إبطال مرسى المعمورة، على بروز حالة عامة من المعارضة الجذرية لما كانت عليه الأمور في السابق خلال سنين طويلة حيث كانت تغذي آمال وتطلعات السياسة الإسبانية في المغرب(1).

---

(1) Larache, op. Cit., p. 103.

(14481/1)

المعمورة:

... إن القاعدة التي ستشغل السياسة الإسبانية في المغرب من جديد بعد إنهاء مسألة العرائش هي المعمورة.

... إذا اعتبرنا الوثائق الإسبانية التي أرخت للفترة المباشرة القريبة من احتلال هذا المكان، رأينا أن فكرة الاحتلال في هذه الحالة قد طرحت في الشهور الأولى التي تلت الاستيلاء على العرائش وأنجزت بسرعة كبرى، خصوصا إذا قورنت مع ما حدث في قضية العرائش التي تباطأت منذ أيام فليب الثاني وأحمد المنصور إلى

التاريخ المعروف. إن احتلال العرائش القريب نسبيا بكل ما مثله من خسارات مالية كان على الإسبان أن

(14482/1)

يواجهوها ومشاكل مضايقات المغاربة لهم نتيجة رد فعل منطقي، أرغم الأسبانيين على تركيز الجهد الذي بقي عندهم من أجل الحفاظ على هذه القاعدة وتلافي الدخول في تعقيدات جديدة(1). وسنجد النقاش يدور في البداية حول احتلال المعمورة أو أبطال مدخل النهر بإغراق سفينة محملة بالحجارة. وبالنظر إلى الظرفية التي كانت عليها الأمور الإسبانية في تلك الفترة، سيتم ترجيح الحل الذي كان يتجه نحو إقفال مدخل نهر سبو. غير أنه سيتبين بعد وقد قصير عدم نجاعة هذه

---

(1) انظر محضر مجلس الدولة المنعقد يوم 6 فبراير و24 مارس 1614م.

(14483/1)

العملية.

... وإذا حاولنا أن نتتبع تطور الأحداث في قضية

المعمورة، وجدنا أن الاهتمام بها يبدأ منذ الشهور الأولى من سنة 1611. سنعثر في الرزمة 494E من أرشيف سيمانكاس على عدة وثائق ترسم لنا مسار هذا الاحتلال وملابساته. فمحضر مجلس الدولة المنعقد في 27 يناير 1611م لا يتحدث عن المعمورة، ولكنه يقتصر على التطرق إلى موضوع العرائش وضرورة تحصين هذه القاعدة. ولكننا بعد شهر من ذلك (أي في 27 فبراير 1611م)، سنجد وثيقة أخرى تتحدث عن تسليم مركيس سان خرمان (Marqués de San German) ورقة يعبر فيها عن ضرورة إنهاء

(14484/1)

مشكلة المعمورة التي تكتسي عنده القيمة نفسها التي للعرائش. تقول الوثيقة(1):

إن مركيس سان خارمان قد سلم ورقة يعبر فيها عن الأهمية البالغة التي يكتسيها تحصين قاعدة العرائش وإسكانها بعد ذلك، لأنه من المعلوم أن زيدان يحاول الحصول على المساعدة من الجزر، وذلك من أجل اكتساحها (أي العرائش). وإذا أضفنا إلى هذا وجود القراصنة الذي يحتمون في المعمورة (التي تبعد بـ15 فرسخا من العرائش)، فسيتمكنون ليس من التشويش على احتلال

هذا المكان من قبل جلالتكم فقط، الشيء الذي لا يقل أهمية

---

(1) أرشيف سيمانكاس، الرزمة 494E.

(14485/1)

عن العرائش، بل سيلحقون الضرر بهذه الأخيرة إن هم وجدوها غير محصنة(...). لذلك، فإن إنهاء مسألة المعمورة له الأهمية نفسها (التي للعرائش). فبامتلاك جلالتكم لتلك القاعدة، ستصان ممالككم وكذا المحيط الأطلسي من (فعل) القراصنة وهجوماتهم. وبما أننا نتمتع بالسلم والصداقة مع مولاي الشيخ، فسنستطيع متابعة التزامات جديدة للحصول على هذا برضاه ومساعدته، بالرغم من أن المولى زيدان سيعارضه(...). ... إن مجلس الدولة سيأخذ مأخذ الجد ما عبر عنه مركيس سان خارمان في الورقة المذكورة وسيعقد اجتماعا للتداول حول هذا الموضوع في

(14486/1)

---

28 فبراير 1611م، وسيجيب على استشارة الملك ببعث خبير لمعاينة المعمورة معاينة جيدة. ويمكن إيجاز ما جاء في محضر هذا المجلس في ما يلي:

... – تحصين العرائش والتأهب فيه انتظارا للوقت المناسب للتدخل في المعمورة واستخبار المغاربة عن إمكان الدخول في الحديث مع مولاي الشيخ لإنجاز ما كان المركيس قد اتفق بشأنه مع القرني والمتمثل في مجيء المركيس بحرا والقرني برا للاستيلاء على القراصنة الموجودين داخل المعمورة، وأن تقسم الغنائم بين جنود ملك إسبانيا ومولاي الشيخ. وبهذه الطريقة، سيتمكن الإسبان من معرفة مدى رغبة

(14487/1)

المغاربة في الاحتفاظ بهذا النهر.

... – إذا كان أمر الاحتلال يقتضي التدخل بالقوة، فستكون الحاجة إلى ألفي رجل من رجال الحرب واثنتي عشرة سفينة صغيرة من سفن الأسطول محملة باللوازم وحزمات الخشب. ويكون تاريخ إنجاز العملية بين شهري يوليوز وشتنبر. وقبل الدخول في حاجز النهر، يتم إنزال الجنود في أحسن مرسى يوجد بالقرب من هناك ومعهم واقية (Trinchera) تقيهم من الخيالة فقط، لأن

هؤلاء وحدهم هم الذين يستطيعون أن يلحقوا الضرر (بالجنود). ويجب أن تخرج أربعة مدافع صغيرة لوضعها على مدخل النهر، وهو المكان الذي يجب

(14488/1)

احتلاله للاحتماء فيه وضمان صد الهجمات التي قد تقوم بها سفن القراصنة الموجودة في الداخل.

... – بعد هذا، يمكن إقامة حصن صغير غير مكلف.

... – ويقترح كونت إلدا (Conde de Elda): "إذا كان التحصين سيكلف كثيرا، يمكن الانسحاب من طنجة لأنها لا تؤدي الخدمة المطلوبة، وتسلم المعمورة عوضها للبرتغاليين.

... – والشيء نفسه يقوله السيد فرانشيسكو دوارتي (Don Francisco Duarte). فهو يقول إنه من المناسب احتلال هذا المرسى لصعوبة إغلاق منفذ النهر بسبب كبره وقوة تيار الماء فيه.

(14489/1)

... سيقتصر الإسبانيون في هذه المرحلة الأولى على اتخاذ الحلول الأقل كلفة كإغلاق مدخل المرسى بإغراق سفينة محملة بالحجارة. لكن هذا الحل الذي شكك في جدواه فرانشيسكوو دوارت، كما رأينا سابقا، لن يكون هو الحل الأمثل كما سيتبين مستقبلا. فمحضر (1) مجلس الدولة المنعقد في 22 مارس من سنة 1612م سيسجل فشل هذه الاستراتيجية عندما قال:

... قد أمرت جلالتكم أن يسأل دوق مدينة سيدونيا ومركيس بيافرانكا وأن يقوما بإخبارنا حول مناسبة رجوع القبطان خيرونيمو كارو (Geronimo Carro) لتفقد

---

(1) الرزمة 494 لأرشيف سيمانكاس.

(14490/1)

مرسى المعمورة (من جديد). وقد كان جوابهما أنه لا جدوى من القيام بهذا الإجراء، لأن الجميع يعرف أن كل السفن تدخل وتخرج من ذلك المرسى بالرغم من الإغلاق الذي أجري فيه. ورأيهما هو أن يحصن (هذا المرسى) لأن كل ما سينفق في هذا الأمر سيعود بفائدة كبيرة، ويجب أن لا يضيع الوقت لإنجاز أمر مهم كهذا، لأنه من

المعروف أن الأعداء يسعون إلى احتلاله.

... ولكن بالرغم مما قلناه سابقا، سنجد أن اتباع استراتيجية التدخل في المعمورة بأقل كلفة سيكون هو النهج الموضوع تحت الدرس. ففي مجلس الدولة المنعقد بتاريخ 7 أبريل

(14491/1)

1612م(1) حول قضيتي العرائش والمعمورة، يقرر الملك فيما يخص اقتراح إغلاق حلق نهر سبو أو تحصين المعمورة، ما يلي:

(أعتبر) الآراء حول تخفيف كلفة تحصين العرائش صائبة، وذلك إلى أن نرى كيف ستجري الأمور في المعمورة. ومن أجل معاينتها، (آمر) بأن يرسل الآن جندي من أحسن الجنود ومهندس ممتاز مع اتخاذ كافة الاحتياطات من أجل ذلك...

... يجدر التذكير هنا بأن الأمور لم تكن تسير على ما يرام في العرائش، الشيء الذي أدى إلى ظهور اقتراح الانسحاب من هذه القاعدة بعد سد حلق النهر فيها(2)

---

(1) أرشيف سيمانكاس، الرزمة 2642E.

(2) الأرشيف والرزمة نفسها، الوثيقة رقم 61.

(14492/1)

. ففي هذا الاجتماع سيقع التداول حول هذه النقطة التي أمر الملك بدراستها. في 6 ماي 1612م كان الإسبانيون قد جمعوا ما يكفي من المعلومات حول المعمورة ولم يعودوا في حاجة إلى استطلاع إضافي. وقد كان المخطط جاهزا في هذا التاريخ لا تنقصه سوى الاعتمادات المالية التي لم يكن القرار قد اتخذ بشأنها. ونجد في هذا المجلس اقتراح الفترة التي يمكن القيام خلالها بإنجاز العملية (في بداية الربع الأول للهلال المتناقص من فترة القيظ) (1). وقد كان الظرف مواتيا، لأن الفترة كانت تشهد

---

(1) الأرشيف والرزمة الوثيقة نفسها.

(14493/1)

انقساما في صفوف المغاربة(1).

... بعد هذا الاجتماع بأقل من أسبوع، سينعقد المجلس من جديد لتدارس ما جاءَ في رسالة من دوق مدينة سيدونيا حول اقتراح أحد القراصنة الإنجليز "بإغلاق حلق

النهر في المعمورة إغلاقا تاما، بحيث يتعذر الدخول إليه على كل القراصنة أو اتخاذه مرسى"(2). يتعلق الأمر هنا بالقبطان أو القائد غييرمو باش (Guillermo Baax)، "سيد ذلك النهر الذي يطيعه الجميع. وهو يملك رجالا مختارين جدا وفي استطاعته، إن هو أراد

(1) الأرشيف والرزمة الوثيقة نفسها.

(2) الأرشيف والرزمةنفسهما، الوثيقة رقم 62.

(14494/1)

ذلك، أن يحول دون دخول باقي القراصنة ذلك المرسى ويفتحه أمام جلالتكم"(1).

... وقد كان جواب الملك على هذا الاقتراح في العبارة الآتية المكتوبة كالمعتاد بخط يده على الصفحة الأولى: "هكذا. وليكن ذلك حالا. (Assi y sea luego).

... ولكن في محضر اجتماع المجلس المنعقد في 16 يونيو 1612م، سنرى أن "المفاوضات مع القبطان الإنجليزي ما زالت لم تحسم بعد"(2). سيتم التطرق في هذا الاجتماع إلى رسالة من دوق مدينة سيدونيا مؤرخة في 5 يونيو

(1) الأرشيف والرزمة الوثيقة نفسها.

(2) الأرشيف والرزمة نفسهما، الوثيقة رقم 63.

(14495/1)

1612م يعبر خلالها عن ثلاث صعوبات تعترض طريق إنجاز عملية المعمورة. وتتلخص هذه الصعوبات في الظرف الزمني المتقدم جدا بالنظر إلى الاستعدادات التي لم تتم بعد، وهو ظرف غير مناسب للقيام بالعمليات في شاطئ يتسم بالهيجان في هذه الفترة السنوية. وتكمن الصعوبة الثانية في الاعتمادات المالية التي يصعب جمعها دون إلحاق الأضرار البالغة (بالجهات التي ستؤخذ منها). وتتجلى الصعوبة الثالثة في جمع الرجال (3000 رجل) في وقت وجيز ومن أماكن يتعذر إخراج الرجال منها.

... وبالإضافة إلى هذه الصعوبات، يقول الدوق:

(14496/1)

... إذا أرادت جلالتكم أن تقوم هذه السنة بالحراسة (La Façion)، فيجب إعداد المواد بسرعة كبرى لتحصين

الموقع. فبالرغم من أن البربر والعرب (Barvaros y Alaraves) في لك الضواحي أناس ضعاف وسلاحهم بسيط، فإن سلا توجد على بعد خمسة فراسخ والقوات التي يملكها مولاي زيدان في مراكش على بعد عشرة أيام وفي فاس على بعد ستة أيام. وترقبا لوصول وتهييء كل هذا، يجب تحصين الموقع بثلاثة آلاف رجل وست مائة جندي ممهد للطريق، وهم ضروريون جدا. فبمساعدة غوغاء اسفن الشراعية الكبيرة (galeras)، سينجز ذلك في وقت قصير، خصوصا وأنه

(14497/1)

توجد في ذلك الموقع أحجار كثيرة.

... في اجتماع مجلس الدولة(1) بتاريخ 26 يونيو 1612م، نجد دوق مدينة سيدونيا الذي أبدى اهتماما كبيرا بموضوع المعمورة في المدة الأخيرة، يأتي باقتراح جديد مؤرخ في 17 يونيو من السنة نفسها يتلخص في إرسال أحد قواد البحر ليرسو في تلك الضواحي تحت علم هولندي حتى لا يثير شكوك أهل البلد، وذلك ليمنع دخول المرسى كل من أراد ذلك:

... وأن يدخل كذلك ثلاث أو أربع سفن من سفن أسطول دنكارك (Dunquerque) تحت هيئة سفن تجارية

وبمساعدة كل ما يمكن

---

(1) الأرشيف والرزمة نفسهما، الوثيقة رقم 65.

(14498/1)

أن يلقاه هناك مجهزا ولو اقتضى الأمر إخراج بعض الرجال من العرائش . . .

... وقد ظهر خلال هذا الاجتماع أن الشعور العام كان هو إرجاء القيام بالعملية لوقت لاحق، خصوصا وأن المغاربة كانوا في انقسام كبير بينهم ولا يشكلون خطرا يذكر. وقد عبر القائد العام لليون عن الرأي السائد (وهو الرأي الذي يأمر الملك باتباعه) عندما قال:

... . . . قد قال كل واحد ما يشعر به. فإذا أضفنا ما كتبه أخيرا دوق مدينة سيدونيا، سنجد أن سلبيات مبارحة تلك العملية وإرجاءها لظرف أحسن قد تقلصت، خصوصا وأننا لم نقم هناك أي تحصين أو شيء يرغمنا على

(14499/1)

إنجازه بسرعة. ويجب أن لا نظهر أي اهتمام بالموضوع حتى ينجز. وفيما يرجع إلى حراسة مدخل ذلك النهر من

قبل سفن الأسطول فحسن، خصوصا إذا أحرقت الآن سفن القراصنة كما حدث في حلق الواد (La Goleta) (بتونس)".

... هكذا ستستمر المعمورة دون احتلال الإسبان إلى سنة 1614م حيث سنرى أن الأمور في هذه السنة قد اكتست سرعة جديدة عند الإسبانيين فقرروا الإقدام على الاحتلال في وقت وجيز.

... فبتصفحنا لأوراق الرزمة 2644E لأرشيف سيمانكاس، نعثر على 14 وثيقة مؤرخة بين 3 فبراير و11 أكتوبر من سنة 1614م. (وقد احتلت المعمورة في 3

(14500/1)

غشت من السنة نفسها). إن الوثائق السابقة لهذا التاريخ تزودنا بمعطيات مهمة تصور لنا تطور تشكيل فكرة احتلال المعمورة في هذه السنة:

... – إن مجلس الدولة المنعقد في 3 فبراير 1614م والذي يجيب على استشارات بعث بها مجلس البرتغال ينصح، من بين ما ينصح به، "بصيانة وحراسة جيدين لقواعد إفريقيا ...". ويضيف في موضوع تسليم ثلاث سفن: "إن مركيس بيافرانكا قال إنه يعتبر تسليم هذه السفن مسألة غير مناسبة بتاتا ...، لأنهم إذا نقلوا السلع

سيفقدون الحراسة على السفن وكذا الجنود في القاعدة. ورأيه أن أسطول صاحب الجلالة الأطلسي

(14501/1)

فيه الكفاية".

... – في اجتماع مجلس الدولة في اليوم الموالي (4 فبراير) حول مضمون رسالة بعث السيد فرانشيسكو بارتا (Don Francisco de Varte) إلى الكاتب خوان دا سيريسا (Secretario Juan de çirça).

... السيد فرانشيسكو دا بارتا سيرون ... يتحدث عن مدى الأهمية التي يكتسيها اللجوء إلى إيجاد حل لمسألة المعمورة، لأن كل يوم يمر إلا وتكبر فيه قوات القرصنة وأرباحهم. وإذا لم يوجد الحل في أقرب وقت، يمكن استحالة ذلك مع التأخير. وفي هذا الصدد يبعث التصريح الذي قام به صاحب إحدى السفن التي سرقت عندما كانت آتية من هبانا

(14502/1)

(La Havana). وقد أشار إلى أشياء أخرى، ومن بينها أنه اقتيد إلى المعمورة. ولما كان هناك، وصلت سفينة من مرسى القديسة مريم (Puerto de Santa Maria) محملة بخمور وبكثير من البارود والمؤن لصالح هؤلاء القراصنة. وبالرغم من أنه حاول التعرف إلى القائد، فإنهم لم يدلوه عليه؛ لأنهم في هذا يتخذون كل الاحتياطات.

... لم يقدم هذا المجلس أي حل ملموس لاقتراح فرانشيسكو دا بارتا واقتصر على التعبير عن رأيه حول المؤن واللوازم التي سيقت من مرسى القديس مريم وكذا حول مسألة أخرى تخص نقود البليون. والملك، سيرا في نفس اتجاه

(14503/1)

المجلس، سيقتصر على وضع قراره بكلمة: "هكذا" (assi).

... – وبعد ذلك بيومين (أي في 6 فبراير)، يجتمع مجلس آخر حول ما كتبه دوق مدينة سيدونيا في موضوع المغرب. ففي رسالة مؤرخة يوم 20 يناير الماضي، يوجه رسالة إلى الكاتب خوان دا سريسا و

... يقترح . . . إذا أعطى المولى زيدان ترخيصه لتحصين المعمورة، ويسلم مقابل ذلك البريجة (Mazagan)، كما اقترح ذلك على أبيه مقابل العرائش، سيكون مفيدا

لجلالتكم التخلص من تلك القاعدة التي لا تتوفر على مرسى وتوجد على ساحل أمواجه قوية، وكذلك ستتخلص من قاعدة للصوص هي المعمورة.

(14504/1)

... هكذا نجد بوضوح موقف مجلس الدولة –وقد صادق عليه الملك بعبارة "حسنا" (esta bien)– يسير في اتجاه الموافقة على التفاوض مع المولى زيدان واقتراح دوق مدينة سيدونيا، ولكن ذلك بعد التأكد من أنه ما زال يملك زمام الأمور في هذه القضية:

... فإذا استمر زيدان، فسيكون من المفيد قبول صداقته والنظر في ما سينتج عن مسألة مقايضة البريجة بالمعمورة، التي يشير إليها الدوق؛ لأن قضية المعمورة تكتسي الأهمية المعروفة. وإذا كان من الضروري أن تقام هناك تحصينات، فمن الأفضل أن يكون ذلك عن طريق الصداقة وليس بالسلاح. ويمكن

(14505/1)

أن يفحص كذلك اقتراح اليهودي بلاتشي (Palache) القاضي بمحاولة جلب زيدان إلى طاعة صاحب الجلالة ...

... – بعد ذلك بوقت قليل، أي في 24 مارس 1614م، سنجد مجلسا آخر للدولة صادق الملك على مداولاته وعلى اقتراح دوق مدينة سيدونيا بالعبارة الآتية: "أجيبوا دوق مدينة سيدونيا أن ما يقوله بخصوص المعمورة مفيدا، وكذلك استمالة زيدان إليه ...". كان الدوق قد بعث رسالة إلى الملك بتاريخ 15 مارس 1614م يقول له:

... إن نهر المعمورة مهم جدا وتوجد فيه ثلاثون سفينة للقراصنة، وقد اشترى المولى زيدان سفينتين من هولندا وهو الآن يشتري

(14506/1)

سفينة أخرى بغرض إلحاق الضرر بواسطتها، ويحصن ذلك المرسى ليحمي فيه أسطوله بمساعدة أصدقائه الهولنديين، ويشير الدوق إلى أن هذا سبب مناسب جدا للتفاوض مع زيدان حول تنازله لجلالتكم عن المعمورة مقابل البريجة، الأمر الذي يراه ممكنا ...

... إن الاقتراحات التي تأتي الآن من مجلس الدولة لا لف بالموضوع، دورانا وإنما تطرح الأشياء مباشرة كما يمكن أن نرى ذلك من خلال اقتراح دوق إقطاعية ابن

ملك حيث يصرح: "... فيما يخص المعمورة ...، يجب احتلالها وإقامة قلعة في ذلك المكان لاستعماله ...".

لنذكر هنا أن البريجة التي يراد

(14507/1)

مقايضتها بالمعمورة "لم تعد تصلح لشيء" في نظر مركيس بيافرانكا.

... – في اجتماع مجلس الدولة المنعقد يوم 27 ماي 1614م، ظهر أن المولى زيدان كان يحاول أن يستعمل ورقة المعمورة للحصول على قسم من الثروة التي تركها أخوه الشيخ المامون في طنجة عند البرتغاليين. ويظهر أنه كان في قضية المعمورة يساير اللعبة التي دشنها الإسبانيون وكان في الوقت نفسه يحاول تحصينها.

"يضع الدوق في الاعتبار أن ذلك المغربي (المولى زيدان) قد كتب هذه الرسالة في وقت مناسب ليقترح عليكم استبدال مزكان بالمعمورة".

(14508/1)

... – في مجلس الدولة المنعقد في 5 يوليوز 1614م(1)، نرى من جديد اقترام تدخل من قبل قرصان إنجليزي آخر هو Thomas Joly الذي كان يتواجد في مرسى المعمورة بإحدى وعشرين سفينة. وقد أتى اقترام هذا الإنجليزي في رسالة بعثها إلى أخيه في أليكانتي (Alicante) حيث كان يمارس التجارة. يقترح هذا القرصان أن يضع نفسه رهن إشارة ملك إسبانيا ليؤدي له أي خدمة أرادها ما لم تكن ضد ملك إنجلترا وعلى أساس أن تعطى له الضمانة ليتمتع بما يملكه. وقد كان جواب الملك على هذا الاقترام هو إرسال هذا

---

(1) أرشيف سيمانكاس، الرزمة 2644.

(14509/1)

القرار لدوق مدينة سيدونيا ليطلع عليه ويتيقن من أسسه. وبعد ذلك، سيظهر ما يجب القيام به.

... وسط كل هذه الاعتبارات، وعلما أن قوات المولى زيدان كانت قد ضعفت كثيرا، كان على الإسبانيين أن ينهجوا سياسة حذرة جدا للحفاظ على علاقتهم بعبد الله بن الشيخ المامون (الذي كان معاديا للمولى زيدان) والذي كان يطالب كذلك بثروة أبيه التي بقيت في

طنجة، وكان عليهم في الوقت نفسه أن لا يغيظوا زيدان. إن كل ما كان يهم الإسبانيين هو "... أن لا يبقى أي منهما باليد العليا والمطلقة، وذلك بالنظر إلى المشاكل التي قد تحدث إذا ما

(14510/1)

وقع الاتفاق بينهما".

... – بعد ذلك بوقت قليل سيحدث ما كان يخافه الإسبان: "... حصل الاتفاق بين زيدان وعبد الله، وزيدان يحاول بحذر كبير أن يحصن المعمورة ...".

... لهذا السبب، اتفق مجلس الدولة في اجتماعه المنعقد في 5 يوليوز على قبول اقتراح صاحب الجلالة حول المعمورة؛ لأنه إذا تقرر القيام بعمل ما، فيجب أن لا يضيع مزيدا من الوقت. لقد كان جواب الملك هو: "إنني (الآن) على علم بهذا".

سلا

... كان احتلال المعمورة لا يزال حديث العهد عندما وجد مجلس الدولة الإسباني فوق طاولته اقتراحا جديدا لاحتلال مكان آخر على

(14511/1)

الساحل الأطلسي المغربي، وهو: مرسى سلا.

... يتعلق الأمر باقتراح جاء من عند خوان لدوبكو ردريغو (Juan Ludovico Rodrigo) يهودي من أصل تطواني، اعتنق الديانة الكاثوليكية ويعيش في لودي (Lodi) في دولة ميلانو (Estado de Milano). يعرض هذا الشخص اقتراحه في مذكرة من سبع صفحات يشرح خلالها الدوافع والأهداف والوسائل من أجل التوصل إلى الغرض المنشود. فهو يعتبر أنه:

لم يبق لملكي فاس ومراكش في جهات إفريقيا مدينة لها مرسى بحري باستثناء سلا، كما لا يخص جلالتكم إلا هذا المرسى ليكون سيد ذلك الشاطئ كله. ففي هذا

(14512/1)

المرسى تحتمي سفن القراصنة الذين يتسببون في أضرار بالغة لرعايا جلالتكم. وهو يقترح أن يضعه تحت سلطة جلالتكم بسهولة كبرى وبنفقات قليلة بفضل الخطة التي يورد هنا ... فبعدما تم احتلال العرائش، يحتمي في مرسى سلا كل سفن القراصنة التي كانت

تذهب إلى العرائش بغنائمها ...(1).

... ومجلس الدولة(2)

---

(1) أرشيف سيمانكاس، الرزمة 495E.

(2) محضر مجلس الدولة المنعقد في 22 غشت 1614م، في الرزمة 2644E من أرشيف سيمانكاس. وانظر كذلك الرزمة 495E من الأرشيف نفسه.

(14513/1)

يوصي أن أمر سلا هذا يمكن أن يتطلب شغلا كثيرا، خصوصا بعدما أصبحت المعمورة في ملك جلالة الملك وما يجب القيام به هو تحصينها قبل كل شيء وأن يخبر السيد لويس فخاردو (Don Luis Faxardo). فإما الآن أو بعد تحصين المعمورة جيدا، يأمر بمعاينة مسألة سلا من قبل شخص خبير جدا ويخبرنا بكل ما سيجد وما سيراه. ... وقد كان قرار الملك كما يلي: "لينجز كل ما يبدو في كل حالة، وقد يكون من المفيد أن يرسل هذا الرجل إلى السيد لويس فخاردو (Don Luis Faxardo) ليخبره بمحاولته، وعلى لويس فخاردو أن يدلي لنا برأيه بعد الاستماع

(14514/1)

إليه".

... ونظن أن هذا الاقتراح لم يؤخذ مأخذ التطبيق، نظرا للظرفية التي اقترح فيها. فقد كانت قضية المعمورة لا تزال مطروحة، وكان على المسؤولين الإسبان أن يركزوا جهودهم على صيانة القاعدة الجديدة دون الخوض في غمار عملية أخرى تستلزم حسابات مختلفة. أضف إلى هذا كل ما كان على الخزينة الإسبانية أن تواجهه من نفقات مع إضافة العرائش ثم المعمورة إلى نفقاتها الأخرى. لقد رأينا كيف كانت تطلب العدد واللوازم للعرائش دون أن تصلها(1)

---

(1) Véase por ejemplo AGS E 2644, acta del Consejo de Estado del 24 de marzo de 1614:

" También dice el Duque que conviene socorrer a Alarache poeque se halla muy desprobeyda de todo lo necessario... ».

(14515/1)

.

... وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن هذا الاقتراح لا يرد ضمن الحالات التي استفادت من اهتمام ما في مداولات مجلس الدولة المتعلقة بمشاريع احتلال سلا. وأظن أن الاهتمام الحقيقي للإسبانيين باحتلال سلا سيبدأ سنة 1619م، كما يتضح من القائمة التي تبين تسلسل تاريخ قضية سلا والتي تبتدئ في هذه السنة، كما يمكن أن نقرأ في "ملخص ما حدث في مسألة سلا منذ سنة 1619م إلى 1632م"(1)

---

(1) انظر أرشيف سيمانكاس، الرزمة 2668E. مكنتنا هذه الوثيقة من توضيح عدة جوانب لم نتمكن من تبيانها تبيانا صحيحا في دراستنا: « Platica en torno a la entrega de la alcazaba de Salé en el siglo XVII", Al-Qantara, Madrid, vol. XV, fasc. 1, pp.1994 47–73، وتصحيح ما كنا نعتقده لما قلنا "إنه لمن الممكن أن يكون المغربي (أو المسلم) الذي يشير إليه ماشكرانياش هو سيدي عيسى الوارد في وثائقنا"، (ص.50).

(14516/1)

(وهذا الملخص مؤرخ في أواخر شهر ماي من سنة 1638م).

... وفي سنة 1619م سنجد اقتراحين اثنين لاحتلال مرسى سلا. الاقتراح الأول لمورسكي اقترحه في بداية السنة(1) على حاكم آسفي جورج ماشكرانياش (Jiorge de Mascarenhas)، والثاني لمسلم أو مغربي (moro) اسمه سيدي عيسى بن الطالب وكان مبعوثا من قبل العياشي.

---

(1) إن الرسالة التي بعثها ماشكرانياش إلى فليب الثالث بخصوص الاقتراح المذكور تحمل تاريخ 4 فبراير 1619م. (ère série, France, vol. III, 11SIHM, pp.44–49).

(14517/1)

... فأما المورسكي، فكان قد وصل إلى آسفي على ظهر سفينة أبحرت من سلا تحت أوامر المولى زيدان، ودون سابق إعلام يتصل بالحاكم المذكور ويقترح عليه الصفقة(1).

... إذا اعتبرنا أن الملخص السالف الذكر معيارا لمعرفة ما كان الإسبان يرونه مهما وما كان دون ذلك، قلنا إن هذا الاقتراح لم يحظ بالاهتمام لأنه قد غيب عن الملخص.

(1) Cf. « Lettre de Jorge Mascarenhas à Philippe III du 4février 1619, SIHM, 1ère série, France, p. 49.

(14518/1)

... أما الاقتراح الثاني الذي حدث سنة 1619م، فيدخل في سياق آخر يصفه الملخص المذكور كما يلي:

1– "إن حاكم طنجة بعث بنسخة من رسالة العياشي الذي يقول فيها إن مغربيا سيذهب للتفاوض مع صاحب الجلالة في مسائل مهمة. وقد قدم مجلس الدولة استشارة في 22 من شهر يونيو مفادها أنه نظرا لوصوله إلى هنا، فسيكون من المفيد الاستماع إليه. وقد قرر صاحل الجلالة أن يستمع إليه الكاتب السيد بادر دا طوليدو (S. Don Pedro de Toledo).

(14519/1)

... 2– "إن رسالة العياشي ورسائل شيوخ وقواد سلا(1) تتلخص في أن صاحب الجلالة قد تكهن بأنه (أي العياشي) سيحكم الغرب وأن المرابط العياشي أراد أن يذهب (إلى

هناك)، ولم يقدم على ذلك نظرا لأشغاله الكثيرة، وهو يطلب مساندة صاحب الجلالة، وسيفعل ذلك إن شيوخ وقواد سلا عرضوا تسليم القصبة. ولهذا أتى المغربي الذي صرح بأنه يتوفر على عشرين يوما فقط

---

(1) لسنا متأكدين من المقصود هنا بالاسم "سلا"، هل المدينة التي تحمل الاسم في الوقت الراهن أو ما كان يفعمه الأوربيون في تلك الآونة، أي مجموع ضفتي مصب نهر أبي رقراق؟

(14520/1)

للقيام بهذا...".

... يوضح الملخص المذكور أن العياشي هو الذي أرسل عيسى بن الطالب، وذلك باتفاق مع شيوخ وقواد سلا. وكان الإسبان –وعلى رأسهم الملك، وبموافقة دوق مدينة سيدونيا– واثقين من الاقتراح، فعزموا على المضي إلى الأمام ودخول سلا بـ500 رجل كانوا سينقلون على متن أربعة سفن من سفن الأسطول العسكري. ولكن السيد فدريكي دا طوليدو (Don Fadrique de Toledo) أبدى تحفاظته التي عبر فيها عن "الصعوبات التي تكمن في إخراج رجال البحرية لأغراض أخرى. وقال

إنه يحذر في هذه المسألة، ولكنه كان يعتبر الجدوى من احتلال سلا

(14521/1)

ضعيفة جدا".

... وسيحدث هذا الاقتراح الذي أخذه الإسبان مأخذ الجد، خيبة أمل كبرى لدى دوق سيدونيا؛ إذ نراه يحكي ذلك بمرارة كبرى سنة 1622م(1):

... ... مع هذا لم يتم التطبيق. أما المغربي، فقد ذهب وبقي الترجمان في المعمورة حيث مات منذ ما يقارب الثمانية أشهر. وإلى يومنا هذا لم يكاتبنا ذلك المغربي ولم يعط أي إشارة عن نفسه، بالرغم من أن قائد الميدان كرستبال لاتشوغا (Xpoval Lechuga) قد أخبر عن وصوله في حياته وقال إن

---

(1) انظر الرزمة 888GA من أرشيف سيمانكاس. (كذلك دراستنا "Platica" سالفة الذكر، صص.66–67).

(14522/1)

بداية هذا الاتفاق ذكرى سيئة من ذكرياته وأنه كان يشك في هذا الاقتراح منذ البداية...

... بالاعتماد على محضر مجلس الدولة المنعقد في 30 أبريل 1620م، نستخلص أن في هذا التاريخ كان الأمل لا يزال معقودا على اقتراح سيدي عيسى بن الطالب. ولكن دوق مدينة سيدونيا كان يحذر السياسيين الإسبان من الثقة التي وضعوها في الاقتراح المذكور(1)

---

(1) يكتب دوق مدينة سيدونيا إلى جلالة الملك، من بين ما كتبه، في رسالة مؤرخة في 8 من هذا الشهر (أبريل)؛ ويقول إنه لا يجب عقد الأمل على المقترح الذي جاء به المغربي حول تسليم سلا، وذلك حسب ما كتبه له الترجمان السيد بابلو دا سانتا ماريا (Don Pablo de Santa Maria)، حيث أجابه الدوق بعدم الإقبال على فعل أي شيء دون أمر من جلالتكم، لأن مفعوله سيكون قليلا...". (أرشيف سيمانكاس، الرزمة 2645E، مجلس الدولة المنعقد بتاريخ 30 أبريل 1620م).

(14523/1)

.

... وبالرغم مما قاله السيد بابلو دا سانتا ماريا عن عدم

الثقة في اقتراح المغربي، وبالرغم من رأي دوق مدينة سيدونيا المعارض كذلك للاقتراح (في سنة 1620م، وبعد ذلك سنة 1622م، وربما في تاريخ آخر بعد هذا...)، وما عبر عنه قائد الميدان لتشوغا، سنرى أن الملك إلى حدود سنة 1624م لم يكن قد فقد الأمل بعد في هذا الموضوع:

... قد أمر جلالة الملك في الرابع من شتنبر بالكتابة إلى دوق مدينة سيدونيا جوابا على رسائله المؤرخة في 29 كي تجرى آخر التحريات في هذا الموضوع بالرغم من التسويف الذي يقابل به تسليم القاعدة،

(14524/1)

وذلك نظرا لأنه لا يخاطر بأي شيء. وهكذا سيرسل مرتين دومنغيث (Martin Dominguez) إلى سلا بتكليف وتعليمات من جلالة الملك وردت في مراسلته(1).

... بالرغم من كل الوثائق التي استعملناها بخصوص هذه المحاولة الثانية التي حدثت سنة 1619م لتسليم القصبة والتي تزودنا بكثير من المعطيات المحيطة بالمسألة، ستبقى مع ذلك بعض النقط غامضة وقد توضح باكتشاف وثائق جديدة. فمن الأشياء التي استرعت

---

(1) Sumario de lo que ha passado en las cossas hasta 619de la Alcazava de Zalé desde el ano 2668, AGS, legajo E632el de.

(14525/1)

انتباهنا واستغرابنا وجود المجاهد العياشي وراء هذا الاقتراح ورغبته في وضع كنز عظيم يوجد بالقرب من سلا في يد ملك إسبانيا.

... وهناك اقتراح آخر لتسليم قصبة سلا اقترحه القائد سافر (1Zafer)()

---

(1) **لم نتمكن من العثور على أي معطى حول شخصية هذا القائد. ولا ندري إن كان هو القائد عجيب الذي يذكره عبد اللطيف الشادلي في كتابه "الحركة العياشية"، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،** 1982**م، أو لا. وقد كان عجيب قائدا على القصبة في تاريخ الوثائق التي نحن بصددها، ثم إن الشخصيتين متشابهتان. يقول الشادلي في هامش في الصفحة** 88**: "الفتى عجيب إسباني مسيحي أسلم، وهو من موالي السلطان زيدان بن أحمد المنصور، كانت له عنده حظوة ومكانة، فكان يكلفه بجليل المهمات. ففي** 15 **غشت**

1623م، ترأس عجيب جيشا في محاولة لقمع قبائل دكالة. وفي شتنبر 1626م، وجهه زيدان على رأس بعثة لتهنئة كونصالو كوتنيو بمناسبة تعيينه حاكما على البريجة، ثم وجهه زيدان حاكما على الرباط، لكن أهل المنطقة أساءوا استقباله، ثم طردوه ليقتل على يد بعض سكان ضواحي الرباط

... لنتذكر هنا أن القائد سافر (Zafer) الذي يرد في وثائقنا يقول: "بالرغم من أن ملك مراكش اضطرني إلى الإسلام، فالله يعلم هل أنا كذلك، ومنحني أن أنوب عنه في قيادة القصبة. وليس لي من الإسلام غير اللباس والإسم. لهذا أريد استدراك ضياعي، لأنه لا يجب أن يكون للمرء قانون مع هؤلاء الهمجيين، لأن من كان له ذلك معهم، قابلوه بأسوإ الجزاء..." (انظر دراستنا: « Platica... », Al-Qantara, p.65).

(14526/1)

سنة 1621م. سنجد أثر هذا الاقتراح يرد في محاضر مجلس الدولة خلال سنتين، ولكن دون أن يصل صدى ما تقرر بشأنه إلى من كان يحاول ترجمته على أرض الواقع. ربما كانت التجربة التي عاشها ذوو القرار في إسبانيا مع عيسى بن الطالب قد أثرت بشكل من الأشكال في

الموقف المتخذ هذه المرة. لم يكن دوق مدينة سيدونيا قد استوعب بعد ما حدث منذ 1619م في اقتراح ابن الطالب، الأمر الذي جعله يتحاشى الدخول في متاهات ما يقترح الآن من جديد في الموضوع نفسه. يقول الدوق في رسالة إلى الملك مؤرخة في 16 يناير 1622م يربط فيها الاقتراحين:

(14527/1)

... ... منذ البداية اعتبرت هذا الأمر (أي اقتراح 1619م) ضائعا ومفتقدا لكل الأسس، وقد عبرت عن هذا في حينه. وما يشير إليه هذا الشخص المسمى دوردور (Dorador) أعتبره في المقام نفسه وهو حديث تلك المرحلة نفسه. وحتى ولو كانت له أسس أكثر –وأنا أشك في ذلك– يمكن إحالته بإذن جلالتكم على حاكم المعمورة الموجود قريبا من ذلك المكان ليتيقن من الاقتراح بعد معرفة عمق المسلم الذي يقدمه. وبهذه التوضيحات ستستطيع جلالتكم اتخاذ القرار على أسس أفضل. وفي انتظار ذلك، فجلالتكم ستعرف أين توجد مصلحتها... لتستدعي المدعو

(14528/1)

بارطلمي دا أرتياغا (Bartolomé de Artiaga). وأما رأيي الشخصي، فهو دائما أن امتلاك جلالتكم للأسطول الملكي في بحر المحيط وباتخاذ الاحتياطات وتزويده بالقوة، لن يكون من اللازم البحث عن أماكن أخرى في المغرب زيادة على تلك التي تملكها جلالتكم. أضف إلى ذلك أن ما يقترح ليس بمرسى بل شاطئ ورأس تستطيع سفن جلالتكم تطهيرها كلما مرت منها(1).

... وسنرى أن احتقار أهمية مرسى سلا في البداية من لدن دوق مدينة سيدونيا راجع لاعتباره مكانا لا يتوفر على المواصفات التي يمكن أن

(1) Cf. « Platica... », op. cit., p. 67.

تجعل منه قاعدة حصينة وناجعة وبالتالي كان الدوق يعارض الاقتراحات بتسليمه، ولكن هذا الموقف سيتحول تحولا جذريا في المستقبل عندما سيعاني الإسبان الأمرين من جراء هذا الطرح. وسنرى كيف يعبر ملك إسبانيا عن هذا الأمر عندما قال سنة 1638م:

... ... وفي ما يرجع إلى احتلال أو عدم احتلال هذه القاعدة،

فإنني أرى أنه إذا كان سيئا جدا كما يقال، فلا شك أن ذلك هو المناسب، ولكن لما أرى ما فعله ويفعله هؤلاء المغاربة انطلاقا منه وبالنظر إلى العدد الهائل من الأسرى الذين يستولون عليهم سنويا وباعتبار القوة العظيمة التي

(14530/1)

أصبحت لديهم بحيث يصلون إلى قنال إنجلترا، فإنني اعتبر ذلك المرسى شيئا بالغ الأهمية. وقد توصلت بعدد لا يحصى من الاستشارات من قبل مجلس الدولة ومجلس الحرب ومن مجالس سرية حول إقدام قواتي على اقتحام تلك القاعدة وذلك المرسى، وكل ذلك بمبررات قائمة على أسس متينة. هكذا إذن، وبالرغم من أن هذا ليس ظرفا مناسبا للحسم في الموضوع، فإن المصلحة العليا للممالك هو أن تكون كل المراسي المهمة في إفريقيا والمتاخمة لإسبانيا، إن أمكن، في حوزتي أو تدين لي بالطاعة التي لا تتزحزح، وإنني أفضل هذه الأخيرة نظرا لإمكانها(1)

---

(1) Guillermo Gozalbes Busto, La Republica andaluza de Rabat en el siglo XVII, Cuadermos

, 1974de la Biblioteca Espanola de Tetuan,
.427–426pp.

(14531/1)

.

أزيلا:

... لقد كانت أزيلا بدورها موضوع اقتراح تسليم سنة 1620م من قبل محمد بن الشيخ المامون الذي كان يتطلع بهذه العملية إلى الحصول على نصيبه من التركة التي كان قد أمنها أبوه عند البرتغاليين في طنجة(1)

---

(1) Vease Nuestro, « Propuesta de entrega de Arcila en el siglo XVII », en El siglo XVII hispanomarroqui, Rabat, Publicaciones de la Facultad de Letras, 1997p.169.

... يقول محمد بن الشيخ المامون في رسالة اقتراحه: "سيرا على نهج والدنا المغفور له في الحب الذي كان يكنه لجلالة الملك فليب أريد أن أقدم لجلالتكم أزيلا على يد قائد الميدان بادرو رودريغاث دا سنتيستابان حاكم العرائش، وهو قد عبر لي عن الفرح الذي سيغمر جلالتكم بهذا العمل. وبهذا أتعهد من خلال هذه الرسالة وبخط يدي هذه بأن أقوم (بالتسليم) في ظرف شهرين أو

أقل إذا سمحت الظروف بذلك وإنني أتوخى بهذه الخدمة وبما تبقى من الأمور المتعلقة بسلا وتطوان –ويشهد علي في هذا الراهب الأخ فرانثيسكو غيرا– أن تجدني تحت طاعتك وسترعاني كما رعيت والدي وأن تأمر بتسليمي حقي من التركة وأن تلتفت إلي كذلك بالنعم كما فعلت مع والدي المغفور له. وحرر بالقصر الكبير في الثامن من دجنبر من سنة ألف وتسعمائة وعشرين". (لقد قمنا بترجمة النص الإسباني لرسالة محمد بن الشيخ المامون المتضمن في الرزمة 2645E من أرشيف سيمانكاس، نظرا لعدم تمكننا من العثور على نصها العربي).

(14532/1)

، زيادة على الحصول على مساندة ملك إسبانيا. ولكن هذا الملك كان يجهل أن إسبانيا لم يعد يهمها(1)

---

(1) في سنة 1618م، وحسب رسالة ملك إسبانيا إلى خوان دا سريسا (Juan de çiriça) المؤرخة في 29 يونيو 1618م، كانت هناك رغبة لدى الإسبان في احتلال أزيلا لأنه عادة ما كانت تنطلق من مرساها "فرقاطات باثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سفينة كانت تتسبب في خسارات

مهمة وكانت تستولي بالخصوص على المساعدات التي ترسل إلى قاعدة (العرائش). ونظرا لهذا الجانب، يكون من المناسب احتلال هذه القاعدة". (انظر عملنا السالف الذكر: « Propuesta de entrega... »، ص.171).

(14533/1)

احتلال هذا المكان وإضافة مشاغل جديدة للوضعية المعقدة التي كانت تعيشها القواعد التي كانت تحتلها في المغرب. فهكذا نجد دوق مدينة سيدونيا بالاحتراس المعهود فيه يكتب إلى ملك إسبانيا ويقول له:

... ... إن مولاي محمد يقترح تسليم أزيلا لجلالتكم. وبالرغم من أن قائد الميدان يطلب مني أن أقدم له مساعدة حالية بالرجال وبأشياء أخرى لتنفيذ محتوى هذا الاتفاق، فضلت عدم الإقدام على القيام بأي شيء في هذا الموضوع قبل أن أخبر جلالتكم، وذلك لأن الاعتبارات للدخول في هذا الأمر ليست يسيرة. ثم إنه من الصواب أن يكون

(14534/1)

للعمليات الجديدة منطلق من جلالتكم التي تعرف أكثر من أي كان العمليات الصالحة والعمليات التي قد تحدث المتاعب في طريق الحفاظ على مملكتكم وتوسيعها. ثم إننا لا نتوفر هنا على الرجال ولا على السبل للإتيان بهم دون أمر جلالتكم. وحتى بتوفرنا على هذا الأمر، سنواجه صعوبات جمة؛ نظرا لقلة الرجال في هذا الإقليم ونظرا لما للقواعد المغربية من سمعة سيئة...(1).

---

(1) أنظر أرشيف سيمانكاس، الرزمة 2645E. مقالنا « Propuesta de entrega... »، ص.174.

(14535/1)

... يجدر التذكير هنا بأن حاكم العرائش ردريغو دا سانتيستيبان (Rodrigo de Santistevan) الذي قاد المفاوضات حول تسليم أزيلال قد أبرم هذا الاتفاق قبل أن يعرف رأي ملكه.

... وقد كان رأي مجلس الدولة المنعقد في 25 يناير 1621م كما يلي:

... ... ارتأى أن يبين لجلالتكم على أساس ما فهمه من السيد خيرنيمو (Don Geronimo) وهو أسير واسع الاطلاع على القواعد المغربية وكذلك بالرجوع إلى ما

كتبه دوق مدينة سيدونيا، يظهر أن قاعدة أزيلال هذه ليست مهمة ولا تستحق محاولة جلالتكم امتلاكها أو إقامة حامية جديدة بها، في الوقت

(14536/1)

الذي لا يمكن عيالة قاعدتي العرائش والمعمورة وهما معرضتان للضياع...(1).

فضالة:

... إن هذا المكان لا يرد عادة في الوثائق الإسبانية كمكان يستقطب اهتمام السياسيين الإسبان. وقد أوردناه بين القواعد المغربية التي دخلت بشكل من الأشكال في استراتيجية احتلال الإسبان لهذه القواعد الأطلسية، لأننا وجدنا فقرة تخصه في "ملخص ما حدث في موضوع سلا من سنة 1619م إلى سنة 1632م" المذكور سابقا. ونظرا لأننا لم نعثر على وثائق إضافية حول هذه الحالة، سنقتصر على تقديم الفقرة المشار إليها

---

(1) انظر المقال السابق، ص.175.

(14537/1)

أعلاه:

... ... سنة 632: يكتب حاكم المعمورة في 23 ماي أن سلا أصبحت مخبأ للسراق والقراصنة، ومن الواجب وضع حد لهذا. وإذا كان الأسطول والسفن على استعداد ومهيأة بألفي رجل لإرسالها إليه، سيستولي على فضالة حيث يريد بعض الهولنديين إقامة حصن. ومجلس الدولة... المنعقد في 4 يوليوز قد بين العوائق نفسها. وقد قرر جلالة الملك أن يتدبر الأمر ليجهز ما يناسب.

استنتاج

... إن العقود الأربعة والنصف من العلاقات المغربية الإسبانية التي حاولنا معالجتها في هذه الدراسة تتميز في الجانب الإسباني، كما يمكن أن نلاحظ، بحذر في

(14538/1)

اتخاذ القرارات وبنقص في الإمكانات لتطبيق العمليات المخططة أو المنجزة أو المقترحة، وكذا بهاجس مستمر تجاه الخطر التركي. أما في الجانب المغربي، فقد رأينا أن تشتت السلطة السعدية كان يقف حجر عثرة يحول دون تحقيق وحدة الصف المغربي ضد الأطماع الإسبانية وتفتح الطريق أمام الانتهازيين لتحقيق المصالح الذاتية.

... ومن ناحية أخرى، نلاحظ في نهاية المطاف أن إدراكات وحسابات الساسة الإسبان تجاه العرائش والمعمورة قد اتسمت بالخلل، خصوصا في ما يرجع إلى إمكانات الدولة الإسبانية لتأخذ على عاتقها تدبير القواعد المحتلة

(14539/1)

على الشاطئ الأطلسي المغربي. وسنرى أن تقليل دوق مدينة سيدونيا من أهمية مرسى سلا في البداية راجع كذلك إلى تقويم غير صحيح لمؤهلات هذا المكان. وقد رأينا كيف عبر ملك إسبانيا عن هذا الأمر سنة 1638م.

(14540/1)

من تاريخ البطولة العربية قطري بن الفجاءة... أمير الموت

... ... الدكتور إبراهيم المزدلي

... كلية الآداب ـ الرباط

تمهيد: مفهوم البطولة

... يرتبط تحديد ملامح البطولة وسماتها بتطور الوعي عند الإنسان(1)، الذي يختلف باختلاف المراحل الزمنية، والنقط المكانية، والاستعدادات الفكرية، التي تنشئ كلها لحظة حضارية؛ ولذلك يتغير مفهوم البطولة بتغير هذه المواقع كلها.

... وتتحدد البطولة في المرحلة التي وجد فيها الأزارقة، وهي فرقة الخوارج التي ينتمي إليها قطري، بدلالة

---

(1) أحمد يوسف داود، لغة الشعر، ص. 87.

(14541/1)

اللفظة كما يثبتها المعجم العربي. ففي اللسان نجد أن البطولة هي الشجاعة، والبطل هو الشجاع، في كل قواميس اللغة العربية القديمة والحديثة(1)؛ إلا أن البطولة في هذه الفترة انفصلت عن الأسطورة والخرافة، التي عرفت في حقب قديمة عند اليونان مثلاً، والتي جعلت من الأبطال آلهة، أو أنصاف

---

(1) انظر مثلاً: الجوهري، الصحام، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ج 4، ص. 1635؛ ابن منظور، لسان العرب، مادة «بطل»؛ الشيخ أحمد رضا، معجم متن اللغة، ج 1، ص. 308؛

بطرس البستاني، محيط المحيط، ص. 104؛ القاموس الجديد، 1980، ص. 152.

(14542/1)

آلهة، بحسب قدراتهم في الحروب. وقد عملت الديانات السماوية على جمع شتات القوة الإلهية الموزعة في عناصر كونية وطبيعية وبشرية، عندما حاربت هذا الوهم البشري، وأعادت عناصر القوة في الوجود كله، إلى أصلها الأول والأخير، إلى القوة الأزلية، إلى الله؛ فأزالت بذلك التصورات الخاطئة، والنظرات الباطلة، التي رأت في بعض القوى البشرية جانباً إلهيّاً، ينقل الإنسان من درجة الإنسان العادي، إلى الإنسان الممتاز، الذي يتهيأ لمرتبة الإنسان ـ الإله، ثم الإله.

(14543/1)

... وقد صور الشعر الجاهلي البطل في إطار هذا المفهوم المعجمي الذي رأيناه(1). إلا أن البطل الجاهلي دافع عن تقاليد المجتمع الجاهلي وأعرافه وقوانينه. ولم يتغير المفهوم اللغوي للبطولة في ظل الإسلام. فلقد ظلت

البطولة مرتبطة بالشجاعة؛ ولكن هذه القدرة البشرية أصبحت وسيلة للدفاع عن الأمة الإسلامية بكاملها؛ وتحولت عن العصبية القبلية الإقليمية المحدودة الضيقة، لتشمل الناس كلهم، ممن يدينون بدين الإسلام، على اختلاف

(1) انظر أبياتاً شعرية للسموأل وزهير والأعشى. (علي الجندي، شعر الحرب، ص. 473، 478، 479).

(14544/1)

لغاتهم وأقطارهم وتاريخهم، وهي أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – التي تتكون من المسلمين وحدهم، وتجمعهم صفات خلقية ودينية(1). قال تعالى: {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون}(2)، وقال كذلك مشيراً إلى أمة المسلمين: {كنتم خير أمة أخرجت للناس}(3). وأصبح الجوهر الأساسي الذي يجمع

(1) دائرة المعارف الإسلامية، ج 2، ص. 630؛ وانظر أيضاً: عبد الوهاب الكيالي، »مفهوم الأمة«، الموسوعة السياسية، صص. 75 ـ 76.

(2) ... آل عمران، الآية 104.

(3) آل عمران، الآية 110.

(14545/1)

هذه الجماعات والشعوب التي اختلفت أجناسها وأممها، هو دين الإسلام، ودلت البطولة الإسلامية على هذا المعنى الواسع الشمولي، الذي يعني كل مسلم في أي زمان، وفي أي مكان. ولم يخرج البطل الأزرقي عن هذا النطاق؛ فهو يعتبر جهاده دفاعاً عن الجماعة المسلمة، أينما كانت، وحماية لشريعة الله، ورعاية لحدود الإسلام. ولكن هؤلاء الأبطال ـ الجاهلي والإسلامي والأزرقي ـ التقوا جميعاً في الوصف العام؛ فكلهم شخص له صفات محددة في خلقه وخلقه والذي أعد لوقت الخطر، فهو أهل للاعتماد عليه في القتال، تجعل منه أوصافه الرجل الكامل

(14546/1)

والشخص المثالي، إذ لم يقتصر تصورهم للبطل على الناحية الحربية وقوامها من شجاعة ومهارة في الركوب واستعمال السلاح، وقدرة حربية في مواجهة أعتى

الخصوم، بل أضافوا إلى القوة الجسمية قوة العقل وقوة الخلق وقوة الشرف والكرامة(1)، المعتمدة عند المسلمين على المقاييس الجديدة التي أتى بها الإسلام، ونظر إليها الأزارقة نظرة خاصة، تتميز بالشدة والعنف والصراحة، والالتزام الحرفي، والتطبيق الكامل، دون مراعاة الظرف الخاص، والمرحلة الراهنة، واكتمال الشروط

---

(1) ... علي الجندي، شعر الحرب في العصر الجاهلي، ص. 90.

(14547/1)

العلمية لتطبيق النص الإسلامي، فانفصلوا بذلك عن الجماعة التي حاولت إدانتهم، واتهمتهم في بطولتهم بأشنع الجرائم وهي قتل الأطفال والنساء والعجزة. والبطولة العربية والإسلاميّة لم تنفصل قط عن نبل الفروسية المتسمة بالنجدة والإغاثة وحماية الضعيف العاجز، واعتبار رفع السلاح في وجه المرأة إهانة وجبناً(1)

---

(1) انظر: شوقي ضيف، «المثل العليا في شعر الفروسية الجاهلية»، ضمن دراسات مهداة إلى طه حسين بمناسبة ميلاده السبعين، دار المعارف، مصر، 1962، ص. 181،

190، 192؛ **وانظر: بطرس البستاني، الشعراء الفرسان، صص.** 227 ـ 229؛ **سيد حنفي، الفروسية العربية في العصر الجاهلي، صص.** 50 ـ 51، 59؛ **علي الجندي، شعر الحرب، ص.** 18، 93، 95.

(14548/1)

، فكيف تلتقي البطولة في أجلى صورها وأنصعها، كما عرفت عند العرب والمسلمين، بعمليات تقتيل إجرامية يتعرض لها العاجزون ومن لا سلاح لهم من أطفال وشيوخ ونساء! وهل يعقل أن يقتل قطري أو بطل أزرقي امرأة عاجزة أو شيخاً فانياً أو صبيّاً لا قوة له! لقد ارتبطت البطولة في القرن الأول الهجري بشجاعة الفرد، وقدرته في ميدان الحرب، والدفاع عن المبدإ، والجهاد في سبيل الرأي؛ فبطولة الأزارقة هي الحماس لرأيهم، فهي طاقة نفسية وجسدية تعتمد الفكرة، إنها بطولة الفكرة المغذية للطاقات الروحية في النفس، والطاقات المادية في

(14549/1)

الجسم. وهذا النموذج من البطولة ليس وهمياً من صنع الحالمين الخياليين، بل هو نمط حي، يعطي الأزارقة مئات الأمثلة على وجوده الفعلي، ويعلنون عنه من خلال سلوكهم اليومي، وممارستهم لفعل الحياة عبر الموت.

... إن بطولة الأزرقي تظهر في كونه يصور حروب التحرر والنضالات الاجتماعية المختلفة، ويعتقد أن الموت في سبيل مبادئه ضرورة لا جدال فيها، ولذلك يتقبلها دون إحساس بالعدمية، بل يعتبر أن الموت سبيل الخلود، أي أن ما يهمه هو الحياة الحرة لمجتمعه.

(14550/1)

... إن ازدراء الموت، والاتجاه إليه في حالة تهور وجنون، إذا قيست بمقاييس العقل، هو الذي جعل الأزارقة »أبسل الناس وأشجع العرب، نقرأ في كتب التاريخ فصولاً عن بطولتهم وألواناً من بسالتهم كانوا يوفقون في أكثرها« (1). وهي بطولة ليست من صنع كاذب مزيف لصورة الخبر التاريخي، أو عاجز ضعيف ينتقم من جبنه بصنع الأبطال الوهميين(2)

---

(1) عمر أبو النصر، سيوف أمية، ص. 233.

(2) انظر أوصافاً لبطولة الأزارقة في: المبرد، تحقيق أبي

الفضل إبراهيم، ج 3، ص. 338، 376، 409؛ الطبري، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، ج 5، ص. 614، 618؛ ج 6، ص. 172، 302، 310؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ص. 83؛ الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، ج 1، صص. 119 ـ 120؛ فلهوزن، الخوارج والشيعة، ص. 78، 80، 84؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج 2، صص. 472 ـ 473؛ سهير القلماوي، أدب الخوارج، صص. 36 ـ 37، 56؛ النعمان القاضي، الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، صص. 182 ـ 183.

(14551/1)

.

صورة من بطولات الأزارقة

... ذكر المبرد أن الحجاج وجّه الجرَّاح بن عبد الله(1) إلى المهلب بن أبي صفرة، ليحثه على حرب الأزارقة، الذين كان في مواجهة ضارية لهم،

---

(1) هو الجراح بن عبد الله الحكمي، قائد من قادة جيوش الحجاج، وأحد أبطال القتال. كان عاملاً للحجاج على البصرة من سنة 80 هـ إلى 94 هـ، ولي خراسان لعمر بن عبد العزيز

سنة 100 هـ، كان أميراً على أرمينية وأذربيجان سنة 104 هـ، فتح على يديه قسم من أرض الترك، وقتل وهو يلقاهم سنة 112 هـ (انظر: الطبري، ج 6، ص. 350 وما بعدها؛ ج 7، صص. 14 ـ 114).

(14552/1)

ويدعوه إلى مناجزتهم، والقضاء عليهم، وأرسل مع الجرّاح كتاباً يقول فيه:

... »أما بعد؛ فإنك قد جَبَيْتَ الخراج بالعلل وتحصّنتَ بالخنادق وطاولت القوم وأنت أعز ناصراً وأكثر عدداً. وما أظن بك مع هذا معصية ولا جبناً، ولكنك اتخذتَ أُكلاً وكان بقاؤهم أيسر عليك من قتالهم فناجزهم، وإلاَّ أنكرتني. والسلام«.

... ... فقال المهلب للجرّاح: يا أبا عقبة! والله ما تركت حيلة إلا احتلتها، ولا مكيدة إلا أعملتها، وما العجب من إبطاء النصر، وتراخي الظفر، ولكن العجب أن يكون الرأي لمن يملكه، دون من يُبصره. ثم ناهضهم

(14553/1)

ثلاثة أيام يُغاديهم القتال، ولا يزالون كذلك إلى العصر، وينصرف أصحابه وبهم قرح وبالخوارج قرح وقتل، فقال له: »قد أعذرت«. فكتب المهلب إلى الحجاج: »أتاني كتابك تستبطئني في لقاء القوم على أنك لا تظن بي معصية ولا جبناً وقد عاتبتني معاتبة الجبان وأوعدتني وعيد العاصي. فأسأل الجراح. والسلام«.

... ... فقال الحجاج للجرّاح: »كيف رأيت أخاك؟«. قال: »والله ما رأيت مثله أيها الأمير قط، ولا ظننت أن أحداً يبقى على ما هو عليه، ولقد شهدت أصحابه أياماً ثلاثة يغدون إلى الحرب، ثم ينصرفون عنها وهم بها يتطاعنون بالرماح

(14554/1)

ويتجالدون بالسيوف، ويتخابطون بالعَمَد ثم يروحون كأن لم يصنعوا شيئاً رواح قوم تلك عادتهم وتجارتهم«. فقال الحجاج: »لشدَّما مدحته أبا عقبة«. قال: »الحق أولى« (1).

... وفي تشخيص قوة الأزارقة الخارقة، وقتالهم العنيف، يستوي في ذلك أبطالهم وبطلاتهم. يقول المبرد:

... وقال ليزيد(2): حركهم. فحركهم، فتهايجوا وذلك

في قرية من قرى إصطخر(3)

---

(1) ... المبرد، الكامل، طبعة رايت، صص. 674 ـ 675؛ وتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ج 3، ص. 378.

(2) يقصد المهلب وهو يخاطب ابنه.

(3) كانت من أعيان حصون فارس ومدنها وكورها. (ياقوت، ج 1، ص. 211).

(14555/1)

. فحمل رجل من الخوارج على رجل من أصحاب المهلب، فطعنه فشكَّ فخذه بالسرج. فقال المهلب للسُّلَمي والكَلْبي(1): كيف نقاتل قوماً هذا طعنهم، وحمل يزيد عليهم وقد جاء الرقاد وهو من فرسان المهلب، وهو أحد بني مالك بن ربيعة على فرس له أدهم، وبه نيف وعشرون جراحة، وقد وضع عليها القطن. فلما حمل يزيد، ولى القوم، وحماهم فارسان، فقال يزيد لقيس الخَشَني مولى العتيك: من لهذين؟ قال: أنا، فحمل عليهما فعطف عليه أحدهما فطعنه قيس

---

(1) كان الحجاج قد وجه إلى المهلب رجلين أحدهما من كلب والآخر من سليم ليناهض الأزارقة.

الخشني فصرعه، وحمل عليه الآخر فعانقه فسقطا جميعاً إلى الأرض فصاح قيس الخشني: اقتلونا جميعاً، فحملت خيل هؤلاء وخيل هؤلاء فحجزوا بينهما، فإذا معانقه امرأة، فقام قيس مستحيياً. فقال له يزيد: أما أنْتَ، فبارزتها على أنها رجل، فقال: أرأيت لو قتلت، أما كان يقال قتلته امرأة! (1).

... وأورد الطبري صوراً عديدة تبين شجاعة الأزارقة، وبطولاتهم النادرة، وقد ظهروا فيها فرساناً مرموقين، يتجلون في كامل عدتهم الحربية المنتقاة أحسن انتقاء، مما يجعلهم رجال ميدان

---

(1) الكامل، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، ج 3، ص. 386.

من الصنف الممتاز. ويذكر الطبري بأمانة علمية تلفت الانتباه شهادة أعداء الأزارقة فيهم، عندما تصدر من شهود عيان، رأوا فعلهم في ساحات الوَغَى، ولمسوا عن

قرب ماذا يصنع أبطالهم، عندما يلتقي الرجال بأقرانهم، والصناديد بأمثالهم. وهي شهادة صادقة، لأنها مأخوذة من خصوم الأزارقة، وهم يزكون بطولتهم؛ فهي اعتراف منصف بشجاعة من أثبت في الميدان قدرته الحربية الرفيعة، وتجربته الميدانية العالية. يقول الطبري:

... وخرجت الخوارج على ميمنتهم عبيدة بن هلال اليشكري(1)

---

(1) أحد زعماء الأزارقة وعظمائهم وأبطالهم، برز في كثير من المجالات، فكان شاعراً جيِّداً، وخطيباً مرموقاً، وعارفاً بالأخبار، وحافظاً للشعر محكماً فيه، مُتفقهاً في الدين، وقائداً من قادة الحرب، قتل في المعركة الأخيرة التي أنهت وجود الأزارقة سنة 78 أو 79 هـ على اختلاف. قال عنه الجاحظ: »ومن شعرائهم ورؤسائهم وخطبائهم عبيدة بن هلال اليشكري«. (البيان والتبيين، ج 1، ص. 347؛ وانظر المبرد، الكامل، مصدر سابق، ج 3، ص. 347؛ والطبري، مصدر سابق، ج 5، ص. 565؛ والشهرستاني، الملل والنحل، ج 1، صص. 119 ـ 120).

(14558/1)

، وعلى مسيرتهم الزبير بن الماحوز(1)، وجاءوا وهم أحسن عدة، وأكرم خيولاً، وأكثر سلاحاً من أهل البصرة؛ وذلك لأنهم مخروا الأرض وجردوها، وأكلوا ما بين كرمان(2) إلى الأهواز(3)، فجاءوا عليهم مغافر تضرب إلى صدورهم، وعليهم دروع

---

(1) رابع أمير بايعته الأزارقة خليفة لها، وهو الذي خلفه قطري بن الفجاءة عليهم.

(2) ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة بين فارس وسجستان وخراسان. (ياقوت، معجم البلدان، ج 4، ص. 454).

(3) كورة كبيرة تقع بين البصرة وفارس، وكان اسمها أيام الفرس خوزستان. (ياقوت، مصدر سابق، ج 1، ص. 284).

(14559/1)

يسحبونها، وسوق من زرد يشدونها بكلاليب الحديد إلى مناطقهم، فالتقى الناس وانصاعوا منهزمين لا تلوي أم على ولد حتى بلغ البصرة هزيمة الناس، وخافوا السباء، وأسرع المهلب حتى سبقهم إلى مكان يفاع في جانب عن سنن المنهزمين (1).

... وذكر الطبري في مواضع أخرى فروسية الأزارقة وقتالهم المتميز، وأورد ذلك على لسان من حضر مواقعهم، وشهد لهم بالتفوق، ولن يواجه هؤلاء ويصمد لهم إلا من كان نداً لهم، وفي مثل قوتهم. فقد حفلت صفوف الأزارقة، وصفوف خصومهم بنماذج رائعة للبطولة

---

(1) الطبري، مصدر سابق، ج 5، ص. 618).

(14560/1)

العربية، التي صقلت تجربتها القرون الطويلة، وجاء الإسلام فهذب رعونتها الجاهلية، وأضاف إليها من لمسات الدين الجديد، ما جعلها نموذجاً راقياً للفروسية الإنسانية. يقول الطبري:

... فأخرج المهلب بنيه، كل ابن له في كتيبة، وأخرج الناس على راياتهم ومصافهم وأخماسهم. وجاء البراء بن قبيصة(1)

---

(1) البراء بن قبيصة: عامل الحجاج على أصبهان وقائد من قادة جيوشه، بعثه الحجاج إلى المهلب بن أبي صفرة ليرغمه على مناجزة الأزارقة؛ وقد كتب الحجاج إلى المهلب

رسالة في هذا الأمر، يقول فيها: »أما بعد؛ فإنك والله لو شئت فيما أرى، لقد اصطلمت هذه الخارجة المارقة، ولكنك تحب طول بقائهم لتأكل الأرض حولك، وقد بعثت إليك البراء بن قبيصة لينهضك إليهم، فانهض إليهم إذا قدم عليك بجميع المسلمين، ثم جاهدهم أشد الجهاد، وإياك والعلل والأباطيل والأمور التي ليست لك عندي بسائغة ولا جائزة. والسلام«. (الطبري، مصدر سابق، ج 6، ص. 302).

(14561/1)

فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم. فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب، والرجال على الرجال، فيقتتلون أشد قتال رآه الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار، ثم انصرفوا. فجاء البراء بن قبيصة إلى المهلب فقال له: لا والله ما رأيت كبنيك فرساناً قط، ولا كفرسانك من العرب فرساناً قط، ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط أصبر ولا أبأس، وأنت والله المعذور. فرجع بالناس المهلب، حتى إذا كان العصر خرج إليهم بالناس وبنيه في كتائبهم، فقاتلوه كقتالهم في أول مرة (1).

---

(1) المصدر نفسه.

(14562/1)

... وقد لخص عبد القاهر البغدادي قدرة فرقة الأزارقة الضارية الساحقة، في قولة مركزة جامعة: »هؤلاء أتباع نافع بن الأزرق الحنفي المكنى بأبي راشد، ولم تكن للخوارج قط فرقة أكثر عدداً ولا أشد منهم شوكة« (1).

ملامح مشوهة

... بعد هذا، لابد من الإشارة إلى إشكال أساسي، يعترض الباحث في حياة الخوارج بصفة عامة، والأزارقة خاصة؛ ذلك بأننا لا نكاد نعرف عن حياتهم إلا النزر اليسير، مما يحجب في الشخصية جوانب مهمة مكملة لصورتها العامة، التي تلتقي ووظيفتها

(1) الفرق بين الفرق، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، ص. 83.

(14563/1)

الحربية والاجتماعية والدينية. فنحن لا نعرف مثلاً عن أبطال الخوارج، أمرائهم وفرسانهم المشهورين والقادة منهم، إلا نتف أخبار، ملتقطة من هنا وهناك، بل إن بعضهم، على الرغم من مكانته الرفيعة بين أبطال

الأزارقة، لا نعرف عنه شيئاً بالمرة، مثل: سعد الطلائع، وصالح بن مخراق، والمقعطر العبدي؛ ووردت عنهم إشارة عابرة في "كامل" المبرد، أو "تاريخ الطبري"، أو "كامل" ابن الأثير، كقيادة أحدهم لكتيبة من الأزارقة، أو لقاء آخر لفلان من أمراء الحرب الأمويين، كما حدث لسعد الطلائع، أو ابن مخراق؛ أو ورد اسم أحدهم في حدث

(14564/1)

بين الأزارقة، بسبب اقتراح قطري مبايعته، كالمقعطر. ... أما من هؤلاء، وما الملامح الرئيسة لهويتهم، وما انتماؤهم الزماني والمكاني، وما نسبهم، والتأثيرات العامة التي خلقت منهم أنماطاً للبطولة العربية الإسلامية الصميمة، التي تخضع لشروط البطل العربي في المجتمع الجاهلي القديم، في ظل قوانين القبيلة العربية، والبطل الذي رسم ملامحه وحدوده الخارجية والداخلية دين الإسلام، مستفيداً من حسنات المجتمع القديم، مسقطاً لسيئاته، متجاوزاً لها ببدائل إنسانية أخذها من شريعة الدين الجديد، »فلو أراد مصور أن يرسم صورة

(14565/1)

حية للفارس العربي الإسلامي في القرن الأول ما وجد أصدق من صورة قطري ولا أدق منها«(1).

... وقطري بن الفجاءة هو نموذج للفارس والبطل الأزرقي، الذي يندرج تحت نمطه أمراء الأزارقة وأبطالهم جميعاً. فلا يكاد يشذ واحد منهم عن هذا الوصف الذي قدمته الدكتورة القلماوي؛ فعبر هذا البطل الجبار نرى: نافعاً وعبيدة بن هلال، وأبناء الماحوز، والمقعطر العبدي، وسعد الطلائع، وعمرو القنا، وصالح بن مخراق وغيرهم من الأسماء التي لم تظهر في مصنفات المؤرخين، ولكن فعلها كان

(1) سهير القلماوي، أدب الخوارج، مرجع سابق، ص. 56.

(14566/1)

واضحاً بارزاً في ساحات المعارك، لأن الأزارقة لم ينتصروا انتصاراتهم الباهرة، ولم يهزوا أركان الدولة الأموية(1)، ويثيروا خوفها من الجبهة الشرقية، اعتماداً على هؤلاء الأبطال المذكورين فقط، بل بمئات من أمثالهم، يعتبر قطري نموذجاً كاملاً يجسدهم جميعاً؛ »فلم يكن الأزارقة جماعة من الدهماء والرعاع، كما

يدعي خصومهم، بل كانوا أتم سلاحاً وعتاداً من أولئك الخصوم، فقد كانت الغالبية فيهم من الفرسان« (2)

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية، ج 2، ص. 472؛ إحسان صدقي العمد، الحجاج بن يوسف الثقفي، ص. 61.

(2) فلهوزن، الخوارج والشيعة، ص. 78.

(14567/1)

.

... ومن المستغرب ألا يذكر أحد تفاصيل حياة أبطال الأزارقة وفرسانهم وجزئياتها، على الرغم من أنها خالقة الكليات. ولذلك فإنني لا أستطيع أن أفيد كثيراً في رسم دقيق لملامح هذه الشخصيات، ما دامت المصادر لا تفيد كثيراً؛ فلا اعتماد عليها، ولا غناء فيها. بل إن هذه القلة في المعلومات، أو انعدامها، تشمل حتى من كثر ذكرهم في مصادرنا القديمة، من أمراء الأزارقة وأبطالهم، مثل نافع وقطري وعبيدة؛ ذلك بأن متتبع أخبار قطري مثلاً لا يكاد يعلم عن ماضيه شيئاً، قبل أن يبرز قائداً معروفاً من قادة الأزارقة، ثم أميراً

(14568/1)

مبايعاً له بخلافتهم.

... فأين أخبار زعماء الأزارقة المفصلة ولو بعض التفصيل؟ إن مصنفاتنا التي ترصد حركة الفرق الإسلامية، وتتحدث عن ملل الناس ونحلهم، لا تكاد تذكر شيئاً من ذلك، وكيف تتولى هذا الأمر، وكتب التاريخ الإسلاميّ العام تسكت عنه سكوتاً غريباً؟ وقد ترصد حركات لا قيمة لها في التاريخ الإسلامي، فتتحدث عنها وعن زعمائها، بتفصيل وتطويل. ولعل الاستغراب يزول إذا علمنا أن نسبة مهمة من هذه المصادر كتبت في ظل الدولة العباسية، الكارهة للخوارج، والتي شنت عليهم حرباً ضروساً، وتابعتهم تروم تصفيتهم

(14569/1)

الفكرية والجسدية، أينما ظهروا، وحيثما وجدوا. ولعل العصر العباسيّ لم يصله من تركة العصر الأموي التاريخية والأدبية شيء يذكر من أخبار الخوارج وأدبهم، لأن الملتزمين بهذه المسؤولية فرطوا في التزامهم أمام التاريخ. ذلك بأن الأخباريين الذين ينقلون الأخبار مشافهة، والكتبة الذين يرسمون هذه

الأخبار كلمات، ورواة الشعر الذين يحفظونه ويحفظونه للناس بعدهم، ليبقى خالداً في ذاكرة الشعب، متواتراً جيلاً بعد جيل، لم يستطع كل هؤلاء خوفاً ورهبة، أو جبناً وطمعاً، في رضى حكام بني أمية أن يعرفوا معنى تقديس الحقيقة

(14570/1)

التاريخية، فصبغوها بأصباغ تعجب ولاة الأمر، وتموه الحق. وهكذا، ليكتب التاريخ لصالح جماعة حاكمة، زيف جزء من تايخ الشعب العربي والإسلامي كله، في فترات طويلة من تاريخ أمة بكاملها، أضيف إلى هذا الخيط السياسي خيوط أخرى، من كراهية دينية، وسخط عرقي، فحبكت المؤامرة وأنجز قسم من تاريخنا مزيفاً في كثير من أحداثه وجزئياته.

... وعلى الرغم من ذلك، فقد نجت بعض الذمم والضمائر، فاحتفظت ببعض أخبار الأزارقة التي تفيد في الكشف عن جوانب من حقيقتهم؛ فلولا هذه العناصر، التي خدمت التاريخ الإسلامي دون وجل أو طمع، لضاع

(14571/1)

تاريخ الخوارج كله؛ لأن الاختيار السياسي العام كان يحتم هذا التضييع ويدفع إليه، وكان يستطيع التحكم في من يتحركون باسم الدين، ويناقشون باسم الفكر، ويكتبون باسم التاريخ.

...

قطري بين الفجاءة

... أبرز أبطال الأزارقة، وأقواهم دون منازع، فيه تظهر مقومات البطولة العربية الكاملة، وتتجمع معاني الفروسية، بمكوناتها الجسديّة، وقيمها الروحية(1). وقطري أصدق صورة للفارس العربي المسلم في القرن الهجري الأول، كما ترى سهير القلماوي(2)،

---

(1) انظر: سهير القلماوي، أدب الخوارج، مرجع سابق، ص. 56.

(2) المرجع نفسه.

(14572/1)

وتابعها في ذلك الدكتور النعمان القاضي(1). وقطري يمثل بشكل مدهش نموذج الخارجيّ المتصلب، وفي الوقت نفسه يقدم طراز السيد العربي المعتز بدمه العربي وبطبعه البدوي(2). يبدو تأثير ابن الفجاءة قوياً في

من حوله، في من يقرؤون أخباره، وتتسرب إلى الأعماق أحاسيس خاصة بالطمأنينة إلى الرجل، تزيل عنه كثيراً من مظاهر العنف والشدة التي تكسوه بها الأخبار.

---

(1) الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، ص. 629.

(2) الموسوعة الإسلامية (بالفرنسية)، ج 2، ص. 867.

(14573/1)

... تفاصيل حياته الأولى تكاد تكون منعدمة، شأن غيره من أبطال الأزارقة، وظروف نشأته، وحدود فكره، وتطلعاته المبكرة لا نعرف منها قليلاً ولا كثيراً. وفي دراسة شخصية لامعة كقطري، لابد من معرفة هذه الجذور، وكيف نمت، ونوع الغذاء والسقيا الذي أصابت، واليد التي تعهدت، لتظل هذه الثمرة الجيدة في النهاية. ولذلك فإن تناولي لقطري لن يستطيع التعمق في الأغوار البعيدة، ليستنتج نتائج سليمة، أستفيد منها محللاً ومستنبطاً. فأمامنا نمط مرموق اكتملت له أسباب النضج والقوة والقدرة، لا نعرف عنه إلا اسمه ونسبه، وإشارات

(14574/1)

عابرة لا تفيد كثيراً في ما يتيح دراسة متقصية للعوامل المؤثرة فيه، واستعداداته الفطرية لتلقي هذا التأثير.

... ولعل أول من يذكر قطري بن الفجاءة من المصنفين، الذين بلغتنا كتاباتهم أو بعضها أحمد بن يحيى البلاذري. ويذكر خبراً عن تولية معاوية بن أبي سفيان لعبد الله بن عامر(1)

---

(1) عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة الأموي: أمير فاتح، ولد بمكة وولي البصرة في أيام عثمان سنة تسع وعشرين للهجرة، وقتل عثمان وهو على البصرة. شهد وقعة الجمل مع عائشة، ولم يحضر وقعة صفين. ولاه معاوية البصرة ثلاث سنين. مات بمكة سنة تسع وخمسين للهجرة. (الطبري، مصدر سابق، ج 4، ص. 224؛ ج 5، ص. 18 وما بعدها؛ العسقلاني، الإصابة، مصدر سابق، ج 3، ص. 60؛ الزركلي، الأعلام، ج 4، ص. 94).

(14575/1)

على البصرة الذي ولى بدوره عبد الرحمن بن سمرة(1) على سجستان(2). وورد اسم قطري، من جملة من كان معه من

أشراف الناس، وعلية القوم، وهم الحاشية المقربة للوالي

---

(1) عبد الرحمن بن سمرة بن جيب القرشي: صحابي من القادة الولاة. افتتح سجستان وكابل وغيرهما، ولي سجستان وغزا خراسان وفتح بها فتوحاً، ثم عاد إلى البصرة وتوفي بها سنة خمسين هجرية. (الطبري، مصدر سابق، ج 4، ص. 226؛ م 5، ص. 159؛ ج 7، ص. 420؛ الزركلي، مصدر سابق، ج 3، ص. 307).

(2) ناحية كبيرة وولاية واسعة من بلاد فارس.(ياقوت، مصدر سابق، ج 3، ص. 190).

(14576/1)

الجديد(1). وذكر الطبري أن معاوية ولى ابن عامر في آخر سنة إحدى وأربعين هجرية(2).

---

(1) قال البلاذري: »لما ولي معاوية بن أبي سفيان، استعمل ابن عامر على البصرة، فولى عبد الرحمن بن سمرة سجستان، فأتاها وعلى شرطته عباد بن الحصين الحبطي ومعه من الأشراف عمر بن عبد الله بن معمر التميمي وعبد الله بن حازم السلمي وقطري بن الفجاءة والمهلب بن أبي صفرة. فكان يغزو البلد قد كفر أهلها، فيفتحه عنوة أو يصالح أهله حتى بلغ كابل«. (البلاذري، فتوح البلدان، مصدر سابق، صص. 387 ـ 388).

(2) الطبري، مصدر سابق، ج 5، ص. 170.

(14577/1)

... فإذا تعرفنا من أقبل برفقة قطري بن الفجاءة إلى سجستان، وجدنا عدو الأزارقة الأول، ومن لقوا في حربه الشدائد، ووجد في حربهم الويل: »المهلب بن أبي

صفرة « (1). والغريب أن المصنفات التي تعرض لحرب الأزارقة مع المهلب وجيوش الأمويين لم تشر إلى أيّ علاقة بين الرجلين، أو معرفة أحدهما للآخر معرفة سطحية أو معمقة، مع أنهما في حاشية والٍ واحد، ومن أخلص خلصائه. والخبر بعد هذا يجمع بين أربعة من فرسان المسلمين المشهورين وهم: عمر بن عبيد الله بن معمر

---

(1) الموسوعة الإسلامية (بالفرنسية)، مرجع سابق، ج 2، ص. 866.

(14578/1)

التميمي، وعبد الله بن خازم السلمي، وقطري بن الفجاءة المازني، والمهلب بن أبي صفرة الأزدي، وقد شارك عبد الله بن خازم مع عبد الله بن عامر في فتح خراسان (1). وانتصر انتصارات عظيمة، فولاه ابن عامر على خراسان، جزاء له(2).

... وحارب عبد الله بن خازم بجنب المهلب بن أبي صفرة، في حروب بخراسان، وكان عليها: سلم بن زياد، من قبل يزيد بن معاوية،

---

(1) خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق وآخر

حدودها مما يلي الهند. (ياقوت، معجم البلدان...، مصدر سابق، ج 2، ص. 350).

(2) الطبري، مصدر سابق، ج 4، ص. 302.

(14579/1)

وذلك سنة إحدى وستين للهجرة(1).

... أما عمر بن عبيد الله بن معمر، ففارس معروف، تولى البصرة لابن الزبير سنة 62 هـ، وتولاها عنه أيضاً سنة أربع وستين للهجرة(2). وكان على ميمنة مصعب بن الزبير في حربه للمختار بن أبي عبيد سنة سبع وستين للهجرة(3). وكان على فارس زمن ولاية «مصعب» العراق، وقاتل الأزارقة قتالاً شديداً(4). فهو قائد معروف مشهور، قد عرفه قطري معرفة جيدة،

---

(1) المصدر نفسه، ج 5، ص. 572.

(2) المصدر نفسه، ص. 527.

(3) المصدر نفسه، ج 6، ص. 95.

(4) البغدادي، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص. 85.

(14580/1)

وكأنه عاشره، وكان قريباً منه؛ فقد قال عنه: »إن جاءكم عمر بن عبيد الله بن معمر، أتاكم شجاع بطل فارس جاد، يقاتل لدينه وملكه، وبطبيعة لم أر مثلها لأحد؛ فقد شهدته في وقائع، فما نودي في القوم لحرب إلا كان أول فارس يطلع حتى يشد على قرنه فيضربه«(1).

... إنه حديث عارف متأكد متيقن، لا يكفي فيه مجرد سماع أخبار وبطولة رجل مغوار، أو ملاقاته في حرب واحدة، إن الرأي الذي عرضه قطري لا يقوم على علم كامل، بشخص عمر بن عبيد الله، في مواقع زمنية مختلفة.

---

(1) المبرد، الكامل، ج 3، ص. 335.

(14581/1)

... واعتماداً على ما سبق، أتساءل لماذا يذكر قطري بن الفجاءة مع الأشراف الذين جاءوا مع ابن سمرة إلى سجستان؟ وكيف يكون معهم ويذكر في واجهة التفضيل، بين أربعة رجال، يختارهم الوالي صحبه المقربين، ولا فضل له في الحاضر، ولا مجد يأتيه من الماضي؟! وإذا كان عمر بن عبيد الله وعبد الله بن خازم وأبو سعيد المهلب بن أبي صفرة تزكيهم أعمالهم ومشاركاتهم في الفتوح والحروب، وتنزلهم مكانة

رفيعة لدى الولاة والخلفاء، فما صنيع قطري؟ وكيف السبيل إلى تحديد وذكر أمجاد شخص لا نعرف هويته الكاملة، وتغيب من بطاقة تعريفه

(14582/1)

التاريخية الرسمية عدة معلومات أساسية، ولكنه واضح معالم الحاضر بصفته شخصية لها مكانتها ووزنها وقيمتها؟!

... لذلك أرجح أن يكون قطري ممن ساهم في حروب الخليج العربي. وقد كانت تميم تسكن شواطئ هذا الخليج من الدولة الإسلامية. وفي هذه الحروب عرف قطري تجاربه الحربية الأولى، وصقل قدرته القتالية، وأدرك فنون النزال وبرع فيها. ولأسباب اختفى اسمه من بين الأبطال الذين شاركوا في هذه الحروب الإسلامية في المرحلة التي أتقن فيها لغة الميدان، وساهم مع من كان لهم فضل فتح بلدان على الخليج، وضم أقاليم إلى الخارطة

(14583/1)

الإسلامية الجغرافية، ومد الرسم الدال على الخارطة البشرية والفكرية التي عرفت الدين الجديد.

... وتختفي كل الأخبار اختفاء غريباً، كأن وراء الفعل تدبيراً مقصوداً وحرصاً على محو وجود بطل واقعيّ من تاريخ البطولة وسيرة الأبطال المثقلة بالبطولة الوهمية. يشير إلى ذلك خبر عابر، يسوقه البلاذري في "فتوحات"ه، لا يريد به إعادة التكريم لرجل أغفله قومه قصداً، وحجبوه لمجرد اختلاف في الرأي، وتباين في فهم الدين، وتباعد في اختيار المواقع الفكرية والاجتماعية والسياسية.

(14584/1)

... ولكن قطري بن الفجاءة يعود مع الأزارقة إلى مكانته الأولى، بل يستمر فيها، لأنه لم ينقطع عنها، ولكن الذين موهوا جوانب من تاريخ الإسلام هم الذين عبثوا بصفحاته، وتركوا صفحة قطري تنزلق عنوة من سجل الأحداث الكبرى في تاريخنا، ولا عذر لهم إلا التعصب، وضيق أفق الفكر، ورفض الفكر الآخر المناقض، أيّاً كان هذا الآخر، وكيفما كانت نوعية خطابه. وهذه العودة القوية مع الأزارقة فرضت اسم قطري الذي أضيع نصفه

الأول، وأثبت أنه ينتمي إلى هذا الجزء الضائع انتماء شرعياً، فلم يكن هذا البطل ضائع الهوية في سنوات من

(14585/1)

عمره؛ فقد أثبت بجانبه الثاني الأصيل أصالة ما ضيع منه. وها هو قطري الحاضر يثبت قطري الغائب، ويدل عليه، ويبرهن على وجوده بالشكل الذي يجعل الشطرين يلتحمان، وتستمر الشخصية بالمميزات نفسها التي طبعتها ودلت عليها منذ البداية؛ فلسنا أبداً أمام رجل منشطر الشخصية.

... أما الإشارات التي خص بها قطري في المصادر، فلم تتجاوز ذكر اسمه الكامل ونسبه وكناه ومكانته الحربية وتوليته إمارة الأزارقة إلى أن قتل. إن الباحث عن أخبار هذا الأمير البطل لا يعرف عنه شيئاً مهماً، إلى أن يبايعه الأزارقة، وتأتي إشارة أو اثنتان

(14586/1)

يظهر فيهما قطري محارباً جيداً، من ذوي الرأي، وذلك حينما يبدي رأيه في بعض رؤساء الجيش الأموي، الذين

قد يُنَازِلُهُم الأزارقة، ويضع تقييماً جيداً لأولئك الأبطال، ومن بينهم المهلب بن أبي صفرة(1).

... أما عن اسم الرجل ونسبه وكناه، فيقول ابن قتيبة: »قطري ابن الفجاءة الخارجي هو من كابية بن حرقوص بن مازن بن مالك ابن عمرو بن تميم، وكان يكنى أبا نعامة« (2). وذكره في أصحاب الكنى فقال: »قطري بن الفجاءة: يكنى: أبا

---

(1) المبرد، الكامل، مصدر سابق، ج 3، ص. 335.

(2) ابن قتيبة، المعارف، مصدر سابق، ص. 411.

(14587/1)

محمد، وأبا نعامة، وأبا حنظلة«(1). والمعروف أن قطرياً كانت له كنية للحرب وهي: أبو نعامة، ونعامة فرسه، وكنية للسلم هي: أبو محمد (2)، ولا أدري متى كان يكنى أبا حنظلة.

... وأضاف ابن حزم شيئاً إلى ما قاله ابن قتيبة حيث قال: »قطري بن الفجاءة؛ والفجاءة لقب لأبيه، لأنه غاب إلى اليمن ثم أتى قومه فجاءة واسمه جعونة بن يزيد بن زياد بن خنثر بن كابية بن حرقوص بن مازن بن مالك«(3)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 600.

(2) الموسوعة الإسلامية (بالفرنسية)، مرجع سابق، ج 2، ص. 866.

(3) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب تحقيق عبد السلام هارون، ص. 212.

(14588/1)

. فاسم أبي بطل الأزارقة: جعونة، فقطري (بفتح القاف والطاء)(1) نسبة إلى مكان قرب البحرين، وهي بلاد قطر(2)، القطر العربي المعروف حالياً(3).

---

(1) الذهبي، المشتبه في أسماء الرجال، ج 2، ص. 531.

(2) قطر: في أعراض البحرين بين عمان؛ والعقير قرية يقال لها قطر، وكان بها سوق من قديم الزمان. (ياقوت، مصدر سابق، ج 3، ص. 37).

(3) الزركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج 6، ص. 46؛ وانظر: إحسان صدقي العمد، الحجاج بن يوسف الثقفي، مرجع سابق، ص. 232.

(14589/1)

... وتتفق بقية المصادر حول الاسم والنسب. فقطري مازني تميمي، وتميم مضرية، كانت لها مكانة ممتازة بين القبائل المضرية قبل الإسلام وبعده، وقد أمدت تميم الخوارج بجماعات كثيرة، وكان منها كتائب كاملة مع الأزارقة(1). ولذلك رأى بعض الباحثين أن تميماً رفضت تفرد قريش بالحكم دون سائر القبائل العربية الأخرى، فانضمت إلى الحركات التمردية التي كان هدفها تحطيم قريش، وتحركها العصبية القبلية. فكانت حركة المعارضة

---

(1) الطبري، مصدر سابق، ج 6، ص. 302؛ انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، ج 4، ص. 93.

(14590/1)

عربية خالصة، تقودها قبائل كان لها شأن كبير بين العرب قبل الإسلام، وعلى رأسها: تميم وحنيفة وربيعة التي اعتنقت الإسلام، إعجاباً بمبادئه الديموقراطية، وأبلت بلاءً عظيماً في الفتوحات الإسلامية(1). وظل لقبيلة قطري هذا المركز المرموق في ظل الإسلام، وعلى عهد الحكم الأموي؛ فقد كانت تتقاسم مع الأزد السيادة في مدينة البصرة.

(1) علي حسني الخربوطلي، تاريخ العراق، ص. 59؛ انظر: كريمر، الحضارة الإسلامية، ص. 34.

(14591/1)

... وقد أضاف قطري إلى هذا الانتماء العربي العريق، قدرة حربية كبيرة، وشجاعة نادرة، من حسن الحظ أنها بقيت محافظة على مقاييسها المعقولة، بمنظور الحقيقة التاريخية، فلم تعدها لتختلط بالأسطورة والوهم، وتضيع بطولة وجدت فعلاً، ومورست صدقاً، كما حدث لأبطال آخرين في تاريخ العرب. لقد قيل عن قطري: «ما استحيا شجاع أن يفر من عبد الله بن خازم وقطري ابن الفجاءة صاحب الأزارقة»(1). واعتبر قطري أحد أشهر فرسان الإسلام

(1) ابن قتيبة، عيون الأخبار، مصدر سابق، ج 1، ص. 175؛ وابن عبد ربه، العقد الفريد، ج 1، ص. 91.

(14592/1)

الستة(1). وعندما بايعته الأزارقة بالإمارة، سمته »أمير الموت« (2).

... وكان لجرأة قطري وقدرته القتالية وإقدامه، وثقته من سطوته في الحرب أثر فاعل في عدوه، تتخطفه الموت الوهم، قبل أن تصله الموت

---

(1) ذكر ابن عبد ربه أعظم فرسان الإسلام، فقال: »وفي الإسلام عبد الله بن خازن السلمي، وعباد بن الحصين، وعمير بن الحباب، وقطري بن الفجاءة، والحريش بن هلال، وشبيب الحروري«. (ابن عبد ربه، العقد الفريد، مصدر سابق، تحقيق محمد سعيد العريان، ج 1، ص. 91).

(2) الاسفرائيني، التبصير، تحقيق محمد زاهر الكوثري، ص. 30.

(14593/1)

الحقيقة فعلاً:

... وحكي عنه أنه خرج في بعض حروبه وهو على فرس أعجف وبيده عمود خشب، فدعا إلى المبارزة، فبرز إليه رجل، فحسر له قطري عن وجهه. فلما رآه الرجل، ولى عنه. فقال له قطري: إلى أين؟ فقال: لا يستحيي الرجل أن يفر منك(1).

وقيل عنه أيضاً: »وقطري هو الذي عناه الحريري في المقامة السادسة بقوله: "فقلدوه في هذا الأمر الزعامة، تقليد الخوارج أبا نعامة"« (2).

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج 4، ص. 93.

(2) المصدر نفسه.

(14594/1)

... وقال الدميري: »ويروى أن شخصاً قال للحجاج: أيها الأمير! فقال الحجاج: إنما الأمير قطري بن الفجاءة الذي إذا ركب ركب لركوبه عشرون ألفاً لا يسألونه أين تريد«(1).

... وأورد الزركلي وصفاً لصاحب "سنا المهتدي" (2)

---

(1) الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ج 2، ص. 503.

(2) أشار الزركلي إلى أنه مخطوط، ولم يذكر صاحبه، ومصنفه هو أبو الحسن علي بن أحمد المعروف بمصباح الزرويلي المتوفى بعد الخمسين ومائة وألف. وعنوان الكتاب: "سنا المهتدي إلى مفاخر الوزير أبي العباس اليحمدي". (انظر: الزركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج 6، ص. 46).

، عرض فيه صورة لشجاعة قطري وبأسه حين قال: »كان طامة كبرى وصاعقة من صواعق الدنيا في الشجاعة والقوة وله مع المهالبة وقائع مدهشة« (1). وامتاز قطري بجانب هذه الشجاعة النادرة، بنبل نفس، وثبات على المبدإ. وقد حاول الحجاج أن يغريه بالمال والجاه والمنصب، بعد أن عجز عن قهره في الحروب، فرفض ذلك واحتقر الحجاج وعَيَّرَه(2)

---

(1) الزركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج 6، ص. 46.

(2) ذكر المبرد: »قال الحجاج يوماً لعمائر العرب وهم في مجلسه: ما أحسب هذا المزوني يناصحنا في حربنا، يعني المهلب، والرأي مشترك فقالوا: الرأي للأمير ـ أصلحه الله ـ أن يكتب إلى ابن الفجاءة بإطعامه بعض الأرضين. فإذا هو نخع بطاعته وأظهر الدعوة له، سهلت الحيلة فيه. فقال: وفقكم الله، وكتب إلى ابن الفجاءة«. (المبرد، الكامل، مصدر سابق، ج 2، ص. 222؛ وانظر: إحسان صدقي العمد، الحجاج ابن يوسف الثقفي، مرجع سابق، ص. 237).

. ولو قبل قطري المساومة في إيمانه بقضيته وتحول عن رأيه، لكان صاحب مقام مادي دنيوي رفيع لدى الأمويين؛ ولكنه النموذج الذي آمن بعقيدته، فتمكنت منه، فعاش لها ومات من أجلها.

... وعرفت لقطري نظرة في الحرب والرجال لا تخيب، وأدرك الجوانب النفسية وأثرها الإيجابي والسلبي في المحارب، مما هيأ له مكانة رفيعة بين الأزارقة. فعندما سار مصعب إلى البصرة، بعد أن قضى على المختار بن أبي عبيد، سأل الناس: من يقوم للخوارج؟ وكان على الأزارقة الزبير بن الماحوز السليطي. فاقترح الناس ثلاثة رجال: عبيد الله بن أبي بكرة(1)

---

(1) أدار الخوارج الأمر بينهم في هذه المشورة، فقال قطري بن الفجاءة: »إن جاءكم عبيد الله بن أبي بكرة، أتاكم سيد سمح جواد كريم مضيع لعسكره، وإن جاءكم عمر بن عبيد الله ابن معمر أتاكم شجاع بطل فارس جاد، يقاتل لدينه وملكه، وبطبيعة لم أر مثلها لأحد فقد شهدته في وقائع فما نودي في القوم لحرب إلا كان أول فارس يطلع حتى يشد على قرنه فيضربه؛ وإن رد المهلب فهو من قد عرفتموه، إن أخذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر، يمده إذا أرسلتموه، ويرسله إذا مددتموه، ولا يبدأكم إلا أن تبدأوه، إلا أن يرى فرصة

فينتهزها، فهو الليث المبر، والثعلب الرواغ، والبلاء المقيم«. (المبرد، الكامل، مصدر سابق، ج 3، ص. 335).

(14597/1)

، وعمر بن عبيد الله بن معمر، والمهلب بن أبي صفرة. وبلغت المشورة الأزارقة بسرعة، فتشاوروا فيما بينهم، فحدد قطري في تعبير مركز بليغ ملامح كل شخصية من هذه الشخصيات، من الناحية الحربية والخلقية والنفسية، وقدرة كل منهم على القتال والصبر للجلاد(1)

---

(1) عبيد الله بن أبي بكرة الثقفي: تابعي ثقة، من أهل البصرة، كان أمير سجستان، وولي قضاء البصرة، وكان أسود اللون، اجتمعت له ثروة واسعة، فاشتهر بأخبار من الكرم والسخاء تشبه الخيال، وهو الذي يقول فيه يزيد بن مفرغ الحميري ـ من شعراء الدولة الأموية المجيدين ـ من أبيات، وقد أمر له، وهو على سجستان، بخمسين ألف درهم:

... يسائلني أهل العراق عن الندى * فقلت: عبيد الله حلف المكارم

... توفي سنة تسع وسبعين للهجرة. (ابن قتيبة،

المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، ص. 232؛ الطبري، مصدر سابق، ج 5، ص. 332؛ ج 6، ص. 153 وما بعدها؛ الأصفهاني، الأغاني، تحقيق عبد الكريم إبراهيم العزباوي، إشراف محمد أبي الفضل إبراهيم، ج 18، ص. 254؛ الزركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج 4، ص. 191).

(14598/1)

.

... وولى مصعب عمر بن عبد الله فقتل الأزارقة ابناً له. فقال قطري: »لا تقاتلوا عمر اليوم، فإنه موتور«. ولكنهم خرجوا إليه، فحمل على الناس حملة شديدة، فانهزمت الخوارج(1). ...

... وقد عرفت المدة التي تولى فيها قطري إمارة الأزارقة بعض الاستقرار، فاتضحت أفكارهم ورسخت، واعترف خصومهم بقدرتهم الحربية، وطبقوا ممارسة فكرهم السياسي، وذلك طيلة عهد قطري الذي فاق المدد التي تولى فيها أمراء الأزارقة

---

(1) ... المبرد، الكامل، مصدر سابق، ج 3، ص. 336؛ ابن الأثير، الكامل، مصدر سابق، دار صادر، 1965، ج 3، ص. 389.

قبله. فقد بويع سنة 68 هـ، كما يذكر الطبري، وكانت وفاته بين سنة 77 هـ و79 هـ(1) كما رأينا. فزمن إمارته قد تعدى عشر سنوات، وظهرت فرقة الأزارقة قبله. بأربع سنوات، تولى خلالها أربعة أمراء. وهذا يخالف ما قيل عن استمرار خلافة قطري عشرين سنة(2)

---

(1) تولى قطري خلافة الأزارقة في نهاية سنة 69 هـ وكانت وفاته سنة 78 أو 79 هـ (الموسوعة الإسلامية (بالفرنسية)، مرجع سابق، ج 2، ص. 867). وجزم النعمان القاضي بأن وفاة قطري كانت سنة 78 هـ، (ص. 633).

(2) ابن قتيبة، المعارف، مصدر سابق، تحقيق ثروت عكاشة، ص. 411؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج 4، ص. 93، وقد شك في ذلك؛ كمال الدين الدميري، حياة الحيوان الكبرى، مصدر سابق، ج 2، ص. 503. وقد تابع القدماء في هذا الوهم عدد من الباحثين المحدثين، منهم: أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي، ص. 178؛ نايف محمود معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص. 261، 249.

أو تسع عشرة سنة(1).

... أما »عبد ربه«، فلم يطل عهده. فقد قتل في السنة التي بويع فيها، وهي التي قتل فيها قطري. وهذا الاستقرار النسبي في بعض أراضي فارس مكن الأزارقة من تنظيم حياتهم الاجتماعية. وبرغم ندرة الأخبار التي يمكن اعتمادها للدلالة على ذلك، فإن بعض الباحثين ذكر أن قطري تمكن من الاستقرار طويلاً في المناطق الشرقية من البلاد الإسلامية، وضرب باسمه بصفته أميراً للمؤمنين عملة خاصة بالأزارقة سنة 75 هـ(2)

---

(1) البغدادي، الفرق بين الفرق، مصدر سابق، ص. 86.

(2) الموسوعة الإسلامية (بالفرنسية)، مرجع سابق، ج 2، ص. 867.

(14601/1)

، وكان في معسكره والمدن التي استوطنها الأزارقة كجيرفت من يتولى القضاء بين الناس(1). ولا يتأتى هذا الاستقرار المالي والمدني إلا باستقرار اجتماعي وهيمنة مكانية وسياسية. وقد تمكن الأزارقة من ذلك، إذ كان لقطري ولاة على المناطق التي تحت حكمهم، مثل

»المقعطر العبدي«، الذي كان والياً على ناحية

»كرمان«(2) التي كانت في قبضتهم منذ زمن طويل(3)

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ج 1، ص. 38، 347؛ المبرد، الكامل، مصدر سابق، ج 3، ص. 412.

(2) الطبري، مصدر سابق، ج 6، ص. 303.

(3) النعمان، مصدر سابق، ص. 188.

(14602/1)

، ولفترات يختلف امتدادها وتقلصها، لظروف الحرب الدائمة التي ميزت حياة الأزارقة. ولقد كانت لهم دائماً نقطة عودة يتركون فيها نساءهم وأطفالهم ومتاعهم، وكانت أحياناً هي كرمان، وأحياناً جيرفت(1) أو الأهواز وغيرها من مناطق فارس.

... أما نهاية قطري، فإنها غامضة كبدايته. ذلك بأن الأخبار تختلف في موته، ونسق الأحداث قد يفرض أن يظل هذا البطل محارباً إلى النهاية، فيقتل في حربه الأخيرة، التي واجه فيها بشجاعة سفيان بن الأبرد (2)

---

(1) جيرفت: مدينة بكرمان. (ياقوت، مصدر سابق، ج 2،

ص. 198).

(2) سفيان بن الأبرد الأصم الكلبي، من القادة الأمويين، تولى حرب الأزارقة في أيامهم الأخيرة بطبرستان، وقتل أميرهم قطري بن الفجاءة سنة 78 أو 79 هـ، ولحق سفيان بعبيدة بن هلال، وقد تحصن بقومس فحاصره أياماً، ثم خرج الأزارقة، فقاتلوا في عدد ضئيل جيشاً ضخماً، إلى أن قُتلوا. (المسعودي، مروج الذهب، ج 3، ص. 147؛ وابن خلكان، وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج 2، ص. 455؛ ج 4، ص. 93).

(14603/1)

بطبرستان، وإن ذكر أنه كان يجالد في حربه الأخيرة بعد أن تفرق عنه أصحابه، فكبا به فرسه، فسقط واندقت فخذه فمات(1)؛ وفي رواية أخرى، أقل من هاتين قيمة، أن قطرياً أصابه عطش شديد، وبعد عنه أصحابه، فطلب من أحد العلوج أن يسقيه، فساومه على شربة بما يلبس؛ وبدل أن يسقيه ماء، دفع بحجر، فانحدر إليه فكانت وفاته(2)

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، المصدر السابق، ج 4، ص. 93؛ انظر: الموسوعة الإسلامية (بالفرنسية)، مرجع

سابق، ج 6، ص. 867.

(2) الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج 4، ص. 358؛ الطبري، مصدر سابق، ج 6، ص. 309؛ ابن الأثير، مصدر سابق، ج 4، ص. 68.

(14604/1)

، أو أحضر له الماء، فلحقه جيش سفيان بن الأبرد، فقتل قبل أن يروي عطشه(1).

... بموت أبطال الأزارقة الكبار، تفرقت الجماعات التي بقيت بعدهم، ولم يسمع بفِرْقتهم بعد ذلك ولا يعني هذا أنهم قتلوا جميعاً في جيرفت وطبرستان(2) وقومس (3)

---

(1) الدينوري، الأخبار الطوال، ص. 280.

(2) طبرستان: وهي بلدان واسعة كبيرة، بين الري وقومس والبحر وبلاد الديلم، كثيرة المياه، كثيرة الفواكه، إلا أنها مخيفة. (ياقوت، مصدر سابق، ج 4، ص. 13).

(3) قومس (بضم ثم سكون وكسر الميم : كورة تشتمل على مدن وقرى ومزارع، بين الري ونيسابور. (ياقوت، مصدر سابق، ج 4، ص. 414).

، ولكن الفئة التي بقيت منهم تفرقت في البلاد، ولعل عدداً منهم انتمى إلى فرق الخوارج الأخرى كالإباضية والصفرية. ويذكر أبو الفرج الأصفهاني في خبر أن السيد الحميري الشاعر العباسي ـ وكان أبواه إباضيين ـ(1) لقي بنت الفجاءة بن عمرو بن قطري بن الفجاءة، وأعجب بها وأنشدها من شعره(2). وقد كان الأصم الضبي الشاعر الأزرقي، في جماعة الأزارقة التي حوصرت بقومس. ولما قتل عبيدة بن هلال، كان في جملة المستأمنة(3)

---

(1) الأصبهاني، الأغاني، دار الكتب المصرية، ج 7، ص. 230.

(2) المصدر نفسه، ج 7، ص. 271.

(3) ابن أعثم، كتاب الفتوح، ج 2، ص. 91؛ إحسان عباس، شعر الخوارج، ص. 125.

.

... إن الأزارقة كان لهم حضور واضح قويٌّ في المرحلة

الزمنية التي تبدأ بسنة أربع وستين هجرية، وتنتهي بمقتل زعمائهم العظام، وذلك سنة تسع وسبعين للهجرة(1)، وهو أقصى حد زمني ذكره المؤرخون.

خاتمة واستنتاج

... وأظن أن عمر الأزارقة كان سيطول أكثر من ذلك، لو أنهم غيروا خطة المواجهة مع الحكم الأموي، وانتقلوا إلى واجهة أخرى بعد أن جربوا المواجهة الحربية العنيفة، ومقاومة الظالمين البغاة إلى النهاية. فلم يتستروا بتقية

---

(1) الذهبي، العبر في خبر من غبر، ج 1، ص. 90؛ أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي، ص. 178.

(14607/1)

كما صنع الشيعة وغيرهم من الخوارج، ولم يرجئوا الأمويين إلى يوم الحساب كما فعل المرجئة. إنهم يمثلون النموذج الفكري الخارجي الذي آمن بلغة السيف وحدها لغة خطاب وحيدة، وقناة للحوار مع الحكام؛ وكان من الحتمي أن يقضى عليهم، لأن جهود الدولة الأموية كلها وجهت إليهم. بل إن الفتوحات الخارجية توقفت،

لانصراف اهتمام الخلفاء الأمويين إلى تهدئة الفتن والثورات المشتعلة بالداخل، ومنها ثورة ابن الزبير والمختار بن أبي عبيد وعبد الله بن الحر، والأزارقة، والصفرية، والشيعة. وهذا الالتفات إلى الداخل، لتهدئة غليانه،

(14608/1)

قلل من الاهتمام بالجبهة الخارجية، وكان على عبد الملك بن مروان في هذه الحقبة أن يهادن مرغماً البيزنطيين، ويتجنب كل لقاء حربي معهم، ولذلك لم يستطع الرد على بعض الإهانات، بنقض المعاهدات، وانتزاع بعض الأراضي التي كانت بيد المسلمين(1).

... ولعل من أسباب هزيمة الأزارقة أيضاً، أن اجتمع عليهم أمران:

... 1 .الأمر الأول، وهو المهم: اهتزازهم الداخلي، وانصرافهم إلى المجادلات السطحية، والاتهامات الباطلة، والمراقبة الصارمة لقادتهم، وتكفيرهم بكل صغيرة(2)

---

(1) صلاح الدين خودا بخش، حضارة الإسلام، ص. 87.

(2) نايف محمود معروف، الخوارج في عصر بني أمية،

مرجع سابق، ص. 226؛ انظر أيضاً: بندلي الجوزي، دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب، ص. 105 وما بعدها.

(14609/1)

. فإذا سئل قطري هل يخرج بهم إلى عدوهم؟ فأجاب: لا، ثم رأى بعد ذلك أن يخرج، لضرورة في التخطيط الحربي، أو لسبب يعلمه القائد العام، فهو بذلك قد كذب وارتد(1). وينادي جماعة منهم قطريّاً: يا دابة، فإذا أنكر قائلاً: رجعتم بعدي كفاراً؟ ذكروا قول الله تعالى: {وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها}(2)، وأكفروه بقوله لهم، وألزموه بالتوبة(3)، وغير هذا من التفاهات التي هزت الأزارقة من الداخل إن كان

---

(1) المبرد، الكامل، مصدر سابق، ج 3، ص. 392.

(2) هود، الآية 6.

(3) المبرد، الكامل، مصدر سابق، ج 3، ص. 392.

(14610/1)

ما يروى في هذا الشأن صحيحاً.

... 2 .الأمر الثاني: أن الأزارقة وقعوا بين رجلين من أشد رجال بني أمية وأقواهم، وهما: الحجاج بن يوسف الثقفي والمهلب بن أبي صفرة. أما الحجاج، فقد كان عنيفاً جباراً قاسياً، ولكنه أقام النظام في المجتمع، وبث الطاعة لأولي الأمر، وساعد بشخصيته العسكرية الحازمة على تقوية الجبهات الحربية الداخلية والجيوش النظامية، مما جعله يحتل منزلة رفيعة في الدولة؛ فكان الرجل الثاني بعد الخليفة، طوال حكم عبد الملك بن مروان وابنه الوليد(1)

---

(1) إحسان صدقي العمد، الحجاج بن يوسف الثقفي، مرجع سابق، ص. 305.

(14611/1)

.

... وقد سخر الحجاج كل طاقات العراق، للقضاء على الأزارقة(1) والصفرية، وطلب من الخليفة عبد الملك جيوشاً من الشام تساعد على محو أثر الخوارج، المصرّين على لغة الميدان، وجند الناس كلهم من أجل هذه الحرب. فلم يبق على أحد، وسلط السيف الباتر على أعناق

العراقيين(2)،

---

(1) المرجع نفسه، ص. 233.

(2) انظر رسالة الحجاج إلى المهلب في هذا الشأن.

(البلاذري، أنساب الأشراف، م 7، ورقة 67، نقلاً عن إحسان صدقي العمد، الحجاج...، مرجع سابق، ص. 223؛ وانظر: نايف محمود معروف، الخوارج في العصر الأموي، مرجع سابق، ص. 156).

(14612/1)

ولم يشفع لأحد في قعوده أوشيخوخته أو مرضه(1)، أو جهله بفنون الحرب(2)، فضرب أعناق المئات من المتخلفين، فتسارع الناس آلافاً إلى ملاقاة الأزارقة، خوفاً من بطش الحجاج(3).

---

(1) الطبري، مصدر سابق، ج 6، ص. 207.

(2) المبرد، الكامل، مصدر سابق، ج 3، ص. 368.

(3) عندما رأى المهلب من يفد عليه في جبهة القتال من المجندين، بعدما ولي الحجاج مباشرة، قال: »لقد قدم العراق أمير ذكر«. (ابن سلام الجمحي، طبقات فحول

الشعراء، ج 1، ص. 176؛ وانظر المبرد، الكامل، مصدر سابق، ج 3، ص. 369؛ الطبري، مصدر سابق، ج 6، ص. 207).

(14613/1)

... أما ثاني الرجلين فهو المهلب الذي اعتمد في القضاء على الأزارقة تجربته الحربية السابقة في جبهات الفتوح، وسياسته الأمور برزانة وهدوء وحلم كبير مع أفراد جيوشه، وترقبه الطويل لأن الحرب لا يدركها إلا المكيث الذي يصمد ويواصل القتال(1). وعرفت للمهلب حيطة كبيرة وتخطيطات محكمة، ونظم معسكراته تنظيماً جيداً يعتمد المعسكرات الواسعة التي يخندق عليها دائماً(2)

---

(1) الدينوري، الأخبار الطوال، مصدر سابق، ص. 278؛ نايف محمود معروف، الخوارج في العصر الأموي، مرجع سابق، ص. 158.

(2) إحسان صدقي العمد، الحجاج...، مرجع سابق، ص. 234.

(14614/1)

، ويبث العيون والحراس ليلاً ونهاراً، ويتولى ذلك بنفسه أو يوليه لولده، أو لمن له الثقة بهم(1)، وكان يضع الأزارقة مواضعهم اللائقة بصفتهم فرساناً شجعاناً وأبطالاً لا يقهرون، فلم يستخف بهم يوماً، وقد خبر قوتهم واستعدادهم، فتجهز لهم دائماً بأقصى ما أمكنه من استعداد(2)، ونازلهم في الوقت المناسب الذي يختاره، فلم يستجب لرغبات الأزارقة في اختيار ساعة اللقاء(3)

---

(1) المبرد، الكامل، مصدر سابق، ج 3، ص 274

(2) إحسان صدقي العمد، الحجاج...، مرجع سابق، ص. 235؛ عمر أبو النصر، سيوف أمية، ص. 243.

(3) الدينوري، الأخبار الطوال، مصدر سابق، ص. 278.

(14615/1)

. وكان يعلم أن المواجهة الميدانية لن تقضي عليهم في أجل قريب؛ ولذلك قال: »إني منتظر في الخوارج إحدى ثلاث: موت ذريع، أو جوع مضر، أو اختلاف بين أهوائهم«(1). وعندما ظهر الخلاف بين الأزارقة، استغله وعمقه بإذاعة الحكايات المكذوبة بينهم(2)، واتهام بعضهم بالتعامل مع العدو، كما وقع لأَبْزَى (3)

(1) المبرد، الكامل، مصدر سابق، ج 3، ص. 374.

(2) عمر أبو النصر، سيوف أمية، مرجع سابق، ص. 256؛ نايف معروف، مرجع سابق، ص. 158.

(3) أَبْزَى: رجل حداد كان في معسكر قطري، يصنع نصالاً مسمومة يُرمى بها أعداء الأزارقة، فاحتال المهلب في أمره، وأوهم قطرياً بأنه يبعث له من هذه النصال مقابل مبالغ مالية؛ فحكم قطري بقتله. (انظر المبرد، مصدر سابق، ص. 382).

(14616/1)

صاحب السهام المسمومة الذي اغتاظ عبد ربه لأجله، وكان قتله من أسباب فراقه لقطري.

... وهكذا »لجأ المهلب إلى أساليب الحرب النفسية لتثبيط عزيمة عدوه وزرع التفرقة في صفوفه، فعمل على بث القالة والإشاعة بينهم وافتعال الوقائع والأحداث ونسبتها إلى العاملين مع الأزارقة، مما أدى في النهاية إلى زيادة أسباب التفرقة والانقسام في صفوفهم«(1).

... وأخيراً، فإن انقسام الأزارقة إلى فئتين: إحداهما مع قطري، والأخرى مع عبد ربه، والقتال العنيف الذي دار

بينهما، ثم

---

(1) إحسان صدقي، الحجاج...، مرجع سابق، ص. 235.

(14617/1)

افتراقهما النهائي، سهل مهمة المهلب والحجاج، فأجهز المهلب على عبد ربه، وكاد يفني من معه، وبعث الحجاج بسفيان بن الأبرد، فأتم عملية التصفية لفكر الأزارقة وتكتلهم البشري في طبرستان وقومس.

( ) إحسان صدقي، الحجاج...، مرجع سابق، ص. 235.

(14618/1)

من قضايا تحقيق التراث

الأستاذ مصطفى اليعقوبي

كلية الآداب – وجدة

... اقترنت بمصطلح التحقيق(1) ومشتقاته في مقدمات محققي التراث المغربي الأندلسي مجموعة من القضايا،

أبرزها: منهج التحقيق(2)، ودوافعه ودوافع إعادته، وأصالة

---

(1) درست هذا المصطلح بتفصيل في مداخلة بعنوان "مصطلح التحقيق في استعمال محققي التراث المغربي الأندلسي"، ضمن أعمال ندوة "تحقيق التراث المغربي الأندلسي: حصيلة وآفاق" التي عقدت بكلية الآداب بوجدة أيام 9 و10 و11 نونبر 1995، تكريما للأستاذ محمد ابن شريفة، ص.65-139.

(2) المرجع نفسه.

(14619/1)

النسخة أو النسخ، وتفرد النسخة وصعوبات التحقيق، وغاياته.

... وتتمثل مادة هذا البحث في أزيد من خمسين ومائة مقدمة تحقيقية. وقد تم الحرص على أن كون لها صبغة تمثيلية كافية، وذلك بتنوع النصوص المحققة حسب العلوم والمعارف التي اشتهرت بها البيئة المغربية الأندلسية وبتنوع مناهج المحققين ومشاربهم وبيئاتهم وأجيالهم.

أولا- دوافع التحقيق وأسباب إعادته:

... إن دوافع التحقيق وإعادة التحقيق كثيرة كثرة المحققين والكتب المحققة والتحقيقات. وإعادة التحقيق إما أن تكون من المحقق نفسه وهو قليل، وإما أن تكون من غيره

(14620/1)

وهو كثير.

... أ- دوافع التحقيق:

... يمكن استخلاص مجموعة من الدوافع اعتمادا على نصوص المتن المدروس. ويلاحظ أن بعضها يرجع إلى التراث، وبعضها يرجع إلى الكتاب المحقق، ومنها ما يتعلق بالمحقق، إلخ. وفيما يلي تفصيل ذلك:

... 1- الدوافع الراجعة إلى التراث:

... وتتجلى في إحيائه، والاعتزاز به، والإسهام في نشر الثقافة التي يجسدها. وقد عدد د.محمد الكتاني مجموعة من العوامل التي دفعته إلى اختيار تحقيق الكتاب "روضة التعريف بالحب الشريف" لابن الخطيب السلماني، وجعل في مقدمتها "إحياء التراث المشرق من أدبنا"(1)

---

(1) روضة التعريف، ص.8، 9؛ وتلخيص منطق أرسطو، ج1، ص.129؛ وجامع العبارات، ص.13، 14، 70.

(14621/1)

. وورد في تصدير د.محمد أبو الفضل إبراهيم لكتاب "المقتبس" لابن حيان الذي حققه د.محمود علي مكي عن صنيع العرب في العصر الحديث بتراث الأندلس: "... كلما عثروا على كتاب، أقبلوا على دراسته أو تنافسوا في نشره وتحقيقه، اعتزازا بذلك التراث المجيد، وإحياء لذكرى هذا الفردوس الإسلامي المفقود..."(1).

... 2- الدوافع الراجعة إلى الكتاب المحقق:

... وتتمثل في الإعجاب بكتاب من الكتب، أو بموضوعه وطريقة تأليفه، وفيما له من قيمة نسبة إلى موضوعه أو الفن الذي ألف فيه. فمن شواهد الإعجاب بالكتاب

---

(1) ابن حيان، المقتبس، ص.3.

(14622/1)

قول الأستاذ مصطفى السقا:

وقد حفزني الإعجاب بـ"معجم" البكري أن أبحث إبان الحرب عما يوجد في مخطوطات بمصر...، فعثرت على ثلاث نسخ منه...، فأقبلت عليها بحثا ودراسة، ومقابلة

وموازنة، إلى أن أوضح لي أنها ... يمكن أن ينتفع بها كلها في تصحيح الكتاب، وإخراج صورة صحيحة منه(1).

... وطرافة موضوع الكتاب دافعة إلى تحقيقه. وقد صرح بذلك د.شوقي ضيف في مقدمة الطبعة الثانية لكتاب "الرد على النحاة" لابن مضاء: "... طلبته للاطلاع عليه، وإذا هو مخطوطة مليئة بالتصحيف والتحريف. غير أن طرافة موضوعها أغرقتني

---

(1) معجم البكري، ط1.

(14623/1)

بتحقيقها ونشرها، إذ رأيت ابن مضاء فيها ثائرا على نظرية العامل في النحو ثورة عنيفة"(1). ويتصل بهذا الدافع أن يضيف الكتاب جديدا إلى موضوعه(2).

... وأما طريقة تأليف الكتاب، فطرافتها من أسباب تحقيقه والإقبال على نشره. يستفاد ذلك من قول د.محمد بن عبد الكريم وهو يذكر الدافع إلى تحقيق كتاب "بدائع السلك في طبائع الملك" لابن

---

(1) الرد على النحاة، ص.3؛ وسيبويه، شرح عيون الكتاب، ص.3؛ ومؤلف مجهول، بلغة الأمنية، ص.18.

(2) ابن الخطيب، مفردات ابن الخطيب، ص.8؛ والبيان والتحصيل، ص.46؛ وجامع العبارات، ص.70.

(14624/1)

الأزرق: "وقد دفع بنا إلى تحقيق هذا الكتاب النفيس ثلاثة دوافع رئيسية ... ثانيها: طرافة طريقة التأليف التي سلكها ابن الأزرق في كتابه، وابتكاره إياها ابتكارا..."(1).

... 3- الدوافع الراجعة إلى المحقق:

... ومنها رغبته في التمرس بالنصوص القديمة، والاستجابة لهاتف وجداني. يقول د.الكتاني في معرض إجمال الدوافع التي جعلته يحقق كتاب "روضة التعريف" : فهذه العوامل كلها، من باعث على إحياء التراث المشرق من أدبنا، ومن استجابة للهاتف الوجداني، ورغبة في التمرس بالنصوص القديمة(2)

---

(1) بدائع السلك، ج1، ص.6.

(2) يقول قبل هذا عن عوامل التحقيق: "... بعضها يتصل باهتمامي الوجداني بمشكلة الحب البشري، ولا سيما الجانب الصوفي منه، وبعضها يرجع إلى الجانب الموضوعي في عملية إحياء التراث القديم نفسه، وما

يكسب المحقق خلاله من مران وخبرة على النظر في تراث القدماء وفهمه وتقويمه ..." (روضة التعريف، ص.8).

(14625/1)

... وهو ما أملى علي النهوض بعبء تحقيق هذه الموسوعة الصوفية الفريدة ..."(1).

... 4- ما يرجع إلى المؤلف: يمكن رصد الدوافع التالية:

... - الرغبة في الكشف عن بعض جوانب الحقيقة في شخصية المؤلف. يقول د.محمد الكتاني عن العامل الرابع: "... وبعضها يرجع إلى محاولة الكشف عن الوجه الجديد الذي يطلع به ابن الخطيب ... على الناس من خلال هذا الكتاب بالنسبة لمن لا يعلم عنه شيئا، ومحاولة الكشف عن مدى صدق أو بطلان التهمة التي أدانه بها خصومه السياسيون، بسبب هذا الكتاب،

---

(1) روضة التعريف، ص.9؛ جامع العبارات، ص.13، 14.

(14626/1)

واتخذوها ذريعة للفتك به"(1).

... - أن يكون المرلف مغمورا، فيسعى المحقق إلى إبرازه

والتعريف به. يقول د.عبد ربه عبد اللطيف في تقديم كتاب "شرح عيون كتاب سيبويه" للمجريطي: "... حين قرأته، وجدت نفسي مدفوعا إلى تحقيقه وإخراجه لأمور:

1... 2...

... 3- أن شخصية صاحب الكتاب لم تأخذ حظها من الشهرة بين علماء العربية..."(2).

... ويقول د.محمد رمضان الجربي عن السبب الرابع من أسباب تحقيق كتاب "جامع العبارات في تحقيق الاستعارات" للطرودي: "رغبتي في إبراز

---

(1) روضة التعريف، ص.8-9.

(2) سيبويه، شرح عيون الكتاب، صص.3-4.

(14627/1)

علم من أعلام الزيتونة، وخطيب من خطباء العاصمة التونسية المفوهين (أحمد مصطفى الطرودي). والجدير بالذكر أن هذا العالم الجليل مغمور الشخصية على الرغم من شهرته آنذاك"(1).

... 5- اقتراح أحد العلماء أو تشجيعه:

... من الدوافع إلى تحقيق كتاب من الكتب اقتراح أحد العلماء. ومن أمثلة ذلك ما نجده في تقديم كتاب "روضة

التعريف" لابن الخطيب. يقول المحقق: "كانت بداية الانطلاق في هذا العمل أن الأستاذ محمد ابراهيم الكتاني مدير قسم المخطوطات والوثائق بالمكتبة العامة بالرباط اقترح علي أثناء

---

(1) جامع العبارات، ص.13.

(14628/1)

بحثي عن موضوع أقدمه رسالة لنيل الدراسات العليا تحقيق هذا الكتاب..."(1).

... وأما تشجيع أحد العلماء، فيتجلى في مثل د.محمد أبو الأجفان في تقديم كتاب "انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك" لمحمد بن محمد الراعي الأندلسي:

... وما أن شرفنا سماحة العلامة الشيخ أحمد عبد العزيز آل مبارك رئيس القضاء الشرعي بدولة الإمارات العربية بحضور ذكرى الزيتونة المنعقد في أواخر محرم وأوائل صفر 1400 حتى قدمت إليه ما عندي من نسخ خطية لهذا الكتاب لآخذ رأيه فيه واستشارته في إعداده للنشر،

---

(1) روضة التعريف، ص.61.

(14629/1)

فإذا هو يشجع على إنجاز العمل، ويعد بالمساعدة على طبعه، فحفزني ذلك إلى المبادرة بتحقيق هذا الكتاب آملا أن أقترب من مستوى حسن الظن الذي بوأني إياه(1).

... ب – دوافع إعادة التحقيق:

... إذا كان للتحقيق دوافع، فلابد من أن تكون لإعادته أسباب مقبولة من الوجهة العلمية؛ إذ لا يعقل أن يعاد نشر كتاب من الكتب سبق نشره محققا مستوفيا لشروط التحقيق.

... وبما أن كثيرا من مصادر المتن المدروس قد أعيد تحقيقه، فقد اهتم المحققون ببيان الأسباب التي دفعتهم إلى القيام بذلك وفي ما يلي

---

(1) انتصار الفقير السالك، ص.10.

(14630/1)

إجمال تلك الأسباب:

... 1– ما في الطبعة أو الطبعات السابقة من عيوب:

... وهذا دافع عام يضبط معظم الدوافع التي ذكرها

المحققون. والعيوب كثيرة فصلوها في نقدهم للطبعات السابقة(1). ومن الشواهد على

---

(1) انظر: ابن زيدون، الديوان، صص.113–114؛ وتاريخ افتتاح الأندلس (الطباع)، ص.25؛ وكتاب الاستبصار، ص.أ، وأحكام القرآن، ج1، ص.3، 8، 9؛ وابن خفاجة، الديوان، ص.12، 16، 21؛ والاكتفاء، ع؛ وتخريج الدلالات السمعية، ص.15؛ والاستيعاب، ج1، ص.أ؛ والإملاء المختصر، ج1، ص.41؛ وابن حمديس، الديوان، ص.25؛ والحلل الموشية، ص.9.

(14631/1)

ذلك قول الأستاذ محمد علي البجاوي في تقديم كتاب "أحكام القرآن" : "وقد رأت دار إحياء الكتب العربية نشر هذا الكتاب في طبعة علمية محققة، حين رأته مطبوعا، لم تضبط آياته ولم تخرج أحاديثه، ولم يحقق على مخطوطة..." (1).

... 2– نفاد الكتاب لكونه طبع منذ زمن بعيد:

منذ سنين عديدة نفدت نسخ الطبعة الثانية من كتاب "الحلل". وكانت نسخ الطبعة الأولى نافدة قبل ذلك بأعوام، وباتت الحاجة ملحة

(1) أحكام القرآن، ج1، ص.3؛ المصدر نفسه، ج1، ص.8؛ وابن خلدون، المقدمة، ج1، ص.11، 18؛ والإحاطة، ج1، ص.9؛ وبقي بن مخلد، ص.8.

(14632/1)

لهذا الكتاب، وكان أشد ما يخشاه الإنسان أن يبادر أحد الوراقين، فيخرج الكتاب مصورا عن إحدى الطبعتين... والباحث يحتاج الآن إلى نسخة من هذا الكتاب محققة بشكل علمي. لهذا بادرنا نحو أداء هذا الواجب(1).

... وهذا السبب إذا لم يعضده آخر، صار الاعتداد به مما لا ينبغي لباحث. فلو فرضنا أن كتابا حقق تحقيقا قد نفدت نسخه من السوق، فهل يجوز، من الناحية العلمية، أن يعاد

(1) الحلل الموشية، صص.9–10؛ ابن حمديس، الديوان، ص.25؛ وتلخيص كتاب أرسطو، ص.47؛ والبيدق، أخبار المهدي، ص.8؛ الغزال، نتيجة الاجتهاد، ص.21.

(14633/1)

تحقيقه لمجرد هذا السبب الذي لا علاقة له بصنعة التحقيق، بل هو بصنعة الطبع والنشر أعلق؟

... 3- العثور على نسخة لم يطلع عليها الناشر السابق:

... يستفاد ذلك من قول الأستاذ عبد الوهاب ابن منصور عن طبعة الجزائر لكتاب "روضة النسرين" لابن الأحمر:

... لكن هذه الطبعة، رغم العناية التي بذلها الأستاذان المذكوران، لا تخلو من تحريف وأحيانا من حذف؛ والنسخة نفسها التي اعتمد عليها مبتورة الأول والآخر... ولذلك كنت أتمنى منذ سنوات سنوح فرصة لطبع الكتاب طبعة كاملة صحيحة. وقد سنحت الآن هذه الفرصة والحمد لله، إذ

(14634/1)

عثرت على نسخة خطية منه بالخزانة السلطانية... (1).

... 4- اعتماد الناشر السابق على مخطوطة مبتورة:

... ومن شواهده زيادة على ما تقدم في (3)، قول د.عبد العلي الودغيري في نقد نشرة سابقة لـ"مفردات" ابن الخطيب أنجزتها المستعربة الإسبانية الأستاذة مريا كنثيبثيون بنيتو:

وقد كنا بدأنا الاشتغال بها وبتحقيقها قبل أن نطلع على هذه النشرة. فحين اطلعنا عليها، أصبح عزمنا على

إتمام ما كنا بدأناه أكثر قوة ومضاء، وأصبحت إعادة

---

(1) روضة النسرين، صص.11-12؛ ابن قنفذ، وسيلة الإسلام، ص.22؛ البيدق، أخبار المهدي، ص.9.

(14635/1)

تحقيق هذه "المفردات" ونشرها على النحو المطلوب علميا أكثر وجوبا وإلحاحا. والسبب في ذلك جملة أمور تضاف إلى ما سبق. أولها أن الباحثة المذكورة اعتمدت في نشرها لكتاب "الوصول"(1) على ثلاث نسخ خطية كلها مبتور وناقص... فالنسخة الأولى(2)... مبتورة الأخير بقدر كبير، بحيث تنقصها ثلاثة أبواب من أبواب "القاموس الصغير" الذي حققناه... (3).

---

(1) أشار المحقق إلى أن المستعربة نشرت "المفردات" مع بقية كتاب "الوصول لحفظ الصحة".

(2) هي نسخة برلين رقم 1195.

(3) المفردات، ص.15؛ روضة النسرين، صص.11-21.

(14636/1)

... 5- اعتماد الطبعة السابقة على مخطوط واحد:

... فمن الأسباب التي دفعت د.محمد سليم سالم إلى إعادة تحقيق كتاب "تلخيص الشعر" لابن رشد الذي سبق أن نشره فاوستو لازينيو سنة 1873 بمدينة بيزا: "... إنها(1) تعتمد على مخطوط واحد... وهو مخطوط ذائع ومعروف...، ولكن الكشف عن مخطوط آخر محفوظ بمكتبة الجامعة بمدينة ليدن... يبرز -في اعتقادي- ظهور تحقيق جديد"(2).

---

(1) الضمير يعود على الطبعة الأولى.

(2) تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر، ص.47؛ نتيجة الاجتهاد، ص.19.

(14637/1)

... 6- أن يزيد الناشر السابق في الكتاب ما ليس منه:

... يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان عن السبب الذي دعاه إلى إعادة نشر كتاب "الإحاطة" :

لابد لنا أن نشير... إلى السبب الذي يدعونا أن نقوم بنشر كتاب "الإحاطة" كله من جديد... والسبب واضح. فإن هذا القسم الذي نشر مليء بالأخطاء والتحريف... هذا، فضلا عما يتخلله... من صنوف الاختراع والمسخ التي هو

براء منها، والزيادات الغريبة المنقولة من كتب أخرى(1).

---

(1) الإحاطة، ج1، ص.9.

(14638/1)

... 7- أن يقتصر الناشر السابق على مجرد نقل المخطوط دون القيام بأي جهد يدل على التحقيق:

... وهذا واضح من السبب الثالث من الأسباب التي دعت الأستاذ محمد عبد الله عنان إلى إعادة نشر كتاب "الإحاطة" :

... إن النص المطبوع نشر على علاته من مخطوط دار الكتب وجزء منقول عن نسخة جامع الزيتونة، مشحون بالأخطاء. ولم يقم الناشر بأية مقارنة أو تحقيق للنصوص، ولم يعن بالأخص بتحقيق الأعلام الأندلسية والإسبانية، ولم يقرن النص بأية هوامش أو تعليقات تفسيرية.

... 8- أن ينشر الكتاب ناقصا:

(14639/1)

... يستفاد ذلك من قول د.عبد العلي الودغيري عن السبب الثاني من أسباب إعادة تحقيق "مفردات" ابن الخطيب: "إن نص "المفردات" المطبوع جاء –نتيجة ما سبق(1)– ناقصا بمقدار سبعين مادة"(2).

... 9– طلب صادر عن دار للنشر أو أحد الناشرين:

... وهذا الطلب يوجه إلى الباحثين المهتمين بالتحقيق. والبواعث المحركة للجهة الطالبة بعضها يرجع إلى ما سبق من الأسباب،

---

(1) أي نتيجة كون المخطوطة مبتورة الآخر (انظر: ص.15).

(2) ابن الخطيب، المفردات، ص.16؛ ابن خلدون، المقدمة، ج1، ص.11، 13، 14. والمقصود بالمادة "المدخل بشرحه".

(14640/1)

وبعضها يرجع إلى أسباب ذاتية كالإعجاب بالكتاب.

... فمن الكتب التي أعيد تحقيقها بناء على طلب من إحدى دور النشر كتاب "أخبار المهدي" للبيدق. يقول محققه الأستاذ عبد الوهاب ابن منصور:

... والآن وقد مر على نشر الكتاب لأول مرة نحو نصف قرن وقل تداوله وأصبح حكمه حكم الكتب الخطية، طلبت

مني دار المنصور للطباعة والوراقة أن أقوم بتحقيقه استعدادا منها لطبعه وجعله قريب التناول من أيدي المثقفين. فلبيت طلبها، علما بقيمة نشر هذا الأثر من آثارنا العلمية(1).

---

(1) أخبار المهدي بن تومرت، ص.8.

(14641/1)

... ومن الكتب التي أعيد تحقيقها بناء على طلب أحد الناشرين وتشجيعه كتاب "تخريج الدلالات السمعية" للخزاعي. يقول د.إحسان عباس عن الطبعة التونسية للكتاب:

... حصلت على تلك الطبعة... بعون من الصديق الأكرم الأستاذ الحاج الحبيب اللمسي، الذي كان يحس أن الكتاب بحاجة إلى تحقيق علمي؛ لأن الطبعة التونسية... لم تكن محققة على نحو يوثق الكتاب ويذيله بالفوائد والتعليقات الموضحة. وقد نقل إلي الحاج الحبيب ما يجول في خاطره من إعجاب بالكتاب وضرورة تحقيقه؛ ولم ألبث بعد قراءة الكتاب من مشاركته في الأمرين(1)

---

(1) تخريج الدلالات السمعية، ص.15، 16.

(14642/1)

.

... والغالب على الكتب التي يعاد تحقيقها أن يجتمع فيها أكثر من سبب من الأسباب المذكورة. وفي ذلك ما يدل على أن حركة تحقيق كتب التراث تخطو بثبات نحو تجاوز سلبيات المراحل الأولى، وتتجه إلى الارتقاء بالتحقيق إلى مستوى أعلى من العملية والمنهجية.

ثانيا – أصالة النسخة وأسبابها:

... لقد اهتم المحققون بأصالة النسخة المعتمدة في التحقيق. ويعد وصفهم للمخطوطات مدرا أساسيا لمادة الأصالة وأسبابها. ويستفاد من ذلك الوصف أن النسخة الأصل أو الأم هي التي توافرت فيها جملة من الأسباب كلا أو بعضا. ويمكن إجمالها فيما

(14643/1)

يلي:

... أ – القدم والعتاقة:

... هاتان الصفتان من أكثر الصفات ورودا في وصف المخطوطات الأصول. ومن النصوص التي نصت على ذلك قول

د.إحسان عباس عن أحد ناشري ديوان ابن حمديس:

"اتخذ نسخة الفاتيكان أصلا لقدمها واستيفائها أكثر القصائد"(1)

---

(1) ابن حمديس، الديوان، ص.24؛ الكلاعي، الاكتفاء، ج1، ع؛ ونتيجة الاجتهاد، ص.22؛ وريحانة الكتاب، ج1، ص.3؛ ابن خفاجة، الديوان، ص.22؛ وابن الزقاق، الديوان، ص.59؛ وبهجة المجالس، ج1، ص.33؛ وروضة التعريف، ص.62–64؛ ومعيار اختيار، ص.7، 57؛ واليوسي، الرسائل، ج1، ص.17؛ والمثلث، ج1، ص.278؛ وتحفة الألباب، ص.22؛ وكتاب الجامع، ص.94؛ والفلاح، ملك التأويل، ج1، ص.6، 17؛ ومطمح الأنفس، ص.120، 127؛ وملاك التأويل (كامل)، ج1، ص.31؛ وصلة الخلف (العتاقة)، ص.15؛ والاستيعاب، ج1، ب؛ والروض، ص.56؛ وتسهيل الفوائد، ص.69.

(14644/1)

.

... والقدم وحده ليس كافيا إذا كان بالنسخة أخطاء وتحريفات. يقول د.صلاح مهدي الفرطوسي عن نسخة إيران من "المثلث" لابن السيد: "على الرغم من قدم

المخطوط وجودة الخط، لم أعتمد هذه النسخة أصلا لكثرة أخطائها وتحريفاتها"(1).

... ولهذا نجد المحقق المذكور يجمع بين القدم والصحة في الحكم على نسخة القرويين بالأصالة: "إحدى أصلين اعتمدتها في تحقيق الكتاب لقدمها وصحتها وجودة خطها وصحة شكلها"(2).

---

(1) المثلث، ج1، ص.272.

(2) المصدر نفسه، ص.278.

(14645/1)

... ويدخل في باب القدم المعتبر في أصالة نسخة من النسخ الأمور التالية:

... 1- أن تكون النسخة بخط المؤلف:

... ومن النصوص الدالة على ذلك قول د.شوقي ضيف:

"اطلعت على مخطوطة "كتاب المغرب في حلى المغرب" المحفوظة في دار الكتب المصرية، فوجدتها نسخة نفيسة، لأنها بخط علي بن موسى بن سعيد، آخر المؤلفين الستة الذين توارثوا الكتاب مدة مائة وخمس عشرة سنة"(1).

---

(1) المغرب، ج1، د.ن؛ ابن خاتمة، الديوان، ص.19؛ والتقاط الدرر، ج1، ص.9، 260، 262، 269؛ والعماري، تاريخ الضعيف، ز.

(14646/1)

... 2- أن تكون منقولة من الأصل الذي بخط المؤلف:

... يقول محققا كتاب "العنوان في القراءات السبع" لأبي طاهر إسماعيل بن خلف المقرئ الأنصاري الأندلسي (ت 455هـ)، تحت عنوان "وصف النسخ : "1- نسخة حديثة جيدة، منقولة من نسخة بخط المؤلف كما يقول الناسخ في آخرها، واتخذناها أصلا"(1).

... 3- أن تكون بهامشها طرر نقلت من خط المؤلف:

... يقول محققا الجزء الرابع من "أزهار الرياض" عن النسخة الأصل: "وهي تامة... وبهامشها طرر نقلت من خط

---

(1) العنوان في القراءات السبع، ص.23؛ محمد عبد الكريم، بدائع السلك، ج1، ص.44.

(14647/1)

المؤلف... وهي نسخة جيدة، قليلة التصحيف والتحريف، ولذا جعلناها الأصل"(1).

... 4- أن تكون قريبة من نسخة المؤلف:

... وهذا أحد أسباب أصالة نسخة الأسكوريال من "بغية الرواد" لأبي زكريا ابن خلدون. يقول المحقق تحت عنوان "اختيار النسخة الأساسية" : "إن نسخة الإسكوريال هي الوحيدة التي ليست مصابة بنقص ملحوظ.. وإنها أكمل النسخ، وأقربها إلى نسخة المؤلف المفقودة"(2).

... 5- أن تكون مقابلة على أصل مقابل على نسخة المؤلف:

---

(1) أزهار الرياض، ج4، ب.

(2) بغية الرواد، ج1، ص68.

(14648/1)

... وهذه صفة نسختي جامعة بيل والقرويين الأصليتين من كتاب "المثلث". يقول د.صلاح مهدي الفرطوسي عن الأولى: "قوبلت على أصل صحيح مقابل على نسخة المؤلف"(1). ويقول عن الثانية: "نسخة موثقة مقابلة على أصل صحيح منقول عن نسخة المؤلف"(2).

... 6- أن تكون مكتوبة في حياة المؤلف:

... يقول الأستاذ مصطفى السقا ود.حامد عبد المجيد محققا كتاب "الاقتضاب" عن نسخة الإسكوريال: "هذه النسخة هي الأصل الأول الذي اعتمدنا عليه في إخراج

---

(1) المثلث، ج1، ص.280.

(2) المصدر نفسه، ص.277؛ انظر ملاك التأويل (كامل)، ج1، ص.31.

(14649/1)

الكتاب، لما تمتاز به من الجودة والصحة والوضوح، لأنها كتبت في حياة المؤلف نفسه"(1).

... 7- أن تكون قريبة من حياة المؤلف:

... وهذا حال نسخة أسعد أفندي بإسطانبول من كتاب "روضة التعريف بالحب الشريف". يقول د.محمد الكتاني عنها: "وقد اعتبرنا هذه النسخة أصلا، لكونها أقل أخطاء بالنسبة لغيرها، ولأنها كتبت في أقرب سنة لحياة المؤلف، وهي سنة 854هـ فبينها وبين موت المؤلف 78 سنة فقط"(2)

---

(1) الاقتضاب، ج1، ص.22؛ النكت الحسان، ص.11.

(2) روضة التعريف، ص.64؛ الروداني، صلة الخلف بموصول السلف، ص.15؛ والروض المريع، ص.56.

(14650/1)

.

... 8- أن تكون بإملاء المؤلف أو مقروءة عليه:

... يقول الأستاذ إسماعيل العربي عن مخطوطة المتحف البريطاني لكتاب "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" لأبي حامد الأندلسي الغرناطي: "اعتمد كأصل لتحقيق هذا الكتاب، مخطوطة المتحف البريطاني... وهذه أقدم نسخ الكتاب المعروفة لدينا، حيث أنها كتبت بإملاء المؤلف"(1). ويستفاد من قول د.عبد الحسين الفتلي عن نسخة المدرسة القادرية ببغداد

---

(1) تحفة الألباب، ص.22؛ ولكن محقق النكت الحسان لم يتخذ نسخة دار الكتب أصلا، مع أن مؤلف الكتاب أبا حيان قد أملاها بنفسه (انظر ص.12).

(14651/1)

من كتاب "النكت الحسان في شرح غاية الإحسان" لأبي حيان النحوي: "جعلتها الأصل، لأنها كتبت زمن المصنف، وربما كانت مقروءة عليه، فهي مصححة الحواشي، يرجع تاريخ نسخها إلى سنة 722هـ؛ أي قبل وفاة المصنف بثلاثة عشر عاما"(1)، أن من أسباب أصالة النسخة أن تكون مقروءة على المؤلف، وذلك يحلها من منازل الصحة بالدرجة العالية.

... ب – الأتمية والأكملية:

... وذلك أن تكون النسخة أتم النسخ، وأكملها، وأوفاها. ولقد حظيت هذه الصفات بعناية المحققين أثناء وصفهم للنسخ الأصلية. يقول د.محمد كمال شبانة

---

(1) النكت الحسان، ص.11.

(14652/1)

عن نسخة الأسكوريال التي يعتبرها "أوفى وأحق بالاعتماد في التحقيق"(1): "لما كنت قد قارنت... بين نسخ مخطوطة هذا الكتاب...، فقد بان لي أن أكملها وأوفاها... مخطوطة الأسكوريال بإسبانيا"(2). ويقول د.عبد الحميد حاجيات عن نسخة الأسكوريال من "بغية الرواد" التي اعتبرها أصلا: "إنها أكمل النسخ"(3).

---

(1) معيار الاختيار، ص.7.

(2) المصدر نفسه، ص.57.

(3) بغية الرواد، ج1، ص.68؛ بسط الأرض، ص.7؛ وترتيب المدارك (أحمد محمود)، ج1، ص.34؛ والأمير أبو الربيع، الديوان، ص.14.

(14653/1)

... والأكملية تطلق ويراد بها أحد المعنيين الآتيين:

... 1- استيعاب مادة الكتاب بحيث لا ينقص منها شيء:

... ومن شواهد هذا المعنى قول د.إحسان عباس عن نسخة (د) التي اتخذها أساسا لتحقيق ديوان الأعمى التطيلي: "وهي أكمل النسختين من حيث عدد القصائد، ولكنها حديثة النسخ"(1)؛ وقوله عن ديوان ابن حمديس: "اتخذ (ميشل أماري) نسخة الفاتيكان أصلا لقدمها واستيفائها أكثر القصائد"(2). وقد لمح محقق كتاب "النكت الحسان"، فقال عن النسخة الأصل: "إنها أضبط في

---

(1) الأعمى التطيلي، الديوان، ظ

(2) ابن حمديس، الديوان، ص.24.

(14654/1)

مادتها، وأكمل في موضوعها"(1).

... 2- صحة متن النص وسلامة سنده:

... ومن شواهد هذا المعنى قول د.سيد غازي عن مخطوط الأسكوريال من "ديوان ابن خفاجة" : "والمخطوط على ما به من نقص أكمل مخطوطات الديوان التي اعتمدنا عليها من حيث صحة الرواية، وسلامة النص، والدقة في ضبط الكلمات. وهذا ما جعلنا نتخذ منه أساسا لتحقيق الديوان" (2)

---

(1) النكت الحسان، ص.12.

(2) ابن خفاجة، الديوان، ص.23؛ انظر عن الصحة مطلقا: الاقتضاب، ج1، ص.22؛ وبغية الرواد، ج1، ص.69؛ والمثلث، ج1، ص.278-280؛ وصلة الخلف، ص.15؛ الأمير أبو الربيع، الديوان، ص.14؛ وإحكام الفصول، ص.151؛ والنكت الحسان، ص.11.

(14655/1)

.

... وقد يعتمد المحقق على نسخة غير كاملة ويتخذها أساسا للتحقيق، إذا كان غيرها من النسخ يسد ما بها من نقص. يقول محققا "التمهيد" عن إحدى النسخ: "وقد اتخذنا من هاته النسخة أساسا لإخراج الكتاب وإعداده للطبع، رغم أنها غير كاملة، اعتمادا على ظن قوي في أن ما بها من نقص يوجد في الأجزاء المتفرقة الموجودة بالمكتبة العامة بالرباط والمكتبة الملكية"(1).

... ج – الشكل والضبط الدقيقان:

... ورد النص على هاتين الصفتين في قول محقق "صلة الخلف" للروداني عن النسخة الأصل: "إن مخطوطة الخزانة

---

(1) التمهيد، ج1، ص.5.

(14656/1)

العامة بالرباط جيدة خطا وضبطا" (1)، وقول د.محمد رضوان الداية في وصف النسخة الأم لديوان ابن خاتمة الأنصاري: "الخط أندلسي جميل مضبوط بالشكل الدقيق"(2). وقد تطلق لفظة "الدقة" إطلاقا عاما، ويراد منها ما سبق. يقول محقق "الاكتفاء" للكلاعي: "وقد جعلت نسخة طلعت النسخة الأم لقدمها ودقتها"(3).

---

(1) صلة الخلف، ص.15.

(2) ابن خاتمة، الديوان، ص.19، 20؛ المثلث، ج1، ص.278؛ وإحكام الفصول، ص.150؛ ابن الزقاق، الديوان، ص.59؛ الأمير أبو الربيع، الديوان، ص.14؛ والنكت الحسان، ص.12.

(3) الاكتفاء، ج1، ع.

(14657/1)

... د- الوضوح:

... والمقصود به وضوح كلمات النسخة وخطها. ويستفاد ذلك من قول محقق "مطمح الأنفس" عن نسخة رئيس الكتاب المحفوظة بالمكتبة السليمانية بإستانبول: 'ونظرا لوضوح الخط ولقدم النسخة، فقد اعتمدتها أصلا في التحقيق"(1)؛ وقوله عنها: "اتخذت نسخة رئيس الكتاب... أصلا، لقدمها... ولوضوحها واكتمالها"(2).

... هـ- أن تكون النسخة موثقة:

... إن توثيق النسخة من أعظم أسباب أصالتها. ولهذا نجد كثيرا من المحققين ينص عليها في وصف النسخ العالية

---

(1) مطمح الأنفس، ص.120.

(2) المصدر نفسه، ص.127؛ الاقتضاب، ج1، ص.22.

(14658/1)

النفيسة. ومن الشواهد على ذلك قول د.عبد الحميد حاجيات: "إن أصح هذه الأمهات وأوثقها هو الأصل الذي تنتمي إليه نسخة الأسكوريال. ولذا اعتبرناها النسخة الأساسية لتحقيقنا"(1).

... وأعلى درجات التوثيق: السماع، والإجازة، والعرض. يستفاد ذلك من قول د.عبد الكريم خليفة عن مخطوطة القرويين لكتاب "الإملاء المختصر" للخشاني: "وقد اعتبرنا مخطوطة المنشإ هذه، هي المخطوطة الأم... ولا سيما أن توثيقها يعود إلى سنة 603هـ، أي قبل

---

(1) بغية الرواد، ج1، ص.69؛ روضة التعريف، ص.62، حيث يتحدث المحقق عما سماه "التوثيق التاريخي".

(14659/1)

وفاة المؤلف –رحمه الله– بسنة، فضلا عما أجرى من سماع وإجازة وعرض، مما يعتبر ذروة في التوثيق ويسمح لنا

باتخاذها النسخة الأم"(1).

... و – جودة الخط ونفاسته:

... لقد نص كثير من المحققين على جودة الخط في وصف النسخ الأصول. ومن النصوص الدالة على ذلك قول د.صلاح مهدي الفرطوسي في وصف نسخة القرويين من كتاب "المثلث" لابن السيد: "إحدى أصلين اعتمدتهما في تحقيق الكتاب لقدمها وصحتها وجودة خطها وصحة شكلها"(2)

---

(1) الإملاء المختصر، ج1، ص.45.

(2) المثلث، ج1، ص.278؛ الأمير أبو الربيع، الديوان، ص.14؛ وصلة الخلف، ص.15.

(14660/1)

، وقول د.محمود كامل أحمد في وصف النسخة الأصل لكتاب "ملاك التأويل" : "مكتوبة بخط نسخ نفيس"(1). ومن مظاهر جودة الخط ونفاسته أن يكون جميلا واضحا(2).

... ز – قلة التصحيف والتحريف:

... من دلائل جودة النسخة وأصالتها أن تكون قليلة الأخطاء والتصحيفات والتحريفات. لذلك قرن محققا الجزء

الرابع من "أزهار الرياض" بين الجودة وقلة التصحيف والتحريف في صف النسخة الأصل. يقولان عن نسخة الخزانة العامة رقم 784: "هي نسخة

---

(1) ملاك التأويل، ج1، ص.31

(2) تحفة الألباب، ص.22؛ ابن خاتمة، الديوان، ص.19؛ والمثلث، ج1، ص.280.

(14661/1)

جيدة، قليلة التصحيف والتحريف. ولذا جعلناها الأصل"(1). ونظرا لخطورة التصحيفات والتحريفات والأخطاء، فقد اعتبر وجودها بكثرة في نسخة من النسخ خارما للأصالة، وإن توافرت لها سائر أسبابها، كالقدم والجودة. ومن شواهد هذا قول د.عبد الحميد حاجيات في معرض نقده لنشرة ألفرد بل من كتاب "بغية الرواد : "وقد اتخذ مخطوط القاضي شعيب ... أساسا لتحقيقه، مع أن هذه النسخة أكثر

---

(1) أزهار الرياض، ج4، ب؛ والروض المريع، ص.56؛ والجامع، ص.94؛ وملاك التأويل (الفلام)، ج1، ص.17؛ وروضة التعريف، ص.62، 64؛ وتلخيص كتاب الشعر، ص.47.

أغلاطا من مخطوط باريس . . ."(1)، وقول د.صلاح مهدي الفرطوسي عن نسخة إيران من "المثلث" : "على الرغم من قدم المخطوط وجودة الخط، لم أعتمد هذه النسخة أصلا لكثرة أخطائها وتحريفاتها"(2).

ثالثا – تفرد النسخة:

... يذهب د.محمد ابن شريفة إلى أن "التحقيق المثالي للنصوص هو الذي يقوم على أكثر من نسخة"، وخاصة إذا كانت النسخ أصلية أو جيدة؛ لأن "المحقق المحظوظ" في نظره هو "الذي يقع على النسخ الأصلية أو الجيدة"(3)

---

(1) بغية الرواد، ج1، ص.68.

(2) المثلث، ج1، ص.272.

(3) حوار أجراه معه عبد العزيز الساوري، نشر بجريدة العلم، الملحق الثقافي، بتاريخ 6 ماي 1995، ص.6.

.

... هذه هي الصورة المثالية. ولكن واقع التراث المخطوط

يشتمل على كثير من الكتب التي لم يصل إلينا منها سوى نسخة فريدة تكون في كثير من الحالات رديئة.

فما العمل إذن؟

... إن الجواب عن هذا السؤال يستفاد من الإشارات والتصريحات الواردة في المتن المدروس؛ وذلك كما يلي:

... أ- عدم ممانعة المحققين في نشر المخطوطة الفريدة النادرة:

... ومن تصريحاتهم بذلك قول سليمان الصيد محقق كتاب "وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام" لابن قنفذ القسنطيني: "وقد جرت عادة المحققين في المخطوطات أنهم لا يمانعون في نشر

(14664/1)

المخطوطة الفريدة النادرة"(1).

... ويشهد بذلك واقع تحقيق التراث المغربي الأندلسي؛ فخمس المتن المدروس، أي تسعة وعشرون (29) مصدرا(2)

---

(1) وسيلة الإسلام، ص.21.

(2) هذه الكتب هي: ابن سعيد، الغصون اليانعة، ص.5؛ والرد على النحاة، ص.3، 21؛ والمعجب في تلخيص أخبار

المغرب، ع-ف؛ والمغرب في حلى المغرب، ج1، د، ص.21، 22؛ وابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، مه-مو؛ وابن دراج القسطلي، الديوان، ص.88، 91، 92، 93؛ وابن الأبار، الحلة السيراء، ج1، صص.54-55؛ والمن والإمامة، صص.27-29؛ والمقتبس (الحجي)، ص.15، 17؛ وكناسة الدكان بعد انتقال السكان، ص.11؛ والمطرب من أشعار أهل المغرب، ن؛ وشرح المختار من شعر بشار، د-هـ، و؛ وإحكام صنعة الكلام، ص.5، 17، 18؛ ونثير فرائد الجمان، ص.9، 104، 207، 209؛ والسراج، أنس الساري، أ، هـ؛ والمقتبس (مكي)، صص.123-126؛ وطوق الحمامة (الطاهر أحمد مكي)، ص.8، القاسمي، ص.37؛ والإلبيري، الديوان، ص.10، 11؛ الباجي، الحدود، ص.17، 18؛ والوادي آشي، البرنامج، ص.25، 26؛ ضرائر الشعر، صص.8-9؛ والقيسي، العمدة في غريب القرآن، صص.58-59؛ والبلوي الوادي آشي، الثبت، ص.7، 69، 94؛ وبقي بن مخلد القرطبي، مقدمة المسند، ص.63؛ ابن الحاج النميري، فيض العباب، صص.88-89؛ وشرح عيون كتاب سيبويه، صص.3-4؛ ووسيلة الإسلام، صص.21-22؛ الزجاجي، البسيط في شرح الجمل، ج1، ص.145؛ وابن القطان المراكشي، نظام الجمان، ص.9، 52، 56.

(14665/1)

حقق اعتمادا على نسخة فريدة. ومن النسخ ما اشتمل على عيوب كثيرة كالبتر مثلا.

... ب – إقرار المحققين بصعوبة التحقيق اعتمادا على نسخة فريدة:

... إن المحققين وإن لم يمانعوا في نشر الكتب اعتمادا على نسخة فريدة، فإنهم أقروا بصعوبة ذلك، وخاصة إذا كانت فيها عيوب خطيرة.

... وقد اختلفت عباراتهم في ذلك فمنهم من استعمل لفظ "الصعوبة" أو مشتقا من مشتقاتها كـ"أصعب" أمثال د.محمود علي مكي في قوله: "ومن المعروف مدى صعوبة نشر أي نص على أساس مخطوط وحيد"(1)

---

(1) ابن دراج، الديوان، ص.92؛ ونثير فرائد الجمان، ص.209؛ وفيض العباب، ص.88؛ طوق الحمامة (القاسمي)، ص.37؛ والمطرب، ن.

(14666/1)

. ود.الطاهر أحمد مكي الذي يقول: "ليس أصعب من تحقيق كتاب مخطوطته وحيدة، ونصه مليء بالأخطاء"(1).

... ومنهم من استعمل لفظ "العسر" كالدكتور إحسان

عباس في قوله عن ديوان الأعمى التطيلي: "وقد بذلت جهدا كثيرا متواصلا لكي أقدم للقارئ... نصا صحيحا، ولكن حين كانت تنفرد النسخة (د)، فقد كان بلوغ الصحة والضبط يبدو أمرا بالغ العسر"(2).

... ومنهم من استعمل صيغة التفضيل من المشقة "أشق" أمثال د.محمود علي مكي في قوله عن مخطوطة "المقتبس" : "إن العمل في نشر

---

(1) طوق الحمامة (مكي)، ص.8.

(2) الأعمى التطيلي، الديوان، غ.

(14667/1)

مثل هذه المخطوطة على أصل وحيد كان من أشق ما يمكن أن يقاسيه محقق. فقد لحق هذا الأصل من التشويه والقطوع ما جعل الإقدام على نشره أشبه بمخاطرة غير مأمونة العواقب"(1).

... ومنهم من عبر بـ"المغامرة" و"المخاطرة" كما في النص السابق. وفي قول الأستاذ عبد الله كنون رحمه الله:

إن نشر كتاب ما على أصل واحد مملوء بالأخطاء، مغامرة كبيرة لا يرتضيها العلم ولا قواعد النشر والتحقيق.

ولكن إذا لم يكن هناك أمل في وجود نسخة ثانية للكتاب، وكان الاعتقاد جازما بأن هذا الأصل هو الوحيد الذي أفلت من

---

(1) المقتبس، ص.125.

(14668/1)

عوادي الزمن، فما العمل إذن؟ وقد سبق أن امتحنت بمثل هذه المغامرة مرتين ... فسلم الله ومر الامتحان برفق. فلم ينكر النقد النزيه منهما شيئا(1).

... والسؤال الذي ينبغي طرحه هو: كيف تغلب هؤلاء المحققون على الصعوبة الناشئة عن وجود مخطوطة فريدة؟

... ج- وسائل التغلب على هذه الصعوبة:

... يستفاد من تجارب التحقيق التي قامت على نسخة وحيدة أن التغلب على هذه الصعوبة يتم بإحدى الوسائل الآتية أو بها

---

(1) مناهل الصفا، صص.8-9، ن، 13؛ والضمير في "منهما" يعود على مجموعة "رسائل سعدية" و"ديوان ملك غرناطة يوسف الثالث".

جميعها:

... 1- الاستعانة بالمصادر التي أثرت في الكتاب المحقق أو تأثرت به خاصة، أو بمصادر المادة نفسها عامة: وهذه أقوى الوسائل؛ فقد اعتمد عليها في تحقيق اثني عشر كتابا. ومن الكتب التي استعين في تحقيقها بالمصادر التي أثرت فيه "المعجب" للمراكشي. يقول محققاه: "ليس منه اليوم -فيما نعلم- إلا مخطوطة واحدة غير كاملة في مكتبة ليدن"(1)

---

(1) هي: الرد على النحاة، والمعجب، وطبقات الأطباء والحكماء، وديوان ابن دراج، وكناسة الدكان، والمطرب، وإحكام صنعة الكلام، ونثير فرائد الجمان، والمقتبس، وضرائر الشعر، وثبت البلوي، وفيض العباب.

. "وإذن فقد كان علينا لنستكمل هذا النقص أن نبحث عن المصادر التي اقتبس عنها الماكشي ما رواه من تاريخ تلك الحقبة"(1). ومن الكتب التي عول في

تحقيقها على المصادر التي أثرت فيها الكتاب المحقق ونقلت منه "طبقات الأطباء والحكماء" لابن جلجل. يقول محققه فؤاد سيد:

... اعتمدت في تحقيق هذا الكتاب ونشره على نسخة وحيدة، ولم أعثر على نظير لها في مكتبات العالم –على ما بلغ إليه بحثي– وقد انتفع بهذا الكتاب قديما، ونقل منه كثيرا من النصوص ابن أبي أصيبعة في

---

(1) المعجب، ع –ف؛ المطرب، ن؛ وإحكام صنعة الكلام، ص.18.

"عيون الأنباء"... والقاضي صاعد الأندلسي في "طبقات الأمم"... وابن خلكان في "وفيات الأعيان"... فرأيت أن أعتبر النصوص المنقولة من ابن جلجل في هذه الكتب نسخا غير مباشرة، صححت بها النص، وحققت منها الخلاف الوارد في العبارة أو اللفظ وقد ساعدتني هذه المقابلة على تصحيح كثير من التصحيفات والتحريفات والأخطاء(1).

... وأما الكتب التي رجع فيها المحقق إلى مصادر مادتها المعاصرة وغير المعاصرة، فمنها "الرد على النحاة".

يقول د.شوقي ضيف عن النسخة الوحيدة

---

(1) طبقات الأطباء والحكماء، مه-مو؛ ابن دراج، الديوان، ص.88.

(14672/1)

للكتاب: "عكفت عليها أصلح تحريفاتها وأصحح تصحيفاتها، وأرم أسقاط الكلام بها، مستعينا في ذلك بأصول علم النحو وأمهاته المطبوعة والمخطوطة ... حتى استقامت نصوصها ... وأصبحت ... نقية مصفاة من الشوائب"(1).

... وقد يستعين المحقق بكتاب آخر للمؤلف نفسه، كما فعل محقق "كناسة الدكان" التي لم يجدها لها سوى "مخطوطة يتيمة" بمكتبة الأسكوريال. يقول د.محمد كمال شبانة:

---

(1) الرد على النحاة، ص.3؛ نثير فرائد الجمان، ص.104، 209؛ والمقتبس، صص.125-126؛ والبلوي، الثبت، ص.94؛ وضرائر الشعر، صص.8-9؛ وفيض العباب، ص.88.

(14673/1)

... إن جزءا ليس باليسير من رسائل المخطوطة قد ثبت ذكره في مؤلف ابن الخطيب أيضا "ريحانة الكتاب". وقد أشار الناسخ للكناشة إلى ذلك... وقد دعانا هذا بطبيعة الحال للرجوع إلى "الريحانة" ووقع الاختيار على ثلاث نسخ منها. فقوبل ما جاء بها من تلك الرسائل على ما ورد منها بـ"الكناسة"... وكانت النتيجة في النهاية لهذه المقابلات أن وصلنا إلى صورة متكاملة في الجملة لمخطوطة "الكناسة"، ونبهنا عند كل نقص أو زيادة إلى ذلك(1).

... 2 – التمرس بعادة الناسخ في الكتابة، وبأسلوب المؤلف:

---

(1) كناسة الدكان، ص.11.

(14674/1)

... يقول د.محمد رضوان الداية عن طريقته في التغلب على صعوبة تحقيق كتاب "أحكام صنعة الكلام" اعتمادا على "نسخة فريدة سقيمة"(1) : "وقد قرأت الكتاب ونسخته بعناية ودقة، واستعنت على فك غوامضه، وإيضاح مبهماته بالصبر والتأني، والتمرس بعادة الناسخ وطرائقه في الكتابة، وبأسلوب المؤلف وصيغه

وعباراته"(2).

... 3 – قوة نفس المحقق:

... ومن دلائلها الصبر، والاعتماد على النفس(3). ومما يدخل في

---

(1) إحكام صنعة الكلام، ص.5.

(2) المصدر نفسه، ص.18؛ فيض العباب، ص.89.

(3) أحكام صنعة الكلام، ص.18؛ والبلوي، الثبت، ص.94.

(14675/1)

باب "الوسائل النفسية": الإقناع بأهمية الكتاب وقيمته؛ فهو من أقوى الحوافز على مواجهة الصعوبات الناشئة عن وجود مخطوطة وحيدة. يقول د.محمود علي مكي عن "ديوان ابن دراج": "على أن قيمة الديوان وأهميته كانتا مما شجعنا على المضي في هذا العمل وبذل الجهد في إتمامه"(1). ويقول عن "المقتبس": "غير أن قيمة النص وفائدته الكبيرة كانت تدفع بي إلى المواصلة والمثابرة"(2).

---

(1) ابن دراج، الديوان، ص.92.

(2) المقتبس، ص.126. انظر طرافة موضوع الكتاب في "الردة على النحاة"، ص.3.

(14676/1)

... وربما كانت المشقة التي يعانيها محقق المخطوطة الوحيدة وما يعقبها من اللذة من أنجع الوسائل النفسية. وذلك ما يستفاد من قول د.محمود علي مكي: "إنني أعترف بأن هذه المشتقات نفسها كانت من المغريات بالمضي في العمل حتى أتممته على خير ما استطعت وبقدر ما سمحت معرفتي"(81).

... د – فوائت معجزة لا تدرك:

... من ذلك تجربة د.إحسان عباس في تحقيق "التشبيهات" لابن الكتاني الطبيب. فقد قال في خاتمة مقدمة التحقيق: "إن غبطتي بالكتاب لتفوق شعوري بالعجز عن حل معميات النسخة الوحيدة التي اعتمدتها في تحقيقه. غير أني لم

(14677/1)

أوفر جهدا في سبيل ضبطه وتحريره، وإن كان ذلك جهد المقل العاجز"(1).

... ولعل أشد التجارب وطئا على صاحبها تجربة تحقيق "المقتبس" لابن حيان. وأبلغ عبارة عن عجز المحقق قوله: "بقيت بعد ذلك مواضع أعجزتنا تماما، إذ لم نر في بقايا السطور والكلمات ولا في المراجع الأخرى ما يمكن أن يستدل به على شيء في إيضاح النص، فتركنا تلك المواضع بياضا"(2).

... هـ – الحاجة إلى نسخة جديدة:

---

(1) التشبيهات، ص.16.

(2) المقتبس، ص.126. ومثل هذه التجربة: تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة لكتاب "منهاج البلغاء" لحازم القرطاجني.

(14678/1)

... إن الصعوبات، ووسائل التغلب عليها، وما شاب بعض التجارب من نقص وصل إلى درجة العجز التام، كل ذلك يقف بعض المحققين على باب الرجاء؛ فهم يرجون أن يعثروا على نسخة جديدة تمكنهم من إخراج الكتاب إخراجا كاملا. وممن عبر عن ذلك شوقي ضيف في خاتمة

مقدمة الطبعة الأولى من "المغرب في حلى المغرب"، حيث قال: "وإني لأرجو مخلصا في خاتمة هذا المدخل أن يعثر الباحثون في المستقبل بين خزائن الكتب على نسخة جديدة من "المغرب" أو من هذا النص، حتى يمكن إخراجه إخراجا كاملا"(1). وهذا محقق "نثير فرائد

---

(1) المغرب، ج1، ص.30.

(14679/1)

الجمان" لابن الأحمر يصرح في خاتمة مقدمة التحقيق بقوله: "وقد بقيت مواضع متأبية على الوضوح والاستقامة... ونأمل أن تتاح الفرصة لتقويمها على ضوء مخطوطات جديدة ونقول مبثوثة"(1). وأعاد الكلام نفسه بعد إحدى وعشرين سنة في مقدمة تحقيق الكتاب الذي نشره مرة ثانية بعنوان "مشاهير الشعراء والكتاب في المشرق والأندلس والمغرب"(2). وعمم ذلك د.الطاهر أحمد مكي، ولم يخصص حيث قال

---

(1) نثير فرائد الجمان، ص.212؛ البلوي، الثبت، ص.88.

(2) مشاهير الشعراء والكتاب، ص.23. وقد نشر سنة 1406هـ/1986م، في دار عالم الكتب، بيروت.

في آخر "كلمة المحقق : "ولعل في قادم الأيام ما يعيننا على أن نبلغ به حد الكمال"(1).

ويلاحظ أن التعبير عن الحاجة إلى نسخة أو نسخ جديدة يغيب في المقدمات التي يكتبها المحققون عندما تكون النسخة الفريدة المعتمدة في نشر الكتاب رفيعة القدر. ومن أمثلة ذلك ديوان أبي إسحاق الإلبيري؛ فقد حققه د.محمد رضوان الداية اعتمادا على نسخة "رفيعة جدا، نفيسة القدر"(2)، ولهذا وجدناه ينهي "مقدمة المحقق" بكلام غفل لم يوسم بذكر الحاجة. يقول: "وبعد؛ فأرجو أن يخرج هذا

(1) طوق الحمامة، ص.10.

(2) الألبيري، الديوان، ص.11.

الديوان على المهتمين بالتراث العربي الأندلسي على نحو جيد، وأن يجد وافيه متابعة جادة لنشر الآثار الأندلسية"(1).

رابعا – صعوبة التحقيق:

... يمكن ضبط أربعة محاور أساسية في تناول المحققين لهذه القضية في المتن المدروس، وهي: الإقرار بمبدإ صعوبة التحقيق، ودلائل الصعوبة، وأسبابها، وكيفية التغلب عليها.

... أ – مبدأ صعوبة التحقيق:

... يرى محقق "إيضاح شواهد الإيضاح" أن "تحقيق النصوص ليس بالأمر الهين". وآية ذلك، عنده، أن في الكتاب نصوصا لم تسعفه مصادره في تخريجها(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص.16.

(2) القيسي، إيضاح شواهد الإيضاح، ج 1، ص.8.

(14682/1)

. ويؤكد هذا المعنى محقق "جامع العبارات" بقوله: "تحقيق المخطوطات من الأمور الشاقة التي تحتاج إلى عناء كبير، وعمل دءوب"(1). وتتأكد الصعوبة، ويصرح بلفظها في أقوال محققي المخطوطات الفريدة، على ما مضى في "تفرد النسخة"(2).

... واعتاد بعض المحققين تزيين كلامه بما يرغب في الكتاب، ويفتح أبواب الاعتذار، ويغلق أبواب النقد.

ومن شواهد ذلك ما نجده في المقدمة التي وضعها محقق "معجم" البكري الأستاذ

---

(1) الطرودي، جمع العبارات، ص.13.

(2) ابن دراج، الديوان، ص.92؛ وطوق الحمامة (الطاهر مكي)، ص.8؛ وأنس الساري، هـ

(14683/1)

مصطفى السقا. يقول:

... وها نحن أولاء جميعا نقدم هذا الجزء الأول من "المعجم" إلى رواد البحث عن المصادر العربية العتيقة، يختال في أبراده ووشيه، وحلله ورقمه، من الورق الأبيض الناصع الذي طال عهد الناس بفقده، ومن الحروف العربية الجميلة، فوق الذي بذلناه فيه من تحقيق وتصحيح، لا تراهما إلا العين المجردة من الهوى، مما اقتضى منا كثيرا من الجهد المضني، والعناء الذي لا يقوم به إلا الصبر الجميل(1).

---

(1) معجم ما استعجم، ج1، ط: الإحاطة، ج4، ص.6؛ ابن حمديس، الديوان، ص.25؛ وعمدة الطبيب، ج1، ص.38.

(14684/1)

... ب – دلائل صعوبة التحقيق:

... ويدل على صعوبة التحقيق، زيادة على ما مضى من التصريح بالمبدأ، دلائل تتعلق بمآل عمل التحقيق. ولذلك ثلاث صور: صورة راجعة إلى المحقق، وصورتان راجعتان إلى المحقق:

... 1 – ما يرجع إلى المحقق: وهو اعتراف المحقق بأن الإخراج للكتاب لم يكن كاملا، وأن النص المحقق لم يستقم بشكل كامل. ومن النصوص الدالة على ذلك قول محقق "الاستبصار في عجائب الأمصار" د.سعد زغلول عبد الحميد: "إننا لا ندعي أن النص الذي حققناه قد استقام بشكل كامل لا غبار عليه. فما زالت بعض الكلمات بل وبعض الجمل

(14685/1)

غير دقيقة أو قليلة الوضوح"(1) ويقول الأستاذ محمد الفاسي عن "رحلة العبدري" : "وأنا لا أزعم أن هذه الطبعة بلغت الكمال وأنها لا تخلو من أي مأخذ"(2).

... 2 – ما يرجع إلى المحقق، وله صورتان:

... – صورة الإقرار بأن الصواب لم يحالفه دائما: يقول

د.إحسان عباس محقق "ديوان ابن حمديس" : "ولست أنكر أن التوفيق لم يحالفني دائما في التصويب"(3).

---

(1) كتاب الاستبصار، ز.

(2) العبدري، الرحلة، أر؛ المغرب، ج1، ص.30؛ والتشبيهات، ص.16؛ وألف سنة من الوفيات، ص.8؛ وقصائد ومقطعات، ص.17.

(3) ابن حمديس، الديوان، ص.25.

(14686/1)

... – وصورة الاعتراف بالعجز: ومن النصوص المعبرة عن ذلك قول د.إحسان عباس أيضا في تقديمه لكتاب "الروض المعطار" لمحمد بن عبد المنعم الحميري: "إنني وقفت إزاء بعض الأسماء عاجزا عن استبانة الوجه الصحيح فيها. فإما أشرت إلى ذلك في الحاشية، معلنا أني لم أجد شيئا عنها في المصادر، وإما تركتها عابرا دون إشارة وفي النفس منها شيء"(1).

... ج – أسباب صعوبة التحقيق:

---

(1) الروض المعطار، ر؛ عمدة الطبيب، ج1، ص.37؛ والمقتبس، (مكي)، ص.126؛ والتشبيهات، ص.16.

(14687/1)

... أسباب صعوبة التحقيق كثيرة. ومعظمها يرجع إلى حال النسخ. وإجمالا، يمكن إيراد الأسباب الآتية، ذهابا إلى التمثيل لا إلى الحصر:

... 1 – أن تكون النسخة الفريدة ذات عيوب، وقد تقدم بيان ذلك

... 2 – صعوبة الخط: هذا سبب يكاد يكون عاما. وممن عبر عن ذلك إبراهيم الإبياري في تقديم "الغصون اليانعة" لابن سعيد: "والآن، فهذا نص "الغصون" بين يديك عناني خطه كثيرا في بعض مواطنه"(1). ومنهم د.إحسان عباس في تقديم "ديوان الأعمى التطيلي" : "ولا تقل نسخة "جيش التوشيح" ... عسرا لدقة خطها"(2)

---

(1) الغصون اليانعة، ن.

(2) الأعمى التطيلي، الديوان، غ.

(14688/1)

.

... وصعوبة الخط ناتجة عن دقته وتشابه أشكال بعض

الحروف، وعدم نقط بعض الحروف، أو تلاشي نقطها بمرور الزمن. يستفاد ذلك كله من قول د.عبد الله العمراني في تقديم "ثبت" البلوي:

... أول الصعوبات تتجلى في الخط إن خط المؤلف أبي جعفر البلوري خط أندلسي . . . فقد لا يصعب على مغربي مثلي أن يحل رموزه، ويفك معمياته، ويتغلب على مصاعبه، ولكن الواقع أني عانيت من أجله مشاق ومتاعب ناتجة عن شيئين: (أ) دقة خطوط الكلمات، وتشابه أشكال بعض الحروف؛ (ب) عدم نقط بعض الحروف أصلا، أو تلاشي نقطها بمرور الزمن، فأصبحت الحروف غير

(14689/1)

المنقوطة تثير الشبه والشكوك، وصار في الإمكان أن تقرأ الكلمة بأكثر من وجه(1).

... وتتجلى صعوبة الخط أيضا في اختلافه وقدمه. يقول المحقق السابق الذكر في معرض تعديد الصعوبات المتصلة بالخط:

... إن الكتاب يحتوي على عدة خطوط وهذه الخطوط تختلف فيما بينها وضوحا وخفاء، جودة ورداءة، صوابا وخطأ. فلو كان الخط واحدا من أول الكتاب إلى آخره، لهان الأمر بعض الشيء، لأن الدارس الباحث يستأنس بالخط،

ويتعرف على أسلوب الكاتب في الكتاب من أول وهلة ...
وليس هذا فحسب، بل إن الخطوط كلها قديمة ...

---

(1) البلوي، الثبت، ص.91.

(14690/1)

والخط العربي –كسائر الخطوط– في تطور وتباين(1).
... 3 – اضطراب الأوراق: وهذه مسألة تمس جانب الترتيب.
وممن اعترضتهم هذه الصعوبة د.شوقي ضيف في تحقيق "المغرب". يقول في مقدمة الطبعة الثانية:
استحال نسيج القسم الأندلسي في الكتاب أوراقا مضطربة غير متصلة، مع سقوط كثير من صحفه، حتى غدا كأنه أنقاض مطموسة المعالم، مما جعل الباحثين ... يستيئسون من نشره. وقد مضيت أحاول إحياءه ورده إلى صورته الأصلية بكل ما أملك من جهد، حتى استقامت أوراقه المتناثرة المتبقية على نهجه الذي وضع له ورسمه الذي

---

(1) المصدر نفسه، ص.92.

(14691/1)

صنف عليه، إلا ما كان من ورقتين ... رددتهما في هذه الطبعة إلى موضعهما من اتصال الكلام(1).

... 4 – الرطوبة وما إليها: من شواهدها قول الأب اغناطيوس اليسوعي عن مخطوط "شفاء السائل لتهذيب المسائل" لابن خلدون: "ولم تكن الرطوبة أو غوائل الزمان قد أطاحت إلا ببعض كلماته، فصعبت قراءتها وعسر تبيانها. فالخط مغربي جلي واضح، والمخطوط بكامله"(2).

---

(1) المغرب، ج1، ب؛ ج1، ص.22–23؛ ج2، هـ؛ مطرب، ن.

(2) شفاء السائل، ص.17.

(14692/1)

... 5 – كثرة التصحيف: يقول الأستاذ محمد الفاسي عن المخطوط الفريد لـ"أنس الساري والسارب" : "ولكنه كثير التصحيف مما جعل تحقيقه صعبا"(1).

... 6 – الخروم والأسقاط والبتر: وقد تقدم شاهد الأسقاط في "اضطراب الأوراق". ومن شواهد الخروم قول د.عبد الهادي التازي عن المخطوط "المن بالإمامة" :

... ... المخطوط يتمتع بسلامة جيدة ... باستثناء الخروم المقلقة التي لحقت بعض الورقات، فكانت –في الأشرطة

المصورة بصفة

---

(1) أبو عبيد الله القيسي، أنس الساري والسارب، هـ؛ انظر: "غلبة التصحيف على الأعلام"، في "الروض المعطار"، ر.

(14693/1)

خاصة – تدلس على القارئ: لأخذها بالتصوير ورقة مخرومة على ورقة أخرى –دون حاجز– فتملأ حروف السفلى فراغ التي قبلها ويقع اللبس والالتباس(1).

... ويقول د. عبد الله العمراني في سياق استعراض الصعوبات، ومنها البتر: "وإذا أضفت إلى ما تقدم، ذلك الخلل الناتج عن البتر الذي يباغت القارئ، من حين لآخر... أدركنا مقدار ما يعانيه الباحث من عنت ومشقة عندما يفكر في دراسة مثل هذا المخطوط، وإخراجه إلى عالم النور في ثوب قشيب، وحلة جديدة"(2)

---

(1) المن بالإمامة، صص.28–29.

(2) البلوي، الثبت، ص.91؛ انظر: "النقص" في "المطرب"، ن.

(14694/1)

.

... 9.8.7 – كثرة الخلافات في القراءة، والتفاوت الشديد بين النسخ، وتدخل غير المؤلف في سياق النسخة.

والشاهد الجامع لهذه الصعوبات الثلاث قول د.إحسان عباس بعد أن أشار إلى صعوبة تحقيق "الذخيرة" : ووقفت على مدى ما فيها من صعوبة ناشئة عن حال النسخ نفسها، وعما فيها من كثرة الخلافات في القراءة، ومن التفاوت الشديد بين ما تثبته نسخة وما تثبته أخرى، ومن تعرض بعض تلك النسخ لتدخل أيد وأقلام أخرى في سياقها غير يد المؤلف وقلمه(1).

---

(1) الذخيرة، 1، 1، ص.6.

(14695/1)

... 10 – كثرة أسماء الأعلام، وخاصة إذا كان المؤلف لا يذكرهم بأسمائهم. وممن ذكر هذه الصعوبة محمد محفوظ محقق "برنامج الوادي آشي". يقول: "إن الكتب التي تكثر فيها أسماء الأعلام هي من أكثر الكتب مشقة في التحقيق"(1)؛ ومحقق "المقتطف من أزاهر الطرف" لابن سعيد:

... هذا، وقد وجدت صعوبة شديدة في التعريف بأسماء الأعلام... لأن ابن سعيد لم يكن يذكرهم بأسمائهم، وإنما يذكرهم بكناهم أو بألقابهم فحسب، نظرا لشهرتهم بها في عصره. أما اليوم، فهذه الكنى والألقاب تتشابه عند مجموعات كثيرة

---

(1) الوادي آشي، البرنامج، ص.30.

(14696/1)

من الكتاب والشعراء والمؤرخين والفقهاء والعلماء مما يصعب على المحقق معرفة الاسم الحقيقي إلا من قرينة(1).

... 11 – ألا يرد للألفاظ المراد تحقيقها ذكر في المصادر المعتمدة:

... ومن شواهد هذه الصعوبة ما قاله الأستاذ محمد العربي الخطابي عن "كثير من الأسماء" الواردة عرضا في "عمدة الطبيب" : "جلها مما لم يرد ذكره في المصادر المعتمدة، فلم يبق سبيل إلى تحقيقها"(2).

---

(1) المقتطف، صص.27–28.

(2) عمدة الطبيب، ج1، ص.37؛ ومثل ذلك في تقديم إحسان عباس لكتاب "الروض المعطار"، ر.

(14697/1)

... 12 – الظروف غير الواتية: ويدخل فيها مشاكل الطبع، وضيق الوقت، مما يكون له أثر سيء في عمل التحقيق. ومن أوائل من أشاروا إلى هذا النوع من الصعوبات محققا "درر السمط في خبر السبط" لابن الأبار اللذان يقولان في خاتمة التقديم: "لا نخفي على القارئ الكريم أننا قمنا بهذا العمل في ظروف صعبة، وعانينا من مشاكل الطبع الشيء الكثير ..." (1). ويقول د.محمد حجي في تقديم كتاب "ألف سنة من الوفيات" :

... لم نزعم أننا نقدم للقراء كتبا تامة التحقيق رغم ما بذلناه من جهد. فهناك ثغرات لم نستطع سدها،

---

(1) درر السمط، خ.

(14698/1)

ومراجعات لم نتمكن من القيام بها لضيق الوقت. وكان بودنا أن نضبط الأعلام بالشكل لولا صعوبات مادية

خارجة عن نطاق قدرتنا(1).

... د – كيفية التغلب على الصعوبات:

... من الكيفيات التي يلجأ إليها المحققون للتغلب على بعض ما يعترض سبيلهم من صعوبات: الاستعانة بمحقق خبير(2)

---

(1) ألف سنة من الوفيات، ص.9.

(2) يقول إحسان عباس في تقديم "ديوان الأعمى"، غ: "لا تقل نسخة جيش التوشيح عن ذلك عسرا لدقة خطها، وقد استنعت في فك بعض معمياتها بالأخ الصديق الأستاذ محمد بن شريفة، الأستاذ بجامعة الرباط، فله مني جزيل الشكر على ما تحمله من عناء".

(14699/1)

، أو بمصادر المؤلف، أو بالكتب التي تأثرت به، أو بهذه الكيفيات كلها مقترنة بالصبر والتأني. والكيفيات تختلف باختلاف الصعوبات.

خامسا – الغاية من التحقيق:

... يمكن اعتبار كثير من دوافع التحقيق غايات له. وأما الأهداف المصرح بها، فهي كما يلي:

... أ – ما يتعلق بالكتاب المحقق:

... إن هدف المحقق من عمله هو تقديم نص صحيح يمثل صورة أمنية للأصل الذي كتبه المؤلف. وغالبا ما يقيدون المطابقة بالإمكان والمقاربة. وذلك التقييد مشعر بالفرق بين الأصل والصورة التي يخرجها المحقق بجهده المحكوم بمجموعة من العوامل

(14700/1)

الذاتية والموضوعية. ومن النصوص الدالة على هذا، بعضه أو كله، قول الأب أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي ناشر كتاب "شفاء السائل لتهذيب المسائل" لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: "لم نتوخ في نشر المخطوط سوى إخراج النص بصورة أمينة، قدر المستطاع"(1).

... وممن نص على المقاربة الأستاذ عبد الله كنون في قوله عن عمله في "مناهل الصفا : "وقد كان عملنا في تحقيق هذا الكتاب

---

(1) شفاء السائل، ص.18؛ ابن خفاجة، الديوان، ص.27؛ وفتح الشكور، ص.16؛ وروضة التعريف، ص.74؛ ونثير الفرائد الجمان، ص.211؛ والأعمى، الديوان، غ.

(14701/1)

أننا حرصنا على أن نقدم منه نصا صحيحا أقرب ما يكون إلى الأصل الذي كتبه المؤلف"(1).

... وقد غلا بعض المحققين، فادعوا الكمال والاستيفاء للكتاب الذي حققوه. ومن هؤلاء محققا كتاب "شرح المشكل من شعر المتنبي" لابن سيده. فقد قالا عن منهج التحقيق:

... وهذا المنهج يهدف دائما إلى تحقيق غرضين أساسيين: الأول: تقويم النص وإخراجه صحيحا سليما كما صدر عن مؤلفه؛ الثاني: أن يكون

---

(1) مناهل الصفا، ص.13؛ إحكام صنعة الكلام، ص.18، 20؛ ومطمح الأنفس، ص.9؛ والذخيرة، 1/1/ص.9؛ وملتقط الرحلة، ص.15؛ والشهب اللامعة، ص.40.

(14702/1)

الكتاب في تحقيقه كاملا مستوفى، بحيث يستغني به القارئ عن غيره، فلا يضطر إلى الرجوع إلى مصادر أخرى(1).

... ب – إحياء التراث والتعريف بأصحابه:

... إن هذا الهدف عام يستوي فيه المحقق السائر على نهج التحقيق العلمي وغيره ممن يسعى بكل وسيلة إلى

إخراج كتب التراث. وإحياء التراث من الدوافع إلى التحقيق ومن غاياته أيضا. يقول د.محمد عبد الكريم في تقديم الجزء الأول من كتاب "بدائع السلك" لابن الأزرق: "هدفنا من هذا العمل المتواضع إحياء التراث

---

(1) شرح المشكل من شعر المتنبي، ص.24؛ انظر: "ملحق" شرح المشكل، د.

(14703/1)

والتعريف بأصحابه"(1).

... ج – التعريف بإنتاج مؤلف الكتاب المحقق:

... يقول محققا "زهر الأكم في الأمثال والحكم" لليوسي في خاتمة التقديم: "إننا إذ ننشر اليوم هذا الكتاب، نرمي إلى غايتين اثنتين، تحقق إحداهما رغبة اليوسي الذي كتب "زهر الأكم" : "لينتفع به المتصرف ويتضلع منه الكاتب والشاعر وغيرهما"، وتهدف الثانية إلى التعريف بإنتاج عالم مغربي أسهم بإضافة لبنات في صرح اللغة العربية المشيد"(2).

---

(1) بدائع السلك، ج1، ص.6.

(2) زهر الأكم، ج1، ص.10.

(14704/1)

... هذه بعض غايات التحقيق، سطرها محققو التراث المغربي الأندلسي في تقديمهم لما حققوا من نفائسه. وهي غايات مترابطة؛ إذ بتقدم نص صحيح قدر الإمكان لكتاب من الكتب، يتحقق التعريف الصحيح بإنتاج صاحبه، وتوضع لبنة من لبنات الإحياء "الشامل" للتراث بإذن الله تعالى.

سادسا – خاتمة:

... تناول البحث مجموعة من قضايا تحقيق التراث، وهي: دوافع التحقيق ودوافع إعادته، وأصالة النسخة أو النسخ، وتفرد النسخة، وصعوبات التحقيق، وغاياته. وتبين أن دوافع التحقيق تتمثل في واحد أو أكثر من العناصر الآتية أو فيها جميعها:

(14705/1)

التراث، والكتاب المحقق، والمؤلف، والعلماء المهتمين.

وأما دوافع إعادة التحقيق، فتتمثل فيما يلي:

ما في الطبعة أو الطبعات السابقة من عيوب.

نفاد الكتاب، لكونه طبع منذ زمن بعيد.

العثور على نسخة لم يطلع عليها الناشر السابق.

اعتماد الناشر السابق على مخطوطة مبتورة.

اعتماد الطبعة السابقة على مخطوط واحد.

أن يزيد الناشر السابق في الكتاب ما ليس منه.

أن يقتصر الناشر السابق على مجرد نقل المخطوط دون القيام بأي جهد يدل على التحقيق.

أن ينشر الكتاب ناقصا.

أن تطلب دار للنشر أو يطلب صاحبها إعادة التحقيق.

(14706/1)

وأصالة النسخة ترجع إلى ما يلي:

... 1- الأقدمية والعتاقة وما يعتبر فيهما من كون النسخة بخط المؤلف، أو منقولة من الأصل الذي بخطه، أو مهمشة بطرر منقولة من خطه، أو قريبة من نسخته، أو مقابلة على أصل مقابل على نسخته، أو مكتوبة في حياته، أو قريبة من حياته، أو مملاة منه، أو مقروءة عليه.

... 2- الأتمية والأكملية. وتدلان على استيعاب مادة الكتاب بحيث لا ينقص منها شيء، وعلى صحة متن النص وسلامة سنده.

... 3-6: الوضوح، وكون النسخة موثقة، وجودة الخط ونفاسته، وقلة التصحيف والتحريف.

(14707/1)

... ومن القضايا التي درست قضية تفرد النسخة، حيث لوحظ أن المحققين لا يمانعون في نشر المخطوطة الفريدة، وإن أقر كثير منهم بصعوبة ذلك وقد دفعهم ذلك إلى التماس مجموعة من الوسائل للتغلب على الصعوبات الناشئة عن وجود نسخة فريدو، وهي:

... 1- الاستعانة بالمصادر التي أثرت في الكتاب المحقق أو تأثرت به خاصة، أو بمصادر المادة نفسها عامة.

... 2- التمرس بعادة الناسخ في الكتابة، وبأسلوب الكاتب في التأليف.

... 3- قوة نفس المحقق المتمثلة في الصبر والتأني والاعتماد على النفس.

(14708/1)

... وبالرغم من هذه الوسائل، فقد وقف المحققون عاجزين عن مواجهة بعض الصعوبات. ولهذا وجدنا بعضهم يعبر

عن الحاجة إلى نسخة جديدة تمكنهم من إخراج الكتاب في صورة أفضل.

... وتنضاف إلى الصعوبات الناشئة عن تفرد النسخة صعوبات أخرى تتمثل في صعوبة الخط، واضطراب الأوراق، والرطوبة، وكثرة التصحيف، والخروم والأسقاط والبتر، وكثرة الخلافات في القراءة، والتفاوت الشديد بين النسخ، وتدخل غير المؤلف في سياق النسخة، وكثرة أسماء الأعلام، وعدم ورود ذكر للألفاظ المراد تحقيقها في المصادر المعتمدة، والظروف غير المواتية.

(14709/1)

... وأما الغاية من التحقيق، فتتمثل في تقديم نص صحيح يمثل صورة أمينة للأصل الذي كتبه المؤلف بقدر المستطاع، وهذه غاية خاصة؛ وفي إحياء التراث والتعريف بأصحابه، وهذه غاية عامة؛ وفي التعريف بإنتاج مؤلف الكتاب المحقق.

... وإذا كان من اللازم في كل دراسة من ذكر نتائجها، فلا بأس من الوقوف عند نتيجة واحدة، وهي جمع جهود محققي التراث وتصنيفها وترتيبها على هذا النهج الذي أظهر أبرز قضايا التحقيق عندهم بعد أن كانت مسائلها مبعثرة في كتب كثيرة.

المصادر والمراجع

(14710/1)

أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة، تأليف د.محمد ابن شريفة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.

الإحاطة في اخبار غرناطة (مج 1)، لابن الخطيب، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه محمد بن عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1393هـ-1973م.

الإحاطة في اخبار غرناطة (مج 2،3،4)، لابن الخطيب، تحقق محمد بن عبد الله عنان، ط1، الشركة المصرية للطباعة والنشر، 1394، 1396، 1397هـ/1974، 1975، 1977م.

إحكام صنعة الكلام، لأبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي الأندلسي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار

(14711/1)

الثقافة، بيروت، 1966م.
إحكام الفصول في أحكام الأصول، لأبي الوليد الباجي، حققه وقدم له ووضع فهارسه عبد المجيد تركي، ط1، دار الغرب الإسلامس، بيروت، 1407هـ/1986م.
أحكام القرآن، لأبي بكر ابن العربي، تحقيق علي محمد البجاوي، ط3، دار المعرفة، بيروت، 1392هـ/1972م.
أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، تأليف أبي بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، حققه عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971م.

(14712/1)

اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تأليف محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط2، الرباط، 1403هـ/1983م.
ارتشاف الضرب من لسان العرب، لأبي حيان، تحقيق وتعليق د.مصطفى أحمد النماس، ط1، 1404هـ/1984م.
أزهار الرياض في أخبار عياض، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني حقق الأجزاء الثلاثة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، وحقق الجزء الرابع سعيد أعراب ومحمد بن تاويت، والجزء الخامس

د.اعبد السلام الهراس وسعيد أعراب، مطبعة فضالة، 1399هـ/1978م.

(14713/1)

الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.

الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تأليف العباس ابن إبراهيم السملالي، راجعه عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1413هـ/1993م.

إفادة النصيح بالتعريف بسند الجامع الصحيح، لابن رشد السبتي الفهري الأندلسي، تحقيق د.محمد الحبيب ابن الخوجة، د.ت.

الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ود.حامد عبد

(14714/1)

المجيد، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1981.
الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، لأبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، تحقيق مصطفى عبد الواحد، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، ومكتبة الهلال، بيروت، 1387هـ/1968م.
الإكسير في فكاك الأسير، لمحمد بن عثمان المكناسي، حققه وعلق عليه الأستاذ محمد الفاسي، مطبعة أكدال، الرباط، 1965.
الإلماع إلى معرفة أحوال الرواية وتقييد السماع، للقاضي عياض، تحقيق السيد أحمد صقر، ط2، دار التراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس، د.ت.

(14715/1)

الإملاء المختصر في شرح غريب السير، لأبي ذر مصعب بن أبي بكر محمد بن مسعود الخشني، تحقيق ودراسة د.عبد الكريم خليفة، ط1، دار البشير، عمان، 1412هـ/1991م.
انتصار الفقير السالك لترجيح مذهب الإمام مالك، لشمس الدين محمد بن محمد الراعي الأندلسي، تحقيق محمد أبو الأجفان، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.
أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى

الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، لأبي محمد بن أحمد القيسي السراج، حققه وقدم له وعلق عليه محمد الفاسي، فاس، 1388هـ/1968م.

(14716/1)

أنس الفقير وعز الحقير، لابن قنفذ القسنطيني، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965.

أوصاف الناس في التواريخ والصلات، لابن الخطيب، تحقيق ودراسة د.كمال شبانة، صندوق إحياء التراث الإسلامي، مطبعة فضالة، 1977م.

إيضاح شواهد الإيضاح، لأبي علي الحسن بن عبد الله القيسي، دراسة وتحقيق د.محمد بن محمود الدعجاني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ/1987م.

البحث الأدبي، للدكتور شوقي ضيف، ط4، دار المعارف، 1979م.

(14717/1)

بدائع السلك في طبائع الملك، لأبي عبد الله محمد بن الأزرق الأندلسي:
أ-تحقيق وتعليق د.علي سامي النشار، 1975م-1976م.
ب- دراسة وتحقيق د.محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، 1976م.
برنامج الوادي آشي، محمد بن جابر، تحقيق محمد محفوظ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1400هـ/1980م.
البسيط في شرح جمل الزجاجي، لابن أبي الربيع عبيد الله بن أحمد بن عبيد الله القرشي الإشبيلي السبتي. تحقيق ودراسة د.عياد بن عيد الثبيتي، ط1، دا الغرب الإسلامي، 1407هـ/1986م.

(14718/1)

بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، للقاضي عياض، تحقيق صلاح الدين بن أحمد الإدلبي وصاحبيه، ط2، مطبعة فضالة، المحمدية، 1982م.
بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تأليف أبي زكريا يحيى ابن خلدون، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1400هـ/1980م.
بقي بن مخلد القرطبي ومقدمة مسنده (عدد ما لكل واحد من الصحابة من الحديث)، دراسة وتحقيق د.أكرم ضياء

العمري، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1404هـ/1984م.

بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب، لمؤلف مجهول، تحقيق

(14719/1)

عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1404هـ/1984م.

بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، وتأليف أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي، تحقيق محمد مرسي الخولي، ومراجعة د.عبد القادر القط، الدار المصرية للتأليف والترجمة، دار الجيل للطباعة، القاهرة، 1967م.

البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة، لأبي الوليد ابن رشد القرطبي، تحقيق د.محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، 1404هـ/1984م.

(14720/1)

تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تأليف خالد بن عيسى البلوي الأندلسي، نشر وتحقيق الحسن السائح، 1964م.

تاريخ افتتاح الأندلي، لابن القوطية القرطبي:

أ – حققه وشرحه وعلق عليه وقابله عى مخطوطتي باريس ومدريد وقدم له عبد الله أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين، بيروت، 1958م.

ب – حققه وقدم له ووضع فهارسه إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1400هـ/1980م.

تاريخ الضعيف الرباطي، لمحمد بن عبد السلام بن أحمد بن محمد الرباطي:

(14721/1)

أ – تحقيق وتعليق وتقديم الأستاذ أحمد العماري، ط1، دار المأثورات، 1406هـ/1986م.

ب – دراسة وتحقيق، الأستاذ محمد البوزيدي الشيخي، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1408هـ/1988م.

تحرير الكلام في مسائل الالتزام، للإمام أبي عبد الله محمد بن محمد الحطاب، تحقيق عبد السلام محمد الشريف، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1404هـ/1984م.

تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، لأبي حامد الأندلسي

الغرناطي، تحقيق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.

(14722/1)

تحقيق النصوص ونشرها، تأليف عبد السلام هارون، ط5، مكتبة السنة، 1410هـ

تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والمعاملات الشرعية، لعلي بن محمد ابن مسعود الخزاعي، تحقيق د.إحسان عباس، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1405هـ/1985م.

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض:

أ – عارضه بأصوله وعلق حواشيه وقدم له محمد بن تاويت الطنجي، الرباط، 1965م.

(14723/1)

ب – تحقيق د.أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، ودار مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا،

1387هـ/1967م.

تلخيص كتاب أرسطو طاليس في الشعر، لابن رشد:

أ – تحقيق وتعليق د.محمد سليم سالم، القاهرة، 1361هـ/1971م.

ب – تحقيق د.تشارلس بترورث ود.أحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م.

تلخيص منطق أرسطو، لابن رشد، تحقيق جيرار جهامي، المكتبة الشرقية، بيروت، 1982م.

التمهيد لما في الموطإ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر النمري الأندلسي، حققه وعلق حواشيه وصححه مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد

(14724/1)

الكبير البكري، ط2، 1402هـ/1982م.

التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات، لأبي المطرف أحمد ابن عميرة، تقديم وتحقيق محمد ابن شريفة، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1412هـ/1991م.

ثبت أبي جعفر أحمد بن علي البلوي الوادي آشي، دراسة وتحقيق د.عبد الله العمراني، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1403هـ/1983م.

جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، لعلي الجزنائي، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1411هـ/1991م.

(14725/1)

حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار، للوزير أبي القاسم بن محمد بن إبراهيم الغساني، حققه وعلق حواشيه ووضع فهارسه محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1405هـ/1985م.

الحلل السندسية في الأخبار التونسية، لمحمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج، بتحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الكتب الشرقية، 1973، ودار الغرب الإسلامي، 1984م.

درة الحجال في أسماء الرجال، لأبي العباس أحمد بن محمد المكناسي (ابن القاضي)، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، والمكتبة العتيقة، تونس، 1390هـ/1970م.

(14726/1)

درة الغواص في محاضرة الخواص، لبرهان الدين ابراهيم بن فرحون المالكي، تقديم وتحقيق وتعليق محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، دار التراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس، 1979م.

درر السمط في خبر السبط، لابن الأبار الأندلسي:

أ – تحقيق وتقديم د.عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، تطوان، 1972م.

ب – تحقيق عز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، 1407هـ/1987م.

ديوان أبي إسحاق الألبيري الأندلسي، حققه وقدم له د.محمد رضوان الداية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1396هـ/1976م.

(14727/1)

ديوان الأمي التطيلي، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963م.

ديوان الأمير أبي الربيع سليمان بن عبد الله الموحد، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ومحمد بن العباس القباج، وسعيد أعراب، ومحمد بن تاويت التطواني، المركز الجامعي للبحث العلمي، د.ت.

ديوان حازم القرطاجني، تحقيق عثمان الكعاك، دار

الثقافة، بيروت، د.ت.

ديوان ابن حمديس، صححه وقدم له د.إحسان عباس، دار صادر ودار بيروت، بيروت، 1379هـ/1960م.

ديوان ابن خاتمة الأنصاري، حققه وقدم له د.محمد رضوان الداية، 1399هـ/1978م.

(14728/1)

ديوان ابن خفاجة، تحقيق د.سيد غازي، ط2، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت.

ديوان ابن دراج القسطلي، حققه وعلق له د.محمود علي مكي، ط2، المكتب الإسلامي، 1389هـ

ديوان الرصافي البلنسي، لأبي عبد الله محمد بن غالب، جمعه وقدم له د.إحسان عباس، ط2، دار الشروق، بيروت والقاهرة، 1403هـ/1983م.

ديوان ابن الزقاق البلنسي، تحقيق عفيفة محمود ديراني، دار الثقافة، بيروت، 1964م.

ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق علي عبد العظيم، دار نهضة مصر، القاهرة، 1374هـ/1955م.

(14729/1)

ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمعه وحققه يعقوب زكي وراجعه د.محمود علي مكي، دار الكاتب العربي، القاهرة، د.ت.

ديوان ابن عبد ربه، جمعه وحققه وشرحه د.محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979م.

ديوان ابن فركون، تقديم وتعليق محمد بن شريفة، ط1، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1407هـ/1987م.

ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني، صنعه وحققه وقدم له د.محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1988م.

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام الشنتريني، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1979م.

(14730/1)

الرحلة الحجازية، لمحمد السنوسي، تحقيق علي الشنوفي، الشركة التونسية للتوزيع، 1396هـ/1976م.

الرحلة الحجازية، للفقيه الحافظ محمد بن محمد المختار الولاتي، تخريج وتعليق د.محمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.

رحلة العبدري (الرحلة المغربية)، لأبي عبد الله محمد بن

محمد العبدري الحيحي، حققه وقدم له وعلق عليه محمد الفاسي، الرباط، 1968م.

رحلة القلصادي، لأبي حسن علي القلصادي الأندلسي، دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان، الشركة التونسية للتوزيع، 1978م.

(14731/1)

رسائل أبي علي اليوسي، جمع وتحقيق ودراسة فاطمة خليل القبلي، ط1، دار الثقافة، البيضاء، 1401هـ/1981م.

الرسالة الفقهية، للشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، إعداد د.الهادي حمو ود.محمد أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.

روضة التعريف بالحب الشريف، لابن الخطيب، عارضه بأصوله وعلق حواشيه وقدم له محمد الكتاني، ط1، دار الثقافة، البيضاء، 1970م.

روضة النسرين في دولة بني مرين، لاسماعيل ابن الأحمر، بتحقيق عبد الوهاب ابن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1411هـ/1991م.

(14732/1)

الروض المريع في صناعة البديع، لابن البناء المراكشي، تحقيق رضوان بنشقرون، ط1، دار النشر المغربية، البيضاء، 1985م.

ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، لابن الخطيب، حققه ووضع مقدمته وشواهده محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980م.

زهرة الأكم في الأمثال والجكم، للحسن اليوسي، حققه د.محمد حجي ود. محمد الأخضر، ط1، دار الثقافة، البيضاء، 1401هـ/1981م.

شرح عيون كتاب سيبويه، لأبي نصر هارون بن موسى القيسي المجريطي القرطبي، دراسة وتحقيق د.عبد ربه اللطيف عبد ربه، ط1، مطبعة حسان، القاهرة، 1404هـ/1984م.

(14733/1)

شرح المشكل من شعر المتنبي، لعلي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ود. حامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976م.

شرف الطالب في أسنى المطالب، لأحمد ابن قنفذ، تحقيق محمد حجي (ضمن كتاب "ألف سنة من الوفيات")، الرباط،

1396هـ/1976م.

شفاء السائل لتهذيب المسائل، أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، نشره وعلق عليه الأب أغناطيوس عبده خليفة اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1959م.

(14734/1)

الشهب اللامعة في السياسة النافعة، لأبي القاسم ابن رضوان المالقي، تحقيق د.علي سامي النشار، ط1، دار الثقافة، بيروت، 1404هـ/1984م.

صلة الخلف بموصول السلف، لمحمد بن سليمان الروداني، تحقيق د.محمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1408هـ/1988م.

ضرائر الشعر، لابن عصفور الإشبيلي، 1980م.

طبقات الأطباء والحكماء، لأبي داود سليمان بن حسان الأندلسي (ابن جلجل)، تحقيق فؤاد سيد، ط2، مؤسسة الرسالة، 1405هـ/1985م.

طبقات الأمم، لصاعد الأندلسي، تحقيق حياة بوعلوان، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1985م.

(14735/1)

طوق الحمامة في الألفة والألاف، لابن حزم الأندلسي:

أ – ضبط نصه وحرر هوامشه د.الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، 1975م.

ب – حققه وقدم له صلاح الدين القاسمي، ط3، الدار التونسية للنشر، 1988م.

عمدة الطبيب في معرفة النبات، لأبي الخير الإشبيلي، قدم له وحققه وأعاد ترتيبه محمد العربي الخطابي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1990م.

العمدة في غريب القرآن، لأبي مكي بن أبي طالب القيسي، حققه وعلق عليه وخرج نصه د.يوسف عبد الرحمان المرعشلي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1404هـ/1984م.

(14736/1)

العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد قرقزان، ط1، دار المعرفة، بيروت، 1408هـ/1977م.

الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، لابن سعيد الأندلسي، تحقيق إبراهيم الإبياري، ط3، دار

المعارف، 1977م.

الغنية: فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1402هـ/1982م.

فتاوى ابن رشد، لأبي الوليد ابن رشد القرطبي، تقديم وتحقيق وجمع وتعليق د.المختار بن الطاهر التليلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1407هـ/1987م.

(14737/1)

فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، لأبي عبد الله البرتلي الولاتي، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ/1981م.

فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان، لابن رزين التجيبي، حققه وقدم له محمد بن شقرون، وأشرف على إعداده د.إحسان عباس، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984م.

فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، لابن الحاج النميري، دراسة وإعداد د.محمد ابن شقرون، 1984م.

(14738/1)

قصائد ومقطعات، صنعة أبي الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق د.محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار التونسية للنشر، د.ت.

كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري، نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، البيضاء، 1985م.

كتاب التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، لمحمد بن الطيب القادري، دراسة وتحقيق هاشم العلوي القاسمي، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1401هـ/1981م.

(14739/1)

كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، لابن سعيد المغربي، تحقيق د.خوان قرنيط خينيس، تطوان، معهد مولاي الحسن، 1958م.

كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، لأبي عبد الله محمد بن الكتاني الطيب، تحقيق د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1966م.

كتاب الجامع، لأبي عبد الله بن أبي زيد القيرواني، صححه وقدم له وعلق عليه محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، والمكتبة العتيقة، تونس، 1982م.

كتاب جامع العبارات في تحقيق الاستعارات، لأحمد مصطفى الطرودي التونسي، دراسة وتحقيق د.محمد رمضان الجربي، ط1، الدار

(14740/1)

الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراتة، 1986م.

كتاب الحدود في الأصول، لأبي الوليد الباجي الأندلسي، تحقيق نزيه حماد، ط1، مؤسسة الزعبي للطباعة والنشر، بيروت وحمص، 1392هـ/1973م.

كتاب الحلة السيراء، لابن الأبار، حققه وعلق جوانبه د.حسين مؤنس، الشركة للطباعة، القاهرة، د.ت.

كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لمؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري، حققه د.سهيل زكار والأستاذ عبد القادر زمامة، ط1، دار الرشاد الحديثة، البيضاء، 1399هـ/1979م.

(14741/1)

كتاب الخيل مطلع اليمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال، لعبد الله بن محمد بن جزي الكلبي الغرناطي، حققه وقدم له محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1406هـ/1986م.

كتاب الرد على النحاة، لابن مضاء القرطبي، تحقيق د.شوقي ضيف، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1982م.

كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، لمحمد بن عبد المنعم الحميري، حققه د.إحسان عباس، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، 1980.

كتاب العنوان في القراءات السبع، لأبي طاهر إسماعيل بن خلف المقرئ الأنصاري الأندلسي، حققه وقدم له د.زهير زاهد ود.خليل

(14742/1)

العطية، ط2، عالم الكتب، بيروت، 1406هـ/1986م.

كتاب الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق محيي الدين رمضان، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1404هـ/1984م.

كتاب لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول، لأبي الحجاج يوسف بن محمد المكلاتي، تقديم وتحقيق وتعليق د.فوقية حسين محمود، ط1، دار الأنصار، القاهرة، 1977م.

كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، لابن الخطيب، تحقيق د.محمد كمال شبانة، الرباط

(14743/1)

كناسة الدكان بعد انتقال السكان، لابن الخطيب، تحقيق د.محمد كمال شبانة، ومراجعة د.حسن محمود، دار الكاتب العربي، 1966م.

لحن العامة، لأبي بكر محمد بن الحسين الزبيدي، تحقيق د.عبد العزيز مطر، دار المعارف ومطابع سجل العرب، 1981م.

لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد، لأحمد ابن القاضي، تحقيق محمد حجي (ضمن كتاب "ألف سنة من الوفيات")، الرباط، 1396هـ/1976م.

المثلث، لابن السيد البكليوسي. تحقيق ودراسة د.صلاح مهدي الفرطوسي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1401هـ/1981م.

(14744/1)

المحاضرات، لأبي علي اليوسي، تحقيق محمد حجي وأحمد الشرقاوي إقبال، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م.

المختار من شعر بشار وشرحه، لأبي طاهر التجيبي البرقي، اعتنى بنسخه وتصحيحه وتعليق الفوائد عليه وتخريج أبياته ووضع فهارسه السيد محمد بدر الدين العلوي، دار المدينة للطباعة والنشر، بيروت، د.ت.

مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، للقاضي عياض وولده محمد، تقديم وتحقيق وتعليق د.محمد ابن شريفة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.

(14745/1)

مستفاد الرحلة والاغتراب، للقاسم بن يوسف التجيبي السبتي، تحقيق وإعداد عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس –ليبيا، 1975م.

مشارق أنوار القلوب ومفاتح أسرار الغيوب، لعبد الرحمن بن محمد ابن الدباغ الأنصاري، تحقيق هـ ريتر، دار صادر ودار بيروت، 1379هـ/1959م.

مشاهير الشعراء والكتاب (وهو كتاب "نثير فرائد

الجمان")، لابن الأحمر، حققه وقدم له د.محمد رضوان الداية، عالم الكتب، بيروت، 1406هـ/1986م.

"مصطلح التحقيق في استعمال محققي التراث المغربي الأندلسي"، لمصطفى اليعقوبي، ضمن أعمال ندوة "تحقيق التراث

(14746/1)

المغربي الأندلسي: حصيلة وآفاق"، صص.65–139، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، 1997م.

المطرب من أشعار أهل المغرب، لابن دحية، تحقيق إبراهيم الأبياري وصاحبيه، راجعه د.طه حسين، دار العلم للجميع، بيروت، 1954م.

مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، للفتح بن خاقان الإشبيلي، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة، ط1، دار عمار ومؤسسة الرسالة، 1403هـ/1983م.

المعجب في تلخيص أخبار المغرب، لعبد الواحد المراكشي، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، ط1، مطبعة

(14747/1)

الاستقامة، القاهرة، 1368هـ/1949م.
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، للبكري، عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه مصطفى السقا، ط3، عالم الكتب، 1403هـ/1983م.
المعيار المعرب والجامع عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، لأحمد بن يحيى الونشريسي، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف د.محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، 1401هـ/1981م.
المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد الأندلسي، حققه وعلق عليه د.شوقي ضيف، ط3، دار المعارف، 1978–1980م.

(14748/1)

مفردات ابن الخطيب، لابن الخطيب، تحقيق وتقديم د.عبد العلي الودغيري، منشورات عكاظ، الرباط، 1988م.
المقتبس من أنباء أهل الأندلس، لابن حيان القرطبي:
أ – تحقيق عبد الرحمن حجي، دار الثقافة، بيروت، 1965.
("بلد الأندلس" عوض "أهل الأندلس").

ب – حققه وقدم له وعلق عليه د.محمود علي مكي، القاهرة، 1390هـ/1971م.

المقتطف من أزاهر الطرف، لابن سعيد الأندلسي، تقديم وتحقيق ودراسة د.سيد حنفي حسنين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983م.

(14749/1)

المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات، لأبي الوليد ابن رشد، تحقيق د.محمد حجي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1408هـ/1988م.

مقدمة ابن خلدون، للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مهد لها ونشر الفصول والفقرات الناقصة من طبعاتها وحققها وضبط كلماتها وشرحها وعلق عليها وعمل فهارسها د.علي عبد الواحد وافي، ط2، لجنة البيان العربي، 1384هـ/1965م.

(14750/1)

المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تأليف عبد الحق بن إسماعيل البادسي، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، 1402هـ/1982م.

ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تقييد ابن رشيد الفهري السبتي، تقديم وتحقيق د.محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار التونسية للنشر، ج2: 1402هـ/1982م؛ ودار الغرب الإسلامي، ج5: 1408هـ/1988م.

ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تأليف أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغاصمي

(14751/1)

الغرناطي:

أ – تحقيق سعيد الفلاح، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1403هـ/1983م.

ب – تحقيق د.محمود أحمد كامل، دار النهضة العربية، بيروت، 1405هـ/1985م.

ملتقط الرحلة من المغرب إلى حضرموت، للفقيه يوسف بن عابد الإدريسي الحسني الفاسي، حقق المخطوط وقدم له

وعلق عليه د.أمين توفيق الطيبي، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1988م.
الممتع في التصريف، لابن عصفور الإشبيلي، تحقيق د.فخر الدين قباوة، ط3، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1970م.

(14752/1)

مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، تأليف د.رمضان عبد التواب، ط1، مكتبة الخانجي ومطبعة المدني، القاهرة، 1406هـ/1985م.
مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا، لأبي فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي، حققه وقدم له ووضع فهارسه عبد الله كنون، 1964م.
المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، لأبي محمد القاسم السجلماسي، تقديم وتحقيق د.علال الغازي، ط1، مكتبة المعارف، الرباط، 1401هـ/1980م.
المن بالإمامة، لعبد الملك بن صاحب الصلاة، تحقيق د.عبد الهادي التازي، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.

(14753/1)

منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجني، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.
الموافقات في أصول الأحكام، لأبي إسحاق ابراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشاطبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، د.ت.
نتيجة الاجتهاد في المهانة والجهاد، لأحمد بن المهدي الغزال، حققه وقدم له إسماعيل العربي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1980م.

(14754/1)

نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، لابن الأحمر، دراسة وتحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، 1967م.
نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، لمحمد بن الطيب القادري، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، الرباط، 1397هـ/1977م.
نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، لابن القطان المراكشي، درسه وقدم له وحققه د.محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990م.

النكت الحسان في شرح غاية الإحسان، لأبي حيان النحوي الأندلسي الغرناطي، تحقيق ودراسة د.عبد الحسين الفتلي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت،

(14755/1)

1405هـ/1985م.

وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام، لابن قنفذ القسنطيني، تقديم وتعليق سليمان الصيد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984م.

وفيات الونشريسي، لأحمد الونشريسي (ضمن "ألف سنة من الوفيات")، تحقيق محمد حجي، الرباط، 1396هـ/1976م.

(14756/1)

من ملفات تاريخ الصحافة في المغرب

الأستاذ جامع بيضا

كلية الآداب –الرباط

لا ريب أن تاريخ الصحافة يعتبر من الدراسات المستجدة والمرتبطة بالحقبتين الحديثة والمعاصرة التي لم تنل بعد كل ما تستحقه في البيبليوغرافيا العربية . فهذا الحقل ما زال في أمس الحاجة إلى المزيد من البحث والتنقيب وإسهاما متواضعا في ملء هذه الثغرة يسعدني أن أوافي مجلة التاريخ العربي ببحوث ودراسات عن تاريخ الصحافة بالمغرب اعتمادا على تصفح مجلات وجرائد نادرة واستنادا إلى وثائق غميسة استقيناها من دور الأرشيف المغربية والأجنبية .

(14757/1)

المبحث الأول – المحزن الحسيني وظاهرة الصحافة

"أ. .. م إن الجوازيط (1) من باب حاطب ليل، ومن محدثات الأمور التي لم يعهد مثلها. وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة (... أ"(2

إن هذا الحكم الصارم في حق الصحافة قد صدر عن السلطان المولى الحسن سنة 1889، حسب ما أورده وزيره المفضل غريط في رسالة وجهها إلى النائب

أصلها من (Gazita) من اللغة السائدة بالبندقية في

القرن السادس عشر الميلادي ، وكانت تطلق على نفوذ صغيرة تشكل ثمن لعض الأوراق الإخبارية المطبوعة هناك. ثم اتسع معنى الكلمة ليشمل الجرائد نفسها،

(14758/1)

وسرعان ماانتشر تداولها في مجموع البلاد الإيطالية بصيغة : (Gazzitta) ومن اللغة الإيطالية، انتقلت الكلمة إلى لغات أوروبية أخرى مثل الفرنسية (Gaceta) والإسبانية (Gaceta) .ولا يستبعد أن تكون الكلمة قد تسربت إلى المغرب من شبه الجزيرة الإيبرية.
من رسالة بعث بها الوزير محمد المفضل غريط إلى النائب الطريس بتاريخ 22 ذي الحجة 1306هـ/ 19 غشت 1889م (المكتبة العامة والمحفوظات ، تطوان ، مح 78/28.

المخزني بطنجة الحاج محمد بن العربي الطريس . ولو أخذناه مجردا عن سياقه التاريخي لاستنتجنا منه عن علاقات الخزن

(14759/1)

الحسني بالصحافة خلا صات تتنافى تماما عما هو مشهود له به من سعى حثيث إلى امتلاك أسباب الحداثة قصد مواجهة ما يتربص حينئذ ببلاد المغرب من تحديات ومخاطر. لذا، وحتى نلم بصورة أصح عن علاقة الخزن الحسني بظاهرة الصحافة، نقترح وضع الحكم السالف الذكر في سياق معين سنحدده فيما يلي . لكن ، قبل ذلك ، وحتى تكون نظرتنا شاملة، نذكر في عجالة ببعض المعالم التي تؤرخ لتعرف النخبة المغربية المثقفة على الصحافة كإحدى مظاهر العالم الحديث والمعاصر. فأول مصدر مغربي أشار إليها هو كتاب الغساني المعنون ب "رحلة الوزير في

(14760/1)

افتكاك الأسير)،، والذي ألفه صاحبه في أواخر القرن السابع عشر عقب مهمة كلفه بها السلطان المولى إسماعيل لدى الملك الإسباني كارلوس الثاني (1690–1691). فقد تحدث الغساني في مؤلفه عن الجريدة بقوله : "ويسمونها الكاسيطة، فيطلع الإنسان منها على أخبار كثيرة، إلا أن فيها من الزيادة والكذب ما تحمل عليه الشهوة الإنسانية،،(3).

وبعد هذه الشهادة بما ينيف عن نصف قرن ، كتب محمد

الصفار التطواني رحلته المشهورة إثر زيارته لفرنسا 1845–1846(4). **وفي هذه الرحلة نجد وصفا مهما لصحافة باريس ؟ ذلك أن الكاتب يمدنا بمعلومات**

(14761/1)

عن انتشارها، وعن كيفية الاشتراك فيها، وعن الإشهار فيها، وعن القوانين المنظمة لها، وعن دورها كأداة للمعارضة السياسية .. . ليلاحظ في الأخير أن القارئ الفرنسي متشبث بجريدته إلى

الغساني، رحلة الوزير افتكاك الأسير، منشورات معهد الجنرال فرانكو، طنجة 1940، **ص** 67 .

صدرت هذه الرحلة أول الأمر مترجمة إنجليزية في كتاب :

susan gilson miller disorienting encountes. Travels of Moroccan scholar in France in 1845–1846 . The voyage of muhammed as-saffar university of california press berkley los angles oxford1992

(14762/1)

ثم قام ذ. خالد بن الصغير بتعريب هذا الكتاب ونشر النص العربي لم حلة في مؤلف صدر له عام 1995م ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط تحت عنوان : صدفة اللقاء مع الجديد. رحلة الصفار إلى فرنسا، 1845–1846

درجة قد يستغني فيها عن الأكل والشرب ، ولا يستغني عنها. ومما جاء تحت قلم الصفار في هذا الصدد : "وبالجملة، فالكوازيط عندهم من أهم المهمات ، حتى أن أحدهم قد يصبر على الأكل والشرب ولا يصبر على النظر في الكازيطة"(5). أما إدريس العمراوي ، الذي اطلع على رحلة الطهطاوي المصري واستفاد منها،

(14763/1)

فقد أسهب أكثر من الغساني والصفار في وصف الطباعة والصحافة والمكتبات التي استرعت انتباهه إبان سفارته إلى فرنسا في 1860. ولم يتوقف العمراوي عند الوصف ، بل إن إعجابه بالمطبعة قد جعله يلتمس من سلطانه سيدي محمد بن عبد الرحمن أن يزود المغرب بـ

"نعمة" الطباعة سيرا على سنة بعض البلاد الإسلامية بالشرق (6).

ولما تولى المولى الحسن زمام الأمور عام 1873، كانت البلاد قد شهدت بعض التطورات التي لها علاقة إما بالنشر عامة أو بالصحافة خاصة : – فالمدينتان المحتلتان سبتة ومليلية قد شهدتا منذ العشرينيات من القرن

(14764/1)

التاسع عشر ميلاد جرائد باللغة الإسبانية مثل el-eco constructional ،1820liberal africano 1822). ثم جاء دور تطو"ن في بداية الستينيات ، إذ صدرت بها (el-noticiero (1860el-eco de tetuan (1861). وإذا كان من غير المؤكد أن لهذه الجرائد الإسبانية أي تأثير مباشر على المغاربة فإن هؤلاء اقتبسوا كلمة geceta جيرانهم الإسبان واستعملوها بصيغ عربية مختلفة (جزيطة، جوازيط، كازيطة، كوازيط...) للدلالة عن تلك الأوراق المخطوطة أو المطبوعة والتي يراد منها نشر الأخبار على نطاق واسع . وقد استمر تداول هذا

(14765/1)

المصطلح في المراسلات المخزنية مدة طويلة حتى حلت محله كلمتا (،الجريدة" و"الصحيفة" بفعل تأثير بعض المشارقة المستقرين في المغرب والعاملين في حقل الصحافة(7).

(5) صدفة اللقاء مع الجديد...، مرجع سابق ، ص 163.

(6) إدريس العمراوي ، تحفة الملك العزيز بمملكة باريز، فاس 1909، صص 50–55.

(7) سنعود بالتفصيل إلى تأثير المشارقة في الصحافة المغربية في مقال لاحق إن شاء الله .

–أما طنجة، فقد شهدت هي الأخرى محاولة لإنشاء صحافة سنة 1870 بعد أن تم استقدام مطبعة من الرابطة الإسرائيلية بباريس . غير أن الصحيفة (وربما

(14766/1)

كان اسمها La gazitte de tanger ماتت في مهدها نظرا للإجماع الحاصل في معارضتها من لدن الدوق إيمي

داكان (Ayme Aquin) (ممثل فرنسا) وجون دراموند هاي (john drammond) (مفوض بريطانيا) والنائب المخزني محمد بركاش .

لم يكن الخزن الحسنى إذن يجهل كل شيء عن الصحافة عندما تأسست خلال الثمانينات عدة جرائد أوروبية بطنجة(8). بل إنه كان في بداية الأمر يأمل منها خيرا إذ أنها وسيلة قد تساهم في تفتح العقول وتقرب بين المغاربة والأوروبيين القاطنين بطنجة. وتظهر هذه النية جلية في رسالة بعث بها بركا!ثر إلى جون دراموند

(14767/1)

هاي بتاريخ 9 نونبر 1884 حيث جاء فيها: "لم يتم ما كان يؤمل لأن الجرائد المذكورين هكذا قد غيروا وبدلوا لسانهم عن الخير المأمول منهم إلى ما ينتج الضرر. فعوض غرس المحبة بين الأهالي و"لأجناس ، صاروا يغيرون أفكارهم ويشوشونها ويمسخونها إلى القبائح والتخويض ضد الحكومة،،(9).

أجل ، إن صحافة طنجة ، سيما) Le reveil du Maroc، (يقظة المغرب)، قد تجاوزت مهمتها الإخبارية لتتحول إلى أداة للتجاسر على الخزن ورجالاته . وكانت ذرائعها

في ذلك متعددة، فتارة تنتقد سلوكات الجهاز الحاكم في تصرفه الطيوقراطي، وتارة أخرى

(14768/1)

تمتطي مبادئ إنسانية وإحسانية مزعومة لتندد بوضعية الرقيق أو المساجين أو اليهود إلخ. وكلما حاولنا إماطة اللثام عن الدوافع الحقيقية الكامنة وراء تلك التهجمات إلا وتبين أن البون شاسع بينها وبين المواضيع التي تتخذها مطية . فمثلا، فيما يتعلق بجريدة)+،79 لماه (أع 3 خ *ه ها التي كان يديرها اليهودي المغربي ليفي

(8) من بين الجرائد التي ظهرت في طنجة خلال ثمانينات القرن التاسع عشر: و – Le commerce au Maroc The Ti;es of Marocco – Al-Moghreb Al-Aksa والمغرب . . .

(14769/1)

---

(9) من رسالة بعث بها عمد بركاش إلى جون دإموند هاي بتاريخ 20 محرم 1302هـ الموافق 9 نونبر 1884م.

انظر: خالد بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني. مراسلات جون دراموند هاي مع المخزن (1846–1886)، نشر ولادة، الدار البيضاء 1992، الوثيقة رقم 391، صص 504–505.

كوهن (10)، يجب أن نعلم أنها كانت ممولة بصفة غير مباشرة من طرف البنك الفرنسي ترانساطلانتيك Transatlantique الممثل في طنجة من طرف حاييم بنشيمول ، أحد المقربين إلى Ladislas Ordega وزير فرنسا بمدينة البوغاز بين دجنبر 1881 ودجنبر 1884. ومن جهة أخرى،

(14770/1)

كانت نفس الجريدة تجد الدعم الكامل من لدن جل أعمال فرنسي هو الكونت دوشوقانيك (Le conte de Chevagnac) الذي كان يحاول جادا، وبمختلف الضغوط، أن ينتزع من الخزن حق استغلال بعض المناجم في الشمال المغربي.

وطبعا، كلما قاوم الخزن هذه التحولات أو تلك إلا وصبت الصحافة جام غضبها عليه منددة بسياسته ومؤازرة المتمردين على سلطته . وقد بلغ السيل الزبى في ربيع 1884 عندما أسدلت فرنسا حمايتها على الحاج عبد

السلام ، شريف وزان (11). فقد انتهز Le Reveil du Marocهذه الفرصة ليناصب السلطان المولى الحسن العداء الكبير.

(14771/1)

وكانت خطورة هذه المواقف ، بالنسبة للمخزن ، تكس في كون الجريدة الطنجاوية تعتبر مصدرا للمعلومات من لدن صحف أوروبية عديدة، بل ومن طرف وكالة هافاس نفسها الذي كان ليفى كوهن مراسلا لها. وقد كان بعض رجالات النخبة المغربية على وعى بدور الصحافة الأوربية في المس بسمعة المغرب بالخارج . فهذا الحسين السملالي (المتوفى عام او،1) يكتب .

(15) كان ليفي كوهن من مواليد طنجة سنة 1844، وهو من عائلة يهودية منحدرة من الصويرة. تابع دراسته في بريطانيا، كما قام مدة ثمانية أعوام في فرنسا. كان عضوا نشيطا في اللجنة

(14772/1)

المغربية للرابطة الإسرائيلية العالمية، كما كان ممثلا لعدد من الجمعيات اليهودية النشيطة في لندن ونيويورك.

كاد ليفي كوهن في الوقت ذاته تاجرا ومحاميا وصحفيا.

وبهذه الصفة الأخيرة أشرف على (Le Reveil du Maroc) وراسل عددا من الصحف الأوروبية.

وتد وافت المنية ليفي كوهن في لندن ، وهو في ربيع العمر، في نونبر 1988

(11) كانت المادة 16 من عقد مدريد لسنة 1880 تسمح للدول المشاركة ببسط حمايتها القنصلية والدبلوماسية على بعض الرعايا المغاربة التي تربطهم بها علاقات معينة. وفي هدا الإطار يدخل إسدال الحماية الفرنسية

(14773/1)

على الشريف عبد السلام الوزاني. في موضوع الحمايات الأجنبية، انظر كتاب محمد كنبيب :

Mohammed Kenbib, Les proteges. Contribution a l histoire contemporaine du Maroc. Pub. Faculte des lettres et des sciences humaines, rabat 1996 P 396.

(فلما وصل كتاب الباشادور – أوريكا – لهؤلاء الفرنسيين إ، فرحوا به وأمروا بتعليق الكوازيط ، وهى النفايل المكتوب فيها ما أرادوا إعلام الكافة به ، كالبراح ينادي في الأسواق والازقة . ومن جملة ما كتبوا في الكوازيط أنهم أدركوا ثلث المغرب لاعتقادهم أن هذا الوزاني يتبعه

(14774/1)

الناس ولو في الكفر، ولم يعلموا أنه لا يسعده إلا خماميسه وعبيده)،(12).

ومن ثمة وجب التحرك على أعلى المستويات بعد أن اقتصر الخزن إلى ذلك الحين على التدخل لدى دراموند هاي بصفته عميد السلك الدبلوماسى ولأن كل مديري صحف طنجة في ذلك الوقت يحملون الجنسية البريطانية .

فكانت زيارة بركاش لباريس حيث تم لقاء، يوم 12 ماي 1884 مع جول فيري (Jules Ferry)، وزير الخارجية ورئيس الوزراء في الحكومة الفرنسية. خمسة أسابيع بعد هذا اللقاء، أرسل جول فيري برقية سرية إلى ممثله بطنجة يدعوه فيها إلى ضرورة التخفيف من لهجة

(14775/1)

)، Le Réveil du Maroc التي لم يعلم الجميع أنه هو مسيرها الحقيقي (13). كان لاحتجاجات المغاربة ولضغوط القوى الأوروبية المنافسة لفرنسا، سيما بريطانيا وإسبانيا وإيطاليا، أثر في جعل الحكومة الفرنسية تبتعد عن سياسة التصعيد التي كان يسلكها ممثلها بالمغرب . وهكذا، انتهت مأمورية أورديكا بطنجة في دجنبر 1884 ليحل محله المستعرب ،Chqrles Feraud الذي مثل بلاده بطرابلس الغرب قبل تعيينه بطنجة(14).

كان المخزن قد بدأ مشاورات مع دراموند هاي رمى من خلالها إما إلى جعل الصحافة الطنجاوية تتخلى نهائيا عن انتقاداتها

(14776/1)

الجارحة أو تيم توقيفها كلية لأنها على كل حال لم تحصل أبدا على رخصة للصدور، كما أن البلاد تفتقر إلى قانون ينظم نشاطها في حدود مقبولة. ولما لم تفض هذه المشاورات إلى ما كان يصبو إليه المخزن،

(12) الحسين السملالي ، الفتوحات الوهبية في سيرة مولانا الحسن السنية، ومفاخر اختراعاته البهية، نسخة مخطوطة، مؤسسة علال الفاسي ، الرباط، ص . 200 وما يتبعها.

(13) برقية من جول فيري إلى أورديكا، 19 يونيو 1884، وثائق وزارة الخارجية الفرنسية بباريس (كي دورمي)،

.128–127.fol.48Crresp.Pol.Maroc.vol.

(14777/1)

---

(14) مارس "فيرو" مهمته في المغرب إلى أن وافته المنية سنة 1888م.

بعث الحاج محمد الطريس ، بتاريخ 20 يوليوز 1886 مذكرة إلى مختلف المفوضيات الأجنبية بطنجة ليبلغها قراره بإلغاء الصحف الصادرة بالمدينة. وهذا نس الرسالة(15) التي توصل بها الفرنسي شارل فيرو في الموضوع (16) : الحمد لله وحده

المحب العاقل المحترم اللبيب المنسطر المفوض بأكمل التفويض لدولة الفرنصيص الفخيمة، مسي فيرو. لا زال السؤال عنك كثيرا محبة أن تكون بخير وعافية. وبعد

فغير خاف عنكم أن ليس لنا بإيالة مراكش شرع خاص بحكم المطبعة كما بغيرها

(14778/1)

من الدول . وعلى فرض أنه لو كان عندنا كالغير فلا قدرة لنا إجرائه حيث أن من يباشر أمر الجوازيط هم من رعيات الأجناس ولا تجري عليهم أحكام هذه الإيالة فيما يتعلق بخصوص أنفسهم كمثل هذه القضية. ولما رأينا فيما قبل هذه المدة لعدي الجوازيط على بعض رعيات الأجناس وهتك أعراض بعض الناس خفنا أن يزيد ذلك ويتفا حش إلى أن يصل الضرر إلى بعض النواب أنفسهم أو غيرهم من المتوظفين في المخزانية الذي يجب علينا بمقتضى الشرطات توقيرهم وحفظهم من تعدي الغير. وعليه فمن حيث لا قدرة لنا لمنع ذلك ، نطلب منكم إبطال الجوازيط

(14779/1)

التي تطبع بهذه الإيالة على وجه البث وإلا –فها نحن نجدد الاسترعاء لئلا يطلب منا إجراء الشروط إن صدرت إذاية من الجوازيط لبعض النواب أو غيرهم من

المتوظفين في المخزانية. وعلى المحبة والسلام.

في 18 شوال عام 1303

محمد بن العربي الطريس لطف الله به.

أثار قرار المخزن الحسني بمنع النشاط الصحافي سخط مسئولي صحف تلك المدينة، فتكتلوا في نقابة نصبت نفسها للدفاع عن حرية الصحافة. وطبعا، كان من متزعميها ليفي كوهن السابق الذكر والذي لم يهدأ يتجاسره على سلطات البلاد بالرغم من النهج المعتدل الذي سلكه ممثل فرنسا

(14780/1)

الجديد : شارل فيرو. وأما المفوضيات الأجنبية فقد اختلفت كلمتها في الموقف الواجب اتخاذه . فبعض النواب ، وهم

(15) أصل هذه الوثيقة موجود في مركز الأرشيف الدبلوماسي في نانط (فرنسا)، طنجة، محفظة 521.

(16) أدرجنا الرسالة كما هي في الأصل حرفيا دون محاولة تقويم ما اكتنفها من خلل لغوي أو غيره .

الأغلبية، يرون أن صحافة طنجة استغلت استغلالا سيئا جو الحرية السائد في مدينة البوغاز. بينما يرى البعض

الآخر أن حرية الصحافة مبدأ مقدس يجب عدم التفريط فيه بأي حال من الأحوال . ويرى الكاتب والصحفي اسحاق لاريدو (Issa

(14781/1)

Laredo) أن مفوضين أجنبيين اثنين ، أغفل ذكر اسميهما واكتفى بنعتهما بـ "عدوي النور"(17)، حاربا بشكل عنيد حرية الصحافة. ولعل لاريدو يقصد كلا من شارل فيرو وجون دراموند هاي ! فالنائبان عانيا كثير" من انتقادات صحافة طنجة إ. ولا يخفي شارل فيرو في مراسلاته مع وزارة الخارجية الفرنسية امتعاضه من هذه الصحافة التي يصفها بـ"المنشقة والمرتشية)،(18). فعند حلوله بطنجة بفهي السير على نهج سلفه أورديكا والاستمرار في تقديم منحة مالية قدرها ألف فرنك إلى جريدة (Le Réveil du Maroc). وفضلا عن ذلك ، فإنه عند زيارته

(14782/1)

للبلاط السلطاني في ماي / يونيو 1885، لم يخف تعاطفه مع وجهة نظر السلطان متذمرا جدا من Le Réveil du Maroc لكونه ينسخ الأكاذيب ويتدخل في الشؤون المغربية الداخلية ويتجاسر على المخزن في كل المناسبات (19).

بالرغم من الخلاف السائد بين النواب الأجانب حول الموقف الواجب اتخاذه إزاء المبادرة المخزنية الرامية إلى منع الصحافة، فقد تم التوصل إلى حل وسط في شكل نداء موجه إلى مسئولي الجرائد حتى يكفوا عن نشر المقالات الجارحة. وإذا كان هؤلاء قد استجابوا لتوه لهذا النداء فعدلوا من لهجة "جوازيطهم" فإن هذا الاعتدال

(14783/1)

لم يعمر طويلا إذ سرعان ما عادوا إلى سلوكاتهم السابقة عابثين بكرامة البلاد والعباد. وهذا ما جعل المخزن يجدد طلبه في يناير 1887، لكن حظه لم يكن أوفر من المرة الأولى. وشيئا فشيئا بدا للمخزن ألا مناص من التعامل مع هذه "البدعة"، بل وتسخيرها عند الضرورة لما فيه مصلحة البلاد. فلهذا كتب النائب الطريس ، سنة 1892، مقرا ألا جدوى من محاربة الصحافة في طنجة :

(16) Issa D.Leredo. Memorias de un viejo tangerino, C.Bermejo impre 1935Madrid 247p–249.

(14784/1)

---

(17) رسالة فيرو إلى وزارة الخارجية الفرنسية، 13 فبراير 1886، وثائق كي دورسبة ، باريس Corresp. Pol.

(18) انظر رسالة فير إلى وزارة الخارجية الفرنسية، 13 يونيو 1985 ، وثائق كي دورسي، باريس Pol. Vol. 48Fol 409.

"إن الجوازيط لها الحرية للكلام في أمور السياسة والمخزنية التي تعرض سائر الدول من غير معارضة لها في ذلك . والكلام من نواب الدول في هذا الشأن لا يجدي شيئا"(20).

وفضلا عن هذا التصريح الواضح ، فإن الخزن الحسنى، الذي لم يحاول منع الصحافة إلا عندما تجاوزت الحدود المقبولة حتى من لدن النواب

(14785/1)

الأجانب أنفسهم ، لم يغفل المكاسب التي يمكنه جنيها من الجرائد. ويظهر ذلك جليا فيما يلي :

–أسس الخزن مصلحة مكلفة بتعريب وتتبع ما تكتبه الصحافة في شأن المغرب . ونظرا للأهمية التي تكتسيها هذه المصلحة، فإنها تتنقل مع السلطان في كل حركاته (21). –

كان المسؤولون يطلعون باستمرار على ما يكتب عن المغرب في الصحف الصادرة في طنجة أو حتى في أقطار نائية. فمن لندن كان التاجر اليهودي موسى أفلالو (Moussa Aflalo) يبعث إلى المخزن من حين إلى آخر بقصاصات مختلف الأخبار التي تنشرها الصحافة البريطانية عن العالم الإسلامي

(14786/1)

. ومن الأستانة، وجه سليم فارس الشدياق ، مدير جريدة "الجوائب" العثمانية، مراسلة إلى مندوب المغرب في مؤتمر مدريد 1880 ضمنها نسخة من جريدته وكذا طلبا بأن يمده بأخبار عن المؤتمر ينشرها لفائدة قرائه (22).

ربط المخزن علاقات طيبة مع دو كيرديك شيني (De

(Keredec Chény **عندما تولى هذا الصحفي الفرنسي إدارة** (Le Réveil du Maroc). **ومن الخدمات التي أسداها للسلطات المغربية رده على مزاعم الجمعية البريطانية** (Howard Association) **فيما يخص حالة المساجين في المغرب** (23).

(14787/1)

---

(20) **رسالة من الطربس إلى المفضل غريط بتاريخ** 3 **أبريل** 1829، **مديرية الوثائق الملكية، الرباط، الترتيب ا لعام.**

(21) **رسالة من شارل فيرو إلى وزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ** 1 **فبراير** 1887 **وثائق كي دورمى، باريس**

96–95Fol. 52Maroc. Corresp. Pol.

(22) **مراسلة مؤرخة في** 9 **يونيو** 1880، **مديرية الوثائق الملكية، الرباط، الترتب العام.**

(23) Exagération de la Howard Association Le Réveil du Maroc

15–1893.8mars

ربط المخزن علاقات طيبة مع الفقيه ميكن ،،(24) **صاحب جريدتي** (The Times of Maroc) **والمغرب** (25)، **واتفق معه**

(14788/1)

على التشهير بالتاجر المراكشي أبي بكر الغنجاوي الذي احتمى بالإنجليز وأخذ يتطاول دون هوادة على سلطات بلاده .

– استعمال المخزن للصحافة اللندنية The Times إبان الثمانينات من القرن التاسع عشر كأداة دعاية لإحباط مشروع "شركة سوس وشمال إفريقيا)، الرامي إلى الاستقرار على السواحل السوسية بدون إذن السلطات المغربية(26).

هكذا يتبين إذن بجلاء أن المخزن الحسنى قد تأقلم مع ظاهرة الصحافة واستوعبها كإحدى مظاهر الحداثة التي لا مناص منها. أما كون السلطان قد نعتها مرة بالبدعة – كما أشرنا إلى ذلك في مستهل هذا

(14789/1)

المقال – فهو حكم عابر وليد ظرفية خاصة تميزت بهجمة دعائية عنيفة. فالأقوال ، شأنها في ذلك شأن الأحداث ، لا تفهم إلا على ضوء سياقها التاريخي.

(24) المقصود هو Budgett Meakin الذي خلف أباه Edward على رأس جريدة The Times of Maroc (أزمنة المغرب) الصادرة باللغة الإنجليزية.

(25) صدرت جريدة "المغرب " باللغة العربية في طنجة سنة 1889 وكان يحررها شاميان هما عيسى فرح وسليم كسباني .

(26) حول هذا الموضوع ، انظر:

(14790/1)

– Jean-Louis Miege, Le Maroc et l'Europe 1830–1894 tom III "Les difficultés " Ed. La Porte, Rabat p. 319.

خالد بن الصغير : "كورتيس وشركة سوس وسال إفريقيا" في مدينة تيزنيت – وباديتها، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير 1996 ص 80–81.

(14791/1)

منهج المعرفة العلمية في النظريات اللسانية

... ... الدكتور محمد الأوراغي

... ... كلية الآداب ـ الرباط

تقديم

... مناهج اكتساب المعرفة لا ينحصر اختلافها خلال الأزمنة المتعاقبة ولا عبر الحقول المعرفية المتباينة، بل تختلف أيضاً بين النظريات المتزامنة التي تتنافس داخل الحقل المعرفي الواحد من أجل وصْف موضوعاته.

ولذلك سيكون من الصعب الحديثُ عن كلية المنهج وعن كلية النظريات، مع إمكان القول بكلية المعرفة العلمية خاصة(1)

---

(1) مصطلح الكلية مستعمل أعلاه بمعنيين. إذ توصف المعرفة بالكلية إذا كانت ثابتة لا تتغير وشاملة لا تتبعض. بينما النظرية والمنهج يوصفان بالكلية حين يتوسل بهما كل الباحثين في ميدان بعينه. فالكلي إذا اقترن بالمعرفة، أفاد الثبات والشمول، وهو مع المنهج والنظرية يفيد التوافق والإجماع.

.

... دعونا نعتبر النظرية والمنهج والمعرفة مكونات لنسق علوميّ(1)، بحيث لا يستقيم تحليل أحد هذه المكونات بمعزل عن الآخر. وإذا ثبت أن هناك تنسيقاً بين المعرفة والمنهج والنظرية، وجب أن يكون تناولنا لأيٍّ منها تناولاً علاقياً. أما إثبات نسقية المكونات الثلاثة، فيكون عن طريق "مبدإ التضامن" الذي يفيد أن أي تغيير يطرأ على

---

(1) العلوميا تركيب مزجيّ من العلم والعلو؛ وهو يفيد مصطلحيّاً المفهوم من "العلم الأعلى" في برهان ابن سينا، وهو أيضاً المقابل العربي لما يفيده اللفظ الأجنبي Epistémologie spéciale.

(14793/1)

أحد مكونات النسق يجب أن يلحق غيره من المكونات بدءاً من الذي يباشره.

... يلزم عن صحة التعالق الذي وصفناه أن يكون تقييد "المعرفة" بصفة "العلمية" مسبوقاً بتقييد "المنهجية" بصفة مناسبة للصفة التي تقيدت بها "النظرية" من قبلُ. فالتناسب بين الصفات المقيِّدة

لمكونات النسق من مستلزَمات "مبدإ التضامن"؛ كما أن تعاقب تلك المكونات من ضرورات بناء النسق.

... ظهر إذن أن إشكال هذا العرض يمكن صوغه من جديد بعبارة موجزة؛ فنقول: تُقيَّد "المعرفة" بوصف "العلمية" إذا تم اكتسابها في إطار "نظرية نسبية" بواسطة قواعد

(14794/1)

يشكل بناؤها المخصوص منهجاً متميزاً نفرده بمصطلح "الفِرْنَاب"(1).

... ولإحكام الإشكال المطروح بمعالجة تكون في غاية الوضوح، يجمل بنا أن نُسيِّجَها بالضوابط اللازمة، وهي متدرجة بحسب أهميتها على المنوال التالي:

---

(1) الفِرْناب عبارة عن سلسلة من العمليات الذهنية المضبوطة بضربين من القواعد المعرفية: "قواعد استقرائية" تكوّن الفرع الأول من هذه المنهجية وتؤدي إلى "نتائج عامة" تنقلب في فرعها الثاني إلى "فرضيات مراسية"، منها يكون الانطلاق عند إجراء "قواعد برهانية" فتُشتق مبرهنات ومعارف علمية.

(14795/1)

... أ ـ الحصْر الإجرائي: بأن نتناول "النسق العُلوميّ" بمكوناته الثلاثة الموصوفة أعلاه في أحد مجالات العلم. وبحكم اهتمامنا باللغات، وجب أن تكون معالجتنا لهذا الموضوع داخل اللسانيات. حتى إذا اتضح الحلُّ المقترح وبانت أهميته، صار بالإمكان بعدئذ فحصه من جديد في باقي حقول العلم.

... ب ـ الربط المجالي: يحصل في ذهن الباحث الواحد الذي يؤهله تكوينه العلميّ والعلوميّ لأن يتردد على مجالين مترابطين، فيجمع بين اللسانيات، بوصفها علماً موضوعه اللغات البشرية، وبين العلوميا التي تجعل من اللسانيات موضوعاً

(14796/1)

للدراسة. فهو لساني إذا درس اللغة، وينقلب علوميّاً إذا حول نظره وشرع يتساءل عن كيف يجب أن تُدرس اللغة.

... ج ـ التحليل التقابلي: باتخاذ البنيوية اللسانية قاعدة، نكون قد ضمنا للعرض كل الوضوح، لأن أي مكون

في "النسق العلومي" لا تتعين خصائصه الداخلة في تشكيل ماهيته إلا بتحديد الخصائص المكونة لماهية مقابله. وعليه، فإن "المعرفة العلمية" لا تعني شيئاً إذا لم يُنظر إليها في مقابل كل من "المعرفة النظرية" و"المعرفة العادية". كما أن "النظرية النسبية" لا ينكشف بناؤها المنطقي بمعزل عن "النظرية الكلية" في

(14797/1)

اللسانيات أولاً، ثم في غيرها من العلوم الإنسانية والطبيعية. وكذلك يستمر التحليل التقابلي ليشمل مكوِّن المنهج في "النسق العلومي"، كما سيتبين في المباحث المخصصة لكل واحد منها.

1 ـ لسانيات كلية ومعرفة نظرية

... لا بأس من إشارة تاريخية، ولو باقتضاب، إلى أن بناء المواد النظرية التي يُستعان بها في البحث اللغوي بدأ في الثلاثينيّات من القرن الماضي في مدرسة ابراغ على يد اتْروبِتسكويْ وياكُبْسُون. وكان استخدام النظرية حينئذ مقصوراً على "الفَصّ النَّصْتي" من اللغة أو على مستواها الفنولوجي. ومنذ

(14798/1)

الخمسينيّات من القرن نفسه، طفرت النظرية في اللسانيات الأمريكيّة، فعمّت اللغةَ بجميع فصوصها واكتمل بناؤها على يد شومسكي باعتباره ممثلاً للفلسفة الاصطلاحية في ميدان اللغة وعلمها.

... من جملة ما يميز الفلسفة الاصطلاحية نفيُها لحقائق الأشياء في الأعيان. وأصحاب هذه النزعة مجمعون، تبعاً لما نقل عنهم بوبر(1)، على أن عقل الإنسان هو الذي يفرض قوانينه على الطبيعة، ومن ثمّةَ فإن "قوانين الطبيعة" ما هي إلا

---

(1) انظر كارل بوبر، منطق المعرفة العلمية. (K. Popper, La logique de la découverte scientifique).

(14799/1)

نتاجٌ لإبداعات الإنسان، كما أن علم الطبيعة النظريّ إنما هو بناء منطقيّ لا صورة عن الطبيعة. وهذا البناء لا يتحدد، في التوجه الاصطلاحي، بخصائص العالَم، وإنما الأمر

بخلاف ذلك؛ إذ البناء المنطقي هو الذي يحدد خصائص عالم اصطناعي، أي عالم من المفاهيم المحددة ضمنياً بواسطة القوانين الطبيعية التي اخترناها، ولا يصف العلم سوى عالمٍ من هذا القبيل.

... استلهم شومسكي(1) نزعة الاصطلاحيين، وبلورها داخل اللسانيات في

---

(1) للمزيد من التفصيل، انظر: شومسكي، تأملات في اللغة (Chomsky, Réflexions sur le langage) .

(14800/1)

مواضع كثيرة من كتبه، فعكس عقيدتهم بمثل قوله: جواهر الأشياء المدركة تشكل الموضوعات الأولى للعلم، وهذه الجواهر ليس لها وجود إلا في الذهن، من حيث هي أفكار نابعة من ذات الذهن نفسه. وبواسطة هذه الأفكار الطَبْعِيَّة، يستطيع العقل أن يعرف الأشياء الخارجية ويتصوّرها من حيث هي موضوعات ثانوية للمعرفة. ويكرر الفكرة نفسها إذ يقول في عمل آخر: ... توجد مبادئ وتصورات منسوجة في الذهن، إذ ننتزعها من أنفسنا ونسقطها على الموضوعات . . . وبالرغم من

كون هذه التصورات المشتركة قد تمت إثارتها بواسطة الموضوعات لكن لا أحد،

(14801/1)

مهما كانت طريقة تفكيره غير معقولة، يتخيلها محمولة في ذات تلك الموضوعات... وباستعمال الحقائق الذهنية المطبوعة في النفس، نستطيع المقارنة بين الأحاسيس الجزئية وتركيبَها وتأويلَ التجربة (1).

... بإدراج المعطيات اللغوية ضمن الأشياء المكونة للعالم المجردة من ماهياتها إلا مما يُضيفه العقل عليها، سيكون شومسكي قد انضم إلى الفلاسفة الاصطلاحيين، الأمر الذي سيضطره عقدياً إلى الرفض المطلق لكل النزعات التي تكون "التيار المراسي"(2)

---

(1) شومسكي، اللسانيات الديكارتية Chomsky, La linguistiaue cartesienne)).

(2) راجع الفصل الرابع من حوار شومسكي مع متسو رونا (Chomsky, Dialogue avec Mitsou (Ronat.

(14802/1)

، ويجبره علمياً على إقامة نظرية لسانية تستجيب ببنائها المنطقي لشروط النسق الرياضي. وبذَيْنكُم النسقين تُؤَوَّلُ التجربة ويتأتى إسقاط بناء عقليّ على وقائع العالم ومعطيات اللغة. فالنظريات في النزعة الاصطلاحية "عبارة عن شبكات لاصطياد العالم فجَعْلِه عالماً معقولاً بتفسيره والتحكم فيه "(1).

1.1 ـ بناء النظرية اللسانية بشروط اصطلاحية

(1) للمزيد من التفصيل، انظر: كارل بوبر، منطق المعرفة العلمية، مصدر سابق.

(14803/1)

... تُقام النظرية اللسانية بشروط النزعة الاصطلاحية إذا توافرت فيها أو في مواد بنائها الخصائص التالية:

... 1) المقدمة الأولى المؤسسة للنظرية يجب أن تكون "فرضية اعتباطية"، وهي قضية تتميز بسمات ثلاث هي: (أ) أن يكون محتواها وضعيّاً لا يحيل على واقع؛ (ب) لا تقبل الإثبات، لذلك تسند إليها القيمة "صادقة" مع التسليم الاعتباطي بهذه القيمة؛ (ج) لا تقبل الفحص ولا

النقض، وكذلك حال ما يبنى عليها. تلكُمُ الخصائص متوافرة جميعها في فرضية العمل الاعتباطية المؤسسة للنظرية اللسانية الكلية، والقائلة: "إن اللغة

(14804/1)

مَلَكَةٌ طَبْعِيَّةٌ مرقونةٌ خِلْقَةً في خلايا عضو من الدماغ البشري تنتقل من جيل إلى آخر بمورِّثات عُضوية "(1).

... 2) النظرية مُنَزَّهَة عن النقض؛ إذ تقوم بينها وبين موضوعها علاقة أحادية التأثير؛ من النظرية اللسانية في اتجاه المعطيات اللغوية ولا ينعكس أبداً. إن الحكم على البناء المنطقي للنسق النظري بالدقة والضبط يتعلق بمدى الانسجام الداخلي الحاصل بين فرضية العمل وبين ما استُنبط منها بواسطة قواعد برهانية

---

(1) للتوسع في الموضوع، انظر: د. محمد الأوراغي، الوسائط اللغوية، 1 ـ أفول اللسانيات الكلية.

(14805/1)

محددة سلفاً، ولا يتأثر بناء النظرية الْبَتَّة بملاحظة الوقائع التجريبية(1). وبتعبير آخر يسير في الاتجاه

نفسه، إن الشواهد الملحوظة في معطيات اللغة الخاصة كالعربية مثلاً يجوز استعمالها لاختبار قواعد النموذج النحويّ الذي أقامته النظرية اللسانية، لكن ليس لتلك المعطيات أن تنقض مبدأ كلياً توقعته النظرية.

---

(1) راجع مفهومي الدحض والانسجام (Falsifiabilité et Cohérence) في الفصل الرابع من كتاب بوبر، منطق المعرفة العلمية.

(14806/1)

... 3) حماية النظرية من الانهيار إذا اشتدت أزمتُها بسبب تصاعد القوادح بازدياد التعارض بين توقعاتها وبين نتائج الملاحظة المثبتة بالتجربة، أو بمنهجية مؤسسة مراسياً(1)

---

(1) حماية النظرية من القوادح المراسية في اللسانيات الاصطلاحية نقله د. عبد القادر الفاسي إلى بعض أعماله، كما في مقاله "عن أساسات الخطاب العلمي والخطاب اللساني"، ضمن المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، ص. 43 ـ 63. ومن أمثلة التعارض المذكور، نجد نظرية شومسكي الاصطلاحية تتوقع أن يكون لكل لغة بضرية

رتبة أصلية، في حين ثبت ثبوتاً قطعياً أن لغات ليس لمكونات الجملة فيها رتبة أصلية. راجع مفهومي اللغات التوليفية واللغات التركيبية في: الأوراغي، الوسائط اللغوية، أو اللغات المعربة واللغات المرتبة في: الأوراغي، اكتساب اللغة.

(14807/1)

. وللاصطلاحيين، عُلوميين كانوا أو لسانيين، عُدَّةٌ خاصة للدفاع عن النظرية والإبقاء عليها. وتتلخص في أربعة أنواع من الوسائل:

... أ ـ التشكيك في القدرة العلمية للمنافس، كأن يدعي الاصطلاحيّ أن منافسه لا يتحكم بالقدر الكافي في موضوع الدراسة(1)

---

(1) تتوقع نظرية شومسكي أن "مبدأ التعلق البنيوي داخل في محتوى الملكة اللغوية"، وعندما جعله بوتنام في ملكة ذهنية أعم سماها "الذكاء العام"، دافع شومسكي عن تصوره بالتقليل من القدرة العلمية لمخالفه، كما يظهر من قوله: "إذا كان بوتنام قادراً بالفعل على أن يشخص بكيفية أو =

= بأخرى الذكاء العام، وأن يبين ولو بطريقة فضفاضة

كيف تناط خاصية تعلق القواعد التركيبية بالبنية الطّبْعِية كما يتصورها بوتنام، سأكون سعيداً بتبني فرضيته". اقتراح بوتنام المضاد يشير إلى أن في ذهنه شيئاً، لكن اعتراضه فاسد الصياغة. (راجع صص. 445 ـ 447 من كتاب "نظريات اللغة ونظريات الاكتساب" (Théories du langage, théories de l'apprentissage)؛ انظر أيضاً رد شومسكي على أصحاب الدلالة التوليدية حين غيروا أساس النظرية المعيار فجعلوا الدلالة مكان التركيب، وكذلك رده على الوظيفيين عندما قالوا: إن لاستعمال اللغة وظيفة تؤثر في بنيتها الصورية. هذا الرد نقله د. عبد القادر الفاسي الفهري إلى كتابه اللسانيات واللغة العربية (انظر ص. 41، 61، 94).

(14808/1)

.

... ب) نزع العلمية عن ملاحظات الدارس بمنهجية النظرية المنافسة، وذلك بالتشكيك في المعطيات الملحوظة وفي نتائج التجربة، بخلع العلمية عنها والموضوعية. بل يجب توظيف متخيَّر من العبارات ليخرج من العلم كل شاهد على صحة الاتجاه المنافس، من شأن

التسليم به أن يقوض البناء المنطقي لنظرية جيدة تستحق في عقيدة الاصطلاحيّ كل رعاية وتعهد.

... ج) تغيير الحدود(1)

---

(1) يُستفاد من تحليل بوبر لمفهوم الحد في التوجيه الاصطلاحي والمراسي أن تغيير الحد في التوجه الأول يعني إعادة صوغ النتائج الداحضة بتحويل حدها الصريح إلى حد ضمني. وللمزيد من التوضيح، انظر المبحث العشرين، وكذلك الفصل الخامس من كتاب بوبر منطق المعرفة العلمية. وللوقوف على مثال علمي لتغيير الحد بالمعنى الاصطلاحي، انظر ما جمعه متسو روني من مقالات في كتاب "النظرية المعيار الموسّعة" (Langue, théorie générative étendue)، والفصل الأول من كتاب شومسكي، قضايا الدلالة (Chomsky, Questions de sémantique).

(14809/1)

يضطر إليه الاصطلاحي لعلّة وغاية. فالعلة تعود إلى تزايد نتائج التجربة التي تقدح في توقعات النظرية؛ أما الغاية، فتكمن في إعادة توافق متوهَّم بين النظرية والواقع. إلا أن ذاك التغيير يجب أن يجمع في عرف

الاصطلاحي بين تحقيق ذيْنكَ المطلبين وبين عدم المساس بالبناء المنطقيّ للنظرية، بحيث لا يصل تغيير الحدود إلى ثوابت النسق التي تجعل منه نظرية متميزة.

... د) إدخال فرضيات مساعدة(1)

---

(1) الفرضية المساعدة (Hypothèse auxiliaire) كالفرضية القاصرة ((Hypothèse ad hoc ينعت بهما بوبر كل ما يلحق النظرية إبان تأزمها من أجل إنقاذها من الانهيار (راجع كتابه منطق المعرفة العلمية).

(14810/1)

. وهي عبارة عن أقاويل خاصة تتميز بعدم انتمائها أصلاً إلى النسق، وإنما تَلْحَقُ به لنجدة النظرية إبان تأزمها. ولعل "البرمترات" (paramètres) الملحقة بنظرية شومسكي في مطلع الثمانينيَّات من القرن الماضي أفضل ما يُمَثِّلُ للفرضية القاصرة في النظرية اللسانية الاصطلاحية(1).

---

(1) راجع: شومسكي، مبادئ وبرمترات النظرية التركيبية (Chomsky, Principles and Parameters in (syntactic Theory؛ وكذلك الفصل

الثالث من: الأوراغي، الوسائط اللغوية، 1 .أفول اللسانيات الكلية.

(14811/1)

... نخلص مما سبق إلى أن النزعة الاصطلاحية المتميزة بنفيها لحقائق الأشياء إذا بُنيت نظرية لسانية بشروطها الثلاثة (أوّلاً، التسليم الاعتباطيّ بصدق فرضية العمل المتبناة؛ ثانياً، تنزيه النظرية عن النقض؛ ثالثاً، حماية النظرية المتميزة ببنائها المنطقيّ من الانهيار)، أوجبت لتلك النظرية خصائص ثلاثاً: أوّلاً، أن يكون موضوعها كلّيّاً؛ ثانياً، أن يكون منهجها جامعاً بين الفرض والاستنباط(1)

---

(1) الفرض والاستنباط نركب لفظيهما تركيباً مزجياً فنحصل على الفِرْناب، وهو المقابل العربي للمصطلح الأجنبي Hypothético-Déductive.

(14812/1)

؛ ثالثاً، أن تكون معرفتها نظرية.

...

1. 2 ـ منطلق اللسانيات الاصطلاحية لغةٌ خاصة ومنتهاها نحوٌ كلّيّ

... إن التسليم بأن اللغة مَلَكَة طبْعِيَّة مرقونة خِلْقَة في خلايا عضو من الدماغ البشريّ تنتقل عبر الأجيال بمورِّثات عُضْوِيَّة، هو من أجل اتخاذ فرضية العمل هذه أساساً لإقامة نظرية لسانية. وغايةُ هذا البناء المنطقي تكمن في اقتناص "الملَكة اللغوية"، وصوغ مثال لها في نسق من المبادئ والقواعد، أو التمثيل لتلك الملكة بواسطة نموذج نحوي. ولسنا بحاجة إلى التذكير بأن أي نموذج يجب أن يتم بناؤه بالقياس إلى

(14813/1)

حقل معين من الموضوعات، بحيث يصير ذاك النموذج المقام مشابهاً لأصله بنية ووظيفة.

... لكنه يحسن استحضار أن تأسيس النظرية اللسانية على فرضية العمل الطبعية(1)

---

(1) فرضية العمل الطبعية مفادها وجود معارف أولية منسوجة في بنية الخلية الدماغية؛ تلك الأوليات لا تُتَعَلَّمُ ولا يفترض خلو الذهن منها، لأنها القاعدة اللازمة والأساس الضروري لكل المعارف المكتسبة. وهذه

الفرضية تكاد ترادف فكرة الإلهام والتسخير التي تقابل الوضع والاصطلاح في الفكر اللغوي العربي القديم. للمزيد من التفصيل، انظر: د. محمد الأوراغي، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم.

(14814/1)

المذكورة آنفاً سيهيئها قطعاً لأن يكون مقتنصها كلياً، أو تكون حصيلتها نسقاً من المبادئ والقواعد الكلية (= النحو الكلي).

... ولعل أول سؤال ينقدم في الأذهان هو كيف الوصول إلى معرفة النحو الكلّيّ؟ مع العلم أنه ينفلت للملاحظة بكل أشكالها. وبعبارة أخرى، بِمَ تنصح النظريةُ اللسانية لكي ينتهي الباحث في إطارها إلى إقامة نموذج نحويّ مشاكلٍ للغة البشرية بنية ووظيفة؟

... إن أول شرط منهجي يجب الالتزام به هو ضرورة التقيد بمبدإ الانسجام الداخلي للنسق المنطقي، بحيث لا نقبل من العبارات القضوية الممكنة إلا ما

(14815/1)

كان متضمناً في مقدمة الانطلاق، أو مستنبطاً من مصفوفة النسق المنطقي بواسطة قاعدة برهانية(1). بالامتثال لمبدإ الانسجام، تستطيع النظرية أن تميز داخل الممكن بين وارد يجب الأخذ به وناب يتعين إهماله.

... إذن، انطلاق النظرية اللسانية من فرضية العمل الطبْعية يُحتم عليها أن تُقر بأن مبادئ النحو واحدة، وأسن قواعده مشتركة بين جميع اللغات البشرية. وإذا تساءلنا عن كيف حصلت لنا المعرفة

---

(1) راجع منهجية الاستنباط في الفصل السادس من كتاب تارسكي "مدخل إلى المنطق". (Alfred (Tarski , Introduction à la logique.

(14816/1)

بالمعلومة المعبر عنها بقولنا: "إن جميع اللغات تشترك في المبادئ نفسها المؤسسة لقواعد الأنحاء الخاصة بها"، كان الجواب في أن هذه المعلومة متوقعة ضمنيّاً من فرضية الانطلاق(1). وهي معلومة واردة في إطار نظرية تفترض أن كل متكلم، في أي مكان أو زمان، يُولد مزوَّداً بملكة لغوية مستقرة في عضو ذهنيّ، وقد

طُبعت، في خلايا هذا العضو، معارف لسانية واحدة. نذكر منها على سبيل التمثيل ما صيغ في الذهن

---

(1) انظر المفهوم من الحد الضمني المقابل العربي للفظ الأجنبي (Définition implicite) في: بوبر، منطق المعرفة العلمية.

(14817/1)

على صورة الأمر، كمبدإ التعلق البنيوي(1) في (1. أ)، أو على صورة الشرط، كمبدإ تجنب الضمير(2) في (1. ب)، أو على صورة النهي، كقيد السوج المعين(3)

---

(1) يعتقد شومسكي أن المعارف اللسانية الطبعية المرقونة خلقةً في خلايا العضو الذهني تكون مصوغة صياغة الأوامر. للمزيد من التوضيح، انظر كتابه: تأملات في اللغة. (Chomsky, Réflexions) sur le langage.

(2) انظر شومسكي، نظرية العمل والربط، ص. 119، 430؛ والأوراغي، المبحث 4.6.3 في: الوسائط، ج 1، أفول اللسانيات الكلية.

(3) ... "قيد السَّوْجِ المعيَّن" المقابل العربي لما سماه شومسكي (Condition du sujet spécifié). انظره في

الفصل الثالث من كتابه: "نظرية العمل والربط"

(Chomsky, Théorie du gouvernement du liage)؛

وانظر أيضاً "قيد الجزر الاسمية" (NIC) في مقاله " On Binding"، **صص.** 1 ـ 46 **ضمن:** 11Linguistic Insquiry.

(14818/1)

في نحو (1. ج) مما يلي:

(1) . (أ) . "كوِّنْ قاعدة متعلقة بالبنية، وأهمل كل قاعدة مستقلة عن البنية".

... (ب) . "متى قدروا على المتصل، لم يأتوا مكانه بالمنفصل".

(ج) . يمتنع ربط المركب س الموجود داخل المركب ج بغير الواقع خارج ج إذا كان ج يحتوي على سَوْجٍ مغاير للمركب س.

... وبمثل هذه المعارف الطَّبْعِيّة يقوى المتكلم، بشرط أن يتصل بلغة محيطه، على تكوين نسق من القواعد النحوية وإتقان استعماله.

... وإذا علمنا مصدر ما في النحو من كليات تصدق في جميع اللغات، فكيف الوصول إلى استكناه تلك المعارف

اللسانية الكلية؟ إجابةً عن هذا السؤال، يقترح اللساني ذو التوجه الاصطلاحي الضوابط المنهجية التالية:

(2) . (أ) . افرض وجود معارف لسانية منسوجة في الملكة اللغوية لدى كل متكلم مهيّأ بتلك المعارف الخلْقِيّة لأن يتعلم أي لغة.

(ب) . إذا ثبت بدراسة دقيقة للغة معينة وجود خاصية بها تعكس معلومة طبْعِيّة، وجب أن تكون تلك الخاصية، تبعاً للضابط المنهجي (2. أ)، مبدأ كلّيّاً تخضع له جميع اللغات البشرية(1)

---

(1) عبر شومسكي عن مبدإ التعميم الموصوف أعلاه في مواضع كثيرة من كتبه، منها قوله: إن القيام بتحليل عميق للغة الواحدة ليوفر الوسائل الكفيلة بالكشف عن خصائص النحو الكلي. وقد قاده هذا الاعتقاد إلى فرضيته الشهيرة التي تقول: إن ما يصح في الأنجليزية يحتمل أن يكون كلياً يستغرق جميع اللغات البشرية. للمزيد من التفصيل، انظر كتبه: دراسات في الصورة والمعنى (Essais sur la forme et le sens)؛ ومسائل الدلالة

(Questions de sémantique)؛ **ونظرية العمل والربط**

(Théorie du gouvernement et du liage).

(14820/1)

.

(ج) . نتيجة الضابط (2. ب) تُمحَّصُ مراسيّاً بالبحث في اللغات الخاصة عن وقائع لغوية واردة بالنسبة إلى المبدإ الكلّيّ المستخلص من دراسة لغة خاصة.

(د) . استناداً إلى طبيعة العلاقة(1) التي تقيمها النظرية الاصطلاحية بموضوعها المتشكل كما تحددت في (المبحث 1. 1)، يجب، أثناء الفحص المراسي، ألَّا تؤْخَذَ بعين الاعتبار معطيات اللغات

---

(1) **للوقوف على طبيعة العلاقة القائمة بين النظرية وموضوعها، انظر: يلمسليف، مقدمات إلى نظرية لسانية.**

(Prolégomènes à une théorie du langage)؛

وبوبر، منطق المعرفة العلمية.

(14821/1)

الخاصة إذا خالفت مبدأً أو قاعدة في النحو الكلّيّ.

... بالنظر إلى اجتذاب الأنجليزية لأكثر اللسانيين المعاصرين ولأقدرهم تنظيراً، وجب أن تكون هذه اللغة، عملاً بالضابط المنهجي (2. ب)، هي الأكثر خضوعاً للدراسة اللسانية المعمقة. ومن تحليل أولئك اللسانيين لـ "مركب القواسم"(1)

---

(1) يشمل مركب القواسم each other كما تستعمله اللغة الأنجليزية في مثل: they want each other to win، ومرادفه في الفرنسية les uns les autres كما في نحو: ils ont promis à leurs épouses d'aller les uns chez les autres. ومثل ذلك "بعضهم بعض" المستعمل في العربية كما في العبارة: "هم وعدوا أبناءهم بزيارة بعضهم بعضاً". (للمزيد من التوضيح، انظر المبحثين: 4. 2. 2. 3 و4. 2. 3. 3 في: الأوراغي، الوسائط اللغوية).

(14822/1)

، كما تستعمله الأنجليزية، سوف ينبجس من الذهن "قيدُ السوج المعين" المصوغ في العبارة (1. ج)، ويُعمَّم

بعد ذلك على سائر اللغات.

... تفعيلاً للضابط المنهجي (2. ج)، تكون العربية، بتجويزها للتراكيب (3) الآتية، قد استجابت لقيد السوج المعين، فامتنع فيها ربط المركب (بعض ـ ضمير بعض) بالسابق (هم) في مثل الجمل (3) التالية.

(3) . (أ) . هم رأوا غرباناً يتناول بعضهم بعضاً.

(ب) . هم لم يسمحوا للراقنات بمساعدة بعضهن بعضاً.

(ج) . هم طلبوا منكم عدم تقديم بعضكم بعضاً.

(14823/1)

... وبخلاف ما سبق، يظهر مركب القواسم (بعض ـ ضمير بعض) في الجمل (4) التالية مرتبطاً بالسابق (هُمْ / هُنَّ).

(4) . (أ) . هم وعدوا زوجاتهم بزيارة بعضهم بعضاً.

(ب) . هم أخبروكم بدعوة بعضهم بعضاً.

(ج) . هنَّ طلبن من رؤسائهن مساعدة بعضهن بعضاً، فأبوا.

(د) . هنَّ سبق استأذنَّ الأزواج برد زيارة بعضهن بعضاً، لكنهم أنكروا.

... وبموجب قيد السوج المعين المصوغ في (1. ج)، يلزم اللغة العربية ألاّ تُجَوِّز جملةً في المجموعة (4)، وإلا اعتُبِرت لغة غير طبيعية وشاذة. وبمقتضى الضابط المنهجي الموصوف في

(14824/1)

العبارة (2. ج)، يجب على اللساني، وهو يفحص مراسيّاً القيد المذكور في لغته الخاصة، ألا يأخذ بعين الاعتبار أحكام المتكلمين الأشهاد إن هم جاوزوا مثلاً جمل المجموعة (4)، لأن حكمهم هذا لا يستند في نظر الاصطلاحيّ إلى نسق منطقيّ يُمَكِّنُهم من تأويل وقائع لغتهم تأويلاً سليماً.

... إذن، لا يحق للغة الخاصة، كالعربية ونحوها من اللغات المختبرية، ولا للناطقين بها أن يجوزوا تركيباً إذا نقض مبدأ كلياً. عن هذا المعنى تعبر النظرية اللسانية الاصطلاحية بقول أصحابها: إن الشواهد الملحوظة في معطيات اللغات الخاصة

(14825/1)

يجوز استعمالها لاختبار قواعد التركيب المقترحة، لكن ليس لها أن تدعم أو تنقض مباشرة شرطاً كليّاً، لأن ذلك من اختصاص قواعد التركيب. هذا الأصل الاصطلاحي الذي صاغه شومسكي(1) في مواضع من أعماله المتعددة بعبارات متغايرة يمكن إجماله بواسطة المبيان (5) الآتي:

(5)

... ...

... وإذا ثبت، من دراسة معمقة ودقيقة للعربية في إطار نظرية لسانية نسبية، أن النسق النمطي لهذه اللغة يُجَوِّز تراكيب الجمل (4) التي تمنعها نظرية

---

(1) راجع المدخل من كتاب شومسكي، دراسات في الصورة والمعنى.

(14826/1)

النحو الكلي بقيد السوج المعين، فكيف ينحل التدافع بين توقعات النظرية وواقع اللغات الخاصة؟

... إن إعادة التوافق بين توقعات نظرية النحو الكلي ووقائع اللغات الخاصة لا يحصل أبداً، تبعاً للتوجه الاصطلاحي في اللسانيات، عن طريق إدخال تعديلات على

البناء المنطقي للنظرية، بل يجب التمسك بالنظرية والمحافظة عليها مع إعادةِ النظر في نتائج الدراسة والطعنِ في القدرة العلمية للباحث(1)

---

(1) للاصطلاحيّين طرق عدة لتحصين نظريتهم المهددة بالانهيار. راجعها في فصول القسم الأول من كتاب بوبر، منطق المعرفة العلمية؛ وفي المبحث 2. 4 من كتاب الأوراغي، الوسائط اللغوية، ج 1، أفول اللسانيات الكلية.

(14827/1)

. للتأثير اتجاه واحد، ينطلق من النظرية ليحط بموضوعها اللغة. وهذا المبدأ الاصطلاحيّ يردده المنظرون حتى أتباعهم، كما يظهر بصريح العبارة من قول بعضهم(1):

... النظريات التي بلغت درجة من العمق التفسيريّ في مجال محدود يجب ألا تنحّى بمجرد تقديم الحجة على كونها

---

(1) انظر د. عبد القادر الفاسي الفهريّ وهو يردد نزعة اصطلاحية تخص طبيعة العلاقة القائمة بين النظرية

اللسانية الكلية والوقائع التجريبية، في مقاله "عن أساسيات الخطاب العلمي والخطاب الأدبي"، ضمن: المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، صص. 43 ـ 63.

(14828/1)

تتعارض مع التجربة كما تظهر في الحس العادي، ويجب أن يتوفر الاستعداد عند الباحثين لاحتمال أن تظل بعض الظواهر بدون تفسير، والتسامح في وجود بعض الحجج المضادة، خصوصاً وأن اللسانيين يترددون، في كثير من الأحيان، في تحديد نوع الحجج الواردة بالنسبة لنظرية معينة.

وبمثل هذا الحديث المتكرر بكثرة في أعمال الاصطلاحيين يظهر بوضوح أن هؤلاء، أيّاً كان مجال تفكيرهم، لا يسمح اللساني منهم للوقائع اللغوية المضادة بأن تؤثر تعديلاً في "الرواسم الأولية"(1)

---

(1) نستعمل الرواسم الأولية بمعنى termes primitifs في الفصل السادس من كتاب تارسكي، مدخل إلى المنطق.

(14829/1)

ولا في البناء المنطقي للنظرية اللسانية. وكأن بهؤلاء لا يترددون في التسليم بصدق العبارة (6) الآتية:

(6) . البناء المنطقي لنظرية النحو الكلي يتوقع، بقواعد البرهانية، معارف لسانية يقينية، إذا لم تصدق في كل اللغات البشرية فلخلل واقع خارج النظرية.

... إنها معارف لسانية، لانتمائها إلى ميدان اللغة، وكلية باعتبار فرضية العمل الاعتباطية التي تؤسس نظرية اصطلاحية، ويقينية من حيث منهجيَّةُ الاستنباط المستعملة لاقتناصها لا من حيث صحتُها في جميع اللغات البشرية. وكل معرفة توافرت فيها هذه الخصائص الثلاث فضلاً

(14830/1)

عن نسقيتها، أمكن إدراجها في ضرب "المعرفة النظرية". ولا يعنينا من "المعرفة النظرية"، كما وضحنا في مقدمة هذا العرض والتزمنا به في سائر مباحثه، إلا "المعرفة النظرية الحقلية"(1)

---

(1) من المعرفة النظرية ما يكون "بحتاً"، فلا يتناول

أي حقل من الموضوعات، بل لا تطلعنا هذه المعرفة النظرية البحتة على شيء في العالم الذي يحيط بنا، لأن مثل هذه المعرفة تكون مستنبطة بتطبيق قواعد صورية يشكل بناؤها الصارم نسقاً رياضيّاً بحتاً. للوقوف على هذا الضرب من المعرفة، انظر الفصل الأول من كتاب رودلف كارناب، الأسس الفلسفية للفيزياء. (Rudolf Carnap, Les fondements philosophiques de la physique).

(14831/1)

، وهي المنتمية إلى حقل علمي بعينه كاللسانيات، دون غيره من الحقول الأخرى كالفيزياء والإحيائيا والفلك، ونحو ذلك من حقول العلم الخاصة.

...

1. 3 . خصائص المعرفة النظرية

... تبيَّن أن المعرفة تكون نظرية وإن كانت حَقْلِيَّة، وأن "المعرفة النظرية الحقلية" تتميز بخصائص يمكن إجمالها في ما يلي:

... أولاً: كونها "نسقية"، بمعنى أن حصولها للعارف يكون بواسطة نظرية يمكن بناؤها المنطقيُّ المحكم من إقامة نموذج مطابق، بنيةً ووظيفةً، لحقل معين من

الموضوعات. خاصية النسقيَّة هذه، وإن تقاسمتها كل من "المعرفة

(14832/1)

النظرية" و"المعرفة العلمية"، فهي مميزة بالقياس إلى "المعرفة العادية التي تختص بقيامها على "الإدراك المباشر"، كما سيتبين بعد قليل.

... ثانياً: كونها "يقينية". وهذه الخاصية مقصورة على "المعرفة النظرية" المستنبطة بقواعد برهانية صورية من مصفوفات النسق (وهي مقدمات لا تحيل على واقع). وكل معلومة يقينية، فهي صادقة وإن لم تصادف واقعاً في لغة. إذن "القيمة الصدقية" المسندة إلى المعلومة اليقينية تُناط بمنهجية استنباطها لا بمعيار مطابقتها للواقع.

(14833/1)

... ما أوردناه في شأن هذه الخاصية يمكن توضيحه بمثال بسيط، يعرفنا بكيفية بناء نسق صوريّ منتج في نظرية النحو الكلّيّ للمقولات المعجمية التي

تتقاسمها جميع اللغات البشرية.

... إقامة نسق صوري يحتاج إلى: التحديد المسبق لعدد محصور من الرموز(1)، كعلامتي الإيجاب

---

(1) ينظر في موضوع منهجية بناء الأنساق الصورية: تارسكي، مدخل إلى المنطق (Alfred Tarski Introduction à la logique)؛ وكارناب، الأسس الفلسفية للفيزياء. (Rudof Carnap, Les fondements philosophiques de la physique)؛ وكارل بوبر، منطق المعرفة العلمية.

(14834/1)

(+) والسلب (-)، إضافة إلى "س" علامة "الموضوع" الذي يشمل الاسم والصفة، و"ف" علامة "المحمول" الذي يتناول الفعل والصفة(1). ثم اتخاذ السمات: [+ س]، [+ ف] أساساً لتكوين النسق الصوري ([+ ِ س]، [+ ِ ف]). وأخيراً، حصر ما يوفره هذا النسق من الاحتمالات الضرورية منطقياً، لنحصل في النهاية، من النسق الصوري (7أ)، على الأقسام الأربعة الممكنة (7 ب)، كما يتضح مما يلي:

(7) . (أ) . ([+ ِس] ، [+ ِف]).

---

(1) راجع المبحث 2. 3. في: شومسكي، نظرية العمل والربط؛ والفصل الأول من كتابه: The Minimalist Program.

(14835/1)

... (ب) . [+ س + ف] تمثيل لمقولة الصفة.

... [ـس . ف] تمثيل لمقولة الأداة.

[+ س . ف] تمثيل لمقولة الاسم.

... [ـس + ف] تمثيل لمقولة الفعل.

... ندرك يقيناً أن النسق (7 أ) يولِّد بالضرورة المنطقية الأقسام الأربعة (7 ب) ليس غير. ومع ذلك، لا نستطيع الجزم باليقين نفسه أن هذا التقسيم الرباعي كلِّيٌّ (أي كل اللغات البشرية تتقاسم هذه المقولات الأربع لا أقل ولا أكثر) (1)

---

(1) عدد أقسام الكلم قد يختلف حتى داخل اللغة الواحدة، وذلك بحسب منطلقات الدارسين. ففي العربية مثلاً وجد سيبويه ثلاثة أقسام: الاسم والفعل والحرف، وبلغ العدد

في مقترح تمام حسان سبعة: الاسم والصفة والفعل والضمير والخالفة والظرف والأداة، كما في كتابه، اللغة العربية معناها ومبناها، ص. 90. ووجدنا بمعيار مغاير غير ذينك العددين بمقولات أخرى، هي: اسم جوهر، اسم زمان، فعل تام، فعل ناقص، صفة، أداة. (انظر: الأوراغي، الوسائط اللغوية، مرجع سابق).

(14836/1)

حتى وإن سلمنا بفرضية العمل الطبْعيّة التي من مستلزماتها قولهم: ما صحّ في لغة معينة وجب أن يصح في سائر اللغات.

... لا أحد ينكر كون الأقسام (7 ب) مستنبطةً بالضرورة المنطقية من النسق (7 أ)، لكن لا أحد أيضاً يستطيع أن يتوصل من النتيجة [ـ س ـ ف] إلى معرفة ماهية هذه المقولة، وكذلك الحال في باقي المقولات. وكأننا مدعوون إلى معرفة الماهيات من جهة أخرى، وبمنهجية غير المنهجية، حتى إذا تصورناها تمام التصور ألصقنا بها الصيغ الرمزية في (7 ب)، ومع تلك الدعوة نستلزم تحذيراً بضرورة رفض كل ما نجده من تلك الجهة

(14837/1)

مخالفاً للنتائج المستنبطة، كان الاختلاف في الكم أو في الكيف، وبذلك تثبت خصيصة اليقينية للمعرفة النظرية، نُعبر عنها من جديد في ما يلي:

(8). النتيجة المستنبطة بقواعد صورية معلومة يقينية وإن لم تصادف واقعاً، أو كان في الواقع ما لم تصادفه.

... ثالثاً: الخصيصة الثالثة المميزة للمعرفة النظرية متمثلة في كلية النتائج المستنبطة، وعلى هذه الخصيصة انبنت نظرية النحو الكلي المستخلص من دراسة مدققة للغة الأنجليزية. ومن كليات النحو نذكر مبدأ تأصيل اللغات لأبنيتها القاعدية(1)

---

(1) راجع في مسألة الرتبة الفصل الثالث من كتاب: الأوراغي، الوسائط اللغوية، ج 1.

(14838/1)

المصوغ بالعبارة (9) التالية:

(9) . (أ) . لكل لغة بنية قاعدية ذات رتبة قارة

تؤصلها بانتقاء أحد التراتيب الستة (9 ب) المحتملة من القسمة العقلية للثلاثي.

(ب) . فا(عِلٌ) . فِعْـ(لٌ) . مَفْـ(عُولٌ).

فِعْـ(لٌ) . فَا(عِلٌ) . مَفْـ(عُولٌ).

فَا(عِلٌ) . مَفْـ(عُولٌ) . فِعْـ(لٌ).

... وبتأصيل لغات كالأنجليزية للترتيب: فا(عِلٌ) . فِعْـ(لٌ) . مَفْـ(عُولٌ)، قد تسمح بتفريع ترتيب آخر، فاحتاجت كل اللغات إلى قاعدة تحريك كلية تسمى عادة بقاعدة "انقل الألف"، وهي تسمح بنقل أيّ مقولة إلى أي موقع، مع ضبط

(14839/1)

هذا النقل بقيود لاختيار المنقول ومكان إقامته.

... إن مبدأ تأصيل الرتبة لمكونات البنية القاعدية، وقاعدةَ التحريك اللازمةَ عنه، إذا نقضت كليَّتَهما معطياتٌ لغويةٌ وجب إعادة التوافق بينهما، لكن ليس بإدخال تعديل على الكلّيّ ليقينيته، ولا بالتشكيك في المعطيات الداحضة لثبوتها القطعي، وإنما باصطناع "فرضيات عينية" تُلحق بالنظرية عند الحاجة لتقوم بدورين في آن واحد: (أ) أن تساعد النظرية على الصمود

وتحميها من الانهيار، بسبب تصاعد توقعاتها المناقضة لواقع اللغات، (ب) أن تُناط بها المميزات الملحوظة في اللغات

(14840/1)

الخاصة. وما جمع، فصلاً عن الإلحاق المتأخر، بين هاتين المهمتين من تلك الفرضيات فهو البرمتر في حقل اللسانيات.

... نخلص من هذا المبحث الأول إلى أن اللسانيات الكلية نظرية نحوية، أساسها فرضية عمل اعتباطية، ومنهجيتها قواعد استنباط صورية، ونتائجها معرفة نظرية تتسم بالنسقية واليقين والكلية. وهي نظرية مُبَرمَتَةٌ، إذ تستعين بفرضيات عينية لحل تناقضاتها مع بعض اللغات.

... وما سقناه في موضوع اللسانيات الكلية يدعونا بكل إلحاح إلى إقامة مقترح يتجاوز، بالمعنى العلومي للتجاوز، نظرية النحو الكلي، بإدماجها في

(14841/1)

نظرية أعم للسانيات النسبية.

2. لسانيات نسبية ومعرفة علمية

... اللسانيات النسبية نظرية تؤسسها "فرضية مراسية" تفيد أن اللغات البشرية "ملكات صناعية كسْبية". ويلزم عن محتوى هذه الفرضية أن تتميز بخصائص ثلاث: ...

... أولاً: كونها قضية واقعية تحيل على موجودات في المحيط الخارجي يتم اقتناصها مراسياً(1)

---

(1) ثبت أن الفرضيات المؤسسةَ للنظريات إما اعتباطية لا تحيل على شيء في المحيط الخارجي، وإما مراسية مرتبطة بواقع. وهذه الأخيرة "حدود، ومقدمات واجب قبولها في أول العقل أو بالحس والتجربة أو بقياس بديهي في العقل" (ابن سينا، البرهان، ص. 59؛ راجع أيضاً رودلف كارناب وهو يفرق بين القوانين المراسية (Lois impliquées) والقوانين الكلية (Lois universelles) في كتابه: الأسس الفلسفية للفيزياء؛ وراجع كذلك كارل بوبر، حيث يدافع في كتابه: منطق المعرفة العلية، عن تصوره للأقاويل الجزئية (ة noncés singuliers) في مقابل الأقاويل الكلية (ة noncés universels) لدى الاصطلاحيين.

(14842/1)

. ولارتباط محتواها بالواقع، صارت تقبل الإثبات وتحتمل النقض(1). وإذا لم تثبت عند الفحص، وجب إدخال التعديلات اللازمة

---

(1) الفرضيات المؤسسة للنظريات قابلة للإثبات دون السقوط في إقامة براهين بلا نهاية، ولا في الدور: كالبرهنة ببعض الفرضية على بعضها الآخر. وهو ما يؤكده ابن سينا بقوله: "لكل واحد من الصناعات، وخصوصاً النظرية، مبادئ وموضوعات ومسائل. والمبادئ هي المقدمات التي منها تُبرهِن تلك الصناعة، ولا تُبرهَن هي في تلك الصناعة... وإنما تُبَرْهَنُ في علم فوقها أو في علم دونها ". (البرهان، ص. 98).

(14843/1)

عليها وعلى النظرية المستندة إليها.

... ثانياً: كون اللغة داخلةً في الملكات الصناعية يترتب عليه أن تكون موضوعة بالاختيار. وما هو كذلك يجب أن يكون مختلفاً في حدود ما تسمح به الإمكانات

الاختيارية.

... ثالثاً: اللغة إذا حلت بالعضو الذهني(1) المهيّإ خلْقَة للانصياغ، شكّلته

---

(1) سبق أن أثبتنا أن البنية الخلوية للأعضاء الدماغية تمتاز عن غيرها بتهييء العضو الذهني للتشكُّل ببنية ما يحل فيه فيكتسب عندئذ قدرةً عمليةً. (للتوسع في الموضوع، انظر: الأوراغي، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، مصدر سابق).

(1/14844)

ببنيتها وكوَّنت له القدرة على فعل الكلام.

... اتضح، مما سقناه في الفقرة أعلاه، أن التأثير متبادل بين النظرية وموضوعها، وأن اتجاهه في البدء يجب، بمقضى الفرضية المراسية، أن ينطلق من اللغات نحو النظرية، مما يجعل من اللسانيات النسبية نظرية لأنحاء نمطية. نظرية تكون جميع توقعاتها اللسانية نمطية، أو تتوقع لكل الأنماط اللغوية القواعد النحوية المناسبة.

2. 1 . بناء النظرية اللسانية النسبية

... من انشغالات اللسانيات النسبية ضبط بناء النظرية بما يجعلها تتوقع الأنماط اللغوية الممكنة والقواعد النحوية التي

(14845/1)

تصادف واقعاً في نمط بعينه. ولكي تستجيب نظرية اللسانيات النسبية للضابط المذكور، يلزمها أن تجعل من "الفرضية الكسبية المراسية" (1)

---

(1) من خلال المقارنة بين لغة الحيوان ولغة الإنسان، تبين لابن سينا أن الضرورة الخِلْقِيّة تحتم أن تكون الأولى طبْعية لأن الحاجات البيولوجية للحيوان متناهية، فأُقْدِر كل صنف من هذا النوع على التواصل بلغة محدودة على قدر الافتقار. ولما كانت أغراض الإنسان غير محدودة، لزمته لغة على قدر الحاجة، بإمكانات غير متناهية. وغير المتناهي متجدد، والمتجدد وضعي. بل إن الضرورة الخِلْقيَّة للإنسان هي الباعثة له على اختراع لغاته، كما نص على ذلك ابن سينا بقوله: "ولما كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمجاور، انبعثت إلى اختراع شيء =
= ... يُتوصَّلُ به إلى ذلك، ولم يكن أخف من أن يكون فعلاً،

ولم يكن أخفَّ من أن يكون بالتصويت... فمالت الطبيعة إلى استعمال الصوت، ووُفِّقت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معاً ليُدَلَّ بها على ما في النفس من أثر". (كتاب العبارة، ص. 2. وللمزيد من التفصيل، انظر أيضاً القسم الأول من كتاب الأوراغي، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم؛ والمقالة الخامسة من كتاب ابن سينا، النفس، ص. 181).

(14846/1)

أساساً لبنائها؛ كما يجب أن يكون بناؤها(1) قالَبيّاً وجوبَ أن تكون هذه القوالب نمطية.

... إن النمطية تعني هنا الجمع بين إثبات الاختلاف للغات البشرية، وبين منْع اختلافها من الانتشار الواسع، مع توقُّعِ إمكان إرجاعه إلى أقل عدد بعد

---

(1) للقالبية في اللسانيات النسبية تصور مغاير لما هي عليه في كل من النحو التوليدي التحويلي والنحو الوظيفي. للتوسع في الموضوع، انظر الفصل السابع "فصوص اللغات وقوالب اللسانيات" في كتاب الأوراغي، الوسائط اللغوية، ج 2، اللسانيات النسبية والأنحاء النمطية، انظر الطرة 49.

(14847/1)

الواحد الكلي. ولا سبيل إلى حصر من هذا الضرب بغير استثمار على نطاق واسع لمبدإ التقابل الثنائيّ بين شبكتين محتملتين من "الوسائط"(1). وليكون هذا الاستثمار نسقيّاً، تعين أن تكون الوسائط من مقومات النظرية اللسانية التي تتوقع قواعد نمطية، وأن تكون داخلة في تشكيل بنيتها المنطقية التي تنتج معرفة علمية.

---

(1) نستعمل هنا الوسيط بمعنى مغاير لمدلول البرمتر في نظرية النحو الكلي. راجع الفصل الثالث "برمترات النظرية ووسائط اللغة" في كتاب الأوراغي، الوسائط اللغوية، ج 1، أفول اللسانيات الكلية.

(14848/1)

... إثارةُ الاختلاف النمطي لا يترتب عليه عدم ائتلاف اللغات من كل وجه، لأنه يكفي أن نعتبر الطبيعة الرمزية للغة لنتبين أن كل اللغات، مهما اختلفت بنيتها النمطية، فهي عالم رمزيّ يعكس بصدق انتظام

الأشياء في عالم تصوّريّ مطابق لعالم واقعيّ (1)

---

(1) للوقوف على الطابع المرآتي المخلوع في التقليد الغربي على اللغة، انظر كتابي شومسكي، اللسانيات الديكارتية (Linguistique cartésienne) و تأملات في اللغة (Reflexions sur le langage) ؛ انظر أيضاً مقدمة الطبعة الأنجليزية لكتاب بوبر، منطق المعرفة العلمية، مصدر سابق.

(14849/1)

. واللغات، من جهة ما تعكس، يجب أن تتوحد ولا تختلف. فهي واحدة من جهة المعبر عنه، ونمطية من جهة العبارة.

... هذا الطابع الازدواجيّ المميّزُ للغات البشرية بلغ من البيان في الفكر العربي القديم حتى لاكَتْهُ الأقلام على اختلاف تخصصات أصحابها. وأوضح عباراته قول الغزالي:

... إن الشيء له في الوجود أربع مراتب: الأولى حقيقته في نفسه؛ الثانية ثبوت مثال حقيقته في الذهن، وهو الذي يعبر عنه بالعلم؛ الثالثة تأليف صوت بحروف تدل عليه، وهو العبارة الدالة على المثال الذي في النفس؛ الرابعة تأليف رقوم تدرك بحاسة

(14850/1)

البصر دالة على اللفظ، وهو الكتابة. فالكتابة تَبَعٌ للفظ إذ تدل عليه، واللفظ تَبَعٌ للعلم إذ يدل عليه، والعلم تَبَعٌ للمعلوم إذ يطابقه ويوافقه. وهذه الأربعة متطابقة متوازية، إلا أن الأوليْن وجوديان حقيقيان لا يختلفان في الأعصار والأمم، والآخَرَيْن، وهما اللفظ والكتابة، يختلفان في الأعصار والأمم لأنهما موضوعان بالاختيار (1).

... ولا يعنينا من تلك المراتب الأربعة سوى وجود الشيء في المرتبتين الثانية والثالثة، لأنه في المرتبة الثانية يكون وجودياً، أي ثابتاً

---

(1) ... الغزالي، المستصفى، ج 1، ص. 21.

(14851/1)

في أذهان كل الأقوام بغض النظر عن لغاتهم الخاصة. ولوقوعه في هذه المرتبة، نسميه تبعاً للغزالي "نُطْقاً"(1)

(1) يعبر الغزالي عن تصور النظار للنطق والكلام والقول وعن علاقة التشارط القائمة بين هذا الثلاثي فيقول: "النطق ليس هو صورة العبارة، ولا نفس الإشارة، ولا شكل الحروف، ولا تقطيع الأصوات، بل النطق هو تمكن النفس الإنسانية من العبارة عن الصورة المجردة المتقررة في علمه، المفردة في عقله، المتبرئة عن الأشكال المعراة عن الأجسام... وهو أصل الكلام والقول... لأن كلامنا أثر نطقنا... قبل إلقاء القول عليه... والكلام يحتاج إلى عبارة ونظم ولفظ ليصير قولاً... ولا يظهر القول إلا بواسطة الصوت... فالقول إذا صدر عن لسان المتكلم وانتظمت عبارته، يحمله الهواء... ويبلّغ المعاني الملبوسة المركبة المرتبة إلى آذان المستمعين". (الغزالي، المعارف العقلية، مصدر سابق، ص. 30 ـ 69).

(14852/1)

؛ ولثباته في أذهان الجميع وسريانه في كل اللغات، استحق محتوى "النطق" أن يتصف بالكلية بالمعنى الوارد للنسبية في النظرية اللسانية. وإذا أصبح الشيء موجوداً في المرتبة الثالثة، انقلب عندئذ وضعياً

بالاختيار، وصار متغير الهيئة عبر الزمان، ومتبدل الصورة بين لغات الأمم. وما كان كذلك نسميه مع الغزالي "القول". وبما أن تغيُّر هذا الأخير يكون في حدود ما تسمح به الوسائط، استحق "القول" أن يتصف بالنمطية.

... تبين مما تقدم أن "النطق الكلّيّ" يعد شرطاً ضرورياً لتكوُّن ما بعده، وإذا صح أن "القول النمطيّ" يُشكل،

(14853/1)

بموجب طبيعته المادية، صورة مطابقة لما قبله لام فراغ في النسق المفهوميّ للنظرية وفي لغتها الاصطلاحية، لأن السابق الكلي لا يكون شرطاً مباشراً للاحق النمطي الذي تجبره طبيعته المادية على أن يكون مطابقاً لأصله. ولسد هذا الفراغ، تعين إدخال مصطلح "الكلام" بوصفه أصلاً للقول وشرطاً مباشراً لتكونه.

... ظهر أن "الكلام" بمثابة حلقة وصل، لأنه يجمع في آن واحد بين كونه "لاحقاً وأصلاً"؛ فهو "أصل" لصورته، لأنه يُعَدُّ شرطاً كافياً لتكَوُّن القول بعده، و "لاحقٌ"، لأن سابقَه "النطق" شرط لا يكفي لتكوُّن "الكلام"،

(14854/1)

لأن ''النطق'' ليس سوى جزء من الشرط التام، جزؤه الثاني ''الوسائط''، ومن مجموع ذلك؛ ''النطق الكلي والوسيط الاختياري'' يتشكل ''أصل'' ضروريّ لتكوُّن ''كلام نمطيّ''، يُعَدُّ بدوره أصلاً لصورته ''القول النمطي''، لأن المطابق للنمطيّ يجب ان يكون نمطيّاً مثله.

... اتضح أن ''النطق الكلّيّ'' مثل ''الكلام النمطي'' في استرفاد العون من ''الوسيط الاختياري''؛ إلاّ أن ''النطق'' يفتقر إلى ''الوسيط'' ليخرج به من مجرد ''سابق'' ويشكل معه ''أصلاً'' وشرطاً كافياً لما بعده، بينما ''الكلام'' يحتاج إلى ''الوسيط'' ليضمن لنفسه، بالرغم من نمطيته، أن

(14855/1)

يكون صورة مطابقة للكلّيّ قبله.

... كل المفاهيم الواردة في الفقرات السابقة يمكن من جديد تقديمها دفعة واحدة وتنسيقها بعلاقة التعدية القائمة بين ''الصورة'' و''أصلها''، كما يكشف عن ذلك البناء المبياني التالي:

(10) .

[العالم الخارجي]

[النطق الكلي] + [وسائط اختيارية] [كلام نمطي] (قول نمطي).

... كَوَّنّا حتى الآن المفاهيم الرئيسة التي تدخل في تشكيل البناء النظريّ للسانيات النسبية، وبيَّنَّا كيف تترابط فيما بينها وتتسق. ومع ذلك كلّه، لابد من تحليل دقيق ومفصل لكل عنصر في المبيان (10) أعلاه.

(14856/1)

---

2. 2 ـ كليات اللسانيات النسبية ووسائطها الاختيارية

... دفعاً للتطويل، نكتفي بالإشارة العابرة إلى أن التعدية بين "العالم الخارجي" وبين "عُدَّةِ الاكتساب" (1) تبادلية؛ بمعنى أن هذه العلاقة تقوم أوّلاً بين أصل سابق يتمثل في الحقائق الثابتة في العالم الخارجي، وبين "صورته اللاحقة"؛ وهو المعنى أو مثال الحقيقة المرتسم في الذهن. وتقوم ثانياً

---

(1) مدة الاكتساب تشمل قوى النفس المعرفية وقواها

التعلمية. للمزيد من الإيضاح، انظر القسم الأول من كتاب الأوراغي، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم، مصدر سابق.

(14857/1)

بين "سابق" (وهو "معنى" يتولد أصلاً في الذهن من المثال المرتسم ومعه إحدى علاقات ... التوليد؛ كالمخالفة والمماثلة واللزوم ونحو ذلك من العلاقات المولدة للمعاني الذهنية)، و "لاحقه" الذي يشكل حقائق ممكنة يُسقطها الذهن على العالم الخارجي، سواء أكانت تلك الحقائق لزومية أو احتمالية أو تخييلية (1).

... من علاقة التعدية التبادلية التي تقوم بين العالم الخارجي المنتظم على وجه كلي وبين عدة الاكتساب

---

(1) للتوسع في الموضوع، راجع الفصل الرابع من كتاب الأوراغي، الوسائط اللغوية، ج 1 ـ أفول اللسانيات الكلية.

(14858/1)

المهيَّأة للتصور والتوليد تنشأ في ذهن كل إنسان الأمثلة نفسها للحقائق الممكنة والثابتة نفسها، من قبيل [شَمْسٌ، ضَوْءٌ، كُسوفٌ، خَشَبٌ، نارٌ، حَرْقٌ، أَسَدٌ، ذِئْبٌ، حَمَلٌ، افْتراسٌ، طِفْلٌ، إنْسَانٌ، خَضْمٌ، تُفَّاحَةٌ، بَلْعٌ، مَضْغٌ، رَجُلٌ، ابْنٌ، امْرَأَةٌ...]، فيتكون له "نُطْقٌ" محتواه "كليات مجردةٌ". وهذه الأخيرة من حيث محتواها قسمان: "كليات دلالية" و"كليات تداولية"، وكلا القسمين يتفرع إلى صنفين، كما سيتبين.

2. 2. 1 .الكليات الدلالية والتداولية

(14859/1)

... يتميز الكلّيّ بتوافر ثلاث خصائص يلزم لاحقُها عن السابق على النحو التالي: (أ) أن يكون الكلي مُقَوِّماً لكل لغة بشرية، فلا توجد لغة مع عدمه، (ب) أن يكون مشتركاً بين جميع اللغات، فلا تخلو إحداها منه، (ج) أن يكون له انعكاسٌ، على نحو معَيَّن، في "البنية القولية" الخاصة باللغات، وإلا فلا دليل ماديٌّ أو حسيٌّ على وجوده. والكلّيّ كما وصفناه يختصٌّ يجب أن تنتظمه علاقة؛ وهذه العلاقة تتفرع تبعاً لطرفيها إلى قسمين.

(14860/1)

... (أ) علاقة تداولية إذا كان طرفاها متخاطبين، كأن يوجد المتكلم [ك] داخلاً في العلاقة [ع] مع المخاطب [خ] بحيث يلزم [ك] تكوين القول (ق) المتميز بخاصية بنيوية تعكس [ع]. والكلي التداولي كما وصفناه نصوغه من جديد بالعبارة (11) الآتية.

(11) . [ك2 ع خ1] // (ق).

... من الأمثلة المشخصة لهذا الكلي وجود متكلم مخصوص داخلاً في علاقة مع مخاطب معين تلزمه تلك العلاقة أن يُكوِّن بنية قولية بخصائص الجملة الطلبية، من نحو ''ناولني بطاقة التعريف''، و''أين بتَّ ليلةَ وقوعِ الجريمة''، و''لا تغادر المدينة إلى إشعار

(14861/1)

آخر''. والكلّيّ التداولي يتفرَّع إلى (أ) عدد محصور من العلاقات التخاطبية الممكنة من جنس المصوغ في العبارة (11) أعلاه. (أأ) اقتضاءات بحتة؛ وهذه عبارة عن

ضوابط كلية تُقَيِّدُ المتخاطبين بوصفهما طرفَيْ العلاقة التخاطبية(1).

... (ب) علاقات دلالية محصورة العدد تتميز بأن أطرافها مفردات بحتة؛ كعلاقة الإضافة (ع ∪ ع) القائمة بين المتضايفين (س، ص) المعبر عنها بالدالة؛ [ص (ع ∪ ع) س]،

---

(1) للمزيد من التدقيق، انظر الفصل الخامس من كتاب الأوراغي، الوسائط اللغوية، ج 2 .اللسانيات النسبية والأنحاء النمطية.

(14862/1)

والمتحقق لغويّاً في بنية قولية على نحو (ضوء شمس، ابن امرأة). وعلاقة الانتماء بين الكل (سا) وبعضه (س) المصوغة في (س – سا) والمحققة لغوياً في (الطفلُ إنسانٌ)، وعلاقة السببية (( ) الجامعة بين طرفين، بحيث يكون أحدهما سبباً في وجود الآخر (س (م) كما يتحقق لغوياً في نحو (حَرْق النار)، وعلاقة العِلِّيَّة (<) التي تجمع بين طرفين أحدهما يكون حافظاً لوجود الآخر (م < س) مثله في اللغة (كُسوف الشمس)، وعلاقة

السَّبْلِيَّة ( ) القائمة بين طرفين (م (س) بحيث يجمع أحدهما بين كونه سبباً وحافظاً

(14863/1)

للآخر كما في (هروب الناس)، وعلاقة اللزوم ( ) التي تربط طرفين بشرط أن يكون أحدهما متضمناً للآخر(1)، وهذا الأخير لازماً عن سابقه.

... ظهر أن الكليات الدلالية تتفرع هي الأخرى إلى صنفين: (أ) مفردات بحتة؛ وهذه تمثل الوجه الكَلِمِيِّ الضروري لتكوُّنِ مداخل لمعاجم اللغات البشرية. (أأ) علاقات تأليفية:

---

(1) للوقوف على ما سرد من العلاقات وغيرها، راجع الأصول الجبارية في القسم الثاني من كتاب الأوراغي، اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم؛ والفصل الثالث من الوسائط اللغوية، ج 1 ـ أفول اللسانيات الكلية.

(14864/1)

بواسطتها تنتظم المفردات البحتة، وينشأ في "تركيب" جميع اللغات "بنية وظيفية" واحدة.

... اتضح أن الكليات الدلالية والتداولية، في النظرية اللسانية النسبية، مقوِّمة لكل الأنساق التي تُصنَع لغرض التواصل، وبالتالي فهي واجبةُ التحقُّق في كل اللغات البشرية لكن بكيفية غير مباشرة، ومن ثمّة نشأت الحاجة إلى الوسائط اللغوية.

2. 2. 2 ـ الوسائط اللغوية الاختيارية

... تشكل الوسائط اللغوية، داخل النظرية اللسانية النسبية، مجموعة محصورة من الاحتمالات المتقابلة والموزعة توزيعاً توافقياً على فصوص اللغات وقوالب

(14865/1)

أنحائها(1)

---

(1) سبق أن أثبتنا في أكثر من موضع أن كل لغة بشرية تقبل أن تتجزأ إلى أربعة فصوص متعالقة: (1) فصٌّ نَصْغِيّ له محتوى صوتي، يتفرع إلى: (أ) نَطْق (phonétique) و(ب) نَصْت (phonologie)؛ (2) فص معجميّ محتواه عدد غير محصور من المداخل المتميّز كل منها بتمثيلين؛ كَلِمِيٌّ وقَوِلِيٌّ، يتفرع إلى (أ) معجم واقع؛ مداخلُه أصول (ب) معجم متوقَّع؛ مداخلُه فروع؛ (3)

فص تشقيفيّ محتواه قواعد توليد مداخل فروعٍ من أصولها. يتشعَّب إلى (أ) اشتقاق: محتواه قواعد تشقيق الكَلِمِ، (ب) تصريف: يحتوي على قواعد تغيير القَوِلِ؛ (4) فص تركيبي: يتضمن قواعد التركيب، يتشعب بحسب النمط اللغوي، إلى مكونين أو ثلاثة مكونات. ويتكفل بكل فص لغويّ قالب نحويّ في إطار نهوض مجموع قوالب النموذج النحويّ بمجموع فصوص اللغة.

(14866/1)

. وبعبارة أخرى، كل وسيط لغوي يمثل أحد الاحتمالين المتقابلين، إذن لكل وسيط مقابل، بحيث إذا اختارت لغة ما أحدهما لأحد فصوصها، ترجح أن تختار لفصّها الآخرِ الوسيط الموافق، ولم يُستبْعَد أن تختار لغة ثانية، للفَصَّيْن نفسِهما فيها، مقابل ذَيْنكَ الوسيطين. وإذا أردنا أن ندقق أكثر، نستطيع أن نقول بوجود شبكتين من الوسائط اللغوية في آن واحد، بحيث يكون لكل وسيط ما يوافقه في زمرته، وما يخالفه في زمرة مقابله.

(14867/1)

... استناداً إلى ما سبق (من أن الكليات الدلالية والتداولية واجبة التحقق في اللغات من خلال الوسائط المنتظمة في زمرتين واقعتين على طرفي النقيض)، يلزم النظرية اللسانية النسبية أن تتوقع نمطين لغويَّين وأن تقيم نموذجين نحويَّين. وبما أن هذه النظرية قالبية، وجب أن يكون التنميط المتوقع محصوراً في مستوى الفصوص اللغوية.

2. 2. 3 . تقابل الوسائط وتنميط الفصوص

... كما لا يخلو معجم لغة بشرية من مقولة الفعل المتعدي (فع) المتميز بخاصية تطلُّعِهِ إلى الموضوعين (س1 ، س 2)، وجب أن يوجد في الفص التركيبي لأيِّ

(14868/1)

لغة ائتلافٌ لتلك المكونات الثلاثة (فع، س1 ، س 2)، بحيث يأتلف (فع) وأحدُ موضوعيْه (س1) في "البنية القاعدية" بعلاقة السببية (( )، فيكون للموضوع (س1) وظيفة الفاعل النحوية (س1 فا)، ويأتلف (فع) من جهة أخرى بموضوعه الثاني (س 2) بعلاقة العلية (<) فتلحقه وظيفة المفعولية النحوية (س2 مف).

... عن الائتلاف الحاصل بالعلاقتين الدلاليتين الكليتين

((، <) بين المكونات الثلاثة (فع، س 1 ، س 2)، وما لحق بعضها من وظائف نحوية (فا، مف) نعبر من جديد بالتوليفة (12) التالية:

(12) فع

س 1 فا س 2 مف

(14869/1)

... تندرج التوليفة المعبّر عنها بالصيغة (12) فيما سبق أن سميناه "كليات نُطقية". وهذه الكلية واجبة التحقق في اللغات البشرية، وقد تميز كلا المكونَيْن (س 1 فا) و(س 2 مف) في جميعها بخاصية بنيوية تعرب عن وظيفته النحوية، ويحصل هذا الإعراب من خلال وسيطين متقابلين يمثلان إمكانين.

... إما أن يكون تحقق الكلية النُّطقية (12) من خلال "وسيط الرتبة المحفوظة" الذي يوجِّه اللغات التي اختارته، كالأنجليزية ونحوها الفرنسية، إلى استغلال إمكان العلاقة الرتبية، ويجعلها تخصص للمكوِّن (س 1 فا) مرتبةً محددةً سلفاً

(14870/1)

بالقياس إلى المرتبة المخصصة للمكون (س 2 مف).

وسيتكون للغات التي اختارت هذا الوسيط بالذات فصٌّ تركيبيٌّ، يتميز ببنية قاعدية ذاتِ رتبة قارة، يعبر عنها شومسكي(1) في نظريته للنحو الكلي بإحدة الصيغتين في التمثيل (13) التالي:

(13) . (أ) م س . صرف . م ف.

... (ب) فا فع مف.

...

---

(1) انظر المبحثين 2. (ص. 43) و 2. 9. (ص. 235) من كتاب شومسكي، نظرية العمل والربط؛ والمبحث 4. 8 المخصص للرتبة في كتابه The Minimalist Program.

(14871/1)

... وإما أن يكون تحقق الكلية (12) من خلال "وسيط العلامة المحمولة" الذي يمكّن اللغات التي اختارته، كالعربية واليابانية ونحوهما، من إحداث الفارق بعلامة

صوتية في مستوى التوليفة الكلية، بحيث يحصل الإعراب عن الوظائف النحوية من غير أن يكون لبعض المكونات موقع عند بعضها الآخر. وسينشأ للغات التي اختارت وسيطَ العلامة المحمولة فصٌ تركيبيٌ يتميز ببنية قاعدية ذات رتبة حرة، نعبر عنها من جديد بالتوليفة (12) المعادة بعلامتي الإعراب في التمثيل (14) التالي:

(14) فع

سُ1 فا سَ2 مف

(14872/1)

... وبما أنه ليس في الإمكان أكثر من الوسيطين المذكورين لإعراب جميع اللغات البشرية عن الوظائف النحوية الممثل لها بالتوليفة الكلية (12)، يلزم بالضرورة المنطقية ما يلي من المعارف العلمية:

... (أ) . فص التركيب ليس كلّيّاً، ولا يكون كذلك إلا عن طريق افتعال كلِّيته، كما فعل شومسكي(1)

---

(1) من مفارقات شومسكي جمعُه بين الإقرار بكون

اللغات البشرية منقسمة إلى "لغات شجرية" و"لغات غير شجرية" وبين التصريح المتكرر باستحالة تطبيق قواعد لغة غير شجرية على لغة شجرية، وبإمكان توسيع الإطار النظري للغات الشجرية ليتناول اللغات غير الشجرية. للمزيد من التفصيل، راجع المبحث 2. 8 من كتابه: نظرية العمل والربط، مصدر سابق.

(14873/1)

، إذ وسع إطار نظريته حتى تشمل قواعدُ نحوه الكلّيّ لغات مغايرةً للأنجليزية.

... (ب) . فص التركيب يتنوع بحسب الوسائط التي تخصّه، ولا يتعدد تبعاً لعدد اللغات. ولذلك يجب أن تتجمع اللغات المتواجدة حالياً وما انقرض أو يوجد استقبالاً في نمطين اثنين ليس غير: 1). لغات توليفية كالعربية: يتميز تركيبها ببنية قاعدية ذات رتبة حرة، و 2). لغات تركيبية كالأنجليزية يختص فصُّها التركيبي ببنية قاعدية ذات رتبة قارة.

... (ج) . قواعد الفص التركيبي نمطية، فلا تصادف واقعاً لغوياً خارج نمطها، ولا واقعَ لغويٌّ في نمطها

(14874/1)

لا تصادفه.

... وعليه، فإن مبدأ تأصيل الرتبة القاعدية، وقاعدة "انقل الألف"، وقيد السوج المعين، ومفهوم المركب الفعلي، ومبدأ أحادية الوظيفة، ونحو هذا الكثير مما استخلصه شومسكي من دراسته للغة الأنجليزية وصمَّ في نحوه الكلي، سيتحول إلى بعض ما تتوقعه نظرية اللسانيات النسبية، بوصفه قواعد نمطية تصدق في اللغات التركيبية ليس غير. أما البعض الآخر الذي تتوقعه أيضاً هذه النظرية، فيصدق في اللغات التوليفية ليس غير. نذكر منه على سبيل المثال مبدأ الترتيب التداولي، وقاعدة التنضيد، وأصل نقل الإعراب، والازدواج

(14875/1)

الوظيفيّ، ومفهوم المركب التبعيّ، ونحو هذا مما يشكل القالب التركيبي للنمط التوليفي من اللغات البشرية.

... ولعل ما أوردنا في هذه الفقرة قد وضَّح بشكل جليّ كيف صارت نظريةُ النحو الكليّ التي وضعها شومسكي متجاوزةً علومياًّ بنظريتنا للنحو النمطيّ، لأن كل

توقعات النظرية الأولى صارت في النظرية الثانية بعض توقعاتها، كما أن بعض ما تتنبأ به هذه الأخيرةُ لا تُدرِكُه الأولى.

... وللإمعان في البيان بالمثال الموضِّح، نجد نظرية اللسانيات النسبية تنسب إلى لغات كالعربية اختارت وسيط الجذر، معجماً شقيقاً يتميز

(14876/1)

بصنفين من المداخل الفعلية: أفعال شقائق يرد مع بعضها مبدأ الازدواج الوظيفيّ، وأفعال إساس يوافقها مبدأ أحادية الوظيفة. كما تنسب إلى لغات كالأنجليزية اختارت وسيطَ الجذع، معجماً مسيكاً متميزاً بمداخل فعلية إساس ليس غير(1)، ولا يوافق هذه اللغات سوى مبدأ الأحادية. وبما أن نظرية اللسانيات الكلية قد استخلصها شومسكي من نحو الأنجليزية، ولم يؤسسها على

---

(1) للمزيد من التوضيح، انظر الفصل الرابع المخصص لتعلق المعاجم النمطية بالوسائط اللغوية في كتاب الأوراغي، الوسائط اللغوية، ج 1 ـ أفول اللسانيات الكلية.

(14877/1)

وسيط، ولا نمَّط بها فصّاً لغوياً، لم يكن نحوُه ليتنبأ بغير مبدإٍ أحادية الوظيفة المعتبر فيه مبدأً كلياً على الرغم من قصوره عن وصف البنية الوظيفية لمثل التركيب "لاَمَسَ الرجلُ المرأةَ"، وإن ثبتت كفايتُه الوصفيةُ لتراكيب من قبيل "لَمَسَ الرجلُ المرأةَ". يلزم عما تقدم أن المعرفة العلمية نسبية في حقل اللسانيات.

2. 2. 4 ـ خصائص المعرفة العلمية

... اتضح أن البناء المنطقيّ للنظرية النسبية، في حقل اللسانيات على الأقل، يُنتِج معرفة علمية، تتميز عن غيرها المعرفةِ النظرية والمعرفةِ العادية بخصيصات نجملها

(14878/1)

كالتالي:

... (أ) . المعرفة العلمية نسقيةٌ: تبيَّنَ أن بين المعرفتين النظرية والعلمية تشاركاً في خصيصة

النسقية. غير أن نسقية الأولى "صورية"، بينما نسقية الثانية "مادية". وتشكل هذه الأخيرةُ شقّ الاستنباط القائم، في منهجية اللسانيات النسبية، على الحصر التقابلي للوسائط المتاحة للغات من أجل تحقيق إحدى الكليات الدلالية أو التداولية. هذا الحصر التقابلي يمكن لمسه من جديد في تحقيق اللغات للإضافة المحضة الكلية الممثل لها بمجموع العلاقتين [ع ∪ ع] بين المتضايفين (س ، ص)، كما تعبر عنها الدالة (15)

(14879/1)

التالية:

... (15) س [ع ∪ ع] ص.

... لتحقيق الإضافة الكلية (15) ليس في الإمكان أكثر من وسيطيَيْ العلامة المحمولة والرتبة المحفوظة، واللغات البشرية جميعها مترددة بين هذين الإمكانين؛ فإذا اختار بعضها الوسيط الأول كالأنجليزية، احتمل المضاف في هذا النمط أن يتقدم على المضاف إليه أو يتأخر عنه؛ بمعنى ليس لأحد المتضايفين في الأنجليزية موقع قار بالنسبة إلى الآخر. وفي حالة اختيار اللغات

الأخرى لأن تحقق الإضافة المحضة الكلية (15) من خلال وسيط الرتبة المحفوظة، تعين حينئذ أن يكون للمضاف، في هذا النمط من

(14880/1)

اللغات، موقعٌ قار بالنسبة إلى المضاف إليه. ولغات هذا النمط مخيَّرةٌ من جديد بين تقديم المضاف على المضاف إليه كما في العربية، وتأخيره عنه كما في غيرها.

... ولاشك في نسقية هذه المعارف، بمعنى أن نسقاً بعينه يتوقعها مناطةً بمفسِّرات كالوسائط الحاصرة لمختلف الإمكانات، وليس هناك معارف أخرى تخص موقع المتضايفين في اللغات جميعها لا يتوقعها النسق نفسه. كما لا يتوقع معارف لا تصادف واقعاً في لغة. وكل ما يستجيب للقيود الثلاثة فهو من قبيل المعرفة العلمية النسقية غير الصورية.

(14881/1)

... (ب) . المعرفة العلمية نمطيةٌ. إن النظرية اللسانية سواء أكانت كلية أم كانت نسبية، لا مناص لها من

الجمع بين الأمرين: أولاً، تقديم وصف كاف للخصائص البنيوية للعبارة اللغوية. وثانياً، إيجاد مفسِّر معقول يُناطُ به الوصف المقدم. وبما ان الوسائط تقوم بدور المفسر في النظرية اللسانية النسبية، وجب أن تقدِّم هذه النظرية خصائصَ بنيوية نمطية. لوصف "وظيفة الفاعل النحوية" مثلاً، نجد نظرية النحو النمطي تُدخل "الموقعَ"، بوصفه خاصيةً بنيويةً أساسية لتحديد تلك الوظيفة في اللغات التركيبية، لكنها تهمل الموقع في

(14882/1)

اللغات التوليفية لفائدة العلامة، بوصفها الخاصية البنيوية الأساس في المركب الحامل لتلك الوظيفة.

... يترتب على فحوى هذه الفقرة أن خصيصةَ النمطيّة المميزةَ للمعرفة العلمية تُلزِم نظريةَ اللسانيات النسبية أن توفر للكلّيّ الدلالي أو التداولي نفسه أكثرَ من وصف واحد لخصائصه البنيوية، بشرط الانحصار التقابلي لضمان النمطية لتلك الكثرة.

... (ج) المعرفة العلمية حقيقية. يفترض في المعرفة العلمية أن تجمع بين اليقين المدرَك بالأنساق الصورية،

والموافقة للواقع المستحصل بالمناهج التجريبية. وكل معروفة جمعت، فضلاً

(14883/1)

عن النسقية والنمطية، بين اليقين والموافقة فهي حقيقية. إذن، لا يكفي في المعرفة العلمية اليقين الرياضي، إذ سبق أن كل "معروفة" مستنبطة بواسطة الأنساق الصورية، منطقية كانت أو رياضية، فهي يقينية، إذا لم تصادف واقعاً في العالم الذي نعيش فيه فهي متحققةٌ في أحد العوالم الممكنة. وعليه، ليس كل "معروفة" يقينية بواقعية.

... فضلاً عن انتفاء الترادف بين اليقين والحقيقة، فإنا نجد "المعروفة" المستنبطة بالنسق البحت الرياضي أو المنطقي تكون من حيث الصياغة الصورية في غاية الوضوح، لكنها من حيث الإحالة على فحواها

(14884/1)

فهي في غاية الإبهام، إلى درجة أنه لا يتأتى إقران العبارة الصورية بمحتوى معيَّن. ولبيان هذا القصور في

الإحالة، يكفينا استحضار التقسيم الرباعي للكلم (7 ب) الذي استنبطه شومسكي من النسق الصوريّ (7 أ) الذي وضعه لنجد كل قسم لا يفيد شيئاً باعتبار صيغته التي تميزه.

... لقد سبقت منا الإشارة إلى ائتلاف العُلوميِّينَ حول اعتبار النظريات شباكاً تُبنى لاصطياد المعرفة بموضوعات أحد الحقول العلمية. لذا يتوجب على النظرية اللسانية أن تطلعنا بلا ريب على واقع لغويّ، وهي عندئذ تنتج معرفة علمية تتسم بخصيصة "حقيقية"،

(14885/1)

كل نظرية تنتج معرفة مقترنة بأدنى شك فيها أو في موافقتها للغات البشرية فهي في مرتبة دون الغاية التي من أجلها بُنِيَت.

... ولنمثل لخِصِّيصَة "الحقيقية" المميزة للمعرفة العلمية من المكون الصرفي(1) لنجد كل اللغات البشرية قبل أن تُقرَّ نسقها

---

(1) المكون الصرفي أحد فرعي الفص التشقيفيّ فرعه الثاني مكون اشتقاقي، محتوى هذا الأخير قواعد دلالية لتشقيق الكلمات الأصول وتوليد كلمات فروع تجري في

جميعها دلالة الكلمة الأصل. أما محتوى المكون الصرفي، فقواعد صوتية لتغيير بنية القوِلات الأصول لإنتاج قوِلات فروعٍ.

(14886/1)

الصرفيّ على نمط ممكن تكون مترددةً بين وسيطَيْ الجَذْر والجِذْع(1) . باختيار بعض اللغات لوسيط الجذر، تضطر إلى تأسيس "مبدإ الصياغة" دون فَقْدِ القدرة على استغلال إتاحات يوفِّرها مبدأ آخر، لكن اختيار بعضها الباقي لوسيط الجذع سيضطرُّها إلى تأسيس "مبدإ الإلصاق" (2)

---

(1) للوقوف على الوسيطين المذكورين وعلى قيمهما، انظر الفصل السابع من كتاب الأوراغي، الوسائط اللغوية، ج 2 .اللسانيات النسبية والأنحاء النمطية.

(2) مبدأ الصياغة يصدق على عملية إعداد صيغ صوتية مثل (فَعَلَ) و(تَفَاعَلَ)، لأن تفرغ فيها "جذور رخوة"، سواء أكانت مجردة مثل (سأَل) أم كانت مزيدة مثل (تَساءَلَ). وفي المقابل، يصدق مبدأ الإلصاق على عملية لِحامِ سوابق مثل EN أو لواحق مثل MENT بـ "جذوع يابسة" مثل Terre للحصول على Enterrement. وبذلك

ينحل الصرف الجذعي خطياً إلى "جذوع يابسة" ولواصق تلتحم به من أوله أو من آخره، بينما الصرف الجذري ينحل هرمياً إلى صيغ و"جذور رخوة" مزيدة أو مجردة. وتكون الصيغة دالة في الصرف الجذري دلالة اللاصقة في الصرف الجذعي، خلافاً لما يراه في صرف العربية المستضيئون بنظرية النحو الكلي. للمزيد من التفصيل، راجع الفصل السابع من كتاب الأوراغي، الوسائط اللغوية، ج 2 . اللسانيات النسبية والأنحاء النمطية.

(14887/1)

، وسيفوِّت عليها استغلالَ الإمكانات التي يُتيحها المبدأ السابق.

... وكل اللغات الجذرية (أي الآخذة بوسيط الجذر) يحتمل بعضُها الاقتصار على الإمكانات التي يُتيحها مبدأ الصياغة مع عدم المانع من توظيف إتاحات مبدإ الإلصاق، ويحتمل بعضُها الآخر كالعربية الجمعَ بين إتاحات المبدأين، كأن تَصُبَّ الجذر مجرداً (سأل) في الصيغة (فَعَلَ) للحصول على (سَأَلَ)، ثم تصبه مزيداً في صيغة (تَفاعَلَ) ويكون الناتج (تَساءَلَ)، وتلصق بالصيغة "علامة مفكوكة"(1)

---

(1) للتوسع في الفرق بين الظاهر والضمير والعلامة، انظر المبحثين 3. 6. 2 و3. 6. 5 في كتاب الأوراغي، الوسائط اللغوية، المصدر السابق.

(14888/1)

تتألف من سابقة (يَـ..) ولاحقة (... ونَ) ويكون الناتج (يتساءلون). هذه الهرمية يعبر عنها من جديد كما يلي:

(16) (أ) . سأل.

... (ب) . تَساءَلَ.

... (ج) . يتساءَلونَ.

... نقرأ الهرم الصرْفيّ (16) على اعتبار أحرف "سألتمونيها" زائدة على الجذر (116)، لكنها أصلية في الصيغة الصرفية (16 ب)، بينما علامات المطابقة المفكوكة (16 ج) (يـ/ .../ ونَ)، بما فيها من أحرف المضارعة (نأيت)، تكون زائدةً على الصيغة الصرفية (16 ب)، لكنها أصلية في الصيغة الصرفية التركيبية (16 ج)، أو الصيغة "الصَرْكِبِيَّة".

(14889/1)

... ويشخِّص المثال (16) معنى قولنا إن اللغات الجذرية من نمط العربية تستغل أولاً إتاحات مبدإ الصياغة؛ بإنشاء عدد محصور من الصيغ الصوتية لِحَشْوِهَا بمادة جذرية رخوة وتستغل ثانياً، في نطاق محدود، إتاحات مبدإ الإلصاق فتزيد على الصيغة الصرفية علامات المطابقة في الأفعال والصفات، وعلامات الجنس والعدد في الأسماء. ويمكن أن نلاحظ انعكاس الاستعمال المتدرج لإتاحات المبدأين في جَمْعِ الأسماء وجَمْعِ جَمْعِها، كما في المثال التالي:

(17) (أ) . رَجَلٌ رجالٌ رجالاتٌ.

... (ب) . هَرَمٌ أَهْرَامٌ أَهْرَامَاتٌ.

(14890/1)

... وكل لغة أسست، باختيار وسيط الجذع، مبدأ الإلصاق تكون قد فوّتت إمكان استغلالها لإتاحات مبدإ الصياغة، وبالتالي سيَفْقِدُ مكوِّنُها الصرفي القدرة على توليد جمع الجمع إذا نحن وقفنا عند هذا المثال.

3. لسانيات خاصة ومعرفة عادية

... تتميز اللسانيات الخاصة، بالمقارنة مع اللسانيات الكلية واللسانيات النسبية، بخصائص تنفرد بها عن الضربين السابقين. وهذه الخصائص تَمَسُّ موضوع الدراسة، والمنهجية المتبعة في هذا الضرب من التفكير اللساني، وأخيراً المعرفة المستحصلة من دراسة ذاك الموضوع بتلك المنهجية.

(14891/1)

---

3. 1. لسانيات موضوعاتها لغات خاصة

... من الأعمال اللسانية، مثل "كتاب" سيبويه، ما يُعنى بلغة بعينها كالعربية دون غيرها من اللغات، وبغض النظر عن كون مبادئ نحو العربية وقواعده كلية أو نمطية أو خاصة. إن ما يجري في اللغات الأخرى ليس من إشكالات صنف اللسانيات الخاصة، إذ لا يهمها سوى الخصائص البنيوية التي تصدق في اللغة موضوع الدراسة.

... حين قال في العربية نحاتُها: "متى قدروا على المتصل، لم يأتوا مكانَه بالمنفصل"(1)

---

(1) ابن جني، الخصائص، ج 2، ص. 191 ـ 192؛ والأشموني،

شرح الألفية، ج 1، ص. 127؛ وابن يعيش، شرح المفصل، ج 3، ص. 84؛ وسيبويه، الكتاب، ج 1، ص. 377 وما بعدها.

(14892/1)

، لم يعنِهم حينئذ أن يكون هذا القيد كلِّيّاً كما تصوره شومسكي وقد صاغه بعبارتهم تقريباً تحت "مبدإ تجنب الضمير"(1)، ولا همَّهم أن يربطوه بوسيط لتحديد النمط اللغوي الذي يصدق فيه هذا المبدأ، كما عنَّ لنا أن نفعل بعدهم (2)، وإنما اكتفوا باستشكال مواقع التطارد النسبي لضمائر الرفع المتصلة والمنفصلة في اللغة العربية.

---

(1) انظر شومسكي، نظرية العمل والربط، مصدر سابق، ص. 119 و430.

(2) راجع المبحث 4.6.3 من كتاب الأوراغي، الوسائط اللغوية، ج 1 ـ أفول اللسانيات الكلية.

(14893/1)

... وكذلك كان حالُهم وهم يجتهدون في صياغة "قواعد القلب" بمثل قولهم: "متى اجتمعت الواو والياء وقد

سبقت الأولى بالسكون، أيتُهما كانت، قلبت الواو ياء وأدْغمت الياءُ في الياء" (1) . لم يستشكل الصرفيون امتدادات هذه القاعدة خارج العربية وسريانها في كل اللغات البشرية أو في بعضها، لأنهم لم يسعوا إلى ربطها بمبدإ ثبتت كليتُه، ولا بوسيط وضعيّ، من شأنه أن يوفر للُّغات التي اختارته الإتاحات نفسها.

---

(1) ابن يعيش، شرح الملوكي، ص. 461.

(14894/1)

... واستمر لسانيو العربية على هذا المنوال في الأغلب الأعم من الظواهر اللغوية التي عالجوها، مع العلم أن انحصار الدراسات اللسانية في اللغة المعينة، بغض النظر عمَّا يجري في سواها الكلي أو البعضي، ظاهرة عامة في اللغات، ومنتشرة بكثرة بين لغويين قدماء ومحدثين.

...

3. 2 .ارتباط اللسانيات الخاصة بمنهجية الاستقراء

... يغلب على التأمل اللسانيّ المحصور في اللغة الخاصة التقيدُ بمنهج الاستقراء. ويقوم هذا المنهج في حقل

اللغة على تجميع المعطيات بوصفها ملحوظات تجريبية وإنجازات لغوية لمن يوثق بفصاحة كلامه.

(14895/1)

ويتبع ذلك تنظيم هذه المعطيات وَفْق سلمية من المفاهيم اللسانية؛ مبدؤها تصويتات اللغة المدروسة، فانتظامات هذه التصويتات في وحدات صرفية ومعجمية، ومنتهاها اطرادات هذه الأخيرة في الجملة(1). وغاية كل ذلك تقديم وصف للقواعد الواجب مراعاتها أثناء الكلام لصون اللسان من اللحن.

---

(1) للمزيد من التفصيل، انظر التناول العُلوميّ لهذه المنهجية في كتاب لُوي يلمسليف، مقدمات لنظرية لسانية (Louis Hjelmslev, Prolégomènes à une théorie du langage)، والتطبيق العمليّ لها في كتاب تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها.

(14896/1)

ولم يسْعَ هذا الضرب من التفكير اللساني إلى إقامة نظرية تساعد مستعملَها على فهم كل مظاهر اللغة التي

يدرسها.

... ومن أهم ما يخلِّفه غياب النظرية اللسانية انتشارُ الخلاف حول التفسيرات الممكنة للظواهر الموصوفة. ولا أدلَّ على ذلك من جواب الخليل بن أحمد حين سئل عن مصدر "العلل التي يعتَلُّ بها في النحو، فقيل له: أعن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟ فقال... اعتللت أنا بما عندي أنه علةٌ لما علَّلْتُه منهُ، فإن أكن أصبت فهو الذي التمست... فإن سنح لغيري علَّة لِما علَّلْته من النحو هو أليقُ مما ذكرته

(14897/1)

بالمعلول فليأت بها" (1).

... ومن المستبعد أن ينكر أحد أن الداعي الأهم إلى إقامة النظريات هو إلزامُ الباحثين بقول ما تسمح به النظرية، ومَنْعُهم من اختراع مفسرات من أنفسهم.

3.3 . مميزات المعرفة العادية

... الجمع بين اتخاذ الاستقراء منهجاً وإحدى اللغات موضوعاً للدراسة يولد معرفة عادية، تنفرد بخصيصات مغايرة لمميزات المعرفتين النظرية والعلمية. وهي تبعاً لتسلسلها في ما سبق على النحو التالي:

---

(1) النص بكامله نقله الزجاجي (الإيضاح في علل النحو)، ص. 65.

(14898/1)

... (أ) . المعرفة العادية نَفْسِيَّةٌ: وهي كذلك إنْ لم يتجهّز اللساني المقبل على دراسة لغة خاصة بنسق منطقيّ، ولم يتقيد بقواعده المعرفية الصارمة، ولا استمسك بما قد يعصم قواه الذهنية من أن تضل في تأملاتها اللغوية.

يعني هذا أن التشغيل المباشر للقوى الذهنية، أيّاً كان موضوع النظر، سيُنْتِج معرفةً عادية تتسم بخصِّيصة النفسية بدل النسقية.

... ويمكن توضيح ما ذكرنا بمثال شخص أراد أن يقيس استقامة الخط وانحناءه، فاكتفى بإعمال قواه البصرية، وصارت هذه القوى النفسية مصدر معرفته بهذا الموضوع، لكنه لا يستكين

(14899/1)

إلى هذه المعرفة، وهو كغيره ليس بمستيقن منها، لأنه لا يدري أصادف الصواب في ما رأى أم أخطأ. ولو وسَّل

مسطرةً، العيارُ التجريبيّ المناسبُ، أو استعان
بالمعادلة الخطية (ص = أس + ب) في معلم ديكارتي
لكان مصدرُ المعرفة غير القوى الذهنية ولصارت المعرفة
أيضاً غير المعرفة النفسية.
... (ب) . المعرفة العادية تصوريةٌ: التصورية خصيصةٌ
ملازمة للمعرفة العادية ومترتبة على خصيصة
"النفسية"، وهي بذلك تقابل "اليقينية" في المعرفة
النظرية و"الحقيقية" في المعرفة العلمية. وتختص
التصورية بإمكان وجود معرفتين متنافستين حول

(14900/1)

موضوع واحد، ولا سبيل للتحقق من صدق إحداهما وكذب
الأخرى، ولا من كذبهما معاً إذا كان الصواب في غيرهما.
... ويكفينا توضيحاً لخصيصة التصورية بما وصفناها
أعلاه أن نستفسر نحاة العربية عن عامل النصب في
المفعول لنتلقّى عدداً لا بأس به من الأجوبة. فقد
... ذهب الكوفيون إلى أن العامل في المفعول النصب
والفعلُ والفاعلُ جميعاً... وذهب بعضهم إلى أن العامل هو
الفاعلُ، ونص هشام بن معاوية صاحب الكسائي على أنك
إذا قلت: "ظننت زيداً قائماً" تنصب زيداً بالتاء وقائماً
بالظن، وذهب خلفٌ الأحمر من الكوفيين إلى أن العامل

(14901/1)

في المفعول معنى المفعولية، والعامل في الفاعل معنى الفاعلية. وذهب البصريون إلى أن الفعل وحده عمل في الفاعل والمفعول جميعاً (1).

موضوعٌ واحد بخمسة أوصاف، ولو نقبنا في كل ما وصلنا لوجدنا العدد أكبر، من غير أن يعدم صاحب رأيٍ المبررات الكافية لاستمالة المتوقف.

... وإذا تجاوزنا الظاهر الملحوظ في معطيات اللغة المدروسة، وجدنا الخلاف يطرد كلما وجّه الدارس تأمله نحو النسق الثاوي خلف مدركاته الحسية. إذ

---

(1) أبو البركات الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، ج 1، ص. 78.

(14902/1)

9+سيلاحظ جميع الصرفيين سقوط الواو من مضارع بعض المثال ومكوثَها في البعض الآخر، لكن تصورهم لمفسِّر هذه الظاهرة الصرفية سيتعدد ويختلف مع فَقْدِ الوسيلة

المنهجية للتحقق من صحة ما عرفوا. وعندئذ تنشأ معرفة عادية تستخلص بالاستقراء من معطيات لغة خاصة، وتتميز بالنفسية بدل النسقية، وبالتصورية عوض يقينية المعرفة النظرية أو حقيقية المعرفة العلمية، وبالخصوصية بدل كلية المعرفة اليقينية ونمطية المعرفة الحقيقية.

(14903/1)

موقف ابن سلام الجمحي من الشعر الموضوع

الدكتور جعفر الكتاني

كلية الآداب – الرباط

1–منهجه في طبقات فحول الشعراء

... ... يصور كتاب ابن سلام " طبقات فحول الشعر" جماع المراحل السابقة لما قبل في فجر الإسلام عن الشعراء الجاهلين، والإسلاميين. من حيث تصنيفهم إلى طبقات، في عيار الجودة، ومن حيث تذوق أشعارهم من لدن الأقدمين. وكان ابن سلام في هذا التدوين غير هياب من أن يبدي قولا، أو يعلل حكما، أو يحدد قيمة، ولكن في حدود جد ضيقة، يكلأها أولا وأخيرا غلبة الرأي العام على الإبداع الشخصي، فيما يعرضه أو يبديه من

(14904/1)

آراء حول الشعر والشعراء.

... ... وفي ذلك ما فيه من الأهمية لدينا نحن المتأخرين بالقياس إلى ما كان يروج يومئذ عن الشعر والشعراء الجاهليين، والإسلاميين، على حد سواء. حسب ابن سلام أنه كان من المصادر الأساسية لمن كتبوا في الموضوع بعده، مثل أبي الفرج الأصفهاني في " الأغاني " وأبي عبد المرزباني في "الموشح" و أبي علي الحاتمي في " حلية المحاضرة".

... ... وقد زرع ابن سلام شعراء مصنفه إلى طبقات بحسب ما كان يراهم فيها ذواقوا الشعر في الجاهلية وفي الإسلام، فهو لم يوزعهم بحسب اجتهاده المحض، قسم أربعين شاعرا

(14905/1)

جاهليا مختارين، فحولا، إلى عشر طبقات، أربعة في كل طبقة.

وفعل مثل ذلك بشعراء إسلاميين ووضع من مختاري شعراء القرى خمسة منهم، يمثلون المدينة، وتسعة

يمثلون مكة، وخمسة، يمثلون الطائف وثلاثة يمثلون البحرين.

... ... ومما يلاحظ باهتمام في هذا التوزيع، أنه راعى :

... ... أولا : تصنيف الشعراء بحسب بيئاتهم. فمنهم شعراء المدن، ومنهم شعراء القرى. مما يدل على أن المقارنة حين التوزيع لم تتم من يفترقون عن بعضهم في المكان أو الزمان.

(14906/1)

... ... ثانيا : أن العرف في بيئته كان يهتم بالجودة أولا قبل الكثرة، و أن الكثرة إنما تحظى بالأسبقية على القلة، إذا كانت كلها جيدة، فالمجيد المكثر أسبق إلى طبقات الفحول.

... ... ثالثا : أن الأسبق بين الفحول إلى أرقى الطبقات من جودة شعره وكثرته تشمل أغراضا متعددة. وقد قال ابن سلام عن خطته (1) "ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين، فأنزلناهم منازلهم، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة، وما قال فيه العلماء ..فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا، فألفنا من

(1) **الفقرة** 26.

(14907/1)

تشابه شعره منهم إلى نظرائه، فوجدناهم عشر طبقات، أربعة رهط كل طبقة متكافئين معتدلين". وكرر ابن سلام الإعلان عن خطته في الفقرة (47) آخر مقدمته" ثم إنا اقتصرنا بعد الفحص والنظر والرواية عمن مضى من أهل العلم إلى رهط أربعة، على أنهم أشهر العرب طبقة ثم اختلفوا فيهم بعد. وسنسوق في اختلافهم واتفاقهم ونسمي الأربعة. ونذكر الحجة لكل واحد منهم، وليس تبدئتنا واحدا في الكتاب نحكم له، ولا بد من مبتدأ، ونذكر من شعرهم الأبيات التي تكون في الحديث والمعنى".

(14908/1)

... ... لقد كانت بيئة ابن سلام (أواخر القرن الثاني والقرن الثالث) تواجه شعرا كثيرا ينسب لأصحابه أو لغير أصحابه، مما شغل ابن سلام :

... ... 1– فعني بتحقيق النص تاريخيا من حيث نسبته

إلى قائله، أو هو حاول ذلك على أقل تقدير، بيد أنه بالقطع قد شغله أمر الوضع في الشعر، وتهيب الشهادة بالعزو دون استخدام احتمالات الشك

... ... 2- وعني بتأثير الزمان الذي قيل فيه الشعر لما لظروفه من ضوء يساعد على تبين الواقع من صحة الغزو.

(14909/1)

... ... 3- كما عني بالمكان الذي تواجد الشعر فيه، لما للمكان من طابع يترك بصماته على الأثر فيكون ذلك مساعدا على تقييم النص وتقويمه.

... ... 4- كذلك اهتم ابن سلام بالمناسبة التي دعت إلى قول الشعر وذلك لما لها من أهمية في الشهادة على الثبوت والبطلان.

... ... وأغلب الظن أن فائدة هذه المعايير التي تنبه إليها ابن سلام كانت جلية فيما أفضت به إليه من طرح الشك في نسبة ما بين يديه من شعر إلى المعزو إليهم، الأمر الذي ساعده على لفت الاهتمام إلى ما هو موضوع من الشعر.

(14910/1)

... ... ومن الحق لابن سلام وهو من استخدم احتمالات الشك تاريخيا في النصوص، أن نتساءل عن مدى صحة نسبة هذا الكتاب إليه ؟ كتاب " طبقات فحول الشعراء".

... ... من المعلوم أن الكتاب أول ما طبع في فجر هذا القرن طبع بليدن سنة 1916، نشره يوسف هل بمقدمة ألمانية اللغة تحت اسم " طبقات الشعراء" ثم أعيد طبعه بعد ذلك بنحو أربع سنوات بنفس المحتوى في مصر سنة 1920، وتشكل كل من الطبعتين ثلث ما نرى الكتاب عليه اليوم بتحقيق محمود شاكر الذي سمى إنجازه ب " طبقات فحول الشعراء" أخرجه بهذا الاسم سنة 1952 معتمدا على نسخة

(14911/1)

خطية مجهولة الأصول، وعلى ما سبق أن نقله في الموضوع الأصفهاني والمرزباني بسنديهما عن ابن سلام وفي التصدير الذي كتبه المحقق للطبعة الجديدة أفاض في شرح سبب التسمية الجديدة وفي صحة نسبة الكتاب بصورته الحالية إلى ابن سلام ولم يخف حاجة البحث العلمي إلى الأمل في العثور على نسخة خطية أخرى لمصنف ابن سلام.

... ... إن الكتاب بصورته الجديدة الحالية يضم تصنيف

أربعة عشر ومائة شاعر، أربعون منهم في طبقات الجاهليين وأربعون في طبقات الإسلاميين، وأربعة في طبقة أصحاب المراثي وعشرون في طبقة القرى وثمانية في طبقة

(14912/1)

شعراء يهود.

... ... لقد كانت الغاية من تأليف هذا الكتاب لدى ابن سلام ذوقية أدبية تقويمية مما جعل عمله بداية لمنهج ستحقق قواعده على عهد الآمدي في الموازنة والجرجاني في الوساطة. فقد أثار ابن سلام بعمله قضايا أدبية من صميم النقد لما يحققها عمل الجاحظ في البيان، ذلك أن الجاحظ بما طرحه من اهتمام بالنثر العربي وموضوعاته كان قد شغله بيئته يومئذ من الصراع بين الموالي والعرب. ولذلك كان كتابه " البيان والتبيين" موسوعة أدبية أن تثير الانتباه لمسائل نقدية ولكنها لم تكن قضية الجاحظ الأولى في كتابه، خلاف ما

(14913/1)

طرحه ابن سلام في كتابه عن الشعر والشعراء الجاهليين والإسلاميين، فقد كان ابن سلام يستقطب وجهات نظر النقدية في طبقات الشعراء وفي النصوص المعزوة إليهم من خلال ما انتهى إليه الرأي لدى إجماع المثقفين العرب. وفي هذا النطاق من تمحيض الذوق الأدبي للصفوة المثقفة التي كان عقبا لها، فإنه راح في مصنفة يثير الشكوك، وهو يقف أمام النصوص حول أصالة النسبة بين الشعر والشاعر الذي يعزى إليه. وهي إثارة للشك مفتتح من جاء بعد ابن سلام من النقاد. مهدت لهم، لأن يوغلوا في تفاصيلها وأسبابها ومذاهبها، ويبنوا عليها، كثيرا

(14914/1)

من اليقين. أو يكتنفوا بترداد منهجها من غير أن يتوصلوا إلى وسيلة لتفاديها. حاشا رجال تدوين الحديث الشريف (1) .

... ... 2- شكوك ابن سلام في صحة بعض الشعراء الذين قبله

... ... لقد دخل ابن سلام إلى موضوعه بتفصيل قال فيهما كلمته بجهير القول كانت الأولى في عرض خطته بسبيل تصنيف الشعراء وفق ما قره علماء بيئته. وكان ذلك

موضوع الجزء الأول. أما القضية الأخرى فهي الإبانة عن رأيه فيما هو قبله من شعر، هو مدعو إلى نسبته لذويه، الأمر الذي يحمل على اعتبار ابن سلام

---

(1) راجع مصطفى صادق الرافعي ، ج 1، صص.234–277.

(14915/1)

صاحب موقف واضح بخصوص عزو الشعر. أعلن عنه غير وجل خمس مرات وهو يدخل إلى طرح طبقاته. استخدم في إحداها لغة التقرير بوجود شعر موضوع ثم أعلن، بلسان من يقرر ويتهم، عن هذا الموقف في مرتين اثنتين وقبل ذلك حاجج بما يدفع به عن موقفه بعد أن قرر واتهم وحاجج دفعة واحدة في فقرة سابقة. فمما قرره قوله : ... ... "وفي الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه، ولا حجة في عربيته. ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ولا نسيب مستطرف، وقد تداوله قوم من كتاب إلى

(14916/1)

كتاب لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي.

... ... وقد اختلفت العلماء في بعض الشعر كما اختلفت في بعض الأشياء، أما ما اتفقوا لعيه، فليس لأحد أن يخرج منه" (1) .

... ... ثم قرر واتهم بقوله : "فلما راجعت العرب رواية الشعر، وذكر أيامها ومآثرها، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلت وقائعهم، وأشعارهم وأرادوا أن تلحقوا

---

(1) راجع مصطفى صادق الرافعي ، ج 1، صص.234-277.

(14917/1)

بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم. ثم كانت الرواة بعد، فزادوا في الأشعار التي قيلت، وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا، ولا ما وضع المولدون، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال (1) . وقال ابن سلام كذلك : "وكان

أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الرواية.

وكان غير موثوق به. كان ينحل شعر الرجل غيره،

وينحله غير شعره. ويزيد في الأشعار" (2)

---

(1) الفقرة 49 من الطبقات وانظر الفقرة عند الحاتمي 816.

(2) الفقرة 51.

(14918/1)

. ويحاجج ابن سلام في الفقرة التاسعة بما يشبه ما تنتهي به هذه الفقرة، فيقول : "أخبرني أبو عبيد عن يونس قال : قدم حماد البصرة على بال بن أبي بردة (وهو وال عليها) فقال : ما أطرفني شيئا، فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطئية مديح أبي موسى فقال : ويحك! عدم الحطيئة أبا موسى (1) ، ولا أعلم به وأنا أروي شعر الحطئية ولكن دعها تذهب في الناس" (2) .

---

(1) في الحلية : يمدح أبي الحطيئة إلخ ، أنظر الفقرة من الحلية وتمت العنى أسلم وأصح.

(2) بعض الفقرة 52.

(14919/1)

... ... وفي فقرة أخرى يقرر ابن سلام ما يراه من وضع الشعر ويتهم ويحاجج في دفعة واحدة فيقول : "وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه، محمد بن إسحاق بن يسار ...وكان من علماء الناس بالسير... فقبل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول : لاعلم لي بالشعر أوتى به فأحمله، ولم يكن ذلك له عذرا. فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط، وأشعار النساء فضلا عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارا كثيرة، وليس بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقوافٍ" (1) . ومضى ابن سلام في

---

(1) رقم 7.

(14920/1)

اتهام ابن اسحاق بالغفلة فيقول عنه : "أفلا يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر؟ ومن أداه منذ آلاف من السنين ؟ والله تبارك وتعالى يقول : { فقطع دابر القوم الذين ظلموا } (1) . أي لا بقية لهم. وقال أيضا : {

وأنه أهلك عاد الأولى ، ثمودا فما أبقى } (2) وقال في عاد { فهل ترى لهم من باقية } (3) وقال : { قرونا بين ذلك كثيرا} (4) وقال { ألم ياتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله }

---

(1) الأنعام، الآية 45.

(2) النجم ، الآية 50–51.

(3) الحاقة، الآية 8.

(4) الفرقان، الآية 38.

(14921/1)

---

(1)

... ... إن هذه الشكوك التي أعلن عنها ابن سلام في صحة بعض الشعر الذي قبله، تعد من الهمام الأساسية التي واجهت النقاد الأوائل للأدب. والإعلان عنها من ناقد أول يشير إلى مدى استخدام عقله وفطنته إلى ما هو بصدد نقده فإلى أي مدى تمكن ابن سلام من تطبيق نظرياته على ممارسته للنقد في أوائل الأعمال النقدية بالأدب العربي.

... ... قبل مناقشة هذا الموضوع فإن من الضروري الحديث

عن أسباب الوضع في الشعر خلال فترات التدوين لما في ذلك من محاولة الإحاطة بالبواعث العملية والحوافز المجتمعية التي

---

(1) إبراهيم، الآي 9.

(14922/1)

أهابت با بن سلام أن يستخدم احتمالات الشك فيما هو بصدد غزوه لذويه.

3- أسباب الوضع في الشعر

... ... إن الإجابة عما أمكن ابن سلام من تطبيق نظرياته (أو عدم تطبقها) على ممارسته النقدية في كتابه إنما يشفى فيها عمله النقدي في صلب الكتاب ولكن من الضروري قبل ذلك التعرف على أسباب الوضع في الشعر خلال فترات التدوين ، لأن

فيها محاولة الإحاطة بالبواعث العلمية والحوافز التي أهابت بابن سلام أن يستخدم احتمالات الشك - إن صح أنه استخدمها - فيما هو بصدد عزوه لذويه.

(14923/1)

... ... 1- إن الغاية من العناية بالشعر لدى الرواة لم تكن مجرد الجانب الفني منه فذلك جانب قيم من جوانب أخرى متعددة كانت سببا في الوضع العمد، والنحل والانتحال، لقد كان الشعر ديوان العرب - كما لا نحتاج إلى القول - سجل مفاخرها بذكر أيامها وأنسابها وأحسابها، ولذلك كان هدف الوضاعين ولا سيما بعد العصر الجاهلي.

... ... وربما كان تأويل ذلك يتمثل في أن القبائل العربية في ظلال الإسلام قد شغلها عن الاحتفال بحفظ الشعر الجاهلي ثورة الإسلام الجديدة بما فيها من نتائج الحرب ومشاغل العراك، وبما قد فرضته تعاليمها

(14924/1)

من قيم جديدة. ولئن لم يطل البعد بين ما كان يحتفل به العربي في الجاهلية القبيلية وبين ما يحتفل به في عصر الأحزاب السياسية في صدر الإسلام فإن ذلك جملة ما دفع بالرواة إلى الوضع والنحل والانتحال. وفي قريش بالذات بدأ الوضع في الشعر فإنها كانت أولى القبائل العربية عرضة للتفاخر والتناصر بين بعضها لبعض، واجهة التفاخر والتخاذل فيما بينها وبين قريناتها

القبائل العربية الأخر. وذلك كله بسبب ثورة الإسلام وعلاقة قريش بصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام.

(14925/1)

... ... 2- كما كانت كلمات الشعر وبناؤه اللغوي فيما بعد صدر الإسلام الغاية من الوضع حيث كان عصر التدوين لعلوم اللغة العربية وآدابها في القرن الثاني من أسبابه، فعرف رواة محترفون لهذه الغاية من بينهم محمد بن عبد الملك الفقسعي رواية بني آسد. مثلا للرواة الوضاعين داود بن متمم بن نويرة مثلا للشعراء المتزيدين في أشعار الآباء.

... ... وحفز على ذلك الجدل بين مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة للاستشهاد على الرأي ولم يلت من تقبل الوضع والاستناد إليه الكسائي ولا سبويه.

(14926/1)

... ... 3- كما كانت الخلافات المذهبية بين علماء الكلام وبين مفسري القرآن سببا آخر على الوضع، أو تقبل المنحول. وقد كان المدونون يبحثون عن الشاهد من

الشعر للقناعة المشتركة لدى الجميع بأن العلم أو الخبر الذي لا شاهد له من شعر الأول لا عبرة به ولا أساس له من الصحة. لذلك كانت الغاية أحيانا تبرر الوسيلة. وقد تورط في إخباريون ، على رأسهم محمد بن إسحاق بن يسار الذي حاسبه ابن سلام حسابا عسيرا في مقدمة " طبقاته" وكان الشاعر سهل بن أبي غالب الخزرجي يزعم بأنه يروي أشعار الجن وينشدها في مجالس هارون الرشيد،

(14927/1)

وقد علق الرشيد على ما يسمعه مرة : إن كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت عجبا، وإن كنت لم تره فقد وضعت أدبا.

... ... – كما كان الإدعاء وجب الاستئثار بالعلم سببا حمل عددا من الرواة على التزيد في الأشعار ونحل الشعر لغير صاحبه. وقد عرف من الكوفة حماد الرواية (155 هـ) بذلك كثيرا فقال فيه المفضل الضبي "سلط على الشعر من حماد الرواية ما أفسده فلا يصلح أبدا. فقيل له : وكيف ذلك أيخطئ في روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان ذلك ؟ فإن أهل العلم يردون من أخطأ عن الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارهم ومذاهب الشعراء

ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل، ويدخله في شعره، ويجمل ذلك في الآفاق فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك؟"

... ... 5- كذلك كان الملق للحاكم من أسباب الوضع كالذي يرويه ابن سلام عما فعله حماد هذا من تخرص عل بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الاشعري والي البصرة حينما نحل الحطيئة شعرا في مديح جد بلال.

... ... 6- كما كان الزهو والخيلاء سببا للوضع أو لإقراره في مثل جواب بلال لحماد " ولكن دعها تذهب في الناس". مع أنه قال قبل ذلك على رواية الحاتمي (1)

---

(1) فقرة 813 م حلية المحاضرة ولديه المعنى أسلم وأوضح.

: "ويحك يمدح أبي الحطيئة ولا أعلم به وأنا أروي شعر الحطيئة كله".

... ... 7- كما عرف خلف الأحمر (180م) في البصرة يضع الشعر وينحله الفحول من المشهورين . فقد وضع القصيدة المعروفة بلامية العرب.

أقيموا بني أمية صدور مطيكم ... ... فإني إلى قوم سواكم لأميل

... ... وعزاهم إلى الشنفرى . ووضع شعرا ونحله لتأبط شرا زعم أنه رثى به خاله الشنفرى وقد قال الأصمعي : سمعت خلفا يقول : أنا وضعت على النابغة القصيدة التي فيها خيل صيام وخيل غير صائمة ... ... تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

(14930/1)

... ... وينسب أبو عبيدة إلى أبي عمرو بن العلاء الزيادة في شعر الحارث بن حلزة، كما ينسب الأصمعي إلى ابن دأب عيسى بن يزيد وضع الشعر في المدينة.

... ... 8- وقد دأب المحدثون على الوضع ونسبة ما يضعونه من شعر إلى المشتهرين مثل خلف.

... ... 9- ومن ذلك ما يقرضه الشاعر، ثم يتهيب عرضه قبل أن يعرف رأي النقاد فيه، فإذا ما عرفه، لم يعد ذلك يملك وحده التصرف في صحة عزو ما قاله.

... ... 10- ومن أسباب الوضع أيضا : الحسد والعبث

والتلبيس وذلك للكيد أو للإساءة أو للتشويه. ومن ذلك عزو شعر للبحتري في صفة الذئب لبعض

(14931/1)

العرب، أو نسبة كلام فج لثعلب.

... ... 11- ومما يدخل المنحول وليس بذلك اختلاف الروايات الذي ينشأ عن عادة النطق وفطرة التلفظ، ففي بيت للهذلي أن ذؤيب رواية أبي عمرو بن العلاء :

دعاني إليها القلب إني لأمره ... ... مطيع فما أدري أرشد طلابها

... ... بينما يرويه الأصمعي : عصاني إليها القلب .... الخ

... ... وربما أدى إلى الإختلاف في الرواية الاعتماد على الحفظ وحده، وقد يحفظ الشاعر كلمات يحرص على وزنها فيبعث ألفاظا أخرى مقومة للوزن، وإن لم تكن محافظة على أصل المعنى من مراد الشاعر.

(14932/1)

... ... 12- وقد يكون السبب في انتحال الاسم تعدد الرواة أو نسيانهم ، أو اختلافهم. وإن القصيدة الواحدة

قد تستجمع هذا كما في بائية كعب بن سعد الغنوسي (1) التي يرثي بها أخاه أبا المغوار فقد روى أبو علي القالي في أمانيه (2) بأن بعض الناس يروي هذه القصيدة لكعب بن سعد الغنوي، وبعضهم يرويها بأسرها لسهم الغنوي وهو من قومه وليس بأخيهن وبعضهم يروي شيئًا منها لسهم والمرثى بهذه القصيدة أبا المغوار، واسمه هرم وبعضهم يقول اسمه شبيب

---

(1) شاعر شسلامي أخباره في الآليء،ص.771 و معجم الشعراء، ص.288 (2) / 141.

(2) 148/2.

(14933/1)

...وهؤلاء كانوا يختلفون في تقديم الأبيات وتأخيرهم وزيادة الأبيات ونقصانها. وفي تغيير الحروف في متن البيت وعجزه وصدره.

(14934/1)

موقف مجلة "المقتطف" من المدنيَّة الغربية (أواخر الفترة العثمانية)

الدكتورة خيرية قاسمية

... كلية الآداب – جامعة دمشق

مقدمة

صدر العدد الأول من مجلة "المقتطف" في أيار/ مايو 1876 في بيروت رحاب الكلية الإنجيلية السورية (الجامعة الأمريكية فيما بعد). هذا قبل أن تنتقل إلى القاهرة عام 1887 وتظل فيها حتى عام 1952. ومؤسسا "المقتطف» معلمان في الكلية: يعقوب صرّوف معلم الفلسفة الطبيعية والرياضيات، وفارس نمر معلم علم الهيئة واللاتيني.

(14935/1)

وتعد مجلة "المقتطف" – يقول قسطنطين زريق في كتابه "الوعي القومي"(1) – "خير سجلّ لتطور الفكر والعلم والاِجتماع لدى العرب طوال ثلثي قرن ونيف". وكان القائمان على "المقتطف"، منذ تأسيسها، على دراية بحمل أعباء العرب الفكرية والعلمية. فكتبا (في مجلد 18، عام 1893): "وواصلنا الليل بالنهار درسا وبحثا لكي نقتبس كنوز المعارف الغربية ونبثّها في

جميع الديار الشرقية. وقد

---

(1) قسطنطين زريق، الأعمال الفكرية العامة، مركز دراسات الوحدة العربية، 1994، مجلد 1، ص. 87.
وقد نشر كتاب "الوعي القومي" لأول مرة في بيروت، 1939.

(14936/1)

رأينا من ثمار هذا العمل ما يقوي أملنا بالنجاح، لا سيما وأن نُصراء المعارف قد صاروا كثارا والحمد لله وستبلغ البلاد بجدّهم وهمّتهم الغرض الذي نسعى إليه". واعتبرها أحد قرائها "مجلة العلم الوحيدة"، فكتب (في مجلد، 27 عام 1910): "لم تُحجم أمام المسائل العلمية خوفا من غموضها وعجزا عن وضعها في أسلوب جديد يقرب الأقصى ويزيل الإشكال ويدفع الملل... ولولاها لكان قرّاء العربية في معزل تام عما تلد أدمغة الرجال وتخلق حركة العلم الدائمة في بلاد الصنائع والفنون".

(14937/1)

وأشار د. نبيه أمين فارس في مقدمة "فهرس المقتطف" (الذي أصدرته هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت سنة 1967 بمناسبة العيد المئوي للجامعة) إلى اثر »المقتطف« في يقظة الفكر العربي الحديث:

... ... فقد توالت في صفحاتها شهرا بعد شهر مواكب المعرفة، من أكثر العلوم النظرية دقة ... ... وغموضا إلى أشدها انطباقا على الأعمال، وأبعدها آثرا في معايش الناس، من أدق ... ... المعادلات الرياضية إلى أعوص الآراء الجديدة في طبيعة الكون المادي والمدى الفلكي، في ... ... الزمان والمكان وبناء المادة

(14938/1)

وطبائع الأحياء وتطورها على الدهر إلى أجدى المكتشفات ... ... والمستنبطات في الزراعة والصناعة والصحة والمواصلات والمخاطبات إلى أشهر المذاهب في ... ... الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس...

ولاقت المجلة رواجا في المشرق والمهجر، ولكن طريقها كان محفوفا بالأشواك؛ م لإحداث ثورة فكرية، وأدرك أصحاب "المقتطف« أن الذين يتصدون لإحداث ثورة فكرية "تكون الثمرة الأولى التي يجنونها تكفيرهم أو

حرمانهم، لكن يلتف حولهم كثيرون من العقلاء الذين يغارون على أمتهم ويناضلون إلى أن يستتب لهم الفوز" (مجلد 26، عام 1901).

(14939/1)

وفي نظر "المقتطف" أن الذين شنوا حملة معادية، من التقليديين ورجال دين مسلمين ومسيحيين، هم الذين "يقيّدون طلاب المعارف عن إعمال النظر في المسائل خوفا من أن ينبّه الناس إلى وجوب الحرية في البحث فيضعف امتلاك عقولهم" (مجلد 10، عام 1886).
وفتحت المجلة صفحاتها لسماع آراء القراء ومناظراتهم مهما اختلفت وتعددت اتجاهاتهم، كما فتحت "باب المراسلة والمناظرة"، "ترغيبا في المعارف وإنهاضا للهم وتشحيذا للأذهان"؛ واتَّبعت خطة مع كل المناظرين: "لا تقصد إلا النفع وتقرير الحقائق".

(14940/1)

وتنوعت موضوعات "المقتطف" في الفترة موضع الدراسة (أواخر العهد العثماني): " في كل ما له فائدة علمية

وأدبية واجتماعية... وفي كل ما يهم العالم والمثقف والأديب". واحتلت البحوث الاجتماعية (أو ما أسمته "الهيئة العمرانية") مكانة مرموقة في اهتمامات "المقتطف" وتركّزت معظم تلك البحوث على موضوع المدنية الغربية. ويمكن تصنيفها في ثلاث قضايا رئيسية:

أ- تعرُّف كنه المدنية الغربية؛

ب - المقارنة بين أحوال الشرق والغرب؛

ج - سبل النهوض في طريق التقدم والارتقاء.

أ - تعرُّف كنه المدنية الغربية:

(14941/1)

في مقال "الفضل للمتقدم" رأت المقتطف" (في مجلد 8، عام 1884) "أن الناس قد بلغوا في زماننا هذا أعلى درجة في سلم التمدن وأنه قد قام فيه العلماء والمخترعون والمكتشفون والأطباء وغيرهم... وأن تقدم الناس فيه متزايد... فلا يمضي يوم حتى يجد أشياء في العلم أو تزيد الاكتشافات والاختراعات أو تصلح حال الهيئة الاجتماعية بوجه من الوجوه". وفي رأي "المقتطف" (في مقال "آمال المشرق"، مجلد 18، عام 1893) أن "هذا الارتقاء العظيم

الذي ارتقته الممالك الأوربية هو من نتائج العلوم الطبيعية". ولكنها تؤكد (في مقال "الفضل

(14942/1)

المتقدم"، مجلد 8، عام 1884). أن "... هذا التقدم لا ينفي السبق عن المتقدمين(1) الذين ارتقوا قبل المحدثين في معارج التمدن واستنبطوا الآلات واكتشفوا المكونات. ولو ساعدتهم الأحوال، لفاقوا أهل عصرنا...". واستدلت "المقتطف" من استقرائها لتاريخ العمران الأوربي (في "آمال المشرق"، مجلد 18، عام 1893) على أن العمران الأوربي ليس متصلا: "فعمران اليونان والرومان الذي بلغ أرقى الدرجات من وجوه كثيرة اندثر، وباتت ممالك أوربا في ظلام دامس أكثر من ألف سنة". ولذا فإن ارتقاء الأوربيين الحالي

---

(1) المقصود "السابقين".

(14943/1)

حديث العهد يبتدئ منذ أربع مائة أو خمس مائة سنة، ومن حيث العلوم من نحو مأتي سنة: "... وإن الأوربيين لم

يرحبوا بها حينئذ، بل أعرضوا عنها ونكّلوا بدعاتها تنكيلا..." (ورد ذلك في فصول مختلفة من المقتطف» عنوانها "جهاد العلماء").

وطرحت "المقتطف" (في مقال "مصير التمدن"، مجلد 9، عام 1885)، نقلا عن القس هارفي بورتر أستاذ العقليات والتاريخ في المدرسة الكلية ببيروت مسألة هامة في أساس التمدن وهي: "هل يبقى تمدّننا الحال إلى ما شاء الله أو يرجع المتمدنون القهقرى؟"، وهي مسألة تهم كل من ابتغى خير الجنس البشري

(14944/1)

وتقدمه. وتتضمن المسألة أمرين: ما أساس التقدم الثابت؟ وكيف يمكن تجنب المتأخر؟ ونقلت "المقتطف" عن كتاب الاجتماع تعيينهم عوامل التقدم الاجتماعي وبيان الأحوال والعناصر والمؤثرات التي تعمل في ترقية المدنية. ومن هذه الآراء: إن تقدم البشر مبنيّ على أسباب خارجية، كحسن موقع البلاد وجودة الهواء وخصب التربة، كما لخصت رأي القائلين بأن التقدم لا يمكن أن يهمل قوى الإنسان العقلية أو يجعلها دون القوى الطبيعية: "... وحيث تنتبه العقول، ينشأ التقدم". فالتقدم لا يتوقف على أحوال الناس الخارجية.

(14945/1)

وفي تفسير أسباب التمدن وأحكامه، أفسحت "المقتطف" المجال لدعاة نظرية النشوء والارتقاء (أو المذهب الداروينـي)، بالرغم من عدم اتفاق العلماء على أحكامها (مثال في مجلد 10، عام 1886؛ و مجلد 19، عام 1895). وعمد دعاة النظرية إلى تطبيق ارتقاء البيئة الحيوانية والنباتية وأصل الأنواع الحية على ارتقاء العقل والهيئة الاجتماعية، وذكروا أن "قوى الناس قد ارتقت بفعل الانتخاب الطبيعي وناموس الوراثة كما ارتقت أنواع الحياة في مذهب النشوء والارتقاء.
وبعبارة أخرى، إنه كلما اشتد التنازع للبقاء، اضطر الإنسان إلى

(14946/1)

الاختراع والاستنباط لإصلاح حاله وبقاء نوعه. وهذا الإصلاح وقوة الحصول عليه يرثهما الفرد أو الشعب الذي هو أصلح من غيره للبقاء. ووفقا لهذا المذهب، يكون البقاء "قد خُصّ بأقوام دون غيرهم، وإن نتيجة ما حصلوه في القرون التي سلفت قائمة في جوهر دماغه؛ فأصبحت ملكة الارتقاء

غريزية في المتمدنين وستمكنهم من عمل العجائب".

قبلت "المقتطف" هذا الرأي، ولكن بتحفّظ، وأفسحت المجال لمعارضي هذا المذهب. فكتب أحدهم (في مقال "مصير التمدن"، مجلد 19، عام 1895): "... إن ناموس الارتقاء... ناقص من وجوه عديدة... إذ لا يمكن أن

(14947/1)

نعلل به الاختلاف العظيم بين الشعوب المختلفة التي نشأت أصلا في وقت واحد وكانت قواها العقلية واحدة، ولا وقوف تمدن بعض الشعوب على حال واحدة مدة قرون عديدة وتقهقر البعض الآخر، ولا نوع الاختلاف بين التمدن القديم والحديث". وأكد المقال قائلا: "... إن تقدم الشعب هو بنسبة القوة العقلية التي يبذلها أفراده في تحسين أحوالهم الاجتماعية، مع وجود العدل والحرية؛ إذ بدونهما، يضطر الإنسان إلى حرب دائمة ليأمن على نفسه وماله فينشغل بها عن إصلاح حاله...". ونقلت المقتطف" (في مجلد 15، عام 1891) عن ألفرِد ولص، رصيف

(14948/1)

داروين في مذهب النشوء، أنه بإصلاح أحوال الأفراد، تصلح حال الجماعات وترقى الناس رويدا رويدا. وذلك يكون بإتقان التعليم والتهذيب وتعميمهما وإصلاح شأن الفقراء وتسليم قيادة الناس وتربيتهم إلى أفضلهم وأحكمهم: "...فإن الانتخاب يجري فيهم من نفسه، فيزول من بينهم الضعفاء والفاسدون ويبقى الأقوياء والمستعدون للارتقاء.

واعتبر شبلي شميل (في مجلد 23، عام 1899) أن "العلم من أقوى الوسائط المؤثرة في الإنسان والمغيرة له". وكان همّ "المقتطف" أن تبين أنه "... لا أساس للتقدم غير العلم وحفظه ونموه" (مجلد 9، عام

(14949/1)

1885). ونقلت "المقتطف" عن القس هارفي بورتر (في المجلد السابق) تساؤله: "...هل يتوقف التقدم على مجرد اتساع العقل أو على العقل والأخلاق؟...". وطرح القس السؤال بطريقة أخرى: "...هل يمكن اتساع العقل إلى ما لا نهاية حتى يدرك كل أسرار الطبيعة وأسرار الإنسان العقلية والروحية". واتّفقت "المقتطف" مع القس بأن في الكون أسرارا لا نستطيع إدراكها بمجرد القوى العقلية، وبأن لهذه القوى حدا لا يمكنها مجاوزته من

تلقاء نفسها: "... وأن الأدبيات تفقد قوتها ما لم تعضدها أحكام الدين". والمعنى بالدين – في رأي "المقتطف" –

(14950/1)

"اعتقاد الناس بوجود الله وأحكام الحياة الأبدية ومطالبة الإنسان بما جنت يداه". وأشادت "المقتطف" بكتاب رشيد
رضا "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية" (في مجلد 28، عام 1902)، مؤكدة أن للدين يدا في عمران الأمم.
وفي رأي "المقتطف" أنه "لا يكفي القول بأن العالم متقدم اليوم أكثر من الأزمنة القديمة وأن سُنن الاجتماع البشري هي متغيرة لا ثابتة وهي نافعة للإنسان لا سببا مانعا لارتقائه" (مقال شبلي شميل، "الاجتماع البشري أو العمران"، مجلد 9، عام 1885).
ولاحظت "المقتطف" أنه منذ أول انتشار مذهب داورن، عمّ

(14951/1)

الاعتقاد بأن الخليقة صائرة من حَسَنٍ إلى أحسن وأن كل شيء فيها متقدم ومرتق ولا سبيل إلى المكث والتقهقر (نقلا عن مقال "الحرب والتقدم الاجتماعي"، مجلد 47، عام 1915)، حتى رسخ في الأذهان أن الهيئة الاجتماعية كلها تترقى يوما فيوما: "... فسنة الدهر تقتضي أنه كلما تقادم عهد الإنسانية، زاد اختبارا وارتقت درجة عما كانت عليه" (مقال "ارتقاء العقل والهيئة الاجتماعية"، مجلد 12، عام 1887). ونقلت "المقتطف" (مجلد 47، عام 1915) رأي أستاذ أمريكي (هو هاروث من جامعة كاليفورنيا) أن الأمر ليس كذلك، وليس هناك دليل

(14952/1)

يؤيد الاعتقاد بأن الناس عامة، ومنهم أمم أوربا وأمريكا، آخذون في سَنَنِ الارتقاء، "بالرغم من شرورهم وتماديهم في الغواية والضلال".

وليس الغرب كله رقيا وتقدما. فقد ضربت "المقتطف" الأمثلة على أن للمدينة الحاضرة محاذيرها، وتناولت غير مرة الآفات التي لها علاقة بالمدنية الحاضرة والتي زادت بزيادة المدنية، مؤكدة "أن العمران لم يتلف بذور الشر مع كل ما استعمل من الوسائل لإتلافها، بل زاد العقول استعدادا لنموها" (مجلد 30، عام 1905). ومع أن

"المقتطف» لا تنكر أن الإفرنج سابقون علما وصناعة وزراعة وانتظاما في

(14953/1)

الهيئة الاجتماعية، إنما تنكر عليهم دعواهم بأنهم مستأثرون به دون غيرهم: "... على حين نرى رذائل تمدنهم تخرب البيوت وتنقض دعائم الفضائل، حتى لقد كادت سيئاته تحجب حسناته عن البصائر؛ وصار يخشى أن تكون عاقبته الضعف والانقراض لا القوة والارتقاء" (مقال "التمدن والتوحش"، مجلد 9، عام 1885).
ورصدت "المقتطف" ظاهرة الانتحار في البلاد المتمدنة إلى حد أقلقت الأفكار (مقال "التمدن والانتحار"، مجلد 15، عام 1891). واستدلت من أقوال الدكتور وليم ماتيوس على

(14954/1)

أن الانتحار شر لا مفر منه في خلال التمدن، ذلك بأن جميع أوجه التمدن تنشأ من جهاد الإنسان ضد الطبيعة؛ وكلما تحسنت الهيئة الاجتماعية ، نشأت فيها احتياجات

جديدة: " ... ولا بد من أن يلاقي الإنسان مشاق كثيرة وهو يسعى للحصول على ذلك فإذا كان ضعيف البنية والعقل والأخلاق، أسقط في يده وربما هلك في جهاده". واعتبرت "المقتطف" (في مقال "مستقبل الهيئة الاجتماعية"، مجلد 35، عام 1909) الحرب أعظم مضرة للتمدن الحاضر. وأكد مقال "مصير التمدن" (مجلد 19، عام 1895) "أن عقول المخترعين الذين أهدوا إلى العالم الآلة

(14955/1)

البخارية أهدوا إليه أيضا البارود والديناميت وغيرها من فواعل الخراب والدمار".

ما كان يهم "المقتطف" معرفته هو كيفية انقلاب التمدن الحاضر، أو بعبارة أخرى: هل التمدن الحاضر إلى الزوال؟ لأن بقاءه على حال واحد رابع المستحيلات: "... وإذا ظل سائرا كما هو الآن، فلابد من أن يلحق بما سلفه" (مقال "مصير التمدن"، مجلد 19، عام 1895). ونقلت "المقتطف" رأي القس هارفي بورتر (في مجلد 9، عام 1885): "...لا نوافق بأن أركان تمدن السالفين كانت غير متينة وأن أركان التمدن الحالي متينة فلا يخشى سقوطه". كما نقلت عن كتاب

(14956/1)

هنري جورج الأمريكي (في مجلد 19، عام 1895) القول بأن "سبب انقلاب التمدن الروماني هو عدم المساوات في الغنى والقوة. وهذه العلة نفسها قد ظهرت في تمدننا، وهي أشد فعلا حيث التمدن قد بلغ غايته... الأغنياء يزيدون ثروة، والفقراء فقرا، ومتوسطو الحال على وشك الاضمحلال".

ونقلت "المقتطف" عن المجلة العلمية الفرنسوية (في مجلد 50، عام 1917) أن الحروب والظلم وفساد الأخلاق ونقص المواليد والمهاجرة هي عوامل زائلة لا أسباب دائمة في انحطاط الأمم. هذا، بالإضافة إلى أهمية العوامل الطبيعية بالرغم من أنه أصبح بالإمكان

(14957/1)

مقاومتها. ولخص سلامة موسى (مقال "ارتقاء الأمم وانحطاطها"، مجلد 37، عام 1910) النظريات التي يعلل بها علماء أوربا ارتقاء الأمم وانحطاطها، واعتبر السبب الاقتصادي أصدق نظرية : "... إذا احتكرت ثروة الأمة فئة صغيرة وصارت الأكثرية أجراء، أدى ذلك إلى الانحطاط..

فالفقير الذي لا يملك شيئا من الدنيا لا يهمه سواء كانت الحكومة دستورية أو استبدادا... وعدم تربيته يعريه من كل فضائل الآداب فينحط وبكثرة أمثاله تنحط الأمة".

ب – المقارنة بين أحوال الشرق والغرب

(14958/1)

أشادت معظم كتابات "المقتطف» بتقدم الغرب وانتقدت تأخر الشرق، فورد في مجلد 9، عام 1885 : "... كلما تأملنا في أحوال المشرق وشعوبه ولغاته، يقضي علينا الأسى لولا تأسينا، ولا سيما إذا قابلنا أنفسنا بأوربا وأمريكا وقد كادتا تطيران من عالم الوجود ونحن كالحجر الأصم لا نبدي حراكا". وقابلت المقتطف" (في مقال "آمال المشرق"، مجلد 18، عام 1893) بين أحوال المشرق والمغرب من حيث الارتقاء في العلوم والفنون والصنائع على أنواعها. وفي مقال عنوانه "تأخرنا العلمي وأسبابه" (مجلد 15، عام 1891) ساق أسعد داغر جملة خواطر

(14959/1)

تشير إلى "أن العلم باق بيننا إلى الآن مقصورا على أفراد... ومن يلقي على بلادنا الشرقية نظرا علميا إنما يرى فيه أثرا من... الجهل على رغم طنطنة الجرائد بكثرة العلماء وازدياد الخطباء...".

وكتب شبلي شميل سلسلة مقالات بعنوان "انحطاط الشرق الأدبي والعقلي" (في مجلد 23، عام 1899)، كان دافعه إليها، كما يقول، هو ما يراه في بلدان المشرق من الخمول والتأخر أدبيا وماديا. وشميّل يُدخل تحت اسم "الشرقي"، الصينيَّ والهنديَّ والإفريقيَّ والعربيَّ والتركيَّ والعجميَّ : "... تجمعهم جامعة الوقوف والتأخر في تاريخ

(14960/1)

العمران". ولكنه يريد أن يحصر كلامه في "الأقوام الذين يجمعنا وإياهم جامعة الوطن والسياسة". وفي رأي شميل أن الشرقيين هم – "بحكم تنازع البقاء معرضون للذل والشقاء، يعملون لأسيادهم أهل الغرب وأسيادهم بهم يعبثون... لأن ناموس التنازع في الطبيعة صارم لا يرحم. فالضعيف مقضي عليه أمام القوي بالمحاق أو الضياع بالاستغراق". ورأى شميل أن الغربيين أهل عمل والشرقيين أهل نظر قد يجر إلى الكسل. وربما كان هذا

في رأيه من الأسباب الطبيعية التي لأجلها لا يستطيع الشرق أن يناظر الغرب. وضرب أمثلة لاعتناء دول الغرب

(14961/1)

برجالها وعلمائها، وقابله بمعاملة حكومات الشرق قوت في أمم "كل الصفات الهادمة لصروح الاجتماع بما أخمدت من قوى العقل بإطفائها نور العلم... فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا الغرب باسطا فوق الشرق يديه، طامحا ببصره إليه، مزمعا أن يقبض عليه".

ووالت "المقتطف" نقل فقرات عما يجري في المغرب من تشجيع العلم والعلماء والبحث العلمي (مثال : مجلد 29، عام 1904) وعلقت على ذلك بقولها: "...فلماذا رمت أن يحيا غرس العلم في الوطن فأكرم من يحييه... ولا تزعم أن وطنك ينال من خيرات العلم نصيبا يذكر ما دام علماؤه أشقى الناس

(14962/1)

حالا؟". ونقلت (في مجلد 29، عام 1904) خطبة أحد العلماء الأمريكيين في مجمع ترقية العلوم الأمريكي موضوعها

"البحث العلمي والتقدم"، وفيها بين أن البحث العلمي لا يتوقف في المغرب؛ وغايته الأولى الرغبة في معرفة أسرار الكون وإدراك غوامضه، وغايته الثانية السعي وراء ما يؤول إلى راحة الإنسان وسعادته. وأكد العالم الأمريكي أن هناك ميدانا واسعا للم يزل في ظلمات الخفاء، وأن كل ما تم من التقدم العظيم في بعض الفروع ليس شيئًا يذكر بالنسبة إلى ما لم يكتشف بعد.

(14963/1)

ولخصت "المقتطف» كتابا عربيا عنوانه "نحن والرقي" (مجلد 31، عام 1906) بين مؤلفه مواضع ضعف الشرقيين ونقائصهم الأدبية وعيوبهم العائلية وسائر أحوالهم الاجتماعية من معاشٍ وصناعةٍ وتجارةٍ وثروةٍ وعلمٍ ودينٍ وأدبٍ ومبلغهم من التمدن الحديث، وأرجع المؤلف سبب تفوّق الغرب إلى الأتربة : "... التربية وحدها هي عرّفت القوم الحقوق والواجبات وغرست في نفوسهم الفضائل في كنف النظام الجيد العادل... فكانت لهم نِعم العون... وإهمالها أو تفاهتها عندنا... هو الذي عكس حالنا". ونقلت "المقتطف" (في مجلد 37، عام 1910) فقرات

(14964/1)

من كتاب د. أيوب ثابت من بيروت إلى د. رضا توفيق نائب أدرنه – وهو من دعاة الثورة الفكرية والإصلاح – عالج فيه أسباب رقي الغرب وتخلف الشرق. وعزا الكاتب ذلك إلى "الاعتقاد المتأصل في عقول البشر بأن الدين هابط عليهم من قوة فوق قوتهم وأنه لذلك ليس لهم أن يغيروا حرفا من حروفه ولا أن يتساءلوا ولو للاستنارة عما جاء في سطوره". وكان هذا الاعتقاد – في رأي كاتب المقال – هو الذي وقف قرونا طويلة في طريق بلوغ الإنسان المدنية الحديثة، "إلى أن جاءت الثورة الفرنسية

(14965/1)

فلاشت هذا الهم فصعدت من ثم إلى ما هو عليه اليوم من الرقي والمدنية الزاهرة". وفي مقال عنوانه "هرم تمدن الشرق وشباب تمدن الغرب" (مجلد 41، عام 1914)، بحث المؤلف عن الأسباب التي مكنت أمم الغرب من الأخذ بناصية مقامها الاقتصادي (وهذا في رأيه أصدق سبب لعظمة الأمم وسعادتها)، فوجد أن الغربي قد سبق

الشرقي في الاقتصاد والتوفير مع أنه دونه قبل ألفي سنة. يضاف إلى ذلك أن الغرب علم "أن الإنسان هو المحرك الحقيقي للعمل، فأحكم تهذيبه وتدريبه وتنميته وتحسين ذلك القدر من الذكاء الذي يولد معه".

(14966/1)

وفي باب المقارنة بين الشرق والغرب، فتحت المقتطف» صفحاتها لنقل أخبار المرأة الغربية وعاداتها وأخلاقها وكل ما يتعلق بنهضتها الجديدة ومباراتها الرجال في كافة الميادين (مثلا في مجلد 26، عام 1901؛ مجلد 27، عام 1902). وبين أسعد داغر (في مجلد 27، عام 1902) أن هدف الكتابة عن المرأة الغربية هو تشويق المرأة الشرقية إلى التمثل بها. إلا أنه شكك في حصول الفائدة المطلوبة؛ ذلك "لأن المحتاجات من نسائنا إلى الإصلاح لا يعرفن القراءة، وجانب من القليلات اللواتي تعلّمن في المدارس لا يطالعن ما يُكتب... ، لأنهن غير

(14967/1)

محتاجات إلى الوقوف على ما يكتب؛ لأنهن حاصلات على مقدار عظيم من الاستنارة". وألقى داغر تَبعة تأخر المرأة الشرقية وقصورها عن مجاراة المرأة الغربية في طريق التقدم والارتقاء على "الرجال الذين أخذوا من النشأة الحديثة، وإخوان النهضة الجديدة في المدارس الكبرى، وأرضعوا لبان المعارف، وجاروا الأوروبيين في درس لغاتهم واقتباس مصطلحاتهم، وجالوا عواصم البلدان الغربية، وطالعوا الكتب عن تمدن الفرنج وسرّ ارتقائهم وتقدمهم. وهو في بحثه عن "سبب وقوفنا في سلم الارتقاء فلم يزد عددنا كما يجب ولا ارتقت درجتنا كما

(14968/1)

ينبغي"، يجد أن علة ذلك "كوْننا قد خالفنا في ارتقائنا السنّة التي درج عليها غيرنا من الأمم المرتقية... إننا أعددْنا أرجلنا للعروج في سلم الارتقاء وحدنا – رجالا بلا نساء – ولم نهتم بأن تصعد معنا مثل عددنا أو مثل نِصفه على الأقل من فتياتنا"؟

ورد على أسعد داغر أحد قراء "المقتطف" في سان باولو (في مجلد 27، عام 1902)، فتساءل عن السبب الذي جعل الغربيات يَفُقْن الشرقيات، فوجده في كون الأحوال

الخارجية

– الاجتماعية والسياسية – المحيطة بأمم المشرق، بنسائها ورجالها، هي غير الأحوال التي في العالم الغربي،

(14969/1)

وأضاف القارئ أنه كان يجدر بداغر أن يتساءل لماذا الرجل الغربي أكثر ارتقاء من الشرقي، فإن الجهر بهذه الحقيقة – في رأيه – من أوجب الواجبات على الباحث في الإصلاح؛ وأنه إذا علمنا أسباب تأخر رجالنا، علمنا أيضا أسباب تأخر نسائنا : "وما التقصير من رجالنا، بل جل ما ينقصهم هو أن تمهّد لهم القوات المتسلطة في الشرق سبل الترقية والنجاح...".

وخصت "المقتطف" كتاب "المرأة" لقاسم أمين (الذي أسمته بلوثيروس الشرق) باهتمام خاص (في مجلد 26، عام 1901)، واعتبرت أن المؤلف قد جاهر بغرضه في مقدمة الكتاب : "المرأة الجديدة

(14970/1)

هي ثمرة من ثمرات التمدن الحديث". وفي رأي قاسم أمين "أن ظهور المرأة الجديدة في الغرب بدأ إثر ظهور الاكتشافات العلمية التي خلّصت العقل الإنساني من سلطة الأوهام والخرافات وسلّمته قيادة نفسه ورسمت له الطريق التي يجب أن يسلكها... حيث أخذ العلم يبحث في كل شيء، وينتقد كل رأي... وانتهى به السعي إلى أن أبطل سلطة رجال الكنيسة وألغى امتيازات الأشراف ووضع دستورا للملوك والحكام... ثم أكمل عمله بأن نسخ معظم ما كان الرجال يرونه من مزاياهم التي يفضلون بها النساء ولا يسمحون لهم بأن يساووهم".

واستعرض كتاب قاسم

(14971/1)

أمين حال المرأة في العالم منذ العصور الأولى ثم انتقل إلى حالها في أوربا وأمريكا : "لما بلغت الإنسانية مبلغها من المدنية، نالت المرأة حريتها التامة وتساوت بالرجل في جميع الحقوق".

وغزت نبوية موسى، في خطبة لها في الجامعة المصرية (في مجلد 38، عام 1911)، تأخر المرأة العربية إلى انقطاعها للجهل والفراغ : " ... في حين كانت المرأة الغربية تتقحم مع الزمن؛ وكان نتيجة ذلك رقي الأمة

رقيا بهر العالم". ونبويّة موسى معجبة بما وصلت إليه نساء أوربا اللائى "كنّ منذ قرنين تقريبا أسوأ منا حالا وما زلن يعملن حتى

(1/14972)

أصبحن على ما نعلمه من حالهن الآن". وأضافت قائلة : "... إن العار أن يعمل غيرنا من النساء ونكسل نحن فيتقدمن...". وأبدت ميّ زيادة في خطبتها في حقل النادي الشرقي في القاهرة (في مجلد 44، عام 1914) إعجابها بالنهضة النسائية الغربية، وراقبت ميّ تأثير المرأة في البلاد الغربية وظهور تحسن محسوس في مستوى الأخلاق والصحة، واعتبرت أن "مدنية الغد ليست مدنية الرجل وحده بل هي مدنية الإنسانية، لأن المرأة آخذة بالصعود إلى مركزها الحقيقي بقرب الرجل". وأضافت قائلة : "هذه هي المرأة الجديدة ومستودع آمال المستقبل".

(1/14973)

واستكمالا لموضوع المقارنة بين أحوال الشرق والغرب، ظهرت في "المقتطف" عدة مقالات حول التعليم والمدارس، نظرا "لأن البحث في ما يتعلق بالمدارس وطرق التدريس له المحل الأول عند طلبة الهيئة الاجتماعية وعند من يقصد النفع العمومي ويرغب في إصلاح بعض الخلل الذي يراه مستوليا على أمته وجنسه" (مجلد 8، عام 1883). وبحث بعض الكتابات في إخفاق المدارس في تحقيق الغرض المقصود منها بما هي أداة للتقدم؛ ومنهم من ذهب إلى أن علة القصور العلمي صعوبة لغتنا العربية وعدم صلاحيتها لمجاراة اللغات الأوربية، وأنه ليس فيها ما

(14974/1)

يخرجها عن وضعها الأصلي، لغة شعر وخطابة ، ويؤهلها لأن تكون لغة علوم وفنون ولسان اختراعات واكتشافات (مقال أسعد داغر، "تأخرنا العلمي وأسبابه"، مجلد 15، عام 1890). ووجه أسعد داغر في مقاله النقد إلى كتب التعليم في المدارس : فهي تعاني من الغلاء إذا ما قوبلت بكتب الغرب، إلى جانب غزارة فوائد الأخيرة ونفع محتوياتها؛ وهي غير متقنة الطبع، رديئة الورق والتجليد. كما صوّب سهام الانتقاد إلى

المدرسين المتعاطين صناعة التعليم والتدريس: "...
نظرا لمكانة وظيفة التعليم في الاعتبار والأهمية بين
ذرائع ترقى شأن

(14975/1)

الإنسان ووسائل اتساع نطاق الحضارة والعمران"، وهي
أمور قائمة – في رأيه – عند غيرنا.
وخصّصت "المقتطف" عدة مقالات للتعريف بالأصول
الحديثة في التعلم والمتّبعة في الغرب (مثال ذلك ما
كتبه وليم فان دايك عن الدرس والمدارس في مجلد 8،
عام 1883؛ وما كتبه بولس شحادة عن أصول التعليم
الحديث في مجلد 42، عام 1913). وأكد بولس شحادة أن
التعليم خضع لناموس الارتقاء كما خضع الإنسان والعلم
والتمدن : "فما نراه اليوم في المدارس والكليات
والجامعات من أصول التعليم الراقية ليس ابن يومه".
وأشار الكاتب إلى أنه قد نشأت في

(14976/1)

التعليم الحالي في المغرب أدبيّات جديدة وعلوم جديدة، ووجه العلماء أنظارهم إلى العلوم الطبيعية، لأنهم وجدوا "أنها هي العلوم التي كشفت وستكشف عما كان مجهولا، وأماطت اللثام عن كثير من قوات الطبيعة المستورة، ومهّدت السبيل إلى الاكتشافات والاختراعات التي يحار بها العقل". ونقل بولس شحادة عن علماء الغرب (سبنسر على وجه الخصوص) رأيهم بأن "التمدن لا يتم غلا متى عمّ العلم جميع طبقات الأمة على السواء، وأزال الفواصل القائمة سدّا منيعا بين الخاصة والعامة".

(14977/1)

وفي المقارنة بين أحوال الغرب المتقدم وتأخر الشرق، لاتصل المقتطف" إلى حدّ اليأس، ودعت (في مجلد 9، عام 1885) إلى قلب صفحة واحدة من تاريخ أوربا وأمريكا : وبذلك "تقشعت غيوم القنوط من أمام أعيننا وظهرت لنا تباشير شمس الرجاء ورأينا أن شرقنا في حالته الحاضرة جنّة بالنسبة إلى ما كان عليه منذ قرنين أو ثلاثة... ومَنْ لنا بحَكَم مُنصف يُقابل أحوال أوربا في ذلك العصر بأحوال بلادنا في هذه الأيام". وفي مقال "آمال المشرق" (مجلد 18، عام 1893)، ذكرت المقتطف" "بأن العلوم الطبيعية والرياضية التي نتج عنها الارتقاء

(14978/1)

العظيم الذي ارتقته الممالك الأوربية في الفلاحة والملاحة والصناعة وكل الاختراعات والاكتشافات... إن هذه العلوم كانت مجهولة في أوربا كلها في العصور الوسطى، وقد بقيت ممتهنة مضطهدة إلى أوائل القرن التاسع عشر".

وما كان يبعث الأمل لدى كتاب "المقتطف" هو المكانة التي بلغتها الحضارة العربية الإسلامية في التاريخ، وإمكان "إعادة ما كنا عليه من السبق وإحراز مكانتنا الأولى في المجتمع البشري". وأضافت "المقتطف" في مقال "آمال المشرق" (مجلد 18، عام 1893) قائلة"

(14979/1)

... ... إن ما ساعد على الحضارة الأوربية هو قيام العرب في إسبانيا وجزائر بحر الروم ... ... واتصالهم بهم في شرقي أوربا... وإن العلوم الرياضية والطبيعية التي لاح فجرها في ... ... عصر اليونان... عاشت في ممالك العرب وأينعت، في حين حجبها الظلام الدامس ... ... كما حجب غيرها من معارف البشر مدة العصور الوسطى.

وأبدت المقتطف" في تعليقها على كتاب رشيد رضا أن "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية" (في مجلد 28، عام 1902). واتفقت "المقتطف" مع الشيخ رشيد رضا على أن "الإسلام لا يناقض المدنية

(14980/1)

الأوربية الصحيحة بوجه من الوجوه، بل يرغب فيها ويحث على اتباعها ويوجب الأخذ بكثير من مقوّماتها، ولا سيما العلم".

ونقلت "المقتطف» فقرات من خطبة نبوية موسى في الجامعة المصرية (في مجلد 38، عام 1911). وهي تتحدث عن المرأة العربية في الزمن السابق وأنها كانت أرقى شأنا من النساء آخر : " ... فقد زاد الإسلام المرأة العربية رقيا على رقيها وسوى بينها وبين الرجال في الحقوق والواجبات". وتابعت نبوية موسى القول : " ... وما زالت المرأة العربية تشعر بالحياة الحقيقية إلى أن قضى الله على (الأمم) العربية بالانحطاط،

(14981/1)

فخملت العقول واستبد بهم الأعداء، فاستبذّوا بنسائهم".

ج – سبل النهوض في طريق التقدم والارتقاء:

كتب أسعد داغر في مقال "تأخرنا العلمي وأسبابه" (مجلد 15، عام 1890) : "... إن الأخذ بأسباب الإصلاح لا يتم إلا بعد الوقوف على سائر وجوه الخلل.. فشعورنا بتأخرنا العلمي يُعدّ لنا نهضة لتوقي سهام خمول... وخطوة مهمة في سبيل التقدم، إذ يسهل بعده إقناع الأفكار بوجوب المبادرة التي تطلب وجه السداد في طرح الإصلاح...". وهنّأ أحد قراء "المقتطف" (في مجلد 15، عام 1891) أسعد داغر على الحرية التي أبداها في مقاله لتشخيص

(14982/1)

شيء من أدواء الشرق والتصريح بها علنا : " ... فإن الوقت قد حان ... أن نسند الخلل قبل اتساع الخرق على الراقع. والمصلحة العمومية تطالبنا جميعا بإظهار غلطاتنا وعدم التعامي عنها. فإذا ظهرت وعلمناها حق العلم، سعينا إلى معالجتها وإيقاف سيرها".

وحثّت "المقتطف" (في مقال "مجاراة الأوربيين"، مجلد 17، عام 1893) على ضرورة "اقتباس ما عند الأوربيين من وسائل العلم والعمل... لأنها ضرورية للراحة

والرفاهية... فمن منا يُنكر فائدة المطابع والسفن التجارية والسكك الحديدية والتلغراف والتلفون ونظام البريد وآلات الجراحة

(14983/1)

والضغط ورفع الماء وعمل الجليد وإطفاء النار". وتساءلت "المقتطف» باسم الشرقي (في مقال "آمال المشرق"، مجلد 18، عام 1893، قائلة: "... إن كانت البلاد الأوربية قد بلغت هذا المبلغ من الارتقاء في سنين قليلة مع كل ما يحبط المساعي فيها، فعلى مَ لا نقفو خطواتها ونبلغ مداها في سنين قليلة وليس أمامنا ما يعيقنا عن السعي أو يصدنا عن النجاح... ولسنا نيأس من الحياة ما دام فينا رمق، ولا من النجاح ما دام فينا عزيمة... وعلى هذا الأمل أنشأنا "المقتطف"

(14984/1)

وفي تعليق "المقتطف» على الطريقة الحديثة في التعليم، كتبت (في مجلد 43، عام 1913) : "... لا يكفينا أن نطّلع على ما يعمل في الخارج وأن نقتصر على

استحسانه، بل يجب أن نستفيد منه وننسُخ على منواله إذا كنّا في حاجة إليه".

كان الرأي في إثبات الأمور المتعلقة بضرورة مجاراة الغير توطئة لبحث آخر هو : هل يمكننا مجاراة الأوربيين؟ (في مجلد 17، عام 1893)، واستعرضت "المقتطف" في مقالها "مجاراة الأوربيين" آراء العلماء بأن البلدان تختلف في إقليمها ومصادر ثروتها وضعف سكانها؛ وكل ذلك يؤثر في أشغالهم وأعمالهم، وبأن

(14985/1)

للأمم أعمارا طبيعية كالأشخاص، وبأن الأمة إذا غلبت على أمرها أو تولاّها الهرم أسرع إليها الاضمحلال. وأكد المقال "أنه لا يتعذّر على سكان أي قطر أن يجاروا الشعوب الأوربية إذا استخدموا الوسائل التي استخدمها الأوربيون وليس عليهم أن يسيروا في الطريق ما عند الأوربيين الآن من وسائل العمران".

ويرى د. أيوب ثابت في كتابه من بيروت إلى د. رضا توفيق نائب أدرنه المذكور سابقا (مجلد 37، عام 1910) أنه لا أمل في الإصلاح "ما لم تنتشر ثورة في الأفكار مبينة على العلوم الطبيعية والفلسفة المادية، فلا تراعي تقليدا ولا

(14986/1)

تحترم وهما"، وأن هذه الثورة الفكرية "لا تعني معارضة الدين من حيث هو، بل معارضته من حيث تقاليده المانعة للتقدم والارتقاء، فيفتح لنا ذلك.. مجالا لمجازاة الأمم الراقية في علومها ومدنيّتها، فنتمكن بالتالي من فصل الدين عن السياسة فصلا تاما ويصبح الدين مُعتقد الفرد ودين الأمة الوحيد كأمة الحرية (الحقيقية) والعدل (الحقيقي)".

و "المقتطف"، في دعوتها الاقتباس من أفكار الأوربيين، نصحت أبناء العربية (في مقال "ارتقاء الأمم وانحطاطها"، مجلد 37، عام 1910) بـ» أن يكونوا كالنّحل: يجنون العسل ويتركون سواه...

(14987/1)

أما في أوربا، فالجمهور متعلّم يميّز بين الغثّ والسمين... وأما عندنا، فقلّما يستطيع الجمهور التمييز بين الغثّ والسمين والضلال والصواب".

لقد وجهت "المقتطف» الدعوة إلى الأخذ بأسباب الإصلاح كلّه (في مجلد 28، عام 1903): "إصلاح الزراعة وتعزيزها

بكل ما عُرف من طبائع الأرض والمزروعات، إصلاح الصناعة والتجارة وسائر معوّقات العمران المادي، تهذيب الأخلاق وتربيتها على الفضائل، ونزع الصور القديمة من العقائد الدينية وإبقاء ما يطابق العقل السليم منها".

(14988/1)

واحتل موضوعان رئيسان مكانة بارزة في دعوة "المقتطف" للنهوض : التعليم والمرأة. فقد حثت "المقتطف" في مقال "مجاراة الأوربيين" (مجلد 17، عام 1893) على التعليم، لأنه السبيل الأمين لمجاراة الأوربيين، ودعت إلى إصلاحه ووضعه على أسس علمية مبنية على ما عرف من نمو القوى العقلية (بولس شحادة، "وجهة التعليم العصري"، مجلد 43، عام 1913). وطرحت إمكان ترجمة الكتب العلمية وتدريس العلوم باللغة العربية (في مجلد 48، عام 1916)، ووجدت أن اللغة العربية تصلح لكتابة موضوعات علمية، هذا مع إبقاء كثير من الكلمات العلمية

(14989/1)

(و"المقتطف" خاضت التجربة). ودعت "المقتطف" إلى تعليم مواد العلوم باللغة العربية وعلى يد أساتذة وطنيين؛ فهم ليسوا أقل كفاءة – في نظرنا – من الأساتذة الأجانب في تعليم العلوم.

وفي العمل على مجاراة العرب ولاقتباس عنه في طريق التقدم والارتقاء، ورد في "المقتطف"(في مجلد 26، عام 1910) تقريظ مصطفى فهمي لكتاب قاسم أمين : "... إن الهيئة الاجتماعية في بلادنا لا تتقدم تقدما حقيقيا من دون تربية المرأة على الفضيلة والعلم وإن هذه التربية لا تتم مع وجود الحجاب". وكتب أسعد داغر (في مجلد 27، عام 1902): "إن المرأة

(14990/1)

الشرقية هي أحطّ من رجلها في سلم الارتقاء"، ورأى أنها في حاجة إلى الترقية والإصلاح وتبعة قصور كل منهما على الرجال: "... وقبلما نحاول رفع الحجاب عن وجه المرأة الشرقية، علينا أن نرفعه عن هذه الحقيقة المهمة ونعترف بأننا نحن مقصّرون في ترقية فتاة الشرق، ونكفّ عن لومها وتحقيرها من جهة، وعن تملّقها ومدهنتها من جهة أخرى... ونصرّح لها أننا نفضّل علمها وتهذيبها وأدبها وكمالها على زينتها وحلاها ومالها

وجمالها... فإن فعلنا هذا، فتحنا باب الارتقاء؛ وإلا فأمم المشرق صائرة إلى الفناء".

(14991/1)

وعلق أحد قراء "المقتطف" في سان باولو على مقال أسعد داغر (في مجلد 27، عام 1902) بقوله: "... إنه إذا علمنا أسباب تأخر رجالنا، علمنا أيضا أسباب تأخر نسائنا"، وإن إصلاح الرجال، من وجهة نظر الكاتب، لا يقوم "بدون تعميم التعليم والتهذيب. وهذا أيضا لا يتيسر لأية أمة كانت ما لم تأخذ القوة الحاكمة معظم ذلك على عاتقها وتجعل التعليم إلزاميا كما نراه الآن في أرقى ممالك الأرض. وعندئذ يستحيل على الرجل المهذب أن يحرم بناته من التنوير وحسن التربية".

(14992/1)

وفتحت "المقتطف» صفحاتها للخوض في مسألة حقوق المرأة في التعليم، لأنه السبيل الوحيد لترقيتها (في مجلد 10، عام 1886). ودعت في باب تدبير المنزل "إلى بذل الأموال في تعليم البنات وتثقيف عقولهن، وإلى

دحض آراء السواد الأعظم من أهل الشرق الذين "ما زالوا يحسبون أن تعليم البنات لا يفيد الفائدة المطلوبة، وميزوا بين قُدرات البنين والبنات على تحمل عبء التعليم". (هذا ما كتبه مهجة سوقي في مجلد 17، عام 1893). وأضافت الكاتبة قائلة: "إن الأمة التي لا تعتني بتعليم إناثها وتثقيف عقولهن كما تُعنى بتعليم ذكورها، لا

(14993/1)

يتأتى لها أن ترقى مراقي التقدم والفلاح...". ودعت بنات الشرق إلى أن يسعين في تحصيل العلم، "مقتديات ببنات جنسكن الغربيات في طلب ما يكسبكن الفخر ويخرجكن من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة". ودعت إحدى قارئات "المقتطف" (في مجلد 26، عام 1901) أولئك "الذين يفكرون الآن في تحرير المرأة أن يبحثوا في طرق تعليمها... فالعلم هو الذي يمشي وراء الإنسان في هذه الحياة". ووجدت "المقتطف" (في مجلد 26، عام 1901) في مقدمة كتاب قاسم أمين "المرأة الجديدةّ الدليل المقنع "... على وجوب تعليم المرأة ومنع كل ما يضعف قواها

(14994/1)

الأدبية والعقلية والبدنية". وتجاوزت "المقتطف» حدود الواقع بدعوتها تعليم فريق من البنات العلوم العالية (في مجلد 28، عام 1903)، تعليقا على خطبة أستاذ أمريكي في مؤتمر النساء في الولايات المتحدة . ذلك بـ"... أن إنشاء المدارس العالية للبنات وتعليمهن العلوم العالية، إذا استطاع أهلهن أن ينفقوا عليهن، من لوازم الحضارة التي لا بد منها إذا أردنا مباراة غيرنا من الأمم الراقية".

خاتمة

لم تكن دعوة "المقتطف» إلى اقتباس أساليب الغرب ومدنيته دعوة مطلقة بلا حدود. فقد تعرض يعقوب صروف أحد مؤسسي "المقتطف" في

(14995/1)

خطبته في المجمع العلمي الشرقي (في مجلد 9، عام 1884) لمضار التمدن الأوربي، فقال : "... وكنت كلما نظرت إليه، ترتعد فرائضي لئلا يُصيبنا – نحن

الشرقيين – ما أصاب أهالي هواي وأستراليا، فيعود هذا التمدن علينا وبالاً ويذهب بأموالنا وأرباحنا...".

ولم يكن قَصْد صروف أن يطْعن في التمدن الأوربي على الإطلاق : "... لأن الذين شادوا دعائمه قد انتفعوا منه وسادوا على أكثر المعمورة". ولكنه كان يحث دعاته على التبصّر في عُقبى أعمالهم لئلا يُبيدوا الشعوب "المتوحشة" وهم يريدون نفعا. وصرّوف يحذر المُقتفين خطوات

(14996/1)

المتمدنين من اقتباس المنافع مع المضار. وما كان يبعث الثقة في نفسه قوله: "أما نحن الشرقيين، فلا خوف علينا من التمدن الأوربي؛ لأننا أقدم في المدنية من كل الشعوب، وإن كنا غير سالمين من بعض مضاره...".

(14997/1)

ميناء ديبل عند الفتح الإسلامي

... الدكتور إبراهيم عطا الله البلوشي

... كلية الآداب جامعة الإمارات العربية المتحدة – العين

ملخص

يتناول هذا البحث تاريخ ديبل الواقعة على الضفة الغربية لنهر السند، وتعرف الآن باسم بهمبور.

ويتطرق البحث كذلك للحديث عن سكان مدينة ديبل، وسكان إقليم السند على وجه العموم، كما يتطرق للحديث عن الفتح الإسلامي لتلك المنطقة ، ولغة أهلها وألبستهم ومساكنهم وظروفهم الاقتصادية والاجتماعية.

مقدمة

(14998/1)

كانت تسمى ديبل أو ذيبل (1) وتعرف الآن باسم بهمبور (2) وهي على بعد ستة أميال من مصب نهر مهران (نهر السند) على الضفة الغربية منه، عند مدخل البحر، على شاطئ خور يسمى خو ديبل (3) وهي مدينة حصينة على الساحل ، يقول المقدسي : "وديبل بحرية قد أحاط بها نحو من مائة قرية، أكثرهم كفار، والبحر يسطع جدارات المدينة" (4)

---

(1) الدمشقي، نهبة الدهر، ص.173؛ البكري، معجم ما اتسعجم ،ج 1، ص.569.

(2) تظهر من الصور أبعاد مدينة ديبل عن مدينة كراتشي..

(3) ابن حوقل ، صورة الأرض، ص.282؛ الدمشقي، نخبة الدهر، ص.99.

(4) المقدسي ، أحسن التقاسيم، ص.379.

(14999/1)

ويقول الإدريسي إن أراضيها جدبة ليس بها شجر ولا نخل وجبالها جرد وسهولها قشفة عديمة النبات (1) . وقديما كانت المدينة مقرا للحاكم أونائبه،أي العاصمة الثانية، وبها سجن ضخم ومعبد فخم للإله سيوا يخدم فيه أكثر من 700 فتاة ، وقلعة المدينة عبارة عن سور وأبراج يبلغ طولها 2000 قدم وعرضها 1000 قدم (2).

---

(1) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ط1، ص.167.

(2) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص.288؛ الطرازي، الموسوعة، ج1، ص.180؛ بلوش، فتح السند، ص.98.

(15000/1)

وتنقسم منطقة السند جغرافيا إلى خمسة أقاليم، ولكل إقليم مدنه وقراه والأقاليم هي : سيوستان، الملتان، إسكلنده، أرور وهي العاصمة وبرهمن آباد وهي المنصورة (حيدر آباد حاليا)، ومدينة ديبل تقع في إقليم "برهمن آباد" ومن مدنه، النيرون، لوهانة، لالهه، سمه، وغيرها (1) .

وقد زار المقدسي الميناء والمنطقة ووصفها بقوله " هذا إقليم الذهب والتجارات، والعقاقير والآلات والفانيد والخيرات والارزاز والأعجوبات، به عدل وإنصاف وسياسات، وبه خصائص وفوائد وبضاعات، ومنافع ومتاجر وصناعات، ومدن سرية وسلامة وعافية، ثم

---

(1) 38.

أمانات، نهر شريف، وأمره طريف، ولا تصل إليه إلا بعد أخطار البر وأهوال البحر، ولهم مروءة، وللإسلام عندهم طراوة، والعلم كثير والتجارات مفيدة، ولهم ذكاء وفطنة ومعروف وصدقة" (1) .

السكان

أقدم سكان السند وديبل كانوا شبيهين بالزنوج ثم

أتت موجات تورانية، من أواسط آسيا فتوالدت مع الأهلين، فظهر الدراوديون، وهم السكان الأصليون لمنطقة السند، وجدوا فيها منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، ثم توالت عليها أقوام آرية قدموا من الشمال الغربي للسند منذ 3500 سنة قبل الميلاد، ومعهم

---

(1) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص .474.

(15002/1)

لغتهم السنسكريتية.

وقدمت إلى البلاد موجة آرية منذ عام 600 ق.م. وبعد استقرارهم في البلاد خاف كهنة البراهمة مغبة اختلاط أتباعهم مع غيرهم، فوضعوا نظام الطبقات (1) .

وأشهر القبائل الموجودة عند قدوم المسلمين السند هم : الزط، والميد.

أما الزط، الجت (Jote) ، فهم أكثر عددا وأقوى عدة، وأخطر على أمن الدولة السندية من الميد، وهم ينتسبون إلى قبيلة لوهانه (Luhans) الهندية، وينتمون إلى طبقة واحدة، ومعيشتهم قاسية، والجهل

---

(1) الساداتي ، تاريخ الدولة الإسلامية، صص.9–11 ؛ النجرامي، العلاقات السياسية، صص.15–16.

(15003/1)

منتشر بينهم (1) .

وكانوا يقطنون غالبا في المناطق الداخلية وأطراف الأنهار، ومنهم من كان يحترف العمل في البحر والسواحل، ومنهم كذلك القراصنة، وقطاع الطرق، ويعرفون بالبدهه، وأغلبهم يشتغلون بالرعي (2) .

وانتقل الكثير منهم إلى الجزيرة العربية، والخليج والحجاز، واليمن والعراق، والشام قبل الإسلام وبعده، فكان منهم من دافع عن سيدنا عثمان رضي الله عنه يوم استشهاده، وكانوا

---

(1) الطرازي ، الموسوعة، ج 1، صص.76–77.

(2) ابن حوقل ، صورة الأرض، ص.55؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص.132 ؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص.138.

(15004/1)

حراسه، فقتلوا وبعضهم قاتل بجانب سيدنا علي رضي الله عنه يوم الجمل، وشاركوا الأمويين في حراسة الثغور والدفاع عن حوزة المسلمين (1) .

الميد (Meds)

و أفراد هذه الطائفة كانوا منتشرين على سواحل السند وصحرائها، الممتدة من الملتان إلى البحر، وضفتي نهر مهران حتى مكران، وهم كذلك كانوا لصوصا وقراصنة، ولكنهم كانوا مهرة

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان ص.166؛ تاريخ الأممم، ج 1، ص.306 ؛ محمد ، التاريخ والحضارة، ص.19؛ الطرازي، الموسوعة، ج1، الالوائي، الدعوة الإسلامية ، صص.63–66.

(15005/1)

وأصحاب خبرة في الحروب البحرية (1) . ويطلق عليهم أيضا البدهة أي البوذية أحد أديان

الهندوس. هاتان الطائفتان كانتا تعانيان من سوء معاملة الحكومة البرهمية، إلا أنهم بعد دخولهم الإسلام تغيرت أحوالهم، واستفاد المسلمون من معرفتهم لمسالك الطرق، وأحوال السند وأهلها، فجند ابن القاسم منهم في الجيش ما لا يقل عن أربعة آلاف، لما كان لهم

من الشجاعة والفروسية.

---

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، صص.178 – 179 ؛ الطرازي ، الموسوعة، ج1، صص.76 – 77.

(15006/1)

ولعله أراد بذلك التخفيف من شعور العداء الكامن بين الأهالي والمسلمين (1)

فتح السند

سبق السند علاقات تجارية وصلات حضارية قبل الإسلام بين أهل الجزيرة العربية والخليج "بحر فارس"، وبين السند والهند. إلا أن حكام السند لم يرغبوا في بقاء العرب عندهم، وذلك لمصالحهم السياسية وغيرها فلم تكن لهم إلا معابر ومحطات تجارية على السواحل الهندية. ولهذا لم يكن كثير من العرب يفضلون البقاء هناك (2)

---

(1) الساداتي، تاريخ الدولة الإسلامية، ج 1، صص.11–22؛ ساعاتي، انتشار الإسلام،ص.101.

(2) محمد ، التاريخ والحضارة، صص.12–13؛ الطرازي ، الموسوعة، ج 1، صص.242–243.

(15007/1)

.

وحين فتح الله للمسلمين مشارق الأرض ومغاربها ووصلت جيوشهم إلى مشارق سواحل الجزيرة الشرقية، أرادوا اجتياز البحر للوصول إلى سواحل السند والهند (القوة البحرية).

ومن جانب آخر فتح الله للمجاهدين أراضي العراق وفارس ومكران، ووصلت قواتهم البرية إلى حدود السند (القوة البرية).

وكان أول الفتوحات الإسلامية لتلك المنطقة في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث أن واليه على البحرين وعمان (عثمان بن أبي العاص) أبقى آخاه الحكم بن أبي العاص في البحرين، وتوجه هو إلى عمان ومن ثم أرسل جيشا في غارة جريئة

(15008/1)

على مدينة (بمبني حاليا) وانتصر وغنم ثم عاد، وفي السنة نفسها وجه أخاه المغيرة بن أبي العاص إلى ديبل، فلقي العدو وظفر به سنة 15 هـ/ 636 (1)

وتتابعت الهجمات الإسلامية على السند في عهد سيدنا عثمان وعلي ومعاوية رضي الله عنهم. ... ... بلوشي

وفي عهد عبد الملك بن مروان وحين تولى الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي إمارة العراق والمشرق الإسلامي، كانت مكران تحت إمرة المسلمين، فكانت المنازعات مستمرة بين

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص.420؛ بلوش، فتح السند، ص.83.

(15009/1)

المسلمين هناك وبين ملك السند على حدود مكران، ففتح المسلمون بعض المناطق، واستشهد بعض القادة إلى أن ولى الحجاج الأمير محمد بن هارون بن ذراع النمري، واليا على مكران.

ذكرت المصادر التاريخية الموثقة أن من فضائل الحجاج أنه تفرغ وهيأ كل الإمكانيات للقضاء على فرقة الخوارج، فتتبعها إلى أن كسر شوكتها فقتل من قتل وهرب من هرب، ومن الفارين من لجأ إلى عمان، فأرسل

الحجاج في أثرهم، فهربوا، واجتازوا البحر ووصلوا إلى مكران والسند.

(15010/1)

وكان الهاربون حوالي خمسمائة رجل منهم من تآمر مع ملك السند وانضم إليه، ومنهم من بقي في مناطق الحدود السندية المكرانية، وأخذوا ينازعون المسلمين (1).

فأخذ الحجاج يتتبع آثارهم، وأرسل الجيش من العراق للقضاء عليهم ولتأديب ملك السند الذي كان يحرض هؤلاء الخارجين على الخلافة لمحاربة أمير مكران، ومن جراء ذلك أخذ العلافيون وهم من الخوارج ينظمون صفوفهم واتخذوا لأنفسهم قادة ورؤساء مثل: معاوية ومحمد ابني الحارث العلافيين. وكان قد ولى الحجاج سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي

---

(1) بلوش، فتح السند، ص.79-80، 94-95.

(15011/1)

أميرا على مكران(75 – 80 هـ/ 694–699 م) فنظم الأمور، وأمر الحجاج بمحاربة العلافيين، إلا أنهم أسرعوا بالخروج إليه. وتآمر كليب بن خلف، وعبد الله بن عبد الرحيم، ومحمد ومعاوية العلافيان، وقتلوا سعيدا، واستولى العلافيون على مكران سنة 80–85 هـ/ 699–704 م بتأييد من ملك السند.

وبعدها أرسل الحجاج جيشا قويا على هؤلاء الخارجين بقيادة مجاعة بن سعر التميمي

(85–86 هـ/ 704 – 705 ن) ، وقبل أن يصل الأمير ترك العلافيون المنطقة، والتجأوا إلى ملك السند (1)

---

(1) المغربي، الإيناس، ص.177؛ ابن الأثير، الكامل، ج4، ص.36؛ الطرازي، الموسوعة ، ج1، صص.156–157.

(15012/1)

. وبعد وفاة مجاعة أرسل الحجاج الأمير محمد بن هارون بن زراع النمري أميرا على المنطقة من 86 – 92 هـ/ 705 – 710 م حتى قدوم محمد بن القاسم (1) .

تذكر بعض الروايات أن السبب الرئيسي لفتح الحجاج إقليم السند هو : إنقاذ المسلمات من سجون الملك داهر، وذلك أن كثيرا من تجار العرب أقاموا في جزيرة

سرنديب " سيلان" مع من أسرهم ومنهم من تزوج هناك وأنجب، ثم توفي البعض منهم وخلفوا أرامب وأيتاما.

---

(1) ساعاتي، انتشار الإسلام، ص.81؛ الطرازي ، الموسوعة ، ج1، صص.160–161.

(15013/1)

فأراد ملك الجزيرة أن يرسل أهالي المتوفي عنهن أزواجهن إلى دار الخلافة، حيث ذووهم وورثهم، ومعهم كثير من الرجال والنساء الراغبين في الحج، ومن بين النساء من أردن مشاهدة العاصمة دمشق لأنهن ولدن في الجزيرة وترعرعن هناك، وقد أرفق ملك الجزيرة مع هؤلاء العرب كثيرا من الهدايا الثمينة والتحف النادرة من الدرر والياقوت، وعددا من الغلمان والحواري والعبيد الأحباش، وكان شأن هذا الملك أن يرسل سنويا الهدايا إلى دار الخلافة.

(15014/1)

وفي هذه السنة، أي 90 هـ/ 708 م، أرسل الملك هذه الهدايا إلى العراق رغبة في التقرب من الحجاج وحمل ذلك

في ثماني سفن كبيرة (1).

وكان بعض هذه السفن للعرب، وحدث أن هبت على هذه السفن عواصف عاتية، فألقت بها إلى سواحل السند قريبة من ديبل، وهذه السواحل مأهولة بقوم يقال لهم الميد، عرفوا بالنهب والسرقة والقرصنة (2). فخرج هؤلاء على بوارج بحرية وهاجموا السفن الإسلامية فنهبوها،

---

(1) ساعاتي ، انتشار الإسلام ، ص.81؛ الطرازي ، الموسوعة ، ج1، صص.160–161.

(2) البلاذري، فتوح البلدان ،ص.423؛ بلوش ، فتح السند، ص.18.

(15015/1)

وأسروا الرجال والنساء المسلمات والأطفال، فذهبوا بالبعض إلى سجن ديبل والبعض إلى سجن العاصمة (أرور).

وأثناء السلب والنهب صاحت امرأة مسلمة من بني يربوع بأعلى صوتها واحجاجاه أغثني، وحدث أن انفلت من أيدي اللصوص بعض المسلمين وأوصلوا الخبر إلى الحجاج بن يوسف، فقال : لبيك لبيك، وكتب رسالة من توه إلى ملك السند يطلب منه إطلاق سراح

المسلمات إلا أن الملك رد ردا قبيحا بقوله : "إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم".

(15016/1)

والحقيقة غير ما ذكر، فالروايات الثابتة تذكر أن رجال الملك هم أنفسهم هاجموا السفن الإسلامية، وخير دليل على هذا أن السفن المهاجمة كانتبوارج حربية وهي سفن لا يملكها إلا الحاكم وحتى لو لم تكن تأتمر السفن المهاجمة بأمر الحاكم، إلا أن كان الحاكم كان على علم بهذا الهجوم، وإلا لما استطاع هؤلاء تقسيم الأسرى وتوزيعهم بين سجن ديبل وسجن العاصمة، على مرأى ومسمع من الملك وسلطاته (1) .

---

(1) النجرامي ، العلاقات السياسية، ص.37.

(15017/1)

عندئذ قرر الحجاج فك الأسرى ورد الاعتبار للخلافة الإسلامية وذلك بالقضاء على القراصنة، ونشر الإسلام في تلك البقاع.

فأرسل جيشا بقيادة عبيد الله بن نبهان السلمي سنة

90 هـ/ 708 م، فوصل إلى ديبل وقاتل العدو حتى استشهد وهزم جيشه، ثم أنفد الحجاج جيشا آخر سنة 91هـ/ 709 م بقيادة أحد الشجعان البارزين الأخيار، وهو : بديل بن طهفة البجلي فأخذ طريق البر إلى عمان، ثم عبر البحر وتوجه إلى مكران، فالتقى بواليها محمد بن هارون وأمده هذا الأخير بثلاثة آلاف من الجند، إلى أن وصل إلى ديبل والتقى بالعدو وكان النصر حليفه

(15018/1)

في بداية الأمر، إلا أن داهر أرسل ابنه جيسيه مع أربعة آلاف مقاتل وعشرات الفيلة المحاربة، فتقاتل الفرقان منذ الصباح الباكر حتى المساء. وقد ربط القائد (بديل) خلالها عيني فرسه لأنها كانت تهاب الفيلة وقاتل بشجاعة نادرة، وقد قتل بمفرده من العدو قرابة ثمانين مقاتلا في الميدان، حتى استشهد في نهاية المعركة، وانهزم جيشه ووقع الكثير منهم في الأسر، وسجنوا مع النسوة والتجار في السجن الكبير بديبل (1) .

---

(1) محمد، التاريخ والحضارة ، صص.29–30؛ بلوش، فتح السند، صص.98–99؛ الطرازي، الموسوعة، ص1، ص162.

(15019/1)

ووصل الخبر إلى الحجاج فحزن حزنا شديدا على استشهاد بديل، فقد كان له مكانة عظيمة في نفسه (1) .

ثم أقسم الحجاج على أن يغزو بلاد السند ويفتحها، فكتب بالتفصيل إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك واستأذنه بإرسال جيش كبير إلى السند فلم يوافق الخليفة، لبعد المنطقة من ناحية، فهي تبعد 2500 كم عن العاصمة دمشق، ومن ناحية ثانية لقوة الملك داهر، وغنى بلاده المعروفة بثرائها وقوتها وحضارتها القديمة (2) .

---

(1) بلوش، فتح السند،ص.99.

(2) محمد، التاريخ والحضارة، صص.31–32.

(15020/1)

وهناك الموانع والحواجز الطبيعية ، البحر، والصحارى مما جعل الخليفة يتردد.

لكن الحجاج ألح عليه وأقنعه، بعد ما أظهر له الخطط

والتدابير لحفظ أرواح المسلمين فوافق الخليفة. رأى الحجاج أن يولي قيادة الجيش محمد بن القاسم لما كان يتمتع به من شجاعة مروءة، لكنه خشي أقوال الناس من اصطناع الحجاج لأهله، إلا أن ابن القاسم قال للحجاج : "إنني لا أطلب منصبا ولا أطالبك بالرزق، وإنما أطلب منك أن تعينني على ميتة في سبيل الله فأعني على الموت يهب لك الله الحياة (1).محمد بن القاسم بن محمد

---

(1) شاكر، باكستان ، ص.15.

(15021/1)

الثقفي، ابن عم الحجاج بن يوسف (1) .

والحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي يجتمع بمحمد بن القاسم الثقفي في الحكم بن أبي عقيل (2) . وكان محمد بن القاسم واليا على إقليم فارس ومقره شيراز، كما كان أبوه واليا على البصرة من قبل الحجاج (3) .

فجهز الحجاج ابن القاسم بجيش قوي مكين قوامه ستة آلاف من الفرسان (4)

---

(1) الزركلي، الأعلام، ج 6، ص.333.

(2) ابن الكلبي ، جمهرة النسب، ج 2، ص.77.

(3) البلاذري، فتوح البلدان، ص.424 ؛ ابن حزم ، جمهرة العرب صص.267–268.

(4) اليعقوبي ، تاريخه، ج 2، ص.288 ؛ العبر، ج 5، ص.132.

(15022/1)

، كما ضم إليه ستة آلاف آخرين من أهل فارس من العرب وغيرهم من المشاة (1) . وفي سنة 92 هـ/ 710 م توجه بالجيش إلى شيراز وأقام بها ستة أشهر ليجمع قواه ومن هناك قسم قواته إلى بحرية وتوجه ابن القاسم بالبر إلى مكران وأقام بها شهرا ومعه من القوة ستة آلاف من الجند ومن

مكران رافقه أميرها محمد بن هارون ومن معه حتى أرمائيل ووافته المنية هناك (2) . أما الفرقة والقوى البحرية فقد أرسلت عن طريق البحر ومعها المؤن

---

(1) الطرازي، الموسوعة ،ج 1، ص.167.

(2) البلاذري، فتوح البلدان،ص.424 ؛ بلوش، فتح السند ، ص.105.

(15023/1)

والأسلحة الثقيلة مثل المنجنيقات وغيرها، ومن المنجنيقات منجنيق عظيم يسمى العروس يديره ويعمل به ما يقارب من خمسمائة رجل وشاءت الأقدار الإلهية أن يلتقي الجيش البري بالجيش البحري في اليوم نفسه وكأنهما على موعد، ولكنها إرادة الله وكان ذلك في يوم الجمعة (1) .

وكان على قيادة الجيش البحري خريم بن عمرو المري وابن المغيرة، وبجانب هؤلاء القادة كان هناك قواد بارزون مثل عبد الرحمن بن سليم الكلبي،

---

(1) ابن الأثير، الكامل، ج 4، ص.111؛ ساعاتي، انتشار الإسلام، صص.93-97 ؛ ابن خلدون، العبر، ج5، صص.132-133، 160-161.

(15024/1)

وسفيان بن الأبرد المشهور بالجلد، وقطن بن مدرك الكلابي (1) .

وبدأ حصار المدينة من كل الاتجاهات، ونصب المنجنيق الضخم " العروس" وأمر ابن القاسم جعوبة المسلمي قائد المنجنيق بتركيز الرمي على قبة الب " والبد صنم

للمجوس هناك" وكان ارتفاع القبة 40 ذراعا وسعتها 40 ذراعا.

---

(1) الطرازي ، الموسوعة، ج 1، صص.166، 169–171؛ البلاذري فتوح البلدان، صص.424–425 ؛ محمد، التاريخ والحضارة، صص.38–39؛ اليعقوبي، تاريخه، ج 2، ص.277.

(15025/1)

وأثناء الحصار خرج رجل برهمي من النساك، وطلب الأمان من ابن القاسم فأمنه. ثم أخبر المسلمين أنه طالما العلم يرفرف على المعبد، يصعب عليهم فتح المدينة، لما كان الهنود يعتقدون في ذلك، فأشار عليهم بإسقاط العلم، وعندئذ أمر ابن القاسم جعوبة بضرب العلم، فبدأ ورمى بالمنجنيق وأسقط العلم، كما أسقط جزءا من قاعدته وساريته.

فكبر المسلمون ثم أصاب قبة المعبد، فانهدمت تماما دون أن تصيب مبنى المعبد بضرر (1) وتطير أهل ديبل وتشاءموا فخرجوا إلى المسلمين مندفعين

---

(1) المصدر نفسه، صص.38–39؛ اليعقوبي، تاريخه، ج 2، ص.277.

(15026/1)

للقتال المستميت، فقابلهم المسلمون بالسهام كالمطر، وقاتل الطرفان قتالا شديدا حتى هزم الله الكفار، ورجعوا إلى داخل الحصن.

وفيما بعد هيأ ابن القاسم جنده للهجوم العام، فنصب السلالم، فكان أول المتسلقين صعدى بن خزيمة المرادي الكوفي، وتلاه عجل بن عبد الملك ابن قيس البصري،وفتحت الأبواب، فكبر المسلمون ودخلوا. لكن المشركين قاتلوا قتال الموت أو حياة أشد من ذي قبل. واستمر القتال داخل الحصن ثلاثة أيام، حتى كانت الغلبة لجند الله، وتوجه بعض جند المسلمين إلى المعبد، وقتلوا حراسه، واخرجوا منه 700 جارية موقوفة

(15027/1)

لخدمة المعبد. بعدها أخرج المسلمون المساجين، رجالا ونساء. وأمر ابن القاسم بقتل كل محارب من أهل ديبل جزاء ما لقي المسلمون منهم من قبل، كما أمره الحجاج بإعطاء الأمان لبقية مدن السند إلا إذا تمرد أهلها. وبعد سيطرة المسلمين على المدينة، هرب عامل الملك داهر

المسمى جاهين بن برسايد رواتـ. وبدأ ابن القاسم ينظم أمور المدينة وخططها، فبنى مسجدا كبيرا، ووسع القلعة، وبنى بالجانب الشرقي للقلعة منطقة سكنية للمسلمين تضم أربعة آلاف من العوائل العربية والجند وعين حاكما على ديبل وهو محمد بن وداع النجدي وكان ذلك في

(15028/1)

رجب سنة 93هـ/ 711 م (1) .

وقسم ابن القاسم الغنائم على الجنود، وأرسل بالخمس إلى دار الخلافة، ثم توجه إلى السند الداخلي، وكلما مر على مدينة صالحه أهلها، حتى قتل ملكها داهر ودخل عاصمته " أرور" فجر يوم الجمعة 93/9/11 هـ – 1/7/ 712 م (2) .

---

(1) ساعاتي، انتشار الإسلام ، صص.99–101؛ الطرازي، الموسوعة، ج1،صص.166–173 ؛ ابن الأثير، الكامل، ج4،ص.111؛ البلاذري، فتوح البلدان، صص.424–425 ؛ بلوش ، فتح السند، ص.197.

(2) اليعقوبي، تاريخه،ص.289 ؛ بهارد، لب تاريخ السند، ص.24؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص.427.

(15029/1)

لمحة عن الناحية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية

ونعني به : المجتمع والثقافة واللغة والتجارة .

أولا : سبق ذكر الأجناس والقبائل. أما الطبقات، فقد رأى القادمون الجدد بعد

الاستمرار في إقليم السند، وخاصة رجال الدين البراهمة أن لا تختلط قبائلهم وعنصرهم مع العناصر الموجودة من قبل فأنشأوا نظام الطبقات.

... الطبقة الأولى :

البراهمة (برهمن) وهم رجال الدين، ولهم الإشراف على المعابد وجمع النذور والخيرات، ولهم السلطة المطلقة في البلاد بما يفوق سلطة السلطان نفسه.

الطبقة الثانية :

(15030/1)

الكشترية (جهتري) وهم الحكام والقواد والسياسيون، يتولون شؤون الدفاع والسياسة والسلطة.

الطبقة الثالثة :

الفيشية (ويش) وهم التجار والصناع والزراع، ويقومون بالأمور الاقتصادية وتوفير وسائل العيش للطبقتين

العاليتين.

الطبقة الرابعة :

الشورى (جودري) وهم من الدراوردية وهم السكان الأصليون وواجبهم القيام بخدمة الطبقات الثلاث الكبيرة.في أحط الخدمات وأقذرها وهم محرومون من جميع الحقوق الإنسانية، ولا بد أن يسكن أفراد هذه الفئة خارج المدينة، بحيث يقومون بخدمة الأسياد نهارا ويخرجون ليلا ولا يسمح لهم

(15031/1)

بالتجارة وجمع المال والتعليم. ذكر البيروني ،"بل محروم عليهم سماع الكتب المقدسة، ومن سمعها يصب في أذنيه الزيت الحار، وإذا رفع صوته على أحد من أفراد الطبقات الأخرى قطع لسانه" وإذا رفع يده، وإذا رفس قطعت رجله".

ولا يسمح لهم بالزواج من غيرهم، أو الانتقال والانتماء إلى طبقة أعلى منهم.

وبعد الفتح الإسلامي احتار المسلمون وابن القاسم أمام هذه الطبقات وكيفية التعامل معها، فقرر تطبيق الآية الكريمة عليهم { لا إكراه في الدين } واتخذوا النصح

والمعاملة الحسنة شأن الوالي المسلم فتأثر الكثير، فمن دخل منهم

(15032/1)

الإسلام، أصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم.

وعند قدوم المسلمين كان أهل السند منقسمين إلى فئتين سياسيا وفكريا واجتماعيا وثقافيا واقتصاديا.
فئة أصحاب الطبقات الثلاث الأولى وهم أصحاب الديانة البرهمية وأصحاب النظام الطبقي ورجال السلطة.
الفئة الثانية: أصحاب الديانة البودية، وهم الدارودرية ومنهم الميد والزط، المناوئين للفئة الأولى.
وبسبب الظغوط والمعاملة اللإنسانية تجاههم من الفئة الأولى أخذ هؤلاء يجمعون أفرادهم ويوحدون كلمتهم حتى نظموا شأنهم بأن أصبح لهم رئيس يأتمرون بأمره.

(15033/1)

فبدأوا بمواجهة السلطة البرهمية حتى عم فسادهم البر والبحر على العامة والخاصة من قرصنة بحرية على كل من

مر بسواحلهم من السفن وقطع الطريق والسلب والقتل لكل من عبر ديارهم، إلى أن ضاق الملك داهر منهم ذرعا، فاتخذ ضدهم بعض الإجراءات القاسية فألزمهم بارتداء لباس خاص بهم لكي يعرفوا، وإذا ثبت على أحدهم سرقة أو قتل فإنه مع أفراد أسرته يحرق بالنار وغيرها من الإجراءات القاسية.

وهذه الفئة المظلومة التي تتفق بعض مبادئ دينها مع قواعد وأسس الدين الإسلامي في مبدأ المساواة والعدالة، وإلغاء نظام الطبقات، وخاصة بعد

(15034/1)

فتح المسلمين لمناطقهم والمعاملة الحسنة التي وجدوها من القائد محمد بن القاسم وجنده، أخذوا في الدخول في الإسلام واعتناق هذا الدين الجديد جماعات وأفرادا، وبعد اعتناقهم الإسلام ضم ابن القاسم العديد منهم إلى قيادات عليا في الجيش الإسلامي.

ومن جهة ثانية استفاد المسلمون من خبرتهم الحربية وإخلاصهم في الجهاد بجانب إدلاء معلومات للجيش الإسلامي عن الطرق الوعرة والسبل والجبال ومنافذ الأنهار.

وانتهت بذلك المشكلة المذهبية والمعضلة الاجتماعية، فالطبقة البرهمية منهم من اعتنق الدين الإسلامي أصبحت معاملته مثل

(15035/1)

المسلمين. ومن بقي على دينه فيدفع الجزية، دون التسلط على الغير (1) ..

وبعد أن استقر ابن القاسم في السند بدأ تنظيم الأمور الإدارية فجعل لكل مدينة من المدن الكبرى مجالس للنظر في المظالم، وكان لديبل مجلس تظلم ترفع الأمور إليه مباشرة فينصف المظلوم (2) .

واتخذ المنصور برهمان أباد مركزا للحكم وقصرا للإدراة وبعد محمد بن القاسم اتخذها ولاة بني أمية ومن بعدهم مقرا

---

(1) الطرازي، الموسوعة، ج 2، صص.117–120 ، 136–147 ؛ البيروني، تحقيق من الهند،صص.76–80؛ المسالك والممالك؛ص.71.

(2) ساعاتي، انتشار الإسلام،ص.71.

(15036/1)

للحكم سنة 121 هـ/ 738 م (1)

اللغة

يقول البيروني : "إن اللغة أهل السند تختلف كليا عن اللغة العربية وحروفها كذلك، ويصعب على العربي نطق أكثر كلماتها وأسمائها" (2)

واللغة القديمة هي اللغة السنسكريتية من اللغات الآرية، التي لها أهمية خاصة، فهي لغة الكتب المقدسة الهندية القديمة، وكانت اللغة الرسمية قبل الإسلام (3) . أما بعد الفتح الإسلامي فقد

---

(1) محمد، التاريخ والحضارة، صص.177–178.

(2) البيروني، تحقيق ما للهند ، صص.13–14.

(3) ساعاتي، تاريخ الدولة الإسلامية، ص.13؛ النجرامي، العلاقات السياسية، صص.15–16.

(15037/1)

أصبحت اللغة المستعملة هي اللغة العربية والسندية (1) . ويقول الطرازي : – فاللغة العربية هي لغة الدولة، والطبقة الحاكمة والموظفين والأعيان والمثقفين ، والعلماء والقضاة والمدارس (2) .

اللباس

كان أهل ديبل يلبسون زي أهل العراق كان حسنا جميلا، كانوا يفضلون اللون والعمائم الكبار ومن رسومهم التجمل والتطليس ولبس الشروب – شراب – والخطباء يلبسون الأقبية والمناطق – مثل الحزام – (3)

---

(1) الأصطخري، مسالك الممالك، ص. 177.

(2) الطرازي، الموسوعة، ج 1**، صص.** 404.406–407.

(3) الإدريسي ، نزهة المشتاق، ج 1**، ص** 382 **؛ المقدسي، أحسن التقاسيم، صص.** 129،382.

(15038/1)

وتجارهم والأعيان كانوا يلبسون القميص والأردية، أما العامة فكانوا يلبسون الأزر والميازر لشدة الحر ببلدانهم، وكانوا يخرمون آذانهم ويلبسون القرط ويطولون الشعر ويرسلونه (1) **.**

ومن العامة الميد والزط فهؤلاء قد أجبروا من قبل البراهمة أن يرتدوا زيا موحدا لكي يتميزوا عن غيرهم، وهو عبارة عن جلباب وإزار من قماش أسود خشن ثقيل، وعلى أكتافهم منديل من نفس القماش، ويحرمون من ارتداء الألبسة الملونة وتغطية الرأس وأن يمشوا حفاة

مكشوفي الرؤوس، ثم تحسن وضعهم بعد دخولهم الإسلام

---

(1) الأصخري، مسالك الممالك، ص.177.

(15039/1)

---

(1) .

وقد ذكر القلقشندي عن زي أهل هذه المملكة في الفترات المتأخرة العديد من الأنواع والألوان بالتفصيل.

المساكن

... وأكثر بنيان ديبل من الطين والخشب (2) . وهناك مبان من الحجر والجص والآجر كانت موجودة في المنطقة مثل المنصورة والمباني الحجرية ظاهرة في ديبل من آثار المعبد – وجدار السور ومسجد محمد بن القاسم بعد الفتح، إذ يذكر البلاذري أن جيش محمد بن القاسم بعد الفتح، إذ يذكر والي المعتصم بالله على

---

(1) الطرازي، الموسوعة، ج2،صص.128–129 ؛ الدمشقي، نخبة الدهر، ص.176.

(2) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص.167.

(15040/1)

السند قد بنى سجنا ضخما من الحجارة الموجودة من أنقاض البيوت والأسوار القديمة لديبل (1) . وكان القواد والولاة كثيرا ما يسكنون في ثكنات ومعسكرات الجيش خارج المدن أو في الحصون والقلاع، ومن ثم ففي عهد الأمويين كان الحاكم لا يسكن إلا بيتا عاديا ويعيش عيشة خالية من الزخارف في أكثر شؤون حياتهم.

أما مساكن الطبقة المتوسطة والعامة فكانت جيدة بسبب الدخل من الزراعة والتجارة والصناعة، فبعض المساكن من الحجر ومزخرفة . ومن طبقة العوام : الفلاحون

(1) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص.479 ؛ البلاذري، فتوح...، ص.425.

والعمال والخدم فكانت مساكنهم غالبا من الخشب أو المبنية من الأخواص على شكل أكواخ صغيرة وقد تكون غير صحية (1) .

وقبل الإسلام كانت هناك الطبقة المنبوذة لأحط الأعمال وأدناها فهؤلاء لا يسمح لهم بالسكنى مع الأسياد.

يخدمونهم بالنهار ويخرجون بالليل إلى خارج البلد والمدينة (2) .

الناحية الثقافية :

تمتع العلماء والقضاة بمنزلة اجتماعية جيدة في بلاد السند بفضل علمهم وتقواهم.

---

(1) الطرازي، الموسوعة، ج2، صص.124–129

(2) البيروني، تحقيق ما للهند، ص.77.

(15042/1)

وكان لهم أثر كبير في إسلام الكثير من أهل السند نظرا لأخلاقهم الكريمة وقيمهم المثالية، وما يتحلون به من التواضع والعلم الواسع من جميع طبقات السند، وكانوا موضع تقدير الولاة والحكام، يصحبونهم في المجالس الرسمية والمناسبات، وبعد الفتح الإسلامي، أنشئت مدارس علمية مشهورة لتدريس علوم الحديث وغيره (1) .

وأشهر العلماء بديبل : أبو جعفر محمد بن إبراهيم الديبلي وابنه بن محمد الديبلي (2) ، أبو موسى الديبلي، وأبو عبد الله الديبلي (3)

---

(1) الطرازي، الموسوعة، ج2، ص.125.

(2) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص.495.

(3) الطرازي، الموسوعة، ج1، ص.480؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج4، صص.71،107.

(15043/1)

، أحمد بن محمد بن هارون الديبلي البغدادي

المصري، علي بن أحمد بن محمد الديبلي الشامي، محمد بن أحمد بن عبد الله الديبلي، محمد بن الحسين بن محمد الديبلي الشامي (1) ، أحمد بـ عبد الله الديبلي، خلف بن محمد الديبلي البغدادي، شعيب بن محمد الديبلي المصري (2) ، وغير هؤلاء كثيرون.

الناحية الاقتصادية

ومن الناحية الاقتصادية، كانت ديبل تعتمد على التجارة، لأن الزراعة فيها ضئيلة، نظرا لأرضها المجدبة القليلة الخصب في صدر

---

(1) الطرازي، الموسوعة، ج 1، صص.369،493.

(2) الحسني، الثقافة الإسلامية في الهند ، ص.135.

(15044/1)

الإسلام مقارنة بإقليم السند الذي يعتبر بلد الخيرات والزروع والثمار لوجود نهر مهران.

أما أهل ديبل فكان الاعتماد الرئيسي لهم من دخل التجارة وديبل يعتبر الميناء الرئيسي للسند منذ التقدم حتى العهد الإسلامي (1) .

الطرق البرية والبحرية إلى الديبل

يصف المقدسي السفر إليها فيقول : " و لاتصل إليه إلا بعد أخطار البر وأهوال البحر بعد الشق وضيق الصدر" حين يصف إقليم السند (2) وطريق البحر حيث السفن كانت تنطلق من الأبلة مارة بالموانئ الرئيسية مثل سيراف،

---

(1) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص.479.

(2) المصدر السابق، ص.474.

(15045/1)

تيزمكران وديبل، تانه، كولم ملى حتى الشرق الأقصى، والبرية، شيراز، سيرجان، جيرفت، دارجين، بم، الفهرج، جوى سليمان، ريقان، خواش، جاك، فنزبور، الديبل، أو من تيزمكران، أرمابيل، قمبلى، ديبل، ومن قصر قند،

فنزبور ديبل (1) .

الصادرات من ديبل

من ميناء ديبل تصدر، القسط والقنا والخيزران، والمسك إلى ميناء عدن وغيرها (2) ، والفانيد – سكر النبات – يصدر إلى أقطار الدنيا (3)

---

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، ص.48؛ لسترنج، بلدان الخلافة، صص.288،360.

(2) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، صص.60–61.

(3) ابن حوقل، صورة الأرض، ص.281.

(15046/1)

ويصدر كذلك الأرز بكثرة، وثياب حسنة كانت تصنع في مدينة سندان (1) والنارجيل "جوز الهند" والنعال الجيدة والعاج والعقاقير، وغيرها من البضائع الثمينة الغالية، والسجاجيد والبسط بأنواعها وتصنع محليا وفي سائر

الإقليم (2) .

الواردات إلى ديبل والسند

ومن البضائع الواردة إليها التمر العراقي، فكانت تأتي

إليها من البصرة (3) ومن كابل "بلاد الأفغان" كانت تأتي إلى السند وديبل ثياب كانت تصنع من القطن وهي أجود

---

(1) ياقوت، معجم البلدان ، ج 3، ص.281.

(2) المقدسي، أحسن التقاسيم، ج 3، ص .481.

(3) أبو الفدا ، تقويم، ص.349.

(15047/1)

أنواعها (1) . وكانت تأتي إليها من العراق والإسكندرية وغيرها الأقمشة حيث أن وجهة سفن مصر والعراق عن طريق ميناء ديبل ثم المشرق، وكذلك كانت الخيول العربية الأصيلة المعروفة بالعراب تأتي إلى ديبل من أرض الجزيرة العربية، مع العلم أن بالهند والسند الخيل والبراذين لكن أكثرها غير جيدة مقارنة بالخيول العربية (2) .

أما البضائع الغربية من فرنجة وغيرها فعن طريق يهود الرذانية الذين كانوا يتجولون ما بين أقصى الشرق والعرب والشمال والجنوب،

---

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص.196.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، صص.81–82.

(15048/1)

وكانوا يبيعون ويشترون ويتبادلون البضائع طول رحلتهم هذه أينما حلوا وارتحلوا، فكانوا ينطلقون من طنجة – المغرب، أحد مساراتهم – فالإسكندرية فعدن فكولم ملى حتى أقصى الشرق، وكانوا يحملون من الغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف فيبيعون هذه البضائع حسب حاجة المنطقة ورغبة أهلها. ومن ثم كانوا يشترون ما يناسب تجارتهم من تلك الموانئ إلى غيرها (1) ، والمسك الهندي، الذي يأتي من التبت إلى ديبل ومنها ويصدر إلى الأقطار بحرا والمسك الهندي

---

(1) ابن خرداذبة، كتاب البلدان، ص.153.

(15049/1)

أجود من الصيني والصفدي (1) .

وكانت ترد إلى ديبل من الصين بضائع مختلفة مثل :

المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك من البضائع العديدة (2) .

ويقول الإدريسي عن مهارة أهل ديبل في التجارة " إن السفن والبضائع كانت تأتي من عمان والصين والهند فيشترون أكثر وأكبر قدر ممكن، حيث إنهم يملكون أكثر من غيرهم من الأموال وهم أغنياء، ثم يخزنون هذه البضائع حتى تقلع السفن التجارية من ميناء ديبل إلى وجهتها

---

(1) اليعقوبي، كتاب البلدان، ص.365 ؛ السامر، الأصول التاريخية، ص.20.

(2) ابن خرداذبة، المسالك، صص.153–154.

(15050/1)

فيخرجونها ويبيعونها بأغلى الأثمان وكيف شاءوا".

ويظهر من سياق العبارة أن هناك فئتين من التجار في ميناء ديبل، فئة مقيمة من أهل ديبل وفئة زائرة يحضرون لموسم معين أو لفترات حسب الحركة التجارية ووصول السفن حتى أنهم بمجرد قضاء وصرف بضائعهم يعودون من حيث أتوا (1) . ومن المنتوجات الزارعية التي كانت ترد إليها السفرجل والكمثري والتفاح مع وجودها

في المنطقة إلا أنها جد قليلة (2) . وورد الخل من العراق إلى ديبل والسند في عهد محمد بن

---

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج1، ص.167.

(2) القلقشندي ، ضبح الأعشى ، ج 5.ص.83.

(15051/1)

القاسم ومع عدم وجود هذه المادة في الهند فحقيقي أن ترد إليها فيما بعد للتجارة (1) . وكذلك الزيت واللوز والزيتون وزيته، وعرق الورد والعود للمعابد (2) .

علاقات ديبل بجزيرة العرب

كانت علاقة المنطقة بالبلدان الواقعة على الساحل الشرقي والموانئ الواقعة بالساحل الغربي لبحر فارس، والعراق وجزيرة العرب علاقات اجتماعية أو هجرات سياسية ومذهبية

أو اقتصادية منذ القدم وفي العهد الإسلامي.

---

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص.424.

(2) الطرازي ، الموسوعة ، ج1،ص.109.

(15052/1)

فقد استوطن واستقر كثير من تجار العرب مع ذويهم أو تزوجوا من هناك في موانئ السند مثل ديبل كما حصل في سرنديب – سيلان – وبالمقابل حصل تبادل أسري وعائلي من السند والهند وجاليات لجأت إلى مناطق الجزيرة العربية ممن كانوا يعرفون، بالزط والميد والتكاكرة (1) والهجرات السياسية من أيام الأمويين، كما حصل للعلافين والخوارج من اللجوء إلى تلك المنطقة من أمثال : حسان بن مجالد بن يحيى الهمداني وأتباعه حتى قدوم محمد بن القاسم الثقفي، وكذلك التبادل الثقافي بين أهل العلم من حلقات

(1) محمد، التاريخ والحضارة ، صص.12–13.

(15053/1)

التدريس والتعليم في الحرمين الشريفين (1) .

... ... ميناء دبيل (إقليم السند)

(1) الحموي، مادة ديبل؛ ابن الأثير، الكامل، ج 5،ص.25؛ فتوح البلدان.

(15054/1)

نحو العربية التوليفي

الدكتور محمد الأوراغي

كلية الآداب – الرباط

أقمنا، في أعمال سابقة(1)، نظرية للسانيات النسبية إطار الأنحاء النمطية. وبينا عندئذ أن اللغات البشرية، بسبب طابعها الوضعي واضطرارها إلى انتقاء إحدى الشبكتين المتقابلتين

---

(1) مصطلح الفص نطلقه على المستوى من مستويات اللغة. نقول الفص الصوتي، والفص المعجمي، والفص الصرفي الاشتقاقي، والفص التركيبي. ونستعمل القالب للعلم الفرعي (كعلم الأصوات واللغة والصرف والنحو)، الذي يتكفل بدراسة الفص. فالقوالب نماذج لسانية فرعية تمثل لفصوص لغة بشرية.

(15055/1)

من الوسائط اللغوية يتحتم عليها أن تنقسم إلى نمطين اثنين. وبالنظر إلى "البنية القاعدية" يشكل أحد النمطين "لغات توليفية"، كالعربية ونحوها اليابانية، والآخر "لغات تركيبية"، كالأنجليزية ونحوها الفرنسية. وفي هذا المقال سنركز على إبراز أهم الخصائص المميزة للنمط التوليفي لغة ونحوا دون إغفال الإشارة إلى ما يقابلها من الخصائص المميزة للنمط التركيبي.

لإقامة الحدود الفارقة بين النحو التوليفي الخاص باللغات التوليفية والنحو التركيبي الذي يخص اللغات التركيبية ينبغي منهجيا أن تلتمس الخصائص المميزة في كل نص

(15056/1)

"نص" من النصوص اللغوية، و"قالب" من القوالب اللسانية(1). ولا نثبت لنص خاصية دون إناطتها بالوسيط اللغوي الذي عملها.

1- التركيب: يتميز هذا النص، داخل التوليفيات، بقيامه على "وسيط العلامة المحمولة"(2) الذي وفر لهذا النمط من اللغات "بنية قاعدية ذات رتبة حرة". فجوزت للجملة في التوليفيات مجموع التراتيب المحتملة، وإن

تعذر ظهور العلامة

---

(1) للوقوف على قيم ما يذكر هنا من الوسائط، انظر محمد الأوراغي، "الوسائط اللغوية"، ج 1 و 2.

(2) انظر: الأوراغي، "الوسائط اللغوية"، ج 2، اللسانيات النسبية والأنحاء النمطية.

(15057/1)

المعربة عن "العوارض"(1) التي تؤثرها "العوامل العلاقية" وتستلمها "القوالب الماثلة" كما في مجموعة الجمل الموالية:

(أ) أكلت ليلى كمثرى.

(ب) أكلت كمثرى ليلى.

(ج) ليلى أكلت كمثرى.

(د) كمثرى أكلت ليلى.

(هـ) ليلى كمثرى أكلت.

(و) كمثرى ليلى أكلت.

---

(1) العوارض: يشمل كل ما يعرض لأحد مكونات الجملة من أحوال تركيبية كالرفع والنصب، ووظائف نحوية كالفاعلية والمفعولية، بينما العامل يصدق على كل

علاقة تركيبية أو دلالية أو تداولية أثرت خاصية بنيوية. أما القابل، فيتناول كل مقولة استلمت عارضا عمله عامل.

(15058/1)

فضلا عما سبق، يتميز التركيب، في النمط التوليفي لغة ونحوا، بتشعبه المتتالي إلى مكونات ثلاثة: 1) مكون تأليفي، يليه 2) مكون إعرابي، يعقبه 3) مكون ترتيبي. وكل واحد من هذه المكونات يجري بالتناوب عمليات مخصوصة لإنتاج العبارة اللغوية(1).

في مقابل النمط التوليفي توجد لغات تركيبية يتميز تركيبها بقيامه على "وسيط الرتبة المحفوظة" الذي يوفر لهذا النمط "بنية قاعدية

---

(1) للمزيد من التفصيل فيما يخص مميزات التركيب في النحو التوليفي، انظر محمد الأوراغي، "الوسائط اللغوية"، ج2، اللسانيات النسبية والأنحاء النمطية.

(15059/1)

ذات رتبة قارة" يمثل لها بالبنية المكونية (2) الموالية:

م س – صرف – م ف.

لذلك لا يجوز في نحو هذه اللغات من التراتيب الستة للجملة (1) أعلاه سوى ترتيب واحد يعتبر أصلا(1)

---

(1) منذ أن أصدر اجرنبرغ كتابه "بعض كليات النحو" (Greemberg, Some Universals of Grammar) سنة 1986، واللسانيون على اختلاف مشاربهم يعتقدون أن لكل لغة بشرية رتبة أصلية. وإذا سمحت لغة برتبة أخرى وجب أن تكون قد فرعتها من الأصلية. لكن هذا الاعتقاد كما أثبتنا في أكثر من موضع صادق بالنسبة إلى اللغات التركيبية لا غير. لأن اللغات التوليفية كالعربية ونحوها تسمح على حد سواء بجميع التراتيب التي تحتملها القسمة العقلية. وكل ترتيب فهو مولد مباشرة من البنية القاعدة ذات الرتبة الحرة. وللمزيد من التفصيل انظر الأوراغي، "الوسائط اللغوية"، ج 1، أفول اللسانيات الكلية.

(15060/1)

، وبشروط إضافية قد يسمح بترتيب آخر لكنه يكون متفرعا عن الترتيب الأصلي(1). مثلا اللغة الأنجليزية يؤصل تركيبها الترتيب المشخص بالاحتمال (1.ج)، ولا يفرع عنه إلا "فاسف(2)

---

(1) للتوسع في الموضوع انظر هلمبرغ "لم لا تسمح لغات فا فع مف بالترتيب فا مف فع" ضمن النحو التوليدي والتركيب المقارن A.Holmberg, « Pourquoi les langues SVO ne peuvent elles manifester d'ordres SVO », in Grammaire générative et syntaxe comparée.

(2) "الفاسف" معرب اللفظ الأجنبي Le passif المشخص بمثل التركيب التالي (The pear was eated by Laila). وهو غير البناء للمفعول خلافا لمن سوى بينهما من المستعربين المستضيئين في وصفهم للغة العربية بالنحو الذي استنبطه شومسكي من الأنجليزية.

للتوسع في الموضوع، انظر: د.عبد القادر الفاسي، البناء الموازي، الفصل الخامس منه، وكذلك الرد عليه في: محمد الأوراغي، "الوسائط اللغوية"، ج1، ص.96 وما بعدها.

(15061/1)

تركيبي" يشبه الترتيب (1.د) كما في "العبارة التقديرية" (3) التالية.

الكمثرى كانت مأكولة من قبل ليلى؟!

ومن الخصائص المميزة التي يمكن إضافتها إلى ما سلف كون فص التركيب في مثل الأنجليزية من اللغات يتشعب إلى مكونين لا غير. الأول تأليفي والثاني ترتيبي(1). ومع ائتلاف التركيبين في المكون الترتيبي لكن عوامل التربة في التوليفيات "علاقات تداولية"، وهي في اللغات الركيبية "علاقات تركيبية".

---

(1) للتوسع في عدد مكونات كلا التركيبين، انظر الفصل الثامن من كتابنا: "الوسائط اللغوية".

(15062/1)

وما سقناه في هذا التمهيد كاف لبيان أن أي لغة لا يخرج تركيبها أصلا عن هذين النمطين: توليفي أو تركيبي. لأن مبدأ الثالث المرفوع المنطقي يمنع وجود "وسيط لغوي" ثالث يقع بين "وسيط العلامة المحمولة" الذي وفر لتركيب اللغات التوليفية "بنية قاعدية ذات رتبة حرة"، وبين "وسيط الرتبة المحفوظة" الذي منح للغات

التركيبية "بنية قاعدية ذات رتبة قارة". وترتب عن هذا التغاير أن صار تركيب أحد النمطين اللغويين يجوز ما يمنعه تركيب النمط الآخر.

(15063/1)

... نخلص إلى أن كل لغة بشرية يتميز فصها التركيبي بقيامه على وسيط العلامة المحمولة(1)، وبتشعبه إلى التأليف فالإعراب فالترتيب، وبإنتاجه لبنية قاعدية ذات رتبة حرة، فإن نحو تلك اللغات من النمط التوليفي الذي يجب أن تتميز فصوصه الأخرى بخصائص إضافية.

... 2- المعجم: في العربية من اللغات التوليفية، غيره في اللغات التركيبية. فهو في النمط الأول مؤسس على:

---

(1) للوقوف على قيم ما يذكر هنا من الوسائط، انظر: الأوراغي، "الوسائط اللغوية"، 1، أفول اللسانيات الكلية.

(15064/1)

... أ- "وسيط الجذر"، فامتاز معجم هذه اللغات بكونه "معجما شقيقا"؛ بمعنى يطرد فيه تفريغ "أفعال

شقائق" مثل [تقاطعَ] من [قاطعَ] المشتق بدوره من "الفعل الأس" [قَطَعَ] اطراد اشتقاق صفات مخصوصة، مثل [قاطِعٌ] من الفعل الأس، و[متقاطِعٌ] و[مقاطَعٌ] و[مقطوعٌ] من أفعال شقائق.

... ب – "وسيط العلاقة الاصطناعية" : يظهر مفعوله في انعكاس خصائص دلالية للمدخل المعجمي في بنيته الصوتية. وبذلك صارت لمثل المداخل المعجمية (عِبَادَةٌ، وكِتابَةٌ، ودِراسَةٌ، وصِحافَةٌ، وقِيادَةٌ، وإِمَارَةٌ...) نفس البنية الوزنية لاشتراكها

(15065/1)

جميعا في معنى [العُكوف] العام؛ بمعنى ثبات الشخص على مزاولة فعل والدوام على القيام به حتى انقلب ذلك الفعل حرفةً له أو كالحرفة.

... من جملة ما يترتب عن تبني وسيطَيْ الجذر والعلاقة الاصطناعية امتياز معجم اللغات التوليفية بخاصيتين. تظهر أولاهما في انقسام المعجم الشقيق إلى: أ – معجم واقع مقَوْمَس: تكتسب مداخله استقراء؛ مثل (جمع) و(نشر). ب – معجم متوقع: قَوْمَسَةٌ مداخله حشو، لأنه يُتَنَبَّأ بها ويمكن اكتسابها استنباطا؛ مثل [جامعٌ]،

[ناشرٌ]، [جُمِعَ، مجموع] أو [نُشِرَ، منشور]. وتبرز ثاني الخاصيتين في

(15066/1)

نهوض البنية الصوتية للمدخل وكذا "بنيته الصرفية" في التمثيل لجزء من دلالته المعجمية؛ كدلالة البنية الأولى على معناه الصرفي، (إذ يفيد الجذر [ج م ع] بالصيغة [فَعْل] في مثل [جمْعٌ] ضم ما تفرق. ويفيد بالصيغة [فِعال] في نحو [جِماعٌ] انضمام بعض ما تفرق إلى بعض). ودلالة بنيته الصرفية(1)

---

(1) المقصود من البنية الصرفية ما يجوزه المدخل المعجمي المعين من المشتقات وبأي "القواعد النصتية" يتم بناء صيغها الصرفية. للمزيد من التدقيق انظر: محمد الأوراغي، "اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم"، صص.152–162. والفصل الرابع من "الوسائط اللغوية"، ج1، أفول اللسانيات الكلية.

(15067/1)

على خصائصه المقولية. (فاء المضاعف تضم في المضارع إذا كان الفعل متعديا وتكسر إذا كان لازما، وتحتمل الحركتين إذا كان الفعل من قبيل المشترك اللفظي)(1)

---

(1) القياس في المضاعف أن تضم فاء مضارعه إذا كان الفعل متعديا وتكسر إذا كان لازما. وبه استعمال معظم الأفعال التي أحصاها لغويو العربية (حوالي 227 فعلا). وما استعمل بالكسر والضم فمشترك؛ فيكون بأحد معنييه متعديا وبالآخر لازما. من هذه الفئة [حل(يحل: ضد حرم، ويحله: فتحه. وعز(يعز: قل، ويعزه: غلبه، ومنه قوله تعالى { عزني في الخطاب } . دق(يدق: ضد غلظ، ويدقه: كسره. وصر(ييصر: صرخ، ومنه قوله عز وجل { فأقبلت امرأته في صرة } ، ويصره أي شده ...]. انظر عناصر أخرى من هذه الفئة في مادة (ب ت ت) من صحاح الجوهري. أما اللازم المضمون، فإن أصله التعدي وإن ورد في تراكيب مع غير المفعول. من هذا القبيل (جن الليل يجن، أي ستره)، انظر: أمثلة أخرى في "شرح بحرق اليمني للامية الأفعال".

(15068/1)

.

... وفي مقابل ما سلف، فإن معجم اللغات التركيبية "مسيك"، إذ بقيام هذا الأخير على "وسيط الجذع" توفرت له أفعال إساس لا تتولد عنها بإطراد أفعال شقائق ولا صفات؛ فاتسع المعجم الواقع منه، وضاق قسم المتوقع حتى كان يقترب من الصفر، وفوت احتمال حصول المدخل على "بنية صرفية"، كما فقد إمكانية التمثيل بهذه البنية للخصائص المقولية. وبتبنيه، من جهة أخرى، "لوسيط العلاقة الاعتباطية" لم يكن بوسع البنية الصوتية للمدخل أن تقدم له أي معلومة دلالية، فتكفّل الحد المفصَّل بكل ذلك، حتى أصبح التمثيل الدلالي، في المعجم

(15069/1)

الشقيق، "نسقياً ومعجمياً"، وفي المسيك "معجميا" لا غير.

... من أهم ما يترتب عن تلكم الخصائص المميزة لكلا المعجمين اضطلاع المعجم الشقيق في النحو التوليفي بدور يوكل في النمط المقابل إلى التركيب. وبعبارة تقنية، إن الانتقال إلى (تركيب المشاركة) مثلا يتم، في النحو التوليفي كما في العربية، بإجراء عملية

موضعية على الفعل يتولاها "فص التشقيف" كما تكشف المقارنة بين الجملتين (أ) و(ب) في المجموعة (4). في حين يحصل ذاك الانتقال في النحو التركيبي، كما في الأنجليزية، بإجراء عمليات تركيبية(1)

---

(1) انظر بعضها حيث يتحدث شومسكي في نظرية العمل والربط عن "قيد السوج المعين" (Condition du sujet spécifié).

(15070/1)

.

... (4) ... أ – لمس الرجل زوجته.

... ... ب – لامس الرجل زوجته.

... وهكذا تكون [المشاركة] في نحو الأنجليزية تركيبية، وتكون في نحو العربية معجمية. وإذا فهمنا من [المشاركة] أن يكون لكلا موضوعي الفعل المتعدي ما يكون للآخر من الوظائف النحوية، فإن فرضية "أحادية الوظيفة" تلائم النمط التركيبي من اللغات. أما اللغات التوليفية، فتصدق فيها أيضا فرضية "الوظيفة المزدوجة"(1). وهذه

---

(1) للتوسع في فرضية أحادية الوظيفة والوظيفة المزدوجة، انظر: الفصل الرابع من كتابنا "الوسائط اللغوية"، ج1، أفول اللسانيات الكلية.

(15071/1)

خاصية أخرى فارقة بين النحوين التوليفي والتركيبي.

... من خلال تناولنا الموجز لفَصَّي التركيب والمعجم في اللغات التوليفية والتركيبية، انكشفت بعض مميزات النحوين. ويمكن أن نوسع الفوارق بين النمطين بذكر خصائص ما بقي من الفصوص.

... 3– فص التشقيف: يتألف من الاشتقاق والتصريف، ويصدق على إوالية توليد بعض المداخل المعجمية من بعض. وَصْفُ هذه الإوالية يتولاه قالب يتفرع بدوره إلى:

... (أ) اشتقاق يعنى بالقيود التي تضبط عملية التوليد الدلالي. من أمثلة التوضيح كون [المشاركة] و[الطلب] يتولدان من الفعل التام

(15072/1)

المتعدي الافتراقي ليس إلا. و[المطاوعة] تؤخذ من الفعل التام المتعدي العلاجي، وأما تنوعها إلى [مطاوعة وشبهها]، فمتعلق بما إذا كان أصل الاشتقاق فعلا افتراقيا أو اقترانيا. و[الطي] يتفرع من الفعل المتعدي مطلقا أو من اللازم بشرط ولا يشتق بتاتا من "الفعل القاصر" ولا من "الفعل الناقص أو المساعد"(1).

---

(1) للتوسع فيما ذكر من تفريعات الفعل المقولية والدلالية، انظر: الأوراغي، "اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم"، صص.141–165، والفصل الرابع من "الوسائط اللغوية"، ج1، أفول اللسانيات الكلية.

(15073/1)

... (ب) تصريف يهتم بالقواعد التي يجب تشغيلها عند استلال صيغة من أخرى. وهذا الضرب من القواعد يتميز بالصورية. حيث أن القاعدة الصرفية ترتبط بالمادة الصوتية للمدخل مجردا من معناه المعجمي. لكن اندماج الاشتقاق والتصريف في فص التشقيف كوَّن بينهما نسبا يتمثل في خضوع نتائج المكون الصرفي لقيود المكون الاشتقاقي.

... وكل قاعدة صرفية عبارة عن عمليات متوالية تجرى

بالتناوب على البنية الصوتية للمدخل (=القَوِلَةُ)(1)

---

(1) نستعمل القولة للتعبير عن البنية الصوتية للمدخل مجردا من معناه المعجمي الذي نطلق عليه الكلمة. وعليه، فإن المدخل في فص المعجم عبارة عن اقتران قولة بكلمة اقتران القول بالكلام في فص التركيب.

(15074/1)

، وذلك لنقله من صيغة معينة إلى صيغة أخرى مغايرة.

لتوضيح ما ذكر، نسوق المثال (5) المشخص لمراحل ينتهي فرعٌ منها بإلصاق أمارة المطابقة (تُ) الدالة على إسناد فعل أجوف إلى ضمير الرفع (أنا) العائد على المتكلم(1).

... 5– (ط و ل) =((طَوُلَ) =((طَالَ) =(...

... ... =((طَوُلَ) =((طُولْتُ) =(طُلْتُ.

... (ك و ن) =((كَوَنَ) =((كَانَ) =(...

---

(1) سبق لنا في عمل آخر أن قدمنا تصورا خاصا للفرق بين الضمير والعلاقة. انظر في الفصل الثالث من كتابنا "الوسائط اللغوية"، ج1.

(15075/1)

... ... =((كَوُنَ) =((كُونَ) =((كُونْتُ) =(كُنْتُ.

... ويشهد على الاستقلال النسبي لمكوني التشقيف أمران: أحدهما يتمثل في "اللحن الموضعي"؛ وهو الذي يرصد مصدره أحد المكونين وينفلت للآخر، كما يتضح من جملتي المجموعة (6) الموالية.

... (6) ... (أ) الباب مقفول*

... ... (ب) هلك المريض*

... لحن الجملة (6. أ) ناتج عن خرق قاعدة صرفية (صفة المفعول تبنى من غير الثلاثي بقلب حرف المضارعة ميما مضمومة وفتح ما قبل الآخر). وهي باعتبار الاشتقاق، وكذلك التركيب، سليمة. أما لحن الجملة (6. ب)، فمصدره

(15076/1)

الاشتقاق (الفعل القاصر لا يسمح بتوليد الفعل المبني للمفعول). لكن هذه الجملة سليمة من حيث التصريف وكذلك التركيب.

... ويتجلى ثاني الأمرين في "كلية الاشتقاق" و"نسبية التصريف". كلية المكون الأول مضمونة بإتاحة إمكانية توليد بعض الكلمات من بعض، واستغلال كل اللغات

البشرية للإمكانية المتاحة. في حين تأتي نسبية المكون الثاني من مكون اللغات، استنادا إلى طابعها الوضعي، تُهَيِّءُ وسائل صرفية تتفاوت قدرتها من حيث عدد التغييرات التي يمكن إجراؤها على بنية القَوِلَة.

(15077/1)

... وقد أثبتنا في موضع آخر أن مكون التصريف في اللغات التوليفية جذري، وفي اللغات جذعي(1). كما أنطنا ما لوحظ من الاختلاف الكبير بتغاير قيم الوسائط المتبناة في كلا النمطين. ووجدنا العربية من التوليفيات تستفيد من "مبدإ التصييغ" المرتبط بـ"خاصية التسييل" في وسيط الجذر، فتوفرت على مكون صرفي يتميز بقدرة كبيرة على إنتاج قولات جديدة للكلمات المولدة. وليس لنفس الفص في الفرنسية

---

(1) راجع "قيم وسيط الجذر" في الفصل الرابع، والطابع النمطي للقالب التشقيفي في الفصل السابع من كتابنا "الوسائط اللغوية"، ج1–2.

(15078/1)

ونحوها من اللغات التركيبية تلك القدرة الإنتاجية بسبب "مبدإ الإلصاق" المترتب عن "خاصية الترصيص" في وسيط الجذع.

... من مظاهر التفاوت في القدرة الإنتاجية للمكون الصرفي في كلا النمطين أن يطرد في التوليفيات توليد أفعال شقائق وصفات، واتساع محتوى المعجم المتوقع، واضطلاع هذا الفص بدور يتولاه فص التركيب في النمط المقابل من اللغات المتميزة بنقيض ما سرد من الخصائص، إضافة إلى فوارق أخرى تؤخذ من المواضع المحال عليها في الطرة.

(15079/1)

... فص التشقيف، بوصفه إوالية لتوليد بعض المداخل من بعض، يجب أن يحتل موضعا بين "المعجم الواقع" قبله و"المعجم المتوقع" بعده، ويكون له هذا الموضع داخل النمطين اللغويين. غير أن المكون الصرفي بحكم نمطيته الناتجة عن تغاير الوسائط، يتفرع في التوليفيات دون غيرها، إلى "صرف اشتقاقي" يختص بإعداد صيغ صرفية تفرغ فيها المادة الصوتية المسيلة

فيكون الخرج قولات مقترنة بالكلمات المولدة اشتقاقيا؛ وإلى "صرف تركيبي" يتأسس في "اللغات الجذرية"، كالعربية ونحوها الإيطالية، على "وسيط التصريف" قسيم "وسيط الترصيص" الذي

(15080/1)

يؤسس "اللغات الجذعية"، كالأنجليزية ونحوها الصينية والفرنسية، فلم يتفرع المكون الصرفي في مثل هذه اللغات إلى "اشتقاقي وتركيبي".

... من مهام فرع "الصرف التركيبي" الربط بين فص المعجم وفص التركيب. ويحصل الربط بينهما باستغلال هذا الفرع من المكون التصريفي "لمبدإ الإلصاق" من أجل إعداد "صيغ تركيبية"(1)

---

(1) للفعل في اللغات الآخذة بوسيط الجذر صيغة صرفية (فعل، فعل، فاعل، تفاعل أفعل، استفعل، انفعل، افتعل، فعل، تفعل) وصيغة صركيبية تتكون من صيغته الصرفية وأمارات المطابقة التي تلتصق بالصيغة الصرفية كما في نحو (تفعل، تستفعلين، تتفاعلون ...) من أجل أن تهيء الفعل للدخول في علاقات تركيبية.

للتوسع في الموضوع، انظر الفصل الثالث من كتابنا "الوسائط اللغوية"، ج1، أفول اللسانيات الكلية.

(15081/1)

. وهذه الأخيرة تتكون من صيغة صرفية (فعل) وقد التصقت بها سابقة مثل (تـ) في نحو (تفعل)، أو لاحقة مثل (تـ) في (فعلتـ)، أو هما في مثل (تفعلن). بواسطة هذه اللواصق يتمكن العنصر المعجمي المفرغ في الصيغة الصركيبية من انتقاء المطابق ورفض المخالف. وبخرق جمل المجموعة (7) لقيد المطابقة انفرد الصرف التركيبي، دون سواه من سائر قوالب النحو، بتلحينها والحكم بفسادها. وحين استجابت له من جديد، كما في جمل المجموعة (8)، انفرد أيضا بتصحيحها والحكم بسلامتها.

... (7) ... (أ) أنتـ، هي يندم ولا تنفع الندم*

(15082/1)

... ... (ب) هي وصل وهو خرجتـ*

... ... (ج) هن تتعاون*

... (8) ... (أ) أنت، هي تندم ولا ينفع الندم.

... ... (ب) هي وصلت وهو خرج.

... ... (ج) أنتن تتعاون.

... اتضح أن فص التشقيف يتشعب، في كل اللغات إلى اشتقاق كلي وتصريف نمطي يختص بقدرة توليدية متفاوتة تبعا لقيم الوسائط المتبناة في الأنماط اللغوية، وأن المكون الصرفي، في اللغات الجذرية خاصة، يتفرع إلى:

... 1- صرف اشتقاقي موضعه بين المعجمين الواقع والمتوقع وقدرته الإنتاجية تزيد في اللغات التي يسمح لها وسيط الجذر بالجمع بين "مبدأي التصييغ والإلصاق"

(15083/1)

كالعربية ونحوها. وتنقص في لغات أجبرها وسيط الجذع على التصرف في بنية القولات بما يتيحه "مبدأ الإلصاق" لا غير، كما في الفرنسية ونحوها من اللغات الجذعية.

... 2- صرف تركيبي: يتوفر على هذا الفرع لغات اختارت "وسيط التصريف"، كالعربية ونحوها الإيطالية من اللغات الجذرية، وأهملت مقابله "وسيط الترصيص" المستعمل في اللغات الجذعية، والذي لا يوفر لهذا النمط صرفا تركيبيا. أما المترتب عن تغاير الفصوص

الموصوف، فإنه يتجلى في نمطية الكثير من الظواهر اللغوية. وقد تناولنا العديد منها بالدراسة في أعمال سابقة(1)

---

(1) انظر مباحث الشغور البنيوي، والحذف، والرتبة، وإعراب اللغات عن الوظائف النحوية، والعلامة والضمير، ونحو ذلك في كتابنا "الوسائط اللغوية"، ج1، وج2.

(15084/1)

.

... إن ما سردنا حتى الآن من الخصائص المميزة أولا لفص التركيب في اللغات التوليفية، وثانيا لفص المعجم الشقيق، وثالثا لمكون التصريف الجذري من فص التشقيف، إذا نسقنا تلك الخصائص في جهاز واحد بعد ضم إليها مميزات الفص الآتي كانت نموذجا من الأنحاء النمطية، أفردناه باسم النحو التوليفي.

... 4- النصغ: فص صوتي يتشكل فضلا عن التصويتات المستعملة في اللغة من قواعد تراكبها في قولة أو قول. وهو بذلك يتشعب إلى:

... 1. النطق(1): من اهتماماته النظر في

---

(1) النطق مستعمل هنا بمعنى Phonétique في اللسانيات الغربية.

(15085/1)

مجموع المسائل المرتبطة بالتصويتات(1) النمطية التي توظفها لغة معينة فارقة بين دلالات القولات. وفي مقدمة أسئلة هذا المكون: أي التصويتات ينتج عن حلول إحداها محل الأخرى في قولة إلي تغير المعنى. كما في نحو الأثناء التالية: (أثرا/عثر)، (سأل/سعل)، (صيف/سيف)، (طرف/ترف)، (ذليل/ظليل)، (صوت/سوط)، (ضرس/درس)، (هامل/عامل)، (شوك/شوق)، (عدل/عضل). ولكل تصويتة نمطية بدائل لهجية مستحسنة وأخرى مستقبحة(2)

---

(1) مصطلح التصويتات استعمله الفارابي في كتاب الحروف، ص.136، بما يفيد المفهوم من اللفظ الأجنبي Phonème.

(2) للمزيد من التوضيح، انظر: سيبويه، "الكتاب"، ج 2، ص.404؛ وابن جني، "سر صناعة الإعراب"، ج 1، صص.48–52؛ والأوراغي، "التصويتات النمطية وبدائلها اللهجية"، ضمن مجلة "التاريخ العربي"، العدد الثامن، والفصل

الثامن من كتابنا "الوسائط اللغوية"، 2، اللسانيات النسبية والأنحاء النمطية.

(15086/1)

.

... من شأن التمهيد ألا يسمح ولو بسرد مختلف المسائل التي يتولى مكون النطق معالجتها. لكن إقامته لمجموعة العناصر الهجائية مطلب أول للمكون الذي يتلوه.

... 2– النصت يمثل المكون الثاني من فص النصغ.

ويتشكل محتواه من نسق من قواعد النصتية التي بواسطتها تنظم التصويتات مكونة، داخل المعجم، والتصريف، والتركيب تباعا، قولة، وصيغة، وقولا.

... نسق القواعد النصتية (سواء أكانت هذه القواعد خاصة ببناء قولات المعجم أم صيغ التصريف أم أقاويل التركيب)، يستند أولا إلى علاقتي المخالفة والمجانسة القائمتين بين التصويتات

(15087/1)

المفردة، وثانيا إلى مبدأ الخفة ومبدإ البيان والمبدإ الوضعي للوسائط الخاصة.

... داخل فص المعجم يمنع المبدأ الوضعي بناء قولات لمداخله الأصول يخرج فيها من الكسر إلى الضم بحاجز ساكن؛ كما في (دبلوم)، أو بغير حاجز في نحو (برقراطية)(1). بخرق هاتين القولتين لقيد منع الخروج من الكسر إلى الضم تصيران من

---

(1) قيد منع الخروج من الكسر إلى الضم ربطه ابن جني ("الخصائص"، ج1، ص.68؛ والمنصف، ج1، ص.20) بمبدإ الخفة. وبما أن هذا القيد لا يؤثر داخل فص التركيب، لصحة كرسيه،، تعين إناطته بالمبدإ الوضعي الخاص بمعجم معين.

(15088/1)

قبيل "الدخيل" على معجم خضع تكون الأبنية الصوتية لجميع مداخله للقيد المذكور ولعدد محصور من القيود الأخرى(1). وبمبدإ الخفة امتنع بناء قولات للمداخل المعجمية الأصول من تصويتات متجانسة، ينسبها المكون النطقي إلى نفس المخرج مثل (هـ، ع، ح) أو إلى مخرجين متجاورين

(1) للوقوف على نماذج أخرى من القيود الضابطة لعملية إنشاء الأبنية القولية للمداخل المعجمية الأصول، عد إلى: الأوراغي، "اكتساب اللغة في الفكر العربي القديم"، صص.141–165. والفصل السابع من "الوسائط اللغوية"، ج2، اللسانيات النسبية والأنحاء النمطية.

(15089/1)

مثل (س، ص، ت)(1). ويمنع مبدأ البيان إجراء القاعدة النصتية التالية (الواو والياء متى تحركنا وانفتح ما قبلهما قلبتا ألفين). لأن تطبيقها على القولتين (الحول، والغيابة) ينقلهما إلى (الحال، والغابة)، ويؤدي إلى التباس المداخل من حيث البنية الصوتية والدلالة المعجمية. وبنفس المبدإ تتعطل قاعدة الإدغام (إذا

(1) توسع ابن جني في استعمال مبدإ الخفة من أجل تفسير الكثير من الظواهر النصتية، وبه برز إهمال ما أهمل من الألفاظ التي تحتملها القسمة العقلية. انظر "الخصائص"، ج1، ص.54؛ و"سر صناعة الإعراب"، ج1، ص.74.

(15090/1)

اجتمعت تصويتتان متقاربتان مخرجا في عجز قولة قلبت الأولى إلى مثل الثانية وأدغم أحد المثلين في الآخر). فلا تطبق على مثل القولات (وتد، عضد، وطد) ونحوها، وإلا التبس الثلاثي الصحيح بالمضاعف (ود، عد، ود)، وتغير المعنى المعجمي. وهو ما لا يجوزه مبدأ البيان. وما سقنا من الأمثلة الموضحة لقواعد نصغية تستند، من جهة، إلى مبادئ محصورة وتتحكم، من جهة ثانية، في بناء قولات المداخل المعجمية يغني عن الاستمرار في تقديم نماذج خاصة بما بقي من فصوص النحو.

(15091/1)

... ثبت أن المكون النصتي يشتغل بنتائج المكون النطقي المسخر لإعداد تصويتات اللغة المعينة أو حروف معجمها، ويرتكز على عدد محصور من البادئ لإقامة نسق من القواعد النصتية. وتبين أن قواعد النسق النصتي تتوزعها فصوص النحو على المنوال التالي:

... 1– قواعد نصتية تنظم عملية بناء القولات الأصول(1) التي تشكل مداخل

---

(1) مصطلح "المدخل المعجمي الأصل" يتناول من جهة

الاشتقاق كل كلمة لا تكون من غيرها بل مصدرا لتوليد مشتقات تنتسب إليها. كما يستغرق، من جهة التصريف، كل قولة لا تكون فرعا لغيرها بل أصلا ساريا في فروعه.

(15092/1)

المعجم الواقع.

... 2– قواعد نصتية تشتغل داخل المكون الصرفي لتقنن، من جهة أولى، عملية استلال بعض الصيغ الصرفية من بعض فينشأ المعجم المتوقع. ولتحدد، من جهة ثانية، كيف تبنى، من الصيغ الصرفية وعلامات المطابقة، صيغ صركيبية؛ وحينئذ يكون الربط تاما بين فصي المعجم والتركيب.

... 3– قواعد نصتية تعنى بضبط ظواهر صوتية تنتمي إلى فص التركيب خاصة. كالتخلص، والترنم، والتحريك، والتسهيل، والترخيم، والحذف، والوقف، والروم، والسكت، والاتباع، والإسكان، والاختلاس، والإشباع، والإخفاء، والإشمام، والإجناح أو الإمالة،

(15093/1)

والإدغام، والإشراب ونحو هذا من الظواهر الصوتية الناجمة عن تراكب القولات في مركبات أو جمل.

... إذا استحضرنا ما سقنا من نماذج القواعد الممثلة لمحتويات مختلف الفصوص اللغوية، واتضح لنا كيف تشعبت تلك الفصوص وتعالقت، انكشف لنا عندئذ المقصود من النحو التوليفي الذي يطابق نمط التوليفيات كالعربية ونحوها من اللغات.

(1)

(15094/1)

نظرات في شروح الشعر في الأدب العربي

... ... الدكتور محمد عبدالاوي

... كلية الآداب .الرباط

... كانت الشرارة الأولى التي انبثَقَتْ منها العلوم العربية: محاولة تفسير القرآن الكريم وفق الأحكام التي يتضمَّنها، ثم انصبَّ الاهتمام على الظواهر الفنية التي يَزْخَرُ بها، ومنها ظهر ما يسمى بإعجاز القرآن.

... والذي يدلنا على العلاقة الموجودة بين تفسير القرآن

الكريم والاستشهاد عليه بالشعر القديم قولُ ابن عباس رضي الله عنه: »إذا سألتموني عن غريب القرآن، فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان

(1/15095)

العرب «(1).

... وقد شرح ابن عباس لِنافع بن الأزرق(2) مسائل كثيرة تتعلق بغريب القرآن الكريم، وكان يُوردُ عليها شواهد من الشعر القديم. من ذلك أنه سأله عن قوله تعالى: {وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا}(3)

---

(1) الإتقان في علوم القرآن، ج 1، ص. 126، طبعة حجرية رقمها بخزانة كلية الآداب بالرباط »م. خ: 212 سيو«، وهي عارية من تاريخ الطبع ومكانه.

(2) هو نافع بن الأزرق رأس الخوارج »الأزارقة« (انظر عنه: المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، ط 1، تحقيق أحمد شاكر، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ج 3، 1937، صص. 1021 ـ 1028).

(3) سورة مريم، الآيتان 19، 12.

(1/15096)

، فأجابه: »رحمة من عندنا. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعتَ طرفةَ بنَ العبد يقول:

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا

حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ(1)

---

(1) الإتقان في علوم القرآن، مصدر سابق، ج 1، ص. 126؛ وديوان طرفة بن العبد، تحقيق علي الجندي، دار الفكر العربي، من غير ذكر مكان الطبع وتاريخه، ص. 208. أبو منذر: عمر بن هند. أفنيت: أصله »أَفْنَيْتَنَا« فحذف المفعول به. حنانيك: رحمة بعد رحمة. والعرب إذا أرادت تكرار الشيء وإدامته، ثَنَّتْه وليست تريد التثنية ولكن تريد وقوعه مرة بعد أخرى. (الديوان، صص. 208 ـ 209، واللسان »حنن«).

(15097/1)

... وقد سلك ابن قتيبة (ت 276 هـ) في كتابه "تأويل مشكل القرآن" مسلك ابن عباس، فكان يشرح غريب ألفاظ القرآن ومعانيه خصوصاً تلك التي يشكل فَهْمُها

على عامة الناس، ثم يأتي بالشواهد الشعرية التي تؤكّد ذلك:

... وقال تعالى: {فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ}(1)، لأن في اليمين القوة وشدة البطش، فأخبرنا عن شدة ضربه بها. وقال الشماخ(2)

---

(1) سورة الصافات، الآيات 37، 93.

(2) هو مَعْقِل بنُ ضرار الذبياني، لُقّب بالشَّمَّاخ. شاعر مُخضرم ممن أدرك الجاهلية والإسلام. (محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1974، ج 1، ص. 132؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف، مصر، 1966، ج 1، ص. 318؛ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، ج 9، ص. 158).

(15098/1)

:

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجدٍ

تَلَقَّاهَا غَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ(1)

... أي أخذها بقوة ونشاط (2).

---

(1) هو عرابة بن أوس، كان من سادات قومه وأجوادهم في الإسلام. (ابن حبيب، المحبّر، تحقيق إيلزه ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت.، ص. 155؛ وانظر: ديوان الشماخ، تحقيق صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر، 1968، ص. 336).

(2) تأويل مشكل القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1954، ص. 188.

(15099/1)

... وفي أواسط القرن الثاني من الهجرة، أخذ العلماء يجمعون الشعر ويدونونه في الصحف ثم يصححون روايته ويشرحون غريبه ومعانيه، ثم يتكلمون على بعض أساليبه وصوره. ومع نهاية القرن الثاني للهجرة وبداية القرن الثالث، شاع بين العلماء التأليف في الشعر واللغة. ومن الكتب التي ألفها العلماء في هذه الفترة في شرح الشعر "ديوان العَجَّاج"(1) لعبد المَلِك

---

(1) هو عبد الله بن رؤبة التميمي. توفي أيام الوليد بن عبد الملك، والوليد توفي سنة 96 هـ عبد الحفيظ السطلي، العجَّاج حياته ورجزه، ط 1، مكتبة أطلس، دمشق، 1971 م,

(15100/1)

بن قُرَيْب الأصمعي المتوفى سنة 215 هـ قال يشرح البيت الثالث من "أُرْجُوزَةِ العَجَّاجِ" :

فالحَمْدُ لله الذِي أَعْطَى الحَبَرْ

مَوَالِيَ الْحَقِّ إِنِ الْمَوْلَى شَكَرْ

الحَبَرُ: السرور، ويقال: هو في حَبْرَةٍ من العيشِ، أي في مَسَرَّةٍ من عيش، والحَبَرُ: السُّرُور، ويُقال: هو حُبِرَ به، أي سُرَّ بِهِ. وفي الحديث: »ذهب حَبْرُهُ وسَبْرُهُ«، والحُبُور: الآثار... وقال ذُو الرُّمَّة:

لاَ زِلْتُمَا فِي حَبْرَةٍ مَا بَقِيتُهَا

وَلاَقَيْتُمَا يَوْمَ الحِسَابِ مُحَمَّدَا

(15101/1)

... يقول: الحمد لله الذي أعطى هذا العَهْد، يقول: اتَّبَعُوا أَثَرَ نَبِيِّهِم، وذهب تشبيه الخوارج. وقوله: »مَوَالِيَ الحق«، أي أولياء الحق. والمولَى: الوَلِيُّ، والموْلَى: ابن العَم، والموْلَى: المُنْعِمُ، والمولَى: المنعَمُ عليه، والمولى: الحَليفُ.

... وأنشدَ للحطيئة في المولى ابن العم:

بَنِي عَمِّنَا إِنَّ الركاب بأهلهَا

إِذَا شَاءَهَا المَوْلَى تَرُوحُ وتَبْتَكِرْ

يريد: إذا سَاءَهَا ابن العمِّ بأمر مكروه رحلت إلى غيره. وقوله: »إن المَوْلَى شَكَرْ«، قال: »هذا بمنزلة قولك: قد أعطاك الله

(15102/1)

خيراً إن شَكَرْتَ، أي فاشْكُرْ، يقول: رَدَّ الحقَّ إلى أَهْلِهِ فَلْيَشْكُرُوا« (1).

... نلاحظ في هذا النص أن الأصمعي ركَّزَ على الشرح اللغوي

للألفاظ، حيث ذكر معنى كلمة »الحبر«، واستطرد في الشرح اللغوي لها وتقليب معانيها المختلفة، ثم أوجز كلامه في شرح مضمون بيت العَجَّاج واستشهد عليه بالشعر القديم والحديث النبوي الشريف.

... ونلاحظ في مواطن أخرى من كتاب الأصمعي على شرح ديوان العجاج أنه لا يكتفي بالاستشهاد بالشعر القديم والحديث النبوي الشريف، بل يستشهد

---

(1) ديوان العجاج، مصدر سابق، ج 1، صص. 4 ـ 6.

(15103/1)

بالآيات القرآنية الكريمة (1) وأمثال العرب (2).

... لقد أسهم الرواد الكبار من العلماء أمثال أبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري (ت 215 هـ) وأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت 209 هـ) وعبد الملك بن قريب الأصمعي (ت 216 هـ) في تثبيت دعائم اللغة والشعر وعلوم العرب، فرواها عنهم الرواة والعلماء بعد أن سرحوها لهم حتى أصبحت جزءاً أصيلاً من كيانهم. قال أبو الطيب اللغوي:

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 8، 14، 99، 155 وغيرها.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص. 11، 17، 21، 71 وغيرها.

(15104/1)

... وكان في هذا العصر ثلاثة هم أئمّة الناس في اللغة والشعر وعلوم العرب، لم يُرَ مثلهم قبلهم ولا بعدهم، عنهم أُخِذ جُلُّ ما في أيدي الناس من هذا العلم عنهم، بل كله، وهم أبو زيد وأبو عبيدة والأصمعيّ، وكلهم أخذوا عن أبي عمرو اللغة والنحو والشعر، ورووا عنه القراءة، ثم أخذوا بعد أبي عمرو عن عيسى بن عُمَر وأبى الخطاب الأخفش ويونس بن حبيب عن جماعة من ثقات الأعراب وعلمائهم (1)

---

(1) أبو الطيب اللغوي (ت 351 هـ)، مراتب النحويين، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط 2، القاهرة، 1974 م، ص. 70.

(15105/1)

.

... يُوضح هذا النص حقيقة هامة هي أن الرواد الذين أشرنا إليهم قد أخذوا علمهم بالرواية والسماع عن أربعة

علماء هم: »أبو عمرو بن العلاء الذي كان سيِّدَ الناس وأعلمَهم بالعربية والشعر ومذاهب العرب «(1) و»عيسى بن عمر الثقفي الذي كان أفصح الناس وكان صاحب تقعير في كلامه واستعمال الغريب فيه وفي قراءته «(2) و»أبو الخطاب المعروف بالأخفش الكبير الذي كان من أفصح الناس

---

(1) ... توفي أبو عمرو هذا سنة 154 هـ (مراتب النحويين، مصدر سابق، صص. 34، 42).

(2) توفي عيسى بن عمر سنة 149. (المصدر نفسه، ص. 43).

(15106/1)

وأعلمهم«(1) ويونس بن حبيب الضّبِّي الذي »كان النحو أغلب عليه «(2).

... وإذا نظرنا في شروح الشعر التي ألفها العلماء في القرن الثالث من الهجرة، فإننا نراها تعنى باللغة والرواية وإبراز المشكلات النحوية التي لها علاقة بتوضيح ما غمض في نصوص الشعر.

... وبالرغم من أن هذه الشروح تلتقي في جوانب عامة كشرح الغريب وتعدد الرواية وتحقيق النص ووضعه في

سياقه

---

(1) أبو الخطاب هو عبد الحميد بن عبد المجيد، لم يعرف تاريخ وفاته. (المصدر نفسه، ص. 46؛ الحاشية رقم 2).

(2) توفي يونس هذا سنة 182 هـ (المصدر نفسه، ص. 44).

(15107/1)

التاريخي، فإننا نجد بعضها قد غلب عليه اتجاه خاص، كما هو الشأن عند أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت 209 هـ) في كتابه "نقائض جرير والفرزدق"(1). فهذا العالم كان يعتني بإيراد الأخبار التي لها علاقة بشعر الأيام(2)، وهو مصدر مُهِمّ لتوضيح الغموض الذي قد يلفّ بعض القصائد أو الأبيات بالرغم مما فيه من قصص خارقة لا يكاد العقل يصدقها، وهي مع ذلك تفيد الباحث

---

(1) كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق، تحقيق المستشرق بيفان، طبعة بريل، ليدن، 1905.

(2) المصدر نفسه، ج 1، صص. 18 ـ 24 و45 ـ 59 و66 ـ 77 و83 ـ 108 وغيرها.

(15108/1)

إذ تُمدّه بحقائق تمتزج أحياناً بالأساطير أو ما يشبهها.

... ويمكن أن نصنف في هذا الاتجاه عبد الملك بن هشام صاحب "السيرة النبوية" (ت 218 هـ). فقد كان يتحدث عن الوقائع التاريخية، ثم يورد الأشعار التي تلائمها(1).

... ونعود إلى صلة الكلام بما قبله، فنقول: إن الصفة الغالبة على شروح الشعر في القرن الثالث والتي تتجلى في "شرح ديوان

---

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السّقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار القلم، بيروت، د. ت.، ج 1، صص. 22 ـ 23، 26، 52، 60 ـ 61، 120 ـ 121، 143 وغيرها.

(15109/1)

النابغة الذبياني" ليعقوب بن إسحاق المعروف بابن السِّكِّيت (ت 244 هـ)(1) و"شرح أشعار الهذليين" لأبي سعيد الحسن بن الحسين السُّكَّرِي (ت 275 هـ) (2) و"الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف" لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد (ت 285 هـ) (3) و"شرح ديوان زهير بن أبي سلمى" لأحمد بن يحيى

---

(1) تحقيق شكري فيصل، دار الفكر، دمشق، 1968.

(2) تحقيق عبد الستار أحمد فراج ومراجعة محمود محمد شاكر، مكتبة دار العروبة، مصر، د. ت.

(3) تحقيق زكي مبارك وأحمد شاكر، مطبعة البابي الحلبي، مصر، 1936 ـ 1937 م.

(15110/1)

المعروف بثعلب (ت 291 هـ) (1) هي شرح غريب النص ولغته وبعض فقراته، ثم التعرض للأصل الاشتقاقي لبعض كلماته، ثم إيراد أقوال العلماء الذين شرحوا الشعر القديم أمثال الأصمعي (2) وأبي عبيدة (3) وابن الأعرابي (4)

---

(1) نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية سنة 1944 م.

(2) ديوان النابغة، مصدر سابق، صص. 6 ـ 9، 11 ـ 12، 14، 16، 24، 27؛ شرح أشعار...، ج 1، صص. 4 ـ 10.

(3) ديوان النابغة، مصدر سابق، ص. 10 ـ 15، 20، 22؛ شرح أشعار...، المصدر نفسه، ج 1، صص. 4 ـ 10.

(4) ديوان النابغة، المصدر السابق، ص. 16، 32.

والأخفش(1) وغيرهم. وهؤلاء الشراح يُكْثِرُون من إيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والشواهد الشعرية وأمثال العرب أثناء شرحهم لنصوص الشعر القديم.

... ثم إن شروحهم تتأرجح بين الإيجاز والإطناب، ذلك بأننا نراهم جميعاً يطنبون في شرح غريب النص، والأصل الاشتقاقي للكلمة، ثم يوجزون في ما سوى ذلك؛ في حين نرى المبرد ينفرد عنهم جميعاً بالإطالة في شرح الغريب (2)

---

(1) هو سعيد بن مسعدة (ت 215 هـ). (انظر عن هؤلاء العلماء: مقدمة شرح أشعار الهذليين، ج 1، صص. 10 ـ 12).

(2) الكامل، مصدر سابق، ج 1، صص. 36 ـ 37، 49 ـ 51، 52، 54، 62 ـ 63 وغيرها.

والاستشهاد عليه بالآيات القرآنية (1) والأحاديث النبوية (2) والشواهد الشعرية(3)، وكذلك التعرض

للمشكلات النحوية التي لها علاقة بتوضيح ما غمض في النص (4).

... وقد استمر العلماء في القرن الرابع من الهجرة على هذا المنوال، فألف الأخفش الأصغر (ت 315 هـ) "كتاب

---

(1) المصدر نفسه، ص. 55، 242 ـ 243، 246 ـ 247، 248، 249 وغيرها.

(2) المصدر نفسه، ص. 96، 318؛ ج 3، صص. 1183، 1263.

(3) المصدر نفسه، صص. 4 ـ 7، 9 ـ 10، 12، 15 ـ 19، 22 ـ 34 وغيرها.

(4) المصدر نفسه، ج 1، ص. 35، 38، 76، 105 ـ 106، 144 وغيرها.

(15113/1)

الاختيارين" (1)، وألف أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت 328 هـ) "شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات" (2)، وألف أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت 338 هـ) "شرح القصائد التسع المشهورات"(3).

... لقد كان الأخفش يوجز في شرح غريب النص ومضمونه، في حين كان ابن الأنباري يطنب في شرح لغة النص وغريبه والأعلام

---

(1) تحقيق فخر الدين قباوة، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1974

(2) تحقيق عبد السلام هارون، ط 2، دار المعارف، مصر، 1969.

(3) تحقيق أحمد خطاب، وزراة الإعلام بالجمهورية العراقية، القسم الأول، 1973.

(15114/1)

الواردة فيه.

... أما أبو جعفر النحاس، فكان يلتقي معهما في شرح غريب النص ولغتِه ومضمونِه. إلا أن المسألة التي كانت تطغى عليه هي التعرض للقضايا النحوية التي يحتوي عليها البيت الذي يشرحه.

... وقد استفاد شراح "الحماسة" في القرن الخامس من الهجرة من هذه المعطيات، وحاولوا أن يضفوا عليها من شخصيتهم كل حسب ثقافته.

... وبالرغم من التقائهم في جوانب عامة في هذا الشرح كالعناية بشرح الغريب(1)

---

(1) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، تحقيق

عبد السلام هارون، ط 2، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1967، ج 1، صص. 26 ـ 27، 29، 31؛ وانظر في شرح الغريب "تجلّي غرر المعاني عن مثل صدر الغواني، والتّحلِّي بالقلائد من جوهر الفوائد"، وهو حماسة الأعلم الشنتمري، تحقيق محمد عبد الاوي، رسالة مرقونة في كلية الآداب بالرباط، 1985.

(15115/1)

والتعرض للمشكلات النحوية (1) والصرفية والعروضية وتعدد الرواية في أشعار الحماسة وشرح مضمون أبيات هذه الأشعار، إلخ، فإنهم كانوا يتفاوتون في الشرح. فقد كان المرزوقي يعتني بمعاني الشعر وإبراز صوره ومبانيه(2)؛ كما كان يعتني بالنقد والموازنة في المفاضلة بين الشعراء في هذه المعاني وتلك المباني (3)

---

(1) شرح ديوان الحماسة، مصدر سابق، ج 1، ص. 26، 29، 31؛ وتجلي غرر...، مصدر سابق، ج 1، ص. 14، 27، 36، 38، 41.

(2) شرح ديوان الحماسة، المصدر السابق، ج 1، صص. 23 ـ

24، 26 ـ 27، 30 ـ 31.

(3) **المصدر نفسه، ج** 1، **صص.** 27 ـ 28، 30، 35 ـ 37.

(15116/1)

.

... أما الأعلم الشنتمري، فقد كان يعتني بالشرح اللغوي والاشتقاقي لأصل الكلمة (1)**، وقد يشير إلى المشكلات النحوية التي يتضمنها البيت** (2)**، كما يعتني بتعدد روايته** (3)**، ونراه يُصدر أحياناً أحكاماً نقدية تتعلق بالقيمة أو الموازنة** (4).

---

(1) **تجلي غرر المعاني...، مصدر سابق، ج** 1، **صص.** 7 ـ 12، 16 ـ 17 **وغيرها.**

(2) **المصدر نفسه، ص.** 8، 14، 27، 36، 49 **وغيرها.**

(3) **المصدر نفسه، ص.** 9، 26، 45 ـ 46 **وغيرها.**

(4) **المصدر نفسه، ص.** 11، 29، 45، 61 **وغيرها.**

(15117/1)

... وقد أشار الأعلم الشنتمري، إلى بعض الألوان البلاغية الواردة في أبيات "الحماسة" (1)**، ولكن إشارته يغلب**

عليها الناحية التعليمية. وذلك يرجع إلى أن الأعلم الشنتمري قد ارتبط بصنف معيّن من التراث هو النحو واللغة، في حين كانت للمرزوقي رؤية فنية متفتحة على التراث العربي الذي هضمه واستفاد منه في تكوين رؤية ذاتية متميزة.

... أما الخطيب التبريزي (ت 502 هـ)، فقد تأثر كثيراً في شرحه لديوان "الحماسة" لأبي تمام بشرح المرزوقي. ونظرة مقارنة بسيطة بين الشرحين تدلنا على

---

(1) المصدر نفسه، ص. 10، 12، 14، 16 ـ 17.

(15118/1)

ذلك (1)؛ إلا أننا نراه قد اعتنى بالسياق التاريخي للنص (2)، كما اعتنى باشتقاق أسامي الشعراء (3) وتفسير الغريب (4).

---

(1) انظر على سبيل المثال البيت 3 من الحماسة رقم 1 عند المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، مصدر سابق، ج 1، ص. 27 ـ 29 ، وقارنها بشرح التبريزي لـ"ديوان الحماسة"، طبعة بولاق، د. ت.، ج 1، ص. 8 ـ 10,

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص. 10، 18 ـ 20، 28 ـ 30.

(3) المصدر نفسه، ص, 5، 15، 20 ـ 22.

(4) المصدر نفسه، ص. 5، 7 ـ 10 وغيرها.

(15119/1)

... وبالرغم من أن شروح الشعر التي ذكرناها آنفاً يغلب عليها العناية بشرح غريب النص وألفاظه وتعدد روايته، والتعرض لما فيه من مشكلات نحوية وصرفية وعروضية، فإننا نجد فيها بوادر بلاغية في تفسير الشعر بدأت طفيفة موجزة ثم اتسعت في القرنين الرابع والخامس الهجريين على يد ابن المعتز في كتابه "البديع"(1) الذي أشار فيه إلى الألوان البلاغية التي تضمنها الشعر (2)، والآمدي الذي وضع أسساً

---

(1) عبد الله بن المعتز، كتاب البديع، نشر أغناطيوس كراتشكوفسكي، لندن، 1935.

(2) المصدر نفسه، ص. 3، 25، 36، 47، 53، 58.

(15120/1)

نقدية هامة انتقد على أساسها شعر أبي تمام وعرض لما فيه من بعيد الاستعارات (1) ورديء التجنيس (2)

ورديء الطباق (3)، وأبي هلال العسكري (ت 395 هـ) في كتابه "الصناعتين" الذي تطرق فيه إلى الفنون البلاغية التي يجتوي عليها النثر والشعر من وجوه التشبيه (4)

---

(1) الحسن بن بِشْر الآمدي (ت 370 هـ)، الموازنة بين الطائيين، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط 3، 1959، صص. 228 ـ 247.

(2) الآمدي، مصدر سابق، صص. 247 ـ 253.

(3) المصدر نفسه، صص. 254 ـ 258.

(4) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق علي البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي، مصر، د. ت.، صص. 251 ـ 262.

(15121/1)

والسجع والازدواج (1) والاستعارة والمجاز (2) والمطابقة (3) والتجنيس (4)، إلخ.

... وقد قَيَّضَ الله للتحليل البلاغي في تفسير الشعر مَنْ وَصل به إلى القمة وهو عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) في كتابيه "أسرار البلاغة"(5) و"دلائل الإعجاز"(6)

---

(1) المصدر نفسه، صص. 266 ـ 271.

(2) المصدر نفسه، صص. 274 ـ 315.

(3) المصدر نفسه، صص. 316 ـ 329.

(4) المصدر نفسه، صص. 330 ـ 345.

(5) أسرار البلاغة في علم البيان، تصحيح محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1982.

(6) دلائل الإعجاز قرأه وعلق عليه محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1984.

(15122/1)

على أساس نظرية النَّظْم التي تقوم في جوهرها »على أن الكلام يشتمل على مستويات مقالية هي المستوى الصوتي والتركيبي والدلالي... وأن التّسايق بين الألفاظ المكونة للمقال يقوم على نوعين من العلاقات التي تنظم ذلك المقال، وهي علاقات المستوى التركيبي بالمستوى الدلالي«(1).

... نرى من خلال ما تقدم أن شروح الشعر قد غلب عليها الاتجاهات التالية:

---

(1) ... أحمد المتوكل، »نحو قراءة جديدة لنظرية النظم

عند الجرجاني»، مجلة كلية الآداب بالرباط، العدد الأول، سنة 1977، ص. 95.

(15123/1)

... 1) شروح الشعر ذات الطابع التاريخي، ويمثلها ابن هشام في "السيرة النبوية"، وأبو رياش في "شرح الحماسة"، وابن خالويه في "شرح ديوان أبي فِرَاس".

... 2) شروح الشعر ذات الطابع اللغوي، ويمثلها ابن السكيت في شرح ديوان النابغة الذبياني وابن الأنباري في شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ومَن كان على شاكلتهما.

... 3) شروح الشعر ذات الطابع النحوي ويمثلها: ثعلب (ت 291 هـ) في "شرح ديوان زهير"، وأبو جعفر النحاس في "شرح القصائد التّسْع"، وابن جني في "شرح ديوان المتنبي".

(15124/1)

... 4) شروح الشعر ذات الطابع النقدي والبلاغي، ويمثلها ابن المعتز في كتابه "البديع"، والآمدي في كتابه

"الموازنة بين الطائيين"، وعبد القاهر الجرجاني في كتابيه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز"، والواحدي في "صنعة ديوان المتنبي"، وغيرهم.

الطوابع العامة لشروح الشعر

... كان شرّاح الشعر القديم يلتقون في الجوانب التالية:

... 1) وضع النص في إطاره العام: ويُقصد به سَرْدُ أخبار تساعد القارئ على فهم مناسبة النص.

(15125/1)

... نرى الشرّاح يتفاوتون في عرض هذا الجانب. فبعضهم كأبي عبيدة في كتابه "نقائض جرير والفرزدق"(1) وابن هشام في "السيرة النبوية"(2) وابن الأنباري في "القصائد السبع الطوال"(3) والتبريزي في شرح "ديوان الحماسة"(4) يطيل في هذا

---

(1) كتاب النقائض، مصدر سابق، ج 1، ص. 19، 47، 58، 66، 69، 70 ـ 74 وغيرها.

(2) السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 1، صص. 44 ـ 63، 64، 70، 116 ـ 149 وغيرها.

(3) شرح القصائد السبع، صص. 3 ـ 6، 8 ـ 13، 13 ـ 15، 115

.132,

(4) شرح ديوان الحماسة، ج 1، صص. 18 ـ 20، 28 ـ 29، 45 ـ 46، 106.

(15126/1)

الجانب؛ إلا أن منهج التبريزي في عرض مناسبة النص كان متوازناً مع منهجه العام الذي وضعه لشرح "ديوان الحماسة". وسبب ذلك انه استفاد من منهج الشراح الذين سبقوه(1)، في حين كان أبو عبيدة وابن هشام يُغرقان في عرض الأخبار التي لها علاقة بشعر الأيام.

---

(1) انظر »مقدمة« شرح ديوان الحماسة، مصدر سابق، ج 1، ص. 4. وقارن بين التبريزي والمرزوقي في شرح كل منهما لأبيات الحماسة، تجد التبريزي عالة في شرحه هذا على المرزوقي.

(15127/1)

... وبالرغم من التقائهما من هذا الجانب، فإنهما يختلفان: فأبو عبيدة يُورِدُ نَقَائِضَ جرير والفرزدق، ثم يشرح في إسْهاب ما ورد عند الشاعرين من إشارات تاريخية

تتعلق بالفخر بأيام قبيلتيهما. وهو يورد أثناء هذ الشرح التاريخي أو بعد الانتهاء منه أشعاراً أخرى تتعلق بالأيام(1).

... أما ابن هشام في "السيرة النبوية"، فقد تحدث عن وقائع تاريخية وقعت قبل الإسلام وفي فترة البعثة النبوية، ثم أورد لها أشعاراً تلائمها(2)

---

(1) كتاب النقائض، مصدر سابق، ج 1، صص. 46 ـ 51، 66 ـ 68، 70 ـ 71، 73، 75 ـ 77، 83 ـ 108.

(2) السيرة النبويّة، مصدر سابق، ج 1، صص. 19 ـ 23، 44 ـ 55؛ ج 2، صص. 257 ـ 294.

(15128/1)

.

... وأما ابن الأنباري والتبريزي، فهما وإن أطالا في هذا الجانب، قد اتخذاه مدْخَلاً للنص وجزءاً من منهج عام قد أخذا به أنفسهما، وهو: ذكر مناسبة النص وشرح غريبه ولغته وبعض فقراته، ثم الانتقال إلى شرح مضمونه.

... أما ابن السِّكِّيت في شرح "ديوان النابغة الذبياني"، فيشير في أسطر قليلة جداً إلى مناسبة النص(1). ولعله فعل ذلك، لأن الرواة قبله قد أشاروا بتفصيل إلى

(1) ابن السكيت، ديوان النابغة الذبياني، مصدر سابق، ج 1، ص. 27، 54، 65.

(15129/1)

هذا الموضوع؛ ولذلك نراه يُركِّزُ بالدرجة الأولى على شرح غريب النص ولغته وبعض فقراته.

... وقد حَذَا حَذْوَهُ في هذا الجانب السكري في "شرح أَشعار الهُذَلِيِّين"(1). وإذا كان المؤلفان المذكوران قد اقْتَضَبَا في ذكر مناسبة النص، فإن أبا جعفر النحاس في "شرح القصائد التسع" قد انصرف عن ذكره، وليس هذا فحسب؛ بل إنه لم يُكثر كما فعل »أهل اللغة في تفسير غريب الشعر، وإغفال لطيف ما فيه من النحو، فاختصرتُ غريبَ "القصائد التسع المشهورات" وأَتْبَعْتُ ما

---

(1) شرح أشعار الهذليين، مصدر سابق، ج 1، ص. 70، 76، 113.

(15130/1)

فيها من النحو باستقصاءِ أكثره، ولم أُكْثِر الشواهدَ ولا الأنسابَ لِيَخِفَّ حِفْظُ ذلك إن شاء الله «(1).

... نرى من خلال هذا النص أن شراح الشعر كانوا يطالعون شروح الشعر التي كانت قبلهم، وكانوا يرون أن مؤلفيها قد أطنبوا في جانب وأخَلُّوا بجانب آخر. لذلك نراهم يُعلنون في مُقَدِّمَات تآليفهم أنهم سيُشبِعون القَوْلَ في هذا الجانب الذي غَمَطَه

---

(1) شرح القصائد التسع المشهورات، مصدر سابق، ص. 97؛ صَنْعَةُ أبي جعفر النحاس، القسم الأول، تحقيق أحمد خطاب، وزارة الإعلام بالجمهورية العراقية، بغداد، 1973.

(15131/1)

المؤلفون السابقون حقه، وهذا نفسه ما نراه عند المؤلفين المحدثين الذين يذكرون في مقدمات تآليفهم جهود السابقين قبلهم في الموضوع، ثم يذكرون المآخذ العلمية والمنهجية التي أخذوها عليهم ليصلوا من ذلك إلى النتائج الجديدة المُتَوَخَّاة من البحث.

... 2) شرح غريب النص ولغته: وذكر الأصل الاشتقاقي لبعض كلماته، وشرح بعض فقراته، والاستشهاد على

ذلك بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة والشواهد الشعرية وأمثال العرب وأقوال السلف(1)

---

(1) ديوان العجاج، مصدر سابق، ج 1، صص. 2 ـ 3، 4 ـ 5، 8، 17؛ ثعلب، شرح ديوان زهير، صص, 2 ـ 3، 4 ـ 6، 13 ـ 15، 31، 34؛ والاخْتِيَارَين، ص, 2، 4 ـ 5، 15، 24، 32، 36؛ وراجع المصادر التي أشرنا إليها آنفاً.

(15132/1)

.

... 3) الاهتمام بتوثيق النص وتعدد روايته: ونَضْرِب لذلك مثلاً من قول ابن الأنباري وهو يتحدث عن »يَوْمِ دَارَةِ جُلْجُل« الذي ورد ذِكْرُه في معلقة امرئ القيس:

... وقال الأصمعي: حدّثني مَنْ سمع عبد الله بن رألان التميمي ـ وكان راوية الفرزدق ـ يقول: لم أر رجلاً ولم أسمع به كان أَرْوَى لأحاديث امرئ القيس بن حُجر وأشعاره من الفرزدق... قال عبد الله ابن رألان: فقلت: يا أبا فراس وكيف كان حديث "يوم دارة جُلَجُل"؟ قال:

حدثني جدّي وأنا يومئذ غلام حافظٌ لِما أسمع أن امرأ القيس كان عاشقاً لابنة عم له يقال

(15133/1)

لها عُنَيْزَة(1).

... نستخلص من هذا النص أن ابن الأنباري قد اعتمد في روايته لمعلقة امرئ القيس والأخبار التي تتعلق بها على الأصمعي، والأصمعي رواها عن عبد الله بن رألان الذي رواها بدوره عن الفرزدق، والفرزدق رواها عن جدِّه.

... ومعلوم أن رواية الأصمعي تعتبر من أصحِّ الروايات.

قال الأعلم الشنتمري في شأنها: »واعتمدتُ في ما جلبتُه من هذه الأشعار على أَصَحِّ رواياتها وأوضح طُرُقَاتِهَا، وهي رواية عبد الملك بن قُريب الأصمعيّ لتواطؤ الناس عليها واعتيادهم لها واتفاق

---

(1) شرح القصائد السبع الطوال، ص. 14.

(15134/1)

الجمهور على تفضيلها« (1).

... وما قيل عن توثيق النص والأخبار المتعلقة به يُقال عن تعدُّدِ روايته. قال ابن الأنباري في بيت امرئ القيس:

وَإِنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ مُهَرَاقَةٌ

فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

»ويُرْوَى:

وإِنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ إِنْ سَفَحْتُهَا« (2).

... وقال لي في شأن بيت امرئ القيس:

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا

---

(1) ديوان امرئ القيس، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط 3، 1969، ص. 4.

(2) شرح القصائد السبع الطوال، المصدر السابق، ص. 25.

(15135/1)

وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

وروى أبو عبيدة: »"كدينك من أُمِّ الحوَيْرِث قبلها".

يريد: كدأبك وحالك«(1).

... 4) الاهتمام بإبراز مشكلات النص النحوية والصرفية والعروضية التي تُسهم في إضاءته: نرى شُرَّاح الشعر يتفاوتون في عرض هذه الجوانب: فبعضهم قد يوضح مسألة نحوية لها علاقة بالنص الذي يشرحه، ثم يستطرد في ذلك إلى ذكر بعض آراء النحاة كما نرى ذلك عند المبرد (2) وأبي جعفر النّحاس (3)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 28.

(2) المبرد، الكامل، مصدر سابق، ج 1، ص. 35، 219، 238 ـ 240.

(3) شرح القصائد التسع المشهورات، مصدر سابق، صص. 142 ـ 143، 154 ـ 155، 183 ـ 184، 186 ـ 187.

(15136/1)

.

... وبعضهم قد »بَنَى كتابه على أساس من القواعد النحوية التي يراها في هذا البيت أو ذاك، فنجده عندما

يشرح بيتاً يخلص إلى عبارته المألوفة: "وأما ما فيه من النحو"، ثم يذكر القاعدة العامة ويتوسع بعدها ليستوعب ما قاله علماء النحو فيها، أو يذكر رأيه مؤيداً أو مخالفاً«(1).

... وبعضهم يكتفي بإعراب البيت إعراباً موجزاً، لأنه بَنَى كتابه ـ فيما يبدو ـ على خطة تكاد تكون متوازنة؛ فهو يشرح غريب النص مفصّلاً فيه، ثم يشرح مضمونه بإيجاز، ثم يُعربه (2)

---

(1) المصدر نفسه، »المقدمة«، صص. 76 ـ 77.

(2) شرح القصائد السبع الطوال، ص. 134، 136، 137، 139.

(15137/1)

.

... هذا، ونرى بعض شُرَّاح الشعر يُطنبون في عرض الدراسات الصرفية فيتحدثون عن الإبدال (1) والإدغام (2) ومعاملة حروف اللين معاملة الحروف الصحيحة (3) وأوزان بعض الجموع (4) والتصغير (5) والنسب (6)، في حين نرى بعضهم يستخدم الصرف لبيان بِنْيَة الكلمة التي يتحدث عنها في النص (7)

---

(1) ... »مقدمة« شرح القصائد التسع، ص. 73.

(2) المصدر نفسه، ص. 74.

(3) المصدر نفسه.

(4) ... المصدر نفسه.

(5) ... المصدر نفسه، ص. 75.

(6) ... المصدر نفسه، ص. 76.

(7) ... المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، مصدر سابق، صص. 40 ـ 41، 44.

(15138/1)

.

... ويُمكن أن يُقال ـ بصفة عامة ـ في هذا المجال: إن الشُّرَّاح يتعرضون للقضايا النحوية والصرفية من أجل توضيح إِشْكَال قائم في البيت، ثم يمرُّون إلى معالجة قضايا أخرى يحتوي عليها البيت، ما خلا بعضهم كأبي جعفر النحاس وأبي جمعة الماغوسي (1) اللذين وجدَا لذة كبرى في عرض القضايا النحوية والخلافات

---

(1) أبو جمعة الماغوسي، إِتْحَاف ذَوِي الأَرَب بمقاصد لامية العرب، تحقيق محمد المؤدّب، رسالة مرقونة بكلية

الآداب بالرباط، صص. 22 ـ 25، 27 ـ 28، 30 ـ 32، 33 ـ 34.

والماغوسي شارح مغربي عاش في العصر السعدي.

(15139/1)

القائمة بين أصحابها وكأنهما بصدد تأليف كتاب في النحو أو الصرف لا في شرح الشعر.

... أما القضايا العروضية التي تناولها شراح الشعر، فهي لا تخرج عن الإشارة إلى بحور الأبيات التي يشرحونها، كما نرى ذلك مثلاً عند الخطيب التبريزي (1)، أو لجوء الشاعر إلى الضرورية الشعرية من تخفيف الهمز (2)

---

(1) كما أنه يشير إلى قوافي هذه الأبيات: التبريزي، شرح ديوان الحماسة، مصدر سابق، ج 1، ص. 6، 12، 15، 22، 30 ـ 31، 33 وغيرها.

(2) مثل قول الشاعر الحماسي »أَوْمَى« وأصلها »أَوْمَأَ«. (تجلي غرر المعاني، مصدر سابق، ج 1، ص. 152).

(15140/1)

، أو الحذف لإقامة الوزن (1)، أو توضيح كلمة القافية لإزالة التباس قد يَرد على الذهن كما نرى مثلاً في قول

الأعلم الشنتمري متحدثاً عن حماسية عمرو بن معد يكرب الزبيدي التائية »وبهذا البيت خرجت القصيدة من أن تكون قافيتها الراء، لإتيانه بالنون في قافيته؛ فَعُلِمَ

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 136، حيث يشير الأعلم إلى أن الشاعر قد »حذف نون الاثنين« في قوله:

... ... هُمَا خُطَّتَا إِمَّا إِسَارٌ ومِنَّةٌ

... »للإضافة إلى القول، وحذف القول لعلم السامع ولِمَا احتاج إليه من إقامة الوزن«. (المصدر نفسه).

(15141/1)

أنه اعتمد على التَّاء في القافية«(1).

... 5) شرح مضمون النص: يأتي شرح مضمون النص عند شراح الشعر بعد ذكر مناسبته وشرح غريبه ولغته وبعض فقراته. ونرى الشرّاح يتفاوتون في تناول هذا الجانب:

... .فبعضهم يشرح مضمون البيت اعتماداً على أقوال العلماء كما نرى ذلك عند ابن السّكّيت (2)، والسكري (3)، وابن الأنباري (4)

---

(1) **المصدر نفسه، ج** 1، **ص.** 73. **وهو يقصد قول الشاعر «أَرَنَّتِ».**

(2) **ديوان النابغة، مصدر سابق، صص.** 11 ـ 15، 20، 31 ـ 32.

(3) **شرح أشعار الهُذليين، مصدر سابق، ج** 1، **ص.** 4، 12، 16، 21، 23.

(4) **شرح القصائد السبع الطوال، مصدر سابق، صص.** 26 ـ 27، 35 ـ 37، 40.

(15142/1)

، مما يوضح لنا أنهم لا يكتفون برواية الأشعار والأخبار التي تتعلق بها؛ بل يروون أيضاً ما قاله العلماء حول هذه الأشعار من تفسير غريبها وألفاظها وبعض فقراتها، وكذلك مضمونها.

... وهم ينصّون على أقوال كل عالم في شرحه، ونفهم ـ عندما لا ينصون على هذا الذكر ـ أنهم أضافوا شروحاً لهذه الأشعار من عندهم. وهذه نصوص توضح ذلك:

... قال محمد بن القاسم الأنباري في شرحه لبيت امرئ القيس:

فَتُوضِحَ فالمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا

لما نَسَجَتْهَا من جَنُوبٍ وشَمْأَلِ

(15143/1)

... ... لَمْ يَعْفُ رسمها. قال الأصمعي: معناه لم »يدرس« لما نسجته من الجنوب والشمال، فهو باق، فنحن نحزن؛ ولو عفا، لاسترحنا... وقال قوم: المعنى لم يعفُ رسمها للريح وحدها، إنما عفا للمطر والريح وغير ذلك من مرِّ الدهور به؛ وهو دارس في المعنى... وقال آخرون: لم يَعْفُ رَسْمُهَا لاختلاف هاتين الريحين؛ ولو دامت عليه واحدة، لعفا... وقال أبو بكر محمد بن آدم العبدي: معنى قوله: لم يعف رسمها، لم يدرس من قلبي، وهو في نفسه دارس (1).

... وقال السكري في شرح بيت أبي ذؤيب الهذلي:

---

(1) المصدر نفسه، صص. 20 ـ 21.

(15144/1)

قَالَتْ أُمَيْمَةُ مَا لِجِسْمِكَ شَاحِباً

مُنْذُ ابْتَذَلْتَ وَمِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ

... ... الأَصْمعي يقول: إن كان مات من يكفيك من بَنِيك، فَمِثْلُ مالك يُشْتَرَى به مَن يكفيك ضَيْعَتَكَ، أي مثل مالك كفى صاحبَه البِذْلَةَ ونفَع، فاتَّخِذْ من يكفيك وأَقِمْ وَوَدِّعْ نَفْسَكَ أبو عمرو(1) يقول: مالك كثير، فما لِي أَرَاكَ شاحباً. مَعْمَر (2)

---

(1) يقصد »أبا عمرو بن العلاء« المتوفى سنة 154 هـ (مراتب النحويين، مصدر سابق، ص. 42).

(2) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت 210 هـ). (المصدر نفسه، ص. 79).

(15145/1)

: »ابْتَذَلْتَ«، أي ابتَذَلْت نَفْسَكَ وتركْت الزِّينَةَ (1).

... عندما يفحص الباحث شروح الشعر التي تتعلق بمضمون الأبيات ـ وخاصة عند الشراح اللغويين ـ فإنه يجدها شروحاً مُقْتَضَبَة وباردة. والسبب في ذلك أن اللغويين كان همُّهم البحث في الأصل الاشتقاقي للكلمة ودلالاتها المختلفة. وإذا سألتهم عن علاقة مضمون البيت

بعالم الشاعر وتجربته الشعرية، وكيف فجّر اللغة وأخضع دلالتها في شعره لدلالة جديدة تتناسب مع الموضوع الذي عالجه، فإنهم لا يجيبونك لأن هذا ليس

---

(1) شرح أشعار الهذليين، مصدر سابق، ج 1، ص. 5.

(15146/1)

من صنعتهم. على أننا نستثني شُرَّاحاً آخرين قد هضموا التراث العربي فاستفادوا منه في تكوين رؤية جديدة لنصوص الشعر العربي القديم تستند إلى النقد والبلاغة والمنطق. من هؤلاء: الحسن بن بِشْر الآمدي (ت 370 هـ) في كتابه "الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وأبي عبادة الوليد بن عُبَيدٍ البحتري" (1)، وأحمد بن محمد المرزوقي (ت 421 هـ) في كتابه "شرح ديوان الحماسة" (2)

---

(1) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط 3، 1959.

(2) تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط 2، 1967.

(15147/1)

لأبي تمام، وعليّ بن إسماعيل بن سِيدَة (1) الأندلسي (ت 458 هـ) في كتابه "شرح مشكل أبيات المتنبي"، وعبد القاهر الجرجاني (ت 471 أو 474 هـ) في كتابيه "أسرار البلاغة" (2) و"دلائل الإعجاز"(3)، وابن مَرْزوق التلمساني الحفيد (ت 842 هـ) في كتابه "إظْهَارُ صِدق المودَّة في شرح البردة" (4)

---

(1) تحقيق محمد حسن آل ياسين، وزارة الإعلام بالعراق، بغداد، ط 1، 1977.

(2) تصحيح الشيخ محمد عبده وتعليق رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1982.

(3) تصحيح وتعليق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1984.

(4) تحقيق محمد الكَوار، رسالة لدبلوم الدراسات العليا، مرقونة بكلية الآداب بالرباط، سنة 1993.

(15148/1)

.

... مما لاشك فيه أن كل شارح من الشراح الذين ذكرناهم آنفاً كان يقوم بتوضيح ما غمض في البيت من معنى على

أساس منهج كان يسلكه:

... فالآمدي كان ينظر إلى أخطاء أبي تمام في اللفظ والمعنى على أساس الصراع الذي كان بين القدماء والمحدثين حول »الطبع« و»الصنعة«. ففريق الطبع كان يناصر البحتري، وفريق الصنعة كان يناصر أبا تمام.

... ونظراً لتكوين الآمدي الثقافي وتشبعه بالتراث العربي الذي يمجد طريقة القدماء، فإن هواه كان مع البحتري الذي حافظ على عمود الشعر (1)

---

(1) لخص المرزوقي، في كتابه "شرح ديوان الحماسة" (مصدر سابق، ج 1، ص. 9)، عمود الشعر؛ فقال متحدثاً عن النقاد العرب: »إنهم كانوا يحاولون شَرَفَ المعنى وصِحَّته، وجزالةَ اللفظ واستقامتَهُ، والإصابَةَ في الوصف... والمقاربة في التشبيه، والتحامَ أجزاء النظم والتئامَها على تخَيُّرٍ من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستَعَارِ له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدّة اقتضائهما للقافية حتى لا مُنَافَرَةَ بينهما«.

(15149/1)

.

... أما شعر أبي تمام الذي يمثل »صورة لحضارة القرن الثالث الهجري بما تحمل هذه الحضارة من ترف فكري وحضاري وتأنق في جميع مظاهر الحياة «(1)، فإن الآمدي لم يستسغه لأنه ظل مُحبّاً لطريقة العرب القدماء في عمود الشعر، ولأن شعر أبي تمام لا يفهمه الناقد المتخصص إلا بعد إعمال الذِّهن. يقول عن أبي تمام:

---

(1) محمد علي أبو حمدة، أبو القاسم الآمدي وكتاب الموازنة، دار العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1969، ص. 99.

(15150/1)

... حتى صار كثيرٌ مما أتى به من المعاني لا يُعْرَف ولا يعلم غرضه فيها إلا مع الكَدِّ والفكر وطول التأمل، ومنه ما لا يعرف إلا بالظن والحَدْسِ ولو كان أَخَذَ عَفْوَ هذه الأشياء ولم يُوغِل فيها ولم يجاذب الألفاظ والمعاني مجاذَبَة ويقْتَسرها مُكَارَهة وتناول ما يسمح به خاطره... وأورد من الاستعارات ما قرُب وحسن... واقْتَصَر من القول على ما كان مَحْذُوّاً حَذْوَ الشعراء المحسنين ليسلم من هذه

الأشياء التي تُهَجِّن الشعر وتُذْهِب مَاءَهُ وَرَوْنَقَهُ... لظننتُه كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر أكثر

(15151/1)

الشعراء المتأخرين (1).

... وقد طبق الآمدي منهجه هذا على شعر أبي تمام فقال عن بيته:

رَقِيقُ حَوَاشِي الحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ

بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتَ فِي أَنَّهُ بُرْدُ(2)

---

(1) الآمدي، مصدر سابق، ص. 128.

(2) من قصيدة يمدح فيها أبا الحسين محمد بن الهيثم، وهي في ديوانه؛ بشرح الأعلم الشنتمري (ت 476)، تحقيق إبراهيم نادن، وهو رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، مرقونة بكلية الآداب بالرباط، سنة 1995، ج 3، ص. 391. و »مَارَيْتُ الرَّجُلَ إِذَا جَادَلْتَهُ« (اللسان، »مرا«)، »البُرْدُ: ثوب فيه خطوط« (اللسان، »برد«).

(15152/1)

... والخطأ في هذا البيت ظاهر؛ لأنِّي ما علمت أحداً من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحِلْم بالرقة، وإنما يُوصف الحِلم بالعِظم والرُّجْحَان والثقل والرَّزانة ونحو ذلك كما قال النابغة:

وَأَعْظَمَ أَحْلَاماً وأَكْبَرَ سَيِّداً

وأَفْضَلَ مَشْفُوعاً إِلَيْهِ وَشَافِعَا(1)

---

(1) البيت من مقطعة له يمدح فيها قوماً بهذه الخصال. وقد استنتجنا ذلك من المقطعة كلها. أما المحقق، فقد جاء بأبيات المقطعة وتركها على حالها ولم يشر في نهاية الكتاب إلى التخريج. (ديوان النابغة الذبياني، صنعة ابن السكيت، تحقيق شكري فيصل، دار الفكر، 1968، ص. 95. وقد فعل مثل ذلك أبو الفضل إبراهيم في "ديوان النابغة الذبياني"، دار المعارف، مصر، 1977، ص. 164).

(15153/1)

... وكما قال الأَخْطَل:

شُمْسُ العَدَاوَة حتّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ

وأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَاماً إِذَا قَدَرُوا(1)

... وكما قال أبو ذُؤَيب:

وصَبْرٌ على حدث النائباتِ

وحِلْمٌ رَزِينٌ وقَلْبٌ ذَكِيٌّ(2)

... يتبين لنا من خلال هذا النص أن الآمدي لا يريد من أبي تمام أن يخرج عن سَنَنِ الأوائل في استعمال الألفاظ

---

(1) البيت من قصيدة له في ديوانه يمدح فيها عبد الملك بن مروان، تحقيق فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 2، 1979، ص. 201.

(2) من قصيدة له في شرح أشعار الهذليين، ج 1، ص. 103.

(15154/1)

فالأوائل قد وصَفُوا الحِلْمَ بالعِظم والثِّقل والرُّجحان، وأبو تَمام قد وصفه بالرقة.

... وهذا في حد ذاته يُعد جِناية على الشاعر الذي يُحاول التعبير عن عصره بلغة تناسب ذلك العصر. فهو يريد إخضاع اللغة المتداولة لتحمل أفكاراً جديدة لم تعهدها من قبل، وهذا ما فعله أبو تمام. لقد انصبَّ اهتمامه على وصف الحِلِم بالرقة وحاول تجسيده هذه الرقة في أطراف الثوب.

... يحاول أبو تمام هنا تجسيم المعنويات وكأنها حاضرة بين يديك، وعمله هذا يشبه ما يفعله الشاعر العربي المعاصر الذي يناضل اللغة والمواضعات الاجتماعية

(15155/1)

ليخلق لغة تنبض بالحياة وتعبر عن تطور العصر.

... ومع هذا، فإن نقد الآمدي لشعر أبي تمام كان مُوفَّقاً لأنه كان »مزيجاً موفقاً من الذوق والمعرفة، المعرفة بِكَافَّةِ أنواعها: إنسانية مباشرة وتقليدية مقررة، معرفة لغوية ومعرفة أدبية، إحساس ومنطق، بداهة ومحاجة «(1).

... ونأخذ مثالاً من شرحه لشعر أبي تمام يدل على دقته وإدراكه لنزعات النفوس:

... قال أبو تمام:

---

(1) محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر للطبع والنشر، د. ت.، ص. 123. وقد تصرفت في أول النص.

(15156/1)

لَمَّا اسْتَخَرَّ الوَدَاعُ المَحْضُ وانْصَرَمَتْ

رَأَيْتُ أَحْسَنَ مَرْئِيٍّ وأَقْبَحَهُ

أَوَاخِرُ الصَّبْرِ إِلاَّ كَاظماً وَجِمَا(1)

مُسْتجمعَيْنِ لِيَ التودِيعَ والعَنَمَا(2)

---

(1) روى الأعلم في شرح ديوان أبي تمام، ج 3، ص. 399، هذا البيت على الشكل الآتي:

...

لما استخر الوداع المحْضُ وانْصَرَفَتْ

أواخِرُ السَّيْرِ إلاَّ كَاظِماً وَجِمَا

(2) تختلف رواية الأعلم في هذا البيت عن رواية الآمدي إذ رواه في شرح ديوان أبي تمام على الشكل الآتي:

رأيت أحسن مرئيّ وأقبحه

مُستودعيْنِ لِيَ التَّوْديعَ والعَنَمَا

(15157/1)

... العَنم: شجر له أغصان لطيفة غَضَّةٌ كأنها بَنَانُ جارية... كأنه استحسن أصبعها واستقبح إشارتها إليه بالوداع، وهذا خطأ في المعنى، أتراه ما سمع قول جرير:

أَتَنْسَى إِذْ تُوَدِّعُنَا سُلَيْمَى

بِفَرْعِ بَشَامَةٍ سُقِيَ الْبَشَامُ(1)

---

(1) وهذا البيت والذي قبله من قصيدة له يمدح فيها إسحاق بن إبراهيم صاحب الشرطة في بغداد أيام المامون والمعتصم والواثق والمتوكل مات سنة 235 هـ (عن: الأعلم، شرح ديوان أبي تمام، ج 3، ص. 399).

( ) من قصيدة له يصف فيها غلبته لشعراء عصره ويهجو الأخطل وقومه، (شرح ديوان جرير، تحقيق إسماعيل الصاوي، دار الأندلس، بيروت، د. ت.، ص. 512).

(15158/1)

... فدعا للبشام بالسقيا لأنها ودَّعته به؛ فسرّ بتوديعها.

... فأبو تمام استحسن أصبعها واستقبح إشارتها. ولعمري إنّ منظَر الفراق منظر قبيح، ولكن إشارة المحبوبة بالوداع لا يستقبحها إلا أجهل الناس بالحب، وأقلهم معرفةً بالغزل، وأغلظهم طبعاً، وأبعدهم فَهْماً (1).

... يعيب الآمدي على أبي تمام أنه استقبح إشارة الحبيب إليه بالوداع، واستحسن إشارته إليه بالأصبع. وهذا في حد ذاته تناقض واضح، لأن منظر الفراق يبعث على الحزن والأسى والمنظر القبيح. لكن عندما

---

(1) الآمدي، الموازنة، مصدر سابق، صص. 204 ـ 205.

(15159/1)

يتخلله إشارة المحبوب بالوداع، يلطف من حزنه، لا بل قد يُحول لحظة الحزن إلى لحظة فرح.

... أما منهج المرزوقي في شرح مضمون أبيات "ديوان الحماسة"، فقد اعتمد على الجوانب التالية:

... 1) شَرَحَ البيت شرحاً وافياً: وذلك بتوضيح ما غمض منه، حتى تكاد يَدُ القارئ تتَقَرَّاهُ بِلَمس، ثم قارن معناه بأشعار الشعراء الآخرين الذين طرقوا المعنى نفسه.

يقول في شرح البيت الثالث من الحماسية الأولى:

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُمْ

طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا

(15160/1)

... أراد أن يصف بني مازن بما يهتاج له قومه فينصرونه، فقال: هم قوم إذا ظهر لهم الشرُّ واشتدّ، سارعوا إليه غير متوقّعين لتَجَمُّع، ولاَ مُعَرِّجِينَ على تَأَهُّب؛ لكنهم يتبادرون أفراداً وثُبَاتٍ، وأشتاتاً وجماعاتٍ. وإِبدَاءُ النَّاجِذِ ـ وهو ضرس الحِلْمِ ـ مَثَلٌ لاشتداد الشر، ومثله قول

الآخر:

فَمَنْ يكُ مِعْزال اليدينِ مكانُهُ

إِذَا كَشَرَتْ عن نابها الحَرْبُ خَامِلُ

... فأَمَّا قول عنترة:

إِذْ تَقْلِصُ الشفتانِ عن وَضَحِ الفَمِ(1)

---

(1) صَدْرُهُ: ولَقَدْ حَفِظْتُ وَصَاةَ عَمِّي بالضُّحَى.

... وهو من معلقته: ديوان عنترة، تحقيق سعيد مولوي، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، 1970.

(15161/1)

... وقول الأعشى:

سَعَةُ الشِّدْقِ عن النَّابِ كَلَمْ(1)

... وقول الآخر:

وَقَدْ أَسْلَمَ الشَّفَتَانِ الفَمَا

... فإنما هو صِفَةٌ للمصطلى بنار الحرب عند اشتداد الأمر عليه «(2).

---

(1) ... صَدْرُه: ... ولَهُ المُقْدَمُ فِي الْحَرْبِ إِذَا.

... وهو من قصيدة له طويلة يمدح فيها إياس بن قَبِيصَة الطائي. (ديوانه، تحقيق محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 4، 1983، ص. 291).

(2) ... المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، مصدر سابق، ج 1، ص. 27 ـ 28.

(15162/1)

... هذا، ونرى المرزوقي، بعد أن يستنفد القول في شرح صِيَغِ البيت المذكور وفقراته، يُعَقِّبُ على ذلك بشرح آخر يكاد يتفق مع الشرح الأول، ولكنه يُركز فيه على معنى آخر بَدَا له أنه لم يذكره في الشرح الأول وهو: »والمعنى أنهم لحرصهم على القتال وجرأتهم، لا ينتظر بعضهم بعضاً، ولكن كُلاًّ منهم يعتقد أن الإجابة تَعَيَّنَتْ عليه إذا تشدّد الشّرّ لهم، وفي طريقته قول بعض الشعراء:

قَوْمٌ إِذَا هَتَفَ الصَّرِيخَ رَأَيْتَهُمْ

(15163/1)

مِنْ بَيْنِ مُلجِم مُهْرِهِ أَو سَافِعِ (1) (2)

_____

(1) ورد هذا البيت في شعر عمرو بن معد يكرب الزبيدي، جمع وتحقيق مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1974، ص. 194.

... الصريخ: صوت المستصرخ، والصارخ أيضاً، والمناسب الأول. والسافعُ: الممسك برأس فرسه ليركبه بسرعة من غير لجام؛ ومعموله محذوف، أي بناصية فرسه. عن شعر عمرو، المصدر نفسه، ص. 194. وقد أورد المحقق أقوالاً هامة حول نسبة هذا البيت في الصفحة المذكورة.

(2) شرح ديوان الحماسة، مصدر سابق، ج 1، ص. 29.

(15164/1)

... 2) شَرَح المعنى والصورة الفنية: يقول المرزوقي عن حماسية شَهْلِ بْنِ شَيْبَانَ:

مَشَيْنَا مِشْيَةَ اللَّيْثِ

بِضَرْبٍ فِيهِ تَوْهِيـ

غَدَا واللَّيثُ غَضْبَانُ

ـنٌ وَتَخْضِيعٌ وإِقْرَانُ

... »فيقول: سَعَيْنَا إليهم مِشْيَةَ الأَسَدِ ابتكر وهو جائع، وكَنَى عن الجوع بالغضب لأنه يصحبه. وهذا التشبيه قد أخرج ما لا قوّة له في التصوّر إلى ما له قوة فيه«(1).

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص. 36؛ وانظر مثلاً لذلك أيضاً في شرحه، ج 1، صص. 63 ـ 64.

(15165/1)

... نلاحظ هنا أن المرزوقي أبرز صورة الأسد الغاضب عن طريق الجوع الذي هو دافع لسفك الدماء، ثم قارن فعل الأسد في ذلك بفعل الفرسان المحاربين الذين يتجهون صَوْبَ أعدائهم لسفك دمائهم.

... لقد وضح المرزوقي هنا دور التشبيه في إبراز الصفة المشتركة بين الصورتين »صورة الأسد وهو يتجه إلى الفريسة، وصورة الفرسان وهم يتجهون إلى الأعداء«،

بالرغم من اختلاف جنسيهما. ثم قال عن شرح البيت الثاني:

... تعلق البَاءُ منه بمَشَيْنَا، أي مَشَيْنَا بِضرب في ذلك الضرب تضعيف للمضروب به، وتذليلٌ ولينٌ. ويجوز أن يكون المعنى:

(15166/1)

فيه تَوهين وصَوْتٌ في القَطع وكسرُ العِظام وإِطَاقَةٌ وقُوَّةٌ. ويكون حينئذ »تَخْضِيعٌ«، من الخَضْعَةِ والخَضِيعَةِ، وهما اختلاط الصوت في الحرب (1).

... لقد شرح المرزوقي البيت الثاني شرحين، اعتماداً على دلالة الألفاظ وقد أبرز في الشرح الثاني علاقة أصوات الكلمة بدلالتها. فالضرب الذي يحدثه المحارب بسيفه في عظام الأعداء، فيكسرها يتجاوب مع ضربات المحاربين الآخرين وأصواتهم، وهو يدل على طاقة فرسان قبيلة الشاعر وقوتهم؛ كما يدل على إذلال الأعداء ولِينهم.

---

(1) المصدر نفسه، ص. 36.

... 3) شَرحَ المعنى عن طريق ضرْبِ المثل: يقول عن البيت التاسع من الحماسية الثانية، وهي لشَهلِ بن شَيْبَانَ:

وَفِي الشَّرِّ نَجَاةٌ حيـ

ـنَ لاَ يُنْجِيكَ إِحْسَانُ

... كأنه يريد: »وفي الإساءة مَخْلَصٌ إِذَا لَمْ يُخَلِّصْكَ الإحسان«. وهذا مثل قولهم: »الطَّعْنُ يَظْأَرُ«، أي يَعْطِفُ؛ وكما قال زهير:

وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزِّجَاجِ فَإِنَّهُ

مُطيعُ الْعَوَالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ(1)

---

(1) الزُّجُّ: الحديدة التي تركب في أسفل الرمح؛ والسِّنَانُ يُرَكَّبُ في أعاليه. والزُّجُّ تُرْكَزُ به الرمح في الأرض، والسِّنَان يُطعن بِه. (اللسان، »زجج« طبعة بولاق).
اللَّهْذَم: الماضي.

(15168/1)

... وهذا الكلام يجري منه مجرى الاعتذار مما أَجْرَى إليه مع القَوْمِ فاعْلَمْهُ، ويقولون أيضاً »مَن لم تُقَوِّمْهُ الكَرَامَة، قَوَّمَتْهُ الإِهانة «(1).

... نرى المرزوقي هنا يشرح مضمون البيت عن طريق ضرب الأمثال التي تتضمن حكماً مستخلصة من واقع العرب الحربي الذي يعتمد على سيادة القوة: »قال أبو عبيد: من أمثالهم في الإعطاء من الخوف قولهم: "الطَّعْنُ يَظْأَرُ"، أي يعطف على الصلح. تقول: إذا خافك أن تطعنه فتقتلَهُ، عَطَفَه ذلك عليك فجَادَ بماله للخوف «(2)

---

(1) شرح ديوان الحماسة، مصدر سابق، ج 1، ص. 38.

(2) اللسان، »ظأر «، طبعة بولاق.

(15169/1)

.

... ونراه يقرن المثل النثري بمثل شِعْريّ استخلصه من بيت زهير بن أبي سلمى الذي يقول فيه ما معناه:

... إن الزُّجَّ ليس يُطْعَنُ به، إنَّما يُطْعَنُ بالسِّنَانِ. فمن أبَى

الصُّلْمَ وهو الزُّجُّ الذي لا يُطْعَنُ به، أطَاعَ العوالي وهي التي يُطْعَن بها... قال خالد بن كلثوم: كانوا يستقبلون العَدُوَّ إذا استقبلوهم وأرادوا الصلح بأَزِجَّةِ الرماح؛ فإن أجابوهم إلى الصُّلم، وإلا قلبوا عليهم الأَسِنَّةَ وقاتلوهم (1).

---

(1) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، 1944، ص. 31.

(15170/1)

... يلاحظ هنا أن المرزوقي قد اتَّبع الناحية التَّعليمية في شرحه: فقد شرح مضمون البيت شرحاً واضحاً، ثم عقَّب على ذلك بضرب الأمثال. وهذا في حد ذاته شرح آخر لمضمون البيت.

... والأمثال التي جاء بها لتأكيد مضمون البيت منها ما يعتمد على كلمتين »الطعن يظأر« ويلخص تجربة شائعة ومنها ما يعتمد على بيت شعري يلخص الحكمة نفسها التي عبر عنها المثل النثري، ثم يضيف إلى ذلك مثلاً آخر. ولعله مستمد من الأخلاق الشائعة مثل ما نجد عندنا في المثل المغربي »الحُرْ بَالْغَمْزَة والعَبْد بَالدَّبْزَة«.

(15171/1)

... ثم يضيف إلى ذلك تحليله للدافع الذي دفع الشاعر إلى سلوك مثل هذا الفعل مع القوم الذين حاربهم، وهو أنه حاول الصفح عنهم حتى يرجعوا إلى ما كانوا عليه من ودّ وإخاء، ولكنهم أبوا ذلك واستمروا في إظهار الشر. وحينئذ لجأ إلى المقابلة بالمثل.

... 4) وضَّح القضايا البلاغية المتعلقة بالمعنى واللفظ: فقد أشار في شرحه لأبيات "الحماسة" إلى ما تحتوي عليه من مقابلة(1) وتقييد بعد إطلاق، وتخصيص بعد تعميم(2)، واستعارة(3)

---

(1) شرح ديوان الحماسة، مصدر سابق، ج 1، ص. 41.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص. 42.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص. 59.

(15172/1)

، وطباق(1)، وكناية(2)، والتفات(3).

... أما الخصائص العامة التي نجدها عند ابن سِيدَة في "شرح مشكل أبيات المتنبي"، فيمكن حصرها في

الجوانب التالية:

... 1) التعمق في شرح مضمون أبيات المتنبي، وذلك بوضعها في إطار الشعر العربي الذي تلتقي معه من جهة، ثم عرضها على واقع التجربة الإنسانية لبيان مدى صدقها أو افتعالها من جهة أخرى. وهذا مثال يوضح ذلك قال المتنبي:

أَحْيَيْتُهَا والدُّمُوعُ تُنْجِدُنِي

---

(1) **المصدر نفسه، ج** 1، **ص.** 27 ـ 30.

(2) **المصدر نفسه، ج** 1، **ص.** 36.

(3) **المصدر نفسه، ج** 1، **ص.** 63.

(15173/1)

شُؤُونُها والظَّلَامُ يُنْجِدُهَا

... أحييتُها: يعني الليالي. تُنجدني: تُعينني. والشُّؤون: مجاري الدَّمْع... أي: أحييت الليالي بالسَّهَر والبكاء. ومعنى البيت: إنّ شأن الدمع أن يخفِّف الحزن، كقول البحتري:

إنَّ الدموعَ هي الصَّبابَةُ فاطَّرِحْ

بعضَ الصَّبَابَة واستَرحْ بِهُمولها (1)

... وهذا كثير في أشعار العرب، وهو عندنا موجود بالمشاهدة. فكأن الدمع يُعينه على طول الليل، وإعانة الدمع للمحزون على الحزن ليلاً أَجْدى من إعانته عليه

---

(1) الهُمُول والهَمْل والهَمَلاَن: السَّيَلان. (اللسان، »همل«).

(15174/1)

إيَّاه نهاراً، لأن المحزون يتسلَّى نهاراً بما يتأمَّلُه وينظر إليه، والظلام يقصُر الطَّرْفَ عمَّا يتشاغل به المحزونُ نهاراً؛ فيفزع الحزين عند ذلك إلى الدمع لا يجدُ مُعيناً غيره (1).

... 2) الاستعانة في هذا الشرح بالمنطق والبلاغة:

... قال المتنبي:

يَا لَيْتَ بِي ضَرْبَةً أُتِيحَ لَها

أَثَّرَ فِيهَا وَفِي الحَدِيدِ وَمَا

كما أُتِيحَتْ له محمَّدُهَا

أَثَّرَ في وَجْهِهِ مُهَنَّدُهَا

---

(1) شرح مشكل أبيات المتنبي، مصدر سابق، ص. 31.

(15175/1)

... معنى إتاحة الضربة له حلولُها به. ومعنى إتاحة محَمَّدٍ لها نُبُوُّها عنه واحتمالُه لها وتأثيره فيها بزعمه. أَثَّر في الشيء: غادَرَ فيه أثراً، ولا يكون التأثير إلاّ في الجواهر؛ كقولك: أَثَّرَ المطَرُ في الحَائِطِ.. وأَثَّرَ المَرَضُ في جسمه، ولا يكون ذلك في العَرَض. وقد اقتسم قوله: »أَثَّرَ فيها وفي الحديد« جوهراً وعرضاً. أما الجوهر، فالحديد؛ والتأثير فيه سائغ. وأما الهاء في قوله »فيها«، فَعَرَضٌ لأنها كناية عن الضربة التي في قوله:

يَا لَيْتَ بي ضَرْبَةً أُتِيحَ لها

(15176/1)

... وإنَّمَا لم يصح التأثير في العرض لأن التأثير إبقاء الأثر، والأَثَرُ عَيْنٌ، والعينُ لا يكون إلا في عين مثله، أعني بعين الجوهر، إذ لا يحمل الجوهرَ إلا جوهرٌ. وأما العرض، فليس بعين فيكون حاملاً لعَيْنٍ آخر. فإذن قوله »أثَّرَ فيها« استعارة ومجاز غريب كأنه توهَّم الضربة عيناً، بل هو عندي أبلغ لأنه إذا أمكنه التأثيرُ في العَرض كان له في الجوهر أَمْكَنَ، لكنه ـ مع ذلك ـ قولٌ شِعْرِيٌّ، أعني أنه ليس بحقيقة(1)

---

(1) شرح مشكل أبيات المتنبي، صص. 32 ـ 33؛ وانظر في ما يقرب من هذا المعنى، ص. 86؛ وانظر في استعانته بالمنطق، ص. 58، 61، 67، 77، 79، 80.

(15177/1)

.

... يحاول ابن سِيدَة هنا أن يطبق بعض أدوات المنطق في تحليله لبيتي المتنبي، فيستعمل »الجوهر« للدلالة على الحديد، لأن التأثير فيه سائغ بخلاف العَرض الذي هو كناية عن الضربة التي أثر فيها محمد، أي أنه إذا قلنا إن ضربة »محمد« قد أثرت في الحديد فهذا سائغ،

ولكننا إذا قلنا إن محمداً قد أثر فيها، أي في الضربة، فهذا عرض.

... يفرق ابن سِيدَة هنا بين القول الحقيقي الذي يتطابق مع المألوف وبين القول الشعري الذي يعتمد على الاستعارة والمجاز فيخرق المألوف.

(15178/1)

... 3) اعتماده على التأويل: وهذا ناتج عن تأثره بالمنطق وبالكُتَّاب الذين سلكوا قبله هذا المنهج مثل المرزوقي. ونراه في هذا الجانب يستقصي الاحتمالات الممكنة لمضمون البيت. يقول المتنبي واصفاً غيبة الأمير المجهول الذي كان يُخْطَبُ له على المنابر بحمص أيام ولايته إياها، فأُزيل عنها (1):

قد اشْتَكَتْ وَحْشَةَ الأَحيَاءِ أَرْبُعُهُ

وخَبَّرْت عن أَسَى الموتَى مَقَابِرُهُ

---

(1) شرح مشكل أبيات المتنبي، مصدر سابق، ص. 56.

(15179/1)

... الهاء في »مقابره« للبلد ذاك.. أي تَوَحَّشَ إليه الأحياءُ. وهذا ممكن. والأمواتُ. وهذا غير ممكن. لكنه بالغ بالموتى وأفرط بقوله: إنَّ المقابرَ مُخْبرةٌ عن أسى الموتى. فالنصف الثاني أَعْلَى من الأول لأنّ الأحياء قد يتوحَّشُون، وإن كان فيه غُلُوٌّ أيضاً، لإِسْنَادِهِ الشَّكْوَ إلى الأَرْبُع وكأَنَّ الأَربُع إنَّمَا اشتكتْ رِقَّةً لما تراه من تَوَحُّش أهلها، وبُعْداً بذلك! وإن شئتَ قلتَ: خَلَت الأَرْبُعُ بعد الأمير من سُكَّانِهَا فتَشَكَّتْ توحُّشَهَا إلى الأحياء، والأول أولى لِيُطَابِقَ إسْنَاد

(15180/1)

الأسَى إلى الموتى (1).

... نستخلص مما سبق أن شروح الشعر تتميز بميزتين أساسيتين:

... 1) شروح تقليدية تلقفت الشروح التي كانت سائدة قبلها فتبعتها وردَّدت ما فيها، أي أنها شروح تهتم بالرواية والنقل لأنها كانت تعتقد أن الرواد الأوائل مثل الأصمعي والمفضل الضبي والمبرد وابن الأنباري ومن لفَّ لفهم كانوا قد أرسوا مدلولات الألفاظ التي تتعلق

بشرح الشعر القديم وروايته. ولذلك نرى أصحاب هذا الاتجاه يسلكون سَنَنَ الذين

---

(1) المصدر نفسه، ص. 57؛ وانظر في التأويل أيضاً، ص. 59، 61 ـ 64، 68، 70، 77، 80، 90.

(15181/1)

قبلهم، وذلك بالرجوع إلى كتبهم كما نرى مثلاً في "شرح ديوان الحماسة" للأعلم الشنتمري (ت 476 هـ) الذي رجع إلى شروح الحماسات التي كانت قبله(1).

... 2) شروح تتميز بأنها تلتقي مع الشروح التي أشرنا إليها آنفاً في جانب، وهي التعرض للجوانب اللغوية والنحوية والصرفية بإيجاز وبالقدر الذي يُسهم في فكّ مستغلقات النص، ثم تنتقل إلى إيراد مضمون البيت نافذة إلى كل المعاني المحتملة التي قد يتضمنها البيت حيث تتعرض للجوانب النقدية وأدوات التخييل

---

(1) تجلي غرر المعاني...، المصدر نفسه، وهو حماسة الأعلم، ج 1، ص. 3.

(15182/1)

التي يحتوي عليها النص من تشبيه واستعارة وكناية ونزعات نفسية حتى يستطيع المتلقي تمثلها؛ ويمثل هذا الجانب المرزوقي في شرحه لـ"ديوان الحماسة" الذي له منهج فذ في شرح الشعر القديم، حيث يضع النص في إطاره العام، ثم يتعرض للقضايا اللغوية والنحوية والعروضية التي يحتوي عليها النص بإيجاز وبالقدر الذي يسهم في فكّ طلاسم النص، ثم يحاول إيراد مضمون البيت في شكل تأويلات وكأنه لم يقنعه التأويل الأول فيتبعه بالثاني والثالث وهكذا حتى يُدرك أنه قد استفرغ كل ما في تصوره من ذكر الاحتمالات المختلفة للبيت، والتي

(15183/1)

تُستنتج من الكلمة في علاقتها مع الكلمات الأخرى داخل النص.

(15184/1)

نفض غبار النسيان عن بعض أمجاد شعب تتارستان ... ... الدكتور عبد الرحيم العطاوي

... ... كلية الآداب – الرباط

... لم يبق في ذاكرة الناس حول تاريخ المغول والتتار سوى الحروب وما تسببت فيه فئة منهم من خراب قضى على العديد من الحضارات في أجزاء كثيرة من أوروبا الشرقية وآسيا عامة وفي العالم العربي الإسلامي خاصة . غير أن الناس ينسون (ومنهم من يتناسى) أن هؤلاء المغول والتتار الذين كانوا في بدايتهم أعداء للإسلام صاروا بعد اعتناقهم هذا الدين دعاة له وأشد المتحمسين لنصرته ، وينسى

(15185/1)

الناس كذلك أن هذين الشعبين استطاعا فيما بعد تشييد دول كان لها شأن حضاري عظيم في الهند وآسيا الوسطى وفي عدد من المناطق الموجودة ضمن جمهورية روسيا الفيدرالية ...

... يصبو هذا المقال المتواضع إلى :

... 1 – إزالة بعض من غبار النسيان عن الشعب التتاري المسلم والتذكير بعدد من ... بطولاته في كفاحه الطويل من أجل الحفاظ على هويته الدينية والثقافية .

... 2 – التذكير بالمفكر التتاري الشيخ أبي نصر الكرساوي الذي كان سباقا إلى التفكير ... في وضع

برنامج إصلاحي للتعليم و إلى نهج سياسة تجديدية إسلامية ، وذلك في

(15186/1)

... مطلع القرن التاسع عشر .

... 3 – التذكير بأن الطباعة بالحروف العربية لعبت دورا كبيرا عند مسلمي روسيا ... عموما والتتار خصوصا منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر وأن المطابع العربية في ... قازان وسان بيترسوبرك وغيرهما من المدن الروسية طبعت طيلة القرن التاسع عشر ... مئات الآلاف من الكتب الدينية وغيرها باللغتين التتارية والعربية ...

... يرجع تاريخ دخول الإسلام إلى عدد من المناطق المجودة حاليا ضمن جمهورية روسيا الفيدرالية إلى فترات زمنية متفرقة كانت أولاها حين تم فتح بلاد الداغستان في جبال

(15187/1)

القوقاز من قبل الجيش الإسلامي عام 22 هجرية في خلافة عمر بن الخطاب ، وتلتها فترات أخرى امتدت حتى القرن التاسع عشر الميلادي وكان الدين الإسلامي ينتشر خلالها في مختلف الجهات عن طريق الدعاة من علماء وتجار وغيرهم ...

... وإذا كانت الأقليات المسلمة تعيش في معظم جهات البلاد فإنها تتوفر حاليا على الجمهوريات وولايات ذات استقلال ذاتي خاصة بها . وقد أقيمت مناطق الحكم الذاتي هذه في تراب جزء من الموطن الأصلي لتلك الأقليات (1)

---

(1) للمزيد من المعلومات حول تاريخ الشعوب المسلمة في روسيا ، انظر على الخصوص :

A .Benningsen , et Lermercier - Quelquejay , les Musulmans Oubliés - L'Islam en Union Soviétique , Petite collection Maspéro , Paris 1981 ; A .Benningsen , et Lermercier - Quelquejay , Les Mouvements bationaux chez les Musulmans de russie , Mouton , 1960 ; Amir , Tahari , Islam / U.R.S.S La révolte de l'islam en U.R.S.S , éd Tsuru , Paris 1989 .

محمد السيد غلاب وحسن عبد القادر صالح ومحمود شاكر ، " البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر

" ، الرياض ، 1979؛ عبد الرحيم الرحيم العطاوي ، "
الدراسات العربية في روسيا ، كراتشكوفسكي
نموذجا " أطروحة لنيل دكتوراه الدولة ، كلية الآداب
عين الشق ، جامعة الحسن الثاني ، الدار البيضاء ، 1993 (
مرقونة) ، انظر الجزء الأول على الخصوص .

(15188/1)

.

... شرع في إحداث هده الجمهوريات والولايات مباشرة
بعد تأسيس الاتحاد السوفياتي . وكان جوزيف ستالين
بوصفه آنداك المندوب السامي (أي الوزير) المكلف
بتدبير شؤون الشعوب والأقليات هو الساهر على تنفيذ
هذه السياسة التي كانت تبدو ظاهريا أنها تسير في
اتجاه ترقية الشعوب والدفاع عن مصالح الأقليات ، غير
أنها كانت في باطنها تهدف إلى تشتيت شمل أهم تلك
الأقليات وهم المسلمون . وهكذا تم تقسيم القومية
التتارية إلى عدة جمهوريات وولايات ، نذكر منها على
الخصوص : جمهورية تتارستان وجمهورية باشكيريا
وجمهورية ماري

(15189/1)

وجمهورية أودمورتيا وجمهورية موردوفيا وجمهورية تشوفاشيا ... وقد تفنن " العلماء " في البحث عن كل ما من شأنه أن يعمق الفوارق بين هذه " الجمهوريات " الجديدة في مجالات التاريخ واللغة والأدب الشعبي والاجتماع والانثوغرافيا ... وتم تدوين نتائج هذه " الأبحاث " وترويجها على ... نطاق واسع في المؤسسات التعليمية والثقافية والإعلامية . ولم يقتصر ستالين على تفكيك القومية التتارية وحدها بل سلك نفس النهج في جبال القوقاز وسيبريا وجهات أخرى من البلاد ... وشكلت نهاية الحرب العالمية الثانية أوج عداء ستالين للمسلمين

(15190/1)

واضطهادهم حين أقدم على ترحيل عدد من الشعوب المسلمة برمتهم من أوطانهم وتشتيتهم في مناطق نائية وخاصة في سيبيريا وآسيا الوسطى بتهمة التعاون مع الجيش الألماني . وهذا ما حصل للشيشانيين والأنكوشيين والباكادريين وتتار القرم الذين فقدوا الآلاف من إخوانهم خلال عملية الترحيل ، ومنهم من لم

يستطع حتى الآن الرجوع إلى وطنهم رغم القرارات الرسمية التي برأتهم ، بعد موت ستالين ، من جميع الاتهامات الموجهة إليهم ، ولا يزال شعب تتار القرم يعيش هذه المأساة (1)

_____

(1) انظر : A . Benningsen , ... , Les Musulmans oubliés ... , P : 171

(15191/1)

...

)))

... تضم جمهورية روسيا الفيدرالية حاليا عددا من الجمهوريات والولايات ذات الاستقلال الذاتي التي أخذت تمارس حقوقها الدستورية بشكل طبيعي بعد سقوط النظام السوفياتي . وإذا كانت الولاية لا تتوفر إلا على حق استعمال لغة أهل البلد في مجالي التعليم والإدارة (بإزالة اللغة الروسية) فإن الجمهورية تتمتع بصلاحيات واسعة نسبيا في تسيير شؤونها الداخلية وخاصة منها تعلق بالسياسة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ... غير أنها لا تستطيع الانفصال عن الجمهورية " الأم " أي روسيا الفيدرالية التي تحتفظ بحق

(15192/1)

تسييير شؤون السياسة الخارجية والدفاع . وأهم مناطق الحكم الذاتي الإسلامية حاليا هي : جمهوريات تتارستان وباشكيريا وداغستان والشيشان وإنكوشيا وكابارديا – بلكاريا ، وولايات الأدغيين وقرتشاي والشراكسة ...

... إن الغزو الروسي لهذه المناطق كان تدريجيا واستمر أزيد من أربعة قرون . فبعد تحررها من الحكم المغولي – التتاري الذي دام زهاء قرنين ونصف القرن (من 1240 إل1480 م) استطاعت الدولة الروسية الفتية بقيادة " إيفان " الرابع ، المشهور باسم " إيفان كروزني"، أي الرهيب ، أن تحتل مدينة قازان وهي عاصمة تتار

(15193/1)

الفولكا . ولقد تمكن الورسيون من تحقيق انتصارهم هذا وانتصارات أخرى فيما بعد بفضل توفرهم على الأسلحة النارية التي استعملوها لأول مرة في المنطقة(1) . وقد شكل سقوط قازان نقطة تحول سياسية ودينية وثقافية في غاية الأهمية بالنسبة لشعوب المناطق

الموجودة شرق وجنوب روسيا ذلك أن هذه المدينة كانت بمثابة مفتاح لتلك المناطق برمتها، كما أنها كانت أهم مركز اقتصادي وثقافي وروحي لشعب التتار . يقول

---

(1) ف ، بارتولد " تاريخ الحضارة الإسلامية " تؤجمة حمزة طاهر ، دار المعارف ، مصر ،1996 (الطبعة الرابعة) ، ص : 147 .

(15194/1)

عنها المؤرخ الروسي " فيرسوف" : " كانت مدينة قازان مركزا ثقافيا مهما يعيش في رخاء...وبعد احتلالها تم القضاء على تراث قديم جمعه منذ قرون كل من التتار والبلُغار..." (1)

---

(1) ن ، فيرسوف ، " ماضي تتاريا " قازان ، 1926 ، (بالروسية) ، ص . 25 تجدر الإشارة إلى أن الُبلغار هم من أصل تركي اعتنقوا الإسلام في القرن التاسع الميلادي وكانوا يقطنون بلاد التتار الحالية بجوار نهر الفولكا ، ولقد وصفهم أحمد ابن فضلان ، مبعوث الخليفة العباسي المقتدر إليهم في " رحلته " التي نشرت في بيروت ، انظر : رسالة ابن فضلان في " وصف الرحلة إلى بلاد الترك

والخزر والروس والصقالبة عام 309 هـ – 921 م " ، حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور سامي الدهان ، بيروت 1987 ، (الطبعة الثانية) .

وكانت بعض قبائل البلغار قد نزحت في القرن السابع الميلادي إلى المنطقة المعروفة حاليا ببلغاريا وامتزجت كليا مع القبائل السلافية المحلية وفقدت جميع الصلات اللغوية والحضارية مع أبناء عمومتهما – بلغار الفولكا .

(15195/1)

والغريب في الأمر أن هذا الحدث التاريخي لم ينل من لدن الباحثين المسلمين ما يستحقه من عناية ، ذلك أن سقوط قازان في أقصى الشمال الشرقي من أوروبا لا يقل أهمية ، على الصعيدين السياسي والديني ، عن سقوط غرناطة في أقصى الجنوب الغربي من أوروبا نفسها قبل ستين سنة (1) .

... ولقد تبع الغزو العسكري احتلال منظم للأراضي التتارية، وأبعد المسلمون من قازان ومن جميع الأراضي الخصبة التي تم توزيعها في بداية الأمر على المعمرين الروسيين ثم على الأديرة وأسقفة قازان ...واستمر زحف

---

(1) 77Amir Taheri , Islam/U.RSS, ..., P

(15196/1)

المعمرين إلى هذه المناطق خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . وهكذا أصبح عددهم في مطلع القرن التاسع عشر يمثل نسبة 52٪ من مجموع السكان (1) . وكان التتار المبعدون من وطنهم يتوجهون صوب جبال " أورال " وجبال القوقاز وسيبريا وتركستان ...ورغم الحياة القاسية التي كانوا يعيشونها في تشردهم فإنهم كانوا يعملون دوما على نشر الدين الإسلامي في المناطق التي كانوا يلجؤون إليها ...

---

(1) ن . فيرسوف ، " ماضي تتاريا ..." ص . 25 .

(15197/1)

... بإزاء احتلال الأرض كان النظام القيصري ينهج تجاه السكان الأصلين سياسة " التذويب " أو القضاء التام على ما تبقى من ملاكي الأراضي من التتار بإصدار العديد من المراسيم للتضييق بهم وإرغامهم على ترك ممتلكاتهم ، أما الخطة الثانية فكانت تسعى إلى تنصير المسلمين بشتى الوسائل . ولقد أخذت هذه الحملات بعدا جديدا في

عهد " بطرس " الأول (1672 – 1725) ، ففي سنة 1720 تقرر إعفاء كل من تنصل من التجنيد ومن أداء الضرائب لمدة ثلاث سنوات ...

(15198/1)

... تزايد الإظطهاد بشكل مثير للإنتباه في عهد الإمبراطورة " أنّا" (1693 – 1740) . ففي سنة 1731 أحدثت " مؤسسة المنضرين الجدد" التي ظلت تعمل طيلة 33 سنة على إرغام الناس بشتى الوسائل على الدخول في النصرانية . ولقد قام أسقف قازان في الفترة ما بين 1738 و 1755 بهدم ما لايقل عن 418 مسجدا من بين ال 536 التي كانت توجد

بالمنطقة(1).لكن نتائج هذه الحملات كانت هزيلة باعتراف المؤرخين الروسيين

---

(1) A.Benningsen...., Les Mouvements nationaux ...,P.23.

(15199/1)

أنفسهم (1).بعد أزيد من قرنين من القمع والإضطهاد اتضح جليا أن المسلمين لن يستسلموا وأنهم لا يزالون متشبثين غاية التشبث . وكان ذلك إبان حكم الإمبراطورية " كاتيرينا " الثانية ، ومن بين الإصلاحات التي طبقت نذكر على سبيل المثال :

... 1 – إغلاق " مؤسسة المنصَّرين الجدد " .

... 2 – السماح للمسلمين بالسكنى في كافة المدن والقرى التتارية وتشييد مسجدين اثنين في قازان .

... ثلاث سنوات بعد هذه الإجراءات صدر مرسوم إمبراطوري يمنح بمقتضاه المسلمون الحرية الدينية المطلقة في جميع أرجاء البلاد

---

(1) نفسه ،ص .27 .

(15200/1)

بما في ذلك حرية بناء المساجد والمدارس الددينية ، وعُين عام 1782 مفتي مسلمي روسيا وأسِّست " الجمعية الروحية للمسلمين " سنة 1788 (1)

... ولابد من الإشارة كذلك إلى أن عهد الإمبراطورية " كاتيرينا " الثانية شكل بالنسبة للمسلمين فترة انفراج واسع وتفتح كبير . وتزايد في ذلك العصر

اهتمام مختلف الأوساط الثقافية الروسية بالشرق عامة والشرق العربي الإسلامي خاصة ، ففي عام 1782 صدر مرسوم يقضي بتعليم اللغة العربية بجانب اللغتين التتارية والفارسية في الأقاليم الإسلامية من البلاد ، وتم إدخال

---

(1) نفسه ، ص .27 .

(15201/1)

الحرف العربي بشكل سان بيترسبورك " بحروف عربية رائعة حسب الاختصاصيين الأوروبيين أنفسهم " (1) . ولقد بقيت هذه الطبعة تعرف " بنسخة سان بيترسبورك " ، وانتقلت هذه الحروف فيما بعد إلى مدينة قازان ثم إلى القرم وتركيا فمصر والهند (2) . ويكون المسلمون في روسيا قد ساهموا بذلك في نشر الطباعة العربية على نطاق واسع ...غير أن الباحثين لا

---

(1) إ . كراتشكوفسكي ، " دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي " ، منشورات أكاديمية العلوم للإتحاد السوفياتي ، موسكو – لينينكراد، 1950 ، (

بالروسية) ، ص . 53 .

(2) نفسه ، ص . 58 .

(15202/1)

يعيرون ، وللأسف ، أدنى اهتمام بهذه " المرحلة الروسية الحاسمة" من تاريخ الطباعة العربية .

... وكانت الإمبراطورية " كاتيرينا " الثانية تسعى من وراء هذه الإجراءات إلى استقطاب مسلمي الجنوب والحيلولة دون تحالفهم مع الأتراك العثمانيين ، وهم إخوانهم في الدين وفي اللغة في كثير من الأحيان ، كما أنها كانت تسعى إلى إدخال روسيا أسواق آسيا المسلمة التي كانت محرمة على غير المسلمين والتي لم يكن يستطيع التعامل فيها سوي التتار المسلمين من مجموع سكان الإمبراطورية الروسية .

(15203/1)

... وهكذا أصبح رؤساء القبائل التتارية وسطاء يصدرون الصناعة الروسية الفتية إإلى هذه المناطق ويستوردون منها المواد الأولية ومنتوجات إمارات التركستان (1)

...ومُنح هؤلاء الوسطاء جميع التسهيلات لتمكنهم من النجاح في أعمالهم الجديدة . فتشكلت بالتالي طبقة مهمة من التجار التتاريين الذين صار لهم نفوذ في مجموع الدولة الروسية الواسعة الأطراف.وسرعان ما ظهرت نتائج الانفتاح والإصلاحات التي قامت بها " كاتيرينا " الثانية.فلقد رجع " المنصَّرون" إلى الدين

---

(1) A.Benningsen,...Les Mouvements nationaux .28...,P.

(15204/1)

الإسلامي وقامت نهضة ثقافية إسلامية عارمة استمرت أزيد من قرن ونشطت خلالها المطبعة العربية التي أنتجت كميات هائلة من الكتب الدينية وغيرها بلغات المسلمين المحليين وباللغة العربية .

وحسب بعض الإحصائيات فإن مطبعة قازان وحدها طبعت في الفترة الممتدة ما بين 1853 و1859 أزيد من 362.700 نسخة من القرآن الكريم ومن مختلف الكتب الدينية ، كما أنها أصدرت خلال عشر سنوات (من 1854 إلى 1864) أزيد من مليون كتاب (1) ...

(1) نفسه ، ص . 25 .

(15205/1)

... وكان من نتائجج هذه النهضة كذلك أن البورجوازية التتارية أصبحت مع مطلع القرن العشرين تتزعم مجموع الحركات الوطنية الإسلامية داخل الإمبراطورية الروسية إلى أن جاءت الثورة السوفياتية ، فاقسم المسلمون تجاهها . فكان هناك من حارب النظام الجديد بشدة وهناك من آزره لأنه كان يعتقد مخلصا (ومخطئا) أن الثورة سوف تمنحه الحرية المنشودة منذ القدم . وكان من أبرز ممثلي التتار الثاني التتاريان نورحيدوف وسلطان علييف اللذان ترأسا " اللجنة التتارية الاشتراكية المسلمة " وبعدها ما كان يعرف ب " حركة الشيوعيين

(15206/1)

المسلمين " . ولقد تقلد سلطان علييف مناصب عالية في جهاز الدولة السوفياتية منذ إنشائها إلى غاية 1923 وهي السنة التي " اختفى " فيها بعدما ألقى ستالين

القبض

عليه (1) ...

... نعود إلى مسيرة النهضة الثقافية الإسلامية لنشير أنه حصلت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر منافسة قوية بين البورجوازية التي توفرت لديها إمكانيات جديدة في الإنتاج والمواصلات والبورجوازية التتارية التي لم تتح لها فرصة الإستفادة من تلك الإمكانيات . فتدخلت السلطات

---

(1) ع . العطاوي ، " الدراسات العربية في روسيا ..." ، ص 208 – 209 .

(15207/1)

المركزية للدفاع عن المصالح الروسية ، ولم تتردد في الرجوع إلى أساليب القمع القديمة وسياسة التنصير التي ترأسها أحد المستشرقين وهو "إيلْمِينْسْكي" الذي أسس " المدرسة المركزية للمعلمين التتار المنصّرين" وعددا آخر من المدارس المماثلة لها . وكانت خطته التي تبنتها الشلطات الإدارية رسميا عام 1870 تسعى إلى تحقيق هدفين اثنين ، أولهما تكوين طبقة من المثقفين المحليين مكونة من المنصَّرين وحدهم ، لأنه ،

حسب إيلْمِينْسْكي "لا يوجد خطر بالنسبة لروسيا أكبر من خطر المسلم المثقف ! " ، أما الهدف الثاني فكان يتمثل

(15208/1)

في إحداث ما اصطلح على تسميته آنذاك باللغات الأدبية لشعوب المنطقة واستبدال الحروف العربية لكتابتها بالحروف السلافية ، وذلك قصد القضاء على كل تأثير ثقافي وديني (إسلامي) في حياة هذه الشعوب (1) . وتجندت الكنيسة كذلك للقيام بحملات مناهضة للإسلام .لكن الأمور سرعان ما تغيرت مرة أخرى لصالح المسلمين بفضل تصديهم المنظم والمحكم لهذه السياسة في جميع ربوع الإمبراطورية .

---

(1) لقد تبنى ستالين فيما بعد هذه السياسة وطبقها بالفعل .

(15209/1)

... ولقد كان لهذه الحملات المعادية للإسلام أثر عميق في نفوس المسلمين ووقفت النخبة المثقفة المسلمة في

كثير من الأحيان وقفة رجل واحد لتدافع عن حقوقها القومية ولتتصدى للخطر الذي كان يتربص بالشعب التتاري ويهدف إلى " ترويسه " وتنصيره والقضاء على هويته بصفة نهائية (1)

---

(1) توجد عدة كتب مخطوطة تعرض للأحوال القاسية لحياة المسلمين في روسيا القيصرية نذكر منها على الخصوص كتاب " أحوال المسلمين في الممالك الروسية " ، وهذا المخطوط يوجد في ملحقة مكتبة معهد الإستشراق بسان بيترسبورك ، رقمه A 1219. ويرجع تاريخ هذه المخطوطة التي يجهل مؤلفها إلى عام 1902 . وقد كتبت باللغة العربية في مدينة قازان .

(15210/1)

.

... ولقد كتب المفكر التتاري علم جان إبراهيموف عن موقف ومشاعر المسلمين تجاه السياسة القيصرية : " إن السياسة القيصرية جنت من حملاتها عكس ما كانت تصبوإليه : فعوض استقطاب الناس صار الناس يبغضون كل ما هو روسي ..." (1) كما أن هذه النخبة المثقفة كانت واعية منذ أمد بعيد بالخطر الذي لايكمن في

السياسة العدوانية للنظام القيصري فحسب ، بل يكمن ، ولربما كان هذا هو الأهم في التخلف العلمي والثقافي البين يتخبط فيه

---

(1) علم جان إبراهيموف ، " التتر في ثورة 1905 " قازان ، 1926 ، (الترجمة الروسية) ، ص . 27 .

(15211/1)

المسلمون . غير أنه ومنذ مطلع القرن التاسع عشر بدأت تظهر بوادر حركات إصلاحية تصبو إلى التخلص من جميع أشكال التخلف . وكان الشيخ أبو نصر الكَرْسَاوي(1783–1814) سباقا إلى هذه الدعوة . لكن العلماء من معاصريه داخل روسيا وخارجها حاربوه وتسببوا له في كثير من المصاعب . وكان هذا الشيخ في بدايته أستاذا بإحدى مدارس بخارى التقليدية ، وهنا بدأ يحاول القيام بإصلاحات في ميدان التعليم الديني . فحكم عليه بالإعدام في عهد الأمير حيضر البخاري بتهمة البدعة ، ثم فرّ إلى تتارستان حيث أسس مدرسة من نمط جديد في قريته "

(15212/1)

كُرْسة " ، فاتهمه العلماء المحليون بالزندقة ، فاضطر إلى الهجرة إلى تركيا حيث توفي .

وترك الشيخ الكرساوي مؤلفا لا يزال مخطوطا عنوانه " إرشاء العباد " . وقد أنصفه وردّ له الاعتبار فيما بعد الشيخ شهاب الدين المرجاني في كتابه " تنبيه أبناء العصر بتنزيه أبناء أبي نصر " .

... وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر اتضح جليا أن التجديد والتقدم لن يتما إلا عن طريق إصلاح التعليم الديني احتفظ في شكله ومضمونه بنظامه القديم ، ويرجع سبب ذلك إلى أن الساهرين على التدريس كانوا كلهم من خريجي معاهد إمارة بخارى

(15213/1)

التي كانت تمثل آنذاك أهم مركز في آسيا الوسطى والتي لم يعرف التعليم بها أي تغيير يذكر منذ قرون .

فالبرغم من انتشار الكتاتيب والمدارس الدينية العليا وتوفر الكتب المطبوعة بما فيه الكفاية فإن التعليم في تتارستان بقي ومتحجرا ...فتعالت من جديد وبشكل مثير للانتباه أصوات تنادي بالإصلاح ، غير أن

النحافظين من العلماء حاربوا هذه الإتجاهات بقوة وعنف ، وهذا ما أدى إلى حدوث انشقاق خطير في صفوفهم ، وخرجت منهم فئتان من العلماء وهما كما اصطلح على تسميتها : أصحاب " الجديد " وأصحاب " القديم " . وكانت الغلبة

(15214/1)

للأولين الذين استطاعوا فرض آرائهم على الساحة بشعاراتهم التي كانت تنادي بالتخلي عن " العربة الأسيوية " وركوب " الآلة الميكانيكية الأوروبية " (1) .

... وهكذا بدأ عام 1880 تطبيق مشروع الإصلاح الذي قدمه إسماعيل باي (1851–1914) الذي كان يعرض أفكاره في المقالات التي كان ينشرها على صفحات جريدته "ترجمان"(2)

---

(1) . A. Benningsen ,..., Les Mouvements nationaux ..., P.36 .

(2) يستحق موضوع تاريخ الصحافة عند مسلمي روسيا أن تكرس له دراسات لما له من أقدمية وأهمية . وتجدر الإشارة إلى أن أولى جرائدهم وهي " أخبار قازان " كان من المفروض أن تصدر عام 1808 لولا اعتراض النظام

القيصري عليها . ونشير كذلك إلى أن المسلمين كانوا يصدرون من حين لآخر جرائد باللغة العربية خاصة في قازان وفي داغستان وسان بيترسبورك . ومن أهمها نذكر على الخصوص : " التلميذ " و " المرأة " ...

(15215/1)

التي كانت تصدر باللغة التتارية في مدينة " باختشي سراي " (من 1883 إلى 1905) . وكان مشروع إسماعيل باي يهدف في واقع الأمر إلى توحيد صفوف المسلمين قاطبة داخل الإمبراطورية ، وكان شعاره : " وحدة اللغة ، وحدة الفكر ، وحدة العمل " (1)

... وقد واكبت إصلاحات التعليم حركات إسلامية تجديدية على نطاق واسع زيعتبر الشيخ شهاب الدين المرجاني (2)

---

(1) . A. Benningsen ,..., Les Mouvements nationaux ..., P.39.

(2) من مؤلفات الشيخ شهاب الدين المرجاني نذكر على الخصوص : عرفة الحواكين ، " تاريخ آسيا الوسطى من القرن الرابع إلى القرن السادس الهجريين " ، قازان 1864 (باللغة العربية) ؛ " مستفاض الأخبار في أحوال

قازان وبلغار " ، قازان ، ج 1 ، 1865 ،

ج 2 ،1900 (بالتترية) ؛ " وفيات الأسلاف " في سبعة

أجزاء ، طبع منهم الجزء الأول فقط بقازان عام 1883 .

(15216/1)

(1818 – 1889) خير ممثل لهذا الاتجاه التجديدي ومتمم

العمل الذي بدأه من قبله الشيخ أبو نصر الكرساوي .

وقام الشيخ المرجاني بنشاط ثقافي مهم لإقامة الدليل

على أن لا تعارض بين الدين الإسلامي والعلوم الحديثة .

ويمكن تلخيص أفكاره حول التجديد في ست نقط ، هي :

... 1 – الاجتهاد حر بالنسبة للجميع .

... 2 – التخلي عن التقليد الأعمى .

... 3 – التخلي عن الكتب المحافظة في مجال الفكر .

... 4 – الاعتناء بتدريس القرآن الكريم والحديث

وتاريخ الإسلام .

(15217/1)

... 5 – تدريس العلوم الحديثة واللغات الأجنبية وخاصة

منها الروسية في مدارس ... ... المسلمين.

... 6 – الرجوع إلى صفاء جو الدين الإسلامي في مراحله الأولى والأخذ من منابع الثقافة ... ... الإسلامية القديمة .

... وفي ختام هذا المقال المتواضع نريد أن نركز مرة أخرى على أهمية الحركات التجديدية الإسلامية وتاريخ الطباعة العربية عند مسلمي روسيا عامة وعند الشعب التتاري خاصة . ونتمى أن ترصد لهذين الموضوعين دراسات معمقة لما كان لهما من أثر بالغ على مستقبل العالم الإسلامي برمته . ويستحق ، في نظرنا، رواد

(15218/1)

هذه الحركات أمثال الشيخ أبو نصر الكرساوي والشيخ شهاب الدين المرجاني وإسماعيل باي وغيرهم أن يهتم الباحثون بهم وبمؤلفاتهم وبنشاطهم المتنوع في ميادين الدين والتدريس والسياسة والثقافة ...

(15219/1)

نقود الأمير عبد القادر الجزائري رمز السيادة والاستقلال دراسة حضارية

(1) (2) (3) (4)

---

(1) H. Lavoix, Catalogue des monnaies musulmanes de la Bibliothèque Nationale de Paris, Vol. II, (Espagne et l'Afrique), Paris, 1891, pp. 511 -513.

(2) S. Lanepoole, Catalogue of Oriental Coins in the British Museum, Vol. V, S. London, 1880, IN 80, p. 117.

(3) S. D. Brethes, Contribution à l'Histoire du Maroc par les Recherches Numismatiques, Casablanca, 1939.

(4) Farrugia De Candia, Monnaies Algeriennes au Musée du BARDO R Tunisienne, nos. 45, 46, 57, 1941.

(15220/1)

---

(1) ... ... معهد الآثار - جامعة الجزائر

... ...

تمهيد

... بالرغم من وفرة البحوث والدراسات التي ألفت عن

حياة الأمير عبد القادر الجزائري والتي تعرضت لتاريخه قائداً، مفكراً وشاعراً ومتصوفاً، فإن معظمها قد اتجهت اتجاهاً واحداً يهتم بتسليط الأضواء على النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية والعسكرية والثقافية، ومحاولة إبراز الظروف التاريخية التي أظهرته قائداً عسكرياً محنكاً ورجل دولة من الطراز

---

(1) M. Bouchenaki, La monnaie de l'Emir Abdelkader, S. N. E. D., Alger, 1976.

(15221/1)

الأول. فإن موضوعاً من المواضيع المتعلقة بهذه الشخصية التاريخية .التي قدّر لها أن ترفع لواء الجهاد في هذه الفترة المتميزة من تاريخ الجزائر الحديث من أجل استقلال البلاد وتطهيرها من آثار الاستعمار .ما زال في رأيي يحتاج لمزيد من البحث، إذ أن النتائج التي توصل إليها الباحثون وعلماء الآثار والمختصون في علم المسكوكات فيه، ليست قاطعة.

... الموضوع هو سكة أو نقود الأمير عبد القادر التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنظم الحكم ومفهوم الملك،

والتي وصلتنا منها مجموعة هائلة هي الآن ضمن ممتلكات بعض المتاحف الوطنية

(15222/1)

والمغاربية والأجنبية. وبالرغم من أهميتها بصفتها وثائق رسمية معاصرة للأحداث التي شهدتها البلاد آنذاك، قد تساعد في تشخيص ومعرفة بعض الحقائق التي تتعلق بالفترة التي وجدت فيها، وبغض النظر عن الدور الذي تؤديه بما هي أدوات بحث، فلم تحظ بدراسة علمية وافية من قبل الباحثين، باستثناء بعض الدراسات القليلة النادرة التي نبهت الأنظار إلى هذا الموضوع الشائك واعتبرت أعمال هؤلاء الباحثين البدايات الأولى التي فتحت المجال واسعاً للاجتهاد والتعمق أكثر في دراسة نقود الأمير عبد القادر، ولكن يؤخذ عليها السطحية

(15223/1)

والعمومية، والتزامها المنهج التقليدي المعروف المبني على الوصف والاهتمام بجدولة النقود وبيان أرقامها

ونوع المعدن الذي شكلت منه، وضبط أوزانها وأقطارها ومكان وتاريخ ضربها أو إصداراتها حسب تسلسلها الزمني، دون التركيز على أهميتها الحضاريّة، انطلاقاً مما تحمله من نصوص كتابية ورموز وربطها بمسائل التاريخ، ذلك بأن النقود تعتبر ذات أهمية كبيرة بما تلقيه من أضواء كاشفة على التاريخ، ومدى ارتباطها بالنظم المالية والسياسية. هذا، فضلاً عما تقدمه من معلومات حول التطور الصناعي والفني، ومدى الاستقلال الحضاريّ

(15224/1)

للدولة التي أشرفت على ضربها(1).

... وباختصار شديد، فدراسة النقود تعد أداة فعالة في أيدي الباحثين عامة والمشتغلين بالتاريخ الاقتصادي على وجه الخصوص، باعتبارها وسيلة ضرورية في المعاملات والتبادل، ووسيلة معيارية للقيم. ذلك بأن تحديد الأوزان والمكاييل والنقود من أصعب المهام المنوطة بالتاريخ الاقتصادي، حيث لا تخفى الأهمية الكبيرة لهذه الأدوات في الحياة العامة، ولا سيما المعاملات الدينية

---

(1) محمد باقر الحسيني، »النقود مدرسة في التاريخ«، مجلة آفاق عربية، السنة الثالثة عشرة، بغداد، 1988، ص. 71 ـ 72.

(15225/1)

المرتبطة بتحديد الأنصبة الشرعية(1) (كمقدار الزكاة والدية والصداق، إلخ).

... ومهما يكن من أمر، فالذي لا جدال فيه أن دراسة نقود الأمير عبد القادر من وجهة نظر علم المسكوكات، ستكشف النّقاب عن جوانب كثيرة من حياته، وبحث الإشكاليات التي تطرحها هذه النقود، وما مدى انتشارها وتداولها، وما مركزها بين العملات الأجنبية التي شاع تداولها في عمليات البيع والشراء، وإلى أي قاعدة كان يستند نظام النقد الأميري.

---

(1) محمد الشريف، نصوص جديدة ودراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، ط 1، المهدية ـ تطوان، 1996، ص. 49.

(15226/1)

... ونتساءل عن الأسباب التي جعلت نقود إمارة الأمير عبد القادر مجردة من الأسماء والألقاب، وخصوصاً اسمه بصفته حاكماً شرعيّاً لهذه الإمارة الجديدة. فهل من خلفية تاريخية يمكن أن نفسر بها هذه الظاهرة؟ وما سبب عزوفه عن نقش اسمه عليها، علماً بأنها (أي السكة) تعد في تقاليد نظم الحكم الإسلامية، شارة من شارات الحكم، ووظيفة ضرورية للملك والسلطان.

وبالإضافة إلى ذلك، فهناك تساؤلات كثيرة تتعلق بالقاعدة النقدية المستعملة، وعدم تعدد انتشار دور الضرب، واقتصار إنتاج النقود جميعها على دار السكة بتاقدمت فقط

(15227/1)

... وهل يمكن اعتبار إصدارات دار السكة هذه تعكس المكانة القانونية للمدنية وعلاقتها بالسلطة المركزية؟

... وهي إشكالات عديدة تواجه الباحث في هذا الموضوع، وعليه أن يحاول البحث والاستقصاء والقراءة والمقابلة، لعله يتوصل إلى الإجابة الصحيحة في هذا المضمار.

... لكن ينبغي علينا قبل الخوض في مناقشة مسألة النقود الأميرية أن نتعرف طبيعتها وبيان أنواعها

باختصار شديد، لأن ذلك ييسّر عملية فهمها وتصنيفها حسب موضوعاتها وتاريخ ضربها.

أولاً: تعريف السكة

(15228/1)

... تعريف السكة من وجهة النظر التاريخية يمثلها ابن خلدون الذي يصفها بأنها:

... الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع جديد ينقش فيه صوراً وكلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم، فتخرج تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيّار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى ويعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عدداً، وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزناً . . . ولفظ »السكة« كان اسماً للطابع، وهي الحديدة المتخذة لذلك، ثم

(15229/1)

نقل إلى أثرها وهي النقوش المائلة على الدنانير والدراهم، ثم إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه، وهي الوظيفة. فصار علماً عليها في عرف الدول(1).

... وإذا كانت هذه هي السكة الإسلامية كما عرفها ابن خلدون، فإن نظام السكة في دولة تاقدمت، قام على قاعدتي الفضة والنحاس أو البرونز اللتين كان يجري التعامل بهما جنباً إلى جنب مع العملات الأجنبية المتداولة هناك

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1966، ج 2، ص. 808.

(15230/1)

... والواقع أن نقود تاقدمت انحصرت في هذين النوعين، أي النقود الفضية والفلوس بأجزائهما، وتميزا بتنوع موضوعاتها، كما اتضح من النماذج التي وصلتنا من هذه الفترة.

... وتأسيساً على ذلك، سنقوم بوصفها وتصنيفها حسب أنواعها ونصوصها الكتابية.

1 ـ النّصفية (شكل 1)

... نقود النصفية مستديرة الشكل من معدن الفضة، تتألف من كتابتين مركزتين في الوجه والظهر، تؤطرهما دائرتان أو حلقتان من خيوط معدنية رقيقة: الأولى خطية، والثانية من حبيبات متراصة تشبه حبّات اللؤلؤ، نفذت نصوصها بأسلوب الخط النسخي المغربي ذي الحروف

(15231/1)

المعجمة، بطريقة الحفر البارز، قطرها (8 و14 ملليمتر)، وزنها خفيف جداً قدّر بـ 0,40 غرام(1).

... واستعملت نقود النصفية، بالرغم من صغر حجمها وخفة وزنها بما هي وحدة نقدية، في مرونة العمليات التجارية خصوصاً البيع والشراء. هذا فيما يخص شكلها وقيمتها الشرائية؛ وبخصوص نصوصها الكتابية، نجد على الوجه كتابة مركزية من أربعة سطور أفقية تشير إلى هذا الاقتباس:

... ... 1 ـ الله

... ... 2 ـ حسبنا

---

(1) انظر عبد الرحمن الجيلالي، حول سكة الأمير عبد القادر، ص. 10.

.26M. Bouchenaki, La monnaie de..., op. cit., p.

(15232/1)

... ... 3 . ونعم

... ... 4 . الوكيل (شكل 1).

ويقرأ هذا الشعار هكذا: »حسبنا الله ونعم الوكيل«.

... وعلى الظهر كتابة مركزية أيضاً من أربعة سطور تشير إلى مكان الضرب وتاريخه.

... ... 1 . ضرب

... ... 2 . في

... ... 3 . تاقدمت (شكل 1)

... ... 4 . 1250.

... ويلفت الانتباه هنا كتابة التاريخ بالأرقام الهندية. وهذا الأسلوب في التعبير عن التاريخ ظهر مع الأتراك العثمانيين لأول مرة في تاريخ المسكوكات الإسلامية. ومنذ ذلك الوقت، أصبح تقليداً في الجزائر حتى عهد الأمير عبد القادر الجزائري.

(15233/1)

---

2 ـ نقود فضية مجهولة الاسم

... حسب مجموعة باريس، أورد هنري لافوا (Lavoix) في دليل المسكوكات الإسلامية ـ المجلد الثاني "إسبانيا وإفريقيا" ـ وصفاً مقتضباً لنقد فضي نادر يحمل رقم 1098، يعتبر الفريد من نوعه في المجموعات النقدية المعروفة حتى اليوم.

... النقد مستدير الشكل من معدن الفضة، مؤطر من الوجهين بثلاث حلقات تضم الكتابتين المركزيتين، اثنتان خطيتان، والثالثة مدبّبة، قطرها 28 ملليميتراً ووزنه 6,03 غرام. وبعد هذا، نتساءل عن الأسباب التي جعلت هذا النمط من النقود يظهر على هذه الصورة. فهل كان بمثابة

(15234/1)

نقود المناسبات أو نقود دعاوية. المهم سوف نعتمد المنهج الوصفي التحليلي المقارن في دراسة نقود الأمير عبد القادر.

... أما فيما يتصل بنوع الكتابات المسجلة على هذا النمط

الفريد، فهي جديدة في معناها ومغزاها والهدف الذي ترمي إليه. ففي مركز الوجه كتابة من أربعة سطور أفقية متوازية تشير إلى الآية القرآنية التالية، نفذت بطريقة الحفر البارز بأسلوب الخط النسخي المغربي كما سبق أن أشرنا.

... ... 1 . ربنا

... ... 2 . أفرغ علينا

... ... 3 . صبراً وتوفنا

(15235/1)

... ... 4 . مسلمين(1). (شكل 2).

... وخصصت كتابة مركز الظهر لتسجيل مكان الضرب وتاريخه بالطريقة المعروفة:

... ... 1 . ضرب

... ... 2 . في

... ... 3 . تاقدمت

... ... 4 . 1250.

... ومع أهمية الشعار من الناحية الدينية والسياسية،

يبقى هذا النوع مجهولاً بين النقود الأميرية المعروفة.

والسؤال الذي تثيره في هذا الصدد، هو: هل استعملت في التداول والمعاملات في الحياة اليومية والأنصبة الشرعية؟ وهل كانت من نقود الصلة والمناسبات ضربت خصيصاً لتخليد ذكرى أو حادثة معينة في تاريخ

---

(1) الآية 126 من سورة الأعراف.

(15236/1)

الدولة. كل هذه التساؤلات ستبقى علامة استفهام في تاريخ النقود الجزائرية الحديثة، لندرة المعلومات حولها، ولعل الحفائر العلمية المنظمة التي ستنطلق في المستقبل القريب ـ إن شاء الله ـ كفيلة بإعطاء الإجابة العلمية المقنعة في هذا المجال.

...

3 ـ المحمدية (اللوحتان 1 ـ 2)

... تندرج نقود المحمدية، من حيث التصنيف النوعي، ضمن الفلوس النحاسية التي تمثل القاعدة النقدية الثانية في نظام سكة تاقدمت، وهي مستديرة الشكل من النحاس الأحمر، تتألف تصاميمها الهندسية من ثلاث حلقات من خيوط رقيقة، اثنتان خطيتان تتوسطهما

(15237/1)

حبيبات متراصة على أبعاد متساوية شبيهة بحبات اللؤلؤ، والثالثة مدبّبة، والحلقتان الخطيتان تؤطران الكتابة المركزية في الوجهين، قطرها يتراوح بين 16 و17 ملليميتر، ووزنها يتأرجح بين 0,9 غرام و1,24 غرام.

... تحمل الفلوس النحاسية نصوصاً كتابية على غرار سابقتها من حيث الشكل، وتختلف عنها من حيث المغزى والمعنى.

... في الوجه كتابة من ثلاثة سطور أفقية متوازية تشير إلى الآية القرآنية التالية:

... ... 1 . إن الدين

... ... 2 . عند الله

... ... 3 . تاقدمت

... ... 4 . الإسلام (لوحة)

(15238/1)

... أما كتابة مركز الظهر، فتحتوي هي أيضاً على مكان الضرب وتاريخه في أربعة سطور هي:

... ... 1 . ضرب

... ... 2 . في

... ... 3 . تاقدمت

... ... 4 . 1256(1).

4 . صنف آخر من فلوس تاقدمت

---

(1) حسبما أشار الأستاذ أستاش (Eustache) في بحثه عن تيارات بعنوان: Le département de Tiaret المطبوع بالجزائر سنة 1962، ص. 75، يكون » الأمير عبد القادر قد ضرب بتاقدمت الخراريب والفلوس وأجزاءَها«. إلا أن الحقيقة غير ذلك، إذ أثبتت الشواهد النقدية التي وصلتنا عدم صحة هذا الرأي.

(15239/1)

... يعتبر هذا الصنف امتداداً لنقود »المحمدية« من حيث الشكل والحجم، ويختلف عنها من ناحية المحتوى أو الشعار المسجل عليها. فنقرأ في مركز الوجه:

... ... 1 . ربنا

... ... 2 . أفرغ لنا

... ... 3 . صبراً

... ... 4 . وثبت أقدامنا(1).

... وفي الظهر كتابة مركزية تنص على مكان الضرب وتاريخه. وبعد أن قدّمنا وصفاً مختصراً عن أهم الطرز النقدية التي أصدرتها دار السكة تاقدمت، وتتمة لهذا الموضوع، لابد من التطرق لدار السكة التي تعتبر في عرف الدول من مستلزمات مقومات الدول

---

(1) الآية 250 من سورة البقرة.

(15240/1)

الاقتصادية، وإحدى ركائزها المالية. فظهور هذه المؤسسة يكشف عن اهتمام الدولة بإيجاد خزينة عامة تمدها بما تحتاج إليه من نقود لتغطية حاجاتها الاقتصادية ونفقاتها على المشاريع العمرانية والعسكرية. وبناء على ذلك، يمكن طرح هذا السؤال، وهو: هل أدت هذه المؤسسة الدور المنوط بها والغاية من إنشائها؟

5 ـ دار السكة(1)

---

(1) راجع عن تأسيس دار السكة بتاقدمت: محمد بن عبد

القادر، تحفة الزائر . . .، ص. 194؛ **ووشاح الكتائب.**

D. Eustache, Le Département de Tiaret, op. cit., 75p.
; Duc D'Orléans., Compagne de l'armée d'Afrique : 1831–1839, p. 1870, Paris, 409 ; E.
Daumas, Correspondance du capitaine
, éditée 1837–1839Daumas-Consul à Mascara,
; A. de France, Les 1912par M. G. Yver, Alger,
.1837prisonniers d'Abdelkader, Paris,

(15241/1)

بتاقدمت وظهور نقود الأمير

... مما لا جدال فيه أن عملية سك النقود العثمانية بالجزائر عامة، والنقود الجزائرية على عهد الأمير عبد القادر على وجه الخصوص، تعتبر من بين مواضيع مختلفة يصعب بحثها والتحدث عنها بسهولة ودقة متناهية. هذا، علماً بأن النقود العثمانية بأنواعها المتعددة من ذهب وفضة ونحاس، ضربت بالجزائر على نطاق محدود، واقتصر إنتاجها أيضاً على مناطق معينة. هذا إذا عرفنا أن بعضها كان يجلب من الآستانة، حاضرة الخلافة العثمانية. وقد عثر على كميات هائلة تحمل اسم سلاطين آل عثمان، وكانت كل المعاملات

(15242/1)

تتم في فلكها. واستمر الحال كذلك، ليست للجزائر عملة مستقلة لها شخصيتها، إلى أن أسس الأمير عبد القادر دار السكة بتاقدمت تتولى هذه المهمة وهي إصدار النقود وفق مواصفات ومعايير خاصة حددها وأشرف على تنفيذها بنفسه.

... والملاحظ أن نشاط دار السكة الجديدة التي لا نعرف تاريخ إنشائها على وجه التحقيق قد اقتصر على إنتاج النقود الفضية (الخراريب) والنحاسية، وهذان الصنفان أطلقت عليهما تسميات خاصة، تمييزاً لهما عن بقية العملات الأجنبية التي غزت السوق الجزائرية وأصبحت متداولة في المعاملات.

(15243/1)

... والمتتبع لهذا الموضوع يجد صعوبات تتمثل في قلة المعلومات الخاصة بتاريخ التأسيس أولاً وأساليب صناعة النقود ثانياً. هذا، فضلاً عن المراحل التي تمر بها النقود مذ كانت سبيكة معدنية إلى أن تصبح عملة نقدية قابلة للتداول والانتشار. والجدير بالملاحظة أن جل ما

وصلنا بخصوص هذا الموضوع لا يعدو بيانات ضئيلة جداً لا تفي بالمطلوب(1).

---

(1) انظر على سبيل المثال لا الحصر كتاب "تحف الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر"، دار اليقظة العربية، بيروت، ط 2، 1964، ص. 197.

(15244/1)

... وهكذا، فمع غياب البيانات والمعلومات المتعلقة بالأعمال التي تجرى بدار الضرب وأهم الوظائف، نلجأ إلى النقود نفسها للوقوف على تقنيات الصنع والإنتاج النقدي. وبالاستناد إلى المجموعات النقدية التي ترجع إلى هذه الفترة والتي قمنا بفحص ودراسة نسبة كبيرة منها، يمكن القول إن النقوش أو الكتابات البارزة على وجهي السكة تساعد في تحديد الأسلوب المستعمل في حفرها، وهو قالب الضرب بطريقة معكوسة، خصوصاً وأن طريقة الضّرب هذه كانت التقنية التقليدية المعروفة في إنتاج النقود سواء كانت فضية أو نحاسية. وتمتاز هذه

(15245/1)

الطريقة بالكتابات الواضحة والحروف المحدّدة. ومن خصائص هذه التقنية أن سطح النقود خال من النتوءات في خامة السكة نتيجة الفقاقيع الهوائية التي قد تكون آثارها موجودة على سطح القوالب المصبوبة(1).

... وانتشرت فكرة عمل قوالب محفورة حفراً مباشراً في المغرب الإسلامي وصلنا منها قالب من حديد يرجع إلى عصر علي بن يوسف بن تاشفين(2)

---

(1) عبد الرحمن فهمي، فجر السكة العربية، ص. 215.

(2) عن هذا القالب المرابطي، راجع:

G. Marçais, « Un coin monétaire almoravide du musée de stéphane Gsell », in Annales de l'institut d'études orientales, T. 2, Alger, 1936, pp.182–184.

(15246/1)

المرابطي، يوجد الآن بالمتحف الوطني للآثار بالجزائر. والملاحظ أن القوالب نفسها انتشر استعمالها كذلك بالجزائر في العهد العثماني. وإذا أخذنا في الاعتبار

الأعداد الهائلة من نقود تاقدمت التي ضربت في فترة القرن التاسع عشر الميلادي، فقد لا تتفق مع الأخذ بفكرة القوالب التي حفرت كل واحدة على حدة؛ لأنها لا تساير حاجة الدولة إلى نقودها اللازمة لكافة العمليات التجارية(1). هذا، فضلاً عن أن السك بقوالب محفورة حفراً مباشراً

---

(1) محمد باقر الحسيني، النقود العربية الإسلامية، سلسلة الموسوعة الصغيرة، ص. 99.

(15247/1)

تحتاج إلى نسخ كثيرة تتناسب وأعداد النقود التي يمكن إنتاجها بالقالب الواحد، علماً بأن مثل هذه القوالب المحفورة لا تستطيع أن تقاوم عملية الضّرب المستمرة لمدة طويلة دون أن تتعرض للتشقق أو تتعرض حافات نقوشها للتلف. وفي هذه الحالة، لابد من أن تكون قوالب السك متوافرة بشكل كبير عن طريق صبها عن نسخ أصلية محفورة مباشرة.

... وبالرغم من قلة النماذج الفضية (النّصفية) التي وصلتنا، فهي تؤكد طريقة صنعها بالقالب المحفور حفراً

مباشراً، وإن كان الانتفاع منها محدوداً بسبب عدم طواعيتها للمقاومة الشديدة على الضّرب

(15248/1)

لاستعمالها مرات عديدة لإنتاج أعداد كبيرة من النقود على طراز واحد بواسطة الطرق على هذه القوالب، هذا إلى أن إنتاج نقود معينة في السنة كان يتطلب توفير قوالب محفورة مباشرة بهذا التاريخ(1). ... ... ولما كانت العملية التقنية تقتضي السرعة في الإنتاج والاقتصاد في النفقات، ظهرت الحاجة إلى استبدالها بإنتاج قوالب مصبوبة. وباختصار، نشير إلى أن إعداد خامة السكة، أي النقود أو السبيكة التي تختم

---

(1) لمزيد من تعرف تقنيات العملية، راجع: أبو يوسف علي الحكيم، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، ص. 33.

(15249/1)

بها قوالب السك، يمر بمراحل رئيسة، أهمها تلك التي تعرف باسم »الحافة«، وهي سبك الذهب المخلوط بالفضة

أو بغيره من المعادن، وتخليص كل معدن مما قد يكون مختلطاً به من الشوائب. وتتم العملية في دار الضّرب حيث يصفّى ويضبط عيّاره لتضرب منه النقود(1).

... أما سبيكة الفضة، فإعدادها يكون أيسر من سبيكة الذهب. ولكن الإشكالية هنا تتعلق بإعداد سبيكة النحاس، ذلك بأن المراجع التي بين أيدينا لم توضح العملية تماماً باستثناء القلقشندي الذي أعطى معلومات هامة حول صناعة

---

(1) صالح بن قربة، المسكوكات المغربية ...، ص. 47.

(15250/1)

السكة وقسمها إلى صنفين: »مطبوع بالسكة، وغير مطبوع «(1). وفي هذا الشأن يقول: »أن يسبك النحاس الأحمر حتى يصير كالماء ثم يخرج فيضرب قضباناً ثم يقطع صغاراً ثم ترصع وتسك بالسكة. وسكتها أن يكتب على أحد الوجهين اسم السلطان ولقبه ونسبه، وعلى الآخر اسم بلد ضربه وتاريخ السنة التي ضرب فيها «(2).

... ويجب أن نذكر هنا أن النقود النحاسية التي ضربت بتاقدمت قد استعمل في سكها الطريقة التقليدية

نفسها المعروفة في صناعة السكة النحاسية

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، صص. 443 ـ 446.

(2) المصدر نفسه.

(15251/1)

الإسلامية، وذلك لأن معظم سك النقود إن لم يكن كلها قد صنعت بسبيكة مطروقة. يدل على ذلك أن كثيراً من هذه القطع النقدية جاءت مكسورة الحواف غير منتظمة في أغلب الأحيان، وأنه قلما نجد قطعة تشبه الأخرى؛ كما أن عدم تقابل مركز الوجه مع مركز الظهر في النقود الأميرية يفسر لنا أن صناع دار الضّرب عندما كانوا يسكونها تزحزح أحد القالبين تزحزحاً عارضاً من آثار الضّرب.

... وفي ضوء المعطيات السابقة، يتبين أن صناعة نقود الأمير عبد القادر كانت تتم بالقوالب المحفورة حفراً مباشراً. ومع ذلك، فإننا لا نستبعد استعمال

(15252/1)

القوالب المصبوبة، ولا سيما في حالة النقود الفضية (النّصفية).

... ومهما قيل بشأن هذه المسألة الشائكة، فإنه لا يعدو مجرد تفسيرات وتأويلات، تقربنا من الحقيقة. ويدعم رأينا هذا ما وصلنا من نقود تنطبق عليها تلك المعطيات التقنية.

... وموضوع صناعة النقود يجرنا إلى بحث الناحية الإدارية والفنية بدار الضّرب بتاقدمت. فحسب المعلومات القليلة التي تتعلق بهذه الناحية، نجد أن جل الموظفين بدار السكة، وخاصة منهم السكاكون والمكلفون بإنتاج النقود، كانوا من اليهود. ولكن يظهر أن النقاش (الفتاح) الذي يشرف على إعداد

(15253/1)

حفر قوالب ونقشها (أي حفر نصوفها الكتابيّة) كان من العرب الذين لهم دربة ودراية بهذا الفن.

... ولكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن في هذا الشأن هو: ما مصادر إمداد دار السكة بالسبائك اللازمة لقيام صناعة النقود؟

... المعروف من الناحية الطبيعية توفر مناطق معينة ضمن مجال الدولة الحيوي على مناجم النحاس والحديد

وغيرها، والتي اهتم بها الأمير شخصياً وعين من يشرف عليها ويراقب الأعمال فيها؛ نظراً لأهميتها الاقتصادية والمالية. يتجلى حرصه واهتماماته بذلك من الرسالة التي بعث بها إلى ممثله بالمغرب الأقصى يشرح له

(15254/1)

فيها عدم حاجته إلى شراء سبائك الرصاص التي كان يستوردها، بسبب ما توافر لديه من مناجم النحاس الكثيرة التي تم اكتشافها واستغلالها في إنتاج النقود أو الفلوس التي كانت رعاياه بحاجة إليها(1). ولعل وفرة النحاس

---

(1) عن مشكلة استغلال المناجم أو عدم استغلالها في صناعة وإنتاج النقود، انظر:

M. Bouchenaki, La monnaie de l'Emir Abdelkader, pp. 63–64; E. Daumas, op. cit., lettre du 28 Janvier 1838.

... وطبقاً لما ذكره Daumas، يكون الأمير عبد القادر قد استفاد في مجال صناعة النقود من خبرة ناظر السكة بالجزائر.

(15255/1)

في مجال نفوذ الدولة كانت من بين الأسباب التي أدت إلى الاعتماد على قاعدة النحاس نظاماً نقديّاً رئيساً.

... ومن ناحية أخرى، ما زلنا نجهل الأسباب أو الصعوبات التي حالت دون استعمال قاعدة الفضة (Silver Standard). هل يعود ذلك إلى قلة مناجم الفضة؟ أو يرجع إلى اعتبارات أخرى؟

... وما دمنا بصدد دراسة نقود الأمير عبد القادر، لابد من الإشارة إلى دار السكة، التي ما زال يكتنف تاريخ إنشائها الغموض. فالمعلومات بخصوص تاريخ ظهورها وموقعها في الحاضرة تاقدمت تكاد تكون منعدمة تماماً، باستثناء بعض الإشارات المقتضبة

(15256/1)

التي وردت ضمن تقارير وأوصاف لفرنسيين سواء كانوا قناصل أو باحثين(1).

... وهكذا، فبالرغم من أهمية هذه المؤسسة في إنتاج آلاف القطع التي تحتاج إليها الدولة كل سنة وعلاقتها القانونية بالسلطة، بالرغم من ذلك

---

(1) من بين الإشارات أو التقارير التي وردت حول

استعمال الفضة نذكر تقرير كَارسان (Garcin) الذي وصف فيه دار السكة في شهر مارس من سنة 1840، حيث يقول: »وقد جعل الأمير من تاقدمت مقراً لضرب النقود. غير أن قلة الإمكانات المالية لم تسمح له بضرب نقود فضية«. (Garcin, Mémoire au ministèrede la guerre, 1840**).**

(15257/1)

لم يولها المؤرخون المعاصرون، من رحالة وشاهدي عيان، ما تستحقه من التسجيل وحتى المخططات الطبوغرافية التي وضعت لمدينة تاقدمت لم تحدد موقعها ومركزها من عمران المدينة (انظر خريطة 1. 2. 3).

... ومهما يكن من أمر، فإن الحديث عن دار السكة بتاقدمت في الوقت الراهن يبقى احتمالات فقط

... وموضوع إنشاء دار السكة يقودنا إلى بحث مسألة لا تقل أهمية عنه من حيث ارتباطها بمفهوم الملك ومستلزمات الدولة الجزائرية الناشئة، ونعني به تأريخ ظهور النقود بخصائصها الجديدة وبداية تداولها في ممتلكات الأمير عبد القادر

(15258/1)

الجزائري. الواقع أن هذه المسألة لم يحسم الخلاف فيها بين المختصين والمهتمين بتاريخ الأمير عبد القادر، إذ ليس بين أيدينا مصدر نستقي منه معلومات دقيقة بخصوص بداية إنتاج النقود وطرحها في الأسواق للتداول غير بيانات ضئيلة متفرقة مقتضبة أحياناً، ومبهمة غالباً. ولذلك فإننا نلجأ للحسم في مسألة تحديد التأريخ إلى النقود نفسها التي تعتبر وثائق رسمية معاصرة للأحداث.

... وحسب المجموعات النقدية المعروفة بين الباحثين وعلماء المسكوكات، فإن أقدم النماذج التي وصلتنا من النقود النحاسية ومن إصدارات دار السكة

(15259/1)

بتاقدمت ترجع إلى سنة 1250 هـ/ 1834 ـ 1835 م(1).

وأحدث النماذج المؤرخة التي وصلتنا من النقود ترجع إلى سنة 1258 هـ/ 1841 ـ 1842 م.

... وبناء على ما تقدم، نستطيع القول إن أول عملة جزائرية طرحت للتداول كانت سنة 1250 هـ/ 1835 م تعبيراً عن قيام الدولة وسيادتها واستقلالها، وعليها

شعار مؤسسها المتميز المقتبس من القرآن الكريم، نقش على وجهها في ثلاثة سطور أفقية (إن الدين ـ عند الله ـ الإسلام)، وفي

---

(1) يمكن اعتبار سنة 1250 هـ تاريخاً لإنشاء دار السكة وبداية نشاطها في إنتاج النقود بنوعيها النحاسي والفضي.

(15260/1)

الوجه الآخر تاريخ الضرب ومكانه. والملاحظ عن هذه العملة التي تعتبر فاتحة عهد المسكوكات الجزائرية خلوها من الأسماء والألقاب الفخرية التي كانت صفة ملازمة في مسكوكات سلاطين آل عثمان بالجزائر والسكة الجزائرية بصيغتها الجديدة التي وصلتنا منها مجموعة كبيرة، تفند ما صرّح به القنصل Daumas والمصرفي Ernest Picard، من أنها ضربت باسم الأمير عبد القادر(1)، بل أن عملية الضرب اقتصرت على الفلوس النحاسية فقط دون غيرها من النقود الأخرى، حسب زعم Garcin

---

(1) لمزيد من التفصيل، انظر: M. Bouchenak, op. cit., p. 70.

(15261/1)

الذي أعطى وصفاً مقتضباً لنشاط دار السكة ذكر فيه أن قلة الإمكانات المالية حالت دون ضرب نقود فضية(1). غير أن ما وصلنا من نقود ينفي صحة هذا الادعاء الذي لا يقوم على أسس علمية صحيحة(2).

---

(1) Garcin, Mémoires au ministère de la guerre (août 1840), publiées par M. Emerit; L'Algérie à l'époque d'Abdelkader, 1950, pp. 295–297.

(2) **أغلب الظن أن هؤلاء القناصلة وغيرهم من الباحثين الفرنسيين دوّنوا ملاحظاتهم عن طريق الأخبار المنقولة، لا عن طريق المشاهدة العينية.**

(15262/1)

... وبخصوص النقود الجديدة بتاقدمت، فقد ذكر صاحب كتاب "تحفة الزائر"(1) وصاحب كتاب "وشاح الكتائب"(2) أن هناك نوعين مختلفين هما: المحمدية والنّصفية، وهما العملتان اللتان ساد التعامل بهما في الأسواق جنباً إلى جنب مع العملات الأجنبية التي غزت

الأسواق الجزائرية وانتشر تداولها منذ العهد العثماني، وكانت تمثل في الحقيقة خليطاً معدنياً من نقود

---

(1) محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر...، المرجع السابق، ص. 197.

(2) رويلة قدور، وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، 1968.

(15263/1)

العثمانيين والإسبان والفرنسيين والأنجليز والمغرب وتونس، إلخ.

... والحقيقة أن تعدّد العملات في الجزائر قد خلقت وضعاً نقدياً صعباً أدى إلى تعقيد عمليات البيع والشراء في داخل الجزائر وخارجها. فكيف عالج الأمير عبد القادر هذه المشكلة، خصوصاً عملية الصرف؟

6 ـ الوضع النقدي ومشكلة الصّرف

... كانت النقود المتداولة في أول عهد دولة الأمير عبد القادر خليطاً من النقود العثمانية المضروبة بأسماء سلاطين آل عثمان والتي عرفت بـ »السلطاني« و»نصف

السلطاني« و»الربع«، وجميعها من معدن الذهب، بالإضافة إلى النقود

(15264/1)

الفضية العثمانية كذلك والتي اشتهرت بتسميات مختلفة مثل »ريال بوجو« (1) و»الصايمة« و»ريال دراهم« التي تساوي ثلث »ريال بوجو«، وتشمل نوعين آخرين هما: »ريال دراهم« قديمة وجديدة(2) . وضربت هذه الأنواع في القسطنطينية

---

(1) يعتبر »ريال بوجو« من النقود الفضية العثمانية المضروبة بالجزائر وعرف في دفاتر المحاكم الشرعية باسم »ريال صغير«. (انظر: د. أبو القاسم سعد الله في بحثه: دفتر محكمة المدية أواخر العهد التركي 1255 هـ/ 1839 م، الثقافة، 1984، ص. 164).

(2) هذا النوع يتراوح وزنه بين 3,30 غرام و3,10 غرام.

(15265/1)

والولايات الجزائرية منذ أول عهد العثمانيين بها، فعرفت المدن الرئيسة، مثل الجزائر وقسنطينة، دور

ضرب خاصة بها. واستمر الضرب جارياً بها حتى العهد الاستعماري. وإلى جانب النقود العثمانية بنوعيها الذهبي والفضي، عرفت الجزائر نتيجة ازدياد أهميتها التجارية في تلك الحقبة أنواعاً أخرى من النقود الأجنبية الشائعة في معاملاتها المالية مثل العملات الإسبانية والتونسية والمغربية والفرنسية(1)

---

(1) عن رواج التداول بالعملات الأجنبية في الجزائر في العهد العثماني، راجع: د. ناصر الدين سعيدوني، »العملة الجزائرية«، النظام المالي للجزائر في العهد العثماني.

(15266/1)

.

... وإذا كانت هذه هي صورة الوضع النقدي بالجزائر عند قيام دولة الأمير عبد القادر، فإننا نتساءل عن دور نظامه النقدي بين هذه الأنظمة النقدية المختلفة وما مركز عملتي المحمدية والنّصفية في التداول اليومي؟ وما الإجراءات التي اتخذها إزاء هذا المشكل؟ يتبين من استقراء التاريخ السياسي لدولة الأمير أن هذا الأخير كان يعي المشكلة النقدية تماماً، وأنه بحث عن حلول

لها في نطاق ما ضربه من نقود نحاسية وفضية. وأمام اضطراب المعاملات، لجأ إلى إصدار تسعيرة رسمية للنقود وصرفاً محدداً لها. وهو ما أشار إليه صاحب كتاب

(15267/1)

"تحفة الزائر" بقوله(1):

... إن مولانا جعل المسكوكات الجارية في البلاد صرفاً معلوماً، تتعامل به رعيته، وسك. نصره الله. نوعين من العملة، إحداهما المحمدية، والأخرى النصفية. فجعل صرف »الدورو أبو مدفع« (2) المعروف بـ »أبي عمود« أربعة ريالات، وكل ريال فيه ثلاثة أرباع »جزائرية«، وكل ربع جعل صرفه

---

(1) محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر...، ص. 197؛ وشاح الكتائب...، ص. 15.

(2) »الدورو بومدفع«، من نقود الفضة، نقش على أحد وجوهيها أعمدة هرقل فشبهوها بالمدفع. (عبد الرحمن الجيلالي، حول سكة الأمير...، ص. 25).

(15268/1)

ثمان »محمديات«، وكل »محمدية« فيها »نصفيتين« من السكة الجديدة المضروبة في دار السكة، بحيث إذا أطلق الريال لا ينصرف إلا إلى هذا الصرف، وجعل »الدورو الجزائري« ثلاثة ريالات إلاّ ثمان »محمديات«. وبهذا الصرف يعطي راتب العسكر بأصنافه.

ولم تكن النقود الجزائرية المحدودة كافية لسد حاجة السوق التجارية المحلية أو الخارجية، مما أدى إلى تداول النقود الأجنبية بكثرة. لذلك حدد لها الأمير عبد القادر أسعاراً رسمية، وجعل وحدتها الريال. وحسب البيانات التي حققها F. Patroni في زمانه، تكون المعادلات على هذا النحو(1)

(1) F. Patroni, L'Emir Elhdj Abdelkader, Alger, 1890, p. 31.

(15269/1)

:

... .الدورو بومدفع ... ... 5,40 فرنكات وأربعون سنتيماً.

... .الدورو الجزائري ... ... 3,60 فرنكات.

... .الريال (أي ربع الدينار) ... 1,35 فرنكاً وخمسة وثلاثين سنتيماً.

... .ثمن الريال ... ... 0,45 سنتيماً (1).

... وبالمقارنة مع هذه المعادلات السابقة يكون صرف نقود الأمير مقابل الفرنك الفرنسي هكذا:

... المحمدية ... ... 0,05 سنتيماً.

---

(1) H. Federmann, « Notices sur l'histoire et l'administration du Baylike de Titteri », R. Africaine, T. XI, 1867, p. 218.

(15270/1)

... النّصفية ... ... 02,5 سنتيماً ونصف.

... أما »ريال بوجو«، فقد ذكر المصرفي إرنست بيكار (Ernest Picard1) أن قيمته مقابل الفرنك الفرنسي قد حدّدت بـ: 1,86 سنة 1830، لكن قيمة الصّرف تغيرت وانخفضت في عهد الأمير عبد القادر، فأصبحت 1,35 فرنك فرنسي.

... ومع ذلك، فإنه برغم الجهود التي بذلها الأمير في ميدان الإصلاح المالي، لم ينجح في إقرار نظام نقدي

مستقل يخدم مصالح دولته في المجال الاقتصادي ويبعدها(2)

---

(1) E. Picard, La monnaie et le crédit en Algérie, Paris, 1930, pp. 60–61.

(2) د. سعيدوني، »النظام الضريبي لدولة الأمير عبد القادر«، مجلة الثقافة، عدد خاص بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الأمير عبد القادر، العدد 75، 1983، ص. 131.

(15271/1)

عن التبعية النقدية الأجنبية.

... ومما زاد في سوء الأوضاع النقدية وعدم استقرارها، وما تركته من آثار سلبية على الحياة الاقتصادية، رفض بعض المتعاملين مع الأمير عبد القادر قبول عملاته الجديدة النحاسية والفضية في المبادلات التجارية الخارجية. ومن بين الدول التي وقفت هذا الموقف فرنسا وسلطنة المغرب. ومما زاد الطين بلة وأدّى إلى زعزعة أركان النظام النقدي الذي أسسه الأمير أن تقدير الضرائب والمرتبات ودفع أجور الموظفين والعسكريين كان يتم وفق الريال.

(15272/1)

... والواقع أن هذا الموضوع يحتاج إلى مزيد من الدراسات الاقتصادية التحليلية المقارنة والإحصائيات المستقاة من النصوص والوثائق التاريخية المعاصرة. ولذلك نكتفي بهذا القدر من تداول النقود وطرق الصرف، لأن ذلك يخرج عن موضوع بحثنا الذي يرتبط بمفهوم السيادة والاستقلال كما يتراءى من نصوص السكة.

ثانياً: علاقة السكة بالسلطة ودلالتها الحضارية

... مما لاشك فيه أن ظهور مسكوكات الأمير عبد القادر في شكلها وصيغتها الجديدة جنباً إلى جنب مع المسكوكات العثمانية التي تمثل السلطة الشرعية في البلاد، فضلاً عن

(15273/1)

المسكوكات الأجنبية ذات الشارات والرموز المسيحية، يعد نقطة تحول كبرى في تاريخ الجزائر الحديث، ودليلاً قاطعاً على قيام نظام حكم جديد مستقل يختلف في اتجاهاته المذهبية وفلسفته عن أنظمة الحكم السابقة.

يتجلى هذا الاتجاه الجديد في حكم البلاد من تحليلنا طرز المسكوكات التي أصدرتها دار السكة بتاقدمت، مبتدئين بمضامين الطراز الأول الذي لم يصلنا من نقوده سوى نصها.

1) مسكوكات الطراز الأول(1)

---

(1) حسب ما ذكره الجيلالي في بحثه »حول سكة الأمير عبد القادر الجزائري«، فإن ملامح هذا الطراز كانت عبارة عن نقود تمثل ثلاث فئات أو قطع. فالنقد الرئيس يعادل فرنكين والنصف يعادل فرنكاً واحداً؛ أما الربع، فيعادل نصف فرنك فقط

(15274/1)

... مسكوكات هذا الطراز مستديرة الشكل تحمل في الوجهين نصوصاً كتابية تتألف من ثلاثة سطور يفصلها خطان متوازيان وتشير إلى هذا الاقتباس:

... مركز الوجه ... ... مركز الظهر

... ... 1 . ومن يبتغ ... ... 1 . ضرب

... ... 2 . غير الإسلام دينا ... ... 2 . في 1250

... ... 3 . فلن يقبل منه(1) ... ... 3 . تاقدمت

... ... (شكل 1)

... هذا الاقتباس القرآني هو الشعار الأول الذي سجله الأمير عبد القادر على نقود هذا الطراز، وهو يكشف عن الغرض الذي قامت من

---

(1) الآية 85 من سورة آل عمران.

(15275/1)

أجله الدولة الجزائرية في هذه الأوضاع المعقدة والظروف الصعبة لتحقيق استقلال البلاد ووحدة الأمة وتمسكها بدينها الإسلامي الحنيف، وبالتالي إحياء تراث السلف الصالح الذي زالت مظاهره أو كادت تختفي تماماً، ولا سيما أواخر العهد العثماني بالجزائر، وتكالب القوى الاستعمارية على غزو البلاد واستغلال ثرواتها.

... ولكن مع أهمية السكة بصفتها شارة من شارات الحكم، فإن نقود هذا الطراز لم تحمل اسم الأمير عبد القادر الذي رفع لواء الجهاد ضد الغزو الفرنسي، وإقامة دولة الحق.

(15276/1)

... والمعروف من دراسة التاريخ السياسي أن السنوات الأولى من حكم الأمير قد تميزت بإحراز انتصارات كبيرة على الفرنسيين، الذين اضطروا أمام الضربات القوية إلى طلب الصلح ووقف الحرب. ولما كان الأمير بطبعه ميالاً للسلم ولا يدخل المعارك إلاّ عندما تكون مصالح بلاده مهددة، فقد قبل بالصلح الذي عرف باسم »معاهدة ديميشال« سنة 1834 م، حتى يتمكن من إصلاح الأوضاع الداخلية وتنظيم الإدارة على أسس حديثة. هذا، بالإضافة إلى حرصه على توسيع نطاق التبادل التجاري ليشمل مختلف أرجاء دولته.

(15277/1)

... وإذا تركنا الجانب السياسي والإصلاحي في حياة الأمير عبد القادر، وتناولنا مسكوكاته التي تكمن أهميتها في ما تثيره من تساؤلات بين علماء المسكوكات، خصوصاً من ناحية شكلها ونصوصها الكتابية، فعلى الرغم من تشابهها مع المسكوكات العثمانية شكلاً، فقد خالفتها نصاً وروحاً بما تضمنته من آيات قرآنية ظهرت لأول مرة كتابة نقدية منذ دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر. وهنا لابد من التساؤل عند هذه

النقطة بالذات. فهل من خلفيات تاريخية أو حضارية نفسر بها هذه الظاهرة؟

(15278/1)

... يبدو من استقرار التاريخ السياسي لسلاطين الخلافة العثمانية أن هناك تغيراً حدث في نظرتهم لشارات الخلافة والسلطنة. وقد امتد هذا التغيّر في مفهوم الملك إلى السكة نفسها التي كانت لا تقل أهمية عن ذكر اسم الخليفة في الخطبة من على المنبر.

... يظهر هذا التحول الجديد عند هؤلاء السلاطين فيما يخص السكة في عهد السلطان سليم الأول (918 ـ 926 هـ) الذي جعل من بين الحجج الدينية التي بنى عليها غزوه لمصر أنه وقف عند الشرع الشريف في حربه مع الدولة المملوكية. فقد استفتى المفتي علي جمال أفندي في مسائل ثلاث أوردها

(15279/1)

المؤرخ النمساوي Hammar في مؤلفه "تاريخ الدولة العثمانية"(1)، يهمنا منها السؤال الثالث: «إذا كانت

أمة (يعني المماليك) تنافق في احتجاجها برفع كلمة الإسلام، فتنقش آيات كريمة على الدنانير والدراهم مع علمها بأن النصارى واليهود يتداولونها هم وبقية الملاحدة من أهل الأهواء والنحل... فيدنسوها ويرتكبون أفظع الخطايا بحملها معهم

---

(1) نقلاً عن عبد الرحمن فهمي، النقود العربية ماضيها وحاضرها، سلسلة المكتبة الثقافية، 103، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1964، ص ص. 112 ـ 113,

(15280/1)

إذا ذهبوا إلى محل الخلاء لقضاء حاجتهم، فكيف ينبغي معاملة هذه الأمة؟ «.

... فكان جواب المفتي بأن هذه الأمة إذا رفضت الإقلاع عن ارتكاب هذا العار، جاز إبادتها. والحقيقة أن المسكوكات الإسلامية منذ تعريبها على يد الخليفة عبد الملك بن مروان وهي تحمل شهادة التوحيد والرسالة المحمدية وآيات من القرآن الكريم، ولم يعترض على ذلك أحد من الفقهاء أو الغيورين على الدين قبل السلطان سليم الأول.

... وبالرغم من أن العثمانيين جرّدوا المسكوكات العربية من روحها الإسلامية وأزالوا منها شهادة التوحيد والرسالة المحمدية

(15281/1)

{محمد رسول الله أرسله الهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون}، واستبدلوها بالألقاب الفخرية السلطانية (خاصة بالسلطان العثماني) مثل: »ضارب النضر صاحب العز والنصر في البر والبحر« أو »سلطان البرين(1) وخاقان(2) البحرين(3)«. فلم يقوموا بإجراء إصلاحات في الأنظمة النقدية، بل إن قيم النقود العربية أصبحت عرضة للتغيير المتتابع، ظهرت آثاره واضحة على النقود الجزائرية التي فقدت

---

(1) سلطان البرين هما: براسيا وأوربا.

(2) الخاقان: الرئيس.

(3) البحرين هما: البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر.

(15282/1)

أهميتها الحضارية ودخلت مرحلة التدهور والانحطاط ولم يكن هذا التدهور خاصاً بالجزائر فحسب، بل شمل معظم ممتلكات الدولة العثمانية. يدل على هذا الوضع النقدي المتردي أن نقود مصر وحدها قد عرفت أكثر من 34 تعديلاً مختلفاً لسعر المبادلة، وتحديد قيمة العملة الذهبية والفضية والنحاسية(1). حدث ذلك أثناء حكم أول الولاة العثمانيين.

... وفي ضوء هذا التحول يمكن اعتبار النقود الجزائرية منذ أصبحت إيالة عثمانية تابعة للآستانة، نقوداً تركية بكتابات عربية، لارتباط

---

(1) عبد الرحمن فهمي، النقود العربية...، ص. 114.

(15283/1)

أشكالها وأوزانها وأسلوبها وقيمها بالأوامر العثمانية، حتى قوالب الضرب نفسها التي كانت تسك بها هذه النقود تأتي من الآستانة وتسلم إلى الضربخانة الجزائرية لسك النقود عليها بأسماء سلاطين آل عثمان، إلى أن أسست دار السكة بالجزائر سنة 1236 هـ/ 1820 م(1)، حيث تولت مهمة إصدار النقود لصالح سلاطين الخلافة العثمانية.

---

(1) أحمد الشريف الزهار، مذكرات أحمد الشريف الزهار، تحقيق توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص. 147.

(15284/1)

... وأقدم النقود الذهبية العثمانية التي وصلتنا من ضرب الجزائر ترجع إلى عهد السلطان أحمد الثالث (1115 ـ 1143 هـ/ 1703 ـ 1790 م) سجلت على وجهها النصوص العربية التالية:

... ... مركز الوجه

... ... 1 ـ سلطان

... ... 2 ـ البرين وخاقان البحرين

... ... 3 ـ سلطان ابن

... ... 4 ـ السلطان

... ... مركز الظهر

... ... 1 ـ السلطان

... ... 2 ـ أحمد خان

... ... 3 . عز نصره ضرب في

... ... 4 . جزائر 1126.

(15285/1)

... واستمر هذا الطراز من المسكوكات بأنواعها المختلفة من ذهبية وفضية ونحاسية وحدات نقدية في التداول بديلاً عن المسكوكات العربية، يحمل أسماء السلاطين كما سبق أن أشرنا قبل قليل. وتواصل العمل . مع بعض العملات الأجنبية نتيجة التوسع الاستعماري والاكتشافات والتجارة . طيلة العهد العثماني إلى أن ظهرت حركة الأمير عبد القادر الجزائري التي كانت تتطلع إلى بناء دولة جزائرية عصرية دستورها الإسلام، تتولى مهمة الجهاد وتحرير البلاد من الاستعمار والأطماع الأجنبية.

(15286/1)

... وفي هذا النطاق وتخليداً لتأسيس الدولة واستقلالها وسيادتها، أصدر الأمير عبد القادر سلسلة من المسكوكات الفضية والنحاسية بدار الضرب بتاقدمت.

... يتبين من استعراضنا السابق حرص الأمير على إحياء تقاليد السكة العربية الإسلامية بشكل عام والمغربية على الخصوص، يحدوه في هذا الاتجاه الإسلامي الخالص ما قام به أسلافه من الزيّريين والمرابطين.

... ظهرت المحاولة الأولى نحو بلورة هذا الاتجاه السني في عهد الأمير المعز بن باديس (406 ـ 454 هـ) الذي أعلن الانفصال السياسي والمذهبي عن الخلافة الفاطمية سنة 440

(15287/1)

هـ(1). وعبر عن هذا الاستقلال بضرب سكة ذهبية بعبارات وشعارات جديدة تحمل التنديد بالفاطميين الإسماعيليِّين، وترميهم بالكفر والمروق عن الإسلام، على هذا النحو(2):

... ... مركز الوجه:

... ... 1 ـ لا إله إلاّ الله

... ... 2 ـ وحده لا شريك له

---

(1) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر كولان، بيروت، 1948، ج 1، ص. 277.

(2) د. صالح بن قربة، المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص. 485 وما بعدها.

(15288/1)

... ... 3 ـ محمد رسول الله

... الهامش: {يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً}.

... ... مركز الظهر:

... ... 1 ـ ومن يبتغ

... ... 2 ـ غير الإسلام ديناً

... ... 3 ـ فلن يقبل منه.

... الهامش الدائري: كتابة تشير إلى مكان الضرب وتاريخه.

... والجدير بالملاحظة، في هذا الصدد، أن المعز بن باديس هو أول من استعمل هذه الآية الكريمة كتابة نقدية في تاريخ المسكوكات المغربية. ولاشك في أن الغرض من نقشها على نقوده في تلك الفترة المتميزة من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كان تحدياً

(15289/1)

للفاطميين الشيعة والإعلان عن رفض مذهبهم الشيعي والعودة إلى المذهب السني المالكي.

... ثم جاء المرابطون بعد سنوات قليلة من تأسيس دولتهم، فتبنّوا هذا الشعار واستعملوه على مسكوكاتهم الذهبية تعبيراً عن تمسكهم بالمذهب السني المالكي اقتداء بأبناء عمومتهم من الزيريين.

... والملاحظ أنه منذ ذلك التاريخ زال استعماله من قاموس السكة المغربية شعاراً له مبرّراته التاريخية والحضارية. واستمر الحال كذلك إلى أن جاء الأمير عبد القادر الجزائري، فأحيى استعماله على نقوده النحاسية المضروبة بحاضرة دولته تاقدمت. ويدخل

(15290/1)

هذا الاستعمال المتجدّد ضمن التواصل الحضاري.

... وإذا كان هذا الشعار السالف الذكر قد اختلفت أوجه استعمالاته من دولة إلى أخرى بحسب المناسبة التي ظهر فيها والغاية من اختياره(1)، فإن ظهور آية {ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه} على نقود الأمير عبد

القادر يستوجب الوقوف والتأمل. ذلك بأن استعماله شعاراً

---

(1) كان ظهور شعار {ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه...} على نقود الزيريين والمرابطين تصويراً وتعبيراً عن الصراع بين مذهبين هما: المذهب الشيعي المشرقي والمذهب السني المالكي المغربي.

(15291/1)

دينيّاً على نقوده في هذه الفترة بالذات (1834 ـ 1835 م) كان يصور بطريقة إعلامية الصراع بين ديانتين سماويتين هما المسيحية الصليبية من جهة والدين الإسلامي من جهة ثانية، والصراع بين حضارتين غربية ومشرقية، كما يعبر عن الصراع بين قوتين عسكريتين غير متكافئتين، قوة استعمارية تريد استغلال البلاد والعباد، وقوة مظلومة هي صاحبة الحق في وطنها وهي دولة الأمير عبد القادر التي كانت تصبو إلى تحقيق الاستقلال والسيادة وتحرير البلاد من آثار الاستعمار الفرنسي. ومن هنا تتوضح لنا بجلاء أهمية دراسة نقود الأمير من

(15292/1)

الناحية الحضارية.

... ذلك لأن إعلان هذا الشعار على الوسائل الإعلامية للنقود، يعتبر المبدأ الديني الذي قامت على أسسه الدولة الجزائرية.

... 2) مسكوكات الطراز الثاني النحاسية المضروبة بتاقدمت منذ عام 1250 هـ/ 1835 م تمثل أهمية خاصة في تاريخ الصراع بين قوات الأمير عبد القادر وبين قوات الفرنسيين الذين راحوا يكتسحون أراضي الجزائر مقتحمين حدود دولته، خصوصاً في فترة حكم »تريزل« قائد حامية وهران، بعد أن سادت فترة من الهدوء والسلم بين الطرفين (فرنسا والأمير).

(15293/1)

... وكان اللقاء في معركة المقطع التي انتصرت فيها الجيوش الجزائرية وسجل الأمير أروع انتصاراته على الفرنسيين، وذلك سنة 1250 هـ/ 1834 ـ 1835 م. وفي هذه السنة، أي سنة الانتصارات والسنوات التي تلتها، أصدرت دار السكة بتاقدمت كميات من نقود »المحمدية« وعليها شعار جديد يعتبر امتداداً

وتأكيداً للشعار السابق على هذا النحو:

... ... مركز الوجه: ... ... مركز الظهر:

... ... إن الدين ... ... ضرب في

... ... عند الله ... ... تاقدمت

... ... الإسلام (لوحة 2) ... 1250

(15294/1)

... يفصل كتابة الوجه صفان (خطان) أفقيّان، وقد نفذت بطريقة الحفر البارز بأسلوب الخط النسخي المغربي ذي الحروف المعجمة.

... وقد تواصل إنتاج هذه النقود ذات الشعار: {إن الدين عند الله الإسلام}(1) طوال الفترة الممتدة من 1250 **إلى** 1257 **هـ/** 1834 **إلى** 1841 **م، طبقاً للنماذج المحفوظة بالمتاحف حتى اليوم(2)**

---

(1) الآية 19 **من سورة آل عمران.**

(2) يوجد النقد المضروب سنة 1257 **هـ ضمن مجموعة تونس (انظر:** Ferrugia De Candida **في بحثه حول:**

Monnaies algerienne du musée du Bardo, R. , pp. 1941, 135, N° 47, 46, 45Tunisienne, T. 171–172).

(15295/1)

.

... والمسكوكات بهذه المفاهيم والتصورات الجديدة عكست لنا أحداثاً ووقائع كثيرة عاشتها البلاد خلال الفترة الواقعة بين 1250 **هـ و** 1257 **هـ**

... ومن بين الأحداث البارزة التي عاصرتها النقود وضربت خصيصاً للتعبير عنها، تلك المعاهدات التاريخية الهامة التي عقدتها فرنسا مع الأمير عبد القادر وخصوصاً معاهدة »تافنا«(1)

---

(1) **راجع نص المعاهدة كاملاً في "تحفة الزائر..."، ص.** 277؛ **وتشرشل، حياة الأمير عبد القادر...، ص.** 117؛ **والبحث الأكاديمي الذي أنجزه:** Raphael Danziger, Abdel-Qadir and Algerians, New-York - London, 1977, pp. 139–153.

(15296/1)

التي عقدت في 14 **صفر سنة** 1253 **هـ/** 30 **ماي** 1837 **م.**

فهذه المعاهدة كانت عند الأمير حجر الزاوية لاستكمال

صرح الإصلاحات التي بدأ منذ أمد طويل، واستطاع خلال سنوات 1254 هـ - 1255 هـ/ 1838 - 1839 م أن يسير بخططه الإصلاحية إلى الأمام بسرعة فائقة.

... وهنا تتضح أسباب ضرب هذه النقود من قبل الأمير عبد القادر، كما تتضح أيضاً أسباب نقش {إن الدين عند الله الإسلام}، حيث أراد مؤسس الدولة من جهاده ضد الفرنسيين إقامة دولة تتوافر فيها شروط السيادة والاستقلال عن السلطنة العثمانية من جهة وسلطنة المغرب من جهة ثانية.

(15297/1)

ولعل الهدف الأسمى الذي كان يرمي إلى تحقيقه هو جعل عرب الجزائر الذين تشتتوا شعباً واحداً و»استمالتهم إلى المبادئ الإسلامية، واستدعاؤهم إلى فضائل أهل القرون الأولى للهجرة، وإيقاظهم من الغفلة «(1).

... يدل على هذا الاتجاه الإصلاحي الآيات الكريمات التي نقشتها على نقوده والتي تؤكد هذه الخطوات الإصلاحية.

وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا إن كل آية من تلك الآيات تكشف النقاط عن جوانب مختلفة من سياسة الأمير التي اتبعها في صراعه من أجل البقاء وإثبات السيادة

(1) محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر...، ص. 53.

(15298/1)

والوحدة الوطنية والدينية لشعب الجزائر.

... 3 ـ أما الطراز الثالث من نقود الأمير عبد القادر، فهو ما ضربه من الفضة وعرف باسم »النّصفية« (1). وبالرغم من صغر حجمها (14,8 ملم) وخفة وزنها (0,40 غ)، فقد حملت نصاً كتابياً في غاية الأهمية نفذ بطريقة الحفر البارز وبأسلوب الخط النسخي المغربي، وزعت عبارته بهذا الشكل:

... ... الوجه:

(1) يوجد نموذجان بالمتحف الوطني للآثار بالجزائر. (انظر الجيلالي، المرجع السابق، ص. 10؛ وهناك نقد آخر ضرب سنة 1258 هـ في مجموعة باريس:(H. Lavoix, op. cit., Vol. 2, N°. 1106.

(15299/1)

... ... الله

... ... حسبنا

... ... ونعم

... ... الوكيل(1) (لوحة 1)

... ... الظهر:

... ... ضرب في

... ... تاقدمت

... ... 1254.

... وتعد نقود »النّصفية« من النقود النادرة في العالم، إذ لا يوجد منها سوى ثلاث قطع فقط، اثنتان منها بالمتحف الوطني للآثار بالجزائر، مؤرختان بـ 1254 هـ، والثالثة في باريس مؤرخة عام 1258 هـ وتدل الآية الكريمة المسجلة عليها على أبرز الأحداث والمستجدات التي عرفتها الدولة الجزائرية خلال سنوات: 1254 ـ 1255 هـ/ 1838

---

(1) الآية 173 من سورة آل عمران.

(15300/1)

ـ 1839 م. وفي مقدمتها أتاحت معاهدة »تافنة« مكاسب معتبرة للأمير، وأعطته فترة من الهدوء والسلام تمكن

خلالها من تثبيت سلطانه على القبائل وإجراء إصلاحات داخلية منها تنظيم جيشه وتدريبه. واتسعت رقعة دولته، ولم يبق لفرنسا سوى شريط ساحلي ضيق بوهران وآخر في الجزائر.

... ولكن من زاوية أخرى، يمكن استنتاج أن هذا الشعار كان يصور الوضع الصعب الذي عاشه الأمير. فقد اشتد ضغط الفرنسيين خلال السنوات التالية للمعاهدة وطلب المساعدة من الخلافة العثمانية(1)

---

(1) وجه الأمير عبد القادر رسائل إلى السلطان العثماني عبد المجيد خان والوزير الأعظم ومصطفى رشيد باشا وغيرهم. تنصب في طلب المعونة. (انظر: مولود قاسم نايت بلقاسم، »الأمير عبد القادر والخلافة العثمانية«، مجلة الثقافة، عدد خاص، 1983، صص. 9 ـ 28). وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى أن تاريخ إرسال هذه الرسائل إلى السلطنة العثمانية كان سنة 1257 هـ/ 1841 ـ 1842 م.

(15301/1)

في جهاده ضد الفرنسيين ولكن دون جدوى. فالتجأ إلى الله سبحانه وتعالى يطلب نصره ويوكل إليه أمره.

... وفي ضوء ما سبق، يمكن استنتاج بعض الأمور

والحقائق التاريخية التي تؤكد مدى الأهمية الكبيرة التي يوليها الأمير عبد القادر للسكة التي كانت بمثابة وسائل إعلامية ودعاوية عبر بواسطتها عن أهم القضايا والأحداث التي عاشها منذ إعلانه الجهاد على العدو الفرنسي. وقد أشرنا إلى بعض هذه القضايا التاريخية عند دراستنا للأصناف السابقة، ونستخلص البعض الآخر من النماذج التالية:

(15302/1)

... من بين الطرز النقدية الأخرى طراز رابع ضرب تاقدمت عام 1256 هـ/ 1840 ـ 1841 م(1). ونقرأ عليه نصوصاً كتابية نفذت بأسلوب الخط النسخي المغربي المعروف:

... ... الوجه: ... الظهر:

... ربنا ... ... ضرب في

أفرغ علينا ... تاقدمت

... ... صبراً وتوفنا 1256

... ... مسلمين ... (2) (شكل 2)

... واضح جداً أن الهدف من تسجيل هذه الآية على نقود الأمير هو التعبير عن حالة وأحوال المسلمين معه وعدم

استقرار الأمور في الدولة بسبب الضغط الفرنسي على

---

(1) يوجد النقد بباريس.

(2) الآية 126 من سورة الأعراف.

(15303/1)

أراضيه، وقلة الأنصار، والتخوف من المصير المحترم في نهاية المطاف.

... وقد جعل الأمير من هذه الآية وغيرها من الآيات شعاراً ودعوة إلى حمل جيوشه على المضي قدماً في تحرير أراضي الدولة واستعادة سيادتها، يوحي تاريخ 1256 هـ بقوة الدولة واحتفاظها بمدينة تاقدمت.

... ولم يكتف الأمير بهذه الآية، بل ضرب نقوداً تحمل شعاراً مشابهاً هو: »ربنا أفرغ علينا ـ صبراً وثبت ـ أقدامنا« (شكل 3). وتأسيساً على ما سبق، نستطيع القول إن الأمير عبد القادر الجزائري قد لجأ إلى الحرب النفسية عن طريق الوسائل الإعلامية والدعاوية

(15304/1)

الممثلة في النقود. وكان مصدر هذه السياسة القرآن الكريم ممثلاً في بعض الآيات الكريمات التي قصد من ورائها كسب الأنصار واستمالتهم وإثارة حماسهم إلى الجهاد في سبيل الله من أجل تحرير الوطن وقتال الغزاة. وجاءت نقوده خالية من اسمه لتكون شديدة المفعول في النفوس. ويتضح من منطوق نصوصها أنها تصوير واقعي ومرآة عاكسة لأهم الأحداث التي شهدتها الدولة وهي تحاول بناء أجهزتها والتمكين لنفوذها وبسط سيادتها على الجزائر.

(15305/1)

... ومهما يكن من أمر، فإن دراسة المسكوكات الفضية والنحاسية في عهد الأمير عبد القادر ما زالت مشكلة تحتاج إلى مزيد من البحث والاستقصاء، ومقارنة (أو مقابلة) نصوصها بما ورد بخصوصها في المراجع التاريخية، لعل ذلك كله يضيء لنا السبيل في هذا المجال.

... ويبقى السؤال الذي يُطرح أمامنا وهو: لماذا لم ينقش الأمير عبد القادر اسمه على النقود التي أصدرتها دار الضرب بالحاضرة تاقدمت؟

... ويبدو أن الزهد في نقش »الاسم على السكة« لم يكن

يعني العزوف عن الملك أو الزهد فيه. فوقائع الأحداث السياسية التي عاشها مؤسس

(15306/1)

الدولة خير دليل على ذلك على الرغم من أهمية السكة بصفتها شارة من شارات الملك. إذ لا تقل أهمية عن ذكر اسم الخليفة في الخطبة ، فلم يعبأ بها الأمير عبد القادر. ولعل موقفه هذا جاء اقتداء بمن سبقوه من الحكام المسلمين خصوصاً الأمويين والزيريين.

...

الخلاصة

... وبالرغم من قلة المعلومات التي تضمنتها نقود الأمير، فهي تكشف عن حقائق كان الأمير ينوي تحقيقها في الميدان حتى يثبت شخصية الدولة السياسية والاقتصادية على حد سواء، منها:

1 . الرغبة في القضاء على تعدد أنواع النقود التي كانت شائعة في التداول.

(15307/1)

---

2 . تحديد طرق التعامل في البيع والشراء طبقاً لمعايير السكة الجديدة التي حددت أقيامها بالنسبة للنقود الأجنبية.

3 . إحياء تقاليد السكة العربية اتلي فقدت شخصيتها الحضارية منذ عهد الأتراك العثمانيين الذين أفرغوها من محتواها الروحي.

4 . استعمال الآيات القرآنية لأول مرة على السكة المغربية، خاصة الآيات {ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين} و {ربنا افرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا} و {إن الدين عند الله الإسلام}.

(15308/1)

نموذج من رسالة الكندي في اللثغة

المنطق في الفكر المغربي الوسيط

... ... الدكتور عبد السلام بن ميس

... ... كلية الآداب – الرباط

مقدمة

... أورد في البداية التنبيه إلى كلمة " مغرب " الواردة في العنوان أريد بها الإشارة إلى شمال إفريقيا والأندلس معا ، أي ما كان ممثلا في الإمبراطورية الموحدية في العصر الوسيط. هذا من الناحية الجغرافية .

أما من الناحية التاريخية فإن المقصود بالفكر المغربي في العنوان هو النشاط الثقافي الذي أفرزته الحضارة المغربية منذ بداية اتصالها

(15309/1)

بالأندلس العربية الإسلامية . وحددنا هذه البداية بالنسبة للمنطق في القرن العاشر الميلادي . وبذلك نكون قد أهملنا الفكر المغربي القديم حيث اتصل المغاربة مباشرة باليونان والرومان ، لعدم تمكننا من الإطلاع على مصادر تحيل على هذه الفترة ، خاصة في ميدان المنطق .

... لماذا وقع اختيارنا على هذا الموضوع ؟

... إن السبب الرئيسي لهذا الاختيار هو كون موضوع " المنطق في الفكر المغربي " غير معروف بما فيه الكفاية ، لا فقط عند عماة المثقفين ، بل أيضا عند أغلبية الذين أرخوا للمنطق العربي الإسلامي بشكل عام . لكم

(15310/1)

كانت دهشتنا كبيرة عند رجوعنا إلى كتب تاريخ المنطق العربي الإسلامي حيث وجدنا مؤلفيها لا يعيرون للمنطق المغربي أي اهتمام. ففي كتابه "تطور عند العرب " (1) يعرض نيكولا ريشر قائمة بأسماء الناطقة العرب منذ الفارابي

(؟ – 950 م) حتى الأخضري (؟ – 1575 م) أي منذ القرن 9 م حتى القرن 16 م ، دون

---

(1) نيكولا ريشر ، تطزر المنطق العربي ، ترجمة محمد مهران ، دار المعارف ، 1985 ، صدر الأصل الإنجليزي سنة 1964 تحت عنوان : The Development of Arabic Logic , Univ . of Pittsburgh Press .

(15311/1)

أن يذكر من بينهم ولو منطقيا واحدا من المغرب الأقصى. تحتوي قائمته هذه على 166 منطقيا عربيا إسلاميا من بينهم 14 مفكرا أندلسيا كتبوا في المنطق ومفكرا واحدا من المغرب الأدنى وهو ابن خلدون وأربعة مفكرين من المغرب الأوسط، أي الجزائر الحالية وهم : محمد بن أحمد التلمساني (؟ – 1379 م) ومحمد بن مرزوق العجيسي التلمساني (؟ – 1438 م) وأبو عبد الله محمد بن يوسف

السنوسي (؟ – 1488) وأبو زيد عبد الرحمان بن محمد الأخضري (؟ – 1575 م). وفي كتابه " منطق العرب" (1)

---

(1) عادل فاخوري ، منطق العرب (من وجهة نظر المنطق الحديث) ، بيروت، دار الطلية للطباعة والنشر، 1980.

(15312/1)

لا يحيل عادل فاخوري على أي منطقي مغربي، ويعتبر الجزائريين السنوسي والأخضري مجرد شراح ولا أصالة لهم.

إن هذه المواقف من تاريخ الفكر المغربي بشكل عام ومن الإنتاج المغربي في المنطق بشكل خاص هي التي دفعتنا إلى محاولة التحقق من هذه الأحكام والرجوع إلى المصادر التاريخية للفكر المغربي لمحاولة فحص هذه المواقف وتقويمها إن اقتضى الحال.

تطور المنطق العربي الإسلامي بشكل عام

... من المعروف أن المنطق في الفكر العربي الإسلامي بشكل عام مر بمجموعة من المراحل نجملها فيما يلي :

(15313/1)

... 1– فترة الترجمة ودامت طيلة القرن 9 م .

... 2– فترة الشروح الأولى ودامت كل القرن 10 م. وفي هذه الفترة نشأت مدرسة بغداد ... المعروفة التي تمركز فيها المنطق العربي بصفة عامة خلال القرن 10 م. رغم هذا ... التمركز للمنطق في بغداد، فإن الأندلس أيضا، في نفس القرن، عرفت مناطقة أكفاء ... مثل الحمار (؟–1010 م) وابن بدر الأندلسي (؟ – 1020 م) وابن البغونش الطليطلي ... (؟ – 1052 م).أما المغرب في القرن 10 م فلم يكن يولي أي اهتمام للدراسات ... الفلسفية والمنطقية حسب نيكولا ريشر نفسه (1)

---

(1) نيكولا ريشر، المرجع السابق، ص.163.

(15314/1)

.

... 3– فترة ابن سينا . وهي التي دامت كل القرن 11 م. وفيها ظهر بن حزم الأندلسي

... (؟ – ... 1064) والدارمي الأندلسي (؟ – 1070 م).

وبقدر ما كان ابن سينا مسيطرا ... علىالفكر المشرقي بقدر ما كان ابن حزم مستقلا عن ابن سينا وحتى عن

الغزالي ... الذي ظهر في نفس الفترة. ومنذ القرن 11 م تم إدخال المنطق في التعليم الديني تحت ... تأثيرالغزالي بالمشرق وابن حزم بالمغرب والأندلس.

... 4– الفترة الأندلسية. وهي المتمثلة في القرن 12 م. وفيها ظهر ابن رشد (؟ – 198 م) ... وأبوالصلت (؟ – 1134 م) وابن حسداي (؟

(15315/1)

– 1140 م) وابن باجة (؟ – 1138 م) ... وابن زهر (؟ – 1162 م) وابن ميمون (؟ – 1204 م) وابن بندود (؟ – 1200 م) ... وسمي ... القرن 12 م الفترة الأندلسية لكون الأندلس ساهمت بنصف مناطقة العرب ... لهذا القرن. وكان أغلبهم من المتسوى الرفيع.

... 5– الفترة الذهبية في تاريخ المنطق العربي الإسلامي. وهي التي تمثلت في القرن 13 م. ... فقد كان عدد المناطقة وعدد المؤلفات في المنطق لهذه الفترة أكثر منها في أية فترة ... أخرى. وفيها ... انفصل المنطق عن الطب واربتط بعلم الكلام وبالموضوعات العلمية ... خاصة

(15316/1)

الرياضيات والفلك وفي هذه الفترة فتر نشاط مدرسة بغداد ونشط المنطق ... بفارس. أما الأندلس ... فلم تساهم إلا بمنطقيين هما : ابن طملوس (؟ – 1223 م) ... وابن سبعين (؟ – 1270 ... م). ويمكن تفسير هذا التراجع بالعداء الشعبي والديني ... للمنطق بالأندلس في هذه الفترة. ... أما في المشرق العربي فقد وصل المنطق العربي ... الإسلامي قمة تطوره مع ظهورا لخونجي(؟ – 1249 م) والأرموي (؟ – 1283 م) ... والأبهري (؟ – 1265 م)والقزويني الكاتبي(؟ – 1292) وابن تيمية (؟ – 1328 م).

(15317/1)

... 6– فترة بداية الجمود التي تنطلق ابتداءا من القرن 14 م. وفيها توقف التعامل المباشر ... مع النصوص الأرسطية خاصة بالمشرق. وأصبح العلماء والدارسون يلتمسون المنطق ... من المختصرات والشروح المحلية، وهي ظاهرة سبق لابن خلدون أن اشتكى منها في ... مقدمته. وانطلاقا من هذه الفترة، لم يبق أي إبداع في المنطق العربي الإسلامي حسب ... ريشر وفاخوري وغيرهما

من مؤرخي المنطق العربي. وأصبح المهتمون بهذا الأخير ... مجرد معلمين يشرحون النصوص ويضعون عليها حواشي. وفي هذه الفترة وبعدها ... سيطرت على دارسي ومدرسي

(15318/1)

المنطق أمهات الكتب التالية :

(أ) ... "مطلع الأنوار" للأرموري (1198 – 1283 م).

(ب) الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية للقزويني الكاتبي (؟ – 1277 م). وعلى ... هذا الكتاب شروح كثيرة أهمها : "تحرير القواعد المنطقية في شرح الرسالة ... الشمسية" للتحتاني (؟ – 1365 م) و " شرح الشمسية في المنطق" لمسعود بن عمر ... التفتازاني (؟ – 1390 م). ويعتبر عادل فاخوري كتاب " الرسالة الشمسية" من أهم ... للمنطق عند العرب. وفيه معظم الموضوعات المتسحدثة في هذا الميدان إلى جانب تلك ... التي عرضت في كتاب " مطالع

(15319/1)

الأنوار" للأرموري وهي : إحصاء شامل للقضايا ... المقيدة بالجهة والزمان وبناء صارم لنظرية المجموعات وبحث مستوف للقضايا ... الشرطية مع محاولة نظمها في نسق استنباطي وإشارات أولى إلى منطق العلاقات.

(ج) كتاب إيساغوجي في المنطق للأبهري (؟ – 1964 م). وعلى هذا الكتاب أيضا شروح ... كثيرة نذكر منها : " شرح على إيساغوجي" لأحمد بن عبد الرحمان الأبدي البجائي ... (ق 13 م)؛ "سروجي المشرق على إيساغوجي المنطق" لإبراهيم ... بن محمد بن عبد ... القادر التادلي الرباطي (؟ – 1893 م)؛ " شرح على الكليات المعروفة

(15320/1)

بإيساغوجي" ... لزكرياء الأنصاري؛ " شرح على إيساغوجي في المنطق" لمحمد

... بن يوسف السنوسي (1428 م – 1490 م)؛ "شرح إيساغوجي" لعلي بن محمد ... القلصادي الأندلسي؛ " فوائد في الرسالة الأثيرية" لمحمد بن حمزة الفناري.

(د) مختصر في علم المنطق للسنوسي (1428 م – 1490 م). وعليه شروح مختلفة أهمها : ... "شرح المختصر في علم المنطق" للسنوسي نفسه؛ "نفائس الدرر في حواشي ... المختصر" لابن مسعود اليوسي؛ "حاشية على شرح

مختصر السنوسي في المنطق" ... للحسن اليوسي (؟ – 1102 هـ) ؛ " الزواهر الأفقية في شرح الجواهر

(15321/1)

المنطقية" ... لأحمد بن عبد العزيز السجلماسي الهلالي (؟ – 1761 م).

... هذه باختصار هي أهم المراحل التي مر بها المنطق في العالم العربي الإسلامي بشكل عام.

تطور المنطق في الفكر المغربي الوسيط

... أما فيما يخص الكتابات المغربية في المنطق فإن مؤرخي هذه المادة لا يولونها الاهتمام الذي تستحقه في نظرنا. لقد بدأ مغاربة العصر الوسيط يكتبون في المنطق مباشرة بعد فترة انحطاط المنطق العربي الإسلامي المشرقي والأندلسي . وحسب المصادر التي اطلعنا عليها وجدنا أن الفكر المغربي الوسيط أفرز أكثر من ستين منطقيا لا

(15322/1)

تزال أغلب مؤلفاتهم عبارة عن مخطوطات في خزانات مغربية مختلفة. وعن هؤلاء المناطقة المغاربة سوف نتحدث الآن.

... حسب المعلومات التي مدتنا بها مصادر تاريخ الفكر المغربي، لم يظهر أي مؤلف في المنطق بالمغرب على عهد المرابطين (1070 م – 1147 م). ففي هذا العصر اهتم الناس بالعلوم الدينية واللغوية فقط وحسب الأستاذ بن شريفة (1)، يمكن اعتبار أبي علي الماكري (؟ – 1270 م)، صاحب كتاب " أسهل الطرق إلى فهم المنطق " أول مغربي ألف في المنطق

---

(1) محمد بن شريفة ، أول تأليف في المنطق، المناظرة ، عدد 2، 1989، ص.27–56.

(15323/1)

---

(1) . والماكري هذا تلميذ لأبي الحجاج يوسف بن محمد المكلاتي (؟ – 1228 م) صاحب كتاب " لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول " (2) . ولقد عاصر ميلاد هذا الفيلسوف المغربي ظهور الدولة الموحدية (1147 م – 1269 م). في هذه الفترة

---

(1) تم تحقيق كتاب الماجري من طرف الأستاذ بن شريفة، أنظر الخامس (4) أعلاه.

(2) أبو الحجاج يوسف بن محمد المكلاتي ، لباب العقول في الرد على الفلاسفة في علم الأصول، تحقيق فوقية حسين محمود، القاهرة، دار الأنصار، 1977. ننبه هنا إلى أن التحقيق الذي قامت به فوقية حسين سيء جدا.

(15324/1)

ظهرت مؤلفات مغربية أندلسية في المنطق على شكل مداخل، من بينها :

كتاب " أسهل الطرق إلى فهم المنطق" للماكري؛

كتاب "الضروري في المنطق" لابن لاشد (؟ – 1198 م) ؛

"شرح منظومة ابن سينا في المنطق" لابن بندود (؟ – 1200 م)؛

" مقال في صناعة المنطق" لابن ميمون (؟ – 1204 م)؛

كتاب " المدخل لصناعة المنطق " لابن طملوس (؟ – 1223 م).

... كما ظهرت بالمغرب شخصيات أخرى اشتهرت بإتقانها للعلوم العقلية. ومن بين هؤلاء أبو عمر بن الكتاني الفاسي (؟ – 1202) و أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن حجاج بن الياسمين الفاسي (

(15325/1)

؟ – 1270 م) وأبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي(ق 13 م) وأبو محمد بن يحيى الأغماتي (ق 13 م) وأبو الحسن علي بن أحمد التجيبي الحرالي (ق 13 م) الذي يقول عنه الأستاذ المنوني بأنه كان أعلم الناس بالمنطق على عهد الموحدين.

... وهكذا يمكن ملاحظة أن القرن 13 م الذي يعتبره مؤرخو المنطق العربي الإسلامي بداية لفتور الاشتغال بالمنطق في العالم الإسلامي بصفة عامة، هو في المغرب، على العكس من ذلك، قرن ازدهار ونشاط ثقافي مكثف فيما يخص العلوم العقلية بشكل عام والمنطق بشكل خاص. وقد يقول بأن هذا الإنتاج

(15326/1)

الثقافي في ميدان العلوم العقلية راجع إلى التشجيع الذي قدمته السلطة الموحدية لرجال الفكر بصفة عامة. هذا صحيح، ولكن ينبغي أن لا ننسى، من جهة أخرى، أن فقهاء هذه الفترة عرقلوا ما أمكنهم النشاط الفكري في ميدان المنطق على الخصوص وذلك بتحريم الاشتغال به.

وهذا ما فعله ابن جبير وأبو زيد الفازازي وابن قسوم الإشبيلي وجابر بن محمد المالقي وأبو عبد الرحمان الركراكي (1) . بل حتى الصوفية، وعلى رأسهم ابن سبعين، صارعوا المنطق في صورته الأرسطية. ولكن،

---

(1) أنظر : محمد بن شريفة، المرجع السابق، هامش (4) أعلاه.

(15327/1)

رغم كل تلك العراقيل، نشط التأليف في المنطق ودافع عنه مفكرون كثيرون.

... أما القرن 14، الذي يعتبره مؤرخو المنطق العربي الإسلامي فترة جمود، فيمثل بالنسبة للمغرب فترة ازدهار في ميدان العلوم العقلية. ففي هذه الفترة ظهر كتاب " الكليات في المنطق" لابن البناء المراكشي (؟ – 1322 م) و "شرح لمختصر الخونجي" لابن مرزوق التلمساني (؟ – 1379) و " ملخص في المنطق" لابن خلدون (؟ – 1406 م) لم يحفظه الزمن، لكنه خصص فصلا للمنطق في مقدمته. كما برع في هذا الميدان دون التأليف فيه كل من محمد بن محمد بن علي بن

(15328/1)

البقال (؟ – 1325 م) وأبو العباس أحمد بن شعيب الجزنائي

(؟ – 1349) وأبو زيد عبد الرحمان بن أبي الربيع اللجائي (؟ – 1372 م).

... أما في القرن 15 م، فقد تقوت سلطة الفقهاء أكثر وتقلصت الفلسفة بالمغرب، وزامن كل ذلك بداية اختفاء المؤلفات الأندلسية، وبالتالي عرف التأليف في ميدان المنطق بالمغرب خمولا واضحا بحيث لم يظهر في قرن بكامله، وهو القرن 15 م، إلا كتابان هما : " شرح إيساغوجي" لعلي بن محمد بن يوسف السنوسي (1428 م – 1488 م) وباختفاء المؤلفات الأندلسية أصبح التدوين في ميدان المنطق متمغربا أكثر

(15329/1)

لكنه أيضا أصبح مدرسيا أكثر. فانتشرت المنظومات الرجزية المعدة للطلبة وكثرت الشروح وشروح الشروح. ومن النصوص التي كانت لها شهرة كبيرة على عهد السعديين (أي القرنين 16 و 17) أرجوزة " الذرر المنطقية" لعبد العزيز بن عبد الواحد المراكشي (؟ –

1572) وأرجوزة " السلم المرونق" للأخضري (؟ – 1585 م) و " منظومة رجزية في المنطق" لأبي زيد عبد الرحمان البوعقيلي الجزولي (؟ – 1598 م) و " شرح سلم الأخضري" لحسن بن يوسف الفاسي الزياني

(15330/1)

(؟ – 1614 م) و " الطالع المشرق في أفق المنطق" لمحمد العربي الفاسي (؟ – 1642 م) وأبو العباس أحمد بن علي المنجور الفاسي (؟ – 1587 م) وأحمد التقليتي المراكشي (؟ – 1590 م) وأبو القاسم بن سودة الفاسي (؟ – 1595 م) وعلي الياصلوتي (؟ – 1630 م) ويبيبورك السملالي (؟ – 1648 م) وياسين العليمي (؟ – 1651 م) وغيرهم. ومن خواص العلوم التجريبية والرياضيات والمنطق. ولقد عرف عهد السعديين مزيدا من الإقبال على علوم القرآن والدراسات اللغوية والأدبية. أما كتب العلوم العقلية فقليلة جدا. ففي المنطق مثلا لم يتعد

(15331/1)

عدد النصوص التي ألفت في هذا العلم خمسة وهي المذكورة آنفا. وفي هذه الفترة أيضا عمت ظاهرة الاختصار وقل الإبداع. وبعد وفاة المنصور الذهبي أصاب الحركة الفكرية، بشكل عام، فتور كبير. ولما جاء المولى محمد بن عبد الله حرم الاشتغال بعلم الكلام والمنطق والفلسفة. ومن ثم اتجه اهتمام الشغوفين بالعلوم العقلية إلى الاشتغال بالرياضيات والهندسة. ومن بين المبرزين في هذه العلوم نذكر ابن سليمان الروداني (؟ – 1684 م) وأبو زيد الفاسي (؟ – 1685 م) وأحمد بن مبارك اللمطي وعبد الوهاب أدراق وعبد الله بن عزوز المراكشي.

(15332/1)

أما في يخص مادة المنطق، فرغم الحصار الذي ضربه عليها الفقهاء والسلطة السياسية فقد
ظهرت فيها مؤلفات لا يستهان بقيمتها العلمية. نذكر من بينها كتاب : "القول الفصل في تمييز الخاص عن الفصل" لأبي علي حسن بن مسعود اليوسي (؟ – 1691 م) الذي يصفه الهلالي بكونه "أعجوبة الزمان وعلامة الأوان"، ثم " حاشية على مختصر السنوسي" لنفس اليوسي و " تقييد في النسبة الحكمية بين الطرفين

الموضوع والمحمول" له أيضا، و " الجواهر المنطقية" لعبد السلام بن الطيب القادري الفاسي (؟ – 1689 م) و " شرح سلم الأخضري"لمحمد بن مدين

(15333/1)

السوسي (؟ – 1709 م) وشرح آخر لسلم الأخضري لأبي بكر الفرجي السلاوي (؟ – 1726 م).

... وفي هذا العصر أيضا، أيام السلطان محمد بن عبد الرحمان، أسست المطبعة الحجرية بفاس وكان اختيار كتاب لطبعه بالمطبعة الحجرية هو في حد ذاته مقياسا لأهمية الكتاب. وبها طبع لأول مرة مؤلف مغربي في المنطق وهو كتاب : " الزواهر الأفقية في شرح الجواهر المنطقية" لأحمد بن عبد العزيز الهلالي (؟ – 1761 م).

بن عبد الله الفاسي (؟ – 1773 م) و " حاشية على مختصر السنوسي في المنطق" لأبي عبد الله محمد بن الحسن بناني

(15334/1)

(؟ – 1773 م) و " شرح السلم المرونق" لنفس بناني و "تقييد في الفرق بين الدلالة العادية والوضعية" له أيضا و " شرح منظومة الجرادي البوعقيلي" لمحمد بن عبد الله بن يعقوب، و "شرح إيساغوجي" لعالم من إيلالن و " تقييد في الفرق بين النسبة والحكم" للطيب بن عبد المجيد بن كيران (؟ – 1812) و " حاشية على شرح بناني للسلم" لعلي بن إدريس قصارة الحميري (؟ – 1843 م) و " سروجي المشرق على إيساغوجي المنطق" لإبراهيم بن محمد التادلي الرباطي (؟ – 1893 م) و " شرح على السلم" لأحمد بن الطالب بن سودة

(15335/1)

(؟ – 1919) و "ختم سلم الأخضري في المنطق" للمكي البطاوري الرباطي (؟ – 1936 م) وهو كتاب طبع أيضا بالمطبعة الحجرية بفاس. وبالإضافة إلى هذه الشروح المحلية كان المغاربة يتعلمون ويعلمون المنطق حتى الخمسينات من القرن العشرين اعتمادا على المصادر الأساسية التالية :

... – كتاب " إيساغوجي في المنطق " لأثير الدين الأبهري (؟ – 1265 م)؛

... – كتاب " السلم المرونق " للأخضري (؟ – 1575 م) وهو كتاب طبع غير ما مرة بالمطبعة الحجرية بفاس نظرا لقيمته العلمية.

... – كتاب " الجمل " للخونجي (؟ – 1294 م).

(15336/1)

... – "مختصر في المنطق" للسنوسي (1428 م – 1490) الذي كان أهم كتب التدريس بالقرويين منذ القرن 15 م.

... – " الرسالة الشمسية " للقزوين الكاتبي (؟ – 1256 م) .

... – " شرح السلم المرونق " للقويسني. وهو أشهر الكتب المتداولة بمدارس سوس العتيقة (1) .

ما هي القيمة العلمية لما كتبه المغاربة في المنطق ؟

... ... هذه عجالة تاريخية حول تطور التأليف في المنطق بالمغرب . ولقد لاحظنا أن ما دون في المنطق بالمغرب، من حيث الكم، كثير فعلا، رغم

---

(1) أنظر : المختار السوسي ، سوس العالمة، مطبعة فضالة، المحمدية ، 1960.

(15337/1)

المعارضة الشديدة التي كان يبديها، من حين لآخر، بعض الفقهاء وبعض رجال السلطة ضد المنطق باعتباره مدخلا للفلسفة والفلسفة شر. ولكن مؤرخي المنطق العربي الإسلامي لم يأخذوا بعين الاعتبار الإنتاج الفكري المغربي في ميدان المنطق لاعتقادهم أن هذا الإنتاج لا يتعدى مستوى الشروح والحواشي. وبالتالي فلا إبداع فيه ولا أصالة. وهذا، في اعتقادنا، حكم يقتضي المراجعة. إذ يكفي أن نأخذ كتابا من بين الكتب المذكورة أعلاه، وليكن على سبيل المثال كتاب الهلالي الآنف الذكر يطلقه بعض مؤرخي المنطق العربي الإسلامي، عربا كانوا

(15338/1)

أو أجانب، على الفكر المغربي العلمي. يقول المرحوم عبد الله كنون في كتابه : " النبوغ المغربي" (1) عن الهلالي، مؤلف " الزواهر الأفقية في شرح الجواهر المنطقية" (2) ما يلي : "أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي هو أحد الأئمة في المنطق والحساب ...

والهندسة، وفاق جميع

---

(1) عبد الله كنون ، النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثالثة، 1975.

(2) أحمد بن عبد العزيز الهلالي، الزواهر الأفقية في شرح الجواهر المنطقيةلأ، طبع بالمطبعة الحجرية بفاس سنة 1313 هـ، في 272 صفحة.

(15339/1)

أقرانه في تحقيق هذه العلوم . هو صاحب " الزواهر الأفقية في شرح الجواهر المنطقية " ، وهو شرح ل " لمنظومة القادرية في المنطق " لأبي الفضل عبد السلام القادري . وشرحها هذا قل أن يكون له نظير . استقى من بحره من أتى بعده " . ولما رجعنا إلى هذا الكتاب وجدنا فعلا مؤلفا يستحق أن يقارن بما يعتبره عادل فاخوري قمة العطاء العربي الإسلامي في المنطق المتمثل في كتابي " مطالع الأنوار " للأرموي (؟ – 1283 م) و " الرسالة الشمسية " للقزويني الكاتبي (؟–1256 م) . فكتاب الهلالي هذا ليس مجرد تقييد أو حاشية . ولكنه

(15340/1)

مؤلف تحتوي طبعته الحجرية ، وهي في 272 ص ، على إحصاء شامل لكل القضايا. وفي مبحث القضايا بالذات استفاض الكاتب على الخصوص في القضايا الشرطية . وله أيضا في مبحث الدلالة كلام طويل وملاحظات أساسية لا تخلو من أصالة . بل نجده أحيانا يمر من علم المنطق إلى فلسفة المنطق فيحلل ويناقش مفهوم الكذب ومفهوم التناقض ومفهوم الخبر في الجمل الخبرية ، ويربط كل ذلك بمبحث الدلالة . ونجده أيضا يمارس نوعا من علم النفس المعرفي فيميز بين الكلام النفسي والكلام اللساني والتصديق النفسي والتصديق اللساني . أما مبحث الموجهات

(15341/1)

فيعتبر في اعتقادنا من أغنى المباحث وأكثرها أصالة عند الهلالي . وأثناء حديثه عن القضايا الحملية و أصنافها تعرض الكاتب إلى أحوال المحمول في علاقته بالسور وهو أمر قل من يتحدث عنه في المناطقة العرب (1) .

... وهكذا نلاحظ أن المغاربة الذين اشتغلوا بالمنطق منذ

القرن 13 م ليسوا مجرد معلمين للمنطق أو شارحين فقط للمشارقة الذين سبقوهم . فإذا كان المنطق بالمشرق قد دخل مرحلة الانحطاط منذ القرن الرابع عشر الميلادي ، فإن المنطق بالمغرب قد في نفس القرن

---

(1) نجده مثلا عند الخونجي في كتابه : الجمل في المنطق .

(15342/1)

مرحلة الازدهار . وهذا هو الأمر الذي دعانا إلى إعادة النظر في تاريخ المنطق العربي ككل والمغربي خاصة .

... إن للمنطق في الفكر المغربي أصالة تتعارض ومبدأ تعميم الأحكام التي تقال عادة على الفكر العربي الإسلامي بصفة عامة . وهذه الأصالة لا تقال فقط على المنطق كعلم مستقل ، بل أيضا على المنطق كتقنية طبقها المغاربة في ميادين أصول الفقه وأصول الدين والكلام واللغة . ولقد كتب المغاربة في هذه الميادين . ما لا يسمح المقام بإدراجه . يكفي أن نعرف أن الفكر المغربي احتضن مدارس في هذه الميادين تختلف إلى حد كبير

(15343/1)

عن مدارس المشرق العربي في نفس الميادين .

تختلف إلى حد كبير عن مدارس المشرق العربي في نفس الميادين . فمدرسة ابن حزم في الأصول ليست هي مدرسة الغزالي . وطريقة تطبيق الهلالي لنظرية الدلالة على الكلام الإلهي القديم أقرب إلى الواقعية الرشدية منها إلى العقلية المشرقية . وتصور علاقة المنطق باللغة عند ابن حزم يختلف عن تصور هذه العلاقة عند الفارابي مثلا . ... وإلى جانب هذه المدارس الأصولية الكلامية ، ظهرت أيضا مدرسة فلسفية مغربية أخرى استفادت من الفكر اليوناني بطريقة أصيلة لتطوير الدراسات البلاغية .

(15344/1)

تشكلت هذه المدرسة خلال القرنين 13 م و 14 م . ثم انتشرت بمراكز ثقافية مغربية مثل سبتة وفاس وسجلماسة ومراكش . وهي مدرسة لها مميزات تجعلها تختلف عن المدارس المشرقية في ميدان الدراسات اللغوية . ومن بين روادها يمكن الاكتفاء بذكر ابن البناء المراكشي في كتابه : "الروض المريع في صناعة البديع " ، وحازم القرطاجني (؟ – 1286 م) في كتابه :

" مناهج البلغاء وسراج الأدباء " ، والسجلماسي في كتابه " المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع" ، وابن عميرة في كتابه :" التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات " ،

(15345/1)

وغيرهم. لقد استطاعت هذه المدرسة أن تتجاوز الإرث اليوناني والأندلسي معا وتجعل من المنطق تقنية في خدمة اللغة (1)

... ومما يزيد في تمييز الفكر المغربي الوسيط وجود اتجاه معرفي بالمغرب يتبنى منطقا جديدا غير مؤسس على التمييز الكلاسيكي بين قيمتي الصدق والكذب كما هو معتاد في منطق أرسطو ، أو على مبدأ التناقض الذي هو أساس النطق الصوري الثنائي القيم . ويمثل هذا الاتجاه على الخصوص

---

(1) انظر تفاصيل هذه المسائل في كتاب : محمد مفتاح ، التلقي والتأويل ، مقاربة نسقية ، المركز الثقافي العربي الطبعة الأولى ، 1994 .

(15346/1)

الفيلسوف المغربي محيي الدين ابن سبعين (؟ – 1270 م) . فهو مفكر يبني منطقه على نفي الزمان ونفي العلة ونفي المتناقضات . ويذكر موقفه هذا بنظرية هيجل في التصور وبالاتجاه الحدسي في المنطق المعاصر وبموقف الفيلسوف بول فايرابند من مفهوم العقل وبموقف بعض الفيزيائيين المعاصرين من مفهوم الوعي . لقد حمل ابن سبعين على الفلاسفة لقولهم بعالم العقل وعالم النفس وعالم الطبيعة ولقولهم أيضا بالأول والعلة والواجب بذاته . فهذه التمييزات بالنسبة لها كلها أوهام . أما الفقهاء فلا مرتبة لهم بالنسبة لابن سبعين. وأما

(15347/1)

خصمه الألذ فهو ابن سينا . ويرى أن هذا الأخير " مموه ومسفسط ، كثير الطنطنة ، قليل الفائدة ، وما له من التأليف لا يصلح لشيء " . أما عن الغزالي فيقول ابن سبعين : " إنه لسان دون بيان ، وصوت دون كلام ، وتخليط بجميع الأضداد ، وحيرة تقطع الأكباد ، مرة صوفي وأخرى فيلسوف وثالثة أشعري ورابعة فقيه

وخامسة محير . وإدراكه في العلوم القديمة أضعف من خيط العنكبوت " . ويواخذ ابن سبعين على الفارابي كونه يتناقض ويضطرب . فهو يقول آراء مختلفة بحسب الكتب المختلفة . وينتقد أيضا ابن سبعين الفيلسوف ابن رشد لشدة تقليده

(15348/1)

لأرسطو إلى درجة أن ابن رشد لو سمع أرسطو يقول إن القائم قاعد في زمان واحد لقال هو أيضا بذلك واعتقده .لا يرغب ابن سبعين في اعتبار نفسه متأثرا بأي فيلسوف آخر مشرقيا أكان مغربيا . وهو فعلا شخصية غربية تستحق فلسفته كل العناية لما فيها من أصالة . يقول عنه بعض المستشرقين إنه قام بأول محاول لنقد، فساني لتاريخ الفلسفة الإسلامية .

... هذه باختصار بعض مميزات المنطق في الفكر المغربي الوسيط ، نتمنى أن ينصفه مؤرخو الفكر العربي الإسلامي عامة و أن يعوا أن الفكر المغربي فكر قائم بذاته وليس مجرد امتداد للفكر

(15349/1)

المشرقي .

علاقة المنطق بالفكر الديني بالمغرب الوسيط

... من المعروف أن مادة المنطق ، في شكلها الأرسطي على الأقل ، مادة دخيلة بالنسبة للعالم العربي الإسلامي .

أضف إلى ذلك أن المنطق ، باعتباره علما وضعيا ، يشوش على العقائد الإيمانية التي غالبا ما تتأسس على معطيات غير برهانية . جعل هذان العاملان الفقهاء وعامة الناس وبعض الفلاسفة ينفرون وينفرون من المنطق ويصدرون فيه فتاوي تصل أحيانا إلى حد تحريمه ، سواء بالمشرق أو بالمغرب . ففتاوي ابن الصلاح وابن تيمية ضد الاشتغال بالمنطق ومعروفة . ومعروفة كذلك

(15350/1)

بالغرب الإسلامي مواقف ابن جبير وابن قسوم المعادية للفلسفة والمنطق . وكم من مفكر لقي حتفه نظرا لتعاطيه للفلسفة وللمنطق : فلقد أعدم المكولي وحوكم ابن خمسين واضطر الآبلي إلى الفرار وحصلت نكبة ابن رشد لأسباب أهمها تعاطي هؤلاء المفكرين للفلسفة وترجيح المعقول على المنقول .

... لقد كانت علاقة المنطق بالدين علاقة صعبة منذ ترجمة كتب أرسطو في القرن 9 م . في هذه الكتب عرض

أرسطو المنطق كمقدمة للفلسفة . وبما أن الفلسفة شر حسب الرأي السلفي ، فإن المنطق أيضا لا يمكن أن يكون إلا شرار . وبهذه السذاجة تم إبعاد

(15351/1)

المنطق من حظيرة الفكر الإسلامي لمدة غير قليلة . لكن رغم كل ذلك ، استطاع المنطق أن يشق طريقه عبر كل العراقيل الفقهائية بفضل علماء أجلاء أدركوا كنه العلم واستغلوه بذكاء في بناء مناهجهم المعرفية . وبذلك عمموا معيارية المنطق لتشمل كل المعارف البشرية بما فيها المعارف الدينية . فلم يعد المنطق مقصورا على الفلسفة وحدها ، بل يمكن اعتباره مدخلا لكل العلوم البشرية . وهكذا نجد أبا علي الماجري ، وهو أول مغربي مسلم كتب في المنطق الصوري ، ويعتبر هذا الأخير هبة من الله . ونجد ابن حزم الأندلسي يشترط معرفة

(15352/1)

المنطق في كل من يرغب في ممارسة الاجتهاد . ونجد أيضا ابن طملوس يؤلف كتابا بكامله فيه يحث على

تداول المنطق والاستعانة به لفهم النص الديني سواء من حيث كونه بناء لغويا أو فكريا . ويقول الشيخ السنوسي في شرحه لكتاب "مختصر في المنطق" : " من يحرم المنطق ر معرفة له بتحقيقه " .

... وهكذا نخلص إلى القول بأن دور المغاربة في تطوير المنطق العربي الإسلامي دور حاسم سواء على مستوى المضمون أو على مستوى تداول العلم كتقنية . لقد ساهموا مساهمة لا يستهان بها في رد الاعتبار إلى علم المنطق وإلى كل العلوم العقلية

(15353/1)

الأخرى وذلك بإلحاحهم على إعمال العقل والاهتمام بعلومه واعتبار المنطق مادة مكملة لعلوم الدين وليست مادة معارضة لها . لهذا لابد من إعادة النظر في تاريخ المنطق العربي الإسلامي والأخذ بعين الاعتبار ما دونه المغاربة في هذا العلم منذ القرن 14 م .

(15354/1)

وحدة الفكر العربي من الخليج إلى المحيط فُصحى العاميات مظهر لهذه الوحدة

... ... عبد العزيز بن عبد الله

... عضو أكاديمية المملكة المغربية والمجامع العربية والمجمع العربي الهندي

... إن أغلب الأصول والقواعد الأساسية مشتركة بين الفصحى والعامية، حتى ما يتصل بالقلب والإبدال والتسهيل والترخيم والنحت وغير ذلك وتمتاز العامية(1)

---

(1) ... العامية هي ما يسميه الجاحظ بلغة المولدين والبلديين (البيان والتبيين، ج 1، ص. 111). وقد لاحظ أن في كل مدينة ألسنة ذلقة؛ غير أن اللحن كان فاشياً في العوام (ص. 111).

... وقد تحدث أحمد أمين عن العامية في القرن الرابع، فقال: »إن اللغة العامية اصبح معترفاً بها يبحث في ألفاظها وأساليبها وينتقي منها خيرها إلا بعض علماء كأبي العلاء المعري... «(ظهر الإسلام، ج 2، ص. 100).

(15355/1)

بمظاهر بسيطة تجعلها في بعض الأحايين أكثر إيغالاً في القلب والتسهيل.

... ونضرب لهذه الوحدة الأصلية أمثلة وجيزة لا تنفرد بها العامية في المغرب الأقصى وحده، بل تمس اللهجات الدارجة في معظم أجزاء العالم العربي(1)

---

(1) ... توجد في مجمع اللغة العربية بالقاهرة لجنة للهجات من أهدافها استقراء الألفاظ والتراكيب الجارية على ألسنة أهل الأقطار العربية من الناحية الصوتية ومن ناحية المعنى وتدوين هذا في معاجم وأطالس لغوية. وقد اتخذت اللجنة لهجة القاهرة مقياساً. وترتكز اللجنة في هذا البحث على تنقل القبائل، لما له من أثر كبير في لهجات الأقاليم وتطورها واختلافها (مجلة المجمع، ج 7).

(15356/1)

. فمن مجالي التخفيف في اللسان الفصيح والتي أثرت في ألسنة العامة وجود مترادفات يختلف بعضها عن بعض بإضافة حرف واحدٍ. وقد اختار الدهماء لتخاطبهم اليومي أخفها نطقاً، وإن كان أكثرها أحرفاً، مما يؤكد أن عقلية العامة لا تنحرف عادة عن الأصيل إلا إذا لم تجد في صيغه ما يتفق وطبيعتها الميالة إلى التسهيل. ومن أمثلة

ذلك: رز ـ أرز (رز) ـ سبل (سنبل) (سبولة في العامية) ـ سطل وسيطل (سطل) ـ قحوان وأقحوان (قحوان) ـ لوباء ولوبياء (لوبياء) ـ مونة ومؤونة (مونة) ـ وز ـ اوز (وز) ـ دغر ودغمرو، أي خلط (دغمر) ـ طلمس وطمس

(15357/1)

الكتابة بمعنى محاها(1) ـ فطحه وفرطحه، أي جعله عريضاً (فطح وفرطح) ـ قصم وقصمل، أي قطع (قصم) ـ هدم ودهدم (هدم).

... وهناك مترادفات يختلف ترتيب حروفها مثل جبذ وجذب وخربش وخرشب العمل، أي لم يتقنه وخشخش(2) وشخشخ السلاح (صوت) ـ دعس وعدس (داس) (3) ـ دعم وعمد ـ أدغم وأدمغ

---

(1) ... استعملت العامة الكلمتين: طمس بمعنى مَحَا؛ وطلمس بمعنى أخفى (الطلامس، أي الطلاسم).

(2) ... يستعملان في معنيين متقاربين (شخشخ وجهه، أي جلب له العار).

(3) ... تطلق العامة لفظتي دحس (بالحاء بدل العين) وداس على مدلولين متقاربين.

(15358/1)

.تسكع وتكسع .فطس وطفس، أي مات .لطخ وطلخ (لطخ) .يئس وأيس. وقد تستعمل العامة الكلمتين مثل: كف وكفكف .كب وكبكب .هز وهزهز .ذر وذرذر، إلخ.

... أما النحت، فأمثلته كثيرة: ويلمه. وهي منحوتة من أصلها (ويل لأمّه).

... صبحه، أي قال له : صباح الخير.

... مساه : قال له : مساء الخير.

... تويل : قال : يا ويلي.

... فسقه : قال له : يا فاسق.

... ما شا الله (ما شاء الله) .ما طيبو (ما أطيبه) .محلاه (ما أحلاه)، إلخ.

(15359/1)

... ومن أمثلة الإتباع أو الإبدال بالمعنى نفسه: العجر والبجر .حيص بيص(1) .هين لين (سهل) .هش بش (مسرور) .الكوع والبوع (كعو وبعو) .الجوع والنوع . شيطان ليطان .حسن بسن، إلخ.

... وهناك مئات الكلمات تحكي الأصوات أو الحركات، وتتحد فيها اللهجتان. نذكر منها ما يلي: زرزور .

صفصاف . ريح . رعد . قبقاب . ناقوس . طبل . بوق . نبح الكلب . قاقت الدجاجة . طن أو دن الذباب . وع الطفل الباكي . طنين الناقوس . خرير الماء . تفل . لحس

---

(1) ... أفرد أبو البركات الأنباري كتاباً خاصاً لحيص بيص. وقد توفي عام 577 هـ

(15360/1)

. نفخ . بح . قحب . أح . عطس . بخ . صاح . زعق . ناح . ضرط . فسا . زمر . قطع . شق . دق . تختخ . تمتم . جمجم . غمغم . بعبع . بقبق . قرقر . وسوس . همهم . نحنح . خنخن (تكلم من أنفه) . قهقه . قرقر . صرصر . لولو . وحوح . دقدق . وعوع . غرغر . طلطل . هرهر . زعزع . حثحث . ضعضع . شقشق . وقوق . زقزق . زرزر . طقطق . رشرش . رعرع . طنطن . تكتك .

... أما الصيغ، فكثيراً ما تتخذ الوزن نفسه في العامية والفصحى للتدليل على المدركات نفسها كالمبالغة والتفضيل والبقية والسقاطة والتظاهر والتشبيه أو التشبه والوصف مثل

(15361/1)

كنز(1) مكنوز وعلاج (دواء) ووقف (موقوف) وغصب (مغصوب) ونكَسه (نجسة، أي النجس) وشتامة (كثير الشتم) وعيابة ومصلحة (أي صلاح) ومطهرة ومفسدة وحثالة وثفالة (أي بقية الثفل) وقمامة ونخالة ونشارة ونجارة وأحمق (أكثر

---

(1) ... كنز ومكنوز ذكره ابن سيده في "المخصص" في مادة »كنز«.

... وتوجد صيغ عربية كثيرة انفردت بعض الأقاليم العربية باستعمالها مثل مصدر فعل المضعف على وزن تَفعال: مثلاً، حمل تَحمالاً بدل تحميلاً في المغرب واليمن. قال الكسائي: »أهل اليمن يجعلون مصدر فعل تفعالاً وغيرهم من العرب يجعلونه تفعيلاً«.

(15362/1)

حمقاً) وأخوف وأطيب وأسلم وأخوأ وأعجب وأعرف وجهد وجاهد (أي شديد) وصيف وصائف وهول هائل وعيشة راضية ومكان عامر (أي معمور) وخبر كاذب (أي مكذوب) ويمين فاجرة (أي مفجور فيها) وتفاقر (أظهر الفقر) وتباكى وتحامق وتجاهل وتماوت وتناعس وتشيطن وتفحل

وتفرعن وتفرنج وتمدن وتوحش وبخل وجهل وسفه وضعف وفسق وغلط وكفر وأحمق (أي موصوف بالحمق) وأبله وأعمى.

... ويجمع المذكر في اللسانين بإضافة تاء مربوطة إلى المفرد مثل: حمارة (أصحاب الخمير) وخيالة ورحالة وعسالة (أصحاب العسل). وتشترك الفصحى والعامية في الاشتقاق المنطقي من

(15363/1)

ألفاظ ذات معنى حسي مجرد كالحمام من حم الماء، أي سخنه ومخدَّة من الخد، والسماء من سما، أي ارتفع؛ والسِّمن من السَّمن والشباك من شبك والغمام من الغم، أي التغطية؛ والجارية، أي التي تجري في خدمة سيدها؛ والجمعة، أي يوم الاجتماع في الجوامع وحريم الرجل أي نساؤه (من تحريم المرأة على غير زوجها) والصداع، أي وجع الرأس من صدعه أي شقه، ومنه الشقيقة؛ والغلة الدخل من كراء بيت أو فائدة أرض من غل المكان إذا دخله.

(15364/1)

... ويكاد ينعدم في العامية التغليب بالمثنى (مثل القمرين والخافقين والعشائين والأصغرين والأسودين) واستعمال صيغة فِعّال المبني على الكسر (للدلالة على الأفعال والأسماء) أو المصدر نعتاً أو معظم صيغ المبالغة (مفْعيل وفُعْلة وفِعِّيل) أو مفعلة للكثرة أو المكان أو أفعل للتعظيم أو التصغير؛ أعنق (أي طويل العنق) وأعين وأورك (أي عظيم الورك) وأخفش (صغير العينين) أو أفعل للدخول (أَتهم وأشأم وأغلس وأنجد).

... ومما امتازت به الفصحى أيضاً أفعال السلوب الدالة على الزوال مثل أعتب، أي أزال العتاب وأشكى إذا أزال

(15365/1)

الشكوى وزيغ، أي أزال الزيغ والميلان (زيغ بالعامية أثار الزيغ) وتأثم وتحرج وتحنث إذا تجنب ذلك

... وكذلك زيادة الميم للمبالغة كزرقم، أي شديد الزرقة.

... ويجب أن يعيد التاريخ نفسه في تفصيح العامية العربية وتوحيدها. فقد تعددت اللهجات في الجاهلية بتعدد القبائل الكبرى وخفت أوجه الاختلاف بما استوثق إذ ذاك من صلات في الأسواق الإقليمية والمبادلات التجارية والمصاهرات. وقد لعبت قريش دوراً هاماً في

انتقاء أجود اللغات، فنسقت واجتبت أفضل لغات العرب حتى صارت لغتها أفضل لغاتهم ("لسان العرب".). فنزل القرآن بها

(15366/1)

وازدادت مظاهر الوحدة تحت راية الإسلام بالرغم من الفوارق القبلية البسيطة التي ساندتها أحرف القرآن السبعة. وقد احتفظت ألسنة جهوية بميزات خاصة »من حيث التصريف والهيئة والإبدال وأوجه الإعراب والبناء« (متن اللغة، ج 1، ص. 47). فقريش مثلاً تفتح نون المضارعة، وأسد تكسرها، والحجازيون يثبتون ما النافية، وتميم تهملها. أما الاختلاف في الأسماء، فلا يكاد يظهر إلا في لغة حمير التي ظلت محتفظة بكثير من مفرداتها (المدية الحميرية بدل السكين مثلاً).

(15367/1)

... ويتجلى الاختلاف بين لهجات العرب في نظاهر مختلفة كالإظهار والإدغام والإشمام والتفخيم والترقيق والمد والقصر والإمالة والفتح والتسهيل والإبدال، وهو اختلاف

في الصور الظاهرة لمخارج الحروف مع وحدة اللفظ وقد عرف العرب منها قديماً العنعنة عند تميم وقيس (إبدال الهمزة عيناً) والكشكشة والكسكسة عند ربيعة (إبدال كاف الخطاب شيناً) والغمغمة عند قضاعة (وهي إخفاء بعض الحروف) والفحفحة عند هذيل (إبدال الحاء عيناً مثل حتى وعتى) واللخلخانية في عمان واليمن (وهي حذف همزة ما شاء الله (ما شاء الله) والتلتلة في

(15368/1)

بهراء، وهي كسر تاء المضارعة (تلعب) (1) والوتم عند أهل اليمن (قلب السين المتطرفة تاء كالنات في الناس) والوكم والوهم عند ربيعة وكلب (كسر كاف الخطاب وهاء الضمير (عليكم، عنهم) والاستنطاء في لغة سعد بن بكر وهذيل

---

(1) ... لاحظ الأستاذ فريد أبو حديد (مجلة مجمع اللغة العربية، ج 7، ص. 205) أن حركة الكسر تكاد تكون شائعة في كثير من الدول العربية. مثال ذلك كسر آخر الاسم المضاف إلى ضمير المؤنثة المخاطبة. فيقولون في الشرق أنت مالك (يقول المغاربة مالك بفتح اللام)، وهي لهجة لخم التي تكسر ما قبل كاف المخاطبة.

(15369/1)

والأزد وقيس والأنصار وهي قلب العين الساكنة قبل الطاء نوناً (أنطى ـ أعطى). وما زالت مظاهر ذلك إلى الآن عند الأعراب، مما بسط ذيله على العاميات في المناطق نفسها.

... والمشترك نفسه يرجع لتعدد الألفاظ للمدلول الواحد بين القبائل؛ كما أن في اللغة الموحَّدة نفسها اختلافاً في الأبنية من لغتين إلى ثلاث عشرة لغة (عباءة ـ عباية، إلخ).

... وقد أرجعت أصول الكلمات الواردة في القرآن إلى خمسين لهجة من لهجات القبائل، علاوة على وجود كلمات معربة.

(15370/1)

... وظهر الانحراف في الحركات الإعرابية منذ صدر الإسلام، فسار العوام في منهجهم المنحرف. واستفحل هذا الزيغ اللغوي باختلاط العرب بالأعاجم بعد الفتوح. فهب علماء اللغة لتقويم العامية وإرجاعها إلى أصالتها الفصحى. وتجلى هذا المجهود في "أدب الكاتب" لابن

قتيبة و"درة الغواص" للحريري، فخف البون بين الفصحى والعامية؛ إذ روعيت شساعته في اللغات الراقية اليوم وبقيت العامية في جميع مظاهرها لغة عربية محرفة الشكل غير مضبوطة القواعد. غير أن العامية احتفظت أحياناً بألفاظ عريقة استعملها العرب وأهملها المحدثون. وقد

(15371/1)

راعت العامة مقتضيات التطور أكثر مما فعل اللغويون الذين جمد الكثير منهم وراء قواعد راسخة لا تنفعل للتيارات الحضارية المتجددة. وقد حاول عرب الجاهلية تطوير اللغة استجابة لهذا الناموس. وساعدهم على ذلك أن العربية كانت لغة منطوقة لا مقروءة، وسارت العامة على نهجهم؛ فاحتفظت ببعض الخواص الحية وعملت على تنميتها بما يتفق ولوازم التجديد ضماناً لاطراد الحياة. وقد اضطر بعض الشعراء أنفسهم كالفرزدق إلى مسايرة هذا الاتجاه عندما استعمل «ال» بمعنى اسم موصول «اليعمل» و«اليضرب» بمعنى الذي يعمل والذي يضرب. وهي شائعة

(15372/1)

في العامية، وخاصة منها المغربية.

... وقد حاولنا مقارنة بعض الألفاظ العامية في المغرب ومصر والشام. ويتجلى من موازنة كثير من هذه الألفاظ مع مرادفها في المعاجم أنها دخلت أولاً إلى اللغة الفصحى، ومنها تسربت إلى اللهجتين بسوريا ولبنان وكذلك بالمغرب؛ وإلا فيصعب تعليل وجودها في العامية المغربية التي لم تتأثر البتة باللهجة السريانية. ولا ننس أن الشام، وخاصة لبنان هو منبثق اللغة البونيقية أو اليونانية التي أثرت في البربرية المغربية منذ ثلاثة آلاف من السنين. والبونية عربية الأصل(1)

---

(1) ... أكد الأستاذ توفيق المدني في "تقويم المنصور" عام 1348 (ص. 72) »أن الكشوف الحفرية ونقوش الحجارة أثبتت كنعانية الفينيقيين؛ كما أبرزت أن كلامهم كان عربياً شديد الشبه بالعربية العامية المستعملة خصوصاً بنواحي العاصمة التونسية وبجزيرة مالطة قبل أن تختلط اختلاطاً فاحشاً بمختلف اللغات الأوربية. وأهل مالطة هم بقايا العنصر الفينيقي الخالص... «. وقد نشر توفيق المدني (ص. 72) نص الحفرية القرطاجية التي وجدت في البرازيل، ويتضح منها تقارب البونيقية ولهجة شمال إفريقيا.

... ووجود هذه الحفريات بالبرازيل يدل على أن القرطاجنيين هم أول من اكتشف أمريكا قبل الميلاد بـ 125 سنة.

(15373/1)

؛ وقد سبقت لغة القرآن والفتح الإسلامي بالمغرب وكيفت كثيراً من المعطيات اللغوية، ولا سيما أن الفنيقيين الشاميين أسسوا في المغرب الأقصى عاصمة هي تشمش أو ليكس قرب العرائش منذ عام 1100 قبل الميلاد، أي قبل تأسيس قرطاج بثلاثة قرون (814 قبل الميلاد).

... وهنالك مئات الكلمات التركية اندرجت في عامية سوريا ولبنان طوال أربعة قرون من الحكم التركي، فأبعدت كثيراً من المقومات اللغوية عن عراقتها العربية. وقد دخل عدد قليل منها إلى المغرب منذ التاريخ نفسه تقريباً، أي في عهد السعديين الذين كان لهم ارتباط بالباب

(15374/1)

العالي، ولا سيما في الميدان الحضاري (الحياة والجيش والملاحة والإدارة، إلخ) (1).

... وقد أشار الثعالبي في "فقه اللغة" (طبعة 1378/ 1959)، القاهرة، ص. 450) إلى أسماء فارسيتها منسية وعربيتها محكية أوصلها إلى مائة وواحد وأربعين منها البياع

---

(1) ... راجع كتابنا "مظاهر الحضارة المغربية" و"معطيات الحضارة المغربية" (فصل: "تاريخ دخول اللغة العربية إلى المغرب"؛ وكذلك كتابنا "تاريخ المغرب" و"تاريخ إفريقيا الشمالية القديم" لكَزيل (Gsel)؛ والمؤرخ كَونبي، العصور الغامضة للمغرب (Siècles obscurs du Maghreb).

(15375/1)

والدلال والبقال والجمال والطراز والخياط والند والبخور والغالية والحناء والمضربة والقمري والربعة والخرج والدواة والمرفع والفتيلة والمجمرة والمزارق والطبل والشكال والقلية والهريسة والعصيدة.

... ثم ذكر (ص. 453) أسماء تفردت بها الفرس، فعربها العرب أو تركوها، منها: الإبريق والكوز والطبق

والقصعة والسندس والياقوت والبلور والسميد والكعك والسكنجبين والجلجبين والفلفل والكروياء والقرفة والزنجبيل والسوسن والياسمين والمسك والعنبر والكافور والقرنفل.

(15376/1)

... وقد تأثرت العامية المغربية بالفارسية عن طريق الدخيل في المعجم العربي(1) لا بكيفية مباشرة، لأن المغرب ظل في منجى عن التأثيرات الفارسية.

---

(1) ... وكذلك بألفاظ من اللغة التركية مثل باشا وبكرج (إناء معدني) وخازوق وتخوزق (التخوزيق) وسنجق وطابور وطز (للاستهزاء والاستياء) وطوبجي (مدفعي) وصابونجي وجبدولي (صدرية) وجامكية (مرتب عسكري في عهد الموحدين) وخواجي (تاجر) وبابوشة (بابوج) وبازار وباشدور وبرنامج، إلخ.

(15377/1)

... ومن أمثلة المشترك الفارسي في اللهجتين المغربية والشامية: بابا (أبي الأب في لغة الأطفال) وبازار (سوق)

وبازاري وباس (لثم) وشاويش (وشاوش) وخردة (وأصلها العربي الخرثي) وخواجه أو خواجي (غني) ودرويش (فقير) وزنزانة (سجن ضيق) وزيره (جعله في مكان ضيق) وسالف (خصلة شعر متدلية على الصدغ) وشبر، أي أشبار (وهو حبل رقيق جداً) وشنطة (حقيبة صغيرة) وشيت (نسيج قطني فيه رسوم وألوان) وصباهي (صبايحي، أي جندي) وطارمة (بيت خشبي ذو قبة) وطاقية (نوع من ملابس الرأس وأصله تقية) وقيطان (خيط مفتول من القطن أو الحرير) وكخ

(15378/1)

(كخ بالمغرب، أي رديء في لغة الأطفال) ومارستان (مستشفى المجانين) وميخانة (حانة، أي خمارة وتطلق على أحد الأحياء بالمغرب) ونيشان (وسام) ونيشن (نيش بالمغرب، أي صوب القذيفة نحو الهدف). أما اليونانية، فقد دخلت هي أيضاً إلى سوريا ولبنان قبل الميلاد بثلاثة قرون حيث استمر الحكم اليوناني مائتين وخمسين سنة قبل خضوعهما للرومان؛ كما اندرجت عن طريق المترجمين السريانيين واليهود والعرب منذ أواخر الأمويين بما أقحموه من ألفاظ دخيلة في القاموس العلمي

العربي الذي اقتبس منه حكماء المغرب ونباتيوه أو عشابوه. وكتب

(15379/1)

الطب والعقاقير المغربية حافلة بهذه الألفاظ التي يتردد صداها في لغة العوام مع شيء من التحريف. إلا أن وجودها في عامية أهل الشام أبلغ، نظراً للاتصال المباشر خلال حقبة طويلة من تاريخ البلاد.

... ومن الكلمات العربية المقتبسة من اليونانية والتي دخلت إلى العامية المغربية على ما يقال: ياقوت، وملوخية، ومصطكى، ولوبياء، ولجنة، وكروياء، وكرنب، وكافور، وقيطون، وقيراط، وقيثارة، وقنطرة، وقنب، وقمقم، وقلم، وقصدير، وقرنفل، وقرميد، وقانون، وقالب، وقارب، وقادوس، وفندق، وفنار، وفلس، وفص، وفخ، وطاجن، ورطل، ودلفين،

(15380/1)

ودرهم، وثؤلول، وبلغم، وبجماط، وبطاقة، وبارود، وأوقية، وإقليم، وألماس، ورز.

... أما اللاتينية، فقد استمدت منها اللهجتان الفصحى والعامية ألفاظاً منها قسطاس، وإسطيل، وبوق، ودينار، وسجل، وصراط، وصاقور، وطرطور، وقرصان، وفرن، وقفة، وقلنسوة، وقميص، وقنديل، وقنطار، وكوفية، ومد (مكيال)، ومنديل، وميل، إلخ(1)

---

(1) ... من الألفاظ الفارسية الدخيلة الدربكة، أي الطبل (وأصلها تابوراك) والدمغة بمعنى الختم والطابع.

... ويختلف هذا التأثير في الأقطار العربية الأخرى. ولعل الدخيل من الفارسية في لغة العراقيين يوازي الدخيل فيها من التركية، خلافاً لما عليه الحال في مصر؛ فإن معظم الدخيل فيها في لغتها الشائعة من التركية ثم من اللغات الإفرنجية (محمد رضى الشبيبي، مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية، ج 8، ص. 131).

... وديوان العراق لم ينقل من الفارسية إلى العربية إلا في عهد الحجاج الذي أمر بذلك كاتبه صالحاً ابن عبد الرحمن الذي كان يتقن اللغتين (تاريخ ابن خلدون، المجلد الأول، القسم الثاني، ص. 437).

(15381/1)

.

... وبينما كان التأثير الإسباني في اللهجة السورية واللبنانية نادراً جداً، إذا هو يتخذ طابعاً عميقاً في العامية المغربية، نظراً للتبادل الموصول بين الأندلس والمغرب خلال الحكم الإسلامي، أي طوال ثمانية قرون، ثم ثلاثمائة عام بعد ذلك احتل البرتغاليون والإسبان في غضونها مراكز هامة في شواطئ البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطيقي من المغرب(1)

---

(1) ... ذكر برونو (Brunot) (هسبريس 1949 ـ العددان الثالث والرابع) أن اللغة الرومانية اللاتينية أمدت العامية عن طريق الفصحى بألفاظ مثل مد وقصر أو مباشرة بكلمات مثل الطابية وكرزية وكركور. وذكر أن لفظ Candi مقتبس من اللفظ العربي Quindid، وأن الكفتة مأخوذة من التركية.

... ولاحظ في مقدمة مذكراته حول المفردات البحرية بالرباط وسلا أن وفرة الألفاظ الإسبانية الدخيلة في هذه المفردات تدعو إلى نسبة بعض الكلمات إلى أصل يوناني لاتيني. وهذا الغلط هو الذي وقع فيه سيموني (Simonet) في كتابه Glosario حيث ذكر مثلاً أن الشابل (Alose) مستمد من اللفظ اللاتينيّ Sapidus.

وقد أعطى برونو صورة عن مروح التأثيرات الأجنبية

العامية البحرية بالرباط وسلا، فذكر أنه بالإضافة إلى 456 لفظ عربي يوجد 217 كلمة إسبانية و30 لاتينية يونانية و6 فرنسية وإيطالية ز6 إنجليزية وكلمة واحدة برتغالية وعشر كلمات بربرية وعشر تركية وإحدى عشرة كلمة مشكوك في مصدرها، وذلك من مجموع يبلغ 753 لفظة. ويلاحظ هنا قوة تأثير العربية الفصحى في موانئ أخرى في المغرب مثل مستغانم بالجزائر. ففي الرباط مثلاً تسمى Chaloupe بالعشارية، وفي مستغانم ببوطة من Bota الإسبانية. على أن البرتغالية قد تأثرت باللهجة المغربية حيث كان البرتغاليون يراسلون بالعجمية التي كانت عبارة عن برتغالية مملوءة بالألفاظ المغربية وكانوا يكتبونها بالحروف العربية (كواساك ده شافر بيير، تاريخ المغرب، ص. 273).

(15382/1)

.

* ... * ... *

... وقد عرف البربر كسائر البدو منذ اعرق العصور حياة بدائية لم تكن تخلو من مظاهر احتفظت بها قبائل

صحراوية وأطلسية إلى الآن كالملكية الجماعية والاشتراكية الفلاحية والسكنى في أكواخ الطوب بالدساكر والاقتصار في الأكل على الكسكس والصيد وشرب الألبان والعسل والماء القراح ولبس الجبة والبرنس ووضع أكاليل الريش على الرؤوس واستعمال الحراب والأقواس والخناجر والدرقات الجلدية في الحروب. وكان المغربي يرسم على الجدران صوراً تمثل حياته اليومية في براعة فنية رائعة كما يتحلى ـ كالنساء ـ بالأسورة

(15383/1)

والعقود. وتمتاز المرأة بنقش الأواني الخزفية ونسج الزرابي في تعاريج هندسية. وبرز الإطار السياسي القبلي في شكل »جمهورية« صغيرة يمثلها مجلس منتخب. وقد طعمت الحضارة القرطاجية الشرقية هذه المعطيات الأولية بعادات جديدة كالطربوش والقميص الفضفاض والتكحل والاختضاب بالحناء والاختتان(1). وربما حدت البربر إلى التفكير في وضع أحرف »تفناغ« على غرار الهجائية الفينيقية التي تكونت منها الألفبائية العربية إذا لم يكن البرابرة قد اقتبسوا هذه البادرة مباشرة من

(1) ... كَوتييي، ماضي إفريقيا الشمالية، ص. 148.

(15384/1)

الهيروغليفية المصرية في الجناح الشرقي لإفريقيا الشمالية. ويظهر أن اليهود النازحين من الشام وخيبر لم ينقلوا إلى المغرب شيئاً جديداً باستثناء الديانة الموسوية ونتف من العبرية لم تترك أثراً يذكر في اللهجات المحلية.

... ولعل أول نواة حضارية عربية تلقاها المغرب بعد الفتح الإسلامي قد جاءته عن طريق القيروان التي بدأت تنصهر فيها الحضارة الأموية بعد مرور ثلاثة أرباع قرن على الهجرة، فأقيمت المساجد والدواوين والمصالح والدور الصناعية على غرار ما عرفته دمشق آنذاك من روائع امتزج فيها العنصران الفارسي

(15385/1)

والرومي. وإذا اعتبرنا الصلة الوثيقة بين القيروان والمغرب قبل أن تزدهر بالأندلس الحضارة الأموية في إطارها الجديد، أمكننا القول بأن الشام كانت الينبوع

المشترك للحضارتين ما لبث أن تعزز بمدد مباشر في عهد الأدارسة. فإذا ما حاولنا التنظير بين عناصر الحضارة الأموية من نشأتها في الشام إلى امتدادها بالأندلس، لاحظنا وحدة مقومات العمران والبناء والزخرفة والنقش والثقافة والاجتماع والترتيبات الإدارية والسياسية والقضائية في أشكالها ومصطلحاتها. إلا أن الأندلس لم تتصل بهذه المعطيات قبل وصول عبد الرحمان الداخل

(15386/1)

عام 137 حيث قضى خمس سنوات بالمغرب الشمالي يحاول عبثاً إقامة مملكة أموية، لأن أفواج اليمنيين والقيسيين ظلت في صراع حدا البربر أنفسهم إلى النزوح إلى الريف وطنجة وأصيلا بين عامي 134 و136 هـ ولم تكد الدولة الأموية الجديدة تستقر حتى وضع الأدارسة بفاس أسساً عمرانية كانت وفرة مياهها وبساتينها وفنادقها وقيساريتها ومسجداها مظهراً خافتاً لعاصمة دمشق.

... وسواء كان هذا الاقتباس مباشراً أو بواسطة، فإن ألفاظاً فارسية دخلت منذ هذا العصر إلى المغرب ودخلت

معها مسمياتها؛ كما انتقلت إلى المغرب في الفترة نفسها

(15387/1)

من الشام مصطلحات رومية(1) قليلة كالبستان، والقسطاس، والبطاقة، والأسطرلاب، والقنطار، والقرمود، والترياق، والقنطرة، والقيطون(2). والذي يجعلنا نرجح وجود هذه الألفاظ في المصطلح الدارج بالمغرب منذ هذا العصر هو أن معظمها يمثل المظهر الجديد للحضارة الإسلامية التي بقي الشعر والشعراء في منأى عن وصفها، لأنهم حتى في دمشق ظلوا في أبراجهم العاجية يبكون في أسلوبهم الجاهلي على الأطلال ويتغنون بالماء

---

(1) ... فقه اللغة، طبعة 1378 ـ 1959، القاهرة، ص. 450 ـ 455.

(2) ... دار القيطون بفاس أسسها المولى إدريس.

(15388/1)

الآسن في عنفوان المدنية الناشئة.

... وأول مسجد على النسق المعماري الإسلامي في المغرب

هو ذلك الذي بناه سعيد بن صالح الحميري في نكور(1) في نهاية القرن الأول استمد في تصميمه من جامع الإسكندرية التي ظلت مهبط الرواد المغاربة وعلى رأسهم الصوفي الفاسي أحمد البدوي دفين طنطا وأبو الحسن الشاذلي العماري الريفي. وكانت البساطة آنذاك هي طابع الفن المعماري الذي لم يعرف

---

(1) ... مما يبرز تأثير الأندلس إحداث الموالي الصقالبة لقرية تحمل اسمهم فوق مدينة نكور (البكري، المسالك والممالك، طبعة الجزائر، 1911، ص. 97).

(15389/1)

بعد المقرنصات ولا التعاريج العربية (Arabesques). والواقع أن انعدام الاقتباس من الطبيعة والإمعان في دراسة الرياضيات ونزعة الإبداع حدت مسلمي الأندلس والقيروان ومصر ثم المغرب إلى التسطيرات الهندسية الساذجة التي يظهر أنها وسمت الزخرفة في أوائل العصر الإدريسي. وكان استمرار الصراع في الأندلس بين العناصر السلالية المختلفة من عرب وبربر وقوط عائقاً دون تفتق الفن حيث لم تكد تمر ست سنوات(1)

---

(1) ... تبلغ الأسر الأندلسية التي هاجرت إلى فاس عام 202 هـ/ 818 م أربعة آلاف حسب عبد المالك الورَّاق وثمانية آلاف (روض القرطاس، ص. 25؛ ودوزي، تاريخ مسلمي الأندلس، 1932، ج 1، ص. 301) أو ثمانمائة (هنري طيراس، تاريخ المغرب، ج 1، ص. 118)؛ بينما بلغ عدد الأسر الإفريقية التي جاءت من القيروان عام 198 هـ ثلاثمائة. ويظهر أن عدد الربضيين تراوح بين أربعمائة وثمانمائة اعتباراً للغلط المحتمل الناتج عن إضافة صفر للعدد، ونظراً للتوازن الديموغرافي بين العدوتين. وقد تحدث المقري في النفح (ج 1، ص. 318) عن الوقعة التي أدت إلى طرد الأندلسيين، فذكر أن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل انهمك في لذاته، فخلعه العلماء بقرطبة، فأجلاهم عن الأندلس ولحقوا بفاس والإسكندرية، ومنها إلى جزيرة أقريطش.

(15390/1)

على تأسيس فاس حتى انحدرت إلى المغرب ثلاثمائة أسرة قيراونية تلتها بعد أربع سنوات ثمانمائة عائلة جاءت من أرباض قرطبة معظمها من الفلاحين والمزارعين الذين استقروا بعدوة الأندلس. ووصل بعضهم إلى فازار بالأطلس انتجاعاً للحقول والمراعي الخصبة وأشجار التوت

لتربية دود القز وصناعة الحرير(1)

---

(1) ... ذكر ليفي بروفنصال أن الأندلسيين نقلوا معهم إلى المغرب فن البستنة وكذلك تجربتهم للحياة الحضرية كالبناء والصناعة التقليدية (فاس قبل الحماية (Fez avant le Protectorat). وقد لاحظ لوطورنو (ص. 205) أنه إذا كان العرب قد نقلوا إلى فاس مظاهر نبلهم، فإن الأندلسيين قد نقلوا رقتهم والقيروانيين مهارتهم واليهود حيلهم والبربر صمودهم. وقد أعطانا الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في كتابه بساط العقيق صورة عن حضارة القيروان حيث تحدث عن سماطها (يوجد شبهه بفاس، وهو سماط العدول؛ إلا أنه أصغر منه) وحماماتها العمومية (49 حماماً) ومصانع الزربية (ذات الطابع القيرواني الخاص، بالرغم من أصلها الفارسي) والزجاج والبلور والورق ودار الطراز. وكان قاضي القيروان شيخاً للإسلام في تونس أو قاضياً للجماعة كما في فاس. وقد لاحظ الأستاذ التونسي في رسالة بالفرنسية أن الطبقة المتمدنة العتيقة من الأندلسيين قد نزلت مدينة تونس واختلطت بأهلها. وقلدهم الحفصيون الذين هم فرع عن الموحدين. وقد ذكر المقري عن ابن غالب (نفح الطيب، ج 2، ص. 764) أن أهل الأندلس تفرقوا في المغرب الأقصى مع إفريقية، فمال

أهل البادية إلى ما اعتادوه فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرحي الطاحنة بالماء وعلموا أهل البادية أشياء جديدة.

... ... ومعلوم أن الأندلسيين كانوا يحتكرون ببلادهم . حسب سرفانطيس مؤلف "دون كيشوط" . تجارة الأغذية، ويضعون يدهم على المحاصيل عند نضجها. وهم لا يشترون العقارات، حفاظاً على حرية رواج أموالهم.

(15391/1)

، بينما كان مهاجروا حاضرة القيروان من الفعلة الذين أقاموا في عدوة القرويين الخلايا الأولى للحرف والصنائع اليدوية مدرجين بذلك في المصطلح الصناعي والتجاري مفردات دخلت منذ ذلك الوقت في التقاليد الحرفية لا نستطيع تحديدها بالضبط وإذا اعتبرنا أن الوضع الحالي بفاس لا يختلف كثيراً عما كان عليه من حيث الهيكل العام، فإننا نلاحظ أن عدوة القرويين تضم معظم مقومات الاقتصاد والثقافة والاجتماع: ففيها القيساريات والحرف والمدارس والزوايا والفنادق، ويبلغ عدد أحيائها اثني عشر مقابل نصفها في عدوة الأندلس و 17

(15392/1)

حماماً و96 كتاباً قرآنياً بدل 24 وست مدارس بدل اثنتين. هذا، وإن جامع القرويين الذي أسس عام 245 هـ مع شبيهه جامع الأندلس على يد أم البنين وأختها مريم الفهرية القيروانيتين لم يكن يثير الانتباه بفن جديد نظراً لعدم اختصاص بنائيه القيروانيين عدا تصميمه الغريب الذي تتوازى بلاطاته مع القبلة على غرار مسجد الشرفاء الإدريسي وجامع ابن طولون بالقاهرة وجامعي بعلبك ودمشق. وقد أضاف إليه الناصر الأموي عام 345، أي بعد مرور قرن كاملٍ على بنائه، اثني عشر بلاطاً جديداً وحول المنارة إلى مكانها الحالي مغشياً بابها

(15393/1)

»بصفائح النحاس الأصفر« مع »قبة صغيرة« محلاة »تفافيح مموهة بالذهب«(1). وبذلك انبثقت النواة الأولى للفن الأندلسي المغربي البارز في مسجد قرطبة ومدينتي الزهراء والزاهرة حيث امتزج العنصر السوري بالفارسي والبيزنطي. ولعل عهد الناصر الذي ازدهرت

فيه الفلاحة والصناعة والتجارة والفنون والعلوم(2)

بالأندلس كان عهد تحول وانقلاب في تاريخ الحضارة المغربية التي بدأت تتخذ بالعاصمة الإدريسية سمات جديدة في شتى المجالات، تقل مع ذلك روعة وفخامة عن أصولها

---

(1) ... زهرة الآس، ص. 37.

(2) ... ابن حوقل، ج 2، ص. 77.

(15394/1)

بقرطبة إذا اعتبرنا المضافات الأموية بجامع القرويين.

وقد انتشرت بدائع هذا الفن في حواضر إدريسية كالبصرة وأصيلا أصبحت تنافس مدينة فاس.

... ومن الصعب أن نتعرف العناصر الحضارية والمصطلحات التي تسربت إلى فاس في القرن الثالث الهجري، وإن كنا نعرف مما كتبه مؤرخون عرب أمثال الحميدي صاحب "جذوة المقتبس" وابن غالب صاحب "فرحة الأنفس" والحميري في "الروض المعطار" والمقري في "النفح" الكثير من ذلك عن الأندلس حيث اكتملت مظاهر المدنية في الإدارة والقضاء والشرطة والاقتصاد والصناعة والفلاحة والاجتماع والعمران، وأول

(15395/1)

ما يبدو الباحث عند الأمويين هو امتزاج العناصر الحضارية بسبب تداخل الاختصاصات وعدم فصل السلط حيث تندرج كثير من مقومات الدولة ضمن البلاط كالجامع والصدقات والأعشار والأموال المرسومة على المراكب الواردة والصادرة والرسوم الموظفة على بيوع الأسواق والمكوس والمشرف(1) أو الأمين ودا السكة وخزانة الطب والحكمة. وإذا ما حاولنا أن نقارن بين مصطلحات هذا العصر والتعابير المغربية دون تحديد لإطارها الزمني، فإننا نلاحظ أن أغلبها

---

(1) ... هذه الكلمة معناها أمين المال. وقد استعملها الموحدون (زهرة الآس، ص. 872).

(15396/1)

متقاربة عدا كلمات لم يعرفها المغرب مثل صاحب البنيان وصاحب البيازرة والأسجال الخراجية وصاحب القطوع (أي الجبايات المرسومة على الإقطاعات) وصاحب الرد (رئيس قسم الشكايات بالقصر الملكي) والكور

المجندة والجند المتدون (أي المسجل في الديوان) وفحص السرادق (أي مكان تقام فيه حفلة البروز لتوديع البعوث العسكرية وعقد الألوية) والمهرجان (عيد موسمي منه العنصرة التي تعرف بالمغرب). على أن معظم أسماء الحرف موحدة؛ وكذلك أسماء الأزهار والأعشاب والمصنوعات اليدوية وغيرها(1)

---

(1) ... راجع القائمة الكاملة بهذه المصطلحات في الملحق رقم 2 في كتابنا "تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث، طبعة القاهرة، ص. 213.

(15397/1)

. واستمر هذا الاقتباس طوال قرن ونصف قرن بدافع من بني زيري وخلفاء المنصور بن أبي عامر إلى أن أصبحت الأندلس جزءاً من العدوة الجنوبية تحت حكم المرابطين الذين استدعى زعيمهم يوسف بن تاشفين رجال الحرف القرطبيين لإقامة المساجد والسقايات والحمامات والفنادق بفاس(1) ودار الأمة بمراكش، بينما استعان نجله علي بن يوسف بمهندسي الأندلس لمد قنطرة تنسيفت(2) وقنوات الماء وبناء دار الحجر بمراكش(3)

---

(1) ... زهرة الآسا، ص. 87؛ وجذوة الاقتباس، ص. 27.

(2) ... الإدريسي، مقتطفات من النزهة، طبع الجزائر، 1957، ص. 69.

(3) ... الاستبصار، ترجمة، ص. 179.

(15398/1)

. وكان لوحدة إفريقية والمغرب الأقصى حينئذ أثرها في ضم الآثار القيروانية إلى المدد الأندلسي. غير أن من الصعب تمييز الأثرين بوضوح، لأن جامع القيروان نفسه دخلت فيه مواد أندلسية كالمرمر والآجر والجبص عند تجديده على يد محمد بن حمدون الأندلسي عام 252 هـ ولم ينس المرابطون الصحراويون إقامة القصبات والحصون في عمرانهم العسكري الذي تعزز بتسوير الحواضر أيام علي بن يوسف بإيعاز من ابن رشد الأندلسي. وإذا أردنا دليلاً على مدى انسجام الصحراويين المغاربة مع روح العصر واستساغتهم للفن وأساليبه ومصطلحاته، فإن ذلك

(15399/1)

يتجلى بوضوح في الروائع الجديدة التي أضيفت لجامع القرويين الذي اتخذ حينذاك شكله الحالي بمنبره المصنوع من »الصندل والأبنوس والعناب والعاج«(1) وقبته التي كشفتها الحفريات عام 1952 كأنموذج للفن في أروع مجاليه.

... وهكذا، فالفعلة الأندلسيون الذين انتقلوا إلى المغرب في العصر المرابطي كانوا إذن أكثر اختصاصاً من سلفهم، وإن كان عملهم لم يتجاوز نطاق هندسة المساجد وبعض المآثر العسكرية؛ لأن بداوة الملثمين وتقشفهم حالا دون تقبل عناصر حضارية طريفة زخرت بها آنذاك قرطبة وإشبيلية

---

(1) ... زهرة الآس، ص. 42.

(15400/1)

كموسيقى زرياب الذي أحدث في الأندلس ثورة جذرية في المودات، فكان ـ بحق ـ »مشرع إسبانيا العربية«، كما يقول دوزي. وظلت المرأة المغربية بدوية الطبع، بالرغم من سفورها(1). لم تتفتح للثقافة عدا القليلات أمثال زينب النفزاوية زوجة يوسف بن تاشفين والبطلة الموحدية فانو وأم هانئ بنت القاضي عبد الحق

بن عطية وحفصة الركونية أستاذة نساء دار المنصور(2)،

---

(1) ... حتى الأميرات لم يكن يتحجبن، مما حدا المهدي بن تومرت إلى نقد سياسة البلاط الدينية للنيل منه سياسياً.

(2) ... الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، ص. 165.

(15401/1)

بل أستاذة عصرها(1) وأم عمرو بنت أبي مروان بن زهر طبيبة النساء في البلاط الموحدي وورقاء الفاسية الأديبة الشاعرة(2) وزينب القرقولية أستاذة القراءات السبع بمراكش وأغمات وزينب بنت يوسف بن عبد المومن التي ربيت بالأندلس، فكانت صاحبة الرأي في البلاط والشفوف في المجتمع. وإزاء هذه الندرة من المثقفات في المغرب، كانت نساء غرناطة يشهدن الحفلات العامة سافرات ويسبغن بوجودهن عليها روعة وسحراً ويتمتعن بقسط وافر من الحرية الاجتماعية؛ كما كان بالربض

---

(1) ... ابن الخطيب، الإحاطة.

(2) ... جذوة الاقتباس، ص. 335.

(15402/1)

الشرقي لقرطبة وحده سبعون ومائة امرأة يكتبن المصاحف بالخط الكوفي الذي اتخذ في هذا العصر أشكالاً خاصة بالمغرب(1). فإذا استثنينا مثلاً الخط الحجازي، فإن ترتيب الحروف تختلف بين الشرق والمغرب ابتداء من الزاي؛ فهي عندنا:

... ... ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و لا ي

بينما هي في المشرق:

... ... س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و لا ي

... والمغاربة يعجمون الفاء والقاف بنقط: الأول بنقطة من أسفل، والثاني بنقطة واحدة من أعلى؛ كما أن صور

---

(1) ... راجع الملحق رقم 4 من كتابنا المذكور تطور الفكر واللغة، ص. 222.

(15403/1)

الأرقام في المغرب عربية أصيلة ليست منقولة عن الرسم اللاتيني. وقد أبرز ذلك الاختصاصيون في المؤتمر الذي انعقد بتونس عام 1963، حيث أكدت الجامعة العربية عزمها على إصدار تعليماتها إلى الدول الأعضاء لاعتبار الأرقام المغربية هي الأصل والاقتصار عليها في العد والترقيم.

... غير أن الموحدين قفزوا بالفن إلى مستويات راقية، بالرغم مما أبدوه في البداية من روح التزمت(1)

---

(1) ... وقد أمر المنصور الموحدي »بقطع اللباس الغالي من الحرير والاجتزاء بالرسم الرقيق الصغير ومنع النساء من الطرز الحفيل والاكتفاء منه بالساذج القليل، وأمر بإخراج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب، فبيعت... «(ابن عذاري، البيان المغرب، ج 4، ص. 81).

... ففي زمن المنصور والناصر الموحديين كان عدد الأطرزة بفاس 3094 ودور الصابون 47 ودور الدباغة 86 والصباغة 161 وتسكيك الحديد والنحاس 12 والزجاج 11 وكوش الجير 135 وأفران الخبز 1170 وأحجار صنع الكاغد (أي الورق، وهي كلمة تركية) 400 ودور الفخارة 180 (الجزنائي، زهرة الآس، ص. 33). وقد بلغت الأرحي

بفاس 600 في القرن السابع (حسب ياقوت المتوفى عام 626 هـ في معجمه، ج 6، ص. 331).

(15404/1)

، فأضافوا روائع جديدة إلى المآثر الأموية تجلت في المنارة الخالدة بإشبيلية وجامع حسان بالرباط والكتبية بمراكش والقصور الفخمة والحدائق الغناء (على غرار مسرة المرابطين المعروفة الآن بالمنارة). ونضرب مثلاً لهذه الروعة بمنبر الكتبية الذي يرجع إلى عهد عبد المومن(1) والذي قارنه ابن مرزوق بمنبر جامع قرطبة واعتبره طيراس وباسي «أجمل ما أبدعه الغرب الإسلامي، بل العالم الإسلامي». ولعل الوحدة السياسية التي حققتها الدولة البربرية في المغرب الكبير قد تجلت خاصة في

---

(1) ... المسند الصحيح الحسن، 1925، ص. 65.

(15405/1)

تجديد الاتصال بين الفن المغربي الأندلسي والفنين المصري والعراقي السائدين في بجاية ومهدية وتونس

الخضراء(1). وبذلك تعززت الوصلة بين جناحي العروبة، واندرجت في المجتمع المغربي مصطلحات كانت عصارة الاحتكاك الموصول طوال خمسة قرون. وبذلك يكون في وسعنا اعتباراً لهذه المعطيات أن نستخلص بعض الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية من خلال أسماء الحرف التي ظلت إلى اليوم الصناعة الأساسية لنصف سكان الحواضر(2)

---

(1) ... ويليام مارسي، تاريخ الفن الإسلامي.

(2) ... راجع إحصاء قام به ماسينيون عام 1923 ـ 1924 في كتابنا معطيات الحضارة المغربية، ج 2، ص. 78؛ الحناطي الإسلامية، باريس، 1925، ص. 38. وقد كان نظام الحناطي (أي النقابات العمالية) يتسم في جميع العصور بطابع الحرية حيث ظل المخزن يحترم مبدأ الحرية التجارية والاقتصادية قبل صدور ظهير 1917 القاضي بتنظيم البلديات.

(15406/1)

. فمصطلحات الحرف بمراكش كانت تحتوي، نظراً لقرب العاصمة من الصحراء، على كلمات بلدية أو حضرية معدودة مثل بعدي (أي إسكافي بدوي) وخطاطري (حفار

الخطارات، أي السواقي الصحراوية) وتكموتي (صائغ) وقراشلي (حلاج)؛ في حين تزخر بالألفاظ العربية التي حرّف بعضها تسهيلاً للنطق بها مثل بامهاود (أي أبو المهاودة، وهو حكم يتدخل بين الناس للمهاودة) ومواكني (مصلح المنجانات) وغواسلي (بائع الغاسول). وظل معظمها مما ينيف على المائة في قابله العربي الفصيح مثل التبان (بائع التبن) والجرار والحراث والحمار والحمائمي (بائع

(15407/1)

الحمام) والخراط والرحوي (صاحب الرحى المائية) والطاحوني (صاحب المطحنة أو الطاحونة التي تدار بحركة بغل أو حمار) والرخايمي (صانع الرخام) والزيات والسفاط (صانع الأسفاط، أي السلال) والعشاب والقطارني (بائع القطران) واللباد (صانع اللبد). أما مصطلحات الحرف والمؤسسات العمومية وغيرها بفاس، فإذا استثنينا بعض الدخيل، فإن الكلمات البربرية أقل؛ بينما تظهر ألفاظ خاصة مثل مقدم الحومة ودار معلمة (وهي مدرسة لتعليم الخياطة والتطريز للبنات) وشيوخ الفلاحة (وهم خبراء في الشؤون الزراعية من أصل أندلسي) ودار العميان

(15408/1)

والمرقطان وسوق الفرش (أي صنع المخاد والحشايا) ومعاصر الزيت وكعب غزال (فارسي) والبلاجة (صانعو الأقفال) وصناع الأسلحة الاختصاصيين مثل الجعايبية (صانع جعاب المسدسات) والسرايرية (لصنع مقابضها) والجوايين (لصنع الأغمدة) والصقالة والذهابين والسكاكين والبراولية (باعة خيوط الحرير) والزرادخية (باعة القماش من نوع الزردخان) والنيارة (صانعو نول النساج). وإذا أخذنا مثالاً لباقي المدن المغربية في شخص أصغر مدينة، وهي ميناء أزمور، لاحظنا وجود معظم هذه الحرف عدا التنويع في النسيج وحرف جديدة كحرفة البغازة (وهم

(15409/1)

بائعو السمك بالجملة) والشراحة (وهم مجففو الحوت). وهنالك ألفاظ مغربية أندلسية مبتكرة مثل القبال والقابض بدل الجمركي والجابي. وقد استدل السيد محمد علي بهاتين الكلمتين للتدليل على أصالة الإبداع اللغوي في المغرب والأندلس ("عجائب اللهجات")، مجلة

مجمع اللغة العربية، ج 7، ص. 128، عام 1953). ويلوح لأول وهلة من مقارنة نوع المصطلح في عاصمتي الشمال والجنوب مدى تأثر فاس بالحضارة الأندلسية حيث بدأت تظهر مؤسسات اجتماعية واختصاص أدق في بعض المرافق الصناعية بالعاصمة الإدريسية. ولا بدع في ذلك، إذا اعتبرنا أن

(15410/1)

مدينة فاس أصبحت في عصر الموحدين(1) »حاضرة المغرب« الفكرية اجتمع فيها علم القيروان وقرطبة، »ولا يوجد في الدنيا أكثر مرافق وأوسع معايش وأخصب جهات منها« كما يقول المراكشي بشيء غير قليل من الغلو. على أن الفن بفاس أصبح مزيجاً للكثير من العناصر العربية. فإذا ضربنا مثلاً بالزليج الذي عرف في الشرق بالفسيفساء(2)، لاحظنا أنه نوع من الترصيع هو التكفيت (كلمة تركية)

---

(1) ... عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، سلا، عام 1357/ 1938، صص. 213 ـ 221.

(2) ... النفح، نقلاً عن ابن سعيد، ج 1، ص. 187.

(15411/1)

لها مرادفات منها التلبيس والترسيب والتنزيل أصحها عند العرب في العهد العباسي التطبيق. وفن الترصيع سوري في أصله يعرف بأروبا إلى الآن بالفن الدمشقي (damasquinage). وقد دخل الفن العربي إلى إيطاليا. وبعد الحروب الصليبية غزت المنسوجات العربية الأقطار الأوروبية حتى اضطر أحد ملوك فرنسا إلى تحديد إيرادها(1).

... وقد شمل التعريب معظم المواد والآلات والأجهزة والأدوات التي استعملها الصانع المغربي إلى العصر الحديث. ويكفي إلقاء نظرة على معجمنا "الأصول العربية في

---

(1) ... أعراف المسلمين وعاداتهم، ص. 247.

(15412/1)

العامية المغربية" لتعرف مدى فصاحة الاستعراب في هذه المفردات التي نجد منها في الصفحات الأولى للمعجم ألفاظاً كالإشفى (مخرز الإسكافي) والبريمة والبرمة والبرميل والبوطة والبلور والتبان والترس وتفصيلة الثوب وتكريشه تقبيضه) والتكة والتنجرة والتومة

(القرط) والثلج والخبل (لفظة يمنية) والحنوط والخرقة والخميرة والخنجر. ثم إن الفكر العلمي الأندلسي الذي حماه البلاط الموحدي بمراكش لم يكن يخلو من مظاهر اجتماعية تمثله. مثال ذلك البيمارستان(1) الذي احتوى على »النقوش البديعة والزخارف

---

(1) ... المعجب، ص. 177.

(15413/1)

الكتاب : مجلة التاريخ العربي

المحكمة« وغرست فيه »الأشجار المشمومات والمأكولات« وأجريت فيه »مياه كثيرة تدور على جميع البيوت زيادة على أربع بركفي وسطه إحداها رخام أبيض« وما له من »الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم« وتزويده بالأدوية والصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال مع ثياب الليل والنهار للمرضى ومجانية العلاج ورعاية المنصور الموحدي الشخصية له بزيارة أسبوعية لتفقد حال المرضى. وقد أشاد مؤرخ فرنسي معاصر بهذا المستشفى الذي بذ في نظره مستشفيات باريس في عنفوان القرن العشرين(1)

---

(1) ... **الموحدون** (Les Almohades) **للسيد** Millet، **طبعة** 1927.

(15414/1)

.

... وقد رأينا كيف بلغ المصطلح العلمي أوجه في هذه الفترة التي آوى خلالها العرش المغربي في ظلال مراكش الحمراء أقطاب الفكر الأندلسي الذين مهدوا بكشوفهم العلمية في شتى الميادين عهد النهضة والانبعاث بأروبا حيث ظلوا أساتذتها المرموقين طوال قرون.

... أما المرينيون الذين كانت لهم أرقى المقومات الملكية بالمغرب وأغناها وأحقها بتبني التراث الموحدي في إفريقية والأندلس، فإن مغربهم الزاهر كان منطلق الإشعاع في مجموع الشمال الإفريقي(1)

---

(1) ... مارسي (Marçais) في كتابه L'art l'Islam، ص. 134. وقد ظهرت في هذا العصر نتيجة للتأثير الغرناطي الموسيقى الأندلسية بمصطلحاتها وبعض التعابير القانونية مثل لفظة "الظهير" بمعنى المرسوم الملكي (صبح الأعشى، ج 15، ص. 299).

... وقد أسهم العلماء والأدباء في الصناعة والتجارة، مما أكسب الكثير من المصطلحات طابعاً فصيحاً؛ ومنهم محمد الغساني الذي كان تاجراً بقيسارية آسفي يدير حانوته بعد الفراغ من تدريس الموطإ والسير والنحو والآداب واللغة، وهو من رجال القرن السابع (توفي عام 663 هـ (الذيل والتكملة)، ومنهم كذلك العلامة محمد بن عبد

الله معن الذي كان يتمعش (كلمة مغربية معناها يتعيش) بعمل دود القز بفاس (نشر المثاني في ترجمة علماء القرنين الحادي عشر والثاني، ج 1، ص. 197).

(15415/1)

حيث تبلورت مدينتهم الحضرية في أروع ما عرفه المغرب الكبير من حواضر ومساجد ومعاهد وقبب وفنادق ومدارس وملاجئ وحمامات وقناطر وحصون، وخاصة في عهد أبي الحسن المريني (1331 ـ 1351) الذي يعتبره الغربيون أقوى عاهل في القرن الرابع عشر. وقد كان لتزاوجهم الحضاري مع غرناطة النصرية وارثة الأندلس ذيول عززت التراث المشترك الذي ما لبث أن انتقل بكامله مع رجال المهاجر إلى المغرب ليشكل الحضارة المغربية الأندلسية الموحدة. وقد ظهرت في الحقل الاجتماعي لأول مرة مدارس هي عبارة عن أحياء جامعية مجانية للطلبة في مختلف

(15416/1)

المدن كفاس وتلمسان والجزائر(1)، علاوة على قصور فخمة تجلت فيها مهارة المهندسين والفنانين في تصميم معماري محكم. ويمكن أن نقدر من خلال وصف(2) لأحد هذه القصور مدى تطور المصطلح الفني والأنواع الجديدة من أرباب الصناعات كالبنائين والنجارين والجباسين والزليجيين والرخامين والقنويين والدهانين والحدادين والصفارين

---

(1) ... ابن مرزوق، نخب من المسند الصحيح الحسن في مآثر أبي الحسن.

(2) ... المصدر نفسه، حيث أشار ابن مرزوق إلى وضع تصميم معماري لهذا القصر وصفه بأنه رسم في كاغد لتقدير الساحة (أي المساحة).

(15417/1)

والجدارات المنقوشة بالجبس والزليج والأرز المحكم النجارة والصناعات المشتركة (كالتوريق والتسطير) مع فروش الرخام والزليج وطيافير (فسقيات) المرمر والقبب والخوخ (أي الأبواب) والخزائن بنحاسها المموه بالذهب والحديد المقصدر. غير أن هذه المظاهر الحضارية لم تتجاوز المدن، لأن البادية (أي الأرياف والسواد) ظلت

نسبيّاً في معزل عن تياراتها بسيطة في سكنها ومطعمها وسلوكها قد حفظت تراثاً لغوياً أصيلاً ما زالت الحواضر تطعمه تدريجياً استجابة لمقتضيات العصر. وقد لاحظنا أن قبائل عاشت في أرباض عواصم كرباط الفتح مثل

(15418/1)

زعير ظلت عالقة إلى عهد حديث بتراثها اللغوي الجاهلي الخالي من أي شائبة، الأمر الذي أسفر عن نوع من الخلل بين المصطلح الكلاسيكي القديم ومولدات العصر الحديث.

... وقد توافرت هذه المجالي الحضارية ولوازمها اللغوية العربية التركية في العصر السعدي عندما اقتبس المغرب بعض الأنظمة العسكرية العثمانية، كما دخلت إلى المغرب أفواج المهاجرين الأندلسيين بلغت في مدن كتطوان أربعين ألفاً فيهم الأديب والعالم والفنان والعامل المختص والتاجر والفلاح. وإذا كانت هذه المظاهر تنعكس على العادات الاجتماعية والمآثر العمرانية،

(15419/1)

فإننا نلاحظ بخصوص الأزياء مثلاً أن سكان حواضر أندلسية مثل فاس وتطوان والرباط أصبحوا يضعون على رؤوسهم قلانس حمراء قد لفت عليها عمامة تتوسطها شوشة زرقاء (أي نواسة) بعد النفي العام أوائل القرن السادس عشر الميلادي، لأن الشوشة الزرقاء لم تكن معروفة بالأندلس قبل عصور التحقيق الصليبي (Inquisitions) حيث أجبر الإسبان العرب الممسحين على التميز بشارة زرقاء(1)

---

(1) ... في عام 1019 هـ هاجرت ألوف الأندلسيين إلى فاس وألوف إلى تلمسان وجمهورهم من تونس، فتسلط عليهم الأعراب ونهبوا أموالهم في تلمسان وفاس، وسلم أكثرهم في تونس وتطوان وسلا وفسحة الجزائر ووصل جماعة إلى قسطنطينية العظمى ومصر والشام (نشر المثاني، عن النفح، ص. 101).

(15420/1)

.

... ولباس البياض في مناسبات وفصول خاصة هو أيضاً عادة أندلسية، حيث كان هؤلاء يخلعون الثياب الملونة ويلبسون البياض ابتداء من يوم المهرجان (أي العنصرة

كما تسمى في العدوتين)، أي 24 يونيه. وذلك إلى أول أكتوبر خلال ثلاثة أشهر متوالية ("النفح"، ج 2، ص. 752).

... أما في الحقل العمراني، فإن قصر البديع الذي استغرق بناؤه زهاء العشرين سنة (986 هـ - 1002 هـ) يبرز لنا مدى التطور الحاصل في الفكر الحضاري ولغته. فقد ظهرت معه فنون طريفة ومصطلحات فريدة كالرخام المجزع والزليج الملون والقباب الخمسينية(1)

---

(1) ... أي التي فيها خمسون ذراعاً بالعمل، أي بالنقش. وكانت الجدران تحلى أحياناً بأنواع التطريز ومنه النوع الفاسي الذي هو سوري الأصل. وفي سلا نماذج من أصل فارسي أو شامي. ويلاحظ في تطريز الرباط تأثير الأنسجة الأوربية، وكذلك في أزمور التي يرجع تاريخ نماذجها الإسبانية الإيطالية إلى القرن العاشر الهجري (مجلة هسبريس، 21، عام 1935).

... ويوجد بفاس تطريز علجي الأصل أدخلته إلى المغرب النساء التركيات أو الجركسيات اللواتي تسرى بهن أهل فاس، أما التطريز التطواني، فهو من أصل بلقاني.

(15421/1)

كتبت في أبهائها الأشعار بمرمر أسود في أبيض

تذكرنا بروائع الأندلس. فمن شعر أبي فارس عبد

العزيز الفشتالي يصف فن هذه الروائع:

فإنها والتبر سال خلالها

وكان أرض قراره ديباجة

وكأن موج البركتين أمامه

صفت بضفتها تماثل فضة

وشي وفضة تربها كافور

قد زان حسن طرازها تشجير

حركات سُحْب صافحته دَبور

ملك النفوس بحسنها تصوير

وقد كتب بجدران المصرية(1) المطلة على الرياض:

---

(1) ... المصرية، أي الغرفة الواقعة في طبقة عليا

(العلية بالفصحى). ولعل لوجود طبقات في الأبنية منذ

القديم بمصر أثراً في هذه التسمية.

(15422/1)

باكر لدي من السرور كؤوسا

وأرض النديم أهلة وشموسا

... وكان هذا الإطار العمراني الرائق مسرحاً لحفلات شعبية بمناسبة حفلات كذكرى المولد النبوي يجري خلالها إعذار أبناء الفقراء ويتبارى الشماعون في تطريز شموع "يحملها صحافون .كما يقول الفشتالي في "مناهل الصفا" .محترفون بحمل خدور العراش عند الزفاف"، وهي على رؤوسهم كالعذارى تتبعها الأطبال والأبواق وأصحاب المعازف والملاهي حتى تستوي على منصات بالديوان الشريف حيث يقعد السلطان على أريكته وعليه حلة البياض شعار الدولة وأمامه شموع من بيض كالدمى وحمر جليت في

(15423/1)

ملابس أرجوان وخضر سندسيَّة في حسك ومباخر ترنم خلالها نوبات منشدي المولديات وأشعار الصوفية وتتلى قصائد شعراء الدولة بغزلها ونسيبها ومديحها للرسول عليه السلام وللسلطان وولي عهده في تراتيب يتقدمها قاضي الجماعة ثم الإمام المفتي ثم الوزير، ثم الكتاب

المخزنيون. ويختم الحفل بنشر "خزان الأطعمة والموائد، وتوزيع الأعطيات" وكأن هذه القصور الباذخة في فرشها الحريرية ونمارقها المصطفة وأستارها وكللها وحجالها المخوصة بالذهب وحائطياتها ورصفانها وأعلاجها بأقبيتهم المخوصة ومناطقهم المرصعة وحزمهم المذهبة .صور حية

(15424/1)

لفخفخة استمرت معالمها في القرن العشرين في بلاط الملوك العلويين وقصور الأثرياء حيث استعيض عن القصاع المالقية والبلنسية المذهبة وعن الأواني التركية والهندية والطسوت والأباريق والصحاف ومباخر العنبر والعود الشرقية بأوعية لا تقل روعة قد جلبت من مختلف أنحاء الدنيا شرقاً وغرباً لتضفي هالة من الجمال والسناء على محافل نشرت فيها كالماضي أغصان الريحان الغض وماء الزهر والورد. كما استبدلت بنوبات المنشدين نوبات الموسيقى الأندلسية الرائعة التي تسحر الألباب بنغماتها المشجية وتلاحينها الأخاذة وألوانها الخمسة

(15425/1)

والخمسين وتوشيحاتها التي تردد في حنان وخشوع على ألسنة الخاصة والعامة لتسهم في تحريك نبرات القلوب وتوعية الروح وتأجيج الشعور وتوفير الثراء اللغوية في الدارجة والفصحى على السواء. فكم من تعابير تخللت الألحان كانت أرسخ في البواطن وأملك للوعي وكم من أغنيات ساحرة رددها الرضيع في حبوه وربة الخدر في حجلتها كان أثرها أوقع في النفس ولفظها أعلق باللسان من كل قصيد يلقن في الكتاب أو درس لغوي يلقى في حلقات العلم.

(15426/1)

... وإذا كان عهد السعديين قد نضدت معالمه بالزخارف المعمارية والروائع الاجتماعية، فإن عهد العلويين الذي أقيمت فيه القصور والبساتين نفسها مثل دار الهناء والدار البيضاء والصالحة والزاهرة وجنان رضوان وأجدال بالبذخ نفسه قد اتجه إلى دعم الكيان بالقصبات والقلاع. ومن أروع ما يبدهك في قصر من هذه القصور كقصر الرياض بمكناس عاصمة المولى إسماعيل جمعه بين فخفخة البلاطات الملكية وضخامة التحصينات

بـأبـراجها ومدافعها إزاء البـرك الفياضة للتمرين والانـبـساط معاً في فلكها وزوارقها. وكانـت أهراء القصر تضم اثنـي عشر ألفاً

(15427/1)

من خيل الجهاد وعشرات المستودعات زاخرة بـمؤن تـكفل للبـلاد اكتفاء ذاتياً وميزانـاً تجارياً متوازياً. وقد بـدأنـا بـالرغم عن أصالة اللغة العربـية بـالمغرب نـسمع في معماريات العلويين وعمرانـياتـهم مصطلحات جديدة فيها الكثير من الدخيل كالقنـانـيط (أي الهياكل) المقبـوة في الأهراء والإصطبـلات المسقفة بـالبـرشلة (وهي نـوع من الروافد والعوراض (pignon) وسوانـي الماء الدائرة (أي النـواعير المائية) والقراميد، علاوة على المولدات العسكرية والدبـلوماسية واتخاذ الأشبـار (أي حفر الخنـادق الحربـية) وصنـع البـارود الكور والبـنـب (أي القنـابـل

(15428/1)

والقذائف) ونصب المهاريس والكراريص (أي المدافع المجرورة والضوبلي) لتحرير الثغور المحتلة وبعث الباشدورات إلى طواغية (جمع طاغية) الإصبنيول أو البرتغال أو النجليز »لإحكام الصلح« ومفاداة الأسرى البلوط بالبلوط واليكانجي باليكانجي والبحري بالبحري دعماً للطبجية (أي المدفعية) والبحرية المغربية بغلائطها (سفنها الحربية) وفراكطها (أي حراقاتها) ومراكبها القرصانية. ودخلت إلى المعجم المغربي بجانب ذلك عشرات المفردات مثل الكشينة(1)

---

(1) ... راجع: علي بن محمد التامجروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية.

(15429/1)

والباصبورط (الجواز) والطنبور والكرنتينة (المحجر الصحي) والمحلة (أي المعسكر) وصاكة الأعشار (أي رسومها) وصقالة (أي برج) والتوافل (الرماح) وتفرقع البونب (أي انفجار القنابل) (1)

---

(1) ... ظهرت هذه الكلمة منذ السعديين. وقد استعمل الناصري (في تاريخ المغرب) هذه المصطلحات التي بدأ

يستعملها آنذاك سلفه من المؤرخين. وقد استعرض الناصري (ص. 224) النظام العسكري عند الأتراك، فلاحظ أن أهم ما يمتازون به هو العزوف عن العادات الأجنبية والمصطلحات العجمية، حيث »عمت المصيبة في عسكر المسلمين بالتخلق بخلق العجم. وإذا كان أصل العمل مأخوذاً عن العجم، فليجتهد المعلم الحاذق في تعريبه«. (راجع الاستقصا، الجزء الرابع).

(15430/1)

والبستيون وأنواع النقود كالبندقي في أربعين أوقية من الذهب والضبلون (doublon) في اثنين وثلاثين من الريال (الريال (real) فيه عشرون أوقية) والبسيطة (خمس أواق) والموزونة (ربع الدرهم الرباعي، أي نصف القرش) والسنجق(1) وبقسماط (بسكويت). وكل تلك مظاهر

---

(1) ... الاستقصا، ج 4، ص. 233 يصف الوضع بالمغرب عام 1290 هـ وقد شارك الصانع المغربي في معرض باريس عام 1285 هـ (أي في عهد نابليون الثالث) بنماذج من إنتاجه كالسروج المذهبة والمناطق المزخرفة والقطائف

المنمقة والزليج الفاسي والمعلمين الذين يباشرون ترصيفه.

(15431/1)

للعجمة التي بدأ المجتمع المغربي يتسم بها حيث »اتخذ ذوو اليسار .كما يقول الناصري .المراكب الفارهة والكسي الرفيعة والذخائر النفيسة وتأنقوا في البنيان بالزليج والرخام والنقش البديع، ولا سيما بفاس ورباط الفتح. ولاحت على الناس سمة الحضارة الأعجمية« التي تعززت مع ذلك بمقتبسات غربية صالحة مثل فابريكة (أي مصنع) السكر وفابريكة تزديج البارود بمراكش وبرج الفنار (لتوجيه السفن في البحر) بأشقار قرب طنجة وبابور البر (القطار الحديدي) والتلغراف إلى غير ذلك وهكذا بدأت تتجلى في الأفق المغربي على عتبة القرن

(15432/1)

العشرين مصطلحات استعملها المغرب في قالبها الإفرنجي دون تعديل. وقد تحدثنا في كتابنا "تطور

الفكر واللغة..." (ص. 161) عن ظهور هذا الدخيل خلال الحماية وبعد الاستقلال. فأوضحنا كيف تمت وحدة نسبية بين جناحي العروبة عندما ظهرت الصحافة المغربية واشرأبت الأعناق إلى ما يرد من الشرق العربي، وخاصة من الشام ومصر حيث انبثقت حضارة طريفة ضمت إلى جوهر الإسلام ومعطياته جوانب من الفكر الغربي الحديث.

(15433/1)

وصايا وتوقيعات أندلسية من خلال مخطوط "رونق التحبير في حكم السياسة والتدبير" تأليف: أبو القاسم محمد بن أبي العلاء بن سماك العاملي

تقديم: الدكتورة نجاة المريني

... ... كلية الآداب – الرباط

المؤلف: هو الكاتب أبو القاسم بن أبي العلاء بن محمد بن محمد بن سماك العاملي المالقي، من أسرة اشتهر أبناؤها بتبحرهم في العلم والأدب والشعر، وباشتغالهم بالسياسة والقضاء ...

ترجم للمؤلف ابن الخطيب في كتابه الكتيبة الكامنة،

فقال: "من كتاب الدولة، فاضل نجيب، ولدواعي المجادة والإجادة مجيب، ونوارة

(15434/1)

مرعى خصيب، وفائز من سهام الإدراك بنصيب، خصاله بارعة، ونصاله شارعة، وشمائله إلى نداء الفضائل مسارعة، على حداثة يندر معها الكمال، وتستظرف الأعمال، فإن انفسح مداه، بلغت السماك يداه"(1) .

وينبه الدكتور محمود علي مكي إلى أن "السطور القليلة التي كتبها ابن الخطيب عن ابن سماك هي كل ما نتوفر عليه من معلومات وحيدة حول مؤلفنا وحياته، ويستفاد منها أنه كان يعمل بديوان الإنشاء الذي كان يعمل فيه أبو العلاء، وأنه كان وفيا لشيخه ابن الخطيب، فلم يتنكر

---

(1) تحقيق إحسان عباس، ط 1963، رقم الترجمة 100، ص. 299–301.

(15435/1)

له، ولمن يسع في إذايته كما فعل غيره كالبناهي وابن زمرك"(1) .

ويحتمل من خلال الترجمة التي أوردها ابن الخطيب لأبي القاسم ابن سماك في الكتيبة الكامنة أنه ولد سنة وفاة أبيه أبي العلاء سنة 750 هـ أو قبلها بقليل سنة 748هـ، وفي هذه النقطة يقول الدكتور مكي: "وأهم ما نستفيده من الترجمة أن ابن سماك كان من كتاب ديوان الإنشاء، إلا أنه كان صغير السن، حديث عهد بتولي منصب الكتابة، يدل على ذلك الأسلوب

---

(1) ابن سماك العاملي، "الزهرات المنثورة"، تقديم وتحقيق محمود علي مكي، مجلة المعهد المصري، المجلد 20، ص. 20.

(15436/1)

الأبوي الذي يتحدث به المؤلف عما توسم فيه من مخايل النجابة، وعما يتنبأ به إذا امتد به حبل العمر، فإشارته إلى الحداثة، وتعبيره عنها بأنه "نوارة مرعى خصيب" تدل دلالة واضحة على أن أبا القاسم كان آنذاك في ريعان الشباب، ونحن نتصور أن ابن سماك كان آنذاك في سن تتراوح بين العشرين والثلاثين، مما نرجح معه

أن يكون مولده في نحو منتصف القرن نحوا من عشر سنوات، وأن عمره كان حينما كتب ابن الخطيب ترجمته في الكتبية، ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين"(1)

---

(1) "الزهرات المنثورة ..."، مجلة المعهد المصري، المجلد 20، ص. 18.

(15437/1)

.

أما سنة وفاته، فلا نعرف عنها شيئًا بالتدقيق، إلا أننا نستطيع أن نستخلص من مقدمة كتابه رونق التحبير الذي أهداه إلى الخليفة المستعين بالله المتوفي سنة 810هـ، ومن مدحه للسلطان يوسف الثالث المتوفى سنة 820هـ، أن وفاته كانت بعد تولية السلطان يوسف الثالث الحكم بين (812هـ) و(820هـ).

وقد عاصر ابن سماك جماعة من الملوك النصريين، واحتك بثلاثة منهم وأهداهم مؤلفات وصلت إلينا وهم:

– محمد الخامس الغني بالله المتوفى سنة 793هـ، وأهداه ابن سماك مؤلفيه: "الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية"(1)

---

(1) تحقيق عبد القادر زمامة وسهيل زكار، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1979.

(15438/1)

، و"الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة"(1) .

– محمد الخامس الغني بالله المتوفى سنة (810هـ): أهداه المؤلف كتابه رونق التحبير في حكم السياسة والتدبير(2) .

– السلطان يوسف الثالث المتوفى سنة (820هـ): وامتدحه المؤلف بقصيدتين ابن فركون في ديوان مظهر النور(3) والقصيدة الثالثة في

---

(1) تحقيق وتقديم الدكتور محمود علي مكي، ونشره تباعا في مجلة المعهد المصري، العدد 20، 21.

(2) هو موضوع هذا العرض، وما يزال مخطوطا.

(3) ابن فركون، مظهر النور الباصر، إعداد محمد بن شريفة 1991، تحقيق محمد بن شريفة، ص. 27، 94.

(15439/1)

الكتيبة الكامنة(1) .

ويشير الدكتور محمد بن شريفة في تقديمه لديوان ابن فركون مظهر النور(2) ، أن الشاعر ابن سماك "هو الوحيد الذي شفع التهنئة بالتعزية في قوله:

فقل جذلا به أهلا وسهلا ... ... ولا تأسف على إلفٍ

يستنتج من هذا، أن ابن سماك، وإن كانت سنة وفاته غير معروفة بالضبط، فقد عاش فترة حياته في عهد السلطان يوسف الثالث، وكانت وفاته كما سبقت الإشارة إلى ذلك بين سنتي 812هـ، 820هـ، أو بعدها بقليل.

كتاب "رونق التحبير في حكم السياسة والتدبير" :

---

(1) ص. 300.

(2) ص. 9.

(15440/1)

... من المؤلفات التي اهتمت بالسياسة والسياسيين في العصر النصري، ألفه أبو القاسم محمد بن أبي العلاء بن سماك العاملي للسلطان النصري محمد المستعين (ت 810هـ)، وهو ما يزال مخطوطا، اطلعت على ثلاث نسخ منه، الأولى خاصة، والثانية محفوظة بقسم الوثائق

والمخطوطات بالرباط تحت رقم 1182د، والثالثة محفوظة أيضا بقسم الوثائق والمخطوطات ضمن مجموع تحت رقم 1121ك، وهي غير مفهرسة.

وكما يذكر المؤلف في مقدمة كتابه فقد: "رفع فيه الموضوعات والمصنفات في الفنون المختلفات، وجمع العبد الآن في هذا الموضوع من السياسات

(15441/1)

المستحسنة ما استفاده ببابهم الكريم منذ ثلاث وثلاثين سنة، اتصل إلي معرفة ذلك بالحنكة والتجريب، والممارسة والتدريب، فلخص معانيه، وقرب أبوابه أحسن التقريب، ليخف النظر فيه على من تأمله، ويلقي قوانينه مستوفاة بلغت عدتها إلى الأربعين، ورفعه العبد إلي خزانة مولانا الخليفة المستعين، وكل ما فيه إنما هو بعض ما عند مولانا أيده الله من العلوم والمعارف".

يتناول من خلال أبوابه الأربعين أحوال الملوك وهيئاتهم وأخلاقهم وصفاتهم، وأحوال الوزراء والكتاب والسفراء والقواد والعساكر والجنود، وسياسة الحروب وتدبيرها،

(15442/1)

وفي المنادمة والندماء، وفي مسايرة الملوك في مختلف أحوالهم وظروفهم، وغير ذلك

والكتاب مليء بالأخبار والمرويات، والنصائح والعظات، والوصايا والأحكام في حسن السياسة والتدبير، وبعد النظر والتفكير، مستفيدا من التاريخ، "وأيام الناس وسير الملوك وأخبار المتقدمين من الأمم الماضية، والأجيال الخالية والسياسات المأثورة"(1) .

وأعتقد أن هذا المؤلف يندرج في إطار مؤلفه "الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة"، الذي وصفه الدكتور محمود علي مكي بقوله: "إنه مجموعة من الأخبار والطرائف

---

(1) الورقة 10 من المخطوط

(15443/1)

والمواعظ مما قصد به المؤلف إلى تقديم مادة لتثقيف المتأدبين من الأمراء وأبناء السلاطين، مادة يودعها المؤلف خلاصة لقراءاته في كتب الأدب التي تضم أطرافا

من كل فن، ويبدو الهدف التربوي التهذيبي بشكل خاص في الزهرات الأولى التي تدور حول السلطان وسياسة الرعية وواجبات الحاكم والمحكومين"(1) .

ويرى الدكتور مكي أن هذا النوع من التأليف "يستهدف ما يمكن تسميته بالتربية السياسية، من ذلك "اللؤلؤة في السلطان" من العقد الفريد لابن عبد ربه القرطبي (ت 328هـ)، و"سراج الملوك"

---

(1) مجلة المعهد المصري، المجلد 20، ص. 26.

(15444/1)

لأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت 520هـ)، ورسالة ابن الخطيب في "السياسة" التي كتبها في صورة مقامه(1) . وكتاب "عين الأدب والسياسة، وزين الحسب والرئاسة" لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل الغرناطي(2) (ت؟)"(3) .

ولعل ابن سماك في مؤلفه "رونق التحبير" قد استفاد من المؤلفات المختلفة التي تناولت السياسة وأهوالها، وطبائع الملك وأخبار الملوك، وخبر بنفسه باعتباره ملحقا بديوان

---

(1) انظرها في نفح الطيب، ج 6، صص. 431 – 445.

(2) كان معاصرا لابن سماك، ولا تعرف سنة وفاته.

(3) مجلة المعهد المصري، المجلد 20، ص. 26.

(15445/1)

الإنشاء، أحوال الأمراء والملوك في الرخاء والشدة، فعمد إلى تأليف كتاب يتضمن خلاصة تجاربه وقراءاته في الكتب المختلفة التي تناولت السلطان والرعية وواجبات الحاكم والمحكومين، مستفيدا مما كتبه ابن عبد ربه عن عمل الكتاب: "فكتاب الملوك عيونهم الناظرة، وآذانهم الواعية، وألسنتهم الناطقة، والكتابة أشرف مراتب الدنيا بعد الخلافة، وهي صناعة جليلة تحتاج إلى آلات كثيرة"(1) .

وإذا كان ابن سماك قد استغرق في تأليف كتابه وجمع مادته أكثر من ثلاث وثلاثين سنة، هي مدة خدمته – على ما يبدو –

---

(1) العقد الفريد، ج 4، ص. 179.

(15446/1)

في ديوان الإنشاء، فإن حذره، وهو يخاطب الأمير أثناء التقديم واضح في قوله: "وكل ما فيه، إنما هو بعض مما عند مولانا أيده الله من العلوم والمعارف، ومما جبله الله عليه من طباع الخلائف، ومما لديه من الإطلاع على أخبار من تقدم في الزمن السالف، فهو – أعلى الله مقامه وأدام للأمة المحمدية أيامه – الملك الذي استولى على صفة الكمال واختص بحلَى الحسن والجمال، والله تعالى يزيده من فضله وإحسانه، ويخلد رفيع سلطانه، ويديم أيامه التي هي أيام العز والهدنة والأمان والعافية، ويبقيه في ظل النعمة الشاملة والعصمة

(15447/1)

الكافية بفضله وكرمه"(1) .

ويظهر أن الدكتور محمد بن شريفة أول من استفاد من مخطوط "رونق التحبير"، وأشار إليه في العرض الذي قدمه في ندوة "المخطوط العربي وعلم المخطوطات"(2) ، عندما تحدث عن خط الجزم، وهو الخط الكوفي، كما تحدث بن شريفة عن هذا المخطوط في بحث نشر له مؤخرا عنوانه: "ظاهرة التأليف في السياسة في العصر المريني: البواعث والمعطيات"(3)

---

(1) مقدمة المخطوط

(2) انعقدت الندوة بكلية الآداب بالرباط في فبراير 1992. ونشرت أعمالها ضمن منشورات الكليةالمذكورة سنة 1994، ص. 75.

(3) مجلة كلية آداب بني ملال، عدد 1، 1994، ص. 25.

(15448/1)

، باعتبار هذا الكتاب من الكتب السياسية المؤلفة في العصر المريني.

وأخيرا، فقد علمت، أن الدكتور علي سامي النشار كان قد أعد هذا المخطوط للنشر بعد تحقيقه، لكن المنية عاجلته قبل تحقيق ذلك...

وأتناول في هذا الموضوع تقديما وتحليلا بابين من أبواب كتاب "رونق التحبير" هما: باب الوصايا، وباب التوقيعات.

باب الوصايا:

تناول ابن سماك في البابين الأخيرين من مؤلفه رونق التحبير الوصايا والتوقيعات، باعتبارهما موضوعين هامين يصدران عن الحاكم، ويرسمان معالم سياسته للأمير والوالي، وكل من ارتبط بسبب بالحكم والحاكم

(15449/1)

والمحكوم، فلم يبخل ابن سماك بتدوين هذه الوصايا والتوقيعات وتقديمها كمختارات لقراءته، ومقتطفات من محفوظاته للتوجيه والإرشاد والنصح والعظة، سواء صدرت هذه المختارات والمقتطفات عن كتاب وأدباء، أو ملوك وأمراء، أو حكام وعلماء، وغيرهم ممن اقتضى الموضوع تقديم تجاربهم السياسية، وتوجيهاتهم السلطانية في فترات عديدة شملت عهود الفرس واليونان، وعصور صدر الإسلام والخلفاء الراشدين وعصور بني أمية في الشرق والأندلس، وكذا عصر بني العباس إلى زمان المؤلف.

(15450/1)

وللوصايا – كما يشير الأستاذ علي الغزيوي – "أهمية بالغة، باعتبارها وثائق حية يقدم فيها السابق للاحق خلاصة تجاربه، ويرسم له السبل السليمة التي يسلكها"(1) ، فإن ابن سماك كان يقصد إلى التوجيه والنصح.

تنتظم الوصايا في الباب التاسع والثلاثين من مؤلفه،

ويبلغ عددها اثنتي عشرة وصية موزعة كالآتي:

1 – **وصية أردشير لابنه وأهل مملكته، ص.** 74.

2 – **وصية أبرويز إلى رعيته، ص.** 75.

3 – **وصية سابور إلى ابنه، ص.** 75.

---

(1) **أجدب السياسة والحرب في الأندلس، ص.** 434.

(15451/1)

---

4 – **وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى يزيد بن أبي سفيان، ص.**75.

5 – **وصية سالم لعمر بن عبد العزيز، ص.** 75.

6 – **وصية عبد الملك بن مروان لبنيه، ص.** 76.

7 – **وصية هشام بن عبد الملك لبنيه ص.** 76.

8 – **وصية عمر بن هبيرة لمسلم بن سعيد لما تولى أمر خراسان، ص.** 76.

9 – **وصية رجل لأبي جعفر المنصور، ص.** 76.

10 – **وصية الحكم بن هشام لابنه عبد الرحمان لما فوض إليه الأمر، ص.**76.

11 – **وصية المنصور بن أبي عامر لابنه المظفر عبد الملك، ص.** 77.

12 – وصية الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور ابن الخليفة أبي يعقوب

(15452/1)

... يوسف ابن الخليفة عبد المومن بن علي لبنيه الموحدين، ص. 77.

لقد قدم ابن سماك مجموعة من الوصايا من عهود مختلفة، وسيخص الأندلسيين بثلاث وصايا، اثنتان لحاكمين أندلسيين هما الحكم بن هشام، والمنصور بن أبي عامر، والثالثة لحاكم موحدي هو أبو يوسف يعقوب المنصور.

الوصية الأولى:

وهي وصية الحكم بن هشام لابنه عبد الرحمان لما فوض إليه الأمر، وقد أوردها ابن سماك كذلك في الزهرة الثالثة والتسعين من كتابه "الزهرات المنثورة" الذي حققه وقدم له – كما سبقت الإشارة – الدكتور محمود علي مكي، باعتبار الوصية "وثيقة على

(15453/1)

أعظم جانب من القيمة والخطر، إذ هي أشبه بدستور للحكم وضعه الأمير الحكم لابنه عبد الرحمان"(1) .

ويشير المحقق إلى أن "المؤرخ الوحيد الذي أشار إلى وجود هذه الوصية، هو الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه "دولة الإسلام في الأندلس"، وقد نقل الأستاذ عنان هذه الوصية عن مخطوطة "المقتبس" لابن حيان، القطعة الخاصة بإمارتي الحكم وعبد الرحمان، وهي قطعة كانت لدى المستشرق ليفي بروفنسال، ولم يعرف عنها شيء بعد وفاته، ويخشى أن تكون هذه القطعة الثمينة قد ضاعت إلى غير

---

(1) مجلة المعهد المصري، المجلد 21، ص. 66.

(15454/1)

رجعة"(1) .

وقد أثبت هذه الوصية ، الأستاذ لغزيوي في الفصل الخاص بالوصايا من كتابه "أدب السياسة والحرب في الأندلس"(2) ، نقلا عن الأستاذ عنان في كتابه دولة الإسلام في الأندلس.

تشتمل الوصية موضوعات مختلفة في السياسة وطرائق الحكم، صدرت عن أمير مارس السياسة بحذق وذكاء

وحسن تدبير، ولخص تجربته السياسية في عبارات قليلة تحمل معاني كثيرة، وفي أسلوب برع في تنميقه وتبسيطه في نفس الوقت بلغة راقية مشرقة.

---

(1) ط 4، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة 1969، ص. 248.

(22) مجلة العهد المصري، المجلد 21، هـ 2، ص. 66.

(2) ص. 435.

(15455/1)

تكاد تكون الوصية قانونا يجب الالتزام له، والعمل بمقتضاه كي لا تضيع السلطة من يد الأمير، ويستبد بها غيره، ويتمثل هذا القانون في: " أولى الأمور بك أن ينهى إليك حفظ أهلك، ومراعاة عشيرتك، ثم الذين يلونهم، ومواليك هم أولياؤك حقا، وأنصارك صدقا، وعاشروك في حلوك ومرك، فيهم أنزل ثقتك، وإياهم واس من نعمتك، ولا تدعن مجازاة المحسن بإحسانه، ومعاقبة المسيء بإساءته، فإنك عند التزامك بهذين، ووضعك لهما في مواضعهما يرغب فيك ويرهب منك، وملاك ذلك كله أن تتقي الله ما استطعت، وتعدل في أحكامك، وتتخير من حكامك"(1)

(1) أدب السياسة والحرب في الأندلس، ص. 438.

(15456/1)

.

ولعل أهم بنود هذا القانون: التقوى والعدل، وحسن اختيار الحكام أي الولاة والعمال...

الوصية الثانية:

وهي للمنصور بن أبي عامر، يوصي ابنه المظفر عبد الملك لما اشتد به مرضه الذي مات منه، وقد أثبتها الأستاذ لغزيوي أيضا في مؤلفه(1) ، بعد أن نقلها عن ابن بسام في ذخيرته(2) .

إلا أن ابن سماك اختصر هذه الوصية، ولم يورد الجزء الثاني منها، حيث يعرض لعلاقة عبد الملك بالخليفة الأموي هشام بن الحكم وكذا لأنصار الأمويين، محذرا منهم حينا، داعيا إلى الحزم في معاملتهم

(2) تحقيق إحسان عباس، م4، ق1، صص. 76–78.

(15457/1)

حينا آخر، موصيا غلمان الأمير في الأخير بالعمل إلى جانبه والتقيد بأوامره ونواهيه، فهو يقول لهم: "تنبهوا لأمركم، واحفظوا نعمة الله عليكم في طاعة عبد الملك أخيكم ومولاكم، ... فليس يرأسكم بعدي أشفق من ولدي، وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد، وأن تكون جماعتكم كرجل واحد، فإنه لا يفل فيكم"(1) .

تكاد تكون هذه الوصية كسابقتها زبدة تجارب عاشها المنصور ابن أبي عامر، استحكم فيها العقل والروية، فتحدث عن الأمن والاستقرار، وعن الظروف الاقتصادية والعسكرية، وعن الأحوال المعيشية للرعية

---

(1) الورقة 77 من المخطوط

(15458/1)

والعشيرة، فاختلال أي جانب من هذه الجوانب قد يؤدي إلى ضعف الحكم وانهيار دولته، ويوصيه أخيرا، ويشدد في الوصاية بأهله ومواليه قائلا: "لا تضيع أمر جميعهم، والحظهم بعيني، فإنك أبوهم بعدي".

ولا يخفى أن هذه الوصية صدرت عن داهية في السياسة والحكم، فبعد أن وطد لابنه أمر الدولة، وأرسى قواعدها يوصيه بالحفاظ عليها، باتباع التوجيهات، وانتهاج

السبل الأقرب إلى الاستئثار بالسلطة والحفاظ عليها في الفكر والسلوك، وأهمها النهي عن الإسراف في الإنفاق والقصد في الأمور، يقول: "فلا تطلق يدك في الإنفاق، ولا تغض لطمة

(15459/1)

الولاية، فيختل أمرك سريعا، وكل سرف راجع إلى الاختلال لا محالة، فاقتصد في أمر جهدك، واستثبت فيما يرفعه أهل السعاية إليك، والرعية قد استقضت لك تقويمها، وأعظم مناها أن تأمن الباردة"(1) .

الوصية الثالثة:

وصدرت عن الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي يوصي بنيه وأهل دولته بالعدوة وأبنائها وثغورها، ويدعوهم إلى جهاد الأعداء، والتمسك بشرائع الدين والعمل بمناهجه.

لقد شغلت الأندلس المغاربة، وأرقتهم في حياتهم، وفي لحظات احتضارهم، فما آلت إليه من ضعف بعد قوة، ومن هزيمة بعد نصر، أكبر

---

(1) الورقة 77 من المخطوط

(15460/1)

هم ينغص استقرارهم وتفكيرهم، فهو يقول: «
ولتعلموا أنه ليس في نفوسنا شيء أعظم من همها »(1) .
لقد استأثرت العدوة بفكر الموحدين، فدافعوا عنها،
وانتصروا لها، مؤملين استرجاع ما استلبه النصارى من
ديارهم، ويشهد الخليفة أبو يوسف يعقوب، الله على ما
بذله من جهود في سبيل ذلك، فهو يقول: "ولو مد الله
لنا في الحياة لم نتوان في جهاد كفارها حتى نعيدها دار
إيمان "، فهي الآن – أي الأندلس – وديعة في أيدي
المغاربة، عليهم الحفاظ عليها، بحمايتها من هجمات
الكفار بتشييد الأسوار وحماية الثغور

(1) الورقة 77 من المخطوط

(15461/1)

وتربية الأجناد. تنص الوصية إذن على خطة دقيقة
للعمل، ما على الموحدين إلا تطبيقها بروية وتفكير
وحسن نظر...
والأكثر إثارة للاهتمام، أن يصف الخليفة الموحدي
العدوة، باليتيمة، ومسلميها بالأيتام، فبعد التوصية
بتقوى الله، يقول: "أوصيكم بالأيتام واليتيمة"،

ويسأله الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص: " وما الأيتام؟ وما اليتيمة؟، فيقول الخليفة: الأيتام أهل جزيرة الأندلس، والأندلس هي اليتيمة"(1) .

---

(1) الورقة 78 من المخطوط

(15462/1)

تتميز هذه الوصية، بالإضافة إلى بلاغتها وجمال أسلوبها، بالروح الإسلامية في وضوحها وتوجهها إلى تحرير المسلم وأرضه، أينما كان، وكيفما كان، فنجد الخليفة الموحدي يصرف اهتمامه إلى أرض اغتصبت، وإلى شعب استضعف أمره، ولا يشير إلى المغرب والمغاربة، تأكيدا لأواصر وعلائق تربط العدوتين ببعضهما منذ أن أصبحت الأندلس خاضعة لسلطة المغرب في فترات سابقة، وأصبحت مسؤولية رعايتها في أعناق المغاربة وحكامهم...

باب التوقيعات:

(15463/1)

وهو الباب الأربعون في توقيعات الملوك وهو آخر أبواب كتاب "رونق التحبير"، ويتضمن اثنين وثلاثين توقيعا لملوك وأمراء وحكام وخلفاء، من الفرس والعرب والخلفاء الراشدين وملوك بني أمية وبني العباس، وأمراء بني أمية بالأندلس، ولم يهتم المؤلف في تدوين التوقيعات أو روايتها بترتيبها، عدا توقيعات الأندلسيين، فهي آخرها، وقد بلغ عددها اثني عشر توقيعا، ختمها بامتداح الملوك النصريين، والإشادة بتوقيعاتهم، فهو يقول: "وأما موالينا الملوك، أولى النسبة الكريمة النصرية، الذين شرف الله أقدارهم في البرية، فمناقبهم كثيرة،

(15464/1)

وتوقيعاتهم شهيرة، ومقاماتهم سامية وخطيرة"(1) .

ويعتذر ابن سماك عن اقتصاره على إ]راد بعض التوقيعات، على الرغم من وفرتها، إلا أن الغاية من الكتاب الاختصار، ليس غير، فإن فعل غيره، خرج عن المقصود: "إن تتبع القول فيما هو منها موجود، فيخرج من الاختصار عن الغرض المقصود"(2) .

و"التوقيع" كما يعرفه الأستاذ ناجي معروف: "ما كان يكتبه الخليفة أو الملك أو الأمير أو السلطان أو الوزير

تعليقا على كتاب أو رقعة أو ملتمس بتوقيعه بجملة أو عدة

---

(1) الورقة 48 ظ من المخطوط رقم 1182 د.

(2) الورقة 48 ظ من المخطوط رقم 1182 د.

(15465/1)

جمل قصيرة هي جواب الكتاب أو الرقعة يذيلونها باسمهم على صورة توقيع أي إمضاء"(1) . أما بن فضل الله العمري (700هـ – 749هـ)، فيرى أن "التوقيع هي لعامة أرباب الوظائف، جليها وحقيرها، كبيرها وصغيرها... وعنوانها توقيع شريف لفلان بكذا... وقد تستفتح بـ (الحمد لله) أو (أما بعد) أو (من حسنت طرائقه، وحمدت خلائقه)، أو ما هذا معناه... إلى غير ذلك..."(2) .

---

(1) التوقيعات التدريسية، صص. 5–6.

(2) التعريف بالمصطلح الشريف، تـ محمد حسين شمس الدين، بيروت ط1، 1988، صص. 120، 123 .

(15466/1)

وتبدو أهمية التوقيع الصادر عن الخليفة أو الملك، باعتباره رأيا جازما في قضية أو موضوع استفتي فيه، أو في شكوى رفعت إليه أو ظُلامة وضعت بين يديه خاصة في المسائل السياسية أو القضائية بالحسم في الموضوع دون نقاش، من ذلك ما جاء في التوقيع الثالث: "وقع الخليفة عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل في كتاب كتب إليه بعض عماله، يسأله تولية عمل رفيع لم يكن من شاكلته: من لم يصب وجه مطلبه، كان الحرمان أولى به"(1) ، فالجواب مختصر مفيد، أصدر من خلاله – الخليفة – رأيا في

---

(1) الورقة 80،79 من المخطوط

(15467/1)

الطلب، بل حكما قاطعا لا رجعة فيه.

ومن أبلغ ما كتب في التوقيع باختصار شديد، ما وقع به الخليفة عبد الرحمان الناصر، وهو التوقيع الرابع: "كتابا عثر عليه بقرطبة، دسه إلى حضرته أمير أفريقية معدٌّ بن إسماعيل الشيعي العبيدي، إذ كانت بينهما منافرة وعداوة، أفحش فيه السب، وأكثر من البهتان، فلما رفع إليه وقع عليه: يا هذا، عرفْتنَا

فسببْتنا، وجهلناك نحن، فأمسكنا عنك"(1) ، لم يزده على هذا كلمة، ويضيف ابن سماك قائلا: "فكان ذلك أبلغ ما كتب في معناه، وفيه إشارة إلى أنه مدع في نسبه، وأنه

(1) الورقة 80 من المخطوط

(15468/1)

مجهول غير معروف، ومن لا يعرف لا تعرف مناقبه ولا مثالبه"(1) .

فابن سماك لا يكتفي بإيراد التوقيع، وإنما يذيله بتعليق ضاف يشرح فيه معنى التوقيع بوضوح تام، كما جاء في التذليل السابق.

ولعل الخليفة في توقيعه تأثر بالشاعر البطليوسي في قوله:

عرفت مكانتي فسببت عرضي ... ... ولو أني عرفتكم سببت

ولكن لم أجد لكم سموا ... ... إلى أَكْرُومةٍ فلذا سكت(2)

(1) الورقة 80 من المخطوط

(2) الديوان، تحقيق إحسان عباس. البيتان من البحر، ص.

(15469/1)

وجاء في التوقيع الأندلسي الأول: "كتب عن الخليفة عبد الرحمن الداخل أحد كتابه إلى بعض عماله كتابا يستقصره عما فرط فيه من عمله، فأكثر في الكتاب وأطال، فلما لاحظه الخليفة عبد الرحمان أمر بتمزيقه، ثم وقع بخطه: "أما بعد، فإن يكن التقصير لك مقدما، فقد ينبغي الاكتفاء أن يكون لك مؤخرا، والسلام"(1) .

وهكذا، فإشارة أبلغ من عبارة، تحمل حكما لا رجعة فيه...

ويرى الأستاذ لغزيوي: "أن التوقيعات تمثل جانبا من جوانب بلاغة الحكام في مجال النثر، وهي تذييل يكتب أسفل الرسائل الواردة إلى ديوان

---

(1) الورقة 79 من المخطوط

(15470/1)

الدولة أو على ظهرها، وتعتبر ردا من الحاكم وتعقيبا يمليه على كاتبه أو يخطه بيده، ومن ثم، فهو من إنشاء الحاكم نفسه... وتتميز التوقيعات غالبا بالإيجاز

الشديد الموفى المقصود"(1) .

والتوقيع بالإضافة إلى ذلك يعتبر موقفا رسميا من مسؤول في الدولة كما سبق، وقد يكون موقفا من ثائر، فيقدم لنا التوقيع صورة عن شخصية الحاكم في فورة الغضب، ورباطة جأشه في اتخاذ القرار وحسن التصرف.

---

(1) أدب السياسة والحرب في الأندلس، ص. 462

(15471/1)

من ذلك التوقيع الثاني في رونق التحبير، يقول لبن سماك: "ثار على الخليفة عبد الرحمن بن معاوية ثائر ببعض بلاد الأندلس، فغزاه فظفر به، فبينما هم منصرف به، وقد حمل الثائر على بغل مكبولا: نظر إليه الخليفة عبد الرحمن وتحته فرس له، فقال: يا بغل، ماذا تحمل من الشقاق والنفاق؟ قال الثائر: يا فرس، ماذا تحمل من العفو والرحمة؟ فقال له الخليفة: والله لا ذقت موتا على يدي أبدا، وسرحه"(1) ... مثل هذا التوقيع سياسي بالدرجة الأولى، أبدى فيه الأمير حنكة سياسية كبيرة، وقدرة متميزة على اتخاذ

---

(1) الورقة 79 من المخطوط

(15472/1)

القرار الحاسم في وقت قصير...

ومن التوقيعات الطريفة ما رواه ابن سماك: "التوقيع السابع: وقع ذو الرئاستين عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمن بن المنصور بن محمد بن أ[ي عامر في كتاب ورد عليه من قبل الأمير مجاهد العامري دانية ومولى جده، قال فيه:

سبت نزار عبيدها فعذرتها شيم العبيد مسبة الأحرار"(1)

لقد اكتفى صاحب التوقيع ببت شعري يلخص رأيه وجوابه عن كتاب ورد في سب وشتم، إذ من شيم الأحرار السكوت عن هؤلاء، تمثلا بقول الشاعر:

إذا نطق السفيه فلا تجبه فأبلغ من إجابته السكوت(2)

---

(1) الورقة 80 من المخطوط

(2) الفرزدق

(15473/1)

وبمقارنة هذه التوقيعات بما ورد في كتابه الزهرات المنثورة نجد ابن سماك ينقل ستة توقيعات أندلسية من الزهرات، وكأنه اختارها ليضمنها إلى مختاراته في رونق التحبير، ذلك أن تأليف الزهرات كان أسبق في الزمن "إذ ألفه لأمير المسلمين الغني بالله، المنصور بعون الله أبي عبد الله"، كما جاء في مقدمة الكتاب، في حين أن رونق التحبير، أهدي إلى حفيد الغني بالله السلطان محمد المستعين، والتوقيعات الواردة في كلا الكتابين هي:

– التوقيع الثاني: ورد في الزهرة الثالثة والأربعين(1) .

---

(1) مجلة المعهد المصري، المجلد 21، ص. 11.

(15474/1)

– التوقيع الرابع: ورد في الزهرة الخامسة والتسعين(1) .

– التوقيع الخامس: ورد في الزهرة الخامسة والتسعين(2) .

– التوقيع السادس: ورد في الزهرة الخامسة والتسعين(3) .

– التوقيع السابع: ورد في الزهرة الخامسة

والتسعين(4) .

– التوقيع الثامن: ورد في الزهرة الخامسة والتسعين(5)

.

---

(1) المصدر نفسه، المجلد 21، ص. 69.

(2) المصدر نفسه، المجلد 21، ص. 71.

(3) المصدر نفسه، المجلد 21، ص. 64.

(4) المصدر نفسه، المجلد 21، ص. 70.

(5) المصدر نفسه، المجلد 21، ص. 67،68.

(15475/1)

– إن أهم ما يمكن استنتاجه من بابي الوصايا والتوقيعات في كتاب "رونق التحبير" الذي ما يزال مخطوطا:

أولا: التوصل إلى نصوص توقيعات جديدة لم ترد في كتابي ابن سماك السابقين: الزهرات المنثورة والحلل الموشية، وهي خمسة:

– توقيع الخليفة عبد الرحمن بن الحكم بن هشام.

– توقيع أبي عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف.

– توقيع أبي الجيوش نصر بن أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر.

– توقيع أبي عبد الله محمد بن مولانا أمير أمير المسلمين الغالب بالله ابن عبد الله محمد بن نصر.

(15476/1)

– توقيع أبي عبد الله الغني بالله بن يوسف بن يوسف.

ثانيا: التأكد من نسبة كتاب "الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية" إلى ابن سماك لا إلى غيره: أسلوبه، مروياته التي تفرد بها، خاصة وصية الخليفة الموحدي "بالأيتام واليتيمة"(1) .

ثالثا: الإطلاع على صورة من الكتابة السياسية عند ابن سماك، أحد كتاب ديوان الإنشاء في عهد السلطانين الغني بالله والمستعين بالله، وفيها يبدي المؤلف آراءه منتقدا ومنبها وناصحا من خلال نقول وأخبار ومرويات تداولتها العامة

---

(1) الحلل الموشية، ص. 160؛ مخطوط رونق التحبير، الورقة 78.

(15477/1)

والخاصة، ووفق ابن سماك في توظيفها للاستفادة منها في سياسة الدولة على المستويين الشعبي والرسمي.

رابعا: إفادتنا بصفة تقريبية بتاريخ وفاة ابن سماك بين 812هـ و820هـ، ذلك أن الكتاب أهدي إلى الخليفة المستعين بالله حفيد الغني بالله، وكان المعروف قبل الإطلاع على كتاب "رونق التحبير" كما نبه إلى ذلك أستاذنا محمود علي مكي في مقدمة تحقيق الزهرات المنثورة أن تاريخ وفاة ابن سماك غامض، يقول: "أما سنة وفاته، فلم يتبين لنا شيء حولها"(1) ، إضافة إلى أن ديوان مظهر النور

---

(1) مجلة المعهد المصري، المجلد 21، ص. 22.

(15478/1)

الباصر لابن فركون، الذي حققه أستاذنا محمد بن شريفة، يفيد أن ابن سماك مدح الملك يوسف الثالث شقيق المستعين بالله بقصيدتين اثنتين، دالية ولامية(1) .

وأخيرا، فإن كتاب "رونق التحبير" من المؤلفات المتميزة في التراث الأندلسي السياسي، يحلل ويناقش الأوضاع السياسية والظروف الاجتماعية، هادفا إلى النصح

والتوجيه، مستفيدا من سياسات سابقة في المشرق والمغرب والأندلس، دون أن يخل بما يقتضيه المقام من الآداب في مخاطبة ذوي الشأن والسلطان...

المصادر والمراجع

---

(1) صص. 27، 94.

(15479/1)

– مخطوط رونق التحبير في حكم السياسة والتدبير، لابن سماك 1182د – 1121ك، خ ع الخزانة العامة، قسم الوثائق والمخطوطات، الرباط، والمخطوط المعتمد هو 1121ك

– "الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة"، لابن سماك تقديم وتحقيق محمود علي مكي، مجلة المعهد المصري، المجلدان، 20، 21.

– أدب السياسة والحرب في الأندلس، علي لغزيوي، مكتبة المعارف، الرباط، 1987.

– التوقيعات التدريسية، تأليف، ناجي معروف، 1963، بغداد.

(15480/1)

– الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لابن سماك العاملي، تحقيق عبد القادر زمامة، وسهيل زكار، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 1979.

– المخطوط العربي وعلم المخطوطات، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1994.

– مجلة كلية الآداب بني ملال، عدد 1، 1994.

– المصادر العربية لتاريخ المغرب، محمد المنوني، ج 1.

– مجالس الانبساط بشرح تراجم علماء وصلحاء الرباط لمحمد بن علي دينية، ط 1986.

– مظهر النور الباصر، لابن فركون، إعداد محمد ابن شريفة، 1991.

(15481/1)

وضعية الإسلام والمسلمين في ألبانيا

... ... الدكتور عبد الكريم الأبيض

... ... كلية الآداب – الرباط

ينتسب تاريخ ألبانيا إلى تاريخ الدول البلقانية بحكم التوسع التركي وانتشار الإسلام في هذه البقاع من جنوب شرق أوربا.

وقد برزت هذه البلاد على الساحة الدولية بعدما كانت غائبة عن الضمير العالمي وترجع هذه الظاهرة إلى النهج الذي اتبعه الحزب الشيوعي في ألبانيا بعد استقراره في الحكم وأخذه في تناول مصير هذه البلاد بواسطة الطرق التي عاشتها دول أوربا الشرقية التي دخلت هي

(15482/1)

الأخرى في فلك النظام الشيوعي.

لقد عزل أنور خوجة ألبانيا عن العالم ولم يكن أحد يعرف عنها ما عرف عن البلدان المجاورة إلا من خلال علاقاتها الخارجية إما عن طريق بلغراد التي دخلت معها في علاقات وطيدة سنة 1948 أو مع موسكو بعد الانقطاع عن بلغراد إلى سنة 1961 أو مع الصين بعد ذلك

لقد حدثت تغييرات هائلة في ألبانيا بعد ذهاب النظام الشيوعي الذي أدخلها في وسط بحر م الحكومات الشمولية التي كانت تمثل التبعية التامة للحزب الشيوعي ورئيسه أنور خوجة، ذلك أن فترات متلاحقة من الانغلاق الشيوعي أدى بالضرورة إلى عجز

(15483/1)

الشعب الألباني التام عن مسايرة التطور العالمي.

وقبل أن نبدأ أحوال المسلمين ومصير الإسلام في البلاد أقدم في عجالة نظرة تاريخية توخيت منها أن تكون إطارا يجسد العلاقة الوطيدة بين التطور التاريخي والتطور الديني في البلاد.

وهذا البحث يحتوي على بابين رئيسين :

الباب الأول يقوم بوظيفة رصد التطور للأحداث التاريخية منذ استقلال البلاد سنة 1912 بالإضافة إلى فترة الحكم الشيوعي.

أما الباب الثاني فيتعلق بدراسة أحوال المسلمين والطوائف الدينية وتطورها وتكوين مؤسساتها والتعرض إلى حقوقها وواجباتها وعلاقتها مع

(15484/1)

نظام الحكم سواء كان ذلك في عهد الملك " زوغو"أو في عهد الاحتلال الإيطالي (1939) أو في فترة الاحتلال الألماني سنة 1943. لكن الأهم من هذا هو كيف حصل الانقلاب الذي قام به الشيوعيون ضد الإسلام ومؤسساته التي كانت قائمة الذات راسخة البنيان.

وسوف أقف بسبب ضيق المجال بالنسبة للباب الثاني عندما أختم دراسة وضعية الإسلام والمسلمين عقب نهاية الحرب العالمية الثانية، على أن أعود في مقال خاص ينصب بالدراسة على وضعية الإسلام إبان العهد الشيوعي.

الباب الأول : نظرة تاريخية، 1912 – 1978

(15485/1)

كانت ألبانيا مقاطعة رومانية ثم صارت تابعة لبزنطة ثم تخللتها فترات تاريخية تحت الأمبراطورية البلغارية مرة، وتحت إمبراطورية الصربية مرة أخرى. وقد حكمتها سلالة محلية من سنة 1366 **إلى** 1421. **ورغم مقاومتها بقيادة أسنكربك فقد خضع الألبانيون للسيطرة العثمانية. وفي سنة** 1912 **حصلت البلاد على استقلالها الداخلي ثم صارت إمارة فجمهورية سنة** 1925 **ثم مملكة سنة** 1928 **ثم خضعت للسيطرة الإيطالية سنة** 1939 **ثم إلى الاحتلال الألماني سنة** 1943، **وبعد الحرب الكونية الثانية صارت جمهورية شعبية في الثاني من شهر يناير من سنة**

(15486/1)

.1946

لقد أدى ضعف الإمبراطورية العثمانية في القرن الثامن عشر وسريان مفعول النضال من أجل التحرير الوطني لدى الصرب (1) واليونان في القرن التاسع عشر بالإضافة إلى الأطماع التوسعية التي أتت بعد ذلك من إيطاليا واليونان وصربيا وروسيا وخاصة أطماع المملكة الثنائية النامسا والمجر التي كانت تسيطر على جزء مهم من منطقة البلقان (2)، أقول أدت هذه

(1) كان هدف الحكومة القومية تكوين وحدة تعتمد على توحيد الأملاك العثمانية الخاضعة للنمسا في دولة واحدة تحت حكومة مركزية قوية.

(2) كرواتيا وسلوفانيا والساحل الدلماسي.

(15487/1)

المجموعة من العوامل إلى بداية يقظة القومية الألبانية التي برزت بوضوح أثناء انعقاد مؤتمر برلين 1878 (1)، حيث تم تكوين الرابطة الألبانية للدفاع عن حقوق الوطن الألباني وكانت معروفة تحت اسم La ligne des Prizen . حينئذ وبداية من التاريخ المذكور أعلاه برزت

البنية الإيديولوجية للقومية الألبانية التي كانت

---

(1) عقد هذا المؤتمر تحت رئاسة بسمارك سنة 1878، وقد دشن تحولا كبيرا وجذريا في العلاقات الأوربية، خاصة منها العلاقات الثنائية بين الإمبراطورية الألمانية، راجع كتاب : Emil Ludwuig ,Bismarck, 1984Paris.

(15488/1)

قوية بحكم مزجها بدون تمييز بالديانات الثلاث التي كانت موجودة في البلاد، فقد كانت نسبة المسلمين تفوق 70٪ وهم منتشرون عبر البلاد كلها ونسبة الأرتودوكس 20٪ يقطنون الجنوب.أما الكاتوليك فقد كانت حصتهم لا تتجاوز 10٪ ويستقرون في شمال البلاد. والحديث عن هذه النقطة له أهمية قصوى، فعندما انتشر الإسلام في شبه جزيرة البلقان بعد معركة "قوسوفو" سنة 1389 كانت الكنائس القوية سواء في صربيا أو اليونان أو بلغاريا تشكل الدرع القوي والواقي أمام التيار الجديد، ولذلك يمكن أن نلاحظ أن سياسة الأتراك تجاه هذه البلدان

(15489/1)

كانت تعتمد على إرسال هجرة تركية مكثفة تكون مهمتها نشر الإسلام في هذه المناطق، الأمر الذي نجده منعدما تماما في ألبانيا وفي البوسنة والهرسك بسبب غياب تلك المؤسسة الدينية القوية أي الكنيسة. ومن هذا المنطلق نرى أن السياسة التركية كانت تريد نشر الإسلام من واقع محلي فوضعت بدل الهجرة التركية سياسة تقوم على تشجيع السكان على الدخول للإسلام. حينئذ نشأت مؤسسة الدفشرمة أو ما أطلق عليه اسم Adjini Oglan . وهذه المؤسسة كان لها دور مباشر في خلق الأجيال الأولى من المسلمين. إن عدم وجود مؤسسة دينية قوية في

(15490/1)

ألبانيا وتنامي التبعية في الانتماء لدى الألبانيين للكنيسة اليونانية أو الصربية أو البلغارية، كاد أن يؤدي في آخر الأمر إلى بداية الذوبان الحتمي للشعب الألباني، وتبعا لذلك يعتبر بعض الباحثين أن معركة "قوصوفو" كانت بمثابة وضع حد لهذا الذوبان، إذ توقفت سيرورة الانتماء الإثني واللغوي وقام الإسلام

بـوضع الحد الفاصل لإحضار الشعب الألبـانـي.

كانـت الحروب البـلقانـية (1) سواء

---

(1) في شأن التنـافس الحاصل بـين الدولتين المذكورتين أحيل الباحث على كتاب : Raymond Poincaré, Les Balcans en feu, Paris 1912. P 64–65, 66.

(15491/1)

الحرب الأولى أو الحرب الثانـية بـداية لانـهيار الإمبـراطورية العثمانـية في شبـه جزيرة البـلقان. وبـعد هذه الحروب اتجهت أطماع دول البـلقان إلى اقتسام ألبـانـيا، حيث حاصر الجبـل الأسود مدينـة Shkoder **كما احتل الصرب مدينـة** Durres **الساحلية، وكان جواب الألبـانـيين على ذلك هو ما تم في الاجتماع المشهور الذي ضم أعيان البـلاد بـمدينـة** Vlora**، فحمسوا الأمر بـإعلان استقلال البـلاد سنـة** 1912 **وتشكيل حكومة مؤقتى تحت رئاسة "إسماعيل كمال" وتحت ضغط كل من إيطاليا والنـمسا اللتين كانـتا تميلان إلى إزاحة الصرب من البـحر الأدرياتيكي، اعترفت**

(15492/1)

الدول العظمى بالاستقلال الذاتي لألبانيا يوم 20 **دجنبر** 1912 **وكان الإعلان عن ذلك قد تم في مؤتمر لندن الذي اجتمع لدراسة الأوضاع السياسية والعسكرية بصفة عامة في بلاد البلقان. وبعد انعقاد المؤتمر الثاني في يوم** 30 **ماي سنة** 1913 **في لندن قرر المجتمعون ما يلي :** 1) **تكوين حكومة لتسيير شؤون البلاد،** 2) **تسند إلى لجنة دولية مهمة لمراقبة لرسم الحدود وتعيينها،**3) **إعلان ألبانيا إمارة مستقلة تحت وصاية الدول العظمى،وقد قبل عرش الإمارة الألماني** William de Wed **الذي وصل إلى مدينة** Durres **في اليوم السابع من شهر مارس سنة**

(15493/1)

.1914

لكن روح المقاومة هبت من جديد، فتم خلع الأمير الجديد عن عرش الإمارة، حيث غادرها في بداية الحرب العالمية الأولى. وخلال الحرب عرفت البلاد فترات مظلمة من تاريخها وكانت الفوضى تعم أرجاء البلاد والتطاحن على الحكم كان الهدف الأسمى للفئات المتناحرة، التي كانت

تتنافس فيما بينها على إرضاء دولة من الدول المجاورة الطامعة. ففي سنة واحدة

(1914) عرفت البلاد ست حكومات، كما عرفت خلال الحرب سلسلة متعاقبة من الاحتلالات التي أتت من الدول المجاورة لها وغير المجاورة. نخص بالذكر منها صربيا والنمسا وإيطاليا

(15494/1)

وفرنسا واليونان وبلغاريا. وقد وضع برنامج تقسيم ألبانيا في الاتفاق السري الذي تم في لندن يوم 26 أبريل سنة 1915، لكن هذا المشروع تم إبعاده يوم 3 يونيو سنة 1917 عندما أعلن الجنرال Ferrero استقلال البلاد. وقد تم تعيين إدارة دولية بعد الهدنة، وظلت تمارس مسؤوليتها إلى سنة 1920.

وفي مؤتمر السلم تحايلت إيطاليا وتمكنت من أخذ الوصاية على ألبانيا في يوم 20 غشت سنة 1918، وفي سنة 1920 عرفت البلاد فترة استقرار تام بعد وصول "زوغو" إلى الحكم (1)

---

(1) أجبرت إيطاليا على الجلاء، لكنها ظلت محتفظة

بـجزيـرة Sozan، وانـضمت ألبـانـيا إلى عصبـة الأمم في شهر دجنـبـر سنـة 1920.

(15495/1)

.

وقد أكد مؤتمر السفراء الذي عقد في لنـدن في شهر نـونـبـر 1921 استقلال ألبـانـيا داخل الحدود التي تم تعيينـهـا سنـة 1913، لكنـه كلف إيطاليا بـالسهر على المحافظة على وحدة التراب الألبـانـي (1) . وبـسبـب الوضعية الاقتصادية السيئة، انـدلعت بـين الحين والآخر فتن وقلاقل من طرف الفلاحين الذين كانـوا يطالبـون بإجراء بـعض الإصلاحات الزراعية، كما طالبـوا بـتنـحية الحكومة العاجزة والتي كانـت تحت سيطرة أحمد زوغو. ونـتيجة لذلك اضطر الملك إلى مغادرة البـلاد مع رئيس حكومته وعضوين مسلمين في مجلس

---

(1) لتـ تعترف حكومة ألبـانـيا بـهذا القرار.

(15496/1)

الوصاية. وتمت السلطة للأسقف الأرتودوكسي Fan Noli ، زعيم حزب الأحرار وكان ضمن الوفد الألباني في عصبة الأمم، كما كان يتمتع بشعبية كبيرة داخل البلاد. لكن سلطته لم تعمر أكثر من ستة أشهر بسبب عجزه عن تطبيق الإصلاحات المرجوة والمستعجلة. وقد رجع أحمد زوغو إلى البلاد على رأس حملة عسكرية احتلت بواسطتها تيرانا، وغادر Fan Noli البلاد إلى المنفى (1)

---

(1) تكون هذا الفيلق في يوغوسلافيا من طرف المهاجرين الألبان، كانت هذه المجموعة البشرية قد دفعها العثمانيون إلى الاستقرار في الجنوب الشرقي من أوربا، حيث ظلت فئة منها مستقرة في يوغوسلافيا وبلغاريا واليونان. أما الفئة التي كانت مستقرة في رومانيا فقد غادرت البلاد حوالي سنة 1878.

(15497/1)

. وتعتبر الفترة الواقعة بين سنة 1925 إلى قيام الحرب الكونية الثانية وفي غضونها من أهم فترات التاريخ الألباني. ففي يوم 22 يناير سنة 1925 ألغت الجمعية الوطنية نظام الحكم المعتمد على الوصاية، وأعلنت النظام الجمهوري للبلاد، وقد تم انتخاب زوغو

بعد أيام من ذلك القرار رئيسا للجمهورية، وكان دستور البلاد يستوحي خطوطه العامة من دستور الولايات المتحدة الأمريكية. وإذا كان زوغو قد عاد إلى الحكم بمساعدة يوغوسلافيا فإنه لم يلبث أن تخلى واتجه إلى إيطاليا (1)

---

(1) كان ذلك سببا في سلسلة من المشاكل السياسية بين يوغوسلافيا وإيطاليا. المهم هو أن يوغوسلافيا قد أضافت إلى مشاكلها مع النمسا والمجر قبل الحرب الأولى وخلالها مشاكل أخرى مع إيطاليا بسبب الأطماع الإيطالية في ألبانيا وكذلك في منطقة أسترا.

(15498/1)

، وقد انقلب نظام الحكم في البلد من نظام جمهوري إلى نظام ملكي، وكان ذلك في شهر غشت سنة 1928 بعد تعديل الدستور، حيث أصبح زوغو ملكا على البلاد. وبذلك وضعت إيطاليا يدها على ألبانيا عن طريق القروض كالقرض الذي بلغ مائة مليون ليرة (1)

---

(1) للإطلاع على ظروف بداية الحملة العسكرية الإيطالية إلى ألبانيا التي انتهت بالاحتلال التام، يمكن الرجوع

إلى مؤلف Ciano **الذي كان وزيرا للخارجية** 1939–1943 **وهو يقع في جزئين، إذ يضم جملة من المعلومات القيمة حول هذا الموضوع، بالنظر للصلة المباشرة التي كانت تجمع المؤلف بموسوليني بصفته كان صهرا للزعيم الفاشستي.**

(15499/1)

تؤدى على عشر سنوات. وفي سنة 1934 **رفض الملك تجديد عقد القرض مع إيطاليا، بل إنه أمر بتأميم بعض المؤسسات الإيطالية وخاصة مؤسسات التعليم. وساعد على مد النفوذ المالي اليوغوسلافي، فقامت إيطاليا بإجراء استعراض بحري في المياه الإقليمية، الأمر الذي أدى إلى استسلام التام من طرف زوغو وخضوعه للشروط الإيطالية ولهذا لم تنضم ألبانيا إلى الاتفاق البلقاني الذي اقترحته فرنسا كما أنها لم تنضم إلى الدول الأوربية لمعاقبة إيطاليا بسبب عدوانها على الحبشة. في سنة** 1938 **وقبل الغزو بسنة واحدة بلغت مقادير الأموال**

(15500/1)

الإيطالية المستثمرة في ألبانيا(280.000.000 **فرنك فرنسي)، كما كون الإيطاليون شركة كبيرة لتطوير ألبانيا بهدف تحويلها إلى مستعمرة اقتصادية وعسكرية كما تقرر إرسال هجرة إيطالية تقدر بحوالي** 300.000 **إيطالي، وكل هذا كان تحضيرا للاحتلال التام الذي حدث في شهر أبريل سنة** 1939 (1) **. وقد اعتمد الإيطاليون برنامج الاحتلال المذكور عقب الاجتماع الذي حضره وزير الخارجية** Ciano **الذي اتفق مع موسوليني على النقط الآتية**

---

(1) **راجع** Ciano **مؤلف كتاب :** 1939–1943 **:** Journal Politique,Généve, 1946 **، الجزء الأول، صص.**42،62،65،70،81.

(15501/1)

:

... 1) تعبئة الجيش البري والتنسيق بينه وبين البحرية والطيران.

... 2) خلال ذلك يكون الملحق العسكري الإيطالي في تيرانا وهو السيد Jacomani **يواصل ضغطه على الملك**

... 3) عندما يقاوم هذا الأخير يتم إرسال البواخر الحربية

الإيطالية إلى المياه الإقليمية لألبانيا، ثم يرسل الإنذار النهائي إلى الملك للاستسلام، ثم يقع تحريض المقاومة الداخلية عندما يرفض الملك، ثم تبدأ عملية الإنزال، وبعد الاحتلال ينشأ نظام حكم ملكي جديد، ويقدم عرش البلاد إلى ملك إيطاليا.

(15502/1)

كانت مواقف الدول الأوربية مختلفة : فيوغوسلافيا كانت تعارض الاحتلال نظرا لمصالحها في منطقة KOSOVO . أما المجر فقد كانت مع الاحتلال، بل إنها قامت بإرسال ست فرق عسكرية إلى حدود يوغوسلافيا لتهديدها. أما إنجلترا فقط ظهر موقفها من خلال التصريح الذي أدلى به تشمبرلن في مجلس العموم (1) حيث أشار إلى عدم وجود مصالح بريطانية خاصة في ألبانيا.

لقد قامت إيطاليا يوم 12 أبريل 1939 باحتلال البلاد فلجأت العائلة الملكية إلى لندن. ويمكن اعتبار الواقعة بين 1939 و 1944 فترة احتلال تام باستثناء

---

(1) أنظر أعلاه، صص.70،81.

(15503/1)

سنة واحدة أي سنة 1943 التي تم فيها غزو ألمانيا للبلاد.

وهكذا صارت ألبانيا جزءا لا تيجزأ من إيطالية، فانقلبت الجمعية الوطنية الألبانية إلى جمعية دستورية، وتقلد الوزارة Cheokiy Bey Verlaci . وبواسطة اتفاقية مالية وجمركية أدمجت البلاد في المنظومة الاقتصادية الإيطالية، وفي 22 أبريل 1939 سمي السفير الإيطالي في تيرانا Francisico Jacomini de savoie نائب الملك

وفي 30 ماي 1939 تكون الحزب الشيوعي الفاشستي الألباني على غرار ما في إيطاليا. كما تم وضع كل من الجيش والدرك تحت إمرة القيادة الإيطالية (1)

---

(1) حسب الدستور الجديد الذي صدر في 3 يونيو 1939 يعرف ألبانيا على أنها دولة دستورية وراثية بيت Savoie وأضيف شعار الفاشستية إلى العلم الألباني كما اعترف الدستور الجديد بحرية الديانة وضمانها، وظلت اللغة الألبانية رسمية لكن السلط الفعلية ظلت في يد جهاز الاحتلال.

(15504/1)

. وقد عارض الشيوعيون الغزو في غضون الحرب الكونية الثانية وقاوموه في السر والعلانية، لكن زعماء الأحزاب السياسية الآخرين الذين كانت تستهويهم تصريحات المسؤولين الإيطاليين بإنشاء ألبانيا العظمى بعد ضم بعض المناطق التي تحت يوغوسلافيا (1) واليونان قد وضعوا أنفسهم عن طواعية رهن إشارة المحتلين . وإذا كان الاحتلال الإيطالي غير كامل ومكلفا، فإن موسوليني قرر الاحتلال التام بإرسال 130.000 جنديا ثم دخل إلى اليونان ثم انقلبت الآية ببروز المقاومة المسلحة التي

(1) منطقة كسوفو التي لم ينقطع عنها الحديث إلى الآن.

(15505/1)

انتشرت بسرعة في يوغوسلافيا واليونان وألبانيا، ولذلك نرى بجاية الانتكاس الكبير الذي أصاب الجيش الإيطالي (1) وكان ذلك سنة 1941.

لقد أصابت الجيش الإيطالي سلسلة من الهزائم والانتكاسات، الأمر الذي دفع بهتلر إلى اجتياح منطقة البلقان برمتها، فأعلن الحرب على اليونان

ويوغوسلافيا، وعندما استسلمت إيطاليا سنة 1943 قام

---

(1) مؤلف Ciano زاخر بالمعلومات التي حول هذا الموضوع، وقد تتبع المؤلف سير هذه الأحداث وتقلباتها عن طريق رصدها في كل يوم، وهي مدققة جدا بحكم القرابة التي كانت تجمع المؤلف بالزعيم الفاشستي.

(15506/1)

الألمان باحتلال ألبانيا، وأعقب ذلك تنفيذ بعض الإجراءات كإلغاء كل القوانين التي صدرت سنة 1939 ، وأعلن حياد ألبانية وتكوين مجلس الوصاية الذي أوكلت إليه السلطات التنفيذية. أما التشريعية فظلت في يد المجلس الدستوري. وفي غضون ذلك تصاعد تيار المقاومة المحلية ضد الاحتلال، إذ لعب المقاومون دورا كبيرا في تحرير البلاد بمساعدة أنصار يوغوسلافيا (1)

---

(1) راجع الكتاب الذي أصدره زمرة من الصحافيين واليوغسلاف الصادر في بلغراد في شهر يوليوز سنة 1981 تحت اسم :

, 1981Enver Hodzina Albanja, Beograg, Juli
.Novinkya Agencija Tanjug

(15507/1)

.

لكن وابتداءا من هذا التاريخ اختلط تاريخ ألبانيا بتاريخ الحزب الشيوعي الألباني، وقد تحرر التراب الألباني في شهر نونبر سنة 1944.

وعندما نتطرق إلى الفترة الممتدة بين 1945 **و** 1978 **ستكون الدراسة حولها منصبة على العهد الشيوعي. حيث تتم معالجة نظام الحكم الجديد الذي عم بدون استثناء الجزء الشرقي من القارة الأوربية. فقد وقعت ألبانيا في هذه الفترة تحت القبضة الشيوعية. وهذا النظام كان يمثله الحزب الشيوعي الذي صار يحمل اسم حزب العمل الألباني. ولقد مر نظام الحكم في البلاد وفي إطار علاقاته مع الخارج بمراحل**

(15508/1)

ثلاث :

1) 1945 – 1948 ، **هذه الفترة كانت العلاقة فيها مع**

يوغوسلافيا وطيدة جدا بسبب الدعم العسكري والميداني الذي قدمه المارشال تيتو لأنور خوجا أثناء حرب التحرير. ثم صارت هذه العلاقة سيئة عقب وقوع النزاع المشهور بين تيتو وستالين سنة 1948.

2) 1961 – 1961 ، علاقة حسنة مع الاتحاد السوفياتي .

3) 1961 – 1978 ، علاقات وطيدة مع الصين.

للإشارة، فإن موضوع الفترة 1945 – 1978 لا يدخل في مجال بحثنا إلا من خلال علاقة النظام الجديد علاقة النظام الجديد بالدين الإسلامي والمسلمين وبكل الطوائف الدينية كانت مسيحية

(15509/1)

أو مسلمة.

وقبل أن أدخل في دراسة الباب الثاني المتعلق بوضعية الإسلام والمسلمين في ألبانيا، أشير إلى ما يلي :

1– لقد قسمت هذا الباب لضيق المقام إلى فصلين، الفصل الأول عالجت فيه فترة وضعية الإسلام والمسلمين من سنة 1912 إلى بداية الحرب الكونية الثانية، أي قبل مجيء الشيوعيون وعلى رأسهم أنور خوجة إلى الحكم، ولقد أخرت الفصل الثاني الذي تعرض لدراسة وضعية الإسلام والمسلمين في العهد الشيوعي إلى فرصة أخرى

ومقال جديد في المستقبل إن شاء الله.

2– مرت العلاقات الخارجية لألبانيا بثلاث مراحل :

(15510/1)

1945–1948 ، **كانت فيها العلاقات وطيدة مع يوغوسلافيا.**

1948–1961، **كانت فيها العلاقات وطيدة مع الاتحاد السوفياتي.**

1961–1978 ، **كانت فيها العلاقات وطيدة مع الصين.**

والغاية من الإشارة إلى ذلك القيام بتفسير وتوضيح علاقة أنور خوجة بالدين، فمن خلال صداقته مع تيتو لم يقم أنور خوجة بفرض الحل النهائي على الدين إسلاميا أم مسيحيا عندما كان صديقا لتيتو. إذ أن هذه الفترة عرفت سياسة جس النبض، وإصدار قوانين تتعلق بالدين ومؤسساته دون التعرض إلى سياسة تطهيرية كاملة. فهل كان ذلك يرجع إلى الخوف من حدوث استياء عام وفتن

(15511/1)

وثورات داخلية ؟ فالوضع الشيوعي كان في بداية الطريق ولم يكن لأنور خوجة حاميا من الخارج.ذلك إلى سوء التفاهم الذي حدث بين تيتو وستالين سنة 1948 والذي أدى في النهاية إلى القطعية النهائية مع الاتحاد السوفياتي (1) . كما يرجع كذلك إلى أن الإتجاه الجديد لأنور خوجة في علاقته مع ستالين كان سببا في بداية الحملة الكبيرة ضد الدين في ألبانيا،

---

(1) راجع كتاب : Conversation acev Staline, Milovan Djilas, ، وخاصة المقدمة منه التي تحتوي على أكثر من ثلاثين صفحة، وكذلك مؤلفه : Une Société Imparfaite, Paris1969 ..

(15512/1)

فقد كان ستالين قدوة في هذا المضمار لأنور خوجة، إذ كان هذا الأخير يستوحي سياسته الجديدة هذه من سياسة ستالين الدينية الهادقة عبر سلسلة القوانين والتشريعات التي سنت ثم طبقت إلى إزاحة الدين ومؤسساته عن الطريق التي رسمها الحكم الشيوعي.

بعد معركة KOSOVO التي اندحر فيها الجيش الصربي سنة 1389 بدأت السيطرة العثمانية تشق الطريق عبر

بلاد البلقان، ويرجع استقرار الأتراك إلى عدة عوامل اقتصادية واجتماعية وبشرية. ويرجع بعض المؤرخين الدور الذي لعبه الألبانيون في تسهيل عملية التوسع التركي، حيث هاجر مئات الآلاف

(15513/1)

منهم إلى سهل KISOVO **الذي كان مركزا حيويا لدولة الصرب في القرون الوسطى. وموجة الهجرة هذه كانت قد تمت بعد نزوح** 100.000 **صربي إلى المجر سنة** 1690 (1)

.

معالجة الفترة الواقعة بين 1912 **و** 1939 **تحتاج إلى وضعها ضمن فترات تاريخية معينة، وذلك حتى يتجنب المرء مشكلة الاختلاط والتكرار.**

هذه الفترات هي كالتالي :

1912–1920 ،

1921–1924،

1925–1939.

فترة 1912–1920 :

---

(1) **راجع كتاب :** KIOSOVO, Pasr ans Present, Berlgrad ، **ص** .29.

(15514/1)

كان غياب السلطة العثمانية الذي أدى إلى ولادة الدولة المستقلة في ألبانيا وفي دول أخرى مجاورة سببا إضافيا مباشرا لدفع الطائفة المسلمة في البلاد إلى تنظيم صفوفها، فتكونت البنية الدينية وترسخ العقيدة لدى السكان الذين كانوا يطمعون في نزع الاعتراف بالدين من طرف السلطة (1) ، وقد تم هذا

---

(1) سنة 1913 صدر القانون الذي نص على فصل الحقوق المدنية عن الشريعة وقطع الهيأة الإسلامية علاقتها مع شيخ الإسلام في إستنبول. راجع : محمد م الأناؤوط، دراسات في التاريخ الحضاري للإسلام في البلقان،كانون الثاني، 1996 ، ص.147.

(15515/1)

العمل، الأمر الذي كان متعذرا حصوله في البلدان المجاورة لها. وشرح ذلك هو أن المسلمين في غير ألبانيا كانوا أقلية كما هو الشأن في يوغوسلافيا باستثناء البوسنة والهرسك، كما كانوا كذلك أقلية في بلغاريا

واليونان ورومانيا (1) . أما في البلاد

---

(1) كانت سياسة الأتراك الدينية تعتمد على أسلوبين مختلفين : تشجيع هجرة تركية كبيرة لنشر الإسلام في البلقان في صربيا واليونان وبلغاريا، بينما فضلت خلق وجود إسلام محلي في كل من ألبانيا والبوسنة، وذلك بواسطة تشجيع السكان المحليين على اعتناق الإسلام. أنظر أعلاه، صص.78،79.

(15516/1)

التي نحن بصدد دراسة الإسلام فيها فقد كان المسلمون يشكلون أغلبية واسعة. كما يلاحظ بوضوح التلاحم والانسجام اللذين كانا موجودين داخل الطائفة السنية بعد نزوح الأتراك عن البلاد.

ولم يكن بتاتا المشكل القومي والوطني مطروحا لأن المسلمين في ألبانيا كانوا كلهم ألبانيين، ونضيف ظاهرة أخرى مهمة، وهي أن الطائفة المسلمة كانت تتكون من مجموعتين متوازيتين، الطائفة السنية والطائفة البكداشية. وكانت كل طائفة توجه من طرف ممثلها الخاص بها.

(15517/1)

وعندما نتعرض لدراسة الطائفة السنية وتنظيمها الإدراي يمكن الاعتقاد بأنها كانت توجه من طرف المفتي الأكبر الذي كان مقره في تيرانا. لكن تدخل الدولة كان حاسما، إذ هي التي كانت تسيطر على المؤسسة الدينية وتحسم في قضية المراتب والدرجات الدينية، بل هي التي كانت تمول هذه الطائفة وتقوم بدفع رواتب المفتي والقضاة. لكن ذلك ليس معناه الاعتراف بالدين كدين للدولة. كانت السلطة الألبانية تتبع النهج القديم في معاملتها لرجال الدين، وكانت مكانة القضاة والمفتين أكبر منها لدى الرهبان والكهنة، وكان من اختصاص القاضي

(15518/1)

البث في قضايا الزواج والطلاق والإرث والبت في حقوق الأطفال. وكانت مهمة المفتي تنحصر في وظيفة مستشار القاضي، لكنه مع ذلك كانت له صلاحية الإرشاد في أمور الدين وقضايا المذهب والعقيدة. أما الطائفة البكداشية (1) يمكن القول بأن تنظيمها الإداري لم يكن يختلف عن تنظيم الطائفة السنية، وكان مقرها

في Kakkandelem وهي موجودة الآن في منطقة Tetovo في مكدونيا التي كانت

---

(1) لأخذ فكرة واضحة عن هذه الفترة 1912–1920، راجع ما يلي : 26La Revue du Monde Musulman. , 1914Septembre 28, 254–253, PP.1914Mars .323–319PP.

(15519/1)

تشكل جمهورية داخل النظام الفيدرالي اليوغوسلافي قبل الحرب والانفصال. وقد انفصلت هذه الطائفة عن طائفة البكداشيين في استنبول. ونختم هذه الفترة بالتعرض لبعض الإشارات المتعلقة بالتثقيف الديني والصحافة الإسلامية. إن مركز التثقيف الديني والتعليم كان موجودا في المدرسة المشهورة في مدينة Berat، حيث كانت مدة التعليم فيها تستغرق ثمان سنوات، وكانت تضم سنة 1920 حوالي 120 تلميذا، وذلك قبل الحروب البلقانية. ثم صارت مدرسة المعلمين، وكانت الدراسة فيها تلقن باللغة الألبانية. أما ما تعلق بالمنشورات الدينية

(15520/1)

والصحافة الإسلامية فإننا نشير إلى بعض الكتب البسيطة التي كانت تعالج القضايا المتعلقة بأركان الإسلام كالصلاة والوضوء والنية والأعياد الدينية والزكاة والصيام والحج، عدد المساجد والتكيات وعدد رجال الدين والموظفين ووضعيتهم، حالة مؤسسات الوقف لدى السنيين والبكداشيين. وقد وقعت محاولات متعددة لتسييس الإسلام من طرف الأتراك بعد ذهاب الخلافة، وكانت جميعة الاتحاد والترقي تحاول استدراج الطائفة الإسلامية إليه لتكون قوة توازن في ألبانيا ومقرا للنفوذ العثماني. وإذا كان الباب العالي لم يعترف بانفصال ألبانيا عن

(15521/1)

الإمبراطورية، فإنه مع ذلك حاول تأسيس توازن سياسي وعسكري ضد تزايد القوتين الصربية واليونانية. وفي هذا الاتجاه أوحت إستنبول بفكرة تنصيب أمير تركي على رأس الدولة الألبانية، واقترحت تنصيب وزير الحربية عزة باشا وهو من أصل ألباني للإطاحة بالأمير Wed الذي نصبه الأوربيون على البلاد

سنة 1913. وخلال هذه الفترة لوحظت حركة غريبة من طرف الكنيسة الكاثوليكية التي حاولت عن طريق المال تنصير المسلمين وكتلكة الأرتدوكس، حيث ثم رصد طائلة تقدر بـ 100.000 دولار في البداية، و 50.000 دولار عند كل سنة.

(15522/1)

فترة 1921–1924 ، وفيها سنتعرض بالدراسة لوضعية الطائفتين السنية والبكداشية في ألبانيا من خلال بنيتها وتنظيمها الإداري، فقد عرفت هذه الفترة بداية الانقطاع والانفصال عن الباب العالي، كما تميزت هذه الفترة بعقد الطائفة السنية في تيرانا لمؤتمرها المعروف في شهر أبريل سنة 1923، حيث نجد القرارات المهمة الصادرة عنه تتعلق بانفصال الطائفة السنية عن إستنبول، إعلان الاستقلال التام، إلغاء تعدد الزوجات، إلغاء وضع الحجاب. إلى غير ذلك من القرارات الأخرى، وقد أثار ذلك موجة من الاحتجاجات وردود الفعل العربية

(15523/1)

والأجنبية (1) . وصرح رئيس مجلس الشريعة لجريدة الأهرام المفتي محمد وهبي ونشر التصريح في نفس الجريدة يوم 20 يونيو ، وكان تصريحه يوضح بعض القضايا المتعلقة بمزاولة وممارسة الشعائر الدينية حيث أدلى ببعض التوضيحات. ونحن نتعرض لذلك بتلخيص شديد لا يخرج عن نطاق الإشارة. كانت التوضيحات تتعلق بتنظيم الطائفة، وإعادة تنظيم و إصلاح مؤسسات الوقف، والأخذ بالعناية والرعاية للمؤسسات الدينية، انتخاب المفتي الأكبر وتعيين المقر في

---

(1) تصدت تلك عدة صحف عربية وخاصة ما ورد في صحيفة الأهرام في يوم 11 أبريل سنة 1923.

(15524/1)

العاصمة، التفرع الوظيفي بواسطة مجموعة المفتين الجهويين الذين يهتمون بالمسائل المالية والإدارية والتفتيش، تأسيس المجلس الأعلى للشريعة (Haut Conseil du Charia) يشرف عليه المفتي الأكبر، ويتكون هذا المجلس من ستة أعضاء : دكتورين في القانون الشرعي، ومن موظفين مدنيين.

أما فرقة البكداشيين فقد حاولت قطع العلاقة مع البكداشيين في تركيا، وقد تم لها ذلك في المؤتمر الذي عقدوه سنة 1922، هذه الفترة تميزت بظهور ثلاث مجلات تعني بالدراسات الإسلامية (1)

---

(1) تصدت لذلك عدة صحف عربية وخاصة ما ورد في صحيفة الأهرام في يوم 11 أبريل سنة 1923.

(15525/1)

.

الفترة 1925–1939 : تعد هذه الفترة من أهم الفترات التاريخية في البلاد باعتبار الظروف السياسية الطارئة التي كان لها تأثير قوي على الدين في البلاد. في هذه الفترة كان المسلمون يشكلون 71٪ من السكان، حيث بلغ عدد سكان الاورتودكس 88.987 نسمة مكونين بذلك نسبة 10٪ من مجموع السكان. وفي هذه الفترة تم إدخال بعض التعديلات والتغييرات التي كانت بمثابة حملة تصحيحية للنظام الهيكلي للطائفتين الإسلاميتين. فقد أعلنت الطائفة السنية عقب المؤتمر الثاني الذي عقد في تيرانا في شهر غشت سنة 1924 القانون الأساسي الذي يضم

(15526/1)

خمسة محاور يضم خمسة محاور أساسية" 1– الملاحظات الأولية حول الدين في البلاد.

2– تنظيم الطائفة الإسلامية. 3– الإصلاح القضائي. 4– القانون المدني. 5– تطبيق الإصلاح وخاتمة عامة(1) .

لكن يبقى هذا الإصلاح الشامل والتنظيم المقنن خاضعا للدستور الرسمي للبلاد.

إن مجال التطبيق الوارد شأنه في النقطة الخامسة التي وردت في الدستور هو عبارة عن مجموعة من المواد والبنود الأساسية التي تغطي بشكل دقيق ومركز عالم النشاط الديني العام،

---

(1) **يستحسن الرجوع إلى .** Revue Du Monde Islamique , Tome 9, 1935, pp . 399 -410

(15527/1)

ويقدم خريطة شاملة يبرز فيها التركيز على المجالات التنظيمية والبنيوية، ويدقق في المسؤوليات وفي بدايات ونهايات التدرج فيها، وإذا كانت فترة ما قبل

فترة 1925 – 1939 تعطي الانطباع بعدم وجود تنظيم مركز للطائفتين لأسباب سياسية يطول الحديث عنها كالحروب البلقانية التي عصفت بالمنطقة كلها خلال سنتين وغيرت وجه الخريطة السياسية للدول الموجودة هناك، فإننا نرى في الفترة اللاحقة ما بين 1925 – 1939 وجها مغايرا يظهر في ما تم من الانفصال التام عن الباب العالي والانكباب على تنظيم أمور المسلمين من زاوية الاستقلال،

(15528/1)

لكن يبقى هذا الإصلاح الشامل والتقنين التنظيم يخضعان لروح الدستور الرسمي الصادر عن سنة 1928 وبالأخص للتوجيهات الواردة في المادة الخامسة منه والتي ورد شرحها سابقا.

إن النص التشريعي الذي أرسل إلى الطائفتين الإسلاميتين معا يلزمهما بتطبيق ما جاء في المادة الخامسة من بنود، وسوف أشير إلى ذلك باختصار شديد:

1– إن الطائفة المسلمة تشمل المسلمين جميعهم بغض النظر عن كونهم سنيين أو بكداشيين.

2– تتمتع هذه الطائفة بالشخصية القانونية.

(15529/1)

3– تدار الطائفة من طرف مجلس عام أعلى ومن رئيس ومن مجلس دائم ومن مديرية عامة ومفتيين رئيسيين ومفتيين فرعيين ومجالس إقليمية. 4– رئيس الطائفة هو المفتي الأعظم مقره في تيرانا عاصمة ألبانيا، وينتخب من طرف المجلس الأعلى شرط أن تتم المصادقة عليه من طرف
الملك، يعين المفتون الأربعة بنفس الطريقة من طرف المجلس الأعلى ويكون مقر أعمالهم في المدن الأربع الكبرى التالية: Scutari و Koritza و Tirana و أخيرا مدينة .Argyro-Kastro

(15530/1)

لكن الذي يثير الانتباه هو ما ورد في المادة رقم 30 من الدستور التي توضح بجلاء بداية هيمنة سلطة الحكم على العالم الديني في ألبانيا، ويتضح ذلك من خلال ما يلي:
1– تنفذ القرارات والأوامر الصادرة عن الرئيس وعن المجلس الأعلى بدون تمييز أو اعتراض.

2– تشجيع العلاقة الأخوية بين المسلمين.

3– المساهمة في تقوية الأخوة الوطنية بين الألبانيين بغض النظر عن معتقداتهم. 4– توسيع نطاق النشر والإعلام.

تخضع القواعد الضابطة لميزانية الطائفة المسلمة لقوانين الدولة المالية، كما نجد بنودا خاصة بتسيير موارد الوقف

(15531/1)

والضرائب المحصلة من طرف المسلمين وأخرى تتعلق بالمساعدات المالية الممكنة التي تقدمها الدولة للطائفة، وفي الأخير نشير إلى تحريم الدولة على الطائفة المسلمة طلب المساعدات المالية من الخارج، إلا أن يكون ذلك بإذن خاص من السلطات. وقد ظلت الأوقاف تحت ملكية الطائفة، لكنها تدار من طرف مديرية عامة التي ورد ذكرها في المادة الخامسة من الدستور.

وقبل أن أختم هذا المقال أسوق في عجالة دراسة مختصرة تتعلق بالتنظيم الخاص بالطائفة البكداشية في فترة 1925 – 1939. فلقد تم انعقاد المؤتمر الثالث للطائفة سنة 1929 في

(15532/1)

مدينة Korcé وتلا ذلك نشر القوانين المتعلقة بالشريعة والميزانية، وقد تم الانفصال الكلي عن الطائفة السنية وكانت الطائفتان معا تشكلان في السابق كتلة إسلامية واحدة. فصار للطائفة البكداشية الزعيم الروحي الأعظم ومقره في تيرانا، وهو يقابل لقب المفتي Grand Dede . ثم يأتي التسلسل في الوظائف والمسؤوليات، فنجد هيأة تتكون من خمسة زعماء يخضعون للزعيم الروحي الأعظم يوزعون في خمس مدن أساسية، ثم تأتي طبقة رؤساء التكيات ثم طبقة الدراويش وطبقة المحبين،

(15533/1)

والمحب هو الذي التحق بالطائفة وبدأ التعلم والاستئناس بتعاليمها، ثم تأتي طبقة العاشقين الذين يحملون بالانتساب وهم كثير، لكنهم لم يصلوا بعد إلى مرحلة الإذن والتعلم والاستئناس بالشعائر البكداشية.

الذي يظل في ملكية الخيال، هو كيف يمكن تطبيق المبدأ العلماني على طوائف دينية مختلفة وعلى مجتمع

يسير في حياته على نهج الشريعة الدينية إسلاما ومسيحية. إذ ليس من السهل أن ينقلب مجتمع ديني إلى مجتمع علماني. كما أنه من المستحيل أن تنهار مؤسسات تقليدية وتمحى أسس لها عمقها في جسم المجتمع بواسطة سياسة همها الوحيد

(15534/1)

هو التغيير السريع. ونحن في حل عن تقديم البرهنة لإسناد قولنا، فالذي يحصل الآن في تركيا وألبانيا غني عن البيان. إن إلغاء نظام الشريعة في تركيا إبان عهد أتاتورك وفي روسيا أثناء العهد الشيوعي، ثم في ألبانيا من خلال دستور 1928 في عهد الملك زوغو كان عبارة عن محاولة لا تخرج عن نطاق النزوة والهوى، ذلك لأن الإصلاح لا يمكن أن يأتي بواسطة قفزات ثورية، أو عن طريق الرعشة السياسية. إنه أولا مبدأ، وهو في الأخير هدف، وبينما طريق شائك، والتأني والتبصر سبيلان إلى ربط المبدأ بالأهداف لتكون النتيجة قد بلغت نهاية

(15535/1)

المبـتـغى.

المراجع

- A. Mausset, L'Albanie devant l'Europe, Paris 1927.
- J. Godart, L'Albanie en 1921, Paris P.U.F 1921.
- G. Louis Jaroj, Au jeune Royaume d'Albanie, Paris Hachet 1914.
- Pière Renouvin, Histoire des Relations Internationales, Paris 1958.

الجزء السادس والسابع والثامن

- Comte Galeazzo Ciano, Journal politique 1939–1943, Tome 1, Oreste Zeluck, Paris 1943.
- Comt Galeazzo Ciano, Journale politique 1939–1943, Tome 2, Oreste Zeluck, Paris 1943.

(15536/1)

- Milenko Babic, Moncilo Blagojevi, Stevan Cordas, Miodrag, Dukic, Borislav, Lalic, Aliksandar Markovic, Ljubinka Milovanovic, Dragomir, Pavlovic, Velisar Savic, Slavko Stalic,

Mihailo Saranovic, Radivoje Vukcevic, Enver Hodjina, Albanija, Beograd juli 1981.

jovan Markovic i Pero Maraca, Nas oslobodikacki Rat i Norodna Revolucija, 1941 - 1945, Prosveta Beograd 1958.

- Antanasije Urosevic, Ethnic Processes in Kosovo during the Turkish Rule, Kosovo, Past and Present, Review of International Affairs, Belgrade.

- Alexander Popovic, L'Islame Balkanique, Berlin 1986.

- Milovan Djilas, Conversation avec Staline, Gallimard 1971.

- La Revue du Monde Musulmane.

(15537/1)

- Alexander Popovic, L'Islame Balkanique, Berlin 1986.

- Milovan Djilas, Conversation avec Staline, Gallimard 1971.

- La Revue du Monde Musulmane.

(15538/1)

وضعية الإسلام والمسلمين في بلغاريا والروملي الشرقية

الدكتور عبد الكريم الأبيض

كلية الآداب – الرباط

تختلف هذه الدراسة بالنسبة لما سبق ذكره في الأعداد السابقة من مجلة »التاريخ العربي« (العدد الثاني والثالث والخامس)*. إذ عندما كنا بصدد دراسة أحوال المسلمين وأوضاع الإسلام في منطقتي البوسنة والهرسك وبلاد ألبانيا، لم تواجهنا تلك الصعوبات التي اعترضتنا ونحن نعالج موضوع الإسلام والمسلمين في منطقة أخرى من بلاد البلقان لاختلاف الظروف التاريخية والجغرافية.

(15539/1)

في البحوث السابقة كنا أمام طائفة مسلمة واحدة، واضحة المعالم سهلة التناول وتنتمي لعرق واحد، وتتمتع بالتنظيم المحكم عن طريق القوانين الأساسية، وكانت لها مؤتمراتها وندواتها واجتماعاتها المتوالية، وعلماؤها البارزون في علوم الدين والتخصص في جوانبه، كما كانت علاقاتها واضحة مع السلطة الحاكمة محلية كانت أو مع الباب العالي بالرغم ممّا ساد هذه العلاقة من عمليات القمع والتصفية إبان العهد الشيوعي في ألبانيا، أو من مواقف الحاكمين

العسكريين عندما دخل الجيش النمساوي إلى البوسنة والهرسك بناءً على ما تم البت

(15540/1)

فيه في مؤتمر برلين سنة 1878.

إن الأمر يختلف تماماً في بلغاريا والروملي الشرقية، وتنمو الصعوبة كلما حاولنا ضبط هذه الطائفة المسلمة إما عن طريق الإحصاء، أو عن طريق رصد تطورها ونموها وتقلصها ومعرفة موقفها من السلطة المحلية أو من الباب العالي.

لا تكمن الصعوبة في الدراسة بحد ذاتها نظراً لما تزخر به البلاد من منشآت دينية ومؤسسات إسلامية بقدر ما توجد هذه الصعوبة في الأرض وفي النطاق المحيط بها، وأقصد بذلك

(15541/1)

النطاق السياسي العام الذي عم البلاد بلاد البلقان برمتها، أو النطاق الخاص داخل إطار العلاقات السياسية التي كانت تربط مصير بلغاريا والروملي الشرقية

بالدول المجاورة البلقانية، أو التي كانت تربطها مع الباب العالي. وحتى لا أطيل في الحديث بالرغم من الضرورة التي تمليه، سأكتفي لتوضيح ذلك بسرد سببين اثنين.

1- إن المرء يجد نفسه أمام فسيفساء دينية تضم أربع مجموعات عرقية مسلمة تنتسب كل واحدة منها إلى مناطق مترامية الأطراف، لكنها استقرت في منطقة البلغار لعوامل متعددة، هذه المجموعات هي مجموعة اليوماك

(15542/1)

(البلغار المسلمون) ثم مجموعة الترك، فالتتر ثم النَّوَر أو ما يسمى بالجيتان -الأمر الذي يستحيل مع ضبط عملية الإحصاء، لأن الهجرة كانت واردة في كل وقت وحين إما بتصدع العلاقات المحلية أو الخارجية، أو بمفعول الحروب الطاحنة. إن هجرة المسلمين إلى تركيا أو العودة إلى مكان الأصل تؤدي لا محالة إلى عدم توفر وسائل الدقة والمراقبة لدى الباحث.

2- إن النزاعات السياسية والحروب التي تعرضت لها منطقة البلقان أدت كذلك إلى استحالة ضبط الأرض التي

هي مجال لبحثنا بواسطة الحدود، لأن المنطقة كانت تتعرض إلى التقلص

(15543/1)

الترابي بعد هزيمة عسكرية ما، أو إلى التوسع الترابي بعد نجاح عملية عسكرية ما. وسنرى من خلال هذا البحث أن الحربين البلقانيتين الأولى والثانية اللتين عرفتهما المنطقة في بداية القرن العشرين كانت فيها حدود دولها تتغير كما يتغير الطقس. فإذا أضفنا إلى ذلك صراع الإمبراطوريات الأربع(1) وتعارض أهدافها وتضارب مصالحها وأطماعها السياسية والاِقتصادية والعسكرية، نكون بالفعل أمام وضعية ليست فقط سياسية بل

---

(1) الإمبراطورية العثمانية، المملكة الثنائية النمسا والمجر، الإمبراطورية الروسية، والإمبراطورية البريطانية.

(15544/1)

دينية بالدرجة الأولى.

سوف أقسم هذا البحث(1) إلى قسمين: كل قسم يعالج فترة تاريخية تختلف عن الفترة الأخرى.

1- فترة 1878-1945 منذ انعقاد مؤتمر برلين إلى نهاية الحرب الكونية الثانية.

2- فترة 1945-1980: دراسة أحول الإسلام والمسلمين في ظل العهد الشيوعي.

وسوف نبدأ بدراسة الفترة الأولى على أن يتم تقديم الفترة الثانية في عدد لاحق من المجلة إن شاء الله.

---

(1) راجع مؤلّفي:

(1 Raymond Poincaré, Les Balkans en Feu, Paris, 1912, p. 57؛

(2 L'Europe sous les armes, Paris, 1913, pp. 194-210-266.

(15545/1)

لقد وصل الإسلام إلى بلاد البلغار عقب الزحف التركي، وكان ذلك في نهاية القرن الرابع عشر. ولقد رأينا في البحوث السابقة التي وردت في العدد الثاني والثالث

والخامس من مجلة »التاريخ العربي« والمتعلقة بوضعية الإسلام والمسلمين في البوسنة والهرسك، أسلوبين مختلفين. كان الأسلوب الأول يتمثل في دفع هجرة بشرية تركية إلى بلاد لا توجد فيها كنائس قوية وعتيقة تتمتع بسيادة على السكان، وهذا ما حصل بالفعل في منطقتي البوسنة والهرسك وذلك في بلاد ألبانيا التي كانت على وشك ذوبان شعبها في شعب صربيا صاحبة التقاليد

(15546/1)

الأرتدكسية التي كانت تمثلها كنيسة بلغراد ذات الصلة القوية بالكنيسة في موسكو. وقد توقفت مسيرة الذوبان بعد دخول الإسلام إلى ألبانيا. أما الأسلوب الثاني، فقد اتبع سياسة الدفشرمة.

دخول الإسلام إلى بلاد البلغار لم يتم عن طريق التجار كما حصل في بلاد أخرى من بلاد البلقان، بل إن دور البعثات الدينية كان مفعوله ضئيلا. إن الأمر يتعلق في انتشار الإسلام في هذه البقعة من أرض البلقان بالهجرة التركية المسلمة التي كان نصيبها في ذلك قوياً وحاسماً. لقد استقرت هذه الطاقة البشرية في المناطق التي كانت أراضيها تتمتع

(15547/1)

بالخصوبة والعطاء الغذائي. وكانت هذه الهجرة تضم بجانب الأتراك التتر الذين قدموا من الأناضول ومن مناطق أخرى بالإضافة إلى هجرة الشركس. كل ذلك أدى إلى عملية استيطانية كثيفة لعب فيها القرب من مركز الإمبراطورية العثمانية دوراً حاسماً.

وبالرغم من انتشار الإِسلام(1) بالسرعة التي أشرنا إليها، فقد قامت جمهرة الأورتدكس تطالب الحكومة التركية بتأسيس كنيسة

---

(1) سقطت صوفيا حوالي سنة 1382، وشومان سنة 1388–1389 قيدان سنة 1396 السنة التي تشير إلى زوال الدولة البلغارية المستقلة وإلحاقها بالإمبراطورية العثمانية.

(15548/1)

بلغارية وكان ذلك سنة 1870، سنة بداية الغليان الشعبي الذي أدى إلى الاِنفجار وقيام عصيان مسلح عززه

تقدم القوات الروسية خلال الحرب التركية الروسية المشهورة سنة 1877–1878 فانقلب ذلك العصيان المسلح إلى ثورة عامة أدت في الأخير إلى بعث الدولة البلغارية من جديد نتيجة للقرارات الصادرة عن مؤتمر برلين سنة 1878، فصارت بلغاريا تحمل اسم الإمارة التابعة للسلطان العثماني رمزياً كما(1)

---

(1) الحديث يطول عن هذا المؤتمر الذي عقد في برلين سنة 1878 تحت زعامة بسمارك، عندما انتصر الروس على الأتراك عقدت معاهدة سان ستيفانو التي منحت الروس امتيازات مهمة في منطقة البلقان. هذه الإمتيازات وضعت مراكز مهمة لنفوذهم الذي سيقودهم لا محالة إلى البحر الأبيض المتوسط وإذا كانت بريطانيا تسعى إلى المحافظة على مصالحها في هذا البحر، فإنها قامت تطالب بعقد مؤتمر أوربي ينظر في بنود المعاهدة المذكورة التي نصت –فيما نصت عليه– على تكوين بلغاريا العظمى بضم الروملي الشرقية وتكون تحت المظلة الروسية. ولا يخفى الوازع السياسي لدى الروس الذين كانوا يسعون من وراء مساعدتهم لإخوانهم الصقالبة في الجنوب عقب بروز المبدإ القومي الوحدوي، بالرغم من علاقة الدين واللغة والعرق التي كانت تربط صقالبة الشمال بصقالبة الجنوب.

(15549/1)

منحت الروملي الشرقية الاستقلال الذاتي.

لقد لعب مؤتمر برلين(1) دوراً حاسماً في تغيير الخريطة السياسية في أوربا كما أدخلت بسببه تعديلات هامة على صعيد العلاقات الأوربية، بل إنه كان تمهيداً للتقارب الروسي الفرنسي الذي نتجت عنه معاهدة 1890 فكانت بمثابة حلف دفاعي هجومي ضد الإمبراطورية الألمانية وبه دخلت الدولتان المذكورتان جنباً إلى جنب الحرب العالمية الأولى ضد ألمانيا.

---

(1) وافق بسمارك لفرنسا على السيطرة على تونس ليثير بذلك حنق بريطانيا.

(15550/1)

لم تكن الطائفة الإسلامية في بلغاريا والروملي الشرقية نظراً للتشتت العرقي تتمتع بالقوة والاِنسجام كما كان عليه الحال في ألبانيا، لانعدام التنظيم أولا، وغياب القوانين الأساسية التي كانت وظيفتها ضبط العلاقة وتراصها بين أفراد الطائفة

الإسلامية وبين مجموعاتها، وضبطها ثانياً أمام مواقف السلطة الحاكمة. إذ من المعلوم أن هذه الطائفة كانت تضم أربع مجموعات عرقية

كما سبقت الإشارة إلى ذلك: مجموعة اليوماك وهم البلغاريون الذين دخلوا الإسلام بعد دخول الأتراك إلى البلاد، ثم مجموعة الترك التي استقرت في البلاد

(15551/1)

بعد الهجرة إليها، ثم التتر الذين شجعتهم الحكومة التركية على الهجرة إلى بلغاريا والإِستقرار فيها بعد حرب القرم وأضافت إليهم كذلك مجموعة الشركس، أما المجموعة الرابعة فهي مجموعة النّور أو ما يسمى بالجيتان.

لم يكن إذن بين هذه المجموعات أي ترابط أو وجود صلة توحد بينهم بالرغم من رابطة الدين، باستثناء ما تم رصده من علاقة بين الأتراك والتتر. ولذلك فإن دراسة هذه الطائفة ذات المجموعات العرقية الأربع، والتعرض إلى نشأتها وتطورها عبر الزمان والمكان تفرض على الباحث أن يعالجها ضمن فترات تاريخية محددة ليتمكن

(15552/1)

من الإِطلاع على علاقة هذه الطائفة فيما بينها، وعلاقتها مع(1)

(1) فترة ولادة الإمارة البلغارية بعد مؤتمر برلين إلى إتمام وحدتها مع الروملي الشرقية سنة 1885.

فترة 1885–1914، وهي الفترة التي شددت الحكومة البلغارية قبضتها على الطائفة المسلمة.

فترة 1914–1918، وهي من أحلك صفحات التاريخ البلغاري وأشدها اضطراباً بسبب الحروب البلقانية والحرب الكونية الأولى وموجات الهجرة التي اتخذت طريقة المد والجزر.

فترة 1919–1941.

فترة 1941–1945 حيث دخلت بلغاريا بجانب دول المحور (ألمانيا وإيطاليا) وتمكنت من احتلال أجزاء كبيرة من أراضي البلدان البلقانية المجاورة.

(15553/1)

الدولة البلغارية ومع الكنيسة الأورتدكسية ومع الباب العالي مع الأخذ بعين الإِعتبار الشعور القومي

والوطني لدى الشعب البلغاري. ولذلك فإن تطور هذه الطائفة رهين بعلاقتها مع العناصر الأربعة المذكورة أعلاه. ويمكن الاِعتقاد أنه في أواسط القرن التاسع عشر كان ثلث السكان في بلغاريا مسلماً، ليتراجع بصفة واضحة عقب هجرة التتر والشركس واليوماك والأتراك إلى الديار التركية بعد مؤتمر برلين 1878. أما الذين ظلوا(1) في البلاد وكان عددهم 900,000 نسمة، فقد حاولوا تنظيم أنفسهم وصفوفهم أمام

---

(1) اليوماك البلغار المسلمون.

(15554/1)

السلطة الرسمية أو العسكرية(1) أو أمام أصحاب الإقطاع بالرغم من قساوة العيش. والنتيجة التي يمكن أن نخرج بها

في هذه الفترة 1878–1885 هي استمرار الهجرة إلى تركيا، والوضعية الاِقتصادية العسيرة لعدم توفر موارد العيش وشروط الحياة الطبيعية، ثم الثورة التي قام بها المسلمون اليوماك الذين كانوا رعاة في جبال منطقة »رُودُبْس« والتي استمرت مدة طويلة من الزمان إلى أن تم القضاء عليها سنة 1903.

---

(1) الأتراك 600,000 نسمة، اليوماك 100,000 نسمة، التتر 19,000 نسمة النَّور أو الجيتان 150,000 نسمة.

(15555/1)

أما الفترة الثانية 1885–1914، فقد اتسمت بتكوين الأحلاف البلقانية وقيام الحربين البلقانيتين الأولى والثانية سنة 1912–1913.

عندما وصل فردناند إلى الحكم في بلغاريا بصفته ملكا عليها، حاول أن يقود سفينة الدولة بحكمة وتبصر، لكن الظروف الأوربية ووضعية بلاده في دوامة التاريخ البلقاني والإِنقسامات الداخلية من جهة، والخارجية من جهة أخرى حيث أخذ البلغار الذين ظلوا تحت الهيمنة التركية في مقدونيا يطالبون بالإِستقلال والوحدة، كل ذلك كان سبباً في التخبط السياسي الذي أدى بالبلاد إلى تلك الخسائر السياسية

(15556/1)

والعسكرية والإِقليمية.

قطع فردناند سنة 1908 كل صلاته مع الباب العالي

لينصب نفسه قيصراً على بلغاريا(1) في مدينة Tarnovo في يوم السادس من أكتوبر من السنة المذكورة أعلاه، ثم عقد صربيا ورومانيا الحلف المشهور وهو الاِتفاق البلقاني ليعلن عن طريق هذا الحلف الحرب على تركيا سنة 1912 وهي الحرب البلقانية الأولى فتم له النصر، لكن الأمر قد تغير سنة 1913 حيث انقلب حلفاء الأمس أعداء بسبب أطماع فردناند الترابية، فانهزم أمام صربيا ورومانيا في الحرب البلقانية

(1) وقعت هجرة كبيرة بعد هذا الاِنقطاع إلى تركيا.

(15557/1)

الثانية وانتزع منه كل ما تم احتلاله ثم عقدت معاهدة بخارست سنة 1913 التي احتفظت للملك البلغاري فقد بمنفذ على بحر إيجة(1).

وتفصيل ذلك أنه تم في يوم 30 مارس سنة 1912 عقد حلف ثنائي بين صربيا وبلغاريا كان الهدف منه الدفاع المشترك والمحافظة على

(1) راجع Raymond Poincaré في المؤلفين المذكورين أعلاه؛ وكذلك مؤلف Pierre Renauvin؛ وهو

جزء من سلسلة الأجزاء التي تحمل عنوان Histoires des Relations Internationales الجزء المعنى به هو الجزء 7، ويحمل عنوان: Les Crises du XXe siècle 1914– 1957, Paris, 1929, p. 195.

(15558/1)

المصالح المتبادلة في حالة تغيير الوضع الراهن في منطقة البلقان، أو إذا ما حصل اعتداء عليهما أو على إحداهما من طرف قوة ثالثة، وكان هذا الحلف يحتوي على بند سري ينص على ضرورة استشارة روسيا.

وفي يوم 14 أبريل سنة 1912 تم الدخول في محادثات بين اليونان وبلغاريا حيث قدمت اليونان مشروع حلف لم يلبث الطرفان أن وقعا عليه في يوم 16 من شهر ماي من نفس السنة، وهو حلف يشرع العمل به في حالة اعتداء قادم من تركيا. وقد نصت المعاهدة على تعلُّق الدولتين بالسلام داخل منطقة البلقان، وعلى المساواة بين الأجناس والأديان،

(15559/1)

وعلى حقوق المسيحيين داخل تركيا، بل إن الدولتين قد حرصتا على عدم الاِعتداء أو التحريض عليه ضد الإِمبراطورية العثمانية(1).

ثم اندلعت الحرب البلقانية الثانية سنة 1913 بسبب الأطماع التوسعية لدى فردناند وكانت بداية هذه الحرب بين صربيا وبلغاريا في ليلة 24 يونيو من نفس السنة المذكورة عندما هاجم 600 رجل من الجيش البلغاري المراكز المتقدمة للجيش الصربي في منطقة Kratovo، وكان البلغار يرمون من وراء ذلك أخذ المساعدات

---

(1) دخلت هذه الدول جميعُها الحلف المذكور في حرب ضد تركيا لتدشن أول حرب في الحروب البلقانية.

(15560/1)

من النمسا(1). فعندما أخذ الوزير الأول الصربي (Pasic) Pachitch الموافقة من البرلمان في بلغراد لقبول تحكيم القيصر الروسي كانت قوات الجنرال البلغاري Ratko Dimitrief تهاجم على حين غرة القوات الصربية على مدى جبهة طويلة لتتبعها معارك طاحنة.

---

(1) كان العداء متأصلا ومتأججاً بين النمسا وصربيا باعتبار بلغراد كانت مهد القومية السلافية الجنوبية وكانت بلغراد تحمي وترعى الجمعيات السرية التي كانت تهدف إلى انتزاع الممتلكات النمساوية في شبه جزيرة البلقان وكذلك الممتلكات العثمانية ليتم بناء صرح الدولة اليوغسلافية.

(15561/1)

وكان هذا الإِعتداء يرمي إلى تحقيق هدف وطني في رأي المسؤولين البلغار، أي إلحاق مقدونيا ببلغاريا. وعندما بدأت أعراض الإِنهزام تتضح لدى الملك فردناند حيث أخذ يحس بضغط(1) النازلة انتهى الأمر به ليتوجه إلى ملك

---

(1) كانت هناك قوة سكانية تتمتع بالأغلبية، عقب الحرب الكونية الثانية، قسمت مقدونيا إلى ثلاث مناطق يونانية بلغارية يوغسلافية. والمنطقة التي كانت تابعة ليوغسلافيا كانت تكون الجمهورية السادسة عقب تأسيس الحكم الفدرالي اليوغسلافي في عهد تيتو، وهي الآن جمهورية مستقلة بعد ذهاب يوغسلافيا الفدرالية.

(15562/1)

رومانيا للتوسط كما أرسل وفداً إلى الرئيس الفرنسي Poincaré لنفس الغاية. وكان ذلك في اليوم الثاني من شهر

غشت سنة 1913، وبالفعل تم تحقيق السلام في مؤتمر بخارست في يوم 10 غشت سنة 1913 فتم ا لتوقيع على الاِتفاق بين رومانيا واليونان وصربيا والجبل الأسود من جهة وبين بلغاريا من جهة أخرى(1)

---

(1) كانت بلغاريا المنصرمة ترى في قيام الحرب الكونية الأولى فرصة لاسترجاع طرف من التراب المقدوني الذي كان خاضعاً لصربيا ويتمتع البلغاريون فيه بالأغلبية السكنية (انظر مؤلف: Pierre Renauvin, Les Crises du XXe siècle, 1914–1929, 185p.).

(15563/1)

.

لقد أشرت في البداية وبصدد موضوع الخلاف الحاصل في منطقة البلقان أنه يرجع إلى المرامي التوسعية والبحث على منافذ بحرية، وهذا الصراع الذي اشتد شأنه

واستفحل داؤه هو الذي جر الدول الأوربية إلى المصيدة البلقانية(1)

---

(1) كان الكل ينتظر الشرارة الأولى لتندلع الحرب الكونية الأولى ولتهتز أسلاك الأحلاف الثلاثة: 1) الحلف الروسي الفرنسي 1890 والحلف البريطاني الفرنسي 1904 والمعروف بالإِتفاق الودي الذي عقد على حساب المغرب وكانت له أبعاد أوربية ثم حلف دولتي الوسط بين ألمانيا والمملكة الثنائية النمسا والمجر التي تم سنة 1908 بعد ضم البوسنة والهرسك إلى الأملاك النمساوية.

(15564/1)

.

إذن نرى مما تقدم ومن خلال هذه النظرة التاريخية التي لا تخلو من إسهاب متعمد، لكنها لا تفتقر إلى الفائدة العلمية التي يمكن من وضع الطائفة الإسلامية في الإِطار التاريخي المتسلسل عبر الفترات الخمس التي ورد ذكرها في الهامش رقم (6).

إن الفترة التي تبدأ بسنة 1885 بعد دمج الروملي الشرقية ببلغاريا إلى قيام الحرب العالمية الأولى، كانت

فترة سادها الإِضطراب السياسي ورافقتها المواجهات العسكرية وتضارب الأطماع بين دول البلقان، أو بينها وبين الإمبراطورية العثمانية. وهذا ما دفع تيار الهجرة الذي لعب الدور

(15565/1)

الأول في تغيير الخريطة السكنية المسلمة، بعد تزايد هجرة المسلمين، والإِستمرار في مغادرة أرض الإِضطراب للبحث عن منطقة الإِستقرار. وبذلك سيكون من العسير أن يقوم الباحث بعملية الضبط والدقة عندما يسعى إلى الإتيان بإحصاء تام للسكان المسلمين ولمنشآتهم ومؤسساتهم ورصد حركتهم ومناطق استقرارهم.
وبذلك، فإن هذه المجموعات السكانية المسلمة سواء كانت عرقية أو دينية والتي يتم إحصاؤها وتقديمها للقارئ تكون دراستها لا تخرج عن نطاق التقديرات وتكون النسبة فيها واردة.

(15566/1)

واختصارا للقول، فإن تيار الهجرة استمر في التدفق، وكان لذلك تأثير على الطائفة المسلمة. كان عدد المسلمين حسب إحصاء سنة 1910 حوالي 601,999 نسمة، وهو رقم يكون 13,88 ٪ من مجموع سكان بلغاريا، يحتل الأتراك مع التتر المقام الأول بـ 484,144 نسمة، اليوماك 21,146 نسمة، ومئات الآلاف من النَّور أو الجيتان، كانت أغلبية المسلمين تستقر في الريف بنسبة 84,8 ٪ وهي تضم الترك والتتر واليوماك أما الجيتان المستقرون في الأرياف، فكانت نسبتهم 76,60 ٪.

(15567/1)

كانت الوضعية المادية رديئة سواء كان الأمر يتعلق بالفلاحين والمزارعين المستقرين في الأرياف أو يتعلق بسكان المدن. وبالرغم من أن حكومة بلغاريا قد تعهدت بناءً على معاهدة القسطنطينية الموقعة سنة 1913–1914 على حماية المسلمين القاطنين في بلادها، فإن ذلك لم يمنع تعرض اليوماك بصفتهم بلغاراً لمحاولات التمسيح إما عن طريق السلطة المحلية أو بواسطة البعثات الكاثوليكية والأورتدكسية بالرغم من تعهد حكومة بلغاريا(1)

---

(1) استمرت ثورة المسلمين في منطقة Rhodopes التي اندلعت سنة 1878 إلى سنة 1903، لم يكن المسلمون خاضعين للخدمة العسكرية بل تم إعفاء الأتراك من المشاركة في الحروب البلقانية، وكان المسلمون يدفعون ضريبة خاصة مقابل إعفائهم من التجنيد. وقد ورد تفصيل ذلك في القوانين التي صدرت في الجريدة الرسمية البلغارية في صوفيا يوم السابع من شهر شتنبر 1902 و24 يناير 1904.

(15568/1)

.

سوف نقدم نظرة(1) مختصرة ومركزة تتعلق بأوضاع المسلمين في بلغاريا والروملي الشرقية مع التحفظ الذي يلازمنا أثناء تقديم هذه الخلاصة الشمولية بسبب الهجرة التي اتخذت سبيل الكر والفر. ولقد ارتأيت أن تكون هذه الخلاصة شاملة لموضوع هذه الطائفة من حيث الإنتماء

---

(1) تعترف الحكومة البلغارية للطوائف المسلمة المقيمة في بلغاريا بحق انتخاب المفتين، وقد طالبت

الحكومة التركية بالمحافظة على ذلك الحق التقليدي المتمثل في تعيين هؤلاء المفتين من طرف شيخ الإسلام المقيم في تركيا، لم يحصل ذلك حتى على حق الموافقة.

(15569/1)

العرقيّ والديني أو ما تم رصده وإحصاؤه من منشآت ومؤسسات دينية كالمساجد ومراكز العبادة، وأعداد المفتين ومناطق استقرارهم ووظائفهم ورواتبهم وعلاقتهم بالحكومة المحلية أو بالباب العالي. ثم بعد ذلك نتعرض للتعليم ومؤسساته والمعلمين ومواردهم ورواتبهم وطبقاتهم، مع التركيز على إحصاء مراكز التعليم من مدارس إعدادية وابتدائية، والتلاميذ والتلميذات. لابد من الإشارة إلى أنني لم أحصل سواء في هذا البحث أو ما قدمته في البحوث السابقة على كلمة واحدة تتعلق بالتعليم الجامعي. وهذه الجملة من المعلومات الغزيرة سوف

(15570/1)

تسوقها وتقدمها الأرقام والإحصائيات الآتية(1).

_____

(1)

الجيتان

التتر

الأتراك

المدن

7513
2652
130944
Chaumla

10,971
132
37,064
Bourgas

9000
11329
107840
Varna

5685
20
4444
Vidin

9081
100
2039
Vratza

1615
؟
599
Kustendil

11146
31
24886
Philoppopoli

7277
510
12,261
Plévna

8403
3919
153730
Raustchauk

5838
10
874

Sofia

7823
2
31379
Eskizaghra

7513
173
25180
Tirnovo

Revue du Monde Musulman
سنوات 1905–1906–1907

(15571/1)

يوجد في إمارة بلغاريا والروملي الشرقية 652,047 (**سنة** 1908) **نسمة موزعون حسب جنسياتهم:**

– الأتراك 531,240 **نسمة.**

– اليوماك 20,647 **نسمة، ولعل هذا النقص يرجع إلى عملية التمسيح.**

– التتر 18,884 **بسبب النزوح.**

– الألبان المسلمون 1600 **نسمة.**

– العرب المسلمون 67 مسلمون.

– الفرس 60 نسمة.

وعندما نحاول ضبط منطقة استقرار هؤلاء، فإنني أحيل الباحث على ما ورد في الهامش رقم (18) الذي يلقي الضوء على مناطق استيطان هؤلاء المسلمين. ومن خلال الجدول الوارد في الهامش المذكور أعلاه، يتبين أن الأتراك في المدن السالفة الذكر

(15572/1)

(هامش 18) يصل عددهم إلى 531,240 نسمة. أما التتر، فكان عددهم قد بلغ 18,549 نسمة.

كل المسلمين سنِّيُّون باستثناء الفرس الذين هم شيعيون. وقد لوحظ في هذه الفترة، وبناءً على ما رأيته من خلال مقارنة بعض المصادر، أن الزيادة المتعلقة بالسكان المسلمين قد توقفت بل كانت هناك إمكانية التناقص. ويرجع ذلك إلى هجرة العائلات المسلمة(1) إلى تركيا نتيجة للتسهيلات التي قدمتها

---

(1) للهجرة دور كبير في تزايد أو تناقص السكان المسلمين. ولقد أشرت إلى ذلك أعلاه. ولهذا السبب كانت الأرقام الواردة أعلاه تتعرض للتغيير باستمرار.

(15573/1)

لها الحكومة التركية عن طريق ملكية الأراضي والديار. أما ما ورد من معلومات في شأن المفتين ووظائفهم ومسؤولياتهم ورواتبهم وكذلك طريقة انتخابهم وعلاقتهم مع السلطة المحلِّية أو مع الباب العالي، فإننا نشير باختصار إلى نذلك حيث نلاحظ أن عدد المفتين البالغ عددهم اثني عشر مفتياً كانوا موزعين على 12 منطقة رئيسية في بلغاريا ومنطقة الروملي الشرقية(1)

---

(1) نصت معاهدة سان ستيفانو بعد اندحار الجيش التركي أمام الروس على تكوين بلغاريا العظمى بضم الروملي الشرقية وتكون تحت الهيمنة الروسية. لكن مؤتمر برلين حذف هذا البند فأصاب بضربة قاسية تدفق النفوذ الروسي الذي توقف، الأمر الذي أدى إلى التقارب الفرنسي الروسي، ثم إدماج الروملي الشرقية في بلغاريا سنة 1885.

(15574/1)

إذ كانوا يقيمون في المدن الرئيسية مدينة Vidin وVratza، وPlevna وTirnova وChaumla وVarna وRaustchauk وSofia في بلغاريا. أما في الروملي الشرقية، فكانت إقامة المفتين في المدن الآتية Philippopoli وEst-Zaghra وBourgas.

وبجانب المفتين الرئيسيين يوجد 25 مُفتٍ أقل رتبة من حيث المسؤولية الإدارية. وكان موضع استقرارهم في المدن الغاصة بالسكان المسلمين وكذلك في المناطق والمقاطعات التي كانت تتمتع بحكم ذاتي. كانت طريقة انتخاب هؤلاء المفتين تتم من طرف الطوائف الإسلامية وعن طريق ممثليهم المختصين بالرغم من

(15575/1)

اختلاف العرق والجنس، وكانت تسميتهم أو ترشيحهم يتمان من طرف الحكومة البلغارية أولا ثم تقع التزكية من قبل شيخ الإسلام المقيم في إستانبول،

وهو الذي كان مسجد السلطان سليم الذي هُدم بفعل النار التي أتت عليه إثناء انتفاضة البلغاري

ضد اليونان. في منطقة Karnobal مسجدان، مسجد Kara Djam'i يوجد في حالة سيئة ومسجد Ak Djam'i في حالة

خراب، وفي منطقة Aitos **يوجد مسجد السلطان سليم ومسجد آخر** Tchalli Machalli **في حالة خراب. في منطقة** 14Yambaly **مسجداً وأبرزها الجامع الكبير. وفي منطقة** 5Pravodi **مساجد منها مسجد واحد**

(15576/1)

صار مخزنا للحبوب وهو المسجد المسمى تشومان. وفي منطقة Slivno **يوجد** 400 **بيت مسلم تحتوي على مسجد، بالإضافة إلى تسعة مساجد تم هدمها وتخريبها في عهد المفتي حسني أفندي.**

من خلال ما تقدم، نلاحظ أن عدد المساجد التي تم إحصاؤها سواء في بلغاريا أو في الروملي الشرقية يصل إلى 157 **مسجداً.**

بقي أن نختم هذه الفترة بإلقاء نظرة على التعليم ومؤسساته. كان التعليم في المدارس الإسلامية نسخة تامة لما كان عليه الحال في تركيا، كانت توجد 15 **مدرسة إعدادية** Rauchdié **في بلغاريا و**6 **مدارس في الروملي الشرقية، وكل مدرسة تحتوي**

(15577/1)

على(1) ثلاثة أو أربعة أقسام.

تدار هذه المدارس من طرف مجالس خاصة تنتخب بواسطة ممثلي الطائفة الإسلامية المختصين، وتقع مصاريف الصيانة على عاتق مداخيل مؤسسة الوقف وكذلك على المعونات المقدمة من طرف

---

(1) راجع مقال M.A. Feugère الوارد في Revue du Monde Musulman, T. 6, p. 271، حيث يشير إلى أن البلغار تمكنوا من إنشاء مؤسساتهم التعليمية عن طريق بحان خاصة كان لها دورها الكبير في إيقاظ الروح الوطنية، ويعترف صاحب المقال بأنه بالرغم من هذه الجهود في نطاق التعليم، فإن مراكز التعليم الإسلامي كانت تتمتع بالأغلبية.

(15578/1)

إمارة بلغاريا. ويلاحظ من جهة أخرى أن الحكومة العثمانية كانت تقوم بصرف مرتبات بعض المعلمين الذين كانت تسميهم بنفسها، كانت لغة التعليم اللغة التركية ثم الفرنسية ثم اللغة البلغارية.

كانت توجد مدارس بثلاثة أقسام مخصصة للبنات في مدن Philippopoli وRaustchauk كما يوجد في كل

مدينة يقطنها المسلمون ما بين مدرسة واحدة وأربع مدارس ابتدائية (Mektébi Ibtidaïje) لكن منطقة الريف كانت تنعدم فيها المدارس المشابهة لما تقدم إلى القليل القليل، وأغلبها كان خاضعا للنظام القديم بخلاف المدارس التي كانت توجد في المناطق

(15579/1)

الحضرية وهي تخضع للنظام التعليمي الجديد (Ousaul-jdjédid).

خلاصة القول كانت بلغاريا ومنطقة الروملي الشرقية تضم 1293 مدرسة ابتدائية مسلمة يتلقى التعليم فيها 64,422 تلميذاً وتلميذة كانت مصاريف التسيير والصيانة تصل إلى 283,083 فرنك حصة الدولة البلغارية تنحصر في 23,829 فرنك وكان الباقي يدفع من طرف الطائفة المسلمة ومن مؤسسة الوقف.

نستمر في الحديث لنتمم بالدراسة وضعية الإسلام والمسلمين من خلال الفترات المتبقية لنبدأ بفترة 1919–1941 ولتكون الخاتمة لهذا البحث بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، على أن

(15580/1)

نـعود في بـحث لاحق وفي عدد آخر من المجلة لنـتعرض بـالدراسة لأحوال الإسلام وأوضاع المسلمين في ظل العهد الشيوعي.

لقد دخلت بـلغاريا إلى الحرب الكونـية الأولى بـجانـب دول المحور ألمانـيا والنـمسا. وكان السبـب في انـدلاع الحرب أزمة سراييفو عندما تم اغتيال فردنـانـد على يد غافريلو بـرانـسيب (Gavrilo Prinsip) سنـة 1914.

وكانـت بـلغاريا تـهدف من وراء دخولها مع دول المحور استرجاع ما فقدته من الأراضي التي كانـت قد استولت عليها خلال الحرب البـلقانـية الأولى سنـة 1912 وفقدتـها بـعد الحرب البـلقانـية الثانـية سنـة 1913(1)

---

(1) كانـت بـلغاريا المنـهزمة سنـة 1913 ترى في قيام الحرب الأولى سبـيلا لاسترجاع من صربـيا ما فقدته من التراب المقدونـي وفيه أغلبـية سكانـية بـلغارية.

(15581/1)

.

وهكذا دخل فردنـانـد الحرب فبـدأ بـالهجوم على صربـيا في شهر أكتوبـر سنـة 1915، لكن جيش سالونـيك الذي

كان قد عانى من ضربات الجيش البلغاري أثناء الحرب، تمكن في سنة 1918 من سحق الجيش البلغاري عندما كانت قوات المحور تلفظ أنفاسها الأخير بعد دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب بجانب الحلفاء(1).

---

(1) يطول الحديث عن أسباب دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية وتدخل هذه الأسباب ضمن المخطط البريطاني المتعلق بحرب الكماشة في الشرق العربي وحصار الغواصات الألمانية في المحيط الأطلسي.

(15582/1)

وقد تسببت الهزيمة التي لحقت بالجيش البلغاري في الإِستياء الشعبي الذي كاد أن ينقلب إلى ثورة عامة، الأمر الذي دفع بالملك فردناند إلى التخلي عن الحكم لابنه يتمتع بحق المصادقة لمنحهم قرار التسمية وهو »المنشور«. وقد يقع تجاوز هذه المصادقة من طرف شيخ الإسلام حيث يتم انتخاب هؤلاء المفتين مباشرة من طرف الطوائف الإسلامية مع مراعاة الترشيح والتسمية اللتين ظلتا في يد الحكومة البلغارية. إن تجاوز هذه المصادقة بين الحين والآخر من طرف شيخ الإسلام في إستانبول يرجع بالتأكيد إلى بداية أفول نجم الدولة العثمانية

(15583/1)

وإلى القطيعة التي تمت بين بلغاريا والباب العالي عقب القرار الذي اتخذه فردناند ملك البلغار سنة 1908، **حيث سمى نفسه قيصراً بعد هذه القطيعة.**

اختصاصات هؤلاء المفتين متعددة كإدارة المساجد وصيانتها، والإشراف على الأوقاف وعلى تسيير المدارس المسلمة. وكانت في يدهم سلطات النائب (القاضي الشرعي).

كانت موارد رزقهم تأتي عن طريق رواتب معينة وقارة وفي كل شهر تتراوح ما بين 300 **و**800 **فرنكٍ فرنسيٍّ. وهذه المرتبات خاصة بالمفتين الرئيسيين و**60 **فرنكا للمفتين الذين هم أقل درجة من السابقين.**

(15584/1)

كان مفتي صوفيا يتقاضى 300 **فرنك ومفتي** Philippopoli **في الروملي الشرقية** 125 **فرنك لكنه كان يعوض من طرف الحكومة التركية بما قيمته** 14 **جنيهاً أي بـ**322 **فرنك في كل شهر.**

هناك جانب من هذا البحث يجب أن يحظى بالإهتمام.

ويتعلق الأمر بالمؤسسات الإسلامية والمراكز التعليمية. تزخر البلاد بعدد لا حصر له من المساجد منها ما هو موجود ومنها ما خرب وهدم. وعلى سبيل المثال، كانت صوفيا عاصمة بلغاريا تحتوي على 27 مسجداً لا يزال قائماً منها مسجد واحد فقط إذ تحول ثلاثة منها إلى كنائس وصار مسجد واحد متحفاً، أما الباقي،

(15585/1)

فقد مسته يد الهدم والخراب.

في منطقة 26Chaumla مسجداً أبرزها المسجد الكبير Moradié ومسجد سيدي محمود ومسجد المصلى، إلخ. وفي منطقة Bourgas في الروملي الشرقية مسجدان اثنان، وفي 14Varna مسجداً، وفي 12Raustchauk مسجداً، وفي 12Vidin مسجداً أبرزها جامع مصطفى باشا، وفي منطقة Anchialos يوجد Boris. وكان ذلك في شهر أكتوبر من سنة 1918، وبناءً على معاهدة Neiully المعروفة سنة 1919 فقدت بلغاريا أغلب الأراضي التي احتلتها خلال الحرب بما في ذلك المنفذ البحري على بحر إيجة الذي كانت قد أخذته بناءً على معاهدة

(15586/1)

بخارست المذكورة سنة 1913، ولينحصر جيشها في عدد ضئيل لا يتجاوز 33,000 جندي مع منعها من امتلاك سلاح جوي.

في ضوء ما تقدم، نلاحظ أن الهزيمة العسكرية التي لحقت ببلغاريا والأزمة السياسية التي أعقبتها كان لهما أثر كبير على أوضاع المسلمين، حيث لعبت الهجرة كما كان من قبل دوراً أساسياً في زعزعة الإِستقرار الإسلامي.

كان عدد المسلمين ما بين 800,000 ومليون نسمة والقسم الأكبر من هذه الطائفة الإسلامية بمجموعاتها الأربع يعاني من الفقر والجهل وبصفة خاصة مجموعة اليوماك ومزارعين كانوا أو رعاة أو منتجي التبغ.

كانت

(15587/1)

هذه الطائفة المسلمة معرضة للإِستغلال والعمل الشاق وكانت تحت ثقل الضرائب والإِبتزاز والعذاب. وقد لعبت الإِقطاعية العسكرية والمدنية دوراً كبيراً في ذلك دون إغفال دور السلطة الحاكمة ، التي كانت ترغم

المسلمين على تغيير أسمائهم. وهكذا بدأ هؤلاء المساكين يبحثون بوسائل مختلفة لمغادرة الأرض والهجرة إلى تركيا عن طريق اليونان، ولم تكن حالة الترك والتتر والجيتان بأحسن حال من اليوماك(1)

---

(1) وقعت الهجرات المكثفة لهؤلاء المسلمين سنة 1927 وسنة 1933 وسنة 1935، لكنهم كانوا يرجعون إلى مكان الأصل باعتبار أن الأوضاع الإقتصادية في تركيا لم تكن بأحسن حال منها في بلغاريا، كانت فئة من هؤلاء تساند الحزب الشيوعي.

(15588/1)

.

فترة 1941–1945:

قبل أن يقوم هتلر بتنفيذ عملية بارباروسا بالهجوم على الاتحاد السوفياتي قام بادئ ذي بدءٍ باحتلال بلغاريا ليضمن حيادها حتى يقطع الطريق أمام تدفق الجيش الروسي عبر دول البلقان، بعد أن فرض عليها توقيع معاهدة فيينا وكان ذلك في أول مارس من سنة 1941. مقابل ذلك، سمح للجيش البلغاري باحتلال أجزاء ترابية هامة في مقدونيا، هذه الأجزاء التي

كانت تابعة لليونان وصربيا بل إنه سمح لبلغاريا بإدماج هذه المناطق وإلحاقها بتراب الدولة البلغارية.

(15589/1)

من خلال هذا الواقع الجديد الذي يشير مغزاه إلى ما قلناه في مقدمة هذا البحث أن تزايد السكان المسلمين في دولة بلغاريا والروملي الشرقية كان يقع تحت تأثير الحروب فيتقلص عدد السكان المسلمين بتقلص الأرض بعد هزيمة عسكرية ما أو يتزايد عدده باتساع الأرض عقب نجاح عملية عسكرية. وبناءً على ذلك، فإننا نلاحظ من خلال السنوات الأربع التي بدأت بالحرب الكونية الثانية وانتهت بهزيمة الألمان كانت الزيادة في السكينة المسلمة لا تحتاج إلى دليل.

(15590/1)

لم تتغير وضعية اليوماك في هذه الفترة، بل ظلت الحالة المعيشية كما كانت عليه، بؤس اقتصادي وعسر اجتماعي، وضع صحي سيئ، تمييز عنصري، ضغط ديني، لكن شروط الحياة للفئات المتبقية سواء كانوا أتراكا

أو تتراً أو جيتاناً لم تكن بأحسن من حالة اليوماك البلغاريين المسلمين.

المراجع

(1) Revue du Monde Musulman, T. 6, 1907.

(2) Revue du Monde Musulman, T. 5, 1908.

(3) Bernard Lory, La Romelie Orientale (1878–1885). Mémoire de maîtrise, Université de Paris IV, Septembre 1979.

(15591/1)

---

(4) Le sort de l'héritage ottoman en Bulgarie (l'exemple des villes bulgares 1878–1900), Thèse du 3e cycle, Paris, INALCO, 1982.

(5) A. Girard, Les Minorités nationales ethniques et religieuses en Bulgarie, Paris, 1932.

(6) Cf. Lamauche, La Bulgarie, Paris, Rieder, 1923.

(7) Smail Aga Tchemalovitch, Les musulmans en Bulgarie, dans l'Europe de l'Est et du Sud-

.1933, 6–5Est, Paris III, pp.

Le traité de Constantinople et la situation (8)

des écoles musulmans (Revue du monde

., p26musulman), T.

(15592/1)

.1914

Les problèmes religieux en Europe (9)

, la Documentation 1970–1945Orientale

française, Notes et Etudes Documentaires,

.1971Mai 17, 3791–3790°n

avril 1du 86, V/1128NIN, de Belgrade, n° (10)

.1974

Tchilault, Bulgarie (Grand Larousse (11)

.1960, 11encyclopédique), T.

B.N. Simir, Contributions à l'histoire des (12)

), 1880–1876populations turque en Bulgarie (

1966TKA

Raymond Poincaré, Les Balkans en feu, (13)

; l'Europe dans les armes, 1926, Paris, 1912

.1913Paris

(15593/1)

---

(14) Pierre Renauvin, J.R.J.T 7, Les Crises du XXe siècle, 1914–1929, Paris, 1957.

(15) Jacques Ancel, Manuel Historique de la Question d'Orient (1792–1926), Paris, 1927.

(15594/1)

ولو انـهم...جاؤوك –قصيدة شعر –

الأستاذ الدكتور عبد العزيز محي الدين خوجة

سفير المملكة العربية السعودية الشقيقة بالمملكة المغربية

لو أنـهم جاؤك

ما شدوا رحالهم إلى جهة الضياع

لو أنـهم...

ما تاه ربان لهم

أو ضل في يم شراع.

طير أبابيل على الكف المضمخ بالضحايا

في صلاة لم تصلك لأن فيها ما يعد من الخطايا

في خواء الروح حين تدكها خيل المنايا

أنقاض مجزرة على جثث السبايا

في صدى صوت المؤذن

ضاع في أحجار مقبرة مدمرة

... على قلبي شظايا

طير أبابيل على أفيال أبرهة تجوب مآذن الأقصى

لمن في الأرض تعرج روحي الثكلى؟

(15595/1)

ومن سيردها جذلى إلي؟

وإخوتي

ذئب يشق قميصي المذبوح

ثم يطوف أرض الله

... ... كي يبكي علي؟

لو أنهم جاؤوك

مانصب الحداد على الجباه

الله يا الله

لو أذنوا قليلا من مداه

الله ، يا الله

لوترفوا تمزق نفسي الأولى رؤاه

الله ، يا الله

ضمخت قلبي من شذاه وفي سناه

الله ، يا الله

لو تدنو إذن مني يداه

لتفجرت روحي من الصواة سهلا من مياه

الله، يا الله

كم داست على أيا منا فيل الغزاة الغاشمين،

وتناهشت دمنا حراب الروم ما جنة

على جسد رثينا في صدى رعشاته سيفا مكين

وترى المغول على مشارف أفقنا المحزون

(15596/1)

تشرب في جماجمنا مدى أنخابها؛

وتراهم من بين أيدينا، وفوق نعاسنا،

وعلى ثياب نسائنا

من كل صوب ينسلون...

لو أنهم جاءوك لانبلغ الصباح ... فبهم وما عابثت

بوجهتهم رياح

ما غفرت غربان شطر صهيلهم ... بالشؤم أو غضت

على دمهم رماح

ما ضج بين وجيبهم خوف تغمدهم ... ... وما ذلت على نفس جراح

إني أتيتك سيدي، وبخاطري ... ... أوطاننا، ودماؤنا... هدرا – تباح

ونساؤها ..ثكلى على أولادها ... ... وإناثها... يلهو بها سفاح

حزن تماوج في النفوس وقد سرى ... ... وأنينها ... طفل يمزقه النواح

فاشفع لنا يا سيدي، من ذنبنا

(15597/1)

إنا طرقنا الباب... يحدونا الفلاح

فعظيم شأنك عند ربك سانق ..

وعظيم رحمته يكللها سماح

ظلوا طريقهم، وما جاءوا،

وما فطنوا

ولو جاؤوك..

... لانبلج الصباح

الله، يا الله

هل جف الهواء

ولم يعد يتنفس الشهداء

... ... حتى باليراع

هل هانت النفس العلية مثلما سقط المتاع؟

قد ضاقت الدنيا علينا مثل خاتمة الوداع

أرواحنا انهدت على أقفاصنا

... ... تشرى هنا،

... ... وهنا تباع

يا سيدي

سقط القناع على المسارح

... عن وجوه لم تكن إلا قناع

يا سيدي

هل يحمنا فمنا

وقد خرت قلاع

... لم تكن

... ... أبدا،

... ... قلاع

(15598/1)

لو أنهم جاؤوك

... ... ما شدوا رحالهم

... ... إلى جهة الضياع ...

ها إنـنـي قد جئت منـكسرا

وروحي لاتـحد

... بـغير روحك يا حبـيبـي

قد جئت ...

أحمل في يـدي ضراعتي،

... وتـوسلي بـعظيم جاهك من ذنـوبـي

وعلى جبـيـنـي غربـتي

فمتى يظلل ديمك القدسي صحراء الغريـب؟

إنـي أحبـك

مثلما، من قبـل، ما أحببـت،

... او من بـعد،

... ... من خلق وطيب

وأحبـك ... امتثلت لحبـك جند روحي

... كامتثال العشب للغيث السكيب

يا سيدي !

أنـت البـحيرة، والسراب قوافلي...

وأنـا العليل، وأنـت –من أبـد – طبـيبـي

أنـت الذرى فوق الذرى..

يا سيدي!

(15599/1)

وأنا خطى مهدودة ... تاهت دروبي

أنت النهي فوق النهى والمنتهى

كم قد حباك الله علام الغيوب

فلأجلك الأكوان ترى، لاتزال،

... كغيمة من قطر مبسمك الرطيب

ولأجلك الأقمار تجري،

والكواكب

في مدى الفلك الرحيب

ولأجلك الأسماء قد علمت لآدم كلها

... ... في سرها المكتوب

فاقرأ علينا، باسم ربك نورها

... حتى تضيء بها دياجير القلوب

نامت،

وقلبك لم ينم عنها

لتدرأ ما يرف من الخطوب

قد جئت معترفا

فهب لي نفحة

أنجو بها، مولاي، في اليوم الرهيب...

ما جفت الصحف الكريمة في يدي، لكنها الدنيا

كغانية لعوب

مولاي!

(15600/1)

هب لي منـك منـأى عن غوايـتها،

... ومن وسواس رونـقها الطروب

أنـت القريب إذا ابـتعدت

... وما ابـتعدت

وأنـت منـي نـبضة القلب القريب

هذي الحشود أتـتك، مثلي، راعشات بـالدموع

خذها إليـك..

فإنـها في ذنـبـها تـخشى الرجوع

في ذكر مولدك العطور تـسابـقت مهج الجموع

خذها إليـك..

وشدها، يا سيـدي، من ربـقة اليأس الخنـوع

جاؤوك..

معتـصمين بـالحب المؤبـد في الضلوع

جاؤوك ...

إذ ظلموا، وما خابـوا إذا وقفوا بـبـابـك في خضوع

خذنـي إليـك

بـجاه نـورك،

... علها تـشفي الضلوع

خذنـي إليـك

ومدنـي بـسلام روحك،

... سيـدي،

... ... كي لا أضيع

قد جئت

(15601/1)

بـحرا من خطايا...

قطرة من روض طيبـك

... يا شفيـع

صلى عليك الله في ملكوته

صلت عليك، لأجلك، الأكوان

يا سيدي!

وأمد قلبي للسلام، فمد كفك

... ... تنـحني الأزمان

وغرقت في دمعي، وفائض ذلتي،

وتملكت من نـفسي الأشجان

يا سيدي !

عادت بـحيرة ساوة،

وعلى المآذن زهزهت صلبـان

إيوان كسرى شيدوا أركانـه،

وتماجنت في غيها الأوثان

دار الزمان، ولم تدر أيامنا

والجاهلية كأسها نـشوان

في فيض نـورك أحتمي من ظلمة الدنـيا،

وقد عميت بـها الألوان...

ها إنـنـي قد جئت

أحمل حيرتي،

وعلى عيونـي دمعها الهتان

هب للمتيم من لدنـك شفاعة

(15602/1)

حتى يجيبـك بـالرضا الرحمن

في ذكر مولدك الكريم

تـعطرت أيامنـا ... وتضوع الريحان

وتـلألأت صلواتنـا، وتـسامقت

حتى تـفيأ ظلها الثقلان

من ذا يضل

إذا أطل محمد بـهلاله

... ولسانـه قرآن

ياقلب اثبـت، واتئد

أنـوار أحمد لاتحد

هي في المدى كل المدى

أبـعادها ريحان مجد

فإذا طلبـت شفاعة

فاهنأ : بأنك لاترد

وإذا أتيت مقيدا

حاشاه أن تبقى بقيد

بحر السماحة : بابها

من ها هنا فانهل، وعد

هذا النبي ...

وهذه بركاته أبدا أبد

مذ كان آدم طينة

نور تجلى في الأمد

فلواء حمد في يديه

على الورى طيب وند

والكوثر الأزلي يجري

من أصابعه مدد...

(15603/1)

هذا الطريق إلى الهدى

هذا المقام لمن حمد

وتسامقت آلاؤه

فلك يدار بلا عمد

في كفه معتاح جنتنا

إذا ترجى تمد

تبقى شمائله على الثقلين

... فيضا لايعد

الملتجي يوم القيامة في الشدائد والكمد

وهو الملاذ إذا تعاظم وزرنا عند الصمد

وإذا تعثر خطونا فوق الصراط، أو ارتعد

يا رب صل على هدى الباري صلاة دون حد

مولاي

صل على الحبيب المصطفى

ما شاء نورك في السماء،

... وما اصطفى

حتى تطهر روحه أرواحنا

حمدا به تثري النفوس الواجفه

صل بما يليق بذاته

وبذاتك العظمى

... صلاة وارفه

حتى تشع قلوبنا بسلامه

وسلامك الأقصى

نجوما طائفه

(15604/1)

دامت لنا آلاؤه...

دمنا بـها ...

دمنا لها

ما شاء أمرك،

واكتفى ...

مولاي صل على النـبـي المصطفى.

(15605/1)

ياسين خليل والتراث العلمي العربـي

... ... الدكتور سالم يفوت

... كلية الآداب والعلوم الإنـسانـية

... ... جامعة محمد الخامس ـ الربـاط

مقدمة

... غرضنا في هذه الورقة، أن نـتـنـاول بـالدرس والتحليل موقف الأستاذ ياسين خليل من التراث العلمي العربـي انـطلاقاً من مؤلفه الوحيد، في هذا الصدد، "التراث العلمي العربـي"(1)، ومن مجموع مقالاته في الموضوع نـفسه والتي نـشرت قبل صدور الكتاب الآنـف الذكر، أي قبل سنـة 1978.

---

(1) ياسين خليل، التراث العلمي العربي، مطبعة جامعة بغداد، 1978، ج 1.

(15606/1)

... والجدير بالإشارة، بهذا الخصوص، أن المرحوم الدكتور ياسين خليل نشر مقالين، عالج فيهما الموضوع نفسه، من مداخل مختلفة، هما: »المعرفة الإنسانية«(1)، و»المفهوم الحضاري للتراث العربي« (2).

... مما يجدر ذكره، أيضاً، أن كتاب "التراث العلمي العربي" لا يشكل إلا الجزء الأول، تناول فيه بالدرس مصادر التراث العلمي العربي:

---

(1) ياسين خليل، »المعرفة الإنسانية«، مجلة آفاق عربية، العدد 3، تشرين الثاني، بغداد، 1975.

(2) ياسين خليل، »المفهوم الحضاري للتراث العربي«، مجلة آفاق عربية، العدد 8، بغداد، نيسان، 1976.

(15607/1)

كالمصدر البابلي، والمصري، واليوناني، واليوناني المتأخر، ثم المصدر الذاتي للأمة العربية، والدراسات الإنسانية، والعلم الرياضي.

... وتكمن الغاية التي يسعى إليها الدكتور ياسين خليل »في الكشف عن التراث العلمي العربي وعن الإنجازات والإبداعات التي حقق بها الأسلاف تقدماً كبيراً في المعرفة العلمية، وكشف الإضافات العلمية التي أسهموا فيها، فكانت الأساس المتين للتقدم« (1).

---

(1) خليل، التراث...، المصدر السابق، ص. 1.

(15608/1)

... إضافة إلى ذلك، تأخذ الخطة المسلوكة في الكتاب »بالنظرة الكلية للتراث العلمي العربي« القائمة على أساس ترابط المعرفة العلمية في وحدة واحدة من دون التركيز على سير وتراجم العلماء العرب، بل بالتركيز على الإنجازات وطرق البحث وأساليب الدراسة في المعارف المختلفة.

... وكأني بالدكتور ياسين خليل يقف على أعتاب الوعي بأهمية التأريخ الإبستمولوجي للعلوم، لكنه بدلاً من أن يطرق بابه، يحجم متراجعاً. وعذره في ذلك غياب

الدراسات المؤصلة لذلك التأريخ في مجال التراث العلمي العربي، وكذا التزامه فلسفياً بالآراء

(15609/1)

الوضعية المنطقية التي أعجب بها أيما إعجاب، وهي آراء تقلل من شأن التأريخ الإبستمولوجي للعلوم وللمعرفة العامية مفضلة تحليلها المنطقي.

... غير أن الدكتور ياسين خليل يسلك نوعاً من التأريخ يمكن نعته بالتأريخ الثقافي للعلم، وهو تأريخ لا يبتعد كلية عن هموم التأريخ الإبستمولوجي، بالرغم من أنه يعتمد قاموساً مغايراً.

... وهذا ما سوف يلزمنا، بداية، بإبراز مقدمات المرحوم ياسين خليل النظرية قبل الانتقال إلى نظرية للتراث العلمي العربي.

أولاً: مقدمات البحث في التراث العلمي العربي

(15610/1)

... نستطيع التماس هذه المقدمات في المقالين المشار إليهما آنفاً، وفي مقدمة كتاب "التراث العلمي العربي". إنها ليست مقدمات بالمعنى القوي للعبارة، بل هي أقرب ما تكون إلى التأملات العامة في الإنسان والحضارة والمعرفة، يتم التأكيد فيها على كون انتقال التجربة الإنسانية من الفردية إلى الحضارية صاحبها انتقال في موقف الفرد، إذ لم تعد الطبيعة هي القوة المؤثرة المقابلة لإرادة الإنسان، أخذت تضعف في تأثيرها عليه بفعل ما أنجزه من وسائل لاتقاء أخطارها، وبرزت قوة جديدة تتمثل في المجتمع بكل ما فيه من قوانين

(15611/1)

وسلطات ومؤسسات، لتمارس ما كانت الطبيعة تمارسه من سطوة وفرض(1).

... وعليه، فإن التجربة الحضارية أضحت، في اعتقاده، تبلور مفاهيم وقيماً ومبادئ جديدة، ولم تقتصر هذه التجربة على ما تحقق من سلوك جماعي يربط أفراد المجموعة الواحدة، بل تعدى ذلك إلى تغييرات كبيرة في الجانب المادي لحياة الإنسان؛ فإذا التجربة الحضارية يسودها قطبان: قطب مادي يتمثل في التغييرات التكنلوجية والاقتصادية الإنتاجية، وقطب معنوي

يتمثل في فكر جماعي يربط مجموع الأفراد بسلوك واتجاه

---

(1) ياسين خليل، »المعرفة...«، المصدر السابق، ص. 147.

(15612/1)

للمحافظة على القيم والمفاهيم السائدة(1).

... ويرى أن التجربة الإنسانية في مراحلها المختلفة تبين بوضوح اتجاه الإنسان وحركته في تعرُّف ما حوله وما يتحكم في مصيره وحياته. فللبعد الإلهي قوانين إلهية تكشف عنها الأديان، وللعقل قوانينه الخاصة تكشف عنها العلوم النظرية والعقلية البحتة، وللطبيعة قوانينها الخاصة تكشف عنها العلوم الطبيعية، وللمجتمع قوانينه الخاصة تكشف عنها العلوم الاجتماعية، وأن جميع محاولات الإنسان باتجاه افتراض سيطرة قوانين أحد الأبعاد على كل ما عداه ليست إلا

---

(1) المصدر نفسه، ص. 148.

(15613/1)

انطلاقات إنسانية محدودة بحدود التجربة الإنسانية وتطورها، ويبقى الإنسان في كل المحاولات محور التبدل والتغيير في الفهم والحركة واستجلاء الحقائق(1).

... يحدد المرحوم ياسين خليل بعض المفاهيم والمبادئ الملتبسة ذات الصلة الوثيقة بالبحث في التراث عامة والتراث العلمي بوجه الخصوص. وهو يميز، في هذا الصدد، بين ثلاثة مفاهيم أو مصطلحات متداخلة هي: الثقافة، والحضارة، والمدنية، منبهاً إلى أن البعض يجعلون من مصطلح الثقافة مرادفاً لمصطلح الحضارة، والتمييز بين الثقافة والمدنية فقط(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 149.

(2) ياسين خليل،» المفهوم الحضاري للتراث الغربي«، المصدر نفسه، ص. 84.

(15614/1)

.

... وهو يرى أن الثقافة »هي الحصيلة الفكرية من أدب وعلم وفن وفلسفة وغير ذلك تعبر عن إنجاز الإنسان في مراحل تطورية، يتداولها أو يتعلمها الأفراد بشتّى

الوسائل المختلفة للاتصال، فتزداد بالتجارب الجديدة وتنحسر في فترات التدهور والانحطاط«(1).

... أما الحضارة، فيعتبرها ذلك:

... العطاء الكلي لإنجاز المجتمع المتمثل في الجانب المعنوي الذي يمثل القيم والأهداف والعادات والتقاليد إضافة إلى الحصيلة الفكرية من أدب وعلم وفن وفلسفة ودين وغير ذلك، وفي الجانب المادي الذي يمثل الأدوات

---

(1) المصدر نفسه، ص. 84.

(15615/1)

ووسائل العمل والأبنية والهياكل والمحافل والجسور والقنوات... ومن سمات الحضارة الاتصال بحضارات أخرى. ومقياس تقدم حضارة هو قدرتها على الإنجاز والابتكار والأصالة.

... ويعتقد المرحوم ياسين خليل أن الحضارة العربية تنتمي إلى صنف الحضارات المستمرة التي لم تنقطع، أصابها الجمود في بعض مراحل التاريخ، ثم استعادت نشاطها من جديد في الأخذ والعطاء(1).

... يرى أن المدنية:

... هي البناء العام لإنجاز المجتمع بعد اجتيازه سلسلة من التطورات الاجتماعية والاقتصادية والصناعية والسياسية، حيث

---

(1) ... المعطيات نفسها.

(15616/1)

تتميز بتطور صناعي وتكنلوجي وعلاقات إنتاجية جديدة قائمة على أساس طبقي، وذات نظام سياسي يقوم على المركزية والسلطة وتوزيع العمل والمسؤولية والتخصص (1).

... ويستنتج من تلك التعريفات أن الثقافة تمثل الجانب الفكري، العلمي والإنساني، وأن درجة اختلافها وتنوعها مرتبطة بالتطور الحضاري وتقدم الحضارة، وأن الحضارة لا تقتصر على الجوانب الفكرية فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى جميع الأوجه التي تعبر عن حيوية الإنسان في تحويل معتقداته وأفكاره ومواقفه من الكون والإنسان والمجتمع إلى ممارسات

(1) المصدر نفسه، صص. 84 ـ 85.

(15617/1)

عملية، يشترك فيها أفراد المجتمع فتخلق عندهم مواقف موحدة وشعوراً مشتركاً وتجاذباً روحياً.

... بناء على ما تقدم، يرى ياسين خليل ضرورة التمييز بين الثقافة العربية والحضارة العربية. فالثانية ـ في اعتقاده ـ أعم وأشمل، بينما تقتصر الأولى على الجانب الفكري، والعلمي، والإنساني. وهو يرد على بعض المستشرقين الذين شككوا في »عروبة« الثقافة العربية بالقول بأن »عربية« الثقافة أو الحضارة »ليست بالعرق (...) بل باللسان والفكر« (1)؛ وبأن الثقافة والحضارة العربية تمثل الإنجازات المختلفة التي

(1) المصدر نفسه، ص. 85.

(15618/1)

حققها الإنسان العربي قبل الإسلام وبعده، ولكنها تعززت بالفكر الإسلامي فأصابها الثراء... خصوصاً وأن اتساع الرقعة الجغرافية للعالم الإسلامي أدى إلى احتضان شعوب غير عربية اللسان(1). وقد أضحت العربية لغة العصر في الآداب والعلوم والفنون، فكانت أكثر اللغات المعروفة آنذاك قدرة على التعبير عن الثقافة بشكل عام.

... لقد ساهمت عدة ثقافات وحضارات في تكوين الحضارة اليونانية، كما ساهمت عدة شعوب في إمدادها بالمعرفة والبناء. وبالرغم من ذلك، تعارف الجميع على تسمية هذه الحضارة الهجينة

---

(1) المصدر نفسه، ص. 86.

(15619/1)

بالحضارة اليونانية.

... التراث كلمة تطلق في العادة على الإرث الحضاري لأمة من الأمم، للدلالة على ما خلفته الأجيال السابقة في الميادين المختلفة الفكرية والثقافية والدينية والعلمية والعمرانية... و»التراث العربي« يطلق على جميع المخلفات التي طبعتها الأمة العربية بطابعها من

حيث اللسان والفكر وما أنجزه هذا الفكر في الميادين المادية، فخلف شواهد وآثاراً حضارية قائمة حتى اليوم(1).

... يعتقد المرحوم ياسين خليل أن للتراث العربي خصائص مميزة هي بمثابة أبعاد رئيسة مرتبطة به:

---

(1) المصدر نفسه.

(15620/1)

... 1 ـ بعده الزمني التاريخي: فالثقافة العربية ليست وليدة فترة زمنية بعينها، بل هي ثقافة ذات زمن مستمر لم ينقطع بالرغم من وجود فواصل وتقطعات فيه.

... 2 ـ بعده الحضاري: فالثقافة العربية والحضارة العربية تمثلان «حيوية الأمة العربية في الابتكار والأصالة، في العطاء والتفاعل«...(1).

... 3 ـ البعد العقلي: يتميز التراث العربي الثقافي والحضاري بالعقلانية في الموقف والفهم استجابة للشروط التي أملتها العقيدة في ضرورة اكتشاف القوانين الكونية والطبيعية.

---

(1) المصدر نـفسه، ص. 87.

(15621/1)

... 4 ـ البـعد الحيوي: يـتميز التراث العربـي بـالحيوية والديمومة والقدرة على التفاعل والعطاء.

... 5 ـ البـعد القومي: لقد انـقطع التراث العربـي والتطور الثقافي والعلمي للأمة «بـعد فترة الانـحطاط وسيادة قوميات أجنـبية عليها»(1).

ما المقصود بـالتراث العلمي العربـي؟

... يـعين المرحوم ياسين خليل التراث العلمي العربـي، بـالمعنى الدقيق، بـالاختصاصات التالية: العلوم الرياضية والطبـيعية، والعلوم المعدنـية الجيولوجية، والعلوم النـباتية والحيوانـية، والعلوم الهنـدسية والمعمارية، والعلوم الطبـية

---

(1) المعطيات نـفسها.

(15622/1)

والصيدلية(1).

... كما ينفي أن يكون التراث العلمي الذي أنجزه العلماء العرب تراثاً علمياً إسلامياً، لأن للإسلام، بما هو دين، علوماً كالفقه والشريعة والحديث... وهي ذات صلة مباشرة بالعقيدة، خلافاً للعلوم آنفة الذكر. وهو أيضاً لا يرى ضرورة تسميته تراثاً علمياً عربياً إسلامياً، لأن الإسلام دين العرب ودين غيرهم من الأقوام غير العربية.

»وإضافة الصفة "إسلامي" توحي أن للتراث العلمي العربي صلة وثيقة بالعقيدة«(2). يضاف

---

(1) ياسين خليل، التراث العلمي العربي، مصدر سابق، ص. 13 ـ 14.

(2) المصدر نفسه، ص. 15.

(15623/1)

إلى هذا أنها علوم دونت بالعربية إبان قيام الحضارة العربية بعد الإسلام.

... ويناقش بهذا الصدد المستشرقين الذين كثيراً ما يسلكون، في تناولهم للتراث العلمي العربي بالدرس، السبيل التجزيئي القاضي بالبحث لكل ابتكار أو إبداع عن أصوله في العلم اليوناني دون انتباه إلى أن هذا

الأخير نفسه جماع وحصيلة حضارات سابقة ساهمت في تكوين الحضارة اليونانية، مثلما ساهمت في تكوين التراث العلمي العربي.

...

ثانياً: مصادر التراث العلمي العربي

(15624/1)

... يتصدى ياسين خليل لهدم التأريخ المركزي الأوروبي النزعة، والذي هو تاريخ مركز على الغرب وعلى ما يعتبره »معجزة يونانية«، رادّاً الاعتبار إلى المعارف والاكتشافات العلمية السابقة على الحضارة اليونانية وإلى حضورها في التراث العلمي العربي.

... وأول مصدر يتناوله بالدرس هو المصدر البابلي والمصري.

... بخصوص هذا المصدر، يثير الانتباه إلى ندرة الألواح البابلية وقلتها لكونها طينية، لم تقاوم الزمن، خلافاً لأوراق البردي المصرية التي لا تنال منها الرطوبة. ثم يشرع في سرد الحقائق والاكتشافات العلمية التي كان

(15625/1)

البابليون سباقين إليها. فقد اعتمدوا النظام الحسابي الستيني بدل النظام العشري، لمرونة الأول في حساب الكسور وقدرته على تجنب استعمال كثير منها كما كانوا على معرفة جيدة بالهندسة والجبر تدل على درجة عالية من التجريد الرياضي. كما أدركوا العلاقة بين الجبر والهندسة، وقاموا بتحويل هذه الأخيرة إلى جبر عن طريق استخدام الطرق الجبرية في الهندسة، فسبقوا بذلك ديكارت الذي جاء بعد ثلاثة آلاف سنة ليعيد الحياة لهذه الطريقة في العصر الحديث(1). كما بات من المؤكد أن النظرية الهندسية

---

(1) المصدر نفسه، صص. 24 ـ 25.

(15626/1)

المنسوبة إلى فيتاغورس (في المثلث القائم الزاوية، مربع الوتر يساوي مجموع مربعي الضلعين الآخرين) نظرية بابلية لوجود لوح طيني بابلي يتضمن البرهنة عليها.

... ويعترف ياسين خليل بأن العلم المصري لم يبلغ شأو العلم البابلي في شتى الميادين. فالجبر المصري لم يكن متطوراً في مستوى الجبر البابلي، ولكنه يعبر، مع ذلك،

عن تطور في التفكير الرياضي المصري القديم تجلى في اهتمامه بحل المعادلات ذات المجاهيل. أما بخصوص الهندسة، فقد أشار ياسين خليل إلى توصل المصريين إلى معرفة مساحة المثلث والمستطيل وشبه المنحرف وعلاقة

(15627/1)

محيط الدائرة بقطرها، هذا فضلاً عن معارفهم الفلكية التي، وإن كانت لا ترقى إلى مستوى المعارف البابلية، فإنها كانت على درجة عالية من العمق والفهم والتجريد.

... أما المصدر الثاني، فهو المصدر اليوناني.

... انتقل العلم البابلي والمصري إلى اليونان عبر قنوات كثيرة مباشرة وغير مباشرة، وبخاصة عن طريق الاتصال التجاري، وزيارات الفلاسفة والعلماء اليونانيين لمصر وبابل أمثال طاليس وفيثاغورس وديمقريطس وأفلاطون وأودكسوس(1).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 31.

(15628/1)

... أسهب ياسين خليل في عرض أعمال وأفكار أبرز الفلاسفة اليونانيين في شتى المجالات العلمية، أمثال أفلاطون وأرسطو... وأبقراط وجالينوس.

... والمصدر الثالث مرتبط بالمصدر الثاني، إنه المصدر الهلنستي. والمقصود به الثقافة، وقد انتشرت في الشرق بعد حملة الإسكندر الأكبر وانتقال المؤلفات اليونانية إلى لغات أخرى، وهجرة عدد كبير من علماء اليونان إلى الإسكندرية أو غيرها، فتحولت الإسكندرية إلى منارة علمية جديدة تضاهي أثينا في سالف عصرها. وحدث التلاقح بين علوم اليونان وعلوم بابل ومصر والروح الشرقية(1)

(1) المصدر نفسه، ص. 41.

(15629/1)

.

... إن الشيء العلمي الذي يجب ذكره هو أن علوم المدرسة الإسكندرية تمت بصورة طبيعية، بحيث أوجدت من خلال تأثيرات حضارية وثقافية مختلفة طريقاً خاصاً بها

متأثراً، ولاشك، بالثقافة اليونانية إضافة إلى الثقافة الشرقيّة. فمن المعروف أن اللغة اليونانية، وهي لغة العلم آنذاك، قد طبعت المعرفة العلمية بطابعها، وأن العلوم المصرية قد انتقلت، ولاشك، إلى مدرسة الإسكندرية فأصبحت جزء لا يتجزأ من الحركة العلمية والثقافية الجديدة... (1).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 42.

(15630/1)

... فلا يمكن فهم العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية في الإسكندرية بمعزل عن تأثيرات علوم بابل ومصر. وبهذا الخصوص، يعتقد ياسين خليل أن معلومات أقليدس الهندسية مصرية ويونانية بلاشك، وما كان عليه إلا أن ينظمها بطريقة الاستدلال المنطقي(1). كما يصرح ياسين خليل بأن جبر أقليدس كان متخلفاً عن جبر البابليين سواء في ثراء هذا الأخير أو في طرقه في حل المسائل الجبرية.

... والشخصية العلمية الأخرى التي عرفها العلماء العرب هو أرخميدس الذي درس بالإسكندرية، وغطت أبحاثه مجالات عديدة، في

---

(1) المصدر نـفسه، ص. 43.

(15631/1)

الهندسة والجبر والفلك والميكانيكا. ويذكره القفطي في كتابه "إخبار العلماء بأخبار الحكماء"، منوهاً بمؤلفاته، كما يشيد به ابن النديم في "الفهرست".

... عرفوا أيضاً شخصية أبولونيوس الذي ترعرع في الإسكندرية ودرس فيها؛ وقد تمت ترجمة كتابه "المخروطات"، حسب ابن النديم، إلى العربية، أكثر من مرة واحدة.

... أما كتاب "المجسطي" لبطليموس، فقد كان عمدة العلماء العرب في علم الفلك فقد تناولوه بالشرح والنقد والتلخيص.

(15632/1)

... ويعتقد ياسين خليل أن الجبر الذي بلوره ديوفانطوس الإسكندري، يختلف جوهرياً عن التفكير الرياضي اليوناني. وأغلب الظن أنه امتداد طبيعي للجبر البابلي: فهو يحتوي على طريقة في الحل تعتمد على

طرق جبرية حسابية أساسها استخدام المعلوم لتعرُّف أو لاكتشاف المجهول، وهي الطريقة الرياضية المتبعة عند البابليين كما تدل على ذلك الألواح الطينية المكتشفة(1).

... بعد ذلك، ينتقل ياسين خليل إلى الكلام عن »المصدر الذاتي للأمة العربية«، ويعني به »مجموعة الأوجه الحيوية« كالمعارف والعلوم التي

---

(1) المصدر نفسه، ص. 48.

(15633/1)

عرفها عرب الجزيرة العربية في شمالها وجنوبها، ثم ما جاءت به الدعوة الإسلامية من معارف متصلة بالإنسان والمجتمع وما نتج عنها من دراسات في اللغة والفقه والشريعة... والغنى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الناتج عن تلاقح مختلف الثقافات المكونة للحضارة الإسلامية والأجواء التي وفرتها هذه الحضارة ودعم الخلفاء والأمراء للعلماء وانفتاح الأمة العربية على الإنجازات العلمية لأمم أخرى(1).

---

(1) المصدر نفسه، صص. 50 ـ 51.

(15634/1)

... كانت معارف العرب، في جملتها، عملية لارتباطها بحياتهم اليومية. وعندما احتكت بتراث الحضارات الأخرى، نزعت نحو الدقة، فالتحم العملي بالنظري في الحساب والجبر والفلك والعلوم الطبيعية. ثم ازداد الاهتمام بالمعرفة والعلم من أجل الحقيقة وإدراك ما تنطوي عليه العلوم من حقائق. كما ازداد اهتمام العلماء بالظواهر التجريبية، وأخذت النزعة التجريبية المختبرية تظهر بوضوح في العلم ابتغاء الكشف عن حقيقة الظواهر.

... ... ثم أعقب ذلك جمود وانهيار.

(15635/1)

... لقد تميزت الأمة، في اعتقاد ياسين خليل، بانفتاح على العلوم الأجنبية. وهذا ما يفسر سرعة الانكباب على ترجمتها والإفادة منها وتطويرها بإضافات وابتكارات. وهنا يبرز الدور الكبير الذي لعبته بعض المراكز الثقافية بأعالي الشام، في الرها ونصيبين وحران...، والتي ترجمت فيها المؤلفات اليونانية إلى السريانية.

لقد كانت هذه المراكز بمثابة جسور عبرت فوقها العلوم من حضارات مختلفة فامتزجت فيها رياضيات بابل وفلكها، وهندسة مصر وعلومها الطبية، وعلوم اليونان والهنود، لتصل إلى الحضارة العربية.

(15636/1)

... في سياق حديث ياسين خليل عمّا يطلق عليه »الدراسات الإنسانية« يتحدث عن »الاتجاهات العلمية«، ثم عن »الدراسات اللغوية« و»الدراسات الفلسفية«. تحت العنوان الأول يتناول بالدراسة نماذج من تصانيف العلوم عند العرب كتصنيف الفارابي، وتصنيف أبي عبد الله الخوارزمي صاحب "مفاتيح العلوم". وضمن العنوان الثاني، حرص على تأكيد أن دراسة اللغة بصفتها موضوع بحث مع التوسل بمنهج علمي هما الأساس الذي كان وراء نشوء علم اللغة. أما بخصوص الدراسات الفلسفية والمنطقية، فقد أبرز ياسين خليل مظاهر نبوغ العرب في مجال الدراسات

(15637/1)

العقلية، وكذا الدراسات التاريخية التي قدم نموذجاً لها "مقدمة" ابن خلدون ومؤلفات ابن النديم والقفطي وابن أبي أصيبعة المخصصة لتاريخ العلماء والحكماء.

...

ثالثاً: العلم الرياضي العربي

... يسعى ياسين خليل إلى إبراز مجموع الأساليب الرياضية التي اتبعها العلماء العرب في مؤلفاتهم الهندسية والحسابية والجبرية عند معالجتهم النظريات المختلفة. كما يسعى إلى تحليلها من حيث المفاهيم والقضايا والبرهان(1).

---

(1) المصدر نفسه، ص. 146.

(15638/1)

... ومما استرعى انتباهه ميل العلماء والفلاسفة العرب إلى تقسيم فروع العلم الرياضي إلى نظرية وعملية. ويخلص من ذلك إلى »أن العالم العربي قد أدرك بعمق الفرق بين النظري والعملي لفروع العلم الرياضي«(1).

... استرعى انتباهه أيضاً انبهار العلماء العرب بالأسلوب البرهاني الذي اعتمده أقليدس في كتاب "الأصول"، لما تمتاز به من يقين ودقة ومنطقية، وانتقادهم له. فعمر

الخيام في كتابه "مصادرات أقليدس"، يقدم عدة مؤاخذات على أقليدس. كما حاول ابن الهيثم أن يجمع الأصول الهندسية والعددية من

---

(1) المصدر نفسه، ص. 148.

(15639/1)

كتاب أقليدس وأعمال أبولونيوس. وهي محاولة تثبت، في رأي ياسين خليل، نزوعه إلى توحيد النظريات الهندسية في نظام واحد يبدأ من أصول واحدة، ليتم في ضوء الأصول البرهنة على جميع القضايا المعروفة في هندسة أقليدس وهندسة أبولونيوس في "المخروطات"(1).

... أشاد كذلك بمجهودات الخوارزمي في الجبر باعتباره «أول من أقام حساباً منطقياً في الجبر، وأن البناء المنطقي للنظرية الجبرية يمثل هذا الحساب، وقد تم له هذا البناء بخطوات متتابعة» (2).

... تتمثل تلك الخطوات في:

---

(1) المصدر نفسه، ص. 151.

(2) المصدر نفسه، ص. 154.

(15640/1)

... – اختيار مفاهيم أولية جبرية وحسابية على أساس أنها أوليات يتم بناء الأشكال الجبرية للمعادلات بواسطتها.

... – اختيار أشكال رئيسة للمعادلات مع تثبيت القواعد التي يتم العمل بموجبها.

... – رد جميع الأشكال الجبرية للمعادلات بواسطة قواعد جبرية، وذلك بإرجاعها إلى الأشكال الرئيسة.

... يتطرق، أيضاً، للأطوار التي مر بها علم الحساب في الحضارة العربية كالتالي:

... – طور استخدام الأسماء للدلالة على الأعداد مثل: واحد، عشرة...

(15641/1)

... – طور استخدام الحروف للدلالة على الأعداد، حيث رتبت الأبجدية العربية على هيئة متوالية عددية تبدأ بالألف والباء والجيم وهكذا...

... – طور استخدام الأرقام للدلالة على الأعداد، حيث تم

تطوير الأرقام الهندية من حيث الشكل(1).

... لقد فرض تطور الحياة الحضارية للمجتمع العربي وتعقدها على الفقهاء والمشتغلين في مؤسسات الدولة ضرورة استخدام الحساب ومعرفة العمليات الضرورية فيه. وقبل ذلك استعمل الناس في معاملاتهم أنظمة حسابية قديمة منحدرة من الحضارة البابلية كالنظام الستيني. وقد

---

(1) المصدر نفسه، ص. 30.

(15642/1)

أكد هذا الأمر أبو الوفاء البوزجاني في كتاب "ما يحتاج إليه الكتاب والعمال وغيرهم من علم الحساب".

... يبرز ياسين خليل الفروق الموجودة بين هذا الكتاب الأخير وكتاب العالم الرياضي العربي غياث الدين الكاشي "مفتاح الحساب".

... ومن مظاهر خصوصية علم الجبر العربي أنه نشأ من ضرورات دينية فقهية لها صلة بالإرث والمعاملات، وأنه لم يكن استمراراً لجبر ديوفنطس، فلم يترجم كتاب "المدخل إلى صناعة الجبر" لهذا الأخير إلى العربية إلا بعد ظهور "كتاب الجبر والمقابلة" للخوارزمي(1). لكن

---

(1) **المصدر نـفسه، صص.** 190 ـ 191.

(15643/1)

هذا لا يعني عدم تأثر غيره من الرياضيين العرب بجبر ديوفنطس أمثال الكرجي وعمر الخيام...

... غالباً ما يطلق ياسين خليل أحكاماً من هذا النوع، ومن هذا الوزن، لكنه قلما يشفعها بدلائل وحجج. وهذه سمة غالبة على كل صفحات الكتاب.

خاتمة

... يظل عمل الأستاذ ياسين خليل هذا ناقصاً. فهو لا يمثل سوى جزء أول لم يتمكن فيه من تغطية باقي الميادين العلمية التي اعتبرها اندرجت ضمن دائرة التراث العلمي العربي.

... غير أن ما تجدر الإشارة إليه، مع ذلك، هو أنه عمل ينطوي على رغبة قوية في تناول التراث العلمي العربي من منظور

(15644/1)

جديد ومغاير وقراءته قراءة مختلفة. ما محددات تلك القراءة؟ لا يمكنها أن تكون شيئاً آخر غير مكتسبات نظرية تاريخ العلوم المعاصرة. فالمفروض في كل تناول للتراث العلمي العربي يريد أن يكون جديداً، ألا يتنكر لما تقترحه النظريات الإبستمولوجية لتاريخ العلوم المعاصرة، حتى يتم تجاوز ركام القراءات التي قرئ بها التراث العلمي العربي. ... وعمل من هذا القبيل بدأ بالفعل إنجازه عدد من الباحثين العرب بمراكز البحث الأوربية في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية... أمثال رشدي راشد، وأحمد جبار، وخليل جاويش... إلا أن

(15645/1)

الأستاذ ياسين خليل بالرغم من أنه أنهى دراسته العليا بألمانيا وبالرغم من اطلاعه الجيد على نصوص النزعة الوضعية الجديدة (فقد كتب أطروحته للدكتوراه في جامعة مونستير بألمانيا حول كارناب)، نلاحظ أنه أراد أن ينجز قراءة للتراث العلمي العربي يمكن أن تنعت بأنها قومية إسقاطية، تسقط هموم الحاضر على الماضي، تطلق الأحكام ولا تقيم عليها الدلائل، تغرق التأريخ للعلم العربي في دوامة الكلام عن الثقافة العربية والحضارة العربية، ومميزات العقلية الغربية

والإنسان العربي، وكلها مفاهيم ميتافيزيقية لا شأن لها بتقنيات

(15646/1)

التأريخ للعلوم التي ينبغي التماسها في ما ينجز حالياً في مراكز البحث العلمي الغربية. فلا نكاد نعثر في الكتاب على رأي مصدر أو مرجع موثوق به في هذا المضمار، إذ اكتفى ياسين خليل بنصوص التراث العلمي العربي وظل حبيس جزئياتها وتفاصيلها دون أن يتمكن من السمو والارتقاء إلى مستوى التنظير التأريخي لها.

... إن مقدمات البحث في التراث العلمي العربي، لدى ياسين خليل، ليست مقدمات بالمعنى الحصري للكلمة، بل هي ـ كما سبق القول ـ أقرب ما تكون إلى التأمّلات العامة الفلسفية القومية في الحضارة، منها إلى المقدمات

(15647/1)

الإبستمولوجية المنهجية. إنها أقرب إلى آراء وتأملات فلاسفة الحضارة الألمان، أمثال أرنست كاسيرر، منها إلى آراء فلاسفة العلم المعاصرين.

(15648/1)

يحيى بن خلدون: حياته وكتابه

... ... الدكتور مزاحم علاوي الشاهري

... قسم التاريخ ـ كلية التربية ـ بغداد

حياته

... بالرغم من أن يحيى بن محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون المكنى بأبي زكريا قد تردد ذكره لدى عدد من المؤرخين المعاصرين له من أمثال ابن الخطيب(1) وابن الأحمر(2)

---

(1) لسان الدين بن محمد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط 1، مكتبة الخانجي، القاهرة 1981، ج 2، ص. 134.

(2) أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، مستودع العلاقة

ومستبدع العلامة، تحقيق محمد التركي ومحمد بن تاويت، المركز الجامعي للبحث العلمي، تطوان، 1964، ص. 65.

(15649/1)

وبعضهم ممن جاء بعده كالمقري(1) والتنسي(2)

---

(1) شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني المقري، أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق محمد بن السقا وآخرون، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، الرباط، 1978، ج 1، صص. 246 ـ 247؛ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1980، ج 6، صص. 389 ـ 396؛ ج 7، صص. 133 ـ 135.

(2) محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بن زيان، تحقيق محمود بوعياد، ط 1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، صص. 110 ـ 128. ومن الغريب أن أحمد بن القاضي قد تجاهل ذكره حتى في ترجمة أخيه، مع العلم أن مؤلفه يوجب الترجمة له. ينظر: جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، دار المنصور للبطباعة، الرباط،

1974، ج 2، ص. 410؛ وللمزيد عنه، ينظر: إسماعيل باشا البغدادي، هدية العارفين وأسماء المؤلفين والمصنفين، ط 3، طهران، 1967، ج 2، ص. 527.

(15650/1)

، فإننا لا نعلم إلا النزر اليسير عن حياته.

... فمن الراجح أنه ولد في تونس حيث استقر والده وجده من قبل، وعاش في ظل والده الذي أمضى حياته بعيداً عن السياسة منصرفاً لدراسة العلم وأعمال البر حتى وفاته سنة 750 هـ/ 1349 م (1).

---

(1) ألفرد بل، «ابن خلدون»، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد ثابت الفندي وآخرون، م ، ص. 152؛ أحمد الإسكندري، «ابن خلدون»، مجلة المجتمع العلمي العربي، حزيران، دمشق، 1929، م 7، صص. 421 ـ 433؛ م 8، صص. 461 ـ 471.

(15651/1)

... أما تاريخ ولادته، فإن الغموض الذي يحيط بحياته قد انسحب على سنة ولادته. غير أن الذين ذكروها، حصروها

بين سنتين (733 و734 هـ/ 1332 و1333 م) (1).

... إن حياة يحيى بن خلدون تكاد تكون مجهولة، إذ لم يصلنا من أخبارها إلا القليل. ولولا ما ذكره عن نفسه، وما ورد على لسان أخيه، لأصبح من العسير علينا تتبع مسار حياته التي استغرقت زهاء نصف قرن. على

---

(1) قارن بهذا الصدد دائرة المعارف، م 1، ص. 155؛ خير الدين الزركلي، الأعلام، بيروت، 1969، ج 9، ص. 211؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، 1957، ج 13، ص. 282.

(15652/1)

أية حال، فإن الأجواء الثقافية والعلمية التي سادت تونس إبان العهد الحفصي في النصف الأول من القرن الثامن الهجري ـ الرابع عشر الميلادي(1) قد صقلته وأثرت ذاكرته بالعلوم المختلفة. وإن من المؤكد أن يحيى بن خلدون قد تتلمذ على هؤلاء الشيوخ الذين استقروا في إبان ضمها للدولة المرينية في عهد السلطان أبي الحسن المريني سنة 748 هـ/ 1347 م(2)

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدإ والخبر،

مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1959، ج 7، ص. 418.

(2) دخل تونس تحت طاعة المرينيين في زمن السلطان علي بن عثمان المكنى بأبي الحسن (748 هـ/ 1347 م). للمزيد، ينظر: أحمد بن حسين بن قنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968، صص. 169 ـ 170؛ وأبو عبد الله محمد الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، ط 2، تونس، 1966، صص. 81 ـ 82.

(15653/1)

.

... إذ كان من عادة السلطان المذكور اصطحاب علماء دولته البارزين في حله وترحاله. وقد بين عبد الرحمن بن خلدون في »رحلته« أسماء العلماء الذين تتلمذ عليهم، وذكر منهم عبد الله بن يوسف بن رضوان (ت 783 هـ/ 1381 م) الذي اشتهر في العربية والأدب(1)، وأبا عبد الله محمد بن النجار (ت 750 هـ/ 1349 م) وهو من أهل تلمسان وكان إماماً في علم النجامة وأحكامها(2)

---

(1) عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته

غرباً وشرقاً، نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979، ص. 42؛ وسنرمز له بـ »الرحلة«.

(2) الرحلة، مصدر سابق، ص. 48.

(15654/1)

، والخطيب ابن مرزوق التلمساني (781 هـ/ 1379 م) (1)، ومحمد بن عبد الله بن عبد النور (تـ 749 هـ/ 1348 م) وكان مشتهراً في علوم الفقه، والفقيه محمد بن الصباغ (ماتـ غريقاً سنة 749 هـ/ 1348 م) (2) وقال عنه إنه »كان مبرزاً في المنقول والمعقول وعارفاً بالحديث ورجاله وإماماً في معرفة كتاب "الموطأ"

---

(1) المصدر نفسه، صص. 50 ـ 56. وقد ترجم له أبو عبد الله بن محمد بن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر، 1908، صص. 184 ـ 190.

(2) الرحلة، مصدر سابق، صص. 46 ـ 47.

(15655/1)

وإقرائه «(1)، ومحمد بن علي بن سليمان السطي (مات غريقاً سنة 749 هـ/ 1348 م)(2)

---

(1) المصدر نفسه، ص. 46؛ أحمد بن يحيى الونشريسي، وفيات الونشريسي من كتاب ألف سنة من الوفيات، تحقيق محمد حجي، الرباط، 1976، ص. 117؛ ابن القاضي، جذوة الاقتباس، مصدر سابق، ج 1، ص. 301؛ عبد الرحمن بن زيدان، أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، المطبعة المغربية الأهلية، المغرب، 1929، ج 3، صص. 581 ـ 582.

(2) الرحلة، مصدر سابق، صص. 32 ـ 33؛ محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر، 1981، ص. 261؛ المقري، نفح الطيب، مصدر سابق، ج 5، صص. 240 ـ 241.

(15656/1)

قيل إنه كان في الفقه لا يجارى حفظاً وفهماً، وأبناء الإمام أبا زيد عبد الرحمن وأبا موسى عيسى الذين وصفهم ابن خلدون بقوله: «هم سباق الحلبة في مجلس السلطان أبي الحسن اصطفاهم لصحبته من بين أهل

المغرب «(1)، ومحمد بن إبراهيم الآبلي (المتوفى 756 هـ/ 1356 م) شيخ العلوم العقلية(2)، وأحمد الزواوي إمام المقرئين بالمغرب(3).

---

(1) الرحلة، صص. 29 ـ 32؛ ابن مريم، البستان، صص. 123 ـ 126.

(2) الرحلة، ص. 21.

(3) المصدر نفسه، ص. 23.

(15657/1)

... وتجدر الإشارة إلى أن يحيى بن خلدون ذكر بعضهم بصفة »شيخنا«، ومنهم أبو عبد الله الآبلي الذي ذكره بقوله: »فيما ذكره شيخنا أبو عبد الله الآبلي رحمه الله«(1)؛ أما ترجمته التي وردت في "البغية"، فقد وصفته بأنه »فاق أهل زمانه في العلوم العقلية« (2)

---

(1) يحيى بن خلدون، بغية الرواة في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق ألفرد بل، مطبعة بيير مونطانا، الشرقية ، الجزائر، 1902، ج 1، ص. 9، وسنرمز له بـ"البغية" لاحقاً.

(2) المصدر نفسه، ص. 57. وللمزيد عن الآبلي، ينظر:

العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج 3، ص. 375؛ ابن إبراهيم، الأعلام، ج 3، صص. 273 ـ 276.

(15658/1)

، والفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني (تـ 771 هـ/ 1369 م) (1) القائل بحقه «شيخنا أحد رجال الكمال علماً وديناً لا يغرب عن علمه فن عقلي إلا وقد أحاط به» (2).

... ويبدو أن الدافع الذي أدى به إلى الاقتصار على إيراد ذكر بعض العلماء دون الآخرين، يرجع إلى أن منهجه يقتضي الإحاطة بالعلماء الذين

---

(1) لديه مؤلفات، منها: المفتاح في أصول الفقه؛ ابن مريم، البستان، ص. 166؛ مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ط 2، دار الكتاب العربي، بيروت، د. تـ، ص. 219.

(2) البغية، المصدر السابق، ص. 57.

(15659/1)

عاشوا بتلمسان. وأما من كان سواهم من بلاد أخرى، فمن غير المعقول أن يأتي على ذكرهم.

... على أية حال، فقد تلقى دراسته على عدد آخر من العلماء. ففي مجال اللغة والأدب، درس على يد الشيخ منصور بن علي بن عبد الله الزواوي الذي نعته بـ »الحذق بالفتيا مع الخط الحسن والنظام الرائق والكتابة النبيلة« (1)

---

(1) البغية، المصدر السابق، ص. 74. وقد اشتهر بعلم الأصول. ينظر: المقري، أزهار الرياض، المصدر السابق، ج 2، ص. 9 و 15. وقد ترجم له لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله بن عنان، دار المعارف، القاهرة، 1976، ج 3، صص. 324 ـ 330.

(15660/1)

، والفقيه محمد بن إبراهيم البلفيق الذي ترجم له في مولفه، مع إيراد قصيدة له مطلعها:

هل من مجيب دعوة المستنجد

أم من مجير للغريب المفرد(1)

... كما تظهر مكانته الأدبية الرفيعة من ثنايا الخطاب الذي وجهه ابن الخطيب إلى يحيى بن خلدون والذي يصف براعته بقوله: »... إن البيان يا آل خلدون سكن مثواكم

(1) رفع القصيدة إلى الأمير أبي حمو موسى سنة 767 هـ/ 1365 م وهو يستصرحه لنصرة بلاد الأندلس بعد الاعتداءات التي شنتها قشتالة على المسلمين في غرناطة. (للمزيد، انظر: البغية، المصدر السابق، ج 2، ص. 167 ـ 170).

(15661/1)

دار الخلود، وقدم زنداً غير صلود، واستأثر في محابركم السيالة وقضيب رماحكم الميادة والميالة...«(1).

يحيى بن خلدون في دائرة الصراعات السياسية

(1) محمد عبد الله عنان، لسان الدين بن الخطيب. حياته وتراثه الفكري، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1968، ص. 148. يقول ابن الخطيب: »ومن ذلك ما خاطبت به الفقيه أبا زكريا ابن خلدون لما ولي الكتابة عن السلطان أبي حمو موسى بن زيان، واقترن بذلك نصر وضع غبطته به

وقصدت بذلك تنفيذه». (ريحانة الكتاب، ج 2، صص. 140 ـ 142).

(15662/1)

... يظهر دور يحيى بن خلدون في الأحداث السياسية، منذ مجيء السلطان أبي سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني (760 ـ 762 هـ/ 1358 ـ 1360 م) (1). إذ عمل عند الأخير كاتباً في ديوان الإنشاء المريني بعد أن انتقل إلى فاس مع أميره حاكم بجاية الحفصي أثناء حكم السلطان أبي عنان المريني(2) الذي تمكن من ضم بجاية إلى

---

(1) للمزيد، ينظر: أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، المطبعة الملكية، الرباط، 1962، صص. 38 ـ 39.

(2) البغية، المصدر السابق، ج 2، ص. 76؛ ألفريد بل، ابن خلدون، ج 1، ص. 156.

(15663/1)

دولته سنة 753 هـ/ 1352 م بطريقة سلمية(1).

... وبموت السلطان أبي عنان، عادت بجاية إلى طاعة

الحفصيين، الأمر الذي دفع بحاكم المغرب الأوسط محمد بن أبي عنان إلى إطلاق يد الأمير أبي عبد الله الحفصي الحاكم السابق بن أبي بكر

---

(1) ابن خلدون، العبر، ج 6، ص. 366. أما الزركشي، فيقرر أن بجاية دخلت في طاعة أبي عنان سنة 755 هـ/ 1354 م. (تاريخ الدولتين، ص. 149). وللمزيد، ينظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، الدار البيضاء، 1954 ـ 1959، ج 3، ص. 184.

(15664/1)

الحفصي. ولم يتمكن أبو عبد الله من استردادها إلا في رمضان سنة 765 هـ/ 1363 م(1). إذ ترد إشارة في خضم تلك الأحداث إلى قيام يحيى بن خلدون بمهمة عاجلة إلى الأمير أبي حمو حاكم تلمسان(2).

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 8، ص. 418؛ البغية، المصدر السابق، ج 3، ص. 123.

(2) تمكن الأمير أبو حمو موسى الزياني من استعادة حكمه في تلمسان، ثم عقد صلحاً بعد ذلك مع المرينيين؛

فيما ظل على خلافه القديم مع الحفصيين، حكام تونس، (للمزيد، ينظر: البغية، المصدر السابق، ج 2، ص. 124).

(15665/1)

... وتشاء الأقدار أن تتغير الأحوال، وتنشب بين أفراد الأسرة الحفصية صراعات جديدة. إذ قام أبو العباس الحفصي صاحب قسنطينة سنة 767 هـ/ 1365 م بالسيطرة على بجاية وقتل صاحبها أبي عبد الله، وأخضع يحيى ابن خلدون تحت سيطرته بعد أن أغراه بالبقاء، فأكرمه أول الأمر هو وأخاه عبد الرحمن، ثم انقلب عليهما لوشاية وقعت على عبد الرحمن بن خلدون، ثم اعتقل يحيى وسجنه بمدينة بونة، فيما هرب أخوه(1).

---

(1) العبر، المصدر السابق، ج 7، صص. 418 ـ 419.

(15666/1)

... إلا أن اعتقاله لم يدم طويلاً. إذ تمكن من الهروب والتوجه إلى مدينة بسكرة، حيث استقر أخوه عبد الرحمن. وفي بسكرة وصل الأمير الزياني عمر بن محمد

الذي حضر بمهمة إقناع قبائل رياح بالخضوع للأمير أبي حمو(1). ولما كان يحيى معروفاً بمكانته

(1) أبو حمو موسى بن يوسف. بويع بتلمسان سنة 760 هـ/ 1358 م، وقتل سنة 791 هـ/ 1338 م وله 68 سنة. وقد ذكر له ترجمة طويلة ابن الأحمر الذي أبدى كعادته تحامله على حكام بني عبد الواد ووصفهم بنعوتات لا تتطابق وحقيقتهم. (ينظر: روضة النسرين، المصدر السابق، صص. 54 ـ 58).

(15667/1)

لديهم، فقد ألح عليه السفير عمر بالتوجه معه إلى شيوخهم لغرض إقناعهم. وفعلاً، وافق يحيى ونجح في مهمته مع شيوخ رياح وقصدوا تلمسان لتقديم البيعة سنة 769 هـ/ 1367 م. وهناك اصطفاه الأمير أبو حمو لمهمة الكتابة؛ إذ يقول: »...ثم اصطفاني لكتابة إنشاه... وأمرني باستقدام ولدي من بسكره محمولين بإحسانه محفوفين ببره وعنايته. فكان ذلك أول سعادة أوتيتها وأعظم عناية ربانية رأيتها« (1)

(1) البغية، المصدر السابق، ج 3، صص. 200 ـ 202؛ العبر،

ج 7، صص. 419 ـ 421. وقد تقدم الحديث عن الخطاب الذي أرسله بن الخطيب بمناسبة توليته المنصب (ينظر: ريحانة الكتاب، ج 2، صص. 140 ـ 142).

(15668/1)

.

... ثم حدث أن تدهورت العلاقات السياسية من جديد بين المرينيين والزيانيين. إذ قام السلطان المريني أبو فارس عبد العزيز(1) سنة 767 ـ 774 هـ/ 1365 ـ 1372 م بشن حملة على الأمير أبي حمو الزياني، فأخضع تلمسان ودخلها سنة 772 هـ/ 1370 م. بينما هرب باتجاه الصحراء. أما كاتبه يحيى بن خلدون، فقد قبل أن يفارق أميره، ملتحقاً بخدمة السلطان المريني أبي فارس وولده السعيد بالله(2)

---

(1) هو عبد العزيز بن أبي الحسن. كانت دولته ستة أعوام وأربعة أشهر. للمزيد، ينظر: ابن الأحمر، روضة النسرين، ص.33

(2) يكنى أبا زيان. بويع في ربيع الآخر سنة 774 هـ/ 1372 م وخلع سنة 776 هـ/ 1374 م، فكانت دولته سنة

وثمانية أشهر وبضعة أيام، (ينظر: ابن الأحمر، روضة النسرين، صص. 33 ـ 34).

(15669/1)

من بعده(1). وقد شعر بالخطإ الفادح الذي ارتكبه فيما بعد. وتبريراً لذلك الموقف، يقول: »ومن هنا فارقته ـ أي أبي حمو ـ لخيالات سوداوية اعتورتني ونزعات شيطانية تجاذبتني وسوء بخت تقاعس عن إدراك الفخر برحلي وشقاء مكتوب أهوى إلى درك الخسارة بي« (2). ...

---

(1) العبر، ج 7، ص. 443؛ إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1978، ج 2، صص. 62 ـ 64. وتجدر الإشارة إلى أن ابن الأحمر قد تجاهل يحيى بصفته كاتباً لها.

(2) البغية، ج 2، ص. 238.

(15670/1)

... إلا أن مقامه في خدمة السلاطين المرينيين لم يدم طويلاً؛ إذ عاد الأمير أبو حمو إلى تلمسان، فيما جاء على حكم المرينيين المستنصر بالله أبو العباس أحمد بن

أبي سالم (776 ـ 786 هـ/ 1374 ـ 1384 م)، فاستأذنه في العودة إلى تلمسان. ويبدو أن مغادرته لفاس كانت بعد مشاهدته لنكبة الوزير الغرناطي ابن الخطيب اللاجئ في فاس سنة 776 هـ/ 1374 م(1)

---

(1) استقر ابن الخطيب في فاس بعد أن غادر غرناطة مضطراً. وكان قد اشترط ابن الأحمر على أبي سالم أن يساعده في حكم المغرب لقاء تسليمه ابن الخطيب. ولما تولى ولده أحمد بن أبي سالم الحكم، اتخذ سليمان بن دوّاد وزيراً له وهو المعروف بكراهيته لابن الخطيب الذي سبق أن على تعيين سليمان المذكور شيخاً للغزاة بالأندلس، الأمر الذي أودى بحياته بعد سنة 776 هـ/ 1374 م. للمزيد، ينظر: لسان الدين بن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، مقدمة المحقق محمد كمال شبانة، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، مطبعة غرناطة، المحمدية، د. ت، ج 11، ص. 39.

(15671/1)

.

... ومهما يكن من أمر، فقد عاد يحيى إلى تلمسان في غرة شهر ربيع الأول سنة 776 هـ/ 1374 م وهو يدرك ذنبه،

ملتمساً العفو لنفسه. فاستجاب له الأمير أبو حمو وعفا عنه وأعاده إلى منصبه كما كان كاتباً لسره. إلا أن الأقدار سرعان ما أوقعته مرة أخرى في شرك الخلافات السياسية، لكن هذه المرة داخل تلمسان عاصمة الزيانيين. فقد اشتعلت بذور الخلافات والشقاق بين أبناء الأمير أبي حمو، وقامت منافسة شديدة بين ولديه أبي زيان(1)

---

(1) تولى حكم تلمسان سنة 796 هـ/ 1394 م حتى سنة 801 هـ/ 1399 م. للمزيد، ينظر: التنسي، نظم الديار والعقيان، صص. 210 ـ 228.

(15672/1)

حاكم وهران وأبي تاشفين الذي(1) طمع بحكم وهران لنفسه. غير أن والده ماطله بطلبه، فظن أبو تاشفين أن الأمر قد دبر من قبل كاتبه يحيى ابن خلدون، فدبر له مكيدة ذهب ضحيتها، إذ قام الأمير أبو تاشفين بالإيعاز إلى صاحب الشرطة الزياني موسى بن يخلف وأمره بقتل يحيى. وفعلاً، قام موسى بن يخلف وأعوانه بالتربص بيحيى: إذ بينما كان يحيى خارجاً من قصر الأمير أبي

---

(1) يلقب بأبي تاشفين الثاني. حكم دولة بني زيان في تلمسان سنة 791 هـ/ 1389 م حتى سنة 795 هـ/ 1383 م. للمزيد، ينظر: التنسي، المصدر السابق، صص. 184 - 203.

(15673/1)

حمو في ليلة من ليالي رمضان سنة 789 هـ/ 1378 م، هاجمه موسى وأعوانه وأردوه قتيلاً. وفي اليوم التالي، عرف الأمير أن مقتله قد دبر من ولده، فحاول إسدال الستار على جريمة قتله أو كما قال أخوه عبد الرحمن «أغفى وطوى عليها جوانحه» (1).

... وهكذا انتهت حياته نهاية مأساوية، وأسدل الستار على آخر فصل من حياة المؤرخ يحيى التي كانت - بالرغم من قصرها - مهمة، لما تركه من أثر تاريخي مهم وثق تلك الحقبة التاريخية المجهولة من حياة المغرب بوجه عام والجزائر بوجه خاص.

---

(1) العبر، المصدر السابق، ج 7، ص. 140.

(15674/1)

كتابه: "بغية الرواد فبي ذكر الملوك من بني عبد الواد"(1)

... إن كتاب "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد وما حازه أبو حمو من الشرف الشاهق الأطواد"، كتاب يقع في جزءين(2)

---

(1) إن أول مخطوطة عثر عليها في الجزائر كانت سنة 1839 م اكتشفها المستشرق برجيس.

Yahia Ibn Khaldoun, Histoire des Bani Abd el Wad, éd. Manuscrits Arabes, Traduite en Fransçais et annotée par Alfred Bel, Alger, Ed. .10, p. 1903Pierre Fontana,

(2) طبع أول مرة بمطبعة مونطانا في جزءين: الأول سنة 1903 ومعه ترجمة فرنسية بقلم ألفرد بل؛ والثاني سنة 1910. وللكتاب طبعة جديدة ظهر منها الجزء الأول بتحقيق وتقديم الدكتور عبد الحميد حاجيات، حيث صدر عن المكتبة الوطنية بالجزائر سنة 1980 في حجم متوسط يشتمل على 326 ص تقديماً ونصاً وفهارس مع تقديم بالفرنسية غير مترجم (ينظر: محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1983، ج 1، صص. 101 ـ 102). وتجدر الإشارة إلى أن الكتاب نسب أول الأمر إلى عبد الرحمن، ثم صحح ذلك المستشرق دوسلان. ينظر:

المغربي، »بغية الرواد«، مجلة المجمع العلمي العربي، دمشق، 1929، م 9، ص. 313.

(15675/1)

لم يخصصه المؤلف لتاريخ الملوك من بني زيان فحسب، بل جاء حافلاً وثرياً، عالج جوانب كثيرة من تاريخ الدولة الزيانية. إذ أفصحت مقدمته عن دوافع تأليفه للأمير أبي حمو. يقول: »تخليداً ما لدولته الكريمة من فعال وبأس ونوال، وأحاديث صحاح للفخر... وما جمعته سيرته الكريمة من حرب وسلم... وتدوين ما اشتملت عليه أيامه من أخلاق وجدة وإيمان وردة وفرج من بعد شدة ليكون لذلك أسوة في الفخر اللباب وذكرى لأولي الألباب«(1).

---

(1) البغية، المصدر السابق، ج 1، ص. 5 ـ 6.

(15676/1)

... أما أقسام الكتاب، فقد أشار المؤلف إلى أنه رتبه على ثلاثة أقسام، وهي كما يأتي:

... القسم الأول: »في تعريف بكنه قبيل عبد الواد وأوليته«، وفيه ثلاثة أبواب:

... – الباب الأول: في ذكر محل اعتماره من الأرض ويشتمل على ثلاثة فصول. الأول في اسم المكان ووصفه، والثاني في تعديد من أنجبه واستقر به من الصالحين والعلماء وغيرهم، والثالث في تملكه من لدن الفتح الإسلامي.

... – أما الباب الثاني، فقد جاء في »التعريف بجنس القبيل وفضله«، ويشتمل على فصلين: الأول في ذكر البربر، ومنتهى زناتة فيهم، والثاني في ذكر شعب

(15677/1)

بني عبد الواد وبطونهم.

... – وجاء الباب الثالث في »ذكر أوليتهم وترحيل أيامهم، ويشتمل على ثلاثة فصول: الأول في ابتداء أمرهم، والثاني في انتهاء الملك إليهم، والثالث في من ولي غير مستمد منهم«.

... أما القسم الثاني، فقد خصصه في ذكر الملك الأول من بني عبد الواد. وفيه ثلاثة أبواب: الباب الأول في ذكر دولة يغمراسن بن زيان(1)

---

(1) يغمراسن بن زيان هو مؤسس الدولة الزيانية، وحكم المغرب الأوسط بعد الموحدين. إذ انفصل عنهم واتخذ تلمسان عاصمة له للمدة من 333 إلى 381 هـ/ 1236 إلى

1282 م. للمزيد عنه، ينظر: ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج 7، صص. 201 ـ 203؛ حركات، المغرب عبر التاريخ، المصدر السابق، ج 2، ص. 26؛ شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية، تونس، 1985، ج 2، صص. 202 ـ 204؛ مزاحم علاوي محمد ، »يغمراسن بن زيان ودوره في قيام الدولة الزيانية «، مجلة التربية والتعليم، كلية التربية، الموصل، 1988، العدد السادس، صص. 246 ـ 247.

(15678/1)

ودولة بني عثمان من بعده، والباب الثاني في إحياء الدولة بعد وفاتها، والباب الثالث في دولة أولاد عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن.

... وجاء القسم الثالث وقد خصصه لما »حازه أمير المؤمنين مولانا أبو حمو من الشرف الشاهق الأطواد«. وفيه ثلاثة أبواب: الباب الأول في ذكر سجاياه الكريمة وسيرته الحميدة، والباب الثاني »في ذكر ما حوته دولته الكريمة من حلّ وترحال وإبرام« (1).

---

(1) البغية، المصدر السابق، ج 1، صص. 5 ـ 6.

(15679/1)

... وإذا ما انتقلنا إلى موارد الكتاب، فنجد أن يحيى بن خلدون اعتمد الكثير من الأشكال. فعلى صعيد الكتب التاريخية، فالغالب عليه أنه يكتفي مرة بذكر الكتاب دون المؤلف، ومستخدماً عبارات مقتضبة كقوله: »قال صاحب الأحكام في حديث المغرب الأقصى«، و»صاحب الجغرافية« (1)، بينما نجده في مواضع أخرى يذكر المؤلف دون أن يسمي كتابه، فيشير إلى المسعودي والطبري والسهلي والصولي وابن قتيبة(2). وفي حالة ثالثة، يعتمد بعض الألقاب لمؤلفين دون التصريح باسمهم

---

(1) المصدر نفسه، صص. 8، 21.

(2) ... المصدر نفسه، صص. 90 ـ 91.

(15680/1)

أو مؤلفاتهم، وخاصة وأن بعضها شائعة مثل »قال الأنباري المكناسي فيه« (1)...

... كما اعتمد على روايات شفاهية معاصرة أو سابقة له،

كقوله: »حدثني الثقات «(2) أو »روى أبو الحسن عن أبيه «(3) و»قيل إنه « (4) أو »وأخبرني الشيخ أبو الحسن الميروقي من أعيان المدينة في شأن البلاد «(5).

---

(1) ... المصدر نفسه، ص. 26.

(2) ... المصدر نفسه، ص. 247.

(3) ... المصدر نفسه، ص. 26.

(4) ... المصدر نفسه، ص. 33.

(5) ... المصدر نفسه، ص. 20.

(15681/1)

... يضاف إلى ذلك أن مؤلَّف يحيى بن خلدون جاء حافلاً بالنصوص الشعرية لعدد من شعراء العرب عبر مختلف العصور منها أبيات المعري والسموأل ابن عاديا(1)، وقصائد لشعراء عاصروه من أمثال لسان الدين بن الخطيب(2) ومحمد بن أبي جمعة التلالسي وغيرهم(3)

---

(1) ... المصدر نفسه، ج 2، ص. 192، صص. 261 ـ 263.

(2) منها على سبيل المثال: إرسال ابن الخطيب قصيدتين إلى أبي حمو بعد أن اشتدت مخافته من بني مرين. (البغية، المصدر السابق، ج 1، صص. 287 ـ 293؛ ج

2، **صص**. 300 ـ 307).

(3) ... **المصدر السابق**، ج 2، **صص**. 65 ـ 75، 44 ـ 49.

(15682/1)

.

... وعلاوة على ذلك، فإن تعامل يحيى بن خلدون مع الروايات التي يوظفها في مؤلفه تعتمد المقارنة مع نظيراتها. فهو في الموضع الذي يتحدث فيه عن نزوح البربر إلى المغرب، يحدد ما جاء على لسان الطبري فيقول: »وقال الطبري«، ثم يقول: »قال غيره« (1) دون أن يلتزم إحداها أو يسلم بها.

... أما أسلوب يحيى بن خلدون، فلابد أن نعرف أن الثقافة التي تيسرت له قد أعطته المكانة التي يستحقها. فهو كاتب اشتغل لدى سائر الأمراء الذين عاصروه، وثانياً فإن نثره وشعره يشهد بمكانته الأدبية. فهذا

---

(1) **المصدر السابق**، ج 1، **ص**. 92.

(15683/1)

ابن الأحمر يقول في حقه: »وله معرفة بالتاريخ القديم منه والحديث، واقتدار على سبك الكلام الرائق، وحوك النظام الفائق...«(1). وعلى هذا الأساس بان علوه في صياغة عبارته. فهو يستخدم مرة أسلوباً منمقاً مسجوعاً وخاصة في ديباجة كل قسم أو فصل أو باب، وهو منهج اعتمده كتاب تلك العصور، وغرضه في ذلك إظهار مهارته في الصياغات اللفظية، وإن كان ذلك لا يخلو من زخرفة لفظية أو حشو زائد. ففي وصفه ليغمراسن بن زيان، يقول: »فارع الثنية وعاطف الحنية المستأثر دون الملوك بالخلال

---

(1) مستودع العلاقة ومستبدع العلامة، ص. 65.

(15684/1)

السنية عظم والريع والريعان متيم حفلي الطعام والطعان، خليفة الله المرتضى وسيفه المنتضى ووعد أمينه الصادق المقتضى، منير الأحلاك وناظم الأسلاك وملك الشرفاء وشريف الأملاك« (1).

... ثم ينتقل بعد تلك المقدمات، مستخدماً أسلوباً يتسم بالبساطة وحسن اختيار الألفاظ والعناية بصياغتها. فهو يقول: »وسئل منه القوم ـ أي يغمراسن

بـن زيـان ـ بـالشرف وإثـبـات نـسبـه إلـيـه، فـقـال: إن كـان المراد شرف الدنـيـا، فـهـو مـا نـحـن فـيـه؛ وإن كـان الـقـصـد شرف الأخرى، فـهـو عـنـد الـلـه سـبـحـانـه «(2)

---

(1) البـغـيـة، المصدر السابـق، ج 1، ص. 109.

(2) المصدر نـفـسـه، ص. 111.

(15685/1)

.

... ويـجـيء كـتـابـه شاهداً على قدرتـه الأدبـيـة إن كـان فـي تـنـوع الـبـحـور الـتـي يـسـتـخـدمـهـا كـاسـتـخـدامـه الـطـويـل فـي قـصـيـدة لـيـلـة الـمـولـد سـنـة 771 هـ/ 1369 م(1) أو بـحـر المتـدارك في ليلة أخرى من ليالي المولد(2). كـمـا أظـهـر بـراعـتـه فـي مـحـاكـاة الـشـعـراء فـي قـصـائـدهـم. فـهـو يـحـاكـي قـصـيـدة لابـن الـخـطـيـب، قـد نـظـمـهـا فـي احـتـفـالات الـمـولـد لـسـنـة 778 هـ/ 1376 م(3)

---

(1) المصدر نـفـسـه، ج 2، صص. 230 ـ 234؛ ويـنـظـر أيـضـاً: ابـن الـخـطـيـب، ريـحـانـة الـكـتـاب، ج 2، ص. 224.

(2) ... المصدر نـفـسـه، ص. 41.

(3) ... ومطلع الـقـصـيـدة:

... ... ما على الصب في الهوى من جناح أن يرى خلف عبرة وافتضاح

... للمزيد، ينظر: المقري، أزهار الرياض، ج 1، صص. 239 ـ 242. وتجدر الإشارة إلى أن تلك القصيدة لم ترد في "البغية".

(15686/1)

. وأخيراً، فإن شعره الذي كتبه على لسان الجارية في وصف المنجانه ـ الساعة ـ بتكليف من الأمير أبي حمو في ليلة المولد(1) تكفي لإظهار ما امتلكه من موهبة أدبية.

... أما قيمة أثره التاريخي، فتأتي من خلال تركيزه على بني عبد الواد في تلمسان منذ قيامهم حتى سنة 777 هـ/ 1375 م، أي قبل وفاته بثلاث سنوات. وقد جمع فيه من المعلومات والمنجزات والحقائق التي تؤشر حياة

---

(1) وقد ذكر المقامات الشعرية في كل ساعة. للمزيد، ينظر: البغية، المصدر السابق، ج 2، صص. 218 ـ 222؛ أزهار الرياض، المصدر السابق، ج 1، صص. 246 ـ 247.

(15687/1)

تلك الدولة على المستوى الداخلي والخارجي.

... ففي ميدان الحياة العلمية والثقافية لتلمسان، ترجم للعلماء الذين عاشوا في تلمسان أو ولدوا بها. فبلغ عدد تراجم العلماء 108(1) ترجمة، مبيناً ذلك بقوله: «هذا ما أمكن الإلمام به من أسماء القوم سوى من أنجبته من الطلبة العراف والأمناء الثقات والصناع الحذاق في كل صنف» (2).

... ولم يكتف بذكر العلماء فحسب، بل إنه كان يتتبع نبوغ العلماء من الأسرة الواحدة، الأمر الذي أعطانا انطباعاً عن

(1) البغية، المصدر السابق، ج 1، صص. 23 ـ 75.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص. 75.

(15688/1)

البيوتات العلمية في تلمسان. فعلى سبيل المثال لا الحصر، ذكر لنا ترجمة الشيخ محمد بن أبي بكر بن مرزوق (تـ 681 هـ/ 1282 م) (1)، ثم أتبعه بولده أبي العباس أحمد (تـ 741 هـ/ 1341 م) (2)، ثم ولده من بعده الفقيه محمد المكنى بأبي عبد الله المولود سنة 711 هـ/

1311 م، والذي أشار في

---

(1) ولد ومات في تلمسان (629 ـ 681 هـ/ 1231 ـ 1282 م). فقيه ومحدث وصوفي. للمزيد، ينظر: ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص. 71.

(2) توفي في مكة. وقد تولى مهمة سفير في الدولة المرينية. للمزيد، ينظر: التلمساني، المسند، صص. 18، 19، 322.

(15689/1)

ترجمته إلى اشتغاله في البلاط المريني(1). وهكذا يتكرر الأمر في أسر أخرى غير التي ذكرنا(2)، بل يعمد أحياناً إلى ذكر الشيخ وتلميذه من

---

(1) يلقب بشمس الدين ويعرف بابن الخطيب. مات في القاهرة سنة 781 هـ/ 1376 م. (المسند الصحيح). للمزيد عنه، ينظر: الرحلة، المصدر السابق، صص. 50 ـ 56؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص. 184؛ محمد بن شقرون، من مظاهر وحدة الثقافة بين دول المغرب العربي؛ الخطيب ابن مرزوق، مجلة المناهل، عدد 2، الرباط، 1975، صص.

.140 ـ 128

(2) البغية، المصدر السابق، ج 1، صص. 48 ـ 50، 51 ـ 54.

(15690/1)

بعده(1).

... ومن المظاهر الثقافية والدينية التي أغناها وأبرز معالمها، احتفالات تلمسان في عهدهم بالمولد النبوي الشريف في كل سنة(2). والتقاليد المتبعة فيه، والقصائد المولدية التي ألقيت في احتفالات عدد من السنوات على عهد الأمير أبي حمو، ذاكراً أسماء شعرائها، مع نماذج من قصائد الأمير أبي حمو موسى الثاني(3)

---

(1) المصدر نفسه، ج 1، صص. 58 ـ 90.

(2) وعن احتفالاتهم، ينظر: المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج 4، ص. 19؛ أزهار الرياض، المصدر السابق، ج 1، ص. 242.

(3) ينظر على سبيل المثال لا الحصر: البغية، المصدر السابق، ج 2، ص. 30، 36، صص. 41 ـ 49، 65 ـ 75.

(15691/1)

.

... وإذا انتقلنا إلى ميدان آخر متمثلاً بنظام الدولة، فإننا سنجد يحيى بن خلدون قد أحاط بمعلومات وافية عن الوظائف الإدارية في دولتهم وأسماء أصحابها عبر عهود الأمراء الزيانيين منذ عهد مؤسسها يغمراسن بن زيان حتى عهد الأمير أبي حمو(1).

... أما في ميدان النشاط السياسي والعسكري للدولة، فلقد تضمن كتابه أوجهاً متنوعة لطبيعة الحياة السياسية والعسكرية الزيانية الداخلية والخارجية. فهو يستعرض في كل عهد أمير علاقاته الحربية والخارجية مع

---

(1) البغية، المصدر السابق، ج 1، ص. 111، 118، 127، 150؛ ج 2، ص. 38.

(15692/1)

أمراء الدول المجاورة(1)، كما أوضح طبيعة عهد أمير علاقاته الحربية والخارجية مع أمراء الدول المجاورة(2)، كما أوضح طبيعة علاقات الدول الزيانية مع القبائل المغربية المستوطنة في صحارى الجزائر وآثارها

---

(1) المصدر نفسه، ج 2، صص. 236 ـ 238، 276. وعن أخبارهم مع الدولة المرينية، ينظر: علي بن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور، الرباط، 1973، ص. 312.

(2) ركز في الباب الثالث على ذلك بشكل تفصيلي من سنة 760 هـ/ 1358 م حتى 776 هـ/ 1374 م. للمزيد، ينظر: البغية، المصدر السابق، ج 2، صص. 17 ـ 299.

(15693/1)

على صعيد الحياة السياسية، كما حوى عدداً من الوثائق التي أرسلها أمراء غرناطة من إنشاء وزيرهم لسان الدين بن الخطيب سنة 767 هـ/ 1365 م، بالإضافة إلى الهدايا المتبادلة بين غرناطة وتلمسان(1).

... وتتضح موضوعيته في توثيق الحقائق التاريخية من خلال إبراز علاقة الزيانيين مع جيرانهم المرينيين حكام فاس، إذ أن الدولة المرينية تمكنت من تحقيق انتصارات عسكرية كبيرة. عليهم، بل وقدرة المرينيين في السيطرة على تلمسان وضمها لنفوذهم(2)

---

(1) المصدر نفسه، صص. 174 ـ 181، ص. 276.

(2) المصدر نفسه، ج 1، صص. 116 ـ 121؛ ج 2، صص. 237 ـ 238.

(15694/1)

. وهنا لابد من أن ننوه بالفارق الكبير بينه وبين ابن الأحمر الذي أرخ للمرينيين وعاش في دولتهم.

فانعكست أهواؤه في تقييم خصوم الدولة المرينية من خلال استخدامه عبارات نابية مجافية للحقيقة عن حكام تلمسان، وبوجه خاص مؤسس دولة بني عبد الواد الأمير يغمراسن بن زيان(1)

_____

(1) وفي معرض حديثه عن يغمراسن بن زيان، قال: »فأواهم يغمور الذي في قبره من خوف مرين مغمور«. (روضة النسرين، المصدر السابق، ص. 45). هذا، عكس الواقع. إذ يصفه عبد الرحمن بن خلدون بقوله: »كان يغمراسن من أشد هذا الحي بأساً، وأعظمهم في النفوس مهابةً وجلالةً وأعفرهم بمصالح الناس قبيلة، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتسيير والسياسة... «(العبر، المصدر السابق، ج 7، ص. 163).

(15695/1)

... بقي أن نشير إلى أن مادته التاريخية كانت مثار اهتمام وعناية من لدن المؤرخين الذين جاءوا بعده. فالتنسي قد أكثر من الاعتماد عليه، وبوجه خاص في ذكر نسبهم وغزوات يغمراسن بن زيان محيلاً تلك الروايات إلى يحيى بن خلدون(1)، بينما في مواضع أخرى نقل منه نصوصاً بصورة حرفية دون أن يذكره، منها وصفه للمنجانة ـ الساعة ـ في تلمسان والخاصة باحتفالات المولد النبوي

(1) أكثر التنسي من العودة إلى يحيى بن خلدون في الباب السابع الخاص بتاريخ بني زيان. (التنسي، نظم الدر والعقيان، المصدر السابق، صص. 110 ـ 128).

(15696/1)

الشريف(1). وزاد على ذلك بأن نقل النص نفسه مع تغييرات طفيفة لا تمس جوهر المعنى والشكل، ووضع النص في مؤلفه الآخر "راح الأرواح"(2)

(1) قارن البغية، المصدر السابق، ج 2، ص. 40؛ التنسي، نظم الدر والعقيان، المصدر السابق، صص. 162 ـ 163.

(2) المقري، أزهار الرياض، ج 1، ص. 243؛ نفح الطيب، ج 6، صص. 513 ـ 515. وتجدر الإشارة إلى أن التنسي، وهو مؤرخ معروف، ألف عدداً من الكتب منها "راح الأرواح فيما قاله أبو أحمد من الشعر وقيل فيه من الأمداح "، و"الجواب المطول في قضية يهود تهوده" و"الطراز في شرح ضبط الخراز". للمزيد، ينظر: التنسي، نظم الدر والعقيان، مقدمة المحقق، صص. 9 ـ 34.

(15697/1)

... وأخيراً، فإن المعنيين بدراسة الدولة الزيانية يدركون أهمية يحيى بن خلدون مؤرخاً لها في القرنين السابع الهجري وحتى وفاته في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، وإن معاصرته لكثير من الأحداث جعلته شاهداً على عصره أو قريباً منه، وبالتالي فإن الاختلاف في بعض الحقائق تدفع المؤرخين القدامى والمحدثين إلى الوثوق بما يقول المؤرخ يحيى عن تلك المدة بوصفه مؤرخها الأساسي الذي لا استغناء عن ما جاء في أثره التاريخي المهم(1)

_____

(1) قارن على سبيل المثال موضوع بيعة يغمراسن. إذ يحددها يحيى بن خلدون سنة 1235 م، ويؤيده في ذلك

أخوه عبد الرحمن، بينما يقرر التنسي أن البيعة تمت سنة 637 **هـ/** 1239 **م. ويأتي ابن الأحمر ليقدم سنة** 631 **هـ/** 1233 **م. (ينظر كلاًّ من البغية، ج** 1**، ص.** 7**؛ العبر، ج** 7**، ص.** 162**؛ نظم الدر والعقيان، ص.** 111**).**

(15698/1)

تم

أتمنى أن يكون قد حقق الفائدة والمتعة

Alimoula-022@hotmail.com